مختصر الميزان

في تفسير القرآن

إلياس كلانتري

المجلد ١-٦

بسم الله الرحمن الرحیم

مختصر الميزان فی تفسیر القران

کاتب:

محمد حسین طباطبایی

نشرت فی الطباعة:

سازمان حج و اوقاف امور خیریه - اسوه

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

مختصر المیزان فی تفسیر القرآن

اشاره

سرشناسه : طباطبایی، محمدحسین، ۱۳۶۰ - ۱۲۴۱

عنوان قراردادی : [المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده]

عنوان و نام پدیدآور : مختصر المیزان فی تفسیر القران/ [محمدحسین الطباطبایی]؛ تالیف الیاس کلانتری

مشخصات نشر : تهران: سازمان اوقاف و امور خیریه، انتشارات اسوه، ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۶

شابک : ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۲-X۱۵۰۰۰ریال:(دوره) ؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۳-۸(ج.۱) ؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۴-۶(ج.۲) ؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۵-۴(ج.۳) ؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۶-۲(ج.۴) ؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۷-۰(ج.۵) ؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۸-۹(ج.۶)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : عربی

عنوان دیگر : المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : کلانتری، الیاس، ۱۳۳۰ - ، خلاصه کننده

شناسه افزوده : سازمان اوقاف و امور خیریه. انتشارات اسوه

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵م۶۰۱۶ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۵۸۷۹

ص :۱

الجزء الاول

اشاره

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الحمد للّه رب العالمين و صلّى اللّه على سيّدنا محمد و آله الطيبين الطاهرين.

إن الأسلوب المتّخذ فى القرآن الكريم هو بالصوره التى يشاهد،فيه جوانب متعدده من المعانى،بحيث يلاحظ منه سلسله من المعانى الظاهريه بمجرد مطالعته مطالعه بسيطه.ثم-و على أثر التدبر فيه و التدقيق فى تراكيب الجمل و الآيات،لا سيما على أثر كشف صلات الآيات ببعضها يكتشف منها معانى أعمق و أوسع و أكثر من المعانى الأولى.و ان اكتشاف المعانى الجديده فى القرآن باستعمال الأسلوب التفسيرى الصحيح لا انتهاء له أبدا.

بناء على هذا فمن الممكن أن تكون الآيات القرآنيه موضع بحث و تفسير من جوانب و مستويات عديده.أى يمكن الاكتفاء بذكر المعانى الإجماليه و البدائيه للآيات فى بحث تفسيرى واحد،أو كتاب تفسير من أجل الاطلاع على معرفه اجماليه لمعانى الآيات، و يمكن أيضا المبادره الى بحث مفصّل و استخراج معانى مفصّله و عميقه من الآيات بالاضافه إلى المعانى الإجماليه الأولى.

هذه القابليه بهذه الصوره هى إحدى مميزات القرآن الكريم،و لا يمكن لأىّ كتاب

آخر أن يكون بهذه المواصفات؛لأن هذه الكيفيه من التركيب هى من العلم الالهى و قدرته اللامتناهيه.

بحث حول الأساليب التفسيريه المختلفه

لقد دوّنت تفاسير كثيره حول القرآن الكريم منذ نزوله حتى يومنا هذا،و وضعت معانى هذا الكتاب موضع بحث و تحقيق و تبيين من جوانب و صور مختلفه.و قد ظهرت -الى جانب ذلك-أساليب مختلفه فى التفسير و التحقيق و استخراج معانى الآيات و اختلاف اساليب التفسير و كتب تفسير القرآن يمكن أن يكون عده أسباب منها:

۱-استعمال الأساليب الخاطئه الناقصه فى تفسير آيات القرآن.

۲-استعمال الموازين و المقاييس المختلفه الناتجه عن مواقف المفسرين الفكريه و العلميه و العقائديه.

۳-عدم الاهتمام بالفروق القائمه بين كتاب اللّه و الكتب البشريه فى المجالات المختلفه.

۴-القيام بتفسير القرآن من قبل غير أهل الفن و فاقدى القابليه و القدره الكافيه للتفسير.

۵-أسلوب القرآن الخاص الذى يحتوى على جوانب عديده من المعانى و المفاهيم اللامتناهيه الخاصه به و فى تراكيبه الخاصه.

و بصوره عامه،يجب القول بأنه و إن كان استعمال الأساليب الخاطئه فى تفسير القرآن،و وجود فاقدى الصلاحيات التفسيريه فى هذا المجال،و استعمال المقاييس و الموازين الخاصه بالاشخاص فى استنباط معانى الآيات قد أوجدت التفاسير المختلفه؛ فإن أسلوب القرآن الخاص أيضا يجب أن يعتبر-من بعض الجوانب-سببا فى ظهور هذه الاختلافات.

إن اتساع معانی القرآن و مفاهیمه و کثرتها من جهه،و النظرات و المقاصد و القدرات و...المختلفه من جهه أخری قد أدّت إلی أن ینتبه کل واحد من المفسرین إلی عدد من معانی الآیات من بعض جوانبها،و عرضها باعتبارها معانی الآیات سواء کانت المعانی صحیحه،و التی یریدها اللّه تعالی،أو محتمله و غیر صحیحه.

الأسلوب التفسیری الصحیح

یوجد أسلوب تفسیری صحیح واحد فقط بین جمیع الأسالیب التفسیریه المختلفه، و هذا الأسلوب هو الذی یؤیده اللّه تعالی و نبیّ ۱ الاسلام الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و هو عباره عن تفسیر القرآن بالقرآن.و أما غیره من الأسالیب فغیر صحیحه و غیر جائزه و إن کان فی بعضها مزیج من الأسلوب الصحیح و غیره.

و بصوره عامه،فإن الکتاب النابع من علم اللّه تعالی یجب أن یکون أسلوب تفسیره و بیان مواضیعه من جانب اللّه أیضا.و بالطبع فإن الأسالیب الناتجه عن فکر الأشخاص و علمهم لا یمکن أن تکون مورد تأیید اللّه تعالی.

و من المحتمل أن یکون عدد من المفسرین قد غفلوا عن أصل الموضوع،و هو أن یکون أسلوب تفسیر کلام اللّه مستنبطا من نفس کلامه تعالی.و قد یکون البعض منهم قد انتبهوا الی أصل الموضوع،و لکنهم من الناحیه العملیه ظنوا بأن أسلوبهم غیر الصحیح هو الصحیح الجائز.و بالطبع فإن القلّه من المفسرین قد استعملوا-حسب إمکانهم و قدرتهم الأسلوب الصحیح.

و بالطبع فإن بیان هذا الأسلوب بصوره تامه یحتاج الی بحث مفصل،و قد أشیر الی ذکره هنا فقط و قد أورد مؤلف کتاب«المیزان فی تفسیر القرآن»بحثا استدلالیا اجمالیا فی هذا المجال فی مقدمه کتابه.

(۱)لیس هذا التعبیر(نبی الاسلام)بعربی فصیح و لا شائعا فی العربیه بل هو تعبیر فارسی شائع فی الفارسیه و انما الفصیح منه النبی او نبی اللّه و کذلک فی الرسول.

الميزان فی تفسير القرآن

إن كتاب«الميزان فی تفسير القرآن»تأليف العالم الجليل الفقيد السعيد المرحوم العلّامه السيد محمد حسين الطباطبائی هو أكثر الكتب التفسيريه التی كتبت فی العصر الحاضر أهميّه و قيمه؛و الأسلوب المتّخذ فی هذا الكتاب هو عباره عن«تفسير القرآن بالقرآن»و انّ قوه الإدراك العظيمه،و الاطلاعات الواسعه،و الجهود المضنيه،و الضمير النيّر،و الفكر الثاقب،و أهم من كل هذه العوامل،استخدام الأسلوب الفنی«تفسير القرآن بالقرآن»قد أدّت الی أن يوجد هذا البطل فی عالم علم التفسير كتابا لا نظير له بين تفاسير القرآن حتی الآن.

أورد مؤلف«الميزان فی تفسير القرآن»فی مقدمه الكتاب بحثا إجماليا حول الأساليب التفسيريه المختلفه،و بعد تخطئه الأساليب غير الصحيحه المتداوله طيله التاريخ و إبطالها،بيّن الأسلوب التفسيری الصحيح،و قد استدلّ علی صحه ذلک بدلائل برهانيه دقيقه.

و قد بذل مؤلف هذا الكتاب الموفق القدير السعی الكثير فی أن يتجنّب-حسب الإمكان فرض نظره محدوده خاصه علی تفسير آيات القرآن،و بغض النظر عن النظرات المحدوده الخاصه و بالاستعانه بالأسلوب التفسيری الصحيح،جعل الآيات القرآنيه موضع دراسه و تحقيق،و استخرج معانيها فی الجوانب الممكنه.

و قد زعم أنه قد فسّر القرآن فی هذا الكتاب بواسطه القرآن نفسه و فی الواقع فإنه نجح فی زعمه هذا،و أوجد هذا الكتاب التاريخی المبارک.

ص: ۴

إن القرآن الکریم-کما أشیر فی بدایه هذه المقدمه-له جوانب مختلفه من المعانی، و من الممکن أن تکون موضع دراسه و تحقیق و بحث من نواح کثیره و قد اکتفی فی تفسیر المیزان بالبحث اللفظی العادی فی بعض الآیات،و فی بعضها الآخر بودر الی بحوث قرآنیه و علمیه و کلامیه و فلسفیه و اجتماعیه و تاریخیه و روائیه و...مهمه جدا و مفصله، و قد جاءت الی جانب التفسیر البسیط للآیات أحیانا،بحوث بصوره مستقله أحیانا أخری،بحیث لا یستفید من بعض هذه البحوث سوی أهل الفن فحسب.

بناء علی هذا،ففی خلال دراسه هذا الکتاب،تقرّر-بالنظر الی بحوثه القیّمه المثمره و حاجه الجیل الصاعد الی التعرّف علی القرآن فی المستویات المختلفه-أن ینظّم کتاب فی فهرسه مواضیعه،و کذلک مختصر عن هذا الکتاب لتمهید الطریق الی الاستفاده من بحوثه بصوره مفصّله و منظّمه و منسّقه من قبل محققی العلوم القرآنیه،و کذلک الاستفاده من هذا الکتاب من قبل الذین لا یجدون سوی الفرصه من التعرّف الإجمالی علی معانی آیات القرآن بصوره مریحه.

فاتّخذت الخطوات-فی البدایه-لتنظیم الدلیل و الفهرست،و البحث عن موضوع الکتاب و مؤلفه سماحه العلاّمه الطباطبائی رحمه اللّه علیه،و الذی نال موافقته و رضاه.

و قد ترجم هذا الکتاب الی اللغه العربیه تحت عنوان«دلیل المیزان فی تفسیر القرآن» لیتسنّی لأبناء الضاد الاستفاده منه فی النصّ العربی و ترجمه الفارسیه علی السواء،و قد طبع کلاهما و صدرا إلی الأسواق،و أصبحا موضع استفاده المحققین و هواه التفسیر و اقبالهم.

و خلال هذا العمل وضع التخطیط لاختصار هذا التفسیر الذی هو هذا الکتاب الذی

بين يديك:«مختصر الميزان فى تفسير القرآن»ثمّ تنسّق بالأسلوب الذى سوف يتّضح فى هذه المقدمه،و أعدّ للطبع.

و من أجل أن يتّضح أسلوب العمل فى اختصار كتاب الميزان،يجب الاشاره الى بعض الجوانب المتخذه فى تفسير الميزان،و هذه الجوانب هى عباره عن:

١-إن مؤلف كتاب الميزان غالبا ما يبادر فى البدايه الى البحث اللغوى حول المفردات بعد كتابه آيه أو آيات مثل:

قوله تعالى:«بكلمه منه اسمه المسيح عيسى بن مريم...»و الكلمه و الكلم كالتمره و التمر جنس و فرد،و تطلق الكلمه على اللفظ الواحد الدّال على المعنى و على الجمله سواء صحّ السكوت عليها،مثل:زيد قائم،أو لم يصحّ،مثل:إن كان زيد قائما،هذا بحسب اللغه.(آل عمران۴۵/».

٢-و قد كتب المؤلف بعد البحث اللغوى رأيه حول معانى الآيه موضوعه البحث غالبا،مثل:

قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ...» الخطاب لعامه أهل الكتاب،و الدعوه فى قوله تعالى: «تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ...» بالحقيقه انّما هى الاجتماع على معنى الكلمه بالعمل به،و انّما تنسب الى الكلمه لتدل على كونها دائره بألسنتهم....

(آل عمران۶۴/).

٣-و يدوّن المؤلف غالبا-بعد بيان رأيه-آراء المفسرين الآخرين إن وجد حول الآيه،و يرى لها وجها-تاره،و يردّها تاره اخرى،و قد يذكرها و لا يعلّق عليها،مثل:

و هذا الذى ذكرناه من انقطاع الاستثناء هو الأوفق بسياق الآيه...

و ربما يقال:انّ الاستثناء متّصل،قوله بالباطل قيد توضيحى...

و هذا النحو من الاستعمال و ان كان جائزا معروفا عند أهل اللسان،إلّا انّک قد عرفت أن

الأوفق لسياق الآيه هو انقطاع الاستثناء...

و ربما قيل:انّ المراد بالنهى المنع...(النساء۲۹/).

و مثل:قوله تعالى: «وَ يُطْعِمُونَ الطَّعٰامَ عَلىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً» ضمير «عَلىٰ حُبِّهِ» للطعام على ما هو الظاهر،و المراد بحبّه توقان النفس اليه لشدّه الحاجه،و يؤيد هذا المعنى قوله تعالى: «لَنْ تَنٰالُوا الْبِرَّ حَتّٰى تُنْفِقُوا مِمّٰا تُحِبُّونَ» .(آل عمران۹۲/).

و قيل:الضمير للّه سبحانه،أى يطعمون الطعام حبّا للّه،لا طمعا فى الثواب،و يدفعه أنّ قوله تعالى حكايه منهم: «إِنَّمٰا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ» يغنى عنه.

و يليه فى الضعف ما قيل:انّ الضمير للإطعام المفهوم من قوله: «وَ يُطْعِمُونَ» وجه الضعف انّه إن أريد بحب الاطعام حقيقه معناه،فليس فى حبّ الإطعام فى نفسه فضل حتى يمدحوا به،و إن أريد به كون الإطعام بطيب النفس و عدم التكلّف،فهو خلاف الظاهر،و رجوع الضمير الى الطعام هو الظاهر.(الدهر۸/).

و مثل: «فَأَخَذَهُ اللّٰهُ نَكٰالَ الْآخِرَهِ وَ الْأُولىٰ» الأخذ كنايه عن التعذيب،و النكال التعذيب الذى يردع من رآه أو سمعه عن تعاطى مثله،و عذاب الآخره نكال،حيث إنّ من شأنه أن يردع من سمعه عن تعاطى ما يؤدى اليه من المعصيه،كما أنّ عذاب الاستئصال فى الدنيا نكال.

و المعنى:فأخذ اللّه فرعون الى عذابه و نكله نكال الآخره و الأولى،و أما عذاب الدنيا فإغراقه و إغراق جنوده،و أما عذاب الآخره فعذابه بعد الموت.فالمراد بالأولى و الآخره الدنيا و الآخره.

و قيل:المراد بالآخره كلمه الآخره: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ» و بالأولى كلمته الأولى،قالها قبل ذلك: «مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِى» فأخذه اللّه بهاتين الكلمتين و نكله نكالهما،و لا يخلو هذا المعنى من خفاء.

و قیل:المراد بالأولی تکذیبه و معصیته المذکوران فی أول القصه،بالأخری کلمه (أَنَا رَبُّکُمُ الْأَعْلی) المذکوره فی آخرها و هو کسابقه.

و قیل:الأولی أول معاصیه،و الأخری آخرها.و المعنی أخذه اللّه نکال مجموع معاصیه.و لا یخلو أیضا من خفاء.(النازعات/۲۵).

و مثل:و قوله تعالی: «فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ» أی فاذا أتممنا قرأته علیک وحیا،فاتّبع قراءتنا و اقرأ بعد تمامها.

و قیل:المراد باتّباع قرآنه،اتّباعه ذهنا بالإنصات و التوجّه التام الیه،و هو معنی لا بأس به.

و قیل:المراد فاتّبع فی الأوامر و النواهی قرآنه.و قیل:المراد اتّباع قراءته بالتکرار حتّی یرسخ فی الذهن.و هما معنیان بعیدان.(القیامه/۱۸).

و مثل:قوله تعالی: «وَ ثِیابَکَ فَطَهِّرْ» قیل:کنایه عن اصلاح العمل،و لا یخلو من وجه،فانّ العمل بمنزله الثیاب للنفس بمالها من الاعتقاد،فالظاهر عنوان الباطن،و کثیرا ما یکنّی فی کلامهم عن صلاح العمل بطهاره الثیاب.

و قیل:کنایه عن تزکیه النفس،و تنزیهها عن الذنوب و المعاصی.

و قیل:المراد تقصیر الثیاب،لأنه أبعد من النجاسه،و لو طالت و انجرّت علی الأرض لم یؤمن أن تتنجس.

و قیل:المراد تطهیر الأزواج من الکفر و المعاصی لقوله تعالی: «هُنَّ لِباسٌ لَکُمْ» (البقره/۱۸۷).

و قیل:الکلام علی ظاهره،و المراد تطهیر الثیاب من النجاسات للصلاه و الأقرب علی هذا أن یجعل قوله: «وَ رَبَّکَ فَکَبِّرْ» اشاره الی تکبیر الصلاه،و تکون الآیتان مسوقتین لتشریع أصل الصلاه مقارنا للأمر بالدعوه.

ص :۸

و لا یرد علیه ما قیل:إنّ نزول هذه الآیات کان حیث لا صلاه أصلا،و ذلک أنّ تشریع الفرائض الخمس الیومیه علی ما هی علیها الیوم،و إن کان فی لیله المعراج،و هی جمیعا عشر رکعات،ثمّ زید علیها سبع رکعات،إلاّ أنّ أصل الصلاه کان منذ أوائل البعثه،کما یشهد به ذکرها فی هذه السوره و سورتی العلق و المزمل،و یدلّ علیه الروایات.

و قیل:المراد بتطهیر الثیاب التخلّق بالأخلاق الحمیده و الملکات الفاضله.

و فی معنی تطهیر الثیاب أقوال أخر أغمضنا عن نقلها،لإمکان ارجاعها الی بعض ما تقدم من الوجوه،و أرجح الوجوه المتقدمه أولها و خامسها.(المدثر/۴).

۴-بعد البحث فی تفسیر عدد من الآیات کتبت بحوث قرآنیه و علمیه و کلامیه و فلسفیه و اجتماعیه و تاریخیه و روائیه و...مهمه و مفصله یمکن أن تکون لها صله ببحوث الآیات،بصوره مستقله عن البحث التفسیری فی فصل أو فصول مثل:

کلام فی أحکام الأعمال من حیث الجزاء.(البقره/۲۱۶-۲۱۸).

و مثل:کلام فی الإحسان و هدایته و الظلم و إضلاله.(البقره/۲۵۸-۲۶۰).

و مثل:کلام فی قدره الأنبیاء و الأولیاء،فلسفی و قرآنی.

و مثل:کلام فی المجتمعات الحیوانیه.(الأنعام/۳۷-۵۵).

و مثل:الإعجاز و ماهیته؛إعجاز القرآن؛تحدّیه بالعلم؛التحدّی بمن أنزل علیه القرآن؛تحدّی القرآن بالإخبار عن الغیب؛تحدّی القرآن بعدم الاختلاف فیه؛ التحدّی بالبلاغه؛معنی الآیه المعجزه فی القرآن و ما یفسّر به حقیقتها؛تصدیق القرآن لقانون العلیّه العامه؛إثبات القرآن ما یخرق العاده؛القرآن یسند ما أسند الی العله المادیه الی اللّه تعالی؛القرآن یثبت تأثیرا فی نفوس الأنبیاء فی الخوارق؛القرآن کما یسند الخوارق الی تأثیر النفوس،یسندها الی أمر اللّه تعالی؛القرآن یسند المعجزه الی سبب غیر مغلوب؛القرآن یعدّ المعجزه برهانا علی صحه الرساله،لا دلیلا عامیّا.

ص :۹

(البقره ۲۱-۲۵).

و مثل:بـدء تكوين الانسان،تركيبه من روح و بـدن،شـعوره الحقيقى،و ارتباطه بالأشـياء،علومه العمليه،جريه على اسـتخدام عنـده انتفاعـا،كونه مـدنيا بـالطبع،حـدوث الاختلاـف بين افراد الانسان،رفع الاختلاف بالـدين،الاختلاف فى نفس الـدين، الانسان بعد الدنيا.(البقره۲۱۳/).

و مثل:كلام فى المرابطه فى المجتمع الاسلامى:الانسان و الاجتماع،الانسان و نموه فى اجتماعه،الاسلام و عنايته بالاجتماع،اعتبار الاسـلام رابطه الفرد و المجتمع،بمـا ذا يتكون و يعيش الاجتماع الاسـلامى،منطقان:منطق التعقل و منطق الاحساس،ما معنى ابتغاء الاجر عند اللّه و الاعراض عن غيره؛ما معنى الحريه فى الاسـلام؟ما هو الطريق الى التحول و التكامل فى المجتمع الاسـلامى؟هل الاسلام بشريعته يفى بإسعاد هذه الحياه الحاضره،من الذى يتقلد ولايه المجتمع فى الاسلام و ما سيرته؟ثغر المملكه الاسلاميه هو الاعتقاد دون الحدود الطبيعيه او الاصطلاحيه،الاسلام اجتماعى بجميع شئونه، الدين الحق هو الغالب على الدنيا بالآخره.

و مثل:بحث علمى فى فصول ثلاثه:النكاح من مقاصد الطبيعه،استيلاء الذكور على الإناث،تعدد الزوجات.

و مثـل:كلاـم فى الرق و الاسـتعباد،اعتبار العبوديه للّه سبحانه،اسـتعباد الانسان و اسـبابه،سـير الاسـتعباد فى التاريـخ،ما الـذى رآه الاسلام فى ذلك،ما هو السبيل الى الاستعباد،ما مقدار التحديد،الى م آل أمر الالغاء؟(المائده۱۱۶/-۱۲۰).

و مثـل:كلاـم فى المجـازاه و العفـو فى فصـول:مـا معنى الجزاء؟العفـو و المغفره،للعفـو مراتب،هـل المؤاخـذه أو المغفره تسـتلزم ذنبا،رابطه العمل و الجزاء،العمل يؤدى المرابطه الى النفس.

ص :۱۰

و مثل:کلام فی الأسماء الحسنی فی فصول:ما معنی الأسماء الحسنی؟ما هو حد ما نصفه؟الانقسامات التی لها،نسب الصفات و الأسماء إلینا،ما معنی الاسم الأعظم؟ عدد الأسماء الحسنی،هل الأسماء توقیفیه؟(الأعراف ۱۸۰/-۱۸۶).

ممیزات هذا الکتاب

إن أسلوب عملنا فی اختصار«المیزان فی تفسیر القرآن»یتضح بالنظر الی الإیضاحات التالیه:

۱-لم یضف فی هذا المختصر حتی کلمه واحده الی ما کتبه مؤلف المیزان.

۲-اختیرت آراء المؤلف فی معانی آیات القرآن بصوره اساسیه،الاّ فی الموارد التی نقل المؤلف موضوعا عن الآخرین و قبله،و الذی یکون فی الحقیقه مطابقا لرأیه أو مبتنیا علیه.

۳-جیء بمقدمه تفسیر المیزان التی توضح أسلوب المرحوم العلاّمه الطباطبائی التفسیری بدون حذف فی هذا الکتاب.

۴-ان المواضیع المحذوفه هی فی الأساس عباره عن البحوث المستقله،العلمیه و الکلامیه و الفلسفیه و الاجتماعیه،و التاریخیه،و الروائیه و...المدونه بعد التفسیر اللفظی و العادی لبعض الآیات.

۵-یتوقف بیان الآیات علی البحث الروائی فی بعض الموارد،و لذا فقد جیء بالبحث الروائی المنتخب فی هذا الکتاب.

۶-فی الموارد التی یبین فیها المؤلف رأیه الخاص بصوره مستقله بالنسبه لآیه من الآیات ثم یبادر الی نقل و دراسه آراء سائر المفسرین،اخترنا القسم الأول(رأی المؤلف نفسه)و حذفنا آراء الآخرین.

و أما فى الموارد التى يكون فيها البحث التفسيرى مزيجا من نقل آراء سائر المفسرين فقد أثبتنا جميع تلك الآراء.

۷-فى الموارد التى جاء المؤلف-بعد تفسير الآيه بآراء و تفاسير من سائر المفسرين أيضا،و يرى لتلك الآراء وجها،و نقلها على الأقل و لم يرفضها أو لا يراها باطله، ففى مثل هذه الموارد اختير أكثرها،إلاّ فى الموارد التى لم نر ضروره فى اختيارها.

۸-إذا كان إيضاح معانى الآيه يتوقف أحيانا على جميع البحث التفسيرى فقد اخترنا جميع ذلك البحث و لم نحذف منه شيئا.

يوم مبعث رسول اللّه فى السابع و العشرين من شهر رجب سنه ثمان و اربعمائه بعد الألف من هجرته صلّى اللّه عليه و آله و سلم

طهران-الياس كلانترى

ص: ۱۲

مقدمه المیزان فی تفسیر القرآن

ص :۱

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا،و الصلاه على من جعله شاهدا و مبشرا و نذيرا،و داعيا الى اللّه بإذنه و سراجا منيرا،و على آله الذين أذهب عنهم الرجس أهل البيت و طهّرهم تطهيرا.

مقدمه:نعرّف فيها مسلك البحث عن معانى آيات القرآن الكريم فى هذا الكتاب بطريق الاختصار.

التفسير(و هو بيان معانى الآيات القرآنيه و الكشف عن مقاصدها و مداليلها) من أقدم الاشتغالات العلميه التى تعهد من المسلمين،فقد شرع تاريخ هذا النوع من البحث و التنقير المسمى بالتفسير من عصر نزول القرآن كما يظهر من قوله تعالى و تقدس: كَمٰا أَرْسَلْنٰا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيٰاتِنٰا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ الآيه؛(البقره/۱۵۱).

و قد كانت الطبقه الاولى من مفسرى المسلمين جماعه من الصحابه(و المراد بهم غير على عليه السّلام،فانّ له و للأئمه من ولده نبأ آخر سنتعرّض له)كابن عباس

و عبد اللّه ابن عمر و أبی و غیرهم اعتنوا بهذا الشأن،و کان البحث یومئذ لا یتجاوز عن بیان ما یرتبط،من الآیات بجهاتها الأدبیه و شأن النزول و قلیل من الاستدلال بآیه علی آیه و کذلک قلیل من التفسیر بالروایات المأثوره عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی القصص و معارف المبدإ و المعاد و غیرها.

و علی هذا الوصف جری الحال بین المفسرین من التابعین کمجاهد و قتاده و ابن أبی لیلی و الشعبی و السدّی و غیرهم فی القرنین الأوّلین من الهجره،فإنهم لم یزیدوا علی طریقه سلفهم من مفسری الصحابه شیئا غیر انهم زادوا من التفسیر بالروایات،(و بینها روایات دسّها الیهود أو غیرهم)،فأوردوها فی القصص و المعارف الراجعه الی الخلقه کابتداء السماوات و تکوین الأرض و البحار و إرم شدّاد و عثرات الأنبیاء و تحریف الکتاب و اشیاء أخر من هذا النوع،و قد کان یوجد بعض ذلک فی المأثور عن الصحابه من التفسیر و البحث.

ثم استوجب شیوع البحث الکلامی بعد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی زمن الخلفاء باختلاط المسلمین بالفرق المختلفه من أمم البلاد المفتوحه بید المسلمین و علماء الأدیان و المذاهب المتفرقه من جهه.

و نقل فلسفه یونان الی العربیه فی السلطنه الأمویه أواخر القرن الأول من الهجره،ثم فی عهد العباسیین،و انتشار البحث العقلی الفلسفی بین الباحثین من المسلمین من جهه أخری ثانیه.

و ظهور التصوّف مقارنا لانتشار البحث الفلسفی و تمایل الناس الی نیل المعارف الدینیه من طریق المجاهده و الریاضه النفسانیه دون البحث اللفظی و العقلی من جهه أخری ثالثه.

و بقاء جمع من الناس و هم أهل الحديث على التعبد المحض بالظواهر الدينيه من غير بحث إلا عن اللفظ بجهاتها الأدبيه من جهه أخرى رابعه.

ان اختلف الباحثون فى التفسير فى مسالكهم بعد ما عمل فيهم الانشعاب فى المذاهب ما عمل،و لم يبق بينهم جامع فى الرأى و النظر إلا لفظ لا إله إلا اللّه و محمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و اختلفوا فى معنى الأسماء و الصفات و الأفعال و السماوات و ما فيها و الأرض و ما عليها و القضاء و القدر و الجبر و التفويض و الثواب و العقاب و فى الموت و فى البرزخ و البعث و الجنه و النار،و بالجمله فى جميع ما تمسّه الحقائق و المعارف الدينيه و لو بعض المسّ،فتفرقوا فى طريق البحث عن معانى الآيات،و كل يتحفّظ على متن ما اتخذه من المذهب و الطريقه.

فأما المحدّثون،فاقتصروا على التفسير بالروايه عن السلف من الصحابه و التابعين فساروا و جدّوا فى السير حيث ما يسير بهم المأثور و وقفوا فيما لم يؤثر فيه شىء و لم يظهر المعنى ظهورا لا يحتاج الى البحث أخذا بقوله تعالى:

وَ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنّٰا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا الآيه؛(آل عمران/٧).

و قد أخطئوا فى ذلك فان اللّه سبحانه لم يبطل حجه العقل فى كتابه،و كيف يعقل ذلك و حجّيته انما تثبت به!و لم يجعل حجّيه فى أقوال الصحابه و التابعين و انظارهم على اختلافها الفاحش،و لم يدع الى السفسطه بتسليم المتناقضات و المتنافيات من الاقوال،و لم يندب الا الى التدبر فى آياته،فرفع به أى اختلاف يتراءى منها،و جعله هدى و نورا و تبيانا لكل شىء،فما بال النور يستنير بنور غيره!و ما شأن الهدى يهتدى بهدايه سواه!و كيف يتبين ما هو تبيان كل شىء بشىء دون نفسه!

ص :5

و اما المتكلمون فقد دعاهم الاقوال المذهبيه على اختلافها أن يسيروا فى التفسير على ما يوافق مذاهبهم باخذ ما وافق و تأويل ما خالف،على حسب ما يجوّزه قول المذهب.

و اختيار المذاهب الخاصه و اتخاذ المسالک و الآراء المخصوصه و ان كان معلولا ـ لاختلاف الانظار العلميه أو لشىء آخر كالتقاليد و العصبيات القوميه،و ليس هاهنا محل الاشتغال بذلک،الا ان هذا الطريق من البحث أحرى به أن يسمى تطبيقا لا تفسيرا.

ففرّق بين ان يقول الباحث عن معنى آيه من الآيات:ما ذا يقول القرآن؟أو يقول:ما ذا يجب ان نحمل عليه الآيه؟فان القول الاول يوجب ان ينسى كل امر نظرى عند البحث،و ان يتكى على ما ليس بنظرى،و الثانى يوجب وضع النظريات فى المسأله و تسليمها و بناء البحث عليها.

و من المعلوم ان هذا النحو من البحث فى الكلام ليس بحثا عن معناه فى نفسه.

و أما الفلاسفه،فقد عرض لهم ما عرض للمتكلمين من المفسرين من الوقوع فى ورطه التطبيق و تأويل الآيات المخالفه بظاهرها للمسلّمات فى فنون الفلسفه بالمعنى الأعم اعنى:الرياضيات و الطبيعيات و الإلهيات و الحكمه العمليه، و خاصه المشّائين،و قد تأولوا الآيات الوارده فى حقائق ما وراء الطبيعه و آيات الخلقه و حدوث السموات و الأرض و آيات البرزخ و آيات المعاد،حتى أنهم ارتكبوا التأويل فى الآيات التى لا ـ تلائم الفرضيات و الاصول الموضوعه التى نجدها فى العلم الطبيعى:من نظام الأفلاک الكليه و الجزئيه و ترتيب العناصر و الأحكام

الفلكيه و العنصريه إلى غير ذلک،مع انهم نصوا على أن هذه الأنظار مبتنيه على اصول موضوعه لا بينه و لا مبينه.

و أما المتصوفه،فإنهم لاشتغالهم بالسير فى باطن الخلقه و اعتنائهم بشأن الآيات الأنفسيه دون عالم الظاهر و آياته الآفاقيه اقتصروا فى بحثهم على التأويل،و رفضوا التنزيل،فاستلزم ذلک اجتراء الناس على التأويل،و تلفيق جمل شعريه و الاستدلال من كل شىء على كل شىء،حتى آل الأمر إلى تفسير الآيات بحساب الجمل و رد الكلمات إلى الزبر و البينات و الحروف النورانيه و الظلمانيه إلى غير ذلک.

و من الواضح أن القرآن لم ينزل هدى للمتصوفه خاصه،و لا أن المخاطبين به هم أصحاب علم الاعداد و الأوفاق و الحروف،و لا أن معارفه مبنيه على أساس حساب الجمل الذى وضعه أهل التنجيم بعد نقل النجوم من اليونانيه و غيرها إلى العربيه.

نعم قد وردت روايات عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أئمه أهل البيت عليهم السّلام كقولهم:ان للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطنا إلى سبعه ابطن أو إلى سبعين بطنا الحديث.

لكنهم عليهم السّلام اعتبروا الظهر كما اعتبروا البطن،و اعتنوا بأمر التنزيل كما اعتنوا بشأن التأويل،و سنبين فى أوايل سوره آل عمران إن شاء اللّه:أن التأويل الذى يراد به المعنى المقصود الذى يخالف ظاهر الكلام من اللغات المستحدثه فى لسان المسلمين بعد نزول القرآن و انتشار الإسلام،و ان الذى يريده القرآن من لفظ التأويل فيما ورد فيه من الآيات ليس من قبيل المعنى و المفهوم.

و قد نشأ فی هذه الأعصار مسلک جدید فی التفسیر و ذلک أن قوما من منتحلی الإسلام فی أثر توغلهم فی العلوم الطبیعیه و ما یشابهها المبتنیه علی الحس و التجربه،و الاجتماعیه المبتنیه علی تجربه الاحصاء،مالوا إلی مذهب الحسّیین من فلاسفه الأروبه سابقا،أو إلی مذهب أصاله العمل(لا قیمه للإدراکات الا ترتب العمل علیها بمقدار یعیّنه الحاجه الحیویه بحکم الجبر).

فذکروا:ان المعارف الدینیه لا یمکن أن تخالف الطریق الذی تصدقه العلوم و هو أن:(لا أصاله فی الوجود إلا للماده و خواصها المحسوسه)فما کان الدین یخبر عن وجوده مما یکذب العلوم ظاهره کالعرش و الکرسی و اللوح و القلم یجب أن یؤوّل تأویلا.

و ما یخبر عن وجوده مما لا تتعرض العلوم لذلک کحقائق المعاد یجب أن یوجه بالقوانین المادیه.

و ما یتکی علیه التشریع من الوحی و الملک و الشیطان و النبوه و الرساله و الامامه و غیر ذلک،إنما هی امور روحیه،و الروح مادیه و نوع من الخواص المادیه،و التشریع نبوغ خاص اجتماعی یبنی قوانینه علی الأفکار الصالحه، لغایه إیجاد الاجتماع الصالح الراقی.

ذکروا:أن الروایات،لوجود الخلیط فیها لا تصلح للاعتماد علیها،إلا ما وافق الکتاب،و أما الکتاب فلا یجوز أن یبنی فی تفسیره علی الآراء و المذاهب السابقه المبتنیه علی الاستدلال من طریق العقل الذی أبطله العلم بالبناء علی الحس و التجربه،بل الواجب أن یستقل بما یعطیه القرآن من التفسیر إلا ما بینه

العلم.

هذه جمل ما ذكروه أو يستلزمه ما ذكروه،من اتباع طريق الحس و التجربه، فساقهم ذلك إلى هذا الطريق من التفسير،و لا كلام لنا هاهنا فى اصولهم العلميه و الفلسفيه التى اتخذوها اصولا و بنوا عليها ما بنوا.

و إنما الكلام فى أن ما لو ردوه على مسالك السلف من المفسرين(أن ذلك تطبيق و ليس بتفسير)وارد بعينه على طريقتهم فى التفسير،و إن صرحوا أنه حق التفسير الذى يفسر به القرآن بالقرآن.

و لو كانوا لم يحملوا على القرآن فى تحصيل معانى آياته شيئا،فما بالهم يأخذون الأنظار العلميه مسلمه لا يجوز التعدى عنها؟فهم لم يزيدوا على ما أفسده السلف اصلاحا.

و انت بالتأمل فى جميع هذه المسالك المنقوله فى التفسير تجد:ان الجميع مشتركه فى نقص و بئس النقص،و هو تحميل ما انتجته الابحاث العلميه أو الفلسفيه من خارج على مداليل الآيات،فتبدل به التفسير تطبيقا و سمى به التطبيق تفسيرا،و صارت بذلك حقائق من القرآن مجازات،و تنزيل عده من الآيات تاويلات.

و لازم ذلك(كما أومأنا إليه فى أوائل الكلام)أن يكون القرآن الذى يعرّف نفسه بأنه(هدى للعالمين و نور مبين و تبيان لكل شيء)مهديا إليه بغيره و مستنيرا بغيره و مبينا بغيره،فما هذا الغير!و ما شأنه!و بما ذا يهدى إليه!و ما هو المرجع و الملجأ إذا اختلف فيه!و قد اختلف و اشتد الخلاف.

و كيف كان فهذا الاختلاف لم يولده اختلاف النظر فى مفهوم(مفهوم اللفظ

المفرد أو الجمله بحسب اللغه و العرف العربی)الکلمات أو الآیات،فإنما هو کلام عربی مبین لا یتوقف فی فهمه عربی و لا غیره ممن هو عارف باللغه و اسالیب الکلام العربی.

و لیس بین آیات القرآن(و هی بضع آلاف آیه)آیه واحده ذات اغلاق و تعقید فی مفهومها بحیث یتحیر الذهن فی فهم معناها،و کیف!و هو افصح الکلام و من شرط الفصاحه خلو الکلام عن الاغلاق و التعقید،حتی أن الآیات المعدوده من متشابه القرآن کالآیات المنسوخه و غیرها،فی غایه الوضوح من جهه المفهوم، و إنما التشابه فی المراد منها و هو ظاهر.

و إنما الاختلاف کل الاختلاف فی المصداق الذی ینطبق علیه المفاهیم اللفظیه من مفردها و مرکّبها،و فی المدلول التصوری و التصدیقی.

توضیحه:ان الانس و العاده(کما قیل)یوجبان لنا ان یسبق إلی أذهاننا عند استماع الألفاظ معانیها المادیه أو ما یتعلق بالماده فإن الماده هی التی یتقلب فیها ابداننا و قوانا المتعلقه بها ما دمنا فی الحیاه الدنیویه،فإذا سمعنا الفاظ الحیاه و العلم و القدره و السمع و البصر و الکلام و الإراده و الرضا و الغضب و الخلق و الأمر کان السابق إلی أذهاننا منها الوجودات المادیه لمفاهیمها.

و کذا اذا سمعنا الفاظ السماء و الأرض و اللوح و القلم و العرش و الکرسی و الملک و اجنحته و الشیطان و قبیله و خیله و رجله إلی غیر ذلک،کان المتبادر إلی افهامنا مصادیقها الطبیعیه.

و إذا سمعنا:إن اللّه خلق العالم و فعل کذا و علم کذا و أراد أو یرید أو شاء و أو یشاء کذا قیّدنا الفعل بالزمان حملا علی المعهود عندنا.

ص:۱۰

و اذا سمعنا نحو قوله: وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ الآيه.

و قوله: لاَتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنّا الآيه.

و قوله: وَ ما عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ الآيه.

و قوله: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ الآيه؛قيّدنا معنى الحضور بالمكان.

و إذا سمعنا نحو قوله: إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها الآيه.

أو قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ الآيه.

أو قوله: يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ الآيه؛فهمنا:أن الجميع سنخ واحد من الاراده،لما إن الأمر على ذلك فيما عندنا،و على هذا القياس.

و هذا شأننا فى جميع الألفاظ المستعمله،و من حقنا ذلك،فإن الذى أوجب علينا وضع الفاظ إنما هى الحاجه الاجتماعيه إلى التفهيم و التفهّم، و الاجتماع إنما تعلق به الانسان ليستكمل به فى الافعال المتعلقه بالماده و لواحقها،فوضعنا الألفاظ علائم لمسمياتها التى نريد منها غايات و اغراضا عائده الينا.

و كان ينبغى لنا ان نتنبه:أن المسميات الماديه محكومه بالتغير و التبدل بحسب تبدل الحوائج فى طريق التحول و التكامل كما ان السراج أول ما عمله الانسان كان اناء فيه فتيله و شىء من الدهن تشتعل به الفتيله للاستضاءه به فى الظلمه،ثم لم يزل يتكامل حتى بلغ اليوم إلى السراج الكهربائى و لم يبقى من اجزاء السراج المعمول أوّلا الموضوع بازائه لفظ السراج شىء و لا واحد.

و كذا الميزان المعمول أولا،و الميزان المعمول اليوم لتوزين ثقل الحراره مثلا.

و السلاح المتخذ سلاحا أول يوم،و السلاح المعمول اليوم إلى غير ذلك.

فالمسميات بلغت فى التغير إلى حيث فقدت جميع أجزائها السابقه ذاتا و صفه و الاسم مع ذلك باق،و ليس إلا لأن المراد فى التسميه إنما هو من الشىء غايته،لا شكله و صورته،فما دام غرض التوزين أو الاستضاءه أو الدفاع باقيا كان اسم الميزان و السراج و السلاح و غيرها باقيا على حاله.

فكان ينبغى لنا ان نتنبه أن المدار فى صدق الاسم اشتمال المصداق على الغايه و الغرض،لا جمود اللفظ على صوره واحده،فذلك مما لا مطمع فيه البته، و لكن العاده و الانس منعانا ذلك،و هذا هو الذى دعا المقلده من أصحاب الحديث من الحشويه و المجسمه ان يجمدوا على ظواهر الآيات فى التفسير و ليس فى الحقيقه جمودا على الظواهر بل هو جمود على العاده و الانس فى تشخيص المصاديق.

لكن بين هذه الظواهر أنفسها امور تبيّن:أن الاتكاء و الاعتماد على الانس و العاده فى فهم معانى الآيات يشوّش المقاصد منها و يختل به أمر الفهم كقوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ الآيه.

و قوله: لاٰ تُدْرِكُهُ الْأَبْصٰارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصٰارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ .

و قوله: سُبْحٰانَ اللّٰهِ عَمّٰا يَصِفُونَ .

و هذا هو الذى دعا الناس أن لا يقتصروا على الفهم العادى و المصداق المأنوس به الذهن فى فهم معانى الآيات كما كان غرض الاجتناب عن الخطاء و الحصول على النتائج المجهوله هو الذى دعا الانسان إلى ان يتمسك بذيل البحث العلمى،و أجاز ذلك للبحث ان يداخل فى فهم حقائق القرآن و تشخيص

مقاصده العاليه،و ذلک على احد وجهين،احدهما:ان نبحث بحثا علميا أو فلسفيا أو غير ذلک عن مسئله من المسائل التى تتعرض له الآيه حتى نقف على الحق فى المسأله،ثم نأتى بالآيه و نحملها عليه،و هذه طريقه يرتضيها البحث النظرى،غير ان القرآن لا يرتضيها كما عرفت،و ثانيهما:ان نفسر القرآن بالقرآن و نستوضح معنى الآيه من نظيرتها بالتدبر المندوب إليه فى نفس القرآن، و نشخص المصاديق و نتعرفها بالخواص التى تعطيها الآيات،كما قال تعالى وَ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ الْكِتٰابَ تِبْيٰاناً لِكُلِّ شَيْءٍ الآيه.

و حاشا أن يكون القرآن تبيانا لكل شىء و لا يكون تبيانا لنفسه،و قال تعالى:

هُدىً لِلنّٰاسِ وَ بَيِّنٰاتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَ الْفُرْقٰانِ الآيه.

و قال تعالى: أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً الآيه.

و كيف يكون القرآن هدى و بيّنه و فرقانا و نورا مبينا للناس فى جميع ما يحتاجون و لا يكفيهم فى احتياجهم إليه و هو اشد الاحتياج!و قال تعالى:

وَ الَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا الآيه؛و اى جهاد اعظم من بذل الجهد فى فهم كتابه!و اى سبيل اهدى إليه من القرآن!.

و الآيات فى هذا المعنى كثيره سنستفرغ الوسع فيها فى بحث المحكم و المتشابه فى اوائل سوره آل عمران.

ثم إن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى علّمه القرآن و جعله معلما لكتابه كما يقول تعالى:

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ الآيه.

و يقول وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّٰاسِ مٰا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ الآيه؛و عترته و اهل بيته الذين اقامهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذا المقام فى الحديث المتفق عليه بين

الفريقين«إنی تارک فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدی ابدا كتاب اللّه و عترتی أهل بيتی و أنهما لن يفترقا حتی يردا علیّ الحوض».و صدّقه اللّه تعالی فی علمهم بالقرآن،حيث قال عزّ من قائل: إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً .

و قال: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِی كِتابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ الآيه؛و قد كانت طريقتهم فی التعليم و التفسير هذه الطريقه بعينها علی ما وصل الينا من اخبارهم فی التفسير.و سنورد ما تيسر لنا مما نقل عن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و ائمه أهل بيته فی ضمن ابحاث روائيه فی هذا الكتاب،و لا يعثر المتتبع الباحث فيها علی مورد واحد يستعان فيه علی تفسير الآيه بحجه نظريه عقليه،و لا فرضيه علميه.

و قد قال النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:«فاذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع و ما حل مصدق،من جعله امامه قاده الی الجنه،و من جعله خلفه ساقه الی النار،و هو الدليل يدل علی خير سبيل،و هو كتاب تفصيل و بيان و تحصيل و هو الفصل ليس بالهزل،و له ظهر و بطن،فظاهره حكمه و باطنه علم،ظاهره انيق و باطنه عميق،له نجوم و علی نجومه نجوم،لا تحصی عجائبه و لا تبلی غرائبه فيه مصابيح الهدی و منار الحكمه،و دليل علی المعروف لمن عرف النصفه،فليرجع رجل بصره،و ليبلغ الصفه نظره ينجو من عطب و يخلص من نشب،فإن التفكر حياه قلب البصير،كما يمشی المستنير فی الظلمات بالنور،يحسن التخلص و يقل التربص».و قال علی عليه السّلام(يصف القرآن علی ما فی النهج):«ينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه علی بعض» الخطبه.

هذا هو الطريق المستقيم و الصراط السوى الذى سلكه معلموا القرآن و هداته صلوات اللّه عليهم.

و سنضع ما تيسر لنا بعون اللّه سبحانه من الكلام على هذه الطريقه فى البحث عن الآيات الشريفه فى ضمن بيانات،قد اجتنبنا فيها عن أن نركن الى حجه نظريه فلسفيه أو إلى فرضيه علميه،أو الى مكاشفه عرفانيه.

و احترزنا فيها عن أن نضع الا نكته ادبيه يحتاج إليها فهم الاسلوب العربى أو مقدمه بديهيه أو عمليه لا يختلف فيها الافهام.

و قد تحصل من هذه البيانات الموضوعه على هذه الطريقه من البحث استفراغ الكلام فيما نذكره:

(۱)المعارف المتعلقه باسماء اللّه سبحانه و صفاته من الحياه و العلم و القدره و السمع و البصر و الوحده و غيرها،و أما الذات فستطلع أن القرآن يراه غنيا عن البيان.

(۲)المعارف المتعلقه بافعاله تعالى من الخلق و الامر و الإراده و المشيه و الهدايه و الاضلال و القضاء و القدر و الجبر و التفويض و الرضا و السخط،الى غير ذلک من متفرقات الافعال.

(۳)المعارف المتعلقه بالوسائط الواقعه بينه و بين الانسان كالحجب و اللوح و القلم و العرش و الكرسى و البيت المعمور و السماء و الارض و الملائكه و الشياطين و الجن و غير ذلک.

(۴)المعارف المتعلقه بالانسان قبل الدنيا.

(۵)المعارف المتعلقه بالانسان فى الدنيا كمعرفه تاريخ نوعه و معرفه نفسه

و معرفه اصول اجتماعه و معرفه النبوه و الرساله و الوحی و الالهام و الکتاب و الدین و الشریعه و من هذا الباب مقامات الانبیاء المستفاده من قصصهم المحکیه.

(۶)المعارف المتعلقه بالانسان بعد الدنیا،و هو البرزخ و المعاد.

(۷)المعارف المتعلقه بالاخلاق الانسانیه،و من هذا الباب ما یتعلق بمقامات الأولیاء فی صراط العبودیه من الاسلام و الایمان و الإحسان و الإخبات و الإخلاص و غیر ذلک.

و أما آیات الأحکام،فقد اجتنبنا تفصیل البیان فیها لرجوع ذلک الی الفقه.

و قد أفاد هذه الطریقه من البحث ارتفاع التأویل بمعنی الحمل علی المعنی المخالف للظاهر من بین الآیات.

و أما التأویل بالمعنی الذی یثبته القرآن فی مواضع من الآیات،فستری أنه لیس من قبیل المعانی.

ثم وضعنا فی ذیل البیانات متفرقات من ابحاث روائیه نورد فیها ما تیسر لنا ایراده من الروایات المنقوله عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أئمه أهل البیت سلام اللّه علیهم أجمعین من طرق العامه و الخاصه،و أما الروایات الوارده عن مفسری الصحابه و التابعین،فإنها علی ما فیها من الخلط و التناقض لا حجه فیها علی مسلم.

و سیطلع الباحث المتدبر فی الروایات المنقوله عنهم علیهم السّلام،ان هذه الطریقه الحدیثه التی بنیت علیها بیانات هذا الکتاب،أقدم الطرق المأثوره فی التفسیر التی سلکها معلموه سلام اللّه علیهم.

ثم وضعنا ابحاثا مختلفه،فلسفیه و علمیه و تأریخیه و اجتماعیه و أخلاقیه،

ص :۱۶

حسب ما تیسر لنا من البحث،و قد أثرنا فی کل بحث قصر الکلام علی المقدمات المسانخه له،من غیر تعد عن طور البحث.

نسأل اللّه تعالی السداد و الرشاد فانه خیر معین و هاد

الفقیر إلی اللّه محمد حسین الطباطبائی

ص :۱۷

سوره الحمد و هی سبع آیات

[سوره الفاتحه (۱): الآیات ۱ الی ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ (۱) اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۲) اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ (۳) مٰالِکِ یَوْمِ اَلدِّینِ (۴) إِیّٰاکَ نَعْبُدُ وَ إِیّٰاکَ نَسْتَعِینُ (۵)

بیان:

اشاره

قوله تعالی: بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیمِ الناس ربما یعملون عملا أو یبتدئون فی عمل و یقرنونه باسم عزیز من أعزتهم أو کبیر من کبرائهم،لیکون عملهم ذاک مبارکا بذلک متشرفا،أو لیکون ذکری یذکرهم به،و مثل ذلک موجود أیضا فی باب التسمیه فربما یسمون المولود الجدید من الانسان،أو شیئا مما صنعوه أو عملوه کدار بنوها أو مؤسسه اسسوها باسم من یحبونه أو یعظمونه،لیبقی الاسم ببقاء المسمی الجدید،و یبقی المسمی الأول نوع بقاء ببقاء

ص :۱۹

الاسم کمن یسمی ولده باسم والده لیحیی بذلک ذکره فلا یزول و لا ینسی.

و قد جری کلامه تعالی هذا المجری،فابتدأ الکلام باسمه عز اسمه؛لیکون ما یتضمنه من المعنی معلما باسمه مرتبطا به،و لیکون أدبا یؤدب به العباد فی الاعمال و الافعال و الأقوال، فیبتدءوا باسمه و یعلموا به،فیکون ما یعملونه معلما باسمه منعوتا بنعته تعالی مقصودا لاجله سبحانه فلا یکون العمل هالکا باطلا مبترا،لأنه باسم اللّه الذی لا سبیل للهلاک و البطلان إلیه.

و ذلک أن اللّه سبحانه یبین فی مواضع من کلامه:أن ما لیس لوجهه الکریم هالک باطل، و أنه:سیقدم الی کل عمل عملوه مما لیس لوجهه الکریم،فیجعله هباء منثورا،و یحبط ما صنعوا و یبطل ما کانوا یعملون،و انه لا بقاء لشیء إلا وجهه الکریم فما عمل لوجهه الکریم و صنع باسمه هو الذی یبقی و لا یفنی،و کل أمر من الامور انما نصیبه من البقاء بقدر ما للّه فیه نصیب،و هذا هو الذی یفیده ما رواه الفریقان عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إنه قال:«کل امر ذی بال لم یبدأ فیه باسم اللّه فهو ابتر الحدیث».و الأبتر هو المنقطع الآخر،فالأنسب ان متعلق الباء فی البسمله ابتدئ بالمعنی الذی ذکرناه فقد ابتدأ بها الکلام بما انه فعل من الأفعال،فلا محاله له وحده،و وحده الکلام بوحده مدلوله و معناه،فلا محاله له معنی ذا وحده،و هو المعنی المقصود افهامه من إلقاء الکلام،و الغرض المحصّل منه.

و قد ذکر اللّه سبحانه الغرض المحصل من کلامه الذی هو جمله القرآن اذ قال تعالی: قَدْ جٰاءَکُمْ مِنَ اللّٰهِ نُورٌ وَ کِتٰابٌ مُبِینٌ یَهْدِی بِهِ اللّٰهُ الآیه؛(المائده۱۶/).الی غیر ذلک من الآیات التی أفاد فیها:ان الغایه من کتابه و کلامه هدایه العباد،فالهدایه جمله هی المبتدئه باسم اللّه الرحمن الرحیم،فهو اللّه الذی إلیه مرجع العباد،و هو الرحمن یبیّن لعباده سبیل رحمته العامه للمؤمن و الکافر،مما فیه خیرهم فی وجودهم و حیاتهم،و هو الرحیم یبین لهم سبیل رحمته الخاصه بالمؤمنین و هو سعاده آخرتهم و لقاء ربهم و قد قال تعالی: وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ

شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ .(الأعراف١٥٦/).فهذا بالنسبه الى جمله القرآن.

ثم إنه سبحانه كرّر ذكر السوره فى كلامه كثيرا كقوله تعالى: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ (يونس٣٨/).و قوله: فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ (هود١٣/).و قوله تعالى: إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ (التوبه٨٦/).و قوله: سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها (النور١/).فبان لنا من ذلك:أن لكل طائفه من هذه الطوائف من كلامه(التى فصّلها قطعا قطعا،و سمى كل قطعه سوره)نوعا من وحده التأليف و التمام،لا يوجد بين أبعاض من سوره و لا بين سوره و سوره، و من هنا نعلم:أن الأغراض و المقاصد المحصله من السور مختلفه،و أن كل واحده منها مسوقه لبيان معنى خاص و لغرض محصل لا تتم السوره إلا بتمامه،و على هذا فالبسمله فى مبتدإ كل سوره راجعه الى الغرض الخاص من تلك السوره.

فالبسمله فى سوره الحمد راجعه الى غرض السوره و المعنى المحصل منه،و الغرض الذى يدل عليه سرد الكلام فى هذه السوره هو حمد اللّه باظهار العبوديه له سبحانه بالافصاح عن العباده و الاستعانه و سؤال الهدايه،فهو كلام يتكلم به اللّه سبحانه نيابه عن العبد،ليكون متأدبا فى مقام اظهار العبوديه بما أدبه اللّه به.

و إظهار العبوديه من العبد هو العمل الذى يتلبس به العبد،و الأمر ذو البال الذى يقدم عليه،فالابتداء باسم اللّه سبحانه الرحمن الرحيم راجع إليه،فالمعنى باسمك أظهر لك العبوديه.

فمتعلق الباء فى بسمله الحمد الابتداء و يراد به تتميم الاخلاص فى مقام العبوديه بالتخاطب.و ربما يقال انه الاستعانه و لا بأس به و لكن الابتداء انسب لاشتمال السوره على الاستعانه صريحا فى قوله تعالى: وَ إِيّاكَ نَسْتَعِينُ .

و أما الاسم،فهو اللفظ الدال على المسمى مشتق من السمه بمعنى العلامه أو من السمو بمعنى الرفعه و كيف كان فالذى يعرفه منه اللغه و العرف هو اللفظ الدال و يستلزم ذلك أن يكون

غير المسـمى،و أما الاـسم بمعنى الـذات مـأخوذا بوصف من أوصـافه فهو من الأعيان لا من الألفاظ و هو مسـمى الاسم بالمعنى الأول كما ان لفظ العالم(من اسماء اللّه تعالى)اسم يدل على مسماه و هو الذات ماخوذه بوصف العلم و هو بعينه اسم بالنسبه الى الـذات الـذى لا خبر عنه الا بوصف من اوصافه و نعت من نعوته و السبب فى ذلك أنهم وجدوا لفظ الاسم موضوعا للدال على المسـمى من الألفاظ،ثم وجـدوا أن الأوصاف المأخوذه على وجه تحكى عن الـذات و تدل عليه حال اللفظ المسـمى بالاسم فى أنها تـدل على ذوات خارجيه،فسـموا هـذه الاوصاف الداله على الذوات أيضا أسـماء فانتج ذلك ان الاسم كما يكون أمرا لفظيا كـذلك يكون أمرا عينيـا،ثم وجـدوا ان الـدال على الـذات القريب منه هو الاـسم بـالمعنى الثـانى المأخوذ بالتحليل، و ان الاسـم بالمعنى الأول إنما يـدل على الذات بواسـطته،و لذلك سـمو الذى بالمعنى الثانى اسما، و الذى بالمعنى الأول اسم الاسم،هذا و لكن هذا كله أمر أدى إليه التحليل النظرى و لا ينبغى أن يحمل على اللغه،فالاسم بحسب اللغه ما ذكرناه.

و قـد شاع النزاع بين المتكلمين فى الصدر الأول من الاسـلام فى أن الاسم عين المسـمى أو غيره و طالت المشاجرات فيه،و لكن هـذا النوع من المسائـل قـد اتضـحت اليوم اتضاحـا يبلغ الى حـد الضـروره و لا يجوز الاشـتغال بها بـذكر ما قيل و ما يقال فيها و العنايه بابطال ما هو الباطل و إحقاق ما هو الحق فيها،فالصفح عن ذلك اولى.

و أما لفظ الجلاله،فاللّه أصـله الإله،حـذفت الهمزه لكثره الاسـتعمال،و إله من أله الرجل يأله بمعنى عبـد،او من أله الرجل أو و له الرجل أى تحير،فهو فعال بكسـر الفاء بمعنى المفعول ككتاب بمعنى المكتوب سـمى إلها لأنه معبود أو لأنه مما تحيرت فى ذاته العقول،و الظـاهر انه علم بـالغلبه،و قـد كـان مسـتعملا دائرا فى الأـلسن قبل نزول القرآن يعرفه العرب الجاهلى كما يشـعر به قوله تعالى: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ (الزخرف/۸۷)،و قوله تعالى: فَقٰالُوا هٰذٰا لِلّٰهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هٰذٰا لِشُرَكٰائِنٰا (الأنعام/۱۳۶).

و مما يدل على كونه علما انه يوصف بجميع الأسماء الحسنى و سائر أفعاله المأخوذه من تلك الأسماء من غير عكس،فيقال:اللّه الرحمن الرحيم و يقال:رحم اللّه و علم اللّه،و رزق اللّه،و لا يقع لفظ الجلاله صفه لشيء منها و لا يؤخذ منه ما يوصف به شيء منها.

و لما كان وجوده سبحانه،و هو إله كل شيء يهدى الى اتصافه بجميع الصفات الكماليه كانت الجميع مدلولا عليها به بالالتزام،و صحّ ما قيل ان لفظ الجلاله اسم للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال و إلا فهو علم بالغلبه لم تعمل فيه عنايه غير ما يدل عليه ماده إله.

و اما الوصفان:الرحمن الرحيم،فهما من الرحمه،و هى وصف انفعالى و تأثر خاص يلم بالقلب عند مشاهده من يفقد أو يحتاج الى ما يتم به أمره فيبعث الانسان الى تتميم نقصه و رفع حاجته،إلا ان هذا المعنى يرجع بحسب التحليل الى الإعطاء و الإفاضه لرفع الحاجه و بهذا المعنى يتصف سبحانه بالرحمه.

و الرحمن،فعلان صيغه مبالغه تدل على الكثره،و الرحيم فعيل صفه مشبّهه تدل على الثبات و البقاء و لذلك ناسب الرحمن ان يدل على الرحمه الكثيره المفاضه على المؤمن و الكافر و هو الرحمه العامه،و على هذا المعنى يستعمل كثيرا فى القرآن،قال تعالى: اَلرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ (طه۵/).و قال: قُلْ مَنْ كٰانَ فِي الضَّلاٰلَهِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمٰنُ مَدًّا (مريم/ ۷۵).الى غير ذلك،و لذلك أيضا ناسب الرحيم أن يدّل على النعمه الدائمه و الرّحمه الثّابته الباقيه التى تقاض على المؤمن كما قال تعالى: وَ كٰانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (الأحزاب۴۳/).

و قال تعالى: إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (التوبه۱۱۷/).الى غير ذلك،و لذلك قيل:ان الرحمن عامّ للمؤمن و الكافر و الرحيم خاص بالمؤمن.

و قوله تعالى: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ،الحمد على ما قيل:هو الثناء على الجميل الاختيارى و المدح أعم منه،يقال:حمدت فلانا أو مدحته لكرمه،و يقال:مدحت اللؤلؤ على صفائه و لا

يقال:حمدته على صفائه،و اللام فيه للجنس أو الاستغراق و المآل هاهنا واحد.

و ذلك ان اللّه سبحانه يقول: ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (غافر/۶۲).فأفاد أن كل ما هو شیء فهو مخلوق للّه سبحانه،و قال: اَلَّذِی أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (السجده/۷).

فأثبت الحسن لكل شیء مخلوق من جهه أنه مخلوق له منسوب اليه،فالحسن يدور مدار الخلق و بالعكس،فلا خلق إلا و هو حسن جميل باحسانه و لا حسن إلا و هو مخلوق له منسوب اليه،و قد قال تعالى: هُوَ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ (الزمر/۴).و قال: وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ (طه/۱۱۱).فانبأ انه لم يخلق ما خلق بقهر قاهر و لا يفعل ما فعل باجبار من مجبر بل خلقه عن علم و اختيار فما من شیء إلا و هو فعل جميل اختياری له فهذا من جهه الفعل،و أما من جهه الاسم فقد قال تعالى: اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ (طه/۸).

و قال تعالى: وَ لِلّٰهِ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِهٰا وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِی أَسْمٰائِهِ (الأعراف/ ۱۸۰).فهو تعالى جميل فی اسمائه و جميل فی أفعاله،و كل جميل منه.

فقد بان أنه تعالى محمود على جميل اسمائه و محمود على جميل أفعاله،و أنه ما من حمد يحمده حامد لأمر محمود إلا كان للّه سبحانه حقيقه لأن الجميل الذی يتعلق به الحمد منه سبحانه،فللّه سبحانه جنس الحمد و له سبحانه كل حمد.

ثم ان الظاهر من السياق و بقرينه الالتفات الذی فی قوله: إِيّٰاكَ نَعْبُدُ الآيه؛إن السوره من كلام العبد،و انه سبحانه فی هذه السوره يلقّن عبده حمد نفسه و ما ينبغی ان يتأدب به العبد عند نصب نفسه فی مقام العبوديه،و هو الذی يؤيده قوله: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ .

و ذلك إن الحمد توصيف،و قد نزه سبحانه نفسه عن وصف الواصفين من عباده حيث قال: سُبْحٰانَ اللّٰهِ عَمّٰا يَصِفُونَ إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ (الصافات/۱۶۰).و الكلام مطلق غير مقيّد،و لم يرد فی كلامه تعالى ما يؤذن بحكايه الحمد عن غيره إلا ما حكاه عن عده من أنبيائه المخلصين،قال تعالى فی خطابه لنوح عليه السّلام: فَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی نَجّٰانٰا مِنَ الْقَوْمِ

الظّالِمِينَ (المؤمنون۲۸/).و قال تعالی حکایه عن إبراهیم علیه السّلام: اَلْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِی وَهَبَ لِی عَلَی الْکِبَرِ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ (إبراهیم۳۹/).و قال تعالی لنبیه محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی بضعه مواضع من کلامه: وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ (النمل۹۳/).و قال تعالی حکایه عن داود و سلیمان علیهما السّلام:

وَ قالاَ الْحَمْدُ لِلّهِ (النمل۱۵/).و إلا ما حکاه عن أهل الجنه و هم المطهّرون من غل الصدور و لغو القول و التأثیم کقوله: وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ (یونس۱۰/).

و أما غیر هذه الموارد فهو تعالی و ان حکی الحمد عن کثیر من خلقه بل عن جمیعهم،کقوله تعالی: وَ الْمَلائِکَهُ یُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ (الشوری۵/).و قوله: وَ یُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ (الرعد۱۳/).و قوله: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّ یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (الإسراء۴۴/).إلا أنه سبحانه شفّع الحمد فی جمیعها بالتسبیح بل جعل التسبیح هو الأصل فی الحکایه و جعل الحمد معه، و ذلک أن غیره تعالی لا یحیط بجمال أفعاله و کمالها کما لا یحیطون بجمال صفاته و أسمائه التی منها جمال الأفعال،قال تعالی: وَ لا یُحِیطُونَ بِهِ عِلْماً (طه۱۱۰/).فما وصفوه به فقد أحاطوا به و صار محدودا بحدودهم مقدّرا بقدر نیلهم منه،فلا یستقیم ما أثنوا به من ثناء إلا من بعد أن ینزهوه و یسبّحوه عن ما حدوه و قدروه بافهامهم،قال تعالی: إِنَّ اللّهَ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (النحل۷۴/)،و أما المخلصون من عباده تعالی فقد جعل حمدهم حمده و وصفهم وصفه حیث جعلهم مخلصین له،فقد بان ان الذی یقتضیه أدب العبودیه ان یحمد العبد ربه بما حمد به نفسه و لا یتعدی عنه،کما فی الحدیث الذی رواه الفریقان عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم«لا أحصی ثناء علیک أنت کما أثنیت علی نفسک»الحدیث؛فقوله فی أول هذه السوره:الحمد للّه،تادیب بادب عبودی ما کان للعبد ان یقوله لو لا ان اللّه تعالی قاله نیابه و تعلیما لما ینبغی الثناء به.

و قوله تعالی: رَبِّ الْعالَمِینَ اَلرَّحْمنِ الرَّحِیمِ مالِکِ یَوْمِ الدِّینِ. (و قرأ الاکثر ملک یوم الدین)فالرب هو المالک الذی یدبّر امر مملوکه،ففیه معنی الملک،و معنی الملک

(الـذی عنـدنا فی ظرف الاجتمـاع)هو نوع خاص من الاختصاص و هو نوع قیام شـیء بشـیء یوجب صـحه التصـرفات فیه،فقولنا العین الفلانیه ملکنا معناه:ان لها نوعا من القیام و الاختصاص بنا یصح معه تصـرفاتنا فیها و لو لا ذلک لم تصح تلک التصرفات و هـذا فی الاجتمـاع معنی وضـعیّ اعتبـاری غیر حقیقی و هو مـأخوذ من معنی آخر حقیقی نسـمیه ایضا ملکا،و هو نحو قیام اجزاء وجودنـا و قوانـا بنا فان لنا بصـرا و سـمعا و یـدا و رجلا،و معنی هـذا الملک انها فی وجودها قائمه بوجودنا غیر مسـتقله دوننا بل مستقله باستقلالنا و لنا ان نتصرف فیها کیف شئنا و هذا هو الملک الحقیقی.

و الـذی یمکن انتسابه الیه تعالی بحسب الحقیقه هو حقیقه الملک دون الملک الاعتباری الذی یبطل ببطلان الاعتبار و الوضع،و من المعلـوم ان الملـک الحقیقی لاـ ینفـک عن التـدبیر فـان الشـیء اذا افتقر فی وجوده الی شـیء فلم یسـتقل عنه فی وجوده لم یستقل عنه فی آثار وجوده، فهو تعالی رب لما سواه لان الربّ هو المالک المدبّر و هو تعالی کذلک.

و امـا اَلْعٰالَمِینَ :فهو جمع العالم بفتـح اللام بمعنی ما یعلم به کالقالب و الخاتم و الطابع بمعنی ما یقلب به و ما یختم به و ما یطبع به،یطلق علی جمیع الموجودات و علی کـل نوع مؤلف الافراد و الاجزاء منها کعالم الجماد و عالم النبات و عالم الحیوان و عالم الانسان و علی کل صنف مجتمع الافراد ایضا کعالم العرب و عالم العجم و هذا المعنی هو الانسب لما یئول الیه عدّ هذه الاسماء الحسـنی حتی ینتهی الی قوله مالـک یوم الـدین علی ان یکون الـدین و هو الجزاء یوم القیمه مختصـا بالانسان أو الانس و الجن فیکـون المراد بالعـالمین عوالم الاـنس و الجن و جماعـاتهم و یؤیـده ورود هـذا اللفـظ بهـذه العنـایه فی القرآن کقوله تعـالی: وَ اصْطَفٰاکِ عَلیٰ نِسٰاءِ الْعٰالَمِینَ (آل عمران۴۲/).و قوله تعالی: لِیَکُونَ لِلْعٰالَمِینَ نَذِیراً (الفرقان۱/)،و قوله تعالی:

أَ تَأْتُونَ الْفٰاحِشَهَ مٰا سَبَقَکُمْ بِهٰا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعٰالَمِینَ (الأعراف۸۰/).

و اما مٰالِکِ یَوْمِ الدِّینِ :فقد عرفت معنی المالک و هو المأخوذ من الملک بکسر

المیم،و اما الملک و هو مأخوذ من الملک بضم المیم،فهو الذی یملک النظام القومی و تدبیرهم دون العین،و بعباره اخری یملک الامر و الحکم فیهم.

و قد ذکر لکل من القراءتین،ملک و مالک؛وجوه من التأیید غیر ان المعنیین من السلطنه ثابتان فی حقه تعالی،و الذی تعرفه اللغه و العرف ان الملک بضم المیم هو المنسوب الی الزمان یقال:ملک العصر الفلانی،و لا یقال مالک العصر الفلانی الاّ بعنایه بعیده،و قد قال تعالی:

ملک یوم الدین فنسبه الی الیوم،و قال ایضا: لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ (غافر/ ۱۶).

بحث روائی:

فی العیون و المعانی عن الرضا علیه السّلام فی معنی قوله:بسم اللّه،قال علیه السّلام:یعنی أسم نفسی بسمه من سمات اللّه و هی العباده،قیل له:ما السمه؟قال:العلامه.

اقول:و هذا المعنی کالمتولد من المعنی الذی اشرنا الیه فی کون الباء للابتداء فان العبد اذا وسم عبادته باسم اللّه لزم ذلک ان یسم نفسه التی ینسب العباده إلیها بسمه من سماته.

و فی التهذیب عن الصادق علیه السّلام،و فی العیون و تفسیر العیاشی عن الرضا علیه السّلام انها اقرب الی اسم اللّه الاعظم من ناظر العین الی بیاضها.

اقول:و سیجیء معنی الروایه فی الکلام علی اسم الاعظم.

و فی العیون عن امیر المؤمنین علیه السّلام:انها من الفاتحه و ان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یقرئها و یعدّها آیه منها،و یقول فاتحه الکتاب هی السبع المثانی.

اقول:و روی من طرق اهل السنه و الجماعه نظیر هذا المعنی فعن الدارقطنی عن ابی هریره قال:قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:اذا قرأتم الحمد فاقرءوابسم اللّه الرحمن الرحیم،فانها امّ القرآن و السبع المثانی،وبسم اللّه الرحمن الرحیم احدی آیاتها.

و فی الخصال عن الصادق علیه السّلام قال:ما لهم؟قاتلهم اللّه عمدوا الی اعظم آیه فی کتاب اللّه فزعموا انها بدعه اذا اظهروها.

و عن الباقر علیه السّلام:سرقوا اکرم آیه فی کتاب اللّه؛بسم اللّه الرحمن الرحیم،و ینبغی الاتیان به عند افتتاح کل أمر عظیم أو صغیر لیبارک فیه.

اقول:و الروایات عن أئمه أهل البیت فی هذا المعنی کثیره،و هی جمیعا تدل علی ان البسمله جزء من کل سوره إلا سوره البراءه،و فی روایات اهل السنه و الجماعه ما یدل علی ذلک.

ففی صحیح مسلم عن أنس قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:انزل علیّ آنفا سوره فقرأ:بسم اللّه الرحمن الرحیم.

عن أبی داود عن ابن عباس(و قد صححوا سندها)قال:ان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان لا یعرف فصل السوره،(و فی روایه انقضاء السوره)حتی ینزل علیه،بسم اللّه الرحمن الرحیم.

اقول:و روی هذا المعنی من طرق الخاصه عن الباقر علیه السّلام.

و فی الکافی و التوحید و المعانی و تفسیر العیاشی عن الصادق علیه السّلام فی حدیث:و اللّه إله کل شیء،الرحمن بجمیع خلقه،الرحیم بالمؤمنین خاصه.

و روی عن الصادق علیه السّلام:الرحمن اسم خاص بصفه عامه و الرحیم اسم عام بصفه خاصه.

اقول:قد ظهر مما مر وجه عموم الرحمن للمؤمن و الکافر و اختصاص الرحیم بالمؤمن،أما کون الرحمن اسما خاصا بصفه عامه و الرحیم اسما عاما بصفه خاصه فکانه یرید به أن الرحمن خاص بالدنیا و یعم الکافر و المؤمن و الرحیم عام للدنیا و الآخره و یخص المؤمنین،و بعباره اخری:الرحمن یختص بالافاضه التکوینیه التی یعم المؤمن و الکافر،و الرحیم یعم التکوین و التشریع الذی بابه باب الهدایه و السعاده،و یختص بالمؤمنین لان الثبات و البقاء یختص بالنعم التی تفاض علیهم و العاقبه للتقوی.

و فی کشف الغمه عن الصادق علیه السّلام قال:فقد لابی علیه السّلام:بغله فقال لئن ردها اللّه علیّ لاحمدنه بمحامد یرضیها فما لبث أن أتی بها بسرجها و لجامها فلما استوی و ضم الیه ثیابه رفع رأسه الی السماء و قال الحمد للّه و لم یزد،ثم قال ما ترکت و لا ابقیت شیئا جعلت أنواع المحامد للّه عزّ و جل،فما من حمد الا و هو داخل فیها.

قلت:و فی العیون عن علی علیه السلام انه سئل عن تفسیرها فقال:هو ان اللّه عرّف عباده بعض نعمه علیهم جملا اذ لا یقدرون علی معرفه جمیعها بالتفصیل لانها اکثر من ان تحصی أو تعرف،فقال:قولوا الحمد للّه علی ما انعم به علینا.

اقول:یشیر علیه السّلام الی ما مر من أن الحمد،من العبد و انما ذکره اللّه بالنیابه تأدیبا و تعلیما (۱).

بحث فلسفی:

البراهین العقلیه ناهضه علی ان استقلال المعلول و کل شأن من شئونه انما هو بالعله،و ان کل ما له من کمال فهو من اظلال وجود علته،فلو کان للحسن و الجمال حقیقه فی الوجود فکماله و استقلاله للواجب تعالی لانه العله التی ینتهی الیه جمیع العلل،و الثناء و الحمد هو اظهار موجود ما بوجوده کمال موجود آخر و هو لا محاله علته،و اذا کان کل کمال ینتهی الیه تعالی فحقیقه کل ثناء و حمد تعود و تنتهی الیه تعالی،فالحمد للّه رب العالمین.

قوله تعالی: إِیّٰاکَ نَعْبُدُ وَ إِیّٰاکَ نَسْتَعِینُ الآیه؛العبد هو المملوک من الانسان أو من کل ذی شعور بتجرید المعنی کما یعطیه قوله تعالی: إِنْ کُلُّ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ إِلاّٰ آتِی الرَّحْمٰنِ عَبْداً (مریم۹۳/).و العباده مأخوذه منه و ربما تفرقت اشتقاقاتها أو المعانی المستعمله هی فیها لاختلاف الموارد،و ما ذکره الجوهری فی الصحاح أن أصل العبودیه

۱- ۱) .الحمد ۱-۵:بحث فلسفی فی العبودیه و الحمد.

الخضوع فهو من باب الأخذ بلازم المعنی و إلا فالخضوع متعد باللام و العباده متعديه بنفسها.

و بالجمله فکأنّ العباده هی نصب العبد نفسه فی مقام المملوکيه لربه و لذلک کانت العباده منافيه للاستکبار و غير منافيه للاشتراک فمن الجائز ان يشترک ازيد من الواحد فی ملک رقبه أو فی عباده عبد،قال تعالی: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (غافر/۶۰).و قال تعالی: وَ لاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (الکهف/۱۱۰).فعد الاشراک ممکنا و لذلک نهی عنه،و النهی لا يمکن الاّ عن ممکن مقدور بخلاف الاستکبار عن العباده فانه لا يجامعها.

و العبوديه انما يستقيم بين العبيد و مواليهم فيما يملکه الموالی منهم،و اما ما لا يتعلق به الملک من شئون وجود العبد ککونه ابن فلان أو ذا طول فی قامته فلا يتعلق به عباده و لا عبوديه، لکن اللّه سبحانه فی ملکه لعباده علی خلاف هذا النعت فلا ملکه يشوبه ملک ممن سواه و لا ان العبد يتبعض فی نسبته اليه تعالی فيکون شیء منه مملوکا و شیء آخر غير مملوک،و لا تصرّف من التصرفات فيه جائز و تصرف آخر غير جائز کما ان العبيد فيما بيننا شیء منهم مملوک و هو افعالهم الاختياريه و شیء غير مملوک و هو الاوصاف الاضطراريه،و بعض التصرفات فيهم جائز کالاستفاده من فعلهم و بعضها غير جائز کقتلهم من غير جرم مثلا،فهو تعالی مالک علی الاطلاق من غير شرط و لا قيد و غيره مملوک علی الاطلاق من غير شرط و لا قيد فهناک حصر من جهتين،الرب مقصور فی المالکيه،و العبد مقصور فی العبوديه،و هذه هی التی يدل عليه قوله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ .حيث قدّم المفعول و اطلقت العباده.

ثم ان الملک حيث کان متقوم الوجود بمالکه کما عرفت مما مر،فلا يکون حاجبا عن مالکه و لا يحجب عنه،فانک اذا نظرت الی دار زيد فان نظرت إليها من جهه انها دار امکنک ان تغفل عن زيد،و ان نظرت إليها بما انها ملک زيد لم يمکنک الغفله عن مالکها و هو زيد.

و لكنك عرفت ان ما سواه تعالى ليس له الاّ المملوكيه فقط و هذه حقيقته فشىء منه فى الحقيقه لا يحجب عنه تعالى،و لا النظر اليه يجامع الغفله عنه تعالى،فله تعالى الحضور المطلق، قال سبحانه: أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (السجده۵۴/)و اذا كان كذلك فحق عبادته تعالى ان يكون عن حضور من الجانبين.

اما من جانب الرب عزّ و جل،فان يعبد عباده معبود حاضر و هو الموجب للالتفات (المأخوذ فى قوله تعالى إِيّاكَ نَعْبُدُ)عن الغيبه الى الحضور.

اما من جانب الرب العبد،فان يكون عبادته عباده عبد حاضر من غير ان يغيب فى عبادته فيكون عبادته صوره فقط من غير معنى و جسدا من غير روح؛أو يتبغض فيشتغل بربه و بغيره،اما ظاهرا و باطنا كالوثنيين فى عبادتهم للّه و لاصنامهم معا،أو باطنا فقط كمن يشتغل فى عبادته بغيره تعالى بنحو الغايات و الاغراض؛كأن يعبد اللّه و همّه فى غيره،أو يعبد اللّه طمعا فى جنه أو خوفا من نار فان ذلك كله من الشرك فى العباده الذى ورد عنه النهى،قال تعالى: فَاعْبُدِ اللّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (الزمر۲/)،و قال تعالى: أَلا لِلّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللّهِ زُلْفى إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (الزمر۳/).

فالعباده إنما تكون عباده حقيقه،اذا كان على خلوص من العبد و هو الحضور الذى ذكرناه،و قد ظهر انه انما يتم اذا لم يشتغل بغيره تعالى فى عمله فيكون قد اعطاه الشركه مع اللّه سبحانه فى عبادته و لم يتعلق قلبه فى عبادته رجاء أو خوفا هو الغايه فى عبادته كجنه أو نار فيكون عبادته له لا لوجه اللّه،و لم يشتغل بنفسه فيكون منافيا لمقام العبوديه التى لا تلائم الإنيّه و الاستكبار،و كأن الإتيان بلفظ المتكلم مع الغير للايماء الى هذه النكته فان فيه هضما للنفس بالغاء تعينها و شخوصها وحدها المستلزم لنحو من الإنيه و الاستقلال بخلاف ادخالها

فی الجماعه و خلطها بسواد الناس فان فیه امحاء التعین و اعفاء الاثر فیؤمن به ذلک.

و قد ظهر من ذلک کله:ان اظهار العبودیه بقوله: إِیّٰاکَ نَعْبُدُ ؛لا یشتمل علی نقص من حیث المعنی و من حیث الاخلاص الا ما فی قوله: إِیّٰاکَ نَعْبُدُ من نسبه العبد العباده الی نفسه المشتمل بالاستلزام علی دعوی الاستقلال فی الوجود و القدره و الاراده مع انه مملوک و المملوک لا یملک شیئا،فکأنه تدورک ذلک بقوله تعالی: وَ إِیّٰاکَ نَسْتَعِینُ ،أی انما ننسب العباده الی انفسنا و ندّعیه لنا مع الاستعانه بک لا مستقلین بذلک مدعین ذلک دونک،فقوله: إِیّٰاکَ نَعْبُدُ وَ إِیّٰاکَ نَسْتَعِینُ ؛لإبداء معنی واحد و هو العباده عن اخلاص،و یمکن ان یکون هذا هو الوجه فی اتحاد الاستعانه و العباده فی السیاق الخطابی حیث قیل ایاک نعبد و ایاک نستعین من دون ان یقال:ایاک نعبد اعنّا و اهدنا الصراط المستقیم و اما تغییر السیاق فی قوله: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ..

الآیه.فسیجیء الکلام فیه إن شاء اللّه تعالی.

فقد بان بما مر من البیان فی قوله: إِیّٰاکَ نَعْبُدُ وَ إِیّٰاکَ نَسْتَعِینُ... الآیه؛الوجه فی الالتفات من الغیبه الی الحضور،و الوجه فی الحصر الذی یفیده تقدیم المفعول،و الوجه فی اطلاق قوله:

نَعْبُدُ ،و الوجه فی اختیار لفظ المتکلم مع الغیر،و الوجه فی تعقیب الجمله الاولی بالثانیه، و الوجه فی تشریک الجملتین فی السیاق،و قد ذکر المفسرون نکات اخری فی اطراف ذلک من ارادها فلیراجع کتبهم و هو اللّه سبحانه غریم لا یقضی دینه.

[سوره الفاتحه (۱): الآیات ۶ الی ۷]

اشاره

اِهْدِنَا اَلصِّرٰاطَ اَلْمُسْتَقِیمَ (۶) صِرٰاطَ اَلَّذِینَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِمْ غَیْرِ اَلْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ وَ لاَ اَلضّٰالِّینَ (۷)

ص :۳۲

بيان:

قوله تعالى: اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ الخ؛اما الهدايه فيظهر معناها فى ذيل الكلام على الصراط و اما الصراط فهو و الطريق و السبيل قريب المعنى،و قد وصف تعالى الصراط بالاستقامه ثم بيّن انه الصراط الذى يسلكه الذين انعم اللّه تعالى عليهم،فالصراط الذى من شأنه ذلك هو الذى سئل الهدايه اليه و هو بمعنى الغايه للعباده اى:ان العبد يسأل ربه ان تقع عبادته الخالصه فى هذا الصراط.

بيان ذلك:ان اللّه سبحانه قرر فى كلامه لنوع الانسان بل لجميع من سواه سبيلا يسلكون به اليه سبحانه فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ (الانشقاق/ ۶)و قال تعالى: وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (التغابن/۳)،و قال أَلاَ إِلَى اللّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (الشورى/۵۳)،الى غير ذلك من الآيات و هى واضحه الدلاله على ان الجميع سالكو سبيل،و انهم سائرون الى اللّه سبحانه.

ثم بيّن:أن السبيل ليس سبيلا واحدا ذا نعت واحد بل هو منشعب الى شعبتين منقسم الى طريقين،فقال: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِى هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (يس/۶۱).

فهناك طريق مستقيم و طريق آخر ورائه،و قال تعالى: فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذٰا دَعٰانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَ لْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (البقره/۱۸۶)،و قال تعالى: اُدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دٰاخِرِينَ (غافر/۶۰)،فبيّن تعالى:انه قريب من عباده و ان الطريق الاقرب اليه تعالى طريق عبادته و دعائه،ثم قال تعالى فى وصف الذين لا يؤمنون: أُولٰئِكَ يُنٰادَوْنَ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ (السجده/۴۴).فبيّن:ان غايه الذين لا يؤمنون فى مسيرهم و سبيلهم بعيده.

فتبيّن:ان السبيل الى اللّه سبيلان:سبيل قريب و هو سبيل المؤمنين و سبيل بعيد و هو سبيل غيرهم فهذا نحو اختلاف فى السبيل و هناك نحو آخر من الاختلاف،قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ (الأعراف٤٠/).و لو لا طروق من متطرق لم يكن للباب معنى فهناك طريق من السفل الى العلو،و قال تعالى: وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوىٰ (طه٨١/).و الهوى هو السقوط الى أسفل،فهناك طريق آخر آخذ فى السفاله و الانحدار،و قال تعالى: وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (البقره١٠٨/).فعرّف الضلال عن سواء السبيل بالشرك لمكان قوله: فَقَدْ ضَلَّ ،و عند ذلك تقسم الناس فى طرقهم ثلاثه اقسام:من طريقه الى فوق و هم الذين يؤمنون بآيات اللّه و لا يستكبرون عن عبادته،و من طريقه الى السفل و هم المغضوب عليهم،و من ضل الطريق و هو حيران فيه و هم الضالون،و ربما اشعر بهذا التقسيم قوله تعالى: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لاَ الضّالِّينَ .

و الصراط المستقيم لا محاله ليس هو الطريقين الآخرين من الطرق الثلث اعنى:طريق المغضوب عليهم و طريق الضالين فهو من الطريق الأول الذى هو طريق المؤمنين غير المستكبرين إلا ان قوله تعالى: يَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (المجادله١١/).يدل على ان نفس الطريق الأول ايضا يقع فيه انقسام.

و بيانه:ان كل ضلال فهو شرك كالعكس على ما عرفت من قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (البقره١٠٨/).و فى هذا المعنى قوله تعالى: أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِى هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً (يس٦٢/).و القرآن بعد الشرك ظلما و بالعكس،كما يدل عليه قوله تعالى:حكايه عن الشيطان لما قضى الأمر: إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (إبراهيم٢٢/).كما يعد الظلم ضلالا فى قوله تعالى: اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ

أَولٰئِکَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (الأنعام/۸۲).و هو ظاهر من ترتيب الاهتداء و الامن من الضلال أو العذاب الذى يستتبعه الضلال،على ارتفاع الظلم و لبس الايمان به،و بالجمله الضلال و الشرک و الظلم امرها واحد و هى متلازمه مصداقا،و هذا هو المراد من قولنا:ان كل واحد منها معرّف بالآخر أو هو الآخر فالمراد المصداق دون المفهوم.

اذا عرفت هذا علمت ان الصراط المستقيم الذى هو صراط غير الضالين صراط لا يقع فيه شرک و لا ظلم البته كما لا يقع فيه ضلال البته،لا فى باطن الجنان من كفر أو خطور لا يرضى به اللّه سبحانه،و لا فى ظاهر الجوارح و الاركان من فعل معصيه أو قصور فى طاعه، و هذا هو حق التوحيد علما و عملا اذ لا ثالث لهما و ما ذا بعد الحق الا الضلال؟و ينطبق على ذلک قوله تعالى: اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِکَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (الأنعام/۸۲)،و فيه تثبيت للامن فى الطريق و وعد بالاهتداء التام بناء على ما ذكروه:من كون اسم الفاعل حقيقه فى الاستقبال فليفهم فهذا نعت من نعوت الصراط المستقيم.

ثم انّه تعالى عرف هؤلاء المنعم عليهم الذين نسب الصراط المستقيم اليهم بقوله تعالى:

وَ مَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولٰئِکَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولٰئِکَ رَفِيقاً (النساء/۶۸).و قد وصف هذا الايمان و الاطاعه قبل هذه الآيه بقوله: فَلاٰ وَ رَبِّکَ لاٰ يُؤْمِنُونَ حَتّٰى يُحَكِّمُوکَ فِيمٰا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاٰ يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً وَ لَوْ أَنّٰا كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيٰارِكُمْ مٰا فَعَلُوهُ إِلاّٰ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مٰا يُوعَظُونَ بِهِ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً (النساء/ ۶۶).فوصفهم بالثبات التام قولا و فعلا و ظاهرا و باطنا على العبوديه لا يشذ منهم شاذ من هذه الجهه و مع ذلک جعل هؤلاء المؤمنين تبعا لاولئک المنعم عليهم و فى صف دون صفهم لمكان مع و لمكان قوله: وَ حَسُنَ أُولٰئِکَ رَفِيقاً و لم يقل:فاولئک من الذين.

و نظير هذه الآيه قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ أُولٰئِکَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَدٰاءُ

عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ (الحديد١٩/).و هذا هو الحاق المؤمنين بالشـهداء و الصديقين فى الآخره،لمكان قوله: عِنْدَ رَبِّهِمْ ،و قوله: لَهُمْ أَجْرُهُمْ .

فاولئـك(و هم اصحاب الصـراط المسـتقيم)أعلى قـدرا و أرفع درجه و منزله من هؤلاء و هم المؤمنون الـذين اخلصوا قلوبهم و اعمالهم من الضـلال و الشـرك و الظلم،فالتـدبر فى هـذه الآيات يوجب القطع بان هؤلاء المؤمنين و(شأنهم هـذا الشأن)فيهم بقيه بعـد،لو تمت فيهم كـانوا من الـذين انعم اللّه عليهم،و ارتقوا من منزله المصـاحبه معهم الى درجه الـدخول فيهم و لعلهم نوع من العلـم بـاللّه،ذكره فى قـوله تعـالى: يَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجٰاتٍ (المجـادله١١/).فالصراط المستقيم أصحابه منعم عليهم بنعمه هى ارفع النعم قدرا،يربو على نعمه الايمان التام،و هذا ايضا نعت من نعوت الصراط المستقيم.

ثم انه تعالى على انه كرر فى كلامه ذكر الصراط و السبيل لم ينسب لنفسه ازيد من صراط مستقيم واحد،و عد لنفسه سبلا كثيره فقال عزّ من قائل: وَ الَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا (العنكبوت٦٩/).و كذا لم ينسب الصراط المستقيم الى احد من خلقه إلا ما فى هـذه الآيه (صِرٰاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) الآيه؛و لكنه نسب السبيل الى غيره من خلقه،فقال تعالى: قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللّٰهِ عَلىٰ بَصِيرَةٍ (يوسف١٠٨/).و قـال تعالى: سَبِيلَ مَنْ أَنٰابَ إِلَيَّ (لقمان١٥/).و قال: سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ (النساء١١٤/)،و يعلم منها ان السبيل غير الصـراط المسـتقيم فانه يختلف و يتعدد و يتكثر باختلاف المتعبدين السالكين سبيل العباده بخلاف الصراط المستقيم كما يشير اليه قوله تعالى: قَدْ جٰاءَكُمْ مِنَ اللّٰهِ نُورٌ وَ كِتٰابٌ مُبِينٌ يَهْدِى بِهِ اللّٰهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ سُبُلَ السَّلاٰمِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (المائده١٦/)،فعدّ السـبل كثيره و الصـراط واحدا و هذا الصـراط المستقيم اما هى السبل الكثيره و اما انها تؤدى اليه باتصال بعضها الى بعض و اتحادها فيها.

ص :٣٦

و أيضا قال تعالى: وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف۱۰۶/).فبين ان من الشرك(و هو ضلال)ما يجتمع مع الايمان و هو سبيل،و منه يعلم ان السبيل يجامع الشرك،لكن الصراط المستقيم لا يجامع الضلال كما قال:و لا الضالين.

و التدبر فى هذه الآيات يعطى ان كل واحد من هذه السبل يجامع شيئا من النقص أو الامتياز،بخلاف الصراط المستقيم،و ان كلا منها هو الصراط المستقيم لكنه غير الآخر و يفارقه لكن الصراط المستقيم يتحد مع كل منها فى عين انه يتحد مع ما يخالفه،كما يستفاد من بعض الآيات المذكوره و غيرها كقوله: وَ أَنِ اعْبُدُونِى هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ (يس۶۱/).

و قوله تعالى: قُلْ إِنَّنِى هَدٰانِى رَبِّى إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفاً (الأنعام/ ۱۶۱).فسمى العباده صراطا مستقيما و سمى الدين صراطا مستقيما و هما مشتركان بين السبل جميعا،فمثل الصراط المستقيم بالنسبه الى سبل اللّٰه تعالى كمثل الروح بالنسبه الى البدن،فكما ان للبدن اطوارا فى حياته هو عند كل طور غيره عند طور آخر،كالصبى و الطفوليه و الرهوق و الشباب و الكهوله و الشيب و الهرم لكن الروح هى الروح و هى متحده بها و البدن يمكن ان تطرأ عليه اطوار تنافى ما تحبه و تقتضيه الروح لو خليت و نفسها بخلاف الروح فطره اللّٰه التى فطر الناس عليها و البدن مع ذلك هو الروح أعنى الانسان،فكذلك السبيل الى اللّٰه تعالى هو الصراط المستقيم إلا ان السبيل كسبيل المؤمنين و سبيل المنيبين و سبيل المتبعين للنبى صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم أو غير ذلك من سبل اللّٰه تعالى،ربما اتصلت به آفه من خارج أو نقص لكنهما لا يعرضان الصراط المستقيم كما عرفت ان الايمان و هو سبيل ربما يجامع الشرك و الضلال لكن لا يجتمع مع شىء من ذلك الصراط المستقيم،فللسبيل مراتب كثيره من جهه خلوصه و شوبه و قربه و بعده،و الجميع على الصراط المستقيم أو هى هو.

و قد بين اللّٰه سبحانه هذا المعنى،اعنى:اختلاف السبل الى اللّٰه مع كون الجميع من صراطه المستقيم فى مثل ضربه للحق و الباطل فى كلامه،فقال تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً

فَسٰالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهٰا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رٰابِياً وَ مِمّٰا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّٰارِ ابْتِغٰاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتٰاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَ الْبٰاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفٰاءً وَ أَمّٰا مٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثٰالَ (الرعد/١٧).فبين:ان القلوب و الافهام فى تلقى المعارف و الكمال مختلفه،مع كون الجميع متكئه منتهيه الى رزق سماوى واحد،و سيجىء تمام الكلام فى هذا المثل فى سوره الرعد،و بالجمله فهذا ايضا نعت من نعوت الصراط المستقيم.

و اذا تأملت ما تقدم من نعوت الصراط المستقيم تحصل لك ان الصراط المستقيم مهيمن على جميع السبل الى اللّه و الطرق الهاديه اليه تعالى،بمعنى ان السبيل الى اللّه إنما يكون سبيلا له موصلا إليه بمقدار يتضمنه من الصراط المستقيم حقيقه،مع كون الصراط المستقيم هاديا موصلا إليه مطلقا و من غير شرط و قيد،و لذلك سماه اللّه تعالى صراطا مستقيما،فان الصراط هو الواضح من الطريق،مأخوذ من سرطت سرطا اذا بلعت بلعا،كأنه يبلع سالكيه فلا يدعهم يخرجوا عنه و لا يدفعهم عن بطنه،و المستقيم هو الذى يريد ان يقوم على ساق فيتسلط على نفسه و ما لنفسه كالقائم الذى هو مسلط على أمره،و يرجع المعنى الى انه الذى لا يتغير أمره و لا يختلف شأنه فالصراط المستقيم ما لا يتخلف حكمه فى هدايته و ايصاله سالكيه الى غايته و مقصدهم قال تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً (النساء/١٧٤).اى لا يتخلف امر هذه الهدايه،بل هى على حالها دائما،و قال تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمٰا يَصَّعَّدُ فِي السَّمٰاءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللّٰهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ وَ هٰذٰا صِرٰاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً (الأنعام/١٢۶).أى هذه طريقته التى لا يختلف و لا يتخلف،و قال تعالى: قٰالَ هٰذٰا صِرٰاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبٰادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلاّٰ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغٰاوِينَ (الحجر/۴۲).أى هذه سنّتى و طريقتى دائما من غير

مقابلاتها من الكفر و الشرك و الجحود و الطغيان و المعصيه كذلك،قال سبحانه: وَ لِكُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (الأحقاف١٩/).

و هذا نظير المعارف الالهيه التى تتلقاها العقول من اللّه فانها مختلفه باختلاف الاستعدادات و متلونه بالوان القابليات على ما يفيده المثل المضروب فى قوله تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهٰا الآيه.

و ثانيها:انه كما أن الصراط المستقيم مهيمن على جميع السبل،فكذلك اصحابه الذين مكنهم اللّه تعالى فيه و تولى امرهم و ولاهم امر هدايه عباده حيث قال: وَ حَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً (النساء٧١/).و قال تعالى: إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ (المائده٥٥/)و الآيه نازله فى أمير المؤمنين على عليه السّلام بالأخبار المتواتره و هو عليه السّلام اول فاتح لهذا الباب من الامه و سيجىء تمام الكلام فى الآيه.

و ثالثها:إن الهدايه الى الصراط يتعين معناها بحسب تعين معناه،و توضيح ذلك ان الهدايه هى الدلاله على ما فى الصحاح،و فيه ان تعديتها لمفعولين لغه اهل الحجاز،و غيرهم يعدونه الى المفعول الثانى الى،و قوله هو الظاهر،و ما قيل:ان الهدايه اذا تعدت الى المفعول الثانى بنفسها،فهى بمعنى الايصال الى المطلوب،و اذا تعدت بالى فبمعنى إراءه الطريق،مستدلا بنحو قوله تعالى: إِنَّكَ لاٰ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ (القصص٥٦/).

حيث إن هدايته بمعنى إراءه الطريق ثابته فالمنفى غيرها و هو الايصال الى المطلوب قال تعالى:

وَ لَهَدَيْنٰاهُمْ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً (النساء٧٠/).و قال تعالى: وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (الشورى٥٢/).

فالهدايه بالايصال الى المطلوب تتعدى الى المفعول الثانى بنفسها،و الهدايه باراءه الطريق بالى،و فيه ان النفى المذكور لحقيقه الهدايه التى هى قائمه باللّه تعالى،لا نفى لها اصلا،و بعباره اخرى هو نفى الكمال دون نفى الحقيقه مضافا الى انه منقوض بقوله تعالى حكايه عن مؤمن آل

وَ لَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (النساء ۷۰/).و قال تعالى: وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (الشورى۵۲/).

فالهـدايه بالايصال الى المطلوب تتعـدى الى المفعول الثانى بنفسـها،و الهـدايه باراءه الطريق بالى،و فيه ان النفى المذكور لحقيقه الهـدايه التى هى قائمه باللّه تعالى،لا نفى لها اصـلا،و بعباره اخرى هو نفى الكمال دون نفى الحقيقه مضافا الى انه منقوض بقوله تعـالى حكـايه عن مؤمن آل فرعون: يٰا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشٰادِ (غافر۳۸/).فالحق انه لا يتفاوت معنى الهـدايه باختلاف التعديه،و من الممكن ان يكون التعديه الى المفعول الثانى من قبيل قولهم دخلت الدار.

و بالجمله فالهـدايه هى الـدلاله و إراءه الغايه باراءه الطريق و هى نحو ايصال الى المطلوب، و انما تكون من اللّه سـبحانه،و سـنته سنه الأسـباب بإيجاد سبب ينكشف به المطلوب و يتحقق به وصول العبد الى غايته فى سيره،و قد بيّنه اللّه سبحانه بقوله: فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ (الأنعام۱۲۵/).و قوله: ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلىٰ ذِكْرِ اللّٰهِ ذٰلِكَ هُدَى اللّٰهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشٰاءُ (الزمر۲۳/).و تعديه قوله تلين بإلى لتضمين معنى مثل الميل و الاطمينان،فهو ايجاده تعالى وصفا فى القلب به يقبل ذكر اللّه و يميل و يطمئن اليه،و كما أن سـبله تعالى مختلفه،فكـذلك الهـدايه تختلف باختلاف السـبل التى تضاف اليه فلكل سبيل هدايه قبله تختص به.

و الى هذا الاختلاف يشير قوله تعالى: وَ الَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَ إِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (العنكبوت۶۹/).اذ فرق بين ان يجاهـد العبـد فى سبيل اللّه،و بين أن يجاهد فى اللّه، فالمجاهد فى الاول يريد سـلامه السبيل و دفع العوائق عنه بخلاف المجاهد فى الثانى فانه إنما يريـد وجه اللّه فيمـده اللّه سـبحانه بالهـدايه الى سبيل دون سبيل بحسب اسـتعداده الخاص به،و كذا يمده اللّه تعالى بالهدايه الى السبيل بعد السبيل حتى يختصه بنفسه جلّت عظمته.

و رابعها:ان الصراط المستقيم لما كان امرا محفوظا فی سبل اللّه تعالی علی اختلاف مراتبها و درجاتها،صح ان یهدی اللّه الانسان الیه و هو مهدی فیهدیه من الصراط الی الصراط،بمعنی أن یهدیه الی سبیل من سبله ثم یزید فی هدایته فیهتدی من ذلک السبیل الی ما هو فوقها درجه،کما أن قوله تعالی: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ (و هو تعالی یحکیه عمن هداه بالعباده)من هذا القبیل،و لا یرد علیه:ان سؤال الهدایه ممن هو مهتد بالفعل سؤال لتحصیل الحاصل و هو محال و کذا رکوب الصراط بعد فرض رکوبه تحصیل للحاصل و لا یتعلق به سؤال،و الجواب ظاهر.

و کذا الایراد علیه:بأن شریعتنا أکمل و أوسع من جمیع الجهات من شرائع الامم السابقه، فما معنی السؤال من اللّه سبحانه أن یهدینا الی صراط الذین أنعم اللّه علیهم منهم؟و ذلک ان کون شریعه أکمل من شریعه أمر،و کون المتمسک بشریعه اکمل من المتمسک بشریعه امر آخر ورائه،فان المؤمن المتعارف من مؤمنی شریعه محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم(مع کون شریعته اکمل و أوسع)لیس بأکمل من نوح و ابراهیم علیهما السّلام مع کون شریعتهما اقدم و أسبق،و لیس ذلک إلا ان حکم الشرائع و العمل بها غیر حکم الولایه الحاصله من التمکن فیها و التخلق بها،فصاحب مقام التوحید الخالص و ان کان من اهل الشرائع السابقه أکمل و أفضل ممن لم یتمکن من مقام التوحید و لم تستقر حیوه المعرفه فی روحه و لم یتمکن نور الهدایه الالهیه من قلبه،و إن کان عاملا بالشریعه المحمدیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم التی هی اکمل الشرائع و أوسعها،فمن الجائز أن یستهدی صاحب المقام الدانی من أهل الشریعه الکامله و یسأل اللّه الهدایه الی مقام صاحب المقام العالی من أهل الشریعه التی هی دونها.

و من أعجب ما ذکر فی هذا المقام،ما ذکره بعض المحققین من اهل التفسیر جوابا عن هذه الشبهه:ان دین اللّه واحد و هو الاسلام،و المعارف الاصلیه و هو التوحید و النبوّه و المعاد و ما یتفرع علیها من المعارف الکلیه واحد فی الشرائع،و انما مزیه هذه الشریعه علی ما سبقها من

الشرائع هی ان الاحکام الفرعیه فیها اوسع و اشمل لجمیع شئون الحیاه،فهی اکثر عنایه بحفظ مصالح العباد،علی أن أساس هذه الشریعه موضوع علی الاستدلال بجمیع طرقها من الحکمه و الموعظه و الجدال الاحسن،ثم ان الدین و ان کان دینا واحدا و المعارف الکلیه فی الجمیع علی السواء غیر أنهم سلکوا سبیل ربهم قبل سلوکنا،و تقدموا فی ذلک علینا،فامرنا اللّه النظر فیما کانوا علیه و الاعتبار بما صاروا الیه هذا.

أقول:و هذا الکلام مبنی علی اصول فی مسلک التفسیر مخالفه للاصول التی یجب أن یبتنی مسلک التفسیر علیها،فانه مبنی علی أن حقائق المعارف الاصلیه واحده من حیث الواقع من غیر اختلاف فی المراتب و الدرجات،و کذا سائر الکمالات الباطنیه المعنویه،فأفضل الأنبیاء المقربین مع أخس المؤمنین من حیث الوجود و کماله الخارجی التکوینی علی حد سواء،و إنما التفاضل بحسب المقامات المجعوله بالجعل التشریعی من غیر ان یتکی علی تکوین،کما ان التفاضل بین الملک و الرعیه إنما هو بحسب المقام الجعلی الوضعی من غیر تفاوت من حیث الوجود الإنسانی هذا.

و لهذا الأصل أصل آخر یبنی علیه،و هو القول بأصاله الماده و نفی الاصاله عما ورائها و التوقف فیه إلا فی اللّه سبحانه بطریق الاستثناء بالدلیل،و قد وقع فی هذه الورطه من وقع، لاحد امرین:إما القول بالاکتفاء بالحسّ اعتمادا علی العلوم المادیه و إما إلغاء التدبر فی القرآن بالاکتفاء بالتفسیر بالفهم العامی.

و للکلام ذیل طویل سنورده فی بعض الابحاث العلمیه الآتیه إنشاء اللّه تعالی.

و خامسها:ان مزیه اصحاب الصراط المستقیم علی غیرهم،و کذا صراطهم علی سبیل غیرهم،إنما هو بالعلم لا العمل،فلهم من العلم بمقام ربهم ما لیس لغیرهم،اذ قد تبین مما مر:

ان العمل التام موجود فی بعض السبل التی دون صراطهم،فلا یبقی لمزیتهم إلا العلم،و اما ما هذا العلم؟و کیف هو؟فنبحث عنه إن شاء اللّه فی قوله تعالی: أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ

أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها (الرعد۱۷/).

و يشعر بهذا المعنى قوله تعالى: يَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ (المجادله۱۱/)،و كذا قوله تعالى: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ (الملائكه۱۰/)،فالذى يصعد اليه تعالى هو الكلم الطيب و هو الاعتقاد و العلم،و اما العمل الصالح فشأنه رفع الكلم الطيب و الامداد دون الصعود اليه تعالى،و سيجىء تمام البيان فى البحث عن الآيه (۱).

بحث روائى:

فى الكافى عن الصادق عليه السّلام فى معنى العباده قال:العباده ثلاثه:قوم عبدوا اللّه خوفا،فتلك عباده العبيد،و قوم عبدوا اللّه تبارك و تعالى طلب الثواب،فتلك عباده الاجراء،و قوم عبدوا اللّه عزّ و جل حبا،فتلك عباده الأحرار،و هى افضل العباده.

و فى نهج البلاغه:ان قوما عبدوا اللّه رغبه،فتلك عباده التجار،و ان قوما عبدوا اللّه رهبه فتلك عباده العبيد،و ان قوما عبدوا اللّه شكرا فتلك عباده الأحرار.

و فى العلل و المجالس و الخصال،عن الصادق عليه السّلام:ان الناس يعبدون اللّه على ثلاثه اوجه:

فطبقه يعبدونه رغبه فى ثوابه فتلك عباده الحرصاء و هو الطمع،و آخرون يعبدونه خوفا من النار فتلك عباده العبيد،و هى رهبه،و لكنى اعبده حبا له عزّ و جل فتلك عباده الكرام،لقوله عزّ و جل: وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ .و لقوله عزّ و جل: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللّٰهُ ،فمن احب اللّه عزّ و جل احبه،و من احبه اللّه كان من الآمنين،و هذا مقام مكنون لا يمسه الاّ المطهرون.

۱- ۱) .الحمد ۶-۷:بحث روائى حول الصراط المستقيم.

اقول:و قد تبین معنی الروایات مما مر من البیان،و توصیفهم علیهم السّلام عباده الأحرار تاره بالشکر و تاره بالحب،لکون مرجعهما واحدا،فان الشکر وضع الشیء المنعم به فی محله، و العباده شکرها ان تکون للّه الذی یستحقها لذاته،فیعبد اللّه لأنه اللّه،أی لأنه مستجمع لجمیع صفات الجمال و الجلال بذاته،فهو الجمیل بذاته المحبوب لذاته،فلیس الحب إلا المیل الی الجمال،و الانجذاب نحوه،فقولنا فیه تعالی هو معبود لانه هو،و هو معبود لأنه جمیل محبوب، و هو معبود لانه منعم مشکور بالعباده یرجع جمیعها الی معنی واحد.

و روی بطریق عامی عن الصادق علیه السّلام فی قوله تعالی: إِیّاکَ نَعْبُدُ ..الآیه،یعنی:لا نرید منک غیرک و لا نعبدک بالعوض و البدل:کما یعبدک الجاهلون بک المغیبون عنک.

اقول:و الروایه تشیر الی ما تقدم،من استلزام معنی العباده للحضور و للاخلاص الذی ینافی قصد البدل.

و فی تحف العقول عن الصادق علیه السّلام فی حدیث:و من زعم انه یعبد بالصفه لا بالادراک فقد أحال علی غائب،و من زعم انه یعبد الصفه و الموصوف فقد أبطل التوحید لأن الصفه غیر الموصوف،و من زعم انه یضیف الموصوف الی الصفه فقد صغر بالکبیر،و ما قدروا اللّه حق قدره.الحدیث.

و فی المعانی عن الصادق علیهما السّلام فی معنی قوله تعالی: اِهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِیمَ یعنی ارشدنا الی لزوم الطریق المؤدی محبتک،و المبلغ الی جنتک،و المانع من أن نتبع اهواءنا فنعطب،او ان نأخذ بآرائنا فنهلک.

و فی المعانی ایضا عن علی علیه السّلام فی الآیه،یعنی،ادم لنا توفیقک الذی اطعناک به فی ماضی ایامنا،حتی نطیعک کذلک فی مستقبل اعمارنا.

اقول:و الروایتان وجهان مختلفان فی الجواب عن شبهه لزوم تحصیل الحاصل من سؤال الهدایه للمهدی،فالروایه الاولی ناظره الی الاختلاف مراتب الهدایه مصداقا و الثانیه الی

اتحادها مفهوما.

و فی المعانی أیضا عن علی علیه السّلام:الصراط المستقیم فی الدنیا ما قصر عن الغلو،و ارتفع عن التقصیر و استقام،و فی الآخره طریق المؤمنین الی الجنه.

و فی المعانی أیضا عن علی علیه السّلام فی معنی صراط الذین الآیه:ای:قولوا:اهدنا صراط الذین انعمت علیهم بالتوفیق لدینک و طاعتک،لا بالمال و الصحه،فانهم قد یکونون کفارا او فساقا، قال:و هم الذین قال اللّه: وَ مَنْ یُطِعِ اللّٰهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولٰئِکَ مَعَ الَّذِینَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ مِنَ النَّبِیِّینَ وَ الصِّدِّیقِینَ وَ الشُّهَدٰاءِ وَ الصّٰالِحِینَ،وَ حَسُنَ أُولٰئِکَ رَفِیقاً .

و فی العیون عن الرضا علیه السّلام عن آبائه عن أمیر المؤمنین علیه السّلام قال:لقد سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول:قال اللّه عزّ و جل:قسمت فاتحه الکتاب بینی و بین عبدی فنصفها لی و نصفها لعبدی،و لعبدی ما سئل،اذا قال العبد:بسم اللّه الرحمن الرحیم قال اللّه جل جلاله بدأ عبدی باسمی و حق علی ان اتمم له اموره،و ابارک له فی احواله،فاذا قال:الحمد للّه رب العالمین،قال اللّه جل جلاله:حمدنی عبدی،و علم ان النعم التی له من عندی و ان البلایا التی دفعت عنه بتطولی،أشهدکم أنی اضیف له الی نعم الدنیا نعم الآخره و أدفع عنه بلایا الآخره کما دفعت عنه بلایا الدنیا،و اذا قال الرحمن الرحیم،قال اللّه جل جلاله:شهد لی عبدی انی الرحمن الرحیم اشهدکم لأوفرن من رحمتی حظه و لأجزلن من عطائی نصیبه،فاذا قال:مالک یوم الدین قال اللّه تعالی:أشهدکم،کما اعترف بأنی أنا المالک یوم الدین،لأسهلن یوم الحساب حسابه،و لا تقبلن حسناته و لأتجاوزن عن سیئاته،فاذا قال:إیاک نعبد،قال اللّه عزّ و جل:

صدق عبدی،إیای یعبد اشهدکم لأثیبنه علی عبادته ثوابا یغبطه کل من خالفه فی عبادته لی، فاذا قال:و إیاک نستعین قال اللّه تعالی:بی استعان عبدی و إلی التجأ،اشهدکم لأعیننه علی أمره،و لأغیثنه فی شدائده و لآخذن بیده یوم نوائبه،فاذا قال:اهدنا الصراط المستقیم الی آخر السوره،قال اللّه عزّ و جل:هذا لعبدی و لعبدی ما سئل،و قد استجبت لعبدی و اعطیته

ما امّل و آمنته مما منه وجل.

اقول:و روی قریبا منه الصدوق فی العلل عن الرضا علیه السّلام،و الروایه کما تری تفسر سوره الفاتحه فی الصلاه فهی تؤید کما مر مرارا أن السوره کلام له سبحانه بالنیابه عن عبده فی ما یذکره فی مقام العباده و اظهار العبودیه من الثناء لربه و اظهار عبادته،فهی سوره موضوعه للعباده،و لیس فی القرآن سوره تناظرها فی شأنها و اعنی بذلک:

اولا:ان السوره بتمامها کلام تکلم به اللّه سبحانه فی مقام النیابه عن عبده فیما یقوله اذا وجه وجهه الی مقام الربوبیه و نصب نفسه فی مقام العبودیه.

و ثانیا:انها مقسمه قسمین،فنصف منها للّه و نصف منها للعبد.

و ثالثا:أنها مشتمله علی جمیع المعارف القرآنیه علی ایجازها و اختصارها فان القرآن علی سعته العجیبه فی معارفه الاصلیه و ما یتفرع علیها من الفروع من اخلاق و احکام فی العبادات و المعاملات و السیاسات و الاجتماعیات و وعد و وعید و قصص و عبر،یرجع جمل بیاناتها الی التوحید و النبوه و المعاد و فروعاتها،و الی هدایه العباد الی ما یصلح به اولاهم و عقباهم، و هذه السوره کما هو واضح تشتمل علی جمیعها فی أوجز لفظ و أوضح معنی.

و علیک ان تقیس ما یتجلی لک من جمال هذه السوره التی وضعها اللّه سبحانه فی صلاه المسلمین بما یضعه النصاری فی صلاتهم من الکلام الموجود فی انجیل متی:(۶-۹-۱۳)و هو ما نذکره بلفظه العربی،«أبانا الذی فی السماوات،لیتقدس اسمک،لیأت ملکوتک،لتکن مشیتک کما فی السماء کذلک علی الارض،خبزنا کفافنا أعطنا الیوم،و اغفر لنا ذنوبنا کما نغفر نحن أیضا للمذنبین الینا،و لا تدخلنا فی تجربه و لکن نجّنا من الشریر آمین».

تأمل فی المعانی التی تفید الفاظ هذه الجمل بعنوان انها معارف سماویه،و ما یشتمل علیه من الادب العبودی،إنا تذکر أولا:أن اباهم(و هو اللّه تقدس اسمه)فی السموات!!ثم تدعو فی حق الاب بتقدس اسمه و اتیان ملکوته و نفوذ مشیّته فی الارض کما هی نافذه فی السماء،و لکن

من الذی یستجیب هذا الدعاء الذی بشعارات الاحزاب السیاسیه اشبه؟ثم تسئل اللّه اعطاء خبز الیوم و مقابله المغفره بالمغفره،و جعل الاغماض عن الحق فی مقابل الاغماض،و ما ذا هو حقهم لو لم یجعل اللّه لهم حقا؟و تسأله ان لا یمتحنهم بل ینجیهم من الشریر،و من المحال ذلک، فالدار دار الامتحان و الاستکمال و ما معنی النجاه لو لا الابتلاء و الامتحان؟ثم اقض العجب مما ذکره بعض المستشرقین (۱)من علماء الغرب و تبعه بعض المنتحلین:أن الاسلام لا یربو علی غیره فی المعارف،فان جمیع شرائع اللّه تدعو الی التوحید و تصفیه النفوس بالخلق الفاضل و العمل الصالح،و إنما تتفاضل الأدیان فی عراقه ثمراتها الاجتماعیه!!

بحث آخر روائی:

فی الفقیه و تفسیر العیّاشی عن الصادق علیه السّلام قال:الصراط المستقیم أمیر المؤمنین علیه السّلام.

و فی المعانی عن الصادق علیه السّلام قال:هی الطریق الی معرفه اللّه،و هما صراطان صراط فی الدنیا و صراط فی الآخره،فاما الصراط فی الدنیا فهو الامام المفترض الطاعه،من عرفه فی الدنیا و اقتدی بهداه مرّ علی الصراط الذی هو جسر جهنم فی الآخره،و من لم یعرفه فی الدنیا زلّت قدمه فی الآخره فتردی فی نار جهنم.

و فی المعانی ایضا عن السجاد علیه السّلام قال:«لیس بین اللّه و بین حجّته حجاب،و لا للّه دون حجته ستر،نحن ابواب اللّه و نحن الصراط المستقیم و نحن عیبه علمه،و نحن تراجمه وحیه و نحن أرکان توحیده و نحن موضع سره.

و عن ابن شهرآشوب عن تفسیر وکیع بن الجراح عن الثوری عن السّدی،عن اسباط و مجاهد،عن ابن عباس فی قوله تعالی: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِیمَ ،قال:قولوا معاشر العباد!

۱- ۱) القسیس الفاضل کوستاولبون فی تاریخ تمدن الاسلام.

ارشدنا الی حب محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و اهل بیته علیهم السّلام.

اقول:و فی هـذه المعانی روایات أخر،و هـذه الاخبار من قبیل الجری،و عد المصداق للآیه، و اعلم ان الجری(و کثیرا ما نستعمله فی هذا الکتاب)اصطلاح مأخوذ من قول أئمه أهل البیت علیهم السّلام.

ففی تفسیر العیاشی عن الفضیل بن یسار قال:سألت أبا جعفر علیه السّلام عن هذه الروایه؛ما فی القرآن آیه إلاّ و لها ظهر و بطن و ما فیها حرف إلاّ و له حدّ و لکن حد مطّلع،ما یعنی بقوله:ظهر و بطن؟قال:ظهره تنزیله و بطنه تأویله،منه ما مضی و منه ما لم یکن بعد،یجری کما یجری الشمس و القمر،کلما جاء منه شیء وقع الحدیث.

و فی هـذا المعنی روایات أخر،و هذه سلیقه أئمه أهل البیت فإنهم علیهم السّلام یطبقون الآیه من القرآن علی ما یقبل ان ینطبق علی من الموارد و ان کان خارجا عن مورد النزول،و الاعتبار یساعده،فان القرآن نزل هدی للعالمین یهدیهم الی واجب الاعتقاد و واجب الخلق و واجب العمل،و ما بیّنه من المعارف النظریه حقائق لا تختص بحال دون حال و لا زمان دون زمان، و ما ذکره من فضیله أو رذیله أو شرعه من حکم عملی لا یتقید بفرد دون فرد و لا عصر دون عصر لعموم التشریع.

و ما ورد من شأن النزول(و هو الأمر او الحادثه التی تعقب نزول آیه او آیات فی شخص او واقعه)لا یوجب قصر الحکم علی الواقعه لینقضی الحکم بانقضائها و یموت بموتها لأن البیان عامّ و التعلیل مطلق،فان المدح النازل فی حق افراد من المؤمنین أو الذم النازل فی حق آخرین معللا بوجود صفات فیهم،لا یمکن قصرهما علی شخص مورد النزول مع وجود عین تلک الصفات فی قوم آخر بعدهم و هکذا،و القرآن ایضا یدل علیه،قال تعالی: یَهْدِی بِهِ اللّٰهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ (المائده۱۶/).و قال: وَ إِنَّهُ لَکِتٰابٌ عَزِیزٌ لاٰ یَأْتِیهِ الْبٰاطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ (السجده۴۲/).و قال تعالی: إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ

(الحجر ٩/).

و الروایات فی تطبیق الآیات القرآنیه علیهم علیهم السّلام او علی اعدائهم اعنی:روایات الجری، کثیره فی الأبواب المختلفه،و ربما تبلغ المئین،و نحن بعد هذا التنبیه العام نترک ایراد أکثرها فی الأبحاث الروائیه لخروجها عن الغرض فی الکتاب،إلاّ ما تعلق بها غرض فی البحث فلیتذکر.

ص :۴۹

سوره البقره و هی مائتان و ست و ثمانون آیه

اشاره

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم

[سوره البقره (۲): الآیات ۱ الی ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gtالم (۱) ذٰلِکَ اَلْکِتٰابُ لاٰ رَیْبَ فِیهِ هُدیً لِلْمُتَّقِینَ (۲) اَلَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِالْغَیْبِ وَ یُقِیمُونَ اَلصَّلاٰهَ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ یُنْفِقُونَ (۳) وَ اَلَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ وَ بِالْآخِرَهِ هُمْ یُوقِنُونَ (۴) أُولٰئِکَ عَلیٰ هُدیً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۵)

بیان:

لما کانت السوره نازله نجوما لم یجمعها غرض واحد إلا ان معظمها تنبئ عن غایه واحده محصله و هو بیان ان من حق عباده اللّه سبحانه أن یؤمن عبده بکل ما أنزله بلسان رسله من

ص: ۵۰

غیر تفرقه بین وحی و وحی،و لا-بین رسول و رسول و لا-غیر ذلک،ثم تقریع الکافرین و المنافین و ملامه اهل الکتاب بما ابتدعوه من التفرقه فی دین اللّه و التفریق بین رسله،ثم التخلص الی بیان عده من الاحکام کتحویل القبله و احکام الحج و الارث و الصوم و غیر ذلک.

قوله تعالی: الم ،سیأتی بعض ما یتعلق من الکلام بالحروف المقطعه التی فی اوائل السور،فی اول سوره الشوری إن شاء اللّه،و کذلک الکلام فی معنی هدایه القرآن و معنی کونه کتابا.

و قوله تعالی: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الخ؛المتقون هم المؤمنون، و لیست التقوی من الاوصاف الخاصه لطبقه من طبقاتهم اعنی:لمرتبه من مراتب الایمان حتی تکون مقاما من مقاماته نظیر الاحسان و الاخبات و الخلوص،بل هی صفه مجامعه لجمیع مراتب الایمان اذا تلبس الایمان بلباس التحقق،و الدلیل علی ذلک انه تعالی لا یخص بتوصیفه طائفه خاصه من طوائف المؤمنین علی اختلاف طبقاتهم و درجاتهم و الذی اخذه تعالی من الاوصاف المعرّفه للتقوی فی هذه الآیات التسع عشره التی یبین فیها حال المؤمنین و الکفار و المنافقین،خمس صفات،و هی الایمان بالغیب،و اقامه الصلاه،و الانفاق مما رزق اللّه سبحانه،و الایمان بما انزله علی انبیائه،و الایقان بالآخره،و قد وصفهم بانهم علی هدی من ربهم فدل ذلک علی ان تلبسهم بهذه الصفات الکریمه بسبب تلبسهم بلباس الهدایه من اللّه سبحانه،فهم انما صاروا متقین اولی هذه الصفات بهدایه منه تعالی،ثم وصف الکتاب بانه هدی لهؤلاء المتقین بقوله تعالی: ذٰلِكَ الْكِتٰابُ لاٰ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ فعلمنا بذلک:ان الهدایه غیر الهدایه،و ان هؤلاء و هم متقون محفوفون بهدایتین،هدایه اولی بها صاروا متقین،و هدایه ثانیه اکرمهم اللّه سبحانه بها بعد التقوی و بذلک صحت المقابله بین المتقین و بین الکفار و المنافقین،فانه سبحانه یجعلهم فی وصفهم بین ضلالین و عماءین،ضلال

اول هو الموجب لاوصافهم الخبيثه من الكفر و النفاق،و ضلال ثان يتأكد به ضلالهم الاول، و يتصفون به بعد تحقق الكفر و النفاق كما بقوله تعالى فی حق الكفار: خَتَمَ اللّهُ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلیٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلیٰ أَبْصارِهِمْ غِشاوَهٌ (البقره/۷)،فنسب الختم الی نفسه تعالی و الغشاوه الی انفسهم،و كما يقوله فی حق المنافقين: فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً (البقره/ ۱۰)فنسب المرض الاول اليهم و المرض الثانی الی نفسه علی حد ما يستفاد من قوله تعالی:

يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِی بِهِ كَثِيراً وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ (البقره/۲۶)،و قوله تعالی:

فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ (الصف/۵).و بالجمله المتقون واقعون بين هدايتين،كما ان الكفار و المنافقين واقعون بين ضلالين.

ثم ان الهدايه الثانيه لما كان بالقرآن فالهدايه الاولی قبل القرآن و بسبب سلامه الفطره، فان الفطره اذا سلمت لم تنفک من ان تتنبه شاهده لفقرها و حاجتها الی امر خارج عنها، و كذا احتياج كل ما سواها مما يقع عليه حس او وهم او عقل الی امر خارج يقف دونه سلسله الحوائج،فهی مؤمنه مذعنه بوجود موجود غائب عن الحس منه يبدأ الجميع و اليه ينتهی و يعود،و انه كما لم يهمل دقيقه من دقائق ما يحتاج اليه الخلقه كذلک لا يهمل هدايه الناس الی ما ينجيهم من مهلكات الاعمال و الاخلاق،و هذا هو الاذعان بالتوحيد و النبوه و المعاد و هی اصول الدين،و يلزم ذلک استعمال الخضوع له سبحانه فی ربوبيته،و استعمال ما فی وسع الانسان من مال و جاه و علم و فضيله لإحياء هذا الامر و نشره،و هذان هما الصلاه و الانفاق.

و من هنا يعلم:ان الذی اخذه سبحانه من اوصافهم هو الذی يقضی به الفطره اذا سلمت و انه سبحانه وعدهم انه سيفيض عليهم امرا سماه هدايه،فهذه الاعمال الزاكيه منهم متوسطه بين هدايتين كما عرفت،هدايه سابقه و هدايه لاحقه،و بين الهدايتين يقع صدق الاعتقاد و صلاح العمل،و من الدليل علی ان هذه الهدايه الثانيه من اللّه سبحانه فرع الاولی،آيات

كثيره كقوله تعالى: يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّابِتِ فِى الْحَياهِ الدُّنْيا وَ فِى الْآخِرَهِ (إبراهيم٢٧/).و قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ (الحديد٢٨/).و قوله تعالى: إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم٧/).و قوله تعالى: وَ اللّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظّالِمِينَ (الصف٧/).و قوله تعالى: وَ اللّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (الصف٥/).الى غير ذلک من الآيات.

و الامر فى ضلال الكفار و المنافقين كما فى المتقين على ما سيأتى إن شاء اللّه.

و فى الآيات اشاره الى حيوه اخرى للانسان كامنه مستبطنه تحت هذه الحياه الدنيويه، و هى الحياه التى بها يعيش الانسان فى هذه الدار و بعد الموت و حين البعث،قال تعالى: أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها (الأنعام١٢٣/)و سيأتى الكلام فيه إن شاء اللّه.

و قوله سبحانه: يُؤْمِنُونَ ،الايمان تمكن الاعتقاد فى القلب ماخوذ من الامن كأن المؤمن يعطى لما امن به الامن من الريب و الشک و هو آفه الاعتقاد،و الايمان كما مر معنى ذو مراتب،اذ الاذعان ربما يتعلق بالشىء نفسه فيترتب على اثره فقط و ربما يشتد بعض الاشتداد فيتعلق ببعض لوازمه،و ربما يتعلق بجميع لوازمه فيستنتج منه ان للمؤمنين طبقات على حسب طبقات الايمان.

و قوله سبحانه: بِالْغَيْبِ ،الغيب خلاف الشهاده و ينطبق على ما لا يقع عليه الحس،و هو اللّه سبحان و آياته الكبرى الغائبه عن حواسنا،و منها الوحى،

العقل و خالص اللب.

و قوله سبحانه: وَ بِالْآخِرَهِ هُمْ يُوقِنُونَ ،العدول فى خصوص الاذعان بالآخره عن الايمان الى الايقان،كانه للاشاره الى أن التقوى لا تتم إلا مع اليقين بالآخره الذى لا يجامع نسيانها،دون الايمان المجرد،فان الإنسان ربما يؤمن بشىء و يذهل عن بعض لوازمه فيأتى بما ينافيه،لكنه اذا كان على علم و ذكر من يوم يحاسب فيه على الخطير و اليسير من اعماله لا يقتحم معه الموبقات و لا يحوم حوم محارم اللّه سبحانه البته قال تعالى: وَ لاٰ تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا نَسُوا يَوْمَ الْحِسٰابِ (ص/۲۶)،فبين تعالى:ان الضلال عن سبيل اللّه انما هو بنسيان يوم الحساب؛ فذكره و اليقين به ينتج التقوى.

و قوله تعالى: أُولٰئِكَ عَلىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ ،الهدايه كلها من اللّه سبحانه،لا ينسب الى غيره البته الا على نحو من المجاز كما سيأتى إن شاء اللّه،و لما وصفهم اللّه سبحانه بالهدايه و قد قال فى نعتها: فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ (الأنعام/۱۲۵)،و شرح الصدر سعته و هذا الشرح يدفع عنه كل ضيق و شح،و قد قال تعالى: وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الحشر/۹)،عقب سبحانه هاهنا أيضا قوله: أُولٰئِكَ عَلىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ بقوله: أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الآيه (۱)(۲).

[سوره البقره (۲): الآيات ۶ الى ۷]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۶) خَتَمَ اَللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلىٰ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۷)

۱- ۱) .البقره ۱-۵:بحث فلسفى حول الادراكات الحسيه و البراهين العقليه.

۲- ۲) البقره ۱-۵:بحث فلسفى فى العلم.

بيان:

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ،هؤلاء قوم ثبتوا علی الکفر و تمکن الجحود من قلوبهم،و یدل علی وصف حالهم بمساواه الإنذار و عدمه فیهم،و لا یبعد أن یکون المراد من هؤلاء الذین کفروا هم الکفار من صنادید قریش و کبراء مکه الذین عاندوا و لجّوا فی أمر الدین و لم یألوا جهدا فی ذلک و لم یؤمنوا حتی أفناهم اللّه عن آخرهم فی بدر و غیره،و یؤیده أن هذا التعبیر و هو قوله: سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ ،لا یمکن استطراده فی حق جمیع الکفار و إلا انسد باب الهدایه و القرآن ینادی علی خلافه،و ایضا هذا التعبیر إنما وقع فی سوره یس(و هی مکیه)و فی هذه السوره(و هی سوره البقره أول سوره نزلت فی المدینه)نزلت و لم تقع غزوه بدر بعد،فالأشبه أن یکون المراد من الذین کفروا، هاهنا و فی سایر الموارد من کلامه تعالی:کفار مکه فی اول البعثه إلا أن تقوم قرینه علی خلافه،نظیر ما سیأتی ان المراد من قوله تعالی: اَلَّذِينَ آمَنُوا ،فیما أطلق فی القرآن من غیر قرینه هم السابقون الأولون من المسلمین،خصّوا بهذا الخطاب تشریفا.

و قوله تعالی: خَتَمَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ الخ؛یشعر تغییر السیاق:(حیث نسب الختم الی نفسه تعالی و الغشاوه الیهم انفسهم)بأن فیهم حجابا دون الحق فی أنفسهم و حجابا من اللّه تعالی عقیب کفرهم و فسوقهم،فأعمالهم متوسطه بین حجابین:من ذاتهم و من اللّه تعالی،و سیأتی بعض ما یتعلق بالمقام فی قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً .

و اعلم ان الکفر کالایمان وصف قابل للشده و الضعف فله مراتب مختلفه الآثار

ص :۵۵

کالایمان (۱).

[سوره البقره (۲): الآیات ۸ الی ۲۰]

اشاره

وَ مِنَ اَلنّٰاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ بِالْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ مٰا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (۸) يُخٰادِعُونَ اَللّٰهَ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ مٰا يَخْدَعُونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ (۹) فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَهُمُ اَللّٰهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ بِمٰا كٰانُوا يَكْذِبُونَ (۱۰) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ لاٰ تُفْسِدُوا فِی اَلْأَرْضِ قٰالُوا إِنَّمٰا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (۱۱) أَلاٰ إِنَّهُمْ هُمُ اَلْمُفْسِدُونَ وَ لٰكِنْ لاٰ يَشْعُرُونَ (۱۲) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمٰا آمَنَ اَلنّٰاسُ قٰالُوا أَ نُؤْمِنُ كَمٰا آمَنَ اَلسُّفَهٰاءُ أَلاٰ إِنَّهُمْ هُمُ اَلسُّفَهٰاءُ وَ لٰكِنْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۱۳) وَ إِذٰا لَقُوا اَلَّذِينَ آمَنُوا قٰالُوا آمَنّٰا وَ إِذٰا خَلَوْا إِلىٰ شَيٰاطِينِهِمْ قٰالُوا إِنّٰا مَعَكُمْ إِنَّمٰا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (۱۴) اَللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِی طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۵) أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ اِشْتَرَوُا اَلضَّلاٰلَةَ بِالْهُدىٰ فَمٰا رَبِحَتْ تِجٰارَتُهُمْ وَ مٰا كٰانُوا مُهْتَدِينَ (۱۶) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ اَلَّذِی اِسْتَوْقَدَ نٰاراً فَلَمّٰا أَضٰاءَتْ مٰا حَوْلَهُ ذَهَبَ اَللّٰهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِی ظُلُمٰاتٍ لاٰ يُبْصِرُونَ (۱۷) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْیٌ فَهُمْ لاٰ يَرْجِعُونَ (۱۸) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ اَلسَّمٰاءِ فِيهِ ظُلُمٰاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصٰابِعَهُمْ فِی آذٰانِهِمْ مِنَ اَلصَّوٰاعِقِ حَذَرَ اَلْمَوْتِ وَ اَللّٰهُ مُحِيطٌ بِالْكٰافِرِينَ (۱۹) يَكٰادُ اَلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصٰارَهُمْ كُلَّمٰا أَضٰاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذٰا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قٰامُوا وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصٰارِهِمْ إِنَّ اَللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ (۲۰)

ص: ۵۶

۱- ۱) .البقره ۶-۷:بحث روائی حول وجوه الکفر.

بيان:

قوله تعالى: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ الى آخر الآيات،الخدعه نوع من المكر، و الشيطان هو الشرير و لذلك سمى إبليس شيطانا.

و فى الآيات بيان حال المنافقين،و سيجىء إنشاء اللّه تفصيل القول فيهم فى سوره المنافقين و غيرها.

قوله تعالى: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِی اسْتَوْقَدَ ناراً الخ؛مثل يمثل به حالهم،انهم كالذى وقع فى ظلمه عمياء لا يتميز فيها خير من شر و لا نافع من ضار فتسبب لرفعها بسبب من أسباب الاستضاءه كنار يوقدها فيبصر بها ما حولها فلما توقدت و أضاءت ما حولها أخمدها اللّه بسبب من الاسباب كريح أو مطر أو نحوهما فبقى فيما كان عليه من الظلمه تورط بين ظلمتين:ظلمه كان فيها و ظلمه الحيره و بطلان السبب.

ص :۵۷

و هـذه حال المنافق،يظهر الايمان فيستفيد بعض فوائـد الـدين باشتراكه مع المؤمنين فى مواريثهم و مناكحهم و غيرهما حتى اذا حـان حين الموت و هو الحين الـذى فيه تمـام الاسـتفاده من الايمان ذهب اللّه بنوره و أبطل ما عمله و تركه فى ظلمه لا يـدرك فيها شيئا و يقع بين الظلمه الاصليه و ما أوجده من الظلمه بفعاله.

و قوله تعالى: أَوْ كَصَـيِّبٍ مِنَ السَّمٰاءِ الخ؛الصـيب هو المطر الغزير،و البرق معروف،و الرعد هو الصوت الحادث من السـحاب عند الإبراق،و الصاعقه هى النازله من البروق.

و هـذا مثل ثان يمثل به حال المنافقين فى إظهارهم الايمان،انهم كالـذى أخـذه صـيب السـماء و معه ظلمه تسلب عنه الابصار و التمييز،فالصيب يضطره الى الفرار و التخلص،و الظلمه تمنعه ذلك،و المهولات من الرعد و الصاعقه محيطه به فلا يجد مناصا من ان يستفيد بالبرق وضوئه و هو غير دائم و لا باق متصل كلما أضاء له مشى و اذا أظلم عليه قام.

و هـذه حـال المنـافق فهو لا يحب الايمان و لا يجـد بـدا من اظهاره،و لعـدم المواطأه بين قلبه و لسانه لا يستضـیء له طريقه تمام الاسـتضاءه،فلا يزال يخبط خبطا بعـد خبط و يعثر عثره بعـد عثره فيمشـى قليلا و يقف قليلا يفضـحه اللّه بـذلك و لو شاء لذهب بسمعه و بصره فيفتضح من اول يوم.

[سوره البقره (٢): الآيات ٢١ الى ٢٥]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ اُعْبُدُوا رَبَّكُمُ اَلَّذِى خَلَقَكُمْ وَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) اَلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اَلْأَرْضَ فِرٰاشاً وَ اَلسَّمٰاءَ بِنٰاءً وَ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ اَلثَّمَرٰاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلاٰ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أَنْدٰاداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمّٰا نَزَّلْنٰا عَلىٰ عَبْدِنٰا فَأْتُوا بِسُورَهٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ اُدْعُوا شُـهَدٰاءَكُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰـادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا اَلنّٰارَ اَلَّتِى وَقُودُهَا اَلنّٰاسُ وَ اَلْحِجٰارَهُ أُعِدَّتْ لِلْكٰافِرِينَ (٢٤) وَ بَشِّرِ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰـاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ كُلَّمٰا رُزِقُوا مِنْهٰا مِنْ ثَمَرَهٍ رِزْقاً قٰالُوا هٰذَا اَلَّذِى رُزِقْنٰا مِنْ قَبْلُ وَ أُتُوا بِهِ مُتَشٰابِهاً وَ لَهُمْ فِيهٰا أَزْوٰاجٌ مُطَهَّرَهٌ وَ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (٢٥)

بيان:

و قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا الخ؛لما بين سبحانه:حال الفرق الثلاث:

المتقين و الكافرين،و المنافقين،و ان المتقين على هدى من ربهم و القرآن هدى لهم،و ان الكافرين مختوم على قلوبهم؛و على سمعهم و على أبصارهم غشاوه،و أن المنافقين مرضى و زادهم اللّه مرضا و هم صم بكم عمى(و ذلك فى تمام تسع عشره آيه)فرّع تعالى على ذلك أن دعى الناس إلى عبادته و أن يلتحقوا بالمتقين دون الكافرين و المنافقين بهذه الآيات الخمس إلى قوله: خالِدُونَ .و هذا السياق يعطى كون قوله: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ متعلقا بقوله:

اُعْبُدُوا ،دون قوله: خَلَقَكُمْ ،و ان كان المعنى صحيحا على كلا التقديرين.

و قوله تعالى: فَلا تَجْعَلُوا لِلّهِ أَنْداداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ،الانداد جمع ند كمثل، وزنا و معنى و عدم تقييد قوله تعالى:و انتم تعلمون بقيد خاص و جعله حالا من قوله تعالى:

فَلاٰ تَجْعَلُوا ،یفید التأکید البالغ فی النهی بأن الإنسان و له علم ما کیفما کان لا یجوز له أن یتخذ للّه سبحانه أندادا و الحال انه سبحانه هو الذی خلقهم و الذین من قبلهم ثم نظم النظام الکونی لرزقهم و بقائهم.

و قوله تعالی: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ أمر تعجیزی لإبانه إعجاز القرآن،و أنه کتاب منزل من عند اللّه لا ریب فیه،إعجازا باقیا بمر الدهور و توالی القرون و قد تکرر فی کلامه تعالی هذا التعجیز کقوله تعالی: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلیٰ أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لاٰ یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کٰانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً (الإسراء۸۸/)،و قوله تعالی:

أَمْ یَقُولُونَ افْتَرٰاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَیٰاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (هود۱۳/).و علی هذا فالضمیر فی مثله عائد الی قوله تعالی: مِمّٰا نَزَّلْنٰا ، و یکون تعجیزا بالقرآن نفسه و بداعه أسلوبه و بیانه.

و یمکن أن یکون الضمیر راجعا الی قوله: عَبْدِنٰا ،فیکون تعجیزا بالقرآن من حیث ان الذی جاء به رجل امی لم یتعلم من معلم و لم یتلق شیئا من هذه المعارف الغالیه العالیه و البیانات البدیعه المتقنه من أحد من الناس فیکون الآیه فی مساق قوله تعالی: قُلْ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا تَلَوْتُهُ عَلَیْکُمْ وَ لاٰ أَدْرٰاکُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِیکُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (یونس/ ۱۶)،و قد ورد التفسیران معا فی بعض الأخبار.

و اعلم:ان هذه الآیه کنظائرها تعطی إعجاز أقصر سوره من القرآن کسوره الکوثر و سوره العصر مثلا،و ما ربما یحتمل من رجوع ضمیر مثله الی نفس السوره کسوره البقره أو سوره یونس مثلا یأباه الفهم المستأنس بأسالیب الکلام اذ من یرمی القرآن بأنه افتراء علی اللّه تعالی إنما یرمیه جمیعا و لا یخصص قوله ذاک بسوره دون سوره،فلا معنی لرده بالتحدی بسوره البقره أو بسوره یونس لرجوع المعنی حینئذ الی مثل قولنا:و ان کنتم فی ریب من سوره الکوثر او الاخلاص مثلا فأتوا بسوره مثل سوره یونس و هو بین الاستهجان

هذا (۱).

و قوله تعالی: فَاتَّقُوا النّارَ الَّتِی وَقُودُهَا النّاسُ وَ الْحِجارَهُ .سوق الآیات من أول السوره و إن کانت لبیان حال المتّقین و الکافرین و المنافقین(الطوائف الثلث)جمیعا لکنه سبحانه حیث جمعهم طرّا فی قوله: یا أَیُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبَّکُمُ ،و دعاهم الی عبادته تقسّموا لا محاله الی مؤمن و غیره فإن هذه الدعوه لا تحتمل من حیث إجابتها و عدمها غیر القسمین:المؤمن و الکافر و أما المنافق فإنما یتحقق بضم الظاهر الی الباطن،و اللسان الی القلب فکان هناک من جمع بین اللسان و القلب إیمانا أو کفرا و من اختلف لسانه و قلبه و هو المنافق،فلما ذکرنا(لعلّه)أسقط المنافقون من الذکر،و خصّ بالمؤمنین و الکافرین و وضع الإیمان مکان التقوی.

ثم إن الوقود ما توقد به النار و قد نصت الآیه علی أن نفس الإنسان،فالإنسان وقود و موقود علیه،کما فی قوله تعالی ایضا: ثُمَّ فِی النّارِ یُسْجَرُونَ (المؤمن۷۲/)و قوله تعالی:

نارُ اللّهِ الْمُوقَدَهُ اَلَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی الْأَفْئِدَهِ (اللمزه۷/)،فالإنسان معذّب بنار تقوده نفسه،

و هذه الجمله نظیره قوله تعالی: کُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَهٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِی رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً (البقره۲۵/)،ظاهره فی أنه لیس للانسان هناک إلاّ ما هیّأه من هاهنا،کما عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«کما تعیشون تموتون و کما تموتون تبعثون»الحدیث؛و إن کان بین

---

۱ – ۱) البقره ۲۱-۲۵:بحث مفصل حول:الاعجاز و ماهیته؛اعجاز القرآن؛وجوه اعجاز القرآن؛تحدیه بالعلم، التحدی بمن انزل علیه القرآن؛تحدی القرآن بالاخبار عن الغیب؛تحدی القرآن بعدم الاختلاف فیه؛التحدی بالبلاغه؛معنی الآیه المعجزه فی القرآن و ما یفسر به حقیقتها؛تصدیق القرآن لقانون العلیه العامه؛اثبات القرآن ما یخرق للعاده؛القرآن یسند ما أسند الی العله المادیه الی اللّه تعالی؛القرآن یثبت تأثیرا فی نفوس الانبیاء فی الخوارق؛القرآن کما یسند الخوارق الی تأثیر النفوس،یسندها الی امر اللّه تعالی؛القرآن یسند المعجزه الی سبب غیر مغلوب؛القرآن یعد المعجزه برهانا علی صحه الرساله لا دلیلا عامیا.

الفريقين فرق من حيث أن لأهل الجنه مزيدا عند ربهم.قال تعالى: لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا وَ لَدَيْنٰا مَزِيدٌ (ق۳۵/).

و المراد بالحجاره فى قوله: وَقُودُهَا النّٰاسُ وَ الْحِجٰارَةُ ،الأصنام التى كانوا يعبدونها، و يشهد به قوله تعالى: إِنَّكُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ الآيه(الأنبياء/ ۹۸)،و الحصب هو الوقود.

و قوله تعالى: لَهُمْ فِيهٰا أَزْوٰاجٌ مُطَهَّرَةٌ ،قرينه الأزواج تدل على أن المراد بالطهاره هى الطهاره من أنواع الأقذار و المكاره التى تمنع من تمام الالتيام و الالفه و الانس من الاقدار و المكاره الخلقيه و الخلقيّه.

[سوره البقره (۲): الآيات ۲۶ الى ۲۷]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مٰا بَعُوضَةً فَمٰا فَوْقَهٰا فَأَمَّا اَلَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَمَّا اَلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مٰا ذٰا أَرٰادَ اَللّٰهُ بِهٰذٰا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ اَلْفٰاسِقِينَ (۲۶) اَلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اَللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِيثٰاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ مٰا أَمَرَ اَللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي اَلْأَرْضِ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْخٰاسِرُونَ (۲۷)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ البعوضه الحيوان المعروف و هو من أصغر الحيوانات المحسوسه و هذه الآيه و التى بعدها نظيره ما فى سوره الرعد أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمىٰ إِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبٰابِ. اَلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّٰهِ

وَ لاٰ یَنْقُضُونَ الْمِیثٰاقَ. وَ الَّذِینَ یَصِلُونَ مٰا أَمَرَ اللّٰهُ بِهِ أَنْ یُوصَلَ (الرعد۱۹،۲۱،۲۰).

و کیف کـان فالآیه تشـهد علی أن من الضـلال و العمی ما یلحق الإنسان عقیب أعماله السـیئه غیر الضـلال و العمی الـذی له فی نفسه و من نفسه حیث یقول تعالی: وَ مٰا یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِینَ ،فقد جعل إضلاله فی تلو الفسق لا متقدما علیه هذا.

ثم إن الهدایه و الإضـلال کلمتان جامعتان لجمیع أنواع الکرامه و الخذلان التی ترد منه تعالی علی عباده السـعداء و الأشقیاء،فإن اللّه تعالی وصف فی کلامه حال السـعداء من عباده بأنه یحییهم حیوه طیبه،و یؤیـدهم بروح الإیمان،و یخرجهم من الظلمات الی النور و یجعـل لهم نورا یمشون به،و هو ولیّهم و لا ـ خوف علیهم و لا هم یحزنون،و هو معهم یسـتجیب لهم اذا دعوه و یـذکرهم اذا ذکروه،و الملائکه تنزّل علیهم بالبشری و السلام الی غیر ذلک.

و وصـف حـال الأشـقیاء مـن عبـاده بـأنه یضـلهم و یخرجهم من النـور الی الظلمـات و یختم علی قلـوبهم،و علی سـمعهم و علی أبصـارهم غشـاوه،و یطمس وجوههم علی أدبـارهم و یجعـل فی أعنـاقهم أغلالا فهی الی الأذقان فهم مقمحون،و یجعل من بین أیدیهم سدا من خلفهم سدا فیغشـیهم فهم لا یبصرون،و یقیّض لهم شیاطین قرناء یضلونهم عن السبیل و یحسبون أنهم مهتدون،و یزیّنون لهم أعمالهم،و هم أولیائهم،و یسـتدرجهم اللّه من حیث لا یشـعرون،و یملی لهم أن کیده متین،و یمکر بهم و یمدهم فی طغیانهم یعمهون.

و قوله تعالی: إِلاَّ الْفٰاسِقِینَ ،الفسق کما قیل من الألفاظ التی أبدع القرآن استعمالها فی معناها المعروف،مأخوذ من فسقت التمره اذا خرجت عن قشرها و جلدها و لذلک فسر بعده بقوله تعالی:

الأشقياء مثل المقرّبين و المخلصين و المخبتين و الصالحين و المطهّرين و غيرها،و مثل الظالمين و الفاسقين و الخاسرين و الغاوين و الضالّين و أمثالها أوصافا مبتذله أو مأخوذه لمجرد تزيين اللفظ،فتضطرب بذلك قريحتك فى فهم كلامه تعالى فتعطف الجميع على واد واحد،و تأخذه هجاء عاميا و حديثا ساذجا سوقيا بل هى أوصاف كاشفه عن حقائق روحيه و مقامات معنويه فى صراطى السعاده و الشقاوه،كل واحد منها فى نفسه مبدأ لآثار خاصه و منشأ لأحكام مخصوصه معينه،كما أن مراتب السنّ و خصوصيات القوى و أوضاع الخلقه فى الإنسان كل منها منشأ لأحكام و آثار مخصوصه لا يمكننا أن نطلب واحدا منها من غير منشئه و محتده،و لئن تدبّرت فى مواردها من كلامه تعالى و أمعنت فيها وجدت صدق ما ادّعيناه (۱)(۲)(۳).

[سوره البقره (۲): الآيات ۲۸ الى ۲۹]

اشاره

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوٰاتاً فَأَحْيٰاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۸) هُوَ اَلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مٰا فِى اَلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اِسْتَوىٰ إِلَى اَلسَّمٰاءِ فَسَوّٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۲۹)

بيان:

و قوله تعالى: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوٰاتاً .الآيه قريبه السياق من قوله

۱- ۱) البقره ۲۶-۲۷:بحث فى الجبر و التفويض.

۲- ۲) البقره ۲۶-۲۷:بحث روائى فى الجبر و التفويض.

۳- ۳) البقره ۲۶-۲۷:بحث فلسفى حول الافعال و اراده الانسان و كيفيه استنادها الى اللّه تعالى.

تعالى: قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (المؤمن/١١)،و هذه من الآيات التى يستدلّ بها على وجود البرزخ بين الدنيا و الآخره، فإنها تشتمل على إماتتين،فلو كان إحداهما الموت الناقل من الدنيا لم يكن بدّ فى تصوير الإماته الثانيه من فرض حياه بين الموتين و هو البرزخ،و هو استدلال تام اعتنى به فى بعض الروايات ايضا،و ربما ذكر بعض المنكرين للبرزخ أن الآيتين أعنى قوله: كَيْفَ تَكْفُرُونَ...

الآيه،و قوله: قَالُوا رَبَّنَا.. الآيه،متحدتا السياق،و قد اشتملتا على موتين و حياتين، فمدلولهما واحد،و الآيه الأولى ظاهره فى أن الموت الأول هو حال الإنسان قبل ولوج الروح فى الحياه الدنيا،فالموت و الحياه الاوليان هما الموت قبل الحياه الدنيا و الحياه الدنيا، و الموت و الحياه الثانيتان هما الموت عن الدنيا و الحياه يوم البعث،و المراد بالمراتب فى الآيه الثانيه هو ما فى الآيه الأولى،فلا معنى لدلالتها على البرزخ،و هو خطأ فان الآيتين مختلفتان سياقا اذ المأخوذ فى الآيه الأولى موت واحد و إماته لا يتحقق لها مصداق من دون سابقه حيوه بخلاف الموت،فالموت الأول فى الآيه الأولى غير الإماته الاولى فى الآيه الثانيه،فلامح فى قوله تعالى: أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ،الإماته الأولى هى التى بعد الدنيا و الإحياء الأول بعدها للبرزخ و الإماته و الإحياء الثانيتان للآخره يوم البعث،و فى قوله تعالى: وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ إنما يريد الموت قبل الحياه و هو موت و ليس بإماته و الحياه هى الحياه الدنيا،و فى قوله تعالى: ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ حيث فصّل بين الإحياء و الرجوع بلفظ ثم تأييد لما ذكرنا هذا.

قوله تعالى: وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتاً ،بيان حقيقه الإنسان من حيث وجوده فهو وجود متحوّل متكامل يسير فى مسير وجوده المتبدّل المتغير تدريجا و يقطعه مرحله مرحله،فقد كان الإنسان قبل نشأته فى الحياه الدنيا ميتا ثم حيى بإحياء اللّه ثم يتحول بإماته و إحياء و هكذا و قد قال سبحانه: وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَهٍ مِنْ مَاءٍ

مَهِينٍ ثُمَّ سَوّٰاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ (السجده۹/)،و قال تعالی: ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبٰارَکَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخٰالِقِينَ (المؤمنون۱۴/)،و قال تعالی: وَ قٰالُوا أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِی الْأَرْضِ أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِيدٍ.بَلْ هُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ کٰافِرُونَ. قُلْ يَتَوَفّٰاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ (السجده۱۱/)،و قال تعالی: مِنْهٰا خَلَقْنٰاکُمْ وَ فِيهٰا نُعِيدُکُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُکُمْ تٰارَةً أُخْرىٰ (طه۵۵/).و الآيات کما تری(و سنزيدها توضيحا فی محالّها)تدلّ علی أن الإنسان جزء من الأرض غير مفارقها و لا مباين معها،انفصل منها ثم شرع فی التطوّر بأطواره حتی بلغ مرحله أنشئ فيها خلقا آخر،فهو المتحوّل خلقا آخر و المتکامل بهذا الکمال الجديد الحديث،ثم يأخذ ملک الموت هذا الإنسان من البدن نوع أخذ يستوفيه ثم يرجع الی اللّه سبحانه،فهذا صراط وجود الإنسان.

و قوله تعالی: فَسَوّٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ ،سيأتی الکلام فی السماء فی سوره حم السجده إن شاء اللّه تعالی.

[سوره البقره (۲): الآيات ۳۰ الی ۳۳]

اشاره

وَ إِذْ قٰالَ رَبُّکَ لِلْمَلاٰئِکَهِ إِنِّی جٰاعِلٌ فِی اَلْأَرْضِ خَلِيفَةً قٰالُوا أَ تَجْعَلُ فِيهٰا مَنْ يُفْسِدُ فِيهٰا وَ يَسْفِکُ اَلدِّمٰاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِکَ وَ نُقَدِّسُ لَکَ قٰالَ إِنِّی أَعْلَمُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (۳۰) وَ عَلَّمَ آدَمَ اَلْأَسْمٰاءَ کُلَّهٰا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَی اَلْمَلاٰئِکَهِ فَقٰالَ أَنْبِئُونِی بِأَسْمٰاءِ هٰؤُلاٰءِ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۳۱) قٰالُوا سُبْحٰانَکَ لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِلاّٰ مٰا عَلَّمْتَنٰا إِنَّکَ أَنْتَ اَلْعَلِيمُ اَلْحَکِيمُ (۳۲) قٰالَ يٰا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمٰائِهِمْ فَلَمّٰا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمٰائِهِمْ قٰالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَکُمْ إِنِّی أَعْلَمُ غَيْبَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَ مٰا کُنْتُمْ تَکْتُمُونَ (۳۳)

ص:۶۶

بیان:

قوله تعالى: وَ إِذْ قٰالَ رَبُّكَ الخ؛سيأتى الكلام فى معنى القول منه تعالى و كذا القول من الملائكه و الشيطان إن شاء اللّه.

قوله تعالى: قٰالُوا أَ تَجْعَلُ فِيهٰا مَنْ يُفْسِدُ فِيهٰا وَ يَسْفِكُ الدِّمٰاءَ ،الى قوله:

وَ نُقَدِّسُ لَكَ مشعر بأنهم انما فهموا وقوع الافساد و سفك الدماء من قوله سبحانه: إِنِّي جٰاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ،حيث أن الموجود الارضى بما انه مادى مركب من القوى الغضبيه و الشهويه،و الدار دار التزاحم،محدوده الجهات،وافره المزاحمات،مركباتها فى معرض الانحلال،و انتظاماتها و اصلاحاتها فى مظنه الفساد و مصب البطلان،لا تتم الحياه فيها الا بالحياه النوعيه،و لا يكمل البقاء فيها الا بالاجتماع و التعاون،فلا تخلو من الفساد و سفك الدماء،ففهموا من هناك أن الخلافه المراده لا تقع فى الارض الا بكثره من الأفراد و نظام اجتماعى بينهم يفضى بالآخره الى الفساد و السفك،و الخلافه و هى قيام شىء مقام آخر لا تتم إلا بكون الخليفه حاكيا للمستخلف فى جميع شئونه الوجوديه و آثاره و أحكامه و تدابيره بما هو مستخلف،و اللّه سبحانه فى وجوده مسمى بالاسماء الحسنى متصف بالصفات العليا،من أوصاف الجمال و الجلال،منزه فى نفسه عن النقص و مقدس فى فعله عن الشر و الفساد جلت عظمته،و الخليفه الارضى بما هو كذلك لا يليق بالاستخلاف و لا يحكى بوجوده المشوب كل نقص و شين الوجود الالهى المقدس المنزه عن جميع النقائص و كل الأعدام،فأين التراب و رب الأرباب،و هذا الكلام من الملائكه فى مقام تعرف ما جهلوه و استيضاح ما أشكل عليهم من أمر هذا الخليفه،و ليس من الاعتراض و الخصومه فى شىء،و الدليل على ذلك

قولهم فيما حكاه اللّه تعالى عنهم:انک أنت العليم الحكيم حيث صدر الجمله بأن التعليليه المشعره بتسلم مدخولها فافهم،فملخص قولهم يعود الى ان جعل الخلافه انما هو لأجل ان يحكى الخليفه مستخلفه بتسبيحه بحمده و تقديسه له بوجوده،و الارضيه لا تدعه يفعل ذلك بل تجره الى الفساد و الشر،و الغايه من هذا الجعل و هى التسبيح و التقديس بالمعنى الذى مرّ من الحكايه حاصله بتسبيحنا بحمدک و تقديسنا لک،فنحن خلفائک أو فاجعلنا خلفاء لک، فما فائده جعل هذه الخلافه الارضيه لک؟فرد اللّه سبحانه ذلک عليهم بقوله: إِنِّي أَعْلَمُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمٰاءَ كُلَّهٰا .

و قوله تعالى: وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمٰاءَ كُلَّهٰا ثُمَّ عَرَضَهُمْ ،مشعر بأن هذه الأسماء أو أن مسمياتها كانوا موجودات أحياء عقلاء،محجوبين تحت حجاب الغيب و أن العلم بأسمائهم كان غير نحو العلم الذى عندنا بأسماء الأشياء،و إلاّ كانت الملائكه بانباء آدم إياهم بها عالمين و صائرين مثل آدم مساوين معه،و لم يكن فى ذلک اكرام لآدم،و لا كرامه حيث علمه اللّه سبحانه أسماء و لم يعلمهم،و لو علمهم إياها كانوا مثل آدم أو أشرف منه،و لم يكن فى ذلک ما يقنعهم أو يبطل حجتهم،و أى حجه تتم فى أن يعلم اللّه تعالى رجلا علم اللغه ثم يباهى به و يتم الحجه على ملائكه مكرمين لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون بأن هذا خليفتى و قابل لكرامتى دونكم؟و يقول تعالى أنبئونى باللغات التى سوف يضعها الآدميون بينهم لإفهام و التفهيم إن كنتم صادقين فى دعويكم أو مسألتكم خلافتى،على أن كمال اللغه هو المعرفه بمقاصد القلوب و الملائكه لا تحتاج فيها الى التكلم،و انما تتلقى المقاصد من غير واسطه،فلهم كمال فوق كمال التكلم،و بالجمله فما حصل للملائكه من العلم بواسطه انباء آدم لهم بالأسماء هو غير ما حصل لآدم من حقيقه العلم بالأسماء بتعليم اللّه تعالى فأحد الأمرين كان ممكنا فى حق الملائكه و فى مقدرتهم دون الآخر،و آدم انما استحق الخلافه الإلهيه بالعلم و بالأسماء دون انبائها اذ الملائكه انما قالوا فى مقام الجواب:سبحانک لا علم لنا

إلّا ما علمتنا،فنفوا العلم.

و الاسماء فی قوله تعالی: وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمٰاءَ كُلَّهٰا ،جمع محلی باللام و هو یفید العموم علی ما صرحوا به،مضافا الی انه مؤکد بقوله: كُلَّهٰا ،فالمراد بها کل اسم یقع لمسمی و لا تقیید و لا عهد،ثم قوله: عَرَضَهُمْ ،دال علی کون کل اسم أی مسماه ذا حیوه و علم و هو مع ذلک تحت حجاب الغیب،غیب السموات و الارض.و اضافه الغیب الی السموات و الارض و ان امکن ان یکون فی بعض الموارد اضافه من،فیفید التبعیض لکن المورد و هو مقام اظهار تمام قدرته تعالی و احاطته و عجز الملائکه و نقصهم یوجب کون اضافه الغیب الی السموات و الارض اضافه اللام،فیفید أن الاسماء امور غائبه عن العالم السماوی و الارضی، خارج محیط الکون،و اذا تأملت هذه الجهات اعنی عموم الاسماء و کون مسمیاتها أولی حیاه و علم و کونها غیب السموات و الارض قضیت بانطباقها بالضروره علی ما اشیر الیه فی قوله تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/۲۱)، حیث أخبر سبحانه بأنه کل ما یقع علیه اسم شیء فله عنده تعالی خزائن مخزونه باقیه عنده غیر نافده،و لا مقدّره بقدر،و لا محدوده بحد،و أن القدر و الحد فی مرتبه الانزال و الخلق،و أن الکثره التی فی هذه الخزائن لیست من جنس الکثره العددیه الملازمه للتقدیر و التحدید بل تعدد المراتب و الدرجات،و سیجیء بعض الکلام فیها فی سوره الحجر إن شاء اللّه تعالی.

فتحصّل ان هؤلاء الذین عرضهم اللّه علی الملائکه موجودات عالیه محفوظه عند اللّه تعالی،محجوبه بحجب الغیب،أنزل اللّه سبحانه کل اسم فی العالم بخیرها و برکتها و اشتق کل ما فی السموات و الارض من نورها و بهائها،و أنهم علی کثرتهم و تعددهم لا یتعددون تعدد الأفراد،و لا یتفاوتون تفاوت الاشخاص،و انما یدور الأمر هناک مدار المراتب و الدرجات و نزول الاسم من عند هؤلاء انما هو بهذا القسم من النزول.

ص :۶۹

و قوله تعالى: وَ أَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَ مٰا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ و كان هذان القسمان من الغيب النسبى الذى هو بعض السموات و الأرض،و لذلك قوبل به قوله: أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ ،ليشمل قسمى الغيب أعنى الخارج عن العالم الارضى و السماوى و غير الخارج عنه.

و قوله تعالى: كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ،تقييد الكتمان بقوله: كُنْتُمْ ،مشعر بأن هناك امرا مكتوما فى خصوص آدم و جعل خلافته،و يمكن أن يستظهر ذلك من قوله تعالى فى الآيه التاليه: فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِيسَ أَبىٰ وَ اسْتَكْبَرَ وَ كٰانَ مِنَ الْكٰافِرِينَ .

فيظهر أن ابليس كان كافرا قبل ذلك الحين،و أن إبائه عن السجده كان مرتبطا بذلك فقد كان أضمره هذا.

و يظهر بذلك أن سجده الملائكه و إباء ابليس عنها كانت واقعه بين قوله تعالى: قٰالَ إِنِّي أَعْلَمُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ و بين قوله: أَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَ مٰا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ،و يظهر السر أيضا فى تبديل قوله: إِنِّي أَعْلَمُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ ثانيا بقوله: إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (۱).

[سوره البقره (۲): آیه ۳۴]

اشاره

وَ إِذْ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَهِ اُسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِيسَ أَبىٰ وَ اِسْتَكْبَرَ وَ كٰانَ مِنَ اَلْكٰافِرِينَ (۳۴)

بيان:

و قوله تعالى: اُسْجُدُوا لِآدَمَ ،يستفاد منه جواز السجود لغير اللّه فى الجمله اذا كان تحيّه و تكرمه للغير و فيه خضوع للّه تعالى بموافقه أمره،و نظيره قوله تعالى فى قصه

۱- ۱) .البقره ۳۰-۳۳:بحث روائى حول الاسماء التى علمها اللّه لآدم عليه السّلام.

يوسف عليه السّلام:و رفع أبويه على العرش و خرّوا له سجدا قال: يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا (يوسف/١٠٠)،و ملخص القول فى ذلك أنك قد عرفت فى سوره الفاتحه أن العباده هى نصب العبد نفسه فى مقام العبوديه و إتيان ما يثبت و يستثبت به ذلك فالفعل العبادى يجب أن يكون فيه صلاحيه إظهار مولويّه المولى،أو عبديه العبد كالسجود و الركوع و القيام أمامه حينما يقعد،و المشى خلفه حينما يمشى و غير ذلك،و كلما زادت الصلاحيه المزبوره ازدادت العباده تعيّنا للعبوديه،و أوضح الأفعال فى الدلاله على عز المولويه و ذلك العبوديه السجده،لما فيها من الخرور على الأرض،و وضع الجبهه عليها،و اما ما ربما ظنه بعض:من أن السجده عباده ذاتيه،فليس بشىء،فإن الذاتى لا يختلف و لا يتخلف.و هذا الفعل يمكن أن يصدر بعينه من فاعله بداع غير داع التعظيم و العباده كالسخريه و الاستهزاء فلا يكون عباده مع اشتماله على جميع ما يشتمل عليه و هو عباده نعم معنى العباده أوضح فى السجده من غيرها،و اذا لم يكن عباده ذاتيه لم يكن لذاته مختصا باللّه سبحانه،بناء على أن المعبود منحصر فيه تعالى،فلو كان هناك مانع لكان من جهه النهى الشرعى أو العقلى و الممنوع شرعا أو عقلا ليس إلاّ إعطاء الربوبيه لغيره تعالى،و أما تحيه الغير أو تكرمته من غير إعطاء الربوبيه،بل لمجرد التعارف و التحيه فحسب،فلا دليل على المنع من ذلك،لكن الذوق الدينى المتخذ من الاستيناس بظواهره يقضى باختصاص هذا الفعل به تعالى،و المنع عن استعماله فى غير مورده تعالى،و ان لم يقصد به إلاّ التحيه و التكرمه فقط،و أما المنع عن كل ما فيه إظهار الاخلاص للّه،بإبراز المحبه لصالحى عباده أو لقبور أوليائه أو آثارهم فمما لم يقم عليه دليل عقلى أو نقلى أصلا،و سنعود الى البحث عن هذا الموضوع فى محل يناسبه إنشاء اللّه تعالى (١).

١- ١) البقره ٣۴:بحث روائى حول سجود الملائكه لآدم عليه السّلام.

[سوره البقره (۲): الآیات ۳۵ الی ۳۹]

اشاره

وَ قُلْنا یا آدَمُ اُسْکُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُکَ اَلْجَنَّهَ وَ کُلا مِنْها رَغَداً حَیْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هٰذِهِ اَلشَّجَرَهَ فَتَکُونا مِنَ اَلظّالِمِینَ (۳۵) فَأَزَلَّهُمَا اَلشَّیْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمّا کانا فِیهِ وَ قُلْنَا اِهْبِطُوا بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَکُمْ فِی اَلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلیٰ حِینٍ (۳۶) فَتَلَقّیٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ کَلِماتٍ فَتابَ عَلَیْهِ إِنَّهُ هُوَ اَلتَّوّابُ اَلرَّحِیمُ (۳۷) قُلْنَا اِهْبِطُوا مِنْها جَمِیعاً فَإِمّا یَأْتِیَنَّکُمْ مِنِّی هُدیً فَمَنْ تَبِعَ هُدایَ فَلا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (۳۸) وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا أُولٰئِکَ أَصْحابُ اَلنّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ (۳۹)

بیان:

قوله تعالی: وَ قُلْنا یا آدَمُ اسْکُنْ ،علی أن قصه سجود الملائکه لآدم تکررت فی عده مواضع من القرآن الکریم.لم یقع قصه الجنه إلاّ فی ثلث مواضع:

احدهما:هاهنا من سوره البقره.

الثانی:فی سوره الاعراف قال اللّه تعالی: وَ قُلْنا یا آدَمُ اسْکُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُکَ الْجَنَّهَ وَ کُلا مِنْها رَغَداً حَیْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَهَ فَتَکُونا مِنَ الظّالِمِینَ .

و الثالث:فی سوره طه.قال اللّه تعالی: وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلیٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِیَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ

ص:۷۲

عَزْماً. وَ إِذْ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِيسَ أَبىٰ .

قوله تعالی: وَ کُلاٰ مِنْهٰا رَغَداً الرغد الهناء و طیب العیش و أرغد القوم مواشیهم ترکوها ترعی کیف شاءت،و قوم رغد،و نساء رغد،أی ذووا عیش رغید.

و قوله تعالی: وَ لاٰ تَقْرَبٰا هٰذِهِ الشَّجَرَهَ و کأن النهی انما کان عن أکل الثمره و انما تعلق بالقرب من الشجره ایذانا بشده النهی و مبالغه فی التأکید و یشهد بذلک قوله تعالی:

فَلَمّٰا ذٰاقَا الشَّجَرَهَ بَدَتْ لَهُمٰا سَوْآتُهُمٰا (الأعراف/۲۲).

و قوله تعالی: فَأَکَلاٰ مِنْهٰا فَبَدَتْ لَهُمٰا سَوْآتُهُمٰا (طه/۱۲۱)،فکانت المخالفه بالأکل فهو المنهی عنه بقوله: وَ لاٰ تَقْرَبٰا .

قوله تعالی: فَتَکُونٰا مِنَ الظّٰالِمِينَ ،من الظلم لا من الظلمه علی ما احتمله بعضهم و قد اعترفا بظلمهما حیث قالا علی ما حکاه اللّه تعالی عنهما: رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا .

إلا أنه تعالی بدّل فی سوره طه هذه الکلمه أعنی قوله: فَتَکُونٰا مِنَ الظّٰالِمِينَ من قوله: فَتَشْقىٰ و الشقاء هو التعب ثم فسر التعب و فصله،فقال: إِنَّ لَکَ أَلاّٰ تَجُوعَ فِيهٰا وَ لاٰ تَعْرىٰ وَ أَنَّکَ لاٰ تَظْمَؤُا فِيهٰا وَ لاٰ تَضْحىٰ الآیات.

قوله سبحانه: فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطٰانُ ،الظاهر من هذه الجمله کنظائرها و إن لم یکن أزید من وسوسه الشیطان لهما مثل ما یوسوس لنا(بنی آدم)علی نحو القاء الوسوسه فی القلب من غیر رؤیه الشخص.

لکن الظاهر من أمثال قوله تعالی فی سوره طه: فَقُلْنٰا يٰا آدَمُ إِنَّ هٰذٰا عَدُوٌّ لَکَ وَ لِزَوْجِکَ یدل علی أنه تعالی أراهما الشیطان و عرفهما إیاه بالشخص و العین دون الوصف و کذا قوله تعالی حکایه عن الشیطان: يٰا آدَمُ هَلْ أَدُلُّکَ عَلىٰ شَجَرَهِ الْخُلْدِ الآیه؛حیث أتی بالکلام فی صوره حکایه الخطاب،و یدل ذلک علی متکلم مشعور به.

و كذا قوله تعالى فى سوره الأعراف: وَ قٰاسَمَهُمٰا إِنِّی لَکُمٰا لَمِنَ النّٰاصِحِینَ و القسم إنما یکون من مقاسم مشعور به.

و کـذا قوله تعالى: وَ نٰادٰاهُمٰا رَبُّهُمٰا أَ لَمْ أَنْهَکُمٰا عَنْ تِلْکُمَا الشَّجَرَهِ وَ أَقُلْ لَکُمٰا إِنَّ الشَّیْطٰانَ لَکُمٰا عَـدُوٌّ مُبِینٌ ،کل ذلک یـدل على أنه کان یتراءى لهما و کانا یشاهـدانه.و لو کان حالهما علیهما السّـلام مثل حالنا من عـدم المشاهـده حین الوسوسه لجاز لهما أن یقولاـ:ربنا اننا لم نشـعر و خلنا أن هـذه الوساوس هى من أفکارنا من غیر استشـعار بحضوره،و لا قصـد لمخالفه ما وصـیتنا به من التحذیر من وسوسته.

و بالجمله فهما کانا یشاهـدانه و یعرفانه،و الأنبیاء و هم المعصومون بعصـمه اللّه کـذلک یعرفونه و یشاهدونه حین تعرّضه بهم لو تعرض على ما وردت به الروایات فى نوح و إبراهیم و موسـى و عیسى و یحیى و ایوب و اسماعیل و محمد صلّى اللّه علیه و آله و سلّم و علیهم هذا.

و کذا ظاهر هذه الآیات کظاهر قوله تعالى: مٰا نَهٰاکُمٰا رَبُّکُمٰا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَهِ حیث ینبئ عن کونهما معه لعنه اللّه بحیال الشـجره فى الجنه،فقـد کـان دخـل الجنه و صاحبهمـا و غرهمـا بوسوسـته و لاـ محـذور فیه اذ لم تکن الجنه جنه الخلـد حتى لاـ یـدخلها الشیطان،و الدلیل على ذلک خروجهم جمیعا من هذه الجنه.

و أمـا قوله تعـالى خطابـا لإـبلیس: فَاهْبِـطْ مِنْهـٰا فَمـٰا یَکُونُ لَـکَ أَنْ تَتَکَبَّرَ فِیهٰا فَاخْرُجْ (الأعراف١٣/)،فیمکـن أن یکـون المراد به الخروج من الملائکه،أو الخروج من السماء من جهه کونها مقام قرب و تشریف.

قوله تعـالى: وَ قُلْنَـا اهْبِطُوا بَعْضُـکُمْ لِبَعْضٍ عَـدُوٌّ الآـیه؛ظاهر السـیاق أنه خطاب لآدم و زوجته و إبلیس و قـد خص إبلیس وحـده بالخطـاب فى سوره الأعراف حیث قال: فَاهْبِطْ مِنْهٰا فَمٰا یَکُونُ لَکَ أَنْ تَتَکَبَّرَ فِیهٰا الآیه؛فقوله تعالى: اِهْبِطُوا کالجمع بین الخطابین و حکایه عن قضاء قضى اللّه به العداوه بین إبلیس لعنه اللّه و بین آدم و زوجته

و ذريتهما،و كذلك قضى به حياتهم فى الأرض و موتهم فيها و بعثهم منها.

و ذريه آدم مع آدم فى الحكم كما ربما يستشعر من ظاهر قوله: فِيهٰا تَحْيَوْنَ وَ فِيهٰا تَمُوتُونَ وَ مِنْهٰا تُخْرَجُونَ الآيه؛و كما سيأتى فى قوله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاكُمْ ثُمَّ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ الآيه؛من سوره الأعراف.

إن إسجاد الملائكه لآدم عليه السّلام إنما كان من جهه أنه خليفه أرضى،فكان المسجود له آدم عليه السّلام و حكم السجده لجميع البشر،فكان إقامه آدم عليه السّلام مقام المسجود له معنونا بعنوان الأنموذج و النائب.

و بالجمله يشبه أن تكون هذه القصه التى قصها اللّه تعالى من إسكان آدم و زوجته الجنه،ثم إهباطهما لأكل الشجره كالمثل يمثل به ما كان الإنسان فيه قبل نزوله الى الدنيا من السعاده و الكرامه بسكونه حظيره القدس،و منزل الرفعه و القرب،و دار نعمه و سرور،و انس و نور، و رفقاء طاهرين،و اخلاء روحانيين،و جوار رب العالمين.

ثم إنه يختار مكانه كل تعب و عناء و مكروه و ألم بالميل الى حيوه فانيه،و جيفه منتنه دانيه، ثم أنه لو رجع بعد ذلك الى ربه لأعاده الى دار كرامته و سعادته و لو لم يرجع اليه و أخلد الى الأرض و اتبع هواه فقد بدل نعمه اللّه كفرا و احل بنفسه دار البوار،جهنم يصليها و بئس القرار.

قوله تعالى: فَتَلَقّٰى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمٰاتٍ فَتٰابَ عَلَيْهِ ،التلقى هو التلقن،و هو أخذ الكلام مع فهم و فقه و هذا التلقى كان هو الطريق المسهل لآدم عليه السّلام توبته.

و من ذلك يظهر أن التوبه توبتان:توبه من اللّه تعالى و هى الرجوع الى العبد بالرحمه، و توبه من العبد و هى الرجوع الى اللّه بالاستغفار و الانقلاع من المعصيه.

و توبه العبد،محفوفه بتوبتين من اللّه تعالى،فان العبد لا يستغنى عن ربه فى حال من الأحوال،فرجوعه عن المعصيه اليه يحتاج الى توفيقه تعالى و إعانته و رحمته حتى يتحقق منه

التوبه،ثم تمس الحاجه الی قبوله تعالی و عنایته و رحمته،فتوبه العبد اذا قبلت کانت بین توبتین من اللّه کما یدل علیه قوله تعالی: ثُمَّ تابَ عَلَیْهِمْ لِیَتُوبُوا (التوبه۱۱۹/).

و قراءه نصب آدم و رفع کلمات تناسب هذه النکته،و إن کانت القراءه الاخری(و هی قراءه رفع آدم و نصب کلمات)لا تنافیه ایضا.

و أما أن هذه الکلمات ما هی؟فربما یحتمل انها هی ما یحکیه اللّه تعالی عنهما فی سوره الأعراف بقوله: قالاٰ رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا لَنَکُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِینَ (الأعراف۲۳/)،إلاّ أن وقوع هذه الکلمات أعنی قوله: قالاٰ رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا الآیه؛قبل قوله: قُلْنَا اهْبِطُوا فی سوره الأعراف و وقوع قوله: فَتَلَقّٰی آدَمُ الآیه؛بعد قوله: قُلْنَا اهْبِطُوا ، فی هذه السوره لا یساعد علیه.

لکن هاهنا شیء:و هو أنک عرفت فی صدر القصه أن اللّه تعالی حیث قال: إِنِّی جٰاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَهً ،قالت الملائکه: أَ تَجْعَلُ فِیهٰا مَنْ یُفْسِدُ فِیهٰا وَ یَسْفِکُ الدِّمٰاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِکَ وَ نُقَدِّسُ لَکَ الآیه؛و هو تعالی لم یرد علیهم دعواهم علی الخلیفه الأرضی بما رموه به و لم یجب عنه بشیء إلاّ أنه علم آدم الأسماء کلها.

و لو لا أنه کان فیما صنعه تعالی من تعلیم الأسماء ما یسد باب اعتراضهم ذلک لم ینقطع کلامهم و لا تمت الحجه علیهم قطعا.ففی جمله ما علمه اللّه تعالی آدم من الاسماء أمر ینفع العاصی اذا عصی و المذنب اذا أذنب،فلعل تلقیه من ربه کان متعلقا بشیء من تلک الأسماء فافهم ذلک.

و اعلم أن آدم علیه السّلام و إن ظلم نفسه فی القائها الی شفا جرف الهلکه و منشعب طریقی السعاده أعنی الدنیا،فلو وقف فی مهبط فقد هلک،و لو رجع الی سعادته الأولی فقد أتعب نفسه و ظلمها،فهو علیه السّلام ظالم لنفسه علی کل تقدیر،إلاّ أنه علیه السّلام هیأ لنفسه بنزوله درجه من السعاده و منزله من الکمال ما کان ینالها لو لم ینزل و کذلک ما کان ینالها لو نزل من غیر

خطیئه.

فمتی کان یمکنه أن یشاهد ما لنفسه من الفقر و المذله و المسکنه و الحاجه و القصور و له فی کل ما یصیبه من التعب و العناء و الکد روح و راحه فی حظیره القدس و جوار رب العالمین،فللّه تعالی صفات من عفو و مغفره و توبه و ستر و فضل و رأفه و رحمه لا ینالها إلّا المذنبون،و له فی أیام الدهر نفحات لا یرتاح بها إلّا المتعرّضون.

فهذه التوبه هی التی استدعت تشریع الطریق الذی یتوقع سلوکه و تنظیف المنزل الذی یرجی سکونه،فوراءها تشریع الدین و تقویم المله.

و یدل علی ذلک ما تراه أن اللّه تعالی یکرر فی کلامه تقدم التوبه علی الإیمان.قال تعالی:

فَاسْتَقِمْ کَمٰا أُمِرْتَ وَ مَنْ تٰابَ مَعَکَ (هود۱۱۲/)،و قال: وَ إِنِّی لَغَفّٰارٌ لِمَنْ تٰابَ وَ آمَنَ (طه۸۲/)،الی غیر ذلک من الآیات.

قوله تعالی: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهٰا جَمِیعاً فَإِمّٰا یَأْتِیَنَّکُمْ مِنِّی هُدیً .و هذا أول ما شرّع من الدین لآدم علیه السّلام و ذریته،أوجز الدین کله فی جملتین لا یزاد علیه شیء الی یوم القیامه.

و أنت اذا تدبرت هذه القصه(قصه الجنه)و خاصه ما وقع فی سوره طه وجدت أن المستفاد منها أن جریان القصه أوجب قضاءین منه تعالی فی آدم و ذریته،فأکل الشجره أوجب حکمه تعالی و قضائه بالهبوط و الاستقرار فی الأرض و الحیاه فیها تلک الحیاه الشقیه التی حذرا منها حین نهیا عن اقتراب الشجره هذا.

و أن التوبه ثانیا:تعقب قضاء و حکما ثانیا منه تعالی بإکرام آدم و ذریته بالهدایه الی العبودیه فالمقضی أولا کان نفس الحیاه الأرضیه،ثم بالتوبه طیب اللّه تلک الحیاه بأن رکب علیها الهدایه الی العبودیه،فتألفت الحیاه من حیوه أرضیه،و حیوه سماویه.

و هذا هو المستفاد من تکرار الأمر بالهبوط فی هذه السوره حیث قال تعالی: وَ قُلْنَا

اهْبِطُوا بَعْضُكَمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكَمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلىٰ حِينٍ الآيه؛و قال تعالى:

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهٰا جَمِيعاً فَإِمّٰا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً الآيه.

و توسيط التوبه بين الأمرين بالهبوط مشعر بأن التوبه وقعت و لما ينفصلا من الجنه و إن لم يكونا أيضا فيها كاستقرارهما قبل ذلك.

يشعر بذلك أيضا قوله تعالى: وَ نٰادٰاهُمٰا رَبُّهُمٰا أَ لَمْ أَنْهَكُمٰا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَهِ الآيه؛بعد ما قال لهما:لا تقربا هذه الشجره فأتى بلفظه تلكما و هى إشاره الى البعيد بعد ما أتى بلفظه هذه و هى إشاره الى القريب و عبر بلفظه نادى و هى للبعيد بعد ما أتى بلفظه قال و هى للقريب فافهم.

و اعلم أن ظاهر قوله تعالى: وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلىٰ حِينٍ الآيه؛و قوله تعالى: قٰالَ فِيهٰا تَحْيَوْنَ وَ فِيهٰا تَمُوتُونَ وَ مِنْهٰا تُخْرَجُونَ الآيه؛أن نحوه هذه الحياه بعد الهبوط تغاير نحوها فى الجنه قبل الهبوط،و ان هذه حيوه ممتزجه حقيقتها بحقيقه الارض ذات عناء و شقاء يلزمها أن يتكون الانسان فى الأرض ثم يعاد بالموت إليها ثم يخرج بالبعث منها.

فالحياه الارضيه تغاير حيوه الجنه فحياتها حيوه سماويه غير أرضيه.

و من هنا يمكن ان يجزم أن جنه آدم كانت فى السماء،و إن لم تكن جنه الآخره جنه الخلد التى لا يخرج منها من دخل فيها.

نعم:يبقى الكلام فى معنى السماء و لعلنا سنوفق لاستيفاء البحث منه،إن شاء اللّه تعالى.

بقى هنا شىء و هو القول فى خطيئه آدم فنقول ظاهر الآيات فى بادى النظر و إن كان تحقق المعصيه و الخطيئه منه عليه السّلام كما قال تعالى: فَتَكُونٰا مِنَ الظّٰالِمِينَ ،و قال تعالى: وَ عَصىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ ،الآيه،و كما اعترف به فيما حكاه اللّه عنهما: رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِينَ الآيه.

لکن التدبر فی آیات القصه و الدقه فی النهی الوارد عن أکل الشجره یوجب القطع:بأن النهی المذکور لم یکن نهیا مولویا و انما هو نهی إرشادی یراد به الإرشاد و الهدایه الی ما فی مورد التکلیف من الصلاح و الخیر لا البعث و الإراده المولویه.

و یدل علی ذلک اولا:أنه تعالی فرّع علی النهی فی هذه السوره و فی سوره الأعراف أنه ظلم حیث قال: لاٰ تَقْرَبٰا هٰذِهِ الشَّجَرَهَ فَتَکُونٰا مِنَ الظّٰالِمِینَ ثم بدله فی سوره طه من قوله:فتشقی مفرعا إیاه علی ترک الجنه.و معنی الشقاء التعب ثم ذکر بعده کالتفسیر له: إِنَّ لَکَ أَلاّٰ تَجُوعَ فِیهٰا وَ لاٰ تَعْریٰ، وَ أَنَّکَ لاٰ تَظْمَؤُا فِیهٰا وَ لاٰ تَضْحیٰ الآیات.

فأوضح أن المراد بالشقاء هو التعب الدنیوی،الذی تستتبعه هذه الحیاه الأرضیه من جوع و عطش و عراء و غیر ذلک.

فالتوقی من هذه الامور هو الموجب للنهی الکذائی لا جهه اخری مولویه فالنهی إرشادی، و مخالفه النهی الإرشادی لا توجب معصیه مولویه،و تعدیا عن طور العبودیه و علی هذا فالمراد بالظلم أیضا فی ما ورد من الآیات ظلمهما علی انفسهما فی القائها فی التعب و التهلکه دون الظلم المذموم فی باب الربوبیه و العبودیه و هو ظاهر.

و ثانیا:أن التوبه،و هی الرجوع من البعد اذا استتبع القبول من جانب المولی أوجب کون الذنب کلا ذنب،و المعصیه کأنها لم تصدر،فیعامل مع العاصی التائب معامله المطیع المنقاد، و فی مورد فعله معامله الامتثال و الانقیاد.

و لو کان النهی عن أکل الشجره مولویا و کانت التوبه توبه عن ذنب عبودی و رجوعا عن مخالفه نهی مولوی کان اللازم رجوعهما الی الجنه مع انهما لم یرجعا.

و من هنا یعلم أن استتباع الأکل المنهی للخروج من الجنه کان استتباعا ضروریا تکوینیا، نظیر استتباع السم للقتل و النار للإحراق،کما فی موارد التکالیف الإرشادیه لا استتباعا من قبیل المجازاه المولویه فی التکالیف المولویه،کدخول النار لتارک الصلاه،و استحقاق الذم

و استیجاب البعد فی المخالفات العمومیه الاجتماعیه المولویه.

و ثالثا:أن قوله تعالی: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّی هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَایَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ الآیات.

و هو کلمه جامعه لجمیع التشریعات التفصیلیه التی أنزلها اللّه تعالی فی هذه الدنیا من طرق ملائکته و کتبه و رسله،یحکی عن اول تشریع شرّع للانسان فی هذه الدنیا التی هی دنیا آدم و ذریته،و قد وقع علی ما یحکی اللّه تعالی بعد الأمر الثانی بالهبوط و من الواضح ان الأمر بالهبوط أمر تکوینی متأخر عن الکون فی الجنه و اقتراف الخطیئه،فلم یکن حین مخالفه النهی و اقتراب الشجره لا دین مشروع و لا تکلیف مولوی فلم یتحقق عند ذلک ذنب عبودی،و لا معصیه مولویه.

و لا ینافی ذلک کون خطاب اسجدوا للملائکه و لإبلیس و هو قبل خطاب لا تقربا،خطابا مولویا لان المکلف غیر المکلف.

فإن قلت:اذا کان النهی نهیا إرشادیا لا نهیا مولویا فما معنی عدّه تعالی فعلهما ظلما و عصیانا و غوایه؟

قلت:اما الظلم فقد مر أن المراد به ظلمهما لأنفسهما فی جنب اللّه تعالی،و أما العصیان فهو لغه عدم الانفعال أو الانفعال بصعوبه کما یقال:کسرته فانکسر و کسرته فعصی،و العصیان و هو عدم الانفعال عن الأمر أو النهی کما یتحقق فی مورد التکالیف المولویه کذلک یتحقق فی مورد الخطابات الإرشادیه.

و أما تعین معنی المعصیه فی هذه الأزمنه عندنا جماعه المسلمین فی مخالفه مثل صل،أم صم،أو حج،أو لا تشرب الخمر،أو لا تزن و نحو ذلک فهو تعین بنحو الحقیقه الشرعیه أو المتشرعه لا یضر بعموم المعنی بحسب اللغه و العرف العام هذا.

ص :٨٠

و أما الغوايه فهو عدم اقتدار الإنسان مثلا على حفظ المقصد و تدبير نفسه فى معيشته بحيث يناسب المقصد و يلائمه.

و واضح أنه يختلف باختلاف الموارد من إرشاد و مولويه.

فإن قلت:فما معنى التوبه حينئذ و قولهما: «وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِينَ؟» .

قلت:التوبه كما مر هى الرجوع،و الرجوع يختلف بحسب اختلاف موارده.

فكما يجوز للعبد المتمرد عن أمر سيده و إرادته أن يتوب اليه،فيرد اليه مقامه الزائل من القرب عنده كذلك يجوز للمريض الذى نهاه الطبيب نهيا إرشاديا عن أكل شيء معين من الفواكه و المأكولات و انما كان ذلك منه مراعاه لجانب سلامته و عافيته فلم ينته المريض عن نهيه فاقترفه فتضرر فأشرف على الهلاك.

يجوز ان يتوب الى الطبيب ليشير اليه بدواء يعيده الى سابق حاله و عافيته،فيذكر له ان ذلك محتاج الى تحمل التعب و المشقه و العناء و الرياضه خلال مده حتى يعود الى سلامه المزاج الأوليه بل الى اشرف منها و أحسن،هذا.

و أما المغفره و الرحمه و الخسران فالكلام فيها نظير الكلام فى نظائرها فى اختلاف بحسب اختلاف مواردها،هذا (۱).

[سوره البقره (۲): الآيات ۴۰ الى ۴۴]

اشاره

يٰا بَنِى إِسْرٰائِيلَ اُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ اَلَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيّٰاىَ فَارْهَبُونِ (۴۰) وَ آمِنُوا بِمٰا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمٰا مَعَكُمْ وَ لاٰ تَكُونُوا أَوَّلَ كٰافِرٍ بِهِ وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِآيٰاتِى ثَمَناً قَلِيلاً وَ إِيّٰاىَ فَاتَّقُونِ (۴۱) وَ لاٰ تَلْبِسُوا اَلْحَقَّ بِالْبٰاطِلِ وَ تَكْتُمُوا اَلْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴۲) وَ أَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ آتُوا اَلزَّكٰاةَ وَ اِرْكَعُوا مَعَ اَلرّٰاكِعِينَ (۴۳) أَ تَأْمُرُونَ اَلنّٰاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ اَلْكِتٰابَ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (۴۴)

۱- ۱) البقره ۳۵-۳۹:بحث روائى حول جنّه آدم و انها هل كانت جنه من جنان الدنيا ام من جنان الآخره؛موضوع تكوين آدم عليه السّلام فى التوراه؛الشجره الملعونه؛عصمه الانبياء عليهم السّلام،كيفيه خروج آدم عليه السّلام من الجنه؛خلق حواء.

بیان:

قوله تعالی: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِی ،أصل العهد الحفاظ،و منه اشتقت معانیه کالعهد بمعنی المیثاق و الیمین و الوصیه و اللقاء و المنزل و نحو ذلک.

قوله تعالی: فَارْهَبُونِ ،الرهبه الخوف،و تقابل الرغبه.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَکُونُوا أَوَّلَ کٰافِرٍ بِهِ ،أی من بین أهل الکتاب،أو من بین قومکم ممّن مضی و سیأتی،فإن کفار مکه کانوا قد سبقوهم الی الکفر به.

[سوره البقره (۲): الآیات ۴۵ الی ۴۶]

اشاره

وَ اِسْتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَ اَلصَّلاٰهِ وَ إِنَّهٰا لَکَبِیرَهٌ إِلاّٰ عَلَی اَلْخٰاشِعِینَ (۴۵) اَلَّذِینَ یَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَیْهِ رٰاجِعُونَ (۴۶)

بیان:

قوله تعالی: وَ اسْتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاٰهِ ،الاستعانه و هی طلب العون إنما یتم فیما لا یقوی الإنسان علیه وحده من المهمات و النوازل،و اذ لا معین فی الحقیقه إلاّ اللّه سبحانه

ص :۸۲

فالعون على المهمات مقاومه الإنسان لها بالثبات و الاستقامه و الاتصال به تعالى بالانصراف إليه،و الاقبال عليه بنفسه،و هذا هو الصبر و الصلاه،و هما أحسن سبب على ذلک،فالصبر يصغر کل عظيمه نازله،و بالاقبال على اللّه و الالتجاء إليه تستيقظ روح الايمان،و تتنبه:ان الإنسان متّک على رکن لا ينهدم،و سبب لا ينفصم.

قوله تعالى: وَ إِنَّها لَکَبِيرَةٌ إِلّا عَلَى الْخاشِعِينَ ،الضمير راجع الى الصلاه،و أما إرجاعه الى الاستعانه لتضمن قوله: اِسْتَعِينُوا ،ذلک فينافيه ظاهرا قوله: إِلّا عَلَى الْخاشِعِينَ ، فإن الخشوع لا يلائم الصبر کثير ملائمه،و الفرق بين الخشوع و الخضوع مع أن فى کليهما معنى التذلل و الانکسار أن الخضوع مختص بالجوارح و الخشوع بالقلب.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ .هذا المورد،أعنى مورد الاعتقاد بالآخره على أنه مورد اليقين لا يفيد فيه الظن و الحسبان الذى لا يمنع النقيض،قال تعالى:

وَ بِالْآخِرَهِ هُمْ يُوقِنُونَ (البقره/۴)،و يمکن أن يکون الوجه فيه الأخذ بتحقق الخشوع فان العلوم التدريجيه الحصول من أسباب تدريجيه تتدرج فيها النفس المدرکه من تنبه و شک ثم ترجح أحد طرفى النقيض ثم انعدام الاحتمالات المخالفه شيئا فشيئا حتى يتم الادراک الجازم و هو العلم،و هذا النوع من العلم اذا تعلق بأمر هائل موجب لاضطراب النفس و قلقها و خشوعها إنما تبتدى الخشوع الذى معه من حين شروع الرجحان قبل حصول الإدراک العلمى و تمامه،ففى وضع الظن موضع العلم إشاره الى أن الانسان لا يتوقف على زياده مئونه على العلم أن تنبه بأن له ربّا يمکن ان يلاقيه و يرجع إليه و ذلک کقول الشاعر:

فقلت لهم ظنوا بألفى مذحّج

سراتهم فى الفارسىّ المسرّد

و إنما يخوّف العدو باليقين لا بالشک و لکنه أمرهم بالظن لأن الظن يکفيهم فى الانقلاع عن المخالفه،بلا حاجه الى اليقين حتى يتکلف المهدد الى ايجاد اليقين فيهم بالتفهيم من غير اعتناء منه بشأنهم،و على هذا فالآيه قريبه المضمون من قوله تعالى: فَمَنْ کانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ

فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صٰالِحاً (الكهف/١١٠)،و هذا كله لو كان المراد باللقاء فى قوله تعالى: مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ ،يوم البعث و لو كان المراد به ما سيأتى تصويره فى سوره الأعراف إن شاء اللّه فلا محذور فيه أصلا.

[سوره البقره (٢): الآيات ۴٧ الى ۴٨]

اشاره

يٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ اُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ اَلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى اَلْعٰالَمِينَ (۴٧) وَ اِتَّقُوا يَوْماً لاٰ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لاٰ يُقْبَلُ مِنْهٰا شَفٰاعَةٌ وَ لاٰ يُؤْخَذُ مِنْهٰا عَدْلٌ وَ لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ (۴٨)

بيان:

قوله تعالى: وَ اتَّقُوا يَوْماً لاٰ تَجْزِي .الملك و السلطان الدنيوى بأنواعه و أقسامه و بجميع شئونه،و قواه المقننه الحاكمه و المجريه مبتنيه على حوائج الحياه،و غايتها رفع الحاجه حسب ما يساعد عليه العوامل الزمانيه و المكانيه،فربما بدّل متاع من متاع أو نفع من نفع أو حكم من حكم من غير ميزان كلى يضبط الحكم و يجرى ذلك فى باب المجازاه أيضا فإن الجرم و الجنايه عندهم يستتبع العقاب،و ربما بدل الحاكم العقاب لغرض يستدعى منه ذلك كان يلحّ المحكوم الذى يرجى عقابه على القاضى و يسترحمه أو يرتشيه فينحرف فى قضائه فيجزى أى يقضى فيه بخلاف الحق،أو يبعث المجرم شفيعا يتوسط بينه و بين الحاكم أو مجرى الحكم أو يعطى عدلا و بدلا اذا كانت حاجه الحاكم المريد للعقاب إليه أزيد و أكثر من الحاجه الى عقاب ذلك المجرم،أو يستنصر قومه فينصروه فيتخلص بذلك عن تبعه العقاب و نحو ذلك.تلك سنّه جاريه و عاده دائره بينهم،و كانت الملل القديمه من الوثنيين و غيرهم تعتقد أن

الحیاه الآخره نوع حیاه دنیویه یطرّد فیها قانون الأسباب و یحکم فیها ناموس التأثیر و التأثر المادی الطبیعی،فیقدمون الی آلهتهم أنواع القرابین و الهدایا للصفح عن جرائمهم أو الإمداد فی حوائجهم،أو یستشفعون بها،أو یفدون بشیء عن جریمه أو یستنصرون بنفس أو سلاح حتی أنهم کانوا یدفنون مع الأموات أنواع الزخرف و الزینه،لیکون معهم ما یتمتعون به فی آخرتهم،و من أنواع السلاح ما یدافعون به عن أنفسهم،و ربما ألحدوا معه من الجواری من یستأنس بها،و من الأبطال من یستنصر به المیت،و توجد الیوم فی المتاحف بین الآثار الارضیه عتائق کثیره من هذا القبیل،و یوجد عقائد متنوعه شبیهه بتلک العقائد بین الملل الإسلامیه علی اختلاف السنتهم و الوانهم،بقیت بینهم بالتوارث،ربما تلونت لونا بعد لون، جیلا بعد جیل،و قد أبطل القرآن جمیع هذه الآراء الواهیه،و الاقاویل الکاذبه،فقد قال عزّ من قائل: وَ الْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ (الانفطار۱۹/)،و قال: وَ رَأَوُا الْعَذٰابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبٰابُ (البقره۱۶۶/)،و قال: وَ لَقَدْ جِئْتُمُونٰا فُرٰادیٰ کَمٰا خَلَقْنٰاکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ تَرَکْتُمْ مٰا خَوَّلْنٰاکُمْ وَرٰاءَ ظُهُورِکُمْ وَ مٰا نَریٰ مَعَکُمْ شُفَعٰاءَکُمُ الَّذِینَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِیکُمْ شُرَکٰاءُ،لَقَدْ تَقَطَّعَ بَیْنَکُمْ وَ ضَلَّ عَنْکُمْ مٰا کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام۹۴/)،و قال: هُنٰالِکَ تَبْلُوا کُلُّ نَفْسٍ مٰا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَی اللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا کٰانُوا یَفْتَرُونَ (یونس۳۰/)،الی غیر ذلک من الآیات التی بین فیها:ان الموطن خال عن الأسباب الدنیویه،و بمعزل عن الارتباطات الطبیعیه،و هذا اصل یتفرع علیه بطلان کل واحد من تلک الأقاویل و الأوهام علی طریق الإجمال،ثم فصل القول فی نفی واحد واحد منها و إبطاله فقال: وَ اتَّقُوا یَوْماً لاٰ تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَیْئاً وَ لاٰ یُقْبَلُ مِنْهٰا شَفٰاعَهٌ وَ لاٰ یُؤْخَذُ مِنْهٰا عَدْلٌ وَ لاٰ هُمْ یُنْصَرُونَ (البقره۴۸/)،و قال: یَوْمٌ لاٰ بَیْعٌ فِیهِ،وَ لاٰ خُلَّهٌ،وَ لاٰ شَفٰاعَهٌ (البقره۲۵۴/)،و قال:

یَوْمَ لاٰ یُغْنِی مَوْلًی عَنْ مَوْلًی شَیْئاً (الدخان۴۱/)،و قال: یَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِینَ مٰا لَکُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ (المؤمنون۳۳/)،و قال: مٰا لَکُمْ لاٰ تَنٰاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْیَوْمَ

مُسْتَسْلِمُونَ (الصافات۲۶/)،و قال: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اللّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (يونس۱۸/)،و قال: مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لاٰ شَفِيعٍ يُطٰاعُ (المؤمن۱۸/)،و قال: فَمٰا لَنٰا مِنْ شٰافِعِينَ وَ لاٰ صَدِيقٍ حَمِيمٍ (الشعراء۱۰۱/)،الى غير ذلك من الآيات الكريمه النافيه لوقوع الشفاعه و تأثير الوسائط و الاسباب يوم القيامه هذا.

ثم إن القرآن مع ذلك لا ينفى الشفاعه من أصلها،بل يثبتها بعض الإثبات،قال تعالى:

اَللّٰهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ شَفِيعٍ أَ فَلاٰ تَتَذَكَّرُونَ (السجده۳/)،و قال تعالى: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لاٰ شَفِيعٌ (الأنعام۵۱/)،و قال تعالى: قُلْ لِلّٰهِ الشَّفٰاعَةُ جَمِيعاً (الزمر۴۴/)،و قال تعالى:

لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ،يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ (البقره۲۵۵/)،و قال تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللّٰهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مٰا مِنْ شَفِيعٍ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ (يونس۳/)،و قال تعالى: وَ قٰالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ بَلْ عِبٰادٌ مُكْرَمُونَ لاٰ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ لاٰ يَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ارْتَضىٰ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (الأنبياء۲۸/)،و قال: وَ لاٰ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفٰاعَةَ إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف۸۶/)،و قال: لاٰ يَمْلِكُونَ الشَّفٰاعَةَ إِلاّٰ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً (مريم۸۷/)،و قال تعالى: يَوْمَئِذٍ لاٰ تَنْفَعُ الشَّفٰاعَةُ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلاً، يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ لاٰ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (طه۱۱۰/)،و قال تعالى: وَ لاٰ تَنْفَعُ الشَّفٰاعَةُ عِنْدَهُ إِلاّٰ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ (سبأ۲۳/)،و قال تعالى: وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰاوٰاتِ لاٰ تُغْنِي شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللّٰهُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَرْضىٰ (النجم/ ۲۶)،فهذه الآيات كما ترى بين ما يحكم باختصاص الشفاعه باللّه عز اسمه كالآيات الثلاثه

الأولی و بین ما یعممها لغیره تعالی باذنه و ارتضائه و نحو ذلک،و کیف کان فهی تثبت الشفاعه بلا ریب،غیر ان بعضها تثبتها بنحو الاصاله للّه وحده من غیر شریک،و بعضها تثبتها لغیره باذنه و ارتضائه،و قد عرفت أن هناک آیات تنفیها فتکون النسبه بین هذه الآیات کالنسبه بین الآیات النافیه لعلم الغیب عن غیره،و اثباته له تعالی بالاختصاص و لغیره بارتضائه،قال تعالی: قُلْ لاٰ یَعْلَمُ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَیْبَ (النمل/۶۵)،و قال تعالی: وَ عِنْدَهُ مَفٰاتِحُ الْغَیْبِ لاٰ یَعْلَمُهٰا إِلاّٰ هُوَ (الأنعام/۵۹)و قال تعالی: عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ (الجن/۲۷)،و کذلک الآیات الناطقه فی التوفی و الخلق و الرزق و التأثیر و الحکم و الملک و غیر ذلک فانها شائعه فی اسلوب القرآن،حیث ینفی کل کمال عن غیره تعالی،ثم یثبته لنفسه،ثم یثبته لغیره باذنه و مشیّته،فتفید ان الموجودات غیره تعالی لا تملک ما تملک من هذه الکمالات بنفسها و استقلالها،و إنما تملکها بتملیک اللّه لها إیاها، حتی أن القرآن تثبت نوعا من المشیه فی ما حکم فیه و قضی علیه بقضاء حتم،کقوله تعالی:

فَأَمَّا الَّذِینَ شَقُوا فَفِی النّٰارِ لَهُمْ فِیهٰا زَفِیرٌ وَ شَهِیقٌ خٰالِدِینَ فِیهٰا مٰا دٰامَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّکَ،إِنَّ رَبَّکَ فَعّٰالٌ لِمٰا یُرِیدُ وَ أَمَّا الَّذِینَ سُعِدُوا فَفِی الْجَنَّهِ خٰالِدِینَ فِیهٰا مٰا دٰامَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّکَ عَطٰاءً غَیْرَ مَجْذُوذٍ (هود/۱۰۸)،فقد علق الخلود بالمشیه و خاصه فی خلود الجنه مع حکمه بأن العطاء غیر مجذوذ،اشعارا بأن قضائه تعالی بالخلود لا یخرج الأمر من یده و لا یبطل سلطانه و ملکه عزّ سلطانه کما یدل علی قوله: إِنَّ رَبَّکَ فَعّٰالٌ لِمٰا یُرِیدُ (هود/۱۰۷)،و بالجمله لا إعطاء هناک یخرج الأمر من یده و یوجب له الفقر،و لا ممنع یضطره الی حفظ ما منعه و إبطال سلطانه تعالی.

و من هنا یظهر أن الآیات النافیه للشفاعه،إن کانت ناظره الی یوم القیامه فإنما تنفیها عن غیره تعالی بمعنی الاستقلال فی الملک،و الآیات المثبته تثبتها للّه سبحانه بنحو الأصاله،و لغیره تعالی باذنه و تملیکه،فالشفاعه ثابته لغیره تعالی باذنه فلننظر ما ذا یفید کلامه فی معنی

الشفاعه و متعلقها؟و فيمن تجرى؟و ممن تصح؟و متى تتحقق؟و ما نسبتها الى العفو و المغفره منه تعالى؟و نحو ذلک فى أمور (۱)(۲)(۳)(۴).

[سوره البقره (۲): الآیات ۴۹ الی ۶۱]

اشاره

وَ إِذْ نَجَّيْنٰاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ اَلْعَذٰابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنٰاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسٰاءَكُمْ وَ فِي ذٰلِكُمْ بَلاٰءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (۴۹) وَ إِذْ فَرَقْنٰا بِكُمُ اَلْبَحْرَ فَأَنْجَيْنٰاكُمْ وَ أَغْرَقْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۵۰) وَ إِذْ وٰاعَدْنٰا مُوسىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اِتَّخَذْتُمُ اَلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظٰالِمُونَ (۵۱) ثُمَّ عَفَوْنٰا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۵۲) وَ إِذْ آتَيْنٰا مُوسَى اَلْكِتٰابَ وَ اَلْفُرْقٰانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۵۳) وَ إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يٰا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخٰاذِكُمُ اَلْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلىٰ بٰارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بٰارِئِكُمْ فَتٰابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ اَلتَّوّٰابُ اَلرَّحِيمُ (۵۴) وَ إِذْ قُلْتُمْ يٰا مُوسىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى نَرَى اَللّٰهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ اَلصّٰاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۵۵) ثُمَّ بَعَثْنٰاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۵۶) وَ ظَلَّلْنٰا عَلَيْكُمُ اَلْغَمٰامَ وَ أَنْزَلْنٰا عَلَيْكُمُ اَلْمَنَّ وَ اَلسَّلْوىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاكُمْ وَ مٰا ظَلَمُونٰا وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۵۷) وَ إِذْ قُلْنَا اُدْخُلُوا هٰذِهِ اَلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهٰا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَ اُدْخُلُوا اَلْبٰابَ سُجَّداً وَ قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطٰايٰاكُمْ وَ سَنَزِيدُ اَلْمُحْسِنِينَ (۵۸) فَبَدَّلَ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ اَلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنٰا عَلَى اَلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ اَلسَّمٰاءِ بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ (۵۹) وَ إِذِ اِسْتَسْقىٰ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اِضْرِبْ بِعَصٰاكَ اَلْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اِثْنَتٰا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنٰاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَ اِشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اَللّٰهِ وَ لاٰ تَعْثَوْا فِي اَلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۶۰) وَ إِذْ قُلْتُمْ يٰا مُوسىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلىٰ طَعٰامٍ وٰاحِدٍ فَادْعُ لَنٰا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنٰا مِمّٰا تُنْبِتُ اَلْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهٰا وَ قِثّٰائِهٰا وَ فُومِهٰا وَ عَدَسِهٰا وَ بَصَلِهٰا قٰالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ اَلَّذِي هُوَ أَدْنىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اِهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مٰا سَأَلْتُمْ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ اَلذِّلَّةُ وَ اَلْمَسْكَنَةُ وَ بٰاؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اَللّٰهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كٰانُوا يَكْفُرُونَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ وَ يَقْتُلُونَ اَلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ اَلْحَقِّ ذٰلِكَ بِمٰا عَصَوْا وَ كٰانُوا يَعْتَدُونَ (۶۱)

۱- ۱) .البقره ۴۷-۴۸:بحث حول الشفاعه؛ما هى الشفاعه؟؛اشكالات الشفاعه؛فيمن تجرى الشفاعه؟؛متى تنفع الشفاعه؟

۲- ۲) .البقره ۴۷-۴۸:بحث روائى حول الشفاعه.

۳- ۳) .البقره ۴۷-۴۸:بحث فلسفى حول النفس و سعادتها و شقاوتها.

۴- ۴) .البقره ۴۷-۴۸:بحث اجتماعى حول القانون و ضمان تنفيذه و موضوع الجزاء و الشفاعه؛طريقه الحكومات التى تلت زمن الرسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حول احكام اللّه تعالى.

بيان:

قوله تعالى: وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ،أى يتركونهنّ احياء للخدمه من غير أن يقتلوهنّ كالأبناء فالاستحياء طلب الحياه و يمكن أن يكون المعنى و يفعلون ما يوجب زوال حيائهنّ من المنكرات،و معنى يسومونكم يولّونكم.

قوله تعالى: وَ إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ،الفرق مقابل الجمع كالفصل و الوصل،و الفرق فى البحر الشق و الباء للسببيه أو الملابسه أى فرقنا لإنجائكم البحر أو لملابستكم دخول البحر.

قوله تعالى: وَ إِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ،و قصّ تعالى القصه فى سوره الأعراف بقوله: وَ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً (الأعراف/۱۴۲)،فعد المواعده فيها أربعين ليله إما للتغليب أو لأنه كانت العشره الأخيره بمواعده أخرى فالأربعون مجموع المواعدتين كما وردت به الروايه.

قوله تعالى: فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ البارئ من الأسماء الحسنى كما قال تعالى: هُوَ اللّٰهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (الحشر/۲۴)،وقع فى ثلاث مواضع من كلامه تعالى:اثنان منها فى هذه الآيه و لعله خصّ بالذكر هاهنا من بين الأسماء الملائمه معناه للمورد لأنه قريب المعنى من الخالق و الموجد،من برء يبرأ براء اذا فصل لأنه يفصل الخلق من العدم أو الانسان من الأرض،فكأنه تعالى يقول:هذه التوبه و قتلكم أنفسكم و إن كان أشق ما يكون من الأوامر لكن اللّه الذى أمركم بهذا الفناء و الزوال بالقتل هو الذى برأكم فالذى أحب وجودكم و هو خير لكم هو يحب الآن حلول القتل عليكم فهو خير لكم و كيف لا يحب خيركم

و قد برأكم،فاختيار لفظ البارئ باضافته اليهم فى قوله: إِلىٰ بٰارِئِكَمْ ،و قوله عِنْدَ بٰارِئِكَمْ للاشعار بالاختصاص لإثاره المحبه.

و قوله تعالى: ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بٰارِئِكُمْ ظاهر الآيه و ما تقدمها أن هذه الخطابات و ما وقع فيها من عد أنواع تعدياتهم و معاصيهم إنما نسبت الى الكل مع كونها صادره عن البعض لكونهم جامعه ذات قوميه واحده يرضى بعضهم بفعل بعض،و ينسب فعل بعضهم الى آخرين.لمكان الوحده الموجوده فيهم،فما كل بنى اسرائيل عبدوا العجل،و لا كلهم قتلوا الأنبياء الى غير ذلك من معاصيهم و على هذا فقوله تعالى: فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ،إنما يعني به قتل البعض و هم الذين عبدوا العجل كما يدل على أيضا قوله تعالى: إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخٰاذِكُمُ الْعِجْلَ ،و قوله تعالى: ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بٰارِئِكُمْ تتمه الحكايه من قول موسى كما هو الظاهر،و قوله تعالى: فَتٰابَ عَلَيْكُمْ يدل على نزول التوبه و قبولها،و قد وردت الروايه أن التوبه نزلت و لما يقتل جميع المجرمين منهم.

و من هنا يظهر أن الأمر كان أمرا امتحانيا نظير ما وقع فى قصه رؤيا ابراهيم عليه السّلام و ذبح اسماعيل: يٰا إِبْرٰاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيٰا (الصافات۱۰۵/)،فقد ذكر موسى عليه السّلام فتوبوا الى بارئكم و اقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم،و أمضى اللّه سبحانه قوله عليه السّلام و جعل قتل البعض قتلا للكل و أنزل التوبه بقوله: فَتٰابَ عَلَيْكُمْ .

قوله تعالى: رِجْزاً مِنَ السَّمٰاءِ ،الرجز العذاب.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَعْثَوْا ،العيث و العثى أشد الفساد.

قوله تعالى: وَ قِثّٰائِهٰا وَ فُومِهٰا ،القثّاء الخيار و الفوم الثوم او الحنطه.

قوله تعالى: وَ بٰاؤُ بِغَضَبٍ ،أى رجعوا.

قوله تعالى: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كٰانُوا يَكْفُرُونَ ،تعليل لما تقدمه.

قوله تعالى: ذٰلِكَ بِمٰا عَصَوْا ،تعليل للتعليل فعصيانهم و مداومتهم للاعتداء هو

الموجب لكفرهم بالآيات و قتلهم الأنبياء كما قال تعالى: ثُمَّ كٰانَ عٰاقِبَةَ الَّذِينَ أَسٰاؤُا السُّوایٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ اللّٰهِ وَ كٰانُوا بِهٰا يَسْتَهْزِؤُنَ (الروم/١٠)،و فى التعليل بالمعصيه وجه سيأتى فى البحث الآتى.

[سوره البقره (٢): آيه ۶٢]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ اَلَّذِينَ هٰادُوا وَ اَلنَّصٰارىٰ وَ اَلصّٰابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ (۶٢)

بيان:

تكرار الإيمان ثانيا و هو الاتصاف بحقيقته كما يعطيه السياق يفيد أن المراد بالذين آمنوا فى صدر الآيه هم المتصفون بالإيمان ظاهرا المتسمون بهذا الاسم فيكون محصّل المعنى أن الأسماء و التسمى بها مثل المؤمنين و اليهود و النصارى و الصابئين لا يوجب عند اللّه تعالى أجرا و لا أمنا من العذاب كقولهم:لا يدخل الجنه الا من كان هودا أو نصارى،و إنما ملاك الامر و سبب الكرامه و السعاده حقيقه الإيمان باللّه و اليوم الآخر و العمل الصالح،و لذلك لم يقل من آمن منهم بإرجاع الضمير الى الموصول اللازم فى الصله لئلا يكون تقريرا للفائده فى التسمى على ما يعطيه النظم كما لا يخفى و هذا مما تكررت فيه آيات القرآن أن السعاده و الكرامه تدور مدار العبوديه،فلا اسم من هذه الأسماء ينفع لمتسميه شيئا،و لا وصف من أوصاف الكمال يبقى لصاحبه و ينجيه إلا مع لزوم العبوديه،الأنبياء و من دونهم فيه سواء،فقد قال تعالى فى أنبيائه بعد ما وصفهم بكل وصف جميل: وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام/ ٨٨)،و قال تعالى فى أصحاب نبيّه و من آمن معه مع ما ذكر من عظم شأنهم و علو قدرهم:

وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَهً وَ أَجْراً عَظِيماً (الفتح۲۹/)،فأتی بکلمه منهم و قال فی غیرهم ممن اوتی آیات اللّه تعالی: وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَ لکِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَی الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ (الأعراف۱۷۶/)،الی غیر ذلک من الآیات الناصّه علی أن الکرامه بالحقیقه دون الظاهر (۱).

[سوره البقره (۲): الآیات ۶۳ الی ۷۴]

اشاره

وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَکُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَکُمُ اَلطُّورَ خُذُوا ما آتَیْناکُمْ بِقُوَّهٍ وَ اُذْکُرُوا ما فِیهِ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ (۶۳) ثُمَّ تَوَلَّیْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ فَلَوْ لا فَضْلُ اَللّهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَکُنْتُمْ مِنَ اَلْخاسِرِینَ (۶۴) وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ اَلَّذِینَ اِعْتَدَوْا مِنْکُمْ فِی اَلسَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ کُونُوا قِرَدَهً خاسِئِینَ (۶۵) فَجَعَلْناها نَکالاً لِما بَیْنَ یَدَیْها وَ ما خَلْفَها وَ مَوْعِظَهً لِلْمُتَّقِینَ (۶۶) وَ إِذْ قالَ مُوسی لِقَوْمِهِ إِنَّ اَللّهَ یَأْمُرُکُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَهً قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَکُونَ مِنَ اَلْجاهِلِینَ (۶۷) قالُوا اُدْعُ لَنا رَبَّکَ یُبَیِّنْ لَنا ما هِیَ قالَ إِنَّهُ یَقُولُ إِنَّها بَقَرَهٌ لا فارِضٌ وَ لا بِکْرٌ عَوانٌ بَیْنَ ذلِکَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ (۶۸) قالُوا اُدْعُ لَنا رَبَّکَ یُبَیِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ یَقُولُ إِنَّها بَقَرَهٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ اَلنّاظِرِینَ (۶۹) قالُوا اُدْعُ لَنا رَبَّکَ یُبَیِّنْ لَنا ما هِیَ إِنَّ اَلْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَیْنا وَ إِنّا إِنْ شاءَ اَللّهُ لَمُهْتَدُونَ (۷۰) قالَ إِنَّهُ یَقُولُ إِنَّها بَقَرَهٌ لا ذَلُولٌ تُثِیرُ اَلْأَرْضَ وَ لا تَسْقِی اَلْحَرْثَ مُسَلَّمَهٌ لا شِیَهَ فِیها قالُوا اَلْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَ ما کادُوا یَفْعَلُونَ (۷۱) وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُمْ فِیها وَ اَللّهُ مُخْرِجٌ ما کُنْتُمْ تَکْتُمُونَ (۷۲) فَقُلْنا اِضْرِبُوهُ بِبَعْضِها کَذلِکَ یُحْیِ اَللّهُ اَلْمَوْتی وَ یُرِیکُمْ آیاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (۷۳) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُکُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ فَهِیَ کَالْحِجارَهِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَهً وَ إِنَّ مِنَ اَلْحِجارَهِ لَما یَتَفَجَّرُ مِنْهُ اَلْأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَما یَشَّقَّقُ فَیَخْرُجُ مِنْهُ اَلْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَما یَهْبِطُ مِنْ خَشْیَهِ اَللّهِ وَ مَا اَللّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ (۷۴)

۱- ۱) .البقره ۶۲:بحث تاریخی حول الصابئین و عقائدهم و اعمالهم.

بیان:

قوله تعالی: وَ رَفَعْنا فَوْقَکُمُ الطُّورَ ،الطول هو الجبل کما بدّله منه فی قوله تعالی:

وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ کَأَنَّهُ ظُلَّهٌ (الأعراف۱۷۱/)،و النتق هو الجذب و الاقتلاع، و سیاق الآیه حیث ذکر أخذ المیثاق أولا و الأمر بأخذ ما أوتوا و ذکر ما فیه أخیرا و وضع رفع الطور فوقهم بین الأمرین مع السکوت عن سبب الرفع و غایتها یدل علی أنه کان لإرهابهم بعظمه القدره من دون أن یکون لإجبارهم و إکراههم علی العمل بما اوتوه و إلا لم یکن لأخذ المیثاق وجه،فما ربما یقال:أن رفع الجبل فوقهم لو کان علی ظاهره کان آیه معجزه

ص :۹۴

و أوجب إجبارهم و إكراههم على العمل.و قد قال سبحانه: لاٰ إِكْرٰاهَ فِي الدِّينِ (البقره/ ۲۵۶)،و قال تعالى: أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النّٰاسَ حَتّٰى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس۹۹/)،غير وجيه فإن الآيه كما مر لا تدل على أزيد من الإخافه و الإرهاب و لو كان مجرد رفع الجبل فوق بنى اسرائيل إكراها لهم على الإيمان او العمل،لكان أغلب معجزات موسى موجبه للإكراه،نعم هذا التأويل و صرف الآيه عن ظاهرها،و القول بأن بنى اسرائيل كانوا فى أصل الجبل فزلزل و زعزع حتى أظل رأسه عليهم،فظنوا أنه واقع بهم فعبّر عنها برفعه فوقهم أو نتقه فوقهم،مبنى على أصل إنكار المعجزات و خوارق العادات،و قد مر الكلام فيها و لو جاز أمثال هذه التأويلات لم يبق للكلام ظهور،و لا لبلاغه الكلام و فصاحته أصل تتكى عليه و تقوم به.

قوله تعالى: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .لعلّ كلمه ترجّ و اللازم فى الترجى صحته فى الكلام كان قائما بنفس المتكلم أو المخاطب أو بالمقام،كأن يكون المقام مقام رجاء و إن لم يكن للمتكلم و المخاطب رجاء فيه و هو لا يخلو عن شوب جهل بعاقبه الامر فالرجاء فى كلامه تعالى إما بملاحظه المخاطب أو بملاحظه المقام.و أما هو تعالى فيستحيل نسبه الرجال إليه لعلمه بعواقب الامور،كما نبه عليه الراغب فى مفرداته.

قوله تعالى: كُونُوا قِرَدَةً خٰاسِئِينَ أى صاغرين.

قوله تعالى: فَجَعَلْنٰاهٰا نَكٰالاً أى عبره يعتبر بها،و النكال هو ما يفعل من الإذلال و الإهانه بواحد ليعتبر به آخرون.

قوله تعالى: وَ إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً الخ؛ هذه قصه بقره بنى اسرائيل،و بها سميت السوره سوره البقره.و الأمر فى بيان القرآن لهذه القصه عجيب فان القصه فصل بعضها عن بعض حيث قال تعالى: وَ إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ الى آخره؛ثم قال: وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّٰارَأْتُمْ فِيهٰا ثم أنه أخرج فصل منها من وسطها و قدم

أولاـ و وضع صدر القصه و ذيلها ثانيا،ثم إن الكلام كان مع بنى اسرائيل فى الآيات السابقه بنحو الخطاب فانتقل بالالتفات الى الغيبه حيث قال:و اذ قال موسى لقومه ثم التفت الى الخطاب ثانيا بقوله: وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُمْ فِيها .

فقوله تعالى: وَ إِذْ قالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ خطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو كلام فى صوره قصه و انما هى مقدمه توضيحيه للخطاب التالى لم يذكر معها السبب الباعث على هذا الامر و الغايه المقصوده منها بل اطلقت إطلاقا ليتنبه بذلك نفس السامع و تقف موقف التجسس، و تنشط اذا سمعت أصل القصه،و نالت الارتباط بين الكلامين،و لذلك لما سمعت بنو اسرائيل قوله: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً تعجبوا من ذلک و لم يحملوه إلاّ على أن نبى اللّه موسى يستهزئ بهم لعدم وجود رابطه عندهم بين ذبح البقره و ما يسألونه من فصل الخصومه و الحصول على القاتل قالوا أ تتخذنا هزوا و سخريه.

و انما قالوا ذلک لفقدهم روح الإطاعه و السمع و استقرار ملكه الاستكبار و العتو فيهم، و قولهم:إنا لا نحوم حول التقليد و المذموم،و انما نؤمن بما نشاهده و نراه كما قالوا لموسى:لن نؤمن لک حتى نرى اللّه جهره و انما وقعوا فيما وقعوا من جهه استقلالهم فى الحكم و القضاء فيما لهم ذلک،و فيما ليس لهم ذلک فحكموا بالمحسوس على المعقول فطالبوا معاينه الرب بالحس الباصر و قالوا: يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلٰهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (الأعراف/۱۳۸)، و زعموا أن نبيهم موسى مثلهم يتهوس كتهوسهم،و يلعب كلعبهم،فرموه بالاستهزاء و السفه و الجهاله حتى رد عليهم،و قال أعوذ باللّه أن أكون من الجاهلين،و انما استعاذ باللّه و لم يخبر عن نفسه بأنه ليس بجاهل لأن ذلک منه عليه السّلام أخذ بالعصمه الإلهيه التى لا تتخلف لا الحكمه الخلقيه التى ربما تتخلف.

و زعموا أن ليس للانسان أن يقبل قولاـ إلاّـ عن دليل،و هذا حق،لكنهم غلطوا فى زعمهم أن كل حكم يجب العثور على دليله تفصيلا و لا يكفى فى ذلک الإجمال و من أجل ذلک طالبوا

تفصیل أوصاف البقره لحکمهم أن نوع البقر لیس فیه خاصه الأحیاء فإن کان و لا- بد فهو فی فرد خاص منه یجب تعیینه بأوصاف کامله البیان و لذلک قالوا ادع لنا ربک یبین لنا ما هی، و هذا تشدید منهم علی أنفسهم من غیر جهه فشدد اللّه علیهم،و قال موسی انه یقول إنها بقره لا فارض،أی لیست بمسنه انقطعت ولادتها و لا بکر أی لم تلد عوان بین ذلک،و العوان من النساء و البهائم ما هو فی منتصف السن أی واقعه فی السن بین ما ذکر من الفارض و البکر،ثم ترحم علیهم ربهم فوعظهم أن لا یلحوا فی السؤال،و لا یشددوا علی أنفسهم و یقنعوا بما بین لهم فقال:فافعلوا ما تؤمرون،لکنهم لم یرتدعوا بذلک بل قالوا ادع لنا ربک یبین لنا ما لونها، قال إنه یقول انها بقره صفراء فاقع شدید الصفره فی صفاء لونها تسر الناظرین و تم بذلک وصف البقره بیانا،و اتضح أنها ما هی و ما لونها و هم مع ذلک لم یرضوا به،و أعادوا کلامهم الأول،من غیر تحجب و انقباض و قالوا ادع لنا ربک یبین لنا ما هی إن البقر تشابه علینا و إنا إن شاء اللّه لمهتدون،فأجابهم ثانیا بتوضیح فی ماهیتها و لونها و قال إنه یقول إنها بقره لا ذلول أی غیر مذلله بالحرث و السقی تثیر الأرض بالشیار و لا تسقی الحرث فلما تم علیهم البیان و لم یجدوا ما یسألونه قالوا الآن جئت بالحق قول من یعترف بالحقیقه بالإلزام و الحجه من غیر أن یجد الی الرد سبیلا،فیعترف بالحق اضطرارا،و یعتذر عن المبادره الی الإنکار بأن القول لم یکن مبینا من قبل،و لا بینا تاما.و الدلیل علی ذلک قوله تعالی: فَذَبَحُوها وَ ما کادُوا یَفْعَلُونَ.

قوله تعالی: وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُمْ فِیها ،شروع فی أصل القصه و التدارؤ هو التدافع من الدرء بمعنی الدفع فقد کانوا قتلوا نفسا- و کل طائفه منهم یدفع الدم عن نفسها الی غیرها-و اراد اللّه سبحانه إظهار ما کتموه.

قوله تعالی: فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها ،أول الضمیرین راجع الی النفس باعتبار أنه قتیل،و ثانیهما الی البقره،و قد قیل:إن المراد بالقصه بیان أصل تشریع الحکم حتی ینطبق علی الحکم المذکور فی التوریه الذی نقلناه،و المراد بإحیاء الموتی العثور

بوسیله تشریع هـذا الحکم علی دم المقتول،نظر ما ذکره تعالی بقوله: وَ لَکُمْ فِی الْقِصٰاصِ حَیٰاةٌ (البقره۱۷۹/)،من دون أن یکون هناک إحیاء بنحو الإعجاز هذا،و أنت خبیر بأن سیاق الکلام و خاصه قوله تعالی: فَقُلْنٰا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهٰا کَذٰلِکَ یُحْیِ اللّٰهُ الْمَوْتیٰ ،یأبی ذلک.

قوله تعالی: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُکُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ فَهِیَ کَالْحِجٰارَهِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً القسوه فی القلب بمنزله الصلابه فی الحجر و کلمه أو بمعنی بل،و المراد بکونها بمعنی بل انطباق معناه علی موردها،و قد بین شده قسوه قلوبهم بقوله: وَ إِنَّ مِنَ الْحِجٰارَهِ لَمٰا یَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهٰارُ ،و قوبل فیه بین الحجاره و الماء لکون الحجاره یضرب بها المثل فی الصلابه ککون الماء یضرب به المثل فی اللین فهذه الحجاره علی کمال صلابتها یتفجر منها الأنهار علی لین مائها و تشقق فیخرج منها الماء علی لینه و صلابتها،و لا یصدر من قلوبهم حال یلائم الحق، و لا قول حق یلائم الکمال الواقع.

قوله تعالی: وَ إِنَّ مِنْهٰا لَمٰا یَهْبِطُ مِنْ خَشْیَهِ اللّٰهِ ،و هبوط الحجاره ما نشاهد من انشقاق الصخور علی قلل الجبال،و هبوط قطعات منها بواسطه قطعات منها بواسطه الزلازل،و صیروره الجمد الذی یتخللها فی فصل الشتاء ماء فی فصل الربیع الی غیر ذلک، وعد هذا الهبوط المستند الی أسبابها الطبیعیه هبوطا من خشیه اللّه تعالی لأن جمیع الأسباب منتهیه الی اللّه سبحانه فانفعال الحجاره فی هبوطها عن سببها الخاص بها انفعال عن أمر اللّه سبحانه ایاها بالهبوط،و هی شاعره لأمر ربها شعورا تکوینیا،کما قال تعالی:

وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ،وَ لٰکِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِیحَهُمْ (الإسراء۴۴/)،و قال تعالی: کُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ (البقره۱۱۶/)،و الانفعال الشعوری هو الخشیه فهی هابطه من خشیه اللّه تعالی،فالآیه جاریه مجری قوله تعالی: وَ یُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلاٰئِکَهُ مِنْ خِیفَتِهِ (الرعد۱۳/)،و قوله تعالی: وَ لِلّٰهِ یَسْجُدُ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ کَرْهاً

وَ ظِلاٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ (الرعد۱۵/)،حیث عد صوت الرعد تسبیحا بالحمد و عد الظلال ساجده للّه سبحانه الی غیر ذلک من الآیات التی جری القول فیها مجری التحلیل کما لا یخفی.

و بالجمله فقوله: وَ إِنَّ مِنْهٰا لَمٰا یَهْبِطُ ،بیان ثان لکون قلوبهم أقسی من الحجاره فإن الحجاره تخشی اللّه تعالی،فتهبط من خشیته،و قلوبهم لا تخشی اللّه تعالی و لا تهابه (۱)(۲).

[سوره البقره (۲): الآیات ۷۵ الی ۸۲]

اشاره

أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ یُؤْمِنُوا لَکُمْ وَ قَدْ کٰانَ فَرِیقٌ مِنْهُمْ یَسْمَعُونَ کَلاٰمَ اَللّٰهِ ثُمَّ یُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مٰا عَقَلُوهُ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ (۷۵) وَ إِذٰا لَقُوا اَلَّذِینَ آمَنُوا قٰالُوا آمَنّٰا وَ إِذٰا خَلاٰ بَعْضُهُمْ إِلیٰ بَعْضٍ قٰالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِمٰا فَتَحَ اَللّٰهُ عَلَیْکُمْ لِیُحَاجُّوکُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّکُمْ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (۷۶) أَ وَ لاٰ یَعْلَمُونَ أَنَّ اَللّٰهَ یَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ (۷۷) وَ مِنْهُمْ أُمِّیُّونَ لاٰ یَعْلَمُونَ اَلْکِتٰابَ إِلاّٰ أَمٰانِیَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاّٰ یَظُنُّونَ (۷۸) فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ یَکْتُبُونَ اَلْکِتٰابَ بِأَیْدِیهِمْ ثُمَّ یَقُولُونَ هٰذٰا مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ لِیَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِیلاً فَوَیْلٌ لَهُمْ مِمّٰا کَتَبَتْ أَیْدِیهِمْ وَ وَیْلٌ لَهُمْ مِمّٰا یَکْسِبُونَ (۷۹) وَ قٰالُوا لَنْ تَمَسَّنَا اَلنّٰارُ إِلاّٰ أَیّٰاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اَللّٰهِ عَهْداً فَلَنْ یُخْلِفَ اَللّٰهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَی اَللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (۸۰) بَلیٰ مَنْ کَسَبَ سَیِّئَةً وَ أَحٰاطَتْ بِهِ خَطِیئَتُهُ فَأُولٰئِکَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ (۸۱) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّةِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ (۸۲)

۱- ۱) .البقره ۶۳-۷۴:بحث فلسفی حول المعجزه و موضوع الرجوع من الفعل الی القوه؛احیاء الموتی؛المسخ.

۲- ۲) .البقره ۶۳-۷۴:بحث علمی و اخلاقی حول بنی اسرائیل،الانغمار فی الحیاه المادیه،سبب عدم تأثیر البحوث الاخلاقیه فی بعض الناس؛موضوع التقلید.

بيان:

السياق و خاصه ما فى ذيل الآيات يفيد أن اليهود عند الكفار،و خاصه كفار المدينه:

لقرب دارهم منهم كانوا يعرفون قبل البعثه ظهيرا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عندهم علم الدين و الكتاب،و لذلك كان الرجاء فى إيمانهم أكثر من غيرهم،و كان المتوقع أن يؤمنوا به أفواجا فيتأيد بذلك و يظهر نوره،و ينشر دعوته،و لما هاجر النبى الى المدينه و كان من أمرهم ما كان تبدل الرجاء قنوطا،و الطمع يأسا،و لذلك يقول سبحانه: أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ،الخ؛ يعنى أن كتمان الحقائق و تحريف الكلام من شيمهم،فلا ينبغى أن يستبعد نكولهم عما قالوا و نقضهم ما أبرموا.

قوله تعالى: أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ،فيه التفات من خطاب بنى اسرائيل الى خطاب النبى و الذين آمنوا و وضعهم موضع الغيبه و كان الوجه فيه أنه لما قصّ قصه البقره و عدل فيها من خطاب بنى اسرائيل الى غيبتهم لمكان التحريف الواقع فيها بحذفها من التوريه كما مر،اريد إتمام البيان بنحو الغيبه بالإشاره الى تحريفهم كتاب اللّه تعالى فصرف لذلك وجه

الکلام إلی الغیبه.

قوله تعالی: وَ إِذا لَقُوا الَّذِینَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وَ إِذا خَلا الـخ؛لا تقابل بین الشرطین و هما مـدخولا اذا فی الموضـعین کما فی قوله تعـالی: وَ إِذا لَقُوا الَّذِینَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وَ إِذا خَلَوْا إِلی شَیاطِینِهِمْ قالُوا إِنّا مَعَکُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (البقره/۱۴)،بل المراد بیان موضعین آخرین من مواضع جرائمهم و جهالتهم.

احدهما:أنهم ینافقون فیتظاهرون بالإیمان صونا لأنفسهم من الإیذاء و الطعن و القتل.

و ثانیهمـا:أنهم یریـدون تعمیه الأمر و إبهامه علی اللّه سـبحانه العالم بسـرهم و علانیتهم و ذلک أن العامه منهم،و هم أولو بساطه النفس ربما کانوا ینبسطون للمؤمنین،فیحدثونهم ببعض ما فی کتبهم من بشارات النبی أو ما ینفع المؤمنین فی تصدیق النبوه،کما یلوح من لحن الخطـاب فکان أولیائهم ینهونه معللا بأن ذلک مما فتـح اللّه لهم،فلا ینبغی أن یفشـی للمؤمنین، فیحاجوهم به عند ربهم کـأنهم لو لم یحـاجوهم به عنـد ربهم لم یطلع اللّه علیه فلم یؤاخـذهم بـذلک و لازم ذلـک أن اللّه تعالی إنما یعلم علانیه الأمر،دون سـره و باطنه و هـذا من الجهل بمکان، فرد اللّه سـبحانه علیهم بقوله: أَ وَ لا یَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ یَعْلَمُ ما یُسِرُّونَ وَ ما یُعْلِنُونَ الآیه؛فإن هـذا النوع من العلم-و هو ما یتعلق بظاهر الأمر دون باطنه-إنما هو العلم المنتهی الی الحس یفتقر الی بـدن مادی مجهز بآلات مادیه مقید بقیود الزمان و المکان مولود لعلل اخری مادیه و ما هو کذلک مصنوع من العالم لا صانع العالم.

قوله تعـالی: وَ مِنْهُمْ أُمِّیُّونَ لا یَعْلَمُونَ الْکِتابَ إِلاّ أَمانِیَّ ،الأمی من یقرأ و لا یکتب منسوب الی الام لأن عطوفه الام و شـفقتها کـانت تمنعهـا أن ترسـل ولـدها الی المعلـم و تسـلمه الی تربیتـه،فکـان یکتفی بـتربیه الأـم،و الامـانی جمـع امنیـه،و هی الأکـاذیب،فمحصـل المعنی انهـم بیـن مـن یقرأ الکتـاب و یکتبه فیحرفه و بین من لا یقرأ و لا یکتب و لا یعلم من الکتـاب الا اکاذیب المحرفین.

قوله تعالى:

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ،الويل هو الهلكه و العذاب الشديد و الحزن و الخزى و الهوان و كل ما يحذره الإنسان اشد الحذر و الاشتراء هو الابتياع.

قوله تعالى: فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ الخ؛الضمائر إما راجعه الى بنى اسرائيل أو لخصوص المحرفين منهم و لكل وجه و على الأول يثبت الويل للاميين منهم أيضا.

قوله تعالى: بَلىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحٰاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ الخ؛الخطيئه هى الحاله الحاصله للنفس من كسب السيئه،و لذلك أتى باحاطه الخطيئه بعد ذكر كسب السيئه و إحاطه الخطيئه توجب ان يكون الإنسان المحاط مقطوع الطريق الى النجاه كأن الهدايه لإحاطه الخطيئه به لا تجد اليه سبيلا فهو من أصحاب النار مخلدا فيها و لو كان فى قلبه شىء من الإيمان بالفعل،أو كان معه بعض ما لا يدفع الحق من الأخلاق و الملكات،كالانصاف و الخضوع للحق،أو ما يشابههما لكانت الهدايه و السعاده ممكنتى النفوذ اليه،فإحاطه الخطيئه لا تتحقق الا بالشرك الذى قال تعالى فيه: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ (النساء۴۸/)،و من جهه اخرى إلا بالكفر و تكذيب الآيات كما قال سبحانه:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (البقره۳۹/)، فكسب السيئه،و إحاطه الخطيئه كالكلمه الجامعه لما يوجب الخلود فى النار.

[سوره البقره (۲): الآيات ۸۳ الى ۸۸]

اشاره

وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ لاٰ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اَللّٰهَ وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً وَ ذِي اَلْقُرْبىٰ وَ اَلْيَتٰامىٰ وَ اَلْمَسٰاكِينِ وَ قُولُوا لِلنّٰاسِ حُسْناً وَ أَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ آتُوا اَلزَّكٰاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاّٰ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (۸۳) وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَكُمْ لاٰ تَسْفِكُونَ دِمٰاءَكُمْ وَ لاٰ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (۸۴) ثُمَّ أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيٰارِهِمْ تَظٰاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ اَلْعُدْوٰانِ وَ إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسٰارىٰ تُفٰادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرٰاجُهُمْ أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ اَلْكِتٰابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمٰا جَزٰاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلاّٰ خِزْيٌ فِي اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ يُرَدُّونَ إِلىٰ أَشَدِّ اَلْعَذٰابِ وَ مَا اَللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ (۸۵) أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ اِشْتَرَوُا اَلْحَيٰاةَ اَلدُّنْيٰا بِالْآخِرَةِ فَلاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ اَلْعَذٰابُ وَ لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ (۸۶) وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى اَلْكِتٰابَ وَ قَفَّيْنٰا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَيْنٰا عِيسَى اِبْنَ مَرْيَمَ اَلْبَيِّنٰاتِ وَ أَيَّدْنٰاهُ بِرُوحِ اَلْقُدُسِ أَ فَكُلَّمٰا جٰاءَكُمْ رَسُولٌ بِمٰا لاٰ تَهْوىٰ أَنْفُسُكُمُ اِسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ (۸۷) وَ قٰالُوا قُلُوبُنٰا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اَللّٰهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مٰا يُؤْمِنُونَ (۸۸)

بيان:

و قوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَ بَنِى إِسْرٰائِيلَ ،الآيه فى بديع نظمها تبتدى أولا بالغيبه و تنتهى الى الخطاب حيث تقول: ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاّٰ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ،ثم إنها

تذكر أولا الميثاق و هو أخذ للعهد،و لا يكون إلاّ بالقول،ثم تحكى ما أخذ عليه الميثاق فتبتدئ فيه بالخبر،حيث تقول:لا تعبدون إلاّ اللّه،و تختتم بالإنشاء حيث تقول و قولوا للناس حسنا،الخ.و لعل الوجه فى ذلك كله أن الآيات المتعرضه لحال بنى إسرائيل لما بدئت بالخطاب لمكان اشتمالها على التقريع و التوبيخ و جرت عليه كان سياق الكلام فيها الخطاب ثم لما تبدل الخطاب بالغيبه بعد قصه البقره لنكته داعيه إليها كما مر حتى انتهت الى هذه الآيه، فبدئت أيضا بالغيبه لكن الميثاق حيث كان بالقول و بنى على حكايته حكى بالخطاب فقيل:

لا تعبدون إلاّ اللّه،الخ؛و هو نهى فى صوره الخبر.و إنما فعل ذلك دلاله على شده الاهتمام به، كأن الناهى لا يشك فى عدم تحقق ما نهى عنه فى الخارج،و لا يرتاب فى أن المكلف المأخوذ عليه الميثاق سوف لا ينتهى عن نهيه،فلا يوقع الفعل قطعا و كذا قوله: وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً وَ ذِی الْقُرْبىٰ وَ الْيَتٰامىٰ وَ الْمَسٰاكِينِ ،كل ذلك أمر فى صوره الخبر.

ثم إن الانتقال الى الخطاب من قبل الحكايه أعطى فرصه للانتقال الى أصل الكلام،و هو خطاب بنى إسرائيل لمكان الاتصال فى قوله: وَ أَقِيمُوا الصَّلاٰهَ وَ آتُوا الزَّكٰاهَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ،الخ؛ و انتظم بذلك السياق.

قوله تعالى: وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً ،امر او خبر بمعنى الامر و التقدير و احسنوا بالوالدين إحسانا،و ذى القربى و اليتامى و المساكين،أو التقدير:و تحسنون بالوالدين إحسانا،الخ؛و قد رتب موارد الإحسان أخذا من الأهم و الأقرب الى المهم و الأبعد فقرابه الانسان أقرب إليه من غيرهم،و الوالدان و هما الأصل الذى تتكى عليه و تقوم به شجره وجوده أقرب من غيرهما من الأرحام،و فى غير القرابه أيضا اليتامى احق بالإحسان لصغرهم و فقدهم من يقوم بأمرهم من المساكين.هذا و قوله: وَ الْيَتٰامىٰ ،اليتيم من مات أبوه، و لا يقال لمن ماتت أمه يتيم.و قيل اليتيم فى الإنسان إنما تكون من جهه الأب و فى غير الإنسان من سائر الحيوان من جهه الأم و قوله تعالى: وَ الْمَسٰاكِينِ ،جمع مسكين و هو الفقير العادم

الذليل.و قوله تعالى: حُسْناً مصدر بمعنى الصفه جيء به للمبالغه.و فى بعض القراءات حسنا، بفتح الحاء و السين صفه مشبهه.و المعنى قولوا للناس حسنا،و هو كنايه عن حسن المعاشره مع الناس،كافرهم،و مؤمنهم و لا ينافى حكم القتال حتى تكون آيه القتال ناسخه له لأن مورد القتال غير مورد المعاشره فلا ينافى الأمر بحسن المعاشره كما أن القول الخشن فى مقام التأديب لا ينافى حسن المعاشره.

قوله تعالى: لاٰ تَسْفِكُونَ دِمٰاءَكُمْ ،خبر فى معنى الإنشاء نظير ما مر فى قوله: لاٰ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّٰهَ ،و السفك الصبّ.

قوله تعالى: تَظٰاهَرُونَ عَلَيْهِمْ ،التظاهر هو التعارف،و الظهير العون مأخوذ من الظهر لأن العون يلى ظهر الإنسان.

قوله تعالى: وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرٰاجُهُمْ ،الضمير للشأن و القصه كقوله تعالى:قل هو اللّه أحد.

قوله تعالى: أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتٰابِ ،أى ما هو الفرق بين الاخراج و الفديه حيث أخذتم بحكم الفديه و تركتم حكم الإخراج و هما جميعا فى الكتاب،أ فتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض.

قوله تعالى: وَ قَفَّيْنٰا ،التقفيه الاتباع و إتيان الواحد قفا الواحد.

قوله تعالى: وَ آتَيْنٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنٰاتِ ،سيأتى الكلام فيه فى سوره آل عمران.

قوله تعالى: وَ قٰالُوا قُلُوبُنٰا غُلْفٌ جمع أغلف من الغلاف أى قلوبنا محفوظه تحت لفائف و أستار و حجب،فهو نظير قوله تعالى: وَ قٰالُوا قُلُوبُنٰا فِى أَكِنَّهٍ مِمّٰا تَدْعُونٰا إِلَيْهِ (السجده/۵)،و هو كنايه عن عدم امكان استماع ما يدعون اليه.

[سوره البقره (۲): الآیات ۸۹ الی ۹۳]

اشاره

وَ لَمّٰا جٰاءَهُمْ كِتٰابٌ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ مُصَدِّقٌ لِمٰا مَعَهُمْ وَ كٰانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى اَلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ مٰا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اَللّٰهِ عَلَى اَلْكٰافِرِينَ (۸۹) بِئْسَمَا اِشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ فَبٰاؤُ بِغَضَبٍ عَلىٰ غَضَبٍ وَ لِلْكٰافِرِينَ عَذٰابٌ مُهِينٌ (۹۰) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ قٰالُوا نُؤْمِنُ بِمٰا أُنْزِلَ عَلَيْنٰا وَ يَكْفُرُونَ بِمٰا وَرٰاءَهُ وَ هُوَ اَلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمٰا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيٰاءَ اَللّٰهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۹۱) وَ لَقَدْ جٰاءَكُمْ مُوسىٰ بِالْبَيِّنٰاتِ ثُمَّ اِتَّخَذْتُمُ اَلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظٰالِمُونَ (۹۲) وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَكُمْ وَ رَفَعْنٰا فَوْقَكُمُ اَلطُّورَ خُذُوا مٰا آتَيْنٰاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اِسْمَعُوا قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ عَصَيْنٰا وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ اَلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمٰا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمٰانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۹۳)

بیان:

قوله تعالی: وَ لَمّٰا جٰاءَهُمْ الخ؛السیاق یدل علی أن هذا الکتاب هو القرآن.

ص: ۱۰۶

و قوله: وَ كٰانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ،على وقوع تعرض بهم من كفار العرب،و أنهم كانوا يستفتحون أى يطلبون الفتح عليهم ببعثه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هجرته و أن ذلك الاستفتاح قد استمر منهم قبل الهجره،بحيث كان الكفار من العرب أيضا يعرفون ذلك منهم لمكان قوله: كٰانُوا ،و قوله: فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ مٰا عَرَفُوا ،أى عرفوا أنه هو بانطباق ما كان عندهم من الأوصاف عليه كفروا.

و قوله تعالى: بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بيان لسبب كفرهم بعد العلم و أن السبب الوحيد فى ذلك هو البغى و الحسد،فقوله بغيا،مفعول مطلق نوعى.و قوله أن ينزل اللّه،متعلق به،و قوله تعالى: فَبٰاؤُ بِغَضَبٍ عَلىٰ غَضَبٍ ،أى رجعوا بمصاحبته أو بتلبس غضب بسبب كفرهم بالقرآن على غضب بسبب كفرهم بالتوراه من قبل،و المعنى أنهم كانوا قبل البعثه و الهجره ظهيرا للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مستفتحا به و بالكتاب النازل عليه،ثم لما نزل بهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نزل عليه القرآن و عرفوا أنه هو الذى كانوا يستفتحون به و ينتظرون قدومه هاج بهم الحسد،و أخذهم الاستكبار،فكفروا و أنكروا ما كانوا يذكرونه كما كانوا يكفرون بالتوراه من قبل،فكان ذلك منهم كفرا على كفر.

قوله تعالى: وَ يَكْفُرُونَ بِمٰا وَرٰاءَهُ ،أى يظهرون الكفر بما ورائه،و إلا فهم بالذى انزل إليهم و هو التوراه أيضا كافرون.

قوله تعالى: قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ ،الفاء للتفريع،و السؤال متفرع على قولهم:نؤمن بما انزل علينا،أى لو كان قولكم:نؤمن بما أنزل علينا حقا و صدقا فلم تقتلون أنبياء اللّه،و لم كفرتم بموسى باتخاذ العجل،و لم قلتم عند أخذ الميثاق و رفع الطور:سمعنا و عصينا.

قوله تعالى: وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ،الإشراف هو السقى،و المراد بالعجل حب العجل،وضع موضعه للمبالغه كأنهم قد أشربوا نفس العجل و به يتعلق قوله فى قلوبهم، ففى الكلام استعارتان أو استعاره و مجاز.

قوله تعالى: قُلْ بِئْسَمٰا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمٰانُكُمْ ،بمنزله أخذ النتيجه مما أورد عليهم من قتل الأنبياء و الكفر بموسى،و الاستكبار بإعلام المعصيه،و فيه معنى الاستهزاء بهم (1).

[سوره البقره (٢): الآيات ٩۴ الى ٩٩]

اشاره

قُلْ إِنْ كٰانَتْ لَكُمُ اَلدّٰارُ اَلْآخِرَهُ عِنْدَ اَللّٰهِ خٰالِصَهً مِنْ دُونِ اَلنّٰاسِ فَتَمَنَّوُا اَلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (٩۴) وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظّٰالِمِينَ (٩۵) وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ اَلنّٰاسِ عَلىٰ حَيٰاهٍ وَ مِنَ اَلَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَهٍ وَ مٰا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ اَلْعَذٰابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اَللّٰهُ بَصِيرٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ (٩۶) قُلْ مَنْ كٰانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اَللّٰهِ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدىً وَ بُشْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كٰانَ عَدُوًّا لِلّٰهِ وَ مَلاٰئِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكٰالَ فَإِنَّ اَللّٰهَ عَدُوٌّ لِلْكٰافِرِينَ (٩٨) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ وَ مٰا يَكْفُرُ بِهٰا إِلاَّ اَلْفٰاسِقُونَ (٩٩)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ إِنْ كٰانَتْ لَكُمُ الخ؛لما كان قولهم:لن تمسنا النار إلاّ أياما معدوده، و قولهم:نؤمن بما أنزل علينا فى جواب ما قيل لهم:آمنوا بما أنزل اللّه يدلان بالالتزام على

١- ١) .البقره ٨٩-٩٣:بحث روائى حول اليهود و تنبئهم بظهور نبى الاسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؛القسم،الحق و الباطل.

دعواهم أنهم ناجون فی الآخره دون غیرهم و أن نجاتهم و سعادتهم فیها غیر مشوبه بهلاک و شقاء لأنهم لیسوا بزعمهم بمعذبین إلاّ أیاما معدوده و هی أیام عبادتهم للعجل،قابلهم اللّه تعالی خطابا بما یظهر به کذبهم فی دعواهم و انهم یعلمون ذلک من غیر تردد و ارتیاب فقال تعالی لنبیه: قُلْ إِنْ کٰانَتْ لَکُمُ الدّٰارُ الْآخِرَهُ أی سعاده تلک الدار فإن من ملک دارا فإنما یتصرف فیها بما یستحسنه و یحبه و یحل منها بأجمل ما یمکن و أسعده و قوله تعالی: عِنْدَ اللّٰهِ أی مستقرا عنده تعالی و بحکمه و إذنه،فهو کقوله تعالی: إِنَّ الدِّینَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلاٰمُ (آل عمران۹/)،و قوله تعالی: خٰالِصَهً أی غیر مشوبه بما تکرهونه من عذاب أو هوان لزعمکم أنکم لا تعذبون فیها إلاّ أیاما معدوده،قوله تعالی: مِنْ دُونِ النّٰاسِ و ذلک لزعمکم بطلان کل دین إلاّ دینکم،و قوله تعالی: فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ و هذا کقوله تعالی: قُلْ یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ هٰادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّکُمْ أَوْلِیٰاءُ لِلّٰهِ مِنْ دُونِ النّٰاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (الجمعه۶/)و هذه مؤاخذه بلازم فطری بیّن الأثر فی الخارج بحیث لا یقع فیه أدنی الشک و هو إن الإنسان بل کل موجود ذی شعور اذا خیر بین الراحه و التعب اختار الراحه من غیر تردد و تذبذب و اذا خیر بین حیوه و عیشه مکدره مشوبه و أخری خالصه صافیه اختار الخالصه الهنیئه قطعا و لو فرض ابتلائه بما کان یمیل عنه الی غیره من حیوه شقیه ردیه أو عیشه منغصه لم یزل یتمنی الاخری الطیبه الهنیئه فلا ینفک عن التحسر له فی قلبه و عن ذکره فی لسانه و عن السعی إلیه فی عمله.

فلو کانوا صادقین فی دعواهم أن السعاده الخالصه الاخرویه لهم دون غیرهم من الناس وجب أن یتمنوه جنانا و لسانا و أرکانا و لن یتمنوه أبدا بما قدمت أیدیهم من قتل الأنبیاء و الکفر بموسی و نقض المواثیق و اللّه علیم بالظالمین.

قوله تعالی: بِمٰا قَدَّمَتْ أَیْدِیهِمْ کنایه عن العمل فإن معظم العمل عند الحس یقع بواسطه الید فیقدم بعد ذلک الی من ینتفع به أو یطلبه ففیه عنایتان نسبه التقدیم الی الأیدی

دون أصحاب الأيدى و عد كل فعل عملا للأيدى.

و بالجمله أعمال الإنسان و خاصه ما يستمر صدوره منه أحسن دليل على ما طوى عليه ضميره و ارتكز فى باطنه و الأعمال الطالحه و الأفعال الخبيثه لا يكشف إلاّ عن طويه خبيثه تأبى أن تميل الى لقاء اللّه و الحلول فى دار أوليائه.

قوله تعالى: وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النّاسِ عَلىٰ حَيٰاةٍ ،كالدليل المبين لقوله تعالى:و لن يتمنوه أبدا أى و يشهد على أنهم لن يتمنوا الموت،أنهم أحرص الناس على هذه الحياه الدنيا التى لا حاجب و لا مانع عن تمنى الدار الآخره إلاّ الحرص عليها و الإخلاد إليها، و التنكير فى قوله تعالى: عَلىٰ حَيٰاةٍ للتحقير كما قال تعالى: وَ مٰا هٰذِهِ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا إِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوٰانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت۶۴/).

قوله تعالى: وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الظاهر أنه عطف على الناس و المعنى و لتجدنهم أحرص من الذين أشركوا.

قوله تعالى: وَ مٰا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذٰابِ أَنْ يُعَمَّرَ ،الظاهر أن ما نافيه و ضمير هو إما للشأن و القصه و أن يعمر مبتدأ خبره قوله: بِمُزَحْزِحِهِ أى بمبعده،و إما راجع الى ما يدل عليه قوله: يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ،أى و ما الذى يوده بمزحزحه من العذاب.و قوله تعالى:

أَنْ يُعَمَّرَ بيان له و معنى الآيه و لن يتمنوا الموت و أقسم لتجدنهم أحرص الناس على هذه الحياه الحقيره الرديه الصارفه عن تلك الحياه السعيده الطيبه تجدهم أحرص على الحياه من الذين أشركوا الذين لا يرون بعثا و لا نشورا يود أحدهم لو يعمر أطول العمر و ليس أطول العمر بمبعده من العذاب لأن العمر و هو عمر بالأخره محدود منته الى أمد و أجل.

قوله تعالى: يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ،أى اطول العمر و أكثره،فالألف كنايه عن الكثره و هو آخر مراتب العدد بحسب الوضع الافرادى عند العرب و الزائد عليه يعبر عنه بالتكرير و التركيب كعشره آلاف و مائه ألف و ألف ألف.

ص:۱۱۰

قوله تعالى: وَ اللّهُ بَصِيرٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ ،البصير من أسمائه الحسنى و معناه العلم بالمبصرات فهو من شعب اسم العليم.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ كٰانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ الخ؛السياق يدل على أن الآيه نزلت جوابا عما قالته اليهود و أنهم تأبوا و استنكفوا عن الإيمان بما أنزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و عللوه بأنهم عدو لجبريل النازل بالوحى إليه.و الشاهد على ذلك أن اللّه سبحانه يجيبهم فى القرآن و فى جبريل معا فى الآيتين و ما ورد من شأن النزول يؤيد ذلك فأجاب عن قولهم:إنا لا نؤمن بالقرآن لعداوتنا لجبريل النازل به اولا:أن جبريل إنما نزل به على قلبك بإذن اللّه لا من عند نفسه فعداوتهم لجبريل لا ينبغى أن يوجب إعراضهم عن كلام نازل بإذن اللّه.و ثانيا:أن القرآن مصدق لما فى ايديهم من الكتاب الحق و لا معنى للإيمان بأمر و الكفر بما يصدقه.و ثالثا:أن القرآن هدى للمؤمنين به،رابعا:أنه بشرى و كيف يصح لعاقل أن ينحرف عن الهدايه و يغمض عن البشرى و لو كان الآتى بذلك عدوا له.

و أجاب عن قولهم:إنا عدو جبريل أن جبريل ملك من الملائكه لا شأن له إلاّ امتثال ما أمره به اللّه سبحانه كميكال و سائر الملائكه و هم عباد مكرمون لا يعصون اللّه فيما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون،و كذلك رسل اللّه لا شأن لهم إلاّ باللّه و من اللّه سبحانه فبغضهم و استعدائهم بغض و استعداء للّه و من كان عدو اللّه و ملائكته و رسله و جبريل و ميكال فإن اللّه عدو لهم،و إلى هذين الجوابين تشير الآيتان.

قوله تعالى: فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ ،فيه التفات من التكلم الى الخطاب و كان الظاهر أن يقال على قلبى،لكن بدل من الخطاب للدلاله على أن القرآن كما لا شأن فى إنزاله لجبريل و إنما هو مأمور مطيع كذلك لا شأن فى تلقيه و تبليغه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلاّ أن قلبه وعاء للوحى لا يملك منه شيئا و هو مأمور بالتبليغ.

قوله تعالى: عَدُوٌّ لِلْكٰافِرِينَ ،فيه وضع الظاهر موضع المضمر و النكته فيه الدلاله

على عله الحكم كانه قيل:فإن اللّه عدو لهم لأنهم كافرون و اللّه عدو للكافرين.

قوله تعالى: وَ مٰا يَكْفُرُ بِهٰا إِلاَّ الْفٰاسِقُونَ ،فيه دلاله على عله الكفر و أنه الفسق فهم لكفرهم فاسقون و لا يبعد أن يكون اللام فى قوله: اَلْفٰاسِقُونَ للعهد الذكرى،و يكون ذلك إشاره الى ما مر فى أوائل السوره من قوله تعالى: وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِينَ اَلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِيثٰاقِهِ ،الآيه.

و أما الكلام فى جبريل و كيفيه تنزيله القرآن على قلب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كذا الكلام فى ميكال و الملائكه فسيأتى فيما يناسبه من المحل إنشاء اللّه (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٠٠ الى ١٠١]

اشاره

أَ وَ كُلَّمٰا عٰاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَ لَمّٰا جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ مُصَدِّقٌ لِمٰا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ كِتٰابَ اَللّٰهِ وَرٰاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (١٠١)

بيان:

قوله تعالى: نَبَذَهُ ،النبذ الطرح.

قوله تعالى: وَ لَمّٰا جٰاءَهُمْ رَسُولٌ ،المراد به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا كل رسول كان يأتيهم مصدقا لما معهم،لعدم دلاله قوله: وَ لَمّٰا جٰاءَهُمْ على الاستمرار بل إنما يدل على

---

١ - ١) البقره ٩۴-٩٩:بحث روائى حول ملاقاه عدد من اليهود مع الرسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؛كيفيه نوم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؛ كيفيه ادراك النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى النوم.

الدفعه،و الآیه تشیر الی مخالفتهم للحق من حیث کتمانهم بشاره التوراه و عدم إیمانهم بمن یصدق ما معهم.

[سوره البقره (۲): الآیات ۱۰۲ الی ۱۰۳]

اشاره

وَ اِتَّبَعُوا مٰا تَتْلُوا اَلشَّیٰاطِینُ عَلیٰ مُلْکِ سُلَیْمٰانَ وَ مٰا کَفَرَ سُلَیْمٰانُ وَ لٰکِنَّ اَلشَّیٰاطِینَ کَفَرُوا یُعَلِّمُونَ اَلنّٰاسَ اَلسِّحْرَ وَ مٰا أُنْزِلَ عَلَی اَلْمَلَکَیْنِ بِبٰابِلَ هٰارُوتَ وَ مٰارُوتَ وَ مٰا یُعَلِّمٰانِ مِنْ أَحَدٍ حَتّٰی یَقُولاٰ إِنَّمٰا نَحْنُ فِتْنَهٌ فَلاٰ تَکْفُرْ فَیَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمٰا مٰا یُفَرِّقُونَ بِهِ بَیْنَ اَلْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ مٰا هُمْ بِضٰارِّینَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ یَتَعَلَّمُونَ مٰا یَضُرُّهُمْ وَ لاٰ یَنْفَعُهُمْ وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اِشْتَرٰاهُ مٰا لَهُ فِی اَلْآخِرَهِ مِنْ خَلاٰقٍ وَ لَبِئْسَ مٰا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ کٰانُوا یَعْلَمُونَ (۱۰۲) وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اِتَّقَوْا لَمَثُوبَهٌ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ خَیْرٌ لَوْ کٰانُوا یَعْلَمُونَ (۱۰۳)

بیان:

قوله تعالی: وَ اتَّبَعُوا مٰا تَتْلُوا الشَّیٰاطِینُ عَلیٰ مُلْکِ الخ؛قد اختلف المفسرون فی تفسیر الآیه اختلافا عجیبا لا یکاد یوجد نظیره فی آیه من آیات القرآن المجید،فاختلفوا فی مرجع ضمیر قوله: اِتَّبَعُوا ،أهم الیهود الذین کانوا فی عهد سلیمان،أو الذین فی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو الجمیع؟و اختلفوا فی قوله: تَتْلُوا ،هل هو بمعنی تتبع الشیاطین و تعمل به أو بمعنی تقرأ،أو بمعنی تکذب؟و اختلفوا فی قوله: اَلشَّیٰاطِینُ ،فقیل هم شیاطین الجن و قیل شیاطین

الإنس و قيل هما معا،و اختلفوا فى قوله: عَلىٰ مُلْكِ سُلَيْمانَ ،فقيل معناه فى ملك سليمان،و قيل معناه فى عهد ملك سليمان و قيل معناه على ملك سليمان بحفظ ظاهر الاستعلاء فى معنى على، و قيل معناه على عهد ملك سليمان،و اختلفوا فى قوله: وَ لٰكِنَّ الشَّيٰاطِينَ كَفَرُوا ،فقيل إنهم كفروا بما استخرجوه من السحر الى الناس و قيل إنهم كفروا بما نسبوه الى سليمان من السحر،و قيل إنهم سحروا فعبّر عن السحر بالكفر،و اختلفوا فى قوله: يُعَلِّمُونَ النّٰاسَ السِّحْرَ ،فقيل إنهم القوا السحر إليهم فتعلموه،و قيل إنهم دلوا الناس على استخراج السحر و كان مدفونا تحت كرسى سليمان فاستخرجوه و تعلموه،و اختلفوا فى قوله: وَ مٰا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ فقيل ما موصوله و العطف على قوله: مٰا تَتْلُوا ،و قيل ما موصوله و العطف على قوله: اَلسِّحْرَ أى يعلمونهم ما أنزل على الملكين،و قيل ما نافيه و الواو استينافيه أى و لم ينزل على الملكين سحر كما يدعيه اليهود،و اختلفوا فى معنى الإنزال فقيل إنزال من السماء و قيل بل نجود الأرض و أعاليها،و اختلفوا فى قوله: اَلْمَلَكَيْنِ ،فقيل كانا من الملائكه السماء،و قيل بل كانا إنسانين ملكين بكسر اللام أن قرأناه،بكسر اللام كما قرئ كذلك فى الشواذ،أو ملكين بفتح اللام أى صالحين،أو متظاهرين بالصلاح،إن قرأناه على ما قرأ به المشهور،و اختلفوا فى قوله: بِبٰابِلَ ، فقيل هى بابل العراق و قيل بابل دماوند،و قيل،من نصيبين الى رأس العين،و اختلفوا فى قوله: وَ مٰا يُعَلِّمٰانِ ،فقيل علّم بمعناه الظاهر،و قيل علّم بمعنى اعلم،و اختلفوا فى قوله: فَلاٰ تَكْفُرْ ،فقيل لا تكفر بالعمل بالسحر،و قيل لا تكفر بتعلمه،و قيل بهما معا،و اختلفوا فى قوله:

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمٰا ،فقيل أى من هاروت و ماروت،و قيل أى من السحر و الكفر،و قيل بدلا مما علماه الملكان بالنهى الى فعله،و اختلفوا فى قوله: مٰا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ ،فقيل أى يوجدون به حبا و بغضا بينهما،و قيل إنهم يغرون أحد الزوجين و يحملونه على الكفر و الشرك فيفرق بينهما اختلاف المله و النحله و قيل إنهم يسعون بينهما بالنميمه و الوشايه فيئول الى الفرقه،فهذه نبذه من الاختلاف فى تفسير كلمات ما يشتمل على القصه من الآيه و جمله،

و هناك اختلافات أخر فی الخارج من القصه فی ذیل الآیه و فی نفس القصه،و هل هی قصه واقعه أو بیان علی سبیل التمثیل؟أو غیر ذلک؟و اذا ضربت بعض الأرقام التی ذکرناها من الاحتمالات فی البعض الآخر،ارتقی الاحتمالات الی کمیه عجیبه و هی ما یقرب من الف الف و مائتین و ستین الف احتمالgt;sclt;!.

و هذا لعمر اللّه من عجائب نظم القرآن تتردد الآیه بین مذاهب و احتمالات تدهش العقول و تحیر الألباب،و الکلام بعد متّک علی اریکه حسنه متجمل فی أجمل جماله متحل بحلی بلاغته و فصاحته و سیمر بک نظیره هذه الآیه و هی تعالی: أَ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ وَ یَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ کِتٰابُ مُوسیٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَهً (هود۱۷/).

و الذی ینبغی أن یقال:أن الآیه بسیاقها تتعرض لشأن آخر من شئون الیهود و هو تداول السحر بینهم،و أنهم کانوا یستندون فی أصله الی قصه معروفه أو قصتین معروفتین عندهم فیها ذکر من أمر سلیمان النبی و الملکین ببابل هاروت و ماروت،فالکلام معطوف علی ما عندهم من القصه التی یزعمونها إلاّ أن الیهود کما یذکره عنهم القرآن أهل تحریف و تغییر فی المعارف و الحقائق فلا یؤمنون و لا یؤمن من أمرهم أن یأتوا بالقصص التاریخیه محرفه مغیره علی ما هو دأبهم فی المعارف یمیلون کل حین الی ما یناسبه من منافعهم فی القول و الفعل و فیما یلوح من مطاوی جمل الآیه کفایه،و کیف کان فیلوح من الآیه أن الیهود کانوا یتناولون بینهم السحر ینسبونه الی سلیمان زعما منهم أن سلیمان علیه السّلام انما ملک الملک و سخر الجن و الإنس و الوحش و الطیر،و اتی بغرائب الامور و خوارقها بالسحر الذی هو بعض ما فی أیدیهم، و ینسبون بعضه الآخر الی الملکین ببابل هاروت و ماروت فرد علیهم القرآن بأن سلیمان علیه السّلام لم یکن یعمل بالسحر،کیف و السحر کفر باللّه و تصرف فی الکون علی خلاف ما وضع اللّه العاده علیه و أظهره علی خیال الموجودات الحیه و حواسها؟و لم یکفر سلیمان علیه السّلام و هو نبی معصوم، و هو قوله تعالی: وَ مٰا کَفَرَ سُلَیْمٰانُ وَ لٰکِنَّ الشَّیٰاطِینَ کَفَرُوا یُعَلِّمُونَ النّٰاسَ السِّحْرَ و قوله

تعالی: وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرٰاهُ مٰا لَهُ فِی الْآخِرَهِ مِنْ خَلاٰقٍ فسلیمان علیه السّلام أعلی کعبا و أقدس ساحه من أن ینسب الیه السحر و الکفر و قد استعظم اللّه قدره فی مواضع من کلامه فی عده من السور المکیه النازله قبل هذه السوره کسوره الانعام و الانبیاء و النمل و سوره(ص)و فیها أنه کان عبدا صالحا و نبیا مرسلا آتاه اللّه العلم و الحکمه و وهب له من الملک ما لا ینبغی لأحد من بعده فلم یکن بساحر بل هو من القصص الخرافیه و الأساطیر التی وضعتها الشیاطین و تلوها و قرؤها علی أولیائهم من الإنس و کفروا بإضلالهم الناس بتعلیم السحر.و رد علیهم القرآن فی الملکین ببابل هاروت و ماروت بأنه و إن انزل علیهما ذلک و لا ضیر فی ذلک لأنه فتنه و امتحان إلهی کما ألهم قلوب بنی آدم وجوه الشر و الفساد فتنه و امتحانا و هو من القدر،فهما و إن أنزل علیهما السحر إلاّ أنهما ما کانا یعلمان من أحد إلاّ و یقولان له إنما نحن فتنه فلا تکفر باستعمال ما تتعلمه من السحر فی غیر مورده کإبطال السحر و الکشف عن بغی أهله و هم مع ذلک یتعلمون منهما ما یفسدون به اصلح ما وضعه اللّه فی الطبیعه و العاده،فیفرقون به بین المرء و زوجه ابتغاء للشر و الفساد و یتعلمون ما یضرهم و لا ینفعهم،فقوله تعالی: وَ اتَّبَعُوا أی اتبعت الیهود الذین بعد عهد سلیمان بتوارث الخلف عن السلف ما تتلوا،أی تضع و تکذب الشیاطین من الجن علی ملک سلیمان و الدلیل علی أن تتلوا بمعنی تکذب تعدیه بعلی و علی أن الشیاطین هم الجن کون هؤلاء تحت تسخیر سلیمان و معذبین بعذابه،و بذلک کان علیه السّلام یحبسهم عن الإفساد، قال تعالی: وَ مِنَ الشَّیٰاطِینِ مَنْ یَغُوصُونَ لَهُ وَ یَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذٰلِکَ وَ کُنّٰا لَهُمْ حٰافِظِینَ (الأنبیاء۸۲/)،و قال تعالی: فَلَمّٰا خَرَّ تَبَیَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ کٰانُوا یَعْلَمُونَ الْغَیْبَ مٰا لَبِثُوا فِی الْعَذٰابِ الْمُهِینِ (سبأ۱۴/).

قوله تعالی: وَ مٰا کَفَرَ سُلَیْمٰانُ ،أی و الحال أن سلیمان لم یسحر حتی یکفر و لکن الشیاطین کفروا،و الحال انهم یضلون الناس و یعلمونه السحر.

قوله تعالی: وَ مٰا أُنْزِلَ ،ای و اتبعت الیهود ما انزل بالإخطار و الإلهام علی الملکین

ببابل هاروت و ماروت،و الحال انهما ما يعلمان السحر من أحد حتى يحذراه العمل به و يقولا انما نحن فتنه لكم و امتحان تمتحنون بنا بما نعلمكم فلا تكفر باستعماله.

قوله تعالى: فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ،أى من الملكين و هما هاروت و ماروت،ما يفرقون به أى سحرا يفرقون بعمله و تأثيره بين المرء و زوجه.

قوله تعالى: وَ مَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ ،دفع لما يسبق الى الوهم إنهم بذلك يفسدون أمر الصنع و التكوين و يسبقون تقدير اللّه و يبطلون أمره فدفعه بأن السحر نفسه من القدر لا يؤثر إلاّ بإذن اللّه فما هم بمعجزين،و انما قدم هذه الجمله على قوله:

وَ يَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَ لاَ يَنْفَعُهُمْ ،لأن هذه الجمله أعنى:و يتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء و زوجه،وحدهما مشتمله على ذكر التأثير،فأردفت بأن هذا التأثير بإذن اللّه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ،علموا ذلك بعقولهم لأن العقل لا يرتاب فى أن السحر أشأم منابع الفساد فى الاجتماع الإنسانى و علموا ذلك أيضا من قول موسى فإنه القائل: وَ لاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتىٰ (طه۶۹/).

قوله تعالى: وَ لَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ،اى إنهم مع كونهم عالمين بكونه شرا لهم مفسدا لآخرتهم غير عالمين بذلك حيث لم يعملوا بما علموا فإن العلم اذا لم يهد حامله الى مستقيم الصراط كان ضلالا و جهلا لا علما،قال تعالى: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ (الجاثيه۲۳/).

فهؤلاء مع علمهم بالأمر ينبغى أن يتمنى المتمنى لهم العلم و الهدايه.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا الخ؛أى اتعبوا الايمان و التقوى،بدل اتباع اساطير الشياطين،و الكفر بالسحر،و فيه دليل على أن الكفر بالسحر كفر فى مرتبه العمل كترك الزكاه،لا كفر فى مرتبه الاعتقاد،و لو كان السحر كفرا فى الاعتقاد لقال تعالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ الخ؛و اقتصر على الإيمان و لم يذكر التقوى فاليهود آمنوا و لكن لما لم يتقوا

و لم يرعوا محارم اللّه،لم يعبأ بإيمانهم فكانوا كافرين.

قوله تعالى: لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ خَيْرٌ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ ،أى من المثوبات و المنافع التى يرومونها بالسحر و يقتنونها بالكفر هذا .(۱)(۲)(۳)

[سوره البقره (۲): الآيات ۱۰۴ الى ۱۰۵]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَقُولُوا رٰاعِنٰا وَ قُولُوا اُنْظُرْنٰا وَ اِسْمَعُوا وَ لِلْكٰافِرِينَ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۱۰۴) مٰا يَوَدُّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ اَلْكِتٰابِ وَ لاَ اَلْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ اَللّٰهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ ذُو اَلْفَضْلِ اَلْعَظِيمِ (۱۰۵)

بيان:

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ،أول مورد فى القرآن ورد فيه خطاب المؤمنين بلفظه يا أيها الذين آمنوا،و هو واقع فى القرآن خطابا فى نحو من خمسه و ثمانين موضعا و التعبير عن المؤمنين بلفظه الذين آمنوا بنحو الخطاب او بغير الخطاب مما يختص بهذه الأمه،و أما الامم السابقه فيعبر عنهم بلفظه القوم كقوله:قوم نوح و قوم هود و قوله: قٰالَ يٰا قَوْمِ

۱- ۱) .البقره ۱۰۲-۱۰۳:بحث روائى حول سليمان عليه السّلام و وفاته؛السحر؛هاروت و ماروت و كوكب الزهره،موضوع صحه الروايات و سقمها.

۲- ۲) .البقره ۱۰۲-۱۰۳:بحث فلسفى حول الاعمال الخارقه للعاده،تأثير العلم الجازم؛احضار الارواح؛قدره النفس،الفرق بين الاعمال الخارقه للعاده من قبل الناس العاديين و بين معاجز الأنبياء عليهم السّلام.

۳- ۳) .البقره ۱۰۲-۱۰۳:بحث علمى حول العلوم الغريبه مثل:السيميا،الليميا،الهيميا،الريميا؛علم الاعداد و الاوفاق؛الخافيه،التنويم المغناطيسى؛احضار الارواح.

أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَهٍ الآيه؛و قوله:اصحاب مدين و أصحاب الرس،و بنى إسرائيل، و يا بنى إسرائيل،فالتعبير بلفظه الذين آمنوا مما يختص التشرف به بهذه الامه،غير أن التدبر فى كلامه تعالى يعطى أن التعبير بلفظه الذين آمنوا يراد به فى كلامه تعالى غير ما يراد بلفظه المؤمنين كقوله تعالى: وَ تُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ (النور٣١/)،بحسب المصداق،قال تعالى: اَلَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَهً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ، رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (المؤمن٨،٧/)،فجعل استغفار الملائكه و حمله العرش أولا للذين آمنوا ثم بدله ثانيا من قوله: لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا ،و التوبه هى الرجوع،ثم علق دعائهم بالذين آمنوا و عطف عليهم آبائهم و ذرياتهم و لو كان هؤلاء المحكى عنهم بالذين آمنوا هم أهل الايمان برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،كيف ما كانوا،كان الذين آمنوا شاملا للجميع من الآباء و الأبناء و الازواج و لم يبق للعطف و التفرقه محل و كان الجميع فى عرض واحد و وقعوا فى صف واحد.و يستفاد هذا المعنى أيضا من قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (الطور/ ٢١)،فلو كان ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان مصداقا للذين آمنوا فى كلامه تعالى لم يبق للالحاق وجه،و لو كان قوله: وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ قرينه على اراده اشخاص خاصه من الذين آمنوا و هم كل جمع من المؤمنين بالنسبه الى ذريتهم،المؤمنين لم يبق للالحاق أيضا وجه،و لا لقوله،و ما ألتناهم من عملهم من شيء،وجه صحيح الا فى الطبقه الأخيره التى لا ذريه بعدهم يتبعونهم بإيمان فهم يلحقون بآبائهم،و هذا و ان كان معنى معقولا الا أن سياق الآيه و هو سياق التشريف يأبى ذلك لعود المعنى على ذلك التقدير الى مثل معنى قولنا:

المؤمنون بعضهم من بعض أو بعضهم يلحق ببعض و هم جميعا فى صف واحد من غير شرافه

للبعض على البعض و لا للمتقدم على المتأخر فإن الملاك هو الإيمان و هو فى الجميع واحد و هذا مخالف لسياق الآيه الدال على نوع كرامه و تشريف للسابق بالحاق ذريته به،فقوله: وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ ،قرينه على إراده أشخاص خاصه بقوله: اَلَّذِينَ آمَنُوا ،و هم السابقون الأولون فى الإيمان برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من المهاجرين و الأنصار فى يوم العسره فكلمه الذين آمنوا كلمه تشريف يراد بها هؤلاء،و يشعر بذلك أيضا قوله تعالى: لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ ،الى أن قال:

وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ،الى ان قال: وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (الحشر ۱۰/)،فلو كان مصداق قوله: لِلَّذِينَ آمَنُوا ،عين مصداق قوله: اَلَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ ،كان من وضع الظاهر موضع المضمر من غير وجه ظاهر.

قوله تعالى: لاٰ تَقُولُوا راعِنا وَ قُولُوا انْظُرْنا ،أى بدلوا قول(راعنا)من قول (انظرنا)و لئن لم تفعلوا ذلك كان ذلك منكم كفرا و للكافرين عذاب أليم ففيه نهى شديد عن قول راعنا و هذه كلمه ذكرتها آيه أخرى و بينت معناها فى الجمله و هى قوله تعالى: مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَ راعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِي الدِّينِ (النساء۴۶/)،و منه يعلم ان اليهود كانت تريد بقوله للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم راعنا نحوا من معنى قوله: اِسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ و لذلك ورد النهى عن خطاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذلك و حينئذ ينطبق على ما نقل:أن المسلمين كانوا يخاطبون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذلك اذا القى اليهم كلاما يقولون راعنا يا رسول اللّه-يريدون أمهلنا و انظرنا حتى نفهم ما تقول-و كانت اللفظه تفيد فى لغه اليهود معنى الشتم فاغتنم اليهود ذلك فكانوا يخاطبون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذلك يظهرون التأدب معه و هم يريدون الشتم و معناه عندهم اسمع لا اسمعت فنزل:من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه و يقولون سمعنا و عصينا و اسمع غير مسمع و راعنا،الآيه؛و نهى اللّه المؤمنين عن الكلمه و أمرهم أن يقولوا ما فى معناه و هو انظرنا فقال:لا تقولوا راعنا و قولوا

انظرنا.

قوله تعالى: وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ ،يريد المتمردين من هذا النهى و هذا أحد الموارد التى أطلق فيها الكفر على ترك التكاليف الفرعيه.

قوله تعالى: ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ ،لو كان المراد بأهل الكتاب اليهود خاصه كما هو الظاهر لكون الخطابات السابقه مسوقه لهم فتوصيفهم بأهل الكتاب يفيد الإشاره الى العله،و هو أنهم لكونهم أهل كتاب ما يودون نزول الكتاب على المؤمنين لاستلزامه بطلان اختصاصهم بأهليه الكتاب مع أن ذلك ضنّه منهم بما لا يملكونه، و معارضه مع اللّه سبحانه فى سعه رحمته و عظم فضله،و لو كان المراد عموم أهل الكتاب من اليهود و النصارى فهو تعميم بعد التخصيص لاشتراك الفريقين فى بعض الخصائل،و هم على غيظ من الإسلام،و ربما يؤيد هذا الوجه بعض الآيات اللاحقه كقوله تعالى: وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّهَ إِلاّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى (البقره/۱۱۱)،و قوله تعالى: وَ قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَ قالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ (البقره/۱۱۳).

[سوره البقره (۲): الآيات ۱۰۶ الى ۱۰۷]

اشاره

ما نَنْسَخْ مِنْ آيَهٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اَللّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۰۶) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اَللّهَ لَهُ مُلْكُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اَللّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۱۰۷)

بيان:

قوله تعالى: ما نَنْسَخْ ،النسخ هو الإزاله،يقال:نسخت الشمس الظل اذا ازالته

و ذهبت به،قال تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لاٰ نَبِيٍّ إِلاّٰ إِذٰا تَمَنّٰى أَلْقَى الشَّيْطٰانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللّٰهُ مٰا يُلْقِي الشَّيْطٰانُ (الحج/۵۱)،و منه أیضا قولهم:نسخت الکتاب اذا نقل من نسخه الی اخری فکأن الکتاب أذهب به و أبدل مکانه و لذلک بدّل لفظ النسخ من التبدیل فی قوله تعالی: وَ إِذٰا بَدَّلْنٰا آيَةً مَكٰانَ آيَةٍ وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا يُنَزِّلُ قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (النحل/۱۰۱)،و کیف کان فالنسخ لا یوجب زوال نفس الآیه من الوجود و بطلان تحققها بل الحکم حیث علق بالوصف و هو الآیه و العلامه مع ما یلحق بها من التعلیل فی الآیه بقوله تعالی: أَ لَمْ تَعْلَمْ ،الخ؛أفاد ذلک أن المراد بالنسخ هو اذهاب اثر الآیه من حیث أنها آیه،اعنی إذهاب کون الشیء آیه و علامه مع حفظ أصله فبالنسخ یزول أثره من تکلیف أو غیره مع بقاء أصله و هذا هو المستفاد من اقتران قوله: نُنْسِهٰا بقوله: مٰا نَنْسَخْ ،و الإنساء إفعال من النسیان و هو الإذهاب عن العلم کما أن النسخ هو الإذهاب عن العین فیکون المعنی ما نذهب بآیه عن العین أو عن العلم نأت بخیر منها أو مثلها.

ثم أن کون الشیء آیه یختلف باختلاف الأشیاء و الحیثیات و الجهات،فالبعض من القرآن آیه للّه سبحانه باعتبار عجز البشر عن اتیان مثله،و الأحکام و التکالیف الإلهیه آیات له تعالی باعتبار حصول التقوی و القرب بها منه تعالی،و الموجودات العینیه آیات له تعالی باعتبار کشفها بوجودها عن وجود صانعها و بخصوصیات وجودها عن خصوصیات صفاته و أسمائه سبحانه،و أنبیاء اللّه و اولیائه تعالی آیات له تعالی باعتبار دعوتهم إلیه بالقول و الفعل و هکذا،و لذلک کانت الآیه تقبل الشده و الضعف قال اللّه تعالی: لَقَدْ رَأىٰ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِ الْكُبْرىٰ (النجم/۱۸).

و من جهه اخری الآیه ربما کانت فی انها آیه ذات جهه واحده و ربما کانت ذات جهات کثیره،و نسخها و إزالتها کما یتصور بجهته الواحده کاهلاکها کذلک یتصور ببعض جهاتها دون بعض اذا کانت ذات جهات کثیره،کالآیه من القرآن تنسخ من حیث حکمها الشرعی و تبقی

من حیث بلاغتها و إعجازها و نحو ذلک.

قوله تعالی: أَوْ نُنْسِهٰا ،قرء بضم النون و کسر السین من الإنساء بمعنی الاذهاب عن العلم و الذکر و قد مر توضیحه،و هو الکلام مطلق او عام غیر مختص برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بل غیر شامل له أصلا لقوله تعالی: سَنُقْرِئُکَ فَلاٰ تَنْسیٰ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ (الأعلی/٧)، و هی آیه مکیه و آیه النسخ مدنیه فلا یجوز علیه النسیان بعد قوله تعالی: فَلاٰ تَنْسیٰ و أما اشتماله علی الاستثناء بقوله: إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ فهو علی حد الاستثناء الواقع فی قوله تعالی:

خٰالِدِینَ فِیهٰا مٰا دٰامَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّکَ عَطٰاءً غَیْرَ مَجْذُوذٍ (هود/ ١٠٩)،جیء بها لإثبات بقاء القدره مع الفعل علی تغییر الأمر،و لو کان الاستثناء مسوقا لبیان الوقوع فی الخارج لم یکن للامتنان بقوله: فَلاٰ تَنْسیٰ معنی،اذ کل ذی ذکر و حفظ من الإنسان و سائر الحیوان کذلک یذکر و ینسی و ذکره و نسیانه کلاهما منه تعالی و بمشیته،و قد کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کذلک قبل هذا الإقراء الامتنانی الموعود بقوله:سنقرئک یذکر بمشیّه اللّه و ینسی بمشیّه اللّه تعالی فلیس معنی الاستثناء إلاّ إثبات إطلاق القدره أی سنقرئک فلا تنسی أبدا و اللّه مع ذلک قادر علی إنسائک هذا.و قرء قوله:ننسأها بفتح النون و الهمزه من نسیء نسیئا اذا أخر تأخیرا فیکون المعنی علی هذا.ما ننسخ من آیه بإزالتها أو نؤخرها بتأخیر إظهارها نأت بخیر منها أو مثلها و لا یوجب التصرف الإلهی بالتقدیم و التأخیر فی آیاته فوت کمال أو مصلحه،و الدلیل علی أن المراد بیان أن التصرف الإلهی یکون دائما علی الکمال و المصلحه هو قوله: بِخَیْرٍ مِنْهٰا أَوْ مِثْلِهٰا فإن الخیریه إنما یکون فی کمال شیء موجود أو مصلحه حکم مجعول ففی ذلک یکون موجود مماثلا لآخر فی الخیریه أو أزید منه فی ذلک فافهم (١).

١- ١) البقره ١٠٦-١٠٧:بحث روائی حول النسخ و الناسخ و المنسوخ.

[سوره البقره (۲): الآيات ۱۰۸ الى ۱۱۵]

اشاره

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَمٰا سُئِلَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ اَلْكُفْرَ بِالْإِيمٰانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوٰاءَ اَلسَّبِيلِ (۱۰۸) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ اَلْكِتٰابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِكُمْ كُفّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ اَلْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اِصْفَحُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اَللّٰهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اَللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۰۹) وَ أَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ آتُوا اَلزَّكٰاةَ وَ مٰا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۱۰) وَ قٰالُوا لَنْ يَدْخُلَ اَلْجَنَّةَ إِلاّٰ مَنْ كٰانَ هُوداً أَوْ نَصٰارىٰ تِلْكَ أَمٰانِيُّهُمْ قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۱۱۱) بَلىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ (۱۱۲) وَ قٰالَتِ اَلْيَهُودُ لَيْسَتِ اَلنَّصٰارىٰ عَلىٰ شَيْءٍ وَ قٰالَتِ اَلنَّصٰارىٰ لَيْسَتِ اَلْيَهُودُ عَلىٰ شَيْءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ اَلْكِتٰابَ كَذٰلِكَ قٰالَ اَلَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۱۳) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسٰاجِدَ اَللّٰهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اِسْمُهُ وَ سَعىٰ فِي خَرٰابِهٰا أُولٰئِكَ مٰا كٰانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهٰا إِلاّٰ خٰائِفِينَ لَهُمْ فِي اَلدُّنْيٰا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي اَلْآخِرَةِ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۱۱۴) وَ لِلّٰهِ اَلْمَشْرِقُ وَ اَلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمٰا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ (۱۱۵)

بيان:

قوله تعالى: أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ ،سياق الآيه يدل على أن بعض المسلمين-ممن آمن بالنبى-سئل النبى امورا على حد سؤال اليهود نبيهم موسى عليه السّلام و اللّه سبحانه وبّخهم على ذلك فى ضمن ما يوبّخ اليهود بما فعلوا مع موسى و النبيين من بعده،و النقل يدل على ذلك.

قوله تعالى: سَوٰاءَ السَّبِيلِ أى مستوى الطريق.

قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ ،نقل أنه حى بن الأخطب و بعض من معه من متعصبى اليهود.

قوله تعالى: فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا ،قالوا:إنها آيه منسوخه بآيه القتال.

قوله تعالى: حَتّٰى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ ،فيه كما مر إيماء الى حكم سيشرّعه اللّه تعالى فى حقهم،و نظيره قوله تعالى:فى الآيه الآتيه أُولٰئِكَ مٰا كٰانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهٰا إِلاّٰ خٰائِفِينَ ، مع قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاٰ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ بَعْدَ عٰامِهِمْ هٰذٰا (التوبه/ ٢٩)،و سيأتى الكلام فى معنى الأمر فى قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى (الإسراء/٨٥).

قوله تعالى: وَ قٰالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ ،شروع فى إلحاق النصارى باليهود تصريحا و سوق الكلام فى بيان جرائمهم معا.

قوله تعالى: بَلىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ ،هذه كرّه ثالثه عليهم فى بيان أن السعاده لا تدور مدار الاسم و لا كرامه لأحد على اللّه إلاّ بحقيقه الإيمان و العبوديه.اوليها قوله: إِنَّ

الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هٰادُوا (البقره۶۲/)،و ثانيتهـا،قوله تعالى: بَلىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحٰاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ (البقره۸۱/)،و ثالثتها،هذه الآيه و يستفاد من تطبيق الآيات تفسير الإيمان بإسلام الوجه الى اللّه و تفسير الإحسان بالعمل الصالح.

قوله تعالى: وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتٰابَ ،أى و هم يعملون بما أوتوا من كتاب اللّه لا ينبغى لهم أن يقولوا ذلك و الكتاب يبين لهم الحق و الـدليل على ذلـك قوله: كَذٰلِكَ قٰالَ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فـالمراد بالـذين لاـ يعملون غير أهـل الكتاب من الكفار و مشركى العرب قالوا:إن المسلمين ليسوا على شيء أو أن اهل الكتاب ليسوا على شيء.

قوله تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ ،ظاهر السياق أن هؤلاء كفار مكه قبل الهجره فإن هـذه الآيات نزلت فى اوائل ورود رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المدينه.

قوله تعـالى: أُولٰئِكَ مٰا كٰانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهٰا إِلاّٰ خٰائِفِينَ ،يـدل على مضـى الواقعه و انقضائها لمكان قوله؛كان،فينطبق على كفار قريش و فعالهم بمكه كما ورد به النقل أن المانعين كفار مكه،كانوا يمنعون المسلمين عن الصلاه فى المسجد الحرام و المساجد التى اتخذوها بفناء الكعبه.

قوله تعـالى: وَ لِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمٰا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ ،المشـرق و المغرب و كـل جهه من الجهـات حيث كانت فى للّه بحقيقه الملك التى لا تقبل التبدل و الانتقال، لا كالملك الذى بيننا معاشر أهل الاجتماع،حيث ان ملكه تعالى مستقر على ذات الشـيء محيـط بنفسه و أثره،لاـ كملكنـا المسـتقر على أثر الاشـياء و منافعهـا،لا على ذاتها،و الملك لا يقوم من جهه انه ملك إلاّ بمالكه فاللّه سبحانه قائم على هذه الجهات محيط بها و هو معها،فالمتوجه الى شيء من الجهات متوجه إليه تعالى.

و لما كان المشرق و المغرب إضافيتين شـملتا ساير الجهات تقريبا اذ لا يبقى خارجا منهما إلاّ نقطتا الجنوب و الشمال الحقيقتان و لذلك لم يقيد إطلاق قوله فأينما،بهما بأن يقال:أينما تولوا

منهما فكأن الإنسان أينما ولى وجهه فهناك إما مشرق أو مغرب،فقوله: وَ لِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ بمنزله قولنا:و للّه الجهات جميعا و إنما اخذ بهما لأن الجهات التى يقصدها الإنسان بوجهه إنما تتعين بشروق الشمس و غروبها و سائر الأجرام العلويه المنيره.

قوله تعالى: فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ ،فيه وضع عله الحكم فى الجزاء موضع الجزاء،و التقدير -و اللّه أعلم-فأينما تولوا جاز لكم ذلك فإن وجه اللّه هناك،و يدل على هذا التقدير تعليل الحكم قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ ،أى إن اللّه واسع الملك و الاحاطه عليم بقصودكم أينما توجهت،لا كالواحد من الإنسان أو سائر الخلق الجسمانى لا يتوجه إليه إلاّ اذا كان فى جهه خاصه،و لا أنه يعلم توجه القاصد إليه إلاّ من جهه خاصه كقدامه فقط،فالتوجه الى كل جهه توجه الى اللّه،معلوم له سبحانه.

و اعلم أن هذا توسعه فى القبله من حيث الجهه لا من حيث المكان،و الدليل عليه قوله:

وَ لِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ .

[سوره البقره (٢): الآيات ١١٦ الى ١١٧]

اشاره

وَ قٰالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ بَلْ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ (١١۶) بَدِيعُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)

بيان:

قوله تعالى: وَ قٰالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً يعطى السياق،أن المراد بالقائلين بهذه المقاله هم اليهود و النصارى:اذ قالت اليهود:عزير ابن اللّه،و قالت النصارى:المسيح ابن اللّه،فإن

ص: ١٢٧

وجه الكلام مع أهل الكتاب،و إنما قال أهل الكتاب هـذه الكلمه أعنى قولهم:اتخـذ اللّه ولدا أول ما قالوها تشـريفا لأنبيائهم كما قالوا:نحن أبناء اللّه و أحبائه ثم تلبست بلباس الجـد و الحقيقه فرد اللّه سـبحانه عليهم فى هاتين الآيتين فأضـرب عن قولهم بقوله: بَلْ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ ،الـخ؛و يشـتمل على برهانين ينفى كل منهما الولاده و تحقق الولـد منه سـبحانه،فإن اتخاذ الولـد هو أن يجزى موجود طبيعى بعض أجزاء وجوده،و يفصله عن نفسه فيصيّره بتربيه تدريجيه فردا من نوعه مماثلا لنفسه،و هو سبحانه منزه عن المثل،بل كل شـىء مما فى السـموات و الأرض مملوك له،قائم الـذات به،قانت ذليل عنده ذله وجوديه،فكيف يكون شـىء من الأشـياء ولدا له مماثلا نوعيا بالنسـبه إليه؟و هو سـبحانه بديع السـموات و الأرض، إنما يخلق ما يخلق على غير مثال سابق،فلا يشـبه شـىء من خلقه خلقا سابقا،و لا يشـبه فعله فعل غيره فى التقليد و التشبيه و لا فى التدريج،و التوصل بالأسباب اذا قضى أمرا فإنمـا يقول له كن فيكون من غير مثـال سـابق و لاـ تدريـج،فكيف يمكن أن ينسب إليه اتخاذ الولـد؟و تحققه يحتاج الى تربيه و تدريج،فقوله: لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ كل له قانتون برهان تام،و قوله:

بَدِيعُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ برهان آخر تام،هذا.و يستفاد من الآيتين:

اولا:شمول حكم العباده لجميع المخلوقات مما فى السموات و الأرض.

و ثانيا:ان فعله تعالى غير تدريجى،و يسـتدرج من هنا،ان كل موجود تدريجى فله وجه غير تدريجى،به يصدر عنه تعالى كما قال تعـالى: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَـيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس۸۲/)،و قال تعالى: وَ مٰا أَمْرُنٰا إِلاّٰ وٰاحِـدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَـرِ (القمر۵۰/)، و تفصيل القول فى هذه الحقيقه القرآنيه،سيأتى إنشاء اللّه فى ذيل قوله: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً (يس۸۲/)،فانتظر.

قوله تعالى: سُبْحٰانَهُ مصدر بمعنى التسبيح و هو لا يستعمل إلاّ مضافا و هو مفعول

مطلق لفعل محذوف أی سبحته تسبیحا،فحذف الفعل و أضیف المصدر الی الضمیر المفعول و أقیم مقامه،و فی الکلمه تأدیب إلهی بالتنزیه فیما یذکر فیه ما لا یلیق بساحه قدسه تعالی و تقدس.

قوله تعالی: کُلٌّ لَهُ قانِتُونَ ،القنوت العباده و التذلل.

قوله تعالی: بَدِیعُ السَّماواتِ ،بداعه الشیء کونه لا یماثل غیره مما یعرف و یؤنس به.

قوله تعالی: فَیَکُونُ ،تفریع علی قول کن و لیس فی مورد الجزاء حتی یجزم (۱).

[سوره البقره (۲): الآیات ۱۱۸ الی ۱۱۹]

اشاره

وَ قالَ اَلَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ لَوْ لا یُکَلِّمُنَا اَللّهُ أَوْ تَأْتِینا آیَهٌ کَذلِکَ قالَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَیَّنَّا اَلْآیاتِ لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ (۱۱۸) إِنّا أَرْسَلْناکَ بِالْحَقِّ بَشِیراً وَ نَذِیراً وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ اَلْجَحِیمِ (۱۱۹)

بیان:

قوله تعالی: وَ قالَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ هم المشرکون غیر أهل الکتاب و یدل علیه المقابله السابقه فی قوله تعالی: وَ قالَتِ الْیَهُودُ لَیْسَتِ النَّصاریٰ عَلیٰ شَیْءٍ،وَ قالَتِ النَّصاریٰ لَیْسَتِ الْیَهُودُ عَلیٰ شَیْءٍ،وَ هُمْ یَتْلُونَ الْکِتابَ کَذٰلِکَ،قالَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ،الآیه؛ ففی تلک الآیه الحق أهل الکتاب فی قولهم بالمشرکین و الکفار من العرب،و فی هذه الآیه الحق

۱- ۱) .البقره ۱۱۶-۱۱۷:بحث علمی و فلسفی حول افتراق الموجودات عن بعضها.

المشركين و الكفار بهم،فقال:و قال الذين لا يعلمون لو لا يكلمنا اللّه أو تأتينا،الآيه؛كذلك قال الذين من قبلهم-و هم أهل الكتاب و اليهود من بينهم-حيث اقترحوا بمثل هذه الأقاويل على نبى اللّه موسى عليه السّلام،فهم و الكفار متشابهون فى أفكارهم و آرائهم،يقول هؤلاء ما قاله أولئك و بالعكس،تشابهت قلوبهم.

قوله تعالى: قَدْ بَيَّنَّا اَلْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ جواب عن قول الذين لا يعلمون، الخ؛و المراد ان الآيات التى يطالبون بها مأتيه مبينه،و لكن لا ينتفع بها إلا قوم يوقنون بآيات اللّه،و أما هؤلاء الذين لا يعلمون،فقلوبهم محجوبه بحجاب الجهل،مؤفه بآفات العصبيه و العناد،و ما تغنى الآيات عن قوم لا يعلمون.و من هنا يظهر وجه توصيفهم بعدم العلم،ثم أيد ذلك بتوجيه الخطاب الى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الإشعار بأنه مرسل من عند اللّه بالحق بشيرا و نذيرا،فلتطب به نفسه،و ليعلم ان هؤلاء أصحاب الجحيم،مكتوب عليهم ذلك،لا مطمع فى هدايتهم و نجاتهم.

قوله تعالى: وَ لاٰ تُسْئَلُ عَنْ أَصْحٰابِ الْجَحِيمِ ،يجرى مجرى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (البقره/۶).

[سوره البقره (۲): الآيات ۱۲۰ الى ۱۲۳]

اشاره

وَ لَنْ تَرْضىٰ عَنْكَ اَلْيَهُودُ وَ لاَ اَلنَّصٰارىٰ حَتّٰى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اَللّٰهِ هُوَ اَلْهُدىٰ وَ لَئِنِ اِتَّبَعْتَ أَهْوٰاءَهُمْ بَعْدَ اَلَّذِى جٰاءَكَ مِنَ اَلْعِلْمِ مٰا لَكَ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ (۱۲۰) اَلَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ اَلْكِتٰابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاٰوَتِهِ أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ اَلْخٰاسِرُونَ (۱۲۱) يٰا بَنِى إِسْرٰائِيلَ اُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ اَلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى اَلْعٰالَمِينَ (۱۲۲) وَ اِتَّقُوا يَوْماً لاٰ تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لاٰ يُقْبَلُ مِنْهٰا عَدْلٌ وَ لاٰ تَنْفَعُهٰا شَفٰاعَةٌ وَ لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ (۱۲۳)

بیان:

قوله تعالی: وَ لَنْ تَرْضىٰ عَنْکَ الْیَهُودُ وَ لاَ النَّصٰاریٰ ،رجوع الی الطائفتین بعد الالتفات الی غیرهم،و هو بمنزله جمع أطراف الکلام علی تفرقها و تشتتها،فکأنه بعد هذه الخطابات و التوبیخات لهم یرجع الی رسوله و یقول له:هؤلاء لیسوا براضین عنک،حتی تتبع ملتهم التی ابتدعوها بأهوائهم و نظموها بآرائهم،ثم أمره بالرد علیهم بقوله: قُلْ إِنَّ هُدَی اللّٰهِ هُوَ الْهُدیٰ أی ان الاتباع إنما هو لغرض الهدی و لا هدی إلاّ هدی اللّه و الحق الذی یجب أن یتبع و غیره-و هو ملتکم-لیس بالهدی،فهی أهوائکم ألبستموها لباس الدین و سمیتموها باسم المله،ففی قوله: قُلْ إِنَّ هُدَی اللّٰهِ ،الخ؛جعل الهدی کنایه عن القرآن النازل، ثم اضیف الی اللّه فأفاد صحه الحصر فی قوله: إِنَّ هُدَی اللّٰهِ هُوَ الْهُدیٰ علی طریق قصر القلب، و أفاد ذلک خلو ملتهم عن الهدی،و أفاد ذلک کونها أهواء لهم،و استلزم ذلک کون ما عند النبی علما،و کون ما عندهم جهلا،و اتسع المکان لتعقیب الکلام بقوله: وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوٰاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِی جٰاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ مٰا لَکَ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لاٰ نَصِیرٍ فانظر الی ما فی هذا الکلام من اصول البرهان العریقه،و وجوه البلاغه علی إیجازه،و سلاسه البیان و صفائه.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ آتَیْنٰاهُمُ الْکِتٰابَ یمکن أن تکون الجمله بقرینه الحصر المفهوم من قوله: أُولٰئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ جوابا للسؤال المقدر الذی یسوق الذهن إلیه قوله تعالی: وَ لَنْ تَرْضیٰ عَنْکَ الْیَهُودُ وَ لاَ النَّصٰاریٰ ،الخ؛و هو انهم اذا لم یکن مطمع فی إیمانهم،فمن ذا الذی یؤمن

ص:۱۳۱

منهم؟و هل توجيه الدعوه إليهم باطل لغو؟فأجيب بأن الذين آتيناهم الكتاب و الحال أنهم يتلونه حق تلاوته،أولئك يؤمنون بكتابهم فيؤمنون بك،أو ان أولئك يؤمنون بالكتاب، كتاب اللّه المنزل أياما كان،أو ان أولئك يؤمنون بالكتاب الذى هو القرآن.و على هذا:فالقصر فى قوله: أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ قصر افراد و الضمير فى قوله: بِهِ على بعض التقادير لا يخلو عن استخدام و المراد بالذين اوتوا الكتاب قوم من اليهود و النصارى ليسوا متبعين للهوى من أهل الحق منهم،و بالكتاب التوراه و الإنجيل،و ان كان المراد بهم المؤمنين برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بالكتاب القرآن،فالمعنى،ان الذين آتيناهم القرآن،و هم يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون بالقرآن،لا هؤلاء المتبعون لأهوائهم،فالقصر حينئذ قصر قلب.

قوله تعالى: يٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ اذْكُرُوا ،الى آخر الآيتين ارجاع ختم الكلام الى بدئه،و آخره الى اوله،و عنده يختتم شطر من خطابات بنى اسرائيل.

[سوره البقره (٢): آیه ١٢۴]

اشاره

وَ إِذِ ابْتَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمٰاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قٰالَ إِنِّي جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً قٰالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قٰالَ لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ (١٢۴)

بيان:

فقوله تعالى: وَ إِذِ ابْتَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ رَبُّهُ الخ؛اشاره الى قصه اعطائه الإمامه و حبائه بها،و القصه إنما وقعت فى أواخر عهد إبراهيم عليه السّلام بعد كبره و تولد إسماعيل،و إسحاق له و إسكانه إسماعيل و أمه بمكه،كما تنبه به بعضهم ايضا،و الدليل على ذلك قوله عليه السّلام على ما حكاه اللّه سبحانه بعد قوله تعالى له: إِنِّي جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً ، وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي ،فإنه عليه السّلام قبل مجىء الملائكه ببشاره إسماعيل،و إسحاق،ما كان يعلم و لا يظن أن سيكون له ذريه من بعده حتى أنه بعد ما بشرته الملائكه بالأولاد خاطبهم بما ظاهره اليأس و القنوط كما قال تعالى: وَ نَبِّئْهُمْ

عَنْ ضَيْفِ إِبْرٰاهِيمَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقٰالُوا سَلاٰماً قٰالَ:إِنّٰا مِنْكُمْ وَجِلُونَ، قٰالُوا:لاٰ تَوْجَلْ إِنّٰا نُبَشِّرُكَ بِغُلاٰمٍ عَلِيمٍ، قٰالَ أَ بَشَّرْتُمُونِی عَلىٰ أَنْ مَسَّنِیَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ؟ قٰالُوا،بَشَّرْنٰاكَ بِالْحَقِّ فَلاٰ تَكُنْ مِنَ الْقٰانِطِينَ (الحجر۵۵/)،و كـذلک زوجته علی ما حكاه اللّه تعالى فی قصه بشارته أيضا اذ قال تعالى: وَ امْرَأَتُهُ قٰائِمَهٌ فَضَحِكَتْ،فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ يَعْقُوبَ، قٰالَتْ،يٰا وَيْلَتىٰ أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هٰذٰا بَعْلِی شَيْخاً إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ عَجِيبٌ، قٰالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ،رَحْمَتُ اللّٰهِ وَ بَرَكٰاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (هود۷۳/)،و كلامهما كما ترى يلوح منه آثار اليأس و القنوط و لـذلک قابلته الملائكه بنوع كلام فيه تسليتهما و تطييب أنفسهما فما كان هو و لا أهله يعلم أن سيرزق ذريّه،و قول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:و من ذريتی،بعد قوله تعالى: إِنِّی جٰاعِلُکَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً ،قول من يعتقد لنفسه ذريه،و كيف يسع من له ادنی دربه بأدب الكلام و خاصه مثل إبراهيم الخليل فی خطاب يخاطب به ربه الجليل أن يتفوه بما لا علم له به؟و لو كان ذلک لكان من الواجب أن يقول:و من ذريتی إن رزقتنی ذريه أو ما يؤدی هذا المعنى فالقصه واقعه كما ذكرنا فی أواخر عهد إبراهيم بعد البشاره.

على أن قوله تعالى: وَ إِذِ ابْتَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمٰاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قٰالَ:إِنِّی جٰاعِلُکَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً ، يدل على أن هذه الإمامه الموهوبه إنما كانت بعد ابتلائه بما ابتلاه اللّه به من الامتحانات و ليست هذه الا أنواع البلاء التی ابتلی عليه السّلام بها فی حياته،و قد نص القرآن على أن من أوضحها بلاء قضيه ذبح إسماعيل،قال تعالى: قٰالَ يٰا بُنَیَّ إِنِّی أَرىٰ فِی الْمَنٰامِ أَنِّی أَذْبَحُکَ ،الی ان قال: إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ الْبَلاٰءُ الْمُبِينُ (الصافات۱۰۶/).

و القضيه انما وقعت فی كبر إبراهيم،كما حكی اللّه تعالى عنه من قوله: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی وَهَبَ لِی عَلَى الْكِبَرِ إِسْمٰاعِيلَ،وَ إِسْحٰاقَ،إِنَّ رَبِّی لَسَمِيعُ الدُّعٰاءِ (إبراهيم۴۱/).

و لنرجع الى الفاظ الآيه فقوله: وَ إِذِ ابْتَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ رَبُّهُ ،الابتلاء و البلاء بمعنی واحد تقول:

ابتليته و بلوته بكذا،أی امتحنته و اختبرته،اذا قدمت اليه أمرا أو أوقعته فی حدث فاختبرته

بـذلك و اسـتظهرت مـا عنـده من الصـفات النفسـانيه الكـامنه عنـده كالإطـاعه و الشـجاعه و السـخاء و العفه و العلم و الوفـاء أو مقابلاتها،و لـذلك لا يكون الابتلاء إلاّ بعمل فإن الفعل هو الـذى يظهر به الصـفات الكامنه من الإنسان دون القول الذى يحتمل الصدق و الكذب قال تعالى: إِنّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّهِ (ن/١٧)،و قال تعالى: إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ (البقره/٢٤٩).

فتعلق الابتلاء فى الآيه بالكلمـات ان كـان المراد بهـا الأقوال أنمـا هو من جهه تعلقهـا بالعمـل و حكايتهـا عن العهود و الأوامر المتعلقه بالفعل كقوله تعالى: وَ قُولُوا لِلنّاسِ حُسْناً (البقره/٨٣)،أى عاشـروهم معاشره جميله و قوله: بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ،الكلمات و هى جمع كلمه و إن أطلقت فى القرآن على العين الخارجى دون اللفظ و القول،كقوله تعالى: بِكَلِمَهٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (آل عمران/٤٥)،إلا أن ذلك بعنايه إطلاق القول كما قال تعالى:

إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ،خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران/ ٥٩).

و جميع مـا نسب إليه تعـالى من الكلمه فى القرآن اريـد بهـا القول كقوله تعالى: وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللّهِ (الأنعام/٣۴)،و قوله: لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللّهِ (يونس/٩۶)،و قوله:

يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ (الأنفال/٧)،و قـوله: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (يونس/٩۶)،و قـوله: وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَهُ الْعَذابِ (الزمر/٧١)،و قوله: وَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَهُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النّارِ (المؤمن/۶)،و قوله: وَ لَوْ لا كَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (الشورى/١۴)،و قوله: وَ كَلِمَهُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيا (التوبه/۴١)،و قوله: قالَ فَالْحَقُّ،وَ الْحَقَّ أَقُولُ (ص/٨۴)،و قوله: إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (النحل/۴٠)،فهـذه و نظائرها أريد بها القول بعنايه أن القول توجيه ما يريد المتكلم إعلامه المخاطب ما عنده كما فى الأخبار أو لغرض تحميله عليه كما فى

الانشاء و لذلک ربما تتصف فی کلامه تعالی بالتمام کقوله تعالی: وَ تَمَّتْ کَلِمَةُ رَبِّکَ صِدْقاً وَ عَدْلاً لاٰ مُبَدِّلَ لِکَلِمٰاتِهِ (الأنعام۱۱۵/)،و قوله تعالی: وَ تَمَّتْ کَلِمَتُ رَبِّکَ الْحُسْنیٰ عَلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ (الأعراف۱۳۶/)،کأن الکلمه اذا صدرت عن قائلها فهی ناقصه بعد،لم تتم، حتی تلبس لباس العمل و تعود صدقا.

و هذا لا ینافی کون قوله تعالی فعله،فإن الحقائق الواقعیّه لها حکم،و للعنایات الکلامیه اللفظیه حکم آخر،فما یرید اللّه سبحانه إظهاره لواحد من أنبیائه،أو غیرهم بعد خفائه،أو یرید تحمیله علی أحد قول و کلام له لاشتماله علی غرض القول و الکلام و تضمنه غایه الخبر و النبأ،و الأمر و النهی،و إطلاق القول و الکلمه علی مثل ذلک شائع فی الاستعمال اذا اشتمل علی ما یؤدیه القول و الکلمه،تقول:لأفعلن کذا و کذا،لقول قلته و کلمه قدمتها،و لم تقل قولا،و لا قدمت کلمه،و إنما عزمت عزیمه لا تنقضها شفاعه شفیع أو وهن إراده،و منه قول عنتره:

و قولی کلما جشأت و جاشت

مکانک تحمدی أو تستریحی

یرید بالقول توطین نفسه علی الثبات و العزم،علی لزومها مکانها لتفوز بالحمد إن قتل، و بالاستراحه إن غلب.

اذا عرفت ذلک ظهر لک أن المراد بقوله تعالی: بِکَلِمٰاتٍ ،قضایا ابتلی بها و عهود إلهیه اریدت منه،کابتلائه بالکواکب و الأصنام،و النار و الهجره و تضحیته بابنه و غیر ذلک و لم یبین فی الکلام ما هی الکلمات لأن الغرض غیر متعلق بذلک،نعم قوله: قٰالَ إِنِّی جٰاعِلُکَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً ،من حیث ترتبه علی الکلمات تدل علی انها کانت أمورا تثبت بها لیاقته علیه السّلام لمقام الإمامه.

فهذه هی الکلمات و أما إتمامهن فإن کان الضمیر فی قوله تعالی:أتمهن راجعا الی إبراهیم کان معنی إتمامهن إتیانه علیه السّلام ما أرید منه،و امتثاله لما أمر به،و إن کان الضمیر راجعا إلیه تعالی

كما هو الظاهر كان المراد توفيقه لما اريـد منه،و مساعدته على ذلك،و أما ما ذكره بعضـهم:أن المراد بالكلمات قوله تعالى: قٰالَ إِنِّی جٰاعِلُکَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً ،الى آخر الآيات فمعنى لا ينبغى الركون اليه اذ لم يعهد فى القرآن إطلاق الكلمات على جمل الكلام.

قوله تعالى: إِنِّی جٰاعِلُکَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً ،أى مقتـدى يقتدى بك الناس، و يتبعونك فى أقوالك و أفعالك،فالإمام هو الذى يقتدى و يأتم به الناس،و لذلك ذكر عده من المفسرين،أن المراد به النبوه،لأن النبى يقتدى به امته فى دينهم،قال تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ،إِلاّٰ لِيُطٰاعَ بِإِذْنِ اللّٰهِ (النساء/۶۳)،لكنه فى غايه السقوط.

اما اولا:فلأن قوله: إِمٰاماً ،مفعول ثان لعامله الذى هو قوله: جٰاعِلُکَ و اسم الفاعل لا يعمل اذا كان بمعنى الماضى،و انما يعمل اذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال فقوله، إِنِّی جٰاعِلُکَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً ،وعد له عليه السّلام بالإمامه فى ما سيأتى،مع أنه وحى لا يكون إلاّ مع نبوّه، فقد كان عليه السّلام نبيا قبل تقلده الإمامه،فليست الإمامه فى الآيه بمعنى النبوّه(ذكره بعض المفسرين).

و اما ثانيا:فلأنا بيّنا فى صدر الكلام:أن قصه الامامه،إنما كانت فى أواخر عهد إبراهيم عليه السّلام بعد مجىء البشاره له بإسحاق و إسماعيل،و إنما جاءت الملائكه بالبشاره فى مسيرهم الى قوم لوط و إهلاكهم،و قد كان إبراهيم حينئذ نبيا مرسلا،فقد كان نبيا قبل أن يكون إماما،فإمامته غير نبوّته.

و منشأ هـذا التفسير و مـا يشـابهه الابتـذال الطـارى على معـانى الألفـاظ الواقعه فى القرآن الشـريف فى أنظـار النـاس من تكرر الاستعمال بمرور الزمن و من جمله تلك الألفاظ لفظ الإمامه،ففسره قوم:بالنبوه و التقدم و المطاعيه مطلقا،و فسره آخرون بمعنى الخلافه أو الوصايه،أو الرئاسه فى امور الـدين و الدنيا-و كل ذلك لم يكن-فإن النبوه معناها:تحمّل النبأ من جانب اللّه،و الرساله معناها تحمل التبليغ،و المطاعيه و الاطاعه قبول الإنسان ما يراه أو

يأمره غيره و هو من لوازم النبوّه و الرساله،و الخلافه نحو من النيابه،و كـذلك الوصايه، و الرئاسه نحو من المطاعيه و هو مصدريه الحكم فی الاجتماع و كـل هـذه المعانی غير معنی الإمامه التی هی كون الإنسان بحيث يقتـدی به غيره بأن يطبق أفعاله و أقواله علی أفعـاله و أقواله بنحو التبعيه،و لا معنی لأن يقـال لنبی من الأنبياء مفترض الطاعه إنی جاعلک للناس نبيا،أو مطاعا فيما تبلغه بنبوتک،أو رئيسا تأمر و تنهی فی الدين،أو وصيا،أو خليفه فی الأرض تقضی بين الناس فی مرافعاتهم بحكم اللّه.

و ليست الإمـامه تخالف الكلمات السابقه و تختص بموردها بمجرد العنايه اللفظيه فقط،اذ لا يصـح أن يقال لنبی-من لوازم نبوته كونه مطاعـا بعـد نبوته-إنی جاعلک مطاعا للناس بعـد ما جعلتک كـذلک،و لا يصـح ان يقال له ما يئول اليه معناه و ان اختلف بمجرد عنـايه لفظيه،فـإن المحـذور هو المحـذور،و هـذه المواهب الإلـهيه ليست مقصوره علی مجرد المفـاهيم اللفظيه،بـل دونها حقائق من المعارف الحقيقيه،فلمعنی الإمامه حقيقه وراء هذه الحقائق.

و الـذی نجـده فی كلامه تعالی:إنه كلما تعرض لمعنی الإمامه تعرض معها للهدايه تعرض التفسـير،قال تعالی فی قصـص إبراهيم عليه السّلام: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا (الأنبياء۷۳/)،و قال سبحانه: وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (السجده۲۴/)،فوصـفها بالهـدايه وصف تعريف،ثم قيـدها بالأمر،فبين أن الإمامه ليست مطلق الهـدايه،بل هی الهـدايه التی تقع بأمر اللّه،و هـذا الأمر هو الذی بين حقيقته فی قوله: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فَسُبْحانَ الَّذِی بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس۸۳/)،و قوله: وَ ما أَمْرُنا إِلاّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (القمر۵۰/)،و سـنبين فی الآيتين ان الأمر الإلهی و هو الـذی تسـميه الآيه المـذكوره بالملكوت وجه آخر للخلق،يواجهون به اللّه سبحـانه،طـاهر مطهر من قيـود الزمـان و المكـان خـال من التغير و التبـدل و هو المراد بكلمه-كن-الـذی ليس إلاّ وجود الشـیء العينی،و هو

قبال الخلق الذی هو وجه آخر من وجهی الأشیاء،فیه التغیر و التدریج و الانطباق علی قوانین الحرکه و الزمان،و لیکن هذا عندک علی إجماله حتی یأتیک تفصیله إنشاء اللّه العزیز.

و بالجمله فالامام هاد یهدی بأمر ملکوتی یصاحبه،فالإمامه بحسب الباطن نحو ولایه للناس فی أعمالهم،و هدایتها إیصالها إیاهم الی المطلوب بأمر اللّه دون مجرد إراءه الطریق الذی هو شأن النبی و الرسول و کل مؤمن یهدی الی اللّه سبحانه بالنصح و الموعظه الحسنه،قال تعالی: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ بِلِسٰانِ قَوْمِهِ لِیُبَیِّنَ لَهُمْ فَیُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ یَشٰاءُ وَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ (إبراهیم۴/)،و قال تعالی:فی مؤمن آل فرعون، وَ قٰالَ الَّذِی آمَنَ یٰا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِکُمْ سَبِیلَ الرَّشٰادِ (المؤمن۳۸/)،و قال تعالی: فَلَوْ لاٰ نَفَرَ مِنْ کُلِّ فِرْقَهٍ مِنْهُمْ طٰائِفَهٌ لِیَتَفَقَّهُوا فِی الدِّینِ وَ لِیُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذٰا رَجَعُوا إِلَیْهِمْ لَعَلَّهُمْ یَحْذَرُونَ (التوبه۱۲۲/)، و سیتضح لک هذا المعنی مزید اتضاح.

ثم انه تعالی بین سبب موهبه الإمامه بقوله: لَمّٰا صَبَرُوا وَ کٰانُوا بِآیٰاتِنٰا یُوقِنُونَ الآیه؛ فبین ان الملاک فی ذلک صبرهم فی جنب اللّه-و قد أطلق الصبر-فهو فی کل ما یبتلی و یمتحن به عبد فی عبودیته،و کونهم قبل ذلک موقنین،و قد ذکر فی جمله قصص إبراهیم علیه السّلام قوله وَ کَذٰلِکَ نُرِی إِبْرٰاهِیمَ مَلَکُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِیَکُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ (الأنعام۷۵/)، و الآیه کما تری تعطی بظاهرها:أن إراءه الملکوت لإبراهیم کانت مقدمه لإفاضه الیقین علیه، و یتبیّن به أنّ الیقین لا ینفک عن مشاهده الملکوت کما هو ظاهر قوله تعالی: کَلاّٰ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْیَقِینِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِیمَ (التکاثر۶/)،و قوله تعالی: کَلاّٰ بَلْ رٰانَ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ مٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ، کَلاّٰ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ یَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ -الی أن قال- کَلاّٰ إِنَّ کِتٰابَ الْأَبْرٰارِ لَفِی عِلِّیِّینَ، وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا عِلِّیُّونَ کِتٰابٌ مَرْقُومٌ یَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (المطففین۲۱/)،و هذه الآیات تدل علی أن المقربین هم الذین لا یحجبون عن ربهم بحجاب قلبیّ و هو المعصیه و الجهل و الریب و الشک،فهم أهل الیقین باللّه،و هم یشهدون علیین کما یشهدون الجحیم.

و بالجمله فالإمام یجب أن یکون إنسانا ذا یقین مکشوفا له عالم الملکوت-متحققا بکلمات من اللّه سبحانه-و قد مرّ أن الملکوت هو الأمر الذی هو الوجه الباطن من وجهی هذا العالم، فقوله تعالی: یَهْدُونَ بِأَمْرِنا ،یدل دلاله واضحه علی أن کل ما یتعلق به أمر الهدایه-و هو القلوب و الأعمال-فللإمام باطنه و حقیقته،و وجهه الأمریّ حاضر عنده غیر غائب عنه، و من المعلوم أن القلوب و الأعمال کسائر الأشیاء فی کونها ذات وجهین،فالإمام یحضر عنده و یلحق به أعمال العباد،خیرها و شرّها،و هو المهیمن علی السبیلین جمیعا،سبیل السعاده و سبیل الشقاوه.و قال تعالی أیضا: یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ (الإسراء۷۱/)، و سیجیء تفسیره بالإمام الحق دون کتاب الاعمال،علی ما یظن من ظاهرها،فالإمام هو الذی یسوق الناس الی اللّه سبحانه یوم تبلی السرائر،کما أنه یسوقهم إلیه فی ظاهر هذه الحیاه الدنیا و باطنها،و الآیه مع ذلک تفید أن الإمام لا یخلو عنه زمان من الأزمنه،و عصر من الأعصار،لمکان قوله تعالی: کُلَّ أُناسٍ ،علی ما سیجیء فی تفسیر الآیه من تقریبه.

ثم إن هذا المعنی أعنی الإمامه،علی شرافته و عظمته،لا یقوم إلا بمن کان سعید الذات بنفسه،اذ الذی ربّما تلبّس ذاته بالظلم و الشقاء،فإنما سعادته بهدایه من غیره،و قد قال اللّه تعالی: أَ فَمَنْ یَهْدِی إِلَی الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ یُتَّبَعَ أَمَّنْ لا یَهِدِّی إِلاّ أَنْ یُهْدی (یونس۳۵/)،و قد قوبل فی الآیه بین الهادی الی الحق و بین غیر المهتدی إلا بغیره،أعنی المهتدی بغیره،و هذه المقابله تقتضی أن یکون الهادی الی الحق مهتدیا بنفسه،أن المهتدی بغیره لا یکون هادیا الی الحق البته.

و یستنتج من هنا أمران:أحدهما:أن الإمام یجب أن یکون معصوما عن الضلال و المعصیه، و الا کان غیر مهتد بنفسه،کما مرّ،کما یدل علیه أیضا قوله تعالی: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّهً یَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَیْنا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاهِ،وَ إِیتاءَ الزَّکاهِ وَ کانُوا لَنا عابِدِینَ (الأنبیاء۷۳/)،فأفعال الإمام خیرات یهتدی إلیها لا بهدایه من غیره بل باهتداء من نفسه

بتأييد إلهی،و تسديد ربانی و الدليل عليه قوله تعالی: فِعْلَ الْخَيْرٰاتِ بناء علی أن المصدر المضاف يدل علی الوقوع،ففرق بين مثل قولنا:و أوحينا إليهم أن افعلوا الخيرات فلا يدل علی التحقيق و الوقوع،بخلاف قوله: وَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرٰاتِ فهو يدل علی أن ما فعلوه من الخيرات إنما هو بوحی باطنی و تأييد سماوی.الثانی:عكس الأمر الأول و هو أن من ليس بمعصوم فلا يكون إماما هاديا الی الحق البته.

و بهذا البيان يظهر:ان المراد بالظالمين فی قوله تعالی: قٰالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِی قٰالَ لاٰ يَنٰالُ عَهْدِی الظّٰالِمِينَ مطلق من صدر عنه ظلم ما،من شرك أو معصيه،و ان كان منه فی برهه من عمره، ثم تاب و صلح.

و قد سئل بعض أساتيذنا رحمه اللّٰه عليه:عن تقريب دلاله الآيه علی عصمه الامام.

فأجاب:ان الناس بحسب القسمه العقليه علی أربعه أقسام:من كان ظالما فی جميع عمره، و من لم يكن ظالما فی جميع عمره،و من هو ظالم فی أول عمره دون آخره،و من هو بالعكس هذا.و إبراهيم عليه السّلام أجل شأنا من أن يسأل الإمامه للقسم الأول و الرابع من ذريته،فبقی قسمان و قد نفی اللّٰه أحدهما،و هو الذی يكون ظالما فی أول عمره دون آخره،فبقی الآخر،و هو الذی يكون غير ظالم فی جميع عمره انتهی و قد ظهر مما تقدم من البيان أمور:

الاول:ان الامامه لمجعوله.

الثانی:أن الإمام يجب أن يكون معصوما بعصمه إلهيه.

الثالث:أن الأرض و فيه الناس،لا تخلوا عن إمام حق.

الرابع:أن الإمام يجب أن يكون مؤيدا من عند اللّٰه تعالی.

الخامس:أن أعمال العباد غير محجوبه عن علم الإمام.

السادس:أنه يجب أن يكون عالما بجميع ما يحتاج اليه الناس فی امور معاشهم و معادهم.

السابع:أنه يستحيل أن يوجد فيهم من يفوقه فی فضائل النفس.

فهذه سبعه مسائل هى امهات مسائل الإمامه،تعطيها الآيه الشريفه بما ينضم إليها من الآيات و اللّه الهادى.

فان قلت:لو كانت الإمامه هى الهدايه بأمر اللّه تعالى،و هى الهدايه الى الحق الملازم مع الاهتداء بالذات كما استفيد من قوله تعالى: أَ فَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ الآيه؛كان جميع الأنبياء أئمه قطعا،لوضوح أن نبوه النبى لا يتم إلا باهتداء من جانب اللّه تعالى بالوحى، من غير أن يكون مكتسبا من الغير،بتعليم أو إرشاد و نحوهما،و حينئذ فموهبه النبوه تستلزم موهبه الإمامه،و عاد الإشكال الى أنفسكم.

قلت:الذى يتحصّل من البيان السابق المستفاد من الآيه أن الهدايه بالحق و هى الإمامه تستلزم الاهتداء بالحق،و أما العكس و هو أن يكون كل من اهتدى بالحق هاديا لغيره بالحق، حتى يكون كل نبى لاهتدائه بالذات إماما،فلم يتبين بعد،و قد ذكر سبحانه هذا الاهتداء بالحق،من غير أن يقرنه بهدايه الغير بالحق فى قوله تعالى: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَ نُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ،وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ وَ كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ. وَ زَكَرِيّا وَ يَحْيى وَ عِيسى وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصّالِحِينَ، وَ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ. وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيم. ذٰلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ،وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ. أُولٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّهَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هٰؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ. أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ (الأنعام۹۰/)، و سياق الآيات كما ترى يعطى أن هذه الهدايه أمر ليس من شأنه أن يتغير و يتخلف،و أن هذه الهدايه لن ترتفع بعد رسول اللّه عن أمته،بل عن ذريه إبراهيم منهم خاصه،كما يدل عليه قوله تعالى: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِى بَراءٌ مِمّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ.

وَ جَعَلَها كَلِمَهً باقِيَهً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (الزخرف۱۸/)،فأعلم قومه ببراءته فى الحال

و أخبرهم بهدايته فى المستقبل،و هى الهدايه بأمر اللّه حقا،لا الهدايه التى يعطيها النظر و الاعتبار،فإنها كانت حاصله مدلولا عليها بقوله: إِنَّنِي بَرٰاءٌ مِمّٰا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي ،ثم أخبر اللّه:أنه جعل هـذه الهدايه كلمه باقيه فى عقب إبراهيم،و هذا أحد الموارد التى أطلق القرآن الكلمه فيها على الأمر الخارجى دون القول،كقوله تعالى: وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوىٰ وَ كٰانُوا أَحَقَّ بِهٰا (الفتح۲۶/).

و قد تبيّن بما ذكر:أن الإمامه فى ولد إبراهيم بعده،و فى قوله تعالى: قٰالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي.قٰالَ لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ إشاره الى ذلك،فإن إبراهيم عليه السّلام إنما كان سئل الإمامه لبعض ذريته لا لجميعهم،فاجيب:بنفيها عن الظالمين من ولده،و ليس جميع ولده ظالمين بالضروره حتى يكون نفيها عن الظالمين نفيا لها عن الجميع،ففيه إجابه لما سأله مع بيان أنها عهد،و عهده تعالى لا ينال الظالمين.

قوله تعالى: لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ ،فى التعبير إشاره الى غايه بعد الظالمين عن ساحه العهد الإلهى،فهى من الاستعاره بالكنايه .(۱)

[سوره البقره (۲): الآيات ۱۲۵ الى ۱۲۹]

اشاره

وَ إِذْ جَعَلْنَا اَلْبَيْتَ مَثٰابَةً لِلنّٰاسِ وَ أَمْناً وَ اِتَّخِذُوا مِنْ مَقٰامِ إِبْرٰاهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنٰا إِلىٰ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ أَنْ طَهِّرٰا بَيْتِيَ لِلطّٰائِفِينَ وَ اَلْعٰاكِفِينَ وَ اَلرُّكَّعِ اَلسُّجُودِ (۱۲۵) وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ رَبِّ اِجْعَلْ هٰذٰا بَلَداً آمِناً وَ اُرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ اَلثَّمَرٰاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ قٰالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلىٰ عَذٰابِ اَلنّٰارِ وَ بِئْسَ اَلْمَصِيرُ (۱۲۶) وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰاهِيمُ اَلْقَوٰاعِدَ مِنَ اَلْبَيْتِ وَ إِسْمٰاعِيلُ رَبَّنٰا تَقَبَّلْ مِنّٰا إِنَّكَ أَنْتَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (۱۲۷) رَبَّنٰا وَ اِجْعَلْنٰا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنٰا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنٰا مَنٰاسِكَنٰا وَ تُبْ عَلَيْنٰا إِنَّكَ أَنْتَ اَلتَّوّٰابُ اَلرَّحِيمُ (۱۲۸) رَبَّنٰا وَ اِبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيٰاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۱۲۹)

۱- ۱) .البقره ۱۲۴:بحث روائى فى ابراهيم و امامته؛العبوديه،النبوه،الرساله؛الامامه.

بيان:

قوله تعالى: وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنّاسِ وَ أَمْناً ،إشاره الى تشريع الحجّ و الأمن فى البيت،و المثابه هى المرجع،من ثاب يثوب اذا رجع.

قوله تعالى: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى كأنه عطف على قوله: جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً ،بحسب المعنى،فإن قوله: جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً ،لما كان إشاره الى التشريع كان المعنى و اذ قلنا للناس ثوبوا الى البيت و حجوا إليه،و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى،و ربما قيل إن الكلام على تقدير القول،و التقدير:و قلنا اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى،و المصلى اسم مكان من الصلاه بمعنى الدعاء أى اتخذوا من مقامه عليه السّلام مكانا للدعاء و الظاهر ان قوله: جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً ،الخ؛بمنزله التوطئه اشير به الى مناط تشريع الصلاه و لذا لم يقل:و صلوا،فى مقام ابراهيم،بل قال:و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى،فلم يعلق الامر بالصلاه فى المقام،بل علق على اتخاذ المصلى منه.

قوله تعالى: وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا ،العهد هو الأمر و التطهير إما تخليص البيت لعباده الطائفين،و العاكفين،و المصلين،و نسكهم فيكون من

الاستعاره بالکنایه،و أصل المعنی:أن خلصا بیتی لعباده العبّاد،و ذلک تطهیر و إما تنظیفه من الأقـذار و الکثافات الطارئه من عدم مبالات الناس و الرکع السجود جمعا راکع و ساجد و کان المراد به المصلون.

قوله تعالی: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذا ،هذا دعاء دعا به إبراهیم یسأل به الأمن علی أهل مکه و الرزق و قد اجیبت دعوته،و حاشا للّه سبحانه أن ینقل فی کلامه دعاء لا یستجیبه و لا یردّه فی کلامه الحق فیشتمل کلامه علی هجاء لغو لغی به لاغ جاهل، و قد قال تعالی: وَ الْحَقَّ أَقُولُ (ص۸۴/)،و قال تعالی: إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ (الطارق۱۴/).

و قـد نقل القرآن العظیم عن هـذا النبی دعوات کثیره دعا بها،و سألها ربه کدعائه لنفسه فی بادئ أمره،و دعائه عند مهاجرته الی سوریه و دعـائه و مسـألته بقاء الـذکر الخیر،و دعائه لنفسه و ذریته و لوالـدیه و للمؤمنین و المؤمنات،و دعائه لأهل مکه بعـد بناء البیت،و دعائه و مسألته بعثه النبی من ذریته،و من دعواته و مسائله التی تجم آماله و تشـخص مجاهداته و مساعیه فی جنب اللّه و فضائـل نفسه المقـدسه،و بـالجمله تعرف موقعه و زلفاه من اللّه عز اسـمه، و سائر قصـصه و ما مـدحه به ربه،یستنبط شـرح حیاته الشریفه،و سنتعرض للمیسور من ذلک فی سوره الأنعام.

قوله تعالی: مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ،لما سئل علیه السلام لبلد مکه الأمن،ثم سئل لأهله أن یرزقوا من الثمرات،استشعر:أن الأهل سیکون منهم مؤمنون و کافرون،و دعائه للأهل بالرزق یعم الکافر و المؤمن،و قـد تبرأ من الکافرین و ما یعبـدونه،قال تعالی: فَلَمّٰا تَبَیَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ (التوبه۱۱۴/)،فشهد تعالی له بالبراءه و التبری عن کل عدو للّه،حتی أبیه،و لذلک لما استشعر ما استشعره من عمـوم دعـوته قیـدها بقـوله من آمن منهم-و هـو یعلم أن رزقهم من الثمرات لاـ یتم من دون شـرکه الکـافرین،علی مـا یحکم به ناموس الحیاه الدنیویه

الاجتماعيه-غير أنه خص مسألته-و اللّه أعلم بما يحكم لسائر عباده،و يريد فى حقهم، فاجيب عليه السّلام بما يشمل المؤمن و الكافر،و فيه بيان أن المستجاب من دعوته ما يجرى على حكم العاده و قانون الطبيعه من غير خرق للعاده،و إبطال لظاهر حكم الطبيعه،و لم يقل:و ارزق من آمن من أهله من الثمرات لأن المطلوب استيهاب الكرامه للبلد لكرامه البيت المحرم،و لا ثمره تحصل فى واد غير ذى زرع،وقع فيه البيت،و لو لا ذلک لم يعمر البلد،و لا وجد أهلا يسكنونه.

قوله تعالى: وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ،قرء فامتعه من باب الإفعال و التفعيل و الامتاع و التمتيع بمعنى واحد.

قوله تعالى: ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلىٰ عَذٰابِ النّٰارِ الخ؛فيه إشاره الى مزيد اكرام البيت و تطييب لنفس إبراهيم عليه السّلام،كأنه قيل:ما سألته من اكرام البيت برزق المؤمنين من أهل هذا البلد استجبته و زياده،و لا يغتر الكافر بذلک أن له كرامه على اللّه،و انما ذلک اكرام لهذا البلد، و اجابه لدعوتک بأزيد مما سألته،فسوق يضطر الى عذاب النار،و بئس المصير.

قوله تعالى: وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰاهِيمُ الْقَوٰاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمٰاعِيلُ ،القواعد جمع قاعده و هى ما قعد من البناء على الارض،و استقر عليه الباقى،و رفع القواعد من المجاز بعدّ ما يوضع عليها منها،و نسبه الرفع المتعلق بالمجموع الى القواعد وحدها.و فى قوله تعالى: مِنَ الْبَيْتِ تلميح الى هذه العنايه المجازيه.

قوله تعالى: رَبَّنٰا تَقَبَّلْ مِنّٰا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ،دعاء لإبراهيم و اسماعيل،و ليس على تقدير القول،أو ما يشبهه،و المعنى يقولان:ربنا تقبل منا،الخ؛بل هو فى الحقيقه حكايه المقول نفسه،فإن قوله: يَرْفَعُ إِبْرٰاهِيمُ الْقَوٰاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمٰاعِيلُ حكايه الحال الماضيه،فهما يمثلان بذلک تمثيلا كأنهما يشاهدان و هما مشتغلان بالرفع،و السامع يراهما على حالهما ذلک ثم يسمع دعائهما بألفاظهما من غير وساطه المتكلم المشير الى موقفهما

و عملهما،و هـذا كثير فى القرآن،و هو من أجمل السـياقات القرآنيه-و كلها جميل-و فيه من تمثيل القصه و تقريبه الى الحس ما لا يوجد و لا شيء من نوع بداعته فى التقبل بمثل القول و نحوه.

و فى عـدم ذكر متعلق التقبل-و هو بناء البيت-تواضع فى مقام العبوديه،و اسـتحقار لما عملا به و المعنى ربنا تقبل منا هـذا العمل اليسير انك أنت السميع لدعوتنا،العليم بما نويناه فى قلوبنا.

قوله تعالى: رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَکَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ ،من البديهى أن الاسلام على ما تداول بيننا من لفظه،و يتبادر الى أذهاننـا من معنـاه أول مراتب العبوديه،و به يمتاز المنتحل من غيره،و هو الأخـذ بظاهر الاعتقادات و الأعمال الـدينيه،أعم من الإيمـان و النفـاق،و ابراهيم عليه السّـلام-و هو النبى الرسول أحـد الخمسه أولى العزم،صاحب المله الحنيفيه-أجل من أن يتصور فى حقه أن لا يكون قـد ناله الى هـذا الحين،و كذا ابنه اسـماعيل رسول اللّه و ذبيحه،أو يكونا قد نالاه و لكن لم يعلما بذلك،أو يكونا علما بذلك و أرادا البقاء على ذلك،و هما فى ما هما فيه من القربى و الزلفى،و المقام مقام الدعوه عند بناء البيت المحرم، و همـا أعلم بمن يسألانـه،و أنه من هو،و ما شأنه،على أن هـذا الإسـلام من الامور الاختياريه التى يتعلق بها الأمر و النهى كما قال تعالى: إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (البقره١٣١/)،و لا معنى لنسبه ما هو كذلك الى اللّه سبحانه أو مسئله ما هو فعل اختيارى للانسان من حيث هو كذلک من غير عنايه يصح معها ذلك (١).

قوله تعـالى: وَ أَرِنا مَناسِكَنا وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّکَ أَنْتَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ ،يـدل على مـا مر من معنى الإسـلام أيضا،فإن المناسک جمع منسک بمعنى العباده،كما فى قوله تعالى:

١- ١) .البقره ١٢٥-١٢٩:بحث حول معنى الاسلام الذى اراده ابراهيم عليه السّلام من اللّه لذريته؛الدعاء.

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً (الحج۳۴/)،أو بمعنى المتعبد،أعنى الفعل المأتى به عباده و إضافه المصدر يفيد التحقق،فالمراد بمناسكنا هى الافعال العباديه الصادره منهما و الأعمال التى يعملانها دون الأفعال،و الاعمال التى يراد صدورها منهما،فليس قوله: أَرِنا بمعنى علمنا أو وقفنا،بل التسديد باراءه حقيقه الفعل الصادر منهما،كما أشرنا إليه فى قوله تعالى:

وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ،وَ إِقامَ الصَّلاهِ وَ إِيتاءَ الزَّكاهِ (الأنبياء۷۳/)،و سنبينه فى محله:ان هذا الوحى تسديد فى الفعل،لا تعليم للتكليف المطلوب،و كأنه إليه الإشاره بقوله تعالى: وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ،وَ إِسْحاقَ،وَ يَعْقُوبَ،أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ. إِنّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَهٍ ذِكْرَى الدّارِ (ص۴۶/).

فقد تبين ان المراد بالإسلام و البصيره فى العباده،غير المعنى الشائع المتعارف،و كذلك المراد بقوله تعالى: وَ تُبْ عَلَيْنا ،لان إبراهيم و إسماعيل كانا نبيين معصومين بعصمه اللّه تعالى، لا يصدر عنهما ذنب حتى يصح توبتهما منه،كتوبتنا من المعاصى الصادره عنا.

قوله تعالى: رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ الخ؛دعوه النبى عليه السّلام و قد كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول:«أنا دعوت ابراهيم» (۱)(۲).

[سوره البقره (۲): الآيات ۱۳۰ الى ۱۳۴]

اشاره

وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّهِ إِبْراهِيمَ إِلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَهِ لَمِنَ الصّالِحِينَ (۱۳۰) إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (۱۳۱) وَ وَصّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۳۲) أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۱۳۳) تِلْكَ أُمَّهٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمّا كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۳۴)

ص: ۱۴۷

۱- ۱) .البقره ۱۲۵-۱۲۹:بحث روائى حول تطهير بيت اللّه،سفر ابراهيم الى مكه لمقابله اسماعيل عليه السّلام بناء الكعبه: الحجر الاسود؛معنى ان الشىء من الجنه او جهنم؛شرف الانبياء و الامور المنسوبه لهم و الاماكن المقدسه كالكعبه و الحجر الاسود؛معنى الامه.

۲- ۲) .البقره ۱۲۵-۱۲۹:بحث علمى حول دوره كامله من السير العبودى الذى يسير به العبد من موطن نفسه الى قرب ربه...

بیان:

قوله تعالى: وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ،الرغبه اذا عدّيت بمن أفادت معنى الإعراض و النفره،و اذا عديت بفى أفادت:معنى الشوق و الميل، و سفه يأتى متعديا و لازما،و لذلك ذكر بعضهم أن قوله: نَفْسَهُ مفعول لقوله: سَفِهَ ،و ذكر آخرون أنه تمييز لا مفعول،و المعنى على أى حال:إن الإعراض عن مله إبراهيم من حماقه النفس،و عدم تمييزها ما ينفعها مما يضرها و من هذه الآيه يستفاد معنى ما ورد فى الحديث أن العقل ما عبد به الرحمن.

قوله تعالى: وَ لَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ،الاصطفاء أخذ صفوه الشىء و تمييزه عن غيره اذا اختلطا،و ينطبق هذا المعنى بالنظر الى مقامات الولايه على خلوص العبوديه و هو أن يجرى العبد فى جميع شئونه على ما يقتضيه مملوكيته و عبوديته من التسليم الصرف لربه،و هو التحقق بالدين فى جميع الشئون فإن الدين لا يشتمل إلا على مواد العبوديه فى امور

الـدنيا و الآـخره و تسـليم مـا يرضـيه اللّه لعبـده فى جميع اموره كما قال اللّه تعالى: إِنَّ الـدِّينَ عِنْـدَ اللّٰهِ الْإِسْـلاٰمُ (آل عمران۱۹/)،فظهر:أن مقام الاصطفاء هو مقام الإسلام بعينه و يشهد بـذلك قوله تعالى: إِذْ قٰالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْـلِمْ،قٰالَ أَسْـلَمْتُ لِرَبِّ الْعٰالَمِينَ الآيه؛فإن الظاهر أن الظرف متعلق بقوله: اِصْطَفَيْنٰاهُ ،فيكون المعنى أن اصطفاءه إنما كان حين قال له ربه:أسلم:

فأسلم للّه رب العالمين فقوله تعالى: إِذْ قٰالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ،قال أسلمت لرب العالمين،بمنزله التفسير لقوله: اِصْطَفَيْنٰاهُ .

و فى الكلام التفات من التكلم الى الغيبه فى قوله: إِذْ قٰالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْـلِمْ ،و لم يقل اذ قلنا له أسلم،و التفات آخر من الخطاب الى الغيبه فى المحكى من قول إبراهيم: قٰالَ أَسْـلَمْتُ لِرَبِّ الْعٰالَمِينَ ،و لم يقل:قال أسلمت لك اما الاول،فالنكته فيه:الإشاره الى أنه كان سرا استسر به ربه اذ أسره إليه فيما خلى به معه فإن للسامع المخاطب اتصالا بالمتكلم فاذا غاب المتكلم عن صفه حضوره انقطع المخاطب عن مقامه و كان بينه و بين ما للمتكلم من الشأن و القصه ستر مضروب،فأفاد:أن القصه من مسامرات الانس و خصائص الخلوه.

و اما الثانى:فلأن قوله تعالى: إِذْ قٰالَ لَهُ رَبُّهُ ،يفيد معنى الاختصاص باللطف و الاسترسال فى المساره لكن أدب الحضور كان يقتضى من إبراهيم و هو عبد عليه طابع الذله و التواضع أن لا يسترسل،و لا يعد نفسه مختصا بكرامه القرب متشرفا بحظيره الانس،بل يراها واحدا من العبيد الأذلاء المربوبين،فيسلم لرب يستكين اليه جميع العالمين فيقول:أسلمت لرب العالمين.

و الإسلام و التسليم و الاستسلام بمعنى واحد،من السلم،و أحد الشيئين اذا كان بالنسبه الى الآخر بحال لا يعصيه و لا يدفعه فقد أسلم و سلم و استسلم له،قال تعالى: بَلىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ (البقره۱۱۲/)،و قال تعالى: وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً (الأنعام۷۹/)،و وجه الشىء ما يواجهك به،و هو بالنسبه إليه تعالى تمام

وجود الشیء،فإسلام الإنسان له تعالی هو وصف الانقیاد و القبول منه لما یرد علیه من اللّه سبحانه من حکم تکوینی،من قدر و قضاء،أو تشریعی من أمر أو نهی أو غیر ذلک،و من هنا کان له مراتب بحسب الواردات بمراتبها (۱).

قوله تعالی: وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَهِ لَمِنَ الصّالِحِینَ ،الصلاح،هو اللیاقه بوجه ربما نسب فی کلامه الی عمل الإنسان و ربما نسب الی نفسه و ذاته،قال تعالی: فَلْیَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً (الکهف۱۱۰/)،و قال تعالی: وَ أَنْکِحُوا الْأَیامی مِنْکُمْ وَ الصّالِحِینَ مِنْ عِبادِکُمْ وَ إِمائِکُمْ (النور۳۲/).

و صلاح العمل و إن لم یرد به تفسیر بین من کلامه تعالی غیر انه نسب إلیه من الآثار ما یتضح به معناه.

فمنها:أنه صالح لوجه اللّه،قال تعالی: صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ (الرعد۲۲/)،و قال تعالی: وَ ما تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللّهِ (البقره۲۷۲/).

و منها:أنه یرفع الکلم الطیب الصاعد الی اللّه سبحانه قال تعالی: إِلَیْهِ یَصْعَدُ الْکَلِمُ الطَّیِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّالِحُ یَرْفَعُهُ (فاطر۱۰/)،فیستفاد من هذه الآثار المنسوبه الیه:أن صلاح العمل معنی تهیئه و لیاقته لأن یلبس لباس الکرامه و یکون عونا و ممدا لصعود الکلام الطیب إلیه تعالی،قال تعالی: وَ لکِنْ یَنالُهُ التَّقْوی مِنْکُمْ (الحج۳۷/)،و قال تعالی:

کُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ،وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّکَ،وَ ما کانَ عَطاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً (الإسراء۲۰/)، فعطاؤه بمنزله الصوره،و صلاح العمل بمنزله الماده (۲).

قوله تعالی: وَ وَصّی بِها إِبْراهِیمُ بَنِیهِ ،أی وصی بالمله.

ص: ۱۵۰

۱- ۱) .البقره ۱۳۰-۱۳۴:بحث حول مراتب الاسلام.

۲- ۲) البقره ۱۳۰-۱۳۴:بحث فی صلاح النفس و الذات.

قوله تعالی: فَلاٰ تَمُوتُنَّ ،النهی عن الموت و هو أمر غیر اختیاری للانسان، و التکلیف إنما یتعلق بأمر اختیاری انما هو لرجوعه الی أمر یتعلق بالاختیار،و التقدیر احذروا أن یغتالکم الموت فی غیر حال الإسلام،أی داوموا و ألزموا الإسلام لئلا یقع موتکم إلا فی هذا الحال،و فی الآیه إشاره الی أن الدین هو الإسلام کما قال تعالی: إِنَّ الدِّینَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلاٰمُ (آل عمران/۱۹).

قوله تعالی: وَ إِلٰهَ آبٰائِکَ إِبْرٰاهِیمَ وَ إِسْمٰاعِیلَ وَ إِسْحٰاقَ ،فی الکلام إطلاق لفظ الأب علی الجدّ و العمّ و الوالد من غیر مصحّح للتغلیب،و حجه فیما سیأتی إنشاء اللّه تعالی فی خطاب إبراهیم لآزر بالأب.

قوله تعالی: إِلٰهاً وٰاحِداً ،فی هذا الإیجاز بعد الإطناب بقوله: إِلٰهَکَ وَ إِلٰهَ آبٰائِکَ ،الخ؛ دفع لإمکان إبهام اللفظ أن یکون إلهه غیر إله آبائه علی نحو ما یتخذه الوثنیون من الآلهه الکثیره.

قوله تعالی: وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ،بیان للعباده و أنها لیست عباده کیفما اتّفقت بل عباده علی نهج الإسلام و فی الکلام جمله أن دین إبراهیم هو الإسلام و الموروث منه فی بنی إبراهیم کإسحاق و یعقوب و إسماعیل،و فی بنی إسرائیل،و فی بنی إسماعیل من آل إبراهیم جمیعا هو الإسلام لا غیر،و هو الذی أتی به إبراهیم من ربّه فلا حجه لأحد فی ترکه و الدعوه الی غیره [(۱)].

[سوره البقره (۲): الآیات ۱۳۵ الی ۱۴۱]

اشاره

وَ قٰالُوا کُونُوا هُوداً أَوْ نَصٰاریٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّهَ إِبْرٰاهِیمَ حَنِیفاً وَ مٰا کٰانَ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ (۱۳۵) قُولُوا آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْنٰا وَ مٰا أُنْزِلَ إِلیٰ إِبْرٰاهِیمَ وَ إِسْمٰاعِیلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ اَلْأَسْبٰاطِ وَ مٰا أُوتِیَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ وَ مٰا أُوتِیَ اَلنَّبِیُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاٰ نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۱۳۶) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مٰا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اِهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا هُمْ فِی شِقٰاقٍ فَسَیَکْفِیکَهُمُ اَللّٰهُ وَ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۱۳۷) صِبْغَهَ اَللّٰهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اَللّٰهِ صِبْغَهً وَ نَحْنُ لَهُ عٰابِدُونَ (۱۳۸) قُلْ أَ تُحَاجُّونَنٰا فِی اَللّٰهِ وَ هُوَ رَبُّنٰا وَ رَبُّکُمْ وَ لَنٰا أَعْمٰالُنٰا وَ لَکُمْ أَعْمٰالُکُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (۱۳۹) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ وَ إِسْمٰاعِیلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ اَلْأَسْبٰاطَ کٰانُوا هُوداً أَوْ نَصٰاریٰ قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اَللّٰهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ کَتَمَ شَهٰادَهً عِنْدَهُ مِنَ اَللّٰهِ وَ مَا اَللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ (۱۴۰) تِلْکَ أُمَّهٌ قَدْ خَلَتْ لَهٰا مٰا کَسَبَتْ وَ لَکُمْ مٰا کَسَبْتُمْ وَ لاٰ تُسْئَلُونَ عَمّٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۱۴۱)

ص :۱۵۱

۱- ۱) .البقره ۱۳۰-۱۳۴:بحث روائی فی مراتب الاسلام و الایمان؛العیش الهنیء؛الحیاه فی الدنیا؛الحیاه فی الآخره.

بیان:

قوله تعالی: وَ قَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارىٰ تَهْتَدُوا ،لما بين تعالى أن الدين الحق الذى كان عليه أولاد إبراهيم من إسماعيل و إسحاق و يعقوب و أولاده كان هو الإسلام الذى كان عليه إبراهيم حنيفا،استنتج من ذلك أن الاختلافات و الانشعابات التى يدعو إليها فرق المنتحلين من اليهود و النصارى،امور اخترعتها هوساتهم،و لعبت بها أيديهم لكونهم

ص: ١٥٢

فی شقاق،فتقطعوا بذلک طوائف و أحزابا دینیه،و صبغوا دین اللّه سبحانه-و هو دین التوحید و دین الوحده،بصبغه الأهواء و الأغراض و المطامع،مع أن الدین واحد کما أن الإله المعبود بالدین واحد و هو دین إبراهیم،و به فلیتمسک المسلمون و لیترکوا شقاق أهل الکتاب.

فإن من طبیعه هذه الحیاه الأرضیه الدنیویه التغیر و التحول فی عین الجری و الاستمرار کنفس الطبیعه التی هی کالماده لها و یوجب ذلک أن تتغیر الرسوم و الآداب و الشعائر القومیه بین طوائف الملل و شعباتها،و ربما یوجب ذلک تغییرا و انحرافا فی المراسم الدینیه،و ربما یوجب دخول ما لیس من الدین فی الدین،أو خروج ما هو منه و الأغراض و الغایات الدنیویه ربما تحل محل الأغراض الدینیه الإلهیه(و هی بلیه الدین)،و عند ذلک ینصبغ الدین بصبغه القومیه فیدعو الی هدف دون هدفه الأصلی و یؤدب الناس غیر أدبه الحقیقی،فلا یلبث حتی یعود المنکر(و هو ما لیس من الدین)معروفا یتعصب له الناس لموافقته هوساتهم و شهواتهم و المعروف منکرا لیس له حام یحمیه و لا واق یقیه و یئول الأمر الی ما نشاهده الیوم من...

و بالجمله فقوله تعالی: وَ قٰالُوا کُونُوا هُوداً أَوْ نَصٰاریٰ ،إجمال تفصیل معناه و قالت الیهود کونوا هودا تهتدوا،و قالت النصاری کونوا نصاری تهتدوا،کل ذلک لتشعبهم و شقاقهم.

قوله تعالی: قُلْ بَلْ مِلَّهَ إِبْرٰاهِیمَ حَنِیفاً وَ مٰا کٰانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ ،جواب عن قولهم أی قل،بل نتبع مله إبراهیم حنیفا فإنها المله الواحده التی کان علیها جمیع أنبیائکم،إبراهیم،فمن دونه،و ما کان صاحب هذه المله و هو إبراهیم من المشرکین و لو کان فی ملته هذه الانشعابات،و هی الضمائم التی ضمها إلیها المبتدعون،من الاختلافات لکان مشرکا بذلک،فإن ما لیس من دین اللّه لا یدعو الی اللّه سبحانه،بل الی غیره و هو الشرک،

ص :۱۵۳

فهذا دين التوحيد الذی لا يشتمل علی ما ليس من عند اللّه تعالی.

قوله تعالی: قُولُوا آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْنٰا ،لما حكی ما يأمره به اليهود و النصاری من اتباع مذهبهم،ذكر ما هو عنده من الحق(و الحق يقول)و هو الشهاده علی الإيمان باللّه،و الإيمان بما عند الأنبياء،من غير فرق بينهم،و هو الإسلام و خص الإيمان باللّه بالذكر و قدمه و أخرجه من بين ما انزل علی الأنبياء لأن الإيمان باللّه فطری،لا يحتاج الی بينه النبوه،و دليل الرساله.

ثم ذكر سبحانه ما انزل إلينا و هو القرآن أن المعارف القرآنيه و ما انزل الی إبراهيم و اسماعيل و إسحاق و يعقوب،ثم ذكر ما أوتی موسی و عيسی و خصهما بالذكر لأن المخاطبه مع اليهود و النصاری و هم يدعون إليهما فقط ثم ذكر ما أوتی النبيون من ربهم،ليشمل الشهاده جميع الأنبياء فيستقيم قوله بعد ذلك:لا نفرق بين أحد منهم.

و اختلاف التعبير فی الكلام،حيث عبر عما عندنا و عند إبراهيم و إسحاق و يعقوب بالإنزال و عما عند موسی و عيسی و النبيين بالإيتاء و هو الإعطاء،لعل الوجه فيه أن الأصل فی التعبير هو الإيتاء،كما قال تعالی بعد ذكر إبراهيم،و من بعده،و من قبله من الأنبياء فی سوره الأنعام: أُولٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ (الأنعام/٨٩)،لكن لفظ الإيتاء ليس بصريح فی الوحی و الإنزال كما قال تعالی: وَ لَقَدْ آتَيْنٰا لُقْمٰانَ الْحِكْمَةَ (لقمان/١٢)،و قال: وَ لَقَدْ آتَيْنٰا بَنِی إِسْرٰائِيلَ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ (الجاثيه/١٦)، و لما كان كل من اليهود و النصاری يعدون إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و الأسباط من أهل ملتهم،فاليهود من اليهود،و النصاری من النصاری،و اعتقادهم أن المله الحق من النصرانيه،أو اليهوديه،هی ما أوتيه موسی و عيسی،فلو كان قيل:و ما اوتی إبراهيم و إسماعيل لم يكن بصريح فی كونهم بأشخاصهم صاحب مله بالوحی و الانزال و احتمل أن يكون ما أوتوه،هو الذی أوتيه موسی و عيسی عليهما السّلام نسب إليهم بحكم التبعيه كما نسب

إيتائه الی بنی إسرائيل،فلذلک خص إبراهيم و من عطف عليه باستعمال لفظ الإنزال،و أما النبيون قبل إبراهيم فليس لهم فيهم كلام حتی يوهم قوله: وَ مٰا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ شيئا يجب دفعه.

قوله تعالی: وَ الْأَسْبٰاطِ ،الأسباط فی بنی إسرائيل كالقبائل فی بنی إسماعيل و السبط كالقبيله الجماعه يجتمعون علی أب واحد،و قد كانوا اثنتی عشره أسباطا أمما و كل واحده منهم تنتهی الی واحد من أولاد يعقوب و كانوا اثنی عشر،فخلف كل واحد منهم أمه من الناس.

فإن كان المراد بالأسباط الامم و الأقوام فنسبه الإنزال إليهم لاشتمالهم علی أنبياء من سبطهم،و إن كان المراد بالأسباط الأشخاص كانوا أنبياء أنزل اليهم الوحی و ليسوا بأخوه يوسف لعدم كونهم أنبياء،و نظير الآيه قوله تعالی: وَ أَوْحَيْنٰا إِلیٰ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبٰاطِ وَ عِيسیٰ (النساء١۶٣/).

قوله تعالی: فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مٰا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ،الإتيان بلفظ المثل مع كون أصل المعنی،فإن آمنوا بما آمنتم به،لقطع عرق الخصام و الجدال،فإنه لو قيل لهم أن آمنوا بما آمنا به أمكن أن يقولوا كما قالوا،بل نؤمن بما أنزل علينا و نكفر بما ورائه،لكن لو قيل لهم، إنا آمنا بما لا يشتمل إلا علی الحق فآمنوا انتم بما يشتمل علی الحق مثله،لم يجدوا طريقا للمراء و المكابره،فإن الذی بيدهم لا يشتمل علی صفوه الحق.

قوله تعالی: فِي شِقٰاقٍ ،الشقاق النفاق و المنازعه و المشاجره و الافتراق.

قوله تعالی: فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّٰهُ ،وعد لرسول اللّه بالنصره عليهم،و قد أنجز وعده و سيتم هذه النعمه للامه الإسلاميه اذا شاء،و اعلم:ان الآيه معترضه بين الآيتين السابقه و اللاحقه.

قوله تعالی: صِبْغَةَ اللّٰهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ صِبْغَةً ،الصبغه بناء نوع من

الصبغ أی هذا الإيمان المذكور صبغه إلهيه لنا،و هی أحسن الصبغ لا صبغه اليهوديه و النصرانيه بالتفرق فی الدين،و عدم إقامته.

قوله تعالی: وَ نَحْنُ لَهُ عٰابِدُونَ ،فی موضع الحال،و هو كبيان العله لقوله: صِبْغَةَ اللّٰهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ .

قوله تعالی: قُلْ أَ تُحَاجُّونَنٰا فِی اللّٰهِ ،إنكار،لمحاجه أهل الكتاب،المسلمين فی اللّه سبحانه و قد بين وجه الإنكار،و كون محاجتهم لغوا و باطلا،بقوله و هو ربنا و ربكم و لنا أعمالنا و لكم أعمالكم و نحن له مخلصون،و بيانه:أن محاجه كل تابعين فی متبوعهما و مخاصمتهما فيه انما تكون لأحد أمور ثلاثه:اما لاختصاص كل من التابعيه بمتبوع دون متبوع الآخر، فيريدان بالحاجه كل تفضيل متبوعه و ربه علی الآخر،كالمحاجه بين وثنی و مسلم،و اما لكون كل واحد منهما أو احدهما يريد مزيد الاختصاص به،و ابطال نسبه رفيقه،او قربه او ما يشبه ذلك،بعد كون المتبوع واحدا،و اما لكون أحدهما ذا خصائص و خصال لا ينبغی أن ينتسب الی هذا المتبوع و فعاله ذاك الفعال،و خصال تلك الخصال لكونه موجبا،لهتكه او سقوطه او غير ذلك،فهذه علل المحاجه و المخاصمه بين كل تابعين،و المسلمون و أهل الكتاب انما يعبدون إلها واحدا،و أعمال كل من الطائفتين لا تزاحم الاخری شيئا و المسلمون مخلصون فی دينهم للّه، فلا سبب يمكن أن يتشبث به أهل الكتاب فی محاجتهم،و لذلك أنكر عليهم محاجتهم أوّلا ثم نفی واحدا واحدا من اسبابها الثلاثه،ثانيا.

قوله تعالی: أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ الی قوله كٰانُوا هُوداً أَوْ نَصٰاریٰ ،و هو قول كل من الفريقين،ان ابراهيم و من ذكر بعده منهم،و لازم ذلك كونهم هودا أو نصاری أو قولهم صريحا انهم كانوا هودا أو نصاری،كما يفيد ظاهر قوله تعالی: يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِی إِبْرٰاهِيمَ وَ مٰا أُنْزِلَتِ التَّوْرٰاةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (آل عمران۶۵/).

قوله تعالی: قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّٰهُ ،فإن اللّه اخبرنا و اخبركم فی الكتاب أن

موسی و عیسی و کتابیهما بعد ابراهیم و من ذکر معه.

قوله تعالی: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ کَتَمَ شَهٰادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّٰهِ ،أی کتم ما تحمل شهاده أن اللّه أخبر بکون تشریع الیهودیه أو النصرانیه بعد إبراهیم و من ذکر معه،فالشهاده المذکوره فی الآیه،شهاده تحمل،أو المعنی کتم شهاده اللّه علی کون هؤلاء قبل التوراه و الانجیل،فالشهاده شهاده أداء،المتعین هو المعنی الأول.

قوله تعالی: تِلْکَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ،أی ان الغور فی الأشخاص و أنهم ممن کانوا لا ینفع حالکم،و لا یضرکم السکوت عن المحاجه و المجادله فیهم،و الواجب علیکم الاشتغال بما تسألون غدا عنه،و تکرار الآیه مرتین لکونهم یفرطون فی هذه المحاجه التی لا تنفع لحالهم شیئا،و خصوصا مع علمم بأن إبراهیم کان قبل الیهودیه و النصرانیه،و إلا فالبحث عن حال الأنبیاء،و الرسل بما ینفع البحث فیه کمزایا رسالاتهم و فضائل نفوسهم الشریفه مما ندب الی القرآن حیث یقص قصصهم و یأمر بالتدبر فیها.

[سوره البقره (۲): الآیات ۱۴۲ الی ۱۵۱]

اشاره

سَیَقُولُ اَلسُّفَهٰاءُ مِنَ اَلنّٰاسِ مٰا وَلاّٰهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ اَلَّتِی کٰانُوا عَلَیْهٰا قُلْ لِلّٰهِ اَلْمَشْرِقُ وَ اَلْمَغْرِبُ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۱۴۲) وَ کَذٰلِکَ جَعَلْنٰاکُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَکُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَی اَلنّٰاسِ وَ یَکُونَ اَلرَّسُولُ عَلَیْکُمْ شَهِیداً وَ مٰا جَعَلْنَا اَلْقِبْلَةَ اَلَّتِی کُنْتَ عَلَیْهٰا إِلاّٰ لِنَعْلَمَ مَنْ یَتَّبِعُ اَلرَّسُولَ مِمَّنْ یَنْقَلِبُ عَلیٰ عَقِبَیْهِ وَ إِنْ کٰانَتْ لَکَبِیرَةً إِلاّٰ عَلَی اَلَّذِینَ هَدَی اَللّٰهُ وَ مٰا کٰانَ اَللّٰهُ لِیُضِیعَ إِیمٰانَکُمْ إِنَّ اَللّٰهَ بِالنّٰاسِ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ (۱۴۳) قَدْ نَریٰ تَقَلُّبَ وَجْهِکَ فِی اَلسَّمٰاءِ فَلَنُوَلِّیَنَّکَ قِبْلَةً تَرْضٰاهٰا فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ وَ حَیْثُ مٰا کُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَکُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ لَیَعْلَمُونَ أَنَّهُ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اَللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا یَعْمَلُونَ (۱۴۴) وَ لَئِنْ أَتَیْتَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ بِکُلِّ آیَةٍ مٰا تَبِعُوا قِبْلَتَکَ وَ مٰا أَنْتَ بِتٰابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَ مٰا بَعْضُهُمْ بِتٰابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنِ اِتَّبَعْتَ أَهْوٰاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَکَ مِنَ اَلْعِلْمِ إِنَّکَ إِذاً لَمِنَ اَلظّٰالِمِینَ (۱۴۵) اَلَّذِینَ آتَیْنٰاهُمُ اَلْکِتٰابَ یَعْرِفُونَهُ کَمٰا یَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِیقاً مِنْهُمْ لَیَکْتُمُونَ اَلْحَقَّ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ (۱۴۶) اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ فَلاٰ تَکُونَنَّ مِنَ اَلْمُمْتَرِینَ (۱۴۷) وَ لِکُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّیهٰا فَاسْتَبِقُوا اَلْخَیْرٰاتِ أَیْنَ مٰا تَکُونُوا یَأْتِ بِکُمُ اَللّٰهُ جَمِیعاً إِنَّ اَللّٰهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۴۸) وَ مِنْ حَیْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ وَ مَا اَللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ (۱۴۹) وَ مِنْ حَیْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ وَ حَیْثُ مٰا کُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَکُمْ شَطْرَهُ لِئَلاّٰ یَکُونَ لِلنّٰاسِ عَلَیْکُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِی وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِی عَلَیْکُمْ وَ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵۰) کَمٰا أَرْسَلْنٰا فِیکُمْ رَسُولاً مِنْکُمْ یَتْلُوا عَلَیْکُمْ آیٰاتِنٰا وَ یُزَکِّیکُمْ وَ یُعَلِّمُکُمُ اَلْکِتٰابَ وَ اَلْحِکْمَةَ وَ یُعَلِّمُکُمْ مٰا لَمْ تَکُونُوا تَعْلَمُونَ (۱۵۱)

بیان:

قوله تعالی: سَیَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النّاسِ مَا وَلاّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِی کانُوا عَلَیْها ،هـذا تمهید ثانیا لما سیأمر تعالی به من اتخاذ الکعبه قبله و تعلیم للجواب عما سیعترض به السفهاء من الناس و هم الیهود تعصبا لقبلتهم التی هی بیت المقدس و مشرکوا العرب الراصدون لکل امر جدید یحتمل الجدال و الخصام،و قد مهد لذلک اولا بما ذکره اللّه تعالی من قصص ابراهیم و انواع کرامته علی اللّه سبحانه و کرامه ابنه اسماعیل و دعوتهما للکعبه و مکه و للنبی و الأمه المسلمه و بنائهما البیت و الامر بتطهیره للعباده،و من المعلوم ان تحویل القبله من بیت المقدس الی الکعبه من اعظم الحوادث الدینیه و اهم التشریعات التی قوبل به الناس بعد هجره النبی الی المدینه و أخذ الاسلام فی تحقیق اصوله و نشر معارفه و بث حقائقه، فما کانت الیهود و غیرهم تسکت و تستریح فی مقابل هذا التشریع،لانهم کانوا یرون انه یبطل واحدا من اعظم مفاخرهم الدینیه و هو القبله و اتباع غیرهم لهم فیها و تقدمهم علی من دونهم فی هذا الشعار الدینی،علی ان ذلک تقدم باهر فی دین المسلمین،لجمعه وجوههم فی عباداتهم و مناسکهم الدینیه الی نقطه واحده یخلصهم من تفرق الوجوه فی الظاهر و شتات الکلمه فی الباطن و استقبال الکعبه اشد تأثیرا و اقوی من امثال الطهاره و الدعاء و غیرهما فی نفوس المسلمین،عند الیهود و مشرکی العرب و خاصه عند الیهود کما یشهد به قصصهم المقتصه فی القرآن،فقد کانوا امه لا یرون لغیر المحسوس من عالم الطبیعه أصاله و لا لغیر الحس وقعا،اذا جاءهم حکم من احکام اللّه معنوی قبلوه من غیر تکلم علیه و اذا جاءهم امر من ربهم صوری متعلق بالمحسوس من الطبیعه کالقتال و الهجره و السجده و خضوع القول و غیرها قابلوه

ص :۱۵۹

بالانكار و قاوموا عليه و دونه أشد المقاومه.

و بالجمله فقد أخبر اللّه سبحانه عما سيعترضون به على تحويل القبله و علم رسوله ما ينبغى أن يجابوا و يقطع به قولهم.

قوله تعالى: سَيَقُولُ السُّفَهٰاءُ مِنَ النّٰاسِ ،أراد بهم اليهود و المشركين من العرب و لذلك عبر عنهم بالناس و إنما سفههم لعدم استقامه فطرتهم و ثقوب رأيهم فى أمر التشريع، و السفاهه عدم استقامه العقل و تزلزل الرأى.

قوله تعالى: مٰا وَلاّٰهُمْ ،توليه الشىء أو المكان جعله قدام الوجه و أمامه كالاستقبال،قال تعالى فلنولينك قبله ترضيها،الآيه،و التوليه عن الشىء صرف الوجه عنه كالاستدبار و نحوه،و المعنى ما الذى صرفهم أو صرف وجههم عن القبله التى كانوا عليها و هو بيت المقدس الذى كان يصلى اليه النبى و المسلمون أيام إقامته بمكه و عده شهور بعد هجرته إلى المدينه و إنما نسبوا القبله إلى المسلمين مع أن اليهود أقدم فى الصلاه إليها ليكون أوقع فى إيجاد التعجب و أوجب للاعتراض،و إنما قيل ما وليهم عن قبلتهم و لم يقل ما ولى النبى و المسلمين لما ذكرنا من الوجه،فلو قيل ما ولى النبى و المسلمين عن قبله اليهود لم يكن التعجب واقعا موقعه و كان الجواب عنه ظاهرا لكل سامع بأدنى تنبيه.

قوله تعالى: قُلْ لِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ ،اقتصر من بين الجهات بهاتين لكونهما هما المعنيتين لسائر الجهات الأصليه و الفرعيه كالشمال و الجنوب و ما بين كل جهتين من الجهات الأربعه الأصليه،و المشرق و المغرب جهتان إضافيتان تتعينان بشروق الشمس أو النجوم و غروبهما،يعمان جميع نقاط الأرض غير نقطتين موهومتين هما نقطتا الشمال و الجنوب الحقيقيتان،و لعل هذا هو الوجه فى وضع المشرق و المغرب موضع الجهات.

قوله تعالى: يَهْدِى مَنْ يَشٰاءُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ ،تنكير الصراط لأن الصراط يختلف باختلاف الامم فى استعداداتها للهدايه إلى الكمال و السعاده.

قوله تعالى: وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ،الظاهر أن المراد كما سنحول القبله لكم لنهدينكم إلى صراط مستقيم كذلك جعلناكم امه وسطا،و قيل إن المعنى و مثل هذا الجعل العجيب جعلناكم أمه وسطا(و هو كما ترى)،و أما المراد بكونهم أمه وسطا شهداء على الناس فالوسط هو المتخلل بين الطرفين لا إلى هذا الطرف و لا إلى ذاك الطرف،و هذه الامه بالنسبه إلى الناس -و هم أهل الكتاب و المشركون-على هذا الوصف فإن بعضهم-و هم المشركون و الوثنيون- إلى تقويه جانب الجسم محضا لا يريدون إلا الحياه الدنيا و الاستكمال بملاذها و زخارفها و زينتها،لا يرجون بعثا و لا نشورا،و لا يعبئون بشيء من الفضائل المعنويه و الروحيه، و بعضهم كالنصارى إلى تقويه جانب الروح لا يدعون إلا إلى الرهبانيه و رفض الكمالات الجسميه التي أظهرها اللّه تعالى في مظاهر هذه النشأه الماديه لتكون ذريعه كامله إلى نيل ما خلق لأجله الإنسان،فهؤلاء أصحاب الروح أبطلوا النتيجه بابطال سببها و أولئك اصحاب الجسم ابطلوا النتيجه بالوقوف على سببها و الجمود عليها،لكن اللّه سبحانه جعل هذه الامه وسطا بأن جعل لهم دينا يهدى منتحليه إلى سواء الطريق وسط الطرفين لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء بل يقوى كلا من الجانبين-جانب الجسم و جانب الروح-على ما يليق به و يندب إلى جمع الفضيلتين فإن الإنسان مجموع الروح و الجسم لا روح محضا و لا جسم محضا،و محتاج في حياته السعيده إلى جمع كلا الكمالين و السعادتين الماديه و المعنويه،فهذه الامه هي الوسط العدل الذي به يقاس و يوزن كل من طرفي الإفراط و التفريط فهي الشهيده على سائر الناس الواقعه في الأطراف و النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو المثال الأكمل من هذه الامه-هو شهيد على نفس الأمه فهو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ميزان يوزن به حال الآحاد من الأمه،و الأمه ميزان يوزن به حال الناس و مرجع يرجع إليه طرفا الإفراط و التفريط،هذا ما قرره بعض المفسرين في معنى الآيه،و هو في نفسه معنى صحيح لا يخلو عن دقه إلا أنه غير منطبق على لفظ الآيه فإن كون الامه وسطا إنما

يصحح كونها مرجعا يرجع إليه الطرفان،و ميزانا يوزن به الجانبان لا كونها شاهده تشهد على الطرفين،أو يشاهد الطرفين،فلا تناسب بين الوسطيه بذاك المعنى و الشهاده و هو ظاهر،على أنه لا وجه حينئذ للتعرض بكون رسول اللّه شهيدا على الامه إذ لا يترتب شهاده الرسول على الأمه على جعل الأمه وسطا،كما يترتب الغايه على المغيى و الغرض على ذيه.

على أن هذه الشهاده المذكوره فى الآيه،حقيقه من الحقائق القرآنيه تكرر ذكرها فى كلامه سبحانه،و اللائح من موارد ذكرها معنى غير هذا المعنى،قال تعالى: فَكَيْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنٰا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِيداً (النساء/۴۱)،و قال تعالى: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاٰ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (النحل/۸۴)و قال تعالى وَ وُضِعَ الْكِتٰابُ وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدٰاءِ (الزمر/۶۹)،و الشهاده فيها مطلقه،و ظاهر الجميع على اطلاقها هو الشهاده على اعمال الامم،و على تبليغ الرسل أيضا،كما يومى إليه قوله تعالى:

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف/۶)،و هذه الشهاده و إن كانت فى الآخره يوم القيمه لكن تحملها فى الدنيا على ما يعطيه قوله تعالى-حكايه عن عيسى عليه السّلام-: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مٰا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (المائده/۱۱۷)و قوله تعالى: وَ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (النساء/۱۵۹)،و من الواضح أن هذه الحواس العاديه التى فينا،و القوى المتعلقه بها منا لا تتحمل إلا صور الأفعال و الأعمال فقط،و ذلك التحمل أيضا إنما يكون فى شىء يكون موجودا حاضرا عند الحس لا معدوما و لا غائبا عنه و أما حقائق الأعمال و المعانى النفسانيه من الكفر و الإيمان و الفوز و الخسران،و بالجمله كل خفى عن الحس و مستبطن عند الإنسان -و هى التى تكسب القلوب،و على يدور حساب رب العالمين يوم تبلى السرائر كما قال تعالى:

وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ (البقره/۲۲۵)،فهى مما ليس فى وسع الإنسان

إحصائها و الإحاطه بها و تشخيصها من الحاضرين فضلا عن الغائبين إلا رجل يتولى اللّه أمره و يكشف ذلك له بيده،و يمكن أن يستفاد ذلك من قوله تعالى: وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف۸۶/)،فإن عيسى داخل فى المستثنى فى هذه الآيه قطعا-و قد شهد اللّه تعالى فى حقه بأنه من الشهداء-كما مر فى الآيتين السابقتين،فهو شهيد بالحق و عالم بالحقيقه.

و الحاصل أن هذه الشهاده ليست هى كون الامه على دين جامع للكمال الجسمانى و الروحانى فإن ذلك على أنه ليس معنى الشهاده خلاف ظاهر الآيات الشريفه.

بل هى تحمل حقائق أعمال الناس فى الدنيا من سعاده أو شقاء،و رد و قبول،و انقياد و تمرد،و أداء ذلك فى الآخره يوم يستشهد اللّه من كل شيء،حتى من أعضاء الإنسان،يوم يقول الرسول يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا.

و من المعلوم أن هذه الكرامه ليست تنالها جميع الامه،إذ ليست إلا كرامه خاصه للأولياء الطاهرين منهم،و أما من دونهم من المتوسطين فى السعاده،و العدول من أهل الإيمان فليس لهم ذلك،فضلا عن الأجلاف الجافيه،و الفراعنه الطاغيه من الامه،و ستعرف فى قوله تعالى:

وَ مَنْ يُطِعِ اللّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً (النساء۶۹/)،ان أقل ما يتصف به الشهداء-و هم شهداء الأعمال-أنهم تحت ولايه اللّه و نعمته و أصحاب الصراط المستقيم،و قد مر إجمالا فى قوله تعالى: صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (فاتحه الكتاب۷/).

فالمراد بكون الامه شهيده أن هذه الشهاده فيهم،كما أن المراد بكون بنى إسرائيل فضلوا على العالمين،أن هذه الفضيله فيهم من غير أن يتصف به كل واحد منهم،بل نسب وصف البعض إلى الكل لكون البعث فيه و منه،فكون الامه شهيده هو أن فيهم من يشهد على الناس

و يشهد الرسول عليهم (۱).

قوله تعالى: وَ مٰا جَعَلْنَا الْقِبْلَهَ الَّتِی کُنْتَ عَلَيْهٰا إِلاّٰ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلىٰ عَقِبَيْهِ ،المراد بقوله لنعلم:اما علم الرسل و الانبياء مثلا،لان العظماء يتكلمون عنهم و عن اتباعهم،کقول الأمير،قتلنا فلانا و سجنا فلانا،و إنما قتله و سجنه اتباعه لأنفسه،و اما العلم العينی الفعلی منه تعالی الحاصل مع الخلقه و الايجاد،دون العلم قبل الايجاد.

و الانقلاب علی العقبين کنايه عن الاعراض،فان الانسان-و هو منتصب علی عقبيه-اذا انقلب من جهه الی جهه،انقلب علی عقبيه،فجعل کنايه عن الاعراض نظير قوله: وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ (الأنفال/۱۶)،و ظاهر الآيه انه دفع لما يختلج فی صدور المؤمنين:من تغيير القبله و نسخها،و من جهه الصلوات التی صلوها الی القبله،ما شأنها؟

و يظهر من ذلک ان المراد بالقبله التی کان رسول اللّه عليها،هو بيت المقدس الکعبه،فلا دليل علی جعل بيت المقدس قبله مرتين،و جعل الکعبه قبله مرتين،اذ لو کان المراد من القبله فی الآيه الکعبه کان لازم ذلک ما ذکر.

و بالجمله کان من المترقب ان يختلج فی صدور المؤمنين:أولا،انه لما کان من المقدر ان يستقر القبله بالآخره علی الکعبه فما هو السبب،أولا:فی جعل بيت المقدس قبله؟فبيّن سبحانه ان هذه الاحکام و التشريعات ليست إلا لأجل مصالح تعود الی تربيه الناس و تکميلهم،و تمحيص المؤمنين من غيرهم،و تمييز المطيعين من العاصين،و المنقادين من المتمردين،و السبب الداعی الی جعل القبله السابقه فی حقهم أيضا هذا السبب بعينه،فالمراد بقوله الا لنعلم من يتبع الرسول،الا لنميز من يتبعک،و العدول من لفظ الخطاب الی

۱- ۱) .البقره ۱۴۲-۱۵۲:بحث من الاشکالات و الرد عليها حول الشهاده علی الاعمال(لتکونوا شهداء علی الناس) الامه الوسط.

الغیبه لدخاله صفه الرساله فی هذا التمیز،و المراد بجعل القبله السابقه:جعلها فی حق المسلمین،و ان کان المراد أصل جعل بیت المقدس قبله فالمراد مطلق الرسول،و الکلام علی رسله من غیر التفات،غیر انه بعید من الکلام بعض البعد.

و ثانیا:ان الصلوات التی کان المسلمون صلوها الی بیت المقدس کیف حالها،و قد صلیت الی غیر القبله؟و الجواب:ان القبله قبله ما لم تنسخ،و ان اللّه سبحانه اذا نسخ حکما رفعه من حین النسخ،لا من أصله،لرأفته و رحمته بالمؤمنین،و هذا ما أشار الیه بقوله: وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ لِیُضِیعَ إِیمٰانَکُمْ،إِنَّ اللّٰهَ بِالنّٰاسِ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ .و الفرق بین الرأفه و الرحمه،و بعد اشتراکهما فی أصل المعنی،ان الرأفه یختص بالمبتلی المفتاق،و الرحمه أعم.

قوله تعالی: قَدْ نَریٰ تَقَلُّبَ وَجْهِکَ فِی السَّمٰاءِ فَلَنُوَلِّیَنَّکَ قِبْلَهً تَرْضٰاهٰا ، الآیه تدل علی ان رسول اللّه قبل نزول آیه القبله-و هی هذه الآیه-کان یقلّب وجهه فی آفاق السماء،و ان ذلک کان انتظارا منه،أو توقعا لنزول الوحی فی أمر القبله،لما کان یجب ان یکرّمه اللّه تعالی بقبله تختص به،لا انه کان لا یرتضی بیت المقدس قبله،و حاشا رسول اللّه من ذلک، کما قال تعالی:فلنولینک قبله ترضیها،فان الرضا بشیء لا یوجب السخط بخلافه بل الیهود علی ما فی الروایات الوارده فی شأن نزول الآیه کانوا یعیّرون المسلمین فی تبعیه قبلتهم، و یتفاخرون بذلک علیهم،فحزن رسول اللّه ذلک،فخرج فی سواد اللیل یقلب وجهه الی السماء ینتظر الوحی من اللّه سبحانه،و کشف همه فنزلت الآیه،و لو نزلت علی البقاء بالقبله السابقه لکانت حجه له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی الیهود،و لیس و لم یکن لرسول اللّه و لا للمسلمین عار فی استقبال قبلتهم،اذ لیس للعبد إلا الاطاعه و القبول،لکن نزلت قبله جدیده،فقطع تعییرهم و تفاخرهم،مضافا الی تعیین التکلیف،فکانت حجه و رضی.

قوله تعالی: فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ وَ حَیْثُ مٰا کُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَکُمْ شَطْرَهُ ،الشطر البعض،و شطر المسجد الحرام هو الکعبه،و فی قوله تعالی

ص:١۶۵

شطر المسجد الحرام دون ان يقال:فول وجهك الكعبه،أو يقال:فول وجهك البيت الحرام، محاذاه للحكم فى القبله السابقه،فانها كانت شطر المسجد الأقصى،و هى الصخره المعروفه هناك،فبدلت من شطر المسجد الحرام-و هى الكعبه-على ان اضافه الشطر الى المسجد، و توصيف المسجد بالحرام يعطى مزايا للحكم،تفوت لو قيل:الكعبه أو البيت الحرام.

و تخصيص رسول اللّه بالحكم أولا بقوله فول وجهك،ثم تعميم الحكم له و لغيره من المؤمنين بقوله و حيث ما كنتم يؤيد ان القبله حولت،و رسول اللّه قائم يصلى فى المسجد -و المسلمون معه-فاختص الامر به،أولا فى شخص صلاته ثم عقب الحكم العام الشامل له و لغيره،و لجميع الأوقات و الأمكنه.

قوله تعالى: وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ،و ذلك لاشتمال كتابهم على صدق نبوه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،أو كون قبله هذا النبى الصادق هو شطر المسجد الحرام،و اياما كان فقوله: أُوتُوا الْكِتٰابَ ،يدل على اشتمال كتابهم على حقيه هذا التشريع،اما مطابقه أو تضمنا،و ما اللّه بغافل عما يعملون من كتمان الحق،و احتكار ما عندهم من العلم.

قوله تعالى: وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ بِكُلِّ آيَةٍ ،تقريع لهم بالعناد و اللجاج،و ان إباءهم عن القبول ليس لخفاء الحق عليهم،و عدم تبينه لهم،فانهم عالمون بأنه حق علما لا يخالطه شك،بل الباعث لهم على بث الاعتراض و إثاره الفتنه عنادهم فى الدين و جحودهم للحق،فلا ينبغى لهم حجه،و لا يقطع إنكارهم آيه،فلو أتيتهم بكل آيه ما تبعوا قبلتك لعنادهم و جحودهم،و ما أنت بتابع قبلتهم،لانك على بينه من ربك،و يمكن أن يكون قوله:و ما أنت نهيا فى صوره خبر،و ما بعضهم بتابع قبله بعض،و هم اليهود يستقبلون صخره بيت المقدس أينما كانوا،و النصارى يستقبلون المشرق أينما كانوا،فلا هذا البعض يقبل قبله ذاك البعض،و لا ذاك يقبل قبله هذا اتباعا للهوى.

قوله تعالى: وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوٰاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ،تهديد للنبى،و المعنى متوجه الى امته،و إشاره الى انهم فى هذا التمرد إنما يتبعون أهوائهم و انهم بذلك ظالمون.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمْ ، الضمير فى قوله يعرفونه،راجع الى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دون الكتاب،و الدليل عليه تشبيه هذه المعرفه بمعرفه الابناء،فان ذلك إنما يحسن فى الانسان،و لا يقال فى الكتاب،ان فلانا يعرفه أو يعلمه،كما يعرف ابنه،على ان سياق الكلام-و هو فى رسول اللّه،و ما اوحى اليه من أمر القبله، اجنبى عن موضوع الكتاب الذى اوتيه أهل الكتاب،فالمعنى ان أهل الكتاب يعرفون رسول اللّه بما عندهم من بشارات الكتب كما يعرفون أبنائهم،و ان فريقا منهم ليكتمون الحق و هم يعلمون.

و على هذا ففى الكلام التفات من الحضور الى الغيبه فى قوله يعرفونه،فقد أخذ رسول اللّه غائبا،و وجه الخطاب الى المؤمنين بعد ما كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حاضرا،و الخطاب معه،و ذلك لتوضيح:ان امره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم واضح ظاهر عند أهل الكتاب،و مثل هذا النظم كمثل كلام من يكلم جماعه لكنه يخص واحدا منهم بالمخاطبه إظهارا لفضله،فيخاطبه و يسمع غيره،فاذا بلغ الى ما يخص شخص المخاطب من الفضل و الكرامه،عدل عن خطابه الى مخاطبه الجماعه،ثم بعد الفراغ عن بيان فضله عدل ثانيا الى ما كان فيه أولا من توجيه الخطاب إليه و بهذا يظهر نكته الالتفات.

قوله تعالى: اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاٰ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ،تأكيد للبيان السابق و تشديد فى النهى عن الامتراء،و هو الشك و الارتياب،و ظاهر الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و معناه للامه.

قوله تعالى: وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهٰا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرٰاتِ ،الوجهه ما يتوجه

إليه كـالقبله،و هـذا رجوع الى تلخيص البيان السابق،و تبـديل له من بيان آخر يهـدى الناس الى ترك تعقيب أمر القبله،و الاكثار من الكلام فيه،و المعنى ان كل قوم فلهم قبله مشرعه على حسب ما يقتضيه مصالحهم و ليس حكما تكوينيا ذاتيا لا يقبل التغيير و التحويل،فلا يهم لكم البحث و المشاجره فيه،فاتركوا ذلك و استبقوا الخيرات و سارعوا إليها بالاستباق،فان اللّه سيجمعكم الى يوم لا ريب فيه،و أينما تكونوا يأت بكم اللّه جميعا ان اللّه على كل شيء قدير.

و اعلم ان الآيه كما انها قابله الانطباق على أمر القبله لوقوعها بين آياتها كذلك تقبل الانطباق على أمر التكوين،و فيها اشاره الى القدر و القضاء،و جعل الاحكام و الآداب لتحقيقها و سيجيء تمام بيانه فيما يخص به من المقام إنشاء اللّه.

قوله تعالى: وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ ، ذكر بعض المفسّرين أنّ المعنى و من أىّ مكان خرجت،و فى أىّ بقعه حللت فولّ وجهك و ذكر بعضهم أنّ المعنى و من حيث خرجت من البلاد،و يمكن أن يكون المراد بقوله و من حيث خرجت؛مكه،التى خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منها كما قال تعالى: مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ (محمد/٣)،و يكون المعنى أنّ استقبال البيت حكم ثابت لك فى مكه و غيرها من البلاد و البقاع،و فى قوله و أنه للحق من ربك و ما اللّه بغافل عما تعملون تأكيد و تشديد.

قوله تعالى: وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ وَ حَيْثُ مٰا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ،تكرار الجمله الاولى بلفظها لعله للدلاله على ثبوت حكمها على أى حال،فهو كقول القائل،اتق اللّه اذا قمت و اتق اللّه اذا قعدت،و اتق اللّه اذا نطقت،و اتق اللّه اذا سكت،يريد:التزم التقوى عند كل واحده من هذه الأحوال و لتكن معك،و لو قيل اتق اللّه اذا قمت و اذا قعدت و اذا نطقت و اذا سكت فاتت هذه النكته، و المعنى استقبل شطر المسجد الحرام من التى خرجت منها و حيث ما كنتم من الأرض فولّوا

وجوهكم شطره.

قوله تعالى: لِئَلاّ يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِی ،بیان لفوائد ثلاث فی هذا الحکم الذی فیه أشد التأکید علی ملازمه الامتثال و التحذّر عن الخلاف:

إحداها:أن الیهود کانوا یعلمون من کتبهم أن النبیّ الموعود تکون قبلته الکعبه دون بیت المقدس،کما قال تعالی:و إن الذین أوتوا الکتاب لیعلمون أنه الحق من ربهم،الآیه،و فی ترک هذا الحکم الحجه للیهود علی المسلمین بأن النبی لیس هو النبی الموعود لکن التزام هذا الحکم و العمل به یقطع حجتهم إلا الذین ظلموا منهم،و هو استثناء منقطع،أی لکن الذین ظلموا منهم باتّباع الأهواء لا ینقطعون بذلک فلا تخشوهم لأنهم ظالمون باتّباع الأهواء،و اللّه لا یهدی القوم الظالمین و اخشونی.

و ثانیتها:أن ملازمه هذا الحکم یسوق المسلمین الی تمام النعمه علیهم بکمال دینهم، و سنبیّن معنی تمام النعمه فی الکلام علی قوله تعالی: اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی (المائده۴/).

و ثالثتها:رجاء الاهتداء الی الصراط المستقیم،و قد مرّ معنی الاهتداء فی الکلام علی معنی قوله تعالی: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِیمَ (فاتحه الکتاب۶/) (۱)(۲).

قوله تعالی: کَمٰا أَرْسَلْنٰا فِیکُمْ رَسُولاً مِنْکُمْ ،ظاهر الآیه أن الکاف للتشبیه و ما مصدریه،فالمعنی:أنعمنا علیکم بأن جعلنا لکم البیت الذی بناه إبراهیم،و دعا له بما دعا من الخیرات و البرکات قبله.کما أرسلنا فیکم رسولا منکم یتلو علیکم آیاتنا و یعلمکم الکتاب

۱- ۱) .البقره ۱۴۲-۱۵۱:بحث حول«اتمام النعمه».

۲- ۲) .البقره ۱۴۲-۱۵۱:بحث روائی حول تغییر القبله من بیت المقدس الی مکه؛الآیه «لِتَکُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَی النّٰاسِ وَ یَکُونَ الرَّسُولُ عَلَیْکُمْ شَهِیداً» ؛الامّه الاسلامیه؛القول و العمل و الایمان.

و الحكمه و يزكيكم مستجيبين لدعوه إبراهيم،اذ قال هو و ابنه إسماعيل ربنا و ابعث فيهم رسولاـ منهم يتلو عليهم آياتک و يعلمهم الكتاب و الحكمه و يزكّيهم،و فيهم امتنان عليهم بالإرسال كالامتنان يجعل الكعبه قبله،و من هنا يظهر أن المخاطب بقوله فيكم رسولاـ منكم،هو الأمه المسلمه،و هو أولياء الدين من الامه خاصه بحسب الحقيقه،و المسلمون جميعا من آل إسماعيل -و هم عرب مضر-بحسب الظاهر،و جميع العرب بل جميع المسلمين بحسب الحكم.

قوله تعالى: يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيٰاتِنٰا ،ظاهره آيات القرآن لمكان قوله يتلو،فإن العنايه فى التلاوه الى اللفظ دون المعنى،و التزكيه هى التطهير،و هو إزاله الأدناس و القذرات،فيشمل إزاله الاعتقادات الفاسده كالشرك و الكفر،و إزاله الملكات الرذيله من الأخلاق كالكبر و الشحّ،و إزاله الأعمال و الأفعال الشنيعه كالقتل و الزنا و شرب الخمر و تعليم الكتاب و الحكمه،و تعليم ما لم يكونوا يعلمونه يشمل جميع المعارف الأصليه و الفرعيه (۱)(۲).

[سوره البقره (۲): آيه ۱۵۲]

اشاره

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ اُشْكُرُوا لِي وَ لاٰ تَكْفُرُونِ (۱۵۲)

بيان:

لما امتن اللّه تعالى على النبى و المسلمين،بإرسال النبى الكريم منهم إليهم نعمه لا تقدر بقدر

۱- ۱) .البقره ۱۴۲-۱۵۱:بحث علمى حول القبله؛الجداول الموضوعه فى الزيجات لبيان عرض البلاد و طولها؛ الاشتباه المتقدمين فى تشخيص الطول و العرض كرامه باهره للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى محرابه المحفوظ فى مسجد بالمدينه؛ استخراج قبله بقاع الارض.

۲- ۲) .البقره ۱۴۲-۱۵۱:بحث اجتماعى فى الطبيعه الانسانيه و دورها فى تشكيل المجتمع الانسانى؛التوجه العبادى الى اللّه سبحانه؛آثار استقبال القبله بالنظر الى الفرد و الى المجتمع.

و منحه علی منحه-و هو ذکر منه لهم-اذ لم ینسهم فی هدایتهم الی مستقیم الصراط،و سوقهم الی أقصی الکمال،و زیاده علی ذلک،و هو جعل القبله،الذی فیه کمال دینهم،و توحید عبادتهم،و تقویم فضیلتهم الدینیه و الاجتماعیه فرّع علی ذلک دعوتهم الی ذکره و شکره، لیذکرهم بنعمته علی ذکرهم إیاه بعبودیته و طاعته،و یزیدهم علی شکرهم لنعمته و عدم کفرانهم،و قد قال تعالی: وَ اذْکُرْ رَبَّکَ إِذٰا نَسِیتَ وَ قُلْ عَسیٰ أَنْ یَهْدِیَنِ رَبِّی لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذٰا رَشَداً (الکهف/۲۴).و قال تعالی: لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ (إبراهیم/۷)،و الآیتان جمیعا نازلتان قبل آیات القبله من سوره البقره.

ثم إن الذکر ربما قابل الغفله کقوله تعالی: وَ لاٰ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنٰا قَلْبَهُ عَنْ ذِکْرِنٰا (الکهف/۲۸).و هی انتفاء العلم بالعلم،مع وجود أصل العلم،فالذکر خلافه،و هو العلم بالعلم،و ربما قابل النسیان و هو زوال صوره العلم عن خزانه الذهن،فالذکر خلافه،و منه قوله تعالی: وَ اذْکُرْ رَبَّکَ إِذٰا نَسِیتَ الآیه؛و هو حینئذ کالنسیان معنی ذو آثار و خواص تتفرع علیه،و لذلک ربما أطلق الذکر کالنسیان فی موارد تتحقق فی آثارهما و إن لم تتحقق أنفسهما،فإنک اذا لم تنصر صدیقک-و أنت تعلم حاجته الی نصرک فقد نسیته،و الحال أنک تذکره،و کذلک الذکر.

و الظاهر أن إطلاق الذکر علی اللفظی من هذا القبیل،فإن التکلم عن الشیء من آثار ذکره قلبا،قال تعالی: قُلْ سَأَتْلُوا عَلَیْکُمْ مِنْهُ ذِکْراً (الکهف/۸۳).و نظائره کثیره،و لو کان الذکر اللفظی أیضا ذکرا حقیقه فهو من مراتب الذکر،لأنه مقصور علیه و منحصر فیه،و بالجمله:الذکر له مراتب کما قال تعالی: أَلاٰ بِذِکْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (الرعد/۲۸)،و قال: وَ اذْکُرْ رَبَّکَ فِی نَفْسِکَ تَضَرُّعاً وَ خِیفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ (الأعراف/۲۰۵)،و قال تعالی: فَاذْکُرُوا اللّٰهَ کَذِکْرِکُمْ آبٰاءَکُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِکْراً (البقره/ ۲۰۰)،فالشده إنما یتصف به المعنی دون اللفظ،و قال تعالی: وَ اذْکُرْ رَبَّکَ إِذٰا نَسِیتَ وَ قُلْ

عَسىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذٰا رَشَداً (الكهف۲۴/)،و ذيل هذه الآيه تدل على الأمر برجاء ما هو أعلى منزله مما هو فيه،فيئول المعنى الى أنك اذا تنزلت من مرتبه من ذكره الى مرتبه هى دونها،و هو النسيان،فاذكر ربك و ارج بذلك ما هو أقرب طريقا و أعلى منزله، فينتج أن الذكر القلبى ذو مراتب فى نفسه،و بذلك يتبين صحه قول القائل:إن الذكر حضور المعنى عند النفس،فان الحضور ذو مراتب.

و لو كان لقوله تعالى: فَاذْكُرُونِى -و هو فعل متعلق بياء المتكلم حقيقه من دون تجوز أفاد ذلك،أن للانسان سنخا آخر من العلم غير هذا العلم المعهود عندنا الذى هو حصول صوره المعلوم و مفهومه عند العالم،اذ كلما فرض من هذا القبيل فهو تحديد و توصيف للمعلوم من العالم،و قد تقدست ساحته سبحانه عن توصيف الواصفين،قال تعالى سُبْحٰانَ اللّٰهِ عَمّٰا يَصِفُونَ إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ (الصافات۱۶۰/)،و قال: وَ لاٰ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (طه۱۱۰/)،و سيجىء بعض ما يتعلق بالمقام فى الكلام على الآيتين إنشاء اللّه.

[سوره البقره (۲): الآيات ۱۵۳ الى ۱۵۷]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اِسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ اَلصَّلاٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ مَعَ اَلصّٰابِرِينَ (۱۵۳) وَ لاٰ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اَللّٰهِ أَمْوٰاتٌ بَلْ أَحْيٰاءٌ وَ لٰكِنْ لاٰ تَشْعُرُونَ (۱۵۴) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ اَلْخَوْفِ وَ اَلْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ اَلْأَمْوٰالِ وَ اَلْأَنْفُسِ وَ اَلثَّمَرٰاتِ وَ بَشِّرِ اَلصّٰابِرِينَ (۱۵۵) اَلَّذِينَ إِذٰا أَصٰابَتْهُمْ مُصِيبَهٌ قٰالُوا إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰا إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ (۱۵۶) أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوٰاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَهٌ وَ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْمُهْتَدُونَ (۱۵۷)

بیان:

قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاهِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصّابِرِینَ الآیه،قد تقدم جمله من الکلام فی الصبر و الصلاه فی تفسیر قوله: وَ اسْتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاهِ وَ إِنَّها لَکَبِیرَهٌ إِلاّ عَلَی الْخاشِعِینَ (البقره۴۵/)،و الصبر:من أعظم الملکات و الأحوال التی یمدحها القرآن،و یکرر الأمر به حتی بلغ قریبا من سبعین موضعا من القرآن حتی قیل فیه: إِنَّ ذلِکَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (لقمان۱۷/)،و قیل: وَ ما یُلَقّاها إِلاَّ الَّذِینَ صَبَرُوا وَ ما یُلَقّاها إِلاّ ذُو حَظٍّ عَظِیمٍ (فصلت۳۵/)،و قیل: إِنَّما یُوَفَّی الصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسابٍ (الزمر۱۰/).

و الصلاه:من أعظم العبادات التی یحث علیها فی القرآن حتی قیل فیها: إِنَّ الصَّلاهَ تَنْهی عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْکَرِ (العنکبوت۴۵/)،و ما أوصی اللّه فی کتابه بوصایا إلاّ کانت الصلاه رأسها و أولها.

ثم وصف سبحانه الصبر بأن اللّه مع الصابرین المتصفین بالصبر،و إنما لم یصف الصلاه،کما فی قوله تعالی: وَ اسْتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاهِ وَ إِنَّها لَکَبِیرَهٌ ،الآیه،لأن المقام فی هذه الآیات، مقام ملاقات الأهوال،و مقارعه الأبطال،فالاهتمام بأمر الصبر أنسب بخلاف الآیه السابقه، فلذلک قیل لا إن اللّه مع الصابرین،و هذه المعیه غیر المعیه التی یدل علیه قوله تعالی: وَ هُوَ مَعَکُمْ أَیْنَ ما کُنْتُمْ (الحدید۴/)،فإنها معیه الإحاطه و القیمومه،بخلاف المعیه مع الصابرین، فإنها معیه إعانه فالصبر مفتاح الفرج.

قوله تعالی: وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ یُقْتَلُ فِی سَبِیلِ اللّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْیاءٌ وَ لکِنْ لا تَشْعُرُونَ الآیه،ربما یقال:إن الخطاب مع المؤمنین الذین آمنوا باللّه و رسوله و الیوم

الآخر و أذعنوا بالحياه الآخره،و لا يتصور منهم القول ببطلان الإنسان بالموت،بعد ما أجابوا دعوه الحق و سمعوا شيئا كثيرا من الآيات الناطقه بالمعاد،مضافا الى أن الآيه إنما تثبت الحياه بعد الموت فى جماعه مخصوصين،و هم الشهداء المقتولون فى سبيل اللّه،فى مقابل غيرهم من المؤمنين،و جميع الكفار،مع أن حكم الحياه بعد الموت عام شامل للجميع فالمراد بالحياه بقاء الاسم،و الذكر الجميل على مر الدهور،و بذلك فسره جمع من المفسرين.

و يرده أولا:أن كون هذه حيوه إنما هو فى الوهم فقط دون الخارج،فهى حيوه تخيليه ليس لها فى الحقيقه إلاّ الاسم،و مثل هذا الموضوع الوهمى لا يليق بكلامه،و هو تعالى يدعو الى الحق،و يقول: فَمٰا ذٰا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاٰلُ (يونس/۳۲)،و أما الذى سأله إبراهيم فى قوله: وَ اجْعَلْ لِي لِسٰانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (الشعراء/۸۴)،فإنما يريد به بقاء دعوته الحقه،و لسانه الصادق بعده،لا حسن ثنائه و جميل ذكره بعده فحسب.

و ثانيا:ان ذيل الآيه-و هو قوله تعالى: وَ لٰكِنْ لاٰ تَشْعُرُونَ -لا يناسب هذا المعنى،بل كان المناسب له أن يقال:بل أحياء ببقاء ذكرهم الجميل،و ثناء الناس عليهم بعدهم،لأنه المناسب لمقام التسليه و تطييب النفس.

و ثالثا:أن نظيره هذه الآيه-و هى تفسرها-وصف حياتهم بعد القتل بما ينافى هذا المعنى، قال تعالى: وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أَمْوٰاتاً بَلْ أَحْيٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (آل عمران/۱۹۶)،الى آخر الآيات و معلوم أن هذه الحياه حيوه خارجيه حقيقيه ليست بتقديريه.

و رابعا:ان الجهل بهذه الحياه التى بعد الموت ليس بكل البعيد من بعض المسلمين فى اواسط عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإن الذى هو نص غير قابل للتأويل انما هو البعث للقيمه، و اما ما بين الموت الى الحشر-و هى الحياه البرزخيه-فهى و ان كانت من جمله ما بينه القرآن

من المعارف الحقه،لكنها ليست من ضروريات القرآن،و المسلمون غير مجمعين عليه بكل ينكره بعضهم حتى اليوم ممن يعتقد كون النفس غير مجرده عن الماده و ان الانسان يبطل وجوده بالموت و انحلال التركيب،ثم يبعثه اللّه الى القضاء يوم القيمه،فيمكن ان يكون المراد بيان حيوه الشهداء فى البرزخ لمكان جهل بعض المؤمنين بذلك،و ان علم به آخرون.

فمعنى الآيه-و اللّه اعلم-و لا تقولوا لمن يقتل فى سبيل اللّه اموات،و لا تعتقدوا فيهم الفناء و البطلان كما يفيده لفظ الموت عندكم،و مقابلته مع الحياه،و كما يعين على هذا القول حواسكم فليسوا باموات بمعنى البطلان،بل احياء و لكن حواسكم لا تنال ذلك و لا تشعر به،و إلقاء هذا القول على المؤمنين-مع انهم جميعا أو أكثرهم عالمون ببقاء حيوه الانسان بعد الموت،و عدم بطلان ذاته-انما هو لإيقاظهم و تنبيههم بما هو معلوم عندهم،يرتفع بالالتفات اليه الحرج عن صدورهم،و الاضطراب و القلق عن قلوبهم اذا أصابتهم مصيبه القتل،فانه لا يبقى مع ذلك من آثار القتل عند اولياء القتيل الا مفارقه فى ايام قلائل فى الدنيا و هو هيّن فى قبال مرضاه اللّه سبحانه و ما ناله القتيل من الحياه الطيبه،و النعمه المقيمه،و رضوان من اللّه اكبر،و هذا نظير خطاب النبى بمثل قوله تعالى: اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ فَلاٰ تَکُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ،الآيه؛مع انه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اول الموقنين بآيات ربه،و لكنه كلام كنّى به عن وضوح المطلب،و ظهوره بحيث لا يقبل أى خطور نفسانى لخلافه (1).

قوله تعالى: وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوٰالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَرٰاتِ ،لما أمرهم اللّه بالاستعانه بالصبر و الصلاه،و نهاهم عن القول بموت من يقتل منهم فى سبيل اللّه بل هم أحياء بيّن لهم السبب الذى من أجله خاطبهم بما

1- 1) .البقره 153-157:بحث فى نشأه البرزخ؛تجرد النفس.

خاطب،و هو أنهم سيبتلون بما لا يتمهد لهم المعالى و لا يصفو لهم الأمر فى الحياه الشريفه، و الدين الحنيف إلا به،و هو الحرب و القتال،لا يدور رحى النصر و الظفر على مرادهم إلاّ أن يتحصنوا بهذين الحصنين و يتأيدوا بهاتين القوتين،و هما الصبر و الظفر،و يضيفوا الى ذلک ثالثا و هو خصله ما حفظها قوم إلاّ ظفروا بأقصى مرادهم و حازوا الغايه القصوى من كمالهم، و اشتد بأسهم و طابت نفسهم،و هو الإيمان بأنّ القتيل منهم غير ميت و لا فقيد،و أن سعيهم بالمال و النفس غير ضائع و لا باطل،فإن قتلوا عدوهم فهم على الحياه،و قد أبادوا عدوهم و ما كان يريده من حكومه الجور و الباطل عليهم-و إن قتلهم عدوهم فهم على الحياه-و لم يتحكم الجور و الباطل عليهم،فلهم إحدى الحسنيين على أى حال.

و عامه الشدائد التى يأتى بها هو الخوف و الجوع و نقص الأموال و الأنفس فذكرها اللّه تعالى،و أما الثمرات فالظاهر أنها الأولاد،فإن تأثير الحرب فى قله النسل بموت الرجال و الشبان أظهر من تأثيره فى نقص ثمرات الأشجار،و ربما قيل:إن المراد ثمرات النخيل،و هى التمر و المراد بالأموال غيرها و هى الدواب من الإبل و الغنم.

قوله تعالى: وَ بَشِّرِ الصّٰابِرِينَ اَلَّذِينَ إِذٰا أَصٰابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قٰالُوا إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰا إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ ،اعاد ذكر الصابرين ليبشرهم اولا،و يبيّن كيفيه الصبر بتعليم ما هو الصبر الجميل ثانيا،و يظهر به حق الامر الذى يقضى بوجوب الصبر-و هو ملكه تعالى للانسان- ثالثا،و يبيّن جزائه العام-و هو الصلاه و الرحمه و الاهتداء-رابعا.

فأمر تعالى نبيه اولا بتبشيرهم،و لم يذكر متعلق البشاره لتفخيم امره فانها من اللّه سبحانه فلا تكون الا خيرا و جميلا،و قد ضمنها رب العزه،ثم بيّن ان الصابرين هم الذين يقولون:كذا و كذا عند إصابه المصيبه،و هى الواقعه التى تصيب الانسان،و لا يستعمل لفظ المصيبه الا فى النازله المكروهه،و من المعلوم ان ليس المراد بالقول مجرد التلفظ بالجمله من غير حضور معناها بالبال،و لا مجرد الاخطار من غير تحقق بحقيقه معناها،و هى ان الانسان مملوک للّه

بحقیقه الملک،و ان مرجعه الی اللّه سبحانه و به یتحقق أحسن الصبر الذی یقطع منابت الجزع و الأسف،و یغسل رین الغفله (1).

قوله تعالی: أُولٰئِکَ عَلَیْهِمْ صَلَوٰاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَهٌ وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ الآیه؛التدبر فی الآیه یعطی أن الصلاه غیر الرحمه بوجه،و یشهد به جمع الصلاه و إفراد الرحمه،و قد قال تعالی: هُوَ الَّذِی یُصَلِّی عَلَیْکُمْ وَ مَلاٰئِکَتُهُ لِیُخْرِجَکُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَی النُّورِ وَ کٰانَ بِالْمُؤْمِنِینَ رَحِیماً (الأحزاب/۴۳)،و الآیه تفید کون قوله: وَ کٰانَ بِالْمُؤْمِنِینَ رَحِیماً ،فی موقع العله لقوله: هُوَ الَّذِی یُصَلِّی عَلَیْکُمْ ،و المعنی انه انما یصلی علیکم،و کان من اللازم المترقب ذلک،لأن عادته جرت علی الرحمه بالمؤمنین،و أنتم مؤمنون فکان من شأنکم أن یصلی علیکم حتی یرحمکم،فنسبه الصلاه الی الرحمه نسبه المقدمه الی ذیها و کالنسبه التی بین الالتفات و النظر،و التی بین الإلقاء فی النار و الإحراق مثلا،و هذا یناسب ما قیل فی معنی الصلاه:أنها الانعطاف و المیل،فالصلاه من اللّه سبحانه انعطاف الی العبد بالرحمه و من الملائکه انعطاف الی الإنسان بالتوسط فی إیصال الرحمه،و من المؤمنین رجوع و دعاء بالعبودیه و هذا لا ینافی کون الصلاه بنفسها رحمه و من مصادیقها،فإن الرحمه فی القرآن علی ما یعطیه التدبر فی مواردها هی العطیه المطلقه الإلهیه،و الموهبه العامه الربانیه،کما قال تعالی:

وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْءٍ (الأعراف/۱۵۶)،و قال تعالی: وَ رَبُّکَ الْغَنِیُّ ذُو الرَّحْمَهِ إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِکُمْ مٰا یَشٰاءُ کَمٰا أَنْشَأَکُمْ مِنْ ذُرِّیَّهِ قَوْمٍ آخَرِینَ (الأنعام/ ۱۳۳)،فالإذهاب لغناه و الاستخلاف و الإنشاء لرحمته،و هما جمیعا یستندان الی رحمته کما یستندان الی غناه فکل خلق و أمر رحمه،کما أن کل خلق و أمر عطیه تحتاج الی غنی،

---

1 - 1) .البقره ۱۵۳-۱۵۷:بحث فی الاخلاق؛تهذیب الاخلاق و اکتساب الفاضله منها و المسالک المختلفه فیها؛مسلک فی تهذیب الاخلاق مخصوص بالقرآن الکریم.

قال تعالی: وَ مٰا کٰانَ عَطٰاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً (الإسراء ۲۰/)،و من عطیته الصلاه فهی أیضا من الرحمه غیر أنها رحمه خاصه،و من هنا یمکن أن یوجه جمع الصلاه و إفراد الرحمه فی الآیه.

قوله تعالی: وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ،کأنه بمنزله النتیجه لقوله: أُولٰئِکَ عَلَیْهِمْ صَلَوٰاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَهٌ ،و لذلک جدّد اهتداءهم جمله ثانیه مفصوله عن الأولی،و لم یقل:

صلوات من ربهم و رحمه و هدایه،و لم یقل:و أولئک هم المهدیون بل ذکر قبولهم للهدایه بالتعبیر بلفظ الاهتداء الذی هو فرع مترتب علی الهدایه،فقد تبدو أن الرحمه هدایتم إلیه تعالی،و الصلوات کالمقدمات لهذه الهدایه و اهتدائهم نتیجه هذه الهدایه،فکل من الصلاه و الرحمه و الاهتداء غیر الآخر و إن کان الجمیع رحمه بنظر آخر.

فمثل هؤلاء المؤمنین فی ما یخبره اللّه من کرامته علیهم مثل صدیقک تلقاه و هو یرید دارک، و یسأل عنها یرید النزول بک فتلقاه بالبشر و الکرامه،فتورده مستقیم الطریق و أنت معه تسیره،و لا تدعه یضل فی مسیره حتی تورده نزله من دارک و تعاهده فی الطریق بمأکله و مشربه،و رکوبه و سیره،و حفظه من کل مکروه یصیبه فجمیع هذه الامور إکرام واحد لأنک إنما ترید إکرامه،و کل تعاهد تعاهد و إکرام خاص،و الهدایه غیر الإکرام،و غیر التعاهد،و هو مع ذلک إکرام فکل منها تعاهد،و کل منها هدایه و کل منها إکرام خاص،و الجمیع إکرام.

فالإکرام الواحد العام بمنزله الرحمه،و التعاهدات فی کل حین بمنزله الصلوات،و النزول فی الدار بمنزله الاهتداء.

و الاتیان بالجمله الاسمیه فی قوله: وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ،و الابتداء باسم الإشاره الدالّ علی البعید،و ضمیر الفصل ثانیا و تعریف الخبر بلام الموصول فی قوله: اَلْمُهْتَدُونَ کل ذلک

لتعظیم أمرهم و تفخیمه-و اللّه أعلم- (۱)(۲)(۳)(۴).

[سوره البقره (۲): آیه ۱۵۸]

اشاره

إِنَّ اَلصَّفٰا وَ اَلْمَرْوَهَ مِنْ شَعٰائِرِ اَللّٰهِ فَمَنْ حَجَّ اَلْبَیْتَ أَوِ اِعْتَمَرَ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَیْهِ أَنْ یَطَّوَّفَ بِهِمٰا وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَیْراً فَإِنَّ اَللّٰهَ شٰاکِرٌ عَلِیمٌ (۱۵۸)

بیان:

فقوله تعالی: إِنَّ الصَّفٰا وَ الْمَرْوَهَ مِنْ شَعٰائِرِ اللّٰهِ -الی قوله- یَطَّوَّفَ بِهِمٰا یشیر الی کون المکانین معلّمین بعلامه اللّه سبحانه،یدلان بذلک علیه،و یذکّر انه تعالی و اختصاصهما بکونهما من الشعائر دون بقیه الأشیاء جمیعا یدل علی أن المراد بالشعائر لیست الشعائر التکوینیه بل هما شعیرتان بجعله تعالی إیاهما معبدین یعبد فیهما،فهما یذکّران اللّه سبحانه،فکونهما شعیرتین یدلّ علی أنه تعالی قد شرع فیهما عباده متعلقه بهما،و تفریع قوله:

فَمَنْ حَجَّ الْبَیْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَیْهِ أَنْ یَطَّوَّفَ بِهِمٰا إنّما هو للإیذان بأصل تشریع السعی بین الصفا و المروه،لا لإفاده الندب،و لو کان المراد إفاده النّدب کان الأنسب بسیاق الکلام أن یمدح التّطوف،لا أن ینفی ذمّه،فإن حاصل المعنی أنّه لمّا کان الصّفا و المروه معبدین

۱- ۱) .البقره ۱۵۳-۱۵۷:بحث روائی فی البرزخ و حیاه الروح بعد الموت.

۲- ۲) .البقره ۱۵۳-۱۵۷:بحث فلسفی فی النفس؛هل النفس مجرده عن الماده؟

۳- ۳) .البقره ۱۵۳-۱۵۷:بحث اخلاقی فی علم الاخلاق(و هو الفن الباحث عن الملکات الانسانیه المتعلقه بقواه النباتیه و الحیوانیه و الانسانیه)؛اصول الاخلاق الفاضله(العفه و الشجاعه و الحکمه و العداله)و فروعاتها؛ النظریه العجیبه التی ذهب إلیها الاشتراکیون من المادیین و النظریه غیر حدیثه؛الحسن و القبح مطلق و نسبی.

۴- ۴) .البقره ۱۵۳-۱۵۷:بحث روائی فی الاحکام العقلیه و الاحکام الشرعیه.

و منسكين من معابد اللّه فلا يضرّكم أن تعبدوه فيهما،و هذا لسان التشريع،و لو كان المراد إفاده النّدب كان الأنسب أن يفاد أنّ الصّفا و المروه لمّا كانا من شعائر اللّه فإن اللّه يحبّ السعى بينهما -و هو ظاهر-و التعبير بأمثال هذا القول الّذى لا يفيد وحده الإلزام فى مقام التشريع شائع فى القرآن،كقوله تعالى فى الجهاد: ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ (الصف/۱۱)،و فى الصوم وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ (البقره/۱۸۴)،و فى القصر فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاٰهِ (النساء/۱۰۱).

قوله تعالى: وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّٰهَ شٰاكِرٌ عَلِيمٌ ،إن كان معطوفا على مدخول فاء التفريع فى قوله تعالى: فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ ،كان كالتعليل لتشريع التطوّف بمعنى آخر أعمّ من العله الخاصّه الّتى تبين بقوله: إِنَّ الصَّفٰا وَ الْمَرْوَهَ ،و كان المراد بالتطوّع مطلق الإطاعه لا-الإطاعه المندوبه،و إن كان استينافا بالعطف الى اول الآيه كان مسوقا لإفاده محبوبيه التطوف فى نفسه ان كان المراد بتطوع الخير هو التطوف او مسوقا لافاده محبوبيه الحج و العمره ان كانا هما المراد بتطوع الخير هذا.

و الشاكر و العليم اسمان من اسماء اللّه الحسنى،و الشكر هو مقابله من احسن إليه إحسان المحسن بإظهار لسانا أو عملا كمن ينعم إليه المنعم بالمال فيجازيه بالثناء الجميل الدالّ على نعمته أو باستعمال المال فى ما يرتضيه،و يكشف عن إنعامه،و اللّه سبحانه و إن كان محسنا قديم الإحسان و منه كلّ الإحسان لا يد لأحد عنده حتى يستوجبه الشكر إلاّ أنّه جلّ ثنائه عدّ الأعمال الصالحه الّتى هى فى الحقيقه إحسانه الى عباده إحسانا من العبد إليه،فجازاه بالشكر و الإحسان و هو إحسان على إحسان قال تعالى: هَلْ جَزٰاءُ الْإِحْسٰانِ إِلاَّ الْإِحْسٰانُ (الرحمن/۶۰)،و قال تعالى: إِنَّ هٰذٰا كٰانَ لَكُمْ جَزٰاءً وَ كٰانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (الدهر/۲۲)،فإطلاق الشّاكر عليه تعالى على حقيقه معنى الكلمه من غير مجاز.

[سوره البقره (۲): الآیات ۱۵۹ الی ۱۶۲]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مٰا أَنْزَلْنٰا مِنَ اَلْبَيِّنٰاتِ وَ اَلْهُدىٰ مِنْ بَعْدِ مٰا بَيَّنّٰاهُ لِلنّٰاسِ فِي اَلْكِتٰابِ أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اَللّٰهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اَللاّٰعِنُونَ (۱۵۹) إِلاَّ اَلَّذِينَ تٰابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَأُولٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا اَلتَّوّٰابُ اَلرَّحِيمُ (۱۶۰) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اَللّٰهِ وَ اَلْمَلاٰئِكَةِ وَ اَلنّٰاسِ أَجْمَعِينَ (۱۶۱) خٰالِدِينَ فِيهٰا لاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ اَلْعَذٰابُ وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ (۱۶۲)

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مٰا أَنْزَلْنٰا مِنَ الْبَيِّنٰاتِ وَ الْهُدىٰ ،الظاهر -و اللّه أعلم-أن المراد بالهدی ما تضمنه الدین الإلهی من المعارف و الأحکام الذی یهدی تابعیه الی السعاده،و بالبینات الآیات و الحجج التی هی بینات و أدله و شواهد علی الحق الذی هو الهدی،فالبینات فی کلامه تعالی وصف خاصّ بالآیات النازله،و علی هذا یکون المراد بالکتمان-و هو الإخفاء-أعم من کتمان أصل الآیه،و عدم إظهاره للناس،و أو کتمان دلالته بالتأویل أو صرف الدلاله بالتوجیه،کما کانت الیهود تصنع ببشارات النبوه ذلک فما یجهله الناس لا یظهرونه لهم،و ما یعلم به الناس یؤوّلونه بصرفه عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

قوله تعالی: مِنْ بَعْدِ مٰا بَيَّنّٰاهُ لِلنّٰاسِ ،أفاد أن کتمانهم إنما هو بعید البیان و التبین للناس،لا لهم فقط،و ذلک أن التبین لکل شخص شخص من أشخاص الناس أمر لا یحتمله

النظام الموجود المعهود فی هذا العالم،لا فی الوحی فقط،بل فی کل إعلام عمومی و تبیین مطلق،بل إنما یکون باتصال الخبر الی بعض الناس من غیر واسطه و الی بعض آخرین بواسطتهم،بتبلیغ الحاضر الغائب،و العالم الجاهل،فالعالم یعد من وسائط البلوغ و أدواته، کاللسان و الکلام:فاذا بین الخبر للعالم المأخوذ علیه المیثاق بعلمه مع غیره من المشافهین فقد بین للناس،فکتمان العالم علمه هذا کتمان العلم عن الناس بعد البیان لهم و هو السبب الوحید الذی عده اللّه سبحانه سببا لاختلاف الناس فی الدین و تفرقهم فی سبل الهدایه و الضلاله،و إلاّ فالدین فطری تقبله الفطره و تخضع له القوه الممیزه بعد ما بین لها،قال تعالی: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ،ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ (الروم/۳۰)،فالدین فطری علی الخلقه لا یدفعه الفطره أبدا لو ظهر لها ظهورا ما بالصفاء من القلب،کما فی الأنبیاء،أو ببیان قولی،و لا محاله ینتهی هذا الثانی الی ذلک الأول فافهم ذلک.

و لذلک جمع فی الآیه بین کون الدین فطریا علی الخلقه و بین عدم العلم به فقال:فطره اللّه التی فطر الناس علیها،و قال:لکن أکثر الناس لا یعلمون،و قال تعالی: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ (البقره/۲۱۳)،فأفاد أن الاختلاف فیما یشتمل علیه الکتاب إنما هو ناش عن بغی العلماء الحاملین له،فالاختلافات الدینیه و الانحراف عن جاده الصواب معلول بغی العلماء بالإخفاء و التأویل و التحریف،و ظلمهم،حتی أن اللّه عرف الظلم بذلک یوم القیمه کما قال: فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً (الأعراف/۴۴)،و الآیات فی هذا المعنی کثیره.

قوله تعالی: أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاّعِنُونَ ،بیان لجزاء بغی الکاتمین لما أنزله اللّه من الآیات و الهدی،و هو اللعن من اللّه،و اللعن من کل لاعن،و قد کرر اللعن لأن

اللعن مختلف فإنه من اللّه التبعيد من الرحمه و السعاده و من اللاعنين سؤاله من اللّه،و قد أطلق اللعن منه و من اللاعنين و أطلق اللاعنين،و هو يدل على توجيه كل اللعن من كل لاعن إليهم و الاعتبار يساعد عليه فإن الذى يقصده لاعن بلعنه هو البعد عن السعاده،و لا سعاده بحسب الحقيقه،إلاّ السعاده الحقيقيه الدينيه،و هذه السعاده لما كانت مبينه من جانب اللّه،مقبوله عند الفطره،فلا يحرم عنها محروم إلاّ بالرد و الجحود،و كل هذا الحرمان إنما هو لمن علم بها و جحدها عن علم دون من لا يعلم بها و لم تبين له،و قد أخذ الميثاق على العلماء أن يبثوا علمهم و ينشروا ما عندهم من الآيات و الهدى،فاذا كتموه و كفوا عن بثه فقد جحدوه فأولئك يلعنهم للّه و يلعنهم اللاعنون،و يشهد لما ذكرنا الآيه الآتيه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ -الى قوله- أَجْمَعِينَ ،الآيه؛فإن الظاهر أن قوله: إِنَّ للتعليل أو لتأكيد مضمون هذه الآيه، بتكرار ما هو فى مضمونها و معناها و هو قوله: اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ .

قوله تعالى: إِلاَّ الَّذِينَ تٰابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا الآيه استثناء من الآيه السابقه،و المراد بتقييد توبتهم بالتبين أن يتبين أمرهم و يتظاهروا بالتوبه،و لازم ذلك أن يبينوا ما كتموه للناس و أنهم كانوا كاتمين و الا فلم يتوبوا بعد لأنهم كاتمون بعد بكتمان أنهم كانوا كاتمين.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ ،كنايه عن إصرارهم على كفرهم و عنادهم و تعنتهم فى قبول الحق فإن من لا يدين بدين الحق لا لعناد و استكبار بل لعدم تبينه له ليس بكافر بحسب الحقيقه،بل مستضعف،أمره الى اللّه،و يشهد بذلك تقييد كفر للكافرين فى غالب الآيات و التكذيب و خاصه فى آيات هبوط آدم المشتمله على أول تشريع شرّع لنوع الإنسان،قال تعالى: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهٰا جَمِيعاً فَإِمّٰا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً -الى قوله- وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (البقره/۳۹)،فالمراد بالذين كفروا فى الآيه هم المكذبون المعاندون-و هم الكاتمون لما أنزل اللّه-و جازاهم اللّه تعالى بقوله: أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّٰهِ وَ الْمَلاٰئِكَةِ وَ النّٰاسِ أَجْمَعِينَ ،و هذا حكم

من اللّه سبحانه أن يلحق بهم كل لعن لعن به ملك من الملائكه أو أحد من الناس جميعا من غير استثناء فهؤلاء سبيلهم سبيل الشيطان،اذ قال اللّه سبحانه فيه: وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلىٰ يَوْمِ الدِّينِ (الحجر۳۵/)،فجعل جميع اللعن عليه فهؤلاء-و هم العلماء الكاتمون لعلمهم- شركاء الشيطان فى اللعن العام المطلق و نظرائه فيه،فما أشد لحن هذه الآيه و أعظم أمرها!و سيجىء فى الكلام على قوله تعالى: لِيَمِيزَ اللّٰهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ (الأنفال۳۷/)،ما يتعلق بهذا المقام إنشاء اللّه العزيز.

قوله تعالى: خٰالِدِينَ فِيهٰا ،أى فى اللعنه،و قوله: لاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذٰابُ وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ ،فى تبديل السياق بوضع العذاب موضع اللعنه دلاله على أن اللعنه تتبدل عليهم عذابا.

[سوره البقره (۲): الآيات ۱۶۳ الى ۱۶۷]

اشاره

وَ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ اَلرَّحْمٰنُ اَلرَّحِيمُ (۱۶۳) إِنَّ فِي خَلْقِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اِخْتِلاٰفِ اَللَّيْلِ وَ اَلنَّهٰارِ وَ اَلْفُلْكِ اَلَّتِي تَجْرِي فِي اَلْبَحْرِ بِمٰا يَنْفَعُ اَلنّٰاسَ وَ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مِنْ مٰاءٍ فَأَحْيٰا بِهِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا وَ بَثَّ فِيهٰا مِنْ كُلِّ دٰابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ اَلرِّيٰاحِ وَ اَلسَّحٰابِ اَلْمُسَخَّرِ بَيْنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۱۶۴) وَ مِنَ اَلنّٰاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ أَنْدٰاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اَللّٰهِ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلّٰهِ وَ لَوْ يَرَى اَلَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ اَلْعَذٰابَ أَنَّ اَلْقُوَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اَللّٰهَ شَدِيدُ اَلْعَذٰابِ (۱۶۵) إِذْ تَبَرَّأَ اَلَّذِينَ اُتُّبِعُوا مِنَ اَلَّذِينَ اِتَّبَعُوا وَ رَأَوُا اَلْعَذٰابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ اَلْأَسْبٰابُ (۱۶۶) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ اِتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنٰا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمٰا تَبَرَّؤُا مِنّٰا كَذٰلِكَ يُرِيهِمُ اَللّٰهُ أَعْمٰالَهُمْ حَسَرٰاتٍ عَلَيْهِمْ وَ مٰا هُمْ بِخٰارِجِينَ مِنَ اَلنّٰارِ (۱۶۷)

بيان:

قوله تعالى: وَ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ ،قد مر معنى الإله فى الكلام على البسمله من سوره الحمد فى أول الكتاب،و أما الوحده فمفهومها من المفاهيم البديهيه التى لا نحتاج فى تصورها الى معرف يدلنا عليها،و الشىء ربما يتصف بالوحده من حيث وصف من أوصافه،كرجل واحد،و عالم واحد،و شاعر واحد،فيدل به على أن الصفه التى فيه لا تقبل الشركه و لا تعرضها الكثره،فان الرجوليه التى فى زيد مثلا-و هو رجل واحد-ليست منقسمه بينه و بين غيره،بخلاف ما فى زيد و عمرو مثلا-و هما رجلان-فانه منقسم بين اثنين كثير بهما،فزيد من جهه هذه الصفه-و هى الرجوليه-واحد لا يقبل الكثره،و إن كان من جهه هذه الصفه و غيرها من الصفات كعلمه،و قدرته،و حياته،و نحوها ليس بواحد بل كثير حقيقه،و اللّه سبحانه واحد،من جهه أن الصفه التى لا يشاركه فيها غيره،كالالوهيه فهو واحد فى الالوهيه،لا يشاركه فيها غيره تعالى،و العلم و القدره و الحياه،فله علم لا كالعلوم و قدره و حيوه لا كقدره غيره و حياته،و واحد من جهه أن الصفات التى له لا تتكثر و لا تتعدد إلاّ مفهوما فقط،فعلمه و قدرته و حياته جميعها شىء واحد هو ذاته،ليس شىء منها غير الآخر بل هو تعالى يعلم بقدرته و يقدر بحياته و حىّ بعلمه،لا كمثل غيره فى تعدد الصفات عينا

و مفهوما،و ربما یتصف الشیء بالوحده من جهه ذاته،و هو عدم التکثر و التجزی فی الذات بذاته،فلا تتجزی الی جزء و جزء،و الی ذات و اسم و هکذا،و هذه الوحده هی المسماه بأحدیه الذات،و یدل علی هذا المعنی بلفظ أحد،الذی لا یقع فی الکلام من غیر تقیید بالإضافه إلا اذا وقع فی حیز النفی أو النهی أو ما فی معناهما کقولنا ما جاءنی أحد،فیرتفع بذلک أصل الذات سواء کان واحدا أو کثیرا،لأن الوحده مأخوذه فی أصل الذات لا فی وصف من أوصافه بخلاف قولنا:ما جاءنی واحد فان هذا القول لا یکذب بمجیء اثنین أو أزید لأن الوحده مأخوذه فی صفه الجائی و هو الرجولیه فی رجل واحد مثلا فاحتفظ بهذا الإجمال حتی نشرحه تمام الشرح فی قوله تعالی: قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ (الإخلاص۱/)،إنشاء اللّٰه تعالی.

قوله تعالی: لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ ،جیء به لتأکید نصوصیه الجمله السابقه فی التوحید و نفی کل توهم أو تأویل یمکن أن یتعلق بها،و النفی فیه نفی الجنس،و المراد بالإله ما یصدق علیه الإله حقیقه و واقعا،و حینئذ فیصح أن یکون الخبر المحذوف هو موجود أو کائن،أو نحوهما،و التقدیر لاٰ إله بالحقیقه و الحق بموجود،و حیث کان لفظه الجلاله مرفوعا لاٰ منصوبا فلفظ إلاّٰ لیس للاستثناء،بل وصف بمعنی غیر،و المعنی لا إله غیر اللّٰه بموجود.

قوله تعالی: اَلرَّحْمٰنُ الرَّحِیمُ ،قد مر الکلام فی معناهما فی تفسیر البسمله من سوره الفاتحه و بذکر الاسمین یتم معنی الربوبیه،فإلیه تعالی ینتهی کل عطیه عامه، بمقتضی رحمانیته،و کل عطیه خاصه واقعه فی طریق الهدایه و السعاده الاخرویه بمقتضی رحیمیته.

قوله تعالی: إِنَّ فِی خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الی آخر الآیه؛السیاق کما فی أول البیان یدل علی أن الآیه مسوقه للدلاله و البرهنه علی ما تضمنته الآیه السابقه أعنی قوله

تعالی: وَ إِلٰهُکُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِیمُ ،الآیه؛فإن الآیه تنحل بحسب المعنی الی أن لکل شیء من هذه الأشیاء إلها،و أن إله الجمیع واحد و أن هذا الإله الواحد هو إلهکم،و أنه رحمن مفیض للرحمه العامه،و أنه رحیم یسوق الی سعاده الغایه-و هی سعاده الآخره-فهذه حقائق حقه،و فی خلق السموات و الأرض و اختلاف اللیل و النهار الی آخر ما ذکر فی الآیه آیات داله علیها عند قوم یعقلون.

و لو کان المراد إقامه الحجه علی وجود إله الإنسان أو أن إله الإنسان واحد لما کان الجمیع إلا آیه واحده داله علی ذلک من طریق اتصال التدبیر،و لکان حق الکلام فی الآیه السابقه أن یقال:و إلهکم واحد لا إله إلا هو،فالآیه مسوقه للدلاله علی الحجه علی وجود الإله و علی وحدته بمعنی أن إله غیر الإنسان من النظام الکبیر واحد و أن ذلک بعینه إله الإنسان.

و إجمال الدلاله أن هذه السموات التی قد علتنا و أظلتنا علی ما فیها من بدائع الخلقه، و الأرض التی قد أقلتنا و حملتنا مع عجیب أمرها و سائر ما فیها من غرائب التحولات و التقلبات کاختلاف اللیل و النهار،و الفلک الجاریه،و الأمطار النازله،و الریاح المصرفه، و السحب المسخره امور مفتقره فی نفسها الی صانع موجد،فلکل منها إله موجد(و هذا هو الحجه الاولی).

ثم إن هذه الأجرام الجویه المختلفه بالصغر و الکبر و البعد و القرب(و قد وجد الواحد فی الصغر علی ما بلغه الفحص العلمی ما یعادل:۰/۰۰۰۰۰۰،۰۰۰۰۰۰۰۰۰۰۰،۳۳۰۰۰۰۰ من سانتیمتر مکعب و الواحد فی الکبر ما یعادل الملایین من حجم الأرض و هو کره یعادل قطرها ۹۰۰۰ میلا تقریبا،و اکتشف من المسافه بین جرمین علویین ما یقرب من ثلاثه ملایین سنه نوریه،و السنه النوریه من المسافه تعدل ۳۶۵*۲۴*۶۰*۶۰*۳۰۰۰۰۰ کیلومتر تقریبا)،فانظر الی هذه الأرقام التی تدهش اللب و تبهت الفکر و اقض ما أنت قاض فی غرابه الأمر و بداعته تفعل البعض منها فی البعض،و تنفعل البعض منها عن البعض أینما کانت و کیفما

کانت بالجاذبه العامه،و إفاضه النور و الحراره و تحیی بذلک سنه الحرکه العامه و الزمان العمومی،و هذا نظام عام دائم تحت قانون ثابت،حتی أن النسبیه العمومیه القاصیه بالتغیر فی قوانین الحرکه فی العالم الجسمانی لا تتجافی عن الاعتراف بأن التغییر العمومی أیضا محکوم قانون آخر ثابت فی التغیر و التحول،ثم إن هذه الحرکه و التحول العمومی تتصور فی کل جزء من أجزاء العالم بصوره خاصه کما بین الشمس التی لعالمنا مع منظومتها ثم تزید ضیقا فی الدائره کما فی أرضنا مع ما یختص بها من الحوادث و الأجرام،کالقمر و اللیل و النهار،و الریاح و السحب و الأمطار،ثم تتضیق الدائره،کما فی المکونات الأرضیه:من المعادن و النبات و الحیوان و سایر التراکیب،ثم فی کل نوع من أنواعها،ثم تتضیق الدائره حتی تصل النوبه الی العناصر،ثم الی الذرات،ثم الی أجزاء الذرات حتی تصل الی آخر ما انتهی الفحص العلمی المیسور للإنسان الی هذا الیوم،و هی الإلکترون،و البروتون،و یوجد هناک نظیر المنظومات الشمسیه جرم مرکزی و أشیاء یدور حولها دوران الکواکب علی مدارتها التی حول شمسها و سبحها فی أفلاکها.

ففی أی موقف من هذه المواقف وقف الإنسان شاهد نظاما عجیبا ذا تحولات و تغیرات، یحفظ بها أصل عالمه،و تحیی بها سنه إلهیه لا تنفد عجائبه،و لا تنتهی غرائبه،لا استثناء فی جریها و إن کان واحدا،و لا اتفاق فی طیها و إن کان نادرا شاردا،لا یدرک ساحلها و لا یقطع مراحلها،و کلما رکبت عده منها أخذا من الدقیق الی الجلیل وجدتها لا تزید علی عالم واحد ذا نظام واحد،و تدبیر متصل حتی ینتهی الأمر الی ما انتهی الیه توسع العلم الی الیوم بالحس المسلح و الارصاد الدقیقه،و کلما حللتها و جزیتها راجعا من الکل الی الجزء حتی تنتهی الی مثل الملیکول وجدته لا تفقد من العالم الواحد شیئا ذا نظام واحد و تدبیر متصل،علی أن کل اثنین من هذه الموجودات متغایر الواحدین ذاتا و حکما شخصا.

فالعالم شیء واحد و التدبیر متصل،و جمیع الأجزاء مسخره تحت نظام واحد و إن کثرت

و اختلفت أحكامها،و عنت الوجوه للحى القيوم،فإله العالم الموجد له و المدبر لأمره واحد (و هذا هو البرهان الثانى).

ثم إن الإنسان الذى هو موجود أرضى يحيى فى الأرض و يعيش فى الأرض ثم يموت و يرجع الى الأرض لا يفتقر فى شىء من وجوده و بقائه الى أزيد من هذا النظام الكلى الذى لمجموع هذا العالم المتصل تدبيره،الواحد نظامه،فهذه الأجرام العلويه فى إنارتها و تسخينها، و هذه الأرض فى اختلاف ليلها و نهارها و رياحها و سحبها و أمطارها و منافعها التى تجرى من قطر الى قطر من رزق و متاع هى التى تحتاج إليها الإنسان فى حاجته الماديه و تدبير وجوده و بقائه-و اللّه من ورائهم محيط-فإلهها الموجد لها المدبر لأمرها هو إله الإنسان الموجد له و المدبر لأمره(و هذا هو البرهان الثالث).

ثم ان هذا الإله هو الذى يعطى كلا ما يحتاج اليه فى سعادته الوجوديه و ما يحتاج اليه فى سعادته فى غايته و آخرته لو كان له سعاده اخرويه غائيه فإن الآخره عقبى هذا الدار،و كيف يمكن أن يدبر عاقبه الأمر غير الذى يدبر نفس الأمر؟(و هذا هو البرهان على الاسمين الرحمن الرحيم).

و عند هذا تم تعليل الآيه الاولى بالثانيه و فى تصدير الآيه بلفظه،إن؛الداله على التعليل إشاره الى ذلك-و اللّه العالم-.

فقوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ ،اشاره الى ذوات الأجرام العلويه و الأرض بما تشتمل على تراكيبها من بدائع الخلق و عجائب الصنع،من صور تقوّم بها أسمائها،و مواد تتألف منها ذواتها،و تحول بعضها الى بعض،و نقص او زياده تطرئها،و تركب أو تحلل يعرضها،كما قال: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهٰا مِنْ أَطْرٰافِهٰا (الرعد/۴۱)،و قال:

أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ كٰانَتٰا رَتْقاً فَفَتَقْنٰاهُمٰا وَ جَعَلْنٰا مِنَ الْمٰاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (الأنبياء/۳۰).

قوله تعالی: وَ اخْتِلاٰفِ اللَّیْلِ وَ النَّهٰارِ ،و هو النقیصه و الزیاده و الطول و القصر العارضان لهما من جهه اجتماع عاملین من العوامل الطبیعیه،و هی الحرکه الیومیه التی للأرض علی مرکزها و هی ترسم اللیل و النهار بمواجهه نصف الکره و أزید بقلیل دائما مع الشمس فتکتسب النور و تمص الحراه،و یسمی النهار،و استتار الشمس عن النصف الآخر و أنقص بقلیل فیدخل تحت الظل المخروطی و تبقی مظلما و تسمی اللیل،و لا یزالان یدوران حول الأرض،و العامل الآخر میل سطح الدائره الاستوائیه أو المعدل عن سطح المدار الأرضی فی الحرکه الانتقالیه الی الشمال و الجنوب،و هو الذی یوجب میل الشمس من المعدل الی الشمال أو الجنوب الراسم للفصول،و هذا یوجب استواء اللیل و النهار فی منطقه خط الاستواء و فی القطبین،أما القطبان فلهما فی کل سنه شمسیه تامه یوم و لیله واحده کل منهما یعدل نصف السنه،و اللیل فی قطب الشمال نهار فی قطب الجنوب و بالعکس،و أما النقطه الاستوائیه فلها فی کل سنه شمسیه ثلاثمائه و خمس و ستون لیلا و نهارا تقریبا،و النهار و اللیل فیها متساویان،و أما بقیه المناطق فیختلف النهار و اللیل فیها عددا و فی الطول و القصر بحسب القرب من النقطه الاستوائیه و من القطبین،و هذا کله مشروح مبین فی العلوم المربوطه بها.

و هذا الاختلاف هو الموجب لاختلاف ورود الضوء و الحراره،و هو الموجب لاختلاف العوامل الموجبه لاختلاف حدوث التراکیب الأرضیه و التحولات فی کینونتها مما ینتفع باختلافها الإنسان انتفاعات مختلفه.

قوله تعالی: وَ الْفُلْکِ الَّتِی تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِمٰا یَنْفَعُ النّٰاسَ ،و الفلک هو السفینه یطلق علی الواحد و الجمع،و الفلک و الفلکه کالتمر و التمره و المراد بما ینفع الناس المتاع و الرزق تنقلها من ساحل الی ساحل و من قطر من أقطار الأرض الی قطر آخر.

و فی عد الفلک فی طی الموجودات و الحوادث الطبیعیه التی لا دخل لاختیار الإنسان فیها

كالسماء و الأرض و اختلاف الليل و النهار دلاله على أنها أيضا تنتهى مثلها الى صنع اللّه سبحانه فى الطبيعه فان نسبه الفعل الى الإنسان بحسب الدقه لا تزيد على نسبه الفعل الى سبب من الأسباب الطبيعيه،و الاختيار الذى يتبجح به الإنسان لا يجعله سببا تاما مستقلا غير مفتقر الى إراده اللّه سبحانه و لا يجعله أقل احتياجا اليه تعالى بالنسبه الى سائر الأسباب الطبيعيه،فلا فرق من حيث الاحتياج الى إراده اللّه سبحانه بين أن يفعل قوه طبيعيه فى ماده، فتوجد بالفعل و الانفعال و التحريك و التركيب و التحليل صوره من الصور كصوره الحجاره مثلا،و بين أن يفعل الإنسان بالتحريك و التقريب و التبعيد فى الماده صوره من الصور كصوره السفينه مثلا فى أن الجميع تنتهى الى صنع اللّه و ايجاده لا يستقل شیء مستغنيا عنه تعالى فى ذاته و فعله.

فالفلك أيضا مثل سائر الموجودات الطبيعيه تفتقر الى الإله فى وجودها و تفتقر الى الإله فى تدبير أمرها من غير فرق،و قد أشار تعالى الى هذه الحقيقه بقوله: وَ اللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَ مٰا تَعْمَلُونَ (الصافات/۹۶)،حيث حكاه من إبراهيم فيما قاله لقومه فى خصوص الأصنام التى اتخذوها آلهه فان من المعلوم أن الصنم ليس إلّا موجودا صناعيا كالفلك التى تجرى فى البحر، و قال تعالى: وَ لَهُ الْجَوٰارِ الْمُنْشَآتُ فِی الْبَحْرِ كَالْأَعْلاٰمِ (الرحمن/۲۴)،فعدها ملكا لنفسه، و قال تعالى: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِیَ فِی الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ (إبراهيم/۳۲)،فعد تدبير أمرها راجعا اليه (۱).

قوله تعالى: وَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمٰاءِ مِنْ مٰاءٍ فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا وَ بَثَّ فِيهٰا مِنْ كُلِّ دَابَّهٍ ،فان حقيقته عناصر مختلفه يحملها ماء البحار و غيره ثم يتكاثف بخارا متصاعدا حاملا للحراره حتى ينتهى الى زمهرير الهواء فيتبدل ماء متقاطرا على

۱- ۱) .البقره ۱۶۳-۱۶۷:كلام فى استناد مصنوعات الانسان إلى اللّه سبحانه.

صوره المطر أو يجمد ثانيا فيصير ثلجا أو بردا فينزل لثقله الى الأرض فتشربه و تحيى به أو تخزنه فيخرج على صوره ينابيع فى الأرض بها حيوه كل شىء فالماء النازل من السماء حادث من الحوادث الوجوديه جار على نظام متقن غايه الإتقان من غير انتقاض و استثناء و يستند إليه انتشاء النبات و تكون الحيوان من كل نوع.

و هو من جهه تحدده بما يحفه من حوادث العالم طولا و عرضا تصير معها جميعا شيئا واحدا لا يستغنى عن موجد يوجده و عله تظهره فله إله واحد،و من جهه أنه مما يستند إليه وجود الإنسان حدوثا و بقاء يدل على كون إلهه هو إله الإنسان.

قوله تعالى: وَ تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ،و هو توجيهها من جانب الى جانب بعوامل طبيعيه مختلفه،و الأغلب فيها أن الأشعه النوريه الواقعه على الهواء من الشمس تتبدل حراره فيه فيعرضه اللطافه و الخفه لأن الحراره من عواملها فلا يقدر على حمل ما يعلوه أو يجاوره من الهواء البارد الثقيل فينحدر عليه فيدفعه بشده فيجرى الهواء اللطيف الى خلاف سمت الدفع و هو الريح،و من منافعه تلقيح النبات و دفع الكثافات البخاريه،و العفونات المتصاعده، و سوق السحب الماطره و غيرها،ففيه حيوه النبات و الحيوان و الإنسان.

و هو فى وجوده يدل على الإله و فى التيامه مع سائر الموجودات و اتحاده معها كما مر يدل على إله واحد للعالم،و فى وقوعه طريقا الى وجود الإنسان و بقائه يدل على أن إله الإنسان و غيره واحد.

قوله تعالى: وَ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ ،السحاب البخار المتكاثف الذى منه الأمطار و هو ضباب بالفتح ما لم ينفصل من الأرض فاذا انفصل و علا سمى سحابا و غيما و غماما و غير ذلك،و التسخير قهر الشىء و تذليله فى عمله،و السحاب مسخر مقهور فى سيره و إمطاره بالريح و البروده و غيرهما المسلطه عليه بإذن اللّه،و الكلام فى كون السحاب آيه نظير الكلام فى غيره مما عد معه.

و اعلم:أن اختلاف الليل و النهار و الماء النازل من السماء و الرياح المصرفه و السحاب المسخر جمل الحوادث العامه التى منها تتألف نظام التكوين فى الأرضيات من المركبات النباتيه و الحيوانيه و غيرهما فهذه الآيه كالتفصيل بوجه لإجمال قوله تعالى: وَ بٰارَكَ فِيهٰا وَ قَدَّرَ فِيهٰا أَقْوٰاتَهٰا فِى أَرْبَعَهِ أَيّٰامٍ سَوٰاءً لِلسّٰائِلِينَ (فصلت١٠/).

قوله تعالى: لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ،العقل-و هو مصدر عقل يعقل-إدراك الشىء و فهمه التام،و منه العقل اسم لما يميز به الإنسان بين الصلاح و الفساد و بين الحق و الباطل و الصدق و الكذب و هو نفس الإنسان المدرك و ليس بقوه من قواه التى هى كالفروع للنفس كالقوه الحافظه و الباصره و غيرهما.

قوله تعالى: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَنْدٰاداً ،الند كالمثل وزنا و معنى،و لم يقل من يتخذ للّه أندادا كما عبر بذلك فى سائر الموارد كقوله تعالى: فَلاٰ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أَنْدٰاداً (البقره٢٢/)،و قوله تعالى: وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ أَنْدٰاداً (إبراهيم٣٠/)،و غير ذلك لأن المقام مسبوق بالحصر فى قوله: وَ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ ،الآيه،فكان من اتخذ للّه أندادا قد نقض الحصر من غير مجوز و اتخذ من يعلم أنه ليس بإله إلها اتباعا للهوى و تهوينا لحكم عقله و لذلك نكره تحقيرا لشأنه،فقال و من الناس من يتخذ من دون اللّه أندادا.

قوله تعالى: يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّٰهِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلّٰهِ ،و فى التعبير بلفظ يحبونهم دلاله على أن المراد بالأنداد ليس هو الأصنام فقط بل يشمل الملائكه،و أفرادا من الإنسان الذين اتخذوهم أربابا من دون اللّه تعالى بل يعم كل مطاع من دون اللّه من غير أن يأذن اللّه فى إطاعته كما يشهد به ما فى ذيل الآيات من قوله: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا (البقره١۶۶/)،و كما قال تعالى: وَ لاٰ يَتَّخِذَ بَعْضُنٰا بَعْضاً أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ (آل عمران۶۴/)و قال تعالى: اِتَّخَذُوا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ (التوبه/ ٣١)،و فى الآيه دليل على أن الحب يتعلق باللّه تعالى حقيقه خلافا لمن قال:إن الحب-و هو

وصف شهوانی-یتعلق بالأجسام و الجسمانیات،و لا یتعلق به سبحانه حقیقه و أن معنی ما ورد من الحب له الإطاعه بالایتمار بالأمر و الانتهاء عن النهی تجوزا کقوله تعالی: قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اللّهُ (آل عمران/۳۱).

و الآیه حجه علیهم فإن قوله تعالی: أَشَدُّ حُبًّا لِلّهِ یدل علی أن حبه تعالی یقبل الاشتداد، و هو فی المؤمنین أشد منه فی المتخذین للّه اندادا،و لو کان المراد بالحب هو الاطاعه مجازا کان المعنی و الذین آمنوا أطوع للّه و لم یستقم معنی التفضیل لأن طاعه غیرهم لیست بطاعه عند اللّه سبحانه فالمراد بالحب معناه الحقیقی (۱).

قوله تعالی: وَ لَوْ یَرَی الَّذِینَ ظَلَمُوا إِذْ یَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّهَ لِلّهِ جَمِیعاً وَ أَنَّ اللّهَ شَدِیدُ الْعَذابِ ،ظاهر السیاق أن قوله: إِذْ مفعول یری،و ان قوله: أَنَّ الْقُوَّهَ لِلّهِ الی آخر الآیه؛بیان للعذاب،و لو للتمنی.و المعنی لیتهم یرون فی الدنیا یوما یشاهدون فیه العذاب فیشاهدون أن القوه للّه جمیعا و قد أخطئوا فی إعطاء شیء منه لأندادهم و أن اللّه شدید فی عذابه،و اذاقته عاقبه هذا الخطأ فالمراد بالعذاب فی الآیه-علی ما یبینه ما یتلوه- مشاهدتهم الخطأ فی اتخاذهم اندادا یتوهم قوه فیه و مشاهده عاقبه هذا الخطأ و یؤیده الآیتان التالیتان:اذ تبرأ الذین اتبعوا من الذین اتبعوا فلم یصل من المتبوعین الی تابعیهم نفع کانوا یتوقعونه و رأوا العذاب و تقطعت بهم الأسباب فلم یبق تأثیر لشیء دون اللّه،و قال الذین اتبعوا لو أن لنا کره،و هو تمنی الرجوع الی الدنیا فنتبرأ منهم أی من الأنداد المتبوعین فی الدنیا کما تبرءوا منا فی الآخره،کذلک یریهم اللّه أی الذین ظلموا باتخاذ الأنداد أعمالهم،و هی حبهم و اتباعهم لهم فی الدنیا حال کونها حسرات علیهم و ما هم بخارجین من النار.

قوله تعالی: وَ ما هُمْ بِخارِجِینَ مِنَ النّارِ ،فیه حجه علی القائلین بانقطاع

ص: ۱۹۴

۱- ۱) البقره ۱۶۳-۱۶۷:بحث فی الحب و حب الانداد.

العذاب من طريق الظواهر (۱)(۲)(۳).

[سوره البقره (۲): الآیات ۱۶۸ الی ۱۷۱]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلنّاسُ كُلُوا مِمّا فِي اَلْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ اَلشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۱۶۸) إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ اَلْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اَللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۱۶۹) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اِتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اَللّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ (۱۷۰) وَ مَثَلُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ اَلَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلاّ دُعاءً وَ نِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۱۷۱)

بيان:

قوله تعالى: يا أَيُّهَا النّاسُ كُلُوا مِمّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً الى آخر الآيتين،الحلال مقابل الحرام الممنوع اقتحامه،و الحل مقابل الحرمه،و الحل مقابل الحرم، و الحل مقابل العقد،و هو في جميع موارد استعماله يعطى معنى حريه الشيء في فعله و أثره، و الطيب-مقابل الخبيث-ما يلائم النفس و الشيء،كالطيب من القول لملائمته السمع،

۱- ۱) .البقره ۱۶۳-۱۶۷:بحث روائي في توحيد اللّه سبحانه.

۲ - ۲) .البقره ۱۶۳-۱۶۷:بحث فلسفي في الحب؛الحب تعلق وجودي و انجذاب خاص بين العله المكمله و بين المعلول المستكمل؛الحب ذو مراتب مختلفه من الشده و الضعف فانه رابطه وجوديه؛ان اللّه سبحانه اهل للحب بأى جهه فرضت.

۳- ۳) .البقره ۱۶۳-۱۶۷:بحث فلسفي في انقطاع العذاب و الخلود.

و الطیب من العطر یلائم الشامه،و الطیب من المکان یلائم حال المتمکن فیه.و الخطوات بضمتین جمع خطوه،و هی ما بین القدمین للماشی،و قرء خطوات بفتحتین و هی جمع خطوه و هی المره،و خطوات الشیطان هی الامور التی نسبته الی غرض الشیطان-و هو الإغواء بالشرک-نسبه خطوات الماشی الی مقصده و غرضه،فهی الامور التی هی مقدمات للشرک و البعد من اللّه سبحانه،و الأمر هو تحمیل الآمر إراده نفسه علی المأمور لیأتی ما یریده،و الامر من الشیطان وسوسته و تحمیله ما یریده من الإنسان علیه باخطاره فی قلبه و تزیینه فی نظره و السوء ما ینافره الإنسان و یستقبحه بنظر الاجتماع فاذا جاوز حده و تعدی طوره کان فحشاء و لذلک سمی الزنا بالفحشاء و هو مصدر کالسراء و الضراء.

و قد عمم تعالی الخطاب لجمیع الناس لأن الحکم الذی یقرعه سمعهم و یبینه لهم مما یبتلی به الکل،أما المشرکون:فقد کان عندهم امور مما حرموه علی أنفسهم افتراء علی اللّه کما روی أن ثقیفا و خزاعه و بنی عامر بن صعصعه و بنی مدلج کانوا قد حرموا علی أنفسهم أشیاء من الحرث و الأنعام و البحیره و السائبه و الوصیله،هذا فی العرب،و فی غیرهم أیضا یوجد أشیاء کثیره من هذا القبیل،و أما المؤمنون:فربما کان یبقی بعد الإسلام بینهم امور خرافیه طبق ناموس توارث الأخلاق و الآداب القومیه و السنن المنسوخه بنواسخ غیر تدریجیه کالأدیان و القوانین و غیرهما فان کل طریقه جدیده دینیه أو دنیویه اذا نزلت بدار قوم فانما تتوجه أول ما تتوجه الی اصول الطریقه القدیمه و أعراقها فتقطعه فان دامت علی حیاتها و قوتها-و ذلک بحسن التربیه و حسن القبول-أماتت الفروع و قطعت الأذناب و إلاّ فاختلطت بقایا من القدیمه بالحدیثه و التئمت بها و صارت کالمرکب النباتی،ما هو بهذا و لا ذاک.

فقوله تعالی: کُلُوا مِمّٰا فِی الْأَرْضِ حَلاٰلاً طَیِّباً ،یفید الإباحه العامه من غیر تقیید و اشتراط فیه إلاّ أن قوله: وَ لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُوٰاتِ الشَّیْطٰانِ ،الخ؛یفید:أن هاهنا امورا

تسمی خطوات الشیطان-متعلقه بهذا الأکل الحلال الطیب-إما کف عن الأکل اتباعا للشیطان،و إما إقدام علیه اتباعا للشیطان،ثم ذکر ضابط ما یتبع فیه الشیطان بأنه سوء و فحشاء،و قول ما لا یعلم علی اللّه سبحانه و اذا کان الکف غیر جائز إلاّ برضی من اللّه تعالی فالفعل أیضا کذلک فلیس الأکل مما فی الأرض حلالا طیبا إلاّ أن یأذن اللّه تعالی و یشرعه و قد شرعه بهذه الآیه و نظائرها و لا یمنع عنه بنهی أو ردع کما سیأتی من قوله تعالی: إِنَّمٰا حَرَّمَ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَهَ وَ الدَّمَ الآیه؛فرجع معنی الآیه-و اللّه أعلم- الی نحو قولنا کلوا مما فی الأرض من نعم اللّه المخلوقه لکم فقد جعله اللّه لکم حلالا طیبا و لا تترکوا بعضا منها کفا و امتناعا فیکون سوء و فحشاء و قولا بغیر علم أی تشریعا لیس لکم ذلک و هو اتباع خطوات الشیطان.

قوله تعالی: إِنَّمٰا یَأْمُرُکُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشٰاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَی اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ ،السوء و الفحشاء یکونان فی الفعل،و فی مقابله القول،و بذلک یظهر:أن ما یأمر به الشیطان ینحصر فی الفعل الذی هو سوء و فحشاء،و القول الذی هو قول بغیر علم.

قوله تعالی: وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ قٰالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مٰا أَلْفَیْنٰا ، الإلفاء الوجدان أی وجدنا علیه آبائنا،و الآیه تشهد بما استفدناه من الآیه السابقه فی معنی خطوات الشیطان.

قوله تعالی: أَ وَ لَوْ کٰانَ آبٰاؤُهُمْ لاٰ یَعْقِلُونَ شَیْئاً وَ لاٰ یَهْتَدُونَ ،جواب عن قولهم،و بیانه أنّه قول بغیر علم و لا تبین،و ینافیه صریح العقل فان قولهم:بل نتبع ما ألفینا علیه آبائنا،قول مطلق أی نتبع آبائنا علی أی حال و علی أی وصف کانوا،حتی لو لم یعلموا شیئا و لم یهتدوا و نقول ما فعلوه حق،و هذا هو القول بغیر علم،و یؤدی الی القول بما لا یقول به عاقل لو تنبه له و لو کانوا اتبعوا آبائهم فیما علموه و اهتدوا فیه و هم یعلمون:إنهم علموا و اهتدوا فیه لم یکن من قبیل الاهتداء بغیر علم.

قوله تعالی: وَ مَثَلُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا کَمَثَلِ اَلَّذِی یَنْعِقُ بِمٰا لاٰ یَسْمَعُ إِلاّٰ دُعٰاءً وَ نِدٰاءً ،المثل هو الکلام السائر و المثل هو الوصف کقوله تعالی: اُنْظُرْ کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ اَلْأَمْثٰالَ فَضَلُّوا فَلاٰ یَسْتَطِیعُونَ سَبِیلاً (الفرقان۹/)،و النعیق صوت الراعی لغنمه زجرا یقال:نعق الراعی بالغنم ینعق نعیقا اذا صاح بها زجرا،و النداء مصدر نادی ینادی مناداه، و هو أخص من الدعاء ففیه معنی الجهر بالصوت و نحوه بخلاف الدعاء،و المعنی-و اللّه أعلم- و مثلک فی دعاء الذین کفروا کمثل الذی ینعق من البهائم بما لا یسمع من نعیقه إلاّ دعاء و نداء ما،فینزجر بمجرد قرع الصوت سمعه من غیر أن یعقل شیئا فهم صمّ لا یسمعون کلاما یفیدهم،و بکم لا یتکلمون بما یفید معنی،و عمی لا یبصرون شیئا فهم لا یعقلون شیئا لأن الطرق المؤدیه الی التعقل مسدوده علیهم (۱).

[سوره البقره (۲): الآیات ۱۷۲ الی ۱۷۶]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا کُلُوا مِنْ طَیِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاکُمْ وَ اُشْکُرُوا لِلّٰهِ إِنْ کُنْتُمْ إِیّٰاهُ تَعْبُدُونَ (۱۷۲) إِنَّمٰا حَرَّمَ عَلَیْکُمُ اَلْمَیْتَهَ وَ اَلدَّمَ وَ لَحْمَ اَلْخِنْزِیرِ وَ مٰا أُهِلَّ بِهِ لِغَیْرِ اَللّٰهِ فَمَنِ اُضْطُرَّ غَیْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَلاٰ إِثْمَ عَلَیْهِ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۷۳) إِنَّ اَلَّذِینَ یَکْتُمُونَ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ مِنَ اَلْکِتٰابِ وَ یَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِیلاً أُولٰئِکَ مٰا یَأْکُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ إِلاَّ اَلنّٰارَ وَ لاٰ یُکَلِّمُهُمُ اَللّٰهُ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ وَ لاٰ یُزَکِّیهِمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۱۷۴) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ اِشْتَرَوُا اَلضَّلاٰلَهَ بِالْهُدیٰ وَ اَلْعَذٰابَ بِالْمَغْفِرَهِ فَمٰا أَصْبَرَهُمْ عَلَی اَلنّٰارِ (۱۷۵) ذٰلِکَ بِأَنَّ اَللّٰهَ نَزَّلَ اَلْکِتٰابَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ اَلَّذِینَ اِخْتَلَفُوا فِی اَلْکِتٰابِ لَفِی شِقٰاقٍ بَعِیدٍ (۱۷۶)

۱- ۱) .البقره ۱۶۸-۱۷۱:بحث اخلاقی و اجتماعی فی الآراء و العقائد؛العقائد الخرافیه و دور الخیال فیها.

بیان:

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُلُوا مِنْ طَیِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاکُمْ ،خطاب خاص بالمؤمنین بعد الخطاب السابق للناس فهو من قبیل انتزاع الخطاب من الخطاب،کأنه انصراف عن خطاب جماعه ممن لا یقبل النصح و لا یصغی الی القول،و التفات الی من یستجیب الداعی لإیمانه به،و التفاوت الموجود بین الخطابین ناش من تفاوت المخاطبین،فان المؤمنین باللّه لما کان یتوقع منهم القبول بدل قوله: مِمّٰا فِی الْأَرْضِ حَلاٰلاً طَیِّباً من قوله: طَیِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاکُمْ ،و کان ذلک وسیله الی أن یطلب منهم الشکر للّه وحده لکونهم موحدین لا یعبدون إلاّ اللّه سبحانه،و لذلک بعینه قیل:ما رزقناکم و لم یقل:ما رزقتم أو ما فی الأرض و نحوه،لما فیه من الإیماء أو الدلاله علی کونه تعالی معروفا لهم قریبا منهم حنینا رءوفا بهم، و الظاهر أن یکون قوله: مِنْ طَیِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاکُمْ ،من قبیل إضافه الصفه الی الموصوف لا من قبیل قیام الصفه مقام الموصوف فان المعنی علی الأول کلوا من رزقنا الذی کله طیب،و هو المناسب لمعنی التقرب و التحنن الذی یلوح من المقام،و المعنی علی الثانی کلوا من طیب الرزق لا من خبیثه،و هو بعید المناسبه عن المقام الذی هو مقام رفع الحظر،و النهی عن الامتناع عن بعض ما رزقهم اللّه سبحانه تشریعا من عند أنفسهم و قولا بغیر علم.

قوله تعالی: وَ اشْکُرُوا لِلّٰهِ إِنْ کُنْتُمْ إِیّٰاهُ تَعْبُدُونَ ،لم یقل و اشکروا لنا بل

اشکروا للّه لیکون أدل علی الأمر بالتوحید و لذلک أیضا قیل:إن کنتم إیاه تعبدون فدل علی الحصر و القصر و لم یقل إن کنتم تعبدونه.

قوله تعالی: إِنَّمٰا حَرَّمَ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَهَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِیرِ وَ مٰا أُهِلَّ بِهِ لِغَیْرِ اللّٰهِ ،الإهلال لغیر اللّه هو الذبح لغیره کالأصنام.

قوله تعالی: فَمَنِ اضْطُرَّ غَیْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ ،أی غیر ظالم و لا متجاوز حده، و هما حالان عاملهما الاضطرار فیکون المعنی فمن اضطر الی أکل شیء مما ذکر من المنهیات اضطرارا فی حال عدم بغیه و عدم عدوه فلا ذنب له فی الأکل،و أما لو اضطر فی حال البغی و العدو کأن یکونا هما الموجبین للاضطرار فلا یجوز له ذلک،و قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ ، دلیل علی أن التجوز تخفیف و رخصه منه تعالی للمؤمنین و الاّ فمناط النهی موجود فی صوره الاضطرار أیضا.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یَکْتُمُونَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ الْکِتٰابِ ،تعریض لأهل الکتاب اذ عندهم شیء کثیر من المحللات الطیبه التی حرمها کبرائهم و رؤسائهم فی العبادات و غیرها-و عندهم الکتاب الذی لا یقضی فیه بالتحریم-و لم یکتموا ما کتموه إلاّ حفظا لما یدر علیهم من رزق الرئاسه و ابهه المقام و الجاه و المال.

و فی الآیه من الدلاله علی تجسم الأعمال و تحقق نتائجها ما لا یخفی فإنه تعالی ذکر أولا أن اختیارهم الثمن القلیل علی ما أنزل اللّه هو أکل النار فی بطونهم ثم بدل اختیار الکتمان و أخذ الثمن علی بیان ما أنزل اللّه فی الآیه التالیه من اختیار الضلاله علی الهدی ثم من اختیار العذاب علی المغفره ثم ختمها بقوله: فَمٰا أَصْبَرَهُمْ عَلَی النّٰارِ ،و الذی کان منهم ظاهرا هو الإدامه للکتمان و البقاء علیها فافهم.

[سوره البقره (۲): آیه ۱۷۷]

اشاره

لَیْسَ اَلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَکُمْ قِبَلَ اَلْمَشْرِقِ وَ اَلْمَغْرِبِ وَ لٰکِنَّ اَلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ اَلْمَلاٰئِکَهِ وَ اَلْکِتٰابِ وَ اَلنَّبِیِّینَ وَ آتَی اَلْمٰالَ عَلیٰ حُبِّهِ ذَوِی اَلْقُرْبیٰ وَ اَلْیَتٰامیٰ وَ اَلْمَسٰاکِینَ وَ اِبْنَ اَلسَّبِیلِ وَ اَلسّٰائِلِینَ وَ فِی اَلرِّقٰابِ وَ أَقٰامَ اَلصَّلاٰهَ وَ آتَی اَلزَّکٰاهَ وَ اَلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذٰا عٰاهَدُوا وَ اَلصّٰابِرِینَ فِی اَلْبَأْسٰاءِ وَ اَلضَّرّٰاءِ وَ حِینَ اَلْبَأْسِ أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ صَدَقُوا وَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُتَّقُونَ (۱۷۷)

ص :۲۰۰

بيان:

قوله تعالى: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ ،البر بالكسر التوسع من الخير و الإحسان،و البر بالفتح صفه مشبهه منه،و القبل بالكسر فالفتح الجهه و منه القبله و هى النوع من الجهه،و ذووا القربى الأقرباء،و اليتامى جمع يتيم و هو الذى لا ـ والد له،و المساكين جمع مسكين و هو أسوأ حالا ـ من الفقير،و ابن السبيل المنقطع عن أهله، و الرقاب جمع رقبه و هى رقبه العبد،و البأساء مصدر كالبؤس و هو الشده و الفقر،و الضراء مصدر كالضر و هو أن يتضرر الإنسان بمرض أو جرح أو ذهاب مال أو موت ولد،و البأس شده الحرب.

قوله تعالى: وَ لٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ عدل عن تعريف البر بالكسر الى تعريف البر بالفتح ليكون بيانا و تعريفا للرجال مع تضمنه لشرح وصفهم و إيماء الى أنه لا أثر للمفهوم الخالى عن المصداق و لا فضل فيه،و هذا دأب القرآن فى جميع بياناته فانه يبين المقامات و يشرح الأحوال بتعريف رجالها من غير أن يقنع ببيان المفهوم فحسب.

و بالجمله قوله و لكن البر من آمن باللّه و اليوم الآخر،تعريف للأبرار و بيان لحقيقه حالهم،

ص :۲۰۱

و قـد عرّفهم أولا فی جمیع المراتب الثلاث من الاعتقاد و الأعمال و الأخلاق بقوله: (مَنْ آمَنَ بِاللّهِ) و ثانیا بقوله: (أُولٰئِکَ الَّذِینَ صَدَقُوا) و ثالثا بقوله: (وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) .

قوله تعـالی: وَ الصّٰابِرِینَ فِی الْبَأْسٰاءِ ،منصوب علی المـدح إعظامـا لأـمر الصبر، و قـد قیل إن الکلام اذا طال بـذکر الوصف بعد الوصف فمذهبهم ان یعترضوا بین الأوصاف بالمدح و الذم،و اختلاف الإعراب بالرفع و النصب.

[سوره البقره (٢): الآیات ١٧٨ الی ١٧٩]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا کُتِبَ عَلَیْکُمُ اَلْقِصٰاصُ فِی اَلْقَتْلیٰ اَلْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ اَلْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ اَلْأُنْثیٰ بِالْأُنْثیٰ فَمَنْ عُفِیَ لَهُ مِنْ أَخِیهِ شَیْءٌ فَاتِّبٰاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَدٰاءٌ إِلَیْهِ بِإِحْسٰانٍ ذٰلِکَ تَخْفِیفٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ رَحْمَهٌ فَمَنِ اِعْتَدیٰ بَعْدَ ذٰلِکَ فَلَهُ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (١٧٨) وَ لَکُمْ فِی اَلْقِصٰاصِ حَیٰاهٌ یٰا أُولِی اَلْأَلْبٰابِ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)

بیان:

قوله تعـالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُتِبَ عَلَیْکُمُ الْقِصٰاصُ فِی الْقَتْلیٰ الْحُرُّ بِالْحُرِّ ،فی توجیه الخطاب الی المؤمنین خاصه إشاره الی کون الحکم خاصا بالمسلمین، و أما غیرهم من أهل الذمه و غیرهم فالآیه ساکته عن ذلک.

و نسبه هذه الآیه الی قوله تعالی: أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ (المائده/۴۸)،نسبه التفسیر، فلا وجه لما ربما یقال،إن هذه الآیه ناسخه لتلک الآیه فلا یقتل حر بعبد و لا رجل بمرأه.

و بـالجمله القصـاص مصـدر؛قـاص یقـاص؛من قص أثره اذا تبعه و منه القصاص لمن یحـدّث بالآثار و الحکایات کأنه یتبع آثار الماضین فتسمیه القصاص بالقصاص لما فیه من متابعه

الجانی فی جنایته فیوقع علیه مثل ما اوقعه علی غیره.

قوله تعالی: فَمَنْ عُفِیَ لَهُ مِنْ أَخِیهِ شَیْءٌ ،المراد بالموصول القاتل،و العفو للقاتل إنما یکون فی حق القصاص فالمراد بالشیء هو الحق،و فی تنکیره تعمیم للحکم أی أیّ حق کان سواء کان تمام الحق أو بعضه کما اذا تعدد أولیاء الدم فعفی بعضهم حقه للقاتل فلا قصاص حینئذ بل الدیه،و فی التعبیر عن ولی الدم بالأخ إثاره لحس المحبه و الرأفه و تلویح الی أن العفو أحب.

قوله تعالی: فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَدَاءٌ إِلَیْهِ بِإِحْسَانٍ ،مبتدأ خبره محذوف أی فعلیه أن یتبع القاتل فی مطالبه الدیه بمصاحبه المعروف،من الاتباع و علی القاتل أن یؤدی الدیه الی أخیه ولی الدم بالإحسان من غیر مماطله فیها إیذائه.

قوله تعالی: ذٰلِکَ تَخْفِیفٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ رَحْمَهٌ ،أی الحکم بانتقال القصاص الی الدیه تخفیف من ربکم فلا یتغیر فلیس لولی الدم أن یقتص بعد العفو فیکون اعتداء فمن اعتدی فاقتص بعد العفو فله عذاب ألیم.

قوله تعالی: وَ لَکُمْ فِی الْقِصَاصِ حَیَاهٌ یَا أُولِی الْأَلْبَابِ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ ، إشاره الی حکمه التشریع،و دفع ما ربما یتوهم من تشریع العفو و الدیه و بیان المزیه و المصلحه التی فی العفو و هو نشر الرحمه و إیثار الرأفه ان العفو اقرب الی مصلحه الناس، و حاصله أن العفو و لو کان فیه ما فیه من التخفیف و الرحمه،لکن المصلحه العامه قائمه بالقصاص فإن الحیاه لا یضمنها إلّا القصاص دون العفو و الدیه و لا کل شیء مما عداهم، یحکم بذلک الإنسان اذا کان ذا لب و قوله لعلکم تتقون،أی القتل و هو بمنزله التعلیل لتشریع القصاص (۱).

۱- ۱) .البقره ۱۷۸-۱۷۹:بحث علمی فی القصاص.

[سوره البقره (۲): الآيات ۱۸۰ الى ۱۸۲]

اشاره

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذٰا حَضَرَ أَحَدَكُمُ اَلْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً اَلْوَصِيَّةُ لِلْوٰالِدَيْنِ وَ اَلْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى اَلْمُتَّقِينَ (۱۸۰) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مٰا سَمِعَهُ فَإِنَّمٰا إِثْمُهُ عَلَى اَلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اَللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۸۱) فَمَنْ خٰافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاٰ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۸۲)

بيان:

قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذٰا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ ،لسان الآيه لسان الوجوب فإن الكتابه يستعمل فى القرآن فى مورد القطع و اللزوم و يؤيده ما فى آخر الآيه من قوله حقا،فإن الحق أيضا كالكتابه يقتضى معنى اللزوم لكن تقييد الحق بقوله على المتقين،مما يوهن الدلاله على الوجوب و العزيمه فإن الأنسب بالوجوب أن يقال:حقا على المؤمنين،و كيف كان فقد قيل إن الآيه منسوخه بآيه الإرث،و لو كان كذلك فالمنسوخ هو الفرض دون الندب و أصل المحبوبيه،و لعل تقييد الحق بالمتقين فى الآيه لإفاده هذا الغرض.

و المراد بالخير المال،و كأنه المال المعتد به،دون اليسير الذى لا يعبأ به و المراد بالمعروف هو المعروف المتداول من الصنيعه و الإحسان.

قوله تعالى: فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مٰا سَمِعَهُ فَإِنَّمٰا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ، ضمير إثمه راجع الى التبديل،و الباقى من الضمائر الى الوصيه بالمعروف،و هى مصدر يجوز فيه

الوجهان و إنما قال على الذين يبدلونه،و لم يقل عليهم ليكون فيه دلاله على سبب الإثم و هو تبديل الوصيه بالمعروف و ليستقيم تفريع الآيه التاليه عليه.

قوله تعالى: فَمَنْ خٰافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاٰ إِثْمَ عَلَيْهِ ،الجنف هو الميل و الانحراف،و قيل:هو ميل القدمين الى الخارج كما أن الحنف بالحاء المهمله انحرافهما الى الداخل،و المراد على أى حال الميل الى الإثم بقرينه الإثم،و الآيه تفريع على الآيه السابقه عليها،و المعنى(و اللّه أعلم)فإنما إثم التبديل على الذين يبدلون الوصيه بالمعروف،و يتفرع عليه:ان من خاف من وصيه الموصى أن يكون وصيته بالإثم أو مائلا اليه فأصلح بينهم برده الى ما لا إثم فيه فلا إثم عليه لأنه لم يبدل وصيته بالمعروف بل إنما بدل ما فيه إثم أو جنف.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٨٣ الى ١٨٥]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ اَلصِّيٰامُ كَمٰا كُتِبَ عَلَى اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيّٰاماً مَعْدُودٰاتٍ فَمَنْ كٰانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّٰامٍ أُخَرَ وَ عَلَى اَلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعٰامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨۴) شَهْرُ رَمَضٰانَ اَلَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ اَلْقُرْآنُ هُدىً لِلنّٰاسِ وَ بَيِّنٰاتٍ مِنَ اَلْهُدىٰ وَ اَلْفُرْقٰانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ اَلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَ مَنْ كٰانَ مَرِيضاً أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّٰامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اَللّٰهُ بِكُمُ اَلْيُسْرَ وَ لاٰ يُرِيدُ بِكُمُ اَلْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا اَلْعِدَّةَ وَ لِتُكَبِّرُوا اَللّٰهَ عَلىٰ مٰا هَدٰاكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨۵)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اه،الإتيان بهـذا الخطاب لتذكيرهم بوصف فيهم و هو الايمان،يجب عليهم اذا التفتوا إليه أن يقبلوا ما يواجههم ربهم به من الحكم و إن كان على خلاف مشـتهياتهم و عاداتهم،و قد صدرت آيه القصاص بذلك أيضا لما سمعت أن النصارى كانوا يرون العفو دون القصاص و إن كان سائر الطوائف من المليين و غيرهم يرون القصاص.

قـوله تعـالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ اه، الكتـابه معروفه المعنى و يكنى به عن الفرض و العزيمه و القضـاء الحتم كقوله: كَتَبَ اللّٰهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي (المجادله۲۱/)،و قوله تعـالى: وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ (يس/ ۱۲)،و قوله تعالى: وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ (المائـده۴۵/)،و الصـيام و الصوم فى اللغه مصدران بمعنى الكف عن الفعل:كالصيام عن الأكل و الشـرب و المباشـره و الكلام و المشـى و غير ذلك،و ربما يقال:انه الكف عما تشـتهيه النفس و تتوق اليه خاصه ثم غلب اسـتعماله فى الشـرع فى الكـف عن امـور مخصـوصه،من طلوع الفجر الى المغرب بـالنيه، و المراد بالـذين من قبلكم الامـم الماضـيه ممن سـبق ظهور الاسـلام من امم الانبيـاء كـامه موسـى و عيسـى و غيرهم،فإن هـذا المعنى هو المعهود من اطلاق هـذه الكلمه فى القرآن أينمـا اطلقت، و ليس قوله: كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ،فى مقـام الاطلاـق من حيث الاشـخاص و لاـ من حيث التنظير فلا يدل على أن جميع امم الانبياء كان مكتوبا عليهم الصوم من غير اسـتثناء و لا على أن الصوم المكتوب عليهم هو الصوم الـذى كتب علينا من حيث الوقت و الخصوصـيات و الأوصاف،فالتنظير فى الآيه إنما هو من حيث اصل الصوم و الكف لا من حيث خصوصياته.

ص :۲۰۶

و المراد بالذين من قبلكم،الامم من المليين فى الجمله،و لم يعين القرآن من هم،غير أن ظاهر قوله: كَمٰا كُتِبَ ،أن هؤلاء من أهل المله و قد فرض عليهم ذلك،و لا يوجد فى التوراه و الانجيل الموجود عند اليهود و النصارى ما يدل على وجوب الصوم و فرضه،بل الكتابان إنما يمدحانه و يعظمان أمره،لكنهم يصومون أياما معدوده فى السنه الى اليوم بأشكال مختلفه:

كالصوم عن اللحم و الصوم عن اللبن و الصوم عن الأكل و الشرب،و فى القرآن قصه صوم زكريا عن الكلام و كذا صوم مريم عن الكلام.

قوله تعالى: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ،كان أهل الاوثان يصومون لإرضاء آلهتهم أو لإطفاء نائره غضبها اذا أجرموا جرما أو عصوا معصيه،و اذا أرادوا إنجاح حاجه و هذا يجعل الصيام معامله و مبادله يعطى بها حاجه الرب ليقضى حاجه العبد أو يستحصل رضاه ليستحصل رضا العبد،و إن اللّه سبحانه أمنع جانبا من أن يتصور فى حقه فقر أو حاجه أو تأثر أو أذى، و بالجمله هو سبحانه برىء من كل نقص،فما تعطيه العبادات من الاثر الجميل،أى عباده كانت و أى أثر كان،إنما يرجع الى العبد دون الرب تعالى و تقدس،كما ان المعاصى أيضا كذلك، قال تعالى: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهٰا (الإسراء/٧)،هذا هو الذى يشير اليه القرآن الكريم فى تعليمه بإرجاع آثار الطاعات و المعاصى الى الانسان الذى لا شأن له إلاّ الفقر و الحاجه،قال تعالى: يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ إِلَى اللّٰهِ وَ اللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ (فاطر/ ١٥)و يشير اليه فى خصوص الصيام بقوله: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ،و كون التقوى مرجو الحصول بالصيام مما لا ريب فيه فإن كل إنسان يشعر بفطرته أن من أراد الاتصال بعالم الطهاره و الرفعه،و الارتقاء الى مدرجه الكمال و الروحانيه فأول ما يلزمه أن يتنزه عن الاسترسال فى استيفاء لذائذ الجسم و ينقبض عن الجماح فى شهوات البدن و يتقدس عن الاخلاد الى الارض،و بالجمله أن يتقى ما يبعده الاشتغال به عن الرب تبارك و تعالى فهذه تقوى إنما تحصل بالصوم و الكف عن الشهوات،و أقرب من ذلك و أمس لحال عموم الناس من أهل

الدنيا و أهل الآخره ان يتقى ما يعم به البلوى من المشتهيات المباحه كالأكل و الشرب و المباشره حتى يحصل له التدرب على اتقاء المحرمات و اجتنابها،و تتربى على ذلك إرادته فى الكف عن المعاصى و التقرب الى اللّه سبحانه،فإن من أجاب داعى اللّه فى المشتهيات المباحه و سمع و أطاع فهو فى محارم اللّه و معاصيه أسمع و أطوع.

قوله تعالى: أَيّاماً مَعْدُوداتٍ ،منصوب على الظرفيه بتقدير،فى،و متعلق بقوله:

اَلصِّيامُ ،و قد مر أن تنكير أيام و اتصافه بالعدد للدلاله على تحقير التكليف من حيث الكلفه و المشقه تشجيعا للمكلف،و قد مر ان قوله: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ ،الخ؛بيان للأيام فالمراد بالأيام المعدودات شهر رمضان.

قوله تعالى: فَمَنْ کانَ مِنْکُمْ مَرِیضاً أَوْ عَلی سَفَرٍ فَعِدَّهٌ مِنْ أَیّامٍ أُخَرَ ، الفاء للتفريع و الجمله متفرعه على قوله: کُتِبَ عَلَیْکُمُ ،و قوله: مَعْدُوداتٍ اه،أى إن الصيام مكتوب مفروض،و العدد مأخوذ فى الفرض،و كما لا يرفع اليد عن أصل الفرض كذلك لا يرفع اليد عن العدد،فلو عرض عارض يوجب ارتفاع الحكم الفرض عن الأيام المعدودات التى هى أيام شهر رمضان كعارض المرض و السفر،فإنه لا يرفع اليد عن صيام عده من أيام أخر خارج شهر رمضان تساوى ما فات المكلّف من الصيام عددا،و هذا هو الذى أشار تعالى إليه فى الآيه الثالثه بقوله: وَ لِتُکْمِلُوا الْعِدَّهَ ،فقوله تعالى: أَیّاماً مَعْدُوداتٍ ،كما يفيد معنى التحقير كما مرّ يفيد كون العدد ركنا مأخوذا فى الفرض و الحكم.

ثم إن المرض خلاف الصحه و السفر مأخوذ من السفر بمعنى الكشف كأن المسافر ينكشف لسفره عن داره التى يأوى إليها و يكنّ فيها،و كأن قوله تعالى: أَوْ عَلی سَفَرٍ ،و لم يقل:مسافرا للإشاره الى اعتبار فعليه التلبس حالا دون الماضى و المستقبل.

قوله تعالى: وَ عَلَی الَّذِینَ یُطِیقُونَهُ فِدْیَهٌ طَعامُ مِسْکِینٍ ،الاطاقه كما ذكره بعضهم صرف تمام الطاقه فى الفعل،و لازمه وقوع الفعل بجهد و مشقه،و الفديه هى البدل

و هی هنا بدل مالی و هو طعام مسکین أی طعام یشبع مسکینا جائعا فی أوسط ما یطعم الانسان،و حکم الفدیه أیضا فرض کحکم القضاء فی المریض و المسافر لمکان قوله: وَ عَلَی الَّذِینَ ،الظاهر فی الوجوب التعیینی دون الرخصه و التخییر.

قوله تعالی: فَمَنْ تَطَوَّعَ خَیْراً فَهُوَ خَیْرٌ لَهُ ،التطوع تفعل من الطوع مقابل الکره و هو إتیان الفعل بالرضا و الرغبه،و معنی باب التفعل الاخذ و القبول فمعنی التطوع التلبس فی إتیان الفعل بالرضا و الرغبه من غیر کره و استثقال سواء کان فعلا إلزامیا أو غیر إلزامی،و اما اختصاص التطوع استعمالا بالمستحبات و المندوبات فمما حدث بعد نزول القرآن بین المسلمین بعنایه ان الفعل الذی یؤتی به بالطوع هو الندب و اما الواجب ففیه شوب کره لمکان الالزام الذی فیه.

و بالجمله التطوع کما قیل:لا دلاله فیه ماده و هیئه علی الندب و علی هذا فالفاء للتفریع و الجمله متفرعه علی المحصل من معنی الکلام السابق،و المعنی و اللّه أعلم:الصوم مکتوب علیکم مرعیا فیه خیرکم و صلاحکم مع ما فیه من استقرارکم فی صف الامم التی قبلکم، و التخفیف و التسهیل لکم فأتوا به طوعا لا کرها،فإن من أتی بالخیر طوعا کان خیرا له من أن یأتی به کرها.

و من هنا یظهر:أن قوله:فمن تطوع خیرا من قبیل وضع السبب موضع المسبب أعنی وضع کون التطوع بمطلق الخیر خیرا مکان کون التطوع بالصوم خیرا نظیر قوله تعالی: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَیَحْزُنُکَ الَّذِی یَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاٰ یُکَذِّبُونَکَ وَ لٰکِنَّ الظّٰالِمِینَ بِآیٰاتِ اللّٰهِ یَجْحَدُونَ أی فاصبر و لا تحزن فانهم لا یکذبونک.

قوله تعالی: وَ أَنْ تَصُومُوا خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ،جمله متممه لسابقتها، و المعنی بحسب التقدیر-کما مر-:تطوعوا بالصوم المکتوب علیکم فان التطوع بالخیر خیر و الصوم خیر لکم،فالتطوع به خیر علی خیر.

قوله تعالی: شَهْرُ رَمَضٰانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ هُدیً ،شهر رمضان هو الشهر التاسع من الشهور القمریه العربیه بین شعبان و شوال و لم یذکر اسم شیء من الشهور فی القرآن الا شهر رمضان.

و النزول هو الورود علی المحل من العلو،و الفرق بین الإنزال و التنزیل أن الإنزال دفعی و التنزیل تدریجی،و القرآن اسم للکتاب المنزل علی نبیه محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باعتبار کونه مقروّا کما قال تعالی: إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (الزخرف/٣)،و یطلق علی مجموع الکتاب و علی أبعاضه.

و الآیه تدل علی نزول القرآن فی شهر رمضان،و قد قال تعالی: وَ قُرْآناً فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النّٰاسِ عَلیٰ مُکْثٍ وَ نَزَّلْنٰاهُ تَنْزِیلاً (الإسراء/١٠۶)،و هو ظاهر فی نزوله تدریجا فی مجموع مده الدعوه و هی ثلث و عشرون سنه تقریبا،و المتواتر من التاریخ یدل علی ذلک،و لذلک ربما استشکل علیه بالتنافی بین الآیتین.

و الذی یعطیه التدبر فی آیات الکتاب أمر آخر فإن الآیات الناطقه بنزول القرآن فی شهر رمضان أو فی لیله منه إنما عبّرت عن ذلک بلفظ الإنزال الدال علی الدفعه دون التنزیل کقوله تعالی: شَهْرُ رَمَضٰانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ (البقره/١٨۵)و قوله تعالی: حم.

وَ الْکِتٰابِ الْمُبِینِ إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهٍ مُبٰارَکَهٍ (الدخان/٣)،و قوله تعالی: إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهِ الْقَدْرِ (القدر/١)،و اعتبار الدفعه إما بلحاظ اعتبار المجموع فی الکتاب او البعض النازل منه کقوله تعالی: کَمٰاءٍ أَنْزَلْنٰاهُ مِنَ السَّمٰاءِ (یونس/٢۴)،فإن المطر إنما ینزل تدریجا لکنّ النظر هاهنا معطوف إلی أخذه مجموعا واحدا،و لذلک عبّر عنه بالإنزال دون التنزیل،و کقوله تعالی: کِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَیْکَ مُبٰارَکٌ لِیَدَّبَّرُوا آیٰاتِهِ (ص/٢٩)،و إما لکون الکتاب ذا حقیقه أخری وراء ما نفهمه بالفهم العادی الذی یقضی فیه بالتفرق و التفصیل و الانبساط و التدریج هو المصحّح لکونه واحدا غیر تدریجی و نازلا بالإنزال دون التنزیل..و هذا

الاحتمال الثانی هو اللائح من الآیات الکریمه کقوله تعالی: کِتَابٌ أُحْکِمَتْ آیَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ (هود۱/)،فإن هذا الاحکام مقابل التفصیل،و التفصیل هو جعله مفصلا فصلا و قطعه قطعه فالإحکام کونه بحیث لا یتفصّل فیه جزء من جزء و لا یتمیز بعض من بعض لرجوعه الی معنی واحد لا أجزاء و لا فصول فیه،و الآیه ناطقه بأن هذا التفصیل المشاهد فی القرآن إنما طرئ علیه بعد کونه محکما غیر مفصّل (۱).

قوله تعالی: هُدیً لِلنّاسِ وَ بَیِّنَاتٍ مِنَ الْهُدیٰ وَ الْفُرْقَانِ ،الناس،و هم الطبقه الدانیه من الانسان الذین سطح فهمهم المتوسط أنزل السطوح،یکثر إطلاق هذه الکلمه فی حقهم،کما قال تعالی: وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ (الروم۳۰/)،و قال تعالی: وَ تِلْکَ الْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ وَ مٰا یَعْقِلُهٰا إِلاَّ الْعٰالِمُونَ (العنکبوت۴۳/)،و هؤلاء أهل التقلید لا یسعهم تمییز الامور المعنویه بالبینه و البرهان،و لا فرق الحق من الباطل بالحجه إلاّ بمبین یبین لهم و هاد یهدیهم،و القرآن هدی لهم و نعم الهدی،و أما الخاصه المستکملون فی ناحیتی العلم و العمل،المستعدون للاقتباس من أنوار الهدایه الالهیه و الرکون الی فرقان الحق فالقرآن بینات و شواهد من الهدی و الفرقان فی حقهم فهو یهدیهم الیه و یمیز لهم الحق و یبین لهم کیف یمیز،قال تعالی: یَهْدِی بِهِ اللّٰهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ سُبُلَ السَّلاٰمِ وَ یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَی النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ یَهْدِیهِمْ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (المائده۱۶/).

و من هنا یظهر وجه التقابل و البینات من الهدی،و هو التقابل بین العام و الخاص فالهدی لبعض و البینات من الهدی لبعض آخر.

قوله تعالی: فَمَنْ شَهِدَ مِنْکُمُ الشَّهْرَ فَلْیَصُمْهُ ،الشهاده هی الحضور مع تحمل

۱- ۱) .البقره ۱۸۳-۱۸۵:بحث تفسیری مستدل بآیات من القرآن حول کیفیه نزول القرآن و معنی نزول القرآن فی شهر رمضان.

العلم من جهته،و شهاده الشهر إنما هو ببلوغه و العلم به،و يكون بالبعض كما يكون بالكل.

و أما كون المراد بشهود الشهر رؤيه هلاله و كون الانسان بالحضر مقابل السفر فلا دليل عليه إلّا من طريق الملازمه فى بعض الاوقات بحسب القرائن،و لا قرينه فى الآيه.

قوله تعالى: فَمَنْ كٰانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّٰامٍ أُخَرَ ، ايراد هذه الجمله فى الآيه ثانيا ليس من قبيل التكرار للتأكيد و نحوه لما عرفت أن الآيتين السابقتين مع ما تشتملان عليه مسوقتان للتوطئه و التمهيد دون بيان الحكم و أن الحكم هو الذى بين فى الآيه الثالثه فلا تكرار.

قوله تعالى: يُرِيدُ اللّٰهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لاٰ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ، كأنه بيان لمجموع حكم الاستثناء:و هو الافطار فى شهر رمضان لمكان نفى العسر،و صيام عده من أيام أخر لمكان وجوب اكمال العده،و اللام فى قوله: لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ،للغايه،و هو عطف على قوله: يُرِيدُ ،لكونه مشتملا على معنى الغايه،و التقدير و انما أمرناكم بالافطار و القضاء لنخفف عنكم و لتكملوا العده،و لعل ايراد قوله: وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ هو الموجب لاسقاط معنى قوله: وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعٰامُ مِسْكِينٍ ،عن هذه الآيه مع تفهم حكمه بنفى العسر و ذكره فى الآيه السابقه.

قوله تعالى: وَ لِتُكَبِّرُوا اللّٰهَ عَلىٰ مٰا هَدٰاكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ،ظاهر الجملتين على ما يشعر به لام الغايه (1)أنهما لبيان الغايه غايه اصل الصيام دون حكم الاستثناء فإن تقييد قوله: شَهْرُ رَمَضٰانَ بقوله: اَلَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ الى آخره مشعر بنوع من العليه و ارتباط فرض صيام شهر رمضان بنزول القرآن هدى للناس و بينات من الهدى و الفرقان فيعود معنى الغايه الى ان التلبس بالصوم لاظهار كبريائه تعالى بما نزل عليهم القرآن

١- ١) .المراد بالغايه الغرض و هو اصطلاح(منه).

و اعلن ربوبيته و عبوديتهم،و شكر له بما هداهم الى الحق،و فرق لهم بكتابه بين الحق و الباطل.و لما كان الصوم انما يتصف بكونه شكرا لنعمه اذا كان مشتملا على حقيقه معنى الصوم و هو الاخلاص للّه سبحانه فى التنزه عن الواث الطبيعه و الكف عن اعظم مشتهيات النفس بخلاف اتصافه بالتكبير للّه فإن صوره الصوم و الكف سواء اشتمل على اخلاص النيه أو لم يشتمل يدل على تكبيره تعالى و تعظيمه فرق بين التكبير و الشكر فقرن الشكر بكلمه الترجى دون التكبير فقال:و لتكبروا اللّه على ما هداكم و لعلكم تشكرون كما قال:فى اول الآيات:لعلكم تتقون (۱).

[سوره البقره (۲): آیه ۱۸۶]

اشاره

وَ إِذٰا سَأَلَکَ عِبٰادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَهَ اَلدّٰاعِ إِذٰا دَعٰانِ فَلْیَسْتَجِیبُوا لِی وَ لْیُؤْمِنُوا بِی لَعَلَّهُمْ یَرْشُدُونَ (۱۸۶)

بیان:

اشاره

قوله تعالى: وَ إِذٰا سَأَلَکَ عِبٰادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَهَ الدّٰاعِ إِذٰا دَعٰانِ ،أحسن بيان لما اشتمل عليه من المضمون و أرق اسلوب و أجمله فقد وضع أساسه على التكلم وحده دون الغيبه و نحوها،و فيه دلاله على كمال العنايه بالأمر،ثم قوله: عِبٰادِی ، و لم يقل:الناس و ما أشبهه يزيد فى هذه العنايه،ثم حذف الواسطه فى الجواب حيث قال:فإنى قريب و لم يقل:فقل إنه قريب،ثم التأكيد بإن،ثم الاتيان بالصفه دون الفعل الدال على القرب ليدل على ثبوت القرب و دوامه،ثم الدلاله على تجدد الاجابه و استمرارها حيث أتى بالفعل المضارع الدال عليهما،ثم تقييده الجواب أعنى قوله: أُجِیبُ دَعْوَهَ الدّٰاعِ بقوله: إِذٰا دَعٰانِ ،

۱- ۱) .البقره ۱۸۳-۱۸۵:بحث روائى فى الصوم.

و هـذا القيـد لا يزيـد على قوله: دَعْوَةَ الدّاعِ المقيد به شـيئا بل هو عينه،و فيه دلاله على أن دعوه الداع مجابه من غير شـرط و قيد كقوله تعالى: اُدْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ (المؤمن ۶۰/)،فهذه سبع نكات فى الآيه تنبئ بالاهتمام فى أمر استجابه الدعاء و العنايه بها،مع كون الآيه قد كرر فيها-على إيجازها-ضمير المتكلم سبع مرات،و هى الآيه الوحيده فى القرآن على هذا الوصف.

و الـدعاء و الـدعوه توجيه نظر المـدعو نحو الـداعى،و السؤال جلب فائـده أو درّ من المسـئول يرفع به حـاجه السائـل بعـد توجيه نظره،فـالسؤال بمنزله الغايه من الـدعاء و هو المعنى الجامع لجميع موارد السؤال كالسؤال لرفع الجهل و السؤال بمعنى الحساب و السؤال بمعنى الاستدرار و غيره.

ثم إن العبوديه كما مر سابقا هى المملوكيه و لا كل مملوكيه بل مملوكيه الانسان فالعبد هو من الانسان أو كل ذى عقل و شعور كما فى الملك المنسوب اليه تعالى.

و ملكه تعـالى يغـاير ملـك غيره مغـايره الجـد مع الـدعوى و الحقيقه مع المجـاز فإنه تعالى يملك عباده ملكا طلقا محيطا بهم لا يستقلون دونه فى أنفسهم و لا ما يتبع أنفسهم من الصفات و الأفعال و ساير ما ينسب إليهم من الأزواج و الأولاد و المال و الجاه و غيرها،فكل ما يملكونه من جهه إضافته إليهم بنحو من الانحاء كما فى قولنا:نفسه،و بدنه،و سـمعه،و بصره،و فعله، و أثره،و هى أقسـام الملـك بـالطبع و الحقيقه و قولنـا:زوجه و ماله و جاهه و حقه،-و هى أقسام الملك بالوضع و الاعتبار-إنما يملكونه بإذنه تعالى فى اسـتقرار النسـبه بينهم و بين ما يملكون ايّاما كان و تمليكه فاللّه عز اسـمه،هو الذى اضاف نفوسهم و اعيانهم اليهم و لو لم يشـاء لم يضف فلم يكونوا من رأس،و هو الـذى جعـل لهم السـمع و الابصـار و الافئـده،و هو الـذى خلق كـل شـیء و قـدره تقديرا.

فهو سبحانه الحائل بين الشيء و نفسه،و هو الحائل بين الشيء و بين كل ما يقارنه:من ولد او

زوج او صدیق او مال او جاه او حق فهو اقرب الی خلقه من کل شیء مفروض فهو سبحانه قریب علی الاطلاق کما قال تعالی: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْکُمْ وَ لٰکِنْ لاٰ تُبْصِرُونَ (الواقعه/ ۸۵)،و قال تعالی: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ (ق۱۶/)،و قال تعالی: أَنَّ اللّٰهَ یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (الأنفال۲۴/)،و القلب هو النفس المدرکه.

و بالجمله فملکه سبحانه لعباده ملکا حقیقیا و کونهم عبادا له هو الموجب لکونه تعانی قریبا منهم علی الاطلاق و اقرب الیهم من کل شیء عند القیاس و هذا الملک الموجب لجواز کل تصرف شاء کیفما شاء من غیر دافع و لا مانع یقضی ان اللّه سبحانه ان یجیب ای دعاء دعا به احد من خلقه و یرفع بالاعطاء و التصرف حاجته التی سأله فیها فان الملک عام،و السلطان و الاحاطه واقعتان علی جمیع التقادیر من غیر تقید بتقدیر دون تقدیر لا کما یقوله الیهود:ان اللّه لما خلق الاشیاء و قدر التقادیر تم الامر،و خرج زمام التصرف الجدید من یده بما حتمه من القضاء،فلا نسخ و لا بداء و لا استجابه لدعاء لان الامر مفروغ عنه،و لا کما یقوله جماعه من هذه الامه:ان لا صنع للّه فی افعال عباده و هم القدریه الذین سماهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مجوس هذه الامه فیما رواه الفریقان من قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:القدریه مجوس هذه الامه.

بل الملک للّه سبحانه علی الاطلاق و لا یملک شیء شیئا الا بتملیک منه سبحانه و اذن فما شائه و ملکه و اذن فی وقوعه،یقع،و ما لم یشاء و لم یملک و لم یأذن فیه لا یقع و ان بذل فی طریق وقوعه کل جهد و عنایه،قال تعالی یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ إِلَی اللّٰهِ وَ اللّٰهُ هُوَ الْغَنِیُّ (فاطر۱۵/).

فقد تبین:ان قوله تعالی: وَ إِذٰا سَأَلَکَ عِبٰادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَةَ الدّٰاعِ إِذٰا دَعٰانِ ، کما یشتمل علی الحکم اعنی اجابه الدعاء کذلک یشتمل علی علله فکون الداعین عبادا للّه تعالی هو الموجب لقربه منهم،و قربه منهم هو الموجب لاجابته المطلقه لدعائهم،و اطلاق الاجابه یستلزم اطلاق الدعاء فکل دعاء دعی به فانه مجیبه الا ان هاهنا امرا و هو انه تعالی

قید قوله: أَجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ بقوله إِذٰا دَعٰانِ ،و هذا القید غیر الزائد علی نفس المقید بشیء یدل علی اشتراط الحقیقه دون التجوز و الشبه،فان قولنا:اصغ الی قول الناصح اذا نصحک او اکرم العالم اذا کان عالما یدل علی لزوم اتصافه بما یقتضیه حقیقه،فالناصح إذا قصد النصح بقوله فهو الذی یجب الاصغاء إلی قوله و العالم إذا تحقق بعلمه و عمل بما علم کان هو الذی یجب إکرامه فقوله تعالی إذا دعان،یدل علی أن وعد الاجابه المطلقه،إنما هو إذا کان الداعی داعیا بحسب الحقیقه مریدا بحسب العلم الفطری و الغریزی مواطئا لسانه قلبه،فإن حقیقه الدعاء و السؤال هو الذی یحمله القلب و یدعو به لسان الفطره،دون ما یأتی به اللسان الذی یدور کیفما أدیر صدقا أو کذبا جدا أو هزلا حقیقه أو مجازا،و لذلک تری أنه تعالی عد ما لا عمل للسان فیه سؤالا-قال تعالی: وَ آتٰاکُمْ مِنْ کُلِّ مٰا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَظَلُومٌ کَفّٰارٌ (إبراهیم۳۴/)،فهم فیما لا یحصونها من النعم داعون سائلون و لم یسألوها بلسانهم الظاهر،بل بلسان فقرهم و استحقاقهم لسانا فطریا وجودیا،و قال تعالی:

یَسْئَلُهُ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ کُلَّ یَوْمٍ هُوَ فِی شَأْنٍ (الرحمن۲۹/)،و دلالته علی ما ذکرنا أظهر و أوضح.

فالسؤال الفطری من اللّه سبحانه لا یتخطی الاجابه،فما لا یستجاب من الدعاء و لا یصادف الاجابه فقد فقد أحد أمرین و هما اللذان ذکرهما بقوله: دَعْوَةَ الدّاعِ إِذٰا دَعٰانِ .

فإما أن یکون لم یتحقق هناک دعاء،و انما التبس الأمر علی الداعی التباسا کان یدعو الانسان فیسأل ما لا یکون و هو جاهل بذلک أو ما لا یریده لو انکشف علیه حقیقه الامر مثل ان یدعو و یسأل شفاء المریض لا إحیاء المیت،و لو کان استمکنه و دعا بحیاته کما کان یسأله الانبیاء لاعیدت حیاته و لکنه علی یأس من ذلک،أو یسأل ما لو علم بحقیقته لم یسأله فلا یستجاب له فیه.

و إما أن السؤال متحقق لکن لا من اللّه وحده کمن یسأل اللّه حاجه من حوائجه و قلبه

ص :۲۱۶

متعلق بالاسباب العاديه أو بامور وهميه توهمها كافيه فى امره أو مؤثره فى شأنه فلم يخلص الدعاء للّه سبحانه فلم يسأل اللّه بالحقيقه فإن اللّه الذى يجيب الدعوات هو الذى لا شريك له فى أمره،لا من يعمل بشركه الاسباب و الاوهام،فهاتان الطائفتان من الدعاه السائلين لم يخلصوا الدعاء بالقلب و إن أخلصوه بلسانهم.

فهذا ملخص القول فى الدعاء على ما تفيده الآيه،و به يظهر معانى سائر الآيات النازله فى هذا الباب كقوله تعالى: قُلْ مٰا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لاٰ دُعٰاؤُكُمْ (الفرقان/۷۷)و قوله تعالى:

قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُ اللّٰهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السّٰاعَهُ أَ غَيْرَ اللّٰهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ بَلْ إِيّٰاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مٰا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شٰاءَ وَ تَنْسَوْنَ مٰا تُشْرِكُونَ (الأنعام/۴۱)،و قوله تعالى: قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمٰاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَهً لَئِنْ أَنْجٰانٰا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّٰاكِرِينَ قُلِ اللّٰهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهٰا وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (الأنعام/۶۴)، فالآيات داله على أن للانسان دعاء غريزيا و سؤالا فطريا يسأل به ربه،غير انه إذا كان فى رخاء و رفاه تعلقت نفسه بالاسباب فأشركها لربه،فالتبس عليه الامر و زعم أنه لا يدعو ربه و لا يسأل عنه،مع انه لا يسأل غيره فإنه على الفطره و لا تبديل لخلق اللّه تعالى،و لما وقع الشده و طارت الاسباب عن تأثيرها و فقدت الشركاء و الشفعاء تبين له ان لا منجح لحاجته و لا مجيب لمسألته إلا اللّه،فعاد إلى توحيده الفطرى و نسى كل سبب من الاسباب،و وجه وجهه نحو الرب الكريم فكشف شدته و قضى حاجته و اظله بالرخاء،ثم إذا تلبس به ثانيا عاد الى ما كان عليه أولا من الشرك و النسيان.

و كقوله تعالى: وَ قٰالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دٰاخِرِينَ (المؤمن/۶۰)،و الآيه تدعو الى الدعاء و تعد بالاجابه و تزيد على ذلک حيث تسمى الدعاء عباده بقولها:عن عبادتى أى عن دعائى،بل تجعل مطلق العباده دعاء حيث انها تشتمل الوعيد على ترک الدعاء بالنار و الوعيد بالنار انما هو على ترک

العباده رأسا لا علی ترک بعض اقسامه دون بعض فأصل العباده دعاء فافهم ذلک.

و بـذلک یظهر معنی آیات أخر من هـذا الباب کقوله تعالی: فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الـدِّینَ (المؤمن ۱۴/)،و قوله تعالی: وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِیبٌ مِنَ الْمُحْسِنِینَ (الأعراف۵۶/)،و قوله تعالی: وَ یَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ کانُوا لَنا خاشِعِینَ (الأنبیاء ۹۰/)،و قوله تعالی: اُدْعُوا رَبَّکُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْیَهً إِنَّهُ لا یُحِبُّ الْمُعْتَدِینَ (الأعراف۵۵/)،و قوله تعالی: إِذْ نادی رَبَّهُ نِداءً خَفِیًّا -إلی قوله- وَ لَمْ أَکُنْ بِدُعائِکَ رَبِّ شَقِیًّا (مریم۴/)،و قوله تعالی: وَ یَسْتَجِیبُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ (الشوری۲۶/)،الی غیر ذلک من الآیات المناسبه،و هی تشتمل علی ارکان الدعاء و آداب الداعی،و عمدتها الاخلاص فی دعائه تعالی و هو مواطات القلب اللسان و الانقطاع عن کل سبب دون اللّه و التعلق به تعالی،و یلحق به الخوف و الطمع و الرغبه و الرهبه و الخشوع و التضرع و الاصرار و الذکر و صالح العمل و الایمان و أدب الحضور و غیر ذلک مما تشتمل علیه الروایات.

قوله تعالی: فَلْیَسْتَجِیبُوا لِی وَ لْیُؤْمِنُوا بِی ،تفریع علی ما یدل علی الجمله السابقه علیه بالالتزام:ان اللّه تعالی قریب من عباده،لا یحول بینه و بین دعائهم شیء،و هو ذو عنایه بهم و بما یسألونه منه،فهو یدعوهم الی دعائه،و صفته هذه الصفه،فلیستجیبوا له فی هذه الدعوه،و لیقبلوا الیه،و لیؤمنوا به فی هذا النعت،و لیوقنوا بأنه قریب مجیب لعلهم یرشدون فی دعائه.

بحث روائی:

عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیما رواه الفریقان:الدعاء سلاح المؤمن،و فی عده الداعی فی الحدیث القدسی:یا موسی سلنی کل ما تحتاج الیه حتی علف شاتک و ملح عجینک.

و فی المکارم عنه علیه السّلام الـدعاء افضل من قراءه القرآن لان اللّه عزّ و جل قال: قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكَمْ رَبِّى لَوْ لاَ دُعَاؤُكُمْ ،و روی ذلک عن الباقر و الصادق علیهما السّلام.

و فی عـده الـداعی فی روایه محمـد بن عجلان عن محمـد بن عبیـد اللّه بن علی بن الحسین عن ابن عمه الصادق عن آبائه عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال:أوحی اللّه الی بعض انبیائه فی بعض وحیه:

و عزتی و جلالی لاـ قطعن امل کل آمل امل غیری بالایاس و لاکسونه ثوب المـذله فی الناس و لأبعـدنه من فرجی و فضـلی،أ یأمل عبدی فی الشدائد غیری،و الشدائد بیدی و یرجو سوائی و أنا الغنی الجواد،بیدی مفاتیح الابواب و هی مغلقه،و بابی مفتوح لمن دعانی؟ الحدیث.

و فی عده الداعی ایضا عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال:قال اللّه:ما من مخلوق یعتصم بمخلوق دونی الا قطعت اسباب السـموات و اسباب الارض من دونه فان سألنی لم أعطه و ان دعانی لم أجبه، و ما من مخلوق یعتصم بی دون خلقی الا ضـمنت السموات و الارض رزقه،فإن دعانی اجبته و ان سألنی اعطیته و ان استغفرنی غفرت له.

اقول:و مـا اشـتمل علیه الحـدیثان هو الاخلاص فی الـدعاء و لیس إبطالا لسـببیه الاسـباب الوجودیه التی جعلها اللّه تعالی وسائل متوسـطه بین الاشـیاء و بین حوائجها الوجودیه لا عللا فیاضه مسـتقله دون اللّه سـبحانه،و للانسان شـعور باطنی بذلک فانه یشـعر بفطرته ان لحـاجته سـببا معطیا لا یتخلف عنه فعله،و یشـعر ایضا ان کل ما یتوجه الیه من الاسـباب الظاهریه یمکن ان یتخلف عنه اثره فهو یشـعر بأن المبـدأ الـذی یبتـدئ عنه کل امر،و الرکن الذی یعتمد علیه و یرکن الیه کل حاجه فی تحققها و وجودها غیر هـذه الاسـباب و لاـزم ذلـک ان لا یرکن الرکون التام الی شـیء من هـذه الاسـباب بحیث ینقطع عن السـبب الحقیقی و یعتصـم بـذلک السـبب الظاهری،و الانسان ینتقل الی هذه الحقیقه بأدنی توجه و التفات فإذا سـئل او طلب شـیئا من حوائجه فوقع ما طلبه کشف ذلک انه سئل ربه و اتصل حاجته،التی شعر بها بشعوره

الباطنی من طریق الاسباب الی ربه فاستفاض منه،و اذا طلب ذلک من سبب من الاسباب فلیس ذلک من شعور فطری باطنی و انما هو امر صوره له تخیله لعلل اوجبت هذا التخیل من غیر شعور باطنی بالحاجه،و هذا من الموارد التی یخالف فیها الباطن الظاهر.

و نظیر ذلک:ان الانسان کثیرا ما یحب شیئا و یهتم به حتی اذا وقع وجده ضارا بما هو أنفع منه و اهم و احب فترک الاول و أخذ بالثانی،و ربما هرب من شیء حتی اذا صادفه وجده أنفع و خیرا مما کان یتحفظ به فأخذ الاول و ترک الثانی،فالصبی المریض اذا عرض علیه الدواء المر امتنع من شربه و أخذ بالبکاء و هو یرید الصحه،فهو بشعوره الباطنی الفطری یسأل الصحه فیسأل الدواء و ان کان بلسان قوله أو فعله یسأل خلافه،فللانسان فی حیاته نظام بحسب الفهم الفطری و الشعور الباطنی و له نظام آخر بحسب تخیله و النظام الفطری لا یقع فیه خطاء و لا فی سیره خبط،و اما النظام التخیلی فکثیرا ما یقع فیه الخطاء و السهو،فربما سأل الانسان أو طلب بحسب الصوره الخیالیه شیئا،و هو بهذا السؤال بعینه یسأل شیئا آخر أو خلافه،فعلی هذا ینبغی أن یقرر معنی الاحادیث،و هو اللائح من قول علی علیه السّلام فیما سیأتی:أن العطیه علی قدر النیه؛الحدیث.

و فی عده الداعی عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ادعوا اللّه و انتم موقنون بالاجابه.

و فی الحدیث القدسی:أنا عند ظن عبدی بی،فلا یظن بی إلا خیرا.

اقول:و ذلک ان الدعاء مع الیأس أو التردد یکشف عن عدم السؤال فی الحقیقه کما مر، و قد ورد المنع عن الدعاء بما لا یکون.

و فی العده أیضا عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:إفزعوا الی اللّه فی حوائجکم،و الجئوا الیه فی ملماتکم، و تضرعوا الیه و ادعوه،فإن الدعاء مخ العباده،و ما من مؤمن یدعو اللّه الا استجاب فإما أن یعجله له فی الدنیا أو یؤجل له فی الآخره،و اما أن یکفر له من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم یدع بمأثم.

و فی نهج البلاغه فی وصیه له علیه السّلام لابنه الحسین علیه السّلام:ثم جعل فی یدیک مفاتیح خزائنه بما اذن لک فیه من مسألته فمتی شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمه و استمطرت شآبیب رحمته،فلا یقنطنک إبطاء إجابته،فإن العطیه علی قدر النیه،و ربما اخرت عنک الاجابه لیکون ذلک أعظم لاجر السائل،و اجزل لعطاء الآمل،و ربما سألت الشیء فلا تؤتاه و اوتیت خیرا منه عاجلا أو آجلا أو صرف عنک لما هو خیر لک،فلرب أمر قد طلبته فیه هلاک دینک لو أوتیته،فلتکن مسألتک فیما یبقی لک جماله،و ینفی عنک وباله،و المال لا یبقی لک و لا تبقی له.

اقول:قوله:فإن العطیه علی قدر النیه یرید علیه السّلام به:ان الاستجابه تطابق الدعوه فما سأله السائل منه تعالی علی حسب ما عقد علیه حقیقه ضمیره و حمله ظهر قلبه هو الذی یؤتاه،لا ما کشف عنه قوله و أظهره لفظه،فإن اللفظ ربما لا یطابق المعنی المطلوب کل المطابقه کما مر بیانه فهی احسن جمله و اجمع کلمه لبیان الارتباط بین المسأله و الاجابه.

و قد بیّن علیه السّلام بها عده من الموارد التی یتراءی فیها تخلف الاستجابه عن الدعوه ظاهرا کالابطاء فی الاجابه،و تبدیل المسئول عنه فی الدنیا بما هو خیر منه فی الدنیا،أو بما هو خیر منه فی الآخره،او صرفه إلی شیء آخر أصلح منه بحال السائل،فإن السائل ربما یسأل النعمه الهنیئه و لو اوتیها علی الفور لم تکن هنیئه و علی الرغبه فتبطئ إجابتها لأن السائل سأل النعمه الهنیئه فقد سأل الاجابه علی بطؤ،و کذلک المؤمن المهتم بأمر دینه لو سأل ما فیه هلاک دینه و هو لا یعلم بذلک و یزعم ان فیه سعادته و انما سعادته فی آخرته فقد سأل فی الحقیقه لآخرته لا دنیاه فیستجاب لذلک فیها لا فی الدنیا.

و فی عده الداعی عن الباقر علیه السّلام ما بسط عبد یده الی اللّه عزّ و جل إلا استحیی اللّه أن یردها صفرا حتی یجعل فیها من فضله و رحمته ما یشاء،فإذا دعا أحدکم فلا یرد یده حتی یمسح بها علی رأسه و وجهه،و فی خبر آخر علی وجهه و صدره.

اقول:و قد روى فى الدر المنثور ما يقرب من هذا المعنى عن عده من الصحابه كسلمان، و جابر،و عبد اللّه بن عمر،و أنس بن مالك،و ابن أبى مغيث عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ثمانى روايات، و فى جميعها رفع اليدين فى الدعاء فلا معنى لانكار بعضهم رفع اليدين بالدعاء معللا بأنه من التجسيم إذ رفع اليدين إلى السماء ايماء الى أنه تعالى فيها-تعالى عن ذلك و تقدس-.

و هو قول فاسد،فإن حقيقه جميع العبادات البدنيه هى تنزيل المعنى القلبى و التوجه الباطنى إلى مواطن الصوره،و إظهار الحقائق المتعاليه عن الماده فى قالب التجسم،كما هو ظاهر فى الصلاه و الصوم و الحج و غير ذلك و أجزائها و شرائطها،و لو لا ذلك لم يستقم أمر العباده البدنيه،و منها الدعاء،و هو تمثيل التوجه القلبى و المسأله الباطنيه بمثل السؤال الذى نعهده فيما بيننا من سؤال الفقير المسكين الدانى من الغنى المتعزز العالى حيث يرفع يديه بالبسط،و يسأل حاجته بالذله و الضراعه،و قد روى الشيخ فى المجالس و الأخبار مسندا عن محمد و زيد ابنى على بن الحسين عن أبيهما عن جدهما الحسين عليه السّلام عن النبى،و فى عده الداعى مرسلا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يرفع يديه إذا ابتهل و دعا كما يستطعم المسكين.

و فى البحار عن على عليه السّلام أنه سمع رجلا يقول:اللهم إنى أعوذ بك من الفتنه،قال عليه السّلام:أراك تتعوذ من مالك و ولدك،يقول اللّه تعالى: أَنَّمٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ أَوْلاٰدُكُمْ فِتْنَةٌ و لكن قل:اللهم إنى أعوذ بك من مضلات الفتن.

اقول:و هذا باب آخر فى تشخيص معنى اللفظ و له نظائر فى الروايات،و فيها:أن الحق فى معنى كل لفظ هو الذى ورد منه فى كلامه،و من هذا الباب ما ورد فى الروايات فى تفسير معنى الجزء و الكثير و غير ذلك.

و فى عده الداعى عن الصادق عليه السّلام:إن اللّه لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه.

و فى العده أيضا عن على عليه السّلام لا يقبل اللّه دعاء قلب لاه.

اقول:و فى هذا المعنى روايات أخر،و السر فيه عدم تحقق حقيقه الدعاء و المسأله فى

السهو و اللهو.

و فی دعوات الراوندی:فی التوراه یقول اللّه عزّ و جل للعبد:إنک متی ظللت تدعونی علی عبد من عبدی من أجل أنه ظلمک فلک من عبیدی من یدعو علیک من أجل أنک ظلمته فإن شئت أجبتک و أجبته فیک،و إن شئت أخرتکما إلی یوم القیامه.

اقول:و ذلک أن من سأل شیئا لنفسه فقد رضی به و رضی بعین هذا الرضا بکل ما یماثله من جمیع الجهات،فإذا دعا علی من ظلمه بالانتقام فقد دعا علیه لأجل ظلمه فهو راض بالانتقام من الظالم،و اذا کان هو نفسه ظالما لغیره فقد دعا علی نفسه بعین ما دعا لنفسه فإن رضی بالانتقام عن نفسه و لن یرضی أبدا عوقب بما یریده علی غیره،و إن لم یرض بذلک لم یتحقق منه الدعاء حقیقه،قال تعالی: وَ یَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَیْرِ وَ کانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً (الاسراء١١/).

و فی عده الداعی قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لابی ذر:یا أبا ذر أ لا اعلمک کلمات ینفعک اللّه عزّ و جل بهن؟قلت بلی یا رسول اللّه،قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:احفظ اللّه یحفظک اللّه،احفظ اللّه تجده امامک، تعرّف إلی اللّه فی الرخاء یعرفک فی الشده،و إذا سألت فاسأل اللّه،و إذا استعنت فاستعن باللّه، فقد جری القلم بما هو کائن إلی یوم القیامه،و لو أن الخلق کلهم جهدوا علی أن ینفعوک بما لم یکتبه اللّه لک ما قدروا علیه.

اقول:قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:تعرف إلی اللّه فی الرخاء یعرفک فی الشده:یعنی:ادع اللّه فی الرخاء و لا تنسه حتی یستجیب دعائک فی الشده و لا ینساک،و ذلک أن من نسی ربه فی الرخاء فقد أذعن بالاستقلال الاسباب فی الرخاء،ثم إذا دعا ربه فی الشده کان معنی عمله أنه یذعن بالربوبیه فی حال الشده و علی تقدیرها،و لیس تعالی علی هذه الصفه بل هو رب فی کل حال و علی جمیع التقادیر،فهو لم یدع ربه،و قد ورد هذا المعنی فی بعض الروایات بلسان آخر،ففی مکارم الأخلاق عن الصادق علیه السّلام قال علیه السّلام:من تقدم فی الدعاء أستجیب له إذا نزل البلاء،و قیل:

صوت معروف،و لم يحجب عن السماء،و من لم يتقدم فی الدعاء لم يستجب له اذا نزل البلاء و قالت الملائكه:ان ذا الصوت لا نعرفه الحديث،و هو المستفاد من اطلاق قوله تعالی: نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ (التوبه٦٧/)،و لا ينافی هذا ما ورد أن الدعاء لا يرد مع الانقطاع،فإن مطلق الشده غير الانقطاع التام.

و قوله صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:و اذا سألت فاسأل اللّه و اذا استعنت فاستعن باللّه،ارشاد الی التعلق باللّه فی السؤال و الاستعانه بحسب الحقيقه فإن هذه الاسباب العاديه التی بين أيدينا انما سببيتها محدوده علی قدر اللّه لها من الحد لا علی ما يتراءی من استقلالها فی التأثير بل ليس لها الا الطريقيه و الوساطه فی الإيصال،و الامر بيد اللّه تعالی،فإذن الواجب علی العبد أن يتوجه فی حوائجه إلی جناب العزه و باب الكبرياء و لا يركن إلی سبب بعد سبب،و إن كان أبی اللّه أن يجری الامور الا بأسبابها و هذه دعوه الی عدم الاعتماد علی الاسباب الا باللّه الذی أفاض عليها السببيه لا أنها هدايه الی الغاء الاسباب و الطلب من غير السبب فهو طمع فيما لا مطمع فيه،كيف و الداعی يريد ما يسأله بالقلب،و يسأل ما يريده باللسان و يستعين علی ذلک بأركان وجوده و كل ذلک أسباب؟

و اعتبر ذلک بالإنسان حيث يفعل ما يفعل بأدواته البدنيه فيعطی ما يعطی بيده و يری ما يری ببصره و يسمع ما يسمع باذنه فمن يسأل ربه بإلغاء الأسباب كان كمن سأل الإنسان أن يناوله شيئا من غير يد أو ينظر اليه من غير عين أو يستمع من غير أذن،و من ركن الی سبب من دون اللّه سبحانه و تعالی كان كمن تعلق قلبه بيده الانسان فی اعطائه أو بعينه فی نظرها أو باذنه فی سمعها و هو غافل معرض عن الإنسان الفاعل بذلک فی الحقيقه فهو غافل مغفل، و ليس ذلک تقييدا للقدره الإلهيه غير المتناهيه و لا سلبا للاختيار الواجبی،كما أن الانحصار الذی ذكرناه فی الإنسان لا يوجب سلب القدره و الاختيار عنه،لكون التحديد راجعا بالحقيقه الی الفعل لا الی الفاعل،اذ من الضروری أن الانسان قادر علی المناوله و الرؤيه

و السمع لكن المناوله لا يكون الا باليد،و الرؤيه و السمع هما اللذان يكونان بالعين و الاذن لا مطلقا،كذلك الواجب تعالى قادر على الإطلاق غير أن خصوصيه الفعل يتوقف على توسط الاسباب فزيد مثلا و هو فعل للّه هو الإنسان الذى ولده فلان و فلانه فى زمان كذا و مكان كذا و عند وجود شرائط كذا و ارتفاع موانع كذا،لو تخلف واحد من هذا العلل و الشرائط لم يكن هو هو،فهو فى ايجاده يتوقف على تحقق جميعها،و المتوقف هو الفعل دون الفاعل فافهم ذلك.

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:فقد جرى القلم بما هو كائن الى يوم القيامه،تفريع على قوله:و اذا سألت فاسأل اللّه،من قبيل تعقيب المعلول بالعله فهو بيان عله قوله:و اذا سألت،و سببه،و المعنى أن الحوادث مكتوبه مقدره من عند اللّه تعالى لا تأثير لسبب من الأسباب فيها حقيقه،فلا تسأل غيره تعالى و لا تستعن بغيره تعالى،و أما هو تعالى:فسلطانه دائم و ملكه ثابت و مشيته نافذه و كل يوم هو فى شأن،و لذلك عقب الجمله بقوله:و لو أن الخلق كلهم جهدوا؛ الخ.

و من أخبار الدعاء ما ورد عنهم مستفيضا ان الدعاء من القدر.

اقول:و فيه جواب ما استشكله اليهود و غيرهم على الدعاء:ان الحاجه المدعو لها اما ان تكون مقضيه مقدره أو لا،و هى على الاول واجبه و على الثانى ممتنعه،و على أى حال لا معنى لتأثير الدعاء،و الجواب:أن فرض تقدير وجود الشىء لا يوجب استغنائه عن أسباب وجوده،و الدعاء من أسباب وجود الشىء فمع الدعاء يتحقق سبب من أسباب الوجود فيتحقق المسبب عن سببه،و هذا هو المراد بقولهم:ان الدعاء من القدر،و فى هذا المعنى روايات أخر.

ففى البحار عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يرد القضاء الا الدعاء.

و عن الصادق عليه السّلام:الدعاء يرد القضاء بعد ما أبرم ابراما.

و عن أبى الحسن موسى عليه السّلام:عليكم بالدعاء فإن الدعاء و الطلب الى اللّه عزّ و جل يرد

البلاء،و قد قدر و قضی فلم یبق الا امضائه فإذا دعی اللّه و سئل صرف البلاء صرفا.

و عن الصادق علیه السّلام ان الدعاء یرد القضاء المبرم و قد أبرم ابراما فأکثر من الدعاء فإنه مفتاح کل رحمه و نجاح کل حاجه و لا ینال ما عند اللّه الا بالدعاء فإنه لیس من باب یکثر قرعه الا أوشک أن یفتح لصاحبه.

اقول:و فیها اشاره الی الإصرار و هو من محققات الدعاء،فان کثره الاتیان بالقصد یوجب صفائه.

و عن اسماعیل بن همان عن أبی الحسن علیه السّلام:دعوه العبد سرا دعوه واحده تعدل سبعین دعوه علانیه.

اقول:و فیها اشاره الی اخفاء الدعاء و اسراره فإنه أحفظ لاخلاص الطلب.

و فی المکارم عن الصادق علیه السّلام:لا یزال الدعاء محجوبا حتی یصلی علی محمد و آل محمد.

و عن الصادق علیه السّلام أیضا،من قدّم أربعین من المؤمنین ثم دعا أستجیب له.

و عن الصادق علیه السّلام أیضا-و قد قال له رجل من اصحابه انی لأجد آیتین فی کتاب اللّه اطلبهما فلا اجدهما-قال:فقال:و ما هما؟قلت:ادعونی استجب لکم فندعوه فلا نری اجابه،قال افتری اللّه اخلف وعده؟قلت:لا،قال:فمه؟قلت:لا ادری قال:لکنی أخبرک من أطاع اللّه فیما امر به ثم دعاه من جهه الدعاء اجابه،قلت:و ما جهه الدعاء؟قال:تبدأ فتحمد اللّه و تمجده و تذکر نعمه علیک فتشکره ثم تصلی علی محمد و آله ثم تذکر ذنوبک فتقر بها،ثم تستغفر منها فهذه جهه الدعاء،ثم قال:و ما الآیه الاخری؟قلت:و ما أنفقتم من شیء فهو یخلفه و أرانی أنفق و لا أری خلفا،قال:افتری اللّه اخلف وعده؟قلت:لا،قال:فمه؟ قلت:لا أدری،قال:لو أن أحدکم اکتسب المال من حله و انفق فی حقه لم ینفق درهما الا اخلف اللّه علیه.

اقول:و الوجه فی هذه الاحادیث الوارده فی آداب الدعاء ظاهره فإنها تقرب العبد من

حقیقه الدعاء و المسأله.

و فی الدر المنثور عن ابن عمر،قال:قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:ان اللّه اذا اراد ان یستجیب لعبد اذن له فی الدعاء.

و عن ابن عمر ایضا عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من فتح له منکم باب الدعاء فتحت له ابواب الرحمه،و فی روایه من فتح له فی الدعاء منکم فتحت له ابواب الجنه.

اقول:و هذه المعنی مروی من طرق ائمه اهل البیت ایضا:من أعطی الدعاء أعطی الاجابه،و معناه واضح مما مر.

و فی الدر المنثور ایضا عن معاذ بن جبل عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:لو عرفتم اللّه حق معرفته لزالت لدعائکم الجبال.

اقول:و ذلک ان الجهل بمقام الحق و سلطان الربوبیه و الرکون الی الاسباب یوجب الاذعان بحقیقه التأثیر للاسباب و قصر المعلولات علی عللها المعهوده و اسبابها العادیه حتی ان الانسان ربما زال عن الاذعان بحقیقه التأثیر للأسباب لکن یبقی الاذعان بتعین الطرق و وساطه الاسباب المتوسطه فإنا نری ان الحرکه و السیر یوجب الاقتراب من المقصد ثم اذا زال منا الاعتقاد بحقیقه تأثیر السیر فی الاقتراب اعتقدنا بان السیر واسطه و اللّه سبحانه و تعالی هو المؤثر هناک لکن یبقی الاعتقاد بتعین الوساطه و انه لو لا السیر لم یکن قرب و لا اقتراب،و بالجمله ان المسببات لا تتخلف عن اسبابها و ان لم یکن للأسباب الا الوساطه دون التأثیر،و هذا هو الذی لا یصدقه العلم بمقام اللّه سبحانه فإنه لا یلائم السلطنه التامه الالهیه، و هذا التوهم هو الذی اوجب ان نعتقد استحاله تخلف المسببات عن اسبابها العادیه کالثقل و الانجذاب عن الجسم،و القرب عن الحرکه،و الشبع عن الاکل،و الریّ عن الشرب،و هکذا، و قد مر فی البحث عن الاعجاز ان ناموس العلیه و المعلولیه،و بعباره أخری توسط الاسباب بین اللّه سبحانه و بین مسبباتها حق لا مناص عنه لکنه لا یوجب قصر الحوادث علی اسبابها

العادیه بل البحث العقلی النظری،و الکتاب و السنه تثبت اصل التوسط و تبطل الانحصار، نعم المحالات العقلیه لا مطمع فیها.

اذا عرفت هذا علمت:ان العلم باللّه یوجب الاذعان بان ما لیس بمحال ذاتی من کل ما تحیله العاده فإن الدعاء مستجاب فیه کما ان العمده من معجزات الانبیاء راجعه الی استجابه الدعوه.

و فی تفسیر العیاشی عن الصادق علیه السّلام فی قوله تعالی: فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ انی اقدر ان أعطیهم ما یسألونی.

و فی المجمع،قال:و روی عن ابی عبد اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم انه قال:و لیؤمنوا بی ای و لیتحققوا انی قادر علی اعطائهم ما سألوه لعلهم یرشدون،ای لعلهم یصیبون الحق،ای یهتدون الیه.

[سوره البقره (۲): آیه ۱۸۷]

اشاره

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ اَلصِّيَامِ اَلرَّفَثُ إِلىٰ نِسٰائِكُمْ هُنَّ لِبٰاسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِبٰاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اَللّٰهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتٰانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتٰابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفٰا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَ اِبْتَغُوا مٰا كَتَبَ اَللّٰهُ لَكُمْ وَ كُلُوا وَ اِشْرَبُوا حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ اَلْخَيْطُ اَلْأَبْيَضُ مِنَ اَلْخَيْطِ اَلْأَسْوَدِ مِنَ اَلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا اَلصِّيٰامَ إِلَى اَللَّيْلِ وَ لاٰ تُبٰاشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عٰاكِفُونَ فِي اَلْمَسٰاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اَللّٰهِ فَلاٰ تَقْرَبُوهٰا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اَللّٰهُ آيٰاتِهِ لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۱۸۷)

بیان:

قوله تعالی: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيٰامِ الرَّفَثُ إِلىٰ نِسٰائِكُمْ ،الاحلال بمعنی

ص :۲۲۸

الاجازه،و أصله من الحل مقابل العقد،و الرفث هو التصريح بما يكنى عنه مما يستقبح ذكره، من الالفاظ التى لا تخلو عنها مباشره النساء،و قد كنى به هاهنا عن عمل الجماع و هو من أدب القرآن الكريم و كذا سائر الالفاظ المستعمله فيه فى القرآن كالمباشره و الدخول و المس و اللمس و الاتيان و القرب كلها ألفاظ مستعمله على طريق التكنيه،و كذا لفظ الوطء و الجماع و غيرهما المستعمله فى غير القرآن ألفاظ كنائيه و إن اخرج كثره الاستعمال بعضها من حد الكنايه الى التصريح،كما ان الفاظ الفرج و الغائط بمعناهما المعروف اليوم من هذا القبيل، و تعديه الرفث بإلى لتضمينه معنى الافضاء على ما قيل.

قوله تعالى: هُنَّ لِبٰاسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِبٰاسٌ لَهُنَّ ،الظاهر من اللباس معناه المعروف و هو ما يستر به الانسان بدنه،و الجملتان من قبيل الاستعاره فإن كلا من الزوجين يمنع صاحبه عن اتباع الفجور و إشاعته بين أفراد النوع فكان كل منهما لصاحبه لباسا يوارى به سوأته و يستر به عورته.

و هذه استعاره لطيفه،و تزيد لطفا بانضمامها الى قوله: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيٰامِ الرَّفَثُ إِلىٰ نِسٰائِكُمْ ،فإن الانسان يستر عورته عن غيره باللباس،و أما نفس اللباس فلا ستر عنه فكذا كل من الزوجين يتقى به صاحبه عن الرفث الى غيره،و اما الرفث اليه فلا لانه لباس المتصل بنفسه المباشر له.

قوله تعالى: عَلِمَ اللّٰهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتٰانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتٰابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفٰا عَنْكُمْ ،الاختيان و الخيانه بمعنى،و فيه معنى النقص على ما قيل،و فى قوله: أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتٰانُونَ ، دلاله على معنى الاستمرار،فتدل الآيه على ان هذه الخيانه كانت دائره مستمره بين المسلمين منذ شرع حكم الصيام فكانوا يعصون اللّٰه تعالى سرا بالخيانه لأنفسهم،و لو لم تكن هذه الخيانه منهم معصيه لم ينزل التوبه و العفو،و هما و ان لم يكونا صريحين فى سبق المعصيه لكنهما، و خاصه اذا اجتمعا،ظاهر فى ذلك.

و على هـذا فالآـيه داله على ان حكم الصـيام كـان قبـل نزول الآـيه حرمه الجماع فى ليله الصـيام،و الآيه بنزولها شـرعت الحليه و نسخت الحرمه كما ذكره جمع من المفسرين،و يشعر به أو يدل عليه قوله: أُحِلَّ لَكُمْ ،و قوله: كُنْتُمْ تَخْتانُونَ ،و قوله: فَتابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفا عَنْكُمْ ، و قوله: فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ ،اذ لو لا حرمه سابقه كان حق الكلام ان يقال:فلا جناح عليكم ان تباشـروهن أو ما يؤدى هذا المعنى،و هو ظاهر.

قوله تعـالى: فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَ ابْتَغُوا ما كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ ،أمر واقع بعـد الحضـر فيـدل على الجواز،و قـد سـبقه قوله تعالى فى أول الآـيه:احـل لكم و المعنى فمن الآـن تجوز لكم مباشـرتهن،و الابتغاء هو الطلب،و المراد بابتغاء ما كتب اللّه هو طلب الولـد الـذى كتب اللّه سـبحانه ذلک على النوع الانسانى من طريق المباشـره،و فطرهم على طلبه بما أودع فيهم من شهوه النكاح و المباشره،و سخرهم بـذلک على هـذا العمل فهم يطلبون بـذلک ما كتب اللّه لهم و إن لم يقصدوا ظاهرا إلاّ ركوب الشـهوه و نيل اللذه كما انه تعـالى كتب لهم بقاء الحياه و النمو بالاكل و الشـرب و هو المطلوب الفطرى و ان لم يقصـدوا بالاكل و الشـرب إلاّ الحصول على لذه الذوق و الشبع و الرى،فإنما هو تسخير إلهى.

و امـا ما قيل:ان المراد بما كتب اللّه لهم الحل و الرخصه فإن اللّه يحب ان يؤخـذ برخصه كما يحب ان يؤخـذ بعزائمه،فيبعـده:ان الكتابه فى كلامه غير معهوده فى مورد الحليه و الرخصه.

قوله تعـالى: وَ كُلُوا وَ اشْـرَبُوا حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ،الفجر فجران،فجر أول يسـمى بالكاذب لبطلانه بعـد مكث قليـل و بـذنب السـرحان لمشـابهته ذنب الـذئب اذا شاله،و عمود شـعاعى يظهر فى آخر الليل فى ناحيه الافق الشـرقى اذا بلغت فاصـله الشـمس من دائره الافق الى ثمانيه عشـر درجه تحت الافق،ثم يبطل بالاعتراض فيكون معترضا مستطيلا على الأفق كالخيط الابيض الممدود عليه و هو الفجر الثانى،و يسـمى الفجر الصادق لصدقه فيما يحكيه و يخبر به من قدوم النهار و اتصاله

بطلوع الشمس.

و من هنا يعلم ان المراد بالخيط الابيض هو الفجر الصادق،و ان كلمه من،بيانيه و ان قوله تعالى:حتى يتبيّن لكم الخيط الاسود من قبيل الاستعاره بتشبيه البياض المعترض على الافق من الفجر،المجاور لما يمتد معترضا معه من سواد الليل بخيط أبيض يتبيّن من الخيط الاسود.

و من هنا يعلم أيضا:ان المراد هو التحديد بأول حين من طلوع الفجر الصادق فان ارتفاع شعاع بياض النهار يبطل الخيطين فلا خيط ابيض و لا خيط اسود.

قوله تعالى: ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ،لما دل التحديد بالفجر على وجوب الصيام الى الليل بعد تبيّنه استغنى عن ذكره ايثارا للايجاز بل تعرض لتحديده بإتمامه الى الليل،و فى قوله: أَتِمُّوا دلاله على انه واحد بسيط و عباده واحده تامه من غير ان تكون مركبه من أمور عديده كل واحد منها عباده واحده،و هذا هو الفرق بين التمام و الكمال حيث ان الاول انتهاء وجود ما لا يتألف من اجزاء ذوات آثار و الثانى انتهاء وجود ما لكل من اجزائه اثر مستقل وحده،قال تعالى: اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي (المائده/ ٣)،فإن الدين مجموع الصلاه و الصوم و الحج و غيرها التى لكل منها اثر يستقل به،بخلاف النعمه على ما سيجىء بيانه إنشاء اللّه فى الكلام على الآيه.

قوله تعالى: وَ لاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ،العكوف و الاعتكاف هو اللزوم و الاعتكاف بالمكان الاقامه فيه ملازما له.

و الاعتكاف عباده خاصه من احكامها لزوم المسجد و عدم الخروج منه الا لعذر و الصيام معه،و لذلك صح ان يتوهم جوار مباشره النساء فى ليالى الاعتكاف فى المسجد بتشريع جواز الرفث ليله الصيام فدفع هذا الدخل بقوله: وَ لاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ .

قوله تعالى: تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاٰ تَقْرَبُوهٰا ،أصل الحد هو المنع و اليه يرجع جميع استعمالاته و اشتقاقاته كحد السيف و حد الفجور و حد الدار و الحديد الى غير ذلك،و النهى عن القرب من الحدود كنايه عن عدم اقترافها و التعدى إليها،أى لا تقترفوا هذه المعاصى التى هى الاكل و الشرب و المباشره او لا تتعدوا عن هذه الاحكام و الحرمات الإلهيه التى بيّنها لكم و هى احكام الصوم بإضاعتها و ترك التقوى فيها.

[سوره البقره (٢): آيه ١٨٨]

اشاره

وَ لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوٰالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبٰاطِلِ وَ تُدْلُوا بِهٰا إِلَى اَلْحُكّٰامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوٰالِ اَلنّٰاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)

بيان:

قوله تعالى: وَ لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوٰالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبٰاطِلِ ،المراد بالاكل الاخذ أو مطلق التصرف مجازا،و المصحح لهذا الاطلاق المجازى كون الاكل أقرب الافعال الطبيعيه التى يحتاج الانسان الى فعلها و أقدمها فالانسان أول ما ينشأ وجوده يدرك حاجته الى التغذى ثم ينتقل منه الى غيره من الحوائج الطبيعيه كاللباس و المسكن و النكاح و نحو ذلك،فهو أول تصرف يستشعر به من نفسه،و لذلك كان تسميه التصرف و الاخذ،و خاصه فى مورد الاموال،أكلا لا يختص باللغه العربيه بل يعم سائر اللغات.

و المال ما يتعلق به الرغبات من الملك،كأنه مأخوذ من الميل لكونه ما يميل اليه القلب، و البين هو الفصل الذى يضاف الى شيئين فأزيد،و الباطل يقابل الحق الذى هو الامر الثابت بنحو من الثبوت.

و فى تقييد الحكم،أعنى قوله: وَ لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوٰالَكُمْ ،بقوله: بَيْنَكُمْ ،دلاله على ان جميع الاموال لجميع الناس و إنما قسمه اللّه تعالى بينهم تقسيما حقا بوضع قوانين عادله تعدّل الملك

تعدیلا حقا یقطع منابت الفساد لا یتعداه تصرف من متصرف إلّا کان باطلا،فالآیه کالشارحه لإطلاق قوله تعالی: خَلَقَ لَکُمْ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً و فی إضافته الاموال الی الناس إمضاء منه لما استقر علیه بناء المجتمع الانسانی من اعتبار أصل الملک و احترامه فی الجمله من لدن استکن هذا النوع علی بسیط الارض علی ما یذکره النقل و التاریخ،و قد ذکر هذا الاصل فی القرآن بلفظ الملک و المال و لام الملک و الاستخلاف و غیرها فی أزید من مائه مورد و لا حاجه الی إیرادها فی هذا الموضع،و کذا بطریق الاستلزام فی آیات تدل علی تشریع البیع و التجاره و نحوهما فی بضعه مواضع کقوله تعالی: وَ أَحَلَّ اللّٰهُ الْبَیْعَ (البقره۲۷۵/)، و قوله تعالی: لاٰ تَأْکُلُوا أَمْوٰالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْبٰاطِلِ إِلاّٰ أَنْ تَکُونَ تِجٰارَهً عَنْ تَرٰاضٍ (النساء/ ۲۹)،و قوله تعالی: تِجٰارَهٌ تَخْشَوْنَ کَسٰادَهٰا (التوبه۲۴/)،و غیرها،و السنه المتواتره تؤیده.

قوله تعالی: وَ تُدْلُوا بِهٰا إِلَی الْحُکّٰامِ لِتَأْکُلُوا فَرِیقاً ،الإدلاء هو ارسال الدلو فی البئر لنزح الماء کنی به عن مطلق تقریب المال الی الحکام لیحکموا کما یریده الراشی،و هو کنایه لطیفه تشیر الی استبطان حکمهم المطلوب بالرشوه الممثل لحال الماء الذی فی البئر بالنسبه الی من یریده،و الفریق هو القطعه المفروقه المعزوله من الشیء،و الجمله معطوفه علی قوله:تأکلوا،فالفعل مجزوم بالنهی،و یمکن ان یکون الواو بمعنی مع و الفعل منصوبا بأن المقدره،و التقدیر مع ان تأکلوا فتکون الآیه بجملتها کلاما واحدا مسوقا لغرض واحد،و هو النهی عن تصالح الراشی و المرتشی علی أکل أموال الناس بوضعها بینهما و تقسیمها لانفسهما بأخذ الحاکم ما تدلی به منها الیه و اخذ الراشی فریقا آخر منها بالإثم و هما یعلمان ان ذلک باطل غیر حق (۱).

۱- ۱) .البقره ۱۸۸:بحث علمی و اجتماعی فی الملکیه.

[سوره البقره (۲): آیه ۱۸۹]

اشاره

يَسْئَلُونَكَ عَنِ اَلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوٰاقِيتُ لِلنّٰاسِ وَ اَلْحَجِّ وَ لَيْسَ اَلْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا اَلْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهٰا وَ لٰكِنَّ اَلْبِرَّ مَنِ اِتَّقىٰ وَ أْتُوا اَلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوٰابِهٰا وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۸۹)

بيان:

قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ -الى قوله- لِلنّٰاسِ ،الاهله جمع هلال و يسمى القمر هلالا اول الشهر القمرى اذا خرج من تحت شعاع الشمس الليله الاولى و الثانيه كما قيل، و قال بعضهم الليالى الثلاثه الاول،و قال بعضهم حتى يتحجر،و التحجر ان يستدير بخطه دقيقه،و قال بعضهم:حتى يبهر نوره ظلمه الليل و ذلك فى الليله السابعه ثم يسمى قمرا و يسمى فى الرابعه عشر بدرا،و اسمه العام عند العرب الزبرقان.

و الهلال مأخوذ من استهل الصبى اذا بكى عند الولاده أو صاح،و من قولهم:أهلّ القوم بالحج اذا رفعوا أصواتهم بالتلبيه،سمى به لان الناس يهلون بذكره اذا رأوا.و المواقيت جمع ميقات و هو الوقت المضروب للفعل،و يطلق ايضا:على المكان المعين للفعل كميقات أهل الشام و ميقات أهل اليمن،و المراد هاهنا الاول.

و فى قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ،و ان لم يشرح ان السؤال فى امرها عما ذا؟ عن حقيقه القمر و سبب تشكلاتها المختلفه فى صور الهلال و القمر و البدر كما قيل،أو عن حقيقه الهلال فقط،الظاهر بعد المحاق فى اول الشهر القمرى كما ذكره بعضهم،أو عن غير ذلك.

و لكن اتيان الهلال فى السؤال بصوره الجمع حيث قيل:يسألونك عن الاهله دليل على ان

السؤال لم یکن عن ماهیه القمر و اختلاف تشکلاته اذ لو کان کذلک لکان الانسب ان یقال:

یسألونک عن القمر لا عن الاهله،و ایضا لو کان السؤال عن حقیقه الهلال و سبب تشکله الخاص کان الانسب ان یقال:یسألونک عن الهلال اذ لا غرض حینئذ یتعلق بالجمع،ففی اتیان الاهله بصیغه الجمع دلاله علی ان السؤال انما کان عن السبب أو الفائده فی ظهور القمر هلالا بعد هلال و رسمه الشهور القمریه،و عبر عن ذلک بالاهله لانها هی المحققه لذلک فاجیب بالفائده.

و یستفاد ذلک من خصوص الجواب:قل هی مواقیت للناس و الحج،فإن المواقیت و هی الازمان المضروبه للافعال،و الاعمال انما هی الشهور دون الاهله التی لیست بأزمنه و انما هی أشکال و صور فی القمر.

قوله تعالی: وَ لَیْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ ظُهُورِهٰا -الی قوله- مِنْ أَبْوٰابِهٰا ،ثبت بالنقل ان جماعه من العرب الجاهلی کانوا اذا أحرموا للحج لم یدخلوا بیوتهم عند الحاجه من الباب بل اتخذوا نقبا من ظهورها و دخلوا منه فنهی عن ذلک الاسلام و امرهم بدخول البیوت من ابوابها،و نزول الآیه یقبل الانطباق علی هذا الشأن،و بذلک یصح الاعتماد علی ما نقل من شأن نزول الآیه علی ما سیأتی نقله.

و لو لا ذلک لامکن ان یقال:ان قوله: وَ لَیْسَ الْبِرُّ الی آخره؛کنایه عن النهی عن امتثال الاوامر الالهیه و العمل بالاحکام المشرعه فی الدین إلا علی الوجه الذی شرّعت علیه،فلا یجوز الحج فی غیر أشهره،و لا الصیام فی غیر شهر رمضان و هکذا و کانت الجمله علی هذا متمما لاول الآیه،و کان المعنی:ان هذه الشهور أوقات مضروبه لاعمال شرعت فیها و لا یجوز التعدی بها عنها الی غیرها کالحج فی غیر أشهره،و الصوم فی غیر شهر رمضان و هکذا فکانت الآیه مشتمله علی بیان حکم واحد.

و علی التقدیر الاول الذی یؤیده النقل فنفی البر عن إتیان البیوت من ظهورها یدل علی ان

العمل المذكور لم يكن مما امضاه الدين و إلّا لم يكن معنى لنفى كونه برا فانما كان ذلك عاده سيئه جاهليه فنفى اللّه تعالى كونه من البر،و أثبت ان البر هو التقوى،و كان الظاهر ان يقال:و لكن البر هو التقوى،و انما عدل الى قوله: وَ لٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقىٰ ،اشعارا بان الكمال انما هو فى الاتصاف بالتقوى و هو المقصود دون المفهوم الخالى كما مر نظيره فى قوله تعالى: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ ،الآيه.

و الامر فى قوله تعالى: وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوٰابِهٰا ،ليس امرا مولويا و إنما هو إرشاد الى حسن إتيان البيوت من أبوابها لما فيه من الجرى على العاده المألوفه المستحسنه الموافقه للغرض العقلائى فى بناء البيوت و وضع الباب مدخلا و مخرجا فيها،فإن الكلام واقع موقع الردع عن عاده سيئه لا وجه لها إلّا خرق العاده الجاريه الموافقه للغرض العقلائى،فلا يدل على أزيد من الهدايه الى طريق الصواب من غير إيجاب،نعم الدخول من غير الباب بمقصد أنه من الدين بدعه محرمه.

قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ،قد عرفت فى أول السوره ان التقوى من الصفات التى يجامع جميع مراتب الايمان و مقامات الكمال،و من المعلوم ان جميع المقامات لا يستوجب الفلاح و السعاده كما يستوجبه المقامات الاخيره التى تنفى عن صاحبها الشرك و الضلال و إنما تهدى الفلاح و تبشر بالسعاده،و لذلك قال تعالى:و اتقوا اللّه لعلكم تفلحون، فأتى بكلمه الترجى،و يمكن ان يكون المراد بالتقوى امتثال هذا الامر الخاص الموجود فى الآيه و ترك ما ذمه من إتيان البيوت من ظهورها.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٩٠ الى ١٩٥]

اشاره

وَ قٰاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ اَلَّذِينَ يُقٰاتِلُونَكُمْ وَ لاٰ تَعْتَدُوا إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ اَلْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَ اُقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَ اَلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ اَلْقَتْلِ وَ لاٰ تُقٰاتِلُوهُمْ عِنْدَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ حَتّٰى يُقٰاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قٰاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذٰلِكَ جَزٰاءُ اَلْكٰافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ اِنْتَهَوْا فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَ قٰاتِلُوهُمْ حَتّٰى لاٰ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ اَلدِّينُ لِلّٰهِ فَإِنِ اِنْتَهَوْا فَلاٰ عُدْوٰانَ إِلاّٰ عَلَى اَلظّٰالِمِينَ (١٩٣) اَلشَّهْرُ اَلْحَرٰامُ بِالشَّهْرِ اَلْحَرٰامِ وَ اَلْحُرُمٰاتُ قِصٰاصٌ فَمَنِ اِعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اِعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ مَعَ اَلْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ لاٰ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى اَلتَّهْلُكَةِ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلْمُحْسِنِينَ (١٩٥)

بیان:

قوله تعالی: وَ قَاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللّٰهِ الَّذِینَ یُقَاتِلُونَکُمْ ،القتال محاوله الرجل قتل من یحاول قتله،و کونه فی سبیل اللّه إنما هو لکون الغرض منه إقامه الدین و إعلاء کلمه التوحید،فهو عباده یقصد بها وجه اللّه تعالی دون الاستیلاء علی أموال الناس و أعراضهم فإنما هو فی الإسلام دفاع یحفظ به حق الانسانیه المشروعه عند الفطره السلیمه کما سنبینه، فان الدفاع محدود بالذات،و التعدی خروج عن الحد،و لذلک عقبه بقوله تعالی: وَ لاٰ تَعْتَدُوا إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ الْمُعْتَدِینَ .

قوله تعالى: وَ لاٰ تَعْتَدُوا الـخ؛الاعتـداء هو الخروج عن الحد،يقال عدا و اعتدى اذا جاوز وحده،و النهى عن الاعتداء مطلق يراد به كل ما يصدق عليه أنه اعتداء كالقتال قبل أن يدعى الى الحق،و الابتداء بالقتال،و قتل النساء و الصبيان،و عدم الانتهاء الى العدو، و غير ذلک مما بينه السنه النبويه.

قوله تعـالى: وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ -الى قوله- مِنَ الْقَتْلِ ،يقـال ثقف ثقافه أى وجـد و ادرک فمعنى الآيه معنى قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (التوبه/۶)،و الفتنه هو ما يقع به اختبار حال الشـىء،و لـذلک يطلق على نفس الامتحان و الابتـداء و على ما يلازمه غالبا و هو الشده و العذاب على ما يستعقبه كالضـلال و الشرک، و قد استعمل فى القرآن الشريف فى جميع هذه المعانى،و المراد به فى الآيه الشـرک باللّه و رسوله بالزجر و العذاب كما كان يفعله المشركون بمكه بالمؤمنين بعد هجره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قبلها.

فالمعنى شددوا على المشـركين بمكه كل التشديد بقتلهم حيث وجدوا حتى ينجر ذلک الى خروجهم من ديارهم و جلائهم من أرضـهم كما فعلوا بكم ذلک،و ما فعلوه أشد فإن ذلک منهم كان فتنه و الفتنه أشد من القتل لان فى القتل انقطاع الحياه الدنيا،و فى الفتنه انقطاع الحياتين و انهدام الدارين.

قوله تعـالى: وَ لاٰ تُقٰاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ حَتّٰى يُقٰاتِلُوكُمْ فِيهِ الـخ؛فيه نهى عن القتال عنـد المسـجد الحرام حفظا لحرمته ما حفظوه،و الضمير فى قوله: فِيهِ راجع الى المكان المدلول عليه بقوله عند المسجد.

قوله تعـالى: فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ،الانتهـاء الامتناع و الكف، و المراد به الانتهاء عن مطلق القتال عنـد المسـجد الحرام دون الانتهاء عن مطلق القتال بطاعه الدين و قبول الإسلام فإن ذلک هو المراد بقوله ثانيا:فان انتهوا فلا عدوان،و أما هذا الانتهاء

فهو قيد راجع الى أقرب الجمل اليه و هو قوله: وَ لاٰ تُقٰاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ ،و على هذا فكل من الجملتين اعنى قوله تعالى: فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللّٰهَ ،و قوله تعالى: فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاٰ عُدْوٰانَ ،قيد لم يتصل به من الكلام من غير تكرار.

و فى قوله تعالى: فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ،وضع السبب موضع المسبب إعطاء لعله الحكم، و المعنى فإن انتهوا فان اللّه غفور رحيم.

قوله تعالى: وَ قٰاتِلُوهُمْ حَتّٰى لاٰ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلّٰهِ ،تحديد لأمد القتال كما مر ذكره،و الفتنه فى لسان هذه الآيات هو الشرك باتخاذ الاصنام كما كان يفعله و يكره عليه المشركون بمكه،و يدل عليه قوله تعالى: وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلّٰهِ ،و الآيه نظيره لقوله تعالى: وَ قٰاتِلُوهُمْ حَتّٰى لاٰ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ مَوْلاٰكُمْ نِعْمَ الْمَوْلىٰ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (الأنفال۴۰/)،و فى الآيه دلاله على وجوب الدعوه قبل القتال فان قبلت فلا قتال و ان ردت فلا ولايه الا للّه و نعم المولى و نعم النصير،ينصر عباده المؤمنين،و من المعلوم أن القتال إنما هو ليكون الدين للّه،و لا معنى لقتال هذا شأنه و غايته إلاّ عن دعوه الى الدين الحق و هو الدين الذى يستقر على التوحيد.

قوله تعالى: فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاٰ عُدْوٰانَ إِلاّٰ عَلَى الظّٰالِمِينَ ،أى فإن انتهوا عن الفتنه و آمنوا بما آمنتم به فلا تقاتلوهم فلا عدوان إلاّ على الظالمين،فهو من وضع السبب موضع المسبب كما مر نظيره فى قوله تعالى: فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، الآيه؛فالآيه كقوله تعالى: فَإِنْ تٰابُوا وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰةَ وَ آتَوُا الزَّكٰاةَ فَإِخْوٰانُكُمْ فِي الدِّينِ (التوبه۱۲/).

قوله تعالى: اَلشَّهْرُ الْحَرٰامُ بِالشَّهْرِ الْحَرٰامِ وَ الْحُرُمٰاتُ قِصٰاصٌ ،الحرمات جمع حرمه و هى ما يحرم هتكه و يجب تعظيمه و رعايه جانبه،و الحرمات:حرمه الشهر الحرام و حرمه الحرم و حرمه المسجد الحرام،و المعنى أنهم لو هتكوا حرمه الشهر الحرام بالقتال فيه،

و قد هتكوا حين صدوا النبى و أصحابه عن الحج عام الحديبيه و رموهم بالسهام و الحجاره جاز للمؤمنين أن يقاتلوهم فيه و ليس بهتك،فانما يجاهدون فى سبيل اللّه و يمتثلون أمره فى إعلاء كلمته و لو هتكوا حرمه الحرم و المسجد الحرام بالقتال فيه و عنده جاز للمؤمنين معاملتهم بالمثل،فقوله: اَلشَّهْرُ الْحَرٰامُ بِالشَّهْرِ الْحَرٰامِ بيان خاص عقب ببيان عام يشمل جميع الحرمات و أعم من هذا البيان العام قوله تعالى عقيبه:فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم،فالمعنى أن اللّه سبحانه إنما شرع القصاص فى الشهر الحرام لانه شرع القصاص فى جميع الحرمات و إنما شرع القصاص فى الحرمات لانه شرع جواز الاعتداء بالمثل.

ثم ندبهم الى ملازمه طريقه الاحتياط فى الاعتداء لأن فيه استعمالا للشده و البأس و السطوه و سائر القوى الداعيه الى الطغيان و الانحراف عن جاده الاعتدال و اللّه سبحانه و تعالى لا يحب المعتدين،و هم أحوج الى محبه اللّه تعالى و ولايته و نصره فقال تعالى:و اتقوا اللّه و اعلموا أن اللّه مع المتقين.

و أما أمره تعالى بالاعتداء مع انه لا يحب المعتدين فإن الاعتداء مذموم اذا لم يكن فى مقابله اعتداء و أما اذا كان فى مقابله الاعتداء فليس إلاّ تعاليا عن ذل الهوان و ارتقاء عن حضيض الاستعباد و الظلم و الضيم،كالتكبر مع المتكبر،و الجهر بالسوء لمن ظلم.

و قوله تعالى: وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَ لاٰ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَهِ ،أمر بانفاق المال لإقامه القتال فى سبيل اللّه و الكلام فى تقييد الإنفاق هاهنا بكونه فى سبيل اللّه نظير تقييد القتال فى اول الآيات بكونه فى سبيل اللّه،كما مر،و الباء فى قوله: بِأَيْدِيكُمْ زائده للتأكيد،و المعنى:و لا تلقوا أيديكم الى التهلكه كنايه عن النهى عن إبطال القوه و الاستطاعه و القدره فان اليد مظهر لذلك،و ربما يقال:ان الباء للسببيه و مفعول لا تلقوا محذوف،و المعنى:

لا تلقوا أنفسكم بأيدى أنفسكم الى التهلكه،و التهلكه و الهلاک واحد و هو مصير الإنسان

بحیث لا یدری أین هو،و هو علی وزن تفعله بضم العین لیس فی اللغه مصدر علی هذا الوزن غیره.

و الکلام مطلق أرید به النهی عن کل ما یوجب الهلاک من إفراط و تفریط کما أن البخل و الإمساک عن إنفاق المال عند القتال یوجب بطلان القوه و ذهاب القدره،و فیه هلاک العده بظهور العدو علیهم،و کما أن التبذیر بانفاق جمیع المال یوجب الفقر و المسکنه المؤدیین الی انحطاط الحیاه و بطلان المروه.

ثم ختم سبحانه و تعالی الکلام بالاحسان فقال: وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللّٰهَ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ و لیس المراد بالاحسان الکف عن القتال أو الرأفه فی قتل أعداء الدین و ما یشبههما بل الاحسان هو الاتیان بالفعل علی وجه حسن بالقتال فی مورد القتال،و الکف فی مورد الکف،و الشده فی مورد الشده،و العفو فی مورد العفو،فدفع الظالم بما یستحقه إحسان علی الانسانیه باستیفاء حقها المشروع لها،و دفاع عن الدین المصلح لشأنها کما أن الکف عن التجاوز فی استیفاء الحق المشروع بما لا ینبغی إحسان آخر،و محبه اللّٰه سبحانه و تعالی هو الغرض الأقصی من الدین،و هو الواجب علی کل متدین بالدین أن یجلبها من ربه بالاتباع، قال تعالی: قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اللّٰهُ (آل عمران۳۱/)،و قد بدأت الآیات الشریفه-و هی الآیات القتال-بالنهی عن الاعتداء و ان اللّٰه لا یحب المعتدین و ختمت بالأمر بالاحسان و أن اللّٰه یحب المحسنین،و فی ذلک من وجوه الحلاوه ما لا یخفی (۱)(۲)(۳).

۱- ۱) .البقره ۱۹۰-۱۹۵:بحث فی الجهاد الذی یأمر به القرآن.

۲- ۲) .البقره ۱۹۰-۱۹۵:بحث اجتماعی حق الدفاع الفطری و سبب الحروب.

۳- ۳) .البقره ۱۹۰-۱۹۵:بحث روائی فی القتال؛الفتنه فی الدین.

[سوره البقره (۲): الآیات ۱۹۶ الی ۲۰۳]

اشاره

وَ أَتِمُّوا اَلْحَجَّ وَ اَلْعُمْرَهَ لِلّٰهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اِسْتَيْسَرَ مِنَ اَلْهَدْيِ وَ لاٰ تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتّٰى يَبْلُغَ اَلْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كٰانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَهٌ مِنْ صِيٰامٍ أَوْ صَدَقَهٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذٰا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَهِ إِلَى اَلْحَجِّ فَمَا اِسْتَيْسَرَ مِنَ اَلْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيٰامُ ثَلاٰثَهِ أَيّٰامٍ فِي اَلْحَجِّ وَ سَبْعَهٍ إِذٰا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَهٌ كٰامِلَهٌ ذٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حٰاضِرِي اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ (۱۹۶) اَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومٰاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ اَلْحَجَّ فَلاٰ رَفَثَ وَ لاٰ فُسُوقَ وَ لاٰ جِدٰالَ فِي اَلْحَجِّ وَ مٰا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اَللّٰهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ اَلزّٰادِ اَلتَّقْوىٰ وَ اِتَّقُونِ يٰا أُولِي اَلْأَلْبٰابِ (۱۹۷) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذٰا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفٰاتٍ فَاذْكُرُوا اَللّٰهَ عِنْدَ اَلْمَشْعَرِ اَلْحَرٰامِ وَ اُذْكُرُوهُ كَمٰا هَدٰاكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ اَلضّٰالِّينَ (۱۹۸) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفٰاضَ اَلنّٰاسُ وَ اِسْتَغْفِرُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۹۹) فَإِذٰا قَضَيْتُمْ مَنٰاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اَللّٰهَ كَذِكْرِكُمْ آبٰاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ اَلنّٰاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنٰا آتِنٰا فِي اَلدُّنْيٰا وَ مٰا لَهُ فِي اَلْآخِرَهِ مِنْ خَلاٰقٍ (۲۰۰) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنٰا آتِنٰا فِي اَلدُّنْيٰا حَسَنَهً وَ فِي اَلْآخِرَهِ حَسَنَهً وَ قِنٰا عَذٰابَ اَلنّٰارِ (۲۰۱) أُولٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمّٰا كَسَبُوا وَ اَللّٰهُ سَرِيعُ اَلْحِسٰابِ (۲۰۲) وَ اُذْكُرُوا اَللّٰهَ فِي أَيّٰامٍ مَعْدُودٰاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاٰ إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلاٰ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اِتَّقىٰ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ اِعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۰۳)

بيان:

قوله تعالی: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلّٰهِ ،تمام الشیء هو الجزء الذی بانضمامه الی سائر أجزاء الشیء یکون الشیء هو هو،و یترتب علیه آثاره المطلوبه منه فالإتمام هو ضم تمام الشیء الیه بعد الشروع فی بعض أجزائه،و الکمال هو حال أو وصف أو أمر اذا وجده الشیء ترتب علیه من الاثر بعد تمامه ما لا یترتب علیه لو لا الکمال،فانضمام أجزاء الانسان بعضها الی بعض هو تمامه،و کونه إنسانا عالما أو شجاعا أو عفیفا کماله،و ربما یستعمل التمام مقام الکمال بالاستعاره بدعوی کون الوصف الزائد علی الشیء داخلا فیه اهتماما بأمره و شأنه، و المراد بإتمام الحج و العمره هو المعنی الاول الحقیقی،و الدلیل علیه قوله تعالی بعده:فإن أحصرتم فما استیسر من الهدی،فإن ذلک تفریع علی التمام بمعنی إیصال العمل الی آخر أجزائه و ضمه الی أجزائه المأتی بها بعد الشروع و لا معنی یصح تفریعه علی الاتمام بمعنی الاکمال و هو ظاهر.

و الحج هو العمل المعروف بین المسلمین الذی شرعه إبراهیم الخلیل علیه السّلام و کان بعده بین العرب ثم أمضاه اللّه سبحانه لهذه الأمه شریعه باقیه الی یوم القیامه.

ص :۲۴۳

و يبتدى هذا العمل بالاحرام و الوقوف فى العرفات ثم المشعر الحرام،و فيها التضحيه بمنى و رمى الجمرات الثلاث و الطواف و صلاته و السعى بين الصفا و المروه،و فيها أمور مفروضه أخر،و هو على ثلاثه أقسام:حج الافراد،و حج القرآن،و حج التمتع الذى شرعه اللّه فى آخر عهد رسول اللّه.

و العمره عمل آخر و هو زياره البيت بالاحرام من أحد المواقيت و الطواف و صلاته و السعى بين الصفا و المروه و التقصير،و هما أعنى الحج،و العمره عبادتان لا يتمان إلاّ لوجه اللّه و يدل عليه قوله تعالى: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلّٰهِ ،الآيه.

قوله تعالى: فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَ لاٰ تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ الخ؛الاحصار هو الحبس،و المنع،و المراد الممنوعيه عن الاتمام بسبب مرض أو عدو بعد الشروع بالاحرام و الاستيسار صيروره الشىء يسيرا غير عسير كأنه يجلب اليسر لنفسه، و الهدى هو ما يقدمه الانسان من النعم الى غيره أو الى محل للتقرب به،و اصله من الهديه بمعنى التحفه أو من الهدى بمعنى الهدايه التى هى السوق الى المقصود،و الهدى و الهديه كالتمر و التمره، و المراد به ما يسوقه الانسان للتضحيه به فى حجه من النعم.

قوله تعالى: فَمَنْ كٰانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ الخ؛الفاء للتفريع، و تفريع هذا الحكم على النهى عن حلق الرأس يدل على ان المراد بالمرض هو خصوص المرض الذى يتضرر فيه من ترك الشعر على الرأس من غير حلق،و الاتيان بقوله: أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ بلفظه أو الترديد يدل على ان المراد بالاذى ما كان من غير طريق المرض كالهوام فهو كنايه عن التأذى من الهوام كالقمل على الرأس،فهذان الامران يجوزان الحلق مع الفديه بشىء من الخصال الثلاث:التى هى الصيام،و الصدقه،و النسک.

و قد وردت السنه ان الصيام ثلاثه أيام،و ان الصدقه إطعام سته مساكين،و ان النسک شاه.

ص :۲۴۴

قوله تعالی: فَإِذٰا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَهِ إِلَی الْحَجِّ ،تفریع علی الاحصار، أی اذا أمنتم المانع من مرض أو عدو أو غیر ذلک فمن تمتع بالعمره الی الحج،أی تمتع بسبب العمره من حیث ختمها و الاحلال الی زمان الاهلال بالحج فما استیسر من الهدی،فالباء للسببیه،و سببیه العمره للتمتع بما کان لا یجوز له فی حال الاحرام کالنساء و الصید و نحوهما من جهه تمامها بالاحلال.

قوله تعالی: فَمَا اسْتَیْسَرَ مِنَ الْهَدْیِ ،ظاهر الآیه ان ذلک نسک،لا جبران لما فات منه من الاهلال بالحج من المیقات فإن ذلک امر یحتاج الی زیاده مئونه فی فهمه من الآیه کما هو ظاهر.

قوله تعالی: فَمَنْ لَمْ یَجِدْ فَصِیٰامُ ثَلاٰثَهِ أَیّٰامٍ فِی الْحَجِّ وَ سَبْعَهٍ إِذٰا رَجَعْتُمْ ، جعل الحج ظرفا للصیام باعتبار اتحاده مع زمان الاشتغال به و مکانه،فالزمان الذی یعد زمانا للحج،و هو من زمان إحرام الحج الی الرجوع،زمان الصیام ثلاثه أیام،و لذلک وردت الروایات عن أئمه أهل البیت ان وقت الصیام قبل یوم الاضحی أو بعد ایام التشریق لمن لم یقدر علی الصیام قبله و إلاّ فعند الرجوع الی وطنه،و ظرف السبعه إنما هو بعد الرجوع فإن ذلک هو الظاهر من قوله: إِذٰا رَجَعْتُمْ ،و لم یقل حین الرجوع علی ان الالتفات من الغیبه الی الحضور فی قوله إِذٰا رَجَعْتُمْ لا یخلو عن إشعار بذلک.

قوله تعالی: تِلْکَ عَشَرَهٌ کٰامِلَهٌ ،أی الثلاثه و السبعه عشره کامله و فی جعل السبعه مکمله للعشره دلاله علی أن لکل من الثلاثه و السبعه حکما مستقلا آخر علی ما مر من معنی التمام و الکمال فی أول الآیه فالثلاثه عمل تام فی نفسه،و إنما تتوقف علی السبعه فی کمالها لا تمامها.

قوله تعالی: ذٰلِکَ لِمَنْ لَمْ یَکُنْ أَهْلُهُ حٰاضِرِی الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ ،أی الحکم المتقدم ذکره و هو التمتع بالعمره الی الحج لغیر الحاضر،و هو الذی بینه و بین المسجد الحرام

أكثر من اثنی عشر میلا علی ما فسرته السنه،و أهل الرجل خاصته:من زوجته و عیاله، و التعبیر عن النائی البعید بأن لا یکون اهله حاضری المسجد الحرام من اللطف التعبیرات، و فیه إیماء الی حکمه التشریع و هو التخفیف و التسهیل،فإن المسافر من البلاد النائیه للحج، و هو عمل لا یخلو من الکد و مقاسات التعب و وعثاء الطریق،لا یخلو عن الحاجه الی السکن و الراحه،و الانسان إنما یسکن و یستریح عند أهله،و لیس للنائی أهل عند المسجد الحرام، فبدله اللّه سبحانه من التمتع بالعمره الی الحج و الاهلال بالحج من المسجد الحرام من غیر ان یسیر ثانیا الی المیقات.

و قد عرفت:أن الجمله الداله علی تشریع المتعه إنما هی هذه الجمله أعنی قوله: ذٰلِکَ لِمَنْ لَمْ یَکُنْ ،الخ؛دون قوله: فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَهِ إِلَی الْحَجِّ ،و هو کلام مطلق غیر مقید بوقت دون وقت و لا شخص دون شخص و لا حال دون حال.

قوله تعالی: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ شَدِیدُ الْعِقٰابِ ،التشدید البالغ فی هذا التذلیل مع أن صدر الکلام لم یشتمل علی أزید من تشریع حکم فی الحج ینبئ عن أن المخاطبین کان المترقب من حالهم إنکار الحکم أو التوقف فی قبوله کذلک کان الامر فإن الحج خاصه من بین الاحکام المشرعه فی الدین کان موجودا بینهم من عصر إبراهیم الخلیل معروفا عندهم معمولا به فیهم قد أنسته نفوسهم و ألفته قلوبهم و قد أمضاه الاسلام علی ما کان تقریبا الی آخر عهد النبی فلم یکن تغییر وضعه أمرا هینا سهل القبول عندهم و لذلک قابلوه بالانکار و کان ذلک غیر واقع فی نفوس کثیر منهم علی ما یظهر من الروایات،و لذلک اضطر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الی أن یخطبهم فیبین لهم أن الحکم للّه یحکم ما یشاء،و أنه حکم عام لا یستثنی فیه أحد من نبی أو أمه فهذا هو الموجب للتشدید الذی فی آخر الآیه بالأمر بالتقوی و التحذیر عن عقاب اللّه سبحانه.

قوله تعالی: اَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومٰاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِیهِنَّ الْحَجَّ -الی قوله-

فِی الْحَجِّ ،أی زمان الحج أشهر معلومات عند القوم و قد بینته السنه و هی:شوال و ذو القعده و ذو الحجه.

و کون زمان الحج من ذی الحجه بعض هذا الشهر دون کله لا ینافی عده شهرا للحج فإنه من قبیل قولنا:زمان مجیئی الیک یوم الجمعه مع ان المجیء إنما هو فی بعضه دون جمیعه.

قوله تعالی: وَ مٰا تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ یَعْلَمْهُ اللّٰهُ ،تذکره بأن الاعمال غیر غائبه عنه تعالی،و دعوه الی التقوی لئلا یفقد المشتغل بطاعه اللّه روح الحضور و معنی العمل،و هذا دأب القرآن یبین أصول المعارف و یقص القصص و ذکر الشرائع و یشفع البیان فی جمیعها بالعظه و الوصیه لئلا یفارق العلم العمل،فإن العلم من غیر عمل لا قیمه له فی الاسلام،و لذلک ختم هذه الدعوه بقوله:و اتقونی یا أولی الالباب،بالعدول من الغیبه الی التکلم الذی یدل علی کمال الاهتمام و الاقتراب و التعین.

قوله تعالی: لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّکُمْ ،هو نظیر قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذٰا نُودِیَ لِلصَّلاٰهِ مِنْ یَوْمِ الْجُمُعَهِ فَاسْعَوْا إِلیٰ ذِکْرِ اللّٰهِ وَ ذَرُوا الْبَیْعَ الی أن قال: فَإِذٰا قُضِیَتِ الصَّلاٰهُ فَانْتَشِرُوا فِی الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ (الجمعه۱۰/)،فبدل البیع بالابتغاء من فضل اللّه فهو هو،و لذلک فسرت السنه الابتغاء من الفضل فی هذه الآیه من البیع فدلت الآیه علی إباحه البیع اثناء الحج.

قوله تعالی: فَإِذٰا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفٰاتٍ فَاذْکُرُوا اللّٰهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرٰامِ ، الافاضه هی الصدور عن المکان جماعه فهی تدل علی وقوف عرفات کما تدل علی الوقوف بالمشعر الحرام،و هی المزدلفه.

قوله تعالی: وَ اذْکُرُوهُ کَمٰا هَدٰاکُمْ الخ؛أی و اذکروه ذکرا یماثل هدایته إیاکم و انکم کنتم من قبل هدایته إیاکم لمن الضالین.

قوله تعالی: ثُمَّ أَفِیضُوا مِنْ حَیْثُ أَفٰاضَ النّٰاسُ ،ظاهره إیجاب الافاضه علی

ما كان من دأب الناس و الحاق المخاطبين فى هذا الشأن بهم فينطبق على ما نقل ان قريشا و حلفائها و هم الحمس كانوا لا يقفون بعرفات بل بالمزدلفه و كانوا يقولون:نحن اهل حرم اللّه لا نفارق الحرم فأمرهم اللّه سبحانه بالافاضه من حيث افاض الناس و هو عرفات.

و على هذا فذكر هذا الحكم بعد قوله:فاذا أفضتم من عرفات،بثم الداله على التأخير اعتبار للترتيب الذكرى،و الكلام بمنزله الاستدراك،و المعنى ان أحكام الحج هى التى ذكرت غير انه يجب عليكم فى الافاضه ان تفيضوا من عرفات لا من المزدلفه،و ربما قيل:إن فى الآيتين تقديما و تأخيرا فى التأليف،و الترتيب:ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس،فاذا أفضتم من عرفات.

قوله تعالى: فَإِذٰا قَضَيْتُمْ مَنٰاسِكَكُمْ -الى قوله- ذِكْراً ،دعوه الى ذكر اللّه و البلاغ فيه بأن يذكره الناس كذكره آبائه و أشد منه لان نعمته فى حقه و هى نعمه الهدايه كما ذكره بقوله تعالى: وَ اذْكُرُوهُ كَمٰا هَدٰاكُمْ أعظم من حق آبائه عليه،و قد قيل:إن العرب كانت فى الجاهليه اذا فرغت من الحج مكثت حينا فى منى فكانوا يتفاخرون بالآباء بالنظم و النثر فبدله اللّه تعالى من ذكره كذكرهم أو أشد من ذكرهم،و أو فى قوله أو أشد ذكرا،للاضراب فتفيد معنى بل،و قد وصف الذكر بالشده و هو امر يقبل الشده فى الكيفيه كما يقبل الكثره فى الكميه، قال تعالى: اُذْكُرُوا اللّٰهَ ذِكْراً كَثِيراً (الأحزاب۴۱/)،و قال تعالى: وَ الذّٰاكِرِينَ اللّٰهَ كَثِيراً (الأحزاب۳۵/)،فإن الذكر بحسب الحقيقه ليس مقصورا فى اللفظ،بل هو امر يتعلق بالحضور القلبى و اللفظ حاك عنه،فيمكن ان يتصف بالكثره من حيث الموارد بأن يذكر اللّه سبحانه فى غالب الحالات كما قال تعالى: اَلَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ قِيٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِهِمْ (آل عمران۱۹۱/)،و ان يتصف بالشده فى مورد من الموارد،و لما كان المورد المستفاد من قوله تعالى: فَإِذٰا قَضَيْتُمْ مَنٰاسِكَكُمْ ،موردا يستوجب التلهى عنه تعالى و نسيانه كان الانسب توصيف الذكر الذى أمر به فيه بالشده دون الكثره كما هو ظاهر.

قوله تعالى: فَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِی الدُّنْیا الخ؛تفریع علی قوله تعالی: فَاذْکُرُوا اللّهَ کَذِکْرِکُمْ آباءَکُمْ ،و الناس مطلق،فالمراد به أفراد الانسان أعم من الکافر الذی لا یذکر إلاّ آبائه أی لا یبتغی إلاّ المفاخر الدنیویه و لا یطلب إلاّ الدنیا و لا شغل له بالآخره،و من المؤمن الذی لا یرید إلاّ ما عند اللّه سبحانه،و لو أراد من الدنیا شیئا لم یرد إلاّ ما یرتضیه له ربه،و علی هذا فالمراد بالقول و الدعاء ما هو سؤال بلسان الحال دون المقال، و یکون معنی الآیه أن من الناس من لا یرید إلاّ الدنیا و لا نصیب له فی الآخره و منهم من لا یرید إلاّ ما یرتضیه له ربه سواء فی الدنیا أو فی الآخره و لهؤلاء نصیب فی الآخره.

قوله تعالی: وَ اللّهُ سَرِیعُ الْحِسابِ ،اسم من أسماء اللّه الحسنی،و إطلاقه یدل علی شموله للدنیا و الآخره معا،فالحساب جار،کلما عمل عبد شیئا من الحسنات أو غیرها آتاه اللّه الجزاء جزاء وفاقا.

فالمحصل من معنی قوله: فَمِنَ النّاسِ مَنْ یَقُولُ ،الی آخر الآیات،أن اذکروا اللّه تعالی فإن الناس علی طائفتین:منهم من یرید الدنیا فلا یذکر غیرها و لا نصیب له فی الآخره،و منهم من یرید ما عند اللّه مما یرتضیه له و له نصیب من الآخره و اللّه سریع الحساب یسرع فی حساب ما یریده عبده فعطیه کما یرید،فکونوا من أهل النصیب بذکر اللّه و لا تکونوا ممن لا خلاق له بترکه ذکر ربه فتکونوا قانطین آیسین.

قوله تعالی: وَ اذْکُرُوا اللّهَ فِی أَیّامٍ مَعْدُوداتٍ ،الایام المعدودات هی ایام التشریق و هی الیوم الحادی عشر و الثانی عشر و الثالث عشر من ذی الحجه،و الدلیل علی ان هذه الایام بعد العشره من ذی الحجه ذکر الحکم بعد الفراغ عن ذکر أعمال الحج،و الدلیل علی کونها ثلاثه أیام قوله تعالی: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِی یَوْمَیْنِ ،الخ؛فإن التعجل فی یومین إنما یکون اذا کانت الایام ثلاثه،یوم ینفر فیه،و یومان یتعجل فیهما فهی ثلاثه،و قد فسرت فی الروایات بذلک أیضا.

قوله تعالی: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِی یَوْمَیْنِ فَلاٰ إِثْمَ عَلَیْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلاٰ إِثْمَ عَلَیْهِ لِمَنِ اتَّقیٰ ،لا نافیه للجنس فقوله: فَلاٰ إِثْمَ عَلَیْهِ فی الموضعین ینفی جنس الاثم عن الحاج و لم یقید بشیء أصلا،و لو کان المراد لا إثم علیه فی التعجل أو فی التأخر لکان من اللازم تقییده به،فالمعنی أن من اتم عمل الحج فهو مغفور لا ذنب له سواء تعجل فی یومین أو تأخر،و من هنا یظهر:ان الآیه لیست فی مقام بیان التخییر بین التأخر و التعجل للناسک،بل المراد بیان کون الذنوب مغفوره للناسک علی أی حال.

و اما قوله: لِمَنِ اتَّقیٰ ،فلیس بیانا للتعجل و التأخر و إلاّ لکان حق الکلام ان یقال:علی من اتقی،بل الظاهر ان قوله: لِمَنِ اتَّقیٰ نظیر قوله تعالی: ذٰلِکَ لِمَنْ لَمْ یَکُنْ أَهْلُهُ حٰاضِرِی الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ ،الآیه،و المراد ان هذا الحکم لم اتقی و اما من لم یتق فلیس له،من اللازم ان یکون هذه التقوی تقوی مما نهی اللّه سبحانه عنه فی الحج و اختصه به فیئول المعنی ان الحکم إنما هو لمن اتقی تروک الاحرام أو بعضها أما من لم یتق فیجب ان یقیم بمنی و یذکر اللّه فی ایام معدودات،و قد ورد هذا المعنی فی بعض ما روی عن أئمه اهل البیت کما سیجیء إنشاء اللّه.

قوله تعالی: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّکُمْ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ ،امر بالتقوی فی خاتمه الکلام و تذکیر بالحشر و البعث فإن التقوی لا تتم و المعصیه لا تجتنب إلاّ مع ذکر یوم الجزاء، قال تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یَضِلُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ بِمٰا نَسُوا یَوْمَ الْحِسٰابِ (ص/ ۲۶).

و فی اختیار لفظ الحشر فی قوله تعالی: أَنَّکُمْ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ ،مع ما فی نسک الحج من حشر الناس و جمعهم لطف ظاهر،و إشعار بأن الناسک ینبغی ان یذکر بهذا الجمع و الافاضه یوما یحشر اللّه سبحانه الناس لا یغادر منهم أحدا (۱).

۱- ۱) .البقره ۱۹۶-۲۰۳:بحث روائی فی الحج و العمره؛متعه الحج.

[سوره البقره (۲): الآیات ۲۰۴ الی ۲۰۷]

اشاره

وَ مِنَ اَلنّاسِ مَنْ یُعْجِبُکَ قَوْلُهُ فِی اَلْحَیاهِ اَلدُّنْیا وَ یُشْهِدُ اَللّهَ عَلی ما فِی قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ اَلْخِصامِ (۲۰۴) وَ إِذا تَوَلّی سَعی فِی اَلْأَرْضِ لِیُفْسِدَ فِیها وَ یُهْلِکَ اَلْحَرْثَ وَ اَلنَّسْلَ وَ اَللّهُ لا یُحِبُّ اَلْفَسادَ (۲۰۵) وَ إِذا قِیلَ لَهُ اِتَّقِ اَللّهَ أَخَذَتْهُ اَلْعِزَّهُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ اَلْمِهادُ (۲۰۶) وَ مِنَ اَلنّاسِ مَنْ یَشْرِی نَفْسَهُ اِبْتِغاءَ مَرْضاتِ اَللّهِ وَ اَللّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (۲۰۷)

بیان:

قوله تعالی: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یُعْجِبُکَ قَوْلُهُ فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا الخ؛اعجبه الشیء ای راقه و سره،و قوله: فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا ،متعلق بقوله: یُعْجِبُکَ ،ای ان الاعجاب فی الدنیا من جهه ان هذه الحیاه نوع حیاه لا تحکم الا علی الظاهر،و اما الباطن و السریره فتحت الستر و وراء الحجاب،لا یشاهده الانسان و هو متعلق الحیاه بالدنیا الا ان یستکشف شیئا من امر الباطن من طریق الآثار و یناسبه ما یتلوه:من قوله تعالی: وَ یُشْهِدُ اللّهَ عَلی ما فِی قَلْبِهِ ، و المعنی انه یتکلم بما یعجبک کلامه،من ما یشیر به الی رعایه جانب الحق،و العنایه بصلاح الخلق،و تقدم الدین و الامه و هو اشد الخصماء للحق خصومه،و قوله: أَلَدُّ ،افعل من لد لدودا اذا اشتد خصومه،و الخصام جمع خصم کصعب و صعاب و کعب و کعاب،و قیل:الخصام مصدر،و معنی ألد الخصام اشد خصومه.

ص: ۲۵۱

قوله تعالى: وَ إِذٰا تَوَلّٰى سَعىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهٰا الخ؛التولى هو تملك الولايه و السلطان،و يؤيده قوله تعالى فى الآيه التاليه:أخذته العزه بالإثم،الدال على ان له عزه مكتسبه بالاثم الذى يأثم به قلبه غير الموافق للسانه،و السعى هو العمل و الاسراع فى المشى،فالمعنى و اذا تمكن هذا المنافق الشديد الخصومه من العمل و أوتى سلطانا و تولى امر الناس سعى فى الارض ليفسد فيها،و يمكن ان يكون التولى بمعنى الاعراض عن المخاطبه و المواجبه،اى اذا خرج من عندك كانت غيبه مخالفه لحضوره،و تبدل ما كان يظهره من طلب الصلاح و الخير الى السعى فى الأرض لاجل الفساد و الافساد.

قوله تعالى: وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ ،ظاهره انه بيان لقوله تعالى: لِيُفْسِدَ فِيهٰا اى يفسد فيها بإهلاك الحرث و النسل،و لما كان قوام النوع الانسانى من حيث الحياه و البقاء بالتغذى و التوليد فهما الركنان القويمان اللذان لا غناء عنهما للنوع فى حال:اما التوليد فظاهر،و اما التغذى فانما يركن الانسان فيه الى الحيوان و النبات،و الحيوان يركن الى النبات،فالنبات هو الأصل و يستحفظ بالحرث و هو تربيه النبات،فلذلك علق الفساد على الحرث و النسل فالمعنى انه يفسد فى الارض بإفناء الانسان و اباده هذا النوع بإهلاك الحرث و النسل.

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ الْفَسٰادَ ،المراد بالفساد ليس ما هو فساد فى الكون و الوجود(الفساد التكوينى)فإن النشأه نشأه الكون و الفساد،و عالم التنازع فى البقاء و لا كون إلاّ بفساد،و لا حياه إلاّ بموت،و هما متعانقان فى هذا الوجود الطبيعى فى النشأه الطبيعيه، و حاشا ان يبغض اللّه سبحانه ما هو مقدره و قاضيه.

و انما هو الفساد المتعلق بالتشريع فإن اللّه انما شرّع ما شرّعه من الدين ليصلح به اعمال عباده فيصلح اخلاقهم و ملكات نفوسهم فيعتدل بذلك حال الانسانيه و الجامعه البشريه، و عند ذلك تسعد حياتهم فى الدنيا و حياتهم فى الآخره على ما سيجىء بيانه فى قوله تعالى:

كَانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً .

فهذا الذى يخالف ظاهر قوله باطن قلبه اذا سعى فى الارض بالفساد فإنما يفسد بما ظاهره الاصلاح بتحريف الكلمه عن موضعها،و تغيير حكم اللّه عما هو عليه،و التصرف فى التثاليف الدينيه،بما يؤدى الى فساد الاخلاق و اختلاف الكلمه،و فى ذلك موت الدين،و فناء الانسانيه،و فساد الدنيا،و قد صدق هذه الآيات ما جرى عليه التاريخ من ولايه رجال و ركوبهم اكتاف هذه الامه الاسلاميه،و تصرفهم فى امر الدين و الدنيا بما لم يستعقب للدين الا وبالا،و للمسلمين الا انحطاط،و للامه الا اختلافا،فلم يلبث الدين حتى صار لعبه لكل لاعب،و لا الانسانيه الا خطفه لكل خاطف،فنتيجه هذا السعى فساد الارض،و ذلك بهلاك الدين اولا،و هلاك الانسانيه ثانيا،و لهذا فسر قوله و يهلك الحرث و النسل فى بعض الروايات بهلاك الدين و الانسانيه كما يأتى إن شاء اللّه.

قوله تعالى: وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ ،العزه معروفه،و المهاد الوطاء،و الظاهر ان قوله: بِالْإِثْمِ متعلق بالعزه، و المعنى انه اذا أمر بتقوى اللّه اخذته العزه الظاهره التى اكتسبها بالاثم و النفاق المستبطن فى نفسه،و ذلك ان العزه المطلقه انما هى من اللّه سبحانه كما قال تعالى: تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ (آل عمران/۲۶)،و قال تعالى: وَ لِلّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقين/۸)، و قال تعالى: أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً (النساء/۱۳۹).

و حاشا ان ينسب تعالى شيئا الى نفسه و يختصه بإعطائه ثم يستعقب اثما أو شرا فهذه العزه انما هى عزه يحسبها الجاهل بحقيقه الامر عزه بحسب ظاهر الحياه الدنيا لا عزه حقيقيه اعطاها اللّه سبحانه لصاحبها.

و اما قوله تعالى: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ (ص/۲)،فليس من قبيل التسميه و الامضاء لكون العزه نكره مع

تعقیب الآیه بقوله: کَمْ أَهْلَکْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ ،الخ؛فهی هناک عزه صوریه غیر باقیه و لا أصیله.

قوله تعالی: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ یَشْرِی نَفْسَهُ ابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِ اللّٰهِ الخ؛مقابلته مع قوله تعالی: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ یُعْجِبُکَ قَوْلُهُ ،الخ؛یفید ان الوصف مقابل الوصف أی کما ان المراد من قوله: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ یُعْجِبُکَ ،بیان ان هناک رجلا معتزا بإثمه معجبا بنفسه متظاهرا بالاصلاح مضمرا للنفاق لا یعود منه الی حال الدین و الانسانیه الا الفساد و الهلاک کذلک المراد من قوله: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ یَشْرِی نَفْسَهُ ،الخ؛بیان ان هناک رجلا آخر باع نفسه من اللّٰه سبحانه لا یرید الا ما اراده اللّٰه تعالی لا هوی له فی نفسه و لا اعتزاز له الا بربه و لا ابتغاء له الا لمرضات اللّٰه تعالی،فیصلح به امر الدین و الدنیا،و یحیی به الحق،و یطیب به عیش الانسانیه، و یدر به ضرع الاسلام،و بذلک یظهر ارتباط الذیل بالصدر أعنی قوله تعالی: وَ اللّٰهُ رَؤُفٌ بِالْعِبٰادِ ،بما قبله،فإن وجود إنسان هذه صفته من رأفه اللّٰه سبحانه بعباده اذ لو لا رجال هذه صفاتهم بین الناس فی مقابل رجال آخرین صفتهم ما ذکر من النفاق و الافساد لانهدمت أرکان الدین،و لم تستقر من بناء الصلاح و الرشاد لبنه علی لبنه،لکن اللّٰه سبحانه لا یزال یزهق ذاک الباطل بهذا الحق و یتدارک إفساد أعدائه بإصلاح أولیائه کما قال تعالی: وَ لَوْ لاٰ دَفْعُ اللّٰهِ النّٰاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ (البقره۲۵۱/)،و قال تعالی: وَ لَوْ لاٰ دَفْعُ اللّٰهِ النّٰاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوٰامِعُ وَ بِیَعٌ وَ صَلَوٰاتٌ وَ مَسٰاجِدُ یُذْکَرُ فِیهَا اسْمُ اللّٰهِ کَثِیراً (الحج۴۰/)،و قال تعالی: فَإِنْ یَکْفُرْ بِهٰا هٰؤُلاٰءِ فَقَدْ وَکَّلْنٰا بِهٰا قَوْماً لَیْسُوا بِهٰا بِکٰافِرِینَ (الانعام۸۹/)،فالفساد الطاری علی الدین و الدنیا من قبل عده ممن لا هوی له إلاّ فی نفسه لا یمکن سد ثلمته إلاّ بالصلاح الفائض من قبل آخرین ممن باع نفسه من اللّٰه سبحانه،و لا هوی له إلاّ من ربه،و إصلاح الارض و من علیها،و قد ذکر هذه المعامله الرابیه عند اللّٰه بقوله تعالی:

إِنَّ اللّٰهَ اشْتَریٰ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّهَ یُقٰاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ فَیَقْتُلُونَ وَ یُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَیْهِ حَقًّا فِی التَّوْرٰاهِ وَ الْإِنْجِیلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفیٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللّٰهِ فَاسْتَبْشِرُوا

بِبَيْعِكَمُ الَّذِي بٰايَعْتُمْ بِهِ (التوبه١١١/)،الی غیر ذلک من الآیات.

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٠٨ الى ٢١٠]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اُدْخُلُوا فِي اَلسِّلْمِ كَافَّةً وَ لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُوٰاتِ اَلشَّيْطٰانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْكُمُ اَلْبَيِّنٰاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اَللّٰهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ اَلْغَمٰامِ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ وَ قُضِيَ اَلْأَمْرُ وَ إِلَى اَللّٰهِ تُرْجَعُ اَلْأُمُورُ (٢١٠)

بیان:

قوله تعالی: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ،السلم و الاسلام و التسلیم واحده،و کافه کلمه تأکید بمعنی جمیعا،و لما کان الخطاب للمؤمنین و قد أمروا بالدخول فی السلم کافه،فهو امر متعلق بالمجموع و بکل واحد من اجزائه،فیجب ذلک علی کل مؤمن،و یجب علی الجمیع ایضا ان لا یختلفوا فی ذلک و یسلموا الامر للّه و لرسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و ایضا الخطاب للمؤمنین خاصه فالسلم المدعو الیه هو التسلیم للّه سبحانه بعد الایمان به فیجب علی المؤمنین ان یسلموا الامر الیه،و لا یذعنوا لانفسهم صلاحا باستبداد من الرأی، و لا یضعوا لانفسهم من عند انفسهم طریقا یسلکونه من دون ان یبینه اللّه و رسوله،فما هلک قوم إلّا باتباع الهوی و القول بغیر العلم،و لم یسلب حق الحیاه و سعاده الجد عن قوم إلّا عن اختلاف.

قوله تعالی: فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْكُمُ الْبَيِّنٰاتُ ،الزله هی العثره،

ص: ٢٥٥

و المعنی فإن لم تدخلوا فی السلم کافه و زللتم-و الزله هی اتباع خطوات الشیطان-فاعلموا ان اللّه عزیز غیر مغلوب فی امره،حکیم لا یتعدی عما تقتضیه حکمته من القضاء فی شأنکم فیقضی فیکم ما تقتضیه حکمته،و یجریه فیکم من غیر ان یمنع عنه مانع.

قوله تعالی: هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ یَأْتِیَهُمُ اللّهُ فِی ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ الخ؛الظلل جمع ظله و هی ما یستظل به،و ظاهر الآیه ان الملائکه عطف علی لفظ الجلاله،و فی الآیه التفات من الخطاب الی الغیبه و تبدیل خطابهم بخطاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالاعراض عن مخاطبتهم بأن هؤلاء حالهم حال من ینتظر ما اوعدناهم به من القضاء علی طبق ما یختارونه من اتباع خطوات الشیطان و الاختلاف و التمزق،و ذلک بأن یأتیهم اللّه فی ظلل من الغمام و الملائکه،و یقضی الامر حیث لا یشعرون،او بحیث لا یعبأ بهم و بما یقعون فیه من الهلاک، و الی اللّه ترجع الامور،فلا مفر من حکمه و قضائه،فالسیاق یقتضی ان یکون قوله: هَلْ یَنْظُرُونَ ،هو الوعید الذی اوعدهم به فی قوله تعالی فی الآیه السابقه فاعلموا ان اللّه عزیز حکیم.

ثم إن من الضروری الثابت بالضروره من الکتاب و السنه ان اللّه سبحانه و تعالی لا یوصف بصفه الاجسام،و لا ینعت بنعوت الممکنات مما یقضی بالحدوث،و یلازم الفقر و الحاجه و النقص،فقد قال تعالی: لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیْءٌ (الشوری۱۱/)،و قال تعالی: وَ اللّهُ هُوَ الْغَنِیُّ (فاطر۱۵/)،و قال تعالی: اَللّهُ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ (الزمر۶۲/)،الی غیر ذلک من الآیات،و هی آیات محکمات ترجع إلیها متشابهات القرآن،فما ورد من الآیات و ظاهرها إسناد شیء من الصفات او الافعال الحادثه الیه تعالی ینبغی ان یرجع إلیها،و یفهم منها معنی من المعانی لا ینافی صفاته العلیا و اسمائه الحسنی تبارک و تعالی،فالآیات المشتمله علی نسبه المجیء او الاتیان الیه تعالی کقوله تعالی: وَ جاءَ رَبُّکَ وَ الْمَلَکُ صَفًّا صَفًّا (الفجر۲۲/)، و قوله تعالی: فَأَتاهُمُ اللّهُ مِنْ حَیْثُ لَمْ یَحْتَسِبُوا (الحشر۲/)،و قوله تعالی: فَأَتَی اللّهُ

بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ (النحل/۲۶)،کل ذلک یراد فیها معنی یلائم ساحه قدسه تقدست اسمائه کالإحاطه و نحوها و لو مجازا،و علی هذا فالمراد بالإتیان فی قوله تعالی: أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللّهُ الإحاطه بهم للقضاء فی حقهم.

علی أنا نجده سبحانه و تعالی فی موارد من کلامه اذا سلب نسبه من النسب و فعلا من الأفعال عن استقلال الاسباب و وساطه الاوساط فربما نسبها الی نفسه و ربما نسبها الی امره کقوله تعالی: اَللّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ (الزمر/۴۲)،و قوله تعالی: يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ (السجده/۱۱)،و قوله تعالی: تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا (الأنعام/۶۱)،فنسب التوفی تاره الی نفسه،و تاره الی الملائکه ثم قال تعالی فی أمر الملائکه: بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبیاء/۲۷)، و کذلک قوله تعالی: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ (یونس/۹۳)،و قوله تعالی: فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ (المؤمن/۷۸)،و کما فی هذه الآیه:ان یأتیهم اللّه فی ظلل من الغمام،الآیه،و قوله تعالی: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ (النحل/۳۳).

و هذا یوجب صحه تقدیر الأمر فی موارد علی نسبه تشتمل أمور الیه لا تلائم کبریاء ذاته تعالی نظیر:جاء ربک،و یأتیهم اللّه،فالتقدیر جاء أمر ربک و یأتیهم أمر اللّه.

فهذا هو الذی یوجبه البحث الساذج فی معنی هذه النسب علی ما یراه جمهور المفسرین لکن التدبر فی کلامه تعالی یعطی لهذه النسب معنی أرق و ألطف من ذلک،و ذلک أن أمثال قوله تعالی: وَ اللّهُ هُوَ الْغَنِيُّ (فاطر/۱۵)،و قوله تعالی: اَلْعَزِيزِ الْوَهّابِ (ص/۹)،و قوله تعالی: أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (طه/۵۰)،تفید أنه تعالی واجد لما یعطیه من الخلقه و شئونها و أطوارها،ملیء بما یهبه و یجود به و ان کانت أفهامنا من جهه اعتیادها بالماده و أحکامها الجسمانیه یصعب علیها تصور کیفیه اتصافه تعالی ببعض ما یفیض علی خلقه من الصفات و نسبته الیه تعالی،لکن هذه المعانی اذا جردت عن قیود الماده و اوصاف الحدثان لم یکن فی نسبته الیه تعالی محذور فالنقص و الحاجه هو الملاک فی سلب معنی من المعانی عنه

تعالی،فاذا لم یصاحب المعنی نقصا و حاجه لتجریده عنه صح اسناده الیه تعالی بل وجب ذلک لأن کل ما یقع علیه اسم شیء فهو منه تعالی بوجه علی ما یلیق بکبریائه و عظمته.

فالمجیء و الإتیان الذی هو عندنا قطع الجسم مسافه بینه و بین جسم آخر بالحرکه و اقترابه منه اذا جرّد عن خصوصیه الماده کان هو حصول القرب،و ارتفاع المانع و الحاجز بین شیئین من جهه من الجهات،و حینئذ صح إسناده الیه تعالی حقیقه من غیر مجاز:فإتیانه تعالی الیهم ارتفاع الموانع بینهم و بین قضائه فیهم،و هذه من الحقائق القرآنیه التی لم یوفق الابحاث البرهانیه لنیله إلاّ بعد إمعان فی السیر،و رکوبها کل سهل و وعر،و إثبات التشکیک فی الحقیقه الوجودیه الاصیله.

و کیف کان فهذه الآیه تتضمن الوعید الذی ینبئ عنه قوله سبحانه فی الآیه السابقه:إن اللّه عزیز حکیم،و من الممکن أن یکون وعیدا بما سیستقبل القوم فی الآخره یوم القیامه کما هو ظاهر قوله تعالی فی نظیر الآیه: هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ تَأْتِیَهُمُ الْمَلائِکَهُ أَوْ یَأْتِیَ أَمْرُ رَبِّکَ (النحل/۳۳)،و من الممکن أن یکون وعیدا بأمر متوقع الحصول فی الدنیا کما یظهر بالرجوع الی ما فی سوره یونس بعد قوله تعالی: وَ لِکُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ (یونس/۴۷)،و ما فی سوره الروم بعد قوله تعالی: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً (الروم/۳۰)،و ما فی سوره الانبیاء و غیرها علی أن الآخره آجله هذه العاجله و ظهور تام لما فی هذه الدنیا،و من الممکن أیضا أن یکون وعیدا بما سیقع فی الدنیا و الآخره معا،و کیف کان فقوله فی ظلل من الغمام یشتمل من المعنی علی ما یناسب مورده.

قوله تعالی: وَ قُضِیَ الْأَمْرُ وَ إِلَی اللّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ،السکوت عن ذکر فاعل القضاء،و هو اللّه سبحانه کما یدل علیه قوله: وَ إِلَی اللّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ،لإظهار الکبریاء علی ما

یفعله الاعاظم فی الإخبار عن وقوع احکامهم و صدور أوامرهم و هو کثیر فی القرآن (۱).

[سوره البقره (۲): الآیات ۲۱۱ الی ۲۱۲]

اشاره

سَلْ بَنِی إِسْرائِیلَ کَمْ آتَیْناهُمْ مِنْ آیَهٍ بَیِّنَهٍ وَ مَنْ یُبَدِّلْ نِعْمَهَ اَللّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اَللّهَ شَدِیدُ اَلْعِقابِ (۲۱۱) زُیِّنَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا اَلْحَیاهُ اَلدُّنْیا وَ یَسْخَرُونَ مِنَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ اَلَّذِینَ اِتَّقَوْا فَوْقَهُمْ یَوْمَ اَلْقِیامَهِ وَ اَللّهُ یَرْزُقُ مَنْ یَشاءُ بِغَیْرِ حِسابٍ (۲۱۲)

بیان:

قوله تعالی: سَلْ بَنِی إِسْرائِیلَ کَمْ آتَیْناهُمْ مِنْ آیَهٍ الخ؛تثبیت و تأیید اشتمل علیه قوله تعالی: فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْکُمُ الْبَیِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ ،الآیه من الوعید بأخذ المخالفین اخذ عزیز مقتدر.

یقول:هذه بنو إسرائیل فی مرآکم و منظرکم و هی الامه التی آتاهم اللّه الکتاب و الحکم و النبوه و الملک،و رزقهم من الطیبات،و فضّلهم علی العالمین،سلهم کم آتیناهم من آیه بیّنه؟و انظر فی امرهم من این بدئوا و إلی این کان مصیرهم؟حرّفوا الکلم عن مواضعه، و وضعوا فی قبال اللّه و کتابه و آیاته أمورا من عند انفسهم بغیا بعد العلم،فعاقبهم اللّه أشد العقاب بما حل فیهم من اتخاذ الانداد،و الاختلاف و تشتت الآراء،و أکل بعضهم بعضا، و ذهاب السودد،و فناء السعاده،و عذاب الذله و المسکنه فی الدنیا،و لعذاب الآخره اخزی و هم لا ینصرون.

۱- ۱) .البقره ۲۰۸-۲۱۰:بحث روائی فی الرجعه.

و هذه هی السنه الجاریه من اللّه سبحانه:من یبدل نعمه و اخرجها الی غیر مجراها فإن اللّه یعاقبه،و اللّه شدید العقاب،و علی هذا فقوله: وَ مَنْ یُبَدِّلْ نِعْمَهَ اللّهِ الی قوله اَلْعِقٰابِ من قبیل وضع الکلی موضع الجزئی للدلاله علی الحکم،سنه جاریه.

قوله تعالی: زُیِّنَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا الْحَیٰاهُ الدُّنْیٰا ،فی موضوع التعلیل،و إن الملاک فی ذلک تزین الحیاه الدنیا لهم فانها اذا زینت لانسان دعته الی هوی النفس و شهواتها،و أنس کل حق و حقیقه،فلا یرید الانسان إلاّ نیلها:من جاه و مقام و مال و زینه،فلا یلبث دون ان یستخدم کل شیء لاجلها و فی سبیلها،و من ذلک الدین فیأخذ الدین وسیله یتوسل بها الی التمیزات و التعینات،فینقلب الدین الی تمیز الزعماء و الرؤساء و ما یلائم سوددهم و رئاستهم، و تقرب التبعه و المقلده المرءوسین و ما یجلب به تماثل رؤسائهم و ساداتهم کما نشاهده فی أمتنا الیوم،و کنا شاهدناه فی بنی اسرائیل من قبل،و ظاهر الکفر فی القرآن هو الستر أعم من ان یکون کفرا اصطلاحیا أو کفرا مطلقا فی مقابل الایمان المطلق فتزین الحیاه الدنیا لا یختص بالکفار اصطلاحا بل کل من ستر حقیقه من الحقائق الدینیه،و غیّر نعمه دینیه فهو کافر زینت له الحیاه الدنیا فلیتهیأ لشدید العقاب.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ الخ؛تبدیل الایمان بالتقوی فی هذه الجمله لکون الایمان لا ینفع وحده لو لا العمل.

[سوره البقره (۲): آیه ۲۱۳]

اشاره

کٰانَ اَلنّٰاسُ أُمَّهً وٰاحِدَهً فَبَعَثَ اَللّٰهُ اَلنَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ اَلْکِتٰابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ اَلنّٰاسِ فِیمَا اِخْتَلَفُوا فِیهِ وَ مَا اِخْتَلَفَ فِیهِ إِلاَّ اَلَّذِینَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ اَلْبَیِّنٰاتُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ فَهَدَی اَللّٰهُ اَلَّذِینَ آمَنُوا لِمَا اِخْتَلَفُوا فِیهِ مِنَ اَلْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اَللّٰهُ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۲۱۳)

بیان:

الآیه تبیّن السبب فی تشریع أصل الدین و تکلیف النوع الانسانی به،و سبب وقوع الاختلاف فیه ببیان:ان الانسان-و هو نوع مفطور علی الاجتماع و التعاون-کان فی أول اجتماعه امه واحده،ثم ظهر فیه بحسب الفطره الاختلاف فی اقتناء المزایا الحیویه،فاستدعی ذلک وضع قوانین ترفع الاختلافات الطارئه،و المشاجرات فی لوازم الحیاه فألبست القوانین الموضوعه لباس الدین،و شفّعت بالتبشیر و الانذار:بالثواب و العقاب،و أصلحت بالعبادات المندوبه إلیها ببعث النبیین،و إرسال المرسلین،ثم اختلفوا فی معارف الدین أو أمور المبدإ و المعاد،فاختل بذلک أمر الوحده الدینیه،و ظهرت الشعوب و الاحزاب،و تبع ذلک الاختلاف فی غیره،و لم یکن هذا الاختلاف الثانی إلاّ بغیا من الذین أوتوا الکتاب،و ظلما و عتوا منهم بعد ما تبیّن لهم أصوله و معارفه،و تمت علیهم الحجه،فالاختلاف اختلافان:

اختلاف فی أمر الدین مستند الی بغی الباغین دون فطرتهم و غریزتهم،و اختلاف فی أمر الدنیا و هو فطری و سبب لتشریع الدین،ثم هدی اللّه سبحانه المؤمنین الی الحق المختلف فیه بإذنه، و اللّه یهدی من یشاء الی صراط مستقیم.

فالدین الالهی هو السبب الوحید لسعاده هذا النوع الانسانی،و المصلح لامر حیاته، یصلح الفطره بالفطره و یعدل قواها المختلفه عند طغیانها،و ینظّم للانسان سلک حیاته الدنیویه و الاخرویه،و المادیه و المعنویه،فهذا إجمال تاریخ حیاه هذا النوع(الحیاه الاجتماعیه و الدینیه)علی ما تعطیه هذه الآیه الشریفه.

ص:۲۶۱

و قد اکتفت فی تفصیل ذلک بما تفیده متفرقات الآیات القرآنیه النازله فی شئون مختلفه (۱).

قوله تعالی: کَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ،الناس معروف و هو الافراد المجتمعون من الانسان،و الامه هی الجماعه من الناس،و ربما یطلق علی الواحد کما فی قوله تعالی: إِنَّ إِبْرَاهِیمَ کَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّٰهِ (النحل ۱۲۰/)،و ربما یطلق علی زمان معتد به کقوله تعالی:

وَ ادَّکَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ (یوسف۴۵/)،أی بعد سنین و قوله تعالی: وَ لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلیٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ (هود۸/)،و ربما یطلق علی المله و الدین کما قال بعضهم فی قوله تعالی:

إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّکُمْ فَاتَّقُونِ (المؤمنون۵۲/)،و فی قوله تعالی: إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّکُمْ فَاعْبُدُونِ (الأنبیاء۹۲/)،و أصل الکلمه من أم یأم اذا قصد فأطلق لذلک علی الجماعه لکن لا علی کل جماعه،بل علی جماعه کانت ذات مقصد واحد و بغیه واحده هی رابطه الوحده بینها،و هو المصحح لاطلاقها علی الواحد و علی سائر معانیها اذا أطلقت.

و کیف کان فظاهر الآیه یدل علی أن هذا النوع قد مر علیهم فی حیاتهم زمان کانوا علی الاتحاد و الاتفاق،و علی السذاجه و البساطه،لا اختلاف بینهم بالمشاجره و المدافعه فی أمور الحیاه،و لا اختلاف فی المذاهب و الآراء،و الدلیل علی نفی الاختلاف قوله تعالی:

فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتَابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ النَّاسِ فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ فقد رتب بعثه الانبیاء و حکم الکتاب فی مورد الاختلاف علی کونهم أمه واحده فالاختلاف فی أمور الحیاه ناش بعد الاتحاد و الوحده،و الدلیل علی نفی الاختلاف الثانی قوله تعالی: وَ مَا اخْتَلَفَ فِیهِ إِلاَّ الَّذِینَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَیِّنَاتُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ ،فالاختلاف فی الدین إنما نشأ من قبل حمله الکتاب بعد

۱- ۱) .البقره ۲۱۳:بحث فی بدء تکوین الانسان؛ترکبه من روح و بدن؛شعوره الحقیقی و ارتباطه بالاشیاء؛علومه العملیه؛جریه علی استخدام غیره انتفاعا؛کونه مدنیا بالطبع؛حدوث الاختلاف بین افراد الانسان؛رفع الاختلاف بالدین؛الاختلاف فی نفس الدین،الانسان بعد الدنیا.

إنزاله بالبغی.

قوله تعالی: فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ الخ؛عبر تعالی بالبعث دون الارسال و ما فی معناه لان هذه الوحده المخبر عنها من حال الانسان الأولی حال خمود و سکوت،و هو یناسب البعث الذی هو الاقامه عن نوم أو قطون و نحو ذلک،و هذه النکته لعلها هی الموجبه للتعبیر عن هؤلاء المبعوثین بالنبیین دون ان یعبر بالمرسلین أو الرسل،علی ان البعث و انزال الکتاب کما تقدم بیانه حقیقتهما بیان الحق للناس و تنبیههم بحقیقه أمر وجودهم و حیاتهم،و إنبائهم انهم مخلوقون لربهم،و هو اللّه الذی لا إله إلاّ هو،و أنهم سالکون کادحون الی اللّه مبعوثون لیوم عظیم،واقفون فی منزل من منازل السیر،لا حقیقه له إلاّ اللعب و الغرور،فیجب ان یراعوا ذلک فی هذه الحیاه و أفعالها،و ان یجعلوا نصب اعینهم انهم من أین، و فی أین،و إلی این،و هذا المعنی أنسب بلفظ النبی الذی معناه:من استقر عنده النبأ دون الرسول،و لذلک عبر بالنبیین،و فی اسناد بعث النبیین الی اللّه سبحانه دلاله علی عصمه الانبیاء فی تلقیهم الوحی و تبلیغهم الرساله الی الناس و سیجیء زیاده توضیح لهذا فی آخر البیان،و أما التبشیر و الانذار أی الوعد برحمه اللّه من رضوانه و الجنه لمن آمن و اتقی،و الوعید لعذاب اللّه سبحانه من سخطه و النار لمن کذب و عصی فهما امس مراتب الدعوه بحال الانسان المتوسط الحال،و إن کان بعض الصالحین من عباده و أولیائه لا تتعلق نفوسهم بغیر ربهم من ثواب أو عقاب.

قوله تعالی: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ النّٰاسِ فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ ،الکتاب فعال بمعنی المکتوب،و الکتاب بحسب المتعارف من اطلاقه و ان استلزم کتابه بالقلم لکن لکون العهود و الفرامین المفترضه انما یبرم بالکتابه غالبا شاع اطلاقه علی کل حکم مفروض واجب الاتباع أو کل بیان بل کل معنی لا یقبل النقض فی إبرامه،و قد کثر استعماله بهذا المعنی فی القرآن،و بهذا المعنی سمی القرآن کتابا و هو کلام الهی،قال تعالی:

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ (ص۲۹/)،و قال تعالى: إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً (النساء۱۰۳/)،و فى قوله تعالى فيما اختلفوا فيه،دلاله على ان المعنى:كان الناس امه واحده فاختلفوا فبعث اللّه،الخ؛كما مر.

و اللام فى الكتاب اما للجنس و اما للعهد الذهنى و المراد به كتاب نوح عليه السّلام لقوله تعالى:

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى (الشورى۱۳/)،فإن الآيه فى مقام الامتنان و تبين ان الشريعه النازله على هذه الامه جامعه لمتفرقات جميع الشرائع السابقه النازله على الانبياء السالفين مع ما يختص بوحيه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فالشريعه مختصه بهؤلاء الانبياء العظام:نوح و ابراهيم و موسى و عيسى و محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لما كان قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ،الآيه يدل على ان الشرع إنما كان بالكتاب دلت الآيتان بالانضمام:

أولا:على ان لنوح عليه السّلام كتابا متضمنا لشريعه،و انه المراد بقوله تعالى: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ،إما وحده أو مع غيره من الكتب بناء على كون اللام للعهد أو الجنس.

و ثانيا:ان كتاب نوح أول كتاب سماوى متضمن للشريعه،اذ لو كان قبله كتاب لكان قبله شريعه حاكمه و لذكرها اللّه تعالى فى قوله: شَرَعَ لَكُمْ ،الآيه.

و ثالثا:ان هذا العهد الذى يشير تعالى اليه بقوله: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ،الآيه؛كان قبل بعثه نوح عليه السّلام و قد حكم فيه كتابه عليه السّلام.

قوله تعالى: وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ،قد مر أن المراد به الاختلاف الواقع فى نفس الدين من حملته،و حيث كان الدين من الفطره كما يدل عليه قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِى فَطَرَ

اَلنّاسَ عَلَیْها (الروم۳۰/)،نسب اللّه سبحانه الاختلاف الواقع فیه الی البغی.

و فی قوله تعالی: إِلَّا الَّذِینَ أُوتُوهُ ،دلاله علی ان المراد بالجمله هو الإشاره الی الاصل فی ظهور الاختلاف الدینی فی الکتاب لا أن کل من انحرف عن الصراط المستقیم أو تدین بغیر الدین یکون باغیا و إن کان ضالا عن الصراط السوی،فإن اللّه سبحانه لا یعذر الباغی،و قد عذر من اشتبه علیه الامر و لم یجد حیله و لم یهتد سبیلا،قال تعالی: إِنَّمَا السَّبِیلُ عَلَی الَّذِینَ یَظْلِمُونَ النّاسَ وَ یَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ أُولٰئِکَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (الشوری۴۲/)، و قال تعالی: وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَ آخَرَ سَیِّئاً عَسَی اللّهُ أَنْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ -الی أن قال-: وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمّا یُعَذِّبُهُمْ وَ إِمّا یَتُوبُ عَلَیْهِمْ وَ اللّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (التوبه۱۰۶/)،و قال تعالی: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا یَسْتَطِیعُونَ حِیلَةً وَ لا یَهْتَدُونَ سَبِیلاً فَأُولٰئِکَ عَسَی اللّهُ أَنْ یَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ کانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُوراً (النساء۹۹/).

علی أن الفطره لا- تنافی الغفله و الشبهه،و لکن تنافی التعمد و البغی،و لذلک خص البغی بالعلماء و من استبانت له الآیات الإلهیه،قال تعالی: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا أُولٰئِکَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ (البقره۳۹/)،و الآیات فی هذا المعنی کثیره،و قد قید الکفر فی جمیعها بتکذیب آیات اللّه ثم أوقع علیه الوعید،و بالجمله فالمراد بالآیه أن هذا الاختلاف ینتهی الی بغی حمله الکتاب من بعد علم.

قوله تعالی: فَهَدَی اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ مِنَ الْحَقِّ ،بیان لما اختلف فیه و هو الحق الذی کان الکتاب نزل بمصاحبته،کما دل علیه قوله تعالی: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتابَ بِالْحَقِّ ،و عند ذلک عنت الهدایه الإلهیه بشأن الاختلافین معا:الاختلاف فی شأن الحیاه،و الاختلاف فی الحق و المعارف الإلهیه الذی کان عامله الاصلی بغی حمله الکتاب،و فی تقیید الهدایه بقوله تعالی: بِإِذْنِهِ دلاله علی أن هدایه اللّه تعالی لهؤلاء المؤمنین لم تکن

إلزاما منهم،و إيجابا على اللّه تعالى أن يهديهم لإيمانهم،فإن اللّه سبحانه لا يحكم عليه حاكم،و لا يوجب عليه موجب إلاّ ما أوجبه على نفسه،بل كانت الهدايه بإذنه تعالى و لو شاء لم يأذن و لم يهد،و على هذا فقوله تعالى: وَ اللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ ،بمنزله التعليل لقوله بإذنه،و المعنى إنما هداهم اللّه بإذنه لان له أن يهديهم و ليس مضطرا موجبا على الهدايه فى مورد أحدا،بل يهدى من يشاء،و قد شاء أن يهدى الذين آمنوا الى صراط مستقيم (۱)(۲)(۳).

[سوره البقره (۲): آيه ۲۱۴]

اشاره

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا اَلْجَنَّهَ وَ لَمّٰا يَأْتِكُمْ مَثَلُ اَلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ اَلْبَأْسٰاءُ وَ اَلضَّرّٰاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتّٰى يَقُولَ اَلرَّسُولُ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتىٰ نَصْرُ اَللّٰهِ أَلاٰ إِنَّ نَصْرَ اَللّٰهِ قَرِيبٌ (۲۱۴)

بيان:

قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّهَ ،تثبيت لما تدل عليه الآيات السابقه، و هو ان الدين نوع هدايه من اللّه سبحانه للناس الى ما فيه سعادتهم فى الدنيا و الآخره،و نعمه حباهم اللّه بها،فمن الواجب ان يسلموا له و لا يتبعوا خطوات الشيطان،و لا يلقوا فيه الاختلاف،و لا يجعلوا الدواء داء،و لا يبدلوا نعمه اللّه سبحانه كفرا و نقمه من اتباع الهوى، و ابتغاء زخرف الدنيا و حطامها فيحل عليهم غضب من ربهم كما حل ببنى إسرائيل حيث

۱- ۱) .البقره ۲۱۳:كلام فى عصمه الانبياء.

۲- ۲) .البقره ۲۱۳:كلام فى النبوه.

۳- ۳) .البقره ۲۱۳:بحث فلسفى فى النبوه:بحث اجتماعى فى النبوه.

بدلوا نعمه اللّه من بعد ما جاءتهم،فإن المحنه دائمه،و الفتنه قائمه،و لن ينال أحد من الناس سعاده الدين و قرب رب العالمين إلاّ بالثبات و التسليم.

و كلمه أم منقطعه تفيد الاضراب،و المعنى على ما قيل:بل أحسبتم ان تدخلوا الجنه،الخ؛ و الخلاف فى أم المنقطعه معروف،و الحق ان ام لإفاده الترديد،و أن الدلاله على معنى الاضراب من حيث انطباق معنى الاضراب على المورد،لا ـ انها دلاله وضعيه،فالمعنى فى المورد مثلا:هل انقطعتم بما أمرناكم من التسليم بعد الايمان و الثبات على نعمه الدين، و الاتفاق و الاتحاد فيه أم لا بل حسبتم أن تدخلوا الجنه،الخ.

قوله تعالى: وَ لَمّٰا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ،المثل بكسر الميم فسكون الثاء،و المثل بفتح الميم و الثاء كالشبه و الشبه،و المراد به ما يمثل الشيء و يحضره و يشخصه عند السامع،و منه المثل بفتحتين،و هو الجمله أو القصه التى تفيد استحضار معنى مطلوب فى ذهن السامع بنحو الاستعاره التمثيليه كما قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرٰاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهٰا كَمَثَلِ الْحِمٰارِ يَحْمِلُ أَسْفٰاراً (الجمعه/۵)،و منه أيضا المثل بمعنى الصفه كقوله تعالى: اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثٰالَ (الفرقان/۹)،و إنما قالوا له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:مجنون و ساحر و كذاب و نحو ذلك،و حيث انه تعالى يبين المثل الذى ذكره بقوله: مَسَّتْهُمُ الْبَأْسٰاءُ وَ الضَّرّٰاءُ ، الخ؛فالمراد به المعنى الاول.

قوله تعالى: مَسَّتْهُمُ الْبَأْسٰاءُ وَ الضَّرّٰاءُ ،الى آخره لما اشتد شوق المخاطب ليفهم تفصيل الاجمال الذى دل عليه بقوله: وَ لَمّٰا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ ،بين ذلك بقوله: مَسَّتْهُمُ الْبَأْسٰاءُ وَ الضَّرّٰاءُ ،و البأساء هو الشده المتوجهه الى الانسان فى خارج نفسه كالمال و الجاه و الاهل و الامن الذى يحتاج إليه فى حياته،و الضراء هى الشده التى تصيب الانسان فى نفسه كالجرح و القتل و المرض،و الزلزله و الزلزال معروف و اصله من زل بمعنى عثر،كررت اللفظه للدلاله على التكرار كان الارض مثلا تحدث لها بالزلزله عشره بعد عشره،و هو كصر و صرصر،

و صل صلصل،و کب و کبکب،و الزلزال فی الآیه کنایه عن الاضطراب و الادهاش.

قوله تعالی: حَتّٰی یَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ ،قرء بنصب یقول، و الجمله علی هذا فی محل الغایه لما سبقها،و قرء برفع یقول و الجمله علی هذا الحکایه الماضیه، و المعنیان و إن کانا جمیعا صحیحین لکن الثانی أنسب للسیاق،فإن کون الجمله غایه یعلل بها قوله: وَ زُلْزِلُوا لا یناسب السیاق کل المناسبه.

قوله تعالی: مَتیٰ نَصْرُ اللّٰهِ ،الظاهر أنه مقول قول الرسول و الذین آمنوا معه جمیعا،و لا ضیر فی ان یتفوه الرسول بمثل هذا الکلام استدعاء و طلبا للنصر الذی وعد به اللّه سبحانه رسوله و المؤمنین بهم کما قال تعالی: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ کَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا الْمُرْسَلِینَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (الصافات۱۷۲/)،و قال تعالی: کَتَبَ اللّٰهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِی (المجادله/ ۲۱)،و قد قال تعالی أیضا: حَتّٰی إِذَا اسْتَیْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ کُذِبُوا جٰاءَهُمْ نَصْرُنٰا (یوسف۱۱۰/)،و هو أشد لحنا من هذه الآیه.

و الظاهر أیضا أن قوله تعالی: أَلاٰ إِنَّ نَصْرَ اللّٰهِ قَرِیبٌ مقول له تعالی لا تتمه لقول الرسول و الذین آمنوا معه...

و الآیه(کما مرت الیه الاشاره سابقا)تدل علی دوام أمر الابتلاء و الامتحان و جریانه فی هذه الامه کما جری فی الامم السابقه.

و تدل أیضا علی اتحاد الوصف و المثل بتکرر الحوادث الماضیه غابرا،و هو الذی یسمی بتکرر التاریخ و عوده.

[سوره البقره (۲): آیه ۲۱۵]

اشاره

یَسْئَلُونَکَ مٰا ذٰا یُنْفِقُونَ قُلْ مٰا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَیْرٍ فَلِلْوٰالِدَیْنِ وَ اَلْأَقْرَبِینَ وَ اَلْیَتٰامیٰ وَ اَلْمَسٰاکِینِ وَ اِبْنِ اَلسَّبِیلِ وَ مٰا تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ بِهِ عَلِیمٌ (۲۱۵)

بیان:

قوله تعالی: يَسْئَلُونَکَ مٰا ذٰا يُنْفِقُونَ ،قل:ما أنفقتم من خیر،قالوا:إن الآیه واقعه علی أسلوب الحکمه،فإنهم إنما سألوا عن جنس ما ینفقون و نوعه،و کان هذا السؤال کاللغو لمکان ظهور ما یقع به الانفاق و هو المال علی أقسامه،و کان الاحق بالسؤال إنما هو من ینفق له:صرف الجواب الی التعرض بحاله و بیان أنواعه لیکون تنبیها لهم بحق السؤال.

و الذی ذکروه وجه بلیغ غیر أنهم ترکوا شیئا،و هو أن الآیه مع ذلک متعرضه لبیان جنس ما ینفقونه،فإنها تعرضت لذلک:أولا بقولها:من خیر،إجمالا،و ثانیا بقولها:و ما تفعلوا من خیر فإن اللّه به علیم،ففی الآیه دلاله علی ان الذی ینفق به هو المال کائنا ما کان،من قلیل أو کثیر،و ان ذلک فعل خیر و اللّه به علیم،لکنهم کان علیهم ان یسألوا عمن ینفقون لهم و یعرفوه، و هم:الوالدان و الاقربون و الیتامی و المساکین و ابن السبیل.

قوله تعالی: وَ مٰا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّٰهَ بِهِ عَلِيمٌ ،فی تبدیل الانفاق من فعل الخیر هاهنا کتبدیل المال من الخیر فی أول الآیه إیماء الی أن الانفاق و ان کان مندوبا الیه من قلیل المال و کثیره،غیر انه ینبغی ان یکون خیرا یتعلق به الرغبه و تقع علیه المحبه کما قال تعالی: لَنْ تَنٰالُوا الْبِرَّ حَتّٰى تُنْفِقُوا مِمّٰا تُحِبُّونَ (آل عمران/۹۲)،و کما قال تعالی: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا كَسَبْتُمْ وَ مِمّٰا أَخْرَجْنٰا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لاٰ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاّٰ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ (البقره/۲۶۷).

و ایماء الی ان الانفاق ینبغی ان لا یکون علی نحو العشر کالانفاق بالمن و الاذی کما قال تعالی: ثُمَّ لاٰ يُتْبِعُونَ مٰا أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لاٰ أَذىً (البقره/۲۶۲)،و قوله تعالی: وَ يَسْئَلُونَكَ مٰا ذٰا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ (البقره/۲۱۹).

ص:۲۶۹

[سوره البقره (۲): الآیات ۲۱۶ الی ۲۱۸]

اشاره

کُتِبَ عَلَيْكُمُ اَلْقِتٰالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَ عَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (۲۱۶) يَسْئَلُونَكَ عَنِ اَلشَّهْرِ اَلْحَرٰامِ قِتٰالٍ فِيهِ قُلْ قِتٰالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ وَ إِخْرٰاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ اَلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ اَلْقَتْلِ وَ لاٰ يَزٰالُونَ يُقٰاتِلُونَكُمْ حَتّٰى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اِسْتَطٰاعُوا وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كٰافِرٌ فَأُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فِي اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَةِ وَ أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (۲۱۷) إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ اَلَّذِينَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ أُولٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۱۸)

بیان:

قوله تعالی: كُتِبَ عَلَيْكُمُ اَلْقِتٰالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ،الکتابه کما مر مرارا ظاهره فی الفرض اذا کان الکلام مسوقا لبیان التشریع،و فی القضاء الحتم اذا کان فی التکوین فالآیه تدل علی فرض القتال علی کافه المؤمنین لکون الخطاب متوجها الیهم إلاّ من أخرجه الدلیل مثل قوله تعالی: لَيْسَ عَلَى اَلْأَعْمىٰ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَى اَلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَى اَلْمَرِيضِ حَرَجٌ (النور/ ۶۱)،و غیر ذلک من الآیات و الادله.

ص :۲۷۰

و لم يظهر فاعـل كتب لكون الجمله مـذيله بقوله: وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ و هو لاـ يناسب إظهار الفاعل صونا لمقامه عن الهتک،و حفظا لاسمه عن الاستخفاف أن يقع الكتابه المنسوبه اليه صريحا موردا لكراهه المؤمنين.

و الكره بضم الكاف المشـقه التى يـدركها الانسان من نفسه طبعا أو غير ذلک،و الكره بفتح الكاف:المشـقه التى تحمل عليه من خارج كأن يجبره إنسان آخر على فعل ما يكرهه،قال تعالى: لاٰ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسٰاءَ كَرْهاً (النساء١٩/)،و قال تعالى: فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيٰا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً (فصلت١١/)،و كون القتـال المكتوب كرهـا للمؤمنين إما لان القتال لكونه متضـمنا لفناء النفوس و تعب الابـدان و المضـار المـاليه و ارتفـاع الاـمن و الرخصه و الرفـاهيه،و غير ذلک مما يسـتكرهه الانسان فى حياته الاجتماعيه لا محـاله كان كرها و شاق للمؤمنين بالطبع،فإن اللّه سـبحانه و إن مـدح المؤمنين فى كتابه بما مـدح،و ذكر ان فيهم رجالا صادقين فى إيمانهم مفلحين فى سـعيهم،لكنه مع ذلک عاتب طائفه منهم بما فى قلوبهم من الزيغ و الزلل،و هو ظاهر بالرجوع الى الآيات النازله فى غزوه بـدر و أحـد و الخندق و غيرها، و معلوم ان من الجائز أن ينسب الكراهه و التثاقل الى قوم فيهم كاره و غير كاره و اكثرهم كارهون،فهذا وجه.

قوله تعـالى: وَ عَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ،قـد مر فيمـا مر ان أمثـال عسـى و لعـل فى كلامه تعالى مسـتعمل فى معنى الترجى،و ليس من الواجب قيـام صـفه الرجـاء بنفس المتكلم بـل يكفى قيامهـا بالمخـاطب أو بمقـام التخاطب،فاللّه سـبحانه إنما يقول:عسى ان يكون كذا لا لأنه يرجوه،تعالى عن ذلک،بل ليرجوه المخاطب أو السامع.

و تكرار عسـى فى الآيه لكون المؤمنين كارهين للحرب،محبين للسـلم،فأرشدهم اللّه سبحانه على خطأهم فى الامرين جميعا،بيان ذلک:أنه لو قيل:عسـى ان تكرهوا شيئا و هو خير لكم أو تحبوا شيئا و هو شر لكم،كان معناه أنه لا عبره بكرهكم و حبكم فإنهما ربما

يخطئان الواقع،و مثل هذا الكلام إنما يلقى الى من اخطأ خطأ واحدا كمن يكره لقاء زيد فقط، و أما من اخطأ خطاءين كان يكره المعاشره و المخالطه و يحب الاعتزال،فالذى تقتضيه البلاغه ان يشار الى خطأه فى الامرين جميعا،فيقال له:لا فى كرهك أصبت،و لا فى حبك اهتديت، عسى ان تكره شيئا و هو خير لك و عسى ان تحب شيئا و هو شر لك لانك جاهل لا تقدر ان تهتدى بنفسك الى حقيقه الامر،و لما كان المؤمنون مع كرههم للقتال محبين للسلم كما يشعر به ايضا قوله تعالى سابقا:أم حسبتم ان تدخلوا الجنه و لما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم، نبههم اللّه بالخطأين بالجملتين المستقلتين و هما:عسى ان تكرهوا،و عسى ان تحبوا.

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ ،تتميم لبيان خطأهم،فإنه تعالى درج فى بيان ذلك إرفاقا فأذهانهم،فأخذ أولا بإبداء احتمال خطأهم فى كراهتهم للقتال بقوله:

عَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا ،فلما اعتدلت أذهانهم بحصول الشك فيها،و زوال صفه الجهل المركب كرّ عليهم ثانيا بأن هذا الحكم الذى كرهتموه أنتم إنما شرعه اللّه الذى لا يجهل شيئا من حقائق الامور،و الذى ترونه مستند الى نفوسكم التى لا تعلم شيئا إلاّ ما علمها اللّه إياه و كشف عن حقيقته،فعليكم ان تسلموا اليه سبحانه الأمر.

و الآيه فى إثبات العلم له تعالى على الاطلاق و نفى العلم عن غيره على الاطلاق تطابق سائر الآيات الداله على هذا المعنى كقوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ (آل عمران/ ۵)،و قوله تعالى: وَ لاٰ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ (البقره۲۵۵/)،و قد سبق بعض الكلام فى القتال فى قوله: وَ قٰاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ (البقره۱۹۰/).

قوله تعالى: يَسْئَلُونَکَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرٰامِ قِتٰالٍ فِيهِ ،الآيه؛تشتمل على المنع عن القتال فى الشهر الحرام و ذمه بأنه صد عن سبيل اللّه و كفر،و اشتمالها مع ذلك على ان إخراج أهل المسجد الحرام منه أكبر عند اللّه،و ان الفتنه أكبر من القتل،يؤذن بوقوع حادثه هى الموجبه للسؤال و ان هناك قتلا،و انه إنما وقع خطأ لقوله تعالى فى آخر الآيات: إِنَّ الَّذِينَ

آمَنُوا وَ الَّذِينَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أُولٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ الآيه؛فهذه قرائن على وقوع قتل فى الكفار خطأ من المؤمنين فى الشهر الحرام فى قتال واقع بينهم،و طعن الكفار به،ففيه تصديق لما ورد فى الروايات فى قصه عبد اللّه بن جحش و أصحابه.

قوله تعالى: قُلْ قِتٰالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ ،الصد هو المنع و الصرف،و المراد بسبيل اللّه العباده و النسك و خاصه الحج، و الظاهر ان ضمير به راجع الى السبيل فيكون كفرا فى العمل دون الاعتقاد،و المسجد الحرام عطف على سبيل اللّه اى صد عن سبيل اللّه و عن المسجد الحرام.

و الآيه تدل على حرمه القتال فى الشهر الحرام،و قد قيل:إنها منسوخه بقوله تعالى:

فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (التوبه6/)،و ليس بصواب،و قد مر بعض الكلام فى ذلک فى تفسير آيات القتال.

قوله تعالى: وَ إِخْرٰاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللّهِ وَ الْفِتْنَهُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ،أى و الذى فعله المشركون من إخراج رسول اللّه و المؤمنين من المهاجرين،و هم أهل المسجد الحرام،منه اكبر من القتال،و ما فتنوا به المؤمنين من الزجر و الدعوه الى الكفر أكبر من القتل، فلا يحق للمشركين ان يطعنوا المؤمنين و قد فعلوا ما هو أكبر مما طعنوا به،و لم يكن المؤمنين فيما اصابوه منهم إلاّ راجين رحمه اللّه و اللّه غفور رحيم.

قوله تعالى: وَ لاٰ يَزٰالُونَ يُقٰاتِلُونَكُمْ الى آخر الآيه؛حتى للتعليل أى ليردوكم.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ الخ؛تهديد للمرتد بحبط العمل و خلود النار (1)(2).

ص:273

1- 1) .البقره 216-218:کلام فى الحبط.

2- 2) .البقره 216-218:کلام فى احكام الاعمال من حيث الجزاء.

[سوره البقره (۲): الآیات ۲۱۹ الی ۲۲۰]

اشاره

يَسْئَلُونَكَ عَنِ اَلْخَمْرِ وَ اَلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمٰا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنٰافِعُ لِلنّٰاسِ وَ إِثْمُهُمٰا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمٰا وَ يَسْئَلُونَكَ مٰا ذٰا يُنْفِقُونَ قُلِ اَلْعَفْوَ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اَللّٰهُ لَكُمُ اَلْآيٰاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (۲۱۹) فِي اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَةِ وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ اَلْيَتٰامىٰ قُلْ إِصْلاٰحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تُخٰالِطُوهُمْ فَإِخْوٰانُكُمْ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ اَلْمُفْسِدَ مِنَ اَلْمُصْلِحِ وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اَللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۲۰)

بیان:

قوله تعالی: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ ،الخمر علی ما یستفاد من اللغه هو کل مائع معمول للسکر،و الاصل فی معناه الستر،و سمی به لانه یستر العقل و لا یدعه یمیز الحسن من القبح و الخیر من الشر،و یقال:لما تغطی به المرأه رأسها الخمار،و یقال:خمرت الإناء اذا غطیت رأسها،و یقال:أخمرت العجین اذا أدخلت فیه الخمیر،و سمیت الخمیره خمیره لانها تعجن أولا ثم تغطی و تخمر من قبل،و قد کانت العرب لا تعرف من اقسامه إلاّ الخمر المعمول من العنب و التمر و الشعیر،ثم زاد الناس فی اقسامه تدریجا فصارت الیوم أنواعا کثیره ذات مراتب بحسب درجات السکر،و الجمیع خمر.

و المیسر لغه هو القمار و یسمی المقامر یاسرا و الاصل فی معناه السهوله سمی به لسهوله اقتناء مال الغیر به من غیر تعب الکسب و العمل،و قد کان اکثر استعماله عند العرب فی نوع خاص من القمار،و هو الضرب بالقداح و هی السهام،و تسمی أیضا:الازلام و الاقلام.

قوله تعالی: قُلْ فِيهِمٰا إِثْمٌ كَبِيرٌ ،و قرء إثم كثير بالثاء المثلثه،و الاثم يقارب الذنب و ما يشبهه معنی و هو حال فی الشیء أو فی العقل يبطئ الانسان عن نيل الخيرات فهو الذنب الذی يستتبع الشقاء و الحرمان فی أمور أخری و يفسد سعاده الحياه فی جهاتها الاخری و هذان علی هذه الصفه.

أما شرب الخمر فمضراته الطبيه و آثاره السيئه فی المعده و الامعاء و الكبد و الرئه و سلسله الاعصاب و الشرائين و القلب و الحواس كالباصره و الذائقه و غيرها مما الف فيه تأليفات من حذاق الاطباء قديما و حديثا،و لهم فی ذلک إحصاءات عجيبه تكشف عن كثره المبتلين بأنواع الامراض المهلكه التی يستتبعها هذا السم المهلک.

و أما مضراته الخلقيه:من تشويه الخلق و تأديته الانسان الی الفحش،و الاضرار و الجنايات،و القتل،و إفشاء السر،و هتک الحرمات،و إبطال جميع القوانين و النواميس الانسانيه التی بنيت عليها أساس سعاده الحياه،و خاصه ناموس العفه فی الاعراض و النفوس و الاموال،فلا عاصم من سكران لا يدری ما يقول و لا يشعر بما يفعل،و قل ما يتفق جنايه من هذه الجنايات التی قد ملأت الدنيا و نغصت عيشه الانسان إلّا و للخمر فيها صنع مستقيما أو غير مستقيم.

و أما مضرته فی الادراک و سلبه العقل و تصرفه الغير المنتظم فی أفكار الانسان و تغييره مجری الادراک حين السكر و بعد الصحو فمما لا ينكره منكر و ذلک أعظم ما فيه من الاثم و الفساد،و منه ينشأ جميع المفاسد الأخر.

و الشريعه الاسلاميه كما مرت اليه الاشاره وضعت أساس أحكامها علی التحفظ علی العقل السليم،و نهت عن الفعل المبطل لعمل العقل أشد النهی كالخمر،و الميسر،و الغش، و الكذب،و غير ذلک،من اشد الافعال المبطله لحكومه العقل علی سلامه هو شرب الخمر من بين الافعال و قول الكذب و الزور من بين الاقوال.

فهـذه الاعمـال أعني:الاعمـال المبطلـه لحكـومه العقـل و على رأسـها السـياسات المبتنيه على السـكر و الكـذب هى الـتى تهـدد الانسانيه،و تهدم بنيان السعاده و لا تأتى بثمره عامه الا و هى امر من سابقتها،و كلما زاد الحمل ثقلا و أعجز حامله زيد فى الثقل رجـاء لقرده،فخـاب السـعى،و خسـر العمـل،و لو لـم يكن لهـذه المحجه البيضاء و الشـريعه الغراء الا البناء على العقل و المنع عما يفسده من اتباع الهوى لكفاها فخرا،و للكلام تتمه ستتعرض لها فى سوره المائده إن شاء اللّه.

و لم يزل الناس بقريحتهم الحيوانيه يميلون الى لذائـذ الشـهوه فيشـبع بينهم الاعمال الشـهوانيه اسـرع من شـيوع الحق و الحقيقه،و انعقدت العادات على تناولها و شق تركها و الجرى على نواميس السـعاده الانسانيه،و لذلك ان اللّه سبحانه شرع فيهم ما شرع من الاحكام على سبيل التدريج،و كلفهم بالرفق و الامهال.

و من جمله تلك العادات الشائعه شـرب الخمر فقـد أخـذ فى تحريمه بالتدريـج على ما يعطيه التـدبر فى الآيات المربوطه به فقد نزلت أربع مرات:

إحـداها:قوله تعالى: قُلْ إِنَّمٰا حَرَّمَ رَبِّیَ الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْیَ بِغَیْرِ الْحَقِّ (الأعراف/۳۳)،و الآيه مكيه حرم فيها الإثم صريحا،و فى الخمر اثم غير انه لم يبين ان الاثم ما هو ان فى الخمر اثما كبيرا.

و لعـل ذلك انما كان نوعا من الارفاق و التسـهيل لما فى السـكوت عن البيان من الاغماض كما يشـعر به ايضا قوله تعالى: وَ مِنْ ثَمَرٰاتِ النَّخِیلِ وَ الْأَعْنٰابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَکَراً وَ رِزْقاً حَسَناً (النحل/۶۷)،و الآـيه أيضا مكيه،و كأن الناس لم يكونوا متنبهين بما فيه من الحرمه الكبيره حتى نزلت قوله تعـالى: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَقْرَبُوا الصَّلاٰهَ وَ أَنْتُمْ سُکٰاریٰ (النساء/ ۴۳)،و الآيه مدنيه و هى تمتنع الناس بعض المنع عن الشرب و السكر فى افضل الحالات و فى افضل الاماكن و هى الصلاه فى المسجد.

و الاعتبار و سیاق الآیه الشریفه یأبی ان تنزل بعد آیه البقره و آیتی المائده فإنهما تدلان علی النهی المطلق،و لا معنی للنهی الخاص بعد ورود النهی المطلق،علی أنه ینافی التدریج المفهوم من هذه الآیات فإن التدریج سلوک من الاسهل الی الاشق لا بالعکس.

ثم نزلت آیه البقره أعنی قوله تعالی: یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِرِ قُلْ فِیهِمٰا إِثْمٌ کَبِیرٌ وَ مَنٰافِعُ لِلنّٰاسِ وَ إِثْمُهُمٰا أَکْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمٰا و هذه الآیه بعد آیه النساء کما مر بیانه و تشتمل الآیه علی التحریم لدلالتها القطعیه علی الإثم فی الخمر «فِیهِمٰا إِثْمٌ کَبِیرٌ» و تقدم نزول آیه الاعراف المکیه الصریحه فی تحریم الاثم.

و النفع خلاف الضرر و یطلقان علی الامور المطلوبه لغیرها أو المکروهه لغیرها کما ان الخیر و الشر یطلقان علی الامور المطلوبه لذاتها أو المکروهه لذاتها،و المراد بالمنافع فیهما ما یقصده الناس بهما من الاستفادات المالیه بالبیع و الشری و العمل و التفکه و التلهی،و لما قوبل ثانیا بین الاثم و المنافع بالکبر أوجب ذلک إفراد المنافع و الغاء جهه الکثره فیها فإن العدد لا تأثیر له فی الکبر فقیل:و اثمهما اکبر من نفعهما و لم یقل من منافعهما.

قوله تعالی: وَ یَسْئَلُونَکَ مٰا ذٰا یُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ،العفو علی ما ذکره الراغب قصد الشیء لتناوله ثم أوجب لحوق العنایات المختلفه الکلامیه به مجیئه لمعانی مختلفه کالعفو بمعنی المغفره و العفو بمعنی إمحاء الاثر و العفو بمعنی التوسط فی الانفاق،و هذا هو المقصود فی المقام،و اللّه العالم.

و الکلام فی مطابقه الجواب للسؤال فی هذه الآیه نظیر ما مر فی قوله تعالی: یَسْئَلُونَکَ مٰا ذٰا یُنْفِقُونَ قُلْ مٰا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَیْرٍ فَلِلْوٰالِدَیْنِ وَ الْأَقْرَبِینَ ،الآیه.

قوله تعالی: یُبَیِّنُ اللّٰهُ لَکُمُ -الی قوله- فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ ،الظرف أعنی قوله تعالی: فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ ،متعلق بقوله: تَتَفَکَّرُونَ و لیس بظرف له،و المعنی لعلکم تتفکرون فی امر الدارین و ما یرتبط بکم فی حقیقتهما،و ان الدنیا دار خلقها اللّه لکم لتحیوا فیها و تکسبوا

ما ينفعكم من مقركم و هو الدار الآخره التى ترجعون فيه الى ربكم فيجازيكم بأعمالكم التى عملتموها فى الدنيا.

قوله تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ،فى الآيه اشعار بل دلاله على نوع من التخفيف و التسهيل حيث أجازت المخالطه لليتامى،ثم قيل و لو شاء اللّه لأعنتكم،و هذا يكشف عن تشديد سابق من اللّه تعالى فى امر اليتامى يوجب التشويش و الاضطراب فى قلوب المسلمين،حتى دعاهم على السؤال عن أمر اليتامى،و الامر على ذلك، فإن هاهنا آيات شديده اللحن فى امر اليتامى كقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (النساء١٠/)،و قوله تعالى: وَ آتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ وَ لا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً (النساء٢/)،فالظاهر ان الآيه نازله بعد آيات سوره النساء،و بذلك يتأيد ما سننقله من سبب نزول الآيه فى البحث الروائى،و فى قوله تعالى: قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ،حيث نكر الاصلاح،دلاله على ان المرضى عند اللّه سبحانه نوع من الاصلاح لا كل إصلاح و لو كان إصلاحا فى ظاهر الامر فقط،فالتنكير فى قوله تعالى: إِصْلاحٌ لإفاده التنويع فالمراد به الاصلاح بحسب الحقيقه لا بحسب الصوره،و يشعر به قوله تعالى-ذيلا-:و اللّه يعلم المفسد من المصلح.

قوله تعالى: وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ ،إشاره الى المساواه المجعوله بين المؤمنين جميعا بإلغاء جميع الصفات المميزه التى هى المصادر لبروز أنواع الفساد بين الناس فى اجتماعهم من الاستعباد و الاستضعاف و الاستذلال و الاستكبار و أنواع البغى و الظلم،و بذلك يحصل التوازن بين اثقال الاجتماع،و المعادله بين اليتيم الضعيف و الولى القوى،و بين الغنى المثرى و الفقير المعدم،و كذا كل ناقص و تام،و قد قال تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (الحجرات١٠/).

قوله تعالى: وَ اللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ الى آخر الآيه؛تعديه يعلم بمن كأنها لمكان تضـمينه معنى يميز،و العنت هو الكلفه و المشقه.

[سوره البقره (۲): آيه ۲۲۱]

اشاره

وَ لاٰ تَنْكِحُوا اَلْمُشْرِكٰاتِ حَتّٰى يُؤْمِنَّ وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَ لاٰ تُنْكِحُوا اَلْمُشْرِكِينَ حَتّٰى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى اَلنّٰارِ وَ اَللّٰهُ يَدْعُوا إِلَى اَلْجَنَّةِ وَ اَلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَ يُبَيِّنُ آيٰاتِهِ لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۲۲۱)

بيان:

قوله تعالى: وَ لاٰ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكٰاتِ حَتّٰى يُؤْمِنَّ ،قال الراغب فى المفردات:

أصل النكاح للعقد ثم استعير للجماع،و محال ان يكون فى الأصل للجماع ثم استعير للعقد لأن أسماء الجماع،كلها كنايات،لاستقباحهم ذكره،كاستقباح تعاطيه،و محال أن يستعير من لا يقصد فحشا اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه،انتهى،و هو جيد غير أنه يجب أن يراد بالعقد علقه الزوجيه دون العقد اللفظى المعهود.

قوله تعالى: وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ،الظاهر أن المراد بالأمه المؤمنه المملوكه التى تقابل الحره و قد كان الناس يستذلون الإماء و يعيرون من تزوج بهن،فتقييد الأمه بكونها مؤمنه،و إطلاق المشركه مع ما كان عليه الناس من استحقار أمر الإماء و استذلالهن،و التحرز عن التزوج بهن يدل على ان المراد أن المؤمنه و ان كان أمه خير من المشركه و ان كانت حره ذات حسب و نسب و مال مما يعجب الانسان

بحسب العاده.

قوله تعالى: وَ لاٰ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتّٰى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ الخ؛الكلام فيه كالكلام فى الجمله السابقه.

قوله تعالى: أُولٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النّٰارِ وَ اللّٰهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّهِ وَ الْمَغْفِرَهِ بِإِذْنِهِ ،اشاره الى حكمه الحكم بالتحريم،و هو ان المشركين لاعتقادهم بالباطل،و سلوكهم سبيل الضلال رسخت فيهم الملكات الرذيله المزينه للكفر و الفسوق،و المعميه عن أبصار طريق الحق و الحقيقه،فأثبتت فى قولهم و فى فعلهم الدعوه الى الشرك،و الدلاله الى البوار، و السلوك بالأخره الى النار فهم يدعون الى النار،و المؤمنون-بخلافهم-بسلوكهم سبيل الايمان،و تلبسهم بلباس التقوى يدعون بقولهم و فعلهم الى الجنه و المغفره بإذن اللّه حيث أذن فى دعوتهم الى الايمان،و اهتدائهم الى الفوز و الصلاح المؤدى الى الجنه و المغفره.

و كان حق الكلام أن يقال:و هؤلاء يدعون الى الجنه،الخ؛ففيه استخلاف عن المؤمنين و دلاله على ان المؤمنين فى دعوتهم بل فى مطلق شئونهم الوجوديه الى ربهم،لا يستقلون فى شىء من الامور دون ربهم تبارك و تعالى و هو وليهم كما قال سبحانه: وَ اللّٰهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران/۶۸).

و فى الآيه وجه آخر:و هو ان يكون المراد بالدعوه الى الجنه و المغفره هو الحكم المشرع فى صدر الآيه بقوله تعالى: وَ لاٰ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكٰاتِ حَتّٰى يُؤْمِنَّ ،الخ؛فان جعل الحكم لغرض ردع المؤمنين عن الاختلاط فى العشره مع من لا يزيد القرب منه و الانس به الاّ البعد من اللّه سبحانه،و حثهم بمخالطه من فى مخالطته التقرب من اللّه سبحانه و ذكر آياته و مراقبه امره و نهيه دعوه من اللّه الى الجنه،و يؤيد هذا الوجه تذييل هذه الجمله بقوله تعالى: وَ يُبَيِّنُ آيٰاتِهِ لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ،و يمكن ان يراد بالدعوه الاعم من الوجهين،و لا يخلو حينئذ السياق عن لطف فافهم.

[سوره البقره (۲): الآيات ۲۲۲ الى ۲۲۳]

اشاره

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ اَلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا اَلنِّسٰاءَ فِي اَلْمَحِيضِ وَ لاٰ تَقْرَبُوهُنَّ حَتّٰى يَطْهُرْنَ فَإِذٰا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اَللّٰهُ إِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلتَّوّٰابِينَ وَ يُحِبُّ اَلْمُتَطَهِّرِينَ (۲۲۲) نِسٰاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنّٰى شِئْتُمْ وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ اِعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاٰقُوهُ وَ بَشِّرِ اَلْمُؤْمِنِينَ (۲۲۳)

بيان:

قوله تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً الخ؛المحيض مصدر كالحيض،يقال:حاضت المرأه تحيض حيضا و حيضا اذا نزفت طبيعتها الدم المعروف ذا الصفات المعهوده المختصه بالنساء،و لذلك يقال هى حائض كما يقال:هى حامل.

و الاذى هو الضرر على ما قيل،لكنه لا يخلو عن نظر،فإن لو كان هو الضرر بعينه لصح مقابلته مع النفع كما ان الضرر مقابل النفع و ليس بصحيح،يقال:دواء مضر و ضار،و لو قيل دواء موذ أفاد معنى آخر،و ايضا قال تعالى: لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاّٰ أَذىً (آل عمران/۱۱۱)، و لو قيل لن يضروكم إلاّ ضررا لفسد الكلام،و ايضا كونه بمعنى الضرر غير ظاهر فى امثال قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ (الأحزاب/۵۷)،و قوله تعالى: لِمَ تُؤْذُونَنِي وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ (الصف/۵)،الظاهر ان الاذى هو الطارئ على الشىء غير الملائم لطبعه فينطبق عليه معنى الضرر بوجه.

و تسميه المحيض اذى على هذا المعنى لكون هذا الدم المستند الى عاده النساء حاصلا من

عمل خاص من طبعها يؤثر به فی مزاج الدم الطبیعی الذی یحصله جهاز التغذیه فیفسد مقدارا منه عن الحال الطبیعی و ینزله الی الرحم لتطهیره او لتغذیه الجنین او لتهیئه اللبن للإرضاع،و اما علی قولهم:ان الاذی هو الضرر فقد قیل:ان المراد بالمحیض اتیان النساء فی حال الحیض،و المعنی:یسألونک عن اتیانهن فی هذه الحال فاجیب بأنه ضرر و هو کذلک فقد ذکر الاطباء ان الطبیعه مشتغله فی حال الطمث بتطهیر الرحم و اعداده للحمل،و الوقاع یختل به نظام العمل فیضر بنتائج هذا العمل الطبیعی من الحمل و غیره.

قوله تعالی: فَاعْتَزِلُوا النِّسٰاءَ فِی الْمَحِیضِ وَ لاٰ تَقْرَبُوهُنَّ ،الاعتزال هو أخذ العزله التجنب عن المخالطه و المعاشره،یقال:عزلت نصیبه اذا میزته و وضعته فی جانب بالتفریق بینه و بین سائر الانصباء،و القرب مقابل البعد یتعدی بنفسه و بمن،و المراد بالاعتزال ترک الإتیان من محل الدم علی ما سنبین.

و قد کان للناس فی أمر المحیض مذاهب شتی:فکانت الیهود تشدد فی أمره،و یفارق النساء فی المحیض فی المأکل و المشرب و المجلس و المضجع،و فی التوراه أحکام شدیده فی أمرهن فی المحیض،و أمر من قرب منهن فی المجلس و المضجع و المس و غیر ذلک،و أما النصاری فلم یکن عندهم ما یمنع الاجتماع بهن أو الاقتراب منهن بوجه،و اما المشرکون من العرب فلم یکن عندهم شیء من ذلک غیر ان العرب القاطنین بالمدینه و حوالیها سری فیهم بعض آداب الیهود فی امر المحیض و التشدید فی امر معاشرتهن فی هذا الحال،و غیرهم ربما کانوا یستحبون اتیان النساء فی المحیض و یعتقدون ان الولد المرزوق حینئذ یصیر سفاحا ولوعا فی سفک الدماء و ذلک من الصفات المستحسنه عند العشائر من البدویین.

و کیف کان فقوله تعالی: فَاعْتَزِلُوا النِّسٰاءَ فِی الْمَحِیضِ ،و ان کان ظاهره الامر بمطلق الاعتزال علی ما قالت به الیهود،و یؤکده قوله تعالی ثانیا: وَ لاٰ تَقْرَبُوهُنَّ ،إلاّ ان قوله تعالی اخیرا فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَیْثُ أَمَرَکُمُ اللّٰهُ -و من المعلوم انه محل الدم-قرینه علی ان قوله: فَاعْتَزِلُوا

وَ لاٰ تَقْرَبُوا ،واقعان موقع الكنايه لا التصريح،و المراد به الإتيان من محل الدم فقط لا مطلق المخالطه و المعاشره و لا مطلق التمتع و الاستلذاذ.

فالاسلام قد اخذ فى امر المحيض طريقا وسطا بين التشديد التام الذى عليه اليهود و الإهمال المطلق الذى عليه النصارى،و هو المنع عن اتيان محل الدم و الاذن فيما دونه و فى قوله تعالى فى المحيض،وضع الظاهر موضع المضمر و كان الظاهر أن يقال:فاعتزلوا النساء فيه و الوجه فيه ان المحيض الأول اريد به المعنى المصدرى و الثانى زمان الحيض فالثانى غير الاول،و لا يفيد معناه تبديله من الضمير الراجع الى غير معناه.

قوله تعالى: حَتّٰى يَطْهُرْنَ فَإِذٰا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّٰهُ ، الطهاره و تقابلها النجاسه-من المعانى الدائره فى مله الإسلام ذات أحكام و خواص مجعوله فيها تشتمل على شطر عظيم من المسائل الدينيه،و قد صار اللفظان بكثره الاستعمال من الحقائق الشرعيه أو المتشرعه على ما اصطلح عليه فى فن الاصول (۱).

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ التَّوّٰابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ،التوبه هى الرجوع الى اللّه سبحانه و التطهر هو الأخذ بالطهاره و قبولها فهو انقلاع عن القذاره و رجوع الى الأصل الذى هو الطهاره فالمعنيان يتصادقان فى مورد أوامر اللّه سبحانه و نواهيه،و خاصه فى مورد الطهاره و النجاسه فالايتمار بأمر من أوامره تعالى و الانتهاء عن كل ما نهى عنه تطهر عن قذاره المخالفه و المفسده،و توبه و رجوع إليه عز شأنه،و لمكان هذه المناسبه علل تعالى ما ذكره من الحكم بقوله: إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ التَّوّٰابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ،فإن من اللازم أن ينطبق ما ذكره من العله على كل ما ذكره من الحكم،أعنى قوله تعالى: فَاعْتَزِلُوا النِّسٰاءَ فِي الْمَحِيضِ ،و قوله: فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّٰهُ ،و الآيه أعنى قوله: إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ التَّوّٰابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ،مطلقه غير مقيده

۱- ۱) .البقره ۲۲۲-۲۲۳:بحث فى الطهاره.

فتشمل جميع مراتب التوبه و الطهاره كما مر بيانه،و لا يبعد استفاده المبالغه من قوله تعالى:

اَلْمُتَطَهِّرِينَ ،كما جيء بصيغه المبالغه فى قوله: اَلتَّوّابِينَ ،فينتج استفاده الكثره فى التوبه و الطهاره من حيث النوع و من حيث العدد جميعا،أعنى:إن اللّه يحب جميع أنواع التوبه سواء كانت بالاستغفار أو بامتثال كل أمر و نهى من تكاليفه أو باتخاذ كل اعتقاد من الاعتقادات الحقه، و يحب جميع أنواع التطهر سواء كان بالاغتسال و الوضوء و الغسل أو التطهر بالاعمال الصالحه أو العلوم الحقه،و يحب تكرار التوبه و تكرار التطهر.

قوله تعالى: نِسٰاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنّٰى شِئْتُمْ ،الحرث مصدر بمعنى الزراعه و يطلق كالزراعه على الارض التى يعمل فيها الحرث و الزراعه،و أنى من اسماء الشرط يستعمل فى الزمان كمتى،و ربما استعمل فى المكان أيضا،قال تعالى: يٰا مَرْيَمُ أَنّٰى لَكِ هٰذٰا قٰالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ (آل عمران/۳۷)،فإن كان بمعنى المكان كان المعنى من أى محل شئتم،و إن كان بمعنى الزمان كان المعنى فى أى زمان شئتم،و كيف كان يفيد الاطلاق بحسب معناه و خاصه من حيث تقييده بقوله: شِئْتُمْ ،و هذا هو الذى يمنع الأمر أعنى قوله تعالى: فَأْتُوا حَرْثَكُمْ ،أن يدل على الوجوب اذ لا معنى لإيجاب فعل مع إرجاعه الى اختيار المكلف و مشيته.

ثم إن تقديم قوله تعالى: نِسٰاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ،على هذا الحكم و كذا التعبير عن النساء ثانيا بالحرث لا يخلو عن الدلاله على أن المراد التوسعه فى إتيان النساء من حيث المكان أو الزمان الذى يقصدن منه دون المكان الذى يقصد منهن،فإن كان الإطلاق من حيث المكان فلا تعرض للآيه للإطلاق الزمانى و لا تعارض له مع قوله تعالى فى الآيه السابقه:فاعتزلوا النساء فى المحيض و لا تقربوهن حتى يطهرن،الآيه،و إن كان من حيث الزمان فهو مقيد بآيه المحيض، و الدليل عليه اشتمال آيه المحيض على ما يأبى معه أن ينسخه آيه الحرث،و هو دلاله آيه المحيض على أن المحيض أذى و أنه السبب لتشريع حرمه إتيانهن فى المحيض أذى دائما،

و دلالتها أيضا على أن تحريم الإتيان فى المحيض نوع تطهير من القذاره و اللّه سبحانه يحب التطهر دائما،و يمتن على عباده بتطهيرهم كما قال تعالى: مٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ (المائده ۶).

و من المعلوم أن هذا اللسان لا يقبل التقييد بمثل قوله تعالى: نِسٰاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنّٰى شِئْتُمْ ،المشتمل أولا على التوسعه،و هو سبب كان موجودا مع سبب التحريم و عند تشريعه و لم يؤثر شيئا فلا يتصور تأثيره بعد استقرار التشريع و ثانيا على مثل التذييل الذى هو قوله تعالى: وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاٰقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ،و من هذا البيان يظهر:ان آيه الحرث لا تصلح لنسخ آيه المحيض سواء تقدمت عليها نزولا أو تأخرت.

فمحصل معنى الآيه:أن نسبه النساء الى المجتمع الإنسانى نسبه الحرث الى الإنسان فكما أن الحرث يحتاج اليه لابقاء البذور و تحصيل ما يتغذى به من الزاد لحفظ الحياه و إبقائها كذلك النساء يحتاج اليهن النوع فى بقاء النسل و دوام النوع لأن اللّه سبحانه جعل تكون الانسان و تصور مادته بصورته فى طباع أرحامهن،ثم جعل طبيعه الرجال و فيهم بعض الماده الاصليه مائله منعطفه إليهن،و جعل بين الفريقين موده و رحمه،و اذا كان كذلك كان الغرض التكوينى من هذا الجعل هو تقديم الوسيله لبقاء النوع فلا معنى لتقييد هذا العمل بوقت دون وقت،أو محل دون محل اذا كان مما يؤدى الى ذلك الغرض و لم يزاحم أمرا آخر واجبا فى نفسه لا يجوز إهماله،و بما ذكرنا يظهر معنى قوله تعالى و قدموا لانفسكم.

قوله تعالى: وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاٰقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ،قد ظهر:ان المراد من قوله: قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ و خطاب الرجال أو مجموع الرجال و النساء بذلك الحث على إبقاء النوع بالتناكح و التناسل،و اللّه سبحانه لا يريد من نوع الانسان و بقائه إلاّ حياه دينه و ظهور توحيده و عبادته بتقواهم العام،قال تعالى: وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ (الذاريات۵۶/)،فلو أمرهم بشىء مما يرتبط بحياتهم و بقائهم

فإنما يريد توصلهم بذلك الى عباده ربهم لا إخلادهم الى الارض و انهماكهم فى شهوات البطن و الفرج،و تيههم فى أوديه الغى و الغفله.

فالمراد بقوله: قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ و إن كان هو الاستيلاد و تقدمه أفراد جديدى الوجود و التكون الى المجتمع الانسانى الذى لا يزال يفقد أفرادا بالموت و الفناء،و ينقص عدده بمرور الدهر لكن لا لمطلوبيتهم فى نفسه بل للتوصل به الى ابقاء ذكر اللّه سبحانه ببقاء النسل و حدوث أفراد صالحين ذوى أعمال صالحه تعود مثوباتها و خيراتها الى انفسهم و الى صالحى آبائهم المتسببين إليهم كما قال تعالى: وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ (يس١٢/) (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٢۴ الى ٢٢٧]

اشاره

وَ لاٰ تَجْعَلُوا اَللّٰهَ عُرْضَةً لِأَيْمٰانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تُصْلِحُوا بَيْنَ اَلنّٰاسِ وَ اَللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢۴) لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اَللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢۵) لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسٰائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فٰاؤُ فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢۶) وَ إِنْ عَزَمُوا اَلطَّلاٰقَ فَإِنَّ اَللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)

بيان:

قوله تعالى: وَ لاٰ تَجْعَلُوا اللّٰهَ عُرْضَةً لِأَيْمٰانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا الى آخر الآيه؛

١- ١) .البقره ٢٢٢-٢٢٣:بحث روائى فى الحيض و منع مقاربه النساء فى تلك الحاله؛سيره اليهود مع النساء فى حال الحيض.

العرضه بالضم من العرض و هو كإراءه الشيء للشيء حتى يرى صلوحه لما يريده و يقصده كعرض المال للبيع و عرض المنزل للنزول و عرض الغذاء للأكل،و منه ما يقال المهدف:إنه عرضه للسهام،و للفتاه الصالحه للازدواج انها عرضه للنكاح،و للدابه المعده للسفر إنها عرضه للسفر و هذا هو الاصل فى معناها،و اما العرضه بمعنى المانع المعرض فى الطريق و كذلك العرضه بمعنى ما ينصب ليكون معرضا لتوارد الواردات و تواليها فى الورود كالهدف للسهام حتى يفيد كثره العوارض الى غير ذلك من معانيها فهى مما لحقها من موارد استعمالها غير دخيله فى اصل المعنى.

و الايمان جمع يمين بمعنى الحلف مأخوذه من اليمين بمعنى الجارحه لكونهم يضربون بها فى الحلف و العهد و البيعه و نحو ذلك فاشتق من آله العمل اسم للعمل،للملازمه بينها كما يشتق من العمل اسم لآله العمل كالسبابه للاصبع التى يسب بها و معنى الآيه(و اللّه اعلم):و لا تجعلوا اللّه عرضه تتعلق بها ايمانكم التى عقدتموها بحلفكم ان لا تبروا و تتقوا و تصلحوا بين الناس فإن اللّه سبحانه لا يرضى ان يجعل اسمه ذريعه للامتناع عما امر به من البر و التقوى و الاصلاح بين الناس،و يؤيد هذا المعنى ما ورد من سبب نزول الآيه على ما سننقله فى البحث الروائى إنشاء اللّه.

قوله تعالى: لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ الى آخر الآيه؛اللغو من الافعال ما لا يستتبع أثرا،و أثر الشيء يختلف باختلاف جهاته و متعلقاته،فلليمين أثر من حيث انه لفظ،و اثر من حيث انه مؤكد للكلام،و اثر من حيث انه عقد و اثر من حيث حنثه و مخالفه مؤداه،و هكذا إلاّ أن المقابله فى الآيه بين عدم المؤاخذه على لغو اليمين و بين المؤاخذه على ما كسبته القلوب و خاصه من حيث اليمين تدل على أن المراد بلغو اليمين ما لا يؤثر فى قصد الحالف،و هو اليمين الذى لا يعقد صاحبه على شيء من قول:لا و اللّه و بلى و اللّه.

و الکسب هو اجتلاب المنافع بالعمل بضعه أو حرفه أو نحوهما و اصله فی اقتناء ما یرتفع به حوائج الانسان المادیه ثم استعیر لکل ما یجتلبه الانسان بعمل من اعماله من خیر او شر ککسب المدح و الفخر و حسن الذکر بحسن الخلق و الخدمات النوعیه و کسب الخلق الحسن و العلم النافع و الفضیله بالاعمال المناسبه لها،و کسب اللوم و الذم،و اللعن و الطعن،و الذنوب و الآثام،و نحوها بالأعمال المستتبعه لذلک،فهذا هو المعنی الکسب و الاکتساب،و قد قیل فی الفرق بینهما أن الاکتساب اجتلاب الإنسان المنفعه لنفسه،و الکسب أعم مما یکون لنفسه او غیره مثل کسب العبد لسیده و کسب الولی للمولی علیه و نحو ذلک.

و کیف کان فالکاسب و المکتسب هو الإنسان لا غیر (۱).

قوله تعالی: لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ الخ؛الایلاء من الالیه بمعنی الحلف، و غلب فی الشرع فی حلف الزوج أن لا یأتی زوجته غضبا و اضرارا،و هو المراد فی الآیه، و التربص هو الانتظار،و الفیء هو الرجوع.

و الظاهر أن تعدیه الایلاء بمن لتضمینه معنی الابتعاد و نحوه فیفید وقوع الحلف علی الاجتناب عن المباشره،و یشعر به تحدید التربص بالاربعه أشهر فإنها الامد المضروب للمباشره الواجبه شرعا،و منه یعلم أن المراد بالعزم علی الطلاق العزم مع ایقاعه،و یشعر به أیضا تذییله بقوله تعالی: فَإِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ،فإن السمع انما یتعلق بالطلاق الواقع لا بالعزم علیه.

و فی قوله تعالی: فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ،دلاله علی أن الایلاء لا عقاب علیه علی تقدیر الفیء.و اما الکفاره فهی حکم شرعی لا یقبل المغفره،قال تعالی: لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ فَكَفّٰارَتُهُ إِطْعٰامُ عَشَرَهِ مَسٰاكِينَ الآیه

۱- ۱) .البقره ۲۲۴-۲۲۷:کلام فی معنی القلب فی القرآن.

(المائده۸۹/).

فالمعنى ان من آلى من امرأته يتربص له الحاكم اربعه اشهر فإن رجع الى حق الزوجيه و هو المباشره و كفر و باشر فلا عقاب عليه و ان عزم الطلاق و اوقعه فهو المخلص الآخر،و اللّه سميع عليم.

[سوره البقره (۲): الآيات ۲۲۸ الى ۲۴۲]

اشاره

وَ اَلْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَ لاٰ يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ فِي أَرْحٰامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذٰلِكَ إِنْ أَرٰادُوا إِصْلاٰحاً وَ لَهُنَّ مِثْلُ اَلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجٰالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَ اَللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۲۸) اَلطَّلاٰقُ مَرَّتٰانِ فَإِمْسٰاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسٰانٍ وَ لاٰ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمّٰا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاّٰ أَنْ يَخٰافٰا أَلاّٰ يُقِيمٰا حُدُودَ اَللّٰهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ يُقِيمٰا حُدُودَ اَللّٰهِ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِمٰا فِيمَا اِفْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اَللّٰهِ فَلاٰ تَعْتَدُوهٰا وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اَللّٰهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ اَلظّٰالِمُونَ (۲۲۹) فَإِنْ طَلَّقَهٰا فَلاٰ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتّٰى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهٰا فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِمٰا أَنْ يَتَرٰاجَعٰا إِنْ ظَنّٰا أَنْ يُقِيمٰا حُدُودَ اَللّٰهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اَللّٰهِ يُبَيِّنُهٰا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۲۳۰) وَ إِذٰا طَلَّقْتُمُ اَلنِّسٰاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لاٰ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرٰاراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَ لاٰ تَتَّخِذُوا آيٰاتِ اَللّٰهِ هُزُواً وَ اُذْكُرُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ مٰا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ اَلْكِتٰابِ وَ اَلْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۲۳۱) وَ إِذٰا طَلَّقْتُمُ اَلنِّسٰاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاٰ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوٰاجَهُنَّ إِذٰا تَرٰاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كٰانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ ذٰلِكُمْ أَزْكىٰ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (۲۳۲) وَ اَلْوٰالِدٰاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كٰامِلَيْنِ لِمَنْ أَرٰادَ أَنْ يُتِمَّ اَلرَّضٰاعَةَ وَ عَلَى اَلْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاٰ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاّٰ وُسْعَهٰا لاٰ تُضَارَّ وٰالِدَةٌ بِوَلَدِهٰا وَ لاٰ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَ عَلَى اَلْوٰارِثِ مِثْلُ ذٰلِكَ فَإِنْ أَرٰادٰا فِصٰالاً عَنْ تَرٰاضٍ مِنْهُمٰا وَ تَشٰاوُرٍ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِمٰا وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاٰدَكُمْ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ إِذٰا سَلَّمْتُمْ مٰا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲۳۳) وَ اَلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْوٰاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً فَإِذٰا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ فِيمٰا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۳۴) وَ لاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ فِيمٰا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ اَلنِّسٰاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اَللّٰهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَ لٰكِنْ لاٰ تُوٰاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاّٰ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَ لاٰ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ اَلنِّكٰاحِ حَتّٰى يَبْلُغَ اَلْكِتٰابُ أَجَلَهُ وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۲۳۵) لاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ اَلنِّسٰاءَ مٰا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى اَلْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى اَلْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتٰاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى اَلْمُحْسِنِينَ (۲۳۶) وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مٰا فَرَضْتُمْ إِلاّٰ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا اَلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ اَلنِّكٰاحِ وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ وَ لاٰ تَنْسَوُا اَلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اَللّٰهَ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲۳۷) حٰافِظُوا عَلَى اَلصَّلَوٰاتِ وَ اَلصَّلاٰةِ اَلْوُسْطىٰ وَ قُومُوا لِلّٰهِ قٰانِتِينَ (۲۳۸) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجٰالاً أَوْ رُكْبٰاناً فَإِذٰا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اَللّٰهَ كَمٰا عَلَّمَكُمْ مٰا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (۲۳۹) وَ اَلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْوٰاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوٰاجِهِمْ مَتٰاعاً إِلَى اَلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرٰاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ فِي مٰا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَ اَللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۴۰) وَ لِلْمُطَلَّقٰاتِ مَتٰاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى اَلْمُتَّقِينَ (۲۴۱) كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اَللّٰهُ لَكُمْ آيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۲۴۲)

بیان:

قوله تعالی: وَ الْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ،اصل الطلاق التخليه عن وثاق و تقييد ثم استعير لتخليه المرأه عن حباله النكاح و قيد الزوجيه ثم صار حقيقه فی ذلک بکثره الاستعمال.

و التربص هو الانتظار و الحبس،و قد قيد بقوله تعالی: بِأَنْفُسِهِنَّ ،ليدل علی معنی التمکين من الرجال فيفيد معنی العده اعنی عده الطلاق،و هو حبس المرأه نفسها عن الازدواج تحذرا عن اختلاط المياه،و يزيد علی معنی العده الاشاره الی حکمه التشريع،و هو التحفظ عن اختلاط المياه و فساد الانساب،و لا يلزم اطراد الحکمه فی جميع الموارد فإن القوانين و الاحکام إنما تدور مدار المصالح و الحکم الغالبه دون العامه،فقوله تعالی يتربصن بأنفسهن بمنزله قولنا:

يعتددن احترازا من اختلاط المياه و فساد النسل بتمکين الرجال من أنفسهن،و الجمله خبر أريد به الانشاء تأکيدا.

و القروء جمع القرء،و هو لفظ يطلق علی الطهر و الحيض معا،فهو علی ما قيل من الاضداد، غير ان الاصل فی ماده قرء هو الجمع لکن لاکل جمع بل الجمع الذی يتلوه الصرف و التحويل و نحوه،و علی هذا فالأظهر ان يکون معناه الطهر لکونه حاله جمع الدم ثم استعمل فی الحيض لکونه حاله قذفه بعد الجمع،و بهذه العنايه اطلق علی الجمع بين الحروف للدلاله علی معنی القراءه،و قد صرح أهل اللغه بکون معناه هو الجمع،و يشعر بأن الاصل فی ماده قرء الجمع، قوله تعالی: لاَ تُحَرِّکْ بِهِ لِسَانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ

(القیامه۱۸/)،و قوله تعالی: وَ قُرْآناً فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النّٰاسِ عَلیٰ مُکْثٍ (الإسراء/ ۱۰۶)،حیث عبر تعالی فی الآیتین بالقرآن،و لم یعبر بالکتاب أو الفرقان أو ما یشبههما،و به سمی القرآن قرآنا.

قال الراغب فی مفرداته:و القرء فی الحقیقه اسم للدخول فی الحیض عن طهر و لما کان اسما جامعا للأمرین:الطهر و الحیض المتعقب له أطلق علی کل واحد لأن کل اسم موضوع لمعنیین معا یطلق علی کل واحد منهما اذا انفرد،کالمائده للخوان و الطعام،ثم قد یسمی کل واحد منهما بانفراده به،و لیس القرء اسما للطهر مجردا و لا للحیض مجردا،بدلیل ان الطاهر التی لم تر أثر الدم لا یقال لها:ذات قرء،و کذا الحائض التی استمر بها الدم لا یقال لها:ذلک،انتهی.

قوله تعالی: وَ لاٰ یَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ یَکْتُمْنَ مٰا خَلَقَ اللّٰهُ فِی أَرْحٰامِهِنَّ إِنْ کُنَّ یُؤْمِنَّ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ ،المراد به تحریم کتمان المطلقه الدم او الولد استعجالا فی خروج العده أو إضرارا بالزوج فی رجوعه و نحو ذلک،و فی تقییده بقوله: إِنْ کُنَّ یُؤْمِنَّ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ مع عدم اشتراط اصل الحکم بالایمان نوع ترغیب و حث لمطاوعه الحکم و التثبت علیه لما فی هذا التقیید من الاشاره الی ان هذا الحکم من لوازم الایمان باللّه و الیوم الآخر الذی علیه بناء الشریعه الاسلامیه فلا استغناء فی الاسلام عن هذا الحکم،و هذا نظیر قولنا:أحسن معاشره الناس ان أردت خیرا،و قولنا للمریض:علیک بالحمیه إن أردت الشفاء و البرء.

قوله تعالی: وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِی ذٰلِکَ إِنْ أَرٰادُوا إِصْلاٰحاً ،البعوله جمع البعل و هو الذکر من الزوجین ما داما زوجین و قد استشعر منه معنی الاستعلاء و القوه و الثبات فی الشدائد لما ان الرجل کذلک بالنسبه الی المرأه ثم جعل اصلا یشتق منه الالفاظ بهذا المعنی فقیل لراکب الدابه بعلها،و للأرض المستعلیه بعل،و للصنم بعل،و للنخل اذا عظم بعل و نحو ذلک.

ص :۲۹۳

و الضـمير فى بعولتهن للمطلقـات إلاّ ـ ان الحكم خـاص بالرجعيـات دون مطلق المطلقـات الاعم منها و من البائنات،و المشار اليه بذلك التربص الذى هو بمعنى العده،و التقييد بقوله ان ارادوا اصـلاحا،للدلاله على وجوب ان يكون الرجوع لغرض الاصـلاح لا لغرض الاضرار المنهى عنه بعد بقوله: وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا ،الآيه.

و لفـظ أحق اسم تفضـيل حقه ان يتحقق معنـاه دائمـا مع مفضـل عليه كـأن يكون للزوج الاـول حق فى المطلقه و لسائر الخطاب حق،و الزوج الاول احق بها لسبق الزوجيه،غير ان الرد المذكور لا يتحقق معنا الاّ مع الزوج الاول.

و من هنـا يظهر:ان فى الآيه تقـديرا لطيفا بحسب المعنى،و المعنى و بعولتهن أحق بهن من غيرهم،و يحصل ذلك بالرد و الرجوع فى ايـام العـده،و هـذه الأـحقيه انمـا تتحقـق فى الرجعيـات دون البائنـات الـتى لاـ رجوع فيهـا،و هـذه هى القرينه على ان الحكم مخصوص بالرجعيـات،لاـ ان ضـمير بعولتهن راجع الى بعض المطلقـات بنحو الاسـتخدام أو ما أشـبه ذلك،و الآيه خاصه محكم المدخول بهن من ذوات الحيض غير الحوامل،و اما غير المدخول بها و الصغيره و اليائسه و الحامل فلحكمها آيات أخر.

قوله تعالى: وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَهٌ ،المعروف هو الذى يعرفه الناس بالذوق المكتسب من نوع الحياه الاجتماعيه المتداوله بينهم،و قد كرر سبحانه المعروف فى هذه الآيات فذكره فى اثنى عشر موضعا اهتماما بأن يجرى هذا العمـل اعنى الطلاـق و مـا يلحق به على سـنن الفطره و السـلامه،فالمعروف تتضـمن هـدايه العقل،و حكم الشـرع،و فضـيله الخلق الحسن و سنن الادب.

قوله تعالى: اَلطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساکٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ ،المره بمعنى الـدفعه مأخوذه من المرور للـدلاله على الواحد من الفعل كما ان الدفعه و الكره و النزله مثلها وزنا و معنى و اعتبارا.

و التسريح أصله الاطلاق فى الرعى مأخوذ من سرحت الابل و هو ان ترعيه للسرح،و هو شجر له ثمر يرعاه الإبل،و قد استعير فى الآيه لإطلاق المطلقه بمعنى عدم الرجوع إليها فى العده،و التخليه عنها حتى تنقضى عدتها على ما سيجىء.

و المراد بالطلاق فى قوله تعالى: اَلطَّلاٰقُ مَرَّتٰانِ ،و الطلاق الـذى يجوز فيه الرجعه و لذا أردفه بقوله بعد:فإمساك،الخ؛و اما الثالث فالطلاق الذى يدل عليه قوله تعالى: فَإِنْ طَلَّقَهٰا فَلاٰ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتّٰى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ،الآيه.

و المراد بتسريحها بإحسان ظاهرا التخليه بينها و بين البينونه و تركها بعد كل من التطليقتين الاولیين حتى تبين بانقضاء العده و إن كـان الأـظهر انه التطليقه الثـالثه كمـا هو ظـاهر الإطلاـق فى تفريع قوله: فَإِمْسٰاكٌ ،الـخ؛و على هـذا فيكون قوله تعـالى بعـد:فإن طلقها،الخ؛بيانا تفصيليا للتسريح بعد البيان الإجمالى.

قوله تعـالى: إِلاّٰ أَنْ يَخٰافٰا أَلاّٰ يُقِيمٰا حُدُودَ اللّٰهِ ،الخوف هو الغلبه على ظنهمـا ان لاـ يقيما حـدود اللّه،و هى أوامره و نواهيه من الواجبـات و المحرمـات فى الـدين،و ذلـك إنمـا يكون بتباعـد أخلاقهما و ما يسـتوجبه حوائجهما و التباغض المتولـد بينهما من ذلك.

قوله تعـالى: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ يُقِيمٰا حُدُودَ اللّٰهِ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِمٰا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ،العـدول عن التثنيه الى الجمع فى قوله: خِفْتُمْ ،كانه للاشـاره الى لزوم ان يكون الخوف خوفـا يعرفه العرف و العـاده،لاـ مـا ربمـا يحصـل بـالتهوس و التلهى أو بالوسوسه و نحوها،و لذلك عدل أيضا عن الإضمار فقيل ألا يقيما حدود اللّه،و لم يقل فإن خفتم ذلك لمكان اللبس.

و أمـا نفى الجنـاح عنهمـا مع ان النهى فى قوله: وَ لاٰ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا ،الـخ؛إنما تعلق بالزوج فلأن حرمه الأخـذ على الزوج توجب حرمه الاعطـاء على الزوجه من بـاب الإعـانه على الاـثم و العـدوان إلاّـ فى طلاـق الخلع فيجوز توافقهمـا على الطلاـق مع الفديه،فلا جناح على الزوج ان يأخذ الفديه،و لا جناح على الزوجه ان تعطى الفديه و تعين على الأخذ فلا جناح عليهما فيما

افتدت به.

قوله تعالی: تِلْکَ حُدُودُ اللّٰهِ فَلاٰ تَعْتَدُوهٰا وَ مَنْ یَتَعَدَّ حُدُودَ اللّٰهِ الخ؛ المشار الیه هی المعارف المذکوره فی الآیتین و هی احکام فقهیه مشوبه بمسائل اخلاقیه، و أخری علمیه مبتنیه علی معارف اصلیه،و الاعتداء و التعدی هو التجاوز.

قوله تعالی: فَإِنْ طَلَّقَهٰا فَلاٰ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتّٰی تَنْکِحَ زَوْجاً غَیْرَهُ الی آخر الآیه،بیان لحکم التطلیقه الثالثه و هو الحرمه حتی تنکح زوجا غیره،و قد نفی الحل عن نفس الزوجه مع ان المحرم إنما هو عقدها أو وطئها لیدل به علی تعلق الحرمه بهما جمیعا، و لیشعر قوله تعالی: حَتّٰی تَنْکِحَ زَوْجاً غَیْرَهُ ،علی العقد و الوطء جمیعا،فإن طلقها الزوج الثانی فلا جناح علیهما أی علی المرأه و الزوج الاول ان یتراجعا الی الزوجیه بالعقد بالتوافق من الجانبین،و هو التراجع،و لیس بالرجوع الذی کان حقا للزوج فی التطلیقتین الاولیین، و ذلک إن ظنا ان یقیما حدود اللّٰه.

و وضع الظاهر موضع فی قوله تعالی: وَ تِلْکَ حُدُودُ اللّٰهِ ،لأن المراد بالحدود غیر الحدود.

و فی الآیه من عجیب الایجاز ما یبهت العقل،فإن الکلام علی قصره مشتمل علی أربعه عشر ضمیرا مع اختلاف مراجعها و اختلاطها من غیر ان یوجب تعقیدا فی الکلام،و لا إغلاقا فی الفهم.

قوله تعالی: وَ إِذٰا طَلَّقْتُمُ النِّسٰاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ -الی قوله- لِتَعْتَدُوا ،المراد ببلوغ الاجل الاشراف علی انقضاء العده فإن البلوغ کما یستعمل فی الوصول الی الغایه کذلک یستعمل فی الاقتراب منها،و الدلیل علی ان المراد به ذلک قوله تعالی: فَأَمْسِکُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ،اذ لا معنی للامساک و لا التسریح بعد انقضاء العده:و فی قوله تعالی: وَ لاٰ تُمْسِکُوهُنَّ ضِرٰاراً لِتَعْتَدُوا ،نهی عن الرجوع بقصد المضاره کما نهی عن التسریح بالأخذ من المهر فی غیر الخلع.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ الى آخر الآيه؛إشاره الى حكمه النهى عن الامساك للمضاره فإن التزويج لتتميم سعاده الحياه،و لا يتم ذلك إلاّ بسكون كل من الزوجين الى الآخر و إعانته فى رفع حوائج الغرائز،و الامساك خاصه رجوع الى الاتصال و الاجتماع بعد الانفصال و الافتراق،و فيه جمع الشمل بعد شتاته،و أين ذلك من الرجوع بقصد المضاره.

فمن يفعل ذلك أى امسك ضرار فقد ظلم نفسه حيث حملها على الانحراف عن الطريق التى تهدى إليها فطرته الانسانيه.

على انه اتخذ آيات اللّه هزوا يستهزئ بها فإن اللّه سبحانه لم يشرع ما شرعه لهم من الاحكام تشريعا جامدا يقتصر فيه على اجرام الافعال أخذا و إعطاء و إمساكا و تسريحا و غير ذلك،بل بناها على مصالح عامه يصلح بها فاسد الاجتماع،و يتم بها سعاده الحياه الانسانيه،و خلطها بأخلاق فاضله تتربى بها النفوس،و تطهرها الأرواح،و تصفو بها المعارف العاليه:من التوحيد و الولايه و سائر الاعتقادات الزاكيه،فمن اقتصر فى دينه على ظواهر الاحكام و نبذ غيرها وراء ظهره فقد اتخذ آيات اللّه هزوا.

و المراد بالنعمه فى قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ ،نعمه الدين أو حقيقه الدين و هى السعاده التى تنال بالعمل بشرائع الدين كسعاده الحياه المختصه بتألف الزوجين،فإن اللّه تعالى سمى السعاده الدينيه نعمه كما فى قوله تعالى: وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي (المائده/۳)،و قوله تعالى: وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ (المائده/۶)،و قوله تعالى: فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوٰاناً (آل عمران/۱۰۳).

و على هذا يكون قوله تعالى بعده:و ما أنزل عليكم من الكتاب و الحكمه يعظكم به، كالمفسر لهذه النعمه،و يكون المراد بالكتاب و الحكمه ظاهر الشريعه و باطنها أعنى أحكامها و حكمها.

و يمكن أن يكون المراد بالنعمه مطلق النعم الإلهيه،التكوينيه و غيرها فيكون المعنى:

اذكروا حقيقه معنى حياتكم و خاصه المزايا و محاسن التألف و السكونه بين الزوجين و ما بينه اللّه تعالى لكم بلسان الوعظ من المعارف المتعلقه بها فى ظاهر الأحكام و حكمها فإنكم إن تأملتم ذلك أوشك أن تلزموا صراط السعاده،و لا تفسدوا كمال حياتكم و نعمه وجودكم، و اتقوا اللّه و لتتوجه نفوسكم الى أن اللّه بكل شىء عليم،حتى لا يخالف ظاهركم باطنكم،و لا تجترءوا على اللّه بهدم باطن الدين فى صوره تعمير ظاهره.

قوله تعالى: وَ إِذٰا طَلَّقْتُمُ النِّسٰاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاٰ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوٰاجَهُنَّ إِذٰا تَرٰاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ،العضل المنع،و الظاهر أن الخطاب فى قوله:

فَلاٰ تَعْضُلُوهُنَّ ،لاوليائهن و من يجرى مجراهم ممن لا يسعهن مخالفته،و المراد بأزواجهن، الازواج قبل الطلاق،فالآيه تدل على نهى الاولياء و من يجرى مجراهم عن منع المرأه أن تنكح زوجها ثانيا بعد انقضاء العده سخطا و لجاجا كما يتفق كثيرا،و لا دلاله فى ذلك على أن العقد لا يصح إلاّ بولى.

و المراد بقوله تعالى: فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ،انقضاء العده،فإن العده لو لم تنقض لم يكن لاحد من الاولياء و غيرهم ان يمنع ذلك و بعولتهن احق بردهن فى ذلك.على أن قوله تعالى: أَنْ يَنْكِحْنَ ، دون ان يقال:يرجعن و نحوه ينافى ذلك.

قوله تعالى: ذٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كٰانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ، هذا كقوله فيما مر:و لا يحل لهن ان يكتمن ما خلق اللّه فى أرحامهن إن كن يؤمن باللّه و اليوم الآخر،الآيه،و إنما خص الموردان من بين الموارد بالتقييد بالإيمان باللّه و اليوم الآخر،و هو التوحيد،لان دين التوحيد يدعو الى الاتحاد دون الافتراق،و يقضى بالوصل دون الفصل.

و فى قوله تعالى: ذٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كٰانَ مِنْكُمْ ،التفات الى خطاب المفرد من خطاب الجمع ثم التفات عن خطاب المفرد الى خطاب الجمع،و الاصل فى هذا الكلام خطاب المجموع اعنى

ص :۲۹۸

خطاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و امته جميعا لكن ربما التفت الى خطاب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وحده فى غير جهات الاحكام كقوله: تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاٰ تَعْتَدُوهٰا ،و قوله فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ ،و قوله:

وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذٰلِكَ ،و قوله: ذٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كٰانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ ،حفظا لقوام الخطاب،و رعايه لحال من هو ركن فى هذه المخاطبه و هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنه هو المخاطب بالكلام من غير واسطه،و غيره فخاطب بوساطته،و اما الخطابات المشتمله على الاحكام فجميعها موجهه نحو المجموع،و يرجع حقيقه هذا النوع من الالتفات الكلامى الى توسعه الخطاب بعد تضييقه و تضييقه بعد توسعته فليتدبر فيه.

قوله تعالى: ذٰلِكُمْ أَزْكىٰ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ ،الزكاه هو النمو الصالح الطيب،و قد مرّ الكلام فى معنى الطهاره،و المشار اليه بقوله:ذلكم عدم المنع عن رجوعهن الى ازواجهن،او نفس رجوعهن الى ازواجهن،و المآل واحد،و ذلك ان فيه رجوعا من الانثلام و الانفصال الى الالتيام و الاتصال،و تقويه لغريزه التوحيد فى النفوس فينمو على ذلك جميع الفضائل الدينيه، و فيه تربيه لملكه العفه و الحياء فيهن و هو استر لهن و اطهر لنفوسهن،و من جهه أخرى فيه حفظ قلوبهن عن الوقوع على الاجانب اذا منعن عن نكاح ازواجهن.

و الإسلام دين الزكاه و الطهاره و العلم،قال تعالى: وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ (آل عمران/۱۶۴)،و قال تعالى: وَ لٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ (المائده/۷).

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ ،اى إلا ما يعلمكم كما قال تعالى:

وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ (آل عمران/۱۶۴)،و قال تعالى: وَ لاٰ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ (البقره/۲۵۵)،فلا تنافى بين هذه الآيه و بين قوله تعالى: وَ تِلْكَ حُدُودُ اللّٰهِ يُبَيِّنُهٰا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ،الآيه؛اى يعلمون بتعليم اللّه.

قوله تعالى: وَ الْوٰالِدٰاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كٰامِلَيْنِ لِمَنْ أَرٰادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضٰاعَةَ .الوالدات هن الامهات،و إما عدل عن الامهات الى الوالدات لان الام اعم من

الوالـده کما ان الاب اعم من الوالد و الابن اعم من الولد،و الحکم فی الآیه مشروع فی خصوص مورد الوالده و الولد و المولود له،و اما تبدیل الوالد بالمولود له،ففیه اشاره الی حکمه التشریع فإن الوالد لما کان مولودا للوالد ملحقا به فی معظم أحکام حیاته لا ـ فی جمیعها کما سیجیء بیانها فی آیه التحریم من سوره النساء إنشاء اللّه کان علیه ان یقوم بمصالح حیاته و لوازم تربیته،و منها کسوه أمه التی ترضعه،و نفقتها،و کان علی أمه أن لا تضار والده لان الولد مولود له.

قوله تعالی: وَ عَلَی الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ کِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا ـ تُکَلَّفُ نَفْسٌ إِلاّ ـ وُسْعَها ،المراد بالمولود له هو الوالد کما مر،و الرزق و الکسوه هما النفقه و اللباس،و قد نزلهما اللّه تعالی علی المعروف و هو المتعارف من حالهما،و قد علل ذلک بحکم عام آخر رافع للحرج،و هو قوله تعالی: لا تُکَلَّفُ نَفْسٌ إِلاّ وُسْعَها ،و قد فرع علیه حکمین آخرین،احدهما:حق الحضانه و الارضاع الذی للزوجه و ما اشبهه فلا یحق للزوج ان یحول بین الوالده و ولدها بمنعها عن حضانته أو رؤیته أو ما أشبه ذلک فإن ذلک مضاره و حرج علیها،و ثانیهما:نفی مضاره الزوجه للزوج بولده بأن تمنعه عن الرؤیه و نحو ذلک،و ذلک قوله تعالی:لا تضار والده بولدها و لا ـ مولود له بولده،و النکته فی وضع الظاهر موضع الضمیر أعنی فی قوله: بِوَلَدِهِ دون ان یقول به رفع التناقض المتوهم،فإنه لو قیل:و لا مولود له به رجع الضمیر الی قوله ولدها و کان ظاهر المعنی:و لا مولود له بولد المرأه فأوهم التناقض لان إسناد الولاده الی الرجل یناقض إسنادها الی المرأه،ففی الجمله مراعاه لحکم التشریع و التکوین معا أی إن الولد لهما معا تکوینا فهو ولده و ولدها،و له فحسب تشریعا لانه مولود له.

قوله تعالی: وَ عَلَی الْوارِثِ مِثْلُ ذلِکَ ،ظاهر الآیه:ان الذی جعل علی الوالد من الکسوه و النفقه فهو مجعول علی وارثه إن مات،و قد قیل فی معنی الآیه أشیاء أخر لا

يوافق ظاهرها،و قد تركنا ذكرها لانها بالبحث الفقهى أمس فلتطلب من هناك،و الذى ذكرناه هو الموافق لمذهب أئمه أهل البيت فيما نقل عنهم من الاخبار،و هو الموافق أيضا لظاهر الآيه.

قوله تعالى: فَإِنْ أَرٰادٰا فِصٰالاً عَنْ تَرٰاضٍ مِنْهُمٰا وَ تَشٰاوُرٍ الى آخر الآيه؛ الفصال:الفطام،و التشاور:الاجتماع على المشوره،و الكلام تفريع على الحق المجعول للزوجه و نفى الحرج عن البين،فالحضانه و الرضاع ليس واجبا عليها غير قابل التغيير،بل هو حق يمكنها أن تتركه.

فمن الجائز ان يتراضيا بالتشاور على فصال الولد من غير جناح عليهما و لا بأس،و كذا من الجائز ان يسترضع الزوج لولده من غير الزوجه الوالده اذا ردت الولد اليه بالامتناع عن ارضاعه،او لعله أخرى من انقطاع لبن او مرض و نحوه اذا سلم لها ما تستحقها تسليما بالمعروف بحيث لا يزاحم فى جميع ذلك حقها،و هو قوله تعالى: وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاٰدَكُمْ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ إِذٰا سَلَّمْتُمْ مٰا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ .

قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ،أمر بالتقوى و ان يكون هذا التقوى بإصلاح صوره هذه الاعمال،فإنها أمور مرتبطه بالظاهر من الصوره و لذلك قال تعالى:و اعلموا ان اللّٰه بما تعملون بصير،و هذا بخلاف ما فى ذيل قوله تعالى السابق:و اذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن،الآيه؛من قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ،فان تلك الآيه مشتمله على قوله تعالى: وَ لاٰ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرٰاراً لِتَعْتَدُوا ، و المضاره ربما عادت الى النيه من غير ظهور فى صوره العمل إلاّ بحسب الأثر بعد.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْوٰاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً ،التوفى هو الاماته،يقال:توفاه اللّٰه اذا اماته فهو متوفى بصيغه اسم المفعول،و يذرون مثل يدعون بمعنى يتركون و لا ماضى لهما من مادتهما،و المراد بالعشر الايام

حذفت لدلاله الکلام علیه.

قوله تعالی: فَإِذٰا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَیْکُمْ فِیمٰا فَعَلْنَ فِی أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ،المراد ببلوغ الأجل انقضاء العده،و قوله: فَلاٰ جُنٰاحَ ،الخ؛کنایه عن إعطاء الاختیار لهن فی افعالهن فإن اخترن لأنفسهن الازدواج فلهن ذلک،و لیس لقرابه المیت منعهن عن شیء من ذلک استنادا الی بعض العادات المبنیه علی الجهاله و العمی أو الشح و الحسد فإن لهن حقا فی ذلک معروفا فی الشرع و لیس لأحد ان ینهی عن المعروف.

قوله تعالی: وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ ،لما کان الکلام مشتملا علی تشریع عده الوفاه و علی تشریع حق الازدواج لهن بعدها،و کان کل ذلک تشخیصا للأعمال مستندا الی الخبره الالهیه کان الانسب تعلیله بأن اللّه خبیر بالاعمال مشخص للمحظور منها عن المباح، فعلیهن أن یتربصن فی مورد و أن یخترن ما شئن لانفسهن فی مورد آخر،و لذا ذیل الکلام بقول:و اللّه بما تعملون خبیر.

قوله تعالی: لاٰ جُنٰاحَ عَلَیْکُمْ فِیمٰا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَهِ النِّسٰاءِ أَوْ أَکْنَنْتُمْ فِی أَنْفُسِکُمْ ،التعریض هو المیل بالکلام الی جانب لیفهم المخاطب أمرا مقصودا للمتکلم لا یرید التصریح به،من العرض بمعنی الجانب فهو خلاف التصریح.و الفرق بین التعریض و الکنایه ان للکلام الذی فیه التعریض معنی مقصودا غیر ما اعترض به کقول المخاطب للمرأه:إنی حسن المعاشره و احب النساء،ای لو تزوجت بی سعدت بطیب العیش و صرت محبوبه،بخلاف الکنایه اذ لا یقصد فی الکنایه غیر المکنی عنه کقولک:فلان کثیر الرماد ترید انه سخی.

و الخطبه بکسر الخاء من الخطب بمعنی التکلم و المراجعه فی الکلام،یقال:خطب المرأه خطبه بالکسر اذا کلمها فی أمر التزوج بها فهو خاطب و لا یقال:خطیب و یقال خطب القوم خطبه بضم الخاء اذا کلمهم،و خاصه فی الوعظ فهو خاطب من الخطّاب و خطیب من الخطباء.

ص :۳۰۲

و الاکنان من الکن بالفتح بمعنی الستر لکن یختص الاکنان بما یستر فی النفس کما قال:او أکننتم فی انفسکم،و الکن بما یستر بشیء من الاجسام کمحفظه او ثوب او بیت،قال تعالی:

کَأَنَّهُنَّ بَیْضٌ مَکْنُونٌ (الصافات۴۹/)،و قال تعالی: کَأَمْثٰالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَکْنُونِ (الواقعه۲۳/)،و المراد بالآیه نفی البأس عن التعریض فی الخطبه او إخفاء أمور فی القلب فی امرها.

قوله تعالی: عَلِمَ اللّٰهُ أَنَّکُمْ سَتَذْکُرُونَهُنَّ ،فی مورد التعلیل لنفی الجناح عن الخطبه و التعریض فیها،و المعنی:ان ذکرکم إیاهن امر مطبوع فی طباعکم و اللّه لا ینهی عن امر تقضی به غریزتکم الفطریه و نوع خلقتکم،بل یجوزه،و هذا من الموارد الظاهره فی ان دین الاسلام مبنی علی اساس الفطره.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَعْزِمُوا عُقْدَهَ النِّکٰاحِ حَتّٰی یَبْلُغَ الْکِتٰابُ أَجَلَهُ ،العزم عقد القلب علی الفعل و تثبیت الحکم بحیث لا یبقی فیه وهن فی تأثیره الا ان یبطل من رأس، و العقده من العقد بمعنی الشد.و فی الکلام تشبیه علقه الزوجیه بالعقده التی یعقد بها أحد الخیطین بالآخر بحیث یصیران واحدا بالاتصال،کأن حباله النکاح تصیر الزوجین واحدا متصلا،ثم فی تعلیق عقده النکاح بالعزم الذی هو امر قلبی اشاره الی ان سنخ هذه العقده و العلقه أمر قائم بالنیه و الاعتقاد فإنها من الاعتبارات العقلائیه التی لا موطن لها إلا ظرف الاعتقاد و الادراک،نظیر الملک و سائر الحقوق الاجتماعیه العقلائیه کما مر بیانه فی ذیل قوله تعالی: کٰانَ النّٰاسُ أُمَّهً وٰاحِدَهً الآیه(البقره۲۱۳/)،ففی الآیه استعاره و کنایه، و المراد بالکتاب هو المکتوب أی المفروض من الحکم و هو التربص الذی فرضه اللّه علی المعتدات.

فمعنی الآیه:و لا تجروا عقد النکاح حتی تنقضی عدتهن،و هذه الآیه تکشف أن الکلام فیها و فی الآیه السابقه علیها أعنی قوله تعالی: لاٰ جُنٰاحَ عَلَیْکُمْ فِیمٰا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَهِ النِّسٰاءِ

ص :۳۰۳

الآیه إنما هو فی خطبه المعتدات و فی عقدهن،و علی هذا فاللام فی قوله: اَلنِّسٰاءِ للعهد دون الجنس و غیره.

قوله تعالی: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ یَعْلَمُ مٰا فِی أَنْفُسِکُمْ الخ؛ایراد ما ذکر من صفاته تعالی فی الآیه،اعنی العلم و المغفره و الحکم یدل علی أن الامور المذکوره فی الآیتین و هی خطبه المعتدات و التعریض لهن و مواعدتهن سرا من موارد الهلکات لا یرتضیها اللّٰه سبحانه کل الارتضاء و إن کان قد أجاز ما أجازه منها.

قوله تعالی: لاٰ جُنٰاحَ عَلَیْکُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسٰاءَ مٰا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِیضَهً ،المس کنایه عن المواقعه،و المراد بفرض الفریضه تسمیه المهر،و المعنی:ان عدم مس الزوجه لا یمنع عن صحه الطلاق و کذا عدم ذکر المهر.

قوله تعالی: وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَی الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَی الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتٰاعاً بِالْمَعْرُوفِ ،التمتیع إعطاء ما یتمتع به،و المتاع و المتعه ما یتمتع به،و متاعا مفعول مطلق لقوله تعالی: وَ مَتِّعُوهُنَّ ،اعترض بینهما قوله تعالی: عَلَی الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَی الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ، و الموسع اسم فاعل من أوسع اذا کان علی سعه من المال و کأنه من الافعال المتعدیه التی کثر استعمالها مع حذف المفعول اختصارا حتی صار یفید ثبوت أصل المعنی فصار لازما و المقتر اسم فاعل من أقتر اذا کان علی ضیق من المعاش،و القدر بفتح الدال و سکونها بمعنی واحد.

و معنی الآیه:یجب علیکم ان تمتعوا المطلقات عن غیر فرض فریضه متاعا بالمعروف و إنما یجب علی الموسع قدره أی ما یناسب حاله و یتقدر به وضعه من التمتیع،و علی المقتر قدره من التمتیع،و هذا یختص بالمطلقه غیر المفروضه لها التی لم یسم مهرها،و الدلیل علی أن هذا التمتیع المذکور مختص بها و لا یعم المطلقه المفروضه لها التی لم یدخل بها ما فی الآیه التالیه من بیان حکمها.

قوله تعالى: حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ،ای حق الحکم حقا علی المحسنین،و ظاهر الجمله و ان کان کون الوصف اعنی الاحسان دخیلا فی الحکم،و حیث لیس الاحسان واجبا استلزم کون الحکم استحبابیا غیر وجوبی،إلاّ ان النصوص من طرق اهل البیت تفسر الحکم بالوجوب،و لعل الوجه فیه ما مر من قوله تعالی: اَلطَّلاٰقُ مَرَّتٰانِ فَإِمْسٰاکٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِیحٌ بِإِحْسٰانٍ الآیه فأوجب الاحسان علی المسرحین و هم المطلقون فهم المحسنون،و قد حق الحکم فی هذه الآیه علی المحسنین و هم المطلقون،و اللّه اعلم.

قوله تعالی: وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ الخ؛ای و ان وقعتم الطلاق قبل الدخول بهن و قد فرضتم لهن فریضه و سمیتم المهر فیجب علیکم تأدیه نصف ما فرضتم من المهر الی أن یعفون هؤلاء المطلقات او یعفو الذی بیده عقده النکاح من ولیهن فیسقط النصف المذکور ایضا،أو الزوج فان عقده النکاح بیده أیضا،فلا یجب علی الزوجه المطلقه رد نصف المهر الذی أخذت،و العفو علی أی حال أقرب للتقوی لان من أعرض عن حقه الثابت شرعا فهو علی الاعراض عما لیس له بحق من محارم اللّه سبحانه اقوی و اقدر.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَیْنَکُمْ الخ؛الفضل هو الزیاده کالفضول غیر ان الفضل هو الزیاده فی المکارم و المحامد و الفضول هو الزیاده غیر المحموده علی ما قیل،و فی الکلام ذکر الفضل الذی ینبغی ان یؤثره الانسان فی مجتمع الحیاه فیتفاضل به البعض علی بعض،و المراد به الترغیب فی الإحسان و الفضل بالعفو عن الحقوق و التسهیل و التخفیف من الزوج للزوجه و بالعکس،و النکته فی قوله تعالی:إن اللّه علی کل شیء بصیر،کالنکته فیما مر فی ذیل قوله تعالی: وَ الْوٰالِدٰاتُ یُرْضِعْنَ أَوْلاٰدَهُنَّ ،الآیه.

قوله تعالی: حٰافِظُوا عَلَی الصَّلَوٰاتِ الی آخر الآیه؛حفظ الشیء ضبطه و هو فی المعانی أعنی حفظ النفس لما تستحضره أو تدرکه من المعانی أغلب،

و الوسطی مؤنث الأوسط،و الصلاه الوسطی هی الواقعه فی وسطها،و لا یظهر من کلامه تعالی ما هو المراد من الصلاه الوسطی،و إنما تفسیره السنه،و سیجیء ما ورد من الروایات فی تعیینه.

و اللام فی قوله تعالی: قُومُوا لِلّٰهِ ،للغایه،و القیام بأمر کنایه عن تقلده و التلبس بفعله، و القنوت هو الخضوع بالطاعه،قال تعالی: کُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ (البقره۱۱۶/)،و قال تعالی:

وَ مَنْ یَقْنُتْ مِنْکُنَّ لِلّٰهِ وَ رَسُولِهِ (الأحزاب۳۱/)،فمحصل المعنی:تلبسوا بطاعه اللّه سبحانه بالخضوع مخلصین له و لأجله.

قوله تعالی: فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجٰالاً أَوْ رُکْبٰاناً الی آخر الآیه؛عطف الشرط علی الجمله السابقه یدل علی تقدیر شرط محذوف أی حافظوا إن لم تخافوا،و إن خفتم فقدروا المحافظه بقدر ما یمکن من الصلاه راجلین وقوفا أو مشیا أو راکبین،و الرجال جمع راجل و الرکبان جمع راکب،و هذه صلاه الخوف.

و الفاء فی قوله تعالی: فَإِذٰا أَمِنْتُمْ ،للتفریع أی ان المحافظه علی الصلاه أمر غیر ساقط من اصله بل إن لم تخافوا شیئا و أمکنت لکم وجبت علیکم و إن تعسر علیکم فقدروها بقدر ما یمکن لکم،و إن زال عنکم الخوف بتجدد الأمن ثانیا عاد الوجوب و وجب علیکم ذکر اللّه سبحانه.

و الکاف فی قوله تعالی: کَمٰا عَلَّمَکُمْ ،للتشبیه،و قوله: مٰا لَمْ تَکُونُوا تَعْلَمُونَ من قبیل وضع العام موضع الخاص دلاله علی الامتنان بسعه النعمه و التعلیم،و المعنی علی هذا:فاذکروا اللّه ذکرا یماثل ما علمکم من الصلاه المفروضه المکتوبه فی حال الأمن فی ضمن ما علمکم من شرائع الدین.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ یُتَوَفَّوْنَ مِنْکُمْ وَ یَذَرُونَ أَزْوٰاجاً وَصِیَّهً لِأَزْوٰاجِهِمْ .

وصیه مفعول مطلق لمقدر،و التقدیر لیوصوا وصیه ینتفع به أزواجهم و یتمتعن متاعا الی

الحول بعد التوفى.

و تعريف الحول باللام لا يخلو عن دلاله على كون الآيه نازله قبل تشريع عده الوفاه، أعنى الاربعه أشهر و عشره أيام فإن عرب الجاهليه كانت نسائهم يقعدن بعد موت أزواجهن حولا كاملا،فالآيه توصى بأن يوصى الازواج لهن بمال يتمتعن به الى تمام الحول من غير إخراجهن من بيوتهن،غير ان هذا لما كان حقا لهن و الحق يجوز تركه كان لهن ان يطالبن به، و ان يتركنه فإن خرجن فلا جناح للورثه و من يجرى مجراهم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف، و هذا نظير ما أوصى اللّه به من حضره الموت ان يوصى للوالدين و الأقربين بالمعروف،قال تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّهُ لِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (البقره ١٨٠/).و مما ذكرنا يظهر ان الآيه منسوخه بآيه عده الوفاه و آيه الميراث بالربع و الثمن.

قوله تعالى: وَ لِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ،الآيه فى حق مطلق المطلقات،و تعليق ثبوت الحكم بوصف التقوى مشعر بالاستحباب.

قوله تعالى: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ،الأصل فى معنى العقل العقد و الامساك و به سمى إدراك الانسان إدراكا يعقد عليه عقلا،و ما أدركه عقلا، و القوه التى يزعم انها إحدى القوى التى يتصرف بها الإنسان يميز بها بين الخير و الشر و الحق و الباطل عقلا،و يقابله الجنون و السفه و الحمق و الجهل باعتبارات مختلفه.

و الألفاظ المستعمله فى القرآن الكريم فى أنواع الإدراک كثيره ربما بلغت العشرين،كالظن، و الحسبان،و الشعور،و الذكر،و العرفان،و الفهم،و الفقه،و الدرايه،و اليقين،و الفكر، و الرأى،و الزعم،و الحفظ،و الحكمه،و الخبره،و الشهاده،و العقل،و يلحق بها مثل القول،

ص :٣٠٧

و الفتوی،و البصیره و نحو ذلک (۱)(۲)(۳)(۴).

[سوره البقره (۲): آیه ۲۴۳]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيٰارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ اَلْمَوْتِ فَقٰالَ لَهُمُ اَللّٰهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيٰاهُمْ إِنَّ اَللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى اَلنّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يَشْكُرُونَ (۲۴۳)

بیان:

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيٰارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ،الرؤیه هاهنا بمعنی العلم،عبر بـذلک لدعوی ظهوره بحیث یعد فیه العلم رؤیه فهو کقوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ (إبراهیم۱۹/)،و قوله تعالی:

أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّٰهُ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ طِبٰاقاً (نوح۱۵/).

و قد ذکر الزمخشری ان لفظ أ لم تر جری مجری المثل،یؤتی به فی مقام التعجیب فقولنا:أ لم تر کذا و کذا معناه أ لا تعجب لکذا و کذا،و حذر الموت مفعول له،و یمکن ان یکون مفعولا مطلقا و التقدیر یحذرون الموت حذرا.

ص :۳۰۸

۱- ۱) .البقره ۲۲۸-۲۴۳:بحث فی معانی الالفاظ المستعمله فی القرآن الکریم فی انواع الادراک کالظن و الحسبان و الشعور و الذکر و العرفان و الفهم و الفقه و الدرایه و الیقین و الفکر و الرأی و الزعم و الحفظ و الحکمه و الخبره و الشهاده و العقل.

۲- ۲) .البقره ۲۲۸-۲۴۳:بحث روائی فی الطلاق؛الرضاعه؛الصلاه الوسطی.

۳- ۳) .البقره ۲۲۸-۲۴۳:بحث علمی فی:حیاه المرأه فی الامم غیر المتمدنه؛حیاه المرأه فی الامم المتمدنه قبل الاسلام، حال المرأه عند العرب و محیط حیاتهم(محیط نزول القرآن)؛ما ذا ابدعه الاسلام فی امرها؛حریه المرأه فی المدینه الغربیه.

۴- ۴) .البقره ۲۲۸-۲۴۳:بحث علمی فی النکاح.

قوله تعالی: فَقٰالَ لَهُمُ اللّٰهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيٰاهُمْ ،الامر تكوینی و لا ینافی كون موتهم واقعا عن مجری طبیعی كما ورد فی الروایات:ان ذلک كان بالطاعون،و إنما عبر بالامر، دون ان یقال:فاماتهم اللّه ثم أحیاهم لیكون أدله علی نفوذ القدره و غلبه الامر،فإن التعبیر بالانشاء فی التكوینیات أقوی و آكد من التعبیر الاخبار كما ان التعبیر بصوره الاخبار الدال علی الوقوع فی التشریعیات أقوی و آكد من الانشاء،و لا یخلو قوله تعالی: ثُمَّ أَحْيٰاهُمْ عن الدلاله علی ان اللّه أحیاهم لیعیشوا فعاشوا بعد حیاتهم،اذ لو كان إحیائهم لعبره یعتبر بها غیرهم أو لاتمام حجه أو لبیان حقیقه لذكر ذلک علی ما هو دأب القرآن فی بلاغته كما فی قصه أصحاب الكهف،علی ان قوله تعالی بعد:إن اللّه لذو فضل علی الناس،یشعر بذلک ایضا.

قوله تعالی: وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَشْكُرُونَ ،الاظهار فی موضع الاضمار أعنی تكرار لفظ الناس ثانیا لما فیه من الدلاله علی انخفاض سطح أفكارهم،علی ان هؤلاء الذین تفضل اللّه علیهم بالاحیاء طائفه خاصه،و لیس المراد كون الاكثر منهم بعینهم غیر شاكرین بل الاكثر من جمیع الناس،و هذه الآیه لا تخلو عن مناسبه ما مع ما بعدها من الآیات المتعرضه لفرض القتال،لما فی الجهاد من إحیاء المله بعد موتها.

[سوره البقره (٢): الآیات ٢۴۴ الی ٢۵٢]

اشاره

وَ قٰاتِلُوا فِی سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢۴۴) مَنْ ذَا اَلَّذِی يُقْرِضُ اَللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضٰاعِفَهُ لَهُ أَضْعٰافاً كَثِيرَةً وَ اَللّٰهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢۴۵) أَ لَمْ تَرَ إِلَی اَلْمَلَإِ مِنْ بَنِی إِسْرٰائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسیٰ إِذْ قٰالُوا لِنَبِیٍّ لَهُمُ اِبْعَثْ لَنٰا مَلِكاً نُقٰاتِلْ فِی سَبِيلِ اَللّٰهِ قٰالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ اَلْقِتٰالُ أَلاّٰ تُقٰاتِلُوا قٰالُوا وَ مٰا لَنٰا أَلاّٰ نُقٰاتِلَ فِی سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنٰا مِنْ دِيٰارِنٰا وَ أَبْنٰائِنٰا فَلَمّٰا كُتِبَ عَلَيْهِمُ اَلْقِتٰالُ تَوَلَّوْا إِلاّٰ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظّٰالِمِينَ (٢۴۶) وَ قٰالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اَللّٰهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طٰالُوتَ مَلِكاً قٰالُوا أَنّٰی يَكُونُ لَهُ اَلْمُلْکُ عَلَيْنٰا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ اَلْمٰالِ قٰالَ إِنَّ اَللّٰهَ اِصْطَفٰاهُ عَلَيْكُمْ وَ زٰادَهُ بَسْطَةً فِی اَلْعِلْمِ وَ اَلْجِسْمِ وَ اَللّٰهُ يُؤْتِی مُلْكَهُ مَنْ يَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ (٢۴٧) وَ قٰالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ اَلتّٰابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِمّٰا تَرَکَ آلُ مُوسیٰ وَ آلُ هٰارُونَ تَحْمِلُهُ اَلْمَلاٰئِكَةُ إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢۴٨) فَلَمّٰا فَصَلَ طٰالُوتُ بِالْجُنُودِ قٰالَ إِنَّ اَللّٰهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّی وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّی إِلاّٰ مَنِ اِغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاّٰ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمّٰا جٰاوَزَهُ هُوَ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قٰالُوا لاٰ طٰاقَةَ لَنَا اَلْيَوْمَ بِجٰالُوتَ وَ جُنُودِهِ قٰالَ اَلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاٰقُوا اَللّٰهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ مَعَ اَلصّٰابِرِينَ (٢۴٩) وَ لَمّٰا بَرَزُوا لِجٰالُوتَ وَ جُنُودِهِ قٰالُوا رَبَّنٰا أَفْرِغْ عَلَيْنٰا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدٰامَنٰا وَ اُنْصُرْنٰا عَلَی اَلْقَوْمِ اَلْكٰافِرِينَ (٢۵٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ قَتَلَ دٰاوُدُ جٰالُوتَ وَ آتٰاهُ اَللّٰهُ اَلْمُلْکَ وَ اَلْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمّٰا يَشٰاءُ وَ لَوْ لاٰ دَفْعُ اَللّٰهِ اَلنّٰاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ اَلْأَرْضُ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ ذُو فَضْلٍ عَلَی اَلْعٰالَمِينَ (٢۵١) تِلْکَ آيٰاتُ اَللّٰهِ نَتْلُوهٰا عَلَيْکَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّکَ لَمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ (٢۵٢)

بیان:

قوله تعالی: وَ قاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللّهِ الآیه؛فرض و إیجاب للجهاد،و قد قیده تعالی هاهنا و سائر المواضع من کلامه بکونه فی سبیل اللّه لئلا یسبق الی الوهم و لا یستقر فی الخیال ان هذه الوظیفه المهمه الدینیه لإیجاد السلطه الدنیویه الجافه،و توسعه المملکه الصوریه،کما تخیله الباحثون الیوم فی التقدم الاسلامی من الاجتماعیین و غیرهم،بل هو لتوسعه سلطه الدین التی فیها صلاح الناس فی دنیاهم و آخرتهم.

و فی قوله تعالی: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ ،تحذیر للمؤمنین فی سیرهم هذا السیر ان لا یخالفوا بالقول اذا أمر اللّه و رسوله بشیء،و لا یضمروا نفاقا کما کان ذلک من بنی إسرائیل حیث تکلموا فی امر طالوت فقالوا:أنّی یکون له الملک علینا،الخ؛و حیث قالوا:لا طاقه لنا الیوم بجالوت و جنوده،و حیث فشلوا و تولوا لما کتب علیهم القتال و حیث شربوا من النهر بعد ما نهاهم طالوت عن شربه.

قوله تعالی: مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَیُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً کَثِیرَهً ،القرض معروف و قد عد اللّه سبحانه ما ینفقونه فی سبیله قرضا لنفسه لما مر انه للترغیب،و لانه إنفاق فی سبیله،و لانه مما سیرد الیهم اضعافا مضاعفه.

و قد غیر سیاق الخطاب من الامر الی الاستفهام فقیل بعد قوله: وَ قاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللّهِ: مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً ،و لم یقل:قاتلوا فی سبیل اللّه و اقرضوا،لینشط بذلک ذهن المخاطب بالخروج من حیز الأمر غیر الخالی من کلفه التکلیف الی حیز الدعوه و الندب فیستریح بذلک و یتهیج.

ص:۳۱۱

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ،القبض الأخذ بالشىء اليك و يقابله البسط،و البصط هو البسط قلب سينه صادا لمجاورته حرف الاطباق و التفخيم و هو الطاء.

و ايراد صفاته الثلاث أعنى:كونه قابضا و باسطا و مرجعا يرجعون اليه للإشعار بأن ما أنفقوه بإقراضه تعالى لا يعود باطلا و لا يستبعد تضعيفه اضعافا كثيره فإن اللّه هو القابض الباسط،ينقص ما شاء،و يزيد ما شاء،و اليه يرجعون فيوفيهم ما أقرضوه أحسن التوفيه.

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِى إِسْرٰائِيلَ الى قوله: فِى سَبِيلِ اللّٰهِ ،الملأ كما قيل:الجماعه من الناس على رأى واحد،سميت بالملإ لكونها تملأ العيون عظمه و أبهه.

و قولهم لنبيهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل اللّه،على ما يعطيه السياق يدل على ان الملك المسمى بجالوت كان قد تملكهم،و سار فيهم بما افتقدوا به جميع شئون حياتهم المستقله من الديار و الأولاد بعد ما كان اللّه أنجاهم من آل فرعون،يسومونهم سوء العذاب ببعثه موسى و ولايته و ولايه من بعده من أوصيائه،و بلغ من اشتداد الامر عليهم ما انتبه به الخامد من قواهم الباطنه،و عاد الى انفسهم العصبيه الزائله المضعفه فعند ذلك سأل الملأ منهم نبيهم ان يبعث لهم ملكا ليرتفع به اختلاف الكلمه من بينهم و تتجمع به قواهم المتفرقه الساقطه عن التأثير،و يقاتلوا تحت امره فى سبيل اللّه.

قوله تعالى: هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتٰالُ أَلاّٰ تُقٰاتِلُوا ،كان بنو إسرائيل سألوا نبيهم ان يبعث لهم ملكا يقاتلون معه فى سبيل اللّه و ليس ذلك للنبى بل الأمر فى ذلك الى اللّه سبحانه،و لذلك ارجع نبيهم الامر فى القتال و بعث الملك الى اللّه تعالى،و لم يصرح باسمه تعظيما لأن الذى أجابهم به هو السؤال عن مخالفتهم و كانت مرجوه منهم ظاهره من حالهم بوحيه تعالى فنزه اسمه تعالى من التصريح به بل إنما أشار الى ان الامر منه و اليه تعالى بقوله: إِنْ كُتِبَ ،و الكتابه و هى الفرض انما تكون من اللّه تعالى.

و قد كانت المخالفه و التوالى عن القتال مرجوا منهم لكنه أورده بطريق الاستفهام ليتم الحجه عليهم بإنكارهم فيما سيجيبون به من قولهم: وَ مٰا لَنٰا أَلاّٰ نُقٰاتِلَ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ .

قوله تعالى: قٰالُوا وَ مٰا لَنٰا أَلاّٰ نُقٰاتِلَ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنٰا ، الاخراج من البلاد لما كان ملازما للتفرقه بينهم و بين أوطانهم المألوفه،و منعهم عن التصرف فيها و التمتع بها،كنى به عن مطلق التصرف و التمتع،و لذلك نسب الإخراج الى الأبناء أيضا كما نسب الى البلاد.

قوله تعالى: فَلَمّٰا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتٰالُ تَوَلَّوْا إِلاّٰ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظّٰالِمِينَ ،تفريع على قوله نبيهم:هل عسيتم،الخ؛و قولهم:و ما لنا ان لا نقاتل،و فى قوله تعالى:و اللّه عليم بالظالمين،دلاله على ان قول نبيهم لهم:هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ان لا تقاتلوه،انما كان لوحى من اللّه سبحانه:انهم سيتولون عن القتال.

قوله تعالى: وَ قٰالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّٰهَ قَدْ بَعَثَ -الى قوله- مِنَ الْمٰالِ ،فى جوابه عليه السّلام هذا حيث نسب بعث الملك الى اللّه تنبيه بما فات منهم اذ قالوا لنبيهم ابعث لنا ملكا نقاتل و لم يقولوا:اسأل اللّه ان يبعث لنا ملكا و يكتب لنا القتال.

و بالجمله التصريح باسم طالوت هو الذى أوجب منهم الاعتراض على ملكه و ذلك لوجود صفتين فيه كانتا تنافيان عندهم الملك،و هما ما حكاهما اللّه تعالى من قولهم أنى يكون له الملك علينا و نحن احق بالملك منه،و من المعلوم ان قولهم هذا لنبيهم،و لم يستدلوا على كونهم احق بالملك منه بشىء يدل على ان دليله كان أمرا بينا لا يحتاج الى الذكر،و ليس إلاّ ان بيت النبوه و بيت الملك فى بنى إسرائيل و هما بيتان مفتخران بموهبه النبوه و الملك كانتا غير البيت الذى كان منه طالوت،و بعباره أخرى لم يكن طالوت من بيت الملك و لا من بيت النبوه و لذلك اعترضوا على ملكه بأنا،و هم أهل بيت الملك أو الملك و النبوه معا،أحق بالملك منه لأن اللّه جعل الملك فينا فكيف يقبل الانتقال الى غيرنا،و هذا الكلام منهم من فروع قولهم بنفى

البداء و عدم جواز النسخ و التغيير حيث قالوا:يد اللّه مغلوله غلت أيديهم،و قد أجاب عنه نبيهم بقوله: إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰاهُ عَلَيْكُمْ فهذه إحدى الصفتين المنافيتين للملك عندهم،و الصفه الثانيه ما فى قولهم:و لم يؤت سعه من المال و قد كان طالوت فقيرا،و قد أجاب عنه نبيهم بقوله: وَ زٰادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ ،الخ.

قوله تعالى: قٰالَ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰاهُ عَلَيْكُمْ وَ زٰادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ ، الاصطفاء و الاستصفاء الاختيار و أصله الصفو،و البسطه هى السعه و القدره،و هذان جوابان عن اعتراضهم.

قوله تعالى: وَ قٰالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التّٰابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ،التابوت هو الصندوق،و هو على ما قيل فعلوت من التوب بمعنى الرجوع لأن الانسان يرجع الى الصندوق رجوعا بعد رجوع (1).

قوله تعالى: وَ بَقِيَّةٌ مِمّٰا تَرَكَ آلُ مُوسىٰ وَ آلُ هٰارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلاٰئِكَةُ الخ؛ آل الرجل خاصته من اهله و يدخل فيهم نفسه اذا اطلق،فآل موسى و آل هارون هم موسى و هارون و خاصتهما من اهلهما،و قوله: تَحْمِلُهُ الْمَلاٰئِكَةُ ،حال عن التابوت،و فى قوله تعالى: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ،كسياق صدر الآيه دلاله على أنهم سألوا نبيهم آيه على صدر ما أخبر به:ان اللّه قد بعث لكم طالوت ملكا.

قوله تعالى: فَلَمّٰا فَصَلَ طٰالُوتُ بِالْجُنُودِ قٰالَ إِنَّ اللّٰهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ -الى قوله- مِنْهُمْ ،الفصل هاهنا مفارقه المكان كما فى قوله تعالى: وَ لَمّٰا فَصَلَتِ الْعِيرُ (يوسف/٩۴)،و ربما استعمل بمعنى القطع و هو إيجاد المفارقه بين الشيئين كما قال تعالى:

وَ هُوَ خَيْرُ الْفٰاصِلِينَ (الأنعام/۵٧)،فالكلمه مما يتعدى و لا يتعدى.

ص: ٣١۴

١- ١) .البقره ٢۴۴-٢۵٢:كلام فى معنى السكينه.

و الجند المجتمع الغليظ من كل شیء و سمی العسكر جندا لتراكم الاشخاص فيه و غلظتهم، و فی جمع الجند فی الكلام دلاله علی أنهم كانوا من الكثره علی حد يعتنی به و خاصه مع ما فيه المؤمنين من القله بعد جواز النهر و تفرق الناس،و نظير هذه النكته موجود فی قوله تعالی: فَلَمّٰا فَصَلَ طٰالُوتُ بِالْجُنُودِ .

و فی مجموع الكلام إشاره الی حق الامر فی شأن بنی إسرائيل و إيفائهم بميثاق اللّه،فإنهم سألوا بعث الملک جميعا و شدوا الميثاق،و قد كانوا من الكثره بحيث لما تولوا إلاّ قليلا منهم عن القتال كان ذلک القليل الباقی جنودا،و هذه الجنود أيضا لم تغن عنهم شيئا بل تخلفوا بشرب النهر و لم يبق إلاّ القليل من شائبه فشل و نفاق بينهم من جهه المغترفين،و مع ذلک كان النصر للذين آمنوا و صبروا مع ما كان عليه جنود طالوت من الكثره.

و الابتلاء الامتحان،و النهر مجری الماء الفائض،و الاغتراف و الغرف رفع الشیء و تناوله، يقال:غرف الماء غرفه و اغترفه غرفه اذا رفعه ليتناوله و يشربه.

و فی استثناء قوله تعالی: إِلاّٰ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ عن مطلق الشرب دلاله علی أنه كان المنهی عنه هو الشرب علی حاله خاصه،و قد كان الظاهر أن يقال: فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّی إِلاّٰ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ غير أن وضع قوله تعالی: وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّی ،فی الكلام مع تبديل الشرب بالطعم و معناه الذوق أوجب تحولا فی الكلام من جهه المعنی اذ لو لم تضف الجمله الثانيه كان مفاد الكلام أن جميع الجنود كانوا من طالوت،و الشرب يوجب انقطاع جمع منه و الاغتراف يوجب الانقطاع من المنقطع أی الاتصال و أما لو اضيفت الجمله الثانيه،أعنی قوله تعالی: وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّی الی الجمله الاولی كان مفاد الكلام أن الامر غير مستقر بحسب الحقيقه بعد إلاّ بحسب الظاهر فالجنود فی الظاهر مع طالوت لكن لم يتحقق بعد أن الذين هم مع طالوت من هم،ثم النهر الذی سيبتليهم اللّه به سيحقق كلا الفريقين و يشخصهما فيعين به من ليس منه و هو من شرب من النهر،و يتعين به من هو منه و هو من لم يطعمه،و اذا

كان هـذا هو المفاد من الكلام لم يفـد قوله فى الاسـتثناء الا من اغترف غرفه بيده كون المغترفين من طالوت لان ذلك انما كان مفـادا لـو كـان المـذكور هنـاك الجمله الاـولى فقـط،و امـا مع وجـود الجملـتين فيتعين الطائفتـان:اعنى الـذين ليسـوا منه و هم الشـاربون،و الـذين هم منه و هم غير الطـاعمين،و من المعلوم ان الاخراج من الطائفه الاولى انما يوجب الخروج منها لا الـدخول فى الثانيه،و لازم ذلك ان الكلام يوجب وجود ثلاث طوائف:الـذين ليسوا منه،و الـذين هم منه، و المغترفون،و على هذا فالباقون معه بعـد الجواز طائفتان:الـذين هم منه،و الـذين ليسوا من الخارجين،فجاز أن يختلف حالهم فى الصبر و الجزع و الاعتماد باللّه و القلق و الاضطراب.

قوله تعالى: فَلَمّا جاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ الى آخر الآيه؛الفئه القطعه من الناس،و التدبر فى الآيات يعطى ان يكون القائلون:لا طاقه لنا،هم المغترفون،و المجيبون لهم هم الذين لم يطعموه اصلا،و الظن بلقاء اللّه إما بمعنى اليقين به و اما كنايه عن الخشوع.

و لم يقولوا:يمكن ان تغلب الفئه القليله الفئه الكثيره بـإذن اللّه،بـل قالوا:كم فئه،الـخ؛أخـذا بالواقع فى الاحتجاج بإراءه المصـداق ليكون أقنع للخصم.

قـوله تعـالى: وَ لَمّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ الـخ؛الـبروز هو الظهور،و منه الـبراز و هو الظهور للحرب،و الاـفراغ صب نحو المـاده السـياله فى القـالب و المراد افـاضه اللّه سـبحانه الصبر عليهم على قـدر ظرفيتهم فهو اسـتعاره بالكنايه لطيفه،و كـذا تثبيت الاقـدام كنايه عن الثبات و عدم الفرار.

قوله تعالى: فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللّهِ الخ؛الهزم الدفع.

قوله تعـالى: وَ لَوْ لاـ دَفْعُ اللّهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ الى آخر الآـيه؛من المعلوم أن المراد بفسـاد الارض فساد من على الارض اى فسـاد الاجتمـاع الإنسـانى و لو اسـتتبع فسـاد الاجتمـاع فسادا فى أديم الأرض فإنما هو داخل فى الغرض بالتبع لا بالـذات،و هـذه حقيقه من

الحقائق العلميه ينبه لها القرآن (۱).

قوله تعالی: تِلْکَ آیاتُ اللّهِ الخ؛کالخاتمه یختم بها الکلام و القصه غیر أن آخر الآیه:و إنک لمن المرسلین،لا یخلو عن ارتباط بالآیه التالیه (۲)(۳)(۴).

[سوره البقره (۲): الآیات ۲۵۳ الی ۲۵۴]

اشاره

تِلْکَ اَلرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلی بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ کَلَّمَ اَللّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَ آتَیْنا عِیسَی اِبْنَ مَرْیَمَ اَلْبَیِّناتِ وَ أَیَّدْناهُ بِرُوحِ اَلْقُدُسِ وَ لَوْ شاءَ اَللّهُ مَا اِقْتَتَلَ اَلَّذِینَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ اَلْبَیِّناتُ وَ لکِنِ اِخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ کَفَرَ وَ لَوْ شاءَ اَللّهُ مَا اِقْتَتَلُوا وَ لکِنَّ اَللّهَ یَفْعَلُ ما یُرِیدُ (۲۵۳) یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناکُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لا بَیْعٌ فِیهِ وَ لا خُلَّهٌ وَ لا شَفاعَهٌ وَ اَلْکافِرُونَ هُمُ اَلظّالِمُونَ (۲۵۴)

بیان:

قوله تعالی: تِلْکَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلی بَعْضٍ ،إشاره الی فخامه امر الرسل و علو مقامهم و لذلک جیء فی الإشاره بکلمه تلک الداله علی الاشاره الی بعید،و فیه

۱- ۱) .البقره ۲۴۴-۲۵۲:بحث فی:الدفع و الغلبه معنی الآیه؛ «لَوْ لا دَفْعُ اللّهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ» .

۲- ۲) .البقره ۲۴۴-۲۵۲:بحث روائی فی بنی اسرائیل بعد موت موسی و جالوت و طالوت.

۳- ۳) .البقره ۲۴۴-۲۵۲:بحث علمی و اجتماعی فی تنازع البقاء و الانتخاب الطبیعی و بقاء الامثل.

۴- ۴) .البقره ۲۴۴-۲۵۲:بحث فی التاریخ و ما یعتنی به القرآن منه.

دلاله على التفضيل الإلهى الواقع بين الانبياء عليهم السّلام ففيهم من هو افضل و فيهم من هو مفضل عليه،و للجميع فضل فإن الرساله فى نفسها فضيله و هى مشتركه بين الجميع،ففيما بين الرسل أيضا اختلاف فى المقامات و تفاوت فى الدرجات كما أن بين الذين بعدهم اختلافا على ما يدل عليه ذيل الآيه إلا ان بين الاختلافين فرقا،فإن الاختلاف بين الانبياء اختلاف فى المقامات و تفاضل فى الدرجات مع اتحادهم فى أصل الفضل و هو الرساله،و اجتماعهم فى مجمع الكمال و هو التوحيد،و هذا بخلاف الاختلاف الموجود بين امم الانبياء بعدهم فإنه اختلاف بالايمان و الكفر،و النفى و الاثبات،و من المعلوم أن لا جامع فى هذا النحو من الاختلاف،و لذلك فرق تعالى بينهما من حيث التعبير فسمى ما للانبياء تفضيلا و نسبه الى نفسه،و سمى ما عند الناس بالاختلاف و نسبه الى أنفسهم،فقال فى مورد الرسل فضلنا،و فى مورد أممهم اختلفوا.

و لما كان ذيل الآيه متعرضا لمسأله القتال مرتبطا بها و الآيات المتقدمه على الآيه أيضا راجعه الى القتال بالامر به و الاقتصاص فيه لم يكن مناص من كون هذه القطعه من الكلام أعنى قوله تعالى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا الى قوله بِرُوحِ الْقُدُسِ مقدمه لتبيين ما فى ذيل الآيه من قوله: وَ لَوْ شاءَ اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ الى قوله تعالى: وَ لكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ .

و على هذا فصدر الآيه لبيان أن مقام الرساله على اشتراكه بين الرسل عليهم السّلام مقام تنمو فيه الخيرات و البركات،و تنبع فيه الكمال و السعاده و درجات القربى و الزلفى كالتكليم الالهى و إيتاء البينات و التأييد بروح القدس،و هذا المقام على ما فيه من الخير و الكمال لم يوجب ارتفاع القتال لاستناده الى اختلاف الناس أنفسهم.

قوله تعالى: مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ ،فى الجملتين التفات من الحضور الى الغيبه،و الوجه فيه و اللّه اعلم-ان الصفات الفاضله على قسمين:منها ما هو بحسب نفس مدلول الاسم يدل على الفضيله كالآيات البينات،و كالتأييد بروح القدس كما ذكر لعيسى عليه السّلام فإن هذه الخصال بنفسها غاليه ساميه،و منها:ما ليس كذلك،و إنما يدل على

الفضيله و يستلزم المنقبه بواسطه الاضافه كالتكليم،فإنه لا يعد فى نفسه منقبه و فضيله إلا أن يضاف الى شيء فيكتسب منه البهاء و الفضل كإضافته الى اللّه عزّ اسمه،و كذا رفع الدرجات لا فضيله فيه بنفسه إلا ان يقال:رفع اللّه الدرجات مثلا فينسب الرفع الى اللّه،اذا عرفت هذا علمت:أن هذا هو الوجه فى الالتفات مثلا-فنسب الرفع الى اللّه،اذا عرفت هذا علمت:أن هذا هو الوجه فى الالتفات من الحضور الى الغيبه فى اثنتين من الجمل الثلاث حيث قال تعالى:

مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللّٰهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجٰاتٍ وَ آتَيْنٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنٰاتِ ،فحول وجه الكلام من التكلم الى الغيبه فى الجملتين الاولیین حتى اذا استوفى الغرض عاد الى وجه الكلام الاول و هو التكلم فقال تعالى:و آتينا عيسى بن مريم (1).

قوله تعالى: وَ آتَيْنٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنٰاتِ وَ أَيَّدْنٰاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، رجوع الى أصل السياق و هو التكلم دون الغيبه كما مر.

و الوجه فى التصريح باسم عيسى مع عدم ذكر غيره من الرسل فى الآيه:ان ما ذكره له عليه السّلام من جهات التفضيل و هو إيتاء البينات،و التأييد بروح القدس مشترك بين الرسل جميعا ليس مما يختص ببعضهم دون بعض،قال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ (الحديد/۲۵)، و قال تعالى: يُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا (النحل/ ۲)،لكنهما فى عيسى بنحو خاص فجميع آياته كإحياء الموتى و خلق الطير بالنفخ و إبراء الاكمه و الابرص؛و الاخبار عن المغيبات كانت أمورا متكئه على الحياه مترشحه عن الروح، فلذلك نسبها الى عيسى عليه السّلام و صرح باسمه اذ لو لا التصريح لم يدل على كونه فضيله خاصه كما لو قيل:و آتينا بعضهم البينات و أيدناه بروح القدس،اذ البينات و روح القدس كما عرفت مشتركه غير مختصه،فلا يستقيم نسبتها الى البعض بالاختصاص إلا مع التصريح باسمه ليعلم

۱- ۱) .البقره ۲۵۳-۲۵۴ كلام فى الكلام.

انها فيه بنحو خاص غير مشترك تقريبا،على ان فى اسم عيسى عليه السّلام خاصه اخرى و آيه بينه و هى انه ابن مريم لا أب له،قال تعالى: وَ جَعَلْنٰاهٰا وَ ابْنَهٰا آيَةً لِلْعٰالَمِينَ (الأنبياء/٩١)، فمجموع الابن و الام آيه بينه إلهيه و فضيله اختصاصيه اخرى.

قوله تعالى: وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ ،العدول الى الغيبه ثانيا لان المقام مقام إظهار ان المشيه و الاراده الربانيه غير مغلوبه،و القدره غير باطله،فجميع الحوادث على طرفى إثباتها و نفيها غير خارجه عن السلطنه الالهيه،و بالجمله وصف الالوهيه هى التى تنافى تقيد القدره و توجب إطلاق تعلقها بطرفى الايجاب و السلب فمست حاجه المقام الى اظهار هذه الصفه المتعاليه أعنى الالوهيه للذكر فقيل:و لو شاء اللّه ما اقتتل،و لم يقل:و لو شئنا ما اقتتل،و هذا هو الوجه أيضا فى قوله تعالى فى ذيل الآيه:و لو شاء اللّه ما اقتتلوا،و قوله: وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مٰا يُرِيدُ ،و هو الوجه ايضا فى العدول عن الاضمار الى الاظهار.

قوله تعالى: وَ لٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ،نسب الاختلاف اليهم لا الى نفسه لانه تعالى ذكر فى مواضع من كلامه:ان الاختلاف بالايمان و الكفر و سائر المعارف الاصليه المبينه فى كتب اللّه النازله على انبيائه انما حدث بين الناس بالبغى،و حاشا ان ينتسب اليه سبحانه بغى أو ظلم.

قوله تعالى: وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مَا اقْتَتَلُوا وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مٰا يُرِيدُ ،أى و لو شاء اللّه لم يؤثر الاختلاف فى استدعاء القتال و لكن اللّه يفعل ما يريد و قد أراد ان يؤثر هذا الاختلاف فى سوقه الناس الى الاقتتال جريا على سنه الاسباب.

و محصل معنى الآيه و اللّه العالم:ان الرسل التى ارسلوا الى الناس عباد للّه مقربون عند ربهم،مرتفع عن الناس أفقهم و هم مفضل بعضهم على بعض على ما لهم من الاصل الواحد و المقام المشترك،فهذا حال الرسل و قد أتوا للناس بآيات بينات أظهروا بها الحق كل الاظهار

و بينوا طريق الهدايه أتم البيان،و كان لازمه ان لا ينساق الناس بعدهم الا الى الوحده و الالفه و المحبه فى دين اللّه من غير اختلاف و قتال لكن كان هناك سبب آخر أعقم هذا السبب،و هو الاختلاف عن بغى منهم و انشعابهم الى مؤمن و كافر،ثم التفرق بعد ذلك فى سائر شئون الحياه و السعاده،و لو شاء اللّه لا عقم هذا السبب أعنى الاختلاف فلم يوجب الاقتتال و ما اقتتلوا، و لكن لم يشأ و أجرى هذا السبب كسائر الاسباب و العلل على سنه الاسباب التى أرادها اللّه فى عالم الصنع و الايجاد،و اللّه يفعل ما يريد.

و قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا الخ؛معناه واضح و فى ذيل الآيه دلاله على ان الاستنكاف عن الانفاق كفر و ظلم .(۱)(۲)

[سوره البقره (۲): آيه ۲۵۵]

اشاره

اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ اَلْحَيُّ اَلْقَيُّومُ لاٰ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لاٰ نَوْمٌ لَهُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ مَنْ ذَا اَلَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ لاٰ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ لاٰ يَؤُدُهُ حِفْظُهُمٰا وَ هُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْعَظِيمُ (۲۵۵)

بيان:

قوله تعالى: اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ،قد تقدم فى سوره الحمد بعض

۱- ۱) .البقره ۲۵۳-۲۵۴ بحث روائى حول الآيه «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ» ؛كيفيه تكليم اللّه لموسى عليه السّلام.

۲- ۲) البقره ۲۵۳-۲۵۴ بحث فلسفى فى الكلام.

الکلام فی لفظ الجلاله،و انه سواء أخذ من أله الرجل بمعنی تاه و وله أو من أله بمعنی عبد فلازم معناه الذات المستجمع لجمیع صفات الکمال علی سبیل التلمیح.

و قد تقدم بعض الکلام فی قوله تعالی: لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ ،فی قوله تعالی: وَ إِلٰهُکُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ (البقره۱۶۳/)،و ضمیر هو و ان رجع الی اسم الجلاله لکن اسم الجلاله لما کان علما بالغلبه یدل علی نفس الذات من حیث انه ذات و ان کان مشتملا علی بعض المعانی الوصفیه التی یلمح باللام أو بالاطلاق إلیها،فقوله: لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ ،یدل علی نفی حق الثبوت عن الآلهه التی تثبت من دون اللّٰه.

و اما اسم الحی فمعناه ذو الحیاه الثابته علی وزان سائر الصفات المشبهه فی دلالتها علی الدوام و الثبات.

و الناس فی بادئ مطالعتهم لحال الموجودات وجدوها علی قسمین:قسم منها لا یختلف حاله عند الحس ما دام وجوده ثابتا کالأحجار و سائر الجمادات،و قسم منها ربما تغیرت حاله و تعطلت قواه و افعاله مع بقاء وجودها علی ما کان علیه عند الحس،و ذلک کالانسان و سائر اقسام الحیوان و النبات فإنا ربما نجدها تعطلت قواها و مشاعرها و افعالها ثم یطرأ علیها الفساد تدریجا،و بذلک أذعن الانسان بان هناک وراء الحواس امرا آخر هو المبدأ للاحساسات و الادراکات العلمیه و الافعال المبتنیه علی العلم و الاراده و هو المسمی بالحیاه و یسمی بطلانه بالموت،فالحیاه نحو وجود یترشح عنه العلم و القدره.

و قد ذکر اللّٰه سبحانه هذه الحیاه فی کلامه ذکر تقریر لها،قال تعالی: اِعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا (الحدید۱۷/)،و قال تعالی: أَنَّکَ تَرَی الْأَرْضَ خٰاشِعَهً فَإِذٰا أَنْزَلْنٰا عَلَیْهَا الْمٰاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِی أَحْیٰاهٰا لَمُحْیِ الْمَوْتیٰ (فصلت۳۹/)،و قال تعالی: وَ مٰا یَسْتَوِی الْأَحْیٰاءُ وَ لاَ الْأَمْوٰاتُ (فاطر۲۲/)،و قال تعالی: وَ جَعَلْنٰا مِنَ الْمٰاءِ کُلَّ شَیْءٍ حَیٍّ (الأنبیاء۳۰/)،فهذه تشمل حیاه أقسام الحی من الانسان و الحیوان و النبات.

و كـذلك القول فى اقسام الحياه،قال تعالى: وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنُّوا بِهَا (يونس/٧)،و قال تعالى: رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ (المؤمن/١١)،و الإحياءان المذكور ان يشتملان على حياتين:إحداهما:الحياه البرزخيه،و الثانيه:الحياه الآخره، فللحياه أقسام كما للحى أقسام.

و اللّه سبحانه مع ما يقرر هذه الحياه الدنيا يعدها فى مواضع كثيره من كلامه شيئا رديا هينا لا يعبأ بشأنه كقوله تعالى: وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ (الرعد/٢٦)،و قوله تعالى: تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (النساء/٩٤)،و قوله تعالى: تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (الكهف/٢٨)،و قوله تعالى: وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَ لَهْوٌ (الأنعام/٣٢)، و قوله تعالى: وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (الحديد/٢٠)،فوصف الحياه الدنيا بهذه الاوصاف فعدها متاعا و المتاع ما يقصد لغيره،و عدها عرضا و العرض ما يعترض ثم يزول، و عدها زينه و الزينه هو الجمال الذى يضم على الشىء ليقصد الشىء لاجله فيقع غير ما قصد و يقصد غير ما وقع،و عدها لهوا و اللهو ما يلهيك و يشغلك بنفسه عما يهمك،و عدها لعبا و اللعب هو الفعل الذى يصدر لغايه خياليه لا حقيقيه،و عدها متاع الغرور و هو ما يغر به الانسان.

و يفسر جميع هذه الآيات و يوضحها قوله تعالى: وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت/٦٤)،يبين ان الحياه الدنيا إنما تسلب عنها حقيقه الحياه أى كمالها فى مقابل ما تثبت للحياه الآخره حقيقه الحياه و كمالها، و هى الحياه التى لا موت بعدها،قال تعالى: آمِنِينَ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولَى (الدخان/٥٦)،و قال تعالى: لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (ق/٣٥)،فلهم فى حياتهم الآخره أن لا يعتريهم الموت،و لا يعترضهم نقص فى العيش و تنغص،لكن الاول من الوصفين أعنى الامن هو الخاصه الحقيقيه للحياه الضروريه له.

فالحیاه الاخرویه هی الحیاه بحسب الحقیقه لعدم إمکان طرو الموت علیها بخلاف الحیاه الدنیا،لکن اللّه سبحانه مع ذلک أفاد فی آیات أخر کثیره انه تعالی هو المفیض للحیاه الحقیقیه الاخرویه و المحیی للإنسان فی الآخره،و بیده تعالی أزمه الامور،فأفاد ذلک ان الحیاه الاخرویه أیضا مملوکه لا مالکه و مسخره لا مطلقه أعنی انها إنما ملکت خاصتها المذکوره باللّه لا بنفسها.

و من هنا یظهر ان الحیاه الحقیقه یجب ان تکون بحیث یستحیل طرو الموت علیها لذاتها و لا یتصور ذلک إلا بکون الحیاه عین ذات الحی غیر عارضه لها و لا طارئه علیها بتملیک الغیر و إفاضته،قال تعالی: وَ تَوَکَّلْ عَلَی الْحَیِّ الَّذِی لاٰ یَمُوتُ (الفرقان/۵۸)،و علی هذا فالحیاه الحقیقیه هی الحیاه الواجبه،و هی کون وجوده بحیث یعلم و یقدر بالذات.

و من هنا یعلم:ان القصر فی قوله تعالی: هُوَ الْحَیُّ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ قصر حقیقی غیر إضافی،و ان حقیقه الحیاه التی لا یشوبها موت و لا یعتریها فناء و زوال هی حیاته تعالی.

فالاوفق فیما نحن فیه من قوله تعالی: اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ ؛الآیه؛و کذا فی قوله تعالی: الم اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ (آل عمران/۱)ان یکون لفظ الحی خبرا بعد خبر فیفید الحصر لان التقدیر،اللّه الحی فالآیه تفید ان الحیاه للّه محضا إلا ما أفاضه لغیره.

و اما اسم القیوم فهو علی ما قیل:فیعول کالقیام فیعال من القیام وصف یدل علی المبالغه و القیام هو حفظ الشیء و فعله و تدبیره و تربیته و المراقبه علیه و القدره علیه،کل ذلک مأخوذ من القیام بمعنی الانتصاب للملازمه العادیه بین الانتصاب و بین کل منها.

و قد اثبت اللّه تعالی اصل القیام بامور خلقه لنفسه فی کلامه حیث قال تعالی: أَ فَمَنْ هُوَ قٰائِمٌ عَلیٰ کُلِّ نَفْسٍ بِمٰا کَسَبَتْ (الرعد/۳۳)،و قال تعالی و هو أشمل من الآیه السابقه شَهِدَ اللّٰهُ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَ الْمَلاٰئِکَهُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قٰائِماً بِالْقِسْطِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (آل عمران/۱۸)،فأفاد انه قائم علی الموجودات بالعدل فلا یعطی و لا یمنع شیئا فی الوجود

(و ليس الوجود إلاـ الاعطاء و المنع)الاـ بالعدل بإعطاء كل شيء ما يستحقه ثم بين ان هذا القيام بالعدل مقتضى اسميه الكريمين:العزيز الحكيم فبعزته يقوم على كل شيء و بحكمته يعدل فيه.

و بالجمله لما كان تعالى هو المبدأ الذى يبتدى منه وجود كل شيء و أوصافه و آثاره لا مبدأ سواه الا و هو ينتهى اليه،فهو القائم على كل شيء من كل جهه بحقيقه القيام الذى لا يشوبه فتور و خلل،و ليس ذلک لغيره قط الا بإذنه بوجه،فليس له تعالى الا القيام من غير ضعف و فتور،و ليس لغيره الا ان يقوم به،فهناک حصران:حصر القيام عليه،و حصره على القيام،و أول الحصرين هو الذى يدل عليه كون القيوم فى الآيه خبرا بعد خبر للّه(اللّه القيوم)، و الحصر الثانى هو الذى تدل عليه الجمله التاليه أعنى قوله: لاٰ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لاٰ نَوْمٌ .

و قد ظهر من هذا البيان ان اسم القيوم ام الاسماء الاضافيه الثابته له تعالى جميعا و هى الاسماء التى تدل على معان خارجه عن الذات بوجه كالخالق و الرازق و المبدئ و المعيد و المحيى و المميت و الغفور و الرحيم و الودود و غيرها.

قوله تعالى: لاٰ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لاٰ نَوْمٌ ،السنه بكسر السين الفتور الذى يأخذ الحيوان فى اول النوم،و النوم هو الركود الذى يأخذ حواس الحيوان لعوامل طبيعيه تحدث فى بدنه،و الرؤيا غيره و هى ما يشاهده النائم فى منامه.

و قد أورد على قوله: سِنَةٌ وَ لاٰ نَوْمٌ انه على خلاف الترتيب الذى تقتضيه البلاغه فإن المقام مقام الترقى،و الترقى فى الاثبات انما هو من الاضعف الى الاقوى كقولنا:فلان يقدر على حمل عشره أمنان بل عشرين،و فلان يجود بالمئات بل بالالوف و فى النفى بالعكس كما نقول:لا يقدر فلان على حمل عشرين و لا عشره،و لا يجود بالالوف و لا بالمئات،فكان ينبغى ان يقال:لا تأخذه نوم و لا سنه.

و الجواب:ان الترتيب المذكور لا يدور مدار الاثبات و النفى دائما كما يقال:فلان يجهده

حمل عشرين بل عشره و لا يصح العكس،بل المراد هو صحه الترقى و هى مختلفه بحسب الموارد،و لما كان أخذ النوم أقوى تأثيرا و أضر على القيوميه من السنه كان مقتضى ذلك ان ينفى تأثير السنه و أخذها أولا ثم يترقى الى نفى تأثير ما هو أقوى منه تأثيرا،و يعود معنى لا تأخذه سنه و لا نوم الى مثل قولنا:لا يؤثر فيه هذا العامل الضعيف بالفتور فى امره و لا ما هو أقوى منه.

قوله تعالى: لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِی یَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ لما كانت القيوميه التامه التى له تعالى لا تتم إلا بأن يملك السماوات و الارض و ما فيهما بحقيقه الملك ذكره بعدهما،كما ان التوحيد التام فى الالوهيه لا يتم إلا بالقيوميه،و لذلك ألحقها بها ايضا.

و هاتان جملتان كل واحده منهما مقيده أو كالمقيده بقيد فى معنى دفع الدخل،أعنى قوله تعالى:له ما فى السماوات و ما فى الارض،مع قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِی یَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ ، و قوله تعالى: یَعْلَمُ مٰا بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ ،مع قوله تعالى: وَ لاٰ یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ .

فأما قوله تعالى: لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ ،فقد عرفت معنى ملكه تعالى (بالكسر)للموجودات و ملكه تعالى(بالضم)لها،و الملك بكسر الميم و هو قيام ذوات الموجودات و ما يتبعها من الاوصاف و الآثار باللّه سبحانه هو الذى يدل عليه قوله تعالى: لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ ،فالجمله تدل على ملك الذات و ما يتبع الذات من نظام الآثار.

و قد تم بقوله: اَلْقَیُّومُ لاٰ تَأْخُذُهُ سِنَهٌ وَ لاٰ نَوْمٌ لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ ان السلطان المطلق فى الوجود للّه سبحانه لا تصرف إلا و هو له و منه،فيقع من ذلك فى الوهم انه اذا كان الامر على ذلك فهذه الاسباب و العلل الموجوده فى العالم ما شأنها؟و كيف يتصور فيها و منا التأثير و لا تأثير إلا للّه سبحانه؟

فاجیب بأن تصرف هذه العلل و الاسباب فی هذه الموجودات المعلوله توسط فی التصرف،و بعباره اخری شفاعه فی موارد المسببات بإذن اللّه سبحانه،فإنما هی شفعاء، و الشفاعه-و هی بنحو توسط فی ایصال الخیر أو دفع الشر،و تصرف ما من الشفیع فی امر المستشفع-انما تنافی السلطان الالهی و التصرف الربوبی المطلق اذا لم ینته الی اذن اللّه،و لم یعتمد علی مشیه اللّه تعالی بل کانت مستقله غیر مرتبطه و ما من سبب من الاسباب و لا علّه من العلل الا و تأثیره باللّه و نحو تصرفه بإذن اللّه،فتأثیره و تصرفه نحو من تأثیره و تصرفه تعالی فلا سلطان فی الوجود الا سلطانه و لا قیومیه الا قیومیته المطلقه عزّ سلطانه.

و علی ما بیناه فالشفاعه هی التوسط المطلق فی عالم الاسباب و الوسائط أعم من الشفاعه التکوینیه و هی توسط الاسباب فی التکوین،و الشفاعه التشریعیه أعنی التوسط فی مرحله المجازاه التی تثبتها الکتاب و السنه فی یوم القیامه علی ما تقدم البحث عنها فی قوله تعالی:

وَ اتَّقُوا یَوْماً لاٰ تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَیْئاً (البقره/۴۸)،و ذلک ان الجمله أعنی قوله تعالی:من ذا الذی یشفع عنده،مسبوقه بحدیث القیومیه و الملک المطلق الشاملین للتکوین و التشریع معا،بل المتماسین بالتکوین ظاهرا فلا موجب لتقییدهما بالقیومیه و السلطنه التشریعیتین حتی یستقیم تذییل الکلام بالشفاعه المخصوصه بیوم القیامه.

فمساق هذه الآیه فی عموم الشفاعه مساق قوله تعالی: إِنَّ رَبَّکُمُ اللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ ثُمَّ اسْتَویٰ عَلَی الْعَرْشِ یُدَبِّرُ الْأَمْرَ مٰا مِنْ شَفِیعٍ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ (یونس/۳)،و قوله تعالی: اَللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ ثُمَّ اسْتَویٰ عَلَی الْعَرْشِ مٰا لَکُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لاٰ شَفِیعٍ (السجده/۴)،و قد عرفت فی البحث عن الشفاعه ان حدها کما ینطبق علی الشفاعه التشریعیه کذلک ینطبق علی السببیه التکوینیه،فکل سبب من الاسباب یشفع عند اللّه لمسببه بالتمسک بصفات فضله و جوده و رحمته لإیصال نعمه الوجود الی مسببه،فنظام السببیه بعینه ینطبق علی نظام

الشفاعه كما ينطبق على نظام الدعاء و المسأله،قال تعالى: يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (الرحمن/٢٩)،و قال تعالى: وَ آتٰاكُمْ مِنْ كُلِّ مٰا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهيم/٣٤)،و قد مر بيانه في تفسير قوله تعالى: وَ إِذٰا سَأَلَكَ عِبٰادِي عَنِّي (البقره/ ١٨٦).

قوله تعالى: يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ لاٰ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ ،سياق الجمله مع مسبوقيتها بأمر الشفاعه يقرب من سياق قوله تعالى:

بَلْ عِبٰادٌ مُكْرَمُونَ لاٰ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ لاٰ يَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ارْتَضىٰ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (الأنبياء/٢٨)،فالظاهر ان ضمير الجمع الغائب راجع الى الشفعاء الذى تدل عليه الجمله السابقه معنى فعلمه تعالى بما بين ايديهم و ما خلفهم كنايه عن كمال احاطته بهم،فلا يقدرون بواسطه هذه الشفاعه و التوسط المأذون فيه على انفاذ امر لا يريده اللّه سبحانه و لا يرضى به في ملكه،و لا يقدر غيرهم ايضا ان يستفيد سوءا من شفاعتهم و وساطتهم فيداخل في ملكه تعالى فيفعل فيه ما لم يقدره.

و الى نظير هذا المعنى يدل قوله تعالى: وَ مٰا نَتَنَزَّلُ إِلاّٰ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مٰا بَيْنَ أَيْدِينٰا وَ مٰا خَلْفَنٰا وَ مٰا بَيْنَ ذٰلِكَ وَ مٰا كٰانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (مريم/٦٤)،و قوله تعالى: عٰالِمُ الْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ وَ أَحٰاطَ بِمٰا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (الجن/٢٨)،فإن الآيات تبين إحاطته تعالى بالملائكه و الانبياء لئلا يقع منهم ما لم يرده،و لا يتنزلوا إلا بأمره، و لا يبلغوا إلا ما يشاؤه.و على ما بيناه فالمراد بما بين أيديهم:ما هو حاضر مشهود معهم، و بما خلفهم:ما هو غائب عنهم بعيد منهم كالمستقبل من حالهم،و يئول المعنى الى الشهاده و الغيب.

و بالجمله قوله: يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ ،كنايه عن إحاطته تعالى بما هو حاضر

معهم موجود عندهم و بما هو غائب عنهم آت خلفهم،و لذلک عقبه بقوله تعالی: وَ لاٰ یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ ،تبیینا لتمام الاحاطه الربوبیه و السلطه الإلهیه أی إنه تعالی عالم محیط بهم و بعلمهم و هم لا یحیطون بشیء من علمه إلا بما شاء.

و لا ینافی إرجاع ضمیر الجمع المذکر العاقل و هو قوله«هم»فی المواضع الثلاث الی الشفعاء ما قدمناه من ان الشفاعه أعم من السببیه التکوینیه و التشریعیه،و أن الشفعاء هم مطلق العلل و الاسباب،و ذلک لأن الشفاعه و الوساطه و التسبیح و التحمید لما کان المعهود من حالها انها من أعمال أرباب الشعور و العقل شاع التعبیر عنها بما یخص أولی العقل من العباره.

و علی ذلک جری دیدن القرآن فی بیاناته کقوله تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰکِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِیحَهُمْ (الأسراء۴۴/)،و قوله تعالی: ثُمَّ اسْتَویٰ إِلَی السَّمٰاءِ وَ هِیَ دُخٰانٌ فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِیٰا طَوْعاً أَوْ کَرْهاً قٰالَتٰا أَتَیْنٰا طٰائِعِینَ (فصلت۱۱/)،الی غیر ذلک من الآیات.

و بالجمله قوله: وَ لاٰ یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ ،یفید معنی تمام التدبیر و کماله، فإن من کمال التدبیر أن یجهل المدبر(بالفتح)بما یریده المدبر(بالکسر)من شأنه و مستقبل أمره لئلا یحتال فی التخلص عما یکرهه من أمر التدبیر فیفسد علی المدبر(بالکسر)تدبیره، کجماعه مسیرین علی خلاف مشتهاهم و مرادهم فیبالغ فی التعمیه علیهم حتی لا یدروا من أین سیروا،و فی أین نزلوا،و إلی أین یقصد بهم.

فیبین تعالی بهذه الجمله ان التدبیر له و بعلمه بروابط الاشیاء التی هو الجاعل لها،و بقیه الاسباب و العلل و خاصه أولو العلم منها و إن کان لها تصرف و علم لکن ما عندهم من العلم الذی ینتفعون به و یستفیدون منه فإنما هو من علمه تعالی و بمشیته و إرادته،فهو من شئون العلم الالهی،و ما تصرفوا به فهو من شئون التصرف الالهی و انحاء تدبیره،فلا یسع لمقدم منهم أن یقدم علی خلاف ما یریده اللّه سبحانه من التدبیر الجاری فی مملکته إلا و هو بعض

التدبیر.

و فی قوله تعالی: وَ لاٰ یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ ،علی تقدیر ان یراد بالعلم المعنی المصدری أو معنی اسم المصدر لا المعلوم دلاله علی ان العلم کله للّه و لا یوجد من العلم عند عالم إلا و هو شیء من علمه تعالی،و نظیره ما یظهر من کلامه تعالی من اختصاص القدره و العزه و الحیاه باللّه تعالی،قال تعالی: وَ لَوْ یَرَی الَّذِینَ ظَلَمُوا إِذْ یَرَوْنَ الْعَذٰابَ أَنَّ الْقُوَّهَ لِلّٰهِ جَمِیعاً (البقره۱۶۵/)،و قال تعالی: أَ یَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّهَ فَإِنَّ الْعِزَّهَ لِلّٰهِ جَمِیعاً (النساء/ ۱۳۹)،و قال تعالی: هُوَ الْحَیُّ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ (المؤمن۶۵/)،و یمکن ان یستدل علی ما ذکرناه من انحصار العلم باللّه تعالی بقوله: إِنَّهُ هُوَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ (یوسف۸۳/)،و قوله تعالی: وَ اللّٰهُ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (آل عمران۶۶/)،الی غیر ذلک من الآیات،و فی تبدیل العلم بالإحاطه فی قوله: وَ لاٰ یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ،لطف ظاهر.

قوله تعالی: وَسِعَ کُرْسِیُّهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ ،الکرسی معروف و سمی به لتراکم بعض اجزائه بالصناعه علی بعض،و ربما کنی بالکرسی عن الملک فیقال:کرسی الملک، و یراد منطقه نفوذه و متسع قدرته.

و کیف کان فالجمل السابقه علی هذه الجمله أعنی قوله: لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ ، الخ؛تفید ان المراد بسعه الکرسی احاطه مقام السلطنه الالهیه،فیتعین للکرسی من المعنی:انه المقام الربوبی الذی یقوم به ما فی السموات و الارض من حیث انها مملوکه مدبره معلومه،فهو من مراتب العلم،و یتعین للسعه من المعنی:انها حفظ کل شیء مما فی السموات و الارض بذاته و آثاره،و لذلک ذیله بقوله: وَ لاٰ یَؤُدُهُ حِفْظُهُمٰا .

قوله تعالی: وَ لاٰ یَؤُدُهُ حِفْظُهُمٰا وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ ،یقال:آده یؤده أودا اذا ثقل علیه و اجهده و اتعبه،و الظاهر ان مرجع الضمیر فی یؤده،هو الکرسی و إن جاز رجوعه الیه تعالی،و نفی الأود و التعب عن حفظ السموات و الارض فی ذیل الکلام لیناسب ما افتتح

به من نفی السنه و النوم فی القیومیه علی ما فی السموات و الارض.

و محصل ما تفیده الآیه من المعنی:ان اللّه لا إله إلا هو له کل الحیاه و له القیومیه المطلقه من غیر ضعف و لا فتور،و لذلک وقع التعلیل بالاسمین الکریمین:العلی العظیم فإنه تعالی لعلوه لا تناله أیدی المخلوقات فیوجبوا بذلک ضعفا فی وجوده و فتورا فی أمره،و لعظمته لا یجهده کثره الخلق و لا یطیقه عظمه السموات و الارض،و جمله:و هو العلی العظیم،لا تخلو عن الدلاله علی الحصر،و هذا الحصر إما حقیقی کما هو الحق،فإن العلو و العظمه من الکمال و حقیقه کل کمال له تعالی،و اما دعوی لمسیس الحاجه الیه فی مقام التعلیل لیختص العلو و العظمه به تعالی دعوی،فیسقط السموات و الارض عن العلو و العظمه فی قبال علوه و عظمته تعالی (۱).

[سوره البقره (۲): الآیات ۲۵۶ الی ۲۵۷]

اشاره

لاٰ إِکْرٰاهَ فِی اَلدِّینِ قَدْ تَبَیَّنَ اَلرُّشْدُ مِنَ اَلْغَیِّ فَمَنْ یَکْفُرْ بِالطّٰاغُوتِ وَ یُؤْمِنْ بِاللّٰهِ فَقَدِ اِسْتَمْسَکَ بِالْعُرْوَهِ اَلْوُثْقیٰ لاَ اِنْفِصٰامَ لَهٰا وَ اَللّٰهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۲۵۶) اَللّٰهُ وَلِیُّ اَلَّذِینَ آمَنُوا یُخْرِجُهُمْ مِنَ اَلظُّلُمٰاتِ إِلَی اَلنُّورِ وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا أَوْلِیٰاؤُهُمُ اَلطّٰاغُوتُ یُخْرِجُونَهُمْ مِنَ اَلنُّورِ إِلَی اَلظُّلُمٰاتِ أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ (۲۵۷)

بیان:

قوله تعالی: لاٰ إِکْرٰاهَ فِی الدِّینِ قَدْ تَبَیَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَیِّ ،الاکراه هو

۱- ۱) .البقره ۲۵۵ بحث روائی آیه الکرسی.

الاجبـار و الحمل على الفعل من غير رضـى،و الرشـد بالضم و الضـمتين:إصابه وجه الامر و محجه الطريق و يقابله الغى،فهما أعم من الهدى و الضـلال،فإنهما إصابه الطريق الموصل و عدمها على ما قيل،و الظاهر ان اسـتعمال الرشد فى اصابه محجه الطريق من بـاب الانطبـاق على المصـداق،فـإن اصـابه وجه الامـر من سالـك الطريـق ان يركـب المحجه و سـواء السبيـل، فلزومه الطريق من مصاديق اصابه وجه الامر،فالحق ان معنى الرشـد و الهـدى معنيان مختلفان ينطبق أحـدهما بعنايه خاصه على مصاديق الآخر و هو ظاهر،قال تعالى: فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً (النساء۶/)،و قال تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ (الأنبياء۵۱/)، و كذلك القول فى الغى و الضلال،و لذلك ذكرنا سابقا:ان الضلال هو العدول عن الطريق مع ذكر الغايه و المقصد،و الغى هو العدول مع نسيان الغايه فلا يدرى الانسان الغوى ما ذا يريد و ما ذا يقصد.

و فى قوله تعالى: لاٰ إِكْرٰاهَ فِي الدِّينِ ،نفى الدين الاجبارى،لما أن الدين و هو سلسله من المعارف العلميه التى تتبعها أخرى عمليه يجمعهـا أنهـا اعتقـادات،و الاعتقـاد و الايمـان من الامـور القلبيه التى لا يحكم فيهـا الاكراه و الاجبـار،فـإن الاكراه انما يؤثر فى الاعمـال الظـاهريه و الافعـال و الحركـات البـدنيه الماديه،و أما الاعتقاد القلبى فله علل و أسـباب اخرى قلبيه من سـنخ الاعتقاد و الادراك،و من المحال أن ينتج الجهل علما،أو تولد المقدمات غير العلميه تصديقا علميا،فقوله: لاٰ إِكْرٰاهَ فِي الدِّينِ ،ان كان قضيه اخباريه حاكيه عن حال التكوين انتج حكما دينيا بنفى الاكراه على الدين و الاعتقاد،و ان كان حكما انشائيا تشريعيا كما يشـهد به ما عقبه تعالى من قوله: قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ،كان نهيا عن الحمل على الاعتقاد و الايمان كرها،و هو نهى متك على حقيقه تكوينيه،و هى التى مر بيانها أن الاكراه انما يعمل و يؤثر فى مرحله الافعال البدنيه دون الاعتقادات القلبيه.

و قد بيّن تعالى هذا الحكم بقوله: قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ،و هو فى مقام التعليل فإن الإكراه

و الاجبار إنما يركن اليه الآمر الحكيم و المربى العاقل فى الامور المهمه التى لا سبيل الى بيان وجه الحق فيها لبساطه فهم المأمور و رداءه ذهن المحكوم،أو لاسباب وجهات اخرى، فيتسبب الحاكم فى حكمه بالاكراه أو الامر بالتقليد و نحوه،و أما الامور المهمه التى تبين وجه الخير و الشر فيها،و قرر وجه الجزاء الذى يلحق فعلها و تركها فلا حاجه فيها الى الاكراه،بل للانسان أن يختار لنفسه ما شاء من طرفى الفعل و عاقبتى الثواب و العقاب،و الدين لما انكشفت حقائقه و اتضح طريقه بالبيانات الإلهيه الموضحه بالسنه النبويه فقد تبين أن الدين رشد و الرشد فى اتباعه،و الغى فى تركه و الرغبه عنه،و على هذا لا موجب لان يكره أحد أحدا على الدين.

و هذه احدى الآيات الداله على أن الاسلام لم يبتن على السيف و الدم،و لم يفت بالاكراه و العنوه على خلاف ما زعمه عده من الباحثين من المنتحلين و غيرهم أن الاسلام دين السيف و استدلوا عليه:بالجهاد الذى هو أحد أركان هذا الدين.

و قد تقدم الجواب عنه فى ضمن البحث عن آيات القتال و ذكرنا هناك أن القتال الذى ندب اليه الاسلام ليس لغايه احراز التقدم و بسط الدين بالقوه و الاكراه،بل لاحياء الحق و الدفاع عن أنفس متاع للفطره و هو التوحيد،و أما بعد انبساط التوحيد بين الناس و خضوعهم لدين النبوه و لو بالتهود و التنصر فلا نزاع لمسلم مع موحد و لا جدال،فالاشكال ناش عن عدم التدبر.

و يظهر مما تقدم أن الآيه أعنى قوله: لاٰ إِكْرٰاهَ فِي الدِّينِ غير منسوخه بآيه السيف كما ذكره بعضهم.

و من الشواهد على أن الآيه غير منسوخه التعليل الذى فيها أعنى قوله: قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ،فإن الناسخ ما لم ينسخ عله الحكم لم ينسخ نفس الحكم،فإن الحكم باق ببقاء سببه، و معلوم أن تبين الرشد من الغى فى أمر الاسلام امر غير قابل للارتفاع بمثل آيه السيف،فإن

قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ مثلا،أو قوله: وَ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ الآيه لا يؤثران فى ظهور حقيه الدين شيئا حتى ينسخا حكما معلولا لهذا الظهور.

و بعباره اخرى الآيه تعلل قوله: لاٰ إِكْرٰاهَ فِي الدِّينِ بظهور الحق،و هو معنى لا يختلف حاله قبل نزول حكم القتال و بعد نزوله،فهو ثابت على كل حال،فهو غير منسوخ.

قوله تعالى: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّٰاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَهِ الْوُثْقىٰ الخ؛الطاغوت هو الطغيان و التجاوز عن الحد و لا يخلو عن مبالغه فى المعنى كالملكوت و الجبروت،و يستعمل فيما يحصل به الطغيان كأقسام المعبودات من دون اللّٰه كالاصنام و الشياطين و الجن و ائمه الضلال من الانسان و كل متبوع لا يرضى اللّٰه سبحانه باتباعه،و يستوى فيه المذكر و المؤنث و المفرد و التثنيه و الجمع.

و إنما قدم الكفر على الايمان فى قوله: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّٰاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ ،ليوافق الترتيب الذى يناسبه الفعل الواقع فى الجزاء أعنى الاستمساك بالعروه الوثقى،لان الاستمساك بشىء إنما يكون بترك كل شىء و الأخذ بالعروه،فهناك ترك ثم أخذ،فقدم الكفر و هو ترك على الايمان و هو اخذ ليوافق ذلك،و الاستمساك هو الاخذ و الامساك بشده،و العروه:ما يؤخذ به من الشىء كعروه الدلو و عروه الاناء،و العروه هى كل ما له أصل من النبات و ما لا يسقط ورقه،و أصل الباب التعلق يقال:عراه و اعتريه اى تعلق به.

و الكلام أعنى قوله: فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَهِ الْوُثْقىٰ ،موضوع على الاستعاره للدلاله على أن الايمان بالنسبه الى السعاده بمنزله عروه الاناء بالنسبه الى الاناء و ما فيه،فكما لا يكون الاخذ أخذا مطمئنا حتى يقبض على العروه كذلك السعاده الحقيقيه لا يستقر أمرها و لا يرجى نيلها إلا أن يؤمن الانسان باللّٰه و يكفر بالطاغوت.

قوله تعالى: لاَ انْفِصٰامَ لَهٰا وَ اللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ،الانفصام:الانقطاع و الانكسار، و الجمله فى موضع الحال من العروه تؤكد معنى العروه الوثقى،ثم عقبه بقوله: وَ اللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ،

لکون الایمان و الکفر متعلقا بالقلب و اللسان.

قوله تعالی: اَللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ الی آخر الآیه؛قد مر شطر من الکلام فی معنی إخراجه من النور الی الظلمات،و قد بینا هناک أن هذا الاخراج و ما یشاکله من المعانی امور حقیقیه غیر مجازیه خلافا لما توهمه کثیر من المفسرین و سائر الباحثین أنها معان مجازیه یراد بها الاعمال الظاهریه من الحرکات و السکنات البدنیه،و ما یترتب علیها من الغایات الحسنه و السیئه،فالنور مثلا هو الاعتقاد الحق بما یرتفع به ظلمه الجهل و حیره الشک و اضطراب القلب،و النور هو صالح العمل من حیث أن رشده بین،و أثره فی السعاده جلی،کما ان النور الحقیقی علی هذه الصفات.و الظلمه هو الجهل فی الاعتقاد و الشبهه و الریبه و طالح العمل،کل ذلک بالاستعاره.و الاخراج من الظلمه الی النور الذی ینسب الی اللّه تعالی کالاخراج من النور الی الظلمات الذی ینسب الی الطاغوت نفس هذه الاعمال و العقائد،فلیس وراء هذه الاعمال و العقائد،لا فعل من اللّه تعالی و غیره کالاخراج مثلا و لا أثر لفعل اللّه تعالی و غیره کالنور و الظلمه و غیرهما،هذا ما ذکره قوم من المفسرین و الباحثین.

و ذکر آخرون:ان اللّه یفعل فعلا-کالا-خراج من الظلمات الی النور و إعطاء الحیاه و السعه و الرحمه و ما یشاکلها و یترتب علی فعله تعالی آثار کالنور و الظلمه و الروح و الرحمه و نزول الملائکه،لا ینالها أفهامنا و لا یسعها مشاعرنا،غیر أنا نؤمن بحسب ما أخبر به اللّه-و هو یقول الحق-بأن هذه الامور موجوده و أنها أفعال له تعالی و إن لم نحط بها خبرا،و لازم هذا القول أیضا کالقول السابق أن یکون هذه الالفاظ أعنی أمثال النور و الظلمه و الإخراج و نحوها مستعمله علی المجاز بالاستعاره،و إنما الفرق بین القولین أن مصادیق النور و الظلمه و نحوهما علی القول الأول نفس أعمالنا و عقائدنا،و علی القول الثانی امور خارجه عن اعمالنا و عقائدنا لا سبیل لنا الی فهمها،و لا طریق الی نیلها و الوقوف علیها.

و القولان جميعا خارجان عن صراط الاستقامه كالمفرط و المفرط،و الحق فى ذلك أن هذه الامور التى أخبر اللّه سبحانه بإيجادها و فعلها عند الطاعه و المعصيه إنما هى امور حقيقيه واقعيه من غير تجوز غير أنها لا تفارق أعمالنا و عقائدنا بل هى لوازمها التى فى باطنها، و قد مر الكلام فى ذلك،و هذا لا ينافى كون قوله تعالى: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ ، و قوله تعالى: يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمٰاتِ ،كنايتين عن هدايه اللّه سبحانه و إضلال الطاغوت،لما تقدم فى بحث الكلام أن النزاع فى مقامين:أحدهما كون النور و الظلمه و ما شابههما ذا حقيقه فى هذه النشأه أو مجرد تشبيه لا حقيقه له،و ثانيهما:أنه على تقدير تسليم أن لها حقائق و واقعيات هل استعمال اللفظ كالنور مثلا فى الحقيقه التى هى حقيقه الهدايه حقيقه أو مجاز؟و على أى حال فالجملتان أعنى:قوله تعالى: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ ،و قوله تعالى: يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمٰاتِ ،كنايتان عن الهدايه و الاضلال،و إلا لزم أن يكون لكل من المؤمن و الكافر نور و ظلمه معا،فإن لازم إخراج المؤمن من الظلمه الى النور أن يكون قبل الايمان فى ظلمه و بالعكس فى الكافر،فعامه المؤمنين و الكفار-و هم الذين عاشوا مؤمنين فقط أو عاشوا كفارا فقط- اذا بلغوا مقام التكليف فإن آمنوا خرجوا من الظلمات الى النور،و إن كفروا خرجوا من النور الى الظلمات،فهم قبل ذلك فى نور و ظلمه معا و هذا كما ترى.

لكن يمكن أن يقال:إن الانسان بحسب خلقته على نور الفطره،هو نور إجمالى يقبل التفصيل،و أما بالنسبه الى المعارف الحقه و الاعمال الصالحه تفصيلا فهو فى ظلمه بعد لعدم تبين أمره،و النور و الظلمه بهذا المعنى لا يتنافيان و لا يمتنع اجتماعهما،و المؤمن بإيمانه يخرج من هذه الظلمه الى نور المعارف و الطاعات تفصيلا،و الكافر بكفره يخرج من نور الفطره الى ظلمات الكفر و المعاصى التفصيليه،و الاتيان بالنور مفردا و بالظلمات جمعا فى قوله تعالى: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ ،و قوله تعالى: يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى

اَلظُّلُماتِ ،للاشاره الی ان الحق واحد لا اختلاف فیه کما ان الباطل متشتت مختلف لا وحده فیه،قال تعالی: وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِی مُسْتَقِیماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِکُمْ (الأنعام۱۵۳/).

[سوره البقره (۲): الآیات ۲۵۸ الی ۲۶۰]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ إِلَی اَلَّذِی حَاجَّ إِبْرٰاهِیمَ فِی رَبِّهِ أَنْ آتٰاهُ اَللّٰهُ اَلْمُلْکَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِیمُ رَبِّیَ اَلَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ قٰالَ أَنَا أُحْیِی وَ أُمِیتُ قٰالَ إِبْرٰاهِیمُ فَإِنَّ اَللّٰهَ یَأْتِی بِالشَّمْسِ مِنَ اَلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهٰا مِنَ اَلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ اَلَّذِی کَفَرَ وَ اَللّٰهُ لاٰ یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِینَ (۲۵۸) أَوْ کَالَّذِی مَرَّ عَلیٰ قَرْیَهٍ وَ هِیَ خٰاوِیَهٌ عَلیٰ عُرُوشِهٰا قٰالَ أَنّٰی یُحْیِی هٰذِهِ اَللّٰهُ بَعْدَ مَوْتِهٰا فَأَمٰاتَهُ اَللّٰهُ مِائَهَ عٰامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قٰالَ کَمْ لَبِثْتَ قٰالَ لَبِثْتُ یَوْماً أَوْ بَعْضَ یَوْمٍ قٰالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَهَ عٰامٍ فَانْظُرْ إِلیٰ طَعٰامِکَ وَ شَرٰابِکَ لَمْ یَتَسَنَّهْ وَ اُنْظُرْ إِلیٰ حِمٰارِکَ وَ لِنَجْعَلَکَ آیَهً لِلنّٰاسِ وَ اُنْظُرْ إِلَی اَلْعِظٰامِ کَیْفَ نُنْشِزُهٰا ثُمَّ نَکْسُوهٰا لَحْماً فَلَمّٰا تَبَیَّنَ لَهُ قٰالَ أَعْلَمُ أَنَّ اَللّٰهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۲۵۹) وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِیمُ رَبِّ أَرِنِی کَیْفَ تُحْیِ اَلْمَوْتیٰ قٰالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قٰالَ بَلیٰ وَ لٰکِنْ لِیَطْمَئِنَّ قَلْبِی قٰالَ فَخُذْ أَرْبَعَهً مِنَ اَلطَّیْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَیْکَ ثُمَّ اِجْعَلْ عَلیٰ کُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ اُدْعُهُنَّ یَأْتِینَکَ سَعْیاً وَ اِعْلَمْ أَنَّ اَللّٰهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۲۶۰)

ص: ۳۳۷

بيان:

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِی حَاجَّ إِبْرٰاهِیمَ فِی رَبِّهِ ،المحاجه إلقاء الحجه قبال الحجه لإثبات المدعی أو لإبطال ما یقابله،و اصل الحجه هو القصد،غلب استعماله فیما یقصد به اثبات دعوی من الدعاوی،و قوله: فِی رَبِّهِ متعلق بحاج،و الضمیر لابراهیم کما یشعر به قوله تعالی فیما بعد: قٰالَ إِبْرٰاهِیمُ رَبِّیَ الَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ ،و هذا الذی حاج ابراهیم علیه السّلام فی ربه هو الملک الذی کان یعاصره و هو نمرود من ملوک بابل علی ما یذکره التاریخ و الروایه.

و بالتأمل فی سیاق الآیه،و الذی جری علیه الامر عند الناس و لا یزال یجری علیه یعلم معنی هذه المحاجه التی ذکرها اللّه تعالی فی هذه الآیه،و الموضوع الذی وقعت فیه محاجتهما (۱).

قوله تعالی: أَنْ آتٰاهُ اللّٰهُ الْمُلْکَ ،ظاهر السیاق:انه من قبیل قول القائل:أساء الی فلان لانی احسنت الیه یرید:ان احسانی الیه کان یستدعی ان یحسن الی لکنه بدل الاحسان من الإساءه فأساء إلی،و قولهم:و اتق شر من احسنت الیه،قال الشاعر:

جزی بنوه أبا الغیلان عن کبر

و حسن فعل کما یجزی سنمار

فالجمله أعنی قوله: أَنْ آتٰاهُ اللّٰهُ الْمُلْکَ بتقدیر لام التعلیل و هی من قبیل وضع الشیء موضع ضده للشکوی و الاستعداء و نحوه،فإن عدوان نمرود و طغیانه فی هذه المحاجه کان ینبغی ان یعلل بضد انعام اللّه علیه بالملک،لکن لما لم یتحقق من اللّه فی حقه الا الإحسان الیه و ایتائه الملک فوضع فی موضع العله فدل علی کفرانه لنعمه اللّه فهو بوجه کقوله تعالی:

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِیَکُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً (القصص/۸)فهذه نکته فی ذکر ایتائه

۱- ۱) .البقره ۲۵۸-۲۶۰ بحث فی:عباده الاصنام؛احتجاج ابراهیم علیه السّلام مع نمرود.

الملک.

و هناک نکته اخری و هی:الدلاله علی رداءه دعواه من رأس،و ذلک انه انما کان یدعی هذه الدعوی لملک آتاه اللّه تعالی من غیر ان یملکه لنفسه،فهو انما کان نمرود الملک ذا السلطه و السطوه بنعمه من ربه،و أما هو فی نفسه فلم یکن الا واحدا من سواد الناس لا یعرف له وصف،و لا یشار الیه بنعت،و لهذا لم یذکر اسمه و عبر عنه بقوله: اَلَّذِی حَاجَّ إِبْرٰاهِیمَ فِی رَبِّهِ ، دلاله علی حقاره شخصه و خسه أمره.

و اما نسبه ملکه الی ایتاء اللّه تعالی فقد مر فی المباحث السابقه:انه لا محذور فیه،فإن الملک و هو نوع سلطنه منبسطه علی الامه کسائر انواع السلطنه و القدره نعمه من اللّه و فضل یؤتیه من یشاء،و قد أودع فی فطره الإنسان معرفته،و الرغبه فیه،فإن وضعه فی موضعه کان نعمه و سعاده،قال تعالی: وَ ابْتَغِ فِیمٰا آتٰاکَ اللّٰهُ الدّٰارَ الْآخِرَةَ (القصص/۷۷)،و ان عدا طوره و انحرف به عن الصراط کان فی حقه نقمه و بوارا،قال تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ کُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ الْبَوٰارِ (إبراهیم/۲۸)،و قد مر بیان ان لکل شیء نسبه الیه تعالی علی ما یلیق بساحه قدسه تعالی و تقدس من جهه الحسن الذی فیه دون جهه القبح و المساءه.

قوله تعالی: قٰالَ إِبْرٰاهِیمُ رَبِّیَ الَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ ،الحیاه و الموت و إن کانا یوجدان فی غیر جنس الحیوان ایضا کالنبات،و قد صدقه القرآن کما مر بیانه فی تفسیر آیه الکرسی،لکن مراده علیه السّلام منهما اما خصوص الحیاه و الممات الحیوانیین أو الاعم الشامل له لإطلاق اللفظ،و الدلیل علی ذلک قول نمرود:أنا أحیی و أمیت،فإن هذا الذی ادعاه لنفسه لم یکن من قبیل إحیاء النبات بالحرث و الغرس مثلا،و لا احیاء الحیوان بالسفاد و التولید مثلا، فإن ذلک و أشباهه کان لا یختص به بل یوجد فی غیره من أفراد الانسان،و هذا یؤید ما وردت به الروایات:انه أمر بإحضار رجلین ممن کان فی سجنه فأطلق احدهما و قتل الآخر،و قال

عند ذلک:أنا أحیی و أمیت.

و انما أخذ علیه السّلام فی حجته الاحیاء و الاماته لانهما أمران لیس للطبیعه الفاقده للحیاه فیهما صنع،و خاصه الحیاه التی فی الحیوان حیث تستتبع الشعور و الاراده و هما أمران غیر مادیین قطعا،و کذا الموت المقابل لها،و الحجه علی ما فیها من السطوع و الوضوح لم تنجح فی حقهم، لان انحطاطهم فی الفکر و خبطهم فی التعقل کان فوق ما کان یظنه علیه السّلام فی حقهم،فلم یفهموا من الاحیاء و الاماته إلا المعنی المجازی الشامل لمثل الاطلاق و القتل،فقال نمرود:انا أحیی و أمیت و صدقه من حضره،و من سیاق هذه المحاجه یمکن أن یحدس المتأمل ما بلغ الیه الانحطاط الفکری یومئذ فی المعارف و المعنویات،و لا ینافی ذلک الارتقاء الحضاری و التقدم المدنی الذی یدل علیه الآثار و الرسوم الباقیه من بابل کلده و مصر الفراعنه و غیرهما،فإن المدنیه المادیه أمر و التقدم فی معنویات المعارف أمر آخر،و فی ارتقاء الدنیا الحاضره فی مدنیتها و انحطاطها فی الاخلاق و المعارف المعنویه ما تسقط به هذه الشبهه.

و من هنا یظهر:وجه عدم أخذه علیه السّلام فی حجته مسئله احتیاج العالم بأسره الی الصانع الفاطر للسماوات و الارض کما اخذ به فی استبصار نفسه فی بادی أمره علی ما یحکیه اللّه عنه بقوله: إِنِّی وَجَّهْتُ وَجْهِیَ لِلَّذِی فَطَرَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ حَنِیفاً وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُشْرِکِینَ (الأنعام/۷۹)،فإن القوم علی اعترافهم بذلک بفطرتهم اجمالا کانوا أنزل سطحا من ان یعقلوه علی ما ینبغی ان یعقل علیه بحیث ینجح احتجاجه و یتضح مراده علیه السّلام،و ناهیک فی ذلک ما فهموه من قوله: رَبِّیَ الَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ .

قوله تعالی: قٰالَ أَنَا أُحْیِی وَ أُمِیتُ ،أی فأنا ربک الذی وصفته بأنه یحیی و یمیت.

قوله تعالی: فَإِنَّ اللّٰهَ یَأْتِی بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهٰا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِی کَفَرَ ،لما ایس علیه السّلام من مضی احتجاجه بأن ربه الذی یحیی و یمیت،لسوء فهم الخصم و تمویهه و تلبیسه الامر علی من حضر عندهما عدل عن بیان ما هو مراده من الاحیاء

و الاماته الى حجه أخرى،إلا انه بنى هذه الحجه الثانيه على دعوى الخصم فى الحجه الاولى كما يدل عليه التفريع بالفاء فى قوله: فَإِنَّ اللّهَ ،الخ؛و المعنى:إن كان الامر كما تقول:انک ربى و من شأن الرب ان يتصرف فى تدبير امر هذا النظام الكونى فاللّه سبحانه يتصرف فى الشمس بإتيانها من المشرق فتصرف انت بإتيانها من المغرب حتى يتضح انک رب كما ان اللّه رب كل شىء أو انک الرب فوق الارباب فبهت الذى كفر،و انما فرّع الحجه على ما تقدمها لئلا يظن ان الحجه الاولى تمت لنمرود و انتجت ما ادعاه،و لذلک ايضا قال:فإن اللّه و لم يقل:فإن ربى لأن الخصم استفاد من قوله:ربى سوءا و طبقه على نفسه بالمغالطه فأتى عليه السّلام ثانيا بلفظه الجلاله ليكون مصونا عن مثل التطبيق السابق!و قد مر بيان ان نمرود ما كان يسعه ان يتفوه فى مقابل هذه الحجه بشىء دون ان يبهت فيسكت.

قوله تعالى: وَ اللّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظّالِمِينَ ،ظاهر السياق انه تعليل لقوله فبهت الذى كفر فبهته هو عدم هدايه اللّه سبحانه إياه لا كفره،و بعباره اخرى معناه ان اللّه لم يهده فبهت لذلک و لو هداه لغلب على ابراهيم فى الحجه لا انه لم يهده فكفر لذلک و ذلک لان العنايه فى المقام متوجهه الى محاجته ابراهيم عليه السّلام لا الى كفره و هو ظاهر.

و من هنا يظهر:ان فى الوصف إشعارا بالعليه أعنى:ان السبب لعدم هدايه اللّه الظالمين هو ظلمهم كما هو كذلک فى سائر موارد هذه الجمله من كلامه تعالى كقوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ وَ اللّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظّالِمِينَ (الصف/٧)، و قوله: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللّهِ وَ اللّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظّالِمِينَ (الجمعه/٥)،و نظير الظلم الفسق فى قوله تعالى: فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (الصف/٥).

و بالجمله الظلم و هو الانحراف عن صراط العدل و العدول عما ينبغى من العمل الى غير ما ينبغى موجب لعدم الاهتداء الى الغايه المقصوده،و مؤد الى الخيبه و الخسران بالآخره،و هذه

من الحقائق الناصعه التی ذکرها القرآن الشریف و أکد القول فیها فی آیات کثیره (۱).

قوله تعالی: أَوْ کَالَّذِی مَرَّ عَلیٰ قَرْیَهٍ وَ هِیَ خٰاوِیَهٌ عَلیٰ عُرُوشِهٰا ،الخاویه هی الخالیه یقال:خوت الدار تخوی خواء اذا خلت،و العروش جمع العرش و هو ما یعمل مثل السقف للکرم قائما علی أعمده،قال تعالی: جَنّٰاتٍ مَعْرُوشٰاتٍ وَ غَیْرَ مَعْرُوشٰاتٍ (الأنعام/۱۴۱)،و من هنا أطلق علی سقف البیت العرش،لکن بینهما فرقا،فإن السقف هو ما یقوم من السطح علی الجدران و العرش هو السقف مع الارکان التی یعتمد علیها کهیئه عرش الکرم،و لذا صح أن یقال فی الدیار أنها خالیه علی عروشها و لا یصح أن یقال:خالیه علی سقفها.

قوله تعالی: قٰالَ أَنّٰی یُحْیِی هٰذِهِ اللّٰهُ ،أی أنی یحیی اللّه أهل هذه القریه ففیه مجاز کما فی قوله تعالی: وَ سْئَلِ الْقَرْیَهَ (یوسف/۸۲).

و إنما قال هذا القول استعظاما للأمر و لقدره اللّه سبحانه من غیر استبعاد یؤدی الی الانکار أو ینشأ منه،و الدلیل علی ذلک قوله علی ما حکی اللّه تعالی عنه فی آخر القصه:أعلم أن اللّه علی کل شیء قدیر و لم یقل:الآن کما فی ما یماثله من قوله تعالی حکایه عن امرأه العزیز:

اَلْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ (یوسف/۵۱)،و سیجیء توضیحه قریبا.

علی أن الرجل نبی مکلم و آیه مبعوثه الی الناس و الانبیاء معصومون حاشاهم عن الشک و الارتیاب فی البعث الذی هو أحد اصول الدین.

قوله تعالی: فَأَمٰاتَهُ اللّٰهُ مِائَهَ عٰامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ،ظاهره توفیه بقبض روحه و إبقائه علی هذا الحال مائه عام ثم إحیائه برد روحه إلیه.

قوله تعالی: قٰالَ کَمْ لَبِثْتَ قٰالَ لَبِثْتُ یَوْماً أَوْ بَعْضَ یَوْمٍ قٰالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَهَ

۱- ۱) .البقره ۲۵۸-۲۶۰ کلام فی الاحسان و هدایته و الظلم و اضلاله.

عام ،اللبث هو المكث و ترديد الجواب بين اليوم و بعض اليوم يدل على اختلاف وقت إماتته و إحيائه كأوائل النهار و أواخره،فحسب الموت و الحياه نوما و انتباها،ثم شاهد اختلاف وقتيهما فتردد فى تخلل الليله بين الوقتين و عدم تخللها فقال يوما(لو تخللت الليله)أو بعض يوم(لو لم تتخلل)قال:بل لبثت مائه عام.

قوله تعالى: فَانْظُرْ إِلىٰ طَعٰامِكَ وَ شَرٰابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ -الى قوله- لَحْماً ،سياق هذه الجمل فى أمره عجيب فقد كرر فيها قوله:انظر ثلاث مرات و كان الظاهر أن يكتفى بواحد منها،و ذكر فيها أمر الطعام و الشراب و الحمار و الظاهر السابق الى الذهن أنه لم يكن الى ذكرها حاجه،و جيء بقوله: وَ لِنَجْعَلَكَ متخللا فى الكلام و كان الظاهر أن يتأخر عن جمله:و انظر الى العظام،على ان بيانه ما استعظمه هذا المار بالقريه-و هو احياء الموتى بعد طول المده و عروض كل تغير عليها-قد حصل بإحيائه نفسه بعد الموت فما الموجب لان يؤمر ثانيا بالنظر الى العظام؟لكن التدبر فى أطراف الآيه الشريفه يوضح خصوصيات القصه إيضاحا ينحل به العقده و تنجلى الشبهه المذكوره (۱).

قوله تعالى: فَلَمّٰا تَبَيَّنَ لَهُ قٰالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ،رجوع منه بعد التبين الى علمه الذى كان معه قبل التبين،كأنه عليه السّلام لما خطر بباله الخاطر الذى ذكره بقوله: أَنّٰى يُحْيِي هٰذِهِ اللّٰهُ أقنع نفسه بما عنده من العلم بالقدره المطلقه ثم لما بين اللّه له الامر بيان إشهاد و عيان رجع الى نفسه و صدق ما اعتمد عليه من العلم،و قال لم تزل تنصح لى و لا تخوننى فى هدايتك و تقويمك و ليس ما لا تزال نفسى تعتمد عليه من كون القدره مطلقه جهلا، بل علم يليق بالاعتماد عليه.

و هذا أمر كثير النظائر فكثيرا ما يكون للإنسان علم بشيء ثم يخطر بباله و يهجس فى نفسه

۱- ۱) .البقره ۲۵۸-۲۶۰ قصه حول احياء الموتى.

خاطر ينافيه،لا للشک و بطلان العلم،بل لاسباب و عوامل اخرى فيقنع نفسه حتى تنكشف الشبهه ثم يعود فيقول أعلم أن كذا كذا و ليس كذا كذا فيقرر بذلک علمه و يطيب نفسه!

قوله تعالى: وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتىٰ ،قد مر أنه معطوف على مقدر و التقدير:و اذكر اذ قال،الخ؛و هو العامل فى الظرف،و قد احتمل بعضهم ان يكون عامل الظرف هو قوله: قٰالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ ،و ترتيب الكلام:أو لم تؤمن اذ قال إبراهيم رب أرنى،الخ؛و ليس بشىء.

و فى قوله: أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتىٰ ،دلاله:

أولا على انه عليه السّلام إنما سأل الرؤيه دون البيان الاستدلالى،فإن الانبياء و خاصه مثل النبى الجليل إبراهيم الخليل ارفع قدرا من ان يعتقد البعث و لا حجه له عليه،و الاعتقاد النظرى من غير حجه عليه إما اعتقاد تقليدى أو ناش عن اختلال فكرى و شىء منهما لا ينطبق على ابراهيم عليه السّلام،على انه عليه السّلام إنما سأل ما سأل بلفظ كيف،و انما يستفهم بكيف عن خصوصيه وجود الشىء لا عن اصل وجوده فإنک اذا قلت:أ رأيت زيدا كان معناه السؤال عن تحقق أصل الرؤيه،و اذا قلت:كيف رأيت زيدا كان أصل الرؤيه مفروغا عنه و انما السؤال عن خصوصيات الرؤيه،فظهر انه عليه السّلام انما سأل البيان بالإراءه و الاشهاد لا بالاحتجاج و الاستدلال.

و ثانيا:على ان ابراهيم عليه السّلام إنما سأل أن يشاهد كيفيه الاحياء لا أصل الاحياء كما أنه ظاهر قوله: كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتىٰ ،و هذا السؤال متصور على وجهين:

الوجه الاول:أن يكون سؤالا عن كيفيه قبول الأجزاء الماديه الحياه،و تجمعها بعد التفرق و التبدد،و تصورها بصوره الحى،و يرجع محصله الى تعلق القدره بالاحياء بعد الموت و الفناء.

و الوجه الثانى:أن يكون عن كيفيه إفاضه اللّه الحياه على الاموات و فعله بأجزائها الذى به

تلبس الحیاه،و یرجع محصله الی السؤال عن السبب و کیفیه تأثیره،و هذا بوجه هو الذی یسمیه اللّه سبحانه بملکوت الاشیاء فی قوله عزّ من قائل إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ فَسُبْحٰانَ الَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ (یس۸۳/).

و انما سأل ابراهیم علیه السّلام عن الکیفیه بالمعنی الثانی دون المعنی الاول:أما أولا:فلأنه قال:

کیف تحیی الموتی،بضم التاء من الاحیاء فسأل عن کیفیه الاحیاء الذی هو فعل ناعت للّه تعالی و هو سبب حیاه الحی بأمره،و لم یقل:کیف تحیی الموتی،بفتح التاء من الحیاه حتی یکون سؤالا عن کیفیه تجمع الاجزاء و عودها الی صورتها الاولی و قبولها الحیاه،و لو کان السؤال عن الکیفیه بالمعنی الثانی لکان من الواجب أن یرد علی الصوره الثانیه،و اما ثانیا:

فلأنه لو کان سؤاله عن کیفیه قبول الاجزاء للحیاه لم یکن لاجراء الامر بید ابراهیم وجه، و لکفی فی ذلک أن یرید اللّه احیاء شیء من الحیوان بعد موته،و اما ثالثا:فلأنه کان اللازم علی ذلک أن یختم الکلام بمثل أن یقال:و اعلم ان اللّه علی کل شیء قدیر لا بقوله: وَ اعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ ،علی ما هو المعهود من دأب القرآن الکریم فإن المناسب للسؤال المذکور هو صفه القدره دون صفتی العزه و الحکمه فإن العزه و الحکمه-و هما وجدان الذات کل ما تفقده و تستحقه الاشیاء و احکامه فی امره-انما ترتبطان بإفاضه الحیاه لا استفاضه الماده لها فافهم ذلک (۱).

قوله تعالی: قٰالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قٰالَ بَلیٰ وَ لٰکِنْ لِیَطْمَئِنَّ قَلْبِی ،بلی کلمه یرد به النفی و لذلک ینقلب به النفی إثباتا کقوله تعالی أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ قٰالُوا بَلیٰ (الأعراف۱۷۲/) و لو قالوا نعم لکان کفرا،و الطمأنینه و الاطمینان سکون النفس بعد انزعاجها و اضطرابها، و هو مأخوذ من قولهم:اطمأنت الارض و ارض مطمئنه اذا کانت فیه انخفاض یستقر فیها

۱- ۱) .البقره ۲۵۸-۲۶۰ بحث حول قصه ابراهیم علیه السّلام فی طلبه احیاء الموتی.

الماء اذا سال إليها و الحجر اذا هبط إليها.

و قد قال تعالى: أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ ،و لم يقل:أ لم تؤمن للاشعار بأن للسؤال و الطلب محلا-لكنه لا-ينبغى ان يقارن عدم الإيمان بالاحياء:و لو قيل:أ لم تؤمن دل على ان المتكلم تلقى السؤال منبعثا عن عدم الايمان،فكان عتابا و ردعا عن مثل هذا السؤال،و ذلك ان الواو للجميع،فكان الاستفهام معه استفهاما عن ان هذا السؤال هل يقارنه عدم الايمان،لا استفهاما عن وجه السؤال حتى ينتج عتابا و ردعا.

و الايمان مطلق فى كلامه تعالى،و فيه دلاله على ان الايمان باللّه سبحانه لا يتحقق مع الشك فى أمر الاحياء و البعث،و لا ينافى ذلك اختصاص المورد بالاحياء لأن المورد لا يوجب تخصيص عموم اللفظ و لا تقييد إطلاقه.

و كذا قوله تعالى حكايه عنه عليه السّلام: لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ،مطلق يدل على كون مطلوبه عليه السّلام من هذا السؤال حصول الاطمينان المطلق و قطع منابت كل خطور قلبى و اعراقه،فإن الوهم فى إدراكاتها الجزئيه و احكامها لما كانت معتكفه على باب الحس و كان جل أحكامها و تصديقاتها فى المدركات التى تتلقاها من طريق الحواس فهى تنقبض عن مطاوعه ما صدقه العقل،و إن كانت النفس مؤمنه موقنه به،كما فى الاحكام الكليه العقليه الحقه من الامور الخارجه عن الماده الغائبه عن الحس فإنها تستنكف عن قبولها و ان سلمت مقدماتها المنتجه لها،فتخطر بالبال أحكاما مناقضه لها،ثم تثير الاحوال النفسانيه المناسبه لاستنكافها فتقوى و تتأيد بذلك فى تأثيرها المخالف،و ان كانت النفس من جهه عقلها موقنه بالحكم مؤمنه بالأمر فلا تضرها إلا أذى،كما ان من بات فى دار مظلمه فيها جسد ميت فإنه يعلم:ان الميت جماد من غير شعور و إراده فلا يضر شيئا،لكن الوهم تستنكف عن هذه النتيجه و تستدعى من المتخيله ان تصور للنفس صورا هائله موحشه من أمر الميت ثم تهيج صفه الخوف فتتسلط على النفس،و ربما بلغ الى حيث يزول العقل أو تفارق النفس.

فقد ظهر:أن وجود الخطورات المنافيه للعقائد اليقينيه لا ينافى الإيمان و التصديق دائما، غير أنها تؤذى النفس،و تسلب السكون و القرار منها،و لا يزول وجود هذه الخواطر إلا بالحس أو المشاهده،و لذلك قيل:إن للمعاينه أثرا لا يوجب مع العلم،و قد أخبر اللّه تعالى موسى فى الميقات بضلال قومه بعباده العجل فلم يوجب ذلك ظهور غضبه حتى اذا جاءهم و شاهدهم و عاين أمرهم غضب و ألقى الألواح و أخذ برأس أخيه يجره اليه.

و قد ظهر من هنا و مما مر سابقا أن ابراهيم عليه السّلام ما كان يسأل المشاهده بالحس الذى يتعلق بقبول أجزاء الموتى الحياه بعد فقدها،بل انما كان يسأل مشاهده فعل اللّه سبحانه و أمره فى إحياء الموتى،و ليس ذلك بمحسوس و ان كان لا ينفك عن الامر المحسوس الذى هو قبول الاجزاء الماديه للحياه بالاجتماع و التصور بصوره الحى،فهو عليه السّلام انما كان يسأل حق اليقين.

قوله تعالى: قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً ،صرهن بضم الصاد على إحدى القراءتين من صار يصور اذا قطع أو امال،أو بكسر الصاد على القراءه الأخرى من صار يصير بأحد المعنيين،و قرائن الكلام يدل على إراده معنى القطع،و تعديته بإلى تدل على تضمين معنى الإماله.فالمعنى:اقطعهن مميلا اليك أو أملهن قاطعا إياهن على الخلاف فى التضمين من حيث التقدير.

و كيف كان فقوله تعالى: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ ،الخ؛جواب عن ما سأله ابراهيم عليه السّلام بقوله: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتىٰ ،و من المعلوم وجوب مطابقه الجواب للسؤال، فبلاغه الكلام و حكمه المتكلم يمنعان عن اشتمال الكلام على ما هو لغو زائد لا يترتب على وجوده فائده عائده الى الغرض المقصود من الكلام و خاصه القرآن الذى هو خير كلام القاه خير متكلم الى خير سامع واع،و ليست القصه على تلك البساطه التى تتراءى منها فى بادى

النظر،و لو كان كـذلك لتم الجواب بإحياء ميت ما كيف كان،و لكان الزائـد على ذلك لغوا مسـتغنى عنه و ليس كذلك،و لقد أخذ فيها قيود و خصوصيات زائده على أصل المعنى،فاعتبر فى ما أريد إحيائه أن يكون طيرا،و ان يكون حيا،و ان يكون ذا عدد أربعه،و ان يقتل و يخلط و يمزج أجزائها،و ان يفرق الاجزاء المختلطه أبعاضا ثم يوضع كل بعض فى مكان بعيـد من الآخر كقله هذا الجبل و ذاک الجبل،و أن يكون الإحياء بيد ابراهيم عليه السّلام(نفس السائل) بدعوته إياهن،و ان يجتمع الجميع عنده.

فهـذه كما ترى خصوصـيات زائـده فى القصه،هى لا محاله دخيله فى المعنى المقصود افادته، و قد ذكروا لها وجوها من النكات لا تزيد الباحث الا عجبا(يعلم صحه ما ذكرناه بالرجوع الى مفصلات التفاسير).

و كيف كـان فهـذه الخصوصـيات لاـ بـد ان تكون مرتبطه بالسؤال،و الـذى يوجـد فى السؤال -و هو قوله: رَبِّ أَرِنِی کَیْفَ تُحْیِ الْمَوْتیٰ -أمران.

أحـدهما:مـا اشـتمل عليه قوله: تُحْیِ و هو ان المسـئول مشاهـده الإحيـاء من حيث انه وصف للّه سـبحانه لاـ من حيث انه وصـف لأجزاء الماده الحامله للحياه.

و ثانيهما:ما اشتمل عليه لفظ الموتى من معنى الجمع فإنه خصوصيه زائده.

أمـا الاول:فيرتبط به فى الجواب إجزاء هـذا الامر بيـد ابراهيم نفسه حيث يقول:فخـذ، فصـرهن،ثم اجعل،بصـيغه الامر و يقول ثم ادعهن يأتينک،فإنه تعالى جعل إتيانهن سـعيا و هو الحياه مرتبطا متفرعا على الـدعوه،فهـذه الـدعوه هى السـبب الذى يفيض عنه حياه ما أريـد إحيائه،و لا إحياء إلا بأمر اللّه،فـدعوه ابراهيم إياهن بأمر اللّه،قد كانت متصـله نحو اتصال بأمر اللّه الذى منه تترشـح حيـاه الاحيـاء،و عنـد ذلـک شاهـده ابراهيم و رأى كيفيه فيضان الامر بالحياه،و لو كانت دعوه ابراهيم إياهن غير متصـله بأمر اللّه الذى هو ان يقول لشىء أراده:كن فيكون،كمثل أقوالنا غير المتصله إلا بالتخيل كان هو أيضا كمثلنا اذ قلنا لشىء كن فلا

یکون،فلا تأثیر جزافی فی الوجود.

و اما الثانی:فقوله کیف تحیی الموتی تدل علی ان لکثره الاموات و تعددها دخلا فی السؤال،و لیس إلا ان الاجساد بموتها و تبدد أجزائها و تغیر صورها و تحول أحوالها تفقد حاله التمیز و الارتباط الذی بینها فتضل فی ظلمه الفناء و البوار،و تصیر کالاحادیث المنسیه لا خبر عنها فی خارج و لا ذهن فکیف تحیط بها القوه المحییه و لا محاط فی الواقع.

و هذا هو الذی أورده فرعون علی موسی علیه السلام و أجاب عنه موسی بالعلم کما حکاه اللّه تعالی بقوله قٰالَ فَمٰا بٰالُ الْقُرُونِ الْأُولیٰ قٰالَ عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّی فِی کِتٰابٍ لاٰ یَضِلُّ رَبِّی وَ لاٰ یَنْسیٰ (طه۵۱/).

و بالجمله فأجابه اللّه تعالی بأن أمره بأن یأخذ أربعه من الطیر(و لعل اختیار الطیر لکون هذا العمل فیها أسهل و أقل زمانا)فیشاهد حیاتها و یری اختلاف اشخاصها و صورها، و یعرفها معرفه تامه أولا،ثم یقتلها و یخلط أجزائها خلطا دقیقا ثم یجعل ذلک ابعاضا،و کل بعض منها علی جبل لتفقد التمیز و التشخص،و تزول المعرفه،ثم یدعوهن یأتینه سعیا،فإنه یشاهد حینئذ ان التمیز و التصور بصوره الحیاه کل ذلک تابع للدعوه التی تتعلق بأنفسها،أی إن أجسادها تابعه لانفسها لا بالعکس،فإن البدن فرع تابع للروح لا بالعکس،بل نسبه البدن الی الروح بوجه نسبه الظل الی الشاخص،فاذا وجد الشاخص تبع وجوده وجود الظل و الی أی حال تحول الشاخص أو أجزائه تبعه فیه الظل حتی اذا انعدم تبعه فی الانعدام،و اللّه سبحانه اذا أوجد حیا من الاحیاء،أو أعاد الحیاه الی أجزاء مسبوقه بالحیاه فإنما یتعلق إیجاده بالروح الواجده للحیاه أولا ثم یتبعه أجزاء الماده بروابط محفوظه عند اللّه سبحانه لا نحیط بها علما فیتعین الجسد بتعین الروح من غیر فصل و لا مانع و بذلک یشعر قوله تعالی: ثُمَّ ادْعُهُنَّ یَأْتِینَکَ سَعْیاً أی مسرعات مستعجلات.

و هذا هو الذی یستفاد من قوله تعالی: وَ قٰالُوا أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِی الْأَرْضِ أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ

بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (السجده/١١)،و قد مر بعض الكلام فى الآيه فى البحث عن تجرد النفس و سيأتى تفصيل الكلام فى محله إنشاء اللّه.

فقوله تعالى: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ انما امر بذلك ليعرفها فلا يشك فيها عند إعاده الحياه إليها و لا ينكرها،و ليرى ما هى عليه من الاختلاف و التميز أولا و زوالهما ثانيا،و قوله:

فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً أى اذبحهن و بدد أجزاءهن و اخلطها ثم فرقها على الجبال الموجوده هناك لتباعد الاجزاء و هى غير متميزه،و هذا من الشواهد على ان القصه انما وقعت بعد مهاجره ابراهيم من أرض بابل الى سوره فإن أرض بابل لا جبل بها، و قوله ثم ادعهن،أى ادع الطيور يا طاوس و يا فلان و يا فلان،و يمكن ان يستفاد ذلك مضافا الى دلاله ضمير«هن»الراجعه الى الطيور من قوله: اُدْعُهُنَّ ،فإن الدعوه لو كانت لأجزاء الطيور دون أنفسها كان الانسب ان يقال:ثم نادهن فإنها كانت على جبال بعيده عن موقفه عليه السّلام و اللفظ المستعمل فى البعيد خاصه هو النداء دون الدعاء،و قوله: يَأْتِينَكَ سَعْياً ،أى يتجسدن و اتصفن بالاتيان و الاسراع اليك.

قوله تعالى: وَ اعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ،أى عزيز لا يفقد شيئا بزواله عنه، حكيم لا يفعل شيئا الا من طريقه اللائق به،فيوجد الاجساد بإحضار الأرواح و ايجادها دون العكس.

و فى قوله تعالى: وَ اعْلَمْ أَنَّ ،الخ؛دون ان يقال ان اللّه،الخ؛دلاله على أن الخطور القلبى الذى كان ابراهيم يسأل ربه المشاهده ليطمئن قلبه من ناحيته كان راجعا الى حقيقه معنى الاسمين:العزيز الحكيم،فأفاده اللّه سبحانه بهذا الجواب العلم بحقيقتهما (١).

١- ١) .البقره ٢۵٩-٢۶٠ بحث روائى فى محاجه نمرود مع ابراهيم،طلب ابراهيم عليه السّلام لمشاهده احياء الموتى.

[سوره البقره (۲): الآیات ۲۶۱ الی ۲۷۴]

اشاره

مَثَلُ اَلَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ کَمَثَلِ حَبَّهٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنٰابِلَ فِی کُلِّ سُنْبُلَهٍ مِائَهُ حَبَّهٍ وَ اَللّٰهُ یُضٰاعِفُ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِیمٌ (۲۶۱) اَلَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ ثُمَّ لاٰ یُتْبِعُونَ مٰا أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لاٰ أَذیً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ (۲۶۲) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَهٌ خَیْرٌ مِنْ صَدَقَهٍ یَتْبَعُهٰا أَذیً وَ اَللّٰهُ غَنِیٌّ حَلِیمٌ (۲۶۳) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تُبْطِلُوا صَدَقٰاتِکُمْ بِالْمَنِّ وَ اَلْأَذیٰ کَالَّذِی یُنْفِقُ مٰالَهُ رِئٰاءَ اَلنّٰاسِ وَ لاٰ یُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ صَفْوٰانٍ عَلَیْهِ تُرٰابٌ فَأَصٰابَهُ وٰابِلٌ فَتَرَکَهُ صَلْداً لاٰ یَقْدِرُونَ عَلیٰ شَیْءٍ مِمّٰا کَسَبُوا وَ اَللّٰهُ لاٰ یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلْکٰافِرِینَ (۲۶۴) وَ مَثَلُ اَلَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمُ اِبْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِ اَللّٰهِ وَ تَثْبِیتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ کَمَثَلِ جَنَّهٍ بِرَبْوَهٍ أَصٰابَهٰا وٰابِلٌ فَآتَتْ أُکُلَهٰا ضِعْفَیْنِ فَإِنْ لَمْ یُصِبْهٰا وٰابِلٌ فَطَلٌّ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۲۶۵) أَ یَوَدُّ أَحَدُکُمْ أَنْ تَکُونَ لَهُ جَنَّهٌ مِنْ نَخِیلٍ وَ أَعْنٰابٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ لَهُ فِیهٰا مِنْ کُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ وَ أَصٰابَهُ اَلْکِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّیَّهٌ ضُعَفٰاءُ فَأَصٰابَهٰا إِعْصٰارٌ فِیهِ نٰارٌ فَاحْتَرَقَتْ کَذٰلِکَ یُبَیِّنُ اَللّٰهُ لَکُمُ اَلْآیٰاتِ لَعَلَّکُمْ تَتَفَکَّرُونَ (۲۶۶) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَیِّبٰاتِ مٰا کَسَبْتُمْ وَ مِمّٰا أَخْرَجْنٰا لَکُمْ مِنَ اَلْأَرْضِ وَ لاٰ تَیَمَّمُوا اَلْخَبِیثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِیهِ إِلاّٰ أَنْ تُغْمِضُوا فِیهِ وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ غَنِیٌّ حَمِیدٌ (۲۶۷) اَلشَّیْطٰانُ یَعِدُکُمُ اَلْفَقْرَ وَ یَأْمُرُکُمْ بِالْفَحْشٰاءِ وَ اَللّٰهُ یَعِدُکُمْ مَغْفِرَهً مِنْهُ وَ فَضْلاً وَ اَللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِیمٌ (۲۶۸) یُؤْتِی اَلْحِکْمَهَ مَنْ یَشٰاءُ وَ مَنْ یُؤْتَ اَلْحِکْمَهَ فَقَدْ أُوتِیَ خَیْراً کَثِیراً وَ مٰا یَذَّکَّرُ إِلاّٰ أُولُوا اَلْأَلْبٰابِ (۲۶۹) وَ مٰا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَهٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ یَعْلَمُهُ وَ مٰا لِلظّٰالِمِینَ مِنْ أَنْصٰارٍ (۲۷۰) إِنْ تُبْدُوا اَلصَّدَقٰاتِ فَنِعِمّٰا هِیَ وَ إِنْ تُخْفُوهٰا وَ تُؤْتُوهَا اَلْفُقَرٰاءَ فَهُوَ خَیْرٌ لَکُمْ وَ یُکَفِّرُ عَنْکُمْ مِنْ سَیِّئٰاتِکُمْ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ (۲۷۱) لَیْسَ عَلَیْکَ هُدٰاهُمْ وَ لٰکِنَّ اَللّٰهَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَیْرٍ فَلِأَنْفُسِکُمْ وَ مٰا تُنْفِقُونَ إِلاَّ اِبْتِغٰاءَ وَجْهِ اَللّٰهِ وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَیْرٍ یُوَفَّ إِلَیْکُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ (۲۷۲) لِلْفُقَرٰاءِ اَلَّذِینَ أُحْصِرُوا فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ لاٰ یَسْتَطِیعُونَ ضَرْباً فِی اَلْأَرْضِ یَحْسَبُهُمُ اَلْجٰاهِلُ أَغْنِیٰاءَ مِنَ اَلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِیمٰاهُمْ لاٰ یَسْئَلُونَ اَلنّٰاسَ إِلْحٰافاً وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَیْرٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ بِهِ عَلِیمٌ (۲۷۳) اَلَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ بِاللَّیْلِ وَ اَلنَّهٰارِ سِرًّا وَ عَلاٰنِیَهً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ (۲۷۴)

بیان

بیان (۱):

قوله تعالی: مَثَلُ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ کَمَثَلِ حَبَّهٍ الخ؛ المراد بسبیل اللّه کل أمر ینتهی الی مرضاته سبحانه لغرض دینی فعل الفعل لأجله،فإن الکلمه فی الآیه مطلقه،و ان کانت الآیه مسبوقه بآیات ذکر فیها القتال فی سبیل اللّه،و کانت کلمه،فی سبیل اللّه،مقارنه للجهاد فی غیر واحد من الآیات،فإن ذلک لا یوجب التخصیص و هو ظاهر.

قوله تعالی: أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنٰابِلَ فِی کُلِّ سُنْبُلَهٍ مِائَهُ حَبَّهٍ ،السنبل معروف و هو علی فنعل،قیل الأصل فی معنی مادته الستر سمی به لانه یستر الحبات التی تشتمل علیها فی الأغلفه.

و من اسخف الإشکال ما أورد علی الآیه أنه تمثیل بما لا تحقق له فی الخارج و هو اشتمال السنبله علی مائه حبه،و فیه أن المثل کما عرفت لا یشترط فیه تحقق مضمونه فی الخارج فالامثال التخییلیه اکثر من ان تعد و تحصی،علی ان اشتمال السنبله علی مائه حبه و إنبات الحبه الواحده سبعمائه حبه لیس بعزیز الوجود.

۱- ۱) .البقره ۲۶۱-۲۷۴:کلام فی الانفاق.

قوله تعالى: وَ اللّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ ،أى يزيد على سبعمائه لمن يشاء فهو الواسع لا مانع من جوده و لا محدد لفضله كما قال تعالى: مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً (البقره۲۴۵/)،فأطلق الكثره و لم يقيدها بعدد معين.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لا أَذىً الخ؛الاتباع اللحوق و الالحاق،قال تعالى: فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (الشعراء۶۰/)أى لحقوهم،و قال تعالى: وَ أَتْبَعْناهُمْ فِى هٰذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً (القصص/ ۴۲)،أى ألحقناهم،و المن هو ذكر ما ينغص المعروف كقول المنعم للمنعم عليه:أنعمت عليك بكذا و كذا و نحو ذلك،و الاصل فى معناه على ما قيل القطع،و منه قوله تعالى: لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (فصلت۸/)،أى غير مقطوع،و الاذى الضرر العاجل أو الضرر اليسير،و الخوف توقع الضرر،و الحزن الغم الذى يغلظ على النفس من مكروه واقع أو كالواقع.

قوله تعالى: قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ الخ؛المعروف من القول ما لا ينكره الناس بحسب العاده،و يختلف باختلاف الموارد،و الاصل فى معنى المغفره هو الستر، و الغنى مقابل الحاجه و الفقر،و الحلم السكوت عند المكروه من قول أو فعل.

و ترجيح القول المعروف و المغفره على صدقه يتبعها أذى ثم المقابله يشهد بأن المراد بالقول المعروف الدعاء أو لفظ آخر جميل عند رد السائل اذا لم يتكلم بما يسوء المسئول عنه،و الستر و الصفح اذا شفع سؤاله بما يسوؤه و هما خير من صدقه يتبعها أذى،فإن أذى المنفق للمنفق عليه يدل على عظم إنفاقه و المال الذى أنفقه فى عينه،و تأثره عما يسوؤه من السؤال،و هما علتان يجب أن تزاحا عن نفس المؤمن،فإن المؤمن متخلق بأخلاق اللّه،و اللّه سبحانه غنى لا يكبر عنده ما أنعم و جاد به،حليم لا يتعجل فى المؤاخذه على السيئه،و لا يغضب عند كل جهاله،و هذا معنى ختم الآيه بقوله: وَ اللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ .

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُبْطِلُوا صَدَقٰاتِكُمْ الخ؛تدل الآيه على حبط الصدقه بلحوق المن و الأذى،و ربما يستدل بها على حبط كل معصيه أو الكبيره خاصه لما يسبقها من الطاعات،و لا دلاله فى الآيه على غير المن و الأذى بالنسبه الى الصدقه و قد تقدم إشباع الكلام فى الحبط.

قوله تعالى: كَالَّذِى يُنْفِقُ مٰالَهُ رِئٰاءَ النّٰاسِ وَ لاٰ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ،لما كان الخطاب للمؤمنين،و المرائى غير مؤمن كما ذكره اللّه سبحانه لانه لا يقصد بأعماله وجه اللّه لم يعلق النهى بالرئاء كما علقه على المن و الأذى،بل انما شبّه المتصدق الذى يتبع صدقته بالمن و الأذى بالمرائى فى بطلان الصدقه،مع أن عمل المرائى باطل من رأس و عمل المانّ و المؤذى وقع أولا صحيحا ثم عرضه البطلان.

و اتحاد سياق الافعال فى قوله: يُنْفِقُ مٰالَهُ ،و قوله: وَ لاٰ يُؤْمِنُ من دون أن يقال:و لم يؤمن يدل على أن المراد من عدم ايمان المرائى فى الإنفاق باللّه و اليوم الآخر عدم ايمانه بدعوه الانفاق الذى يدعو إليها اللّه سبحانه،و يعد عليه جزيل الثواب،اذ لو كان يؤمن بالداعى فى دعوته هذه،و بيوم القيامه الظاهر فيه الجزاء لقصد فى فعله وجه اللّه،و أحب و اختار جزيل الثواب،و لم يقصد به رئاء الناس،فليس المراد من عدم ايمان المرائى عدم ايمانه باللّه سبحانه رأسا.

و يظهر من الآيه:ان الرياء فى عمل يستلزم عدم الايمان باللّه و اليوم الآخر فيه.

قوله تعالى: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوٰانٍ عَلَيْهِ تُرٰابٌ الى آخر الآيه؛الضمير فى قوله:

فَمَثَلُهُ راجع الى الذى ينفق ماله رئاء الناس و المثل له،و الصفوان و الصفا الحجر الأملس و كذا الصلد،و الوابل:المطر الغزير الشديد الوقع.

و الضمير فى قوله: لاٰ يَقْدِرُونَ راجع الى الذى ينفق رئاء لأنه فى معنى الجمع،و الجمله تبين وجه الشبه و هو الجامع بين المشبه و المشبه به،و قوله تعالى: وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِى الْقَوْمَ

الْكافِرِينَ بيان للحكم بوجه عام و هو ان المرائى فى ريائه من مصاديق الكافر،و اللّه لا يهدى القوم الكافرين،و لذلك أفاد معنى التعليل.

و خلاصه معنى المثل:أن حال المرائى فى إنفاقه رئاء و فى ترتب الثواب عليه كحال الحجر الأملس الذى عليه شىء من التراب اذا أنزل عليه وابل المطر،فإن المطر و خاصه وابله هو السبب البارز لحياه الأرض و اخضرارها و تزينها بزينه النبات،إلا أن التراب اذا وقع على الصفوان الصلد لا يستقر فى مكانه عند نزول الوابل بل يغسله الوابل و يبقى الصلد الذى لا يجذب الماء،و لا يتربى فيه بذر لنبات،فالوابل و إن كان من أظهر أسباب الحياه و النمو و كذا التراب لكن كون المحل صلدا يبطل عمل هذين السببين من غير أن يكون النقص و القصور من جانبهما فهذا حال الصلد.

و هذا حال المرائى فإنه لما لم يقصد من عمله وجه اللّه لم يترتب على عمله ثواب و إن كان العمل كالانفاق فى سبيل اللّه من الاسباب البارزه لترتب الثواب،فإنه مسلوب الاستعداد لا يقبل قلبه الرحمه و الكرامه.

و قد ظهر من الآيه:أن قبول العمل يحتاج الى نيه الاخلاص و قصد وجه اللّه،و قد روى الفريقان عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:أنه قال:إنما الاعمال بالنيات.

قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللّهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ،ابتغاء المرضاه هو طلب الرضاء،و يعود الى اراده وجه اللّه،فإن وجه الشىء هو ما يواجهك و يستقبلك به،و وجهه تعالى بالنسبه الى عبده الذى امره بشىء و اراده منه هو رضائه عن فعله و امتثاله،فإن الآمر يستقبل المأمور اولا بالامر فاذا امتثل استقبله بالرضاء عنه،فمرضاه اللّه عن العبد المكلف بتكليف هو وجهه اليه،فابتغاء مرضاه اللّه هو اراده وجهه عزّ و جل.

و اما قوله: وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ فقد قيل:إن المراد التصديق و اليقين.و قيل:هو

التثبت ای یتثبتون این یضعون اموالهم،و قیل:هو التثبت فی الانفاق فإن کان للّه امضی،و ان کان خالطه شیء من الریاء امسک،و قیل:التثبیت توطین النفس علی طاعه اللّه تعالی،و قیل:

هو تمکین اللّه.و انت خبیر بأن شیئا من الاقوال لا ینطبق علی الآیه إلا بتکلف.

و الذی ینبغی ان یقال-و اللّه العالم-فی المقام:هو ان اللّه سبحانه لما اطلق القول اولا فی مدح الانفاق فی سبیل اللّه،و ان له عند اللّه عظیم الاجر اعترضه ان استثنی منه نوعین من الانفاق لا یرتضیهما اللّه سبحانه،و لا یترتب علیهما الثواب،و هما الانفاق ریاء الموجب لعدم صحه العمل من رأس و الانفاق الذی یتبعه منّ أو أذی فإنه یبطل بهما و ان انعقد اولا صحیحا، و لیس یعرض البطلان،لهذین النوعین الا من جهه عدم ابتغاء مرضاه اللّه فیه من رأس،أو لزوال النفس عن هذه النیه اعنی ابتغاء المرضاه ثانیا بعد ما کانت علیها اولا،فأراد فی هذه الآیه بیان حال الخاصه من أهل الانفاق الخالصه بعد استثناء المرائین و اهل المن و الاذی، و هم الذین ینفقون أموالهم ابتغاء وجه اللّه ثم یقرون انفسهم علی الثبات علی هذه النیه الطاهره النامیه من غیر ان یتبعوها بما یبطل العمل و یفسده.

و من هنا یظهر ان المراد بابتغاء مرضاه اللّه ان لا یقصد بالعمل رئاء و نحوه مما یجعل النیه غیر خالصه لوجه اللّه،و بقوله تثبیتا من انفسهم تثبیت الانسان نفسه علی ما نواه من النیه الخالصه،و هو تثبیت ناش من النفس واقع علی النفس.فقوله تثبیتا تمیز و کلمه من نشویه و قوله انفسهم فی معنی الفاعل،و ما فی معنی المفعول مقدر.و التقدیر تثبیتا من انفسهم لانفسهم،أو مفعول مطلق لفعل من مادته.

قوله تعالی: کَمَثَلِ جَنَّهٍ بِرَبْوَهٍ أَصٰابَهٰا وٰابِلٌ الی آخر الآیه؛الاصل فی ماده ربا الزیاده،و الربوه بالحرکات الثلاث فی الراء الارض الجیده التی تزید و تعلو فی نموها،و الاکل بضمتین ما یؤکل من الشیء و الواحده أکله.و الطل اضعف المطر القلیل الأثر.

و الغرض من المثل ان الانفاق الذی أرید به وجه اللّه لا یتخلف عن اثرها الحسن البته،فإن

العنایه الالهیه واقعه علیه متعلقه به لانحفاظ اتصاله باللّه سبحانه و ان کانت مراتب العنایه مختلفه لاختلاف درجات النیه فی الخلوص،و اختلاف وزن الاعمال باختلافها،کما ان الجنه التی فی الربوه اذا أصابها المطر لم تلبث دون ان تؤتی أکلها ایتاء جیدا البته و إن کان إیتائها مختلفا فی الجوده باختلاف المطر النازل علیه من وابل و طل.

و لوجود هذا الاختلاف ذیل الکلام بقوله: وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ أی لا یشتبه علیه امر الثواب،و لا یختلط علیه ثواب الاعمال المختلفه فیعطی ثواب هذا لذاک و ثواب ذاک لهذا.

قوله تعالی: أَ یَوَدُّ أَحَدُکُمْ أَنْ تَکُونَ لَهُ جَنَّهٌ مِنْ نَخِیلٍ وَ أَعْنٰابٍ الخ؛الود هو الحب و فیه معنی التمنی،و الجنه:الشجر الکثیر الملتف کالبستان سمیت بذلک لانها تجن الارض و تسترها و تقیها من ضوء الشمس و نحوه،و لذلک صح ان یقال:تجری من تحتها الانهار،و لو کانت هی الارض بما لها من الشجر مثلا لم یصح ذلک لافادته خلاف المقصود،و لذلک قال تعالی فی مثل الربوه و هی الارض المعموره: رَبْوَهٍ ذٰاتِ قَرٰارٍ وَ مَعِینٍ (المؤمنون۵۰/)، و کرر فی کلامه قوله: جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ فجعل المعین(و هو الماء)فیها لا جاریا تحتها.

و من فی قوله: مِنْ نَخِیلٍ وَ أَعْنٰابٍ للتبیین و یفید معنی الغلبه دون الاستیعاب،فإن الجنه و البستان و ما هو من هذا القبیل إنما یضاف الی الجنس الغالب فیقال جنه العنب أو جنه من أعناب اذا کان الغالب فیها الکرم و هی لا تخلو مع ذلک من شجر شتی،و لذلک قال تعالی ثانیا:

له فیها من کل الثمرات.

و الکبر کبر السن و هو الشیخوخه،و الذریه الاولاد،و الضعفاء جمع الضعیف،و قد جمع تعالی فی المثل بین إصابه الکبر و وجود الذریه الضعفاء لتثبیت مسیس الحاجه القطعیه الی الجنه المذکوره مع فقدان باقی الاسباب التی یتوصل إلیها فی حفظ سعاده الحیاه و تأمین المعیشه،فإن صاحب الجنه لو فرض شابا قویا لأمکنه ان یستریح الی قوه یمینه لو أصیبت

جنته بمصيبه،و لو فرض شيخا هرما من غير ذريه ضعفاء لم يسؤ حاله تلك المساءه لانه لا يرى لنفسه إلا أياما قلائل لا يبطئ عليه زوالها و انقضائها،و لو فرض ذا كبر و له اولاد أقوياء يقدرون على العمل و اكتساب المعيشه امكنهم ان يقتاتوا بما يكتسبونه،و ان يستغنوا عنها بوجه!لكن اذا اجتمع هناك الكبر و الذريه الضعفاء،و احترقت الجنه انقطعت الاسباب عنهم عند ذلك،فلا صاحب الجنه يمكنه ان يعيد لنفسه الشباب و القوه أو الايام الخاليه حتى يهيئ لنفسه نظير ما كان قد هيأها،و لا لذريته قوه على ذلك،و لا لهم رجاء ان ترجع الجنه بعد الاحتراق الى ما كانت عليه من النضاره و الاثمار.

و الاعصار الغبار الذى يلتف على نفسه بين السماء و الارض كما يلتف الثوب على نفسه عند العصر.

و هذا مثل ضربه اللّه للذين ينفقون أموالهم ثم يتبعونه منا و أذى فيحبط عملهم و لا سبيل لهم الى إعاده العمل الباطل الى حال صحته و استقامته،و انطباق المثل على الممثل ظاهر، و رجا منهم التفكر لان امثال هذه الأفاعيل المفسده للأعمال انما تصدر من الناس و معهم حالات نفسانيه كحب المال و الجاه و الكبر و العجب و الشح،لا تدع للانسان مجال التثبت و التفكر و تميز النافع من الضار،و لو تفكروا لتبصروا.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ الخ؛التيمم هو القصد و التعمد،و الخبيث ضد الطيب،و قوله: مِنْهُ ،متعلق بالخبيث،و قوله: تُنْفِقُونَ حال من فاعل لا- تيمموا،قوله: وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ حال من فاعل تنفقون،و عامله الفعل،و قوله ان تغمضوا فيه فى تأويل المصدر،و اللام مقدر على ما قيل و التقدير إلا لاغماضكم فيه،أو المقدر باء المصاحبه و التقدير إلا بمصاحبه الاغماض.

و معنى الآيه ظاهر،و إنما بين تعالى كيفيه مال الانفاق،و انه ينبغى ان يكون من طيّب المال لا من خبيثه الذى لا يأخذه المنفق إلا بإغماض،فإنه لا يتصف بوصف الجود و السخاء،بل

يتصور بصوره التخلص،فلا يفيد حبا للصنيعه و المعروف و لا كمالا للنفس،و لذلك ختمها بقوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ أى راقبوا فى إنفاقكم غناه و حمده فهو فى عين غناه يحمد إنفاقكم الحسن فأنفقوا من طيب المال،أو انه غنى محمود لا ينبغى ان تواجهوه بما لا يليق بجلاله جل جلاله.

قوله تعالى: اَلشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ إقامه للحجه على ان اختيار خبيث المال للانفاق ليس بخير للمنفقين بخلاف اختيار طيبه فإنه خير لهم،ففى النهى مصلحه أمرهم كما ان فى المنهى عنه مفسده لهم،و ليس إمساكهم عن انفاق طيب المال و بذله إلا لما يرونه مؤثرا فى قوام المال و الثروه فتنقبض نفوسهم عن الاقدام الى بذله بخلاف خبيثه فإنه لا قيمه له يعنى بها فلا بأس بإنفاقه،و هذا من تسويل الشيطان يخوّف أوليائه من الفقر، مع ان البذل و ذهاب المال و الانفاق فى سبيل اللّه و ابتغاء مرضاته مثل البذل فى المعاملات لا يخلو عن العوض و الربح كما مر،مع ان الذى يغنى و يقنى هو اللّه سبحانه دون المال،قال تعالى:

وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنىٰ وَ أَقْنىٰ (النجم/۴۸).

و بالجمله لما كان إمساكهم عن بذل طيب المال خوفا من الفقر خطأ نبه عليه بقوله:

الشيطان يعدكم الفكر،غير انه وضع السبب موضع المسبب،أعنى انه وضع وعد الشيطان موضع خوف انفسهم ليدل على انه خوف مضر لهم فإن الشيطان لا يأمر إلا بالباطل و الضلال إما ابتداء و من غير واسطه،و إما بالآخره و بواسطه ما يظهر منه انه حق.

و لما كان من الممكن ان يتوهم ان هذا الخوف حق و إن كان من ناحيه الشيطان دفع ذلك بإتباع قوله: اَلشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ بقوله: وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ أولا،فإن هذا الامساك و التثاقل منهم يهيئ فى نفوسهم ملكه الامساك و سجيه البخل،فيؤدى الى ردّ أوامر اللّه المتعلقه بأموالهم و هو الكفر باللّه العظيم،و يؤدى الى إلقاء أرباب الحاجه فى تهلكه الاعسار و الفقر و المسكنه التى فيه تلف النفوس و انهتاك الاعراض و كل جنايه و فحشاء،قال تعالى:

وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصّالِحِينَ فَلَمّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ الى ان قال: اَلَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (التوبه/ ٧٩).

ثم بإتباعه بقوله: وَ اللّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلاً وَ اللّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ ثانيا،فإن اللّه قد بين للمؤمنين:ان هناك حقا و ضلالا لا ثالث لهما،و ان الحق و هو الطريق المستقيم هو من اللّه سبحانه،و ان الضلال من الشيطان،قال تعالى: فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ (يونس٣٢/)، و قال تعالى: قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ (يونس٣٥/)،و قال تعالى فى الشيطان: إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (القصص١٥/)،و الآيات جميعا مكيه،و بالجمله نبه تعالى بقوله: وَ اللّهُ يَعِدُكُمْ ، بأن هذا الخاطر الذى يخطر ببالكم من جهه الخوف ضلال من الفكر فإن مغفره اللّه الزياده التى ذكرها فى الآيات السابقه انما هما فى البذل من طيبات المال.

فقوله تعالى: وَ اللّهُ يَعِدُكُمْ، الخ؛نظير قوله: اَلشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ ،الخ؛من قبيل وضع السبب موضع المسبب،و فيه القاء المقابله بين وعد اللّه سبحانه الواسع العليم و وعد الشيطان،لينظر المنفقون فى امر الوعدين و يختاروا ما هو اصلح لبالهم منهما.

فحاصل حجه الآيه:ان اختياركم الخبيث على الطيب انما هو لخوف الفقر،و الجهل بما يستتبعه هذا الانفاق،أما خوف الفقر فهو القاء،شيطانى،و لا يريد الشيطان بكم الا الضلال و الفحشاء فلا يجوز ان تتبعوه،و اما ما يستتبعه هذا الانفاق فهو الزياده و المغفره اللتان ذكرتا لكم فى الآيات السابقه،و هو استتباع بالحق لان الذى يعدكم استتباع الانفاق لهذه المغفره و الزياده هو اللّه سبحانه و وعده حق،و هو واسع يسعه ان يعطى ما وعده من المغفره و الزياده و عليم لا يجهل شيئا و لا حالا من شىء فوعده وعده عن علم.

قوله تعالى: يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ،الايتاء هو الاعطاء،و الحكمه بكسر الحاء على فعله بناء نوع يدل على نوع المعنى فمعناه النوع من الإحكام و الإتقان أو نوع من الامر المحكم المتقن الذى لا يوجد فيه ثلمه و لا فتور،و غلب استعماله فى المعلومات العقليه الحقه الصادقه التى لا تقبل البطلان و الكذب البته.

و الجمله تدل على ان البيان الذى بين اللّه به حال الانفاق بجمع علله و أسبابه و ما يستتبعه من الاثر الصالح فى حقيقه حياه الانسان هو من الحكمه،فالحكمه هى القضايا الحقه المطابقه للواقع من حيث اشتمالها بنحو على سعاده الانسان كالمعارف الحقه الالهيه فى المبدأ و المعاد، و المعارف التى تشرح حقائق العالم الطبيعى من جهه مساسها بسعاده الانسان كالحقائق الفطريه التى هى أساس التشريعات الدينيه.

قوله تعالى: وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ،المعنى ظاهر،و قد أبهم فاعل الايتاء مع ان الجمله السابقه عليه تدل على انه اللّه تبارك و تعالى ليدل الكلام على ان الحكمه بنفسها منشأ الخير الكثير فالتلبس بها يتضمن الخير الكثير،لا من جهه انتساب اتيانه اليه تعالى،فإن مجرد انتساب الاتيان لا يوجب ذلك كإيتاء المال،قال تعالى فى قارون:

وَ آتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ الى آخر الآيات(القصص/ ٧۶)؛و انما نسب إليها الخير الكثير دون الخير مطلقا،مع ما عليه الحكمه من ارتفاع الشأن و نفاسه الامر لان الامر مختوم بعنايه اللّه و توفيقه،و امر السعاده مراعى بالعاقبه و الخاتمه.

قوله تعالى: وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلاّ أُولُوا الْأَلْبَابِ ،اللب هو العقل لانه فى الانسان بمنزله اللب من القشر،و على هذا المعنى استعمل فى القرآن،و كأن لفظ العقل بمعناه المعروف اليوم من الاسماء المستحدثه بالغلبه و لذلك لم يستعمل فى القرآن و إنما استعمل منه الافعال مثل يعقلون.

و التذكر هو الانتقال من النتيجه الى مقدماتها،أو من الشىء الى نتائجها،و الآيه تدل

على أن اقتناص الحكمه يتوقف على التذكر،و أن التذكر يتوقف على العقل،فلا حكمه لمن لا عقل له.و قد مر بعض الكلام فى العقل عند البحث عن ألفاظ الإدراك المستعمله فى القرآن الكريم.

قوله تعالى: وَ مٰا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُهُ ،أى ما دعاكم اللّه سبحانه اليه أو دعوتم أنفسكم اليه بإيجابه عليها بالنذر من بذل المال فلا يخفى على اللّه يثيب من أطاعه و يؤاخذ من ظلم،ففيه إيماء الى التهديد،و يؤكده قوله تعالى: وَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ أَنْصٰارٍ .

و فى هذه الجمله أعنى قوله: وَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ أَنْصٰارٍ ،دلاله اولا:على أن المراد بالظلم هو الظلم على الفقراء و المساكين فى الإمساك عن الانفاق عليهم،و حبس حقوقهم الماليه،لا الظلم بمعنى مطلق المعصيه فإن فى مطلق المعصيه أنصارا و مكفرات و شفعاء كالتوبه، و الاجتناب عن الكبائر،و شفعاء يوم القيامه اذا كان من حقوق اللّه تعالى،قال تعالى: لاٰ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً الى ان قال: وَ أَنِيبُوا إِلىٰ رَبِّكُمْ (الزمر/۵۴)، و قال تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ (النساء/۳۱)،و قال تعالى: وَ لاٰ يَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ارْتَضىٰ (الأنبياء/۲۸).

و من هنا يظهر:وجه اتيان الانصار بصيغه الجمع فإن فى مورد مطلق الظلم أنصارا.

و ثانيا:أن هذا الظلم و هو ترك الإنفاق لا يقبل التكفير و لو كان من الصغائر لقبله فهو من الكبائر،و أنه لا يقبل التوبه،و يتأيد بذلك ما وردت به الروايات:أن التوبه فى حقوق الناس غير مقبوله إلا برد الحق الى مستحقه،و أنه لا يقبل الشفاعه يوم القيامه كما يدل عليه قوله تعالى: إِلاّٰ أَصْحٰابَ الْيَمِينِ فِي جَنّٰاتٍ يَتَسٰاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مٰا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قٰالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ الى أن قال: فَمٰا تَنْفَعُهُمْ شَفٰاعَةُ الشّٰافِعِينَ (المدثر/ ۴۸).

و ثالثا:أن هـذا الظالم غير مرتضـى عنـد اللّه اذ لا شـفاعه إلا لمن ارتضـى اللّه دينه كما مر بيانه فى بحث الشـفاعه،و من هنا تظهر النكته فى قوله تعالى: يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمُ ابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِ اللّٰهِ ،حيث أتى بالمرضاه و لم يقل ابتغاء وجه اللّه.

و رابعـا:أن الامتنـاع من أصـل انفـاق المال على الفقراء مع وجودهم و احتياجهم من الكبائر الموبقه،و قـد عـد تعالى الامتناع عن بعض أقسـامه كالزكـاه شـركا بـاللّه و كفرا بالآخره،قـال تعالى: وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ كٰافِرُونَ (فصلت۷)، و السوره مكيه و لم تكن شرعت الزكاه المعروفه عند نزولها.

قوله تعالى: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقٰاتِ فَنِعِمّٰا هِيَ الـخ؛الابداء هو الاظهار، و الصدقات جمع صدقه،و هى مطلق الانفاق فى سبيل اللّه أعم من الواجب و المندوب و ربما يقال:إن الاصل فى معناها الانفاق المندوب.

و قد مدح اللّه سبحانه كلا من شـقى الترديد،لكون كل واحد من الشقين ذا آثار صالحه، فأما اظهار الصدقه فإن فيه دعوه عمليه الى المعروف،و تشويقـا للنـاس الى البـذل و الانفـاق، و تطييبا لنفوس الفقراء و المساكين حيث يشاهـدون أن فى المجتمع رجالا رحمـاء بحـالهم،و أموالا موضوعه لرفع حوائجهم،مـدخره ليوم بؤسـهم فيؤدى الى زوال اليـأس و القنوط عن نفوسـهم،و حصول النشـاط لهم فى أعمـالهم،و اعتقـاد وحـده العمـل و الكسب بينهم و بين الاغنياء المثرين،و فى ذلك كل الخير،و أما اخفائها فإنه حينئـذ يكـون أبعـد من الريـاء و المن و الأذى،و فيه حفـظ لنفـوس المحتـاجين عن الخزى و المـذله،و صون لمـاء وجوههم عن الابتذال، و كلاءه لظاهر كرامتهم،فصدقه العلن أكثر نتاجا،و صدقه السر أخلص طهاره.

و لما كان بناء الـدين على الاخلاص و كان العمل كلما قرب من الاخلاص كان أقرب من الفضـيله رجـح سـبحانه جانب صدقه السـر فقال:و ان تخفوها و تعطوها الفقراء فهو خير لكم فإن كلمه خير أفعل التفضيل،و اللّه تعالى خبير بأعمال عباده لا يخطئ فى تمييز الخير من

غیره،و هو قوله تعالی: وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ .

قوله تعالی: لَیْسَ عَلَیْکَ هُدٰاهُمْ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ ،فی الکلام التفات عن خطاب المؤمنین الی خطاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و کأن ما کان یشاهده رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من فعال المؤمنین فی صدقاتهم من اختلاف السجایا بالإخلاص من بعضهم و المن و الأذی و التثاقل فی إنفاق طیب المال من بعض مع کونهم مؤمنین أوجد فی نفسه الشریفه وجدا و حزنا فسلاه اللّه تعالی بالتنبیه علی أن أمر هذا الایمان الموجود فیهم و الهدی الذی لهم إنما هو الی اللّه تعالی یهدی من یشاء الی الایمان و الی درجاته،و لیس یستند الی النبی لا وجوده و لا بقائه حتی یکون علیه حفظه،و یشتق من زواله أو ضعفه،أو یسوأه ما آل إلیه الکلام فی هذه الآیات من التهدید و الإیعاد و الخشونه.

و الشاهد علی ما ذکرناه قوله تعالی: هُدٰاهُمْ ،بالتعبیر بالمصدر المضاف الظاهر فی تحقق التلبس،علی أن هذا المعنی أعنی ففی استناد الهدایه الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إسناده الی اللّه سبحانه حیث وقع فی القرآن وقع فی مقام تسلیه النبی و تطییب قلبه.

فالجمله أعنی قوله: لَیْسَ عَلَیْکَ هُدٰاهُمْ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ جمله معترضه اعترضت فی الکلام لتطییب قلب النبی بقطع خطاب المؤمنین و الإقبال علیه صلی اللّه علیه و آله،نظیر الاعتراض الواقع فی قوله تعالی: لاٰ تُحَرِّکْ بِهِ لِسٰانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَیْنٰا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ الآیات،(القیمه۱۷/)؛فلما تم الاعتراض عاد الی الأصل فی الکلام من خطاب المؤمنین.

قوله تعالی: وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَیْرٍ فَلِأَنْفُسِکُمْ وَ مٰا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغٰاءَ وَجْهِ اللّٰهِ الی آخر الآیه؛رجوع الی خطاب المؤمنین بسیاق خال عن التبشیر و الإنذار و التحنن و التغیظ معا،فإن ذلک مقتضی معنی قوله تعالی: وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ کما لا یخفی.فقصر الکلام علی الدعوه الخالیه بالدلاله علی أن ساحه المتکلم الداعی منزهه عن الانتفاع بما

ص :۳۶۵

يتعب هـذه الدعوه من المنافع،و إنما يعود نفعه الى المدعوين،فما تنفقوا من خير فلأنفسـكم لكن لا مطلقا بل فى حال لا تنفقون إلا ابتغاء وجه اللّه،فقوله: وَ مٰا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغٰاءَ وَجْهِ اللّٰهِ حال، من ضمير الخطاب و عامله متعلق الظرف أعنى قوله: فَلِأَنْفُسِكُمْ .

و لما أمكن ان يتوهم ان هـذا النفع العائـد الى أنفسـهم ببـذل المال مجرد اسم لا مسـمى له فى الخارج،و ليس حقيقته إلا تبديل الحقيقه من الوهم عقب الكلام بقوله: وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ ،فبين ان نفع هـذا الانفاق المندوب و هو مـا يترتب عليه من مثوبه الـدنيا و الآـخره ليس امرا وهميـا،بـل هو أمر حقيقى واقعى سـيوفيه اللّه تعالى اليكم من غير ان يظلمكم بفقد أو نقص.

و إبهام الفاعل فى قوله: يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ،لما تقدم أن السـياق سياق الدعوه فطوى،ذكر الفاعل ليكون الكلام ابلغ فى النصح و انتفاء غرض الانتفاع من الفاعل كأنه كلام لا متكلم له،فلو كان هناك نفع فلسامع لا غير.

قوله تعالى: لِلْفُقَرٰاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ الى آخر الآيه؛الحصر هو المنع و الحبس،و الأصل فى معناه التضييق،قال الراغب فى المفردات:و الحصر و الاحصـار المنع من طريق البيت،فالاحصـار يقـال:فى المنع الظـاهر كالعـدو،و المنع الباطن كالمرض، و الحصر لا يقال،إلا فى المنع الباطن،فقوله تعالى: فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فمحمول على الأمرين و كذلك قوله: لِلْفُقَرٰاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ ،و قوله عزّ و جل: أَوْ جٰاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ، أى ضاقت بالبخل و الجبن،انتهى.و التعفف التلبس بالعفه،و السـيماء العلامه،و الالحاف هو الالحاح فى السؤال.

و فى الآـيه بيـان مصرف الصـدقات،و هو أفضـل المصـرف،و هم الفقراء الـذين منعوا فى سبيـل اللّه و حبسوا فيه بتأديه عوامل و اسباب الى ذلـك:امـا عـدو اخـذ مـالهم من الستر و اللبـاس أو منعهم التعيش بالخروج الى الاكتساب أو مرض أو اشـتغال بما لا يسعهم معه الاشتغال

بالكسب كطالب العلم و غير ذلك.

و فى قوله تعالى يحسبهم الجاهل اى الجاهل بحالهم اغنياء من التعفف دلاله على انهم غير متظاهرين بالفقر إلا ما لا سبيل لهم الى ستره من علائم الفقر و المسكنه من بشره أو لباس خلق أو نحوهما.

و من هنا يظهر:ان المراد بقوله: لاَ يَسْئَلُونَ النّاسَ إِلْحافاً انهم لا يسألون الناس اصلا حتى ينجر الى الالحاف و الاصرار فى السؤال،فإن السؤال أول مره يجوز للنفس الجزع من مراره الفقر فيسرع إليها ان لا تصبرونهم بالسؤال فى كل موقف،و الالحاف على كل أحد،كذا قيل، و لا يبعد ان يكون المراد نفى الالحاف لا اصل السؤال،و يكون المراد بالالحاف ما يزيد على القدر الواجب من إظهار الحاجه،فإن مسمى الاظهار عند الحاجه المبرمه لا بأس به بل ربما صار واجبا،و الزائد عليه و هو الالحاف هو المذموم.

و فى قوله تعالى: تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ دون ان يقال تعرفونهم نوع صون لجاههم و حفظ لسترهم الذى تستروا به تعففا من الانهتاك فإن كونهم معروفين بالفقر عند كل أحد لا يخلو من هوان امرهم و ظهور ذلهم.و أما معرفه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بحالهم بتوسمه من سيماهم، و هو نبيهم المبعوث اليهم الرءوف الحنين بهم فليس فيه كسر لشأنهم،و لا ذهاب كرامتهم، و هذا-و اللّه أعلم-هو السر فى الالتفات عن خطاب المجموع الى خطاب المفرد.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ الى آخر الآيه؛السر و العلانيه متقابلان و هما حالان من ينفقون و التقدير مسرين و معلنين،و استيفاء الازمنه و الاحوال فى الانفاق للدلاله على اهتمام المنفقين فى استيفاء الثواب،و إمعانهم فى ابتغاء مرضاه اللّه،و إراده وجهه،و لذلك تدلى اللّه سبحانه منهم فوعدهم وعدا حسنا بلسان الرأفه و التلطف

فقال:لهم أجرهم عند ربهم،الخ (۱).

[سوره البقره (۲): الآیات ۲۷۵ الی ۲۸۱]

اشاره

اَلَّذِینَ یَأْکُلُونَ اَلرِّبٰا لاٰ یَقُومُونَ إِلاّٰ کَمٰا یَقُومُ اَلَّذِی یَتَخَبَّطُهُ اَلشَّیْطٰانُ مِنَ اَلْمَسِّ ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا إِنَّمَا اَلْبَیْعُ مِثْلُ اَلرِّبٰا وَ أَحَلَّ اَللّٰهُ اَلْبَیْعَ وَ حَرَّمَ اَلرِّبٰا فَمَنْ جٰاءَهُ مَوْعِظَهٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهیٰ فَلَهُ مٰا سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَی اَللّٰهِ وَ مَنْ عٰادَ فَأُولٰئِکَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ (۲۷۵) یَمْحَقُ اَللّٰهُ اَلرِّبٰا وَ یُرْبِی اَلصَّدَقٰاتِ وَ اَللّٰهُ لاٰ یُحِبُّ کُلَّ کَفّٰارٍ أَثِیمٍ (۲۷۶) إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰهَ وَ آتَوُا اَلزَّکٰاهَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ (۲۷۷) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ ذَرُوا مٰا بَقِیَ مِنَ اَلرِّبٰا إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۲۷۸) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَکُمْ رُؤُسُ أَمْوٰالِکُمْ لاٰ تَظْلِمُونَ وَ لاٰ تُظْلَمُونَ (۲۷۹) وَ إِنْ کٰانَ ذُو عُسْرَهٍ فَنَظِرَهٌ إِلیٰ مَیْسَرَهٍ وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۲۸۰) وَ اِتَّقُوا یَوْماً تُرْجَعُونَ فِیهِ إِلَی اَللّٰهِ ثُمَّ تُوَفّٰی کُلُّ نَفْسٍ مٰا کَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ (۲۸۱)

۱- ۱) .البقره ۲۶۱-۲۷۴ بحث روائی فی الانفاق و الصدقه و الحکمه.

بيان:

قوله تعالی: اَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبٰا لاٰ يَقُومُونَ إِلاّٰ كَمٰا يَقُومُ الَّذِی يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطٰانُ مِنَ الْمَسِّ ،الخبط هو المشی علی غير استواء،يقال خبط البعير اذا اختل جهه مشيه،و للانسان فی حياته طريق مستقيم لا ـ ينحرف عنه،فإنه لا محاله ذو أفعال و حركات فی طريق حياته بحسب المحيط الذی يعيش فيه،و هذه الافعال محفوظه النظام بأحكام اعتقاديه عقلائيه وضعها و نظمها الإنسان ثم طبق عليها أفعاله الانفراديه و الاجتماعيه،فهو يقصد الاكل اذا جاع،و يقصد الشرب اذا عطش،و الفراش اذا اشتهی النكاح،و الاستراحه اذا تعب،و الاستظلال اذا أراد السكن و هكذا،و ينبسط لامور و ينقبض عن اخری فی معاشرته،و يريد كل مقدمه عند اراده ذيها،و اذا طلب مسببا مال الی جهه سببه.

و هذه الافعال علی هذه الاعتقادات مرتبطه متحده نحو اتحاد متلائمه غير متناقضه و مجموعها طريق حياته (1).

قوله تعالی: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبٰا ،قد تقدم الوجه فی تشبيه البيع بالربا دون العكس بأن يقال:إنما الربا مثل البيع فإن من استقر به الخبط و الاختلال كان واقفا فی موقف خارج عن العاده المستقيمه،و المعروف عند العقلاء و المنكر عندهم سيان عنده،فاذا أمرته بترك ما يأتيه من المنكر و الرجوع الی المعروف أجابك-لو أجاب-أن

۱- ۱) .البقره ۲۷۵-۲۸۱ بحث فی القوه المميزه بين الخير و الشر...؛الربا.

الـذی تأمرنی به کالذی تنهانی عنه لا مزیه له علیه،و لو قال:ان الذی تنهانی عنه کالذی تأمرنی به کان عاقلا غیر مختل الادراک فإن معنی هذا القول:أنه یسـلم أن الذی یؤمر به أصل ذو مزیه یجب اتباعه لکنه یدعی ان الذی ینهی عنه ذو مزیه مثله،و لم یکن معنی کلامه إبطال المزیه و إهماله کما یراه الممسوس،و هـذا هو قول المرابی المسـتقر فی نفسه الخبط:إنما البیع مثل الربا،و لو أنه قال:ان الربا مثل البیع لکان رادا علی اللّه جاحدا للشریعه لا خابطا کالممسوس.

و الظاهر ان قوله تعالی: ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا إِنَّمَا الْبَیْعُ مِثْلُ الرِّبٰا حکایه لحالهم الناطق بـذلک و ان لم یکونوا قالوا ذلک بألسـنتهم،و هذا السیاق أعنی حکایه الحال بالقول،معروف عند الناس.

قوله تعالی: وَ أَحَلَّ اللّٰهُ الْبَیْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبٰا ،جمله مستأنفه بناء علی ان الجمله الفعلیه المصدره بالماضی لو کانت حالا لوجب تصدیرها بقد.یقال:جاءنی زید و قد ضرب عمرا،و لا یلائم کونها حالا ما یفیده أول الکلام من المعنی،فإن الحال قید لزمان عامله و ظرف لتحققه،فلو کانت حالا لأفادت:أن تخبطهم لقولهم انما البیع مثل الربا انما هو فی حال أحل اللّه البیع و حرم الربا علیهم،مع ان الامر علی خلافه فهم خابطون بعد تشریع هذه الحلیه و الحرمه و قبل تشریعهما،فالجمله لیست حالیه و انما هی مستأنفه.

و هذه المستأنفه غیر متضمنه للتشریع الابتدائی علی ما تقدم أن الآیات ظاهره فی سبق أصل تشریع الحرمه،بل بانیه علی ما تدل علیها آیه آل عمران: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَأْکُلُوا الرِّبَوا أَضْعٰافاً مُضٰاعَفَهً وَ اتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (آل عمران/۱۳۰)فالجمله أعنی قوله: وَ أَحَلَّ اللّٰهُ ،الخ؛لا تدل علی إنشاء الحکم،بل علی الإخبار عن حکم سابق و توطئه لتفرع قوله بعدها:فمن جاءه موعظه من ربه،الخ؛هذا ما ینساق الیه ظاهر الآیه الشریفه.

قوله تعالى: فَمَنْ جٰاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهىٰ فَلَهُ مٰا سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللّٰهِ ،تفريع على قوله: وَ أَحَلَّ اللّٰهُ الْبَيْعَ ،الخ؛و الكلام غير مقيد بالربا،فهو حكم كلى وضع فى مورد جزئى للدلاله على كونه مصداقا من مصاديقه يلحقه حكمه،و المعنى ان ما ذكرناه لكم فى امر الربا موعظه جاءتكم من ربكم و من جاءه موعظه،الخ؛فان انتهيتم فلكم ما سلف و أمركم الى اللّٰه.و من هنا يظهر:ان المراد من مجىء الموعظه بلوغ الحكم الذى شرعه اللّٰه تعالى،و من الانتهاء التوبه و ترك الفعل المنهى عنه انتهاء عن نهيه تعالى،و من كون ما سلف لهم عدم انعطاف الحكم و شموله لما قبل زمان بلوغه،و من قوله: فَلَهُ مٰا سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللّٰهِ ،انه لا يتحتم عليهم العذاب الخالد الذى يدل عليه قوله: وَ مَنْ عٰادَ فَأُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ ،فهم منتفعون فيما اسلفوا بالتخلص من هذه المهلكه،و يبقى عليهم:ان امرهم الى اللّٰه فربما اطلقهم فى بعض الاحكام،و ربما وضع عليهم ما يتدارك به ما فوتوه.

و اعلم:ان أمر الآيه عجيب،فان قوله: فَمَنْ جٰاءَهُ مَوْعِظَةٌ الى آخر الآيه مع ما يشتمل عليه من التسهيل و التشديد حكم غير خاص بالربا،بل عام يشمل جميع الكبائر الموبقه،و القوم قد قصروا فى البحث عن معناها حيث اقتصروا بالبحث عن مورد الربا خاصه من حيث العفو عما سلف منه،و رجوع الامر الى اللّٰه فيمن انتهى،و خلود العذاب لمن عاد اليه بعد مجىء الموعظه،هذا كله ما تراه من العموم فى الآيه.

و أما قوله: وَ مَنْ عٰادَ فَأُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ ،فوقوع العود فى هذه الجمله فى مقابل الانتهاء الواقع فى الجمله السابقه يدل على ان المراد به العود الذى يجامع عدم الانتهاء،و يلازم ذلك الإصرار على الذنب و عدم القبول للحكم و هذا هو الكفر أو الرده باطنا و لو لم يتلفظ فى لسانه بما يدل على ذلك،فإن من عاد الى ذنب و لم ينته عنه و لو بالندم فهو غير مسلم للحكم تحقيقا و لا يفلح ابدا.فالترديد فى الآيه بحسب الحقيقه بين تسليم الحكم الذى لا يخلو عن البناء على عدم المخالفه و بين الإصرار الذى لا يخلو غالبا عن

عدم التسليم المستوجب للخلود على ما عرفت.

و من هنا يظهر الجواب عن استدلال المعتزله بالآيه على خلود مرتكب الكبيره فی العذاب.فان الآيه و ان دلت على خلود مرتكب الكبيره بل مطلق من اقترف المعصيه فی العذاب لكن دلالتها مقصوره على الارتكاب مع عدم تسليم الحكم و لا محذور فيه.

قوله تعالی: يَمْحَقُ اللّٰهُ الرِّبٰا وَ يُرْبِی الصَّدَقٰاتِ الخ؛المحق نقصان الشیء حالا بعد حال،و وقوعه فی طريق الفناء و الزوال تدريجا،و الإرباء الإنماء،و الأثيم الحامل للإثم، و قد مر معنى الاثم.

و قد قوبل فی الآيه بين إرباء الصدقات و محق الربا،و قد تقدم ان إرباء الصدقات و إنمائها لا يختص بالآخره بل هی خاصه لها عامه تشمل الدنيا كما تشمل الآخره فمحق الربا ايضا كذلك لا محاله.

فكما أن من خاصه الصدقات أنها تنمی المال إنماء يلزمها ذلك لزوما قهريا لا ينفك عنها من حيث أنها تنشر الرحمه و تورث المحبه و حسن التفاهم و تألف القلوب و تبسط الامن و الحفظ،و تصرف القلوب عن ان تهم بالغضب و الاختلاس و الإفساد و السرقه،و تدعو الى الاتحاد و المساعده و المعاونه،و تنسد بذلك أغلب طرق الفساد و الفناء الطارئه على المال، و يعين جميع ذلك على نماء المال و دره أضعافا مضاعفه.

كذلك الربا من خاصته انه يمحق المال و يفنيه تدريجا من حيث انه ينشر القوه و الخساره، و يورث البغض و العداوه و سوء الظن،و يفسد الامن و الحفظ،و يهيج النفوس على الانتقام بأی وسيله أمكنت من قول أو فعل مباشره أو تسبيبا،و تدعوا الى التفرق و الاختلاف، و تنفتح بذلك أغلب طرق الفساد و أبواب الزوال على المال،و قلما يسلم المال عن آفه تصيبه، أو بليه تعمه.

و كل ذلك لأن هذين الامرين أعنی الصدقه و الربا مربوطان مماسان بحياه طبقه الفقراء

و المعوزين و قد هاجت بسبب الحاجه الضروريه إحساساتهم الباطنيه،و استعدت للدفاع عن حقوق الحياه نفوسهم المنكوبه المستذله،و هموا بالمقابله بالغا ما بلغت،فان أحسن اليهم بالصنيعه و المعروف بلا عوض-و الحال هذه-وقعت إحساساتهم على المقابله بالإحسان و حسن النيه و أثرت الاثر الجميل،و إن أسيء اليهم باعمال القسوه و الخشونه و إذهاب المال و العرض و النفس قابلوها بالانتقام و النكايه بأى وسيله،و قلما يسلم من تبعات هذه الهمم المهلكه أحد من المرابين على ما يذكره كل أحد مما شاهد من اخبار آكلى الربا من ذهاب اموالهم و خراب بيوتهم و خسران مساعيهم (۱).

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ كَفّٰارٍ أَثِيمٍ ،تعليل لمحق الربا بوجه كلى،و المعنى ان آكل الربا كثير الكفر لكفره بنعم كثيره من نعم اللّه لستره على الطرق الفطريه فى الحياه الانسانيه،و هى طرق المعاملات الفطريه،و كفره بأحكام كثيره فى العبادات و المعاملات المشروعه،فإنه بصرف مال الربا فى مأكله و مشربه و ملبسه و مسكنه يبطل كثيرا من عباداته بفقدان شرائط مأخوذه فيها،و باستعماله فيما بيده من المال الربوى يبطل كثيرا من معاملاته، و يضمن غيره،و يغصب مال غيره فى موارد كثيره،و باستعمال الطمع و الحرص فى اموال الناس و الخشونه و القسوه فى استيفاء ما يعده لنفسه حقا يفسد كثيرا من اصول الاخلاق و الفضائل و فروعها،و هو اثيم مستقر فى نفسه الإثم فاللّه سبحانه لا يحبه لأن اللّه لا يحب كل كفار أثيم.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ الخ؛تعليل يبين به ثواب المتصدقين و المنتهين عما نهى اللّه عنه من أكل الربا بوجه عام ينطبق على المورد انطباقا.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ ذَرُوا مٰا بَقِيَ مِنَ الرِّبٰا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ،خطاب للمؤمنين و أمر لهم بتقوى اللّه و هو توطئه لما يتعقبه من الامر بقوله و ذروا

۱- ۱) .البقره ۲۷۵-۲۸۱ بحث فى العلل و الاسباب التى تبنى عليها الامور؛المجتمع و الفرد.

مـا بقی من الربـا،و هو یـدل علی انه کان من المؤمنین فی عهـد نزول الآیات من یأخـذ الربا،و له بقایا منه فی ذمه الناس من الربا فأمر بترکها،و هدد فی ذلک بما سیأتی من قوله: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ،الآیه.

و هذا یؤید ما سننقله من الروایه فی سبب نزول الآیه فی البحث الروائی الآتی.

و فی تقییـد الکلام بقوله: إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ إشاره الی ان ترکه من لوازم الایمان،و تأکید لم تقدم من قوله: وَ مَنْ عٰادَ ،الخ؛و قوله: وَ اللّٰهُ لاٰ یُحِبُّ کُلَّ کَفّٰارٍ ،الخ.

قوله تعالی: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ،الاذن کالعلم وزنا و معنی،و قرء فآذنوا بالامر من الایذان،و الباء فی قوله بحرب لتضـمینه معنی الیقین و نحوه،و المعنی:أیقنـوا بحرب أو أعلموا انفسـکم بـالیقین بحرب من اللّه و رسوله،و تنکیر الحرب لإفـاده التعظیم أو التنویع،و نسـبه الحرب الی اللّه و رسوله لکونه مرتبطـا الحکم الـذی للّه سبحانه فیه سـهم بالجعـل و التشـریع و لرسوله فیه سـهم بـالتبلیغ،و لو کان للّه وحـده لکان امرا تکوینیا،و اما رسوله فلا یسـتقل فی امر دون اللّه سـبحانه قال تعالی: لَیْسَ لَکَ مِنَ الْأَمْرِ شَیْءٌ (آل عمران١٢٨/).

و الحرب من اللّه و رسوله فی حکم من الاحکام مع من لا یسـلمه هو تحمیل الحکم علی من رده من المسلمین بالقتال کما یدل علیه قوله تعالی: فَقٰاتِلُوا الَّتِی تَبْغِی حَتّٰی تَفِیءَ إِلیٰ أَمْرِ اللّٰهِ (الحجرات٩/)،علی ان اللّه تعالی صنعا آخر فی الدفاع عن حکمه و هو محـاربته إیـاهم من طریـق الفطره و هـو تهییـج الفطره العـامه علی خلافهم،و هی الـتی تقطع انفاسـهم،و تخرب دیـارهم،و تعفی آثارهم،قال تعالی: وَ إِذٰا أَرَدْنٰا أَنْ نُهْلِکَ قَرْیَهً أَمَرْنٰا مُتْرَفِیهٰا فَفَسَقُوا فِیهٰا فَحَقَّ عَلَیْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنٰاهٰا تَدْمِیراً (الإسراء١۶/).

قـوله تعـالی: وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَکُمْ رُؤُسُ أَمْوٰالِکُمْ لاٰ تَظْلِمُونَ وَ لاٰ تُظْلَمُونَ ، کلمه و ان تبتم،تؤیـد مـا مر ان الخطـاب فی الآیه لبعض المؤمنین ممن کان یأخذ الربا و له بقایا

على مـدينيه و معـامليه،و قـوله: فَلَكَمْ رُؤُسُ أَمْوالِكَمْ أى أصول أموالكم الخـالصه من الربـا لاـ تظلمون بأخـذ الربـا و لاـ تظلمون بالتعـدى الى رءوس أموالكم،و فى الآـيه دلاـله على إمضاء اصل الملك أولا،و على كون أخـذ الربا ظلما كما تقـدم ثانيا،و على إمضـاء اصـناف المعاملاـت حيث عبر بقوله رءوس أموالكم و المال إنما يكون رأسا اذا صـرف فى وجوه المعاملات و أصـناف الكسب ثالثا.

قوله تعـالى: وَ إِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ،لفظه كـان تـامه أى اذا وجـد ذو عسـره،و النظره المهله،و الميسـره اليسـار،و التمكن مقابل العسـره أى اذا وجـد غريم من غرمائكم لا يتمكن من أداء دينه الحال فانظروه و امهلوه حتى يكون متمكنا ذا يسار فيؤدى دينه.و الآيه و إن كانت مطلقه غير مقيده لكنها منطبقه على مورد الربا،فإنهم كانوا اذا حل أجل الدين يطالبونه من المدين فيقول المدين لغريمه زد فى أجلى كذا مده أزيدك فى الثمن بنسبه كذا،و الآيه تنهى عن هذه الزياده الربويه و يأمر بالانظار.

قوله تعالى: وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ،أى و إن تضـعوا الدين عن المعسـر فتتصدقوا به عليه فهو خير لكم إن كنتم تعلمون فإنكم حينئذ قد بدلتم ما تقصدونه من الزياده من طريق الربا الممحوق من الزياده من طريق الصدقه الرابيه حقا.

قوله تعـالى: وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ الـخ؛فيه تـذييل لآيـات الربـا بما تشـتمل عليه من الحكم و الجزاء بتـذكير عام بيوم القيـامه ببعض أوصـافه الـذى ينـاسب المقـام، و يهيئ ذكره النفوس لتقوى اللّه تعـالى و الورع عن محارمه فى حقوق الناس التى تتكى عليه الحياه،و هو ان أمامكم يوما ترجعون فيه الى اللّه فتوفى كل نفس ما كسبت و هم لا يظلمون.

و امـا معنى هـذا الرجوع مع كوننـا غير غائبين عن اللّه،و معنى هـذه التوفيه فسـيجىء الكلام فيه فى تفسـير سوره الأنعام إنشاء اللّه تعالى.

و قد قيل:إن هذه الآيه:و اتقوا يوما ترجعون فيه الى اللّه ثم توفى كل نفس ما كسبت و هم

لاـ یظلمون،آخر آیه نزلت علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سیجیء ما یدل علیه من الروایات فی البحث الروائی التالی (۱)(۲)(۳).

[سوره البقره (۲): الآیات ۲۸۲ الی ۲۸۳]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِذٰا تَدٰایَنْتُمْ بِدَیْنٍ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی فَاکْتُبُوهُ وَ لْیَکْتُبْ بَیْنَکُمْ کٰاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَ لاٰ یَأْبَ کٰاتِبٌ أَنْ یَکْتُبَ کَمٰا عَلَّمَهُ اَللّٰهُ فَلْیَکْتُبْ وَ لْیُمْلِلِ اَلَّذِی عَلَیْهِ اَلْحَقُّ وَ لْیَتَّقِ اَللّٰهَ رَبَّهُ وَ لاٰ یَبْخَسْ مِنْهُ شَیْئاً فَإِنْ کٰانَ اَلَّذِی عَلَیْهِ اَلْحَقُّ سَفِیهاً أَوْ ضَعِیفاً أَوْ لاٰ یَسْتَطِیعُ أَنْ یُمِلَّ هُوَ فَلْیُمْلِلْ وَلِیُّهُ بِالْعَدْلِ وَ اِسْتَشْهِدُوا شَهِیدَیْنِ مِنْ رِجٰالِکُمْ فَإِنْ لَمْ یَکُونٰا رَجُلَیْنِ فَرَجُلٌ وَ اِمْرَأَتٰانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ اَلشُّهَدٰاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدٰاهُمٰا فَتُذَکِّرَ إِحْدٰاهُمَا اَلْأُخْریٰ وَ لاٰ یَأْبَ اَلشُّهَدٰاءُ إِذٰا مٰا دُعُوا وَ لاٰ تَسْئَمُوا أَنْ تَکْتُبُوهُ صَغِیراً أَوْ کَبِیراً إِلیٰ أَجَلِهِ ذٰلِکُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهٰادَهِ وَ أَدْنیٰ أَلاّٰ تَرْتٰابُوا إِلاّٰ أَنْ تَکُونَ تِجٰارَهً حٰاضِرَهً تُدِیرُونَهٰا بَیْنَکُمْ فَلَیْسَ عَلَیْکُمْ جُنٰاحٌ أَلاّٰ تَکْتُبُوهٰا وَ أَشْهِدُوا إِذٰا تَبٰایَعْتُمْ وَ لاٰ یُضَارَّ کٰاتِبٌ وَ لاٰ شَهِیدٌ وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِکُمْ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ یُعَلِّمُکُمُ اَللّٰهُ وَ اَللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۲۸۲) وَ إِنْ کُنْتُمْ عَلیٰ سَفَرٍ وَ لَمْ تَجِدُوا کٰاتِباً فَرِهٰانٌ مَقْبُوضَهٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُکُمْ بَعْضاً فَلْیُؤَدِّ اَلَّذِی اُؤْتُمِنَ أَمٰانَتَهُ وَ لْیَتَّقِ اَللّٰهَ رَبَّهُ وَ لاٰ تَکْتُمُوا اَلشَّهٰادَهَ وَ مَنْ یَکْتُمْهٰا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِیمٌ (۲۸۳)

ص: ۳۷۶

۱- ۱) .البقره ۲۷۵-۲۸۱:بحث روائی فی الربا.

۲- ۲) .البقره ۲۷۵-۲۸۱:بحث علمی فی:المال؛البیع و الربا؛نتائج الرأسمالیه المشئومه،السبب فی شیوع الشیوعیه.

۳- ۳) .البقره ۲۷۵-۲۸۱:بحث علمی فی الدرهم و الدینار و الذهب و الفضه.

بیان:

قوله تعالی: إِذا تَدایَنْتُمْ الخ؛التداین،مدیانه بعضـهم بعضا،و الاملال و الاملاء إلقاء الرجل للکاتب ما یکتبه،و البخس هو النقص و الحیف و السأمه هی الملال،و المضاره مفاعله من الضرر و یستعمل لما بین الاثنین و غیره.و الفسوق هو الخروج عن الطاعه.و الرهان، و قرء فرهن بضمتین و کلاهما جمع الرهن بمعنی المرهون.

و الاظهار الواقع فی موقع الاضمار فی قوله تعالی: فَإِنْ کانَ الَّذِی عَلَیْهِ الْحَقُّ ،لرفع اللبس برجوع الضمیر الی الکاتب السابق ذکره.

و الضمیر البارز فی قوله: أَنْ یُمِلَّ هُوَ فَلْیُمْلِلْ وَلِیُّهُ ،فائدته تشریک من علیه الحق مع ولیه، فإن هذه الصوره تغایر الصورتین الأولیین بأن الولی فی الصورتین الاولیین هو المسئول بالامر المستقل فیه بخلاف هذه الصوره فإن الذی علیه الحق یشارک الولی فی العمل فکأنه قیل:ما یستطیعه من العمل فعلیه ذلک و ما لا یستطیعه هو فعلی ولیه.

و قوله: أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما ،علی تقدیر حذر أن تضل إحداهما،و فی قوله: إِحْداهُمَا الْأُخْری وضع الظاهر موضع المضمر،و النکته فیه اختلاف معنی اللفظ فی الموضعین،فالمراد من الاول إحداهما لا علی التعیین،و من الثانی إحداهما بعد ضلال الاخری،فالمعنیان مختلفان.

و قوله: وَ اتَّقُوا أمر بالتقوی فیما ساقه اللّه الیهم فی هذه الآیه من الامر و النهی،و أما قوله:

وَ يُعَلِّمُكَمُ اللّهُ وَ اللّهُ بِكَلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ،فكلام مستأنف مسوق فى مقام الامتنان،كقوله تعالى فى آيه الإرث: يُبَيِّنُ اللّهُ لَكَمْ أَنْ تَضِلُّوا (النساء۱۷۶/)،فالمراد به الامتنان بتعليم شرائع الدين و مسائل الحلال و الحرام.

و ما قيل:إن قوله: وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللّهُ يدل على أن التقوى سبب للتعليم الإلهى،فيه أن و ان كان حقا يدل عليه الكتاب و السنه،لكن هذه الآيه بمعزل عن الدلاله عليه لمكان واو العطف،على أن هذا المعنى لا يلائم سياق الآيه و ارتباط ذيلها بصدرها.

و يؤيد ما ذكرنا تكرار لفظ الجلاله ثانيا فانه لو لا كون قوله و يعلمكم اللّه،كلاما مستأنفا كان مقتضى السياق ان يقال:يعلمكم بإضمار الفاعل،ففى قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ،أظهر الاسم اولا- و ثانيا لوقوعه فى كلامين مستقلين،و أظهر ثالثا ليدل به على التعليل،كأنه قيل:هو بكل شيء عليم لأنه اللّه.

و اعلم:ان الآيتين تدلان على ما يقرب من عشرين حكما من أصول أحكام الدين و الرهن و غيرهما،و الاخبار فيها و فيما يتعلق بها كثيره لكن البحث عنها راجع الى الفقه، و لذلك آثرنا الإغماض عن ذلك فمن أراد البحث عنها فعليه بمظانه من الفقه.

[سوره البقره (۲): آيه ۲۸۴]

اشاره

لِلّهِ ما فِى اَلسَّماواتِ وَ ما فِى اَلْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اَللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اَللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۸۴)

بيان:

قوله تعالى: لِلّهِ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ ،كلام يدل على ملكه تعالى

ص: ۳۷۸

لعالم الخلق مما فى السموات و الارض،و هو توطئه لقوله بعده:و إن تبدوا ما فى انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به اللّه،أى إن له ما فى السموات و الارض و من جملتها أنتم و أعمالكم و ما اكتسبتها نفوسكم،فهو محيط بكم مهيمن على اعمالكم لا يتفاوت عنده كون أعمالكم باديه ظاهره،او خافيه مستوره فيحاسبكم عليها.

و ربما استظهر من الآيه:كون السماء مسانخا لأعمال القلوب و صفات النفس فما فى النفوس هو مما فى السموات،و للّه ما فى السموات كما ان ما فى النفوس اذا أبدى بعمل الجوارح كان مما فى الارض،و للّه ما فى الارض فما انطوى فى النفوس سواء أبدى أو أظهر مملوك للّه محاط له سيتصرف فيه بالمحاسبه.

قوله تعالى: وَ إِنْ تُبْدُوا مٰا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحٰاسِبْكُمْ بِهِ اللّٰهُ ، الابداء هو الإظهار مقابل الاخفاء،و معنى ما فى أنفسكم ما استقر فى أنفسكم على ما يعرفه أهل العرف و اللغه من معناه،و لا مستقر فى النفس إلاّ الملكات و الصفات من الفضائل و الرذائل كالايمان و الكفر و الحب و البغض و العزم و غيرها فإنها هى التى تقبل الاظهار و الاخفاء.أما إظهارها فإنما تتم بأفعال مناسبه لها تصدر من طريق الجوارح يدركها الحس و يحكم العقل بوجود تلك المصادر النفسيه المسانخه لها،اذ لو لا تلك الصفات و الملكات النفسانيه من إراده و كراهه و إيمان و كفر و حب و بغض و غير ذلك لم تصدر هذه الافعال، فبصدور الافعال يظهر للعقل وجود ما هو منشأها.و أما إخفائها فبالكف عن فعل ما يدل على وجودها فى النفس.

و بالجمله ظاهر قوله: مٰا فِي أَنْفُسِكُمْ ،الثبوت و الاستقرار فى النفس،و لا يعنى بهذا الاستقرار التمكن فى النفس بحيث يمتنع الزوال كالملكات الراسخه،بل ثبوتا تاما يعتد به فى صدور الفعل كما يشعر به قوله: إِنْ تُبْدُوا و قوله: أَوْ تُخْفُوهُ فان الوصفين يدلان على ان ما فى النفس بحيث يمكن ان يكون منشأ للظهور او غير منشأ له و هو الخفاء،و هذه الصفات يمكن ان

تكون كذلك سواء كانت أحوالا او ملكات،و أما الخطورات و الهواجس النفسانيه الطارقه على النفس من غير إراده من الانسان و كذلك التصورات الساذجه التى لا تصديق معها كتصور صور المعاصى من غير نزوع و عزم فلفظ الآيه غير شامل لها البته لأنها كما عرفت غير مستقره فى النفس،و لا منشأ لصدور الافعال.

فتحصل:أن الآيه إنما تدل على الاحوال و الملكات النفسانيه التى هى مصادر الافعال من الطاعات و المعاصى،و أن اللّه سبحانه و تعالى يحاسب الانسان بها،فتكون الآيه فى مساق قوله تعالى: لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ (البقره/ ۲۲۵)،و قوله تعالى: فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ (البقره۲۸۳/)،و قوله تعالى: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤٰادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كٰانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (الإسراء۳۶/)،فجميع هذه الآيات داله على أن للقلوب و هى النفوس أحوالا-و أوصافا يحاسب الانسان بها،و كذا قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفٰاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَةِ (النور۹/)، فانها ظاهره فى ان العذاب إنما هو على الحب الذى هو أمر قلبى،هذا.

فهذا ظاهر الآيه و يجب أن يعلم:أن الآيه إنما تدل على المحاسبه بما فى النفوس سواء أظهر أو أخفى،و أما كون الجزاء فى صورتى الإخفاء و الاظهار على حد سواء،و بعباره اخرى كون الجزاء دائرا مدار العزم سواء فعل أو لم يفعل و سواء صادف الفعل الواقع المقصود او لم يصادف كما فى صوره التجرى مثلا فالآيه غير ناظره الى ذلك.

قوله تعالى: فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ،الترديد فى التفريع بين المغفره و العذاب لا يخلو من الاشعار بأن المراد بما فى النفوس هى الصفات و الاحوال النفسانيه السيئه،و ان كانت المغفره ربما استعملت فى القرآن فى غير مورد المعاصى أيضا لكنه استعمال كالنادر يحتاج الى مئونه القرائن الخاصه.و قوله: إِنَّ اللّٰهَ تعليل راجع الى مضمون الجمله الأخيره،او الى مدلول الآيه بتمامها.

[سوره البقره (۲): الآیات ۲۸۵ الی ۲۸۶]

اشاره

آمَنَ اَلرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لاٰ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا غُفْرٰانَكَ رَبَّنٰا وَ إِلَيْكَ اَلْمَصِيرُ (۲۸۵) لاٰ يُكَلِّفُ اَللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهٰا مَا اِكْتَسَبَتْ رَبَّنٰا لاٰ تُؤٰاخِذْنٰا إِنْ نَسِينٰا أَوْ أَخْطَأْنٰا رَبَّنٰا وَ لاٰ تَحْمِلْ عَلَيْنٰا إِصْراً كَمٰا حَمَلْتَهُ عَلَى اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِنٰا رَبَّنٰا وَ لاٰ تُحَمِّلْنٰا مٰا لاٰ طٰاقَةَ لَنٰا بِهِ وَ اُعْفُ عَنّٰا وَ اِغْفِرْ لَنٰا وَ اِرْحَمْنٰا أَنْتَ مَوْلاٰنٰا فَانْصُرْنٰا عَلَى اَلْقَوْمِ اَلْكٰافِرِينَ (۲۸۶)

بیان:

قوله تعالی: آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ ،تصدیق لایمان الرسول و المؤمنین،و إما أفرد رسول اللّه عنهم بالایمان بما أنزل الیه من ربه ثم ألحقهم به تشریفا له،و هذا دأب القرآن فی الموارد التی تناسب التشریف أن یکرم النبی بإفراده و تقدیم ذکره ثم اتباع ذلک بذکر المؤمنین کقوله تعالی: فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (الفتح۲۶/)،و قوله تعالی: يَوْمَ لاٰ يُخْزِي اللّٰهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا (التحریم/ ۸).

قوله تعالی: كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ ،تفصیل للإجمال الذی تدل علیه الجمله السابقه،فان ما أنزل الی رسول اللّه یدعو الی الایمان و تصدیق الکتب و الرسل و الملائکه الذین هم عباد مکرمون،فمن آمن بما أنزل علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقد آمن

بجمیع ذلک،کل علی ما یلیق به.

قوله تعالی: لاٰ نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ،حکایه لقولهم من دون توسیط لفظ القول،و قد مر فی قوله تعالی: وَ إِذْ یَرْفَعُ إِبْرٰاهِیمُ الْقَوٰاعِدَ مِنَ الْبَیْتِ وَ إِسْمٰاعِیلُ رَبَّنٰا تَقَبَّلْ مِنّٰا إِنَّکَ أَنْتَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (البقره/۱۲۷)،النکته العامه فی هذا النحو من الحکایه،و أنه من أجمل السیاقات القرآنیه،و النکته المختصه بالمقام مضافا الی أن فیه تمثیلا لحالهم و قالهم أن هذا الکلام إنما هو کلام منتزع من خصوص حالهم فی الایمان بما أنزل اللّه تعالی،فهم لم یقولوه إلاّ بلسان حالهم،و ان کانوا قالوه فقد قاله کل منهم وحده و فی نفسه،و أما تکلمهم به لسانا واحدا فلیس الا بلسان الحال.

و من عجیب أمر السیاق فی هذه الآیه ما جمع بین قولین محکیین منهم مع التفرقه فی نحو الحکایه أعنی قوله تعالی: لاٰ نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا ،الخ؛حیث حکی البعض من غیر توسیط القول و البعض الآخر بتوسیطه،و هما جمیعا من قول المؤمنین فی اجابه دعوه الداعی.

و الوجه فی هذه التفرقه أن قولهم: لاٰ نُفَرِّقُ ،الخ؛مقول لهم بلسان حالهم بخلاف قولهم:

سمعنا و أطعنا.

و قد بدأ تعالی بالإخبار عن حال کل واحد منهم علی نعت الافراد فقال:کل آمن باللّه ثم عدل الی الجمع فقال:لا نفرق بین أحد الی آخر الآیتین،لأن الذی جری من هذه الامور فی أهل الکتاب کان علی نعت الجمع کما أن الیهود فرقت بین موسی و بین عیسی و محمد، و النصاری فرقت بین موسی و عیسی،و بین محمد فانشعبوا شعبا و تحزبوا أحزابا و قد کان اللّه تعالی خلقهم امه واحده علی الفطره،و کذلک المؤاخذه و الحمل و التحمیل الواقع علیهم إنما وقعت علی جماعتهم،و کذلک ما وقع فی آخر الآیه من سؤال النصره علی الکافرین،کل ذلک أمر مرتبط بالجماعه دون الفرد،بخلاف الایمان فإنه أمر قائم بالفرد حقیقه.

قوله تعالی: وَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا غُفْرٰانَکَ رَبَّنٰا وَ إِلَیْکَ الْمَصِیرُ ،قولهم سمعنا و أطعنا،إنشاء و لیس باخبار و هو کنایه عن الاجابه إیمانا بالقلب و عملا بالجوارح،فإن السمع یکنی به لغه عن القبول و الاذعان،و الاطاعه تستعمل فی الانقیاد بالعمل فمجموع السمع و الاطاعه یتم به أمر الایمان.

و قولهم سمعنا و أطعنا إیفاء لتمام ما علی العبد من حق الربوبیه فی دعوتها.و هذا تمام الحق الذی جعله اللّه سبحانه لنفسه علی عبده:أن یسمع لیطیع،و هو العباده کما قال تعالی: وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِیَعْبُدُونِ مٰا أُرِیدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مٰا أُرِیدُ أَنْ یُطْعِمُونِ (الذاریات/ ۵۷)،و قال تعالی: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَیْکُمْ یٰا بَنِی آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّیْطٰانَ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِی (یس ۶۱/).

و قد جعل سبحانه فی قبال هذا الحق الذی جعله لنفسه علی عبده حقا آخر لعبده علی نفسه و هو المغفره التی لا یستغنی عنه فی سعاده نفسه أحد:الانبیاء و الرسول فمن دونهم فوعدهم ان یغفر لهم ان أطاعوه بالعبودیه کما ذکره اول ما شرع الشریعه لآدم و ولده فقال:

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهٰا جَمِیعاً فَإِمّٰا یَأْتِیَنَّکُمْ مِنِّی هُدیً فَمَنْ تَبِعَ هُدٰایَ فَلاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ (البقره۳۸/)،و لیس الا المغفره.

و القوم لما قالوا:سمعنا و أطعنا و هو الاجابه بالسمع و الطاعه المطلقین من غیر تقیید فأوفوا الربوبیه حقها سألوه تعالی حقهم الذی جعله لهم و هو المغفره فقالوا عقیب قولهم سمعنا و أعطنا:غفرانک ربنا و إلیک المصیر،و المغفره و الغفران:الستر،و یرجع مغفرته تعالی الی دفع العذاب و هو ستر علی نواقص مرحله العبودیه،و یظهر عند مصیر العبد الی ربه،و لذلک عقبوا قولهم:غفرانک ربنا بقولهم:و الیک المصیر.

قوله تعالی: لاٰ یُکَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا لَهٰا مٰا کَسَبَتْ وَ عَلَیْهٰا مَا اکْتَسَبَتْ ،الوسع هو الجده و الطاقه،و الاصل فی الوسع هو السعه المکانیه ثم یتخیل لقدره

الانسان شبه الظرفيه لما يصدر عنه من الافعال الاختياريه،فما يقدر عليه الانسان من الاعمال كأنه تسعه قدرته،و ما لا يقدر عليه لا تسعه فانطبق عليه معنى الطاقه،ثم سميت الطاقه وسعا فقيل:وسع الانسان أى طاقته و ظرفيه قدرته.

و قد عرفت:أن تمام حق اللّه تعالى على عبده:ان يسمع و يطيع،و من البين أن الانسان إما يقول:«سمعا»فيما يمكن ان تقبله نفسه بالفهم،و أما لا يقبل الفهم فلا معنى لاجابته بالسمع و القبول.و من البين أيضا ان الانسان انما يقول:«طاعه»فيما يقبل مطاوعه الجوارح و أدوات العمل،فإن الاطاعه هى مطاوعه الانسان و تأثر قواه و أعضائه عن تأثير الآمر المؤثر مثلا، و أما ما لا يقبل المطاوعه كأن يؤمر الانسان ان يسمع ببصره،او يحل بجسمه أزيد من مكان واحد،او يتولد من أبويه مره ثانيه فلا يقبل إطاعه و لا يتعلق بذلك تكليف مولوى،فإجابه داعى الحق بالسمع و الطاعه لا تتحقق الا فى ما هو اختيارى للإنسان تتعلق به قدرته،و هو الذى يكسب به الانسان لنفسه ما ينفعه أو يضره،فالكسب نعم الدليل على أن ما كسبه الانسان إما وجده و تلبس به من طريق الوسع و الطاقه.

فظهر مما ذكرنا ان قوله: لاٰ يُكَلِّفُ اللّٰهُ ،كلام جار على سنه اللّه الجاريه بين عباده:ان لا يكلفهم ما ليس فى وسعهم من الايمان بما هو فوق فهمهم و الإطاعه لما هو فوق طاقه قواهم، و هى ايضا السنه الجاريه عند العقلاء و ذوى الشعور من خلقه،و هو كلام ينطبق معناه على ما يتضمنه قوله حكايه عن الرسول و المؤمنين:سمعنا و أطعنا من غير زياده و لا نقيصه.

و الجمله أعنى قوله: لاٰ يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً ،متعلقه المضمون بما تقدمها و ما تأخر عنها من الجمل المسروده فى الآيتين.

أما بالنسبه الى ما تقدمها فإنها تفيد:أن اللّه لا يكلف عباده بأزيد مما يمكنهم فيه السمع و الطاعه و هو ما فى وسعهم ان يأتوا به.

و أما بالنسبه الى ما تأخر عنها فإنها تفيد أن ما سأله النبى و المؤمنون من عدم المؤاخذه

على الخطأ و النسيان،و عدم حمل الإصر عليهم،و عدم تحميلهم ما لا طاقه لهم به،كل ذلك و إن كانت أمورا حرجيه لكنها ليست من التكليف بما ليس فى الوسع،فإن الذى يمكن أن يحمل عليهم مما لا طاقه لهم به ليس من قبيل التكليف،بل من قبيل جزاء التمرد و المعصيه،و أما المؤاخذه على الخطأ و النسيان فإنهما و ان كانتا بنفسهما غير اختياريين لكنهما اختياريان من طريق مقدماتهما.فمن الممكن ان يمنع عنهما مانع بالمنع عن مقدماتهما او بإيجاب التحفظ عنهما، و خاصه اذا كان ابتلاء الإنسان بهما مستندا الى سوء الاختيار،و مثل الكلام فى حمل الاصر فإنه اذا استند الى التشديد على الانسان جزاء لتمرده عن التكاليف السهله بتبديلها مما يشق عليه و يحترج منه،فإن ذلك ليس من التكليف المنفى عنه تعالى غير الجائز عند العقل،لانها مما اختاره الانسان لنفسه بسوء اختياره فلا محذور فى توجيهه اليه.

قوله تعالى: رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا ،لما قالوا فى مقام اجابه الدعوه سمعنا و أطعنا و هو قول ينبئ عن الاجابه المطلقه من غير تقييد ثم التفتوا الى ما عليه وجودهم من الضعف و الفتور،و التفتوا أيضا الى ما آل اليه امر الذين كانوا من قبلهم و قد كانوا أمما أمثالهم استرحموا ربهم و سألوه ان لا يعاملهم معامله من كان قبلهم من المؤاخذه و الحمل و التحميل لانهم علموا بما علمهم اللّه ان لا حول و لا قوه إلاّ باللّه،و ان لا عاصم من اللّه إلاّ رحمته.

و النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إن كان معصوما من الخطأ و النسيان لكنه إنما يعتصم بعصمه اللّه و يصان به تعالى فصح له ان يسأل ربه ما لا يأمنه من نفسه،و يدخل نفسه لذلك فى زمره المؤمنين.

قوله تعالى: رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا ،الاصر هو الثقل على ما قيل،و قيل هو حبس الشىء بقهره،و هو قريب من المعنى الاول فإن فى الحبس حمل الشىء على ما يكرهه و يثقل عليه.

و المراد بالذين من قبلنا:هم أهل الكتاب و خاصه اليهود على ما تشير السوره الى كثير من

قصصهم،و على ما يشير اليه قوله تعالى: وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلاٰلَ الَّتِى كٰانَتْ عَلَيْهِمْ (الأعراف١۵٧/).

قوله تعالى: رَبَّنٰا وَ لاٰ تُحَمِّلْنٰا مٰا لاٰ طٰاقَةَ لَنٰا بِهِ ،المراد بما لا طاقه لنا به ليس هو التكليف الابتدائى بما لا يطاق،اذ قد عرفت ان العقل لا يجوزه أبدا،و ان كلامه تعالى أعنى ما حكاه بقوله: وَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا يدل على خلافه بل المراد به جزاء السيئات الواصله اليهم من تكليف شاق لا يتحمل عاده،أو عذاب نازل،أو رجز مصيب كالمسخ و نحوه.

قوله تعالى: وَ اعْفُ عَنّٰا وَ اغْفِرْ لَنٰا وَ ارْحَمْنٰا ،العفو محو أثر الشيء،و المغفره ستره،و الرحمه معروفه،و أما بحسب المصداق فاعتبار المعانى اللغويه يوجب ان يكون سوق الجمل الثلاث من قبيل التدرج من الفرع الى الاصل،و بعباره أخرى من الاخص فائده الى الاعم،فعليها يكون العفو منه تعالى هو إذهاب اثر الذنب و إمحائه كالعقاب المكتوب على المذنب،و المغفره هى إذهاب ما فى النفس من هيئه الذنب و الستر عليه،و الرحمه هى العطيه الالهيه التى هى الساتره على الذنب و هيئته.

و عطف هذه الثلاثه أعنى قوله: وَ اعْفُ عَنّٰا وَ اغْفِرْ لَنٰا وَ ارْحَمْنٰا على قوله: رَبَّنٰا لاٰ تُؤٰاخِذْنٰا إِنْ نَسِينٰا أَوْ أَخْطَأْنٰا على ما للجميع من السياق و النظم يشعر:بأن المراد من العفو و المغفره و الرحمه ما يتعلق بذنوبهم من جهه الخطأ و النسيان و نحوها.و منه يظهر ان المراد بهذه المغفره المسئوله هاهنا غير الغفران المذكور فى قوله: غُفْرٰانَكَ رَبَّنٰا فإنه مغفره مطلقه فى مقابله الاجابه المطلقه على ما تقدم،و هذه مغفره خاصه فى مقابل الذنب عن نسيان أو خطأ،فسؤال المغفره غير مكرر.

و قد كرر لفظ الرب فى هذه الادعيه أربع مرات لبعث صفه الرحمه بالايماء و التلويح الى صفه العبوديه فإن ذكر الربوبيه يخطر بالبال صفه العبوديه و المذله.

قوله تعالی: أَنْتَ مَوْلاٰنا فَانْصُرْنا عَلَی الْقَوْمِ الْکافِرِینَ ،استیناف و دعاء مستقل،و المولی هو الناصر لکن لا کل ناصر بل الناصر الذی یتولی أمر المنصور فإنه من الولایه بمعنی تولی الامر،و لما کان تعالی ولیا للمؤمنین فهو مولیهم فیما یحتاجون فیه الی نصره، قال تعالی: وَ اللّٰهُ وَلِیُّ الْمُؤْمِنِینَ (آل عمران۶۸/)،و قال تعالی: ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ مَوْلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْکافِرِینَ لاٰ مَوْلیٰ لَهُمْ (محمد۱۱/).

و هذا الدعاء منهم یدل علی انهم ما کان لهم بعد السمع و الطاعه لأصل الدین هم إلاّ فی إقامته و نشره و الجهاد لإعلان کلمه الحق،و تحصیل اتفاق کلمه الامم علیه،قال تعالی: قُلْ هٰذِهِ سَبِیلِی أَدْعُوا إِلَی اللّٰهِ عَلیٰ بَصِیرَهٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِی وَ سُبْحٰانَ اللّٰهِ وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُشْرِکِینَ (یوسف۱۰۸/)،فالدعوه الی دین التوحید هو سبیل الدین و هو الذی یتعقب الجهاد و القتال و الامر بالمعروف و النهی عن المنکر و سائر أقسام الدعوه و الانذار،کل ذلک لحسم ماده الاختلاف من بین هذا النوع،و یشیر الی ما به من الاهمیه فی نظر شارع الدین قوله تعالی:

شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ مٰا وَصّٰی بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ وَ مٰا وَصَّیْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ أَنْ أَقِیمُوا الدِّینَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِیهِ (الشوری۱۳/)،فقولهم انت مولانا فانصرنا یدل علی جعلهم الدعوه العامه فی الدین أول ما یسبق الی أذهانهم بعد عقد القلب علی السمع و الطاعه،و اللّه أعلم.

سوره آل عمران مدنیه و هی مائتا آیه

اشاره

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;الم (۱) اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ اَلْحَیُّ اَلْقَیُّومُ (۲) نَزَّلَ عَلَیْکَ اَلْکِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ وَ أَنْزَلَ اَلتَّوْرٰاةَ وَ اَلْإِنْجِیلَ (۳) مِنْ قَبْلُ هُدیً لِلنّٰاسِ وَ أَنْزَلَ اَلْفُرْقٰانَ إِنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا بِآیٰاتِ اَللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ وَ اَللّٰهُ عَزِیزٌ ذُو اِنْتِقٰامٍ (۴) إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَخْفیٰ عَلَیْهِ شَیْءٌ فِی اَلْأَرْضِ وَ لاٰ فِی اَلسَّمٰاءِ (۵) هُوَ اَلَّذِی یُصَوِّرُکُمْ فِی اَلْأَرْحٰامِ کَیْفَ یَشٰاءُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۶)

بیان:

غرض السوره دعوه المؤمنین الی توحید الکلمه فی الدین و الصبر و الثبات فی حمایه حماه

ص: ۳۸۸

بتنبیههم بما هم علیه من دقه الموقف لمواجهتهم أعداء کالیهود و النصاری و المشرکین و قد جمعوا جمعهم و عزموا عزمهم علی إطفاء نور اللّه تعالی بأیدیهم و بأفواههم.

و یشبه أن تکون هذه السوره نازله دفعه واحده،فإن آیاتها-و هی مائتا آیه-ظاهره الاتساق و الانتظام من أولها الی آخرها،متناسبه آیاتها،مرتبطه أغراضها.

و لذلک کان مما یترجح فی النظر أن تکون السوره إنما نزلت علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قد استقر له الأمر بعض الاستقرار و لما یتم استقراره،فإن فیها ذکر غزوه أحد،و فیها ذکر المباهله مع نصاری نجران،و ذکرا من أمر الیهود،و حثا علی المشرکین،و دعوه الی الصبر و المصابره و المرابطه،و جمیع ذلک یؤید أن السوره نزلت أیام کان المسلمون مبتلین بالدفاع عن حمی الدین بعامه قواهم و جمیع أرکانهم،فمن جانب کانوا یقاومون الفشل و الفتور الذین یدبان فی داخل جماعتهم بفتنه الیهود و النصاری،و یحاجونهم و یجاوبونهم،و من جانب کانوا یقاتلون المشرکین،و یعیشون فی حال الحرب و انسلاب الأمن،فقد کان الاسلام فی هذه الأیام قد انتشر صیته فثارت الدنیا علیه من الیهود و النصاری و مشرکی العرب،و وراء ذلک الروم و العجم و غیرهم.

و اللّه سبحانه یذکر المؤمنین فی هذه السوره من حقائق دینه الذی هداهم به ما یطیب به نفوسهم،و یزول به رین الشبهات و الوساوس الشیطانیه و تسویلات أهل الکتاب عن قلوبهم،و یبین لهم:أن اللّه سبحانه لم یغفل عن تدبیر ملکه،و لم یعجزه خلقه،و إنما اختار دینه و هدی جمعا من عباده الیه علی طریقه العاده الجاریه،و السنه الدائمه،و هی سنه العلل و الأسباب،فالمؤمن و الکافر جاریان علی سنه الأسباب،فیوم للکافر و یوم للمؤمن،فالدار دار الامتحان،و الیوم یوم العمل،و الجزاء غدا.

قوله تعالی: اَللّهُ لا اِلَهَ اِلاّ هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ ،قد مرّ الکلام فیه فی تفسیر آیه الکرسی،و تحصل من هناک أن المراد به بیان قیامه تعالی أتم القیام علی أمر الإیجاد و التدبیر،

فنظام الموجودات بأعيانها و آثارها تحت قيمومه اللّه لا مجرد قيمومه التأثير كالقيمومه فى الأسباب الطبيعيه الفاقده للشعور بل قيمومه حياه تستلزم العلم و القدره؛فالعلم الإلهى نافذ فيها لا يخفى عليه شىء منها،و القدره مهيمنه عليها لا يقع منها إلاّ ما شاء وقوعه و أذن فيه، و لذلك عقبه بقوله بعد آيتين:إن اللّه لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء.

قوله تعالى: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ،قد مر أن التنزيل يدل على التدريج كما أن الإنزال يدل على الدفعه.

و ربما ينقض ذلك بقوله: لَوْ لاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (الفرقان۳۲/)،و بقوله تعالى: أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً (المائده۱۱۲/)،و قوله تعالى: لَوْ لاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ (الأنعام۳۷/)،و قوله تعالى: قُلْ إِنَّ اللّٰهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً (الأنعام۳۷/)،و لذلك ذكر بعض المفسرين:أن الأولى أن يقال:إن معنى نزل عليك الكتاب:أنزله إنزالا بعد إنزال دفعا للنقض.

و الجواب:أن المراد بالتدريج فى النزول ليس هو تخلل زمان معتد به بين نزول كل جزء من اجزاء الشىء و بين جزئه الآخر بل الأشياء المركبه التى توجد بوجود أجزائها لوجودها نسبه الى مجموع الاجزاء و بذلك يصير الشىء أمرا واحدا غير منقسم،و التعبير عنه من هذه الجهه بالنزول كقوله تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (الرعد۱۷/)،و هو الغيث.و نسبته من حيث وجوده بوجود أجزائه واحدا بعد واحد سواء تخلل بينهما زمان معتد به أو لم يتخلل و هو التدريج،و التعبير عنه بالتنزيل كقوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ (الشورى/ ۲۸).

و من هنا يظهر:أن الآيات المذكوره للنقض غير ناقضه فإن المراد بقوله لو لا نزل عليه القرآن جمله واحده الآيه:أن ينزل عليه القرآن آيه بعد آيه فى زمان متصل واحد من غير

تخلل زمان معتد به كما كان عليه الأمر فى نزول القرآن فى الشئون و الحوادث و الأوقات المختلفه،و بذلك يظهر الجواب عن بقيه الآيات المذكوره.

و أما ما ذكره البعض المزبور فهو على أنه استحسان غير جائز فى اللغه البته،لا يدفع شيئا من النقض بالآيات المذكوره،بل هى بحالها و هو ظاهر.

و قد جرى كلامه تعالى ان يعبر عن إفاضه الكتاب على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالتنزيل و النزول، و النزول يستلزم مقاما أو مكانا عاليا رفيعا يخرج منه الشىء نوعا من الخروج و يقصد مقاما أو مكانا آخر أسفل فيستقر فيه،و قد وصف نفسه تعالت ذاته بالعلو و رفعه الدرجات و قد وصف كتابه أنه من عنده،قال تعالى: إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (الشورى۵۱/)،و قال تعالى:

وَ لَمّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ (البقره۸۹/)،فصح بذلك استعمال لفظ النزول فى مورد استقرار الوحى فى قلب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و قد ذكروا أن الحق هو الخبر من حيث إن بحذائه خارجا ثابتا كما ان الصدق هو الخبر من حيث إنه مطابق للخارج،و على هذا فإطلاق الحق على الأعيان الخارجيه و الامور الواقعيه كما يطلق على اللّه سبحانه:أنه حق، و على الحقائق الخارجيه أنها حقه إنما هو من جهه أن كلا منها حق من جهه الخبر عنها،و كيف كان فالمراد بالحق فى الآيه:الامر الثابت الذى لا يقبل البطلان.

و الظاهر أن الباء فى قوله: بِالْحَقِّ للمصاحبه و المعنى:نزل عليك الكتاب تنزيلا يصاحب الحق و لا يفارقه،فيوجب مصاحبه الحق ان لا يطرأ عليه و لا يخالطه باطل فهو فى أمن من جهه ظهور الباطل عليه،ففى قوله: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ استعاره بالكنايه،و قد قيل فى معنى الباء وجوه أخر لا يخلو عن سقم.

و التصديق من الصدق يقال:صدقت مقالا كذا أى قررته على الصدق و اعترفت بكونه صدقا و صدقت فلانا أى اعترفت بصدقه فيما يخبر به.

و المراد مما بين يديه التوراه و الانجيل كما قال تعالى: إِنّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً الى ان

قال: وَ آتَيْنٰاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً الى ان قال: وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتٰابِ الآيه(المائده/۴۸)،و الكلام لا يخلو عن دلاله على أن ما بأيدى اليهود و النصارى من التوراه و الانجيل لا يخلو عن بعض ما أنزله اللّه على موسى و عيسى عليهما السّلام،و إن كانا لا يخلوان عن السقط و التحريف،فإن الدائر بينهم فى عصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو التوراه الموجوده اليوم و الاناجيل الأربعه المشهوره،فالقرآن يصدق التوراه و الانجيل الموجودين، لكن فى الجمله لا بالجمله لمكان الآيات الناطقه بالتحريف و السقط فيهما،قال تعالى: وَ لَقَدْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ الى ان قال: وَ جَعَلْنٰا قُلُوبَهُمْ قٰاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُكِّرُوا بِهِ الى ان قال: وَ مِنَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنّٰا نَصٰارىٰ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُكِّرُوا بِهِ الآيه(المائده/۱۴).

قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ التَّوْرٰاةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنّٰاسِ ،التوراه كلمه عبرانيه بمعنى الشريعه،و الإنجيل لفظ يونانى،و قيل فارسى الأصل معناه البشاره،و سيجىء استيفاء البحث عن الكتابين فى قوله تعالى: إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ الآيات (المائده/۴۴).

و مما أصر عليه القرآن تسميه كتاب عيسى عليه السّلام بالإنجيل بصيغه الافراد و القول بأنه نازل من عند اللّه سبحانه،مع ان الأناجيل كثيره،و المعروفه منها أعنى الأناجيل الأربعه كانت موجوده قبل نزول القرآن و فى عهده،و هى التى ينسب تأليفها الى لوقا و مرقس و متى و يوحنا،و لا يخلو ما ذكرناه من إفراد الاسم و التوصيف بالنزول عن دلاله على التحريف و الإسقاط،و كيف كان لا يخلو ذكر التوراه و الانجيل فى هذه الآيه و فى أول السوره من التعريض لليهود و النصارى على ما سيذكره من أمرهم و قصص تولد عيسى و نبوته و رفعه.

قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ الْفُرْقٰانَ ،الفرقان ما يفرق به بين الحق و الباطل على ما فى الصحاح،و اللفظ بمادته يدل على الأعم من ذلك،و هو كل ما يفرق به بين شىء و شىء.قال

تعالی: يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ (الأنفال۴۱/)،و قال تعالی: يَجْعَلْ لَكَمْ فُرْقاناً (الأنفال۲۹/).و اذا كان الفرق المطلوب عند اللّه فيما يرجع الی معنی الهدايه هو الفرق بين الحق و الباطل فی العقائد و المعارف و بين وظيفه العبد و ما ليس بوظيفه له بالنسبه الی الأعمال الصادره عنه فی الحياه الدنيا انطبق معناه علی مطلق المعارف الأصليه و الفرعيه التی أنزلها اللّه تعالی علی أنبيائه بالوحی،أعم من الكتاب و غيره.قال تعالی: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ (الأنبياء۴۸/)،و قال تعالی: وَ إِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ الْفُرْقانَ (البقره/ ۵۳)،و قال تعالی: تَبارَكَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (الفرقان/ ۱).

و قد عبر تعالی عن هذا المعنی بالميزان فی قوله: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ (الحديد۲۵/).و هو فی وزان قوله: كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقره۲۱۳/).فالميزان كالفرقان هو الدين الذی يحكم بين الناس بالعدل مع ما ينضم اليه من المعارف و وظائف العبوديه،و اللّه أعلم.

و قيل:المراد بالفرقان القرآن.و قيل:الدلاله الفاصله بين الحق و الباطل.و قيل:الحجه القاطعه لرسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم علی من حاجه فی أمر عيسی.و قيل:النصر.و قيل:العقل.و الوجه ما قدمناه.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللّهِ -الی قوله- ذُو انْتِقامٍ ،الانتقام علی ما قيل مجازاه المسیء علی إساءته،و ليس من لازم المعنی أن يكون للتشفی،فإن ذلك من لوازم الانتقامات التی بيننا حيث إن إساءه المسیء يوجب منقصه و ضررا فی جانبنا فنتدارك ذلك بالمجازاه الشديده التی توجب تشفی قلوبنا،و أما هو تعالی فأعز ساحه من أن ينتفع أو يتضرر بشیء من أعمال عباده،لكنه وعد-و له الوعد الحق-أن سيقضی بين عباده بالحق إن خيرا

فخیرا و إن شرا فشرا.قال تعالی: وَ اللّٰهُ یَقْضِی بِالْحَقِّ (المؤمن ۲۰/)،و قال تعالی:

لِیَجْزِیَ الَّذِینَ أَسٰاؤُا بِمٰا عَمِلُوا وَ یَجْزِیَ الَّذِینَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَی (النجم۳۱/).کیف و هو عزیز علی الإطلاق منیع الجانب من أن ینتهک محارمه.و قد قیل إن الأصل فی معنی العزه الامتناع.

و قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیٰاتِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ ،من حیث إطلاق العذاب و عدم تقییده بالآخره أو یوم القیمه ربما تضمن الوعید بالعذاب فی الدنیا کما فی الآخره.و هذا من الحقائق القرآنیه التی ربما قصر الباحثون فی استیفاء البحث عنه و لیس ذلک إلّا لکوننا لا نعد شیئا عذابا إلّا اذا اشتمل علی شیء من الآلام الجسمانیه،أو نقص أو فساد فی النعم المادیه کذهاب الأموال و موت الأعزه و نقاهه الأبدان،مع أن الذی یعطیه القرآن بتعلیمه أمر وراء ذلک (۱).

قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَخْفیٰ عَلَیْهِ شَیْءٌ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ فِی السَّمٰاءِ الخ؛قد علل تعالی عذاب الذین کفروا بآیاته بأنه عزیز ذو انتقام لکن لما کان هذا التعلیل لا یخلو عن حاجه الی ضمیمه تنضم إلیه لیتم المطلوب فإن العزیز ذا الانتقام یمکن أن یخفی علیه کفر بعض من کفر بنعمته فلا یبادر بالعذاب و الانتقام،فعقب لذلک الکلام بقوله: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَخْفیٰ عَلَیْهِ ،فبین أنه عزیز لا یخفی علیه شیء ظاهر علی الحواس و لا غائب عنها،و من الممکن أن یکون المراد مما فی الارض و ما فی السماء الأعمال الظاهره القائمه بالجوارح و الخفیه الکامنه فی القلوب علی حد ما نبهنا علیه فی قوله تعالی: لِلّٰهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا مٰا فِی أَنْفُسِکُمْ أَوْ تُخْفُوهُ یُحٰاسِبْکُمْ بِهِ اللّٰهُ الآیه(البقره۲۸۴/).

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی یُصَوِّرُکُمْ فِی الْأَرْحٰامِ کَیْفَ یَشٰاءُ ،التصویر إلقاء

۱- ۱) .آل عمران ۱-۶:کلام فی معنی العذاب فی القرآن.

الصوره على الشىء و الصوره تعم ما له ظل كالتمثال و ما لا ظل له.و الأرحام جمع رحم و هو مستقر الجنين من الإناث.

قوله تعالى: لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ،فيه عود الى ما بدئ به الكلام فى الآيات من التوحيد،و هو بمنزله تلخيص الدليل للتأكيد.

فإن هذه الامور المذكوره أعنى:هدايه الخلق بعد ايجادهم،و إنزال الكتاب و الفرقان، و إتقان التدبير بتعذيب الكافرين امور لا بد أن تستند الى إله يدبرها و اذ لا إله إلاّ اللّه تعالى شأنه فهو الذى يهدى الناس و هو الذى ينزل الكتاب و الفرقان،و هو يعذب الكافرين بآياته، و إنما يفعل ما يفعل من الهدايه و الإنزال و الانتقام و التقدير بعزته و حكمته (۱).

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۷ الى ۹]

اشاره

هُوَ اَلَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ اَلْکِتٰابَ مِنْهُ آیٰاتٌ مُحْکَمٰاتٌ هُنَّ أُمُّ اَلْکِتٰابِ وَ أُخَرُ مُتَشٰابِهٰاتٌ فَأَمَّا اَلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ مٰا تَشٰابَهَ مِنْهُ اِبْتِغٰاءَ اَلْفِتْنَهِ وَ اِبْتِغٰاءَ تَأْوِیلِهِ وَ مٰا یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلاَّ اَللّٰهُ وَ اَلرّٰاسِخُونَ فِی اَلْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنّٰا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا وَ مٰا یَذَّکَّرُ إِلاّٰ أُولُوا اَلْأَلْبٰابِ (۷) رَبَّنٰا لاٰ تُزِغْ قُلُوبَنٰا بَعْدَ إِذْ هَدَیْتَنٰا وَ هَبْ لَنٰا مِنْ لَدُنْکَ رَحْمَهً إِنَّکَ أَنْتَ اَلْوَهّٰابُ (۸) رَبَّنٰا إِنَّکَ جٰامِعُ اَلنّٰاسِ لِیَوْمٍ لاٰ رَیْبَ فِیهِ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یُخْلِفُ اَلْمِیعٰادَ (۹)

۱- ۱) .آل عمران ۱-۶:بحث روائى فى:وفد نجران،مناظره الرسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع وفد نجران حول النبى عيسى عليه السّلام؛تكوين الانسان.

بیان:

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتٰابَ ،عبر تعالی بالإنزال دون التنزیل لأن المقصود بیان بعض أوصاف مجموع الکتاب النازل و خواصه،و هو أنه مشتمل علی آیات محکمه و أخر متشابهه ترجع الی المحکمات و تبین بها،فالکتاب مأخوذ بهذا النظر أمرا واحدا من غیر نظر الی تعدد و تکثر،فناسب استعمال الإنزال دون التنزیل.

قوله تعالی: مِنْهُ آیٰاتٌ مُحْکَمٰاتٌ هُنَّ أُمُّ الْکِتٰابِ وَ أُخَرُ مُتَشٰابِهٰاتٌ ،ماده حکم تفید معنی کون الشیء بحیث یمنع ورود ما یفسده أو یبعضه أو یخل أمره علیه،و منه الإحکام و التحکیم،و الحکم بمعنی القضاء،و الحکمه بمعنی المعرفه التامه و العلم الجازم النافعه، و الحکمه بفتح الحاء لزمام الفرس،ففی الجمیع شیء من معنی المنع و الإتقان،و ربما قیل:إن الماده تدل علی معنی المنع مع إصلاح.

و المراد هاهنا من إحکام المحکمات إتقان هذه الآیات من حیث عدم وجود التشابه فیها کالمتشابهات،فإنه تعالی و إن وصف کتابه بإحکام الآیات فی قوله: کِتٰابٌ أُحْکِمَتْ آیٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ (هود۱/)،لکن اشتمال الآیه علی ذکر التفصیل بعد الإحکام دلیل علی أن المراد بالإحکام حال من حالات الکتاب کان علیها قبل النزول و هی کونه واحدا لم یطرأ علیه التجزی و التبعض بعد بتکثر الآیات،فهو إتقانه قبل وجود التبعض،فهذا الإحکام وصف لتمام الکتاب،بخلاف وصف الإحکام و الإتقان الذی لبعض آیاته بالنسبه الی بعض آخر من جهه امتناعها عن التشابه فی المراد (۱).

قوله تعالی: فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ مٰا تَشٰابَهَ مِنْهُ ابْتِغٰاءَ الْفِتْنَهِ

۱- ۱) .آل عمران ۷-۹:بحث فی:ام الکتاب؛المحکم و المتشابه.

و ابتغـاء تَأْوِيلِهِ ،الزيغ هو الميل عن الاسـتقامه،و يلزمه اضـطراب القلب و قلقه بقرينه ما يقابله فی ذيل الآيه من قوله: وَ الرّٰاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنّٰا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا ،فإن الآيه تصف حال الناس بالنسبه الی تلقی القرآن بمحكمه و متشابهه،و أن منهم من هو زائغ القلب و مائله و مضـطربه فهو يتبع المتشابه ابتغاء للفتنه و التأويل،و منهـم من هو راسخ العلم مستقر القلب يأخذ بالمحكم و يؤمن بالمتشابه و لا يتبعه،و يسأل اللّه تعالی أن لا يزيغ قلبه بعد الهدايه.

و من هنـا يظهر:أن المراد باتبـاع المتشـابه اتبـاعه عملاـ لاـ إيمانـا،و ان هـذا الاتبـاع المـذموم اتبـاع للمتشـابه من غير ارجاعه الی المحكم،اذ علی هذا التقدير يصير الاتباع اتباعا للمحكم و لا ذم فيه.

و المراد بابتغاء الفتنه طلب إضـلال الناس،فإن الفتنه تقارب الاضلال فی المعنی،يقول تعالی:يريدون باتباع المتشابه إضلال الناس فی آيـات اللّه سـبحانه،و أمرا آخر هـو أعظم من ذلـك،و هو الحصول و الوقوف علی تأويـل القرآن و مآخـذ أحكـام الحلاـل و الحرام حتی يستغنوا عن اتباع محكمات الدين فينتسخ بذلك دين اللّه من أصله.

و التأويل من الاول و هو الرجوع،فتأويل المتشابه هو المرجع الـذی يرجع إليه،و تأويل القرآن هو المأخـذ الـذی يأخذ منه معارفه (۱).

قوله تعـالی: وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ ،ظاهر الكلام رجوع الضـمير الی ما تشابه،لقربه كما هو الظاهر أيضا فی قوله: وَ ابْتِغٰاءَ تَأْوِيلِهِ ،و قـد عرفت أن ذلـك لاـ يسـتلزم كون التأويـل مقصورا علی الآيـات المتشـابهه.و من الممكن أيضا رجوع الضـمير الی الكتاب كالضمير فی قوله: مٰا تَشٰابَهَ مِنْهُ .

و ظاهر الحصر كون العلم بالتأويل مقصورا عليه سبحانه،و أما قوله: وَ الرّٰاسِخُونَ فِی

۱- ۱) .آل عمران ۷-۹:بحث فی معنی التأويل.

اَلْعِلْمِ ،فظاهر الكلام أن الواو للاستيناف بمعنى كونه طرفا للترديد الذى يدل عليه قوله فى صدر الآيه:فأما الذين فى قلوبهم زيغ،و المعنى:أن الناس فى الأخذ بالكتاب قسمان:فمنهم من يتبع ما تشابه منه و منهم من يقول اذا تشابه عليه شىء منه:آمنا به كل من عند ربنا،و إنما اختلفا لاختلافهم من جهه زيغ القلب و رسوخ العلم.

على أنه لو كان الواو للعطف،و كان المراد بالعطف تشريك الراسخين فى العلم بالتأويل كان منهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو أفضلهم و كيف يتصور أن ينزل القرآن على قلبه و هو لا يدرى ما اريد به،و من دأب القرآن اذا ذكر الامه أو وصف أمر جماعه و فيهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يفرده بالذكر أولا و يميزه بالشخص تشريفا له و تعظيما لأمره ثم يذكرهم جميعا كقوله تعالى:

آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ (البقره٢٨٥/)،و قوله تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (التوبه٢٦/)،و قوله تعالى: لٰكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (التوبه٨٨/)،و قوله تعالى: وَ هٰذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا (آل عمران٦٨/)، و قوله تعالى: لاٰ يُخْزِي اللّٰهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (التحريم٨/)،الى غير ذلك،فلو كان المراد بقوله: وَ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ،إنهم عالمون بالتأويل-و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منهم قطعا-كان حق الكلام كما عرفت أن يقال:و ما يعلم تأويله إلاّ اللّه و رسوله و الراسخون فى العلم،هذا و إن أمكن أن يقال:إن قوله فى صدر الآيه:هو الذى أنزل عليك الكتاب،الخ؛يدل على كون النبى عالما بالكتاب فلا حاجه الى ذكره ثانيا.

فالظاهر أن العلم بالتأويل مقصور فى الآيه عليه تعالى،و لا ينافى ذلك ورود الاستثناء عليه كما أن الآيات داله على انحصار علم الغيب عليه تعالى مع ورود الاستثناء عليه كما فى قوله تعالى: عٰالِمُ الْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ (الجن/ ٢٧)،و لا ينافيه أيضا:كون المستثنى الراسخين فى العلم بعينهم،اذ لا منافاه بين أن تدل هذه الآيه على شأن من شئون الراسخين فى العلم،و هو الوقوف عند الشبهه و الإيمان و التسليم فى

مقابل الزائغين قلبا و بين أن تدل آيات أخر على أنهم أو بعضا منهم عالمون بحقيقه القرآن و تأويل آياته على ما سيجیء بيانه.

قوله تعالى: وَ الرّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا ، الرسوخ هو أشد الثبات،و وقوع الراسخين فی العلم فی مقابله الذين فی قلوبهم زيغ ثم توصيفهم بأنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا يدل على تمام تعريفهم،و هو أن لهم علما باللّه و بآياته لا يدخله ريب و شك،فما حصل لهم من العلم بالمحكمات ثابت لا يتزلزل،و هم يؤمنون به و يتبعونه أی يعلمون به و اذا وردت عليهم آيه متشابهه لم يوجب تشابهها اضطراب قلوبهم فيما عندهم من العلم الراسخ بل آمنوا بها و توقفوا عن اتباعها عملا.

و فی قولهم:آمنا به كل من عند ربنا ذكر الدليل و النتيجه معا فإن كون المحكم و المتشابه جميعا من عند اللّه تعالى يوجب الايمان بالكل:محكمه و متشابهه،و وضوح المراد فی المحكم يوجب اتباعه عملا،و التوقف فی المتشابه من غير رده لأنه من عند اللّه و لا يجوز اتباع ما ينافی المحكم من معانيه المتشابهه لسطوع البيان فی المحكم فيجب أن يتبع من معانيه المحتمله ما يوافق معنى المحكم،و هذا بعينه إرجاع المتشابه الى المحكم فقوله: کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا بمنزله الدليل على الأمرين جميعا،أعنی:الايمان و العمل فی المحكم،و الايمان فقط فی المتشابه و الرجوع فی العمل الى المحكم.

قوله تعالى: وَ ما یَذَّکَّرُ إِلاّ أُولُوا الْأَلْبابِ ،التذكر هو الانتقال الى دليل الشیء لاستنتاجه،و لما كان قولهم:كل من عند ربنا كما مر استدلالا منهم و انتقالا لما يدل على فعلهم سماه اللّه تعالى تذكرا و مدحهم به.

و الألباب جمع لب و هو العقل الزكی الخالص من الشوائب،و قد مدحهم اللّه تعالى مدحا جميلا فی موارد من كلامه،و عرّفهم بأنهم أهل الايمان باللّه و الإنابه اليه و اتباع أحسن القول، ثم وصفهم بأنهم على ذكر من ربهم دائما فأعقب ذلك أنهم أهل التذكر أی الانتقال الى المعارف

الحقه بالدليل و أهل الحكمه و المعرفه،قال تعالى: وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَى اللّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ اَلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (الزمر١٨/)،و قال تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ اَلَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِهِمْ (آل عمران١٩١/)،و هذا الذكر الدائم و ما يتبعه من التذلل و الخضوع هو الإنابه الموجبه لتذكرهم بآيات اللّه و انتقالهم الى المعارف الحقه كما قال تعالى: وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلاّ مَنْ يُنِيبُ (غافر١٣/)،و قد قال وَ ما يَذَّكَّرُ إِلاّ أُولُوا الْأَلْبابِ (البقره٢۶٩/)، (آل عمران٧/).

قوله تعالى: رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهّابُ ،و هذا من آثار رسوخهم فى العلم فإنهم لما علموا بمقام ربهم،و عقلوا عن اللّه سبحانه أيقنوا أن الملك للّه وحده،و أنهم لا يملكون لأنفسهم شيئا فمن الجائز أن يزيغ قلوبهم بعد رسوخ العلم فالتجئوا الى ربهم،و سألوه أن لا يزيغ قلوبهم بعد اذ هداهم،و أن يهب لهم من لدنه رحمه تبقى لهم هذه النعمه،و يعينهم على السير فى صراط الهدايه،و السلوك فى مراتب القرب.

و أما سؤال أن يهبهم رحمه بعد سؤال أن لا يزيغ قلوبهم فلأن عدم إزاغه القلب لا يستلزم بقاء الرسوخ فى العلم فمن الجائز أن لا يزاغ قلوبهم و ينتزع عنها العلم فتبقى سدى مهمله لا سعداء بالعلم و لا أشقياء بالازاغه بل فى حال الجهل و الاستضعاف،و هم فى حاجه مبرمه الى ما هم عليه من العلم،و مع ذلك لا تقف حاجتهم فى ما هم عليه من الموقف بل هم سائرو طريق يحتاجون فيه الى أنواع من الرحمه لا يعلمها و لا يحصيها إلاّ اللّه سبحانه،و هم مستشعرون بحاجتهم هذه،و الدليل عليه قولهم بعد:ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه.

فقولهم:ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا،استعاذه من نزول الزيغ الى قلوبهم و إزاحته

العلم الراسخ الـذى فيهـا،و قولهم:و هب لنا من لـدنک رحمه إنک أنت الوهاب استمطار لسحاب الرحمه حتى تـدوم بها حياه قلوبهم،و تنكير الرحمه،و توصيفها بكونها من لـدنه إظهار منهم الجهل بشأن هـذه الرحمه،و أنها كيف ينبغى أن تكون غير أنهم يعلمون أنه لو لا رحمه من ربهم و لو لا كونها من لدنه لم يتم لهم أمر.

و فى الاستعاذه من الزيغ الى اللّه محضـا و استيهاب الرحمه من لـدنه محضا دلاله على أنهم يرون تمام الملک للّه محضا من غير توجه الى أمر الأسباب.

قوله تعـالى: رَبَّنا إِنَّکَ جامِعُ النّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ ،هـذا منهم بمنزله التعليل لسؤال الرحمه،و ذلک لعلمهم بأن إقامه نظام الخلقه و دعوه الـدين و كـدح الإنسان فى مسـير وجوده كل ذلک مقدمه لجمعهم الى يوم القيامه الذى لا يغنى فيه و لا ينصر أحد إلّا بالرحمه كما قال تعالى: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لا يُغْنِى مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ، إِلّا مَنْ رَحِمَ اللّهُ (الدخان/۴۲)،و لذلک سألوا رحمه من ربهم و فوضوا تعيينها و تشخيصها اليه لينفعهم فى أمرهم.

و قد وصـفوا هذا اليوم بأنه لا ريب فيه ليتجه بذلک كمال اهتمامهم بالسؤال و الدعاء،و عللوا هذا التوصـيف أيضا بقولهم:إن اللّه لا يخلف الميعاد لأن شأنهم الرسوخ فى العلم،و لا يرسـخ العلم بشـىء و لا يسـتقر تصـديق إلّا مع العلم بعلته المنتجه،و عله عـدم ارتيابهم فى تحقق هذا اليوم هو ميعاد اللّه سبحانه به فذكروه (۱)(۲)(۳).

ص:۴۰۱

۱- ۱) .آل عمران ۷-۹:كلام تفصيلى فى المحكم و المتشابه و التأويل(المحكم و المتشابه،ما معنى كون المحكمات ام الكتاب؟ما معنى التأويل؟هل يعلم تأويل القرآن غير اللّه سبحانه؟؛ما هو السبب فى اشتمال الكتاب على المتشابه).

۲- ۲) .آل عمران ۷-۹:بحث روائى فى:المحكم و المتشابه؛الراسخون فى العلم.

۳- ۳) .آل عمران ۷-۹:بحث روائى فى تفسير القرآن.

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۱۰ الی ۱۸]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُهُمْ مِنَ اَللّٰهِ شَيْئاً وَ أُولٰئِكَ هُمْ وَقُودُ اَلنّٰارِ (۱۰) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا فَأَخَذَهُمُ اَللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اَللّٰهُ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ (۱۱) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلىٰ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ اَلْمِهٰادُ (۱۲) قَدْ كٰانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اِلْتَقَتٰا فِئَةٌ تُقٰاتِلُ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ أُخْرىٰ كٰافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ اَلْعَيْنِ وَ اَللّٰهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشٰاءُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي اَلْأَبْصٰارِ (۱۳) زُيِّنَ لِلنّٰاسِ حُبُّ اَلشَّهَوٰاتِ مِنَ اَلنِّسٰاءِ وَ اَلْبَنِينَ وَ اَلْقَنٰاطِيرِ اَلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ اَلذَّهَبِ وَ اَلْفِضَّةِ وَ اَلْخَيْلِ اَلْمُسَوَّمَةِ وَ اَلْأَنْعٰامِ وَ اَلْحَرْثِ ذٰلِكَ مَتٰاعُ اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ اَللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ اَلْمَآبِ (۱۴) قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اِتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّٰاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ أَزْوٰاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوٰانٌ مِنَ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ (۱۵) اَلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنٰا إِنَّنٰا آمَنّٰا فَاغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا وَ قِنٰا عَذٰابَ اَلنّٰارِ (۱۶) اَلصّٰابِرِينَ وَ اَلصّٰادِقِينَ وَ اَلْقٰانِتِينَ وَ اَلْمُنْفِقِينَ وَ اَلْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحٰارِ (۱۷) شَهِدَ اَللّٰهُ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ وَ أُولُوا اَلْعِلْمِ قٰائِماً بِالْقِسْطِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۱۸)

ص: ۴۰۲

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَنْ تُغْنِیَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لاـ أَوْلاـدُهُمْ مِنَ اللّهِ شَیْئاً ،أغنی عنه ماله من فلان أی أعطاه الغنی و رفع حاجته فلاـ حاجه به الیه و الانسان فی بادی تکونه و شعوره یری نفسه محتاجه الی الخارج منه،و هذا أول علمه الفطری الی احتیاجه الی الصانع المدبر ثم إنه لما توسط فی الأسباب و أحس بحوائجه بدأ بإحساس الحاجه الی کماله البدنی النباتی و هو الغذاء و الولد،ثم عرفت له نفسه سائر الکمالات الحیوانیه،و هی التی یزینها له الخیال من زخارف الدنیا من زینه الملبس و المسکن و المنکح و غیر ذلک،و عندئذ یتبدل طلب الغذاء الی طلب المال الذی یظنه مفتاحا لحل جمیع مشکلات الحیاه لأن العاده الغالبه تجری علی ذلک فیظن أن سعاده حیاته فی المال و الولد بعد ما کان یظن أن ضامن سعادته هو الغذاء و الولد،ثم انکباب نفسه علی مشتهیاته،و قصر همه علی الأسباب یوجب أن یقف قلبه عند الأسباب،و یعطی لها الاستقلال،و حینئذ ینسی ربه، و یتشبث بذیل المال و الولد،و فی هذا الجهل هلاکه فإنه یستر به آیات ربه و یکفر بها،و قد التبس علیه الأمر فإن ربه هو اللّه لا إله إلاّ هو الحی القیوم لا یستغنی عنه شیء بحال و لا یغنی عنه شیء بحال.

قوله تعالی: وَ أُولئِکَ هُمْ وَقُودُ النّارِ ،الوقود بفتح الواو ما توقد به النار و تشتعل، و الآیه جاریه مجری قوله تعالی: فَاتَّقُوا النّارَ الَّتِی وَقُودُهَا النّاسُ وَ الْحِجارَهُ (البقره/ ۲۴)،و قوله تعالی: إِنَّکُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (الأنبیاء۹۸/)،و قد مر بعض الکلام فی معنی ذلک فی سوره البقره.

ص :۴۰۳

و الاتیان بالجمله الاسمیه،و الابتداء باسم الإشاره،و کونه دالا علی البعد و توسیط ضمیر الفصل،و إضافه الوقود الی النار دون أن یقال وقود،کل ذلک یؤکد ظهور الکلام فی الحصر، و لازمه کون المکذبین من الکفار هم الأصل فی عذاب النار و إیقاد جهنم،و أن غیرهم إنما یحترقون بنارهم؛و یتأید بذلک ما سیأتی بیانه فی قوله تعالی: لِیَمِیزَ اللّٰهُ الْخَبِیثَ مِنَ الطَّیِّبِ وَ یَجْعَلَ الْخَبِیثَ بَعْضَهُ عَلیٰ بَعْضٍ الآیه(الأنفال/۳۷).

قوله تعالی: کَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ الی آخر الآیه؛الدأب علی ما ذکروه هو السیر المستمر،قال تعالی: وَ سَخَّرَ لَکُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دٰائِبَیْنِ (إبراهیم/ ۳۳)،و منه تسمیه العاده دأبا لأنه سیر مستمر،و هذا المعنی هو المراد فی الآیه.

و قوله کَدَأْبِ ،متعلق بمقدر یدل علیه قوله فی الآیه السابقه:لن تغنی عنهم،و یفسر الدأب قوله: کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا و هو فی موضع الحال؛و تقدیر الکلام کما مرت الیه الإشاره:إن الذین کفروا کذبوا بآیاتنا و استمروا علیها دائبین فزعموا أن فی أموالهم و أولادهم غنی لهم من اللّه کدأب آل فرعون و من قبلهم و قد کذبوا بآیاتنا.

و قوله تعالی: فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ ،ظاهر الباء أنها تفید السببیه،یقال:

أخذته بذنبه أی بسبب ذنبه لکن مقتضی المحاذاه التی بین الآیتین؛و قیاسه حال هؤلاء الذین کفروا فی دأبهم علی آل فرعون و الذین من قبلهم فی دأبهم أن یکون البناء للآله،فإنه ذکر فی الذین کفروا أنهم و قود النار تشتعل علیهم أنفسهم و یعذبون بها فکذلک آل فرعون و من قبلهم إنما أخذوا بذنوبهم و کان العذاب الذی حل بساحتهم هو عین الذنوب التی اذنبوها، و کان مکرهم هو الحائق بهم،و ظلمهم عائدا الیهم،قال تعالی: وَ لاٰ یَحِیقُ الْمَکْرُ السَّیِّئُ إِلاّٰ بِأَهْلِهِ (فاطر/۴۳)،و قال تعالی: وَ مٰا ظَلَمُونٰا وَ لٰکِنْ کٰانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (البقره/ ۵۷).

فالمعنی-و اللّه أعلم-أن آل فرعون کانوا دائبین علی دأب هؤلاء الذین کفروا فی الکفر

و تكذيب الآيات،و لا ريب فى هذا الخبر فإنا كنا حاضرين شاهدين و قد كذبوا بآياتنا نحن فأخذناهم.

و أما قوله: فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ ،فهو رجوع بعد استيفاء المقصود الى الأصل فى الكلام و هو اسلوب الغيبه،و فيه مع ذلك إرجاع الحكم الى مقام الالوهيه القائمه بجميع شئون العالم و المهيمنه على كل ما دق و جل،و لذلك كرر لفظ الجلاله ثانيا فى قوله و اللّٰه شديد العقاب،و لم يقل:و هو شديد العقاب للدلاله على أن كفرهم و تكذيبهم هذا منازعه و محاربه مع من له جلال الالوهيه و يهون عليه أخذ المذنب بذنبه،و هو شديد العقاب لأنه اللّٰه جل اسمه.

قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ الى آخر الآيه؛الحشر هو اخراج الجماعه عن مقرهم بالازعاج،و لا يستعمل فى الواحد،قال تعالى: وَ حَشَرْنٰاهُمْ فَلَمْ نُغٰادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (الكهف/۴۷)،و المهاد هو الفراش،و ظاهر السياق أن المراد بالذين كفروا هم المشركون كما انه ظاهر الآيه السابقه:إن الذين كفروا لن تغنى عنهم،الخ؛دون اليهود،و هذا هو الأنسب لاتصال الآيتين حيث تذكر هذه الآيه الغلبه عليهم و حشرهم الى جهنم و قد أشارت الآيه السابقه الى تقويهم و تعززهم بالاموال و الأولاد.

قوله تعالى: قَدْ كٰانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتٰا ؛ظاهر السياق أن يكون الخطاب للذين كفروا،و الكلام من تتمه قول النبى صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم:ستغلبون و تحشرون،الخ؛و من الممكن أن يكون خطابا للمؤمنين بدعوتهم الى الاعتبار و التفكر بما من اللّٰه عليهم يوم بدر حيث أيدهم بنصره تأييدا عجيبا بالتصرف فى إبصار العيون،و على هذا يكون الكلام مشتملا على نوع من الالتفات بتوسعه خطاب رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم فى قوله قُلْ لِلَّذِينَ بتوجيهه اليه و الى من معه من المؤمنين؛لكن السياق-كما عرفت-للأول أنسب.

و الآيه-بما تشتمل عليه من قصه التقاء الفئتين و نصره تعالى للفئه المقاتله فى سبيل اللّٰه- و ان لم تتعرض بتشخيص القصه و تسميه الوقعه غير أنها قابله الانطباق على وقعه بدر،

و السوره نازله بعدها بل و بعد احد.

فمحصل معنى الآيه:أنكم أيها المشركون لو كنتم من اولى الأبصار و البصائر لكفاكم فى الاعتبار و الدلاله على أن الغلبه للحق و أن اللّه يؤيد بنصره من يشاء و لا يغلب بمال و لا ولد ما رأيتموه يوم بدر فقد كان المؤمنون مقاتلين فى سبيل اللّه سبحانه،و قد كانوا فئه قليله مستذلين لا يبلغون ثلث الفئه الكافره،و لا يقاسون بهم قوه،كانوا ثلاثمائه و ثلاثه عشر رجلا ليس لهم إلّا سته أدرع و ثمانيه سيوف و فرسان،و كان جيش المشركين قريبا من ألف مقاتل لهم من العده و القوه و الخيل و الجمال و الهيئه ما لا يقدر بقدر،فنصر اللّه المؤمنين على قلتهم و ذلتهم على أعدائه و كثّرهم فى أعينهم فكانوا يرونهم مثليهم رأى العين،و أيدهم الملائكه فلم ينفع المشركين ما كانوا يتعززون به من أموال و أولاد و لم يغنهم جمعهم و لا كثرتهم و قوتهم من اللّه شيئا.

و قد ذكر اللّه سبحانه دأب آل فرعون و الذين من قبلهم فى تكذيب آيات اللّه و أخذهم بذنوبهم فى سوره الأنفال عند ذكر القصه مرتين كما ذكره هاهنا بعينه.

و فى موعظتهم بتذكير وقعه بدر إيماء الى أن المراد بالغلبه فى الآيات السابقه الغلبه بالقتل و الإباده،ففى آياته تهديد بالقتال.

قوله تعالى: فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَ أُخْرىٰ كٰافِرَةٌ ،لم يقل و أخرى فى سبيل الشيطان أو فى سبيل الطاغوت و نحو ذلك لأن الكلام غير مسوق للمقايسه بين السبيلين بل لبيان أن لا غنى من اللّه تعالى،و أن الغلبه له فالمقابله بالحقيقه بين الايمان باللّه و الجهاد فى سبيله و بين الكفر به تعالى.

و الظاهر من السياق أن الضميرين فى قوله يرونهم مثليهم راجعان الى قوله: فِئَةٌ تُقَاتِلُ ، أى الفئه الكافره يرون المؤمنين مثلى المؤمنين فهم يرونهم ستمائه و سته و عشرين و لقد كانوا ثلاثمائه و ثلاثه عشر رجلا،و أما احتمال اختلاف الضميرين مرجعا بأن يكون المعنى:يرون

المؤمنين مثلى عدد الكافرين فبعيد عن اللفظ،و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ ،إن فى ذلك لعبره لاولى الأبصار، التأييد من الأيد و هو القوه،و المراد بالأبصار قيل:هو العيون الظاهريه لكون الآيه مشتمله على التصرف فى رؤيه العيون،و قيل:هو البصائر لأن العبره إنما تكون بالبصيره القلبيه دون البصر الظاهرى،و الأمر هين،فإن اللّه سبحانه فى كلامه يعدّ من لا يعتبر بالعبر و المثلات أعمى،و يذكر أن العين يجب أن تبصر و تميز الحق من الباطل و فى ذلك دعوى أن الحق الذى يدعو اليه ظاهر متجسد محسوس يجب أن يبصره البصر الظاهر،و أن البصيره و البصر فى مورد المعارف الإلهيه واحد(بنوع من الاستعاره)لنهايه ظهورها و وضوحها،و الآيات فى ذلك كثيره جدا،و من أحسنها دلاله على ما ذكرنا قوله تعالى: فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج۴۶/)،أى أن الأبصار إنما هى فى القلوب دون الرءوس،و قوله تعالى: وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها (الأعراف۱۷۹/)،و الآيه فى مقام التعجيب،و قوله تعالى: وَ جَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً (الجاثيه۲۳/)،الى غير ذلك من الآيات،فالمراد بالأبصار فيما نحن فيه هو العيون الظاهريه بدعوى أنها هى التى تعتبر و تفهم فهو من الاستعاره بالكنايه،و النكته فيه ظهور المعنى كأنه بالغ حد الحس،و يزيد فى لطفه أن المورد يتضمن التصرف فى رؤيه العين الظاهره.

و ظاهر قوله: إِنَّ فِي ذلِكَ ،الخ؛أنه تتمه لكلامه تعالى الذى يخاطب به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ليس تتمه لقول النبى المدلول عليه بقوله: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ،الخ؛و الدليل عليه الكاف فى قوله: ذلِكَ ، فإنه خطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و فى هذا العدول الى الخطاب الخاص بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إيماء الى قله فهمهم و عمى قلوبهم أن يعتبروا بأمثال هذه العبر.

قوله تعالى: زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ الخ؛الآيه و ما يتلوها بمنزله البيان و شرح حقيقه الحال لما تقدم من قوله تعالى آنفا:إن الذين كفروا لن تغنى عنهم

أموالهم و لا أولادهم من اللّه شيئا،الخ؛اذ يظهر منه أنهم يعتقدون الاستغناء بالأموال و الأولاد من اللّه سبحانه فالآيه تبين أن سبب ذلك أنهم انكبوا على حب هذه المشتهيات و انقطعوا إليها عن ما يهمهم من أمر الآخره،و قد اشتبه عليهم الأمر فإن ذلك متاع الحياه الدنيا،ليس لها الا انها مقدمه لنيل ما عند اللّه من حسن المآب مع أنهم غير مبدعين فى هذا الحب و الاشتهاء و لا مبتكرون بل مسخرون بالتسخير الإلهى بتغريز أصل هذا الحب فيهم ليتم لهم الحياه الأرضيه فلو لا ذلك لم يستقم أمر النوع الإنسانى فى حياته و بقائه بحسب ما قدره اللّه سبحانه من أمرهم حيث قال: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلىٰ حِينٍ (البقره۳۶/).

و إنما قدر لهم ذلك ليتخذوها وسيله الى الدار الآخره و يأخذوا من متاع هذه ما يتمتعون به فى تلك لا لينظروا الى ما فى الدنيا من زخرفها و زينتها بعين الاستقلال و ينسوا بها ما ورائها، و يأخذوا الطريق مكان المقصد فى عين أنهم سائرون الى ربهم،قال تعالى: إِنّٰا جَعَلْنٰا مٰا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهٰا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ إِنّٰا لَجٰاعِلُونَ مٰا عَلَيْهٰا صَعِيداً جُرُزاً (الكهف/ ۸).

إلاّ أن هؤلاء المغفلين أخذوا هذه الوسائل الظاهره الإلهيه التى هى مقدمات و ذرائع الى رضوان اللّه سبحانه امورا مستقله فى نفسها محبوبه لذاتها و زعموا أنها تغنى عنهم من اللّه شيئا فصارت نقمه عليهم بعد ما كانت نعمه و وبالا بعد ما كانت مثوبه مقربه.قال تعالى: إِنَّمٰا مَثَلُ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا كَمٰاءٍ أَنْزَلْنٰاهُ مِنَ السَّمٰاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبٰاتُ الْأَرْضِ مِمّٰا يَأْكُلُ النّٰاسُ وَ الْأَنْعٰامُ حَتّٰى إِذٰا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهٰا وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهٰا أَنَّهُمْ قٰادِرُونَ عَلَيْهٰا أَتٰاهٰا أَمْرُنٰا لَيْلاً أَوْ نَهٰاراً فَجَعَلْنٰاهٰا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ الى أن قال: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكٰانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكٰاؤُكُمْ فَزَيَّلْنٰا بَيْنَهُمْ الى أن قال: وَ رُدُّوا إِلَى اللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (يونس۳۰/)؛تشير الآيات الى أمر الحياه و زينتها بيده تعالى لا ولى لها دونه لكن الإنسان باغتراره بظاهرها يظن أن أمرها اليه،و أنه قادر على تدبيرها و تنظيمها

فیتخذ لنفسه فیها شرکاء-کالأصنام و ما بمعناها من المال و الولد و غیرهما،إن اللّه سیوقفه علی زلته فیذهب هذه الزینه،و یزیل الروابط التی بینه و بین شرکائه،و عند ذلک یضل عن الإنسان ما افتراه علی اللّه من شریک فی التأثیر و یظهر له معنی ما علمه فی الدنیا و حقیقته،و رد الی اللّه مولاه الحق.

و هذا التزین أعنی:ظهور الدنیا للإنسان بزینه الاستقلال و جمال الغایه و المقصد لا یستند الی اللّه سبحانه فإن الرب العلیم الحکیم أمنع ساحه من أن یدبر خلقه بتدبیر لا یبلغ به غایته الصالحه،و قد قال تعالی: إِنَّ اللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ (الطلاق٣/)،و قال تعالی: وَ اللّٰهُ غٰالِبٌ عَلیٰ أَمْرِهِ (یوسف٢١/)،بل إن استند فإنما یستند الی الشیطان قال تعالی: وَ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطٰانُ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (الأنعام٤٣/)،و قال تعالی: وَ إِذْ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ (الأنفال٤٨/).

نعم للّه سبحانه الإذن فی ذلک لیتم أمر الفتنه،و تستقیم التربیه کما قال تعالی: أَ حَسِبَ النّٰاسُ أَنْ یُتْرَکُوا أَنْ یَقُولُوا آمَنّٰا وَ هُمْ لاٰ یُفْتَنُونَ وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَیَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِینَ صَدَقُوا وَ لَیَعْلَمَنَّ الْکٰاذِبِینَ أَمْ حَسِبَ الَّذِینَ یَعْمَلُونَ السَّیِّئٰاتِ أَنْ یَسْبِقُونٰا سٰاءَ مٰا یَحْکُمُونَ (العنکبوت٤/)،و علی هذا الإذن یمکن أن یحمل قوله تعالی: کَذٰلِکَ زَیَّنّٰا لِکُلِّ أُمَّهٍ عَمَلَهُمْ (الأنعام١٠٨/)،و إن أمکن أیضا أن یحمل علی ما مر من معنی التزیین المنسوب إلیه تعالی فی قوله تعالی: إِنّٰا جَعَلْنٰا مٰا عَلَی الْأَرْضِ زِینَهً لَهٰا لِنَبْلُوَهُمْ أَیُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (الکهف/ ٧) (١).

قوله تعالی: ذٰلِکَ مَتٰاعُ الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا ،أی هذه الشهوات امور یتمتع بها لإقامه هذه الحیاه التی هی أقرب الحیاتین منکم(و هما الحیاه الدنیا و الحیاه الاخری)،و الحیاه

١- ١) .آل عمران ١٠-١٨:بحث فی تزیین الدنیا و نوعین من التزیین و فاعلهما.

الدنيا و كذا المتاع الذى يتمتع به لها أمر فان داثر ليس لها عاقبه باقيه صالحه،و صلاح العقبى و حسن المآب إنما هو عند اللّه سبحانه و هو قوله تعالى: وَ اللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ .

قوله تعالى: قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّٰاتٌ الى آخر الآيه؛الآيه مسوقه لبيان قوله: وَ اللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ و قد وضع فيها محل هذه الشهوات الفانيه الباطله امور هى خير للانسان لكونها باقيه و حسنه حقيقه من غير بطلان، و هى امور مجانسه لهذه الشهوات فى ما يريده الإنسان من خواصها و آثارها غير أنها خاليه عن القبح و الفساد غير صارفه للانسان عن ما هو خير منها،و هى الجنه و مطهرات الأزواج و رضوان اللّه تعالى.

و قد اختصت الأزواج بالذكر مع كون ذكر الجنه كالمشتمل عليها لكون الوقاع أعظم اللذائذ الجسميه عند الإنسان،و لذلك أيضا قدم ذكر النساء فى قوله: مِنَ النِّسٰاءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَنٰاطِيرِ الْمُقَنْطَرَهِ ،الخ.

و أما الرضوان بكسر الراء و ضمها فهو الرضا،و هو أن يلائم الأمر الواقع نفس صاحبه من غير أن يمتنع منه و يدافعه،و يقابله السخط.

و قد تكرر فى القرآن ذكر رضى اللّه سبحانه،و هو منه تعالى كما يتصور بالنسبه الى فعل عباده فى باب الطاعه كذلك يتصور بالنسبه الى غير باب الطاعه كالأوصاف و الأحوال و غير ذلك إلاّ أن جل الموارد التى ذكر فيها أو كلها من قبيل الرضا بالطاعه،و لذلك ربما قوبل بينه و بين رضا العبد فرضاه عن عبده لطاعته،و رضى العبد عنه لجزائه الحسن أو لحكمه كقوله تعالى: رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ (البينه/٨)،و قوله تعالى: يٰا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّهُ ارْجِعِي إِلىٰ رَبِّكِ رٰاضِيَهً مَرْضِيَّهً (الفجر/٢٨)،و قوله تعالى: وَ السّٰابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهٰاجِرِينَ وَ الْأَنْصٰارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسٰانٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنّٰاتٍ الآيه(البراءه/١٠٠).

و ذکر الرضوان هاهنا أعنی فی عداد ما هو خیر للناس من مشتهیات الحیاه الدنیا یدل علی أنه نفسه من مشتهیات الإنسان أو یستلزم أمرا هو کذلک؛و لذلک عنی بذکره فی مقابل الجنات و الأزواج فی هذه الآیه،و کذلک فی مقابل الفضل و المغفره و الرحمه فی قوله: فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوٰاناً (المائده۲/)،و قوله: وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رِضْوٰانٌ (الحدید۲۹/)،و قوله:

بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوٰانٍ (البراءه۲۱/).

و لعل الذی یکشف عن هذا الذی أبهمته هذه الآیه هو التدبر فی المعنی الذی ذکرناه و فی قوله تعالی: رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ ،الآیه؛و قوله: رٰاضِيَةً مَرْضِيَّةً ،الآیه؛حیث علق رضاه بأنفسهم، و الرضا عن أنفسهم غیر الرضا عن أفعالهم فیعود المعنی الی أنه لا یمنعهم عن نفسه فیما یسألونه فیئول الی معنی قوله: لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا (ق۳۵/)،ففی رضوان اللّٰه عن الانسان المشیه المطلقه للانسان.

و من هنا یظهر:أن الرضوان فی هذه الآیه قوبل به من الشهوات المذکوره فی الآیه السابقه أن الإنسان یحسب أنه لو اقتناها و خاصه القناطیر المقنطره من بینها افادته إطلاق المشیه و أعطته سعه القدره فله ما یشاء،و عنده ما یرید.و قد اشتبه علیه الأمر فإنما یتم ذلک برضا اللّٰه الذی الیه أمر کل شیء.

قوله تعالی: وَ اللّٰهُ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ لما تحصل من هذه الآیه و التی قبلها:أن اللّٰه أعد للانسان فی کلتا الدارین(الدنیا و الآخره)نعما یتنعم بها و مآرب اخری مما تلتذ به نفسه کالأزواج،و ما یؤکل و یشرب،و الملک و نحوها،و هی متشابهه فی الدارین غیر أن ما فی الدنیا مشترک بین الکافر و المؤمن مبذول لهما معا و ما فی الآخره مختص بالمؤمن لا یشارکه فیها الکفار کان المقام مظنه سؤال الفرق فی ذلک،و بلفظ آخر سؤال وجه المصلحه فی اختصاص المؤمن بنعم الآخره أجاب عنه بقوله: وَ اللّٰهُ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ ،و معناه:أن هذا الفرق الذی فرق اللّٰه به بین المؤمن و الکافر لیس مبنیا علی العبث و الجزاف تعالی عن ذلک بل إن فی

الفریقین أمرا هو المستدعی لهذا الفرق و اللّه بصیر بهم یری ما فیهم من الفرق و هو التقوی فی المؤمن دون الکافر،و قد وصف هـذا التقوی و عرفه بما یلحق بهـذه الآیه من قوله: اَلَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنٰا ،الی آخر الآیتین؛و ملخصه:أنهم یظهرون فاقتهم الی ربهم و عدم استغنائهم عنه، و یصدقون ذلک بالعمل الصالح و لکن الکافر یستغنی عن ربه بشهوات الدنیا و ینسی آخرته و عاقبه أمره .(۱)

قوله تعالی: اَلَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنٰا إِنَّنٰا آمَنّٰا فَاغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا وَ قِنٰا عَذٰابَ النّٰارِ وصف للمتقین المدلول علیهم بقوله فی الآیه السابقه:للذین اتقوا،فوصفهم أنهم یقولون ربنا و فیه إظهار للعبودیه بذکره تعالی بالربوبیه و استرحام منه تعالی فیما یسألونه بقولهم:إننا آمنا،و الجمله لیست فی مقام الامتنان علیه تعالی فان المن منه تعالی بالإیمان کما قال تعالی: بَلِ اللّٰهُ یَمُنُّ عَلَیْکُمْ أَنْ هَدٰاکُمْ لِلْإِیمٰانِ (الحجرات/۱۷).بل استنجاز لما وعد اللّه تعالی عباده أنه یغفر لمن آمن منهم،قال تعالی: وَ آمِنُوا بِهِ یَغْفِرْ لَکُمْ (الأحقاف/ ۳۱)،و لذلک فرعوا علیه قولهم:فاغفر لنا ذنوبنا،بفاء التفریع.و فی تأکید قولهم بان دلاله علی صدقهم و ثباتهم فی إیمانهم.

و المغفره للذنوب لا یستلزم التخلص من العذاب بمعنی أن الوقایه من عذاب النار فضل من اللّه سبحانه بالنسبه الی من آمن به و عبده من غیر استحقاق من العبد یثبت له حقا علی اللّه سبحانه أن یجیره من عذاب النار،أو ینعمه بالجنه فإن الایمان و الاطاعه أیضا من نعمه و لا یملک غیره تعالی منه شیئا الا ما جعله علی نفسه من حق،و من الحق الذی جعل علی نفسه لعباده أن یغفر لهم و یقیهم عذاب النار ان آمنوا به،قال تعالی: وَ آمِنُوا بِهِ یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ

۱- ۱) .آل عمران ۲۶-۲۷:بحث فی اللذائذ الدنیویه و الآخرویه؛القصد من اللذائذ الآخرویه؛حقیقه الانسان الوجودیه.

ذُنُوبِكَمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (الأحقاف/٣١).

و ربما استفيد من بعض الآيات أن الوقايه من عذاب النار هو المغفره و الجنه كقوله تعالى:

هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنّاتِ عَدْنٍ (الصف/١٢)،فإن فى الآيتين الاخيرتين تفصيل لما اجمل فى الآيه الاولى من قوله: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ ،و هذا معنى دقيق سنشرحه فى مورد يناسبه ان وفقنا له.

قوله تعالى: اَلصّابِرِينَ وَ الصّادِقِينَ الى آخر الآيه؛وصفهم بخمس خصال لا يشذ منها تقوى من متق،فالصبر لسبقه على بقيه الخصال و إطلاقه يشمل أقسام الصبر،و هى ثلاث:صبر على الطاعه،و صبر عن المعصيه،و صبر عند المصيبه.

و الصدق و إن كان بحسب تحليل حقيقته هو مطابقه ظاهر الإنسان من قول و فعل لباطنه لكنه بهذا المعنى يشتمل جميع الفضائل الباقيه كالصبر و القنوت و غيرهما و ليس بمراد فالمراد به(و اللّه أعلم)الصدق فى القول فحسب.

و القنوت هو الخضوع للّه سبحانه و يشمل العبادات و أقسام النسك،و الإنفاق هو بذل المال لمن يستحق البذل،و الاستغفار بالأسحار يستلزم قيام آخر الليل و الاستغفار فيه، و السنه تفسره بصلاه الليل و الاستغفار فى قنوت الوتر،و قد ذكر اللّه أنه سبيل الإنسان الى ربه كما فى سورتى المزمل و الدهر من قوله تعالى بعد ذكر قيام الليل و التهجد به: إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (المزمل/١٩)،(الدهر/٢٩).

قوله تعالى: شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ ،أصل الشهاده هو المعاينه أعنى:تحمل العلم عن حضور و حس ثم استعمل فى أدائها و إظهار الشاهد ما تحمله من العلم ثم صار كالمشترك بين التحمل و التأديه بعنايه وحده

الغرض فإن التحمل يكون غالبا لحفظ الحق و الواقع من أن يبطل بنزاع أو تغلب أو نسيان أو خفاء فكانت الشهاده تحفظا على الحق و الواقع،فبهذه العنايه كان التحمل و التأديه كلاهما شهاده أى حفظا و إقامه للحق،و القسط هو العدل.

و لما كانت الآيات السابقه أعنى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللّهِ شَيْئاً ،الى قوله: وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ ،تبين:أن اللّه سبحانه لا إله غيره و لا يغنى عنه شىء،و أن ما يحسبه الإنسان مغنيا عنه و يركن إليه فى حياته ليس إلاّ زينه و إلاّ متاعا خلقه اللّه ليتمتع به فى سبيل ما هو خير منه و لا ينال الى بتقوى اللّه تعالى،و بعباره أخرى:

هذه النعم التى يحن إليها الإنسان مشتركه فى الدنيا بين الكافر و المؤمن مختصه فى الآخره بالمؤمن أقام الشهاده فى هذه الآيه على أن هذا الذى بينته الآيات حق لا ينبغى أن يرتاب فيه.

فشهد(و هو اللّه عز اسمه)على أنه لا إله إلاّ هو و اذ ليس هناك إله غيره فليس هناك أحد يغنى منه شيئا من مال أو ولد أو غير ذلك من زينه الحياه أو أى سبب من الأسباب اذ لو أغنى شىء من هذه منه شيئا لكان إلها دونه أو معتمدا الى إله دونه منتهيا اليه و لا إله غيره.

شهد بهذه الشهاده و هو قائم بالقسط فى فعله،حاكم بالعدل فى خلقه اذ دبر أمر العالم بخلق الأسباب و المسببات و القاء الروابط بينها،و جعل الكل راجعا اليه بالسير و الكدح و التكامل و ركوب طبق عن طبق،و وضع فى مسير هذا المقصد نعما لينتفع منها الإنسان فى عاجله لآجله و فى طريقه لمقصده لا ليركن اليه و يستقر عنده فاللّه يشهد بذلك و هو شاهد عدل.

و من لطيف الأمر أن عدله يشهد على نفسه و على وحدته فى الوهيته أى إن عدله ثابت بنفسه و مثبت لوحدانيته،بيان ذلك:أنا إنما نعتبر فى الشاهد العداله ليكون جاريا على مستوى طريق الحياه ملازما لصراط الفطره من غير أن يميل الى إفراط أو تفريط فيضع الفعل فى غير موضعه فتكون شهادته مأمونه عن الكذب و الزور فملازمه الصدق و المجاراه مع

صراط التكوين يوجب عداله الإنسان فنفس النظام الحاكم فى العالم و الجارى بين أجزائه الذى هو فعله سبحانه هو العدل محضا.

و نحن فى جميع الوقائع التى لا ترضى بها نفوسنا من الحوادث الكونيه أو نجدها على خلاف ما نميل إليه و نطمع فيه ثم نعترض عليها و نناقش فيها إنما نذكر فى الاعتراض على ما يظهر لنا من حكم عقولنا أو تميل إليه غرائزنا،و جميع ذلک مأخوذه من نظام الكون ثم نبحث عنها فيظهر سبب الحادثه فتسقط الشبهه أو نعجز عن الحصول على السبب فلا يقع فى أيدينا إلاّ الجهل بالسبب أى عدم العلم دون العلم بالعدم،فنظام الكون(و هو فعل اللّه سبحانه)هو العدل فافهم ذلک.

و لو كان هناک إله يغنى منه فى شىء من الامور لم يكن نظام التكوين عدلا مطلقا بل كان فعل كل إله عدلا بالنسبه إليه و فى دائره قضائه و عمله!

و بالجمله فاللّه سبحانه يشهد،و هو شاهد عدل،على أنه لا إله إلاّ هو يشهد لذلک بكلامه و هو قوله: شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ ،على ما هو ظاهر الآيه الشريفه،فالآيه فى إشتمالها على شهادته تعالى للتوحيد نظيره قوله تعالى: لٰكِنِ اللّٰهُ يَشْهَدُ بِمٰا أَنْزَلَ إِلَيْکَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلاٰئِكَهُ يَشْهَدُونَ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً (النساء/١۶۶).

و الملائكه يشهدون بأنه لا إله إلاّ هو،فإن اللّه يخبر فى آيات مكيه نازله قبل هذه الآيات بأنهم عباد مكرمون لا يعصون ربهم و يعملون بأمره و يسبحونه و فى تسبيحهم شهاده أن لا إله غيره،قال تعالى: بَلْ عِبٰادٌ مُكْرَمُونَ لاٰ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء/ ٢٧)،و قال تعالى: وَ الْمَلاٰئِكَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ (الشورى/۵).

و أولو العلم يشهدون أنه لا إله إلاّ هو يشاهدون من آياته الآفاقيه و الأنفسيه و قد ملأت مشاعرهم و رسخت فى عقولهم.

قوله تعالى: لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ،الجمله كالمعترضه الدخيله فى الكلام

ص :۴۱۵

لاستيفاء حتى معترض يفوت لو لا ذكره مع عدم كونه مقصودا فى الكلام أصاله،و من أدب القرآن أن يظهر تعظيم اللّه جل شأنه فى موارد يـذكر أمره ذكرا يخطر منه بالبـال مـا لاـ يليـق بسـاحه كبريـائه كقـوله تعـالى: قَالُوا اتَّخَـذَ اللّٰهُ وَلَـداً سُـبْحَانَهُ (يونس۶۸/)،فقوله:سبحانه قصد به التعظيم فى مقام يحكى فيه قول لا يلائم حقه تعالى،و نظيره بوجه قوله تعالى:

وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَهٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ الآيه(المائده۶۴/).

و بالجمله لما اشتمل أول الآيه على شهاده اللّه و الملائكه و اولى العلم-بنفى الشريك كان من حق اللّه سبحانه على من يحكى و يخبر عن هـذه الشهاده أعنى المتكلم(و هو فى الآيه هو اللّه سبحانه)و على من يسمع ذلك أن يوحـد اللّه بنفى الشريك عنه فيقول:لاـ إله إلاّـ هو.نظير ذلك قوله تعالى فى قصه الإفك: وَ لَوْ لاٰ إِذْ سَـمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مٰا يَكُونُ لَنٰا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰـذٰا سُـبْحٰانَكَ هٰـذٰا بُهْتٰانٌ عَظِيمٌ (النور۱۶/)،فـإن من حقه تعـالى عليهم أن اذا سـمعوا بهتانـا و أرادوا تنزيه من بهت عليه أن ينزهوا اللّه قبله فإنه تعالى أحق من يجب تنزيهه.

فموضع قوله: لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ موضع الثنـاء عليه تعـالى لاستيفاء حق تعظيمه و لـذا تمم بالاسـمين العزيز الحكم،و لو كان فى محل النتيجه من الشهاده لكان حق الكلام أن يتمم بوصفى الوحده و القيام بالقسط،فهو تعالى حقيق بالتوحيد اذا ذكرت الشـهاده المـذكوره على وحدانيته لأنه المتفرد بالعزه التى يمنع جانبه أن يسـتذل بوجود شـريك له فى مقام الالوهيه، و المتوحد بالحكمه التى تمنع غيره أن ينقض أمره فى خلقه أو ينفذ فى خلال تدبيره و ما نظمه من أمر العالم فيفسد عليه ما أراده.

و قد تبين بما مر من البيان وجه تكرار كلمه التوحيد فى الآيه،و كذا وجه تتميمها بالاسمين:

العزيز الحكيم،و اللّه العالم.

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۱۹ الى ۲۵]

اشاره

إِنَّ اَلـدِّينَ عِنْدَ اَللّهِ اَلْإِسْلاٰمُ وَ مَا اِخْتَلَفَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ اَلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآيٰاتِ اَللّهِ فَإِنَّ اَللّهَ سَرِيعُ اَلْحِسٰابِ (۱۹) فَإِنْ حٰاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَ مَنِ اِتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ وَ اَلْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اِهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ اَلْبَلاٰغُ وَ اَللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ (۲۰) إِنَّ اَلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيٰاتِ اَللّهِ وَ يَقْتُلُونَ اَلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ اَلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ اَلنّٰاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ (۲۱) أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فِي اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَهِ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ (۲۲) أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ اَلْكِتٰابِ يُدْعَوْنَ إِلىٰ كِتٰابِ اَللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلّٰى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۲۳) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لَنْ تَمَسَّنَا اَلنّٰارُ إِلاّٰ أَيّٰاماً مَعْدُودٰاتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (۲۴) فَكَيْفَ إِذٰا جَمَعْنٰاهُمْ لِيَوْمٍ لاٰ رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (۲۵)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْلامُ ،قد مر معنى الإسلام بحسب اللغه

ص :۴۱۷

و كـأن هـذا المعنى هو المراد هاهنا بقرينه ما يـذكره من اختلاف أهل الكتاب بعـد العلم بغيا بينهم فيكون المعنى:إن الـدين عند اللّه سـبحانه واحـد لا اختلاف فيه لم يأمر عباده إلاّ به،و لم يبين لهم فيما أنزله من الكتاب على أنبيائه إلاّ إياه،و لم ينصب الآيات الداله إلاّ له و هو الإسـلام الذى هو التسليم للحق الذى هو حق الاعتقاد و حق العمل،و بعباره اخرى هو التسليم للبيان الصادر عن مقام الربوبيه فى المعارف و الأحكام،و هو و إن اختلف كما و كيفا فى شـرائع أنبيائه و رسله على ما يحكيه اللّه سبحانه فى كتابه غير أنـه ليس فى الحقيقـه إلاّ أمرا واحـدا،و إنمـا اختلاـف الشـرائع بالكمـال و النقص دون التضـاد و التنـافى،و التفاضـل بينها بالدرجات،و يجمع الجميع أنها تسليم و إطاعه للّه سبحانه فيما يريده من عباده على لسان رسله.

فهـذا هو الـدين الـذى أراده اللّه من عبـاده و بينه لهم،و لاـزمه أن يأخـذ الانسـان بمـا تـبين له من معـارفه حق التبين،و يقف عند الشـبهات وقوف التسـليم من غير تصـرف فيها من عند نفسه و أما اختلاف أهل الكتاب من اليهود و النصارى فى الدين مع نزول الكتاب الإلهى عليهم، و بيانه تعالى لما هو عنده دين و هو الإسـلام له فلم يكن عن جهل منهم بحقيقه الأمر و كون الدين واحدا بل كانوا عالمين بذلك،و انما حملهم على ذلك بغيهم و ظلمهم من غير عذر و ذلك كفر منهم بآيات اللّه المبينه لهم حق الأمر و حقيقته لاـ باللّه فإنهم يعترفون به،و من يكفر بآيات اللّه فإن اللّه سـريع الحساب،يحاسـبه سـريعا فى دنياه و آخرته:أما فى الـدنيا فبالخزى و سلب سعاده الحياه عنه،و أما فى الآخره فبأليم عذاب النار.

و الـدليل على عموم سـرعه الحساب للـدنيا و الآخره قوله تعالى بعـد آيتين:أولئك الـذين حبطت أعمالهم فى الدنيا و آخره و ما لهم من ناصرين.

قوله تعالى: فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ ؛الضمير فى حاجوك راجع الى أهل الكتاب و هو ظاهر و المراد به محاجتهم فى أمر الاختلاف بأن يقولوا:

أن اختلافنا ليس لبغى منا بعد البيان بل إنما هو شيء ساقنا اليه عقولنا و أفهامنا و اجتهادنا فى

تحصیل العلم بحقائق الدین من غیر أن ندع التسلیم لجانب الحق سبحانه و أن ما تراه و تدعو الیه یا محمد من هذا القبیل،أو یقولوا ما یشابه ذلک،و الدلیل علی ذلک قوله:فقل: أَسْلَمْتُ وَجْهِیَ لِلّٰهِ ،و قوله: وَ قُلْ لِلَّذِینَ أُوتُوا الْکِتٰابَ وَ الْأُمِّیِّینَ أَ أَسْلَمْتُمْ ،فإن الجملتین حجه سیقت لقطع خصامهم و حجاجهم لا إعراض عن المحاجه معهم.

و معناها مع حفظ ارتباطها بما قبلها:إن الدین عند اللّٰه الإسلام لا یختلف فیه کتب اللّٰه و لا یرتاب فیه سلیم العقل،و یتفرع علیه أن لا حجه علیک فی إسلامک و أنت مسلم،فإن حاجوک فی أمر الدین فقل:أسلمت وجهی اللّٰه و من اتبعن فهذا هو الدین و لا حجه بعد الدین فی أمر الدین ثم سلهم:أ أسلموا فإن أسلموا فقد اهتدوا و لیقبلوا ما أنزل اللّٰه علیک و علی من قبلک و لا حجه علیهم و لا مخاصمه بعد ذلک بینکم،و إن تولوا فلا تخاصمهم و لا تحاجهم فلا ینبغی الخصام فی أمر ضروری،و هو إن الدین هو التسلیم للّٰه سبحانه،و ما علیک إلاّ البلاغ.

و قد أشرک سبحانه فی الآیه بین أهل الکتاب و الامیین بقوله: وَ قُلْ لِلَّذِینَ أُوتُوا الْکِتٰابَ وَ الْأُمِّیِّینَ أَ أَسْلَمْتُمْ ،لکون الدین مشترکا بینهم و إن اختلفوا فی التوحید و التشریک.

و قد علق الإسلام علی الوجه-و هو ما یستقبلک من الشیء أو الوجه بالمعنی الأخص لکون إسلام الوجه لاشتماله علی معظم الحواس و المشاعر إسلاما لجمیع البدن-لیدل علی معنی الإقبال و الخضوع لأمر الرب تعالی،و عطف قوله: وَ مَنِ اتَّبَعَنِ حفظا لمقام التبعیه و تشریفا للنبی صلّی اللّٰه علیه و آله و سلّم.

قوله تعالی: وَ قُلْ لِلَّذِینَ أُوتُوا الْکِتٰابَ وَ الْأُمِّیِّینَ أَ أَسْلَمْتُمْ الی آخر الآیه؛ المراد بالامیین المشرکین سموا بذلک لتسمیه من وضع فی مقابلهم بأهل الکتاب،و کذا کان أهل الکتاب یسمونهم کما حکاه تعالی من قوله: لَیْسَ عَلَیْنٰا فِی الْأُمِّیِّینَ سَبِیلٌ (آل عمران/ ۷۵)،و الامی هو الذی لا یکتب و لا یقرأ.

و فی قوله تعالی: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَیْکَ الْبَلاٰغُ وَ اللّٰهُ بَصِیرٌ بِالْعِبٰادِ دلاله

اولا:على النهى عن المراء و الإلحاح فى المحاجه فإن المحاجه مع من ينكر الضرورى لا تكون إلّا مراء و لجاجا فى البحث.

و ثانيا:على أن الحكم فى حق الناس و الأمر مطلقا الى اللّه سبحانه،و ليس للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أنه رسول مبلغ لا حاكم مسيطر كما قال تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ (آل عمران/ ۱۲۸)،و قال تعالى: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (الغاشيه۲۳/).

و ثالثا:على تهديد أهل الكتاب و المشركين فإن ختم الكلام بقوله: وَ اللّٰهُ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ ،بعد قوله: فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ الْبَلاٰغُ لا يخلو من ذلك،و يدل على ذلك ما وقع من التهديد فى نظير الآيه، و هو قوله تعالى: قُولُوا آمَنّٰا بِاللّٰهِ الى أن قال: وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مٰا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا هُمْ فِي شِقٰاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّٰهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (البقره/ ۱۳۷)،تذكر الآيه أن أهل الكتاب إن تولوا عن الإسلام فهم مصرون على الخلاف ثم يهددهم بما يسلى به النبى و يطيب نفسه،فالآيه أعنى قوله: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ الْبَلاٰغُ ،كنايه عن الأمر بتخليه ما بينهم و بين ربهم،و إرجاع أمرهم اليه،و هو بصير بعباده يحكم فيهم بما تقتضيه حالهم و يسأله لسان استعدادهم.

و من هنا يظهر:أن ما ذكره بعض المفسرين،أن فى الآيه دليلا على حريه الاعتقاد فى أمر الدين و أن لا إكراه فيه ليس بوجيه فإن الآيه كما عرفت مسوقه لغير ذلك.

و فى قوله: بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ حيث أخذ عنوان العبوديه و لم يقل:بصير بهم أو بصير بالناس و نحو ذلك إشعار بأن حكمه نافذ فيهم ماض عليهم فإنهم عباده و مربوبون له أسلموا أو تولوا.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيٰاتِ اللّٰهِ الى آخر الآيه؛الكلام فى الآيه و إن كان مسوقا سوق الاستيناف لكنه مع ذلك لا يخلو عن إشعار و بيان للتهديد الذى يشعر به آخر الآيه السابقه فإن مضمونها منطبق على أهل الكتاب و خاصه اليهود.

و قوله: يَكْفُرُونَ ،و يقتلون،فى موضعين للاستمرار و يدلان على كون الكفر بآيات

اللّه و هو الكفر بعد البيان بغيا،و قتل الأنبياء و هو قتل من غير حق،و قتل الذين يدعون الى القسط و العدل و ينهون عن الظلم و البغى دأبا و عاده جاريه فيما بينهم كما يشتمل عليه تاريخ اليهود،فقد قتلوا جمعا كثيرا و جما غفيرا من أنبيائهم و عبادهم الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر و كذا النصارى جروا مجراهم.

و قوله: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ تصريح بشمول الغضب و نزول السخط،و ليس هو العذاب الاخروى فحسب بدليل قوله تعالى عقيب الآيه:أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا و الآخره،الخ؛فهم مبشرون بالعذاب الدنيوى و الاخروى معا،أما الاخروى فأليم عذاب النار،و أما الدنيوى فهو ما لقوه من التقتيل و الإجلاء و ذهاب الأموال و الأنفس،و ما سخط اللّه عليهم بإلقاء العداوه و البغضاء بينهم الى يوم القيامه على ما تصرح به آيات الكتاب العزيز.

و فى قوله تعالى: أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ، دلاله اولا:على حبط عمل من قتل رجلا من جهه أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر و ثانيا:على عدم شمول الشفاعه له يوم القيامه لقوله: وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ .

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتٰابِ الى آخر الآيه؛يومى الى تسجيل البغى على أهل الكتاب حسب ما نسبه اللّه تعالى اليهم و أنهم يبغون باتخاذ الخلاف و إيجاد اختلاف الكلمه فى الدين فإنهم اذا دعوا الى حكم الكتاب كتاب اللّه بينهم لم يسلموا له و تولوا و أعرضوا عنه و ليس ذلك إلاّ باغترارهم بقولهم لن تمسنا،الخ؛و بما افتروه على اللّه فى دينهم.

و المراد بالذين اوتوا نصيبا من الكتاب أهل الكتاب و إما لم يقل:اوتوا الكتاب،و قيل:

اوتوا نصيبا من الكتاب ليدل على أن الذى فى أيديهم من الكتاب ليس إلاّ نصيبا منه دون جميعه لأن تحريفهم له و تغييرهم و تصرفهم فى كتاب اللّه أذهب كثيرا من أجزائه كما يومى اليه

قوله فی آخر الآیه التالیه:و غرهم فی دینهم ما کانوا یفترون،و کیف کان فالمراد-و اللّه أعلم- أنهم یتولون عن حکم کتاب اللّه اعتزازا بما قالوا و اغترارا بما وضعوه من عند أنفسهم و استغناء به عن الکتاب.

قوله تعالی: ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّٰارُ الخ؛معناه واضح،و اغترارهم بفریتهم التی افترتها أنفسهم مع أن الإنسان لا ینخدع عن نفسه مع العلم بأنها خدعه باطله إنما هو لکون المغرورین غیر المفترین؛و علی هذا فنسبه الافتراء الذی توسل إلیها سابقوهم الی هؤلاء المغرورین من اللاحقین لکونهم امه واحده یرضی بعضهم بفعال بعض.

و إما لأن الاغترار بغرور النفس و الغرور بالفریه الباطله مع العلم بکونها فریه باطله و ذکر المغرور أنه هو الذی افتری ما یغتر به من الفریه لیس من أهل الکتاب و من الیهود خاصه ببعید،و قد حکی اللّه عنهم مثل بل ما هو أعجب من ذلک حیث قال تعالی: وَ إِذٰا لَقُوا الَّذِینَ آمَنُوا قٰالُوا آمَنّٰا وَ إِذٰا خَلاٰ بَعْضُهُمْ إِلیٰ بَعْضٍ قٰالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِمٰا فَتَحَ اللّٰهُ عَلَیْکُمْ لِیُحٰاجُّوکُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّکُمْ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ أَ وَ لاٰ یَعْلَمُونَ أَنَّ اللّٰهَ یَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ (البقره۷۷).

قوله تعالی: فَکَیْفَ إِذٰا جَمَعْنٰاهُمْ لِیَوْمٍ لاٰ رَیْبَ فِیهِ الی آخر الآیه؛مدخول کیف مقدر یدل علی الکلام مثل یصنعون و نحوه،و فی الآیه إیعاد لهؤلاء الذین تولوا اذا دعوا الی کتاب اللّه لیحکم بینهم و هم معرضون غیر أنه لما ارید بیان أنهم غیر معجزین للّه سبحانه اخذ فی الکلام من حالهم یوم القیامه و هم مستسلمون یومئذ ما یضاهی حالهم فی الدنیا عند الدعوه الی حکم کتاب اللّه و هم غیر مسلمین له مستکبرون عنه،و لهذا اخذ بالمحاذاه بین الکلامین،و عبر عن ما یجری علیهم یوم القیامه بمثل قوله: إِذٰا جَمَعْنٰاهُمْ لِیَوْمٍ لاٰ رَیْبَ فِیهِ ،الخ؛ دون أن یقال:اذا أحییناهم أو بعثناهم أو ما یماثل ذلک.

و المعنی-و اللّه أعلم-أنهم یتولون و یعرضون اذا دعوا الی کتاب اللّه لیحکم بینهم اغترارا بما افتروه فی دینهم و استکبارا عن الحق فکیف یصنعون اذا جمعناهم لیوم لا ریب فیه و هو یوم

يظلمون،و اذا كـان كـذلك كـان الواجب عليهم أن لا يتولوا و يعرضوا مظهرين بـذلك أنهم معجزون للّه غالبون على أمره فإن القدره كله للّه و ما هى إلاّ أيام مهله و فتنه.

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۲۶ الى ۲۷]

اشاره

قُلِ اَللّٰهُمَّ مٰالِكَ اَلْمُلْكِ تُؤْتِی اَلْمُلْكَ مَنْ تَشٰاءُ وَ تَنْزِعُ اَلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشٰاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشٰاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشٰاءُ بِيَدِكَ اَلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۶) تُولِجُ اَللَّيْلَ فِی اَلنَّهٰارِ وَ تُولِجُ اَلنَّهٰارَ فِی اَللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ اَلْحَيَّ مِنَ اَلْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ اَلْمَيِّتَ مِنَ اَلْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشٰاءُ بِغَيْرِ حِسٰابٍ (۲۷)

بيان:

قوله تعالى: قُلِ اللّٰهُمَّ مٰالِكَ الْمُلْكِ ،أمر بالالتجاء الى اللّه تعالى الـذى بيـده الخير على الإطلاق و له القـدره المطلقه ليتخلص من هـذه الـدعاوى الوهميه التى نشبت فى قلوب المنـافقين و المتمردين من الحق من المشـركين و أهل الكتاب فضـلوا و هلكوا بما قـدروه لأنفسـهم من الملك و العزه و الغنى من اللّه سـبحانه،و يعرض الملتجى نفسه على إفاضه مفيض الخير و الرازق لمن يشاء بغير حساب.

قوله تعـالى: تُؤْتِی الْمُلْكَ مَنْ تَشٰاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشٰاءُ ؛الملك باطلاقه شامل لكل ملك حقا أو باطلا عـدلا أو جورا فان الملك(كما تقـدم بيانه فى قوله: أَنْ آتٰاهُ اللّٰهُ الْمُلْكَ ،الآيه؛(البقره۲۵۸/)فى نفسه موهبه من مواهب اللّه و نعمه يصـلح لأن يترتب عليه آثار حسنه فى المجتمع الإنسانى و قد جبل اللّه النفوس على حبه و الرغبه فيه،و الملك

الـذى تقلده غير أهله ليس بمذموم من حيث إنه ملك،و إنما المذموم إما تقلد من لا يليق بتقلده كمن تقلده جورا و غصبا،و إما سيرته الخبيثه مع قدرته على حسن السيره،و يرجع هذا الثانى أيضا بوجه الى الأول.

قوله تعالى: وَ تُعِزُّ مَنْ تَشٰاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشٰاءُ ؛العز كون الشىء بحيث يصعب مناله؛و لـذا يقال للشىء النادر الوجود أنه عزيز الوجود أى صعب المنال،و يقال عزيز القوم لمن يصعب قهره و الغلبه عليه من بينهم فهو صعب المنال بالقهر و الغلبه،و صعب المنال من حيث مقامه فيهم و وجدانه كل ما لهم من غير عكس ثم استعمل فى كل صعوبه كما يقال:يعز على كذا.قال تعالى: عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ (التوبه۱۲۸/)،أى صعب عليه.و استعمل فى كل غلبه كما يقال.من عزّ بزّ أى من غلب سلب،قال تعالى: «وَ عَزَّنِي فِي الْخِطٰابِ، ص-۲۳، أى غلبنى،و الأصل فى معناه ما مر.

و يقابله الذل و هو سهوله المنال بقهر محقق أو مفروض.قال تعالى: وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ (البقره۶۱/)،و قال تعالى: وَ اخْفِضْ لَهُمٰا جَنٰاحَ الذُّلِّ (الإسراء۲۴/)، و قال تعالى: أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (المائده۵۴/).

و العزه من لوازم الملك على الإطلاق،و كل من سواه اذا تملك شيئا فهو تعالى خوله ذلك و ملكه،و إن ملك على قوم فهو تعالى آتاه ذلك فكانت العزه له تعالى محضا و ما عنده غيره منها فانما هو بايتائه و إفضاله.قال تعالى: أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً (النساء/ ۱۳۹)،و قال تعالى: وَ لِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقون۸/).و هذه هى العزه الحقيقيه و أما غيرها فانما هى ذل فى صوره عز.قال تعالى: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقٰاقٍ (ص۲/).و لذا أردفه بقوله: كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنٰادَوْا وَ لاٰتَ حِينَ مَنٰاصٍ (ص۳/).

و للـذل بالمقـابله مـا يقابـل العز من الحكم فكل شـیء غيره تعالى ذليل فى نفسه إلاّ من أعزه اللّه تعالى(تعز من تشاء و تـذل من تشاء).

قوله تعالى: بِيَدِکَ الْخَيْرُ إِنَّکَ عَلىٰ کُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؛الأصل فى معنى الخير هو الانتخاب و إنما نسـمى الشیء خيرا لأنا نقيسه الى شیء آخر نريد أن نختار أحدهما فننتخبه فهو خير و لا نختار إلاّ لكونه متضمنا لما نريده و نقصده فما نريده هو الخير بالحقيقه،و إن كنا أردناه أيضا لشـیء آخر فـذلك الآخر هو الخير بالحقيقه،و غيره خير من جهته،فالخير بالحقيقه هو المطلوب لنفسه يسـمى خيرا لكونه هو المطلوب اذا قيس الى غيره،و هو المنتخب من بين الأشياء اذا أردنا واحدا منها و ترددنا فى اختياره من بينها.

فالشـیء كما عرفت إنما يسـمى خيرا لكونه منتخبا اذا قيس الى شیء آخر مؤثرا بالنسبه الى ذلك الآخر ففى معناه نسبه الى الغير و لذا قيل:إنه صـيغه التفضـيل و أصـله أخير.و ليس بأفعل التفضيل،و إنما يقبل انطباق معنى التفضيل على مورده فيتعلق بغيره كما يتعلق أفعل التفضيل؛ يقال:زيد أفضل من عمرو،و زيد أفضلهما،و يقال:زيد خير من عمرو،و زيد خيرهما.

و لو كان خير صـيغه التفضـيل لجرى فيه ما يجرى عليه،و يقال أفضل و أفاضل و فضـلى و فضليات،و لا يجرى ذلك فى خير بل يقال:خير و خيره و أخيار و خيرات كما يقال:شيخ و شيخه و أشياخ و شيخات فهو صفه مشبهه.

و لعـل الوجه فى جميع ذلـك اعتبـار مـا فى ماده الخير من معنى الانتخاب فلم يطلق اطلاق الاسم عليه تعالى صونا لساحته تعالى أن يقـاس الى غيره بنحو الإطلاـق و قـد عنت الوجوه لجنـابه؛و أمـا التسـميه عنـد الإضافه و النسـبه،و كـذا التوصـيف فى الموارد المقتضيه لذلك فلا محذور فيه.

قوله تعالى: إِنَّکَ عَلىٰ کُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فى مقام التعليل لكون الخير بيـده تعالى فإن القـدره المطلقه على كل شـیء توجب أن لا يقدر أحد على شیء إلاّ بإقداره تعالى اياه على

ذلک،و لو قدر أحد علی شیء من غیر أن تستند قدرته الی إقداره تعالی کان مقدوره من هذه الجهه خارجا عن سعه قدرته تعالی فلم یکن قدیرا علی کل شیء؛و اذا کانت لقدرته هذه السعه کان کل خیر مفروض مقدورا علیه له تعالی؛و کان أیضا کل خیر أفاضه غیره منسوبا الیه مفاضا عن یدیه فهو له أیضا فجنس الخیر الذی لا یشذ منه شاذ بیده،و هذا هو الحصر الذی یدل علیه قوله تعالی: بِیَدِکَ الْخَیْرُ .

قوله تعالی: تُولِجُ اللَّیْلَ فِی النَّهارِ وَ تُولِجُ النَّهارَ فِی اللَّیْلِ ؛الولوج هو الدخول،و الظاهر کما ذکروه أن المراد من إیلاج اللیل فی النهار،و إیلاج النهار فی اللیل ما هو المشاهد من اختلاف اللیل و النهار فی عرض السنه بحسب اختلاف عروض البقاع و الأمکنه علی بسیط الأرض،و اختلاف میول الشمس فتأخذ الأیام فی الطول و اللیالی فی القصر و هو ولوج النهار فی اللیل بعد انتهاء اللیالی فی الطول من أول الشتاء الی أول الصیف ثم یأخذ اللیالی فی الطول و الأیام فی القصر و هو ولوج اللیل فی النهار بعد انتهاء النهار فی الطول من أول الصیف الی أول الشتاء،کل ذلک فی البقاع الشمالیه،و الأمر فی البقاع الجنوبیه علی عکس الشمالیه منها،فالطول فی جانب قصر فی الجانب الآخر فهو تعالی یولج اللیل فی النهار و النهار فی اللیل دائما،أما الاستواء فی خط الاستواء و القطبین فإنما بحسب الحس و أما فی الحقیقه فحکم التغییر دائم و شامل.

قوله تعالی: وَ تُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَیِّتَ مِنَ الْحَیِّ و ذلک إخراج المؤمن من صلب الکافر،و إخراج الکافر من صلب المؤمن فإنه تعالی سمی الإیمان حیوه و نورا،و الکفر موتا و ظلمه کما قال تعالی: أَ وَ مَنْ کانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّاسِ کَمَنْ مَثَلُهُ فِی الظُّلُماتِ لَیْسَ بِخارِجٍ مِنْها (الأنعام/۱۲۲)،و یمکن أن یراد الأعم من ذلک و من خلق الأحیاء کالنبات و الحیوان من الأرض العدیمه الشعور و إعاده الأحیاء الی الأرض بإماتتها فإن کلامه تعالی کالصریح فی أنه یبدل المیت الی الحی و الحی الی

المیت،قال تعالی: ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبٰارَکَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخٰالِقِینَ ثُمَّ إِنَّکُمْ بَعْدَ ذٰلِکَ لَمَیِّتُونَ (المؤمنون۱۵/)،الی غیرها من الآیات.

قوله تعالی: وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشٰاءُ بِغَیْرِ حِسٰابٍ ،المقابله المذکوره آنفا تعطی أن یکون قوله: وَ تَرْزُقُ ،الخ؛بیانا لما سبقه من إیتاء الملک و العز و الإیلاج و غیره،فالعطف عطف تفسیر فیکون من قبیل بیان الخاص من الحکم بما هو أعم منه کما أن قوله: بِیَدِکَ الْخَیْرُ ، بالنسبه الی ما سبقه من هذا القبیل؛و المعنی:إنک متصرف فی خلقک بهذه التصرفات لأنک ترزق من تشاء بغیر حساب (۱)(۲)(۳)(۴).

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۲۸ الی ۳۲]

اشاره

لاٰ یَتَّخِذِ اَلْمُؤْمِنُونَ اَلْکٰافِرِینَ أَوْلِیٰاءَ مِنْ دُونِ اَلْمُؤْمِنِینَ وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ فَلَیْسَ مِنَ اَللّٰهِ فِی شَیْءٍ إِلاّٰ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقٰاةً وَ یُحَذِّرُکُمُ اَللّٰهُ نَفْسَهُ وَ إِلَی اَللّٰهِ اَلْمَصِیرُ (۲۸) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مٰا فِی صُدُورِکُمْ أَوْ تُبْدُوهُ یَعْلَمْهُ اَللّٰهُ وَ یَعْلَمُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۲۹) یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَیْنَهٰا وَ بَیْنَهُ أَمَداً بَعِیداً وَ یُحَذِّرُکُمُ اَللّٰهُ نَفْسَهُ وَ اَللّٰهُ رَؤُفٌ بِالْعِبٰادِ (۳۰) قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اَللّٰهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اَللّٰهُ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳۱) قُلْ أَطِیعُوا اَللّٰهَ وَ اَلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ اَلْکٰافِرِینَ (۳۲)

۱- ۱) .آل عمران ۲۶-۲۷:بحث فی معنی الرزق فی القرآن.

۲- ۲) .آل عمران ۲۶-۲۷:بحث روائی فی:معنی ایتاء الملک و انواعه؛حکومه بنی امیه؛الآیه «تُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ» ؛ معنی الرزق.

۳- ۳) .آل عمران ۲۶-۲۷:بحث علمی فی الحکومه(الملک).

۴- ۴) .آل عمران ۲۶-۲۷:بحث فلسفی فی:العلیه؛استناد الافعال الی اللّٰه سبحانه.

بیان:

قوله تعالی: لاٰ یَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْکٰافِرِینَ أَوْلِیٰاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ ؛ الأولیاء جمع الولی من الولایه و هی فی الأصل ملک تدبیر أمر الشیء فولی الصغیر أو المجنون أو المعتوه هو الذی یملک تدبیر امورهم و امور أموالهم فالمال لهم و تدبیر أمره لولیهم،ثم استعمل و کثر استعماله فی مورد الحب لکونه یستلزم غلبا تصرف کل من المتحابین فی امور الآخر لإفضائه الی التقرب و التأثر عن اراده المحبوب و سائر شئونه الروحیه فلا یخلو الحب عن تصرف المحبوب فی امور المحب فی حیاته.

فاتخاذ الکافرین أولیاء هو الامتزاج الروحی بهم بحیث یؤدی الی مطاوعتهم و التأثر منهم فی الأخلاق و سائر شئون الحیاه و تصرفهم فی ذلک؛و یدل علی ذلک تقیید هذا النهی بقوله:

مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ ،فان فیه دلاله علی ایثار حبهم علی حب المؤمنین،و القاء أزمه الحیاه الیهم دون المؤمنین،و فیه الرکون الیهم و الاتصال بهم و الانفصال عن المؤمنین.

قوله تعالی: وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ فَلَیْسَ مِنَ اللّٰهِ فِی شَیْءٍ ؛أی و من یتخذهم أولیاء من دون المؤمنین،و إنما بدل من لفظ عام للإشعار بنهایه نفره المتکلم منه حتی أنه لا یتلفظ به الا بلفظ عام کالتکنیه عن القبائح،و هو شائع فی اللسان؛و لذلک أیضا لم یقول:و من یفعل ذلک من المؤمنین کأن فیه صونا للمؤمنین من أن ینسب الیهم مثل هذا الفعل.

و من فی قوله: مِنَ اللّهِ ،لابتداء،و یفید فی أمثال هذا المقام معنی التحزب أی لیس من حزب اللّه فی شیء کما قال تعالی: وَ مَنْ یَتَوَلَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغالِبُونَ (المائده۵۶/)،و کما فیما حکاه عن ابراهیم علیه السّلام من قوله: فَمَنْ تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنِّی (إبراهیم۳۶/)،أی من حزبی،و کیف کان فالمعنی و اللّه أعلم:لیس من حزب اللّه مستقرا فی شیء من الأحوال و الآثار.

قوله تعالی: إِلاّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاهً ،الاتقاء فی الأصل أخذ الوقایه للخوف ثم ربما استعمل بمعنی الخوف استعمالا للمسبب فی مورد السبب و لعل التقیه فی المورد من هذا القبیل.

و الاستثناء منقطع فإن التقرب من الغیر خوفا بإظهار آثار التولی ظاهرا من غیر عقد القلب علی الحب و الولایه لیس من التولی فی شیء لأن الخوف و الحب أمران قلبیان متبائنان و متنافیان أثرا فی القلب فکیف یمکن اتحادهما؟فاستثناء الاتقاء استثناء منقطع.

و فی الآیه دلاله ظاهره علی الرخصه فی التقیه علی ما روی عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام کما تدل علیه الآیه النازله فی قصه عمار و أبویه یاسر و سمیه و هی قوله تعالی: مَنْ کَفَرَ بِاللّهِ مِنْ بَعْدِ إِیمانِهِ إِلاّ مَنْ أُکْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِیمانِ وَ لکِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْکُفْرِ صَدْراً فَعَلَیْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ (النحل۱۰۶/).

و بالجمله الکتاب و السنه متطابقان فی جوازها فی الجمله،و الاعتبار العقلی یؤکد اذ لا بغیه للدین،و لا هم لشارعه إلاّ ظهور الحق و حیاته،و ربما یترتب علی التقیه و المجاراه مع أعداء الدین و مخالفی الحق من حفظ مصلحه الدین و حیوه الحق ما لا یترتب علی ترکها، و إنکار ذلک مکابره و تعسف،و سنستوفی الکلام فیها فی البحث الروائی التالی،و فی الکلام علی قوله تعالی: مَنْ کَفَرَ بِاللّهِ مِنْ بَعْدِ إِیمانِهِ إِلاّ مَنْ أُکْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِیمانِ (النحل/ ۱۰۶).

قوله تعالی: وَ یُحَذِّرُکُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَی اللّهِ الْمَصِیرُ ،التحذیر تفعیل من الحذر و هو الاحتراز من أمر مخیف و قد حذر اللّه عباده من عذابه کما قال تعالی: إِنَّ عَذابَ رَبِّکَ کانَ مَحْذُوراً (الإسراء/۵۷)،و حذر من المنافقین و فتنه الکفار فقال: هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ (المنافقین/۴)،و قال: وَ احْذَرْهُمْ أَنْ یَفْتِنُوکَ (المائده/۴۹)،و حذرهم من نفسه کما فی هذه الآیه و ما یأتی بعد آیتین،و لیس ذلک إلاّ للدلاله علی أن اللّه سبحانه نفسه هو المخوف الواجب الاحتراز فی هذه المعصیه،أی لیس بین هذا المجرم و بینه تعالی شیء مخوف آخر حتی یتقی عنه بشیء أو یتحصن منه بحصن،و إنما هو اللّه الذی لا عاصم منه،و لا أن بینه و بین اللّه سبحانه أمر مرجو فی دفع الشر عنه من ولی و لا شفیع،ففی الکلام أشد التهدید، و یزید فی اشتداده تکراره مرتین فی مقام واحد و یؤکده تذییله أولا بقوله: وَ إِلَی اللّهِ الْمَصِیرُ ، و ثانیا بقوله: وَ اللّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ علی ما سیجیء من بیانه.

و من جهه اخری:یظهر من مطاوی هذه الآیه و سائر الآیات الناهیه عن اتخاذ غیر المؤمنین أولیاء أنه خروج عن زی العبودیه،و رفض لولایه اللّه سبحانه،و دخول فی حزب أعدائه لإفساد أمر الدین؛و بالجمله هو طغیان و إفساد لنظام الدین الذی هو أشد و أضر بحال الدین من کفر الکافرین و شرک المشرکین فإن العدو الظاهر عداوته المباین طریقته مدفوع عن الحومه سهل الاتقاء و الحذر؛و أما الصدیق و الحمیم اذا استأنس مع الأعداء و دب فیه أخلاقهم و سننهم فلا یلبث فعاله إلاّ أن یذهب بالحومه و أهلها من حیث لا یشعرون،و هو الهلاک الذی لا رجاء للحیاه و البقاء معه.

و فی قوله: وَ إِلَی اللّهِ الْمَصِیرُ ،دلاله علی أن لا مفر لکم منه و لا صارف له؛ففیه تأکید التهدید السابق علیه.

و الآیات أعنی قوله تعالی: لا یَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْکافِرِینَ أَوْلِیاءَ ،الآیه؛و ما یتبعها من الآیات من ملاحم القرآن،و سیجیء بیانه إنشاء اللّه فی سوره المائده.

قوله تعالى: قُلْ إِنْ تُخْفُوا مٰا فِی صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّٰهُ ،الآیه؛ نظیره قوله تعالى: وَ إِنْ تُبْدُوا مٰا فِی أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحٰاسِبْكُمْ بِهِ اللّٰهُ (البقره/۲۸۴)، غیر أنه لما كان الأنسب بحال العلم أن يتعلق بالمخفی بخلاف الحساب فإن الأنسب له أن يتعلق بالبادی الظاهر قدم ذكر الإخفاء فی هذه الآیه على ذكر الأداء،و جرى بالعكس منه فی آیه البقره كما قیل.

و قد أمر فی الآیه رسوله بإبلاغ هذه الحقیقه-و هو علمه بما تخفیه أنفسهم أو تبدیه-من دون أن يباشره بنفسه كسابق الكلام،و لیس ذلك إلّا ترفعا عن مخاطبه من يستشعر من حاله أنه سیخالف ما وصاه كما مر ما یشبه ذلك فی قوله: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ .

و فی قوله تعالى: وَ يَعْلَمُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ مضاهاه لما مر من آیه البقره و قد مر الكلام فیه.

قوله تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ،الظاهر من اتصال السیاق أنه من تتمه القول فی الآیه السابقه الذی أمر به النبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم؛و الظرف متعلق بمقدر أی و اذكر یوم تجد،أو متعلق بقوله: يَعْلَمْهُ اللّٰهُ وَ يَعْلَمُ ،و لا ضیر فی تعلیق علمه تعالى بما سنشاهده من أحوال یوم القیامه فإن هذا الیوم ظرف لعلمه تعالى بالنسبه الى ظهور الأمر لنا لا بالنسبه الى تحققه منه تعالى،و ذلك كظهور ملكه و قدرته و قوته فی الیوم،قال تعالى: يَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْهُمْ شَیْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ (المؤمن/۱۶)،و قال: لاٰ عٰاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ (هود/۴۳)،و قال:

وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذٰابَ أَنَّ الْقُوَّهَ لِلّٰهِ جَمِيعاً (البقره/۱۶۵)،و قال:

وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ (الانفطار/۱۹)،اذ من المعلوم أن اللّه سبحانه له كل الملك و القدره و القوه و الأمر دائما-قبل القیامه و فیها و بعدها-و إنما اختص یوم القیامه بظهور هذه الامور لنا معاشر الخلائق ظهورا لا ریب فیه.

و من ذلک یظهر أن تعلق الظرف بقوله: یَعْلَمْهُ اللّٰهُ ،لا یفید تأخر علمه تعالی بسرائر عباده من خیر أو شر الی یوم القیامه.

علی أن فی قوله تعالی: مُحْضَراً ،دون أن یقول:حاضرا دلاله علی ذلک فإن الإحضار إنما یتم فیما هو موجود غائب فالأعمال موجوده محفوظه عن البطلان یحضرها اللّه تعالی لخلقه یوم القیامه،و لا حافظ لها إلاّ اللّه سبحانه،قال تعالی: وَ رَبُّکَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ حَفِیظٌ (سبأ/ ۲۱)،و قال: وَ عِنْدَنٰا کِتٰابٌ حَفِیظٌ (ق/۴).

و قوله: تَجِدُ ،من الوجدان خلاف الفقدان،و من قوله: مِنْ خَیْرٍ و مِنْ سُوءٍ للبیان،و التنکیر للتعمیم،أی تجد کل ما عملت من الخیر و إن قل و کذا من السوء و قوله: وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ، معطوف علی قوله ما عملت من خیر علی ما هو ظاهر السیاق و الآیه من الآیات الداله علی تجسم الأعمال،و قد مر البحث عنها فی سوره البقره.

قوله تعالی: تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَیْنَهٰا وَ بَیْنَهُ أَمَداً بَعِیداً ،الظاهر أنه خبر لمبتدإ محذوف و هو الضمیر الراجع الی النفس،و لو للتمنی،و قد کثر دخوله فی القرآن علی أن المفتوحه المشدده،فلا یعبأ بما قیل من عدم جوازه و تأویل ما ورد فیه ذلک من الموارد.

و الأمد یفید معنی الفاصله الزمانیه؛قال الراغب فی مفردات القرآن:الأمد و الأبد یتقاربان،لکن الأبد عباره عن مده الزمان التی لیس لها حد محدود،و لا یتقید،لا یقال:أبد کذا،و الأمد مده لها حد مجهول اذا اطلق،و قد ینحصر نحو أن یقال:أمد کذا،کما یقال:زمان کذا،و الفرق بین الزمان و الأمد،أن الأمد یقال باعتبار الغایه،و الزمان عام فی المبدإ و الغایه، و لذا قال بعضهم:الأمد و المدی یتقاربان،انتهی.

و فی قوله: تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَیْنَهٰا وَ بَیْنَهُ أَمَداً بَعِیداً ،دلاله علی أن حضور سیئ العمل یسوء النفس کما یشعر بالمقابله بأن حضور خیر العمل یسرها،و إنما تود الفاصله الزمانیه بینها و بینه دون أن تود أنه لم یکن من أصله لما یشاهد من بقائه بحفظ اللّه فلا یسعها إلاّ أن تحب بعده و عدم

حضوره فی أشق الأحوال،و عند أعظم الأهوال کما یقول لقرین السوء نظیر ذلک،قال تعالی:

نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ الی أن قال: حَتّی إِذا جاءَنا قالَ یا لَیْتَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ بُعْدَ الْمَشْرِقَیْنِ فَبِئْسَ الْقَرِینُ (الزخرف۳۸/).

قوله تعالی: وَ یُحَذِّرُکُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ وَ اللّٰهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ ذکر التحذیر ثانیا یعطی من أهمیه المطلب و البلوغ فی التهدید ما لا یخفی،و یمکن أن یکون هذا التحذیر الثانی ناظرا الی عواقب المعصیه فی الآخره کما هو مورد نظر هذه الآیه،و التحذیر الأول ناظرا الی وبالها فی الدنیا أو فی الأعم من الدنیا و الآخره.

و أما قوله: وَ اللّٰهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ فهو-علی کونه حاکیا عن رأفته و حنانه تعالی المتعلق بعباده کما یحکی عن ذلک الإتیان بوصف العبودیه و الرقیه-دلیل آخر علی تشدید التهدید اذ أمثال هذا التعبیر فی موارد التخویف و التحذیر إنما یؤتی بها لتثبیت التخویف و ایجاد الإذعان بأن المتکلم ناصح لا یرید الا الخیر و الصلاح،تقول:إیاک أن تتعرض لی فی أمر کذا فإنی آلیت أن لا اسامح مع من تعرض لی فیه،انما اخبرک بهذا رأفه بک و شفقه.

فیئول المعنی-و اللّٰه أعلم-الی مثل أن یقال:ان اللّٰه لرأفته بعباده ینهاهم قبلا أن یتعرضوا لمثل هذه المعصیه التی وبال أمرها واقع لا محاله من غیر أن یؤثر فیه شفاعه شافع و لا دفع دافع.

قوله تعالی: قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اللّٰهُ ،قد تقدم کلام فی معنی الحب،و أنه یتعلق بحقیقه معناه باللّٰه سبحانه کما یتعلق بغیره فی تفسیر قوله تعالی:

وَ الَّذِینَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلّٰهِ الآیه(البقره۱۶۵/).

و نزید علیه هاهنا:أنه لا ریب أن اللّٰه سبحانه-علی ما ینادی به کلامه-إنما یدعو عبده الی الإیمان به و عبادته بالإخلاص له و الاجتناب عن الشرک کما قال تعالی: أَلاٰ لِلّٰهِ الدِّینُ الْخالِصُ (الزمر۳/)،و قال تعالی: وَ ما أُمِرُوا إِلاّٰ لِیَعْبُدُوا اللّٰهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ

(البينه۵/)،و قال تعالى: فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (المؤمن/ ۱۴)،الى غير ذلك من الآيات (۱).

قوله تعالى: وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ،الرحمه الواسعه الإلهيه و ما عنده من الفيوضات المعنويه و الصوريه غير المتناهيه غير موقوفه على شخص أو صنف من أشخاص عباده و أصنافهم،و لا استثناء هناك يحكم على إطلاق إفاضته،و لا سبيل يلزمه على الإمساك إلّا حرمان من جهه عدم استعداد المستفيض المحروم أو مانع أبداه بسوء اختياره،قال تعالى: وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (الإسراء ۲۰/).

و الذنوب هى المانعه من نيل ما عنده من كرامه القرب و الزلفى و جميع الأمور التى هى من توابعها كالجنه و ما فيها،و إزاله رينها عن قلب الإنسان و مغفرتها و سترها عليه هى المفتاح الوحيد لانفتاح باب السعاده و الدخول فى دار الكرامه،و لذلك عقب قوله: يُحْبِبْكُمُ اللّهُ بقوله:

وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ،فإن الحب كما تقدم يجذب المحب الى المحبوب،و كما كان حب العبد لربه يستدعى منه التقرب بالإخلاص له و قصر العبوديه فيه كذلك حبه تعالى لعبده يستدعى قربه من العبد،و كشفه حجب البعد و سبحات الغيبه،و لا حجاب إلّا الذنب فيستدعى ذلك مغفره الذنوب،و أما ما بعده من الكرامه و الإفاضه فالجود كاف فيه كما تقدم آنفا.

و التأمل فى قوله تعالى: كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ كَلاّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين۱۵/)،مع قوله تعالى فى هذه الآيه: يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ كاف فى تأييد ما ذكرناه.

قوله تعالى: قُلْ أَطِيعُوا اللّهَ وَ الرَّسُولَ اه،لما كانت الآيه السابقه تدعو الى اتباع الرسول،و الاتباع و هو اقتفاء الأثر لا يتم إلّا مع كون المتبع(اسم مفعول)سالك سبيل،

۱- ۱) .آل عمران ۲۸-۳۲:بحث فى الاخلاص فى الدين.

و السبیل الذی یسلکه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إنما هو الصراط المستقیم الذی هو للّه سبحانه،و هو الشریعه التی شرعها لنبیه و افترض طاعته فیه کرر ثانیا فی هذه الآیه معنی اتباع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی قالب الإطاعه إشعارا بأن سبیل الإخلاص الذی هو سبیل النبی هو بعینه مجموع أوامر و نواه و دعوه و إرشاد فیکون اتباع الرسول فی سلوک سبیله هو إطاعه اللّه و رسوله فی الشریعه المشرعه.و لعل ذکره تعالی مع الرسول للإشعار بأن الأمر واحد،و ذکر الرسول معه سبحانه لان الکلام فی اتباعه.

و من هنا یظهر عدم استقامه ما ذکره بعضهم فی الآیه:أن المعنی:أطیعوا اللّه فی کتابه و الرسول فی سنته.

و ذلک أنه مناف لما یلوح من المقام من أن قوله: قُلْ أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ الرَّسُولَ ،الخ؛کالمبین لقوله: قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِی ،علی أن الآیه مشعره بکون إطاعه اللّه و إطاعه الرسول واحده،و لذا لم یکرر الأمر،و لو کان مورد الإطاعه مختلفا فی اللّه و رسوله لکان الأنسب أن یقال:أطیعوا اللّه و أطیعوا الرسول کما فی قوله تعالی: أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ (النساء۵۹/)،کما لا یخفی.

و اعلم أن الکلام فی هذه الآیه من حیث إطلاقها و من حیث انطباقها علی المورد نظیر الکلام فی الآیه السابقه.

قوله تعالی: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ الْکٰافِرِینَ ،فیه دلاله علی کفر المتولی عن هذا الأمر کما یدل علی ذلک سائر آیات النهی عن تولی الکفار و فیه أیضا إشعار بکون هذه الآیه کالمبینه لسابقتها حیث ختمت بنفی الحب عن الکافرین بأمر الإطاعه،و قد کانت الآیه الاولی متضمنه لإثبات الحب للمؤمنین المنقادین لأمر الاتباع فافهم ذلک (۱).

ص: ۴۳۵

۱- ۱) .آل عمران ۲۸-۳۲:بحث روائی فی التقیه.

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۳۳ الی ۳۴]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ اِصْطَفىٰ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْرٰاهِيمَ وَ آلَ عِمْرٰانَ عَلَى اَلْعٰالَمِينَ (۳۳) ذُرِّيَّةً بَعْضُهٰا مِنْ بَعْضٍ وَ اَللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۳۴)

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفىٰ آدَمَ وَ نُوحاً الی آخر الآیه؛الاصطفاء کما مر بیانه فی قوله تعالی: لَقَدِ اصْطَفَيْنٰاهُ فِي الدُّنْيٰا (البقره/۱۳۰)،أخذ صفوه الشیء و تخلیصه مما یکدره فهو قریب من معنی الاختیار،و ینطبق من مقامات الولایه علی مقام الإسلام،و هو جری العبد فی مجری التسلیم المحض لأمر ربه فیما یرتضیه له.

لکن ذلک غیر الاصطفاء علی العالمین،و لو کان المراد بالاصطفاء هنا ذاک الاصطفاء لکان الأنسب أن یقال:من العالمین،و أفاد اختصاص الاسلام بهم و اختل معنی الکلام، فالاصطفاء علی العالمین،نوع اختیار و تقدیم لهم علیهم فی أمر أو امور لا یشارکهم فیه أو فیها غیرهم.

و من الدلیل علی ما ذکرناه من اختلاف الاصطفاء قوله تعالی: وَ إِذْ قٰالَتِ الْمَلاٰئِكَةُ يٰا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفٰاكِ عَلىٰ نِسٰاءِ الْعٰالَمِينَ (آل عمران/۴۲)،حیث فرّق بین الاصطفاءین فالاصطفاء غیر الاصطفاء.

قوله تعالی: ذُرِّيَّةً بَعْضُهٰا مِنْ بَعْضٍ ،الذریه فی الأصل صغار الأولاد علی ما ذکروا ثم استعملت فی مطلق الأولاد،و هو المعنی المراد فی الآیه؛و هی منصوبه عطف بیان.

و فی قوله: بَعْضُهٰا مِنْ بَعْضٍ دلاله علی أن کل بعض فرض منها یبتدئ و ینتهی من البعض

الآخر و اليه.و لازمه كون المجموع متشابه الأجزاء لا يفترق البعض من البعض فى أوصافه و حالاته،و اذا كان الكلام فى اصطفائهم أفاد ذلك أنهم ذريه لا يفترقون فى صفات الفضيله التى اصطفاهم اللّه لأجلها على العالمين اذ لا جزاف و لا لعب فى الأفعال الإلهيه،و منها الاصطفاء الذى هو منشأ خيرات هامه فى العالم.

قوله تعالى: وَ اللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ،أى سميع بأقوالهم الداله على باطن ضمائرهم،عليم بباطن ضمائرهم و ما فى قلوبهم فالجمله بمنزله التعليل لاصطفائهم،كما أن قوله: ذُرِّيَّهً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ ،بمنزله التعليل لشمول موهبه الاصطفاء لهؤلاء الجماعه،فالمحصل من الكلام:ان اللّه اصطفى هؤلاء على العالمين،و إنما سرى الاصطفاء الى جميعهم لأنهم ذريه متشابهه الأفراد، بعضهم يرجع الى البعض فى تسليم القلوب و ثبات القول بالحق،و إما أنعم عليهم بالاصطفاء على العالمين لأنه سميع عليم يسمع أقوالهم و يعلم ما فى قلوبهم.

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۳۵ الی ۴۱]

اشاره

إِذْ قالَتِ اِمْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّی نَذَرْتُ لَکَ ما فِی بَطْنِی مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّی إِنَّکَ أَنْتَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۳۵) فَلَمّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّی وَضَعْتُها أُنْثی وَ اَللّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَ لَیْسَ اَلذَّکَرُ کَالْأُنْثی وَ إِنِّی سَمَّیْتُها مَرْیَمَ وَ إِنِّی أُعِیذُها بِکَ وَ ذُرِّیَّتَها مِنَ اَلشَّیْطانِ اَلرَّجِیمِ (۳۶) فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَ کَفَّلَها زَکَرِیّا کُلَّما دَخَلَ عَلَیْها زَکَرِیَّا اَلْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ یا مَرْیَمُ أَنّی لَکِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اَللّهِ إِنَّ اَللّهَ یَرْزُقُ مَنْ یَشاءُ بِغَیْرِ حِسابٍ (۳۷) هُنالِکَ دَعا زَکَرِیّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ ذُرِّیَّهً طَیِّبَهً إِنَّکَ سَمِیعُ اَلدُّعاءِ (۳۸) فَنادَتْهُ اَلْمَلائِکَهُ وَ هُوَ قائِمٌ یُصَلِّی فِی اَلْمِحْرابِ أَنَّ اَللّهَ یُبَشِّرُکَ بِیَحْیی مُصَدِّقاً بِکَلِمَهٍ مِنَ اَللّهِ وَ سَیِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِیًّا مِنَ اَلصّالِحِینَ (۳۹) قالَ رَبِّ أَنّی یَکُونُ لِی غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِیَ اَلْکِبَرُ وَ اِمْرَأَتِی عاقِرٌ قالَ کَذلِکَ اَللّهُ یَفْعَلُ ما یَشاءُ (۴۰) قالَ رَبِّ اِجْعَلْ لِی آیَهً قالَ آیَتُکَ أَلاّ تُکَلِّمَ اَلنّاسَ ثَلاثَهَ أَیّامٍ إِلاّ رَمْزاً وَ اُذْکُرْ رَبَّکَ کَثِیراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِیِّ وَ اَلْإِبْکارِ (۴۱)

بیان:

قوله تعالی: إِذْ قٰالَتِ امْرَأَتُ عِمْرٰانَ رَبِّ إِنِّی نَذَرْتُ لَکَ مٰا فِی بَطْنِی مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّی إِنَّکَ أَنْتَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ ؛النذر إیجاب الإنسان علی نفسه ما لیس بواجب.و التحریر هو الإطلاق عن وثاق،و منه تحریر العبد عن الرقیه،و تحریر الکتاب کأنه إطلاق للمعانی عن محفظه الذهن و الفکر.و التقبل هو القبول عن رغبه و رضی کتقبل الهدیه و تقبل الدعاء و نحو ذلک.

و فی قوله: قٰالَتِ امْرَأَتُ عِمْرٰانَ رَبِّ إِنِّی نَذَرْتُ لَکَ مٰا فِی بَطْنِی ،دلاله علی أنها إنما قالت هذا القول حینما کانت حاملا،و أن حملها کان من عمران،و لا یخلو الکلام من إشعار بأن زوجها عمران لم یکن حیا عندئذ و إلاّ لم یکن لها أن تستقل بتحریر ما فی بطنها هذا الاستقلال کما یدل علیه أیضا ما سیأتی من قوله تعالی: وَ مٰا کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ یُلْقُونَ أَقْلاٰمَهُمْ أَیُّهُمْ یَکْفُلُ مَرْیَمَ

الآیه(آل عمران/۴۴)،علی ما سیجیء من البیان.

و من المعلوم أن تحریر الاب أو الام للولد لیس تحریرا عن الرقیه و إنما هو تحریر عن قید الولایه التی للوالدین علی الولد من حیث تربیته و استعماله فی مقاصدهما و افتراض طاعتهما فبالتحریر یخرج من تسلط أبویه علیه فی استخدامه،و اذا کان التحریر منذورا للّه سبحانه یدخل فی ولایه اللّه یعبده و یخدمه؛أی یخدم فی البیع و الکنائس و الأماکن المختصه بعادته تعالی فی زمان کان فیه تحت ولایه الأبوین لو لا التحریر؛و قد قیل:إنهم کانوا یحررون الولد للّه فکان الأبوان لا یستعملانه فی منافعهما:و لا یصرفانه فی حوائجهما بل کان یجعل فی الکنسیه یکنسها و یخدمها لا یبرح حتی یبلغ الحلم ثم یخیر بین الإقامه و الرواح فإن أحب أن یقیم أقام، و إن احب الرواح ذهب لشأنه.

و فی الکلام دلاله علی أنها کانت تعتقد أن ما فی بطنها ذکر لا اناث حیث إنها تناجی ربها عن جزم و قطع من غیر اشتراط و تعلیق حیث تقول:نذرت لک ما فی بطنی محررا من غیر أن تقول مثلا إن کان ذکرا و نحو ذلک.

و لیس تذکیر قوله: مُحَرَّراً ،من جهه کونه حالا عن ما الموصوله التی یستوی فیه المذکر و المؤنث اذ لو کانت نذرت تحیر ما فی بطنها سواء کان ذکرا أو انثی لم یکن وجه لما قالتها تحزنا و تحسرا لما وضعتها:رب إنی وضعتها انثی؛و لا وجه ظاهر لقوله تعالی: وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا وَضَعَتْ وَ لَیْسَ الذَّکَرُ کَالْأُنْثیٰ ؛علی ما سیجیء بیانه.

و فی حکایته تعالی لما قالتها عن جزم دلاله علی أن اعتقادها ذلک لم یکن عن جزاف أو اعتمادا علی بعض القرائن الحدسیه التی تسبق الی أذهان النسوان بتجارب و نحوه فکل ذلک ظن،و الظن لا یغنی من الحق شیئا،و کلامه تعالی لا یشتمل علی باطل إلاّ مع إبطاله،و قد قال تعالی: اَللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا تَحْمِلُ کُلُّ أُنْثیٰ وَ مٰا تَغِیضُ الْأَرْحٰامُ وَ مٰا تَزْدٰادُ (الرعد/۸)،و قال تعالی:

عِنْدَهُ عِلْمُ السّٰاعَهِ وَ یُنَزِّلُ الْغَیْثَ وَ یَعْلَمُ مٰا فِی الْأَرْحٰامِ (لقمان/۳۴)،فجعل العلم بما فی

الأرحام من الغيث المختص به تعالى،و قال تعالى: عٰالِمُ الْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضىٰ (الجن/٢٧)،فجعل علم غيره بالغيب منتهيا الى الوحى فحكايته عنها الجزم فى القول فيما يختص علمه باللّه سبحانه يدل على أن علمها بذكوره ما فى بطنها كان ينتهى بوجه الى الوحى،و لذلك لما تبينت أن الولد انثى لم تيأس عن ولد ذكر فقالت ثانيا عن جزم و قطع:

و إنى اعيذها بك و ذريتها من الشيطان الرجيم،الآيه؛فأثبتت لها ذريه و لا سبيل الى العلم به ظاهرا.

و مفعول قولها:فتقبل منى،و إن كان محذوفا محتملا لأن يكون هو.

نذرها من حيث إنه عمل صالح أو يكون هو ولدها المحرر لكن قوله تعالى: فَتَقَبَّلَهٰا رَبُّهٰا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ،لا يخلو عن إشعار أو دلاله على كون مرادها هو قبول الولد المحرر.

قوله تعالى: فَلَمّٰا وَضَعَتْهٰا قٰالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهٰا أُنْثىٰ ؛فى وضع الضمير المؤنث موضع ما فى بطنها إيجاز لطيف،و المعنى فلما وضعت ما فى بطنها و تبينت أنه انثى قالت:

رب إنى وضعتها انثى،و هو خبر اريد به التحسر و التحزن دون الإخبار و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا وَضَعَتْ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثىٰ ،جملتان معترضتان و هما جميعا مقولتان له تعالى لا لامرأه عمران،و لا أن الثانيه مقوله لها و الاولى مقوله للّه.

أما الاولى فهى ظاهره لكن لما كانت قولها:رب إنى وضعتها انثى،مسوقا لإظهار التحسر كان ظاهر قوله: وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا وَضَعَتْ ،أنه مسوق لبيان أنا نعلم أنها انثى لكنا أردنا بذلك إنجاز ما كانت تتمناه بأحسن وجه و أرضى طريق،و لو كانت تعلم ما أردناه من جعل ما فى بطنها انثى لم تتحسر و لم تحزن ذاك التحسر و التحزن و الحال أن الذكر الذى كانت ترجوه لم يكن ممكنا أن يصير مثل هذا الانثى التى وهبناها لها،و يترتب عليه ما يترتب على خلق هذه الانثى فإن غايه أمره أن يصير مثل عيسى نبيا مبرئا للأكمه و الأبرص و محييا للموتى لكن هذه

الانثى ستتم به كلمه اللّه و تلد ولدا بغير أب،و تجعل هى و ابنها آيه للعالمين،و يكلم الناس فى المهد،و يكون روحا و كلمه من اللّه،مثله عند اللّه كمثل آدم الى غير ذلك من الآيات الباهرات فى خلق هذه الانثى الطاهره المباركه و خلق ابنها عيسى عليهما السّلام.

و من هنا يظهر:أن قوله: وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثىٰ ،مقول له تعالى لا لامرأه عمران،و لو كان مقولا لها لكان حق الكلام ان يقال:و ليس الانثى كالذكر لا بالعكس و هو ظاهر فإن من كان يرجو شيئا شريفا أو مقاما عاليا ثم رزق ما هو أخس منه و أردأ إنما يقول عند التحسر:ليس هذا الذى وجدته هو الذى كنت أطلبه و أبتغيه أو ليس ما رزقته كالذى كنت أرجوه،و لا يقول:ليس ما كنت أرجوه كهذا الذى رزقته البته؛و ظهر من ذلك أن اللام فى الذكر و الانثى معا أو فى الانثى فقط للعهد.

و قد أخذ أكثر المفسرين قوله: وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثىٰ ،تتمه قول امرأه عمران،و تكلفوا فى توجيه تقديم الذكر على الانثى بما لا يرجع الى محصل،من أراده فليرجع الى كتبهم.

قوله تعالى: وَ إِنِّي سَمَّيْتُهٰا مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيذُهٰا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهٰا مِنَ الشَّيْطٰانِ الرَّجِيمِ ؛معنى مريم فى لغتهم العابده و الخادمه على ما قيل،و منه يعلم وجه مبادرتها الى تسميه المولوده عند الوضع،و وجه ذكره تعالى لتسميتها بذلك فإنها لما أيست من كون الولد ذكرا محررا للعباده و خدمه الكنيسه بادرت الى هذه التسميه و أعدتها بالتسميه للعباده و الخدمه.فقولها:و إنى سميتها مريم بمنزله أن تقول:إنى جعلت ما وضعتها محرره لك،و الدليل على كون هذا القول منها فى معنى النذر قوله تعالى: فَتَقَبَّلَهٰا رَبُّهٰا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَهٰا نَبٰاتاً حَسَناً ،الآيه.

ثم أعاذتها و ذريتها باللّه من الشيطان الرجيم ليستقيم لها العباده و الخدمه و يطابق اسمها المسمى.

و الكلام فى قولها: وَ ذُرِّيَّتَهٰا ،من حيث أنه قول مطلق من شرط و قيد لا يصح ان تفوه به فى

حضـره التخـاطب ممن لاـ علم له به مع أن مسـتقبل حال الإنسان من الغيب الـذى لا يعلمه إلاّ اللّه سـبحانه؛نظير الكلام فى قولها: رَبِّ إِنِّى نَـذَرْتُ لَکَ مٰا فِى بَطْنِى مُحَرَّراً ،على ما تقـدم بيانه فليس إلاّ أنها كانت تعلم أن سترزق من عمران ولدا ذكرا صالحا ثم لمـا حملت و توفى عمران لم تشـك أن ما فى بطنها هو ذلك الولـد الموعود،ثم لما وضـعتها و بان لها خطأ حدسـها أيقنت أنها سترزق ذلك الولـد من نسل هـذه البنت المولوده فحولت نـذرها من الابن الى البنت،و سـمتها مريم(العابده،الخادمه)و أعاذتها و ذريتها باللّه من الشيطان الرجيم هذا ما يعطيه التدبر فى كلامه تعالى.

قوله تعالى: فَتَقَبَّلَهٰا رَبُّهٰا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَهٰا نَبٰاتاً حَسَـناً ؛القبول اذا قيـد بالحسن كان بحسب المعنى هو التقبل الـذى معناه القبول عن الرضا،فالكلام فى معنى قولنا:

فتقبلهـا ربهـا تقبلا فإنما حلل التقبل الى القبول الحسن ليـدل على أن حسن القبول مقصود فى الكلام،و لما فى التصـريح بحسـن القبول من التشريف البارز.

و حيث قوبل بهاتين الجملتين أعنى قوله: فَتَقَبَّلَهٰا الى قوله: حَسَناً ،الجملتان فى قولها:

وَ إِنِّى سَمَّيْتُهٰا الى قولها: اَلرَّجِيمِ كان مقتضى الانطباق أن يكون قوله: فَتَقَبَّلَهٰا رَبُّهٰا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ، قبولا لقولها و إنى سميتها مريم،و قوله: وَ أَنْبَتَهٰا نَبٰاتاً حَسَناً ،قبولا و إجابه لقولها:و إنى اعيذها بك و ذريتها من الشيطان الرجيم،فالمراد بتقبلها بقبول حسن ليس هو القبول بمعنى قبول تقرب امرأه عمران بالنـذر،و إعطـاء الثواب الاخروى لعملها فإن القبول إنما نسب الى مريم لا الى النـذر و هو ظـاهر بل قبول البنت بما أنها مسـماه بمريم و محرره فيعود معناه الى اصـطفائها(و قـد مر أن معنى الاصـطفاء هو التسـليم التام للّه سبحانه)فافهم ذلك.

و المراد بإنباتها نبتا حسـنا إعطاء الرشد و الزكاه لها و لذريتها،و إفاضه الحياه لها و لمن ينمو منها من الذريه حيوه لا يمسـها نفث الشيطان و رجس تسويله و وسوسته،و هو الطهاره.

و هذان أعنى القبول الحسن الراجع الى الاصطفاء،و النبات الحسن الراجع الى التطهير هما اللذان يشير اليهما قوله تعالى فى ذيل هذه الآيات: وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفاكِ وَ طَهَّرَكِ ،الآيه و سنوضحه بيانا إنشاء اللّه العزيز.

فقد تبين أن اصطفاء مريم و تطهيرها إنما هما استجابه لدعوه امها كما أن اصطفائها على نساء العالمين فى ولاده عيسى عليه السّلام،و كونها و ابنها آيه للعالمين تصديق لقوله تعالى: وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى .

قوله تعالى: وَ كَفَّلَها زَكَرِيّا ،و انما كفلها بإصابه القرعه حيث اختصموا فى تكفلها ثم تراضوا بينهم بالقرعه فأصابت القرعه زكريا كما يدل عليه قوله تعالى: وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ،الآيه.

قوله تعالى: كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً الخ؛ المحراب المكان المخصوص بالعباده من المسجد و البيت،قال الراغب:و محراب المسجد،قيل:سمى بذلك لأنه موضع محاربه الشيطان و الهوى،و قيل:سمى بذلك لكون حق الإنسان فيه أن يكون حريبا(أى سليبا)من أشغال الدنيا و من توزع الخاطر،و قيل الأصل فيه أن محراب البيت صدر المجلس ثم اتخذت المساجد فسمى صدره به و قيل:بل المحراب أصله فى المسجد و هو اسم خص به صدر المجلس فسمى صدر البيت محرابا تشبيها بمحراب المسجد،و كأن هذا أصح،قال عزّ و جل: يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ ،انتهى.

و ذكر بعضهم أن المحراب هنا هو ما يعبر عنه أهل الكتاب بالمذبح،و هو مقصوره فى مقدم المعبد،لها باب يصعد اليه بسلم ذى درجات قليله،و يكون من فيه محجوبا عمن فى المعبد.

أقول:و اليه ينتهى اتخاذ المقصوره فى الإسلام.

و فى تنكير قوله: رِزْقاً ،إشعار بكونه رزقا غير معهود كما قيل:إنه كان يجد عندها فاكهه

الشتاء فی الصیف،و فاکهه الصیف فی الشتاء،و یؤیده أنه لو کان من الرزق المعهود،و کان تنکیره یفید أنه ما کان یجد محرابها خالیا من الرزق بل کان عندها رزق ما دائما لم یقنع زکریا بقولها:هو من عند اللّه إن اللّه یرزق،الخ؛فی جواب قوله: یٰا مَرْیَمُ أَنّٰی لَکِ هٰذٰا ،لإمکان أن یکون یأتیها بعض الناس ممن کان یختلف الی المسجد لغرض حسن أو سیئ.

علی أن قوله تعالی: هُنٰالِکَ دَعٰا زَکَرِیّٰا رَبَّهُ ،الخ؛یدل علی أن زکریا تلقی وجود هذا الرزق عندها کرامه إلهیه خارقه فأوجب ذلک أن یسأل اللّه أن یهب له من لدنه ذریه طیبه،فقد کان الرزق رزقا یدل بوجوده علی کونه کرامه من اللّه سبحانه لمریم الطاهره،و مما یشعر بذلک قوله تعالی: قٰالَ یٰا مَرْیَمُ ،الخ؛علی ما سیجیء من البیان.

و قوله: قٰالَ یٰا مَرْیَمُ أَنّٰی لَکِ ،الخ؛فصل الکلام من غیر أن یعطف علی قوله: وَجَدَ عِنْدَهٰا رِزْقاً ،یدل علی أنه علیه السّلام إنما قال لها ذلک مره واحده فأجابت بما قنع به و استیقن أن ذلک کرامه لها و هنالک دعا و سأل ربه ذریه طیبه.

قوله تعالی: هُنٰالِکَ دَعٰا زَکَرِیّٰا رَبَّهُ قٰالَ رَبِّ هَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ ذُرِّیَّهً طَیِّبَهً الخ؛طیب الشیء ملائمته لصاحبه فیما یریده لأجله،فالبلد الطیب ما یلائم حیوه أهله من حیث الماء و الهواء و الرزق و نحو ذلک،قال تعالی: وَ الْبَلَدُ الطَّیِّبُ یَخْرُجُ نَبٰاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ (الأعراف/۵۸)،و العیشه الطیبه و الحیاه الطیبه ما یلائم بعض أجزائها بعضا و یسکن إلیها قلب صاحبها و منه الطیب للعطر الزکی فالذریه الطیبه هو الولد الصالح لأبیه مثلا الذی یلائم من حیث صفاته و أفعاله ما عند أبیه من الرجاء و الامنیه فقول زکریا علیه السّلام:رب هب لی من لدنک ذریه طیبه،لما کان الباعث له علیه ما شاهد من أمر مریم و خصوص کرامتها علی اللّه و امتلاء قلبه من شأنها لم یملک من نفسه دون أن یسأل اللّه أن یهب له مثلها خطرا و کرامه،فکون ذریته طیبه أن یکون لها ما لمریم من الکرامه عند اللّه و الشخصیه فی نفسها،و لذلک استجیب فی عین ما سأل من اللّه،و وهب له یحیی و هو أشبه

الأنبياء بعیسی علیهما السّلام،و أجمع الناس لما عند عیسی و أمه مریم الصدیقه من صفات الکمال و الکرامه،و من هنا ما سماه تعالی بیحیی و جعله مصدقا بکلمه من اللّه و سیدا و حصورا و نبیا من الصالحین،و هذه أقرب ما یمکن أن یشابه بها إنسان مریم و ابنه عیسی علیهما السّلام علی ما سنبینه ان شاء اللّه تعالی.

قوله تعالی: فَنٰادَتْهُ الْمَلاٰئِکَهُ وَ هُوَ قٰائِمٌ یُصَلِّی فِی الْمِحْرٰابِ أَنَّ اللّٰهَ یُبَشِّرُکَ بِیَحْییٰ الی آخر الآیه؛ضمائر الغیبه و الخطاب لزکریا،و البشری و الإبشار و التبشیر الإخبار بما یفرح الإنسان بوجوده.

و قوله: أَنَّ اللّٰهَ یُبَشِّرُکَ بِیَحْییٰ ،دلیل علی أن تسمیته بیحیی إنما هو من جانب اللّه سبحانه کما تدل علیه نظائر هذه الآیات فی سوره مریم،قال تعالی: یٰا زَکَرِیّٰا إِنّٰا نُبَشِّرُکَ بِغُلاٰمٍ اسْمُهُ یَحْییٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا (مریم۷/).

و تسمیته بیحیی و کون التسمیه من عند اللّه سبحانه فی بدء ما بشر به زکریا قبل تولد یحیی و خلقه یؤید ما ذکرناه آنفا:أن الذی طلبه زکریا من ربه أن یرزقه ولدا یکون شأنه شأن مریم،و قد کانت مریم هی و ابنها عیسی علیهما السّلام آیه واحده کما قال تعالی: وَ جَعَلْنٰاهٰا وَ ابْنَهٰا آیَهً لِلْعٰالَمِینَ (الأنبیاء۹۱/).

فروعی فی یحیی علیه السّلام ما روعی فیهما من عند اللّه سبحانه،و قد روعی فی عیسی علیه السّلام کمال ما روعی فی مریم،فالمرعی فی یحیی هو الشبه التام و المحاذاه الکامله مع عیسی علیهما السّلام فیما یمکن ذلک،و لعیسی فی ذلک کله التقدم التام لأن وجوده کان مقدرا قبل استجابه دعوه زکریا علیه السّلام فی حق یحیی،و لذلک سبقه عیسی فی کونه من اولی العزم صاحب شریعه و کتاب و غیر ذلک لکنهما تشابها و تشابه أمرهما فیما یمکن.

و فی قوله: مُصَدِّقاً بِکَلِمَهٍ مِنَ اللّٰهِ دلاله علی کونه من دعاه عیسی فالکلمه هو عیسی المسیح کما ذکره تعالی فی ذیل هذه الآیات فی بشاره الروح لمریم.

و السید هو الـذی یتولی أمر سواد الناس و جماعتهم فی أمر حیاتهم و معاشـهم أو فی فضـیله من الفضائل المحموده عنـدهم ثم غلب استعماله فی شریف القوم لما أن التولی المذکور یستلزم شرفا بالحکم أو المال أو فضیله اخری.

و الحصور هو الذی لا یأتی النساء،و المراد بذلک فی الآیه بقرینه السیاق الممتنع عن ذلک للإعراض عن مشتهیات النفس زهدا.

قوله تعـالی: قالَ رَبِّ أَنّی یَکُونُ لِی غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِیَ الْکِبَرُ وَ امْرَأَتِی عاقِرٌ اسـتفهام تعجیب و اسـتعلام لحقیقه الحال لا اسـتبعاد و اسـتعظام مع تصـریح البشاره بـذلک و أن اللّه سـبحانه سـیرزقه ما سأله من الولـد مع أنه ذکر هذه الوصـفین اللذین جعلهما منشأ للتعجب و الاسـتعلام فی ضـمن مسألته علی ما فی سوره مریم حیث قال رَبِّ إِنِّی وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّی وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْباً وَ لَمْ أَکُنْ بِدُعائِکَ رَبِّ شَقِیًّا وَ إِنِّی خِفْتُ الْمَوالِیَ مِنْ وَرائِی وَ کانَتِ امْرَأَتِی عاقِراً فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا (مریم۵/).

لکن المقام یمثل معنی آخر فکأنه علیه السّلام لما انقلب حالا من مشاهـده أمر مریم و تذکر انقطاع عقبه لم یشـعر إلاّ و قد سأل ربه ما سأل و قد ذکر فی دعائه ما له سهم وافر فی تأثره و تحزنه و هو بلوغ الکبر،و کون امرأته عاقرا،فلما استجیبت دعوته و بشر بالولـد کأنه صـحا و أفاق مما کان علیه من الحال،و أخذ یتعجب من ذلک و هو بالغ الکبر و امرأته عاقر، فصار ما کان یثیر علی وجهه غبار الیأس و سیماء الحزن یغیره الی نظره التعجب المشوب بالسرور.

علی أن ذکر نواقص الأمر بعد البشاره بقضاء أصل الحاجه و استعلام کیفیه رفع واحد واحد منها إنما هو طلب تفهم خصوصیات الإفاضه و الإنعام التـذاذا بالنعمه الفائضه بعد النعمه نظیر ما وقع فی بشـری إبراهیم بالذریه،قال تعالی: وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَیْفِ إِبْراهِیمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنّا مِنْکُمْ وَجِلُونَ قالُوا لا تَوْجَلْ إِنّا نُبَشِّرُکَ بِغُلامٍ عَلِیمٍ قالَ

أَ بَشَّرْتُمُونِی عَلیٰ أَنْ مَسَّنِیَ الْکِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قٰالُوا بَشَّرْنٰاکَ بِالْحَقِّ فَلاٰ تَکُنْ مِنَ الْقٰانِطِینَ قٰالَ وَ مَنْ یَقْنَطُ مِنْ رَحْمَهِ رَبِّهِ إِلاَّ الضّٰالُّونَ (الحجر۵۶/)،فذکر فی جواب نهی الملائکه إیاه عن القنوط أن استفهامه لم یکن عن قنوط کیف و هو غیر ضال و القنوط ضلاله،بل السید اذا أقبل علی عبده إقبالا یؤذن بالقرب و الانس و الکرامه أوجب ذلک انبساطا من العبد و ابتهاجا یستدعی تلذذه من کل حدیث،و تمتعه فی کل باب.

و فی قوله: وَ قَدْ بَلَغَنِیَ الْکِبَرُ من مراعاه الأدب ما لا یخفی فإنه کنایه عن أنه لا یجد من نفسه شهوه النکاح لبلوغ الشیخوخه و الهرم.و قد اجتمعت فی امرأته الکبر و العقر معا.

قوله تعالی: قٰالَ کَذٰلِکَ اللّٰهُ یَفْعَلُ مٰا یَشٰاءُ ،فاعل قال و إن کان هو اللّه سبحانه سواء کان من غیر وساطه الملائکه وحیا أو بواسطه الملائکه الذین کانوا ینادونه فالقول علی ای حال قوله تعالی لکن الظاهر أنه منسوب إلیه تعالی بواسطه لملک فالقائل هو الملک و قد نسب إلیه تعالی لأنه بأمره،و الدلیل علی ذلک قوله تعالی فی سوره مریم فی القصه: قٰالَ کَذٰلِکَ قٰالَ رَبُّکَ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُکَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَکُ شَیْئاً (مریم۹/).

و انه یظهر اولا:أنه سمع الصوت من حیث کان یسمعه أولا.و ثانیا:أن قوله: کَذٰلِکَ ،خبر لمبتدإ محذوف،و التقدیر:الأمر کذلک أی الذی بشرت به من الموهبه هو کذلک کائن لا محاله، و فیه إشاره الی کونه من القضاء المحتوم الذی لا ریب فی وقوعه نظیر ما ذکره الروح فی جواب مریم علی ما حکاه اللّه تعالی: قٰالَ کَذٰلِکَ قٰالَ رَبُّکَ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ -الی أن قال-: وَ کٰانَ أَمْراً مَقْضِیًّا (مریم۲۱/)،و ثالثا:أن قوله: اَللّٰهُ یَفْعَلُ مٰا یَشٰاءُ کلام مفصول فی مقام التعلیل لمضمون قوله: کَذٰلِکَ اه.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ اجْعَلْ لِی آیَهً قٰالَ آیَتُکَ أَلاّٰ تُکَلِّمَ النّٰاسَ ثَلاٰثَهَ أَیّٰامٍ

إلاّـ رَمْزاً الی آخر الآـیه؛قال فی المجمع:الرمز الإیماء بالشـفتین،و قـد یستعمل فی الإیماء بالحـاجب و العیـن و الیـد،و الأـول أغلب،انتهی،و العشـی الطرف المـؤخر من النهـار،و کـأنه مـأخوذ من العشوه و هی الظلمه الطـارئه فی العین المـانعه عن الإبصـار فأخـذوا ذلـک وصـفا للوقت لرواحه الی الظلمـه،و الإبکـار صـدر النهـار و الطرف المقـدم منـه،و الأصـل فی معنـاه الاسـتعجال .(۳)(۲)(۱)

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۴۲ الی ۶۰]

اشاره

وَ إِذْ قالَتِ اَلْمَلائِکَهُ یا مَرْیَمُ إِنَّ اَللّهَ اِصْطَفاکِ وَ طَهَّرَکِ وَ اِصْطَفاکِ عَلی نِساءِ اَلْعالَمِینَ (۴۲) یا مَرْیَمُ اُقْنُتِی لِرَبِّکِ وَ اُسْجُدِی وَ اِرْکَعِی مَعَ اَلرّاکِعِینَ (۴۳) ذلِکَ مِنْ أَنْباءِ اَلْغَیْبِ نُوحِیهِ إِلَیْکَ وَ ما کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ یُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَیُّهُمْ یَکْفُلُ مَرْیَمَ وَ ما کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ یَخْتَصِمُونَ (۴۴) إِذْ قالَتِ اَلْمَلائِکَهُ یا مَرْیَمُ إِنَّ اَللّهَ یُبَشِّرُکِ بِکَلِمَهٍ مِنْهُ اِسْمُهُ اَلْمَسِیحُ عِیسَی اِبْنُ مَرْیَمَ وَجِیهاً فِی اَلدُّنْیا وَ اَلْآخِرَهِ وَ مِنَ اَلْمُقَرَّبِینَ (۴۵) وَ یُکَلِّمُ اَلنّاسَ فِی اَلْمَهْدِ وَ کَهْلاً وَ مِنَ اَلصّالِحِینَ (۴۶) قالَتْ رَبِّ أَنّی یَکُونُ لِی وَلَدٌ وَ لَمْ یَمْسَسْنِی بَشَرٌ قالَ کَذلِکِ اَللّهُ یَخْلُقُ ما یَشاءُ إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۴۷) وَ یُعَلِّمُهُ اَلْکِتابَ وَ اَلْحِکْمَهَ وَ اَلتَّوْراهَ وَ اَلْإِنْجِیلَ (۴۸) وَ رَسُولاً إِلی بَنِی إِسْرائِیلَ أَنِّی قَدْ جِئْتُکُمْ بِآیَهٍ مِنْ رَبِّکُمْ أَنِّی أَخْلُقُ لَکُمْ مِنَ اَلطِّینِ کَهَیْئَهِ اَلطَّیْرِ فَأَنْفُخُ فِیهِ فَیَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِ اَللّهِ وَ أُبْرِئُ اَلْأَکْمَهَ وَ اَلْأَبْرَصَ وَ أُحْیِ اَلْمَوْتی بِإِذْنِ اَللّهِ وَ أُنَبِّئُکُمْ بِما تَأْکُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِی بُیُوتِکُمْ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَهً لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۴۹) وَ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیَّ مِنَ اَلتَّوْراهِ وَ لِأُحِلَّ لَکُمْ بَعْضَ اَلَّذِی حُرِّمَ عَلَیْکُمْ وَ جِئْتُکُمْ بِآیَهٍ مِنْ رَبِّکُمْ فَاتَّقُوا اَللّهَ وَ أَطِیعُونِ (۵۰) إِنَّ اَللّهَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ (۵۱) فَلَمّا أَحَسَّ عِیسی مِنْهُمُ اَلْکُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِی إِلَی اَللّهِ قالَ اَلْحَوارِیُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اَللّهِ آمَنّا بِاللّهِ وَ اِشْهَدْ بِأَنّا مُسْلِمُونَ (۵۲) رَبَّنا آمَنّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اِتَّبَعْنَا اَلرَّسُولَ فَاکْتُبْنا مَعَ اَلشّاهِدِینَ (۵۳) وَ مَکَرُوا وَ مَکَرَ اَللّهُ وَ اَللّهُ خَیْرُ اَلْماکِرِینَ (۵۴) إِذْ قالَ اَللّهُ یا عِیسی إِنِّی مُتَوَفِّیکَ وَ رافِعُکَ إِلَیَّ وَ مُطَهِّرُکَ مِنَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ جاعِلُ اَلَّذِینَ اِتَّبَعُوکَ فَوْقَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا إِلی یَوْمِ اَلْقِیامَهِ ثُمَّ إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأَحْکُمُ بَیْنَکُمْ فِیما کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ (۵۵) فَأَمَّا اَلَّذِینَ کَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِیداً فِی اَلدُّنْیا وَ اَلْآخِرَهِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِینَ (۵۶) وَ أَمَّا اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ فَیُوَفِّیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اَللّهُ لا یُحِبُّ اَلظّالِمِینَ (۵۷) ذلِکَ نَتْلُوهُ عَلَیْکَ مِنَ اَلْآیاتِ وَ اَلذِّکْرِ اَلْحَکِیمِ (۵۸) إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اَللّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۵۹) اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ فَلا تَکُنْ مِنَ اَلْمُمْتَرِینَ (۶۰)

۱- ۱) .آل عمران ۳۵-۴۱:بحث فی سؤال زکریا ربه أن یجعل له آیه...

۲- ۲) .آل عمران ۳۵-۴۱:کلام فی الخواطر الملکیه و الشیطانیه و ما یلحق بها من التکلیم.

۳- ۳) .آل عمران ۳۵-۴۱:بحث روائی فی ولاده مریم؛دعاء زکریا فی طلب الذریه.

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِکَهُ یا مَرْیَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفاکِ وَ طَهَّرَکِ ؛ الجمله معطوفه علی قوله: إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ ،فتکون شرحا مثله لاصطفاء آل عمران المشتمل علیه قوله تعالی: إِنَّ اللّهَ اصْطَفی ،الآیه.

و فی الآیه دلیل علی کون مریم محدثه تکلمها الملائکه و هی تسمع کلامهم کما یدل علیه أیضا قوله فی سوره مریم:فأرسلنا الیه روحنا فتمثل لها بشرا سویا،الی آخر الآیات؛ و سیأتی الکلام فی المحدث.

و قد تقدم فی قوله تعالی: فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ ؛الآیه:أن ذلک بیان لاستجابه دعوه ام مریم:و إنی سمیتها مریم:و إنی اعیذها بک و ذریتها من الشیطان الرجیم،الآیه؛و أن قول الملائکه لمریم:إن اللّه اصطفاک و طهرک إخبار لها بما لها عند اللّه سبحانه من الکرامه و المنزله فارجع الی هناک.

فاصطفاؤها تقبلها لعباده اللّه،و تطهیرها اعتصامها بعصمه اللّه فهی مصطفاه معصومه؛ و ربما قیل:إن المراد من تطهیرها جعلها بتولا لا تحیض فیتهیأ لها بذلک أن لا تضطر الی

الخروج من الكنيسه،و لا بأس به غير أن الذى ذكرناه هو الأوفق بسياق الآيات.

قوله تعالى: وَ اصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ قد تقدم فى قوله تعالى: إِنَّ اللّهَ اصْطَفى الى قوله: عَلَى الْعالَمِينَ أن الاصطفاء المتعدى بعلى يفيد معنى التقدم،و أنه غير الاصطفاء المطلق الذى يفيد معنى التسليم؛و على هذا فاصطفاؤها على نساء العالمين تقديم لها عليهن.

و هل هذا التقديم تقديم من جميع الجهات أو من بعضها؟ظاهر قوله تعالى فيما بعد الآيه:اذ قالت الملائكه يا مريم إن اللّه يبشرك،الآيه؛و قوله تعالى: وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (الأنبياء/۹۱)،و قوله تعالى: وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَ كُتُبِهِ وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ (التحريم/۱۲)؛حيث لم تشتمل عمما تختص بها من بين النساء إلاّ على شأنها العجيب فى ولاده المسيح عليه السّلام أن هذا هو وجه اصطفائها و تقديمها على النساء من العالمين.

و أما ما اشتملت عليه الآيات فى قصتها من التطهير و التصديق بكلمات اللّه و كتبه، و القنوت و كونها محدثه فهى امور لا تختص بها بل يوجد فى غيرها،و أما ما قيل:إنها مصطفاه على نساء عالمى عصرها فإطلاق الآيه يدفعه.

قوله تعالى: يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرّاكِعِينَ ؛القنوت هو لزوم الطاعه عن خضوع على ما قيل،و السجده معروفه.و الركوع هو الانحناء أو مطلق التذلل.

و لما كان النداء يوجب تلفيت نظر المنادى(اسم مفعول)و توجيه فهمه نحو المنادى(اسم فاعل)كان تكرار النداء فى المقام بمنزله أن يقال لها:إن لك عندنا نبأ بعد نبأ فاستمعى لهما و أصغى اليهما:أحدهما ما أكرمك اللّه به من منزله و هو مالك عند اللّه،و الثانى ما يلزمك من وظيفه العبوديه بالمحاذاه،و هو ما للّه سبحانه عندك،فيكون هذا إيفاء للعبوديه و شكرا

للمنزله فيئول معنى الكلام الى كون قوله: يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي ،الخ؛بمنزله التفريع لقوله: يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ ،الخ؛أى اذا كان كذلك فاقنتى و اسجدى و اركعى مع الراكعين،و لا يبعد أن يكون كل واحده من الخصال الثلاثه المذكوره فى هذه الآيه فرعا لواحده من الخصال الثلاثه المذكوره فى الآيه السابقه،و إن لم يخل عن خفاء فليتأمل.

قوله تعالى: ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ؛عده من أنباء الغيب نظير ما عدت قصه يوسف عليه السّلام من أنباء الغيب التى توحى الى رسول اللّه؛قال تعالى: ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (يوسف/۱۰۲)،و أما ما يوجد من ذلك عند أهل الكتاب فلا عبره به لعدم سلامته من تحريف المحرفين كما أن كثيرا من الخصوصيات المقتصه فى قصص زكريا غير موجوده فى كتب العهدين على ما وصفه اللّه فى القرآن.

و يؤيد هذا الوجه قوله تعالى فى ذيل الآيه:و ما كنت لديهم اذ يلقون،الخ.

على أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قومه كانوا اميين غير عالمين بهذه القصص و لا أنهم قرءوها فى الكتب كما ذكره تعالى بعد سرد قصه نوح: تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذَا (هود/۴۹)،و الوجه الأول أوفق بسياق الآيه.

قوله تعالى: وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ الخ؛القلم فتحتين القدح الذى يضرب به القرعه،و يسمى سهما أيضا،و جمعه أقلام،فقوله: يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أى يضربون بسهامهم ليعينوا بالقرعه أيهم يكفل مريم.

و فى هذه الجمله دلاله على أن الاختصام الذى يدل عليه قوله: وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إنما هو اختصامهم و تشاحهم فى كفاله مريم،و أنهم لم يتناهوا حتى تراضوا بالاقتراع بينهم فضربوا بالقرعه فخرج السهم لزكريا فكفلها بدليل قوله: وَ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، الآيه.

قوله تعالی: إِذْ قٰالَتِ الْمَلاٰئِکَهُ یٰا مَرْیَمُ إِنَّ اللّٰهَ یُبَشِّرُکِ الخ؛الظاهر أن هذه البشاره هی التی یشتمل علیها قوله تعالی فی موضع آخر: فَأَرْسَلْنٰا إِلَیْهٰا رُوحَنٰا فَتَمَثَّلَ لَهٰا بَشَراً سَوِیًّا قٰالَتْ إِنِّی أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْکَ إِنْ کُنْتَ تَقِیًّا قٰالَ إِنَّمٰا أَنَا رَسُولُ رَبِّکِ لِأَهَبَ لَکِ غُلاٰماً زَکِیًّا الآیات(مریم١٩/)،فتکون البشاره المنسوبه الی الملائکه هاهنا هی المنسوبه الی الروح فقط هناک.

و قد قیل فی وجهه أن المراد بالملائکه هو جبرئیل،عبر بالجمع عن الواحد تعظیما لامر کما یقال:سافر فلان فرکب الدواب و رکب السفن،و إنما رکب دابه واحده و سفینه واحده، و یقال:قال له الناس کذا،و إما قاله واحد و هکذا،و نظیره الآیه قوله فی قصه زکریا السابقه:

فنادته الملائکه ثم قوله: قٰالَ کَذٰلِکَ اللّٰهُ یَفْعَلُ مٰا یَشٰاءُ ،الآیه.

و ربما قیل:إن جبرئیل کان معه غیره فاشترکوا فی ندائها.

و الذی یعطیه التدبر فی الآیات التی تذکر شأن الملائکه أن بین الملائکه تقدما و تأخرا من حیث مقام القرب،و أن للمتأخر التبعیه المحضه لأوامر المتقدم بحیث یکون فعل المتأخر رتبه، عین فعل المتقدم،و قوله عین قوله نظیر ما نشاهده و نذعن به من کون أفعال قوانا و أعضائنا عین أفعالنا من غیر تعدد فیه تقول:رأته عینای و سمعته اذنای،و رأیته و سمعته،و یقال فعلته جوارحی و کتبته یدی و رسمته أناملی و فعلته أنا و کتبته أنا،و کذلک فعل المتبوع من الملائکه فعل التابعین له المؤتمرین لأمره بعینه،و قوله قولهم من غیر اختلاف،و بالعکس کما أن فعل الجمیع فعل اللّه سبحانه و قولهم قوله،کما قال تعالی: اَللّٰهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِهٰا (الزمر/ ۴۲)،فنسب التوفی الی نفسه،و قال: قُلْ یَتَوَفّٰاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ (السجده١١/)،فنسبه الی ملک الموت و قال: حَتّٰی إِذٰا جٰاءَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا (الأنعام۶١/)،فنسبه الی جمع من الملائکه.

و نظیره قوله تعالی: إِنّٰا أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ (النساء١۶٣/)،و قوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ

عَلىٰ قَلْبِكَ (الشعراء١٩۴/)،و قوله: مَنْ كٰانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ (البقره٩٧/)،و قوله: كَلاّ إِنَّهٰا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شٰاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرٰامٍ بَرَرَةٍ (عبس١۶/).

فظهر أن بشاره جبريل هى عين بشاره من هو تحت أمره من جماعه الملائكه و هو من سادات الملائكه و مقربيهم على ما يدل عليه قوله تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطٰاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (التكوير٢١/)،و سيأتى زياده توضيح لهذا الكلام فى سوره فاطر إن شاء اللّه تعالى.

و يؤيد ما ذكرناه قوله تعالى فى الآيه التاليه:قال كذلك اللّه يفعل ما يشاء،فإن ظاهره أن القائل هو اللّه سبحانه مع أنه نسب هذا القول فى سوره مريم فى القصه الى الروح،قال تعالى:

قٰالَ إِنَّمٰا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاٰماً زَكِيًّا قٰالَتْ أَنّٰى يَكُونُ لِي غُلاٰمٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا قٰالَ كَذٰلِكِ قٰالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ الآيات(مريم٢١/).

و فى تكلم الملائكه و الروح مع مريم دلاله على كونها محدثه بل قوله تعالى فى سوره مريم فى القصه بعينها: فَأَرْسَلْنٰا إِلَيْهٰا رُوحَنٰا فَتَمَثَّلَ لَهٰا بَشَراً سَوِيًّا (مريم١٧/)،يدل على معاينتها الملك زياده على سماعها صوته،و سيجىء تمام الكلام فى المعنى فى البحث الرائى الآتى إنشاء اللّه.

قوله تعالى: بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ؛قد مر البحث فى معنى كلامه تعالى فى تفسير قوله: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ (البقره/ ٢۵٣).

و الكلمه و الكلم كالتمره و التمر جنس و فرد و تطلق الكلمه على اللفظ الواحد الدال على المعنى،و على الجمله سواء صح السكوت عليها مثل زيد قائم أو لم يصح مثل إن كان زيد قائما، هذا بحسب اللغه،و أما بحسب ما يصطلح عليه القرآن أعنى الكلمه المنسوبه الى اللّه تعالى فهى الذى يظهر به ما أراده اللّه تعالى من أمر نحو كلمه الإيجاد و هو قوله تعالى لشىء أراده:كن،أو كلمه الوحى و الإلهام و نحو ذلك.

و أما المراد بالكلمه فقد قيل:إن المراد به المسيح عليه السّلام من جهه أن من اسبقه من الأنبياء أو خصوص أنبياء بنى إسرائيل بشروا به بعنوان أنه منجى بنى إسرائيل؛قال فى نظير المورد هذه كلمتى التى كنت أقولها،و نظيره قوله تعالى فى ظهور موسى عليه السّلام: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنىٰ عَلىٰ بَنِى إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا (الأعراف/١٣٧)،و فيه أن ذلك و إن كان ربما ساعده كتب العهدين لكن القرآن الكريم خال عن ذلك بل القرآن يعد عيسى بن مريم مبشرا لا مبشرا به،على أن سياق قوله: اِسْمُهُ الْمَسِيحُ لا يناسبه فإن الكلمه على هذا ظهور عيسى الخبر به قبلا لا نفس عيسى،و ظاهر قوله: اِسْمُهُ الْمَسِيحُ ،أنا لمسيح اسم الكلمه لا اسم من تقدمت فى حقه الكلمه.

و ربما قيل:إن المراد به عيسى عليه السّلام لإيضاحه مراده تعالى بالتوراه،و بيانه تحريفات اليهود و ما اختلفوا فيه من امور الدين كما حكى اللّه تعالى عنه ذلك فيما يخاطب به بنى إسرائيل: وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ (الزخرف/٦٣)،و فيه أنه نكته تصحح هذا التعبير لكنها خاليه عما يساعدها من القرائن.

و ربما قيل:إن المراد بكلمه منه البشاره نفسها،و هى الإخبار بحملها بعيسى و ولادته فمعنى قوله: يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَهٍ مِنْهُ :يبشرك ببشاره هى أنك ستلدين عيسى من غير مس بشر،و فيه أن سيقال الذيل أعنى قوله: اِسْمُهُ الْمَسِيحُ ،لا يلائمه و هو ظاهر.

و ربما قيل:إن المراد به عيسى عليه السّلام من جهه كونه كلمه الإيجاد أعنى قوله: كُنْ و إنما اختص عيسى عليه السّلام بذلك مع كون كل إنسان بكل شىء موجودا بكلمه كن التكوينيه لأن سائر الأفراد من الإنسان يجرى ولادتهم على مجرى الأسباب العاديه المألوفه فى العلوق من ورود ماء الرجل على نطفه الإناث،و عمل العوامل المقارنه فى ذلك،و لذلك يسند العلوق اليه كما يسند سائر المسببات الى أسبابها،و لما لم يجر علوق عيسى هذا المجرى و فقد بعض الأسباب العاديه التدريجيه كان وجوده بمجرد كلمه التكوين من غير تخلل الأسباب العاديه فكان نفس الكلمه كما يؤيده قوله تعالى: وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلىٰ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ (النساء/١٧١)،و قوله تعالى فى آخر هذه الآيات: إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الآيه؛و هذا أحسن الوجوه.

و المسيح هو الممسوح سمى به عيسى عليه السّلام لأنه كان مسيحا باليمين و البركه أو لأنه مسح بالتطهير من الذنوب،أو مسح بدهن بورك فيه و كانت الأنبياء يمسحون به أو لأن جبرائيل مسحه بجناحه حين ولادته ليكون عوذه من الشيطان،أو لأنه كان يمسح رءوس اليتامى،أو لأنه كان يمسح عن الأعمى بيده فيبصر،أو لأنه كان لا يمسح ذا عاهه بيده إلّا برء،فهذه وجوه ذكروها فى تسميته بالمسيح.

و تقييد عيسى بابن مريم مع كون الخطاب فى الآيه لمريم للتنبيه على أنه مخلوق من غير أب،و يكون معروفا بهذا النعت،و أن مريم شريته فى هذه الآيه كما قال تعالى: وَ جَعَلْنٰاهٰا وَ ابْنَهٰا آيَةً لِلْعٰالَمِينَ (الأنبياء۹۱/).

قوله تعالى: وَجِيهاً فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ،الوجاهه هى المقبوليه،و كونه عليه السّلام مقبولا فى الدنيا مما لا خفاء فيه،و كذا فى الآخره بنص القرآن.

و معنى المقربين ظاهر فهو مقرب عند اللّه داخل فى صف الأولياء و المقربين من الملائكه من حيث التقريب كما ذكره تعالى بقوله: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لاَ الْمَلاٰئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ (النساء۱۷۲/)،و قد عرف تعالى معنى التقريب بقوله: إِذٰا وَقَعَتِ الْوٰاقِعَةُ -الى أن قال-: وَ كُنْتُمْ أَزْوٰاجاً ثَلاٰثَةً -الى أن قال: وَ السّٰابِقُونَ السّٰابِقُونَ أُولٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (الواقعه/ ۱۱)،و الآيه كما ترى تدل على أن هذا التقرب و هو تقرب الى اللّه سبحانه حقيقته سبق الإنسان سائر أفراد نوعه فى سلوك طريق العود الى اللّه الذى سلوكه مكتوب على كل إنسان بل كل شىء،قال تعالى: يٰا أَيُّهَا الْإِنْسٰانُ إِنَّكَ كٰادِحٌ إِلىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاٰقِيهِ (الانشقاق/ ۶)،و قال تعالى: أَلاٰ إِلَى اللّٰهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (الشورى۵۳/).

و أنت اذا تأملت كون المقربين صفه الأفراد من الإنسان و صفه الأفراد من الملائكه علمت أنه لا يلزم أن يكون مقاما اكتسابيا فإن الملائكه لا يحرزون ما أحرزوه فى المقام عند اللّه سبحانه بالكسب فلعله مقام تناله المقربون من الملائكه بهبه إلهيه و المقربون من الإنسان بالعمل.

و قوله وجيها فى الدنيا و الآخره،حال،و كذا ما عطف عليه من قوله: وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، و يكلم اه،و من الصالحين،و يكلمه اه،رسولا اه.

قوله تعالی: وَ يُكَلِّمُ النّٰاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً ،المهد ما يهيأ للصبی من الفراش، و الكهل من الكهوله و هو ما بين الشباب و الشيخوخه،و هو ما يكون الإنسان فيه رجلا تاما قويا،و لذا قيل:الكهل من وخطه الشيب أی خالطه،و ربما قيل:إن الكهل من بلغ أربعا و ثلاثين.

و كيف كان ففيه دلاله علی أنه سيعيش حتی يبلغ سن الكهوله ففيه بشاره اخری لمريم.

و فی التصريح بذلك مع دلاله الأناجيل علی أنه لم يعش فی الأرض أكثر من ثلاثه و ثلاثين سنه نظر ينبغی أن يمعن فيه،و لذا ربما قيل:إن تكليمه للناس كهلا إنما هو بعد نزوله من السماء فإنه لم يمكث فی الأرض ما يبلغ به سن الكهوله،و ربما قيل:إن الذی يعطيه التاريخ بعد التثبت أن عيسی عليه السّلام عاش نحوا من أربع و ستين سنه خلافا لما يظهر من الأناجيل.

و الذی يظهر من سياق قوله: فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا ،أنه لا يبلغ سن الشيخوخه،و إنما ينتهی الی سن الكهوله؛و علی هذا فقد أخذ فی البيان كلامه فی طرفی عمره:الصبی و الكهوله.

قوله تعالی: قٰالَتْ رَبِّ أَنّٰى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ،خطابها لربها مع كون المكلم إياها الروح المتمثل بناء علی ما تقدم أن خطاب الملائكه و خطاب الروح و كلامهم كلام اللّه سبحانه فقد كانت تعلم أن الذی يكلمها هو اللّه سبحانه و إن كان الخطاب متوجها إليها من جهه الروح المتمثل أو الملائكه و لذلك خاطبت ربها.

و يمكن أن يكون الكلام من قبيل قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (المؤمنون/۹۹)،فهو من الاستغاثه المعترضه فی الكلام.

قوله سبحانه: قٰالَ كَذٰلِكِ اللّٰهُ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ إِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ قد مرت الإشاره الی أن تطبيق هذا الجواب بما فی سوره مريم من قوله: قٰالَ كَذٰلِكِ قٰالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنّٰاسِ وَ رَحْمَةً مِنّٰا وَ كٰانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (مريم/۲۱)،يفيد أن يكون قوله هاهنا:كذلك كلاما تاما تقديره:الأمر كذلك و معناه أن الذی بشرت به أمر مقضی لا مرد له.

و أما التعجب من هذا الأمر فإنما يصح لو كان هذا الأمر مما لا يقدر عليه اللّه سبحانه أو يشق:أما القدره فإن قدرته غير محدوده يفعل ما يشاء،و أما صعوبته و مشقته فإن العسر

و الصعوبه إنما يتصور اذا كان الأمر مما يتوسل إليه بالأسباب فكلما كثرت المقدمات و الأسباب و عزت و بعد منالها اشتد الأمر صعوبه،و اللّه سبحانه لا يخلق ما يخلق بالأسباب بل اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون.

فقد ظهر أن قوله: كَذٰلِكِ كلام تام أريد به رفع اضطراب مريم و تردد نفسها،و قوله: اَللّٰهُ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ ،رفع العجز الذى يوهمه التعجب،و قوله: إِذٰا قَضىٰ ،رفع لتوهم العسر و الصعوبه.

قوله تعالى: وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرٰاةَ وَ الْإِنْجِيلَ ،اللام فى الكتاب و الحكمه للجنس.و قد مر أن الكتاب هو الوحى الرافع لاختلافات الناس؛و الحكمه هى المعرفه النافعه المتعلقه بالاعتقاد أو العمل،و على هذا فعطف التوراه و الإنجيل على الكتاب و الحكمه مع كونهما كتابين مشتملين على الحكمه من قبيل ذكر الفرد بعد الجنس لأهميه فى اختصاصه بالذكر،و ليست لام الكتاب لاستغراق لقوله تعالى: وَ لَمّٰا جٰاءَ عِيسىٰ بِالْبَيِّنٰاتِ قٰالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ (الزخرف۶۳/)،و قد مر بيانه.

و أما التوراه فالذى يريد القرآن منها هو الذى نزله اللّه على موسى عليه السّلام فى الميقات فى ألواح على ما يقصه اللّه سبحانه فى سوره الأعراف؛و أما الذى عند اليهود من الأسفار فهم معترفون بانقطاع اتصال السند ما بين بختنصر من ملوك بابل و كورش من ملوك الفرس،غير أن القرآن يصدق أن التوراه الموجود بأيديهم فى زمن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم غير مخالفه للتوراه الأصل بالكليه و إن لعبت بها يد التحريف؛و دلاله آيات القرآن على ذلك واضحه.

و أما الإنجيل و معناه البشاره فالقرآن يدل على أنه كان كتابا واحدا نازلا على عيسى فهو الوحى المختص به،قال تعالى: وَ أَنْزَلَ التَّوْرٰاةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنّٰاسِ (آل عمران/ ۴)،و أما هذه الأناجيل المنسوبه الى متى و مرقس و لوقا و يوحنا فهى كتب مؤلفه بعده عليه السّلام.

و يدل أيضا على أن الأحكام إنما هى فى التوراه،و أن الانجيل لا تشتمل إلاّ على بعض النواسخ كقوله فى هذه الآيات:مصدقا لما بين يدى من التوراه و لأحل لكم بعض الذى حرم عليكم،الآيه؛و قوله: وَ آتَيْنٰاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرٰاةِ

وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فِيهِ (المائده۴۷/)،و لا يبعد أن يستفاد من الآيه أن فيه بعض الأحكام الإثباتيه.

و يدل أيضا على أن الإنجيل مشتمل على البشاره بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كالتوراه،قال تعالى:

اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرٰاةِ وَ الْإِنْجِيلِ (الأعراف۱۵۷/).

قوله تعالى: وَ رَسُولاً إِلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ ؛ظاهره أنه عليه السّلام كان مبعوثا الى بنى إسرائيل خاصه كما هو اللائح من الآيات فى حق موسى عليه السّلام،و قد مر فى الكلام على النبوه فى ذيل قوله تعالى: كٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ الآيه(البقره۲۱۳/)،أن عيسى عليه السّلام كموسى من أولى العزم و هم مبعوثون الى أهل الدنيا كافه.

لكن العقده تنحل بما ذكرناه هناك فى الفرق بين الرسول و النبى أن النبوه هى منصب البعث و التبليغ،و الرساله هى السفاره الخاصه التى تستتبع الحكم و القضاء بالحق بين الناس؛إما بالبقاء و النعمه،أو بالهلاك كما يفيده قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ (يونس۴۷/).

و بعباره اخرى النبى هو الإنسان المبعوث لبيان الدين للناس،و الرسول هو المبعوث لاداء بيان خاص يستتبع رده الهلاك و قبوله البقاء و السعاده كما يؤيده بل يدل عليه ما حكاه اللّه سبحانه من مخطابات الرسل لأممهم كنوح و هود و صالح و شعيب و غيرهم عليهم السّلام.

و على ذلك شواهد من القرآن الكريم كرساله موسى الى فرعون،قال تعالى: اِذْهَبْ إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغىٰ (طه۲۴/)،و إيمان السحره لموسى و ظهور قبل إيمانهم و لم يكونوا من بنى إسرائيل،قال تعالى: قٰالُوا آمَنّٰا بِرَبِّ هٰارُونَ وَ مُوسىٰ (طه۷۰/)،و دعوه قوم فرعون، قال تعالى: وَ لَقَدْ فَتَنّٰا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (الدخان۱۷/)،و نظير ذلك ما كان من أمر إيمان الناس بعسى فلقد آمن به عليه السّلام قبل بعثه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الروم و أمم عظيمه من الغربيين كالإفرنج و النمسا و البروس و إنجلترا و أمم من الشرقيين كنجران و هم جميعهم ليسوا من بنى إسرائيل؛و القرآن لم يخص-فيما يذكر فيه النصارى-نصارى بنى

إسرائيل خاصه بالذكر بل يعمم مدحه أو ذمه الجميع.

قوله تعالى: أَنِّی قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَهٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّی أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ -الى قوله- وَ أُحْيِ الْمَوْتىٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ ،الخلق جمع أجزاء الشیء،و فيه نسبه الخلق الى غيره تعالى كما يشعر به أيضا قوله تعالى: فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخٰالِقِينَ (المؤمنون/١۴).

و الأكمه هو الذی يولد مطموس العين؛و قد يقال لمن تذهب عينه،قال:كمهت عيناه حتى ابيضتا؛قاله الراغب،و الأبرص من كان به برص و هو مرض جلدی معروف.

و فی قوله: وَ أُحْيِ الْمَوْتىٰ حيث علق الإحياء بالموتى و هو جمع دلاله لا أقل من الإشعار بالكثره و التعدد.

و كذا قوله: بِإِذْنِ اللّٰهِ ،سيق للدلاله على أن صدور هذه الآيات المعجزه منه عليه السّلام مستند الى اللّه تعالى من غير أن يستقل عيسى عليه السّلام بشیء من ذلك،و إنما كرر تكرارا يشعر بالإصرار لما كان من المترقب أن يضل فيه الناس فيعتقدوا بالوهيته استدلالا بالآيات المعجزه الصادره عنه عليه السّلام،و لذا كان يقيد كل آيه يخبر بها عن نفسه مما يمكن أن يضلوا به كالخلق و إحياء الموتى بإذن اللّه ثم ختم الكلام بقوله: إِنَّ اللّٰهَ رَبِّی وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ .

و ظاهر قوله: أَنِّی أَخْلُقُ لَكُمْ ،الخ؛أن هذه الآيات كانت تصدر عنه صدورا خارجيا لا- أن الكلام مسوق لمجرد الاحتجاج و التحدی،و لو كان مجرد قول لقطع العذر و إتمام الحجه لكان من حق الكلام أن يقيد بقيد يفيد ذلك كقولنا:إن سألتم أو أردتم أو نحو ذلك.

قوله تعالى: وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمٰا تَأْكُلُونَ وَ مٰا تَدَّخِرُونَ فِی بُيُوتِكُمْ ،و هذا إخبار بالغيب المختص باللّه تعالى،و من خصه من رسله بالوحی؛و هو آيه اخرى و إخبار بغيب صريح التحقق لا يتطرق اليه الشك و الريب فإن الإنسان لا يشك عاده فيما أكله و لا فيما ادخره فی بيته.

و إنما لم يقيد هذه الآيه بإذن اللّه مع أن الآيه لا تتحقق إلاّ بإذن منه تعالى كما قال: وَ مٰا كٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِیَ بِآيَهٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ (المؤمن/٧٨)،لأن هذه الآيه عبر عنها بالإنباء و هو كلام قائم بعيسى عليه السّلام بعد فعلا له فلا يليق أن يسند الى ساحه القدس بخلاف الآيتين السابقتين أعنی الخلق و الإحياء فإنها فعل اللّه بالحقيقه و لا ينسبان الى غيره إلاّ بإذنه.

ص :۴۶٠

على أن الآيتين المذكورتين ليستا كالإنباء فإن الضلاله الى الناس فيهما أسرع منه فى الإنباء فإن القلوب الساذجه تقبل الوهيه خالق الطير و محيى الموتى بأدنى وسوسه و مغلطه بخلاف الوهيه من يخبر بالمغيبات فإنها لا تذعن باختصاص الغيب بالله سبحانه بل تعتقده أمرا مبتذلا جايز النيل لكل مرتاض أو كاهن مشعبذ فكان من الواجب عند مخاطبتهم أن يقيد الآيتين المذكورتين بالإذن دون الأخيره،و كذا الإبرار فيكفى فيها مجرد ذكر أنها آيه من الله، و خاصه اذا لقى الخطاب الى قوم يدعون أنهم مؤمنون،و لذلك ذيل الكلام بقوله: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ أى إن كنتم صادقين فى دعويكم الإيمان.

قوله تعالى: وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیَّ مِنَ التَّوْرٰاهِ وَ لِأُحِلَّ لَکُمْ بَعْضَ الَّذِی حُرِّمَ عَلَیْکُمْ ،عطف على قوله: وَ رَسُولاً إِلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ ،و كون المعطوف مبنيا على التكلم مع كون المعطوف عليه مبنيا على الغيبه أعنى كون عيسى عليه السّلام فى قوله: وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیَّ ،متكلما و فى قوله: وَ رَسُولاً إِلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ ،غائبا ليس مما يضر بالعطف بعد تفسيره قوله: وَ رَسُولاً إِلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ ،بقول عيسى:أنى قد جئتكم،فإن وجه الكلام يتبدل بذلك من الغيبه الى الحضور فيستقيم به العطف.

و تصديقه للتوراه التى بين يديه إنما هو تصديق لما علمه الله من التوراه على ما تفيده الآيه السابقه،و هو التوراه الأصل النازله على موسى عليهما السّلام فلا دلاله لكونه مصدقا للتوراه التى فى زمانه على كونها غير محرفه كما لا دلاله لتصديق نبينا محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم للتوراه التى بين يديه على كونها غير محرفه.

قوله تعالى: وَ لِأُحِلَّ لَکُمْ بَعْضَ الَّذِی حُرِّمَ عَلَیْکُمْ ،فإن الله تعالى كان حرم عليهم بعض الطيبات،قال تعالى: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَیْهِمْ طَیِّبٰاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ الآيه(النساء ١٦٠).

و الكلام لا يخلو عن دلاله عن إمضائه عليه السّلام لأحكام التوراه إلاّ ما نسخه الله تعالى بيده من الأحكام الشاقه المكتوبه على اليهود؛و لذا قيل:ان الإنجيل غير مشتمل على الشريعه، و قوله: وَ لِأُحِلَّ ،معطوف على قوله: بِآیَهٍ مِنْ رَبِّکُمْ ،و اللام للغايه،و المعنى:قد جئتكم لأنسخ

بعض الأحكام المحرمه المكتوبه عليكم.

قوله تعالى: وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ؛الظاهر أنه لبيان أن قوله: فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ ، متفرع على إتيان الآيه لا على إحلال لمحرمات فهو لدفع الوهم،و يمكن أن يكون هو مراد من قال:إن إعاده الجمله للتفرقه بين ما قبلها و ما بعدها فإن مجرد التفرقه ليست من المزايا فى الكلام.

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ،فيه قطع لعذر من اعتقد الوهيته لتفرسه عليه السّلام ذلك منهم أو لعلمه بذلك بالوحى كما ذكرنا نظير ذلك فى تقييد قوله: فَيَكُونُ طَيْراً ، و قوله: وَ أُحْيِ الْمَوْتىٰ ،بقوله: بِإِذْنِ اللّٰهِ لكن الظاهر من قوله تعالى فيما يحكى قول عيسى عليه السّلام:

مٰا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّٰ مٰا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ (المائده/١١٧)،أن ذلك كان بأمر من ربه و وحى منه.

قوله تعالى: فَلَمّٰا أَحَسَّ عِيسىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قٰالَ مَنْ أَنْصٰارِي إِلَى اللّٰهِ ؛ لما كانت البشاره التى بشر بها مريم مشتمله على جمل قصص عيسى عليه السّلام من حين حمله الى حين رسالته و دعوته اقتصر عليها اقتصاصا إيجازا فى الكلام و فرع عليها تتمه الجمله من قصته و هو انتخابه حوارييه و مكر قومه به و مكر اللّٰه بهم فى تطهيره منهم و توفيه و رفعه اليه، و هو تمام القصه.

و قد اعتبر فى القصه المقدار الذى يهم إلقائه الى النصارى حين نزول الآيات،و هم نصارى نجران:الوفد الذين أتوا المدينه للبحث و الاحتجاج،و لذلك اسقط منها بعض الخصوصيات التى تشتمل عليه قصصه المذكوره فى سائر السور القرآنيه كسوره النساء و المائده و الأنبياء و الزخرف و الصف.

و قد قيد الأنصار فى قوله: مَنْ أَنْصٰارِي بقوله: إِلَى اللّٰهِ ليتم به معنى التشويق و التحريص الذى سيق لأجله هذا الاستفهام نظير قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً (البقره/٢۴۵).

و الظرف متعلق بقوله: أَنْصٰارِي ،بتضمين النصره معنى السلوك و الذهاب أو ما يشابههما كما حكى عن إبراهيم عليه السّلام من قوله: إِنِّي ذٰاهِبٌ إِلىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (الصافات/٩٩).

قوله تعالى: قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللّهِ آمَنّا بِاللّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنّا مُسْلِمُونَ ؛حوارى الإنسان من اختص به من الناس،و قيل أصله من الحور و هو شده البياض؛و لم يستعمل القرآن هذا اللفظ إلاّ فى خواص عيسى عليه السّلام من أصحابه.

و قولهم: آمَنّا بِاللّهِ ،بمنزل التفسير لقولهم: نَحْنُ أَنْصارُ اللّهِ و هذا مما يؤيد كون قوله: أَنْصارِى الى اللّه جاريا مجرى التضمين كما مر فإنه يفيد معنى السلوك فى الطريق الى اللّه،و الإيمان طريق.

و هل هذا أول إيمانهم بعيسى عليه السّلام؟ربما استفيد من قوله تعالى: كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ (الصف/ ۱۴)،أنه إيمان بعد إيمان،و لا ضير فيه كما يظهر بالرجوع الى ما أوضحناه من كون الإيمان و الإسلام ذوى مراتب مختلفه بعضها فوق بعض.

بل ربما دل قوله تعالى: وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِی وَ بِرَسُولِی قالُوا آمَنّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (المائده/۱۱۱)،أن إجابتهم إنما كانت بوحى من اللّه تعالى إليهم، و أنهم كانوا أنبياء فيكون الإيمان الذى أجابوه به هو الإيمان بعد الإيمان.

على أن قولهم:و أشهد بأننا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت و أتبعنا الرسول،و هذا الإسلام هو التسليم المطلق لجميع ما يريده اللّه تعالى منهم و فيهم-يدل أيضا على ذلك فإن هذا الإسلام لا يتأتى إلاّ من خلص المؤمنين لا من كل من شهد بالتوحيد و النوبه مجرد شهاده،بيان ذلك أنه قد مر فى البحث عن مراتب الإيمان و الإسلام:أن كل مرتبه من الإيمان تسبقها مرتبه من مراتب الإسلام كما يدل عليه قولهم:آمنا باللّه و أشهد بأنا مسلمون،حيث أتوا فى الإيمان بالفعل و فى الإسلام بالصفه فأول مراتب الإسلام هو التسليم و الشهاده على أصل الدين إجمالا،و يتلوه الإذعان القلبى بهذه الشهاده الصوريه فى الجمله،و يتلوه(و هو المرتبه الثانيه من الإسلام)التسليم القلبى لمعنى الإيمان و ينقطع عنده السخط و الاعتراض الباطنى بالنسبه الى جميع ما يأمر به اللّه و رسوله و هو الاتباع العملى فى الدين،و يتلوه(و هو المرتبه الثانيه من الإيمان)خلوص العمل و استقرار وصف العبوديه فى جميع الأعمال و الأفعال،و يتلوه(و هو المرتبه الثالثه من الإسلام)التسليم لمحبه اللّه و إرادته تعالى فلا يحب و لا يريد شيئا إلاّ باللّه،و لا

يقع هناك إلّا ما أحبه اللّه و أراده و لا خبر عن محبه العبد و إرادته فى نفسه،و يتلوه(و هو المرتبه الثالثه من الإيمان)شيوع هذا التسليم العبودى فى جميع الأعمال.

قوله تعالى: رَبَّنا آمَنّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشّاهِدِينَ ، مقول قول الحواريين حذف القول من اللفظ للدلاله على حكايه نفس الواقعه و هو من الأساليب اللطيفه فى القرآن الكريم،و قد مر بيانه،و قد سألوا ربهم أن يكتبهم من الشاهدين، و فرّعوا ذلک على إيمانهم و إسلامهم جميعا لأن تبليغ الرسول رسالته إنما يتحقق ببيانه ما أنزله اللّه عليه قولا و فعلا،أى بتعليمه معالم الدين و عمله بها،فالشهاده على التبليغ إنما يكون بتعلمها من الرسول و اتباعه عملا حتى يشاهد أنه عامل بما يدعو اليه لا يتخطاه و لا يتعداه.

و الظاهر أن هذه الشهاده هى التى يومى إليها قوله تعالى: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف/۶)،و هى الشهاده على التبليغ،و أما قوله تعالى: وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشّاهِدِينَ (المائده/۸۳)،فهو شهاده على حقيه رساله الرسول دون البليغ،و اللّه أعلم.

قوله تعالى: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللّهُ وَ اللّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ ،الماكرون هم بنو إسرائيل،بقرينه قوله: فَلَمّا أَحَسَّ عِيسىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ،و قد مر الكلام فى معنى المكر المنسوب اليه تعالى فى ذيل قوله: وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ (البقره/۲۶).

قوله تعالى: إِذْ قالَ اللّهُ يا عِيسىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ،التوفى أخذ الشىء أخذا تاما، و لذا يستعمل فى الموت لأن اللّه يأخذ عند الموت نفس الإنسان من بدنه قال تعالى: تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا (الأنعام/۶۱)،أى أماتته،و قال تعالى: وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ -الى أن قال-: قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده/۱۱)، و قال تعالى: اَللّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرىٰ (الزمر/۴۲)،و التأمل فى الآيتين الأخيريتين يعطى أن التوفى لم يستعمل فى القرآن بمعنى الموت بل بعنايه الأخذ و الحفظ،و بعباره اخرى إنما استعمل التوفى بما فى حين الموت من الأخذ للداله على أن نفس الإنسان لا يبطل و لا يفنى بالموت الذى

يظن الجاهل أنه فناء و بطلان بل اللّه تعالى يحفظها حتى يبعثها بالرجوع اليه،و إلاّ فهو سبحانه يعبر فى الموارد التى لا تجرى فيه هذه العنايه بلفظ الموت دون التوفى كما فى قوله تعالى: وَ مٰا مُحَمَّدٌ إِلاّٰ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ مٰاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلىٰ أَعْقٰابِكُمْ (آل عمران۱۴۴/)،و قوله تعالى: لاٰ يُقْضىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا (فاطر۳۶/)،الى غير ذلك من الآيات الكثيره جدا حتى ما ورد فى عيسى عليه السّلام بنفسه كقوله: وَ السَّلاٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (مريم۳۳/)،و قوله: وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (النساء۱۵۹/)،فمن هذه الجهه لا صراحه للتوفى فى الموت.

على أن قوله تعالى فى رد دعوى اليهود: وَ قَوْلِهِمْ إِنّٰا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّٰهِ وَ مٰا قَتَلُوهُ وَ مٰا صَلَبُوهُ وَ لٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبٰاعَ الظَّنِّ وَ مٰا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (النساء۱۵۹/)،يؤيد ذلك فإن اليهود كانت تدعى أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم عليه السّلام و كذلك كانت تظن النصارى:أن اليهود قتلت عيسى بن مريم عليه السّلام بالصلب غير أنهم كانوا يزعمون أن اللّه سبحانه رفعه بعد قتله من قبره الى السماء على ما فى الأناجيل،و الآيات كما ترى تكذب قصه القتل و الصلب صريحا.

و الذى يعطيه ظاهر قوله: وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ الآيه أنه حى نند اللّه و لن يموت حتى يؤمن به أهل الكتاب،على هذا فيكون توفيه عليه السّلام أخذه من بين اليهود لكن الآيه مع ذلك غير صريحه فيه و إنما هو الظهور،و سيجىء تمام الكلام فى ذلك فى آخر سوره النساء.

قوله تعالى: وَ رٰافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ،الرفع خلاف الوضع، و الطهاره خلاف القذاره،و قد مر الكلام فى معنى الطهاره.

و حيث قيد الرفع بقوله: إِلَيَّ ،أفاد ذلك أن المراد بالرفع الرفع المعنوى دون الرفع الصوى اذ لا مكان له تعالى من سنخ الأمكنه الجسمانيه التى تتعاورها الأجسام و الجسمانيات بالحلول فيها،و القرب و البعد منها،فهو من قبيل قوله تعالى فى ذيل الآيه:ثم إلىّ مرجعكم،و خاصه

لو كـان المراد بـالتوفّی هو القبض لظهور أن المراد حينئـذ هو رفع الـدرجه و القرب من اللّه سـبحانه،نظير ما ذكره تعالى فی حق المقتولين فی سبيله: أَحْيٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ (آل عمران/ ۱۶۹)،و ما ذكره فی حق إدريس عليه السّلام: وَ رَفَعْنٰاهُ مَكٰاناً عَلِيًّا (مريم۵۷/).

و ربمـا يقـال:إن المراد برفعـه إليه رفعه بروحه و جسـده حيـا الى السـماء على مـا يشـعر به ظـاهر القرآن الشـريف أن السـماء أى الجسـمانيه هی مقـام القرب من اللّه سـبحانه،و محـل نزول البركـات، و مسـكن الملائكه المكرمين،و لعلنا نوفق للبحث عن معنی السماء فيما سيأتی إنشاء اللّه تعالى.

و التطهير من الكـافرين حيث أتبـع به الرفع الى اللّه سـبحانه أفـاد معنى التطهير المعنـوی دون الظـاهری الصـوری،فهو إبعـاده من الكفار و صونه عن مخالطتهم و الوقوع فی مجتمعهم المتقذر بقذاره الكفر و الجحود.

قوله تعـالى: وَ جٰاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ ، وعـد منه تعالى له عليه السّـلام أنه سـيفوّق متبعی عيسـی عليه السّـلام على مخـالفيه الكافرين بنبوته،و أن تفوقهم هـذا سـيدوم الى يوم القيامه،و إنما ذكر تعالى فی تعريف هؤلاء الفائقين على غيرهم أن الفـائقين هم الـذين اتبعـوه و أن غيرهم هم الـذين كفروا من غير أن يقـول هم بنـو إسـرائيل أو اليهـود المنتحلون بشريعه موسى عليه السّلام أو غير ذلك.

غير أنه تعالى لما أخذ الكفر فی تعريف مخالفيه ظهر منه أن المراد باتباعه هو الاتباع على الحق أعنی الاتباع المرضی للّه سبحانه فيكون الذين اتبعوه هم أتباعه المستقيمون من النصارى قبل ظهور الاسـلام و نسـخه دين عيسـى،و المسلمون بعد ظهور الإسلام فـإنهم هـم أتبـاعه على الحق،و على هـذا فـالمراد بـالتفوق هـو التفـوق بحسـب الحجـه دون السـلطنه و السـيطره،فمحصـل معنى الجمله:أن متبعيك من النصارى و المسـلمين سـتفوق حجتهم على حجه الكافرين بك من اليهود الى يوم القيامه،هـذا ما ذكره و ارتضاه المفسرون فی معنى الآيه.

و الـذی أراه أن الآيه لا تساعد عليه لا بلفظها و لا بمعناها فإن ظاهر قوله إنی متوفيك و رافعك إلیّ و مطهّرك من الذين كفروا و جاعل الذين اتّبعوك،أنه إخبار عن المستقبل و أنه سيتحقق فيما يستقبل حال التكلم توف و رفع و تطهير و جعل على أن قوله: وَ جٰاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ ،وعد

حسن و بشری،و ما هذا شأنه لا یکون إلاّ فی ما سیأتی،و من المعلوم أن لیست حجه متبعی عیسی علیه السّلام الاّ حجه عیسی نفسه،و هی التی ذکرها اللّه تعالی فی ضمن آیات البشاره أعنی بشاره مریم،و هذه الحجج حجج فائقه حین حضور عیسی قبل الرفع،و بعد رفع عیسی بل کانت قبل رفعه علیه السّلام أقطع لعذر الکفار و منبت خصومتهم،و أوضح فی رفع شبههم،فما معنی وعده علیه السّلام أنه ستفوق حجه متبعیه علی حجه مخالفیه؟ثم ما معنی تقیید هذه الغلبه و التفوق بقوله: إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ ،مع أن الحجه فی غلبتها لا تقبل التقیید بوقت و لا یوم علی أن تفوق الحجه علی الحجه باق علی حاله یوم القیامه علی ما یخبر به القرآن فی ضمن أخبار القیامه.

فالمراد جعل النصاری-و هم الذین اتبع أسلافهم عیسی علیه السّلام-فوق الیهود و هم الذین کفروا بعیسی علیه السّلام و مکروا به،و الغرض فی المقام بیان نزول السخط الإلهی علی الیهود، و حلول المکر بهم،و تشدید العذاب علی امتهم،و لا ینافی ما ذکرناه کون المراد بالاتباع هو الاتباع علی الحق کما استظهرناه فی أول الکلام کما لا یخفی.

و یؤید هذا المعنی تغییر الاسلوب فی الآیه الآتیه أعنی قوله: وَ أَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ ،اذ لو کان المراد بالذین اتبعوا هم أهل الحق و النجاه من النصاری و المسلمین فقط کان الأنسب أن یقال:و أما الذین اتبعوک فیوفیهم اجورهم من غیر تغییر للسیاق کما لا یخفی.

و هاهنا وجه آخر و هو أن یکون المراد بالذین اتبعوا هم النصاری و المسلمون قاطبه و تکون الآیه مخبره عن کون الیهود تحت إذلال من یذعن لزوم اتباع عیسی الی یوم القیامه؛ و التقریب عین التقریب،و هذا أحسن الوجوه فی توجیه الآیه عند التدبر.

قوله تعالی: ثُمَّ إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأَحْکُمُ بَیْنَکُمْ فِیمٰا کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ ؛ و قد جمع سبحانه فی هذا الخطاب بین عیسی و بین الذین اتبعوه و الذین کفروا به،و هذا مآل أمرهم یوم القیامه،و بذلک یختتم أمر عیسی و خبره من حین البشاره به الی آخر أمره و نبأه.

قوله تعالی: فَأَمَّا الَّذِینَ کَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذٰاباً شَدِیداً فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ ، ظاهره أنه متفرع علی قوله: فَأَحْکُمُ بَیْنَکُمْ ،تفرع التفصیل علی الإجمال فیکون بیانا للحکم الإلهی فی یوم القیامه بالعذاب للیهود الذین کفروا و توفیه الأجر للمؤمنین.

لکن اشتمال التفریع علی قوله: فِی الدُّنْیا ،یدل علی کونه متفرعا علی مجموع قوله: وَ جاعِلُ الَّذِینَ اتَّبَعُوکَ فَوْقَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِلی یَوْمِ الْقِیامَهِ ثُمَّ إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ ،الخ؛فیدل علی أن نتیجه هذا الجعل و الرجوع تشدید العذاب علیهم فی الدنیا بید الذین فوقهم اللّه تعالی علیهم،و فی الآخره بالنار،و ما لهم فی ذلک من ناصرین.

و هذا أحد الشواهد علی أن المراد بالتفویق فی الآیه السابقه هو التسلیط بالسیطره و القوه دون التأیید بالحجه.

و فی قوله: وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِینَ دلاله علی نفی الشفاعه المانعه عن حلول العذاب بساحتهم،و هو حتم القضاء کما تقدم.

قوله تعالی: وَ أَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فَیُوَفِّیهِمْ أُجُورَهُمْ ؛ و هذا وعد حسن بالجزاء الخیر للذین اتبعوا إلاّ أن مجرد صدق الاتباع لما لم یستلزم استحقاق جزیل الثواب لأن الاتباع کما عرفت وصف صادق علی الامه بمجرد تحققه و صدوره عن عده من أفرادها و حینئذ إنما یؤثر الأثر الجمیل و الثواب الجزیل بالنسبه الی من تلبس به شخصا دون من انتسب الیه اسما فلذلک بدل الذین اتبعوک من مثل قوله: اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ ،لیستقیم المعنی فإن السعاده و العاقبه الحسنی تدور مدار الحقیقه دون الاسم کما یدل علیه قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هادُوا وَ النَّصاری وَ الصّابِئِینَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (البقره۶۲/).

فهذا أجر الذین آمنوا و عملوا الصالحات من الذین اتبعوا عیسی علیه السّلام أن اللّه یوفیهم اجورهم،و أما غیرهم فلیس لهم من ذلک شیء،و قد اشیر الی ذلک فی الآیه بقوله: وَ اللّهُ لا یُحِبُّ الظّالِمِینَ .

و من هنا یظهر السر فی ختم الآیه-و هی آیه الرحمه و الجنه-بمثل قوله: وَ اللّهُ لا یُحِبُّ

الظّالِمِينَ مع أن المعهود في آيات الرحمه و النعمه أن تختم بأسماء الرحمه و المغفره أو بمدح حال من نزلت فى حقه الآيه نظير قوله تعالى: وَ كُلًّا وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنى وَ اللّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (الحديد/١٠)،و قوله تعالى: إِنْ تُقْرِضُوا اللّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (التغابن/١٧)،و قوله تعالى: وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التغابن/٩)،و قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (الجاثيه/٣٠)،الى غير ذلک من الآيات.

فقوله: وَ اللّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ مسوق لبيان حال الطائفه الاخرى ممن انتسب الى عيسى عليه السّلام بالاتباع و هم غير الذين آمنوا و عملوا الصالحات.

قوله تعالى: ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ إشاره الى اختتام القصه.و المراد بالذكر الحكيم القرآن الذى هو ذكر للّه محكم من حيث آياته و بياناته،لا يدخله باطل،و لا يلج فيه هزل.

قوله تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ،تلخيص لموضع الحاجه مما ذكره من قصه عيسى فى تولده تفصيلا،و الإيجاز بعد الإطناب-و خاصه فى مورد الاحتجاج و الاستدلال-من مزايا الكلام؛و الآيات نازله فى الاحتجاج و متعرضه لشأن وفد النصارى نصارى نجران فكان من الأنسب ان يوجز البيان فى خلقته بعد الإطناب فى قصته ليدل على أن كيفيه ولادته لا تدل على أزيد من كونه بشرا مخلوقا نظير آدم عليهما السّلام فليس من الجائز أن يقال فيه أزيد و أعظم مما قيل فى آدم،و هو أنه بشر خلقه اللّه من غير أب.

فمعنى الآيه:أن مثل عيسى عند اللّه أى وصفه الحاصل عنده تعالى أى ما يعلمه اللّه تعالى من كيفيه خلق عيسى الجارى بيده أن كيفيه خلقه يضاهى كيفيه خلق آدم،و كيفيه خلقه أنه

جمع أجزائه من تراب ثم قال له كن فتكون تكونا بشريا من غير أب.

فالبيان بحسب الحقيقه منحل الى حجتين تفى كل واحده منهما على وحدتها بنفى الالوهيه عن المسيح عليه السّلام.

إحداهما:أن عيسى مخلوق للّه-على ما يعلمه اللّه و لا يضل فى علمه-خلقه بشر و إن فقد الأب و من كان كذلك كان عبدا لا ربا.

و ثانيهما:أن خلقته لا تزيد على خلقه آدم فلو اقتضى سنخ خلقه أن يقال بالوهيته بوجه لاقتضى خلق آدم ذلك مع أنهم لا يقولون بها فيه فوجب أن لا يقولوا بها فى عيسى عليه السّلام أيضا لمكان المماثله.

قوله تعالى: اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ فَلاٰ تَکُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ تأكيد لمضمون الآيه السابقه بعد تأكيده بأن و نحوه نظير تأكيد تفصيل القصه بقوله: ذٰلِکَ نَتْلُوهُ عَلَيْکَ مِنَ الْآيٰاتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ،الآيه؛و فيه تطييب لنفس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنه على الحق،و تشجيع له فى المحاجه.

و هذا أعنى قوله: اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ من أبدع البيانات القرآنيه حيث قيد الحق بمن الداله على الابتداء دون غيره بأن يقال:الحق مع ربك لما فيه من شائبه الشرك و نسبه العجز اليه تعالى بحسب الحقيقه.

و ذلك أن هذه الأقاويل الحقه و القضايا النفس الأمريه الثابته كائنه ما كانت و ان كانت ضروريه غير ممكنه التغير عما هى عليه كقولنا:الأربعه زوج،و الواحد نصف الاثنين،و نحو ذلك إلاّ أن الإنسان إنما يقتنصها من الخارج الواقع فى الوجود و الوجود كله منه تعالى،فالحق كله منه تعالى كما أن الخير كله منه،و لذلك كان تعالى لا يسأل عما يفعل و هم يسألون،فإن فعل غيره إنما يصاحب الحق اذا كان حقا،و أما فعله تعالى فهو الوجود الذى ليس الحق إلاّ

صورته العلميه (۱)(۲).

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۶۱ الى ۶۳]

اشاره

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ اَلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اَللَّهِ عَلَى اَلْكَاذِبِينَ (۶۱) إِنَّ هٰذَا لَهُوَ اَلْقَصَصُ اَلْحَقُّ وَ مَا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اَللَّهُ وَ إِنَّ اَللَّهَ لَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۶۲) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اَللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (۶۳)

بيان:

اشاره

قوله تعالى: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ،الفاء للتفريع، و هو تفريع المباهله على التعليم الإلهى بالبيان البالغ فى أمر عيسى بن مريم عليهما السّلام مع ما أكده فى ختمه بقوله: اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .و الضمير فى قوله:فيه راجع الى عيسى أو الى الحق المذكور فى الآيه السابقه.

و قد كان البيان السابق منه تعالى مع كونه بيانا إلهيا لا يرتاب فيه مشتملا على البرهان الساطع الذى يدل عليه قوله: إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللّٰهِ كَمَثَلِ آدَمَ ،الآيه،فالعلم الحاصل فيه علم من جهه البرهان أيضا،و لذلك كان يشمل أثره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و غيره من كل سامع فلو

ص: ۴۷۱

۱- ۱) .آل عمران ۴۲-۶۰:بحث روائى فى:استناد مريم؛فاطمه الزهراء عليها السّلام؛خير نساء الجنّه؛بعثه عيسى عليه السّلام و حياته.

۲- ۲) .آل عمران ۴۲-۶۰:بحث روائى فى معنى المحدث.

فرض تردد من نفس السامع المحاج من جهه كون البيان وحيا إلهيا لم يجز الارتياب فيه من جهه كونه برهانا يناله العقل السليم،و لعله لذلك قيل:من بعد ما جاءك من العلم و لم يقل:من بعد ما بيناه لهم.

و هاهنا نكته اخرى و هى أن فى تذكيره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالعلم تطييبا لنفسه الشريفه أنه غالب بإذن اللّه،و أن ربه ناصره و غير خاذله البته.

قوله تعالى: فَقُلْ تَعٰالَوْا نَدْعُ أَبْنٰاءَنٰا وَ أَبْنٰاءَكُمْ وَ نِسٰاءَنٰا وَ نِسٰاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنٰا وَ أَنْفُسَكُمْ ،المتكلم مع الغير فى قوله: نَدْعُ ،غيره فى قوله: أَبْنٰاءَنٰا و نِسٰاءَنٰا و أَنْفُسَنٰا فإنه فى الأول مجموع المتخاصمين من جانب الإسلام و النصرانيه،و فى الثانى و ما يلحق به من جانب الإسلام،و لذا كان الكلام فى معنى قولنا:ندع الأبناء و النساء و الأنفس فندعو نحن أبنائنا و نسائنا و أنفسنا و تدعون أنتم أبنائكم و نسائكم و أنفسكم،ففى الكلام إيجاز لطيف.

و المباهله و الملاعنه و إن كانت بحسب الظاهر كالمحاجه بين رسول اللّه و بين رجال النصارى لكن عممت الدعوه للأبناء و النساء ليكون أدل على اطمينان الداعى بصدق دعوه و كونه على الحق لما أودعه اللّه سبحانه فى قلب الانسان من محبتهم و الشفقه عليهم فتراه يقيهم بنفسه،و يركب الأهوال و المخاطرات دونهم،و فى سبيل حمايتهم و الغيره عليهم و الذبّ عنهم، و لذلك بعينه قدم الأبناء على النساء لأن محبه الإنسان بالنسبه اليهم أشد و أدوم.

قوله تعالى: ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللّٰهِ عَلَى الْكٰاذِبِينَ ،الابتهال من البهله بالفتح و الضم و هى اللعنه؛هذا أصله ثم كثر استعماله فى الدعاء و المسأله اذا كان مع إصرار و إلحاح.

و قوله: فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللّٰهِ ،كالبيان للابتهال،و قد قيل:فنجعل،و لم يقل،فنسأل إشاره الى كونها دعوه غير مردوده حيث يمتاز بها الحق من الباطل على طريق التوقف و الابتناء.

و قوله: اَلْكٰاذِبِينَ مسوق سوق العهد دون الاستغراق أو الجنس اذ ليس المراد جعل اللعنه

على كل كاذب أو على جنس الكاذب بل على الكاذبين الواقعين فى أحد طرفى المحاجه الواقعه بينه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بين النصارى حيث قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إن اللّه لا إله غيره و إن عيسى عبده و رسوله، و قالوا:إن عيسى هو اللّه أو إنه ابن اللّه أو إن اللّه ثالث ثلاثه.

و على هذا فمن الواضح أن لو كانت الدعوى و المباهله عليها بين النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بين النصارى أعنى كون أحد الطرفين مفردا و الطرف الآخر جمعا كان من الواجب التعبير عنه بلفظ يقبل الانطباق على المفرد و الجمع معا كقولنا:فنجعل لعنه اللّه على من كان كاذبا فالكلام يدل على تحقق كاذبين بوصف الجمع فى أحد طرفى المحاجه و المباهله على أى حال:إما فى جانب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إما فى جانب النصارى،و هذا يعطى أن يكون الحاضرون للمباهله شركاء فى الدعوى فإن الكذب لا يكون إلاّ فى دعوى فلمن حضر مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و هم على و فاطمه و الحسنان عليهم السّلام شركه فى الدعوى و الدعوه مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هذا من أفضل المناقب التى خص اللّه به أهل بيت نبيه عليهم السّلام كما خصهم باسم الأنفس و النساء و الأبناء لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من بين رجال الامه و نسائهم و أبنائهم (۱).

قوله تعالى: إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللّٰهُ ؛هذا إشاره الى ما تقدم من قصص عيسى عليه السّلام؛و الكلام مشتمل على قصر القلب أى ما قصصناه هو الحق دون ما تدعيه النصارى من أمر عيسى.

و فى الإتيان بإن و اللام و ضمير الفصل تأكيد بالغ لتطييب نفس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تشجيعه فى أمر المباهله بإيقاظ صفه يقينه و بصيرته و وثوقه بالوحى الذى أنزله اللّه سبحانه اليه، و يتعقبه التأكيد الثانى بإيراد الحقيقه بلازمها و هو قوله: وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللّٰهُ فإن هذه الجمله لازمه كون القصص المذكور حقا.

۱- ۱) .آل عمران ۶۱-۶۳:بحث حول آيه المباهله.

قوله تعالى: وَ إِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ معطوف على أول الآيه؛و هو بما فيه من التأكيـد البالغ تطييب آخر و تشجيع لنفس النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن اللّه لاـ يعجز عن نصره الحق و تأييده،و لاـ أنه يغفل أو يلهو عن ذلك بإهمال أو جهل فإنه هو العزيز(فلا يعجز عما أراده)الحكيم(فلا يجهل و لا يهمل)لا ما عملته أوهام خصماء الحق من إله غير اللّه سبحانه.

و من هنا يظهر وجه الآيتان بالاسمين:العزيز الحكيم،و أن الكلام مسوق لقصر القلب أو الإفراد.

قوله تعالى: فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ؛لما كان الغرض من المحاجه و كذا المباهله بحسب الحقيقه هو إظهار الحق لم يكن يعقل التولى عن الطريق لمريد الغرض و المقصد فلو كانوا أرادوا بذلك إظهار الحق و هم يعلمون أن اللّه سبحانه ولى الحق لا يرضى بزهوقه و دحوضه لم يتولوا عنها فإن تولوا فإنما هو لكونهم لا يريدون بالمحاجه ظهور الحق بل الغلبه الظاهريه و الاحتفاظ على ما فى أيديهم من حاضر الوضع،و السنه التى استحكمت عليه عادتهم،فهم إنما يريدون ما تزينه لهم أهوائهم و هوساتهم من شكل الحياه،لا الحياه الصالحه التى تنطبق على الحق و السعاده فهم لا يريدون إصلاحا بل إفساد الدنيا بإفساد الحياه السعيده فإن تولوا فإنما هو لأنهم مفسدون.

و من هنا يظهر أن الجزاء وضع فيه السبب مكان المسبب أعنى الإفساد مكان عدم إراده ظهور الحق.

و قد ضمن الجزاء وصف العلم حيث قيل:فإن اللّه عليم،ثم اكد بإن ليدل على أن هذه الصفه متحققه فى نفوسهم ناشبه فى قلوبهم فيشعر بأنهم سيتولون عن المباهله لا محاله،و قد

فعلوا و صدّقوا قول اللّه بفعلهم (۱).

بحث روائی:

فی تفسیر القمی عن الصادق علیه السّلام:أن نصاری نجران لما وفدوا علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و کان سیدهم الأهتم و العاقب و السید،و حضرت صلاتهم فأقبلوا یضربون الناقوس و صلوا،فقال أصحاب رسول اللّه:یا رسول اللّه هذا فی مسجدک؟فقال:دعوهم فلما فرغوا دنوا من رسول اللّه فقالوا الی ما تدعو؟فقال:الی شهاده أن لا إله إلاّ اللّه،و أنی رسول اللّه،و أن عیسی عبد مخلوق یأکل و یشرب و یحدث،قالوا:فمن أبوه؟فنزل الوحی علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال:قل لهم:ما تقولون فی آدم،أ کان عبدا مخلوقا یأکل و یشرب و یحدث و ینکح؟فسألهم النبی، فقالوا نعم:قال فمن أبوه؟فبهتوا فأنزل اللّه:إن مثل عیسی عند اللّه کمثل آدم خلقه من تراب، الآیه؛و قوله: فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ -الی قوله-: فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللّٰهِ عَلَی الْکٰاذِبِینَ ،فقال رسول اللّه:فباهلونی فإن کنت صادقا أنزلت اللعنه علیکم،و ان کنت کاذبا أنزلت علی فقالوا أنصفت فتواعدوا للمباهله فلما رجعوا الی منازلهم قال رؤسائهم السید و العاقب و الأهتم ان باهلنا بقومه باهلناه فإنه لیس نبیا،و إن باهلنا باهل بیته خاصه لم نباهله فإنه لا یقدم الی أهل بیته إلاّ و هو صادق فلما أصبحوا جاءوا الی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و معه أمیر المؤمنین و فاطمه و الحسن و الحسین علیهم السّلام فقال النصاری:من هؤلاء؟فقیل لهم هذا ابن عمه و وصیه و ختنه علی بن أبی طالب،و هذا ابنته فاطمه،و هذا ابناه الحسن و الحسین ففرقوا فقالوا لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نعطیک الرضا فاعفنا من المباهله فصالحهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی الجزیه و انصرفوا.

۱- ۱) .آل عمران ۶۱-۶۳:بحث روائی فی نصاری نجران لما وفدوا علی رسول اللّه؛المباهله.

و فی العیون بإسناده عن الریان بن الصلت عن الرضا علیه السّلام فی حدیثه مع المأمون و العلماء فی الفرق بین العتره و الامه،و فضل العتره علی الامه،و فیه قالت العلماء:هل فسر اللّه الاصطفاء فی کتابه؟فقال الرضا علیه السّلام:فسر الاصطفاء فی الظاهر سوی الباطن فی اثنی عشر موضعا و ذکر المواضع من القرآن،و قال فیها:و أما الثالثه حین میز اللّه الطاهرین من خلقه،و أمر نبیه بالمباهله بهم فی آیه الابتهال فقال عزّ و جل فمن حاجک فیه من بعد ما جاءک من العلم فقل تعالوا ندع أبنائنا و أبنائکم و نسائنا و نسائکم و أنفسنا و أنفسکم،قالت العلماء:عنی به نفسه، قال أبو الحسن:غلطتم إنما عنی به علی بن أبی طالب؛و مما یدل علی ذلک قول النبی:لینتهین بنو ولیعه أو لأبعثن الیهم رجلا کنفسی یعنی علی بن أبی طالب،و عنی بالأبناء الحسن و الحسین،و عنی بالنساء فاطمه فهذه خصوصیه لا یتقدمهم فیها أحد،و فضل لا یلحقهم فیه بشر،و شرف لا یسبقهم الیه خلق اذ جعل نفس علی کنفسه؛الحدیث.

و عنه بإسناده الی موسی بن جعفر علیهما السّلام فی حدیث له مع الرشید،قال الرشید له:کیف قلتم:إنا ذریه النبی،و النبی لم یعقب،و إنما العقب للذکر لا للانثی،و أنتم ولد البنت و لا یکون له عقب.فقلت:أسأله بحق القرابه و القبر و من فیه إلا ما أعفانی عن هذه المسأله،فقال:تخبرنی بحجتکم فیه یا ولد علی و أنت یا موسی یعسو بهم و إمام زمانهم،کذا أنهی إلی،و لست أعفیک فی کل ما أسألک عنه حق تأتینی فیه بحجه من کتاب اللّه،و أنتم تدعون معشر ولد علی أنه لا یسقط عنکم منه شیء لا ألف و لا واو إلاّ تأویله عندکم،و احتججتم بقوله عزّ و جل:ما فرطنا فی الکتاب من شیء،و قد استغنیتم عن رأی العلماء و قیاسهم.

فقلت:تأذن لی فی الجواب؟فقال:هات،قلت:أعوذ باللّه من الشیطان الرجیم،بسم اللّه الرحمن الرحیم و من ذریته داود و سلیمان و أیوب و یوسف و موسی و هارون و کذلک نجزی المحسنین و زکریا و یحیی و عیسی و إلیاس،من أبو عیسی یا أمیر المؤمنین؟فقال:لیس له أب فقلت:إنما ألحقه بذراری الأنبیاء من طریق مریم،و کذلک ألحقنا اللّه تعالی بذراری النبی من

أمنا فـاطمه،أزيـدك يا أمير المؤمنين؟قال:هات،قلت:قول اللّه عزّ و جل:فمن حاجك فيه من بعـد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبنائنا و أبنائكم و نسائنا و نسائكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنه اللّه على الكاذبين،و لم يدّع أحد أنه أدخل النبى تحت الكسـاء عنـد المبـاهله مع النصـارى إلاّ ـعلى بن أبى طـالب و فاطمه و الحسن و الحسـين فكان تأويل قوله: أَبْنٰائَنٰا الحسن و الحسين،و نِسٰاءَنٰا فاطمه،و أَنْفُسَنٰا على بن أبى طالب.

و فى سؤالات المأمون عن الرضا عليه السّـلام:قال المأمون:ما الدليل على خلافه جدك على بن أبى طالب؟قال:آيه أَنْفُسَنٰا قال:لو لا نسائنا قال لو لا أبنائنا.

أقول:قوله:آيه أَنْفُسَـنٰا يريد أن اللّه جعل نفس على كنفس نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قوله:لو لا نسائنا معناه:أن كلمه نسائنا فى الآيه دليل على أن المراد بالأنفس الرجال فلا فضـيله فيه حينئـذ، و قوله:لو لا أبنائنا معناه أن وجود أبنائنا فيها يدل على خلافه فإن المراد بالأنفس لو كان هو الرجال لم يكن مورد لذكر الأبناء.

و فى تفسـير العياشـى بإسـناده عن حريز عن أبى عبـد اللّه عليه السّـلام،قال:إن أمير المؤمنين عليه السّـلام سـئل عن فضائله فذكر بعضـها ثم قالوا له زدنا فقال إن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أتاه حبران من أحبار النصارى من أهل نجران فتكلما فى أمر عيسـى فأنزل اللّه هـذه الآيه:إن مثل عيسـى عنـد اللّه كمثل آدم،إلى آخر الآيه؛فـدخل رسول اللّه فأخـذ بيـد على و الحسن و الحسـين و فـاطمه ثم خرج و رفع كفه الى السـماء،و فرج بين أصابعه،و دعاهم الى المباهله،قال:و قال أبو جعفر عليهما السّـلام و كـذلك المباهله يشـبك يـده فى يده يرفعهما الى السـماء فلما رآه الحبران قال أحدهما لصاحبه:و اللّه لئن كان نبيا لنهلكن و إن كان غير نبى كفانا قومه فكفا و انصرفا.

اقول:و هذا المعنى أو ما يقرب منه مروى فى روايات أخر من طرق الشيعه و فى جميعها أن الذين أتى بهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم للمبـاهله هم على و فاطمه و الحسـنان فقـد رواه الشـيخ فى أماليه بإسـناده عن عامر بن سـعد عن أبيه؛و رواه أيضا فيه بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن

الصادق علیه السّلام،و رواه فیه أیضا بإسناده عن سالم ابن أبی الجعد یرفعه إلی أبی ذر رضوان اللّه علیه،و رواه أیضا فیه بإسناده عن ربیعه ابن ناجد عن علی علیه السّلام،و رواه المفید فی کتاب الاختصاص بإسناده عن محمد بن الزبرقان عن موسی بن جعفر علیهما السّلام،و رواه أیضا فیه عن محمد بن المنکدر عن أبیه عن جده،و رواه العیاشی فی تفسیره عن محمد بن سعید الاردنی عن موسی بن محمد بن الرضا عن أخیه،و رواه أیضا عن أبی جعفر الأحول عن الصادق علیه السّلام، و رواه أیضا فیه فی روایه اخری عن الأحول عنه علیه السّلام،و عن المنذر عن علی علیه السّلام،و رواه أیضا فیه بإسناده عن عامر بن سعد،و رواه الفرات فی تفسیره معنعنا عن أبی جعفر و عن أبی رافع و الشعبی و علی علیه السّلام و شهر بن حوشب،و رواه فی روضه الواعظین و فی إعلام الوری،و فی الخرائج و غیرها.

و فی تفسیر الثعلبی عن مجاهد و الکلبی:أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لما دعاهم الی المباهله قالوا:حتی نرجع و ننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب-و کان ذا رأیهم-یا عبد المسیح ما تری؟فقال:و اللّه لقد عرفتم یا معشر النصاری أن محمدا نبی مرسل،و لقد جاءکم بالفصل من أمر صاحبکم؛و اللّه ما باهل قوم نبیا قط فعاش کبیرهم،و لا نبت صغیرهم و لئن فعلتم لنهلکن فإن أبیتم إلاّ إلف دینکم،و الإقامه علی ما أنتم علیه فوادعوا الرجل و انصرفوا الی بلادکم.

فأتوا رسول اللّه و قد غدا محتضنا بالحسین آخذا بید الحسن و فاطمه تمشی خلفه،و علی خلفها و هو یقول:اذا أنا دعوت فأمّنوا،فقال اسقف نجران،یا معشر النصاری إنی لأری وجوها لو سألوا اللّه أن یزیل جبلا من مکانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلکوا،و لا یبقی علی وجه الأرض نصرانی الی یوم القیامه،فقالوا:یا أبا القاسم رأینا أن لا نباهلک،و أن نقرک علی دینک و نثبت علی دیننا،قال:فاذا أبیتم المباهله فأسلموا،یکن لکم ما للمسلمین،و علیکم ما علیهم فأبوا،قال:فإنی اناجزکم،فقالوا:ما لنا بحرب العرب طاقه و لکن نصالحک علی أن لا تغزونا،و لا تخیفنا،و لا تردنا عن دیننا علی أن نؤدی الیک کل عام ألفی حله:ألف فی صفر،

و ألف فی رجب و ثلاثین درعا عادیه من حدید فصالحهم علی ذلک.

و قال:و الذی نفسی بیده إن الهلاک قد تدلی علی أهل نجران و لو لاعنوا لمسخوا قرده و خنازیر،و لاضطرم علیهم الوادی نارا،و لاستأصل اللّه نجران و أهله حتی الطیر علی رءوس الشجر،و لما حال الحول علی النصاری کلهم حتی یهلکوا.

أقول:و روی القصه:قریبا منه فی کتاب المغازی عن ابن إسحاق،و رواه أیضا المالکی فی الفصول المهمه عن المفسرین قریبا منه،و رواه الحموی عن ابن جریح قریبا منه.

و قوله:ألف فی صفر المراد به المحرم و هو أول السنه عند العرب و قد کان یسمی صفرا فی الجاهلیه فیقال صفر الأول و صفر الثانی و قد کانت العرب تنسئ فی الصفر الأول ثم أقر الإسلام الحرمه فی الصفر الأول فسمی لذلک بشهر اللّه المحرم ثم اشتهر بالمحرم.

و فی صحیح مسلم عن عامر بن سعد بن أبی وقاص عن أبیه قال:أمر معاویه بن أبی سفیان سعدا فقال:ما یمنعک أن تسب أبا تراب،قال أما ما ذکرت ثلاث قالهن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلن أسبه،لأن یکون لی واحده منهن أحب الی من حمر النعم،سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول حین خلفه فی بعض مغازیه فقال له علی:یا رسول اللّه خلفتنی مع النساء و الصبیان؟فقال له رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:أ ما ترضی أن تکون منی بمنزله هارون من موسی إلاّ أنه لا نبی بعدی؟و سمعته یقول یوم خیبر:لاعطین الرایه غدا رجلا یحب اللّه و رسوله،و یحبه اللّه و رسوله،قال:فتطاولنا لها،فقال:أدعوا لی علیا فأتی به أرمد العین فبصق فی عینیه و دفع الرایه إلیه ففتح اللّه علی یده.و لما نزلت هذه الآیه:قل تعالوا ندع أبنائنا و أبنائکم و نسائنا و نسائکم و أنفسنا و أنفسکم ثم نبتهل،دعا رسول اللّه علیا و فاطمه و حسنا و حسینا و قال:

اللّهم هؤلاء أهل بیتی.

أقول:و رواه الترمذی فی صحیحه،و رواه أبو المؤید الموفق بن أحمد فی کتاب فضائل علی، و رواه أیضا أبو نعیم فی الحلیه عن عامر بن سعد عن أبیه،و رواه الحموینی فی کتاب فرائد

السمطين.

و فى حليه الأولياء لأبى نعيم بإسناده عن عامر بن أبى وقاص عن أبيه قال:لما نزلت هذه الآيه دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليا و فاطمه و حسنا و حسينا فقال:اللّهم هؤلاء أهل بيتى.

و فيه بإسناده عن الشعبى عن جابر قال:قدم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم العاقب و الطيب فدعاهما الى الإسلام فقالا:أسلمنا يا محمد فقال:كذبتما إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام فقالا:فهات الينا،قال:حب الصليب و شرب الخمر و أكل لحم الخنزير،قال جابر:

فدعاهما الى الملاعنه فواعداه الى أن يفداه بالغداه فغدا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أخذ بيد على و الحسن و الحسين و فاطمه فأرسل اليهما فأبيا أن يجيباه و أقرّا له،فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الذى بعثنى بالحق لو فعلا لأمطر عليهم الوادى نارا قال جابر:فيهم نزلت:ندع أبنائنا و أبنائكم،قال جابر:أنفسنا و أنفسكم رسول اللّه و على،و أبنائنا الحسن و الحسين،و نسائنا فاطمه.

أقول:و رواه ابن المغازلى فى مناقبه بإسناده عن الشعبى عن جابر،و رواه ايضا الحموينى فى فرائد السمطين بإسناده عنه،و رواه المالكى فى الفصول المهمه مرسلا عنه،و رواه أيضا عن أبى داود الطيالسى عن شعبه الشعبى مرسلا،و رواه فى الدر المنثور عن الحاكم و صححه و عن ابن مردويه و أبى نعيم فى الدلائل عن جابر.

و فى الدر المنثور أخرج أبو نعيم فى الدلائل من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس:

أن وفد نجران من النصارى قدموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هم أربعه عشر رجلا من أشرافهم منهم السيد و هو الكبير،و العاقب و هو الذى يكون بعده و صاحب رأيهم ثم ساق القصه نحوا مما مر.

و فيه أيضا أخرج البيهقى فى الدلائل من طريق سلمه بن عبد يشوع عن أبيه عن جده:أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كتب الى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان:بسم اللّه إله إبراهيم

و إسحاق و یعقوب من محمد رسول اللّه الی اسقف نجران و أهل نجران إن أسلمتم فإنی أحمد الیکم اللّه إله إبراهیم و إسحاق و یعقوب،أما بعد فإنی أدعوکم الی عباده اللّه من عباده العباد، و أدعوکم الی ولایه من اللّه من ولایه العباد فإن أبیتم فالجزیه،و إن أبیتم فقد آذنتکم بالحرب و السلام،فلما قرأ الاسقف الکتاب فظع به و ذعر ذعرا شدیدا،فبعث الی رجل من أهل نجران یقال له:شرحبیل بن وداعه فدفع الیه کتاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقرأه،فقال له الاسقف:ما رأیک؟ فقال شرحبیل:قد علمت ما وعد اللّه إبراهیم فی ذریه إسماعیل من النبوه فما یؤمن أن یکون هذا الرجل؟لیس لی فی النبوه رأی،لو کان رأی من أمر الدنیا أشرت علیک فیه،و جهدت لک، فبعث الاسقف الی واحد بعد واحد من أهل نجران فکلهم قالوا مثل قول شرحبیل فاجتمع رأیهم علی أن یبعثوا شرحبیل بن وداعه،و عبد اللّه بن شرحبیل و جبار بن فیض فیأتونهم بخبر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

فانطلق الوفد حتی أتوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فسألهم و سألوه فلم نزل به و بهم المسأله حتی قالوا له:ما تقول فی عیسی بن مریم؟فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما عندی فیه شیء یومی هذا فأقیموا حتی اخبرکم بما یقال فی عیسی صبح الغد،فأنزل اللّه هذه الآیه:إن مثل عیسی عند اللّه کمثل آدم خلقه من تراب-الی قوله-:فنجعل لعنه اللّه علی الکاذبین،فأبوا أن یقروا بذلک،فلما أصبح رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملا علی الحسن و الحسین فی خمیله له و فاطمه تمشی خلف ظهره للملاعنه،و له یومئذ عده نسوه،فقال شرحبیل لصاحبیه:إنی أری أمرا مقبلا إن کان هذا الرجل نبیا مرسلا فلاعنّاه لا یبقی علی وجه الأرض منا شعر و لا ظفر إلاّ هلک فقالا له:ما رأیک؟فقال:رأیی أن الحکمه فإنی أری رجلا لا یحکم شططا أبدا،فقالا له:أنت و ذلک،فتلقی شرحبیل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال:إنی قد رأیت خیرا من ملاعنتک،قال:و ما هو؟قال حکمک الیوم الی اللیل و لیلتک الی الصباح فمهما حکمت فینا فهو جائز،فرجع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لم یلاعنهم،و صالحهم علی الجزیه.

و فيه أخرج ابن جرير عن علباء بن أحمر اليشكرى،قال:لما نزلت هذه الآيه: فَقُلْ تَعٰالَوْا نَدْعُ أَبْنٰاءَنٰا وَ أَبْنٰاءَكُمْ الآيه،أرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الى على و فاطمه و ابنيهما الحسن و الحسين،و دعا اليهود ليلاعنهم،فقال شاب من اليهود:ويحكم أ ليس عهدتم بالأمس إخوانكم الذين مسخوا قرده و خنازير؟لا تلاعنوا فانتهوا.

أقول:و الروايه تؤيد أن يكون الضمير فى قوله تعالى: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ ،راجعا الى الحق فى قوله: اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ،فيتم بذلك حكم المباهله لغير خصوص عيسى بن مريم عليه السّلام،و تكون حينئذ هذه قصه اخرى واقعه بعد قصه دعوه وفد نجران الى المباهله على ما تقصه الأخبار الكثيره المتظافره المنقوله أكثرها فيما تقدم.

و قال ابن طاوس فى كتاب سعد السعود رأيت فى كتاب تفسير ما نزل من القرآن فى النبى و أهل بيته تأليف محمد بن العباس بن مروان:أنه روى خبر المباهله من أحد و خمسين طريقا عمن سماه من الصحابه و غيرهم،و عد منهم الحسن بن على عليهما السّلام و عثمان بن عفان و سعد بن أبى وقاص و بكر بن سمال و طلحه و الزبير و عبد الرحمن بن عوف و عبد اللّه بن عباس و أبا رافع مولى النبى و جابر بن عبد اللّه و البراء بن عازب و انس بن مالک.

و روى ذلک فى المناقب عن عده من الرواه و المفسرين و كذا السيوطى فى الدر المنثور.

و من عجيب الكلام ما ذكره بعض المفسرين حيث قال:إن الروايات متفقه على أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اختار للمباهله عليا و فاطمه و ولديهما،و يحملون كلمه نسائنا على فاطمه،و كلمه أنفسنا على على فقط،و مصادر هذه الروايات الشيعه،و مقصدهم منها معروف؛و قد اجتهدوا فى ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنه،و لكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآيه فإن كلمه نسائنا لا يقولها العربى و يريد بها بنته لا سيما إذا كان له أزواج و لا يفهم هذا من لغتهم.و أبعد من ذلک أن يراد بأنفسنا على،ثم إن وفد نجران الذين قالوا:إن الآيه نزلت فيهم لم يكن معهم نسائهم و اولادهم،و كل ما يفهم من الآيه امر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يدعوا

المحاجين و المجادلين فی عیسی من أهل الکتاب الی الاجتماع رجالا و نساء و أطفالا و یجمع هو المؤمنین رجالا و نساء و أطفالا،و یبتهلون الی اللّه تعالی بأن یلعن الکاذب فیما یقول عن عیسی.

و هذا الطلب یدل علی قوه یقین صاحبه،و ثقته بما یقول کما یدل امتناع من دعوا الی ذلک من أهل الکتاب سواء کانوا نصاری نجران أو غیرهم علی امترائهم فی حجاجهم و مماراتهم فیما یقولون،و زلزالهم فیما یعتقدون،و کونهم علی غیر بینه و لا یقین،و أنی لمن یؤمن باللّه أن یرضی بأن یجتمع هذا الجمع من الناس المحقین و المبطلین فی صعید واحد متوجهین الی اللّه فی طلب لعنه و إبعاده من رحمته؟و أی جرأه علی اللّه و استهزاء بقدرته و عظمته أقوی من هذا؟

قال:أما کون النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین کانوا علی یقین مما یعتقدون فی عیسی علیه السّلام فحسبنا فی بیانه قوله تعالی: مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ ،فالعلم فی هذه المسائل الاعتقادیه لا یراد به إلاّ الیقین،و فی قوله: نَدْعُ أَبْنٰاءَنٰا وَ أَبْنٰاءَکُمْ «الخ»وجهان:

أحدهما:أن کل فریق یدعو الآخر فأنتم تدعون أبنائنا،و نحن ندعو أبنائکم؛و هکذا الباقی.

و ثانیهما:أن کل فریق یدعو أهله فنحن المسلمون ندعو أبنائنا و نسائنا و أنفسنا؛و أنتم کذلک.

و لا إشکال فی وجه من وجهی التوزیع فی دعوه الأنفس،و إنما الإشکال فیه علی قول الشیعه،و من شایعهم علی القول بالتخصیص،انتهی.

أقول:و هذا الکلام-و أحسب أن الناظر فیه یکاد یتهمنا فی نسبته الی مثله،و اللبیب لا یرضی بإیداعه و أمثاله فی الزبر العلمیه- إنما أوردناه علی وهنه و سقوطه لیعلم أن النزعه و العصبیه الی أین یورد صاحبه من سقوط الفهم و رداءه النظر فیهدم کل ما بنی علیه و یبنی کل ما هدمه و لا یبالی،و لأن الشر یجب أن یعلم لیجتنب عنه.

و الكلام فی مقامین:أحدهما:دلاله الآیه علی أفضلیه علی علیه السّلام،و هو بحث کلامی خارج عن الغرض الموضوع له هذا الکتاب؛و هو النظر فی معانی الآیات القرآنیه.

و ثانیهما:البحث عما ذکره هذا القائل من حیث تعلقه بمدلول آیه المباهله،و الروایات الوارده فی ما جری بین النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بین وفد نجران؛و هذا بحث تفسیری داخل فی غرضنا.

و قد عرفت ما تدل علیه الآیه،و أن الذی نقلناه من الأخبار المتکثره المتظافره هو الذی یطابق مدلول الآیه،و بالتأمل فی ذلک یتضح وجوه الفساد فی هذه الحجه المختلقه و النظر الواهی الذی لا یرجع الی محصل،و هاک تفصیلها:

منها:أن قوله:و مصادر هذه الروایات الشیعه-الی قوله-و قد اجتهدوا فی ترویجها ما استطاعوا حتی راجت علی کثیر من أهل السنه،بعد قوله:إن الروایات متفقه،لیت شعری أی روایات یعنی بهذا القول؟أ مراده هذه الروایات المتظافره التی أجمعت علی نقلها و عدم طرحها المحدثون،و لیست بالواحده و الاثنتین و الثلاث أطبق علی نقلها و تلقیها بالقبول أهل الحدیث،و أثبتها أرباب الجوامع فی جوامعهم،و منهم مسلم فی صحیحه و الترمذی فی صحیحه و أیدها أهل التاریخ.

ثم أطبق المفسرون علی إیرادها و إیداعها فی تفاسیرهم من غیر اعتراض أو ارتیاب، و فیهم جمع من أهل الحدیث و التاریخ کالطبری و أبی الفداء بن کثیر و السیوطی و غیرهم ثم من الذی یعنیه من الشیعه المصادر لهذه الروایات؟أ یرید بهم الذین تنتهی إلیهم سلاسل الأسناد فی الروایات أعنی سعد بن أبی وقاص و جابر بن عبد اللّه و عبد اللّه بن عباس و غیرهم من الصحابه؟أو التابعین الذین نقلوا عنهم بالأخذ و الروایه کأبی صالح و الکلبی و السدی و الشعبی و غیرهم،و أنهم تشیعوا لنقلهم ما لا یرتضیه بهواه فهؤلاء و أمثالهم و نظرائهم هم الوسائط فی نقل السنه،و مع رفضهم لا تبقی سنه مذکوره و لا سیره مأثوره،و کیف یسع لمسلم أو باحث حتی ممن لا ینتحل بالإسلام أن یبطل السنه ثم یروم أن یطلع علی تفاصیل

ما جاء به النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من تعلیم و تشریع و القرآن ناطق بحجیه قول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سیرته، و ناطق ببقاء الدین علی حیاته،و لو جاز بطلان السنه من رأس لم یبق للقرآن أثر و لا لإنزاله ثمر.

أو أنه یرید أن الشیعه دسوا هذه الأحادیث فی جوامع الحدیث و کتب التاریخ،فیعود محذور سقوط السنه،و بطلان الشریعه بل یکون البلوی أعم و الفساد أتم.

و منها:قوله:و یحملون کلمه نسائنا علی فاطمه،و کلمه أنفسنا علی علیّ فقط،مراده به أنهم یقولون بأن کلمه نسائنا أطلقت و اریدت بها فاطمه و کذا المراد بکلمه أنفسنا علیّ فقط، و کأنه فهمه مما یشتمل علیه بعض الروایات السابقه:قال جابر:نسائنا فاطمه و أنفسنا علی الخبر،و قد أساء الفهم فلیس المراد فی الآیه بلفظ نسائنا فاطمه،و بلفظ أنفسنا علی بل المراد أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اذ لم یأت فی مقام الامتثال إلاّ بها و به کشف ذلک أنها هی المصداق الفرد لنسائنا، و أنه هو المصداق الوحید لأنفسنا و أنهما مصداق أبنائنا،و کان المراد بالأبناء و النساء و الأنفس فی الآیه هو الأهل فهم أهل بیت رسول اللّه و خاصته کما ورد فی بعض الروایات بعد ذکر إتیانه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهم أنه قال:اللّهم هؤلاء أهل بیتی فإن معنی الجمله:أنی لم أجد من أدعوه غیر هؤلاء.

و یدل علی ما ذکرناه من المراد ما وقع فی بعض الروایات:أنفسنا و أنفسکم رسول اللّه و علی،فإن اللفظ صریح فی أن المقصود بیان المصداق دون معنی اللفظ.

و منها:قوله:و لکن واضعیها لم یحسنوا تطبیقها علی الآیه فإن کلمه نسائنا لا یقولها العربی و یرید بها بنته لا سیما اذا کان له أزواج و لا یفهم هذا من لغتهم،و أبعد من ذلک أن یراد بأنفسنا علی،و هذا المعنی العجیب الذی توهمه هو الذی أوجب أن یطرح هذه الروایات علی کثرتها ثم یطعن علی رواتها و کل من تلقاها بالقبول،و یرمیهم بما ذکره و قد کان من الواجب علیه أن یتنبه لموقفه من تفسیر الکتاب،و یذکر هؤلاء الجم الغفیر من أئمه البلاغه و أساتیذ البیان،

و قد أوردوها فی تفسیرهم و سائر مؤلفاتهم من غیر أی تردد أو اعتراض.

فهذا صاحب الکشاف-و هو الذی ربما خطأ أئمه القراءه فی قراءتهم-یقول فی ذیل تفسیر الآیه:و فیه دلیل لا شیء أقوی منه علی فضل أصحاب الکساء علیهم السّلام و فیه برهان واضح علی صحه نبوه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأنه لم یرو أحد من موافق و لا مخالف:أنهم أجابوا الی ذلک،انتهی.

فکیف خفی علی هؤلاء العظماء أبطال البلاغه و فرسان الأدب أن هذه الأخبار علی کثرتها و تکررها فی جوامع الحدیث تنسب الی القرآن أنه یغلط فی بیانه فیطلق النساء(و هو جمع)فی مورد نفس واحده؟.

لا و عمری،و إنما التبس الأمر علی هذا القائل و اشتبه عنده المفهوم بالمصداق فتوهم:أن اللّه عز اسمه لو قال لنبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:فمن حاجک فیه من بعد ما جاءک من العلم فقل تعالوا ندع أبنائنا و أبنائکم،الخ؛و صح أن المحاجین عند نزول الآیه وفد نجران و هم أربعه عشر رجلا علی ما فی بعض الروایات لیس عندهم نساء و لا أبناء؛و صح أیضا أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خرج الی مباهلتهم و لیس معه إلاّ علی و فاطمه و الحسنان کان لازم ذلک أن معنی من حاج وفد نجران،و معنی نسائنا المرأه الواحده،و معنی أنفسنا النفس الواحده،و بقی نسائکم و أبنائکم لا معنی لهما اذ لم یکن مع الوفد نساء و لا أبناء!.

و کان علیه أن یضیف الی ذلک لزوم استعمال الأبناء و هو جمع فی التثنیه و هو أشنع من استعمال الجمع فی المفرد فإن استعمال الجمع فی المفرد ربما وجد فی کلام المولدین و إن لم یوجد فی العربیه الأصیله إلاّ فی التکلم لغرض التعظیم لکن استعمال الجمع فی المثنی مما لا مجوز له أصلا.

فهذا هو الذی دعاه الی طرح الروایات و رمیها بالوضع،و لیس الأمر کما توهمه.

توضیح ذلک أن الکلام البلیغ إنما یتبع فیه ما یقتضیه المقام من کشف ما یهم کشفه فربما کان المقام مقام التخاطب بین متخاطبین أو قبیلین ینکر أو یجهل کل منهما حال صاحبه فیوضع

الکلام علی ما یقتضیه الطبع و العاده فیؤتی فی التعبیر بما یناسب ذلک فأحد القبیلین المتخاصمین اذا أراد أن یخبر صاحبه أن الخصومه و الدفاع قائمه بجمیع أشخاص قبیله من ذکور و اناث و صغیر و کبیر فإنما یقول:نخاصمکم أو نقاتلکم بالرجال و الظعائن و الأولاد فیضع الکلام علی ما تقتضیه الطبع و العاده فإن العاده تقتضی أن یکون للقبیل من الناس نساء و أولاد و الغرض متعلق بأن یبین للخصم أنهم ید واحده علی من یخاصمهم و یخاصمونه،و لو قیل:نخاصمکم أو نقاتلکم بالرجال و النساء و ابنین لنا کان إخبارا بأمر زائد علی مقتضی المقام محتاجا الی عنایه زائده و تعرفا الی الخصم لنکته زائده.

و أما عند المتعارفین و الأصدقاء و الأخله فربما یوضع الکلام علی مقتضی الطبع و العاده فیقال فی الدعوه للضیافه و الاحتفال:سنقرئکم بأنفسنا و نسائنا و أطفالنا،و ربما یسترسل فی التعرف فیقال:سنخدمکم بالرجال و البنت و السبطین الصبیین؛و نحو ذلک.

فللطبع و العاده و ظاهر الحال حکم،و لواقع الأمر و خارج العین حکم،و ربما یختلفان،فمن بنی کلامه علی حکایه ما یعلم من ظاهر حاله،و یقضی به الطبع و العاده فیه ثم بدا حقیقه حاله و واقع أمره علی خلاف ما حکاه من ظاهر حاله لم یکن غالطا فی کلامه،و لا کاذبا فی خبره، و لا لاغیا هازلا فی قوله.

و الآیه جاریه علی هذا المجری فقوله.فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءکم و نساءنا و نساءکم و أنفسنا و أنفسکم،الخ؛ارید به علی ما تقدم:أدعهم الی أن تحضر أنت و خاصتک من أهلک الذین یشارکونک فی الدعوی و العلم،و یحضروا بخاصتهم من أهلیهم،ثم وضع الکلام علی ما یعطیه ظاهر الحال أن لرسول اللّه فی أهله رجالا و نساء و أبناء و لهم فی أهلیهم رجال و نساء و أبناء فهذا مقتضی ظاهر الحال،و حکم الطبع و العاده فیه و فیهم،أما واقع الأمر و حقیقته فهو أنه لم یکن له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الرجال و النساء و البنین إلاّ نفس و بنت و ابنان،و لم یکن لهم إلاّ رجال من غیر نساء و لا أبناء،و لذلک لما أتاهم برجل و امرأه و ولدین لم یجبهوه بالتلحین و التکذیب،

و لا- أنهم اعتذروا عن الحضور بأنك أمرت بإحضار النساء و الأبناء و ليس عندنا نساء و لا أبناء،و لا أن من قصت عليه القصه رماها بالوضع و التمويه.

و من هنا يظهر فساد ما أورده بقوله:ثم وفد نجران الذين قالوا إن الآيه نزلت فيهم لم يكن معهم نساء و لا أبناء.

و منها:قوله:و كل ما يفهم من الآيه أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ان یدعو المحاجین و المجادلین فی عیسی من أهل الکتاب الی الاجتماع رجالا و نساء و أطفالا،و یجمع هو المؤمنین رجالا و نساء و أطفالا،و یبتهلون الی اللّه بأن یلعن الکاذب فیما یقول عن عیسی-الی قوله-و أنی لمن یؤمن باللّه أن یرضی أن یجتمع مثل هذا الجمع من الناس المحقین و المبطلین فی صعید واحد متوجهین الی اللّه تعالی فی طلب لعنه و إبعاده من رحمته؟و أی جرأه علی اللّه و استهزاء بقدرته و عظمته أقوی من هذا؟

و ملخصه أن الآیه تدعو الفریقین الی الاجتماع بأنفسهم و نسائهم و ذراریهم فی صعید واحد ثم الابتهال بالملاعنه،و ینبغی أن یستبان ما هذا الاجتماع المدعو الیه؟

أ هو اجتماع الفریقین کافه أعنی المؤمنین بأجمعهم و هم یومئذ (۱)عرب ربیعه و مضر جلهم أو کلهم من الیمن و الحجاز و العراق و غیرها،و النصاری و هم أهل نجران من الیمن و نصاری الشام و سواحل البحر الابیض و أهل الروم و الإفرنج و الإنجلیز و النمسا و غیرهم.

و هؤلاء الجماهیر فی مشارق الأرض و مغاربها تربو نفوسهم بالرجال و النساء و الذراری یومئذ علی الملائین بعد الملائین،و لا یشک ذو لب أن من المتعذر اجتماعهم فی صعید واحد فالأسباب العادیه تأبی ذلک بجمیع أرکانها،و لازم ذلک أن یندب القرآن الناس الی المحال،

---

۱ – ۱) .و هو سنه تسع علی ما ذکره بعض المؤرخین أو عشر علی ما ذکره آخرون و إن لم یخل جمیعا عن الاشکال علی ما سیجیء فی البحث الروائی عن الآیات التالیه لهذه الآیات.

و ینیط ظهور حجته،و تبین الحق الذی یدعیه علی ما لا یکون البته،و کان ذلک عذرا(و نعم العذر)للنصاری فی عدم إجابتهم دعوه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الی المباهله،و کان ذلک أضر لدعواه منه لدعواهم.

أم هو اجتماع الحاضرین من الفریقین و من فی حکمهم أعنی المؤمنین من أهل المدینه و ما والاها،و أهل نجران و من والاهم،و هذا و إن کان أقل و أخف شناعه من الوجه السابق لکنه من حیث استحاله التحقق و امتناع الوقوع کسابقه فمن الذی کان یسعه یومئذ أن یجمع أهل المدینه و نجران قاطبه حتی النساء و الذراری منهم فی صعید للملاعنه،و هل هذه الدعوه إلاّ تعلیقا بالمحال،و اعترافا بأن الحق متعذر الظهور.

أم هو اجتماع المتلبسین بالخصام و الجدال من الفریقین أعنی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الحاضرین عنده من المؤمنین،و وفد نجران من النصاری،و یرد علیه حینئذ ما أورده بقوله:«ثم إن وفد نجران الذین قالوا:إن الآیه نزلت فیهم لم یکن معهم نساءهم و أولادهم،و کان ذلک وقوعا فیما ذکره من المحذور».

و منها:قوله:أما کون النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین کانوا علی یقین مما یعتقدون فی عیسی علیه السّلام فحسبنا فی بیانه قوله تعالی: مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ فالعلم فی هذه المسائل الاعتقادیه لا یراد به إلاّ الیقین.

أقول:أما کون العلم فیها بمعنی الیقین فهو حق و أما کون الآیه داله علی کون المؤمنین علی یقین من أمر عیسی علیه السّلام فلیت شعری من أین له إثبات ذلک؟و الآیه غیر متعرضه بلفظها(فمن حاجک فیه من بعد ما جاءک،الخ؛إلاّ لشأن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و مقام التخاطب أیضا لا یشمل غیره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من المؤمنین فإن الوفد من النصاری ما کان لهم هم إلاّ المحاجه و الخصام مع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و لم یکن لهم هوی فی لقاء المؤمنین،و لا کلموهم بکلمه،و لا کلمهم المؤمنون بکلمه.

نعم لو دلت الآيه على حصول العلم لأحد غير النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لدل فيمن جىء به للمباهله على ما استفدناه من قوله تعالى: مِنَ الْكاذِبِينَ فيما تقدم.

بل القرآن يدل على عدم عموم العلم و اليقين لجميع المؤمنين حيث يقول تعالى: وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف١٠٦/)،فوصفهم بالشرك و كيف يجتمع الشرك مع اليقين،و يقول تعالى: وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللّهُ وَ رَسُولُهُ إِلاّ غُرُوراً (الأحزاب١٢/)،و يقول تعالى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ -الى أن قال-: أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ (محمد٢٣/)،فاليقين لا يتحقق به إلاّ بعض اولى البصيره من متبعى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،قال تعالى: فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ (آل عمران٢٠/)،و قال تعالى: قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي (يوسف١٠٨/).

و منها:قوله:و فى قوله نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ ،الخ؛وجهان:أحدهما:أن كل فريق يدعو الآخر،الخ؛قد عرفت فساد وجهه الأول و عدم انطباقه على لفظ الآيه اذ قد عرفت أن الغرض كان مستوفى حاصلا لو قيل:تعالوا نبتهل فنجعل لعنه اللّه على الكاذبين،و إنما زيد عليه قوله: نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ،ليدل على لزوم إحضار كل من الفريقين عند المباهله أعز الأشياء عنده و أحبها اليه و هو الأبناء و النساء و الأنفس(الأهل و الخاصه)،و هذا إنما يتم لو كان معنى الآيه:ندعو نحن أبناءنا و نساءنا و أنفسنا و تدعون أنتم أبناءكم و نساءكم و أنفسكم،ثم نبتهل،و أما لو كان المعنى ندعو نحن أبنائكم و نسائكم و أنفسكم و تدعون أنتم أبناءنا و نساءنا و أنفسنا ثم نبتهل بطل الغرض المذكور.

على أن هذا المعنى فى نفسه مما لا يرتضيه الطبع السليم فما معنى تسليط رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم النصارى على أبنائه و نسائه،و سؤاله أن يسلطوه على ذراريهم و نسائهم ليتداعوا فيتم الحضور و المباهله مع تأتى ذلك بدعوه كل فريق أهل نفسه لها؟

على أن هذا المعنى يحتاج فى فهمه من الآيه الى فهم معنى التسليط و ما يشابهه-كما تقدم- منها،و أنى لنا فهمه؟فالحق أن هذا الوجه ساقط،و أن الوجه الآخر و هو أن يكون المراد دعوه كل أهل نفسه هو المتعين.

و منها:قوله:و لا إشكال فى وجه من وجهى التوزيع فى دعوه الأنفس،و إنما الإشكال فيه على قول الشيعه و من شايعهم على القول بالتخصيص،يريد بالإشكال ما اورد على الآيه من لزوم دعوه الإنسان نفسه،و هذا الإشكال غير مرتبط بشىء من الوجهين أصلا و إنما هو إشكال على القول بكون المراد بأنفسنا هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما يحكى عن بعض المناظرات المذهبيه حيث ادعى أحد الخصمين أن المراد بأنفسنا،رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فاورد عليه بلزوم دعوه الإنسان نفسه و هو باطل تشير اليه الروايه الثانيه المنقوله عن العيون فيما تقدم.

و من هنا يظهر سقوط قوله:إنما الإشكال فيه على قول الشيعه فإن قولهم على ما قدمنا:أن المراد بأنفسنا هو الرجال من أهل بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و هم بحسب المصداق رسول اللّه و على عليهما الصلاه و السلام،و لا إشكال فى دعوه بعضهم بعضا.

فلا إشكال عليهم حتى على ما نسبه إليهم بزعمه:أن معنى أنفسنا على فإنه لا إشكال فى دعوه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليا عليه السّلام.

و قال تلميذه فى المنار بعد الإشاره الى الروايات:و أخرج ابن عساكر عن جعفر ابن محمد عن أبيه فَقُلْ تَعٰالَوْا نَدْعُ أَبْنٰاءَنٰا وَ أَبْنٰاءَكُمْ الآيه؛قال:فجاء بأبى بكر و ولده،و عمر و ولده، و عثمان و ولده.قال:و الظاهر أن الكلام فى جماعه المؤمنين.

ثم قال بعد نقل كلام أستاذه المنقول سابقا:و فى الآيه ما ترى من الحكم بمشاركه النساء

للرجال فی الاجتماع للمباراه القومیه و المناضله الدینیه،و هو مبنی علی اعتبار المرأه کالرجل حتی فی الامور العامه إلاّ ما استثنی منها الی آخر ما أطنب به من الکلام.

أقول:أما ما ذکره من الروایه فهی روایه شاذه تخالف جمیع روایات الآیه علی کثرتها و اشتهارها و قد أعرض عن هذه الروایه المفسرون،و هی مع ذلک تشتمل علی ما لا یطابق الواقع،و هو جعله لکل من المذکورین فیه ولدا.و لا ولد یومئذ لجمیعهم البته.

و کأنه یرید بقوله:و الظاهر أن الکلام فی جماعه المؤمنین،أن یستظهر من الروایه الدلاله علی أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أحضر جمیع المؤمنین و أولادهم فیکون قوله:فجاء بأبی بکر و ولده،الخ؛کنایه عن إحضاره عامه المؤمنین،و کأنه یرید به تأیید شیخه فیما ذکره من المعنی.و أنت تری ما علیه الروایه من الشذوذ و الإعراض و المتن ثم فی الدلاله علی ما ذکره من المعنی.

و أما ما ذکره من دلاله الآیه علی مشارکه النساء الرجال فی الحقوق العامه فلو تم ما ذکره دل علی مشارکه الأطفال أیضا،و فی هذا وحده کفایه فی بطلان ما ذکره.

و قد قدمنا الکلام فی اشتراکهن معهم عند الکلام علی آیات الطلاق فی الجزء الثانی من الکتاب و سیأتی شطر فی ما یناسبه من المورد من غیر حاجه الی مثل ما استفاده من الآیه.

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۶۴ الی ۷۸]

اشاره

قُلْ یا أَهْلَ اَلْکِتابِ تَعالَوْا إِلی کَلِمَهٍ سَواءٍ بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاَّ اَللّهَ وَ لا نُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً وَ لا یَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اَللّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اِشْهَدُوا بِأَنّا مُسْلِمُونَ (۶۴) یا أَهْلَ اَلْکِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِی إِبْراهِیمَ وَ ما أُنْزِلَتِ اَلتَّوْراهُ وَ اَلْإِنْجِیلُ إِلاّ مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۶۵) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِیما لَکُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِیما لَیْسَ لَکُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اَللّهُ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۶۶) ما کانَ إِبْراهِیمُ یَهُودِیًّا وَ لا نَصْرانِیًّا وَ لکِنْ کانَ حَنِیفاً مُسْلِماً وَ ما کانَ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ (۶۷) إِنَّ أَوْلَی اَلنّاسِ بِإِبْراهِیمَ لَلَّذِینَ اِتَّبَعُوهُ وَ هذَا اَلنَّبِیُّ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ اَللّهُ وَلِیُّ اَلْمُؤْمِنِینَ (۶۸) وَدَّتْ طائِفَهٌ مِنْ أَهْلِ اَلْکِتابِ لَوْ یُضِلُّونَکُمْ وَ ما یُضِلُّونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما یَشْعُرُونَ (۶۹) یا أَهْلَ اَلْکِتابِ لِمَ تَکْفُرُونَ بِآیاتِ اَللّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (۷۰) یا أَهْلَ اَلْکِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ اَلْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَکْتُمُونَ اَلْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۷۱) وَ قالَتْ طائِفَهٌ مِنْ أَهْلِ اَلْکِتابِ آمِنُوا بِالَّذِی أُنْزِلَ عَلَی اَلَّذِینَ آمَنُوا وَجْهَ اَلنَّهارِ وَ اُکْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۷۲) وَ لا تُؤْمِنُوا إِلاّ لِمَنْ تَبِعَ دِینَکُمْ قُلْ إِنَّ اَلْهُدی هُدَی اَللّهِ أَنْ یُؤْتی أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِیتُمْ أَوْ یُحاجُّوکُمْ عِنْدَ رَبِّکُمْ قُلْ إِنَّ اَلْفَضْلَ بِیَدِ اَللّهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشاءُ وَ اَللّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ (۷۳) یَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ یَشاءُ وَ اَللّهُ ذُو اَلْفَضْلِ اَلْعَظِیمِ (۷۴) وَ مِنْ أَهْلِ اَلْکِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ یُؤَدِّهِ إِلَیْکَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِینارٍ لا یُؤَدِّهِ إِلَیْکَ إِلاّ ما دُمْتَ عَلَیْهِ قائِماً ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَیْسَ عَلَیْنا فِی اَلْأُمِّیِّینَ سَبِیلٌ وَ یَقُولُونَ عَلَی اَللّهِ اَلْکَذِبَ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ (۷۵) بَلی مَنْ أَوْفی بِعَهْدِهِ وَ اتَّقی فَإِنَّ اَللّهَ یُحِبُّ اَلْمُتَّقِینَ (۷۶) إِنَّ اَلَّذِینَ یَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اَللّهِ وَ أَیْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِیلاً أُولئِکَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِی اَلْآخِرَهِ وَ لا یُکَلِّمُهُمُ اَللّهُ وَ لا یَنْظُرُ إِلَیْهِمْ یَوْمَ اَلْقِیامَهِ وَ لا یُزَکِّیهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۷۷) وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِیقاً یَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْکِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ اَلْکِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ اَلْکِتابِ وَ یَقُولُونَ هُوَ مِنْ

عِنْدِ اَللّٰهِ وَ مٰا هُوَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اَللّٰهِ اَلْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

ص: ۴۹۲

بیان:

قوله تعالی: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ ، الخطاب لعامه أهل الکتاب،و الدعوه فی قوله: تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ «إلخ»بالحقیقه إنما هی الی الاجتماع علی معنی الکلمه بالعمل به،و إنما تنسب الی الکلمه لتدل علی کونها دائره بألسنتهم کقولنا اتفقت کلمه القوم علی کذا فیفید معنی الإذعان و الاعتراف و النشر و الإشاعه.فالمعنی:

تعالوا نأخذ بهذه الکلمه متعاونین متعاضدین فی نشرها و العمل بما توجبه.

و السواء فی الأصل مصدر،و یستعمل وصفا بمعنی مساوی الطرفین،و سواء بیننا و بینکم أی مساو من حیث الأخذ و العمل بما توجبه،و علی هذا فتوصیف الکلمه بالسواء توصیف بحال المتعلق و هو الأخذ و العمل،و قد عرفت أن العمل إنما یتعلق بمعنی الکلمه لا نفسها کما أن تعلیق الاجتماع أیضا علی المعنی لا یخلو من عنایه مجازیه ففی الکلام وجوه من لطائف

العنایات:نسبه الاجتماع الی المعنی ثم وضع الکلمه مکان المعنی ثم توصیف الکلمه بالسواء!

قوله تعالی: أَلّٰا نَعْبُدَ إِلَّا اللّٰهَ وَ لاٰ نُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً وَ لاٰ یَتَّخِذَ بَعْضُنٰا بَعْضاً أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ ،تفسیر للکلمه السواء؛و هی التی یوجبها الإسلام للّه.

و المراد بقوله: أَلاّٰ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّٰهَ ،نفی عباده غیر اللّه لا إثبات عباده اللّه تعالی علی ما مرت الإشاره الیه فی معنی کلمه الإخلاص(لا إله إلّا اللّه):أن لازم کون إلّا اللّه،بدلا لا استثناء کون الکلام مسوقا لبیان نفی الشریک دون إثبات الإله،فإن القرآن یأخذ إثبات وجود الإله و حقیقته مفروغا عنه.

و لما کان الکلام مسوقا لنفی الشریک فی العباده و لا ینحسم به ماده الشرک اللازم من اعتقاد النبوه و التثلیث و نحو ذلک أردفه بقوله: وَ لاٰ نُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً وَ لاٰ یَتَّخِذَ ،الخ؛فإن تسمیه العباده بعباده اللّه لا تصیر العباده عباده للّه سبحانه ما لم یخلص الاعتقاد و لم یتجرد الضمیر من الاعتقادات و الآراء المولوده من أصل الشرک لأن العباده حینئذ إنما تکون عباده إله له شریک،و العباده التی یعبد بها أحد الشریکین و إن خص باسمه و وجه نحوه لیست إلّا نابته منبت التشریک لأنها لا تعدو أن تکون سهما یسهم له و حظا یقسم له من بین الشریکین أو الشرکاء ففیها بعینها نحو عباده للغیر (۱).

و هذا الذی یدعو الیه النبی بأمر اللّه سبحانه،و هو الذی یدل علیه قوله: أَلّٰا نَعْبُدَ إِلَّا اللّٰهَ وَ لاٰ نُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً وَ لاٰ یَتَّخِذَ بَعْضُنٰا بَعْضاً أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ ،هو الذی یجمع غرض النبوه فی السیره التی کانت الأنبیاء تدعو إلیها و تبسطها علی المجتمع الإنسانی.

قوله تعالی: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّٰا مُسْلِمُونَ استشهاد،بأنهم(و هم

۱- ۱) .آل عمران ۶۴-۷۸:بحث فی کیفیه بسط التساوی فی حقوق الحیاه و الحریه فی الاراده الصالحه و العمل الصالح.

النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من اتبعه)على الدين المرضى عند اللّه تعالى و هو الإسلام،قال إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْلاٰمُ (آل عمران۱۹/)،فينقطع بذلك خصامهم و حجاجهم اذ لا حجه على الحق و أهله.

و فيه إشاره الى أن التوحيد فى العباده من لوازم الإسلام.

قوله تعالى: يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرٰاهِيمَ الى آخر الآيه؛الظاهر أنه مقول القول الواقع فى الآيه السابقه،و كذا ما يأتى بعد أربع آيات فيكون مقولا-لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إن كان ظاهر سياق قوله:بعد آيتين: إِنَّ أَوْلَى النّٰاسِ بِإِبْرٰاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا ،الآيه؛أن يكون الخطاب من اللّه لا من رسوله بإذنه.

و محاجتهم فى إبراهيم عليه السّلام بضم كل طائفه إياه الى نفسها يشبه أن تكون أولا-بالمحاجه لإظهار المحقيه كأن تقول اليهود:إن إبراهيم عليه السّلام الذى أثنى اللّه عليه فى كتابه منا فتقول النصارى:إن إبراهيم كان على الحق،و قد ظهر الحق بظهور عيسى معه،ثم تتبدل الى اللجاج و العصبيه فتدعى اليهود أنه كان يهوديا،و تدعى النصارى أنه كان نصرانيا،و من المعلوم أن اليهوديه و النصرانيه إنما نشأتا جميعا بعد نزول التوراه و الإنجيل و قد نزلا جميعا بعد إبراهيم عليه السّلام فكيف يمكن أن يكون عليه السّلام يهوديا بمعنى المنتحل بالدين الذى يختص بموسى عليه السّلام، و لا نصرانيا بمعنى المتعبد بشريعه عيسى عليه السّلام،فلو قيل فى إبراهيم شىء لوجب أن يقال:إنه كان على الحق حنيفا من الباطل الى الحق مسلما للّه سبحانه،و هذه الآيات فى مساق قوله تعالى: أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبٰاطَ كٰانُوا هُوداً أَوْ نَصٰارىٰ، قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهٰادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّهِ (البقره۱۴۰/).

قوله تعالى: هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ حٰاجَجْتُمْ فِيمٰا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ الآيه؛الآيه تثبت لهم علما فى المحاجه التى وقعت بينهم،و تنفى علما و تثبته للّه تعالى،و لذلك ذكر المفسرون:أن المعنى:أنكم حاججتم:فى إبراهيم عليه السّلام و لكم به

علم ما،كالعلم بوجوده و نبوته،فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم و هو كونه يهوديا أو نصرانيا و اللّه يعلم و أنتم لا تعلمون،أو أن المراد بالعلم علم ما بعيسى و خبره،و المعنى أنكم تحاجون فى عيسى و لكم بخبره علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم و هو كون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا،هذا ما ذكروه.

و أنت تعلم أن شيئا من الوجهين لا ينطبق على ظاهر سياق الآيه:أما الأول فلأنه لم تقع لهم محاجه فى وجود إبراهيم و نبوته،و أما الثانى فلأن المحاجه التى وقعت منهم فى عيسى لم يكونوا فيها على الصواب بل كانوا مخطئين فى خبره كاذبين فى دعواهم فيه فكيف يمكن أن يسمى محاجه فيما لهم له علم؛و كلامه تعالى على أى حال يثبت منهم محاجه فيما لهم به علم كما يثبت لهم محاجه فيما ليس لهم به علم،فما هذه المحاجه التى هى فيما لهم به علم؟على أن ظاهر الآيه أن هاتين إنما جرتا جميعا فيما بين أهل الكتاب أنفسهم لا بينهم و بين المسلمين و إلاّ كان المسلمون على الباطل فى الحجاج الذى أهل الكتاب فيه على علم؛و هو ظاهر.

و الذى ينبغى ان يقال-و اللّه العالم-ان من المعلوم أن المحاجه كانت جاريه بين اليهود و النصارى فى جميع موارد الاختلاف التى كانت بينهم،و عمده ذلك نبوه عيسى عليه السّلام و ما كانت تقوله النصارى فى حقه(إنه اللّه،أو ابنه،أو التثليث)فكانت النصارى تحاج اليهود فى بعثته و نبوته و هم على علم منه،و كانت اليهود تحاج النصارى،و تبطل الوهيته و نبوته و التثليث و هم على علم منه فهذه محاجتهم فيما لهم به علم،و اما محاجتهم فيما ليس لهم به علم فمحاجتهم فى أمر إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا.

و ليس المراد بجهلهم به جهلهم بنزول التوراه و الإنجيل بعده و هو ظاهر،و لا ذهولهم عن أن السابق لا يكون تابعا للاحق فإنه خلاف ما يدل عليه قوله تعالى: أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ ،فإنه يدل على أن الأمر يكفى فيه أدنى تنبيه،فهم عالمون بأنه كان سابقا على التوراه و الإنجيل لكنهم ذاهلون عن مقتضى علمهم و هو أنه لا يكون حينئذ يهوديا و لا نصرانيا بل على دين اللّه الذى

هو الإسلام للّه.

قوله تعالى: مٰا كٰانَ إِبْرٰاهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لاٰ نَصْرٰانِيًّا الى آخر الآيه؛قد مر تفسيره فيما مر،و قد قيل:إن اليهود و النصارى كما كانوا يدعون أن إبراهيم عليه السّلام منهم و على دينهم كذلك عرب الجاهليه من الوثنيه كانت تدعى أنهم على الدين الحنيف دين إبراهيم عليه السّلام حتى كان أهل الكتاب يسمونهم الحنفاء،و يدعون بالحنيفيه الوثنيه.

و لما وصف اللّه سبحانه إبراهيم عليه السّلام بقوله: وَ لٰكِنْ كٰانَ حَنِيفاً ،وجب بيانه حتى لا يتوهم منه الوثنيه فلذلك أردفه بقوله: مُسْلِماً وَ مٰا كٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ،أى كان على الدين المرضى عند اللّه تعالى و هو الإسلام و ما كان من المشركين كعرب الجاهليه.

قوله تعالى: إِنَّ أَوْلَى النّٰاسِ بِإِبْرٰاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الآيه فى موضع التعليل للكلام السابق و بيان للحق فى المقام و المعنى-و اللّه العالم-أن هذا النبى المعظم إبراهيم لو أخذت النسبه بينه و بين من بعده من المنتحلين و غيرهم لكان الحق أن لا يعد تابعا لمن بعده بل يعتبر الأولويه به و الأقربيه منه،و الأقرب من النبى الذى له شرع و كتاب هم الذين يشاركونه فى اتباع الحق،و التلبس بالدين الذى جاء به،و الأولى بهذا المعنى بإبراهيم عليه السّلام هذا النبى و الذين آمنوا لأنهم على الإسلام الذى اصطفى اللّه به إبراهيم و كذا كل من اتبعه دون من يكفر بآيات اللّه و يلبس الحق بالباطل.

و فى قوله لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ تعريض لأهل الكتاب من اليهود و النصارى بنحو الكنايه أى لستم أولى بإبراهيم لعدم اتباعكم إياه فى إسلامه للّه.

و فى قوله:و هذا النبى و الذين آمنوا إفراد للنبى عليه السّلام و من اتبعه من المؤمنين من الذين اتبعوا إبراهيم إجلالا للنبى و صونا لمقامه أن يطلق عليه الاتباع كما يستشعر ذلك-مثل قوله تعالى:

أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّٰهُ فَبِهُدٰاهُمُ اقْتَدِهْ (الأنعام/۹۰)،حيث لم يقل:فبهم اقتده.

و قد تمم التعليل و البيان بقوله: وَ اللّٰهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ،فإن ولايه إبراهيم(ولى اللّه)،من ولايه

اللّه،و اللّه ولی المؤمنین دون غیرهم الکافرین بآیاته اللابسین الحق بالباطل.

قوله تعالی: وَدَّتْ طٰائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ لَوْ یُضِلُّونَکُمْ وَ مٰا یُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا یَشْعُرُونَ ؛الطائفه الجماعه من الناس،و کأن الأصل فیه أن الناس و خاصه العرب کانوا أولا یعیشون شعوبا و قبائل بدویین یطوفون صیفا و شتاء بماشیتهم فی طلب الماء و الکلاء،و کانوا یطوفون و هم جماعه تحذرا من الغیله و الغاره فکان یقال لهم جماعه طائفه،ثم اقتصر علی ذکر الوصف(الطائفه)للدلاله علی الجماعه.

و أما کون أهل الکتاب لا یضلون إلاّ أنفسهم فإن أول الفضائل الإنسانیه المیل الی الحق و اتباعه فحب صرف الناس عن الحق الی الباطل من جهه أنه من أحوال النفس و أخلاقها رذیله نفسانیه-و بئست الرذیله-و إثم من آثامها و معاصیها و بغیها بغیر حق،و ما ذا بعد الحق إلاّ الضلال فحبهم لإضلال المؤمنین و هم علی الحق إضلال بعینه لأنفسهم من حیث لا یشعرون.

و کذا لو تمکنوا من بعضهم بإلقاء الشبهات فأضلوه بذلک فإنما یضلون أولا أنفسهم لأن الإنسان لا یفعل شیئا من خیر أو شر إلاّ لنفسه کما قال تعالی: مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَیْهٰا وَ مٰا رَبُّکَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِیدِ (حم السجده۴۶/)،و أما ضلال من ضل بإضلالهم فلیس بتأثیر منهم بل هو بسوء فعال الضال الغاوی و شآمه إرادته بإذن من اللّه،قال تعالی:

مَنْ کَفَرَ فَعَلَیْهِ کُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ یَمْهَدُونَ (الروم۴۴/)،و قال تعالی:

وَ مٰا أَصٰابَکُمْ مِنْ مُصِیبَهٍ فَبِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ فِی الْأَرْضِ وَ مٰا لَکُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لاٰ نَصِیرٍ (الشوری۳۱/)،و قد مر شطر من الکلام فی خواص الأعمال فی الکلام علی قوله تعالی: حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ (البقره/ ۲۱۷)،فی الجزء الثانی من الکتاب.

و هذا الذی ذکرناه من المعارف القرآنیه التی یفیدها التوحید الأفعالی الذی یتفرع علی

شمول حکم الربوبیه و الملک،و به یوجه ما یفیده قوله تعالی: وَ مٰا یُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا یَشْعُرُونَ ،من الحصر.

قوله تعالی: یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لِمَ تَکْفُرُونَ بِآیٰاتِ اللّٰهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ،قد مر أن الکفر بآیات اللّه غیر الکفر باللّه تعالی،و أن الکفر باللّه هو الالتزام بنفی التوحید صریحا کالوثنیه و الدهریه،و الکفر بآیات اللّه إنکار شیء من المعارف الإلهیه بعد ورود البیان و وضوح الحق،و أهل الکتاب لا ینکرون أن للعالم إلها واحدا،و إنما ینکرون امورا من الحقائق بینتها لهم الکتب السماویه المنزله علیهم و علی غیرهم کنبوه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کون عیسی عبدا للّه و رسولا منه،و أن إبراهیم لیس بیهودی و لا نصرانی،و أن ید اللّه مبسوطه،و أن اللّه غنی؛الی غیر ذلک،فأهل الکتاب فی لسان القرآن کافرون بآیات اللّه غیر کافرین باللّه،و لا ینافیه قوله تعالی: قٰاتِلُوا الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْیَوْمِ الْآخِرِ وَ لاٰ یُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ لاٰ یَدِینُونَ دِینَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتٰابَ (التوبه/۲۹)،حیث نفی الإیمان عنهم صریحا، و لیس إلاّ الکفر و ذلک أن ذکر عدم تحریمهم للحرام و عدم تدینهم بدین الحق فی الآیه یشهد بأن المراد من توصیفهم بعدم الإیمان هو التوصیف بلازم الحال فلازم حالهم من الکفر بآیات اللّه عدم الإیمان باللّه و الیوم الآخر و إن لم یشعروا به،و لیس بالکفر الصریح.

و فی قوله تعالی: وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ -و الشهاده هو الحضور و العلم عن حس-دلاله علی أن المراد بکفرهم بآیات اللّه إنکارهم کون النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو النبی الموعود الذی بشر به التوراه و الإنجیل مع مشاهدتهم انطباق الآیات و العلائم المذکوره فیهما علیه.

و من هنا یظهر فساد ما ذکره بعضهم:أن لفظ الآیات عام شامل لجمیع الآیات و لا وجه لتخصیصه بآیات النبوه بل المراد کفرهم بجمیع الآیات الحقه و الوجه فی فساده ظاهر.

قوله تعالی: یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبٰاطِلِ الی آخر الآیه؛ اللبس بفتح اللام إلقاء الشبهه و التمویه أی تظهرون الحق فی صوره الباطل.

و فی قوله: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ دلاله أو تلویح علی أن المراد باللبس و الکتمان ما هو فی المعارف الدینیه غیر ما یشاهد من الآیات کالآیات التی حرفوها أو کتموها أو فسروها بغیر ما یراد منها.

و هاتان الآیتان أعنی قوله: یا أَهْلَ الْکِتابِ لِمَ تَکْفُرُونَ -الی قوله: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ -تتمه لقوله تعالی: وَدَّتْ طائِفَهٌ الآیه؛و علی هذا فعتاب الجمیع بفعال البعض بنسبته إلیهم من جهه اتحادهم فی العنصر و النسل و الصفه،و رضاء البعض بفعال البعض و هو کثیر الورود فی القرآن.

قوله تعالی: وَ قالَتْ طائِفَهٌ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ آمِنُوا بِالَّذِی أُنْزِلَ الی آخر الآیه؛المراد بوجه النهار بقرینه مقابلته بآخره هو أوله فإن وجه الشیء ما یبدو و یظهر به لغیره و هو فی النهار أوله،و سیاق قولهم یکشف عن نزول وحی علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی وجه النهار یوافق ما علیه أهل الکتاب و آخر فی آخره یخالف ما هم علیه فإنما هو الذی دعاهم الی أن یقولوا هذا القول.

و علی هذا فقوله: بِالَّذِی أُنْزِلَ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا أرید به شیء خاص من وحی القرآن یوافق ما عند أهل الکتاب،و قوله: وَجْهَ النَّهارِ منصوب علی الظرفیه و متعلق بقوله: أُنْزِلَ ،لا بقوله:

آمنوا(صیغه الأمر)لأنه أقرب،و قوله: وَ اکْفُرُوا آخره فی معنی و کفروا بما أنزل فی آخره فیکون من وضع الظرف موضع المظروف بالمجاز العقلی نظیر قوله تعالی: بَلْ مَکْرُ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ (سبأ۳۳/).

و بذلک یتأید ما ورد فی سبب النزول عن أئمه أهل البیت:أن هذه کلمه قالتها الیهود حین تغییر القبله حیث صلی رسول اللّه صلاه الصبح الی بیت المقدس و هو قبله الیهود،ثم حولت القبله فی صلاه الظهر نحو الکعبه فقالت طائفه من الیهود:آمنوا بما أنزل علی الذین آمنوا وجه النهار یریدون استقبال بیت المقدس،و اکفروا آخره یریدون استقبال الکعبه.و یؤیده قولهم

بعده على ما حكاه اللّه:و لا تؤمنوا لا لمن تبع دينكم،أى لا تثقوا بمن لا يتبع دينكم بالإيمان به فتفشوا عنده شيئا من أسراركم و البشارات التى عندكم و كان من علائم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه يحول القبله الى الكعبه.

قوله تعالى: وَ لاٰ تُؤْمِنُوا إِلاّٰ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ الخ؛الذى يعطيه السياق هو أن تكون هذه الجمله من قول أهل الكتاب تتمه لقولهم:آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا، و كذا قوله تعالى: أَنْ يُؤْتىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مٰا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحٰاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ،و يكون قوله قُلْ إِنَّ الْهُدىٰ هُدَى اللّٰهِ جمله معترضه هو جواب اللّه سبحانه عن مجموع ما تقدم من كلامهم أعنى قولهم:آمنوا بما انزل الى قوله: دِينَكُمْ ،على ما يفيده تغيير السياق،و كذا قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّٰهِ ،جوابه تعالى عن قولهم: أَنْ يُؤْتىٰ أحد الى آخره؛هذا هو الذى يقتضيه ارتباط أجزاء الكلام و اتساق المعانى فى الآيتين أولا،و ما تناظر الآيتين من الآيات الحاكيه لأقوال اليهود فى الجدال و الكيد ثانيا.

و المعنى-و اللّه أعلم-أن طائفه من أهل الكتاب-و هم اليهود-قالت أى قال بعضهم لبعض:صدقوا النبى و المؤمنين فى صلاتهم وجه النهار الى بيت المقدس و لا تصدقوهم فى صلاتهم الى الكعبه آخر النهار،و لا تثقوا فى الحديث بغيركم فيخبروا المؤمنين أن من شواهد نبوه النبى الموعود تحويل القبله الى الكعبه فإن فى تصديقكم أمر الكعبه و إفشائكم ما تعلمونه من كونها من امارات صدق الدعوه محذور أن يؤتى المؤمنون مثل ما اوتيتم من القبله فيذهب به سوددكم و يبطل تقدمكم فى أمر القبله،و محذور أن يقيموا عليكم الحجه عند ربكم أنكم كنتم عالمين بأمر القبله الجديده شاهدين على حقيته ثم لم تؤمنوا.

فأجاب اللّه تعالى عن قولهم فى الإيمان بما فى وجه النهار و الكفر فى آخره و أمرهم بكتمان أمر القبله لئلا يهتدى المؤمنون الى الحق بأن الهدى الذى يحتاج اليه المؤمنون الذى هو حق الهدى إنما هو هدى اللّه دون هداكم،فالمؤمنون فى غنى عن ذلك فإن شئتم فاتبعوا و إن شئتم فاكفروا

ص :۵۰۲

و إن شئتم فأفشوا و إن شئتم فاكتموا.

و أجاب تعالى عما ذكروه من مخافه أن يؤتى أحد مثل ما اوتوا أو يحاجوهم عند ربهم بأن الفضل بيد اللّه يؤتيه من يشاء لا بيدكم حتى تحبسوه لأنفسكم و تمنعوا منه غيركم،و أما حديث الكتمان مخافه المحاجه فقد أعرض عن جوابه لظهور بطلانه كما فعل كذلك فی قوله تعالی فی هذا المعنی بعینه: وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (البقره/۷۷)،فقوله: أَ وَ لا يَعْلَمُونَ ،إیذان بأن هذا القول بعد ما علموا أن اللّه لا یتفاوت فیه السر و العلانیه کلام منهم لا یستوی علی تعقل صحیح،و لیس جوابا لمکان الواو فی قوله: أَ وَ لا يَعْلَمُونَ .

قوله تعالی: قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ ، الفضل هو الزائد عن الاقتصاد،و یستعمل فی المحمود کما أن الفضول یستعمل فی المذموم، قال الراغب:و کل عطیه لا تلزم من یعطی یقال لها فضل نحو قوله: وَ سْئَلُوا اللّهَ مِنْ فَضْلِهِ - ذلک فضل اللّه-ذو الفضل العظیم،و علی هذا قوله: قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ -و لو لا فضل اللّه- انتهی.

و علی هذا فقوله: إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ ،من قبیل الإیجاز بالقناعه بکبری البیان القیاسی؛ و التقدیر:قل إن هذا الإنزال و الإیتاء الإلهی الذی تحتالون فی تخصیصه بأنفسکم بالتظاهر علی الإیمان و الکفر،و الإیصاء بالکتمان أمر لا نستوجبه معاشر الناس علی اللّه تعالی بل هو من الفضل،و الفضل بید اللّه الذی له الملک و له الحکم فله أن یؤتیه من یشاء و اللّه واسع علیم.

قوله تعالی: يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ،فلما کان الفضل بید اللّه یؤتیه من یشاء و کان واسعا علیما أمکن أن یختص بعض عباده ببعض نعمه فإن له أن یتصرف فی ملکه کیف یشاء،و لیس اذا لم یکن ممنوع التصرف فی فضله و إیتائه عباده

ص :۵۰۳

أن يجب عليه أن يؤتى كل فضله كل أحد فإن هذا أيضا نوع ممنوعيه فى التصرف بل له أن يختص بفضله من يشاء.

و قد ختم الكلام بقوله: وَ اللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ و هو بمنزله التعليل لجميع المعانى السابقه فإن لازم عظمه الفضل على الإطلاق أن يكون بيده يؤتيه من يشاء،و أن يكون واسعا فى فضله؛و أن يكون عليما بحال عباده و ما هو اللائق بحالهم من الفضل،و أن يكون له أن يختص بفضله من يشاء.

و فى تبديل الفضل بالرحمه فى قوله: يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشٰاءُ ،دلاله على أن الفضل و هو العطيه غير الواجبه من شعب الرحمه،قال تعالى: وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (الأعراف/ ۱۵۶)،و قال وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مٰا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً (النور/۲۱)، و قال تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزٰائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفٰاقِ (الإسراء/ ۱۰۰).

قوله تعالى: وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطٰارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ -إلى قوله:

سَبِيلٌ إشاره الى اختلافهم فى حفظ الأمانات و العهود اختلافا فاحشا آخذا بطرفى التضاد و أن هذا و إن كان فى نفسه رذيله قوميه ضاره إلاّ أنه ناش بينهم فاش فى جماعتهم من رذيله اخرى اعتقاديه و هى ما يشتمل عليه قولهم:ليس علينا فى الاميين سبيل،فانهم كانوا يسمون أنفسهم بأهل الكتاب،و غيرهم بالاميين فقولهم:ليس علينا فى الاميين سبيل معناه نفى أن يكون لغير إسرائيلى على إسرائيلى سبيل،و قد أسندوا الكلمه الى الدين،و الدليل عليه قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ بَلىٰ ،الخ.

فقد كانوا يزعمون-كما أنهم اليوم على زعمهم-أنهم هم المخصوصون بالكرامه الإلهيه لا تعدوهم الى غيرهم بما أن اللّٰه سبحانه جعل فيهم نبوه و كتابا و ملكا فلهم السياده و التقدم على غيرهم،و استنتجوا من ذلك أن الحقوق المشرعه عندهم اللازمه المراعاه عليهم كحرمه أخذ

الربـاء و أكـل مـال الغير:و هضم حقوق النـاس إنمـا هى بينهم معاشـر أهـل الكتاب فالمحرم هو أكل مال الإسـرائيلى على مثله،و المحظور هضم حقوق يهودى على أهـل ملته،و بـالجمله إنمـا السبيـل على أهـل الكتاب لأهل الكتاب،و أما غير أهل الكتاب فلا سبيـل له على أهـل الكتـاب فلهم أن يحكموا فى غيرهم ما شاءوا و يفعلوا فى من دونهم ما أرادوا،و هـذا يؤدى الى معاملتهم مع غيرهم معامله الحيوان العجم كائنا من كان.

و القنطار و الـدينار معروفان،و المقابله بينهما-على ما فيها من المحسـنات البـديعيه-و المقام مقام يـذكر فيه الأمانه تفيـد أنه كنى بهما عن الكثير و القليل،و المراد أن منهم من لا يخون الأمانه و إن كثرت و ثقلت قيمتها،و منهم من يخونها و إن قلت و خفت.

و كـذا الخطـاب الموضوع فى الكلاـم بقوله: إِنْ تَـأْمَنْهُ بِقِنْطٰارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْـكَ ،غير متوجه الى مخـاطب معين بل هو للتكنيه عن أى مخاطب يمكن أن يخاطب بهـذا الكلام للإشـعار بأن الحكم عام غير مقصور على واحـد دون واحـد،و الكلام فى معنى قولنا:إن يأمنه مؤتمن أى مؤتمن كان بقنطار يؤده اليه.

و مـا فى قوله: إِلاّٰ مٰا دُمْتَ عَلَيْهِ قٰائِماً ،مصـدريه على مـا قيـل،و التقـدير إلاّـ أن تـدوم قائما عليه، و ذكر القيام عليه للـدلاله على الإلحـاح و الاسـتعجال فـإن قيـام المطـالب على سـاقه عنـد المطالبه من غير قعود دليل على ذلك،و ربما قيل:إن ما ظرفيه،و ليس بشىء.

و قوله: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لَيْسَ عَلَيْنٰا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ،ظاهر السياق أن ذلك إشاره الى مجموع المضمون المأخوذ من سابق القول أى كون بعضـهم يؤدى الأمـانه و إن كـانت خطيره مهمه،و بعضـهم لاـ يؤديها و إن كانت حقيره لا يعبأ بها إنما هو لقولهم،ليس علينـا فى الاـميين سبيـل فـأوجب ذلـك اختلافا بينهم فى الصـفات الروحيه كحفظ الأمانات و الاتقاء عن تضـييع حقوق الناس،و الاغترار بالكرامه مع أنهم يعلمون أن اللّه لم يسن لهم ذلك فى الكتاب و لا رضى بمثل هذه الأفعال منهم.

قوله تعالی: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ إبطال لدعواهم أنه ليس علينا فی الامیین سبیل،و دلیل علی أنهم کانوا ینسبون ذلک الی الوحی السماوی و التشریع الدینی کما مر.

قوله تعالی: بَلىٰ مَنْ أَوْفىٰ بِعَهْدِهِ وَ اتَّقىٰ فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ،رد لکلامهم و إثبات لما نفوه بقولهم:لیس علینا فی الامیین سبیل؛و إیفاء العهد تتمیمه بالتحفظ من العذر و النقص؛و التوفیه البذل و الإعطاء وافیا؛و الاستیفاء الأخذ و التناول وافیا.

و المراد بالعهد ما أخذ اللّه المیثاق علیه من عباده أن یؤمنوا به و یعبدوه علی ما یشعر به قوله فی الآیه التالیه:إن الذین یشترون بعهد اللّه و ایمانهم ثمنا قلیلا،أو مطلق العهد الذی منه عهد اللّه تعالی.

و قوله: فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ من قبیل وضع الکبری موضع الصغری إیثارا للإیجاز، و التقدیر فإن اللّه یحبه لأنه متق و اللّه یحب المتقین،و المراد أن کرامه اللّه لعباده المتقین حبه لهم لا ما زعمتموه من نفی السبیل.

فمفاد الکلام ان الکرامه الإلهیه لیست بذاک المبتذل السهل التناول حتی ینالها کل من انتسب الیه انتسابا أو یحسبها کل محتال أو مختال کرامه جنسیه أو قومیه بل یشترط فی نیلها الوفاء بعهد اللّه و میثاقه و التقوی فی الدین فاذا تمت الشرائط حصلت الکرامه و هی المحبه و الولایه الإلهیه التی لا تعدو عباده المتقین،و أثرها النصره الإلهیه،و الحیاه السعیده التی تعمر الدنیا و تصلح بال أهلها،و ترفع درجات الآخره.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً تعلیل للحکم المذکور فی الآیه السابقه،و المعنی أن الکرامه الإلهیه خاصه بمن أوفی بعهده و اتقی لأن غیرهم -و هم الذین یشترون بعهد اللّه و ایمانهم ثمنا قلیلا-لا کرامه لهم.

و لما کان نقض عهد اللّه و ترک التقوی إنما هو للتمتع بزخارف الدنیا و إیثار شهوات الأولی

على الاخرى كان فيه وضع متاع الـدنيا موضع إيفاء العهد و التقوى،و تبديل العهد به،و لذلك شبه عملهم ذلك بالمعامله فجعل عهد اللّه مبيعا يشترى بالمتاع،و سمى متاع الدنيا و هو قليل بالثمن القليل،و الاشتراء هو البيع فقيل:يشترون بعهد اللّه و ايمانهم ثمنا قليلا،أى يبدلون العهد و الايمان من متاع الدنيا.

قوله تعـالى: أُولٰئِكَ لاٰ خَلاٰقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ لاٰ يُكَلِّمُهُمُ اللّٰهُ الى آخر الآيه؛الخلاق النصيب،و التزكيه هى الإنماء نموا صالحا،و لما كـان الوصف المأخوذ فى بيـان هـذه الطـائفه من الناس مقابلا للوصف المأخوذ فى الطائفه الاخرى المـذكوره فى قوله: مَنْ أَوْفىٰ بِعَهْدِهِ وَ اتَّقىٰ ،ثم كانت التبعات المذكوره لوصفهم امورا سلبيه أفاد ذلك:

أولاـ:أن الإتيـان فى الإشاره بلفظ أولئك الـدال على البعـد لإفاده بعـد هؤلاء من ساحه القرب كما أن الموفون بعهـدهم المتقون مقربون لمكان حب اللّه تعالى لهم.

و ثانيا:أن آثار محبه اللّه سبحانه هى الخلاق فى الآخره،و التكليم و النظر يوم القيامه، و التزكيه و المغفره،و هى رفع أليم العذاب.

و الخصال التى ذكرها اللّه تعالى لهؤلاء الناقضين لعهد اللّه و أيمانهم امور ثلاثه:

أحـدها:أنهم لا نصيب لهم فى الآخره،و المراد بالآخره هى الدار الآخره(من قيام الوصف مقام الموصوف)و يعنى بها الحياه التى بعد الموت كما أن المراد بالدنيا هى الدار الدنيا و هى الحياه الدنيا قبل الموت.

و نفى النصيب عنهم فى الآخره لاختيارهم نصيب الدنيا عليه،و من هنا يظهر أن المراد بالثمن القليل هو الدنيا،و إنما فسرناه فيما تقـدم بمتـاع الـدنيا لمكـان توصـيفه تعـالى إيـاه بالقليـل، و قـد وصف به متـاع الـدنيا فى قوله-عزّ من قائل- قُلْ مَتٰاعُ الدُّنْيٰا قَلِيلٌ (النساء/٧٧)، على أن متاع الدنيا هو الدنيا.

و ثانيها:أن اللّه لا يكلمهم و لا ينظر إليهم يوم القيامه،و قد حوذى به المحبه الإلهيه للمتقين

من حيث إن الحب يوجب تزود المحب من المحبوب بالاسترسال بالنظر و التكليم عند الحضور و الوصال،و اذ لا يحبهم اللّه فلا يكلمهم و لا ينظر إليهم يوم القيامه و هو يوم الإحضار و الحضور،و التدرج من التكليم الى النظر لوجود القوه و الضعف بينهما فإن الاسترسال فى التكليم أكثر منه فى النظر فكأنه قيل:لا نشرفهم لا كثيرا و لا قليلا.

و ثالثها:أن اللّه لا يزكيهم و لهم عذاب أليم،و إطلاق الكلام يفيد أن المراد بهما ما يعم التزكيه و العذاب فى الدنيا و الآخره.

قوله تعالى: وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتٰابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتٰابِ وَ مٰا هُوَ مِنَ الْكِتٰابِ ،اللىّ هو فتل الحبل،ولىّ الرأس و اللسان إمالتهما.قال تعالى: لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ (المنافقون/۵)،و قال تعالى: لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ (النساء/۴۶)، و الظاهر أن المراد بذلك أنهم يقرءون ما افتروه من الحديث على اللّه سبحانه بألحان يقرءون بها الكتاب تلبيسا على الناس ليحسبوه من الكتاب و ما هو من الكتاب.

و تكرار لفظ الكتاب ثلاث مرات فى الكلام لدفع اللبس فإن المراد بالكتاب الأول هو الذى كتبوه بأيديهم و نسبوه الى اللّه سبحانه،و بالثانى الكتاب الذى أنزله اللّه تعالى بالوحى، و بالثالث هو الثانى كرر لفظه لدفع اللبس و للإشاره الى أن الكتاب بما أنه كتاب اللّه أرفع منزله من أن يشتمل على مثل تلك المفتريات،و ذلك لما فى لفظ الكتاب من معنى الوصف المشعر بالعليه.

و نظيره تكرار لفظ الجلاله فى قوله: وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَ مٰا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ ،فالمعنى و ما هو من عند اللّه الذى هو إله حقا لا يقول إلّا الحق،قال تعالى: وَ الْحَقَّ أَقُولُ (ص/ ۸۴).

و أما قوله: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ تكذيب بعد تكذيب لنسبتهم ما اختلقوه من الوحى الى اللّه سبحانه فإنهم كانوا يلبسون الأمر على الناس بلحن القول فأبطله

اللّه بقوله: وَ مٰا هُوَ مِنَ الْكِتٰابِ ثم كانوا يقولون بألسنتهم هو من عند اللّه فكذبهم اللّه:أولا بقوله: وَ مٰا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ ،و ثانيا بقوله: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ ،و زاد فی الفائده أولا أن الكذب من دأبهم و ديدنهم،و ثانيا أن ذلك ليس كذبا صادرا عنهم بالتباس من الأمر عليهم بل هم عالمون به متعمدون فيه (۱).

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۷۹ الی ۸۰]

اشاره

مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اَللّٰهُ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْحُكْمَ وَ اَلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنّٰاسِ كُونُوا عِبٰاداً لِي مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ لٰكِنْ كُونُوا رَبّٰانِيِّينَ بِمٰا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ اَلْكِتٰابَ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (۷۹) وَ لاٰ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا اَلْمَلاٰئِكَةَ وَ اَلنَّبِيِّينَ أَرْبٰاباً أَ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۸۰)

بيان:

قوله تعالى: مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنّٰاسِ كُونُوا عِبٰاداً لِي مِنْ دُونِ اللّٰهِ ،البشر مرادف للإنسان،و يطلق على الواحد و الكثير فالإنسان الواحد بشر كما أن الجماعه منه بشر.

و قوله: مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ ،اللام للملك أی لا يملك ذلک أی ليس له بحق كقوله تعالى:

مٰا يَكُونُ لَنٰا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذٰا (النور/۱۶)،و قوله: وَ مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ (آل عمران/۱۶۱).

۱- ۱) .آل عمران ۶۴-۷۸:بحث روائی حول:الآيه «يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ تَعٰالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوٰاءٍ...» ؛دعوه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لاهل الكتاب؛كتب رسول اللّه الى الملوك و الامراء.

و قوله تعالى: أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ،اسم كان إلاّ أنه توطئه لما يتبعه من قوله: ثُمَّ يَقُولَ لِلنّاسِ ،و ذكر هذه التوطئه مع صحه المعنى بدونها ظاهرا يفيد وجها آخر لمعنى قوله: مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ ،فإنه لو قيل:ما كان لبشر أن يقول للناس،كان معناه أنه لم يشرع له الحق و إن أمكن أن يقول ذلك فسقا و عتوا،و لكنه اذا قيل:ما كان لبشر أن يؤتيه اللّه الكتاب و الحكم و النبوه،ثم يقول:كان معناه أن إيتاء اللّه له العلم و الفقه بما عنده و تربيته له بتربيه ربانيه لا يدعه أن يعدو طور العبوديه،و لا يوسع له أن يتصرف فيما لا يملكه و لا يحق له كما يحكيه تعالى عن عيسى عليه السلام فى قوله: وَ إِذْ قٰالَ اللّٰهُ يٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ قٰالَ سُبْحٰانَكَ مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مٰا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ (المائده١١۶/).

و من هنا تظهر النكته فى قوله: أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ ،الخ،دون أن يقال: مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ ،الخ؛فإن العباره الثانيه تفيد معنى أصل التشريع كما تقدم بخلاف قوله: أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ ،الخ؛فإنه يفيد أن ذلك غير ممكن البته أى أن التربيه الربانيه و الهدايه الالهيه لا تتخلف عن مقصدها كما قال تعالى: أُولٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهٰا هٰؤُلاٰءِ (يعنى قوم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فَقَدْ وَكَّلْنٰا بِهٰا قَوْماً لَيْسُوا بِهٰا بِكٰافِرِينَ (الأنعام٨٩/).

فمحصل المعنى أنه لا يسع لبشر أن يجمع بين هذه النعم الالهيه و بين دعوه الناس الى عباده نفسه بأن يؤتى الكتاب و الحكم و النبوه ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون اللّه، فالآيه بحسب السياق بوجه كقوله تعالى: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لاَ الْمَلاٰئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ -الى أن قال-: وَ أَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَ اسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً وَ لاٰ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً (النساء١٧٣/)،فإن المستفاد من الآيه:أن المسيح و كذا الملائكه المقربون أجل شأنا و أرفع قدرا أن يستنكفوا عن عباده اللّه فإن

الاستنكاف عن عبادته يستوجب أليم العذاب،و حاشا أن يعذب اللّه كرام أنبيائه و مقربى ملائكته.

قوله تعالى: وَ لٰكِنْ كُونُوا رَبّٰانِيِّينَ بِمٰا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتٰابَ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ الربانى منسوب الى الرب،زيد عليه الألف و النون للدلاله على التفخيم كما يقال لحيانى لكثير اللحيه و نحو ذلك،فمعنى الربانى شديد الاختصاص بالرب و كثير الاشتغال بعبوديته و عبادته،و الباء فى قوله: بِمٰا كُنْتُمْ ،للسببيه،و ما مصدريه،و الكلام بتقدير القول و المعنى،و لكن يقول:كونوا ربانيين بسبب تعليمكم الكتاب للناس و دراستكم إياه فيما بينكم.

و الدراسه أخص من التعليم فإنه يستعمل غالبا فيما يتعلم عن الكتاب بقراءته،قال الراغب:درس الدار بقى أثرها،و بقاء الأثر يقتضى انمحائه فى نفسه،فلذلك فسر الدروس بالانمحاء،و كذا درس الكتاب،و درست العلم تناولت أثره بالحفظ،لما كان تناول ذلك بمداوه القراءه عبر عن إدامه القراءه بالحفظ،قال تعالى:و درسوا ما فيه،و قال:بما كنتم تعلمون الكتاب و بما كنتم تدرسون،و ما آتيناهم من كتب يدرسونها انتهى.

و محصل الكلام أن البشر الذى هذا شأنه إنما يدعوكم الى التلبس بالإيمان و اليقين بما فى الكتاب الذى تعلمونه و تدرسونه من اصول المعارف الإلهيه،و الاتصاف و التحقق بالملكات و الأخلاق الفاضله التى يشتمل عليها،و العمل بالصالحات التى تدعون الناس إليها حتى تنقطعوا بذلك الى ربكم،و تكونوا به علماء ربانيين.

و قوله: بِمٰا كُنْتُمْ ،حيث اشتمل على الماضى الدال على التحقق لا يخلو عن دلاله ما على أن الكلام فى الآيه مسوق للتعريض بالنصارى من أهل الكتاب فى قولهم:إن عيسى أخبرهم بأنه ابنه و كلمته على الخلاف فى تفسير البنوه،و ذلك أن بنى إسرائيل هم الذين كان فى أيديهم كتاب سماوى يعلمونه و يدرسونه و قد اختلفوا فيه اختلافا يصاحب التغيير

و التحريف،و ما بعث عيسى عليه السّلام إلاّ ليبين لهم بعض ما اختلفوا فيه،و ليحل بعض الذى حرم عليهم،و بالجمله ليدعوهم الى القيام بالواجب من وظائف التعليم و التدريس و هو أن يكونوا ربانيين فى تعليمهم و دراستهم كتاب اللّه سبحانه.

و الآيه و إن لم تأب الانطباق على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بوجه فقد كانت لدعوته أيضا مساس بأهل الكتاب الذين كانوا يعلمون و يدرسون كتاب اللّه لكن عيسى عليه السّلام أسبق انطباقا عليه، و كانت رسالته خاصه ببنى إسرائيل بخلاف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و أما سائر الأنبياء العظام من اولى العزم و الكتاب:كنوح و إبراهيم و موسى فمضمون الآيه لا ينطبق عليهم و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَ لاٰ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاٰئِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْبٰاباً عطف على قوله يقول:على القراءه المشهوره التى هى نصب يأمركم،و هذا كما كان طائفه من أهل الكتاب كالصابئين يعبدون الملائكه و يسندون ذلك الى الدعوه الدينيه،و كعرب الجاهليه حيث كانوا يقولون إن الملائكه بنات اللّه،و هم يدعون أنهم على دين إبراهيم عليه السّلام،هذا فى اتخاذ الملائكه أربابا.

و أما اتخاذ النبيين أربابا فكقول اليهود:عزير ابن اللّه على ما حكاه القرآن و لم يجوز لهم موسى عليه السّلام ذلك،و لا وقع فى التوراه إلاّ توحيد الرب و لو جوز لهم ذلك لكان أمرا به حاشاه من ذلك.

و قد اختلفت الآيتان:أعنى قوله: ثُمَّ يَقُولَ لِلنّٰاسِ كُونُوا عِبٰاداً لِي مِنْ دُونِ اللّٰهِ و قوله:

وَ لاٰ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاٰئِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْبٰاباً من جهتين فى سياقهما:الاولى:أن المأمور فى الاولى(ثم يقول للناس)الناس،و فى الثانيه هم المخاطبون بالآيه،و الثانيه:أن المأمور به فى الأولى العبوديه له و فى الثانيه الاتخاذ أربابا.

أما الاولى فحيث كان الكلام مسوقا للتعريض بالنصارى فى عبادتهم لعيسى،و قولهم

بـألوهيته صـريحا مسـندين ذلـك الى دعوته كـان ذلـك نسـبه منهم إليه أنه قال:كونوا عبادا لى بخلاف اتخاذ الملائكه و النبيين أربابا بالمعنى الذى قيل فى غير عيسى فإنه يضاد الألوهيه بلازمه لا بصريحه فلذلك قيل:أربابا،و لم يقل:آلهه.

و أمـا الثـانيه فـالوجه فيه أن التعبيرين كليهما(كونوا عبادا لى-يأمركم أن تتخـذوا)أمر لو تعلق بأحـد تعلق بهؤلاء الـذين يخاطبون بهذه الآيات من أهل الكتاب و العرب لكن التعبير لما وقع فى الآيه الأولى بالقول،و القول يقضى بالمشافهه و لم يكن الحاضرون فى زمن نزول الآيه حاضـرين اذ ذاک لا جرم قيل:ثم يقول للناس،و لم يقل:ثم يقول لكم؛و هذا بخلاف لفظ الأمر المستعمل فى الآـيه الثـانيه فإنه لا يسـتلزم شـفاها بل يتم مع الغيبه فإن الأمر المتعلق بالأسـلاف متعلق بالأخلاف مع حفظ الوحـده القوميه،و أما القول فهو لإفادته بحسب الانصراف إسماع الصوت يقضى بالمشافهه و الحضور إلا أن يعنى به مجرد معنى التفهيم.

و على هذا فالأصل فى سياق هذه الآيات الحضور و خطاب الجمع؛كما جرى عليه قوله تعالى:أو يأمركم،الى آخر الآيه.

قوله تعالى: أَ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْـدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْـلِمُونَ ظاهر الخطاب أنه متعلق بجميع المنتحلين بالنبوه من أهل الكتاب أو المـدعين للانتسـاب الى الانبيـاء كمـا كـانت عرب الجـاهليه تزعم أنهم حنفاء و الكلام موضوع على الفرض و التقـدير فالمعنى أنكم على تقـدير إجابتكم هـذا البشـر الـذى اوتى الكتاب و الحكم و النبوه تكونون مسـلمين للّه متحلين بحليه الإسـلام مصـبوغين بصـبغته فكيف يمكنه أن يأمركم بالكفر و يضلكم عن السبيل الذى هداكم إليه بإذن اللّه سبحانه.

و من هنا يظهر أن المراد بالإسـلام هو دين التوحيـد الـذى هو دين اللّه عنـد جميع الأنبياء على ما يدل عليه أيضا احتفاف الآيات بهذا المعنى من الإسـلام أعنى قوله تعالى من قبل: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْـلامُ (آل عمران١٩/)،و قوله تعالى من بعـد: أَ فَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ

ص :۵۱۳

-الی أن قال- وَ مَنْ یَبْتَغِ غَیْرَ الْإِسْلاٰمِ دِیناً فَلَنْ یُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِی الْآخِرَهِ مِنَ الْخٰاسِرِینَ (آل عمران۸۵/) (۱)(۲).

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۸۱ الی ۸۵]

اشاره

وَ إِذْ أَخَذَ اَللّٰهُ مِیثٰاقَ اَلنَّبِیِّینَ لَمٰا آتَیْتُکُمْ مِنْ کِتٰابٍ وَ حِکْمَهٍ ثُمَّ جٰاءَکُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمٰا مَعَکُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قٰالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلیٰ ذٰلِکُمْ إِصْرِی قٰالُوا أَقْرَرْنٰا قٰالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَکُمْ مِنَ اَلشّٰاهِدِینَ (۸۱) فَمَنْ تَوَلّٰی بَعْدَ ذٰلِکَ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلْفٰاسِقُونَ (۸۲) أَ فَغَیْرَ دِینِ اَللّٰهِ یَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ طَوْعاً وَ کَرْهاً وَ إِلَیْهِ یُرْجَعُونَ (۸۳) قُلْ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ مٰا أُنْزِلَ عَلَیْنٰا وَ مٰا أُنْزِلَ عَلیٰ إِبْرٰاهِیمَ وَ إِسْمٰاعِیلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ اَلْأَسْبٰاطِ وَ مٰا أُوتِیَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ وَ اَلنَّبِیُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاٰ نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۸۴) وَ مَنْ یَبْتَغِ غَیْرَ اَلْإِسْلاٰمِ دِیناً فَلَنْ یُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِی اَلْآخِرَهِ مِنَ اَلْخٰاسِرِینَ (۸۵)

۱- ۱) .آل عمران ۷۹-۸۰:بحث فی قصه عیسی علیه السّلام فی فصول(ما هی قصه عیسی و امّه فی القرآن،منزله عیسی عند اللّه و موقفه فی نفسه،ما الذی قاله عیسی علیه السّلام و ما الذی قیل فیه؟احتجاج القرآن علی مذهب التثلیث،المسیح من الشفعاء عند اللّه و لیس بفاد،من این نشأ هذه الآراء.

۲- ۲) .آل عمران ۷۹-۸۰:بحث تاریخی فی:قصه التوراه الحاضره؛قصه المسیح و الانجیل.

بيان:

قوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ ،الآيه تنبئ عن ميثاق مأخوذ،و قد أخذ اللّه هذا الميثاق للنبيين كما يدل عليه قوله تعالى: ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ،الخ؛كما أنه تعالى أخذه من النبيين على ما يدل عليه قوله: أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي ،الخ؛ و قوله بعد: قُلْ آمَنَّا بِاللّٰهِ ،الى آخر الآيه؛فالميثاق ميثاق مأخوذ للنبيين و مأخوذ منهم و إن كان مأخوذا من غيرهم أيضا بواسطتهم.

و على هذا فمن الجائز أن يراد بقوله تعالى: مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ الميثاق المأخوذ منهم أو المأخوذ لهم و الميثاق واحد،و بعباره اخرى يجوز أن يراد بالنبيين،المأخوذ لهم الميثاق و المأخوذ منهم الميثاق إلاّ أن سياق قوله تعالى: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ الى آخر الآيتين فى اتصاله بهذه الآيه يؤيد كون المراد بالنبيين هم الذين أخذ منهم الميثاق فإن وحده السياق تعطى أن المراد:أن النبيين بعد ما آتاهم اللّه الكتاب و الحكم و النبوه لا يتأتى لهم أن يدعوا الى الشريك و كيف يتأتى لهم ذلك؟و قد أخذ منهم الميثاق على الإيمان و النصره لغيرهم من النبيين الذين يدعون الى توحيد اللّه سبحانه،فالأنسب أن يبدأ بذكر الميثاق من حيث أخذه من النبيين.

و قوله: لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ،القراءه المشهوره،و هى قراءه غير حمزه بفتح اللام و التخفيف فى «لَمَا» و عليها فما موصوله و آتيتكم،-و قرأ آتيناكم-صلته، و الضمير محذوف،يدل عليه قوله: مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ،و الموصول مبتدأ خبره قوله: لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ،الخ؛و اللام فى لما ابتدائيه،و فى لتؤمنن به لام القسم،و المجموع بيان للميثاق المأخوذ، و المعنى:للذى أتيتكموه من كتاب و حكمه ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم آمنتم به

ص: ۵۱۵

و نصرتموه البته.

و يمكن أن يكون ما شرطيه و جزاؤها قوله لتؤمنن به،و المعنى مهما آتيتكم من كتاب و حكمه ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به و لتنصرنه؛و هذا أحسن لأن دخول اللام المحذوف قسمها فى الجزاء أشهر،و المعنى عليه أسلس و أوضح،و الشرط فى موارد المواثيق أعرف،و أما قراءه كسر اللام فى«لما»فاللام فيها للتعليل و ما موصوله،و الترجيح لقراءه الفتح.

و الخطاب فى قوله: آتَيْتُكُمْ ،و قوله: جٰاءَكُمْ ،و إن كان بحسب النظر البدوى للنبيين لكن قوله بعد: أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي ،قرينه على أن الخطاب للنبيين و اممهم جميعا أى ان الخطاب مختص بهم و حكمه شامل لهم و لاممهم جميعا فعلى الامم أن يؤمنوا و ينصروا كما على النبيين أن يؤمنوا و ينصروا.

و ظاهر قوله: ثُمَّ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمٰا مَعَكُمْ ،التراخى الزمانى أى أن على النبى السابق أن يؤمن و ينصر النبى اللاحق،و أما ما يظهر من قوله: قُلْ آمَنّٰا بِاللّٰهِ ،الخ؛أن الميثاق مأخوذ من كل من السابق و اللاحق للآخر،و أن على اللاحق أن يؤمن و ينصر السابق كالعكس فإنما هو أمر يشعر به فحوى الخطاب دون لفظ الآيه كما سيجىء إن شاء اللّه العزيز.

و قوله: لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ ،الضمير الأول و إن كان من الجائز أن يرجع الى الرسول كالضمير الثانى اذ لا ضير فى إيمان نبى لنبى آخر،قال تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ الآيه(البقره/۲۸۵)،لكن الظاهر من قوله: قُلْ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ مٰا أُنْزِلَ عَلَيْنٰا وَ مٰا أُنْزِلَ عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ ،الخ؛رجوعه الى ما أوتوا من كتاب و حكمه،و رجوع الضمير الثانى الى الرسول،و المعنى لتؤمنن بما آتيتكم من كتاب و حكمه و لتنصرن الرسول الذى جاءكم مصدقا لما معكم.

قوله تعالى: قٰالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي قٰالُوا أَقْرَرْنٰا ،

الاستفهام للتقرير،و الإقرار معروف،و الإصر هو العهد،و هو مفعول أخذتم،و أخذ العهد يستلزم مأخوذا منه غير الآخذ و ليس إلّا امم الأنبياء،فالمعنی أ أقررتم أنتم بالمیثاق،و أخذتم علی ذلکم عهدی من اممکم قالوا:أقررنا.

قوله تعالی: قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَکُمْ مِنَ الشّاهِدِینَ ،ظاهر الشهاده کما مر أن یکون علی الغیر فهی شهاده من الأنبیاء و اممهم جمیعا،و یشهد لذلک کما مر قوله: قُلْ آمَنّا بِاللّهِ ، و یشهد لذلک السیاق أیضا،فإن الآیات مسوقه للاحتجاج علی أهل الکتاب فی ترکهم إجابه دعوه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما أنها تحتج علیهم فی ما نسبوه الی عیسی و موسی علیهما السّلام و غیرهما کما یدل علیه قوله تعالی: أَ فَغَیْرَ دِینِ اللّهِ یَبْغُونَ ،و غیره.

و ربما یقال:إن المراد بقوله: فَاشْهَدُوا ،شهاده بعض الأنبیاء علی بعض کما ربما یقال:إن المخاطبین بقوله: فَاشْهَدُوا ،هم الملائکه دون الأنبیاء.

و المعنیان و إن کانا جائزین فی نفسهما غیر أن اللفظ غیر ظاهر فی شیء منهما بغیر قرینه، و قد عرفت أن القرینه علی الخلاف.

و من اللطائف الواقعه فی الآیه أن المیثاق مأخوذ من النبیین للرسل علی ما یعطیه قوله: وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِیِّینَ -الی قوله- ثُمَّ جاءَکُمْ رَسُولٌ ،و قد مر فی ذیل قوله تعالی: کانَ النّاسُ أُمَّهً واحِدَهً الآیه(البقره/۲۱۳)،الفرق بین النبوه و الرساله و أن الرسول أخص مصداقا من النبی.

فعلی ظاهر ما یفیده اللفظ یکون المیثاق مأخوذا من مقام النبوه لمقام الرساله من غیر دلاله علی العکس.

و بذلک یمکن المناقشه فیما ذکر بعضهم أن المحصل من معنی الآیه أن المیثاق مأخوذ من عامه النبیین أن یصدق بعضهم بعضا،و یأمر بعضهم بالإیمان ببعض،أی إن الدین واحد یدعو الیه جمیع الأنبیاء،و هو ظاهر.

فمحصل معنى الآيه على ما مر:أن اللّه أخذ الميثاق من الأنبياء و اممهم أن لو آتاهم اللّه الكتاب و الحكمه و جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن بما آتاهم و ينصرن الرسول و ذلك من الأنبياء تصديق من المتأخر للمتقدم و المعاصر،و بشاره من المتقدم بالمتأخر و توصيه الامه،و من الامه الإيمان و التصديق و النصره،و لازم ذلك وحده الدين الإلهى.

قوله تعالى: فَمَنْ تَوَلّٰى بَعْدَ ذٰلِكَ الخ؛تأكيد للميثاق المأخوذ المذكور،و المعنى واضح.

قوله تعالى: أَ فَغَيْرَ دِينِ اللّٰهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ ،تفريع على الآيه السابقه المتضمنه لأخذ ميثاق النبيين،و المعنى فاذا كان دين اللّه واحدا و هو الذى أخذ عليه الميثاق من عامه النبيين و اممهم و كان على المتقدم من الأنبياء و الامم أن يبشروا بالرسول المتأخر و يؤمنوا بما عنده و يصدقوه فما ذا يقصده هؤلاء معاشر أهل الكتاب و قد كفروا بك و ظاهر حالهم أنهم يبغون الدين فهل يبغون غير الإسلام الذى هو دين اللّه الوحيد؟و لذلك لا يصدقونك و لا يتمسكون بدين الإسلام مع أنه كان يجب عليهم الاعتصام بالإسلام لأنه الدين الذى يبتنى على الفطره؛و كذلك يجب أن يكون الدين،و الدليل عليه أن من فى السموات و الأرض من اولى العقل و الشعور مسلمون للّه فى مقام التكوين فيجب أن يسلموا عليه فى مقام التشريع.

قوله تعالى: وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً ،هذا الإسلام الذى يعم من فى السموات و الأرض و منهم أهل الكتاب الذين يذكر أنهم غير مسلمين،و لفظ أسلم صيغه ماض ظاهره المضى و التحقق لا محاله و هو التسليم التكوينى لأمر اللّه دون الإسلام بمعنى الخضوع العبودى،و يؤيده أو يدل عليه قوله طوعا و كرها.

و على هذا فقوله: وَ لَهُ أَسْلَمَ ،من قبيل الاكتفاء بذكر الدليل و السبب عن ذكر المدلول و المسبب؛و تقدير الكلام:أ فغير الإسلام يبغون؟و هو دين اللّه لأن من فى السموات و الأرض

مسلمون له منقادون لأمره،فإن رضوا به كان انقيادهم طوعا من أنفسهم،و إن كرهوا ما شائه و أرادوا غيره كان الأمر أمره و جرى عليهم كرها من غير طوع.

و من هنا يظهر أن الواو فى قوله: طَوْعاً وَ كَرْهاً ،للتقسيم،و أن المراد بالطوع و الكره رضاهم بما أراد اللّه فيهم مما يحبونه،و كراهتهم لما أراده فيهم مما لا يحبونه كالموت و الفقر و المرض و نحوها.

قوله تعالى: وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ هذا سبب آخر لوجوب ابتغاء الإسلام دينا فإن مرجعهم الى اللّه موليهم الحق لا الى ما يهديهم اليه كفرهم و شركهم.

قوله تعالى: قُلْ آمَنّا بِاللّهِ وَ ما أُنْزِلَ عَلَيْنا ،أمر النبى أن يجرى على الميثاق الذى أخذ منه و من غيره فيقول عن نفسه و عن المؤمنين من امته:آمنا باللّه و ما أنزل علينا، الخ.

و هذا من الشواهد على أن الميثاق مأخوذ من الأنبياء و اممهم جميعا كما مرت الإشاره اليه آنفا.

قوله تعالى: وَ ما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ الى آخر الآيه؛هؤلاء المذكورون بأسمائهم هم الأنبياء من آل إبراهيم،و لا تخلو الآيه من إشعار بأن المراد بالأسباط هم الأنبياء من ذريه يعقوب أو من أسباط بنى إسرائيل كداود و سليمان و يونس و أيوب و غيرهم.

و قوله: وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ،تعميم للكلام ليشمل آدم و نوحا و من دونهما،ثم جمع الجميع بقوله: لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

قوله تعالى: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ الخ؛نفى لغير مورد

الإثبات من الميثاق المأخوذ،و فيه تأكيد لوجوب الجرى على الميثاق (۱).

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۸۶ الى ۹۱]

اشاره

كَيْفَ يَهْدِى اَللّٰهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ اَلرَّسُولَ حَقٌّ وَ جٰاءَهُمُ اَلْبَيِّنٰاتُ وَ اَللّٰهُ لاٰ يَهْدِى اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِينَ (۸۶) أُولٰئِكَ جَزٰاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اَللّٰهِ وَ اَلْمَلاٰئِكَةِ وَ اَلنّٰاسِ أَجْمَعِينَ (۸۷) خٰالِدِينَ فِيهٰا لاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ اَلْعَذٰابُ وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ (۸۸) إِلاَّ اَلَّذِينَ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۸۹) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰانِهِمْ ثُمَّ اِزْدٰادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولٰئِكَ هُمُ اَلضّٰالُّونَ (۹۰) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ اَلْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ اِفْتَدىٰ بِهِ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ (۹۱)

بيان:

قوله تعالى: كَيْفَ يَهْدِى اللّٰهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰانِهِمْ ،الاستفهام يفيد الاستبعاد و الإنكار،و المراد به استحاله الهدايه،و قد ختم الآيه بقوله: وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِى الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ ،و قد مر فى نظير هذه الجمله أن الوصف مشعر بالعليه أى لا يهديهم مع وجود هذا

۱- ۱) .آل عمران ۸۱-۸۵:بحث روائى فى ان اللّه اخذ الميثاق على الانبياء...

الوصف فيهم،و ذلك لا ينافى هدايته لهم على تقدير رجوعهم و توبتهم منه.

و أما قوله: وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ فإن كان المراد بهم أهل الكتاب فشهادتهم هو مشاهدتهم أن آيات النبوه التى عندهم منطبقه على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما يفيده قوله:

وَ جٰاءَهُمُ الْبَيِّنٰاتُ ،و إن كان المراد بهم أهل الرده من المسلمين فشهادتهم هى إقرارهم بالرساله لا إقرارا صوريا مبنيا على الجهاله و الحميه و نحوهما بل إقرارا مستندا الى ظهور الأمر كما يفيده قوله: وَ جٰاءَهُمُ الْبَيِّنٰاتُ .

و كيف كان الأمر فانضمام قوله: وَ شَهِدُوا ،الخ؛الى أول الكلام يفيد أن المراد بالكفر هو الكفر بعد ظهور الحق و تمام الحجه فيكون كفرا عن عناد مع الحق و لجاج مع أهله و هو البغى بغير الحق و الظلم الذى لا يهتدى صاحبه الى النجاه و الفلاح.

و قد قيل فى قوله: وَ شَهِدُوا ،الخ؛إنه معطوف على قوله: إِيمٰانِهِمْ لما فيه من معنى الفعل، و التقدير كفروا بعد أن آمنوا و شهدوا،الخ؛أو أن الواو للحال؛و الجمله حاليه بتقدير«قد».

قوله تعالى: أُولٰئِكَ جَزٰاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّٰهِ -الى قوله-: وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ ،قد مر الكلام فى معنى عود جميع اللعنه عليهم فى تفسير قوله تعالى: أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّٰهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاّٰعِنُونَ (البقره۱۵۹/).

قوله تعالى: إِلاَّ الَّذِينَ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ أَصْلَحُوا الخ؛أى دخلوا فى الصلاح،و المراد به كون توبتهم نصوحا تغسل عنهم درن الكفر و تطهر باطنهم بالإيمان،و اما الإتيان بالأعمال الصالحه فهو و إن كان مما يتفرع على ذلك و يلزمه غير أنه ليس بمقوم لهذه التوبه و لا ركنا منها؛و لا فى الآيه دلاله عليه.

و فى قوله: فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وضع العله موضع المعلول و التقدير فيغفر اللّه له و يرحمه فإن اللّه غفور رحيم.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰانِهِمْ ثُمَّ ازْدٰادُوا كُفْراً الى آخر الآيتين؛

تعلیل لما یشتمل علیه قوله أولا:کیف یهدی اللّه قوما کفروا،الخ؛و هو من قبیل التعلیل بتطبیق الکلی العام علی الفرد الخاص،و المعنی أن الذی یکفر بعد ظهور الحق و تمام الحجه علیه،و لا یتوب بعده توبه مصلحه إنما هو أحد رجلین إما کافر یکفر ثم یزید کفرا فیطغی،و لا سبیل للصلاح الیه فهذا لا یهدیه اللّه و لا یقبل توبته لأنه لا یرجع بالحقیقه بل هو منغمر فی الضلال،و لا مطمع فی اهتدائه.

و إما کافر یموت علی کفره و عناده من غیر توبه یتوبها فلا یهدیه اللّه فی الآخره بأن یدخله الجنه اذ لم یرجع الی ربه و لا بدل لذلک حتی یفتدی به،و لا شفیع و لا ناصر حتی یشفع له أو ینصره.

و من هنا یظهر أن قوله: وَ أُولٰئِکَ هُمُ الضّٰالُّونَ باشتماله علی اسمیه الجمله،و الإشاره البعیده فی أولئک،و ضمیر الفصل،و الاسمیه و اللام فی الخبر یدل علی تأکد الضلال فیهم بحیث لا ترجی هدایتهم.

و کذا یظهر أن المراد بقوله: وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِینَ نفی انتفاعهم بالشفعاء الذین هم الناصرون یوم القیامه فإن الإتیان بصیغه الجمع یدل علی تحقق ناصرین یوم القیامه کما مر نظیره فی الاستدلال علی الشفاعه بقوله تعالی:فما لنا من شافعین،الآیه؛فی مبحث الشفاعه(آیه ۴۸ من سوره البقره)فارجع إلیه.

و قد اشتملت الآیه الثانیه علی ذکر نفی الفداء و الناصرین لکونهما کالبدل،و البدل إنما یکون من فائت یفوت الإنسان،و قد فاتتهم التوبه فی الدنیا و لا بدل لها یحل محلها فی الآخره.

و من هنا یظهر أن قوله: وَ مٰاتُوا وَ هُمْ کُفّٰارٌ فی معنی:و فاتتهم التوبه فلا ینتقض هذا البیان الظاهر فی الحصر بما ذکره اللّه تعالی فی قوله: وَ لَیْسَتِ التَّوْبَهُ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السَّیِّئٰاتِ حَتّٰی إِذٰا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قٰالَ إِنِّی تُبْتُ الْآنَ وَ لاَ الَّذِینَ یَمُوتُونَ وَ هُمْ کُفّٰارٌ أُولٰئِکَ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰاباً أَلِیماً (النساء/۱۸)،فإن المراد بحضور الموت ظهور آثار الآخره و انقطاع الدنیا؛و تفوت

عند ذلک التوبه.

و الملء فی قوله: مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً مقدار ما یسعه الإناء من شیء،فاعتبر الأرض إناء یملأه الذهب فالجمله من قبیل الاستعاره التخییلیه و الاستعاره بالکنایه.

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۹۲ الی ۹۵]

اشاره

لَنْ تَنٰالُوا اَلْبِرَّ حَتّٰی تُنْفِقُوا مِمّٰا تُحِبُّونَ وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَیْءٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ بِهِ عَلِیمٌ (۹۲) کُلُّ اَلطَّعٰامِ کٰانَ حِلاًّ لِبَنِی إِسْرٰائِیلَ إِلاّٰ مٰا حَرَّمَ إِسْرٰائِیلُ عَلیٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ اَلتَّوْرٰاهُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرٰاهِ فَاتْلُوهٰا إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۹۳) فَمَنِ افْتَریٰ عَلَی اَللّٰهِ اَلْکَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلظّٰالِمُونَ (۹۴) قُلْ صَدَقَ اَللّٰهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّهَ إِبْرٰاهِیمَ حَنِیفاً وَ مٰا کٰانَ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ (۹۵)

بیان:

قوله تعالی: لَنْ تَنٰالُوا الْبِرَّ حَتّٰی تُنْفِقُوا مِمّٰا تُحِبُّونَ ،النیل هو الوصول،و البر هو التوسع فی فعل الخیر،قال الراغب:البر خلاف البحر،و تصور منه التوسع فاشتق منه البر أی التوسع فی فعل الخیر،انتهی.

و مراده من فعل الخیر أعم مما هو فعل القلب کالاعتقاد الحق و النیه الطاهره أو فعل الجوارح کالعباده للّه و الإنفاق فی سبیل اللّه تعالی،و قد اشتمل علی القسمین جمیعا قوله تعالی:

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلاٰئِكَهِ وَ الْكِتٰابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ آتَى الْمٰالَ عَلىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبىٰ وَ الْيَتٰامىٰ وَ الْمَسٰاكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السّٰائِلِينَ وَ فِي الرِّقٰابِ وَ أَقٰامَ الصَّلاٰهَ وَ آتَى الزَّكٰاهَ وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذٰا عٰاهَدُوا وَ الصّٰابِرِينَ فِي الْبَأْسٰاءِ وَ الضَّرّٰاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ الآيه(البقره۱۷۷/).

قوله تعالى: وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللّٰهَ بِهِ عَلِيمٌ ،تطييب لنفوس المنفقين أن ما ينفقونه من المال المحبوب عندهم لا يذهب مهدورا من غير أجر فإن اللّه الذى يأمرهم به عليم بإنفاقهم و ما ينفقونه.

قوله تعالى: كُلُّ الطَّعٰامِ كٰانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرٰائِيلَ إِلاّٰ مٰا حَرَّمَ إِسْرٰائِيلُ عَلىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرٰاهُ ،الطعام كل ما يطعم و يتغذى به و كان يطلق عند أهل الحجاز على البر خاصه و ينصرف اليه عندهم لدى الإطلاق،و الحل مقابل الحرمه،و كأنه مأخوذ من الحل مقابل العقد و العقل فيفيد معنى الإطلاق،و إسرائيل هو يعقوب النبى عليه السّلام سمى به لأنه كان مجاهدا فى اللّه مظفرا به،و يقول أهل الكتاب:إن معناه المظفر الغالب على اللّه سبحانه لأنه صارع اللّه فى موضع يسمى فنيئيل فغلبه(على ما فى التوراه)و هو مما يكذبه القرآن و يحيله العقل.

و قوله: إِلاّٰ مٰا حَرَّمَ إِسْرٰائِيلُ عَلىٰ نَفْسِهِ استثناء من الطعام المذكور آنفا،و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرٰاهُ متعلق بكان فى الجمله الاولى،و المعنى لم يحرم اللّه قبل نزول التوراه شيئا من الطعام على بنى إسرائيل إلاّ ما حرم إسرائيل على نفسه.

و فى قوله تعالى: قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرٰاهِ فَاتْلُوهٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ ،دلاله على أنهم كانوا ينكرون ذلك،أعنى حليه كل الطعام عليهم قبل التوراه،و يدل عليه أنهم كانوا ينكرون النسخ فى الشرائع و يحيلون ذلك كما مر ذكره فى ذيل قوله تعالى: مٰا نَنْسَخْ مِنْ آيَهٍ أَوْ نُنْسِهٰا الآيه (البقره۱۰۶/)،فهم كانوا ينكرون بالطبع قوله تعالى: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَيْهِمْ

طَيِّباتٍ أَحِلَّتْ لَهُمْ (النساء ۱۶۰/).

و کذا یدل قوله تعالی بعد:قل صدق اللّه فاتبعوا مله إبراهیم حنیفا،أنهم کانوا یجعلون ما ینکرونه(من حلیه کل الطعام علیهم قبل التوراه،و کون التحریم إنما نزل علیهم لظلمهم بنسخ الحل بالحرمه)وسیله الی إلقاء الشبهه علی المسلمین،و الاعتراض علی ما کان یخبر به رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن ربه أن دینه هو مله إبراهیم الحنیف،و هی مله فطریه لا إفراط فیها و لا تفریط، کیف؟و هم کانوا یقولون:إن إبراهیم کان یهودیا علی شریعه التوراه،فکیف یمکن أن تشتمل ملته علی حلیه ما حرمتها التوراه،و النسخ غیر جائز؟

فقد تبین أن الآیه إنما تتعرض لدفع شبهه أوردتها الیهود،و یظهر من عدم تعرض الآیه لنقل الشبهه عنهم کما یجری علیه القرآن فی غالب الموارد کقوله تعالی: وَ قالَتِ الْیَهُودُ یَدُ اللّهِ مَغْلُولَهٌ (المائده۶۴/)،و قوله: وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ إِلاّ أَیّاماً مَعْدُودَهً (البقره/ ۸۰)،و قوله: وَ قالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ (البقره۸۸/)،الی غیر ذلک من الآیات الکثیره.

و کذا قوله تعالی بعد عده آیات: قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ -الی أن قال-: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تُطِیعُوا فَرِیقاً مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ یَرُدُّوکُمْ بَعْدَ إِیمانِکُمْ کافِرِینَ الآیات(آل عمران۱۰۰/).

و بالجمله یظهر من ذلک أنها کانت شبهه تلقیه الیهود لا علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بل علی المؤمنین فی ضمن ما کانوا یتلاقون و یتحاورون.

قوله تعالی: قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراهِ فَاتْلُوها إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ أی حتی یتبین أن أی الفریقین علی الحق،أنا أم أنتم،و هذا إلقاء جواب منه تعالی علی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

قوله تعالی: فَمَنِ افْتَری عَلَی اللّهِ الْکَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ فَأُولئِکَ هُمُ الظّالِمُونَ ،ظاهره أنه کلام للّه سبحانه یخاطب به نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و علی هذا ففیه تطییب لنفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأن أعدائه من الیهود هم الظالمون بعد هذا البیان لافترائهم الکذب علی

اللّه،و تعریض للیهود،و الکلام یجری مجری الکنایه.

و أما احتمال کون الکلام من تتمه کلام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلا یلائمه ظاهر إفراد خطاب الإشاره فی قوله: مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ ،و علی هذا أیضا یجری الکلام مجری الکنایه و الستر علی الخصم المغلوب لیقع الکلام موقعه من القبول کما فی قوله تعالی: إِنّٰا أَوْ إِیّٰاکُمْ لَعَلیٰ هُدیً أَوْ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ (سبأ۲۴/)،و المشار الیه بذلک هو البیان و الحجه.

و إنما قال:من بعد ذلک مع أن المفتری ظالم علی أی حال لأن الظلم لا یتحقق قبل التبین کما قیل،و القصر فی قوله: فَأُولٰئِکَ هُمُ الظّٰالِمُونَ قصر قلب علی أی حال.

قوله تعالی: قُلْ صَدَقَ اللّٰهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّهَ إِبْرٰاهِیمَ حَنِیفاً الخ؛أی فاذا کان الحق معی فیما أخبرتکم به و دعوتکم الیه فاتبعوا دینی و اعترفوا بحلیه لحم الإبل و غیره من الطیبات التی أحلها اللّه،و إنما کان حرمها علیکم عقوبه لاعتدائکم و ظلمکم کما أخبر تعالی به.

فقوله: فَاتَّبِعُوا ،الخ؛کالکنایه عن اتباع دینه،و إنما لم یذکره بعینه لأنهم کانوا معترفین بمله إبراهیم،لیکون إشاره الی کون ما یدعو الیه من الدین حنیفا فطریا لأن الفطره لا تمنع الإنسان من أکل الطیبات من اللحوم و سائر الرزق.

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۹۶ الی ۹۷]

اشاره

إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنّٰاسِ لَلَّذِی بِبَکَّهَ مُبٰارَکاً وَ هُدیً لِلْعٰالَمِینَ (۹۶) فِیهِ آیٰاتٌ بَیِّنٰاتٌ مَقٰامُ إِبْرٰاهِیمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ کٰانَ آمِناً وَ لِلّٰهِ عَلَی اَلنّٰاسِ حِجُّ اَلْبَیْتِ مَنِ اِسْتَطٰاعَ إِلَیْهِ سَبِیلاً وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اَللّٰهَ غَنِیٌّ عَنِ اَلْعٰالَمِینَ (۹۷)

ص:۵۲۶

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّٰاسِ لَلَّذِی بِبَكَّهَ الی آخر الآیه؛البیت معروف؛و المراد بوضع البیت للناس وضعه لعبادتهم و هو أن یجعلوه ذریعه یتوسل به الی عباده اللّه سبحانه،و یستعان به فیها بأن یعبد اللّه فیه،و بقصده و المسیر الیه و غیر ذلک؛ و الدلیل علی ذلک ما یشتمل علیه الکلام من کونه مبارکا و هدی للعالمین و غیر ذلک،و یشعر به التعبیر عن الکعبه بالذی ببکه فإن فیه تلویحا الی ازدحام الناس عنده فی الطواف و الصلاه و غیرهما من العبادات و المناسک،و أما کونه أول بیت بنی علی الأرض و وضع لتنتفع به الناس فلا دلاله علی ذلک من جهه اللفظ.

و المراد ببکه أرض البیت سمیت بکه لازدحام الناس فیها،و ربما قیل إن بکه هی مکه، و إنه من تبدیل المیم باء کما فی قولهم:لازم و لازب و راتم و راتب و نحو ذلک،و قیل:هو اسم للحرم،و قیل:المسجد،و قیل:المطاف.

و المبارکه مفاعله من البرکه و هی الخیر الکثیر،فالمبارکه إفاضه الخیر الکثیر علیه و جعله فیه،و هی و إن کانت تشمل البرکات الدنیویه و الأخرویه،إلاّ أن ظاهر مقابلتها مع قوله:

هُدیً لِلْعٰالَمِینَ أن المراد بها إفاضه البرکات الدنیویه و عمدتها وفور الأرزاق و توفر الهمم و الدواعی الی عمرانه بالحج الیه و الحضور عنده و الاحترام له و إکرامه فیؤول المعنی الی ما یتضمنه قوله تعالی فی دعوه إبراهیم: رَبَّنٰا إِنِّی أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِی بِوٰادٍ غَيْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنٰا لِيُقِيمُوا الصَّلاٰهَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَهً مِنَ النّٰاسِ تَهْوِی إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (إبراهیم/۳۷).

و کونه هدی هو إراءته للناس سعاده آخرتهم،و إیصاله إیاهم الی الکرامه و القرب و الزلفی بما وضعه اللّه للعباده،و بما شرّع عنده من أقسام الطاعات و النسک،و لم یزل منذ بناه إبراهیم

مقصدا للقاصدين و معبدا للعابدين.

قوله تعالى: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ،الآيات و إن وصفت بالبينات، و أفاد ذلك تخصصا ما فى الموصوف إلّا إنها مع ذلك لا تخرج عن الإبهام،و المقام مقام بيان مزايا البيت و مفاخره التى بها يتقدم على غيره فى الشرف و لا يناسب ذلك إلّا الإتيان ببيان واضح، و الوصف بما لا غبار عليه بالإبهام و الإجمال،و هذا من الشواهد على كون قوله: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَ لِلّٰهِ عَلَى النّٰاسِ ،الى آخر الآيه؛بيانا لقوله: آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فالآيات هى:

مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ،و تقرير الأمن فيه،و إيجاب حجه على الناس المستطيعين.

لكن لا كما يتراءى من بعض التفاسير من كون الجمل الثلاث بدلا أو عطف بيان من قوله:

آيَاتٌ لوضوح أن ذلك يحتاج الى رجوع الكلام بحسب التقدير الى مثل قولنا:هى مقام إبراهيم،و الأمن لمن دخله،و حجه لمن استطاع اليه سبيلا،و فى ذلك إرجاع قوله: وَ مَنْ دَخَلَهُ ، سواء كان إنشاء أو إخبارا الى المفرد بتقدير أن و إرجاع قوله: وَ لِلّٰهِ عَلَى النّٰاسِ ،و هى جمله إنشائيه الى الخبريه ثم عطفه على الجمله السابقه و تأويلها الى المفرد بذلك أو بتقدير أن فيها أيضا،و كل ذلك مما لا يساعد عليه الكلام البته.

و إنما سيقت هذه الجمل الثلاث أعنى قوله: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ،الخ؛كل لغرض خاص من إخبار أو إنشاء حكم ثم تتبين بها الآيات فتعطى فائده البيان كما يقال:فلان رجل شريف هو ابن فلان و يقرى الضيف و يجب علينا أن نتبعه.

قوله تعالى: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ مبتدأ لخبر محذوف و التقدير فيه مقام إبراهيم،و هو الحجر الذى عليه أثر قدمى إبراهيم الخليل عليه السّلام،و قد استفاض النقل بأن الحجر مدفون فى المكان الذى يدعى اليوم بمقام إبراهيم على حافه المطاف حيال الملتزم،و قد أشار اليه أبو طالب عم النبى فى قصيدته اللاميه:

و موطئ ابراهيم فى الصخر رطبه

على قدميه حافيا غير ناعل

ص :۵۲۸

و ربما يفهم من قوله: مَقامُ إِبْراهِيمَ أن البيت أو فى البيت موضع قيام إبراهيم بعباده اللّه سبحانه.

و يمكن أن يكون تقدير الكلام:هى مقام إبراهيم و الأمن و الحج ثم وضع قوله: وَ مَنْ دَخَلَهُ ، و قوله: وَ لِلّهِ عَلَى النّاسِ ،و هما جملتان مشتملتان على حكم إنشائى موضع الخبرين،و هذا من أعاجيب اسلوب القرآن حيث يستخدم الكلام المسوق لغرض فى سبيل غرض آخر فيضعه موضعه لينتقل منه إليه فيفيد فائدتين،و يحفظ الجهتين كحكايه الكلام فى موضع الإخبار كقوله: كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (البقره/۲۸۵)،و كما مر فى قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِى رَبِّهِ الآيه (البقره/۲۵۸)،و قوله: أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلى قَرْيَهٍ الآيه(البقره/۲۵۹)،و قد بينا النكته فى ذلك فى تفسير الثانيه،و كما فى قوله تعالى: يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلاّ مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (الشعراء/۸۹)،و كما فى قوله تعالى: وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ الآيه(البقره/ ۱۷۷)،حيث وضع صاحب البر مكان البر،و كما فى قوله تعالى: وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ الآيه(البقره/۱۷۱)؛و مثله غالب الأمثال الوارده فى القرآن الكريم.

و على هذا فوزان قوله: فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ -الى قوله- عَنِ الْعالَمِينَ فى التردد بين الإنشاء و الإخبار،وزان قوله: وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَهً مِنّا وَ ذِكْرى لِأُولِى الْأَلْبابِ وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّابٌ (ص/۴۴).

قوله تعالى: وَ لِلّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ،الحج بالكسر(و قرئ بالفتح)هو القصد ثم اختص استعماله بقصد البيت على نهج مخصوص بيّنه

الشرع،و قوله: سَبِيلاً تمييز من قوله: اِسْتَطٰاعَ .

و الآيه تتضمن تشريع الحج إمضاء لما شرع لإبراهيم عليه السّلام كما يدل عليه قوله تعالى حكايه لما خوطب به إبراهيم: وَ أَذِّنْ فِي النّٰاسِ بِالْحَجِّ الآيه(الحج۲۷/)،و من هنا يظهر أن وزان قوله: وَ لِلّٰهِ عَلَى النّٰاسِ ،الخ؛وزان قوله تعالى: وَ مَنْ دَخَلَهُ كٰانَ آمِناً فى كونه إخبارا عن تشريع سابق و إن كان من الممكن أن يكون إنشاء على نحو الإمضاء لكن الأظهر من السياق هو الأول كما لا يخفى.

قوله تعالى: وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعٰالَمِينَ ،الكفر هاهنا من الكفر بالفروع نظير الكفر بترك الصلاه و الزكاه فالمراد بالكفر الترك.و الكلام من قبيل وضع المسبب أو الأثر مقام السبب أو المنشأ كما أن قوله: فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ ،الخ؛من قبيل وضع العله موضع المعلول،و التقدير:و من ترك الحج فلا يضر اللّٰه شيئا فإن اللّٰه غنى عن العالمين (۱)(۲).

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۹۸ الی ۱۰۱]

اشاره

قُلْ يٰا أَهْلَ اَلْكِتٰابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ شَهِيدٌ عَلىٰ مٰا تَعْمَلُونَ (۹۸) قُلْ يٰا أَهْلَ اَلْكِتٰابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَدٰاءُ وَ مَا اَللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ (۹۹) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمٰانِكُمْ كٰافِرِينَ (۱۰۰) وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ آيٰاتُ اَللّٰهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللّٰهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۰۱)

۱- ۱) .آل عمران ۹۶-۹۷:بحث روائی فی:مکه؛المسجد الحرام؛الحج.

۲- ۲) .آل عمران ۹۶-۹۷:بحث تاریخی فی:بناء الکعبه:تاریخ الکعبه؛شکل الکعبه؛کسوه الکعبه؛منزله الکعبه؛ ولایه الکعبه.

بيان:

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ الخ؛المراد بالآيات بقرينه وحده السياق حليه الطعام قبل نزول التوراه،و كون القبله هى الكعبه فى الإسلام.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ -الى قوله-:

عِوَجاً ،الصد الصرف،و قوله: تَبْغُونَهَا أى تطلبون السبيل،و قوله: عِوَجاً :العوج المعطوف المحرف،و المراد طلب سبيل اللّه معوجا من غير استقامه.

قوله تعالى: وَ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ ،أى تعلمون أن الطعام كان حلا قبل نزول التوراه و أن من خصائص النبوه تحويل القبله الى الكعبه،و قد حاذى فى عدهم شهداء فى هذه الآيه ما فى الآيه السابقه من عد نفسه تعالى شهيدا على فعلهم و كفرهم،و فيه من اللطف ما لا يخفى فهم شهداء على حقيه ما ينكرونه و اللّه شهيد على إنكارهم و كفرهم.و لما نسب الشهاده اليهم فى هذه الآيه أبدل ما ذيل به الآيه السابقه أعنى قوله: وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ من قوله فى ذيل هذه الآيه:و ما اللّه بغافر عما تعملون فأفاد ذلك أنهم شهداء على الحقيه،و اللّه سبحانه شهيد على الجميع.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا -الى قوله-: وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ ،المراد بالفريق كما تقدم هم اليهود أو فريق منهم،و قوله تعالى: وَ أَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ أى يمكنكم أن تعتصموا بالحق الذى يظهر لكم بالإنصات الى آيات اللّه و التدبر فيها ثم الرجوع فيما خفى عليكم منها لقله التدبر أو الرجوع ابتداء الى رسوله الذى هو فيكم غير محتجب عنكم و لا بعيد منكم،و استظهار الحق بالرجوع اليه ثم إبطال شبه القتها اليهود إليكم

و التمسک بآیات اللّه و برسوله و الاعتصام بهما اعتصام باللّه؛و من یعتصم باللّه فقد هدی الی صراط مستقیم.

فالمراد بالکفر فی قوله: وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ ،الکفر بعد الایمان،و قوله: وَ أَنْتُمْ تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ ، کنایه من إمکان الاعتصام فی الاجتناب عن الکفر بآیات اللّه و برسوله،و قوله: وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللّٰهِ ، بمنزله الکبری الکلیه لذلک و المراد بالهدایه الی صراط مستقیم الاهتداء الی إیمان ثابت و هو الصراط الذی لا یختلف و لا یتخلف أمره،و یجمع سالکیه فی مستواه و لا یدعهم یخرجون عن الطریق فیضلوا.

و فی تحقیق الماضی فی قوله: فَقَدْ هُدِيَ ،مع حذف الفاعل دلاله علی تحقق الفعل من غیر شعور بفاعله.

و یتبین من الآیه أن الکتاب و السنه کافیان فی الدلاله علی کل حق یمکن أن یضل فیه.

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۰۲ الی ۱۱۰]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّٰهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ وَ لاٰ تَمُوتُنَّ إِلاّٰ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۰۲) وَ اِعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اَللّٰهِ جَمِيعاً وَ لاٰ تَفَرَّقُوا وَ اُذْكُرُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدٰاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوٰاناً وَ كُنْتُمْ عَلىٰ شَفٰا حُفْرَةٍ مِنَ اَلنّٰارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهٰا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اَللّٰهُ لَكُمْ آيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰۳) وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى اَلْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ اَلْمُنْكَرِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۱۰۴) وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اِخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ اَلْبَيِّنٰاتُ وَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۱۰۵) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا اَلَّذِينَ اِسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمٰانِكُمْ فَذُوقُوا اَلْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۱۰۶) وَ أَمَّا اَلَّذِينَ اِبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اَللّٰهِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (۱۰۷) تِلْكَ آيٰاتُ اَللّٰهِ نَتْلُوهٰا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ مَا اَللّٰهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعٰالَمِينَ (۱۰۸) وَ لِلّٰهِ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ وَ إِلَى اَللّٰهِ تُرْجَعُ اَلْأُمُورُ (۱۰۹) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّٰاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ اَلْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ اَلْكِتٰابِ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ اَلْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ اَلْفٰاسِقُونَ (۱۱۰)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ،قد مر فيما مر أن التقوى و هو نوع من الاحتراز اذا كان تقوى اللّه سبحانه كان تجنبا و تحرزا من عذابه كما قال تعالى:

فَاتَّقُوا النّٰارَ الَّتِي وَقُودُهَا النّٰاسُ وَ الْحِجٰارَةُ (البقره/۲۴)،و ذلك إنما يتحقق بالجرى على ما يريده و يرتضيه فهو امتثال أوامره تعالى،و الانتهاء عن نواهيه،و الشكر لنعمه،و الصبر عند بلائه،و يرجع الاخيران جميعا الى الشكر بمعنى وضع الشيء موضعه و بالجمله تقوى اللّه

سبحانه أن يطاع و لا يعصى و يخضع له فيما أعطى أو منع.

لكنه اذا أخذ التقوى حق التقوى الذى لا يشوبه باطل فاسد من سنخه كان محض العبوديه التى لا تشوبها إنيه و غفله،و هى الطاعه من غير معصيه،و الشكر من غير كفر، و الذكر من غير نسيان،و هو الإسلام الحق أعنى الدرجه العليا من درجاته؛و على هذا يرجع معنى قوله: وَ لاٰ تَمُوتُنَّ إِلاّٰ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ الى نحو قولنا:و دوموا على هذه الحال(حق التقوى) حتى تموتوا.

و هذا المعنى غير ما يستفاد من قوله تعالى: فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ (التغابن/۱۶)، فإن هذه الآيه فى معنى أن لا تذروا التقوى فى شىء مما تستطيعونه غير أن الاستطاعه تختلف باختلاف قوى الأشخاص و أفهامهم و هممهم،و لا ريب أن حق التقوى بالمعنى الذى ذكرناه ليس فى وسع كثير من الناس،فإن فى هذا المسير الباطنى مواقف و معاهد و مخاطر لا يعقلها إلاّ العالمون،و دقائق و لطائف لا يتنبه لها إلاّ المخلصون،فرب مرحله من مراحل التقوى لا يصدق الفهم العامى بكونها مما تستطيعه النفس الإنسانيه فيجزم بكونها غير مستطاعه و إن كان أهل التقوى الحقه خلفوها وراء ظهورهم،و أقبلوا بهممهم على ما هو أشق و أصعب.

فقوله: فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ،الآيه؛كلام يتلقاه الأفهام المختلفه بمعان مختلفه على حسب ما يطبقه كل فهم على ما يستطيعه صاحبه ثم يكون ذلك وسيله ليفهم من هذه الآيه أعنى قوله: اِتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ وَ لاٰ تَمُوتُنَّ إِلاّٰ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أن المراد أن يقعوا فى صراط حق التقوى،و يقصدوا نيل هذا المقام و الشخوص و المثول فيه،و ذلك نظير الاهتداء الى الصراط المستقيم الذى لا يتمكن منه إلاّ الأوحديون،و مع ذلك يدعى اليه جميع الناس،فيكون محصل الآيتين:(اتقوا اللّه حق تقاته-فاتقوا اللّه ما استطعتم)أن يندب جميع الناس و يدعوا الى حق التقوى ثم يؤمروا بالسير الى هذا المقصد ما قدروا و استطاعوا،و ينتج ذلك أن يقع الجميع فى صراط التقوى إلاّ أنهم فى مراحل مختلفه،و على درجات مختلفه على طبق ما عندهم من

الأفهام و الهمم،و علی ما یفاض علیهم من توفیق اللّه و تأییده و تسدیده،فهذا ما یعطیه التدبر فی معنی الآیتین.

و منه یظهر:أن الآیتین غیر مختلفتین بحسب المضمون،و لا أن الآیه الاولی أعنی قوله:

اِتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ ،الآیه؛ارید بها عین ما ارید من قوله: فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ،الآیه؛بل الآیه الاولی تدعو الی المقصد و الثانیه تبین کیفیه السلوک.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَمُوتُنَّ إِلاّٰ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ الموت من الامور التکوینیه التی هی خارجه عن حومه اختیارنا،و لذلک یکون الأمر و النهی المتعلقان به و بأمثاله أمرا و نهیا تکوینیین کقوله فَقٰالَ لَهُمُ اللّٰهُ مُوتُوا (البقره۲۴۳/)،و قوله: أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (یس۸۲/)،إلاّ أنه ربما یجعل الأمر غیر الاختیاری مضافا الی أمر اختیاری فیترکبان بنحو و ینسب المرکب الی الاختیار فیتأتی الأمر و النهی الاعتباری حینئذ کقوله تعالی: فَلاٰ تَکُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِینَ (البقره۱۴۷/)،و قوله: وَ لاٰ تَکُنْ مَعَ الْکٰافِرِینَ (هود۴۲/)، و قوله: وَ کُونُوا مَعَ الصّٰادِقِینَ (التوبه۱۱۹/)،و غیر ذلک،فإن أصل الکون لازم تکوینی للإنسان لا أثر لاختیاره فیه لکنه بارتباطه بأمر اختیاری کالامتراء و الکفر و التزام الصدق مثلا یعد أمرا اختیاریا فیؤمر به و ینهی عنه أمرا و نهیا مولویین.

و بالجمله النهی عن الموت إلاّ مع الإسلام إنما هو لمکان عده اختیاریا و یرجع بالآخره الی الکنایه عن لزوم التزام الإسلام فی جمیع الحالات حتی یقع الموت فی واحده من هذه الحالات، فیکون المیت مات فی حال الإسلام.

قوله تعالی: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِیعاً وَ لاٰ تَفَرَّقُوا ،ذکر سبحانه فیما مر من قوله: وَ کَیْفَ تَکْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلیٰ عَلَیْکُمْ آیٰاتُ اللّٰهِ وَ فِیکُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ یَعْتَصِمْ بِاللّٰهِ ،الآیه؛أن التمسک بآیات اللّه و برسوله(الکتاب و السنه)اعتصام باللّه مأمون معه المتمسک المعتصم، مضمون له الهدی،و التمسک بذیل الرسول تمسک بذیل الکتاب فإن الکتاب هو الذی یأمر

بذلك فى مثل قوله: وَ مٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (الحشر/٧).

و قد بدل فى هذه الآيه الاعتصام المندوب إليه فى تلك الآيه بالاعتصام بحبل اللّه فأنتج ذلك أن حبل اللّه هو الكتاب المنزل من عند اللّه،و هو الذى يصل ما بين العبد و الرب و يربط السماء بالأرض،و إن شئت قلت:إن حبل اللّه هو القرآن و النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقد عرفت أن مآل الجميع واحد.

و القرآن و إن لم يدع إلا الى حق التقوى و الإسلام الثابت لكن غرض هذه الآيه غير غرض الآيه السابقه الآمره بحق التقوى و الموت على الإسلام فإن الآيه السابقه تتعرض لحكم الفرد،و هذه الآيه تتعرض لحكم الجماعه المجتمعه و الدليل عليه قوله: «جَمِيعاً» و قوله «وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا» فالآيات تأمر المجتمع الإسلامى بالاعتصام بالكتاب و السنه كما تأمر الفرد بذلك.

قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدٰاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوٰاناً جمله اذ كنتم،بيان لما ذكر من النعمه،و عليه يعطف قوله:

وَ كُنْتُمْ عَلىٰ شَفٰا حُفْرَةٍ مِنَ النّٰارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهٰا .

و الأمر بذكر هذه النعمه مبنى على ما عليه دأب القرآن أن يضع تعليمه على بيان العلل و الأسباب،و يدعو الى الخير و الهدى من وجهه من غير أن يأمر بالتقليد العامى المعمى، و حاشا التعليم الإلهى أن يهدى الناس الى السعاده و هى العلم النافع و العمل الصالح ثم يأمر بالوقوع فى تيه التقليد و ظلمه الجهل.

لكن يجب أن لا يشتبه الأمر و لا يختلط الحال على المتدبر الباحث،فاللّه سبحانه يعلم الناس حقيقه سعادتهم،و يعلم الوجه فيها ليتبصروا بارتباط الحقائق بعضها ببعض،و أن الجميع فائضه من منبع التوحيد مع وجوب إسلامهم للّه لأنه اللّه رب العالمين و اعتصامهم بحبله لأنه حبل اللّه رب العالمين كما يومى اليه ما فى آخر الآيات من قوله: تِلْكَ آيٰاتُ اللّٰهِ نَتْلُوهٰا

عَلَيْکَ ،الآيتان.

قوله تعالى: وَ کُنْتُمْ عَلىٰ شَفٰا حُفْرَهٍ مِنَ النّٰارِ فَأَنْقَذَکُمْ مِنْهٰا ،شفا الحفره طرفها الذى يشرف على السقوط فيها من كان به.

و المراد من النار إن كان نار الآخره،فالمراد بكونهم على شفا حفرتها أنهم كانوا كافرين ليس بينهم و بين الوقوع فيها إلاّ الموت الذى هو أقرب الى الإنسان من سواد العين الى بياضها فأنقذهم اللّه منها بالإيمان.

و إن كان المراد بيان حالهم فى مجتمعهم الفاسد الذى كانوا فيه قبل إيمانهم و تألف قلوبهم، و كان المراد بالنار هى الحروب و المنازعات-و هو من الاستعمالات الشائعه بطريق الاستعاره-فالمقصود أن المجتمع الذى بنى على تشتت القلوب و اختلاف المقاصد و الأهواء، و لا محاله لا يسير مثل هذا المجتمع بدليل واحد يهديهم الى غايه واحده بل بأدله شتى تختلف باختلاف الميول الشخصيه و التحكمات الفرديه اللاغيه التى تهديهم الى أشد الخلاف و الاختلاف-يشرفهم الى أردأ التنازع،و يهددهم دائما بالقتال و النزال،و يعدهم الفناء و الزوال،و هى النار التى لا تبقى و لا تذر على حفره الجهاله التى لا منجى و لا مخلص للساقط فيها.

فهؤلاء و هم طائفه من المسلمين كانوا قد آمنوا قبل نزول الآيه بعد كفرهم،و هم المخاطبون الأقربون بهذه الآيات لم يكونوا يعيشون مدى حياتهم قبل الإسلام إلاّ فى حال تهددهم الحروب و المقاتلات آنا بعد آن،فلا أمن و لا راحه و لا فراغ،و لم يكونوا يفقهون ما حقيقه الأمن العام الذى يعم المجتمع بجميع جهاتها من جاه و مال و عرض و نفس و غير ذلک.

ثم لما اجتمعوا على الاعتصام بحبل اللّه،و لاحت لهم آيات السعاده،و ذاقوا شيئا من حلاوه النعم وجدوا صدق ما يذكّرهم به اللّه من هنىء النعمه و لذيذ السعاده فكان الخطاب أوقع فى نفوسهم و نفوس غيرهم.

ص :۵۳۷

و لـذلك بنى الكلام و وضـعت الـدعوه على أساس المشاهـده و الوجدان دون مجرد التقدير و الفرض فليس العيان كالبيان،و لا التجارب كالفرض و التقـدير،و لـذلك بعينه أشار فى التحذير الآتى فى قوله: وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا ،الخ؛الى حال من قبلهم فإن مآل حالهم بمرأى و مسـمع من المؤمنين فعليهم أن يعتبروا بهم و بما آل اليه أمرهم فلا يجروا مجراهم و لا يسلكوا مسلكهم.

ثم نبههم اللّه على خصوصيه هذا البيان فقال:كذلك يبين اللّه لكم آياته لعلكم تهتدون.

قـوله تعـالى: وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ الـخ؛التجربه القطعيه تـدل على أن المعلومات التى يهيئها الإنسان لنفسه فى حياته-و لا يهيئ و لا يدخر لنفسه إلاّ ما ينتفع به-من أى طريق هيأها و بأى وجه ادخرها تزول عنه اذا لم يـذكرها و لم يـدم على تكرارهـا بالعمل،و لا نشك أن العمل فى جميع شئونه يـدور مـدار العلم يقوى بقوته،و يضـعف بضعفه و يصلح بصلاحه،و يفسد بفساده،و قد مثل اللّه سبحانه حالهما فى قوله: اَلْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبٰاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِى خَبُثَ لاٰ يَخْرُجُ إِلاّٰ نَكِداً الآيه(الأعراف/۵۸).

و لا نشك أن العلم و العمل متعاكسان فى التأثير فالعلم أقوى داع الى العمل و العمل الواقع المشهود أقوى معلم يعلم الإنسان.

و هذا الذى ذكر هو الذى يدعو المجتمع الصالح الذى عندهم العلم النافع و العمل الصالح أن يتحفظوا على معرفتهم و ثقافتهم،و أن يردوا المتخلف عن طريق الخير المعروف عنـدهم إليه، و أن لا يـدعوا المائل عن طريق الخير المعروف و هو الواقع فى مهبط الشر المنكر عندهم أن يقع فى مهلكه الشر و ينهوه عنه.

و هـذه هى الدعوه بالتعليم و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و هى التى يذكرها اللّه فى هذه الآيه بقوله: يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .

و من هنا يظهر السر فى تعبيره تعالى عن الخير و الشر بالمعروف و المنكر فإن الكلام مبنى على ما فى الآيه السابقه من قوله: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَ لاٰ تَفَرَّقُوا ،الخ؛و من المعلوم أن المجتمع الذى هذا شأنه يكون المعروف فيه هو الخير،و المنكر فيه هو الشر،و لو لا العبره بهذه النكته لكان الوجه فى تسميه الخير و الشر بالمعروف و المنكر كون الخير و الشر معروفا و منكرا بحسب نظر الدين لا بحسب العمل الخارجى.

و أما قوله وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ فقد قيل:إن«من»للتبعيض بناء على أن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و كذا الدعوه من الواجبات الكفائيه.

و ربما قيل:إن«من»بيانيه و المراد منه و لتكونوا بهذا الاجتماع الصالح امه يدعون الى الخير فيجرى الكلام على هذا مجرى قولنا:ليكن لى منك صديق أى كن صديقا لى.و الظاهر أن المراد بكون«من»بيانيه كونها نشوئيه ابتدائيه.

و الذى ينبغى أن يقال:أن البحث فى كون من تبعيضيه أو بيانيه لا يرجع الى ثمره محصله فإن الدعوه و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر امور لو وجبت لكانت بحسب طبعها واجبات كفائيه اذ لا معنى للدعوه و الأمر و النهى المذكورات بعد حصول الغرض فلو فرضت الامه بأجمعهم داعيه الى الخير آمره بالمعروف ناهيه عن المنكر كان معناه أن فيهم من يقوم بهذه الوظائف فالأمر قائم على أى حال،و الخطاب إن كان للبعض فهو ذاك،و إن كان للكل كان أيضا باعتبار البعض،و بعباره اخرى المسئول بها الكل و المثاب بها البعض،و لذلك عقبه بقوله: وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فالظاهر أن من تبعيضيه،و هو الظاهر من مثل هذا التركيب فى لسان المحاورين و لا يصار الى غيره إلاّ بدليل.

و اعلم أن هذه الموضوعات الثلاثه أعنى الدعوه و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ذوات أبحاث تفسيريه طويله عميقه سنتعرض لها فى موضع آخر يناسبها إنشاء اللّه تعالى.و كذا ما يتعلق بها من الأبحاث العلميه و النفسيه و الاجتماعيه.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْبَيِّنٰاتُ .لا يبعد أن يكون قوله: مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْبَيِّنٰاتُ متعلقا بقوله: وَ اخْتَلَفُوا فقط و حينئذ كان المراد بالاختلاف التفرق من حيث الاعتقاد،بالتفرق الاختلاف و التشتت من حيث الأبدان و قدم التفرق على الاختلاف لأنه كالمقدمه المؤديه إليه لأن القوم مهما كانوا مجتمعين متواصلين اتصلت عقائد بعضهم ببعض و اتحدت بالتماس و التفاعل،و حفظهم ذلك من الاختلاف فاذا تفرقوا و انقطع بعضهم عن بعض أداهم ذلك الى اختلاف المشارب و المسالك،و لم يلبثوا دون أن يستقل أفكارهم و آرائهم بعضها عن بعض،و برز فيهم الفرقه، و انشق عصا الوحده فكأنه تعالی يقول:و لا تكونوا كالذين تفرقوا بالأبدان أولا،و خرجوا من الجماعه،و أفضاهم ذلك الى اختلاف العقائد و الآراء أخيرا.

قوله تعالی: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ الى آخر الآيتين؛لما كان المقام مقام الكفر بالنعمه و هو نظير الخيانه مما يوجب خسه الانفعال و الخجل ذكر سبحانه من بين أنواع عذاب الآخره ما يناسبها بحسب التمثيل و هو سواد الوجه الذى يكنى به فى الدنيا عن الانفعال و الخجل و نحوهما كما يشعر أو يدل على ذلك قوله تعالی: فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمٰانِكُمْ .

و كذا ذكر من ثواب الشاكرين لهذه النعمه ما يناسب الشكر و هو بياض الوجه المكنى به فى الدنيا عن الارتضاء و الرضا.

قوله تعالی: تِلْكَ آيٰاتُ اللّٰهِ نَتْلُوهٰا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ،الظرف متعلق بقوله:

نَتْلُوهٰا ،و المراد كون التلاوه تلاوه حق من غير أن يكون باطلا شيطانيا،أو متعلق بالآيات باستشمام معنى الوصف فيه أو مستقر متعلق بمقدر،و المعنى أن هذه الآيات الكاشفه عن ما يصنع اللّٰه بالطائفتين:الكافرين و الشاكرين مصاحبه للحق من غير أن تجرى على نحو الباطل و الظلم،و هذا الوجه أوفق لما يتعقبه من قوله: وَ مَا اللّٰهُ يُرِيدُ ظُلْماً .

قوله تعالی: وَ مَا اللّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعالَمِینَ ،تنکیر الظلم و هو فی سیاق النفی یفید الاستغراق،و ظاهر قوله: لِلْعالَمِینَ و هو جمع محلی باللام أن یفید الاستغراق،و المعنی علی هذا أن اللّه لا یرید ظلما أی ظلم فرض لجمیع العالمین،و کافه الجماعات،و هو کذلک فإنما التفرق بین الناس أمر یعود أثره المشئوم الی جمیع العالمین و کافه الناس.

قوله تعالی: وَ لِلّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ إِلَی اللّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ،لما ذکر أن اللّه لا یرید الظلم علل ذلک بما یزول معه توهم صدور الظلم فذکر أن اللّه تعالی یملک جمیع الأشیاء من جمیع الجهات فله أن یتصرف فیها کیف یشاء فلا یتصور فی حقه التصرف فیما لا یملکه حتی یکون ظلما و تعدیا.

علی أن الشخص إنما ینحو الظلم اذا کان له حاجه لا یتمکن من رفعها إلاّ بالتعدی علی ما لا یملکه،و اللّه الغنی الذی له ما فی السموات و الأرض هذا ما قرره بعضهم لکنه لا یلائم ظاهر الآیه فإن هذا الجواب یبتنی بالحقیقه علی غناه تعالی دون ملکه،و المذکور فی الآیه هو الملک دون الغنی،و کیف کان فملکه دلیل أنه تعالی لیس بظالم.

و هناک دلیل آخر و هو أن مرجع جمیع الامور أیا ما کانت الیه تعالی فلیس لغیره تعالی من الأمر شیء حتی یسلبه اللّه عنه و ینتزعه من یده و یجری فیه إراده نفسه فیکون بذلک ظالما، و هذا هو الذی یشیر الیه قوله: وَ إِلَی اللّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

و الوجهان کما تری متلازمان أحدهما مبنی علی أن کل شیء له تعالی و الثانی مبنی علی أن شیئا من الامور لیس لغیره تعالی.

قوله تعالی: کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّهٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ ،المراد بإخراج الامه للناس (و اللّه أعلم)إظهارها لهم،و مزیه هذه اللفظه(الاخراج)أن فیها إشعارا بالحدوث و التکون قال تعالی: اَلَّذِی أَخْرَجَ الْمَرْعیٰ (الأعلی۴/)،و الخطاب للمؤمنین فیکون قرینه علی أن المراد بالناس عامه البشر و الفعل أعنی قوله: کُنْتُمْ منسلخ عن الزمان-علی ما قیل-

و الامه إنما تطلق على الجماعه و الفرد لكونهم ذوى هدف و مقصد يؤمرونه و يقصدونه،و ذكر الايمان باللّه بعد الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر من قبيل ذلك الكل بعد الجزء أو الأصل بعد الفرع.

فمعنى الآيه أنكم معاشر المسلمين خير امه أظهرها اللّه للناس بهدايتها لأنكم على الجماعه تؤمنون باللّه و تأتون بفريضتى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر،و من المعلوم أن انبساط هذا التشريف على جميع الامه لكون البعض متصفين بحقيقه الايمان و القيام بحق الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر هذا محصل ما ذكروه فى المقام (۱).

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۱۱۱ الى ۱۲۰]

اشاره

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاّٰ أَذىً وَ إِنْ يُقٰاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ اَلْأَدْبٰارَ ثُمَّ لاٰ يُنْصَرُونَ (۱۱۱) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ اَلذِّلَّةُ أَيْنَ مٰا ثُقِفُوا إِلاّٰ بِحَبْلٍ مِنَ اَللّٰهِ وَ حَبْلٍ مِنَ اَلنّٰاسِ وَ بٰاؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اَللّٰهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ اَلْمَسْكَنَةُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كٰانُوا يَكْفُرُونَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ وَ يَقْتُلُونَ اَلْأَنْبِيٰاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذٰلِكَ بِمٰا عَصَوْا وَ كٰانُوا يَعْتَدُونَ (۱۱۲) لَيْسُوا سَوٰاءً مِنْ أَهْلِ اَلْكِتٰابِ أُمَّةٌ قٰائِمَةٌ يَتْلُونَ آيٰاتِ اَللّٰهِ آنٰاءَ اَللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ (۱۱۳) يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ اَلْمُنْكَرِ وَ يُسٰارِعُونَ فِي اَلْخَيْرٰاتِ وَ أُولٰئِكَ مِنَ اَلصّٰالِحِينَ (۱۱۴) وَ مٰا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (۱۱۵) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوٰالُهُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُهُمْ مِنَ اَللّٰهِ شَيْئاً وَ أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (۱۱۶) مَثَلُ مٰا يُنْفِقُونَ فِي هٰذِهِ اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهٰا صِرٌّ أَصٰابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَ مٰا ظَلَمَهُمُ اَللّٰهُ وَ لٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۱۱۷) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا بِطٰانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاٰ يَأْلُونَكُمْ خَبٰالاً وَدُّوا مٰا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ اَلْبَغْضٰاءُ مِنْ أَفْوٰاهِهِمْ وَ مٰا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنّٰا لَكُمُ اَلْآيٰاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۱۱۸) هٰا أَنْتُمْ أُولاٰءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لاٰ يُحِبُّونَكُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتٰابِ كُلِّهِ وَ إِذٰا لَقُوكُمْ قٰالُوا آمَنّٰا وَ إِذٰا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ اَلْأَنٰامِلَ مِنَ اَلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۱۱۹) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهٰا وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لاٰ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اَللّٰهَ بِمٰا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۱۲۰)

ص: ۵۴۲

۱- ۱) .آل عمران ۱۰۲-۱۱۰:بحث روائى حول:الآيه «اتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ» ؛القرآن المجيد؛حديث الثقلين؛حال الامه بعد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

بيان:

قوله تعالى: لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاّٰ أَذىً الخ؛الأذى ما يصل الى الحيوان من الضرر:إما فى نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيويا كان أو اخرويا على ما ذكره الراغب مفردات القرآن.

ص :۵۴۳

قوله تعالى: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مٰا ثُقِفُوا إِلاّ بِحَبْلٍ مِنَ اللّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النّٰاسِ ،الذله بناء نوع من الذل،و الذل بالضم ما كان عن قهر،و بالكسر ما كان عن تصعب و شماس على ما ذكره الراغب،و معناه العام حال الانكسار و المطاوعه،و يقابله العز و هو الامتناع.

و قوله: ثُقِفُوا أى وجدوا،و الحبل السبب الذى يوجب التمسک به العصمه؛و قد استعير لكل ما يوجب نوعا من الأمن و العصمه و الوقايه كالعهد و الذمه و الأمان،و المراد (و اللّه أعلم):أن الذله مضروبه عليهم كضرب السكه على الفاز أو كضرب الخيمه على الإنسان فهم مكتوب عليهم أو مسلط عليهم الذله إلا بحبل و سبب من اللّه،و حبل و سبب من الناس.

و قد كرر لفظ الحبل بإضافته الى اللّه و الى الناس لاختلاف المعنى بالإضافه فانه من اللّه القضاء و الحكم تكوينا أو تشريعا،و من الناس البناء و العمل.

و المراد بضرب الذله عليهم القضاء التشريعى بذلتهم،و الدليل على ذلک قوله: أَيْنَمٰا ثُقِفُوا فإن ظاهر معناه أينما وجدهم المؤمنون أى تسلطوا عليهم،و هو إنما يناسب الذله التشريعيه التى من آثارها الجزيه.

فيؤول معنى الآيه الى أنهم أذلاء بحسب حكم الشرع الإسلامى إلاّ أن يدخلوا تحت الذمه أو أمان من الناس بنحو من الأنحاء.

قوله تعالى: وَ بٰاؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ،باءوا أى اتخذوا مباءه و مكانا،أو رجعوا،و المسكنه أشد الفقر،و الظاهر أن المسكنه أن لا يجد الإنسان سبيلا الى النجاه و الخلاص عما يهدده من فقر أو أى عدم،و على هذا فيتلاءم معنى الآيه صدرا و ذيلا.

قوله تعالى: ذٰلِكَ بِمٰا عَصَوْا وَ كٰانُوا يَعْتَدُونَ ؛و المعنى أنهم عصوا و كانوا قبل

ذلک یستمرون علی الاعتداء.

قوله تعالی: لَيْسُوا سَوٰاءً -الی قوله-: بِالْمُتَّقِينَ ،السواء مصدر ارید به معنی الوصف أی لیسوا مستوین فی الوصف و الحکم فإن منهم امه قائمه یتلون آیات اللّه،الخ؛و من هنا یظهر أن قوله: مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ ،الخ؛فی مقام التعلیل یبین به وجه عدم استواء أهل الکتاب.

و قد اختلف فی قوله: قٰائِمَةٌ فقیل:أی ثابته علی أمر اللّه،و قیل:أی عادله،و قیل:أی ذو امه قائمه أی ذو طریقه مستقیمه،و الحق أن اللفظ مطلق یحتمل الجمیع غیر أن ذکر الکتاب و ذکر أعمالهم الصالحه یعین أن المراد هو القیام علی الإیمان و الطاعه.

و الآناء جمع إنی بکسر الهمزه أو فتحها،و قیل:إنو و هو الوقت.

و المسارعه المبادره و هی مفاعله من السرعه قال فی المجمع:و الفرق بین السرعه و العجله أن السرعه هی التقدم فیما یجوز أن یتقدم فیه،و هی محموده،و ضدها الإبطاء،و هو مذموم، و العجله هی التقدم فیما لا ینبغی أن یتقدم فیه و هی مذمومه،و ضدها الأناه و هی محموده، انتهی،و الظاهر أن السرعه فی الأصل وصف للحرکه،و العجله وصف للمتحرک.

و الخیرات مطلق الأعمال الصالحه من عباده أو إنفاق أو عدل أو قضاء حاجه،و هو جمع محلی باللام؛و معناه الاستغراق،و یکثر إطلاقه علی الخیرات المالیه کما أن الخیر یکثر إطلاقه علی المال.

و قد عد اللّه سبحانه لهم جمل مهمات الصالحات،و هی الإیمان،و الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر،و المسارعه فی کل خیر،ثم وصفهم بأنهم صالحون فهم أهل الصراط المستقیم و زملاء النبیین و الصدیقین و الشهداء لقوله تعالی: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرٰاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لاَ الضّٰالِّينَ (الحمد۷/)،و قوله تعالی: فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدٰاءِ وَ الصّٰالِحِينَ الآیه(النساء۶۹/)،

قیل:المراد بهؤلاء الممدوحین عبد اللّه بن سلام و أصحابه.

قوله تعالی: وَ مٰا یَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَلَنْ یُکْفَرُوهُ ،من الکفران مقابل الشکر أی یشکر اللّه لهم فیرده الیهم من غیر ضیعه کما قال تعالی: وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَیْراً فَإِنَّ اللّٰهَ شٰاکِرٌ عَلِیمٌ (البقره۱۵۸/)،و قال: وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَیْرٍ فَلِأَنْفُسِکُمْ -الی أن قال- وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَیْرٍ یُوَفَّ إِلَیْکُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ (البقره۲۷۲/).

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَنْ تُغْنِیَ عَنْهُمْ ،ظاهر وحده السیاق أن المراد بهؤلاء،الذین کفروا هم الطائفه الاخری من أهل الکتاب الذین لم یستجیبوا دعوه النبوه، و کانوا یوطئون علی الإسلام،و لا یألون جهدا فی إطفاء نوره.

و ربما قیل:إن الآیه ناظره الی حال المشرکین فتکون التوطئه لما سیشیر الیه من قصه أحد لکن لا یلائمه ما سیأتی من قوله: وَ تُؤْمِنُونَ بِالْکِتٰابِ کُلِّهِ وَ إِذٰا لَقُوکُمْ قٰالُوا آمَنّٰا ،الخ؛فإن ذلک بیان لحال الیهود مع المسلمین دون حال المشرکین،و من هناک یظهر أن اتصال السیاق لم ینقطع بعد.

و ربما جمع بعض المفسرین بین حمل هذه الآیه علی المشرکین و حمل تلک علی الیهود،و هو خطأ.

قوله تعالی: مَثَلُ مٰا یُنْفِقُونَ فِی هٰذِهِ الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا الآیه؛الصر البرد الشدید،و إنما قید الممثل بقوله: فِی هٰذِهِ الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا لیدل علی أنهم منقطعون عن الدار الآخره فلا یتعلق إنفاقهم إلاّ بهذه الحیاه،و قید حرث القوم بقوله: ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ لیحسن ارتباطه بقوله بعده: وَ مٰا ظَلَمَهُمُ اللّٰهُ .

و محصل الکلام أن إنفاقهم فی هذه الحیاه و هم یریدون به إصلاح شأنهم و نیل مقاصدهم الفاسده لا یثمر لهم إلاّ الشقاء،و فساد ما یریدونه و یحسبونه سعاده لأنفسهم کالریح التی فیها صر تهلک حرث الظالمین،و لیس ذلک إلاّ ظلما منهم لأنفسهم فإن العمل الفاسد لا یأتی إلاّ

بالأثر الفاسد.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ الآيه؛سـميت الوليجه بطانه و هى ما يلى البدن من الثوب و هى خلاف الظهاره لكونها تطلع على باطن الإنسان و ما يضـمره و يستسـره،و قوله: لاَ يَأْلُونَكُمْ أى لا يقصـرون فيكم،و قوله: خَبَالاً أى شـرا و فسادا،و منه الخبل للجنون لأنه فساد العقل،و قوله: وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ،ما مصـدريه أى ودوا و أحبوا عنتكم و شده ضـرركم،و قوله: قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ أريد به ظهور البغضاء و العداوه من لحن قولهم و فلتات لسانهم ففيه اسـتعاره لطيفه و كنايه،و لم يبين ما فى صدورهم بل أبهم قوله: وَ مَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ للإيماء الى أنه لا يوصف لتنوعه و عظمته و به يتأكد قوله: أَكْبَرُ .

قوله تعالى: هَا أَنْتُمْ أُولاَءِ تُحِبُّونَهُمْ الآيه؛الظاهر أن اولاء اسم إشاره و لفظه ها للتنبيه،و قد تخلل لفظه أنتم بين ها و اولاء،و المعنى أنتم هؤلاء على حد قولهم:زيد هذا و هند هذه كذا و كذا.

و قوله: وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ،اللام للجنس أى و أنتم تؤمنون بجميع الكتب السـماويه النازله من عنـد اللّه:كتابهم و كتابكم،و هم لاـ يؤمنون بكتـابكم،و قوله،و اذا لقولكم قالوا آمنا،أى إنهم منافقون،و قوله: وَ إِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ العض هو الأخذ بالأسـنان مع ضـغط،و الأنامل جمع أنمله و هى طرف الإصـبع.و الغيظ هو الحنق،و عض الأنامل على شىء مثل يضرب للتحسر و التأسف غضبا و حنقا.

و قوله: قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ دعـاء عليهم فى صوره الأمر و بـذلك تتصل الجمله بقوله: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أى اللهم امتهم بغيظهم إنك عليم بذات الصدور أى القلوب أى النفوس.

قوله تعالى: إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ،المساءه خلاف السرور،و فى الآيه

دلاله علی أن الأمن من کیدهم مشروط بالصبر و التقوی.

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۲۱ الی ۱۲۹]

اشاره

وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِکَ تُبَوِّئُ اَلْمُؤْمِنِینَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَ اَللّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۱۲۱) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْکُمْ أَنْ تَفْشَلا وَ اَللّهُ وَلِیُّهُما وَ عَلَی اَللّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ اَلْمُؤْمِنُونَ (۱۲۲) وَ لَقَدْ نَصَرَکُمُ اَللّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّهٌ فَاتَّقُوا اَللّهَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۱۲۳) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِینَ أَ لَنْ یَکْفِیَکُمْ أَنْ یُمِدَّکُمْ رَبُّکُمْ بِثَلاثَهِ آلافٍ مِنَ اَلْمَلائِکَهِ مُنْزَلِینَ (۱۲۴) بَلی إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ یَأْتُوکُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا یُمْدِدْکُمْ رَبُّکُمْ بِخَمْسَهِ آلافٍ مِنَ اَلْمَلائِکَهِ مُسَوِّمِینَ (۱۲۵) وَ ما جَعَلَهُ اَللّهُ إِلاّ بُشْری لَکُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُکُمْ بِهِ وَ مَا اَلنَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِنْدِ اَللّهِ اَلْعَزِیزِ اَلْحَکِیمِ (۱۲۶) لِیَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا أَوْ یَکْبِتَهُمْ فَیَنْقَلِبُوا خائِبِینَ (۱۲۷) لَیْسَ لَکَ مِنَ اَلْأَمْرِ شَیْءٌ أَوْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ أَوْ یُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (۱۲۸) وَ لِلّهِ ما فِی اَلسَّماواتِ وَ ما فِی اَلْأَرْضِ یَغْفِرُ لِمَنْ یَشاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشاءُ وَ اَللّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۲۹)

ص: ۵۴۸

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ اذ ظرف متعلق بمحذوف کاذکر و نحوه؛و غدوت من الغدو و هو الخروج غداه،و التبوئه تهیئه المکان للغیر أو إسکانه و إیطانه المکان؛و المقاعد جمع؛و أهل الرجل-کما ذکره الراغب-من یجمعه و إیاهم نسب أو بیت أو غیرهما کدین أو بلد أو صناعه؛یقال:أهل الرجل لزوجته و لمن فی بیته من زوجه و ولد و خادم و غیرهم،و للمنتسبین الیه من عشیرته و عترته،و یقال:

أهل بلد کذا لقاطنیه؛و أهل دین کذا لمنتحلیه؛و أهل صناعه کذا لصناعها و أساتیدها، و یستوی فیه المذکر و المؤنث و المفرد و الجمع،و یختص استعماله بالإنسان فأهل الشیء خاصته من الإنسان.

و المراد بأهل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خاصته و هم جمع،و لیس المراد به هاهنا شخص واحد بدلیل قوله: غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ اذ یجوز أن یقال:خرجت من خاصتک و من جماعتک و لا یجوز أن یقال:خرجت من زوجتک و خرجت من امک؛و لذا التجأ بعض المفسرین الی تقدیر فی الآیه فقال:إن التقدیر:خرجت من بیت أهلک،لما قسر الأهل بالمفرد،و لا دلیل یدل علیه من الکلام.

و سیاق الآیات مبنی علی خطاب الجمع و هو خطاب المؤمنین علی ما تدل علیه الآیات السابقه و اللاحقه ففی قوله: وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ ،التفات من خطابهم الی خطاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کأن الوجه فیه ما یلوح من آیات القصه من لحن العتاب فإنها لا تخلو من شائبه اللوم و العتاب و الأسف علی ما جری و ظهر من المؤمنین من الفشل و الوهن فی العزیمه و القتال،و لذلک أعرض عن مخاطبتهم فی تضاعیف القصه و عدل الی خطاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیما یخص به فقال:و اذ غدوت من أهلک،و قال:اذ تقول للمؤمنین أ لن یکفیکم،

و قـال:ليس لـك من الأمر شـیء،و قال:قل إن الأمر كله بيـد اللّه،و قال:فبما رحمه من اللّه لنت لهم و لو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم،و قال:و لا تحسبن الذين قتلوا فی سبيل اللّه أمواتا الآيه.

فغير خطاب الجمع فی هذه الموارد الی خطاب المفرد،و هی موارد تحبس المتكلم الجاری فی كلامه عن الجری فيه لما تغيظه و تهيج وجده،بخلاف مثل قوله فی ضـمن الآيات:و ما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أ فإن مات أو قتل انقلبتم،و قوله: وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِی أُخْرَاكُمْ ،لأن العتاب فيهما بخطاب الجمع أوقع دون خطاب المفرد،و بخلاف مثل قوله فی ضمن الآيات:لقد من اللّه على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا منهم الآيه؛لأن الامتنان ببعثه النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع أخذه غائبا أوقع و أشد تأثيرا فی النفوس،و أبعد من الوهم و الخطور،فتدبر فی الآيات تجد صحه ما ذكرناه.

و معنى الآيه:و اذكر اذ خرجت بالغداه من أهلك تهيئ للمؤمنين مقاعد للقتال أو تسكنهم و توقفهم فيها و اللّه سميع لما قيل هناك،عليم بما أضمرته قلوبهم،و المستفاد من قوله:

وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ،قرب المعركه من داره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيتعين بذلك أن الآيتين ناظرتان الی غزوه أحد فتتصل الآيتان بالآيات الآتيه النازله فی شأن أحد لانطباق المضامين على وقائع هذه الغزوه،و به يظهر ضعف ما قيل:إن الآيتين فی غزوه بدر؛و كذا ما قيل:إنهما فی غزوه الأحزاب،و الوجه ظاهر.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أی سميع يسمع ما قيل هناك،عليم يعلم ما كان مضمرا فی قلوبكم،و فيه دلاله على كلام جرى هناك بينهم،و امور أضمروها فی قلوبهم، و الظاهر أن قوله: إِذْ هَمَّتْ ،متعلق بالوصفين.

قوله تعالى: إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَ اللَّهُ وَلِيُّهُمَا الهم ما هممت به فی نفسك و هو القصد،و الفشل ضعف مع الجبن.

و قوله: وَ اللّهُ وَلِيُّهُمٰا ،حال و العامل فيه قوله: هَمَّتْ ،و الكلام مسوق للعتاب و اللوم؛و كـذا قوله: وَ عَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ،و المعنى:أنهمـا همتا بالفشل مع أن اللّه وليهما و لا ينبغى لمؤمن أن يفشل و هو يرى أن اللّه وليه،و مع أن المؤمنين ينبغى أن يكلوا أمرهم الى اللّه و من يتوكل على اللّه فهو حسبه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ الى آخر الآيه؛ظاهر السـياق أن تكون الآيه مسوقه سوق الشاهد لتتميم العتاب و تأكيده فتكون تؤدى معنى الحال كقوله:

وَ اللّهُ وَلِيُّهُمٰا ،و المعنى:و ما كان ينبغى أن يظهر منكم الهم بالفشل و قد نصركم اللّه ببدر و أنتم أذله،و ليس من البعيد أن يكون كلاما مستقلا سيق مساق الامتنان بذكر نصر عجيب من اللّه بإنزال الملائكه لإمدادهم و نصرهم يوم بدر.

و لمـا ذكر تعالى نصـره إياهم يوم بـدر و قابل ذلك بما هم عليه من الحال-و من المعلوم أن كل من اعتز فإنما يعتز بنصـر اللّه و عونه فليس للإنسان من قبل نفسه إلاّ الفقر و الذله-و لذلك قال:و أنتم أذله.

و من هنـا يعلم أن قوله: وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ لاـ ينافى أمثال قوله تعالى: وَ لِلّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقون٨/)فإن عزتهم إنما هى بعزه اللّه،قـال تعـالى: فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً (النساء١٣٩/)و ذلك بنصـر اللّه المؤمنين كما قال تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلىٰ قَوْمِهِمْ فَجٰاؤُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَانْتَقَمْنٰا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كٰانَ حَقًّا عَلَيْنٰا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم٤٧/)فاذا كان الحال هـذا الحال فلو اعتبر حال المؤمنين من حيث أنفسهم لم يكن لهم إلاّ الذله.

على أن واجهه حال المؤمنين أيضا يوم بدر كانت تقضى بكونهم أذله قبال ما كان عليه المشركون من القوه و الشوكه و الزينه،و لا ضـير فى إضافه الـذله النسبيه الى الأعزه و قد أضافها اللّه سبحانه الى قوم مدحهم كل المدح حيث قال: فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ الآيه(المائده۵۴/).

قوله تعالى: إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ الإمداد من المد و هو إيصال المدد على نعت الاتصال.

قوله تعالى: بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا ،بلى كلمه تصديق و الفور و الفوران:الغليان يقال:فار القدر اذا غلا و جاش،ثم استعير للسرعه و العجله فاستعمل فى الأمر الذى لا ريث فيه و لا مهله فمعنى من فورهم هذا من ساعتهم هذه.

و الظاهر أن مصداق الآيه هو يوم بدر،و إنما هو وعد على الشرط و هو ما يتضمنه قوله: إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا .

و أما ما يظهر من بعض المفسرين أنه وعد بإنزال الملائكه إن جاءوهم بعد فورهم هذا يعنى يوم بدر بأن يكون المراد من فورهم هذا هو يوم بدر لا فى يوم بدر،و كذا ما يظهر من بعض آخر أنه وعد بإنزالهم فى سائر الغزوات بعد بدر كاحد و حنين و الأحزاب فمما لا دليل عليه من لفظ الآيه.

أما يوم أحد فلا محل لاستفاده نزول الملائكه فيه من الآيات و هو ظاهر،و أما يوم الأحزاب و يوم حنين فالقرآن و إن كان يصرح بنزول الملائكه فيهما فقد قال فى قصه الأحزاب: إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها (الأحزاب۹/)و قال وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ «الى أن قال»: وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها (التوبه۲۶/)إلاّ أن لفظ هذه الآيه:

بلى إن تصبروا و تتقوا و يأتوكم من فورهم هذا،قاصر عن إفاده عموم الوعد.

و أما نزول ثلاثه آلاف يوم بدر فلا ينافى قوله تعالى فى سوره الأنفال: فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (الأنفال۹/)لمكان قوله: مُرْدِفِينَ أى متبعين لآخرين و هم الألفان الباقيان المكملان للعدد على ما ذكر فى هذه الآيات.

قوله تعالى: وَ ما جَعَلَهُ اللّهُ إِلاّ بُشْرى لَكُمْ ،الضمير راجع الى الإمداد،و لفظه

عنـد ظرف يفيد معنى الحضور،و قد كان أولا مستعملا فى القرب و الحضور المكانى المختص بالأجسام ثم توسع فاستعمل فى القرب الزمانى ثم فى مطلق القرب و الحضور المعنوى كيفما كان،و قد استعمل فى القرآن فى مختلف الفنون.

و الـذى يفيده فى هذا المقام أعنى قوله: وَ مَا النَّصْرُ إِلاّٰ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ بالنظر الى ما سبقه من قوله: وَ مٰا جَعَلَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ بُشْرىٰ وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ به هو المقام الربوبى الـذى ينتهى اليه كـل أمر و حكم،و لا يكفى عنه و لا يستقل دونه شـىء من الأسباب؛فالمعنى:أن الملائكه الممـدين ليس لهم من أمر النصر شـىء بـل هم أسباب ظاهريه يجلبون لكم البشرى و طمأنينه القلب،و إنما حقيقه النصر من اللّه سبحانه لا يغنى عنه شىء،و هو اللّه الذى ينتهى اليه كل أمر،العزيز الذى لا يغلب،الحكيم الذى لا يجهل.

قوله تعالى: لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ الى آخر الآيات؛اللام متعلق بقوله: وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّٰهُ ،و قطع الطرف كنايه عن تقليـل عـدتهم و تضعيف قوتهم بالقتل و الأسر كما وقع يوم بـدر فقتل من المشركين سبعون و اسر سبعون،و الكبت هو الإخزاء و الإغاظه.

و قوله: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شـىء معترضه،و فائدتها بيان أن الأمر فى القطع و الكبت للّه،و ليس للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيه صنع حتى يمدحوه و يستحسنوا تدبيره اذا ظفروا على عدوهم و نالوا منه،و يلوموه و يوبخوه اذا دارت الدائره عليهم و يهنوا و يحزنوا كما كان ذلك منهم يوم أحد على ما حكاه اللّه تعالى.

و قوله: أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ معطوف على قوله: لِيَقْطَعَ ،و الكلام متصل،و قوله: وَ لِلّٰهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ ،بيان لرجوع أمر التوبه و المغفره الى اللّه تعـالى؛و المعنى:أن هـذا التـدبير المتقن منه تعالى إنما هو ليقطع طرفا من المشركين بالقتل و الأسر أو ليخزيهم و يخيبهم فى سعيهم أو ليتوب عليهم أو ليعذبهم،أما القطع و الكبت فلأن الأمر اليه لا إليك حتى تمدح أو

تـذم؛و أما التوبه و العـذاب فلأن اللّه هو المالک لکل شـیء فیغفر لمن یشاء،و یعـذب من یشاء، و مع ذلک فإن مغفرته و رحمته تسبقان عذابه و غضبه فهو الغفور الرحیم.

و إنمـا أخـذنا قوله: وَ لِلّٰهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ ،فی موضع التعلیل للفقرتین الأخیرتین أعنی قوله: أَوْ یَتُوبَ اه،لما فی ذیله من اختصاص البیان بهما أعنی قوله: یَغْفِرُ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشٰاءُ (۱).

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۳۰ الی ۱۳۸]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَأْکُلُوا اَلرِّبَوا أَضْعٰافاً مُضٰاعَفَةً وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۱۳۰) وَ اِتَّقُوا اَلنّٰارَ اَلَّتِی أُعِدَّتْ لِلْکٰافِرِینَ (۱۳۱) وَ أَطِیعُوا اَللّٰهَ وَ اَلرَّسُولَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۱۳۲) وَ سٰارِعُوا إِلیٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا اَلسَّمٰاوٰاتُ وَ اَلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِینَ (۱۳۳) اَلَّذِینَ یُنْفِقُونَ فِی اَلسَّرّٰاءِ وَ اَلضَّرّٰاءِ وَ اَلْکٰاظِمِینَ اَلْغَیْظَ وَ اَلْعٰافِینَ عَنِ اَلنّٰاسِ وَ اَللّٰهُ یُحِبُّ اَلْمُحْسِنِینَ (۱۳۴) وَ اَلَّذِینَ إِذٰا فَعَلُوا فٰاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَکَرُوا اَللّٰهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ یَغْفِرُ اَلذُّنُوبَ إِلاَّ اَللّٰهُ وَ لَمْ یُصِرُّوا عَلیٰ مٰا فَعَلُوا وَ هُمْ یَعْلَمُونَ (۱۳۵) أُولٰئِکَ جَزٰاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنّٰاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا وَ نِعْمَ أَجْرُ اَلْعٰامِلِینَ (۱۳۶) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِکُمْ سُنَنٌ فَسِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَةُ اَلْمُکَذِّبِینَ (۱۳۷) هٰذٰا بَیٰانٌ لِلنّٰاسِ وَ هُدیً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِینَ (۱۳۸)

۱- ۱) .آل عمران ۱۲۱-۱۲۹:بحث روائی فی غزوه احد.

بیان

بیان (۱):

قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَأْکُلُوا الرِّبَوا الی آخر الآیات الثلاث؛قد مر سابقا وجه إطلاق الأکل و إراده الأخذ،و قوله: أَضْعٰافاً مُضٰاعَفَهً یشیر الی الوصف الغالب فی الربا فإنه بحسب الطبع یتضاعف فیصیر المال أضعافا مضاعفه بإنفاد مال الغیر و ضمه الی رأس المال الربوی.

و فی قوله: وَ اتَّقُوا النّٰارَ الَّتِی أُعِدَّتْ لِلْکٰافِرِینَ ،إشاره الی کفر آکل الربا کما مر فی سوره البقره فی آیات الربا: وَ اللّٰهُ لاٰ یُحِبُّ کُلَّ کَفّٰارٍ أَثِیمٍ (البقره۲۷۶/).

قوله تعالی: وَ سٰارِعُوا إِلیٰ مَغْفِرَهٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ جَنَّهٍ ،المسارعه هی الاشتداد فی السرعه و هی ممدوحه فی الخیرات،و مذمومه فی الشرور.

و قد قورن فی القرآن الکریم المغفره بالجنه فی غالب الموارد،و لیس إلاّ لأن الجنه دار طهاره لا یدخل فیها قذارات المعاصی و الذنوب و أدرانها،و لا من تقذر بها إلاّ بعد المغفره و الإزاله.

و المغفره و الجنه المذکورتان فی هذه الآیه تحاذیان ما فی الآیتین التالیتین؛أما المغفره فتحاذی ما فی قوله: وَ الَّذِینَ إِذٰا فَعَلُوا فٰاحِشَهً ؛و أما الجنه فتحاذی ما فی قوله: اَلَّذِینَ یُنْفِقُونَ فِی السَّرّٰاءِ وَ الضَّرّٰاءِ .

ص: ۵۵۵

۱- ۱) .بحث فی تعلیم القرآن و قرانه العلم بالعمل.

و أما قوله: جَنَّهٍ عَرْضُـهَا السَّماٰوٰاتُ وَ الْأَرْضُ ،فالمراد بالعرض السعه و هو استعمال شائع،و كأن التعبير كنايه عن بلوغها فى السعه غايتها أو ما لا يحدها الوهم البشرى، و له معنى آخر سنشير اليه فى البحث الروائى الآتى.

و قوله: أُعِـدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ كـالتوطئه لـذكر مـا يـذكره بعـد من أوصـاف المتقين؛فـإن الغرض هو بيـان الأوصـاف التى ترتبط بحال المؤمنين فى المقـام أعنى عنـد نزول هـذه الآيـات و قـد نزلت بعـد غزوه أحـد و قـد جرى عليهم و منهم ما جرى من الضـعف و الوهن و المخالفه،و هم مع ذلك مشرفون على غزوات أخر مثلها،و حوادث تشابهها،و بهم حاجه الى الاتحاد و الاتفاق و التلاؤم.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرّٰاءِ وَ الضَّرّٰاءِ الى آخر الآيه؛السراء و الضراء ما يسر الإنسان و ما يسوؤه أو اليسر و العسر،و الكظم فى الأصل هو شد رأس القربه بعد ملئها فاستعير للإنسان اذا امتلأ حزنا أو غضبا،و الغيظ هيجان الطبع للانتقام بمشاهده كثره ما لا يرتضيه،بخلاف الغضب فهو إراده الانتقام أو المجازاه،و لذلك يقال:

غضب اللّه و لا يقال:اغتاظ.

و فى قوله: وَ اللّٰهُ يُحِبُّ الْمُحْسِـنِينَ ،إشـاره الى أن ما ذكره من الأوصاف معرف لهم،و إنما هو معرف للمحسـنين فى جنب الناس بالإحسان اليهم،و أما فى جنب اللّه فمعرفهم ما فى قوله تعالى: وَ بُشْـرىٰ لِلْمُحْسِـنِينَ إِنَّ الَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْـتَقٰامُوا فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ (الأحقاف/١٣)بل هذا الإحسان المذكور فى هذه الآيات هو المحتد للمذكور فى قوله: اَلَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرّٰاءِ وَ الضَّرّٰاءِ ،الآـيه؛فـإن الإنفـاق و نحوه اذا لم يكن لوجه اللّه لم يكن له منزله عنـد اللّه سـبحانه على ما يـدل عليه قوله تعالى فيما سبق من الآيات: مَثَلُ مٰا يُنْفِقُونَ فِى هٰذِهِ الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا ،الآيه؛و غيره.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ إِذٰا فَعَلُوا فٰاحِشَهً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ -الى قوله-: وَ نِعْمَ

أَجْرُ الْعٰامِلِينَ الفاحشه ما تتضمن الفحش و القبيح من الأفعال،و شاع استعماله فى الزنا، فالمراد بالظلم بقرينه المقابله سائر المعاصى الكبيره و الصغيره،أو خصوص الصغائر على تقدير أن يراد بالفاحشه المنكر من المعاصى و هى الكبائر،و فى قوله: ذَكَرُوا اللّٰهَ ،الخ؛دلاله على أن الملاک فى الاستغفار أن يدعو إليه ذكر اللّٰه تعالى دون مجرد التلفظ باعتياد و نحوه، و قوله: وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّٰهُ تشويق و إيقاظ لقريحه اللواذ و الالتجاء فى الإنسان.

و قوله: وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلىٰ مٰا فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ، إنما قيد به الاستغفار لأنه يورث فى النفس هيئه لا ينفع معه ذكر مقام الرب تعالى و هى الاستهانه بأمر اللّٰه،و عدم المبالاه بهتک حرماته،و الاستکبار عليه تعالى،و لا تبقى معه عبوديه و لا ينفع معه ذكر، و لذلک بعينه قيده بقوله: وَ هُمْ يَعْلَمُونَ ،و هذه قرينه على كون الظلم فى صدر الآيه يشمل الصغائر أيضا،و ذلک أن الإصرار على الذنب يستوجب الاستهانه بأمر اللّٰه و التحقير لمقامه سواء كان الذنب المذكور من الصغائر أو الكبائر،فقوله: مٰا فَعَلُوا أعم من الكبيره،و المراد بما فعلوا هو الذى ذكر فى صدر الآيه،و اذ ليست الصغيره فاحشه فهو ظلم النفس لا محاله.

و قوله: أُولٰئِکَ جَزٰاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ بيان لأجرهم الجزيل،و ما ذكره تعالى فى هذه الآيه هو عين ما أمر بالمسارعه إليه فى قوله: وَ سٰارِعُوا إِلىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ ،الخ؛ و من ذلک يعلم أن الأمر إنما كان بالمسارعه الى الانفاق و كظم الغيظ و العفو عن الناس و الاستغفار.

قوله تعالى: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا ،السنن جمع سنه و هى الطريقه المسلوكه فى المجتمع،و الأمر بالسير فى الأرض لمكان الاعتبار بآثار الماضين من الامم الغابره،و الملوک و الفراعنه الطاغيه حيث لم ينفعهم شواهق قصورهم،و لا ذخائر كنوزهم، و لا عروشهم و لا جموعهم،و قد جعلهم اللّٰه أحاديث يعتبر بها المعتبرون،و يتفكه بها

المغفلون.

و أما حفظ آثارهم و کلاءه تماثیلهم و الجهد فی الکشف عن عظمتهم و مجدهم الظاهر الدنیوی الذی فی أیامهم فمما لا یعتنی به القرآن،فإنما هی الوثنیه التی لا تزال تظهر کل حین فی لباس؛و سنبحث إن شاء اللّه فی هذا المعنی فی بحث مستقل نحلل فیه معنی الوثنیه.

قوله تعالی: هٰذٰا بَیٰانٌ لِلنّٰاسِ الآیه؛التقسیم باعتبار التأثیر فهو بلاغ و إبانه لبعض و هدی و موعظه لآخرین (۱).

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۳۹ الی ۱۴۸]

اشاره

وَ لاٰ تَهِنُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ اَلْأَعْلَوْنَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۳۹) إِنْ یَمْسَسْکُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ اَلْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْکَ اَلْأَیّٰامُ نُدٰاوِلُهٰا بَیْنَ اَلنّٰاسِ وَ لِیَعْلَمَ اَللّٰهُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ یَتَّخِذَ مِنْکُمْ شُهَدٰاءَ وَ اَللّٰهُ لاٰ یُحِبُّ اَلظّٰالِمِینَ (۱۴۰) وَ لِیُمَحِّصَ اَللّٰهُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ یَمْحَقَ اَلْکٰافِرِینَ (۱۴۱) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا اَلْجَنَّهَ وَ لَمّٰا یَعْلَمِ اَللّٰهُ اَلَّذِینَ جٰاهَدُوا مِنْکُمْ وَ یَعْلَمَ اَلصّٰابِرِینَ (۱۴۲) وَ لَقَدْ کُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ اَلْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَیْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۱۴۳) وَ مٰا مُحَمَّدٌ إِلاّٰ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ اَلرُّسُلُ أَ فَإِنْ مٰاتَ أَوْ قُتِلَ اِنْقَلَبْتُمْ عَلیٰ أَعْقٰابِکُمْ وَ مَنْ یَنْقَلِبْ عَلیٰ عَقِبَیْهِ فَلَنْ یَضُرَّ اَللّٰهَ شَیْئاً وَ سَیَجْزِی اَللّٰهُ اَلشّٰاکِرِینَ (۱۴۴) وَ مٰا کٰانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاّٰ بِإِذْنِ اَللّٰهِ کِتٰاباً مُؤَجَّلاً وَ مَنْ یُرِدْ ثَوٰابَ اَلدُّنْیٰا نُؤْتِهِ مِنْهٰا وَ مَنْ یُرِدْ ثَوٰابَ اَلْآخِرَهِ نُؤْتِهِ مِنْهٰا وَ سَنَجْزِی اَلشّٰاکِرِینَ (۱۴۵) وَ کَأَیِّنْ مِنْ نَبِیٍّ قٰاتَلَ مَعَهُ رِبِّیُّونَ کَثِیرٌ فَمٰا وَهَنُوا لِمٰا أَصٰابَهُمْ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ مٰا ضَعُفُوا وَ مَا اِسْتَکٰانُوا وَ اَللّٰهُ یُحِبُّ اَلصّٰابِرِینَ (۱۴۶) وَ مٰا کٰانَ قَوْلَهُمْ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا رَبَّنَا اِغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا وَ إِسْرٰافَنٰا فِی أَمْرِنٰا وَ ثَبِّتْ أَقْدٰامَنٰا وَ اُنْصُرْنٰا عَلَی اَلْقَوْمِ اَلْکٰافِرِینَ (۱۴۷) فَآتٰاهُمُ اَللّٰهُ ثَوٰابَ اَلدُّنْیٰا وَ حُسْنَ ثَوٰابِ اَلْآخِرَهِ وَ اَللّٰهُ یُحِبُّ اَلْمُحْسِنِینَ (۱۴۸)

۱- ۱) .آل عمران ۱۳۰-۱۳۸:بحث روائی فی:عرض الجنه؛حسن الخلق؛الاستغفار.

بيان:

قوله تعالى: وَ لاٰ تَهِنُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ الوهن:هو الضعف فى خلق أو خلق على ما ذكره الراغب،و المراد به هنا ضعفهم من حيث العزيمه و الاهتمام على اقامه الدين و قتال أعدائه،و الحزن خلاف الفرح و إنما يعرض الإنسان بفقده شيئا يملكه مما يحبه أو أمرا يقدر نفسه مالكه له.

و فى قوله تعالى: وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ،دلاله على أن سبب وهنهم و حزنهم ما شاهدوه من إصابه القرح إياهم،و استعلاء الكفار عليهم،فإن المشركين و إن لم ينالوا كل الغلبه و الظفر على المؤمنين و لم تختتم الوقعه على الانهزام التام من المؤمنين لكن الذى أصاب المؤمنين كان أشد و أوجع و هو

شهاده سبعين من سراتهم و شجعانهم،و وقوع ما وقع فی عقر دارهم فکان هذا سبب وهنهم و حزنهم،و وقوع قوله: وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ،الخ؛موقع التعليل هو الوجه فی کون هذين النهيين نهيا عن وهن و حزن واقعين لا مقدرين و لا متوقعين.

و قد اطلق قوله: اَلْأَعْلَوْنَ من غير تقييد و لکن اشترط بالإيمان فمحصل المعنی:لا ينبغی لکم أن تهنوا فی عزمکم،و لا أن تحزنوا لما فاتکم من لظفر علی أعدائکم،و الانتصار منهم إن کان فيکم الإيمان،فإن الإيمان أمر يستصحب علاءکم البته اذ هو يلازم التقوی و الصبر و فيهما ملاک الفتح و الظفر،و أما القرح الذی أصابکم فلستم بمتفردين فيه بل القوم -و هم المشرکون-قد أصابهم مثله فلم يسبقوکم فی شیء حتی يوجب ذلک وهنکم و حزنکم.

و اشتراط علوهم بالإيمان مع کون الخطاب للذين آمنوا إنما هو للإشاره الی أن الجماعه و إن کانوا لا يفقدون الإيمان إلاّ أنهم غير عاملين بما يقتضيه من الصفات کالصبر و التقوی و إلاّ لأثر أثره.

و هذا حال کل جماعه مختلفه الحال فی الإيمان فيهم المؤمن حقا و الضعيف إيمانا و المريض قلبا،و يکون مثل هذا الکلام تنشيطا لنفس مؤمنهم،و عظه لضعيفهم و عتابا و تأنيبا لمريضهم.

قوله تعالی: إِنْ يَمْسَسْکُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ القرح-بفتح القاف-الأثر من الجراحه من شیء يصيبه من خارج،و القرح-بالضم-أثرها من داخل کالبثره و نحوها-قاله الراغب-و کأنه کنايه عما أصابهم يوم أحد بفرض مجموع المسلمين شخصا واحدا أصابه جراحه من عدوه و هو قتل من قتل منهم،و جراحه من جرح منهم، و فوت النصر و الفتح بعد ما أطلا عليهم.

و هذه الجمله أعنی قوله: إِنْ يَمْسَسْکُمْ ،الخ؛و ما بعدها من الجمل المتسقه الی قوله: وَ يَمْحَقَ

اَلْکٰافِرِینَ فی موضع التعلیل-کما مر-لقوله: وَ لاٰ تَهِنُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا ،الخ؛کما أن قوله: وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ تعلیل آخر.

و الفرق بین النوعین من التعلیل أن الأول أعنی قوله: وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ،الخ؛تعلیل من طریق التخطئه لظنهم،فإنهم إنما وهنوا و حزنوا لما ظنوا علاء المشرکین علیهم فخطأهم اللّه بأن ملاک العلاء معکم إن کنتم مؤمنین لا مع المشرکین،و قد قال تعالی: وَ کٰانَ حَقًّا عَلَیْنٰا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ (الروم۴۷/).

و أما الثانی فمن طریق بیان حال الفریقین-المؤمنین و المشرکین-أو بیان الحکم و المصالح التی ترجع الی أصل واحد و هو السنه الإلهیه الجاریه بمداوله الأیام بین الناس.

قوله تعالی: وَ تِلْکَ الْأَیّٰامُ نُدٰاوِلُهٰا بَیْنَ النّٰاسِ الیوم هو المقدار المعتد به من الزمان اللازم لحدوث الحوادث فیختلف باختلاف الحوادث،و قد شاع استعماله فیما بین طلوع الشمس و غروبها،و ربما استعمل فی الملک و السلطنه و القهر و نحوها بعلاقه الظرف و المظروف،فیقال یوم جماعه کذا و یوم آل فلان أی تقدمهم و حکومتهم علی غیرهم،و قد یقال لنفس الزمان الذی وقع فیه ذلک،و المراد بالایام فی الآیه هو هذا المعنی.و المداوله جعل الشیء یتناوله واحد بعد آخر.فالمعنی:أن السنه الإلهیه جرت علی مداوله الأیام بین الناس من غیر أن توقف علی قوم و یذهب عنها قوم لمصالح عامه تتبع هذه السنه لا تحیط أفهامکم إلاّ ببعضها دون جمیعها.

قوله تعالی: وَ لِیَعْلَمَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ یَتَّخِذَ مِنْکُمْ شُهَدٰاءَ الخ؛عطف علی محذوف حذف التلویح علی أنه مما لا تحیط به الأفهام و لا تدرکه العقول إلا من بعض جهاتها، و الذی ینفع المؤمنین العلم به هو ما ذکره بقوله: وَ لِیَعْلَمَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ یَتَّخِذَ مِنْکُمْ شُهَدٰاءَ ، الخ؛و بقوله: وَ لِیُمَحِّصَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ یَمْحَقَ الْکٰافِرِینَ .

أما قوله: وَ لِیَعْلَمَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا ،فالمراد به ظهور إیمان المؤمنین بعد بطونه

و خفائه،فإن علمه تعالى بالحوادث و الأشياء فى الخارج عين وجودها فيه فإن الأشياء معلومه له تعالى بنفس وجودها لا بصوره مأخوذه منها نظير علومنا و إدراكاتنا و هو ظاهر، و لازم ذلك أن يكون إرادته تعالى العلم بشىء هى إراده تحققه و ظهوره و حيث قال:و ليعلم اللّه الذين آمنوا،فأخذ وجودهم محققا أفاد ذلك إراده ظهور إيمانهم،و اذا كان ذلك على سنه الأسباب و المسببات لم يكن بد من وقوع امور توجب ظهور إيمان المؤمن بعد خفائه فافهم ذلك.

و أما قوله: وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ ،فالشهداء شهداء الأعمال و أما الشهداء بمعنى المقتولين فى معركه القتال فلا يعهد استعماله فى القرآن،و إنما هو من الألفاظ المستحدثه الاسلاميه،كما مر فى قوله تعالى: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ (البقره/ ۱۴۳)،على أن قوله: وَ يَتَّخِذَ ،أيضا لا يلائم الشهداء بمعنى المقتولين فى المعركه كثير ملاءمه، فلا يقال:اتخذ اللّه فلانا مقتولا فى سبيله و شهيدا كما يقال:اتخذ اللّه ابراهيم خليلا،و اتخذ اللّه موسى كليما،و اتخذ اللّه النبى شهيدا يشهد على امته يوم القيامه.

و قد غير السياق فقال:و يتخذ منكم شهداء،و لم يقل:و يتخذهم شهداء لأن الشهاده و إن اضيفت الى الامامه فى قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النّاسِ (البقره۱۴۳/)،إلا أنها من قبيل وصف البعض المضاف الى الكل،و الشهداء بعض الامه دون كلهم،و قد مر بيان ذلك فى سوره البقره،و يمكن أن يتأيد هذا الذى ذكرناه بقوله بعد:و اللّه لا يحب الظالمين.

و أما قوله: وَ لِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ فالتمحيص هو تخليص الشىء من الشوائب الخارجه،و المحق إنفاد الشىء تدريجا و إزالته شيئا فشيئا،و هذا التمحيص من حكم مداوله الأيام و مصالحها،و هو غير العلم بالذين آمنوا الذى هو أيضا من حكم مداوله الأيام،فإن تمييز المؤمن من غير المؤمن أمر و تخليص إيمانه بعد التمييز من شوائب

الکفر و النفاق و الفسوق أمر آخر،و لذلک قوبل بالمحق للکافرین،فاللّه سبحانه یزیل أجزاء الکفر و نحوه من المؤمن شیئا فشیئا حتی لا یبقی إلاّ إیمانه،فیکون خالصا للّه،و یبید أجزاء الکفر و الشرک و الکید من الکافر شیئا فشیئا حتی لا یبقی شیء.

شرح سبحانه-بعد بیان أن الأیام دول متداوله لغرض الامتحان و الابتلاء-فی ملامتهم فی حسبان هذا النظر الباطل و بیان حقیقه الحال فقال:أم حسبتم،الی آخر الآیات.

قوله تعالی: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمّٰا یَعْلَمِ اللّٰهُ الی آخر الآیتین؛ و هذا أعنی ظنهم أن یدخلوا الجنه من غیر أن یمتحنوا لازم الظن المذکور آنفا،و هو أنهم لما کانوا علی الحق و الحق لا یغلب علیه فأمر الظفر و الغلبه الیهم،لن ینهزموا و لن یغلبوا أبدا، و من المعلوم أن لازم هذا الظن أن یکون کل من آمن بالنبی و لحق بجماعه المؤمنین سعیدا فی دنیاه بالغلبه و الغنیمه،و سعیدا فی آخرته بالمغفره و الجنه،و یبطل الفرق بین ظاهر الإیمان و حقیقته و یرتفع التمایز بین الدرجات،فإیمان المجاهد و إیمان المجاهد الصابر واحد،و من تمنی خیرا ففعله اذا حان حینه کان کمن تمنی خیرا ثم تولی اذا أصابه.

و علی هذا فقوله: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ،الخ؛من قبیل وضع المسبب موضع السبب أی حسبتم أن الدوله مکتوبه لکم فأنتم لا تبتلون بل تدخلون الجنه من غیر أن یتمیز المستحق لها منکم من غیر المستحق،و صاحب الدرجه الرفیعه منکم من غیره؟

و أما قوله تعالی: وَ لَقَدْ کُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ الآیه؛ففیه تثبیت أن ظنهم ذاک کان فاسدا فإنهم کانوا یتمنون الموت قبل حضور الغزوه حتی اذا حضرت و رأوه رأی العین لم یقدموا و لم یتناولوا ما کانوا یتمنونه،بل فشلوا و تولوا عن القتال؛فهل کان من الجائز أن یدخلوا الجنه بمجرد هذا التمنی من غیر أن یمتحنوا أو یمحصوا؟أو لم یکن من الواجب أن یختبروا؟.

و بهذا یظهر أن فی الکلام تقدیرا،و المعنی:فقد رأیتموه و أنتم تنظرون فلم تقدموا علیه،

و یمکن أن یکون قوله: تَنْظُرُونَ کنایه عن عدم إقدامهم أی تکتفون بمجرد النظر من غیر إقدام،و فیه عتاب و توبیخ (۱).

قوله تعالی: وَ مٰا مُحَمَّدٌ إِلاّٰ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ الموت زهاق الروح و بطلان حیاه البدن،و القتل هو الموت اذا کان مستندا الی سبب عمدی أو نحوه، و الموت و القتل اذا افترقا کان الموت أعم من القتل،و اذا اجتمعا کان الموت هو ما یحتف الأنف و القتل خلافه.

و انقلب علی عقبیه أی رجع،قال الراغب:و رجع علی عقبیه اذا انثنی راجعا،و انقلب علی عقبیه نحو رجع علی حافرته،و نحو ارتدا علی آثارهما قصصا،و قولهم رجع عوده الی بدئه، انتهی.

و حیث جعل الانقلاب علی الاعقاب جزاء للشرط الذی هو موت الرسول أو قتله أفاد ذلک أن المراد به الرجوع عن الدین دون التولی عن القتال اذ لا ارتباط للفرار من الزحف بموت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو قتله،و إنما النسبه و الرابطه بین موته أو قتله و بین الرجوع الی الکفر بعد الإیمان.

و یدل علی أن المراد به الرجوع عن الدین ما ذکره تعالی فی قوله: وَ طٰائِفَهٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ یَظُنُّونَ بِاللّٰهِ غَیْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجٰاهِلِیَّهِ ،الی آخر الآیات؛علی أن نظیر ما وقع فی أحد من فرارهم من الزحف و تولیهم عن القتال تحقق فی غیره کغزوه حنین و خیبر و غیرهما و لم یخاطبهم اللّه بمثل هذا الخطاب و لا عبر عن تولیهم عن القتال بمثل هذه الکلمه قال تعالی:

وَ یَوْمَ حُنَیْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْکُمْ کَثْرَتُکُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْکُمْ شَیْئاً وَ ضٰاقَتْ عَلَیْکُمُ الْأَرْضُ بِمٰا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّیْتُمْ مُدْبِرِینَ (التوبه/۲۵)،فالحق أن المراد بالانقلاب علی الأعقاب الرجوع

۱- ۱) .آل عمران ۱۳۹-۱۴۸:کلام فی الامتحان و حقیقته.

الی الکفر السابق.

فمحصل معنی الآیه علی ما فیها من سیاق العتاب و التوبیخ:أن محمدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیس إلّا رسولا من اللّه مثل سائر الرسل،لیس شأنه إلّا تبلیغ رساله ربه لا یملک من الأمر شیئا،و إنما الأمر للّه و الدین دینه باق ببقائه،فما معنی اتکاء إیمانکم علی حیاته حیث یظهر منکم أن لو مات أو قتل ترکتم القیام بالدین،و رجعتم الی أعقابکم القهقری و اتخذتم الغوایه بعد الهدایه؟ (۱).

قوله تعالی: وَ مٰا کٰانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ کِتٰاباً مُؤَجَّلاً الخ؛ تعریض لهم فی قولهم عن إخوانهم المقتولین ما یشیر الیه قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَکُونُوا کَالَّذِینَ کَفَرُوا وَ قٰالُوا لِإِخْوٰانِهِمْ إِذٰا ضَرَبُوا فِی الْأَرْضِ أَوْ کٰانُوا غُزًّی لَوْ کٰانُوا عِنْدَنٰا مٰا مٰاتُوا وَ مٰا قُتِلُوا ،الآیه؛و قول طائفه منهم:لو کان لنا من لأمر شیء ما قتلنا هاهنا،الآیه؛ و هؤلاء من المؤمنین غیر المنافقین الذین ترکوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قعدوا عن القتال.

فهذا القول منهم لازمه أن لا یکون موت النفوس بإذن من اللّه و سنه محکمه تصدر عن قضاء مبرم،و لازمه بطلان الملک الإلهی و التدبیر المتقن الربانی و سیجیء إن شاء اللّه الکلام فی معنی کتابه الآجال فی أول سوره الأنعام.

و لما کان لازم هذا القول ممن قال به أنه آمن لظنه أن الأمر لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و للمؤمنین فقد أراد الدنیا کما مر بینه و من اجتنب هذا فقد أراد الآخره فقال تعالی:و من یرد ثواب الدنیا نؤته منها و من یرد ثواب الآخره نؤته منها،و إنما قال:نؤته منها و لم یقل:نؤتها لأن الإراده ربما لا توافق تمام الأسباب المؤدیه الی تمام مراده فلا یرزق تمام ما أراده،و لکنها لا تخلو من موافقه ما للأسباب فی الجمله دائما فإن وافق الجمیع رزق الجمیع و إن وافق البعض رزق البعض فحسب؛

ص:۵۶۵

۱- ۱) .آل عمران ۱۳۹-۱۴۸:بحث فی نشوب غزوه احد و اشاعه قبل النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و آثارها.

قال اللّه تعالى: مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْعٰاجِلَةَ عَجَّلْنٰا لَهُ فِيهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنٰا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاٰهٰا مَذْمُوماً مَدْحُوراً وَ مَنْ أَرٰادَ الْآخِرَةَ وَ سَعىٰ لَهٰا سَعْيَهٰا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ كٰانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ،(الإسراء١٩/)و قال تعالى: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسٰانِ إِلاّٰ مٰا سَعىٰ (النجم/ ٣٩).

ثم خص الشاكرين بالذكر بإخراجهم من الطائفتين فقال: وَ سَنَجْزِي الشّٰاكِرِينَ و ليس إلاّ لأنهم يريدون إلاّ وجه اللّه لا يشتغلون بدنيا و لا آخره كما تقدم.

قوله تعالى: وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قٰاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ الى آخر الآيات؛كأين كلمه تكثير و كلمه «مِنْ» بيانيه و الربيون جمع ربى و هو كالرباني من اختص بربه تعالى فلم يشتغل بغيره،و قيل:المراد به الالوف و الربى الألف،و الاستكانه هى التضرع.

و فى الآيه موعظه و اعتبار مشوب بعتاب و تشويق للمؤمنين أن يأتموا بهؤلاء الربيين فيؤتيهم اللّه ثواب الدنيا و حسن ثواب الآخره كما آتاهم،و يحبهم لإحسانهم كما أحبهم لذلك.

و قد حكى اللّه من فعلهم و قولهم ما للمؤمنين أن يعتبروا به و يجعلوه شعارا لهم حتى لا يبتلوا بما ابتلوا به يوم أحد من الفعل و القول غير المرضيين للّه تعالى و حتى يجمع اللّه لهم ثواب الدنيا و الآخره كما جمع لاولئك الربيين.

و قد وصف ثواب الآخره بالحسن دون الدنيا إشاره الى ارتفاع منزلتها و قدرها بالنسبه إليها.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٤٩ الى ١٥٥]

اشاره

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلىٰ أَعْقٰابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خٰاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللّٰهُ مَوْلاٰكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النّٰاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمٰا أَشْرَكُوا بِاللّٰهِ مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰاناً وَ مَأْوٰاهُمُ النّٰارُ وَ بِئْسَ مَثْوَى الظّٰالِمِينَ (١٥١) وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتّٰى إِذٰا فَشِلْتُمْ وَ تَنٰازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مٰا أَرٰاكُمْ مٰا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيٰا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفٰا عَنْكُمْ وَ اللّٰهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لاٰ تَلْوُونَ عَلىٰ أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرٰاكُمْ فَأَثٰابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاٰ تَحْزَنُوا عَلىٰ مٰا فٰاتَكُمْ وَ لاٰ مٰا أَصٰابَكُمْ وَ اللّٰهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعٰاساً يَغْشىٰ طٰائِفَةً مِنْكُمْ وَ طٰائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّٰهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجٰاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنٰا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّٰهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مٰا لاٰ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كٰانَ لَنٰا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مٰا قُتِلْنٰا هٰاهُنٰا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلىٰ مَضٰاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللّٰهُ مٰا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مٰا فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعٰانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطٰانُ بِبَعْضِ مٰا كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللّٰهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

بیان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا الى آخر الآيتين؛لا يبعد أن يستفاد من السياق أن الكفار كانوا أيام نزول الآيات بعد غزوه أحد يلقون الى المؤمنين-فی صوره النصح-ما يثبطهم عن القتال،و يلقى التنازع و التفرقه و تشتت الكلمه و اختلافها بينهم،و ربما أيده ما فى آخر هذه الآيات من قوله: اَلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ «الى أن قال»: ذٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ الآيات(۱۷۳-۱۷۵).

و ربما قيل:إن الآيه إشاره الى قوله اليهود و المنافقين يوم أحد:«إن محمدا قد قتل فارجعوا الى عشائركم»؛و ليس بشیء.

ثم لما بين أن إطاعتهم للذين كفروا و الميل الى ولايتهم يهديهم الى الخسران الذى هو رجوعهم الى أعقابهم كافرين أضرب عنه بقوله: بَلِ اللّٰهُ مَوْلاٰكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النّٰاصِرِينَ .

قوله تعالى: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمٰا أَشْرَكُوا بِاللّٰهِ الخ؛وعد جميل للمؤمنين بأنهم سينصرون بالرعب،و لقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يذكره فيما حباه اللّه تعالى و خصه به من بين الأنبياء على ما رواه الفريقان.

و قوله: بِمٰا أَشْرَكُوا ،معناه:اتخذوا له ما ليس معه برهان شريكا،و مما يكرره القرآن أن ليس لإثبات الشريک للّه سلطان،و من إثبات الشريک نفى الصانع و إسناد التأثير و التدبير الى غيره كالدهر و الماده.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ الى آخر الآيه الحس

-بالفتح-:القتل علی وجه الاستیصال.

و لقد اتفقت الروایات و ضبطه التاریخ فی قصه غزوه أحد أن المؤمنین غلبوهم و ظهروا علیهم فی أول الأمر و وضعوا فیهم السیوف و شرعوا فی نهب أموالهم حتی اذا خلی الرماه مکانهم فی المکمن حمل خالد بن الولید فیمن معه علی عبد اللّه بن جبیر و من بقی معه من الرماه فقتلوهم،و حملوا علی المؤمنین من ورائهم،و تراجع المشرکون عن هزیمتهم و وضعوا السیوف فی أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قتلوا منهم سبعین ثم هزموهم أشد هزیمه.

فقوله تعالی: وَ لَقَدْ صَدَقَکُمُ اللّٰهُ وَعْدَهُ ،تثبیت صدق وعده بالنصر بشرط التقوی و الصبر؛ و قوله: إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ،یقبل الانطباق علی ما رزقهم فی أول الأمر من الظهور علی عدوهم یوم أحد،و قوله: حَتّٰی إِذٰا فَشِلْتُمْ وَ تَنٰازَعْتُمْ فِی الْأَمْرِ وَ عَصَیْتُمْ مِنْ بَعْدِ مٰا أَرٰاکُمْ مٰا تُحِبُّونَ ، ینطبق علی ما صنعه الرماه حیث تنازعوا فیما بینهم فی ترک مراکزهم و اللحوق بمن مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لنیل الغنیمه ففشلوا و تنازعوا فی الأمر و عصوا أمر النبی بأن لا یترکوا مراکزهم علی أی حال،و علی هذا فلا بد من تفسیر الفشل بضعف الرأی،و أما کونه بمعنی الجبن فلا ینطبق علیهم اذ لم یکن ذلک منهم جبنا بل طمعا فی الغنیمه،و لو کان الفشل بمعنی الجبن کان منطبقا علی حال جمیع القوم و یکون علی هذا «ثُمَّ» فی قوله: ثُمَّ صَرَفَکُمْ ،مفید للتراخی الرتبی دون الزمانی.

و یدل لفظ التنازع علی أن الکل لم یکونوا مجمعین علی الفشل و المعصیه بل کان بعضهم یصر علی الإطاعه و البقاء علی الائتمار و لذا قال تعالی بعده:منکم من یرید الدنیا و منکم من یرید الآخره.

قوله تعالی: ثُمَّ صَرَفَکُمْ عَنْهُمْ لِیَبْتَلِیَکُمْ ،أی کفکم عن المشرکین بعد ظهور الفشل و التنازع و المعصیه،و بالجمله بعد وقوع الاختلاف بینکم لیمتحنکم و یختبر إیمانکم و صبرکم فی اللّه اذ الاختلاف فی القلوب هو أقوی العوامل المقتضیه لبسط الابتلاء لیتمیز

المؤمن من المنافق،و المؤمن الراسخ فی إیمانه الثابت علی عزیمته من المتلون السریع الزوال، و مع ذلک فإن اللّه سبحانه عفا عنهم بفضله کما قال:و لقد عفا عنکم.

قوله تعالی: إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لاٰ تَلْوُونَ عَلیٰ أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ یَدْعُوکُمْ فِی أُخْرٰاکُمْ الإصعاد هو الذهاب و الإبعاد فی الأرض بخلاف الصعود فهو الارتقاء الی مکان عال یقال:أصعد فی جانب البر أی ذهب فیه بعیدا،و صعد فی السلم أی ارتقی،و قیل:إن الإصعاد ربما استعمل بمعنی الصعود.

و الظرف متعلق بمقدر أی اذکروا اذ تصعدون،أو بقوله: صَرَفَکُمْ ،أو بقوله لِیَبْتَلِیَکُمْ ، -علی ما قیل-و قوله: وَ لاٰ تَلْوُونَ ،من اللی بمعنی الالتفات و المل قال فی المجمع:و لا یستعمل إلاّ فی النفی لا یقال:لویت علی کذا،انتهی.

و قوله: وَ الرَّسُولُ یَدْعُوکُمْ فِی أُخْرٰاکُمْ ،الاخری مقابل الاولی و کون الرسول یدعو و هو فی أخراهم یدل علی أنهم تفرقوا عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هم سواد ممتد علی طوائف أولیهم مبتعدون عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أخراهم بقرب منه،و هو یدعوهم من غیر أن یلتفت الیه لا اولاهم و لا أخراهم فترکوه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بین جموع المشرکین و هم یصعدون فرارا من القتل.

نعم قوله تعالی قبیل هذا:و سیجزی اللّه الشاکرین-و قد مر تفسیره-یدل علی أن منهم من لم یتزلزل فی عزیمته و لم ینهزم لا فی أول الانهزام،و لا بعد شیوع خبر قتل النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی ما یدل علیه قوله: أَ فَإِنْ مٰاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ ،الآیه.

و مما یدل علیه قوله: وَ لاٰ تَلْوُونَ عَلیٰ أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ یَدْعُوکُمْ فِی أُخْرٰاکُمْ أن خبر قتل النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إنما انتشر بینهم بعد انهزامهم و إصعادهم.

قوله تعالی: فَأَثٰابَکُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِکَیْلاٰ تَحْزَنُوا عَلیٰ مٰا فٰاتَکُمْ وَ لاٰ مٰا أَصٰابَکُمْ الخ؛أی جازاکم غما بغم لیصرفکم عن لحزن علی کذا،و هذا الغم الذی اثیبوا به کیفما کان هو نعمه منه تعالی بدلیل قوله: لِکَیْلاٰ تَحْزَنُوا عَلیٰ مٰا فٰاتَکُمْ وَ لاٰ مٰا أَصٰابَکُمْ ،فإن اللّه

تعالی ذم فی کتابه هذا الحزن کما قال: لِکَیْلاٰ تَأْسَوْا عَلیٰ مٰا فٰاتَکَمْ (الحدید/۲۳)فهذا الغم الذی یصرفهم عن ذاک الحزن المذموم نعمه و موهبه فیکون هو الغم الطاری علیهم من جهه الندامه علی ما وقع منهم و التحسر علی ما فاتهم من النصر بسبب الفشل،و یکون حینئذ الغم الثانی فی قوله: بِغَمٍّ ،الغم الآتی من قبل الحزن المذکور،و الباء للبدلیه،و المعنی:جازاکم غما بالندامه و الحسره علی فوت النصر بدل غم بالحزن علی ما فاتکم و ما أصابکم.

و من الجائز أن یکون قوله: فَأَثٰابَکُمْ مضمنا معنی الإبدال فیکون المعنی:فأبدلکم غم الحزن من غم الندامه و الحسره مثیبا لکم،فینعکس المعنی فی الغمین بالنسبه الی المعنی السابق.

و علی کل من المعنیین یکون قوله: فَأَثٰابَکُمْ ،تفریعا علی قوله: وَ لَقَدْ عَفٰا عَنْکُمْ ،و یتصل به ما بعده أعنی قوله: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَیْکُمْ ،أحسن اتصال،و الترتیب:أنه عفا عنکم فأثابکم غما بغم لیصونکم عن الحزن الذی لا یرتضیه لکم ثم أنزل علیکم من بعد الغم امنه نعاسا.

و هاهنا وجه آخر یساعده ظهور السیاق فی تفریع قوله: فَأَثٰابَکُمْ ،علی ما یتصل به بمعنی أن یکون الغم هو ما یتضمنه قوله: إِذْ تُصْعِدُونَ ،و المراد بقوله: بِغَمٍّ هو ما أدی الیه التنازع و المعصیه و هو إشراف المشرکین علیهم من ورائهم،و الباء للسببیه و هذا معنی حسن، و علی هذا یکون المراد بقوله: لِکَیْلاٰ تَحْزَنُوا ،الخ؛نبین لکم حقیقه الأمر لئلا تحزنوا،کما فی قوله تعالی: مٰا أَصٰابَ مِنْ مُصِیبَهٍ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ فِی أَنْفُسِکُمْ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهٰا إِنَّ ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ یَسِیرٌ لِکَیْلاٰ تَأْسَوْا عَلیٰ مٰا فٰاتَکُمْ وَ لاٰ تَفْرَحُوا بِمٰا آتٰاکُمْ الآیه (الحدید/۲۳).

فهذا ما یستقیم به نظم الآیه و اتساق الجمل المتعاقبه،و للمفسرین احتمالات کثیره فی الآیه من حیث ما عطف علیه قوله: فَأَثٰابَکُمْ ،و من حیث معنی الغم الأول و الثانی و معنی الباء و معنی قوله: لِکَیْلاٰ ،لیست من الاستقامه علی شیء،و لا جدوی فی نقلها و البحث عنها.

و على ما احتملناه من أحد معنيين يكون المراد مما فات فى قوله: لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ هو الغلبه و الغنيمه،و مما أصاب ما أصاب القوم من القتل و الجرح.

قوله تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ الأمنه بالتحريك الأمن،و النعاس ما يتقدم النوم من الفتور و هو نوم خفيف،و نعاسا بدل من أمنه للملازمه عاده،و ربما احتمل أن يكون أمنه جمع آمن كطالب و طلبه،و هو حينئذ حال من ضمير عليكم،و نعاسا مفعول قوله: أَنْزَلَ ،و الغشيان:الإحاطه.

و الآيه تدل على أن هذا النعاس النازل إنما غشى طائفه من القوم،و لم يعم الجميع بدليل قوله: طَائِفَةً مِنْكُمْ ،و هؤلاء هم الذين رجعوا الى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد الانهزام و الإصعاد لما ندموا و تحسروا،و حاشا أن يعفو اللّه عنهم عفو رحمه و هم فى حال الفرار عن الزحف و هو من كبائر المعاصى و الآثام و قد قال:و لقد عفا عنكم و اللّه ذو فضل على المؤمنين،و حاشا أن تشمل عنايته تعالى على مقترف الفحشاء و المنكر حين يقترف من قبل أن يتوب و قد عنى فى حقهم حين أثابهم غما بغم لكيلا يحزنوا فيتقذر قلوبهم بما لا يرتضيه اللّه سبحانه على ما مر بيانه.

فهؤلاء بعض القوم و هم النادمون على ما فعلوا الراجعون الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المحتفون به، و كأن ذلك إنما كان حين فارق صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جموع المشركين و عاد الى الشعب،و إن كان عودهم اليه تدريجا بعد العلم بأنه لم يقتل.

و أما البعض الآخر من القوم فهم الذين يذكرهم اللّه بقوله: وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ .

قوله تعالى: وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ هذه طائفه اخرى من المؤمنين و نعنى بكونهم من المؤمنين أنهم غير المنافقين الذين ذكرهم اللّه أخيرا بقوله: وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ ،الآيه؛و هم الذين فارقوا جماعه المؤمنين من أول الأمر قبل القتال و اتخذوا فهؤلاء المنافقون لهم شأن آخر سينبىء

اللّه بذلك.

و هؤلاء الطائفه الثانيه الموصوفون بأنهم قد أهمتهم أنفسهم لم يكرمهم اللّه بما أكرم به الطائفه الاولى من العفو و إثابه الغم ثم الأمنه و النعاس بل وكلهم الى أنفسهم فأهمتهم أنفسهم و نسوا كل شيء دونها.

و قد ذكر اللّه تعالى من أوصافهم وصفين اثنين و إن كان أحدهما من لوازم الآخر و فروعه، فذكر أنهم أهمتهم أنفسهم؛و ليس معناه أنهم يريدون سعاده أنفسهم بمعناها الحقيقى فإن المؤمنين أيضا لا يريدون إلاّ سعاده أنفسهم فالإنسان بل كل ذى همامه و إراده لا يريد إلاّ نفسه البته،بل المراد:أن ليس لهم هم إلاّ حفظ حياتهم الدنيا و عدم الوقوع فى شبكه القتل فهم لا يريدون بدين أو غيره إلاّ إمتاع أنفسهم فى الدنيا و إنما ينتحلون بالدين ظنا منهم أنه عامل غير مغلوب،و أن اللّه لا يرضى بظهور أعدائه عليه،و إن كانت الأسباب الظاهريه لهم فهؤلاء يستدرون الدين ما در لهم،و إن انقلب الأمر و لم يسعدهم الجد انقلبوا على أعقابهم القهقرى.

قوله تعالى: يَظُنُّونَ بِاللّٰهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجٰاهِلِيَّةِ الى قوله: «لِلّٰهِ» أى ظنوا باللّه أمرا ليس بحق بل هو من ظنون الجاهليه فهم يصفونه بوصف ليس بحق بل من الأوصاف التى كان يصفه بها أهل الجاهليه،و هذا الظن أيا ما كان هو شيء يناسبه و يلازمه قولهم:هل لنا من الأمر من شيء،و يكشف عنه ما أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يجيبهم به،و هو قوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّٰهِ فظاهر هذا الجواب أنهم كانوا يظنون أن بعض الأمر لهم و لذا لما غلبوا و فشا فيهم القتل تشككوا فقالوا:هل لنا من الأمر من شيء.

و بذلك يظهر أن الأمر الذى كانوا يرونه لأنفسهم هو الظهور و الغلبه،و إنما كانوا يظنونه لأنفسهم من جهه إسلامهم فهم قد كانوا يظنون أن الدين الحق لا يغلب و لا يغلب المتدين به لما أن على اللّه أن ينصره من غير قيد و شرط و قد وعدهم به.

و هـذا هو الظن بغير الحق،الذی هو ظن الجاهليه فإن وثنيه الجاهليه كانت تعتقد أن اللّه تعالی خالق كل شـیء و أن لكل صـنف من أصـناف الحـوادث كـالرزق و الحيـاه و الموت و العشق و الحرب و غيرهـا،و كـذا لكـل نوع من الأـنواع الكونيه كالإنسـان و الأـرض و البحـار و غيرهـا ربـا يـدبر أمرهـا لاـ يغلب علی إرادته،و كانوا يعبـدون هؤلاء الأرباب ليـدروا لهم الرزق،و يجلبوا لهم السـعاده،و يقوهم من الشـرور و البلايا،و اللّه سبحانه كالملک العظيم يفوض كل صنف من أصناف رعيته و كل شطر من أشطار ملكه الی وال تام الاختيار له أن يفعل ما يشاؤه فی منطقه نفوذه و حوزه ولايته.

و اذا ظن الظان أن الدين الحق لا يصير مغلوبا فی ظاهر تقدمه و النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم-و هو أول من يتحمله من ربه و يحمـل أثقـاله-لا يقهر فی ظاهر دعوته أو أنه لا يقتل أو لا يموت فقـد ظن باللّه غير الحق ظن الجاهليه فاتخـذ للّه أنـدادا،و جعل النبی صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم ربا وثنيا مفوضا اليه أمر الغلبه و الغنيمه،مع أن اللّه سـبحانه واحـد لا شـريک له،اليه يرجع الأمر كله و ليس لأحـد من الأـمر شـیء،و لـذلک لما قال تعالی فيما تقـدم من الآيات:ليقطع طرفا من الـذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين،قطع الكلام بالاعتراض فقال-يخاطب نبيه-:ليس لک من الأمر شـیء لئلا يتوهم أن له صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم دخلا فی قطع أو كبت،و اللّه سـبحانه هو الذی وضع سـنه الأسـباب و المسـببات،فما كان سببه أقوی كان وقوعه أرجح سواء فی ذلک الحق و الباطل،و الخير و الشـر،و الهدايه و الضـلاله،و العدل و الظلم؛و لا فرق فيه بين المؤمن و الكافر،و المحبوب و المبغوض،و محمد و أبی سفيان.

نعم للّه سبحانه عنايه خاصه بدينه و بأوليائه يجری نظام الكون بسببها جريا ينجر الی ظهور الدين و تمهد الأرض لأوليائه و العاقبه للمتقين.

و أمر النبوه و الدعوه ليس بمسـتثنی من هذه السـنه الجاريه،و لذلک كلما توافقت الأسـباب العاديه علی تقدم هذا الدين و ظهور المؤمنين كبعض غزوات النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم كان ذلک،و حيث لم

يتوافق الأسباب كتحقق نفاق أو معصيه الأمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو فشل أو جزع كانت الغلبه و الظهور للمشركين على المؤمنين،و كذلك الحال فى أمر سائر الأنبياء مع الناس فإن أعداد الأنبياء لكونهم أهل الدنيا،و قصرهم مساعيهم فى عماره الدنيا،و بسط القدره،و تشديد القوه،و جمع الجموع كانت الغلبه الظاهريه و الظهور لهم على الأنبياء،فمن مقتول كزكريا، و مذبوح كيحيى،و مشرد كعيسى الى غير ذلك.

نعم اذا توقف ظهور الحق بحقانيته على انتقاض نظام العاده دون السنه الواقعيه و بعباره اخرى دار أمر الحق بين الحياه و الموت كان على اللّه سبحانه أن يقيم صلب الدين و لا يدعه تدحض حجته،و قد مر شطر من هذا البحث فى القول على الإعجاز فى الجزء الأول من الكتاب،و فى الكلام على أحكام الأعمال فى الجزء الثانى منه.

و لنرجع الى ما كنا فيه:فقول هؤلاء الطائفه الذين أهمتهم أنفسهم:هل لنا من الأمر من شیء،تشكك فى حقيه الدين و قد أدرجوا فى هيكله روح الوثنيه على ما مر بيانه،فأمر سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يجيبهم فقال:قل إن الأمر كله للّه،و قد خاطب نبيه قبل ذلك بقوله:

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فبين بذلك أن مله الفطره و دين التوحيد هو الذى لا يملك فيه الأمر إلاّ اللّه جل شأنه،و باقى الأشياء و منها النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليست بمؤثره شيئا بل هى فى حيطه الأسباب و المسببات و السنه الإلهيه التى تؤدى الى جريان ناموس الابتلاء و الامتحان.

قوله تعالى: يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مٰا لاٰ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كٰانَ الخ، و هذا توصيف لهم بما هو أشد من قولهم:هل لنا من الأمر من شیء،فإنه كان تشكيكا فى صوره السؤال،و هذا أعنى قولهم:لو كان لنا من الأمر شیء ما قتلنا هاهنا ترجيح فى هيئه الاستدلال،و لذلك أبدوا قولهم الأول للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أخفوا قولهم الثانى لاشتماله على ترجيح الكفر على الإسلام.

فأمر اللّه تعالى نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يجيبهم فقال:قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم

القتل الى مضاجعهم و ليبتلى اللّه ما فى صدوركم و ليمحص ما فى قلوبكم،فبين لهم:

اولا-أن قتل من قتل منكم فى المعركه ليس لعدم كونكم على الحق،و عدم كون الأمر لكم على ما تزعمون بل لان القضاء الإلهى و هو الذى لا مناص من نفوذه و مضيه جرى على أن يضطجع هؤلاء المقتولون فى هذه المضاجع،فلو لم تكونوا خرجتم الى القتال لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم،فلا مفر من الأجل المسمى الذى لا تستأخرون عنه ساعه و لا تستقدمون.

و ثانيا:أن سنه اللّه جرت على عموم الابتلاء و التمحيص و هى واقعه بهم و بكم لا محاله، فلم يكن بد من خروجكم و وقوع هذا القتال حتى يحل المقتولون محلهم و ينالوا درجاتهم، و تحلوا أنتم محلكم فيتعين لكم أحد جانبى السعاده و الشقاوه بامتحان ما فى صدوركم من الأفكار،و تخليص ما فى قلوبكم من الإيمان و الشرك.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعٰانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطٰانُ بِبَعْضِ مٰا كَسَبُوا استزلال الشيطان إياهم إرادته وقوعهم فى الزله،و لم يرد ذلك منهم إلاّ بسبب بعض ما كسبوا فى نفوسهم و من أعمالهم فإن السيئات يهدى بعضها الى بعض فإنها مبنيه على متابعه هوى النفس،و هو النفس للشىء هو لما يشاكله.

و أما احتمال كون الباء للآله و كون ما كسبوا عين توليهم يوم الالتقاء فبعيد من ظاهر اللفظ فإن ظاهر «مٰا كَسَبُوا» تقدم الكسب على التولى و الاستزلال.

و كيف كان فظاهر الآيه أن بعض ما قدموا من الذنوب و الآثام مكّن الشيطان أن أغواهم بالتولى و الفرار،و من هنا يظهر أن احتمال كون الآيه ناظره الى نداء الشيطان يوم أحد بقتل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على ما فى بعض الروايات ليس بشىء اذ لا دلاله عليه من جهه اللفظ.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ عَفَا اللّٰهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ هذا العفو هو عن الذين تولوا،المذكورين فى صدر الآيه،و الآيه مطلقه تشمل جميع من تولى يومئذ فتعم الطائفتين

جميعا أعنى الطائفه التى غشيهم النعاس و الطائفه التى أهمتهم أنفسهم،و الطائفتان مختلفتان بالتكرم بإكرام اللّه و عدمه،و لكونهما مختلفتين لم يذكر مع هذا العفو الشامل لهما معا جهات الإكرام التى اشتمل عليها العفو المتعلق بالطائفه الاولى على ما تقدم بيانه.

و من هنا يظهر أن هذا العفو المذكور فى هذه الآيه غير العفو المذكور فى قوله: وَ لَقَدْ عَفٰا عَنْكُمْ ،و من الدليل على اختلاف العفوين ما فى الآيتين من اختلاف اللحن ففرق واضح بين قوله تعالى: وَ لَقَدْ عَفٰا عَنْكُمْ وَ اللّٰهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حيث إنه كلام مشعر بالفضل و الرأفه و قد سماهم مؤمنين ثم ذكر إثابتهم غما بغم لكيلا يحزنوا ثم إنزاله عليهم أمنه نعاسا،و بين قوله تعالى:و لقد عفا اللّه عنهم إن اللّه غفور حليم حيث ذكر العفو و سكت عن جميع ما أكرم الطائفه الاولى به ثم ختم الكلام بذكر حلمه و هو أن لا يعجل فى العقوبه و العفو الذى مع الحلم إغماض مع استبطان سخط.

فان قلت:إنما سوى بين الطائفتين من سوى بينهما لمكان ورود العفو عنهما جميعا.

قلت:معنى العفو مختلف فى الموردين بحسب المصداق و إن صدق على الجميع مفهوم العفو على حد سواء،و لا دليل على كون العفو و المغفره و ما يشابههما فى جميع الموارد سنخا واحدا، و قد بينا وجه الاختلاف (۱).

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۱۵۶ الى ۱۶۴]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قٰالُوا لِإِخْوٰانِهِمْ إِذٰا ضَرَبُوا فِي اَلْأَرْضِ أَوْ كٰانُوا غُزًّى لَوْ كٰانُوا عِنْدَنٰا مٰا مٰاتُوا وَ مٰا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اَللّٰهُ ذٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَ اَللّٰهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۵۶) وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اَللّٰهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ (۱۵۷) وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اَللّٰهِ تُحْشَرُونَ (۱۵۸) فَبِمٰا رَحْمَةٍ مِنَ اَللّٰهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ اَلْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شٰاوِرْهُمْ فِي اَلْأَمْرِ فَإِذٰا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلْمُتَوَكِّلِينَ (۱۵۹) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اَللّٰهُ فَلاٰ غٰالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا اَلَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اَللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُؤْمِنُونَ (۱۶۰) وَ مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمٰا غَلَّ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ ثُمَّ تُوَفّٰى كُلُّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (۱۶۱) أَ فَمَنِ اِتَّبَعَ رِضْوٰانَ اَللّٰهِ كَمَنْ بٰاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اَللّٰهِ وَ مَأْوٰاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ اَلْمَصِيرُ (۱۶۲) هُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ بَصِيرٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ (۱۶۳) لَقَدْ مَنَّ اَللّٰهُ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيٰاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْحِكْمَةَ وَ إِنْ كٰانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۱۶۴)

۱- ۱) .آل عمران ۱۴۹-۱۵۵:بحث فى معنى العفو و المغفره فى القرآن.

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا الخ؛المراد بهؤلاء

الـذين كفروا ما هو ظاهر اللفظ أعنى الكافرين دون المنافقين-كما قيل-لأن النفاق بما هو نفاق ليس منشأ لهذا القول-و إن كان المنافقون يقولون ذلک-و إنما منشؤه الكفر فيجب أن ينسب الى الكافرين.

و الضـرب فى الأـرض كنـايه عن المسـافره،و غزى جمع غاز كطالب و طلب و ضارب و ضـرب،و قوله: لِيَجْعَلَ اللّٰهُ ذٰلِكَ حَسْرَةً ،أى ليعـذبهم بهـا فهو من قبيـل وضع المغيا موضع الغايه،و قوله: وَ اللّٰهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ ،بيان لحقيقه الأمر التى أخطأ فيها الكافرون القائلون:لو كانوا،و هذا الموت يشـمل الموت حتف الأنف و القتل كما هو مقتضـى إطلاق الموت وحده على ما تقدم،و قوله: وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فى موضع التعليل للنهى فى قوله: لاٰ تَكُونُوا ،الخ.

و قوله: مٰا مٰاتُوا وَ مٰا قُتِلُوا قـدم فيه الموت على القتل ليكون النشـر على ترتيب الف فى قوله: إِذٰا ضَـرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كٰانُوا غُزًّى ،و لأن الموت أمر جار على الطبع و العاده المألوفه بخلاف القتل فإنه أمر استثنائى فقدم ما هو المألوف على غيره.

و محصـل الآـيه نهى المؤمنين أن يكونوا كالكافرين فيقولوا لمن مات منهم فى خارج بلـده أو قومه،و فيمن قتل منهم فى غزاه:لو كانوا عنـدنا ما ماتوا و ما قتلوا فإن هـذا القول يسوق الإنسان الى عذاب قلبى و نقمه إلهيه و هو الحسـره الملقاه فى قلوبهم،مع أنه من الجهـل فـإن القرب و البعـد منهم ليس بمحيى و مميت بـل الإحيـاء و الإمـاته من الشـئون المختصه باللّه وحـده لا شـريک له فليتقوا اللّه و لا يكونوا مثلهم فإن اللّه بما يعملون بصير.

قوله تعـالى: وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيـلِ اللّٰهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ الظاهر أن المراد مما يجمعون هو المال و ما يلحق به الذى هو عمده البغيه فى الحياه الدنيا.

و قـد قـدم القتل هاهنا على الموت لأن القتل فى سبيل اللّه أقرب من المغفره بالنسـبه الى الموت فهذه النكته هى الموجبه لتقديم القتل على الموت،و لذلک عاد فى الآيه التاليه:و لئن

متم أو قتلتم لإلى اللّه تحشرون الى الترتيب الطبيعى بتقديم الموت على القتل لفقد هذه النكته الزائده.

قوله تعالى: فَبِمَا رَحْمَهٍ مِنَ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ الى آخر الآيه،الفظ هو الجافى القسى،و غلظ القلب كنايه عن عدم رقته و رأفته،و الانفضاض التفرق.

و فى الآيه التفات عن خطابهم الى خطاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و أصل المعنى:فقد لان لكم رسولنا برحمه منا،و لذلك أمرناه أن يعفو عنكم و يستغفر لكم و يشاوركم فى الأمر و أن يتوكل علينا اذا عزم.

و نكته الالتفات ما تقدم فى أول آيات الغزوه أن الكلام فيه شوب عتاب و توبيخ،و لذلك اشتمل على بعض الإعراض فى ما يناسبه من الموارد و منها هذا المورد الذى يتعرض فيه لبيان حال من أحوالهم لها مساس بالاعتراض على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإن تحزنهم لقتل منهم ربما دلهم على المناقشه فى فعل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و رميه بأنه أوردهم مورد القتل و الاستيصال، فأعرض اللّه تعالى عن مخاطبتهم و التفت الى نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فخاطبه بقوله: فَبِمَا رَحْمَهٍ مِنَ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ .

و الكلام متفرع على كلام آخر يدل عليه السياق،و التقدير:و اذا كان حالهم ما تراه من التشبه بالذين كفروا و التحسر على قتلاهم فبرحمه منا لنت لهم و إلاّ لانفضوا من حولك.و اللّه أعلم.

و قوله: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ إنما سيق ليكون إمضاء لسيرته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنه كذلك كان يفعل،و قد شاورهم فى أمر القتال قبيل يوم أحد،و فيه إشعار بأنه إنما يفعل ما يؤمر و اللّه سبحانه عن فعله راض.

و قد أمر اللّه تعالى نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يعفو عنهم فلا يرتب على فعالهم أثر المعصيه،و أن يستغفر فيسأل اللّه أن يغفر لهم-و هو تعالى فاعله لا محاله-و اللفظ و إن كان مطلقا لا يختص بالمورد

غیر أنه لا یشمل موارد الحدود الشرعیه و ما یناظرها و إلا لغی التشریع،علی أن تعقیبه بقوله: وَ شٰاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ لا یخلو عن الإشعار بأن هذین الأمرین إنما هما فی ظرف الولایه و تدبیر الامور العامه مما یجری فیه المشاوره معهم.

و قوله: فَإِذٰا عَزَمْتَ فَتَوَکَّلْ عَلَی اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ یُحِبُّ الْمُتَوَکِّلِینَ ،و اذا أحبک کان ولیا و ناصرا لک غیر خاذلک،و لذا عقب الآیه بهذا المعنی و دعا المؤمنین أیضا الی التوکل فقال:إن ینصرکم اللّه فلا غالب لکم و إن یخذلکم فمن ذا الذی ینصرکم من بعده ثم أمرهم بالتوکل بوضع سببه موضعه فقال:و علی اللّه فلیتوکل المؤمنون أی لإیمانهم باللّه الذی لا ناصر و لا معین إلاّ هو.

قوله تعالی: وَ مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَغُلَّ ،الغل هو الخیانه،قد مر فی قوله تعالی: مٰا کٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُؤْتِیَهُ اللّٰهُ الْکِتٰابَ (آل عمران۷۹/)،ان هذا السیاق معناه تنزیه ساحه النبی عن السوء و الفحشاء بطهارته،و المعنی:حاشا أن یغل و یخون النبی ربه أو الناس(و هو أیضا من الخیانه للّه)و الحال أن الخائن یلقی ربه بخیانته ثم توفّی نفسه ما کسبت.

ثم ذکر أن رمی النبی بالخیانه قیاس جائر مع الفارق فإنه متبع رضوان اللّه لا یعدو رضی ربه،و الخائن باء بسخط عظیم من اللّه و مأواه جهنم و بئس المصیر،و هذا هو المراد بقوله: أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰانَ اللّٰهِ کَمَنْ بٰاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللّٰهِ ،الآیه.

و یمکن أن یکون المراد به التعریض للمؤمنین بأن هذه الأحوال من التعرض لسخط اللّه، و اللّه یدعوکم بهذه المواعظ الی رضوانه،و ما هما سواء.

ثم ذکر أن هذه الطوائف من المتبعین لرضوان اللّه و البائین بسخط من اللّه درجات مختلفه، و اللّه بصیر بالأعمال فلا تزعموا أنه یفوته الحقیر من الخیر أو شر فتسامحوا فی اتباع رضوانه أو البوء بسخطه.

قوله تعالی: لَقَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ ،فی الآیه التفات آخر من خطاب

المؤمنین الی تنزیلهم منزله الغیبه،و قد مر الوجه العام فی هذه الموارد من الالتفات و الوجه الخاص بما هاهنا أن الآیه مسوقه سوق الامتنان و المنّ علی المؤمنین لصفه إیمانهم و لذا قیل:علی المؤمنین،و لا یفیده غیر الوصف حتی لو قیل:الذین آمنوا،لأن المشعر بالعلیه-علی ما قیل- هو الوصف أو أنه الکامل فی هذا الإشعار،و المعنی ظاهر.

و فی الآیه أبحاث أخر سیأتی شطر منها فی المواضع المناسبه لها إن شاء اللّه العزیز.

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۶۵ الی ۱۷۱]

اشاره

أَ وَ لَمّا أَصابَتْکُمْ مُصِیبَهٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَیْها قُلْتُمْ أَنّی هٰذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِکُمْ إِنَّ اَللّٰهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۶۵) وَ مٰا أَصٰابَکُمْ یَوْمَ اِلْتَقَی اَلْجَمْعٰانِ فَبِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ لِیَعْلَمَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۶۶) وَ لِیَعْلَمَ اَلَّذِینَ نٰافَقُوا وَ قِیلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا قٰاتِلُوا فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ أَوِ اِدْفَعُوا قٰالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتٰالاً لاَتَّبَعْنٰاکُمْ هُمْ لِلْکُفْرِ یَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِیمٰانِ یَقُولُونَ بِأَفْوٰاهِهِمْ مٰا لَیْسَ فِی قُلُوبِهِمْ وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا یَکْتُمُونَ (۱۶۷) اَلَّذِینَ قٰالُوا لِإِخْوٰانِهِمْ وَ قَعَدُوا لَوْ أَطٰاعُونٰا مٰا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِکُمُ اَلْمَوْتَ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۱۶۸) وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ اَلَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ أَمْوٰاتاً بَلْ أَحْیٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ (۱۶۹) فَرِحِینَ بِمٰا آتٰاهُمُ اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ یَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِینَ لَمْ یَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاّٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ (۱۷۰) یَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَهٍ مِنَ اَللّٰهِ وَ فَضْلٍ وَ أَنَّ اَللّٰهَ لاٰ یُضِیعُ أَجْرَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۷۱)

ص: ۵۸۲

بيان:

قوله تعالى: أَ وَ لَمّٰا أَصٰابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهٰا ،لما نهاهم أن يكونوا كالذين كفروا فى التحزن لقتلاهم و التحسر عليهم ببيان أن أمر الحياه و الموت الى اللّه وحده لا إليهم حتى يدوروا مدار قربهم و بعدهم و خروجهم الى القتال أو قعودهم عنه رجع ثانيا الى بيان سببه القريب على ما جرت عليه سنه الأسباب،فبين أن سببه إنما هو المعصيه الواقعه يوم احد منهم و هو معصيه الرماه بتخليه مراكزهم،و معصيه من تولى منهم عن القتال بعد ذلک، و بالجمله سببه معصيتهم الرسول-و هو قائدهم-و فشلهم و تنازعهم فى الأمر و ذلک سبب للانهزام بحسب سنه الطبيعه و العاده.

فالآيه فى معنى قوله:أ تدرون من أين أَصٰابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهٰا؟ إنما أصابتكم من عند أنفسكم و هو إفسادكم سبب الفتح و الظفر بأيديكم و مخالفتكم قائدكم و فشلكم و اختلاف كلمتكم.

و قد وصفت المصيبه بقوله: قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهٰا و هو إشاره الى مقايسه ما أصابهم الكفار يوم أحد،و هو قتل سبعين رجلا منهم بما أصابوا الكفار يوم بدر و هو مثلا السبعين فإنهم قتلوا منهم يوم بدر سبعين رجلا و أسروا سبعين رجلا.

و فى هذا التوصيف تسكين لطيش قلوبهم و تحقير للمصيبه فإنهم اصيبوا من أعدائهم بنصف ما أصابوهم فلا ينبغى لهم أن يحزنوا أو يجزعوا.

و قيل:إن معنى الآيه:إنكم أنفسكم اخترتم هذه المصيبه،و ذلک أنهم اختاروا الفداء من

الأسری یوم بدر،و کان الحکم فیهم القتل،و شرط علیهم أنکم إن قبلتم الفداء قتل منکم فی القابل بعدتهم فقالوا:رضینا فإنا نأخذ الفداء و ننتفع به،و اذا قتل منا فیما بعد کنا شهداء.

و یؤید هذا الوجه بل یدل علیه ما ذیل به الآیه أعنی قوله: إِنَّ اللّٰهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ اذ لا تلائم هذه الفقره الوجه السابق البته إلّا بتعسف،و سیجیء روایته عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام فی البحث الروائی الآتی.

قوله تعالی: وَ مٰا أَصٰابَکُمْ یَوْمَ الْتَقَی الْجَمْعٰانِ الی آخر الآیتین؛الآیه الاولی تؤید ما تقدم أن المراد بقوله: قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِکُمْ ،اختیارهم الفداء من أسری یوم بدر، و شرطهم علی أنفسهم للّه ما شرطوا فإصابه هذه المصیبه بإذن اللّه،و أما الوجه الأول المذکور و هو أن المعنی أن سبب إصابه المصیبه القریب هو مخالفتکم فلا تلاؤم ظاهرا بینه و بین نسبه المصیبه الی إذن اللّه و هو ظاهر.

فعلی ما ذکرنا یکون ذکر استناد إصابه المصیبه الی إذن اللّه بمنزله البیان لقوله: هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِکُمْ ،و لیکون توطئه لانضمام قوله: وَ لِیَعْلَمَ الْمُؤْمِنِینَ ،و بانضمامه یتمهد الطریق للتعرض لحال المنافقین و ما تکلموا به و جوابه و بیان حقیقه هذا الموت الذی هو القتل فی سبیل اللّه.

و قوله: أَوِ ادْفَعُوا أی لو لم تقاتلوا فی سبیل اللّه فادفعوا عن حریمکم و أنفسکم و قوله: هُمْ لِلْکُفْرِ یَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِیمٰانِ ،اللام بمعنی الی فهذا حالهم بالنسبه الی الکفر الصریح،و أما النفاق فقد واقعوه بفعلهم ذلک.

و قوله: «یَقُولُونَ بِأَفْوٰاهِهِمْ مٰا لَیْسَ فِی قُلُوبِهِمْ» ،ذکر الأفواه للتأکید،و للتقابل بینها و بین القلوب.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ قٰالُوا لِإِخْوٰانِهِمْ وَ قَعَدُوا لَوْ أَطٰاعُونٰا مٰا قُتِلُوا ،المراد بإخوانهم إخوانهم فی النسب و هم القتلی،و إنما ذکر اخوتهم لهم لیکون مع انضمام قوله: وَ قَعَدُوا

أوقع تعيير و تأنيب عليهم فإنهم قعدوا عن إمداد إخوانهم حتى أصابهم ما أصابهم من القتل الذريع،و قوله: قُلْ فَادْرَؤُا جواب عن قولهم ذاك؛و الدرء:الدفع.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أَمْوٰاتاً الآيه؛فى الآيه التفات عن خطاب المؤمنين الى خطاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و الوجه فيه ما تكرر ذكره فى تضاعيف هذه الآيات،و يحتمل أن يكون الخطاب تتمه الخطاب فى قوله: قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ .

و المراد بالموت بطلان الشعور و الفعل،و لذا ذكرهما فى قوله: بَلْ أَحْيٰاءٌ ،الخ؛حيث ذكر الارتزاق و هو فعل،و الفرح الاستبشار و معهما شعور.

قوله تعالى: فَرِحِينَ بِمٰا آتٰاهُمُ اللّٰهُ الآيه؛الفرح ضد الحزن،و البشاره و البشرى ما يسرك من الخبر و الاستبشار طلب السرور بالبشرى،و المعنى:أنهم فرحون بما وجدوه من الفضل الالهى الحاضر المشهود عندهم،و يطلبون السرور بما يأتيهم من البشرى بحسن حال من لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم و لا هم يحزنون.

من ذلك يظهر أولا أن هؤلاء المقتولين فى سبيل اللّه يأتيهم و يتصل بهم أخبار خيار المؤمنين الباقين بعدهم فى الدنيا.

و ثانيا أن هذه البشرى هى ثواب أعمال المؤمنين و هو أن لا خوف عليهم و لا هم يحزنون و ليس ذلك إلاّ بمشاهدتهم هذا الثواب فى دارهم التى هم فيها مقيمون فإنما شأنهم المشاهده دون الاستدلال ففى الآيه دلاله على بقاء الإنسان بعد الموت ما بينه و بين يوم القيامه،و قد فصلنا القول فيه فى الكلام على نشأه البرزخ فى ذيل قوله تعالى: وَ لاٰ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أَمْوٰاتٌ الآيه(البقره/۱۵۴).

قوله تعالى: يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللّٰهِ وَ فَضْلٍ الآيه؛هذا الاستبشار أعم من الاستبشار بحال غيرهم و بحار أنفسهم و الدليل عليه قوله: وَ أَنَّ اللّٰهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ،

فإنه بإطلاقه شامل للجميع،و لعل هذه هى النكته فى تكرار الاستبشار و كذا تكرار الفضل فتدبر فى الآيه.

و قد نكر الفضل و النعمه و أبهم الرزق فى الآيات ليذهب ذهن السامع فيها كل مذهب ممكن؛و لذا أبهم الخوف و الحزن ليدل فى سياق النفى على العموم.

و التدبر فى الآيات يعطى أنها فى صدد بيان أجر المؤمنين أولا،و أن هذه الأجر رزقهم عند اللّه سبحانه ثانيا،و أن هذا الرزق نعمه من اللّه و فضل ثالثا،و أن الذى يشخص هذه النعمه و الفضل هو أنهم لا خوف عليهم و لا هم يحزنون رابعا.

و هذه الجمله أعنى قوله: أَلاّٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ كلمه عجيبه كلما أمعنت فى تدبرها زاد فى اتساع معناها على لطف ورقه و سهوله بيان،و أول ما يلوح من معناها أن الخوف و الحزن مرفوعان عنهم،و الخوف إنما يكون من أمر ممكن محتمل يوجب انتفاء شىء من سعاده الإنسان التى يقدر نفسه واجده لها،و كذا الحزن إنما يكون من جهه أمر واقع يوجب ذلك؛فالبليه أو كل محذور إنما يخاف منها اذا لم يقع بعد فاذا وقعت زال الخوف و عرض الحزن فلا خوف بعد الوقوع و لا حزن قبله.

فارتفاع مطلق الخوف عن الإنسان إنما يكون اذا لم يكن ما عنده من وجوه النعم فى معرض الزوال،و ارتفاع مطلق الحزن إنما يتيسر له اذا لم يفقد شيئا من أنواع سعادته لا ابتداء و لا بعد الوجدان،فرفعه تعالى مطلق الخوف و الحزن عن الإنسان معناه أن يفيض عليه كل ما يمكنه أن يتنعم به و يستلذه،و أن لا يكون ذلك فى معرض الزوال،و هذا هو خلود السعاده للإنسان و خلوده فيها.

و من هنا يتضح أن نفى الخوف و الحزن هو بعينه ارتزاق الإنسان عند اللّه فهو سبحانه يقول: وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ (آل عمران١٩٨/)،و يقول وَ مٰا عِنْدَ اللّهِ بٰاقٍ (النحل/ ٩۶)فالآيتان تدلان على أن ما عند اللّه نعمه باقيه لا يشوبها نقمه و لا يعرضها فناء.

و يتضح أيضا أن نفيهما هو بعينها هو بعينه إثبات النعمه و الفضل و هو العطيه لكن تقدم فى أوائل الكتاب و سيجىء فى قوله تعالى: مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ (النساء/۶۹)،أن النعمه اذا اطلقت فى عرف القرآن فهى الولايه الإلهيه،و على ذلك فالمعنى:أن اللّه يتولى أمرهم و يخصهم بعطيه منه.

و أما احتمال أن يكون المراد بالفضل الموهبه الزائده على استحقاقهم بالعمل،و النعمه ما بحذائه فلا يلائمه قوله: وَ أَنَّ اللّهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ فإن الأجر يؤذن بالاستحقاق،و قد عرفت أن هذه الفقرات أعنى قوله: عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ و قوله: فَرِحِينَ بِمٰا ،الخ؛و قوله: وَ أَنَّ اللّهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ مآلها الى حقيقه واحده.

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۱۷۲ الى ۱۷۵]

اشاره

اَلَّذِينَ اسْتَجٰابُوا لِلّهِ وَ اَلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مٰا أَصٰابَهُمُ اَلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اِتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (۱۷۲) اَلَّذِينَ قٰالَ لَهُمُ اَلنّٰاسُ إِنَّ اَلنّٰاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزٰادَهُمْ إِيمٰاناً وَ قٰالُوا حَسْبُنَا اَللّهُ وَ نِعْمَ اَلْوَكِيلُ (۱۷۳) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَهٍ مِنَ اَللّهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اِتَّبَعُوا رِضْوٰانَ اَللّهِ وَ اَللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (۱۷۴) إِنَّمٰا ذٰلِكُمُ اَلشَّيْطٰانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيٰاءَهُ فَلاٰ تَخٰافُوهُمْ وَ خٰافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷۵)

بيان:

قوله تعالى: اَلَّذِينَ اسْتَجٰابُوا لِلّهِ وَ الرَّسُولِ الآيه؛الاستجابه و الإجابه بمعنى

واحد-كما قيل-و هى أن تسأل شيئا فتجاب بالقبول.

و لعل ذكر اللّه و الرسول مع جواز الاكتفاء فى المقام بـذكر أحد اللفظين إنما هو لكونهم فى وقعه أحد عصوا اللّه و الرسول،فأما هو تعالى فقـد عصوه بالفرار و التولى و قد نهاهم اللّه عنه و أمر بالجهاد،و أما الرسول فقد عصوه بمخالفه أمره الذى أصدره على الرماه بلزوم مراكزهم و حين كانوا يصـعدون و هو يدعوهم فى أخراهم فلم يجيبوا دعوته،فلما استجابوا فى هذه الوقعه وضع فيها بحذاء تلك الوقعه استجابتهم للّه و الرسول.

و قوله: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ،قصر الوعد على بعض أفراد المستجيبين لأن الاستجابه فعل ظاهرى لا يلازم حقيقه الإحسان و التقوى الـذين عليهما مـدار الأجر العظيم،و هـذا من عجيب مراقبه القرآن فى بيانه حيث لا يشـغله شأن عن شأن،و من هنـا يتبين أن هؤلاـء الجمـاعه مـا كـانوا خالصـين للّه فى أمره بل كان فيهم من لم يكن محسـنا متقيا يسـتحق عظيم الأجر من اللّه سبحـانه؛و ربما يقال:إن«من»فى قوله: «مِنْهُمْ» بيانيه كما قيل مثله فى قوله تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَى الْكُفّارِ -الى أن قال-: وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (الفتح/۲۹)،و هو تأول بما يدفعه السياق.

و يتبين أيضـا أن مـا يمـدحهم به اللّه سـبحانه فى قوله: اَلَّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ ،إلى آخر الآيات؛ من قبيل وصف البعض المنسوب إلى الكل بعنايه لفظيه.

قوله تعـالى: اَلَّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ الآيه؛الناس هو الأفراد من الإنسان من حيث عـدم أخـذ ما يتميز به بعضـهم من بعض،و النـاس الأـول غير الثـانى،فإن الثانى هو العـدو الـذى كان يجمع الجموع،و أما الأول فهم الخاذلون المثبطون الذى كانوا يقولون ما يقولون ليخذلوا المؤمنين عن الخروج إلى قتال المشـركين،فالناس الثانى اريد به المشركون،و الناس الأول أيديهم على المؤمنين و عيونهم فيهم،و ظاهر الآيه كونهم عده

و جماعه لا واحدا،و هذا یؤید کون الآیات نازله فی قصه خروج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیمن بقی من أصحابه بعد أحد فی أثر المشرکین دون قصه بدر الصغری،و سیجیء القصتان فی البحث الروائی الآتی.

و قوله: قَدْ جَمَعُوا لَکُمْ ،أی جمعوا جموعهم لقتالکم ثانیا(و اللّه أعلم).

و قوله: فَزٰادَهُمْ إِیمٰاناً ،و ذلک لما فی طبع الإنسان أنه إذا نهی عما یریده و یعزم علیه،فإن لم یحسن الظن بمن ینهاه کان ذلک إغراء فأوجب انتباه قواه و اشتدت بذلک عزیمته،و کلما أصر علیه بالمنع أصر علی المضی علی ما یریده و یقصده،و هذا إذا کان الممنوع یری نفسه محقا معذورا فی فعاله أشد تأثیرا من غیره،و لذا کان المؤمنون کلما لامهم فی أمر اللّه لائم أو منعهم مانع زادوا قوه فی إیمانهم و شده فی عزمهم و بأسهم.

و یمکن أن یکون زیاده إیمانهم لتأیید أمثال هذه الأخبار ما عندهم من خبر الوحی أنهم سیؤذون فی جنب اللّه حتی یتم أمرهم بإذن اللّه و قد وعدهم النصر و لا یکون نصر إلاّ فی نزال و قتال.

و قوله: وَ قٰالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ وَ نِعْمَ الْوَکِیلُ أی کافینا اللّه و أصل الحسب من الحساب لأن الکفایه بحساب الحاجه،و هذا اکتفاء باللّه بحسب الإیمان دون الأسباب الخارجیه الجاریه فی السنه الإلهیه و الوکیل هو الذی یدبر الأمر عن الانسان،فمضمون الآیه یرجع الی معنی قوله:

وَ مَنْ یَتَوَکَّلْ عَلَی اللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ (الطلاق۳/)،و لذلک عقب قوله:

وَ قٰالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ وَ نِعْمَ الْوَکِیلُ بقوله: فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَهٍ مِنَ اللّٰهِ وَ فَضْلٍ لَمْ یَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ،الخ؛ لیکون تصدیقا لوعده تعالی،ثم حمدهم إذ اتبعوا رضوانه فقال: وَ اتَّبَعُوا رِضْوٰانَ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ ذُو فَضْلٍ عَظِیمٍ (۱).

ص: ۵۸۹

۱- ۱) .آل عمران ۱۷۲-۱۷۵:کلام فی التوکل.

قوله تعالی: ذٰلِکُمُ الشَّیْطٰانُ یُخَوِّفُ أَوْلِیٰاءَهُ الآیه؛ظاهر الآیه أن الإشاره إلی الناس الذین قالوا لهم ما قالوا،فیکون هذا من الموارد التی اطلق فیها القرآن الشیطان علی الإنسان کما یظهر ذلک من قوله: مِنْ شَرِّ الْوَسْوٰاسِ الْخَنّٰاسِ اَلَّذِی یُوَسْوِسُ فِی صُدُورِ النّٰاسِ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّٰاسِ (الناس۶/)،و یؤیده قوله تعالی بعد ذلک:فلا تخافوهم أی الناس القائلین لکم ما قالوا لأن ذلکم الشیطان؛و سنبحث فی هذا المعنی بما یکشف القناع عن وجه حقیقته إن شاء اللّه تعالی (۱).

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۷۶ الی ۱۸۰]

اشاره

وَ لاٰ یَحْزُنْکَ اَلَّذِینَ یُسٰارِعُونَ فِی اَلْکُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ یَضُرُّوا اَللّٰهَ شَیْئاً یُرِیدُ اَللّٰهُ أَلاّٰ یَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِی اَلْآخِرَهِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ (۱۷۶) إِنَّ اَلَّذِینَ اِشْتَرَوُا اَلْکُفْرَ بِالْإِیمٰانِ لَنْ یَضُرُّوا اَللّٰهَ شَیْئاً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۱۷۷) وَ لاٰ یَحْسَبَنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّمٰا نُمْلِی لَهُمْ خَیْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمٰا نُمْلِی لَهُمْ لِیَزْدٰادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِینٌ (۱۷۸) مٰا کٰانَ اَللّٰهُ لِیَذَرَ اَلْمُؤْمِنِینَ عَلیٰ مٰا أَنْتُمْ عَلَیْهِ حَتّٰی یَمِیزَ اَلْخَبِیثَ مِنَ اَلطَّیِّبِ وَ مٰا کٰانَ اَللّٰهُ لِیُطْلِعَکُمْ عَلَی اَلْغَیْبِ وَ لٰکِنَّ اَللّٰهَ یَجْتَبِی مِنْ رُسُلِهِ مَنْ یَشٰاءُ فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَکُمْ أَجْرٌ عَظِیمٌ (۱۷۹) وَ لاٰ یَحْسَبَنَّ اَلَّذِینَ یَبْخَلُونَ بِمٰا آتٰاهُمُ اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَیْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَیُطَوَّقُونَ مٰا بَخِلُوا بِهِ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ وَ لِلّٰهِ مِیرٰاثُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ (۱۸۰)

ص: ۵۹۰

۱- ۱) .آل عمران ۱۷۲-۱۷۵:بحث روائی حول:غزوه احد؛فهرس السماء شهداء المسلمین فی غزوه احد.

بیان:

قوله تعالی: وَ لاٰ یَحْزُنْکَ الَّذِینَ یُسٰارِعُونَ فِی الْکُفْرِ إلی آخر الآیه؛تسلیه و رفع للحزن ببیان حقیقه الأمر فإن مسارعتهم فی الکفر و تظاهرهم علی إطفاء نور اللّه و غلبتهم الظاهره أحیانا ربما أوجبت أن یحزن المؤمن کأنهم غلبوا اللّه سبحانه فی إراده إعلاء کلمه الحق لکنه إذا تدبر فی قضیه الامتحان العام استیقن أن اللّه هو الغالب و أنهم جمیعا واقعون فی سبیل الغایات یوجهون إلیها لیتم لهم الهدایه التکوینیه و التشریعیه إلی غایات أمرهم فالکافر یوجه به بواسطه إشباعه بالعافیه و النعمه و القدره-و هو الاستدراج و المکر الإلهی- إلی آخر ما یمکنه أن یرکبه من الطغیان و المعصیه،و المؤمن لاـ یزل یحک به محک الامتحان لیخلص ما فی باطنه من الإیمان المشوب بغیره،فیخلص للّه أو یخلص شرکه فیهبط فی مهبط غیره من أولیاء الطاغوت و أئمه الکفر.

فمعنی الآیه:لا یحزنک الذین یسرعون و لا یزال یشتد سرعتهم فی الکفر فإنک إن تحزن فإنما تحزن لما تظن أنهم یضرون اللّه بذلک و لیس کذلک فهم لا یضرون اللّه شیئا لأنهم مسخرون للّه یسلک بهم فی سیر حیاتهم إلی حیث لا یبقی لهم حظ فی الآخره(و هو آخر حدهم فی الکفر)و لهم عذاب ألیم فقوله: لاٰ یَحْزُنْکَ ،أمر إرشادی،و قوله: إِنَّهُمْ ،الخ؛تعلیل للنهی، و قوله: یُرِیدُ اللّٰهُ ،الخ؛تعلیل و بیان لعدم ضررهم.

ثم ذکر تعالی نفی ضرر جمیع الکافرین بالنسبه إلیه أعم من المسارعین فی الکفر و غیرهم، و هو کالبیان الکلی بعد البیان الجزئی یضح أن یعلل به النهی(لا یحزنک)و أن یعلل به علته

ص :۵۹۱

(إنهم لن يضروا،الخ)لأنه أعم يعلل به الأخص،و المعنى:و إنما قلنا إن هؤلاء المسارعين لا يضرون اللّه شيئا لأن الكافرين جميعا لا يضرونه شيئا.

قوله تعالى: وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ،لما طيب نفس نبيه فى مسارعه الكفار فى كفرهم أن ذلك فى الحقيقه تسخير إلهى لهم لينساقوا إلى حيث لا يبقى لهم حظ فى الآخره عطف الكلام إلى الكفار أنفسهم،فبين أنه لا ينبغى لهم أن يفرحوا بما يجدونه من الإملاء و الإمهال الإلهى فإن ذلك سوق لهم بالاستدراج إلى زياده الإثم،و وراء ذلك عذاب مهين ليس معه إلا الهوان،كل ذلك بمقتضى سنه التكميل.

قوله تعالى: مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ الخ؛ثم عطف الكلام إلى المؤمنين فبين أن سنه الابتلاء جاريه فيهم ليتم تكميلهم أيضا فيخلص المؤمن الخالص من غيره،و يتميز الخبيث من الطيب.

و لما أمكن أن يتوهم أن هناك طريقا آخر إلى تمييز الخبيث من الطيب و هو أن يطلعهم على الخبثاء حتى يتميزوا منهم فلا يقاسوا جميع المحن و البلايا التى يقاسونها بسبب اختلاط المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض بهم فدفع هذا الوهم بأن علم الغيب مما استأثر اللّه به نفسه فلا يطلع عليه أحدا إلاّ من اجتبى من رسله فإنه ربما أطلعه عليه بالوحى،و ذلك قوله تعالى:

وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشٰاءُ .

ثم ذكر أنه لما لم يكن من الابتلاء و التكميل محيد فآمنوا باللّه و رسله حتى تنسلكوا فى سلك الطيبين دون الخبثاء،غير أن الإيمان وحده لا يكفى فى بقاء طيب الحياه حتى يتم الأجر إلاّ بعمل صالح يرفع الإيمان إلى اللّه و يحفظ طيبه،و لذلك قال أولا:فآمنوا باللّه و رسله ثم تممه ثانيا بقوله: وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

قوله تعالى: وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمٰا آتٰاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ الآيه؛ لما بين حال إملاء الكافرين و كان الحال فى البخل بالمال و عدم إنفاقه فى سبيل اللّه مثله،فإن

البخیل فرح فخور بما یجمعه من المال عطف تعالی الکلام إلیهم و بین أنه شر لهم،و فی التعبیر عن المال بقوله: بِمٰا آتٰاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ إشعار بوجه لومهم و ذمهم،و قوله: سَیُطَوَّقُونَ ،الخ؛فی مقام التعلیل لکون البخل شرا لهم،و قوله: وَ لِلّٰهِ مِیرٰاثُ السَّمٰاوٰاتِ ،الظاهر أنه حال من یوم القیامه،و کذا قوله: وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ .

و یحتمل علی أن یکون قوله: وَ لِلّٰهِ مِیرٰاثُ حالا من فاعل قوله یبخلون،و قوله: وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ حالا منه أیضا أو جمله مستأنفه.

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۸۱ الی ۱۸۹]

اشاره

لَقَدْ سَمِعَ اَللّٰهُ قَوْلَ اَلَّذِینَ قٰالُوا إِنَّ اَللّٰهَ فَقِیرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِیٰاءُ سَنَکْتُبُ مٰا قٰالُوا وَ قَتْلَهُمُ اَلْأَنْبِیٰاءَ بِغَیْرِ حَقٍّ وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذٰابَ اَلْحَرِیقِ (۱۸۱) ذٰلِکَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَیْدِیکُمْ وَ أَنَّ اَللّٰهَ لَیْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِیدِ (۱۸۲) اَلَّذِینَ قٰالُوا إِنَّ اَللّٰهَ عَهِدَ إِلَیْنٰا أَلاّٰ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتّٰی یَأْتِیَنٰا بِقُرْبٰانٍ تَأْکُلُهُ اَلنّٰارُ قُلْ قَدْ جٰاءَکُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِی بِالْبَیِّنٰاتِ وَ بِالَّذِی قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۱۸۳) فَإِنْ کَذَّبُوکَ فَقَدْ کُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ جٰاؤُ بِالْبَیِّنٰاتِ وَ اَلزُّبُرِ وَ اَلْکِتٰابِ اَلْمُنِیرِ (۱۸۴) کُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ اَلْمَوْتِ وَ إِنَّمٰا تُوَفَّوْنَ أُجُورَکُمْ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ اَلنّٰارِ وَ أُدْخِلَ اَلْجَنَّهَ فَقَدْ فٰازَ وَ مَا اَلْحَیٰاهُ اَلدُّنْیٰا إِلاّٰ مَتٰاعُ اَلْغُرُورِ (۱۸۵) لَتُبْلَوُنَّ فِی أَمْوٰالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ مِنَ اَلَّذِینَ أَشْرَکُوا أَذیً کَثِیراً وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذٰلِکَ مِنْ عَزْمِ اَلْأُمُورِ (۱۸۶) وَ إِذْ أَخَذَ اَللّٰهُ مِیثٰاقَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ لَتُبَیِّنُنَّهُ لِلنّٰاسِ وَ لاٰ تَکْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرٰاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اِشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِیلاً فَبِئْسَ مٰا یَشْتَرُونَ (۱۸۷) لاٰ تَحْسَبَنَّ اَلَّذِینَ یَفْرَحُونَ بِمٰا أَتَوْا وَ یُحِبُّونَ أَنْ یُحْمَدُوا بِمٰا لَمْ یَفْعَلُوا فَلاٰ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفٰازَهٍ مِنَ اَلْعَذٰابِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۱۸۸) وَ لِلّٰهِ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۸۹)

بيان:

قوله تعالى: لَقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ القائلون هم اليهود بقرينه ما فی ذيل الكلام من حديث قتلهم الأنبياء و غير ذلك.

و إنما قالوا ذلك لما سمعوا أمثال قوله تعالی: مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً الآيه (البقره۲۴۵/)و يشهد بذلك بعض الشهاده اتصاله بالآيه السابقه:و لا يحسبن الذين يبخلون،الآيه.

أو أنهم قالوا ذلك لما رأوا فقر عامه المؤمنين و فاقتهم،فقالوا ذلك تعريضا بأن ربهم لو كان غنيا لغار لهم و أغناهم فليس إلاّ فقيرا و نحن أغنياء.

قوله تعالى: سَنَكْتُبُ ما قالُوا وَ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ الآيه؛المراد بالكتابه الحفظ و التثبيت أو الكتابه فی صحائف أعمالهم،و المآل واحد،و المراد بقتل الأنبياء بغير حق القتل على العرفان و العمد دون السهو و الخطأ و الجهاله،و قد قارن اللّه قولهم هذا

بقتلهم الأنبياء لكونه قولا عظيما،و قوله: عَذٰابَ الْحَرِيقِ ،الحريق النار أو اللهب و قيل:هو بمعنى المحرق.

قوله تعالى: ذٰلِكَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ الآيه؛أى بما قدمتم أمامكم من العمل و نسب إلى الأيدى لأنها آله التقديم غالبا،و قوله: وَ أَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ عطف على قوله:

بِمٰا قَدَّمَتْ ،و تعليل للكتابه و العذاب،فلو لم يكن ذلك الحفظ و الجزاء لكان إهمالا لأمر نظام الأعمال و فى ذلك ظلم كثير بكثره الأعمال فيكون ظلاما لعباده تعالى عن ذلك.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ عَهِدَ إِلَيْنٰا الآيه؛نعت للذين قبله و العهد هو الأمر،و القربان ما يتقرب به من النعم و غيره،و أكل النار كنايه عن إحراقها،و المراد بقوله: قَدْ جٰاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي ،أمثال زكريا و يحيى من أنبياء بنى إسرائيل المقتولين بأيديهم.

قوله تعالى: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ الآيه؛تسليه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تكذيبهم له؛ و الزبر جمع زبور و هو كتاب الحكم و المواعظ،و قد اريد بالزبر و الكتاب المنير مثل كتاب نوح و صحف إبراهيم و التوراه و الإنجيل.

قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ الْمَوْتِ ،الآيه تتضمن الوعد للمصدق و الوعيد للمكذب و قد بدأ فيها بالحكم العام المقضى فى حق كل ذى نفس،و التوفيه هو الإعطاء الكامل،و قد استدل بعضهم بالآيه على ثبوت البرزخ لدلالتها على سبق بعض الإعطاء و أن الذى فى يوم القيامه هو الإعطاء الكامل،و هو استدلال حسن،و الزحزحه هو الإبعاد، و أصله تكرار الجذب بعجله،و الفوز الظفر بالبغيه،و الغرور مصدر غر أو هو جمع غار.

قوله تعالى: لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوٰالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ الآيه؛الإبلاء الاختبار،بعد ما ذكر سبحانه جريان البلاء و الإبلاء على المؤمنين،ثم ذكر قول اليهود و هو مما من شأنه أن يوهن عزم المؤمنين أخبرهم بأن هذا الإبلاء الإلهى و الأقاويل الموذيه من أهل الكتاب و المشركين ستتكرر على المؤمنين،و يكثر استقبالها إياهم و قرعها سمعهم فعليهم أن يصبروا و يتقوا حتى

يعصمهم ربهم من الزلل و الفشل،و يكونوا أرباب عزم و إراده،و هذا إخبار قبل الوقوع ليستعدوا لذلك استعدادهم،و يوطنوا عليه أنفسهم.

و قد وضع فى قوله: وَ لَتَسْمَعُنَّ إلى قوله: أَذىً كَثِيراً ،الأذى الكثير موضع القول و هو من قبيل وضع الأثر موضع المؤثر مجازا.

قوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ ،النبذ الطرح،و نبذه وراء ظهره كالمثل و يراد به الترك و عدم الاعتناء كما أن قولهم:جعله نصب عينيه كالمثل يراد به الأخذ و اللزوم.

قوله تعالى: لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمٰا أَتَوْا الى آخر الآيتين،أى بما أنعم عليهم من المال و لازمه حب المال و البخل به،و المفازه النجاه و إنما هلك هؤلاء لأن قلوبهم تعلقت بالباطل فلا ولايه للحق عليهم.

ثم ذكر تعالى حديث ملكه للسماوات و الأرض،و قدرته على كل شيء،و هذان الوصفان يصلحان لتعليل مضامين جميع ما تقدم من الآيات.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٩٠ الى ١٩٩]

اشاره

إِنَّ فِى خَلْقِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اِخْتِلاٰفِ اَللَّيْلِ وَ اَلنَّهٰارِ لَآيٰاتٍ لِأُولِى اَلْأَلْبٰابِ (١٩٠) اَلَّذِينَ يَذْكُرُونَ اَللّٰهَ قِيٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلاً سُبْحٰانَكَ فَقِنٰا عَذٰابَ اَلنّٰارِ (١٩١) رَبَّنٰا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ اَلنّٰارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ أَنْصٰارٍ (١٩٢) رَبَّنٰا إِنَّنٰا سَمِعْنٰا مُنٰادِياً يُنٰادِى لِلْإِيمٰانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنّٰا رَبَّنٰا فَاغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا وَ كَفِّرْ عَنّٰا سَيِّئٰاتِنٰا وَ تَوَفَّنٰا مَعَ اَلْأَبْرٰارِ (١٩٣) رَبَّنٰا وَ آتِنٰا مٰا وَعَدْتَنٰا عَلىٰ رُسُلِكَ وَ لاٰ تُخْزِنٰا يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ إِنَّكَ لاٰ تُخْلِفُ اَلْمِيعٰادَ (١٩٤) فَاسْتَجٰابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لاٰ أُضِيعُ عَمَلَ عٰامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هٰاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيٰارِهِمْ وَ أُوذُوا فِى سَبِيلِى وَ قٰاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ ثَوٰاباً مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ اَلثَّوٰابِ (١٩٥) لاٰ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فِى اَلْبِلاٰدِ (١٩۶) مَتٰاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ اَلْمِهٰادُ (١٩٧) لٰكِنِ اَلَّذِينَ اِتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنّٰاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ مٰا عِنْدَ اَللّٰهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرٰارِ (١٩٨) وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ اَلْكِتٰابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خٰاشِعِينَ لِلّٰهِ لاٰ يَشْتَرُونَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اَللّٰهَ سَرِيعُ اَلْحِسٰابِ (١٩٩)

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ فِی خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ ،کأن المراد بالخلق کیفیه وجودها و آثارها و أفعالها من حرکه و سکون و تغیر و تحول فیکون خلق السموات و الأرض

ص: ۵۹۷

و اختلاف الليل و النهار مشتملا على معظم الآيات المحسوسه و قد تقدم بيانها فی سوره البقره و تقدم أيضا معنى اولى الألباب.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِياماً وَ قُعُوداً الخ؛أی يذكرون اللّه فی جميع حالاتهم من القيام و القعود و الاضطجاع،و قد مر البحث فی معنى الذكر و التفكر،و محصل معنى الآيتين أن النظر فی آيات السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار أورثهم ذكرا دائما للّه فلا ينسونه فی حال،و تفكرا فی خلق السموات و الأرض يتذكرون به أن اللّه سيبعثهم للجزاء فيسألون عندئذ رحمته و يستنجزون وعده.

قوله تعالى: رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً ،إنما قيل «هذا» مع كون المشار إليه جمعا و مؤنثا إذ الغرض لا يتعلق بتمييز أشخاصها و أسمائها،و الجميع فی أنها خلق واحد،و هذا نظير ما حكى اللّه تعالى من قول إبراهيم: فَلَمّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّی هذا أَكْبَرُ (الأنعام/٧٨)،لعدم علمه بعد بحقيقتها و اسمها سوى أنها شیء.

و الباطل ما ليس له غايه يتعلق به الغرض قال تعالى: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِی الْأَرْضِ (الرعد/١٧)و لذلك لما نفوا البطلان عن الخلق لاح لهم أن اللّه سيحشر الناس للجزاء،و أنه تعالى سيجزی هناك الظالمين جزاء خزی و هو النار،و لا راد يرد مصلحه العقاب و إلا لبطل الخلقه،و هذا معنى قولهم:فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته و ما للظالمين من أنصار.

قوله تعالى: رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً ،المراد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و قوله: أَنْ آمِنُوا ، بيان للنداء و أن تفسيريه،و لما ذكروا إيمانهم بالمنادی و هو الرسول و هو يخبرهم بامور عن اللّه تعالى يحذرهم من بعضها كالذنوب و السيئات و الموت على الكفر و الذنب،و يرغبهم فی بعضها كالمغفره و الرحمه و تفاصيل الجنه التی وعد اللّه عباده المؤمنين الأبرار بها سألوا ربهم أن يغفر لهم و يكفر عن سيئاتهم و يتوفاهم مع الأبرار و سألوه أن ينجزهم ما وعدهم من الجنه و الرحمه

على ما ضـمنه لهم الرسول بإذن اللّه فقالوا: فَاغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا ،الخ؛فقوله تعالى: عَلىٰ رُسُلِكَ أى حملته على رسلك و ضمنه عليك الرسل،و قوله: وَ لاٰ تُخْزِنٰا ،أى بإخلاف الوعد،و لذا عقبه بقوله: إِنَّكَ لاٰ تُخْلِفُ الْمِيعٰادَ .

و قد تبين من الآيات أنهم إنما حصـلوا الاعتقاد باللّه و اليوم الآخر و بأن للّه رسـلا بالنظر فى الآيات و أما تفاصيل ما جاء به النبى فمن طريق الإيمان بالرسول فهم على الفطره فيما يحكم به الفطره،و على السمع و الطاعه فيما فيه ذلك.

قوله تعالى: فَاسْتَجٰابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ الـخ؛التعبير بالرب و إضافته اليهم يـدل على ثوران الرحمه الإلهيه و يدل عليه أيضا التعميم الذى فى قوله: أَنِّى لاٰ أُضِيعُ عَمَلَ عٰامِلٍ مِنْكُمْ ، فلا فرق عنده تعالى بين عمل و عمل،و لا بين عامل و عامل.

و على هـذا فقوله تعـالى فى مقام التفريع:فالـذين هاجروا و اخرجوا من ديارهم و اوذوا، الـخ؛فى مقام تفصـيل صالحات الأعمال لتثبيت ثوابها،و الواو للتفصيل دون الجمع حتى يكون لبيان ثواب المستشهدين من المهاجرين فقط.

و الآـيه مع ذلـك لا تفصل إلا الأعمال التى تنـدب إليها هـذه السوره و تبالغ فى التحريص و الترغيب فيها،و هو إيثار الـدين على الوطن و تحمل الأذى فى سبيل اللّه و الجهاد.

و الظـاهر أن المراد بالمهـاجره ما يشـتمل المهاجره عن الشـرك و العشـيره و الوطن لإطلاق اللفظ،و لمقابلته قوله: وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيٰارِهِمْ ،و هو هجره خـاصه،و لقوله بعـده:لاـ كفرن عنهم سـيئاتهم،فإن ظاهر السيئات فى القرآن صـغائر المعاصـى فهم هاجروا الكبائر بالاجتناب و التوبه،فالمهاجره المذكوره أعم فافهم ذلك.

قوله تعالى: لاٰ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الـخ؛هـذا دفع الـدخل و التقـدير:هـذا حال أبرار المؤمنين و هـذا أجرهم،و أما ما ترى فيه الكفار من رفاه الحال و ترف الحياه و در المعاش فلا يغرنك ذلك(الخطاب للنبى و المقصود به الناس)لأنه متاع قليل لا دوام له.

قوله تعالی: لٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ الخ؛النزل ما يعد للنازل من طعام و شراب و غيرهما،و المراد بهم الأبرار بدليل ما فی آخر الآيه،و هذا يؤيد ما ذكرناه من أن الآيه السابقه دفع دخل.

قوله تعالی: وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ الخ؛المراد أنهم مشاركون للمؤمنين فی حسن الثواب،و الغرض منه أن السعاده الاخرويه ليست جنسيه حتی يمنع منها أهل الكتاب و إن آمنوا بل الأمر دائر مدار الإيمان باللّه و برسله فلو آمنوا كانوا هم و المؤمنون سواء.

و قد نفی عن هؤلاء الممدوحين من أهل الكتاب ما ذمهم اللّه به فی سوابق الآيات و هو التفريق بين رسل اللّه،و كتمان ما اخذ ميثاقهم لبيانه اشتراء بآيات اللّه ثمنا قليلا (۱)(۲).

[سوره آل عمران (۳): آیه ۲۰۰]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اِصْبِرُوا وَ صٰابِرُوا وَ رٰابِطُوا وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۲۰۰)

بيان:

قوله تعالی: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صٰابِرُوا الخ؛الأوامر مطلقه فالصبر يراد به الصبر علی الشدائد،و الصبر فی طاعه اللّه،و الصبر عن معصيته؛و علی أی حال هو الصبر من الفرد بقرينه ما يقابله.

و المصابره هی التصبر و تحمل الأذی جماعه باعتماد صبر البعض علی صبر آخرين فيتقوی الحال و يشتد الوصف و يتضاعف تأثيره،و هذا أمر محسوس فی تأثير الفرد إذا اعتبرت

ص: ۶۰۰

۱- ۱) .آل عمران ۱۹۰-۱۹۹:بحث فلسفی و مقايسه بين الرجل و المرأه.

۲- ۲) .آل عمران ۱۹۰-۱۹۹:بحث روائی فی:التفكر؛الهجره.

شخصیته فی حال الانفراد،و فی حال الاجتماع و التعاون بإیصال القوی بعضها ببعض و سنبحث فیه إن شاء اللّه بحثا مستوفی فی محله.

قوله تعالی: وَ رٰابِطُوا أعم معنی من المصابره و هی إیجاد الجماعه،الارتباط بین قواهم و أفعالهم فی جمیع شئون حیاتهم الدینیه أعم من حال الشده و حال الرخاء و لما کان المراد بذلک نیل حقیقه السعاده المقصوده للدنیا و الآخره-و إلاّ فلا یتم بها إلاّ بعض سعاده الدنیا و لیست بحقیقه السعاده-عقب هذه الأوامر بقوله تعالی: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ یعنی الفلاح التام الحقیقی (۱).

ص: ۶۰۱

---

۱ - ۱) .آل عمران ۲۰۰:کلام فی المرابطه فی المجتمع الانسان و الاجتماع،الانسان و نموه فی اجتماعه،الاسلام و عنایته بالاجتماع،اعتبار الاسلام رابطه الفرد و المجتمع،هل تقبل سنه الاسلام الاجتماعیه الاجراء و البقاء؟بما ذا یتکون و یعیش الاجتماع الاسلامی؟منطقان:منطق التعقل و منطق الاحساس؛ما معنی ابتغاء الاجر عند اللّه و الاعراض عن غیره؟ما معنی الحریه فی الاسلام؟ما هو الطریق الی التحول و التکامل فی المجتمع الاسلامی؟هل الاسلام بشریعته یفی باسعاد هذه الحیاه الحاضره؟من الذی یتقلد ولایه المجتمع فی الاسلام و ما سیرته؟ثغر المملکه الاسلامیه هو الاعتقاد دون الحدود الطبیعیه او الاصطلاحیه،الاسلام اجتماعی بجمیع شئونه،الدین الحق هو الغالب علی الدنیا بالآخره.

سوره النساء مدنيه و هی مائه و ست و سبعون آيه

اشاره

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

[سوره النساء (۴): آيه ۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ اِتَّقُوا رَبَّكُمُ اَلَّذِی خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ وَ خَلَقَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا وَ بَثَّ مِنْهُمٰا رِجٰالاً كَثِيراً وَ نِسٰاءً وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ اَلَّذِی تَسٰائَلُونَ بِهِ وَ اَلْأَرْحٰامَ إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (۱)

بيان:

قوله تعالی: يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ -الی قوله- وَ نِسٰاءً يريد دعوتهم الی تقوی ربهم فی أمر أنفسهم و هم ناس متحدون فی الحقيقه الإنسانيه من غير اختلاف فيها بين الرجل منهم و المرأه و الصغير و الكبير و العاجز و القوی حتی لا يجحف الرجل منهم بالمرأه و لا يظلم كبيرهم الصغير فی مجتمعهم الذی هداهم اللّه اليه لتتميم سعادتهم و الأحكام و القوانين المعموله بينهم التی ألهمهم إياها لتسهيل طريق حياتهم،و حفظ وجودهم و بقائهم فرادی و مجتمعين.

ص :۶۰۲

و من هناک تظهر نکته توجیه الخطاب الی الناس دون المؤمنین خاصه و کذا تعلیق التقوی بربهم دون أن یقال:اتقوا اللّه و نحوه فإن الوصف الذی ذکروا به أعنی قوله: اَلَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ ،الخ؛یعم جمیع الناس من غیر أن یختص بالمؤمنین،و هو من أوصاف الربوبیه التی تتکفل أمر التدبیر و التکمیل لا من شئون الالوهیه.

و أما قوله تعالی: اَلَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ ،الخ؛فالنفس علی ما یستفاد من اللغه عین الشیء یقال:جاءنی فلان نفسه و عینه و إن کان منشأ تعین الکلمتین-النفس و العین-لهذا المعنی(ما به الشیء شیء)مختلفا،و نفس الإنسان هو ما به الانسان إنسان، و هو مجموع روح الإنسان و جسمه فی هذه الحیاه الدنیا و الروح وحدها فی الحیاه البرزخیه علی ما تحقق فیما تقدم من البحث فی قوله تعالی: وَ لاٰ تَقُولُوا لِمَنْ یُقْتَلُ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ أَمْوٰاتٌ الآیه(البقره/۱۵۴).

و ظاهر السیاق أن المراد بالنفس الواحده آدم علیه السّلام،و من زوجها زوجته،و هما أبوا هذا النسل الموجود الذی نحن منه و إلیهما ننتهی جمیعا علی ما هو ظاهر القرآن الکریم کما فی قوله تعالی: خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا (الزمر/۶)،و قوله تعالی: یٰا بَنِی آدَمَ لاٰ یَفْتِنَنَّکُمُ الشَّیْطٰانُ کَمٰا أَخْرَجَ أَبَوَیْکُمْ مِنَ الْجَنَّهِ (الأعراف/۲۷)،و قوله تعالی:

حکایه عن إبلیس لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ لَأَحْتَنِکَنَّ ذُرِّیَّتَهُ إِلاّٰ قَلِیلاً (الإسراء/ ۶۲).

و أما قوله: وَ خَلَقَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا فقد قال الراغب:یقال لکل واحد من القرینین من الذکر و الانثی فی الحیوانات المتزاوجه:زوج،و لکل قرینین فیها و فی غیرها:زوج کالخف و النعل،و لکل ما یقترن بآخر مماثلا له أو مضادا:زوج،الی أن قال:و زوجه لغه ردیئه، انتهی.

و ظاهر الجمله أعنی قوله: وَ خَلَقَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا أنها بیان لکون زوجها من نوعها بالتماثل

و أن هؤلاء الأفراد المبثوثين مرجعهم جميعا الى فردين متماثلين متشابهين فلفظه من نشوئيه و الآيه فى مساق قوله تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً (الروم/۲۱)،و قوله تعالى: وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً (النحل/۷۲)،و قوله تعالى: فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ (الشورى/۱۱)،و نظيرها قوله: وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ (الذاريات/۴۹)،فما فى بعض التفاسير:أن المراد بالآيه كون زوج هذه النفس مشتقه منها و خلقها من بعضها وفاقا لما فى بعض الأخبار:أن اللّه خلق زوجه آدم من ضلع من أضلاعه مما لا دليل عليه من الآيه.

و أما قوله: وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَ نِسَاءً ،البث هو التفريق بالإثاره و نحوها قال تعالى: فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (الواقعه/۶)،و منه بث الغم و لذلك ربما يطلق البث و يراد به الغم لأنه مبثوث يبثه الإنسان بالطبع،قال تعالى: قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللّٰهِ (يوسف/۸۶)،أى غمى و حزنى.

و ظاهر الآيه أن النسل الموجود من الإنسان ينتهى الى آدم و زوجته من غير أن يشاركهما فيه غيرهما حيث قال:و بث منهما رجالا كثيرا و نساء،و لم يقل:منهما و من غيرهما،و يتفرع عليه أمران:

احدهما:أن المراد بقوله: رِجَالاً كَثِيراً وَ نِسَاءً أفراد البشر من ذريتهما بلا واسطه أو مع واسطه فكأنه قيل:و بثكم منها أيها الناس.

و ثانيهما:أن الازدواج فى الطبقه الاولى بعد آدم و زوجته أعنى فى أولادهما بلا واسطه إنما وقع بين الإخوه و الأخوات(ازدواج البنين بالبنات)اذ الذكور و الاناث كانا منحصرين فيهم يومئذ،و لا ضير فيه فإنه حكم تشريعى راجع الى اللّه سبحانه فله أن يبيحه يوما

و یحرمه آخر،قال تعالی: وَ اللّهُ یَحْکَمُ لاّ مُعَقِّبَ لِحُکْمِهِ (الرعد۴۱/)،و قال: إِنِ الْحُکْمُ إِلاّ لِلّهِ (یوسف۴۰/)،و قال: وَ لاّ یُشْرِکُ فِی حُکْمِهِ أَحَداً (الکهف۲۶/)، و قال: وَ هُوَ اللّهُ لاّ إِلهَ إِلاّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِی الْأُولی وَ الْآخِرَهِ وَ لَهُ الْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (القصص۷۰/).

قوله تعالی: وَ اتَّقُوا اللّهَ الَّذِی تَسائَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحامَ المراد بالتساؤل سؤال بعض الناس بعضا باللّه،یقول أحدهم لصاحبه:أسألک باللّه أن تفعل کذا و کذا هو إقسام به تعالی،و التساؤل باللّه کنایه عن کونه تعالی معظما عندهم محبوبا لدیهم فإن الانسان إنما یقسم بشیء یعظمه و یحبه.

و أما قوله: وَ الْأَرْحامَ فظاهره أنه معطوف علی لفظ الجلاله،و المعنی:و اتقوا الأرحام، و ربما قیل:إنه معطوف علی محل الضمیر فی قوله: بِهِ و هو النصب یقال:مررت بزید و عمرا، و ربما أیدته قراءه حمزه:و الأرحام بالجر عطفا علی الضمیر المتصل المجرور-و إن ضعفه النحاه-فیصیر المعنی:و اتقوا اللّه الذی تسألون به و بالأرحام یقول أحدکم لصاحبه:أسألک باللّه و أسألک بالرحم،هذا ما قیل،لکن السیاق و دأب القرآن فی بیاناته لا یلائمانه فإن قوله:

وَ الْأَرْحامَ إن جعل صله مستقله للذی،و کان تقدیر الکلام:و اتقوا اللّه الذی تسألون بالأرحام کان خالیا من الضمیر و هو غیر جائز،و إن کان المجموع منه و مما قبله صله واحده للذی کان فیه تسویه بین اللّه عز اسمه و بین الأرحام فی أمر العظمه و العزه و هی تنافی أدب القرآن.

و أما نسبه التقوی الی الأرحام کنسبته إلیه تعالی فلا ضیر فیها بعد انتهاء الأرحام الی صنعه و خلقه تعالی،و قد نسب التقوی فی کلامه تعالی الی غیره کما فی قوله: وَ اتَّقُوا یَوْماً تُرْجَعُونَ فِیهِ إِلَی اللّهِ (البقره۲۸۱/)،و قوله: وَ اتَّقُوا النّارَ الَّتِی أُعِدَّتْ لِلْکافِرِینَ (آل عمران۱۳۱/)و قوله: وَ اتَّقُوا فِتْنَهً لاّ تُصِیبَنَّ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْکُمْ خَاصَّهً

(الأنفال۲۵/).

و کیف کان فهذا الشطر من الکلام بمنزله التقیید بعد الإطلاق و التضییق بعد التوسعه بالنسبه الی الشطر السابق علیه أعنی قوله: یا أَیُّهَا النّاسُ اتَّقُوا ،الی قوله: وَ نِساءً ،فإن محصل معنی الشطر الأول:أن اتقوا اللّه من جهه ربوبیته لکم،و من جهه خلقه و جعله إیاکم-معاشر أفراد الإنسان-من سنخ واحد محفوظ فیکم و ماده محفوظه متکثره بتکثرکم،و ذلک هو النوعیه الجوهریه الإنسانیه،و محصل معنی هذا الشطر:أن اتقوا اللّه من جهه عظمته و عزته عندکم(و ذلک من شئون الربوبیه و فروعها)و اتقوا الوحده الرحمیه التی خلقها بینکم (و الرحم شبعه من شبع الوحده و السنخیه الساریه بین أفراد الإنسان).

و من هنا یظهر وجه تکرار الأمر بالتقوی و إعادته ثانیا فی الجمله الثانیه فإن الجمله الثانیه الحقیقه تکرار للجمله الاولی مع زیاده فائده و هی إفاده الاهتمام التام بأمر الأرحام.

و الرحم فی الأصل رحم المرأه و هی العضو الداخلی منها المعبأ لتربیه النطفه ولیدا، ثم استعیر للقرابه بعلاقه الظرف و المظروف لکون الأقرباء مشترکین فی الخروج من رحم واحده،فالرحم هو القریب و الأرحام الأقرباء،و قد اعتنی القرآن الشریف بأمر الرحم کما اعتنی بأمر القوم و الامه،فإن الرحم مجتمع صغیر کما أن القوم مجتمع کبیر،و قد اعتنی القرآن بأمر المجتمع و عده حقیقه ذات خواص و آثار کما اعتنی بأمر الفرد من الإنسان و عده حقیقه ذات خواص و آثار تستمد من الوجود،قال تعالی: وَ هُوَ الَّذِی مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ هٰذٰا عَذْبٌ فُرٰاتٌ وَ هٰذٰا مِلْحٌ أُجٰاجٌ وَ جَعَلَ بَیْنَهُمٰا بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ مِنَ الْمٰاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً وَ کٰانَ رَبُّکَ قَدِیراً (الفرقان۵۴/)،و قال تعالی: وَ جَعَلْنٰاکُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا (الحجرات۱۳/)،و قال تعالی: وَ أُولُوا الْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلیٰ بِبَعْضٍ فِی کِتٰابِ اللّٰهِ (الأحزاب۶/)،و قال تعالی: فَهَلْ عَسَیْتُمْ إِنْ تَوَلَّیْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحٰامَکُمْ (محمد۲۲/)،و قال تعالی:

وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّهً ضِعٰافاً خٰافُوا عَلَيْهِمْ الآيه(النساء۹/)،الی غیر ذلک من الآیات.

قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً الرقیب الحفیظ و المراقبه المحافظه، و کأنه مأخوذ من الرقبه بعنایه أنهم کانوا یحفظون رقاب عبیدهم،أو أن الرقیب کان یتطلع علی من کان یرقبه برفع رقبته و مد عنقه،و لیس الرقوب مطلق الحفظ بل هو الحفظ علی أعمال المرقوب من حرکاته و سکناته لإصلاح موارد الخلل و الفساد أو ضبطها،فکأنه حفظ الشیء مع العنایه به علما و شهودا و لذا یستعمل بمعنی الحراسه و الانتظار و المحاذره و الرصد،و اللّه سبحانه رقیب لأنه یحفظ علی العباد أعمالهم لیجزیهم بها،قال تعالی:

وَ رَبُّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (سبأ۲۱/)،و قال: اَللّٰهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (الشوری۶/)،و قال: فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذٰابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصٰادِ (الفجر۱۴/).

و فی تعلیل الأمر بالتقوی فی الوحده الانسانیه الساریه بین أفراده و حفظ آثارها اللازمه لها،بکونه تعالی رقیبا أعظم التحذیر و التخویف بالمخالفه،و بالتدبر فیه یظهر ارتباط الآیات المتعرضه لأمر البغی و الظلم و الفساد فی الأرض و الطغیان و غیر ذلک،و ما وقع فیها من التهدید و الإنذار،بهذا الغرض الإلهی و هو وقایه الوحده الإنسانیه من الفساد و السقوط (۱)(۲)(۳)(۴)(۵).

۱- ۱) .النساء ۱:کلام فی عمر النوع الانسانی و الانسان الاول.

۲- ۲) .النساء ۱:کلام فی ان النسل الحاضر ینتهی الی آدم و زوجته.

۳- ۳) .النساء ۱:کلام فی ان الانسان نوع مستقل غیر متحول من نوع آخر.

۴- ۴) .النساء ۱:کلام فی تناسل الطبقه الثانیه من الانسان.

۵- ۵) .النساء ۱:بحث روائی فی خلق آدم و حواء؛کیفیه تزویج اولاد آدم؛صله الرحم؛الغضب.

[سوره النساء (۴): الآيات ۲ الى ۶]

اشاره

وَ آتُوا اَلْيَتٰامىٰ أَمْوٰالَهُمْ وَ لاٰ تَتَبَدَّلُوا اَلْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَ لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوٰالَهُمْ إِلىٰ أَمْوٰالِكُمْ إِنَّهُ كٰانَ حُوباً كَبِيراً (۲) وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ تُقْسِطُوا فِي اَلْيَتٰامىٰ فَانْكِحُوا مٰا طٰابَ لَكُمْ مِنَ اَلنِّسٰاءِ مَثْنىٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ تَعْدِلُوا فَوٰاحِدَةً أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَلاّٰ تَعُولُوا (۳) وَ آتُوا اَلنِّسٰاءَ صَدُقٰاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (۴) وَ لاٰ تُؤْتُوا اَلسُّفَهٰاءَ أَمْوٰالَكُمُ اَلَّتِي جَعَلَ اَللّٰهُ لَكُمْ قِيٰاماً وَ اُرْزُقُوهُمْ فِيهٰا وَ اُكْسُوهُمْ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (۵) وَ اِبْتَلُوا اَلْيَتٰامىٰ حَتّٰى إِذٰا بَلَغُوا اَلنِّكٰاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوٰالَهُمْ وَ لاٰ تَأْكُلُوهٰا إِسْرٰافاً وَ بِدٰاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَ مَنْ كٰانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كٰانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذٰا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوٰالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ حَسِيباً (۶)

بيان:

بيان: (۱)(۲)

قوله تعالى: وَ آتُوا الْيَتٰامىٰ أَمْوٰالَهُمْ الى آخر الآيه؛أمر بإيتاء اليتامى أموالهم

ص: ۶۰۸

۱- ۱) .النساء ۲-۶:كلام فى الجاهليه الاولى.

۲- ۲) .النساء ۲-۶:بحث فى كيفيه ظهور الدعوه الاسلاميه.

و هو توطئه للجملتين اللاحقتين:و لاـ تتبـدلوا،الـخ؛أو الجملتان كالمفسـر لهـذه الجمله غير أن التعليل الـذى فى آخر الآيه لكونه راجعا الى الجملتين أو الجمله الأخيره يؤيد أن الجمله الاولى موضوعه فى الكلام تمهيدا للنهى الذى فى الجملتين اللاحقتين.

و أصل النهى عن التصرف المضار فى أموال اليتامى كما تقـدم بيانه توطئه و تمهيد لما سيذكر من أحكام الإرث،و لما سيذكر فى الآيه التاليه من حكم التزوج.

و أمـا قوله تعـالى: وَ لاٰ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ أى لا تتبـدلوا الخبيث من أموالكم من الطيب من أموالهم بأن يكون لهم عنـدكم مـال طيب فتعزلوه لأنفسكم و تردوا إليهم مـا يعـادله من ردى أموالكم.و يمكن أن يكون المراد:لا تتبـدلوا أكل الحرام من أكل الحلال-كمـا قيـل-لكن المعنى الأول أظهر فـإن الظـاهر أن كلاـ من الجملتين أعنى قوله: وَ لاٰ تَتَبَدَّلُوا ،الـخ؛و قوله: وَ لاٰ تَأْكُلُوا ،الـخ؛بيـان لنوع خـاص من التصرف غير الجـائز و قوله: وَ آتُوا الْيَتٰامىٰ ،الـخ؛تمهيـد لبيانهمـا معـا،و أما قوله: إِنَّهُ كٰانَ حُوباً كَبِيراً الحوب الاثم مصدر و اسم مصدر.

قوله تعالى: وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ تُقْسِطُوا فِي الْيَتٰامىٰ فَانْكِحُوا مٰا طٰابَ لَكُمْ مِنَ النِّسٰاءِ قـد مرت الإشاره فيما مر الى أن أهل الجاهليه من العرب-و كـانوا لاـ يخلون فى غـالب الأوقات عن الحروب و المقاتل و الغيله و الغاره و كان يكثر فيهم حوادث القتل-كان يكثر فيهم الأيتـام،و كـانت الصـناديد و الأقويـاء منهم يأخـذون إليهم يتـامى النسـاء و أموالهن فيـتزوجون بهن و يـأكلون أموالهن الى أموالهم ثم لا يقسـطون فيهن و ربما أخرجوهن بعد أكل مالهن فيصـرن عاطلات ذوات مسكنه لا مال لهن يرتزقن به و لا راغب فيهن فيتزوج بهن و ينفق عليهن،و قـد شدد القرآن الكريم النكير على هذا الدأب الخبيث و الظلم الفاحش،و أكد النهى عن ظلم اليتـامى و أكـل أمـوالهم كقـوله تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوٰالَ الْيَتٰامىٰ ظُلْماً إِنَّمٰا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نٰاراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (النساء/١٠)،و قوله تعالى: وَ آتُوا

الْيَتَامىٰ أَمْوَالَهُمْ وَ لاٰ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَ لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كٰانَ حُوباً كَبِيراً الآيه(النساء۲/)،فأعقب ذلک أن المسلمین أشفقوا علی أنفسهم-کما قیل-و خافوا خوفا شدیدا حتی أخرجوا الیتامی من دیارهم خوفا من الابتلاء بأموالهم و التفریط فی حقهم،و من أمسک یتیما عنده أفرز حظه من الطعام و الشراب و کان اذا فضل من غذائهم شیء لم یدنوا منه حتی یبقی و یفسد فاصبحوا متحرجین من ذلک و سألوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن ذلک و شکوا إلیه فنزل: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامىٰ قُلْ إِصْلاٰحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (البقره۲۲۰/) فأجاز لهم أن یؤووهم و یمسکوهم إصلاحا لشأنهم و إن یخالطوهم فإنهم إخوانهم فجلی عنهم و فرج همهم.

اذا تأملت فی ذلک ثم رجعت الی قوله تعالی: وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامىٰ فَانْكِحُوا ، الخ؛و هو واقع عقیب قوله: وَ آتُوا الْيَتَامىٰ أَمْوَالَهُمْ ،الآیه؛اتضح لک أن الآیه واقعه موقع الترقی بالنسبه الی النهی الواقع فی الآیه السابقه و المعنی-و اللّه أعلم-:اتقوا أمر الیتامی،و لا تتبدلوا خبیث أموالکم من طیب أموالهم،و لا تأکلوا أموالهم الی أموالکم حتی أنکم إن خفتم أن لا تقسطوا فی الیتیمات منهم و لم تطب نفوسکم أن تنکحوهن و تتزوجوا بهن فدعوهن و انکحوا نساء غیرهن ما طاب لکم مثنی و ثلاث و رباع.

فالشرطیه أعنی قوله: إِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامىٰ فَانْكِحُوا مٰا طٰابَ لَكُمْ مِنَ النِّسٰاءِ ،فی معنی قولنا إن لم تطب لکم الیتامی للخوف من عدم القسط فلا تنکحوهن و انکحوا نساء غیرهن فقوله: فَانْكِحُوا ساد مسد الجزاء الحقیقی،و قوله: مٰا طٰابَ لَكُمْ ،یغنی عن ذکر وصف النساء أعنی لفظ غیرهن؛و قد قیل:ما طاب لکم و لم یقل:من طاب لکم إشاره الی العدد الذی سیفصله بقوله: مَثْنىٰ وَ ثُلاٰثَ ،الخ؛و وضع قوله: إِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ تُقْسِطُوا موضع عدم طیب النفس من وضع السبب موضع المسبب مع الإشعار بالمسبب فی الجزاء بقوله: مٰا

طٰابَ لَكَمْ ،هذا.

قوله تعالى: مَثْنىٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ بناء مفعل و فعال فى الأعداد تدلان على تكرار الماده فمعنى مثنى و ثلاث و رباع اثنتين اثنتين و أربعا أربعا،و لما كان الخطاب متوجها الى أفراد الناس و قد جىء بواو التفصيل بين مثنى و ثلاث و رباع الدال على التخيير أفاد الكلام أن لكل واحد من المؤمنين أن يتخذ لنفسه زوجتين أو ثلاثا أو ربعا فيصرن بالإضافه الى الجميع مثنى و ثلاث و رباع.

و بذلك و بقرينه قوله بعد:و إن خفتم أن لا تعدلوا فواحده أو ما ملكت أيمانكم و كذا آيه المحصنات بجميع ذلك يدفع أن يكون المراد بالآيه أن تنكح الاثنتان بعقد واحد أو الثلاث بعقد واحد مثلا،أو يكون المراد أن تنكح الاثنتان معا ثم الاثنتان معا و هكذا،و كذا فى الثلاث و الأربع،أو يكون المراد اشتراك أزيد من رجل واحد فى الزوجه الواحده مثلا فهذه محتملات لا تحتملها الآيه.

على أن الضروره قاضيه أن الإسلام لا ينفذ الجمع بين أزيد من أربع نسوه أو اشتراك أزيد من رجل فى زوجه واحده.

و كذا يدفع بذلك احتمال أن يكون الواو للجمع فيكون فى الكلام تجويز الجمع بين تسع نسوه لأن مجموع الاثنتين و الثلاث و الأربع تسع،و قد ذكر فى المجمع:أن الجمع بهذا المعنى غير محتمل البته فإن من قال:دخل القوم البلد مثنى و ثلاث و رباع لم يلزم منه اجتماع الأعداد فيكون دخولهم تسعه تسعه،و لأن لهذا العدد لفظا موضوعا و هو تسع فالعدول عنه الى مثنى و ثلاث و رباع نوع من العى-جل كلامه عن ذلك و تقدس-.

قوله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ تَعْدِلُوا فَوٰاحِدَةً أى فانكحوا واحده لا أزيد،و قد علقه تعالى على الخوف من ذلك دون العلم لأن العلم فى هذه الامور-و لتسويل النفس فيها أثر بين-لا يحصل غالبا فتفوت المصلحه.

قوله تعالی: أَوْ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُکَمْ و هی الإماء فمن خاف أن لا یقسط فیهن فعلیه أن ینکح واحده،و إن أحب أن یزید فی العدد فعلیه بالإماء اذ لم یشرّع القسم فی الإماء.

و من هنا یظهر أن لیس المراد بالتحضیض علی الإماء بتجویز الظلم و التعدی علیهن فإن اللّه لا یحب الظالمین و لیس بظلام للعبید بل لما لم یشرع القسم فیهن فأمر العدل فیهن أسهل؛ و لهذه النکته بعینها کان المراد بذکر ملک الیمین الاکتفاء باتخاذهن و إتیانهن بملک الیمین دون نکاحهن بما یبلغ العدد أو یکثر علیه فإن مسأله نکاحهن سیتعرض لها فی ما سیجیء من قوله: وَ مَنْ لَمْ یَسْتَطِعْ مِنْکُمْ طَوْلاً أَنْ یَنْکِحَ الْمُحْصَنٰاتِ الْمُؤْمِنٰاتِ فَمِنْ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُکُمْ مِنْ فَتَیٰاتِکُمُ الْمُؤْمِنٰاتِ الآیه(النساء/۲۵).

قوله تعالی: ذٰلِکَ أَدْنیٰ أَلاّٰ تَعُولُوا العول هو المیل أی هذه الطریقه علی ما شرعت أقرب من أن لا تمیلوا عن العدل و لا تتعدوا علیهن فی حقوقهن،و ربما قیل:إن العول بمعنی الثقل و هو بعید لفظا و معنی.

و فی ذکر الجمله التی تتضمن حکمه التشریع دلاله علی أن أساس التشریع فی أحکام النکاح علی القسط و نفی العول و الإجحاف فی الحقوق.

قوله تعالی: وَ آتُوا النِّسٰاءَ صَدُقٰاتِهِنَّ نِحْلَةً الصدقه بضم الدال و فتحها و الصداق هو المهر،و النحله هی العطیه من غیر مثامنه.

و فی إضافه الصدقات الی ضمیرهن دلاله علی أن الحکم بوجوب الإیتاء مبنی علی المتداول بین الناس فی سنن الازدواج من تخصیص شیء من المال أو أی شیء له قیمه مهرا لهن کأنه یقابل به البضع مقابله الثمن المبیع فإن المتداول بین الناس أن یکون الطالب الداعی للازدواج هو الرجل علی ما سیأتی فی البحث العلمی التالی،و هو الخطبه کما أن المشتری یذهب بالثمن الی البائع لیأخذ سلعته،و کیف کان ففی الآیه إمضاء هذه العاده الجاریه عند الناس.

و لعل إمکان توهم عدم جواز تصرف الزوج فی المهر أصلا حتی برضی من الزوجه هو

الموجب للإتیان بالشرط فی قوله: فَإِنْ طِبْنَ لَکَمْ عَنْ شَیْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَکَلُوهُ هَنِیئاً مَرِیئاً مع ما فی اشتراط الأکل بطیب النفس من تأکید الجمله السابقه المشتمله علی الحکم،و الدلاله علی أن الحکم وضعی لا تکلیفی.

و الهناء سهوه الهضم و قبول لطبع و یستعمل فی الطعام،و المریء من الری و هو فی الشراب کالهنیء فی الطعام غیر أن الهناء یستعمل فی الطعام و الشراب معا؛فاذا قیل:هنیئا مریئا اختص الهناء بالطعام و الری بالشراب.

قوله تعالی: وَ لاٰ تُؤْتُوا السُّفَهٰاءَ أَمْوٰالَکُمُ الَّتِی جَعَلَ اللّٰهُ لَکُمْ قِیٰاماً السفه خفه العقل،و کأن الأصل فی معناه مطلق الخفه فیما من شأنه أن لا یخف و منه الزمام السفیه أی کثیر الاضطراب و ثوب سفیه أی ردیء النسج ثم غلب فی خفه النفس و اختلف باختلاف الأغراض و المقاصد فقیل سفیه لخفیف الرأی فی الامور الدنیویه و سفیه للفاسق غیر المبالی فی أمر دینه و هکذا.

و ظاهر ما یتراءی من الآیه أنه نهی عن الإکثار فی الإنفاق علی السفهاء و إعطائهم من المال أزید من حاجاتهم الضروریه فی الارتزاق،غیر أن وقوع الآیه فی سیاق الکلام فی أموال الیتامی التی یتولی أمر إدارتها و إنمائها الأولیاء قرینه معینه علی کون المراد بالسفهاء هم السفهاء من الیتامی،و أن المراد بقوله: أَمْوٰالِکُمْ ،فی الحقیقه أموالهم اضیف الی الأولیاء بنوع من العنایه کما یشهد به أیضا قوله بعد:و ارزقوهم فیها و اکسوهم،و إن کان و لا بد من دلاله الآیه علی أمر سائر السفهاء غیر الیتامی،فالمراد بالسفهاء ما یعم الیتیم و غیر الیتیم لکن الأول أرجح (۱).

و کیف کان فلو کان المراد بالسفهاء سفهاء الیتامی،فالمراد بقوله: أَمْوٰالِکُمْ ،أموال الیتامی

۱- ۱) .النساء ۲-۶:کلام فی ان جمیع المال لجمیع الناس.

و إنما اضيفت الى الأولياء المخاطبين بعنايه أن مجموع المال و الثروه الموجوده فى الدنيا لمجموع أهلها و إنما اختص بعض أفراد المجتمع ببعض منه و آخر بآخر للصلاح العام الذى يبتنى عليه أصل الملك و الاختصاص فيجب أن يتحقق الناس بهذه الحقيقه و يعلموا أنهم مجتمع واحد و المال كله لمجتمعهم،و على كل واحد منهم أن يكلأه و يتحفظ به و لا يدعه يضيع بتبذير نفوس سفيهه،و تدبير كل من لا يحسن التدبير كالصغير و المجنون،و هذا من حيث الإضافه كقوله تعالى: وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنٰاتِ الْمُؤْمِنٰاتِ فَمِنْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ مِنْ فَتَيٰاتِكُمُ (النساء۲۵/)،و من المعلوم أن المراد بالفتيات ليس الإماء اللاتى يملكها من يريد النكاح.

قوله تعالى: وَ ابْتَلُوا الْيَتٰامىٰ حَتّٰى إِذٰا بَلَغُوا النِّكٰاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ -الى قوله- أَمْوٰالَهُمْ الابتلاء الامتحان و المراد من بلوغ النكاح بلوغ أوانه ففيه مجاز عقلى و الإيناس المشاهده و فيه شوب من معنى الالفه فإن مادته الانس،و الرشد خلاف الغى و هو الاهتداء الى مقاصد الحياه،و دفع مال اليتيم اليه كنايه عن إعطائه إياه و إقباضه له كأن الولى يدفعه اليه و يبعده من نفسه فهو على ابتذاله كنايه لطيفه.

و قوله: حَتّٰى إِذٰا بَلَغُوا النِّكٰاحَ ،متعلق بقوله: وَ ابْتَلُوا ،ففيه دلاله ما على الاستمرار بأن يشرع الولى فى ابتلائه من أول ما يأخذ فى التمييز و يصلح للإبتلاء حتى ينتهى الى أوان النكاح و يبلغ مبلغ الرجال،و من طبع هذا الحكم ذلك فإن إيناس الرشد لا يحصل بابتلاء الصبى فى واقعه أو واقعتين بل يجب تكراره الى أن يحصل الإيناس و يتمشى بالطبع فى مده مديده حتى يبلغ الرهاق ثم النكاح.

و قوله: فَإِنْ آنَسْتُمْ ،الخ؛تفريع على قوله: وَ ابْتَلُوا و المعنى:و امتحنوهم فإن آنستم منهم الرشد فادفعوا اليهم أموالهم؛و الكلام يؤذن بأن بلوغ النكاح بمنزله المقتضى لدفع المال الى اليتيم و استقلاله بالتصرف فى مال نفسه و الرشد شرط لنفوذ التصرف؛و قد فصل الإسلام

ص :۶۱۴

النظر فی أمر البلوغ من الإنسان فاکتفی فی أمر العبادات و أمثال الحدود و الدیات بمجرد السن الشرعی الذی هو سن النکاح و اشترط فی نفوذ التصرفات المالیه و الأقاریر و نحوها مما تفصیل بیانه فی الفقه مع بلوغ النکاح الرشد،و ذلک من لطائف سلوکه فی مرحله التشریع فإن اهمال أمر الرشد و إلغاءه فی التصرفات المالیه و نحوها مما یختل به نظام الحیاه الاجتماعیه فی قبیل الأیتام و یکون نفوذ تصرفاتهم و أقاریرهم مفضیا الی غرور الأفراد الفاسده إیاهم و إخراج جمیع وسائل الحیاه من أیدیهم بأدنی وسیله بالکلمات المزیفه و المواعید الکاذبه و المعاملات الغریره الی ذلک فالرشد لا محیص من اشتراطه فی هذا النوع من الامور،و أمثال العبادات فعدم الحاجه فیها الی الاشتراط ظاهر،و کذا أمثال الحدود و الدیات فإن ادراک قبح هذه الجنایات و المعاصی و فهم وجوب الکف عنها لا یحتاج فیه الی الرشد بل الإنسان یقوی علی تفهم ذلک قبله و لا یختلف حاله فی ذلک قبل الرشد و بعده.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَأْکُلُوهٰا إِسْرٰافاً وَ بِدٰاراً أَنْ یَکْبَرُوا اه؛الإسراف هو التعدی عن الاعتدال فی العمل،و البدار هو المبادره الی الشیء و قوله و بدارا أن یکبروا فی معنی حذر أن یکبروا فلا یدعوکم أن تأکلوا،و حذف النفی أو ما فی معناه قبل أن و أن قیاسی علی ما ذکره النحاه قال تعالی: یُبَیِّنُ اللّٰهُ لَکُمْ أَنْ تَضِلُّوا (النساء۱۷۶/)أی لئلا تضلوا أو حذر أن تضلوا.

و أما قوله تعالی: فَإِذٰا دَفَعْتُمْ إِلَیْهِمْ أَمْوٰالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَیْهِمْ فتشریع للاستشهاد عند الدفع تحکیما للأمر و رفعا لغائله الخلاف و النزاع فمن الممکن أن یدعی الیتیم بعد الرشد و أخذ المال من الولی علیه؛ثم ذیل الجمیع بقوله تعالی: وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ حَسِیباً ،ربطا للحکم بمنشئه الأصلی الأولی أعنی محتد کل حکم من أسمائه و صفاته تعالی فإنه تعالی لما کان حسیبا لم یکن لیخلی أحکام عباده من غیر حساب دقیق و هو تشریعه المحکم،و تتمیما للتربیه الدینیه الإسلامیه فإن الإسلام یأخذ فی تربیه الناس علی أساس التوحید اذ الإشهاد و إن کان

رافعا غالبا للخلاف و النزاع لكن ربما تخلف عنه لانحراف من الشهود فی عدالتهم أو غیر ذلک من متفرقات العوامل لکن السبب المعنوی العالی القوی هو تقوی اللّه الذی کفی به حسیبا فلو جعل الولی و الشهود و الیتیم الذی دفع الیه المال هذا المعنی نصب أعینهم لم یقع هناک اختلاف و لا نزاع البته (۱)(۲)(۳).

[سوره النساء (۴): الآیات ۷ الی ۱۰]

اشاره

لِلرِّجٰالِ نَصِیبٌ مِمّٰا تَرَکَ اَلْوٰالِدٰانِ وَ اَلْأَقْرَبُونَ وَ لِلنِّسٰاءِ نَصِیبٌ مِمّٰا تَرَکَ اَلْوٰالِدٰانِ وَ اَلْأَقْرَبُونَ مِمّٰا قَلَّ مِنْهُ أَوْ کَثُرَ نَصِیباً مَفْرُوضاً (۷) وَ إِذٰا حَضَرَ اَلْقِسْمَهَ أُولُوا اَلْقُرْبیٰ وَ اَلْیَتٰامیٰ وَ اَلْمَسٰاکِینُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (۸) وَ لْیَخْشَ اَلَّذِینَ لَوْ تَرَکُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّیَّهً ضِعٰافاً خٰافُوا عَلَیْهِمْ فَلْیَتَّقُوا اَللّٰهَ وَ لْیَقُولُوا قَوْلاً سَدِیداً (۹) إِنَّ اَلَّذِینَ یَأْکُلُونَ أَمْوٰالَ اَلْیَتٰامیٰ ظُلْماً إِنَّمٰا یَأْکُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ نٰاراً وَ سَیَصْلَوْنَ سَعِیراً (۱۰)

بیان:

قوله تعالی: لِلرِّجٰالِ نَصِیبٌ مِمّٰا تَرَکَ اَلْوٰالِدٰانِ وَ اَلْأَقْرَبُونَ الآیه؛النصیب

۱- ۱) .النساء ۲-۶:بحث روائی فی تعدد الزوجات.

۲- ۲) .النساء ۲-۶:بحث علمی فی فصول؛النکاح من مقاصد الطبیعه؛استیلاء الذکور علی الاناث؛تعدد الزوجات.

۳- ۳) .النساء ۲-۶:بحث علمی فی تعدد زوجات النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

هو الحظ و السهم،و أصله من النصب بمعنى الإقامه لأن كل سهم عند القسمه ينصب على حدته حتى لا يختلط بغيره،و التركه ما بقى من مال الميت بعده كأنه يتركه و يرتحل فاستعماله الأصلى استعمال استعارى ثم ابتذل،و الأقربون هم القرابه الأدنون،و اختيار هذا اللفظ على مثل الأقرباء و اولى القربى و نحوهما لا يخلو من دلاله على أن الملاك فى الإرث أقربيه الميت من الوارث على ما سيجىء البحث عنه فى قوله تعالى: آبٰاؤُكُمْ وَ أَبْنٰاؤُكُمْ لاٰ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً (النساء/١١)،و الفرض قطع الشىء الصلب و إفراز بعضه من بعض،و لذا يستعمل فى معنى الوجوب لكون إتيانه و امتثال الأمر به مقطوعا معينا من غير تردد، و النصيب المفروض هو المقطوع المعين.

و فى الآيه إعطاء للحكم الكلى و تشريع لسنه حديثه غير مألوفه فى أذهان المكلفين،فإن حكم الوراثه على النحو المشروع فى الإسلام لم يكن قبل ذلك مسبوقا بالمثل و قد كانت العادات و الرسوم على تحريم عده من الوراث عادت بين الناس كالطبيعه الثانيه تثير النفوس و تحرك العواطف الكاذبه لو قرع بخلافها أسماعهم.

و قد مهد له فى الإسلام أولا بتحكيم الحب فى اللّه و الإيثار الدينى بين المؤمنين فعقد الاخوه بين المؤمنين ثم جعل التوارث بين الأخوين،و انتسخ بذلك الرسم السابق فى التوارث،و انقلع المؤمنون من الأنفه و العصبيه القديمه ثم لما اشتد عظم الدين،و قام صلبه شرع التوارث بين اولى الأرحام فى حين كان هناك عده كافيه من المؤمنين يلبون لهذا التشريع أحسن التلبيه.

و بهذه المقدمه يظهر أن المقام مقام التصريح و رفع كل لبس متوهم بضرب القاعده الكليه بقوله: لِلرِّجٰالِ نَصِيبٌ مِمّٰا تَرَكَ الْوٰالِدٰانِ وَ الْأَقْرَبُونَ ،فالحكم مطلق غير مقيد بحال أو وصف أو غير ذلك أصلا،كما أن موضوعه أعنى الرجال عام غير مخصص بشىء متصل فالصغار ذووا نصيب كالكبار.

ثم قال:و للنساء نصيب مما ترک الوالدان و الأقربون و هو کسابقه عام من غير شائبه تخصيص فيعم جميع النساء من غير تخصيص أو تقييد،و قد أظهر فی قوله مما ترک الوالدان و الأقربون مع أن المقام مقام الإضمار إيفاء لحق التصريح و التنصيص،ثم قال:مما قل منه أو کثر زياده فی التوضيح و أن لا مجال للمسامحه فی شیء منه لقله و حقاره،ثم قال:نصيبا،الخ؛ و هو حال من النصيب لما فيه من المعنی المصدری،و هو بحسب المعنی تأکيد علی تأکيد و زياده فی التنصيص علی أن السهام مقطوعه معينه لا تقبل الاختلاط و الإبهام.

و قد استدل بالآيه علی عموم حکم الإرث لترکه النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و غيره،و علی بطلان التعصيب فی الفرائض.

قوله تعالی: وَ إِذٰا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبىٰ الخ؛ظاهر الآيه أن المراد من حضورهم القسمه أن يشهدوا قسمه الترکه حينما يأخذ الورثه فی اقتسامها لا ما ذکره بعضهم أن المراد حضورهم عند الميت حينما يوصی و نحو ذلک،و هو ظاهر.

و علی هذا فالمراد من اولی القربی الفقراء منهم،و يشهد بذلک أيضا ذکرهم مع اليتامی و المساکين،و لحن قوله: فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ،الظاهر فی الاسترحام و الاسترفاق،و يکون الخطاب حينئذ لأولياء الميت و الورثه.

قوله تعالی: وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعٰافاً خٰافُوا عَلَيْهِمْ الآيه؛الخشيه التأثر القلبی مما يخاف نزوله مع شائبه تعظيم و إکبار،و سداد القول و سدده کونه صوابا مستقيما.

و لا يبعد أن تکون الآيه متعلقه نحو تعلق بقوله: لِلرِّجٰالِ نَصِيبٌ ،الآيه؛لاشتماله علی إرث الأيتام الصغار بعمومه فتکون مسوقه سوق التهديد لمن يسلک مسلک تحريم صغار الورثه من الإرث،و يکون حينئذ قوله: وَ لْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً کنايه عن اتخاذ طريقه التحريم و العمل بها و هضم حقوق الأيتام الصغار،و الکنايه بالقول عن الفعل للملازمه بينهما غالبا شائع فی

اللسان كقوله تعالى: وَ قُولُوا لِلنّٰاسِ حُسْناً الآيه(البقره/۸۳)،و يؤيده توصيف القول بالسديد دون المعروف و اللين و نحوهما فإن ظاهر السداد فی القول كونه قابلا للاعتقاد و العمل به لا قابلا لأن يحفظ به كرامه الناس و حرمتهم.

و أما قوله: فَلْيَتَّقُوا اللّٰهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً فقد تقدم أن الظاهر أن المراد بالقول هو الجرى العملی و من الممكن أن يراد به الرأی (۱).

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوٰالَ الْيَتٰامىٰ ظُلْماً إِنَّمٰا يَأْكُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ نٰاراً الآيه؛يقال:أكله و أكله فی بطنه و هما بمعنى واحد غير أن التعبير الثانی أصرح و الآيه كسابقتها متعلقه المضمون بقوله: لِلرِّجٰالِ نَصِيبٌ ،الآيه؛و هی تخويف و ردع للناس عن هضم حقوق اليتامى فی الإرث.

و الآيه مما يدل على تجسم الأعمال على ما مر فی الجزء الأول من هذا الكتاب فی قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَسْتَحْيِی أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مٰا (البقره/۲۶)و لعل هذا مراد من قال من المفسرين أن قوله: إِنَّمٰا يَأْكُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ نٰاراً ،كلام على الحقيقه دون المجاز و على هذا لا يرد عليه ما أورده بعض المفسرين:أن قوله: يَأْكُلُونَ اريد به الحال دون الاستقبال بقرينه عطف قوله: وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً عليه و هو فعل دخل عليه حرف الاستقبال فلو كان المراد به حقيقه الأكل-و وقته يوم القيامه-لكان من اللازم أن يقال:سيأكلون فی بطونهم نارا و سيصلون سعيرا فالحق أنّ المراد به المعنى المجازی،و أنهم فی أكل مال اليتيم كمن يأكل فی بطنه نارا انتهى ملخصا و هو غفله عن معنى تجسم الأعمال.

و أما قوله: وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً فهو إشاره الى العذاب الأخروی،و السعير من أسماء نار الآخره يقال صلی النار يصلاها صلى و صليا أی احترق بها و قاسى عذابها.

ص :۶۱۹

۱- ۱) .النساء ۷-۱۰:كلام فی انعكاس العمل على صاحبه.

[سوره النساء (۴): الآيات ۱۱ الی ۱۴]

اشاره

يُوصِيكُمُ اَللّٰهُ فِي أَوْلاٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ اَلْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسٰاءً فَوْقَ اِثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثٰا مٰا تَرَكَ وَ إِنْ كٰانَتْ وٰاحِدَةً فَلَهَا اَلنِّصْفُ وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وٰاحِدٍ مِنْهُمَا اَلسُّدُسُ مِمّٰا تَرَكَ إِنْ كٰانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَهُ أَبَوٰاهُ فَلِأُمِّهِ اَلثُّلُثُ فَإِنْ كٰانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ اَلسُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهٰا أَوْ دَيْنٍ آبٰاؤُكُمْ وَ أَبْنٰاؤُكُمْ لاٰ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ عَلِيماً حَكِيماً (۱۱) وَ لَكُمْ نِصْفُ مٰا تَرَكَ أَزْوٰاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كٰانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ اَلرُّبُعُ مِمّٰا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهٰا أَوْ دَيْنٍ وَ لَهُنَّ اَلرُّبُعُ مِمّٰا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كٰانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ اَلثُّمُنُ مِمّٰا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهٰا أَوْ دَيْنٍ وَ إِنْ كٰانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاٰلَةً أَوِ اِمْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وٰاحِدٍ مِنْهُمَا اَلسُّدُسُ فَإِنْ كٰانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَهُمْ شُرَكٰاءُ فِي اَلثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصىٰ بِهٰا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (۱۲) تِلْكَ حُدُودُ اَللّٰهِ وَ مَنْ يُطِعِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ ذٰلِكَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (۱۳) وَ مَنْ يَعْصِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نٰاراً خٰالِداً فِيهٰا وَ لَهُ عَذٰابٌ مُهِينٌ (۱۴)

بیان:

قوله تعالی: یُوصِیکُمُ اللّٰهُ فِی أَوْلاٰدِکُمْ لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَیَیْنِ الإیصاء و التوصیه هو العهد و الأمر،و قال الراغب فی مفردات القرآن:الوصیه:التقدم الی الغیر بما یعمل به مقترنا بوعظ،انتهی.

و فی العدول عن لفظ الأبناء الی الأولاد دلاله علی أن حکم السهم و السهمین مخصوص بما ولده المیت بلا واسطه،و أما أولاد الأولاد فنازلا فحکمهم حکم من یتصلون به فلبنت الابن سهمان و لابن البنت سهم واحد اذا لم یکن هناک من یتقدم علی مرتبتهم کما أن الحکم فی أولاد الإخوه و الأخوات حکم من یتصلون به،و أما لفظ الابن فلا یقضی بنفی الواسطه کما أن الأب أعم من الوالد.

و أما قوله تعالی فی ذیل الآیه: آبٰاؤُکُمْ وَ أَبْنٰاؤُکُمْ لاٰ تَدْرُونَ أَیُّهُمْ أَقْرَبُ لَکُمْ نَفْعاً فسیجیء أن هناک عنایه خاصه تستوجب اختیار لفظ الأبناء علی الأولاد.

و أما قوله: لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَیَیْنِ ففی انتخاب هذا التعبیر إشعار بإبطال ما کانت علیه الجاهلیه من منع توریث النساء فکأنه جعل إرث الانثی مقررا معروفا و أخبر بأن للذکر مثله مرتین أو جعله هو الأصل فی التشریع و جعل إرث الذکر محمولا علیه یعرف بالإضافه إلیه،و لو لا ذلک لقال:للأنثی نصف حظ الذکر و اذ لا یفید هذا المعنی و لا یلتئم السیاق معه-کما تری-هذا ما ذکره بعض العلماء و لا بأس به،و ربما أید ذلک بأن الآیه لا تتعرض بنحو التصریح مستقلا إلا لسهام النساء و إن صرحت بشیء من سهام الرجال فمع ذکر سهامهن معه کما فی الآیه التالیه و الآیه التی فی آخر السوره.

و بالجمله قوله: لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَیَیْنِ فی محل التفسیر لقوله: یُوصِیکُمُ اللّٰهُ فِی أَوْلاٰدِکُمْ ،

ص :621

و اللام فی لِلـذَّکَرِ و اَلْـأُنْثَيَيْنِ لتعريف الجنس أی إن جنس الـذکر يعـادل فی السـهم أنثيين،و هـذا إنما يکون اذا کان هناک فی الوراث ذکر و انثی معا فللـذکر ضـعفا الانثی سـهما و لم يقل:للذکر مثل حظی الانثی أو مثلا حظ الانثی ليدل الکلام علی سـهم الانثيين اذا انفردتا بإيثار الإيجاز علی ما سيجیء.

و علی أی حال اذا ترکبت الورثه من الذکور و الإناث کان لکل ذکر سهمان و لکل انثی سهم الی أی مبلغ بلغ عددهم.

قوله تعالی: فَإِنْ کُنَّ نِسٰاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثٰا مٰا تَرَکَ ظاهر وقوع هـذا الکلام بعد قوله: «لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ» أنه علی تقدير معطوف عليه محذوف کأن قيل:

هذا اذا کانوا نساء و رجالا فإن کن نساء،الخ؛و هو شائع فی الاستعمال و منه قوله تعالی:

وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلّٰهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ (البقره/١٩٦)،و قوله:

أَيّٰاماً مَعْدُودٰاتٍ فَمَنْ کٰانَ مِنْکُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلیٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّٰامٍ أُخَرَ (البقره/١٨۴).

و الضـمير فی کن راجع الی الأولاـد فی قوله: فِی أَوْلاٰدِکُمْ و تـأنيث الضـمير لتـأنيث الخـبر، و الضـمير فی قوله: تَرَکَ راجع الی الميت المعلوم من سياق الکلام.

قوله تعالی: وَ إِنْ کٰانَتْ وٰاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ الضمير الی الولد المفهوم من السياق و تأنيثه باعتبار الخبر و المراد بالنصف نصف ما ترک فاللام عوض عن المضاف اليه.

و لم يـذکر سـهم الأنثيين فإنه مفهوم من قوله: لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فإن ذکرا و انثی اذا اجتمعا کان سـهم الانثی الثلث للآيه و سهم الـذکر الثلثين و هو حظ الانثيين فحظ الانثيين الثلثان فهـذا المقدار مفهوم من الکلام إجمالا و ليس فی نفسه متعينا للفهم اذ لا ينافی ما لو کان قيل بعـده:و إن کانتا اثنتين فلهما النصف أو الجميع مثلا لکن يعينه السکوت عن ذکر هذا السـهم و التصـريح الذی فی قوله: فَإِنْ کُنَّ نِسٰاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ،فإنه يشعر بالتعمد فی ترک ذکر حظ الانثيين.

على أن كون حظهما الثلثين هو الذى عمل به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و جرى العمل عليه منذ عهده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الى عهدنا بين علماء الامه سوى ما نقل من الخلاف عن ابن عباس.

قوله تعالى: وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وٰاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ -الى قوله- فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ فى عطف الأبوين فى الحكم على الأولاد دلاله على أن الأبوين يشاركان الاولاد فى طبقتهم،و قوله: وَ وَرِثَهُ أَبَوٰاهُ ،أى انحصر الوارث فيهما،و فى قوله: فَإِنْ كٰانَ لَهُ إِخْوَةٌ ،الخ؛ بعد قوله: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَهُ أَبَوٰاهُ ،دلاله على أن الإخوه واقعه فى طبقه ثانيه لا حقه لطبقه الأبناء و البنات لا ترث مع وجودهم غير أن الإخوه تحجب الام عن الثلث.

قوله تعالى: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهٰا أَوْ دَيْنٍ أما الوصيه فهى التى تندب إليها قوله: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذٰا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ الآيه(البقره/ ۱۸۰)و لا ينافى تقدمها فى الآيه على الدين ما ورد فى السنه أن الدين مقدم على الوصيه لأن الكلام ربما يقدم فيه غير الأهم على الأهم لأن الاهم لمكانته و قوه ثبوته ربما لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه غيره من التأكيد و التشديد،و منه التقديم،و على هذا فقوله: أَوْ دَيْنٍ فى مقام الاضراب و الترقى طبعا.

و بذلك يظهر وجه توصيف الوصيه بقوله: يُوصِي بِهٰا ففيه دلاله على التأكيد،و لا يخلو مع ذلك من الإشعار بلزوم إكرام الميت و مراعاه حرمته فيما وصى به كما قال تعالى: فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مٰا سَمِعَهُ فَإِنَّمٰا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ الآيه(البقره۱۸۱/).

قوله تعالى: آبٰاؤُكُمْ وَ أَبْنٰاؤُكُمْ لاٰ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً الخطاب للورثه أعنى لعامه المكلفين من حيث إنهم يرثون أمواتهم،و هو كلام ملقى للإيماء إلى سر اختلاف السهام فى وراثه الآباء و الأبناء و نوع تعليم لهم خوطبوا به بلسان «لاٰ تَدْرُونَ» و أمثال هذه التعبيرات شائعه فى اللسان.

على أنه لو كان الخطاب لغير الورثه أعنى للناس من جهه أنهم سيموتون و يورثون

آباءهم و أبناءهم لم يكن وجه لقوله: أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فإن الظاهر أن المراد بالانتفاع هو الانتفاع بالمال الموروث و هو إنما يعود الى الورثه دون الميت.

و تقديم الآباء على الأبناء يشعر بكون الآباء أقرب نفعا من الأبناء،كما فى قوله تعالى: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَهَ مِنْ شَعائِرِ اللّهِ (البقره١۵٨/)و قد مرت الروايه عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال:

أبدأ بما بدأ اللّه،الحديث.

و الأمر على ذلك بالنظر الى آثار الرحم و اعتبار العواطف الإنسانيه فإن الإنسان أرأف بولده منه بوالديه و هو يرى بقاء ولده بقاء لنفسه دون بقاء والديه فآباء الإنسان أقوى ارتباطا و أمس وجودا به من أبنائه،و اذا بنى الانتفاع الإرثى على هذا الاصل كان لازمه أن يذهب الإنسان اذا ورث أباه مثلا بسهم أزيد منه اذا ورث ابنه مثلا و إن كان ربما يسبق الى الذهن البدوى أن يكون الأمر بالعكس.

و هذه الآيه أعنى قوله: آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ ،نفعا من الشواهد على أنه تعالى بنى حكم الارث على أساس تكوينى خارجى كسائر الأحكام الفطريه الاسلاميه.

على أن الآيات المطلقه القرآنيه الناظره الى أصل التشريع أيضا كقوله: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (الروم/ ٣٠)تدل على ذلك،و كيف يتصور مع وجود أمثال هذه الآيات أن يرد فى الشريعه أحكام إلزاميه و فرائض غير متغيره و ليس لها أصل فى التكوين فى الجمله.

و ربما يمكن أن يستشم من الآيه أعنى قوله: آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ ،الخ؛تقدم أولاد الأولاد على الأجداد و الجدات فإن الأجداد و الجدات لا يرثون مع وجود الأولاد و أولاد الأولاد.

قوله تعالى: فَرِيضَهً مِنَ اللّهِ الخ؛الظاهر أنه منصوب بفعل مقدر و التقدير خذوا أو ألزموا و نحو ذلك و تأكيد بالغ أن هذه السهام المذكوره قدمت إليكم و هى مفرزه معينه لا

تتغير عما وضعت عليه.

و هـذه الآيه متكفله لبيان سـهام الطبقه الاولى و هى الأولاد و الأب و الام على جميع تقاديرها إما تصـريحا كسـهم الاب و الام و هو السدس لكل واحد منهما مع وجود الأولاد، و الثلث أو السدس للأم مع عدمهم على ما ذكر فى الآيه و كسـهم البنت الواحده و هو النصف، و سـهم البنات اذا تفردن و هو الثلثان،و سـهم البنين و البنات اذا اجتمعوا و هو للـذكر مثل حظ الانثيين،و يلحق بها سهم البنتين و هو الثلثان كما تقدم.

و إما تلويحا كسـهم الابن الواحـد فانه يرث جميع المال لقوله: لِلـذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ و قوله فى البنت: وَ إِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ،و كـذا الأبنـاء اذا تفردوا لمـا يفهم من قوله: لِلـذَّكَرِ مِثْـلُ حَـظِّ الْـأُنْثَيَيْنِ ،أن الأبنـاء متسـاوون فى السـهام؛و أمر الآيه فى إيجازها عجيب.

و اعلم أيضا أن مقتضـى إطلاق الآيه عدم الفرق فى إيراث المال و إمتاع الورثه بين النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بين سائر النـاس و قـد تقـدم نظير هـذا الإطلاـق أو العموم فى قوله تعـالى: لِلرِّجـالِ نَصِـيبٌ مِمّا تَرَكَ الْوالِـدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ لِلنِّساءِ نَصِـيبٌ ،الآيه؛و ما ربما قيل:إن خطابات القرآن العامه لا تشـمل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لجريانها على لسانه فهو مما لا ينبغى أن يصغى اليه.

نعم هاهنا نزاع بين أهل السـنه و الشـيعه فى أن النبى هل يورث أو أن ما تركه صدقه و منشأه الروايه التى رواها أبو بكر فى قصـه فدك و البحث فيه خارج عن وضع هذا الكتاب و لذلك نرى التعرض له هاهنا فضلا فليراجع محله المناسب له.

قـوله تعـالى: وَ لَكُمْ نِصْـفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ -الى قـوله- تُوصُـونَ بِها أَوْ دَيْنٍ المعنى ظـاهر،و قـد اسـتعمل النصـف بالإضـافه فقيل:نصف ما ترك،و الربع بالقطع فقيل:و لهن الربع مما تركتم فإن القطع عن الإضافه يستلزم التتميم بمن ظاهره أو مقدره،و من هـذه تفيـد معنى الأخـذ و الشـروع من الشـىء و هـذا المعنى ينـاسب كون مـدخول من كـالجزء التـابع من الشـىء المبتـدإ منه و كالمستهلك فيه،و هذا إنما يناسب ما اذا كان المدخول قليلا أو ما هو

ص :۶۲۵

کالقلیل بالنسبه الی المبدإ منه کالسدس و الربع و الثلث من المجموع دون مثل النصف و الثلثین،و لذا قال تعالی:السدس مما ترک؛و قال:فلأمه الثلث؛و قال:لکم الربع بالقطع عن الإضافه فی جمیع ذلک؛و قال:و لکم نصف ما ترک؛و قال:فلهن ثلثا ما ترک بالإضافه؛و قال:

فلها النصف أی نصف ما ترک فاللام عوض عن المضاف الیه.

قوله تعالی: وَ إِنْ کٰانَ رَجُلٌ یُورَثُ کَلاٰلَةً أَوِ امْرَأَةٌ الی آخر الآیه؛أصل الکلاله مصدر بمعنی الإحاطه،و منه الإکلیل لإحاطته بالرأس و منه الکل-بضم الکاف- لإحاطته بالأجزاء،و منه الکل-بفتح الکاف-لنوع إحاطه منه ثقیله علی من هو کلّ علیه، قال الراغب:الکلاله اسم لما عدا الولد و الوالد من الورثه،قال:و روی أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سئل عن الکلاله فقال:من مات و لیس له ولد و لا والد فجعله اسما للمیت،و کلا القولین صحیح فإن الکلاله مصدر یجمع الوارث و الموروث جمیعا،انتهی.

اقول:و علی هذا فلا مانع من کون کان ناقصه و رجل اسمها و یورث وصفا للرجل و کلاله خبرها و المعنی:و إن کان المیت کلاله للوارث لیس أبا له و لا ابنا.و یمکن أن یکون کان تامه و رجل یورث فاعله و کلاله مصدرا وضع موضع الحال،و یؤول المعنی أیضا الی کون المیت کلاله للورثه،و قال الزجاج علی ما نقل عنه:من قرأ یورث-بکسر الراء-فکلاله مفعول، و من قرأ یورث-بفتح الراء-فکلاله منصوب علی الحال.

و قوله: غَیْرَ مُضَارٍّ منصوب علی الحال،و المضاره هو الإضرار و ظاهره أن المراد به الإضرار بالدین من قبل المیت کأن یعتمل بالدین للإضرار بالورثه و تحریمهم الإرث،أو المراد المضاره بالدین کما ذکروا بالوصیه بما یزید علی ثلث المال.

قوله تعالی: تِلْکَ حُدُودُ اللّٰهِ الی آخر الآیتین الحد هو الحاجز بین الشیئین الذی یمنع اختلاط أحدهما بالآخر و ارتفاع التمایز بینهما کحد الدار و البستان،و المراد بها أحکام الارث و الفرائض المبینه،و قد عظم اللّه أمرها بما ذکر فی الآیتین من الثواب علی إطاعه

و إطاعه رسوله فيها و العذاب الخالد المهين على المعصيه (۱)(۲)(۳).

[سوره النساء (۴): الآیات ۱۵ الی ۱۶]

اشاره

وَ اَللاّٰتِي يَأْتِينَ اَلْفٰاحِشَةَ مِنْ نِسٰائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي اَلْبُيُوتِ حَتّٰى يَتَوَفّٰاهُنَّ اَلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اَللّٰهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (۱۵) وَ اَلَّذٰانِ يَأْتِيٰانِهٰا مِنْكُمْ فَآذُوهُمٰا فَإِنْ تٰابٰا وَ أَصْلَحٰا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمٰا إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ تَوّٰاباً رَحِيماً (۱۶)

بيان:

قوله تعالى: وَ اللاّٰتِي يَأْتِينَ الْفٰاحِشَةَ -الى قوله- مِنْكُمْ يقال:أتاه و أتى به أى فعله،و الفاحشه من الفحش و هو الشناعه فهى الطريقه الشنيعه،و قد شاع استعمالها فى الزنا، و قد اطلقت فى القرآن على اللواط أو عليه و على السحق معا فى قوله تعالى: إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفٰاحِشَةَ مٰا سَبَقَكُمْ بِهٰا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعٰالَمِينَ (العنكبوت/۲۸).

و الظاهر أن المراد بها هاهنا الزنا على ما ذكره جمهور المفسرين،و رووا أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذكر عند نزول آيه الجلد أن الجلد هو السبيل الذى جعله اللّه لهن اذا زنين،و يشهد بذلك ظهور الآيه فى أن هذا الحكم سينسخ حيث يقول تعالى:أو يجعل اللّه لهن سبيلا،و لم ينقل أن السحق

۱- ۱) .النساء ۱۱-۱۴:كلام فى الارث على وجه كلى.

۲- ۲) .النساء ۱۱-۱۴:بحث روائى فى الارث.

۳- ۳) .النساء ۱۱-۱۴:بحث علمى فى فصول(ظهور الارث،ظهور الارث،تحول الارث تدريجيا،الوراثه بين الامم المتمدنه،ما ذا صنع الاسلام و الظرف هذا الظرف؟علام استقر حال النساء و اليتامى فى الاسلام؟قوانين الارث الحديثه؟مقايسه هذه السنن بعضها الى بعض،الوصيه).

نسخ حده بشیء آخر،و لا أن هذا الحد اجری علی أحد من اللاتی یأتینه و قوله: أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، یشهد بأن العدد من الرجال.

قوله تعالی: فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِی الْبُیُوتِ الی آخر الآیه؛رتب الإمساک و هو الحبس المخلد علی الشهاده لا علی أصل تحقق الفاحشه و إن علم به اذا لم یشهد علیه الشهود و هو من منن اللّه سبحانه علی الامه من حیث السماحه و الإغماض.

و الحکم هو الحبس الدائم بقرینه الغایه المذکوره فی الکلام أعنی قوله: حَتّٰی یَتَوَفّٰاهُنَّ الْمَوْتُ ،غیر أنه لم یعبر عنه بالحبس و السجن بل بالإمساک لهن فی البیوت،و هذا أیضا من واضح التسهیل و السماحه بالإغماض،و قوله: حَتّٰی یَتَوَفّٰاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ یَجْعَلَ اللّٰهُ لَهُنَّ سَبِیلاً ،أی طریقا الی التخلص من الإمساک الدائم و النجاه منه.

و فی التردید إشعار بأن من المرجو أن ینسخ هذا الحکم،و هذا کان فإن حکم الجلد نسخه فإن من الضروری أن الحکم الجاری علی الزانیات فی أواخر عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المعمول به بعده بین المسلمین هو الجلد دون الإمساک فی البیوت فالآیه علی تقدیر دلالتها علی حکم الزانیات منسوخه بآیه الجلد و السبیل المذکور فیها هو الجلد بلا ریب.

قوله تعالی: وَ اللَّذٰانِ یَأْتِیٰانِهٰا مِنْکُمْ فَآذُوهُمٰا ،الآیتان متناسبتان مضمونا و الضمیر فی قوله: یَأْتِیٰانِهٰا ،راجع الی الفاحشه قطعا،و هذا یؤید کون الآیتین جمیعا مسوقتین لبیان حکم الزنا،و علی ذلک فالآیه الثانیه متممه الحکم فی الاولی فإن الاولی لم تتعرض إلا للنساء من الحکم،و الثانیه تبین الحکم فیهما معا و هو الإیذاء فیتحصل من مجموع الآیتین حکم الزانی و الزانیه معا و هو إیذاؤهما و إمساک النساء فی البیوت.

لکن لا یلائم ذلک قوله تعالی بعد:فإن تابا و اصلحا فاعرضوا عنهما،فإنه لا یلائم الحبس المخلد فلا بد أن یقال:إن المراد بالإعراض الإعراض عن الإیذاء دون الحبس فهو بحاله.

و لهذا ربما قیل تبعا لما ورد فی بعض الروایات(و سننقلها)إن الآیه الاولی لبیان حکم الزنا

فى الثيب،و الثانيه مسوقه لحكم الأبكار و إن المراد بالإيذاء هو الحبس فى الأبكار ثم تخليه سبيلهن مع التوبه و الإصلاح؛لكن يبقى أولا الوجه فى تخصيص الاولى بالثيبات و الثانيه بالأبكار من غير دليل يدل عليه من جهه اللفظ،و ثانيا وجه تخصيص الزانيه بالذكر فى الآيه الاولى،و ذكرهما معا فى الآيه الثانيه: «وَ الَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ» .

و من الممكن أن يقال فى معنى الآيتين نظرا الى الظاهر السابق الى الذهن من الآيتين، و القرائن المحفوف بها الكلام،و ما تقدم من الإشكال فيما ذكروه من المعنى-و اللّه أعلم-:أن الآيه متضمنه لبيان حكم زنا المحصنات ذوات الأزواج،و يدل عليه تخصيص الآيه النساء بالذكر دون الرجال،و إطلاق النساء على الأزواج شائع فى اللسان و خاصه اذا اضيفت الى الرجال كما فى قوله: نِسائِكُمْ ؛قال تعالى: وَ آتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً (النساء۴/) و قال تعالى: مِنْ نِسائِكُمُ اللاّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ (النساء۲۳/).

و على هذا فقد كان الحكم الأولى المؤجل لهن الإمساك فى البيوت ثم شرع لهن الرجم، و ليس نسخا للكتاب بالسنه على ما استدل به الجبائى فإن النسخ إنما هو رفع الحكم الظاهر بحسب الدليل فى التأييد،و هذا حكم مقرون بما يشعر بأنه مؤجل سينقطع بانقطاعه و هو قوله: أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً لظهوره فى أن هناك حكما سيطلع عليهن،و لو سمى هذا نسخا لم يكن به بأس فإنه غير متضمن لما يلزم نسخ الكتاب بالسنه من الفساد فإن القرآن نفسه مشعر بأن الحكم سيرتفع بانقطاع أمده،و النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مبين لمرادات القرآن الكريم.

و الآيه الثانيه متضمنه لحكم الزنا من غير إحصان و هو الإيذاء سواء كان المراد به الحبس أو الضرب بالنعال أو التعبير بالقول أو غير ذلك،و الآيه على هذا منسوخه بآيه الجلد من سوره النور،و أما ما ورد من الروايه فى كون الآيه متضمنه لحكم الأبكار فمن الآحاد و هى مع

ذلک مرسله ضعیفه بالإرسال،و اللّه أعلم هذا و لا یخلو مع ذلک من وهن (۱).

قوله تعالی: فَإِنْ تٰابٰا وَ أَصْلَحٰا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمٰا الخ؛تقیید التوبه بالإصلاح لتحقیق حقیقه التوبه،و تبیین أنها لیست مجرد لفظ أو حاله مندفعه.

[سوره النساء (۴): الآیات ۱۷ الی ۱۸]

اشاره

إِنَّمَا اَلتَّوْبَهُ عَلَی اَللّٰهِ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ اَلسُّوءَ بِجَهٰالَهٍ ثُمَّ یَتُوبُونَ مِنْ قَرِیبٍ فَأُولٰئِکَ یَتُوبُ اَللّٰهُ عَلَیْهِمْ وَ کٰانَ اَللّٰهُ عَلِیماً حَکِیماً (۱۷) وَ لَیْسَتِ اَلتَّوْبَهُ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ اَلسَّیِّئٰاتِ حَتّٰی إِذٰا حَضَرَ أَحَدَهُمُ اَلْمَوْتُ قٰالَ إِنِّی تُبْتُ اَلْآنَ وَ لاَ اَلَّذِینَ یَمُوتُونَ وَ هُمْ کُفّٰارٌ أُولٰئِکَ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰاباً أَلِیماً (۱۸)

بیان:

قوله تعالی: إِنَّمَا التَّوْبَهُ عَلَی اللّٰهِ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهٰالَهٍ ثُمَّ یَتُوبُونَ مِنْ قَرِیبٍ التوبه هی الرجوع،و هی رجوع من العبد الی اللّه سبحانه بالندامه و الانصراف عن الإعراض عن العبودیه،و رجوع من اللّه الی العبد رحمه بتوفیقه للرجوع الی ربه أو بغفران ذنبه،و قد مر مرارا أن توبه واحده من العبد محفوفه بتوبتین من اللّه سبحانه علی ما یفیده القرآن الکریم.

و ذلک أن التوبه من العبد حسنه تحتاج الی قوه و الحسنات من اللّه،و القوه للّه جمیعا فمن اللّه توفیق الأسباب حتی یتمکن العبد من التوبه و یتمشی له الانصراف عن التوغل فی غمرات

۱- ۱) .فان اشعار المنسوخ بالنسخ لا ینافی النسخ(منه).

البعد و الرجوع الی ربه اذا وفق للتوبه و الرجوع احتاج فی التطهر من هذه الألواث،و زوال هذه القذارات،و الورود و الاستقرار فی ساحه القرب الی رجوع آخر من ربه الیه بالرحمه و الحنان و العفو و المغفره.

و هذان الرجوعان من اللّه سبحانه هما التوبتان الحافتان لتوبه العبد و رجوعه قال تعالی:

ثُمَّ تٰابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا (التوبه/۱۱۸)و هذه هی التوبه الاولی،و قال تعالی: فَأُولٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ (البقره/۱۶۰)و هذه هی التوبه الثانیه،و بین التوبتین منه تعالی توبه العبد کما سمعت.

و أما قوله: عَلَى اللّٰهِ لِلَّذِينَ ،لفظه علی و اللام تفیدان معنی النفع و الضرر کما فی قولنا:دارت الدائره لزید علی عمرو،و کان السباق لفلان علی فلان،و وجه إفاده علی و اللام معنی الضرر و النفع أن علی تفید معنی الاستعلاء،و اللام معنی الملک و الاستحقاق،و لازم ذلک أن المعانی المتعلقه بطرفین ینتفع بها أحدهما و یتضرر بها الآخر کالحرب و القتال و النزاع و نحوها فیکون أحدهما الغالب و الآخر المغلوب ینطبق علی الغالب منهما معنی الملک و علی المغلوب معنی الاستعلاء،و کذا ما أشبه ذلک کمعنی التأثیر بین المتأثر و المؤثر،و معنی العهد و الوعد بین المتعهد و المتعهد له،و الواعد و الموعود له و هکذا،فظهر أن کون علی و اللام لمعنی الضرر و النفع إنما هو أمر طار من ناحیه مورد الاستعمال لا من ناحیه معنی اللفظ.

و لما کان نجاح التوبه إنما هو لوعد وعده اللّه عباده فأوجبها بحبسه علی نفسه لهم قال هاهنا:إنما التوبه علی اللّه للذین یعملون السوء بجهاله فیجب علیه تعالی قبول التوبه لعباده لکن لا علی أن لغیره أن یوجب علیه شیئا أو یکلفه سواء سمی ذلک الغیر بالعقل أو نفس الأمر أو الواقع أو الحق أو شیئا آخر،تعالی عن ذلک و تقدس بل علی أنه تعالی وعد عباده أن یقبل توبه التائب منهم و هو لا یخلف المیعاد،فهذا معنی وجوب قبول التوبه علی اللّه فیما یجب،و هو أیضا معنی کل ما یجب علی اللّه من الفعل.

و ظاهر الآیه أولا أنها لبیان أمر التوبه التی للّه أعنی رجوعه تعالی بالرحمه الی عبده دون توبه العبد و إن تبین بذلک أمر توبه العبد بطریق اللزوم فإن توبه اللّه سبحانه اذا تمت شرائطها لم ینفک ذلک من تمام شرائط توبه العبد،و هذا أعنی کون الآیه فی مقام بیان توبه اللّه سبحانه لا یحتاج الی مزید توضیح.

و ثانیا:أنها تبین أمر التوبه أعم مما اذا تاب العبد من الشرک و الکفر بالإیمان أو تاب من المعصیه الی الطاعه بعد الإیمان فإن القرآن یسمی الأمرین جمیعا بالتوبه قال تعالی: اَلَّذِینَ یَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ یُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ یَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِینَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ کُلَّ شَیْءٍ رَحْمَهً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِینَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِیلَکَ (المؤمن/۷)یرید:للذین آمنوا بقرینه أول الکلام فسمی الإیمان توبه،و قال تعالی: ثُمَّ تابَ عَلَیْهِمْ (التوبه/ ۱۱۸).

و الدلیل علی أن المراد هی التوبه أعم من أن تکون من الشرک أو المعصیه التعمیم الموجود فی الآیه التالیه:و لیست التوبه،الخ؛فإنها تتعرض لحال الکافر و المؤمن معا،و علی هذا فالمراد بقوله: یَعْمَلُونَ السُّوءَ ما یعم حال المؤمن و الکافر معا فالکافر کالمؤمن الفاسق ممن یعمل السوء بجهاله إما لأن الکفر من عمل القلب،و العمل أعم من عمل القلب و الجوارح،أو لأن الکفر لا یخلو من أعمال سیئه من الجوارح فالمراد من الذین یعملون السوء بجهاله الکافر و الفاسق اذا لم یکونا معاندین فی الکفر و المعصیه.

و أما قوله تعالی: بِجَهالَهٍ فالجهل یقابل العلم بحسب الذات غیر أن الناس لما شاهدوا من أنفسهم أنهم یعملون کلا من أعمالهم الجاریه عن علم و إراده،و أن الإراده إنما تکون عن حب ما و شوق ما سواء کان الفعل مما ینبغی أن یفعل بحسب نظر العقلاء فی المجتمع أو مما لا ینبغی أن یفعل لکن من له عقل ممیز فی المجتمع عندهم لا یقدم علی السیئه المذمومه عند العقلاء فأذعنوا بأن من اقترف هذه السیئات المذمومه لهوی نفسانی و داعیه شهویه أو غضبیه خفی

علیه وجه العلم،و غاب عنه عقله الممیز الحاکم فی الحسن و القبیح و الممدوح و المذموم،و ظهر علیه الهوی و عندئذ یسمی حاله فی علمه و إرادته «بِجَهَالَةٍ» فی عرفهم و إن کان بالنظر الدقیق نوعا من العلم لکن لما لم یؤثر ما عنده من العلم بوجه قبح الفعل و ذمه فی ردعه عن الوقوع فی القبح و الشناعه الحق بالعدم فکان هو جاهلا عندهم حتی أنهم یسمون الإنسان الشاب الحدث السن قلیل التجربه جاهلا لغلبه الهوی و ظهور العواطف و الإحساسات النیئه علی نفسه،و لذلک أیضا تراهم لا یسمون حال مقترف السیئات اذا لم ینفعل فی اقتراف السیئه عن الهوی و العاطفه جهاله بل یسمونها عنادا و عمدا و غیر ذلک.

فتبین بذلک أن الجهاله فی باب الأعمال إتیان العمل عن الهوی و ظهور الشهوه و الغضب من غیر عناد مع الحق،و من خواص هذا الفعل الصادر عن جهاله أن اذا سکنت ثوره القوی و خمد لهیب الشهوه أو الغضب باقتراف للسیئه أو بحلول مانع أو بمرور زمان أو ضعف القوی بشیب أو مزاج عاد الإنسان الی العلم و زالت الجهاله،و بانت الندامه بخلاف الفعل الصادر عن عناد و تعمد و نحو ذلک فإن سبب صدوره لما لم یکن طغیان شیء من القوی و العواطف و الأمیال النفسانیه بل أمرا یسمی عندهم بخبث الذات و رداءه الفطره لا یزول بزوال طغیان القوی و الأمیال سریعا أو بطیئا بل دام نوعا بدوام الحیاه من غیر أن یلحقه ندامه من قریب إلا أن یشاء اللّه.

نعم ربما یتفق أن یرجع المعاند اللجوج عن عناده و لجاجه و استعلائه علی الحق فیتواضع للحق و یدخل فی ذل العبودیه فیکشف ذلک عندهم عن أن عناده کان عن جهاله،و فی الحقیقه کل معصیه جهاله من الإنسان،و علی هذا لا یبقی للمعاند مصداق إلا من لا یرجع عن سوء عمله الی آخر عهده بالحیاه و العافیه.

و من هنا یظهر معنی قوله تعالی: ثُمَّ یَتُوبُونَ مِنْ قَرِیبٍ أی إن عامل السوء بجهاله لا یقیم عاکفا علی طریقته ملازما لها مدی حیاته من غیر رجاء فی عدوله الی التقوی و العمل الصالح

كما يدوم عليه المعاند اللجوج بل يرجع عن عمله من قريب فالمراد بالقريب العهد القريب أو الزمان القريب و هو قبل ظهور آيات الآخره و قدوم الموت.

و كل معاند لجوج فى عمله اذا شاهد ما يسوؤه من جزاء عمله و وبال فعله ألزمته نفسه على الندامه و التبرى من فعله لكنه بحسب الحقيقه ليس بنادم عن طبعه و هدايه فطرته بل إنما هى حيله يحتالها نفسه الشريره للتخلص من وبال الفعل،و الدليل عليه أنه اذا اتفق تخلصه من الوبال المخصوص عاد ثانيا الى ما كان عليه من سيئات الأعمال قال تعالى: وَ لَوْ رُدُّوا لَعٰادُوا لِمٰا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ (الأنعام/۲۸).

و الدليل على أن المراد بالقريب فى الآيه هو ما قبل ظهور آيه الموت قوله تعالى فى الآيه التاليه:و ليست التوبه الى قوله: قٰالَ إِنِّی تُبْتُ الْآنَ .

و على هذا يكون قوله: ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ كنايه عن المساهله المفضيه الى فوت الفرصه.

و بالجمله يعود المعنى الى أن اللّه سبحانه إنما يقبل توبه المذنب العاصى اذا لم يقترف المعصيه استكبارا على اللّه بحيث يبطل منه روح الرجوع و التذلل للّه،و لم يتساهل و يتسامح فى أمر التوبه تساهلا يؤدى الى فوت الفرصه بحضور الموت.

و يمكن أن يكون قوله: بِجَهٰالَهٍ قيدا توضيحيا،و يكون المعنى:للذين يعملون السوء و لا يكون ذلك إلاّ عن جهل منهم فإنه مخاطره بالنفس و تعرض لعذاب أليم،أو لا يكون ذلك إلاّ عن جهل منهم بكنه المعصيه و ما يترتب عليها من المحذور،و لازمه كون قوله: ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ إشاره الى ما قبل الموت لا كنايه عن المساهله فى أمر التوبه فإن من يأتى بالمعصيه استكبارا و لا يخضع لسلطان الربوبيه يخرج على هذا الفرض بقوله: ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ لا بقوله: بِجَهٰالَهٍ و على هذا لا يمكن الكنايه بقوله: ثُمَّ يَتُوبُونَ عن التكاهل و التوانى فافهم ذلك، و لعل الوجه الأول أوفق لظاهر الآيه.

ص :۶۳۴

قوله تعالی: فَأُولٰئِکَ یَتُوبُ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ وَ کٰانَ اللّٰهُ عَلِیماً حَکِیماً الإتیان باسم الإشاره الموضوع للبعید لا یخلو من إشاره الی ترفیع قدرهم و تعظیم أمرهم کما یدل قوله: یَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهٰالَهٍ علی المساهله فی إحصاء معاصیهم علی خلاف ما فی الآیه الثانیه:

و لیست التوبه للذین یعملون السیئات،الخ.

و قد اختیر لختم الکلام قوله: وَ کٰانَ اللّٰهُ عَلِیماً حَکِیماً دون أن یقال:و کان اللّه غفورا رحیما للدلاله علی أن فتح باب التوبه إنما هو لعلمه تعالی بحال العباد و ما یؤدیهم إلیه ضعفهم و جهالتهم،و لحکمته المقتضیه لوضع ما یحتاج إلیه إتقان النظام و إصلاح الامور و هو تعالی لعلمه و حکمته لا یغره ظواهر الأحوال بل یختبر القلوب،و لا یستزله مکر و لا خدیعه فعلی التائب من العباد أن یتوب حق التوبه حتی یجیبه اللّه حق الإجابه.

قوله تعالی: وَ لَیْسَتِ التَّوْبَهُ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السَّیِّئٰاتِ الخ؛فی عدم إعاده قوله:

عَلَی اللّٰهِ مع کونه مقصودا ما لا یخفی من التلویح الی انقطاع الرحمه الخاصه و العنایه الإلهیه عنهم کما أن إیراد السیئات بلفظ الجمع یدل علی العنایه بإحصاء سیئاتهم و حفظها علیهم کما تقدمت الإشاره إلیه.

و تقیید قوله: یَعْمَلُونَ السَّیِّئٰاتِ بقوله: حَتّٰی إِذٰا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ المفید لاستمرار الفعل إما لأن المساهله فی المبادره الی التوبه و تسویفها فی نفسه معصیه مستمره متکرره،أو لأنه بمنزله المداومه علی الفعل،أو لأن المساهله فی أمر التوبه لا تخلو غالبا عن تکرر معاص مجانسه للمعصیه الصادره أو مشابهه لها.

و فی قوله: حَتّٰی إِذٰا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ دون أن یقال:حتی اذا جاءهم الموت دلاله علی الاستهانه بالأمر و الاستحقار له أی حتی یکون أمر التوبه هینا هذا الهوان سهلا هذه السهوله حتی یعمل الناس ما یهوونه و یختاروا ما یشاءونه و لا یبالون و کلما عرض لأحدهم عارض الموت قال:إنی تبت الآن فتندفع مخاطر الذنوب و مهلکه مخالفه الأمر الإلهی بمجرد لفظ یردده

ألسنتهم أو خطور يخطر ببالهم فى آخر الأمر.

و من هنا يظهر معنى قوله: قَالَ إِنِّى تُبْتُ بقوله: اَلْآنَ فإن يفيد أن حضور الموت و مشاهده هذا القائل سلطان الآخره هما الموجبان له أن يقول تبت سواء ذكره أو لم يذكره فالمعنى:إنى تائب لما شاهدت الموت الحق و الجزاء الحق،و قد قال تعالى فى نظيره حاكيا عن المجرمين يوم القيامه: وَ لَوْ تَرىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نٰاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنٰا أَبْصَرْنٰا وَ سَمِعْنٰا فَارْجِعْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً إِنّٰا مُوقِنُونَ (السجده١٢/).

فهذه توبه لا تقبل من صاحبها لأن اليأس من الحياه الدنيا و هول المطلع هما اللذان أجبراه على أن يندم على فعله و يعزم على الرجوع الى ربه و لات حين رجوع حيث لا حياه دنيويه و لا خيره عمليه.

قوله تعالى: وَ لاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفّٰارٌ هذا مصداق آخر لعدم قبول التوبه و هو الإنسان يتمادى فى الكفر ثم يموت و هو كافر فإن اللّه لا يتوب عليه فان إيمانه و هو توبته لا ينفعه يومئذ،و قد تتكرر فى القرآن الكريم أن الكفر لا نجاه معه بعد الموت؛و أنهم لا يجابون و إن سألوا،قال تعالى: إِلاَّ الَّذِينَ تٰابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَأُولٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوّٰابُ الرَّحِيمُ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّٰهِ وَ الْمَلاٰئِكَهِ وَ النّٰاسِ أَجْمَعِينَ خٰالِدِينَ فِيهٰا لاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذٰابُ وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ (البقره١۶٢/)،و قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدىٰ بِهِ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ (آل عمران٩١/)،و نفى الناصرين نفى للشفاعه فى حقهم كما تقدم فى الكلام على الآيه فى الجزء الثالث من الكتاب.

و تقييد الجمله بقوله: وَ هُمْ كُفّٰارٌ يدل على التوبه للعاصى المؤمن اذا مات على المعصيه من غير استكبار و لا تساهل فإن التوبه من العبد بمعنى رجوعه الى عبوديه اختياريه و إن ارتفع موضوعها بالموت كما تقدم لكن التوبه منه تعالى بمعنى الرجوع بالمغفره و الرحمه يمكن أن

يتحقق بعـد الموت لشـفاعه الشافعين،و هذا فى نفسه من الشواهد على أن المراد بالآيتين بيان حال توبه اللّه سـبحانه لعباده لا بيان حال توبه العبد الى اللّه إلا بالتبع.

قوله تعـالى: أُولٰئِكَ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً اسم الاشاره يـدل على بعـدهم من ساحه القرب و التشـريف،و الاعتاد:و الإعـداد أو الوعد (١).

[سوره النساء (۴): الآيات ۱۹ الى ۲۲]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا اَلنِّسٰاءَ كَرْهاً وَ لاٰ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مٰا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاّٰ أَنْ يَأْتِينَ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ عٰاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ يَجْعَلَ اَللّٰهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (١٩) وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اِسْتِبْدٰالَ زَوْجٍ مَكٰانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِحْدٰاهُنَّ قِنْطٰاراً فَلاٰ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتٰاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (٢٠) وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَ قَدْ أَفْضىٰ بَعْضُكُمْ إِلىٰ بَعْضٍ وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثٰاقاً غَلِيظاً (٢١) وَ لاٰ تَنْكِحُوا مٰا نَكَحَ آبٰاؤُكُمْ مِنَ اَلنِّسٰاءِ إِلاّٰ مٰا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كٰانَ فٰاحِشَةً وَ مَقْتاً وَ سٰاءَ سَبِيلاً (٢٢)

بيان:

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ يَحِلُّ لَكُمْ -الى قوله- كَرْهاً كان أهل

۱- ۱) .النساء ۱۷-۱۸:كلام فى التوبه.

الجاهليه-على ما فى التاريخ و الروايه-يعدون نساء الموتى من التركه-اذا لم تكن المرأه أما للوارث-فيرثونهن مع التركه فكان أحد الوراث يلقى ثوبا على زوجه الميت و يرثها فإن شاء تزوج بها من غير مهر بل بالوراثه و إن كره نكاحها حبسها عنده فإن شاء زوجها من غيره فانتفع بمهرها،و إن شاء عضلها و منها انكاح و حبسها حتى تموت فيرثها إن كان لها مال.

و الآيه و إن كان ظاهرها أنها تنهى عن سنه دائره بينهم،و هى التى ذكرناها من إرث النساء فتكون مسوقه للردع عن هذه السنه لسيئه على ما ذكره بعض المفسرين إلاّ أن قوله فى ذيل الجمله: «كَرْهاً» لا يلائم ذلك سواء أخذ قيدا توضيحيا أو احترازيا.

فإنه لو كان قيدا توضيحيا أفاد أن هذه الوراثه تقع دائما على كره من النساء و ليس كذلك، و هو ظاهر،و لو كان قيدا احترازيا أفاد أن النهى إنما هو اذا كانت الوراثه على كره من النساء دون ما اذا كان على رضى منهن،و ليس كذلك.

نعم الكره أمر متحقق فى العضل عن الازدواج طمعا فى ميراثهن دائما أو غالبا بعد القبض عليهن بالإرث فالظاهر أن الآيه فى مقام الردع عن هذا الإرث على كره و أما نكاحهن بالإرث فالمتعرض للنهى عنه قوله تعالى فيما سيأتى:و لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء،الآيه؛ و أما تزويجهن من الغير و الذهاب بمهرهن فينهى عنه مثل قوله تعالى: وَ لِلنِّسٰاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ (النساء/٣٢)،و يدل على الجميع قوله تعالى: فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ فِيمٰا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ (البقره/٢٣۴).

و أما قوله بعد:و لا تعضلوهن لتذهبوا،الخ؛فهو غير هذا العضل عن الازدواج للذهاب بالمال إرثا لما فى تذييله بقوله: لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مٰا آتَيْتُمُوهُنَّ من الدلاله على أن المراد به الذهاب ببعض المهر الذى آتاه الزوج العاضل دون المال الذى امتلكته من غير طريق هذا المهر.و بالجمله الآيه تنهى عن وراثه أموال النساء كرها منهن دون وراثه أنفسهن فإضافه الإرث الى النساء إنما هى بتقدير الأموال أو يكون مجازا عقليا.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا -الی قوله- مُبَيِّنَةٍ إما معطوف علی قوله:

تَرِثُوا و التقدير:و لا أن تعضلوهن و إما نهی معطوف علی قوله: لاٰ يَحِلُّ لَكُمْ لكونه فی معنی النهی.و العضل هو المنع و التضييق و التشديد.و الفاحشه الطريقه الشنيعه كثر استعمالها فی الزنا.و المبينه المتبينه،و قد نقل عن سيبويه أن أبان و استبان و بين و تبين بمعنی واحد،تتعدی و لا تتعدی يقال:أبان الشیء و استبان و بين و تبين و يقال:أبنت الشیء و استبنته و بينته و تبينته.

قوله تعالی: وَ عٰاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ الی آخر الآيه؛المعروف هو الأمر الذی يعرفه الناس فی مجتمعهم من غير أن ينكروه و يجهلوه،و حيث قيد به الأمر بالمعاشره كان المعنی الأمر بمعاشرتهن المعاشره المعروفه بين هؤلاء المأمورين.

و المعاشره التی يعرفها الرجال و يتعارفونه بينهم أن الواحد منهم جزء مقوم للمجتمع يساوی سائر الأجزاء فی تكوينه المجتمع الإنسانی لغرض التعاون و التعاضد العمومی النوعی فيتوجه علی كل منهم من التكليف أن يسعی بما فی وسعه من السعی فيما يحتاج إليه المجتمع فيقتنی ما ينتفع به فيعطی ما يستغنی عنه و يأخذ ما يحتاج اليه فلو عومل مع واحد من أجزاء المجتمع غير هذه المعامله،و ليس إلاّ أن يضطهد بإبطال استقلاله فی الجزئيه فيؤخذ تابعا ينتفع به و لا ينتفع هو بشیء يحاذيه،و هذا هو الاستثناء.

و قد بين اللّه تعالی فی كتابه أن الناس جميعا-رجالا و نساء-فروع أصل واحد إنسانی، و أجزاء و أبعاض لطبيعه واحده بشريه،و المجتمع فی تكونه محتاج الی هؤلاء كما هو محتاج الی أولئک علی حد سواء كما قال تعالی: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ (النساء۲۵/).

و لا ينافی ذلک اختصاص كل من الطائفتين بخصله تختص به كاختصاص الرجال بالشده و القوه نوعا،و اختصاص النساء بالرقه و العاطفه فإن الطبيعه الإنسانيه فی حياتها التكوينيه و الاجتماعيه جميعا تحتاج الی بروز الشده و ظهور القوه كما تحتاج الی سريان الموده و الرحمه،

و الخصلتان جميعا مظهرا الجذب و الدفع العامين فى المجتمع الإنسانى.

فالطائفتان متعادلتان وزنا و أثرا كما أن أفراد طائفه الرجال متساويه فى الوزن و التأثير فى هذه البنيه المكونه مع اختلافهم فى شئونهم الطبيعيه و الاجتماعيه من قوه و ضعف،و علم و جهل،و كياسه و بلاده،و صغر و كبر،و رئاسه و مرءوسيه،و مخدوميه و خادميه،و شرف و خسه و غير ذلك.

و أما قوله تعالى: فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ يَجْعَلَ اللّٰهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً فهو من قبيل إظهار الأمر المعلوم فى صوره المشكوك المحتمل اتقاء من تيقظ غريزه التعصب فى المخاطب نظير قوله تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللّٰهُ وَ إِنّٰا أَوْ إِيّٰاكُمْ لَعَلىٰ هُدىً أَوْ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ قُلْ لاٰ تُسْئَلُونَ عَمّٰا أَجْرَمْنٰا وَ لاٰ نُسْئَلُ عَمّٰا تَعْمَلُونَ (سبأ/٢٥).

قوله تعالى: وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدٰالَ زَوْجٍ مَكٰانَ زَوْجٍ الى آخر الآيه؛الاستبدال استفعال بمعنى طلب البدل،و كأنه بمعنى إقامه زوج مقام زوج أو هو من قبيل التضمين بمعنى إقامه امرأه مقام أخرى بالاستبدال،و لذلك جمع بين قوله،أردتم و بين قوله: اِسْتِبْدٰالَ ،الخ؛مع كون الاستبدال مشتملا على معنى الإراده و الطلب،و على هذا فالمعنى:و إن أردتم أن تقيموا زوجا مقام اخرى بالاستبدال.

و البهتان ما بهت الإنسان أى جعله متحيرا،و يغلب استعماله فى الكذب من القول و هو فى الأصل مصدر،و قد استعمل فى الآيه فى الفعل الذى هو الأخذ من المهر،و هو فى الآيه حال من الأخذ و كذا قوله: إِثْماً ،و الاستفهام إنكارى.

و المعنى:إن أردتم أن تطلقوا بعض أزواجكم و تتزوجوا باخرى مكانها فلا تأخذوا من الصداق الذى آتيتموها شيئا و إن كان ما آتيتموها مالا كثيرا،و ما تأخذونه قليلا جدا.

قوله تعالى: وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَ قَدْ أَفْضىٰ بَعْضُكُمْ إِلىٰ بَعْضٍ الى آخر الآيه؛

الاستفهام للتعجب،و الإفضاء هو الاتصال بالمماسه،و أصله الفضاء بمعنى السعه.

و لما كان هذا الأخذ إنما هو بالبغى و الظلم،و مورده مورد الاتصال و الاتحاد أوجب ذلك صحه التعجب حيث إن الزوجين يصيران بسبب ما أوجبه الازدواج من الإفضاء و الاقتراب كشخص واحد،و من العجيب أن يظلم شخص واحد نفسه و يؤذيها أو يؤذى بعض أجزائه بعضا.

و أما قوله وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثٰاقاً غَلِيظاً فالظاهر أن المراد بالميثاق الغليظ هو العلقه التى أبرمها الرجل بالعقد و نحوه،و من لوازمها الصداق الذى يسمى عند النكاح و تستحقه المرأه من الرجل (۱).

[سوره النساء (۴): الآیات ۲۳ الی ۲۸]

اشاره

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهٰاتُكُمْ وَ بَنٰاتُكُمْ وَ أَخَوٰاتُكُمْ وَ عَمّٰاتُكُمْ وَ خٰالاٰتُكُمْ وَ بَنٰاتُ اَلْأَخِ وَ بَنٰاتُ اَلْأُخْتِ وَ أُمَّهٰاتُكُمُ اَللاّٰتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَ أَخَوٰاتُكُمْ مِنَ اَلرَّضٰاعَهِ وَ أُمَّهٰاتُ نِسٰائِكُمْ وَ رَبٰائِبُكُمُ اَللاّٰتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسٰائِكُمُ اَللاّٰتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ وَ حَلاٰئِلُ أَبْنٰائِكُمُ اَلَّذِينَ مِنْ أَصْلاٰبِكُمْ وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ اَلْأُخْتَيْنِ إِلاّٰ مٰا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً (۲۳) وَ اَلْمُحْصَنٰاتُ مِنَ اَلنِّسٰاءِ إِلاّٰ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ كِتٰابَ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ أُحِلَّ لَكُمْ مٰا وَرٰاءَ ذٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوٰالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسٰافِحِينَ فَمَا اِسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَهً وَ لاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ فِيمٰا تَرٰاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ اَلْفَرِيضَهِ إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ عَلِيماً حَكِيماً (۲۴) وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ اَلْمُحْصَنٰاتِ اَلْمُؤْمِنٰاتِ فَمِنْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ مِنْ فَتَيٰاتِكُمُ اَلْمُؤْمِنٰاتِ وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِإِيمٰانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنٰاتٍ غَيْرَ مُسٰافِحٰاتٍ وَ لاٰ مُتَّخِذٰاتِ أَخْدٰانٍ فَإِذٰا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفٰاحِشَهٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مٰا عَلَى اَلْمُحْصَنٰاتِ مِنَ اَلْعَذٰابِ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ اَلْعَنَتَ مِنْكُمْ وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۵) يُرِيدُ اَللّٰهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَ يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۲۶) وَ اَللّٰهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ اَلشَّهَوٰاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (۲۷) يُرِيدُ اَللّٰهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ اَلْإِنْسٰانُ ضَعِيفاً (۲۸)

۱- ۱) .النساء ۱۹-۲۲:بحث روائی حول:التقالید الجاهلیه فی المرأه التی یموت زوجها،الامر بحسن معامله النساء.

بیان:

قوله تعالی: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَ بَناتُكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ وَ عَمّاتُكُمْ وَ خالاتُكُمْ وَ بَناتُ الْأَخِ وَ بَناتُ الْأُخْتِ هؤلاء هن المحرمات بحسب النسب و هی

ص :۶۴۲

سبعه أصناف،و الام من اتصل إليها نسب الإنسان بالولاده كمن ولدته من غير واسطه أو بواسطه،كوالده الأب أو الام فصاعده،و البنت من اتصل نسبها بالإنسان بسبب ولادتها منه كالمولوده من صلبه بلا واسطه،و كبنت الابن و البنت فنازله،و الاخت من اتصل نسبها بالإنسان من جهه ولادتهما معها من الأب أو الام أو منهما جميعا بلا واسطه،و العمه اخت الأب و كذا اخت الجد من جهه الأب أو الام،و الخاله اخت الام،و كذا اخت الجده من جهه الأب أو الام.

و المراد بتحريم الامهات و ما يتلوها من الأصناف حرمه نكاحهن على ما يفيده الإطلاق من مناسبه الحكم و الموضوع،كما فى قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ (المائده/٣) أى أكلهما،و قوله تعالى: فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ (المائده/٢۶)أى سكنى الأرض،و هذا مجاز عقلى شائع،هذا.

و لكنه لا يلائم ما سيأتى من قوله تعالى: «إِلاّ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ» فإنه استثناء من الوطء دون علقه النكاح على ما سيجىء،و كذا قوله تعالى: أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ على ما سيجىء،فالحق أن المقدر هو ما يفيد معنى الوطء دون علقه النكاح،و إنما لم يصرح تأدبا و صونا للسان على ما هو دأب كلامه تعالى.

و اختصاص الخطاب بالرجال دون أن يقال:حرم عليهن أبنائهن،الخ؛أو يقال مثلا:لا نكاح بين المرأه و ولدها،الخ؛لما أن المطلب و الخطبه بحسب الطبع إنما يقع من جانب الرجال فحسب.

و توجيه الخطاب الى الجمع مع تعليق الحرمه بالجمع كالامهات و البنات،الخ؛تفيد الاستغراق فى التوزيع،أى حرمت على كل رجل منكم أمه و بنته،اذ لا معنى لتحريم المجموع على المجموع،و لا لتحريم كل ام و بنت لكل رجل مثلا على كل رجل لأوله الى تحريم أصل النكاح،فمآل الآيه الى أن كل رجل يحرم عليه نكاح أمه و بنته و اخته،الخ.

قوله تعالی: وَ أُمَّهٰاتُکُمُ اللاّتِی أَرْضَعْنَکُمْ وَ أَخَوٰاتُکُمْ مِنَ الرَّضٰاعَهِ شروع فی بیان المحرمات بالسبب،و هی سبع ست منها ما فی هذه الآیه،و سابعتها ما یتضمنه قوله:

وَ لاٰ تَنْکِحُوا مٰا نَکَحَ آبٰاؤُکُمْ مِنَ النِّسٰاءِ ،الآیه.

و الآیه بسیاقها تدل علی جعل الامومه و البنوه بین المرأه و من أرضعته و کذا الاخوه بین الرجل و اخته من الرضاعه حیث ارسل الکلام فیها إرسال المسلم فالرضاعه تکون الروابط النسبیه بحسب التشریع،و هذا مما یختص بالشریعه الإسلامیه علی ما ستجیء الإشاره الیه.

و قد صح عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیما رواه الفریقان أنه قال:ان اللّه حرم من الرضاعه ما حرم من النسب و لازمه أن تنتشر الحرمه بالرضاع فیما یحاذی محرمات النسب من الأصناف،و هی الام و البنت و الاخت و العمه و الخاله و بنت الأخ و بنت الاخت،سبعه أصناف.

و أما ما به یتحقق الرضاع و ما له فی نشره الحرمه من الشرائط من حیث الکم و الکیف و المده و ما یلحق بها من الأحکام فهو مما یتبین فی الفقه،و البحث فیه خارج عن وضع هذا الکتاب،و أما قوله: وَ أَخَوٰاتُکُمْ مِنَ الرَّضٰاعَهِ فالمراد به الأخوات الملحقه بالرجل من جهه إرضاع أمه إیاها بلبن أبیه و هکذا.

قوله تعالی: وَ أُمَّهٰاتُ نِسٰائِکُمْ سواء کانت النساء أی الأزواج مدخولا بهن أو غیر مدخول بهن فإن النساء اذا اضیفت الی الرجال دلت علی مطلق الأزواج،و الدلیل علی ذلک التقیید الآتی فی قوله تعالی: مِنْ نِسٰائِکُمُ اللاّتِی دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَکُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، الآیه.

قوله تعالی: وَ رَبٰائِبُکُمُ اللاّٰتِی فِی حُجُورِکُمْ -الی قوله- فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَیْکُمْ الربائب جمع الربیبه و هی بنت زوجه الرجل من غیره لأن تدبیر أمر من مع المرأه من الولد الی زوجها فهو الذی یربها و یربیها فی العاده الغالبه و إن لم یکن کذلک دائما.

و کذلک کون الربیبه فی حجر الزوج أمر مبنی علی الغالب و إن لم یجر الأمر علیه دائما،

و لـذلك قيـل:إن قـوله: اَللاّـتِی فِی حُجُورِکُمْ قیـد مبنی علی الغـالب فـالربیبه محرمـه سـواء کـانت فی حجر زوج امهـا أو لم یکن،فالقید توضیحی لا احترازی.

و من الممکن أن یقـال:إن قـوله: اَللاّـتِی فِی حُجُورِکُمْ ،إشـاره الی مـا یسـتفاد من حکمه تشـریع الحرمه فی محرمـات النسب و السـبب علی ما سـیجیء البحث عنه،و هو الاختلاط الواقع المستقر بین الرجل و بین هؤلاء الأصناف من النساء و المصاحبه الغالبه بین هؤلاـء فی المنـازل و الـبیوت فلو لاـ حکم الحرمه المؤبـده لم یکن الاـحتراز من وقوع الفحشـاء بمجرد تحریم الزنـا (علی ما سیجیء بیانه).

فیکون قوله: «اللاّتِی فِی حُجُورِکُمْ» مشیرا الی أن الربائب لکونهن غالبا فی حجورکم و فی صحابتکم تشارک سائر الأصناف فی الاشتمال علی ملاک التحریم و حکمته.

و کیفما کان لیس قوله: اَللاّتِی فِی حُجُورِکُمْ قیدا احترازیا یتقید به التحریم حتی تحل الربیبه لرابها اذا لم تکن فی حجره کالبنت الکبیره یتزوج الرجـل بامها،و الـدلیل علی ذلک المفهوم المصـرح به فی قوله تعالی: فَإِنْ لَمْ تَکُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَیْکُمْ حیث ذکر فیه ارتفـاع قیـد الـدخول لکون الـدخول دخیلا فی التحریم،و لو کان الکون فی الحجور مثله لکان من اللازم ذکره،و هو ظاهر.

و قوله: فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَیْکُمْ أی فی أن تنکحوهن حذف إیثارا للاختصار لدلاله السیاق علیه.

قوله تعالی: وَ حَلاٰئِلُ أَبْنٰائِکُمُ الَّذِینَ مِنْ أَصْلاٰبِکُمْ الحلائل جمع حلیله قال فی المجمع:و الحلائل جمع الحلیله،و هی بمعنی محلله مشـتقه من الحلال و الذکر حلیل،و جمعه أحله کعزیز و أعزه سمیا بذلک لأن کل واحده منهما یحل له مباشره صاحبه،و قیل هو من الحلول لأن کل واحد منهما یحال صاحبه أی یحل معه فی الفراش،انتهی.

و المراد بالأبناء من اتصل بالإنسان بولاده سواء کان ذلک بلا واسطه أو بواسطه ابن أو

بنت،و تقییده بقوله «الَّذِینَ مِنْ أَصْلاٰبِکُمْ» احتراز عن حلیله من یدعی ابنا بالتبنی دون الولاده.

قوله تعالی: وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَیْنَ الْأُخْتَیْنِ إِلاّٰ مٰا قَدْ سَلَفَ المراد به بیان تحریم نکاح اخت الزوجه ما دامت الزوجه حیه باقیه تحت حباله الزوجیه فهو أوجز عباره و أحسنها فی تأدیه المراد،و إطلاق الکلام ینصرف الی الجمع بینهما فی النکاح فی زمان واحد، فلا مانع من أن ینکح الرجل إحدی الاختین ثم یتزوج بالاخری بعد طلاق الاولی أو موتها، و من الدلیل علیه السیره القطعیه بین المسلمین المتصله بزمان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و أما قوله: إِلاّٰ مٰا قَدْ سَلَفَ فهو کنظیره المتقدم فی قوله «وَ لاٰ تَنْکِحُوا مٰا نَکَحَ آبٰاؤُکُمْ مِنَ النِّسٰاءِ إِلاّٰ مٰا قَدْ سَلَفَ» ناظر الی ما کان معمولا به بین عرب الجاهلیه من الجمع بین الاختین،و المراد به بیان العفو عما سلف من عملهم بالجمع بین الاختین قبل نزول هذه الآیه دون ما لو کان شیء من ذلک فی زمان النزول بنکاح سابق فإن الآیه تدل علی منعه لأنه جمع بین الاختین بالفعل کما یدل علیه أیضا ما تقدم نقله من أسباب نزول قوله «وَ لاٰ تَنْکِحُوا مٰا نَکَحَ آبٰاؤُکُمْ» الآیه؛حیث فرق النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد نزول الآیه بین الأبناء و بین نساء آبائهم مع کون النکاح قبل نزول الآیه.

و رفع التحریم-و هو الجواز-عن نکاح سالف لا یبتلی به بالفعل،و العفو عنه من حیث نفس العمل المنقضی و إن کان لغوا لا أثر له لکنه لا یخلو عن الفائده من حیث آثار العمل الباقیه بعده کطهاره المولد و اعتبار القرابه مع الاستیلاد و نحو ذلک.

و بعباره اخری لا معنی لتوجیه الحرمه أو الإباحه الی نکاح سابق قد جمع بین الاختین اذا ماتتا مثلا أو ماتت إحداهما أو حل الطلاق بهما أو بإحداهما لکن یصح رفع الإلغاء و التحریم عن مثل هذا النکاح باعتبار ما استتبعه من الأولاد من حیث الحکم بطهاره مولدهم،و وجود القرابه بینهم و بین آبائهم المولدین لهم و سائر قرابات الآباء،المؤثر ذلک فی الإرث و النکاح

و غير ذلك.

و على هذا فقوله «إِلاَّ مٰا قَدْ سَلَفَ» استثناء من الحكم باعتبار آثاره الشرعيه لا باعتبار أصل تعلقه بعمل قد انقضى قبل التشريع،و من هنا يظهر أن الاستثناء متصل لا منقطع كما ذكره المفسرون.

و يمكن أن يرجع الاستثناء الى جميع الفقرات المذكوره فى الآيه من غير أن يختص بقوله «وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ» فإن العرب و إن كانت لا ترتكب من هذه المحرمات إلا الجمع بين الاختين،و لم تكن تقترف نكاح الامهات و البنات و سائر ما ذكرت فى الآيه إلا أن هناك اىما كانت تنكح أقسام المحارم كالفرس و الروم و سائر الامم المتمدنه و غير المتمدنه يوم نزول الآيات على اختلافهم فيه،و الإسلام يعتبر صحه نكاح الامم غير المسلمه الدائر بينهم على مذاهبهم فيحكم بطهاره مولدهم،و يعتبر صحه قرابتهم بعد الدخول فى دين الحق،هذا،لكن الوجه الأول أظهر.

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً تعليل راجع الى الاستثناء،و هو من الموارد التى تعلقت فيها المغفره بآثار الأعمال فى الخارج دون الذنوب و المعاصى.

قوله تعالى: وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ النِّسٰاءِ إِلاّٰ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ المحصنات بفتح الصاد اسم مفعول من الإحصان و هو المنع،و منه الحصن الحصين أى المنيع يقال:أحصنت المرأه اذا عفت فحفظت نفسها و امتنعت عن الفجور،قال تعالى: اَلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهٰا (التحريم/۱۲)أى عفت و يقال:أحصنت المرأه-بالبناء للفاعل و المفعول-اذا تزوجت فأحصن زوجها أو التزوج إياها من غير زوجها،و يقال:أحصنت المرأه اذا كانت حره فمنعها ذلك من أن يمتلك الغير بضعها أو منعها ذلك من الزنا لأن ذلك كان فاشيا فى الإماء.

و الظاهر أن المراد بالمحصنات فى الآيه هو المعنى الثانى أى المتزوجات دون الأول و الثالث لأن الممنوع المحرم فى غير الأصناف الأربعه عشر المعدوده فى الآيتين هو نكاح المزوجات

فحسب فلا منع من غيرها من النساء سواء كانت عفيفه أو غيرها،و سواء كانت حره أو مملوكه فلا وجه لأن يراد بالمحصنات فى الآيه العفائف مع عدم اختصاص حكم المنع بالعفائف ثم يرتكب تقييد الآيه بالتزويج،أو حمل اللفظ على إراده الحرائر مع كون الحكم فى الإماء أيضا مثلهن ثم ارتكاب التقييد بالتزويج فإن ذلك أمر لا يرتضيه الطبع السليم.

فالمراد بالمحصنات من النساء المزوجات و هى التى تحت حباله التزويج،و هو عطف على موضع امهاتكم،و المعنى:و حرمت عليكم كل مزوجه من النساء ما دامت مزوجه ذات بعل.

و على هذا يكون قوله «إِلاّ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ» رفعا لحكم المنع عن محصنات الإماء على ما ورد فى السنه أن لمولى الأمه المزوجه أن يحول بين مملوكته و زوجها ثم ينالها عن استبراء ثم يردها الى زوجها.

قوله تعالى: كِتٰابَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ أى ألزموا حكم اللّه المكتوب المقضى عليكم و قد ذكر المفسرون أن قوله «كِتٰابَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ» منصوب مفعولا مطلقا لفعل مقدر،و التقدير:كتب اللّه كتابا عليكم ثم حذف الفعل و اضيف المصدر الى فاعله و اقيم مقامه،و لم يأخذوا لفظ عليكم سم فعل لما ذكره النحويون أنه ضعيف العمل ما يتقدم معموله عليه؛هذا.

قوله تعالى: وَ أُحِلَّ لَكُمْ مٰا وَرٰاءَ ذٰلِكُمْ ظاهر التعبير بما الظاهره فى غير اولى العقل،و كذا الإشاره بذلكم الدال على المفرد المذكر،و كذا قوله بعده:أن تبتغوا بأموالكم،أن يكون المراد بالموصول و اسم الإشاره هو المقدر فى قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهٰاتُكُمْ ،المتعلق به التحريم من الوطء و النيل أو ما هو من هذا القبيل،و المعنى:و احل لكم من نيلهن ما هو غير ما ذكر لكم،و هو النيل بالنكاح فى غير من عد من الأصناف الخمسه عشر أو بملك اليمين، و حينئذ يستقيم بدليه قوله: أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوٰالِكُمْ ،من قوله: وَ أُحِلَّ لَكُمْ مٰا وَرٰاءَ ذٰلِكُمْ كل الاستقامه.

ص:۶۴۸

قوله تعالى: أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوٰالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسٰافِحِينَ بـدل أو عطف بيان من قوله «مٰا وَرٰاءَ ذٰلِكُمْ» يتبين به الطريق المشـروع فى نيـل النسـاء و مباشـرتهن،و ذلك أن الـذى يشـمله قوله «وَ أُحِلَّ لَكُمْ مٰا وَرٰاءَ ذٰلِكُمْ» من المصـداق ثلاثه:النكاح و ملك اليمين و السـفاح و هو الزنا فبين بقوله «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوٰالِكُمْ» الخ؛المنع عن السـفاح و قصـر الحل فى النكاح و ملك اليمين ثم اعتبر الابتغاء بالأموال و هو فى النكاح المهر و الاجره-ركن من أركانه-و فى ملك اليمين الثمن-و هو الطريق الغالب فى تملك الإماء-فيؤول معنى الآـيه الى مثـل قولنـا:احـل لكم فيمـا سوى الأصـناف المعـدوده أن تطلبوا مباشـره النسـاء و نيلهن بإنفـاق أموالكم فى اجره المنكوحات من النساء نكاحا من غير سفاح أو انفاقها فى ثمن الجوارى و الإماء.

و من هنـا يظهر أن المراد بالإحصان فى قوله «مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسٰافِحِينَ» إحصان العفه دون إحصان التزويـج و إحصان الحريه فإن المراد بابتغـاء الأـموال فى الآـيه أعم ممـا يتعلق بالنكاح أو بملك اليمين و لا دليل على قصـرها فى النكاح حتى يحمل الإحصان على إحصـان التزويـج، و ليس المراد بإحصـان العفه الاـحتراز عن مباشـره النسـاء حتى ينـافى المورد بـل ما يقابل السـفاح أعنى التعدى الى الفحشاء بأى وجه كان بقصر النفس فى ما أحل اللّه،و كفها عما حرم اللّه فى الطرق العاديه فى التمتع المباشرى الذى اودع النزوع اليه فى جبله الانسان و فطرته.

قوله تعالى: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً كأن الضمير فى قوله: «بِهِ» راجع الى ما يدل على قوله: وَ أُحِلَّ لَكُمْ مٰا وَرٰاءَ ذٰلِكُمْ «و هو النيـل أو مـا يؤدى معنـاه»،فيكون «مٰا» للتوقيت،و قوله «مِنْهُنَّ» متعلقا بقوله: «اسْتَمْتَعْتُمْ» و المعنى:مهما اسـتمتعتم بالنيل منهن فآتوهن اجورهن فريضه.

و يمكن أن يكون ما موصوله،و اسـتمتعتم صـله لها،و ضـمير به راجعا الى الموصول و قوله «مِنْهُنَّ» بيانا للموصول،و المعنى:و من استمتعتم به من النساء،الخ.

ص :۶۴۹

و الجمله أعنى قوله: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ ،الخ؛تفريع لما تقدمها من الكلام-لمكان الفاء-تفريع البعض على الكل أو تفريع الجزئى على الكلى بلا شك فإن ما تقدم من الكلام أعنى قوله «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» كما تقدم بيانه شامل لما فى النكاح و ملك اليمين، فتفريع قوله: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ عليه يكون من تفريع الجزء على الكل أو تفريع بعض الأقسام الجزئيه على المقسم الكلى.

و هذا النوع من التفريع كثير الورود فى كلامه تعالى كقوله عزّ من قائل: أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ الآيه(البقره۱۸۴/)و قوله: فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ الآيه(البقره۱۹۶/)و قوله: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ (البقره۲۵۶/)الى غير ذلك.

و المراد بالاستمتاع المذكر فى الآيه نكاح المتعه بلا شك فإن الآيه مدنيه نازله فى سوره النساء فى النصف الأول من عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد الهجره على ما يشهد به معظم آياتها،و هذا النكاح أعنى نكاح المتعه كانت دائره بينهم معموله عندهم فى هذه البرهه من الزمان من غير شك-و قد أطبقت الأخبار على تسلم ذلك-سواء كان الإسلام هو المشرع لذلك أو لم يكن فأصل وجوده بينهم بمرأى من النبى و مسمع منه لا شك فيه،و كان اسمه هذا الاسم و لا يعبر عنه إلا بهذا اللفظ فلا مناص من كون قوله «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» محمولا عليه مفهوما منه هذا المعنى كما أن سائر السنن و العادات و الرسوم الدائره بينهم فى عهد النزول بأسمائها المعروفه المعهوده كلما نزلت آيه متعرضه لحكم متعلق بشىء من تلك الأسماء بإمضاء أو رد أو أوامر أو نهى لم يكن بد من حمل الأسماء الوارده فيها على معانيها المسماه بها من غير أن تحمل على معانيها اللغويه الأصليه.

و ذلک کالحج و البيع و الربا و الربح و الغنيمه و سائر ما هو من هذا القبيل فلم يمكن لأحد أن يدعى أن المراد بحج البيت قصده،و هكذا،كذلک ما أتى به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الموضوعات

الشرعیه ثم شاع الاستعمال حتی عرفت بأسامیها الشرعیه کالصلاه و الصوم و الزکاه و حج التمتع و غیر ذلک لا مجال بعد تحقق التسمیه لحمل ألفاظها الواقعه فی القرآن الکریم علی معانیها اللغویه الأصلیه بعد تحقق الحقیقه الشرعیه أو المتشرعیه فیها.

فمن المتعین أن یحمل الاستمتاع المذکور فی الآیه علی نکاح المتعه لدورانه بهذا الاسم عندهم یوم نزول الآیه سواء قلنا بنسخ نکاح المتعه بعد ذلک بکتاب أو سنه أو لم نقل فإنما هو أمر آخر.

و جمله الأمر أن المفهوم من الآیه حکم نکاح المتعه،و هو المنقول عن القدماء من مفسری الصحابه و التابعین کابن عباس و ابن مسعود و ابی بن کعب و قتاده و مجاهد و السدی و ابن جبیر و الحسن و غیرهم،و هو مذهب أئمه أهل البیت علیهم السّلام (۱).

قوله تعالی: وَ مَنْ لَمْ یَسْتَطِعْ مِنْکُمْ طَوْلاً أَنْ یَنْکِحَ الْمُحْصَنٰاتِ الْمُؤْمِنٰاتِ ،الطول الغنی و الزیاده فی القدره،و کلا المعنیین یلائمان الآیه،و المراد بالمحصنات الحرائر بقرینه مقابلته بالفتیات،و هذا بعینه یشهد علی أن لیس المراد بها العفائف، و إلاّ لم تقابل بالفتیات بل بها و بغیر العفائف،و لیس المراد بها ذوات الازواج اذ لا یقع علیها العقد و لا المسلمات و إلا لاستغنی عن التقیید بالمؤمنات.

و المراد بقوله «فَمِنْ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُکُمْ» ما ملکته أیمان المؤمنین غیر من یرید الازدواج و إلا فتزوج الإنسان بملک یمین نفسه باطل غیر مشروع،و قد نسب ملک الیمین الی المؤمنین و فیهم المرید للتزویج بعدّ الجمیع واحدا غیر مختلف لاتحادهم فی الدین،و اتحاد مصالحهم و منافعهم کأنهم شخص واحد.

و فی تقیید المحصنات و کذا الفتیات بالمؤمنات إشاره الی عدم جواز تزوّج غیر المؤمنات

ص :۶۵۱

۱- ۱) .النساء ۲۳-۲۸:بحث فی متعه النساء.

من كتابيه و مشركه،و لهذا الكلام تتمه ستمر بك إن شاء اللّه العزيز فى أوائل سوره المائده.

و محصل معنى الآيه أن من لم يقدر منكم على أن ينكح الحرائر المؤمنات لعدم قدرته على تحمل أثقال المهر و النفقه فله أن ينكح من الفتيات المؤمنات من غير ان يتحرج من فقدان القدره على الحرائر،و يعرض نفسه على خطرات الفحشاء و معترض الشقاء.

فالمراد بهذا النكاح الدائم،و الآيه فى سياق التنزل أى إن لم يمكنكم كذا فيمكنكم كذا،و إنما قصر الكلام فى صوره التنزل على بعض أفراد المنزل عنه أعنى على النكاح الدائم الذى هو بعض أفراد النكاح الجائز لكون النكاح الجائز لكون النكاح الدائم هو المتعارف المتعين بالطبع فى نظر الإنسان المريد تأسيس البيت و إيجاد النسل و تخليف الولد،و نكاح المتعه تسهيل دينى خفف اللّه به عن عباده لمصلحه سد طريق الفحشاء،و قطع منابت الفساد.

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِإِيمٰانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ لما كان الإيمان المأخوذ فى متعلق الحكم أمرا قلبيا لا سبيل الى العلم بحقيقته بحسب الأسباب،و ربما أوهم تعليقا بالمتعذر أو المتعسر،و أوجب تحرج المكلفين منه،بين تعالى أنه هو العالم بإيمان عباده المؤمنين و هو كنايه عن أنهم إنما كلفوا الجرى على الأسباب الظاهريه الداله على الإيمان كالشهادتين و الدخول فى جماعه المسلمين و الإتيان بالوظائف العامه الدينيه،فظاهر الإيمان هو الملاک دون باطنه.

و فى هدايه هؤلاء المكلفين غير المستطيعين الى الازدواج بالإماء نقص و قصور آخر فى الوقوع موقع التأثير و القبول،و هو أن عامه الناس يرون لطبقه المملوكين من العبيد و الإماء هوانا فى الأمر و خسه فى الشأن و نوع ذله و انكسار فيوجب ذلک انقباضهم و جماح نفوسهم من الاختلاط بهم و المعاشره معهم و خاصه بالازدواج الذى هو اشتراک حيوى و امتزاج باللحم و الدم.

فأشار سبحانه بقوله: «بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ» الى حقيقه صريحه يندفع بالتأمل فيها هذا

التوهم الفاسد فالرقيق إنسان كما أن الحر إنسان لا يتميزان فی ما به يصير الإنسان واجدا لشئون الإنسانيه،و إنما يفترقان بسلسله من أحكام موضوعه يستقيم بها المجتمع الإنسانی فی إنتاجه سعاده الناس،و لا عبره بهذه التميزات عند اللّه،و الذی به العبره هو التقوی الذی به الكرامه عند اللّه،فلا ينبغی للمؤمنين أن ينفعلوا عن أمثال هذه الخطرات الوهميه التی تبعدهم عن حقائق المعارف المتضمنه سعادتهم و فلاحهم،فإن الخروج عن مستوی الطريق المستقيم، و إن كان حقيرا فی بادی أمره لكنه لا يزال يبعد الإنسان من صراط الهدايه حتی يورده أوديه الهلكه.

و من هنا يظهر أن الترتيب الواقع فی صدر الآيه فی صوره الاشتراط و التنزل،أعنی قوله:

وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنٰاتِ الْمُؤْمِنٰاتِ فَمِنْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ ،إنما هو جری فی الكلام علی مجری الطبع و العاده،و ليس إلزاما للمؤمنين علی الترتيب بمعنی أن يتوقف جواز نكاح الأمه علی فقدان الاستطاعه علی نكاح الحره بل لكون الناس بحسب طباعهم سالكين هذا المسلك خاطبهم أن لو لم يقدروا علی نكاح الحرائر فلهم أن يقدموا علی نكاح الفتيات من غير انقباض،و نبه مع ذلك علی أن الحر و الرق من نوع واحد بعض أفراده يرجع الی بعض.

قوله تعالی: فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ إلی قوله أَخْدٰانٍ المراد بالمحصنات العفائف فإن ذوات البعوله لا يقع عليهن نكاح،و المراد بالمسافحات ما يقال متخذات الأخدان،و الاخدان جمع خدن بكسر الخاء و هو الصديق،يستوی فيه المذكر و المؤنث المفرد و الجمع،و إنما اتی به بصيغه الجمع للدلاله علی الكثره نصا،فمن يأخذ صديقا للفحشاء لا يقع بالواحد و الاثنين فيه لأن النفس لا تقف علی حد إذا اطيعت فيما تهواه.

و بالنظر إلی هذه المقابله قال من قال:إن المراد بالسفاح الزنا جهرا و باتخاذ الخدن الزنا سرا و قد كان اتخاذ الخدن متداولا عند العرب حتی عند الأحرار و الحرائر لا يعاب به مع ذمهم

زنا العلن لغير الإماء.

فقوله: فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ إرشاد إلى نكاح الفتيان مشروطا بأن يكون بإذن مواليهن فإن زمام امرهن إنما هو بيد الموالى لا غير و انما عبر عنهم بقوله أَهْلِهِنَّ جريا على ما يقتضيه قوله قبل: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فالفتاه واحده من اهل بيت مولاها و مولاها أهلها.

و المراد بإتيانهن اجورهن بالمعروف توفيتهن مهور نكاحهن و اتيان الأجور إياهن إعطاؤها مواليهن،و قد أرشد إلى الإعطاء بالمعروف عن غير بخس و مماطله و إذاء.

قوله تعالى: فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ قرئ احصن بضم الهمزه بالبناء للمفعول و بفتح الهمزه بالبناء للفاعل،و هو الأرجح.

الإحصان فى الآيه إن كان هو إحصان الازدواج كان أخذه فى الشرط المجرد كون مورد لكلام فى ما تقدم ازدواجهن،و ذلك أن الأمه تعذب نصف عذاب الحره اذا زنت سواء كانت محصنه بالازدواج أو لا من غير أن يؤثر الإحصان فيها شيئا زائدا.

و أما اذا كان إحصان الإسلام كما قيل-و يؤيده قراءه فتح الهمزه-تم المعنى من غير مئونه زائده،و كان عليهن اذا زنين نصف عذاب الحرائر سواء كن ذوات بعوله أو لا.

و المراد بالعذاب هو الجلد دون الرجم لأن الرجم لا يقبل الانتصاف و هو الشاهد على أن المراد بالمحصنات الحرائر غير ذوات الأزواج المذكوره فى صدر الآيه.و اللام للعهد فمعنى الآيه بالجمله أن الفتيات المؤمنات اذا أتين بفاحشه و هو الزنا فعليهن نصف حد المحصنات غير ذوات الأزواج،و هو جلد خمسين سوطا.

و من الممكن أن بكون المراد بالإحصان إحصان العفه،و تقريره أن الجوارى يومئذ لم يكن لهن الاشتغال بكل ما تهواه أنفسهن من الأعمال بما لهن من اتباع أوامر مواليهن و خاصه فى

الفـاحشه و الفجور و كـانت الفـاحشه فيهن-لو اتفقت-بـأمر من مواليهن فى سبيل الاسـتغلال بهن و الاسـتدرار من عرضـهن كما يشـعر به النهى الوارد فى قوله تعـالى: وَ لاـ تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً (النور۳۳/).فالتماسهن الفجور و اشتغالهن بالفحشاء باتخاذها عاده و مكسبا كان فيما كان يأمر مواليهن من دون أن يسع لهن الاسـتنكاف و التمرد،و اذا لم يكرهن الموالى على الفجور فالمؤمنات منهن على ظاهر تقوى الإسـلام،و عفه الإيمان،و حينئذ إن أتين بفاحشه فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب،و هو قوله تعالى: فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَهٍ ،الخ.

و مـن هنـا يظهر أن لاـ مفهـوم لهـذه الشـرطيه على هـذا المعنى و ذلـك أنهـن اذا لـم يحصن و لم يعففن كن مكرهـات من قبل مواليهن مؤتمرات لأـمرهم كمـا لاـ مفهوم لقوله تعالى: وَ لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً (النور۳۳/)حيث إنهن إن لم يردن التحصن لم يكن موضوع لإكراههن من قبل الموالى لرضاهن بذلك فافهم.

قوله تعالى: ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ العنت الجهد و الشده و الهلاك،و كأن المراد به الزنا الذى هو نتيجه وقوع الإنسان فى مشـقه الشبق و جهد شهوه النكاح و فيه هلاك الإنسان.و الاشاره على ما قيل:الى نكاح الجوارى المذكور فى الآيه،و عليه فمعنى قوله «وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ» أن تصبروا عن نكـاح الإمـاء أو عن الزنا خير لكم.و يمكن أن يكون ذلك إشاره الى وجوب نكاح الاماء أو وجوب مطلب النكاح لو استفيد شىء منهما من سابق سياق الآيه و اللّه أعلم.

و كيف كـان فكون الصبر خيرا إن كـان المراد هو الصبر عن نكـاح الإماء إنما هو لما فيه من حقوق مواليهن و فى أولادهن على ما فصل فى الفقه،و إن كان المراد بالصبر عن الزنا إنما هو لما فيه الصبر من تهـذيب النفس و تهيئه ملكه التقوى فيها بترك اتباع هواها فى الزنا من غير ازدواج أو معه،و اللّه غفور رحيم يمحو بمغفرته آثار خطرات السوء عن نفوس المتقين من

عباده و يرحمهم برحمته.

قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ الى آخر الآيه؛بيان و إشاره الى غايه تشريع ما سبق من الأحكام فى الآيات الثلاث و المصالح التى تترتب عليها اذا عمل بها فقوله: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ أى أحكام دينه مما فيه صلاح دنياكم و عقباكم،و ما فى ذلك من المعارف و الحكم و على هذا فمعمول قوله: لِيُبَيِّنَ محذوف للدلاله على فخامه أمره و عظم شأنه،و يمكن أن يكون قوله: لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ،و قوله: وَ يَهْدِيَكُمْ متنازعين فى قوله؛ سُنَنَ الَّذِينَ .

قوله تعالى: وَ يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أى طرق حياه السابقين من الأنبياء و الامم الصالحه،الجارين فى الحياه الدنيا على مرضاه اللّه،الحائزين به سعاده الدنيا و الآخره،و المراد بسننهم على هذا المعنى سننهم فى الجمله لا سننهم بتفاصيلها و جميع خصوصياتها فلا يرد عليه أن من احكامهم ما تنسخه هذه الآيات بعينها كازدواج الإخوه بالاخوات فى سنه آدم،و الجمع بين الاختين:فى سنه يعقوب عليه السّلام،و قد جمع عليه السّلام بين الاختين ليا ام يهودا و راحيل ام يوسف على ما فى بعض الأخبار،هذا.

قوله تعالى: وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ التوبه المذكوره هو رجوعه الى عبده بالنعمه و الرحمه،و تشريع الشريعه،و بيان الحقيقه،و الهدايه الى طريق الاستقامه كل ذلك توبه منه سبحانه كما أن قبول توبه العبد و رفع آثار المعصيه توبه.

و تذييل الكلام بقوله: وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ليكون راجعا الى جميع فقرات الآيه،و لو كان المراد رجوعه الى آخر الفقرات لكان الأنسب ظاهرا أن يقال:و اللّه غفور رحيم.

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ الخ؛كأن تكرار ذكر توبته للمؤمنين للدلاله على أن قوله: وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوٰاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً إنما يقابل من الفقرات الثلاث فى الآيه السابقه الفقره الأخيره فقط،اذ لو ضم قوله: وَ يُرِيدُ الَّذِينَ ،الخ؛الى الآيه السابقه من غير تكرار قوله: وَ اللّٰهُ يُرِيدُ ،الخ؛أفاد المقابله فى معنى جميع

الفقرات و لغى المعنى قطعا.

و المراد بالميل العظيم هتك هذه الحدود الإلهيه المذكوره فى الآيات بإتيان المحارم،و إلغاء تأثير الأنساب و الأسباب،و استباحه الزنا و المنع عن الأخذ بما سنه اللّه من السنه القويمه.

قوله تعالى: يُرِيدُ اللّٰهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ الْإِنْسٰانُ ضَعِيفاً كون الإنسان ضعيفا لما ركب اللّه فيه القوى الشهويه التى لا تزال تنازعه فى ما تتعلق به من المشتهيات،و تبعثه الى غشيانها فمن اللّه عليهم بتشريع حليه ما تنكسر به سوره شهوتهم بتجويز النكاح بما يرتفع به غائله الحرج حيث قال: وَ أُحِلَّ لَكُمْ مٰا وَرٰاءَ ذٰلِكُمْ و هو النكاح و ملك اليمين فهداهم بذلك سنن الذين من قبلهم،و زادهم تخفيفا منه لهم لتشريع نكاح المتعه اذ ليس معه كلفه النكاح و ما يستتبعه من أثقال الوظائف من صداق و نفقه و غير ذلك.

و ربما قيل:إن المراد به إباحه نكاح الإماء عند الضروره تخفيفا.و فيه لا أن نكاح الإماء عند الضروره كان معمولا به بينهم قبل الإسلام على كراهه و ذم،و الذى ابتدعته هذه الآيات هو التسبب الى نفى هذه الكراهه و النفره ببيان أن الامه كالحره إنسان لا تفاوت بينهما،و أن الرقيه لا توجب سقوط صاحبها عن لياقه المصاحبه و المعاشره.

و ظاهر الآيات-بما لا ينكر-أن الخطاب فيها متوجه الى المؤمنين من هذه الامه فالتخفيف المذكور فى الآيه تخفيف على هذه الامه،و المراد به ما ذكرناه.

و على هذا فتعليل التخفيف بقوله: وَ خُلِقَ الْإِنْسٰانُ ضَعِيفاً مع كونه وصفا مشتركا بين جميع الامم-هذه الامه و الذين من قبلهم-و كون التخفيف مخصوصا بهذه الامه إنما هو من قبيل ذكر المقتضى العام و السكوت عما يتم به فى تأثيره فكأنه قيل:إنا خففنا عنكم لكون الضعف العام فى نوع الإنسان سببا مقتضيا للتخفيف لو لا المانع لكن لم تزل الموانع تمنع عن فعليه التخفيف و انبساط الرحمه فى سائر الامم حتى وصلت النوبه اليكم فعمتكم الرحمه، و ظهرت فيكم آثاره فبرز حكم السبب المذكور و شرع فيكم حكم التخفيف و قد حرمت

الامم السابقه من ذلک کما یدل علیه قوله: رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَیْنا إِصْراً کَما حَمَلْتَهُ عَلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِنا (البقره/۲۸۶)،و قوله: هُوَ اجْتَباکُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَیْکُمْ فِی الدِّینِ مِنْ حَرَجٍ (الحج/۷۸) (۱)(۲)(۳)(۴).

[سوره النساء (۴): الآیات ۲۹ الی ۳۰]

اشاره

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَأْکُلُوا أَمْوالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْباطِلِ إِلاّ أَنْ تَکُونَ تِجارَهً عَنْ تَراضٍ مِنْکُمْ وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَکُمْ إِنَّ اللّهَ کانَ بِکُمْ رَحِیماً (۲۹) وَ مَنْ یَفْعَلْ ذلِکَ عُدْواناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِیهِ ناراً وَ کانَ ذلِکَ عَلَی اللّهِ یَسِیراً (۳۰)

بیان:

فی الآیه شبه اتصال بما سبقتها حیث إنها تتضمن النهی عن أکل المال بالباطل و کانت الآیات السابقه متضمنه للنهی عن أکل مهور النساء بالعضل و التعدی ففی الآیه انتقال من الخصوص الی العموم.

قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَأْکُلُوا أَمْوالَکُمْ -الی قوله- مِنْکُمْ الأکل معروف و هو إنفاد ما یمکن أن یتغذی به التقامه و بلعه مثلا،و لما فیه من معنی التسلط و الإنفاد یقال:أکلت النار الحطب شبه فیه إعدام النار الحطب بإحراقه بإنفاد الآکل الغذاء

۱- ۱) .النساء ۲۳-۲۸:بحث روائی فی:الزواج؛المحارم.

۲- ۲) .۲۸-۲۳:بحث روائی فی متعه النساء.

۳- ۳) .۲۸-۲۳:بحث علمی فی رابطه النسب.

۴- ۴) .۲۸-۲۳:بحث علمی فی النکاح و الزواج؛قوانین الزواج فی الاسلام؛سبب تحریم الزنا.

بالتناول و البلع،و يقال أيضا:أكل فلان المال أی تصرف فيه بالتسلط عليه،و ذلک بعنايه أن العمده فی تصرف الانسان فی الأشياء هو التغذی بها لأنه أشد ما يحتاج إليه الإنسان فی بقائه و أمسّه منه،و لذلک سمی التصرف أكلا لكن لا كل تصرف بل التصرف عن تسلط يقطع تسلط الغير علی المال بالتملک و نحوه كأنه ينفده ببسط سلطته عليه و التصرف فيه كما ينفد الآكل الغذاء بالأكل.

و الباطل من الأفعال ما لا يشتمل علی غرض صحيح عقلائی،و التجاره هی التصرف فی رأس المال طلبا للربح علی ما ذكره الراغب فی مفرداته قال:و ليس فی كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ انتهی،فتنطبق علی المعامله بالبيع و الشری.

و فی تقييد قوله: «لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوٰالَكُمْ» بقوله: «بَيْنَكُمْ» الدال علی نوع تجمع منهم علی المال و وقوعه فی وسطهم إشعار أو دلاله بكون الأكل المنهی عنه بنحو إدارته فيما بينهم و نقله من واحد الی آخر بالتعاون و التداول،فتفيد الجمله أعنی قوله: لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوٰالَكُمْ بَيْنَكُمْ ،بعد تقييدها بقوله: بِالْبٰاطِلِ النهی عن المعاملات الناقله التی لا تسوق المجتمع الی سعادته و نجاحه بل تضرها و تجرها الی الفساد و الهلاک،و هی المعاملات الباطله فی نظر الدين كالربا و القمار و البيوع الغرريه كالبيع بالحصاه و النواه و ما أشبه ذلک.

و علی هذا فالاستثناء الواقع فی قوله: إِلاّٰ أَنْ تَكُونَ تِجٰارَةً عَنْ تَرٰاضٍ مِنْكُمْ ،استثناء منقطع جیء به لدفع الدخل فإنه لما نهی عن أكل المال بالباطل-و نوع المعاملات الدائره فی المجتمع الفاسد التی يتحقق بها النقل و الانتقال المالی كالربويات و الغرريات و القمار و أضرابها باطله بنظر الشرع-كان من الجائز أن يتوهم أن ذلک يوجب انهدام أركان المجتمع و تلاشی أجزائها و فيه هلاک الناس فاجيب عن ذلک بذكر نوع معامله فی وسعها أن تنظم شتات المجتمع،و تقيم صلبه،و تحفظه علی استقامته،و هی التجاره عن تراض و معامله صحيحه رافعه لحاجه المجتمع،و ذلک نظير قوله تعالی: يَوْمَ لاٰ يَنْفَعُ مٰالٌ وَ لاٰ بَنُونَ إِلاّٰ مَنْ أَتَی اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

(الشعراء۸۹/)فإنه لما نفی النفع عن المال و البنین یوم القیامه أمکن أن یتوهم أن لا نجاح یومئذ و لا فلاح فإن معظم ما ینتفع به الانسان إنما هو المال و البنون فاذا سقطا عن التأثیر لم یبق إلا الیأس و الخیبه فأجیب أن هناک أمرا آخر نافعا کل النفع و إن لم یکن من جنس المال و البنین و هو القلب السلیم.

و هذا الذی ذکرناه من انقطاع الاستثناء هو الأوفق بسیاق الآیه و کون قوله: بِالْبَاطِلِ قیدا أصلیا فی الکلام نظیر قوله تعالی: وَ لاَ تَأْکُلُوا أَمْوَالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْبَاطِلِ وَ تُدْلُوا بِهَا إِلَی الْحُکّامِ لِتَأْکُلُوا فَرِیقاً مِنْ أَمْوَالِ النّاسِ (البقره۱۸۸/)و علی هذا لا تخصص الآیه بسائر المعاملات الصحیحه و الامور المشروعه غیر التجاره مما یوجب التملک و یبیح التصرف فی المال کالهبه و الصلح و الجعاله و کالإمهار و الإرث و نحوها.

قوله تعالی: وَ لاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَکُمْ ظاهر الجمله أنها نهی عن قتل الإنسان نفسه لکن مقارنتها قوله: لاَ تَأْکُلُوا أَمْوَالَکُمْ بَیْنَکُمْ ،حیث إن ظاهره أخذ مجموع المؤمنین کنفس واحده لها مال یجب أن تأکلها من غیر طریق الباطل ربما أشعرت أو دلت علی أن المراد بالأنفس جمیع نفوس المجتمع الدینی المأخوذ کنفس واحده نفس کل بعض هی نفس الآخر فیکون فی مثل هذا المجتمع نفس الإنسان نفسه و نفس غیره أیضا نفسه فلو قتل نفسه أو غیره فقد قتل نفسه،و بهذه العنایه تکون الجمله أعنی قوله: وَ لاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَکُمْ مطلقه تشمل الانتحار-الذی هو قتل الإنسان نفسه-و قتل الإنسان غیره من المؤمنین.

و ربما أمکن أن یستفاد من دیل الآیه أعنی قوله: إِنَّ اللّهَ کانَ بِکُمْ رَحِیماً أن المراد من قتل النفس المنهی عنه ما یشمل إلقاء الإنسان نفسه فی مخاطره القتل و التسبیب الی هلاک نفسه المؤدی الی قتله،و ذلک أن تعلیل النهی عن قتل النفس بالرحمه لهذا المعنی أوفق و أنسب کما لا یخفی،و یزید علی هذا معنی الآیه عموما و اتساعا،و هذه الملائمه بعینها تؤید کون قوله: إِنَّ اللّهَ کانَ بِکُمْ رَحِیماً تعلیلا لقوله: وَ لاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَکُمْ فقط.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ عُدْوٰاناً وَ ظُلْماً الآيه؛العدوان مطلق التجاوز سواء كان جائزا ممدوحا أو محظورا مذموما قال تعالى: فَلاٰ عُدْوٰانَ إِلاّٰ عَلَى الظّٰالِمِينَ (البقره/١٩٣)،و قال تعالى: وَ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوىٰ وَ لاٰ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ (المائده/٢)،فهو أعم موردا من الظلم،و معناه فى الآيه تعدى الحدود التى حدها اللّه تعالى،و الاصلاء بالنار:الاحراق بها.

و فى الآيه من حيث اشتمالها على قوله: «ذٰلِكَ» التفات عن خطاب المؤمنين الى خطاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تلويحا الى أن من فعل ذلك منهم-و هم نفس واحده و النفس الواحده لا ينبغى لها أن تريد هلاك نفسها-فليس من المؤمنين،فلا يخاطب فى مجازاته المؤمنون،و إنما يخاطب فيها الرسول المخاطب فى شأن المؤمنين و غيرهم،و لذلك بنى الكلام على العموم فقيل: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ عُدْوٰاناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ،و لم يقل:و من يفعل ذلك منكم.

و ذيل الآيه أعنى قوله. وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيراً يؤيد أن يكون المشار إليه بقوله:ذلك هو النهى عن قتل الأنفس بناء على كون قوله: إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِكُمْ رَحِيماً ناظرا الى تعليل النهى عن القتل فقط لما من المناسبه التامه بين الذيلين،فإن الظاهر أن المعنى هو أن اللّه تعالى إنما ينهاكم عن قتل أنفسكم رحمه بكم و رأفه،و إلاّ فمجازاته لمن قتل النفس بإصلائه النار عليه يسير غير عسير،و مع ذلك فعود التعليل و كذا التهديد الى مجموع الفقرتين فى الآيه الاولى أعنى النهى عن أكل المال بالباطل و النهى عن قتل النفس لا ضير فيه.

[سوره النساء (۴): آيه ٣١]

اشاره

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (٣١)

بيان:

قوله تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ -الى قوله- سَيِّئٰاتِكُمْ الاجتناب أصله من الجنب و هو الجارحه بنى منها الفعل على الاستعاره،فإن الإنسان اذا أراد شيئا استقبله بوجهه و مقاديم بدنه،و اذا أعرض عنه و تركه وليه بجنبه فاجتنبه،فالاجتناب هو الترك،قال الراغب:و هو أبلغ من الترك،انتهى؛و ليس إلّا لأنه مبنى على الاستعاره،و من هذا الباب الجانب و الجنبيه و الأجنبى.

و التكفير من الكفر و هو الستر و قد شاع استعماله فى القرآن فى العفو عن السيئات و الكبائر جمع كبيره وصف وضع موضع الموصوف كالمعاصى و نحوها،و الكبر معنى إضافى لا يتحقق إلّا بالقياس الى صغر،و من هنا كان المستفاد من قوله: كَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ أن هناك من المعاصى المنهى عنها ما هى صغيره،فيتبين من الآيه:اولا:أن المعاصى قسمان:صغيره و كبيره،و ثانيا:

أن السيئات هى الصغائر لما فيها من دلاله المقابله على ذلك.

نعم العصيان و التمرد كيفما كان كبير و أمر عظيم بالنظر الى ضعف المخلوق المربوب فى جنب اللّه عظم سلطانه غير أن القياس فى هذا الاعتبار إنما هو بين الإنسان و ربه لا- بين معصيه و معصيه فلا منافاه بين كون معصيه كبيره باعتبار و بين كون بعض المعاصى صغيره باعتبار آخر.

و كبر المعصيه إنما يتحقق بأهميه النهى عنها اذا قيس الى النهى المتعلق بغيرها و لا يخلو قوله تعالى: مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ،من إشعار أو دلاله على ذلك،و الدليل على أهميه النهى تشديد الخطاب بإصرار فيه أو تهديد بعذاب من النار و نحو ذلك.

قوله تعالى: وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً المدخل بضم الميم و فتح الخاء اسم مكان

و المراد منه الجنه أو مقام القرب من اللّه سبحانه و إن كان مرجعهما واحدا (۱).

[سوره النساء (۴): الآيات ۳۲ الى ۳۵]

اشاره

وَ لاٰ تَتَمَنَّوْا مٰا فَضَّلَ اَللّٰهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ لِلرِّجٰالِ نَصِيبٌ مِمَّا اِكْتَسَبُوا وَ لِلنِّسٰاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اِكْتَسَبْنَ وَ سْئَلُوا اَللّٰهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۳۲) وَ لِكُلٍّ جَعَلْنٰا مَوٰالِيَ مِمّٰا تَرَكَ اَلْوٰالِدٰانِ وَ اَلْأَقْرَبُونَ وَ اَلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمٰانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (۳۳) اَلرِّجٰالُ قَوّٰامُونَ عَلَى اَلنِّسٰاءِ بِمٰا فَضَّلَ اَللّٰهُ بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ وَ بِمٰا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوٰالِهِمْ فَالصّٰالِحٰاتُ قٰانِتٰاتٌ حٰافِظٰاتٌ لِلْغَيْبِ بِمٰا حَفِظَ اَللّٰهُ وَ اَللاّٰتِي تَخٰافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ اُهْجُرُوهُنَّ فِي اَلْمَضٰاجِعِ وَ اِضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاٰ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ عَلِيًّا كَبِيراً (۳۴) وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقٰاقَ بَيْنِهِمٰا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِهٰا إِنْ يُرِيدٰا إِصْلاٰحاً يُوَفِّقِ اَللّٰهُ بَيْنَهُمٰا إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ عَلِيماً خَبِيراً (۳۵)

۱- ۱) .النساء ۳۱:كلام فى الكبائر و الصغائر و تكفير السيئات.

بيان:

قوله تعالى: وَ لاٰ تَتَمَنَّوْا مٰا فَضَّلَ اللّٰهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ التمنى قول الانسان:ليت كذا كان كذا،و الظاهر أن تسميه القول بذلك من باب توصيف اللفظ بصفه المعنى،و إنما التمنى إنشاء نحو تعلق من النفس نظير تعلق الحب بما تراه متعذرا أو كالمتعذر سواء أظهر ذلك بلفظ أو لم يظهر.

و ظاهر الآيه أنه مسوقه للنهى عن تمنى فضل و زياده موجوده ثابته بين الناس،و أنه ناش عن تلبس بعض طائفتى الرجال و النساء بهذا الفضل،و أنه ينبغى الإعراض عن التعلق بمن له الفضل،و التعلق باللّه بالسؤال من الفضل الذى عنده تعالى،و بهذا يتعين أن المراد بالفضل هو المزيه التى رزقها اللّه تعالى كلا- من طائفتى الرجال و النساء بتشريع الأحكام التى شرعت فى خصوص ما يتعلق بالطائفتين كلتيهما كمزيه الرجال على النساء فى عدد الزوجات،و زياده السهم فى الميراث،و مزيه النساء على الرجال فى وجوب جعل المهر لهن،و وجوب نفقتهن على الرجال.

فالنهى عن تمنى هذه المزيه التى اختص بها صاحبها إنما هو لقطع شجره الشر و الفساد من أصلها فإن هذه المزايا مما تتعلق به النفس الإنسانيه لما أودعه اللّه فى النفوس من حبها و السعى لها لعماره هذه الدار،فيظهر الأمر أولا فى صوره التمنى فاذا تكرر تبدل حسدا مستبطنا فاذا أديم عليه فاستقر فى القلب سرى الى مقام العمل و الفعل الخارجى ثم اذا انضمن بعض هذه النفوس الى بعض كان ذلك بلوى يفسد الأرض،و يهلك الحرث و النسل.

و من هنا يظهر أن النهى عن التمنى نهى إرشادى يعود مصلحته الى مصلحه حفظ الأحكام المشرعه المذكوره،و ليس بنهى مولوى.

و فى نسبه الفضل الى فعل اللّه سبحانه،و التعبير بقوله: بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ إيقاظ لصفه

الخضوع لأمر اللّه بإيمانهم به،و غريزه الحب المثاره بالتنبه حتى يتنبه المفضل عليه أن المفضل بعض منه غير مبان.

قوله تعالى: لِلرِّجٰالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَ لِلنِّسٰاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ذكر الراغب:أن الاكتساب إنما يستعمل فيما استفاده الإنسان لنفسه،و الكسب أعم مما كان لنفسه أو لغيره،و البيان المتقدم ينتج أن يكون هذه الجمله مبنيه للنهى السابق عن التمنى و بمنزله التعليل له أى لا تتمنوا ذلك فإن هذه المزيه إنما وجدت عند من يختص بها لأنه اكتسبها بالنفسيه التى له أو بعمل بدنه فإن الرجال إنما اختصوا بجواز اتخاذ أربع نسوه مثلا و حرم ذلك على النساء لأن موقعهم فى المجتمع الإنسانى موقع يستدعى ذلك دون موقع النساء،و خصوا فى الميراث بمثل حظ الانثيين لذلك أيضا،و كذلك النساء خصصن بنصف سهم الرجل و جعل نفقتهن على الرجال و خصص بالمهر لاستدعاء موقعهن ذلك،و كذلك ما اكتسبته إحدى الطائفتين من المال بتجاره أو طريق آخر هو الموجب للاختصاص،و ما اللّه يريد ظلما للعباد.

و من هنا يظهر أن المراد بالاكتساب هو نوع من الحيازه و الاختصاص أعم من أن يكون بعمل اختيارى كالاكتساب بصنعه أو حرفه أو لا يكون بذلك لكنه ينتهى الى تلبس صاحب الفضل بصفه توجب له ذلك كتلبس الإنسان بذكوريه أو أنوثيه توجب له سهما و نصيبا كذا.

و أئمه اللغه و إن ذكروا فى الكسب و الاكتساب أنهما يختصان بما يحوزه الإنسان بعمل اختيارى كالطلب و نحوه لكنهم ذكروا أن الأصل فى معنى الكسب هو الجمع،و ربما جاز أن يقال:اكتسب فلان بجماله الشهره و نحو ذلك،و فسر الاكتساب فى الآيه بذلك بعض المفسرين،و ليس من البعيد أن يكون الاكتساب فى الآيه مستعملا فيما ذكر من المعنى على سبيل التشبيه و الاستعاره.

قوله تعالى: وَ سْئَلُوا اللّٰهَ مِنْ فَضْلِهِ ،الإنعام على الغير بشىء مما عند المنعم لما

كان غالبا بما هو زائد لا حاجه للمنعم إليه سمى فضلا،و لما صرف اللّه تعالى وجوه الناس عن العنايه بما أوتى أرباب الفضل من الفضل و الرغبه فيه،و كان حب المزايا الحيويه بل التفرد بها و التقدم فيها و الاستعلاء من فطريات الإنسان لا يسلب عنه حينا صرفهم تعالى الى نفسه، و وجه وجوههم نحو فضله،و أمره أن يعرضوا عما فى أيدى الناس،و يقبلوا الى جنابه، و يسألوا من فضله فإن الفضل بيد اللّه،و هو الذى أعطى كل ذى فضل فضله فله أن يعطيكم ما تزيدون به و تفضلون بذلك على غيركم ممن ترغبون فيما عنده،و تتمنون ما أعطيه.

و قد أبهم هذا الفضل الذى يجب أن يسأل منه بدخول لفظه «مِنْ» عليه،و فيه من الفائده أولا:التعليم بأدب الدعاء و المسأله من جنابه تعالى فإن الأليق بالانسان المبنى على الجهل بما ينفعه و يضره بحسب الواقع اذا سأل ربه العالم بحقيقه ما ينفع خلقه و ما يضرهم،القادر على كل شىء أن يسأله الخير فيما تتوق نفسه إليه،و لا يطنب فى تشخيص ما يسأله منه و تعيين الطريق الى وصوله،فكثيرا ما رأينا من كانت تتوق نفسه الى حاجه من الحوائج الخاصه كمال أو ولد أو جاه و منزله أو صحه و عافيه و كان يلح فى الدعاء و المسأله لأجلها لا يريد سواها ثم لما استجيب دعاؤه،و أعطى مسألته كان فى ذلك هلاكه و خيبه سعيه فى الحياه.

و ثانيا:الإشاره الى أن يكون المسئول ما لا يبطل به الحكمه الإلهيه فى هذا الفضل الذى قرره اللّه تعالى بتشريع أو تكوين،فمن الواجب أن يسألوا شيئا من فضل اللّه الذى اختص به غيرهم فلو سأل الرجال ما للنساء من الفضل أو بالعكس ثم أعطاهم اللّه ذلك بطلت الحكمه و فسدت الأحكام و القوانين المشرعه فافهم.

فينبغى للإنسان اذا دعا اللّه سبحانه عند ما ضاقت نفسه لحاجه أن لا يسأله ما فى أيدى الناس مما يرفع حاجته بل يسأله مما عنده و اذا سأله مما عنده أن لا يعلم لربه الخبير بحاله طريق الوصول الى حاجته بل يسأله أن يرفع حاجته بما يعلمه خيرا من عنده.

و أما قوله تعالى: إِنَّ اللّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً فتعليل للنهى فى صدر الآيه أى

لا تتمنوا ما أعطاه اللّه من فضله من أعطاه إن اللّه بكل شیء علیم لا یجهل طریق المصلحه و لا یخطئ فی حکمه (۱).

قوله تعالی: وَ لِکُلٍّ جَعَلْنا مَوالِیَ مِمّا تَرَکَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ الآیه؛ الموالی جمع مولی،و هو الولی و إن کثر استعماله فی بعض المصادیق من الولایه کالمولی لسید العبد لولایته علیه،و المولی للناصر لولایته علی أمر المنصور،و المولی لابن العم لولایته علی نکاح بنت عمه،و لا یبعد أن یکون فی الأصل مصدرا میمیا أو اسم مکان ارید به الشخص المتلبس به بوجه کما نطلق الیوم الحکومه و المحکمه و نرید بها الحاکم.

و العقد مقابل الحل،و الیمین مقابل الیسار،و الیمین الید الیمنی،و الیمین الحلف و له غیر ذلک من المعانی.

و وقوع الآیه مع قوله قبل:و لا تتمنوا ما فضل اللّه به بعضکم علی بعض،فی سیاق واحد، و اشتمالها علی التوصیه بإعطاء کل ذی نصیب نصیبه،و أن اللّه جعل لکل موالی مما ترک الوالدان و الأقربون یؤید أن تکون الآیه أعنی قوله: وَ لِکُلٍّ جَعَلْنا ،الخ؛بضمیمه الآیه السابقه تلخیصا للأحکام و الأوامر التی فی آیات الإرث،و وصیه إجمالیه لما فیها من الشرائع التفصیلیه کما کان قوله قبل آیات الإرث:للرجال نصیب مما ترک الوالدان و الأقربون،الآیه؛ تشریعا إجمالیا کضرب القاعده فی باب الإرث تعود إلیه تفاصیل أحکام الإرث.

و لازم ذلک أن ینطبق من اجمل ذکره من الوراث و المورثین علی من ذکر منهم تفصیلا فی آیات الإرث،فالمراد بالموالی جمیع من ذکر وارثا فیها من الأولاد و الأبوین و الإخوه و الأخوات و غیرهم.

و المراد بالأصناف الثلاث المذکورین فی الآیه بقوله: اَلْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِینَ عَقَدَتْ

۱- ۱) .النساء ۳۲-۳۵:کلام فی حقیقه قرآنیه.

أَيْمانُكَمْ الأصناف المذكوره فى آيات الإرث،و هم ثلاثه:الوالدان و الأقربون و الزوجان فينطبق قوله: وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكَمْ على الزوج و الزوجه.

فقوله: «وَ لِكُلٍّ» أى و لكل واحد منكم ذكرا أو انثى،جعلنا موالى أى أولياء فى الوراثه يرثون ما تركتم من المال،و قوله مما ترك،من فيه للابتداء متعلق بالموالى كأن الولايه نشأت من المال،أو متعلق بمحذوف أى يرثون أو يؤتون مما ترك،و ما ترك هو المال الذى تركه الميت المورث الذى هو الوالدان و الأقربون نسبا و الزوج و الزوجه.

و إطلاق «الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ» على الزوج و الزوجه إطلاق كنائى فقد كان دأبهم فى المعاقدات و المعاهدات أن يصافحوا فكأن أيمانهم التى يصافحون بها هى التى عقدت العقود، و أبرمت العهود فالمراد:الذين أوجدتم بالعقد سببيه الازدواج بينكم و بينهم.

و قوله: فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ الضمير للموالى،و المراد بالنصيب ما بين فى آيات الإرث،و الفاء للتفريع،و الجمله متفرعه على قوله تعالى: وَ لِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ ،ثم أكد حكمه بإيتاء نصيبهم بقوله: إِنَّ اللّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً .

و هذا الذى ذكرناه من معنى الآيه أقرب المعانى التى ذكروها فى تفسيرها،و ربما ذكروا أن المراد بالموالى العصبه دون الورثه الذين هم أولى بالميراث،و لا دليل عليه من جهه اللفظ بخلاف الورثه.

قوله تعالى: اَلرِّجالُ قَوّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ بِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ القيم هو الذى يقوم بأمر غيره،و القوام و القيام مبالغه منه.

و المراد بما فضل اللّه بعضهم على بعض هو ما يفضل و يزيد فيه الرجال بحسب الطبع على النساء،و هو زياده قوه التعقل فيهم،و ما يتفرع عليه من شده البأس و القوه و الطاقه على الشدائد من الأعمال و نحوها فإن حياه النساء حياه إحساسيه عاطفيه مبنيه على الرقه

و اللطافه،و المراد بما أنفقوا من أموالهم ما أنفقوه فى مهورهن و نفقاتهن.

و عموم هـذه العله يعطى أن الحكم المبنى عليهـا أعنى قوله: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ» غير مقصور على الأـزواج بأن يختص القواميه بالرجـل على زوجته بـل الحكم مجعول لقبيـل الرجـال على قبيـل النسـاء فى الجهـات العامه التى ترتبط بها حياه القبيلين جميعـا فالجهـات العـامه الاجتمـاعيه الـتى ترتبـط بفضـل الرجـال كجهـتى الحكـومه و القضـاء مثلاـ الـذين يتوقف عليهمـا حيـاه المجتمع،و إنما يقومان بالتعقل الـذى هو فى الرجال بالطبع أزيـد منه فى النساء،و كـذا الـدفاع الحربى الـذى يرتبط بالشده و قوه التعقل كل ذلك مما يقوم به الرجال على النساء.

و على هـذا فقوله: اَلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ذو إطلاق تام،و أما قوله بعد:فالصالحات قانتات،الخ؛الظاهر فى الاختصاص بما بين الرجـل و زوجتـه على مـا سـيأتى فهـو فرع من فروع هـذا الحكم المطلـق و جزئى من جزئيـاته مسـتخرج منه من غير أن يتقيـد به إطلاقه.

قوله تعـالى: فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ المراد بالصـلاح معنـاه اللغوى،و هو مـا يعبر عنه بليـاقه النفس.و القنوت هو دوام الطاعه و الخضوع.

و مقابلتها لقوله: وَ اللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ،الخ؛تفيد أن المراد بالصالحات الزوجات الصالحات،و أن هذا الحكم مضـروب على النساء فى حال الازدواج لا مطلقا،و أن قوله:

قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ -الـذى هـو إعطـاء للأـمر فى صوره التوصـيف أى ليقنتن و ليحفظن-حكم مربوط بشـئون الزوجيه و المعاشـره المنزليه،و هـذا مع ذلـك حكم يتبع فى سعته و ضـيقه علته أعنى قيمومه الرجـل على المرأه قيمومه زوجيه فعليهـا أن تقنت له و تحفظه فيما يرجع الى ما بينهما من شئون الزوجيه.

قوله تعـالى: وَ اللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ،النشوز العصـيان و الاسـتكبار عن الطاعه،و المراد بخوف النشوز ظهور آياته و علائمه،و لعل التفريع على خوف

النشوز دون نفسه لمراعاه حال العظه من بين العلاجات الثلاث المـذكوره فإن الوعظ كما أن له محلا مع تحقق العصـيان كذلك له محل مع بدو آثار العصيان و علائمه.

و الامور الثلاثه أعنى ما يـدل عليه قوله: «فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِی الْمَضاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ» و ان ذكرت معا و عطف بعضـها على بعض بالواو فهى امور مترتبه تدريجيه:

فالموعظه،فإن لم تنجح فالهجره،فإن لم تنفع فالضرب؛و يـدل على كون المراد بها التدريـج فيها أنها بحسب الطبع و سائر للزجر مختلفه آخذه من الضعف الى الشده بحسب الترتيب المأخوذ فى الكلام،فالترتيب مفهوم من السياق دون الواو.

و ظاهر قوله: وَ اهْجُرُوهُنَّ فِی الْمَضاجِعِ أن تكون الهجره مع حفظ المضاجعه كالاستدبار و ترك الملاعبه و نحوها،و إن أمكن أن يراد بمثل الكلام ترك المضاجعه لكنه بعيد،و ربما تأيد المعنى الأول بإتيان المضاجع بلفظ الجمع فإن المعنى الثانى لا حاجه فيه الى إفاده كثره المضجع ظاهرا.

قوله تعالى: فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاٰ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً الـخ؛أى لا تتخـذوا عليهن عله تعتلون بها فى إيـذائهن من إطاعتهن لكم،ثم علل هـذا النهى بقوله: إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ عَلِيًّا كَبِيراً ، و هو إيـذان لهم أن مقام ربهم على كبير فلا يغرنهم ما يجـدونه من القوه و الشـده فى أنفسهم فيظلموهن بالاستعلاء و الاستكبار عليهن.

قوله تعالى: وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقٰاقَ بَيْنِهِمٰا فَابْعَثُوا ،الشقاق البينونه و العداوه،و قد قرر اللّٰه سبحانه بعث الحكمين ليكون أبعد من الجور و التحكم،و قوله: إِنْ يُرِيدٰا إِصْلاٰحاً يُوَفِّقِ اللّٰهُ بَيْنَهُمٰا أى إن يرد الزوجان نوعا من الإصلاح من غير عناد و لجاج فى الاختلاف، فإن سلب الاختيار من أنفسهما و إلقاء زمام الأمر الى الحكمين المرضيين يوجب وفاق البين (۱).

۱- ۱) .النساء ۳۲-۳۵:كلام فى معنى قيمومه الرجال على النساء.

[سوره النساء (۴): الآیات ۳۶ الی ۴۲]

اشاره

وَ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ وَ لاٰ تُشْرِکُوا بِهِ شَیْئاً وَ بِالْوٰالِدَیْنِ إِحْسٰاناً وَ بِذِی اَلْقُرْبیٰ وَ اَلْیَتٰامیٰ وَ اَلْمَسٰاکِینِ وَ اَلْجٰارِ ذِی اَلْقُرْبیٰ وَ اَلْجٰارِ اَلْجُنُبِ وَ اَلصّٰاحِبِ بِالْجَنْبِ وَ اِبْنِ اَلسَّبِیلِ وَ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُکُمْ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ مَنْ کٰانَ مُخْتٰالاً فَخُوراً (۳۶) اَلَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَ یَأْمُرُونَ اَلنّٰاسَ بِالْبُخْلِ وَ یَکْتُمُونَ مٰا آتٰاهُمُ اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَعْتَدْنٰا لِلْکٰافِرِینَ عَذٰاباً مُهِیناً (۳۷) وَ اَلَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ رِئٰاءَ اَلنّٰاسِ وَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ مَنْ یَکُنِ اَلشَّیْطٰانُ لَهُ قَرِیناً فَسٰاءَ قَرِیناً (۳۸) وَ مٰا ذٰا عَلَیْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمّٰا رَزَقَهُمُ اَللّٰهُ وَ کٰانَ اَللّٰهُ بِهِمْ عَلِیماً (۳۹) إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَظْلِمُ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ وَ إِنْ تَکُ حَسَنَةً یُضٰاعِفْهٰا وَ یُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِیماً (۴۰) فَکَیْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ کُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِیدٍ وَ جِئْنٰا بِکَ عَلیٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِیداً (۴۱) یَوْمَئِذٍ یَوَدُّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ عَصَوُا اَلرَّسُولَ لَوْ تُسَوّٰی بِهِمُ اَلْأَرْضُ وَ لاٰ یَکْتُمُونَ اَللّٰهَ حَدِیثاً (۴۲)

ص: ۶۷۱

بيان:

قوله تعالی: وَ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ لاٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً هذا هو التوحيد غير أن المراد به التوحيد العملی،و هو إتيان الأعمال الحسنه-و منها الإحسان الذی هو مورد الكلام-طلبا لمرضاه اللّه و ابتغاء لثواب الآخره دون اتباع الهوی و الشرك به.

و الدليل علی ذلك أنه تعالی عقب هذا الكلام أعنی قوله: وَ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ لاٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، و علله بقوله: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ مَنْ كٰانَ مُخْتٰالاً فَخُوراً ،و ذكر أنه البخيل بماله و المنفق لرئاء الناس، فهم الذين يشركون باللّه و لا يعبدونه وحده،ثم قال:و ما ذا عليهم لو آمنوا باللّه و اليوم الآخر و أنفقوا،و ظهر بذلك أن شركهم عدم إيمانهم باليوم الآخر،و قال تعالی: وَ لاٰ تَتَّبِعِ الْهَویٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا نَسُوا يَوْمَ الْحِسٰابِ (ص۲۶/)،فبين أن الضلال باتباع الهوی-و كل شرك ضلال-إنما هو بنسيان يوم الحساب،ثم قال: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلیٰ عِلْمٍ (الجاثيه۲۳/) فبين أن اتباع الهوی عباده له و شرك به.

فتبين بذلك كله أن التوحيد العملی أن يعمل الإنسان ابتغاء مثوبه اللّه و هو علی ذكر من يوم الحساب الذی فيه ظهور المثوبات و العقوبات،و أن الشرك فی العمل أن ينسی اليوم الآخر -و لو آمن به لم ينسه-و أن يعمل عمله لا لطلب مثوبه بل لما يزينه له هواه من التعلق بالمال أو حمد الناس و نحو ذلك،فقد أشخص هذا الإنسان هواه تجاه ربه،و أشرك به.

فالمراد بعباده اللّه و الإخلاص له أن يكون طلبا لمرضاته،و ابتغاء لمثوبته لا لاتباع الهوی.

قوله تعالی: وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً -الی قوله- أَيْمٰانُكُمْ الظاهر أن قوله: إِحْسٰاناً مفعول مطلق لفعل مقدر،تقديره:و أحسنوا بالوالدين إحسانا،و الإحسان يتعدی بالباء و الی

معا يقال:أحسنت به و أحسنت إليه،و قوله: وَ بِذِي الْقُرْبىٰ ،هو و ما بعده معطوف على بِالْوٰالِدَيْنِ ،و ذو القربى القرابه،و قوله: وَ الْجٰارِ ذِي الْقُرْبىٰ وَ الْجٰارِ الْجُنُبِ قرينه المقابله فى الوصف تعطى أن يكون المراد بالجار ذى القربى الجار القريب دارا،و بالجار الجنب-و هو الأجنبى-الجار البعيد دارا،و قد روى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:تحديد الجوار بأربعين ذراعا،و فى روايه:أربعون دارا،و لعل الروايتين ناظرتان الى الجار ذى القربى و الجار الجنب.

و قوله: وَ الصّٰاحِبِ بِالْجَنْبِ هو الذى يصاحبك ملازما لجنبك،و هو بمفهومه يعم مصاحب السفر من رفقه الطريق و مصاحب الحضر و المنزل و غيرهم،و قوله: وَ ابْنِ السَّبِيلِ هو الذى لا يعرف من حاله إلاّ أنه سالك سبيل كأنه ليس له من ينتسب اليه إلاّ السبيل فهو ابنه،و أما كونه فقيرا ذا مسكنه عادما لزاد أو راحله فكأنه خارج من مفهوم اللفظ،و قوله: وَ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ المراد به العبيد و الإماء بقرينه عده فى عداد من يحسن إليهم،و قد كثر التعبير عنهم بما ملكته الأيمان دون من ملكته.

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ مَنْ كٰانَ مُخْتٰالاً فَخُوراً المختار التائه المتبختر المسخر لخياله،و منه الخيل للفرس لأنه يتبختر فى مشيته،و الفخور كثير الفخر،و الوصفان أعنى الاختيال و كثره الفخر من لوازم التعلق بالمال و الجاه،و الإفراط فى حبهما،و لذلك لم يكن اللّه ليحب المختال الفخور لتعلق قلبه بغيره تعالى،و ما ذكره تعالى فى تفسيره بقوله: اَلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ،الخ؛و قوله: وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ رِئٰاءَ النّٰاسِ ،الخ؛يبين كون الطائفتين معروضتين للخيلاء و الفخر:فالطائفه الاولى متعلقه القلب بالمال،و الثانيه بالجاه و إن كان بين الجاه و المال تلازم فى الجمله.

و كان من طبع الكلام أن يشتغل بذكر أعمالهما من البخل و الكتمان و غيرهما لكن بدأ بالوصفين ليدل على السبب فى عدم الحب كما لا يخفى.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النّٰاسَ بِالْبُخْلِ الآيه؛أمرهم الناس

بالبخل إنما هو بسيرتهم الفاسده و عملهم به سواه أمروا به لفظا أو سكتوا فإن هذه الطائفه لكونهم اولى ثروه و مال يتقرب إليهم الناس و يخضعون لهم لما فى طباع الناس من الطبع ففعلهم آمر و زاجر كقولهم،و أما كتمانهم ما آتاهم اللّه من فضله فهو تظاهرهم الفاقد المعدم للمال لتأذيهم من سؤال الناس ما فى أيديهم،و خوفهم على أنفسهم لو منعوا و خشيتهم من توجه النفوس الى أموالهم،و المراد بالكافرين الساترون لنعمه اللّه التى أنعم بها،و منه الكافر المعروف لستره على الحق بإنكاره.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النّاسِ الخ؛أى لمراءاتهم،و فى الآيه دلاله على أن الرئاء فى الإنفاق-أو هو مطلقا-شرك باللّه كاشف عن عدم الإيمان به لاعتماد المرائى على نفوس الناس و استحسانهم فعله،و شرك من جهه العمل لأن المرائى لا يريد بعمله ثواب الآخره،و إنما يريده ما يرجوه من نتائج إنفاقه فى الدنيا،و على أن المرائى قرين الشيطان و ساء قرينا.

قوله تعالى: وَ ما ذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا الآيه؛استفهام للتأسف أو التعجب،و فى الآيه دلاله على أن الاستنكاف عن الإنفاق فى سبيل اللّه ناش من فقدان التلبس بالإيمان باللّه و باليوم الآخر حقيقه و إن تلبس به ظاهرا.

و قوله: وَ كانَ اللّهُ بِهِمْ عَلِيماً تمهيد لما فى الآيه التاليه من البيان،و الأمس لهذه الجمله بحسب المعنى أن تكون حالا.

قوله تعالى: إِنَّ اللّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّهٍ الآيه؛المثقال هو الزنه،و الذره هو الصغير من النمل الأحمر،أو هو الواحد من البهات المبثوث فى الهواء الذى لا يكاد يرى صغرا.

و قوله: مِثْقالَ ذَرَّهٍ نائب مناب المفعول المطلق أى لا يظلم ظلما يعدل مثقال ذره وزنا.

و قوله: وَ إِنْ تَکُ حَسَنَهً ،قرئ برفع حسنه و بنصبها فعلى تقدير الرفع كان تامه،و على تقدير النصب تقديره:و إن تكن المثقال المذكور حسنه يضاعفها،و تأنيث الضمير فى قوله: إِنَّ

تَکَ إما من جهه تأنیث الخبر أو لکسب المثقال التأنیث بالإضافه الی ذره.

و السیاق یفید أن تکون الآیه بمنزله التعلیل للاستفهام السابق،و التقدیر:و من الأسف علیهم ان لم یؤمنوا و لم ینفقوا فإنهم لو آمنوا و أنفقوا و اللّه علیهم بهم لم یکن اللّه لیظلمهم فی مثقال ذره أنفقوها بالإهمال و ترک الجزاء،و إن تک حسنه یضاعفها.و اللّه أعلم.

قوله تعالی: فَکَیْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ کُلِّ أُمَّهٍ بِشَهِیدٍ الآیه؛قد تقدم بعض الکلام فی معنی الشهاده علی الأعمال فی تفسیر قوله تعالی: لِتَکُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَی النّٰاسِ (البقره۱۴۳/)من الجزء الأول من هذا الکتاب،و سیجیء بعض آخر فی محله المناسب له.

قوله تعالی: یَوْمَئِذٍ یَوَدُّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ عَصَوُا الرَّسُولَ الآیه؛نسبه المعصیه الی الرسول یشهد أن المراد بها معصیه أوامره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الصادره عن مقام ولایته لا معصیه اللّه تعالی فی أحکام الشریعه،و قوله: لَوْ تُسَوّٰی بِهِمُ الْأَرْضُ کنایه عن الموت بمعنی بطلان الوجود نظیر قوله تعالی: وَ یَقُولُ الْکٰافِرُ یٰا لَیْتَنِی کُنْتُ تُرٰاباً (النبأ۴۰/).

و قوله: وَ لاٰ یَکْتُمُونَ اللّٰهَ حَدِیثاً ظاهر السیاق أنه معطوف علی موضع قوله:

یَوَدُّ الَّذِینَ کَفَرُوا و فائدته الدلاله بوجه علی ما یعلل به تمنیهم الموت،و هو أنهم بارزون یومئذ للّه لا یخفی علیه منهم شیء لظهور حالهم علیه تعالی بحضور أعمالهم،و شهاده أعضائهم و شهاده الأنبیاء و الملائکه و غیرهم علیهم،و اللّه من ورائهم محیط فیودون عند ذلک أن لو لم یکونوا و لیس لهم أن یکتموه تعالی حدیثا مع ما یشاهدون من ظهور مساوی أعمالهم و قبائح أفعالهم.

و أما قوله تعالی: یَوْمَ یَبْعَثُهُمُ اللّٰهُ جَمِیعاً فَیَحْلِفُونَ لَهُ کَمٰا یَحْلِفُونَ لَکُمْ (المجادله۱۸/) فسیجیء إن شاء اللّه تعالی أن ذلک إنما هو لإیجاب ملکه الکذب التی حصلوها فی الدنیا لا للإخفاء و کتمان الحدیث یوم لا یخفی علی اللّه منهم شیء.

ص :۶۷۵

[سوره النساء (۴): آیه ۴۳]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَقْرَبُوا اَلصَّلاٰهَ وَ أَنْتُمْ سُکٰاریٰ حَتّٰی تَعْلَمُوا مٰا تَقُولُونَ وَ لاٰ جُنُباً إِلاّٰ عٰابِرِی سَبِیلٍ حَتّٰی تَغْتَسِلُوا وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضیٰ أَوْ عَلیٰ سَفَرٍ أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ اَلْغٰائِطِ أَوْ لاٰمَسْتُمُ اَلنِّسٰاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مٰاءً فَتَیَمَّمُوا صَعِیداً طَیِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِکُمْ وَ أَیْدِیکُمْ إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ عَفُوًّا غَفُوراً (۴۳)

بیان:

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا -الی قوله- مٰا تَقُولُونَ المراد بالصلاه المسجد،و الدلیل علیه قوله: وَ لاٰ جُنُباً إِلاّٰ عٰابِرِی سَبِیلٍ ،و المقتضی لهذا التجویز قوله حتی تعلموا ما تقولون اذ لو قیل:لا تقربوا المسجد و أنتم سکاری لم یستقم تعلیله بقوله: «حَتّٰی تَعْلَمُوا مٰا تَقُولُونَ» أو أفاد التعلیل معنی آخر غیر مقصود مع أن المقصود إفاده أنکم فی حال الصلاه تواجهون مقام العظمه و الکبریاء و تخاطبون رب العالمین فلا یصلح لکم أن تسکروا و تبطلوا عقولکم برجس الخمر فلا تعلموا ما تقولون،و هذا المعنی کما تری- یناسب النهی عن اقتراب الصلاه لکن الصلاه لما کانت أکثر ما تقع تقع فی المسجد جماعه-علی السنه- و کان من القصد أن تذکر أحکام الجنب فی دخوله المسجد أوجز فی المقال و سبک الکلام علی ما تری.

و علی هذا فقوله: حَتّٰی تَعْلَمُوا مٰا تَقُولُونَ فی مقام التعلیل للنهی عن شرب الخمر بحیث یبقی سکرها الی حال دخول الصلاه أی نهیناکم عنه لغایه أن تعلموا ما تقولون و لیس غایه للحکم بمعنی أن لا تقربوا الی أن تعلموا ما تقولون فاذا علمتم ما تقولون فلا بأس.

ص :۶۷۶

قوله تعالی: وَ لاٰ جُنُباً إِلاّٰ عٰابِرِی سَبِیلٍ الی آخر الآیه؛سیأتی الکلام فی الآیه فی تفسیر قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذٰا قُمْتُمْ إِلَی الصَّلاٰهِ (المائده۶/).

[سوره النساء (۴): الآیات ۴۴ الی ۵۸]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ إِلَی اَلَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ اَلْکِتٰابِ یَشْتَرُونَ اَلضَّلاٰلَهَ وَ یُرِیدُونَ أَنْ تَضِلُّوا اَلسَّبِیلَ (۴۴) وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِأَعْدٰائِکُمْ وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ وَلِیًّا وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ نَصِیراً (۴۵) مِنَ اَلَّذِینَ هٰادُوا یُحَرِّفُونَ اَلْکَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ وَ یَقُولُونَ سَمِعْنٰا وَ عَصَیْنٰا وَ اِسْمَعْ غَیْرَ مُسْمَعٍ وَ رٰاعِنٰا لَیًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِی اَلدِّینِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا وَ اِسْمَعْ وَ اُنْظُرْنٰا لَکٰانَ خَیْراً لَهُمْ وَ أَقْوَمَ وَ لٰکِنْ لَعَنَهُمُ اَللّٰهُ بِکُفْرِهِمْ فَلاٰ یُؤْمِنُونَ إِلاّٰ قَلِیلاً (۴۶) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ آمِنُوا بِمٰا نَزَّلْنٰا مُصَدِّقاً لِمٰا مَعَکُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهٰا عَلیٰ أَدْبٰارِهٰا أَوْ نَلْعَنَهُمْ کَمٰا لَعَنّٰا أَصْحٰابَ اَلسَّبْتِ وَ کٰانَ أَمْرُ اَللّٰهِ مَفْعُولاً (۴۷) إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِکَ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللّٰهِ فَقَدِ اِفْتَریٰ إِثْماً عَظِیماً (۴۸) أَ لَمْ تَرَ إِلَی اَلَّذِینَ یُزَکُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اَللّٰهُ یُزَکِّی مَنْ یَشٰاءُ وَ لاٰ یُظْلَمُونَ فَتِیلاً (۴۹) اُنْظُرْ کَیْفَ یَفْتَرُونَ عَلَی اَللّٰهِ اَلْکَذِبَ وَ کَفیٰ بِهِ إِثْماً مُبِیناً (۵۰) أَ لَمْ تَرَ إِلَی اَلَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ اَلْکِتٰابِ یُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ اَلطّٰاغُوتِ وَ یَقُولُونَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا هٰؤُلاٰءِ أَهْدیٰ مِنَ اَلَّذِینَ آمَنُوا سَبِیلاً (۵۱) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ لَعَنَهُمُ اَللّٰهُ وَ مَنْ یَلْعَنِ اَللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِیراً (۵۲) أَمْ لَهُمْ نَصِیبٌ مِنَ اَلْمُلْکِ فَإِذاً لاٰ یُؤْتُونَ اَلنّٰاسَ نَقِیراً (۵۳) أَمْ یَحْسُدُونَ اَلنّٰاسَ عَلیٰ مٰا آتٰاهُمُ اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَیْنٰا آلَ إِبْرٰاهِیمَ اَلْکِتٰابَ وَ اَلْحِکْمَهَ وَ آتَیْنٰاهُمْ مُلْکاً عَظِیماً (۵۴) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ کَفیٰ بِجَهَنَّمَ سَعِیراً (۵۵) إِنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا بِآیٰاتِنٰا سَوْفَ نُصْلِیهِمْ نٰاراً کُلَّمٰا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنٰاهُمْ جُلُوداً غَیْرَهٰا لِیَذُوقُوا اَلْعَذٰابَ إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ عَزِیزاً حَکِیماً (۵۶) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا أَبَداً لَهُمْ فِیهٰا أَزْوٰاجٌ مُطَهَّرَهٌ وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِیلاً (۵۷) إِنَّ اَللّٰهَ یَأْمُرُکُمْ أَنْ تُؤَدُّوا اَلْأَمٰانٰاتِ إِلیٰ أَهْلِهٰا وَ إِذٰا حَکَمْتُمْ بَیْنَ اَلنّٰاسِ أَنْ تَحْکُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اَللّٰهَ نِعِمّٰا یَعِظُکُمْ بِهِ إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ سَمِیعاً بَصِیراً (۵۸)

بیان:

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ الْکِتابِ الآیه؛قد تقدم فی الکلام علی الآیات(۳۶-۴۲)أنها مرتبطه بعض الارتباط بهذه الآیات،و قد سمعت القول فی نزول تلک الآیات فی حق الیهود.

و بالجمله یلوح من هذه الآیات أن الیهود کانوا یلقون الی المؤمنین الموده و یظهرون لهم النصح فیفتنونهم بذلک،و یأمرونهم بالبخل و الإمساک عن الإنفاق لیمنعوا بذلک سعیهم عن النجاح،وجدهم فی التقدم و التعالی،و هذا لازم کون تلک الآیات نازله فی حق الیهود أو فی حق من کان یسار الیهود و یصادقهم ثم تنحرف عن الحق بتحریفهم،و یمیل الی حیث یمیلونه فیبخل ثم یأمر بالبخل.

و هذا هو الذی یستفاد من قوله: وَ یُرِیدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِیلَ وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِکُمْ ،الی آخر الآیه.

فمعنی الآیتین-و اللّه أعلم-أن ما نبینه لکم تصدیق ما بیناه لکم من حال الممسک عن الإنفاق فی سبیل اللّه بالاختیال و الفخر و البخل و الرئاء أنک تری الیهود الذین اوتوا نصیبا من الکتاب أی حظا منه لا جمیعه کما یدعون لأنفسهم یشترون الضلاله و یختارونه علی الهدی، و یریدون أن تضلوا السبیل فإنهم و إن لقوکم ببشر الوجه،و ظهروا لکم فی زی الصلاح، و اتصلوا بکم اتصال الأولیاء الناصرین فذکروا لکم ما ربما استحسنته طباعکم،و استصوبته قلوبکم لکنهم ما یریدون إلاّ ضلالکم عن السبیل کما اختاروا لأنفسهم الضلاله،و اللّه أعلم منکم بأعدائکم،و هم أعداؤکم فلا یغرنکم ظاهر ما تشاهدون من حالهم فإیاکم أن تطیعوا أمرهم أو تصغوا الی أقوالهم المزوقه و إلقاء آتهم المزخرفه و أنتم تقدرون أنهم أولیاءکم و أنصارکم،فأنتم لا تحتاجون الی ولایتهم الکاذبه،و نصرتهم المرجوه و کفی باللّه ولیا،و کفی

باللّه نصيرا؛فأى حاجه مع ولايته و نصرته الى ولايتهم و نصرتهم.

قوله تعالى: مِنَ اَلَّذِينَ هٰادُوا يُحَرِّفُونَ اَلْكَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ -الى قوله- فِي اَلدِّينِ «مِنَ» فى قوله: مِنَ اَلَّذِينَ ،بيانيه،و هو بيان لقوله فى الآيه السابقه: اَلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ اَلْكِتٰابِ ،أو لقوله: بِأَعْدٰائِكُمْ ،و ربما قيل:إن قوله: مِنَ اَلَّذِينَ هٰادُوا خبر لمبتدإ محذوف و هو الموصوف المحذوف لقوله يحرفون الكلم،و التقدير:من الذين هادوا قوم يحرفون،أو من الذين هادوا من يحرفون؛قالوا:و حذف الموصوف شائع كقول ذى الرمه:

فظلوا و منهم دمعه سابق له

و آخر يشنى دمعه العين بالمهل

يريد:و منهم قوم دمعه،أو و منهم من دمعه.

و قد وصف اللّه تعالى هذه الطائفه بتحريف الكلم عن مواضعه،و ذلك إما بتغيير مواضع الألفاظ بالتقديم و التأخير و الإسقاط و الزياده كما ينسب الى التوراه و الموجوده،و إما بتفسير ما ورد عن موسى عليه السّلام فى التوراه و عن سائر الأنبياء بغير ما قصد منه من المعنى الحق كما أولو ما ورد فى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من بشارات التوراه،و من قبل أولو ما ورد فى المسيح عليه السّلام من البشاره،و قالوا:إن الموعود لم يجىء بعد،و هم ينتظرون قدومه الى اليوم.

و من الممكن أن يكون المراد بتحريف الكلم عن مواضعه ما سيذكره تعالى بقوله: وَ يَقُولُونَ سَمِعْنٰا وَ عَصَيْنٰا ،فتكون هذه الجمله معطوفه على قوله: يُحَرِّفُونَ ،و يكون المراد حينئذ من تحريف الكلم عن مواضعه استعمال القول بوضعه فى غير المحل الذى ينبغى أن يوضع فيه، فقول القائل:سمعنا من حقه أن يوضع فى موضع الطاعه فيقال: سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا لا أن يقال:سمعنا و عصينا،أو يوضع:سمعنا موضع التهكم و الاستهزاء،و كذا قول القائل:اسمع ينبغى أن يقال فيه:اسمع أسمعك اللّه لا أن يقال:اسمع غير مسمع أى لا أسمعك اللّه و راعنا،و هو يفيد فى لغه اليهود معنى اسم غير مسمع.

و قوله: لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِي اَلدِّينِ أصل اللى الفتل أى يميلون بألسنتهم

فیظهرون الباطل من کلامهم فی صوره الحق،و الإزراء و الإهانه فی صور التأدب و الاحترام فإن المؤمنین کانوا یخاطبون رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حین ما کانوا یکلمونه بقولهم:راعنا یا رسول اللّه،و معناه:انظرنا و اسمع منا حتی نوفی غرضنا من کلامنا،فاغتنمت الیهود ذلک فکانوا یخاطبون رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بقولهم:راعنا و هم یریدون به ما عندهم من المعنی المستهجن غیر الحری بمقامه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فذموا به فی هذه الآیه،و هو قوله تعالی: «یُحَرِّفُونَ الْکَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ» ثم فسره بقوله: «وَ یَقُولُونَ سَمِعْنٰا وَ عَصَیْنٰا وَ اسْمَعْ غَیْرَ مُسْمَعٍ» ثم عطف علیه کعطف التفسیر قوله: «وَ رٰاعِنٰا» ثم ذکر أن هذا الفعال المذموم منهم لی بالألسن،و طعن فی الدین فقال: «لَیًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِی الدِّینِ» و المصدران فی موضع الحال و التقدیر:لاوین بألسنتهم،و طاعنین فی الدین.

قوله تعالی: وَ لَوْ أَنَّهُمْ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا وَ اسْمَعْ وَ انْظُرْنٰا لَکٰانَ خَیْراً لَهُمْ وَ أَقْوَمَ کون هذا القول منهم و هو مشتمل علی أدب الدین،و الخضوع للحق خیرا و أقوم مما قالوه(مع اشتماله علی اللی و الطعن المذمومین و لا خیر فیه و لا قوام)مبنی علی مقایسه الأثر الحق الذی فی هذا الکلام الحق علی ما یظنونه من الأثر فی کلامهم و إن لم یکن له ذلک بحسب الحقیقه،فالمقایسه بین الأثر الحق و بین الأثر المظنون حقا،و المعنی:أنهم لو قالوا:سمعنا و أطعنا،لکان فیه من الخیر و القوام أکثر مما یقدرون فی أنفسهم لهذا اللی و الطعن فالکلام یجری مجری قوله تعالی: وَ إِذٰا رَأَوْا تِجٰارَهً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَیْهٰا وَ تَرَکُوکَ قٰائِماً قُلْ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَیْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجٰارَهِ وَ اللّٰهُ خَیْرُ الرّٰازِقِینَ (الجمعه/۱۱).

قوله تعالی: وَ لٰکِنْ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ بِکُفْرِهِمْ فَلاٰ یُؤْمِنُونَ إِلاّٰ قَلِیلاً تأییس السامعین من أن تقول الیهود سمعنا و أطعنا فإنه کلمه إیمان و هؤلاء ملعونون لا یوفقون للإیمان،و لذلک قیل:لو أنهم قالوا،الدال علی التمنی المشعر بالاستحاله.

و الظاهر أن الباء فی قوله: «بِکُفْرِهِمْ» للسببیه دون الآیه،فإن الکفر یمکن أن یزاح

بالإيمـان فهو لاـ يوجب بما هو كفر لعنه تمنع عن الإيمان منعا قاطعا لكنهم لما كفروا(و سيشـرح اللّه تعالى فى آخر السوره حال كفرهم)لعنهم اللّه بسبب ذلك لعنا ألزم الكفر عليهم إلزاما لا يؤمنون بذلك إلاّ قليلا فافهم ذلك.

و أما قوله: فَلاٰ يُؤْمِنُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً فقد قيل:إن «قَلِيلاً» حال،و التقدير:إلاّ و هم قليل أى لا يؤمنون إلاّ فى حال هم قليل،و ربما قيل:إن «قَلِيلاً» صـفه لموصوف محـذوف،و التقـدير:فلا يؤمنون إلاّ إيمانا قليلا،و هـذا الوجه كسابقه لا بأس به لكن يجب أن يزاد فيه أن اتصاف الإيمان بالقله إنما هو من قبيل الوصف بحال المتعلق أى إيمانا المؤمن به قليل.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ آمِنُوا بِمٰا نَزَّلْنٰا الخ؛الطمس محو أثر الشـىء،و الوجه ما يسـتقبلك من الشىء و يظهر منه،و هو من الانسـان الجـانب المقـدم الظـاهر من الرأس و مـا يسـتقبلك منه،و يسـتعمل فى الاـمور المعنويه كما فى الامور الحسـيه،و الأدبار جمع دبر بضـمتين و هو القفا،و المراد بأصـحاب السـبت قوم من اليهود كانوا يعدون فى السـبت فلعنهم اللّه و مسخهم،قال تعالى: وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَهِ الَّتِى كٰانَتْ حٰاضِرَهَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتٰانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لاٰ يَسْبِتُونَ لاٰ تَأْتِيهِمْ (الأعراف۱۶۳/)، و قال تعالى: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِى السَّبْتِ فَقُلْنٰا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَهً خٰاسِئِينَ فَجَعَلْنٰاهٰا نَكٰالاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهٰا وَ مٰا خَلْفَهٰا (البقره۶۶/).

و قـد كـانت الآيات السابقه-كما عرفت-متعرضه لحال اليهود أو لحال طائفه من اليهود، و انجر القول الى أنهم بإزاء ما خانوا اللّه و رسـوله،و أفسـدوا صالـح دينهم ابتلـوا بلعنه من اللّه لحق جمعهم،و سـلبهم التوفيق للإيمـان إلاـ قليلاـ فعم الخطـاب لجميع أهل الكتاب-على ما يفيـده قوله: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ -و دعاهم الى الإيمان بالكتاب الـذى نزله مصـدقا لما معهم، و أوعـدهم بالسخط الذى يلحقهم لو تمردوا و استكبروا من غير عذر من طمس أو لعن يتبعانهم اتباعا لا ريب فيه.

و ذلك ما ذكره بقوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهٰا عَلىٰ أَدْبٰارِهٰا ،فطمس الوجوه محو هذه الوجوه التى يتوجه بها البشر نحو مقاصدها الحيويه مما فيه سعاده الإنسان المرتقبه و المرجوه لكن لا المحو يوجب فناء الوجوه و زوالها و بطلان آثارها بل محوا يوجب ارتداد تلك الوجوه على أدبارها فهى تقصد مقاصدها على الفطره التى فطر عليها لكن لما كانت منصوبه الى الاقفيه و مردوده على الأدبار لا تقصد إلاّ ما خلفته وراءها،و لا تمشى إليه إلاّ القهقرى.

و هذا الإنسان-و هو بالطبع و الفطره متوجه نحو ما يراه خيرا و سعاده لنفسه-كلما توجه الى ما يراه خيرا لنفسه،و صلاحا لدينه أو لدنياه لم ينل إلاّ شرا و فسادا،و كلما بالغ فى التقدم زاد فى التأخر،و ليس يفلح أبدا.

و أما لعنهم كلعن أصحاب السبت فظاهره المسخ على ما تقدم من آيات أصحاب السبت التى تخبر عن مسخهم قرده.

و على هذا فلفظه «أَوْ» فى قوله: أَوْ نَلْعَنَهُمْ ،على ظاهرها من إفاده الترديد،و الفرق بين الوعيدين أن الأول أعنى الطمس يوجب تغيير مقاصد المغضوب عليهم من غير تغيير الخلقه إلا فى بعض كيفياتها،و الثانى أعنى اللعن كلعن أصحاب السبت يوجب تغيير المقصد بتغيير الخلقه الإنسانيه الى خلقه حيوانيه كالقرده.

فهؤلاء إن تمردوا عن الامتثال-و سوف يتمردون على ما تفيده خاتمه الآيه-كان لهم إحدى سخطتين:إما طمس الوجوه،و إما اللعن كلعن أصحاب السبت لكن الآيه تدل على أن هذه السخطه لا تعمهم جميعهم حيث قال: «وُجُوهاً» فأتى بالجمع المنكر،و لو كان هو الجميع لم ينكر،و لتنكير الوجوه و عدم تعيينه نكته اخرى هى أن المقام لما كان مقام الإيعاد و التهديد،و هو إبعاد للجماعه بشر لا يلحق إلاّ ببعضهم كان إبهام الأفراد الذين يقع عليهم السخط الإلهى أوقع فى الإنذار و التخويف لأن وصفهم على إبهامه يقبل الانطباق على كل

واحد واحد من القوم فلا يأمن أحدهم أن يمسه هذا العذاب البئيس،و هذه الصناعه شائعه فى اللسان فى مقام التهديد و التخويف.

و فى قوله تعالى:أو نلعنهم،حيث أرجع فيه ضمير«هم»الموضوع لاولى العقل الى قوله:

«وُجُوهاً» كما هو الظاهر تلويحا أو تصريحا بأن المراد بالوجوه الأشخاص من حيث استقبالهم مقاصدهم،و بذلك يضعف احتمال أن يكون المراد بطمس الوجوه وردها على أدبارها تحويل وجوه الأبدان الى الأقفيه كما قال به بعضهم،و يقوى بذلك احتمال أن المراد من تحويل الوجوه الى الأدبار تحويل النفوس من حال استقامه الفكر،و إدراك الواقعيات على واقعياتها الى حال الاعوجاج و الانحطاط الفكرى بحيث لا يشاهد حقا إلاّ أعرض عنه و اشمأز منه،و لا باطلا إلاّ مال إليه و تولع به.

و هذا نوع من التصرف الإلهى مقتا و نقمه نظير ما يدل عليه قوله تعالى: وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصٰارَهُمْ كَمٰا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ (الأنعام/١١٠).

فتبين مما مر أن المراد بطمس الوجوه فى الآيه نوع تصرف إلهى فى النفوس يوجب تغيير طباعها من مطاوعه الحق و تجنب الباطل الى اتباع الباطل و الاحتراز عن الحق فى باب الإيمان باللّه و آياته كما يؤيده صدر الآيه:آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس،الخ؛و كذا تبين أن المراد باللعن المذكور فيها المسخ.

قوله تعالى: وَ كٰانَ أَمْرُ اللّٰهِ مَفْعُولاً إشاره الى أن الأمر لا محاله واقع،و قد وقع على ما ذكره اللّه فى كتابه من لعنهم و إنزال السخط عليهم،و إلقاء العداوه و البغضاء بينهم الى يوم القيامه،و غير ذلك من آيات كثيره.

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ ظاهر السياق أن الآيه فى مقام التعليل للحكم المذكور فى الآيه السابقه أعنى قوله: آمِنُوا بِمٰا نَزَّلْنٰا مُصَدِّقاً لِمٰا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ ،الخ؛فيعود المعنى الى مثل قولنا:فإنكم إن لم تؤمنوا

به کنتم بذلک مشرکین،و اللّه لا یغفر أن یشرک به فیحل علیکم غضبه و عقوبته فیطمس وجوهکم بردها علی أدبارها أو یلعنکم فنتیجه عدم المغفره هذه ترتب آثار الشرک الدنیویه من طمس أو لعن علیه.

و هذا هو الفرق بین مضمون هذه الآیه،و قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِکَ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللّٰهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً بَعِیداً (النساء/۱۱۶)،فإن هذه الآیه(آیه ۴۸)،تهدد بآثار الشرک الدنیویه،و تلک(آیه ۱۱۶)،تهدد بآثاره الاخرویه، و ذلک بحسب الانطباق علی المورد و إن کانتا بحسب الإطلاق کلتاهما شاملتین لجمیع الآثار.

و مغفرته سبحانه و عدم مغفرته لا یقع شیء منهما وقوعا جزافیا بل علی وفق الحکمه،و هو العزیز الحکیم؛فأما عدم مغفرته للشرک فإن الخلقه إنما تثبت علی ما فیها من الرحمه علی أساس العبودیه و الربوبیه،قال تعالی: وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِیَعْبُدُونِ (الذاریات/۵۶)،و لا عبودیه مع شرک؛و أما مغفرته لسائر المعاصی و الذنوب التی دون الشرک فشفاعه من جعل له الشفاعه من الأنبیاء و الأولیاء و الملائکه و الأعمال الصالحه علی ما مر تفصیله فی بحث الشفاعه فی الجزء الأول من هذا الکتاب.

و أما التوبه فالآیه غیر متعرضه لشأنها من حیث خصوص مورد الآیه لأن موردها عدم الإیمان و لا توبه معه،علی أن التوبه یغفر معها جمیع الذنوب حتی الشرک،قال تعالی: قُلْ یٰا عِبٰادِیَ الَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ لاٰ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَهِ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِیعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ وَ أَنِیبُوا إِلیٰ رَبِّکُمْ (الزمر/۵۴).

و المراد بالشرک فی الآیه ما یعم الکفر لا محاله فإن الکافر أیضا لا یغفر له البته و إن لم یصدق علیه المشرک بعنوان التسمیه بناء علی أن أهل الکتاب لا یسمون فی القرآن مشرکین و إن کان کفرهم بالقرآن و بما جاء به النبی شرکا منهم أشرکوا به(راجع تفسیر آیه ۲۲۱ من البقره)،و اذا لم یؤمن أهل الکتاب بما نزل اللّه مصدقا لما معهم فقد کفروا به،و أشرکوا ما فی

أیدیهم باللّه سبحانه فإنه شیء لا یریده اللّه علی الصفه التی أخذوه بها فالمؤمن بموسی علیه السّلام اذا کفر بالمسیح علیه السّلام فقد کفر باللّه و أشرک به موسی؛و لعل ما ذکرناه هو النکته لقوله تعالی: أَنْ یُشْرَکَ بِهِ دون أن یقول:المشرک أو المشرکین.

و قوله تعالی: لِمَنْ یَشٰاءُ تقیید للکلام لدفع توهم أن لأحد من الناس تأثیرا فیه تعالی یوجب به علیه المغفره فیحکم علیه تعالی حاکم أو یقهره قاهر،و تعلیق الامور الثابته فی القرآن علی المشیئه کثیر و الوجه فی کلها أو جلها دفع ما ذکرناه من التوهم کقوله تعالی:

خٰالِدِینَ فِیهٰا مٰا دٰامَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّکَ عَطٰاءً غَیْرَ مَجْذُوذٍ (هود/ ۱۰۸).

علی أن من الحکمه أن لا یغفر لکل مذنب ذنبه و إلاّ لغی الأمر و النهی،و بطل التشریع، و فسد أمر التربیه الإلهیه،و إلیه الإشاره بقوله: لِمَنْ یَشٰاءُ ،و من هنا یظهر أن کل واحد من المعاصی لا بد أن لا یغفر بعض أفراده و إلاّ لغی النهی عنه،و هذا لا ینافی عموم لسان آیات أسباب المغفره فإن الکلام فی الوقوع دون الوعد علی وجه الإطلاق،و من المعاصی ما یصدر عمن لا یغفر له بشرک و نحوه.

فمعنی الآیه أنه تعالی لا یغفر الشرک من کافر و لا مشرک،و یغفر سائر الذنوب دون الشرک بشفاعه شافع من عباده أو عمل صالح،و لیس هو تعالی مقهورا أن یغفر کل ذنب من هذه الذنوب لکل مذنب بل له أن یغفر و له أن لا یغفر؛کل ذلک لحکمه.

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ یُزَکُّونَ أَنْفُسَهُمْ قال الراغب:أصل الزکاه النمو الحاصل من برکه اللّه تعالی-الی أن قال-:و تزکیه الإنسان نفسه ضربان:أحدهما:بالفعل و هو محمود،و إلیه قصد بقوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَکّٰی ،و الثانی بالقول کتزکیته لعدل غیره،و ذلک مذموم أن یفعل الإنسان بنفسه،و قد نهی اللّه تعالی عنه فقال:لا تزکوا أنفسکم،و نهیه عن ذلک تأدیب لقبح مدح الإنسان نفسه عقلا و شرعا،و لهذا قیل لحکیم:ما الذی لا یحسن و إن

كان حقا؟فقال:مدح الرجل نفسه،انتهى كلامه.

و لما كانت الآيه فى ضمن الآيات المسروده للتعرض لحال أهل الكتاب الظاهر أن هؤلاء المزكين لأنفسهم هم أهل الكتاب أو بعضهم،و لم يوصفوا بأهل الكتاب لأن العلماء باللّه و آياته لا ينبغى لهم أن يتلبسوا بأمثال هذه الرذائل فالإصرار عليها انسلاخ عن الكتاب و علمه.

و يؤيده ما حكاه اللّه تعالى عن اليهود من قوله: نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ (المائده۱۸/) و قولهم: لَنْ تَمَسَّنَا النّٰارُ إِلاّٰ أَيّٰاماً مَعْدُودَةً (البقره۸۰/)و زعمهم الولايه كما فى قوله تعالى: قُلْ يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ هٰادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيٰاءُ لِلّٰهِ مِنْ دُونِ النّٰاسِ (الجمعه۶/)، فالآيه تكنى عن اليهود،و فيها استشهاد لما تقدم ذكره فى الآيات السابقه من استكبارهم عن الخضوع للحق و اتباعه،و الإيمان بآيات اللّه سبحانه،و استقرار اللعن الإلهى فيهم،و أن ذلك من لوازم إعجابهم بأنفسهم و تزكيتهم لها.

قوله تعالى: بَلِ اللّٰهُ يُزَكِّي مَنْ يَشٰاءُ وَ لاٰ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً إضراب عن تزكيتهم لأنفسهم،ورد لهم فيما زكوه،و بيان أن ذلك من شئون الربوبيه يختص به تعالى فإن الإنسان و إن أمكن أن يتصف بفضائل،و يتلبس بأنواع الشرف و السودد المعنوى غير أن اعتناءه بذلك و اعتماده عليه لا يتم إلاّ بإعطائه لنفسه استغناء و استقلالا و هو فى معنى دعوى الالوهيه و الشركه مع رب العالمين،و أين الانسان الفقير الذى لا يملك لنفسه ضرا أو نفعا و لا موتا و لا حياه و الاستغناء عن اللّه سبحانه فى خير أو فضيله؟و الإنسان فى نفسه و فى جميع شئون نفسه،و الخير الذى يزعم أنه يملكه،و جميع أسباب ذلك الخير،مملوك للّه سبحانه محضا من غير استثناء،فما ذا يبقى للإنسان؟

و هذا الغرور و الإعجاب الذى يبعث الإنسان الى تزكيه نفسه هو العجب الذى هو من أمهات الرذائل،ثم لا يلبث هذا الإنسان المغرور المعتمد على نفسه دون أن يمس غيره فيتولد

من رذيلته هذه رذيله اخرى،و هى رذيله التكبر و يتم تكبره فى صوره الاستعلاء على غيره من عباد اللّه فيستعبد به عباد اللّه سبحانه،و يجرى به كل ظلم و بغى بغير حق و هتك محارم اللّه و بسط السلطه على دماء الناس و أعراضهم و أموالهم.

و هذا كله اذا كان الوصف وصفا فرديا و أما اذا تعدى الفرد و صار خلقا اجتماعيا و سيره قوميه فهو الخطر الذى فى هلاك النوع و فساد الأرض،و هو الذى يحكيه تعالى عن اليهود اذ قالوا: لَيْسَ عَلَيْنٰا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ (آل عمران٧٥/).

فما كان لبشر أن يذكر لنفسه من الفضيله ما يمدحها به سواء كان صادقا فيما يقول أو كاذبا لأنه لا يملك ذلك لنفسه لكن اللّه سبحانه لما كان هو المالك لما ملكه،و المعطى الفضل لمن يشاء و كيف يشاء كان له أن يزكى من شاء تزكيه عمليه بإعطاء الفضل و إفاضه النعمه،و أن يزكى من شاء تزكيه قوليه يذكره بما يمتدح به،و يشرفه بصفات الكمال كقوله فى آدم و نوح: إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفىٰ آدَمَ وَ نُوحاً (آل عمران٢٣/)،و قوله فى إبراهيم و إدريس: إِنَّهُ كٰانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (مريم٤١،٥٦)،و قوله فى يعقوب: وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمٰا عَلَّمْنٰاهُ (يوسف٦٨/)، و قوله فى يوسف: إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُخْلَصِينَ (يوسف٢٤/)،و قوله فى حق موسى: إِنَّهُ كٰانَ مُخْلَصاً وَ كٰانَ رَسُولاً نَبِيًّا (مريم٥١/)،و قوله فى حق عيسى: وَجِيهاً فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (آل عمران٤٥/)،و قوله فى سليمان و أيوب: نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ (ص ٣٠،٤٤)،و قوله فى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إِنَّ وَلِيِّيَ اللّٰهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتٰابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصّٰالِحِينَ (الأعراف١٩٦/)،و قوله: وَ إِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (القلم٤/)،و كذا قوله تعالى فى حق عده من الأنبياء ذكرهم فى سور الأنعام و مريم و الأنبياء و الصافات و ص و غيرها.

و بالجمله فالتزكيه للّه سبحانه حق لا يشاركه فيه غيره اذ لا يصدر عن غيره إلاّ من ظلم و الى ظلم،و لا يصدر عنه تعالى إلاّ حقا و عدلا يقدر بقدره لا يفرط و لا يفرّط،و لذا ذيل

قوله: بَلِ اللّهُ يُزَكِّی مَنْ يَشاءُ بقوله-و هو فی معنی التعليل-: وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا .

و قد تبين مما مر أن تزكيته تعالی و إن كانت مطلقه تشمل التزكيه العمليه و التزكيه القوليه لكنها تنطبق بحسب مورد الكلام علی التزكيه القوليه.

قوله تعالی: وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً الفتيل فعيل بمعنی المفعول من الفتل و هو اللی قيل:المراد به ما يكون فی شق النواه،و قيل:هو ما فی بطن النواه،و قد ورد فی روايات عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام:أنه النقطه التی علی النواه،و النقير ما فی ظهرها،و القطمير قشرها، و قيل:هو ما فتلته بين إصبعيك من الوسخ،و كيف كان هو كنايه عن الشیء الحقير الذی لا يعتد به.

و قد بان بالآيه الشريفه أمران:أحدهما:أن ليس لصاحب الفضل أن يعجبه فضله و يمدح نفسه بل هو مما يختص به تعالی فإن ظاهر الآيه أن اللّه يختص به أن يزكی كل من جاز أن يتلبس بالتزكيه فليس لغير صاحب الفضل أيضا أن يزكيه إلّا بما زكاه اللّه به،و ينتج ذلک أن الفضائل هی التی مدحها اللّه و زكاها فلا قدر لفضل لا يعرفه الدين و لا يسميه فضلا،و لا يستلزم ذلک أن تبطل آثار الفضائل عند الناس فلا يعرفوا لصاحب الفضل فضله،و لا يعظموا قدره بل هی شعائر اللّه و علائمه،و قد قال تعالی: وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَی الْقُلُوبِ (الحج/٣٢)،فعلی الجاهل أن يخضع للعالم و يعرف له قدره فإنه من اتباع الحق و قد قال تعالی: هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (الزمر/٩)،و إن لم يكن للعالم أن يتبجح بعلمه و يمدح نفسه،و الأمر فی جميع الفضائل الحقيقيه الإنسانيه علی هذا الحال.

و ثانيهما:أن ما ذكره بعض باحثينا،و اتبعوا فی ذلک ما ذكره المغاربه أن من الفضائل الإنسانيه الاعتماد بالنفس أمر لا يعرفه الدين،و لا يوافق مذاق القرآن،و الذی يراه القرآن فی ذلک هو الاعتماد باللّه و التعزز باللّه قال تعالی: اَلَّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

فَاخْشَوْهُمْ فَزٰادَهُمْ إِيمٰاناً وَ قٰالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ (آل عمران١٧٣/)،و قال: أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً (البقره١۶۵/)،و قال: إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً (يونس۶۵/)،الى غير ذلک من الآيات.

قوله تعالى: اُنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ الخ؛فتزكيتهم أنفسهم ببنوه اللّٰه و حبه و ولايته و نحو ذلک افتراء على اللّٰه اذ لم يجعل اللّٰه لهم ذلک،على أن أصل التزكيه افتراء و إن كانت عن صدق فإنه-كما تقدم بيانه-إسناد شريک الى اللّٰه و ليس له فى ملكه شريک قال تعالى: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ (الإسراء١١١/).

و قوله: وَ كَفىٰ بِهِ إِثْماً مُبِيناً أى لو لم يكن فى التزكيه إلاّ أنه افتراء على اللّٰه لكفى فى كونه إثما مبينا،و التعبير بالإثم-و هو الفعل المذموم الذى يمنع الإنسان من نيل الخيرات و يبطئها-هو المناسب لهذه المعصيه لكونه من اشراک الشرک و فروعه،يمنع نزول الرحمه،و كذا فى شرک الكفر الذى يمنع المغفره كما وقع فى الآيه السابقه:و من يشرک باللّٰه فقد افترى إثما عظيما بعد قوله: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ .

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتٰابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطّٰاغُوتِ الجبت و الجبس كل ما لا خير فيه،و قيل:و كل ما يعبد من دون اللّٰه سبحانه، و الطاغوت مصدر فى الأصل كالطغيان يستعمل كثيرا بمعنى الفاعل،و قيل:هو كل معبود من دون اللّٰه،و الآيه تكشف عن وقوع واقعه قضى فيها بعض أهل الكتاب للذين كفروا على الذين آمنوا بأن سبيل المشركين أهدى من سبيل المؤمنين،و ليس عند المؤمنين إلاّ دين التوحيد المنزل فى القرآن المصدق لما عندهم،و لا عند المشركين إلاّ الإيمان بالجبت و الطاغوت فهذا القضاء اعتراف منهم بأن للمشركين نصيبا من الحق،و هو الإيمان بالجبت و الطاغوت الذى نسبه اللّٰه تعالى إليهم ثم لعنهم اللّٰه بقوله: أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ ،الآيه.

و هذا يؤيد ما ورد فى أسباب النزول أن مشركى مكه طلبوا من أهل الكتاب أن يحكموا

بینهم و بین المؤمنین فیما ینتحلونه من الدین فقضوا لهم علی المؤمنین،و سیأتی الروایه فی ذلک فی البحث الروائی الآتی.

و قد ذکر کونهم ذوی نصیب من الکتاب لیکون أوقع فی وقوع الذم و اللوم علیهم فإن إیمان علماء الکتاب و الطاغوت و قد بین لهم الکتاب أمرهما أشنع و أفظع.

قوله تعالی: أَمْ لَهُمْ نَصِیبٌ مِنَ الْمُلْکِ -الی قوله- نَقِیراً النقر فعیل بمعنی المفعول و هو المقدار الیسیر الذی یأخذه الطیر من الأرض بنقر منقاره،و قد مر له معنی آخر فی قوله:

وَ لاٰ یُظْلَمُونَ فَتِیلاً ،الآیه.

و قد ذکروا أن «أَمْ» فی قوله: أَمْ لَهُمْ نَصِیبٌ مِنَ الْمُلْکِ ،منقطعه و المعنی:بل ألهم نصیب من الملک،و الاستفهام إنکاری أی لیس لهم ذلک.

و قد جوز بعضهم أن تکون «أَمْ» متصله،و قال:إن التقدیر:أهم أولی بالنبوه أم لهم نصیب من الملک؟و رد بأن حذف الهمزه إنما یجوز فی ضروره الشعر،و لا ضروره فی القرآن، و الظاهر أن أم متصله و أن الشق المحذوف ما یدل علیه الآیه السابقه، أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ الْکِتٰابِ ،الآیه؛و التقدیر:ألهم کل ما حکموا به من حکم أم لهم نصیب من الملک أم یحسدون الناس؟و علی هذا تستقیم الشقوق و تترتب،و یتصل الکلام فی سوقه.

و المراد بالملک هو السلطنه علی الامور المادیه و المعنویه فیشمل ملک النبوه و الولایه و الهدایه و ملک الرقاب و الثروه،و ذلک أنه هو الظاهر من سیاق الجمل السابقه و اللاحقه فإن الآیه السابقه تومئ الی دعواهم أنهم یملکون القضاء و الحکم علی المؤمنین،و هو مسانخ للملک علی الفضائل المعنویه و ذیل الآیه «فَإِذاً لاٰ یُؤْتُونَ النّٰاسَ نَقِیراً» یدل علی ملک المادیات أو ما یشمل ذلک فالمراد به الأعم من ملک المادیات و المعنویات.

فیؤول معنی الآیه الی نحو قولنا:أم لهم نصیب من الملک الذی أنعم اللّه به علی نبیه بالنبوه و الولایه و الهدایه و نحوه،و لو کان لهم ذلک لم یؤتوا الناس أقل القلیل الذی لا یعتد به لبخلهم

و سوء سريرتهم،فالآيه قريبه المضمون من قوله تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَهِ رَبِّى إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَهَ الْإِنْفاقِ (الإسراء ١٠٠/).

قوله تعالى: أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ و هذا آخر الشقوق الثلاثه المذكوره،و وجه الكلام الى اليهود جوابا عن قضائهم على المؤمنين بأن دين المشركين اهدى من دينهم.

و المراد بالناس على ما يدل عليه هذا السياق هم الذين آمنوا،و بما آتاهم اللّه من فضله هو النبوه و الكتاب و المعارف الدينيه،غير أن ذيل الآيه:فقد آتينا آل إبراهيم،الخ؛يدل على أن هذا الذى اطلق عليه الناس من آل إبراهيم،فالمراد بالناس حينئذ هو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و ما انبسط على غيره من هذا الفضل المذكور فى الآيه فهو من طريقه و ببركاته العاليه،و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: إِنَّ اللّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ الآيه(آل عمران٣٣/)،أن آل إبراهيم هو النبى و آله.

و إطلاق الناس على المفرد لا ضير فيه فإنه على نحو الكنايه كقولك لمن يتعرض لك و يؤذيك:لا تتعرض للناس،و ما لك و للناس؟تريد نفسك أى لا تتعرض لى.

قوله تعالى: فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَهَ الجمله إيئاس لهم فى حسدهم،و قطع لرجائهم زوال هذه النعمه،و انقطاع هذا الفضل بأن اللّه قد أعطى آل إبراهيم من فضله ما أعطى،و آتاهم من رحمته ما آتى فليموتوا بغيظهم فلن ينفعهم الحسد شيئا.

و من هنا يظهر أن المراد بآل إبراهيم إما النبى و آله من أولاد إسماعيل أو مطلق آل إبراهيم من أولاد إسماعيل و إسحاق حتى يشمل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى هو المحسود عند اليهود بالحقيقه، و ليس المراد بآل إبراهيم بنى إسرائيل من نسل إبراهيم فإن الكلام على هذا التقدير يعود تقريرا لليهود فى حسدهم النبى أو المؤمنين لمكان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيهم فيفسد معنى الجمله كما لا يخفى.

و قد ظهر أيضا كما تقدمت الإشاره اليه أن هذه الجمله: فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ ،الخ؛تدل على أن الناس المحسودين هم من آل إبراهيم،فيتأيد به أن المراد بالناس النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أما المؤمنون به فليسوا جميعا من ذريه إبراهيم،و لا كرامه لذريته من المؤمنين على غيرهم حتى يحمل الكلام عليهم،و لا يوجب مجرد الإيمان و اتباع مله إبراهيم تسميه المتبعين بأنهم آل إبراهيم، و كذا قوله تعالى: إِنَّ أَوْلَى النّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الآيه (آل عمران/۶۸)لا يوجب تسميه الذين آمنوا بآل إبراهيم لمكان الأولويه فإن فى الآيه ذكرا من الذين اتبعوا إبراهيم،و ليسوا يسمون آل إبراهيم قطعا،فالمراد بآل إبراهيم النبى أو هو و آله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إسماعيل جده و من فى حذوه.

قوله تعالى: وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً قد تقدم أن مقتضى السياق أن يكون المراد بالملك ما يعم الملك المعنوى الذى منه النبوه و الولايه الحقيقيه على هدايه الناس و إرشادهم و يؤيده أن اللّه سبحانه لا يستعظم الملك الدنيوى لو لم ينته الى فضيله معنويه و منقبه دينيه، و يؤيد ذلك أيضا أن اللّه سبحانه لم يعد فيما عده من الفضل فى حق آل إبراهيم النبوه و الولايه اذ قال:فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب و الحكمه،فيقوى أن يكون النبوه و الولايه مندرجتين فى إطلاق قوله: وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً .

قوله تعالى: فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ الصد الصرف و قد قوبل الإيمان بالصد لأن اليهود ما كانوا ليقنعوا على مجرد عدم الإيمان بما أنزل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دون أن يبذلوا مبلغ جهدهم فى صد الناس عن سبيل اللّه و الإيمان بما نزله من الكتاب،و ربما كان الصد بمعنى الإعراض و حينئذ يتم التقابل من غير عنايه زائده.

قوله تعالى: وَ كَفىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً تهديد لهم بسعير جهنم فى مقابل ما صدوا عن الإيمان بالكتاب و سعروا نار الفتنه على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الذين آمنوا معه.

ثم بين تعالى كفايه جهنم فى أمره بقوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِنٰا ،الى آخر الآيه؛و هو بيان

فی صوره التعلیل،ثم عقبه بقوله: وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ ،الی آخر الآیه؛لیتبین الفرق بین الطائفتین: مَنْ آمَنَ بِهِ ،و مَنْ صَدَّ عَنْهُ ،و من یظهر أنهما فی قطبین متخالفین من سعاده الحیاه الاخری و شقائها:دخول الجنات و ظلها الظلیل،و إحاطه سعر جهنم و الاصطلاء بالنار-أعاذنا اللّه-و معنی الآیتین واضح.

قوله تعالی: إِنَّ اللّهَ یَأْمُرُکُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلیٰ أَهْلِها وَ إِذا حَکَمْتُمْ الخ؛الفقره الثانیه من الآیه «وَ إِذا حَکَمْتُمْ بَیْنَ النّاسِ أَنْ تَحْکُمُوا بِالْعَدْلِ» ظاهره الارتباط بالآیات السابقه علیها فإن البیان الإلهی فیها یدور حول حکم الیهود للمشرکین بأنهم أهدی سبیلا من المؤمنین،و قد وصفهم اللّه تعالی فی أول بیانه بأنهم اوتوا نصیبا من الکتاب و الذی فی الکتاب هو تبیین آیات اللّه و المعارف الإلهیه،و هی أمانات مأخوذه علیها المیثاق أن تبین للناس،و لا تکتم عن أهله.

و هذا الذی ذکر من القرائن یؤید أن یکون المراد بالأمانات ما یعم الأمانات المالیه و غیرها من المعنویات کالعلوم و المعارف الحقه التی من حقها أن یبلغها حاملوها أهلها من الناس.

و بالجمله لما خانت الیهود الأمانات الإلهیه المودعه عندهم من العلم بمعارف التوحید و آیات نبوه محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فکتموها و لم یظهروها فی واجب وقتها،ثم لم یقنعوا بذلک حتی جاروا فی الحکم بین المؤمنین و المشرکین فحکموا للوثنیه علی التوحید فآل أمرهم فیه الی اللعن الإلهی و جر ذلک إیاهم الی عذاب السعیر فلما کان من أمرهم ما کان،غیر سبحانه سیاق الکلام من التکلم الی الغیبه فأمر الناس بتأدیه الأمانات الی أهلها،و بالعدل فی الحکم فقال:

إِنَّ اللّهَ یَأْمُرُکُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلیٰ أَهْلِها وَ إِذا حَکَمْتُمْ بَیْنَ النّاسِ ،الخ (۱).

۱- ۱) .النساء ۴۴-۵۸:بحث روائی فی:الیهود؛السفیانی.

و فی الفقیه بإسناده عن ثویر عن أبیه:أن علیا علیه السّلام قال:ما فی القرآن آیه أحب إلی من قوله عزّ و جل: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِکَ لِمَنْ یَشٰاءُ .

أقول:و رواه فی الدر المنثور عن الفریابی و الترمذی و حسنه عن علی.

و فی الدر المنثور أخرج ابن جویر و ابن أبی حاتم عن ابن عمر قال لما نزلت:یا عبادی الذین أسرفوا علی أنفسهم الآیه فقام رجل فقال:و الشرک یا نبی اللّه؟فکره ذلک النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ الآیه.

و فیه أخرج ابن المنذر عن أبی مجاز قال:لما نزلت هذه الآیه،یا عبادی الذین أسرفوا الآیه قام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی المنبر فتلاها علی الناس فقام إلیه رجل فقال:و الشرک باللّه؟ فسکت-مرتین أو ثلاثا-فنزلت هذه الآیه:إن اللّه لا یغفر أن یشرک به و یغفر ما دون ذلک لمن یشاء فاثبتت هذه فی الزمر،و اثبتت هذه فی النساء.

اقول:و قد عرفت فیما تقدم أن آیه الزمر ظاهره بحسب ما تتعقبه من الآیات فی المغفره بالتوبه،و لا ریب أن التوبه یغفر معها کل ذنب حتی الشرک،و أن آیه النساء موردها غیر مورد التوبه فلا تنافی بین الآیتین مضمونا حتی تکون إحداهما ناسخه أو مخصصه للاخری.

و فی المجمع عن الکلبی فی الآیه:نزلت فی المشرکین وحشی و أصحابه،و ذلک أنه لما قتل حمزه،و کان قد جعل له علی قتله أن یعتق فلم یوف له بذلک،فلما قدم مکه ندم علی صنیعه هو و أصحابه فکتبوا إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:أنا قد ندمنا علی الذی صنعناه،و لیس یمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناک تقول و أنت بمکه:و الذین لا یدعون مع اللّه إلها آخر و لا یقتلون النفس التی حرم اللّه إلا بالحق و لا یزنون الآیتان،و قد دعونا مع اللّه إلها آخر،و قتلنا النفس التی حرم اللّه،و زنینا،فلو لا هذه لاتبعناک فنزلت الآیه:إلا من تاب و عمل عملا صالحا الآیتین فبعث بهما رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی وحشی و أصحابه،فلما قرأهما کتبوا إلیه:أن هذا شرط شدید نخاف أن لا نعمل عملا صالحا فلا نکون من أهل هذه الآیه فنزلت:إن اللّه لا یغفر الآیه فبعث بها

إليهم فقرءوها فبعثوا إليه:إنا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته فنزلت:يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمه اللّه إن اللّه يغفر الذنوب جميعا فبعث بها إليهم فلما قرءوها دخل هو و أصحابه فى الإسلام،و رجعوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقبل منهم،ثم قال لوحشى أخبرنى كيف قتلت حمزه؟فلما أخبره قال:ويحك غيب شخصك عنى فلحق وحشى:

بعد ذلك بالشام،و كان بها إلى أن مات.

اقول:و قد ذكر هذه الروايه الرازى فى تفسيره عن ابن عباس و التأمل فى موارد هذه الآيات التى تذكر الروايه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يراجع بها وحشيا لا يدع للمتأمل شكا فى أن الروايه موضوعه قد أراد واضعها أن يقدر أن وحشيا و أصحابه مغفور لهم و إن ارتكبوا من المعاصى كل كبيره و صغيره فقد التقط آيات كثيره من مواضع مختلفه من القرآن فالاستثناء من موضع،و المستثنى من موضع من أن كلا منها واقعه فى محل محفوفه بأطراف لها معها ارتباط و اتصال،و للمجموع سياق لا يحتمل التقطيع و التفصيل فقطعها ثم رتبها و نضدها نضدا يناسب هذه المراجعه العجيبه بين النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بين وحشى.

و لقد أجاد بعض المفسرين حيث قال بعد الإشاره إلى الروايه:كأنهم يثبتون أن اللّه سبحانه كان يداعب وحشيا!

فواضع الروايه لم يرد إلا أن يشرف وحشيا بمغفره محتومه مختومه لا يضره معها أى ذنب أذنب و أى فظيعه أتى بها،و عقب ذلك ارتفاع المجازاه على المعاصى،و لازمه ارتفاع التكاليف عن البشر على ما يراه النصرانيه بل أشنع فإنهم إنما رفعوا التكاليف بتفديه مثل عيسى المسيح،و هذا يرفعه اتباعا لهوى وحشى.

و وحشى هذا هو عبد لابن مطعم قتل حمزه باحد ثم لحق مكه ثم أسلم بعد أخذ الطائف، و قال له النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:غيب شخصك عنى فلحق بالشام و سكن حمصا و اشتغل فى عهد عمر بالكتابه فى الديوان،ثم اخرج منه لكونه يدمن الخمر،و قد جلد لذلك غير مره،ثم مات فى

خلافه عثمان،قتله الخمر على ما روى.

روى ابن عبد البر فى الاستيعاب بإسناده عن ابن اسحاق عن عبد اللّه بن الفضل عن سليمان بن يسار عن جعفر بن عمرو بن اميه الضمرى قال:خرجت أنا و عبد اللّه ابن عدى بن الخيار فمررنا بحمص و بها وحشى،فقلنا:لو أتيناه و سألناه عن قتله حمزه كيف قتله،فلقينا رجلا و نحن نسأله عنه فقال:إنه رجل قد غلبت عليه الخمر فإن تجداه صاحيا تجداه رجلا عربيا يحدثكما ما شئتما من حديث،و إن تجداه على غير ذلك فانصرفا عنه؛قال:فأقبلنا حتى انتهينا إليه،الحديث،و فيه ذكر كيفيه قتله حمزه يوم احد.

و فى المجمع روى مطرف بن شخير عن عمر بن الخطاب قال:كنا على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا مات الرجل منا على كبيره شهدنا بأنه من أهل النار حتى نزلت الآيه فأمسكنا عن الشهادات.

و فى الدر المنثور أخرج ابن المنذر من طريق المعتمر بن سليمان عن سليمان بن عتبه البارقى قال:حدثنا إسماعيل بن ثوبان قال:شهدت فى المسجد قبل الداء الأعظم فسمعتهم يقولون: مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً إلى آخر الآيه فقال المهاجرون و الأنصار:قد أوجب له النار فلما نزلت:إن اللّه لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء قالوا:ما شاء اللّه،يصنع اللّه ما يشاء.

أقول:و روى ما يقرب من الروايتين عن ابن عمر بغير واحد من الطرق،و هذه الروايات لا تخلو من شىء فلا نظن بعامه أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يجهلوا أن هذه الآيه: إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ لا تزيد فى مضمونها على آيات الشفاعه شيئا كما تقدم بيانه،أو أن يغفلوا عن أن معظم آيات الشفاعه مكيه كقوله تعالى فى سوره الزخرف: وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَهَ إِلاّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف/۸۶)،و مثلها آيات الشفاعه الواقعه فى سوره يونس،و الأنبياء،و طه،و السبأ،و النجم،و المدثر كلها آيات مكيه تثبت

الشفاعه على ما مر بيانه،و هى عامه لجميع الذنوب و مقيده فى جانب المشفوع له بالدين المرضى و هو التوحيد و نفى الشريك و فى جانب اللّه تعالى بالمشيئه،فمحصل مفادها شمول المغفره لجميع الذنوب إلا الشرك على مشيئه من اللّه،و هذا بعينه مفاد هذه الآيه: إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ يَشاءُ .

و أما الآيات التى توعد قاتل النفس المحترمه بغير حق.و آكل الربا،و قاطع الرحم بجزاء النار الخالد كقوله تعالى: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها الآيه؛ (النساء٩٣/)،و قوله فى الربا: وَ مَنْ عادَ فَأُولئِکَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (البقره٢٧٥/)،و قوله فى قاطع الرحم: أُولئِکَ لَهُمُ اللَّعْنَهُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدّارِ (الرعد٢٥/)، و غير ذلك من الآيات فهذه الآيات إنما توعد بالشر و تنبئ عن جزاء النار،و أما كونه جزاء محتوما لا يقبل التغيير و الارتفاع فلا صراحه لها فيه.

و بالجمله لا يترجح آيه إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ على آيات الشفاعه بأمر زائد فى مضمونها يمهد لهم ما ذكروه.

فليس يسعهم أن يفهموا من آيات الكبائر تحتم النار حتى يجوز لهم الشهاده على مرتكبها بالنار،و لا يسعهم أن يفهموا من آيه المغفره إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَکَ بِهِ الخ؛أمرا ليس يفتهم من آيات الشفاعه حتى يوجب لهم القول بنسخها أو تخصيصها أو تقييدها آيات الكبائر.

و يومئ إلى ذلك ما ورد فى بعض هذه الروايات،و هو ما رواه فى الدر المنثور عن ابن الضريس و أبى يعلى و ابن المنذر و ابن عدى بسند صحيح عن ابن عمر قال:كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إن اللّه لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛و قال:إنى ادخرت دعوتى شفاعتى لأهل الكبائر من امتى،فأمسكنا عن كثير مما كان فى أنفسنا ثم نطقنا بعد و رجونا.

فظاهر الروايه أن الـذى فهموه من آيه المغفره فهموا مثل من حـديث الشـفاعه لكن يبقى عليه سؤال آخر،و هو أنه ما بالهم فهموا جواز مغفره الكبـائر من حـديث الشـفاعه،و لم يكونوا يفهمونه من آيات الشـفاعه المكيه على كثرتها و دلالتها و طول العهـد؟ما أدرى!

و فى الدر المنثور فى قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتٰابِ إلى قوله: سَبِيلًا أخرج البيهقى فى الدلائل و ابن عساكر فى تاريخه عن جابر بن عبد اللّه قال:لما كان من أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما كان اعتزل كعب بن الأشرف و لحق بمكه و كان بها،و قال:لا اعين عليه و لا اقاتله؛فقيل له بمكه لا يا كعب أ ديننا خير أم دين محمـد و أصـحابه؟قال:دينكم خير و أقدم،و دين محمد حديث؛فنزلت فيه: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتٰابِ الآيه.

أقول:و فى سبب نزول الآيه روايات على وجوه مختلفه أسلمها ما أوردناه غير أن الجميع تشترک فى أصل القصه و هو أن بعضا من اليهود حكموا لقريش على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأن دينهم خير من دينه.

و فى تفسير البرهان فى قوله تعالى:أم يحسدون الناس على ما آتاهم اللّه من فضله الآيه عن الشيخ فى أماليه بإسناده عن جابر عن أبى جعفر عليه السّلام:أم يحسدون الناس على ما آتاهم اللّه من فضله قال:نحن الناس.

و فى الكافى بإسـناده عن بريـد عن الباقر عليه السّـلام فى حـديث: «أَمْ يَحْسُـدُونَ النّٰاسَ عَلىٰ مٰا آتٰاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْـلِهِ» نحن الناس المحسودون،الحديث.

أقول:و هذا المعنى مروى عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام مستفيضا بطرق كثيره مودعه فى جوامع الشيعه كالكافى و التهذيب و المعانى و البصائر و تفسيرى القمى و العياشى و غيرها.

و فى معناها من طرق أهل السـنه ما عن ابن المغازى يرفعه إلى محمـد بن على الباقر عليهما السّـلام فى قوله تعالى: أَمْ يَحْسُـدُونَ النّٰاسَ عَلىٰ مٰا آتٰاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ قال:نحن الناس و اللّه.

و ما فى الدر المنثور عن ابن المنذر و الطبرانى من طريق عطاء عن ابن عباس فى قوله: «أَمْ

«يَحْسُدُونَ النّٰاسَ» قال:نحن الناس دون الناس،و قد روى فيه أيضا تفسير الناس برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن عكرمه و مجاهد و مقاتل و أبى مالك؛و قد مر فيما قدمناه من البيان:أن الظاهر كون المراد بالناس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته ملحقون به.

و فى تفسير العياشى عن حمران عن الباقر عليه السّلام «فَقَدْ آتَيْنٰا آلَ إِبْرٰاهِيمَ الْكِتٰابَ» قال:

النبوه، «وَ الْحِكْمَةَ» قال:الفهم و القضاء، «مُلْكاً عَظِيماً» قال:الطاعه.

أقول:المراد بالطاعه الطاعه المفترضه على ما ورد فى سائر الأحاديث،و الأخبار فى هذه المعانى أيضا كثيره،و فى بعضها تفسير الطاعه المفترضه بالإمامه و الخلافه كما فى الكافى بإسناده عن بريد عن الباقر عليه السّلام.

و فى تفسير القمى فى قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِنٰا الآيه قال:الآيات أمير المؤمنين و الأئمه عليهم السّلام.

أقول:و هو من الجرى.

و فى مجالس الشيخ بإسناده عن حفص بن غياث القاضى قال:كنت عند سعيد الجعافره جعفر بن محمد عليهما السّلام لما قدمه المنصور فأتاه ابن أبى العوجاء و كان ملحدا فقال:ما تقول فى هذه الآيه: كُلَّمٰا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنٰاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهٰا لِيَذُوقُوا الْعَذٰابَ ؟هب هذه الجلود عصت فعذبت فما بال الغير؟قال أبو عبد اللّه عليه السّلام:ويحك هى هى و هى غيرها،قال:أعقلنى هذا القول،فقال له:أ رأيت لو أن رجلا عمد إلى لبنه فكسرها ثم صب عليها الماء و جبلها ثم ردها إلى هيئتها الاولى أ لم تكن هى هى و هى غيرها؟فقال:بلى أمتع اللّه بك.

أقول:و رواه فى الاحتجاج أيضا عن حفص بن غياث عنه عليه السّلام،و القمى فى تفسيره مرسلا؛و يعود حقيقه الجواب إلى أن وحده الماده محفوظه بوحده الصوره فبدن الإنسان كأجزاء بدنه باق على وحدته ما دام الإنسان هو الانسان و إن تغير البدن بأى تغير حدث فيه.

و فى الفقيه قال:سئل الصادق عليه السّلام عن قول اللّه عزّ و جل لهم فيها أزواج مطهره قال:

الأزواج المطهره اللاتى لا يحضن و لا يحدثن.

و فى تفسير البرهان فى قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمٰانٰاتِ الآيه؛عن محمد بن إبراهيم النعمانى بإسناده عن زراره عن أبى جعفر محمد بن على عليهما السّلام قال:سألته عن قول اللّه عزّ و جل:إن اللّه يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل فقال:أمر اللّه الإمام أن يؤدى الأمانه إلى الإمام الذى بعده،ليس له أن يزويها عنه،أ لا تسمع قوله: وَ إِذٰا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّٰاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّٰهَ نِعِمّٰا يَعِظُكُمْ بِهِ هم الحكام يا زراره،إنه خاطب بها الحكام.

أقول:و صدر الحديث مروى بطرق كثيره عنهم عليهم السّلام،و ذيله يدل على أنه من باب الجرى،و أن الآيه نازله فى مطلق الحكم و إعطاء ذى الحق حقه فينطبق على مثل ما تقدم سابقا.

[سوره النساء (۴): الآيات ۵۹ الى ۷۰]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُوا اَلرَّسُولَ وَ أُولِي اَلْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنٰازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اَللّٰهِ وَ اَلرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً (۵۹) أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحٰاكَمُوا إِلَى اَلطّٰاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَ يُرِيدُ اَلشَّيْطٰانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاٰلاً بَعِيداً (۶۰) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا إِلىٰ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ وَ إِلَى اَلرَّسُولِ رَأَيْتَ اَلْمُنٰافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً (۶۱) فَكَيْفَ إِذٰا أَصٰابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جٰاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ إِنْ أَرَدْنٰا إِلاّٰ إِحْسٰاناً وَ تَوْفِيقاً (۶۲) أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ يَعْلَمُ اَللّٰهُ مٰا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً (۶۳) وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ لِيُطٰاعَ بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جٰاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اَللّٰهَ وَ اِسْتَغْفَرَ لَهُمُ اَلرَّسُولُ لَوَجَدُوا اَللّٰهَ تَوّٰاباً رَحِيماً (۶۴) فَلاٰ وَ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ حَتّٰى يُحَكِّمُوكَ فِيمٰا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاٰ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (۶۵) وَ لَوْ أَنّٰا كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ أَنِ اُقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اُخْرُجُوا مِنْ دِيٰارِكُمْ مٰا فَعَلُوهُ إِلاّٰ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مٰا يُوعَظُونَ بِهِ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً (۶۶) وَ إِذاً لَآتَيْنٰاهُمْ مِنْ لَدُنّٰا أَجْراً عَظِيماً (۶۷) وَ لَهَدَيْنٰاهُمْ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً (۶۸) وَ مَنْ يُطِعِ اَللّٰهَ وَ اَلرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ اَلَّذِينَ أَنْعَمَ اَللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ اَلنَّبِيِّينَ وَ اَلصِّدِّيقِينَ وَ اَلشُّهَدٰاءِ وَ اَلصّٰالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً (۶۹) ذٰلِكَ اَلْفَضْلُ مِنَ اَللّٰهِ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ عَلِيماً (۷۰)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ لما فرغ من الندب الى عباده اللّه وحده لا شريك له و بث الإحسان بين طبقات المؤمنين و ذم من يعيب هذا الطريق المحمود أو صد عنه صدودا عاد الى أصل المقصود بلسان آخر يتفرع عليه فروع أخر،بها يستحكم أساس المجتمع الإسلامى و هو التحضيض و الترغيب فى أخذهم بالائتلاف و الاتفاق،و رفع كل تنازع واقع بالرد الى اللّه و رسوله.

و لا ينبغى أن يرتاب فى أن قوله: أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ ،جمله سيقت تمهيدا و توطئه للأمر برد الأمر الى اللّه و رسوله عند ظهور التنازع،و إن كان مضمون الجمله أساس جميع الشرائع و الأحكام الإلهيه.

فإن ذلك ظاهر تفريع قوله: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّٰهِ وَ الرَّسُولِ ،ثم العود بعد العود الى هذا المعنى بقوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ،الخ؛و قوله: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّٰهِ ،الخ؛و قوله: فَلاَ وَ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ،الخ.

و لا ينبغى أن يرتاب فى أن اللّه سبحانه لا يريد بإطاعته إلاّ اطاعته فى ما يوحيه الينا من طريق رسوله من المعارف و الشرائع،و أما رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فله حيثيتان:إحداهما:حيثيه التشريع بما يوحيه اليه ربه من غير كتاب،و هو ما يبينه للناس من تفاصيل ما يشتمل على إجماله الكتاب و ما يتعلق و يرتبط بها كما قال تعالى: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (النحل/۴۴)،و الثانيه:ما يراه من صواب الرأى و هو الذى يرتبط بولايته الحكومه و القضاء قال تعالى: لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّٰهُ (النساء/۱۰۵)،و هذا هو الرأى الذى كان يحكم به على ظواهر قوانين القضاء بين الناس،و هو الذى كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يحكم به فى عزائم الامور،و كان اللّه سبحانه أمره فى اتخاذ الرأى بالمشاوره فقال: وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

فَإِذٰا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ (آل عمران/۱۵۹)،فاشرکهم به فی المشاوره و وحّده فی العزم.

اذا عرفت هذا علمت أن لإطاعه الرسول معنی و لإطاعه اللّه سبحانه معنی آخر و إن کان إطاعه الرسول إطاعه اللّه بالحقیقه لأن اللّه هو المشرع لوجوب إطاعته کما قال: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ لِيُطٰاعَ بِإِذْنِ اللّٰهِ فعلی الناس أن یطیعوا الرسول فیما یبینه بالوحی،و فیما یراه من الرأی.

و هذا المعنی(و اللّه أعلم)هو الموجب لتکرار الأمر بالطاعه فی قوله: أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ ،لا ما ذکره المفسرون:أن التکرار للتأکید فإن القصد لو کان متعلقا بالتأکید کان ترک التکرار کما لو قیل:و أطیعوا اللّه و الرسول أدل علیه و أقرب منه فإنه کان یفید أن إطاعه الرسول عین إطاعه اللّه سبحانه و أن الإطاعتین واحده،و ما کل تکرار یفید التأکید.

و أما اولو الأمر فهم-کائنین من کانوا-لا نصیب لهم من الوحی،و إنما شأنهم الرأی الذی یستصوبونه فلهم افتراض الطاعه نظیر ما للرسول فی رأیهم و قولهم،و لذلک لما ذکر وجوب الرد و التسلیم عند المشاجره لم یذکرهم بل خص اللّه و الرسول فقال:فإن تنازعتم فی شیء فردوه الی اللّه و الرسول إن کنتم تؤمنون باللّه و الیوم الآخر،و ذلک أن المخاطبین بهذا الرد هم المؤمنون المخاطبون بقوله فی صدر الآیه:یا أیها الذین آمنوا،و التنازع بلا ریب،و لا یجوز أن یفرض تنازعهم مع اولی الأمر مع افتراض طاعتهم بل هذا التنازع هو ما یقع بین المؤمنین أنفسهم،و لیس فی أمر الرأی بل من حیث حکم اللّه فی القضیه المتنازع فیها بقرینه الآیات التالیه الذامه لمن یرجع الی حکم الطاغوت دون حکم اللّه و رسوله،و هذا الحکم یجب الرجوع فیه الی أحکام الدین المبینه المقرره فی الکتاب و السنه،و الکتاب و السنه حجتان قاطعتان فی الأمر لمن یسعه فهم الحکم منهما،و قول اولی الأمر فی أن الکتاب و السنه یحکمان بکذا أیضا حجه قاطعه فإن الآیه تقرر افتراض الطاعه من غیر أی قید أو شرط،و الجمیع

راجع بالأخره الى الكتاب و السنه.

و من هنا يظهر أن ليس لاولى الامر هؤلاء-كائنين من كانوا-أن يضعوا حكما جديدا،و لا أن ينسخوا حكما ثابتا فى الكتاب و السنه،و إلّا لم يكن لوجوب ارجاع موارد التنازع الى الكتاب و السنه و الرد الى اللّه و الرسول معنى على ما يدل عليه قوله: وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَةٍ إِذٰا قَضَى اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً مُبِيناً (الأحزاب/٣۶)،فقضاء اللّه هو التشريع و قضاء رسوله إما ذلك و إما الأعم،و إنما الذى لهم أن يروا رأيهم فى موارد نفوذ الولايه،و أن يكشفوا عن حكم اللّه و رسوله فى القضايا و الموضوعات العامه (١).

قوله تعالى: فَإِنْ تَنٰازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّٰهِ وَ الرَّسُولِ الى آخر الآيه؛تفريع على الحصر المستفاد من المورد فإن قوله: أَطِيعُوا اللّٰهَ ،الخ؛حيث أوجب طاعه اللّه و رسوله،و هذه الطاعه إنما هى فى المواد الدينيه التى تتكفل رفع كل اختلاف مفروض،و كل حاجه ممكنه لم يبق مورد تمس الحاجه الرجوع الى غير اللّه و رسوله،و كان معنى الكلام:

أطيعوا اللّه،و لا تطيعوا الطاغوت،و هو ما ذكرناه من الحصر.

و توجه الخطاب الى المؤمنين كاشف عن أن المراد بالتنازع هو تنازعهم بينهم لا-تنازع مفروض بينهم و بين اولى الأمر،و لا تنازع مفروض بين اولى الأمر فإن الأول أعنى التنازع بينهم و بين اولى الأمر لا يلائم افتراض طاعه اولى الأمر عليهم،و كذا الثانى أعنى التنازع بين اولى الأمر فإن افتراض الطاعه لا يلائم التنازع الذى أحد طرفيه على الباطل،على أنه لا يناسب كون الخطاب متوجها الى المؤمنين فى قوله: فَإِنْ تَنٰازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ .

و لفظ الشىء و إن كان يعم كل حكم و أمر من اللّه و رسوله و اولى الأمر كائنا ما كان لكن

١- ١) .النساء ۵٩-٧٠:بحث فى:اولى الأمر؛عصمه الرسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؛وجوب اطاعه اولى الأمر.

قوله بعد ذلک:فردوه الی اللّه و الرسول یدل علی أن المفروض هو النزاع فی شیء لیس لأولی الأمر الاستقلال و الاستبداد فیه من أوامرهم فی دائره ولایتهم کأمرهم بنفر أو حرب أو صلح أو غیر ذلک،اذ لا معنی لإیجاب الرد الی اللّه و الرسول فی هذه الموارد مع فرض طاعتهم فیها.

فالآیه تدل علی وجوب الرد فی نفس الأحکام الدینیه التی لیس لأحد أن یحکم فیها بإنفاذ أو نسخ إلاّ اللّه و رسوله،و الآیه کالصریح فی أنه لیس لأحد أن یتصرف فی حکم دینی شرعه اللّه و رسوله،و اولو الأمر و من دونهم فی ذلک سواء.

و قوله: إِنْ کُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ ،تشدید فی الحکم و إشاره الی أن مخالفته إنما تنتشئ من فساد فی مرحله الإیمان فالحکم یرتبط به ارتباطا فالمخالفه تکشف عن التظاهر بصفه الإیمان باللّه و رسوله،و استبطان الکفر،و هو النفاق کما تدل علی الآیات التالیه.

و قوله: ذٰلِکَ خَیْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلاً أی الرد عند التنازع أو إطاعه اللّه و رسوله و اولی الأمر، و التأویل هو المصلحه الواقعیه التی تنشأ منها الحکم ثم تترتب علی العمل و قد تقدم البحث عن معناه فی ذیل قوله تعالی: وَ ابْتِغٰاءَ تَأْوِیلِهِ وَ مٰا یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ (آل عمران/۷)فی الجزء الثالث من الکتاب.

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ یَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ الی آخر الآیه؛الزعم هو الاعتقاد بکذا سواء طابق الواقع أم لا،بخلاف العلم فإنه الاعتقاد المطابق للواقع،و لکون الزعم یستعمل فی الاعتقاد فی موارد لا یطابق الواقع ربما یظن أن عدم مطابه الواقع مأخوذ فی مفهومه و لیس کذلک،و الطاغوت مصدر بمعنی الطغیان کالرهبوت و الجبروت و الملکوت غیر أنه ربما یطلق و یراد به اسم الفاعل مبالغه یقال:طغی الماء اذا تعدی ظرفه لوفوره و کثرته،و کان استعماله فی الإنسان أولا علی نحو الاستعاره ثم ابتذل فلحق بالحقیقه و هو خروج الإنسان عن طوره الذی حده له العقل أو الشرع،فالطاغوت هو الظالم الجبار،و المتمرد عن وظائف عبودیه اللّه استعلاء علیه تعالی و هکذا،و إلیه یعود ما

قیل:إن الطاغوت کل معبود من دون اللّه.

و قوله: بِمٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ ،بمنزله أن یقال:بما أنزل اللّه علی رسله،و لم یقل:

آمنوا بک و بالـذین من قبلک لأن الکلام فی وجوب الرد الی کتاب اللّه و حکمه و بذلک یظهر أن المراد بقوله «وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ یَکْفُرُوا بِهِ» الأمر فی الکتب السماویه و الوحی النازل علی الأنبیاء:

محمد و من قبله صلی اللّه علیه و آله و علیهم.

و قـوله: أَ لَمْ تَرَ ،الـخ؛الکلام بمنزله دفع الـدخل کـأنه قیـل:مـا وجه ذکر قوله:أطیعوا اللّه و أطیعوا الرسول،الـخ؟فقیـل:أ لم تر الی تخلفهم من الطاعه حیث یریدون التحاکم الی الطاغوت؟و الاستفهام للتأسف و المعنی:من الأسف ما رأیته أن بعض الناس،و هم معتقدون أنهم مؤمنون بما أنزل إلیک من الکتاب و الی سائر الأنبیاء و الکتب السماویه إنما انزلت لتحکم بین الناس فیما اختلفوا فیه،و قـد بینه اللّه تعالی لهم بقوله: کٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ النّٰاسِ فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ (البقره۲۱۳/)یتحـاکمون عنـد التنـازع الی الطـاغوت و هـم أهـل الطغیـان و المتمردون عـن دین اللّه المتعـدون علی الحق،و قـد امروا فی هذه الکتب أن یکفروا بالطاغوت،و کفی فی منع التحاکم إلیهم أنه إلغاء لکتب اللّه و إبطال لشرائعه.

و فی قوله وَ یُرِیدُ الشَّیْطٰانُ أَنْ یُضِلَّهُمْ ضَلاٰلاً بَعِیداً ،دلاله علی أن تحاکمهم إنما هو بإلقاء الشیطان و إغوائه،و الوجهه فیه الضلال البعید.

قوله تعـالی: وَ إِذٰا قِیـلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا الی آخر الآیه؛تعالوا بحسب الأصل أمر من التعالی و هو الارتفاع،و صـد عنه یصـد صـدودا أی أعرض،و قـوله: إِلیٰ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ إِلَی الرَّسُولِ ،بمنزله أن یقـال:الی حکم اللّه و من یحکم به،و فی قـوله: یَصُدُّونَ عَنْکَ ،إنما خص الرسول بالإعراض مع أن الـذی دعوا الیه هو الکتـاب و الرسول معـا لا الرسول وحـده لأن الأسف إنما هو من فعل الـذین یزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اللّه فهم لیسوا بکافرین حتی

يتجاهروا بالإعراض عن كتاب اللّه بل منافقون بالحقيقه يتظاهرون بالإيمان بما أنزل اللّه لكنهم يعرضون عن رسوله.

و من هنا يظهر أن الفرق بين اللّه و رسوله بتسليم حكم اللّه و التوقف فى حكم الرسول نفاق البته.

قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذٰا أَصٰابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ الخ؛إيذان بأن هذا الإعراض و الانصراف عن حكم اللّه و رسوله،و الإقبال الى غيره و هو حكم الطاغوت سيعقب مصيبه تصيبهم لا سبب لها إلاّ هذا الإعراض عن حكم اللّه و رسوله،و التحاكم الى الطاغوت،و قوله:

ثُمَّ جٰاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ اه،حكايه لمعذرتهم أنهم ما كانوا يريدون بركونهم الى حكم الطاغوت سوء،و المعنى-و اللّه أعلم-:فاذا كان حالهم هذا الحال كيف صنيعهم اذا أصابهم بفعالهم هذا وباله السيئ ثم جاءوك يحلفون باللّه قائلين ما أردنا بالتحاكم الى غير الكتاب و الرسول إلاّ الإحسان و التوفيق و قطع المشاجره بين الخصوم؟

قوله تعالى: أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّٰهُ مٰا فِي قُلُوبِهِمْ الخ؛تكذيب لقولهم فيما اعتذروا به،و لم يذكر حال ما فى قلوبهم،و أنه ضمير فاسد لدلاله قوله «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ» على ذلك اذ لو كان ما فى قلوبهم غير فاسد كان قولهم صدقا و حقا و لا يؤمر بالإعراض عمن يقول الحق و يصدق فى قوله.

و قوله: وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً أى قولا يبلغ فى أنفسهم ما تريد أن يقفوا عليه و يفقهوا من مفاسد هذا الصنيع،و أنه نفاق لو ظهر نزل بهم الويل من سخط اللّه تعالى.

قوله تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ لِيُطٰاعَ بِإِذْنِ اللّٰهِ ،رد مطلق لجميع ما تقدمت حكايته من هؤلاء المنافقين من التحاكم الى الطاغوت،و الإعراض عن الرسول، و الحلف و الاعتذار بالإحسان و التوفيق.فكل ذلك مخالفه للرسول بوجه سواء كانت مصاحبه لعذر يعتذر به أم لا،و قد أوجب اللّه طاعته من غير قيد و شرط فإنه لم يرسله إلاّ

ليطاع بإذن اللّه،و ليس لأحد أن يتخيل أن المتبع من الطاعه طاعه اللّه،و إنما الرسول بشر ممن خلق إنما يطاع لحيازه الصلاح فاذا احرز صلاح من دون طاعته فلا بأس بالاستبداد فى إحرازه،و ترك الرسول فى جانب،و إلاّ كان إشراكا باللّه،و عباده لرسوله معه،و ربما كان يلوح ذلك فى امور يكلمون فيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول قائلهم له اذا عزم عليهم فى مهمه:أ بأمر من اللّه أم منك؟

فذكر اللّه سبحانه أن وجوب طاعه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وجوب مطلق،و ليست إلاّ طاعه اللّه فإنها بإذنه نظير ما يفيده قوله تعالى: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ الآيه(النساء۸۰/).

ثم ذكر أنهم لو رجعوا الى اللّه و رسوله بالتوبه حين ما خالفوا الرسول بالإعراض لكان خيرا لهم من أن يحلفوا باللّه،و يلفقوا أعذارا غير موجهه لا تنفع و لا ترضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأن اللّه سبحانه يخبره بحقيقه الأمر،و ذلك قوله: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جٰاؤُكَ الى آخر الآيه.

قوله تعالى: فَلاٰ وَ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ حَتّٰى يُحَكِّمُوكَ الخ؛الشجر-بسكون الجيم-و الشجور:الاختلاط يقال:شجر شجرا و شجورا أى اختلط،و منه التشاجر و المشاجره كأن الدعاوى أو الأقوال اختلط بعضها مع بعض،و منه قيل للشجر:شجر لاختلاط غصونها بعضها مع بعض،و الحرج الضيق.

و ظاهر السياق فى بدء النظر أنه رد لزعم المنافقين أنهم آمنوا بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع تحاكمهم الى الطاغوت فالمعنى:فليس كما يزعمون أنهم يؤمنون مع تحاكمهم الى الطاغوت بل لا يؤمنون حتى يحكموك،الخ.

لكن شمول حكم الغايه أعنى قوله: حَتّٰى يُحَكِّمُوكَ ،الخ؛لغير المنافقين،و كذا قوله بعد ذلك «وَ لَوْ أَنّٰا كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ» الى قوله «مٰا فَعَلُوهُ إِلاّٰ قَلِيلٌ مِنْهُمْ» يؤيد أن الرد لا يختص بالمنافقين بل يعمهم و غيرهم من جهه أن ظاهر حالهم أنهم يزعمون أن مجرد تصديق ما انزل

من عنـد اللّه بما يتضـمنه من المعارف و الأحكام إيمان باللّه و رسوله و بما جاء به من عند ربه حقيقه،و ليس كذلك بل الإيمان تسليم تام باطنا و ظاهرا فكيف يتأتى لمؤمن حقا أن لا يسلم للرسول حكما فى الظاهر بأن يعرض عنه و يخالفه،أو فى باطن نفسه بأن يتحرج عن حكم الرسول اذا خالف هوى نفسه،و قد قال اللّه تعالى لرسوله: لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللّهُ (النساء١٠۵/).

فلو تحرج متحرج بمـا قضـى به النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فمن حكم اللّه تحرج لأنه الـذى شـرفه بافتراض الطاعه و نفوذ الحكم.

و اذا كـانوا سـلموا حكـم الرسـول،و لـم يتحرج قلـوبهم منه كـانوا مسـلمين لحكم اللّه قطعـا سـواء فى ذلـك حكمه التشـريعى و التكوينى،و هـذا موقف من مواقف الإيمان يتلبس فيه المؤمن بعـده من صـفات الفضـيله أوضـحها:التسـليم لأمر اللّه،و يسـقط فيه التحرج و الاعتراض و الرد من لسان المؤمن و قلبه،و قد أطلق فى الآيه التسليم إطلاقا.

و من هنـا يظهر أن قوله: فَلاـ وَ رَبِّكَ ،الى آخر الآـيه،و إن كـان مقصورا على التسـليم لحكم النـبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بحسب اللفـظ لأـن مـورد الآيـات هو تحـاكمهم الى غير رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم مع وجوب رجوعهم إليه إلاّـ أن المعنى عام لحكم اللّه و رسوله جميعا،و لحكم التشريع و التكوين جميعا كما عرفت.

بل المعنى يعم الحكم بمعنى قضاء رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كل سيره سار بها أو عمل عمل به لأن الأثر مشترك فكـل مـا ينسب بوجه الى اللّه و رسوله بـأى نحو كـان لاـ يتأتى لمؤمن باللّه حق إيمانه أن يرده أو يعترض عليه أو يمله أو يسوأه بوجه من وجوه المساءه فكل ذلك شرك على مراتبه،و قد قال تعالى: وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف١٠۶/).

قوله تعـالى: وَ لَوْ أَنّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ -الى قوله- ما فَعَلُوهُ إِلاّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ قـد تقـدم فى قوله: وَ لكِنْ لَعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاّ قَلِيلًا (آيه ۴۶ من السوره)،ان

هذا التركيب يدل على أن الحكم للهيئه الاجتماعيه من الأفراد و هو المجتمع،و أن الاستثناء لدفع توهم استغراق الحكم و استيعابه لجميع الأفراد،و لذلک کان هذا الاستثناء أشبه بالمنفصل منه بالمتصل أو هو برزخ بين الاستثناءين:المتصل و المنفصل لكونه ذا جنبتين.

على هذا فقوله «مٰا فَعَلُوهُ إِلاّٰ قَلِيلٌ مِنْهُمْ» وارد مورد الإخبار عن حال الجمله المجتمعه أنهم لا يمتثلون الأحكام و التكاليف الحرجيه الشاقه التى تماس ما يتعلق به قلوبهم تعلق الحب الشديد كنفوسهم و ديارهم،و استثناء القليل لدفع التوهم.

فالمعنى: وَ لَوْ أَنّٰا كَتَبْنٰا أى فرضنا عليهم قتل أنفسهم و الخروج من ديارهم و أوطانهم المألوفه لهم ما فعلوه أى لم يمتثلوا أمرنا،ثم لما استشعر أن قوله: مٰا فَعَلُوهُ يوهم أن ليس فيهم من هو مؤمن حقا مسلم لحكم اللّه حقيقه دفع ذلک باستثناء القليل منهم،و لم يكن يشمله الحكم حقيقه لأن الإخبار عن حال المجتمع من حيث إنه مجتمع و لم تكن الأفراد داخله فيه إلاّ بتبع الجمله.

و من هنا يظهر أن المراد قتل الجمله الجمله و خروج الجمله و جلاؤهم من جمله ديارهم كالبلده و القريه دون قتل كل واحد نفسه،و خروجه من داره كما فى قوله تعالى: فَتُوبُوا إِلىٰ بٰارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ (البقره/۵۴)،فإن المقصود بالخطاب هو الجماعه دون الأفراد.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مٰا يُوعَظُونَ بِهِ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً فى تبديل الكتابه فى قوله: وَ لَوْ أَنّٰا كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ ،بالوعظ فى قوله: مٰا يُوعَظُونَ بِهِ إشاره الى أن هذه الأحكام الظاهره فى صوره الأمر و الفرض ليست إلاّ إشارات الى ما فيه صلاحهم و سعادتهم فهى فى الحقيقه مواعظ و نصائح يراد بها خيرهم و صلاحهم.

و قوله: لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ أى فى جميع ما يتعلق بهم من اولاهم و اخراهم،و ذلک أن خير الآخره لا ينفک من خير الدنيا بل يستتبعه،و قوله «وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً» أى لنفوسهم و قلوبهم بالإيمان لأن الكلام فيه،قال تعالى: يُثَبِّتُ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّٰابِتِ الآيه

(إبراهيم۲۷/).

قوله تعالى: وَ إِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنّا أَجْراً عَظِيماً أى حين تثبتوا بالإيمان الثابت؛و الكلام فى إبهام قوله «أَجْراً عَظِيماً» كالكلام فى إطلاق قوله «لَكانَ خَيْراً لَهُمْ» .

قوله تعالى: وَ لَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً قد مضى الكلام فى معنى الصراط المستقيم فى ذيل قوله: اِهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (الحمد۶/)،فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: وَ مَنْ يُطِعِ اللّهَ وَ الرَّسُولَ -الى قوله- وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً جمع بين اللّه و الرسول فى هذا الوعد الحسن مع كون الآيات السابقه متعرضه لإطاعه الرسول و التسليم لحكمه و قضائه،لتخلل ذكره تعالى بينهما فى قوله: وَ لَوْ أَنّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ ،الخ؛فالطاعه المفترضه طاعته تعالى و طاعه رسوله،و قد بدأ الكلام على هذا النحو فى قوله: أَطِيعُوا اللّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ ،الآيه.

و قوله: فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ،يدل على اللحوق دون الصيروره فهؤلاء ملحقون بجماعه المنعم عليهم،و هم أصحاب المستقيم الذى لم ينسب فى كلامه تعالى الى غيره إلاّ الى هذه الجماعه فى قوله تعالى: اِهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (الحمد۷/)،و بالجمله فهم ملحقون بهم غير صائرين منهم كما لا يخلو قوله «وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً» من تلويح إليه،و قد تقدم أن المراد بهذه النعمه هى الولايه.

و أما هؤلاء الطوائف الأربع أعنى النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين فالنبيون هم أصحاب الوحى الذين عندهم نبأ الغيب،و لا خبره لنا من حالهم بأزيد من ذلك إلاّ من حيث الآثار،و قد تقدم أن المراد بالشهداء شهداء الأعمال فيما يطلق من لفظ الشهيد فى القرآن دون المستشهدين فى معركه القتال،و أن المراد بالصالحين هم أهل اللياقه بنعم اللّه.

و أما الصـديقون فالـذى يـدل عليه لفظه هو أنه مبالغه من الصـدق،و من الصـدق ما هو فى القول،و منه ما هو فى الفعل،و صدق الفعل هو مطابقته للقول لأنه حاك عن الاعتقاد فاذا صـدق فى حكايته كان حاكيا لما فى الضـمير من غير تخلف،و صدق القول طـابقته لمـا فى الواقع، و حيث كـان القول نفسه من الفعل بوجه كان الصادق فى فعله لا يخبر إلّا عما يعلم صـدقه و أنه حق،ففى قوله الصدق الخبرى و المخبرى جميعا.

فالصـديق الـذى لاـ يكـذب أصـلا هو الـذى لا يفعل إلّا ما يراه حقا من غير اتباع لهوى النفس،و لا يقول إلّا ما يرى أنه حق،و لا يرى شيئا إلّا ما هو حق فهو يشاهد حقائق الأشياء،و يقول الحق،و يفعل الحق.

و على ذلـك فيـترتب المراتـب فـالنبيون و هم السـاده،ثم الصـديقون و هم شـهداء الحقـائق و الأعمـال،و الشـهداء و هم شـهداء الأعمال،و الصالحون و هم المتهيئون للكرامه الإلهيه.

و قوله تعـالى: وَ حَسُنَ أُولٰئِکَ رَفِيقـاً أى من حيث الرفاقه فهو تمييز،قيل:و لـذلك لم يجمع،و قيل:المعنى:حسن كل واحـد منهم رفيقا،و هو حال نظير قوله: ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً (الحج/۵).

قوله تعالى: ذٰلِکَ الْفَضْلُ مِنَ اللّٰهِ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ عَلِيماً «ذٰلِکَ» و إتيانه بصيغه الإشاره الداله على البعيد و دخول اللام فى الخبر يدل على تفخيم أمر هذا الفضل كأنه كل الفضل،و ختم الآيه بالعلم لكون الكلام فى درجات الإيمان التى لا سبيل الى تشخيصـها إلّا العلم الإلهى.

و اعلم أن فى هـذه الآيات الشـريفه موارد عديـده من الالتفات الكلامى متشابک بعضـها مع بعض فقـد أخذ المؤمنون فى صدر الآيات مخاطبين ثم فى قوله «وَ لَوْ أَنّٰا كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ» كما مر غائبين،و كـذلک أخـذ تعالى نفسه فى مقام الغيبه فى صدر الآيات فى قوله: أَطِيعُوا اللّٰهَ ،الآيه؛ثم

فی مقام المتکلم مع الغیر فی قوله: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ ،الآیه؛ثم الغیبه فی قوله: بِإِذْنِ اللّٰهِ ، الآیه؛ثم المتکلم مع الغیر فی قوله: وَ لَوْ أَنّٰا کَتَبْنٰا ،الآیه؛ثم الغیبه فی قوله: وَ مَنْ یُطِعِ اللّٰهَ وَ الرَّسُولَ ،الآیه.

و کذلک الرسول اخذ غائبا فی صدر الآیات فی قوله: وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ ،الآیه،ثم مخاطبا فی قوله: ذٰلِکَ خَیْرٌ ،الآیه؛ثم غائبا فی قوله: وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ،الآیه؛ثم مخاطبا فی قوله: فَلاٰ وَ رَبِّکَ ،الآیه؛ثم غائبا فی قوله: وَ مَنْ یُطِعِ اللّٰهَ وَ الرَّسُولَ ،الآیه،ثم مخاطبا فی قوله: وَ حَسُنَ أُولٰئِکَ ،الآیه،فهذه عشر موارد من الالتفات الکلامی و النکات المختصه بکل مورد ظاهره للمتدبر (۱).

[سوره النساء (۴): الآیات ۷۱ الی ۷۶]

اشاره

یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَکُمْ فَانْفِرُوا ثُبٰاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِیعاً (۷۱) وَ إِنَّ مِنْکُمْ لَمَنْ لَیُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصٰابَتْکُمْ مُصِیبَهٌ قٰالَ قَدْ أَنْعَمَ اَللّٰهُ عَلَیَّ إِذْ لَمْ أَکُنْ مَعَهُمْ شَهِیداً (۷۲) وَ لَئِنْ أَصٰابَکُمْ فَضْلٌ مِنَ اَللّٰهِ لَیَقُولَنَّ کَأَنْ لَمْ تَکُنْ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُ مَوَدَّهٌ یٰا لَیْتَنِی کُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِیماً (۷۳) فَلْیُقٰاتِلْ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ اَلَّذِینَ یَشْرُونَ اَلْحَیٰاهَ اَلدُّنْیٰا بِالْآخِرَهِ وَ مَنْ یُقٰاتِلْ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ فَیُقْتَلْ أَوْ یَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِیهِ أَجْراً عَظِیماً (۷۴) وَ مٰا لَکُمْ لاٰ تُقٰاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ اَلْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ اَلرِّجٰالِ وَ اَلنِّسٰاءِ وَ اَلْوِلْدٰانِ اَلَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا مِنْ هٰذِهِ اَلْقَرْیَهِ اَلظّٰالِمِ أَهْلُهٰا وَ اِجْعَلْ لَنٰا مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا وَ اِجْعَلْ لَنٰا مِنْ لَدُنْکَ نَصِیراً (۷۵) اَلَّذِینَ آمَنُوا یُقٰاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا یُقٰاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اَلطّٰاغُوتِ فَقٰاتِلُوا أَوْلِیٰاءَ اَلشَّیْطٰانِ إِنَّ کَیْدَ اَلشَّیْطٰانِ کٰانَ ضَعِیفاً (۷۶)

---

۱ – ۱) .النساء ۵۹-۷۰:بحث روائی فی:اولی الامر؛اولو الأمر هم علی علیه السّلام و الائمه المعصومون علیهم السّلام مرافقه المؤمنین مع النبیین فی الجنه.

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبٰاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً الحذر بالكسر فالسكون ما يحذر به و هو آله الحذر كالسلاح،و ربما قيل:إنه مصدر كالحذر بفتحتين،و النفر هو السير الى جهه مقصوده،و أصله الفزع،فالنفر من محل السير فزع عنه و الى محل السير فزع إليه،و الثبات جمع ثبه،و هى الجماعه على تفرقه،فالثبات الجماعه بعد الجماعه بحيث تتفصل ثانيه عن اولى،و ثالثه عن ثانيه،و يؤيد ذلك مقابله قوله «فَانْفِرُوا ثُبٰاتٍ» قوله «أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً» .

و التفريع فى قوله: فَانْفِرُوا ثُبٰاتٍ ،على قوله: خُذُوا حِذْرَكُمْ ،بظاهره يؤيد كون المراد بالحذر ما به الحذر على أن يكون كنايه عن التهيؤ التام للخروج الى الجهاد و يكون المعنى:

خذوا أسلحتكم أى أعدوا للخروج و اخرجوا الى عدوكم فرقه فرقه(سرايا)أو اخرجوا إليهم جميعا(عسكرا).

و من المعلوم أن التهيؤ و الإعداد يختلف باختلاف عده العدو و قوته فالترديد فى قوله: أَوِ

ص :715

انْفِرُوا ،ليس تخييرا فى كيفيه الخروج و إنما الترديد بحسب تردد العدو من حيث العده و القوه أى اذا كان عددهم قليلا فثبه،و إن كان كثيرا فجميعا.

فيؤول المعنى-و خاصه ملاحظه الآيه التاليه:و إن منكم ليبطئن-الى نهيهم عن أن يضعوا أسلحتهم،و ينسلخوا عن الجد و بذل الجهد فى أمر الجهاد فيموت عزمهم و يفتقد نشاطهم فى إقامه أعلام الحق،و يتكاسلوا أو يتبطئوا أو يتثبطوا فى قتال أعداء اللّه،و تطهير الأرض من قذارتهم.

قوله تعالى: وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ،قيل:إن اللام الاولى لام الابتداء لدخولها على اسم إن،و اللام الثانيه لام القسم لدخولها على الخبر و هى جمله فعليه مؤكده بنون التأكيد الثقيله،و التبطئه و الإبطاء بمعنى،و هو التأخير فى العمل.

و قوله «وَ إِنَّ مِنْكُمْ» يدل على أن هؤلاء من المؤمنين المخاطبين فى صدر الآيه بقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ،على ما هو ظاهر كلمه «مِنْكُمْ» كما يدل عليه ما سيأتى من قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ،فإن الظاهر أن هؤلاء أيضا كانوا من المؤمنين،مع قوله تعالى بعد ذلك:

فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس،و قوله: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَهٌ ،الخ؛و كذا قوله: فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ ،و قوله: وَ مَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ ،و قوله: اَلَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ ،كل ذلك تحريص و استنهاض للمؤمنين و فيهم هؤلاء المبطئون على ما يلوح إليه اتصال الآيات.

على أنه ليس فى الآيات ما يدل بظاهره على أن هؤلاء المبطئين من المنافقين الذين لم يؤمنوا إلّا بظاهر من القول،مع أن فى بعض ما حكى اللّه عنهم دلاله ما على إيمانهم فى الجمله كقوله تعالى: فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَهٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ ،و قوله تعالى: رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ،الخ.

قوله تعالى: فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَهٌ أى من قتل أو جرح «قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ

لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً» حتى ابتلى بمثل ما ابتلى به المؤمنون.

قوله تعالى: وَ لَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللّٰهِ من قبيل غنيمه الحرب و نحوها، و الفضل هو المال و ما يماثله،و قوله: لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يٰا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ ، تشبيه و تمثيل لحالهم فإنهم مؤمنون،و المسلمون يد واحده يربط بعضهم ببعض أقوى الروابط،و هو الإيمان باللّٰه و آياته الذى يحكم على جميع الروابط الأخر من نسب أو ولايه أو بيعه أو موده لكنهم لضعف إيمانهم لا يرون لأنفسهم أدنى ربط يربطهم بالمؤمنين فيتمنون الكون معهم و الحضور فى جهادهم كما يتمنى الأجنبى فضلا ناله أجنبى فيقول أحدهم:يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما،و من علائم ضعف إيمانهم إكبارهم أمر هذه الغنائم،وعدهم حيازه الفضل و المال فوزا عظيما،و كل مصيبه أصابت المؤمنين فى سبيل اللّٰه من قتل أو جرح أو تعب نقمه.

قوله تعالى: فَلْيُقٰاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ قال فى المجمع:يقال شريت أى بعت،و اشتريت أى ابتعت،فالمراد بقوله يشرون الحياه الدنيا بالآخره أى يبيعون حياتهم الدنيا و يبدلونها الآخره.

و الآيه تفريع على ما تقدم من الحث على الجهاد،و ذم من يبطئ فى الخروج إليه ففيها تجديد للحث على القتال فى سبيل اللّٰه بتذكير أن هؤلاء جميعا مؤمنون،قد شروا بإسلامهم للّٰه تعالى الحياه الدنيا بالآخره كما قال: إِنَّ اللّٰهَ اشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ (التوبه/۱۱۱)،ثم صرح على فائده القتال الحسنه و أنها الأجر العظيم على أى حال بقوله: وَ مَنْ يُقٰاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ ،الخ.

فبين أن أمر المقاتل فى سبيل اللّٰه ينتهى الى إحدى عاقبتين محمودتين:أن يقتل فى سبيل اللّٰه،أو يغلب عدو اللّٰه،و له على أى حال أجر عظيم،و لم يذكر ثالث الاحتمالين-و هو الانهزام- تلويحا الى أن المقاتل فى سبيل اللّٰه لا ينهزم.

و قدم القتل على الغلبه لأن ثوابه أجزل و أثبت فإن المقاتل الغالب على عدو اللّه و إن كان يكتب له الأجر العظيم إلّا أنه على خطر الحبط باقتراف بعض الأعمال الموجبه لحبط الأعمال الصالحه،و استتباع السيئه بعد الحسنه بخلاف القتل اذ لا حياه بعده إلّا حياه الآخره فالمقتول فى سبيل اللّه يستوفى أجره العظيم حتما،و أما الغالب فى سبيل اللّه فأمره مراعى فى استيفاء أجره.

قوله تعالى: وَ مٰا لَكُمْ لاٰ تُقٰاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ الخ؛عطف على موضع لفظ الجلاله،و الآيه تشتمل على حث و تحريض آخر على القتال فى لفظ الاستفهام بتذكير أن قتالكم قتال فى سبيل اللّه سبحانه،و هو الذى لا بغيه لكم فى حياتكم السعيده إلّا رضوانه،و لا سعاده أسعد من قربه،و فى سبيل المستضعفين من رجالكم و نسائكم و ولدانكم.

و هؤلاء المستضعفون الذين هم أبعاضهم و أفلاذهم مؤمنون باللّه سبحانه بدليل قوله:

اَلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنٰا ،الخ؛و هم مع ذلك مذللون معذبون يستصرخون و يستغيثون بقولهم:ربنا أخرجنا من هذه القريه الظالم أهلها،و قد أطلق الظلم،و لم يقل:الظالم أهلها على أنفسهم، و فيه إشعار بأنهم كانوا يظلمونهم بأنواع التعذيب و الإيذاء و كذلك كان الأمر.

و قد عبر عن استغاثتهم و استنصارهم بأجمل لفظ و أحسن عباره فلم يحك عنهم أنهم يقولون:يا للرجال،يا للسراه،يا قوماه،يا عشيرتاه بل حكى أنهم يدعون ربهم و يستغيثون بمولاهم الحق فيقولون:ربنا أخرجنا من هذه القريه الظالم أهلها ثم يشيرون الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الى من معه من المؤمنين المجاهدين بقولهم:و اجعل لنا من لدنك وليا و اجعل لنا من لدنك نصيرا،فهم يتمنون وليا،و يتمنون نصيرا لكن لا يرضون دون أن يسألوا ربهم الولى و النصير (۱).

۱- ۱) .النساء ۷۱-۷۶:کلام فی الغیره و العصبیه.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ -الى قوله- اَلطّاغُوتِ مقايسه بين اَلَّذِينَ آمَنُوا و اَلَّذِينَ كَفَرُوا من جهه وصف قتالهم،و بعباره اخرى من جهه نيه كل من الطائفتين فى قتالهم ليعلم بذلك شرف المؤمنين على الكفار فى طريقتهم و أن سبيل المؤمنين ينتهى الى اللّه سبحانه و يعتمد عليه بخلاف سبيل الكفار ليكون ذلك محرضا آخر للمؤمنين على قتالهم.

قوله تعالى: فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً الذين كفروا لوقوعهم فى سبيل الطاغوت خارجون عن ولايه اللّه فلا مولى لهم إلاّ ولى الشرك و عباده غير اللّه تعالى،و هو الشيطان فهو وليهم،و هم أولياؤه.

و إنما استضعف كيد الشيطان لأنه سبيل الطاغوت الذى يقابل سبيل اللّه،و القوه للّه جميعا فلا يبقى لسبيل الطاغوت الذى هو مكيده الشيطان إلاّ الضعف،و لذلك حرض المؤمنين عليهم ببيان ضعف سبيلهم،و شجعهم على قتالهم،و لا ينافى ضعف كيد الشيطان بالنسبه الى سبيل اللّه قوته بالنسبه الى من اتبع هواه،و هو ظاهر.

[سوره النساء (۴): الآيات ۷۷ الى ۸۰]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا اَلصَّلاةَ وَ آتُوا اَلزَّكاةَ فَلَمّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ اَلْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ اَلنّاسَ كَخَشْيَةِ اَللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَ قالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا اَلْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتاعُ اَلدُّنْيا قَلِيلٌ وَ اَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اِتَّقى وَ لا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (۷۷) أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ اَلْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اَللّهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اَللّهِ فَما لِهؤُلاءِ اَلْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً (۷۸) ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اَللّهِ وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَ أَرْسَلْناكَ لِلنّاسِ رَسُولاً وَ كَفى بِاللّهِ شَهِيداً (۷۹) مَنْ يُطِعِ اَلرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اَللّهَ وَ مَنْ تَوَلّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (۸۰)

ص: ۷۱۹

بيان:

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ -الى قوله- أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً كفّ الأيدى كنايه عن الإمساك عن القتال لكون القتل الذى يقع فيه من عمل الأيدى،و هذا الكلام يدل على أن المؤمنين كانوا فى ابتداء أمرهم يشقّ عليهم ما يشاهدونه من تعدّى الكفّار و بغيهم عليهم فيصعب عليهم أن يصبروا على ذلك و لا يقابلوه بسلّ السيوف فأمرهم اللّه بالكفّ عن ذلك، و إقامه شعائر الدين من صلاه و زكاه ليشتد عظم الدين و يقوم صلبه فيأذن اللّه لهم فى جهاد أعدائه،و لو لا ذلك لانفسخ هيكل الدين،و انهدمت أركانه،و تلاشت أجزاؤه.

ففى الآيات لومهم على أنهم هم الذين كانوا يستعجلون فى قتال الكفار،و لا يصبرون على الإمساك و تحمّل الأذى حين لم يكن لهم من العدّه و القوه ما يكفيهم للقاء عدوّهم فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون العدو و هم ناس مثلهم كخشيه اللّه أو أشد خشيه.

قوله تعالى: وَ قالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ الخ؛ظاهره أنه عطف على قوله «إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ» الخ؛و خاصه بالنظر الى تغيير السياق من الفعل المضارع(يخشون الناس) الى الماضى(قالوا)فالقائل بهذا القول هم الذين كانوا يتوقون للقتال،و يستصعبون الصبر

فامروا بكفّ أيديهم.

و من الجائز أن يكون قولهم «رَبَّنٰا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتٰالَ لَوْ لاٰ أَخَّرْتَنٰا إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ» محكيّا عن لسان حالهم كما أن من الجائز أن يكونوا قائلين ذلك بلسانهم الظاهر فان القرآن يستعمل من هذا العنايات كل نوع.

و توصيف الأجل الذى هو أجل الموت حتف الأنف بالقريب ليس المراد به أن يسألوا التخلص عن القتل،و العيش زمانا يسيرا بل ذلك تلويح منهم بأنهم لو عاشوا من غير قتل حتى يموتوا حتف أنفهم لم يكن ذلك إلاّ عيشا يسيرا و أجلا قريبا فما للّه-سبحانه-لا يرضى لهم أن يعيشوا هذه العيشه اليسيره حتى يبتليهم بالقتل،و يعجّل لهم الموت؟و هذا الكلام صادر منهم لتعلّق نفوسهم بهذه الحياه الدنيا التى هى فى تعليم القرآن متاع قليل يتمتع به ثم ينقضى سريعا و يعفى أثره،و دونه الحياه الآخره التى هى الحياه الباقيه الحقيقيه فهى خير، و لذلك أجيب عنهم بقوله «قُلْ» ؛الخ.

قوله تعالى: قُلْ مَتٰاعُ الدُّنْيٰا قَلِيلٌ الخ؛أمر للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يجيب هؤلاء الضعفاء بما يوضح لهم خطأ رأيهم فى ترجيح العيش الدنيوى اليسير على كرامه الجهاد و القتل فى سبيل اللّه تعالى،و محصّله أنهم ينبغى أن يكونوا متّقين فى إيمانهم،و الحياه الدنيا هى متاع يتمتع به قليل اذا قيس الى الآخره،و الآخره خير لمن اتّقى فينبغى لهم أن يختاروا الآخره التى هى خير على متاع الدنيا القليل لأنهم مؤمنون و على صراط التقوى،و لا يبقى لهم إلا أن يخافوا أن يحيف اللّه عليهم و يظلمهم فيختاروا لذلك ما بأيديهم من المتاع على ما يوعدون من الخير، و ليس لهم ذلك فإن اللّه لا يظلمهم فتيلا.

و قد ظهر بهذا البيان أن قوله «لِمَنِ اتَّقىٰ» من قبيل وضع الصفه موضع الموصوف للدلاله على سبب الحكم،و دعوى انطباقه على المورد،و التقدير-و اللّه أعلم-:و الآخره خير لكم لأنكم ينبغى أن تكونوا لإيمانكم أهل تقوى،و التقوى سبب للفوز بخير الآخره فقوله «لِمَنِ

و الذله و المسکنه و الفتنه کل ذلک یعود الی الإنسان لا إلیه سبحانه فالآیه قریبه مضمونا من قوله تعالی: ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَهً أَنْعَمَهٰا عَلیٰ قَوْمٍ حَتّٰی یُغَیِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (الأنفال/۵۳)،و لا ینافی ذلک رجوع جمیع الحسنات و السیئات بنظر کلی آخر إلیه تعالی کما سیجیء بیانه.

قوله تعالی: وَ أَرْسَلْنٰاکَ لِلنّٰاسِ رَسُولاً أی لا سمه لک من عندنا إلا أنک رسول وظیفتک البلاغ،و شأنک الرساله لا شأن لک سواها و لیس لک من الأمر شیء حتی تؤثر فی میمنه أو مشأمه،أو تجر الی الناس السیئات،و تدفع عنهم الحسنات،و فیه رد تعریضی لقوله أولئک المتطیّرین فی السیئات «هٰذِهِ مِنْ عِنْدِکَ» تشؤّما به صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ثم أید ذلک بقوله «وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً» .

قوله تعالی: مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ ،استئناف فیه تأکید و تثبیت لقوله فی الآیه السابقه «وَ أَرْسَلْنٰاکَ لِلنّٰاسِ رَسُولاً» ،و بمنزله التعلیل کحلمه أی ما أنت إلا رسولا منا من یطعک بما أنت رسول فقد أطاع اللّه،و من تولّی فما أرسلناک علیهم حفیظا.

و من هنا یظهر أن قوله «مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ» ،من قبیل وضع الصفه موضع الموصوف للإشعار بعلّه الحکم نظیر ما تقدم فی قوله: وَ الْآخِرَهُ خَیْرٌ لِمَنِ اتَّقیٰ وَ لاٰ تُظْلَمُونَ فَتِیلاً و علی هذا فالسیاق جار علی استقامه من غیر التفات من الخطاب فی قوله «وَ أَرْسَلْنٰاکَ» ،الی الغیبه فی قوله «مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ» ،ثم الی الخطاب فی قوله «فَمٰا أَرْسَلْنٰاکَ» (۱)(۲).

ص: ۷۲۴

۱- ۱) .النساء:۷۷-۸۰.کلام فی استناد الحسنات و السیئات الیه تعالی.

۲ – ۲) .النساء:۷۷-۸۰ بحث روائی فی:فی جماعه من المنافقین لم یحضروا الجهاد؛ابتلاء المؤمن فی الدنیا و مکافأته فی الآخره؛حبّ علی علیه السّلام.

[سوره النساء (۴): الآیات ۸۱ الی ۸۴]

اشاره

وَ یَقُولُونَ طٰاعَهٌ فَإِذٰا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِکَ بَیَّتَ طٰائِفَهٌ مِنْهُمْ غَیْرَ اَلَّذِی تَقُولُ وَ اَللّٰهُ یَکْتُبُ مٰا یُبَیِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَکَّلْ عَلَی اَللّٰهِ وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ وَکِیلاً (۸۱) أَ فَلاٰ یَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْآنَ وَ لَوْ کٰانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اَللّٰهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اِخْتِلاٰفاً کَثِیراً (۸۲) وَ إِذٰا جٰاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ اَلْأَمْنِ أَوِ اَلْخَوْفِ أَذٰاعُوا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَی اَلرَّسُولِ وَ إِلیٰ أُولِی اَلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ اَلَّذِینَ یَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ اَلشَّیْطٰانَ إِلاّٰ قَلِیلاً (۸۳) فَقٰاتِلْ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ لاٰ تُکَلَّفُ إِلاّٰ نَفْسَکَ وَ حَرِّضِ اَلْمُؤْمِنِینَ عَسَی اَللّٰهُ أَنْ یَکُفَّ بَأْسَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ اَللّٰهُ أَشَدُّ بَأْساً وَ أَشَدُّ تَنْکِیلاً (۸۴)

بیان:

قوله تعالی: وَ یَقُولُونَ طٰاعَهٌ الـخ؛ «طٰاعَهٌ» مرفوع علی الخبریه علی ما قیل، و التقـدیر:أمرنا طاعه أی نطیعک طاعه،و البروز الظهور و الخروج،و التبییت من البیتوته، و معناه إحکام الأمر و تدبیره لیلا،و الضـمیر فی «تَقُولُ» راجع الی «طٰائِفَهٌ» أو الی النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و المعنی-و اللّه أعلم-:و یقول هؤلاء مجیبین لک فیما تدعوهم إلیه من الجهاد:أمرنا طاعه،

فاذا أخرجوا من عنـدك دبروا ليلا أمرا غير ما أجابوك به و قالوا لك،أو غير ما قلته أنت لهم، و هو كنايه عن عقـدهم النيه على مخالفه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثم أمر اللّه رسوله بالاـعراض عنهم و التوكـل فى الاـمر و العزيمه فقـال «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً» و لا دليل فى الآيه على كون المحكى عنهم هم المنافقين كما ذكره بعضهم بل الأمر بالنظر الى اتصال السياق على خلاف ذلك.

قوله تعالى: أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ الآيه؛تحضيض فى صوره الاستفهام.التدبر هو أخذ الشىء بعد الشىء،و هو فى مورد الآيه التأمل فى الآـيه عقيب الآـيه أو التأمـل بعـد التأمـل فى الآيه لكن لما كان الغرض بيان أن القرآن لا اختلاف فيه،و ذلك إنما يكون بين أزيد من آيه واحده كان المعنى الاول أعنى التأمل فى الآيه هو العمده و إن كان ذلك لا ينفى المعنى الثانى أيضا.

فـالمراد ترغيبهم أن يتـدبروا فى الآيات القرآنيه،و يراجعوا فى كل حكم نازل أو حكمه مبينه أو قصه أو عظه أو غير ذلك جميع الآيات المرتبطه به مما نزلت مكيتها و مدنيتها، و محكمها و متشابهها،و يضـموا البعض الى البعض حتى يظهر لهم أنه لا اختلاف بينها،فالآيات يصدق قديمها حديثها،و يشـهد بعضـها على بعض من غير أن يكون بينها أى اختلاف مفروض:لا اختلاف التناقض بـأن ينفى بعضـها بعضـا أو يتـدافعا،و لاـ اختلاـف التفـاوت بأن يتفاوت الآيتان من حيث تشابه البيان أو متانه المعانى و المقاصـد بكون البعض أحكم بنيانـا و أشـد ركنـا من بعض كتابـا متشابهـا مثـانى تقشـعر منه الجلود.فارتفـاع هـذه الاختلافـات من القرآن يهـديهم الى أنه كتاب منزل من اللّه،و ليس من عنـد غيره اذ لو كان من عنـد غيره لم يسـلم من كثره الاختلاف،و ذلك أن غيره تعـالى من هـذه الموجودات الكونيه-و لاـ سـيما الإنسـان الـذى يرتاب أهل الريب أنه من كلامه-كلها موضوعه بحسب الكينونه الوجوديه و طبيعه الكون على التحرك و التغير و التكامل فما من واحد منها إلا أن امتداد زمان وجوده مختلف

الأطراف،متفاوت الحالات.

ما من إنسان إلا و هو يرى كل يوم أنه أعقل من أمس،و أن ما ينشئه من عمل أو صنعه أو ما أشبه ذلك أو يدبره من راى أو نظر أو نحوهما أخيرا أحكم و أمتن مما أتى به أولا حتى العمل الواحد الذى فيه شىء من الامتداد الوجودى كالكتاب يكتبه الكاتب،و الشعر يقوله الشاعر،و الخطبه يخطبها الخطيب،و هكذا يوجد عند الإمعان آخره خيرا من أوله،و بعضه أفضل من بعض.

فالواحد من الإنسان لا يسلم فى نفسه و ما يأتى به من العمل من الاختلاف،و ليس هو بالواحد و الاثنين من التفاوت و التناقض بل الاختلاف الكثير،و هذا ناموس كلى جار فى الانسان و ما دونه من الكائنات الواقعه تحت سيطره التحول و التكامل العامّين لا ترى واحدا من هذه الموجودات يبقى آنين متواليين على حال واحد بل لا يزال يختلف ذاته و أحواله.

و من هنا يظهر وجه التقييد بالكثير فى قوله «اخْتِلاٰفاً كَثِيراً» فالوصف وصف توضيحى لا احترازى،و المعنى:لو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافا،و كان ذلك الاختلاف كثيرا على حد الاختلاف الكثير الذى فى كل ما هو من عند غير اللّه،و ليس المعنى أن المرفوع من القرآن هو الاختلاف الكثير دون اليسير.

و بالجمله لا يلبث المتدبرون أن يشاهد أن القرآن كتاب يداخل جميع الشئون المرتبطه بالانسانيه من معارف المبدأ و المعاد و الخلق و الإيجاد،ثم الفضائل العامه الإنسانيه،ثم القوانين الاجتماعيه و الفرديه الحاكمه فى النوع حكومه لا يشذ منها دقيق و لا جليل،ثم القصص و العبر و المواعظ ببيان دعا الى مثلها أهل الدنيا،و بآيات نازله نجوما فى مده تعدّل ثلاثا و عشرين سنه على اختلاف الأحوال من ليل و نهار،و من حضر و سفر،و من حرب و سلم،و من ضراء و سراء،و من شده و رخاء،فلم يختلف حاله فى بلاغته الخارقه المعجزه،و لا فى معارفه العاليه و حكمه الساميه،و لا فى قوانينه الاجتماعيه و الفرديه،بل ينعطف آخره الى ما قر عليه أوله،

و ترجع تفاصيله و فروعه الى ما ثبت فيه أعراقه و أصوله،يعود تفاصيل شرائعه و حكمه بالتحليل إلى حاق التوحيد الخالص و ينقلب توحيده الخالص بالتركيب الى أعيان ما أفاده من التفاصيل،هذا شأن القرآن.

و الإنسان المتدبر فيه هذا التدبر يقضى بشعوره الحى،و قضائه الجبلى أن المتكلم بهذا الكلام ليس ممن يحكم فيه مرور الأيام و التحوّل و التكامل العاملان فى الأكوان بل هو اللّه الواحد القهار.

و قد تبين من الآيه(أولا):أن القرآن مما يناله الفهم العادى.و(ثانيا):أن الآيات القرآنيه يفسر بعضها بعضا.و(ثالثا):أن القرآن كتاب لا يقبل نسخا و لا إبطالا و لا تكميلا و لا تهذيبا،و لا أى حاكم يحكم عليه أبدا،و ذلك أن ما يقبل شيئا منها لا مناص من كونه يقبل نوعا من التحوّل و التغير بالضروره،و إذا كان القرآن لا يقبل الاختلاف فليس يقبل التحول و التغير فليس يقبل نسخا و لا إبطالا و لا غير ذلك،و لازم ذلك أن الشريعه الإسلاميه مستمره الى يوم القيامه.

قوله تعالى: وَ إِذٰا جٰاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذٰاعُوا بِهِ الإذاعه هى النشر و الإشاعه،و فى الآيه نوع ذمّ و تعيير لهم فى شأن هذه الاذاعه،و فى قوله فى ذيل الآيه «وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ» الخ؛دلاله على أن المؤمنين كانوا على خطر الضلال من جهه هذه الإذاعه، و ليس إلا خطر مخالفه الرسول فإن الكلام فى هذه الآيات موضوع فى ذلك،و يؤيد ذلك ما فى الآيه التاليه من أمر الرسول بالقتال و لو بقى وحده بلا ناصر.

و يظهر به أن الأمر الذى جاءهم من الأمن أو الخوف كان بعض الأراجيف التى كانت تأتى بها أيدى الكفار و رسلهم المبعوثون لإيجاد النفاق و الخلاف بين المؤمنين فكان الضعفاء من المؤمنين يذيعونه من غير تدبر و تبصّر فيوجب ذلك وهنا فى عزيمه المؤمنين،غير أن اللّه سبحانه وقاهم من اتباع هؤلاء الشياطين الجائين بتلك الأخبار لاخزاء المؤمنين.

و قوله تعالی: وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ لم يذكر هاهنا الردّ الی اللّه كما ذكر فی قوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّٰهِ وَ الرَّسُولِ الآيه(النساء/۵۹)؛لأن الرد المذكور هناك هو رد الحكم الشرعی المتنازع فيه،و لا صنع فيه لغير اللّه و رسوله.

و أما الرد المذكور هاهنا فهو رد الخبر الشائع بين الناس من أمن أو خوف،و لا معنی لرده الی اللّه و كتابه،بل الصنع فيه للرسول و لاولی الأمر منهم،لو ردّ إليهم أمكنهم أن يستنبطوه و يذكروا للرادّين صحته أو سقمه،و صدقه أو كذبه.

فالمراد بالعلم التمييز تمييز الحق من الباطل،و الصدق من الكذب علی حدّ قوله تعالی:

لِيَعْلَمَ اللّٰهُ مَنْ يَخٰافُهُ بِالْغَيْبِ (المائده/۹۴)،و قوله: وَ لَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنٰافِقِينَ (العنكبوت/۱۱).

و الاستنباط استخراج القول من حال الإبهام الی مرحله التمييز و المعرفه،و أصله من النبط(محركه)،و هو أول ما يخرج من ماء البئر،و علی هذا يمكن أن يكون الاستنباط وصفا للرسول و أولی الأمر بمعنی أنهم يحقّقون الأمر فيحصلون علی الحق و الصدق و أن يكون وصفا لهؤلاء الرادين لو ردوا فإنهم يعملون حق الامر و صدقه بإنباء الرسول و أولی الامر لهم.

فيعود معنی الآيه إن كان المراد بالذين يستنبطونه منهم الرسول و أولی الامر كما هو الظاهر من الآيه:لعلمه من أراد الاستنباط من الرسول و أولی الامر أی اذا استصوبه المسئولون و رأوه موافقا للصلاح،و إن كان المراد بهم الرادّين:لعلمه الذين يستفسرونه و يبالغون فی الحصول علی أصل الخبر من هؤلاء الرادين.

و أما أُولِي الْأَمْرِ فی قوله: وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ «فالمراد بهم هو المراد بأولی الامر فی قوله أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (النساء/۵۹)علی ما تقدم من اختلاف

المفسرین فی تفسیره و قد تقدم أن اصول الاقوال فی ذلک ترجع الی خمسه،غیر أن الذی استفدناه من المعنی أظهر فی هذه الآیه (۱).

قوله تعالی: وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّیْطٰانَ إِلاّٰ قَلِیلاً قد تقدم أن الأظهر کون الآیات مشیره الی قصه بدر الصغری،و بعث أبی سفیان نعیم بن مسعود الاشجعی الی المدینه لبسط الخوف و الوحشه بین الناس و اخزائهم فی الخروج الی بدر فالمراد باتباع الشیطان التصدیق بما جاء به من النبأ،و اتباعه فی التخلف عن الخروج الی بدر.

و بذلک یظهر استقامه معنی الاستثناء من غیر حاجه الی تکلف أو تمحل فإن نعیما کان یخبرهم أن أبا سفیان جمع الجموع و جهز الجیوش فاخشوهم و لا تلقوا بأنفسکم الی حیاض القتل الذریع،و قد أثر ذلک فی قلوب الناس فتعلّلوا عن الخروج الی موعدهم ببدر،و لم یسلم من ذلک إلا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بعض خاصّته و هو المراد بقوله تعالی: «إِلاّٰ قَلِیلاً» ،فقد کان الناس تزلزلوا إلا القلیل منهم ثم لحقوا بذلک القلیل و ساروا.

و هذا الذی استظهرناه من معنی الاستثناء هو الذی یؤیده ما مر ذکره من القراءین،علی ما فیه من الاستقامه.

و قوله تعالی: فَقٰاتِلْ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ لاٰ تُکَلَّفُ إِلاّٰ نَفْسَکَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِینَ التکلیف من الکلفه بمعنی المشقه لما فیه من تحمیل المشقه علی المکلّف،و التنکیل من النکال، و هو علی ما فی المجمع:ما یمتنع به من الفساد خوفا من مثله من العذاب فهو عقاب المتخلف لئلا یعود الی مثله و لیعتبر به غیره من المکلّفین.

و الفاء فی قوله «فَقٰاتِلْ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ» ،للتفریع و الامر بالقتال متفرّع علی المتحصل من

۱- ۱) .النساء:۸۱-۸۴بحث فی اولی الامر.

مضامين الآيات السابقه.و هو تثاقل القوم فى الخروج الى العدو و تبطئتهم فى ذلك،و يدل عليه ما يتلوه من الجمل أعنى قوله «لاّ تُكَلَّفُ إِلاّ نَفْسَكَ» الخ؛فإن المعنى:فاذا كانوا يتثاقلون فى أمر الجهاد و يكرهون القتال فقاتل أنت يا رسول اللّه بنفسك،و لا يشق عليك تثاقلهم و مخالفتهم لأمر اللّه سبحانه فإن تكليف غيرك لا يتوجه إليك،و إنما يتوجه اليك تكليف نفسك لا تكليفهم،و إنما عليك فى غيرك أن تحرضهم فقاتل و حرّض المؤمنين عسى اللّه أن يكفّ بأس الذين كفروا.و قوله «لاّ تُكَلَّفُ إِلاّ نَفْسَكَ» أى لا تكلف أنت شيئا إلا عمل نفسك فالاستثناء بتقدير مضاف.

و قوله: عَسَى اللّهُ أَنْ يَكُفَّ الخ؛قد تقدم أن «عَسَى» تدل على الرجاء أعم من أن يكون ذلك الرجاء قائما بنفس المتكلم أو المخاطب أو بمقام التخاطب فلا حاجه الى ما ذكروه من أن «عَسَى» من اللّه حتم.

و فى الآيه دلاله على زياده تعيير من اللّه سبحانه للمتثاقلين من الناس حيث أدى تثاقلهم الى أن أمر اللّه نبيّه بالقيام بالقتال بنفسه،و أن يعرض عن المتثاقلين و لا يلحّ عليهم بالإجابه و يخليهم و شأنهم،و لا يضيق بذلك صدره فليس عليه إلا تكليف نفسه و تحريض المؤمنين أطاع من أطاع،و عصى من عصى.

[سوره النساء (۴): الآيات ۸۵ الى ۹۱]

اشاره

مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها وَ كانَ اَللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (۸۵) وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اَللّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (۸۶) اَللّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ اَلْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اَللّهِ حَدِيثاً (۸۷) فَما لَكُمْ فِي اَلْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَ اَللّهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اَللّهُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (۸۸) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اَللّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اُقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۸۹) إِلاَّ اَلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شاءَ اَللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ فَإِنِ اِعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ اَلسَّلَمَ فَما جَعَلَ اَللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (۹۰) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَ يَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّما رُدُّوا إِلَى اَلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ اَلسَّلَمَ وَ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَ اُقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً (۹۱)

بيان:

قوله تعالى: مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها ،النصيب و الكفل بمعنى واحد،و لما كانت الشفاعه نوع توسط لترميم نقيصه أو لحيازه مزيه و نحو ذلك كانت لها نوع سببيه لإصلاح شأن فلها شيء من التبعه و المثوبه المتعلقتين بما لأجله الشفاعه، و هو مقصد الشفيع و المشفوع له فالشفيع ذو نصيب من الخير أو الشر المترتب على الشفاعه، و هو قوله تعالى: «مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً» الخ؛.

و فى ذكر هذه الحقيقه تذكره للمؤمنين،و تنبيه لهم أن يتيقظوا عند الشفاعه لما يشفعون له، و يجتنبوها إن كان المشفوع لأجله مما فيه شر و فساد كالشفاعه للمنافقين من المشركين أن لا يقاتلوا،فإن فى ترك الفساد القليل على حاله،و إمهاله فى أن ينمو و يعظم فسادا معقبا لا يقوم له شيء،و يهلك به الحرث و النسل فالآيه فى معنى النهى عن الشفاعه السيئه و هى شفاعه أهل الظلم و الطغيان و النفاق و الشرك المفسدين فى الارض.

قوله تعالى: وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها (الآيه)؛أمر بالتحيه قبال التحيه بما يزيد عليها أو يماثلها،و هو حكم عام لكل تحيه حيّى بها،غير أن مورد الآيات هو تحيه السلم و الصلح التى تلقى المسلمين على ما يظهر من الآيات التاليه.

قوله تعالى: اَللّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ الخ؛معنى الآيه ظاهر،و هى بمنزله التعليل لما تشتمل عليه الآيتان السابقتان من المضمون كأنه قيل:خذوا بما كلفكم اللّه فى أمر الشفاعه الحسنه و السيئه،و لا تبطلوا تحيه من يحييكم بالإعراض و الرّد فإن أمامكم يوما يجمعكم اللّه فيه و يجازيكم على إجابه ما دعاكم إليه و ردّه.

قوله تعالى: فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَ اللّهُ أَرْكَسَهُمْ (الآيه)؛الفئه الطائفه،و الإركاس الردّ.

و الآیه بما لها من المضمون کأنها متفرعه علی ما تقدم من التوطئه و التمهید أعنی قوله «مَنْ یَشْفَعْ شَفٰاعَةً» (الآیه)؛و المعنی:فاذا کانت الشفاعه السیئه تعطی لصاحبها کفلا من مساءتها فما لکم أیها المؤمنون تفرقتم فی أمر المنافقین فئتین،و تحزّبتم حزبین:فئه تری قتالهم،و فئه تشفع لهم و تحرّض علی ترک قتالهم،و الإغماض عن شجره الفساد التی تنمو بنمائهم،و تثمر برشدهم،و اللّه ردهم الی الضلال بعد خروجهم منه جزاء بما کسبوا من سیئات الأعمال،أ تریدون بشفاعتکم أن تهدوا هؤلاء الذین أضلهم اللّه؟و من یضلل اللّه فما له من سبیل الی الهدی.

و فی قوله: وَ مَنْ یُضْلِلِ اللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِیلاً التفات من خطاب المؤمنین الی خطاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إشاره الی أن من یشفع لهم من المؤمنین لا یتفهم حقیقه هذا الکلام حق التفهم،و لو فقه لم یشفع فی حقهم فأعرض عن مخاطبتهم به و ألقی الی من هو بین واضح عنده و هو النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

قوله تعالی: وَدُّوا لَوْ تَکْفُرُونَ کَمٰا کَفَرُوا فَتَکُونُونَ سَوٰاءً الخ؛هو بمنزله البیان لقوله «وَ اللّٰهُ أَرْکَسَهُمْ بِمٰا کَسَبُوا أَ تُرِیدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللّٰهُ» ،و المعنی:أنهم کفروا و زادوا علیه أنهم ودوا و أحبوا أن تکفروا مثلهم فتستووا.

ثم نهاهم عن ولایتهم إلا أن یهاجروا فی سبیل اللّه فإن تولوا فلیس علیکم فیهم إلا أخذهم و قتلهم حیث وجدتموهم،و الاجتناب عن ولایتهم و نصرتهم،و فی قوله «فَإِنْ تَوَلَّوْا» ،دلاله علی أن علی المؤمنین أن یکلفوهم بالمهاجره فإن أجابوا فلیوالوهم،و إن تولوا فیقتلوهم.

قوله تعالی: إِلاَّ الَّذِینَ یَصِلُونَ إِلیٰ قَوْمٍ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ مِیثٰاقٌ أَوْ جٰاؤُکُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ استثنی اللّه سبحانه من قوله «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ» ، طائفتین:(إحداهما)الذین یصلون،الخ؛أی بینهم و بین بعض أهل المیثاق ما یوصلهم بهم من حلف و نحوه،و(الثانیه)الذین یتحرجون من مقاتله المسلمین و مقاتله قومهم لقتلهم أو

لعوامل أخر،فيعتزلون المؤمنين و يلقون إليهم السلم لا للمؤمنين و لا عليهم بوجه،فهاتان الطائفتان مستثنون من الحكم المذكور،و قوله «حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ» ،أي ضاقت.

قوله تعالى: سَتَجِدُونَ آخَرِينَ ،إخبار بأنه سيواجهكم قوم آخرون ربما شابهوا الطائفه الثانيه من الطائفتين المستثنيتين حيث إنهم يريدون أن يأمنوكم و يأمنوا قومهم غير أن اللّه سبحانه يخبر أنهم منافقون غير مأمونين في مواعدتهم و موادعتهم،و لذا بدّل الشرطين المثبتين في حق غيرهم أعني قوله: «فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقٰاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ» و بالشرط المنفي أعني قوله «فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ» الخ؛و هذا في معنى تنبيه المؤمنين على أن يكونوا على حذر منهم،و معنى الآيه ظاهر (۱)(۲).

[سوره النساء (۴): الآيات ۹۲ الى ۹۴]

اشاره

وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاّٰ خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلىٰ أَهْلِهِ إِلاّٰ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ إِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثٰاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلىٰ أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيٰامُ شَهْرَيْنِ مُتَتٰابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اَللّٰهِ وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً (۹۲) وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ خٰالِداً فِيهٰا وَ غَضِبَ اَللّٰهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذٰاباً عَظِيماً (۹۳) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ فَتَبَيَّنُوا وَ لاٰ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقىٰ إِلَيْكُمُ اَلسَّلاٰمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا فَعِنْدَ اَللّٰهِ مَغٰانِمُ كَثِيرَةٌ كَذٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اَللّٰهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۹۴)

۱- ۱) .النساء ۸۵-۹۱:في معنى التحيه.

۲- ۲) .النساء ۸۵-۹۱:بحث روائي في:السلام و التحيه،العطسه.

بیان:

قوله تعالی: وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً -الی قوله- يَصَّدَّقُوا التحرير جعل المملوك حرا،و الرقبه هی العنق شاع استعمالها فی النفس المملوكه مجازا،و الديه ما يعطی من المال عوضا عن النفس أو العضو أو غيرهما،و المعنی:و من قتل مؤمنا بقتل الخطأ وجب عليه تحرير نفس مملوكه مؤمنه،و إعطاء ديه يسلمها الی أهل المقتول إلا أن يتصدق أولياء القتيل الديه على معطيها و يعفوا عنها فلا تجب الديه.

قوله تعالی: فَإِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ ،الضمير يرجع الی المؤمن المقتول، و القوم العدو هم الكفار المحاربون،و المعنی:إن كان المقتول خطأ مؤمنا و أهله كفّار محاربون لا يرثون وجب التحرير و لا ديه اذ لا يرث الكافر المحارب من المؤمن شيئا.

قوله تعالی: وَ إِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثٰاقٌ ،الضمير فی «كٰانَ» يعود الی المؤمن المقتول أيضا على ما يفيده السياق،و الميثاق مطلق العهد أعم من الذمه و كل عهد، و المعنی:و إن كان المؤمن المقتول من قوم بينكم و بينهم عهد وجبت الديه و تحرير الرقبه،و قد قدّم ذكر الديه تأكيدا فی مراعاه جانب الميثاق.

قوله تعالی: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيٰامُ ،أی من لم يستطع التحرير-لأنه هو الأقرب بحسب اللفظ-وجب عليه صيام شهرين متتابعين.

ص :۷۳۶

قوله تعالی: تَوْبَةً مِنَ اللّهِ الخ؛أی هذا الحکم و هو إیجاب الصیام توبه و عطف رحمه من اللّه لفاقد الرقبه،و ینطبق علی التخفیف فالحکم تخفیف من اللّه فی حق غیر المستطیع، و یمکن أن یکون قوله «تَوْبَةً» قیدا راجعا الی جمیع ما ذکر فی الآیه من الکفاره أعنی قوله «فَتَحْرِیرُ رَقَبَةٍ» الخ؛و المعنی:أن جعل الکفاره للقاتل خطأ توبه و عنایه من اللّه للقاتل فیما لحقه من درن هذا الفعل قطعا.و لیتحفّظ علی نفسه فی عدم المحاباه فی المبادره الی القتل نظیر قوله تعالی: «وَ لَکُمْ فِی الْقِصٰاصِ حَیٰاةٌ» (البقره۱۷۹/).

و کذا هو توبه من اللّه للمجتمع و عنایه لهم حیث یزید به فی أحرارهم واحد بعد ما فقدوا واحدا،و یرمّم ما ورد علی أهل المقتول من الضرر المالی بالدیه المسلّمه.

و من هنا یظهر أن الاسلام یری الحریه حیاه و الاسترقاق نوعا من القتل،و یری المتوسط من منافع وجود الفرد هو الدیه الکامله.و سنوضح هذا المعنی فی ما سیأتی من المباحث.

و أما تشخیص معنی الخطأ و العمد و التحریر و الدیه و أهل القتیل و المیثاق و غیره المذکورات فی الآیه فعلی السنّه.من أراد الوقوف علیها فلیراجع الفقه.

قوله تعالی: وَ مَنْ یَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ ،التعمّد هو القصد الی الفعل بعنوانه الذی له،و حیث ان الفعل الاختیاری لا یخلو من قصد العنوان و کان من الجائز أن یکون لفعل أکثر من عنوان واحد أمکن ان یکون فعل واحد عمدیا من جهه خطائیا من أخری فالرامی الی شبح و هو یزعم انه من الصید و هو فی الواقع انسان اذا قتله کان متعمدا الی الصید خاطئا فی قتل الانسان،و کذا اذا ضرب إنسانا بالعصی قاصدا تأدیبه فقتلته الضربه کان القتل قتل خطأ،و علی هذا فمن یقتل مؤمنا متعمدا هو الذی یقصد بفعله قتل المؤمن عن علم بأنه قتل و ان المقتول مؤمن.

و قد أغلظ اللّه سبحانه و تعالی فی وعید قاتل المؤمن متعمدا بالنار الخالده غیر أنک عرفت فی الکلام علی قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ (النساء۴۸/)ان تلک

الآیه،و کذا قوله تعالی: إِنَّ اللّهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِیعاً (الزمر۵۳/)تصلحان لتقیید هذه الآیه فهذه الآیه توعد بالنار الخالده لکنّها لیست بصریحه فی الحتم فیمکن العفو بتوبه أو شفاعه.

قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِی سَبِیلِ اللّهِ فَتَبَیَّنُوا الضرب هو السیر فی الأرض و المسافره،و تقییده بسبیل اللّه یدل علی أن المراد به هو الخروج للجهاد، و التبیّن هو التمییز و المراد به التمییز بین المؤمن و الکافر بقرینه قوله «وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقی إِلَیْکُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً» و المراد بإلقاء السلام إلقاء التحیه تحیه أهل الایمان،و قرء«لمن ألقی الیکم السلم»بفتح اللام و هو الاستسلام.

و المراد بابتغاء عرض الحیاه الدنیا طلب المال و الغنیمه،و قوله «فَعِنْدَ اللّهِ مَغانِمُ کَثِیرَهٌ» جمع مغنم و هو الغنیمه أی ما عند اللّه من المغانم أفضل من مغنم الدنیا الذی یریدونه لکثرتها و بقائها فهی التی یجب علیکم أن تؤثروها.

قوله تعالی: کَذلِکَ کُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَیْکُمْ فَتَبَیَّنُوا الخ؛أی علی هذا الوصف.و هو ابتغاء عرض الحیاه الدنیا-کنتم من قبل ان تؤمنوا فمن اللّه علیکم بالایمان الصارف لکم عن ابتغاء عرض الحیاه الدنیا الی ما عند اللّه من المغانم الکثیره فاذا کان کذلک فیجب علیکم ان تتبیّنوا،و فی تکرار الأمر بالتبیّن تأکید فی الحکم.

و الآیه مع اشتمالها علی العظه و نوع من التوبیخ لا تصرّح بکون هذا القتل الذی ظاهرها وقوعه قتل مؤمن متعمّدا،فالظاهر انه کان قتل خطأ من بعض المؤمنین لبعض من ألقی السلم من المشرکین لعدم وثوق القاتل بکونه مؤمنا حقیقه بزعم أنه انما یظهر الایمان خوفا علی نفسه،و الآیه توبخه بأن الاسلام انما یعتبر بالظاهر،و یحل أمر القلوب الی اللطیف الخبیر.

و علی هذا فقوله «تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَیاهِ الدُّنْیا» موضوع فی الکلام علی اقتضاء الحال،أی

حـالکم فی قتـل من یظهر لکم الایمـان من غیر اعتناء بأمره و تبیّن فی شأنه حال من یریـد المال و الغنیمه فیقتل المؤمن المتظاهر بالایمان بأدنی ما یعتـذر به من غیر أن یکون من موجه العذر، و هذا هو الحال الذی کان علیه المؤمنون قبل ایمانهم لا یبتغون الا الدنیا فإذا أنعم اللّه علیهم بالایمان،و منّ علیهم بالاسـلام کان الواجب علیهم ان یتبیّنوا فیما یصنعون و لا ینقادوا لأخلاق الجاهلیه و ما بقی فیهم من اثارتها (۱).

[سوره النساء (۴): الآیات ۹۵ الی ۱۰۰]

اشاره

لاٰ یَسْتَوِی اَلْقٰاعِدُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ غَیْرُ أُولِی اَلضَّرَرِ وَ اَلْمُجٰاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اَللّٰهُ اَلْمُجٰاهِدِینَ بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَی اَلْقٰاعِدِینَ دَرَجَةً وَ کُلاًّ وَعَدَ اَللّٰهُ اَلْحُسْنیٰ وَ فَضَّلَ اَللّٰهُ اَلْمُجٰاهِدِینَ عَلَی اَلْقٰاعِدِینَ أَجْراً عَظِیماً (۹۵) دَرَجٰاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً وَ کٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِیماً (۹۶) إِنَّ اَلَّذِینَ تَوَفّٰاهُمُ اَلْمَلاٰئِکَةُ ظٰالِمِی أَنْفُسِهِمْ قٰالُوا فِیمَ کُنْتُمْ قٰالُوا کُنّٰا مُسْتَضْعَفِینَ فِی اَلْأَرْضِ قٰالُوا أَ لَمْ تَکُنْ أَرْضُ اَللّٰهِ وٰاسِعَةً فَتُهٰاجِرُوا فِیهٰا فَأُولٰئِکَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ سٰاءَتْ مَصِیراً (۹۷) إِلاَّ اَلْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ اَلرِّجٰالِ وَ اَلنِّسٰاءِ وَ اَلْوِلْدٰانِ لاٰ یَسْتَطِیعُونَ حِیلَةً وَ لاٰ یَهْتَدُونَ سَبِیلاً (۹۸) فَأُولٰئِکَ عَسَی اَللّٰهُ أَنْ یَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ کٰانَ اَللّٰهُ عَفُوًّا غَفُوراً (۹۹) وَ مَنْ یُهٰاجِرْ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ یَجِدْ فِی اَلْأَرْضِ مُرٰاغَماً کَثِیراً وَ سَعَةً وَ مَنْ یَخْرُجْ مِنْ بَیْتِهِ مُهٰاجِراً إِلَی اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ یُدْرِکْهُ اَلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَی اَللّٰهِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِیماً (۱۰۰)

۱- ۱) .النساء ۹۲-۹۴:بحث روائی فی القتل.

بيان:

قوله تعالى: لاٰ يَسْتَوِي الْقٰاعِدُونَ -الى قوله- وَ أَنْفُسِهِمْ الضرر هو النقصان فى الوجود المانع من القيام بأمر الجهاد و القتال كالعمى و العرج و المرض،و المراد بالجهاد بالأموال إنفاقها فى سبيل اللّه للظفر على أعداء الدين،و بالأنفس القتال.

و قوله «وَ كُلاًّ وَعَدَ اللّٰهُ الْحُسْنىٰ» ،يدل على أن المراد بهؤلاء القاعدين هم التاركون للخروج الى القتال عند ما لا حاجه الى خروجهم لخروج غيرهم على حدّ الكفايه فالكلام مسوق لترغيب الناس و تحريضهم على القيام بأمر الجهاد و التسابق فيه و المسارعه إليه.

و من الدليل على ذلك أن اللّه سبحانه استثنى أولى الضرر ثم حكم بعدم الاستواء مع أن أولى الضرر كالقاعدين فى عدم مساواتهم المجاهدين فى سبيل اللّه و إن قلنا:إن اللّه سبحانه يتدارك ضررهم بنيّاتهم الصالحه فلا شك أن الجهاد و الشهاده أو الغلبه على عدوّ اللّه من الفضائل التى فضل بها المجاهدون فى سبيل اللّه على غيرهم،و بالجمله ففى الكلام تحضيض للمؤمنين و تهييج لهم،و إيقاظ لروح إيمانهم لاستباق الخير و الفضيله.

قوله تعالى: فَضَّلَ اللّٰهُ الْمُجٰاهِدِينَ بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقٰاعِدِينَ دَرَجَةً الجمله فى مقام التعليل لقوله «لاٰ يَسْتَوِي» ،و لذا لم توصل بعطف و نحوه،و الدرجه هى المنزله،و الدرجات المنزله بعد المنزله،و قوله «وَ كُلاًّ وَعَدَ اللّٰهُ الْحُسْنىٰ» أى وعد اللّه كلا

من القاعدين و المجاهدين،أو كلا من القاعدين غير أولى الضرر و القاعدين أولى الضرر و المجاهدين الحسنى،و الحسنى وصف محذوف الموصوف أى العاقبه الحسنى أو المثوبه الحسنى أو ما يشابه ذلك،و الجمله مسوقه لدفع الدخل فإن القاعد من المؤمنين ربما أمكنه أن يتوهم من قوله« لا يَسْتَوِي -الى قوله- دَرَجَةً »أنه صفر الكفّ لا فائده تعود إليه من ايمانه و سائر أعماله فدفع ذلك بقوله «وَ كُلًّا وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنى» .

قوله تعالى: وَ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً دَرَجاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً هذا التفضيل بمنزله البيان و الشرح لإجمال التفضيل المذكور أولا، و يفيد مع ذلك فائده أخرى،و هى الإشاره الى أنه لا ينبغى للمؤمنين أن يقنعوا بالوعد الحسن الذى يتضمّنه قوله «وَ كُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنى» فيتكاسلوا فى الجهاد فى سبيل اللّه و الواجب من السعى فى إعلاء كلمه الحق و إزهاق الباطل فإن فضل المجاهدين على القاعدين بما لا يستهان به من درجات المغفره و الرحمه.

و أمر الآيه فى سباقها عجيب،أما أولا:فلأنها قيدت المجاهدين(أولا)بقوله «فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» و(ثانيا)بقوله «بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» و(ثالثا)أوردته من غير تقييد.

و أما ثانيا:فلأنها ذكرت فى التفضيل(أولا)أنها درجه،و(ثانيا)انها درجات منه.

و الضمير فى قوله «مِنْهُ» لعله راجع الى اللّه سبحانه،و يؤيده قوله «وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً» بناء على كونه بيانا للدرجات،و المغفره و الرحمه من اللّه،و يمكن رجوع الضمير الى الأجر المذكور قبلا.

و قوله: وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً ظاهره كونه بيانا للدرجات فإن الدرجات و هى المنازل من اللّه سبحانه أياما كانت فهى مصداق المغفره و الرحمه،و قد علمت فى بعض المباحث السابقه أن الرحمه-و هى الإفاضه الإلهيه للنعمه-تتوقف على إزاله الحاجب و رفع المانع من التلبس بها،و هى المغفره،و لازمه أن كل مرتبه من مراتب النعم،و كل درجه و منزله رفيعه

مغفره بالنسبه الی المرتبه التی بعدها،و الدرجه التی فوقها،فصح بذلک أن الدرجات الاخرویه کائنه ما کانت مغفره و رحمه من اللّه سبحانه،و غالب ما تذکر الرحمه و ما یشابهها فی القرآن تذکر معها المغفره کقوله: مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِیمٌ (المائده/۹)و قوله: وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ (الأنفال/۴)،و قوله: مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ کَبِیرٌ (هود/۱۱)،و قوله: وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللّهِ وَ رِضْوانٌ (الحدید/۲۰)،و قوله: وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا (البقره/۲۸۶)الی غیر ذلک من الآیات.

ثم ختم الآیه فبقوله «وَ کانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِیماً» و مناسبه الاسمین مع مضمون الآیه ظاهره لا سیما بعد قوله فی ذیلها(و مغفره و رحمه).

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِکَةُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ لفظ «تَوَفّاهُمُ» صیغه ماض أو صیغه مستقبل-و الأصل تتوفاهم حذفت إحدی التاءین من اللفظ تخفیفا- نظیر قوله تعالی: اَلَّذِینَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِکَةُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما کُنّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ (النحل/۲۸).

و المراد بالظلم کما تؤیده الآیه النظیره هو ظلمهم لأنفسهم بالاعراض عن دین اللّه و ترک إقامه شعائره من جهه الوقوع فی بلاد الشرک و التوسط بین الکافرین حیث لا وسیله یتوسل بها الی تعلم معارف الدین،و القیام بما تندب إلیه من وظائف العبودیه،و هذا هو الذی یدل علیه السیاق فی قوله «قالُوا فِیمَ کُنْتُمْ قالُوا کُنّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی الْأَرْضِ» الی آخر الآیات الثلاث.

و قد فسّر اللّه سبحانه الظالمین(اذا أطلق)فی قوله: لَعْنَةُ اللّهِ عَلَی الظّالِمِینَ اَلَّذِینَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ وَ یَبْغُونَها عِوَجاً (الأعراف/۴۵،هود/۱۹)،و محصّل الآیتین تفسیر الظلم بالاعراض عن دین اللّه و طلبه عوجا و محرّفا،و ینطبق علی ما یظهر من الآیه التی نحن فیها.

قوله تعالى: قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ أى فيما ذا كنتم من الدين،و كلمه«م»هى ما الاستفهاميه حذفت عنها الألف تخفيفا.

و فى الآيه دلاله فى الجمله على ما تسمّيه الأخبار بسؤال القبر،و هو سؤال الملائكه عن دين الميّت بعد حلول الموت كما يدل عليه أيضا قوله تعالى: اَلَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً الآيات(النحل ۳۰/).

قوله تعالى: قالُوا كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها كان سؤال الملائكه(فيم كنتم)سؤالا عن الحال الذى كانوا يعيشون فيه من الدين،و لم يكن هؤلاء المسئولون على حال يعتد به من جهه الدين فأجابوا بوضع السبب موضع المسبب و هو أنهم كانوا يعيشون فى ارض لا يتمكنون فيها من التلبّس بالدين لكون أهل الأرض مشركين أقوياء فاستضعفوهم فحالوا بينهم و بين الأخذ بشرائع الدين و العمل بها.

و لمّا كان هذا الذى ذكروه من الاستضعاف-لو كانوا صادقين فيه-إنما حل بهم من حيث إخلادهم الى أرض الشرك،و كان استضعافهم من جهه تسلّط المشركين على الأرض التى ذكروها،و لم تكن لهم سلطه على غيرها من الأرض فلم يكونوا مستضعفين على أى حال بل فى حال لهم أن يغيروه بالخروج و المهاجره كذبتهم الملائكه فى دعوى الاستضعاف بأن الأرض أرض اللّه كانت أوسع مما وقعوا فيه و لزموه،و كان يمكنهم أن يخرجوا من حومه الاستضعاف بالمهاجره،فهم لم يكونوا بمستضعفين حقيقه لوجود قدرتهم على الخروج من قيد الاستضعاف،و إنما اختاروا هذا الحال بسوء اختيارهم.

فقوله: أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها الاستفهام فيه للتوبيخ كما

فی قوله «فِیمَ کُنْتُمْ» و یمکن أن یکون أول الاستفهامین للتقریر کما هو ظاهر ما مر نقله من آیات سوره النحل لکون السؤال فیها عن الظالمین و المتقین جمیعا،و ثانی الاستفهامین للتوبیخ علی أی حال.

و قد أضافت الملائکه الی اللّه،و لا یخلو من إیماء الی أن اللّه سبحانه هیّأ فی أرضه سعه أولا ثم دعاهم الی الایمان و العمل کما یشعر به أیضا قوله بعد آیتین «وَ مَنْ یُهٰاجِرْ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ یَجِدْ فِی الْأَرْضِ مُرٰاغَماً کَثِیراً وَ سَعَهً» (الآیه).

و وصف الأرض بالسعه هو الموجب للتعبیر عن الهجره بقوله «فَتُهٰاجِرُوا فِیهٰا» أی تهاجروا من بعضها الی بعضها،و لو لا فرض السعه لکان یقال:فتهاجروا منها.ثم حکم اللّه فی حقهم بعد إیراد المساءله بقوله «فَأُولٰئِکَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ سٰاءَتْ مَصِیراً» .

قوله تعالی: إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الرِّجٰالِ وَ النِّسٰاءِ وَ الْوِلْدٰانِ ،الاستثناء منقطع،و فی إطلاق المستضعفین علی هؤلاء بالتفسیر الذی فسره به دلاله علی أن الظالمین المذکورین لم یکونوا مستضعفین لتمکنهم من رفع قید الاستضعاف عن أنفسهم و إنما الاستضعاف وصف هؤلاء المذکورین فی هذه الآیه،و فی تفصیل بیانهم بالرجال و النساء و الولدان إیضاح للحکم الإلهی و رفع للبس.و قوله «لاٰ یَسْتَطِیعُونَ حِیلَهً وَ لاٰ یَهْتَدُونَ سَبِیلاً» الحیله کأنها بناء نوع من الحیلوله ثم استعملت استعمال الآله فهی ما یتوسل به الی الحیلوله بین شیء و شیء أو حال للحصول علی شیء أو حال آخر،و غلب استعماله فی ما یکون علی خفیه،و فی الامور المذمومه،و فی مادتها علی أی حال معنی التغیّر علی ما ذکره الراغب فی مفرداته.

و المعنی:لا یستطیعون و لا یتمکنون أن یحتالوا لصرف ما یتوجه إلیهم من استضعاف المشرکین عن أنفسهم،و لا یهتدون سبیلا یتخلصون بها عنهم فالمراد من السبیل علی ما یفیده السیاق أعم من السبیل الحسّی کطریق المدینه لمن یرید المهاجره إلیها من مسلمی مکه،

و السبیل المعنوی و هو کل ما یخلصهم من أیدی المشرکین،و استضعافهم لهم بالعذاب و الفتنه (۱).

قوله تعالی: فَأُولٰئِکَ عَسَی اللّٰهُ أَنْ یَعْفُوَ عَنْهُمْ ،هؤلاء و ان لم یکسبوا سیّئه لمعذوریّتهم فی جهلهم لکنّا بیّنّا سابقا أن أمر الانسان یدور بین السعاده و الشقاوه و کفی فی شقائه أن لا یجوز لنفسه سعاده،فالانسان لا غنی له فی نفسه عن العفو الالهی الذی یعفی به أثر الشقاء سواء کان صالحا أو طالحا أو لم یکن،و لذلک ذکر اللّه سبحانه رجاء عفوهم.

و إنما اختیر ذکر رجاء عفوهم ثم عقب ذلک بقوله «وَ کٰانَ اللّٰهُ عَفُوًّا غَفُوراً» اللائح منه شمول العفو لهم لکونهم مذکورین فی صوره الاستثناء من الظالمین الذین أوعدوا بأن مأواهم جهنم و ساءت مصیرا.

قوله تعالی: وَ مَنْ یُهٰاجِرْ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ یَجِدْ فِی الْأَرْضِ مُرٰاغَماً کَثِیراً وَ سَعَهً قال الراغب:الرغام(بفتح الراء)التراب الرقیق،و رغم أنف فلان رغما وقع فی الرغام،و ارغمه غیره،و یعبّر بذلک عن السخط کقول الشاعر:

اذا رغمت تلک الانوف لم أرضها

و لم أطلب العتبی و لکن أزیدها

فمقابله بالإرضاء مما ینبه علی دلالته علی الإسخاط،و علی هذا قیل:أرغم اللّه أنفه، و أرغمه أسخطه،و راغمه ساخطه،و تجاهدا علی ان یرغم أحدهما الآخر ثم یستعار المراغمه للمنازعه قال اللّه تعالی «یَجِدْ فِی الْأَرْضِ مُرٰاغَماً کَثِیراً» أی مذهبا یذهب إلیه اذا رأی منکرا یلزمه ان یغضب منه کقولک:غضبت الی فلان من کذا و رغمت إلیه(انتهی).

فالمعنی:و من یهاجر فی سبیل اللّه،أی طلبا لمرضاته فی التلبّس بالدین علما عملا یجد فی الارض مواضع کثیره کلما منعه مانع فی بعضها من اقامه دین اللّه استراح الی بعض آخر

ص: ۷۴۵

۱- ۱) .النساء ۹۵-۱۰۰:کلام فی المستضعف.

بالهجره إليه لإرغام المانع و اسخاطه أو لمنازعته المانع و مساخطته،و يجد سعه فی الارض.

و قد قال تعالی فی سابق الآیات «أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وٰاسِعَةً» ،و لازم التفریع علیه أن یقال:

و من یهاجر یجد فی الارض سعه الا أنه لما زید قوله «مُرٰاغَماً كَثِيراً» و هو من لوازم سعه الارض لمن یرید سلوک سبیل اللّه قیدت المهاجره أیضا بکونها فی سبیل اللّه لینطبق علی الغرض من الکلام،و هو موعظه المؤمنین القاطنین فی دار الشرک و تهییجهم و تشجیعهم علی المهاجره و تطیب نفوسهم.

قوله تعالی: وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهٰاجِراً إِلَى اللّهِ وَ رَسُولِهِ الخ؛المهاجره الی اللّه و رسوله کنایه عن المهاجره الی أرض الإسلام التی یتمکن فیها من العلم بکتاب اللّه و سنّه رسوله،و العمل به.

و ادراک الموت استعاره بالکنایه عن وقوعه أو مفاجأته فان الإدراک هو سعی اللاحق بالسیر الی السابق ثم وصوله الیه،و کذا وقوع الأجر علی اللّه استعاره بالکنایه عن لزوم الأجر و الثواب له تعالی و اخذه ذلک فی عهدته،فهناک اجر جمیل و ثواب جزیل سیوافی به العبد لا محاله،و اللّه سبحانه یوافیه بألوهیته التی لا یعزها شیء و لا یعجزها شیء و لا یمتنع علیها ما أرادته،و لا تخلف المیعاد.و ختم الکلام بقوله «وَ كٰانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً» تأکیدا للوعد الجمیل بلزوم توفیه الأجر و الثواب (۱)(۲).

[سوره النساء (۴): الآیات ۱۰۱ الی ۱۰۴]

اشاره

وَ إِذٰا ضَرَبْتُمْ فِي اَلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ اَلصَّلاٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ اَلْكٰافِرِينَ كٰانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً (۱۰۱) وَ إِذٰا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ اَلصَّلاٰةَ فَلْتَقُمْ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذٰا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرٰائِكُمْ وَ لْتَأْتِ طٰائِفَةٌ أُخْرىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وٰاحِدَةً وَ لاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كٰانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اَللّهَ أَعَدَّ لِلْكٰافِرِينَ عَذٰاباً مُهِيناً (۱۰۲) فَإِذٰا قَضَيْتُمُ اَلصَّلاٰةَ فَاذْكُرُوا اَللّهَ قِيٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اِطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ إِنَّ اَلصَّلاٰةَ كٰانَتْ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ كِتٰاباً مَوْقُوتاً (۱۰۳) وَ لاٰ تَهِنُوا فِي اِبْتِغٰاءِ اَلْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمٰا تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اَللّهِ مٰا لاٰ يَرْجُونَ وَ كٰانَ اَللّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۰۴)

۱- ۱) .بحث فی:اقامه المؤمنین فی دار الایمان و دار الشرک،الهجره الی دار الایمان.

۲- ۲) .النساء ۹۵-۱۰۰:بحث روائی فی:المنافقین؛الهجره الی دار الایمان؛المستضعفین.

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِی الْأَرْضِ فَلَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاهِ الجناح الاثم و الحرج و العدول،و القصر النقص من الصلاه،قال فی المجمع:فی قصر الصلاه ثلاث لغات:قصرت الصلاه أقصرها و هی لغه القرآن،و قصّرتها تقصیرا، أقصرتها اقصارا.

ص: ۷۴۷

و المعنی:اذا سافرتم فلا مانع من حرج و اثم ان تنقصوا شیئا من الصلاه،و نفی الجناح الظاهر وحده فی الجواز لا ینافی وروده فی السیاق للوجوب کما فی قوله تعالی: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَهَ مِنْ شَعائِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَیْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَیْهِ أَنْ یَطَّوَّفَ بِهِما (البقره/۱۵۸) مع کون الطواف واجبا،و ذلک ان المقام مقام التشریع،و یکفی فیه مجرد الکشف عن جعل الحکم من غیر حاجه الی استیفاء جمیع جهات الحکم و خصوصیّاته،و نظیر الآیه بوجه قوله تعالی: وَ أَنْ تَصُومُوا خَیْرٌ لَکُمْ الآیه(البقره/۱۸۴).

قوله تعالی: إِنْ خِفْتُمْ أَنْ یَفْتِنَکُمُ الَّذِینَ کَفَرُوا ،الفتنه و ان کانت ذات معان کثیره مختلفه لکن المعهود من اطلاقها فی القرآن فی خصوص الکفار و المشرکین التعذیب من قتل أو ضرب و نحوهما،و قرائن الکلام أیضا تؤید ذلک فالمعنی:ان خفتم ان یعذبوکم بالحمله و القتل.

و الجمله قید لقوله «فَلا جُناحَ عَلَیْه» ،و تفید ان بدء تشریع القصر فی الصلاه انما کان عند خوف الفتنه،و لا ینافی ذلک ان یعم التشریع ثانیا جمیع صور السفر الشرعی و ان لم یجامع الخوف فإنما الکتاب بین قسما منه،و السنه بینت شموله لجمیع الصور کما سیأتی فی الروایات.

قوله تعالی: وَ إِذا کُنْتَ فِیهِمْ -الی قوله- وَ لْیَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ الآیه؛تذکر کیفیه صلاه الخوف،و توجه الخطاب الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بفرضه اماما فی صلاه الخوف،و هذا من قبیل البیان بإیراد المثال لیکون أوضح فی عین أنه اوجز و اجمل.

فالمراد بقوله: فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاهَ هو الصلاه جماعه،و المراد بقوله «فَلْتَقُمْ طائِفَهٌ مِنْهُمْ مَعَکَ» قیامهم فی الصلاه مع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بنحو الایتمام،و هم المأمورون بأخذ الأسلحه، و المراد بقوله «فَإِذا سَجَدُوا» الخ؛اذا سجدوا و اتموا الصلاه لیکون هؤلاء بعد اتمام سجدتهم من وراء القوم،و کذا المراد بقوله «وَ لْیَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ» ان تأخذ الطائفه الثانیه

المصليه مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حذرهم و اسلحتهم.

و المعنى-اللّه اعلم-:و اذا كنت انت يا رسول اللّه فيهم و الحال حال الخوف فأقمت لهم الصلاه اى صليتهم جماعه فأممتهم فيها،فلا يدخلوا فى الصلاه جميعا بل لتقم طائفه منهم معك بالاقتداء بك و ليأخذوا معهم اسلحتهم،و من المعلوم ان الطائفه الاخرى يحرسونهم و امتعتهم فاذا سجد المصلون معك و فرغوا من الصلاه فليكونوا وراءكم يحرسونكم و الأمتعه و لتأت طائفه اخرى لم يصلوا فليصلوا معك،و ليأخذ هؤلاء المصلون ايضا كالطائفه الاولى المصليه حذرهم و اسلحتهم.

و توصيف الطائفه بالأخرى،و ارجاع ضمير الجمع المذكر إليها رعايه تاره لجانب اللفظ و اخرى لجانب المعنى،كما قيل.و فى قوله تعالى: «وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ» نوع من الاستعاره لطيف،و هو جعل الحذر آله للدفاع نظير السلاح حيث نسب اليه الأخذ الذى نسب الى الأسلحه،كما قيل.

قوله تعالى: وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ -الى قوله- وٰاحِدَةً فى مقام التعليل للحكم المشرع،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ لاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ الى آخر الآيه.تخفيف آخر و هو انهم ان كانوا يتأذون من مطر ينزل عليهم أو كان بعضهم مرضى فلا مانع من ان يضعوا اسلحتهم لكن يجب عليهم مع ذلك ان يأخذوا حذرهم،و لا يغفلوا عن الذين كفروا فهم مهتمون بهم.

قوله تعالى: فَإِذٰا قَضَيْتُمُ الصَّلاٰةَ فَاذْكُرُوا اللّٰهَ قِيٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِكُمْ القيام و القعود جمعان أو مصدران،و هما حالان و كذا قوله «وَ عَلىٰ جُنُوبِكُمْ» و هو كنايه عن الذكر المستمر المستوعب لجميع الأحوال.

قوله تعالى: فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاٰةَ الخ؛المراد بالاطمينان الاستقرار، و حيث قوبل به قوله «وَ إِذٰا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ» ،على ما يؤيده السياق كان الظاهر أن المراد به

الرجع الی الأوطان،علی هذا فالمراد بإقامه الصلاه إتمامها فإن التعبیر عن صلاه الخوف بالقصر من الصلاه یلوح الی ذلک.

قوله تعالی: إِنَّ الصَّلاٰهَ کٰانَتْ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ کِتٰاباً مَوْقُوتاً الکتابه کنایه عن الفرض و الایجاب کقوله تعالی: کُتِبَ عَلَیْکُمُ الصِّیٰامُ کَمٰا کُتِبَ عَلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکُمْ (البقره/۱۸۳)و الموقوت من وقت کذا أی جعلت له وقتا فظاهر اللفظ ان الصلاه فریضه موقته منجمه تؤدی فی أوقاتها و نجومها.

و الظاهر ان الوقت فی الصلاه کنایه عن الثبات و عدم التغیر باطلاق الملزوم علی لازمه فالمراد بکونها کتابا موقوتا أنها مفروضه ثابته غیر متغیره أصلا فالصلاه لا تسقط بحال، و ذلک ان إبقاء لفظ الموقوت علی بادی ظهوره لا یلائم ما سبقه من المضمون اذ لا حاجه تمس الی التعرض لکون الصلاه عباده ذات أوقات معینه مع أن قوله «إِنَّ الصَّلاٰهَ» ،فی مقام التعلیل لقوله «فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِیمُوا الصَّلاٰهَ» فالظاهر أن المراد بکونها موقوته کونها ثابته لا تسقط بحال،و لا تتغیر و لا تتبدل الی شیء آخر کالصوم الی الفدیه مثلا.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَهِنُوا فِی ابْتِغٰاءِ الْقَوْمِ ،الوهن الضعف،و الابتغاء الطلب،و الألم مقابل اللذه،و قوله «وَ تَرْجُونَ مِنَ اللّٰهِ مٰا لاٰ یَرْجُونَ» حال من ضمیر الجمع الغائب،و المعنی:

أن حال الفریقین فی ان کلا منهما یألم واحد،فلستم أسوأ حالا من اعدائکم،بل انتم أرفه منهم و أسعد حیث ان لکم رجاء الفتح و الظفر و المغفره من ربکم الذی هو ولیکم،و اما اعدائکم فلا مولی لهم و لا رجاء لهم من جانب یطیب نفوسهم،و ینشطهم فی عملهم.و یسوقهم الی مبتغاهم، و کان اللّٰه علیما بالمصالح،حکیما متقنا فی امره و نهیه (۱).

ص: ۷۵۰

۱- ۱) .النساء ۱۰۵-۱۲۶:بحث روائی فی:صلاه الخوف؛صلاه السفر.

[سوره النساء (۴): الآيات ۱۰۵ الى ۱۲۶]

اشاره

إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ اَلْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ اَلنّاسِ بِما أَراكَ اَللّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً (۱۰۵) وَ اِسْتَغْفِرِ اَللّهَ إِنَّ اَللّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۱۰۶) وَ لا تُجادِلْ عَنِ اَلَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اَللّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوّاناً أَثِيماً (۱۰۷) يَسْتَخْفُونَ مِنَ اَلنّاسِ وَ لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اَللّهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ اَلْقَوْلِ وَ كانَ اَللّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (۱۰۸) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي اَلْحَياةِ اَلدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اَللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ اَلْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (۱۰۹) وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اَللّهَ يَجِدِ اَللّهَ غَفُوراً رَحِيماً (۱۱۰) وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ وَ كانَ اَللّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۱۱) وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ اِحْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۱۱۲) وَ لَوْ لا فَضْلُ اَللّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ ما يُضِلُّونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اَللّهُ عَلَيْكَ اَلْكِتابَ وَ اَلْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كانَ فَضْلُ اَللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (۱۱۳) لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ اَلنّاسِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ اِبْتِغاءَ مَرْضاتِ اَللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (۱۱۴) وَ مَنْ يُشاقِقِ اَلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ اَلْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ اَلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً (۱۱۵) إِنَّ اَللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (۱۱۶) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ إِناثاً وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلاّ شَيْطاناً مَرِيداً (۱۱۷) لَعَنَهُ اَللّهُ وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (۱۱۸) وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ اَلْأَنْعامِ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اَللّهِ وَ مَنْ يَتَّخِذِ اَلشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اَللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً (۱۱۹) يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ اَلشَّيْطانُ إِلاّ غُرُوراً (۱۲۰) أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً (۱۲۱) وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَعْدَ اَللّهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اَللّهِ قِيلاً (۱۲۲) لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ اَلْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اَللّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۱۲۳) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ اَلصّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ اَلْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (۱۲۴) وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اِتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ اِتَّخَذَ اَللّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلاً (۱۲۵) وَ لِلّهِ ما فِي اَلسَّماواتِ وَ ما فِي اَلْأَرْضِ وَ كانَ اَللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً (۱۲۶)

بیان:

قوله تعالی: إِنّا أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْکُمَ بَیْنَ النّاسِ بِما أَراکَ اللّهُ ظاهر الحکم بین الناس هو القضاء بینهم فی مخاصماتهم و منازعاتهم مما یرجع الی الامور القضائیه و رفع الاختلافات بالحکم،و قد جعل اللّه تعالی الحکم بین الناس غایه لإنزال الکتاب فینطبق مضمون الآیه علی ما یتضمّنه قوله تعالی: کانَ النّاسُ أُمَّهً واحِدَهً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ النّاسِ فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ) الآیه (البقره۲۱۳/)و قد مرّ تفصیل القول فیه.

فهذه الآیه (إِنّا أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ) الخ؛فی خصوص موردها نظیره تلک الآیه (کانَ النّاسُ أُمَّهً واحِدَهً) ،فی عمومها،و تزید علیها فی أنها تدلّ علی جعل حق الحکم لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الحجیه لرأیه و نظره فإن الحکم و هو القطع فی القضاء و فصل الخصومه لا ینفکّ عن اعمال نظر من القاضی الحاکم و اظهار عقیده منه مضافا الی ما عنده من العلم بالأحکام العامّه و القوانین الکلیه فی موارد الخصومه فإنّ العلم بکلیات الأحکام و حقوق الناس أمر،و القطع

و الحكم بانطباق مورد النزاع على بعضها دون بعض أمر آخر.

فالمراد بالإراءه فی قوله «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللّٰهُ» إيجاد الرأی و تعريف الحكم لا تعليم الأحكام و الشرائع كما احتمله بعضهم.

و مضمون الآيه على ما يعطيه السياق أن اللّه أنزل إليك الكتاب و علمك أحكامه و شرائعه و حكمه لتضيف إليها ما أوجد لك من الرأی و عرّفك من الحكم فتحكم بين الناس،و ترفع بذلك اختلافاتهم.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَكُنْ لِلْخٰائِنِينَ خَصِيماً عطف على ما تقدّمه من الجمله الخبريّه لكونها فی معنى الإنشاء كأنه قيل:فاحكم بينهم و لا تكن للخائنين خصيما.و الخصيم هو الذی يدافع عن الدعوى و ما فی حكمها،و فيه نهيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن أن يكون خصيما للخائنين على من يطالبهم بحقوقه فيدافع عن الخائنين و يبطل حقوق المحقّين من أهل الدعوى.

و ربما أمكن أن يستفاد من عطف قوله «وَ لاٰ تَكُنْ لِلْخٰائِنِينَ» ،على ما تقدمه و هو أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمرا مطلقا بالحكم أنّ المراد بالخيانه مطلق التعدّی على حقوق الغير ممن لا ينبغی منه ذلك لا خصوص الخيانه للودائع و إن كان ربما عطف الخاص على العام لعنايه ما بشأنه لكن المورد كالخالی عن العنايه،و سيجیء لهذا الكلام تتمه.

قوله تعالى: وَ اسْتَغْفِرِ اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً الظاهر أن الاستغفار هاهنا هو أن يطلب من اللّه سبحانه الستر على ما فی طبع الإنسان من إمكان هضم الحقوق و الميل الى الهوى و مغفره ذلك،و قد مر مرارا أن العفو و المغفره يستعملان فی كلامه تعالى فی شئون مختلفه يجمعها جامع الذنب،و هو التباعد من الحق بوجه.فالمعنى-و اللّه أعلم-:و لا تكن للخائنين خصيما و لا تمل إليهم،و اطلب من اللّه سبحانه أن يوفّقك لذلك و يستر على نفسك أن تميل الى الدفاع عن خيانتهم و يتسلط عليك هوى النفس.و الدليل على إراده ذلك ما فی ذيل الآيات الكريمه «وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ مٰا

يُضِلُّونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ» فإن الآيه تنص على أنهم لا يضرّون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إن بذلوا غايه جهدهم فى تحريك عواطفه الى إيثار الباطل و إظهاره على الحق فالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أمن إلهى من الضرر،و اللّه يعصمه فهو لا يجور فى حكمه و لا يميل الى الجور،و لا يتبع الهوى، و من الجور و الميل الى الهوى المذموم أن يفرق فى حكمه بين قوى و ضعيف،أو صديق و عدو، أو مؤمن و كافر ذمى،أو قريب و بعيد،فامره بأن يستغفر ليس لصدور ذنب ذى وبال و تبعه منه،و لا لإشرافه على ما لا يحمد منه بل ليسأل من اللّه أن يظهره على هوى النفس،و لا ريب فى حاجته فى ذلك الى ربه و عدم استغنائه عنه و إن كان على عصمته،فإن للّه سبحانه أن يفعل ما يشاء.

و هذه العصمه مدار عملها ما يعد طاعه و معصيه،و ما يحمد أو يذمّ عليه من الأعمال لا ما هو الواقع الخارجى،و بعباره اخرى الآيات تدل على أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أمن من اتّباع الهوى، و الميل الى الباطل،و أما أن الذى يحكم و يقضى به بما شرّعه من القواعد و قوانين القضاء الظاهريه كقوله«البيّنه على المدعى و اليمين على من أنكر»و نحو ذلك يصادف دائما ما هو الحق فى الواقع فينتج دائما غلبه المحق،و مغلوبيه المبطل فى دعواه،فالآيات لا تدل على ذلك أصلا، و لا أن القوانين الظاهريه فى استطاعتها أن تهدى الى ذلك قطعا فإنها امارات مميّزه بين الحق و الباطل غالبا لا دائما،و لا معنى لاستلزام الغالب الدائم و هو ظاهر.

و مما تقدم يظهر ما فى كلام بعض المفسّرين حيث ذكر فى قوله تعالى «وَ اسْتَغْفِرِ اللّٰهَ» ،أنه أمر بالاستغفار عما همّ به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الدفاع و الذبّ عن هذا الخائن المذكور فى الآيه،و قد سأله قومه أن يدفع عنه و يكون خصيما له على يهودى.و ذلك أن هذا القدر أيضا تأثير منهم بأثر مذموم،و قد نفى اللّه سبحانه عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كل ضرر.

قوله تعالى: وَ لاٰ تُجٰادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتٰانُونَ أَنْفُسَهُمْ ،قيل:إن نسبه الخيانه الى النفس لكون وبالها راجعا إليها،أو بعدّ كل معصيه خيانه للنفس كما عد ظلما لها،و قد قال

تعالی: عَلِمَ اللّهُ أَنَّکَمْ کُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَکَمْ (البقره/۱۸۷).

و یمکن أن یستفاد من الآیه بمعونه ما یدل علیه القرآن من أن المؤمنین کنفس واحده،و أن مال الواحد منهم مال لجمیعهم یجب علی الجمیع حفظه و صونه عن الضیعه و التلف،کون تعدّی بعضهم علی بعض بسرقه و نحوها اختیانا لأنفسهم.

و فی قوله تعالی «إِنَّ اللّهَ لا یُحِبُّ مَنْ کانَ خَوّاناً أَثِیماً» دلاله علی استمرار هؤلاء الخائنین فی خیانتهم،و یؤکده قوله «أَثِیماً» فإن الأثیم آکد فی المعنی من الآثم و هو صفه مشبّهه تدل علی الثبوت.علی أن قوله «یَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ» لا تخلو عن دلاله علی الاستمرار،و کذا قوله «لِلْخائِنِینَ» حیث عبر بالوصف و لم یعبر بمثل قولنا:للذین خانوا،کما عبّر بذلک فی قوله:

فَقَدْ خانُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْکَنَ مِنْهُمْ (الأنفال/۷۱).

فمن هذه القرائن و أمثاله یظهر أن معنی الآیه-بالنظر الی مورد النزول-:و لا تکن خصیما لهؤلاء،و لا تجادل عنهم فإنهم مصرون علی الخیانه مبالغون فیها ثابتون علی الإثم،و اللّه لا یحب من کان خوّانا أثیما.و هذا یؤید ما ورد فی أسباب النزول من نزول الآیات فی أبی طعمه بن الابیرق.کما سیجیء.

و معنی الآیه-مع قطع النظر عن المورد-:و لا تدافع فی قضائک عن المصرّین علی الخیانه المستمرّین علیها،فإن اللّه لا یحب الخوان الأثیم،و کما انه تعالی لا یحب کثیر الخیانه لا یحب قلیلها،و لو أمکن أن یحب قلیلها أمکن أن یحب کثیرها،و اذا کان کذلک فاللّه ینهی أن یدافع عن قلیل الخیانه کما ینهی عن أن یدافع عن کثیرها،و أما من خان فی أمر ثم نازع فی أمر آخر و هو محق فی نزاعه،فالدفاع عنه دفاع غیر محظور و لا ممنوع منه،و لا ینهی عنه قوله: وَ لا تَکُنْ لِلْخائِنِینَ خَصِیماً (الآیه).

قوله تعالی: یَسْتَخْفُونَ مِنَ النّاسِ وَ لا یَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ ،و هذا ایضا من الشواهد علی ما قدمناه من الآیات(۱۰۵-۱۲۶)جمیعا ذات سیاق واحد،نازله فی قصه

واحده،و هی التی یشیر إلیها قوله «وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ یَرْمِ بِهِ بَرِیئاً» (الآیه)؛ و ذلک ان الاستخفاء انما یناسب الأعمال التی یمکن ان یرمی بها الغیر کالسرقه و امثال ذلک فیتأید به ان الذی تشیر الیه هذه الآیه و ما تقدمها من الآیات هو الذی یشیر الیه قوله «وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ یَرْمِ بِهِ» (الآیه).

و الاستخفاء من اللّه أمر غیر مقدور اذ لا یخف علی اللّه شیء فی الأرض و لا فی السماء فطرفه المقابل له أعنی عدم الاستخفاء أیضا أمر اضطراری غیر مقدور،و اذا کان غیر مقدور لم یتعلق به لوم و لا تعییر کما هو ظاهر الآیه.لکن الظاهر أن الاستخفاء کنایه عن الاستحیاء و لذلک قیّد قوله «وَ لاٰ یَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّٰهِ» (أوّلا)بقوله «وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ یُبَیِّتُونَ مٰا لاٰ یَرْضیٰ مِنَ الْقَوْلِ» فدلّ علی أنهم کانوا یدبرون الحیله لیلا للتبرّی من هذه الخیانه المذمومه،و یبیّتون فی ذلک قولا لا یرضی به اللّه سبحانه،ثم قیّده(ثانیا)بقوله «وَ کٰانَ اللّٰهُ بِمٰا یَعْمَلُونَ مُحِیطاً» و دلّ علی إحاطته تعالی بهم فی جمیع الأحوال و منها حال الجرم الذی أجرموه،و التقیید بهذین القیدین أعنی قوله «وَ هُوَ مَعَهُمْ» ،و قوله «وَ کٰانَ اللّٰهُ» ،تقیید بالعام بعد الخاص،و هو فی الحقیقه تعلیل لعدم استخفائهم من اللّه بعله خاصه ثم باخری عامه.

قوله تعالی: هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ جٰادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِی الْحَیٰاةِ الدُّنْیٰا (الآیه)؛بیان لعدم الجدوی فی الجدال عنهم،و أنهم لا ینتفعون بذلک فی صوره الاستفهام و المراد أن الجدال عنهم لو نفعهم فإنما ینفعهم فی الحیاه الدنیا،و لا قدر لها عند اللّه،و أما الحیاه الاخرویّه التی لها عظیم القدر عند اللّه أو ظرف الدفاع فیها یوم القیامه فلا مدافع هناک عن الخائنین و لا مجادل عنهم بل لا وکیل لهم یومئذ یتکفّل تدبیر امورهم و إصلاح شئونهم.

قوله تعالی: وَ مَنْ یَعْمَلْ سُوءاً أَوْ یَظْلِمْ نَفْسَهُ (الآیه)؛فی ترغیب و حث لأولئک الخائنین أن یرجعوا الی ربهم بالاستغفار،و الظاهر أن التردید بین السوء و ظلم النفس،و التدرّج من السوء الی الظلم لکون المراد بالسوء التعدّی علی الغیر،و بالظلم

التعدى على النفس،أو أن السوء أهون من الظلم كالمعصيه الصغيره بالنسبه الى الكبيره،و اللّه أعلم.

و هـذه الآيه و الآيتان بعـدها جميعا كلام مسوق لغرض واحد،و هو بيان أمر الإثم الذى يكسـبه الإنسان بعمله،يتكفل كل واحده من الآيـات الثلاث بيان جهه من جهاته،فالآيه الاولى تبيّن أن المعصـيه التى يقترفها الانسان فيتأثّر بتبعتها نفسه،و تكتب فى كتاب أعماله، للعبد أن يتوب الى اللّه منها و يستغفره فلو فعل ذلك وجد اللّه غفورا رحيما.

و الآيه الثانيه تـذكر الانسان أن الإثم الـذى يكسـبه إنما يكسبه على نفسه و ليس بالـذى يمكن أن يتخطّاه و يلحق غيره برمى أو افتراء و نحو ذلك.

و الآيه الثالثه توضح أن الخطيئه أو الاثم الذى يكسـبه الانسان لو رمى به بريئا غيره كان الرمى به إثما آخر وراء أصل الخطيئه أو الاثم.

قوله تعـالى: وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمٰا يَكْسِبُهُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً قـد تقـدّم أن الآيه مرتبطه مضـمونا بالآيه التاليه المتعرضه للرمى بـالخطيئه و الاثم فهـذه كالمقـدّمه لتلك،و على هـذا فقوله «فَإِنَّمٰا يَكْسِبُهُ عَلىٰ نَفْسِهِ» مسوق لقصـر التعيين،و فى الآيه عظه لمن يكسب الإثم ثم يرمى به بريئا غيره.و المعنى-و اللّه أعلم-:أنه يجب على من يكسب إثما أن يتـذكر أن ما يكسـبه من الإثم فإنما يكسـبه على نفسه لا على غيره،و أنه هو الـذى فعله لا غيره و إن رماه به أو تعهـد له من أن يحمل إثمه و كان اللّه عليمـا يعلم أنه فعـل هـذا الكاسب،و أنه الـذى فعله لا غيره المرمى به،حكيما لا يؤاخـذ بالإثم إلا آثمه،و بالوزر غير وازرتها كما قـال تعالى: لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهٰا مَا اكْتَسَبَتْ (البقره۲۸۶/)،و قـال وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ (الأنعام۱۶۴/)،و قـال: وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنٰا وَ لْنَحْمِلْ خَطٰايٰاكُمْ وَ مٰا هُمْ بِحٰامِلِينَ مِنْ خَطٰايٰاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ (العنكبوت۱۲/).

ص: ۷۵۸

قوله تعالی: وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَهً أَوْ إِثْماً ثُمَّ یَرْمِ بِهِ بَرِیئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِیناً ،قال الراغب فی المفردات:إن من أراد شیئا فاتّفق منه غیره یقال:

أخطأ و إن وقع منه کما أراده یقال:أصاب،و قد یقال لمن فعل فعلا لا یحسن أو أراد إراده لا تجمل:إنه أخطأ.و لهذا یقال:أصاب الخطأ،و أخطأ الصواب،و أصاب الصواب،و أخطأ الخطأ.و هذه اللفظه مشترکه کما تری،متردّده بین معان یجب لمن یتحرّی الحقائق أن یتأملها.

قال:و الخطیئه و السیئه تتقاربان لکن الخطیئه أکثر ما تقال فیما لا یکون مقصودا إلیه فی نفسه بل یکون القصد سببا لتولد ذلک الفعل منه کمن یرمی صیدا فأصاب إنسانا،أو شرب مسکرا فجنی جنایه فی سکره،و السبب سببان:سبب محظور فعله کشرب المسکر و ما یتولد عنه من الخطأ غیر متجاف عنه،و سبب غیر محذور کرمی الصید،قال تعالی: لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُنٰاحٌ فِیمٰا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لٰکِنْ مٰا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُکُمْ و قال تعالی «وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَهً أَوْ إِثْماً» فالخطیئه هاهنا هی التی لا تکون عن قصد الی فعلها(انتهی).

و أظن أن الخطیئه من الأوصاف التی استغنی عن موصوفاتها بکثره الاستعمال کالمصیبه و الرزیه و السلیقه و نحوها،و وزن فعیل یدلّ علی اختزان الحدث و استقراره،فالخطیئه هی العمل الذی اختزن و استقر فیه الخطأ،و الخطأ الفعل الواقع الذی لا یقصده الإنسان کقتل الخطأ،هذا فی الأصل،ثم وسّع الی ما لا ینبغی للإنسان أن یقصده لو کانت نفسه علی سلامتها الفطریه،فکل معصیه و أثر معصیه من مصادیق الخطأ علی هذا التوسع،و الخطیئه هی العمل أو أثر العمل الذی لم یقصده الإنسان(و لا یعدّ حینئذ معصیه)أو لم یکن ینبغی أن یقصده (و یعد حینئذ معصیه أو وبال معصیه).

و لکن اللّه سبحانه لما نسبها فی قوله «وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَهً» الی الکسب کان المراد بها الخطیئه التی هی المعصیه،فالمراد بالخطیئه فی الآیه هی التی تکون عن قصد الی فعلها و إن کان

من شأنها أن لا يقصد إليها.

و قوله تعالى: وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ (الى آخر الآيه)؛ السياق يدلّ على أن المراد بهمّهم بإضلال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو همهم أن يرضوه بالدفاع عن الذين سماهم اللّه تعالى فى صدر الآيات بالخائنين و الجدال عنهم و على هذا فالمراد بهذه الطائفه أيضا هم الذين عدل اللّه سبحانه الى خطابهم بقوله «هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ جٰادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا» (الآيه)؛و ينطبق على قوم أبى طعمه على ما سيجىء.

و أما قوله «وَ مٰا يُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ» فالمراد به بقرينه قوله بعده «وَ مٰا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ» ،أن إضلال هؤلاء لا يتعدّى أنفسهم و لا يتجاوزهم إليك،فهم الضالون بما همّوا لأنه معصيه و كل معصيه ضلال.

و لهذا الكلام معنى آخر تقدّمت الإشاره إليه فى الكلام على قوله: وَ مٰا يُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ (آل عمران۶۹/)فى الجزء الثالث من هذا الكتاب،لكنه لا يناسب هذا المقام.

و أما قوله «وَ مٰا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْكَ» ،ففيه نفى إضرارهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفيا مطلقا غير أن ظاهر السياق أنه مقيد بقوله «وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ» ،على ان يكون جمله حاليه عن الضمير فى قوله «يَضُرُّونَكَ» و إن كان الأغلب مقارنه الجمله الفعليه المصدره بالماضى بقد على ما ذكره النحاه،و على هذا فالكلام مسوق لنفى إضرار الناس مطلقا بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى علم أو عمل.

قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ،ظاهر الكلام كما أشرنا إليه انه فى مقام التعليل لقوله «وَ مٰا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ» أو لمجموع قوله «وَ مٰا يُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ» و كيف كان فهذا الإنزال

و التعليم هو المانع من تأثيرهم فی إضلاله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فهو الملاک فی عصمته (۱).

قوله تعالی: وَ کانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَیْکَ عَظِیماً امتنان علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

قوله تعالی: لاٰ خَیْرَ فِی کَثِیرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ إِلاّٰ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاٰحٍ بَیْنَ النّٰاسِ قال الراغب:و ناجیته أی ساررته و أصله أن تخلو به فی نجوه من الأرض(انتهی)فالنجوی المساره فی الحدیث،و ربما أطلق علی نفس المتناجین قال تعالی:

وَ إِذْ هُمْ نَجْویٰ (الاسراء۴۷/)أی متناجون.

و فی الکلام أعنی قوله «لاٰ خَیْرَ فِی کَثِیرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ» عود الی ما تقدم من قوله تعالی: إِذْ یُبَیِّتُونَ مٰا لاٰ یَرْضیٰ مِنَ الْقَوْلِ (الآیه)؛بناء علی اتصال الآیات و قد عمّم البیان لمطلق المساره فی القول سواء کان ذلک بطریق التبییت أو بغیره لأن الحکم المذکور و هو انتفاء الخیر فیه إنما هو لمطلق المساره و إن لم تکن علی نحو التبییت،و نظیره قوله «وَ مَنْ یُشٰاقِقِ» ،دون أن یقول:و من یناج للمشاقه،لأن الحکم المذکور لمطلق المشاقّه أعم من أن یکون نجوی أولا.

و ظاهر الاستثناء أنه منقطع،و المعنی:لکن من أمر بکذا و کذا فیه ففیما أمر به شیء من الخیر،و قد سمّی دعوه النجوی الی الخیر أمرا و ذلک من قبیل الاستعاره،و قد عد تعالی هذا الخیر الذی یأمر به النجوی ثلاثه:الصدقه،و المعروف،و الاصلاح بین الناس.و لعل إفراد الصدقه عن المعروف مع کونها من أفراده لکونها الفرد الکامل فی الاحتیاج الی النجوی بالطبع،و هو کذلک غالبا.

قوله تعالی: وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ ابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِ اللّهِ ،تفصیل لحال النجوی ببیان آخر من حیث التبعه من المثوبه و العقوبه لیتبیّن به وجه الخیر فیما هو خیر من النجوی،و عدم

۱- ۱) .النساء ۱۰۵-۱۲۶:کلام فی معنی العصمه.

الخير فيما ليس بخير منه.

و محصّله أن فاعل النجوى على قسمين:(أحدهما)من يفعل ذلك ابتغاء مراضاه اللّه،و لا محاله ينطبق على ما يدعو الى معروف أو إصلاح بين الناس تقرّبا الى اللّه،و سوف يثيبه اللّه سبحانه بعظيم الأجر،و(ثانيهما)أن يفعل ذلك لمشاقّه الرسول و اتخاذ طريق غير طريق المؤمنين و سبيلهم،و جزاؤه الإملاء و الاستدراج الإلهى ثم إصلاء جهنم و ساءت مصيرا.

قوله تعالى: وَ مَنْ يُشٰاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدىٰ وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ،المشاقّه من الشق و هو القطعه المبانه من الشىء فالمشاقّه و الشقاق كونك فى شق غير شق صاحبك،و هو كنايه عن المخالفه،فالمراد بمشاقه الرسول بعد تبين الهدى مخالفته و عدم إطاعته،و على هذا فقوله «وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ» بيان آخر لمشاقّه الرسول،و المراد بسبيل المؤمنين إطاعه الرسول فإن طاعته طاعه اللّه،قال تعالى: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ (النساء/٨٠).

فسبيل المؤمنين بما هم مجتمعون على الايمان هو الاجتماع على طاعه اللّه و رسوله-و إن شئت فقل على طاعه رسوله-فإن ذلك هو الحافظ لوحده سبيلهم كما قال تعالى: وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ آيٰاتُ اللّٰهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللّٰهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ وَ لاٰ تَمُوتُنَّ إِلاّٰ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِيعاً وَ لاٰ تَفَرَّقُوا (آل عمران/١٠٣)و قد تقدّم الكلام فى الآيه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب،و قال تعالى: وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصّٰاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (الأنعام/١٥٣)و اذا كان سبيله سبيل التقوى، و المؤمنون هم المدعوّون إليه فسبيلهم مجتمعين سبيل التعاون على التقوى كما قال تعالى:

وَ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوىٰ وَ لاٰ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ (المائده/٢)و الآيه-كما ترى-تنهى عن معصيه اللّه و شق عصا الاجتماع الاسلامى،و هو ما ذكرناه من معنى سبيل

المؤمنين.

فمعنى الآیه أعنى قوله «وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ» ،يعود الى معنى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَهِ الرَّسُولِ وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوى الآیه(المجادله۹/).

و قوله «نُوَلِّهِ ما تَوَلّى» ،أى نجره على ما جرى عليه،و نساعده على ما تلبس به من اتباع غير سبيل المؤمنين كما قال تعالى: كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (الإسراء۲۰/).

و قوله «وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً» عطفه بالواو يدل على أن الجميع أى توليته ما تولى و إصلاءه جهنم أمر واحد إلهى بعض أجزائه دنيوى و هو توليته ما تولى،و بعضها أخروى و هو إصلاؤه جهنم و ساءت مصيرا.

قوله تعالى: إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ (الى آخر الآيه)؛ظاهر الآيه أنها فى مقام التعليل لقوله فى الآيه السابقه «نُوَلِّهِ ما تَوَلّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ» ،بناء على اتصال الآيات فالآيه تدل على أن مشاقه الرسول شرك باللّه العظيم،و إن اللّه لا يغفر أن يشرك به،و ربما استفيد ذلك من قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ ماتُوا وَ هُمْ كُفّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ (محمد۳۴/)فإن ظاهر الآيه الثالثه أنها تعليل لما فى الآيه الثانيه من الأمر بطاعه اللّه و طاعه رسوله فيكون الخروج عن طاعه اللّه و طاعه رسوله كفرا لا يغفر أبدا،و هو الشرك.

و المقام يعطى أن إلحاق قوله «وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» بقوله «إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» إنما هو لتتميم البيان،و إفاده عظمه هذه المعصيه المشئومه أعنى مشاقه الرسول،

و قد تقدم بعض الكلام فی الآیه فی آخر الجزء الرابع من هذا الکتاب.

قوله تعالی: إِنْ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ إِنٰاثاً الاناث جمع أنثی یقال:أنث الحدید أنثا أی انفعل و لان،و أنث المکان أسرع فی الانبات و جاد،ففیه معنی الانفعال و التأثر، و بذلک سمیت الانثی من الحیوان أنثی و قد سمّیت الأصنام و کل معبود من دون اللّه إناثا لکونها قابلات منفعلات لیس فی وسعها أن تفعل شیئا مما یتوقعه عبّادها منها-کم قیل-قال تعالی:

إِنَّ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لَنْ یَخْلُقُوا ذُبٰاباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ یَسْلُبْهُمُ الذُّبٰابُ شَیْئاً لاٰ یَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّٰالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِیٌّ عَزِیزٌ (الحج/ ۷۴)و قال: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاٰ یَخْلُقُونَ شَیْئاً وَ هُمْ یُخْلَقُونَ وَ لاٰ یَمْلِکُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً وَ لاٰ یَمْلِکُونَ مَوْتاً وَ لاٰ حَیٰاةً وَ لاٰ نُشُوراً (الفرقان۳/).

فالظاهر أن المراد بالانوثه الانفعال المحض الذی هو شأن المخلوق اذا قیس الی الخالق عز اسمه،و هذا الوجه أولی مما قیل:إن المراد هو اللات و العزی و منات الثالثه و نحوها،و قد کان لکل حی صنم یسمونه أنثی بنی فلان إما لتأنیث أسمائها أو لأنها کانت جمادات و الجمادات تؤنث فی اللفظ.

و وجه الأولویه أن ذلک لا یلائم الحصر الواقع فی قوله «إِنْ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ إِنٰاثاً» کثیر ملاءمه،و بین من یدعی من دون اللّه من هو ذکر غیر أنثی کعیسی المسیح و برهما و بوذا.

قوله تعالی: وَ إِنْ یَدْعُونَ إِلاّ شَیْطٰاناً مَرِیداً المرید هو العاری من کل خیر أو مطلق العاری،قال البیضاوی:المارد و المرید الذی لا یعلق بخیر،و أصل الترکیب للملامسه، و منه صرح ممرّد،و غلام أمرد،و شجره مرداء للتی تناثر ورقها(انتهی).

و الظاهر أن الجمله بیان للجمله السابقه فإن الدعوه کنایه عن العباده لکون العباده إنما نشأت بین الناس للدعوه علی الحاجه،و قد سمّی اللّه تعالی الطاعه عباده قال تعالی: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَیْکُمْ یٰا بَنِی آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّیْطٰانَ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِی (یس/

۶۱)فيؤول معنى الجمله الى أن عبادتهم لكل معبود من دون اللّه عباده و دعوه منهم للشيطان المريد لكونها طاعه له.

قوله تعالى: لَعَنَهُ اللّهُ اللعن هو الابعاد عن الرحمه،و هو وصف ثان لشيطان و بمنزله التعليل للوصف الأول.

قوله تعالى: وَ قٰالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبٰادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً كأنه إشاره الى ما حكاه اللّه تعالى عنه من قوله: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاّٰ عِبٰادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (ص۸۳/) و فى قوله «مِنْ عِبٰادِكَ» تقرير أنهم مع ذلك عباده لا ينسلخون عن هذا الشأن،و هو ربهم يحكم فيهم بما شاء.

قوله تعالى: وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ (الى آخر الآيه)؛التبتيل هو الشق،و ينطبق على ما نقل:أن عرب الجاهليه كانت تشق آذان البحائر و السوائب لتحريم لحومها.

و هذه الامور المعدوده جميعها ضلال فذكر الاضلال معها من قبيل ذكر العام ثم ذكر بعض أفراده لعنايه خاصه به،يقول:لأضلنهم بالاشتغال بعباده غير اللّه و اقتراف المعاصى، و لأغرنهم بالاشتغال بالآمال و الأمانى التى تصرفهم عن الاشتغال بواجب شأنهم و ما يهمهم من أمرهم،و لآمرنهم بشق آذان الأنعام و تحريم ما أحل اللّه سبحانه،و لآمرنهم بتغيير خلق اللّه و ينطبق على مثل الاخصاء و أنواع المثله و اللواط و السحق.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بتغيير خلق اللّه الخروج عن حكم الفطره و ترك الدين الحنيف،قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِي فَطَرَ النّٰاسَ عَلَيْهٰا لاٰ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (الروم۳۰/).

ثم عد تعالى دعوه الشيطان و هى طاعته فيما يأمر به اتخاذا له وليا فقال «وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطٰانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرٰاناً مُبِيناً» و لم يقل:و من يكن الشيطان له وليا اشعارا بما تشعر به الآيات السابقه أن الولى هو اللّه،و لا ولايه لغيره على شىء و ان اتخذه وليا.

قوله تعالى: يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ مٰا يَعِدُهُمُ الشَّيْطٰانُ إِلاّٰ غُرُوراً ظاهر السياق أنه تعليل لقوله فى الآيه السابقه «فَقَدْ خَسِرَ خُسْرٰاناً مُبِيناً» و أى خسران أبين من خسران من يبدل السعاده الحقيقه و كمال الخلقه بالمواعيد الكاذبه و الأمانى الموهومه،قال تعالى:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمٰالُهُمْ كَسَرٰابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مٰاءً حَتّٰى إِذٰا جٰاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللّٰهَ عِنْدَهُ فَوَفّٰاهُ حِسٰابَهُ وَ اللّٰهُ سَرِيعُ الْحِسٰابِ (النور۳۹/).

أما المواعيد فهى الوساوس الشيطانيه بلا واسطه،و أما الأمانى فهى المتفرعه على وساوسه مما يستلذه الوهم من المتخيلات،و لذلك قال «وَ مٰا يَعِدُهُمُ الشَّيْطٰانُ إِلاّٰ غُرُوراً» فعد الوعد غرورا دون التمنيه على ما لا يخفى.

ثم بيّن عاقبه حالهم بقوله «أُولٰئِكَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ لاٰ يَجِدُونَ عَنْهٰا مَحِيصاً» أى معدلا و مفر من«حاص»اذا عدل.

ثم ذكر ما يقابل حالهم و هو حال المؤمنين تتميما للبيان فقال تعالى «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّٰاتٍ» (الى آخر الآيه)و فى الآيات التفات من سياق التكلم مع الغير الى الغيبه،و الوجه العام فيه الإيماء الى جلاله المقام و عظمته بوضع لفظ الجلاله موضع ضمير المتكلم مع الغير فيما يحتاج الى هذا الاشعار حتى اذا استوفى الغرض رجع الى سابق السياق الذى كان هو الاصل،و ذلك فى قوله «سَنُدْخِلُهُمْ جَنّٰاتٍ» ،و فى ذلك نكته أخرى،و هى الإيماء الى قرب الحضور و عدم احتجابه تعالى عن عباده المؤمنين و هو وليهم.

قوله تعالى: وَعْدَ اللّٰهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّٰهِ قِيلاً فيه مقابله لما ذكر فى وعد الشيطان أنه ليس إلا غرورا فكان وعد اللّه حقا،و قوله صدقا.

قوله تعالى: لَيْسَ بِأَمٰانِيِّكُمْ وَ لاٰ أَمٰانِيِّ أَهْلِ الْكِتٰابِ عود الى بدء الكلام و بمنزله النتيجه المحصله الملخصه من تفصيل الكلام،و ذلك أنه يتحصل من المحكى من أعمال بعض المؤمنين و أقوالهم،و إلحاحهم على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يراعى جانبهم،و يعاضدهم

و يساعدهم على غيرهم فيما يقع بينهم من النزاع و المشاجره أنهم يرون أن لهم بإيمانهم كرامه على اللّه سبحانه و حقا على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يجب به على اللّه و رسوله مراعاه جانبهم،و تغليب جهتهم على غيرهم على الحق كانوا أو على الباطل،عدلا كان الحكم أو ظلما على حد ما يراه أتباع أئمه الضلال،و حواشى رؤساء الجور و بطائنهم و أذنابهم،فالواحد منهم يمتن على متبوعه و رئيسه فى عين أنه يخضع له و يطيعه،و يرى أن له عليه كرامه تلتزمه على مراعاه جانبه و تقديمه على غيره تحكما.

و كذا كان يراه أهل الكتاب على ما حكاه اللّه تعالى فى كتابه عنهم قال تعالى: وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصٰارىٰ نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ (المائده/١٨)،و قال تعالى: وَ قٰالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصٰارىٰ تَهْتَدُوا (البقره/١٣٥)،و قال تعالى: قٰالُوا لَيْسَ عَلَيْنٰا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ (آل عمران/٧٥).

فرد اللّه على هذه الطائفه من المؤمنين فى مزعمتهم،و أتبعهم بأهل الكتاب و سمّى هذه المزاعم بالأمانى استعاره لأنها كالأمانى ليست إلا صورا خياليه ملذه لا أثر لها فى الأعيان فقال:ليس بأمانيكم معاشر المسلمين أو معشر طائفه من المسلمين و لا بأمانى أهل الكتاب بل الأمر يدور مدار العمل إن خيرا فخير و إن شرا فشر،و قدّم ذكر السيئه على الحسنه لان عمده خطئهم كانت فيها.

قوله تعالى: مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لاٰ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً جىء فى الكلام بالفصل من غير وصل لانه فى موضع الجواب عن سؤال مقدر، تقديره:اذا لم يكن الدخول فى حمى الاسلام و الايمان يجر للانسان كل خير،و يحفظ منافعه فى الحياه،و كذا اليهوديه و النصرانيه فما هو السبيل؟و الى ما ذا ينجر حال الانسان؟فقيل «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لاٰ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّٰالِحٰاتِ» الخ.

و قوله «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ» مطلق يشمل الجزاء الدنيوى الذى تقرره الشريعه الاسلاميه كالقصاص للجانى،و القطع للسارق،و الجلد أو الرجم للزانى الى غير ذلك من أحكام السياسات و غيرها و يشمل الجزاء الاخروى الذى أوعده اللّه تعالى فى كتابه،و بلسان نبيه.

و هذا التعميم هو المناسب لمورد الآيات الكريمه و المنطبق عليه،و قد ورد فى سبب النزول أن الآيات نزلت فى سرقه ارتكبها بعض،و رمى بها يهوديا أو مسلما ثم ألحوا على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقضى على المتهم.

و قوله «وَ لاٰ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً» يشمل الولى و النصير فى صرف الجزاء السيئ عنه فى الدنيا كالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو ولى الأمر و كالتقرب منهما و كرامه الاسلام و الدين، فالجزاء المشرّع من عند اللّه لا يصرفه عن عامل السوء صارف،و يشمل الولى و النصير الصارف عنه سوء الجزاء فى الآخره إلا ما تشمله الآيه التاليه.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّٰالِحٰاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لاٰ يُظْلَمُونَ نَقِيراً هذا هو الشق الثانى المتضمن لجزاء عامل العمل الصالح و هو الجنه،غير أن اللّه سبحانه شرط فيه شرطا يوجب تضييقا فى فعليه الجزاء و عمم فيه من جهه أخرى توجب السعه.

فشرط فى المجازاه بالجنه أن يكون الآتى بالعمل الصالح مؤمنا اذ الجزاء الحسن إنما هو بإزاء العمل الصالح و لا عمل للكافر،قال تعالى: وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام/۸۸)،و قال تعالى: أُولٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقٰائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فَلاٰ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ وَزْناً (الكهف/۱۰۵).

قال تعالى: «وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّٰالِحٰاتِ» فأتى بمن التبعيضيه،و هو توسعه فى الوعد بالجنه،و لو قيل:و من يعمل الصالحات-و المقام مقام الدقه فى الجزاء-أفاد أن الجنه لمن آمن

و عمل کل عمل صالح،لکن الفضل الإلهی عمّم الجزاء الحسن لمن آمن و أتی ببعض الصالحات فهو یتدارکه فیما بقی من الصالحات أو اقترف من المعاصی بتوبه أو شفاعه کما قال تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِکَ لِمَنْ یَشٰاءُ (النساء۱۱۶/)و قد تقدم تفصیل الکلام فی التوبه و فی قوله تعالی: إِنَّمَا التَّوْبَهُ عَلَی اللّٰهِ (النساء۱۷/)فی الجزء الرابع،و فی الشفاعه فی قوله تعالی: وَ اتَّقُوا یَوْماً لاٰ تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَیْئاً (البقره۴۸/)فی الجزء الأول من هذا الکتاب.

و قال تعالی «مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ» فعمّم الحکم للذکر و الانثی من غیر فرق أصلا خلافا لما کانت تزعمه القدماء من أهل الملل و النحل کالهند و مصر و سائر الوثنیّین أن النساء لا عمل لهن و لا ثواب لحسناتهن،و ما کان یظهر من الیهودیه و النصرانیه أن الکرامه و العزه للرجال، و أن النساء أذلّاء عند اللّه نواقص فی الخلقه خاسرات فی الأجر و المثوبه،و العرب لا تعدو فیهن هذه العقائد فسوّی اللّه تعالی بین القبیلین بقوله «مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ» .

و لعل هذا هو السر فی تعقیب قوله «فَأُولٰئِکَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّهَ» بقوله «وَ لاٰ یُظْلَمُونَ نَقِیراً» لتدل الجمله الأولی علی أن النساء ذوات نصیب فی المثوبه کالرجال،و الجمله الثانیه علی أن لا فرق بینهما فیها من حیث الزیاده و النقیصه کما قال تعالی: فَاسْتَجٰابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّی لاٰ أُضِیعُ عَمَلَ عٰامِلٍ مِنْکُمْ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ بَعْضُکُمْ مِنْ بَعْضٍ (آل عمران۱۹۵/).

قوله تعالی: وَ مَنْ أَحْسَنُ دِیناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ (الی آخر الآیه)کأنه دفع لدخل مقدّر،تقدیره:أنه اذا لم یکن لإسلام المسلم أو لإیمان أهل الکتاب تأثیر فی جلب الخیر إلیه و حفظ منافعه و بالجمله اذا کان الإیمان باللّه و آیاته لا یعدل شیئا و یستوی وجوده و عدمه فما هو کرامه الاسلام؟و ما هی مزیّه الإیمان؟

فأجیب بأن کرامه الدین أمر لا یشوبه ریب،و لا یداخله شک و لا یخفی حسنه علی ذی لبّ و هو قوله «وَ مَنْ أَحْسَنُ دِیناً» ،حیث قرر بالاستفهام علی طریق إرسال المسلّم فإن

بيان:

قوله تعالى: وَ يَسْتَفْتُونَکَ فِی النِّسٰاءِ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيکُمْ فِيهِنَّ قال الراغب:

الفتيا و الفتوى الجواب عمّا يشکل من الأحکام،و يقال:استفتيته فأفتانی بکذا(انتهى).

و المحصّل من موارد استعماله أنه جواب الانسان عن الامور المشکله بما يراه باجتهاد من نظره أو هو نفس ما يراه فيما يشکل بحسب النظر البدائیّ الساذج کما يفيده نسبه الفتوى إليه تعالى.

و الآيه و ان احتملت معانی شتى مختلفه بالنظر الى ما ذکروه من مختلف الوجوه فی ترکيب ما يتولها من قوله «وَ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْکُمْ فِی الْکِتٰابِ فِی يَتٰامَى النِّسٰاءِ» الخ؛الا أن ضم الآيه الى الآيات الناظره فی أمر النساء فی أول السوره يشهد بأن هذه الآيه انما انزلت بعد تلک.

و لازم ذلک أن يکون استفتاؤهم فی النساء فی عامّه ما أحدثه الاسلام و أبدعه من أحکامهنّ مما لم يکن معهودا معروفا عندهم فی الجاهليه،و ليس الا ما يتعلق بحقوق النساء فی الارث و الازدواج دون أحکام يتاماهن و غير ذلک مما يختص بطائفه منهن دون جميعهن فان هذا المعنى انما يتکفّله قوله «وَ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْکُمْ فِی الْکِتٰابِ فِی يَتٰامَى النِّسٰاءِ» الخ؛فالاستفتاء إنما کان فی ما يعم النساء بما هن نساء من أحکام الارث.

و على هذا فالمراد بما أفتاه اللّه فيهن فی قوله «قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيکُمْ فِيهِنَّ» ما بيّنه تعالى فی آيات أول السوره،و يفيد الکلام حينئذ ارجاع أمر الفتوى الى اللّه سبحانه و صرفه عن النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و المعنى:يسألونک ان تفتيهم فی امرهن قل:الفتوى الى اللّه و قد أفتاکم فيهن بما افتى فيما انزل من آيات اول السوره.

قوله تعالى: وَ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْکُمْ فِی الْکِتٰابِ فِی يَتٰامَى النِّسٰاءِ -الى قوله- وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدٰانِ تقدّم أن ظاهر السياق أن حکم يتامى النساء

ص: ۷۷۲

و المستضعفين من الولدان إنما تعرض له لاتّصاله بحكم النساء كما وقع فى آيات صدر السوره لا لكونه داخلا فيما استفتوا عنهن،و أنهم إنما استفتوا فى النساء فحسب.

و لازمه أن يكون قوله «وَ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ» ،معطوفا على الضمير المجرور فى قوله «فِيهِنَّ» على ما جوّزه الفراء و إن منع عنه جمهور النحاه،و على هذا يكون المرات من قوله «مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتٰابِ فِي يَتٰامَى النِّسٰاءِ» الخ؛الاحكام و المعانى التى تتضمّنها الآيات النازله فى يتامى النساء و الولدان،المودعه فى أول السوره.و التلاوه كما يطلق على اللفظ يطلق على المعنى اذا كان تحت اللفظ،و المعنى:قل اللّه يفتيكم فى الأحكام التى تتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء.

و أما قوله: اَللاّٰتِي لاٰ تُؤْتُونَهُنَّ مٰا كُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ فوصف ليتامى النساء،و فيه إشاره الى نوع حرمانهنّ،الذى هو السبب لتشريع ما شرّع اللّه تعالى لهن من الأحكام فألغى السنّه الجائره الجاريه عليهن،و رفع الحرج بذلك عنهن،و ذلك انهم كانوا يأخذون إليهم يتامى النساء و أموالهن فإن كانت ذات جمال و حسن تزوجوا بها فاستمتعوا من جمالها و مالها،و إن كانت شوهاء دميمه لم يتزوجوا بها و عضلوها عن التزوّج بالغير طمعا فى مالها.

و من هنا يظهر(أولا):أن المراد بقوله «مٰا كُتِبَ لَهُنَّ» هو الكتابه التكوينيّه و هو التقدير الإلهى فإن الصنع و الإيجاد هو الذى يخدّ للإنسان سبيل الحياه فيعين له أن يتزوج اذا بلغ مبلغه،و أن يتصرّف حرا فى ماله من المال و القنيه،فمنعه من الازدواج و التصرف فى مال نفسه منع له مما كتب اللّه له فى خلقه هذه الخلقه.

و(ثانيا):أن الجارّ المحذوف فى قوله «أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ» هو لفظه«عن»و المراد الرغبه عن نكاحهن،و الإعراض عنهن لا الرغبه فى نكاحهن فإن التعرّض لذكر الرغبه عنهن هو الأنسب للإشاره الى حرمانهن على ما يدل عليه قوله قبله «لاٰ تُؤْتُونَهُنَّ مٰا كُتِبَ لَهُنَّ» ،و قوله

بعده «وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ» .

و أما قوله: وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ فمعطوف على قوله «يَتامَى النِّساءِ» و قد كانوا يستضعفون الولدان من اليتامى،و يحرمونهم من الإرث معتذرين بأنهم لا يركبون الخيل،و لا يدفعون عن الحريم.

قوله تعالى: وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ معطوف على محل قوله «فِيهِنَّ» و المعنى:قل اللّه يفتيكم أن تقوموا لليتامى بالقسط،و هذا بمنزله الإضراب عن الحكم الخاص الى ما هو أعم منه أعنى الانتقال من حكم بعض يتامى النساء و الولدان الى حكم مطلق اليتيم فى ماله و غير ماله.

قوله تعالى: وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كانَ بِهِ عَلِيماً تذكره لهم بأن ما عزم اللّه عليهم فى النساء و فى اليتامى من الأحكام فيه خيرهم،و أن اللّه عليم به لتكون ترغيبا لهم فى العمل به لأن خيرهم فيه،و تحذيرا عن مخالفه لأن اللّه عليم بما يعملون.

قوله تعالى: وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً ،حكم خارج عما استفتوا فيه لكنه متّصل به بالمناسبه نظير الحكم المذكور فى الآيه التاليه «وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا» .

و إنما اعتبر خوف النشوز و الإعراض دون نفس تحققهما لأن الصلح يتحقق موضوعه من حين تحقق العلائم و الآثار المعقبه للخوف،و السياق يدل على أن المراد بالصلح هو الصلح بغض المرأه عن بعض حقوقها فى الزوجيه أو جميعها لجلب الانس و الألفه و الموافقه،و التحفظ عن وقوع المفارقه،و الصلح خير.

و قوله: وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ الشح هو البخل،معناه:أن الشح من الغرائز النفسانيه التى جبلها اللّه عليها لتحفظ به منافعها،و تصونها عن الضيعه،فما لكل نفس من الشح هو حاضر عندها،فالمرأه تبخل بمالها من الحقوق فى الزوجيه كالكسوه و النفقه

و الفراش و الوقـاع،و الرجـل يبخـل بـالموافقه و الميـل اذا احب المفارقه،و كره المعاشـره،و لا جناح عليهما حينئـذ ان يصـلحا ما بينهما بإغماض احدهما أو كليهما عن بعض حقوقه.

ثم قـال تعالى «وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً» و هو موعظه للرجال ان لا يتعـدوا طريق الاحسان و التقوى و ليتذكروا ان اللّه خبير بما يعملونه،و لا يحيفوا فى المعاشره،و لا يكرهوهنّ على الغاء حقوقهن الحقه و ان كان لهن ذلك.

قوله تعالى: وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ بيان الحكم العدل بين النساء الذى شـرّع لهن على الرجال فى قوله تعـالى فى اول السوره: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ تَعْدِلُوا فواحـده(النساء/۳)و كـذا يـومى اليه قـوله فى الآـيه السـابقه «وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا» الـخ؛فـإنه لاـ يخلـو من شـوب تهديـد،و هـو يوجب الحيره فى تشـخيص حقيقه العـدل بينهن،و العـدل هو الوسـط بين الاـفراط و التفريط،و من الصـعب المستصعب تشخيصه، و خاصه من حيث تعلق القلوب تعلق الحب بهن فإن الحب القلبى مما لا يتطرق اليه الاختيار دائما.

فبيّن تعالى أن العدل بين النساء بحقيقه معناه،و هو اتخاذ حاق الوسط حقيقه مما لا يسـتطاع للإنسان و لو حرص عليه،و انما الذى يجب على الرجل ان لا يميل كل الميل الى احـد الطرفين و خاصه طرف التفريط فيذر المرأه كالمعلّقه لا هى ذات زوج فتسـتفيد من زوجها، و لا هى أرمله فتتزوج أو تذهب لشأنها.

فـالواجب على الرجـل من العـدل بين النسـاء أن يسوى بينهن عملا بإيتائهن حقوقهن من غير تطرف،و المنـدوب عليه أن يحسـن إليهن و لا يظهر الكراهه لمعاشرتهن و لا يسىء إليهن خلقا،و كذا كانت سيره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و هـذا الـذيل أعنى قوله «فَلاٰ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهٰا كَالْمُعَلَّقَهِ» هو الدليل على ان ليس المراد بقوله «وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ» نفى مطلق العدل حتى ينتج

بانضمامه الى قوله تعالى «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تَعْدِلُوا فَوٰاحِدَةً» (الآيه)إلغاء تعدد الأزواج فى الاسلام كما قيل.

و ذلك أن الـذيل يـدل على أن المنفى هو العدل الحقيقى الواقعى من غير تطرّف أصـلا بلزوم حاق الوسط حقيقه،و أن المشـرّع هو العدل التقريبى عملا من غير تحرج.

على أن السنّه النبويه و رواج الأمر بمرأى و مسمع من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و السيره المتصله بين المسلمين يدفع هذا التوهم.

على أن صـرف قوله تعالى فى أول آيه تعـدد الأزواج: فَانْكِحُوا مٰا طٰابَ لَكُمْ مِنَ النِّسٰاءِ مَثْنىٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ (النساء/۳)الى مجرد الفرض العقلى الخالى عن المصداق ليس إلا تعميه يجل عنها كلامه سبحانه.

ثم قـوله: وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً تأكيـد و ترغيب للرجـال فى الإصـلاح عنـد بروز امـارات الكراهه و الخلاف ببيان أنه من التقوى،و التقوى يستتبع المغفره و الرحمه،و هـذا بعـد قوله «وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ» ،و قوله «وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا» ،تأكيد على تأكيد.

قوله تعـالى: وَ إِنْ يَتَفَرَّقٰا يُغْنِ اللّٰهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ ،أى و إن تفرق الرجل و المرأه بطلاق يغن اللّه كلا منهما بسعته،و الإغناء بقرينه المقـام إغنـاء فى جميع مـا يتعلق بالازدواج من الايتلاف و الاستينـاس و المس و كسوه الزوجه و نفقتهـا فإن اللّه لم يخلق أحد هذين الزوجين للآخر حتى لو تفرقا لم يوجد للواحد منهما زوج مدى حياته بل هذه السنّه سنّه فطريه فاشيه بين أفراد هذا النوع يميل إليها كل فرد بحسب فطرته.

و قوله: وَ كٰانَ اللّٰهُ وٰاسِعاً حَكِيماً وَ لِلّٰهِ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى الْأَرْضِ تعليل للحكم المذكور فى قوله «يُغْنِ اللّٰهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ» .

قوله تعالى: وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ إِيّٰاكُمْ أَنِ اتَّقُوا

اللّهَ ،تأكيد فى دعوتهم الى مراعاه صفه التقوى فى جميع مراحل المعاشره الزوجيه،و فى كل حال،و أن فى تركه كفرا بنعمه اللّه بناء على أن التقوى الذى يحصل بطاعه اللّه ليس إلا شكرا لأنعمه،أو أن ترك تقوى اللّه تعالى لا منشأ له إلا الكفر إما كفر ظاهر كما فى الكفار و المشركين، أو كفر مستكن مستبطن كما فى الفساق من المؤمنين.

و بهذا الذى بيناه يظهر معنى قوله «وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ» ، أى إن لم تحفظوا ما وصينا به إياكم و الذين من قبلكم و أضعتم هذه الوصيه و لم تتقوا و هو كفر باللّه،أو عن كفر باللّه فإن ذلك لا يضر اللّه سبحانه اذ لا حاجه له إليكم و الى تقواكم،و له ما فى السماوات و الارض،و كان اللّه غنيا حميدا.

فإن قلت:ما وجه تكرار قوله «لِلّٰهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ» ؟فقد أورد ثلاث مرات.

قلت:أما الأول فإنه تعليل لقوله «وَ كٰانَ اللّٰهُ وٰاسِعاً حَكِيماً» ،و أما الثانى فإنه واقع موقع جواب الشرط فى قوله «وَ إِنْ تَكْفُرُوا» ،و التقدير:و إن تكفروا فإنه غنى عنكم،و تعليل للجواب و قد ظهر فى قوله «وَ كٰانَ اللّٰهُ غَنِيًّا حَمِيداً» .

و أما الثالث فإنه استيناف و تعليل بوجه لقوله «إِنْ يَشَأْ» .

قوله تعالى: وَ لِلّٰهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً قد مر بيان معنى ملكه تعالى مكررا،و هو تعالى وكيل يقوم بامور عباده و شئونهم و كفى به وكيلا لا يحتاج فيه الى اعتضاد و اسعاد،فلو لم يرتض أعمال قوم و أسخطه جريان الأمر بأيديهم أمكنه أن يذهب بهم و يأتى بآخرين،أو يؤخرهم و يقدم آخرين،و بهذا المعنى الذى يؤيده بل يدل عليه السياق يرتبط بما فى هذه الآيه قوله فى الآيه التاليه «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النّٰاسُ» .

قوله تعالى: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النّٰاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ ،السياق و هو

الدعوه الی ملازمه التقوی الذی أوصی اللّه به هذه الامه و من قبلهم من أهل الکتاب یدل علی أن اظهار الاستغناء و عدم الحاجه المدلول علیه بقوله «إِنْ یَشَأْ» ،إنما هو فی أمر التقوی.

و المعنی أن اللّه وصاکم جمیعا بملازمه التقوی فاتقوه،و ان کفرتم فإنه غنی عنکم،و هو المالک لکل شیء المتصرف فیه کیفما شاء و لما شاء ان یشأ أن یعبد و یتقی و لم تقوموا بذلک حق القیام فهو قادر أن یؤخرکم و یقدم آخرین یقومون لما یحبه و یرتضیه،و کان اللّه علی ذلک قدیرا.

و علی هذا فالآیه ناظره الی تبدیل الناس ان کانوا غیر متقین بآخرین من الناس یتقون اللّه،و قد روی (۱)أن الآیه لما نزلت ضرب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یده علی ظهر سلمان و قال:انهم قوم هذا.و هو یؤید هذا المعنی،و علیک بالتدبر فیه.

قوله تعالی: مَنْ کٰانَ یُرِیدُ ثَوٰابَ الدُّنْیٰا فَعِنْدَ اللّٰهِ ثَوٰابُ الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ وَ کٰانَ اللّٰهُ سَمِیعاً بَصِیراً بیان آخر یوضح خطأ من یترک تقوی اللّه و یضیع وصیته بأنه ان فعل ذلک ابتغاء ثواب الدنیا و مغنمها فقد اشتبه علیه الأمر فإن ثواب الدنیا و الآخره معا عند اللّه و بیده،فماله یقصر نظره باخس الأمرین و لا یطلب اشرفهما أو ایاهما جمیعا؟کذا قیل.

و الأظهر أن یکون المراد-و اللّه أعلم-أن ثواب الدنیا و الآخره و سعادتهما معا إنما هو عند اللّه سبحانه فلیتقرب إلیه حتی من أراد ثواب الدنیا و سعادتها فإن السعاده لا توجد للإنسان فی غیر تقوی اللّه الحاصل بدینه الذی شرعه له فلیس الدین إلا طریق السعاده الحقیقیه،فکیف ینال نائل ثوابا من غیر إیتائه تعالی و إفاضته من عنده و کان اللّه سمیعا بصیرا (۲).

۱- ۱) .أوردها البیضاوی فی تفسیره.

۲- ۲) .النساء ۱۲۷-۱۳۴:بحث روائی فی:تقالید الجاهلیه حول حرمان النساء و الاطفال من الارث؛نشوز الرجال؛ مراعاه العداله بین النساء.

[سوره النساء (۴): آیه ۱۳۵]

اشاره

يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّٰامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدٰاءَ لِلّٰهِ وَ لَوْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ اَلْوٰالِدَيْنِ وَ اَلْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللّٰهُ أَوْلىٰ بِهِمٰا فَلاٰ تَتَّبِعُوا اَلْهَوىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۳۵)

بیان:

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّٰامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدٰاءَ لِلّٰهِ القسط هو العدل،و القيام بالقسط العمل به و التحفظ له،فالمراد بالقوّامين بالقسط القائمون به أتم قيام و أكمله،من غير انعطاف و عدول عنه الى خلافه لعامل من هوى و عاطفه أو خوف أو طمع أو غير ذلك.

و هذه الصفه اقرب العوامل و أتم الأسباب لاتباع الحق و حفظه عن الضيعه،و من فروعها ملازمه الصدق فى أداء الشهاده و القيام بها.

و من هنا يظهر ان الابتداء بهذه الصفه فى هذه الآيه المسوقه لبيان حكم الشهاده ثم ذكر صفه الشهاده من قبيل التدرّج من الوصف العام الى بعض ما هو متفرع عليه كأنه قيل:كونوا شهداء للّه،و لا يتيسر لكم ذلك إلا بعد أن تكونوا قوّامين بالقسط فكونوا قوامين بالقسط حتى تكونوا شهداء للّه.

و قوله: شُهَدٰاءَ لِلّٰهِ اللام فيه للغايه أى كونوا شهداء تكون شهادتكم للّه كما قال تعالى: وَ أَقِيمُوا الشَّهٰادَةَ لِلّٰهِ (الطلاق/۲)و معنى كون الشهاده للّه كونها اتباعا للحق و لأجل إظهاره و إحيائه كما يوضحه قوله «فَلاٰ تَتَّبِعُوا الْهَوىٰ أَنْ تَعْدِلُوا» .

ص: ۷۷۹

قوله تعالی: وَ لَوْ عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ أَوِ الْوٰالِدَیْنِ وَ الْأَقْرَبِینَ أی و لو کانت علی خلاف نفع أنفسکم أو والدیکم أو أقربائکم فلا یحملنّکم حب منافع أنفسکم أو حب الوالدین و الأقربین أن تحرفوها أو تترکوها،فالمراد بکون الشهاده علی النفس أو علی الوالدین و الأقربین أن یکون ما تحمّله من الشهاده لو أدّی مضرّا بحاله أو بحال والدیه و أقربیه سواء کان المتضرر هو المشهود علیه بلا واسطه کما اذا تخاصم أبوه و إنسان آخر فشهد له علی أبیه،أو یکون التضرر مع الواسطه کما اذا تخاصم اثنان و کان الشاهد متحمّلا لاحدهما ما لو أدّاه لتضرّر به نفس الشاهد أیضا-کالمتخاصم الآخر-.

قوله تعالی: إِنْ یَکُنْ غَنِیًّا أَوْ فَقِیراً فَاللّٰهُ أَوْلیٰ بِهِمٰا إرجاع ضمیر التثنیه الی الغنی و الفقیر مع وجود «أَوِ» التردیدیه لکون المراد بالغنی و الفقیر هو المفروض المجهول الذی یتکرر بحسب وقوع الوقائع و تکررها فیکون غنیّا فی واقعه،و فقیرا فی اخری،فالتردید بحسب فرض البیان و ما فی الخارج تعدد،کذا ذکره بعضهم،فالمعنی أن اللّه أولی بالغنی فی غناه،و بالفقیر فی فقره:و المراد-و اللّه أعلم-:لا یحملنکم غنی الغنیّ أن تمیلوا عن الحق إلیه، و لا فقر الفقیر أن تراعوا حاله بالعدول عن الحق بل أقیموا الشهاده للّه سبحانه ثم خلوا بینه و بین الغنی و الفقیر فهو أولی بهما و أرحم بحالهما،و من رحمته أن جعل الحق هو المتبع واجب الاتباع،و القسط هو المندوب الی إقامته،و فی قیام القسط و ظهور الحق سعاده النوع التی یقوم بها صلب الغنی،و یصلح بها حال الفقیر.

و الواحد منهما و إن انتفع بشهاده محرّفه أو متروکه فی شخص واقعه أو وقائع لکن ذلک لا یلبث دون أن یضعف الحق و یمیت العدل،و فی ذلک قوه الباطل و حیاه الجور و الظلم،و فی ذلک الداء العضال و هلاک الإنسانیه.

قوله تعالی: فَلاٰ تَتَّبِعُوا الْهَویٰ أَنْ تَعْدِلُوا ،أی مخافه أن تعدلوا عن الحقّ و القسط باتباع الهوی و ترک الشهاده للّه فقوله «أَنْ تَعْدِلُوا» مفعول لاجله و یمکن أن یکون مجرورا

بتقدير اللام متعلقا بالاتباع أى لأن تعدلوا.

قوله تعالى: وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً اللى بالشهاده كنايه عن تحريفها من لىّ اللسان.و الإعراض ترك الشهاده من رأس.

و قرئ «و إن تلوا» بضم اللام و إسكان الواو من ولى يلى ولايه،و المعنى:و إن وليتم أمر الشهاده و أتيتم بها أو أعرضتم فإن اللّٰه خبير بأعمالكم يجازيكم بها.

[سوره النساء (۴): الآيات ۱۳۶ الى ۱۴۷]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ اَلْكِتٰابِ اَلَّذِى نَزَّلَ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ اَلْكِتٰابِ اَلَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً بَعِيداً (۱۳۶) إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ اِزْدٰادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اَللّٰهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لاٰ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (۱۳۷) بَشِّرِ اَلْمُنٰافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً (۱۳۸) اَلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ اَلْكٰافِرِينَ أَوْلِيٰاءَ مِنْ دُونِ اَلْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ اَلْعِزَّهَ فَإِنَّ اَلْعِزَّهَ لِلّٰهِ جَمِيعاً (۱۳۹) وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى اَلْكِتٰابِ أَنْ إِذٰا سَمِعْتُمْ آيٰاتِ اَللّٰهِ يُكْفَرُ بِهٰا وَ يُسْتَهْزَأُ بِهٰا فَلاٰ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتّٰى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اَللّٰهَ جٰامِعُ اَلْمُنٰافِقِينَ وَ اَلْكٰافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعاً (۱۴۰) اَلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كٰانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اَللّٰهِ قٰالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَ إِنْ كٰانَ لِلْكٰافِرِينَ نَصِيبٌ قٰالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ فَاللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ وَ لَنْ يَجْعَلَ اَللّٰهُ لِلْكٰافِرِينَ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (۱۴۱) إِنَّ اَلْمُنٰافِقِينَ يُخٰادِعُونَ اَللّٰهَ وَ هُوَ خٰادِعُهُمْ وَ إِذٰا قٰامُوا إِلَى اَلصَّلاٰهِ قٰامُوا كُسٰالىٰ يُرٰاؤُنَ اَلنّٰاسَ وَ لاٰ يَذْكُرُونَ اَللّٰهَ إِلاّٰ قَلِيلاً (۱۴۲) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذٰلِكَ لاٰ إِلىٰ هٰؤُلاٰءِ وَ لاٰ إِلىٰ هٰؤُلاٰءِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (۱۴۳) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا اَلْكٰافِرِينَ أَوْلِيٰاءَ مِنْ دُونِ اَلْمُؤْمِنِينَ أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰاناً مُبِيناً (۱۴۴) إِنَّ اَلْمُنٰافِقِينَ فِى اَلدَّرْكِ اَلْأَسْفَلِ مِنَ اَلنّٰارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (۱۴۵) إِلاَّ اَلَّذِينَ تٰابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اِعْتَصَمُوا بِاللّٰهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلّٰهِ فَأُولٰئِكَ مَعَ اَلْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِ اَللّٰهُ اَلْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (۱۴۶) مٰا يَفْعَلُ اَللّٰهُ بِعَذٰابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ كٰانَ اَللّٰهُ شٰاكِراً عَلِيماً (۱۴۷)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ أمر المؤمنين بالايمان ثانيا بقرينه التفصيل فى متعلق الايمان الثانى اعنى قوله «بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتَابِ» الخ؛و ايضا بقرينه الإيعاد و التهديد على ترك الايمان بكل واحد من هذا التفاصيل إنما هو امر ببسط المؤمنين إجمال إيمانهم على تفاصيل هذه الحقائق فإنها معارف مرتبطه بعضها ببعض،مستلزمه بعضها لبعث،فاللّه سبحانه لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى و الصفات العليا،و هى الموجبه لأن يخلق خلقا و يهديهم الى ما يرشدهم و يسعدهم ثم يبعثهم ليوم الجزاء،و لا يتم ذلك الا بإرسال رسل مبشرين و منذرين،و إنزال كتب تحكم بينهم فيما اختلفوا فيه،و تبين لهم معارف المبدإ و المعاد،و اصول الشرائع و الأحكام.

فالإيمان بواحد من حقائق هذه المعارف لا يتم الا مع الإيمان بجميعها من غير استثناء، و الرد لبعضها مع الأخذ ببعض آخر كفر لو اظهر،و نفاق لو كتم و اخفى،و من النفاق ان يتخذ المؤمن مسيرا ينتهى به الى رد بعض ذلك،كأن يفارق مجتمع المؤمنين و يتقرب الى مجتمع الكفار و يواليهم،و يصدقهم فى بعض ما يرمون به الإيمان و أهله،أو يعترضوا أو يستهزءون به الحق و خاصته،و لذلك عقب تعالى هذه الآيه بالتعرض لحال المنافقين و وعيدهم بالعذاب الأليم.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً لما كان الشطر الأول من الآيه اعنى قوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا -الى قوله- مِنْ قَبْلُ» دعوه الى الجمع بين جميع ما ذكر فيه بدعوى ان اجزاء هذا المجموع مرتبطه غير مفارق بعضها بعضا كان هذا التفضيل ثانيا فى معنى الترديد و المعنى:و من يكفر باللّه أو

ملائکته أو کتبه أو رسله أو الیوم الآخر ای من یکفر بشیء من اجزاء الایمان فقد ضل ضلالا بعیدا.

و لیس المراد بـالعطف بـالواو الجمع فی الحکم لیتم الجمیع موضوعا واحـدا له حکم واحـد بمعنی ان الکفر بالمجموع من حیث انه مجموع ضلال بعید دون الکفر بالبعض دون البعض.علی ان الآیات القرآنیّه ناطقه بکفر من کفر بکل واحد مما ذکر فی الآیه علی وجه التفصیل.

قـوله تعـالی: إِنَّ الَّذِیـنَ آمَنُوا ثُمَّ کَفَرُوا ثُمَّ آمَنُـوا ثُمَّ کَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا کُفْراً لَمْ یَکُنِ اللّهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَ لاـ لِیَهْـدِیَهُمْ سَبِیلاًـ الآـیه لو اخذت وحدها منقطعه عما قبلها و ما بعدها کانت داله علی ما یجازی به اللّه تعالی اهل الرده اذا تکررت منهم الرده بأن آمنوا ثم کفروا ثم آمنوا ثم کفروا ثم ازدادوا کفرا فاللّه سبحانه یوعـدهم-و حالهم هذا الحال-بأنه لا یغفر لهم،و لا یهدیهم سبیلا،و لیس من المرجو منه المتوقع من رحمته ذلـک لعـدم استقرارهم علی ایمان،و جعلهم امر اللّه ملعبه یلعبون بها،و من کان هـذا حاله لم یثبت بالطبع علی ایمان جـدی یقبل منه،و ان کانوا لو آمنوا ایمانا جدیا شـملتهم المغفره و الهدایه فإن التوبه بالایمان باللّه حقیقه مما لا یردّه اللّه فی حال علی ما وعد اللّه تعالی عباده،و قد تقدم الکلام فیه فی قوله تعالی:

إِنَّمَا التَّوْبَهُ عَلَی اللّهِ الآیه(النساء/۱۷)،فی الجزء الرابع من هذا الکتاب.

فالآـیه تحکم بحرمانهم علی ما یجری علی الطبع و العاده،و لا تأبی الاسـتثناء لو اتفق إیمان و اسـتقامه علیه من هـذه الطائفه نادرا کما یستفاد من نظیر الآیه،قال تعالی: کَیْفَ یَهْدِی اللّهُ قَوْماً کَفَرُوا بَعْدَ إِیمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ الْبَیِّناتُ وَ اللّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظّالِمِینَ -الی أن قال- إِلاَّ الَّذِینَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِکَ وَ أَصْـلَحُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بَعْدَ إِیمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا کُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولئِکَ هُمُ الضّالُّونَ (آل عمران/۹۰).

و الآیـات-کما تری-تستثنی ممن کفر بعـد ایمانه،و قوبل بنفی المغفره و الهـدایه،و هی مع ذلک تنفی قبول توبه من ازداد کفرا بعد الایمان،صدر الآیات فیمن کفر بعد الإیمان و الشهاده بحقّیّه

الرسول و ظهور الآيات البينات،فهو رده عنادا و لجاجا،و الازدياد فيه لا يكون إلا مع استقرار العناد و العتوّ فى قلوبهم،و تمكن الطغيان و الاستكبار فى نفوسهم،و لا يتحقق الرجوع و التوبه ممن هذا حاله عاده.

هذا ما يقتضيه سياق الآيه لو أخذت وحدها كما تقدم،لكن الآيات جميعا لا تخلو عن ظهور ما أو دلاله على كونها ذات سياق واحد متصلا بعضها ببعض،و على هذا التقدير يكون قوله «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا» ،فى مقام التعليل لقوله «وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ - الى قوله- فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً بَعِيداً» و يكون الآيتان ذواتى مصداق واحد أى إن من يكفر باللّه و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر هو الذى آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر ثم ازداد كفرا،و يكون أيضا هو من المنافقين الذين تعرّض تعالى لهم فى قوله بعد «بَشِّرِ الْمُنٰافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً» الى آخر الآيات.

قوله تعالى: بَشِّرِ الْمُنٰافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً اَلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الخ؛تهديد للمنافقين،و قد وصفهم بموالاه الكافرين دون المؤمنين،و هذا وصف اعمّ مصداقا من المنافقين الذين لم يؤمن قلوبهم،و انما يتظاهرون بالايمان فإن طائفه من المؤمنين لا يزالون مبتلين بموالاه الكفار،و الانقطاع عن جماعه المؤمنين،و الاتصال بهم باطنا و اتخاذ الوليجه منهم حتى فى زمن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و هذا يؤيد بعض التأييد أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين طائفه من المؤمنين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين،و يؤيده ظاهر قوله فى الآيه اللاحقه «وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتٰابِ أَنْ إِذٰا سَمِعْتُمْ -الى قوله- إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ» فإن ذلك تقرير لتهديد المنافقين،و الخطاب فيه للمؤمنين،و يؤيده ايضا ما سيصف تعالى حالهم فى نفاقهم بقوله «وَ لاٰ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ إِلاّٰ قَلِيلاً» فأثبت لهم شيئا من ذكر اللّه تعالى،و هو بعيد الانطباق على المنافقين الذين لم يؤمنوا بقلوبهم قط.

قوله تعالى: أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً استفهام انكارى ثم جواب بما يقرر الانكار فإن العزه من فروع الملك،و الملك له وحده،قال تعالى: قُلِ اللّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ (آل عمران۲۶/).

قوله تعالى: وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ -الى قوله- مِثْلُهُمْ يريد ما نزّله فى سوره الانعام: وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ (الأنعام۶۸/)فإن سوره الأنعام مكيه،و سوره النساء مدنيه.

و يستفاد من اشاره الآيه الى آيه الأنعام ان بعض الخطابات القرآنيه وجّه الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خاصه،و المراد بها ما يعم الامه.

و قوله: إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ تعليل للنهى اى بما نهيناكم لأنكم اذا قعدتم معهم-و الحال هذه-تكونون مثلهم،و قوله «إِنَّ اللّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ» .

قوله تعالى: اَلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللّهِ التربّص:

الانتظار.و الاستحواذ:الغلبه و التسلط،و هذا وصف آخر لهؤلاء المنافقين فإنهم انما حفظوا رابطه الاتصال بالفريقين جميعا:المؤمنين و الكافرين،يستدرّون الطائفتين و يستفيدون ممن حسن حاله منهما،فإن كان للمؤمنين فتح قالوا:انّا كنا معكم فليكن لنا سهم مما أوتيتموه من غنيمه و نحوها،و ان كان للكافرين نصيب قالوا:أ لم نغلبكم و نمنعكم من المؤمنين؟اى من الايمان بما آمنوا به و الاتصال بهم فلنا سهم مما أوتيتموه من النصيب أو منّه عليكم حيث جررنا إليكم النصيب.

قوله تعالى: فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ وَ لَنْ يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً الخطاب للمؤمنين و إن كان ساريا الى المنافقين و الكافرين جميعا،و أما

قوله «وَ لَنْ يَجْعَلَ اللّهُ» ،فمعناه أن الحكم يومئذ للمؤمنين على الكافرين،و لن ينعكس الأمر أبدا،و فيه إياس للمنافقين،أی لييأس هؤلاء المنافقون فالغلبه للمؤمنين على الكافرين بالأخره.

و يمكن أن يكون نفي السبيل أعم من النشأتين:الدنيا و الآخره،فإن المؤمنين غالبون بإذن اللّه دائما ما داموا ملتزمين بلوازم إيمانهم،قال تعالى: وَ لاٰ تَهِنُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران١٣٩/).

قوله تعالى: إِنَّ الْمُنٰافِقِينَ يُخٰادِعُونَ اللّهَ وَ هُوَ خٰادِعُهُمْ المخادعه هی الإكثار أو التشديد فی الخدعه بناء على أن زياده المبانی تدل على زياده المعانی.

و قوله «وَ هُوَ خٰادِعُهُمْ» فی موضع الحال أی يخادعون اللّه فی حال هو يخدعهم و يؤول المعنى الى أن هؤلاء يريدون بأعمالهم الصادره عن النفاق من إظهار الإيمان،و الاقتراب من المؤمنين، و الحضور فی محاضرهم و مشاهدهم أن يخادعوا اللّه أی النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين فيستدرّوا منهم بظاهر ايمانهم و أعمالهم من غير حقيقه،و لا يدرون أن هذا الذی خلى بينهم و بين هذه الأعمال و لم يمنعهم منها هو اللّه سبحانه،و هو خدعه منه لهم و مجازاه لهم بسوء نياتهم و خباثه أعمالهم، فخدعتهم له بعينها خدعته لهم.

قوله تعالى: وَ إِذٰا قٰامُوا إِلَى الصَّلاٰهِ قٰامُوا كُسٰالىٰ يُرٰاؤُنَ النّٰاسَ وَ لاٰ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ إِلاّٰ قَلِيلاً هذا وصف آخر من أوصافهم و هو القيام الى الصلاه-اذا قاموا إليها-كسالى يراءون الناس،و الصلاه أفضل عباده يذكر فيها اللّه،و لو كانت قلوبهم متعلقه بربهم مؤمنه به لم يأخذهم الكسل و التوانی فی التوجه إليه و ذكره،و لم يعملوا عملهم لمراءاه الناس،و لذكروا اللّه تعالى كثيرا على ما هو شأن تعلق القلب و اشتغال البال.

قوله تعالى: مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذٰلِكَ لاٰ إِلىٰ هٰؤُلاٰءِ وَ لاٰ إِلىٰ هٰؤُلاٰءِ ،قال فی المجمع:يقال:ذبذبته فذبذب ای حركته فتحرك فهو كتحريك شیء معلق(انتهى).فكون

ص: ۷۸۷

الشیء مذبذبا ان یتردد بین جانبین من غیر تعلق بشیء منهما،و هذا نعت المنافقین،یتذبذبون بین ذلک-ای الذی ذکر من الایمان و الکفر-لا الی هؤلاء ای لا الی المؤمنین فقط کالمؤمنین بالحقیقه،و لا الی الکفار فقط کالکافرین محضا.

و قوله: وَ مَنْ یُضْلِلِ اللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِیلاً فی مقام التعلیل لما سبقه من حدیث الذبذبه،فسبب ترددهم بین الجانبین من غیر تعلق بأحدهما ان اللّه اضلهم عن السبیل فلا سبیل لهم یردونه.

و لهذه العله بعینها قیل «مُذَبْذَبِینَ بَیْنَ ذٰلِکَ» و لم یقل:متذبذبین ای القهر الالهی هو الذی یجر لهم هذا النوع من التحریک الذی لا ینتهی الی غایه ثابته مطمئنه.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْکٰافِرِینَ أَوْلِیٰاءَ (الی آخر الآیتین)السلطان هو الحجه،و الدرک بفتحتین-و قد یسکن الراء-قال الراغب:الدرک کالدرج لکن الدرج یقال اعتبارا بالصعود،و الدرک اعتبارا بالحدور،و لهذا قیل:درجات الجنّه و درکات النار،و لتصور الحدور فی النار سمّیت هاویه(انتهی).

و الآیه-کما تری-تنهی المؤمنین عن الاتصال بولایه الکفار و ترک ولایه المؤمنین،ثم الآیه الثانیه تعلل ذلک بالوعید الشدید المتوجه الی المنافقین،و لیس الا ان اللّه سبحانه یعد هذا الصنیع نفاقا یحذر المؤمنین من الوقوع فیه.

و السیاق یدل علی ان قوله «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا» ،کالنتیجه المستنتجه مما تقدم أو الفرع المتفرع علیه،و هذا کالصریح فی ان الآیات السابقه انما تتعرض لحال مرضی القلوب و ضعفاء الایمان من المؤمنین و یسمیهم المنافقین،و لا أقل من شمولها لهم،ثم یعظ المؤمنین ان لا یقربوا هذا الحمی و لا یتعرضوا لسخط اللّه،و لا یجعلوا اللّه تعالی علی انفسهم حجه واضحه فیضلهم و یخدعهم و یذبذبهم فی الحیاه الدنیا،ثم یجمع بینهم و بین الکافرین فی جهنم جمیعا،ثم یسکنهم فی اسفل درک من النار،و یقطع بینهم و بین کل نصیر ینصرهم،

و شفیع یشفع لهم.

و یظهر من الآیتین اولا:الاضلال و الخدعه و کل سخط الهی من هذا القبیل إنما عن حجه واضحه تعطیها أعمال العباد،فهی إخزاء علی طریق المقابله و المجازاه،و حاشا الجناب الإلهی أن یبدأهم بالشر و الشقوه من غیر تقدّم ما یوجب ذلک من قبلهم،فقوله «أَ تُرِیدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَیْکُمْ سُلْطٰاناً مُبِیناً» ؟یجری مجری قوله: وَ مٰا یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِینَ (البقره۲۶/).

و ثانیا:أن فی النار لأهلها مراتب تختلف فی السفاله،و لا محاله یشتدّ بحسبها عذابهم یسمیها اللّه تعالی بالدرکات.

قوله تعالی: إِلاَّ الَّذِینَ تٰابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللّٰهِ وَ أَخْلَصُوا دِینَهُمْ لِلّٰهِ استثناء من الوعید الذی ذکر فی المنافقین بقوله «إِنَّ الْمُنٰافِقِینَ فِی الدَّرْکِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّٰارِ» (الآیه)؛و لازم ذلک خروجهم من جماعه المنافقین،و لحوقهم بصف المؤمنین،و لذلک ذیّل الاستثناء بذکر کونهم مع المؤمنین،و ذکر ثواب المؤمنین جمیعا فقال تعالی «فَأُولٰئِکَ مَعَ الْمُؤْمِنِینَ وَ سَوْفَ یُؤْتِ اللّٰهُ الْمُؤْمِنِینَ أَجْراً عَظِیماً» .

و قد وصف اللّه هؤلاء الذین استثناهم من المنافقین بأوصاف عدیده ثقیله،و لیست تنبت اصول النفاق و أعراقه إلا بها،فذکر التوبه و هی الرجوع الی اللّه تعالی،و لا ینفع الرجوع و التوب وحده حتی یصلحوا کل ما فسد منهم من نفس و عمل،و لا ینفع الإصلاح إلا أن یعتصموا باللّه أی یتبعوا کتابه و سنه نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اذ لا سبیل الی اللّه إلا ما عینه و ما سوی ذلک فهو سبیل الشیطان.

و لا ینفع الاعتصام المذکور إلا اذا أخلصوا دینهم-و هو الذی فیه الاعتصام-للّه،فإن الشرک ظلم لا یعفی عنه و لا یغفر،فاذا تابوا الی اللّه و أصلحوا کل فاسد منهم و اعتصموا باللّه و أخلصوا دینهم للّه کانوا عند ذلک مؤمنین لا یشوب إیمانهم شرک،فأمنوا النفاق و اهتدوا قال تعالی: اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یَلْبِسُوا إِیمٰانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِکَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ

(الأنعام۸۲/).

و يظهر من سياق الآيه أن المراد بالمؤمنين هم المؤمنون محضا المخلصون للإيمان،و قد عرّفهم اللّه تعالى بأنهم الذين تابوا و أصلحوا و اعتصموا باللّه و أخلصوا دينهم للّه،و هذه الصفات تتضمن تفاصيل جميع ما عده اللّه تعالى فى كتابه من صفاتهم و نعوتهم كقوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ اَلَّذِينَ هُمْ فِي صَلاٰتِهِمْ خٰاشِعُونَ وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ الى آخر الآيات (المؤمنون۳/)؛و قوله تعالى: وَ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ الْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰماً وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِيٰاماً الآيات(الفرقان۶۴/)؛و قوله:

فَلاٰ وَ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ حَتّٰى يُحَكِّمُوكَ فِيمٰا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاٰ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (النساء۶۵/).

فهذا هو مراد القرآن بالمؤمنين اذا أطلق اللفظ إطلاقا من غير قرينه تدل على خلافه.

و قد قال تعالى «فَأُولٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ» و لم يقل:فأولئك من المؤمنين لانهم بتحقق هذه الأوصاف فيهم أول تحقّقها يلحقون بهم،و لن يكونوا منهم حتى تستمر فيهم الأوصاف على استقرارها،فافهم ذلك.

قوله تعالى: مٰا يَفْعَلُ اللّٰهُ بِعَذٰابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ ،ظاهره أنه خطاب للمؤمنين،لأن الكلام جار على خطابهم و إنما يخاطبون بهذا الخطاب مع الغض عن إيمانهم و فرضهم كالعارى عنه على ما هو شأن مثل هذا الخطاب.

و هو كنايه عن عدم حاجته تعالى الى عذابهم،و أنهم لو لم يستوجبوا العذاب بتركهم الشكر و الإيمان لم يكن من قبله تعالى ما يوجب عذابهم،لأنه لا ينتفع بعذابهم حتى يؤثره، و لا يستضر بوجودهم حتى يدفعه عن نفسه بعذابهم،فالمعنى:لا موجب لعذابكم إن شكرتم نعمه اللّه بأداء واجب حقه و آمنتم به و كان اللّه شاكرا لمن شكره و آمن به،عليما لا يجهل مورده.

و فی الآیه دلاله علی أن العذاب الشامل لأهله إنما هو من قبلهم لا من قبله،و کذا کل ما یستوجب العذاب من ضلال أو شرک أو معصیه،و لو کان شیء من ذلک من قبله تعالی لکان العذاب الذی یستتبعه أیضا من قبله لأن المسبّب یستند الی من استند الیه السبب (۱).

[سوره النساء (۴): الآیات ۱۴۸ الی ۱۴۹]

اشاره

لا یُحِبُّ اَللّٰهُ اَلْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ اَلْقَوْلِ إِلاّٰ مَنْ ظُلِمَ وَ کٰانَ اَللّٰهُ سَمِیعاً عَلِیماً (۱۴۸) إِنْ تُبْدُوا خَیْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ عَفُوًّا قَدِیراً (۱۴۹)

بیان:

قوله تعالی: لاٰ یُحِبُّ اللّٰهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاّٰ مَنْ ظُلِمَ ،قال الراغب فی ماده «الْجَهْرَ» یقال لظهور الشیء بإفراط لحاسه البصر أو حاسّه السمع،أما البصر فنحو رأیته جهارا،قال اللّه تعالی «لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّٰی نَرَی اللّٰهَ جَهْرَهً» «أَرِنَا اللّٰهَ جَهْرَهً» -الی أن قال-و أما السمع فمنه قوله تعالی «سَوٰاءٌ مِنْکُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ» .

و السوء من القول کل کلام یسوء من قیل فیه کالدعاء علیه،و شتمه بما فیه من المساوئ و العیوب و بما لیس فیه،فکل ذلک لا یحب اللّه الجهر به و إظهاره،و من المعلوم أنه تعالی منزّه من الحب و البغض علی حد ما یوجد فینا معشر الإنسان و ما یجانسنا من الحیوان،إلاّ أنه لما کان الأمر و النهی عندنا بحسب الطبع صادرین عن حب و بغض کنّی بهما عن الإراده و الکراهه و عن الأمر و النهی.

۱- ۱) .النساء ۱۳۶-۱۴۷:بحث روائی فی:الایمان و الکفر؛النهی عن الخدعه؛المنافقین؛الاخلاص للّه تعالی و نتائجه.

فقوله «لاّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ» كنايه عن الكراهه التشريعيه أعم من التحريم و الإعانه.

و قوله «إِلاّـ مَنْ ظُلِمَ» استثناء منقطع أى لكن من ظلم لاـ بأس بأن يجهر بالسوء من القول فيمن ظلمه من حيث ظلم،و هذه هى القرينه على أنه إنما يجوز له الجهر بالسوء من القول يبين فيه ما ظلمه،و يظهر مساوئه التى فيه مما ظلمه به،و أما التعدّى الى غيره مما ليس فيه،أو ما لا يرتبط بظلمه فلا دليل على جواز الجهر به من الآيه.

و المفسرون و إن اختلفوا فى تفسير السوء من القول فمن قائل أنه الدعاء عليه،و من قائل أنه ذكر ظلمه و ما تعدى به عليه و غير ذلك إلا أن الجميع مشمول لإطلاق الآيه،فلا موجب لتخصيص الكلام ببعضها.

و قوله «وَ كانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً» فى مقام التأكيد للنهى المستفاد من قوله «لاـ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ» أى لاـ ينبغى الجهر بالسوء من القول من غير المظلوم فإن اللّه سميع يسمع القول عليم يعلم به.

قوله تعالى: إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللّهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً الآيه لاـ تخلو عن ارتباط بما قبلها فإنها تشمل إظهار الخير من القول شكرا لنعمه أنعمها منعم على الإنسان،و تشمل العفو عن السوء و الظلم فلا يجهر على الظالم بالسوء من القول.

فإبداء الخير إظهاره سواء كان فعلاـ كإظهار الإنفاق على مستحقه و كذا كل معروف لما فيه من إعلاء كلمه الدين و تشويق الناس الى المعروف،أو كان قولا كإظهار الشكر على المنعم و ذكره بجميل القول لما فيه من حسن التقدير و تشويق أهل النعمه.

و إخفاء الخير منصرفه إخفاء فعل المعروف ليكون أبعد من الرئاء و أقرب الى الخلوص كما قال: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ (البقره/۲۷۱).

و العفو عن السوء هو الستر عليه قولاـ بأن لاـ يذكر ظالمه بظلمه،و لاـ يذهب بماء وجهه عند الناس،و لا يجهر عليه بالسوء من القول،و فعلاـ بأن لاـ يواجهه بما يقابل ما أساء به،و لا ينتقم عنه فيما يجوز له ذلك كما قال تعالى: فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ (البقره/۱۹۴).

و قوله «فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ عَفُوًّا قَدِيراً» سبب أقيم مقام المسبّب و التقدير:إن تعفوا عن سوء فقد اتصفتم بصفه من صفات اللّه الكماليه- و هو العفو على قدره-فإن اللّه ذو عفو على قدرته، فالجزاء جزاء بالنسبه الى بعض الشروط،و أما إبداء الخير و إخفاؤه أى إيتاؤه على أى حال فهو أيضا من صفاته تعالى بما أنه اللّه تعالى،و يمكن أن يلوّح إليه الكلام.

[سوره النساء (۴): الآيات ۱۵۰ الى ۱۵۲]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اَللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً (۱۵۰) أُولٰئِكَ هُمُ اَلْكٰافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ عَذٰاباً مُهِيناً (۱۵۱) وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ كٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۵۲)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ ،هؤلاء أهل الكتاب من اليهود و النصارى فاليهود تؤمن بموسى و تكفر بعيسى و محمد،و النصارى تؤمن بموسى و عيسى و تكفر بمحمد صلى اللّه عليهم اجمعين،و هؤلاء على زعمهم لا يكفرون باللّه و ببعض رسله،

و إنما يكفرون ببعض الرسل،و قد أطلق اللّه عليهم أنهم كافرون باللّه و رسله جميعا،و لذلك احتيج الى بيان المراد من إطلاق قوله «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ» .

و لذلك عطف على قوله «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ» ،قوله «وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ» بعطف التفسير و نفس المعطوف أيضا بعضه يفسّر بعضه،فهم كافرون باللّه و رسله لأنهم بقولهم «نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ» يريدون أن يفرّقوا بين اللّه و رسله فيؤمنون باللّه و بعض رسله،و يكفروا ببعض رسله مع كونه رسولا من اللّه، و الرد عليه رد على اللّه تعالى.

ثم بيّن ذلك ببيان آخر بالعطف عليه عطف التفسير فقال: «وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً» أى سبيلا متوسطا بين الإيمان باللّه و رسله جميعا و الكفر باللّه و رسله جميعا،و هو الايمان ببعض و الكفر ببعض،و لا سبيل الى اللّه إلا الايمان به و برسله جميعا فإن الرسول بما أنه رسول ليس له من نفسه شيء و لا له من الأمر شيء،فالإيمان به إيمان باللّه و الكفر به كفر باللّه محضا.

فالكفر بالبعض و الإيمان بالبعض و باللّه ليس إلا تفرقه بين اللّه و بين رسله،و إعطاء الاستقلال للرسول فيكون الإيمان به غير مرتبط بالإيمان باللّه،و الكفر به غير مرتبط بالكفر به فيكون طرفا لا وسطا،و كيف يصح فرض الرساله ممن لا يرتبط الإيمان به و الكفر به بالايمان باللّه و الكفر به؟

فمن البيّن الذى لا مريه فيه أن الإيمان بمن هذا شأنه و الخضوع له شرك باللّه العظيم،و لذلك ترى أنه تعالى بعد وصفهم بأنهم يريدون بالإيمان ببعض الرسل و الكفر بالبعض أن يفرّقوا بين اللّه و رسله و يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ـ ذكر أنهم كافرون بذلك حقا فقال «أُولٰئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا» ثم أوعدهم فقال «وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً» .

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ،لما كفّر

أولئك المفرّقين بين اللّه و رسله،و ذكر أنهم كافرون باللّه و رسله ذكر من يقابلهم بالإيمان باللّه و رسله على سبيل عدم التفرقه تتميما للأقسام.

[سوره النساء (۴): الآيات ۱۵۳ الى ۱۶۹]

اشاره

يَسْئَلُكَ أَهْلُ اَلْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ اَلسَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اَللّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ اَلصّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اِتَّخَذُوا اَلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ اَلْبَيِّناتُ فَعَفَوْنا عَنْ ذلِكَ وَ آتَيْنا مُوسى سُلْطاناً مُبِيناً (۱۵۳) وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ اَلطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ وَ قُلْنا لَهُمُ اُدْخُلُوا اَلْبابَ سُجَّداً وَ قُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي اَلسَّبْتِ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (۱۵۴) فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وَ كُفْرِهِمْ بِآياتِ اَللّهِ وَ قَتْلِهِمُ اَلْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اَللّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاّ قَلِيلاً (۱۵۵) وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً (۱۵۶) وَ قَوْلِهِمْ إِنّا قَتَلْنَا اَلْمَسِيحَ عِيسَى اِبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اَللّهِ وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ اَلَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اِتِّباعَ اَلظَّنِّ وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً (۱۵۷) بَلْ رَفَعَهُ اَللّهُ إِلَيْهِ وَ كانَ اَللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۵۸) وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ اَلْكِتابِ إِلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ اَلْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (۱۵۹) فَبِظُلْمٍ مِنَ اَلَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اَللّهِ كَثِيراً (۱۶۰) وَ أَخْذِهِمُ اَلرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوالَ اَلنّاسِ بِالْباطِلِ وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۶۱) لكِنِ اَلرّاسِخُونَ فِي اَلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ اَلْمُقِيمِينَ اَلصَّلاةَ وَ اَلْمُؤْتُونَ اَلزَّكاةَ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (۱۶۲) إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ اَلنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ اَلْأَسْباطِ وَ عِيسى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَيْمانَ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (۱۶۳) وَ رُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اَللّهُ مُوسى تَكْلِيماً (۱۶۴) رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلاّ يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اَللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ اَلرُّسُلِ وَ كانَ اَللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۶۵) لكِنِ اَللّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ اَلْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى بِاللّهِ شَهِيداً (۱۶۶) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً (۱۶۷) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اَللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (۱۶۸) إِلاّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اَللّهِ يَسِيراً (۱۶۹)

بیان:

قوله تعالی: يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ ،أهل الکتاب هم الیهود و النصاری علی ما هو المعهود فی عرف القرآن فی أمثال هذه الموارد،و علیه فالسائل هو الطائفتان جمیعا دون الیهود فحسب.

و لا ینافیه کون المظالم و الجرائم المعدوده فی ضمن الآیات مختصه بالیهود کسؤال الرؤیه، و اتخاذ العجل،و نقض المیثاق عند رفع الطور و الأمر بالسجده و النهی عن العدو فی السبت و غیر ذلک.

فإن الطائفتین ترجعان الی أصل واحد و هو شعب إسرائیل بعث إلیهم موسی و عیسی علیهما السّلام و إن انتشرت دعوه عیسی بعد رفعه فی غیر بنی إسرائیل کالروم و العرب و الحبشه و مصر و غیرهم،و ما قوم عیسی بأقل ظلما لعیسی من الیهود لموسی علیهم السّلام.

و لعد الطائفتین جمیعا ذا أصل واحد یخص الیهود بالذکر فیما یخصهم من الجزاء حیث قال «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» و لذلک أیضا عد عیسی بین الرسل المذکورین بعد کما عد موسی علیه السّلام بینهم و لو کان وجه الکلام الی الیهود فقط لم یصح ذلک، و لذلک أیضا قیل بعد هذه الآیات «يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لا تَقُولُوا عَلَى اللّهِ إِلاَّ

اَلْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ» الخ.

و بالجمله السائل هم أهل الكتاب جميعا و وجه الكلام معهم لاشتراكهم فى الخصيصه القوميه و هو التحكم و القول بغير الحق و المجازفه و عدم التقيد بالعهود و المواثيق،و الكلام جار معهم فيما اشتركوا فاذا اختص منهم طائفه بشيء خص الكلام به.

و الذى سألوه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أن ينزّل عليهم كتابا من السماء،و لم يسألوه ما سألوه قبل نزول القرآن و تلاوه عليهم كيف و القصه إنما وقعت فى المدينه و قد بلغهم من القرآن ما نزل بمكه و شطر مما نزل بالمدينه؟بل هم ما كانوا يقنعون به دليلا للنبوه،و لا يعدّونه كتابا سماويا مع أن القرآن نزل فيما نزل مشفّعا بالتحدى و دعوى الإعجاز كما فى سور:أسرى،و يونس، و هود،و البقره النازله جميعا قبل سوره النساء.

فسؤالهم تنزيل الكتاب من السماء بعد ما كانوا يشاهدونه من أمر القرآن لم يكن إلا سؤالا جزافيا لا يصدر إلا ممن لا يخضع للحق و لا ينقاد للحقيقه و إنما يلغو و يهذو بما قدمته له أيدى الأهواء من غير أن يتقيد بقيد أو يثبت على أساس،نظير ما كانت تتحكم به قريش مع نزول القرآن،و ظهور دعوته فتقول على ما حكاه اللّه سبحانه عنهم: لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ (يونس۲۰/) أَوْ تَرْقىٰ فِي السَّمٰاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّٰى تُنَزِّلَ عَلَيْنٰا كِتٰاباً نَقْرَؤُهُ (الإسراء۹۳/).

و لهذا الذى ذكرناه أجاب اللّه سبحانه عن مسألتهم(أولا)بأنهم قوم متمادون فى الجهاله و الضلاله لا يأبون عن أنواع الظلم و إن عظمت،و الكفر و الجحود و إن جاء البيّنه،و عن نقض المواثيق و إن غلظت و غير ذلك من الكذب و البهتان و أى ظلم،و من هذا شأنه لا يصلح لإجابه ما سأله و الإقبال على ما اقترحه.

و(ثانيا)أن الكتاب الذى أنزله اللّه و هو القرآن مقارن لشهاده اللّه سبحانه و ملائكته و هو الذى يفصح عن التحدى بعد التحدى بآياته الكريمه.

فقال تعالى فى جوابهم أولا «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذٰلِكَ» أى مما سألوك من تنزيل كتاب من السماء إليهم «فَقٰالُوا أَرِنَا اللّٰهَ جَهْرَةً» أى إراءه عيان نعاينه بأبصارنا،و هذه غايه ما يبلغه البشر من الجهاله و الهذر و الطغيان «فَأَخَذَتْهُمُ الصّٰاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ» و القصه مذكوره فى سوره البقره(آيه۵۵/-۵۶)و سوره الأعراف(آيه۱۵۵/).

ثم قال تعالى: «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ» و هذه عباده الصنم بعد ظهور بطلانه أو بيان أن اللّٰه سبحانه منزه عن شائبه الجسميه و الحدوث،و هو من أفظع الجهالات البشريه «فَعَفَوْنٰا عَنْ ذٰلِكَ وَ آتَيْنٰا مُوسىٰ سُلْطٰاناً مُبِيناً» و قد أمرهم موسى فى ذلك أن يتوبوا الى بارئهم فيقتلوا أنفسهم فأخذوا فيه فعفا اللّٰه عنهم و لما يتم التقتيل و لما يقتل الجميع،و هو المراد بالعفو،و آتى موسى عليه السّلام سلطانا مبينا حيث سلطه عليهم و على السامرى و عجله، و القصه مذكوره فى سوره البقره(آيه۵۴/).

ثم قال تعالى: «وَ رَفَعْنٰا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثٰاقِهِمْ» و هو الميثاق الذى أخذه اللّٰه منهم ثم رفع فوقهم الطور،و القصه مذكوره مرتين فى سوره البقره(آيه۶۳/-۹۳).

ثم قال تعالى: «وَ قُلْنٰا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبٰابَ سُجَّداً وَ قُلْنٰا لَهُمْ لاٰ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَ أَخَذْنٰا مِنْهُمْ مِيثٰاقاً غَلِيظاً» و القصتان مذكورتان فى سوره البقره(آيه:۵۸-۶۵)و سوره الأعراف (۱۶۱-۱۶۳)و ليس من البعيد أن يكون الميثاق المذكور راجعا الى القصتين و الى غيرهما فإن القرآن يذكر أخذ الميثاق منهم متكرّرا كقوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ لاٰ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّٰهَ الآيه(البقره۸۳/)؛و قوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَكُمْ لاٰ تَسْفِكُونَ دِمٰاءَكُمْ وَ لاٰ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (البقره۸۴/).

قوله تعالى: فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِيثٰاقَهُمْ ،الفاء للتفريع و المجرور متعلق بما سيأتى بعد عده آيات-يذكر فيها جرائمهم-من قوله «حَرَّمْنٰا عَلَيْهِمْ» و الآيات مسوقه لبيان ما جازاهم اللّٰه به و خيم الجزاء الدنيوى و الاخروى،و فيها ذكر بعض ما لم يذكر من سننهم السيّئه أولا.

و قوله «فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِيثٰاقَهُمْ» تلخيص لما ذكر منهم من نقض المواثيق و لما لم يذكر من المواثيق المأخوذه منهم.

و قوله «وَ كُفْرِهِمْ بِآيٰاتِ اللّٰهِ» تلخص لأنواع من الكفر كفروا بها فى زمن موسى عليه السّلام و بعده قص القرآن كثيرا منها،و من جملتها الموردان المذكوران فى صدر الآيات أعنى قوله «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَقٰالُوا أَرِنَا اللّٰهَ جَهْرَةً» ،و قوله «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ» و إنما قدما فى الصدر،و أخّرا فى هذه الآيه لأن المقامين مختلفان فيختلف مقتضاهما فإن صدر الآيات متعرض لسؤالهم تنزيل كتاب من السماء،و ذكر سؤالهم أكبر من ذلك و عبادتهم العجل أنسب به و ألصق،و هذه الآيه و ما بعدها متعرضه لمجازاتهم فى قبال أعمالهم بعد ما كانوا أجابوا دعوه الحق و ذكر أسباب ذلك،و الابتداء بذكر نقض الميثاق أنسب فى هذا المقام و أقرب.

و قوله «وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِيٰاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ» بعنى بهم زكريا و يحيى و غيرهما ممن ذكر القرآن قتلهم إجمالا من غير تسميه.

و قوله «وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنٰا غُلْفٌ» جمع أغلف أى فى أغشيه تمنعها عن استماع الدعوه النبويّه، و قبول الحق لو دعيت إليه،و هذه كلمه ذكروها يريدون بها ردّ الدعوه،و إسناد عدم إجابتهم للدعوه الى اللّه سبحانه كأنهم كانوا يدعون أنهم خلقوا غلف القلوب،أو أنهم جعلوا بالنسبه الى دعوه غير موسى كذلك من غير استناد ذلك الى اختيارهم و صنعهم.

و لذلك ردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله «بَلْ طَبَعَ اللّٰهُ عَلَيْهٰا بِكُفْرِهِمْ فَلاٰ يُؤْمِنُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً» فبيّن أن إباء قلوبهم عن استماع الدعوه الحقه مستند الى صنع اللّه لكن لا كما يدعون أنهم لا صنع لهم فى ذلك بل إنما فعل ذلك بهم فى مقابل كفرهم و جحودهم للحق،و كان أثر ذلك أن هذا القوم لا يؤمنون إلا قليل منهم.

و قد تقدم الكلام فى هذا الاستثناء،و أن هذه النقمه الإلهيه إنما نزلت بهم بقوميتهم

و مجتمعهم،فالمجموع من حيث المجموع مكتوب عليهم النقمه،و مطبوع على قلوبهم محال لهم أن يؤمنوا بأجمعهم،و لا ينافى ذلك إيمان البعض القليل منهم.

قوله تعالى: وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلىٰ مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً و هو قذفها عليها السّلام فى ولاده عيسى بالزنا،و هو كفر و بهتان معا و قد كلمهم عيسى فى أول ولادته و قال: إِنِّى عَبْدُ اللّٰهِ آتٰانِيَ الْكِتٰابَ وَ جَعَلَنِى نَبِيًّا (مريم۳۰/).

قوله تعالى: وَ قَوْلِهِمْ إِنّٰا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّٰهِ وَ مٰا قَتَلُوهُ وَ مٰا صَلَبُوهُ وَ لٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ قد تقدم فى قصص عيسى عليه السّلام فى سوره آل عمران أنهم اختلفوا فى كيفيه قتله صلبا و غير صلب فلعل حكايته تعالى عنهم دعوى قتله أولا ثم ذكر القتل و الصلب معا فى مقام الرد و النفى لبيان النفى التام بحيث لا يشوبه ريب فإن الصلب لكونه نوعا خاصا فى تعذيب المجرمين لا يلازم القتل دائما،و لا يتبادر الى الذهن عند إطلاق القتل،و قد اختلف فى كيفيه قتله فمجرد نفى القتل ربما أمكن أن يتأول فيه بأنهم ما قتلوه قتلا عاديا،و لا ينافى ذلك أن يكونوا قتلوه صلبا فلذلك ذكر تعالى بعد قوله «وَ مٰا قَتَلُوهُ» قوله «وَ مٰا صَلَبُوهُ» ليؤدى الكلام حقه من الصراحه،و ينص على أنه عليه السّلام لم يتوف بأيديهم لا صلبا و لا غير مصلوب،بل شبه لهم أمره فأخذوا غير المسيح عليه السّلام مكان المسيح فقتلوه أو صلبوه، و ليس من البعيد عاده،فإن القتل فى أمثال تلك الاجتماعات الهمجيه و الهجمه و الغوغاء ربما أخطأ المجرم الحقيقى الى غيره و قد قتله الجندیّون من الروميين،و ليس لهم معرفه بحاله على نحو الكمال فمن الممكن أن يأخذوا مكانه غيره،و مع ذلك فقد وردت روايات أن اللّه تعالى ألقى شبهه على غيره فأخذ و قتل مكانه.

و قوله: وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ أى اختلفوا فى عيسى أو فى قتله لَفِى شَكٍّ مِنْهُ أى فى جهل بالنسبه الى أمره مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبٰاعَ الظَّنِّ و هو التخمين أو رجحان ما بحسب ما أخذه بعضهم من أفواه بعض.

و قوله: وَ مٰا قَتَلُوهُ يَقِيناً أى ما قتلوه قتل يقين أو ما قتلوه أخبرك خبر يقين، و ربما قيل:إن الضـمير فى قوله «وَ مٰا قَتَلُوهُ» راجع الى العلم أى مـا قتلوا العلم يقينـا.و قتل العلم لغه تمحيضه و تخليصه من الشك و الريب،و ربما قيل:إن الضـمير يعود الى الظن أى ما محّضوا ظنهم و ما تثبتوا فيه،و هذا المعنى على تقدير ثبوته معنى غريب لا يحمل عليه لفظ القرآن.

قوله تعالى: بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً و قـد قص اللّه سـبحانه هـذه القصه فى سوره آل عمران فقال: إِذْ قٰالَ اللّٰهُ يٰا عِيسىٰ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَ رٰافِعُكَ إِلَيَّ (آل عمران۵۵/)فذكر التوفى ثم الرفع.

قوله تعـالى: وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَـهِيداً . «إِنْ» نافيه و المبتـدأ محـذوف يـدل عليه الكلام فى سياق النفى، و التقـدير:و إن أحـد من أهـل الكتاب إلا ليؤمنن،و الضـمير فى قوله «بِهِ» و قوله «يَكُونُ» راجع الى عيسى،و أما الضمير فى قوله «قَبْلَ مَوْتِهِ» ففيه خلاف.

و الذى ينبغى التدبر و الإمعان فيه هو أن وقوع قوله «وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَـهِيداً» فى سياق قوله «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً» ظاهر فى أن عيسى شهيد على جميعهم يوم القيامه كما أن جميعهم يؤمنون به قبل الموت،و قد حكى سبحانه قول عيسى فى خصوص هذه الشهاده على وجه خاص،فقال عنه: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مٰا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (المائده۱۱۷/).

فقصِّـر عليه السّـلام شـهادته فى أيام حياته فيهم قبل توفّيه،و هـذه الآيه أعنى قوله «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ» الـخ؛تدل على شـهادته على جميع من يؤمن به فلو كـان المؤمن به هو الجميع كـان لازمه أن لا يتوفّى إلا بعـد الجميع،و هـذا ينتـج المعنى الثانى،و هو كونه عليه السّـلام حيا بعد،و يعود إليهم ثانيا حتى يؤمنوا به.نهايه الأمر أن يقال:إن من لا يدرك منهم رجوعه إليهم ثانيا يؤمن به عند

موته،و من أدرک ذلک آمن به إیمانا اضطرارا أو اختیارا.

علی أن الأنسب بوقوع هذه الآیه «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ إِلاّٰ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ» ،فیما وقع فیه من السیاق أعنی بعد قوله تعالی «وَ مٰا قَتَلُوهُ وَ مٰا صَلَبُوهُ وَ لٰکِنْ شُبِّهَ لَهُمْ -الی أن قال- بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَیْهِ وَ کٰانَ اللّٰهُ عَزِیزاً حَکِیماً» أن تکون الآیه فی مقام بیان أنه لم یمت و أنه حی بعد اذ لا یتعلق ببیان إیمانهم الاضطراری و شهادته علیهم فی غیر هذه الصوره غرض ظاهر.

فهذا الذی ذکرناه یؤید کون المراد بإیمانهم به قبل الموت إیمانهم جمیعا به قبل موته علیه السّلام.

و بالجمله،الذی یفیده التدبیر فی سیاق الآیات و ما ینضم إلیها من الآیات المربوطه بها هو أن عیسی علیه السّلام لم یتوفّ بقتل أو صلب و لا بالموت حتف الأنف علی نحو ما نعرفه من مصداقه -کما تقدمت الإشاره إلیه-و قد تکلمنا بما تیسر لنا من الکلام فی قوله تعالی: یٰا عِیسیٰ إِنِّی مُتَوَفِّیکَ وَ رٰافِعُکَ إِلَیَّ (آل عمران/۵۵)فی الجزء الثالث من هذا الکتاب.

قوله تعالی: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَیْهِمْ طَیِّبٰاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ الفاء للتفریع،و قد نکّر لفظ الظلم و کأنه للدلاله علی تفخیم أمره أو للإبهام،اذ لا یتعلق علی تشخیصه غرض مهم و هو بدل مما تقدم ذکره من فجائعهم غیر أنه لیس بدل الکل من الکل کما ربما قیل،بل بدل البعض من الکل،فإنه تعالی جعل هذا الظلم منهم سببا لتحریم الطیبات علیهم،و لم تحرّم علیهم إلا فی شریعه موسی المنزله فی التوراه،و بها تختتم شریعه موسی،و قد ذکر فیما ذکر من فجائعهم و مظالمهم أمور جرت و وقعت بعد ذلک کالبهتان علی مریم و غیر ذلک.

فالمراد بالظلم بعض ما ذکر من مظالمهم الفجیعه فهو السبب لتحریم ما حرّم علیهم من الطیبات بعد إحلالها.

ثم ضم الی ذلک قوله «وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ کَثِیراً» و هو إعراضهم المتکرر عن سبیل اللّه

«وَ أَخْذِهِمُ الرِّبٰوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَکْلِهِمْ أَمْوٰالَ النّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ» .

قوله تعالى: وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً معطوف على قوله «حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ» فقد استوجبوا بمظالمهم من اللّه جزاءين:جزاء دنيوى عام و هو تحريم الطيّبات،و جزاء أخروى خاص بالكافرين منهم و هو العذاب الأليم.

قوله تعالى: لٰكِنِ الرّٰاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ استثناء و استدراك من أهل الكتاب، «وَ الرّٰاسِخُونَ» و ما عطف عليه مبتدأ و «يُؤْمِنُونَ» خبره،و قوله «مِنْهُمْ» متعلق بالراسخون و «مِنْ» فيه تبعيضيّه.

و الظاهر أن «الْمُؤْمِنُونَ» يشارك «الرّٰاسِخُونَ» فی تعلق قوله «مِنْهُمْ» به معنی و المعنی:

لكن الراسخون فی العلم و المؤمنون بالحقيقه من أهل الكتاب يؤمنون بك و بما أنزل من قبلك، و يؤيده التعليل الآتی فی قوله «إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ كَمٰا أَوْحَيْنٰا إِلىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» الخ؛فإن ظاهر الآيه كما سيأتی بيان أنهم آمنوا بك لما وجدوا أن نبوتك و الوحی الذی أكرمناك به يماثل الوحی الذی جاءهم به الماضون السابقون من أنبياء اللّه:نوح و النبيون من بعده،و الأنبياء من آل إبراهيم،و آل يعقوب،و آخرون ممن لم نقصصهم عليك من غير فرق.

و هذا المعنی-كما تری-أنسب بالمؤمنين من أهل الكتاب أن يوصفوا به دون المؤمنين من العرب الذين وصفهم اللّه سبحانه بقوله: لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أُنْذِرَ آبٰاؤُهُمْ فَهُمْ غٰافِلُونَ (يس/ ۶).

و قوله «وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاٰةَ» معطوف علی «الرّٰاسِخُونَ» و منصوب علی المدح،و مثله فی العطف قوله «وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ» و قوله «وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» مبتدأ خبره قوله «أُولٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً» و لو كان قوله «وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاٰةَ» مرفوعا كما نقل عن مصحف ابن مسعود كان هو ما عطف عليه مبتدأ خبره قوله «أُولٰئِكَ» .

و بالجمله قوله «لٰكِنِ الرّٰاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ» استثناء من أهل الكتاب من حيث لازم سؤالهم

النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن ينزل عليهم كتابا من السماء كما تقدم أن لازم سؤالهم ذلك أن لا يكفى ما جاءهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الكتاب و الحكمه المصدقين لما أنزل من قبله من آيات اللّه على أنبيائه و رسله، فى دعوتهم الى الحق و إثباته،مع أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يأتهم إلا مثل ما أتاهم به من قبله من الأنبياء،و لم يعش فيهم و لم يعاشرهم إلا بما عاشوا به و عاشروا به كما قال تعالى: قُلْ مٰا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ (الأحقاف/٩)و قال تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا قَبْلَكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ وَ مٰا جَعَلْنٰاهُمْ جَسَداً لاٰ يَأْكُلُونَ الطَّعٰامَ وَ مٰا كٰانُوا خٰالِدِينَ -الى أن قال- لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ كِتٰاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (الأنبياء/١٠).

فذكر اللّه سبحانه فى فصل من القول:إن هؤلاء السائلين و هم أهل الكتاب ليست عندهم سجيه اتباع الحق و لا ثبات و لا عزم و لا رأى،و كم من آيه بينه ظلموها،و دعوه حق صدوا عنها،إلا أن الراسخين فى العلم منهم لما كان عندهم ثبات على علمهم و ما وضح من الحق لديهم،و كذا المؤمنون حقيقه منهم لما كان عندهم سجيه اتباع الحق يؤمنون بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك لما وجدوا أن الذى نزّل إليك من الوحى يماثل ما نزّل من قبلك على سائر النبيين:نوح و من بعده.

و من هنا يظهر(أولا)وجه توصيف من اتبع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من أهل الكتاب بالراسخين فى العلم و المؤمنين،فإن الآيات السابقه تقص عنهم أنهم غير راسخين فيما علموا غير مستقرين على شىء من الحق و إن استوثق منهم بأغلظ المواثيق،و أنهم غير مؤمنين بآيات اللّه صادون عنها و إن جاءتهم البينات،فهؤلاء الذين استثناهم اللّه راسخون فى العلم أو مؤمنون حقيقه.

و(ثانيا)وجه ذكر ما أنزل قبلا مع القرآن فى قوله «يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» لأن المقام مقام نفى الفرق بين القبيلين.

و(ثالثا)أن قوله فى الآيه التاليه «إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ كَمٰا أَوْحَيْنٰا» الخ؛فى مقام التعليل لإيمان هؤلاء المستثنين.

ص:٨٠٥

قوله تعالی: إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْکَ كَمٰا أَوْحَيْنٰا إِلىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ فی مقام التعلیل لقوله «يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْکَ» کما عرفت آنفا.و محصّل المعنی-و اللّه أعلم-أنهم آمنوا بما أنزل إلیک لأنّا لم نؤتک أمرا مبتدعا یختص من الدعاوی و الجهات بما لا یوجد عنک غیرک من الأنبیاء السابقین،بل الأمر علی نهج واحد لا اختلاف فیه،فإنّا أوحینا إلیک کما أوحینا الی نوح و النبیین من بعده،و نوح أول نبی جاء بکتاب و شریعه،و کما أوحینا الی إبراهیم و من بعده من آله،و هم یعرفونهم و یعرفون کیفیه بعثتهم و دعوتهم،فمنهم من أوتی بکتاب کداود أوتی زبورا و هو وحی نبوی،و موسی اوتی التکلیم و هو وحی نبوی،و غیرهما کإسماعیل و إسحاق و یعقوب أرسلوا بغیر کتاب،و ذلک أیضا عن وحی نبوی.

و یجمع الجمیع أنهم رسل مبشّرون بثواب اللّه منذرون بعذابهن،أرسلهم اللّه لإتمام الحجه علی الناس ببیان ما ینفعهم و ما یضرهم فی أخراهم و دنیاهم لئلا یکون للناس علی اللّه حجه بعد الرسل.

قوله تعالی: وَ الْأَسْبٰاطِ تقدّم فی قوله تعالی: وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبٰاطِ (آل عمران/ ۸۴)أنهم أنبیاء من ذریه یعقوب أو من أسباط بنی إسرائیل.

قوله تعالی: وَ آتَيْنٰا دٰاوُدَ زَبُوراً قیل إنه بمعنی المکتوب من قولهم:زبره أی کتبه فالزبور بمعنی المزبور.

قوله تعالی: رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ أحوال ثلاثه أو الأول حال و الأخیر ان وصفان له.و قد تقدم استیفاء البحث عن معنی إرسال الرسل و تمام الحجه من اللّه علی الناس، و أن العقل لا یغنی وحده عن بعثه الأنبیاء بالشرائع الإلهیه فی الکلام علی قوله تعالی: كٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً (البقره۲۱۳/)فی الجزء الثانی من هذا الکتاب.

قوله تعالی: وَ كٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً و اذا کانت له العزه المطلقه و الحکمه المطلقه استحال أن یغلبه أحد بحجه بل له الحجه البالغه،قال تعالی: قُلْ فَلِلّٰهِ الْحُجَّةُ الْبٰالِغَةُ

(الأنعام۱۴۹/).

قوله تعالى: لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ ،استدراک آخر فی معنی الاستثناء المنقطع من الرد المتعلق بسؤالهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تنزیل کتاب إلیهم من السماء،فإن الذی ذکر اللّه تعالی فی رد سؤالهم بقوله «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذٰلِكَ» (الی آخر الآیات)؛لازم معناه أن سؤالهم مردود إلیهم،لأن ما جاء به النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بوحی من ربه لا یغایر نوعا ما جاء به سائر النبیین من الوحی،فمن ادعی أنه مؤمن بما جاءوا به فعلیه أن یؤمن بما جاء به من غیر فرق.

ثم استدرک عنه بأن اللّه مع ذلک یشهد بما أنزل علی نبیه و الملائکه یشهدون و کفی باللّه شهیدا.

و متن شهادته قوله «أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ» فإن مجرد النزول لا یکفی فی المدعی،لأن من أقسام النزول النزول بوحی من الشیاطین،بأن یفسد الشیطان أمر الهدایه الإلهیه فیضع سبیلا باطلا مکان سبیل اللّه الحق،أو یخلط فیدخل شیئا من الباطل فی الوحی الإلهی الحق فیختلط الأمر، کما یشیر الی نفیه بقوله: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (الجن۲۸/)و قال تعالی: وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلىٰ أَوْلِيَائِهِمْ (الأنعام۱۲۱/).

و بالجمله فالشهاده علی مجرد النزول أو الإنزال لا یخرج الدعوی عن حال الإبهام،لکن تقییده بقوله «بِعِلْمِهِ» یوضح المراد کل الوضوح،و یفید أن اللّه سبحانه أنزله الی رسوله و هو یعلم ما ذا ینزل،و یحیط به و یحفظه من کید الشیاطین.

و اذا کانت الشهاده علی الإنزال،و الإنزال إنما هو بواسطه الملائکه کما یدل علیه قوله تعالی: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ (البقره۹۷/)و قال تعالی فی وصف هذا

الملک المکرّم: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ کَرِیمٍ ذِی قُوَّهٍ عِنْدَ ذِی الْعَرْشِ مَکِینٍ مُطٰاعٍ ثَمَّ أَمِینٍ (التکویر۲۱/)فدل علی تحت أمره ملائکه اخری و هم الذین ذکره اذ قال: کَلاّٰ إِنَّهٰا تَذْکِرَهٌ فَمَنْ شٰاءَ ذَکَرَهُ فِی صُحُفٍ مُکَرَّمَهٍ مَرْفُوعَهٍ مُطَهَّرَهٍ بِأَیْدِی سَفَرَهٍ کِرٰامٍ بَرَرَهٍ (عبس۱۶/).

و بالجمله لکون الملائکه وسائط فی الإنزال فهم أیضا شهداء کما أنه تعالی شهید و کفی باللّه شهیدا.

و الدلیل علی شهادته تعالی ما أنزله فی کتابه من آیات التحدی کقوله تعالی: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلیٰ أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لاٰ یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کٰانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً (الإسراء۸۸/)و قوله: أَ فَلاٰ یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ کٰانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلاٰفاً کَثِیراً (النساء۸۲/)،و قوله: فَأْتُوا بِسُورَهٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ (یونس۳۸/).

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاٰلاً بَعِیداً لمّا ذکر تعالی الحجه البالغه فی رساله نبیه و نزول کتابه من عند اللّه،و أنه من سنخ الوحی الذی اوحی الی النبیین من قبله و أنه مقرون بشهادته و شهاده ملائکته و کفی به شهیدا حقق ضلال من کفر به و أعرض عنه کائنا من کان من أهل الکتاب.

و فی الآیه تبدیل الکتاب الذی کان الکلام فی نزوله من عند اللّه بسبیل اللّه حیث قال «وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ» و فیه إیجاز لطیف کأنه قیل:إن الذین کفروا و صدوا عن هذا الکتاب و الوحی الذی یتضمنه فقد کفروا و صدوا عن سبیل اللّه،و الذین کفروا و صدوا عن سبیل اللّه، الخ.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ یَکُنِ اللّٰهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ الخ؛تحقیق و تثبیت آخر مقامه التأکید من الآیه السابقه،و علی هذا یکون المراد بالظلم هو الصد عن سبیل اللّه کما هو ظاهر.

ص :۸۰۸

و یمکن أن یکون الآیه فی مقام التعلیل بالنسبه الی الآیه السابقه،یبین فیها وجه ضلالهم البعید،و المعنی ظاهر (۱).

[سوره النساء (۴): الآیات ۱۷۰ الی ۱۷۵]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ قَدْ جٰاءَکُمُ اَلرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّکُمْ فَآمِنُوا خَیْراً لَکُمْ وَ إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ عَلِیماً حَکِیماً (۱۷۰) یٰا أَهْلَ اَلْکِتٰابِ لاٰ تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ وَ لاٰ تَقُولُوا عَلَی اَللّٰهِ إِلاَّ اَلْحَقَّ إِنَّمَا اَلْمَسِیحُ عِیسَی اِبْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اَللّٰهِ وَ کَلِمَتُهُ أَلْقٰاهٰا إِلیٰ مَرْیَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ لاٰ تَقُولُوا ثَلاٰثَهٌ اِنْتَهُوا خَیْراً لَکُمْ إِنَّمَا اَللّٰهُ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ سُبْحٰانَهُ أَنْ یَکُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ وَکِیلاً (۱۷۱) لَنْ یَسْتَنْکِفَ اَلْمَسِیحُ أَنْ یَکُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لاَ اَلْمَلاٰئِکَهُ اَلْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ یَسْتَنْکِفْ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ یَسْتَکْبِرْ فَسَیَحْشُرُهُمْ إِلَیْهِ جَمِیعاً (۱۷۲) فَأَمَّا اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ فَیُوَفِّیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا اَلَّذِینَ اِسْتَنْکَفُوا وَ اِسْتَکْبَرُوا فَیُعَذِّبُهُمْ عَذٰاباً أَلِیماً وَ لاٰ یَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَلِیًّا وَ لاٰ نَصِیراً (۱۷۳) یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ قَدْ جٰاءَکُمْ بُرْهٰانٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکُمْ نُوراً مُبِیناً (۱۷۴) فَأَمَّا اَلَّذِینَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ اِعْتَصَمُوا بِهِ فَسَیُدْخِلُهُمْ فِی رَحْمَهٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ یَهْدِیهِمْ إِلَیْهِ صِرٰاطاً مُسْتَقِیماً (۱۷۵)

۱- ۱) .النساء ۱۵۳-۱۶۹:بحث روائی فی:نزول عیسی علیه السّلام عند ظهور المهدی علیه السّلام.

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ ،خطاب عام لأهل الكتاب و غيرهم من الناس كافه،متفرّع على ما مر من البيان لأهل الكتاب،و إنما عمم الخطاب لصلاحيه المدعو إليه و هو الإيمان بالرسول كذلك لعموم الرساله.

و قوله «خَيْراً لَكُمْ» حال من الإيمان و هى حال لازمه أى حال كون الإيمان من صفته اللازمه أنه خير لكم.

و قوله «وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» ،أى إن تكفروا لم يزد كفركم عليكم شيئا،و لا ينقص من اللّه سبحانه شيئا،فإن كل شىء مما فى السماوات و الارض للّه فمن المحال ان يسلب منه تعالى شىء من ملكه فإن فى طباع كل شىء مما فى السماوات و الأرض أنه للّه لا شريك له فكونه موجودا و كونه مملوكا شىء واحد بعينه،فكيف يمكن أن ينزع من ملكه تعالى شىء و هو شىء؟

و الآيه من الكلمات الجامعه التى كلما أمعنت فى تدبرها أفادت زياده لطف فى معناها، و سعه عجيبه فى تبيانها،فإحاطه ملكه تعالى على الاشياء و آثارها تعطى فى الكفر و الإيمان و الطاعه و المعصيه معانى لطيفه،فعليك بزياده التدبر فيها.

قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ،ظاهر الخطاب بقرينه ما يذكر فيه من أمر المسيح عليه السّلام أنه خطاب للنصارى،و انما خوطبوا بأهل الكتاب-و هو وصف مشترك-اشعارا بأن تسميهم بأهل الكتاب يقتضى أن

لا يتجاوزوا حدود ما أنزله اللّه و بيّنه فى كتبه،و مما بيّنه أن لا يقولوا عليه الا الحق.

و ربما أمكن أن يكون خطابا لليهود و النصارى جميعا،فإن اليهود أيضا كالنصارى فى غلوهم فى الدين،و قولهم على اللّه غير الحق،كما قال تعالى: وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ (التوبه٣٠/)،و قال تعالى: اِتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ (التوبه/ ٣١)،و قال تعالى: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ -الى أن قال- وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ (آل عمران٦۴/).

و على هذا فقوله «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ» الخ؛تخصيص فى الخطاب بعد التعميم أخذا بتكليف طائفه من المخاطبين بما يخص بهم.

هذا،لكن يبعده أن ظاهر السياق كون قوله «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ» ، تعليلا لقوله «لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ» ،و لازمه اختصاص الخطاب بالنصارى و قوله «إِنَّمَا الْمَسِيحُ» أى المبارك «عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» تصريح بالاسم و اسم الام ليكون أبعد من التفسير و التأويل بأى معنى مغاير،و ليكون دليلا على كونه انسانا مخلوقا كأى انسان ذى ام. «كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ» تفسير لمعنى الكلمه،فإنه كلمه«كن»التى ألقيت الى مريم البتول،لم يعمل فى تكونه الاسباب العاديه كالنكاح و الاب،قال تعالى: إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران۴٧/)فكل شىء كلمه له تعالى غير أن سائر الاشياء مختلطه بالاسباب العاديه،و الذى اختص لاجله عيسى عليه السّلام بوقوع اسم الكلمه هو فقدانه بعض الاسباب العاديه فى تولده «وَ رُوحٌ مِنْهُ» و الروح من الامر،قال تعالى: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (الإسراء٨۵/)و لما كان عيسى عليه السّلام كلمه«كن»التكوينيه و هى أمر فهو روح.

و قد تقدم البحث عن الآيه فى الكلام على خلقه المسيح فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

قوله تعالى: فَآمِنُوا بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلهٌ واحِدٌ تفريع على صدر الكلام بما أنه معلل بقوله: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ» الخ؛أى فاذا كان كذلك

وجب علیکم الإیمان علی هذا النحو،و هو أن یکون ایمانا باللّه بالربوبیه و لرسله-و منهم عیسی-بالرساله،و لا تقولوا ثلاثه انتهوا حال کون الانتهاء أو حال کون الإیمان باللّه و رسله و نفی الثلاثه خیرا لکم.

و الثلاثه هم الاقانیم الثلاثه:الاب و الابن و روح القدس،و قد تقدم البحث عن ذلک فی الآیات النازله فی أمر المسیح علیه السّلام من سوره آل عمران.

قوله تعالی: سُبْحٰانَهُ أَنْ یَکُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ ،السبحان مفعول مطلق مقدر الفعل،یتعلق به قوله «أَنْ یَکُونَ» ،و هو منصوب بنزع الخافض،و التقدیر:اسبحه تسبیحا و انزهه تنزیها من أن یکون له ولد،و الجمله اعتراض مأتی به للتعظیم.

و قوله «لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ» حال أو جمله استیناف،و هو علی أی حال احتجاج علی نفی الولد عنه سبحانه،فإن الولد کیفما فرض هو الذی یماثل المولد فی سنخ ذاته متکونا منه،و اذا کان کل ما فی السماوات و الارض مملوکا فی أصل ذاته و آثاره للّه تعالی و هو القیوم لکل شیء وحده فلا یماثله شیء من هذه الاشیاء فلا ولد له.

و المقام مقام التعمیم لکل ما فی الوجود غیر اللّه عز اسمه و لازم هذا أن یکون قوله «مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ» تعبیرا کنائیا عن جمیع ما سوی اللّه سبحانه اذ نفس السماوات و الارض مشموله لهذه الحجه،و لیست مما فی السماوات و الارض بل هی نفسها.

ثم لما کان ما فی الآیه من امر و نهی هدایه عامه لهم الی ما هو خیر لهم فی دنیاهم و اخراهم ذیّل الکلام بقوله «وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ وَکِیلاً» ای ولیا لشئونکم،مدبرا لامورکم،یهدیکم الی ما هو خیر لکم و یدعوکم الی صراط مستقیم.

قوله تعالی: لَنْ یَسْتَنْکِفَ الْمَسِیحُ أَنْ یَکُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لاَ الْمَلاٰئِکَهُ الْمُقَرَّبُونَ احتجاج آخر علی نفی الوهیّه المسیح علیه السّلام مطلقا سواء فرض کونه ولدا أو أنه

ثالث ثلاثه،فإن المسیح عبد للّه لن یستنکف أبدا عن عبادته،و هذا مما لا ینکره النصاری، و الأناجیل الدائره عندهم صریحه فی أنه کان یعبد اللّه تعالی،و لا معنی لعباده الولد الذی هو سنخ إله و لا لعباده الشیء لنفسه و لا لعباده أحد الثلاثه لثالثها الذی ینطبق وجوده علی کل منها،و قد تقدم الکلام علی هذا البرهان فی مباحث المسیح علیه السّلام.

و قوله «وَ لاَ الْمَلاٰئِکَهُ الْمُقَرَّبُونَ» تعمیم للکلام علی الملائکه لجریان الحجه بعینها فیهم،و قد قال جماعه من المشرکین-کمشرکی العرب-:بکونهم بنات اللّه،فالجمله استطرادیه.

و التعبیر فی الآیه أعنی قوله «لَنْ یَسْتَنْکِفَ الْمَسِیحُ أَنْ یَکُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لاَ الْمَلاٰئِکَهُ الْمُقَرَّبُونَ» عن عیسی علیه السّلام بالمسیح،و کذا توصیف الملائکه بالمقربین مشعر بالعلیه لما فیهما من معنی الوصف،أی إن عیسی لن یستنکف عن عبادته و کیف یستنکف و هو مسیح مبارک؟و لا الملائکه و هم مقربون؟و لو رجی فیهم أن یستنکفوا لم یبارک اللّه فی هذا و لا قرّب هؤلاء،و قد وصف اللّه المسیح أیضا بأن مقرب فی قوله: وَجِیهاً فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِینَ (آل عمران۴۵/).

قوله تعالی: وَ مَنْ یَسْتَنْکِفْ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ یَسْتَکْبِرْ فَسَیَحْشُرُهُمْ إِلَیْهِ جَمِیعاً حال من المسیح و الملائکه و هو فی موضع التعلیل أی و کیف یستنکف المسیح و الملائکه المقربون عن عبادته و الحال أن الذین یستنکفون عن عبادته و یستکبرون من عباده من الانس و الجن و الملائکه یحشرون إلیه جمیعا،فیجزون حسب أعمالهم،و المسیح و الملائکه یعلمون ذلک و یؤمنون به و یتقونه.

و من الدلیل علی أن قوله «وَ مَنْ یَسْتَنْکِفْ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ یَسْتَکْبِرْ» الخ؛فی معنی أن المسیح و الملائکه المقربین عالمون بأن المستنکفین یحشرون الیه قوله «وَ یَسْتَکْبِرْ» إنما قید به قوله «وَ مَنْ یَسْتَنْکِفْ» لأن مجرد الاستنکاف لا یوجب السخط الإلهی اذا لم یکن عن استکبار کما فی الجهلاء و المستضعفین،و أما المسیح و الملائکه فان استنکافهم لا یکون إلا عن استکبار

لکونهم عالمین بمقام ربهم،و لـذلک اکتفی بـذکر الاسـتنکاف فحسب فیهم،فیکون معنی تعلیل هـذا بقوله «وَ مَنْ یَسْتَنْکِفْ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ یَسْتَکْبِرْ» ،أنهم عالمون بأن من یستنکف عن عبادته،الخ.

و قوله «جَمِیعاً» أی صالحا و طالحا و هذا هو المصحح للتفصیل الذی یتلوه من قوله «فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ» الخ.

قوله تعـالی: وَ لاٰ یَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِیًّا وَ لاٰ نَصِیراً التعرض لنفی الولی و النصـیر مقابله لما قیل به من الوهیه المسـیح و الملائکه.

قوله تعـالی: یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ قَدْ جٰاءَکُمْ بُرْهٰانٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکُمْ نُوراً مُبِیناً قال الراغب:البرهان بیان للحجه،و هو فعلان مثل الرجحان و الثنیان.و قال بعضـهم:هو مصـدر بره یبره اذا ابیض.انتهی،فهو علی أی حال مصـدر.و ربما اسـتعمل بمعنی الفاعل کما اذا اطلق علی نفس الدلیل و الحجه.

و المراد بـالنور هـو القرآن لاـ محـاله بقرینه قـوله «وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکُمْ» و یمکن أن یراد بالبرهـان أیضـا ذلـک،و الجملتـان اذا تـؤکد إحداهما الاخری.

و یمکن أن یراد به النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم،و یؤیـده وقوع الآیه فی ذیل الآیات المبینه لصدق النبی فی رسالته،و نزول القرآن من عند اللّه تعالی،و کون الآیه تفریعا لذلک و یؤیده أیضا قوله تعالی فی الآیه التالیه «وَ اعْتَصَمُوا بِهِ» لما تقدم فی الکلام علی قوله: وَ مَنْ یَعْتَصِمْ بِاللّٰهِ فَقَدْ هُدِیَ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (آل عمران/۱۰۱)أن المراد بالاعتصـام الأخـذ بکتاب اللّه و الاتباع لرسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

قوله تعالی: فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ ،بیان لثواب من اتّبع برهان ربه و النور النازل من عنده.

و الآیه کأنها منتزعه من الآیه السابقه المبینه لثواب الذین آمنوا و عملوا الصالحات أعنی

قوله «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» ،و لعله لذلك لم يذكر هاهنا جزاء المتخلف من تبعيه البرهان و النور،لأنه بعينه ما ذكر فى الآيه السابقه،فلا حاجه الى تكراره ثانيا بعد الإشعار بأن جزاء المتبعين هاهنا جزاء المتبعين هنالك،و ليس هناك إلا فريقان:المتبعون و المتخلفون.

و على هذا فقوله فى هذه الآيه «فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ» يحاذى قوله فى تلك الآيه «فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ» و هو الجنه،و أيضا قوله فى هذه الآيه «وَ فَضْلٍ» يحاذى قوله فى تلك الآيه «وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» و أما قوله «وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً» فهو من آثار ما ذكر فيها من الاعتصام باللّه كما فى قوله: وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (آل عمران١٠١/).

[سوره النساء (۴): آیه ۱۷۶]

اشاره

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اَللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي اَلْكَلالَةِ إِنِ اِمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُها إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ فَإِنْ كانَتَا اِثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا اَلثُّلُثانِ مِمّا تَرَكَ وَ إِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالاً وَ نِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ اَلْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اَللّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اَللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۷۶)

بيان:

قوله تعالى: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ،قد تقدم الكلام فى معنى الاستفتاء و الإفتاء و معين الكلاله فى الآيات السابقه من السوره.

و قوله «لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ» ظاهره الأعم من الذكر و الانثى على ما يفيده إطلاق الولد وحده.

و قال فى المجمع:فمعناه:ليس له ولد و لا والد،و إنما أضمرنا فيه الوالد للإجماع،انتهى.و لو كان لأحد الأبوين وجود لم تخل الآيه من ذكر سهمه فالمفروض عدمهما.

و قوله «وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهٰا نِصْفُ مٰا تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُهٰا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهٰا وَلَدٌ» سهم الاخت من أخيها،و الأخ من اخته،و منه يظهر سهم الاخت من اختها و الأخ من أخيه،و لو كان للفرضين الأخيرين فريضه اخرى لذكرت.

على أن قوله «وَ هُوَ يَرِثُهٰا» فى معنى قولنا:لو انعكس الامر-أى كان الأخ مكان الاخت- لذهب بالجميع،و على أن قوله «فَإِنْ كٰانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثٰانِ مِمّٰا تَرَكَ وَ إِنْ كٰانُوا إِخْوَةً رِجٰالاً وَ نِسٰاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ» و هو سهم الاختين،و سهم الإخوه لم يقيد فيهما الميّت بكونه رجلا أو امرأه فلا دخل لذكور الميت و انوثته فى السهام.

و الذى صرحت به الآيه من السهام سهم الاخت الواحده،و الأخ الواحد،و الاختين، و الإخوه المختلطه من الرجال و النساء،و من ذلک يعلم سهام باقى الفروض:منها:الاخوان، يذهبان بجميع المال و يقتسمان بالسويه يعلم ذلک من ذهاب الاخ الواحد بالجميع،و منها الاخ الواحد مع اخت واحده،و يصدق عليهما الإخوه كما تقدم فى أول السوره فيشمله «وَ إِنْ كٰانُوا إِخْوَةً» على أن السنّه مبينه لجميع ذلک.

و السهام المذكوره تختص بما اذا كان هناک كلاله الاب وحده،أو كلاله الابوين وحده، و أما اذا اجتمعا كالاخت لابوين مع الاخت لاب لم ترث الاخت لاب.و قد تقدم ذكره فى الكلام على آيات أول السوره.

قوله تعالى: يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ،أى حذر أن تضلوا أو لئلا تضلوا،و هو شائع فى الكلام،قال عمرو بن كلثوم:

فعجّلنا القرى أن تشتمونا

الجزء الثانی

اشاره

ص :۱

سوره المائده مدنيه و هى مائه و عشرون آيه

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سوره المائده (۵): الآيات ۱ الى ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gtيٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ اَلْأَنْعٰامِ إِلاّٰ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي اَلصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اَللّٰهَ يَحْكُمُ مٰا يُرِيدُ (۱) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُحِلُّوا شَعٰائِرَ اَللّٰهِ وَ لاَ اَلشَّهْرَ اَلْحَرٰامَ وَ لاَ اَلْهَدْيَ وَ لاَ اَلْقَلاٰئِدَ وَ لاَ آمِّينَ اَلْبَيْتَ اَلْحَرٰامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوٰاناً وَ إِذٰا حَلَلْتُمْ فَاصْطٰادُوا وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعٰاوَنُوا عَلَى اَلْبِرِّ وَ اَلتَّقْوىٰ وَ لاٰ تَعٰاوَنُوا عَلَى اَلْإِثْمِ وَ اَلْعُدْوٰانِ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ (۲) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ اَلْمَيْتَةُ وَ اَلدَّمُ وَ لَحْمُ اَلْخِنْزِيرِ وَ مٰا أُهِلَّ لِغَيْرِ اَللّٰهِ بِهِ وَ اَلْمُنْخَنِقَةُ وَ اَلْمَوْقُوذَةُ وَ اَلْمُتَرَدِّيَةُ وَ اَلنَّطِيحَةُ وَ مٰا أَكَلَ اَلسَّبُعُ إِلاّٰ مٰا ذَكَّيْتُمْ وَ مٰا ذُبِحَ عَلَى اَلنُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ ذٰلِكُمْ فِسْقٌ اَلْيَوْمَ يَئِسَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اِخْشَوْنِ اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ اَلْإِسْلاٰمَ دِيناً فَمَنِ اُضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳)

ص: ۷

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ العقود جمع عقد و هو شدّ أحد شيئين بالآخر نوع شدّ يصعب معه انفصال أحدهما عن الآخر،كعقد الحبل و الخيط بآخر من مثله،و لازمه التزام أحدهما الآخر،و عدم انفكاكه عنه،و قد كان معتبرا عندهم فى الامور المحسوسه أولا ثم استعير فعمّم للامور المعنويه كعقود المعاملات الدائره بينهم من بيع أو إجاره أو غير ذلك،و كجميع العهود و المواثيق فاطلقت عليها الكلمه لثبوت أثر المعنى الذى عرفت أنه اللزوم و الالتزام فيها.

و لما كان العقد-و هو العهد-يقع على جميع المواثيق الدينيه التى أخذها اللّه من عباده من أركان و أجزاء كالتوحيد و سائر المعارف الأصليه و الاعمال العباديه و الأحكام المشروعه تأسيسا أو امضاء،و منها عقود المعاملات و غير ذلك،و كان لفظ العقود أيضا جمعا محلى باللام لا جرم كان الأوجه حمل العقود فى الآيه على ما يعمّ كل ما يصدق عليه أنّه عقد (۱).

قوله تعالى: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلاّ مَا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ الخ؛الإحلال هو الإباحه و البهيمه اسم لكل ذى اربع من دواب البر و البحر على ما فى المجمع،و على هذا

۱- ۱) .المائده ۱-۳:کلام فى معنى العقد.

فإضافه البهيمه الى الأنعام من قبيل إضافه النوع الى أصنافه كقولنا:نوع الإنسان و جنس الحيوان،و قيل:البهيمه جنين الأنعام،و عليه فالإضافه لامیّه.و كيف كان فقوله: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ» أى الأزواج الثمانيه أى أكل لحومها،و قوله: «إِلاّ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ» إشاره الى ما سيأتى من قوله: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ مٰا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهِ» الآيه.

و قوله: «غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ» حال من ضمير الخطاب فى قوله: «أُحِلَّتْ لَكُمْ» و مفاده حرمه هذا الذى أحل اذا كان اصطياده فى حال الإحرام،كالوحشى من الظباء و البقر و الحمر اذا صيدت،و ربما قيل:إنه حال من قوله: «أَوْفُوا» أو حال من ضمير الخطاب فى قوله: «يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ» و الصيد مصدر بمعنى المفعول،كما أن الحرم بضمتين جمع الحرام بمعنى المحرم اسم فاعل.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُحِلُّوا شَعٰائِرَ اللّٰهِ وَ لاَ الشَّهْرَ الْحَرٰامَ وَ لاَ الْهَدْيَ وَ لاَ الْقَلاٰئِدَ وَ لاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرٰامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوٰاناً خطاب مجدد للمؤمنين يفيد شده العنايه بحرمات اللّه تعالى.

و الإحلال هو الإباحه الملازمه لعدم المبالاه بالحرمه و المنزله،و يتعين معناه بحسب ما أضيف إليه:فإحلال شعائر اللّه عدم احترامها و تركها،و إحلال الشهر الحرام عدم حفظ حرمته و القتال فيه،و هكذا.

و الشعائر جمع شعيره و هى العلامه،و كأن المراد بها أعلام الحج و مناسكه.و الشهر الحرام ما حرمه اللّه من شهور السنه القمريه و هى:المحرّم و رجب و ذو القعده و ذو الحجه.و الهدى ما يساق للحج من الغنم و البقر و الإبل.و القلائد جمع قلاده،و هى ما يقلد به الهدى فى عنقه من نعل و نحوه ليعلم أنه هدى للحج فلا يتعرض له.و الآمّين جمع آم اسم فاعل من أمّ اذا قصد، و المراد به القاصدون لزياره البيت الحرام.و قوله: «يَبْتَغُونَ فَضْلاً» ،حال من «آمِّينَ»

و الفضل هو المال أو الربح المالی،فقد أطلق علیه فی قوله تعالی: فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللّهِ وَ فَضْلٍ لَمْ یَمْسَسْهُمْ سُوءٌ (آل عمران۱۷۴/)و غیر ذلک أو هو الأجر الاخروی أو الأعم من المال و الأجر.

و قد اختلفوا فی تفسیر الشعائر و القلائد و غیرهما من مفردات الآیه علی أقوال شتی، والدی آثرنا ذکره هو الأنسب لسیاق الآیه،و لا جدوی فی التعرض لتفاصیل الأقوال.

قوله تعالی: وَ إِذٰا حَلَلْتُمْ فَاصْطٰادُوا أمر واقع بعد الحظر لا یدل علی أزید من الإباحه بمعنی عدم المنع،و الحل و الإحلال-مجردا و مزیدا فیه-بمعنی و هو الخروج من الإحرام.

قوله تعالی: وَ لاٰ یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوکُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ أَنْ تَعْتَدُوا یقال:جرمه یجرمه أی حمله،و منه الجریمه للمعصیه لأنها محموله من حیث وبالها، و للعقوبه المالیه و غیرها لأنها محموله علی المجرم.و ذکر الراغب أن الأصل فی معناها القطع.

و الشنآن العداوه و البغض.و قوله: «أَنْ صَدُّوکُمْ» أی منعوکم بدل أو عطف بیان من الشنآن، و محصل معنی الآیه:و لا یحملنکم عداوه قوم و هو أن منعوکم عن المسجد الحرام أن تعتدوا علیهم بعد ما أظهرکم اللّه علیهم.

قوله تعالی: وَ تَعٰاوَنُوا عَلَی الْبِرِّ وَ التَّقْویٰ وَ لاٰ تَعٰاوَنُوا عَلَی الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ المعنی واضح،و هذا أساس السنه الإسلامیه،و قد فسر اللّه سبحانه البر فی کلامه بالإیمان و الاحسان فی العبادات و المعاملات،کما مر فی قوله تعالی: وَ لٰکِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ الآیه(البقره۱۷۷/)و قد تقدم الکلام فیه.و التقوی مراقبه أمر اللّه و نهیه،فیعود معنی التعاون علی البر و التقوی الی الاجتماع علی الایمان و العمل الصالح علی أساس تقوی اللّه،و هو الصلاح و التقوی الاجتماعیان،و یقابله التعاون علی الإثم الذی هو العمل السیّئ المستتبع للتأخر فی امور الحیاه السعیده،و علی العدوان و هو التعدی علی

حقوق الناس الحقه بسلب الأمن من نفوسهم أو أعراضهم أو أموالهم و قد مر شطر من الكلام فى هذا المعنى فى ذيل قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صٰابِرُوا وَ رٰابِطُوا الآيه، (آل عمران٢٠٠/)؛فى الجزء الرابع من هذا الكتاب.

ثم أكد سبحانه نهيه عن الاجتماع على الإثم و العدوان بقوله: «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقٰابِ» و هو فى الحقيقه تأكيد على تأكيد.

قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ مٰا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهِ هذه الأربعه مذكوره فيما نزل من القرآن قبل هذه السوره كسورتى الأنعام و النحل و هما مكّيتان،و سوره البقره و هى أول سوره مفصله نازله بالمدينه قال تعالى: قُلْ لاٰ أَجِدُ فِى مٰا أُوحِىَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلىٰ طٰاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاّٰ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (الأنعام/ ١۴۵)و قال تعالى: إِنَّمٰا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مٰا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّٰهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَلاٰ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (البقره١٧٣/).

و الآيات جميعا-كما ترى-تحرّم هذه الأربعه المذكوره فى صدر هذه الآيه و تماثل الآيه أيضا فى الاستثناء الواقع فى ذيلها بقوله: «فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فآيه المائده بالنسبه الى هذه المعانى المشتركه بينها و بين تلك مؤكده لتلك الآيات.

بل النهى عنها و خاصه عن الثلاثه الاول أعنى الميته و الدم و لحم الخنزير أسبق تشريعا من نزول سورتى الأنعام و النحل المكيتين،فإن آيه الأنعام تعلل تحريم الثلاثه أو خصوص لحم الخنزير بأنه رجس،فتدل على تحريم أكل الرجز،و قد قال تعالى فى سوره المدثر-و هى من السور النازله فى أول البعثه-: وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ (المدثر۵/).

و كذلك ما عدّه تعالى بقوله: «وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمَوْقُوذَةُ وَ الْمُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيحَةُ وَ مٰا أَكَلَ السَّبُعُ»

جميعا من مصاديق الميته بدليل قوله: «إِلاّ مٰا ذَكَّيْتُمْ» فإنما ذكرت فى الآيه لنوع عنايه بتوضيح أفراد الميته و مزيد بيان للمحرمات من الأطعمه من غير أن تتضمن الآيه فيها على تشريع حديث.

و كذلك ما عدّه اللّه تعالى بقوله: «وَ مٰا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ ذٰلِكُمْ فِسْقٌ» فإنهما و إن كانا أول ما ذكرا ذكرا فى هذه السوره لكنه تعالى علل تحريمهما أو تحريم الثانى منهما-على احتمال ضعيف-بالفسق،و قد حرم الفسق فى آيه الأنعام،و كذا قوله: «غَيْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ» يدل على تحريم ما ذكر فى الآيه لكونه إثما،و قد دلت آيه البقره على تحريم الاثم، و قال تعالى أيضا: وَ ذَرُوا ظٰاهِرَ الْإِثْمِ وَ بٰاطِنَهُ (الأنعام/١٢٠)،و قال تعالى: قُلْ إِنَّمٰا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ وَ الْإِثْمَ (الأعراف/٣٣).

فقد اتضح و بان أن الآيه لا تشتمل فيما عدّته من المحرمات على أمر جديد غير مسبوق بالتحريم فيما تقدم عليها من الآيات المكيه أو المدنيه المتضمنه تعداد محرمات الأطعمه من اللحوم و نحوها.

قوله تعالى: وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمَوْقُوذَةُ وَ الْمُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيحَةُ وَ مٰا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاّ مٰا ذَكَّيْتُمْ المنخنقه هى البهيمه التى تموت بالخنق،و هو أعم من أن يكون عن اتفاق أو بعمل عامل اختيارا،و من أن يكون بأى آله و وسيله كانت كحبل يشد على عنقها و يسد بضغطه مجرى تنفسها،أو بإدخال رأسها بين خشبتين،كما كانت هذه الطريقه و أمثالها دائره بينهم فى الجاهليه.

و الموقوذه هى التى تضرب حتى تموت،و المترديه هى التى تردت أى سقطت من مكان عال كشاهق جبل أو بئر و نحوهما.

و النطيحه هى التى ماتت عن نطح نطحها به غيرها،و ما أكل السبع هى التى أكلها أى أكل من لحمها السبع فإن الأكل يتعلق بالمأكول سواء أفنى جميعه أو بعضه و السبع هو الوحش

الضاری کالأسد و الذئب و النمر و نحوها.

و قوله: «إِلاّ مٰا ذَكَّيْتُمْ» استثناء لما يقبل التذكيه بمعنى فرى الأوداج الاربعه منها كما اذا كانت فيها بقيه من الحياه يدل عليها مثل حركه ذنب أو أثر تنفس و نحو ذلك،و الاستثناء كما ذكرنا آنفا متعلق بجميع ما يقبله من المعدودات من دون أن يتقيد بالتعلق بالأخير من غير دليل عليه.

و هذه الامور الخمسه أعنى المنخنقه و الموقوذه و المترديه و النطيحه و ما أكل السبع كل ذلك من أفراد الميته و مصاديقها،بمعنى أن المترديه أو النطيحه مثلا إنما تحرمان اذا ماتتا بالتردى و النطح،و الدليل على ذلك قوله: «إِلاّ مٰا ذَكَّيْتُمْ» فإن من البديهى أنهما لا تؤكلان ما دامت الروح فى جثمانهما،و إنما تؤكلان بعد زهوقها و حينئذ فإما أن تذكيا أولا،و قد استثنى اللّه سبحاته التذكيه فلم يبق للحرمه إلا اذا ماتتا عن ترد أو نطح من غير تذكيه،و أما لو تردت شاه-مثلا-فى بئر ثم أخرجت سليمه مستقيمه الحال فعاشت قليلا أو كثيرا ثم ماتت حتف أنفها أو ذكيت بذبح فلا تطلق عليها المترديه،يدل على ذلك السياق فإن المذكورات فيها ما اذا هلكت،و استند هلاكها الى الوصف الذى ذكر لها كالانخناق و الوقذ و التردى و النطح.

و الوجه فى تخصيص هذه المصاديق من الميته بالذكر رفع ما ربما يسبق الى الوهم أنها ليست ميته بناء على أنها أفراد نادره منها،و الذهن يسبق غالبا الى الفرد الشائع،و هو ما اذا ماتت بمرض و نحوه من غير أن يكون لمفاجأه سبب من خارج،فصرح تعالى بهذه الأفراد و المصاديق النادره بأسمائها حتى يرتفع اللبس و تتضح الحرمه.

و قوله تعالى: وَ مٰا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ قال الرغاب فى المفردات:نصب الشىء وضعه وضعا ناتئا كنصب الرمح و البناء و الحجر،و النصيب الحجاره تنصب على الشىء، و جمعه نصائب و نصب،و كان للعرب حجاره تعبدها و تذبح عليها قال: كَأَنَّهُمْ إِلىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (المعارج/۴۳)،قال: «وَ مٰا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ» و قد يقال فى جمعه:أنصاب قال:

ص :۱۳

وَ الْأَنْصٰابُ وَ الْأَزْلاٰمُ و النصب و النصب:التعب.

فالمراد من النهی عن أكل لحوم ما ذبح علی النصب أن یستنّ بسنن الجاهلیه فی ذلک،فإنهم كانوا نصبوا حول الكعبه أحجارا یقدسونها و یذبحون علیها،و كان من سنن الوثنیه.

قوله تعالی: وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ و الأزلام هی القداح،و الاستقسام بالقداح أن یؤخذ جزور-أو بهیمه اخری-علی سهام ثم یضرب بالقداح فی تشخیص من له سهم ممن لا سهم له،و فی تشخیص نفس السهام المختلفه و هو المیسر،و قد مر شرحه عند قوله تعالی: یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِرِ الآیه(البقره/۲۱۹)؛فی الجزء الثانی من هذا الكتاب.

قال الراغب:القسم إفراز النصیب یقال:قسمت كذا قسما و قسمه،و قسمه المیراث و قسمه الغنیمه تفریقهما علی أربابهما،قال: لِكُلِّ بٰابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (الحجر/۴۴) «وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمٰاءَ قِسْمَهٌ بَیْنَهُمْ» و استقسمته سألته أن یقسم،ثم قد یستعمل فی معنی قسم قال:

«وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ» ،و ما ذكره من كون استقسم بمعنی قسم إنما هو بحسب الانطباق مصداقا،و المعنی بالحقیقه طلب القسمه بالأزلام التی هی آلات هذا الفعل،فاستعمال الآله طلب لحصول الفعل المترتب علیها فیصدق الاستفعال.فالمراد بالاستقسام بالازلام المنهی عنه علی ظاهر السیاق هو ضرب القداح علی الجزور و نحوه للذهاب بما فی لحمه من النصیب.

و قوله: «ذٰلِكُمْ فِسْقٌ» یحتمل الاشاره الی جمیع المذكورات،و الاشاره الی الأخیرین المذكورین بعد قوله: «إِلاّٰ مٰا ذَكَّیْتُمْ» لحیلوله الاستثناء،و الاشاره الی الأخیر و لعل الأوسط خیر الثلاثه.

قوله تعالی: اَلْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ كَفَرُوا مِنْ دِینِكُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ أمر الآیه فی حلولها محلها ثم فی دلالتها عجیب،فإنک اذا تأملت صدر الآیه أعنی قوله تعالی:

«حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ -الى قوله-: ذٰلِكُمْ فِسْقٌ» و أضفت إليه ذيلها أعنى قوله: «فَمَنِ اضْطُرَّ فِی مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» وجدته كلاما تاما غير متوقف فى تمام معناه و إفادته المراد منه الى شىء من قوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» الخ؛ أصلا،و ألفيته آيه كامله مماثله لما تقدم عليها فى النزول من الآيات الواقعه فى سور الأنعام و النحل و البقره المبيّنه لمحرمات الطعام،ففى سوره البقره: إِنَّمٰا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مٰا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّٰهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَلاٰ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ و يماثله ما فى سورتى الأنعام و النحل.

و ينتج ذلك أن قوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛كلام معترض موضوع فى وسط هذه الآيه غير متوقف عليه لفظ الآيه فى دلالتها و بيانها،سواء قلنا:إن الآيه نازله فى وسط الآيه فتخللت بينها من أول ما نزلت،أو قلنا:إن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم هو الذى أمر كتّاب الوحى بوضع الآيه فى هذا الموضع مع انفصال الآيتين و اختلافهما نزولا.أو قلنا:إنها موضوعه فى موضعها الذى هى فيه عند التأليف من غير أن تصاحبها نزولا،فإن شيئا من هذه الاحتمالات لا يؤثر أثرا فيما ذكرناه من كون هذا الكلام المتخلل متعرضا اذا قيس الى صدر الآيه و ذيلها.

و يؤيد ذلك أن جل الروايات الوارده فى سبب النزول-لو لم يكن كلها،و هى أخبار جمّه- يخص قوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛بالذكر من غير أن يتعرض لأصل الآيه أعنى قوله: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ» ،أصلا،و هذا يؤيد أيضا نزول قوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ» الخ؛نزولا مستقلا منفصلا عن الصدر و الذيل،و أن وقوع الآيه فى وسط الآيه مستند الى تأليف النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أو الى تأليف المؤلفين بعده.

و يؤيده ما رواه فى الدر المنثور عن عبد بن حميد عن الشعبى قال:نزل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم هذه الآيه-و هو بعرفه- «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» و كان اذا أعجبته آيات جعلهن صدر السوره،قال:و كان جبرئيل يعلمه كيف ينسك.

ثم إن هاتين الجملتين أعنى قوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» و قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» متقاربتان مضمونا،مرتبطتان مفهوما بلا ريب،لظهور ما بين ياس الكفار من دين المسلمين و بين إكمال دين المسلمين من الارتباط القريب،و قبول المضمونين لأن يمتزجا فيتركّبا مضمونا واحدا مرتبط الأجزاء،متصل الأطراف بعضها ببعض،مضافا الى ما بين الجملتين من الاتحاد فى السياق.

و يؤيد ذلك ما نرى أن السلف و الخلف من مفسرى الصحابه و التابعين و المتأخرين الى يومنا هذا أخذوا الجملتين متصلتين يتم بعضهما بعضا،و ليس ذلك إلا لأنهم فهموا من هاتين الجملتين ذلك،و بنوا على نزولهما معا،و اجتماعهما من حيث الدلاله على مدلول واحد.

و ينتج ذلك أن هذه الآيه المعترضه أعنى قوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ -الى قوله-: وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاٰمَ دِيناً» كلام واحد متصل بعض أجزائه ببعض مسوق لغرض واحد قائم بمجموع الجملتين من غير تشتت سواء قلنا بارتباطه بالآيه المحيطه بها أو لم نقل، فإن ذلك لا يؤثر البتّه فى كون هذا المجموع كلاما واحدا معترضا لا كلامين ذوى غرضين،و أن اليوم المتكرر فى قوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا» ،و فى قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» ، أريد به يوم واحد يئس فيه الكفار و أكمل فيه الدين.

ثم ما المراد بهذا اليوم الواقع فى قوله تعالى: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ» ؟فهل المراد به زمان ظهور الاسلام ببعثه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و دعوته فيكون المراد أن اللّه أنزل إليكم الإسلام،و أكمل لكم الدين و أتم عليكم النعمه و أيأس منكم الكفار؟

لا سبيل الى ذلك لأن ظاهر السياق أنه كان لهم دين كان الكفار يطمعون فى إبطاله أو تغييره،و كان المسلمون يخشونهم على دينهم فأيأس اللّه الكافرين مما طمعوا فيه و آمن المسلمين و أنه كان ناقصا فأكمله اللّه و أتم نعمته عليهم،و لم يكن لهم قبل الاسلام دين حتى يطمع فيه الكفار أو يكمله اللّه و يتم نعمته عليهم.

على أن لازم ما ذكر من المعنى أن يتقدم قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ» ،على قوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا» ،حتى يستقيم الكلام فى نظمه.

أو أن المراد باليوم هو ما بعد فتح مكه حيث أبطل اللّه فيه كيد مشركى قريش و أذهب شوكتهم،و هدم فيه بنيان دينهم،و كسر أصنامهم،فانقطع رجاؤهم أن يقوموا على ساق، و يضادوا الاسلام و يمانعوا نفوذ أمره و انتشار صيته؟

لا سبيل الى ذلك أيضا فإن الآيه تدل على إكمال الدين و إتمام النعمه و لما يكمل الدين بفتح مكه-و كان فى السنه الثامنه من الهجره-فكم من فريضه نزلت بعد ذلك،و كم من حلال أو حرام شرّع فيما بينه و بين رحله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

على أن قوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا» يعم جميع مشركى العرب و لم يكونوا جميعا آيسين من دين المسلمين،و من الدليل عليه أن كثيرا من المعارضات و المواثيق على عدم التعرض كانت باقيه بعد على اعتبارها و احترامها،و كانوا يحجون حجه الجاهليه على سنن المشركين،و كانت النساء يحججن عاريات مكشوفات العوره حتى بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عليا عليه السّلام بآيات البراءه فأبطل بقايا رسوم الجاهليه.

أو أن المراد باليوم ما بعد نزول البراءه من الزمان حيث انبسط الاسلام على جزيره العرب تقريبا،و عفت آثار الشرك،و ماتت سنن الجاهليه فما كان المسلمون يرون فى معاهد الدين و مناسك الحج أحدا من المشركين،وصفا لهم الأمر،و أبدلهم اللّه بعد خوفهم أمنا يعبدونه و لا يشركون به شيئا؟

لا سبيل الى ذلك فإن مشركى العرب و إن أيسوا من دين المسلمين بعد نزول آيات البراءه و طى بساط الشرك من الجزيره و إعفاء رسوم الجاهليه إلاـ أن الدين لم يكمل بعد،و قد نزلت فرائض و أحكام بعد ذلك،و منها ما فى هذه السوره:(سوره المائده)،و قد اتفقوا على نزولها فى آخر عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و فيها شىء كثير من أحكام الحلال و الحرام و الحدود

و القصاص.

فتحصّل أنه لا سبيل الى احتمال أن يكون المراد باليوم فى الآيه معناه الوسيع مما يناسب مفاد الآيه بحسب بادئ النظر كزمان ظهور الدعوه الاسلاميه أو ما بعد فتح مكه من الزمان، أو ما بعد نزول آيات البراءه فلا سبيل إلا أن يقال:ان المراد باليوم يوم نزول الآيه نفسها، و هو يوم نزول السوره إن كان قوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا» ،معترضا مرتبطا بحسب المعنى بالآيه المحيطه بها،أو بعد نزول سوره المائده فى أواخر عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و ذلك لمكان قوله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ» .

فهل المراد باليوم يوم فتح مكه بعينه؟أو يوم نزول البراءه بعينه؟يكفى فى فساده ما تقدم من الإشكالات الوارده على الاحتمال الثانى و الثالث المتقدمين.

أو أن المراد باليوم هو يوم عرفه من حجه الوداع كما ذكره كثير من المفسرين و به ورد بعض الروايات؟فما المراد من يأس الذين كفروا يومئذ من دين المسلمين فإن كان المراد باليأس من الدين يأس مشركى قريش من الظهور على دين المسلمين فقد كان ذلك يوم الفتح عام ثمانيه لا يوم عرفه من السنه العاشره،و إن كان المراد يأس مشركى العرب من ذلك فقد كان ذلك عند نزول البراءه و هو فى السنه التاسعه من الهجره،و إن كان المراد به يأس جميع الكفار الشامل لليهود و النصارى و المجوس و غيرهم-و ذلك الذى يقتضيه إطلاق قوله:

«الَّذِينَ كَفَرُوا» -فهؤلاء لم يكونوا آيسين من الظهور على المسلمين بعد،و لما يظهر للإسلام قوه و شوكه و غلبه فى خارج جزيره العرب اليوم.

و من جهه أخرى يجب أن نتأمل فيما لهذا اليوم-و هو يوم عرفه تاسع ذى الحجه سنه عشر من الهجره-من الشأن الذى يناسب قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» فى الآيه.

فربما أمكن أن يقال:إن المراد به إكمال أمر الحج بحضور النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بنفسه فيه،و تعليمه

الناس تعليما عمليا مشفوعا بالقول.

لكن فيه أن مجرد تعليمه الناس مناسك حجهم-و قد أمرهم بحج التمتع و لم يلبث دون أن صار مهجورا،و قد تقدمه تشريع أركان الدين من صلاه و صوم و حج و زكاه و جهاد و غير ذلك-لا يصح أن يسمى إكمالا للدين،و كيف يصح أن يسمى تعليم شيء من واجبات الدين إكمالا لذلك الواجب فضلا عن أن يسمى تعليم واجب من واجبات الدين لمجموع الدين؟

على أن هذا الاحتمال يوجب انقطاع رابطه الفقره الاولى أعنى قوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» بهذه الفقره أعنى قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» و أى ربط ليأس الكفار عن الدين بتعليم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم حج التمتع للناس؟

و ربما أمكن أن يقال:إن المراد به إكمال الدين بنزول بقايا الحلال و الحرام فى هذا اليوم فى سوره المائده،فلا حلال بعده و لا حرام،و بإكمال الدين استولى اليأس على قلوب الكفار، و لاحت آثاره على وجوههم.

لكن يجب أن نتبصر فى تمييز هؤلاء الكفار الذين عبر عنهم فى الآيه بقوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا» على هذا التقدير و أنهم من هم؟فإن أريد بهم كفار العرب فقد كان الإسلام عمّهم يومئذ و لم يكن فيهم من يتظاهر بغير الإسلام و هو الاسلام حقيقه،فمن هم الكفار الآيسون؟

و إن أريد بهم الكفار من غيرهم كسائر العرب من الامم و الأجيال فقد عرفت آنفا أنهم لم يكونوا آيسين يومئذ من الظهور على المسلمين.

ثم نتبصر فى أمر انسداد باب التشريع بنزول سوره المائده و انقضاء يوم عرفه فقد وردت روايات كثيره لا يستهان بها عددا بنزول أحكام و فرائض بعد اليوم كما فى آيه الصيف (1)و آيات الربا،حتى أنه روى عن عمر أنه قال فى خطبه خطبها:من آخر القرآن نزولا آيه

١- ١) .و هى آيه الكلاله المذكوره فى آخر سوره النساء.

الربا،و إنه مات رسول اللّه و لم يبينه لنا،فدعوا ما يريبكم الى ما لا يريبكم،الحديث.و روى البخارى فى الصحيح عن ابن عباس قال:آخر آيه نزلت على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم آيه الربا،الى غير ذلك من الروايات.

و ليس للباحث أن يضعّف الروايات فيقدم الآيه عليها،لأن الآيه ليست بصريحه و لا ظاهره فى كون المراد باليوم فيها هذا اليوم بعينه و إنما هو وجه محتمل يتوقف فى تعينه على انتفاء كل احتمال ينافيه،و هذه الاخبار لا تقصر عن الاحتمال المجرد عن السند.

أو يقال:ان المراد بإكمال الدين خلوص البيت الحرام لهم،و إجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون و هم لا يخالطهم المشركون.

و فيه:أنه قد كان صفا الأمر للمسلمين فيما ذكر قبل ذلك بسنه،فما معنى تقييده باليوم فى قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» ؟على أنه لو سلّم كون هذا الخلوص إتماما للنعمه لم يسلّم كونه إكمالا للدين،و أى معنى لتسميه خلوص البيت إكمالا للدين،و ليس الدين إلا مجموعه من عقائد و أحكام،و ليس إكماله إلا أن يضاف الى عدد أجزائها و أبعاضها عدد؟و أما صفاء الجو لإجرائها،و ارتفاع الموانع و المزاحمات عن العمل بها فليس يسمى إكمالا للدين البته.

على أن إشكال يأس الكفار عن الدين على حاله.

و يمكن أن يقال:إن المراد من إكمال الدين بيان هذه المحرمات بيانا تفصيليا ليأخذ به المسلمون،و يجتنبوها و لا يخشوا الكفار فى ذلك لأنهم قد يئسوا من دينهم بإعزاز اللّه المسلمين،و إظهار دينهم و تغليبهم على الكفار.

توضيح ذلك أن حكمه الاكتفاء فى صدر الإسلام بذكر المحرمات الاربعه أعنى الميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير اللّه به الواقعه فى بعض السور المكيه و ترك تفصيل ما يندرج فيها مما كره الاسلام للمسلمين من سائر ما ذكر فى هذه الآيه الى ما بعد فتح مكه إنما هى التدرج فى تحريم هذه الخبائث و التشديد فيها كما كان التدريج فى تحريم الخمر لئلا ينفر

العرب من الاسلام،و لا يروا فيه حرجا يرجون به رجوع من آمن فقرائهم و هم أكثر السابقين الأولين.

جاء هذا التفصيل للمحرمات بعد قوه الاسلام،و توسعه اللّه على أهله و إعزازهم،و بعد أن يئس المشركون بذلك من نفور أهله منه،و زال طمعهم فى الظهور عليهم،و إزاله دينهم بالقوه القاهره،فكان المؤمنون أجدر بهم لا يبالوهم بالمداراه،و لا يخافوهم على دينهم و على أنفسهم.

فالمراد باليوم يوم عرفه من عام حجه الوداع،و هو اليوم الذى نزلت فيه هذه الآيه المبينه لما بقى من الاحكام التى أبطل بها الاسلام بقايا مهانه الجاهليه و خبائثها و أوهامها،و المبشره بظهور المسلمين على المشركين ظهورا تاما لا مطمع لهم فى زواله،و لا حاجه معه الى شىء من مداراتهم أو الخوف من عاقبه أمرهم.

فاللّه سبحانه يخبرهم فى الآيه أن الكفار أنفسهم قد يئسوا من زوال دينهم و أنه ينبغى لهم -و قد بدّلهم بضعفهم قوه،و بخوفهم أمنا،و بفقرهم غنى-أن لا يخشوا غيره تعالى،و ينتهوا عن تفاصيل ما نهى اللّه عنه فى الآيه ففيها كمال دينهم.كذا ذكره بعضهم بتلخيص ما فى النقل.

و فيه:أن هذا القائل أراد الجمع بين عده من الاحتمالات المذكوره ليدفع بكل احتمال ما يتوجه الى الاحتمال الآخر من الإشكال فتورّط بين المحاذير برمّتها و أفسد لفظ الآيه و معناها جميعا.

فذهل عن أن المراد باليأس إن كان هو اليأس المستند الى ظهور الاسلام و قوته و هو ما كان بفتح مكه أو بنزول آيات البراءه لم يصح أن يقال يوم عرفه من السنه العاشره: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» و قد كانوا يئسوا قبل ذلك بسنه أو سنتين،و إنما اللفظ الوافى له أن يقال:قد يئسوا كما عبر به القائل نفسه فى كلامه فى توضيح المعنى أو يقال:إنهم آيسون.

و ذهل عن أن هذا التدرج الذى ذكره فى محرمات الطعام،و قاس تحريمها بتحريم الخمر إن

أريد به التدرج من حيث تحريم بعض الافراد بعد بعض فقد عرفت أن الآيه لا تشتمل على أزيد مما تشتمل عليه آيات التحريم السابقه نزولا على هذه الآيه أعنى آيات البقره و الانعام و النحل،و أن المنخنقه و الموقوذه،الخ؛من افراد ما ذكر فيها.

و إن أريد به التدرج من حيث البيان الإجمالى و التفصيلى خوفا من امتناع الناس من القبول ففى غير محله،فإن ما ذكر بالتصريح فى السور السابقه على المائده أعنى الميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير اللّه به أغلب مصداقا،و أكثر ابتلاء،و أوقع فى قلوب الناس من أمثال المنخنقه و الموقوذه و غيرها،و هى أمور نادره التحقق و شاذه الوجود،فما بال تلك الاربعه و هى أهم و أوقع و أكثر يصرح بتحريمها من غير خوف من دلك ثم يتّقى من ذكرها ما لا يعبأ بأمره بالاضافه إليها فيتدرج فى بيان حرمتها،و يخاف من التصريح بها؟

على أن ذلك لو سلّم لم يكن إكمالا للدين،و هل يصح ان يسمى تشريع الاحكام دينا؟ و إبلاغها و بيانها إكمالا للدين؟و لو سلّم فإنما ذلك إكمال لبعض الدين و إتمام لبعض النعمه لا ـ للكل و الجميع،و قد قال تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» فأطلق القوم من غير تقييد.

على أنه تعالى قد بيّن أحكاما كثيره فى ايام كثيره،فما بال هذا الحكم فى هذا اليوم خص بالمزيه فسماه اللّه أو سمّى بيانه تفصيلا بإشمال الدين و إتمام النعمه؟

أو أن المراد بإكمال الدين إكماله بسد باب التشريع بعد هذه الآيه المبيّنه لتفصيل محرمات الطعام،فما شأن الاحكام النازله ما بين نزول المائده و رحله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟بل ما شأن سائر الاحكام النازله بعد هذه الآيه فى سوره المائده؟تأمّل فيه.

و بعد ذلك كله ما معنى قوله تعالى: «وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاٰمَ دِيناً» -و تقديره:اليوم رضيت،الخ؛-لو كان المراد بالكلام الامتنان بما ذكر فى الآيه من المحرمات يوم عرفه من السنه العاشره؟و ما وجه اختصاص هذا اليوم بأن اللّه سبحانه رضى فيه الاسلام دينا،و لا أمر

يختص به اليوم مما يناسب هذا الرضى؟.

و بعد ذلك كله يرد على هذا الوجه أكثر الاشكالات الوارده على الوجوه السابقه أو ما يقرب منها مما تقدم بيانه،و لا نطيل بالإعاده.

أو أن المراد باليوم واحد من الايام التى بين عرفه و بين ورود النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم المدينه على بعض الوجوه المذكوره فى معنى يأس الكفار و معنى إكمال الدين.

و فيه من الإشكال ما يرد على غيره على التفصيل المتقدّم.

فهذا شطر من البحث عن الآيه بحسب السير فيما قيل أو يمكن ان يقال فى توجيه معناها، و لنبحث عنها من طريق آخر يناسب طريق البحث الخاص بهذا الكتاب.

قوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ» -و اليأس يقابل الرجاء،و الدين إنما نزل من عند اللّه تدريجا-يدل على ان الكفار قد كان لهم مطمع فى دين المسلمين و هو الاسلام،و كانوا يرجون زواله بنحو منذ عهد و زمان،و أن أمرهم ذلك كان يهدد الاسلام حينا بعد حين،و كان الدين منهم على خطر يوما بعد يوم،و أن ذلك كان من حقه ان يحذر منه و يخشاه المؤمنون.

فقوله: «فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ» ،تأمين منه سبحانه للمؤمنين مما كانوا منه على خطر،و من تسرّ به على خشيه،قال تعالى: وَدَّتْ طٰائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ (آل عمران/۶۹)، و قال تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِكُمْ كُفّٰاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (البقره/۱۰۹).

و الكفار لم يكونوا يتربصون الدوائر بالمسلمين إلا لدينهم،و لم يكن يضيق صدورهم و ينصدع قلوبهم إلا من جهه ان الدين كان يذهب بسؤددهم و شرفهم و استرسالهم فى اقتراف كل ما تهواه طباعهم،و تألفه و تعتاد به نفوسهم،و يختم على تمتعهم بكل ما يشتهون بلا قيد

و شرط.

فقد كان الدين هو المبغوض عندهم دون اهل الدين الا من جهه دينهم الحق فلم يكن فى قصدهم إباده المسلمين و إفناء جمعهم بل إطفاء نور اللّه و تحكيم اركان الشرك المتزلزله المضطربه به،و ردّ المؤمنين كفارا كما مر فى قوله: «لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفّاراً» الآيه؛قال تعالى:

يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ اللّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (الصف۹/).

و قد قال تعالى فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (المؤمن۱۴/).

و لذلك لم يكن لهم همّ إلا ان يقطعوا هذه الشجره الطيبه من أصلها،و يهدموا هذا البنيان الرفيع من أسّه بتفتين المؤمنين و تسريه النفاق فى جماعتهم و بث الشبه و الخرافات بينهم لإفساد دينهم.

و قد كانوا يأخذون بادئ الامر يفترّون عزيمه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و يستمحقون همّته فى الدعوه الدينيه بالمال و الجاه،كما يشير اليه قوله تعالى: وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (ص۶/)أو بمخالطه أو مداهنه،كما يشير اليه قوله: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (القلم۹/)،و قوله: وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (الإسراء۷۴/)،و قوله: يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (الكافرون۳/)على ما ورد فى اسباب النزول.

و كان آخر ما يرجونه فى زوال الدين،و موت الدعوه المحقه،أنه سيموت بموت هذا القائم بأمره و لا عقب له،فإنهم كانوا يرون أنه ملك فى صوره النبوّه،و سلطنه فى لباس الدعوه و الرساله،فلو مات أو قتل لانقطع أثره و مات ذكره و ذكر دينه على ما هو المشهود عاده من حال السلاطين و الجبابره أنهم مهما بلغ أمرهم من التعالى و التجبر و ركوب رقاب الناس فإن ذكرهم يموت بموتهم،و سننهم و قوانينهم الحاكمه بين الناس و عليهم تدفن معهم فى قبورهم،

يشير الى رجائهم هذا قوله تعالى: إِنَّ شٰانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ (الکوثر/۳)على ما ورد فى أسباب النزول.

فقد كان هذه و أمثالها أمانى تمكّن الرجاء من نفوسهم،و تطمعهم فى إطفاء نور الدين، و تزيّن لأوهامهم ان هذه الدعوه الطاهره ليست الا أحدوثه ستكذبه المقادير و يقضى عليها و يعفو أثرها مرور الايام و الليالى،لكن ظهور الاسلام تدريجا على كل ما نازله من دين و أهله،و انتشار صيته،و اعتلاء كلمته بالشوكه و القوه قضى على هذه الأمانى فيئسوا من إفساد عزيمه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و إيقاف همّته عند بعض ما كان يريده،و تطميعه بمال أو جاه.

قوه الاسلام و شوكته أيأستهم من جميع تلك الاسباب:-أسباب الرجاء-إلا واحدا، و هو أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم مقطوع العقب لا ولد له تخلفه فى أمره،و يقوم على ما قام عليه من الدعوه الدينيه فسيموت دينه بموته،و ذلك أن من البديهى ان كمال الدين من جهه أحكامه و معارفه -و إن بلغ ما بلغ-لا يقوى بنفسه على حفظ نفسه،و أن سنه من السنن المحدثه و الأديان المتبعه لا تبقى على نضارتها و صفائها لا بنفسها و لا بانتشار صيتها و لا بكثره المنتحلين بها،كما أنها لا تنمحى و لا تنطمس بقهر أو جبر أو تهديد أو فتنه أو عذاب أو غير ذلك إلا بموت حملتها و حفظتها و القائمين بتدبير أمرها.

و من جميع ما تقدم يظهر ان تمام يأس الكفار إنما كان يتحقق عند الاعتبار الصحيح بأن ينصب اللّه لهذا الدين من يقوم مقام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى حفظه و تدبير أمره،و إرشاد الامه القائمه به فيتعقب ذلك يأس الذين كفروا من دين المسلمين لما شاهدوا خروج الدين عن مرحله القيام بالحامل الشخصى الى مرحله القيام بالحامل النوعى،و يكون ذلك إكمالا للدين بتحويله من صفه الحدوث الى صفه البقاء،و إتماما لهذه النعمه،و ليس يبعد ان يكون قوله تعالى: وَدَّ کَثِیرٌ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ لَوْ یَرُدُّونَکُمْ مِنْ بَعْدِ إِیمٰانِکُمْ کُفّٰاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَیَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتّٰی یَأْتِیَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّٰهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ

(البقره۱۰۹/)باشتماله على قوله: «حَتّٰى يَأْتِيَ» ،اشاره الى هذا المعنى.

و هذا يؤيد ما ورد من الروايات ان الآيه نزلت يوم غدير خم،و هو اليوم الثامن عشر من ذى الحجه سنه عشر من الهجره فى أمر ولايه على عليه السّلام،و على هذا فيرتبط الفقرتان أوضح الارتباط،و لا يرد عليه شىء من الإشكالات المتقدمه.

ثم إنـك بعـد مـا عرفت معنى اليـأس فى الآـيه تعرف أن اليـوم فى قوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» ظرف متعلق بقوله: «يَئِسَ» و أن التقـديم للـدلاله على تفخيم أمر اليوم، و تعظيم شأنه،لما فيه من خروج الـدين من مرحله القيام بالقيّم الشخصـى الى مرحله القيام بالقيّم النوعى،و من صفه الظهور و الحدوث الى صفه البقاء و الدوام.

و لاـ يقـاس الآـيه بمـا سـيأتى من قوله: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبٰاتُ» الآيه؛فإن سـياق الآيتين مختلف فقوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ» ،فى سـياق الاـعتراض،و قوله: «الْيَوْمَ أُحِلَّ» ،فى سـياق الاستيناف،و الحكمان مختلفان:فحكم الآيه الاولى تكوينى مشـتمل على البشـرى من وجه و التحـذير من وجه آخر،و حكم الثانيه تشـريعى منبئ عن الامتنان.فقوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ» ، يـدل على تعظيم أمر اليوم لاشـتماله على خير عظيم الجـدوى و هو يأس الذى كفروا من دين المؤمنين،و المراد بالذين كفروا-كما تقدمت الإشاره اليه-مطلق الكفار من الوثنيين و اليهود و النصارى و غيرهم لمكان الإطلاق.

و أما قوله: فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ فالنهى إرشادى لا مولوى،معناه أن لا موجب للخشـيه بعـد يأس الـذين كنتم فى معرض الخطر من قبلهم-و من المعلوم ان الانسان لا يهم بأمر بعـد تمام اليأس من الحصول عليه و لا يسـعى الى ما يعلم ضـلال سعيه فيه-فأنتم فى أمن من ناحيه الكفار،و لا ينبغى لكم مع ذلك الخشيه منهم على دينكم فلا تخشوهم و اخشونى.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله: «وَ اخْشَوْنِ» بمقتضى السياق أن اخشونى فيما كان عليكم ان

تخشوهم فيه لو لا يأسهم و هو الدين و نزعه من أيديكم،و هذا نوع تهديد للمسلمين كما هو ظاهر،و لهذا لم نحمل الآيه على الامتنان.

و يؤيد ما ذكرنا ان الخشيه من اللّه سبحانه واجب على أى تقدير من غير ان يتعلق بوضع دون وضع،و شرط دون شرط،فلا وجه للإضراب من قوله: «فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ» الى قوله:

«وَ اخْشَوْنِ» لو لا أنها خشيه خاصه فى مورد خاص.

و لاـ تقاس الآيه بقوله تعالى: فَلاٰ تَخٰافُوهُمْ وَ خٰافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران/ ۱۷۵)لأن الامر بالخوف من اللّه فى تلك الآيه مشروط بالإيمان،و الخطاب مولوى،و مفاده انه لا يجوز للمؤمنين ان يخافوا الكفار على أنفسهم بل يجب ان يخافوا اللّه سبحانه وحده.

فالآـيه تنهاهم عما ليس لهم بحق و هو الخوف منهم على أنفسهم سواء أمروا بالخوف من اللّه ام لاـو لذلك يعلل ثانيا الامر بالخوف من اللّه بقيد مشعر بالتعليل،و هو قوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» و هذا بخلاف قوله: «فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» فإن خشيتهم هذه خشيه منهم على دينهم،و ليست بمبغوضه للّه سبحانه لرجوعها الى ابتغاء مرضاته بالحقيقه،بل إنما النهى عنها لكون السبب الداعى إليها-و هو عدم يأس الكفار منه-قد ارتفع و سقط أثره فالنهى عنه إرشادى،فكذا الامر بخشيه اللّه نفسه،و مفاد الكلام ان من الواجب أن تخشوا فى امر الدين، لكن سبب الخشيه كان الى اليوم مع الكفار فكنتم تخشونهم لرجائهم فى دينكم و قد يئسوا اليوم و انتقل السبب الى ما عند اللّه فاخشوه وحده.فافهم ذلك.

فالآيه لمكان قوله: «فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» لا تخلو عن تهديد و تحذير،لأن فيه أمرا بخشيه خاصه دون الخشيه العامه التى تجب على المؤمن على كل تقدير و فى جميع الاحوال، فلننظر فى خصوصيه هذه الخشيه،و أنه ما هو السبب الموجب لوجوبها و الامر بها؟.

لا إشكال فى ان الفقرتين أعنى قوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ» ،و قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» ،فى الآيه مرتبطتان مسوقتان لغرض واحد،و قد تقدم بيانه،فالدين

الـذى أكمله اللّه اليوم،و النعمه التى أتمها اليوم-و هما أمر واحـد بحسب الحقيقه-هو الـذى كان يطمع فيه الكفار و يخشاهم فيه المؤمنون فأيأسـهم اللّه منه و أكمله و أتمه،و نهاهم عن أن يخشوهم فيه،فالـذى أمرهم بالخشـيه من نفسه فيه هو ذاک بعينه و هو أن ينزع اللّه الدين من ايديهم،و يسلبهم هذه النعمه الموهوبه.

و قد بيّن اللّه سبحانه ان لا سبب لسلب النعمه إلا الكفر بها،و هدد الكفور أشد التهديد، قال تعالى: ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَهً أَنْعَمَهٰا عَلیٰ قَوْمٍ حَتّٰی یُغَیِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (الأنفال۵۳/)و قال تعالى: وَ مَنْ یُبَدِّلْ نِعْمَهَ اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُ فَإِنَّ اللّٰهَ شَدِیدُ الْعِقٰابِ (البقره۲۱۱/)و ضـرب مثلا كليا لنعمه و ما يؤول اليه أمر الكفر بها فقال وَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً قَرْیَهً کٰانَتْ آمِنَهً مُطْمَئِنَّهً یَأْتِیهٰا رِزْقُهٰا رَغَداً مِنْ کُلِّ مَکٰانٍ فَکَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّٰهِ فَأَذٰاقَهَا اللّٰهُ لِبٰاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِمٰا کٰانُوا یَصْنَعُونَ (النحل۱۱۲/).

فالآـيه أعنى قوله: «الْیَوْمَ یَئِسَ -الى قوله- دِیناً» تؤذن بـأن دين المسـلمين فى أمن من جهه الكفار،مصون من الخطر المتوجه من قبلهم،و أنه لا يتسرب اليه شـىء من طوارق الفساد و الهلاک إلا من قبل المسلمين أنفسهم،و أن ذلک إنما يكون بكفرهم بهذه النعمه التـامه، و رفضـهم هـذا الـدين الكامـل المرضـى،و يومئـذ يسـلبهم اللّه نعمته و يغيرها الى النقمه،و يـذيقهم لباس الجوع و الخوف،و قد فعلوا و فعل.

و من أراد الوقوف على مبلغ صدق هذه الآيه فى ملحمتها المسـتفاده من قوله: «فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» فعليه ان يتأمل فيما استقر عليه حال العالم الاسلامى اليوم ثم يرجع القهقرى بتحليل الحوادث التاريخيه حتى يحصل على أصول القضايا و أعراقها.

و لآيات الولايه فى القرآن ارتباط تام بما فى هذه الآيه،من التحذير و الإيعاد،و لم يحذّر اللّه العباد عن نفسه فى كتابه إلا فى باب الولاـيه،فقـال فيها مره بعـد مره وَ یُحَذِّرُکُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ (آل عمران۲۸/ و ۳۰)و تعقيب هـذا البحث أزيـد من هـذا خروج عن طور الكتاب.

قوله تعالى: اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكَمْ دِينَكَمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكَمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكَمُ الْإِسْلاَمَ دِيناً الإكمال و الإتمام متقاربا المعنى،قال الراغب:كمال الشىء حصول ما هو الغرض منه.و قال:تمام الشىء انتهاؤه الى حد لا يحتاج الى شىء خارج عنه،و الناقص ما يحتاج الى شىء خارج عنه.

و لك ان تحصل على تشخيص معنى اللفظين من طريق آخر،و هو ان آثار الاشياء التى لها آثار على ضربين.فضرب منها ما يترتب على الشىء عند وجود جميع اجزائه-إن كان له اجزاء-بحيث لو فقد شيئا من أجزائه أو شرائطه لم يترتب عليه ذلك الامر كالصوم فإنه يفسد اذا أخل بالإمساك فى بعض النهار،و يسمى كون الشىء على هذا الوصف بالتمام،قال تعالى:

ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ (البقره/١٨٧)،و قال: وَ تَمَّتْ كَلِمَهُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلاً (الأنعام/١١٥).

و ضرب آخر:الأثر الذى يترتب على الشىء من غير توقف على حصول جميع أجزائه، بل أثر المجموع كمجموع آثار الاجزاء،فكلما وجد جزء ترتب عليه من الاثر ما هو بحسبه، و لو وجد الجميع ترتب عليه كل الاثر المطلوب منه،قال تعالى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَهِ أَيّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَهٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَهٌ كامِلَهٌ (البقره/١٩۶)و قال: وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّهَ (البقره/١٨۵)فإن هذا العدد يترتب الأثر على بعضه كما يترتب على كله،و يقال:تم لفلان امره و كمل عقله،و لا يقال:تمّ عقله و كمل امره.

و أما الفرق بين الإكمال و التكميل،و كذا بين الاتمام و التتميم فإنما هو الفرق بين بابى الإفعال و التفعيل،و هو ان الإفعال بحسب الاصل يدل الدفعه و التفعيل على التدريج،و إن كان التوسع الكلامى أو التطور اللغوى ربما يتصرف فى البابين بتحويلهما الى ما يبعد من مجرى المجرد أو من أصلهما كالإحسان و التحسين،و الإصداق و التصديق،و الامداد و التمديد و الافراط و التفريط،و غير ذلك،فإنما هى معان طرأت بحسب خصوصيات الموارد ثم تمكنت

فی اللفظ بالاستعمال.

و ینتج ما تقدم ان قوله: «أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِی» یفید أن المراد بالدین هو مجموع المعارف و الاحکام المشرّعه و قد أضیف الی عددها الیوم شیء و أن النعمه أیاما کانت امر معنوی واحد کأنه کان ناقصا غیر ذی اثر فتمم و ترتب علیه الأثر المتوقع منه.

و النعمه بناء نوع و هی ما یلائم طبع الشیء من غیر امتناعه منه،و الاشیاء و إن کانت بحسب وقوعها فی نظام التدبیر متصله مرتبطه متلائما بعضها مع بعض،و أکثرها أو جمیعها نعم اذا أضیفت الی بعض آخر مفروض کما قال تعالی: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا (إبراهیم۳۴/)و قال: وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظٰاهِرَةً وَ بٰاطِنَةً (لقمان۲۰/).

إلا انه تعالی وصف بعضها بالشر و الخمسه و اللعب و اللهو و أوصاف أخر غیر ممدوحه کما قال: وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمٰا نُمْلِی لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمٰا نُمْلِی لَهُمْ لِيَزْدٰادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ (آل عمران۱۷۸/)،و قال: وَ مٰا هٰذِهِ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا إِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوٰانُ (العنکبوت۶۴/)،و قال: لاٰ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِی الْبِلاٰدِ مَتٰاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهٰادُ (آل عمران۱۹۷/)الی غیر ذلک.

و الآیات تدل علی ان هذه الاشیاء المعدوده نعما إنما تکون نعمه اذا وافقت الغرض الالهی من خلقتها لأجل الانسان،فإنها إنما خلقت لتکون إمدادا إلهیا للانسان یتصرف فیها فی سبیل سعاده الحقیقیه،و هی القرب منه سبحانه بالعبودیه و الخضوع للربوبیه،قال تعالی: وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ (الذاریات۵۶/).

فکل ما تصرّف فیه الانسان للسلوک به الی حضره القرب من اللّه و ابتغاء مرضاته فهو نعمه،و إن انعکس الأمر عاد نقمه فی حقه،فالاشیاء فی نفسها عزل،و إنما هی نعمه لاشتمالها علی روح العبودیه،و دخولها من حیث التصرف المذکور تحت ولایه اللّه التی هی تدبیر

الربوبيه لشئون العبد،و لازمه أن النعمه بالحقيقه هى الولايه الإلهيه،و أن الشىء إنما يصير نعمه اذا كان مشتملا على شىء منها،قال تعالى: اَللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ (البقره/۲۵۷)،و قال تعالى: ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكٰافِرِينَ لاٰ مَوْلىٰ لَهُمْ (محمد/۱۱)و قال فى حق رسوله: فَلاٰ وَ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ حَتّٰى يُحَكِّمُوكَ فِيمٰا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاٰ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (النساء/ ۶۵)الى غير ذلك.

فالاسلام و هو مجموع ما نزل من عند اللّه سبحانه ليعبده به عباده دين،و هو من جهه اشتماله-من حيث العمل به-على ولايه اللّه و ولايه رسوله و أولياء الأمر بعده نعمه.

و لا يتم ولايه اللّه سبحانه أى تدبيره بالدين لامور عباده إلا بولايه رسوله،و لا ولايه رسوله إلا بولايه أولى الأمر من بعده،و هى تدبيرهم لامور الامه الدينيه بإذن من اللّه،قال تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (النساء/۵۹) و قد مر الكلام فى معنى الآيه،و قال: إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ (المائده/۵۵)و سيجىء الكلام فى معنى الآيه إن شاء اللّه تعالى.

مفصّل معنى الآيه:اليوم-و هو اليوم الذى يئس فيه الذين كفروا من دينكم-أكملت لكم مجموع المعارف الدينيه التى أنزلتها إليكم بفرض الولايه،و أتممت عليكم نعمتى و هى الولايه التى هى إداره أمور الدين و تدبيرها تدبيرا إلهيا،فإنها كانت الى اليوم ولايه اللّه و رسوله،و هى إنما تكفى ما دام الوحى ينزل،و لا تكفى لما بعد ذلك من زمان انقطاع الوحى،و لا رسول بين الناس يحمى دين اللّه و يذب عنه بل من الواجب أن ينصب من يقوم بذلك،و هو ولى الأمر بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم القيّم على أمور الدين و الامه.

فالولايه مشروعه واحده،كانت ناقصه غير تامه حتى اذا تمت بنصب ولى الأمر بعد

النبی.

و اذا کمل الدین فی تشریعه،و تمت نعمه الولایه فقد رضیت لکم من حیث الدین الاسلام الذی هو دین التوحید الذی لا یعبد فیه إلا اللّه و لا یطاع فیه-و الطاعه عباده-إلا اللّه و من أمر بطاعته من رسول أو ولی.

فالآیه تنبئ عن أن المؤمنین الیوم فی أمن بعد خوفهم،و أن اللّه رضی لهم أن یتدیّنوا بالاسلام الذی هو دین التوحید فعلیهم أن یعبدوه و لا یشرکوا به شیئا بطاعه غیر اللّه أو من أمر بطاعته.و اذا تدبرت قوله تعالی: وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضیٰ لَهُمْ وَ لَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً یَعْبُدُونَنِی لاٰ یُشْرِکُونَ بِی شَیْئاً وَ مَنْ کَفَرَ بَعْدَ ذٰلِکَ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ (النور٥٥/)ثم طبقت فقرات الآیه علی فقرات قوله تعالی: «الْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ» الخ؛وجدت آیه سوره المائده من مصادیق إنجاز الوعد الذی یشتمل علیه آیه سوره النور علی أن یکون قوله: «یَعْبُدُونَنِی لاٰ یُشْرِکُونَ بِی شَیْئاً» مسوقا سوق الغایه کما ربما یشعر به قوله: «وَ مَنْ کَفَرَ بَعْدَ ذٰلِکَ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ» .

و سوره النور قبل المائده نزولا کما یدل علیه اشتمالها علی قصه الإفک و آیه الجلد و آیه الحجاب و غیر ذلک.

قوله تعالی: فَمَنِ اضْطُرَّ فِی مَخْمَصَهٍ غَیْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ المخمصه هی المجاعه،و التجانف هو التمایل من الجنف بالجیم و هو میل القدمین الی الخارج مقابل الحنف بالحاء الذی هو میلهما الی الداخل.

و فی سیاق الآیه دلاله اولا علی أن الحکم حکم ثانوی اضطراری،و ثانیا علی أن التجویز و الإباحه مقدر بمقدار یرتفع به الاضطرار و یسکن به ألم الجوع،و ثالثا علی أن صفه المغفره و مثلها الرحمه کما تتعلق بالمعاصی المستوجبه للعقاب کذلک یصح أن تتعلق بمنشئها،و هو

الحکم الذی یستتبع مخالفته تحقّق عنوان المعصیه الذی یستتبع العقاب (۱)(۲).

بحث روائی آخر:

فی غایه المرام:عن أبی المؤید موفق بن احمد فی کتاب فضائل علی،قال:أخبرنی سید الحفّاظ شهردار بن شیرویه بن شهردار الدیلمی فیما کتب إلی من همدان،أخبرنا ابو الفتح عبدوس بن عبد اللّه بن عبدوس الهمدانی کتابه،حدثنا عبد اللّه بن إسحاق البغوی،حدثنا الحسین بن علیل الغنوی،حدثنا محمد بن عبد الرحمن الزراع،حدثنا قیس بن حفص، حدثنا علی بن الحسین،حدثنا ابو هریره عن ابی سعید الخدری:إن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم یوم دعا الناس الی غدیر خم أمر بما تحت الشجره من شوک فقم،و ذلک یوم الخمیس یوم دعا الناس الی علیّ و أخذ بضبعه ثم رفعها حتی نظر الناس الی بیاض إبطیه ثم لم یفترقا حتی نزلت هذه الآیه: اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلاٰمَ دِیناً فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:اللّه أکبر علی إکمال الدین و إتمام النعمه و رضا الرب برسالتی و الولایه لعلی، ثم قال:اللهم وال من والاه،و عاد من عاداه،و انصر من نصره،و اخذل من خذله.

و قال حسّان بن ثابت:أ تأذن لی یا رسول اللّه أن أقول أبیاتا؟قال:قل ینزله اللّه تعالی، فقال حسان بن ثابت:

ینادیهم یوم الغدیر نبیهم

بخمّ و أسمع بالنبی منادیا

بأنی مولاکم نعم و ولیکم

فقالوا و لم یبدوا هناک التعامیا

إلهک مولانا و أنت ولینا

و لا تجدن فی الخلق للأمر عاصیا

ص :۳۳

۱- ۱) .المائده ۱-۳:بحث علمی فی فصول ثلاثه(العقائد فی اکل اللحم،کیف امر بقتل الحیوان و الرحمه تأباه،لما ذا بنی الاسلام علی التذکیه.

۲- ۲) .المائده ۱-۳:بحث روائی حول «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا» ؛شعائر اللّه آمین البیت الحرام؛الحیوانات التی حرّم اکلها.

فقال له قم يا علی فإننی

رضیتک من بعدی إماما و هادیا

و عن کتاب نزول القرآن فی أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب للحافظ أبی نعیم رفعه إلی قیس بن الربیع،عن أبی هارون العبدی،عن أبی سعید الخدری مثله،و قال فی آخر الأبیات:

فمن کنت مولاه فهذا ولیه

فکونوا له أنصار صدق موالیا

هناک دعا اللهم وال ولیه

و کن للذی عادی علیا معادیا

و عن نزول القرآن أیضا یرفعه إلی علی بن عامر عن أبی الحجاف عن الأعمش عن عضه قال:نزلت هذه الآیه علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی علی بن ابی طالب: یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ و قد قال اللّه تعالی: اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلاٰمَ دِیناً .

و عن إبراهیم بن محمد الحموینی قال:أنبأنی الشیخ تاج الدین أبو طالب علی بن الحسین ابن عثمان بن عبد اللّه الخازن،قال:أنبأنا الإمام برهان الدین ناصر بن ابی المکارم المطرزی إجازه،قال:أنبأنا الإمام اخطب خوارزم ابو المؤید موفق بن احمد المکی الخوارزمی،قال:

انبأنی سید الحفاظ فی ما کتب إلی من همدان،انبأنا الرئیس ابو الفتح کتابه،حدثنا عبد اللّه بن إسحاق البغوی،نبأنا الحسن بن عقیل الغنوی،نبأنا محمد بن عبد اللّه الزّراع،نبأنا قیس بن حفص قال:حدثنی علی بن الحسین العبدی عن ابی هارون العبدی عن ابی سعید الخدری، و ذکر مثل الحدیث الأول.

و عن الحموینی أیضا عن الحفاظ و أبو منصور شهردار بن شیرویه بن شهردار الدیلمی، قال:أخبرنا الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد المقرئ الحافظ عن أحمد بن عبد اللّه بن احمد، قال:نبأنا محمد بن احمد بن علی،قال:نبأنا محمد بن عثمان بن أبی شیبه،قال:نبأنا یحیی الحمانی،قال:حدثنا قیس بن الربیع عن أبی هارون العبدی عن أبی سعید الخدری،و ذکر مثل الحدیث الاول.

قال:قال الحموینی عقیب هذا الحدیث:هذا حدیث له طرق کثیره إلی أبی سعید سعد بن مالک الخدری الأنصاری.

و عن المناقب الفاخره للسید الرضی رحمه اللّه عن محمد بن إسحاق،عن أبی جعفر،عن أبیه عن جده قال:لما انصرف رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم من حجه الوداع نزل أرضا یقال له:ضوجان، فنزلت هذه الآیه: یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ وَ اللّٰهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النّٰاسِ فلما نزلت عصمته من الناس نادی:الصلاه جامعه فاجتمع الناس إلیه،و قال:من أولی منکم بأنفسکم:فضجوا بأجمعهم فقالوا:اللّه و رسوله فأخذ بید علی بن أبی طالب،و قال:من کنت مولاه فعلی مولاه،اللهم وال من والاه،و عاد من عاداه،و أنصر من نصره،و اخذل من خذله لانه منی و أنا منه،و هو منی بمنزله هارون من موسی إلا أنه لا نبی بعدی.و کانت آخر فریضه فرضها اللّه تعالی علی أمه محمد ثم أنزل اللّه تعالی علی نبیه: اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلاٰمَ دِیناً .

قال ابو جعفر:فقبلوا من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کل ما امرهم اللّه من الفرائض فی الصلاه و الصوم و الزکاه و الحج،و صدقوه علی ذلک.

قال ابن إسحاق:قلت لأبی جعفر:ما کان ذلک؟قال لتسع (۱)عشره لیله خلت من ذی الحجه سنه عشره عند منصرفه من حجه الوداع،و کان بین ذلک و بین النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم مائه یوم و کان سمع (۲)رسول اللّه بغدیر خم اثنا عشر.

و عن المناقب لابن المغازلی یرفعه إلی ابی هریره قال:من صام یوم ثمانیه عشر من ذی

۱- ۱) .سبع فی نسخه البرهان.

۲- ۲) .سمی رسول اللّه بغدیر خم اثنا عشر رجلا.نسخه البرهان.

الحجه کتب اللّه له صیامه ستین شهرا،و هو یوم غدیر خم،بها اخذ النبی بیعه علی ابن ابی طالب،و قال:من کنت مولاه فعلی مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه،و انصر من نصره،فقال له عمر بن الخطاب:بخّ بخّ لک یا ابن ابی طالب اصبحت مولای و مولی کل مؤمن و مؤمنه،فأنزل اللّه تعالی: اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ .

و عن المناقب لابن مردویه و کتاب سرقات الشعر للمرزبانی عن ابی سعید الخدری مثل ما تقدم عن الخطیب.

اقول:و روی الحدیثین فی الدر المنثور عن أبی سعید و ابی هریره و وصف سندیهما بالضعف.و قد روی بطرق کثیره تنتهی من الصحابه(لو دقق فیها)إلی عمر بن الخطاب و علی بن أبی طالب و معاویه و سمره:ان الآیه نزلت یوم عرفه من حجه الوداع و کان یوم الجمعه، و المعتمد منها ما روی عن عمر فقد رواه عن الحمیدی و عبد بن حمید و احمد البخاری و مسلم و الترمذی و النسائی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن حبان و البیهقی فی سننه عن طارق ابن شهاب عن عمر،و عن ابن راهویه فی مسنده و عبد بن حمید عن ابی العالیه عن عمر،و عن ابن جریر عن قبیضه بن ابی ذؤیب عن عمر،و عن البزاز عن ابن عباس،و الظاهر أنه یروی عن عمر.

ثم أقول:أما ما ذکره من ضعف سندی الحدیثین فلا یجدیه فی ضعف المتن شیئا فقد أوضحنا فی البیان المتقدم أن مفاد الآیه الکریمه لا یلائم غیر ذلک من جمیع الاحتمالات و المعانی المذکوره فیها،فهاتان الروایتان و ما فی معناهما هی الموافقه للکتاب من بین جمیع الروایات فهی المتعینه للأخذ.

علی أن الأحادیث الداله علی نزول الآیه فی مسأله الولایه-و هی تزید علی عشرین حدیثا من طرق أهل السنه و الشیعه-مرتبطه بما ورد فی سبب نزول قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ الآیه،(المائده/۶۷)؛و هی تربو علی خمسه عشر

حدیثا رواها الفریقان،و الجمیع مرتبط بحدیث الغدیر:«من کنت مولاه فعلی مولاه»و هو حدیث متواتر مروی عن جم غفیر من الصحابه،اعترف بتواتره جمع کثیر من علماء الفریقین.

و من المتفق علیه أن ذلک کان فی منصرف رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم من مکه إلی المدینه.و هذه الولایه(لو لم تحمل علی الهزل و التهکم)فریضه من الفرائض کالتولی و التبری اللذین نص علیهما القرآن فی آیات کثیره،و إذا کان کذلک لم یجز أن یتأخر جعلها عن نزول الآیه أعنی قوله: اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ ،فالآیه إنما نزلت بعد فرضها من اللّه سبحانه،و لا اعتماد علی ما ینافی ذلک من الروایات لو کانت منافیه.

و أما ما رواه من الروایه فقد عرفت ما ینبغی أن یقال فیها غیر أن هاهنا أمرا یجب التنبه له، و هو أن التدبر فی الآیتین الکریمتین: یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ الآیه؛علی ما سیجیء من بیان معناه،و قوله: اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ الآیه؛و الأحادیث الوارده من طرق الفریقین فیهما و روایات الغدیر المتواتره،و کذا دراسه أوضاع المجتمع الاسلامی الداخلیه فی أواخر عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و البحث العمیق فیها یفید القطع بأن أمر الولایه کان نازلا قبل یوم الغدیر بأیام،و کان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم یتقی الناس فی إظهاره،و یخاف أن لا یتلقوه بالقبول أو یسیئوا القصد إلیه فیختل أمر الدعوه،فکان لا یزال یؤخر تبلیغه الناس من یوم إلی غد حتی نزل قوله: یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ الآیه؛فلم یمهل فی ذلک.

و علی هذا فمن الجائز أن ینزل اللّه سبحانه معظم السوره و فیه قوله: اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ الآیه؛و ینزل معه أمر الولایه کل ذلک یوم عرفه فأخر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بیان الولایه إلی غدیر خم،و قد کان تلا آیتها یوم عرفه،و أما اشتمال بعض الروایات علی نزولها یوم الغدیر فلیس من المستبعد أن یکون ذلک لتلاوته صلّی اللّه علیه و آله و سلم الآیه مقارنه لتبلیغ أمر الولایه لکونها فی

شأنها.

و على هذا فلا تنافى بين الروايات أعنى ما دل على نزول الآيه فى امر الولايه،و ما دل على نزولها يوم عرفه كما روى عن عمر و على و معاويه و سمره،فإن التنافى إنما كان يتحقق لو دل أحد القبيلين على النزول يوم غدير خم،و الآخر على النزول على يوم عرفه.

و اما ما فى القبيل الثانى من الروايات أن الآيه تدل على كمال الدين بالحج و ما أشبهه فهو من فهم الراوى لا ينطبق به الكتاب و لا بيان من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم يعتمد عليه.

و ربما استفيد هذا الذى ذكرناه مما رواه العياشى فى تفسيره عن جعفر بن محمد بن محمد الخزاعى عن ابيه قال:سمعت ابا عبد اللّه عليه السّلام يقول لما نزل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عرفات يوم الجمعه أتاه جبرئيل فقال له:إن اللّه يقرئك السلام،و يقول لك:قل لامتك:اليوم أكملت دينكم بولايه على بن ابى طالب و اتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الاسلام دينا و لست أنزل عليكم بعد هذا،قد انزلت عليكم الصلاه و الزكاه و الصوم و الحج،و هى الخامسه،و لست اقبل عليكم بعد هذه الأربعه إلا بها.

على ان فيما نقل عن عمر من نزول الآيه يوم عرفه إشكالا آخر،و هو أنها جميعا تذكر ان بعض اهل الكتاب-و فى بعضها انه كعب-قال لعمر:إن فى القرآن آيه لو نزلت مثلها علينا معشر اليهود لاتخذنا اليوم الذى نزلت فيه عيدا،و هى قوله: اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ الآيه؛فقال له عمر:و اللّه انى لأعلم اليوم و هو يوم عرفه من حجه الوداع.

و لفظ ما رواه ابن راهويه و عبد بن حميد عن أبى العاليه هكذا:قال:كانوا عند عمر فذكروا هذه الآيه،فقال رجل من اهل الكتاب:لو علمنا اى يوم نزلت هذه الآيه لاتخذناه عيدا،فقال عمر الحمد للّه الذى جعله لنا عيدا و اليوم الثانى،نزلت يوم عرفه و اليوم الثانى يوم النحر فأكمل لنا الأمر فعلمنا أن الامر بعد ذلك فى انتقاص.

و ما يتضمنه آخر الروايه مروى بشكل آخر ففى الدر المنثور:عن ابى ابى شيبه و ابن جرير

عن عنتره قال:لما نزلت اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكَمْ دِينَكَمْ و ذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر فقال له النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ما يبكيك؟قال:ابكانى أنّا كنا فى زياده من ديننا فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شىء قط إلا نقص،فقال:صدقت.

و نظيره الروايه بوجه روايه أخرى رواها أيضا فى الدر المنثور عن أحمد عن علقمه ابن عبد اللّه المزى قال:حدثنى رجل قال:كنت فى مجلس عمر بن الخطاب فقال عمر لرجل من القوم:كيف سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم ينعت الاسلام؟قال:سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يقول:إن الاسلام بدئ جذعا ثم ثنيا ثم رباعيا ثم سدسيا ثم بازلا.قال عمر:فما بعد البزول إلا النقصان.

فهذه الروايات-كما ترى-تروم بيان أن معنى نزول الآيه يوم عرفه إلفات نظر الناس إلى ما كانوا يشاهدونه من ظهور أمر الدين و استقلاله بمكه فى الموسم،و تفسير إكمال الدين و إتمام النعمه بصفاء جو مكه و محوضه الأمر للمسلمين يومئذ فلا دين يعبد به يومئذ هناك إلا دينهم من غير أن يخشوا أعداءهم و يتحذروا منهم.

و بعباره أخرى المراد بكمال الدين و تمام النعمه كمال ما بأيديهم يعملون به من غير أن يختلط بهم أعداؤهم أو يكلفوا بالتحذر منهم دون الدين بمعنى الشريعه المجعوله عند اللّه من المعارف و الاحكام،و كذا المراد بالإسلام ظاهر الاسلام الموجود بأيديهم فى مقام العمل.و إن شئت فقل:المراد بالدين صوره الدين المشهوده من أعمالهم،و كذا فى الاسلام،فان هذا المعنى هو الذى يقبل الانتقاص بعد الازدياد.

و أما كليات المعارف و الاحكام المشرعه من اللّه فلا يقبل الانتقاص بعد الازدياد الذى يشير اليه قوله فى الروايه:«إنه لم يكمل شىء قط إلا نقص»فإن ذلك سنه كونيه تجرى أيضا فى التاريخ و الاجتماع بتبع الكون،و أما الدين فإنه غير محكوم بأمثال هذه السنن و النواميس إلا عند من قال:إن الدين سنه اجتماعيه متطورّه متغيره كسائر السنن الاجتماعيه.

ص :٣٩

إذ عرفت ذلك علمت أنه يرد عليه أولا:أن ما ذكر من معنى كمال الـدين لا يصدق عليه قوله تعالى: اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكَمْ دِينَكَمْ و قد مر بيانه.

و ثانيـا:أنه كيف يمكن ان يعـد اللّه سبحانه الـدين بصورته التى كـان يتراءى عليهـا كاملاـ و ينسـبه إلى نفسه امتنانـا بمجرد خلوّ الأرض من ظاهر المشـركين،و كون المجتمع على ظاهر الاسـلام فارغا من أعدائهم المشركين،و فيهم من هو أشد من المشركين إضـرارا و إفسادا،و هم المنافقون على ما كانوا عليه من المجتمعات السريه و التسرب فى داخل المسلمين،و إفساد الحال،و تقليب الامور،و الـدس فى الـدين،و إلقاء الشبـه،فقـد كان لهم نبأ عظيم تعرّض لـذلك آيات جمّه من القرآن كسوره المنافقين و ما فى سوره البقره و النساء و المائده و الأنفال و البراءه و الأحزاب و غيرها.

فليت شعرى أين صـار جمعهم؟و كيـف خمـدت أنفاسـهم؟و على أى طريـق بطـل كيـدهم و زهـق بـاطلهم؟و كيـف يصـح مع وجودهم أن يمتن اللّه يومئـذ على المسـلمين بإكمـال ظاهر دينهم، و إتمام ظاهر النعمه عليهم،و الرضا بظاهر الاسـلام بمجرد أن دفع من مكه أعـداءهم من المسـلمين،و المنافقون أعـدى منهم و أعظم خطرا و أمرّ أثرا!و تصـديق ذلك قوله تعالى يخاطب نبيه فيهم: هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ (المنافقون۴/).

و كيف يمتن اللّه سـبحانه و يصف بالكمال ظاهر دين هذا باطنه،أو يذكر نعمه بالتمام و هى مشوبه بالنقمه،أو يخبر برضاه صوره إسـلام هـذا معناه!و قد قال تعالى وَ مٰا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (الكهف۵۱/).و قـال فى المنـافقين:-و لم يرد إلا دينهم- فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَرْضىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفٰاسِقِينَ (البراءه۹۶/).و الآيه بعـد هذا كله مطلقه لم تقيّد شـيئا من الإكمال و الاتمام و الرضا و لا الدين و الاسلام و النعمه بجهه دون جهه.

فإن قلت:الآيه-كما تقدمت الاشاره إليه-إنجاز للوعد الذى يشتمل عليه قوله تعالى:

وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضىٰ لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِى لاٰ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً الآيه،(النور/۵۵).

فالآيه كما ترى-تعدهم بتمكين دينهم المرضى لهم،و يحاذى ذلك من هذه الآيه قوله:

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ و قوله: وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاٰمَ دِيناً فالمراد بإكمال دينهم المرضى تمكينه لهم أى تخليصه من مزاحمه المشركين،و أما المنافقون فشأنهم شأن آخر غير المزاحمه، و هذا هو المعنى الذى تشير إليه روايات نزولها يوم عرفه،و يذكر القوم ان المراد به تخليص الأعمال الدينيه و العاملين بها من المسلمين من مزاحمه المشركين.

قلت:كون آيه: اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ ،من مصاديق إنجاز ما وعد فى قوله: وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا الآيه؛و كذا كون قوله فى هذه الآيه: أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ،محاذيا لقوله: وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضىٰ لَهُمْ ،فى تلك الآيه و مفيدا معناه كل ذلك لا ريب فيه.

إلا أن آيه سوره النور تبدأ بقوله: وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ و هم طائفه خاصه من المسلمين ظاهر أعمالهم يوافق باطنها،و ما فى مرتبه أعمالهم من الدين يحاذى و ينطبق على ما عند اللّٰه سبحانه من الدين المشرّع،فتمكين دينهم المرضى للّٰه سبحانه لهم إكمال ما فى علم اللّٰه و إرادته من الدين المرضى بإفراغه فى قالب التشريع،و جمع اجزائه عندهم بالإنزال ليعبدوه بذلك بعد إياس الذين كفروا من دينهم.

و هذا ما ذكرناه:أن معنى إكماله الدين إكماله من حيث تشريع الفرائض فلا فريضه مشرّعه بعد نزول الآيه لا تخليص أعمالهم و خاصه حجّهم من اعمال المشركين و حجهم،بحيث لا تختلط أعمالهم بأعمالهم.و بعباره أخرى يكون معنى إكمال الدين رفعه إلى أعلى مدارج الترقى حتى لا يقبل الانتقاص بعد الازدياد.

و فى تفسير القمى قال:حدثنى ابى،عن صفوان بن يحيى،عن العلاء،عن محمد بن مسلم عن ابى جعفر عليه السّلام قال:آخر فريضه أنزلها الولايه ثم لم ينزل بعدها فريضه ثم أنزل: اَلْيَوْمَ

أَکْمَلْتُ لَکَمْ دِینَکَمْ بکراع الغمیم،فأقامها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالجحفه فلم ینزل بعدها فریضه.

اقول:و روی هذا المعنی الطبرسی فی المجمع عن الإمامین:الباقر و الصادق علیهما السّلام و رواه العیاشی فی تفسیره عن زراره عن الباقر علیه السّلام.

و فی أمالی الشیخ بإسناده،عن محمد،عن أبیه أبی عبد اللّه علیه السّلام،عن علی أمیر المؤمنین علیه السّلام قال:سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم یقول:بناء الإسلام علی خمس خصال:علی الشهادتین، و القرینتین.قیل له:أما الشهادتان فقد عرفنا فما القرینتان؟قال:الصلاه و الزکاه فإنه لا تقبل إحداهما إلا بالاخری،و الصیام و حج بیت اللّه من استطاع إلیه سبیلا،و ختم ذلک بالولایه فأنزل اللّه عزّ و جل: اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلاٰمَ دِیناً .

و فی روضه الواعظین للفتال،ابن الفارسی عن أبی جعفر علیه السّلام و ذکر قصه خروج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم للحج ثم نصبه علیا للولایه عند منصرفه إلی المدینه و نزول الآیه،و فیه خطبه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم یوم الغدیر و هی خطبه طویله جدا.

أقول:روی مثله الطبرسی فی الاحتجاج بإسناد متصل عن الحضرمی عن أبی جعفر الباقر علیه السّلام،و روی نزول الآیه فی الولایه أیضا الکلینی فی الکافی و الصدوق فی العیون جمیعا مسندا عن عبد العزیز بن مسلم عن الرضا علیه السّلام،و روی نزولها فیها أیضا الشیخ فی أمالیه بإسناده عن ابن أبی عمیر عن المفضل بن عمر عن الصادق عن جده أمیر المؤمنین علیه السّلام، و روی ذلک أیضا الطبرسی فی المجمع بإسناده عن أبی هارون العبدی عن ابی سعید الخدری، و روی ذلک الشیخ فی أمالیه بإسناده عن إسحاق بن إسماعیل النیسابوری عن الصادق عن آبائه عن الحسن بن علی علیهم السّلام و قد ترکنا إیراد الروایات علی طولها إیثارا للاختصار فمن أراد فلیراجع محالها و اللّه الهادی.

[سوره المائده (۵): الآيات ۴ الى ۵]

اشاره

يَسْئَلُونَكَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ اَلطَّيِّبٰاتُ وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ اَلْجَوٰارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَكُمُ اَللّٰهُ فَكُلُوا مِمّٰا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اُذْكُرُوا اِسْمَ اَللّٰهِ عَلَيْهِ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ سَرِيعُ اَلْحِسٰابِ (۴) اَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ اَلطَّيِّبٰاتُ وَ طَعٰامُ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعٰامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ اَلْمُحْصَنٰاتُ مِنَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ وَ اَلْمُحْصَنٰاتُ مِنَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذٰا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسٰافِحِينَ وَ لاٰ مُتَّخِذِي أَخْدٰانٍ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمٰانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِي اَلْآخِرَةِ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ (۵)

بيان:

قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبٰاتُ سؤال مطلق أوجب عنه بجواب عام مطلق فيه إعطاء الضابط الكلى الذى يميز الحلال من الحرام،و هو أن يكون ما يقصد التصرف فيه بما يعهد فى مثله من التصرفات أمرا طيبا،و إطلاق الطيب أيضا من غير تقييده بشىء يوجب أن يكون المعتبر فى تشخيص طيبه استطابه الأفهام المتعارفه ذلك فما يستطاب عند الأفهام العاديه فهو طيب،و جميع ما هو طيب حلال.

و إنما نزلنا الحليه و الطيب على المتعارف المعهود لمكان أن الإطلاق لا يشمل غيره على ما بين فى فن الاصول.

ص: ۴۳

قوله تعالی: وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَكُمُ اللّٰهُ فَكُلُوا مِمّٰا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلَيْهِ قيل:إن الكلام معطوف علی موضع الطيبات أی و أحل لكم ما علمتم من الجوارح أی صيد ما علمتم من الجوارح، فالكلام بتقدير مضاف محذوف اختصارا لدلاله السياق عليه.

و الظاهر أن الجمله معطوفه علی موضع الجمله الاولی.و «مٰا» فی قوله: «وَ مٰا عَلَّمْتُمْ» شرطيه و جزاؤها قوله: «فَكُلُوا مِمّٰا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ» من غير حاجه الی تكلف التقدير.

و الجوارح جمع جارحه و هی التی تكسب الصيد من الطير و السباع كالصقر و البازی و الكلاب و الفهود،و قوله: «مُكَلِّبِينَ» حال،و أصل التكليب تعليم الكلاب و تربيتها للصيد أو اتخاذ كلاب الصيد و إرسالها لذلك،و تقييد الجمله بالتكليب لا يخلو من دلاله علی كون الحكم مختصا بكلب الصيد لا يعدوه الی غيره من الجوارح.

و قوله: «مِمّٰا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ» التقييد بالظرف للدلاله علی أن الحل محدود بصوره صيدها لصاحبها لا لنفسها.

و قوله: «وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلَيْهِ» تتميم لشرائط الحل و أن يكون الصيد مع كونه مصطادا بالجوارح و من طريق التكليب و الإمساك علی الصائد مذكورا عليه اسم اللّٰه تعالی.

و محصل المعنی أن الجوارح المعلمه بالتكليب-أی كلاب الصيد-اذا كانت معلمه و اصطادت لكم شيئا من الوحش الذی يحل أكله بالتذكيه و قد سميتم عليه فكلوا منه اذا قتلته دون أن تصلوا إليه فذلك تذكيه له،و أما دون القتل فالتذكيه بالذبح و الإهلال به للّه يغنی عن هذا الحكم.

ثم ذيل الكلام بقوله: «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسٰابِ» إشعارا بلزوم اتقاء اللّه فيه حتی لا يكون الاصطياد إسرافا فی القتل،و لا عن تله و تجبر كما فی صيد اللهو و نحوه فإن اللّه سريع الحساب يجازی سيئه الظلم و العدوان فی الدنيا قبل الآخره،و لا يسلك أمثال هذه المظالم

و العدوانات بالاغتيال و الفتک بالحیوان العجم إلا الی عاقبه سوآی علی ما شاهدنا کثیرا.

قوله تعالی: اَلْیَوْمَ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ حِلٌّ لَکُمْ وَ طَعامُکُمْ حِلٌّ لَهُمْ إعاده ذکر حل الطیبات مع ذکره فی الآیه السابقه،و تصدیره بقوله:

«الْیَوْمَ» للدلاله علی الامتنان منه تعالی علی المؤمنین بإحلال طعام أهل الکتاب و المحصنات من نسائهم للمؤمنین.

و کأن ضم قوله: «أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّباتُ» الی قوله: «وَ طَعامُ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ» الخ؛من قبیل ضم المقطوع به الی المشکوک فیه لإیجاد الطمأنینه فی نفس المخاطب و إزاله ما فیه من القلق و الاضطراب کقول السید لخادمه:لک جمیع ما ملکته و زیاده هی کذا و کذا فإنه اذا ارتاب فی تحقق ما یعده سیده من الإعطاء شفع ما یشک فیه بما یقطع به لیزول عن نفسه أذی الریب الی راحه العلم،و من هذا الباب بوجه قوله تعالی: لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا الْحُسْنیٰ وَ زِیادَهٌ (یونس۲۶/)و قوله تعالی: لَهُمْ ما یَشاؤُنَ فِیها وَ لَدَیْنا مَزِیدٌ (ق۳۵/).

فکان نفوس المؤمنین لا تسکن عن اضطراب الریب فی أمر حل طعام أهل الکتاب لهم بعد ما ما کانوا یشاهدون التشدید التام فی معاشرتهم و مخالطتهم و مساسهم و ولایتهم حتی ضم الی حدیث حل طعامهم أمر حل الطیبات بقول مطلق،ففهموا منه أن طعامهم من سنخ سائر الطیبات المحلله فسکن بذلک طیش نفوسهم،و اطمأنت قلوبهم و کذلک القول فی قوله:

«وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکُمْ» .

و أما قوله: «وَ طَعامُ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ حِلٌّ لَکُمْ وَ طَعامُکُمْ حِلٌّ لَهُمْ» فالظاهر أنه کلام واحد ذو مفاد واحد،اذ من المعلوم أن قوله: «وَ طَعامُکُمْ حِلٌّ لَهُمْ» لیس فی مقام تشریع حکم الحل لأهل الکتاب،و توجیه التکلیف إلیهم و إن قلنا بکون الکفار مکلفین بالفروع الدینیه کالأصول،فإنهم غیر مؤمنین باللّه و رسوله و بما جاء به رسوله و لا هم یسمعون و لا هم یقبلون،و لیس من دأب القرآن أن یوجه خطابا أو یذکر حکما اذا استظهر من المقام أن

الخطاب معه یکون لغوا و التکلیم معه یذهب سدی.اللهم إلا اذا أصلح ذلک بشیء من فنون التکلیم کالالتفات من خطاب الناس الی خطاب النبی و نحو ذلک کقوله: قُلْ یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ تَعٰالَوْا إِلیٰ کَلِمَهٍ سَوٰاءٍ بَیْنَنٰا وَ بَیْنَکُمْ (آل عمران۶۴/)و قوله: قُلْ سُبْحٰانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلاّٰ بَشَراً رَسُولاً (الإسراء۹۳/)الی غیر ذلک من الآیات.

و بالجمله لیس المراد بقوله: «وَ طَعٰامُ الَّذِینَ» ،بیان حل طعام أهل الکتاب للمسلمین حکما مستقلا و حل طعام المسلمین لأهل الکتاب حکما مستقلا آخر،بل بیان حکم واحد و هو ثبوت الحل و ارتفاع الحرمه عن الطعام،فلا منع فی البین حتی یتعلق بأحد الطرفین نظیر قوله تعالی: فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنٰاتٍ فَلاٰ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَی الْکُفّٰارِ لاٰ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لاٰ هُمْ یَحِلُّونَ لَهُنَّ (الممتحنه۱۰/)أی لا حل فی البین حتی یتعلق بأحد الطرفین.

ثم إن الطعام بحسب أصل اللغه کل ما یقتات به و یطعم لکن قیل:إن المراد به البر و سائر الحبوب ففی لسان العرب:و أهل الحجاز اذا أطلقوا اللفظ بالطعام عنوا به البر خاصه.قال:

و قال الخلیل:العالی فی کلام العرب أن الطعام هو البر خاصه،انتهی.و هو الذی یظهر من کلام ابن الأثیر فی النهایه،و لهذا ورد فی أکثر الروایات المرویه عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام:أن المراد بالطعام فی الآیه هو البر و سائر الحبوب إلا ما فی بعض الروایات مما یظهر به معنی آخر و سیجیء الکلام فیه فی البحث الروائی الآتی.

و علی أی حال لا یشمل هذا الحل ما لا یقبل التذکیه من طعامهم کلحم الخنزیر،أو یقبلها من ذبائحهم لکنهم لم یذکوها کالذی لم یهل به للّه،و لم یذک تذکیه إسلامیه فإن اللّه سبحانه عد هذه المحرمات المذکوره فی آیات التحریم-و هی الآی الأربع التی فی سور البقره و المائده و الأنعام و النحل-رجسا و فسقا و إثما کما بیناه فیما مر،و حاشاه سبحانه أن یحل ما سماه رجسا أو فسقا أو إثما امتنانا بمثل قوله: «الْیَوْمَ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّبٰاتُ» .

علی أن هذه المحرمات بعینها واقعه قبیل هذه الآیه فی نفس السوره،و لیس لأحد أن یقول

فی مثل المورد بالنسخ و هو ظاهر،و خاصه فی مثل سوره المائده التی ورد فیها أنها ناسخه غیر منسوخه.

قوله تعالی: وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الْمُؤْمِنٰاتِ وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتٰابَ مِنْ قَبْلِکُمْ ،الإتیان فی متعلق الحکم بالوصف أعنی ما فی قوله: «الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتٰابَ» من غیر أن یقال:من الیهود و النصاری مثلا أو یقال:من أهل الکتاب،لا یخلو من إشعار بالعلیه،و اللسان لسان الامتنان،و المقام مقام التخفیف و التسهیل،فالمعنی:إنا نمتن علیکم بالتخفیف و التسهیل فی رفع حرمه الازدواج بین رجالکم و المحصنات من نساء أهل الکتاب لکونهم أقرب إلیکم من سائر الطوائف غیر المسلمه،و هم أوتوا الکتاب و أذعنوا بالتوحید و الرساله بخلاف المشرکین و الوثنیین المنکرین للنبوه،و یشعر بما ذکرنا أیضا تقیید قوله: «أُوتُوا الْکِتٰابَ» بقوله: «مِنْ قَبْلِکُمْ» فإن فیه إشعارا واضحا بالخطط و المزج و التشریک.

و کیف کان لما کانت الآیه واقعه موقع الامتنان و التخفیف لم تقبل النسخ بمثل قوله تعالی:

وَ لاٰ تَنْکِحُوا الْمُشْرِکٰاتِ حَتّٰی یُؤْمِنَّ (البقره۲۲۱/)و قوله تعالی: وَ لاٰ تُمْسِکُوا بِعِصَمِ الْکَوٰافِرِ (الممتحنه۱۰/)و هو ظاهر.

علی أن الآیه الاولی واقعه فی سوره البقره،و هی أول سوره مفصّله نزلت بالمدینه قبل المائده:و کذا الآیه الثانیه واقعه فی سوره الممتحنه،و قد نزلت بالمدینه قبل الفتح،فهی أیضا قبل المائده نزولا،و لا وجه لنسخ السابق للاحق مضافا الی ما ورد:أن المائده آخر ما نزلت علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فنسخت ما قبلها،و لم ینسخها شیء.

علی أن قد عرفت فی الکلام علی قوله تعالی: وَ لاٰ تَنْکِحُوا الْمُشْرِکٰاتِ حَتّٰی یُؤْمِنَّ الآیه (البقره۲۲۱/)؛فی الجزء الثانی من الکتاب أن الآیتین أعنی آیه البقره و آیه الممتحنه أجنبیتان من الدلاله علی حرمه نکاح الکتابیه.

و لو قيل بدلاله آيه الممتحنه بوجه على التحريم كما يدل على سبق المنع الشرعى ورود آيه المائده فى مقام الامتنان و التخفيف-و لاـ امتنان و لاـ تخفيف لو لم يسبق منع-كانت آيه المائده هى الناسخه لآيه الممتحنه لا بالعكس لأن النسخ شأن المتأخر،و سيأتى فى البحث الروائى كلام فى الآيه الثانيه.

ثم المراد بالمحصنات فى الآيه:العفائف و هو أحد معانى الإحصان،و ذلك أن قوله «وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الْمُؤْمِنٰاتِ وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ» ،يدل على أن المراد بالمحصنات غير ذوات الأزواج و هو ظاهر،ثم الجمع بين المحصنات من أهل الكتاب و المؤمنات على ما مر من توضيح معناها يقضى بأن المراد بالمحصنات فى الموضعين معنى واحد،و ليس هو الإحصان بمعنى الاسلام لمكان قوله:و المحصنات من الذين أوتوا الكتاب، و ليس المراد بالمحصنات الحرائر فإن الامتنان المفهوم من الآيه لا يلائم تخصيص الحل بالحرائر دون الإماء،فلم يبق من معانى الإحصان إلا العفّه فتعيّن أن المراد بالمحصنات العفائف.

و بعد ذلك كله إنما تصرّح الآيه بتشريع حل المحصنات من أهل الكتاب للمؤمنين من غير تقييد بدوام أو انقطاع إلا ما ذكره من اشتراط الأجر و كون التمتع بنحو الإحصان لا بنحو المسافحه و اتخاذ الأخذان،فينتج أن الذى أحل للمؤمنين منهن أن يكون على طريق النكاح عن مهر و أجر دون السفاح،من غير شرط آخر من نكاح دوام أو انقطاع،و قد تقدم فى قوله تعالى: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ الآيه(النساء/۲۴)فى الجزء الرابع من الكتاب أن المتعه نكاح كالنكاح الدائم،و للبحث بقايا تطلب من علم الفقه.

قوله تعالى: إِذٰا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسٰافِحِينَ وَ لاٰ مُتَّخِذِى أَخْدٰانٍ الآيه فى مساق قوله تعالى فى آيات محرّمات النكاح: وَ أُحِلَّ لَكُمْ مٰا وَرٰاءَ ذٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوٰالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسٰافِحِينَ (النساء/۲۴).و الجمله قرينه على

كون المراد بالآيه بيان حلّيه التزوّج بالمحصنات من أهل الكتاب من غير شمول منها لملك اليمين.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمٰانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰاسِرِينَ الكفر فى الأصل هو الستر فتحقق مفهومه يتوقف على أمر ثابت يقع عليه الستر كما أن الحجاب لا يكون حجابا إلا اذا كان هناك محجوب فالكفر يستدعى مكفورا به ثابتا كالكفر بنعمه اللّه و الكفر بآيات اللّه و الكفر باللّه و رسوله و اليوم الآخر.

فالكفر بالإيمان يقتضى وجود إيمان ثابت،و ليس المراد به المعنى المصدرى من الإيمان بل معنى اسم المصدر و هو الأثر الحاصل و الصفه الثابته فى قلب المؤمن أعنى الاعتقادات الحقه التى هى منشأ الأعمال الصالحه،فيئول معنى الكفر بالإيمان الى ترك العمل بما يعلم أنه حق كتولى المشركين،و الاختلاط بهم،و الشركه فى أعمالهم مع العلم بحقيه الإسلام،و ترك الأركان الدينيه من الصلاه و الزكاه و الصوم و الحج مع العلم بثبوتها أركانا للدين.

فهذا هو المراد من الكفر بالإيمان لكن هاهنا نكته و هى أن الكفر لما كان سترا و ستر الامور الثابته لا يصدق بحسب ما يسبق الى الذهن إلا مع المداومه و المزاوله فالكفر بالإيمان إنما يصدق اذا ترك الانسان العمل بما يقتضيه إيمانه،و يتعلق به علمه،و دام عليه،و أما اذا ستر مرّه أو مرتين من غير أن يدوم عليه فلا يصدق عليه الكفر و إنما هو فسق أتى به.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله: «وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمٰانِ» هو المداومه و الاستمرار عليه و إن كان عبّر بالفعل دون الوصف.فتارك الاتباع لما حق عنده من الحق،و ثبت عنده من أركان الدين كافر بالإيمان،حابط العمل كما قال تعالى: «فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» .

فالآيه تنطبق على قوله تعالى: وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاٰ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِينَ وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ لِقٰاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (الأعراف١۴٧/)فوصفهم باتخاذ

سبیل الغی و ترک سبیل الرشد بعد رؤیتهما و هی العلم بهما ثم بدّل ذلک بتوصیفهم بتکذیب الآیات،و الآیه إنما تکون آیه بعد العلم بدلالتها،ثم فسّره بتکذیب الآخره لما أن الآخره لو لم تکذّب منع العلم بها عن ترک الحق،ثم أخبر بحبط أعمالهم.

و نظیر ذلک قوله تعالی: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالْأَخْسَرِینَ أَعْمالاً اَلَّذِینَ ضَلَّ سَعْیُهُمْ فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا وَ هُمْ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ یُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولئِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِیمُ لَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَهِ وَزْناً (الکهف/۱۰۵)و انطباق الآیات علی مورد الکفر بالإیمان بالمعنی الذی تقدّم بیانه ظاهر.

و بالتأمل فیما ذکرنا یظهر وجه اتصال الجمله أعنی قوله: «وَ مَنْ یَکْفُرْ بِالْإِیمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» ،بما قبله فالجمله متممه للبیان السابق،و هی فی مقام التحذیر عن الخطر الذی یمکن ان یتوجه الی المؤمنین بالتساهل فی أمر اللّه،و الاسترسال مع الکفار فإن اللّه سبحانه إنما أحل طعام أهل الکتاب و المحصنات من نسائهم للمؤمنین لیکون ذلک تسهیلا و تخفیفا منه لهم، و ذریعه الی انتشار کلمه التقوی،و سرایه الأخلاق الطاهره الاسلامیه من المسلمین المتخلقین بها الی غیرهم،فیکون داعیه الی العلم النافع،و باعثه نحو العمل الصالح.

فهذا هو الغرض من التشریع لا لأن یتخذ ذلک وسیله الی السقوط فی مهابط الهوی، و الإصعاد فی أودیه الهوسات،و الاسترسال فی حبهن و الغرام بهن،و التولّه فی جمالهن،فیکن قدوه تتسلط بذلک أخلاقهن و أخلاق قومهن علی أخلاق المسلمین،و یغلب فسادهن علی صلاحهم،ثم یکون البلوی و یرجع المؤمنون الی أعقابهم القهقری،و مآل ذلک عود هذه المنّه الالهیه فتنه و محنه مهلکه،و صیروره هذا التخفیف الذی هو نعمه نقمه.

فحذّر اللّه المؤمنین بعد بیان حلّیه طعامهم و المحصنات من نسائهم أن لا یسترسلوا فی التنعم بهذه النعمه استرسالا یؤدی الی الکفر بالایمان،و ترک أرکان الدین،و الإعراض عن

الحق فإن ذلك يوجب حبط العمل،و ينجر الی خسران السعی فی الآخره (۱).

[سوره المائده (۵): الآیات ۶ الی ۷]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَی اَلصَّلاهِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَکُمْ وَ أَیْدِیَکُمْ إِلَی اَلْمَرافِقِ وَ اِمْسَحُوا بِرُؤُسِکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ إِلَی اَلْکَعْبَیْنِ وَ إِنْ کُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضی أَوْ عَلی سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ اَلْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ اَلنِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَیَمَّمُوا صَعِیداً طَیِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِکُمْ وَ أَیْدِیکُمْ مِنْهُ ما یُرِیدُ اَللّهُ لِیَجْعَلَ عَلَیْکُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لکِنْ یُرِیدُ لِیُطَهِّرَکُمْ وَ لِیُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکُمْ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۶) وَ اُذْکُرُوا نِعْمَهَ اَللّهِ عَلَیْکُمْ وَ مِیثاقَهُ اَلَّذِی واثَقَکُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اِتَّقُوا اَللّهَ إِنَّ اَللّهَ عَلِیمٌ بِذاتِ اَلصُّدُورِ (۷)

بیان:

قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَی الصَّلاهِ القیام اذا عدی بإلی ربما کنی به عن إراده الشیء المذکور للملازمه و القران بینهما،فإن إراده الشیء لا تنفک عن الحرکه إلیه،و اذ فرض الإنسان مثلا قاعدا لأنه حال سکونه و لازم سباته عادته،و فرض الشیء المراد فعلا متعارفا یتحرک إلیه عاده کان مما یحتاج فی اتیانه الی القیام غالبا،فأخذ الإنسان فی ترک السکون و الانتصاب لإدراک العمل هو القیام الی الفعل،و هو یلازم الإراده.

۱- ۱) .المائده ۴-۵:بحث روائی فی صید الکلاب؛التعلیم؛الاطعمه المحلله و المحرمه،طعام أهل الکتاب،نکاح الکتابیه.

و نظیره قوله تعالی: وَ إِذٰا کُنْتَ فِیهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاٰهَ (النساء/۱۰۲)أی أردت أن تقیم لهم الصلاه.و عکسه من وجه قوله تعالی: وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدٰالَ زَوْجٍ مَکٰانَ زَوْجٍ وَ آتَیْتُمْ إِحْدٰاهُنَّ قِنْطٰاراً فَلاٰ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَیْئاً (النساء/۲۰)أی اذا طلقتم زوجا تزوجتم باخری، فوضعت إراده الفعل و طلبه مقام القیام به.

و بالجمله الآیه تدل علی اشتراط الصلاه بما تذکره من الغسل و المسح أعنی الوضوء،و لو تم لها إطلاق لدل علی اشتراط کل صلاه بوضوء مع الغض عن قوله: «وَ إِنْ کُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا» لکن الآیات المشرعه قلما یتم لها الإطلاق من جمیع الجهات.علی أنه یمکن أن یکون قوله الآتی: «وَ لٰکِنْ یُرِیدُ لِیُطَهِّرَکُمْ» مفسرا لهذا الاشتراط علی ما سیجیء من الکلام.

هذا هو المقدار الذی یمکن أن یبحث عنه فی تفسیر الآیه،و الزائد علیه مما أطنب فیه المفسرون بحث فقهی خارج عن صناعه التفسیر.

قوله تعالی: فَاغْسِلُوا وُجُوهَکُمْ وَ أَیْدِیَکُمْ إِلَی الْمَرٰافِقِ الغسل بفتح الغین إمرار الماء علی الشیء،و یکون غالبا لغرض التنظیف و إزاله الوسخ و الدرن و الوجه ما یستقبلک من الشیء،و غلب فی الجانب المقبل من رأس الإنسان مثلا،و هو الجانب الذی فیه العین و الأنف و الفم،و یعین بالظهور عند المشافهه،و قد فسر فی الروایات المنقوله عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام بما بین قصاص الشعر من الناصیه و آخر الذقن طولا،و ما دارت علیه الإبهام و الوسطی و السبابه،و هناک تحدیدات أخر ذکرها المفسرون و الفقهاء.

و الأیدی جمع ید و هی العضو الخاص الذی به القبض و البسط و البطش و غیر ذلک،و هو ما بین المنکب و أطراف الأصابع،و إذا کانت العنایه فی الأعضاء بالمقاصد التی یقصدها الإنسان منها کالقبض و البسط فی الید مثلا،و کان المعظم من مقاصد الید تحصل بما دون المرفق الی أطراف الأصابع سمی أیضا بالید،و لذلک بعینه ما سمی ما دون الزند الی أطراف الأصابع فصار اللفظ بذلک مشترکا أو کالمشترک بین الکل و الأبعاض.

و هـذا الاشتراک هو الموجب لـذکر القرینه المعینه اذا أریـد به أحـد المعانی،و لـذلک قیـد تعالی قوله: «وَ أَیْدِیَکُمْ» بقوله: «إِلَی الْمَرٰافِقِ» لیتعین أن المراد غسـل الیـد الـتی تنتهی الی المرافق،ثم القرینه أفـادت أن المراد به القطعه من العضو التی فیهـا الکف،و کـذا فسـرتها السـنه.و الـذی یفیـده الاسـتعمال فی لفظه«الی»أنهـا لانتهـاء الفعـل الـذی لاـ یخلـو من امتـداد الحرکه،و أمـا دخول مدخول«الی»فی حکم ما قبله أو عدم دخوله فأمر خارج عن معنی الحرف،فشمول حکم الغسل للمرافق لا یستند الی لفظه«الی»بل الی ما بینه السنه من الحکم.

و أمـا قـوله تعـالی: «لاٰ تَأْکُلُوا أَمْوٰالَهُمْ إِلیٰ أَمْوٰالِکُمْ» فهو من قبیـل تضـمین الاکـل معنی الضم و نحوه ممـا یتعـدی بـإلی لاـ أن لفظه«الی»هنالک بمعنی مع.

و قـد تبین بما مر أن قوله: «إِلَی الْمَرٰافِقِ» قیـد لقوله: «أَیْدِیَکُمْ» فیکون الغسل المتعلق بها مطلقا غیر مقید بالغایه یمکن أن یبدأ فیه من المرفق الی أطراف الاصابع و هو الـذی یأتی به الإنسان طبعا اذا غسل یـده فی غیر حال الوضوء من سائر الاحوال أو یبـدأ من أطراف الاصابع و یختم بالمرفق،لکن الاخبار الوارده من طرق أئمه أهل البیت علیهم السّلام تفتی بالنحو الأول دون الثانی.

قوله تعالی: وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ إِلَی الْکَعْبَیْنِ المسح:إمرار الید أو کل عضو لا مس علی الشیء بالمباشره،یقال.مسحت الشیء و مسحت بالشیء،فإذا عدی بنفسه أفاد الاستیعاب،و اذا عدی بالباء دل علی المسح ببعضه من غیر استیعاب و إحاطه.

فقوله: «وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِکُمْ» یـدل علی مسـح بعض الرأس فی الجمله،و أمـا أنه أی بعض من الرأس فممـا هو خارج من مـدلول الآیه،و المتکفل لبیانه السنه،و قد صح أنه جانب الناصیه من الرأس.

ص: ۵۳

و أما قوله: «وَ أَرْجُلَكَمْ» فقد قرء بالجر،و هو لا محاله بالعطف على رءوسكم.و ربما قال القائل:إن الجر للاتباع،كقوله: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (الأنبياء ۳۰/)و هو خطأ فإن الاتباع على ما ذكروه لغه رديئه لا يحمل عليها كلام اللّه تعالى.و أما قوله: «كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ» فإنما الجعل هناك بمعنى الخلق،و ليس من الاتباع فى شيء.

على أن الاتباع-كما قيل-إنما ثبت فيما ثبت فى صوره اتصال التابع و المتبوع كما قيل فى قولهم:جحر ضب خرب،بجر الخرب اتباعا لا فى مثل المورد مما يفصل العاطف بين الكلمتين.

و قرء:و أرجلكم-بالنصب و أنت اذا تلقيت الكلام مخلى الذهن غير مشوب الفهم لم يلبث دون أن تقضى أن «أَرْجُلَكُمْ» معطوف على موضع «بِرُؤُسِكُمْ» و هو النصب،و فهمت من الكلام وجوب غسل الوجه و اليدين،و مسح الرأس و الرجلين،و لم يخطر ببالك أن ترد «وَ أَرْجُلَكُمْ» الى «وُجُوهَكُمْ» فى أول الآيه مع انقطاع الحكم فى قوله: «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ» بحكم آخر و هو قوله:«و امسحوا بوجوهكم»،فان الطبع السليم يأبى عن حمل الكلام البليغ على ذلك،و كيف يرضى طبع متكلم بليغ أن يقول مثلا:قبلت وجه زيد و رأسه و مسحت بكتفه و يده بنصب يد عطفا على«وجه زيد»مع انقطاع الكلام الأول، و صلاحيه قوله:«يده»لأن يعطف على محل المجرور المتصل به،و هو أمر جائز دائر كثير الورود فى كلامهم.

و على ذلك وردت الروايات عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام و أما الروايات من طرق أهل السّنه فإنها و إن كانت غير ناظره الى تفسير لفظ الآيه،و إنما تحكى عمل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و فتوى بعض الصحابه،لكنها مختلفه:منها ما يوجب مسح الرجلين،و منها ما يوجب غسلهما.

و قد رجح الجمهور منهم أخبار الغسل على أخبار المسح،و لا كلام لنا معهم فهذا المقام لأنه بحث فقهى راجع الى علم الفقه،خارج عن صناعه التفسير.

لكنهم مع ذلک حاولوا تطبيق الآيه على ما ذهبوا إليه من الحكم الفقهى بتوجيهات مختلفه ذكروها فى المقام،و الآيه لا تحتمل شيئا منها إلا مع ردها من أوج بلاغتها الى مهبط الرداءه.

و أما قوله تعالى: «إِلَى الْكَعْبَيْنِ» فالكعب هو العظم الناتىء فى ظهر القدم.و ربما قيل:إن الكعب هو العظم الناتىء فى مفصل الساق و القدم،و هما كعبان فى كل قدم فى المفصل.

قوله تعالى: وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا الجنب فى الأصل مصدر غلب عليه الاستعمال بمعنى اسم الفاعل،و لذلک يستوى فيه المذكر و المؤنث و المفرد و غيره،يقال:رجل جنب و امرأه جنب و رجلان أو امرأتان جنب،و رجال أو نساء جنب،و اختص الاستعمال بمعنى المصدر للجنابه.

و الجمله أعنى قوله: «وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا» معطوفه على قوله: «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» لأن الآيه مسوقه لبيان اشتراط الصلاه بالطهاره فالتقدير:و تطهروا إن كنتم جنبا،فيؤول الى تقدير شرط الخلاف فى جانب الوضوء و تقدير الكلام:فاغسلوا وجوهكم و أيديكم و امسحوا برءوسكم و أرجلكم إن لم تكونوا جنبا و إن كنتم جنبا فاطّهروا و يستفاد من ذلک أن تشريع الوضوء إنما هو فى حال عدم الجنابه،و أما عند الجنابه فالغسل فحسب كما دلت عليه الأخبار.

و قد بين الحكم بعينه فى آيه النساء بقوله: «وَ لاٰ جُنُباً إِلاّٰ عٰابِرِى سَبِيلٍ حَتّٰى تَغْتَسِلُوا» فهذه الآيه تزيد على تلک الآيه بيانا بتسميه الاغتسال تطهرا،و هذا غير الطهاره الحاصله بالغسل، فانها أثر مترتب،و هذا نفس الفعل الذى هو الاغتسال و قد سمى تطهرا كما يسمى غسل أوساخ البدن بالماء تنظفا.

و يستفاد من ذلک ما ورد فى بعض الأخبار من قوله عليه السّلام:«ما جرى عليه الماء فقد طهر».

قوله تعالى: وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغٰائِطِ أَوْ لاٰمَسْتُمُ النِّسٰاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مٰاءً فَتَيَمَّمُوا شروع فى بيان حكم من لا يقدر على الماء

ص :۵۵

حتی یغسل أو یغتسل.

و الـذی ذکر من الموارد و عـدّ بالتردید لیس بعضـها یقابل بعضا مقابله حقیقیه،فان المرض و السـفر لیسا بنفسـهما یوجبان حدثا مسـتدعیا للطهاره بالوضوء أو الغسل بل إنما یوجبانه اذا أحدث المکلف معهما حدثا صغیرا أو کبیرا،فالشقان الأخیران لا یقابلان الأولین بل کل من الأولین کالمنقسم الی الاخیرین،و لـذلک احتمل بعضـهم أن یکون«أو»فی قوله: «أَوْ جٰاءَ أَحَـدٌ مِنْکُمْ» ،بمعنی الواو کما سیجیء،علی أن العذر لا ینحصر فی المرض و السفر بل له مصادیق أخر.

لکن اللّه سبحانه ذکر المرض و السفر و هما مظنه عدم التمکن من الماء غالبا،و ذکر المجیء من الغائط و ملامسه النساء و فقدان المـاء معهمـا اتفـاقی،و من جهه أخری-و هی عکس الجهه الاولی-عروض المرض و السـفر للإنسان بالنظر إلی بنیته الطبیعیه أمر اتفاقی بخلاف التردد الی الغائط و ملامسه النساء فإنهما من حاجه الطبیعه:أحدهما یوجب الحدث الاصغر الذی یرتفع بالوضوء،و الآخر الحدث الاکبر الذی یرتفع بالغسل.

فهذه الموارد الاربع موارد یبتلی الإنسان ببعضـها اتفاقا و ببعضها طبعا.و هی تصاحب فقدان الماء غالبا کالمرض و السفر أو اتفاقا کالتخلی و المباشره اذا انضم إلیها عدم وجدان الماء فالحکم هو التیمم.

و علی هـذا یکون عـدم وجـدان الماء کنایه عن عـدم القدره علی الاسـتعمال.کنّی به عنه لان الغالب هو اسـتناد عدم القدره الی عدم الوجدان،و لازم ذلک أن یکون عدم الوجدان قیدا لجمیع الامور الاربعه المذکوره حتی المرض.

و قـد تبین بما قـدمناه اولا:أن المراد بالمرض فی قوله: «کُنْتُمْ مَرْضـیٰ» هو المرض الـذی یتحرج معه الإنسان من اسـتعمال الماء و یتضرر به علی ما یعطیه التقیید بقوله: «فَلَمْ تَجِدُوا مٰاءً» و یفیده أیضا سیاق الکلام فی الآیه.

و ثانیا:أن قوله: «أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ» شق برأسه یبتلی به الإنسان اتفاقا،و یغلب علیه فیه فقدان الماء،فلیس بمقید بقوله: «أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ» الخ؛بل هو معطوف علی قوله:

«فَاغْسِلُوا» و التقدیر:اذا قمتم الی الصلاه و کنتم علی سفر و لم تجدوا ماء فتیمموا،فحال هذا الفرض فی إطلاقه و عدم تقیده بوقوع أحد الحدثین حال المعطوف علیه أعنی قوله: «إِذٰا قُمْتُمْ إِلَی الصَّلاٰةِ فَاغْسِلُوا» الخ؛فکما لم یحتج الی التقیید ابتداء لم یحتج الیه ثانیا عند العطف.

و ثالثا:أن قوله: «أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغٰائِطِ» شق آخر مستقلا و لیس کما قیل:إن «أو»فیه بمعنی الواو کقوله تعالی: وَ أَرْسَلْنٰاهُ إِلىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (الصافات/۱۴۷) لما عرفت من عدم الحاجه الی ذلک.علی أن«أو»فی الآیه المستشهد بها لیس إلا بمعناها الحقیقی،و إنما التردید راجع الی کون المقام مقاما یتردد فیه بالطبع لا لجهل فی المتکلم کما یقال بمثله فی الترجی و التمنی الواقعین فی القرآن کقوله: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (البقره/۲۱)،و قوله:

لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ (البقره/۱۰۲).

و حکم هذه الجمله فی العطف حکم سابقتها،و التقدیر:اذا قمتم الی الصلاه و کان جاء أحد منکم من الغائط و لم تجدوا ماء فتیمموا.

و لیس من البعید أن یستفاد من ذلک عدم وجوب اعاده التیمم أو الوضوء لمن لم تنتقض طهارته بالحدث الأصغر إن کان علی طهاره بناء علی مفهوم الشرط فیتأید به من الروایات ما یدل علی عدم وجوب التطهر لمن کان علی طهاره.

و فی قوله تعالی: أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغٰائِطِ من الأدب البارع ما لا یخفی للمتدبر حیث کنی عن المراد بالمجیء من الغائط،و الغائط هو المکان المنخفض من الأرض و کانوا یقصدونه لقضاء الحاجه لیتستروا به من الناس تأدّبا،و استعمال الغائط فی معناه المعروف الیوم استعمال مستحدث من قبیل الکنایات المبتذله کما أن لفظ العذره کذلک، و الأصل فی معناها عتبه الباب سمیت بها لأنهم کانوا یخلون ما اجتمع فی کنیف البیت فیها علی

ما ذکره الجوهری فی الصحاح.

و لم یقل:أو جئتم من الغائط لما فیه من تعیین المنسوب إلیه،و کذا لم یقل:أو جاء أحدکم من الغائط لما فیه من الإضافه التی فیها شوب التعیین بل بالغ فی الإبهام فقال: «أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغٰائِطِ» رعایه لجانب الأدب.

و رابعا:أن قوله: أَوْ لاٰمَسْتُمُ النِّسٰاءَ کسابقه شق من الشقوق المفروضه مستقل و حکمه فی العطف و المعنی حکم سابقه،و هو کنایه عن الجماع أدبا صونا للسان من التصریح بما تأبی الطباع عن التصریح به.

فإن قلت:لو کان کذلک کان التعبیر بمثل ما عبر به عنه سابقا بقوله: «وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً» أولی لکونه أبلغ فی رعایه الأدب.

قلت:نعم لکنه کان یفوت نکته مرعیه فی الکلام،و هی الدلاله علی کون الامر مما یقتضیه الطبیعه کما تقدّم بیانه،و التعبیر بالجنابه فاقد للإشعار بهذه النکته.

و ظهر أیضا فسا ما نسب الی بعضهم:أن المراد بملامسه النساء هو الملامسه حقیقه بنحو التصریح من غیر أن تکون کنایه عن الجماع.وجه فساده أن سیاق الآیه لا یلائمه،و إنما یلائم الکنایه فإن اللّه سبحانه ابتدأ فی کلامه ببیان حکم الحدث الاصغر بالوضوء و حکم الجنابه بالغسل فی الحال العادی،و هو حال وجدان الماء،ثم انتقل الکلام الی بیان الحکم فی الحال غیر العادی،و هو حال فقدان الماء فبین فیه حال بدل الوضوء و هو التیمم فکان الاحری و الانسب بالطبع أن یذکر حال بدل الغسل أیضا،و هو قرین الوضوء،و قد ذکر ما یمکن أن ینطبق علیه،و هو قوله: «أَوْ لاٰمَسْتُمُ النِّسٰاءَ» علی سبیل الکنایه،فالمراد به ذلک لا محاله،و لا وجه لتخصیص الکلام ببیان حکم بدل الوضوء و هو أحد القرینین،و إهمال حکم بدل القرین الآخر و هو الغسل رأسا.

و خامسا:یظهر بما تقدم فساد ما أورد علی الآیه من الإشکالات:فمنها أن ذکر المرض

و السـفر مسـتدرک،فانهما انما یوجبان التیمم بانضـمام احد الشـقین الأخیرین و هو الحدث و الملامسه،مع أنهما یوجبانه و لو لم یکن معهما مرض أو سـفر فذکر الأخیرین یغنی عن ذکر الأولین.و الجواب أن ذکر الشّقین الأخیرین لیس لغرض انضمامهما الی أحد الأولین بل کل من الأربعه شق مستقل مذکور لغرض خاص به یفوت بحذفه من الکلام علی ما تقدم بیانه.

و منهـا:أن الشق الثانی و هو قوله: «أَوْ عَلیٰ سَفَرٍ» مسـتدرک و ذلک بمثل ما وجّه به الإشـکال السابق غیر المرض لما کان عـذره الموجب للانتقال الی البـدل هو عـدم التمکن من اسـتعمال الماء الموجود لا عدم وجدان الماء کان من اللازم أن یقدر له ذلک فی الکلام،و لا یغنی عن ذکره ذکر الشقین الأخیرین مع عدم وجدان الماء،و نتیجه هذا الوجه کون السفر مستدرکا فقط.

و الجواب أن عدم الوجدان فی الآیه کنایه عن عدم التمکن من استعمال الماء أعم من صوره وجدانه أو فقدانه کما تقدم.

و منهـا:أن قوله: «فَلَمْ تَجِدُوا مٰاءً» یغنی عن ذکر جمیع الشـقوق،و لو قیـل مکان قوله: «وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضیٰ» الـخ؛«و ان لم تجـدوا ماء»لکان أوجز و أبین،و الجواب:أن فیه اضاعه لما تقدم من النکات.

و منها:أن لو قیل:و ان لم تقـدروا علی الماء أو ما یفیـد معناه کان أولی،لشـموله عـذر المرض مضافا الی عذر غیره.و الجواب:انه افید بالکنایه،و هی ابلغ.

قـوله تعـالی: فَتَیَمَّمُوا صَعِیداً طَیِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِکُمْ وَ أَیْدِیکُمْ مِنْهُ الـتیمم هو القصـد،و الصـعید هو وجه الأرض،و توصـیفه بـالطیب-و الطیب فی الشـیء کونه علی حـال یقتضـیه طبعه-للإشـاره الی اشتراط کونه علی حـاله الأصـلی کـالتراب و الأحجـار العادیه دون ما خرج من الأرضـیه بطبخ أو نضج أو غیر ذلک من عوامل التغییر کالجص و النوره و الخزف و المواد المعدنیه،قال تعالی: وَ الْبَلَدُ الطَّیِّبُ یَخْرُجُ نَبٰاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِی خَبُثَ لاٰ یَخْرُجُ إِلاّٰ نَکِداً (الأعراف/۵۸)و من ذلک یستفاد الشروط التی اخذت السنّه فی

ص :۵۹

الصعيد الذی یتیمم به.

و ربما یقال:ان المراد بالطیب الطهاره،فیدل علی اشتراط الطهاره فی الصعید.

و قوله: «فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ» ینطبق ما ذکره فی التیمم للمسح علی ما ذکره فی الوضوء للغسل،فالتیمم فی الحقیقه وضوء أسقطت فیه المسحتان:مسح الرأس و مسح الرجلین،و ابدلت فیه الغسلتان:غسله الوجه و الیدین الی المرفقین بالمسحتین،و ابدل الماء بالتراب تخفیفا.

و هذا یشعر بأن العضوین فی التیمم هما العضوان فی الوضوء،و لما عبّر تعالی بالمسح المتعدی بالباء دل ذلک علی أن المعتبر فی التیمم هو مسح بعض عضوی الغسل فی الوضوء أعنی بعض الوجه،و بعض الید الی المرفق،و ینطبق علی ما ورد من طرق أئمه أهل البیت علیهم السّلام من تحدید الممسوح من الوجه بما بین الجبینین و الممسوح من الید بما دون الزند منها.

و بذلک یظهر فساد ما ذکره بعضهم من تحدید الید بما دون الإبطین.و ما ذکره آخرون أن المعتبر من الید فی التیمم عین ما اعتبر فی الوضوء و هو ما دون المرفق،و ذلک أنه لا یلائم المسح المتعدی بالباء الدال علی مرور الماسح ببعض الممسوح.

و«من»فی قوله: «مِنْهُ» کأنها ابتدائیه و المراد ان یکون المسح بالوجه و الیدین مبتدأ من الصعید،و قد بینته السّنّه بأنه بضرب الیدین علی الصعید و مسحهما بالوجه و الیدین.

و یظهر من بعضهم:أن«من»هاهنا تبعیضیه فتفید أن یکون فی الیدین بعد الضرب بقیه من الصعید کغبار و نحوه بمسح الوجه و الیدین و استنتج منه وجوب کون الصعید المضروب علیه مشتملا علی شیء من الغبار یمسح منه بالوجه و الیدین فلا یصح التیمم علی حجر املس لم یتعلق به غبار،و الظاهر ما قدمناه-و اللّه أعلم-و ما استنتجه من الحکم لا یختص بما احتمله.

و قوله تعالی: مٰا یُرِیدُ اللّٰهُ لِیَجْعَلَ عَلَیْکُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لٰکِنْ یُرِیدُ لِیُطَهِّرَکُمْ دخول«من»علی مفعول «مٰا یُرِیدُ» لتأکید النفی،فلا حکم یراد به الحرج بین الأحکام الدینیه أصلا،و لذلک علق النفی علی إراده الجعل دون نفس الحرج.

و الحرج حرجان:حرج یعرض ملاک الحکم و مصلحته المطلوبه،و یصدر الحکم حینئذ حرجیا بذاته لتبعیه ملاکه کما لو حرم الالتذاذ من الغذاء لغرض حصول ملکه الزهد،فالحکم حرجی من رأس،و حرج بعرض الحکم من خارج عن أسباب اتفاقیه فیکون بعض أفراده حرجیا و یسقط الحکم حینئذ فی تلک الأفراد الحرجیه لا فی غیرها مما لا حرج فیه،کمن یتحرج عن القیام فی الصلاه لمرض یضره معه ذلک،و یسقط حینئذ وجوب القیام عنه لا عن غیره ممن یستطیعه.

و إضرابه تعالی بقوله: «وَ لٰکِنْ یُرِیدُ لِیُطَهِّرَکُمْ» ،عن قوله: «مٰا یُرِیدُ اللّٰهُ لِیَجْعَلَ عَلَیْکُمْ مِنْ حَرَجٍ» یدل علی أن المراد بالآیه نفی الحرج الذی فی الملاک أی إن الأحکام التی یجعلها علیکم لیست بحرجیه شرعت لغرض الحرج،و ذلک لأن معنی الکلام أن مرادنا بهذه الأحکام المجعوله تطهیرکم و إتمام النعمه و هو الملاک،لا أن نشق علیکم و نحرّجکم،و لذلک لما وجدنا الوضوء و الغسل حرجیین علیکم عند فقدان الماء انتقلنا من إیجاب الوضوء و الغسل الی إیجاب التیمم الذی هو فی وسعکم،و لم یبطل حکم الطهاره من رأس لإراده تطهیرکم و إتمام النعمه علیکم لعلکم تشکرون.

قوله تعالی: وَ لٰکِنْ یُرِیدُ لِیُطَهِّرَکُمْ وَ لِیُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکُمْ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ لازم ما تقدم من معنی نفی إراده الحرج أن یکون المراد بقوله: «یُرِیدُ لِیُطَهِّرَکُمْ» أن تشریع الوضوء و الغسل و التیمم إنما هو حصول الطهاره فیکم لکونها أسبابا لذلک،و هذه الطهاره ایاما کانت لیست بطهاره عن الخبث بل هی طهاره معنویه حاصله بأحد هذه الأعمال الثلاثه،و هی التی تشترط بها الصلاه فی الحقیقه.

و من الممكن أن يستفاد من ذلك عدم وجوب الإتيان بعمل الطهاره عند القيام إلى كل صلاه اذا كان المصلى على طهاره غير منقوضه،و لا ينافى ذلك ظهور صدر الآيه فى الإطلاق لأن التشريع أعم مما يكون على سبيل الوجوب.

و أما قوله: «وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ» ،فقد مر معنى النعمه و إتمامها فى الكلام على قوله تعالى:

اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي (المائده٣/)و معنى الشكر فى الكلام على قوله تعالى: وَ سَيَجْزِي اللّٰهُ الشّاكِرِينَ (آل عمران١۴۴/)فى الجزء الرابع من الكتاب فالمراد بالنعمه فى الآيه هو الدين لا من حيث أجزائه من المعارف و الاحكام،بل من حيث كونه إسلام الوجه للّه فى جميع الشئون،و هو ولايه اللّه على العباد بما يحكم فيهم،و إنما يتم ذلك باستيفاء التشريع جميع الاحكام الدينيه التى منها حكم الطهارات الثلاث.

و من هنا يظهر أن بين الغايتين أعنى قوله: «لِيُطَهِّرَكُمْ» و قوله: «لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ» فرقا،و هو أن الطهاره غايه لتشريع الطهارات الثلاث بخلاف إتمام النعمه،فإنه غايه لتشريع جميع الاحكام،و ليس الطهارات الثلاث منها إلا سهمها،فالغايتان خاصه و عامه.

و على هذا فالمعنى:و لكن نريد يجعل الطهارات الثلاث حصول الطهاره بها خاصه لكم، و لأنها بعض الدين الذى يتم بتشريع جميعها نعمه اللّه عليكم لعلكم تشركون اللّه على نعمته فيخلصكم لنفسه،فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثٰاقَهُ الَّذِي وٰاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا ،هذا هو الميثاق الذى كان مأخوذا منهم على الإسلام كما تشهد به تذكرته لهم بقوله: «إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا» فإنه السمع المطلق،و الطاعه المطلقه،و هو الإسلام للّه فالمعنى بالنعمه فى قوله: «وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ» هو المواهب الجميله التى وهبهم اللّه سبحانه إياها فى شعاع الإسلام،و هو التفاضل الذى بين حالهم فى جاهليتهم و حالهم فى إسلامهم من الأمن و العافيه و الثروه و صفاء القلوب و طهاره الأعمال كما قال تعالى: وَ اذْكُرُوا

نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكَمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكَمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَهٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها (آل عمران١٠٣/).

أو أن الإسلام بحقيقته هو المراد بالنعمه،فإنه أم النعم ترتضع منها كل نعمه كما تقدم بيانه،و غير مخفى عليك ان المراد بكون النعمه هى الإسلام بحقيقته أو الولايه إنما هو تعيين المصداق دون تشخيص مفهوم اللفظ،فإن المفهوم هو الذى يشخصه اللغه،و لا كلام لنا فيه.

ثم ذكرهم نفسه و أنه عالم بخفايا زوايا القلوب،فأمرهم بالتقوى بقوله: «وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» (١).

[سوره المائده (۵): الآيات ۸ الى ۱۴]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ لِلّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلاّ تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَ اِتَّقُوا اَللّهَ إِنَّ اَللّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اَللّهُ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ اَلْجَحِيمِ (١٠) يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اُذْكُرُوا نِعْمَتَ اَللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اِتَّقُوا اَللّهَ وَ عَلَى اَللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُؤْمِنُونَ (١١) وَ لَقَدْ أَخَذَ اَللّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اِثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَ قالَ اَللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ اَلصَّلاهَ وَ آتَيْتُمُ اَلزَّكاهَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اَللّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ اَلسَّبِيلِ (١٢) فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَهً يُحَرِّفُونَ اَلْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَهٍ مِنْهُمْ إِلاّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اِصْفَحْ إِنَّ اَللّهَ يُحِبُّ اَلْمُحْسِنِينَ (١٣) وَ مِنَ اَلَّذِينَ قالُوا إِنّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ اَلْعَداوَهَ وَ اَلْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ اَلْقِيامَهِ وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اَللّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (١۴)

١- ١) .المائده ۶-٧:بحث روائى فى الوضوء.

بیان:

قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ لِلّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلّا تَعْدِلُوا الآيه نظيره الآيه التى فى سوره النساء يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلّهِ وَ لَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلى بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (النساء/۱۳۵).

ص :۶۴

و إنما الفرق بين الآيتين ان آيه النساء فی مقام النهی عن الانحراف عن العدل فی الشهاده لاتباع الهوی بأن یهوی الشاهد المشهود له لقرابه و نحوها،فیشهد له بما ینتفع به علی خلاف الحق،و هذه الآیه-أعنی آیه المائده-فی مقام الردع عن الانحراف عن العدل فی الشهاده لشنآن و بغض من الشاهد للمشهود علیه،فیقیم الشهاده علیه یرید بها نوع انتقام منه و دحض لحقه.

و هذا الاختلاف فی غرض البیان هو الذی أوجب اختلاف القیود فی الآیتین:فقال فی آیه النساء: «کُونُوا قَوّٰامِینَ بِالْقِسْطِ شُهَدٰاءَ لِلّٰهِ» و فی آیه المائده: «کُونُوا قَوّٰامِینَ لِلّٰهِ شُهَدٰاءَ بِالْقِسْطِ» .

و ذلک أن الغرض فی آیه المائده لما کان هو الردع عن الظلم فی الشهاده لسابق عداوه من الشاهد للمشهود علیه قیّد الشهاده بالقسط،فأمر بالعدل فی الشهاده و أن لا یشتمل علی ظلم حتی علی العدو بخلاف الشهاده لأحد بغیر الحق لسابق حب و هوی،فإنها لا تعد ظلما فی الشهاده و انحرافا عن العدل و إن کانت فی الحقیقه لا تخلو عن ظلم و حیف،و لذلک أمر فی آیه المائده بالشهاده بالقسط،و فرّعه علی الأمر بالقیام للّه،و أمر فی آیه النساء بالشهاده للّه أی أن لا یتبع فیها الهوی،و فرّعه علی الامر بالقیام بالقسط.

و لذلک أیضا فرّع فی آیه المائده علی الامر بالشهاده بالقسط قوله: «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْویٰ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ» فدعا الی العدل،و عدّه ذریعه الی حصول التقوی،و عکس الامر فی آیه النساء ففرّع علی الأمر بالشهاده للّه قوله: «فَلاٰ تَتَّبِعُوا الْهَویٰ أَنْ تَعْدِلُوا» فنهی عن اتباع الهوی و ترک التقوی،و عدّه وسیله سیئه الی ترک العدل.

ثم حذر فی الآیتین جمیعا فی ترک التقوی تحذیرا واحدا فقال فی آیه النساء: «وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللّٰهَ کٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِیراً» أی إن لم تتقوا،و قال فی آیه المائده: «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ خَبِیرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ» و أما معنی قَوّٰامِینَ لِلّٰهِ شُهَدٰاءَ بِالْقِسْطِ ،الخ؛فقد ظهر فی الکلام علی الآیات

السابقه.

قوله تعالى: إِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ ،الضمير راجع الى العدل المدلول عليه بقوله: «اعْدِلُوا» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ الجمله الثانيه أعنى قوله: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» ،إنشاء للوعد الـذى أخبر عنه بقوله: «وَعَدَ اللّهُ» ،و هذا كما قيل:آكد بيانا من قوله: وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (الفتح/٢٩)لاـ لما قيل:إنه لكونه خبرا بعد خبر،فإن ذلك خطأ،بل لكونه تصريحا بإنشاء الوعد من غير أن يدل عليه ضمنا،كآيه سوره الفتح.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولٰئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ قال الرغب:الجحمه شده تأجج النار و منه الجحيم،و الآيه تشتمل على نفس الوعيد،و تقابل قوله تعالى فى الآيه السابقه: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ» .

و تقييد الكفر بتكذيب الآيات للاحتراز عن الكفر الذى لا يقارن تكذيب الآيات الداله، و لا ينتهى الى إنكار الحق مع العلم بكونه حقا كما فى صوره الاستضعاف،فإن أمره الى اللّه إن يشأ يغفره و إن يشأ يعذب عليه فهاتان الآيتان وعد جميل للذين آمنوا و عملوا الصالحات، و إيعاد شديد للذين كفروا و كذّبوا بآيات اللّه،و بين المرحلتين مراحل متوسطه و منازل متخلله أبهم اللّه سبحانه أمرها و عقباها.

قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا الخ؛هذا المضمون يقبل الانطباق على وقائع متعدده مختلفه وقعت بين الكفار و المسلمين كغزوات بدر و أحد و الأحزاب و غير ذلك،فالظاهر أن المراد به مطلق ما هم به المشركون من قتل المؤمنين و إمحاء أثر الاسلام و دين التوحيد.

قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ عَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ امر بالتقوى و التوكل

على اللّه،و المراد بـالحقيقه النهى و التحـذير الشديـد عن ترك التقوى و ترك التوكـل على اللّه سـبحانه،و الـدليل على ذلك ما سرده تعـالى من قصه اخـذ الميثـاق من بنى اسرائيل و من الـذين قـالوا انـا نصارى،ثم نقض الطائفتين الميثاق الإلهى و ابتلاء اللّه اياهم باللعن و تقسيه القلوب، و نسيان حظ من دينهم،و اغراء العداوه و البغضاء بينهم الى يوم القيامه.

و لم يذكر القصه إلا ليستشـهد بها على المؤمنين،و يجعلها نصب أعينهم ليعتبروا بها و ينتبهوا بأن اليهود و النصارى إنما ابتلوا بما ابتلوا به لنسـيانهم ميثـاق اللّه سـبحانه و لم يكن إلا ميثاقا بالاسـلام للّه،واثقوه بالسـمع و الطاعه،و كان لازم ذلك أن يتقوا مخالفه ربهم و أن يتوكلوا عليه فى أمور دينهم أى يتخـذوه وكيلاـ فيهـا يختـارون مـا يختاره لهم،و يتركون ما يكرهه لهم،و طريقه طاعه رسـلهم بالايمـان بهم،و ترك متـابعه غير اللّه و رسـله،ممن يـدعو الى نفسه و الخضوع لأـمره من الجبابره و الطغاه و غيرهم حتى الاحبار و الرهبان فلا طاعه إلا للّه أو من امر بطاعته.

لكنهم نبـذوه وراءهم ظهريا فابعـدوا من رحمه اللّه و حرّفوا الكلم عن مواضـعه و فسـروها بغير ما أريد بها فأوجب ذلك أن نسوا حظا من الـدين و لم يكن إلا حظا و سـهما يرتحل بارتحاله عنهم كل خير و سـعاده و أفسد ذلك ما بقى بأيديهم من الدين،فإن الـدين مجموع من معارف و أحكام مرتبط بعضـها ببعض يفسد بعضه بعض آخر سـيما الأركان و الاصول،و ذلك كمن يصـلى لكن لا لوجه اللّه،أو ينفق لا لمرضاه اللّه،أو يقاتل لا لإعلاء كلمه الحق.فلا ما بقى فى أيديهم نفعهم،إذا كان محرّفا فاسدا،و لا ما نسوه من الدين أمكنهم أن يستغنوا عنه،و لا غنى عن الدين و لا سيما اصوله و أركانه.

فمن هنا يعلم ان المقام يقتضـى أن يحـذّر المؤمنون عن مخالفه التقوى و ترك التوكل على اللّه بذكر هذه القصه و دعوتهم الى الاعتبار بها.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ وَ بَعَثْنٰا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ

نَقِيباً الآيه؛قال الراغب:النقب فى الحائط و الجلد كالثقب فى الخشب.قال:و النقيب الباحث عن القوم و عن أحوالهم،و جمعه نقباء.

و اللّه سبحانه يقص على المؤمنين من هذه الامه ما جرى على بنى إسرائيل من إحكام دينهم و تثبيت أمرهم بأخذ الميثاق،و بعث النقباء،و إبلاغ البيان،و إتمام الحجه ثم ما قابلوه به من نقض الميثاق،و ما قابلهم به اللّه سبحانه من اللعن و تقسيه القلوب،الخ؛فقال: «وَ لَقَدْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ» و هو الذى يذكره كثيرا كثيرا فى سوره البقره و غيرها: «وَ بَعَثْنٰا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً» و الظاهر أنهم رؤساء الأسباط الاثنى عشر،كانوا كالولاه عليهم يتولون امورهم فنسبتهم الى أسباطهم بوجه كنسبه أولى الأمر الى الأفراد فى هذه الامه لهم المرجعيه فى امور الدين و الدنيا غير أنهم لا يلتقون وحيا،و لا يشرّعون شريعه،و إنما ذلك الى اللّه و رسوله «وَ قٰالَ اللّٰهُ إِنِّي مَعَكُمْ» إيذان بالحفظ و المراقبه فيتفرع عليه أن ينصرهم إن أطاعوه و يخذلهم إن عصوه و لذلك ذكر الأمرين جميعا فقال: «لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاٰةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكٰاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ» و التعزيز هو النصره مع التعظيم،و المراد بالرسل ما سيستقبلهم ببعثته و دعوته كعيسى و محمد عليهما السّلام و سائر من بعثه اللّه بين موسى و محمد عليهما السّلام «وَ أَقْرَضْتُمُ اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً» و هو الإنفاق المندوب دون الزكاه الواجبه «لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ» فهذا ما يرجع الى جميل الوعد.ثم قال: «فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوٰاءَ السَّبِيلِ» .

قوله تعالى: فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِيثٰاقَهُمْ لَعَنّٰاهُمْ وَ جَعَلْنٰا قُلُوبَهُمْ قٰاسِيَةً ،ذكر تعالى جزاء الكفر بالميثاق المذكور ضلال سواء السبيل،و هو ذكر إجمالى يفصله ما فى هذه الآيه من أنواع النقم التى نسب اللّه سبحانه بعضها الى نفسه كاللّعن و تقسيه القلوب مما تستقيم فيه النسبه،و بعضها الى أنفسهم مما وقع باختيارهم كالذى يعنى بقوله: «وَ لاٰ تَزٰالُ تَطَّلِعُ عَلىٰ خٰائِنَةٍ مِنْهُمْ» فهذا كله جزاؤهم بما كفروا بآيات اللّه التى على رأسها الميثاق المأخوذ منهم،أو

جزاء كفرهم بالميثاق خاصه فإن سواء السبيل الذى ضلوه هو سبيل السعاده التى بها عماره دنياهم و أخراهم.

فقوله: «فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ» الظاهر أنه هو الكفر الذى توعد اللّه عليه فى الآيه السابقه، و لفظه«ما»فى قوله: «فَبِمَا» للتأكيد،و يفيد الإبهام لغرض التعظيم أو التحقير أو غيرهما، و المعنى:فبنقض ما منهم لميثاقهم «لَعَنّاهُمْ» و اللعن هو الإبعاد من الرحمه «وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً» و قسوه القلب مأخوذ من قسوه الحجاره و هى صلابتها و القسى من القلوب ما لا يخشع لحق و لا يتأثر برحمه،قال تعالى: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (الحديد١٦/).

و بالجمله عقبت قسوه قلوبهم أنهم عادوا «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ» بتفسيرها بما لا يرضى به اللّه سبحانه و بإسقاط أو زياده أو تغيير،فكل ذلك من التحريف،و أفضاهم ذلك أن فاتهم حقائق ناصعه من الدين «وَ نَسُوا حَظًّا مِمّا ذُكِّرُوا بِهِ» و لم يكن إلا حظا من الاصول التى تدور على مدارها السعاده،و لا يقوم مقامها إلا ما يسجل عليهم الشقوه اللازمه كقولهم بالتشبيه،و خاتميه نبوه موسى،و دوام شريعه التوراه،و بطلان النسخ و البداء الى غير ذلك.

«وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ» أى على طائفه خائنه منهم،أو على خيانه منهم «إِلاّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» و قد تقدم مرارا ان استثناء القليل منهم لا ينافى ثبوت اللعن و العذاب للجماعه التى هى الشعب و الامه.

قوله تعالى: وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا ،قال الرغب:غرى بكذا أى لهج به و لصق،و أصل ذلك من الغراء و هو ما يلصق به،و أغريت فلانا بكذا نحو ألهجت به.

و قد كان المسيح عيسى بن مريم نبى رحمه يدعو الناس الى الصلح و السلم،و يندبهم الى

الإشراف على الآخره،و الإعراض عن ملاذّ الدنيا و زخارفها،و ينهاهم عن التكالب لأجل هذا العرض الأدنى فلما نسوا حظا مما ذكروا به أثبت اللّه سبحانه فى قلوبهم مكان السلم و الصلح حربا،و بدل المؤاخاه و المواده التى ندبوا إليها معاده و مباغضه كما يقول «فَنَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنٰا بَيْنَهُمُ الْعَدٰاوَةَ وَ الْبَغْضٰاءَ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ» .

و هذه العداوه و البغضاء اللتان ذكرهما اللّه تعالى صارتا من الملكات الراسخه المرتكزه بين هؤلاء الامم المسيحيه و كالنار الآخره التى لا مناص لهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها و ذوقوا عذاب الحريق.

و لم يزل منذ رفع عيسى بن مريم عليه السّلام،و اختلف حواريوه و الدعاه السائحون من تلامذتهم فيما بينهم نشب الاختلاف فيما بينهم،و لم يزل ينمو و يكثر حتى تبدل الى الحروب و المقاتلات و الغارات و أنواع الشرد و الطرد و غير ذلك حتى انتهى الى حروب عالميه كبرى تهدد الأرض بالخراب و الإنسانيه بالفناء و الانقراض.

كل ذلك من تبدل النعمه نقمه،و إنتاج السعى ضلالا «وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّٰهُ بِمٰا كٰانُوا يَصْنَعُونَ» .

[سوره المائده (۵): الآيات ۱۵ الى ۱۹]

اشاره

يٰا أَهْلَ اَلْكِتٰابِ قَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولُنٰا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمّٰا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ اَلْكِتٰابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جٰاءَكُمْ مِنَ اَللّٰهِ نُورٌ وَ كِتٰابٌ مُبِينٌ (۱۵) يَهْدِي بِهِ اَللّٰهُ مَنِ اِتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ سُبُلَ اَلسَّلاٰمِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ اَلظُّلُمٰاتِ إِلَى اَلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۶) لَقَدْ كَفَرَ اَلَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْمَسِيحُ اِبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اَللّٰهِ شَيْئاً إِنْ أَرٰادَ أَنْ يُهْلِكَ اَلْمَسِيحَ اِبْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً وَ لِلّٰهِ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۷) وَ قٰالَتِ اَلْيَهُودُ وَ اَلنَّصٰارىٰ نَحْنُ أَبْنٰاءُ اَللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ وَ لِلّٰهِ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا وَ إِلَيْهِ اَلْمَصِيرُ (۱۸) يٰا أَهْلَ اَلْكِتٰابِ قَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولُنٰا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلىٰ فَتْرَةٍ مِنَ اَلرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مٰا جٰاءَنٰا مِنْ بَشِيرٍ وَ لاٰ نَذِيرٍ فَقَدْ جٰاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۹)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ أما بيانه كثيرا كانوا يخفون من الكتاب فكبيانه آيات النبوه و بشاراتها كما يشير اليه قوله تعالى: اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَ الْإِنْجِيلِ الآيه(الأعراف/۱۵۷)؛و قوله تعالى:

يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الآيه(البقره/۱۴۶)و قوله: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ -الى قوله- ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ الآيه (الفتح/۲۹)و كبيانه صلّى اللّه عليه و آله و سلم حكم الرجل الذى كتموه و كابروا فيه الحق على ما يشير اليه قوله تعالى فيما سيأتى: لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ الآيات(المائده/۴۱)؛و هذا

الحكم أعنى حكم الرجم موجود الآن فى الإصحاح الثانى و العشرين من سفر التثنيه من التوراه الدائره بينهم.

و أما عفوه عن كثير فهو تركه كثيرا مما كانوا يخفونه من الكتاب،و يشهد بذلك الاختلاف الموجود فى الكتابين،كاشتمال التوراه على امور فى التوحيد و النبوه لا يصح استنادها اليه تعالى كالتجسم و الحلول فى المكان و نحو ذلك،و ما لا يجوز العقل نسبته الى الأنبياء الكرام من أنواع الكفر و الفجور و الزلات،و كفقدان التوراه ذكر المعاد من رأس و لا يقوم دين على ساق إلا بمعاد،و كاشتمال ما عندهم من الأناجيل و لا سيما إنجيل يوحنا على عقائد الوثنيه.

قوله تعالى: قَدْ جٰاءَكُمْ مِنَ اللّٰهِ نُورٌ وَ كِتٰابٌ مُبِينٌ ظاهر قوله: «قَدْ جٰاءَكُمْ مِنَ اللّٰهِ» كون هذا الجائى قائما به تعالى نحو قيام كقيام البيان أو الكلام بالمبين و المتكلم و هذا يؤيد كون المراد بالنور هو القرآن،و على هذا فيكون قوله: «وَ كِتٰابٌ مُبِينٌ» معطوفا عليه عطف تفسير،و المراد بالنور و الكتاب المبين جميعا القرآن،و قد سمى اللّه تعالى القرآن نورا فى موارد من كلامه كقوله تعالى: وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ (الأعراف/١٥٧)و قوله:

فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنٰا (التغابن/٨)و قوله: وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (النساء/١٧٤).

و من المحتمل أن يكون المراد بالنور النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم على ما ربما أفاده صدر الكلام فى الآيه، و قد عده اللّه تعالى نورا فى قوله: وَ سِرٰاجاً مُنِيراً (الأحزاب/٤۶).

قوله تعالى: يَهْدِي بِهِ اللّٰهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ سُبُلَ السَّلاٰمِ الباء فى قوله:

«به»للآله و الضمير عائد الى الكتاب أو الى النور سواء أريد به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أو القرآن فمآل الجميع واحد فإن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أحد الأسباب الظاهريه فى مرحله الهدايه،و كذا القرآن و حقيقه الهدايه قائمه به قال تعالى: إِنَّكَ لاٰ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ (القصص/۵۶)،و قال: وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا مٰا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتٰابُ

وَ لاَ الْإِيمَانُ وَ لٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِی إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللّٰهِ الَّذِی لَهُ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِی الْأَرْضِ أَلاٰ إِلَی اللّٰهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (الشوری/ ۵۳)و الآيات كما ترى تنسب الهدايه الى القرآن و الى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى عين أنها ترجعها الى اللّه سبحانه فهو الهادى حقيقه و غيره سبب ظاهرى مسخر لإحياء أمر الهدايه.

و قد قيد تعالى قوله: «يَهْدِی بِهِ اللّٰهُ» بقوله: «مَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ» و يؤول الى اشتراط فعليه الهدايه الإلهيه باتباع رضوانه،فالمراد بالهدايه هو الإيصال الى المطلوب،و هو أن يورده اللّه تعالى سبيلا من سبل السلام أو جميع السبل أو أكثرها واحدا بعد آخر.

و قد أطلق تعالى السلام فهو السلامه و التخلص من كل شقاء يختل به أمر سعاده الحياه فى دنيا أو آخره،فيوافق ما وصف القرآن الإسلام للّه و الإيمان و التقوى بالفلاح و الفوز و الأمن و نحو ذلك،و قد تقدم فى الكلام على قوله تعالى: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ (الحمد۶/)فى الجزء الأول من الكتاب أن اللّه سبحانه بحسب اختلاف حال السائرين من عباده سبلا كثيره تتحد الجميع فى طريق واحد منسوب اليه تعالى يسميه فى كلامه بالصراط المستقيم قال تعالى: وَ الَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَ إِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (العنكبوت۶۹/)، و قال تعالى: وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِی مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (الأنعام۱۵۳/).فدل على أن له سبلا كثيره لكن الجميع تتحد فى الإيصال الى كرامته تعالى من غير أن تفرق سالكيها و يبين كل سبيل سالكيه عن سالكى غيره من السبل كما هو شأن غير صراطه تعالى من السبل.

فمعنى الآيه-و اللّه تعالى-:يهدى اللّه سبحانه و يورد بسبب كتابه أو بسبب نبيه من اتبع رضاه سبلا من شأنها أنه يسلم من سار فيها من شقاء الحياه الدنيا و الآخره،و كل ما تتكدر به العيشه السعيده.

فأمر الهدايه الى السلام و السعاده يدور مدار اتباع رضوان اللّه،و قد قال تعالى:

وَ لاٰ يَرْضىٰ لِعِبٰادِهِ الْكُفْرَ (الزمر/٧)،و قال: فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَرْضىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفٰاسِقِينَ (التوبه/ ٩۶)و يتوقف بالأخره على اجتناب سبيل الظلم و الانخراط فى سلك الظالمين،و قد نفى اللّه سبحانه عنهم هدايته و آيسهم من نيل هذه الكرامه الإلهيه بقوله: وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ (الجمعه/۵)فالآيه أعنى قوله: «يَهْدِي بِهِ اللّٰهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ سُبُلَ السَّلاٰمِ» تجرى بوجه مجرى قوله: اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمٰانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (الأنعام/٨٢).

قوله تعالى: وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ فى جمع الظلمات و إفراد النور إشاره الى أن طريق الحق لا اختلاف فيه و لا تفرق و إن تعددت بحسب المقامات و المواقف بخلاف طريق الباطل.

و الإخراج من الظلمات الى النور اذا نسب الى غيره تعالى كنبى أو كتاب فمعنى إذنه تعالى فيه إجازته و رضاه كما قال تعالى: كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النّٰاسَ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ (إبراهيم/١)فقيد إخراجه إياهم من الظلمات الى النور بإذن ربهم ليخرج بذلك عن الاستقلال فى السببيه فإن السبب الحقيقى لذلك هو اللّه سبحانه و قال: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ بِآيٰاتِنٰا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ (إبراهيم/۵)فلم يقيده بالإذن لاشتمال الأمر على معناه.

و اذا نسب ذلك الى اللّه تعالى فمعنى إخراجهم بإذنه إخراجهم بعلمه و قد جاء الاذن بمعنى العلم يقال:أذن به أى علم به،و من هذا الباب قوله تعالى: وَ أَذٰانٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ (التوبه/٣) فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلىٰ سَوٰاءٍ (الأنبياء/١٠٩)،و قوله: وَ أَذِّنْ فِي النّٰاسِ بِالْحَجِّ (الحج/٢٧)الى غيرها من الآيات.

و أما قوله تعالى: «وَ يَهْدِيهِمْ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ» فقد أعيد فيه لفظ الهدايه لحيلوله قوله:

«وَ يُخْرِجُهُمْ» ،بين قوله: «يَهْدِي بِهِ اللّٰهُ» ،و بين هذه الجمله،و لأن الصراط المستقيم كما تقدم

بيانه فى سوره الفاتحه طريق مهيمن على الطرق كلها فالهـدايه اليه أيضا هـدايه مهيمنه على سائر أقسام الهدايه التى تتعلق بالسبل الجزئيه.

و لا ينافى تنكير قوله: «صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ» كون المراد به هو الصراط المستقيم الوحيد الذى نسبه اللّه تعالى فى كلامه الى نفسه-إلا فى سوره الفاتحه-لأن قرينه المقام تدلّ على ذلك،و إنما التنكير لتعظيم شأنه و تفخيم أمره.

قوله تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ هؤلاء إحدى الطوائف الثلاثه التى تقدم نقل أقوالهم فى سوره آل عمران،و هى القـائله باتحـاد اللّه سـبحانه بالمسـيح فهو إله بشـر بعينه،و يمكن تطبيق الجمله أعنى قولهم: «إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» على القول بالبنوه و على القول بثالث ثلاثه أيضا غير أن ظاهر الجمله هو حصول العينيه بالاتحاد.

قوله تعالى: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً إِنْ أَرٰادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً الآيه؛هذا برهان على إبطال قولهم:من جهه مناقضه بعضه بعضا لأنهم لما وضـعوا أن المسـيح مع كونه إلها بشـر كما وصفوه بأنه ابن مريم جوزوا له ما يجوز على أى بشر مفروض من سكان هذه الارض،و هم جميعا كسائر أجزاء السماوات و الارض و ما بينهما مملوكون للّه تعالى مسـخرون تحت ملكه و سـلطانه،فله تعالى أن يتصـرف فيهم بما أراد،و أن يحكم لهم أو عليهم كيفما شاء،فله أن يهلك المسيح كمـاله أن يهلـك أمـه و مـن فى الأـرض على حـد سـواء مـن غير مزيـه للمسـيح على غيره،و كيـف يجوز الهلاـك على اللّه سبحانه؟!فوضعهم أن المسيح بشر يبطل وضعهم أنه هو اللّه سبحانه للمناقضه.

فقوله: «فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً» كنايه عن نفى المانع مطلقا فملك شىء من اللّه هو السلطنه عليه تعالى فى بعض ما يرجع اليه،و لازمها انقطاع سـلطنته عن ذلك الشـىء،و هو أن يكون سبب من الأسباب يستقل فى التأثير فى شىء بحيث يمانع تأثيره تعالى أو يغلب عليه فيه،و لا

ملک إلا للّه وحده لا شریک له إلا ما ملک غیره تملیکا لا یبطل ملکه و سلطانه.

و قوله: «إِنْ أَرادَ أَنْ یُهْلِکَ الْمَسِیحَ ابْنَ مَرْیَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً» إنما قید المسیح بقوله: «ابْنُ مَرْیَمَ» للدلاله علی کونه بشرا تاما واقعا تحت التأثیر الربوبی کسائر البشر، و لذلک بعینه عطف علیه«أمه»لکونه مسانخه له من دون ریب،و عطف علیه «مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً» لکون الحکم فی الجمیع علی حد سواء.

و من هنا یظهر أن فی هذا التقیید و العطف تلویحا الی برهان الإمکان،و محصله أن المسیح یماثل غیره من أفراد البشر کامه و سائر من فی الأرض فیجوز علیه ما یجوز علیهم لأن حکم الامثال فیما یجوز فیما لا یجوز واحد،و یجوز علی غیره أن یقع تحت حکم الهلاک فیجوز علیه ذلک و لا مانع هناک یمنع،و لو کان هو اللّه سبحانه لما جاز علیه ذلک.

و قوله: «وَ لِلّٰهِ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا» فی مقام التعلیل للجمله السابقه، و التصریح بقوله: «وَ مٰا بَیْنَهُمٰا» مع أن القرآن کثیرا ما یعبر عن عالم الخلقه بالسماوات و الارض فقط إنما هو لیکون الکلام أقرب من التصریح،و أسلم من ورود التوهمات و الشبهات فلیس لمتوهم أن یتوهم أنه إنما ذکر السماوات و الارض و لم یذکر ما بینهما،و مورد الکلام مما بینهما.

و تقدیم الخبر أعنی قوله«و للّه»للدلاله علی الحصر،و بذلک یتم البیان،و المعنی:کیف یمکن أن یمنع مانع من إرادته تعالی إهلاک المسیح و غیره و وقوع ما أراده من ذلک،و الملک و السلطنه المطلقه فی السماوات و الأرض و ما بینهما للّه تعالی لا ملک لأحد سواه؟فلا مانع من نفوذ حکمه و مضی أمره.

و قوله: «یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ وَ اللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» فی مقام التعلیل للجمله السابقه علیه أعنی قوله: «وَ لِلّٰهِ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا» فإن الملک-بضم المیم-و هو نوع سلطنه و مالکیه علی سلطنه الناس و ما یملکونه إنما یتقوّم بشمول القدره و نفوذ المشیئه،و للّه سبحانه ذلک فی جمیع السماوات و الارض و ما بینهما،فله القدره علی کل شیء و هو یخلق ما یشاء من

الأشیاء فله الملک المطلق فی السماوات و الارض و ما بینهما فخلقه ما یشاء و قدرته علی کل شیء هو البرهان علی ملکه کما أن ملکه هو البرهان علی أن له أن یرید إهلاک الجمیع ثم یمضی إرادته لو أراد،و هو البرهان علی أنه لا یشارکه أحد منهم فی ألوهیته.

و أما البرهان علی نفوذ مشیّته و شمول قدرته فهو أنه اللّه عز اسمه،و لعله لذلک کرر لفظ الجلاله فی الآیه مرات فقد آل فرض الالوهیه فی شیء الی أنه لا شریک له فی ألوهیته.

قوله تعالی: وَ قٰالَتِ الْیَهُودُ وَ النَّصٰاریٰ نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ لا ریب أنهم لم یکونوا یدّعون البنوه الحقیقیه کما یدّعیه معظم النصاری للمسیح علیه السّلام فلا الیهود کانت تدّعی ذلک حقیقه و لا النصاری،و إنما کانوا یطلقونها علی أنفسهم إطلاقا تشریفیا بنوع من التجوّز،و قد ورد فی کتبهم المقدسه هذا الاطلاق کثیرا کما فی حق آدم (۱)و یعقوب (۲)و داود (۳)و اقوام (۴)عیسی (۵)و اطلق (۶)أیضا علی صلحاء المؤمنین.

و کیف کان فإنما ارید بالابناء أنهم من اللّه سبحانه بمنزله الابناء من الاب،فهم بمنزله أبناء الملک بالنسبه إلیه المنحازین عن الرعیه المخصوصین بخصیصه القرب المقتضیه أن لا یعامل معهم معامله الرعیه کأنهم مستثنون عن إجراء القوانین و الاحکام المجراه بین الناس لأن تعلقهم بعرش الملک لا یلائم مجازاتهم بما یجازی به غیرهم و لا إیقافهم موقفا توقف فیه سائر الرعیه،فلا یستهان بهم کما یستهان بغیرهم فکل ذلک لما تتعقبه علقه النسب من علقه الحب

۱- ۱) .آیه ۳۸ من الاصحاح الثالث من انجیل لوقا.

۲- ۲) .آیه ۲۲ من الاصحاح الرابع من سفر الخروج من التوراه.

۳- ۳) .آیه ۷ من المزمور ۲ من مزامیر داود.

۴- ۴) .آیه ۹ من الاصحاح ۳۱ من نبوه أرمیا.

۵- ۵) .آیه ۹ من الاصحاح ۵ إنجیل متی،و فی غیره من الاناجیل.

۶- ۶) .موارد کثیره من الاناجیل و ملحقاتها.

و الكرامه.

فالمراد بهذه البنوه الاختصاص و التقرب،و يكون عطف قوله: «وَ أَحِبّٰاؤُهُ» على قوله «أَبْنٰاءُ اللّٰهِ» كعطف التفسير و ليس به حقيقه،و غرضـهم من دعوى هذا الاختصاص و المحبوبيه إثبات لازمه و هو أنه لا سبيل الى تعذيبهم و عقوبتهم فلن يصيروا إلا الى النعمه و الكرامه لأن تعذيبه تعالى إياهم يناقض ما خصهم به من المزيه،و حباهم به من الكرامه.

و الدليل عليه ما ورد فى الرد عليهم من قوله تعالى: «يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ» ،اذ لو لا أنهم كانوا يريدون بقولهم: «نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ» أنه لا سبيل الى عذابهم و إن لم يستجيبوا الدعوه الحقه لم يكن وجه لذكر هذه الجمله:«يغفر»،ردا عليهم و لا لقوه له: «بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ» موقع حسن مناسب فمعنى قولهم: «نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ» أنّا خاصه اللّه و محبوبوه لا سبيل له تعالى الى تعذيبنا و إن فعلنا ما فعلنا،و تركنا ما تركنا لأن انتفاء السبيل وقوع الا من التام من كل مكروه و محذور هو لازم معنى الاختصاص و الحب.

قوله تعالى: قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ أمر نبيه بالاحتجاج عليهم و رد دعواهم بالحجه،و تلك حجتان:إحداهما:النقض عليهم بالتعذيب الواقع عليهم،و ثانيتهما:

معارضتهم بحجه تنتج نقيض دعواهم.

و محصّل الحجه الاولى التى يشتمل عليها قوله: «فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ» أنه لو صحت دعواكم أنكم أبناء اللّه و أحباؤه مأمونون من التعذيب الالهى لا سبيل إليه فيكم لكنتم مأمونين من كل عذاب اخروى أو دنيوى فما هذا العذاب الواقع عليكم المستمر فيكم بسبب ذنوبكم؟فأما اليهود فلم تزل تذنب ذنوبا كقتلهم أنبياءهم و الصالحين من شعبهم و تفجر بنقض المواثيق الالهيه المأخوذه منهم،و تحريف الكلم عن مواضعه و كتمان آيات اللّه و الكفر بها و كل طغيان و اعتداء،و تذوق وبال أمرها نكالا عليها من مسخ بعضهم و ضرب الذله و المسكنه على آخرين،و تسلط الظالمين عليهم يقتلون أنفسهم و يهتكون أعراضهم

و يخرّبون بلادهم،و ما لهم من العيش إلا عيشه الحرض الذی لا هو حی فيرجی و لا ميت فينسی (۱).

و فی الآيه أعنی قوله: «قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ» وجه آخر و هو أن يكون المراد بالعذاب الاخروی،و المضارع (يُعَذِّبُكُمْ) بمعنی الاستقبال دون الاستمرار كما فی الوجه السابق فإن أهل الكتاب معترفون بالعذاب بحذاء ذنوبهم فی الجمله:أما اليهود فقد نقل القرآن عنهم قولهم: لَنْ تَمَسَّنَا النّٰارُ إِلاّٰ أَيّٰاماً مَعْدُودَةً (البقره/۸۰)و أما النصاری فإنهم و إن قالوا بالفداء لمغفره الذنوب لكنه إثبات فی نفسه للذنوب و العذاب الذی أصاب المسيح بالصلب و الأناجيل مع ذلک تثبت ذنوبا كالزنا و نحوه،و الكنيسه كانت تثبته عملا بما كانت تصدره من صكوک المغفره.هذا.لكن الوجه هو الاول.

قوله تعالی: بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ حجه ثانيه مسوقه علی نحو المعارضه محصّلها:أن النظر فی حقيقتكم يؤدی الی بطلان دعواكم أنكم أبناء اللّه و أحباؤه،فإنكم بشر من جمله من خلقه اللّه من بشر أو غيره لا تمتازون عن سائر من خلقه اللّه منهم،و لا يزيد أحد من الخليقه من السماوات و الارض و ما بينهما علی أنه مخلوق للّه الذی هو المليک الحاكم فيه و فی غيره بما شاء و كيفما شاء و يصير الی ربه المليک الحاكم فيه و فی غيره، و اذا كان كذلک كان للّه سبحانه أن يغفر لمن شاء منهم،و يعذب من شاء منهم من غير أن تمانعه مزيه أو كرامه أو غير ذلک من ان يريد فی شیء ما يريده من مغفره أو عذاب أو يقطع سبيله قاطع أو يضرب دونه حجاب يحجبه عن نفوذ المشيئه و مضی الحكم.

فقوله: «بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ» بمنزله إحدی مقدمات الحجه،و قوله: «وَ لِلّٰهِ مُلْكُ

۱- ۱) .المائده ۱۵-۱۹:كلام فی الابتلاءات و العذاب النازل علی أهل الكتاب.

اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا» مقدمه أخرى و قوله: «وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» مقدمه ثالثه،و قوله:

«يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ» بمنزله نتيجه البيان التى تناقض دعواهم:أنه لا سبيل الى تعذيبهم.

قوله تعالى: يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ قَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولُنٰا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ قال الراغب:الفتور سكون بعد حدّه،و لين بعد شدّه،و ضعف بعد قوه قال تعالى:

«يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ قَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولُنٰا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ» أى سكون خال عن مجىء رسول اللّه.

و الآيه خطاب ثان لأهل الكتاب متمم للخطاب السابق فإن الآيه الاولى بينت لهم أن اللّه ارسل اليهم رسولا ايده بكتاب مبين يهدى بإذن اللّه الى كل خير و سعاده،و هذه الآيه تبين ان ذلك البيان الإلهى إنما هو لإتمام الحجه عليهم ان يقولوا:ما جاءنا من بشير و لا نذير.

و بهذا البيان يتأيد ان يكون متعلق الفعل(يبين لكم)فى هذه الآيه هو الذى فى الآيه السابقه،و التقدير:يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب اى ان هذا الدين الذى تدعون اليه هو بعينه دينكم الذى كنتم تدينون به مصدقا لما معكم و الذى يرى فيه من موارد الاختلاف فإنما هو بيان لما أخفيتموه من معارف الدين التى بينته الكتب الالهيه،و لازم هذا الوجه ان يكون قوله:يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم من قبيل إعاده عين الخطاب السابق لضم بعض الكلام المفصول عن الخطاب السابق المتعلق به و هو قوله: «أَنْ تَقُولُوا مٰا جٰاءَنٰا» الخ؛اليه و انما جوّز ذلك وقوع الفصل الطويل بين المتعلق و المتعلق به و هو شائع فى اللسان.

و يمكن ان يكون خطابا مستأنفا و الفعل(يبين لكم)انما حذف متعلقه.

للدلاله على العموم أى يبين لكم جميع ما يحتاج الى البيان،أو لتفخيم أمره أى يبين لكم

أمرا عظيما تحتاجون الى بيانه،و قوله: «عَلىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ» لا يخلو عن إشعار أو دلاله على هذه الحاجه فإن المعنى:يبين لكم ما مست حاجتكم الى بيانه و الزمان خال من الرسل حتى يبينوا لكم ذلك.

و قوله: «أَنْ تَقُولُوا مٰا جٰاءَنٰا مِنْ بَشِيرٍ وَ لاٰ نَذِيرٍ» ،متعلق بقوله: «فَقَدْ جٰاءَكُمْ» بتقدير:

حذر أن تقولوا،أو لئلا تقولوا.

و قوله: «وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» كأنه لدفع الدخل فإن اليهود كانت لا ترى جواز تشريع شريعه بعد شريعه التوراه لذهابهم الى امتناع النسخ و البداء فرد اللّه سبحانه مزعمتهم بأنها تنافى عموم القدره،و قد تقدم الكلام فى النسخ فى تفسير قوله تعالى: مٰا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ الآيه(البقره/۱۰۶)؛فى الجزء الأول من الكتاب (۱)(۲)(۳).

[سوره المائده (۵): الآيات ۲۰ الى ۲۶]

اشاره

وَ إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يٰا قَوْمِ اُذْكُرُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيٰاءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَ آتٰاكُمْ مٰا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ اَلْعٰالَمِينَ (۲۰) يٰا قَوْمِ اُدْخُلُوا اَلْأَرْضَ اَلْمُقَدَّسَةَ اَلَّتِي كَتَبَ اَللّٰهُ لَكُمْ وَ لاٰ تَرْتَدُّوا عَلىٰ أَدْبٰارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خٰاسِرِينَ (۲۱) قٰالُوا يٰا مُوسىٰ إِنَّ فِيهٰا قَوْماً جَبّٰارِينَ وَ إِنّٰا لَنْ نَدْخُلَهٰا حَتّٰى يَخْرُجُوا مِنْهٰا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهٰا فَإِنّٰا دٰاخِلُونَ (۲۲) قٰالَ رَجُلاٰنِ مِنَ اَلَّذِينَ يَخٰافُونَ أَنْعَمَ اَللّٰهُ عَلَيْهِمَا اُدْخُلُوا عَلَيْهِمُ اَلْبٰابَ فَإِذٰا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غٰالِبُونَ وَ عَلَى اَللّٰهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۲۳) قٰالُوا يٰا مُوسىٰ إِنّٰا لَنْ نَدْخُلَهٰا أَبَداً مٰا دٰامُوا فِيهٰا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقٰاتِلاٰ إِنّٰا هٰاهُنٰا قٰاعِدُونَ (۲۴) قٰالَ رَبِّ إِنِّي لاٰ أَمْلِكُ إِلاّٰ نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَ اَلْقَوْمِ اَلْفٰاسِقِينَ (۲۵) قٰالَ فَإِنَّهٰا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي اَلْأَرْضِ فَلاٰ تَأْسَ عَلَى اَلْقَوْمِ اَلْفٰاسِقِينَ (۲۶)

۱- ۱) .المائده ۱۵-۱۹:كلامه فى طريق التفكر الذى يهدى اليه القرآن و هو بحث مختلف.

۲- ۲) .المائده ۱۵-۱۹:بحث فى تاريخ التفكر الاسلامى و الطريق الذى سلكته الامه الاسلاميه.

۳- ۳) .المائده ۱۵-۱۹:بحث روائى فى:كتمان اليهود حكم الرجم فى عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

بيان:

قوله تعالى: وَ إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يٰا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ الى آخر الآيه؛الآيات النازله فی قصص موسی تدل علی أن هذه القصه-دعوه موسی إیاهم الی دخول الأرض المقدسه-إنما کانت بعد خروجهم من مصر،کما أن قوله فی هذه الآيه «وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً» یدل علی ذلک أیضا.

و یدل قوله: «وَ آتٰاكُمْ مٰا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعٰالَمِينَ» علی سبق عده من الآیات النازله علیهم کالمن و السلوی و انفجار العیون من الحجاره و إظلال الغمام.

و یدل قوله: «الْقَوْمِ الْفٰاسِقِينَ» المتکرر مرتین علی تحقق المخالفه و معصیه الرسول منهم قبل القصه مره بعد مره حتی عادوا بذلک متلبسین بصفه الفسق.

ص :۸۲

فهذه قرائن تدل على وقوع القصه أعنى قصه التيه فى الشطر الأخير من زمان مكث موسى عليه السّلام فيهم بعد أن بعثه اللّه تعالى إليهم و أن غالب القصص المقتصه فى القرآن عنهم إنما وقعت قبل ذلك.

فقول موسى لهم: «اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ» أريد به مجموع النعم التى أنعم اللّه بها عليهم و حباهم بها،و إنما بدأ بذلك مقدمه لما سيندبهم إليه من دخول الأرض المقدسه فذكرهم نعم ربهم لينشطوا بذلك لاستزاده النعمه و استتمامها فإن اللّه قد كان أنعم عليهم ببعثه موسى و هذه يتهم الى دينه،و نجاتهم من آل فرعون،و إنزال التوراه،و تشريع الشريعه فلم يبق لهم من تمام النعمه إلا أن يمتلكوا أرضا مقدسه يستقلون فيها بالقطون و السؤدد.

و قد قسم النعمه التى ذكرهم بها ثلاثه أقسام حين التفصيل فقال: «إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيٰاءَ» و هم الأنبياء الذين فى عمود نسبهم كإبراهيم و إسحاق و يعقوب و من بعدهم من الأنبياء،أو خصوص الأنبياء من بنى إسرائيل كيوسف او الاسباط و موسى و هارون،و النبوه نعمه أخرى.

ثم قال: «وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً» أى مستقلين بأنفسكم خارجين من ذل استرقاق الفراعنه و تحكم الجبابره،و ليس الملك إلا من استقل فى أمر نفسه و أهله و ماله،و قد كان بنو إسرائيل فى زمن موسى يسيرون بسنه اجتماعيه هى أحسن السنن و هى سنه التوحيد التى تأمرهم بطاعه اللّه و رسوله،و العدل التام فى مجتمعهم،و عدم الاعتداء على غيرهم من الامم من غير ان يتأمر عليهم بعضهم أو يختلف طبقاتهم اختلافا يختل به امر المجتمع،و ما عليهم إلا موسى و هو نبى غير سائر سيره ملك أو رئيس عشيره يستعلى عليهم بغير الحق.

و يمكن أن يكون المراد بالملك مجرد ركوز الحكم عند بعض الجماعه فيشمل سنه الشيخوخه،و يكون على هذا موسى عليه السّلام ملكا و بعده يوشع النبى و قد كان يوسف ملكا من قبل،و ينتهى الى الملوك المعروفين طالوت و داود و سليمان و غيرهم.هذا،و يرد على هذا الوجه

أيضا ما يرد على سابقه.

ثم قال: «وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ» و هى العنايات و الألطاف الإلهيه التى اقترنت بآيات باهره قيّمه بتعديل حياتهم لو استقاموا على ما قالوا،و داموا على ما واثقوا، و هى الآيات البينات التى أحاطت بهم من كل جانب أيام كانوا بمصر،و بعد اذ نجاهم اللّه من فرعون و قومه،فلم يتوافر و يتواتر من الآيات المعجزات و البراهين الساطعات و النعم التى يتنعم بها فى الحياه على امه من الامم الماضيه المتقدمه على عهد موسى ما توافرت و تواترت على بنى اسرائيل.

قوله تعالى: يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّٰهُ لَكُمْ وَ لاٰ تَرْتَدُّوا عَلىٰ أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ أمرهم بدخول الأرض المقدسه،و كان يستنبط من حالهم التمرد و التأبّى عن القبول،و لذلك أكد أمره بالنهى عن الارتداد و ذكر استتباعه الخسران.و الدليل على أنه كان يستنبط منهم الرد توصيفه اياهم بالفاسقين بعد ردهم،فإن الردّ و هو فسق واحد لا يصحح اطلاق«الفاسقين»عليهم الدالّ على نوع من الاستمرار و التكرّر.

و قد وصف الأرض بالمقدسه،و قد فسروه بالمطهره من الشرك لسكون الأنبياء و المؤمنين فيها،و لم يرد فى القرآن الكريم ما يفسر هذه الكلمه.و الذى يمكن أن يستفاد منه ما يقرب من هذا المعنى قوله تعالى: إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ (الإسراء/١)و قوله:

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها (الأعراف/١٣٧)و ليست المباركه فى الارض الا جعل الخير الكثير فيها،و من الخير الكثير اقامه الدين و اذهاب قذاره الشرك.

و قوله: «كَتَبَ اللّٰهُ لَكُمْ» ظاهر الآيات أن المراد به قضاء توطنهم فيها،و لا ينافيه قوله فى آخرها: «فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً» بل يؤكده فإن قوله: «كَتَبَ اللّٰهُ لَكُمْ» كلام مجمل

أبهم فيه ذكر الوقت و حتى الاشخاص،فإن الخطاب للامه من غير تعرض لحال الافراد و الاشخاص،كما قيل:ان السامعين لهذا الخطاب الحاضرين المكلفين به ماتوا و فنوا عن آخرهم فى التيه،و لم يدخل الارض المقدسه الا أبناءهم و أبناء أبنائهم مع يوشع بن نون، و بالجمله لا يخلو قوله: «فَإِنَّهٰا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً» عن اشعار بأنها مكتوبه لهم بعد ذلك.

و هذه الكتابه هى التى يدل عليها قوله تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوٰارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ (القصص۶/)و قد كان موسى عليه السّلام يرجو لهم ذلك بشرط الاستعانه باللّه و الصبر حيث يقول قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّٰهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُهٰا مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ الْعٰاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قٰالُوا أُوذِينٰا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنٰا وَ مِنْ بَعْدِ مٰا جِئْتَنٰا قٰالَ عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (الأعراف۱۲۹/).

و هذا هو الذى يخبر تعالى عن انجازه بقوله: وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كٰانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشٰارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغٰارِبَهَا الَّتِي بٰارَكْنٰا فِيهٰا وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنىٰ عَلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ بِمٰا صَبَرُوا (الأعراف۱۳۷/)فدلت الآيه على أن استيلاءهم على الارض المقدسه و توطنهم فيها كانت كلمه الهيه و كتابا و قضاء مقضيا مشترطا بالصبر على الطاعه و عن المعصيه،و فى مرّ الحوادث.

قوله تعالى: قٰالُوا يٰا مُوسىٰ إِنَّ فِيهٰا قَوْماً جَبّٰارِينَ وَ إِنّٰا لَنْ نَدْخُلَهٰا حَتّٰى يَخْرُجُوا مِنْهٰا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهٰا فَإِنّٰا دٰاخِلُونَ قال الرغب:أصل الجبر إصلاح الشىء بضرب من القهر يقال:جبرته فانجبر و اجتبر.قال:و قد يقال الجبر تاره فى الإصلاح المجرد نحو قول على رضى اللّه عنه:يا جابر كل كسير و يا مسهل كل عسير،و منه قولهم للخبز:جابر بن حبه،و تاره فى القهر المجرد نحو قوله عليه السّلام:لا جبر و لا تفويض،قال:و الإجبار فى الاصل حمل

الغیر علی أن یجبر الآخر لکن تعورف فی الإکراه المجرد فقیل:أجبرته علی کذا کقولک:

أکرهته.قال:و الجبّار فی صفه الإنسان یقال لمن یجبر نقیصه بادعاء منزله من التعالی لا یستحقها،و هذا لا یقال إلا علی طریق الذم کقوله عزّ و جل وَ خٰابَ کُلُّ جَبّٰارٍ عَنِیدٍ و قوله تعالی: وَ لَمْ یَجْعَلْنِی جَبّٰاراً شَقِیًّا و قوله عزّ و جل «إِنَّ فِیهٰا قَوْماً جَبّٰارِینَ» قال:و لتصوّر القهر بالعلوّ علی الاقران قیل:نخله جباره و ناقه جباره انتهی موضع الحاجه.

فظهر أن المراد بالجبارین هم أولو السطوه و القوه من الذین یجبرون الناس علی ما یریدون.

و قوله: «وَ إِنّٰا لَنْ نَدْخُلَهٰا حَتّٰی یَخْرُجُوا مِنْهٰا» اشتراط منهم خروج القوم الجبارین فی دخول الارض،و حقیقته الرد لأمر موسی و إن وعدوه ثانیا الدخول علی الشرط بقولهم «فَإِنْ یَخْرُجُوا مِنْهٰا فَإِنّٰا دٰاخِلُونَ» .

قوله تعالی: قٰالَ رَجُلاٰنِ مِنَ الَّذِینَ یَخٰافُونَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَیْهِمَا الی آخر الآیه؛ظاهر السیاق أن المراد بالمخافه مخافه اللّه سبحانه و أن هناک رجالا کانوا یخافون اللّه أن یعصوا أمره و أمر نبیه،و منهم هذا الرجلان اللذان قالا ما قالا،و أنهما کانا یختصان من بین اولئک الذین یخافون بأن اللّه أنعم علیهما،و قد مر فی موارد تقدمت من الکتاب أن النعمه اذا اطلقت فی عرف القرآن یراد بها الولایه الالهیه فهما کانا من أولیاء اللّه تعالی،و هذا فی نفسه قرینه علی أن المراد بالمخافه مخافه اللّه سبحانه فإن أولیاء اللّه لا یخشون غیره قال تعالی: أَلاٰ إِنَّ أَوْلِیٰاءَ اللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ (یونس۶۲/).

و یمکن أن یکون متعلق«أنعم»المحذوف أعنی المنعم به هو الخوف،فیکون المراد أن اللّه أنعم علیهما بمخافته،و یکون حذف مفعول «یَخٰافُونَ» للاکتفاء بذکره فی قوله: «أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَیْهِمَا» اذ من المعلوم أن مخافتهما لم یکن من اولئک القوم الجبارین و الالم یدعوا بنی اسرائیل الی الدخول بقولهما «ادْخُلُوا عَلَیْهِمُ الْبٰابَ» .

و قوله: «ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ» لعل المراد به أول بلد من بلاد أولئك الجبابره يلى بنى إسرائيل،و قد كان على ما يقال:أريحاء،و هذا استعمال شائع أو المراد باب البلده.

و قوله: «فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ» وعد منهما لهم بالفتح و الظفر على العدوّ،و إنما أخبرا إخبارا بتّيا اتكالا منهما بما ذكره موسى عليه السّلام أن اللّه كتب لهم تلك الأرض لإيمانهما بصدق أخباره،أو أنهما عرفا ذلك بنور الولايه الالهيه.و قد ذكر المعظم من مفسرى الفريقين:أن الرجلين هما يوشع بن نون و كالب بن يوفنا و هما من نقباء بنى إسرائيل الاثنى عشر.

ثم دعواهم الى التوكل على ربهم بقولهما «وَ عَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» لأن اللّه سبحانه كافى من توكل عليه،و فيه تطييب لنفوسهم و تشجيع لهم.

قوله تعالى: قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا الآيه؛ تكرارهم قولهم «إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا» ثانيا لايئاس موسى عليه السّلام من أن يصر على دعوته فيعود الى الدعوه بعد الدعوه.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِى وَ أَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ السياق يدل على أن قوله: «إِنِّى لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِى وَ أَخِى» كنايه عن نفى القدره على حمل غير نفسه و أخيه على ما أتاهم به من الدعوه.فإنه انما كان فى مقدرته حمل نفسه على امضاء ما دعا اليه و حمل أخيه هارون و قد كان نبيا مرسلا و خليفه له فى حياته لا يتمرد عن أمر اللّه سبحانه.أو أن المراد أنه ليس له قدره الا على نفسه و لا لأخيه قدره الا كذلك.

قوله تعالى: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ الضمير فى قوله «فَإِنَّهَا» راجعه الى الارض المقدسه، و المراد بالتحريم التحريم التكوينى و هو القضاء،و التيه التحير،و اللام فى «الْأَرْضِ» للعهد، و قوله «فَلاَ تَأْسَ» نهى من الاسى و هو الحزن،و قد أمضى اللّه تعالى قول موسى عليه السّلام حيث

وصفهم فی دعائه بالفاسقین.

و المعنی:أن الارض المقدسه أی دخولها و تملکها محرمه علیهم،أی قضینا أن لا یوفقوا لدخولها أربعین سنه یسیرون فیها فی الارض متحیرین لا هم مدنیون یستریحون الی بلد من البلاد،و لا هم بدویون یعیشون عیشه القبائل و البدویین،فلا تحزن علی القوم الفاسقین من نزول هذه النقمه علیهم لانهم فاسقون لا ینبغی أن یحزن علیهم اذا أذیقوا وبال أمرهم (۱).

[سوره المائده (۵): الآیات ۲۷ الی ۳۲]

اشاره

وَ اُتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ اِبْنَیْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبٰا قُرْبٰاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمٰا وَ لَمْ یُتَقَبَّلْ مِنَ اَلْآخَرِ قٰالَ لَأَقْتُلَنَّکَ قٰالَ إِنَّمٰا یَتَقَبَّلُ اَللّٰهُ مِنَ اَلْمُتَّقِینَ (۲۷) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَیَّ یَدَکَ لِتَقْتُلَنِی مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ یَدِیَ إِلَیْکَ لِأَقْتُلَکَ إِنِّی أَخٰافُ اَللّٰهَ رَبَّ اَلْعٰالَمِینَ (۲۸) إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ فَتَکُونَ مِنْ أَصْحٰابِ اَلنّٰارِ وَ ذٰلِکَ جَزٰاءُ اَلظّٰالِمِینَ (۲۹) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِیهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ اَلْخٰاسِرِینَ (۳۰) فَبَعَثَ اَللّٰهُ غُرٰاباً یَبْحَثُ فِی اَلْأَرْضِ لِیُرِیَهُ کَیْفَ یُوٰارِی سَوْأَهَ أَخِیهِ قٰالَ یٰا وَیْلَتیٰ أَ عَجَزْتُ أَنْ أَکُونَ مِثْلَ هٰذَا اَلْغُرٰابِ فَأُوٰارِیَ سَوْأَهَ أَخِی فَأَصْبَحَ مِنَ اَلنّٰادِمِینَ (۳۱) مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ کَتَبْنٰا عَلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَیْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِی اَلْأَرْضِ فَکَأَنَّمٰا قَتَلَ اَلنّٰاسَ جَمِیعاً وَ مَنْ أَحْیٰاهٰا فَکَأَنَّمٰا أَحْیَا اَلنّٰاسَ جَمِیعاً وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُنٰا بِالْبَیِّنٰاتِ ثُمَّ إِنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِکَ فِی اَلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (۳۲)

۱- ۱) .المائده ۲۰-۲۶:بحث روائی فی:بنی اسرائیل و الارض المقدسه،موت موسی علیه السّلام فی التیه.

بيان:

قوله تعالى: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ الآيه؛التلاوه من التلو و هى القراءه سميت بها لان القارئ للنبإ يأتى ببعض اجزائه فى تلو بعض آخر.و النبأ هو الخبر اذا كان ذا جدوى و نفع.و القربان ما يتقرب به الى اللّه سبحانه أو الى غيره،و هو فى الاصل مصدر لا يثنى و لا يجمع.و التقبل هو القبول بزياده عنايه و اهتمام بالمقبول و الضمير فى قوله «عَلَيْهِمْ» لأهل الكتاب لما مر من كونهم هم المقصودين فى سرد الكلام و المراد بهذا المسمى بآدم هو آدم الذى يذكر القرآن أنه ابو البشر.

و قوله: «إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ» ظاهر السياق أن كل واحد منهما قدّم الى الربّ تعالى شيئا يتقرب به«و إنما لم يثنّ لفظ القربان لكونه فى الأصل مصدرا لا يثنى و لا يجمع.

و قوله: «قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» القائل الأول هو القاتل و الثانى هو المقتول،و سياق الكلام يدل على أنهما علما تقبل قربان أحدهما و عدم تقبله من الآخر،و أما أنهما من أين علما ذلك؟أو بأى طريق استدلوا عليه؟فالآيه ساكته عن ذلك.

فقوله «إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» مسوق لقصر الافراد للدلاله على ان التقبل لا يشمل قربان التقىّ و غير التقىّ جميعا،أو لقصر القلب كأن القاتل كان يزعم انه سيتقبل قربانه دون

قربان المقتول زعما منه ان الأمر لا يـدور مدار التقوى أو أن اللّه سبحانه غير عالم بحقيقه الحال، يمكن أن يشتبه عليه الامر كما ربما يشتبه على الانسان.

قوله تعالى: لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ الـخ؛ اللام للقسم،و بسط اليد اليه كنايه عن الاخذ بمقدمات القتل و اعمال اسبابه،و قد اتى فى جواب الشرط بالنفى الوارد على الجمله الاسميه،و بالصفه(بباسط)دون الفعل و اكد النفى بالباء ثم الكلام بالقسم،كل ذلك للدلاله على انه بمراحل من البعد من اراده قتل اخيه،لا يهم به و لا يخطر بباله.

و اكد ذلك كله بتعليل ما ادعاه من قوله: «مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ يَدِيَ» الخ؛بقوله: «إِنِّي أَخٰافُ اللّٰهَ رَبَّ الْعٰالَمِينَ» فإن ذكر المتقين لربهم و هو اللّه رب العالمين الذى يجازى فى كل اثم بما يتعقبه من العذاب ينبه فى نفوسهم غريزه الخوف من اللّه تعالى،و لا يخليهم و ان يرتكبوا ظلما يوردهم مورد الهلكه.

ثم ذكر تأويل قوله: «لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ يَدِيَ» الخ؛بمعنى حقيقه هذا الذى أخبر به،و محصّله أن الامر على هذا التقدير يدور بين أن يقتل هو أخاه فيكون هو الظالم الحامل للإثم الداخل فى النار،أو يقتله أخوه فيكون هو كذلك،و ليس يختار قتل أخيه الظالم على سعاده نفسه و ليس بظالم،بل يختار أن يشقى أخوه الظالم بقتله و يسعد هو و ليس بظالم،و هذا هو المراد بقوله: «إِنِّي أُرِيدُ» الخ؛كنّى بالإراده عن الاختيار على تقدير دوران الأمر.

فالآيه فى كونها تأويلا لقوله «لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ» الخ؛كالذى وقع فى قصه موسى و صاحبه حين قتل غلاما لقياه فاعترض عليه موسى بقوله: أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً فنبأه صاحبه بتأويل ما فعل بقوله: وَ أَمَّا الْغُلاٰمُ فَكٰانَ أَبَوٰاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينٰا أَنْ يُرْهِقَهُمٰا طُغْيٰاناً وَ كُفْراً فَأَرَدْنٰا أَنْ يُبْدِلَهُمٰا رَبُّهُمٰا خَيْراً مِنْهُ زَكٰاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً

(الکهف ۸۱/).

قوله تعالی: إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ فَتَکُونَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ ، أی ترجع بإثمی و إثمک کما فسره بعضهم،و قال الرغب فی مفرداته:أصل البواء مساواه الاجزاء فی المکان خلاف النبوه الذی هو منافاه الاجزاء یقال:مکان بواء اذا لم یکن نابئا بنازله،و بوّأت له مکانا:سوّیته فتبوأ-الی أن قال-و قوله:إنی ارید أن تبوء بإثمی و إثمک أی تقیم بهذه الحاله (۱).

قوله تعالی: فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِیهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِینَ قال الراغب فی مفرداته:الطوع الانقیاد و یضادّه الکره،و الطاعه مثله لکن أکثر ما یقال فی الایتمار لما أمر و الارتسام فیما رسم،و قوله:فطوّعت له نفسه نحو أسمحت له قرینته و انقادت له و سوّلت،و طوّعت أبلغ من أطاعت و طوعت له نفسه بإزاء قولهم:تأبت عن کذا نفسه.انتهی ملخصا.و لیس مراده أن طوعت مضمّن معنی انقادت أو سولت بل یرید ان التطویع یدل علی التدریج کالإطاعه علی الدفعه،کما هو الغالب فی بابی الإفعال و التفعیل فالتطویع فی الآیه اقتراب تدریجی للنفس من الفعل بوسوسه بعد وسوسه و همامه بعد همامه تنقاد لها حتی تتم لها الطاعه الکامله فالمعنی:انقادت له نفسه و أطاعت امره إیاها بقتل أخیه طاعه تدریجیه، فقوله «قَتْلَ أَخِیهِ» من وضع المأمور به موضع الأمر کقولهم:أطاع کذا فی موضع:أطاع الأمر بکذا.

و ربما قیل:إن قوله:طوعت بمعنی زینت فقوله «قَتْلَ أَخِیهِ» مفعول به،و قیل:بمعنی طاوعت أی طاوعت له نفسه فی قتل أخیه،فالقتل منصوب بنزع الخافض،و معنی الآیه ظاهر.

۱- ۱) .المائده ۲۷-۳۲:کلام فی معنی قول ابن آدم لاخیه «إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ» .

و ربما استفید من قوله: «فَأَصْبَحَ مِنَ الْخٰاسِرِینَ» أنه إنما قتله لیلا،و فیه کما قیل:أن أصبح -و هو مقابل أمسی-و إن کان بحسب أصل معناه یفید ذلک لکن عرف العرب یستعمله بمعنی صار من غیر رعایه أصل اشتقاقه،و فی القرآن شیء کثیر من هذا القبیل کقوله فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوٰاناً (آل عمران۱۰۳/)و قوله: فَیُصْبِحُوا عَلیٰ مٰا أَسَرُّوا فِی أَنْفُسِهِمْ نٰادِمِینَ (المائده۵۲/)فلا سبیل أی إثبات إراده المعنی الأصلی فی المقام.

قوله تعالی: فَبَعَثَ اللّٰهُ غُرٰاباً یَبْحَثُ فِی الْأَرْضِ لِیُرِیَهُ کَیْفَ یُوٰارِی سَوْأَهَ أَخِیهِ البحث طلب الشیء فی التراب ثم یقال:بحثت عن الأمر بحثا کذا فی المجمع.و المواراه:

الستر،و منه التواری للتستر،و الوراء لما خلف الشیء.و السوأه ما یتکرهه الإنسان.و الویل الهلاک.و یا ویلتا کلمه تقال عند الهلکه،و العجز مقابل الاستطاعه.

و الآیه بسیاقها تدل علی أن القاتل قد کان بقی زمانا علی تحیر من أمره،و کان یحذر أن یعلم به غیره،و لا یدری کیف الحیله الی أن لا یظفروا بجسده حتی بعث اللّه الغراب،و لو کان بعث الغراب و بحثه و قتله أخاره متقاربین لم یکن وجه لقوله «یٰا وَیْلَتیٰ أَ عَجَزْتُ أَنْ أَکُونَ مِثْلَ هٰذَا الْغُرٰابِ» (۱)(۲).

قوله تعالی: مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ کَتَبْنٰا عَلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَیْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِی الْأَرْضِ فَکَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِیعاً وَ مَنْ أَحْیٰاهٰا فَکَأَنَّمٰا أَحْیَا النّٰاسَ جَمِیعاً فی المجمع:الاجل فی اللغه الجنایه،انتهی.و قال الراغب فی المفردات:الاجل الجنایه التی یخاف منها آجلا،فکل أجل جنایه و لیس کل جنایه أجلا.

یقال:فعلت ذلک من أجله،انتهی.ثم استعمل للتعلیل،یقال:فعلته من أجل کذا أی إن کذا

ص: ۹۲

۱- ۱) .المائده ۲۷-۳۲:کلام فی ان ابن آدم تعلم من الغراب کیف یواری سوأه اخیه.

۲- ۲) .المائده ۲۷-۳۲:کلام فی معنی الاحساس و التفکیر.

سبب فعلی،و لعل استعمال الکلمه فی التعلیل ابتداء أولا فی مورد الجنایه و الجریره کقولنا:

أساء فلان و من أجل ذلک أدبته بالضرب أی إن ضربی ناش من جنایته و جریرته التی هی إساءته أو من جنایه هی إساءته،ثم أرسلت کلمه تعلیل فقیل:أزورک من أجل حبی لک و لاجل حبی لک.

و ظاهر السیاق أن الاشاره بقوله: «مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ» الی نبأ آدم المذکور فی الآیات السابقه ای إن وقوع تلک الحادثه الفجیعه کان سببا لکتابتنا علی بنی إسرائیل کذا و کذا،و ربما قیل:إن قوله: «مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ» متعلق بقوله فی الآیه السابقه: «فَأَصْبَحَ مِنَ النّٰادِمِینَ» أی کان ذلک سببا لندامته،و هذا القول و إن کان فی نفسه غیر بعید کما فی قوله تعالی: کَذٰلِکَ یُبَیِّنُ اللّٰهُ لَکُمُ الْآیٰاتِ لَعَلَّکُمْ تَتَفَکَّرُونَ فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْیَتٰامیٰ الآیه(البقره۲۲۰/)؛إلا أن لازم ذلک کون قوله: «کَتَبْنٰا عَلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ» الخ؛مفتتح الکلام و المعهود من السیاقات القرآنیه أن یؤتی فی مثل ذلک بواو الاستیناف کما فی آیه البقره المذکوره آنفا و غیرها.

و أما وجه الإشاره فی قوله: «مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ» الی قصه ابنی آدم فهو أن القصه تدل علی أن من طباع هذا النوع الإنسانی أن یحمله اتباع الهوی و الحسد الذی هو الخنق للناس بما لیس فی اختیارهم أن یحمله أوهن شیء علی منازعه الربوبیه و إبطال غرض الخلقه بقتل أحدهم أخاه من نوعه و حتی شقیقه لأبیه و أمه.

و أما قوله: «أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَیْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِی الْأَرْضِ فَکَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِیعاً» استثنی سبحانه قتل النفس بالنفس و هو القود و القصاص و هو قوله تعالی: کُتِبَ عَلَیْکُمُ الْقِصٰاصُ فِی الْقَتْلیٰ (البقره۱۷۸/)و قتل النفس بالفساد فی الارض،و ذلک قوله فی الآیه التالیه «إِنَّمٰا جَزٰاءُ الَّذِینَ یُحٰارِبُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ یَسْعَوْنَ فِی الْأَرْضِ فَسٰاداً» الآیه.

و أما المنزله التی یدل علیها قوله «فَکَأَنَّمٰا» الخ؛فقد تقدم بیانه أن الفرد من الانسان من حیث حقیقته المحموله له التی تحیا و تموت انما یحمل الانسانیه التی هی حقیقه واحده فی جمیع

الافراد و البعض و الکل،و الفرد الواحد و الافراد الکثیرون فیه واحد،و لازم هذا المعنی أن یکون قتل النفس الواحده بمنزله قتل نوع الانسان و بالعکس احیاء النفس الواحده بمنزله احیاء الناس جمیعا،و هو الذی تفیده الآیه الشریفه.

و أما قوله تعالی: «وَ مَنْ أَحْیٰاهٰا فَکَأَنَّمٰا أَحْیَا النّٰاسَ جَمِیعاً» فالکلام فیه کالکلام فی الجمله السابقه،و المراد بالاحیاء ما یعد فی عرف العقلاء إحیاء کإنقاذ الغریق و إطلاق الأسیر،و قد عد اللّه تعالی فی کلامه الهدایه الی الحق إحیاء قال تعالی: أَ وَ مَنْ کٰانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّٰاسِ (الأنعام/۱۲۲)فمن دل نفسا الی الایمان فقد أحیاها.

و أما قوله تعالی: «وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُنٰا بِالْبَیِّنٰاتِ» فهو معطوف علی صدر الآیه أی و لقد جاءتهم رسلنا بالبینات یحذرونهم القتل و کل ما یلحق به من وجوه الفساد فی الارض.

و أما قوله تعالی: «ثُمَّ إِنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِکَ فِی الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ» فهو متمم للکلام، بانضمامه إلیه یستنتج الغرض المطلوب من البیان،و هو ظهور أنهم قوم مفسدون مصرون علی استکبارهم و عتوهم فلقد بینا لهم منزله القتل و جاءتهم رسلنا فیها و فی غیرها بالبینات، و بینوا لهم و حذروهم مع ذلک لم ینتهوا عن إصرارهم علی العتو و الاستکبار فأسرفوا فی الارض قدیما و لا یزالون یسرفون.

و الإسراف الخرج عن القصد و تجاوز الحد فی کل فعل یفعله الإنسان،و إن کان یغلب علیه الاستعمال فی مورد الإنفاق کقوله تعالی: وَ الَّذِینَ إِذٰا أَنْفَقُوا لَمْ یُسْرِفُوا وَ لَمْ یَقْتُرُوا وَ کٰانَ بَیْنَ ذٰلِکَ قَوٰاماً (الفرقان/۶۷)علی ما ذکره الراغب فی المفردات (۱)(۲).

۱- ۱) .المائده ۲۷-۳۲:بحث روائی فی:ابنی آدم و قتل احدهما الآخر؛مجازات القاتل فی الآخره؛قتل الانسان و احیاؤه.

۲- ۲) .المائده ۲۷-۳۲،بحث علمی و تطبیق بین القرآن و التوراه حول ابنی آدم.

[سوره المائده (۵): الآیات ۳۳ الی ۴۰]

اشاره

إِنَّمٰا جَزٰاءُ اَلَّذِینَ یُحٰارِبُونَ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ یَسْعَوْنَ فِی اَلْأَرْضِ فَسٰاداً أَنْ یُقَتَّلُوا أَوْ یُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَیْدِیهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاٰفٍ أَوْ یُنْفَوْا مِنَ اَلْأَرْضِ ذٰلِکَ لَهُمْ خِزْیٌ فِی اَلدُّنْیٰا وَ لَهُمْ فِی اَلْآخِرَهِ عَذٰابٌ عَظِیمٌ (۳۳) إِلاَّ اَلَّذِینَ تٰابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَیْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳۴) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ اِبْتَغُوا إِلَیْهِ اَلْوَسِیلَهَ وَ جٰاهِدُوا فِی سَبِیلِهِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۳۵) إِنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مٰا فِی اَلْأَرْضِ جَمِیعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِیَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذٰابِ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ مٰا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۳۶) یُرِیدُونَ أَنْ یَخْرُجُوا مِنَ اَلنّٰارِ وَ مٰا هُمْ بِخٰارِجِینَ مِنْهٰا وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُقِیمٌ (۳۷) وَ اَلسّٰارِقُ وَ اَلسّٰارِقَهُ فَاقْطَعُوا أَیْدِیَهُمٰا جَزٰاءً بِمٰا کَسَبٰا نَکٰالاً مِنَ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۳۸) فَمَنْ تٰابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اَللّٰهَ یَتُوبُ عَلَیْهِ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳۹) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اَللّٰهَ لَهُ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ یُعَذِّبُ مَنْ یَشٰاءُ وَ یَغْفِرُ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۴۰)

ص: ۹۵

بیان:

قوله تعالی: إِنَّمٰا جَزٰاءُ الَّذِینَ یُحٰارِبُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ یَسْعَوْنَ فِی الْأَرْضِ فَسٰاداً . «فَسٰاداً» مصدر وضع موضع الحال،و محاربه اللّه و إن کانت بعد استحاله معناها الحقیقی و تعین إراده المعنی المجازی منها ذات معنی وسیع یصدق علی مخالفه کل حکم من الأحکام الشرعیه و کل ظلم و إسراف لکن ضم الرسول إلیه یهدی الی ان المراد بها بعض ما للرسول فیه دخل،فیکون کالمتعین ان یراد بها ما یرجع الی إبطال اثر ما للرسول علیه ولایه من جانب اللّه سبحانه کمحاربه الکفار مع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و اخلال قطاع الطریق بالأمن العام الذی بسطه بولایته علی الارض،و تعقب الجمله بقوله: «وَ یَسْعَوْنَ فِی الْأَرْضِ فَسٰاداً» یشخص المعنی المراد و هو الافساد فی الأرض بالاخلال بالأمن و قطع الطریق دون مطلق المحاربه مع المسلمین،علی ان الضروره قاضیه بأن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لم یعامل المحاربین من الکفار بعد الظهور علیهم و الظفر بهم هذه المعامله من القتل و الصلب و المثله و النفی.

علی ان الاستثناء فی الآیه التالیه قرینه علی کون المراد بالمحاربه هو الافساد المذکور فانه ظاهر فی ان التوبه انما هی من المحاربه دون الشرک و نحوه.

فالمراد بالمحاربه و الافساد علی ما هو الظاهر هو الاخلال بالامن العام،و الامن العام انما یختل بایجاد الخوف العام و حلوله محله،و لا یکون بحسب الطبع و العاده إلا باستعمال السلاح المهدد بالقتل طبعا و لهذا ورد فیما ورد من السنه تفسیر الفساد فی الارض بشهر السیف و نحوه، و سیجیء فی البحث الروائی التالی إن شاء اللّه تعالی.

قوله تعالی: أَنْ یُقَتَّلُوا أَوْ یُصَلَّبُوا الخ؛التقتیل و التصلیب و التقطیع تفعیل من القتل و الصلب و القطع یفید شده فی معنی المجرد أو زیاده فیه،و لفظه«أو»إنما تدل علی

الترديد المقابل للجمع،و اما الترتيب أو التخيير بين أطراف الترديد فإنما يستفاد احدهما من قرينه خارجيه حاليه أو مقاليه فالآيه غير خاليه عن الاجمال من هذه الجهه.و إنما تبينها السنه و سيجيء ان المروى عن ائمه اهل البيت عليهم السّلام ان الحدود الاربعه مترتبه بحسب درجات الافساد كمن شهر سيفا فقتل النفس و أخذ المال أو قتل فقط أو أخذ المال فقط أو شهر سيفا فقط على ما سيأتى فى البحث الروائى التالى ان شاء اللّه.

و أما قوله: أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاٰفٍ فالمراد بكونه من خلاف أن يأخذ القطع كلا من اليد و الرجل من جانب مخالف لجانب الاخرى كاليد اليمنى و الرجل اليسرى،و هذا هو القرينه على كون المراد بقطع الأيدى و الأرجل قطع بعضها دون الجميع أى إحدى اليدين و إحدى الرجلين مع مراعاه مخالفه الجانب.

و أما قوله: أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ فالنفى هو الطرد و التغييب و فسر فى السنه بطرده من بلد الى بلد.

و فى الآيه أبحاث أخر فقهيه تطلب من كتب الفقه.

قوله تعالى: ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيٰا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذٰابٌ عَظِيمٌ الخزى هو الفضيحه،و المعنى ظاهر.و قد استدل بالآيه على أن جريان الحد على المجرم لا يستلزم ارتفاع عذاب الآخره،و هو حق فى الجمله.

قوله تعالى: إِلاَّ الَّذِينَ تٰابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ الخ؛و أما بعد القبض عليهم و قيام البينه فإن الحد غير ساقط،و أما قوله تعالى: «فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فهو كنايه عن رفع الحد عنهم،و الآيه من موارد تعلق المغفره بغير الأمر الاخروى.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ الخ؛قال الراغب فى المفردات:الوسيله التوصل الى الشيء برغبه،و هى أخص من الوسيله لتضمنها لمعنى الرغبه،قال تعالى: وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ،و حقيقه الوسيله الى اللّه تعالى مراعاه سبيله

بالعلم و العباده،و تحری مکارم الشریعه،و هی کالقربه،و اذ کانت نوعا من التوصل و لیس إلا توصلا و اتصالا معنویا بما یوصل بین العبد و ربه و یربط هذا بذاک،و لا رابط یربط العبد بربه إلا ذله العبودیه،فالوسیله هی التحقق بحقیقه العبودیه و توجیه وجه المسکنه و الفقر الی جنابه تعالی،فهذه هی الوسیله الرابطه،و أما العلم و العمل فإنما هما من لوازمها و أدواتها کما هو ظاهر إلا أن یطلق العلم و العمل علی نفس هذه الحاله.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مٰا فِی الْأَرْضِ الی آخر الآیتین؛ ظاهره-کما تقدمت الإشاره الیه-أن یکون تعلیلا لمضمون الآیه السابقه،و المحصل أنه یجب علیکم أن تتقوا اللّه و تبتغوا الیه الوسیله و تجاهدوا فی سبیله فإن ذلک أمر یهمکم فی صرف عذاب ألیم مقیم عن انفسکم،و لا بدل له یحل محله فإن الذین کفروا فلم یتقوا اللّه و لم یبتغوا الیه الوسیله و لم یجاهدوا فی سبیله لو انهم ملکوا ما فی الارض جمیعا-و هو اقصی ما یتمناه ابن آدم من الملک الدنیوی عاده-ثم زید علیه مثله لیکون لهم ضعفا ما فی الارض ثم ارادوا ان یفتدوا به من عذاب یوم القیامه ما تقبل منهم و لهم عذاب الیم یریدون ان یخرجوا من النار و هی العذاب و ما هم بخارجین منها لانه عذاب خالد مقیم علیهم لا یفارقهم ابدا.

و فی الآیه إشاره اولا الی ان العذاب هو الاصل القریب من الإنسان و انما یصرف عنه الإیمان و التقوی کما یشیر الیه قوله تعالی: وَ إِنْ مِنْکُمْ إِلاّٰ وٰارِدُهٰا کٰانَ عَلیٰ رَبِّکَ حَتْماً مَقْضِیًّا ثُمَّ نُنَجِّی الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظّٰالِمِینَ فِیهٰا جِثِیًّا (مریم۷۲)و کذا قوله: إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَفِی خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ (العصر۳/).

و ثانیا:أن الفطره الأصلیه الإنسانیه و هی التی تتألم من النار غیر باطله فیهم و لا منتفیه عنهم و إلا لم یتألموا و لم یتعذبوا بها و لم یریدوا الخروج منها.

قوله تعالی: وَ السّٰارِقُ وَ السّٰارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَیْدِیَهُمٰا الآیه؛الواو للاستیناف و الکلام فی مقام التفصیل فهو فی معنی «وَ السّٰارِقُ وَ السّٰارِقَةُ» الخ؛و لذلک دخل الفاء فی

الخبر أعنى قوله: «فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا» لأنه فى معنى جواب أما،كذا قيل.

و أما استعمال الجمع فى قوله «أَيْدِيَهُمَا» مع أن المراد هو المثنى فقد قيل:إنه استعمال شائع، و الوجه فيه:أن بعض الأعضاء أو أكثرها فى الإنسان مزدوجه كالقرنين و العينين و الاذنين و اليدين و الرجلين و القدمين،و اذا أضيفت هذه الى المثنى صارت أربعا و لها لفظ الجمع كأعينهما و أيديهما و أرجلهما و نحو ذلك ثم اطرد الجمع فى الكلام اذا أضيف عضو الى المثنى و إن لم يكن العضو من المزدوجات كقولهم:ملأت ظهورهما و بطونهما ضربا،قال تعالى: إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّٰهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا (التحريم۴/)و اليد ما دون المنكب و المراد بها فى الآيه اليمين بتفسير السنه،و يصدق قطع اليد بفصل بعض أجزائها أو جميعها عن البدن بآله قطاعه.

قوله: «جَزٰاءً بِمٰا كَسَبٰا نَكٰالاً مِنَ اللّٰهِ» الظاهر أنه فى موضع الحال من القطع المفهوم من قوله «فَاقْطَعُوا» أى حال كون القطع جزاء بما كسبا نكالا من اللّٰه،و النكال هو العقوبه التى يعاقب بها المجرم لينتهى عن إجرامه،و يعتبر بها غيره من الناس.

و هذا المعنى أعنى كون القطع نكالا ـ هو المصحح لأن يتفرع عليه قوله: «فَمَنْ تٰابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللّٰهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، الخ؛أى لما كان القطع نكالا ـ يراد به رجوع المنكول به عن معصيته فمن تاب من بعد ظلمه توبه ثم أصلح و لم يحم حول السرقه–و هذا أمر يستثبت به معنى التوبه–فإن اللّٰه يتوب عليه و يرجع اليه بالمغفره و الرحمه لأن اللّٰه غفور رحيم،قال تعالى:

مٰا يَفْعَلُ اللّٰهُ بِعَذٰابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ كٰانَ اللّٰهُ شٰاكِراً عَلِيماً (النساء۱۴۷/).

و فى الآيه أبحاث أخر كثيره فقهيه للطالب أن يراجع فيها كتب الفقه.

قوله تعالى: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الآيه فى موضع التعليل لما ذكر فى الآيه السابقه من قبول توبه السارق و السارقه اذا تابا و أصلحا من بعد ظلمهما فإن اللّٰه سبحانه لما كان له ملك السموات و الأرض،و للملك أن يحكم فى مملكته و رعيته بما أحبّ و أراد من عذاب أو رحمه كان له تعالى أن يعذب من يشاء و يغفر لمن يشاء

على حسب الحكمه و المصلحه فيعذب السارق و السارقه إن لم يتوبا،و يغفر لهما إن تابا.

و قوله: «وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فى موضع التعليل لقوله «لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» فإن الملك(بضم الميم)من شئون القدره كما أن الملك(بكسر الميم)من فروع الخلق و الإيجاد اعنى القيمومه الإلهيه.

بيان ذلك:ان اللّه تعالى خالق الأشياء و موجدها فما من شيء إلا و ما له من نفسه و آثار نفسه للّه سبحانه،هو المعطى لما اعطى و المانع لما منع،فله ان يتصرف فى كل شيء،و هذا هو الملك (بكسر الميم)قال تعالى: قُلِ اللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ (الرعد/۱۶)،و قال:

اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاٰ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لاٰ نَوْمٌ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ (البقره/ ۲۵۵)و هو تعالى مع ذلك قادر على اى تصرف شاء و اراد اذ كلما فرض من شيء فهو منه فله مضى الحكم و نفوذ الاراده و هو الملك(بضم الميم)و السلطنه على كل شيء فهو تعالى مالك لانه قيوم على كل شيء،و ملك لانه قادر غير عاجز و لا ممنوع من نفوذ مشيئته و إرادته (۱).

[سوره المائده (۵): الآيات ۴۱ الى ۵۰]

اشاره

يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاٰ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسٰارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قٰالُوا آمَنّٰا بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ هٰادُوا سَمّٰاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمّٰاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوٰاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هٰذٰا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ يُرِدِ اللّٰهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيٰا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۴۱) سَمّٰاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكّٰالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جٰاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (۴۲) وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرٰاةُ فِيهٰا حُكْمُ اللّٰهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ مٰا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۴۳) إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هٰادُوا وَ الرَّبّٰانِيُّونَ وَ الْأَحْبٰارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتٰابِ اللّٰهِ وَ كٰانُوا عَلَيْهِ شُهَدٰاءَ فَلاٰ تَخْشَوُا النّٰاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِآيٰاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ (۴۴) وَ كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ فِيهٰا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصٰاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفّٰارَةٌ لَهُ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ (۴۵) وَ قَفَّيْنٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرٰاةِ وَ آتَيْنٰاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرٰاةِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۴۶) وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ (۴۷) وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتٰابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ عَمّٰا جٰاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنٰا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهٰاجاً وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مٰا آتٰاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرٰاتِ إِلَى اللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۴۸) وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النّٰاسِ لَفٰاسِقُونَ (۴۹) أَ فَحُكْمَ الْجٰاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۵۰)

۱- ۱) .المائده ۳۳-۴۰:بحث روائی فی جزاء الذین یحاربون اللّه و رسوله و یسعون فی الارض فسادا؛قطع ید السارق.

بیان:

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ،تسلیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و تطییب لنفسه مما لقی من هؤلاء المذکورین فی الآیه،و هم الذین یسارعون فی الکفر أی یمشون فیه المشیه السریعه،و یسیرون فیه السیر الحثیث،تظهر من افعالهم و اقوالهم موجبات الکفر واحده بعد أخری فهم کافرون مسارعون فی کفرهم،و المسارعه فی الکفر غیر المسارعه الی الکفر.

و قوله: مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ بیان لهؤلاء الذین

ص :۱۰۲

يسارعون فى الكفر أى من المنافقين،و فى وضع هذا الوصف موضع الموصوف إشاره الى عله النهى كما ان الأخذ بالوصف السابق اعنى قوله: «الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ» للاشاره الى عله المنهى عنه،و المعنى-و اللّه أعلم-:لا يحزنك هؤلاء بسبب مسارعتهم فى الكفر فانهم انما آمنوا بألسنتهم لا بقلوبهم و ما أولئك بالمؤمنين،و كذلك اليهود الذين جاءوك و قالوا ما قولوا.

و قوله: وَ مِنَ الَّذِينَ هادُوا عطف على قوله: «مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنّا» الخ؛على ما يفيده السياق،و ليس من الاستيناف فى شىء،و على هذا فقوله «سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ» خبر لمبتدإ محذوف أى هم سماعون،الخ.

و هذه الجمل المتسقه بيان حال الذين هادوا،و أما المنافقون المذكورون فى صدر الآيه فحالهم لا يوافق هذه الأوصاف كما هو ظاهر.

فهؤلاء المذكورون من اليهود هم سمّاعون للكذب أى يكثرون من سماع الكذب مع العلم بأنه كذب،و إلا لم يكن صفه ذم،و هم كثير السمع لقوم آخرين لم يأتوك،يقبلون منهم كل ما ألقوه اليهم و يطيعونهم فى كل ما أرادوه منهم،و اختلاف معنى السمع هو الذى أوجب تكرار قوله: «سَمّاعُونَ» فإن الأول يفيد معنى الإصغاء و الثانيه معنى القبول.

و قوله: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ» أى من بعد استقرارها فى مستقرها و الجمله صفه لقوله «لِقَوْمٍ آخَرِينَ» و كذا قوله: «يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا» .

و يتحصل من المجموع أن عده من اليهود ابتلوا بواقعه دينيه فيما بينهم،لها حكم إلهى عندهم لكن علماءهم غيروا الحكم بعد ثبوته ثم بعثوا طائفه منهم الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و أمروهم أن يحكّموه فى الواقعه فإن حكم بما أنبأهم علماؤهم من الحكم المحرف فليأخذوه و إن حكم بغير ذلك فليحذروا.

و قوله: «وَ مَنْ يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً» الظاهر أنه معترضه يبين بها أنهم فى

أمرهم هذا مفتونون بفتنه إلهيه،فلتطب نفس النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأن الأمر من اللّه و اليه و ليس يملك منه تعالى شىء فى دلك،و لا موجب للتحزن فيما لا سبيل الى التخلص منه.

و قوله: «أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ» فقلوبهم باقيه على قذارتها الأوليه لما تكرر منهم من الفسق بعد الفسق فأضلهم اللّه به،و ما يضل به إلا الفاسقين.

و قوله: «لَهُمْ فِي الدُّنْيٰا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذٰابٌ عَظِيمٌ» إيعاد لهم بالخزى فى الدنيا و قد فعل بهم،و بالعذاب العظيم فى الآخره.

قوله تعالى: سَمّٰاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكّٰالُونَ لِلسُّحْتِ قال الراغب فى المفردات:

السحت القشر الذى يستأصل،قال تعالى: «فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذٰابٍ» و قرئ:فيسحتكم(أى بفتح الياء)يقال:سحته و أسحته،و منه السحت للمحظور الذى يلزم صاحبه العار كأنه يسحت دينه و مروءته،قال تعالى: «أَكّٰالُونَ لِلسُّحْتِ» أى لما يسحت دينهم،و قال عليه السّلام كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به،و سمى الرشوه سحتا.انتهى.

فكل مال اكتسب من حرام فهو سحت،و السياق يدل على أن المراد بالسحت فى الآيه هو الرشا و يتبين من إيراد هذا الوصف فى المقام أن علماءهم الذين بعثوا طائفه منهم الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم كانوا قد أخذوا فى الواقعه رشوه لتحريف حكم اللّه فقد كان الحكم مما يمكن أن يتضرر به بعضه فسد الباب بالرشوه،فأخذوا الرشوه و غيروا حكم اللّه تعالى.

و من هنا يظهر أن قوله تعالى: «سَمّٰاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكّٰالُونَ لِلسُّحْتِ» باعتبار المجموع وصف لمجموع القوم،و أما بحسب التوزيع فقوله «سَمّٰاعُونَ لِلْكَذِبِ» وصف لقوله «الَّذِينَ هٰادُوا» و هم المبعوثون الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و من فى حكمهم من التابعين،و قوله: «أَكّٰالُونَ لِلسُّحْتِ» وصف لقوم آخرين،و المحصل أن اليهود منهم علماء يأكلون الرشى،و عامه مقلدون سماعون لأكاذيبهم.

قوله تعالى: فَإِنْ جٰاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ الى آخر الآيه؛

تخيير للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بين أن يحكم بينهم اذا حكّموه أو يعرض عنهم،و من المعلوم أن اختيار أحد الأمرين لم يكن يصدر منه صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلا لمصلحه داعيه فيؤول الى إرجاع الأمر الى نظر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و رأيه.

ثم قرر تعالى هذا التخيير بأنه ليس عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلم ضرر لو ترك الحكم فيهم و أعرض عنهم، و بين له أنه لو حكم بينهم فليس له أن يحكم إلا بالقسط و العدل.

فيعود المضمون بالأخره الى أن اللّه سبحانه لا يرضى أن يجرى بينهم إلا حكمه فإما أن يجرى فيهم ذلك أو يهمل أمرهم فلا يجرى من قبله صلّى اللّه عليه و آله و سلم حكم آخر.

قوله تعالى: وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرٰاةُ فِيهٰا حُكْمُ اللّٰهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ مٰا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ تعجيب من فعالهم أنهم أمه ذات كتاب و شريعه و هم منكرون لنبوتك و كتابك و شريعتك ثم يبتلون بواقعه فى كتابهم حكم اللّه فيها،ثم يتولون بعد ما عندهم التوراه فيها حكم اللّه و الحال أن أولئك المبتعدين من الكتاب و حكمه ليسوا بالذين يؤمنون بذلك.

و على هذا المعنى فقوله «ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ» أى عن حكم الواقعه مع كون التوراه عندهم و فيها حكم اللّه،و قوله: «وَ مٰا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» أى بالذين يؤمنون بالتوراه و حكمها، فهم تحولوا من الإيمان بها و بحكمها الى الكفر.

و يمكن أن يفهم من قوله: «ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ» ،التولى عما حكم به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و من قوله: «وَ مٰا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» نفى الإيمان بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم على ما كان يظهر من رجوعهم اليه و تحكيمهم إياه،أو نفى الإيمان بالتوراه و بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم جميعا،لكن ما تقدم من المعنى أنسب السياق الآيات.

و فى الآيه تصديق ما للتوراه التى عند اليهود اليوم،و هى التى جمعها لهم عزراء بإذن «كورش»ملك إيران بعد ما فتح بابل،و أطلق بنى اسرائيل من أسر البابليين و أذن لهم فى

الرجوع الى فلسطين و تعمير الهيكل،و هى التى كانت بيدهم فى زمن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و هى التى بيدهم اليوم،فالقرآن يصدق أن فيها حكم اللّه،و هو أيضا يذكر أن فيها تحريفا و تغييرا.

و يستنتج من الجميع:أن التوراه الموجوده الدائره بينهم اليوم فيها شىء من التوراه الأصليه النازله على موسى عليه السّلام و أمور حرفت و غيرت اما بزياده أو نقصان أو تغيير لفظ أو محل أو غير ذلك،و هذا هو الذى يراه القرآن فى أمر التوراه،و البحث الوافى عنها أيضا يهدى الى ذلك.

قوله تعالى: إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الخ؛ بمنزله التعليل لما ذكر فى الآيه السابقه،و هى و ما بعدها من الآيات تبين أن اللّه سبحانه شرع لهذه الامم على اختلاف عهودهم شرائع،و أودعها فى كتب انزلها اليهم ليهتدوا بها و يتبصروا بسببها،و يرجعوا إليها فيما اختلفوا فيه،و امر الأنبياء و العلماء منهم ان يحكموا بها،و يتحفظوا عليها و يقوها من التغيير و التحريف،و لا يطلبوا فى الحكم ثمنا ليس الا قليلا،و لا يخافوا فيها الا اللّه سبحانه و لا يخشوا غيره.

و أكد ذلك عليهم و حذرهم اتباع الهوى،و تفتين أبناء الدنيا،و إنما شرع من الأحكام مختلفا باختلاف الامم و الأزمان ليتم الامتحان الإلهى فإن استعداد الأزمان مختلف بمرور الدهور،و لا يستكمل المختلفان فى الاستعداد شده و ضعفا بمكمل واحد من التربيه العلميه و العمليه على وتيره واحده.

فقوله إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ أى شىء من الهدايه يهتدى بها، و شىء من النور يتبصر به من المعارف و الأحكام على حسب حال بنى إسرائيل،و مبلغ استعدادهم،و قد بين اللّه سبحانه فى كتابه عامه أخلاقهم،و خصوصيات أحوال شعبهم و مبلغ فهمهم،فلم ينزل اليهم من الهدايه إلا بعضها و من النور إلا بعضه لسبق عهدهم و قدمه أمتهم، و قله استعدادهم،قال تعالى: وَ كَتَبْنٰا لَهُ فِي الْأَلْوٰاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ

شَيْءٍ (الأعراف۱۴۵/).

و قوله: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا إنما وصف النبيين بالإسلام و هو التسليم للّه،الذى هو الدين عند اللّه سبحانه للإشاره الى أن الدين واحد،و هو الإسلام للّه و عدم الاستنكاف عن عبادته،ليس لمؤمن باللّه-و هو مسلم له-أن يستكبر عن قبول شيء من أحكامه و شرائعه.

و قوله: «وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللّٰهِ وَ كَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» أى و يحكم بها الربانيون و هم العلماء المنقطعون الى اللّه علما و عملا،أو الذين اليهم تربيه الناس بعلومهم بناء على اشتقاق اللفظ من الرب أو التربيه،و الأحبار و هم الخبراء من علمائهم يحكمون بما أمرهم اللّه به و أراده منهم أن يحفظوه من كتاب اللّه،و كانوا من جهه حفظهم له و تحملهم إياه شهداء عليه لا يتطرق اليه تغيير و تحريف لحفظهم له فى قلوبهم،فقوله «وَ كَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» بمنزله النتيجه لقوله «بِمَا اسْتُحْفِظُوا» الخ؛أى أمروا بحفظه فكانوا حافظين له بشهادتهم عليه.

و أما قوله تعالى: فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً فهو متفرع على قوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا» ،أى لما كانت التوراه منزله من عندنا مشتمله على شريعه يقضى بها النبيون و الربانيون و الأحبار بينكم فلا تكتموا شيئا منها و لا تغيروها خوفا أو طمعا،أما خوفا فبأن تخشوا الناس و تنسوا ربكم بل اللّه فاخشوا حتى لا تخشوا الناس،و أما طمعا فبأن تشتروا بآيات اللّه ثمنا قليلا هو مال أو جاه دنيوى زائل باطل.

و يمكن أن يكون متفرعا على قوله: «بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللّٰهِ وَ كَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» بحسب المعنى لأنه فى معنى أخذ الميثاق على الحفظ أى أخذنا منهم الميثاق على حفظ الكتاب و أشهدناهم عليه أن لا يغيروه و لا يخشوا فى إظهاره غيرى،و لا يشتروا بآياتى ثمنا قليلا،قال

تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَ لاٰ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرٰاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً (آل عمران۱۸۷/)و قال تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتٰابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الْأَدْنىٰ وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنٰا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثٰاقُ الْكِتٰابِ أَنْ لاٰ يَقُولُوا عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَ دَرَسُوا مٰا فِيهِ وَ الدّٰارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتٰابِ وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰةَ إِنّٰا لاٰ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (الأعراف۱۷۰/).

و هذا المعنى الثانى لعله أنسب و أوفق لما يتلوه من التأكيد و التشديد بقوله «وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ» .

قوله تعالى: وَ كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ فِيهٰا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ -الى قوله- وَ الْجُرُوحَ قِصٰاصٌ السياق و خاصه بالنظر الى قوله: «وَ الْجُرُوحَ قِصٰاصٌ» يدل على أن المراد به بيان حكم القصاص فى أقسام الجنايات من القتل و القطع و الجرح،فالمقابله الواقعه فى قوله:

«النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» و غيره إنما وقعت بين المقتص له و المقتص به و المراد به أن النفس تعادل النفس فى باب القصاص،و العين تقابل العين و الأنف الأنف و هكذا و الباء للمقابله كما فى قولك:بعت هذا بهذا.

فيؤول معنى الجمل المتسقه الى ان النفس تقتل بالنفس،و العين تفقأ بالعين و الانف تجدع بالانف،و الاذن تصلم بالاذن،و السن تقطع بالسن و الجروح ذوات قصاص،و بالجمله إن كلا من النفس و اعضاء الانسان مقتص بمثله.

و لعل هذا هو مراد من قدر فى قوله: «النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» ان النفس مقتصه أو مقتوله بالنفس و هكذا و إلا فالتقدير بمعزل عن الحاجه،و الجمل تامه من دونه و الظرف لغو.

و الآيه لا تخلو من إشعار بأن هذا الحكم غير الحكم الذى حكموا فيه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و تذكره الآيات السابقه فإن السياق قد تجدد بقوله «إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ» .

و الحكم موجود فی التوراه الدائره علی ما سیجیء نقله فی البحث الروائی التالی إن شاء اللّه تعالی.

قوله تعالی: فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ کَفّارَةٌ لَهُ أی فمن عفی من أولیاء القصاص کولی المقتول أو نفس المجنی علیه و المجروح عن الجانی،و وهبه ما یملکه من القصاص فهو أی العفو کفاره لذنوب المتصدق أو کفاره عن الجانی فی جنایته.

و الظاهر من السیاق ان الکلام فی تقدیر قولنا:فإن تصدق به من له القصاص فهو کفاره له،و ان لم یتصدق فلیحکم صاحب الحکم بما انزله اللّه من القصاص،و من لم یحکم بما انزل اللّه فاولئک هم الظالمون.

قوله تعالی: وَ قَفَّیْنا عَلی آثارِهِمْ بِعِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ التَّوْراةِ التقفیه جعل الشیء خلف الشیء و هو مأخوذ من القفا،و الآثار جمع أثر و هو ما یحصل من الشیء مما یدل علیه،و یغلب استعماله فی الشکل الحاصل من القدم ممن یضرب فی الأرض،و الضمیر فی «آثارِهِمْ» للأنبیاء.

فقوله: «وَ قَفَّیْنا عَلی آثارِهِمْ بِعِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ» استعاره بالکنایه أرید بها الدلاله علی أنه سلک به علیه السّلام المسلک الذی سلکه من قبله من الأنبیاء،و هو طریق الدعوه الی التوحید و الإسلام للّه.

و قوله: «مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ التَّوْراةِ» تبیین لما تقدمه من الجمله و إشاره الی أن دعوه عیسی هی دعوه موسی علیهما السّلام من غیر بینونه بینهما أصلا.

قوله تعالی: وَ آتَیْناهُ الْإِنْجِیلَ فِیهِ هُدیً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ التَّوْراةِ الخ؛سیاق الآیات من جهه تعرضها لحال شریعه موسی و عیسی و محمد صلی اللّه

علیه و آله و علیهما و نزولها فی حق کتبهم یقضی بانطباق بعضها علی بعض (۱).

و قوله تعالی: وَ هُدیً وَ مَوْعِظَهً لِلْمُتَّقِینَ قد مر توضیحه،و الآیه تدل علی أن فی الإنجیل النازل علی المسیح عنایه خاصه بالتقوی فی الدین مضافا الی ما یشتمل علیه التوراه من المعارف الاعتقادیه و الاحکام العملیه،و التوراه الدائره بینهم الیوم و إن لم یصدقها القرآن کل التصدیق،و کذا الأناجیل الاربعه المنسوبه الی متی و مرقس و لوقا و یوحنا و إن کانت غیر ما یذکره القرآن من الانجیل النازل علی المسیح نفسه لکنها مع ذلک کله تصدق هذا المعنی کما سیجیء إن شاء اللّه الاشاره إلیه.

قوله تعالی: وَ لْیَحْکُمْ أَهْلُ الْإِنْجِیلِ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فِیهِ الخ؛و قد أنزل فیه تصدیق التوراه فی شرائعها إلا ما استثنی من الاحکام المنسوخه التی ذکرت فی الانجیل النازل علی عیسی علیه السّلام،فان الانجیل لمّا صدّق التوراه فیما شرّعته،و أحل بعض ما حرم فیها کان العمل بما فی التوراه فی غیر ما أحلها الانجیل من المحرمات عملا بما أنزل اللّه فی الانجیل،و هو ظاهر.

و أما قوله: «وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الْفاسِقُونَ» فهو تشدید فی الامر المدلول علیه بقوله «وَ لْیَحْکُمْ» ،و قد کرر اللّه سبحانه هذه الکلمه للتشدید ثلاث مرات:مرتین فی أمر الیهود و مره فی أمر النصاری باختلاف یسیر فقال «وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الْکافِرُونَ ،فَأُولئِکَ هُمُ الظّالِمُونَ ،فَأُولئِکَ هُمُ الْفاسِقُونَ» فسجل علیهم الکفر و الظلم و الفسق.

قوله تعالی: وَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ الْکِتابِ وَ مُهَیْمِناً عَلَیْهِ هیمنه الشیء علی الشیء-علی ما یتحصل من معناها-کون الشیء ذا

۱- ۱) .المائده ۴۱-۵۰:بحث فی الانجیل و نزوله علی عیسی علیه السّلام.

سلطه على الشىء فى حفظه و مراقبته و انواع التصرف فيه،و هذا حال القرآن الذى وصفه اللّه تعالى بأنه تبيان كل شىء بالنسبه الى ما بين يديه من الكتب السماويه:يحفظ منها الاصول الثابته غير المتغيره و ينسخ منها ما ينبغى ان ينسخ من الفروع التى يمكن أن يتطرق إليها التغير و التبدل حتى يناسب حال الانسان بحسب سلوكه صراط الترقى و التكامل بمرور الزمان قال تعالى: إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ (الإسراء/۹)و قال مٰا نَنْسَخْ مِنْ آيَهٍ أَوْ نُنْسِهٰا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهٰا أَوْ مِثْلِهٰا (البقره/۱۰۶)و قال اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرٰاهِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهٰاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبٰاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبٰائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلاٰلَ الَّتِى كٰانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الأعراف/۱۵۷).

فهذه الجمله أعنى قوله: «وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ» متممه لقول«و مصدقا لما بين يديه من الكتاب» تتميم إيضاح اذ لولاها لأمكن ان يتوهم من تصديق القرآن للتوراه و الإنجيل أنه يصدق ما فيهما من الشرائع و الاحكام تصديق إبقاء من غير تغيير و تبديل لكن توصيفه بالهيمنه يبين ان تصديقه لها تصديق أنها معارف و شرائع حقه من عند اللّه و للّه ان يتصرف منها فيما يشاء بالنسخ و التكميل كما يشير إليه قوله ذيلا: «وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّهً وٰاحِدَهً وَ لٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مٰا آتٰاكُمْ» .

فقول «مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ» معناه تقرير ما فيها من المعارف و الأحكام بما يناسب حال هذه الامه فلا ينافيه ما تطرق إليها من النسخ و التكميل و الزياده كما كان المسيح عليه السّلام أو انجيله مصدقا للتوراه مع إحلاله بعض ما فيها من المحرمات كما حكاه اللّه عنه فى قوله: وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرٰاهِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ (آل عمران/۵۰).

قوله تعالى: فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ عَمّٰا جٰاءَكَ مِنَ

الْحَقِّ أی اذا کانت الشریعه النازله إلیک المودعه فی الکتاب حقا و هو حق فیما وافق ما بین یدیه من الکتب و حق فیما خالفه لکونه مهیمنا علیه فلیس لک الا أن تحکم بین أهل الکتاب -کما یؤیده ظاهر الآیات السابقه-أو بین الناس-کما تؤیده الآیات اللاحقه-بما أنزل اللّه إلیک و لا تتبع أهواءهم بالاعراض و العدول عما جاءک من الحق.

و من هنا یظهر جواز أن یراد بقوله «فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ» الحکم بین أهل الکتاب أو الحکم بین الناس،لکن تبعد المعنی الاول حاجته الی تقدیر کقولنا فاحکم بینهم ان حکمت،فان اللّه سبحانه لم یوجب علیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم الحکم بینهم بل خیره بین الحکم و الاعراض بقوله «فَإِنْ جٰاؤُکَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ» الآیه؛علی ان اللّه سبحانه ذکر المنافقین مع الیهود فی اول الآیات فلا موجب لاختصاص الیهود برجوع الضمیر إلیهم لسبق الذکر و قد ذکر معهم غیرهم،فالأنسب أن یرجع الضمیر الی الناس لدلاله المقام.

و یظهر ایضا ان قوله: «عَمّٰا جٰاءَکَ» متعلق بقوله «وَ لاٰ تَتَّبِعْ» بإشرابه معنی العدول أو الاعراض.

قوله تعالی: لِکُلٍّ جَعَلْنٰا مِنْکُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهٰاجاً قال الراغب فی المفردات:

الشرع نهج الطریق الواضح یقال:شرعت له طریقا و الشرع مصدر ثم جعل اسما للطریق النهج فقیل له:شرع و شرع و شریعه،و استعیر ذلک للطریقه الالهیه قال «شِرْعَةً وَ مِنْهٰاجاً» -الی ان قال-قال بعضهم:سمیت الشریعه شریعه تشبیها بشریعه الماء انتهی.

و لعل الشریعه بالمعنی الثانی مأخوذ من المعنی الاول لوضوح طریق الماء عندهم بکثره الورود و الصدور و قال:النهج(بالفتح فالسکون):الطریق الواضح،و نهج الأمر و أنهج وضح،و منهج الطریق و منهاجه (۱).

ص: ۱۱۲

۱- ۱) .المائده ۴۱-۵۰:کلام فی معنی الشریعه و الفرق بینها و بین الدین و المله فی عرف القرآن.

قوله تعالی: وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مٰا آتٰاكُمْ بيان لسبب اختلاف الشرائع،و ليس المراد بجعلهم أمه واحده الجعل التكوينی بمعنی النوعيه الواحده فإن الناس أفراد نوع واحد يعيشون علی نسق واحد كما يدل عليه قوله تعالی: وَ لَوْ لاٰ أَنْ يَكُونَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً لَجَعَلْنٰا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعٰارِجَ عَلَيْهٰا يَظْهَرُونَ (الزخرف/٣٣).

فمعنی الآيه-و اللّه أعلم-:لكل أمه جعلنا منكم(جعلا تشريعيا)شرعه و منهاجا و لو شاء اللّه لأخذكم أمه واحده و شرع لكم شريعه واحده،و لكن جعل لكم شرائع مختلفه ليمتحنكم فيما آتاكم من النعم المختلفه،و اختلاف النعم كان يستدعی اختلاف الامتحان الذی هو عنوان التكاليف و الاحكام المجعوله فلا محاله ألقی الاختلاف بين الشرائع.

و هذه الامم المختلفه هی أمم نوح و ابراهيم و موسی و عيسی و محمد صلی اللّه عليه و آله و عليهم كما يدل عليه ما يمتنّ اللّه به علی هذه الامه بقوله شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مٰا وَصّٰى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ وَ مٰا وَصَّيْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ (الشوری/١٣).

قوله تعالی: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرٰاتِ إِلَى اللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً الخ؛الاستباق أخذ السبق،و المرجع مصدر ميمیّ من الرجوع،و الكلام متفرع علی قوله: «لِكُلٍّ جَعَلْنٰا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهٰاجاً» بما له من لازم المعنی أی و جعلنا هذه الشريعه الحقه المهيمنه علی سائر الشرائع شريعه لكم،و فيه خيركم و صلاحكم لا محاله فاستبقوا الخيرات و هی الأحكام و التكاليف،و لا تشتغلوا بأمر هذه الاختلافات التی بينكم و بين غيركم فإن مرجعكم جميعا الی ربكم تعالی فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ،و يحكم بينكم حكما فصلا، و يقضی قضاء عدلا.

قوله تعالی: وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ ،هذا الصدر يتحد مع ما فی الآيه السابقه من قوله: «فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ» ،ثم يختلفان فيما

فرع على كل منهما،و يعلم منه أن التكرار لحيازه هذه الفائده فالآيه الاولى تأمر بالحكم بما أنزل اللّه و تحذر اتباع أهواء الناس لان هذا الذى أنزله اللّه هى الشريعه المجعوله للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لامته فالواجب عليهم أن يستبقوا هذه الخيرات،و الآيه الثانيه تأمر بالحكم بما أنزل اللّه، و تحذر اتباع أهواء الناس و تبين أن توليهم ان تولوا عما أنزل اللّه كاشف عن اضلال الهى لهم لفسقهم و قد قال اللّه تعالى يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِينَ (البقره۲۶/).

و قوله: «وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ إِلَيْكَ» امره تعالى نبيه بالحذر عن فتنتهم مع كونه صلّى اللّه عليه و آله و سلم معصوما بعصمه اللّه انما هو من جهه ان قوه العصمه لا توجب بطلان الاختيار و سقوط التكاليف المبنيه عليه فإنها من سنخ الملكات العلميه،و العلوم و الادراكات لا تخرج القوى العامله و المحركه فى الاعضاء و الاعضاء الحامله لها عن استواء نسبه الفعل و الترك إليها.

و قوله: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ» بيان لامر اضلالهم اثر فسقهم كما تقدم،و فيه رجوع الى بدء الكلام فى هذه الآيات «يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاٰ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسٰارِعُونَ فِي الْكُفْرِ» الخ؛ففيه تسليه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و تطييب لنفسه،و تعليم له ما لا يدب معه الحزن فى قلبه،و هكذا فعل اللّه سبحانه فى جل الموارد التى نهى فيها النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن ان يحزن عن توليهم عن الدعوه الحقه و استنكافهم عن قبول ما يرشدهم الى سبيل الرشاد و الفلاح فبين له صلّى اللّه عليه و آله و سلم انهم ليسوا بمعجزين للّه فى ملكه و لا غالبين عليه بل اللّه غالب على امره،و هو الذى يضلهم بسبب فسقهم،و يزيغ قلوبهم عن زيغ منهم،و يجعل الرجس عليهم بسلب توفيقه عنهم و استدراجه إياهم،قال تعالى: وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاٰ يُعْجِزُونَ (الأنفال۵۹/)و اذا كان الأمر الى اللّه سبحانه،و هو الذى يذبّ عن ساحه دينه الطاهره كل رجس نجس فلم يفته شىء مما أراده و لا وجه للحزن اذا لم يكن فائت.

ص: ۱۱۴

و قوله: «وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ اَلنّاسِ لَفاسِقُونَ» فى محل التعليل لقوله «أَنَّما يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ» الخ؛على ما تقدم بيانه.

قوله تعالى: أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ تفريع بنحو الاستفهام على ما بين فى الآيه السابقه من توليهم مع كون ما يتولون عنه هو حكم اللّه النازل اليهم و الحق الذى علموا أنه حق،و يمكن أن يكون فى مقام النتيجه اللازمه لما بيّن فى جميع الآيات السابقه.

و المعنى:و اذا كانت هذه الأحكام و الشرائع حقه نازله من عند اللّه و لم يكن وراءها حكم حق لا يكون دونها الا حكم الجاهليه الناشئه عن اتباع الهوى فهؤلاء الذين يتولون عن الحكم الحق ما ذا يريدون بتوليهم و ليس هناك الا حكم الجاهليه؟أ فحكم الجاهليه يبغون و الحال أنه ليس أحد أحسن حكما من اللّه لهؤلاء المدّعين للإيمان؟

فقوله «أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ» استفهام توبيخى،و قوله: «وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً» استفهام انكارى أى لا أحد أحسن حكما من اللّه،و انما يتبع الحكم لحسنه،و قوله: «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» فى أخذ وصف اليقين تعريض لهم بأنهم ان صدقوا فى دعواهم الايمان باللّه فهم يوقنون بآياته،و الذين يوقنون بآيات اللّه ينكرون أن يكون أحد أحسن حكما من اللّه سبحانه (1).

[سوره المائده (5): الآيات 51 الى 54]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا اَلْيَهُودَ وَ اَلنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اَللّهَ لا يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلظّالِمِينَ (51) فَتَرَى اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اَللّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ (52) وَ يَقُولُ اَلَّذِينَ آمَنُوا أَ هؤُلاءِ اَلَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ (53) يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اَللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى اَلْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اَللّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اَللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اَللّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (54)

1- 1) .المائده 41-50:بحث روائى فى حكم الرجم فى التوراه؛مباحثه ابن صوريا اليهودى مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و اسلامه؛القصاص و الديه فى التوراه و القرآن؛الربانيون؛حكم اللّه و حكم الجاهليه.

بیان:

قوله تعالی: یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصاریٰ أَوْلِیاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ قال فی المجمع:الاتخاذ هو الاعتماد علی الشیء لإعداده لأمر،و هو افتعال من الأخذ،و أصله الائتخاذ فأبدلت الهمزه تاء،و أدغمتها فی التاء التی بعدها و مثله الاتعاد من الوعد،و الأخذ یکون علی وجوه تقول:أخذ الکتاب اذا تناوله،و أخذ القربان اذا تقبله،و أخذه اللّه من مأمنه اذا أهلکه،و أصله جواز الشیء من جهه الی جهه من الجهات.

انتهی.

و قال الراغب فی المفردات:الولاء و التوالی أن یحصل شیئان فصاعدا حصولا لیس بینهما ما لیس منهما،و یستعار ذلک للقرب من حیث المکان،و من حیث النسبه و من حیث الدین، و من حیث الصداقه و النصره و الاعتقاد(انتهی موضع الحاجه)و سیأتی استیفاء البحث فی

ص :۱۱۶

معنی الولایه.

و بالجمله الولایه نوع اقتراب من الشیء یوجب ارتفاع الموانع و الحجب بینهما من حیث ما اقترب منه لاجله فإن کان من جهه التقوی و الانتصار فالولی هو الناصر الذی لا یمنعه عن نصره من اقترب منه شیء،و إن کان من جهه الالتیام فی المعاشره و المحبه التی هی الانجذاب الروحی فالولی هو المحبوب الذی لا یملک الإنسان نفسه دون أن ینفعل عن إرادته،و یعطیه فیما یهواه،و ان کان من جهه النسب فالولی هو الذی یرثه مثلا من غیر مانع یمنعه،و إن کان من جهه الطاعه فالولی هو الذی یحکم فی أمره بما یشاء.

و لم یقید اللّه سبحانه فی قوله: «لاٰ تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصٰاریٰ أَوْلِیٰاءَ» الولایه بشیء من الخصوصیات و القیود فهی مطلقه غیر أن قوله تعالی فی الآیه التالیه: «فَتَرَی الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یُسٰارِعُونَ فِیهِمْ یَقُولُونَ نَخْشیٰ أَنْ تُصِیبَنٰا دٰائِرَهٌ» ،یدل علی أن المراد بالولایه نوع من القرب و الاتصال یناسب هذا الذی اعتذروا به بقولهم «نَخْشیٰ أَنْ تُصِیبَنٰا دٰائِرَهٌ» و هی الدوله تدور علیهم،و کما أن الدائره من الجائز أن تصیبهم من غیر الیهود و النصاری فیتأیدوا بنصره الطائفتین بأخذهما أولیاء النصره کذلک یجوز أن تصیبهم من نفس الیهود و النصاری فینجوا منها باتخاذهما أولیاء المحبه و الخلطه.

و الولایه بمعنی قرب المحبه و الخلطه تجمع الفائدتین جمیعا أعنی فائده النصره و الامتزاج الروحی فهو المراد بالآیه،و سیجیء ما فی القیود و الصفات المأخوذه فی الآیه الاخیره «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ» ،من الدلاله علی أن المراد بالولایه هاهنا ولایه المحبه لا غیر (۱).

و ربما أمکن أن یستفاد من قوله: «بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ» معنی آخر،و هو أن لا تتخذوهم

۱- ۱) .المائده ۵۱-۵۴:بحث فی معنی الولایه فی الآیه «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصٰاریٰ أَوْلِیٰاءَ...» .

أولياء لأنكم إنما تتخذونهم أولياء لتنتصروا ببعضهم الذى هم أولياؤكم على البعض الآخر، و لا ينفعكم ذلك فإن بعضهم أولياء بعض فليسوا ينصرونكم على أنفسهم.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاٰ يَهْدِى الْقَوْمَ الظّالِمِينَ التولى اتخاذ الولى،و«من»تبعيضيه و المعنى أن من يتخذهم منكم أولياء فإنه بعضهم،و هذا إلحاق تنزيلى يصير به بعض المؤمنين بعضا من اليهود و النصارى،و يئول الأمر الى أن الإيمان حقيقه ذات مراتب مختلفه من حيث الشوب و الخلوص،و الكدوره و الصفاء كما يستفاد ذلك من الآيات القرآنيه قال تعالى: وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف/۱۰۶)و هذا الشوب و الكدر هو الذى يعبر تعالى عنه بمرض القلوب فيما سيأتى من قوله: «فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسٰارِعُونَ فِيهِمْ» .

فهؤلاء الموالون لاولئك أقوام عدهم اللّه تعالى من اليهود و النصارى و إن كانوا من المؤمنين ظاهرا،و أقل ما فى ذلك أنهم غير سالكين سبيل الهدايه الذى هو الإيمان بل سالكو سبيل اتخذه اولئك سبيلا يسوقه الى حيث يسوقهم و ينتهى به الى حيث ينتهى بهم.

و لذلك علل اللّه سبحانه لحوقه بهم بقوله «إِنَّ اللّهَ لاٰ يَهْدِى الْقَوْمَ الظّالِمِينَ» فالكلام فى معنى:أن هذا الذى يتولاهم منكم هو منهم غير سالك سبيلكم لان سبيل الإيمان هو سبيل الهدايه الإلهيه،و هذا المتولى لهم ظالم مثلهم،و اللّه لا يهدى القوم الظالمين.

و الآيه-كما ترى-تشتمل على أصل التنزيل أعنى تنزيل من تولاهم من المؤمنين منزلتهم من غير تعرض لشىء من آثاره الفرعيه،و اللفظ و إن لم يتقيد بقيد لكنه لما كان من قبيل بيان الملاك-نظير قوله: وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ (البقره/۱۸۴)و قوله: إِنَّ الصَّلاٰةَ تَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ (العنكبوت/۴۵)الى غير ذلك-لم يكن إلا مهملا يحتاج التمسك به فى اثبات حكم فرعى الى بيان السنه،و المرجع فى البحث عن ذلك فن الفقه.

قوله تعالى: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ تفريع على قوله فى الآيه السابقه: «إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ» فمن عدم شمول الهدايه الالهيه لحالهم -و هو الضلال-مسارعتهم فيهم و اعتذارهم فى ذلك بما لا يسمع من القول،و قد قال تعالى:

«يُسَارِعُونَ فِيهِمْ» و لم يقل:يسارعون اليهم،فهم منهم و حالون فى الضلال محلهم،فهؤلاء يسارعون فيهم لا لخشيه اصابه دائره عليهم فليسوا يخافون ذلك،و انما هى معذره يختلقونها لانفسهم لدفع ما يتوجه اليهم من ناحيه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المؤمنين من اللوم و التوبيخ بل انما يحملهم على تلك المسارعه توليهم أولئك(اليهود و النصارى).

و لما كان من شأن كل ظلم و باطل أن يزهق يوما و يظهر للملإ فضيحته،و ينقطع رجاء من توسل الى أغراض باطله بوسائل صورتها صوره الحق كما قال تعالى: «إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ» كان من المرجو قطعا أن يأتى اللّه بفتح أو أمر من عنده فيندموا على فعالهم،و يظهر للمؤمنين كذبهم فيما كانوا يظهرونه.

قوله تعالى: فَعَسَى اللّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى مٰا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نٰادِمِينَ لفظه«عسى»و إن كان فى كلامه تعالى للترجّى كسائر الكلام-على ما قدمنا أنه للترجى العائد الى السامع أو الى المقام-لكن القرينه قائمه على أنه مما سيقع قطعا فإن الكلام مسوق لتقرير ما ذكره بقوله «إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ» و تثبيت صدقه،فما يشتمل عليه واقع لا محاله.

و الذى ذكره اللّه تعالى من الفتح-و قد ردد بينه و بين أمر من عنده غير بيّن المصداق بل الترديد بينه و بين أمر مجهول لنا-لعله يؤيد كون اللام فى«الفتح»للجنس لا للعهد حتى يكون المراد به فتح مكه المعهود بوعد وقوعه فى مثل قوله تعالى: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرٰادُّكَ إِلىٰ مَعٰادٍ (القصص/٨۵)و قوله: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ إِنْ شٰاءَ اللّهُ (الفتح/٢٧)و غير ذلك.

قوله تعالی: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا الی آخر الآیه؛و قرء «یَقُولُ» بالنصب عطفا علی قوله: «فَيُصْبِحُوا» و هی أرجح لکونها أوفق بالسیاق فإن ندامتهم علی ما أسروه فی أنفسهم و قول المؤمنین «أَ هٰؤُلاٰءِ» الخ؛جمیعا تقریع لهم بعاقبه تولیهم و مسارعتهم فی الیهود و النصاری،و قوله:«هؤلاء»إشاره الی الیهود و النصاری،و قوله:«معکم»خطاب للذین فی قلوبهم مرض و یمکن العکس،و کذا الضمیر فی قوله: «حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فَأَصْبَحُوا» ،یمکن رجوعه الی الیهود و النصاری،و الی الذین فی قلوبهم مرض.

لکن الظاهر من السیاق أن الخطاب للذین فی قلوبهم مرض،و الإشاره الی الیهود و النصاری،و قوله: «حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ» ،کالجواب لسؤال مقدر،و المعنی:و عسی أن یأتی اللّه بالفتح أو أمر من عنده فیقول الذین آمنوا لهؤلاء الضعفاء الإیمان عند حلول السخط الإلهی بهم:أ هؤلاء الیهود و النصاری هم الذین أقسموا باللّه جهد أیمانهم أی أیمانهم التی بالغوا و جهدوا فیها جهدا أنهم لمعکم فلما ذا لا ینفعونکم؟!ثم کأنه سئل فقیل:فإلی م انتهی أمر هؤلاء الموالین؟فقیل فی جوابه:حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرین (۱).

قوله تعالی: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ارتد عن دینه رجع عنه،و هو فی اصطلاح أهل الدین الرجوع من الإیمان الی الکفر سواء کان إیمانه مسبوقا بکفر آخر کالکافر یؤمن ثم یرتد أو لم یکن،و هما المسمیان بالارتداد الملی و الفطری(حقیقه شرعیه أو متشرعیه).

ربما یسبق الی الذهن أن المراد بالارتداد فی الآیه هو ما اصطلح علیه أهل الدین،و یکون الآیه علی هذا غیر متصله بما قبلها،و إنما هی آیه مستقله تحکی عن نحو استغناء من اللّه سبحانه عن إیمان طائفه من المؤمنین بإیمان آخرین.

۱- ۱) .المائده ۵۱-۵۴:کلام فی معنی مرض القلب.

لکن التـدبر فی الآیه و ما تقدم علیها من الآیات یدفع هذا الاحتمال فإن الآیه علی هذا تذکّر المؤمنین بقدره اللّه سـبحانه علی أن یعبـد فی أرضه،و أنه سوف یـأتی بـأقوام لاـ یرتـدون عن دینه بـل یلازمونه کقوله تعالی: فَإِنْ یَکْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَـدْ وَکَّلْنا بِها قَوْماً لَیْسُوا بِها بِکافِرِینَ (الأنعام/۸۹)أو کقوله تعـالی: وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعالَمِینَ (آل عمران/۹۷)و قوله تعـالی: إِنْ تَکْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِیٌّ حَمِیدٌ (إبراهیم/۸) (۱).

قوله تعـالی: أَذِلَّهٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ أَعِزَّهٍ عَلَی الْکافِرِینَ الاـذله و الاـعزه جمعـا الـذلیل و العزیز،و همـا کنایتـان عن خفضـهم الجناح للمؤمنین تعظیما للّه الـذی هو ولیهم و هم أولیاؤه،و عن ترفّعهم من الاعتناء بما عند الکافرین من العزه الکاذبه التی لا یعبأ بأمرها الـدین کما أدّب بذلک نبیه فی قوله: لا تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلی ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَ لا تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ وَ اخْفِضْ جَناحَکَ لِلْمُؤْمِنِینَ (الحجر/۸۸).و لعل تعدیه«أذلّه»بعلی لتضمینه معنی الحنان أو الحنو کما قیل.

قوله تعالی: یُجاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللّهِ وَ لا یَخافُونَ لَوْمَهَ لائِمٍ أما قوله:

«یُجاهِـدُونَ فِی سَبِیلِ اللّهِ» فقد اختص بالذکر من بین مناقبهم الجمه لکون الحاجه تمس إلیه فی المقام لبیان أن اللّه ینتصر لدینه بهم،و أما قوله: «وَ لا یَخافُونَ لَوْمَهَ لائِمٍ» فالظاهر أنه حال متعلق بالجمل المتقدمه لا بالجمله الأخیره فقط-و إن کانت هی المتیقنه فی أمثال هـذه الترکیبات-و ذلک لانّ نصـره الـدین بالجهاد فی سبیل اللّه کما یزاحمها لومه اللائمین الـذین یحـذرونهم تضـییع الاموال و إتلاف النفوس و تحمل الشدائد و المکاره کذلک التذلل للمؤمنین و التعزز علی الکافرین و عندهم من زخارف الدنیا و مبتغیات الشهوه،و أمتعه الحیاه ما لیس

۱- ۱) .المائده ۵۱-۵۴:بحث فی الارتداد؛اوصاف المؤمنین الحقیقین الذین ینصر اللّه دینه بهم.

عند المؤمنين هما مما يمانعه لومه اللائم،و فی الآیه ملحمه غیبیه سنبحث عنها فی کلام مختلط من القرآن و الحدیث ان شاء اللّه تعالی (۱)(۲).

[سوره المائده (۵): الآیات ۵۵ الی ۵۶]

اشاره

إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ اَلصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ اَلزَّکٰاهَ وَ هُمْ رٰاکِعُونَ (۵۵) وَ مَنْ یَتَوَلَّ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اَللّٰهِ هُمُ اَلْغٰالِبُونَ (۵۶)

بیان:

الآیتان-کما تری-موضوعتان بین آیات تنهی عن ولایه أهل الکتاب و الکفار،و لـذلک رام جماعه من مفسّری القوم إشراکهما مع ما قبلهما و ما بعدهما من حیث السیاق،و جعل الجمیع ذات سیاق واحد یقصد به بیان وظیفه المؤمنین فی أمر ولایه الأشخاص ولایه النصره،و النهی عن ولایه الیهود و النصاری و الکفّار،و قصر الولایه فی اللّه سبحانه و رسوله و المؤمنین الذین یقیمون الصلاه و یؤتون الزکاه و هم راکعون،و هؤلاء هم المؤمنون حقا فیخرج بذلک المنافقون و الذین فی قلوبهم مرض،و یبقی علی وجوب الولایه المؤمنون حقا، و تکون الآیه دالّه علی مثل ما یدل علیه مجموع قوله تعالی: وَ اللّٰهُ وَلِیُّ الْمُؤْمِنِینَ (آل عمران/۶۸)،و قوله تعالی: اَلنَّبِیُّ أَوْلیٰ بِالْمُؤْمِنِینَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (الأحزاب/۶)،

۱- ۱) .المائده ۵۱-۵۴:بحث روائی حول الآیه «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصٰاریٰ أَوْلِیٰاءَ...» و الآیه «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ... ؛ولایه علی علیه السّلام.

۲- ۲) .المائده ۵۱-۵۴:کلام و بحث مختلط من القرآن و الحدیث حول الخطابات القرآنیه؛نتائج التمرد علی اوامر القرآن؛سبب تغییر النعم الالهیه؛اشراط الساعه؛ملاحم آخر الزمان.

و قوله تعالى فى المؤمنين: أَولٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ (الأنفال۷۲/)،و قوله تعالى:

وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ الآيه (التوبه۷۱/)؛فمحصّل الآيه جعل ولايه النصره للّه و لرسوله و المؤمنين على المؤمنين.

نعم يبقى هناك إشكال الجمله الحاليه التى يتعقّبها قوله: «وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ» و هى قوله:

«وَ هُمْ رٰاكِعُونَ» و يرتفع الإشكال بحمل الركوع على معناه المجازى و هو مطلق الخضوع للّه سبحانه أو انحطاط الحال لفقر و نحوه،و يعود معنى الآيه الى أنه ليس أولياؤكم اليهود و النصارى و المنافقين بل أولياؤكم اللّه و رسوله و المؤمنون الذين يقيمون الصلاه و يؤتون الزكاه،و هم فى جميع هذه الأحوال خاضعون لساحه الربوبيه بالسمع و الطاعه،أو أنهم يؤتون الزكاه و هم فقراء معسرون هذا.

لكن التدبّر و استيفاء النظر فى الآيتين و ما يحفّهما من آيات ثم فى أمر السوره يعطى خلاف ما ذكروه،و أول ما يفسد من كلامهم ما ذكروه من أمر وحده سياق الآيات،و ان غرض الآيات التعرّض لأمر ولايه النصره،و تمييز الحق منها من غير الحق فإن السوره و إن كان من المسلّم نزولها فى آخر عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى حجه الوداع لكن من المسلّم أيضا أن جميع آياتها لم تنزل دفعه واحده ففى خلالها آيات لا شبهه فى نزولها قبل ذلك،و مضامينها تشهد بذلك،و ما ورد فيها من أسباب النزول يؤيده فليس مجرّد وقوع الآيه بعد الآيه أو قبل الآيه يدل على وحده السياق،و لا أن بعض المناسبه بين آيه و آيه يدل على نزولهما معا دفعه واحده أو اتحادهما فى السياق.

على أن الآيات السابقه أعنى قوله: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصٰارىٰ أَوْلِيٰاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ» الخ؛تنهى المؤمنين عن ولايه اليهود و النصارى،و تعيّر المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض بالمسارعه اليهم و رعايه جانبهم من غير أن يرتبط الكلام بمخاطبه اليهود و النصارى و إسماعهم الحديث بوجه بخلاف الآيات التاليه أعنى قوله: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكَمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكَمْ وَ الْكَفّارَ أَوْلِيٰاءَ ،الخ؛فإنها تنهى عن ولايتهم و تتعرض لحالهم بالأمر بمخاطبتهم ثم يعيّرهم بالنفاق و الفسق فالغرض فى القبيلين من الآيات السابقه و اللاحقه مختلف،و معه كيف يتحد السياق؟!

على أنك قد عرفت فى البحث عن الآيات السابقه أعنى قوله: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصٰارىٰ أَوْلِيٰاءَ» الآيات؛أن ولايه النصره لا تلائم سياقها،و أن خصوصيات الآيات و العقود المأخوذه فيها و خاصه قوله: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ» و قوله:

«وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» لا تناسبها فإن عقد ولايه النصره و اشتراطها بين قومين لا يوجب صيروره أحدهما الآخر و لحوقه به،و لا أنه يصح تعليل النهى عن هذا العقد بأن القوم الفلانى بعضهم أولياء بعض بخلاف عقد ولايه الموده التى توجب الامتزاج النفسى و الروحى بين الطرفين،و تبيح لأحدهما التصرف الروحى و الجسمى فى شئون الآخر الحيويه و تقارب الجماعتين فى الأخلاق و الأعمال الذى يذهب بالخصائص القوميه.

على أنه ليس من الجائز أن يعدّ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم وليا للمؤمنين بمعنى ولايه النصره بخلاف العكس فإن هذه النصره التى يعتنى بأمرها اللّه سبحانه،و يذكرها القرآن الكريم فى كثير من آياته هى النصره فى الدين و حينئذ يصح أن يقال:إن الدين للّه بمعنى أنه جاعله و شارع شرائعه فيندب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أو المؤمنون أو هما جميعا الى نصرته أو يدعوا أنصارا للّه فى ما شرّعه من الدين كقوله تعالى: قٰالَ الْحَوٰارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصٰارُ اللّٰهِ (الصف١۴/)،و قوله تعالى: إِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ (محمد٧/)،و قوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ النَّبِيِّينَ -الى أن قال- لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ (آل عمران٨١/)،الى غير ذلك من الآيات الكثيره.

و يصح أن يقال:إن الدين للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بمعنى أنه الداعى اليه و المبلّغ له مثلا،أو إن الدين للّه و لرسوله بمعنى التشريع و الهدايه فيدعى الناس الى النصره،أو يمدح المؤمنون بالنصره كقوله

تعالى: وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ (الأعراف/١٥٧)،و قوله تعالى: وَ يَنْصُرُونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ (الحشر/٨)،و قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا (الأنفال/٧٢)،الى غير ذلك من الآيات.

و يصح أن يقال:إن الدين للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و للمؤمنين جميعا،بمعنى أنهم المكلفون بشرائعه العاملون به فيذكر أن اللّه سبحانه وليهم و ناصرهم كقوله تعالى: وَ لَيَنْصُرَنَّ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ (الحج/٤٠)،و قوله تعالى: إِنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (غافر/٥١)،و قوله تعالى: وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم/٤٧)،الى غير ذلك من الآيات.

لكن لا يصح أن يفرد الدين بوجه للمؤمنين خاصه،و يجعلوا أصلا فيه و النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بمعزل عن ذلك،ثم يعدّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم ناصرا لهم فيما لهم،اذ ما من كرامه دينيه إلا هو مشاركهم فيها أحسن مشاركه،و مساهمهم أفضل سهام؛و لذلك لا نجد القرآن يعد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ناصرا للمؤمنين و لا فى آيه واحده،و حاشا ساحه الكلام الإلهى أن يساهل فى رعايه أدبه البارع.

و هذا من أقوى الدليل على أن المراد بما نسب الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من الولايه فى القرآن هو ولايه التصرف أو الحب و الموده كقوله تعالى: اَلنَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (الأحزاب/۶)،و قوله تعالى: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الآيه؛فإن الخطاب للمؤمنين،و لا معنى لعد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم وليا لهم ولايه النصره كما عرفت.

فقد ظهر أن الآيتين أعنى قوله تعالى: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ» الى آخر الآيتين لا تشاركان السياق السابق عليهما لو فرض أنه متعرض لحال ولايه النصره،و لا يغرنك قوله تعالى فى آخر الآيه الثانيه: «فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغالِبُونَ» ،فإن الغلبه كما تناسب الولايه بمعنى النصره،كذلك تناسب ولايه التصرف و كذا ولايه المحبه و الموده،و الغلبه الدينيه التى هى آخر بغيه أهل الدين تتحصل باتصال المؤمنين باللّه و رسوله بأى وسيله تمت و حصلت،و قد

قرع اللّه سبحانه أسماعهم ذلک بصریح وعده حیث قال کَتَبَ اللّٰهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِی (المجادله۲۱/)،و قال وَ لَقَدْ سَبَقَتْ کَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا الْمُرْسَلِینَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ* وَ إِنَّ جُنْدَنٰا لَهُمُ الْغٰالِبُونَ (الصافات۱۷۳/).

علی أن الروایات متکاثره من طرق الشیعه و أهل السنه علی أن الآیتین نازلتان فی أمیر المؤمنین علی علیه السّلام لما تصدق بخاتمه و هو فی الصلاه،فالآیتان خاصتان غیر عامتین،و سیجیء نقل جل ما ورد من الروایات فی ذلک فی البحث الروائی التالی إن شاء اللّه تعالی.

و لو صح الإعراض فی تفسیر آیه بالأسباب المأثوره عن مثل هذه الروایات علی تکاثرها و تراکمها لم یصح الرکون الی شیء من أسباب النزول المأثوره فی شیء من آیات القرآن و هو ظاهر،فلا وجل لحمل الآیتین علی إراده ولایه المؤمنین بعضهم لبعض یجعلها عامه.

نعم استشکلوا فی الروایات-و لم یکن ینبغی أن یستشکل فیها مع ما فیها من الکثره البالغه-أولا:بأنها تنافی سیاق الآیات الظاهر فی ولایه النصره کما تقدمت الإشاره الیه؛ و ثانیا:أن لازمها إطلاق الجمع و إراده الواحد فإن المراد بالذین آمنوا الذین یقیمون الصلاه، الخ؛علی هذا التقدیر هو علی و لا یساعده اللغه،و ثالثا:أن لازمها کون المراد بالزکاه هو التصدق بالخاتم،و لا یسمی ذلک زکاه.

قالوا:فالمتعین أن تؤخذ الآیه عامه،و تکون مسوقه لمثل قصر القلب أو الإفراد فقد کان المنافقون یسارعون الی ولایه أهل الکتاب و یؤکدونها،فنهی اللّه عن ذلک و ذکر أن أولیاءهم إنما هم اللّه و رسوله و المؤمنون حقا دون أهل الکتاب و المنافقین.

و لا یبقی إلا مخالفه هذا المعنی لظاهر قوله: «وَ هُمْ رٰاکِعُونَ» و یندفع بحمل الرکوع علی معناه المجازی،و هو الخضوع للّه أو الفقر و رثاثه الحال،هذا ما استشکلوه.

لکن التدبر فی الآیه و ما یناظرها من الآیات یوجب سقوط الوجوه المذکوره جمیعا:

ص :۱۲۶

أما وقوع الآيه فی سیاق ولایه النصره،و لزوم حملها علی إراده ذلک فقد عرفت أن الآیات غیر مسوقه لهذا الغرض أصلا،و لو فرض سرد الآیات السابقه علی هذه الآیه لبیان أمر ولایه النصره لم تشارکها الآیه فی هذا الغرض.

و أما حدیث لزوم إطلاق الجمع و إراده الواحد فی قوله: «وَ الَّذِینَ آمَنُوا» الخ؛فقد عرفت فی الکلام علی آیه المباهله فی الجزء الثالث من هذا الکتاب تفصیل الجواب عنه،و أنه فرق بین إطلاق لفظ الجمع و إراده الواحد و استعماله فیه،و بین إعطاء حکم کلی أو الإخبار بمعرف جمعی فی لفظ الجمع لینطبق علی من یصح أن ینطبق علیه،ثم لا یکون المصداق الذی یصح أن ینطبق علیه إلا واحدا فردا و اللغه تأبی عن قبول الأول دون الثانی علی شیوعه فی الاستعمالات.

و لیت شعری ما ذا یقولون فی مثل قوله تعالی: یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّی وَ عَدُوَّکُمْ أَوْلِیَاءَ تُلْقُونَ إِلَیْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ -الی أن قال- تُسِرُّونَ إِلَیْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ الآیه(الممتحنه/ ۱)،و قد صح أن المراد به حاطب بن أبی بلتعه فی مکاتبته قریشا؟و قوله تعالی: یَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَی الْمَدِینَهِ لَیُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ (المنافقون/۸)،و قد صح أن القائل به عبد اللّه بن أبی بن سلول؟و قوله تعالی: یَسْئَلُونَکَ مَا ذَا یُنْفِقُونَ (البقره/۲۱۵)و السائل عنه واحد؟و قوله تعالی: اَلَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّیْلِ وَ النَّهَارِ سِرًّا وَ عَلاَنِیَهً (البقره/۲۷۴) و قد ورد أن المنفق کان علیا أو أبا بکر؟الی غیر ذلک من الموارد الکثیره.

و أعجب من الجمیع قوله تعالی: «یَقُولُونَ نَخْشیٰ أَنْ تُصِیبَنَا دَائِرَهٌ» و القائل هو عبد اللّه بن أبی،علی ما رووا فی سبب نزوله و تلقوه بالقبول،و الآیه واقعه بین الآیات المبحوث عنها نفسها.

فإن قیل:إن هذه الموارد لا تخلو عن اناس کانوا یرون رأیهم أو یرضون بفعالهم فعبر اللّه تعالی عنهم و عمن یلحق بهم بصیغه الجمع.قیل:إن محصله جواز ذلک فی اللغه لنکته مجوزه

فليجر الآيه أعنى قوله: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ» هذا المجرى،و لتكن النكته هى الإشاره الى أن أنواع الكرامات الدينيه-و منها الولايه المذكوره فى الآيه-ليست موقوفه على بعض المؤمنين دون بعض وقفا جزافيا،و إنما يتبع التقدم فى الإخلاص و العمل لا غير.

على أن جل الناقلين لهذه الأخبار هم صحابه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و التابعون المتصلون بهم زمانا و هم من زمره العرب العرباء الذين لم تفسد لغتهم و لم تختلط ألسنتهم،و لو كان هذا النحو من الاستعمال لا تبيحه اللغه و لا يعهده أهلها لم تقبله طباعهم،و لكانوا أحق باستشكاله و الاعتراض عليه،و لم يؤثر من أحد منهم ذلك.

و أما قولهم:إن الصدقه بالخاتم لا تسمى زكاه،فيدفعه أن تعين لفظ الزكاه فى معناها المصطلح إنما تحقق فى عرف المتشرعه بعد نزول القرآن بوجوبها و تشريعها فى الدين،و أما الذى تعطيه اللغه فهو أعم من الزكاه المصطلحه فى عرف المتشرعه و يساوق عند الإطلاق أو عند مقابله الصلاه إنفاق المال لوجه اللّه كما يظهر مما وقع فيما حكاه اللّه عن الأنبياء السالفين كقوله تعالى فى إبراهيم و إسحاق و يعقوب: وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ (الأنبياء۷۳/)،و قوله تعالى فى إسماعيل: وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (مريم۵۵/)و قوله تعالى حكايه عن عيسى عليه السّلام فى المهد: وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (مريم۳۱/)و من المعلوم أن ليس فى شرائعهم الزكاه الماليه بالمعنى الذى اصطلح عليه فى الإسلام.

و كذا قوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّى* وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى (الأعلى۱۵/)و قوله تعالى: اَلَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكّى (الليل۱۸/)و قوله تعالى: اَلَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (السجده۷/)و قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ (المؤمنون۴/)و غير ذلك من الآيات الواقعه فى السور المكيه و خاصه السور النازله فى أوائل

البعثه کسوره حم السجده و غیرها،و لم تکن شرعت الزکاه المصطلحه بعد؛فلیت شعری ما ذا کان یفهمه المسلمون من هذه الآیات فی لفظ الزکاه.

بل آیه الزکاه أعنی قوله تعالی: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَکِّیهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَیْهِمْ إِنَّ صَلاتَکَ سَکَنٌ لَهُمْ (التوبه۱۰۳/)تدل علی أن الزکاه من أفراد الصدقه،و إنما سمیت زکاه لکون الصدقه مطهره مزکیه مطلقا،و قد غلب استعمالها فی الصدقه المصطلحه.

فتبین من جمیع ما ذکرنا أنه لا مانع من تسمیه مطلق الصدقه و الإنفاق فی سبیل اللّه زکاه، و تبین أیضا أن لا موجب لارتکاب خلاف الظاهر بحمل الرکوع علی معناه المجازی،و کذا ارتکاب التوجیه فی قوله: «إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا» حیث أتی باسم إن(ولیکم) مفردا و بقوله «الَّذِینَ آمَنُوا» و هو خبر بالعطف بصیغه الجمع،هذا.

قوله تعالی: إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا قال الراغب فی المفردات:

الولاء(بفتح الواو)و التوالی أن یحصل شیئان فصاعدا حصولا لیس بینهما ما لیس منهما، و یستعار ذلک للقرب من حیث المکان و من حیث النسبه و من حیث الصداقه و النصره و الاعتقاد،و الولایه النصره،و الولایه تولی الأمر،و قیل:الولایه و الولایه(بالفتح و الکسر) واحده نحو الدلاله و الدلاله و حقیقته تولی الأمر،و الولی و المولی یستعملان فی ذلک،کل واحد منهما یقال فی معنی الفاعل أی الموالی(بکسر اللام)و معنی المفعول أی الموالی(بفتح اللام)یقال للمؤمن:هو ولی اللّه عزّ و جل و لم یرد مولاه،و قد یقال:اللّه ولی المؤمنین و مولاهم.

قال:و قولهم:تولی اذا عدی بنفسه اقتضی معنی الولایه و حصوله فی أقرب المواضع منه یقال:و لیت سمعی کذا،و ولیت عینی کذا،و ولیت وجهی کذا أقبلت به علیه قال اللّه عزّ و جل فَلَنُوَلِّیَنَّکَ قِبْلَةً تَرْضاها،فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ،وَ حَیْثُ ما کُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَکُمْ شَطْرَهُ و إذا عدی بعن لفظا أو تقدیرا اقتضی معنی الإعراض و ترک قربه.انتهی.

و الظاهر أن القر الكذائی المعبر عنه بالولایه،أول ما اعتبره الإنسان إنما اعتبره فی الأجسام و أمكنتها و أزمنتها ثم استعیر لأقسام القرب المعنویه بالعكس مما ذكره لأن هذا هو المحصل من البحث فی حالات الإنسان الأولیه فالنظر فی أمر المحسوسات و الاشتغال بأمرها أقدم فی عیشه الإنسان من التفكر فی المعقولات و المعانی و أنحاء اعتبارها و التصرف فیها.

و اذا فرضت الولایه-و هی القرب الخاص-فی الامور المعنویه كان لازمها أن للولی ممن ولیه ما لیس لغیره إلا بواسطته فكل ما كان من التصرف فی شئون من ولیه مما یجوز أن یخلفه فیه غیره فإنما یخلفه الولی لا غیره كولی المیت،فإن التركه التی كان للمیت أن یتصرف فیها بالملك فإن لوارثه الولی أن یتصرف فیها بولایه الوراثه،و ولی الصغیر یتصرف بولایته فی شئون الصغیر المالیه بتدبیر أمره،و ولی النصره له أن یتصرف فی أمر المنصور من حیث تقویته فی الدفاع،و اللّٰه سبحانه ولی عباده یدبر أمرهم فی الدنیا و الآخره لا ولی غیره،و هو ولی المؤمنین فی تدبیر أمر دینهم بالهدایه و الدعوه و التوفیق و النصره و غیر ذلك،و النبی ولی المؤمنین من حیث إن له أن یحكم فیهم و لهم و علیهم بالتشریع و القضاء،و الحاكم ولی الناس بالحكم فیهم علی مقدار سعه حكومته،و علی هذا القیاس سائر موارد الولایه كولایه العتق و الحلف و الجوار و الطلاق و ابن العم،و ولایه الحب و ولایه العهد و هكذا،و قوله: «یُوَلُّونَ الْأَدْبٰارَ» أی یجعلون أدبارهم تلی جهه الحرب و تدبر أمرها،و قوله: «تَوَلَّیْتُمْ» أی تولیتم عن قبوله أی اتخذتم أنفسكم تلی جهه خلاف جهته بالإعراض عنه أو اتخذتم وجوهكم تلی خلاف جهته بالإعراض عنه؛فالمحصل من معنی الولایه فی موارد استعمالها هو نحو من القرب یوجب نوعا من حق التصرف و مالكیه التدبیر.

و قد اشتمل قوله تعالی: «إِنَّمٰا وَلِیُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا» إلخ؛من السیاق علی ما یدل علی وحده ما فی معنی الولایه المذكوره فیه حیث تضمن العد فی قوله: «اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا» و أسند الجمیع الی قوله: «وَلِیُّكُمُ» و ظاهره كون الولایه فی الجمیع بمعنی واحد.

و یؤید ذلک أیضا قوله فی الآیه التالیه: «فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغالِبُونَ» حیث یشعر أو یدل علی کون المتولین جمیعا حزبا للّه لکونهم تحت ولایته؛فولایه الرسول و الذین آمنوا إنما هو من سنخ ولایه اللّه.

و قد ذکر اللّه سبحانه لنفسه من الولایه،الولایه التکوینیه التی تصحح له التصرف فی کل شیء و تدبیر أمر الخلق بما شاء و کیف شاء،قال تعالی: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیاءَ فَاللّهُ هُوَ الْوَلِیُّ (الشوری۹/)و قال ما لَکُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا شَفِیعٍ أَ فَلا تَتَذَکَّرُونَ (السجده۴/)و قال أَنْتَ وَلِیِّی فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَهِ (یوسف۱۰۱/)و قال فَما لَهُ مِنْ وَلِیٍّ مِنْ بَعْدِهِ (الشوری۴۴/)و فی معنی هذه الآیات قوله: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ (ق۱۶/)،و قوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (الأنفال۲۴/).

و ربما لحق بهذا الباب ولایه النصره التی ذکرها لنفسه فی قوله: ذلِکَ بِأَنَّ اللّهَ مَوْلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْکافِرِینَ لا مَوْلی لَهُمْ (محمد۱۱/)و قوله: فَإِنَّ اللّهَ هُوَ مَوْلاهُ (التحریم/ ۴)،و فی معنی ذلک قوله: وَ کانَ حَقًّا عَلَیْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ (الروم۴۷/).

و ذکر تعالی أیضا لنفسه الولایه علی المؤمنین فیما یرجع الی أمر دینهم من تشریع الشریعه و الهدایه و الإرشاد و التوفیق و نحو ذلک کقوله تعالی: اَللّهُ وَلِیُّ الَّذِینَ آمَنُوا یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ (البقره۲۵۷/)،و قوله: وَ اللّهُ وَلِیُّ الْمُؤْمِنِینَ (آل عمران۶۸/)، و قوله: وَ اللّهُ وَلِیُّ الْمُتَّقِینَ (الجاثیه۱۹/)،و فی هذا المعنی قوله تعالی: وَ ما کانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَهٍ إِذا قَضَی اللّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ یَکُونَ لَهُمُ الْخِیَرَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ یَعْصِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِیناً (الأحزاب۳۶/).

فهذا ما ذکره اللّه تعالی من ولایه نفسه فی کلامه،و یرجع محصلها الی ولایه التکوین و ولایه التشریع،و إن شئت سمیتها بالولایه الحقیقیه و الولایه الاعتباریه.

و قد ذکر اللّه سبحانه لنبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم من الولایه التی تخصه الولایه التشریعیه و هی القیام

بالتشریع و الدعوه و تربیه الامه و الحکم فیهم و القضاء فی أمرهم،قال تعالی: اَلنَّبِیُّ أَوْلیٰ بِالْمُؤْمِنِینَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (الأحزاب۶/)،و فی معناه قوله تعالی: إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ لِتَحْکُمَ بَیْنَ النّٰاسِ بِمٰا أَرٰاکَ اللّٰهُ (النساء۱۰۵/)،و قوله: وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (الشوری۵۲/)،و قوله: رَسُولاً مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیٰاتِهِ وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتٰابَ وَ الْحِکْمَهَ (الجمعه۲/)،و قوله: لِتُبَیِّنَ لِلنّٰاسِ مٰا نُزِّلَ إِلَیْهِمْ (النحل۴۴/)، و قوله: أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ (النساء۵۹/)،و قوله: وَ مٰا کٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَهٍ إِذٰا قَضَی اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ یَکُونَ لَهُمُ الْخِیَرَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ (الأحزاب۳۶/)،و قوله: وَ أَنِ احْکُمْ بَیْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ یَفْتِنُوکَ عَنْ بَعْضِ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ إِلَیْکَ (المائده۴۹/)،و قد تقدم أن اللّٰه لم یذکر ولایه النصره علیه للامه.

و یجمع الجمیع أن له صلّی اللّٰه علیه و آله و سلم الولایه علی الامه فی سوقهم الی اللّٰه و الحکم فیهم و القضاء علیهم فی جمیع شئونهم فله علیهم الإطاعه المطلقه فترجع ولایته صلّی اللّٰه علیه و آله و سلم الی ولایه اللّٰه سبحانه بالولایه التشریعیه،و نعنی بذلک أن له صلّی اللّٰه علیه و آله و سلم التقدم علیهم بافتراض الطاعه لأن طاعته طاعه اللّٰه،فولایته ولایه اللّٰه کما یدل علیه بعض الآیات السابقه کقوله أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ الآیه؛و قوله: وَ مٰا کٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَهٍ إِذٰا قَضَی اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً الآیه؛ و غیر ذلک.

و هذا المعنی من الولایه للّٰه و رسوله هو الذی تذکره الآیه للذین آمنوا بعطفه علی اللّٰه و رسوله فی قوله: «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا» علی ما عرفت من دلاله السیاق علی کون هذه الولایه ولایه واحده هی للّٰه سبحانه بالاصاله و لرسوله و الذین آمنوا بالتبع و بإذن منه تعالی.

و لو کانت الولایه المنسوبه الی اللّٰه تعالی فی الآیه غیر المنسوبه الی الذین آمنوا-و المقام مقام الالتباس-کان الأنسب أن تفرد ولایه اخری للمؤمنین بالذکر رفعا للالتباس کما وقع

نظیره فی نظیرها،قال تعالی: قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ لَكَمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ (التوبه/ ۶۱)،فکرر لفظ الإیمان لما کان فی کل من الموضعین لمعنی غیر الآخر،و قد تقدم نظیره فی قوله تعالی: أَطِيعُوا اللّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ (النساء۵۹/)،فی الجزء السابق علی هذا الجزء من الکتاب.

علی أن لفظ «وَلِيُّكُمُ» أتی به مفردا و قد نسب الی الذین آمنوا و هو جمع،و قد وجهه المفسرون بکون الولایه ذات معنی واحد هو للّه سبحانه علی الاصاله و لغیره بالتبع.

و قد تبین من جمیع ما مر أن القصر فی قوله: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ» الخ؛لقصر الإفراد کأن المخاطبین یظنون أن الولایه عامه للمذکورین فی الآیه و غیرهم فافرد المذکورون للقصر، و یمکن بوجه أن یحمل علی قصر القلب.

قوله تعالی: اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاٰةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ بیان للذین آمنوا المذکور سابقا،و قوله: «وَ هُمْ رٰاكِعُونَ» حال من فاعل«یؤتون»و هو العامل فیه.

و الرکوع هو الهیئه المخصوصه فی الانسان،و منه الشیخ الراکع،و یطلق فی عرف الشرع علی الهیئه المخصوصه فی العباده،قال تعالی: اَلرّٰاكِعُونَ السّٰاجِدُونَ (التوبه۱۱۲/)،و هو ممثل للخضوع و التذلل للّه،غیر أنه لم یشرع فی الإسلام فی غیر حال الصلاه بخلاف السجده.

و لکونه مشتملا علی الخضوع و التذلل ربما استعیر لمطلق التذلل و الخضوع أو الفقر و الإعسار الذی لا یخلو عاده عن التذلل للغیر.

قوله تعالی: وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغٰالِبُونَ ،التولی هو الأخذ ولیا،و «الَّذِينَ آمَنُوا» مفید للعهد و المراد به المذکور فی الآیه السابقه «وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ» الخ؛و قوله: «فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغٰالِبُونَ» واقع موقع الجزاء و لیس به بل هو من قبیل وضع الکبری موضع النتیجه للدلاله علی عله الحکم،و التقدیر:

و من یتول فهو غالب لأنه من حزب اللّه و حزب اللّه هم الغالبون،فهو من قبیل الکنایه عن أنهم حزب اللّه.

و الحزب علی ما ذکره الراغب جماعه فیها غلظ،و قد ذکر اللّه سبحانه حزبه فی موضع آخر من کلامه قریب المضمون من هذا الموضع،و وسمهم بالفلاح فقال لاٰ تَجِدُ قَوْماً یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ یُوٰادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ کٰانُوا آبٰاءَهُمْ أَوْ أَبْنٰاءَهُمْ أَوْ إِخْوٰانَهُمْ أَوْ عَشِیرَتَهُمْ أُولٰئِکَ کَتَبَ فِی قُلُوبِهِمُ الْإِیمٰانَ وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ -الی أن قال- أُولٰئِکَ حِزْبُ اللّٰهِ أَلاٰ إِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (المجادله۲۲/).

و الفلاح الظفر و إدراک البغیه التی هی الغلبه و الاستیلاء علی المراد،و هذه الغلبه و الفلاح هی التی وعدها اللّه المؤمنین فی أحسن ما وعدهم به و بشرهم بنیله،قال تعالی: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (المؤمنون۱/)،و الآیات فی ذلک کثیره،و قد اطلق اللفظ فی جمیعها،فالمراد الغلبه المطلقه و الفلاح المطلق أی الظفر بالسعاده و الفوز بالحق و الغلبه علی الشقاء، و إدحاض الباطل فی الدنیا و الآخره،أما فی الدنیا فبالحیاه الطیبه التی توجد فی مجتمع صالح من أولیاء اللّه فی أرض مطهره من أولیاء الشیطان علی تقوی و ورع،و أما فی الآخره ففی جوار رب العالمین.

بحث روائی:

فی الکافی عن علی بن إبراهیم،عن أبیه،عن ابن أبی عمیر،عن عمر بن اذینه،عن زراره؛ و الفضیل بن یسار،و بکیر بن أعین،و محمد بن مسلم،و برید بن معاویه،و أبی الجارود،جمیعا عن أبی جعفر علیه السّلام قال:أمر اللّه عزّ و جل رسوله بولایه علی و أنزل علیه «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ وَ هُمْ رٰاکِعُونَ» و فرض من ولایه اولی الأمر فلم یدروا ما هی؟فأمر اللّه محمدا صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یفسر لهم الولایه کما فسر الصلاه

و الزكاه و الصوم و الحج.

فلما أتاه ذلك من اللّه ضاق بذلك صدر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و تخوف أن يرتدوا عن دينهم و أن يكذبوه،فضاق صدره و راجع ربه عزّ و جل فأوحى اللّه عزّ و جل إليه يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ ،فصدع بأمر اللّه عز ذكره،فقام بولايه على عليه السّلام يوم غدير خم فنادى:الصلاه جامعه،و أمر الناس أن يبلغ الشاهد الغائب.

قال عمر بن اذينه:قالوا جميعا غير أبى الجارود:قال أبو جعفر عليه السّلام:و كانت الفريضه الاخرى،و كانت الولايه آخر الفرائض فأنزل اللّه عزّ و جل اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ،قال أبو جعفر عليه السّلام:يقول اللّه عزّ و جل:لا انزل عليكم بعد هذه فريضه قد أكملت لكم الفرائض.

و فى البرهان و غايه المرام عن الصدوق بإسناده عن أبى الجارود عن أبى جعفر عليه السّلام فى قول اللّه عزّ و جل «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» ،قال:إن رهطا من اليهود أسلموا منهم عبد اللّه بن سلام و أسد و ثعلبه و ابن يامين و ابن صوريا فأتوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فقالوا:يا نبى اللّه إن موسى أوصى الى يوشع بن نون،فمن وصيك يا رسول اللّه؟و من ولينا بعدك؟فنزلت هذه الآيه «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ» .

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:قوموا فقاموا و أتوا المسجد فإذا سائل خارج فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلم:يا سائل هل أعطاك أحد شيئا؟قال:نعم هذا الخاتم قال:من أعطاكه؟قال:أعطانيه ذلك الرجل الذى يصلى؛قال على أى حال أعطاك؟قال:كان راكعا فكبر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و كبر أهل المسجد.

فقال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم:على وليكم بعدى قالوا:رضينا باللّه ربا،و بمحمد نبيا،و بعلى ابن أبى

طالب وليا فأنزل اللّه عزّ و جل «وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغالِبُونَ» الحديث.

و فى تفسير القمى قال:حدثنى أبى،عن صفوان،عن أبان بن عثمان،عن أبى حمزه الثمالى، عن أبى جعفر عليه السّلام:بينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم جالس و عنده قوم من اليهود فيهم عبد اللّه بن سلام اذ نزلت عليه هذه الآيه فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم الى المسجد فاستقبله سائل فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلم:هل أعطاك أحد شيئا؟قال:نعم ذلك المصلى،فجاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فإذا هو على عليه السّلام.

أقول:و رواه العياشى فى تفسيره عنه عليه السّلام.

و فى أمالى الشيخ قال:حدثنا محمد بن محمد-يعنى المفيد-قال:حدثنى أبو الحسن على بن محمد الكاتب،قال:حدثنى الحسن بن على الزعفرانى،قال:حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفى،قال:حدثنا محمد بن على،قال:حدثنا العباس ابن عبد اللّه العنبرى،عن عبد الرحمن بن الأسود الكندى اليشكرى،عن عون بن عبيد اللّه،عن أبيه عن جده أبى رافع قال:دخلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يوما و هو نائم وحيه فى جانب البيت فكرهت أن أقتلها و اوقظ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فظننت أنه يوحى اليه فاضطجعت بينه و بين الحيه فقلت:إن كان منها سوء كان إلى دونه.

فكنت هنيئه فاستيقظ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو يقرأ «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» -حتى أتى على آخر الآيه-ثم قال:الحمد للّه الذى أتم لعلى نعمته،و هنيئا له بفضل اللّه الذى آتاه،ثم قال لى:ما لك هاهنا؟فأخبرته بخبر الحيه فقال لى:اقتلها ففعلت ثم قال لى:يا(أبا، ظ)رافع كيف أنت و قوم يقاتلون عليا و هو على الحق و هم على الباطل؟جهادهم حقا للّه عز اسمه فمن لم يستطع بقلبه،ليس وراءه شىء فقلت:يا رسول اللّه ادع اللّه لى إن أدركتهم أن يقوينى على قتالهم قال:فدعا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قال:إن لكل نبى أمينا،و إن أمينى أبو رافع.

قال:فلما بايع الناس عليا بعد عثمان،و سار طلحه و الزبير ذكرت قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فبعت

داری بالمدینه و أرضا لی بخیبر و خرجت بنفسی و ولدی مع أمیر المؤمنین علیه السّلام لأستشهد بین یدیه فلم أدرک معه حتی عاد من البصره،و خرجت معه الی صفین فقلت(فقاتلت،ظ)بین یدیه بها و بالنهروان أیضا،و لم أزل معه حتی استشهد علی علیه السّلام،فرجعت الی المدینه و لیس لی بها دار و لا أرض فأعطانی الحسن بن علی علیه السّلام أرضا بینبع،و قسم لی شطر دار أمیر المؤمنین علیه السّلام فنزلتها و عیالی.

و فی تفسیر العیاشی بإسناده عن الحسن بن زید،عن أبیه زید بن الحسن،عن جده قال:

سمعت عمار بن یاسر یقول:وقف لعلی بن أبی طالب سائل و هو راکع فی صلاه تطوّع فنزع خاتمه فأعطاه السائل فأتی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فأعلم بذلک فنزل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم هذه الآیه «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ وَ هُمْ رٰاکِعُونَ» الی آخر الآیه؛فقرأها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم علینا ثم قال:من کنت مولاه فعلی مولاه،اللهم وال من والاه،و عاد من عاداه.

و فی تفسیر العیاشی،عن المفضل بن صالح،عن بعض أصحابه،عن أحدهما علیهما السّلام قال:

قال:إنه لما نزلت هذه الآیه «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا» شق ذلک علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و خشی أن تکذبه قریش فأنزل اللّه یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ الآیه؛فقام بذلک یوم غدیر خم.

و فیه عن أبی جمیله عن بعض أصحابه عن أحدهما علیهما السّلام قال:إن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم قال:إن اللّه أوحی إلی أن أحب أربعه:علیا و أبا ذر و سلمان و المقداد،فقلت:ألا فما کان من کثره الناس أ ما کان أحد یعرف هذا الأمر؟فقال:بلی ثلاثه قلت:هذه الآیات التی أنزلت «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا» و قوله: «أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ» ما کان أحد یسأل فیمن نزلت؟فقال:من ثمّ أتاهم لم یکونوا یسألون.

و فی غایه المرام عن الصدوق بإسناده عن أبی سعید الوراق عن أبیه عن جعفر بن محمد

عن أبيه عن جده فی حديث مناشده علی عليه السّلام لأبی بكر حين ولی أبو بكر الخلافه،و ذكر عليه السّلام فضائله لأبی بكر و النصوص عليه من رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم فكان فيما قال له:فانشدك باللّه أ لی الولايه من اللّه مع ولايه رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم فی آيه زكاه الخاتم أم لك؟قال:بل لك.

و فی مجالس الشيخ بإسناده الی أبی ذر فی حديث مناشده أمير المؤمنين عليه السّلام عثمان و الزبير و عبد الرحمن بن عوف و سعد بن أبی وقاص يوم الشوری و احتجاجه عليهم بما فيه من النصوص من رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم،و الكل منهم يصدقه عليه السّلام فيما يقوله فكان مما ذكره عليه السّلام:فهل فيكم أحد آتی الزكاه و هو راكع فنزلت فيه «إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰهَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاهَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ» غيری؟قالوا:لا.

و فی الاحتجاج فی رساله أبی الحسن الثالث علی بن محمد الهادی عليه السّلام الی أهل الأهواز حين سألوه عن الجبر و التفويض:

قال عليه السّلام:اجتمعت الامه قاطبه لا اختلاف بينهم فی ذلك:أن القرآن حق لا ريب فيه عند جميع فرقها فهم فی حاله الاجتماع عليه مصيبون،و علی تصديق ما أنزل اللّه مهتدون لقول النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم«لا تجتمع امتی علی ضلاله»،فأخبر عليه السّلام:أن ما اجتمعت عليه الامه و لم يخالف بعضها بعضا هو الحق،فهذا معنی الحديث لا ما تأوله الجاهلون،و لا ما قاله المعاندون من إبطال حكم الكتاب،و اتباع أحكام الأحاديث المزوره،و الروايات المزخرفه،و اتباع الأهواء المرديه المهلكه التی تخالف نص الكتاب،و تحقيق الآيات الواضحات النيرات،و نحن نسأل اللّه أن يوفقنا للصلاه،و يهدينا الی الرشاد.

ثم قال عليه السّلام:فإذا شهد الكتاب بصدق خبر و تحقيقه فأنكرته طائفه من الامه عارضته بحديث من هذه الأحاديث المزوره،فصارت بإنكارها و دفعها الكتاب ضلالا،و أصح خبر مما عرف تحقيقه من الكتاب مثل الخبر المجمع عليه من رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم قال«إنی مستخلف فيكم خليفتين كتاب اللّه و عترتی.ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدی و إنهما لن يفترقا حتی يردا

على الحوض»و اللفظه الاخرى عنه فى هذا المعنى بعينه قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم«إنى تارك فيكم الثقلين:

كتاب اللّه و عترتى أهل بيتى،و إنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض،ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا».

وجدنا شواهد هذا الحديث نصا فى كتاب اللّه مثل قوله: «إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ» .ثم اتفقت روايات العلماء فى ذلك لأمير المؤمنين عليه السّلام:أنه تصدق بخاتمه و هو راكع فشكر اللّه ذلك له،و أنزل الآيه فيه.ثم وجدنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قد أبانه من أصحابه بهذه اللفظه«من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه»و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم«على يقضى دينى،و ينجز موعدى،و هو خليفتى عليكم بعدى»و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم حين استخلفه على المدينه فقال:يا رسول اللّه:أ تخلفنى على النساء و الصبيان؟فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلم:أ ما ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى؟

فعلمنا أن الكتاب شهد بتصديق هذه الأخبار،و تحقيق هذه الشواهد فيلزم الامه الإقرار بها اذا كانت هذه الأخبار وافقت القرآن فلما وجدنا ذلك موافقا لكتاب اللّه،و وجدنا كتاب اللّه موافقا لهذه الأخبار،و عليها دليلا كان الاقتداء فرضا لا يتعداه إلا أهل العناد و الفساد.

و فى الاحتجاج فى حديث عن أمير المؤمنين عليه السّلام:قال المنافقون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:هل بقى لربك علينا بعد الذى فرض علينا شىء آخر يفترضه فتذكر فتسكن أنفسنا الى أنه لم يبق غيره؟فأنزل اللّه فى ذلك قُلْ إِنَّمٰا أَعِظُكُمْ بِوٰاحِدَةٍ يعنى الولايه فانزل اللّه «إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ» ،و ليس بين الامه خلاف أنه لم يؤت الزكاه يومئذ و هو راكع غير رجل واحد،الحديث.

و فى الاختصاص للمفيد عن أحمد بن محمد بن عيسى،عن القاسم بن محمد الجوهرى،عن

الحسن بن أبى العلاء قال:قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام:الأوصياء طاعتهم مفترضه؟فقال:نعم،هم الذين قال اللّه «أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» و هم الذين قال اللّه «إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ» .

اقول:و رواه فى الكافى عن الحسين بن أبى العلاء عنه عليه السّلام،و روى ما فى معناه عن أحمد بن عيسى عنه عليه السّلام.

و إسناد نزول ما نزل فى على عليه السّلام الى جميع الأئمه عليهم السّلام لكونهم أهل بيت واحد،و أمرهم واحد.

و عن تفسير الثعلبى أخبرنا أبو الحسن محمد بن القاسم الفقيه قال:حدثنا عبد اللّه ابن أحمد الشعرانى قال:أخبرنا أبو على أحمد بن على بن رزين قال:حدثنا المظفر بن الحسن الأنصارى قال:حدثنا السرى بن على الوراق قال:حدثنا يحيى بن عبد الحميد الجمانى عن قيس بن الربيع عن الأعمش،عن عبايه بن الربعى قال:حدثنا عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنه و هو جالس بشفير زمزم يقول:قال رسول اللّه:اذ أقبل رجل معتم بعمامه فجعل ابن عباس لا يقول«قال رسول اللّه»إلا و قال الرجل:قال رسول اللّه.

فقال له ابن عباس:سألتك باللّه من أنت؟قال:فكشف العمامه عن وجهه و قال:يا أيها الناس من عرفينى فقد عرفنى و من لم يعرفنى فأنا جندب بن جناده البدرى أبو ذر الغفارى سمعت رسول اللّه بهاتين و إلا فصمتا،و رأيته بهاتين و إلا فعميتا يقول:على قائد البرره و قاتل الكفره،منصور من نصره،مخذول من خذله.

أما إنى صليت مع رسول اللّه يوما من الأيام صلاه الظهر فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده الى السماء و قال:اللهم اشهد أنى سألت فى مسجد رسول اللّه فلم يعطنى أحد شيئا،و كان على راكعا فأومأ اليه بخنصره اليمنى،و كان يتختم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره،و ذلك بعين النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فلما فرغ من صلاته رفع رأسه الى السماء

و قال:اللهم موسی سألک فقال:رب اشرح لی صدری،و یسر لی أمری،و احلل عقده من لسانی یفقهوا قولی،و اجعل لی وزیرا من أهلی هارون أخی،اشدد به أزری،و أشرکه فی أمری.فأنزلت علیه قرآنا ناطقا:سنشد عضدک بأخیک،و نجعل لکما سلطانا فلا یصلون إلیکما بآیاتنا.

اللهم و أنا محمد نبیک و صفیک،اللهم و اشرح لی صدری و یسر لی أمری،و اجعل لی وزیرا من أهلی علیا اشدد به ظهری.

قال أبو ذر:فما استتم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم الکلمه حتی نزل علیه جبرئیل من عند اللّه تعالی فقال:یا محمد اقرأ قال:و ما أقرأ قال:قال:اقرأ:إنما ولیکم اللّه و رسوله و الذین آمنوا الذین یقیمون الصلاه و یؤتون الزکاه و هم راکعون.

و عن الجمع بین الصحاح السته لزرین من الجزء الثالث فی تفسیر سوره المائده قوله تعالی:

«إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ» الآیه؛من صحیح النسائی عن ابن سلام:قال أتیت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فقلنا:إن قومنا حادونا لما صدقنا اللّه و رسوله،و أقسموا أن لا یکلموننا فأنزل اللّه تعالی «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ وَ هُمْ رٰاکِعُونَ» الآیه.

ثم أذن بلال لصلاه الظهر فقام الناس یصلون فمن بین ساجد و راکع و سائل اذ سائل یسأل، و أعطی علی خاتمه و هو راکع فاخبر السائل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فقرأ علینا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ وَ هُمْ رٰاکِعُونَ* وَ مَنْ یَتَوَلَّ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْغٰالِبُونَ» .

و عن مناقب ابن المغازلی الشافعی فی تفسیر قوله تعالی: «إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ» الآیه؛ قال:أخبرنا محمد بن أحمد بن عثمان قال:أخبرنا أبو بکر أحمد بن ابراهیم بن شاذان البزاز إذنا قال:حدثنا الحسن بن علی العدوی قال:حدثنا سلمه ابن شبیب قال:حدثنا عبد الرزاق

قال:أخبرنا مجاهد عن ابن عباس فی قوله تعالی: «إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ» قال:نزلت فی علی.

و عنه قال:أخبرنا أحمد بن محمد بن طاوان قال:أخبرنا أبو أحمد عمر بن عبد اللّه بن شوذب قال:حدثنا محمد بن أحمد العسکری الدقائق قال:حدّثنا محمد بن عثمان بن أبی شیبه قال:حدثنا عباده قال:حدثنا عمر بن ثابت عن محمد بن السائب عن أبی صالح،عن ابن عباس قال:کان علی راکعا فجاءه مسکین فأعطاه خاتمه فقال رسول اللّه:من أعطاک هذا؟ فقال:أعطانی هذا الراکع فأنزل اللّه هذه الآیه «إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» الی آخر الآیه.

و عنه قال:حدثنا أحمد بن محمد بن طاوان إذنا:أن أبا أحمد عمر بن عبد اللّه بن شوذب أخبرهم قال:حدثنا محمد بن جعفر بن محمد العسکری قال:حدثنا محمد بن عثمان قال:

حدثنا إبراهیم بن محمد بن میمون قال:حدثنا علی بن عابس قال:دخلت أنا و أبو مریم علی عبد اللّه بن عطاء،قال أبو مریم:حدث علیا بالحدیث الذی حدثتنی عن أبی جعفر،قال:کنت عند أبی جعفر جالسا اذ مر علیه ابن عبد اللّه بن سلام قلت:جعلنی اللّه فداک،هذا ابن الذی عنده علم الکتاب؟قال:لا و لکنه صاحبکم علی بن أبی طالب الذی أنزلت فیه آیات من کتاب اللّه عزّ و جل «وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ، أَ فَمَنْ كٰانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ، إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» الآیه.

و عن الخطیب الخوارزمی فی جواب مکاتبه معاویه الی عمرو بن العاص قال عمرو بن العاص:لقد علمت یا معاویه ما أنزل فی کتابه من الآیات المتلوات فی فضائله التی لا یشرکه فیها أحد کقوله تعالی: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ،إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ، أَ فَمَنْ كٰانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ» ، و قد قال اللّه تعالی: رِجٰالٌ صَدَقُوا مٰا عٰاهَدُوا اللّٰهَ و قد قال اللّه تعالی لرسوله قُلْ لاٰ

أَسْئَلُکَمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبی .

و عنه بإسناده الی أبی صالح عن ابن عباس قال:أقبل عبد اللّه بن سلام و معه نفر من قومه ممن قد آمن بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فقالوا:یا رسول اللّه إن منازلنا بعیده،و لیس لنا مجلس و لا متحدث دون هذا المجلس،و إن قومنا لما رأونا قد آمنا باللّه و رسوله و قد صدقناه رفضونا،و آلوا علی أنفسهم أن لا یجالسونا و لا یناکحونا و لا یکلمونا،و قد شق ذلک علینا فقال لهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم «إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاهَ وَ هُمْ راکِعُونَ» .

ثم إن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم خرج الی المسجد و الناس بین قائم و راکع،و بصر بسائل،فقال له النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم:هل أعطاک أحد شیئا؟قال:نعم خاتم من ذهب،فقال له النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم:من أعطاکه؟فقال:ذلک القائم-و أومأ بیده الی علی بن أبی طالب-فقال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم:علی أی حال أعطاک؟قال:أعطانی و هو راکع،فکبر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم ثم قرأ «وَ مَنْ یَتَوَلَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغالِبُونَ» فأنشأ حسان بن ثابت یقول:

أبا حسن تفدیک نفسی و مهجتی

و کل بطیء فی الهدی و مسارع

أ یذهب مدحی و المحبین ضائعا

و ما المدح فی ذات الإله بضائع؟

فأنت الذی أعطیت اذ کنت راکعا

فدتک نفوس القوم یا خیر راکع

بخاتمک المیمون یا خیر سید

و یا خیر شار ثم یا خیر بائع

فأنزل فیک اللّه خیر ولایه

و بیّنها فی محکمات الشرائع

و عن الحموینی بإسناده الی أبی هدبه إبراهیم بن هدبه قال:نبأنا أنس بن مالک:أن سائلا أتی المسجد و هو یقول:من یقرض الملی الوفی؟و علی راکع یقول بیده خلفه للسائل:أن اخلع الخاتم من یدی،قال:فقال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم:یا عمر وجبت،قال:بأبی و امی یا رسول اللّه ما وجبت؟قال صلّی اللّه علیه و آله و سلم:وجبت له الجنه،و اللّه ما خلعه من یده حتی خلعه من کل ذنب و من کل خطیئه.

و عنه بإسناده عن زيد بن على بن الحسين عن أبيه عن جده قال:سمعت عمار بن ياسر -رضى اللّه عنه-يقول:وقف لعلى بن أبى طالب سائل و هو راكع فى صلاه التطوع فنزع خاتمه و أعطاه السائل،فأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فأعلمه ذلك،فنزلت على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم هذه الآيه «إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ» فقرأها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم،ثم قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم:من كنت مولاه فعلى مولاه.

و عن الحافظ أبى نعيم عن أبى الزبير عن جابر-رضى اللّه عنه-قال:جاء عبد اللّه بن سلام و أتى معه قوم يشكون مجانبه الناس إياهم منذ أسلموا فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:ابغوا إلى سائلا فدخلنا المسجد فدنا سائل اليه فقال له:أعطاك أحد شيئا؟قال:نعم مررت برجل راكع فأعطانى خاتمه،قال:فاذهب فأرنى قال:فذهبنا فإذا على قائم،فقال:هذا؛فنزلت «إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ» .

و عنه عن موسى بن قيس الحضرمى عن سلمه بن كهيل قال:تصدق على بخاتمه و هو راكع فنزلت! «إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ» الآيه.

و عنه عن عوف بن عبيد بن أبى رافع عن أبيه عن جده قال:دخلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو نائم اذ يوحى اليه و اذا حيه فى جنب البيت فكرهت أن أدخلها و اوقظه فاضطجعت بينه و بين الحيه فإن كان شىء كان فى دونه،فاستيقظ و هو يتلو هذه الآيه «إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ» قال:الحمد للّه فأتى الى جانبى فقال:ما اضطجعت هاهنا؟قلت:لمكان هذه الحيه قال:قم إليها فاقتلها فقتلتها.

ثم أخذ بيدى فقال:يا أبا رافع سيكون بعدى قوم يقاتلون عليا حق على اللّه جهادهم،فمن لم يستطع جهادهم بيده فبلسانه،فمن لم يستطع بلسانه فبقلبه ليس وراء ذلك.

أقول:و الروايات فى نزول الآيتين فى قصه التصدق بالخاتم كثيره أخرجنا عده منها من كتاب غايه المرام للبحرانى،و هى موجوده فى الكتب المنقول عنها،و قد اقتصرنا على ما نقل

عليه من اختلاف اللحن فی سرد القصه.

و قد اشترک فی نقلها عده من الصحابه کأبی ذر و ابن عباس و انس بن مالک و عمار و جابر و سلمه بن کهیل و أبی رافع و عمرو بن العاص،و علی و الحسین و کذا السجاد و الباقر و الصادق و الهادی و غیرهم من أئمه أهل البیت علیهم السّلام.

و قد اتفق علی نقلها من غیر رد أئمه التفسیر المأثور کأحمد و النسائی و الطبری و الطبرانی و عبد بن حمید و غیرهم من الحفاظ و أئمه الحدیث و قد تسلم ورود الروایه المتکلمون، و أوردها الفقهاء فی مسأله الفعل الکثیر من بحث الصلاه،و فی مسأله«هل تسمی صدقه التطوع زکاه»و لم یناقش فی صحه انطباق الآیه علی الروایه فحول الأدب من المفسرین کالزمخشری فی الکشاف و أبی حیان فی تفسیره،و لا الرواه النقله و هم أهل اللسان.

فلا یعبأ بما ذکره بعضهم:أن حدیث نزول الآیه فی قصه الخاتم موضوع مختلق،و قد أفرط بعضهم کشیخ الإسلام ابن تیمیه فادعی إجماع العلماء علی کون الروایه موضوع؟و هی من عجیب الدعاوی،و قد عرفت ما هو الحق فی المقام فی البیان المتقدم.

[سوره المائده (۵): الآیات ۵۷ الی ۶۶]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا اَلَّذِینَ اِتَّخَذُوا دِینَکُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ اَلْکُفّٰارَ أَوْلِیٰاءَ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۵۷) وَ إِذٰا نٰادَیْتُمْ إِلَی اَلصَّلاٰهِ اِتَّخَذُوهٰا هُزُواً وَ لَعِباً ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ یَعْقِلُونَ (۵۸) قُلْ یٰا أَهْلَ اَلْکِتٰابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّٰا إِلاّٰ أَنْ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْنٰا وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَکْثَرَکُمْ فٰاسِقُونَ (۵۹) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُکُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِکَ مَثُوبَهً عِنْدَ اَللّٰهِ مَنْ لَعَنَهُ اَللّٰهُ وَ غَضِبَ عَلَیْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ اَلْقِرَدَهَ وَ اَلْخَنٰازِیرَ وَ عَبَدَ اَلطّٰاغُوتَ أُولٰئِکَ شَرٌّ مَکٰاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَوٰاءِ اَلسَّبِیلِ (۶۰) وَ إِذٰا جٰاؤُکُمْ قٰالُوا آمَنّٰا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْکُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا کٰانُوا یَکْتُمُونَ (۶۱) وَ تَریٰ کَثِیراً مِنْهُمْ یُسٰارِعُونَ فِی اَلْإِثْمِ وَ اَلْعُدْوٰانِ وَ أَکْلِهِمُ اَلسُّحْتَ لَبِئْسَ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۶۲) لَوْ لاٰ یَنْهٰاهُمُ اَلرَّبّٰانِیُّونَ وَ اَلْأَحْبٰارُ عَنْ قَوْلِهِمُ اَلْإِثْمَ وَ أَکْلِهِمُ اَلسُّحْتَ لَبِئْسَ مٰا کٰانُوا یَصْنَعُونَ (۶۳) وَ قٰالَتِ اَلْیَهُودُ یَدُ اَللّٰهِ مَغْلُولَهٌ غُلَّتْ أَیْدِیهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا بَلْ یَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ یُنْفِقُ کَیْفَ یَشٰاءُ وَ لَیَزِیدَنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ طُغْیٰاناً وَ کُفْراً وَ أَلْقَیْنٰا بَیْنَهُمُ اَلْعَدٰاوَهَ وَ اَلْبَغْضٰاءَ إِلیٰ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ کُلَّمٰا أَوْقَدُوا نٰاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اَللّٰهُ وَ یَسْعَوْنَ فِی اَلْأَرْضِ فَسٰاداً وَ اَللّٰهُ لاٰ یُحِبُّ اَلْمُفْسِدِینَ (۶۴) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ اَلْکِتٰابِ آمَنُوا وَ اِتَّقَوْا لَکَفَّرْنٰا عَنْهُمْ سَیِّئٰاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْنٰاهُمْ جَنّٰاتِ اَلنَّعِیمِ (۶۵) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقٰامُوا اَلتَّوْرٰاهَ وَ اَلْإِنْجِیلَ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَکَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّهٌ مُقْتَصِدَهٌ وَ کَثِیرٌ مِنْهُمْ سٰاءَ مٰا یَعْمَلُونَ (۶۶)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ الخ؛قال الراغب:الهزؤ مزح فى خفيه،و قد يقال لما هو كالمزح(انتهى)،و قال:و لعب فلان اذا كان فعله غير قاصد به مقصدا صحيحا،يلعب لعبا،(انتهى)،و إنما يتخذ الشىء هزؤا و يستهزئ به اذا اتخذ على وصف لا يعتنى بأمره اعتنا جد لإظهار أنه مما لا ينبغى أن يلتفت اليه،و كذا الشيء يلعب به اذا كان مما لا يتخذ لواحد من الأغراض الصحيحه العقلائيه إلا أن يتخذ لبعض الشئون غير الحقيقه فالهزء بالدين و اللعب به إنما هما لإظهار انه لا يعدل إلا بعض الأغراض الباطله غير الصحيحه و غير الجديه،و لو قدروه دينا حقا أو قدروا أن مشرّعه و الداعى اليه و المؤمنين به ذووا أقدام جد و صدق،و احترموا له و لهم مكانهم لما وضعوه ذاك الموضع فاتخاذهم الذين هزؤا و لعبا قضاء منهم بأن ليس له من الواقعيه و المكانه الحقيقيه شيء إلا أن يؤخذ به ليمزح به أو ليلعب به لعبا.

و من هنا يظهر اولا:أن ذكر اتخاذهم الدين هزؤا و لعبا فى وصف من نهى عن ولايتهم إنما هو للإشاره الى عله النهى فإن الولايه التى من لوازمها الامتزاج الروحى و التصرف فى الشئون النفسيه و الاجتماعيه لا يلائم استهزاء الولى و لعبه بما يقدسه وليه و يحترمه و يراه أعز من كل شيء حتى من نفسه فمن الواجب أن لا يتخذ من هذا شأنه وليا،و لا يلقى أزمه التصرف فى الروح و الجسم اليه.

و ثانيا:ما فى اتخاذ وصف الإيمان فى الخطاب فى قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» من المناسبه لمقابلته بقوله «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً» و كذلك ما فى إضافه الدين اليهم فى قوله:

«دِينَكُمْ» .

و ثالثا:أن قوله: «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» بمنزله التأكيد لقوله: لاٰ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا

دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً» الخ؛بتكراره بلفظ أعم و أشمل فإن المؤمن و هو الآخذ بعروه الإيمان لا معنى لأن يرضى بالهزء و اللعب بما آمن به فهؤلاء إن كانوا متلبسين بالإيمان-أى كان الدين لهم دينا-لم يكن لهم بد من تقوى اللّه فى أمرهم أى عدم اتخاذهم أولياء.

و من المحتمل أن يكون قوله: «وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» إشاره الى ما ذكره تعالى من نحو قوله قبيل آيات: «وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» و المعنى:و اتقوا اللّه فى اتخاذهم أولياء إن لم تكونوا منهم،و المعنى الأول لعله أظهر.

قوله تعالى: وَ إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاهِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً الخ؛تحقيق لما ذكر أنهم يتخذون دين الذين آمنوا هزوا و لعبا،و المراد بالنداء الى الصلاه الأذان المشروع فى الإسلام قبل الصلوات المفروضه اليوميه،و لم يذكر الأذان فى القرآن الكريم إلا فى هذا الموضع -كما قيل-.

و الضمير فى قوله: «اتَّخَذُوها» راجع الى الصلاه أو الى المصدر المفهوم من قوله: «إِذا نادَيْتُمْ» أعنى المناداه،و يجوز فى الضمير العائد الى المصدر التذكير و التأنيث،و قوله: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ» تذييل يجرى مجرى الجواب عن فعلهم و بيان أن صدور هذا الفعل أعنى اتخاذ الصلاه أو الأذان هزوا و لعبا منهم إنما هو لكونهم قوما لا يعقلون فلا يسعهم أن يتحققوا ما فى هذه الأركان و الأعمال العباديه الدينيه من حقيقه العبوديه و فوائد القرب من اللّه،و جماع سعاده الحياه فى الدنيا و العقبى.

قوله تعالى: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّا إِلاّ أَنْ آمَنّا بِاللّهِ الى آخر الآيه؛قال الراغب فى مفردات القرآن:نقمت الشىء(بالكسر)و نقمته(بالفتح)اذا أنكرته إما باللسان و إما بالعقوبه،قال تعالى: «وَ ما نَقَمُوا إِلاّ أَنْ أَغْناهُمُ اللّهُ، وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللّهِ، هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّا» الآيه؛و النقمه:العقوبه قال تعالى: «فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ» ،انتهى.

فمعنى قوله: «هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّا إِلاّ أَنْ آمَنّا» الـخ؛هل تنكرون أو تكرهون منا إلا هـذا الذى تشاهدونه و هو أنا آمنا باللّه و ما أنزله و أنكم فاسـقون؟نظير قول القائـل:هـل تكره منى الاـ أنى عفيف و أنـك فـاجر،و هـل تنكر منى إلا أنى غنى و أنك فقير؟الى غير ذلك من موارد المقابله و الازدواج فالمعنى:هل تنكرون منا إلا أنا مؤمنون و أن أكثركم فاسقون.

و ربما قيل:إن قوله: «وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ» بتقديم لام التعليل و المعنى:هل تنقمون منا إلا لأن أكثركم فاسقون؟

و قوله: أَنْ آمَنّا بِاللّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ فى معنى ما انزل الينا و اليكم،و لم ينسـبه اليهم تعريضا بهم كأنهم اذا لم يفوا بما عاهدوا اللّه عليه و لم يعملوا بما تأمرهم به كتبهم فكتبهم لم تنزل اليهم و ليسوا بأهلها.

و محصل المعنى:أنا لا نفرق بين كتاب و كتاب مما أنزله اللّه على رسـله فلا نفرق بين رسله، و فيه تعريض لهم أنهم يفرقون بين رسـل اللّه و يقولون:نؤمن ببعض و نكفر ببعض كمـا كـانوا يقولون:آمنوا بمـا أنزل على المؤمنين وجه النهـار و اكفروا آخره،قال تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيـدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيـدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً* أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (النساء۱۵۱/).

قوله تعـالى: قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللّهُ الى آخر الآيه؛ذكروا أن هـذا أمر منه تعالى لنبيه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم أن يخاطب اولئك المسـتهزئين اللاعبين بالدين على طريق التسـليم أخذا بالنصـفه فى التكليم ليلزمهم أنهم إن نقموا من المؤمنين إيمانهم باللّه و ما أنزله على رسله فعليهم أن ينقموا أنفسهم لأنهم شر مكانا و أضل عن سواء السبيل لابتلائهم باللعن الإلهى و المسـخ بالقرده و الخنازير و عباده الطاغوت فإذا لم ينقموا أنفسـهم على ما فيهم من أسـباب النقمه فليس لهم أن ينقموا من لم يبتل إلا بما هو دونه فى الشر،و هم

المؤمنون فی ایمانهم علی تقدیر تسلیم أن یکون إیمانهم علی تقدیر تسلیم أن یکون إیمانهم باللّه و کتبه شرا،و لن یکون شرا.

فالمراد بالمثوبه مطلق الجزاء،و لعلها استعیرت للعاقبه و الصفه اللازمه کما یستفاد من تقیید قوله: «بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِکَ مَثُوبَةً» بقوله «عِنْدَ اللّٰهِ» فإن الذی عند اللّه هو أمر ثابت غیر متغیر و قد حکم به اللّه و أمر به،قال تعالی: وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ بٰاقٍ (النحل/٩۶)،و قال تعالی: لاٰ مُعَقِّبَ لِحُکْمِهِ (الرعد/۴١)،فهذه المثوبه مثوبه لازمه لکونه عند اللّه سبحانه.

و فی الکلام شبه قلب،فإن مقتضی استواء الکلام أن یقال:إن اللعن و المسخ و عباده الطاغوت شر من الإیمان باللّه و کتبه و أشد ضلالا،دون ان یقال:إن من لعنه اللّه و جعل منهم القرده و الخنازیر و عبد الطاغوت شر مکانا و أضل إلا بوضع الموصوف مکان الوصف،و هو شائع فی القرآن الکریم کقوله تعالی: «وَ لٰکِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ» الآیه.

و بالجمله فمحصل المعنی أن إیماننا باللّه و ما أنزله علی رسله إن کان شرا عندکم فأنا اخبرکم بشر من دلک یجب علیکم أن تنقموه و هو النعت الذی فیکم.

و ربما قیل:إن الإشاره بقوله«ذلک»الی جمع المؤمنین المدلول علیه بقوله «هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّٰا» و علی هذا فالکلام علی استوائه من غیر قلب،و المعنی هل انبئکم بمن هو شر من المؤمنین لتنقموهم؟و هم أنتم أنفسکم،و قد ابتلیتم باللعن و المسخ و عباده الطاغوت.

و ربما قیل:إن قوله: «مِنْ ذٰلِکَ» إشاره الی المصدر المدلول علیه بقوله «هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّٰا» أی هل أنبئکم بشر من نقمتکم هذه مثوبه و جزاء؟هو ما ابتلیتم به من اللعن و المسخ و غیر ذلک.

قوله تعالی: وَ إِذٰا جٰاؤُکُمْ قٰالُوا آمَنّٰا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْکُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ الی آخر الآیه؛یشیر تعالی الی نفاق قلوبهم و إضمارهم ما لا یرتضیه اللّه سبحانه فی لقائهم المؤمنین فقال:و اذا جاؤکم قالوا آمنا أی أظهروا الإیمان و الحال أنهم قد دخلوا علیکم

مع الكفر و قد خرجوا من عندكم بالكفر أى هم على حاله واحده عند الدخول و الخروج و هو الكفر لم يتغير عنه و إنما يظهرون الإيمان إظهارا،و الحال أن اللّه يعلم ما كانوا يكتمونه سابقا من الغدر و المكر.

فقوله «وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ» فى معنى قولنا:لم يتغير حالهم فى الكفر، و الضمير فى قوله: «هُمْ قَدْ خَرَجُوا» جىء به للتأكيد،و إفاده تمييزهم فى الأمر و تثبيت الكفر فيهم.

و ربما قيل:إن المعنى أنهم متحولون فى أحوال الكفر المختلفه.

قوله تعالى: وَ تَرىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسٰارِعُونَ فِى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ الى آخر الآيه؛الظاهر أن المراد بالإثم هو الخوض فى آيات الدين النازله على المؤمنين و القول فى معارف الدين بما يوجب الكفر و الفسوق على ما يشهد به ما فى الآيه التاليه من قوله: «عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ» .

و على هذا فالامور الثلاثه أعنى الإثم و العدوان و أكل السحت تستوعب نماذج من فسوقهم فى القول و الفعل،فهم يقترفون الذنب فى القول و هو الإثم القولى،و الذنب فى الفعل و هو إما فيما بينهم و بين المؤمنين و هو التعدى عليهم،و إما عند أنفسهم كأكلهم السحت،و هو الربا و الرشوه و نحو ذلك ثم ذم ذلك منهم بقوله «لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ» ثم أتبعه بتوبيخ الربانيين و الأحبار فى سكوتهم عنهم و عدم نهيهم عن ارتكاب هذه الموبقات من الآثام و المعاصى و هم عالمون بأنها معاص و ذنوب فقال «لَوْ لاٰ يَنْهٰاهُمُ الرَّبّٰانِيُّونَ وَ الْأَحْبٰارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَصْنَعُونَ» .

و ربما أمكن أن يستفاد من قوله: «عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ» عند تطبيقه على ما فى الآيه السابقه «يُسٰارِعُونَ فِى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ» حيث ترك العدوان فى الآيه الثانيه أن الإثم و العدوان شىء واحد،و هو تعدى حدود اللّه سبحانه قولا تجاه المعصيه الفعليه

ص: ۱۵۱

التی انموذجها أکلهم السحت.

فیکون المراد بقوله «یُسٰارِعُونَ فِی الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ وَ أَکْلِهِمُ السُّحْتَ» إراءه سیئه قولیه منهم و هی الإثم و العدوان،و سیئه اخری فعلیه منهم و هی أکلهم السحت.

و المسارعه مبالغه فی معنی السرعه و هی ضد البطیء،و الفرق بین السرعه و العجله علی ما یستفاد من موارد استعمال الکلمتین أن السرعه أمس بعمل الأعضاء و العجله بعمل القلب، نظیر الفرق بین الخضوع و الخشوع،و الخوف و الخشیه،قال الراغب فی المفردات:السرعه ضد البطیء،و یستعمل فی الأجسام و الأفعال،یقال:سرع(بضم الراء)فهو سریع و أسرع فهو مسرع،و أسرعوا صارت إلیهم سراعا نحو أبلدوا،و سارعوا و تسارعوا،انتهی.

قوله تعالی: وَ قٰالَتِ الْیَهُودُ یَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَهٌ غُلَّتْ أَیْدِیهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا بَلْ یَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ یُنْفِقُ کَیْفَ یَشٰاءُ کانت الیهود لا تری جواز النسخ فی الأحکام الدینیه،و لذا کانت لا تقبل بنسخ التوراه و تعیر المسلمین بنسخ الأحکام،و کذا کانت لا تری جواز البداء فی القضایا التکوینیه علی ما یتراءی من خلال الآیات القرآنیه کما تقدم الکلام فیه فی تفسیر قوله تعالی: مٰا نَنْسَخْ مِنْ آیَهٍ أَوْ نُنْسِهٰا نَأْتِ بِخَیْرٍ مِنْهٰا أَوْ مِثْلِهٰا الآیه (البقره/١٠۶)فی الجزء الأول من هذا الکتاب و فی موارد أخر.

و الآیه أعنی قوله تعالی: «وَ قٰالَتِ الْیَهُودُ یَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَهٌ» تقبل الانطباق علی قولهم هذا غیر أن ظاهر قوله تعالی جوابا عنهم: «بَلْ یَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ یُنْفِقُ کَیْفَ یَشٰاءُ» یأبی عن ذلک، و یدل علی أنهم إنما تکلموا بهذه الکلمه الأثیمه فی شیء من أمر الرزق إما فی خصوص المؤمنین لما فی عامتهم من الفقر الشامل و العسره و ضیق المعیشه،و أنهم إنما قالوا هذا القول استهزاء باللّٰه سبحانه إیماء الی أنه لا یقدر علی إغناء عباده المؤمنین به و إنجائهم من الفقر و المذله،لکن هذا الوجه لا یناسب وقوع الآیه فی سوره المائده إن کانت نازله فی مطاوی سائر آیاتها فإن المسلمین کانوا یوم نزولها علی خصب من العیش وسعه من الرزق و رفاهیه من

الحال.

و إما أنهم إنما تفوهوا بذلك لما سمعوا أمثال قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً (البقره۲۴۵/)،و قوله تعالی: وَ أَقْرِضُوا اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً (المزمل۲۰/)،فقالوا:

ید اللّه مغلوله لا یقدر علی تحصیل ما ینفق فی حوائجه لترویج دینه و إحیاء دعوته.و قد قالوا ذلک سخریه و استهزاء علی ما یظهر من بعض آخر مما ورد فی أسباب النزول،و هذا الوجه أقرب الی النظر.

و کیف کان فهذه النسبه أعنی نسبه غل الید و المغلوبیه عند بعض الحوادث مما لا یأباه تعلیمهم الدینی و الآراء الموجده فی التوراه؛فالتوراه تجوز أن یکون الامور معجزا للّه سبحانه و صادا مانعا له من إنفاذ بعض ما یریده من مقاصده کالأقویاء من الانسان،یشهد بذلک ما تقصه من قصص الأنبیاء کآدم و غیره.

فعندهم من وجوه الاعتقاد ما یبیح لهم أن ینسبوا إلیه تعالی ما لا یناسب ساحه قدسه و کبریاء ذاته جلت عظمته و إن کانت الکلمه إنما صدرت منهم استهزاء فإن لکل فعل مبادئ فی الاعتقاد ینبعث إلیه الانسان منا و یتجرأ بها.

و أما قوله: «غُلَّتْ أَیْدِیهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا» فهو دعاء علیهم بعذاب مشابه لما نسبوا الیه تعالی من النقص غیر المناسب لساحه قدسه،و هو مغلولیه الید و انسلاب القدره علی ما یحبه و یشاؤه،و علی هذا فقوله «وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا» عطف تفسیر علی قوله: «غُلَّتْ أَیْدِیهِمْ» فإن مغلولیه أیدیهم مصداق لعنه اللّه علیهم اذ القول من اللّه سبحانه فعل،و لعنه تعالی أحدا إنما هو تعذیبه بعذاب إما دنیوی أو أخروی فاللعن هو العذاب المساوی لغل أیدیهم أو الأعم منه و من غیره.

و أما قوله: بَلْ یَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ یُنْفِقُ کَیْفَ یَشٰاءُ فهو جواب عن قولهم «یَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَهٌ» مضروب فی قالب الإضراب.

و الجمله أعنی قوله: «يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ» کنایه عن ثبوت القدره،و هو شائع فی الاستعمال.

و إنما قیل «يَدٰاهُ» بصیغه التثنیه مع کون الیهود إنما أتوا فی قولهم «يَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَةٌ» بصیغه الإفراد لیدل علی کمال القدره کما ربما یستفاد من نحو قوله تعالی: قٰالَ يٰا إِبْلِيسُ مٰا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰالِينَ (ص/۷۵)لما فیه من الإشعار أو الدلاله علی إعمال کمال القدره،و نحو قولهم«لا یدین بهالک»فإن ذلک مبالغه فی نفی کل قدره و نعمه.

و ربما ذکروا للید معانی مختلفه فی اللغه غیر الجارحه کالقدره و القوه و النعمه و الملک و غیر ذلک،لکن الحق أن اللفظه موضوعه فی الأصل للجارحه،و إنما استعملت فی غیرها من المعانی علی نحو الاستعاره لکونها من الشئون المنتسبه الی الجارحه نوعا من الانتساب کانتساب الإنفاق و الجود الی الید من حیث بسطها،و انتساب الملک إلیها من حیث التصرف و الوضع و الرفع و غیر ذلک.

فما یثبته الکتاب و السنه للّه سبحانه من الید یختلف معناه باختلاف الموارد کقوله تعالی:

«بَلْ يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ» الآیه؛و قوله: أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ (ص/۷۵)یراد به القدره و کمالها،و قوله: بِيَدِكَ الْخَيْرُ (آل عمران/۲۶)،و قوله: فَسُبْحٰانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (یس/۸۳)،و قوله: تَبٰارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ (الملک/۱)،الی غیر ذلک یراد بها الملک و السلطه،و قوله: لاٰ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ (الحجرات/۱) یراد بها الحضور و نحوه.

و أما قوله: «يُنْفِقُ كَيْفَ يَشٰاءُ» فهو بیان لقوله «يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ» .

قوله تعالی: وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيٰاناً وَ كُفْراً هذه الجمله و ما یتولها الی آخر الآیه کلام مسرود لتوضیح قوله: «وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَةٌ

غُلَّتْ أَیْدِیهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا» علی ما یعطیه السیاق.

فأما قوله: «وَ لَیَزِیدَنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ» الخ؛فیشیر الی أن اجتراءهم علی اللّه العظیم و تفوههم بمثل قولهم «یَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَةٌ» لیس من المستبعد منهم فإن القوم متلبسون بالاعتداء و الکفر من قدیم أیامهم،و قد أورثهم ذلک البغی و الحسد،و لا یؤمن من هذه سجیته اذا رأی أن اللّه فضل غیره علیه بما لا یقدر قدره من النعمه أن یزداد طغیانا و کفرا (۱).

قوله تعالی: وَ أَلْقَیْنٰا بَیْنَهُمُ الْعَدٰاوَةَ وَ الْبَغْضٰاءَ إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَةِ ضمیر بینهم راجع الی الیهود علی ما هو ظاهر وقوع الجمله فی سیاق الکلام علی الیهود خاصه و إن کانت الآیات بدأت الکلام فی أهل الکتاب عامه،و علی هذا فالمراد بالعداوه و البغضاء بینهم ما یرجع الی الاختلاف فی المذاهب و الآراء،و قد أشار اللّه سبحانه الیه فی مواضع من کلامه کقوله وَ لَقَدْ آتَیْنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ الْکِتٰابَ وَ الْحُکْمَ وَ النُّبُوَّةَ -الی أن قال- فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیٰامَةِ فِیمٰا کٰانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (الجاثیه/ ۱۷)و غیر ذلک من الآیات.

و العداوه کأن المراد بها البغض الذی یستصحب التعدی فی العمل،و البغضاء هو مطلق ما فی القلب من حاله النفار و إن لم یستعقب التعدی فی العمل فیفید اجتماعهما معنی البغض الذی یوجب الظلم علی الغیر و البغض الذی یقصر عنه.

و فی قوله تعالی: «إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَةِ» ما لا یخفی من الدلاله علی بقاء امتهم الی آخر الدنیا.

قوله تعالی: کُلَّمٰا أَوْقَدُوا نٰاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّٰهُ إیقاد النار إشعالها، و إطفاؤها إخمادها،و المعنی واضح،و من المحتمل أن یکون قوله: «کُلَّمٰا أَوْقَدُوا» الخ؛بیانا لقوله «وَ أَلْقَیْنٰا بَیْنَهُمُ الْعَدٰاوَةَ» الخ؛فیعود المعنی الی أنه کلما أثاروا حربا علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و المؤمنین

ص: ۱۵۵

۱- ۱) .المائده ۵۷-۶۶:کلام فی عناد الیهود و کفرهم و فساد اخلاقهم.

أطفأها اللّه بإلقاء الاختلاف بينهم.

و الآيه على ما يدل عليه السياق تسجل عليهم خيبه المسعى فى إيقاد النيران التى يوقدونها على دين اللّه سبحانه،و على المسلمين بما أنهم مؤمنون باللّه و آياته،و أما الحروب التى ربما أمكن أن يوقدوا نارها لا لأمر الدين الحق بل لسياسه أو تغلب جنسى أو ملى فهى خارجه عن مساق الآيه.

قوله تعالى: وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً وَ اللّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ السعى هو السير السريع،و قوله: «فَساداً» مفعول له أى يجتهدون لإفساد الأرض،و اللّه لا يحب المفسدين فلا يخليهم و أن ينالوا ما أرادوه من فساد الأرض فيخيب سعيهم،و اللّه أعلم.

فهذه كله بيان لكونهم غلت أيديهم و لعنوا بما قالوا،حيث إنهم غير نائلين ما قصدوه من إثاره الحروب على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المسلمين،و ما اجتهدوا لأجله من فساد الأرض.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ الخ؛ عود الى حال أهل الكتاب عامه كما كان بدأ الكلام فيهم عامه،و ختم الكلام بتخليص القول فى ما فاتهم من نعمه السعاده فى الآخره و الدنيا،و هى جنه النعيم و نعمه الحياه السعيده.

و المراد بالتقوى بعد الإيمان التورع عن محارم اللّه و اتقاء الذنوب التى تحتم السخط الإلهى و عذاب النار،و هى الشرك باللّه و سائر الكبائر الموبقه التى أوعد اللّه عليها النار،فيكون المراد بالسيئات التى وعد اللّه سبحانه تكفيرها الصغائر من الذنوب،و ينطبق على قوله سبحانه:

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (النساء/ ٣١).

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ المراد بالتوراه و الإنجيل الكتابان السماويان اللذان يذكر القرآن أن اللّه أنزلهما على موسى و عيسى عليهما السّلام دون ما بأيدى القوم من الكتب التى

یذکر أنه لعبت بها ید التحریف.

و الظاهر أن المراد بما أنزل الیهم من ربهم سائر الکتب المنسوبه الی الأنبیاء الموجوده عندهم کمزامیر داود الذی یسمیه القرآن بالزبور،و غیره من الکتب.

فالظاهر أن المراد بما أنزل إلیهم من ربهم بعد التوراه و الإنجیل سائر الکتب و أقسام الوحی المنزله علی أنبیاء بنی إسرائیل کزبور داود و غیره،و المراد بإقامه هذه الکتب حفظ العمل العام بما فیها من شرائع اللّه تعالی،و الاعتقاد بما بین اللّه تعالی فیها من معارف المبدإ و المعاد من غیر أن یضرب علیها بحجب التحریف و الکتمان و الترک الصریح،فلو أقاموها هذه الإقامه لأکلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم.

و أما قوله تعالی: «لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» فالمراد بالأکل التنعم مطلقا سواء کان بالأکل کما فی مورد الأغذیه أو بغیره کما فی غیره،و استعمال الأکل فی مطلق التصرف و التنعم من غیر مزاحم شائع فی اللغه.

و المراد من فوقهم هو السماء،و من تحت أرجلهم هو الأرض،فالجمله کنایه عن تنعمهم بنعم السماء و الأرض و إحاطه برکاتها علیهم نظیر ما وقع فی قوله تعالی: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ،وَ لٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنٰاهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (الأعراف٩۶/).

و الآیه من الدلیل علی أن الإیمان هذا النوع أعنی نوع الإنسان و أعماله الصالحه تأثیرا فی صلاح النظام الکونی من حیث ارتباطه بالنوع الإنسانی فلو صلح هذا النوع صلح نظام الدنیا من حیث إیفائه باللازم لحیاه الإنسان السعیده من اندفاع النقم و وفور النعم.

قوله تعالی: مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سٰاءَ مٰا يَعْمَلُونَ الاقتصاد أخذ القصد و هو التوسط فی الامور،فالامه المقتصده هی المعتدله فی أمر الدین و التسلیم لأمر اللّه.

و الکلام مستأنف اريد به بيان حال جميع ما نسب إليهم من التعدی عن حدود اللّه و الکفر بآيات اللّه و نزول السخط و اللعن علی جماعتهم أن ذلک کله إنما تلبس به أکثرهم،و هو المصحح لنسبه هذه الفظائع إليهم،و أن منهم امه معتدله ليست علی هذا النعت،و هذا من نصفه الکلام الإلهی حيث لا يضيع حقا من الحقوق،و يراقب إحياء أمر الحق و إن کان قليلا (١).

[سوره المائده (۵): آيه ۶۷]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ وَ اَللّٰهُ يَعْصِمُکَ مِنَ اَلنّٰاسِ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلْکٰافِرِينَ (۶۷)

بيان:

معنی الآيه فی نفسها ظاهر فإنها تتضمن أمر الرسول صلّی اللّه عليه و آله و سلم بالتبليغ فی صوره التهديد، و وعده صلّی اللّه عليه و آله و سلم بالعصمه من الناس،غير أن التدبر فی الآيه من حيث وقوعها موقعها الذی وقعت فيه،و قد حففتها الآيات المتعرضه لحال أهل الکتاب و ذمهم و توبيخهم بما کانوا يتعاورونه من أقسام التعدی الی محارم اللّه و الکفر بآياته.و قد اتصلت بها من جانبيها الآيتان، أعنی قوله: «وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقٰامُوا التَّوْرٰاهَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَکَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» الآيه؛و قوله تعالی: «قُلْ يٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لَسْتُمْ عَلیٰ شَیْءٍ حَتّٰی تُقِيمُوا التَّوْرٰاهَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ» الآيه.

ثم الإمعان فی التدبر فی نفس الآيه و ارتباط الجمل المنضوده فيها يزيد الإنسان عجبا علی

۱- ۱) .المائده ۵۷-۶۶:بحث روائی فی اهل الکتاب.

عجب.

فلو كانت الآیه متصله بما قبلها و ما بعدها فی سیاق واحد فی أمر أهل الكتاب لكان محصلها أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أشد الأمر بتبلیغ ما أنزله اللّه سبحانه فی أمر أهل الكتاب،و تعین بحسب السیاق أن المراد بما انزل إلیه من ربه هو ما یأمره بتبلیغه فی قوله: «قُلْ یا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلی شَیْءٍ حَتّی تُقِیمُوا التَّوْراهَ وَ الْإِنْجِیلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَیْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» الآیه.

و سیاق الآیه یأباه فإن قوله: «وَ اللّهُ یَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ» یدل علی أن هذا الحكم المنزل المأمور بتبلیغه أمر مهم فیه مخافه الخطر علی نفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أو علی دین اللّه تعالی من حیث نجاح تبلیغه،و لم یكن من شأن الیهود و لا النصاری فی عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یتوجه الیه من ناحیتهم خطر یسوّغ له صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یمسک عن التبلیغ أو یؤخره الی حین فیبلغ الأمر الی حیث یحتاج الی أن یعده اللّه بالعصمه منهم إن بلّغ ما امر به فیهم حتی فی أوائل هجرته صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی المدینه و عنده حده الیهود و شدتهم حتی انتهی الی وقائع خیبر و غیرها.

علی أن الآیه لا تتضمن أمرا شدیدا و لا قولا حادا،و قد تقدم علیه تبلیغ ما هو أشدّ و أحدّ و أمرّ من ذلک علی الیهود،و قد أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بتبلیغ ما هو أشد من ذلک كتبلیغ التوحید و نفی الوثنیه الی كفار قریش و مشركی العرب و هم أغلظ جانبا و أشد بطشا و أسفک للدماء،و أفتک من الیهود و سائر أهل الكتاب،و لم یهدده اللّه فی أمر تبلیغهم و لا آمنه بالعصمه منهم.

علی أن الآیات المتعرضه لحال أهل الكتاب معظم أجزاء سوره المائده فهی نازله فیها قطعا،و الیهود كانت عند نزول هذه السوره قد كسرت سورتهم،و خمدت نیرانهم،و شملتهم السخطه و اللعنه كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها اللّه فلا معنی لخوف رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم منهم فی دین اللّه،و قد دخلوا یومئذ فی السلم فی حظیره الإسلام و قبلوا هم و النصاری الجزیه،و لا معنی لتقریره تعالی له خوفه منهم و اضطرابه فی تبلیغ أمر اللّه الیهم،و هو أمر قد بلّغ الیهم ما هو أعظم منه،و قد وقف قبل هذا الموقف فیما هو أهول منه و أوحش.

ص :١۵٩

فلا ينبغی الارتياب فی أن الآيه لا تشارک الآيات السابقه عليها و اللاحقه لها فی سياقها، و لا تتصل بها فی سردها،و إنما هی آيه مفرده نزلت وحدها.

و الآيه تکشف عن أمر قد انزل علی النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم(إما مجموع الدين أو بعض أجزائه)و کان النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم يخاف الناس من تبليغه و يؤخره الی حين يناسبه،و لو لا مخافته و إمساکه لم يحتج الی تهديده بقوله «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ» کما وقع فی آيات أول البعثه الخاليه عن التهديد کقوله تعالی: اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ الی آخر سوره العلق،و قوله: يٰا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنْذِرْ (المدثر۲/)،و قوله: فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِکِينَ (حم السجده۶/)الی غير ذلک.

فهو صلّی اللّه عليه و آله و سلم کان يخافهم و لم يکن مخافته من نفسه فی جنب اللّه سبحانه فهو أجل من أن يستنکف عن تفديه نفسه أو يبخل فی شیء من أمر اللّه بمهجته فهذا شیء تکذبه سيرته الشريفه و مظاهر حياته،علی أن اللّه شهد فی رسله علی خلاف ذلک کما قال تعالی: مٰا کٰانَ عَلَی النَّبِیِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمٰا فَرَضَ اللّٰهُ لَهُ سُنَّهَ اللّٰهِ فِی الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ کٰانَ أَمْرُ اللّٰهِ قَدَراً مَقْدُوراً * اَلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسٰالاٰتِ اللّٰهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ حَسِيباً

(الأحزاب۳۹/)،و قد قال تعالی فی أمثال هذه الفروض: فَلاٰ تَخٰافُوهُمْ وَ خٰافُونِ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران۱۷۵/)،و قد مدح اللّه سبحانه طائفه من عباده بأنهم لم يخشوا الناس فی عين أن الناس خوفوهم فقال: اَلَّذِينَ قٰالَ لَهُمُ النّٰاسُ إِنَّ النّٰاسَ قَدْ جَمَعُوا لَکُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزٰادَهُمْ إِيمٰاناً وَ قٰالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ وَ نِعْمَ الْوَکِيلُ (آل عمران۱۷۳/).

و ليس من الجائز أن يقال:إنه صلّی اللّه عليه و آله و سلم کان يخاف علی نفسه أن يقتلوه فيبطل بذلک أثر الدعوه و ينقطع دابرها فکان يعوقه الی حين ليس فيه هذه المفسده فإن اللّه سبحانه يقول له صلّی اللّه عليه و آله و سلم لَيْسَ لَکَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ (آل عمران۱۲۸/)،لم يکن اللّه سبحانه يعجزه لو قتلوا النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم أن يحيی دعوته بأی وسيله من الوسائل شاء،و بأی سبب أراد.

نعم من الممكن أن يقدر لمعنى قوله: «وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ» أن يكون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم يخاف الناس فى أمر تبليغه أن يتهموه بما يفسد به الدعوه فسادا لا تنجح معه أبدا فقد كان أمثال هذا الرأى و الاجتهاد جائزا له مأذونا فيه من دون أن يرجع معنى الخوف الى نفسه بشىء.

و من هنا يظهر أن الآيه لم تنزل فى بدء البعثه كما يراه بعض المفسرين إذ لا معنى حينئذ لقوله تعالى: «وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ» إلا أن يكون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم يماطل فى إنجاز التبليغ خوفا من الناس على نفسه أن يقتلوه فيحرم الحياه أو أن يقتلوه و يذهب التبليغ باطلا لا أثر له فإن ذلك كله لا سبيل الى احتماله.

على أن المراد بما أنزل اليه من ربه لو كان أصل الدين أو مجموعه فى الآيه عاد معنى قوله:

«وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ» الى نحو قولنا:يا أيها الرسول بلغ الدين و إن لم تبلغ الدين فما بلغت الدين.

و أما جعله من قبيل قول أبى النجم:

أنا أبو النجم و شعرى شعرى

كما ذكره بعضهم أن معنى الآيه:و إن لم تبلّغ الرساله فقد لزمك شناعه القصور فى التبليغ و الإهمال فى المسارعه الى ائتمار ما أمرك به اللّه سبحانه،و أكده عليك كما أن معنى قول أبى النجم:أنى أنا أبو النجم و شعرى شعرى المعروف بالبلاغه المشهور بالبراعه.

فإن ذلك فاسد لأن هذه الصناعه الكلاميه إنما تصح فى موارد العام و الخاص و المطلق و المقيد و نظائر ذلك فيفاد بهذا السياق اتحادهما كقول أبى النجم:شعرى شعرى أى لا ينبغى أن يتوهم على متوهم أن قريحتى كلّت أو أن الحوادث أعيتنى أن أقول من الشعر ما كنت أقوله فشعرى الذى أقوله اليوم هو شعرى الذى كنت أقوله بالأمس.

و أما قوله تعالى: «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ» فليس يجرى فيه مثل هذه العنايه فإن

الرساله التی هی مجموع الدین أو أصله علی تقدیر نزول الآیه فی أول البعثه أمر واحد غیر مختلف و لا متغیر حتی یصح أن یقال:إن لم تبلغ هذه الرساله فما بلغت تلک الرساله أو لم تبلغ أصل الرساله فإن المفروض أنه أصل الرساله التی هی مجموع المعارف الدینیه.

فقد تبین أن الآیه بسیاقها لا تصلح أن تکون نازله فی بدء البعثه و یکون المراد فیها بما أنزل الی الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلم مجموع الدین أو أصله،و یتبین بذلک أنها لا تصلح أن تکون نازله فی خصوص تبلیغ مجموع الدین أو أصله فی أی وقت آخر غیر بدء البعثه فإن الإشکال إنما ینشأ من جهه لزوم اللغو فی قوله تعالی: «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ» کما مر.

علی أن قوله: «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ» لا یلائم النزول فی أی وقت آخر غیر بدء البعثه علی تقدیر إراده الرساله بمجموع الدین أو أصله،و هو ظاهر.

علی أن محذور دلاله قوله: «وَ اللّٰهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النّٰاسِ» علی أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان یخاف الناس فی تبلیغه علی حاله.

فظهر أن لیس هذا الأمر الذی أنزل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و أکدت الآیه تبلیغه هو مجموع الدین أو أصله علی جمیع تقادیره المفروضه،فلنضع أنه بعض الدین،و المعنی:بلغ الحکم الذی أنزل الیک من ربک و إن لم تفعل فما بلغت رسالته،الخ؛و لازم هذا التقدیر أن یکون المراد بالرساله مجموع ما حمله رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم من الدین و رسالته،و إلا فالمحذور السابق و هو لزوم اللغو فی الکلام علی حاله اذ لو کان المراد بقوله «رِسٰالَتَهُ» الرساله الخاصه بهذا الحکم کان المعنی:بلغ هذا الحکم و إن لم تبلغه فما بلغته،و هو لغو ظاهر.

فالمراد أن بلغ هذا الحکم و إن لم تبلغه فما بلغت أصل رسالته أو مجموعها،و هو معنی صحیح معقول،و حینئذ یرد الکلام نظیر المورد الذی ورده قول أبی النجم«أنا أبو النجم و شعری شعری».

و أما کون هذا الحکم بحیث لو لم یبلغ فکأنما لم تبلغ الرساله فإنما ذلک لکون المعارف

و الأحكام الـدينيه مرتبطه بعضـها ببعض بحيث لو أخل بأمر واحـد منها أخل بجميعها و خاصه فى التبليغ لكمال الارتباط،و هـذا التقـدير و إن كان فى نفسه مما لا بأس به لكن ذيل الآيه و هو قوله: «وَ اللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكافِرِينَ» لا يلائمه فإن هذا الذيل يكشف عن أنّ قوما كافرين من الناس هموا بمخالفه هذا الحكم النازل أو كان المترقب من حالهم أنهم سيخالفونه مخالفه شديده،و يتخذون أى تدبير يستطيعونه لإبطال هذه الدعوه و تركه سدى لا يؤثر أثرا و لا ينفع شيئا و قد وعد اللّه رسوله أن يعصمه منهم،و يبطل مكرهم، و لا يهديهم فى كيدهم.

و لا يستقم هذا المعنى مع أى حكم نازل فرض فإن المعارف و الأحكام الدينيه فى الإسلام ليست جميعا فى درجه واحده ففيها التى هى عمود الـدين،و فيها الدعاء عند رؤيه الهلال، و فيها زنى المحصن و فيها النظر الى الأجنبيه،و لا يصح فرض هذه المخافه من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الوعد بالعصمه من اللّه مع كل حكم حكم منها كيفما كان بل فى بعض الأحكام.

فليس استلزام عـدم تبليغ هذا الحكم لعدم تبليغ غيره من الأحكام إلا لمكان أهميته و وقوعه من الأحكام فى موقع لو اهمل أمره كان ذلک فى الحقيقه إهمالا لأمر سائر الأحكام، و صيرورتها كالجسـد العادم للروح التى بها الحياه الباقيه و الحس و الحركه،و تكون الآيه حينئذ كاشفه عن أن اللّه سبحانه كان قد أمر رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم بحكم يتم به أمر الدين و يستوى به على عريشه القرار،و كان من المترقب أن يخالفه الناس و يقلبوا الأمر على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بحيث تنهدم أركان ما بناه من بنيان الدين و تتلاشى أجزاؤه،و كان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم يتفرس ذلک و يخافهم على دعوته فيؤخر تبليغه الى حين بعـد حين ليجد له ظرفا صالحا و جوا آمنا عسى أن تنجح فيه دعوته،و لا يخيب مسعاه فأمره اللّه تعالى بتبليغ عاجل،و بين له أهميه الحكم،و وعده أن يعصمه من الناس،و لا يهديهم فى كيدهم،و لا يدعهم يقلبوا له أمر الدعوه.

و إنما يتصور تقليب أمر الدعوه على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و إبطال عمله بعد انتشار الدعوه

الإسلامیه لا من جانب المشرکین و وثنیه العرب أو غیرهم کأن تکون الآیه نازله فی مکه قبل الهجره،و تکون مخافه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من الناس من جهه افترائهم علیه و اتهامهم إیاه فی أمره کما حکاه اللّه سبحانه من قولهم مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (الدخان۱۴/)و قولهم شٰاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَیْبَ الْمَنُونِ (الطور۳۰/)،و قولهم سٰاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (الذاریات۵۲/)و قولهم: إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّٰ رَجُلاً مَسْحُوراً (الإسراء۴۷/)و قولهم إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ یُؤْثَرُ (المدثر۲۴/)و قولهم أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ اکْتَتَبَهٰا فَهِیَ تُمْلیٰ عَلَیْهِ بُکْرَهً وَ أَصِیلاً (الفرقان۵/)و قولهم إِنَّمٰا یُعَلِّمُهُ بَشَرٌ (النحل۱۰۳/)و قولهم: أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلیٰ آلِهَتِکُمْ إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ یُرٰادُ (ص۶/)الی غیر ذلک من أقاویلهم فیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

فهذه کلها لیست مما یوجب وهن قاعده الدین،و إنما تدل-اذا دلت-علی اضطراب القوم فی أمرهم،و عدم استقامتهم فیه علی أن هذه الافتراءات و المرامی لا تختص بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم حتی یضطرب عند تفرسها و یخاف وقوعها فسائر الأنبیاء و الرسل یشارکونه فی الابتلاء بهذه البلایا و المحن،و مواجهه هذه المکاره من جمله اممهم کما حکاه اللّه تعالی عن نوح و من بعده من الأنبیاء المذکورین فی القرآن.

بل إن کان شیء-و لا بد-فإنما یتصور بعد الهجره و استقرار أمر الدین فی المجتمع الإسلامی و المسلمون کالمعجون الخلیط من صلحاء مؤمنین و قوم منافقین اولی قوه لا یستهان بأمرهم، و آخرین فی قلوبهم مرض و هم سماعون-کما نص علیه الکتاب العزیز-و هؤلاء کانوا یعاملون مع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم-فی عین أنهم آمنوا به واقعا أو ظاهرا-معامله الملوک،و مع دین اللّه معامله القوانین الوضعیه القومیه کما یشعر بذلک طوائف من آیات الکتاب قد تقدم تفسیر بعضها فی الأجزاء السابقه من هذا الکتاب (۱).

۱- ۱) .کآیات قصه احد فی سوره آل عمران،و الآیات ۱۰۵-۱۲۶ من سوره النساء.

فکان من الممکن أن یکون تبلیغ بعض الأحکام مما یوقع فی الوهم انتفاع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بتشریعه و إجرائه یستوجب أن یقع فی قلوبهم أنه ملک فی صوره النبوه و قانون ملکی فی هیئه الدین کما ربما وجد بعض شواهد ذلک فی مطاوی کلمات بعضهم (۱).

و هذه شبهه لو کانت وقعت هی أو ما یماثلها فی قلوبهم ألقت الی الدین من الفساد و الضیعه ما لا یدفعه أی قوه دافعه،و لا یصلحه أی تدبیر مصلح فلیس هذا الحکم النازل المأمور بتبلیغه إلا حکما فیه توهم انتفاع للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و اختصاص له بمزیه من المزایا الحیویه لا یشارکه فیها غیره من سائر المسلمین،نظیر ما فی قصه زید و تعدد الأزواج و الاختصاص بخمس الغنائم و نظائر ذلک.

غیر أن الخصائص اذا کانت مما لا تمس فیه عامه المسلمین لم یکن من طبعها إثاره الشبهه فی القلوب فإن الازدواج بزوجه المدعو ابنا مثلا لم یکن یختص به و الازدواج بأکثر من أربع نسوه لو کان تجویزه لنفسه عن هوی بغیر إذن اللّه سبحانه لم یکن یمنعه أن یجوّز مثل ذلک لسائر المسلمین،و سیرته فی إیثار المسلمین علی نفسه فی ما کان یأخذه للّه و لنفسه من الأموال و نظائر هذه الامور لا تدع ریبا لمرتاب و لا یشتبه أمرها لمشتبه دون أن تزول الشبهه.

فقد ظهر من جمیع ما تقدم أن الآیه تکشف عن حکم نازل فیه شوب انتفاع للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و اختصاصه بمزیه حیویه مطلوبه لغیره أیضا یوجب تبلیغه و العمل به حرمان الناس عنه فکان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم یخاف إظهاره فأمره اللّه بتبلیغه و شدد فیه،و وعده العصمه من الناس و عدم هدایتهم فی کیدهم إن کادوا فیه.

و هذا یؤید ما وردت به النصوص من طرق الفریقین أن الآیه نزلت فی أمر ولایه علی علیه السّلام، و ان اللّه أمر بتبلیغها و کان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم یخاف أن یتهموه فی ابن عمه،و یؤخر تبلیغها وقتا الی

۱- ۱) .کما یذکر عن أبی سفیان فی کلمات قالها فی مجلس عثمان حینما تم له أمر الخلافه.

وقت حتی نزلت الآیه فبلغها بغدیر خم،و قال فیه:من کنت مولاه فهذا علی مولاه.

و کون ولایه امر الامه مما لا غنی للدین عنه ظاهر لا ستر علیه،و کیف یسوغ لمتوهم أن یتوهم أن الدین الذی یقرر بسعته لعامه البشر فی عامه الأعصار و الأقطار جمیع ما یتعلق بالمعارف الأصلیه،و الاصول الخلقیه،و الأحکام الفرعیه العامه لجمیع حرکات الإنسان و سکناته،فرادی و مجتمعین علی خلاف جمیع القوانین العامه لا یحتاج الی حافظ یحفظه حق الحفظ؟أو ان الامه الإسلامیه و المجتمع الدینی مستثنی من بین جمیع المجتمعات الإنسانیه مستغنیه عن وال یتولی أمرها و مدبر یدبرها و مجر یجریها؟و بأی عذر یمکن أن یعتذر الی الباحث عن سیره النبی الاجتماعیه؟حیث یری أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان اذا خرج الی غزوه خلف مکانه رجلا یدیر رحی المجتمع،و قد خلف علیا مکانه علی المدینه عند مسیره الی تبوک فقال:یا رسول اللّه أ تخلفنی علی النساء و الصبیان؟فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلم:اما ترضی ان تکون منی بمنزله هارون من موسی إلا انه لا نبی بعدی؟

و کان صلّی اللّه علیه و آله و سلم ینصب الولاه الحکام فی ما بید المسلمین من البلاد کمکه و الطائف و الیمن و غیرها،و یؤمّر رجالا علی السرایا و الجیوش التی یبعثها الی الأطراف،و أی فرق بین زمان حیاته و ما بعد مماته دون أن الحاجه الی ذلک بعد غیبته بالموت أشد،و الضروره الیه أمسّ ثم أمسّ.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ خاطبه صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالرساله لکونها أنسب الصفات الی ما تتضمنه الآیه من الأمر بالتبلیغ لحکم اللّه النازل فهو کالبرهان علی وجوب التبلیغ الذی تظهره الآیه و تقرعه سمع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فإن الرسول لا شأن له إلا تبلیغ ما حمل من الرساله فتحمل الرساله یفرض علیه القیام بالتبلیغ.

و لم یصرح باسم هذا الذی أنزل الیه من ربه بل عبر عنه بالنعت و أنه شیء أنزل الیه، إشعارا بتعظیمه و دلاله علی أنه أمر لیس فیه لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم صنع،و لا له من أمره شیء

ص:۱۶۶

ليكون كبرهان آخر على عدم خيره منه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى كتمانه و تأخيره تبليغه،و يكون له عذرا فى إظهاره على الناس،و تلويحا الى أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم مصيب فى ما تفرسه منهم و تخوف عليه،و إيماء الى أنه مما يجب أن يظهر من ناحيته صلّى اللّه عليه و آله و سلم و بلسانه و بيانه.

قوله تعالى: وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ المراد بقوله «رِسٰالَتَهُ» و قرئ «رسالاته» كما تقدم مجموع رسالات اللّه سبحانه التى حملها رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و قد تقدم أن الكلام يفيد أهميه هذا الحكم المرموز اليه،و أن له من المكانه ما لو يبلغه كان كأن لم يبلغ شيئا من الرسالات التى حملها.

فالكلام موضوع فى صوره التهديد،و حقيقته بيان أهميه الحكم،و أنه بحيث لو لم يصل الى الناس،و لم يراع حقه كان كأن لم يراع حق شىء من أجزاء الدين فقوله «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ» جمله شرطيه سيقت لبيان أهميه الشرط وجودا و عدما لترتب الجزاء الأهم عليه وجودا و عدما.

و ليست شرطيه مسوقه على طبع الشرطيات الدائره عندنا فإنا نستعمل«إن»الشرطيه طبعا فيما نجهل تحقق الجزاء للجهل بتحقق الشرط،و حاشا ساحه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من أن يقدر القرآن فى حقه احتمال ان يبلغ الحكم النازل عليه من ربه و أن لا يبلغ،و قد قال تعالى: اَللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ (الأنعام/۱۲۴).

فالجمله أعنى قوله: «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ» الخ؛إنما تفيد التهديد بظاهرها و تفيد إعلامه عليه السّلام و إعلام غيره ما لهذا الحكم من الأهميه،و أن الرسول معذور فى تبليغه.

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ قال الراغب:العصم(بالفتح فالسكون)الإمساك و الاعتصام الاستمساك-الى أن قال- و العصام(بالكسر)ما يعتصم به أى يشد،و عصمه الأنبياء حفظه إياهم أولا بما خصهم به من صفاء الجوهر،ثم بما أولاهم من الفضائل الجسميه و النفسيه،ثم بالنصره و بتثبيت أقدامهم،ثم

بإنزال السكينه عليهم و بحفظ قلوبهم و بالتوفيق قال تعالى: «وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ» .

و العصمه شبه السوار،و المعصم موضعها من اليد،و قيل للبياض بالرسغ عصمه تشبيها، و ذلك كتسميه البياض بالرجل تحجيلا،و على هذا قيل:غراب أعصم،انتهى.

و ما ذكره من معنى عصمه الأنبياء حسن لا بأس به غير أنه لا ينطبق على الآيه «وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ» بل لو انطبق فإنما ينطبق على مثل قوله: وَ مٰا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كٰانَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (النساء/ ١١٣).

و أما قوله: «وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ» فإن ظاهره أنها عصمه بمعنى الحفظ و الوقايه من شر الناس المتوجه الى نفس النبى الشريفه أو مقاصده الدينيه أو نجاح تبليغه و فلاح سعيه، و بالجمله المعنى المناسب لساحته المقدسه.

و كيف كان فالمتحصل من موارد استعمال الكلمه أنها بمعنى الإمساك و القبض فاستعماله فى معنى الحفظ من قبيل استعاره اللازم لملزومه فإن الحفظ يلزمه القبض.

و كان تعليق العصمه بالناس من دون بيان أن العصمه من أى شأن من شئون الناس كتعدياتهم بالايذاء فى الجسم من قتل أو سم أو أى اغتيال،أو بالقول كالسب و الافتراء،أو بغير ذلك كتقليب الامور بنوع من المكر و الخديعه و المكيده و بالجمله السكوت عن تشخيص ما يعصم منه لإفاده نوع من التعميم،و لكن الذى لا يعدو عنه السياق هو شرهم الذى يوجب انقلاب الأمر على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بحيث يسقط بذلك ما رفعه من أعلام الدين.

و الناس مطلق من وجد فيه معنى الإنسانيه من دون أن يعتبر شيء من خصوصياته الطبيعيه التكوينيه كالذكوره و الأنوثه أو غير الطبيعيه كالعلم و الفضل و الغنى و غير ذلك.

و لذلك قل ما ينطبق على غير الجماعه،و لذلك أيضا ربما دل على الفضلاء من الإنسان اذا كان الفضل روعى فيه وجود معنى الانسانيه كقوله تعالى: «إِذٰا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمٰا آمَنَ النّٰاسُ» أى

الذين وجد فيهم معنى الإنسانيه،و هو ملاك درك الحق و تمييزه من الباطل.

و ربما كان دالا على نوع من الخسه و سقوط الحال،و ذلك اذا كان الأمر الذى يتكلم فيه مما يحتاج الى اعتبار شىء من الفضائل الانسانيه التى اعتبرت زائده على أصل معنى النوع كقوله وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (الروم/٣٠)و كقولك:لا تثق بمواعيد الناس،و لا تستظهر بسوادهم نظرا منك الى أن الوثوق و الاستظهار يجب أن يتعلقا بالفضلاء من الانسان ذوى ملكه الوفاء بالعهد و الثبات على العزيمه لا على من ليس له إلا مجرد صدق اسم الانسانيه، و ربما لم يفد شيئا من مدح أو ذم اذا تعلق الغرض بما لا يزيد على أصل معنى الإنسانيه كقوله تعالى: يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثىٰ وَ جَعَلْنٰاكُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاكُمْ (الحجرات/١٣).

و لعل قوله: «وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ» أخذ فيه لفظ الناس اعتبارا بسواد الأفراد الذى فيه المؤمن و المنافق و الذى فى قلبه مرض،و قد اختلطوا من دون تمايز،فاذا خيف خيف من عامته،و ربما أشعر به قول «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ» فإن الجمله فى مقام التعليل لقوله «وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ» و قد تقدم أيضا أن الآيه نزلت بعد الهجره و ظهور شوكه الاسلام، و كان السواد الأعظم من الناس مسلمين بحسب الظاهر و إن كان فيهم المنافقون و غيرهم.

فالمراد بالقوم الكافرين قوم هم فى الناس مذكورى النعت ممحوى الاسم وعد اللّه سبحانه أن يبطل كيدهم و يعصم رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم من شرهم.

و الظاهر أيضا أن يكون المراد بالكفر الكفر بآيه من آيات اللّه و هو الحكم المراد بقوله «مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» ،كما فى قوله فى آيه الحج: وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعٰالَمِينَ (آل عمران/٩٧)،و أما الكفر بمعنى الاستكبار عن أصل الشهادتين فإنه مما لا يناسب مورد الآيه البته إلا على القول بكون المراد بقوله «أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» مجموع رسالات الدين،و قد عرفت عدم استقامته.

و المراد بعدم هدايته تعالى هؤلاء القوم الكافرين عدم هدايته إياهم في كيدهم و مكرهم، و منعه الأسباب الجاريه أن تنقاد لهم في سلوكهم الى ما يرومونه من الشر و الفساد نظير قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ (المنافقون/۶)،و قوله تعالى: وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ (البقره/۲۵۸)،و قد تقدم البحث عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

و أما كون المراد بعدم الهدايه هو عدم الهدايه الى الإيمان فغير صحيح البته لمنافاته أصل التبليغ و الدعوه فلا يستقيم أن يقال:ادعهم الى اللّه أو الى حكم اللّه و أنا لا أهديهم اليه إلا في مورد إتمام الحجه محضا.

على أن اللّه سبحانه قد هدى و لا يزال يهدي كثيرين من الكفار بدليل العيان،و قد قال أيضا وَ اللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (البقره/۲۱۳).

فتبين أن المراد بعدم هدايه الكافرين عدم تخليتهم لينالوا ما يهمون به من إبطال كلمه الحق و إطفاء نور الحكم المنزل فإن الكافرين و كذا الظالمين و الفاسقين يريدون بشآمه أنفسهم و ضلال رأيهم أن يبدلوا سنه اللّه الجاريه في الخلقه و سياقه الأسباب السالكه الى مسبباتها و يغيروا مجاري الأسباب الحقه الظاهره عن سمه عصيان رب العالمين الى غايتهم الفاسده مقاصدهم الباطله اللّه رب العالمين لن يعجزه قواهم الصوريه التي لم يودعها فيهم و لم يقدرها في بناهم إلا هو.

فهم ربما تقدموا في مساعيهم أحيانا،و نالوا ما راموه أوينات و استعلوا و استقام أمرهم برهه لكنه لا يلبث دون أن يبطل أخيرا و ينقلب عليهم مكرهم و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله،و كذلك يضرب اللّه الحق و الباطل فأما الباطل فيذهب جفاء،و أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

و على هذا فقوله «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ» تفسير قوله: «وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ» بالتصرف في سعه إطلاقه،و يكون المراد بالعصمه عصمته صلّى اللّه عليه و آله و سلم من أن يناله الناس

بسوء دون أن ینـال بغیته فی تبلیغ هـذا الحکم و تقریره بین الامه کـأن یقتلوه دون أن یبلغه أو یثوروا علیه و یقلبوا علیه الامور أو یتهموه بما یرتـد به المؤمنون عن دینه،أو یکیـدوا کیـدا یمیت هـذا الحکم و یقبره بل اللّه یظهر کلمه الحق و یقیم الـدین علی ما شـاء و أینمـا شـاء و متی مـا شـاء و فیمن شاء،قال تعالی: إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ أَیُّهَا النّاسُ وَ یَأْتِ بِآخَرِینَ وَ کانَ اللّهُ عَلی ذٰلِکَ قَدِیراً (النساء۱۳۳/).

و أما أخذ الآیه أعنی قوله: «وَ اللّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النّاسِ» بإطلاقه علی ما فیه من السعه و الشمول فمما ینافیه القرآن و المأثور من الحـدیث و التاریخ القطعی،و قد نال صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم من امته أعم من کفارهم و مؤمنیهم و منافقیهم من المصائب و المحن و أنواع الزجر و الأذی ما لیس فی وسع أحـد أن یتحمله إلا نفسه الشـریفه،و قد قال صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم-کما فی الحدیث المشهور-ما اوذی نبی مثل ما اوذیت قط.

بحث روائی:

فی تفسیر العیاشی عن أبی صالح،عن ابن عباس و جابر بن عبد اللّه قالا:أمر اللّه تعالی نبیه محمدا صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن ینصب علیـا علمـا فی النـاس لیخبرهم بولایته فتخوف رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم أن یقولوا:حابی (۱)ابـن عمه و أن یطعنوا (۲)فی ذلـک علیه.قـال:فـأوحی اللّه الیه هـذه الآیه «یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النّاسِ» فقام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم بولایته یوم غدیر خم.

و فیه عن حنان بن سدیر،عن أبیه عن أبی جعفر علیه السّلام قال:لما نزل جبرئیل علی عهد رسول

۱- ۱) .جاءنا،خ ل.

۲- ۲) .یطغوا،خ ل.

اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی حجه الوداع بإعلان أمر علی بن أبی طالب علیه السّلام «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ» الی آخر الآیه.قال:فمکث النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم ثلاثا حتی أتی الجحفه فلم یأخذ بیده فرقا من الناس.

فلما نزل الجحفه یوم غدیر فی مکان یقال له«مهیعه»فنادی:الصلاه جامعه،فاجتمع الناس فقال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم:من أولی بکم من أنفسکم؟فجهروا فقالوا:اللّه و رسوله ثم قال لهم الثانیه،فقالوا:اللّه و رسوله،ثم قال لهم الثالثه،فقالوا:اللّه و رسوله.

فأخذ بید علی علیه السّلام فقال:من کنت مولاه فعلی مولاه،اللهم وال من والاه و عاد من عاداه، و انصر من نصره،و اخذل من خذله فإنه منی و أنا منه،و هو منی بمنزله هارون من موسی إلا أنه لا نبی بعدی.

و فیه عن أبی الجارود،عن أبی جعفر علیه السّلام قال:لما أنزل اللّه علی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ وَ اللّٰهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النّٰاسِ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الْکٰافِرِینَ» قال:فأخذ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم بید علی علیه السّلام فقال:یا أیها الناس إنه لم یکن نبی من الأنبیاء ممن کان قبلی إلا و قد عمر ثم دعاه فأجابه،و أوشک أن أدعی فاجیب،و أنا مسئول و أنتم مسئولون فما أنتم قائلون؟قالوا:نشهد أنک قد بلغت و نصحت و أدیت ما علیک فجزاک اللّه أفضل ما جزی المرسلین،فقال:اللهم اشهد.

ثم قال:یا معشر المسلمین لیبلغ الشاهد الغائب أوصی من آمن بی و صدقنی بولایه علی، ألا إن ولایه علی ولایتی عهدا عهده إلی ربی و أمرنی أن ابلغکموه،ثم قال:هل سمعتم؟-ثلاث مرات یقولها-فقال قائل:قد سمعنا یا رسول اللّه.

و فی البصائر بإسناده عن الفضیل بن یسار عن أبی جعفر علیه السّلام فی قوله: «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ» قال:هی الولایه.

أقول:و روی نزول الآیه فی أمر الولایه و قصه الغدیر معه الکلینی فی الکافی بإسناده،عن

أبی الجارود،عن أبی جعفر علیه السّلام فی حدیث طویل،و روی هذا المعنی الصدوق فی المعانی بإسناده عن محمد بن الفیض بن المختار،عن أبیه عن ابی جعفر علیه السّلام فی حدیث طویل،و رواه العیاشی أیضا عن أبی الجارود فی حدیث طویل،و بإسناده عن عمرو بن یزید عن أبی عبد اللّه علیه السّلام مختصرا.

و عن تفسیر الثعلبی قال:قال جعفر بن محمد:معنی قوله: «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ» فی فضل علی،فلما نزلت هذه أخذ النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بید علی فقال:من کنت مولاه فعلی مولاه.

و عنه بإسناده عن الکلبی عن ابی صالح عن ابن عباس فی هذه الآیه قال:نزلت فی علی بن أبی طالب،أمر اللّه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یبلغ فیه فأخذ بید علی فقال:من کنت مولاه فعلی مولاه اللهم وال من والاه،و عاد من عاداه.

و فی تفسیر البرهان،عن إبراهیم الثقفی بإسناده عن الخدری،و بریده الأسلمی و محمد بن علی:نزلت یوم الغدیر فی علی.

و من تفسیر الثعلبی فی معنی الآیه قال:قال أبو جعفر محمد بن علی:معناه بلغ ما أنزل الیک من ربک فی علی.

و فی تفسیر المنار عن تفسیر الثعلبی:أن هذا القول من النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی موالاه علی شاع و طار فی البلاد فبلغ الحارث بن النعمان الفهری فأتی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم علی ناقته،و کان بالأبطح فنزل و عقل ناقته،و قال للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم-و هو فی ملأ من أصحابه-:یا محمد أمرتنا من اللّه أن نشهد أن لا إله إلا اللّه و أنک رسول اللّه؛فقبلنا منک-ثم ذکر سائر أرکان الاسلام-ثم لم ترض بهذا حتی مددت بضبعی ابن عمک،و فضلته علینا،و قلت:«من کنت مولاه فعلی مولاه» فهذا منک أم من اللّه؟فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلم:و اللّه الذی لا إله إلا هو هو أمر اللّه،فولی الحارث یرید راحلته،و هو یقول:اللهم إن کان هذا هو الحق من عندک فأمطر علینا حجاره من السماء أو

ائتنا بعذاب اليم.

فما وصل الى راحلته حتى رماه اللّه بحجر فسقط على هامته و خرج من دبره،و أنزل اللّه تعالى: سَأَلَ سٰائِلٌ بِعَذٰابٍ وٰاقِعٍ لِلْكٰافِرينَ لَيْسَ لَهُ دٰافِعٌ الحديث.

أقول:قال فى المنار بعد نقل هذا الحديث ما لفظه:و هذه الروايه موضوعه،و سوره المعارج هذه مكيه،و ما حكاه اللّه من قول بعض كفار قريش(اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك)كان تذكيرا بقول قالوه قبل الهجره،و هذا التذكير فى سوره الأنفال،و قد نزلت بعد غزوه بدر قبل نزول المائده ببضع سنين،و ظاهر الروايه أن الحارث بن النعمان هذا كان مسلما فارتد و لم يعرف فى الصحابه،و الأبطح بمكه و النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم لم يرجع من غدير خم الى مكه بل نزل فيه منصرفه من حجه الوداع الى المدينه،انتهى.

و أنت ترى ما فى كلامه من التحكم:أما قوله:[إن الروايه موضوعه،و سوره المعارج هذه مكيه]

فيعول فى ذلك على ما فى بعض الروايات عن ابن عباس و ابن الزبير أن سوره المعارج نزلت بمكه،و ليت شعرى ما هو المرجح لهذه الروايه على تلك الروايه،و الجميع آحاد؟سلمنا أن سوره المعارج مكيه كما ربما تؤيده مضامين معظم آياته فما هو الدليل على أن جميع آياتها مكيه؟فلتكن السوره مكيه،و الآيتان خاصه غير مكيتين كما أن سورتنا هذه أعنى سوره المائده مدنيه نازله فى آخر عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و قد وضعت فيها الآيه المبحوث عنها أعنى قوله تعالى: «يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» الآيه؛و هو كعده من المفسرين مصرون على أنها نزلت بمكه فى أول البعثه،فاذا جاز وضع آيه مكيه(آيه: يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)فى سوره مدنيه(المائده)فليجز وضع آيه مدنيه(آيه: سَأَلَ سٰائِلٌ)فى سوره مكيه(سوره المعارج).

و أما قوله:[و ما حكاه اللّه من قول بعض كفار قريش]

الى آخره،فهو فى التحكم كسابقه؛ فهب إن سوره الأنفال نزلت قبل المائده ببضع سنين فهل يمنع ذلك أن يوضع عند التأليف بعض

الآیـات النـازله بعـدها فیهـا کما وضـعت آیات الربا و آیه وَ اتَّقُوا یَوْماً تُرْجَعُونَ فِیهِ إِلَی اللّهِ (البقره۲۸۱/)،و هی آخر مـا نزل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم عندهم فی سوره البقره النازله فی أوائل الهجره و قد نزلت قبلها ببضع سنین.

ثم قوله:[إن آیه وَ إِذْ قالُوا اللّهُمَّ إِنْ کانَ هذا هُوَ الْحَقَّ الآیه؛تذکیر لما قالوه قبل الهجره]

تحکم آخر من غیر حجه لو لم یکن سیاق الآـیه حجه علی خلاـفه فإن العارف بأسالیب الکلام لا یکاد یرتاب فی أن هـذا أعنی قوله: اَللّهُمَّ إِنْ کانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ فَأَمْطِرْ عَلَیْنا حِجارَهً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِیمٍ لاشتماله علی قوله: إِنْ کانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ بما فیه من اسم الإشاره و ضـمیر الفصل و الحق المحلی باللام و قوله: مِنْ عِنْدِکَ لیس کلام وثنی مشـرک یستهزئ بـالحق و یسـخر منه،و إنما هو کلام من أذعن بمقام الربوبیه، و یری أن الامور الحقه تتعین من لـدنه،و أن الشـرائع مثلا تنزل من عنـده،ثم إنه یتوقف فی أمر منسوب الی اللّه تعـالی یـدّعی مـدع أنه الحق لاـ غیره،و هو لاـ یتحمـل ذلـک و یتحرج منه فیدعو علی نفسه دعاء منزجر ملول سئم الحیاه.

و أما قوله:[و ظاهر الروایه أن الحارث بن النعمان هذا کان مسلما فارتد و لم یعرف فی الصحابه]

تحکم آخر؛فهـل یسع أحـدا أن یـدعی أنهم ضـبطوا أسـماء کل من رأی النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم و آمن به أو آمن به فارتد؟و إن یکن شیء من ذلک فلیکن هذا الخبر من ذلک القبیل.

و أما قوله:[و الأبطح بمکه و النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لم یرجع من غدیر خم الی مکه]

فهو یشـهد علی أنه أخذ لفظ الأبطح اسـما للمکان الخاص بمکه و لم یحمله علی معناه العام و هو کل مکان ذی رمل،و لا دلیل علی ما حمله علیه بل الدلیل علی خلافه و هو القصه المسروده فی الروایه و غیرها،و ربما استفید من مثل قوله:

نجوت و قد بل المرادی سیفه

من ابن أبی شیخ الأباطح طالب

أن مکه و ما والاها کانت تسمی الأباطح.

قال فی مراصد الاطلاع:أبطح بالفتح ثم السکون و فتح الطاء و الحاء المهمله کل مسیل فیه رقاق الحصی فهو أبطح،و قال ابن درید:الأبطح و البطحاء السهل المنبسط علی وجه الأرض،و قال أبو زید:الأبطح أثر المسیل ضیقا کان أو واسعا،و الأبطح یضاف الی مکه و الی منی لأن مسافته منهما واحده،و ربما کان الی منی أقرب و هو المحصب،و هی خیف بنی کنانه، و قد قیل:إنه ذو طوی،و لیس به،انتهی.

علی أن الروایه بعینها رواها غیر الثعلبی و لیس فیه ذکر من الأبطح و هی ما یأتی من روایه المجمع من طریق الجمهور و غیرها.

و بعد هذا کله فالروایه من الآحاد،و لیست من المتواترات و لا ـ مما قامت علی صحتها قرینه قطعیه،و قد عرفت من أبحاثنا المتقدمه أنا لا نعول علی الآحاد فی غیر الأحکام الفرعیه علی طبق المیزان العام العقلائی الذی علیه بناء الإنسان فی حیاته،و إنما المراد بالبحث الآنف بیان فساد ما استظهر به من الوجوه التی استنتج منها أنها موضوعه.

و فی المجمع:أخبرنا السید أبو الحمد قال:حدثنا الحاکم أبو القاسم الحسکانی قال:أخبرنا أبو عبد اللّه الشیرازی قال:أخبرنا أبو بکر الجرجانی قال:أخبرنا أبو أحمد البصری قال:

حدثنا محمد بن سهل قال:حدثنا زید بن إسماعیل مولی الأنصار قال:حدثنا محمد بن أیوب الواسطی قال:حدثنا سفیان بن عیینه عن جعفر بن محمد الصادق عن آبائه قال:لما نصب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم علیا یوم غدیر خم قال:من کنت مولاه فهذا علی مولاه،فقال(فطار،ظ) ذلک فی البلاد فقدم علی النبی النعمان بن الحارث الفهری فقال:أمرتنا من اللّه أن نشهد أن لا إله إلا ـ اللّه،و أنک رسول اللّه،و أمرتنا بالجهاد و بالحج و بالصوم و الصلاه و الزکاه فقبلنا،ثم لم ترض حتی نصبت هذا الغلام فقلت:من کنت مولاه فعلی مولاه فهذا شیء منک أو أمر من اللّه تعالی؟ فقال:بلی و اللّه الذی لا إله إلا هو إن هذا من اللّه.

فولی النعمان بن الحارث و هو یقول:اللهم إن کانت هذا هو الحق من عندک فأمطر علینا

حجاره من السماء فرماه اللّه بحجر على رأسه فقتله،فأنزل اللّه سَأَلَ سٰائِلٌ بِعَذٰابٍ وٰاقِعٍ .

أقول:و هذا المعنى مروى فى الكافى أيضا.

و عن كتاب نزول القرآن للحافظ أبى نعيم يرفعه الى على بن عامر،عن أبى الحجاف،عن الأعمش،عن عطيه قال:نزلت هذه الآيه على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى على بن أبى طالب «يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» و قد قال اللّه تعالى اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاٰمَ دِيناً .

و عن الفصول المهمه للمالكى قال:روى الإمام أبو الحسن الواحدى فى كتابه المسمى بأسباب النزول رفعه بسنده الى أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه قال:نزلت هذه الآيه «يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» يوم غدير خم فى على ابن أبى طالب.

أقول:و رواه فى فتح القدير عن ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى و كذلك فى الدر المنثور.

و قوله:«بغدير خم»هو بضم الخاء المعجمه و تشديد الميم مع التنوين اسم لغيطه على ثلاثه أميال من الجحفه عندها غدير مشهور يضاف الى الغيطه،هكذا ذكره الشيخ محيى الدين النووى.

و فى فتح القدير أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال:كنا نقرأ على عهد رسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» إن عليا مولى المؤمنين و إن لم تفعل فما بلغت رسالته و اللّه يعصمك من الناس.

أقول:و هذه نبذه من الأخبار الداله على نزوله قوله تعالى: «يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» الخ؛فى حق على عليه السّلام يوم غدير خم،و أما حديث الغدير أعنى قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم«من كنت مولاه فعلى مولاه»فهو حديث متواتر منقول من طرق الشيعه و أهل السنه بما يزيد على مائه طريق.

و قد روى عن جمع كثير من الصحابه منهم البراء بن عازب،و زيد بن أرقم،و أبو أيوب الأنصارى،و عمر بن الخطاب،و على بن ابى طالب،و سلمان الفارسى،و أبو ذر الغفارى، و عمار بن ياسر،و بريده،و سعد بن أبى وقاص،و عبد اللّه بن عباس،و أبو هريره،و جابر بن عبد اللّه،و أبو سعيد الخدرى،و أنس بن مالك،و عمران بن الحصين،و ابن أبى أوفى،و سعدانه، و امرأه زيد بن أرقم.

و قد أجمع عليه أئمه أهل البيت عليهم السّلام،و قد ناشد على عليه السّلام الناس بالرحبه فى الحديث فقام جماعه من الصحابه حضروا المجلس،فشهدوا أنهم سمعوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يقوله يوم الغدير.

و فى كثير من هذه الروايات أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال:أيها الناس أ لستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟قالوا:بلى،قال:من كنت مولاه فعلى مولاه كما فى عده من الأخبار التى رواها أحمد بن حنبل فى مسنده أو رواها غيره،و قد افردت لإحصاء طرقها و البحث فى متنها تآليف من أهل السنه و الشيعه بحثوا فيها بما لا مزيد عليه.

و عن كتاب السمطين للحموينى بإسناده عن أبى هريره قال:قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:ليله اسرى بى الى السماء السابعه سمعت نداء من تحت العرش:إن عليا آيه الهدى،و حبيب من يؤمن بى،بلغ عليا عليه السّلام،فلما نزل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من السماء أنسى ذلك فأنزل اللّه عزّ و جل «يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ» .

و فى فتح القدير:أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد اللّه قال:لما غزا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بنى أنمار نزل ذات الرقيع بأعلى نخل فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه فقال الوارث من بنى النجار:لأقتلن محمدا،فقال له أصحابه:كيف تقتله؟قال:أقول له:أعطنى سيفك فاذا أعطانيه قتلته به،فأتاه فقال:يا محمد أعطنى سيفك أشمه فأعطاه إياه فرعدت يده حتى سقط السيف من يده فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:حال اللّه بينك و بين ما تريد،فأنزل اللّه سبحانه «يٰا أَيُّهَا

الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أَنْزِلَ إِلَيْکَ» الآیه.

أقول:ثم ذکر فی فتح القدیر أن ابن حبان أخرجه فی صحیحه و أخرجه أیضا ابن مردویه عن أبی هریره نحو هذه القصه و لم یسم الرجل،و أخرج ابن جریر من حدیث محمد بن کعب القرظی نحوه،و قصه غورث بن الحارث ثابته فی الصحیح،و هی معروفه مشهوره(انتهی)، و لکن الشأن تطبیق القصه علی المحصل من معنی الآیه،و لن تنطبق أبدا.

و فی الدر المنثور و فتح القدیر و غیرهما عن ابن مردویه و الضیاء فی المختاره عن ابن عباس:

أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم سئل:أی آیه انزلت من السماء أشد علیک؟فقال:کنت بمنی أیام موسم فاجتمع مشرکوا العرب و أفناء الناس فی الموسم فانزل علی جبریل فقال «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ» الآیه.

قال:فقمت عند العقبه فنادیت:یا أیها الناس من ینصرنی علی أن ابلغ رساله ربی و له الجنه؟أیها الناس قولوا:لا إله إلا اللّه و أنا رسول اللّه إلیکم تفلحوا و تنجحوا و لکم الجنه.

قال:فما بقی رجل و لا امرأه و لا صبی إلا یرمون بالتراب و الحجاره،و یبزقون فی وجهی و یقولون:کذاب صابئ فعرض علی عارض فقال:یا محمد إن کنت رسول اللّه فقد آن لک أن تدعو علیهم کما دعا نوح علی قومه بالهلاک،فقال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم:اللهم اهد قومی فإنهم لا یعلمون.

فجاء العباس عمه فأنقذهم منه و جردهم عنه.

أقول:الآیه بتمامها لا ینطبق علی هذه القصه علی ما عرفت تفصیل القول فیه.

اللهم إلا أن تحمل الروایه علی نزول قطعه من الآیه-و هی قوله: «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ» -فی ذلک الیوم،و ظاهر الروایه یأباه،و نظیرها ما یأتی.

و فی الدر المنثور و فتح القدیر:أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن مجاهد قال:لما نزلت «بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ» قال:یا رب إنما أنا واحد کیف أصنع؟

يجتمع على اناس فنزلت «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ» .

و فيها عن الحسن:أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال:إن اللّه بعثنى برسالته فضقت بها ذرعا، و عرفت أن الناس مكذبى فوعدنى لابلغن أو ليعذبنى فأنزل «يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» .

أقول:الروايتان على ما فيهما من القطع و الإرسال فيهما ما فى سابقتهما،و نظيرتهما فى هذا التشويش بعض ما ورد فى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان يحترس برجال فلما نزلت الآيه فرقهم و قال عليه السّلام:إن ربى وعدنى أن يعصمنى.

و فى تفسير المنار:روى أهل التفسير المأثور و الترمذى و أبو الشيخ و الحاكم و أبو نعيم و البيهقى و الطبرانى عن بضعه رجال من الصحابه:أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان يحرس فى مكه قبل نزول هذه الآيه فلما نزلت ترك الحرس،و كان أبو طالب أول الناس اهتماما بحراسته،و حرسه العباس أيضا.

و فيه:و مما روى فى ذلك عن جابر و ابن عباس أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان يحرس،و كان يرسل معه عمه أبو طالب كل يوم رجالا من بنى هاشم حتى نزلت الآيه فقال:يا عم إن اللّه قد عصمنى لا حاجه لى الى من يبعث.

اقول:و الروايتان-كما ترى-تدلان على ان الآيه نزلت فى أواسط إقامه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بمكه و انه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بلغ رسالته زمانا و اشتد عليه أمر إيذاء الناس و تكذيبهم حتى خاف على نفسه منهم فترك التبليغ و الدعوه فامر ثانيا بالتبليغ،و هدّد من جانب اللّه سبحانه،و وعد بالعصمه، فاشتغل ثانيا بما كان يشتغل به اولا،و هذا شىء يجل عنه ساحه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و فى الدر المنثور و فتح القدير:أخرج عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى كلاهما فى الدلائل عن عائشه قالت:كان رسول اللّه يحرس حتى نزلت «وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ» فأخرج رأسه من القبه

فقال:أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى اللّه.

اقول:و الروايه-كما ترى-ظاهره فى نزولها بالمدينه.

و فى تفسير الطبرى عن ابن عباس فى قوله: «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ» يعنى إن كتمت آيه انزل اليك لم تبلغ رسالته.

اقول:إن كان المراد به آيه معينه أى حكم معين مما أنزل الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فله وجه صحه، و إن كان المراد به التهديد فى أى آيه فرضت أو حكم قدر فقد عرفت فيما تقدم أن الآيه لا تلائمه بمضمونها.

[سوره المائده (۵): الآيات ۶۸ الى ۸۶]

اشاره

قُلْ يٰا أَهْلَ اَلْكِتٰابِ لَسْتُمْ عَلىٰ شَيْءٍ حَتّٰى تُقِيمُوا اَلتَّوْرٰاةَ وَ اَلْإِنْجِيلَ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيٰاناً وَ كُفْراً فَلاٰ تَأْسَ عَلَى اَلْقَوْمِ اَلْكٰافِرِينَ (۶۸) إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ اَلَّذِينَ هٰادُوا وَ اَلصّٰابِئُونَ وَ اَلنَّصٰارىٰ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۹) لَقَدْ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ وَ أَرْسَلْنٰا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمٰا جٰاءَهُمْ رَسُولٌ بِمٰا لاٰ تَهْوىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ (۷۰) وَ حَسِبُوا أَلاّٰ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا ثُمَّ تٰابَ اَللّٰهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ اَللّٰهُ بَصِيرٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ (۷۱) لَقَدْ كَفَرَ اَلَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْمَسِيحُ اِبْنُ مَرْيَمَ وَ قٰالَ اَلْمَسِيحُ يٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ اَللّٰهُ عَلَيْهِ اَلْجَنَّةَ وَ مَأْوٰاهُ اَلنّٰارُ وَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ أَنْصٰارٍ (۷۲) لَقَدْ كَفَرَ اَلَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اَللّٰهَ ثٰالِثُ ثَلاٰثَةٍ وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاّٰ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمّٰا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۷۳) أَ فَلاٰ يَتُوبُونَ إِلَى اَللّٰهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷۴) مَا اَلْمَسِيحُ اِبْنُ مَرْيَمَ إِلاّٰ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ اَلرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كٰانٰا يَأْكُلاٰنِ اَلطَّعٰامَ اُنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ اَلْآيٰاتِ ثُمَّ اُنْظُرْ أَنّٰى يُؤْفَكُونَ (۷۵) قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً وَ اَللّٰهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (۷۶) قُلْ يٰا أَهْلَ اَلْكِتٰابِ لاٰ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ اَلْحَقِّ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا أَهْوٰاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَوٰاءِ اَلسَّبِيلِ (۷۷) لُعِنَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرٰائِيلَ عَلىٰ لِسٰانِ دٰاوُدَ وَ عِيسَى اِبْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمٰا عَصَوْا وَ كٰانُوا يَعْتَدُونَ (۷۸) كٰانُوا لاٰ يَتَنٰاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ (۷۹) تَرىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مٰا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اَللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي اَلْعَذٰابِ هُمْ خٰالِدُونَ (۸۰) وَ لَوْ كٰانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلنَّبِيِّ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اِتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيٰاءَ وَ لٰكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ (۸۱) لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ اَلنّٰاسِ عَدٰاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا اَلْيَهُودَ وَ اَلَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا اَلَّذِينَ قٰالُوا إِنّٰا نَصٰارىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْبٰاناً وَ أَنَّهُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ (۸۲) وَ إِذٰا سَمِعُوا مٰا أُنْزِلَ إِلَى اَلرَّسُولِ تَرىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ اَلدَّمْعِ مِمّٰا عَرَفُوا مِنَ اَلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنٰا آمَنّٰا فَاكْتُبْنٰا مَعَ اَلشّٰاهِدِينَ (۸۳) وَ مٰا لَنٰا لاٰ نُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ مٰا جٰاءَنٰا مِنَ اَلْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنٰا رَبُّنٰا مَعَ اَلْقَوْمِ اَلصّٰالِحِينَ (۸۴) فَأَثٰابَهُمُ اَللّٰهُ بِمٰا قٰالُوا جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ ذٰلِكَ جَزٰاءُ اَلْمُحْسِنِينَ (۸۵) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلْجَحِيمِ (۸۶)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ

ص :۱۸۳

وَ الْإِنْجِيلَ الى آخر الآيه؛الإنسان يجد من نفسه خلال أعماله أنه اذا أراد إعمال قوه و شده فيما يحتاج الى ذلک،وجب أن يعتمد على مستوى يستوى عليه أو يتصل به كمن أرد أن يجذب أو يدفع أو يحمل أو يقيم شيئا ثقيلا فإنه يثبت قدميه على الأرض أولا ثم يصنع ما شاء لما يعلم أن لو لا ذلک لم يتيسر له ما يريد،و قد بحث عنه فى العلوم المربوطه به.

و اذا أجرينا هذا المعنى فى الامور المعنويه كأفعال الإنسان الروحيه أو ما يتعلق من أفعال الجوارح بالامور النفسيه كان ذلک منتجا أن صدور مهام الأفعال و عظائم الأعمال يتوقف على أس معنوى و مبنى قوى نفسى كتوقف جلائل الامور على الصبر و الثبات و علو الهمه و قوه العزيمه و توقف النجاح فى العبوديه على حق التقوى و الورع عن محارم اللّه.

و من هنا يظهر أن قوله تعالى: «لَسْتُمْ عَلىٰ شَيْءٍ» كنايه عن عدم اعتمادهم على شىء يثبت عليه أقدامهم فيقدروا بذلک على إقامه التوراه و الإنجيل و ما أنزل اليهم من ربهم تلويحا الى أن دين اللّه و حكمه لها من الثقل ما لا يتيسر حمله للإنسان حتى يعتمد على أساس ثابت و لا يمكنه إقامته بمجرد هوى من نفسه كما يشير تعالى الى ذلک بالنسبه الى القرآن الكريم بقوله إِنّٰا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (المزمل/۵)،و قوله: لَوْ أَنْزَلْنٰا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خٰاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللّٰهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (الحشر/۲۱)، و قوله: إِنّٰا عَرَضْنَا الْأَمٰانَةَ عَلَى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبٰالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهٰا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهٰا الآيه(الأحزاب/۷۲).

و قال فى أمر التوراه خطابا لموسى عليه السّلام فَخُذْهٰا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهٰا (الأعراف/۱۴۵)،و قال خطابا لبنى إسرائيل خُذُوا مٰا آتَيْنٰاكُمْ بِقُوَّةٍ (البقره/۶۳) و قال خطابا ليحيى عليه السّلام يٰا يَحْيىٰ خُذِ الْكِتٰابَ بِقُوَّةٍ (مريم/۱۲).

فيعود المعنى الى أنكم فاقدوا العماد الذى يجب عليكم أن تعتمدوا عليه فى إقامه دين اللّه الذى أنزله اليكم فى كتبه و هو التقوى و الإنابه الى اللّه بالرجوع اليه مره بعد اخرى و الاتصال

به و الإیواء الی رکنه بل مستکبرون عن طاعته و متعدون حدوده.

و یظهر هذا المعنی من قوله تعالی خطابا لنبیه و المؤمنین: شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ مٰا وَصّٰی بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ وَ مٰا وَصَّیْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ فجمع الدین کله فیما ذکره، ثم قال: أَنْ أَقِیمُوا الدِّینَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِیهِ فبین أن ذلک کله یرجع الی إقامه الدین کلمه واحده من غیر تفرق ثم قال: کَبُرَ عَلَی الْمُشْرِکِینَ مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَیْهِ و ذلک لکبر الاتفاق و الاستقامه فی اتباع الدین علیهم،ثم قال: اَللّٰهُ یَجْتَبِی إِلَیْهِ مَنْ یَشٰاءُ وَ یَهْدِی إِلَیْهِ مَنْ یُنِیبُ فأنبأ أن إقامه الدین لا یتیسر إلا بهدایه من اللّه،و لا یصلح لها إلا المتصف بالإنابه التی هی الاتصال باللّه و عدم الانقطاع عنه بالرجوع الیه مره بعد اخری،ثم قال: وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ فذکر أن السبب فی تفرقهم و عدم إقامتهم للدین هو بغیهم و تعدیهم عن الوسط العدل المضروب لهم(الشوری۱۴/).

و أما قوله تعالی: وَ لَیَزِیدَنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ طُغْیٰاناً وَ کُفْراً فقد تقدم البحث عن معناه،و قوله: «فَلاٰ تَأْسَ عَلَی الْقَوْمِ الْکٰافِرِینَ» تسلیه منه تعالی لنبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی صوره النهی عن الأسی.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هٰادُوا وَ الصّٰابِئُونَ وَ النَّصٰاریٰ الآیه ظاهرها أن الصابئون عطف علی «الَّذِینَ آمَنُوا» بحسب موضعه و جماعه من النحویین یمنعون العطف علی اسم إن بالرفع قبل مضی الخبر،و الآیه حجه علیهم.

و الآیه فی مقام بیان أن لا عبره فی باب السعاده بالأسماء و الألقاب کتسمی جمع بالمؤمنین و فرقه بالذین هادوا،و طائفه بالصابئین و آخرین بالنصاری،و إنما العبره بالإیمان باللّه و الیوم الآخر و العمل الصالح،و قد تقدم البحث عن معنی الآیه فی تفسیر سوره البقره الآیه ال ۶۲ فی الجزء الأول من الکتاب.

قوله تعالی: لَقَدْ أَخَذْنٰا مِیثٰاقَ بَنِی إِسْرٰائِیلَ وَ أَرْسَلْنٰا إِلَیْهِمْ رُسُلاً الی آخر

الآيه؛هذه الآيه و ما بعدها الى عده آيات تتعرض لحال أهل الكتاب كالحجه على ما يشتمل عليه قوله تعالى: «قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لَسْتُمْ عَلىٰ شَيْءٍ حَتّٰى تُقِيمُوا التَّوْرٰاهَ وَ الْإِنْجِيلَ» الخ؛فإن هذه الجرائم و الآثام لا تدع للانسان اتصالا بربه حتى يقيم كتب اللّه معتمدا عليه.

و يمكن أن يكون هذه الآيات كالمبينه لقوله «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هٰادُوا» الخ؛و هو كالمبين لقوله: «يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لَسْتُمْ عَلىٰ شَيْءٍ» الآيه؛و المعنى ظاهر.

و قوله: «فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ» الظاهر أن كلمتى «فَرِيقاً» فى الموضعين مفعولان للفعلين بعدهما قدما عليهما للعنايه بأمرهما،و التقدير:كذبوا فريقا و يقتلون فريقا،و المجموع جواب قوله: «كُلَّمٰا جٰاءَهُمْ» الخ؛و المعنى نحو من قولنا:كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم أساءوا مواجهته و إجابته و جعلوا الرسل الآيتين فريقين:فريقا كذبوا و فريقا تقتلون.

قال فى المجمع:فإن قيل:لم عطف المستقبل على الماضى يعنى فى قوله: «فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ» ؟فجوابه:ليدل على أن ذلك من شأنهم ففيه معنى كذبوا و قتلوا و يكذبون و يقتلون مع أن قوله: «يَقْتُلُونَ» فاصله يجب أن يكون موافقا لرءوس الآى،انتهى.

قوله تعالى: وَ حَسِبُوا أَلاّٰ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا الخ؛متمم للكلام فى الآيه السابقه،و الحسبان هو الظن،و الفتنه هى المحنه التى تغرّ الإنسان أو هى أعم من كل شر و بليه،و العمى هو عدم إبصار الحق و عدم تمييز الخير من الشر،و الصمم عدم سماع العظه و عدم الإعباء بالنصيحه،و هذا العمى و الصمم معلولا حسبانهم أن لا تكون فتنه،و الظاهر أن حسبانهم ذلك معلول ما قدروا لأنفسهم من الكرامه بكونهم من شعب إسرائيل و أنهم أبناء اللّه و أحباؤه فلا يمسهم السوء و إن فعلوا ما فعلوا و ارتكبوا ما ارتكبوا.

فمعنى الآيه-و اللّه أعلم-أنهم لمكان ما اعتقدوا لأنفسهم من كرامه التهود ظنوا أن لا يصيبهم سوء أو لا يفتنون بما فعلوا فأعمى ذلك الظن و الحسبان أبصارهم عن إبصار الحق، و أصم ذلك آذانهم عن سماع ما ينفعهم من دعوه أنبيائهم.

قوله تعالى: ثُمَّ تابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ اللّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ التوبه من اللّه على عباده رجوعه تعالى بالرحمه اليهم،و هذا يدل على أن اللّه سبحانه قد كان بعدهم من رحمته و عنايته و لذلك أخذهم الحسبان المذكور و لزمهم العمى و الصمم،لكن اللّه سبحانه رجع اليهم ثانيه بالتوبه فرفع هذا الحسبان عن قلوبهم،و العمى و الصمم عن أبصارهم و آذانهم،فعرفوا أنفسهم بأنهم عباد لا كرامه لهم على اللّه إلا بالتقوى، و أبصروا الحق و سمعوا عظه اللّه لهم بلسان أنبيائه فتبين لهم أن التسمى لا ينفع شيئا.

ثم عموا و صموا كثير منهم،و إسناد العمى و الصمم الى جمعهم أولا ثم الى كثير منهم -بإتيان كثير منهم بدلا من واو الجمع- أخذ بالنصفه فى الكلام بالدلاله على أن إسناد العمى و الصمم الى جمعهم من قبيل إسناد حكم البعض الى الكل،و الواقع أن المتصف بهاتين الصفتين كثير منهم لا كلهم أولا،و إيماء الى أن العمى و الصمم المذكورين أولا شملا جميعهم على ما يدل عليه المقابله ثانيا،و أن التوبه الإلهيه لم يبطل أثرها و لم تذهب سدى بالمره بل نجا بالتوبه بعضهم فلم يأخذهم العمى و الصمم اللاحقان أخيرا ثالثا.

ثم ختم تعالى الآيه بقوله «وَ اللّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ» للدلاله على أن اللّه تعالى لا يغفله شىء،فغيره تعالى اذا أكرم قوما بكرامه ضرب ذلك على بصره بحجاب يمنعه أن يرى منهم السوء و المكروه،و ليس اللّه سبحانه على هذا النعت بل هو البصير لا يحجبه شىء عن شىء.

قوله تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ و هذا كالبيان لكون النصارى لم تنفعهم النصرانيه و الانتساب الى المسيح عليه السّلام عن تعلق الكفر بهم اذا أشركوا باللّه و لم يؤمنوا به حق إيمانه حيث قالوا:إن اللّه هو المسيح بن مريم.

و النصارى و إن اختلفوا فى كيفيه اشتمال المسيح بن مريم على جوهره الالوهيه بين قائل باشتقاق اقنوم المسيح و هو العلم من اقنوم الرب(تعالى)و هو الحياه،و ذلك الابوه و البنوه،

و قائل بأنه تعالى صار هو المسيح على نحو الانقلاب،و قائل بأنه حل فيه كما تقدم بيان ذلک تفصيلا فى الكلام على عيسى بن مريم عليه السّلام فى تفسير سوره آل عمران فى الجزء الثالث من الكتاب.

لكن الأقوال الثلاثه جميعا تقبل الانطباق على هذه الكلمه(إن اللّه المسيح ابن مريم) فالظاهر أن المراد بالذين تفوهوا بهذه الكلمه جميع النصارى الغالين فى المسيح عليه السّلام لا خصوص القائلين منهم بالانقلاب.

و توصيف المسيح بابن مريم لا يخلو من دلاله أو إشعار بسبب كفرهم و هو نسبه الالوهيه الى انسان ابن انسان مخلوقين من تراب،و أين التراب و رب الأرباب؟!

قوله تعالى: وَ قٰالَ الْمَسِيحُ يٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ الى آخر الآيه؛احتجاج على كفرهم و بطلان قولهم بقول المسيح عليه السّلام نفسه؛فإن قوله عليه السّلام:

«اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ» يدل على أنه عبد مربوب مثلهم،و قوله: «إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» يدل على أن من يجعل للّه شريكا فى الوهيته فهو مشرک كافر محرم عليه الجنه.

و فى قوله تعالى حكايه عنه عليه السّلام: «فَقَدْ حَرَّمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْوٰاهُ النّٰارُ وَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ أَنْصٰارٍ» عنايه بإبطال ما ينسبونه الى المسيح من حديث التفديه،و أنه عليه السّلام باختياره الصلب فدى بنفسه عنهم فهم مغفور لهم مرفوع عنهم التكاليف الإلهيه و مصيرهم الى الجنه و لا يمسون نارا كما تقدم نقل ذلک عنهم فى تفسير سوره آل عمران فى قصه عيسى عليه السّلام فقصه التفديه و الصلب إنما سيقت لهذا الغرض.

و ما تحكيه الآيه من قوله عليه السّلام موجود فى متفرقات الأبواب من الأناجيل كالأمر

بالتوحید (۱)،و إبطال عباده المشرک (۲)،و الحکم بخلود الظالمین فی النار (۳).

قوله تعالی: لَقَدْ کَفَرَ الَّذِینَ قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ ثٰالِثُ ثَلاٰثَهٍ أی أحد الثلاثه:الأب و الابن و الروح،أی هو ینطبق علی کل واحد من الثلاثه،و هذا لازم قولهم:إن الأب إله، و الابن إله،و الروح إله،و هو ثلاثه،و هو واحد یضاهئون بذلک نظیر قولنا:إن زید بن عمرو إنسان،فهناک امور ثلاثه هی:زید و ابن عمرو و الإنسان،و هناک أمر واحد و هو المنعوت بهذه النعوت،و قد غفلوا عن أن هذه الکثره إن کانت حقیقیه غیر اعتباریه أوجبت الکثره فی المنعوت حقیقه،و أن المنعوت إن کان واحدا حقیقه أوجب ذلک أن تکون الکثره اعتباریه غیر حقیقیه فالجمع بین هذه الکثره العددیه و الوحده العددیه فی زید المنعوت بحسب الحقیقه مما یستنکف العقل عن تعقله.

و لذا ربما ذکر بعض الدعاه من النصاری أن مسأله التثلیث من المسائل المأثوره من مذاهب الأسلاف التی لا تقبل الحل بحسب الموازین العلمیه،و لم یتنبه أن علیه أن یطالب الدلیل علی کل دعوی یقرع سمعه سواء کان من دعاوی الأسلاف أو من دعاوی الأخلاف.

قوله تعالی: وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاّٰ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ الی آخر الآیه؛رد منه تعالی لقولهم «إِنَّ اللّٰهَ ثٰالِثُ ثَلاٰثَهٍ» بأن اللّه سبحانه لا یقبل بذاته المتعالیه الکثره بوجه من الوجوه فهو تعالی فی ذاته واحد،و اذا اتصف بصفاته الکریمه و أسمائه الحسنی لم یزد ذلک علی ذاته الواحده شیئا،و لا الصفه اذا أضیفت الی الصفه أورث ذلک کثره و تعددا فهو تعالی احدی الذات لا ینقسم لا فی خارج و لا فی وهم و لا فی عقل.

فلیس اللّه سبحانه بحث یتجزأ فی ذاته الی شیء و شیء قط،و لا أن ذاته بحیث یجوز أن

۱- ۱) .الاصحاح ۱۲:۲۹(انجیل مرقس).

۲- ۲) .الاصحاح ۶:۲۴(انجیل متی).

۳- ۳) .الاصحاح ۲۵:۳۱،۱۳:۵۰-۴۷(انجیل متی ایضا).

یضاف الیه شیء فیصیر اثنین أو أکثر،کیف؟و هو تعالی مع هذا الشیء الذی تراد إضافته الیه تعالی فی وهم أو فرض أو خارج.

فهو تعالی واحد فی ذاته لکن لا بالوحده العددیه التی لسائر الأشیاء المتکون منها الکثرات،و لا منعوت بکثره فی ذات أو اسم،أو صفه،کیف؟و هذه الوحده العددیه و الکثره المتألفه منها کلتاهما من آثار صنعه و إیجاده فکیف یتصف بما هو من صنعه؟

و فی قوله تعالی: «وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاّٰ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ» من التأکید فی إثبات التوحید ما لیس فی غیره حیث سیق الکلام بنحو النفی و الاستثناء،ثم أدخل «مِنْ» علی النفی لإفاده تأکید الاستغراق، ثم جیء بالمستثنی و هو قوله: «إِلٰهٌ وٰاحِدٌ» بالتنکیر المفید للتنویع و لو أورد معرفه کقولنا«إلا الإله الواحد»لم یفد ما یرام من حقیقه التوحید.

فالمعنی:لیس فی الوجود شیء من جنس الإله أصلا إلا إله واحد نوعا من الوحده لا یقبل التعدد أصلا لا تعدد الذات و لا تعدد الصفات،لا خارجا و لا فرضا،و لو قیل:و ما من إله إلا اللّه الواحد لم یدفع به قول النصاری(إن اللّه ثالث ثلاثه)فإنهم لا ینکرون الوحده فیه تعالی،و إنما یقولون:إنه ذات واحده لها تعین بصفاتها الثلاث،و هی واحده فی عین أنها کثیره حقیقه.

و لا یندفع ما احتملوه من المعنی إلا بإثبات وحده لا تتألف منه کثره أصلا،و هو الذی یتوخاه القرآن الکریم بقوله «وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاّٰ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ» .

و هذا من لطائف المعانی التی یلوح إلیها الکتاب الإلهی فی حقیقه معنی التوحید و سنغور فی البحث المستوفی عنه فی بحث قرآنی خاص ثم فی بحث عقلی و آخر نقلی إیفاء لحقه.

قوله تعالی: وَ إِنْ لَمْ یَنْتَهُوا عَمّٰا یَقُولُونَ لَیَمَسَّنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ تهدید لهم بالعذاب الألیم الاخروی الذی هو ظاهر الآیه الکریمه.

و لما کان القول بالتثلیث الذی تتضمنه کلمه «إِنَّ اللّٰهَ ثٰالِثُ ثَلاٰثَهٍ» لیس فی وسع عقول

عامه الناس أن تتعقله فأغلب النصارى يتلقونه قولا مذهبيا مسلما بلفظه من غير أن يعقلوا معناه،و لا أن يطمعوا فى تعقله كما ليس فى وسع العقل السليم أن يعقله عقلا صحيحا،و إنما يتعقل كتعقل الفروض المحاله كالإنسان اللاإنسان،و العدد الذى ليس بواحد و لا كثير و لا زوج و لا فرد فلذلك تتسلمه العامه تسلما من غير بحث عن معناه،و إنما يعتقدون فى النبوه و الابوه شبه معنى التشريف فهؤلاء فى الحقيقه ليسوا من أهل التثليث،و إنما يمضغون الكلمه مضغا،و ينتمون إليها انتماء بخلاف غير العامه منهم و هم الذين ينسب اللّه سبحانه اليهم اختلاف المذاهب و يقرر أن ذلك ببغيهم كما قال تعالى: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ - الى أن قال- وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ (الشورى/۱۴).

فالكفر الحقيقى الذى لا ينتهى الى استضعاف-و هو الذى فيه إنكار التوحيد و التكذيب بآيات اللّه-إنما يتم فى بعضهم دون كلهم،و إنما أوعد اللّه بالنار الخالد الذين كفروا و كذبوا بآيات اللّه،قال وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (البقره/۳۹)الى غير ذلك من الآيات،و قد مر الكلام فى ذلك فى تفسير قوله تعالى: إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ الآيه(النساء/۹۸).

و لعل هذا هو السر فى التبعيض الظاهر فى قوله: «لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ» أو أن المراد به الإشاره الى أن من النصارى من لا يقول بالتثليث،و لا يعتقد فى المسيح إلا أنه عبد اللّه و رسوله،كما كانت على ذلك مسيحيو الحبشه و غيرها على ما ضبطه التاريخ فالمعنى:لئن لم ينته النصارى عما يقولون(نسبه قول بعض الجماعه الى جميعهم)ليمسن الذين كفروا منهم -و هم القائلون بالتثليث منهم-عذاب أليم.

و ربما وجهوا الكلام أعنى قوله: «لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ» بأنه من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر،و الأصل:ليمسنهم(انتهى)،و إنما عدل الى وضع الموصول وصلته مكانه ليدل على أن ذلك القول كفر باللّه،و أن الكفر سبب العذاب الذى توعدهم به.

و هذا وجه لا بأس به لو لا أن الآيه مصدره بقوله «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاثَهٍ» و نظيره فى البعد قول بعض آخر:إن«من»فى قوله: «مِنْهُمْ» بيانيه فإنه قول من غير دليل.

أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ تحضيض على التوبه و الاستغفار،و تذكير بمغفره اللّه و رحمته،أو إنكار أو توبيخ.

قوله تعالى: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ رد لقولهم «إِنَّ اللّهَ ثالِثُ ثَلاثَهٍ» أو لقولهم هذا و قولهم المحكى فى الآيه السابقه «إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» جميعا،و محصله اشتمال المسيح على جوهره الالوهيه،بأن المسيح لا يفارق سائر رسل اللّه الذين توفاهم اللّه من قبله كانوا بشرا مرسلين من غير أن يكونوا أربابا من دون اللّه سبحانه،و كذلك أمه مريم كانت صديقه تصدق بآيات اللّه تعالى و هى بشر،و قد كان هو و أمه جميعا يأكلان الطعام،و أكل الطعام مع ما يتعقبه مبنى على أساس الحاجه التى هو أول إماره من أمارات الإمكان و المصنوعيه فقد كان المسيح عليه السّلام ممكنا متولدا من ممكن،و عبدا و رسولا مخلوقا من أمه كانا يعبدان اللّه،و يجريان فى سبيل الحاجه و الافتقار من دون أن يكون ربا.

و ما بيد القوم من كتب الإنجيل معترفه بذلك تصرح بكون مريم فتاه كانت تؤمن باللّه و تعبده،و تصرح بأن عيسى تولد منها كالانسان من الإنسان،و تصرح بأن عيسى كان رسولا من اللّه الى الناس كسائر الرسل و تصرح بأن عيسى و أمه مريم كانا يأكلان الطعام.

فهذه امور صرحت بها الأناجيل،و هى حجج على كونه عليه السّلام عبدا رسولا.

و يمكن أن تكون الآيه مسوقه لنفى ألوهيه المسيح و أمه كليهما على ما يظهر من قوله تعالى:

أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتَّخِذُونِى وَ أُمِّى إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ (المائده/۱۱۶)أنه كان هناك من يقول بالوهيتها كالمسيح أو أن المراد به اتخاذها إلها كما ينسب الى أهل الكتاب أنهم اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون اللّه،و ذلك بالخضوع لها و لهم بما لا يخضع لبشر بمثله.

و كيف كان فالآيه على هذا التقدير تنفى عن المسيح و أمه معا الالوهيه بأن المسيح كان رسولا كسائر الرسل،و أمه كانت صديقه،و هما معا كانا يأكلان الطعام،و ذلك كله ينافى الالوهيه.

و فى قوله تعالى: «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» حيث وصف الرسل بالخلو من قبله،و هو الموت تأكيد للحجه بكونه بشرا يجوز عليه الموت و الحياه كما جاز على الرسل من قبله.

قوله تعالى: اُنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيٰاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنّٰى يُؤْفَكُونَ الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و هو فى مقام التعجيب أى تعجب من كيفيه بياننا لهم الآيات،و هو أوضح بيان لأظهر آيه فى بطلان دعواهم الوهيه المسيح،و كيفيه صرفهم عن تعقل هذه الآيات؛فإلى أى غايه يصرفون عنها،و لا تلتفت الى نتيجتها-و هى بطلان دعواهم-عقولهم؟

قوله تعالى: قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً وَ اللّٰهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ كان الخضوع لأمر الربوبيه إنما انتشر بين البشر فى أقدم عهوده،و خاصه بين العامه منهم-و عامتهم كانوا يعبدون الأصنام-طمعا فى أن يدفع الرب عنهم الشر و يوصل اليهم النفع كما يتحصل من الأبحاث التاريخيه،و أما عباده اللّه لأنه اللّه عز اسمه فلم يكن يعدو الخواص منهم كالأنبياء و الربانيين من اممهم.

قوله تعالى: قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لاٰ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ خطاب آخر للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأمره أن يدعو أهل الكتاب الى عدم الغلو فى دينهم،و أهل الكتاب و خاصه النصارى مبتلون بذلك،و«الغالى»المتجاوز عن الحد بالإفراط،و يقابله«القالى»فى طرف التفريط.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَتَّبِعُوا أَهْوٰاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَوٰاءِ السَّبِيلِ ظاهر السياق أن المراد بهؤلاء القوم الذين نهوا عن اتباع أهوائهم هم المتبوعون المطاعون فى آرائهم و أوامرهم فيكون ضلالهم لمكان التزامهم بآرائهم؛إضلالهم كثيرا هو اتباع غيرهم لهم،و ضلالهم عن سواء السبيل هو المتحصل لهم من ضلالهم

و إضلالهم،و هو ضلال على ضلال.

و كذلك ظاهر السياق أن المراد بهم هم الوثنيه و عبده الأصنام فإن ظاهر السياق أن الخطاب إنما هو لجميع أهل الكتاب لا للمعاصرين منهم للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم حتى يكون نهيا لمتأخريهم عن اتباع متقدميهم.

قوله تعالى: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ الى آخر الآيتين؛إخبار بأن الكافرين منهم ملعونون بلسان أنبيائهم،و فيه تعريض لهؤلاء الذين كفرهم اللّه فى هذه الآيات من اليهود ملعونين بدعوه أنبيائهم أنفسهم، و ذلك بسبب عصيانهم لأنبيائهم،و هم كانوا مستمرين على الاعتداء و قوله: «كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ» الخ؛بيان لقوله «وَ كانُوا يَعْتَدُونَ» .

قوله تعالى: تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الخ؛و هذا من قبيل الاستشهاد بالحس على كونهم معتدين فإنهم لو قدروا دينهم حق قدره لزموه و لم يتعدوه، و لازم ذلك أن يتولوا أهل التوحيد و يتبرءوا من الذين كفروا لأن أعداء ما يقدسه قوم أعداء لذلك القوم،فاذا تحابوا و توالوا دل ذلك على إعراض ذلك القوم و تركهم ما كانوا يقدسونه و يحترمونه،و صديق العدو عدو،ثم ذمهم اللّه تعالى بقوله «لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ» و هو ولايه الكفار عن هوى النفس،و كان جزاؤه و وباله «أَنْ سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِى الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ» ،ففى الآيه وضع جزاء العمل و عاقبته موضع العمل كأن أنفسهم قدمت لهم جزاء العمل بتقديم نفس العمل.

وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ النَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ أى و لو كان أهل الكتاب هؤلاء يؤمنون باللّه و النبى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم و ما أنزل اليه،أو نبى أنفسهم كموسى مثلا و ما انزل اليه كالتوراه مثلا ما اتخذوا اولئك الكفار أولياء لأن الإيمان يجبّ سائر الأسباب،و لكن كثيرا منهم فاسقون متمردون عن الإيمان.

قوله تعالى: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا -الى قوله- نَصارى لما بين سبحانه فى الآيات السابقه الرذائل المشتركه بين أهل الكتاب عامه،و بعض ما يختص ببعضهم كقول اليهود يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ و قول النصارى «إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» ختم الآيات بما يختص به كل من الطائفتين اذا قيس حالهم من المؤمنين و دينهم،و أضاف الى حالهم حال المشركين ليتم الكلام فى وقع الإسلام من قلوب الامم غير المسلمه من حيث قربهم و بعدهم من قبوله.

و يتم الكلام فى أن النصارى أقرب تلك الامم موده للمسلمين و اسمع لدعوتهم الحقه.

و إنما عدهم اللّه سبحانه أقرب موده للمسلمين لما وقع من إيمان طائفه منهم بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم كما يدل عليه قوله فى الآيه التاليه: «وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ» الخ؛لكن لو كان إيمان طائفه تصحح هذه النسبه الى جميعهم كان من الواجب أن تعد اليهود و المشركون كمثل النصارى و ينسب اليهما نظير ما نسب اليهم لمكان إسلام طائفه من اليهود كعبد اللّه بن سلام و أصحابه، و إسلام عده من مشركى العرب و هم عامه المسلمين اليوم فتخصيص النصارى بمثل قوله:

«وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ» الخ؛دون اليهود و المشركين يدل على حسن إقبالهم على الدعوه الإسلاميه و إجابه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم مع أنهم على خيار بين أن يقيموا على دينهم و يؤدوا الجزيه، و بين أن يقبلوا الإسلام،أو يحاربوا.

و من المعلوم أن قوله تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا» من قبيل بيان الضابط العام فى صوره خطاب خاص نظير ما مر فى الآيات السابقه «تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» و «تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ» .

قوله تعالى: ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ القسيس معرب«كشيش»و الرهبان جمع الراهب و قد يكون مفردا،قال الرغب:الرهبه و الرهب مخافه مع تحرز-الى أن قال-و الترهب التعبد،و الرهبانيه غلو فى تحمل التعبد من

فرط الرهبه،قال تعالى: «وَ رَهْبٰانِيَّةً ابْتَدَعُوهٰا» و الرهبان يكون واحدا و جمعا فمن جعله واحدا جمعه على رهابين،انتهى.

علل تعالى ما ذكره من كون النصارى أقرب موده و آنس قلوبا للذين آمنوا بخصال ثلاث يفقدها غيرهم من اليهود و المشركين،و هى أن فيهم علماء و ان فيهم رهبانا و زهادا،و أنهم لا يستكبرون و ذلك مفتاح تهيئهم للسعاده.

قوله تعالى: وَ إِذٰا سَمِعُوا مٰا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ الخ؛فاضت العين بالدمع سال دمعها بكثره،و«من»فى قوله: «مِنَ الدَّمْعِ» للابتداء، و فى قوله:«مما»للنشوء،و فى قوله:«من الحق»بيانيه.

قوله تعالى: وَ مٰا لَنٰا لاٰ نُؤْمِنُ بِاللّٰهِ الخ؛لفظه «يُدْخِلَنٰا» كأنها مضمنه معنى الجعل،و لذلك عدى بمع،و المعنى:يجعلنا ربنا مع القوم الصالحين مدخلا لنا فيهم.

و فى هذه الأفعال و الأقوال التى حكاها اللّه تعالى عنهم تصديق ما ذكره عنهم أنهم أقرب موده للذين آمنوا،و تحقيق أن فيهم العلم النافع و العمل الصالح و الخضوع للحق حيث كان فيهم قسيسون و رهبان و هم لا يستكبرون.

قوله تعالى: فَأَثٰابَهُمُ اللّٰهُ الى آخر الآيتين؛«و الإثابه»المجازاه،و الآيه الاولى ذكر جزائهم،و الآيه الثانيه فيها ذكر جزاء من خالفهم على طريق المقابله استيفاء للأقسام (۱)(۲)(۳)(۴).

ص: ۱۹۶

۱- ۱) .المائده ۶۸-۸۶:بحث روائى فى:لعن بنى اسرائيل على لسان داود و عيسى بن مريم؛مسخ جماعه من بنى اسرائيل؛عيسى بن مريم عليه السّلام؛هجره جماعه من المسلمين الى الحبشه.

۲- ۲) .المائده ۶۸-۸۶:كلام فى معنى التوحيد فى القرآن.

۳- ۳) .المائده ۶۸-۸۶:بحث روائى فى التوحيد.

۴- ۴) .المائده ۶۸-۸۶:بحث تاريخى فى توحيد الصانع.

[سوره المائده (۵): الآيات ۸۷ الى ۸۹]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُحَرِّمُوا طَيِّبٰاتِ مٰا أَحَلَّ اَللّٰهُ لَكُمْ وَ لاٰ تَعْتَدُوا إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ اَلْمُعْتَدِينَ (۸۷) وَ كُلُوا مِمّٰا رَزَقَكُمُ اَللّٰهُ حَلاٰلاً طَيِّباً وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ اَلَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۸۸) لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اَللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمٰانِكُمْ وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ اَلْأَيْمٰانَ فَكَفّٰارَتُهُ إِطْعٰامُ عَشَرَةِ مَسٰاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مٰا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيٰامُ ثَلاٰثَةِ أَيّٰامٍ ذٰلِكَ كَفّٰارَةُ أَيْمٰانِكُمْ إِذٰا حَلَفْتُمْ وَ اِحْفَظُوا أَيْمٰانَكُمْ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اَللّٰهُ لَكُمْ آيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۸۹)

بيان:

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُحَرِّمُوا طَيِّبٰاتِ مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ لَكُمْ ، قال الراغب فى المفردات:الحرام الممنوع منه إما بتسخير إلهى،و إما بمنع قهرى،و إما بمنع من جهه العقل أو جهه الشرع أو من جهه من يرتسم أمره،انتهى موضع الحاجه.

و قال أيضا:أصل الحل حل العقده،و منه قوله عزّ و جل: وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسٰانِى ، و حللت:نزلت،أصله من حل الأحمال عند النزول ثم جرد استعماله للنزول فقيل:حل حلولا و أحله غيره،قال عزّ و جل أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دٰارِهِمْ، وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ الْبَوٰارِ ، و يقال:حل الدين وجب أداؤه،و الحله القوم النازلون وحى حلال مثله،و المحله مكان النزول،و عن حل العقده استعير قولهم:حل الشىء حلا قال اللّه تعالى «وَ كُلُوا مِمّٰا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ

حَلاٰلاً طَيِّباً» ،و قال تعالى: هٰذٰا حَلاٰلٌ وَ هٰذٰا حَرٰامٌ ،انتهى.

فالظاهر أن مقابله الحل الحرمه،و كـذا التقابل بين الحل و الحرم أو الإحرام من جهه تخيل العقـد فى المنع الذى هو معنى الحرمه و غيرهـا ثم مقابلته بالحل المسـتعار لمعنى الجواز و الإباحه،و اللفظان أعنى الحل و الحرمه من الحقائق العرفيه قبل الإسـلام دون الشرعيه أو المتشرعيه.

و الآـيه أعنى قوله: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُحَرِّمُوا» الـخ؛تنهى المؤمنين عن تحريم ما أحل اللّه لهم،و تحريم ما أحل اللّه هو جعله حراما كما جعله اللّه تعالى حلالا و ذلك إما بتشـريع قبال تشـريع،و إما بالمنع أو الامتناع بأن يترك شـيئا من المحللات بالامتناع عن إتيانه أو منع نفسه أو غيره من ذلك فإن ذلك كله تحريم و منه و منازعه للّه سـبحانه فى سـلطانه و اعتداء عليه ينافى الايمان بـاللّه و آيـاته،و لـذلك صـدّر النهى بقوله «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» ،فإن المعنى:لا تحرموا ما أحل اللّه لكم و قـد آمنتم به و سـلمتم لأمره.

و يؤيده أيضا قوله فى ذيل الآيه التاليه: «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ» .

و إضافه قوله: «طَيِّبٰاتِ» الى قوله: «مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ لَكُمْ» -مع أن الكلام تام بدونه-للإشاره الى تتميم سبب النهى فإن تحريم المؤمنين لما أحل اللّه لهم على أنه اعتـداء منهم على اللّه فى سـلطانه،و نقض لإيمانهم باللّه و تسـليمهم لأمره كـذلك هو خروج منهم عن حكم الفطره،فإن الفطره تسـتطيب هذه المحللات من غير اسـتخباث،و قد أخبر اللّه سـبحانه عن ذلك فيما نعت به نبيه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم و الشـريعه التى جاء بها حيث قال اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِـدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْـدَهُمْ فِى التَّوْرٰاهِ وَ الْإِنْجِيـلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهٰاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبٰاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبٰائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْـرَهُمْ وَ الْأَغْلاٰلَ الَّتِى كٰانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الأعراف/ ۱۵۷).

فمحصل مفاد الآیه النهی عن تحریم ما أحله اللّه بالاجتناب عنه و الامتناع من الاقتراب منه فإنه یناقض الإیمان باللّه و آیاته و یخالف کون هذه المحللات طیبات لا خباثه فیها حتی یجتنب عنها لأجلها،و هو اعتداء و اللّه لا یحب المعتدین.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَعْتَدُوا إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ الْمُعْتَدِینَ قد عرفت أن ظاهر السیاق أن المراد بالاعتداء هو التحریم المذکور فی الجمله السابقه علیه فقوله «وَ لاٰ تَعْتَدُوا یجری مجری التأکید لقوله «لاٰ تُحَرِّمُوا» الخ.

قوله تعالی: وَ کُلُوا مِمّٰا رَزَقَکُمُ اللّٰهُ حَلاٰلاً طَیِّباً الی آخر الآیه؛ظاهر العطف أعنی الانعطاف قوله: «وَ کُلُوا» علی قوله: «لاٰ تُحَرِّمُوا» أن یکون مفاد هذه الآیه بمنزله التکرار و التأکید لمضمون الآیه السابقه،و یؤیده سیاق صدر الآیه من حیث اشتماله علی قوله:

«حَلاٰلاً طَیِّباً» ،و هو یحاذی قوله فی الآیه السابقه: «طَیِّبٰاتِ مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ» ،و کذا ذیلها من حیث المحاذاه الواقعه بین قوله فیه: «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ» و قوله فی الآیه السابقه: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا» و قد مر بیانه.

و علی هذا فقوله:«کلوا»الخ؛من قبیل ورود الأمر عقیب الحظر،و تخصیص قوله:«کلوا» بعد تعمیم قوله: «لاٰ تُحَرِّمُوا طَیِّبٰاتِ» الخ؛إما تخصیص بحسب اللفظ فقط،و المراد بالأکل مطلق التصرف فیما رزقه اللّه تعالی من طیبات نعمه،سواء کان بالأکل بمعنی التغذی أو بسائر وجوه التصرف،و قد تقدم مرارا أن استعمال الأکل بمعنی مطلق التصرف استعمال شائع ذائع.

و إما أن یکون المراد-و من الممکن ذلک-الأکل بمعناه الحقیقی،و یکون سبب نزول الآیتین تحریم بعض المؤمنین فی زمن النزول المأکولات الطیبه علی أنفسهم فتکون الآیتان نازلتین فی النهی عن ذلک،و قد عمم النهی فی الآیه الاولی للأکل و غیره إعطاء للقاعده الکلیه لکون ملاک النهی یعم محللات الأکل و غیرها علی حد سواء.

و قوله: «مِمّٰا رَزَقَکُمُ اللّٰهُ» لازم ما استظهرناه من معنی الآیتین کونه مفعولا لقوله«کلوا»

و قوله: «حَلاٰلاً طَيِّباً» حالين من الموصول و بذلك تتوافق الآيتان،و ربما قيل:إن قوله:

«حَلاٰلاً طَيِّباً» مفعول قوله: «كُلُوا» و قوله: «مِمّٰا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ» متعلق بقوله «كُلُوا» أو حال من الحلال قدم عليه لكونه نكره،أو كون قوله: «حَلاٰلاً» وصفا لمصدر محذوف،و التقدير:

رزقا حلالا طيبا الى غير ذلک.

قوله تعالى: لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ اللغو ما لا يترتب عليه أثر من الأعمال،و الأيمان جمع يمين و هو القسم و الحلف؛قال الراغب فى المفردات:و اليمين فى الحلف مستعار من اليد اعتبارا بما يفعله المعاهد و المحالف و غيره،قال تعالى: أَمْ لَكُمْ أَيْمٰانٌ عَلَيْنٰا بٰالِغَةٌ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَهِ وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ «لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ» انتهى،و التعقيد مبالغه فى العقد و قرئ:

عقدتم بالتخفيف،و قوله: «فِي أَيْمٰانِكُمْ» متعلق بقوله «لاٰ يُؤٰاخِذُكُمْ» أو بقوله «بِاللَّغْوِ» و هو أقرب.

و التقابل الواقع بين قوله: «بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ» و قوله: «بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ» يعطى أن المراد باللغو فى الأيمان ما لا يعقد عليه الحالف،و إنما يجرى على لسانه جريا لعاده اعتادها أو لغيرها و هو قوله-و خاصه فى قبيل البيع و الشرى-:لا و اللّه،بلى و اللّه،بخلاف ما عقد عليه عقدا بالالتزام بفعل أو ترک كقول القائل:و اللّه لأفعلن كذا،و و اللّه لأتركن كذا.

و أما قوله: «وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ» فلا يشمل إلا اليمين الممضاه شرعا لمكان قوله فى ذيل الآيه: «وَ احْفَظُوا أَيْمٰانَكُمْ» فإنه لا مناص عن شموله لهذه الأيمان بحسب إطلاق لفظه،و لا معنى للأمر بحفظ الأيمان التى ألغى اللّه سبحانه اعتبارها فالمتعين أن اللغو من الأيمان فى الآيه ما لا عقد فيه،و ما عقد عليه هو اليمين الممضاه.

قوله تعالى: فَكَفّٰارَتُهُ إِطْعٰامُ عَشَرَهِ مَسٰاكِينَ -الى قوله- أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَهٍ ، الكفاره هى العمل الذى يستر به مساءه المعصيه بوجه،من الكفر بمعنى الستر،قال تعالى:

نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ (النساء/۳۱)،قال الراغب:و الكفاره ما يغطى الاثم و منه كفاره اليمين،انتهى.

و قوله: «فَكَفّارَتُهُ» تفريع على اليمين باعتبار مقدر هو نحو من قولنا:فان حنثتم فكفارته كذا،و ذلك لأن فى لفظ الكفاره دلاله على معصيه تتعلق به الكفاره،و ليست هذه المعصيه هى نفس اليمين،و لو كان كذلك لم يورد فى ذيل الآيه قوله: «وَ احْفَظُوا أَيْمانَكُمْ» اذ لا معنى لحفظ ما فيه معصيه فالكفاره إنما تتعلق بحنث اليمين لا بنفسها.

و منه يظهر أن المؤاخذه المذكوره فى قوله: «وَ لٰكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ» هى المؤاخذه على حنث اليمين لا على نفس إيقاعها،و إنما أضيفت الى اليمين لتعلق متعلقها-أعني الحنث-بها،فقوله «فَكَفّارَتُهُ» متفرع على الحنث لا المقدر لدلاله قوله: «يُؤاخِذُكُمْ» الخ؛ عليه،و نظير هذا البيان جار فى قوله: «ذٰلِكَ كَفّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ» و تقديره:اذا حلفتم و حنثتم.

و قوله: «إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» خصال ثلاث يدل الترديد على تعيين إحداها عند الحنث من غير جمع،و يدل قوله بعده: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيّامٍ» على كون الخصال المذكوره تخييريه من غير لزوم مراعاه الترتيب الواقع بينها فى الذكر،و إلا لغى التفريغ فى قوله: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ» الخ؛و كان المتعين بحسب اقتضاء السياق أن يقال:أو صيام ثلاثه أيام.

و فى الآيه أبحاث فرعيه كثيره مرجعها علم الفقه.

قوله تعالى: ذٰلِكَ كَفّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ تقدم أن الكلام فى تقدير:اذا حلفتم و حنثتم،و فى قوله: «ذٰلِكَ كَفّارَةُ أَيْمانِكُمْ» و كذا فى قوله: «كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ» نوع التفات و رجوع من خطاب المؤمنين الى خطاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و لعل النكته فيه أن الجملتين جميعا من البيان الإلهى للناس إنما هو بوساطه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فكأن فى ذلك حفظا لمقامه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى بيان ما

أوحى اليه للناس كما قال تعالى: وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّٰاسِ مٰا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (النحل/ ۴۴).

قوله تعالى: كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ آيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى يبين لكم بواسطه نبيه أحكامه لعلكم تشكرونه بتعلمها و العمل بها (۱).

[سوره المائده (۵): الآيات ۹۰ الى ۹۳]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا اَلْخَمْرُ وَ اَلْمَيْسِرُ وَ اَلْأَنْصٰابُ وَ اَلْأَزْلاٰمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ اَلشَّيْطٰانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۹۰) إِنَّمٰا يُرِيدُ اَلشَّيْطٰانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ اَلْعَدٰاوَةَ وَ اَلْبَغْضٰاءَ فِي اَلْخَمْرِ وَ اَلْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اَللّٰهِ وَ عَنِ اَلصَّلاٰةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (۹۱) وَ أَطِيعُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُوا اَلرَّسُولَ وَ اِحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمٰا عَلىٰ رَسُولِنَا اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِينُ (۹۲) لَيْسَ عَلَى اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ جُنٰاحٌ فِيمٰا طَعِمُوا إِذٰا مَا اِتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ ثُمَّ اِتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اِتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اَللّٰهُ يُحِبُّ اَلْمُحْسِنِينَ (۹۳)

بيان:

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ الى آخر الآيه؛قد تقدم

ص: ۲۰۲

۱- ۱) .المائده ۸۷-۸۹:بحث روائى فى:النهى عن تحريم طيبات ما أحل اللّه؛الايمان.

الکلام فی أول السوره فی معنی الخمر و المیسر و الأنصاب و الأزلام فالخمر ما یخمر العقل من کل مائع مسکر عمل بالتخمیر،و المیسر هو القمار مطلقا،و الأنصاب هی الأصنام أو الحجاره التی کانت تنصب لذبح القرابین علیها و کانت تحترم و یتبرک بها،و الأزلام هی الأقداح التی کانت یستقسم بها،و ربما کانت تطلق علی السهام التی کانت یتفاءل بها عند ابتداء الامور و العزیمه علیها کالخروج الی سفر و نحوه لکن اللفظ قد وقع فی أول السوره للمعنی الأول لوقوعه بین محرمات الأکل فیتأید بذلک کون المراد به هاهنا هو ذلک.

و أما قوله: رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّیْطانِ فالرجس الشیء القذر علی ما ذکره الراغب فی مفرداته فالرجاسه بالفتح کالنجاسه و القذاره هو الوصف الذی یبتعد و یتنزه عن الشیء بسببه لتنفر الطبع عنه.

و کون هذه المعدودات من الخمر و المیسر و الأنصاب و الأزلام رجسا هو اشتمالها علی وصف لا تستبیح الفطره الإنسانیه الاقتراب منها لأجله،و لیس إلا أنها بحیث لا تشتمل علی شیء مما فیه سعاده إنسانیه أصلا سعاده یمکن أن تصفو و تتخلص فی حین من الأحیان کما ربما أومأ الیه قوله تعالی: یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِرِ قُلْ فِیهِما إِثْمٌ کَبِیرٌ وَ مَنافِعُ لِلنّاسِ وَ إِثْمُهُما أَکْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما (البقره/۲۱۹)،حیث غلب الإثم علی النفع و لم یستثن.

و لعله لذلک نسب هذه الأرجاس الی عمل الشیطان و لم یشرک له أحدا،ثم قال فی الآیه التالیه «إِنَّما یُرِیدُ الشَّیْطانُ أَنْ یُوقِعَ بَیْنَکُمُ الْعَداوَهَ وَ الْبَغْضاءَ فِی الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِرِ وَ یَصُدَّکُمْ عَنْ ذِکْرِ اللّهِ وَ عَنِ الصَّلاهِ» (۱).

و أما قوله تعالی: فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ فتصریح بالنهی بعد بیان المفسده لیکون أوقع فی النفوس ثم ترج للفلاح علی تقدیر الاجتناب،و فیه أشد التأکید للنهی لتثبیته

۱- ۱) .المائده ۹۰-۹۳:بحث فی:الشیطان؛معنی کون الخمر اضرابها رجسا.

ان لا رجاء لفلاح من لا يجتنب هذه الأرجاس.

قوله تعالى: إِنَّمٰا يُرِيدُ الشَّيْطٰانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدٰاوَةَ وَ الْبَغْضٰاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ الى آخر الآيه؛قال الراغب فى المفردات:العدو التجاوز و منافاه الالتئام فتاره يعتبر بالقلب فيقال له:العداوه و المعاداه،و تاره بالمشى فيقال له:العدو،و تاره فى الإخلال بالعداله فى المعامله فيقال له:العدوان و العدو قال فَيَسُبُّوا اللّٰهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ و تاره بأجزاء المقر فيقال له:العدواء يقال:مكان ذو عدواء اى غير متلائم الأجزاء فمن المعاداه يقال:رجل عدو و قوم عدو قال بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ و قد يجمع على عدى (بالكسر فالفتح)و اعداء قال وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدٰاءُ اللّٰهِ ،انتهى.

و البغض و البغضاء خلاف الحب،و الصد الصرف،و الانتهاء قبول النهى و خلاف الابتداء.

ثم إن الآيه-كما تقدم-مسوقه بيانا لقوله «مِنْ عَمَلِ الشَّيْطٰانِ» أو لقوله «رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطٰانِ» اى إن حقيقه كون هذه الامور من عمل الشيطان أو رجسا من عمل الشيطان ان الشيطان لا بغيه له و لا غايه فى الخمر و الميسر-اللذين قيل:إنهما رجسان من عمله فقط-إلا ان يوقع بينكم العداوه و البغضاء بتجاوز حدودكم و بغض بعضكم بعضا،و ان يصرفكم عن ذكر اللّٰه و عن الصلاه فى هذه الامور جميعا اعنى الخمر و الميسر و الانصاب و الأزلام (1).

و أما قوله تعالى: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ فهو استفهام توبيخى فيه دلاله ما على أن المسلمين لم يكونوا ينتهون عن المناهى السابقه على هذا النهى،و الآيه أعنى قوله: «إِنَّمٰا يُرِيدُ الشَّيْطٰانُ أَنْ يُوقِعَ» الخ؛كالتفسير يفسر بها قوله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمٰا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنٰافِعُ لِلنّٰاسِ وَ إِثْمُهُمٰا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمٰا أى إن النفع الذى فرض فيهما مع الإثم ليس بحيث

1- 1) .المائده 90-93:كلام فى الخمر و الميسر و آثارهما.

یمکن أن یفرز أحیانا من الإثم أو من الإثم الغالب علیه کالکذب الذی فیه إثم و نفع،و ربما افرز نفعه من إثمه کالکذب لمصلحه إصلاح ذات البین.

و ذلک لمکان الحصر فی قوله: «إِنَّمٰا یُرِیدُ الشَّیْطٰانُ أَنْ یُوقِعَ بَیْنَکُمُ الْعَدٰاوَهَ وَ الْبَغْضٰاءَ» الخ؛ بعد قوله: «رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّیْطٰانِ» فالمعنی أنها لا تقع إلا رجسا من عمل الشیطان،و أن الشیطان لا یرید بها إلا إیقاع العداوه و البغضاء بینکم فی الخمر و المیسر و صدکم عن ذکر اللّه و عن الصلاه فلا یصاب لها مورد یخلص فیه النفع عن الإثم حتی تباح فیه،فافهم ذلک.

قوله تعالی: وَ أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا الی آخر الآیه؛تأکید للأمر السابق باجتناب هذه الأرجاس أولا بالأمر بطاعه اللّه سبحانه و بیده أمر التشریع، و ثانیا بالأمر بطاعه الرسول و الیه الإجراء،و ثالثا بالتحذیر صریحا.

ثم فی قوله: فَإِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمٰا عَلیٰ رَسُولِنَا الْبَلاٰغُ الْمُبِینُ تأکید فیه معنی التهدید و خاصه لاشتماله علی قوله: «فَاعْلَمُوا» فإن فیه تلویحا الی أنکم إن تولیتم و اقترفتم هذه المعاصی فکأنکم ظننتم أنکم کابرتم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فیه نهیه عنها و غلبتموه،و قد جهلتم أو نسیتم أنه رسول من قبلنا لیس له من الأمر شیء إلا بلاغ مبین لما یوحی الیه و یؤمر بتبلیغه،و إنما نازعتم ربکم فی ربوبیته.

قوله تعالی: لَیْسَ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ جُنٰاحٌ فِیمٰا طَعِمُوا الی آخر الآیه؛الطعم و الطعام هو التغذی،و یستعمل فی المأکول دون المشروب، و هو فی لسان المدنیین البر خاصه،و ربما جاء بمعنی الذوق،و یستعمل حینئذ بمعنی الشرب کما یستعمل بمعنی الأکل قال تعالی: فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَیْسَ مِنِّی وَ مَنْ لَمْ یَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّی (البقره۲۴۹/)،و فی بعض الروایات عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أنه قال فی ماء زمزم:إنه طعام طعم و شفاء سقم.

و الآیه لا تصلح بسیاقها إلا أن تتصل بالآیات السابقه فتکون دفع دخل تتعرض لحال

المؤمنين ممن ابتلى بشرب الخمر قبل نزول التحريم أو قبل نزول هذه الآيات،و ذلك أن قوله فيها: «فِيمٰا طَعِمُوا» مطلق غير مقيد بشيء مما يصلح لتقييده،و الآيه مسوقه لرفع الحظر عن هذا الطعام المطلق،و قد قيد رفع الحظر بقوله «إِذٰا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا» و المتيقن من معنى هذا القيد-و قد ذكر فيه التقوى ثلاث مرات-هو التقوى الشديد الذى هو حق التقوى.

فالذى ينبغى أن يقال:إن الآيه فى معنى الآيات السابقه عليها على ما هو ظاهر اتصالها بها،و هى متعرضه لحال من ابتلى من المسلمين بشرب الخمر و طعمها،أو بالطعم لشيء منها أو مما اقتناه بالميسر أو من ذبيحه الأنصاب كأنهم سألوا بعد نزول التحريم الصريح عن حال من ابتلى بشرب الخمر،أو بها و بغيرها مما ذكره اللّه تعالى فى الآيه قبل نزول التحريم من إخوانهم الماضين أو الباقين المسلمين للّه سبحانه فى حكمه.

فاجيب عن سؤالهم ان ليس عليهم جناح إن كانوا من الذين آمنوا و عملوا الصالحات إن كانوا جارين على صراط التقوى بالإيمان باللّه و العمل الصالح ثم الإيمان بكل حكم نازل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ثم الإحسان بالعمل على طبق الحكم النازل.

و بذلك يتبين أن المراد بالموصول فى قوله: «فِيمٰا طَعِمُوا» هو الخمر من حيث شربها أو جميع ما ذكر من الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام حيث ما يصح أن يتعلق بها من معنى الطعم، و المعنى:ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما ذاقوه قبل نزول التحريم من خمر أو منها و من غيرها من المحرمات المذكوره.

و أما قوله: «إِذٰا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا» فظاهر قوله: «إِذٰا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ» أنه إعاده لنفس الموضوع المذكور فى قوله: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ جُنٰاحٌ» للدلاله على دخاله الوصف فى الحكم الذى هو نفى الجناح كقوله تعالى فى خطاب المؤمنين: ذٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كٰانَ مِنْكُمْ

يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ (البقره۲۳۲/)،و هو شائع فى اللسان.

و ظاهر قوله: «ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا» اعتبار الإيمان بعد الإيمان،و ليس إلا الإيمان التفصيلى بكل حكم حكم مما جاء به الرسول من عند ربه من غير رد و امتناع،و لازمه التسليم للرسول فيما يأمر به و ينهى عنه قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ (الحديد/ ۲۸)،و قال تعالى: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللّهِ -الى ان قال- فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (النساء۶۵/)،و الآيات فى هذا المعنى كثيره.

و ظاهر قوله: «ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا» إضافه الإحسان الى الإيمان بعد الإيمان اعتبار، و الإحسان هو إتيان العمل على وجه حسنه من غير نيه فاسده كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ إِنّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (الكهف۳۰/)،و قال اَلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (آل عمران۱۷۲/)،اى يكون استجابتهم ابتغاء لوجه اللّه و تسليما لأمره لا لغرض آخر،و من الإحسان ما يتعدى الى الغير،و هو ان يوصل الى الغير ما يستحسنه،قال تعالى:

وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً (البقره۸۳/)،و قال وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ (القصص/ ۷۷).

و المناسب لمورد الآيه هو المعنى الأول من معنيى الإحسان،و هو إتيان الفعل على جهه حسنه فإن التقوى الدينى لا يوفى حقه بمجرد الإيمان باللّه و تصديق حقيه دينه ما لم يؤمن تفصيلا بكل واحد واحد من الأحكام المشرعه فى الدين فإن رد الواحد منها رد لأصل الدين،و لا أن الإيمان التفصيلى بكل واحد واحد يوفى به حق التقوى ما لم يحسن بالعمل بها و فى العمل بها بأن يجرى على ما يقتضيه الحكم من فعل أو ترك،و يكون هذا الجرى ناشئا من الانقياد و الاتباع لا عن نيه نفاقيه فمن الواجب على المتزود بزاد التقوى أن يؤمن باللّه و يعمل

ص :۲۰۷

صالحا،و ان یؤمن برسوله فی جمیع ما جاء به،و ان یجری فی جمیع ذلک علی نهج الاتباع و الإحسان (۱).

[سوره المائده (۵): الآیات ۹۴ الی ۹۹]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لَیَبْلُوَنَّکُمُ اَللّٰهُ بِشَیْءٍ مِنَ اَلصَّیْدِ تَنٰالُهُ أَیْدِیکُمْ وَ رِمٰاحُکُمْ لِیَعْلَمَ اَللّٰهُ مَنْ یَخٰافُهُ بِالْغَیْبِ فَمَنِ اِعْتَدیٰ بَعْدَ ذٰلِکَ فَلَهُ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۹۴) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَقْتُلُوا اَلصَّیْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْکُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزٰاءٌ مِثْلُ مٰا قَتَلَ مِنَ اَلنَّعَمِ یَحْکُمُ بِهِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْکُمْ هَدْیاً بٰالِغَ اَلْکَعْبَهِ أَوْ کَفّٰارَهٌ طَعٰامُ مَسٰاکِینَ أَوْ عَدْلُ ذٰلِکَ صِیٰاماً لِیَذُوقَ وَبٰالَ أَمْرِهِ عَفَا اَللّٰهُ عَمّٰا سَلَفَ وَ مَنْ عٰادَ فَیَنْتَقِمُ اَللّٰهُ مِنْهُ وَ اَللّٰهُ عَزِیزٌ ذُو اِنْتِقٰامٍ (۹۵) أُحِلَّ لَکُمْ صَیْدُ اَلْبَحْرِ وَ طَعٰامُهُ مَتٰاعاً لَکُمْ وَ لِلسَّیّٰارَهِ وَ حُرِّمَ عَلَیْکُمْ صَیْدُ اَلْبَرِّ مٰا دُمْتُمْ حُرُماً وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ اَلَّذِی إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ (۹۶) جَعَلَ اَللّٰهُ اَلْکَعْبَهَ اَلْبَیْتَ اَلْحَرٰامَ قِیٰاماً لِلنّٰاسِ وَ اَلشَّهْرَ اَلْحَرٰامَ وَ اَلْهَدْیَ وَ اَلْقَلاٰئِدَ ذٰلِکَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ یَعْلَمُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ أَنَّ اَللّٰهَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۹۷) اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ شَدِیدُ اَلْعِقٰابِ وَ أَنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۹۸) مٰا عَلَی اَلرَّسُولِ إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ وَ اَللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَ مٰا تَکْتُمُونَ (۹۹)

۱- ۱) .المائده ۹۰-۹۳:بحث روائی تحریم الخمر.

بیان:

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَیَبْلُوَنَّکُمُ اللّٰهُ بِشَیْءٍ مِنَ الصَّیْدِ تَنٰالُهُ أَیْدِیکُمْ وَ رِمٰاحُکُمْ البلاء هو الامتحان و الاختبار،و لام القسم و النون المشدده للتأکید،و قوله:بشیء من الصید یفید التحقیر لیکون تلقینه للمخاطبین عونا لهم علی انتهائهم الی ما سیواجههم من النهی فی الآیه الآتیه،و قوله: «تَنٰالُهُ أَیْدِیکُمْ وَ رِمٰاحُکُمْ» تعمیم للصید من حیث سهوله الاصطیاد کما فی فراخ الطیر و صغار الوحش و البیض تنالها الأیدی فتصطاد بسهوله،و من حیث صعوبه الاصطیاد ککبار الوحش لا تصطاد عاده إلا بالسلاح.

و ظاهر الآیه أنها مسوقه کالتوطئه لما ینزل من الحکم المشدد فی الآیه التالیه،و لذلک عقب الکلام بقوله «لِیَعْلَمَ اللّٰهُ مَنْ یَخٰافُهُ بِالْغَیْبِ» فإن فیه إشعارا بأن هناک حکما من قبیل المنع و التحریم ثم عقبه بقوله «فَمَنِ اعْتَدیٰ بَعْدَ ذٰلِکَ فَلَهُ عَذٰابٌ أَلِیمٌ» .

قوله تعالی: لِیَعْلَمَ اللّٰهُ مَنْ یَخٰافُهُ بِالْغَیْبِ لا یبعد أن یکون قوله: لَیَبْلُوَنَّکُمُ اللّٰهُ لیعلم کذا کنایه عن أنه سیقدر کذا لیتمیز منکم من یخاف اللّه بالغیب عمن لا یخافه لأن اللّه سبحانه لا یجوز علیه الجهل حتی یرفعه بالعلم،و قد تقدم البحث المستوفی عن معنی الامتحان فی تفسیر قوله تعالی: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّهَ» الآیه(آل عمران۱۴۲/)فی الجزء الرابع من هذا الکتاب،و تقدم أیضا معنی آخر لهذا العلم.

و أما قوله: «مَنْ یَخٰافُهُ بِالْغَیْبِ» فالظرف متعلق بالخوف،و معنی الخوف بالغیب أن یخاف الانسان ربه و یحترز ما ینذره به من عذاب الآخره و ألیم عقابه،و کل ذلک فی غیب من الانسان لا یشاهد شیئا منه بظاهر مشاعره،قال تعالی: إِنَّمٰا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّکْرَ وَ خَشِیَ

الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ (يس١١/)،و قال: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ، هٰذٰا مٰا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوّٰابٍ حَفِيظٍ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَ جٰاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (ق٣٣/)،و قال: اَلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السّٰاعَةِ مُشْفِقُونَ (الأنبياء٤٩/).

و قوله: «فَمَنِ اعْتَدىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ» أى تجاوز الحد الذى يحده اللّه بعد البلاء المذكور فله عذاب أليم.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ الخ؛الحرم بضمتين جمع الحرام صفه مشبهه،قال فى المجمع:و رجل حرام و محرم بمعنى،و حلال و محل كذلك،و أحرم الرجل دخل فى الشهر الحرام،و أحرم أيضا دخل فى الحرم،و أحرم أهلّ بالحج، و الحرم الإحرام،و منه الحديث:كنت أطيب النبى لحرمه،و أصل الباب المنع،و سميت النساء حرما لأنها تمنع،و المحروم،و منه الحديث:كنت أطيب النبى لحرمه،و أصل الباب المنع، و سميت النساء حرما لأنها تمنع،و المحروم الممنوع الرزق.

قال:و المثل و المثل و الشبه و الشبه واحد،قال:و النعم فى اللغه الإبل و البقر و الغنم،و إن انفردت الإبل قيل لها:نعم،و إن انفردت البقر و الغنم لم تسم نعما ذكره الزجاج.

قال:قال الفراء:العدل بفتح العين ما عادل الشىء من غير جنسه،و العدل بالكسر المثل تقول:عندى عدل(بالكسر)غلامك أو شاتك اذا كانت شاه تعدل شاه أو غلام يعدل غلاما فإذا أردت قيمته من غير جنسه فتحت و قلت:عدل،و قال البصريون:العدل و العدل فى معنى المثل كان من الجنس أو غير الجنس.

قال:و الوبال ثقل الشىء فى المكروه،و منه قولهم:طعام و بيل و ماء و بيل اذا كانا ثقيلين غير ناميين فى المال،و منه «فَأَخَذْنٰاهُ أَخْذاً وَبِيلاً» أى ثقيلا شديدا،و يقال لخشبه القصّار:

و بيل من هذا،انتهى.

و قوله: لاٰ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ نهى عن قتل الصيد لكن يفسره بعض

التفسير قوله بعد: «أَحِلَّ لَكَمْ صَيْدُ الْبَحْرِ» هذا من جهه الصيد،و يفسره من جهه معنى القتل قوله: «وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكَمْ مُتَعَمِّداً فَجَزٰاءٌ» الخ؛فقوله «مُتَعَمِّداً» حال من قوله: «مَنْ قَتَلَهُ» و ظاهر التعمد ما يقابل الخطأ الذى هو القتل من غير أن يريد بفعله ذلك كمن يرمى الى هدف فأصاب صيدا،و لازمه وجوب الكفاره اذا كان قاصدا لقتل الصيد سواء كان على ذكر من إحرامه أو ناسيا أو ساهيا.

و قوله: فَجَزٰاءٌ مِثْلُ مٰا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بٰالِغَ الْكَعْبَةِ لظاهر معناه:فعليه جزاء ذلك الجزاء مثل ما قتل من الصيد،و ذلك الجزاء من النعم المماثله لما قتله يحكم به أى بذلك الجزاء المماثل رجلان منكم ذوا عدل فى الدين حال كون الجزاء المذكور هديا يهدى به بالغ الكعبه ينحر أو يذبح فى الحرم بمكه أو بمنى على ما يبينه السنه النبويه.

فقوله«جزاء»بالرفع مبتدأ لخبر محذوف يدل عليه الكلام،و قوله: «مِثْلُ مٰا قَتَلَ» و قوله: «مِنَ النَّعَمِ» و قوله: «يَحْكُمُ بِهِ» الخ؛أوصاف للجزاء،و قوله: «هَدْياً بٰالِغَ الْكَعْبَةِ» موصوف و صفه،و الهدى حال من الجزاء كما تقدم،هذا،و قد قيل:غير ذلك.

و قوله: أَوْ كَفّٰارَةٌ طَعٰامُ مَسٰاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذٰلِكَ صِيٰاماً خصلتان اخريان من خصال كفاره قتل الصيد،و كلمه «أَوْ» لا يدل على أزيد من مطلق الترديد،و الشارح السنه، غير أن قوله: «أَوْ كَفّٰارَةٌ» حيث سمى طعام المساكين كفاره ثم اعتبر ما يعادل الطعام من الصيام لا يخلو من إشعار بالترتيب بين الخصال.

و قوله: «لِيَذُوقَ وَبٰالَ أَمْرِهِ» اللام للغايه،و هى و مدخولها متعلق بقوله «فَجَزٰاءٌ» فالكلام يدل على أن ذلك نوع مجازاه.

قوله تعالى: عَفَا اللّٰهُ عَمّٰا سَلَفَ وَ مَنْ عٰادَ فَيَنْتَقِمُ اللّٰهُ مِنْهُ الى آخر الآيه؛ تعلق العفو بما سلف قرينه على أن المراد بما سلف هو ما تحقق من قتل الصيد قبل نزول الحكم

ص :٢١١

بنزول الآيه فإن تعلق العفو بما يتحقق حين نزول الآيه أو بعده يناقض جعل الحكم و هو ظاهر،فالجمله لدفع توهم شمول حكم الكفاره للحوادث السابقه على زمان النزول.

و الآيه من الدليل على جواز تعلق العفو بما ليس بمعصيه من الأفعال اذا كان من طبعها اقتضاء النهى المولوى لاشتمالها على المفسده،و أما قوله: «وَ مَنْ عٰادَ فَيَنْتَقِمُ اللّٰهُ مِنْهُ وَ اللّٰهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقٰامٍ» فظاهر العود تكرر الفعل،و هذا التكرر ليس تكرر ما سلف من الفعل بأن يكون المعنى:و من عاد الى مثل ما سلف منه من الفعل فينتقم اللّه منه لأنه حينئذ ينطبق على الفعل الذى يتعلق به الحكم فى قوله: «وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزٰاءٌ» الخ؛و يكون المراد بالانتقام هو الحكم بالكفاره،و هو حكم ثابت بالفعل لكن ظاهر قوله: «فَيَنْتَقِمُ اللّٰهُ مِنْهُ» أنه إخبار عن أمر مستقبل لا عن حكم حال فعلى.

و هذا شاهد على أن المراد بالعود العود ثانيا الى فعل تعلق به الكفاره،و المراد بالانتقام العذاب الإلهى غير الكفاره المجعوله.

و على هذا فالآيه بصدرها و ذيلها تتعرض لجهات مسأله قتل الصيد،أما ما وقع منه قبل نزول الحكم فقد عفا اللّه عنه،و أما بعد جعل الحكم فمن قتله فعليه جزاء مثل ما قتل فى المره الاولى فإن عاد فينتقم اللّه منه و لا كفاره عليه،و على هذا يدل معظم الأخبار المرويه عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام فى تفسير الآيه.

و لو لا هذا المعنى كان كالمتعين حمل الانتقام فى قوله: «فَيَنْتَقِمُ اللّٰهُ مِنْهُ» على ما يعم الحكم بوجوب الكفاره،و حمل العود على فعل ما يماثل ما سلف منهم من قتل الصيد أى و من عاد الى مثل ما كانوا عليه من قتل الصيد قبل هذا الحكم،أى و من قتل الصيد فينتقم اللّه منه أى يؤاخذه بإيجاب الكفاره،و هذا-كما ترى-معنى بعيد من اللفظ.

قوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعٰامُهُ مَتٰاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيّٰارَهِ الى آخر الآيه؛الآيات فى مقام بيان حكم الاصطياد من بحر أو بر،و هو الشاهد على أن متعلق الحل هو

الاصطیاد فی قوله: «أَحِلَّ لَکَمْ صَیْدُ الْبَحْرِ» دون أکله،و بهذه القرینه یتعین قوله: «وَ طَعامُهُ» فی أن المراد به ما یؤکل دون المعنی المصدری الذی هو الأکل و المراد بحل طعام البحر حل أکله فمحصل المراد من حل صید البحر و طعامه جواز اصطیاد حیوان البحر و حل أکل ما یؤخذ منهن.

و ما یؤخذ من طعام البحر و إن کان أعم مما یؤخذ منه صیدا کالعتیق من لحم الصید أو ما قذفته البحر من میته حیوان و نحوه إلا أن الوارد من أخبار أئمه أهل البیت علیهم السّلام تفسیره بالمملوح و نحوه من عتیق الصید،و قوله: «مَتاعاً لَکُمْ وَ لِلسَّیّارَهِ» کأنه حال من صید البحر و طعامه،و فیه شیء من معنی الامتنان.

و حیث کان الخطاب للمؤمنین من حیث کونهم محرمین کانت المقابله بینهم و بین السیاره فی قوه قولنا:متاعا للمحرمین و غیرهم.

و اعلم أن فی الآیات أبحاثا فرعیه کثیره معنونه فی الکتب الفقهیه من أرادها فلیراجعها.

قوله تعالی: جَعَلَ اللّهُ الْکَعْبَهَ الْبَیْتَ الْحَرامَ قِیاماً لِلنّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْیَ وَ الْقَلائِدَ ظاهر تعلیق الکلام بالکعبه ثم بیانه بالبیت بأنه بیت حرام،و کذا توصیف الشهر بالحرام ثم ذکر الهدی و القلائد اللذین یرتبط شأنهما بحرمه البیت،کل ذلک یدل علی أن الملاک فیما یبین اللّه سبحانه فی هذه الآیه من الأمر إنما هو الحرمه.

و القیام ما یقوم به الشیء،قال الراغب:و القیام و القوام اسم لما یقوم به الشیء أی یثبت کالعماد و السناد لما یعمد و یسند به کقوله: «وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَکُمُ الَّتِی جَعَلَ اللّهُ لَکُمْ قِیاماً» أی جعلها مما یمسککم،و قوله: «جَعَلَ اللّهُ الْکَعْبَهَ الْبَیْتَ الْحَرامَ قِیاماً لِلنّاسِ» أی قواما لهم یقوم به معاشهم و معادهم،قال الأصم:قائما لا ینسخ،و قرئ:قیما بمعنی قیاما،انتهی.

فیرجع معنی قوله: «جَعَلَ اللّهُ الْکَعْبَهَ الْبَیْتَ الْحَرامَ قِیاماً لِلنّاسِ» الی أنه تعالی جعل الکعبه بیتا حراما احترمه،و جعل بعض الشهور حراما،و وصل بینهما حکما کالحج فی ذی

الحجه الحرام،و جعل هناك امورا تناسب الحرمه كالهدی و القلائد كل ذلک لتعتمد علیه حیاه الناس الاجتماعیه السعیده.

فإنه جعل البیت الحرام قبله یوجه الیه الناس وجوههم فی صلواتهم و یوجهون الیه ذبائحهم و أمواتهم،و یحترمونه فی سیئ حالاتهم،فیتوحد بذلک جمعهم،و یجتمع به شملهم، و یحیی و یدوم به دینهم،و یحجون الیه من مختلف الاقطار و أقاصی الآفاق فیشهدون منافع لهم،و یسلكون به طرق العبودیه.

و یهدی باسمه و بذكره و النظر الیه و التقرب به و التوجه الیه العالمون،و قد بینه اللّه تعالی بوجه آخر قریب من هذا الوجه بقوله: إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنّٰاسِ لَلَّذِی بِبَكَّهَ مُبٰارَكاً وَ هُدیً لِلْعٰالَمِینَ (آل عمران/۹۶)،و قد أفاك فی الآیه فی الجزء الثالث من هذا الكتاب من الكلام ما یتنور به المقام.

و من هنا یظهر وجه اتصال قوله: «ذٰلِكَ لِتَعْلَمُوا» الی آخر الآیه؛بما قبله،و المشار الیه بقوله «ذٰلِكَ» إما نفس الحكم المبین فی الآیات السابقه الذی یوضح حكمه تشریعه قوله:

«جَعَلَ اللّٰهُ الْكَعْبَهَ الْبَیْتَ الْحَرٰامَ قِیٰاماً لِلنّٰاسِ» الخ؛و إما بیان الحكم الموضح بقوله «جَعَلَ اللّٰهُ الْكَعْبَهَ» الخ؛المدلول علیه بالمقام.

و المعنی علی التقدیر الأول أن اللّه جعل البیت الحرام و الشهر الحرام قیاما للناس و وضع ما یناسبهما من الأحكام لینتقلوا من حفظ حرمتها و العمل بالأحكام المشرعه فیهما الی أن اللّه علیم بما فی السماوات و الأرض و ما یصلح شئونها،فشرع ما شرع لكم عن علم من غیر أن یكون شیء من ذلک حكما خرافیا صادرا عن جهاله الوهم.

و المعنی علی التقدیر الثانی أنا بیّنا لكم هذه الحقیقه و هی جعل البیت الحرام و الشهر الحرام و ما یتبعهما من الأحكام قیاما للناس لتعلموا أن اللّه علیم بما فی السماوات و الأرض و ما یتبعها من الأحكام المصلحه لشئونها فلا تتوهموا أن هذه الأحكام المشرعه لاغیه من غیر جدوی

أو أنها خرافات مختلقه.

قوله تعالى: اِعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقٰابِ وَ أَنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ الى آخر الآيتين؛تأكيد للبيان و تثبيت لموقع الأحكام المذكوره،و وعيد و وعد للمطيعين و العاصين، و فيه شائبه تهديد،و لذلك قدم توصيفه بشده العقاب على توصيفه بالمغفره و الرحمه،و لذلك أيضا أعقب الكلام بقوله «مٰا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَ مٰا تَكْتُمُونَ» (۱).

[سوره المائده (۵): آيه ۱۰۰]

اشاره

قُلْ لاٰ يَسْتَوِي اَلْخَبِيثُ وَ اَلطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ اَلْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اَللّٰهَ يٰا أُولِي اَلْأَلْبٰابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۰۰)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ لاٰ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ كأن المراد بعدم استواء الخبيث و الطيب أن الطيب خير من الخبيث،و هو أمر بين فيكون الكلام مسوقا للكنايه،و ذلك أن الطيب بحسب طبعه و بقضاء من الفطره أعلى درجه و أسمى منزله من الخبيث؛فلو فرض انعكاس الأمر و صيروره الخبيث خيرا من الطيب لعارض يعرضه كان من الواجب أن يتدرج الخبيث فى الرقى و الصعود حتى يصل الى حد يحاذى الطيب فى منزلته و يساويه ثم يتجاوزه فيفوقه فإذا نفى استواء الخبيث و الطيب كان ذلك أبلغ فى نفى خيريه الخبيث من الطيب.

و من هنا يظهر وجه تقديم الخبيث على الطيب،فإن الكلام مسوق لبيان أن كثره الخبيث لا تصيره خيرا من الطيب،و إنما يكون ذلك بارتفاع الخبيث من حضيض الرداءه و الخسه الى

۱- ۱) .المائده ۹۴-۹۹:بحث روائى حرمه الصيد فى حال الاحرام.

أوج الكرامه و العزه حتى يساوى الطيب فى مكانته ثم يعلو عليه و لو قيل:لا يستوى الطيب و الخبيث كانت العنايه الكلاميه متعلقه ببيان أن الطيب لا يكون أردى و أخس من الخبيث، و كان من الواجب حينئذ أن يذكر بعده أمر قله الطيب مكان كثره الخبيث فافهم ذلك.

قوله تعالى: فَاتَّقُوا اللّٰهَ يٰا أُولِي الْأَلْبٰابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ تفريع على المثل المضروب فى صدر الآيه،و محصل المعنى أن التقوى لما كان متعلقه الشرائع الإلهيه التى تبتنى هى أيضا على طيبات و خبائث تكوينيه فى رعايه أمرها سعاده الانسان و فلاحه على ما لا يرتاب فى ذلك ذو لب و عقل فيجب عليكم يا اولى الألباب أن تتقوا اللّه بالعمل بشرائعه لعلكم تفلحون.

[سوره المائده (۵): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۲]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيٰاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْهٰا حِينَ يُنَزَّلُ اَلْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اَللّٰهُ عَنْهٰا وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۱۰۱) قَدْ سَأَلَهٰا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهٰا كٰافِرِينَ (۱۰۲)

بيان:

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيٰاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ الآيه؛الإبداء الإظهار،و ساءه كذا خلاف سرّه.

و الآيه تنهى المؤمنين عن أن يسألوا عن أشياء إن تبد لهم تسؤهم،و قد سكتت أولا عن المسئول من هو؟غير أن قوله بعد: «وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْهٰا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ» ،و كذا قوله فى الآيه التاليه: «قَدْ سَأَلَهٰا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهٰا كٰافِرِينَ» يدل على أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم

مقصود بـالسؤال مسئول بمعنى أن الآـيه سـيقت للنهى عن سؤال النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم عن أشـياء من شأنهـا كيت و كيت،و إن كانت العله المسـتفاده من الآيه الموجبه للنهى تفيـد شـمول النهى لغير مورد الغرض و هو أن يسأل الانسان و يفحص عن كل ما عفاه العفو الإلهى،و ضـرب دون الاطلاع عليه بالأسباب العاديه و الطرق المألوفه سترا فإن فى الاطلاع على حقيقه مثل هـذه الاـمور مظنه الهلاـك و الشـقاء كمن تفحص عن يوم وفـاته أو سـبب هلاكه أو عمر أحبته و أعزته أو زوال ملكه و عزته،و ربما كان ما يطلع عليه هو السبب الذى يخترمه بالفناء أو يهدده بالشقاء.

قوله تعالى: قَدْ سَأَلَهٰا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهٰا كٰافِرِينَ يقال:سأله و سأل عنه بمعنى،و«ثم»يفيد التراخى بحسب الرتبه الكلاميه دونه بحسب الزمـان.و الباء فى قوله:«بها»متعلقه بقوله«كافرين»على ما هو ظاهر الآيه من كونها مسوقه للنهى عن السؤال عما يتعلق بقيود الأحكـام و الشـرائع المسـكوت عنهـا عنـد التشـريع؛فـالكفر كفر بالأحكام من جهه اسـتلزامها تحرج النفوس عنها و تضـيق القلوب من قبولها،و يمكن أن تكون الباء للسببيه و لا يخلو عن بعد.

و الآـيه و إن أبهمت القوم المـذكورين و لم يعرفهم لكن فى القرآن الكريم مـا يمكن أن تنطبق عليه الآـيه من القصـص كقصـه المائده من قصص النصارى و قصص اخرى من قوم موسى و غيرهم.

[سوره المائده (۵): الآيات ۱۰۳ الى ۱۰۴]

اشاره

مٰا جَعَلَ اَللّٰهُ مِنْ بَحِيرَهٍ وَ لاٰ سٰائِبَهٍ وَ لاٰ وَصِيلَهٍ وَ لاٰ حٰامٍ وَ لٰكِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اَللّٰهِ اَلْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ (۱۰۳) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا إِلىٰ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ وَ إِلَى اَلرَّسُولِ قٰالُوا حَسْبُنٰا مٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا أَ وَ لَوْ كٰانَ آبٰاؤُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لاٰ يَهْتَدُونَ (۱۰۴)

بیان:

قوله تعالی: مَا جَعَلَ اللّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لاَ سَائِبَةٍ وَ لاَ وَصِيلَةٍ وَ لاَ حَامٍ ، هذه أصناف من الأنعام كان أهل الجاهليه يرون لها أحكاما مبنيه على الاحترام و نوع من التحرير،و قد نفى اللّه سبحانه أن يكون جعل من ذلك شيئا،فالجعل المنفى متعلق بأوصافها دون ذواتها فإن ذواتها مخلوقه للّه سبحانه أن يكون جعل من ذلك شيئا،فالجعل المنفى متعلق بأوصافها دون ذواتها فإن ذواتها مخلوقه للّه سبحانه من غير شك،و كذلك أوصافها من جهه أنها أوصاف فحسب،و إنما الذى تقبل الإسناد إليه تعالى و نفيه هى أوصافها من جهه كونها مصادر لأحكام كانوا يدعونها لها فهى التى تقبل الإسناد و نفيه،فنفى جعل البحيره و أخواتها فى الآيه نفى لمشروعيه الأحكام المنتسبه إليها المعروفه عندهم.

و هذا الأصناف الأربعه من الأنعام و إن اختلفوا فى معنى أسمائها و يتفرع عليه الاختلاف فى تشخيص أحكامها كما ستقف عليه،لكن من المسلم أن أحكامها مبنيه على نوع من تحريرها و الاحترام لها برعايه حالها،ثلاثه منها و هى البحيره و السائبه و الحامى من الإبل،و واحده و هى الوصيله من الشاه.

أما البحيره ففى المجمع:أنها الناقه كانت اذا نتجت خمسه أبطن و كان آخرها ذكرا بحروا أذنها(أى شقوها شقا واسعا)و امتنعوا عن ركوبها و نحرها،و لا تطرد عن ماء و لا تمنع عن مرعى،فإذا لقيها المعيى لم تركبها،عن الزجاج.

و قيل:إنهم كانوا اذا نتجت الناقه خمسه أبطن نظروا فى البطن الخامس فإن كان ذكرا نحروه

فأكله الرجال و النساء جميعا،و إن كانت أنثى شقوا أذنها فتلك البحيره ثم لا يجزّ لها وبر،و لا يذكر لها اسم اللّه إن ذكيت،و لا حمل عليها،و حرم على النساء أن يذقن من لبنها شيئا،و لا أن ينتفعن بها،و كان لبنها و منافعها للرجال خاصه دون النساء حتى تموت فإذا ماتت اشتركت الرجال و النساء فى أكلها،عن ابن عباس،و قيل:إن البحيره بنت السائبه،عن محمد بن إسحاق.

و أما السائبه ففى المجمع أنها ما كانوا يسيبونه فإن الرجل اذا نذر القدوم من سفر أو البرء من عله أو ما أشبه ذلك قال:ناقتى سائبه فكانت كالبحيره فى أن لا ينتفع بها،و أن لا تخلى عن ماء و لا تمنع من مرعى،عن الزجاج،و هو قول علقمه.

قوله تعالى: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلىٰ ما أَنْزَلَ اللّٰهُ الى آخر الآيه فى حكايه دعوتهم الى ما أنزل اللّه الى الرسول الذى شأنه البلاغ فقط فالدعوه دعوه الى الحق و هو الصدق الخالى عن الفريه،و العلم المبرى من الجهل فإن الآيه السابقه تجمع الافتراء و عدم التعقل فى جانبهم فلا يبقى لما يدعون اليه-أعنى جانب اللّه سبحانه-إلا الصدق و العلم.

لكنهم ما دفعوه إلا بالتقليد حيث قالوا:حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا،و التقليد و إن كان حقا فى بعض الأحيان و على بعض الشروط و هو رجوع الجاهل الى العالم،و هو مما استقر عليه سير المجتمع الإنسانى فى جميع أحكام الحياه التى لا يتيسر فيها للانسان أن يحصّل العلم بما يحتاج الى سلوكه من الطريق الحيوى،لكن تقليد الجاهل فى جهله بمعنى رجوع الجاهل الى جاهل آخر مثله مذموم فى سنه العقلاء كما يذم رجوع العالم الى عالم آخر بترك ما يستقلّ بعمله من نفسه و الأخذ بما يعلم غيره.

و لذلك ردّه تعالى بقوله «أَ وَ لَوْ كٰانَ آبٰاؤُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لاٰ يَهْتَدُونَ» و مفاده أن العقل-لو كان هناك عقل-لا يبيح للانسان الرجوع الى من لا علم عنده و لا اهتداء فهذه سنّه الحياه لا تبيح سلوك طريق لا تؤمن مخاطره،و لا يعلم وصفه لا بالاستقلال و لا باتباع من له به خبره.

و لعل إضافه قوله: «وَ لاٰ يَهْتَدُونَ» الى قوله: «لاٰ يَعْلَمُونَ شَيْئاً» لتتميم قيود الكلام بحسب الحقيقه،فإن رجوع الجاهل الى مثله و إن كان مذموما لكنه إنما يذم اذا كان المسئول المتبوع مثل السائل التابع فى جهله لا يمتاز عنه بشىء،و أما اذا كان المتبوع نفسه يسلك الطريق بهدايه عالم خبير به و دلالته فهو مهتد فى سلوكه،و لا ذمّ على من اتبعه فى مسيره و قلده فى سلوك الطريق،فإن الأمر ينتهى الى العلم بالآخره كمن يتبع عالما بأمر الطريق ثم يتبعه آخر جاهل به.

و من هنا يتضح أن قوله: «أَ وَ لَوْ كٰانَ آبٰاؤُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ شَيْئاً» غير كاف فى تمام الحجه عليهم لاحتمال أن يكون آباؤهم الذين اتبعوهم بالتقليد مهتدين بتقليد العلماء الهداه فلا يجرى فيهم حكم الذم،و لا تتم عليهم الحجه فدفع ذلك بأن آباءهم لا يعلمون شيئا و لا يهتدون،و لا مسوغ لاتباع من هذا حاله.

و لما تحصل من الآيه الاولى أعنى قوله: «مٰا جَعَلَ اللّٰهُ مِنْ بَحِيرَهٍ» الخ؛أنهم بين من لا يعقل شيئا و هم الأكثرون و من هو معاند مستكبر تحصل أنهم بمعزل من أهليه توجيه الخطاب و إلقاء الحجه و لذلك لم تلق اليهم الحجه فى الآيه الثانيه بنحو التخاطب بل سيق الكلام على خطاب غيرهم و الصفح عن مواجهتم فقيل «أَ وَ لَوْ كٰانَ آبٰاؤُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لاٰ يَهْتَدُونَ» .

و قد تقدم فى الجزء الأول من أجزاء هذا الكتاب بحث علمى أخلاقى فى معنى التقليد يمكنك أن تراجعه.

و يتبين من الآيه أن الرجوع الى كتاب اللّه و الى رسوله-و هو الرجوع الى السنه-ليس من التقليد المذموم فى شىء.

[سوره المائده (۵): آيه ۱۰۵]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاٰ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اِهْتَدَيْتُمْ إِلَى اَللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۰۵)

.

بیان:

قوله تعالی: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ لفظه «عَلَيْكُمْ» اسم فعل بمعنی ألزموا،و «أَنْفُسَكُمْ» مفعوله.

و من المعلوم أن الضلال و الاهتداء-و هما معنیان متقابلان-إنما یتحققان فی سلوک الطریق لا غیر؛فالملازم لمتن الطریق ینتهی الی ما ینتهی إلیه الطریق،و هو الغایه المطلوبه التی یقصدها الإنسان السالک فی سلوکه،أما اذا استهان بذلک و خرج عن مستوی الطریق فهو الضلال الذی تفوت به الغایه المقصوده فالآیه تقدر للانسان طریقا یسلکه و مقصدا یقصده غیر أنه ربما لزم الطریق فاهتدی إلیه أو فسق عنه فضلّ و لیس هناک مقصد یقصده القاصد إلا الحیاه السعیده،و العاقبه الحسنی بلا ریب لکنها مع ذلک تنطبق بأن اللّه سبحانه هو المرجع الذی یرجع الیه الجمیع:المهتدی و الضال.

فالثواب الذی یریده الإنسان فی مسیره بالفطره إنما هو عند اللّه سبحانه یناله المهتدون،و یحرم عنه الضلال،و لازم ذلک أن یکون جمیع الطرق المسلوکه لأهل الهدایه و الطرق المسلوکه لأهل الضلال تنتهی الی اللّه سبحانه،و عنده سبحانه الغایه المقصوده و إن کانت تلک الطرق مختلفه فی إیصال الإنسان الی البغیه و الفوز و الفلاح أو ضربه بالخیبه و الخسران،و کذلک فی القریب و البعد کما قال تعالی: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ (الانشقاق/۶)و قال تعالی: أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (المجادله/۲۲)و قال تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (إبراهيم/۲۸)و قال تعالی: فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (البقره/۱۸۶)و قال تعالی:

وَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ

(السجده۴۴/).

بین تعالی فی هذه الآیات أن الجمیع سائرون الیه سبحانه سیرا لا- مناص لهم عنه،غیر أن طریق بعضهم قصیر و فیه الرشد و الفلاح،و طریق آخرین طویل لا ینتهی الی سعاده،و لا یعود الی سالکه إلا الهلاک و البوار.

و بالجمله فالآیه تقدر للمؤمنین و غیرهم طریقین اثنین ینتهیان الی اللّه سبحانه،و تأمر المؤمنین بأن یشتغلوا بأنفسهم و ینصرفوا عن غیرهم و هم أهل الضلال من الناس و لا یقعوا فیهم و لا یخافوا ضلالهم فإنما حسابهم علی ربهم لا علی المؤمنین و لیسوا بمسئولین عنهم حتی یهمهم أمرهم؛فالآیه قریبه المضمون من قوله تعالی: قُلْ لِلَّذِینَ آمَنُوا یَغْفِرُوا لِلَّذِینَ لاٰ یَرْجُونَ أَیّٰامَ اللّٰهِ لِیَجْزِیَ قَوْماً بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ (الجاثیه۱۴/)و نظیرها قوله تعالی: تِلْکَ أُمَّهٌ قَدْ خَلَتْ لَهٰا مٰا کَسَبَتْ وَ لَکُمْ مٰا کَسَبْتُمْ وَ لاٰ تُسْئَلُونَ عَمّٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (البقره۱۳۴/).

فعلی المؤمن أن یشتغل بما یهم نفسه من سلوک سبیل الهدی،و لا یهزهزه ما یشاهده من ضلال الناس و شیوع المعاصی بینهم و لا یشغله ذلک و لا یشتغل بهم فالحق حق و إن ترک و الباطل باطل و إن أخذ به کما قال تعالی: قُلْ لاٰ یَسْتَوِی الْخَبِیثُ وَ الطَّیِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَکَ کَثْرَهُ الْخَبِیثِ فَاتَّقُوا اللّٰهَ یٰا أُولِی الْأَلْبٰابِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (المائده۱۰۰/)و قال تعالی: وَ لاٰ تَسْتَوِی الْحَسَنَهُ وَ لاَ السَّیِّئَهُ (حم السجده۳۴/).

فقوله تعالی: لاٰ یَضُرُّکُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَیْتُمْ بناء علی ما مر مسوق سوق الکنایه أرید به نهی المؤمنین عن التأثر من ضلال من ضل من الناس فیحملهم ذلک علی ترک طریق الهدایه کأن یقولوا:إن الدنیا الحاضره لا- تساعد الدین و لا- تبیح التنحل بالمعنویات فإنما ذلک من السنن الساذجه و قد مضی زمنه و انقرض أهله،قال تعالی: وَ قٰالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدیٰ مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنٰا (القصص۵۷/).

ص :۲۲۲

أو يخافوا ضـلالهم على هدى أنفسـهم فيشتغلوا بهم و ينسوا أنفسهم فيصيروا مثلهم فإنما الواجب على المؤمن هو الدعوه الى ربه و الأـمر بـالمعروف و النهى عن المنكر و بـالجمله الأخـذ بالأسـباب العـاديه ثم إيكـال أمر المسـببات الى اللّه سـبحانه فإليه الأمر كله،فأما أن يهلك نفسه فى سبيل إنقاذ الغير من الهلكه فلم يؤمر به،و لا يؤاخذ بعمل غيره،و ما هو عليه بوكيل،و على هذا فتصير الآيه فى معنى قوله تعالى: فَلَعَلَّکَ بٰاخِعٌ نَفْسَکَ عَلىٰ آثٰارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً، إِنّٰا جَعَلْنٰا مٰا عَلَى الْأَرْضِ زِينَهً لَهٰا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ إِنّٰا لَجٰاعِلُونَ مٰا عَلَيْهٰا صَعِيداً جُرُزاً (الكهف۸/)،و قوله تعـالى:وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبٰالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتىٰ بَلْ لِلّٰهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشٰاءُ اللّٰهُ لَهَدَى النّٰاسَ جَمِيعاً (الرعد۳۱/)و نحو ذلک (۱)(۲)(۳).

[سوره المائده (۵): الآيات ۱۰۶ الى ۱۰۹]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا شَهٰادَهُ بَيْنِكُمْ إِذٰا حَضَرَ أَحَدَكُمُ اَلْمَوْتُ حِينَ اَلْوَصِيَّهِ اِثْنٰانِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرٰانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي اَلْأَرْضِ فَأَصٰابَتْكُمْ مُصِيبَهُ اَلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمٰا مِنْ بَعْدِ اَلصَّلاٰهِ فَيُقْسِمٰانِ بِاللّٰهِ إِنِ اِرْتَبْتُمْ لاٰ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كٰانَ ذٰا قُرْبىٰ وَ لاٰ نَكْتُمُ شَهٰادَهَ اَللّٰهِ إِنّٰا إِذاً لَمِنَ اَلْآثِمِينَ (۱۰۶) فَإِنْ عُثِرَ عَلىٰ أَنَّهُمَا اِسْتَحَقّٰا إِثْماً فَآخَرٰانِ يَقُومٰانِ مَقٰامَهُمٰا مِنَ اَلَّذِينَ اِسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ اَلْأَوْلَيٰانِ فَيُقْسِمٰانِ بِاللّٰهِ لَشَهٰادَتُنٰا أَحَقُّ مِنْ شَهٰادَتِهِمٰا وَ مَا اِعْتَدَيْنٰا إِنّٰا إِذاً لَمِنَ اَلظّٰالِمِينَ (۱۰۷) ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهٰادَهِ عَلىٰ وَجْهِهٰا أَوْ يَخٰافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمٰانٌ بَعْدَ أَيْمٰانِهِمْ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ اِسْمَعُوا وَ اَللّٰهُ لاٰ يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلْفٰاسِقِينَ (۱۰۸) يَوْمَ يَجْمَعُ اَللّٰهُ اَلرُّسُلَ فَيَقُولُ مٰا ذٰا أُجِبْتُمْ قٰالُوا لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّٰمُ اَلْغُيُوبِ (۱۰۹)

۱- ۱) .المائده ۱۰۵:بحث فى تربيه النفس.

۲- ۲) .المائده ۱۰۵:بحث روائى فى النفس و معرفتها و تربيتها.

۳- ۳) .المائده ۱۰۵:بحث علمى ملفـق من اشـارات تـاريخيه و ابحـاث أخر نفسـيه و غير ذلـک فى فصول(حقيقه النفس، معرفه النفس،اسـاليب الاـقوام و الشعوب المختلفه من تزكيه النفس،العرفـان،كرامـات خـارقه للعـاده،متى انقادت الاشـياء للانسان،علم النفس.

بیان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ الى آخر الآيتين؛محصل مضمون الآيتين أن أحدهم اذا كان على سفر فأراد أن يوصى فعليه أن يشهد حين الوصيه شاهدين عدلين من المسلمين و إن لم يجد فشاهدين آخرين من غير المسلمين من أهل الكتاب فإن ارتاب أولياء الميت فى أمر الوصيه يحبس الشاهدان بعد الصلاه فيقسمان باللّه على صدقهما فيما يشهدان عليه و ترفع بذلك الخصومه،فإن اطلعوا على أن الشاهدين كذبا فى شهادتهما أو خانا فى الأمر فيوقف شاهدان آخران مقام الشاهدين الأولين فيشهدان على خلافهما و يقسمان باللّه على ذلك.

فهذا ما تفيده الآيتان بظاهرهما فقوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» خطاب للمؤمنين و الحكم مختص بهم «شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّهِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ» أى شهاده بينكم شهاده ذوى عدل منكم،ففى جانب الخبر مضاف مقدر،أو شهداء بينكم ذوا

ص :۲۲۴

عدل منكم،و المراد أن عدد الشهود اثنان فالمصدر-الشهاده-بمعنى اسم الفاعل كقولهم:

رجل عدل و رجلان عدل.

و حضور الموت كنايه عن حضور داعى الوصيه فإن الناس بحسب الطبع لا يشتغلون بأمثال هذه الامور من غير حضور أمر يوجب الظن بالموت،و هو عاده المرض الشديد الذى يشرف الإنسان به على الموت.

و قوله: حِينَ الْوَصِيَّةِ ظرف متعلق بالشهاده أى الشهاده حين الوصيه،و المراد بالعدل-و هو مصدر-الاستقامه فى الأمر،و قرينه المقام تعطى أن المراد به الاستقامه فى أمر الدين،و يتعين بذلك أن المراد بقوله: «مِنْكُمْ» و قوله: «مِنْ غَيْرِكُمْ» المسلمون و غير المسلمين،دون القرابه و العشيره فإن اللّه سبحانه قابل بين قوله: «اثْنَانِ» و قوله: «آخَرَانِ» ، ثم وصف الأول بقوله «ذَوَا عَدْلٍ» و قوله: «مِنْكُمْ» و لم يصف الثانى إلا بقوله «مِنْ غَيْرِكُمْ» دون أن يصفه بالعداله،و الاتصاف بالاستقامه فى الدين و عدمه إنما يختلف فى المسلم و غير المسلم،و لا موجب لاعتبار العداله فى الشهود اذا كانوا قرابه أو من عشيره المشهود له و إلغائها اذا كان الشاهد أجنبيا.

و على هذا فقوله: أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ترديد على سبيل الترتيب أى إن كان هناك نفر من المسلمين يستشهد اثنان منهم،و إن لم يكن إلا من غير المسلمين يستشهد باثنين منهم،كل ذلك بالاستفاده من قرينه المقام.

و هذه القرينه بعينها هى التى توجب أن يكون قوله: «إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ» قيدا متعلقا بقوله «أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» فإن المسلم لما كان بالطبع إنما يعيش فى مجتمع المسلمين لا تمس الحاجه فى الحضر عاده الى الاستشهاد بشهيدين من غير المسلمين بخلاف حاله السفر و الضرب فى الأرض فإنها مظنه وقوع أمثال هذه الوقائع و الاضطرار و مسيس الحاجه الى الانتفاع من غير المسلم بشهاده أو غيرها.

و قرینه المقام أعنی المناسبه بین الحکم و الموضوع بالذوق المتخذ من کلامه تعالی تدل علی أن المراد من غیر المسلمین أهل الکتاب خاصه لأن کلامه تعالی لا یشرف المشرکین بکرامه.

و قوله تعالی: تَحْبِسُونَهُمٰا مِنْ بَعْدِ الصَّلاٰهِ أی توقفونهما،و الحبس الإیقاف، «فَیُقْسِمٰانِ بِاللّٰهِ» أی الشاهدان «إِنِ ارْتَبْتُمْ» أی شککتم فیما یظهره الوصی من أمر الوصیه أو المال الذی تعلقت به الوصیه أو فی کیفیه الوصیه،و المقسم علیه هو قوله: «لاٰ نَشْتَرِی بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ کٰانَ ذٰا قُرْبیٰ» أی لا نشتری بالشهاده للوصی فیما یدعیه ثمنا قلیلا و لو کان ذا قربی، و اشتراء الثمن القلیل بالشهاده أن ینحرف الشاهد فی شهادته عن الحق لغایه دنیویه من مال أو جاه أو عاطفه قرابه فیبذل شهادته بإزاء ثمن دنیوی،و هو الثمن القلیل.

و قوله: وَ لاٰ نَکْتُمُ شَهٰادَهَ اللّٰهِ أی بالشهاده علی خلاف الواقع «إِنّٰا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِینَ» الحاملین للاثم،و الجمله معطوفه علی قوله: «لاٰ نَشْتَرِی بِهِ ثَمَناً» کعطف التفسیر.

و إضافه الشهاده الی اللّه فی قوله: «شَهٰادَهَ اللّٰهِ» إما لأن الواقع یشهده اللّه سبحانه کما شهده الشاهدان فهو شهادته سبحانه کما هو شهادتهما و اللّه أحق بالملک فهو شهادته تعالی حقا و بالأصاله و شهادتهما تبعا،و قد قال تعالی: وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً (النساء۷۹/)و قال تعالی:

وَ لاٰ یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ (البقره۲۵۵/.

و إما لأن الشهاده حق مجعول للّه علی عباده یجب علیهم أن یقیموها علی وجهها من غیر تحریف أو کتمان،و هذا کما یقال:دین اللّه،فینسب الدین إلیه تعالی مع أن العباد هم المتلبسون به،قال تعالی: وَ أَقِیمُوا الشَّهٰادَهَ لِلّٰهِ (الطلاق۳/)و قال: وَ لاٰ تَکْتُمُوا الشَّهٰادَهَ (البقره۲۸۳/).

و قوله: فَإِنْ عُثِرَ عَلیٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقّٰا إِثْماً العثور علی الشیء الحصول علیه

و وجدانه،و هذه الآیه بیان و تفصیل للحکم فی صوره ظهور خیانه الشاهدین و کذبهما فی شهادتهما.

و المراد باستحقاق الإثم الإجرام و الجنایه یقال:استحق الرجل أی أذنب،و استحق فلان إثما علی فلان کنایه عن إجرامه و جنایته علیه و لذا عدی بعلی فی قوله تعالی:ذیلا: «اسْتَحَقَّ عَلَیْهِمُ الْأَوْلَیٰانِ» أی أجرما و جنیا علیهم بالکذب و الخیانه،و أصل معنی قولنا:استحق الرجل طلب أن یحق و یثبت فیه الإثم أو العقوبه فاستعماله الکنائی من قبیل إطلاق الطلب و إراده المطلوب و وضع الطریق موضع الغایه،و إنما ذکر الإثم فی قوله: «اسْتَحَقّٰا إِثْماً» بالبناء علی ما تقدم فی قوله: «إِنّٰا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِینَ» .

و قوله تعالی: فَآخَرٰانِ یَقُومٰانِ مَقٰامَهُمٰا أی إن عثر علی أن الشاهدین استحقا بالکذب و الخیانه فشاهدان آخران یقومان مقامهما فی الیمین علی شهادتهما علیهما بالکذب و الخیانه.

و قوله: مِنَ الَّذِینَ اسْتَحَقَّ عَلَیْهِمُ الْأَوْلَیٰانِ فی موضع الحال أی حال کون هذین الجدیدین من الذین استحق علیهم أی أجرم و جنی علیهم الشاهدان الأولان اللذین هما الأولیان الأقربان بالمیت من جهه الوصیه کما ذکره الرازی فی تفسیره،و المراد بالذین استحق علیهم الأولیان أولیاء المیت،و حاصل المعنی أنه إن عثر علی أن الشاهدین أجرما علی أولیاء المیت بالخیانه و الکذب فیقوم شاهدان آخران من أولیاء المیت الذین أجرم علیهم الشاهدان الأولان الأولیان بالموت قبل ظهور استحقاقهما الإثم.

هذا علی قراءه«استحق»بالبناء للفاعل و هو قراءه عاصم علی روایه حفص،و أما علی قراءه الجمهور«استحق»بضم التاء و کسر الحاء بالبناء للمفعول فظاهر السیاق أن یکون الأولیان مبتدأ خبره قوله: «فَآخَرٰانِ یَقُومٰانِ» الخ؛قدم علیه لتعلق العنایه به،و المعنی إن عثر علی أنهما استحقا إثما فالأولیان بالمیت هما آخران یقومان مقامهما من أولیائه المجرم

علیهم.

و فی قراءه عاصم من طریق أبی بکر و حمزه و خلف و یعقوب«الأولین»جمع الأول مقابل الآخر،و هو بظاهره بمعنی الأولیاء و المقدمین،وصف أو بدل من قوله:«الذین».

و قد فرع علی قوله: «فَآخَرانِ یَقُومانِ» الخ؛تفریع الغایه علی ذی الغایه قوله: «فَیُقْسِمانِ بِاللّهِ» أی الشاهدان الآخران من أولیاء المیت «لَشَهادَتُنا» بما یتضمن کذبهما و خیانتهما «أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما» أی من شهاده الشاهدین الأولین بما یدعیان من أمر الوصیه «وَ مَا اعْتَدَیْنا» علیهما بالشهاده علی خلاف ما شهدا علیه «إِنّا إِذاً لَمِنَ الظّالِمِینَ» .

قوله تعالی: ذٰلِکَ أَدْنیٰ أَنْ یَأْتُوا بِالشَّهادَهِ عَلیٰ وَجْهِها أَوْ یَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَیْمانٌ بَعْدَ أَیْمانِهِمْ الآیه؛فی مقام بیان حکمه التشریع و هی أن هذا الحکم علی الترتیب الذی قرره اللّه تعالی أحوط طریق الی حیازه الواقع فی المقام،و أقرب من أن لا یجوز الشاهدان فی شهادتهما و یخافا من أن یتغیر الأمر علیهما برد شهادتهما بعد قبولهما.

ثم عقب تعالی القول بالموعظه و الإنذار فقال «وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللّهُ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الْفاسِقِینَ» و المعنی واضح.

قوله تعالی: یَوْمَ یَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَیَقُولُ مٰا ذٰا أُجِبْتُمْ قٰالُوا لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّمُ الْغُیُوبِ الآیه؛لا تأبی الاتصال بما قبلها فإن ظاهر قوله تعالی فی ذیل الآیه السابقه: «وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ اسْمَعُوا» الخ؛و إن کان مطلقا لکنه بحسب الانطباق علی المورد نهی عن الانحراف و الجور فی الشهاده و الاستهانه بأمر الیمین باللّه فناسب أن یذکر فی المقام بما یجری بینه سبحانه و بین رسله یوم القیامه و هم شهداء علی اممهم و أفضل الشهداء،حیث یسألهم اللّه سبحانه عن الذی أجابهم به اممهم و هم أعلم الناس بأعمال اممهم و الشاهدون من عند اللّه علیهم فیجیبونه بقولهم «لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّمُ الْغُیُوبِ» .

فإذا کان الأمر علی هذه الوتیره،و کان اللّه سبحانه هو العالم بکل شیء حق العلم فجدیر

بالشهود أن يخافوا مقام ربهم:و لا يـنحرفوا عن الحق الـذى رزقهم اللّه العلم به،و لا يكتموا شهاده اللّه فيكونوا من الآثمين و الظالمين و الفاسقين.

فقوله تعالى: يَوْمَ يَجْمَعُ الـخ؛ظرف متعلق بقوله فى الآيه السابقه «وَ اتَّقُوا اللّهَ» الخ؛ و ذكر جمع الرسل دون أن يقال«يوم يقول اللّه للرسل»لمكان مناسبه مع جمع الشهداء للشهاده كما يشعر به قوله: «تَحْبِسُونَهُمٰا مِنْ بَعْدِ الصَّلاٰهِ فَيُقْسِمٰانِ بِاللّٰهِ» .

و أما نفيهم العلم يومئذ عن أنفسهم بقولهم «لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُيُوبِ» فإثباتهم جميع علوم الغيوب للّه سبحانه على وجه الحصر يـدل على أن المنفى ليس أصل العلم فإن ظاهر قولهم «إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُيُوبِ» يدل على أنه لتعليل النفى،و من المعلوم أن انحصار جميع علوم الغيب فى اللّه سبحانه لا يقتضى رفع كل علم عن غيره و خاصه اذا كان علما بالشهاده، و المسئول عنه أعنى كيفيه إجابه الناس لرسلهم من قبيل الشهاده دون الغيب.

فقولهم: لاٰ عِلْمَ لَنٰا ليس نفيا لمطلق العلم بل لحق العلم الـذى لا يخلو عن التعلق بالغيب فإن من المعلوم أن العلم إنما يكشف لعالمه من الواقع على قدر ما يتعلق بأمر من حيث أسبابه و متعلقاته،و الواقع فى العين مرتبط بجميع أجزاء الخارج مما يتقدم على الأمر الواقع فى الخارج و ما يحيط به مما يصاحبه زمانا فالعلم بأمر من الامور الخارجيه بحقيقه معنى العلم لا يحصل إلا بالإحاطه بجميع أجزاء الوجود ثم بصانعه المتعالى من أن يحيط به شىء،و هذا أمر وراء الطاقه الإنسانيه.

فلم يرزق الإنسان من العلم فى هذا الكون الـذى يبهته التفكير فى سعه ساحته،و تهوله النظره فى عظمه أجرامه و مجراته،و يطير لبه الغور فى متون ذراته،و يأخذه الـدوار اذا أراد الجرى بين هاتين الغايتين إلا اليسير من العلم على قدر ما يحتاج اليه فى مسير حياته كالشمعه الصغيره يحملها طارق الليل المظلم لا ينتفع من نورها إلا أن يميز ما يضع عليه قدمه من الأرض.

فمـا يتعلق به علم الإنسـان نـاشب بوجوده متعلق بواقعيته بـأطراف ثم بـأطراف أطراف، و هكـذا كـل ذلـك فى غيب من إدراك الإنسان فلا يتعلق العلم بحقيقه معنى الكلمه بشـىء إلا اذا كان متعلقا بجميع الغيوب فى الوجود،و لا يسع ذلك لمخلوق محـدود مقـدر إنسانا أو غيره إلا للّه الواحـد القهار الـذى عنـده مفاتـح الغيب لا يعلمها إلا هو،قال اللّه تعالى: وَ اللّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (البقره۲۱۶/)فـدل على أن من طبع الإنسان الجهل فلا يرزق من العلم إلا محدودا مقدرا كما قال تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَـىْءٍ إِلّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ۲۱)و هو قوله عليه السّلام حيث سئل عن عله احتجاب اللّه عن خلقه فقال:لأنه بناهم بنيه على الجهـل،و قـال تعـالى: وَ لا يُحِيطُونَ بِشَـىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِما شاءَ (البقره۲۵۵/)فـدل على أن العلم كله للّه،و إنمـا يحيـط منه الإنسـان بما شاء اللّه،و قال تعالى: وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلّا قَلِيلاً (الإسـراء۸۵/)فـدل على أن هناك علما كثيرا لـم يؤت الإنسان إلا قليلا منه.

فإذن حقيقه الأمر أن العلم حق العلم لا يوجد عنـد غير اللّه سبحانه،و إذا كان يوم القيامه يوما يظهر فيه الأشـياء بحقائقها على ما تفيده الآيات الواصـفه لأمره فلا مجال فيه إلا للكلام الحق كما قال تعالى: لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً، ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ (النبأ۳۹/)كان من الجواب الحق اذا ما سـئل الرسل فقيل لهم «ما ذا أُجِبْتُمْ» أن يجيبوا بنفى العلم عن أنفسهم لكونه من الغيب،و يثبتوه لربهم سبحانه بقولهم لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّمُ الْغُيُوبِ .

و هـذا الجواب منهم عليهم السّـلام نحو خضوع لحضـره العظمه و الكبريـاء و اعتراف بحـاجتهم الـذاتيه و بطلانهم الحقيقى قبال مولاهم الحق رعايه لأدب الحضور و إظهارا لحقيقه الأمر،و ليس جوابا نهائيا لا جواب بعد البته:

أمـا أولا ـ فلأـن اللّه سـبحانه جعلهم شـهداء على اممهم كمـا ذكره فى قوله: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّهٍ بِشَـهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً (النساء۴۱/)و قال: وَ وُضِعَ الْكِتابُ وَ جِىءَ

بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدٰاءِ (الزمر۶۹/)و لا معنى لجعلهم شهداء إلا لشهدوا على اممهم يوم القيامه بما هو حق الشهاده يومئذ،فلا محاله هم سيشهدون يومئذ كما قدر اللّه ذلك فقولهم يومئذ لاٰ عِلْمَ لَنٰا جرى على الأدب العبودى قبال الملك الحق الذى له الأمر و الملك يومئذ،و بيان لحقيقه الحال و هو أنه هو يملك العلم لذاته و لا يملك غيره إلا ما ملكه،و لا ضير أن يجيبوا بعد هذا الجواب بما لهم من العلم الموهوب المتعلق بأحوال اممهم،و هذا مما يؤيد ما قدمناه فى البحث عن قوله تعالى: وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ الآيه (البقره۱۴۳/)فى الجزء الأول من هذا الكتاب:أن هذا العلم و الشهاده ليسا من نوع العلم و الشهاده المعروفين عندنا و أنهما من العلم المخصوص باللّه الموهوب لطائفه من عباده المكرمين.

و أما ثانيا فلأن اللّه سبحانه أثبت العلم لطائفه من مقربى عباده يوم القيامه على ما له من الشأن،قال تعالى: وَ قٰالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمٰانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتٰابِ اللّٰهِ إِلىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ (الروم۵۶/)و قال تعالى: وَ عَلَى الْأَعْرٰافِ رِجٰالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمٰاهُمْ (الأعراف۴۶/) و قال تعالى: وَ لاٰ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفٰاعَةَ إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف۸۷/)و عيسى بن مريم عليه السّلام ممن تعمه الآيه و هو رسول فهو ممن يشهد بالحق و هم يعلمون،و قال تعالى: وَ قٰالَ الرَّسُولُ يٰا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (الفرقان۳۱/)و المراد بالرسول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الذى تحكيه الآيه من قوله هو بعينه جواب لما تشتمل عليه هذه الآيه من السؤال أعنى قوله تعالى: فَيَقُولُ مٰا ذٰا أُجِبْتُمْ فظهر أن قول الرسل عليهم السّلام«لا علم لنا»ليس جوابا نهائيا كما تقدم.

و أما ثالثا فلأن القرآن يذكر السؤال عن المرسلين و المرسل إليهم جميعا كما قال تعالى:

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف۶/)ثم ذكر عن الامم المرسل اليهم جوابات كثيره عن سؤالات كثيره،و الجواب يستلزم العلم كما أن السؤال يقرره،و قال

أیضا فیهم: لَقَدْ کُنْتَ فِی غَفْلَهٍ مِنْ هٰذٰا فَکَشَفْنٰا عَنْکَ غِطٰاءَکَ فَبَصَرُکَ الْیَوْمَ حَدِیدٌ (ق/ ٢٢)و قال أیضا: وَ لَوْ تَریٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نٰاکِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنٰا أَبْصَرْنٰا وَ سَمِعْنٰا فَارْجِعْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً إِنّٰا مُوقِنُونَ (السجده١٢/)الی غیر ذلک من الآیات الکثیره،و اذا کانت الامم-و خاصه المجرمون منهم-علی علم فی هذا الیوم فکیف یتصور أن یعدمه الرسل الکرام علیهم السّلام فالمصیر الی ما قدمناه (١)(٢)(٣)(۴).

[سوره المائده (۵): الآیات ١١٠ الی ١١١]

اشاره

إِذْ قٰالَ اَللّٰهُ یٰا عِیسَی اِبْنَ مَرْیَمَ اُذْکُرْ نِعْمَتِی عَلَیْکَ وَ عَلیٰ وٰالِدَتِکَ إِذْ أَیَّدْتُکَ بِرُوحِ اَلْقُدُسِ تُکَلِّمُ اَلنّٰاسَ فِی اَلْمَهْدِ وَ کَهْلاً وَ إِذْ عَلَّمْتُکَ اَلْکِتٰابَ وَ اَلْحِکْمَهَ وَ اَلتَّوْرٰاهَ وَ اَلْإِنْجِیلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ اَلطِّینِ کَهَیْئَهِ اَلطَّیْرِ بِإِذْنِی فَتَنْفُخُ فِیهٰا فَتَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِی وَ تُبْرِئُ اَلْأَکْمَهَ وَ اَلْأَبْرَصَ بِإِذْنِی وَ إِذْ تُخْرِجُ اَلْمَوْتیٰ بِإِذْنِی وَ إِذْ کَفَفْتُ بَنِی إِسْرٰائِیلَ عَنْکَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ فَقٰالَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِینٌ (١١٠) وَ إِذْ أَوْحَیْتُ إِلَی اَلْحَوٰارِیِّینَ أَنْ آمِنُوا بِی وَ بِرَسُولِی قٰالُوا آمَنّٰا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنٰا مُسْلِمُونَ (١١١)

١- ١) .المائده ١٠۵:کلام فی معنی الشهاده.

٢- ٢) .المائده ١٠۵:کلام فی العداله.

٣- ٣) .المائده ١٠۵:کلام فی الیمین.

۴- ۴) .المائده ١٠۵:بحث روائی فی:الوصیه؛الشهاده؛معنی الآیه «لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ» .

بيان:

قوله تعالى: إِذْ قالَ اللّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ -الى قوله- وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي الآيه تعد عده من الآيات الباهره الظاهره بيده عليه السّلام إلا أنها تمتن بها عليه و على أمه جميعا،و هى مذكوره بهذا اللفظ تقريبا فيما يحكيه تعالى من تحديث الملائكه مريم عند بشارتها بعيسى عليه السّلام فى سوره آل عمران،قال تعالى: إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ -الى أن قال- وَ يُكَلِّمُ النّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً -الى أن قال- وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ رَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ،أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللّهِ الآيات(۴۵-۵۰).

و التأمل فى سياق الآيات يوضح الوجه فى عدّ ما ذكره من الآيات المختصه ظاهرا بالمسيح نعمه عليه و على والدته جميعا كما تشعر به آيات آل عمران فإن البشاره إنما تكون بنعمه، و الأمر على ذلك فإن ما اختص به المسيح عليه السّلام من آيه و موهبه كالولاده من غير أب و التأييد بروح القدس و خلق الطير و إبراء الأكمه و الأبرص و إحياء الموتى بإذن اللّه سبحانه فهى بعينها كرامه لمريم كما أنها كرامه لعيسى عليها السّلام فهما معا منعمان بالنعمه الإلهيه كما قال تعالى:نعمتى التى أنعمت عليك و على والدتک.

و الى ذلك يشير تعالى بقوله وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (الأنبياء۹۱/)حيث عدهما معا آيه واحده لا آيتين.

و قوله: إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النّاسَ الظاهر أن التأييد بروح القدس هو السبب المهيئ له لتكليم الناس فى المهد،و لذلك وصل قوله: تُكَلِّمُ النّاسَ من غير أن يفصله بالعطف الى الجمله السابقه إشعارا بأن التأييد و التكليم معا أمر واحد مؤلف من سبب

و مسبب،و اکتفی فی موارد من کلامه بذکر أحد الأمرین عن الآخر کقوله فی آیات آل عمران المنقوله آنفا: تُکَلِّمُ النّٰاسَ فِی الْمَهْدِ وَ کَهْلاً ،و قوله: وَ آتَیْنٰا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ الْبَیِّنٰاتِ وَ أَیَّدْنٰاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (البقره۲۵۳/).

علی أنه لو کان المراد بتأییده بروح القدس مسأله الوحی بوساطه الروح لم یختص بعیسی بن مریم علیه السّلام و شارکه فیها سائر الرسل مع أن الآیه تأبی ذلک بسیاقها.

و قوله: وَ إِذْ عَلَّمْتُکَ الْکِتٰابَ وَ الْحِکْمَهَ وَ التَّوْرٰاهَ وَ الْإِنْجِیلَ من الممکن أن یستفاد منه أنه علیه السّلام إنما تلقی علم ذلک کله بتلق واحد عن أمر إلهی واحد من غیر تدریج و تعدد کما أنه أیضا ظاهر جمع الجمیع و تصدیرها بإذ من غیر تکرار لها.

و کذلک قوله: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّینِ کَهَیْئَهِ الطَّیْرِ بِإِذْنِی فَتَنْفُخُ فِیهٰا فَتَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِی ظاهر السیاق من جهه عدم تکرار لفظه«إذ»أن خلق الطیر و إبراء الأکمه و الأبرص کانا متقارنین زمانا،و أن تذییل خلق الطیر بذکر الإذن من غیر أن یکتفی بالإذن المذکور فی آخر الجمله إنما هو لعظمه أمر الخلق بإفاضه الحیاه فتعلقت العنایه به فاختص بذکر الإذن بعده من غیر أن ینتظر فیه آخر الکلام صونا لقلوب السامعین من أن یخطر فیها أن غیره تعالی یستقل دونه بإفاضه الحیاه أو تلبث فیها هذه الخطره و لو لحظات یسیره،و اللّه أعلم.

و قوله: وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتیٰ بِإِذْنِی إخراج الموتی کنایه عن إحیائها،و فیه عنایه ظاهره بأن الإحیاء الذی جری علی یدیه علیه السّلام کان إحیاء لموتی مقبورین بإفاضه الحیاه علیهم و إخراجهم من قبورهم الی حیاه دنیویه،و فی اللفظ دلاله علی الکثره،و قد تقدم فی الکلام علی آیات آل عمران بقیه ما یتعلق بهذه الآیات من الکلام فراجع ذلک.

قوله تعالی: وَ إِذْ کَفَفْتُ بَنِی إِسْرٰائِیلَ عَنْکَ الی آخر الآیه؛فیه دلاله علی أنهم قصدوه بشر فکفهم اللّه عن ذلک فینطبق علی ما ذکره اللّه فی سوره آل عمران فی قصصه علیه السّلام

بقوله وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللّهُ وَ اللّهُ خَيْرُ الْمٰاكِرِينَ .

قوله تعالى: وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوٰارِيِّينَ الآيه؛الآيه منطبقه على آيات سوره آل عمران بقوله فَلَمّٰا أَحَسَّ عِيسىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قٰالَ مَنْ أَنْصٰارِي إِلَى اللّهِ قٰالَ الْحَوٰارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصٰارُ اللّهِ آمَنّٰا بِاللّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنّٰا مُسْلِمُونَ (آل عمران٥٢/).

و من هنا يظهر أن هذا الإيمان الذى ذكره فى الآيه بقوله «وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوٰارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قٰالُوا آمَنّٰا» الآيه؛غير إيمانهم الأول به عليه السّلام فإن ظاهر قوله فى آيه آل عمران: فَلَمّٰا أَحَسَّ عِيسىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ أنه كان فى أواخر أيام دعوته و قد كان الحواريون و هم السابقون الأولون فى الايمان به ملازمين له.

على أن ظاهر قوله فى آيه آل عمران: قٰالَ مَنْ أَنْصٰارِي إِلَى اللّهِ قٰالَ الْحَوٰارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصٰارُ اللّهِ آمَنّٰا بِاللّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنّٰا مُسْلِمُونَ أن الدعوه إنما سيقت لأخذ الميثاق على نصره دين اللّه لا أصل الإيمان باللّه،لأنك ختم الآيه بقولهم «وَ اشْهَدْ بِأَنّٰا مُسْلِمُونَ» و هو التسليم لأمر اللّه بإقامه دعوته و تحمل الأذى فى جنبه،و كل ذلك بعد أصل الإيمان باللّه طبعا.

فتبين أن المراد بقوله «وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوٰارِيِّينَ» الخ؛قصه أخذ الميثاق من الحواريين، و فى الآيه ابحاث أخر مرت فى تفسير سوره آل عمران (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ١١٢ الى ١١٥]

اشاره

إِذْ قٰالَ اَلْحَوٰارِيُّونَ يٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنٰا مٰائِدَةً مِنَ اَلسَّمٰاءِ قٰالَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قٰالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهٰا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنٰا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنٰا وَ نَكُونَ عَلَيْهٰا مِنَ اَلشّٰاهِدِينَ (١١٣) قٰالَ عِيسَى اِبْنُ مَرْيَمَ اَللّٰهُمَّ رَبَّنٰا أَنْزِلْ عَلَيْنٰا مٰائِدَةً مِنَ اَلسَّمٰاءِ تَكُونُ لَنٰا عِيداً لِأَوَّلِنٰا وَ آخِرِنٰا وَ آيَةً مِنْكَ وَ اُرْزُقْنٰا وَ أَنْتَ خَيْرُ اَلرّٰازِقِينَ (١١۴) قٰالَ اَللّٰهُ إِنِّي مُنَزِّلُهٰا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذٰاباً لاٰ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ اَلْعٰالَمِينَ (١١۵)

١- ١) .المائده ١١٢-١١۵:بحث روائى فى:المعجزه و تناسبها لزمانها؛ان عيسى هل أحيا احدا بعد موته.

بیان

بیان (۱):

قوله تعالی: إِذْ قٰالَ الْحَوٰارِيُّونَ يٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنٰا مٰائِدَةً مِنَ السَّمٰاءِ «إِذْ» ظرف متعلق بمقدر و التقدیر:اذکر اذ قال،الخ؛أو ما یقرب منه،و ذهب بعضهم الی أنه متعلق بقوله فی الآیه السابقه «قٰالُوا آمَنّٰا» الخ؛أی قال الحواریون:آمنا باللّه و أشهد بأنا مسلمون فی وقت قالوا فیه لعیسی «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنٰا مٰائِدَةً مِنَ السَّمٰاءِ» و المراد أنهم ما کانوا علی صدق فی دعواهم،و لا علی جد فی إشهادهم عیسی علیه السّلام علی إسلامهم له.

و فیه أنه مخالف لظاهر السیاق،و کیف یکون إیمانهم غیر خالص؟و قد ذکر اللّه أنه هو أوحی الیهم أن آمنوا بی و برسولی،و هو تعالی یمتن بذلک علی عیسی علیه السّلام؛علی أنه لا وجه حینئذ للإظهار فی قوله: «إِذْ قٰالَ الْحَوٰارِيُّونَ» الخ.

و«المائده»الخوان اذا کان فیه طعام،قال الراغب:و المائده الطبق الذی علیه الطعام، و یقال لکل واحده منهما مائده،و یقال:مادنی یمیدنی أی أطعمنی،انتهی.

و متن السؤال الذی حکی عنهم فی الآیه و هو قولهم «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنٰا

۱- ۱) .المائده ۱۱۲-۱۱۵ بحث حول قصه نزول المائده علی المسیح علیه السّلام و اصحابه.

مٰائِدَةً مِنَ السَّمٰاءِ» بحسب ظاهر ما يتبادر من معناه مما يستعبد العقل صدوره عن الحواريين و هم أصحاب المسيح و تلامذته و أخصاؤه الملازمون له المقتبسون من أنوار علومه و معارفه المتبعون آدابه و آثاره،و الإيمان بأدنى مراتبه ينبه الإنسان على أن اللّه سبحانه على كل شىء قدير،و لا يجوز عليه العجز و لا يغلبه العجز؛فكيف جاز أن يستفهموا رسولهم عن استطاعه ربه على إنزال مائده من السماء.

و لذلک قرأ الكسائى من السبعه «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّکَ» بتاء المضارعه و نصب «رَبُّکَ» على المفعوليه أى هل تستطيع أنت أن تسأل ربك،فحذف الفعل الناصب للمفعول و اقيم «تستطيع» مقامه،أو أنه مفعول لفعل محذوف فقط.

و قد اختلف المفسرون فى توجيهه على بناء من أكثريهم على أن المراد به غير ما يتبادر من ظاهره من الشک فى قدره اللّه سبحانه لنزاهه ساحتهم من هذا الجهل السخيف.

و أوجه ما يمكن أن يقال هو أن الاستطاعه فى الآيه كنايه عن اقتضاء المصلحه و وقوع الإذن كما أن الإمكان و القدره و القوه يكنى بها عن ذلک كما يقال«لا يقدر الملک أن يصغى الى كل ذى حاجه»بمعنى أن مصلحه الملک تمنعه من ذلک و إلا فمطلق الإصغاء مقدور له،و يقال«لا يستطيع الغنى أن يعطى كل سائل»أى مصلحه حفظ المال لا تقتضيه، و يقال«لا يمكن للعالم أن يبث كل ما يعلمه»أى يمنعه عن ذلک مصلحه الدين أو مصلحه الناس و النظام الدائر بينهم،و يقول أحدنا لصاحبه«هل تستطيع أن تروح معى الى فلان»؟ و إنما السؤال عن الاستطاعه بحسب الحكمه و المصلحه لا بحسب أصل القدره على الذهاب، هذا.

قوله تعالى: قٰالَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ توبيخ منه عليه السّلام لهم لما يشتمل عليه ظاهر كلامهم من الاستفهام عن استطاعه ربه على إنزال المائده فإن كلامهم مريب على أى حال.

و أما على ما قدمناه من أن الأصل فى مؤاخذتهم الذى يترتب عليه الوعيد الشديد فى آخر الآيات هو أنهم سألوا آيه حيث لا حاجه إليها و اقترحوا بما فى معنى العبث بآيات اللّه سبحانه،ثم تعبيرهم بما يتبادر من ظاهره كونهم كأنهم لم يعقدوا قلوبهم على القدره الربوبيه فوجه توبيخه عليه السّلام لهم بقوله «اتَّقُوا اللّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» أظهر.

قوله تعالى: قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشّاهِدِينَ السياق ظاهر فى أن قولهم هذا عذر اعتذروا به للتخلص من توبيخه عليه السّلام و ما ذكروه ظاهر التعلق باقتراحهم الآيه بنزول المائده دون ما يظهر من قولهم:هل يستطيع ربك ان ينزل،من المعنى الموهم للشك فى إطلاق القدره،و هذا ايضا احد الشواهد على ان ملاك المؤاخذه فى المقام هو انهم سألوا آيه على آيه من غير حاجه إليها.

و أما قولهم «نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها» الخ؛فقد عدوا فى بيان غرضهم من اقتراح الآيه امورا أربعه:

أحدها:الأكل و كأن مرادهم بذكره أنهم ما أرادوا به اللعب بآيات اللّه بل أرادوا أن يأكلوا منها،و هو غرض عقلائى،و قد تقدم أن هذا القول منهم كالتسليم لاستحقاقهم التوبيخ من عيسى عليه السّلام و الوعيد الشديد من اللّه لمن يكفر منهم بآيه المائده.

و ذكر بعضهم:أن المراد بذكر الأكل إبانه أنهم فى حاجه شديده الى الطعام و لا يجدون ما يسد حاجتهم.و ذكر آخرون أن المراد:نريد أن نتبركه بأكله.و أنت تعلم أن المعنى الذى قرر فى كل من هذين الوجهين أمر لا يدل عليه مجرد ذكر الأكل،و لو كان مرادهم ذلك و هو أمر يدفع به التوبيخ لكان مقتضى مقام الاعتذار التصريح بذكره،و حيث لم يذكر شىء من ذلك مع حاجه المقام الى ذكره لو كان مرادا فليس المراد بالأكل إلا مطلق معناه من حيث إنه غرض عقلائى هو أحد أجزاء غرضهم فى اقتراح نزول المائده.

الثانی:اطمئنان القلب و هو سکونه باندفاع الخطورات المنافیه للخلوص و الحضور.

و الثالث:العلم بأنه علیه السّلام قد صدقهم فیما بلغهم عن ربه،و المراد بالعلم حینئذ هو العلم الیقینی الذی یحصل فی القلب بعد ارتفاع الخطورات و الوساوس النفسانیه عنه،أو العلم بأنه قد صدقهم فیما وعدهم من ثمرات الإیمان کاستجابه الدعاء کما ذکره بعضهم،لکن یبعده أن الحواریین ما کانوا یسألون إنزال المائده من السماء إلا بدعاء عیسی علیه السّلام و مسألته،و بالجمله بإعجاز منه علیه السّلام و قد کانوا رأوا منه علیه السّلام آیات کثیره فإنه علیه السّلام لم یزل فی حیاته قرینا لآیات إلهیه کبری،و لم یرسل الی قومه و لم یدعهم دعوه إلا مع آیات ربه فلم یزالوا یرون ثمرات إیمانه من استجابه الدعاء إن کان المراد الثمره التی هی استجابه دعائه علیه السّلام،و إن کان المراد الثمره التی هی استجابه دعائهم أنفسهم فإنهم لم یسألوا نزول الآیه بدعاء أنفسهم،و لم تنزل إلا بدعاء عیسی علیه السّلام.

الرابع:أن یکونوا علیها من الشاهدین عند ما یحتاج الی الشهاده کالشهاده عند المنکرین، و الشهاده عند اللّه یوم القیامه،فالمراد بها مطلق الشهاده،و یمکن أن یکون المراد مجرد الشهاده عند اللّه سبحانه کما وقع فی بعض قولهم الذی حکاه اللّه تعالی اذ قال: رَبَّنٰا آمَنّٰا بِمٰا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاکْتُبْنٰا مَعَ الشّٰاهِدِینَ (آل عمران۵۳/).

فقد تحصل أنهم-فیما اعتذروا به-ضموا امورا جمیله مرضیه الی غرضهم الآخر الذی هو الأکل من المائده السماویه لیحسموا به ماده الحزازه عن اقتراحهم الآیه بعد مشاهده الآیات الکافیه فأجابهم عیسی علیه السّلام الی مسألتهم بعد الإصرار.

قوله تعالی: قٰالَ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ اللّٰهُمَّ رَبَّنٰا أَنْزِلْ عَلَیْنٰا مٰائِدَهً مِنَ السَّمٰاءِ تَکُونُ لَنٰا عِیداً لِأَوَّلِنٰا وَ آخِرِنٰا وَ آیَهً مِنْکَ وَ ارْزُقْنٰا وَ أَنْتَ خَیْرُ الرّٰازِقِینَ خلط علیه السّلام نفسه بهم فی سؤال المائده،و بدأ بنداء ربه بلفظ عام فقال «اللّٰهُمَّ رَبَّنٰا» و قد کانوا قالوا له «هَلْ یَسْتَطِیعُ رَبُّکَ» لیوافق النداء الدعاء.

ص :۲۳۹

و قد توحد هذا الدعاء من بين جميع الأدعيه و المسائل المحکيه فی القرآن عن الانبياء عليهم السّلام بأن صدر«باللهم ربنا»و غيره من أدعيتهم مصدر بلفظ«رب»أو«ربنا»و ليس إلا لدقه المورد و هول المطلع،نعم يوجد فی أقسام الثناء المحکيه نظير هذا التصدير کقوله: قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ (النمل۵۹/)و قوله: قُلِ اللّهُمَّ مالِکَ الْمُلْکِ (آل عمران۲۶/)و قوله: قُلِ اللّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ (الزمر۴۶/).

ثم ذکر عليه السّلام عنوانا لهذه المائده النازله هو الغرض له و لأصحابه من سؤال نزولها و هو أن تنزل فتکون عيدا له و لجميع امته،و لم يکن الحواريون ذکروا فيما اقترحوه أنهم يريدون عيدا يخصون به لکنه عليه السّلام عنون ما سأله بعنوان عام و قلبه فی قالب حسن ليخرج عن کونه سؤالا للآيه مع وجود آيات کبری إلهيه بين أيديهم و تحت مشاهدتهم،و يکون سؤالا مرضيا عند اللّه غير مصادم لمقام العزه و الکبرياء فإن العيد من شأنه أن يجمع الکلمه،و يجدد حياه المله، و ينشط نفوس العائدين،و يعلن کلما عاد عظمه الدين.

و لذلک قال: «عِيداً لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا» أی أول جماعتنا من الامه و آخر من يلحق بهم-علی ما يدل عليه السياق-فإن العيد من العود و لا يکون عيدا إلا اذا عاد حينا بعد حين،و فی الخلف بعد السلف من غير تحديد.

و هذا العيد مما اختص به قوم عيسی عليه السّلام کما اختصوا بنوع هذه الآيه النازله علی ما تقدم بيانه.

و قوله: «وَ آيَةً مِنْکَ» لما قدم مسأله العيد و هی مسأله حسنه جميله لا عتاب عليها عقبها بکونها آيه منه تعالی کأنه من الفائده الزائده المترتبه علی الغرض الأصلی غير مقصوده وحدها حتی يتعلق بها عتاب أو سخط،و إلا فلو کانت مقصوده وحدها من حيث کونها آيه لم تخل مسألتها من نتيجه غير مطلوبه فإن جميع المزايا الحسنه التی کان يمکن أن يراد بها کانت ممکنه الحصول بالآيات المشهوده کل يوم منه عليه السّلام للحواريين

و غیرهم.

و قوله: «وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرّازِقِينَ» و هـذه فائده اخری عدها مترتبه علی ما سأله من العید من غیر أن تکون مقصوده بالذات،و قـد کـان الحواریون ذکروه مطلوبـا بالـذات حیث قالوا «نُرِيـدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها» فـذکروه مطلوبا لـذاته و قـدموه علی غیره،لکنه علیه السّلام عده غیر مطلوب بالذات و أخره عن الجمیع و أبدل لفظ الأکل من لفظ الرزق فأردفه بقوله «وَ أَنْتَ خَيْرُ الرّازِقِينَ» .

قوله تعالی: قالَ اللّهُ إِنِّی مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْـدُ مِنْكُمْ فَإِنِّی أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ قرأ أهل المدینه و الشام و عـاصم «مُنَزِّلُها» بالتشدیـد و الباقون «مُنَزِّلُها» بالتخفیف-علی ما فی المجمع-و التخفیف اوفق لأن الإنزال هو الـدال علی النزول الدفعی،و کذلک نزلت المائده،و أما التنزیل فاستعماله الشائع إنما هو فی النزول التدریجی کما تقدم کرارا.

و قوله تعالی: «إِنِّی مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ» وعد صریح بالإنزال و خاصه بالنظر الی الإتیان به فی هیئه اسم الفاعل دون الفعل،و لازم ذلک أن المائده قد نزلت علیهم.

و من هنا یظهر ان المراد بالعالمین عالمو جمیع الامم لا عالمو زمانهم فإن ذلک مرتبطا بمن یمتازون عنهم من الناس و هم جمیع الامم لا اهل زمان عیسی علیه السّلام خاصه من امم الأرض.

و من هناک یظهر ایضا ان قوله: «فَإِنِّی أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ» و إن کان وعیدا شدیدا بعذاب بئیس لکن الکلام غیر نـاظر الی کون العـذاب فوق جمیع العـذابات و العقوبـات فی الشـده و الأـلم،و إنما هو مسوق لبیان انفراد العـذاب فی بابه،و اختصاصهم من بین الامم به (۱).

ص :۲۴۱

۱- ۱) .المائده ۱۱۲-۱۱۵:بحث روائی فی:نزول المائده علی المسیح علیه السّلام و اصحابه.

اشاره

وَ إِذْ قٰالَ اَللّٰهُ يٰا عِيسَى اِبْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اِتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ قٰالَ سُبْحٰانَكَ مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مٰا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مٰا فِي نَفْسِي وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّٰمُ اَلْغُيُوبِ (۱۱۶) مٰا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّٰ مٰا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مٰا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ اَلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۱۱۷) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبٰادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۱۱۸) قٰالَ اَللّٰهُ هٰذٰا يَوْمُ يَنْفَعُ اَلصّٰادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنّٰاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً رَضِيَ اَللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (۱۱۹) لِلّٰهِ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۲۰)

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذْ قٰالَ اللّٰهُ يٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ «إِذْ» ظرف متعلق بمحذوف یدل علیه المقام،و المراد به یوم

القیامه لقوله تعالی فیها: «قٰالَ اللّٰهُ هٰذٰا یَوْمُ یَنْفَعُ الصّٰادِقِینَ صِدْقُهُمْ» و قول عیسی علیه السّلام فیها:

«وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً مٰا دُمْتُ فِیهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ» .

و قد عبرت الآیه عن مریم بالامومه فقیل «اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلٰهَیْنِ» دون ان یقال«اتخذونی و مریم إلهین»للدلاله علی عمده حجتهم فی الالوهیه و هو ولادته منها بغیر أب،فالبنوه و الاموه الکذائیتین هما الأصل فی ذلک بالتعبیر به و بامه أدل و أبلغ من التعبیر بعیسی و مریم.

و«دون»کلمه تستعمل بحسب المآل فی معنی الغیر،قال الراغب:یقال للقاصر عن الشیء«دون»قال بعضهم:هو مقلوب من الدنو،و الأدون الدنی،و قوله تعالی: لاٰ تَتَّخِذُوا بِطٰانَهً مِنْ دُونِکُمْ أی من لم یبلغ منزلتکم فی الدیانه،و قیل:فی القرابه،و قوله: وَ یَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِکَ أی ما کان أقل من ذلک،و قیل:ما سوی ذلک،و المعنیان متلازمان،و قوله:

«أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلٰهَیْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ» أی غیر اللّه،انتهی (۱).

قوله تعالی: قٰالَ سُبْحٰانَکَ مٰا یَکُونُ لِی أَنْ أَقُولَ مٰا لَیْسَ لِی بِحَقٍّ الی آخر الآیه؛هذه الآیه و التی تتلوها جواب المسیح عیسی بن مریم علیه السّلام عما سئل عنه و قد أتی علیه السّلام فیه بأدب عجیب:

فبدأ بتسبیحه تعالی لما فاجأه أن سمع ذکر ما لا یلیق نسبته الی ساحه الجلال و العظمه و هو اتخاذ الناس إلهین من دون اللّه شریکین له سبحانه فمن أدب العبودیه أن یسبح العبد ربه اذا سمع ما لا ینبغی أن یسمع فیه تعالی أو ما یخطر بالبال تصور ذلک،و علیه جری التأدیب الإلهی فی کلامه کقوله: وَ قٰالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ (الأنبیاء۲۶/)و قوله:

وَ یَجْعَلُونَ لِلّٰهِ الْبَنٰاتِ سُبْحٰانَهُ (النحل۵۷/).

ثم عاد الی نفی ما استفهم عن انتسابه إلیه،و هو أن یکون قد قال للناس اتخذونی و أمی

۱- ۱) .المائده ۱۱۶-۱۲۰:بحث فی ربوبیه اللّه؛اتخاذ الآلهه.

إلهين من دون اللّه،و لم ينفه بنفسه بـل بنفى سـببه مبالغه فى التنزيه فلو قال:«لم أقل ذلك أ و لم أفعل»لكان فيه إيمان الى إمكان وقوعه منه لكنه لم يفعـل،لكن اذا نفـاه بنفى سـببه فقـال: «مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مٰا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ» كان ذلك نفيا لما يتوقف عليه ذلـك القول،و هو أن يكون له أن يقول ذلـك حقـا فنفى هـذا الحق نفى مـا يتفرع عليه بنحو أبلغ نظير اذا قـال المولى لعبـده:لم فعلت ما لم آمرك أن تفعله؟فإن أجاب العبد بقوله«لم أفعل»كان نفيا لما هو فى مظنه الوقوع، و إن قال:«أنا أعجز من ذلك»كان نفيا بنفى السبب و هو القدره،و إنكارا لأصل إمكانه فضلا عن الوقوع.

و قوله: مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مٰا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إن كـان لفـظ «يَكُونُ» نـاقصه فاسـمها قوله: «أَنْ أَقُولَ» و خبرها قوله: «لِي» و اللام للملـك،و المعنى:مـا أملك ما لم أملكه و ليس من حقى القول بغير حق،و إن كانت تامه فلفظ «لِي» متعلق بها و قوله: «أَنْ أَقُولَ» الخ؛ فاعلها،و المعنى:ما يقع لى القول بغير حق،و الأول من الوجهين أقرب،و على أى حال يفيد الكلام نفى الفعل بنفى سببه.

و قوله عليه السّـلام: «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَـدْ عَلِمْتَهُ» نفى آخر للقول المسـتفهم عنه لاـ نفيـا لنفسه بنفسه بل بنفى لازمه فإن لازم وقوع هذا القول أن يعلم به اللّه لأنه الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء و هو القائم على كل نفس بما كسبت،المحيط بكل شىء.

و هـذا الكلام منه عليه السّـلام يتضـمن أولا فائده إلقاء القول مع الدليل من غير أن يكتفى بالدعوى المجرده؛و ثانيا الإشـعار بأن الذى كان يعتبره فى أفعاله و أقواله هو علم اللّه سبحانه من غير أن يعبأ بغيره من خلقه علموا أو جهلوا،فلا شأن له معهم.

و بلفـظ آخر السؤال إنمـا يصـح طبعـا فى مـا كـان مظنه الجهـل فيراد به نفى الجهـل و إفـاده العلم، إما لنفس السائل اذا كان هو الجاهـل بواقع الأـمر،أو لغيره اذا كـان السائـل عالمـا و أراد أن يعلم غيره بمـا يعلم هو من واقع الأـمر كما يحمل عليه نوع السؤال الواقع فى كلامه تعالى،و قوله عليه السّلام

فی الجواب فی مثل المقام «إِنْ کُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ» إرجاع للأمر الی علمه تعالی و إشعار أنه لا یعتبر شیئا فی أفعاله و أقواله غیر علمه تعالی.

ثم أشار بقوله «تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِکَ إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ» لیکون تنزیها لعلمه تعالی عن مخالطه الجهل إیاه،و هو و إن کان ثناء أیضا فی نفسه لکنه غیر مقصود لأن المقام لیس بمقام الثناء بل مقام التبری عن انتساب ما نسب الیه.

فقوله علیه السّلام «تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی» توضیح لنفوذ العلم الذی ذکره فی قوله: «إِنْ کُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ» و بیان أن علمه تعالی بأعمالنا و هو الملک الحق یومئذ لیس من قبیل علم الملوک منا بأحوال رعیته بارتفاع أخبار المملکه إلیه لیعلم بشیء و یجهل بشیء،و یستحضر حال بعض و یغفل عن حال بعض،بل هو سبحانه لطیف خبیر بکل شیء و منها نفس عیسی بن مریم بخصوصه.

و مع ذلک لم یستوف حق البیان فی وصف علمه تعالی فإنه سبحانه یعلم کل شیء،لا کعلم أحدنا بحال الآخر و علم الآخر بحاله،بل یعلم ما یعلم بالإحاطه به من غیر أن یحیط به شیء و لا یحیطون به علما فهو تعالی إله غیر محدود و کل من سواه محدود مقدر لا یتعدی طور نفسه المحدود،و لذلک ضم علیه السّلام الی الجمله جمله اخری فقال: «تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِکَ» .

أما قوله: إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ ففیه بیان العله لقوله «تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی» الخ؛ و فیه استیفاء حق البیان من جهه اخری و هو رفع توهم أن حکم العلم فی قوله: «تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِکَ» مقصور بما بینه و بین ربه لا یطرد فی کل شیء فبین بقوله «إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ» أن العلم التام بجمیع الغیوب منحصر فیه فما کان عند شیء من الأشیاء و هو غیب عن غیره فهو معلوم للّه سبحانه و هو محیط به.

و لازم ذلک أن لا یعلم شیء من الأشیاء بغیبه تعالی و لا بغیب غیره الذی هو تعالی عالم به

لأنه مخلوق محدود لا يتعدى طور نفسه فهو علام جميع الغيوب،و لا يعلم شیء غيره تعالى بشیء من الغيوب لا الكل و لا البعض.

على أنه لو أحيط من غيبه تعالى بشیء فإن أحاط تعالى به لم يكن هذا المحيط محيطا حقيقه بل محاطا له تعالى ملّكه اللّه بمشيئته أن يحيط بشیء من ملكه من غير أن يخرج بذلك من ملكه كما قال تعالى: وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِما شاءَ (البقره۲۵۵/).

و إن لم يحط سبحانه تعالى بما أحاط به كان مضروبا بحد فكان مخلوقا تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا.

قوله تعالى: ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاّ ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ لما نفى عليه السّلام القول المسئول عنه عن نفسه بسمى سببه أولا نفاه ببيان وظيفته التي لم يتعدها ثانيا فقال: «ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاّ ما أَمَرْتَنِي بِهِ» الخ؛و أتى فيه بالحصر بطريق النفي و الإثبات ليدل على الجواب بنفي ما سئل عنه و هو القول «اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ» .

و فسر ما أمره به ربه من القول بقوله «أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ» ثم وصف اللّه سبحانه بقوله «رَبِّي وَ رَبَّكُمْ» لئلا يبقى أدنى شائبه من الوهم في أنه عبد رسول يدعو الى اللّه ربه و رب جميع الناس وحده لا شريك له.

و على هذه الصراحه كان يسلك عيسى بن مريم عليه السّلام في دعوته ما دعاهم الى التوحيد على ما يحكي عنه القرآن الشريف،قال تعالى حكايه عنه: إِنَّ اللّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (الزخرف۶۴/)و قال: وَ إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (مريم۳۶/).

قوله تعالى: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ثم ذكر عليه السّلام وظيفته الثانيه من جانب اللّه سبحانه و هو الشهاده على أعمال أمته كما قال تعالى: وَ يَوْمَ الْقِيامَهِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً

(النساء/۱۵۹).

يقول عليه السّلام ما كان لى من الوظيفه فيهم إلا الرساله إليهم و الشهاده على أعمالهم:أما الرساله فقد أديتها على أصرح ما يمكن،و أما الشهاده فقد كنت عليها ما دمت فيهم،و لم أتعد ما رسمت لى من الوظيفه فأنا براء من أن أكون القى إليهم أن اتخذونى و امى إلهين من دون اللّه.

و قوله: فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ الرقوب و الرقابه هو الحفظ، و المراد به فى المقام بدلاله السياق هو الحفظ على الأعمال،و كأنه أبدل الشهيد من الرقيب احترازا عن تكرر اللفظ بالنظر الى قوله بعد: «وَ أَنْتَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» ،و لا نكته تستدعى الإتيان بلفظ«الشهيد»ثانيا بالخصوص.

و اللفظ أعنى قوله: «كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» يدل على الحصر،و لازمه أنه تعالى كان شهيدا ما دام عيسى عليه السّلام شهيدا و شهيدا بعده؛فشهادته عليه السّلام كانت وساطه فى الشهاده لا شهاده مستقله على حد سائر التدبيرات الإلهيه التى وكل عليها بعض عباده ثم هو على كل شىء وكيل كالرزق و الإحياء و الإماته و الحفظ و الدعوه و الهدايه و غيرها،و الآيات الشريفه فى ذلك كثيره لا حاجه الى إيرادها.

و لذلك عقب عليه السّلام قوله: «فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» بقوله: «وَ أَنْتَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» ليدل بذلك على أن الشهاده على أعمال امته التى كان يتصداها ما دام فيهم كانت حصه يسيره من الشهاده العامه المطلقه التى هى شهاده اللّه سبحانه على شىء فإنه تعالى شهيد على أعيان الأشياء و على أفعالها التى منها أعمال عباده التى منها أعمال امه عيسى ما دام فيهم و بعد توفيه،و هو تعالى شهيد مع الشهداء و شهيد بدونهم.

و من هنا يظهر أن الحصر صادق فى حقه تعالى مع قيام الشهداء على شهادتهم فإنه عليه السّلام حصر الشهاده بعد توفيه فى اللّه سبحانه مع أن للّه بعده شهداء من عباده و رسله و هو عليه السّلام يعلم ذلك.

و من الدليل على ذلک بشارته علیه السّلام بمجیء النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم-علی ما یحکیه القرآن-بقوله یا بَنِی إِسْرائِیلَ إِنِّی رَسُولُ اللّهِ إِلَیْکُمْ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیَّ مِنَ التَّوْراهِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ یَأْتِی مِنْ بَعْدِی اسْمُهُ أَحْمَدُ (الصف۶/)و قد نص القرآن علی کون النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من الشهداء قال تعالی:

وَ جِئْنا بِکَ عَلی هؤُلاءِ شَهِیداً (النساء۴۱/).

علی أن اللّه سبحانه حکی عنه هذا الحصر «فَلَمّا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ» و لم یرده بالإبطال فاللّه سبحانه هو الشهید لا غیر مع وجود کل شهید أی إن حقیقه الشهاده هی للّه سبحانه کما أن حقیقه کل کمال و خیر هو للّه سبحانه،و أن ما یملکه غیره من کمال أو خیر أو حسن فإنما هو بتملیکه تعالی من غیر أن یستلزم هذا التملیک انعزاله تعالی عن الملک و لا زوال ملکه و بطلانه،و علیک بالتدبر فی أطراف ما ذکرناه.

فبان بما أورده من بیان حاله المحکی عنه فی الآیتین أنه بریء مما قاله الناس فی حقه و أن لا عهده علیه فیما فعلوه،و لذلک ختم علیه السّلام کلامه بقوله «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُکَ» الی آخر الآیه.

قوله تعالی: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُکَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ لما اتضح بما أقام علیه السّلام من الحجه أن لم یکن له من الوظیفه بالنسبه الی الناس إلا أداء الرساله و القیام بأمر الشهاده،و أنه لم یشتغل فیهم إلا بذلک و لم یتعده الی ما لیس له بحق فهو غیر مسئول عما تفوهوا به من کلمه الکفر،بان أنه علیه السّلام بمعزل عن الحکم الإلهی المتعلق بهم فیما بینهم و بین ربهم،و لذلک استأنف الکلام ثانیا فقال من غیر وصل و تفریع: «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ» الخ.

فالآیه کالصالحه لأن یوضع موضع البیان السابق،و مفادها أنه لا عهده علی فیما وقعوا فیه من الشرک الشنیع،و لم اداخل أمرهم فی شیء حتی اشارکهم فیما بینک و بینهم من الحکم علیهم بما شئت فهم و حکمک فی حقهم بما أردت،و هم و صنعک فیهم بما صنعت،إن تعذبهم بما حکمت فیمن أشرک بک بدخول النار فإنهم عبادک،و إلیک تدبیر أمرهم،و لک أن تسخط علیهم به

لأنـک المولی الحق والی المولی أمر عباده،و إن تغفر لهم بإمحاء أثر هـذا الظلم العظیم فإنک أنت العزیز الحکیم لک حق العزه و الحکمه،و للعزیز(و هو الـذی له من الجـده و القـدره ما لیس لغیره)و لا سـیما اذا کان حکیما(لا یقـدم علی أمر إلا اذا کان مما ینبغی أن یقـدم علیه)أن یغفر الظلم العظیم فـإن العزه و الحکمه اذا اعتنقتـا فی فاعـل لم تـدعا قـدره تقوم علیه و لا مغمضه فی ما قضی به من أمر.

و بمـا تقـدم من البیـان ظهر أولا:أن قوله: «فَإِنَّهُمْ عِبٰادُکَ» بمنزله أن یقال:«فإنک مولاهم الحق»علی ما هو دأب القرآن من ذکر أسماء اللّه بعد ذکر أفعاله کما فی آخر الآیه.

و ثانیا:ان قوله: «فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ» لیس مسوقا للحصر بل الإتیان بضمیر الفصل و إدخال اللام فی الخبر للتأکید،و یؤول معناه الی أن عزتک و حکمتک مما لا یداخله ریب فلا مجال للاعتراض علیک إن غفرت لهم.

و ثالثـا:أن المقام(مقام المشافهه بین عیسی بن مریم علیه السّـلام و ربه)لما کان مقام ظهور العظمه الإلهیه التی لا یقوم لها شـیء کـان مقتضـاه أن یراعی فیه جـانب ذله العبودیه للغایه بالتحرز عن الـدلال و الاسترسال و التجنب عن مـداخله فی الأمر بـدعاء أو سؤال،و لذلک قال علیه السّـلام «وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ» و لم یقل «فَإِنَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ» لأن سطوع آیه العظمه و السـطوه الإلهیه القاهره الغالبه علی کل شـیء لا یدع للعبد إلا أن یلتجئ الیه بماله من ذله العبودیه و مسکنه الرقیه و المملوکیه المطلقه،و الاسترسال عند ذلک ذنب عظیم.

و أما قول إبراهیم علیه السّلام لربه فَمَنْ تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنِّی وَ مَنْ عَصٰانِی فَإِنَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (إبراهیم/۳۶)فإنه من مقام الدعاء و للعبد أن یثیر فیه ناشئه الرحمه الإلهیه بما استطاع.

قوله تعالی: قٰالَ اللّٰهُ هٰذٰا یَوْمُ یَنْفَعُ الصّٰادِقِینَ صِدْقُهُمْ تقریر لصدق عیسی بن مریم علیه السّـلام علی طریق التکنیه فإنه لم یصـرح بشخصه و إنما المقام هو الذی یفید ذلک.

و المراد بهذا الصدق من الصادقین صدقهم فی الدنیا فإنه تعالی یعقب هذه الجمله بقوله

«لَهُمْ جَنّٰاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ» الخ؛و من البین أنه بیان لجزاء صدقهم عند اللّه سبحانه فهو النفع الذی یعود الیهم من جهه الصدق،و الأعمال و الأحوال الاخرویه-و منها صدق أهل الآخره-لا یترتب علیها أثر النفع بمعنی الجزاء و بلفظ آخر:الأعمال و الأحوال الاخرویه لا یترتب علیها جزاء کما یترتب علی الأعمال و الأحوال الدنیویه؛اذ لا تکلیف فی الآخره،و الجزاء من فروع التکلیف،و إنما الآخره دار حساب و جزاء کما أن الدنیا دار عمل و تکلیف،قال تعالی: یَوْمَ یَقُومُ الْحِسٰابُ (إبراهیم۴۱/)و قال: اَلْیَوْمَ تُجْزَوْنَ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثیه۲۸/)و قال تعالی: إِنَّمٰا هٰذِهِ الْحَیٰاهُ الدُّنْیٰا مَتٰاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَهَ هِیَ دٰارُ الْقَرٰارِ (المؤمن۳۹/).

و الذی ذکره عیسی علیه السّلام من حاله فی الدنیا مشتمل علی قول و فعل و قد قرره اللّه علی الصدق فالصدق الذی ذکر فی الآیه یشمل الصدق فی الفعل کما یشمل الصدق فی القول؛ فالصادقون فی الدنیا فی قولهم و فعلهم ینتفعون یوم القیامه بصدقهم،لهم الجنات الموعوده و هم الراضون المرضیون الفائزون بعظیم الفوز.

علی أن الصدق فی القول یستلزم الصدق فی الفعل-بمعنی الصراحه و تنزه العمل عن سمه النفاق-و ینتهی به الی الصلاح،و قد روی أن رجلا من أهل البدو استوصی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فوصاه أن لا یکذب ثم ذکر الرجل أن رعایه ما وصی به کفه عن عامه المعاصی اذ ما من معصیه عرضت إلا ذکر أنه لو اقترحها ثم سئل عنها وجب علیه أن یعترف بها علی نفسه و بخر بها الناس فلم یقترفها مخافه ذلک.

قوله تعالی: لَهُمْ جَنّٰاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا أَبَداً رَضِیَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذٰلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ رضی اللّه عنهم بما قدموا الیه من الصدق، و رضوا عن اللّه بما آتاهم من الثواب.

و قد علق رضاه بهم أنفسهم لا بأعمالهم کما فی قوله تعالی: وَ رَضِیَ لَهُ قَوْلاً (طه/

١٠٩)و قوله: وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (الزمر/٧)و بين القسمين من الرضى فرق فإن رضاك عن شىء هو أن لا تدفعه بكراهه و من الممكن أن يأتى عدوك بفعل ترضاه و أنت تسخط على نفسه،و أن يأتى صديقك الذى تحبه يفعل لا ترضاه.

فقوله «رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ» يدل على أن اللّه يرضى عن أنفسهم،و من المعلوم أن الرضى لا يتعلق بأنفسهم ما لم يحصل غرضه جل ذكره من خلقهم،و قد قال تعالى: وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ (الذاريات/٥٦)،فالعبوديه هو الغرض الإلهى من خلق الإنسان فاللّه سبحانه إنما يرضى عن نفس عبده اذا كان مثالا للعبوديه أى أن يكون نفسه نفس عبد للّه الذى هو رب كل شىء فلا يرى نفسه و لا شيئا غيره إلا مملوكا للّه خاضعا لربوبيته لا يئوب الى ربه و لا يرجع إلا اليه كما قال تعالى فى سليمان و أيوب: نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ (ص/٤٤) و هذا هو الرضى عنه.

و هذا من مقامات العبوديه،و لازمه طهاره النفس عن الكفر بمراتبه و عن الاتصاف بالفسق كما قال تعالى: وَ لاٰ يَرْضىٰ لِعِبٰادِهِ الْكُفْرَ (الزمر/٧)،و قال تعالى: فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَرْضىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفٰاسِقِينَ (التوبه/٩٦).

و من آثار هذا المقام أن العبوديه اذا تمكنت من نفس العبد و رأى ما يقع عليه بصره و تبلغه بصيرته مملوكا للّه خاضعا لأمره فإنه يرضى عن اللّه فإنه يجد أن كل ما آتاه اللّه فإنما آتاه من فضله من غير أن يتحتم عليه فهو جود و نعمه،و أن ما منعه فإنما منعه عن حكمه.

على أن اللّه سبحانه يذكر عنهم و هم فى الجنه بقوله لَهُمْ فِيهٰا مٰا يَشٰاؤُنَ (النحل/٣١، الفرقان/١٦)،و من المعلوم أن الإنسان اذا وجد كل ما يشاؤه لم يكن له إلا أن يرضى.

و هذا غايه السعاده الإنسانيه بما هو عبد،و لذلك ختم الكلام بقوله «ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» .

قوله تعالى: لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ،الملك-بالكسر-سلطه خاصه على رقبه الأشياء و أثره نفوذ الإراده فيما يقدر عليه

المالک من التصرف فیها،و الملک-بالضم-سلطه خاصه علی النظام الموجود بین الأشیاء و أثره نفوذ الإراده فیما یقدر علیه،و بعباره ساذجه:الملک-بالکسر-متعلق بالفرد،و الملک -بالضم-متعلق بالجماعه.

و حیث کان الملک فی نفوذ الإراده بالفعل مقیدا أو متقوما بالقدره فإذا تمت القدره و أطلقت کان الملک ملکا مطلقا غیر مقید بشیء دون شیء و حال دون حال،و لبیان هذه النکته عقب تعالی قوله: «لِلّٰهِ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا فِیهِنَّ» بقوله «وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» .

و اختتمت السوره بهذه الآیه الداله علی الملک المطلق،و المناسبه ظاهره،فإن غرض السوره هو حث العباد و ترغیبهم علی الوفاء بالعهود و المواثیق المأخوذه علیهم من جانب ربهم،و هو الملک علی الإطلاق فلا یبقی لهم إلا أنهم عباد مملوکون علی الإطلاق لیس لهم فیما یأمرهم به و ینهاهم عنه إلا السمع و الطاعه،و لا فیما یأخذ منهم من العهود و المواثیق إلا الوفاء بها من غیر نقض (۱)(۲)(۳)(۴)(۵).

ص: ۲۵۲

۱- ۱) .المائده ۱۱۶-۱۲۰:بحث روائی فی اسماء اللّه تعالی.

۲- ۲) .۱۲۰-۱۱۶:کلام فی معنی الأدب؛الادب الذی ادّب اللّه به انبیاءه و رسله علیهم السّلام نماذج من ادب الانبیاء.

۳- ۳) .۱۲۰-۱۱۶:بحث روائی فی خلق الرسول الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلم و ادبه الجمیل.

۴- ۴) .۱۲۰-۱۱۶:کلام فی الرق و الاستعباد(اعتبار العبودیه للّه سبحانه،استعباد الانسان و اسبابه،سیر الاستعباد فی التاریخ،مال الذی رآه الاسلام فی ذلک،ما هو السبیل الی الاستعباد فی الاسلام،ما هی سیره الاسلام فی العبید و الاماء،سیر الاستعباد فی التاریخ).

۵- ۵) .۱۲۰-۱۱۶:کلام فی المجازات و العفو فی فصول(ما معنی الجزاء؟العفو و المغفره،للعفو مراتب،هل المؤاخذه أو المغفره تستلزم ذنبا،رابطه العمل و الجزاء و العمل یؤدی الرابطه الی النفس).

سوره الأنعام و هی سبع آیات

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیمِ

[سوره الأنعام (۶): الآیات ۱ الی ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ جَعَلَ اَلظُّلُمٰاتِ وَ اَلنُّورَ ثُمَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ یَعْدِلُونَ (۱) هُوَ اَلَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ طِینٍ ثُمَّ قَضیٰ أَجَلاً وَ أَجَلٌ مُسَمًّی عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (۲) وَ هُوَ اَللّٰهُ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ فِی اَلْأَرْضِ یَعْلَمُ سِرَّکُمْ وَ جَهْرَکُمْ وَ یَعْلَمُ مٰا تَکْسِبُونَ (۳)

بیان:

غرض السوره هو توحیده تعالی بمعناه الأعم أعنی أن للإنسان ربا هو رب العالمین جمیعا منه یبدأ کل شیء و إلیه ینتهی و یعود کل شیء،أرسل رسلا مبشرین و منذرین یهدی بهم عباده المربوبین الی دینه الحق،و لذلک نزلت معظم آیاتها فی صوره الحجاج علی

المشركين فى التوحيد و المعاد و النبوه،و اشتملت على إجمال الوظائف الشرعيه و المحرمات الدينيه.

و سياقها-على ما يعطيه التدبر-سياق واحد متصل لا دليل فيه على فصل يؤدى الى نزولها نجوما.

و هذا يدل على نزولها جمله واحده،و أنها مكيه فإن ذلك ظاهر سياقها الذى وجّه الكلام فى جلها أو كلّها الى المشركين.

و قد اتفق المفسرون و الرواه على كونها مكيه إلا فى ست آيات روى عن بعضهم أنها مدنيه.و هى قوله تعالى: وَ مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ (آيه ٩١)الى تمام ثلاث آيات،و قوله تعالى: قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ (آيه ١٥١)الى تمام ثلاث آيات.

و قيل:إنها كلها مكيه إلا آيتان منها نزلتا بالمدينه،و هما قوله تعالى: «قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ» و التى بعدها.

و قيل:نزلت سوره الأنعام كلها بمكه إلا آيتين نزلتا بالمدينه فى رجل من اليهود،و هو الذى قال: مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ الآيه.

و قيل:إنها كلها مكيه إلا آيه واحده نزلت بالمدينه،و هو قوله تعالى: «وَ لَوْ أَنَّنٰا نَزَّلْنٰا إِلَيْهِمُ الْمَلاٰئِكَةَ» الآيه.

و هذه الأقوال لا دليل على شيء منها من جهه سياق اللفظ على ما تقدم من وحده السياق و اتصال آيات السوره،و سنبينها بما نستطيعه،و قد ورد عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام و كذا عن أبىّ و عكرمه و قتاده:أنها نزلت جمله واحده بمكه.

قوله تعالى: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُمٰاتِ وَ النُّورَ افتتح بالثناء على اللّه و هو كالمقدمه لما يراد بيانه من معنى التوحيد،و ذلك بتضمين الثناء ما هو محصّل غرض السوره ليتوسل بذلك الى الاحتجاج عليه تفصيلا،و تضمينه:

العجب منهم و لومهم على أن عـدلوا به غيره و الامتراء فى وحـدته ليكون كالتمهيـد على ما سيورد من جمل الوعظ و الإنذار و التخويف.

و قد أشار فى هذا الثناء الموضوع فى الآيات الثلاث الى جمل ما تعتمد عليه الدعوه الدينيه فى المعارف الحقيقيه التى هى بمنزله الماده للشريعه،و تنحل الى نظامات ثلاث:

نظـام الكون العـام و هو الـذى تشـير إليه الآـيه الاولى،و نظام الإنسان بحسب وجوده،و هو الـذى تشـتمل عليه الآيه الثانيه،و نظام العمل الإنسانى و هو الذى تومئ إليه الآيه الثالثه.

فالمتحصل من مجموع الآيات الثلاث هو الثناء عليه تعالى بما خلق العالم الكبير الـذى يعيش فيه الإنسان،و بما خلق عالما صـغيرا هو وجود الإنسـان المحـدود من حيث ابتـدائه بـالطين و من حيث انتهـائه بالأجـل المقضـى،و بمـا علم سـرّ الإنسـان و جهره و ما يكسبه.

و مـا فى الآيه الثالثه: وَ هُوَ اللّٰهُ فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ فِى الْأَرْضِ ،بمنزله الإيضاح لمضـمون الآيتين السابقتين،و التمهيـد لبيان علمه بسـر الإنسان و جهره و ما تكسبه نفسه.

فقوله «خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُمٰاتِ وَ النُّورَ» إشـاره الى نظام الكون العام الـذى عليه تـدبر الأشـياء على كثرتها و تفرقها فما عالمنا فى نظامه الجارى المحكم إلا عالم الأرض الذى يحيط به عالم السـماوات على سـعتها ثم يتصـرف بها بالنور و الظلمات الذين عليهما يدور رحى العالم المشـهود فى تحوله و تكامله فلا يزال يتولد شـىء من شىء،و يتقلب شىء الى شىء، و يظهر واحـد و يخفى آخر،و يتكون جديـد و يفسد قديم،و ينتظم من تلاقى هذه الحركات المتنوعه على شـتاتها الحركه العالميه الكبرى التى تحمل أثقال الأشياء،و تسير بها الى مستقرها.

و الجعل فى قوله: «وَ جَعَلَ الظُّلُمٰاتِ» الخ؛بمعنى الخلق غير أن الخلق لما كان مأخوذا فى الأصل من خلق الثوب كان التركيب من أجزاء شتى مأخوذا فى معناه بخلاف الجعل،و لعل هذا هو السـبب فى تخصيص الخلق بالسماوات و الأرض لما فيها من التركيب بخلاف الظلمه

ص :٢٥٥

و النور،و لذا خصا باستعمال الجعل.و اللّه أعلم.

و قد أتى بالظلمات بصيغه الجمع دون النور،و لعله لكون الظلمه متحققه بالقياس الى النور فإنها عدم النور فيما من شأنه أن يتنور فتتكثر بحسب مراتب قربه من النور و بعده بخلاف النور فإنه أمر وجودى لا يتحقق بمقايسته الى الظلمه التى هى عدميه،و تكثيره تصورا بحسب قياسه التصورى الى الظلمه لا يوجب تعدده و تكثره حقيقه.

قوله تعالى: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ مسوق للتعجب المشوب بلوم أى إن اللّه سبحانه بخلقه السماوات و الأرض و جعله الظلمات و النور متوحد بالالوهيه متفرد بالربوبيه لا يماثله شيء و لا يشاركه،و من العجب أن الذين كفروا مع اعترافهم بأن الخلق و التدبير للّه بحقيقه معنى الملك دون الأصنام التى اتخذوها آلهه يعدلون باللّه غيره من أصنامهم و يسوّون به أوثانهم فيجعلون له أندادا تعادله بزعمهم فهم ملومون على ذلك.

و بذلك يظهر وجه الإتيان بثم الدال على التأخير و التراخى فكأن المتكلم لما وصف تفرده بالصنع و الإيجاد و توحده بالالوهيه و الربوبيه ذكر مزعمه المشركين و أصحاب الأوثان أن هذه الحجاره و الأخشاب المعموله أصناما يعدلون بها رب العالمين فشغله التعجب زمانا و كفّه عن التكلم ثم جرى فى كلامه و أشار الى وجه سكوته،و أن حيره التعجب كان هو المانع عن جريه فى كلامه فقال:الذين كفروا بربهم يعدلون.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضىٰ أَجَلاً يشير الى خلقه العالم الإنسانى الصغير بعد الإشاره الى خلق العالم الكبير فيبين أن اللّه سبحانه هو الذى خلق الإنسان و دبر أمره بضرب الأجل لبقائه الدنيوى ظاهرا فهو محدود الوجود بين الطين الذى بدأ منه خلق نوعه و إن كان بقاء نسله جاريا على سنّه الازدواج و الوقاع كما قال تعالى:

وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسٰانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاٰلَهٍ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ (السجده٨/).

و بين الأجل المقضى الذى يقارن الموت كما قال تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَهُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنٰا

تُرْجَعُونَ (العنكبوت/۵۷)و من الممكن أن يراد بالأجل ما يقارن الرجوع الى اللّه سبحانه بالبعث فإن القرآن الكريم كأنه يعد الحياه البرزخيه من الدنيا كما يفيده ظاهر قوله تعالى:

قٰالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قٰالُوا لَبِثْنٰا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعٰادِّينَ، قٰالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّٰ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (المؤمنون/۱۱۴)،و قال أيضا: وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مٰا لَبِثُوا غَيْرَ سٰاعَةٍ كَذٰلِكَ كٰانُوا يُؤْفَكُونَ، وَ قٰالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمٰانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتٰابِ اللّٰهِ إِلىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهٰذٰا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (الروم/ ۵۶).

و قد أبهم أمر الأجل بإتيانه منكّرا فى قوله: «ثُمَّ قَضىٰ أَجَلاً» للدلاله على كونه مجهولا للإنسان لا سبيل له الى المعرفه به بالتوسل الى العلوم العاديه.

قوله تعالى: وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ تسميه الأجل تعيينه فإن العاده جرت فى العهود و الديون و نحو ذلك بذكر الأجل و هو المده المضروبه أو آخر المده باسمه،و هو الأجل المسمى، قال تعالى: إِذٰا تَدٰايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ (البقره/۲۸۲)و هو الأجل بمعنى آخر المده المضروبه،و كذا قوله تعالى: مَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰاءَ اللّٰهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ لَآتٍ (العنكبوت/۵)و قال تعالى فى قصه موسى و شعيب: قٰالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هٰاتَيْنِ عَلىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمٰانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ -الى أن قال- قٰالَ ذٰلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاٰ عُدْوٰانَ عَلَيَّ (القصص/۲۸)و هو الأجل بمعنى تمام المده المضروبه.

و الظاهر أن الأجل بمعنى آخر المده فرع الأجل بمعنى تمام المده استعمالا أى إنه استعمل كثيرا«الأجل المقضى»ثم حذف الوصف و اكتفى بالموصوف فأفاد الأجل معنى الأجل المقضى،قال الراغب فى مفرداته:يقال للمده المضروبه لحياه الإنسان«أجل»فيقال:دنا أجله عباره عن دنو الموت،و أصله استيفاء الأجل،انتهى.

و كيف كان فظاهر كلامه تعالى أن المراد بالأجل و الأجل المسمى هو آخر مده الحياه لاتمام المده كما يفيده قوله فَإِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ لَآتٍ الآيه.

فتبين بذلك أن الأجل أجلان:الأجل على إبهامه،و الأجل المسمى عند اللّه تعالى.و هذا هو الذى لا يقع فيه تغير لمكان تقييده بقوله«عنده»و قد قال تعالى: وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ بٰاقٍ (النحل/۹۶)و هو الأجل المحتوم الذى لا يتغير و لا يتبدل قال تعالى: إِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَلاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ (يونس/۴۹).

فنسبه الأجل المسمى الى الأجل غير المسمى نسبه المطلق المنجز الى المشروط المعلق فمن الممكن أن يتخلف المشروط المعلق عن التحقق لعدم تحقق شرطه الذى علّق عليه بخلاف المطلق المنجز فإنه لا سبيل الى عدم تحققه البته.

و التدبر فى الآيات السابقه منضمه الى قوله تعالى: لِكُلِّ أَجَلٍ كِتٰابٌ، يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ (الرعد/۳۹)يفيد أن الأجل المسمى هو الذى وضع فى أم الكتاب،و غير المسمى من الأجل هو المكتوب فيما نسميه بلوح المحو و الإثبات،و سيأتى إن شاء اللّه تعالى أن أم الكتاب قابل الانطباق على الحوادث الثابته فى العين أى الحوادث من جهه استنادها الى الأسباب العامه التى لا تتخلف عن تأثيرها،و لوح المحو و الإثبات قابل الانطباق على الحوادث من جهه استنادها الى الأسباب الناقصه التى ربما نسميها بالمقتضيات التى يمكن اقترانها بموانع تمنع من تأثيرها.

و اعتبر ما ذكر من أمر السبب التام و الناقص بمثال إضاءه الشمس فإنا نعلم أن هذه الليله ستنقضى بعد ساعات و تطلع علينا الشمس فتضىء وجه الأرض لكن يمكن أن يقارن ذلك بحيلوله سحابه أو حيلوله القمر أو أى مانع آخر فتمنع من الإضاءه،و أما اذا كانت الشمس فوق الافق و لم يتحقق أى مانع مفروض بين الأرض و بينها فإنها تضىء وجه الأرض لا محاله.

ص :۲۵۸

فطلوع الشمس وحده بالنسبه الى الإضاءه بمنزله لوح المحو و الإثبات،و طلوعها مع حلول وقته و عدم أى حائل مفروض بينها و بين الأرض بالنسبه الى الإضاءه بمنزله أم الكتاب المسمى باللوح المحفوظ.

فالتركيب الخاص الذى لبنيه هذا الشخص الإنسانى مع ما فى أركانه من الاقتضاء المحدود يقتضى أن يعمّر العمر الطبيعى الذى ربما حددوه بمائه أو بمائه و عشرين سنه و هذا هو المكتوب فى لوح المحو و الإثبات مثلا غير أن لجميع أجزاء الكون ارتباطا و تأثيرا فى الوجود الإنسانى فربما تفاعلت الاسباب و الموانع التى لا ـ نحصيها تفاعلا ـ لا ـ نحيط به فأدى الى حلول أجله قبل أن ينقضى الأمد الطبيعى،و هو المسمى بالموت الاخترامى.

و بهذا يسهل تصور وقوع الحاجه بحسب ما نظم اللّه الوجود الى الأجل المسمى و غير المسمى جميعا،و أن الإبهام الذى بحسب الأجل غير المسمى لا ينافى التعين بحسب الأجل المسمى،و أن الأجل غير المسمى و المسمى ربما توافقا و ربما تخالفا و الواقع حينئذ هو الأجل المسمى البته.

قوله تعالى: ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ من المريه بمعنى الشك و الريب،و قد وقع فى الآيه التفات من الغيبه الى الحضور،و كأن الوجه فيه أن الآيه الاولى تذكر خلقا و تدبيرا عاما ينتج من ذلك أن الكفار ما كان ينبغى لهم أن يعدلوا باللّه سبحانه غيره،و كان يكفى فى ذلك ذكرهم بنحو الغيبه لكن الآيه الثانيه تذكر الخلق و التدبير الواقعين فى الإنسان خاصه فكان من الحرى الذى يهيج المتكلم المتعجب اللائم أن يواجههم بالخطاب و يلومهم بالتجبيه كأنه يقول:

هذا خلق السماوات و الأرض و جعل الظلمات و النور عذرناكم فى الغفله عن حكمه لكون ذلك أمرا عاما ربما أمكن الذهول عما يقتضيه فما عذركم أنتم فى امترائكم فيه و هو الذى خلقكم و قضى فيكم أجلا و أجل مسمى عنده؟.

قوله تعالى: وَ هُوَ اللّٰهُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ فِي الْأَرْضِ الآيتان السابقتان تذكران

الخلق و التدبير فی العوالم عامه و فی الإنسان خاصه،و یکفی ذلک فی التنبه علی أن اللّه سبحانه هو الإله الواحد الذی لا شریک له فی خلقه و تدبیره.

لکنهم مع ذلک أثبتوا آلهه أخری و شفعاء مختلفه لوجوه التدبیر المختلفه کإله الحیاه و إله الرزق و إله البر و إله البحر و غیر ذلک،و کذا للأنواع و الأقوام و الامم المتشتته کإله السماء و إله هذه الطائفه و إله تلک الطائفه فنفی ذلک بقوله «وَ هُوَ اللّٰهُ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ فِی الْأَرْضِ» .

فالآیه نظیره قوله وَ هُوَ الَّذِی فِی السَّمٰاءِ إِلٰهٌ وَ فِی الْأَرْضِ إِلٰهٌ وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ (الزخرف۸۴/)مفادها انبساط حکم ألوهیته تعالی فی السماوات و فی الأرض من غیر تفاوت أو تحدید،و هی إیضاح لما تقدّم و تمهید لما یتلوها من الکلام.

قوله تعالی: یَعْلَمُ سِرَّکُمْ وَ جَهْرَکُمْ وَ یَعْلَمُ مٰا تَکْسِبُونَ السر و الجهر متقابلان و هما وصفان للأعمال،فسرهم ما عملوه سرا و جهرهم ما عملوه جهرا من غیر ستر.

و أما ما یکسبون فهو الحال النفسانی الذی یکسبه الإنسان بعمله السری و الجهری من حسنه أو سیئه فالسر و الجهر المذکوران-کما عرفت-وصفان صوریان لمتون الأعمال الخارجیه،و ما یکسبونه حال روحی معنوی قائم بالنفوس فهما مختلفان بالصوریه و المعنویه، و لعل اختلاف المعلومین من حیث نفسهما هو الموجب لتکرار ذکر العلم فی قوله: «یَعْلَمُ سِرَّکُمْ وَ جَهْرَکُمْ وَ یَعْلَمُ مٰا تَکْسِبُونَ» .

و الآیه کالتمهید لما ستتعرض له من أمر الرساله و المعاد فإن اللّه سبحانه لما کان عالما بما یأتی به الإنسان من عمل سرا أو جهرا،و کان عالما بما یکسبه لنفسه بعمله من خیر أو شر،و کان إلیه زمام التربیه و التدبیر کان له أن یرسل رسولا بدین یشرّعه لهدایه الناس علی الرغم مما یصرّ علیه الوثنیون من الاستغناء عن النبوه کما قال تعالی: إِنَّ عَلَیْنٰا لَلْهُدیٰ (اللیل/ ۱۲).

و کذا هو تعالی لما کان عالما بالأعمال و بتبعاتها فی نفس الإنسان کان علیه أن یحاسبهم فی

یوم لا یغادر منهم أحدا کما قال تعالی: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ کَالْمُفْسِدِینَ فِی الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِینَ کَالْفُجّارِ (ص۲۸/) (۱).

[سوره الأنعام (۶): الآیات ۴ الی ۱۱]

اشاره

وَ ما تَأْتِیهِمْ مِنْ آیَهٍ مِنْ آیاتِ رَبِّهِمْ إِلاّ کانُوا عَنْها مُعْرِضِینَ (۴) فَقَدْ کَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ یَأْتِیهِمْ أَنْباءُ ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۵) أَ لَمْ یَرَوْا کَمْ أَهْلَکْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَکَّنّاهُمْ فِی اَلْأَرْضِ ما لَمْ نُمَکِّنْ لَکُمْ وَ أَرْسَلْنَا اَلسَّماءَ عَلَیْهِمْ مِدْراراً وَ جَعَلْنَا اَلْأَنْهارَ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَکْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِینَ (۶) وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَیْکَ کِتاباً فِی قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَیْدِیهِمْ لَقالَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ مُبِینٌ (۷) وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ مَلَکٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَکاً لَقُضِیَ اَلْأَمْرُ ثُمَّ لا یُنْظَرُونَ (۸) وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَکاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَ لَلَبَسْنا عَلَیْهِمْ ما یَلْبِسُونَ (۹) وَ لَقَدِ اُسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِکَ فَحاقَ بِالَّذِینَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۱۰) قُلْ سِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ ثُمَّ اُنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَهُ اَلْمُکَذِّبِینَ (۱۱)

۱- ۱) .الانعام ۱-۳:بحث روائی فی:فضل سوره الانعام،معنی خلق الطاعه و المعصیه،اجل موقوف و اجل محتوم.

بیان:

قوله تعالی: وَ مٰا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَهٍ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِمْ إِلاّٰ كٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ إشاره الی أن سجیه الاستکبار رسخت فی نفوسهم فأنتجت فیهم الإعراض عن الآیات الداله علی الحق فلا یلتفتون الی آیه من الآیات من غیر تفاوت بین آیه و آیه لأنهم کذبوا بالأصل المقصود الذی هو الحق،و هو

قوله تعالی: «فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ» .

قوله تعالی: فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبٰاءُ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ تخویف و إنذار فإن الذین یستهزءون به حق،و الحق یأبی إلا أن یظهر یوما و یخرج من حد النبأ الی حد العیان قال تعالی: وَ يَمْحُ اللّٰهُ الْبٰاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ (الشوری/۲۴)،و قال: يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللّٰهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ اللّٰهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكٰافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (الصف/۹)،و قال فی مثل ضربه: كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَ الْبٰاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفٰاءً وَ أَمّٰا مٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (الرعد/۱۷).

و من المعلوم أن الحق اذا ظهر لم یستوفی مساسه المؤمن و الکافر،و الخاضع و المستهزئ، قال تعالی: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنٰا لَهُمُ الْغٰالِبُونَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّٰى حِينٍ وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَ فَبِعَذٰابِنٰا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذٰا نَزَلَ بِسٰاحَتِهِمْ فَسٰاءَ صَبٰاحُ الْمُنْذَرِينَ (الصافات/۱۷۷).

قوله تعالی: أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ الی آخر الآیه؛قال الراغب:القرن القوم المقترنون فی زمن واحد و جمعه قرون انتهی.

و قال أیضا:قال تعالی: وَ أَرْسَلْنَا السَّمٰاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرٰاراً يُرْسِلِ السَّمٰاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرٰاراً و أصله من الدر-بالفتح-و الدره-بالکسر-أی اللبن،و یستعار ذلک للمطر استعاره أسماء

العير و أوصافه فقيل:للّه درّه و درّ درّک،و منه استعير قولهم غسوق دره أی نفاق-بالفتح- انتهی.

و فی قوله تعالی: مَکَّنّاهُمْ فِی الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَکِّنْ لَکُمْ التفات من الغیبه الی الحضور،و الوجه فیه ظاهرا رفع اللبس من جهه مرجع الضمیر فلو لا-الالتفات الی الحضور فی قوله: «ما لَمْ نُمَکِّنْ لَکُمْ» أوهم السیاق رجوعه الی ما یرجع إلیه الضمیر فی قوله:«مکنا لهم»و إلا فأصل السیاق فی مفتتح السوره للغیبه،و قد تقدم الکلام فی الالتفات الواقع فی قوله: «هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ طِینٍ» .

و فی قوله فَأَهْلَکْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ دلاله علی أن للسیئات و الذنوب دخلا فی البلایا و المحن العامه،و فی هذا المعنی و کذا فی معنی دخل الحسنات و الطاعات فی إفاضات النعم و نزول البرکات آیات کثیره.

قوله تعالی: وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَیْکَ کِتاباً فِی قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَیْدِیهِمْ الی آخر الآیه؛إشاره الی أن استکبارهم قد بلغ مبلغا لا ینفع معه حتی لو أنزلنا کتابا فی قرطاس فلمسوه بأیدیهم فناله حسهم بالبصر و السمع،و تأید بعض حسهم ببعض فإنهم قائلون حینئذ لا محاله:هذا سحر مبین،فلا ینبغی أن یعبأ باللغو من قولهم وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتّی تُنَزِّلَ عَلَیْنا کِتاباً نَقْرَؤُهُ (الإسراء۹۳/).

و قد نکّر الکتاب فی قوله: «کِتاباً فِی قِرْطاسٍ» لأن هذا الکتاب نزّل نوع تنزیل لا یقبل إلا التنزیل نجوما و تدریجا،و قیده بکونه فی قرطاس لیکون أقرب الی ما اقترحوه،و أبعد مما یختلج فی صدورهم أن الآیات النازله علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من منشآت نفسه من غیر أن ینزل به الروح الأمین علی ما یذکره اللّه سبحانه نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ عَلی قَلْبِکَ لِتَکُونَ مِنَ الْمُنْذِرِینَ بِلِسانٍ عَرَبِیٍّ مُبِینٍ (الشعراء۱۹۵/).

قوله تعالی: وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ مَلَکٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَکاً لَقُضِیَ الْأَمْرُ ثُمَّ

لاّ يُنْظَرُونَ قولهم «لَوْ لاّ أَنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» تحضيض للتعجيز،و قد أخبرهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بما كان يتلو عليهم من آيات اللّه النازله عليه أن الذى جاء به إليه ملك كريم نازل من عند اللّه كقوله تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطٰاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (كورت٢١/)الى غيرها من الآيات.

قوله تعالى: وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنٰاهُ رَجُلاً وَ لَلَبَسْنٰا عَلَيْهِمْ مٰا يَلْبِسُونَ اللبس بالفتح الستر بساتر لما يجب ستره لقبحه أو لحاجته الى ذلك،و اللبس بالضم التغطيه على الحق،و كأن المعنى استعارى و الأصل واحد.

قال الراغب فى المفردات:لبس الثوب استتر به و ألبسه غيره-الى أن قال-و أصل اللبس (بضم اللام)ستر الشىء و يقال ذلك فى المعانى يقال:لبست عليه أمره قال:و للبسنا عليه ما يلبسون و قال:و لا تلبسوا الحق بالباطل،لم تلبسون الحق بالباطل،الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم،و يقال:فى الأمر لبسه أى التباس،انتهى.

و معمول يلبسون محذوف،و ربما استفيد من ذلك العموم و التقدير يلبس الكفار على أنفسهم أعم من لبس البعض على نفسه،و لبس البعض على البعض الآخر.

أما لبسهم على غيرهم فكما يلبس علماء السوء الحق بالباطل لجهله مقلديهم و كما يلبس الطواغيت المتبعون لضعفه أتباعهم الحق بالباطل كقول فرعون فيما حكى اللّه لقومه يٰا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ الْأَنْهٰارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لاٰ يَكٰادُ يُبِينُ، فَلَوْ لاٰ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جٰاءَ مَعَهُ الْمَلاٰئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ، فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطٰاعُوهُ (الزخرف٥۴/)و قوله مٰا أُرِيكُمْ إِلاّٰ مٰا أَرىٰ وَ مٰا أَهْدِيكُمْ إِلاّٰ سَبِيلَ الرَّشٰادِ (المؤمن٢٩/).

و أما لبسهم على أنفسهم فهو بتخييلهم الى أنفسهم أن الحق باطل و أن الباطل حق ثم تماديهم على الباطل فإن الإنسان و إن كان يميز الحق من الباطل فطره اللّه التى فطر الناس

علیها،و کان تلهم نفسه فجورها و تقواها غیر أن تقویته جانب الهوی و تأییده روح الشهوه و الغضب من نفسه تولّد فی نفسه ملکه الاستکبار عن الحق،و الاستعلاء علی الحقیقه فتنجذب نفسه إلیه،و تغتر بعمله،و لا تدعه یلتفت الی الحق و یسمع دعوته،و عند ذاک یزین له عمله،و یلبس الحق بالباطل و هو یعلم کما قال تعالی: أَ فَرَأَیْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلیٰ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلیٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلیٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً (الجاثیه۲۳/)و قال: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالْأَخْسَرِینَ أَعْمٰالاً اَلَّذِینَ ضَلَّ سَعْیُهُمْ فِی الْحَیٰاةِ الدُّنْیٰا وَ هُمْ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ یُحْسِنُونَ صُنْعاً (الکهف۱۰۴/).

و هذا هو المصحح لتصویر ضلال الإنسان فی أمر مع علمه به فلا یرد علیه أن لبس الإنسان علی نفسه الحق بالباطل إقدام منه علی الضرر المقطوع و هو غیر معقول.

علی أنا لو تعمقنا فی أحوالنا أنفسنا ثم أخذنا بالنصفه عثرنا علی عادات سوء نقضی بمساءتها لکنا لسنا نترکها لرسوخ العاده و لیس ذلک إلا من الضلال علی علم،و لبس الحق بالباطل علی النفس و التلهی باللذه الخیالیه و التوله إلیها عن التثبت علی الحق و العمل به، أعاننا اللّه تعالی علی مرضاته.

و علی أی حال فقوله تعالی: «وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ مَلَکاً لَجَعَلْنٰاهُ رَجُلاً» الخ؛الجواب عن مسألتهم نزول الملک لیکون نذیرا فیؤمنوا به.

و محصله أن الدار دار اختیار لا تتم فیها للانسان سعادته الحقیقیه إلا بسلوکه مسلک الاختیار،و اکتسابه لنفسه أو علی نفسه ما ینفعه فی سعادته أو یضره،و سلوک أی الطریقین رضی لنفسه أمضی اللّه سبحانه له ذلک (۱).

قوله تعالی: وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِکَ الی آخر الآیتین،الحیق الحلول

۱- ۱) .الانعام ۴-۱۱:بحث فی حکمه جعل الرسل من البشر.

و الإصابه،و فی مفردات الراغب:قیل و أصله حق فقلب نحو زل و زال،و قد قرئ «فَأَزَلَّهُمَا الشَّیْطانُ» فأزالهما،و علی هذا ذمه و ذامه،انتهی.

و قد کان استهزاؤهم بالرسل بالاستهزاء بالعذاب الذی کانوا ینذرونهم بنزوله و حلوله فحاق بهم عین ما استهزءوا به،و فی الآیه الاولی تطییب لنفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و إنذار للمشرکین،و فی الآیه الثانیه أمر بالاعتبار و عظه.

[سوره الأنعام (۶): الآیات ۱۲ الی ۱۸]

اشاره

قُلْ لِمَنْ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ کَتَبَ عَلیٰ نَفْسِهِ اَلرَّحْمَهَ لَیَجْمَعَنَّکُمْ إِلیٰ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ لاٰ رَیْبَ فِیهِ اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (۱۲) وَ لَهُ مٰا سَکَنَ فِی اَللَّیْلِ وَ اَلنَّهٰارِ وَ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۱۳) قُلْ أَ غَیْرَ اَللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِیًّا فٰاطِرِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ هُوَ یُطْعِمُ وَ لاٰ یُطْعَمُ قُلْ إِنِّی أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لاٰ تَکُونَنَّ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ (۱۴) قُلْ إِنِّی أَخٰافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۱۵) مَنْ یُصْرَفْ عَنْهُ یَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذٰلِکَ اَلْفَوْزُ اَلْمُبِینُ (۱۶) وَ إِنْ یَمْسَسْکَ اَللّٰهُ بِضُرٍّ فَلاٰ کٰاشِفَ لَهُ إِلاّٰ هُوَ وَ إِنْ یَمْسَسْکَ بِخَیْرٍ فَهُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۷) وَ هُوَ اَلْقٰاهِرُ فَوْقَ عِبٰادِهِ وَ هُوَ اَلْحَکِیمُ اَلْخَبِیرُ (۱۸)

ص: ۲۶۶

بیان:

قوله تعالی: قُلْ لِمَنْ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ شروع فی البرهنه علی المعاد،و محصله أن اللّه تعالی مالک ما فی السماوات و الأرض جمیعا له أن یتصرف فیها کیف شاء و أراد،و قد اتصف سبحانه بصفه الرحمه و هی رفع حاجه کل محتاج و إیصال کل شیء الی ما یستحقه و إفاضته علیه و عده من عباده و منهم الإنسان صالحون لحیاه خالده مستعدون لأن یسعدوا فیها فهو بمقتضی ملکه و رحمته سیتصرف فیهم بحشرهم و إعطائهم ما یستحقونه البته.

فقوله تعالی: «قُلْ لِمَنْ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» الخ؛یتضمن إحدی مقدمات الحجه و قوله: «کَتَبَ عَلیٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَهَ» یتضمن مقدمه اخری،و قوله: «وَ لَهُ مٰا سَکَنَ فِی اللَّیْلِ وَ النَّهٰارِ» الخ؛مقدمه اخری ثالثه بمنزله الجزء من الحجه.

فقوله تعالی: «قُلْ لِمَنْ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» الخ؛یأمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یسألهم عمن یملک السماوات و الأرض و له التصرف فیها بما شاء من غیر مانع یمنعه،و هو اللّه سبحانه من غیر شک لأن غیره حتی الأصنام و أرباب الأصنام التی یدعوها المشرکون هی کسائر الخلقه ینتهی خلقها و أمرها إلیه تعالی فهو المالک لما فی السماوات و الأرض جمیعا.

و لکون المسئول عنه معلوما بینا عند السائل و المسئول جمیعا و الخصم معترف به لم یحتج الی صدور الجواب عن الخصم و اعترافه به بلسانه،و أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یذکر هو الجواب و یتکفل ذلک لتتم الحجه من غیر انتظار ما لجوابهم.

و السؤال عن الخصم،و مباشره السائل بنفسه الجواب کلاهما من السلائق البدیعه الدائره فی سرد الحجج،یقول المنعم لمن أنعم علیه فکفر بنعمته:من الذی أطعمک و سقاک و کساک؟ أنا الذی فعل ذلک بک و من بها علیک و أنت تجازینی بالکفر.

و بالجمله ثبت بهذا السؤال و الجواب أن اللّه سبحانه هو المالک على الإطلاق فله التصرف فيها بما شاء من إحياء و رزق و إماته و بعث بعد الموت من غير أن يمنعه من ذلک مانع کدقه فى العمل و موت و غيبه و اختلال و غير ذلک.و بهذا تمت إحدى مقدمات الحجه فألحقها المقدمه الاخرى و هى قوله:کتب على نفسه الرحمه.

قوله تعالى: کَتَبَ عَلىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَهَ الکتابه هو الإثبات و القضاء الحتم،و اذ کانت الرحمه-و هى إفاضه النعمه على مستحقها و إيصال الشىء الى سعادته التى تليق به- من صفاته تعالى الفعليه صح أن ينسب الى کتابته تعالى،و المعنى:أوجب على نفسه الرحمه و إفاضه النعم و إنزال الخير لمن يستحقه.

قوله تعالى: وَ لَهُ مٰا سَکَنَ فِى اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ السکون فى الليل و النهار هو الوقوع فى ظرف هذا العالم الطبيعى الذى يدبر أمره بالليل و النهار،و يجرى نظامه بغشيان النور الساکب من شمس مضيئه،و عمل التحولات النوريه فيه بالقرب و البعد و الکثره و القله و الحضور و الغيبه و المسامته و غيرها.

فالليل و النهار هما المهد العام يربى فيه العناصر الکليه و مواليدها تربيه تسوق کل جزء من أجزائها و کل شخص من أشخاصها الى غايته التى قدرت له،و تکملها روحا و جسما (۱).

و الآيه أعنى قوله: «وَ لَهُ مٰا سَکَنَ فِى اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ» الخ؛کإحدى مقدّمات الحجه المبيّنه بالآيه السابقه فإن الحجه على المعاد و إن تمّت بقوله: «قُلْ لِمَنْ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ کَتَبَ عَلىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَهَ» لکن النظر الابتدائى الساذج ربما غفل عن کون ملکه تعالى للأشياء مستلزما لعلمه بها و سمعه بما يسمع منها کالأصوات و الأقوال.

و لذلک نبه عليه بتکرار ملک السموات و الأرض،و تفريع السمع و العلم عليه فقال: «وَ لَهُ

۱- ۱) .الانعام ۱۲-۱۸:بحث فى مالکيه اللّه تعالى لمخلوقاته.

مٰا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ -و هو فى معنى قوله: «لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» فكانت هذه الآيه لذلك بمنزله مقدمه متممه للحجه المسروده فى الآيه السابقه.

و الآيه-على أنا لم نستوف حقها و لن يستوفى-من أرق الآيات القرآنيه معنى و أدقها إشاره و حجه،و أبلغها منطقا.

قوله تعالى: قُلْ أَ غَيْرَ اللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فٰاطِرِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لاٰ يُطْعَمُ شروع فى الاحتجاج على وحدانيته تعالى و أن لا شريک له.

و الذى يتحصل من تاريخ الوثنيه و اتخاذ الأصنام و الآلهه أنهم كانوا إنما دانوا بذلک و خضعوا للآلهه لأحد أمرين:إما أنهم وجدوا أنفسهم فى حاجه الى أسباب كثيره فى إبقاء الحياه كالتغذى بالطعام و اللباس و المسكن و الأزواج و الأولاد و العشيره و نحو ذلک،و عمدتها الطعام الذى حاجه الإنسان إليه أشد من حاجته الى غيره بحسب النظر الساذج،و قد اعتقدوا أن لكل صنف من أصناف هذه الحوائج تعلقا بسبب هو الذى يجود لهم بالتمتع من وسيله رفع تلک الحاجه كالسبب الذى يمطر السماء فينبت المرعى و الكلاء لدوابهم و يمنح بالخصب لأنفسهم،و السبب الذى يدبّر أمر السهل و الجبل أو يلقى بالمحبه و الألفه أو إليه أمر البحر و السفائن الجاريه فيها.

ثم وجدوا أن قوّتهم لا تفى بالتسلط على تلک الحاجه أو الحوائج الضروريه فاضطروا الى الخضوع الى السبب المربوط بحاجتهم و اتخاذه إلها ثم عبادته.

و إما لأنهم وجدوا هذا الإنسان الأعزل غرضا لسهام الحوادث محصورا بمكاره و شرور عامه عظيمه لا يقاومها كالسيل و الزلزله و الطوفان و القحط و الوباء،و ببلايا و محن أخرى جزئيه لا يحصيها كالأمراض و الأوجاع و السقوط و الفقر و العقم و العدو و الحاسد و الشانئ و غير ذلک،ثم وضعوا لها أسبابا قاهره هى المرسله لها إليهم،و القاصمه بها ظهورهم، و المكدره لصفوه عيشهم،و هى مخلوقات علويه كأرباب الأنواع و أرواح الكواكب و الأجرام

العلويه فاتخذوها آلهه خوفا من سخطهم و عذابهم،و عبدوهما ليستميلوها بالعباده و يرضوها بالخضوع و الاستكانه فيخلصوا بذلك عن المكاره و الرزايا و يأمنوا شرورها و المضار النازله منها إليهم.

و الآيه أعنى قوله: «قُلْ أَ غَيْرَ اللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا» الخ؛و الآيات التاليه لها تحتج على المشركين بقلب حجتيهم بعينهما إليهم أى تسلم أصل الحجه و تعدّها حقه لكن تبين أن لازمها أن يعبد اللّه سبحانه وحده،و ينفى عنه كل شريك موضوع.

فقوله تعالى: قُلْ أَ غَيْرَ اللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فٰاطِرِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لاٰ يُطْعَمُ إشاره الى الحجه من المسلك الأول،و هو مسلك الرجاء أن يعبد الإله لأنه منعم فيكون عبادته شكرا لانعامه سببا لمزيده.

أمر سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يبين لهم فى صوره الاستفهام و السؤال أن اللّه سبحانه وحده هو الولى للنعمه التى يتنعم بها الانسان و غيره لأنه هو الرازق الذى لا يحتاج الى أن يرزقه غيره يطعم و لا يطعم،و الدليل عليه أنه تعالى هو الذى فطر السموات و الأرض،و أخرجها من ظلمه العدم الى نور الوجود،و أنعم عليها بنعمه التحقق و الثبوت،ثم أفاض عليها بنعم لا يحصيها إلا هو لإبقاء وجود،و منها الإطعام للإنسان و غيره فإن جميع هذه النعم المعده لبقاء وجود الانسان و غيره،و الأسباب التى تسوق تلك النعم الى محال الاستحقاق كل ذلك ينتهى الى فطره و إيجاده الأشياء و الأسباب و مسبباتها جميعا من صنعه.

فإليه سبحانه يرجع الرزق الذى من أهم مظاهره عند الإنسان الإطعام فيجب أن يعبد اللّه وحده لأنه هو الذى يطعمنا من غير حاجه الى إطعام من غيره.

ثم أمر سبحانه بعد تمام الحجه نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يذكر لهم ما يؤيد به هذه الحجه العقليه،و هو أن اللّه أمره من طريق الوحى أن يجرى فى اتخاذ الإله على الطريق الذى يهدى إليه العقل و هو التوحيد،و نهاه صريحا أن يتخطاه الى أن يلحق بالمشركين فقال: «قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

مَنْ أَسْلَمَ» ثم قال: «وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .

بقى هنا أمران:

أحدهما:أن قوله: «أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» إن كان المراد أول من أسلم من بينكم فهو ظاهر فقد أسلم صلّى اللّه عليه و آله و سلم قبل امته،و إن كان المراد به أول من أسلم من غير تقييد كما هو ظاهر الإطلاق كانت أوليته فى ذلك بحسب الرتبه دون الزمان.

و ثانيهما:أن نتيجه الحجه لما كانت هى العبوديه و هى نوع خضوع و تسليم كان استعمال لفظه الإسلام فى المقام أولى من لفظه الإيمان لما فيه من الدلاله على غرض العباده،و هو الخضوع.

و قوله تعالى: قُلْ إِنِّي أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ و هذا هو المسلك الثانى من المسلكين اللذين تقدم أن المشركين تعلقوا بهما فى اتخاذ الآلهه،و هو أن عباده آلهتهم يؤمنهم من شمول سخطها و نزول عذابها.

و قد أخذ سبحانه فى الحجه أخوف ما يجب أن يخاف منه من أنواع العذاب و أمره و هو عذاب الساعه التى ثقلت فى السماوات و الأرض كما أخذ فى الحجه الاولى أخرج ما يحتاج اليه الإنسان بحسب بادئ النظر من النعم،و هو الإطعام.

و قد قيل: «إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي» دون أن يقال:إن أشركت بربى إشاره الى ما فى قوله تعالى فى الآيه السابقه: «وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» من نهيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن الشرك فأدت الآيه أن من الواجب علىّ عقلا أن أعبد اللّه وحده لأومن مما أخاف من عذاب يوم عظيم،و هذا الذى دل عليه العقل دلنى عليه للوحى من ربى.

و بهذا تناظر هذه الآيه الآيه السابقه من جهه إقامه الحجه العقليه أولا ثم تأييده بالوحى من اللّه سبحانه فافهم ذلك،و هذا من لطائف إيجاز القرآن الكريم فقد اكتفى فى إفاده هذا المعنى على سعته بمجرد وضع قوله: «عَصَيْتُ» موضع أشركت.

و قوله تعالى: مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ الخ؛المعنى ظاهر الآيه متممه للحجه المسروده فى الآيه السابقه فظاهر الآيه السابقه بحسب النظر البسيط إقامه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم الحجه فى وجوب التوحيد على نفسه بأن اللّه نهاه عن الشرك فيجب عليه توحيده ليؤمن عذاب الآخره.

فيلوح لنظر المغفّل غير المتدبر أن يرد عليه الحجه بأن النهى لما كان مختصا بك كما تدعيه يختص الخوف ثم وجوب التوحيد أيضا بك فلا تقتضى الحجه وجوب التوحيد و نفى الشريك على غيرك،و تصير الحجه عليك لا على غيرك.

فأفاد بقوله: مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ أن عذابه مشرف على الجميع محيط بالكل لا مخلص عنه إلا برحمته فعلى كل إنسان أن يخاف من عذاب يومئذ على نفسه ما يخافه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم على نفسه فالحجه عامه قائمه على جميع الناس لا خاصه به صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاّ هُوَ الى آخر الآيه؛قد كانت الحجتان المذكورتان فى الآيات السابقه أخذتا أنموذجا مما يرجوه الإنسان و هو الإطعام و انموذجا مما يخافه و هو عذاب يوم القيامه،و تمتا بهما البيان،و لم تتعرضا لسائر أنواع الضر و أقسام الخير التى يمس اللّه سبحانه بهما الإنسان،و الكل من اللّه عز اسمه.

فالآيه توضح بالتصريح أن هناك من الضر ما هو غير عذاب يوم القيامه يمس اللّه سبحانه به الانسان يجب أن يتوجه إليه تعالى فى كشفه،و أن من الخير ما يمس اللّه به الانسان و لا راد لفضله و لا مانع يمنع من إفاضته لقدرته على كل شيء،و رجاء الخير يوجب على الانسان أن يتخذه سبحانه إلها معبودا.

و لما أمكن أن يتوهم أن كونه تعالى يمس الانسان بضر أو بخير إنما يقتضى أن يتخذ معبودا،

و الخصم لا ينكر ذلک (۱).و أما قصر الالوهیه و المعبودیه فیه تعالی فلا لأن ما اتخذوه من الآلهه هی أسباب متوسطه و شفعاء أقویاء لها تأثیرات فی الکون من شر أو خیر یوجب علی الانسان أن یتقرب إلیها خوفا من شرها أو رجاء لخیرها.

دفعه بأن اللّه سبحانه هو القاهر فوق عباده لا یفوقه منهم أحد و لا یعادله فهم أنفسهم تحت قهره،و کذا أفعالهم و آثارهم لا یعملون عملا من خیر أو شر إلا بإذنه و مشیته غیر مستقلین بأمر البته و لا یملکون لأنفسهم ضرا و لا نفعا و لا غیر ذلک،فما یطلع من أفق ذواتهم من أثر خیرا أو شرا ینتهی الی أمره و مشیته و اذنه یستند الیه علی ما یلیق بساحه قدسه و عزته من الاستناد.

فالآیتان جمیعا تتممان معنی واحدا،و هو أن ما یصیب الانسان من خیر أو شر فمن اللّه علی ما یلیق بساحته من الانتساب،فاللّه سبحانه هو المتوحد بالالوهیه،و المتفرد بالمعبودیه لا إله غیره،و لا معبود سواه.

و قد عبّر عن إصابه الضر و الخیر بالمس الدال علی الحقاره فی قوله: «إِنْ یَمْسَسْکَ» «وَ إِنْ یَمْسَسْکَ» لیدل به علی أن ما یصیب الانسان من ضر أو من خیر شیء یسیر مما تحمله القدره غیر المتناهیه التی لا یقوم لها شیء،و لا یطیقها و لا یتحملها مخلوق محدود.

و کأن قوله تعالی فی جانب الخیر: «فَهُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» وضع موضع نحو من قولنا:

فلا مانع یمنعه،لیدل علی أنه تعالی قدیر علی کل خیر مفروض کما أنه قدیر علی کل ضر مفروض،و تنکشف به عله قوله:فلا کاشف له إلا هو اذ لو کشف غیره تعالی شیئا مما مس به من ضر دفع ذلک قدرته علیه،و کذلک قدرته علی کل شیء تقتضی أن لا یقوی شیء علی دفع

۱- ۱) .الخاصه من الوثنیه و ان کانوا یجوزون عبادته تعالی استنادا إلی أنه غیر محدود الوجود لا یتعلق به التوجه العبادی لکن العامه منهم ربما عبدوه فی عرض سائر الآلهه کما یظهر من تلبیه مشرکی مکه فی الحج:لبیک لا شریک لک اللّه شریکا هو لک تملکه و له ملک.

ما یمس به من خیر.

و تخصیص ما یمس به من ضر أو خیر بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی هذه الآیه نظیر التخصیص الواقع فی قوله: «قُلْ إِنِّی أَخٰافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ» و یفید قوله: «وَ هُوَ الْقٰاهِرُ فَوْقَ عِبٰادِهِ» من التعمیم نظیر ما أفاد قوله: «مَنْ یُصْرَفْ عَنْهُ یَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ» .

قوله تعالی: وَ هُوَ الْقٰاهِرُ فَوْقَ عِبٰادِهِ وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ القهر هو نوع من الغلبه،و هو أن یظهر شیء علی شیء فیضطره الی مطاوعه أثر من الغالب یخالف ما للمغلوب من الأثر طبعا أو بنحوه من الافتراض کالماء یظهر علی النار فیقهرها علی الخمود،و النار تقهر الماء فتبخره أو تجفف رطوبته.و اذ کانت الأسباب الکونیه إنما أظهرها اللّه سبحانه لتکون وسائط فی حدوث الحوادث فتضع آثارها فی مسبباتها،و هی کائنه ما کانت مضطره الی مطاوعه ما یریده اللّه سبحانه فیها و بها،یصدق علیها عامه أنها مقهوره للّه سبحانه فاللّه قاهر علیها.

فالقاهر من الأسماء التی تصدق علیه تعالی کما تصدق علی غیره،غیر أن بین قهره تعالی و قهر غیره فرقا،و هو أن غیره تعالی من الأشیاء إنما یقهر بعضها بعضا و هما مجتمعان من جهه مرتبه وجودهما و درجه کونهما بمعنی أن النار تقهر الحطب علی الاحتراق و الاشتعال،و هما معا موجودان طبیعیان یقتضی أحدهما بالطبع خلاف ما یقتضیه الآخر لکن النار أقوی فی تحمیل أثرها علی الحطب منه من النار فهی تظهر علیه فی تأثیرها بأثرها فیه.

و اللّه سبحانه قاهر لا کقهر النار الحطب،بل هو قاهر بالتفوق و الإحاطه علی الإطلاق بمعنی أنا اذا نسبنا احراق جسم و إشعاله کالحطب مثلا إلی اللّه سبحانه فهو سبحانه قاهر علیه بالوجود المحدود الذی أوجده به،قاهر علیه بالخواص و الکیفیات التی أعطاها له و عبأه بها بیده،قاهر علیه بالنار التی أوقدها لإحراقه و إشعاله،و هو المالک لجمیع ما للنار من ذات و أثر،قاهر علیه بقطع عطیه المقاومه للحطب،و وضع الاحتراق و الاشتعال موضعه فلا

مقاومه و لا تعصی و لا جموح و لا شبه ذلک قبال إرادته و مشیّته لکونها من أفق أعلی.

فهو تعالی قاهر علی عباده لکنه فوقهم لا کقهر شیء شیئا و هما متراملان.و قد صدّق القرآن الکریم هذا البحث بنتیجته فذکره اسما له تعالی فی موضعین من هذه السوره و هما هذه الآیه و آیه(۶۱).

و قید الاسم فی کلا الموضعین بقوله: «فَوْقَ عِبٰادِهِ» و الغالب فی المحفوظ من موارد استعمال القهر هو أن یکون المغلوب من اولی العقل بخلاف الغلبه،و لذا فسّره الراغب بالتذلیل،و الذله فی اولی العقل أظهر،و لا یمنع ذلک من صحه صدقه فی غیر مورد اولی العقل بحسب الاستعمال أو بعنایه.

و اللّه سبحانه قاهر فوق عباده یمسهم بالضر و بالخیر و یذللهم لمطاوعته و قاهر فوق عباده فیما یفعلونه و یؤثرون به من أثر لأنه المالک لما ملّکهم و القادر علی ما علیه أقدرهم.

و لما نسب فی الآیتین إلیه المس بالضر و الخیر،و قد ینسبان الی غیره،میز مقامه من مقام غیره بقوله فی ذیل الآیه: «وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ» فهو الحکیم لا یفعل ما یفعل جزافا و جهلا، الخبیر لا یخطئ و لا یغلط کغیره.

[سوره الأنعام (۶): الآیات ۱۹ الی ۲۰]

اشاره

قُلْ أَیُّ شَیْءٍ أَکْبَرُ شَهٰادَهً قُلِ اَللّٰهُ شَهِیدٌ بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ وَ أُوحِیَ إِلَیَّ هٰذَا اَلْقُرْآنُ لِأُنْذِرَکُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَ إِنَّکُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اَللّٰهِ آلِهَهً أُخْریٰ قُلْ لاٰ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ وَ إِنَّنِی بَرِیءٌ مِمّٰا تُشْرِکُونَ (۱۹) اَلَّذِینَ آتَیْنٰاهُمُ اَلْکِتٰابَ یَعْرِفُونَهُ کَمٰا یَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمُ اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (۲۰)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ أمر نبيه أن يسألهم عن أكبر الأشياء من حيث الشهاده،و الشهاده هى تحمّل الخبر عن نوع من العيان كالإبصار و نحوه،و أداء ما تحمل كذلك بالإخبار و الإنباء،و إذا كان التحمل و الأداء-و خاصه التحمل-مما يختلف بحسب إدراك المتحملين و بحسب وضوح الخبر الذى تحمّله المتحمل، و بحسب قوه المؤدى بيانا و ضعفه اختلافا فاحشا.

فليس المتحمل الذى يغلب على مزاجه السهو و النسيان أو الغفله كالذى يحفظ ما يعيه سمعه و يقع عليه بصره،و ليس الصاحى كالسكران و لا الخبير الأخصائى بأمر كالأجنبى الأعزل.

و اذا كان الامر على ذلك فلا يقع ريب فى أن اللّه سبحانه هو أكبر من كل شىء شهاده فإنه هو الذى أوجد كل ما دق و جل من الأشياء،و إليه ينتهى كل أمر و خلق،و هو المحيط بكل شىء و مع كل شىء لا يعزب عن علمه مثقال ذره فى السماوات و الأرض و لا أصغر من ذلك و لا أكبر لا يضل و لا ينسى.

و لكون الأمر بينا لا يقع فيه شك لم يحتج الى إيراد الجواب فى اللفظ بأن يقال:قل اللّه أكبر شهاده،كما قيل: قُلْ لِمَنْ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ (الأنعام/١٢)أو يقال:

سيقولون اللّه،كما قيل: قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهٰا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ (المؤمنون/٨٥).

على أن قوله: «قُلِ اللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» يدل عليه و يسد مسده،و ليس من البعيد أن يكون قوله: «شَهِيدٌ» خبرا لمبتدإ محذوف هو الضمير العائد الى اللّه،و التقدير:«قل اللّه هو شهيد بينى و بينكم»فتشتمل الجمله على جواب السؤال و على ما استؤنف من الكلام.

ص :٢٧۶

و قوله: «قُلِ اللّٰهُ شَـهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» على أنه يشـتمل على إخباره صـلّى اللّه عليه و آله و سلم بشهاده اللّه تعالى هو بنفسه شهاده لمكان قوله: «قُلْ» اذ أمره بأن يخبرهم بشهادته تعالى بالنبوه لا ينفك عن الشهاده بذلك،و على هذا فلا حاجه الى التشبث بأنواع ما وقع فى القرآن الكريم من شـهاده اللّه تعالى على نبوته صلّى اللّه عليه و آله و سلم و على نزول القرآن من عنده كقوله تعالى: وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ (المنـافقون)أو قوله: لٰكِنِ اللّٰهُ يَشْـهَدُ بِمٰا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ (النسـاء١۶۶/)و غير ذلـك من الآيات الداله على ذلك تصريحا أو تلويحا بلفظ الشهاده أو بغيره.

و تقييد شـهادته تعالى بقوله: «بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» يدل على توسـطه تعالى بين طرفين متخاصمين هما النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قومه،و النبى لم ينعزل عنهم و لم يتميز منهم فى جـانب إلا فى دعوى النبوّه و الرساله و دعوى نزول القرآن لكن نزول القرآن بالوحى قد ذكر بعد فى قوله:

«وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ» فـالمراد بشـهادته تعالى بينه و بينهم شـهادته بنبوته،و يؤيـده أيضا قوله فى الآيه التاليه: «الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمُ» على ما سيجىء إن شاء اللّه.

قـوله تعـالى: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْـذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ من مقـول القول و هو معطوف على قوله: «اللّٰهُ شَـهِيدٌ» الـخ؛و جعل الإنذار غايه لنزول القرآن الكريـم أخذ بمسلك الخوف فى الدعوه النبويه،و هو الأوقع فى أفهام عامه الناس فإن مسلك الرجاء و الوعد و إن كان أحد الطريقين فى الدعوه،و قد استعمله الكتاب العزيز فى الجمله لكن رجاء الخير لا يبعث الى طلبه بعثا إلزاميا و إنما يورث شوقا و رغبه بخلاف الخوف لوجوب دفع الضرر المحتمل عقلا.

و لأـن دعوه الإسـلام إنمـا هى الى دين الفطره،و هو مخزون مكنوز فى فطره النـاس و إنما حجبهم عنه ما ابتلوا به من الشـرك و المعصيه مما يوجب عليهم غلبه الشقوه و نزول السخط

الإلهی فالأقرب الی الحکمه و الحزم فی دعوتهم أن تبدأ بالإنذار،و لهذا کله ربما حصر شأن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی الإنذار کما فی قوله: إِنْ أَنْتَ إِلاّ نَذِیرٌ (فاطر/۲۳)و قوله: وَ إِنَّما أَنَا نَذِیرٌ مُبِینٌ (العنکبوت/۵۰).

هذا فی عامه الناس و أما الخاصه من عباد اللّه،و هم الذین یعبدونه حبا له لا خوفا من نار و لا طمعا فی جنه فانهم یتلقون من الدعوه بالخوف و الرجاء أمرا آخر فإنهم یتلقون من النار أنها دار بعد و سخط فیخافونها لذلک،و من الجنه أنها ساحه قرب و رضوان فیشتاقون إلیها لذلک.

و ظاهر قوله: «لِأُنْذِرَکُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ» أنه خطاب لمشرکی مکه أو لقریش أو للعرب عامه إلا أن التقابل بین ضمیر الخطاب و بین من بلغ-و المراد بمن بلغ هو من لم یشافهه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالدعوه فی زمن حیاته أو بعد-یدل علی أن المراد بالمخاطبین فی قوله: «لِأُنْذِرَکُمْ بِهِ» هم الذین شافههم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالدعوه ممن تقدم دعاؤه علی نزول الآیه أو قارنه أو تأخر عنه.

فقوله: «وَ أُوحِیَ إِلَیَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَکُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ» یدل علی عموم رسالته علیه السّلام بالقرآن لکل من سمعه منه أو سمعه من غیره الی یوم القیامه،و إن شئت فقل:تدل الآیه علی کون القرآن الکریم حجه من اللّه و کتابا له ینطق بالحق علی أهل الدنیا من لدن نزوله الی یوم القیامه.

و قد قیل: «لِأُنْذِرَکُمْ بِهِ» و لم یقل:لانذرکم بقراءته فالقرآن حجه علی من سمع لفظه و عرف معناه و اهتدی الی مقاصده،أو فسّر له لفظه و قرع سمعه بمضامینه فلیس من شرط کتاب مکتوب الی قوم أن یکون بلسانهم بل أن تقوم علیهم حجته و تشملهم مضامینه،و قد دعا صلّی اللّه علیه و آله و سلم بکتابه الی مصر و الحبشه و الروم و إیران و لسانهم غیر لسان القرآن،و قد کان فیمن آمن به فی حیاته و قبل إیمانهم سلمان الفارسی و بلال الحبشی و صهیب الرومی و عده من الیهود و لسانهم عبری هذا کله مما لا ریب فیه.

قوله تعالى: أَ إِنَّکَمْ لَتَشْـهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَهً أَخْرىٰ قُلْ لاٰ أَشْهَدُ الى آخر الآيه؛لما ذکر شهاده اللّه و هو أکبر شهاده على رسالته و لم يرسل إلا ليدعوهم الى دين التوحيد،و ليس لأحد بعد شـهاده اللّه سـبحانه على أن لا شريک له فى ألوهيته أن يشهد أن مع اللّه آلهه أمر نبيه أن يسألهم سؤال متعجب منکر:هل يشـهدون بتعـدد الآلهه،و هـذا هو الذى يدل عليه تأکيد المسئول عنه بأن و اللام،کأن النفس لا تقبل أن يشهدوا به بعد أن سمعوا شهاده اللّه تعالى.

ثم أمره أن يخـالفهم فى الشـهاده فينفى عن نفسه الشـهاده بما شـهدوا به فقال: «قُلْ لاٰ أَشْـهَدُ» أى بما شـهدتم به بقرينه المقام،ثم قال: «قُلْ إِنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ وَ إِنَّنِی بَرِیءٌ مِمّٰا تُشْرِکُونَ» و هو شهاده على وحدانيته تعالى،و البراءه مما يدعون له من شرکاء.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْکِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ کَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمُ و هذا إخبار عما شـهد به اللّه سبحانه فى الکتب المنزّله على أهل الکتـاب،و علمه علمـاء أهـل الکتـاب ممـا عنـدهم من کتب الأنبياء من البشاره بعـد البشاره بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سـلم و وصفه بما لا يعتريه شک و لا يطرأ عليه ريب.

فهم بما استحضـروا من نعته صلّى اللّه عليه و آله و سلم يعرفونه بعينه کما يعرفون أبناءهم،قال تعالى: اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ الَّذِی يَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْرٰاهِ وَ الْإِنْجِيلِ (الأعراف/ ١٥٧)و قال تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّٰاءُ عَلَى الْکُفّٰارِ رُحَمٰاءُ بَيْنَهُمْ تَرٰاهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَ رِضْوٰاناً سِيمٰاهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذٰلِکَ مَثَلُهُمْ فِی التَّوْرٰاهِ وَ مَثَلُهُمْ فِی الْإِنْجِيلِ (الفتح٢٩/)،و قال تعالى: أَ وَ لَمْ يَکُنْ لَهُمْ آيَهً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمٰاءُ بَنِی إِسْرٰائِيلَ (الشعراء١٩٧/).

و لما کان بعض علمائهم يکتمون ما عندهم من بشاراته و نعوته صلّى اللّه عليه و آله و سـلم و يستنکفون عن الإيمان به بيّن اللّه تعالى خسرانهم فى أمرهم فقال: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ» .

و قد تقدم بعض الكلام فی تفسیر الآیه من سوره البقره(آیه ۱۴۶)و بیّنا هناک وجه الالتفات من الحضور الی الغیبه و سیأتی تمام الکلام فی سوره الأعراف(آیه ۱۵۶)إن شاء اللّه تعالی (۱).

[سوره الأنعام (۶): الآیات ۲۱ الی ۳۲]

اشاره

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَریٰ عَلَی اَللّٰهِ کَذِباً أَوْ کَذَّبَ بِآیٰاتِهِ إِنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ اَلظّٰالِمُونَ (۲۱) وَ یَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِینَ أَشْرَکُوا أَیْنَ شُرَکٰاؤُکُمُ اَلَّذِینَ کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۲۲) ثُمَّ لَمْ تَکُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا وَ اَللّٰهِ رَبِّنٰا مٰا کُنّٰا مُشْرِکِینَ (۲۳) اُنْظُرْ کَیْفَ کَذَبُوا عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا کٰانُوا یَفْتَرُونَ (۲۴) وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْتَمِعُ إِلَیْکَ وَ جَعَلْنٰا عَلیٰ قُلُوبِهِمْ أَکِنَّهً أَنْ یَفْقَهُوهُ وَ فِی آذٰانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ یَرَوْا کُلَّ آیَهٍ لاٰ یُؤْمِنُوا بِهٰا حَتّٰی إِذٰا جٰاؤُکَ یُجٰادِلُونَکَ یَقُولُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِیرُ اَلْأَوَّلِینَ (۲۵) وَ هُمْ یَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ یَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ یُهْلِکُونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا یَشْعُرُونَ (۲۶) وَ لَوْ تَریٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَی اَلنّٰارِ فَقٰالُوا یٰا لَیْتَنٰا نُرَدُّ وَ لاٰ نُکَذِّبَ بِآیٰاتِ رَبِّنٰا وَ نَکُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۲۷) بَلْ بَدٰا لَهُمْ مٰا کٰانُوا یُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعٰادُوا لِمٰا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَکٰاذِبُونَ (۲۸) وَ قٰالُوا إِنْ هِیَ إِلاّٰ حَیٰاتُنَا اَلدُّنْیٰا وَ مٰا نَحْنُ بِمَبْعُوثِینَ (۲۹) وَ لَوْ تَریٰ إِذْ وُقِفُوا عَلیٰ رَبِّهِمْ قٰالَ أَ لَیْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ قٰالُوا بَلیٰ وَ رَبِّنٰا قٰالَ فَذُوقُوا اَلْعَذٰابَ بِمٰا کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ (۳۰) قَدْ خَسِرَ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِلِقٰاءِ اَللّٰهِ حَتّٰی إِذٰا جٰاءَتْهُمُ اَلسّٰاعَهُ بَغْتَهً قٰالُوا یٰا حَسْرَتَنٰا عَلیٰ مٰا فَرَّطْنٰا فِیهٰا وَ هُمْ یَحْمِلُونَ أَوْزٰارَهُمْ عَلیٰ ظُهُورِهِمْ أَلاٰ سٰاءَ مٰا یَزِرُونَ (۳۱) وَ مَا اَلْحَیٰاهُ اَلدُّنْیٰا إِلاّٰ لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدّٰارُ اَلْآخِرَهُ خَیْرٌ لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (۳۲)

۱- ۱) .الانعام ۱۹-۲۰:بحث روائی فی:اللّه عزّ و جلّ الشیء أم لا شیء؛التوحید و المذاهب فیه.

بیان:

قوله تعالی: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيٰاتِهِ الظلم من أشنع الذنوب بل التحلیل الدقیق یقضی أن سائر الذنوب إنما هی شنیعه مذمومه بمقدار ما فیها من معنی الظلم،و هو الانحراف و الخروج عن الوسط العدل.

و الظلم کما یکبر و یصغر من جهه خصوصیات من صدر عنه الظلم کذلک یختلف حاله بالکبر و الصغر من جهه من وقع علیه الظلم أو أرید إیقاعه علیه فکلما جل موقعه و عظم شأنه کان الظلم أکبر و أعظم،و لا أعز قدرا و أکرم ساحه من اللّه سبحانه و لا من آیاته الداله علیه، فلا أظلم ممن ظلم هذه الساحه المنزهه أو ما ینتسب إلیها بوجه،و لا یظلم إلا نفسه.

و قد صدّق اللّه سبحانه هذه النظره العقلیه بقوله: «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَوْ

كَذَّبَ بِآيَاتِهِ» أما افتراء الكذب عليه تعالى فإثبات الشريك له،و لا شريك له،أو دعوى النبوه أو نسبه حكم إليه كذبا و ابتداعا،و أما تكذيب آياته الداله عليه فكتكذيب النبى الصادق فى دعواه المقارنه للآيات الإلهيه أو إنكار الدين الحق،و منه إنكار الصانع أصلا.

و الآيه تنطبق على المشركين،و هم أهل الأوثان الذين إليهم وجّه الاحتجاج من جهه أنهم أثبتوا للّه سبحانه شركاء بعنوان أنهم شفعاء مصادر امور فى الكون،و إليهم ينتهى تدبير شئون العالم مستقلين بذلك،و من جهه أنهم أنكروا آياته تعالى الداله على النبوه و المعاد.

و ربما الحق بعضهم بذلك القائلين بجواز شفاعه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أو الطاهرين من ذريته أو الأولياء الكرام من امته فقضى بكون الاستشفاع بهم فى شىء من حوائج الدنيا أو الآخره شركا تشمله الآيه و ما يناظرها من الآيات الشريفه.

و كأنه خفى عليهم أنه تعالى أثبت الشفاعه اذا قارنت الإذن فى كلامه من غير أن يقيده بدنيا أو آخره،فقال عزّ من قائل: مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ (البقره۲۵۵/).

على أنه تعالى قال: وَ لاٰ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَهَ إِلاّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف۸۶/)فأثبت الشفاعه حقا للعلماء الشهداء بالحق،و القدر المتيقن منهم الأنبياء و منهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و قد أثبت اللّه سبحانه شهادته بقوله: وَ جِئْنَا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِيداً (النساء۴۱/)و نص على علمه حيث قال: وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ (النحل۸۹/)،و قال: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ (الشعراء۱۹۴/)و هل يعقل نزول الكتاب الذى هو تبيان كل شىء على قلب من غير علم به،أو بعثه تعالى إياه شهيدا و ليس بشهيد بالحق؟و قال اللّه تعالى: لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاسِ (البقره/ ۱۴۳)،و قال: وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ (آل عمران۱۴۰/)،و قال تعالى: وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (العنكبوت۴۳/)فأثبت فى هذه الامه شهداء علماء و لا يثبت إلا الحق.

ص :۲۸۲

و قـال تعـالى فى أهـل بيته عليهم السّـلام: إِنَّمَا يُرِيـدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكَمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (الأحزاب/٣٣)فبين أنهم مطهرون بتطهيره،ثم قـال: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِى كِتَابٍ مَكْنُـونٍ، لاـ يَمَسُّهُ إِلاَّـ الْمُطَهَّرُونَ (الواقعه/٧٩)فعدهم العلماء بالقرآن الـذى هو تبيان كل شـىء و المطهرون هم القـدر المتيقن من هـذه الامه فى الشـهاده بالحق التى لا سبيل للغو و التأثيم إليها،و قد أشبعنا الكلام فى معنى الشفاعه فى الجزء الأول من الكتاب فليراجع.

قوله تعـالى: إِنَّهُ لاـ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ الفلاـح و الفوز و النجـاح و الظفر و السـعاده ألفاظ قريبه المعنى،و لهـذا فسر الراغب الفلاح بإدراك البغيه الذى هو معنى السعاده تقريبا، قال فى المفردات:الفلح:الشق،و قيل الحديد بالحديد يفلح أى يشق،و الفلاح الأكار لذلك و الفلاح الظفر و إدراك البغيه،و ذلك ضربان دنيوى و أخروى:

فالدنيوى الظفر بالسعادات التى تطيب بها حياه الدنيا و هو البقاء و الغنى و العز و إياه قصد الشاعر بقوله:

أفلح بما شئت فقد يدرك

بالضعف و قد يخدع الأريب

و فلاـح اخروى،و ذلـك أربعه أشـياء:بقـاء بلاـ فنـاء،و غنى بلاـ فقر،و عز بلا ذل،و علم بلا جهل.انتهى،فمن الممكن أن يقال:إن الفلاح هو السعاده سميت به لأن فيها الظفر و إدراك البغيه بشق الموانع الحائله دون المطلوب.

و هذا معنى جامع ينطبق على موارد الاستعمال كقوله: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (المؤمنون/ ١)،و قوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا (الشمس/٩)،و قوله: إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (المؤمنون/١١٧)الى غير ذلك من الموارد.

فقوله: «إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ» -و قد أخذ الظلم وصـفا-معناه أن الظالمين لا يدركون بغيتهم التى تشبثوا لأجل إدراكها بما تشبثوا به فإن الظلم لا يهدى الظالم الى ما يبتغيه من

السعاده و الظفر بواسطه ظلمه (۱).

قوله تعالی: وَ یَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً الی آخر الآیتین،الظرف متعلق بمقدر و التقدیر:و اذکر یوم،الخ؛و قد تعلقت العنایه فی الکلام بقوله «جَمِیعاً» للدلاله علی أن العلم و القدره لا یتخلفان عن أحد منهم،فاللّه سبحانه محیط بجمیعهم علما و قدره سیحصیهم یحشرهم و لا یغادر منهم أحدا.

و الجمله فی مقام بیان قوله: «إِنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ الظّٰالِمُونَ» کأنه لما قیل «إِنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ الظّٰالِمُونَ» سئل فقیل:و کیف ذلک؟فقیل:لأن اللّه سیحشرهم و یسألهم عن شرکائهم فیضلون عنهم و یفقدونهم فینکرون شرکهم و یقسمون لذلک باللّه کذبا،و لو أفلح هؤلاء الظالمون فی اتخاذهم للّه شرکاء لم یضل عنهم شرکاؤهم،و لم یکذبوا علی أنفسهم بل وجدوهم علی ما ادعوا من الشرکه و الشفاعه و نالوا شفاعتهم.

و قوله: «ثُمَّ لَمْ تَکُنْ فِتْنَتُهُمْ» الخ؛قیل:المراد بالفتنه الجواب أی لم یکن جوابهم إلا أن أقسموا باللّه علی أنهم ما کانوا مشرکین،و قیل:الکلام علی تقدیر مضاف و المراد:لم تکن عاقبه افتتانهم بالأوثان إلا أن قالوا،الخ؛و قیل:المراد بالفتنه المعذره،و لکل من الوجوه وجه.

قوله تعالی: اُنْظُرْ کَیْفَ کَذَبُوا عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا کٰانُوا یَفْتَرُونَ بیان.لمحل الاستشهاد فیما قص من حالهم یوم القیامه،و المراد أنهم سیکذبون علی أنفسهم و یفقدون ما افتروا به،و لو أفلحوا فی ظلمهم و سعدوا فیما طلبوا لم ینجر أمرهم الی فقد ذلک و إنکاره علی أنفسهم.

أما کذبهم علی أنفسهم فلأنهم لما أقسموا باللّه أنهم ما کانوا مشرکین أنکروا ما ادعوه فی

۱- ۱) .الانعام ۲۱-۳۲:کلام فی معنی السعاده،طرق السعادات الانسانیه.

الدنيا من أن اللّه سبحانه شركاء،و هم كانوا يصرون عليه و يعرضون فيه عن كل حجه واضحه و آيه بينه ظلما و عتوا،و هذا كذب منهم على أنفسهم.

و أما ضلال ما كانوا يفترونه عنهم فلأن اليوم يوم ينجلى فيه عيانا أن الأمر و الملك و القوه للّه جميعا ليس لغيره من شىء إلا ذله العبوديه،و الفقر و الحاجه من غير أى استقلال قال تعالى: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذٰابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعَذٰابِ (البقره/١۶۵)،و قال: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ (المؤمن/١۶)و قال: يَوْمَ لاٰ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً،وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ (الانفطار/١٩).

فيشاهدون عندئذ مشاهده عيان أن الالوهيه للّه وحده لا شريك له،و يظهر لهم أوثانهم و شركاؤهم و هم لا يملكون ضرا و لا نفعا لأنفسهم و لا لغيرهم،و وجدوا الأوصاف التى أثبتوها لهم من الربوبيه و الشفاعه و غيرهما انما هى للّه وحده،و قد كان اشتبه عليهم الأمر فتوهموها لغيره و ضل عنهم ما كانوا يفترون.

و بالتدبر فى هذه الآيات يظهر أن المراد بضلال ما افتروا به هو ظهور حقيقه شركائهم فاقده لوصف الشركه و الشفاعه و تبينهم أن ما ظهر لهم من ذلك فى الدنيا لم يكن إلا ظهورا سرابيا كما قال تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمٰالُهُمْ كَسَرٰابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مٰاءً حَتّٰى إِذٰا جٰاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللّٰهَ عِنْدَهُ فَوَفّٰاهُ حِسٰابَهُ (النور/٣٩).

قوله تعالى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ الى آخر الآيه؛الأكنه جمع كن بكسر الكاف و هو الغطاء الذى يكن فيه الشىء و يغطى،و الوقر هو الثقل فى السمع،و الأساطير جمع اسطوره بمعنى الكذب و المين على ما نقل عن المبرد،و كأنه أصله السطر و هو الصف من الكتابه أو الشجر أو الناس غلب استعماله فيما جمع و نظم و رتب من الأخبار الكاذبه.

و كان ظاهر السياق أن يقال:يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين،و لعل الإظهار للإشعار بالسبب فى هذا الرمى و هو الكفر.

قوله تعالى: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ ينهون عنه أى عن أتباعه،و النأى الابتعاد،و القصر فى قوله: «وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ» من قصر القلب فإنهم كانوا يحسبون أن النهى عنه و النأى عنه إهلاك له و إبطال الدعوه الإلهيه،و يأبى اللّه إلا أن يتم نوره فهم هم الهالكون من حيث لا يشعرون.

قوله تعالى: وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النّٰارِ الى آخر الآيتين.بيان لعاقبه جحودهم و إصرارهم على الكفر و الإعراض عن آيات اللّه تعالى.

و قوله: يٰا لَيْتَنٰا نُرَدُّ وَ لاٰ نُكَذِّبَ بِآيٰاتِ رَبِّنٰا الخ؛على قراءه النصب فى «نكذب»و«نكون»تمن منهم للرجوع الى الدنيا و الانسلاك فى سلك المؤمنين ليخلصوا به من عذاب النار يوم القيامه،و هذا القول منهم نظير إنكارهم الشرك باللّه و حلفهم باللّه على ذلك كذبا من باب ظهور ملكاتهم النفسانيه يوم القيامه فإنهم قد اعتادوا التمنى فيما لا سبيل لهم الى حيازته من الخيرات و المنافع الفائته عنهم،و خاصه اذا كان فوتها مستندا الى سوء اختيارهم و قصور تدبيرهم فى العمل،و نظيره أيضا ما سيجىء من تحصرهم على ما فرطوا فى أمر الساعه.

على أن التمنى يصح فى المحالات المتعذره كما يصح فى الممكنات المتعسره كتمنى رجوع الأيام الخاليه و غير ذلك قال الشاعر:

ليت و هل ينفع شيئا ليت

ليت الشباب بوع فاشتريت

و قوله: بَلْ بَدٰا لَهُمْ مٰا كٰانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ الخ؛ظاهر الكلام أن مرجع الضمائر أعنى ضمائر «لَهُمْ» و «كٰانُوا» و «يُخْفُونَ» واحد و هو المشركون السابق ذكرهم،و أن المراد بالقبل هو الدنيا فالمعنى أنه ظهر لهؤلاء المشركين حين وقفوا على النار ما كانوا هم أنفسهم يخفونه فى الدنيا فبعثهم ظهور ذلك على أن تمنوا الرد الى الدنيا،و الإيمان بآيات اللّه، و الدخول فى جماعه المؤمنين.

و لم يبـدلهم إلا النار التى وقفوا عليها يوم القيامه فقـد كانوا أخفوها فى الدنيا بالكفر و الستر للحق و التغطيه عليه بعد ظهوره لهم كما يشير إليه نحو قوله تعالى: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق۲۲/).

و أما نفس الحق الـذى كفروا به فى الـدنيا مع ظهوره لهم فهو كان بادئا لهم من قبل و السـياق يأبى أن يكون مجرد ظهور الحق لهم مع الغض عن ظهور النار و هول يوم القيامه باعثا لهم على هذا التمنى.

و قوله: وَ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ أى فى قولهم «يٰا لَيْتَنٰا نُرَدُّ وَ لاٰ نُكَذِّبَ بِآيٰاتِ رَبِّنٰا» الـخ؛ و التمنى و إن كان إنشاء لا يقع فيه الصـدق و الكـذب إلا أنهم لما قالوا «نُرَدُّ وَ لاٰ نُكَذِّبَ» أى ردنا اللّه الى الدنيا و لوردنا لم نكذب،و لم يقولوا:نعود و لا نكذب،كان كلامهم مضـمنا للمسـأله و الوعـد أعنى مسـأله الرد و وعـد الإيمان و العمل الصالـح كما صـرح بـذلك فى قوله: وَ لَوْ تَرىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نٰاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنٰا أَبْصَرْنٰا وَ سَمِعْنٰا فَارْجِعْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً إِنّٰا مُوقِنُونَ (السجده۱۲/)و قوله: وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهٰا رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنّٰا نَعْمَلُ (فاطر۳۷/).

و بالجمله قولهم «يٰا لَيْتَنٰا نُرَدُّ وَ لاٰ نُكَذِّبَ» الـخ؛فى معنى قولهم ربنا ردنا الى الـدنيا لا نكذب بآياتك و نكن من المؤمنين،و بهذا الاعتبار يحتمل الصدق و الكذب،و يصح عدهم كاذبين.

و ربمـا وجـه نسـبه الكـذب إليهـم فى تمنيهـم بـأن المراد كـذب الأمـل و التمنى و هـو عـدم تحققه خارجـا كمـا يقـال:كـذبك أملك،لمن تمنى ما لا يدرك.

و ربما قيل:إن المراد كذبهم فى سائر ما يخبرون به عن أنفسهم من إصابه الواقع و اعتقاد الحق،هو كما ترى.

قوله تعالى: وَ قٰالُوا إِنْ هِيَ إِلاّٰ حَيٰاتُنَا الدُّنْيٰا الى آخر الآيتين.ذكر لإنكارهم الصـريح للحشـر و ما يسـتتبعه يوم القيامه من الإشهاد و أخذ الاعتراف بما أنكروه،و الوثنيه

كانت تنكر المعاد كما حكى اللّه عنهم ذلك فى كلامه غير مره،و قولهم بشفاعه الشركاء إنما كان فى الامور الدنيويه من جلب المنافع إليهم و دفع المضار و المخاوف عنهم.

فقوله: وَ قَالُوا إِنْ هِيَ الـخ؛حكايه لإنكارهم أى ما الحياه إلا حياتنا الدنيا لا حياه بعدها،و ما نحن بمبعوثين بعد الممات،و قوله: «وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ وُقِفُوا» كالجواب و هو بيان ما يستتبعه قولهم:ان هى إلا،الخ؛للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى صوره التمنى لمكان قوله: «وَ لَوْ تَرىٰ» و هو أنهم سيصدقون بما جحدوه،و يعترفون بما أنكروه بقولهم «وَ مٰا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» اذ يوقفون على ربهم فيشاهدون عيانا هذا الموقف الذى اخبروا به فى الدنيا،و هو أنهم مبعوثون بعد الموت فيعترفون بذلك بعد ما أنكروه فى الدنيا.

و من هنا يظهر أن اللّه سبحانه فسر البعث فى قوله: «وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلىٰ رَبِّهِمْ» بلقاء اللّه،و يؤيده أيضا قوله فى الآيه التاليه «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللّٰهِ حَتّٰى إِذٰا جٰاءَتْهُمُ السّٰاعَةُ» الخ؛حيث بدل الحشر و البعث و القيامه المذكورات فى سابق الكلام لقاء ثم ذكر الساعه أى ساعه اللقاء.

و قوله: أَ لَيْسَ هٰذٰا أى أ ليس البعث الذى أنكرتموه فى الدنيا و هو لقاء اللّه «بِالْحَقِّ قٰالُوا بَلىٰ وَ رَبِّنٰا قٰالَ فَذُوقُوا الْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» به و تسترونه.

قوله تعالى: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقٰاءِ اللّٰهِ الى آخر الآيه؛قال فى المجمع:كل شىء أتى فجأه فقد بغت يقال:بغته الأمر يبغته بغته انتهى،و قال الراغب فى المفردات:الحسر كشف الملبس عما عليه يقال:حسرت عن الذراع،و الحاسر من لا درع عليه و لا مغفر، و المحسره المكنسه-الى أن قال-و الحاسر المعيا لانكشاف قواه-الى أن قال-و الحسره الغم على ما فاته و الندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكبه أو انحسر قواه من فرط غم أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرّط منه.انتهى موضع الحاجه.

و قال:الوزر(بفتحتين)الملجأ الذى يلتجأ إليه من الجبل،قال: «كَلاّٰ لاٰ وَزَرَ إِلىٰ رَبِّكَ

يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ» و الوزر(بالكسر فالسكون)الثقل تشبيها بوزر الجبل،و يعبّر بذلك عن الإثم كما يعبّر عنه بالثقل قال: «لِيَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ كٰامِلَةً» الآيه كقوله: «وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقٰالَهُمْ وَ أَثْقٰالاً مَعَ أَثْقٰالِهِمْ» ،انتهى.

و الآيه تبين تبعه اخرى من تبعات إنكارهم البعث و هو أن الساعه سيفاجئهم فينادون بالحسره على تفريطهم فيها و يتمثل لهم أوزارهم و ذنوبهم و هم يحملونها على ظهورهم و هو أشق أحوال الإنسان و أردؤها ألا ساء ما يزرون و يحملونه من الثقل أو من الذنب أو من وبال الذنب.

و الآيه أعنى قوله: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقٰاءِ اللّٰهِ» بمنزله النتيجه المأخوذه من قوله:

«وَ قٰالُوا إِنْ هِيَ إِلاّٰ حَيٰاتُنَا الدُّنْيٰا» الى آخر الآيتين،و هى أنهم بتعويضهم راحه الآخره و روح لقاء اللّه من إنكار البعث و ما يستتبعه من أليم العذاب خسروا صفقه.

قوله تعالى: وَ مَا الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا إِلاّٰ لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدّٰارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ الخ؛ تتمه للكلام فيه بيان حال الحياتين:الدنيا و الآخره و المقايسه بينهما فالحياه الدنيا لعب و لهو ليس إلا فإنها تدور مدار سلسله من العقائد الاعتباريه و المقاصد الوهميه كما يدور عليه اللعب فهى لعب،ثم هى شاغله للإنسان عما يهمه من الحياه الاخرى الحقيقه الدائمه فهى لهو،و الحياه الآخره لكونها حقيقيه ثابته فهى خير و لا ينالها إلا المتقون فهى خير لهم (۱).

[سوره الأنعام (۶): الآيات ۳۳ الى ۳۶]

اشاره

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ اَلَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاٰ يُكَذِّبُونَكَ وَ لٰكِنَّ اَلظّٰالِمِينَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ يَجْحَدُونَ (۳۳) وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلىٰ مٰا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتّٰى أَتٰاهُمْ نَصْرُنٰا وَ لاٰ مُبَدِّلَ لِكَلِمٰاتِ اَللّٰهِ وَ لَقَدْ جٰاءَكَ مِنْ نَبَإِ اَلْمُرْسَلِينَ (۳۴) وَ إِنْ كٰانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرٰاضُهُمْ فَإِنِ اِسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي اَلْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي اَلسَّمٰاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى اَلْهُدىٰ فَلاٰ تَكُونَنَّ مِنَ اَلْجٰاهِلِينَ (۳۵) إِنَّمٰا يَسْتَجِيبُ اَلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ اَلْمَوْتىٰ يَبْعَثُهُمُ اَللّٰهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (۳۶)

۱- ۱) .الانعام ۲۱-۳۲:بحث روائى فى:العفو؛ابى طالب و دفاعه عن رسول اللّه.

بیان:

قوله تعالی: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُکَ الَّذِی يَقُولُونَ الی آخر الآيه؛ «قَدْ» حرف تحقيق فی الماضی،و تفيد فی المضارع التقليل و ربما استعملت فيه أيضا للتحقيق،و هو المراد فی الآيه،و حزنه كذا و أحزانه بمعنی واحد،و قد قرئ بكلا الوجهين.

و قوله: فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَکَ قرئ بالتشديد من باب التفعيل،و بالتخفيف، و الظاهر أن الفاء فی قوله: «فَإِنَّهُمْ» للتفريع و كأن المعنی قد نعلم إن قولهم ليحزنک لكن لا ينبغی أن يحزنک ذلک فإنه ليس يعود تكذيبهم إليک لأنک لا تدعو إلا إلينا،و ليس لک فيه إلا الرساله بل هم يظلمون بذلک آياتنا و يجحدونها.

فما فی هذه الآيه مع قوله فی آخر الآيات «ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» فی معنی قوله تعالی: وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْکَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (لقمان/ ۲۳)و قوله: فَلا يَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ إِنّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (يس/۷۶)و غير ذلک من

ص :۲۹۰

الآيات النازله فی تسلیته صلّی اللّه علیه و آله و سلم،هذا علی قراءه التشدید.

و أما علی قراءه التخفیف فالمعنی:لا تحزن فإنهم لا یظهرون علیک بإثبات کذبک فیما تدعو إلیه،و لا یبطلون حجتک بحجه و إنما یظلمون آیات اللّه بجحدها و إلیه مرجعهم.

و قوله: وَ لٰکِنَّ الظّٰالِمِینَ بِآیٰاتِ اللّٰهِ یَجْحَدُونَ کان ظاهر السیاق أن یقال:

و لکنهم،فالعدول الی الظاهر للدلاله علی أن الجحد منهم إنما هو عن ظلم منهم لا عن قصور و جهل و غیر ذلک فلیس إلا عتوا و بغیا و طغیانا و سیبعثهم اللّه ثم إلیه یرجعون.

و لذلک وقع الالتفات فی الکلام من التکلم الی الغیبه فقیل «بِآیٰاتِ اللّٰهِ» و لم یقل:بآیاتنا، للدلاله علی أن ذلک منهم معارضه مع مقام الالوهیه و استعلاء علیه و هو المقام الذی لا یقوم له شیء.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ کُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ فَصَبَرُوا عَلیٰ مٰا کُذِّبُوا الی آخر الآیه؛هدایه له صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی سبیل من تقدمه من الأنبیاء،و هو سبیل الصبر فی ذاته اللّه،و قد قال تعالی: أُولٰئِکَ الَّذِینَ هَدَی اللّٰهُ فَبِهُدٰاهُمُ اقْتَدِهْ (الأنعام۹۰/).

و قوله: حَتّٰی أَتٰاهُمْ نَصْرُنٰا بیان غایه حسنه لصبرهم،و إشاره الی الوعد الإلهی بالنصر،و فی قوله: وَ لاٰ مُبَدِّلَ لِکَلِمٰاتِ اللّٰهِ تأکید لما یشیر إلیه الکلام السابق من الوعد و حتم له،و إشاره الی ما ذکره بقوله کَتَبَ اللّٰهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِی (المجادله۲۱/)، و قوله: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ کَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا الْمُرْسَلِینَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (الصافات۱۷۲/).

و وقوع المبدل فی قوله: «لاٰ مُبَدِّلَ لِکَلِمٰاتِ اللّٰهِ)فی سیاق النفی ینفی أی مبدل مفروض سواء کان من ناحیته تعالی بأن یتبدل مشیته فی خصوص کلمه بأن یمحوها بعد إثباتها أو ینقضها بعد إبرامها أو کان من ناحیه غیره تعالی بأن یظهر علیه و یقهره علی خلاف ما شاء فیبدل ما أحکم و یغیره بوجه من الوجوه.

و من هنا یظهر أن هذه الکلمات التی أنبأ سبحانه عن کونها لا تقبل التبدیل أمور خارجه

عن لوح المحو و الإثبات،فكلمه اللّه و قوله و كذا وعده فی عرف القرآن هو القضاء الحتم الذی لا مطمع فی تغییره و تبدیله،قال تعالی: قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ (ص۸۴/)و قال تعالی:

وَ اللّٰهُ یَقُولُ الْحَقَّ (الأحزاب۴/)،و قال تعالی: أَلاٰ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ (یونس۵۵/) و قال تعالی: لاٰ یُخْلِفُ اللّٰهُ الْمِیعٰادَ (الزمر۲۰/)و قد مر البحث المستوفی فی معنی کلمات اللّه تعالی و ما یرادفها من الألفاظ فی عرف القرآن فی ذیل قوله تعالی: مِنْهُمْ مَنْ کَلَّمَ اللّٰهُ (البقره۲۵۳/).

و قوله فی ذیل الآیه: «وَ لَقَدْ جٰاءَکَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِینَ» تثبیت و استشهاد لقوله: «وَ لَقَدْ کُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ» الخ؛و یمکن أن یستفاد منه أن هذه السوره نزلت بعد بعض السور المکیه التی تقص قصص الأنبیاء کسوره الشعراء و مریم و أمثالهما،و هذه السور نزلت بعد أمثال سوره العلق و المدثر قطعا فتقع سوره الأنعام علی هذا فی الطبقه الثالثه من السوره النازله بمکه قبل الهجره،و اللّه أعلم.

قوله تعالی: وَ إِنْ کٰانَ کَبُرَ عَلَیْکَ إِعْرٰاضُهُمْ -الی قوله- فَتَأْتِیَهُمْ بِآیَهٍ قال الراغب:النفق الطریق النافذ و السرب فی الأرض النافذ فیه قال:فإن استطعت أن تبتغی نفقا فی الأرض،و منه نافقاء الیربوع،و قد نافق الیربوع و نفق،و منه النفاق و هو الدخول فی الشرع من باب و الخروج عنه من باب،و علی ذلک نبّه بقوله:إن المنافقین هم الفاسقون أی الخارجون من الشرع،و جعل اللّه المنافقین شرا من الکافرین فقال:إن المنافقین فی الدرک الأسفل من النار،و نیفق السراویل معروف،انتهی.

و قال:السلم ما یتوصل به الی الأمکنه العالیه فیرجی به السلامه ثم جعل اسما لکل ما یتوصل به الی شیء رفیع کالسبب،قال تعالی:أم لهم سلم یستعمون به،و قال:أو سلما فی السماء،و قال الشاعر:و لو نال أسباب السماء بسلم،انتهی.

و جواب الشرط فی الآیه محذوف للعلم به،و التقدیر کما قیل:و إن استطعت أن تبتغی کذا

و كذا فافعل.

و المراد بالآيه فى قوله تعالى: «فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ» الآيه التى تضطرهم الى الإيمان فإن الخطاب أعنى قوله: «وَ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ» الخ؛إنما ألقى الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من طريق القرآن الذى هو أفضل آيه إلهيه تدل على حقيّه دعوته،و يقرب إعجازه من فهمهم و هم بلغاء عقلاء فالمراد أنه لا ينبغى أن يكبر و يشق عليك إعراضهم فإن الدار دار الاختيار،و الدعوه الى الحق و قبولها جاريان على مجرى الاختيار،و إنك لا تقدر على الحصول على آيه توجب عليهم الإيمان و تلزمهم على ذلك فإن اللّه سبحانه لم يرد منهم الإيمان إلا على اختيار منهم فلم يخلق آيه تجبر الناس على الإيمان و الطاعه،و لو شاء اللّه لآمن الناس جميعا فالتحق هؤلاء الكافرون بالمؤمنين بك فلا تبتئس و لا تجزع بإعراضهم فتكون من الجاهلين بالمعارف الإلهيه.

و أما ما احتمله بعضهم:أن المراد:فتأتيهم بآيه هى أفضل من الآيه التى أرسلناك بها أى القرآن فلا تلائمه سياق الآيه و خاصه قوله: «وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى» فإنه ظاهر فى الاضطرار.

و من هنا يظهر أن المراد بالمشيه أن يشاء اللّه منهم الاهتداء الى الإيمان فيضطروا الى القبول فيبطل بذلك اختيارهم هذا ما يقتضيه ظاهر السياق من الآيه الشريفه.

لكنه سبحانه فيما يشابه الآيه من كلامه لم يبن عدم مشيته ذلك على لزوم الاضطرار كقوله تعالى: وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها،وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّاسِ أَجْمَعِينَ (السجده/١٣)يشير تعالى بذلك الى نحو قوله: قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص/٨٥)فبين تعالى أن عدم تحقق مشيته لهداهم جميعا إنما هو لقضائه ما قضى تجاه ما أقسم عليه إبليس أنه سيغويهم أجمعين إلا عباده منهم المخلصين.

و قد أسند القضاء في موضع آخر الى غوايتهم قال تعالى في قصه آدم و ابليس: قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر۴۳/)و قد نسب ذلك إليهم إبليس أيضا فيما حكى اللّه سبحانه من كلامه لهم يوم القيامه: وَ قَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ -الى أن قال- إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (إبراهيم۲۲/).

فالآيات تبين أن المعاصي و منها الشرك تنتهي الى غوايه الإنسان و الغوايه تنتهي الى نفس الإنسان،و لا ينافي ذلك ما يظهر من آيات أخر أن الإنسان ليس له أن يشاء إلا أن يشاء اللّه منه المشيه كقوله تعالى: إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً، وَ مَا تَشَاؤُنَ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللّهُ (الإنسان۳۰/)،و قال تعالى: إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ، وَ مَا تَشَاؤُنَ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (التكوير۲۹/).

قوله تعالى: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ الآيه؛كالبيان لقوله: «وَ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ» الى آخر الآيه؛فإن ملخصه انك لا تستطيع صرفهم عن هذا الإعراض،و الحصول على آيه تسوقهم الى الإيمان، فبين في هذه الآيه أنهم بمنزله الموتى لا شعور لهم و لا سمع حتى يشعروا بمعنى الدعوه الدينيه و يسمعوا دعوه الداعي و هو النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

فهذه الهياكل المتراءات من الناس صنفان:صنف منهم أحياء يسمعون،و إنما يستجيب الذين يسمعون،و صنف منهم أموات لا يسمعون و إن كانوا ظاهرا في صور الأحياء و هؤلاء يتوقف سمعهم الكلام على أن يبعثهم اللّه،و سوف يبعثهم فيسمعون ما لم يستطيعوا سمعه في الدنيا كما حكاه اللّه عنهم بقوله: وَ لَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَ سَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (السجده۱۲/).

[سوره الأنعام (۶): الآيات ۳۷ الی ۵۵]

اشاره

وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اَللّٰهَ قٰادِرٌ عَلىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۳۷) وَ مٰا مِنْ دَابَّةٍ فِي اَلْأَرْضِ وَ لاٰ طٰائِرٍ يَطِيرُ بِجَنٰاحَيْهِ إِلاّٰ أُمَمٌ أَمْثٰالُكُمْ مٰا فَرَّطْنٰا فِي اَلْكِتٰابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (۳۸) وَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي اَلظُّلُمٰاتِ مَنْ يَشَإِ اَللّٰهُ يُضْلِلْهُ وَ مَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۳۹) قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُ اَللّٰهِ أَوْ أَتَتْكُمُ اَلسّٰاعَةُ أَ غَيْرَ اَللّٰهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۴۰) بَلْ إِيّٰاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مٰا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شٰاءَ وَ تَنْسَوْنَ مٰا تُشْرِكُونَ (۴۱) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا إِلىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنٰاهُمْ بِالْبَأْسٰاءِ وَ اَلضَّرّٰاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (۴۲) فَلَوْ لاٰ إِذْ جٰاءَهُمْ بَأْسُنٰا تَضَرَّعُوا وَ لٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ اَلشَّيْطٰانُ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۴۳) فَلَمّٰا نَسُوا مٰا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ أَبْوٰابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتّٰى إِذٰا فَرِحُوا بِمٰا أُوتُوا أَخَذْنٰاهُمْ بَغْتَةً فَإِذٰا هُمْ مُبْلِسُونَ (۴۴) فَقُطِعَ دٰابِرُ اَلْقَوْمِ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا وَ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۴۵) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اَللّٰهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصٰارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اَللّٰهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ اُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ اَلْآيٰاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (۴۶) قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُ اَللّٰهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ اَلْقَوْمُ اَلظّٰالِمُونَ (۴۷) وَ مٰا نُرْسِلُ اَلْمُرْسَلِينَ إِلاّٰ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ (۴۸) وَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا يَمَسُّهُمُ اَلْعَذٰابُ بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ (۴۹) قُلْ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزٰائِنُ اَللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ اَلْغَيْبَ وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي اَلْأَعْمىٰ وَ اَلْبَصِيرُ أَ فَلاٰ تَتَفَكَّرُونَ (۵۰) وَ أَنْذِرْ بِهِ اَلَّذِينَ يَخٰافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لاٰ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۵۱) وَ لاٰ تَطْرُدِ اَلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاةِ وَ اَلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مٰا عَلَيْكَ مِنْ حِسٰابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مٰا مِنْ حِسٰابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ اَلظّٰالِمِينَ (۵۲) وَ كَذٰلِكَ فَتَنّٰا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَ هٰؤُلاٰءِ مَنَّ اَللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنٰا أَ لَيْسَ اَللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِالشّٰاكِرِينَ (۵۳) وَ إِذٰا جٰاءَكَ اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيٰاتِنٰا فَقُلْ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلىٰ نَفْسِهِ اَلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهٰالَةٍ ثُمَّ تٰابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵۴) وَ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ اَلْآيٰاتِ وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ اَلْمُجْرِمِينَ (۵۵)

بیان:

قوله تعـالی: وَ قالُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّٰهَ قادِرٌ الی آخر الآیه؛تحضـیض منهم علی تنزیل الآیه بـداعی تعجیز النبی صلّی اللّه علیه و آله و سـلم،و لما صـدر هـذا القول منهم و بین أیدیهم أفضل الآیات أعنی القرآن الکریم الذی کان ینزل علیهم سوره سوره و آیه آیه، و یتلی علیهم حینـا بعـد حین تعیّن أن الآیه التی کانوا یقترحونها بقولهم: «لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ» هی آیه غیر القرآن،و أنهم کانوا لا یعدّونه آیه تقنعهم و ترتضیه نفوسهم بما لها من المجاز و التهوسات.

و قد حملهم التعصب لآلهتهم أن ینقطعوا عن اللّه سبحانه کأنه لیس بربهم،فقالوا: «لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ» و لم یقولوا:من ربنا أو من اللّه و نحوهما إزراء بأمره و تأکیدا فی تعجیزه أی لو کان ما یدّعیه و یدعو إلیه حقا فلیغر له ربه الذی یدعو إلیه و لینصـره و لینزل علیه آیه تدل علی حقیّه دعواه.

و فی قوله تعالی: نُزِّلَ و«ینزّل»مشـددین من التفعیل دلاله علی أنهم اقترحوا آیه تـدریجیه أو آیات کثیره تنزّل واحـده بعد واحده کمـا یـدل علیه مـا حکی من اقتراحهم فی موضع آخر من کلامه تعـالی کقوله: وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّٰی تَفْجُرَ لَنٰا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً، أَوْ تَکُونَ لَکَ جَنَّهٌ -الی أن قال- أَوْ تَرْقیٰ فِی السَّمٰاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتّٰی تُنَزِّلَ عَلَیْنٰا کِتٰاباً نَقْرَؤُهُ الآیات(الإسراء۹۳/)،و قوله: وَ قٰالَ الَّذِینَ لاٰ یَرْجُونَ لِقٰاءَنٰا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْنَا الْمَلاٰئِکَهُ أَوْ نَریٰ رَبَّنٰا (الفرقان۲۱/)و قوله: وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَیْهِ الْقُرْآنُ

ص :۲۹۷

جُمْلَةً وٰاحِدَةً (الفرقان۳۲/).

و روی عن ابن کثیر أنه قرأ بالتخفیف.

قوله تعالی: وَ مٰا مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ طٰائِرٍ یَطِیرُ بِجَنٰاحَیْهِ إِلاّٰ أُمَمٌ أَمْثٰالُکُمْ الی آخر الآیه؛الـدابه کل حیوان یدب علی الأرض و قد کثر استعماله فی الفرس، و الدب بالفتح و الدبیب هو المشی الخفیف.

و الطـائر مـا یسبح فی الهواء بجنـاحیه،و جمعه الطیر کـالراکب و الرکب،و الامه هی الجمـاعه من النـاس یجمعهم مقصـد واحد یقصـدونه کـدین واحـد أو سنّه واحـده أو زمان واحد أو مکان واحد،و الأصل فی معناها،القصد یقال:أمّ یؤمّ اذا قصد،و الحشـر جمیع الناس بإزعاج الی الحرب أو جلاء و نحوه من الامور الاجتماعیه.

و الظـاهر أن توصـیف الطـائر بقوله: «یَطِیرُ بِجَنٰاحَیْهِ» محـاذاه لتوصـیف الـدابه بقوله: «فِی الْأَرْضِ» فهو بمنزله قولنـا:ما من حیوان أرضـی و لا هوائی،مع مـا فی هـذا التوصـیف من نفی شـبهه التجوّز فإن الطیران کثیرا ما یسـتعمل بمعنی سـرعه الحرکه کما أن الـدبیب هو الحرکه الخفیفه فکان من المحتمل أن یراد بالطیران حیث ذکر مع الـدبیب الحرکه السـریعه فـدفع ذلک بقوله: «یَطِیرُ بِجَنٰاحَیْهِ» (۱).

و قوله تعـالی: مٰا فَرَّطْنٰا فِی الْکِتٰابِ مِنْ شَیْءٍ جمله معترضه،و ظاهرها أن المفرّط فیه هو الکتاب،و لفظ «مِنْ شَیْءٍ» بیان للفرط الـذی یقع التفریط به،و المعنی لا یوجد شـیء تجب رعایه حاله و القیام بواجب حقه و بیان نعته فی الکتاب إلا و قد فعل من غیر تفریط،فالکتاب تام کامل.

و المراد بالکتاب إن کان هو اللوح المحفوظ الذی یسمّیه اللّه سبحانه فی موارد من کلامه

۱- ۱) .الانعام ۳۷-۵۵:کلام فی المجتمعات الحیوانیه.

كتابا مكتوبا فيه كل شيء مما كان و ما يكون و ما هو كائن،كان المعنى أن هذه النظامات الاممیه المماثله لنظام الانسانیه كان من الواجب فی عنایه اللّه سبحانه أن یبنی علیها خلقه الأنواع الحیوانیه فلا یعود خلقها عبثا و لا یذهب وجودها سدی،و لا تکون هذه الأنواع بمقدار ما لها من لیاقه القبول ممنوعه من موهبه الکمال.

فالآیه على هذا تفید بنحو الخصوص ما یفیده بنحو العموم،قوله تعالی: وَ مٰا كٰانَ عَطٰاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً (الإسراء۲۰/)،و قوله: مٰا مِنْ دَابَّهٍ إِلاّٰ هُوَ آخِذٌ بِنٰاصِیَتِهٰا إِنَّ رَبِّی عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (هود۵۲/).

و قوله تعالی: ثُمَّ إِلیٰ رَبِّهِمْ یُحْشَرُونَ بیان لعموم الحشر لهم و أن حیاتهم الموهوبه نوع حیاه تستتبع الحشر الی اللّه كما أن الحیاه الانسانیه کذلک،و لذلک أرجع الضمیر المستعمل فی اولی الشعور و العقل،فقال: «إِلیٰ رَبِّهِمْ یُحْشَرُونَ» إشاره الی أن أصل الملاک و هو الأمر الذی یدور علیه الرضا و السخط و الإثابه و المؤاخذه موجود فیهم.

و قد وقع فی الآیه التفات من الغیبه الی التکلم مع الغیر ثم الی الغیبه بالنسبه إلیه تعالی، و التدبر فیها یعطی أن الأصل فی السیاق الغیبه و إنما تحول السیاق فی قوله: «مٰا فَرَّطْنٰا فِی الْکِتٰابِ مِنْ شَیْءٍ» الی التکلم مع الغیر لکون المعترضه خطابا خاصا بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فلما فرغ منه رجع الی أصل السیاق.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا صُمٌّ وَ بُکْمٌ فِی الظُّلُمٰاتِ الی آخر الآیه؛ یرید تعالی أن المکذبین لآیاته محرمون من نعمه السمع و التکلم و البصر لکونهم فی ظلمات لا یعمل فیها البصر فهم لصممهم لا یقدرون علی أن یسمعوا الکلام الحق و أن یستجیبوا و لبکمهم لا یستطیعون أن یتکلموا بالقول الحق و یشهدوا بالتوحید و الرساله،و لإحاطه الظلمات بهم لا یسعهم أن یبصروا طریق الحق فیتخذوه طریقا.

و فی قوله تعالی: مَنْ یَشَأِ اللّٰهُ یُضْلِلْهُ الخ؛دلاله علی أن هذا الصمم و البکم

و الوقوع فی الظلمات إنما هی رجز وقع علیهم منه تعالی جزاء لتکذیبهم بآیات اللّه فإن اللّه سبحانه جعل إضلاله المنسوب إلیه من قبیل الجزاء،کما فی قوله: وَ مٰا یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِینَ (البقره۲۶/).

فتکذیب آیات اللّه غیر مسبب عن کونهم صما بکما فی الظلمات بل الأمر بالعکس و علی هذا فالمراد بالإضلال بحسب الانطباق علی المورد هو جعلهم صما بکما فی الظلمات و المراد بمن شاء اللّه ضلاله هم الذین کذبوا بآیاته.

و بالمقابله یظهر أن المراد بالجعل علی صراط مستقیم هو أن یعطیه سمعا یسمع به فیجیب داعی اللّه بلسانه و یتبصر بالحق ببصره،و أن هذا جزاء من لا یکذب بآیات اللّه سبحانه فمن یشإ اللّه یضلله و لا یشاء إلا إضلال من یستحقه و من یشأ یجعله علی صراط مستقیم و لا یشاء ذلک إلا لمن تعرّض لرحمته.

قوله تعالی: قُلْ أَ رَأَیْتَکُمْ إِنْ أَتٰاکُمْ عَذٰابُ اللّٰهِ أَوْ أَتَتْکُمُ السّٰاعَهُ الی آخر الآیتین؛لفظ «أَ رَأَیْتَکُمْ» بهمزه الاستفهام و صیغه المفرد المذکر الماضی من الرؤیه و ضمیر الجمع المخاطب،أخذه أهل الأدب بمعنی أخبرنی،قال الراغب فی المفردات:و یجری «أ رأیت»مجری أخبرنی فیدخل علیه الکاف و یترک التاء علی حالته فی التثنیه و الجمع و التأنیث،و یسلط التغییر علی الکاف دون التاء،قال تعالی: «أَ رَأَیْتَکَ هٰذَا الَّذِی قُلْ أَ رَأَیْتَکُمْ ، انتهی.

و فی الآیه تجدید احتجاج علی المشرکین،و إقامه حجه علی بطلان شرکهم من وجه،و هو أنها تفرض عذابا آتیا من جانب اللّه أو إتیان الساعه إلیهم ثم تفرض أنهم یدعون فی ذلک من یکشف العذاب عنهم علی ما هو المغروز فی فطره الانسان أنه یتوجه بالمسأله اذا بلغت به الشده نحو من یقدر أن یکشفها عنه.

ثم تسألهم أنه من الذی تدعونه و تتوجهون إلیه بالمسأله إن کنتم صادقین؟أغیر اللّه تدعون

من أصنامكم و أوثانكم التى سميتموها من عند أنفسكم آلهه أم إياه تدعون؟و هيهات أن تدعوا غيره و أنتم تشاهدون حينئذ أنها محكومه بالأحكام الكونيه مثلكم لا ينفعكم دعاؤها شيئا.

بل تنسون هؤلاء الشركاء المسمين آلهه لأن الانسان اذا أحاطت به البليه و هزهزته الهزاهز ينسى كل شىء دون نفسه إلا أن فى نفسه رجاء أن ترتفع عنه البليه،و الرافع الذى يرجو رفعها منه هو ربه،فتنسون شركاءكم و تدعون من يرفعها من دونهم و هو اللّه عز اسمه فيكشف اللّه سبحانه ما تدعون كشفه إن شاء أن يكشفه،و ليس هو تعالى بمحكوم على الاستجابه و لا مضطرا الى الكشف اذا دعى بل هو القادر على كل شىء فى كل حال.

فإذا كان اللّه سبحانه هو الرب القدير الذى لا ينساه الانسان و إن نسى كل شىء إلا نفسه و يضطر الى التوجه إليه ببعث من نفسه عند الشدائد القاصمه الحاطمه دون غيره من الشركاء المسمين آلهه فهو سبحانه هو رب الناس دونها.

فمعنى الآيه «قُلْ» يا محمد «أَ رَأَيْتَكُمْ» أخبرونى «إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السّاعَةُ» فرض إتيان عذاب من اللّه و لا ينكرونه،و فرض إتيان الساعه و لم يعبأ بإنكارهم لظهوره «أَ غَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ» لكشفه،و قد حكى اللّه فى كلامه عنهم سؤال كشف العذاب فى الدنيا و يوم القيامه جميعا لما أن ذلك من فطريات الانسان «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» و جئتم بالنصفه «بَلْ إِيّاهُ» اللّه سبحانه دون غيره من أصنامكم «تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ» من العذاب «إِنْ شاءَ» أن يكشفه كما كشف لقوم يونس،و ليس بمجبر و لا مضطرا الى القبول لقدرته الذاتيه «وَ تَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ» من الأصنام و الأوثان على ما فى غريزه الانسان أن يشتغل عند إحاطه البليه به عن كل«شىء بنفسه،و لا يهم إلا بنفسه لضيق المجال به أن يتلهى بما لا ينفعه، فاشتغاله و الحال هذه بدعاء اللّه سبحانه و نسيانه الأصنام أصرح حجه أنه تعالى هو اللّه لا إله غيره و لا معبود سواه.

ص :۳۰۱

و أما قوله تعالى: وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاّ فِی ضَلاَلٍ فهو دعاؤهم فی جهنم لكشف عذابها و تخفيفه عنهم،و من المعلوم أن الدعاء مع تحتم الحكم و فصل القضاء لا يتحقق بحقيقته فإن سؤال أن لا يبعث اللّه الخلق أو لا يعذب أهل جهنم فيها من اللّه سبحانه بمنزله أن يسأل اللّه سبحانه أن لا يكون هو اللّه سبحانه فإن من لوازم معنی الالوهيه أن يرجع إليه الخلق علی حسب أعمالهم،فلمثل هذه الأدعيه صوره الدعاء فقط دون حقيقه معناها،و أما لو تحقق الدعاء بحقيقته بأن يدعی حقيقه و يتعلق ذلک الدعاء باللّه حقيقه كما هو ظاهر قوله: «أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ» الآيه؛فإن ذلک لا يرد البته،و الدعاء علی هذا النعت لا يدع الكافر كافرا و لو حين الدعاء كما قال تعالی: فَإِذا رَكِبُوا فِی الْفُلْكِ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلَی الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (العنكبوت/۶۵).

فما فی قوله: «وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاّ فِی ضَلاَلٍ» دعاء منهم و هم علی الكفر فإن الثابت من ملكه الكفر لا يفارقهم فی دار الجزاء و إن كان من الجائز أن يفارقهم فی دار العمل بالتوبه و الإيمان.

فدعاؤهم لكشف العذاب عنهم يوم القيامه أو فی جهنم ككذبهم علی اللّه يوم القيامه بقولهم -كما حكی اللّه-و اللّه ربنا ما كنا مشركين،و لا ينفع اليوم كذب غير أنهم اعتادوا ذلک فی الدنيا و رسخت رذيلتهم فی نفوسهم فبرزت عنهم آثاره يوم تبلی السرائر،و نظير أكلهم و شربهم و خصامهم فی النار،و لا غنی لهم فی شیء من ذلک،كما قال تعالی: تُسْقیٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلاّ مِنْ ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِی مِنْ جُوعٍ (الغاشيه/۷)،و قال تعالی: ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (الواقعه/۵۵)،و قال تعالی: إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النّارِ (ص/۶۴)،فهذا كله من قبيل ظهور الملكات فيهم.

و ما قبل الآيه يؤيد ما ذكرناه من أن دعاءهم ليس علی حقيقته و هو قوله تعالی: وَ قالَ

الَّذِينَ فِی النّٰارِ لِخَزَنَهِ جَهَنَّمَ اُدْعُوا رَبَّکُمْ یُخَفِّفْ عَنّٰا یَوْماً مِنَ الْعَذٰابِ، قٰالُوا أَ وَ لَمْ تَکُ تَأْتِیکُمْ رُسُلُکُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ قٰالُوا بَلیٰ قٰالُوا فَادْعُوا وَ مٰا دُعٰاءُ الْکٰافِرِینَ إِلاّٰ فِی ضَلاٰلٍ (المؤمن ۵۰/)، فإن مسألتهم خزنه النار أن یدعوا اللّه لهم فی تخفیف العذاب ظاهر فی أنهم آیسون من استجابه دعائهم أنفسهم،و الدعاء مع الیأس عن الاستجابه لیس دعاء و مسأله حقیقیه اذ لا یتعلق الطلب بما لا یکون البته.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا إِلیٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِکَ فَأَخَذْنٰاهُمْ بِالْبَأْسٰاءِ وَ الضَّرّٰاءِ لَعَلَّهُمْ یَتَضَرَّعُونَ البأس و البأس و البؤس هو الشده و المکروه إلا أن البؤس یکثر استعماله فی الحرب و نحوه و البأس و البأساء فی غیره کالفقر و الجدب و القحط و نحوها،و الضر و الضراء هو سوء الحال فیما یرجع الی النفس کغم و جهل أو ما یرجع الی البدن کمرض و نقص بدنی أو ما یرجع الی غیرهما کسقوط جاه أو ذهاب مال،و لعل المقصود من الجمع بین البأساء و الضراء الدلاله علی تحقق الشدائد فی الخارج کالجدب و السیل و الزلزله،و ما یعود الی الناس من قبلها من سوء الحال کالخوف و الفقر و رثاثه الحال.

و الضراعه هی المذله و التضرع التذلل و المراد به التذلل الی اللّه سبحانه لکشف ما نزل علیهم من نوازل الشده و الرزیه.

و اللّه سبحانه یذکر لنبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی هذه الآیه و ما یتلوها الی تمام أربع آیات سنّته فی الامم التی من قبله اذ جاءتهم رسلهم بالبینات:أنه کان یرسل إلیهم الرسل فیذکّرونهم بتوحید اللّه سبحانه و التضرع و إخلاص الإنابه إلیه ثم یبتلیهم بأنواع الشده و المحن و یأخذهم بالبأساء و الضراء و لکن بمقدار لا یلجئهم الی التضرع و لا یضطرهم الی الابتهال و الاستکانه لعلهم یتضرعون إلیه بحسن اختیارهم،و یلین قلوبهم فیعرضوا عن التزیینات الشیطانیه و عن الإخلاد الی الأسباب الظاهریه لکنهم لم یتضرعوا إلیه بل أقسی الاشتغال بأعراض الدنیا قلوبهم و زین لهم الشیطان أعمالهم،و أنساهم ذلک ذکر اللّه.

فلما نسوا ذكر اللّه سبحانه فتح اللّه عليهم أبواب كل شیء و صب عليهم نعمه المتنوعه صبا حتى اذا فرحوا بما عندهم من النعم و اغتروا و استقلوا بأنفسهم من دون اللّه أخذهم اللّه بغته و من حيث لا يشعرون به فإذا هم آيسون من النجاه شاهدون سقوط ما عندهم من الأسباب فقطع دابر القوم الذين ظلموا و الحمد للّه رب العالمين.

و هذه السنه سنه الاستدراج و المكر الذى لخصها اللّه تعالى فى قوله: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (الأعراف١٨٣/).

و بالتأمل فيما تقدم من تقرير معنى الآيه و التدبر فى سياقها يظهر أن الآيه لا تنافى سائر الآيات الناطقه بأن الإنسان مفطور على التوحيد ملجأ باقتضاء من فطرته و جبلته الى الإقرار به و التوجه إليه عند الانقطاع عن الأسباب الكونيه كما قال تعالى: وَ إِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (لقمان٣٢/).

و ذلک ان الآيه لا تريد من البأساء و الضراء إلا ما لا يبلغ من الشده و المهابه مبلغا يذهلون به عن كل سبب و ينسون به كل وسيله عاديه،و من الدليل على ذلک قوله فى الآيه: «لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ» اذ«لعل»كلمه رجاء و لا رجاء مع الإلجاء و الاضطرار،و كذا قوله تعالى:

«وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» فإن ظاهره أنهم اغتروا بذلک و توسلوا فى رفع البأساء و الضراء الى أعمالهم التى عملوها بأيديهم و دبروها بتدابيرهم للغلبه على موانع الحياه و أضداد العيش فاشتغلوا بالأسباب الطبيعيه الملهيه إياهم عن التضرع الى اللّه سبحانه و الاعتصام به، كقوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ، فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (المؤمن٨٤/)، فالآيه الاولى-كما ترى-تحكى عنهم نظير ما تحكيه الآيه التى نحن فيها من الإعراض عن التضرع و الاغترار بالأعمال،و الآيه الثانيه تحكى ما تحكيه الآيات الاخرى من التوحيد فى

حال الاضطرار.

قوله تعالى: فَلَوْ لاٰ إِذْ جٰاءَهُمْ بَأْسُنٰا تَضَرَّعُوا وَ لٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ الخ؛ «لو لا»للتحضيض أو للنفى،و على أى حال تفيد فى المقام فائده النفى بدليل قوله: «وَ لٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ» و قسوه القلب مقابل لينه،و هو كون الإنسان لا يتأثر عن مشاهده ما يؤثر فيه عاده أو عن استماع كلام شأنه التأثير.

و المعنى:فلم يتضرعوا حين مجىء البأس و لم يرجعوا الى ربهم بالتذلل بل أبت نفوسهم أن تتأثر عنه،و تلهوا بأعمالهم الشيطانيه الصارفه لهم عن ذكر اللّه سبحانه،و أخلدوا الى الأسباب الظاهره التى كانوا يرون استقلالها فى إصلاح شأنهم.

قوله تعالى: فَلَمّٰا نَسُوا مٰا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ أَبْوٰابَ كُلِّ شَيْءٍ الخ؛ المراد بفتح أبواب كل شىء إيتاؤهم من كل نعمه من النعم الدنيويه التى يتنافس فيها الناس للتمتع من مزايا الحياه من المال و البنين و صحه الأبدان و الرفاهيه و الخصب و الأمن و الطول و القوه،كل ذلك توفيرا من غير تقتير و منع كما أن خزانه المال اذا أعطى منها أحد بقدر و ميزان فتح بابها فاعطى ما أريد ثم سد،و أما اذا أريد الإعطاء من غير تقدير فتح بابها و لم يسد على وجه قاصده بالجمله كنايه عن إيتائهم أنواع النعم من غير تقدير على ما يساعده المقام.

على أن فتح الباب إنما يناسب بحسب الطبع الحسنات و النعم و أما السيئات و النقم فإنما تتحقق بالمنع و يناسبها سد الباب كما يلمح إليه قوله تعالى: مٰا يَفْتَحِ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاٰ مُمْسِكَ لَهٰا وَ مٰا يُمْسِكْ فَلاٰ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ (فاطر/٢).

و مبلسون من أبلس إبلاسا،قال الراغب:الإبلاس الحزن المعترض من شده اليأس-الى أن قال-و لما كان المبلس كثيرا ما يلزم السكوت و ينسى ما يعنيه،قيل:أبلس فلان اذا سكت و اذا انقطعت حجته،انتهى.و على هذا المعنى المناسب لقوله: «فَإِذٰا هُمْ مُبْلِسُونَ» أى خامدون منقطعون الحجه.

و معنى الآیه أنهم لما نسوا ما ذکروا به أو أعرضوا عنه آتیناهم من کل نعمه استدراجا حتى اذا تمت لهم النعم و فرحوا بما اوتوا منها أخذناهم فجأه فانخمدت أنفاسهم و لا حجه لهم لاستحقاقهم ذلک.

قوله تعالى: فَقُطِعَ دٰابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ دبر الشیء مقابل قبله و هما الجزءان:المقدم و المؤخر من الشیء و لذا یکنى بهما عن العضوین المخصوصین،و ربما توسع فیهما فاطلقا على ما یلی الجزء المقدم أو المؤخر فینفصلان عن الشیء،و قد اشتق منهما الأفعال بحسب المناسبه نحو أقبل و أدبر و قبّل و دبر و تقبل و تدبر و استقبل و استدبر،و من ذلک اشتقاق دابر بمعنى ما یقع خلف الشیء و یلیه من ورائه،و یقال:

أمس الدابر أی الواقع خلف الیوم کما یقال:عام قابل،و یطلق الدابر بهذا المعنى على أثر الشیء کدابر الإنسان على أخلافه و سائر آثاره،فقوله: «فَقُطِعَ دٰابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا» أی أن الهلاک استوعبهم فلم یبق منهم عینا و لا أثرا أو أبادهم جمیعا فلم یخلص منهم أحد کما قال تعالى: فَهَلْ تَرىٰ لَهُمْ مِنْ بٰاقِيَةٍ (الحاقه/۸).

و وضع الظاهر موضع المضمر فی قوله: «دٰابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا» دون أن یقال:دابرهم للدلاله على سبب الحکم و هو الظلم الذی أفنى جمعهم و قطع دابرهم،و هو مع ذلک یمهد السبیل الى إیراد قوله: «وَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ» .

و من هذه الآیه بما تشتمل على وصفهم بالظلم و على حمده تعالى بربوبیته تتحصل الدلاله على أن اللوم و السوء فی جمیع ما حل بهم من عذاب الاستئصال یرجع إلیهم لأنهم القوم الذین ظلموا،و أنه لا یعود إلیه تعالى إلا الثناء الجمیل لأنه لم یأت فی تدبیر أمرهم إلا بما تقتضیه الحکمه البالغه،و لم یسقهم فی سبیل ما انتهوا إلیه إلا الى ما ارتضوه بسوء اختیارهم فقد تحقق أن الخزی و السوء على الکافرین،و أن الحمد للّه رب العالمین.

قوله تعالى: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّٰهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصٰارَكُمْ الى آخر الآیه؛أخذ

السمع و الأبصار هو سلب قوّتى السمع و الإبصار و هو الإصمام و الإعماء.و الختم على القلوب إغلاق بابها إغلاقا لا يدخلها معه شىء من خارج حتى تتفكر فى أمرها،و تميز الواجب من الأعمال من غير:و الخير النافع منها من الشر الضار مع حفظ أصل الخاصيه و هو صلاحيه التعقل و إلا كان جنونا و خبلا.

و إذا كان هؤلاء المشركون لا يسمعون حق القول فى اللّه سبحانه و لا يبصرون آياته الداله على أنه واحد لا شريك له فصارت قلوبهم لا يدخلها شىء من واردات السمع و البصر حتى تعرف بذلك الحق من الباطل أقام الحجه بذلك على إبطال مذهبهم فى أمر الإله تعالى و وحدته.

و ملخصها أن القول بثبوت شركاء للّه يستلزم القول ببطلانه و ذلك أن القول بالشركاء لإثبات الشفاعه،و هى أن تشفع و تتوسط فى جلب المنافع و دفع المضار،و اذ كانت الشركاء شفعاء على الفرض كان للّه سبحانه أن يفعل فى ملكه ما يشاء من غير مصادفه مانع يمانعه أو ضد يضاده فلو سلب اللّه عنكم سمعكم و أبصاركم و ختم على قلوبكم فعل ذلك و لم يعارضه أحد من شركائكم لأنها شفعاء متوسطه لا أضداد معارضه،و لو فعل ذلك و سلب ما سلب لم يقدر أحد منها أن يأتيكم به لأنها شفعاء وسائط لا مصادر للخلق و الإيجاد.

و اذا لم يقدر على إيتاء نفع أو إذهاب ضر فما معنى الوهيتها فليس الإله إلا من يوجد و يعدم و يتصرف فى الكون كيف شاء،و إنما اضطرت الفطره الانسانيه الى الإقرار بأن للعالم إلها من جهه الحصول على مبدأ حوادث الخير و الشر التى تشاهدها فى الوجود،و إذا كان شىء لا يضر و لا ينفع فى جنب الحوادث شيئا فليس تسميته إلها إلا لغوا من القول.

و قوله: أُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ تصريف الآيات تحويلها الى نحو أفهامهم،و الصدوف الإعراض،يقال:صدف يصدف صدوفا اذا مال عن الشىء.

قوله تعـالی: قُـلْ أَ رَأَيْتَكَمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَـذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً الی آخر الآـيه؛ الجهره الظهور التـام الـذی لا يقبل الارتياب و لـذا قابلت البغته التی هی إتيان الشیء فجأه لا يظهر علی من أتاه إلا بعد إتيانه و غشيانه فلا يترک له مجال التحذر.

و هـذه حجه بيّن فيها علی وجه العموم أن الظالمين علی خطر من عذاب اللّه عذابا لا يتخطاهم،و لا يغلط فی إصابتهم بإصابه من سواهم،ثم بيّن أنهم هم الظالمون لفسقهم عن الدعوه الإلهيه و تكذيبهم بآيات اللّه تعالی.

و ذلـک أن معنی العـذاب ليس إلاـ إصـابه المجرم بما يسوؤه و يـدمّره من جزاء إجرامه و لا إجرام إلا مع ظلم،فلو أتاهم من قبل اللّه سبحانه عذاب لم يهلک به إلا الظالمون،فهذا ما يدل عليه الآيه ثم بيّن الآيتين التاليتين أنهم هم الظالمون.

قوله تعالی: وَ مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَـلِينَ إِلاّ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْـذِرِينَ الی آخر الآيتين؛ يبين بالآيتين أنهم هم الظالمون،و لا يهلک بعـذاب اللّه إن أتاهم إلا هم لظلمهم.

و لـذا غيّر سـياق الكلاـم فوجّه وجه البيـان الی النبی صـلّی اللّه عليه و آله و سـلم ليكون هو المخبر عن شـأن عـذابه فيكون أقطع للعذر و جیء بلفظ المتكلم ليدل به علی صدوره من ساحه العظمه و الكبرياء.

فكان ملخص المضـمون أمره تعالی نبيه صـلّی اللّه عليه و آله و سـلم أن يقيم عليهم الحجه أن لو أتاهم عـذاب اللّه لم يهلک إلا الضالمين منهم ثم يقول تعالی لرسوله:إنا نحن الملقين إليک الحجه الآتين بالعـذاب نخبرک أن إرسالنا الرسل إنما هو للتبشـير و الإنـذار فمن آمن و أصـلح فلا عليه،و من كذب بآياتنا فهو الذی يمسه عذابنا لفسـقه و خروجه عن طور العبوديه فلينظروا فی أمر أنفسهم من أی الفريقين هم؟.

و قد تقدم فی المباحث السابقه استيفاء البحث عن معنی الإيمان و الإصلاح و الفسق و معنی نفی الخوف و الحزن عن المؤمنين.

و قوله تعالی: قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِی خَزَائِنُ اللّهِ وَ لاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لاَ

أَقُولُ لَكَمْ إِنِّى مَلَكٌ لعل المراد بخزائن اللّه ما ذكره بقوله تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَهِ رَبِّى إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَهَ الْإِنْفاقِ (الإسراء۱۰۰/)و خزائن الرحمه هذه هى ما يكشف عن أثره،قوله تعالى: ما يَفْتَحِ اللّٰهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَهٍ فَلا مُمْسِكَ لَها الآيه(فاطر/ ۲)؛و هى فائضه الوجود التى تفيض من عنده تعالى على الأشياء من وجودها و آثار وجودها،و قد بيّن قوله تعالى: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس۸۲/) أن مصدر هذا الأثر الفائض هو قوله،و هو كلمه«كن»الصادره عن مقام العظمه و الكبرياء، و هذا هو الذى يخبر عنه بلفظ آخر فى قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر۲۱/).

فالمراد بخزائن اللّه هو المقام الذى يعطى بالصدور عنه ما أريد من شيء من غير أن يفند بإعطاء وجود أو يعجزه بذل و سماحه،و هذا مما يختص باللّه سبحانه،و أما غيره كائنا ما كان و من كان فهو محدود و ما عنده مقدّر اذا بذل منه شيئا نقص بمقدار ما بذل،و ما هذا شأنه لم يقدر على إغناء أى فقير،و إرضاء أى طالب،و إجابه أى سؤال.

و أما قوله: وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَيْبَ فإنما أريد بالعلم الاستقلال به من غير تعليم بوحى و ذلك أنه تعالى يثبت الوحى فى ذيل الآيه بقوله: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّ ما يُوحىٰ إِلَيَّ» ،و قد بيّن فى مواضع من كلامه أن بعض ما يوحيه لرسله من الغيب،كقوله تعالى: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّ مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ (الجن۲۶/)،و كقوله بعد سرد قصه يوسف:

ذٰلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (يوسف۱۰۲/)،و قوله فى قصه مريم: ذٰلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (آل عمران۴۴/)،و قوله بعد قصه نوح: تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لاٰ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذا (هود۴۹/).

فالمراد بنفى علم الغيب نفى أن يكون مجهزا فى وجوده بحسب الطبع بما لا يخفى عليه معه ما لا سبيل للإنسان بحسب العاده الى العلم به من خفيات الامور كائنه ما كانت.

و أما قوله: وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ فهو كنايه عن نفى آثار الملكيه من أنهم منزهون عن حوائج الحياه الماديه من أكل و شرب و نكاح و ما يلحق بذلك،و قد عبّر عنه فى مواضع اخرى بقوله: قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ (الكهف/١١٠)،و إنما عبّر عن ذلك هاهنا بنفى الملكيه دون إثبات البشريه ليحاذى به ما كانوا يقترحونه عليه عليه السّلام بمثل قولهم:

مٰا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعٰامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوٰاقِ (الفرقان/٧).

فمعنى قوله: «قُلْ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ» الخ؛قل:لم أدّع فيما أدعوكم إليه و أبلّغكمو أمرا وراء ما أنا عليه من متعارف حال الإنسان حتى تبكّتونى بإلزامى بما تقترحونه منى فلم أدّع أنى أملك خزائن الالوهيه حتى تقترحوا أن أفجّر أنهارا أو أخلق جنه أو بيتا من زخرف،و لا ادعيت أنى أعلم الغيب حتى أجيبكم عن كل ما هو مستور تحت أستار الغيوب كقيام الساعه و لا ادعيت أنى ملك حتى تعيبونى و تبطلوا قولى بأكل الطعام و المشى فى الاسواق للكسب.

قوله تعالى: إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ بيان لما يدعيه حقيقه بعد رد ما اتهموه به من الدعوى من جهه دعواه الرساله من اللّه إليهم أى ليس معنى قولى:إنى رسول اللّه إليكم أن عندى خزائن اللّه و لا أنى أعلم الغيب و لا أنى ملك بل أن اللّه يوحى الى بما يوحى.

و لم يثبته فى صوره الدعوى بل قال «إِنْ أَتَّبِعُ» الخ؛ليدل على كونه مأمورا بتبليغ ما يوحى إليه ليس له الا اتباع ذلك فكأنه لما قال:لا أقول لكم كذا و لا كذا و لا كذا قيل له:فإذا كان كذلك و كنت بشرا مثلنا و عاجزا كأحدنا لم تكن لك مزيه علينا فما ذا تريد منا؟فقال:إن أتبع إلا ما يوحى إلى أن أبشركم و انذركم فأدعوكم إلى دين التوحيد.

قوله تعالى: وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخٰافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلىٰ رَبِّهِمْ الى آخر الآيه؛ الضمير فى«به»راجع الى القرآن و قد دل عليه قوله فى الآيه السابقه: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ

إِلَيَّ» و قوله: «لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لاٰ شَفِيعٌ» حال و العامل فيه يخافون أو يحشرون.

و المراد بالخوف معناه المعروف دون العلم و ما فى معناه اذ لا دليل عليه بحسب ظاهر المعنى المتبادر من السياق،و الأمر بإنذار خصوص الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم لا ينافى عموم الإنذار لهم و لغيرهم كما يدل عليه قوله فى الآيات السابقه: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ (آيه۱۹/)بل لما كان خوف الحشر الى اللّه معينا لنفوسهم على القبول و مقرّبا للدعوه الى أفهامهم أفاد تخصيص الأمر بالإنذار بهم و وصفهم هذا الوصف تأكيدا لدعوتهم و تحريضا له أن لا يسامح فى أمرهم و لا يضعهم موضع غيرهم بل يخصهم بمزيد عنايه بدعوتهم لأن موقفهم أقرب من الحق و إيمانهم أرجى فالآيه بضميمه سائر آيات الأمر بالإنذار العام تفيد من المعنى:أن أنذر الناس عامه و لا سيما الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم.

و قوله: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لاٰ شَفِيعٌ نفى مطلق لولايه غير اللّه و شفاعته فيقيده الآيات الأخر المقيده كقوله: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ (البقره۲۵۵/) و قوله: وَ لاٰ يَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ارْتَضىٰ (الأنبياء۲۸/)و قوله: وَ لاٰ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفٰاعَةَ إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف۸۶/).

و إنما لم يستثن فى الآيه لأن الكلام يواجه به الوثنيون الذين كانوا يقولون بولايه الأوثان و شفاعتها،و لم يكونوا يقولون بذلك بالإذن و الجعل فإن الولايه و الشفاعه عن اذن يحتاج القول به الى العلم به،و العلم الى الوحى و النبوه،و هم لم يكونوا قائلين بالنبوه،و أما الذى أثبتوه من الولايه و الشفاعه فكأنه أمر متهيئ لأوليائهم و شركائهم بالضروره من طبعها لا بإذن من اللّه كأن أقوياء الوجود من الخليقه لها نوع من التصرف فى ضعفائه بالطبع و إن لم يأذن به اللّه سبحانه،و إن شئت قلت:لازمه أن يكون إيجادها إذنا اضطراريا فى التصرف فى ما دونها.

و بالجمله قیل«ما لهم من دونه ولی و لا شفیع»و لم یقل:إلا بإذنه لأن المشرکین إنما قالوا إن الأوثان أولیاء و شفعاء من غیر تقیید فنفی ما ذکروه من الولی و الشفیع من دون اللّه محاذاه بالنفی لإثباتهم،و أما الاستثناء فهو و إن کان صحیحا کما وقع فی مواضع من کلامه تعالی لکن لا یتعلق به غرض هاهنا.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَطْرُدِ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاهِ وَ الْعَشِیِّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ الی آخر الآیه؛ظاهر السیاق علی ما یؤیده ما فی الآیه التالیه: «وَ کَذٰلِکَ فَتَنّٰا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ» الخ؛أن المشرکین من قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلم اقترحوا علیه أن یطرد عن نفسه الضعفاء المؤمنین به فنهاه اللّه تعالی فی هذه الآیه عن ذلک.

و ذلک منهم نظیر ما اقترحه المستکبرون من سائر الامم من رسلهم أن یطردوا عن أنفسهم الضعفاء و الفقراء من المؤمنین استکبارا و تعززا،و قد حکی اللّه تعالی ذلک عن قوم نوح فیما حکاه من محاجّته علیه السّلام حجاجا یشبه ما فی هذه الآیات من الحجاج قال تعالی: فَقٰالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مٰا نَرٰاکَ إِلاّٰ بَشَراً مِثْلَنٰا وَ مٰا نَرٰاکَ اتَّبَعَکَ إِلاَّ الَّذِینَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِیَ الرَّأْیِ وَ مٰا نَریٰ لَکُمْ عَلَیْنٰا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّکُمْ کٰاذِبِینَ. قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ آتٰانِی رَحْمَهً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّیَتْ عَلَیْکُمْ أَ نُلْزِمُکُمُوهٰا وَ أَنْتُمْ لَهٰا کٰارِهُونَ -الی أن قال- وَ مٰا أَنَا بِطٰارِدِ الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ -الی أن قال- وَ لاٰ أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَیْبَ وَ لاٰ أَقُولُ إِنِّی مَلَکٌ وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِینَ تَزْدَرِی أَعْیُنُکُمْ لَنْ یُؤْتِیَهُمُ اللّٰهُ خَیْراً اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا فِی أَنْفُسِهِمْ إِنِّی إِذاً لَمِنَ الظّٰالِمِینَ (هود۳۱/).

و التطبیق بین هذه الآیات و الآیات التی نحن فیها یقضی أن یکون المراد بالذین یدعون ربهم بالغداه و العشیّ و یریدون وجهه هم المؤمنین،و إنما ذکر دعائهم بالغداه و العشی و هو صلاتهم أو مطلق دعائهم ربهم للدلاله علی ارتباطهم بربهم بما لا یداخله غیره تعالی و لیوضح ما سیذکره من قوله: «أَ لَیْسَ اللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِالشّٰاکِرِینَ» .

و قوله: يُرِيدُونَ وَجْهَهُ أى وجه اللّه،قال الراغب فى مفرداته:أصل الوجه الجارحه قال:فاغسلوا وجوهكم و أيديكم،و تغشى وجوههم النار،و لما كان الوجه أول ما يستقبلك و أشرف ما فى ظاهر البدن استعمل فى مستقبل كل شىء و فى أشرفه و مبدئه فقيل:

وجه كذا و وجه النهار،و ربما عبّر عن الذات بالوجه فى قول اللّه:و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام،قيل:ذاته،و قيل:أراد بالوجه هاهنا التوجه الى اللّه بالأعمال الصالحه.

و قال:فأينما تولوا فثم وجه اللّه،كل شىء هالك إلا وجهه،يريدون وجه اللّه،إنما نطعمكم لوجه اللّه،قيل:إن الوجه فى كل هذا ذاته و يعنى بذلك كل شىء هالك إلا هو و كذا فى أخواته، و روى أنه قيل ذلک لأبى عبد اللّه بن الرضا فقال:سبحان اللّه لقد قالوا قولا عظيما إنما عنى الوجه الذى يؤتى منه و معناه:كل شىء من أعمال العباد هالك و باطل إلا ما أريد به اللّه،و على هذا الآيات الأخر،و على هذا قوله:يريدون وجهه،يريدون وجه اللّه،انتهى (1).

و قوله: فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظّالِمِينَ الدخول فى جماعه الظالمين متفرع على طردهم أى طرد الذين يدعون ربهم فنظم الكلام بحسب طبعه يقتضى أن يفرّع قوله: «فَتَكُونَ مِنَ الظّالِمِينَ» ،على قوله فى أول الآيه: «وَ لاٰ تَطْرُدِ الَّذِينَ» الخ؛إلا أن الكلام لما طال بتخلل جمل بين المتفرع و المتفرع عليه أعيد لفظ الطرد ثانيا فى صوره الفرع ليتفرع عليه قوله:

«فَتَكُونَ مِنَ الظّالِمِينَ» بنحو الاتصال و يرتفع اللبس.

فلا يرد عليه أن الكلام مشتمل على تفريع الشىء على نفسه فإن ملخصه:و لا تطرد الذين يدعون ربهم فتطردهم،و ذلک أن إعاده الطرد ثانيا لإيصال الفرع أعنى قوله: «فَتَكُونَ مِنَ الظّالِمِينَ» ،الى أصله كما عرفت.

قوله تعالى: وَ كَذٰلِکَ فَتَنّٰا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا الى آخر الآيه؛الفتنه هى

1- 1) .الانعام ٣٧-٥٥:كلام فى معنى وجه اللّه.

الامتحان،و السیاق یدل علی أن الاستفهام فی قوله: «أَ هٰؤُلاٰءِ مَنَّ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ مِنْ بَیْنِنٰا» للتهکم و الاستهزاء،و معلوم أنهم لا یسخرون إلا ممن یستحقرون أمره و یستهینون موقعه من المجتمع، و لم یکن ذلک إلا لفقرهم و مسکنتهم و انحطاط قدرهم عند الأقویاء و الکبریاء منهم.

فاللّه سبحانه یخبر نبیه أن هذا التفاوت و الاختلاف إنما هو محنه إلهیه یمتحن بها الناس لیمیز به الکافرین من الشاکرین،فیقول أهل الکفران و الاستکبار فی الفقراء المؤمنین:أ هؤلاء الذین منّ اللّه علیهم من بیننا فإن السنن الاجتماعیه عند الناس توصف بما عند المستن بها من الشرافه و الخسه،و کذا العمل یوزن بما لعامله من الوزن الاجتماعی فالطریقه المسلوکه عند الفقراء و الأذلّاء و العبید یستذلها الأغنیاء و الأعزه،و العمل الذی أتی به مسکین أو الکلام الذی تکلم به عبد أو أسیر مستذلا لا یعتنی به أولو الطول و القوه.

فانتحال الفقراء و الاجراء و العبید بالدین،و اعتناء النبی بهم و تقریبه إیاهم من نفسه کالدلیل عند الطغاه المستکبرین من أهل الاجتماع علی هو ان أمر الدین و أنه دون أن یلتفت إلیه من یعتنی بأمره من الشرفاء و الأعزه.

و قوله تعالی: أَ لَیْسَ اللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِالشّٰاکِرِینَ جواب عن استهزائهم المبنی علی الاستبعاد،بقولهم:«أ هؤلاء الذین منّ اللّه علیهم من بیننا»و محصله أن هؤلاء شاکرون للّه دونهم و لذلک قدّم هؤلاء لمنّه و أخرهم فکنی سبحانه عن ذلک بأن اللّه أعلم بالشاکرین لنعمته أی إنهم شاکرون،و من المسلم أن المنعم إنما یمنّ و ینعم علی من یشکر نعمته و قد سمی اللّه تعالی توحیده و نفی الشریک عنه شکرا فی قوله حکایه یوسف علیه السلام: مٰا کٰانَ لَنٰا أَنْ نُشْرِکَ بِاللّٰهِ مِنْ شَیْءٍ ذٰلِکَ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ عَلَیْنٰا وَ عَلَی النّٰاسِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَشْکُرُونَ (یوسف۳۸/).

فالآیه تبین أنهم بجهالتهم یبنون الکرامه و العزه علی التقدم فی زخارف الدنیا من مال و بنین و جاه،و لا قدر لها عند اللّه و لا کرامه،و إنما الأمر یدور مدار صفه الشکر و النعمه

بالحقيقه هى الولايه الإلهيه.

قوله تعالى: وَ إِذٰا جٰاءَكَ اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيٰاتِنٰا فَقُلْ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ الى آخر الآيه،قد تقدم معنى السلام،و المراد بكتابته الرحمه على نفسه إيجابها على نفسه أى استحاله انفكاك فعله عن كونه معنونا بعنوان الرحمه،و الإصلاح هو التلبس بالصلاح فهو لازم و إن كان بحسب الحقيقه متعديا و أصله إصلاح النفس أو إصلاح العمل.

قوله تعالى: وَ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيٰاتِ وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ تفصيل الآيات بقرينه المقام شرح المعارف الإلهيه و تخليصها من الإبهام و الاندماج،و قوله:

«وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» اللام فيه للغايه،و هو معطوف على مقدّر طوى عن ذكره تعظيما و تفخيما لأمره و هو شائع فى كلامه تعالى كقوله: وَ تِلْكَ الْأَيّٰامُ نُدٰاوِلُهٰا بَيْنَ النّٰاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا (آل عمران/۱۴۰)،و قوله: وَ كَذٰلِكَ نُرِي إِبْرٰاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الآيه/۷۵).

فالمعنى:و كذلك نشرح و نميز المعارف الإلهيه بعضها من بعض و نزيل ما يطرأ عليها من الإبهام لأغراض هامه منها أن تستبين سبيل المجرمين فيتجنبها الذين يؤمنون بآياتنا،و على هذا فالمراد بسبيل المجرمين السبيل التى يسلكها المجرمون قبال الآيات الناطقه بتوحيد اللّه سبحانه و المعارف الحقه التى تتعلق به و هى سبيل الجحود و العناد و الإعراض عن الآيات و كفران النعمه (۱).

[سوره الأنعام (۶): الآيات ۵۶ الى ۷۳]

اشاره

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ اَلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ قُلْ لاٰ أَتَّبِعُ أَهْوٰاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ مٰا أَنَا مِنَ اَلْمُهْتَدِينَ (۵۶) قُلْ إِنِّي عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ مٰا عِنْدِي مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ اَلْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ يَقُصُّ اَلْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ اَلْفٰاصِلِينَ (۵۷) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ اَلْأَمْرُ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِالظّٰالِمِينَ (۵۸) وَ عِنْدَهُ مَفٰاتِحُ اَلْغَيْبِ لاٰ يَعْلَمُهٰا إِلاّٰ هُوَ وَ يَعْلَمُ مٰا فِي اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ وَ مٰا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاّٰ يَعْلَمُهٰا وَ لاٰ حَبَّةٍ فِي ظُلُمٰاتِ اَلْأَرْضِ وَ لاٰ رَطْبٍ وَ لاٰ يٰابِسٍ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ (۵۹) وَ هُوَ اَلَّذِي يَتَوَفّٰاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مٰا جَرَحْتُمْ بِالنَّهٰارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۶۰) وَ هُوَ اَلْقٰاهِرُ فَوْقَ عِبٰادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَكُمُ اَلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا وَ هُمْ لاٰ يُفَرِّطُونَ (۶۱) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اَللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ اَلْحَقِّ أَلاٰ لَهُ اَلْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ اَلْحٰاسِبِينَ (۶۲) قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمٰاتِ اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً لَئِنْ أَنْجٰانٰا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلشّٰاكِرِينَ (۶۳) قُلِ اَللّٰهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهٰا وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۶۴) قُلْ هُوَ اَلْقٰادِرُ عَلىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذٰاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ اُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ اَلْآيٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (۶۵) وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ اَلْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۶۶) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۶۷) وَ إِذٰا رَأَيْتَ اَلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيٰاتِنٰا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتّٰى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمّٰا يُنْسِيَنَّكَ اَلشَّيْطٰانُ فَلاٰ تَقْعُدْ بَعْدَ اَلذِّكْرىٰ مَعَ اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ (۶۸) وَ مٰا عَلَى اَلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسٰابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لٰكِنْ ذِكْرىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۶۹) وَ ذَرِ اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ اَلْحَيٰاةُ

اَلدُّنْيٰا وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمٰا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهٰا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَلِيٌّ وَ لاٰ شَفِيعٌ وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاٰ يُؤْخَذْ مِنْهٰا أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمٰا كَسَبُوا لَهُمْ شَرٰابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذٰابٌ أَلِيمٌ بِمٰا كٰانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُنٰا وَ لاٰ يَضُرُّنٰا وَ نُرَدُّ عَلىٰ أَعْقٰابِنٰا بَعْدَ إِذْ هَدٰانَا اَللّٰهُ كَالَّذِي اِسْتَهْوَتْهُ اَلشَّيٰاطِينُ فِي اَلْأَرْضِ حَيْرٰانَ لَهُ أَصْحٰابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى اَلْهُدَى اِئْتِنٰا قُلْ إِنَّ هُدَى اَللّٰهِ هُوَ اَلْهُدىٰ وَ أُمِرْنٰا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (٧١) وَ أَنْ أَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ اِتَّقُوهُ وَ هُوَ اَلَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَ هُوَ اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ اَلْحَقُّ وَ لَهُ اَلْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي اَلصُّورِ عٰالِمُ اَلْغَيْبِ وَ اَلشَّهٰادَةِ وَ هُوَ اَلْحَكِيمُ اَلْخَبِيرُ (٧٣)

---

١ - ١) .الانعام ٣٧-٥٥:بحث روائی فی القدر؛القدریه؛اقتراح قریش علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی طرد العبید و الفقراء.

بیان:

قوله تعالی: قُلْ إِنِّی نُهِیتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ الی آخر الآیه؛أمر بأن خبرهم بورود النهی علیه عن عباده شرکائهم هو نهی عن عبادتهم بنوع من الکنایه ثم أشار الی ملاک النهی عنها بقوله: «قُلْ لاٰ أَتَّبِعُ أَهْوٰاءَکُمْ» و هو أن عبادتهم اتباع للهوی و قد نهی عنه ثم أشار بقول: «قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِینَ» الی سبب الاستنکاف عن اتباع الهوی و هو الضلال و الخروج عن جماعه المهتدین و هم الذین اتصفوا بصفه قبول هدایه اللّه سبحانه،و عرفوا بذلک،فاتباع الهوی ینافی استقرار صفه الاهتداء فی نفس الإنسان،و یمانع إشراق نور التوحید علی قلبه إشراقا ثابتا ینتفع به.

و قد تلخص بذلک کله بیان تام معلل للنهی أو الانتهاء عن عباده أصنامهم،و هو أن فی عبادتها اتباعا للهوی،و فی اتباع الهوی الضلال و الخروج عن صف المهتدین بالهدایه الإلهیه.

قوله تعالی: قُلْ إِنِّی عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ کَذَّبْتُمْ بِهِ الی آخر الآیه؛البینه هو الدلاله الواضحه من البیان و هو الوضوح،و الأصل فی معنی هذه الماده هو انعزال شیء عن شیء و انفصاله عنه بحیث لا یتصلان و لا یختلطان،و منه البین و البون و البینونه و غیر ذلک،قد سمیت البینه بینه لأن الحق یبین بها عن الباطل فیتضح و یسهل الوقوف علیه من غیر تعب و مئونه.

و المراد بمرجع الضمیر فی قوله: «وَ کَذَّبْتُمْ بِهِ» هو القرآن و ظاهر السیاق أن یکون التکذیب إنما تعلق بالبینه التی هو صلّی اللّه علیه و آله و سلم علیها علی ما هو ظاهر اتصال المعنی،و یؤیده قوله بعده: «مٰا

ص: ۳۱۸

عِنْدِی مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ» الخ؛فإن المحصل من الکلام مع انضمام هذا الذیل:أن الذی أیّد اللّه به رسالتی من البینات و هو القرآن تکذبون به،و الذی تقترحونه علی و تستعجلون به من الآیات لیس فی اختیاری و لا مفوضا أمره إلی فلیس بیننا ما نتوافق فیه لما أنی أوتیت ما لا تریدون و أنتم تریدون ما لم أوت.

فمن هنا یظهر أن الضمیر المجرور فی قوله: «وَ کَذَّبْتُمْ بِهِ» راجع الی البینه لکون المراد به القرآن،و أن قوله: «مٰا عِنْدِی مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ» أرید به نفی التسلط علی ما یستعجلون به بالتکنیه فإن الغالب فیما یقدر الإنسان علیه و خاصه فی باب الإعطاء و الإنفاق أن یکون ما یعطیه و ینفقه حاضرا عنده أو مذخورا لدیه و تحت تسلطه ثم ینفق منه ما ینفق فقد أرید بقوله: «مٰا عِنْدِی» نفی التسلط و القدره من باب نفی الملزوم بنفی اللازم.

و قوله: «إِنِ الْحُکْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ» الخ؛بیان لسبب النفی،و لذلک جیء فیه بالنفی و الاستثناء المفید للحصر لیدل بوقوع النفی علی الجنس علی أن لیس لغیره تعالی من سنخ الحکم شیء قط و أنه الی اللّه سبحانه فحسب (۱)(۲).

قوله تعالی: قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِی مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِیَ الْأَمْرُ بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ الی آخر الآیه؛أی لو قدرت علی ما تقترحونه علی من الآیه و الحال أنها بحیث اذا نزلت علی رسول لم تنفک عن الحکم الفصل بینه و بین امته لقضی الأمر بینی و بینکم،و نجی بذلک أحد المتخاصمین المختلفین و عذب الآخر و أهلک،و لم یعذّب بذلک و لا یهلک إلا أنتم لأنکم ظالمون،و العذاب الإلهی إنما یأخذ الظالمین بظلمهم،و هو سبحانه أنزه ساحه من أن یشتبه علیه الأمر و لا یمیز الظالمین من غیرهم فیعذبنی دونکم.

۱- ۱) .الانعام ۵۶-۷۳:کلام فی معنی الحکم و انه للّه وحده.

۲- ۲) .الانعام ۵۶-۷۳:کلام فی معنی حقیقه و حکمه تعالی.

ففی قوله تعالی: وَ اللّهُ أَعْلَمُ بِالظّالِمِینَ نوع تکنیه و تعلیل أی إنکم أنتم المعذبون لأنکم ظالمون و العذاب الإلهی لا یعدو الظالمین الی غیرهم،و فی الجمله إشاره الی ما تقدم من قوله تعالی: قُلْ أَ رَأَیْتَکُمْ إِنْ أَتاکُمْ عَذابُ اللّهِ بَغْتَهً أَوْ جَهْرَهً هَلْ یُهْلَکُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظّالِمُونَ (آیه۴۷/).

قوله تعالی: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَیْبِ لا یَعْلَمُها إِلاّ هُوَ الی آخر الآیه؛ذکروا فی وجه اتصال الآیه بما قبلها أن الآیه السابقه لما ختمت بقوله: «وَ اللّهُ أَعْلَمُ بِالظّالِمِینَ» زاد اللّه سبحانه فی بیانه فذکر أن خزائن الغیب أو مفاتیح تلک الخزائن عنده سبحانه لا یعلمها إلا هو، و یعلم کل دقیق و جلیل.

و هذا الوجه لا یتضح به معنی الحصر الذی یدل علیه قوله: «لا یَعْلَمُها إِلاّ هُوَ» فالأولی أن یوجه الاتصال بما یشتمل علیه مجموع الآیتین السابقتین أعنی قوله: «قُلْ إِنِّی عَلی بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی -الی قوله- وَ اللّهُ أَعْلَمُ بِالظّالِمِینَ» حیث یدل المجموع علی أن ما کانوا یقترحونه من الآیه و ما یستتبعه من الحکم،الفصل و القضاء بینه و بینهم إنما هو عند اللّه لا سبیل الیه لغیره فهو العالم بذلک الحاکم به و لا یغلط فی حکمه الفصل و تعذیب الظالمین لأنه أعلم بهم فهو عالم بالغیب لا یشارکه فیه غیره،و عالم بکل ما جل و دق لا یضل و لا ینسی،ثم زاد ذلک بیانا بقوله: «وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَیْبِ» الآیه فبیّن به اختصاصه تعالی بعلم الغیب و شمول علمه کل شیء،ثم تمّم البیان بالآیات الثلاث التی تتلوها.

و بذلک تصیر الآیات جاریه مجری ما سیقت إلیه نظائرها فی مثل المورد کقوله تعالی فی قصه هود و قومه: قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِکَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّادِقِینَ. قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّهِ وَ أُبَلِّغُکُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ (الأحقاف۲۳/).

ثم نقول:المفاتح جمع مفتح بفتح المیم و هو الخزینه،و ربما احتمل أن یکون جمع مفتح بکسر المیم و هو المفتاح،و یؤیده ما قرئ شاذا: «وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَیْبِ» و مآل المعنیین واحد فإن

من عنده مفاتیح الخزائن هو عالم بما فیها قادر علی التصرف فیها کیف شاء عاده کمن عنده نفس الخزائن إلا أن سائر کلامه تعالی فیما یشابه هذا المورد یؤید المعنی الأول فإنه تعالی کرر فی کلامه ذکر خزائنه و خزائن رحمته-و ذلک فی سبعه مواضع-و لم یذکر لها مفاتیح فی شیء من کلامه قال تعالی: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّکَ (الطور/۳۷)و قال: لا أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزائِنُ اللّهِ (الأنعام/۵۰)و قال: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ (الحجر/۲۱)و قال:

وَ لِلّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ (المنافقون/۷)و قال: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَهِ رَبِّکَ (ص/۹)فالأقرب أن یکون المراد بمفاتح الغیب خزائنه.

و کیف کان فقوله: «وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَیْبِ لا یَعْلَمُها إِلاّ هُوَ» مسوق لبیان انحصار العلم بالغیب فیه تعالی إما لأن خزائن الغیب لا یعلمها إلا اللّه،و إما لان مفاتیح الغیب لا یعلمها غیره تعالی فلا سبیل لغیره الی تلک الخزائن اذ لا علم له بمفاتیحها التی یتوصل بها الی فتحها و التصرف فیها.

و صدر الآیه و إن أنبأ عن انحصار علم الغیب فیه تعالی لکن ذیلها لا یختص بعلم الغیب بل ینبئ عن شمول علمه تعالی بکل شیء أعم من أن یکون غیبا أو شهاده فإن کل رطب و یابس لا یختص بما یکون غیبا و هو ظاهر فالآیه بمجموعها یبین شمول علمه تعالی لکل غیب و شهاده،غیر أن صدرها یختص ببیان علمه بالغیوب،و ذیلها ینبئ عن علمه بکل شیء أعم من الغیب و الشهاده.

و من جهه اخری صدر الآیه یتعرض للغیوب التی هی واقعه فی خزائن الغیب تحت أستار الخفاء و أقفال الإبهام،و قد ذکر اللّه سبحانه فی قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/۲۱)أن التی فی خزائن الغیب عنده من الأشیاء امور لا یحیط بها الحدود المشهوده فی الأشیاء،و لا یحصرها الأقدار المعهوده،و لا شک انها انما صارت غیوبا مخزونه لما فیها من صفه الخروج عن حکم الحد و القدر فإنا لا نحیط علما إلا بما هو محدود

و مقدر،و أما التی فی خزائن الغیب من الأشیاء فهی قبل النزول فی منزل الشهود و الهبوط الی مهبط الحد و القدر،و بالجمله قبل أن یوجد بوجوده المقدر له غیر محدوده مقدره مع کونها ثابته نوعا من الثبوت عنده تعالی علی ما تنطق به الآیه (۱).

فقوله تعالی: وَ عِنْدَهُ مَفٰاتِحُ الْغَیْبِ لاٰ یَعْلَمُهٰا إِلاّٰ هُوَ راجع الی الغیب المطلق الذی لا سبیل لغیره تعالی إلیه،و قوله: «لاٰ یَعْلَمُهٰا» الخ؛حال و هو یدل علی أن مفاتح الغیب من قبیل العلم غیر أن هذا العلم من غیر سنخ العلم الذی نتعارفه فإن الذی یتبادر الی أذهاننا من معنی العلم هو الصوره المأخوذه من الأشیاء بعد وجودها و تقدرها بأقدارها و مفاتح الغیب -کما تبین-علم بالاشیاء و هی غیر موجوده و لا مقدره بأقدارها الکونیه أی علم غیر متناه من غیر انفعال من معلوم.

و قوله: وَ یَعْلَمُ مٰا فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تعمیم لعلمه بما یمکن أن یتعلق به علم غیره مما ربما یحضر بعضه عند بعض و ربما یغیب بعضه عن بعض،و إنما قدم ما فی البر لانه أعرف عند المخاطبین من الناس.

و قوله: وَ مٰا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَهٍ إِلاّٰ یَعْلَمُهٰا اختص بالذکر لانه مما یصعب الإنسان حصول العلم به لان الکثره البالغه التی فی أوراق الأشجار تعجز الإنسان أن یمیز معها بعضها من بعض فیراقب کلا منها فیما یطرأ علیه من الاحوال،و یتنبه علی انتقاصها بالساقط منها اذا سقط.

و قوله: وَ لاٰ حَبَّهٍ فِی ظُلُمٰاتِ الْأَرْضِ وَ لاٰ رَطْبٍ وَ لاٰ یٰابِسٍ الخ؛ معطوفات علی قوله: «مِنْ وَرَقَهٍ» علی ظاهر السیاق،و المراد بظلمات الارض بطونها المظلمه التی تستقر فیها الحبات فینمو منها ما ینمو و یفسد ما یفسد فالمعنی:و لا تسقط من حبه فی

۱- ۱) .الانعام ۵۶-۷۳:کلام فی:الغیب المطلق و الغیب النسبی.

بطون الارض المظلمه و لا يسقط من رطب و لا من يابس أيا ما كان إلا يعلمها،و على هذا فقوله «إِلاّ فِی كِتٰابٍ مُبِينٍ» بدل من قوله: «إِلاّ يَعْلَمُهٰا» سد مسده،و تقديره إلا هو واقع مكتوب فی كتاب مبين.

و توصيف الكتاب بالمبين إن كان بمعنى المظهر إنما هو لكونه يظهر لقارئه كل شیء على حقيقه ما هو عليه من غير أن يطرأ عليه إبهام التغير و التبدل و ستره الخفاء فی شیء من نعوته، و إن كان المبين بمعنى الظاهر فهو ذلک أيضا لان الكتاب فی الحقيقه هو المكتوب،و المكتوب هو المحكی عنه،و اذا كان ظاهرا لا ستره عليه و لا خفاء فيه فالكتاب كذلک.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِی يَتَوَفّٰاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مٰا جَرَحْتُمْ بِالنَّهٰارِ التوفی أخذ الشیء بتمامه،و يستعمله اللّه سبحانه فی كلامه بمعنى أخذ الروح الحيه كما فی حال الموت كما فی قوله فی الآيه التاليه: «حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا» .

قد عد الإنامه توفيا كما عد الإماته توفيا على حد قوله: اَللّٰهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهٰا وَ الَّتِی لَمْ تَمُتْ فِی مَنٰامِهٰا (الزمر۴۳/)لاشتراكهما فی انقطاع تصرف النفس فی البدن كما أن البعث بمعنى الإيقاظ بعد النوم يشارک البعث بمعنى الإحياء بعد الموت فی عود النفس الى تصرفها فی البدن بعد الانقطاع،و فی تقييد التوفی بالليل كالبعث بالنهار جرى على الغالب من أن الناس ينامون بالليل و يستيقظون بالنهار.

و فی قوله تعالى: «يَتَوَفّٰاكُمْ» دلاله على أن الروح تمام حقيقه الإنسان الذی يعبر عنه بأنا لا كما ربما يتخيل لنا أن الروح أحد جزئی الإنسان لاتمامه أو أنها هيئه أو صفه عارضه له، و أوضح منه دلاله قوله تعالى: وَ قٰالُوا أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِی الْأَرْضِ أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ كٰافِرُونَ، قُلْ يَتَوَفّٰاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِی وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (السجده/ ١١)فإن استبعاد الكفار مبنی على حقيقه الإنسان هو البدن الذی يتلاشی و يفسد بانحلال التركيب بالموت فيضل فی الارض،و الجواب مبنی على كون حقيقته هو الروح(النفس)و اذ

كان ملك الموت يتوفاه و يقبضه فلا يفوت منه شيء.

و قوله: وَ يَعْلَمُ مٰا جَرَحْتُمْ بِالنَّهٰارِ الجرح هو الفعل بالجارحه و المراد به الكسب أى يعلم ما كسبتم بالنهار،و الأنسب أن يكون الواو حاليه و الجمله حالا من فاعل يتوفاكم، و يتصل حينئذ قوله: «ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ» بقوله: «وَ هُوَ الَّذِی يَتَوَفّٰاكُمْ» الخ؛من غير تخلل معنى أجنبى فإن الآيتين فى مقام شرح وقوع التدبير الإلهى بالإنسان فى حياته الدنيا و عند الموت و بعده حتى يرد الى ربه،و الأصل العمده من جمل الآيتين المسروده لبيان هذا المعنى قوله تعالى: «وَ هُوَ الَّذِی يَتَوَفّٰاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مٰا جَرَحْتُمْ بِالنَّهٰارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ -أى فى النهار- لِيُقْضىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا وَ هُمْ لاٰ يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ الْحَقِّ» فهذا هو الأصل فى المقصود،و ما وراء ذلک مقصود بالتبع،و المعنى و هو الذى يتوفاكم بالليل و الحال أنه يعلم ما كسبتم فى النهار،ثم يبعثكم فى النهار،الخ.

قوله تعالى: ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى الخ؛سمى الإيقاظ و التنبيه بعثا محاذاه لتسميه الإنامه توفيا و جعل الغرض من البعث قضاء الأجل المسمى و هو الوقت المعلوم عند اللّه الذى لا يتخطاه حياه الإنسان الدنيويه كما قال: فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ (الأعراف/۳۴).

و إنما جعل قضاء الأجل المسمى غايه لأنه تعالى أسرع الحسابين،و لو لا تحقق قضاء سابق لأخذهم بسيئات أعمالهم و وبال آثامهم،كما قال: وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (الشورى/۱۴) و القضاء السابق هو الذى يشتمل عليه قوله تعالى فى قصه هبوط آدم عليه السّلام: وَ لَكُمْ فِی الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلىٰ حِينٍ (الأعراف/۲۴).

فالمعنى أن اللّه يتوفاكم بالليل و الحال أنه يعلم ما كسبتم فى النهار من السيئات و غيرها لكن لا يمسک أرواحكم ليديم عليها الموت بل يبعثكم فى النهار بعد التوفى لتقضى آجالكم المسماه ثم

إليه مرجعكم بنزول الموت و الحشر فينبئكم بما كنتم تعملون.

قوله تعالى: وَ هُوَ الْقٰاهِرُ فَوْقَ عِبٰادِهِ قد تقدم الكلام فيه فى تفسير الآيه(١٧) من السوره.

قوله تعالى: وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً الخ؛اطلاق إرسال الحفظه من غير تقييد لا فى الإرسال و لا فى الحفظه ثم جعله مغيّا بمجىء الموت لا يخلو عن دلاله على أن هؤلاء الحفظه المرسلين شأنهم حفظ الإنسان من كل بليه تتوجه إليه و مصيبه تتوخاه،و آفه تقصده فإن النشأه التى نحن فيها نشأه التفاعل و التزاحم،ما فيه من شىء إلا و هو مبتلى بمزاحمه غيره من شىء من جميع الجهات لان كلا من أجزاء هذا العالم الطبيعى بصدد الاستكمال و استزاده سهمه من الوجود،و لا يزيد فى شىء إلا و ينقص بنسبته من غيره فالاشياء دائما فى حال التنازع و التغلب،و من أجزائه الإنسان الذى تركيب وجوده ألطف التراكيب الموجوده فيه و أدقها فيما نعلم فرقباؤه فى الوجود أكثر و أعداؤه فى الحياه أخطر فأرسل اللّه إليه من الملائكه حفظه تحفظه من طوارق الحدثان و عوادى البلايا و المصائب و لا يزالون يحفظونه من الهلاك حتى اذا جاء أجله خلوا بينه و بين البليه فأهلكته على ما فى الروايات.

و أما ما ذكره فى قوله: إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحٰافِظِينَ كِرٰاماً كٰاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مٰا تَفْعَلُونَ (الانفطار/ ١٢)فإنما يريد به الحفظه على الأعمال غير أن بعضهم أخذ الآيات مفسره لهذه الآيه،و الآيه و إن لم تأب هذا المعنى كل الإباء لكن قوله: «حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» الى آخر الآيه،كما تقدم يؤيد المعنى الأول.

و قوله: تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا وَ هُمْ لاٰ يُفَرِّطُونَ الظاهر أن المراد من التفريط هو التساهل و التسامح فى إنفاذ الأمر الإلهى بالتوفى فإن اللّه سبحانه وصف ملائكته بأنهم يفعلون ما يؤمرون،و ذكر أن كل أمه رهن أجلهم فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعه و لا يستقدمون فالملائكه المتصدون لأمر التوفى لا يقصرون عن الحد الواجب المحدود المكشوف

لهم من موت فلان فی الساعه الفلانیه علی الشرائط الکذائیه فهم لا یسامحون فی توفی من أمروا بتوفّیه و لا مقدار ذره فهم لا یفرّطون.

و هل هذه الرسل هم الرسل المذکورون أولا حتی تکون الحفظه هم الموکلین علی التوفی؟ الآیه ساکته عن ذلک إلا ما فیها من إشعار ضعیف بالوحده غیر أن هؤلاء الرسل المأمورین بالتوفی کائنین من کانوا هم من أعوان ملک الموت لقوله تعالی: قُلْ یَتَوَفّٰاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ (السجده/۱۱).

و نسبه التوفی الی هؤلاء الرسل ثم الی ملک الموت فی الآیه المحکیه آنفا ثم الی اللّه سبحانه فی قوله: اَللّٰهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ (الزمر/۴۲)من قبیل التفنن فی مراتب النسب فاللّه سبحانه ینتهی إلیه کل أمر و هو المالک المتصرف علی الإطلاق،و لملک الموت التوسل الی ما یفعله من قبض الأرواح بأعوانه الذین هم أسباب الفعل و وسائله و أدواته کالخط الذی یخطه القلم و ورائه الید و وراءهما الإنسان الکاتب.

قوله تعالی: ثُمَّ رُدُّوا إِلَی اللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ الْحَقِّ إشاره الی رجوعهم الی اللّه سبحانه بالبعث بعد الموت،و توصیفه تعالی بأنه مولاهم الحق للدلاله علی عله جمیع ما تقدم من تصرفاته تعالی بالإنامه و الإیقاظ و التدبیر و الإماته و البعث،و فیه تحلیل لمعنی المولی ثم إثبات حق المولویه له تعالی،فالمولی هو الذی یملک الرقبه فیکون من حقه جواز التصرف فیها کیفما شاء،و اذا کان له تعالی حقیقه الملک،و کان هو المتصرف بالإیجاد و التدبیر و الإرجاع فهو المولی الحق الذی یثبت له معنی المولویه ثبوتا لا زوال له بوجه البته.

و الحق من أسماء اللّه الحسنی لثبوته تعالی بذاته و صفاته ثبوتا لا یقبل الزوال و یمتنع عن التغیر و الانتقال و الضمیر فی «رُدُّوا» راجع الی الآحاد الذی یومئ إلیه سابق الکلام من قوله: «حَتّٰی إِذٰا جٰاءَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ» فإن حکم الموت یعم کل واحد و یجتمع به آحادهم نفس

الجماعه،و من هنا يظهر أن قوله: «ثُمَّ رُدُّوا» ليس من قبيل الالتفات من الخطاب السابق الى الغيبه.

قوله تعالى: أَلاٰ لَهُ الْحُكْمُ الخ؛لما بيّن تعالى اختصاصه بمفاتح الغيب و علمه بالكتاب المبين الذى فيه كل شىء،و تدبيره لأمر خلقه من لدن وجدوا الى أن يرجعوا إليه تبين أن الحكم إليه لا الى غيره،و هو الذى ذكره فيما مر من قوله: «إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ» أعلن نتيجه بيانه فقال «أَلاٰ لَهُ الْحُكْمُ» ليكون منبها لهم مما غفلوا عنه.

و كذلك قوله: «وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحٰاسِبِينَ» نتيجه أخرى لسابق البيان فإنه تبين به أنه تعالى لا يؤخر حساب أعمال الناس عن الوقت الصالح له،و إنما يتأخر ما يتأخر ليدرك الأجل الذى أجل له.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمٰاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ الى آخر الآيه؛كأن المراد بالتنجيه من ظلمات البر و البحر هو التخليص من الشدائد التى يبتلى بها الإنسان فى خلال الأسفار اذا ضرب فى الأرض أو ركب البحر كالبرد الشديد و الأمطار و الثلوج و قطاع الطريق و الطوفان و نحو ذلك،و أشق ما يكون ذلك على الإنسان فى الظلمات من ليل أو سحاب أو ريح تثير عجاج الأرض فيزيد فى اضطراب الإنسان و حيرته و ضلاله طريق الاحتيال لدفعه،و لذلك علقت التنجيه على الظلمات،و كان أصل المعنى الاستفهام عمن ينجّى الإنسان من الشدائد التى يبتلى بها فى أسفاره فى البر و البحر فاضيفت الشدائد الى البر و البحر بعنايه الظرفيه ثم أضيفت الى ظلمات البر و البحر لأن للظلمات تأثيرا تاما فى تشديد هذه المكاره،ثم حذفت الشدائد و أقيمت الظلمات مقامها فعلقت التنجيه عليها فقيل:

ينجيكم من ظلمات البر و البحر.

و إنما خصت الظلمات بالذكر و إن كان المنجى من كل مكروه و غم هو اللّه سبحانه كما يذكره فى الآيه التاليه لأن أسفار البر و البحر معروف عند الإنسان بالعناء و الوعثاء و الكريهه.

و التضـرع إظهار الضـراعه و هو الذل و الخضوع على ما ذكره الراغب،و لذلك قوبل بالخفيه و هو الخفاء و الاسـتتار فالتضـرع و الخفيه فى الدعاء هما الإعلان و الإسـرار فيه،و الإنسان اذا نزلت به المصيبه يبتدئ فيدعو للنجاه بالإسرار و المناجاه ثم اذا اشتدت به و لاح بعض آثار اليأس و الانقطاع من الأسـباب لا يبالى بمن حوله ممن يطّلع على ذلته و اسـتكانته فيـدعو بالتضـرع و المناداه ففى ذكر التضرع و الخفيه إشاره الى أنه تعالى هو المنجى من مصائب البر و البحر شديدتها و يسيرتها.

و فى قوله: لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ إشاره الى أن الإنسان يضـيف فى هذه الحاله التى يدعو لكشـفها الى دعائه عهدا يقدمه الى ربه و وعدا يعده به أن لو كشف اللّه عنه ليكونن من الشاكرين و يرجع عن سابق كفره.

و أصل هـذه العـده مأخوذ من العاده الجاريه بين أفراد الإنسان بعضـهم مع بعض فإن الواحـد منا اذا أعيته المذاهب و أحاطت به البليه من مصـيبه قاصـمه أو فقر أو عدو و استغاث لكشف ما به من كرب الى أحد الأقوياء القادرين على كشفه بزعمه و عده بما يطيّب به نفسه و يقوّى بـاعث عزيمته و فتوته،و ذلـك بثنـاء جميـل أو مال أو طاعه أو وفاء كل ذلك لما أن الأعمال الاجتماعيه التى تـدور بيننـا كلها معاملات قائمه بطرفين يعطى فيها الإنسان شـيئا و يأخـذ شـيئا لأن الحاجه محيطه بالإنسان ليس له أن يعمل عملا أو يؤثر أثرا إلا لنفع عائد الى نفسه،و مثله سائر أجزاء الكون.

لكن اللّه سـبحانه أكرم سـاحه أن تمسه حـاجه أو يطرأ عليه منقصه لا يفعل فعلا إلا ليعود نفعه الى غيره من خليقته فوجه التوحيد فى مقـابله الإنسان له بوعـد الشـكر و الطاعه فى دعائه الفطرى هو أن الإنسان اذا نزلت به النازله،و انقطعت عنه الأسـباب و غابت عن مسـرح نظره وسائل الخلاص وجـد أن اللّه سـبحانه هو السـبب الوحيد الذى يقدر على كشف ما به من غم، و أنه الذى يدبّر أمره منذ خلقه و يدبر أمر كل سبب فوجد نفسه ظالما مفرطا فى جنب اللّه

سبحانه لا يستحق كشف الغم و رفع الحاجه من قبله تعالى لما كسبت يداه من السيئات، و حملت نفسه من وبال الخطيئه فعندئذ يعد ربه الشكر و الطاعه ليصحح ذلك استحقاقه لاستجابه دعائه و كشف ضره.

و لذلك نجده أنه اذا نجى مما نزل به النائبه ذهب لوجهه ناسيا لما عهد به ربه و وعده من الشكر كما قال تعالى فى ذيل الآيه التاليه: «ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ» .

قوله تعالى: قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ قال الراغب فى مفرداته:الكرب الغم الشديد،قال تعالى: وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ و الكربه كالغمه،و أصل ذلك من كرب الأرض بسكون الراء و هو قلبها بالحفر فالغم يثير النفس إثاره ذلك و قيل فى مثل:الكراب على البقر و ليس ذلك من قولهم:الكلاب على البقر، فى شىء،و يجوز أن يكون الكرب من كربت الشمس اذا دنت للمغيب،و قوله:إناء كربان أى قريب نحو قربان أى قريب من الملء،أو من الكرب(بفتحتين)و هو عقد غليظ فى رشا الدلو، و قد يوصف الغم بأنه عقد على القلب يقال:أكربت الدلو،انتهى.

و قد أضيف فى هذه الآيه كل كرب الى ظلمات البر و البحر ليعم الجميع فإن إنسانا ما لا يخلو فى مدى حياته من شىء من الكروب و الغموم فالمسأله و الدعاء عام فيهم سواء أعلنوا به أو أسرّوا.

فملخص المراد بالآيه أنكم فى الشدائد النازله بكم فى ظلمات البر و البحر و غيرها اذا انقطعتم عن الأسباب الظاهره و أعيت بكم الحيل تشاهدون بالرجوع الى فطرتكم الإنسانيه أن اللّه سبحانه هو ربكم لا رب سواه و تجزمون أن عبادتكم لغيره ظلم و إثم و الشاهد على ذلك أنكم تدعونه حينئذ تضرعا و خفيه،و تعدونه أن تشكروه بعد ذلك و لا تكفروا به إن أنجاكم لكنكم بعد الإنجاء تنقضون ميثاقكم الذى واثقتموه به و تستمرون على سابق كفركم، ففى الآيتين احتجاج على المشركين و توبيخ لهم على حنث اليمين و خلف الوعد.

قوله تعالى: قُلْ هُوَ الْقٰادِرُ عَلىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذٰاباً مِنْ فَوْقِكُمْ الى آخر الآيه؛قال الراغب فى المفردات:أصل البعث اثاره الشىء و توجيهه يقال:بعثته فانبعث، و يختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به فبعثت البعير أثرته و سيّرته،و قوله عزّ و جل:

وَ الْمَوْتىٰ يَبْعَثُهُمُ اللّٰهُ أى يخرجهم و يسيّرهم الى القيامه-الى ان قال-فالبعث ضربان:بشرىّ كبعث البعير و بعث الانسان فى حاجه،و الهىّ و ذلك ضربان:أحدهما:ايجاد الاعيان و الاجناس و الانواع عن ليس و ذلك يختص به البارى تعالى و لم يقدر عليه احدا،و الثانى إحياء الموتى و قد خص بذلك بعض أوليائه كعيسى عليه السّلام و أمثاله،انتهى.

و بالجمله فى لفظه شىء من معنى الإقامه و الإنهاض،و بهذه العنايه يستعمل فى التوجيه و الإرسال لأن التوجيه الى حاجه و الإرسال نحو قوم يكون بعد سكون و خمود غالبا،و على هذا فبعث العذاب لا يخلو من إشعار على أنه عذاب من شأنه أن يتوجه إليهم و يقع بهم،و إنما يمنع عن هذا الاقتضاء مانع كالإيمان و الطاعه،و للكلام تتمه ستوافيك.

و قال فى المجمع:لبست عليهم الأمر ألبسه اذا لم أبينه و خلطت بعضه ببعض و لبست الثوب ألبسه،و اللبس اختلاط الأمر و اختلاط الكلام،و لابست الأمر خالطته،و الشيع الفرق،و كل فرقه شيعه على حده،و شيعه فلان تبعته،و التشيّع الاتباع على وجه التدين و الولاء،انتهى.

و على هذا فالمراد بقوله: «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً» أن يضرب البعض بالبعض و يخلط حال كونهم شيعا و فرقا مختلفه.

فقوله: قُلْ هُوَ الْقٰادِرُ عَلىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذٰاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ظاهره إثبات القدره للّه سبحانه على بعث العذاب عليهم من فوق أو من تحت،و القدره على الشىء لا تستلزم فعله،و هو أعنى إثبات القدره على الفعل الذى هو العذاب كاف فى الإخافه و الإنذار لكن المقام يعطى أن المراد ليس هو إثبات مجرد القدره بل لهم استحقاق لمثل هذا العذاب،و فى العذاب اقتضاء أن ينبعث عليهم إن لم يجتمعوا على الإيمان باللّه

و آیاته کما مر من استفاده ذلک من معنی البعث،و یؤیده قوله بعد: «لِکُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ» فإنه تهدید صریح.

علی أنه تعالی یهدد هذه الامه صریحا بالعذاب فی موارد مشابهه لهذه المورد من کلامه کقوله تعالی: وَ لِکُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ -الی أن قال- وَ یَسْتَنْبِئُونَکَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِی وَ رَبِّی إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ الآیات(یونس۴۷/-۵۳) و قوله: إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّهً وٰاحِدَهً وَ أَنَا رَبُّکُمْ فَاعْبُدُونِ، وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَیْنَهُمْ الی آخر الآیات(الأنبیاء۹۳/-۹۷)و قوله تعالی: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً -إلی أن قال- وَ لاٰ تَکُونُوا مِنَ الْمُشْرِکِینَ، مِنَ الَّذِینَ فَرَّقُوا دِینَهُمْ وَ کٰانُوا شِیَعاً الی آخر الآیات(الروم۳۰/- ۴۵).

قوله تعالی: أَوْ یَلْبِسَکُمْ شِیَعاً وَ یُذِیقَ بَعْضَکُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ظاهره أنه أرید به التحزّبات التی نشأت بعد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم،فأدی ذلک الی حدوث مذاهب متنوعه ألبست لباس العصبیه و الحمیه الجاهلیه و استتبعت حروبا و مقاتل یستبیح کل فریق من غیره کل حرمه و یطرده بمزعمته من حرمه الدین و بیضه الإسلام.

و علی هذا فقوله: «أَوْ یَلْبِسَکُمْ شِیَعاً وَ یُذِیقَ» الخ؛عذاب واحد لا عذابان و إن أمکن بوجه عد کل من إلقاء التفرق فی الکلمه و إذاقه البعض بأس بعض عذابا مستقلا برأسه فللتفرقه بین الامه أثر سوء آخر و هو طروّ الضعف و نفاد القوه و تبعّض القدره لکن المأخوذ فی الآیه المعدود عذابا أعنی قوله: «وَ یُذِیقَ بَعْضَکُمْ» الخ؛حینئذ بالنسبه الی مجرد إلقاء الاختلاف بمنزله المقیّد بالنسبه الی المطلق،و لا یحسن مقابله المطلق بالمقید إلا بعنایه زائده فی الکلام،علی أن العطف بواو الجمع یؤید ما ذکرناه.

فبالجمله معنی الآیه:قل یا رسول اللّه مخاطبا لهم منذرا لهم عاقبه استنکافهم عن الاجتماع تحت لواء التوحید و استماع دعوه الحق إن لشأنکم هذا عاقبه سیئه فی قدره اللّه سبحانه أن

يأخذكم بها و هو أن يبعث عليكم عذبا لا مفر لكم منه و لا ملاذ تلوذون به و هو العذاب من فوقكم أو من تحت أرجلكم،أو أن يضرب بعضكم ببعض فتكونوا شيعا و فرقا مختلفين متنازعين و متحاربين فيذيق بعضكم بأس بعض،ثم تمم البيان بقوله خطابا لنبيه:انظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ قوم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم هم قريش أو مضر أو عامه العرب و المستفاد من فحوى بعض كلامه تعالى فى موارد أخر ان المراد بقومه صلّى اللّه عليه و آله و سلم هم العرب كقوله: وَ لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ، كَذٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ، لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (الشعراء۲۰۲/)و قوله: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ (إبراهيم۴/).

و كيف كان فقوله: «وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ» بمنزله التمهيد لتحقيق النبأ الذى يتضمنه الإنذار السابق كأن قيل:يا أيتها الامه اجتمعوا فى توحيد ربكم و اتفقوا فى اتباع كلمه الحق و إلا هلا مؤمّن يؤمّنكم عذابا يأتيكم من فوق أو من تحت أو من اختلاف و تحزب يستتبع سيفا و سوطا من بعضكم على بعض،ثم خوطب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فقيل:إن قومك كذّبوا بذلك فليستعدوا لعذاب بئيس أو بأس شديد يذوقونه.

قوله تعالى: وَ إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ذكر الراغب فى المفردات أن الخوض هو الشروع فى الماء و المرور فيه،و يستعار فى الامور،و أكثر ما ورد فى القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه،انتهى.

و هو الدخول فى باطل الحديث و التوغل فيه كذكر الآيات الحقه و الاستهزاء بها و الإطاله فى ذلك.

و المراد بالإعراض عدم مشاركتهم فيما يخوضون فيه كالقيام عنهم و الخروج من بينهم أو ما

يشابه ذلك مما يتحقق به عدم المشاركه،و تقييد النهى بقوله: «حَتّٰى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ» للدلاله على أن المنهى عنه ليس مطلق مجالستهم و القعود معهم،و لو كان لغرض حق،و إنما المنهى عنه مجالستهم ما داموا مشتغلين بالخوض فى آيات اللّه سبحانه.

و من هنا يظهر أن فى الكلام نوعا من إيجاز الحذف فإن تقدير الكلام:و اذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا يخوضون فيها فأعرض عنهم،الخ؛فحذفت الجمله المماثله للصله استغناء بها عنها،و المعنى-و اللّه أعلم-و اذا رأيت أهل الخوض و الاستهزاء بآيات اللّه يجرون على خوضهم و استهزائهم بالآيات الإلهيه فأعرض عنهم و لا تدخل فى حلقهم حتى يخوضوا فى حديث غيره فإذا دخلوا فى حديث غيره فلا مانع يمنعك من مجالستهم،و الكلام و إن وقع فى سياق الاحتجاج على المشركين لكن ما أشير إليه من الملاك يعممه فيشمل غيرهم كما يشملهم،و قد وقع فى آخر الآيه قوله: «فَلاٰ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ» فالخوض فى آيات اللّه ظلم و الآيه إنما نهت عن مشاركه الظالمين فى ظلمهم،و قد ورد فى مورد آخر من كلامه تعالى: إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ (النساء ١۴٠/).

فقد تبين:أن الآيه لا تأمر بالإعراض عن الخائضين فى آيات اللّه تعالى بل إنما تأمر بالإعراض عنهم اذا كانوا يخوضون فى آيات اللّه ما داموا مشتغلين به.

و الضمير فى قوله: «غَيْرِهِ» راجع الى الحديث الذى يخاض فيه فى آيات اللّه باعتبار أنه خوض و قد نهى عن الخوض فى الآيه.

قوله تعالى: وَ إِمّٰا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطٰانُ فَلاٰ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ و«ما»فى قوله: «إِمّٰا يُنْسِيَنَّكَ» زائد يفيد نوعا من التأكيد أو التقليل،و النون للتأكيد.و الأصل و إن ينسك،و الكلام فى مقام التأكيد و التشديد للنهى أى حتى لو غفلت عن نهينا بما أنساكه الشيطان ثم ذكرت فلا تهاون فى القيام عنهم و لا تلبث دون أن تقوم عنهم فإن الذين يتقون ليس لهم أى مشاركه للخائضين اللاعبين بآيات اللّه المستهزئين بها.

و الخطاب فی الآیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و المقصود غیره من الامه فقد تقدم فی البحث عن عصمه الأنبیاء علیهم السّلام ما ینفی وقوع هذا النوع من النسیان-و هو نسیان حکم إلهی و مخالفته عملا بحیث یمکن الاحتجاج بفعله علی غیره و التمسک به نفسه-عنهم علیهم السّلام.

و یؤید ذلک عطف الکلام فی الآیه التالیه الی المتقین من الامه حیث یقول: «وَ مٰا عَلَی الَّذِینَ یَتَّقُونَ مِنْ حِسٰابِهِمْ مِنْ شَیْءٍ» الی آخر الآیه.

و أوضح منها دلاله قوله تعالی فی سوره النساء: وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَیْکُمْ فِی الْکِتٰابِ أَنْ إِذٰا سَمِعْتُمْ آیٰاتِ اللّٰهِ یُکْفَرُ بِهٰا وَ یُسْتَهْزَأُ بِهٰا فَلاٰ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتّٰی یَخُوضُوا فِی حَدِیثٍ غَیْرِهِ إِنَّکُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللّٰهَ جٰامِعُ الْمُنٰافِقِینَ وَ الْکٰافِرِینَ فِی جَهَنَّمَ جَمِیعاً (النساء/۱۴۰)فإن المراد فی الآیه و هی مدنیه بالحکم الذی نزل فی الکتاب هو ما فی هذه الآیه من سوره الأنعام و هی مکیه و لا آیه غیرها،و هی تذکر أن الحکم النازل سابقا وجّه به الی المؤمنین،و لازمه أن یکون الخطاب الذی فی قوله: «وَ إِذٰا رَأَیْتَ الَّذِینَ یَخُوضُونَ فِی آیٰاتِنٰا» الخ؛موجها الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و المقصود به غیره علی حد قولهم:إیاک أعنی و اسمعی یا جاره.

قوله تعالی: وَ مٰا عَلَی الَّذِینَ یَتَّقُونَ مِنْ حِسٰابِهِمْ مِنْ شَیْءٍ الی آخر الآیه؛ یرید أن الذی یکتسبه هؤلاء الخائضون من الإثم لا یحمل الی علی أنفسهم و لا یتعداهم الی غیرهم إلا أن یماثلوهم و یشارکوهم فی العمل أو یرضوا بعملهم فلا یحاسب بعمل إلا عامله و لکن نذکّرهم ذکر لعلم یتقون،فإن الإنسان اذا حضر مجلسهم و إن أمکنه أن لا یجاریهم فیما یخوضون و لا یرضی بقلبه بعملهم و أمکن أن لا یعد حضوره عندهم إعانه لهم علی ظلمهم تأییدا لهم فی قولهم لکن مشاهده الخلاف و معاینه المعصیه تهوّن أمر المعصیه عند النفس و تصغر الخطیئه فی عین المشاهد المعاین،و اذا هان أمرها أوشک أن یقع الإنسان فیها فإن للنفس فی کل معصیه هوی و من الواجب علی المتقی بما عنده من التقوی و الورع عن محارم اللّه أن یجتنب مخالطه أهل الهتک و الاجتراء علی اللّه کما یجب علی المبتلین بذلک الخائضین فی

آیات اللّه لئلا تهون علیه الجرأه علی اللّه و آیاته فتقربه ذلک من المعصیه فیشرف علی الهلکه، و من یحم حول الحمی أوشک أن یقع فیه.

قوله تعالی: وَ ذَرِ الَّذِینَ اتَّخَذُوا دِینَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً الی آخر الآیه؛قال الراغب:

البسل ضم الشیء و منعه و لتضمنه لمعنی الضم استعیر لتقطیب الوجه فقیل:هو باسل و مبتسل الوجه،و لتضمنه لمعنی المنع قیل للمحرم و المرتهن بسل،و قوله تعالی: وَ ذَکِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمٰا کَسَبَتْ ،أی تحرّم الثواب،و الفرق بین الحرام و البسل أن الحرام عام فیما کان ممنوعا منه بالحکم و القهر،و البسل هو الممنوع منه بالقهر قال عزّ و جل: «أُولٰئِکَ الَّذِینَ أُبْسِلُوا بِمٰا کَسَبُوا» أی حرّموا الثواب،انتهی.

و قال فی المجمع:یقال:أبسلته بجریرته أی أسلمته،و المستبسل المستسلم الذی یعلم أنه لا یقدر علی التخلص-الی أن قال-قال الأخفش:تبسل أی تجازی،و قیل:تبسل أی ترهن و المعانی متقاربه،انتهی.

و المعنی«و اترک الذین اتخذوا دینهم لعبا و لهوا»عد تدینهم بما یدعوهم إلیه هو أنفسهم لعبا و تلهیها بدینهم،و فیه فرض دین حق لهم و هو الذی دعتهم إلیه فطرتهم فکان یجب علیهم أن یأخذوا به أخذ جد و یتحرزوا به عن الخلط و التحریف و لکنه اتخذوه لعبا و لهوا یقلبونه کیف شاءوا من حال الی حال و یحولونه حسب ما یأمرهم به هوی أنفسهم من صوره الی صوره.

ثم عطف علی اتخاذهم الدین لعبا و لهوا قوله: «وَ غَرَّتْهُمُ الْحَیٰاةُ الدُّنْیٰا» لما بینهما من الملازمه لأن الاسترسال فی التمتع من لذائذ الحیاه المادیه و الجد فی اقتنائها یوجب الإعراض عن الجد فی الدین الحق و الهزل و اللعب به.

ثم قال:و ذکّر به أی بالقرآن حذرا من أن تبسل أی تمنع نفس بسبب ما کسبت من السیئات أو تسلم نفس مع ما کسبت للمؤاخذه و العقاب،و تلک نفس لیس لها من دون اللّه

ولی و لا شفیع و إن تعدل کل عدل و تفد کل فدیه لا یؤخذ منها لأن الیوم یوم الجزاء بالأعمال لا یوم البیع و الشری اولئک الذین أبسلوا و منعوا من ثواب اللّه أو أسلموا لعقابه لهم شراب من حمیم و عذاب ألیم بما کانوا یکفرون.

قوله تعالی: قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللّهِ مٰا لاٰ یَنْفَعُنٰا وَ لاٰ یَضُرُّنٰا احتجاج علی المشرکین بنحو الاستفهام الإنکاری،و إنما ذکر من أوصاف شرکائهم کونها لا تنفع و لا تضر لأن اتخاذ الآلهه-کما تقدم-کان مبنیا علی أحد الأساسین:الرجاء و الخوف و اذ کانت الشرکاء لا تنفع و لا تضر فلا موجب لدعائها و عبادتها و التقرب منها.

قوله تعالی: وَ نُرَدُّ عَلیٰ أَعْقٰابِنٰا بَعْدَ إِذْ هَدٰانَا اللّٰهُ -الی قوله- اِئْتِنٰا الاستهواء طلب الهوی و السقوط،و الرد علی الأعقاب کنایه عن الضلال و ترک الهدی فإن لازم الهدایه الحقه الوقوع فی مستقیم الصراط و الشروع فی السیر فیه فالارتداد علی الأعقاب ترک السیر فی الصراط و العود الی ما خلف من المسیر و هو الضلال،و لذا قال:و نرد علی أعقابنا بعد اذ هدانا اللّه فقید الرد بکونه بعد الهدایه الإلهیه.

و قوله: کَالَّذِی اسْتَهْوَتْهُ الشَّیٰاطِینُ فِی الْأَرْضِ حَیْرٰانَ الخ؛تمثیل مثّل به حال الانسان المتحیر الذی لم یؤت بصیره فی أمره و عزیمه راسخه علی سعادته فترک أحسن طریق و أقومه الی مقصده،و قد رکبه قبله أصحاب له مهتدون به و بقی متحیرا بین شیاطین یدعونه الی الردی و الهلاک،و أصحاب له مهتدین قد نزلوا فی منازلهم أو أشرفوا علی الوصول یدعونه الی الهدی أن ائتنا فلا یدری ما یفعل و هو بین مهبط و مستوی؟.

قوله تعالی: قُلْ إِنَّ هُدَی اللّٰهِ هُوَ الْهُدیٰ الی آخر الآیه؛أی إن کان الأمر دائرا بین دعوه اللّه سبحانه و هی التی توافق الفطره و تسمیه الفطره هدی اللّه،و بین دعوه الشیاطین و هی التی فیها الهوی و اتخاذ الدین لعبا و لهوا فهدی اللّه هو الهدی الحقیقی دون غیره.

أما أن ما یوافق دعوه الفطره هو هدی اللّه فلا شک یعتریه لأن حق الهدایه هو الذی ینطق

به الصنع و الإيجاد الذی لیس إلا للّه و لا نروم شیئا من دین أو اعتقاد إلا لابتغاء مطابقه الواقع و الواقع للّه فلا یعدوه هداه،و أما أن هدی اللّه هو الهدی الحقیقی الذی یجب أن یؤخذ به دون الدعوه الشیطانیه فظاهر أیضا لأن اللّه سبحانه هو الذی إلیه أمرنا کله من جهه مبدئنا و منتهانا و ما نحتاج إلیه فی دنیا أو آخره.

و قوله: وَ أُمِرْنٰا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعٰالَمِینَ قال فی المجمع:تقول العرب:أمرتک لتفعل و أمرتک أن تفعل و أمرتک بان تفعل فمن قال:أمرتک بأن تفعل فالباء للإلصاق و المعنی وقع الأمر بهذا الفعل،و من قال:أمرتک أن تفعل حذف الجار،و من قال:أمرتک لتفعل فالمعنی أمرتک للفعل،و قال الزجّاج:التقدیر أمرنا کی نسلم.

و الجمله أعنی قوله: «وَ أُمِرْنٰا لِنُسْلِمَ» الخ؛عطف تفسیر لقوله: «إِنَّ هُدَی اللّٰهِ هُوَ الْهُدیٰ» فالأمر بالإسلام هو مصداق لهدی اللّه،و المعنی:أمرنا اللّه لنسلم له و إنما أبهم فاعل الفعل لیکون تمهیدا لوضع قوله: «لِرَبِّ الْعٰالَمِینَ» موضع الضمیر فیدل به علی عله الأمر فالمعنی أمرنا من ناحیه الغیب أن نسلم للّه لأنه رب العالمین جمیعا لیس لها جمیعا أو لکل بعض منها-کما تزعمه الوثنیه-رب آخر و لا أرباب أخر.

و ظاهر الآیه أن المراد بالإسلام هو تسلیم عامه الامور إلیه تعالی لا مجرد التشهّد بالشهادتین،و هو ظاهر قوله: إِنَّ الدِّینَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلاٰمُ (آل عمران/۱۹)کما مر فی تفسیر الآیه.

قوله تعالی: وَ أَنْ أَقِیمُوا الصَّلاٰهَ وَ اتَّقُوهُ تفنن فی سرد الکلام بأخذ الأمر بمعنی القول و الجری فی مجری هذه العنایه کأنه قیل:و قیل لنا:أن أسلموا لرب العالمین و أن أقیموا الصلاه و اتقوه.

و قد أجمل تفاصیل الأعمال الدینیه ثانیا فی قوله: «وَ اتَّقُوهُ» غیر أنه صرح من بینها باسم الصلاه تعظیما لأمرها و اعتناء بشأنها و اهتمام القرآن الشریف بأمر الصلاه ظاهر لا شک فیه.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِی إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ فمن الواجب أن یسلم له و یتقی لأن الرجوع إلیه،و الحساب و الجزاء بیده.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ الى آخر الآیه؛ بضعه أسماء و أوصاف له سبحانه مذکوره أرید بذکرها بیان ما تقدم من القول و تعلیله فإنه تعالى ذکر أن الهدى هداه ثم فسره نوع تفسیر بالإسلام له و الصلاه و التقوى و هو تمام الدین ثم بیّن السبب فی کون هداه هو الهدى الذی لا یجوز التجافی عنه و هو أن حشر الجمیع إلیه ثم بیّنه أتم بیان بقوله: «وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ» الخ؛فهذه أسماء و نعوت له تعالى لو انتفى واحد منها لم یتم البیان.

فقوله هُوَ الَّذِی خَلَقَ الخ؛یرید به أن الخلقه جمیعا فعله و إنما أتى به بالحق لا بالباطل،و الفعل اذا لم یکن باطلا لم یکن مندوحه من ثبوت الغایه له فللخلقه غایه و هو الرجوع إلیه تعالى و هذا هو إحدى الحجتین اللتین ذکرهما فی قوله عزّ من قائل: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا بٰاطِلاً ذٰلِکَ ظَنُّ الَّذِینَ کَفَرُوا الى آخر الآیتین؛(ص٢٧/)فخلقه السماوات و الأرض بخلقه حقه تؤدی الى أن الخلق یحشرون إلیه.

و قوله: وَ یَوْمَ یَقُولُ کُنْ فَیَکُونُ السیاق یدل على أن المراد بالمقول له هو یوم الحشر و إن کان کل موجود مخلوق على هذه الصفه کما قال تعالى: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (یس٨٢/)و یوم ظرف متعلق بالقول و المعنى:یوم یقول لیوم القیامه:

کن فیکون،و ربما قیل:إن المقول له هو الشیء و التقدیر:یوم یقول لشیء کن فیکون،و ما ذکرناه أوفق للسیاق.

و قوله: قَوْلُهُ الْحَقُّ تعلیل علّلت به الجمله التی قبله،و الدلیل علیه فصل الجمله، و الحق هو الثابت بحقیقه معنى الثبوت و هو الوجود الخارجی و الکون العینی و إذا کان قوله هو فعله و إیجاده کما یدل علیه قوله: وَ یَوْمَ یَقُولُ کُنْ فَیَکُونُ فقوله تعالى هو نفس الحق فلا

مردّ له و لا مبدل لكلماته قال تعالى: وَ الْحَقَّ أَقُولُ (ص/۸۴).

قوله تعالى: وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ يريد به يوم القيامه قال تعالى:

يَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ (المؤمن/۱۶)و المراد بثبوت الملك له تعالى يوم النفخ مع أن له الملك دائما إنما هو ظهور ذلك بتقطع الأسباب و انبتات الروابط و الأنساب و قد تقدم شذور من البحث فى ذلك فيما تقدم و سيجيء استيفاء البحث عنه و عن معنى الصور فى الموضع المناسب لذلك إن شاء اللّه تعالى.

و قوله: عٰالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَهِ قد تقدم معناه،و هو اسم يتقوّم بمعناه الحساب و الجزاء،و كذلك الاسمان:الحكيم و الخبير فهو تعالى بعلمه بالغيب و الشهاده يعلم ظاهر الأشياء و باطنها فلا يخفى عليه ظاهر لظهوره و لا باطن لبطونه،و بحكمته يتقن تدبير الخليقه و يميز الواجب من الجزاء كما ينبغى فلا يظلم و لا يجازف،و بخبرته لا يفوت عنه دقيق لدقته و لا جليل لجلالته.

فهذه الأسماء و النعوت تبين بأتم البيان أن الجميع محشورون إليه و أن هداه هو الهدى و دين الفطره الذى أمر به هو الدين الحق فإنه تعالى خلق العالم لغايه مطلوبه أرادها منه و هو الرجوع إليه،و إذا كان يريدها فسيقول لها كن فيكون لأن قوله حق لا مرد له،و يظهر اليوم أن الملك له لا سلطنه لشيء غيره على شيء،و عند ذلك يتميز بتمييزه من أطاعه ممن عصاه لأنه يعلم كل غيب و شهاده عن حكمه و خبره (۱).

[سوره الأنعام (۶): الآيات ۷۴ الى ۸۳]

اشاره

وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْنٰاماً آلِهَهً إِنِّي أَرٰاكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۷۴) وَ كَذٰلِكَ نُرِي إِبْرٰاهِيمَ مَلَكُوتَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ اَلْمُوقِنِينَ (۷۵) فَلَمّٰا جَنَّ عَلَيْهِ اَللَّيْلُ رَأىٰ كَوْكَباً قٰالَ هٰذٰا رَبِّي فَلَمّٰا أَفَلَ قٰالَ لاٰ أُحِبُّ اَلْآفِلِينَ (۷۶) فَلَمّٰا رَأَى اَلْقَمَرَ بٰازِغاً قٰالَ هٰذٰا رَبِّي فَلَمّٰا أَفَلَ قٰالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ اَلْقَوْمِ اَلضّٰالِّينَ (۷۷) فَلَمّٰا رَأَى اَلشَّمْسَ بٰازِغَهً قٰالَ هٰذٰا رَبِّي هٰذٰا أَكْبَرُ فَلَمّٰا أَفَلَتْ قٰالَ يٰا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمّٰا تُشْرِكُونَ (۷۸) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ حَنِيفاً وَ مٰا أَنَا مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (۷۹) وَ حٰاجَّهُ قَوْمُهُ قٰالَ أَ تُحٰاجُّونِّي فِي اَللّٰهِ وَ قَدْ هَدٰانِ وَ لاٰ أَخٰافُ مٰا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَ فَلاٰ تَتَذَكَّرُونَ (۸۰) وَ كَيْفَ أَخٰافُ مٰا أَشْرَكْتُمْ وَ لاٰ تَخٰافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللّٰهِ مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰاناً فَأَيُّ اَلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۱) اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمٰانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ اَلْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (۸۲) وَ تِلْكَ حُجَّتُنٰا آتَيْنٰاهٰا إِبْرٰاهِيمَ عَلىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجٰاتٍ مَنْ نَشٰاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۸۳)

۱- ۱) .الانعام ۵۶-۷۳:بحث روائى فى:علم اللّه؛عذاب اللّه فى الدنيا؛اوضاع الامه بعد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

بیان:

بیان: (۱)

قوله تعالی: وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِیمُ لِأَبِیهِ آزَرَ القراءات السبع فی آزر بالفتح فیکون عطف بیان أو بدلا من أبیه و فی بعض القراءات «آزر» بالضم و ظاهره أنه منادی مرفوع بالنداء،و التقدیر:یا آزر أ تتخذ أصناما آلهه،و قد عد من القراءات «أ أزرا تتخذ» مفتتحا بهمزه الاستفهام،و بعده «أزرا» بالنصب مصدر أزر یأزر بمعنی قوی و المعنی:و اذ قال إبراهیم لأبیه أ تتّخذ أصناما للتقوی و الاعتضاد.

و قد اختلف المفسرون علی القراءه الاولی المشهوره و الثانیه الشاذه فی «آزَرَ» أنه اسم علم لأبیه أو لقب أرید بمعناه المدح أو الذم بمعنی المعتضد أو بمعنی الأعرج أو المعوج أو غیر ذلک و منشأ ذلک ما ورد فی عده روایات أن اسم أبیه«تارح»بالحاء المهمله أو المعجمه و یؤیده ما ضبطه التاریخ من اسم أبیه،و ما وقع فی التوراه الموجوده أنه علیه السّلام ابن تارخ.

کما اختلفوا أن المراد بالأب هو الوالد أو العم أو الجد الامی أو الکبیر المطاع و منشأ ذلک ایضا اختلاف الروایات فمنها ما یتضمن أنه کان والده و أن إبراهیم علیه السّلام سیشفع له یوم القیامه و لکن لا یشفّع بل یمسخه اللّه ضبعا منتنا فیتبرأ منه إبراهیم،و منها ما یدل علی أنه لم یکن والده،و أن والده کان موحدا غیر مشرک،و ما یدل علی أن آباء النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم کانوا جمیعا موحدین غیر مشرکین الی غیر ذلک من الروایات،و قد اختلفت فی سائر ما قص من أمر إبراهیم اختلافا عجیبا حتی اشتمل بعضها علی نظائر ما ینسبه إلیه العهد العتیق مما تنزه عنه

۱- ۱) .الانعام ۷۴-۸۳:کلام فی:الدعوه و القیام بدین الفطره و الانتهاض لنشر عقیده التوحید.

الخله الإلهيه و النبوه و الرساله (۱).

قوله تعالی: أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّی أَراکَ وَ قَوْمَکَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ قال الراغب فی المفردات:الصنم جثه متخذه من فضه أو نحاس أو خشب کانوا یعبدونها متقربین به الی اللّه تعالی و جمعه أصنام قال اللّه تعالی:أ تتخذ أصناما آلهه،لأکیدنّ أصنامکم،انتهی، و ما ذکره من اتخاذه من فضه أو نحاس أو خشب إنما هو من باب المثال لا ینحصر فیه اتخاذها بل کان یتخذ من کل ما یمکن أن یمثل به تمثال من أقسام الفلزّات و الحجاره و غیرها،و قد روی أن بنی حنیفه من الیمامه کانوا قد اتخذوا صنما من أقط،و ربما کانوا یتخذونه من الطین و ربما کان صوره مصوره.

و کیف کان فقد کانت الأصنام ربما یمثل بها موضوع اعتقادی غیر محسوس کإله السماء و الأرض و إله العدل،و ربما یمثل بها موضوع محسوس کصنم الشمس و صنم القمر،و قد کانت من النوعین جمیعا أصنام لقوم ابراهیم علیه السّلام علی ما تؤیده الآثار المکشوفه منهم فی خرائب بابل و قد کانوا یعبدونها تقربا بها الی أربابها،و بأربابها الی اللّه سبحانه،و هذا انموذج بارز من سفه أحلام البشر أن یخضع أعلی حد الخضوع-و هو خضوع العبد للرب-لمثال مثل به موضوعا یستعظم أمره و یعظمه،و حقیقته منتهی درجه خضوع المصنوع المربوب لصانعه من صانع لمصنوع نفسه کان الواحد منهم یأخذ خشبه فینحت بیده منه صنما ثم ینصبه فیعبده و یتذلل له و یخضع و لذلک جیء بلفظه الأصنام فی قوله المحکی: «أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً» نکره لیدل علی هوان أمرها و حقارته من جهه أنها مصنوعه لهم مخلوقه بأیدیهم کما یشیر إلیه قوله علیه السّلام لقومه فیما حکی اللّه: أَ تَعْبُدُونَ مٰا تَنْحِتُونَ (الصافات/۹۵)و من جهه أنها فاقده لأظهر صفات الربوبیه و هو العلم و القدره کما فی قوله لابیه: إِذْ قٰالَ لِأَبِیهِ یٰا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مٰا لاٰ یَسْمَعُ وَ لاٰ

۱- ۱) .الانعام ۷۴-۸۳:کلام فی:ابراهیم و ابیه آزر،مسلک القرآن فی قصصه.

يُبْصِرُ وَ لاٰ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (مريم۴۲/).

فقوله: «أَ تَتَّخِذُ أَصْنٰاماً» الخ؛معناه:أ تتخذ أصناما لا خطر فی أمرها آلهه و الإله هو الذی فی أمره خطر عظیم إنی أراک و قومک فی ضلال مبین،و کیف لا یظهر هذا الضلال و هو عباده و تذلل عبودی من صانع فیه آثار العلم و القدره لمصنوعه الذی یفقد العلم و القدره.

و الذی تشتمل علیه الآیه أعنی قوله: «أَ تَتَّخِذُ أَصْنٰاماً آلِهَهً» الخ؛من الحجاج و إن کان بمنزله التلخیص لعده احتجاجات واجه بها ابراهیم علیه السّلام أباه و قومه علی ما حکی تفصیلها فی عده مواضع من القرآن الکریم إلا أنه أول ما حاج به أباه و قومه فإن الذی حکاه اللّه سبحانه من محاجته هو حجاجه أباه و حجاجه قومه فی أمر الأصنام و حجاجهم فی ربوبیه الکوکب و القمر و الشمس و حجاجه الملک.

أما حجاجه فی ربوبیه الکوکب و القمر و الشمس فالآیات داله علی کونه بعد الحجاج فی أمر الأصنام،و الاعتبار و التدبیر یعطی أن یکون حجاجه الملک بعد ما ظهر أمره و شاع مخالفته لدین الوثنیه و الصابئه و کسر الأصنام،و أن یکون مبدأ أمره مخالفته أباه فی دینه و هو معه و عنده قبل أن یواجه الناس و یخالفهم فی نحلتهم فقد کان أول ما حاج به فی التوحید هو ما حاج به أباه و قومه فی أمر الأصنام.

قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ نُرِی إِبْرٰاهِیمَ مَلَکُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الخ؛ظاهر السیاق أن تکون الإشاره بقوله: «کَذٰلِکَ» الی ما تضمنته الآیه السابقه: «وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِیمُ لِأَبِیهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْنٰاماً آلِهَهً إِنِّی أَرٰاکَ» الخ؛أنه علیه السّلام اری الحق فی ذلک،فالمعنی:علی هذا المثال من الإراءه نری إبراهیم ملک السماوات و الأرض.

و بمعونه هذه الإشاره و دلاله قوله فی الآیه التالیه: «فَلَمّٰا جَنَّ عَلَیْهِ اللَّیْلُ» الداله علی ارتباط ما بعده بما قبله یظهر أن قوله: «نُرِی» لحکایه الحال الماضیه کقوله تعالی: وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی الَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ (القصص۵/).

فالمعنى:أنّا أرينا إبراهيم ملكوت السماوات و الأرض فبعثه ذلك أن حاج أباه و قومه فى أمر الأصنام و كشف له ضلالهم،و كنا نمده بهذه العنايه و الموهبه و هى إراءه الملكوت و كان على هذه الحال حتى جنّ عليه الليل و رأى كوكبا.

و بذلك يظهر أن ما يتراءى من بعضهم:أن قوله: «وَ كَذٰلِكَ نُرِى» الخ؛كالمعترضه لا يرتبط بما قبله و لا بما بعده،و كذا قول بعضهم:إن إراءه الملكوت أول ما ظهر من أمرها فى إبراهيم عليه السّلام أنه لما جنّ عليه الليل رأى كوكبا،الخ؛فاسد لا ينبغى أن يصار إليه.

و أما ملكوت السماوات و الأرض فالملكوت هو الملك مصدر كالطاغوت و الجبروت و إن كان آكد من حيث المعنى بالنسبه الى الملك كالطاغوت و الجبروت بالنسبه الى الطغيان و الجبر أو الجبران.

قوله تعالى: وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ اللام للتعليل،و الجمله معطوفه على أخرى محذوفه و التقدير:ليكون كذا و كذا و ليكون من الموقنين.

و اليقين هو العلم الذى لا يشوبه شك بوجه من الوجوه،و لعل المراد به ان يكون على يقين بآيات اللّه على حد ما فى قوله: وَ جَعَلْنٰا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا لَمّٰا صَبَرُوا وَ كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يُوقِنُونَ (السجده۲۴/)و ينتج ذلك اليقين بأسماء اللّه الحسنى و صفاته العليا.

و فى معنى ذلك ما أنزله فى خصوص النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال: سُبْحٰانَ الَّذِى أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بٰارَكْنٰا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيٰاتِنٰا (الإسراء۱/) و قال: مٰا زٰاغَ الْبَصَرُ وَ مٰا طَغىٰ، لَقَدْ رَأىٰ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِ الْكُبْرىٰ (النجم۱۸/)و أما اليقين بذاته المتعاليه فالقرآن يجلّه تعالى ان يتعلق به شك أو يحيط به علم و إنما يسلّمه تسليما.

و قد ذكر فى كلامه تعالى من خواص العلم اليقينى بآياته تعالى انكشاف ما وراء ستر الحس من حقائق الكون على ما يشاء اللّه تعالى كما فى قوله: كَلاّٰ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (التكاثر۶/)و قوله: كَلاّٰ إِنَّ كِتٰابَ الْأَبْرٰارِ لَفِى عِلِّيِّينَ، وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا

عِلِّيُّونَ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (المطففين ۲۱/).

قوله تعالى: فَلَمّٰا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأىٰ كَوْكَباً قٰالَ هٰذٰا رَبِّي الى آخر الآيه؛ قال الراغب فى المفردات:أصل الجن(بفتح الجيم)ستر الشىء عن الحاسه يقال:جنه الليل و أجنّه و جن عليه:فجنّه ستره،و أجنه جعل له ما يجنه كقولك:قبرته و أقبرته و سقيته و أسقيته،و جن عليه كذا ستر عليه قال عزّ و جل:فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا،انتهى.

فجن الليل إسداله الظلام لا مجرد ما يحصل بغروب الشمس.

و قوله: «فَلَمّٰا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ» تفريع على ما تقدم من نفيه ألوهيه الأصنام بما يرتبطان بقوله: «وَ كَذٰلِكَ نُرِي إِبْرٰاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» و محصّل المعنى على ذلك أنّا كنا نريه الملكوت من الأشياء فأبطل الوهيه الأصنام اذ ذاك،و دامت عليه الحال فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال كذا و كذا.

و قوله: رَأىٰ كَوْكَباً كأن تنكير الكوكب إنما هو لنكته راجعه الى مرحله الإخبار و التحدث فلا غرض فى الكلام يتعلق بتعيين هذا الكوكب و أنه أىّ كوكب كان من السيارات أو الثوابت لأن الذى أخذه فى الحجاج يجرى فى أى كوكب من الكواكب يطلع و يغرب لا أن إبراهيم عليه السّلام أشار الى كوكب ما من الكواكب من غير ان يمتاز بأى مميز مفروض:أما أولا فلأن اللفظ لا يساعده فلا يقال لمن أشار الى كوكب بين كواكب لا تحصى كثره فقال:هذا ربى:إنه رأى كوكبا قال هذا ربى،و أما ثانيا فلأن ظاهر الآيات أنه كان هناك قوم يعبدون الكوكب الذى أشار اليه و قال فيه ما قال،و الصابئون ما كانوا يعبدون أى كوكب و لا يحترمون إلا السيارات.

و قوله تعالى: قٰالَ هٰذٰا رَبِّي المراد بالرب هو مالك الأشياء المربوبين،المدبّر لأمرهم لا الذى فطر السماوات و الأرض و أوجد كل شىء بعد ما لم يكن موجودا فإنه اللّه سبحانه الذى ليس بجسم و لا جسمانى و لا يحويه مكان و لا يقع عليه إشاره،و الذى يظهر مما

حکی من کلام إبراهیم مع قومه فی أمر الأصنام ظهورا لا شک فیه أنه کان علی بیّنه من ربه و له من العلم باللّه و آیاته ما لا یخفی علیه معه أن اللّه سبحانه أنزه ساحه من التجسم و التمثل و المحدودیه،قال تعالی حکایه عنه فی محاوره له مع أبیه: یٰا أَبَتِ إِنِّی قَدْ جٰاءَنِی مِنَ الْعِلْمِ مٰا لَمْ یَأْتِکَ فَاتَّبِعْنِی أَهْدِکَ صِرٰاطاً سَوِیًّا الی آخر الآیات(مریم۴۳/).

قوله تعالی: فَلَمّٰا أَفَلَ قٰالَ لاٰ أُحِبُّ الْآفِلِینَ الأفول الغروب و فیه إبطال ربوبیه الکوکب بعروض صفه الافول له فإن الکوکب الغارب ینقطع بغروبه ممن طلع علیه و لا یستقیم تدبیر کونی مع الانقطاع.

علی ان الربوبیه و المربوبیه بارتباط حقیقی بین الرب و المربوب و هو یؤدی الی حب المربوب لربه لإنجذابه التکوینی إلیه و تبعیّته له،و لا معنی لحب ما یفنی و یتغیر عن جماله الذی کان الحب لأجله،و ما یشاهد من ان الانسان یحب کثیرا الجمال المعجّل و الزینه الداثره فإنما هو لاستغراقه فیه من غیر ان یلتفت الی فنائه و زواله فمن الواجب ان یکون الرب ثابت الوجود غیر متغیر الأحوال کهذه الزخارف المزوّقه التی تحیا و تموت و تثبت و تزول و تطلع و تغرب و تظهر و تخفی و تشب و تشیب و تنضر و تشین،و هذا وجه برهانی و ان کان ربما یتخیل انه بیان خطابی أو شعری فافهم ذلک.

و علی أی حال فهو علیه السّلام أبطل ربوبیه الکوکب بعروض الافول له إما بالتکنیه عن البطلان بأنه لا یحبه لأفوله لأن المربوبیه و العبودیه متقومه بالحب فلیس یسع من لا یحب شیئا أن یعبده و قد ورد فی المروی عن الصادق علیه السّلام:«هل الدین إلا الحب»؟و قد بیّنا ذلک فیما تقدم.

و إما لکون الحجه متقومه بعدم الحب و إنما ذکر الافول لیوجه به عدم حبه له المنافی للربوبیه لان الربوبیه و الالوهیه تلازمان المحبوبیه فما لا یتعلق به الحب الغریزی الفطری لفقدانه الجمال الباقی الثابت لا یستحق الربوبیه،و هذا الوجه هو الظاهر یتکئ علیه سیاق الاحتجاج فی الآیه.

قوله تعالی: فَلَمّٰا رَأَی الْقَمَرَ بٰازِغاً قٰالَ هٰذٰا رَبِّی الی آخر الآیه؛البزوغ هو الطلوع تقدم الکلام فی دلاله قوله: «فَلَمّٰا رَأَی» الخ؛علی اتصال القضیه بما قبلها،و قوله:

«هٰذٰا رَبِّی» علی سبیل الافتراض أو المجاراه و المماشاه و التسلیم نظیر ما تقدم فی الآیه السابقه.

و أما قوله بعد أفول القمر: لَئِنْ لَمْ یَهْدِنِی رَبِّی لَأَکُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضّٰالِّینَ فهو موضوع وضع الکنایه فهو علیه السّلام أبطل ربوبیه الکوکب بما یعم کل غارب و لما غرب القمر ظهر عندئذ رأیه فی أمر ربوبیته بما کان قد قاله قبل ذلک فی الکوکب «لاٰ أُحِبُّ الْآفِلِینَ» فقوله: «لَئِنْ لَمْ یَهْدِنِی رَبِّی» الخ؛إشاره الی ان الوضع الذی ذکره فی القمر بقوله: «هٰذٰا رَبِّی» کان ضلالا لو دام و أصرّ علیه کان أحد اولئک الضالین القائلین بربوبیته و الوجه فی کونه ضلالا ما قاله فی الکوکب حیث عبّر بوصف لا یختص به بل یصدق فی مورده و کل مورد یشابهه.

قوله تعالی: فَلَمّٰا رَأَی الشَّمْسَ بٰازِغَهً قٰالَ هٰذٰا رَبِّی هٰذٰا أَکْبَرُ الکلام فی دلاله اللفظ علی الاتصال بما قبله لمکان قوله: «فَلَمّٰا» و کون قوله: «هٰذٰا رَبِّی» مسوقا للافتراض أو التسلیم کما تقدم فی الآیه السابقه.

و قد کان تکرر قوله: «هٰذٰا رَبِّی» فی القمر لما رآه بازغا بعد ما رأی الکوکب،و لذلک ضم قوله: «هٰذٰا أَکْبَرُ» الی قوله: «هٰذٰا رَبِّی» فی الشمس فی المره الثالثه لیکون بمنزله الاعتذار للعود الی فرض الربوبیه لها مع تبیّن خطاء افتراضه مره بعد مره.

و قد تقدمت الإشاره الی أن إشارته الی الشمس بلفظه «هٰذٰا» تشعر بأنه علیه السّلام ما کان یعرف من الشمس ما یعرفه أحدنا أنه جرم سماوی یطلع و یغرب بحسب ظاهر الحس فی کل یوم و لیله،و إلیها تستند النهار و اللیل و الفصول الأربعه السنویه الی غیر ذلک من نعوتها.

فإن الإتیان فی الإشاره بلفظ المذکر هو الذی یستریح إلیه من لا یمیّز المشار إلیه فی نوعه کما

تقول فیمن لاح لک شبحه و أنت لا تدری أرجل أم امرأه:من هذا؟و نظیره ما یقال فی شبح لا یدری أ من أولی العقل هو أولا:ما هذا؟فلعله إنما کان ذلک من إبراهیم علیه السّلام أول ما خرج من مختفی أخفی فیه الی أبیه و قومه،و لم یکن عهد مشاهد الدنیا الخارجه و المجتمع البشری فرأی جرما هو کوکب و جرما هو القمر و جرما هو الشمس،و کلما شاهد واحدا منها-و لم یکن یشاهد إلا جرما مضیئا لامعا-قال:هذا ربی،علی سبیل عدم المعرفه بحاله معرفه تامه کما سمعت.

و یؤیده بعض التأیید قوله: فَلَمّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِینَ فإن فیه إشعارا بأنه علیه السّلام مکث بانیا علی کون الکوکب ربا حتی شاهد غروبه فحکم بأن الفرض باطل و أنه لیس برب،و لو کان عالما بأنه سیغرب أبطل ربوبیته مقارنا لفرض ربوبیته کما فعل ذلک فی أمر الأصنام علی ما یدل علیه قوله لأبیه: «أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَهً إِنِّی أَراکَ وَ قَوْمَکَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ» و قوله أیضا: «یا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا یَسْمَعُ وَ لا یُبْصِرُ وَ لا یُغْنِی عَنْکَ شَیْئاً» .

و إن أمکن أن یقال:إنه أراد بتأخیر قوله: «لا أُحِبُّ الْآفِلِینَ» الی أن یأفل ان یحاجهم بما وقع علیه الحس کما أراد بما فعل بالأصنام حیث جعلهم جذاذا إلا کبیرا لهم أن یریهم عجز الأصنام و کونها أجسادا میته لا تدفع عن أنفسها الضر و الشر (1).

قوله تعالی: إِنِّی وَجَّهْتُ وَجْهِیَ لِلَّذِی فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ الی آخر الآیه ذکر الراغب فی المفردات:أن أصل الفطر الشقّ طولا یقال:فطر فلان کذا فطرا و أفطر هو فطورا و انفطر انفطارا قال:هل تری من فطور أی اختلال و وهی فیه،و ذلک قد یکون علی سبیل الفساد،و قد یکون علی سبیل الصلاح قال:السماء منفطر به کان وعده مفعولا.

---

۱ – ۱) .الانعام ۷۴-۸۳:بحث تفسیری فی:تذکیر الاشاره فی قوله «هٰذا رَبِّی هٰذا أَکْبَرُ» ؛معنی قول ابراهیم علیه السّلام «لا أُحِبُّ الْآفِلِینَ» ؛احتجاج فی رد عقاید المشرکین.

و فطرت الشاه حلبتها بإصبعين،و فطرت العجين اذا عجنته فخبزته من وقته،و منه الفطره،و فطر اللّه الخلق و هو إيجاده الشىء و إبداعه على هيئه مترشحه لفعل من الأفعال فقوله:فطره اللّه التى فطر الناس عليها إشاره منه تعالى الى ما فطر أى أبدع و ركز فى الناس من معرفته تعالى،و فطره اللّه هى ما ركز فيه من قوته على معرفه الإيمان و هو المشار إليه بقوله:

و لئن سألتهم من خلقهم ليقولن اللّه،انتهى.و ذكر أيضا:أن الحنف هو ميل عن الضلال الى الاستقامه و الجنف ميل عن الاستقامه الى الضلال قال:و سمّت العرب كل من حج أو اختتن حنيفا تنبيها على أنه على دين إبراهيم عليه السّلام و الأحنف من فى رجله ميل،قيل:سمى بذلك على التفاؤل و قيل:بل استعير للميل المجرد،انتهى.

لما تبرأ عليه السّلام من شركهم و شركائهم بقوله: «يٰا قَوْمِ إِنِّی بَرِیءٌ» الخ؛و قد سلك إليه تدريجا بإظهار عدم تعلق قلبه بالشريك حيث قال: لاٰ أُحِبُّ الْآفِلِینَ ثم الإيمان الى كون عباده الشريك ضلالا حيث قال: «لَئِنْ لَمْ یَهْدِنِی رَبِّی لَأَکُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضّٰالِّینَ» ثم التبرى الصريح من ذلك بقوله: «یٰا قَوْمِ إِنِّی بَرِیءٌ مِمّٰا تُشْرِکُونَ» رجع الى توحيده التام فى الربوبيه، و هو إثبات الربوبيه و المعبوديه للذى فطر السماوات و الأرض،و نفى الشرك عن نفسه فقال:

«إِنِّی وَجَّهْتُ وَجْهِیَ لِلَّذِی فَطَرَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ حَنِیفاً» .

فتوجيه الوجه كنايه عن الإقبال الى اللّه سبحانه بالعباده فإن لازم العبوديه و المربوبيه أن يتعلق العبد المربوب بربه فى قوته و إرادته،و يدعوه و يرجع إليه فى جمع أعماله،و لا يكون دعاء و لا رجوع إلا بتوجيه الوجه و الإقبال إليه فكنّى بتوجيه الوجه عن العباده التى هى دعاء و رجوع.

و ذكر ربه و هو اللّه سبحانه الذى وجه وجهه إليه،بنعته الذى يخصه بلا نزاع فيه و هو فطر السماوات و الأرض،و جاء بالموصول و الصله ليدل على العهد فلا يشتبه الأمر على أحد منهم فقال:للذى فطر السماوات و الأرض أى إنى أقبلت بعبادتى على من ينتهى إليه إيجاد كل شىء

و إبداعه،و هو الذی یثبته و یثبتونه فوق الجمیع.

ثم نفی غیره مما یدعونه شریکا بقوله: «حَنِيفاً» أی مائلا إلیه عن غیره نافیا للشریک عنه،و أکده بقوله: «وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» فأفاد مجموع قوله: «إِنِّي وَجَّهْتُ» الخ؛إثبات المعبودیه للّه تعالی و نفی الشریک عنه قریبا مما تفیده الکلمه الطیبه:لا إله إلا اللّه.

و اللام فی قوله: «لِلَّذِي» للغایه و تفید معنی الی،و کثیرا ما تستعمل فی الغایه اللام کما تستعمل«الی»قال: أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ (البقره۱۱۲/) وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّٰهِ (لقمان۲۲/).

و فی تخصیص فطر السماوات و الأرض من بین صفاته تعالی الخاصه و کذا من بین الألفاظ الداله علی الخلقه کالباری و الخالق و البدیع إشاره الی ما یؤثره علیه السّلام من دین الفطره و قد کرر توصیف هذا الدین فی القرآن الکریم بأنه دین ابراهیم الحنیف و دین الفطره أی الدین الذی بنیت معارفه و شرائعه علی خلقه الإنسان و نوع وجوده الذی لا یقبل التبدل و التغیر فإن الدین هو الطریقه المسلوکه التی یقصد بها الوصول الی السعاده الحقیقه و السعاده الحقیقیه هی الغایه المطلوبه التی یطلبها الشیء حسب ترکب وجوده و تجهزه بوسائل الکمال طلبا خارجیا واقعیا،و حاشا أن یسعد الإنسان أو أی شیء آخر من الخلیقه بأمر و لم یتهیأ بحسب خلقته له أو هیئ لخلافه کأن یسعد بترک التغذی أو النکاح أو ترک المعاشره و الاجتماع و قد جهز بخلافها،أو یسعد بالطیران کالطیر أو بالحیاه فی قعر البحار کالسمک و لم یجهز بما یوافقه.

فالدین الحق هو الذی یوافق بنوامیسه الفطره و حاشا ساحه الربوبیه أن یهدی الإنسان أو أی مخلوق آخر مکلف بالدین-إن کان-الی غایه سعیده مسعده و لا یوافق الخلقه أو لم یجهز بما یسلک به إلیها فإنما الدین عند اللّه الإسلام و هو الخضوع للّه بحسب ما یهدی إلیه و یدل علیه صنعه و إیجاده.

قوله تعالی: وَ حٰاجَّهُ قَوْمُهُ قٰالَ أَ تُحٰاجُّونِّي فِي اللّٰهِ وَ قَدْ هَدٰانِ .قسّم تعالی

حججه علیهم السّلام الی قسمین:أحدهما ما بدأ به هو فحاج الناس،و ثانیهما ما بدأ به الناس فکلموه به بعد ما تبرأ من آلهتهم،و هذا الذی تعرّض له فی الآیه و ما بعده هو القسم الثانی.

لم یذکر تعالی ما أوردوه علیه من الحجه لکنه لوّح إلیه بقوله حکایه عن إبراهیم علیه السّلام:

«وَ لاٰ أَخٰافُ مٰا تُشْرِکُونَ بِهِ» فهو الاحتجاج لوجوب عباده آلهتهم من جهه الخوف و قد تقدم و سیجیء أن الذی بعثهم الی اتخاذ الآلهه و عبادتها أحد أمرین:الخوف من سخطها و قهرها بما لها من السلطه علی حوادث العالم الأرضی،أو رجاء البرکه و السعاده منها،و أشد الأمرین تأثیرا فی نفوسهم هو الأمر الأول أعنی الخوف و ذلک أن الناس بحسب الطباع یرون ما بأیدیهم من النعمه و السعاده المادیه ملک أنفسهم إما مرهون جهدهم فی سلوک سبیل المعاش فی اقتناء الأموال و اکتساب المقام و الجاه أو مما ملّکهم إیاه الجد الرفیع أو البخت السعید کمن ورث مالا من مورّثه أو صادف کنزا فتملّکه أو ساد قومه برئاسه أبیه.

فطریق الرجاء قلیل التأثیر فی وجوب العبودیه حتی أن المسلمین مع ما بأیدیهم من التعلیم الکامل الإلهی یتأثرون من الوعد و البشاره أقل مما یتأثرون من الوعید و الإنذار، و لذلک بعینه نری أن القرآن یذکر الإنذار من وظائف الأنبیاء أکثر من ذکر التبشیر،و کلا الأمرین من وظائفهم و الطرق التی یستعملونها فی الدعوه الدینیه.

و بالجمله اختار قوم إبراهیم علیه السّلام فی محاجتهم إیاه عند ما کلموه فی أمر الآلهه سبیل الخوف فأرهبوه من قهر الآلهه و سخطها و وعظه بسلوک سبیلهم و لزوم طریقهم فی التقرب بالآلهه و رفض القول بربوبیه اللّه سبحانه،و إثباته فی المقام الذی أثبتوه فیه و هو أنه الذی ینتهی إلیه الکل فحسب.

و لما وجد علیه السّلام کلامهم ینحل الی جزءین:الردع عن القول بربوبیه اللّه سبحانه و التحریض علی القول بربوبیه آلهتهم احتج علیهم من الجهتین جمیعا لکن لا غنی للجهه الاولی عن الثانیه کما سیجیء.

و ما أورده فی الاحتجاج علی حجاجهم فی اللّه سبحانه هو قوله: «أَ تُحٰاجُّونِّی فِی اللّٰهِ وَ قَدْ هَدٰانِ» أی إنی واقع فی أمر مفروغ عنه و مهتد بهدایه ربی حیث آتانی العلم بما أرانی من ملکوت السماوات و الأرض و ألهمنی بذلک حجه أنفی بها ربوبیه غیره من الأصنام و الکواکب، و أنی لا استغنی عن رب یدبر أمری فأنتج لی أنه هو الرب وحده لا شریک له،و اذ هدانی إلیه فأنا فی غنی عن الإصغاء الی حجتکم و البحث عن الربوبیه ثانیا فإن البحث إنما ینفع الطالب و لا طلب بعد الوصول الی الغایه.

هذا ما یعطیه ظاهر الآیه بالتبادر الی الذهن لکن هناک معنی أدق من ذلک یظهر بالتدبر و هو أن قوله: «وَ قَدْ هَدٰانِ» استدلال بنفس الهدایه لا استغناء بالهدایه عن الاستدلال و تقریره:أن اللّه هدانی بما علمنی من الحجه علی نفی ربوبیه غیره و إثبات ربوبیته،و نفس هدایته دلیل علی أنه رب و لا رب غیره فإن الهدایه الی الرب من جمله التدبیر فهی شأن من هو رب،و لو لم یکن اللّه سبحانه هو ربی لم یکن لیهدینی و لا قام بها الی الذی هو الرب لکن اللّه هو هدانی فهو ربی.

و لم یکن لهم أن یقولوا:إن الذی علمک ما علمت و ألهمک الحجه هو بعض آلهتنا لأن الشیء لا یهدی الی ما یضره و یمیت ذکره و یفسد أمره فاهتداؤه علیه السّلام الی نفی ربوبیتها لا یصح أن ینسب إلیها،هذا.

و لکن کان لهم أن یقولوا أو أنهم قالوا:إن ذلک من فعل بعض آلهتنا فعل بک ذلک قهرا و سخطا أبعدک عن القول بربوبیتها و لقنک هذه الحجج لما وجد من فساد رأیک و علّه نفسک نظیر ما شافهت به عاد هودا علیه السّلام لما دعاهم الی توحید اللّه سبحانه و احتج علیهم بأن اللّه هو الذی یجب أن یرجی و یخاف،و أن آلهتهم لا تنفع و لا تضر فردّوا علیه بأن بعض آلهتنا اعتراک بسوء قال تعالی فی قصتهم حکایه عن هود علیه السّلام: وَ یٰا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ یُرْسِلِ السَّمٰاءَ عَلَیْکُمْ مِدْرٰاراً وَ یَزِدْکُمْ قُوَّةً إِلیٰ قُوَّتِکُمْ وَ لاٰ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِینَ، قٰالُوا یٰا هُودُ -الی أن

قال- إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرٰاکَ بَعْضُ آلِهَتِنٰا بِسُوءٍ قٰالَ إِنِّی أُشْهِدُ اللّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّی بَرِیءٌ مِمّٰا تُشْرِکُونَ، مِنْ دُونِهِ فَکِیدُونِی جَمِیعاً ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ (هود۵۵/).

فقوله علیه السّلام: وَ لاٰ أَخٰافُ مٰا تُشْرِکُونَ بِهِ الخ؛ینفی هذه الشبهه و کما أنه ینفی هذه الشبهه فإنه حجه تامه تنفی ربوبیه شرکائهم.

و محصّله:أنکم تدعوننی الی القول بربوبیه شرکائکم و رفض القول بربوبیه ربی بما تخافوننی من ان تمسنی شرکاؤکم بسوء،و ترهبوننی بإلقاء الشبهه فیما اهتدیت به،و إنی لا أخاف ما تشرکون به لأنها جمیعا مخلوقات مدبّره لا تملک نفعا و لا ضرا و اذ لم اخفها سقطت حجتکم و ارتفعت شبهتکم.

و لو کنت خفتها لم یکن الخوف الحاصل فی نفسی من صنع شرکائکم لأنها لا تقدر علی شیء بل کان من صنع ربی و کان هو الذی شاء ان اخاف شرکاءکم فخفتها فکان هذا الخوف دلیلا آخر علی ربوبیته و آیه أخری من آیات توحیده یوجب إخلاص العباده له لا دلیلا علی ربوبیه شرکائکم و حجه توجب عبادتها.

و الدلیل علی ان ذلک من ربی أنه وسع کل شیء علما فهو یعلم کل ما یحدث و یجری من خیر و شر فی مملکته التی أوجدها لغایات صحیحه متقنه،و کیف یمکن ان یعلم فی ملکه بشیء ینفع أو یضر فیسکت و لا یستقبله بأحد امرین:إما المنع أو الإذن؟

فلو حصل فی نفسی شیء من الخوف لکان بمشیه من اللّه و اذن علی ما یلیق بساحه قدسه، و کان ذلک من التدبیر الدال علی ربوبیته و نفی ربوبیه غیره أ فلا تتذکرون و ترجعون الی ما تدرکونه بعقولکم و تهدی إلیه فطرتکم.

فهذا وجه فی تقریر الحجه المودعه فی قوله: «وَ لاٰ أَخٰافُ مٰا تُشْرِکُونَ بِهِ إِلاّٰ أَنْ یَشٰاءَ رَبِّی شَیْئاً وَسِعَ رَبِّی کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً أَ فَلاٰ تَتَذَکَّرُونَ» و علی ذلک فقوله: «وَ لاٰ أَخٰافُ مٰا تُشْرِکُونَ بِهِ» کالمتمم للحجه فی قوله: «أَ تُحٰاجُّونِّی فِی اللّهِ وَ قَدْ هَدٰانِ» و هو مع ذلک حجه تامه فی نفسه

لإبطال ربوبيه شركائهم بعدم الخوف منها،قوله: «إِلاّ أَنْ يَشٰاءَ رَبِّى شَيْئاً» كالكلام فى الحجه على تقدير التسليم أى تحتجون على وجوب عبادتها بالخوف و لا ـ خوف فى نفسى،و لو فرض خوف لكان دليلا على ربوبيه ربى لا على ربوبيه شركائكم فإنه عن مشيه من ربى،و قوله:

وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً بيان و تعليل لكون الخوف المفروض مستندا الى مشيه ربه فإن فاطر السماوات و الأرض لا يجهل ما يقع فى ملكه فلا يقع إلا بإذن منه فهو الذى يدبر امره و يقوم بربوبيته،و قوله: «أَ فَلاٰ تَتَذَكَّرُونَ» استفهام توبيخى و إشاره الى أن الحجه فطريه، هذا.

قوله تعالى: وَ كَيْفَ أَخٰافُ مٰا أَشْرَكْتُمْ وَ لاٰ تَخٰافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللّٰهِ مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰاناً الخ؛ثم كرّ عليه السّلام عليهم بحجه أخرى تثبت المناقضه بين قولهم و فعلهم و بعباره اخرى:حالهم يكذب مقالهم و محصّله أنكم تأمروننى أن أخاف ما لا يجب أن يخاف منه،و أنتم أنفسكم لا تخافون من يجب ان يخاف منه فأنا أولى بالأمن منكم إن عصيتكم و لم آتمر بأمركم.

أما كون ما تأمروننى بخوفه لا يجب أن يخاف منه فلأن الأصنام و أربابها لا دليل على كونها مستقله بالضر و النفع حتى توجب الخوف منها،و أما كونكم لا تخافون من يجب أن يخاف منه فإنكم انفسكم أثبتم للّه سبحانه شركاء فى الربوبيه و لم ينزّل اللّه فى ذلك عليكم برهانا يمكن أن يعتمد عليه فان الصنع و الايجاد للّه سبحانه فله الملك و له الحكم فلو كان اتخذ بعض مخلوقاته شريكا لنفسه يوجب لنا بذلك عباده شريكه كان إليه لا الى غيره أن يبين لنا ذلك و يكشف عن وجه الحقيقه فيه،و الطريق فيه أن يقارنه بعلائم و آيات تدلى على أن له شركه فى كذا و كذا،و ذلك إما وحى أو برهان يتكئ على آثار خارجيه،و شيء من ذلك غير موجود.

و على هذا التقرير فقوله تعالى: «مٰا أَشْرَكْتُمْ» مقيد بحسب ما يستفاد من المقام بما قيد به

قوله: «أَشْرَکْتُمْ بِاللّٰهِ مٰا لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ عَلَیْکَمْ سُلْطٰاناً» و إنما ذکر هذا القید عند ذکر عدم خوفهم من شرکهم لأن الحجه الی ذکره هناک أحوج و هو ظاهر.و قوله: «فَأَیُّ الْفَرِیقَیْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» من تتمه الحجه،و المجموع برهان علی مناقضتهم أنفسهم فی دعوته علیه السّلام الی أن یخاف آلهتهم فإنهم یأمرونه بالخوف فیما لا یجب و هم أنفسهم لا یخافون فیما یجب.

و بالبیان السابق یظهر ان وصف شرکائهم بأن اللّه لم ینزل بها علیهم سلطانا افتراض استدعاه نوع الحجه التی وضعت فی الکلام لا ـ مفهوم له یثبت إمکان ان یأمر اللّه باتخاذ الشرکاء آلهه یعبدون فهو بمنزله قولنا:لا دلیل لکم علی ما ادّعیتم،فی جواب من یخوفنا من وضوع خرافی یدّعی أنه ربما ینفع و یضر،و لنا ان نبدل قولنا ذلک لو اردنا التکلم بلسان التوحید بقولنا:ما أنزل اللّه علی ذلک دلیلا،و الکلام بحسب التحلیل المنطقی یؤول الی قیاس استثنائی استثنی فیها نقیض المقدم فی الشرطیه لإنتاج نقیض التالی نحوا من قولنا:لو کان اللّه نزل بها علیکم سلطانا یدل علی قدرتهم علی الضر لکان اتخاذکم الشرکاء خوفا منها فی محله لکنه لم ینزل سلطانا فلیس اتخاذکم الشرکاء فی محله،و من المعلوم أن لا مفهوم فی هذا القیاس فلا حاجه الی القول بأن التقیید بقوله: «لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ عَلَیْکُمْ سُلْطٰاناً» للتهکم،أو للإشاره الی ان هذا وصف لازم لشرکائهم علی حد قوله تعالی: وَ مَنْ یَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ لاٰ بُرْهٰانَ لَهُ بِهِ (المؤمنون/۱۱۷)الی غیر ذلک من التحملات.

و الباء فی قوله: لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ للمعیه أو السببیه و قد کنی علیه السّلام عنهم و عن نفسه بالفریقین و لم یقل:أنا و انتم أو ما یشابه ذلک لیکون أبعد من تحریک الحمیه و تهییج العصبیه کما قیل،و لیدل علی تفرقهما و شقاق بینهما من جهه الاختلاف فی أصل الاصول و أم المعارف الحقیقیه بحیث لا یأتلفان بعد ذلک فی شیء.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یَلْبِسُوا إِیمٰانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِکَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ سألهم فی الآیه السابقه فی ضمن ما أقامه من الحجه عمن هو أحق بالأمن حیث

قال: «فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» ثم اجابهم عما سألهم لكون الجواب واضحا لا يختلف فيه الفريقان المتخاصمان و الجواب الذى هذا شأنه لا بأس بأن يبادر السائل الى إيراده من غير ان ينتظر المسئول فإن المسئول لا يخالف السائل فى ذلك حتى يخاف منه الرد،و قد حكى اللّه تعالى اعترافهم بذلك فى قصه كسر الأصنام: قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ، فَرَجَعُوا إِلىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظّالِمُونَ، ثُمَّ نُكِسُوا عَلىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا هٰؤُلاٰءِ يَنْطِقُونَ (الأنبياء۶۵/).

هذا ما يقتضيه سياق الكلام ان تكون الآيه من كلام إبراهيم عليه السّلام و مقوله لقوله،و أما كونها من كلام قومه و جوابا محكيا عنهم،و كذا كونها من اللّه سبحانه من باب القضاء بين الطرفين المتخاصمين فما لا يساعد عليه السياق البته.

و كيف كان فالكلام متضمن تأكيدا قويا من جهه اسنادات متعدده فى جمل اسميه و هى ما فى قوله: «لَهُمُ الْأَمْنُ» جمله اسميه هى خبر لقوله: «أُولٰئِكَ» و المجموع جمله اسميه هى خبر لقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛و المجموعه جمله اسميه،و كذلك ما عطف على قوله: «لَهُمُ الْأَمْنُ» من قوله: «وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» فينتج أنه لا شك فى اختصاص الذين آمنوا و لم يستروا إيمانهم بظلم بالأمن و الاهتداء و لا ريب.

فقوله: اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمٰانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ معناه اشتراط الإيمان فى إعطائه الأمن من كل ذنب و معصيه يفسد أثره بعدم الظلم غير أن هاهنا دقيقه و هى ان الذنب الاختيارى-كما استوفينا البحث عنه فى آخر الجزء السادس من الكتاب-أمر ذو مراتب مختلفه باختلاف الأفهام فمن الظلم ما هو معصيه اختياريه بالنسبه الى قوم و ليس بها عند آخرين.فالواقف فى منشعب طريقى الشرك و التوحيد مثلا و هو الذى يرى أن للعالم صانعا هو الذى فطر أجزائها و شق أرجائها و أمسك أرضها و سمائها،و يرى أنه نفسه و غيره مخلوقون مربوبون مدبرون،و ان الحياه الإنسانيه الحقيقيه إنما تسعد بالإيمان به و الخضوع له

فالظلم اللائح لهذا الإنسان هو الشرک باللّه و الإیمان بغیره بالربوبیه کالأصنام و الکواکب و غیرها علی ما یثبته إبراهیم علیه السّلام بقوله: «وَ کَیْفَ أَخٰافُ مٰا أَشْرَکْتُمْ وَ لاٰ تَخٰافُونَ أَنَّکُمْ أَشْرَکْتُمْ بِاللّٰهِ مٰا لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ عَلَیْکُمْ سُلْطٰاناً» فالإیمان الذی یؤثر أثره بالنسبه الی هذا الانسان انما یشترط فی إعطاءه الأمن من الشقاء بأن لا یلبسه ظلم الشرک و معصیته.

و من طوی هذه المرحله فآمن باللّه وحده فإنه یواجه من الظلم الکبائر من المعاصی کعقوق الوالدین و أکل مال الیتیم و قتل النفس المحترمه و الزنا و شرب الخمر فإیمانه فی تأثیره آثاره الحسنه یشترط باجتناب هذا النوع من الظلم،و قد وعده اللّه أن یکفّر عنه السیئات و المعاصی الصغیره إن اجتنب کبائر ما ینهی عنه،قال تعالی: إِنْ تَجْتَنِبُوا کَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئٰاتِکُمْ وَ نُدْخِلْکُمْ مُدْخَلاً کَرِیماً (النساء/۳۱)و فساد أثر هذا الإیمان هو الشقاء بعذاب هذه المعاصی و إن لم یکن عذابا خالدا غیر منقطع الآخر کعذاب الشرک بل منقطعا إما بحلول أجله و إما بشفاعه و نحوها.

و من تزوّد هذا الزاد من التقوی و حصّل شیئا من المعرفه بمقام ربه کان مسئولا باصناف من الظلم تبدو له بحسب درجه معرفته بربه کإتیان المکروهات و ترک المستحبات و التوغل فی المباحات،و فوق ذلک المعاصی فی مستوی الأخلاق الکریمه و الملکات الربانیه و وراء ذلک الذنوب التی تعترض سبیل الحب،و تحفّ بساط القرب،فالإیمان فی کل من هذه المراتب إنما یؤمن المتلبس به و یدفع عنه الشقاء اذا عری عن ملابسه الظلم المناسب لتلک المرتبه.

فلقوله تعالی: «الَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یَلْبِسُوا إِیمٰانَهُمْ بِظُلْمٍ» إطلاق من حیث الظلم لکنه إطلاق یختلف باختلاف مراتب الإیمان و إذا کان المقام مقام محاجه المشرکین انطبق الظلم المنفی علی ظلم الشرک فحسب و الأمن الذی یعطیه هذا الإیمان هو الأمن مما یخاف منه من الشقاء المؤبد و العذاب المخلّد،و الآیه مع ذلک آیه مستقله من حیث البیان مع قطع النظر عن خصوصیه

المورد تفيد أن الأمن و الاهتداء إنما يترتب على الإيمان بشرط انتفاء جميع انحاء الظلم الذى يلبسه و يستر أثره بالمعنى الذى تقدم بيانه.

و أما الإيمان المذكور فى الآيه ففيه إطلاق و المراد به الإيمان بالربوبيه الصالح للتقيد بما يصلحه أو يفسده ثم اذا قيد بقوله: «وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ» أفاد الإيمان بربوبيه اللّه سبحانه و رفض غيره من شركائهم فإن ابراهيم عليه السّلام ذكر فيما تحكى عنه الآيه السابقه أن قولهم بربوبيه شركائهم و إيمانهم بها مع كونها من خلق اللّه قول بما لا دليل لهم عليه من جانب اللّه و لا سلطان و أنهم بإيمانهم بشركائهم يتوقون شرا و يستأمنون شقاء ليس لها أن تدفعها لأنها لا تضر و لا تنفع،و أما هو عليه السّلام فقد خاف و آمن بمن هو فاطره و هو المتصرف بالهدايه و المدبر الذى له فى كل أمر إراده و مشيه لسعه علمه،ثم سألهم:أى الفريقين أحق بالأمن و الناجح بالإيمان بالرب،و لكل من الفريقين إيمان بالرب،و إن اختلفا من جهه الرب،و الذى آمنوا به بين مؤمن برب على ربوبيته دليل،و مؤمن برب لا دليل على ربوبيته بل الدليل على خلافه.

قوله تعالى: وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ الخ؛فى الإشاره بلفظ البعيد الى الحجه تفخيم و تعظيم لأمرها لكونها حجه قاطعه جاريه على صراط الفطره مأخوذه بمقدماتها منها.

و أما قوله: «نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ» فالدرجات-كما قيل-هى مراقى السلّم ثم توسّع فيها فاطلق على مراتب الكمال من المعنويات كالعلم و الايمان و الكرامه و الجاه و غير ذلك فرفعه تعالى من يشاء من عباده درجات من الرفع هو تخصيصه بكمالات معنويه و فضائل حقيقه فى الخيرات الكسبيه كالعلم و التقوى و غير الكسبيه كالنبوه و الرساله و الرزق و غيرها.

و الدرجات لكونها نكره فى سياق الايجاب مهمله غير مطلقه غير أن المتيقن من معناها بالنظر الى خصوص المورد هو درجات العلم و الهدايه فقد رفع اللّه إبراهيم عليه السّلام بهدايته و إراءته ملكوت السماوات و الأرض و إيتائه اليقين و الحجه القاطعه،و الجميع من العلم،و قد

قال تعالی فی درجات العلم: يَرْفَعِ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكَمْ وَ الَّذِينَ أَوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ (المجادله۱۱/).

ثم ختم الآیه بقوله: إِنَّ رَبَّکَ حَکِيمٌ عَلِيمٌ لتثبیت أن ذلک کله کان بحکمه منه تعالی و علم کما أن الحجج التی آتاها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم المذکوره فی السوره قبل هذه الحجه من حکمته و علمه تعالی،و فی الکلام التفات من التکلم الی الغیبه لتطییب قلب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و تثبیت المعارف المذکوره فیه (۱)(۲).

[سوره الأنعام (۶): الآیات ۸۴ الی ۹۰]

اشاره

وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَ نُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ (۸۴) وَ زَكَرِيّا وَ يَحْيى وَ عِيسى وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ اَلصّالِحِينَ (۸۵) وَ إِسْماعِيلَ وَ اَلْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كُلاًّ فَضَّلْنا عَلَى اَلْعالَمِينَ (۸۶) وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اِجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۸۷) ذلِكَ هُدَى اَللّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۸۸) أُولئِكَ اَلَّذِينَ آتَيْناهُمُ اَلْكِتابَ وَ اَلْحُكْمَ وَ اَلنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ (۸۹) أُولئِكَ اَلَّذِينَ هَدَى اَللّهُ فَبِهُداهُمُ اِقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرى لِلْعالَمِينَ (۹۰)

۱- ۱) .الانعام ۷۴-۸۳:بحث روائی فی:عصمه الانبیاء؛معنی قول ابراهیم علیه السّلام «هذا رَبِّی» ؛التوحید و الشرک.

۲- ۲) .الانعام ۷۴-۸۳:کلام فی قصه ابراهیم علیه السّلام و شخصیته و فیه ابحاث مختلفه قرآنیه و اخری علمیه و تاریخیه و غیر ذلک«قصه ابراهیم علیه السّلام فی القرآن؛منزله ابراهیم عند اللّه و موقفه العبودی،ما تقصه التوراه الموجوده فی ابراهیم.

بیان:

قوله تعالی: وَ وَهَبْنٰا لَهُ إِسْحٰاقَ وَ یَعْقُوبَ کُلاًّ هَدَیْنٰا إسحاق هو ابن ابراهیم و یعقوب هو ابن إسحاق علیهما السّلام،و قوله: «کُلاًّ هَدَیْنٰا» قدّم فیه کلا للدلاله علی أن الهدایه الإلهیه تعلقت بکل واحد من المعدودین استقلالا لا أنها تعلقت بعضهم استقلالا کإبراهیم و بغیره بتبعه،فهو بمنزله أن یقال:هدینا إبراهیم و هدینا إسحاق و هدینا یعقوب.کما قیل.

قوله تعالی: وَ نُوحاً هَدَیْنٰا مِنْ قَبْلُ فیه إشعار بأن سلسله الهدایه غیر منقطعه و لا مبتدئه من إبراهیم علیه السّلام بل کانت الرحمه قبله شامله لنوح علیه السّلام.

قوله تعالی: وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ دٰاوُدَ وَ سُلَیْمٰانَ -الی قوله- وَ کَذٰلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ الضمیر فی «ذُرِّیَّتِهِ» راجع الی نوح ظاهرا لأنه المرجع القریب لفظا،و لأن فی المعدودین من لیس هو من ذریه إبراهیم مثل لوط و إلیاس،علی ما قیل.

و ربما قیل:إن الضمیر یعود الی إبراهیم علیه السّلام و قد ذکر لوط و إلیاس علیهما السّلام من الذریه تغلیبا قال: وَ وَهَبْنٰا لَهُ إِسْحٰاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ جَعَلْنٰا فِی ذُرِّیَّتِهِ النُّبُوَّهَ وَ الْکِتٰابَ (العنکبوت/۲۷)أو أن المراد بالذریه هم السته المذکورون فی هذه الآیه دون الباقین،و أما قوله: «وَ زَکَرِیّٰا» الخ؛ و قوله: «وَ إِسْمٰاعِیلَ» الخ؛فمعطوفان علی قوله:و من «ذُرِّیَّتِهِ» علی قوله: «دٰاوُدَ» الخ؛و هو بعید من السیاق.

و أما قوله: «وَ كَذٰلِكَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ» فالظاهر أن المراد بهذا الجزاء هو الهدایه الإلهیه المذکوره،و إلیها الإشاره بقوله: «كَذٰلِكَ» و الإتیان بلفظ الإشاره البعیده لتفخیم أمر هذه الهدایه فهو نظیر قوله: كَذٰلِكَ یَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثٰالَ (الرعد/١٧)و المعنی نجزی المحسنین علی هذا المثال.

قوله تعالی: وَ زَكَرِیّٰا وَ یَحْییٰ وَ عِیسیٰ وَ إِلْیٰاسَ كُلٌّ مِنَ الصّٰالِحِینَ تقدم الکلام فی معنی الإحسان و الصلاح فیما سلف من المباحث و فی ذکر عیسی بین المذکورین من ذریه نوح علیهما السّلام و هو إنما یتصل به من جهه أمه مریم دلاله واضحه علی أن القرآن الکریم یعتبر أولاد البنات و ذریتهن أولادا و ذریه حقیقه،و قد تقدّم استفاده نظیر ذلک من آیه الإرث و آیه محرمات النکاح،و للکلام تتمه ستوافیک فی البحث الروائی الآتی إن شاء اللّٰه تعالی.

قوله تعالی: وَ إِسْمٰاعِیلَ وَ الْیَسَعَ وَ یُونُسَ وَ لُوطاً وَ كلاًّ فَضَّلْنٰا عَلَی الْعٰالَمِینَ الظاهر أن المراد بإسماعیل هو ابن ابراهیم أخو إسحاق علیهم السّلام و قوله: «الْیَسَعَ» بفتحتین کأسد و قرئ «اللّسیسع» کالضیغم أحد أنبیاء بنی إسرائیل ذکر اللّٰه اسمه مع إسماعیل علیهما السّلام کما فی قوله: وَ اذْكُرْ إِسْمٰاعِیلَ وَ الْیَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْیٰارِ (ص/۴٨) و لم یذکر شیئا من قصته فی کلامه.

و أما قوله: وَ كلاًّ فَضَّلْنٰا عَلَی الْعٰالَمِینَ فالعالم هو الجماعه من الناس کعالم العرب و عالم العجم و عالم الروم،و معنی تفضیلهم علی العالمین تقدیمهم بحسب المنزله علی عالمی زمانهم لما أن الهدایه الخاصه الإلهیه أخذتهم بلا واسطه،و أما غیرهم فإنما تشملهم رحمه الهدایه بواسطتهم،و یمکن أن یکون المراد تفضیلهم بما أنهم طائفه مهدیه بالهدایه الفطریه الإلهیه من غیر واسطه علی جمیع العالمین من الناس سواء عاصروهم أو لم یعاصروهم فإن الهدایه الإلهیه من غیر واسطه نعمه یتقدم بها من تلبّس بها علی من لم یتلبّس،و قد شملت المذکورین من الأنبیاء و من لحق بهم من آبائهم و ذریاتهم و إخوانهم فالمجتمع الحاصل منهم

مفضل على غيرهم جميعا بتفضيل إلهى.

و بالجمله الملاك فى أمر هذا التفضيل هو التلبس بتلك الهدايه الإلهيه التى لا واسطه فيها، و الأنبياء فضلوا على غيرهم بسبب التلبس بها فلو فرض تلبس من غيرهم بهذه الهدايه كالملائكه كما ربما يظهر من كلامه تعالى كالأئمه على ما تقدم فى البحث عن قوله تعالى: وَ إِذِ ابْتَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمٰاتٍ (البقره۱۲۴/)فى الجزء الأول من الكتاب فلا يفضل عليهم الأنبياء عليهم السّلام من هذه الحيثيه و إن أمكن أن يفضلوا عليهم من جهه اخرى غير جهه الهدايه.

قوله تعالى: وَ مِنْ آبٰائِهِمْ وَ ذُرِّيّٰاتِهِمْ وَ إِخْوٰانِهِمْ هذا التعبير يؤيد ما قدمناه أن المراد بيان اتصال سلسله الهدايه حيث أضاف الباقين الى المذكورين بأنهم متصلون بهم بابوّه أو بنوّه أو اخوّه.

قوله تعالى: وَ اجْتَبَيْنٰاهُمْ وَ هَدَيْنٰاهُمْ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ قال الراغب فى المفردات:يقال:جبيت الماء فى الحوض جمعته و الحوض الجامع له جابيه و جمعها«جواب» قال اللّه تعالى:و جفان كالجواب،و منه استعير جبيت الخراج جبايه و منه قوله تعالى: يُجْبىٰ إِلَيْهِ ثَمَرٰاتُ كُلِّ شَيْءٍ ،و الاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء قال عزّ و جل: فَاجْتَبٰاهُ رَبُّهُ .

قال:و اجتباء اللّه العبد تخصيصه إياه بفيض إلهى يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى من العبد،و ذلك للأنبياء و بعض ما يقارنهم من الصديقين و الشهداء كما قال تعالى: وَ كَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ، فَاجْتَبٰاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصّٰالِحِينَ وَ اجْتَبَيْنٰاهُمْ وَ هَدَيْنٰاهُمْ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ و قوله تعالى: ثُمَّ اجْتَبٰاهُ رَبُّهُ فَتٰابَ عَلَيْهِ وَ هَدىٰ ،و قال عزّ و جل: يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ،انتهى.

قوله تعالى: ذٰلِكَ هُدَى اللّٰهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ الى آخر الآيه؛ يبين تعالى أن الذى ذكره من صفه الهدايه التى هدى بها المذكورين من أنبيائه هو المعرّف لهداه الخاص به الذى يهدى به من يشاء من عباده.

فالهدى إنما يكون هدى-حق الهدى-اذا كان من اللّه سبحانه،و الهدى إنما يكون هدى اللّه اذا أورد المتلبس به صراطا مستقيما اتفق على الورود فيه أصحاب الهدى و هم الأنبياء المكرمون عليهم السّلام،و اتفق أجزاء ذلك الصراط فى الدعوه الى كلمه التوحيد و إقامه دعوه الحق و الاتسام بسمه العبوديه و التقوى.

أما الطريق الذى يفرّق فيه بين رسل اللّه فيؤمن فيه ببعض و يكفر ببعض أو يفرّق فيه بين أحكام اللّه و شرائعه فيؤخذ فيه ببعض و يترك بعض،و الطرق التى لا تضمن سعاده حياه المجتمع الإنسانى أو يسوق الى بعض ما ليس فيه السعاده الإنسانيه فتلك هى الطرق التى لا مرضاه فيها للّه سبحانه و قد انحرفت فيها عن شريعه الفطره الى مهابط الضلال و مزالق الأهواء،و الاهتداء إليها ليس اهتداء بهدى اللّه سبحانه.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً، أُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ حَقًّا (النساء/١٥١)و قال: أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتٰابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمٰا جَزٰاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلاّٰ خِزْيٌ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ يُرَدُّونَ إِلىٰ أَشَدِّ الْعَذٰابِ (البقره/٨٥)و قال:

وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوٰاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ (القصص/ ٥٠)يريد أن الطريق الذى فيه اتباع الهوى إنما هو ضلال لا يورد سالكه سعاده الحياه و ليس بهدى اللّه لأن فيه ظلما و اللّه سبحانه لم يجعل الظلم و لن يجعله مما يتوسل به الى سعاده و لا أن السعاده تنال بظلم.

و بالجمله هدى اللّه سبحانه من خاصته أنه لا يشتمل على ضلال و لا يجامع ضلالا بالتأديه إليه،و إنما هو الهدى محضا تتلوه السعاده محضه عطاء غير مجذوذ لكن لا على حد العطايا المعموله فيما بيننا التى ينقطع معها ملك المعطى(بالكسر)عن عطيته و ينتقل الى المعطى (بالفتح)فيحوزه على أى حال سواء شكر أو كفر.

بل هـذه العطيه الإلهيه إنما تقوم على شـريطه التوحيد و العبوديه فلا كرامه لأحد عليه تعالى و لا أمن له منه الا بالعبوديه محضا،و لذلك ذيّل الكلام بقوله: «وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ» و إنما ذكر الإشراك لأن محط البيان إنما هو التوحيد.

قوله تعالى: أُولٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ الإشاره باللفظ المفيـد للبعد للدلاله على علو شأنهم و رفعه مقامهم،و المراد بإيتـائهم الكتـاب و غيره إيتـاء جمعهم ذلـك بوصف المجموع و إن كان بعضـهم لم يؤتوا بعض المـذكورات كما مرّ فى تفسير قوله:

«وَ اجْتَبَيْنٰاهُمْ وَ هَدَيْنٰاهُمْ» فإن الكتاب إنما أوتيه بعض الأنبياء كنوح و إبراهيم و موسى و عيسى عليهم السّلام.

و الكتاب اذا نسب فى كلامه تعالى الى الأنبياء عليهم السّلام نوعا من النسـبه يراد به الصـحف التى تشتمل على الشرائع و يقضى بهـا بين النـاس فيمـا اختلفوا فيه كقوله تعـالى: كٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّٰاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقره۲۱۳/)و قوله: إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ -الى أن قال- وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتٰابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ (المائده۴۸/).الى غير ذلك من الآيات.

و الحكم هو إلقـاء النسـبه التصـديقيه بين أجزاء الكلام كقولنا:فلان عالم،و اذا كان ذلك فى الامور الاجتماعيه و القضايا العمليه التى تـدور بين المجتمعين عـد نوع النسـبه حكمـا كما تسـمى نفس القضـيه حكما كما يقال:يجب على الإنسان أن يفعل كـذا و يحرم عليـه أن يفعـل كـذا أو يجوز لـه أن يفعـل كـذا أو أحب أو أكره أن تفعـل كـذا فتسـمى الوجـوب و الحرمه و الجواز و الاسـتحباب و الكراهه أحكامـا كمـا تسـمى القضايا المشـتمله عليها أحكاما،و لأهل الاجتماع أحكام أخر ناشـئه من نسب أخرى كالملك و الرئاسه و النيابه و الكفاله و الولايه و غير ذلك.

و اذا قصد به المعنى المصدرى أريد به إيجاد الحكم و جعله إما بحسب التشريع و التقنين كما

يجعل أهل التقنين أحكاما صالحه ليجرى عليها الناس و يعملوا بها فى مسير حياتهم لحفظ نظام مجتمعهم،و إما بحسب التشخيص و النظر كتشخيص القضاه و الحكام فى المنازعات و الدعاوى أن المال لفلان و الحق مع فلان و كتشخيص أهل الفتيا فى فتاواهم و قد يراد به إنفاذ الحكم كحكم الوالى و الملك على الناس بما يريدان فى حوزه الولايه و الملك.

و الظاهر من الحكم فى الآيه بقرينه ذكر الكتاب معه أن يكون المراد به معنى القضاء فيكون المراد من إيتاء الكتاب و الحكم إعطاء شرائع الدين و القضاء بحسبها بين الناس كما هو ظاهر عده من الآيات كقوله تعالى: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقره٢١٣/)و قوله: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاهَ فِيهَا هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا (المائده٤٤/)و قوله: لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ (النساء١٠٥/)و قوله:

وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ (الأنبياء٧٨/)و قوله: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَهً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لاَ تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ (ص٢٦/)الى غير ذلك من الآيات و هى كثيره،و إن كان مثل قوله تعالى حكايه عن إبراهيم عليه السّلام: رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَ أَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ (الشعراء٨٣/)لا يأبى بظاهره الحمل على المعنى الأعم.

و أما النبوه فقد تقدم فى تفسير قوله: كَانَ النَّاسُ أُمَّهً وَاحِدَهً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ الآيه (البقره٢١٣/)أن المراد بها التحقق بأنباء الغيب بعنايه خاصه إلهيه و هى الأنباء المتعلقه بما وراء الحس و المحسوس كوحدانيته تعالى و الملائكه و اليوم الآخر.

و عد هذه الكرامات الثلاث التى أكرم اللّه سبحانه بها سلسله الأنبياء عليهم السّلام أعنى الكتاب و الحكم و النبوه فى سياق الآيات الواصفه لهداه تعالى يدل على أنها من آثار هدايه اللّه و بها يتم العلم باللّه تعالى و آياته فكأنه قيل:تلك الهدايه التى جمعنا عليها الأنبياء عليهم السّلام و فضلناهم بها على العالمين هى التى توردهم صراطا مستقيما و تعلمهم الكتاب المشتمل على شرائعه،

و تسددهم و تنصبهم للحكم بين الناس،و تنبئهم أنباء الغيب (۱)(۲).

قوله تعالی: فَإِنْ يَكْفُرْ بِهٰا هٰؤُلاٰءِ فَقَدْ وَكَّلْنٰا بِهٰا قَوْماً لَيْسُوا بِهٰا بِكٰافِرِينَ الضميران فی قوله: «يَكْفُرْ بِهٰا» و قوله: «وَكَّلْنٰا بِهٰا» راجعان الی الهدی و يجوز فيه التذكير و التأنيث من جهه أنه هدايه،أو راجعان الی الكتاب و الحكم و النبوه التی هی من آثار الهدايه الالهيه،و لا يخلو أول الوجهين عن بعد،و المشار اليه بقوله: «هٰؤُلاٰءِ» الكافرون بالدعوه من قوم النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم و المتيقن منهم بحسب مورد الآيه كفّار مكه الذين أشار اللّه سبحانه إليهم بقوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (البقره/۶).

المعنی علی الوجه الأول:فإن يكفر مشركو قومك بهدايتنا و هی طريقتنا فقد وكّلنا بها من عبادنا من ليس يكفر بها،و الكفر و الايمان يتعلقان بالهدايه و خاصه اذا كانت بمعنی الطريقه كما ينسبان الی اللّه سبحانه و آياته قال تعالی: وَ أَنّٰا لَمّٰا سَمِعْنَا الْهُدیٰ آمَنّٰا بِهِ (الجن/۱۳) و قال: فَمَنْ تَبِعَ هُدٰایَ فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ (البقره/۳۸).

و علی الوجه الثانی:فإن يكفر بالكتاب و الحكم و النبوه-و هی التی تشتمل علی الطريقه الالهيه و الدعوه الدينيه-مشركو مكه فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين.

و الذی ينبغی أن يقال فی معنی الآيه أعنی قوله: «فَإِنْ يَكْفُرْ بِهٰا هٰؤُلاٰءِ فَقَدْ وَكَّلْنٰا بِهٰا قَوْماً لَيْسُوا بِهٰا بِكٰافِرِينَ» أن الآيات لما كانت تصف التوحيد الفطری و الهدايه الإلهيه الطاهره من شوب الشرک باللّه سبحانه،و تذكر أن اللّه سبحانه أكرم بهذه الهدايه سلسله متصله متحده من أنبيائه و اصطفاهم بها ذريه بعضها من بعض و اجتباهم و هداهم الی صراط مستقيم لا ضلال فيه و آتاهم الكتاب و الحكم و النبوّه.

۱- ۱) .الانعام ۸۴-۹۰:كلام فی معنی الكتاب فی القرآن.

۲- ۲) .الانعام ۸۴-۹۰:كلام فی معنی الحكم فی القرآن.

ثم فرع على ذلک قوله: «فَإِنْ يَكْفُرْ بِهٰا هٰؤُلاٰءِ فَقَدْ وَكَّلْنٰا بِهٰا قَوْماً لَيْسُوا بِهٰا بِكٰافِرِينَ» و سياقه سياق اعتزاز منه تعالى و تسليه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و تطييب لنفسه لئلا يوهنه الحزن و يفسخ عزيمته فى الدعوه الدينيه ما يشاهده من كفر قومه و استكبارهم و عمههم فى طغيانهم فمعناه أن لا تحزن بما تراه من كفرهم بهذه الهدايه الإلهيه و الطريقه التى تشتمل عليها الكتاب و الحكم و النبوه التى آتيناها سلسله المهديين من الأنبياء الكرام فإنا قد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين فلا سبيل للضيعه و الزوال الى هذه الهدايه الإلهيه لانا وكلناهم بها و اعتمدنا عليهم فيها و أولئک غير كافرين بها البته.فهؤلاء قوم لا يتصوّر فى حقهم كفر و لا يدخل فى قلوبهم شرک لان اللّه وكلهم بها و اعتمد عليهم فيها و حفظها بهم و لو جاز عليهم الشرک و أمكن فيهم التخلف كان الاعتماد عليهم فيها خطاء و ضلالا و اللّه سبحانه لا يضل و لا ينسى.

فالآيه تدل-و اللّه أعلم-على أن للّه سبحانه فى كل زمان عبدا أو عبادا موكلين بالهدايه الإلهيه و الطريقه المستقيمه التى يتضمنها ما آتاه أنبياءه من الكتاب و الحكم و النبوه يحفظ اللّه بهم دينه عن الزوال و هدايته عن الانقراض،و لا سبيل للشرک و الظلم إليهم لاعتصامهم بعصمه إلهيه و هم أهل العصمه من الأنبياء الكرام و أوصيائهم عليهم السّلام.

فالآيه خاصه بأهل العصمه و قصارى ما يمكن أن يتوسع به أن يلحق بهم الصالحون من المؤمنين ممن اعتصم بعصمه التقوى و الصلاح و محض الإيمان عن الشرک و الظلم،و خرج بذلک عن ولايه الشيطان قال تعالى: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (النحل/٩٩)إن صدق عليهم أن اللّه وكلهم بها و اعتمد عليهم فيها.

قوله تعالى: أُولٰئِکَ الَّذِينَ هَدَى اللّٰهُ فَبِهُدٰاهُمُ اقْتَدِهْ الى آخر الآيه؛عاد ثانيا الى تعريفهم بما فيه تعريف الهدى الإلهى فالهدى الإلهى لا يتخلف عن شأنه و أثره و هو الإيصال الى المطلوب قال تعالى: فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ (النحل/٣٧).

و قد أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى قوله: «فَبِهُدٰاهُمُ اقْتَدِهْ» بالاقتداء-و هو الاتباع-بهداهم لا بهم

لأن شریعته ناسخه لشرائعهم و کتابه مهیمن علی کتبهم،و لأن هذا الهدی المذکور فی الآیات لا واسطه فیه بینه تعالی و بین من یهدیه،و أما نسبه الهدی إلیهم فی قوله: «فَبِهُدٰاهُمُ» فمجرد نسبه تشریفیه،و الدلیل علیه قوله: «ذٰلِکَ هُدَی اللّٰهِ» الخ.

و قد استدل بعضهم بالآیه علی أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و أمته کانوا متعبدین بشرائع من قبلهم إلا ما قام الدلیل علی نسخه،و فیه:أن ذلک إنما یتم لو کان قیل:فبهم اقتده،و أما قوله: «فَبِهُدٰاهُمُ اقْتَدِهْ» فهو بمعزل عن الدلاله علی ذلک،کما هو ظاهر.

و ختم سبحانه کلامه فی وصف التوحید الفطری و الهدایه الإلهیه إلیه بقوله خطابا لنبیّه:

«قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِکْریٰ لِلْعٰالَمِینَ» کأنه قیل:اهتد بالهدی الإلهی الذی اهتدی به الأنبیاء قبلک،و ذکر به العالمین من غیر أن تسألهم أجرا علی ذلک،و قل لهم ذلک لتطیب به نفوسهم،و یکون أنجح للدعوه و أبعد من التهمه،و قد حکی اللّه سبحانه هذه الکلمه عن نوح من بعده من الأنبیاء علیهم السّلام فی دعواتهم.

و الذکری أبلغ من الذکر کما ذکره الراغب،و فی الآیه دلیل علی عموم نبوته صلّی اللّه علیه و آله و سلم لجمیع العالمین (۱).

[سوره الأنعام (۶): الآیات ۹۱ الی ۱۰۵]

اشاره

وَ مٰا قَدَرُوا اَللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قٰالُوا مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ عَلیٰ بَشَرٍ مِنْ شَیْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ اَلْکِتٰابَ اَلَّذِی جٰاءَ بِهِ مُوسیٰ نُوراً وَ هُدیً لِلنّٰاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرٰاطِیسَ تُبْدُونَهٰا وَ تُخْفُونَ کَثِیراً وَ عُلِّمْتُمْ مٰا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لاٰ آبٰاؤُکُمْ قُلِ اَللّٰهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِی خَوْضِهِمْ یَلْعَبُونَ (۹۱) وَ هٰذٰا کِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ مُبٰارَکٌ مُصَدِّقُ اَلَّذِی بَیْنَ یَدَیْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ اَلْقُریٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا وَ اَلَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلیٰ صَلاٰتِهِمْ یُحٰافِظُونَ (۹۲) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَریٰ عَلَی اَللّٰهِ کَذِباً أَوْ قٰالَ أُوحِیَ إِلَیَّ وَ لَمْ یُوحَ إِلَیْهِ شَیْءٌ وَ مَنْ قٰالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ وَ لَوْ تَریٰ إِذِ اَلظّٰالِمُونَ فِی غَمَرٰاتِ اَلْمَوْتِ وَ اَلْمَلاٰئِکَهُ بٰاسِطُوا أَیْدِیهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَکُمُ اَلْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ اَلْهُونِ بِمٰا کُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَی اَللّٰهِ غَیْرَ اَلْحَقِّ وَ کُنْتُمْ عَنْ آیٰاتِهِ تَسْتَکْبِرُونَ (۹۳) وَ لَقَدْ جِئْتُمُونٰا فُرٰادیٰ کَمٰا خَلَقْنٰاکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ تَرَکْتُمْ مٰا خَوَّلْنٰاکُمْ وَرٰاءَ ظُهُورِکُمْ وَ مٰا نَریٰ مَعَکُمْ شُفَعٰاءَکُمُ اَلَّذِینَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِیکُمْ شُرَکٰاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَیْنَکُمْ وَ ضَلَّ عَنْکُمْ مٰا کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۹۴) إِنَّ اَللّٰهَ فٰالِقُ اَلْحَبِّ وَ اَلنَّویٰ یُخْرِجُ اَلْحَیَّ مِنَ اَلْمَیِّتِ وَ مُخْرِجُ اَلْمَیِّتِ مِنَ اَلْحَیِّ ذٰلِکُمُ اَللّٰهُ فَأَنّٰی تُؤْفَکُونَ (۹۵) فٰالِقُ اَلْإِصْبٰاحِ وَ جَعَلَ اَللَّیْلَ سَکَناً وَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ حُسْبٰاناً ذٰلِکَ تَقْدِیرُ اَلْعَزِیزِ اَلْعَلِیمِ (۹۶) وَ هُوَ اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اَلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهٰا فِی ظُلُمٰاتِ اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا اَلْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۹۷) وَ هُوَ اَلَّذِی أَنْشَأَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا اَلْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَفْقَهُونَ (۹۸) وَ هُوَ اَلَّذِی أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ نَبٰاتَ کُلِّ شَیْءٍ فَأَخْرَجْنٰا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرٰاکِباً وَ مِنَ اَلنَّخْلِ مِنْ طَلْعِهٰا قِنْوٰانٌ دٰانِیَهٌ وَ جَنّٰاتٍ مِنْ أَعْنٰابٍ وَ اَلزَّیْتُونَ وَ اَلرُّمّٰانَ مُشْتَبِهاً وَ غَیْرَ مُتَشٰابِهٍ اُنْظُرُوا إِلیٰ ثَمَرِهِ إِذٰا أَثْمَرَ وَ یَنْعِهِ إِنَّ فِی ذٰلِکُمْ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۹۹) وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَکٰاءَ اَلْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِینَ وَ بَنٰاتٍ بِغَیْرِ عِلْمٍ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یَصِفُونَ (۱۰۰) بَدِیعُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ أَنّٰی یَکُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَکُنْ لَهُ صٰاحِبَهٌ وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ وَ هُوَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۱۰۱) ذٰلِکُمُ اَللّٰهُ رَبُّکُمْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ (۱۰۲) لاٰ تُدْرِکُهُ اَلْأَبْصٰارُ وَ هُوَ یُدْرِکُ اَلْأَبْصٰارَ وَ هُوَ اَللَّطِیفُ اَلْخَبِیرُ (۱۰۳) قَدْ جٰاءَکُمْ بَصٰائِرُ مِنْ رَبِّکُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِیَ فَعَلَیْهٰا وَ مٰا أَنَا عَلَیْکُمْ بِحَفِیظٍ (۱۰۴) وَ کَذٰلِکَ نُصَرِّفُ اَلْآیٰاتِ وَ لِیَقُولُوا دَرَسْتَ وَ

لِتُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۱۰۵)

ص :۳۶۸

۱- ۱) .الانعام ۸۴-۹۰:بحث روائی فی:الیاس و الیسع،الحسن علیه السّلام و الحسین علیه السّلام و هما ابنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

بیان:

قوله تعالی: وَ مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قٰالُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلیٰ بَشَرٍ مِنْ شَیْءٍ قدر الشیء و قدره بالتحریک کمیته من عظم أو صغر و نحوهما یقال:قدرت الشیء قدرا و قدّرته بالتشدید تقدیرا اذا بیّنت کمیه الشیء و هندسته المحسوسه ثم توسع فیه فاستعمل فی المعانی غیر المحسوسه فقبل:قدر فلان عند الناس و فی المجتمع أی عظمته فی أعین الناس و وزنه فی مجتمعهم و قیمته الاجتماعیه.

و إذا کان تقدیر الشیء و تحدیده بحدود لا ینفک غالبا عن وصفه بأوصافه المبینه لحاله المستتبعه لعرفانه أطلق القدر و التقدیر علی الوصف و علی المعرفه بحال الشیء-علی نحو الاستعاره-فیقال قدر الشیء و قدّره أی وصفه،و یقال:قدر الشیء و قدّره أی عرفه،فاللغه تبیح هذه الاستعمالات جمیعا.

و لما کان اللّه سبحانه لا یحیط بذاته المتعالیه حس و لا وهم و لا عقل و إنما یعرف معرفه ما بما یلیق بساحه قدسه من الأوصاف و ینال من عظمته ما دلت علیه آیاته و أفعاله صح استعمال القدر فیه تعالی بکل من المعانی السابقه فیقال:ما قدروا اللّه حق قدره أی ما عظموه بما یلیق بساحته من العظمه أو ما وصفوه حق وصفه أو ما عرفوه حق معرفته،فالآیه بحسب نفسها تحتمل کلا من المعانی الثلاثه أو جمیعها بطریق الالتزام لکن الأنسب بالنظر الی الآیات السابقه الواصفه لهدایته تعالی أنبیاءه المستعقبه لإیتائهم الکتاب و الحکم و النبوه،و عنایته الکامله بحفظ کلمه الحق و نعمه الهدایه بین الناس زمانا بعد زمان و جیلا بعد جیل أن تحمل علی المعنی الأول فإن فی إنکار إنزال الوحی حطا لقدره تعالی و إخراجا له من منزله الربوبیه المعتنیه بشئون عباده و هدایتهم الی هدفهم من السعاده و الفلاح.

و یؤید ذلک ما ورد من نظیر اللفظ فی قوله تعالی: وَ مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ

جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ وَ السَّمٰاوٰاتُ مَطْوِيّٰاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (الزمر/ ۶۷).

و قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبٰاباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبٰابُ شَيْئاً لاٰ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّٰالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ، مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحج/۷۴)أى و قوته و عزته و ضعف غيره و ذلته تقتضيان أن لا يحط قدره و لا يسوى هو و ما يدعون من دونه بتسميه الجميع آلهه و أربابا فالأنسب بالآيه هو المعنى الأول و إن لم يمتنع المعنيان الآخران،و أما تفسير «مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ» بأن المراد:ما أعطوه من القدره ما هو حقها كما فسره بعضهم فأبعد المعانى المحتمله من مساق الآيه.

و لما قيد قوله تعالى: «وَ مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ» بالظرف الذى فى قوله: «إِذْ قٰالُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ» أفاد ذلك أن اجتراءهم على اللّه سبحانه و عدم تقديرهم حق قدره إنما هو من حيث إنهم نفوا إنزال الوحى و الكتاب منه تعالى على بشر فدل ذلك على أن من لوازم الالوهيه و خصائص الربوبيه أن ينزل الوحى و الكتاب لغرض هدايه الناس الى مستقيم الصراط و الفوز بسعاده الدنيا و الآخره فهى الدعوى.

و بالجمله فالآيه أعنى قوله تعالى: «وَ مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ» تدل بما لها من الضمائم على أن من لوازم الالوهيه أن تهدى الإنسان الى مستقيم الصراط و منزل السعاده بإنزال الكتاب و الوحى على بعض أفراده،و تستدل على ذلك بوجود بعض الكتب المنزله من اللّه فى طريق الهدايه أولا،و بوجود ما يدل على تعاليم إلهيه بينهم لا ينالها الإنسان بما عنده من العقل الاجتماعى ثانيا.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتٰابَ الَّذِى جٰاءَ بِهِ مُوسىٰ نُوراً وَ هُدىً لِلنّٰاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرٰاطِيسَ تُبْدُونَهٰا وَ تُخْفُونَ كَثِيراً القراءه الدائره تجعلونه بصيغه الخطاب و المخاطبون به اليهود لا محاله،و قرئ «يجعلونه» بصيغه الغيبه،و المخاطب المسئول

عنه بقوله: «مَنْ أَنْزَلَ الْكِتٰابَ» الخ؛حينئذ اليهود أو مشركوا العرب على ما قيل،و المراد بجعل الكتاب قراطيس و هى جمع قرطاس إما جعله فى قراطيس بالكتابه فيها،و إما جعله نفس القراطيس بما فيها من الكتابه فالصحائف و القراطيس تسمى كتابا كما تسمى الألفاظ المدلول عليها بالكتابه كتابا.

و قوله: «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتٰابَ الَّذِى جٰاءَ بِهِ مُوسىٰ» الخ؛جواب عن قولهم المحكى بقوله تعالى: «إِذْ قٰالُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ» و الآيه و إن لم تعيّن القائلين بهذا القول من هم؟إلا أن الجواب بما فيه من الخصوصيه لا يدع ريبا فى أن المخاطبين بهذا الجواب هم اليهود فالقائلون: «مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ» هم اليهود أيضا،و ذلك أن الآيه تحتج على هؤلاء القائلين بكتاب موسى عليه السّلام و المشركون لا يعترفون به و لا يقولون بنزوله من عند اللّه،و إنما القائلون به أهل الكتاب،و أيضا الآيه تذمهم بأنهم يجعلونه قراطيس يبدونها و يخفون كثيرا، و هذا أيضا من خصائص اليهود على ما نسبه القرآن إليهم دون المشركين.

على أن قوله بعد ذلك: «وَ عُلِّمْتُمْ مٰا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لاٰ آبٰاؤُكُمْ» على ظاهر معناه الساذج لا يصلح أن يخاطب به غير اليهود من المشركين أو المسلمين كما تقدم و سيجىء إن شاء اللّه تعالى (1).

قوله تعالى: وَ عُلِّمْتُمْ مٰا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لاٰ آبٰاؤُكُمْ المراد بهذا العلم الذى علموه و لم يكونوا يعلمونه هم و لا آباؤهم ليس هو العلم العادى بالنافع و الضار فى الحياه مما جهز الإنسان بالوسائل المؤديه إليه من حس و خيال و عقل فإن الكلام واقع فى سياق الاحتجاج مربوط به و لا رابطه بين حصول العلوم العاديه للإنسان من الطرق المودعه فيه و بين المدعى و هو أن من لوازم الالوهيه أن تهدى الانسان الى سعادته و تنزل على بعض

١- ١) .الانعام ٩١-١٠٥:بحث حول معنى الآيه «إِذْ قٰالُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ» .

أفراده الوحی و الکتاب.

و لیس المراد بها أن اللّه أفاض علیکم العلم بأشیاء ما کان لکم من أنفسکم أن تعلموا کما یفیده قوله تعالی: وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَهَ (النحل/۷۸)و قوله: اَلَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ یَعْلَمْ (العلق/۵)،فإن السیاق کما عرفت ینافی ذلک.

فالمراد بالآیه تعلیم ما لیس فی وسع الإنسان بحسب الطرق المألوفه عنده التی جهز بها أن ینال علمه،و لیس إلا ما أوحاه اللّه سبحانه الی أنبیائه و حمله وحیه بکتاب أو بغیر کتاب من المعارف الإلهیه و الأحکام و الشرائع فإنها هی التی لا تسع الوسائل العادیه التی عند عامه الإنسان أن تنالها.

و من هنا یظهر أن المخاطبین بهذا الکلام أعنی قوله: «وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا» الخ؛لیسوا هم المشرکین اذا لم یکن عندهم من معارف النبوه و الشرائع الإلهیه شیء بین یعرفونه و یعترفون به و الذی کانوا ورثوه من بقایا آثار النبوه من أسلاف أجیالهم ما کانوا لیعترفوا به حتی یصح الاحتجاج به علیهم من غیر بیان کاف،و قد وصفهم اللّه بالجهل فی أمثال قوله: وَ قالَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ لَوْ لا یُکَلِّمُنَا اللّهُ (البقره/۱۱۸).

فالخطاب متوجه الی غیر المشرکین،و لیس بموجه الی المسلمین أما أولا:فلأن السیاق سیاق الاحتجاج،و لو کان الخطاب متوجها إلیهم لکان اعتراضا فی سیاق الاحتجاج من غیر نکته ظاهره.

و أما ثانیا:فلما فیه من تغییر مورد الخطاب،و العدول من خطاب المخاطبین بقوله: «مَنْ أَنْزَلَ الْکِتابَ الَّذِی جاءَ بِهِ مُوسی» الخ؛الی خطابه غیرهم بقوله: «وَ عُلِّمْتُمْ» الخ؛من غیر قرینه ظاهره مع وقوع اللبس فالخطاب لغیر المشرکین و المسلمین و هم الیهود المخاطبون بصدر الآیه.

قوله تعالی: قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِی خَوْضِهِمْ یَلْعَبُونَ لما کان الجواب واضحا

بيّنا لا يـداخله ريب،و الجواب الـذى هذا شأنه يسوغ للمسـتدل السائل أن يتكلفه و لا ينتظر المسـئول المحتج عليه،أمر تعالى نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سـلم أن يتصدى هو الجواب فقال: «قُلِ اللّٰهُ» أى الذى أنزل الكتاب الذى جاء به موسـى و الذى علمكم ما لم تعلموا أنتم و لا آباؤكم هو اللّه.

و لما كان القول بأن اللّه لم ينزل على بشر شيئا من لغو القول و هزله الذى لا يتفوه به إلا خائض لاعب بالحقائق و خاصه اذا كان القائـل به من اليهود المعترفين بتوراه موسـى و المبـاهين بالعلم و الكتاب أمره بأن يـدعهم و شأنهم فقال: «ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ» .

قوله تعالى: وَ هٰذٰا كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ مُبٰارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا لما نبه على أن من لوازم الالوهيه أن ينزل الوحى على جماعه من البشـر هم الأنبياء عليهم السّلام،و أن هناك كتابا حقا كالتوراه التى جاء بها موسى،و امورا اخرى علمها البشـر لا تنتهى إلا الى وحى إلهى و تعليم غيبى،ذكر أن هذا القرآن أيضا كتاب إلهى منزل من عنده على حد ما نزل سائر الكتب السماويه،و من الدليل على ذلك اشتماله على ما هو شأن كتاب سماوى نازل من عند اللّه سبحانه.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ يُؤْمِنُونَ الخ؛كأنه تفريع لما عده اللّه سبحانه من أوصاف هذا الكتاب الذى أنزله أى لما كان هـذا الكتاب الـذى أنزلناه مباركا و مصدقا لما بين يديه نازلا لغايه إنذار أهل الأرض فالمؤمنون بالآخره يؤمنون به لأنه يدعو الى أمن أخروى دائم و يحذرهم من عذاب خالد.

ثم عرف تعالى هؤلاء المؤمنين بالآخره بما هو من أخص صـفات المؤمنين و هو أنهم على صلاتهم و هى عبادتهم التى يذكرون فيها ربهم يحافظون،و هـذه هى الصـفه التى ختم اللّه به صـفات المؤمنين التى وصـفهم بها فى أول سوره المؤمنون اذ قال: اَلَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلَوٰاتِهِمْ يُحٰافِظُونَ (المؤمنون/٩)،كما بدأ بمعناها فى أولها فقال: اَلَّذِينَ هُمْ فِى صَلاٰتِهِمْ خٰاشِعُونَ (المؤمنون/٢).

و هـذا هو الـذی یؤیـد أن المراد بالمحافظه فی هذه الآیه هو الخشوع فی الصـلاه و هو نحو تذلل و تأثر باطنی عن العظمه الإلهیه عند الانتصاب فی مقام العبودیه لکن المعروف من تفسیره أن المراد بالمحافظه علی الصلاه المحافظه علی وقتها (۱).

قوله تعـالی: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَریٰ عَلَی اللّٰهِ کَذِباً -الی قوله- مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ عـد اللّه سـبحانه موارد ثلاـثه من الظلم هی من أشـد مراتبه التی لا یرتاب العقل العادی فی شناعتها و فظاعتها،و لذا أوردها فی سیاق السؤال.

و الغرض من ذلک الـدعوه الی النزول علی حکم العقل السـلیم و الأخـذ بالنصـفه و خفض الجناح لصـریح الحق فکأنه یقول:قل لهم:یجب علیّ و علیکم أن لا نسـتکبر عن الحق و لا نسـتعلی علی اللّه تعالی بارتکاب ما هو من أشـد الظلم و أشـنعه و هو الظلم فی جنب اللّه فکیف یصح لکم أن تفتروا علی اللّه کذبا و تدعوا له شـرکاء تتخذونها شـفعاء؟و کیف یسوغ لی أن أدعی النبوّه و أقول:أوحی إلیّ إن کنت لست بنبی یوحی إلیه؟و کیف یجوز لقائل أن یقول:

سانزل مثل ما أنزل اللّه،فیسخر بحکم اللّه و یستهزئ بآیاته؟

و نتیجه هـذه الـدعوه أن ینقـادوا لحکم النبوه فإنهم اذا اجتنبوا الافتراء علی اللّه بالشـرک، و کف القائل «سَأُنْزِلُ مِثْلَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ» عن مقاله،و النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم یصر علی الوحی بقیت نبوته بلا معارض.

و افتراء الکذب علی اللّه سـبحانه و هو أول المظالم المعدوده و إن کان أعم بالنسبه الی دعوی الوحی اذا لم یوح إلیه و هو ثانی المظـالم المعـدوده و لـذا قیـل:إن ذکر الثـانی بعـد الأول من باب ذکر الخاص بعـد العام اعتناء بشأن الوحی و إعظاما لأمره،لکن التأمل فی سیاق الکلام و وجهه الی المشرکین یعطی أن المراد بالافتراء المذکور هو اتخاذ الشریک للّه سبحانه،و إنما لم یصرّح

۱- ۱) .الانعام ۹۱-۱۰۵:کلام فی معنی البرکه فی القرآن.

بـذلک لیرتفع به غـائله ذکر الخاص بعـد العام لأن الغرض فی المقام-کما تقـدم-هو الـدعوه الی الأخـذ بالنصـفه و التجافی عن عصبیه الجاهلیه فلم یصرح بالمقصود و إنما أبهم إبهاما لئلا یتحرک بذلک عرق العصبیه و لا یتنبه داعی النخوه.

فقوله: مِمَّنِ افْتَریٰ عَلَی اللّٰهِ کَذِباً و قوله: «أَوْ قٰالَ أُوحِیَ إِلَیَّ وَ لَمْ یُوحَ إِلَیْهِ» متبائنـان من حیث المراد و إن کانـا بحسب ظـاهر ما یتراءی منهما أعم و أخص.

و یدل علی ما ذکرنا ما فی ذیل الآیه من حدیث التهدید بالعذاب و السؤال عن الشرکاء و الشفعاء.

و أمـا مـا قیـل:إن قوله: «أَوْ قٰالَ أُوحِیَ إِلَیَّ وَ لَمْ یُوحَ إِلَیْهِ شَیْءٌ» نزل فی مسـیلمه حیث ادعی النبوه فسـیاق الآیـات کما عرفت لا یلائمه بل ظاهره أن المراد به نفسه و إن کان الکلام مع الغض عن ذلک أعم.

علی أن سوره الأنعـام مکیه و دعواه النبوه من الحوادث الـتی وقعت بعـد الهجره إلاـ أن هؤلاـء یرون أن الآـیه مـدنیه غیر مکیه و سیأتی الکلام فی ذلک فی البحث الروائی التالی إن شاء اللّٰه.

و أمـا قوله: وَ مَنْ قٰالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فظاهره أنه حکایه قول واقع، و أن هناک من قال:سانزل مثل ما أنزل اللّٰه،و أنه إنما قاله استهزاء بالقرآن الکریم حیث نسبه الی اللّٰه سبحانه بالنزول ثم وعد الناس مثله بالإنزال،و لم یقل:سأقول مثل ما قاله محمد أو سآتیکم بمثل ما أتاکم به.

قوله تعـالی: وَ لَوْ تَریٰ إِذِ الظّٰالِمُونَ فِی غَمَرٰاتِ الْمَوْتِ الی آخر الآیه؛الغمر أصـله ستر الشـیء و إزاله أثره و لـذا یطلق الغمره علی المـاء الکثیر السـاتر لمـا تحته،و علی الجهل المطبق،و علی الشـده التی تحیط بصاحبها و الغمرات الشدائـد،و منه قوله تعالی: «فِی غَمَرٰاتِ الْمَوْتِ» ،و الهون و الهوان الذله.

و بسط الید معناه واضح غیر أن المراد به معنی کنائی،و یختلف باختلاف الموارد فبسط الغنی یده جوده بماله و إحسانه لمن یستحقه،و بسط الملک یده إدارته أمور مملکته من غیر أن یزاحمه مزاحم و بسط المأمور الغلیظ الشدید یده علی المجرم المأخوذ به هو نکاله و إیذاؤه بضر و زجر و نحوه.

فبسط الملائکه أیدیهم هو شروعهم بتعذیب الظالمین،و ظاهر السیاق أن الذی تفعله الملائکه بهؤلاء الظالمین هو الذی یترجم عنه قوله: «أَخْرِجُوا أَنْفُسَکُمُ الْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ الْهُونِ» الخ؛فهذه الجمل محکیه عن الملائکه لا من قول اللّه سبحانه،و التقدیر:یقول الملائکه لهم أخرجوا أنفسکم،الخ؛فهم یعذبونهم بقبض أرواحهم قبضا یذوقونه به ألیم العذاب و هذا عذابهم حین الموت و لما ینتقلوا من الدنیا الی ما وراءها و لهم عذاب بعد ذلک و لما تقم علیهم القیامه کما یشیر إلیه قوله تعالی: وَ مِنْ وَرٰائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ (المؤمنون/ ١٠٠).

و بذلک یظهر أن المراد بالیوم فی قوله: «الْیَوْمَ تُجْزَوْنَ» هو یوم الموت الذی یجزون فیه العذاب و هو البرزخ کما ظهر أن المراد بالظالمین هم المرتکبون لبعض المظالم الثلاثه التی عدها اللّه سبحانه من أشد الظلم أعنی افتراء الکذب علی اللّه،و دعوی النبوه کذبا و الاستهزاء بآیات اللّه.

و یؤید ذلک ما ذکره اللّه من أسباب عذابهم من الذنوب و هو قولهم علی اللّه غیر الحق کما هو شأن المفتری الکذب علی اللّه بنسبه الشریک إلیه أو بنسبه حکم تشریعی أو وحی کاذب إلیه،و استکبارهم عن آیات اللّه کما هو شأن من کان یقول: «سَأُنْزِلُ مِثْلَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ» .

و کذلک قوله: أَخْرِجُوا أَنْفُسَکُمُ أمر تکوینی لأن الموت و الوفاه لیس فی قدره الإنسان کالحیاه حتی یؤمر بذلک قال تعالی: وَ أَنَّهُ هُوَ أَمٰاتَ وَ أَحْیٰا (النجم۴۴/)فالأمر تکوینی و الملائکه من أسبابه،و الکلمه مصوغه صوغ الاستعاره بالکنایه و الاستعاره

التخییلیه کأن النفس الإنسانیه أمر داخل فی البـدن و به حیاته و بخروجه عن البدن طرو الموت و ذلک أن کلامه تعالی ظاهر فی أن النفس لیست من جنس البدن و لا من سـنخ الأمور المادیه الجسـمانیه و إنما لها سنخ آخر من الوجود یتحد مع البدن و یتعلق به نوعا من الاتحاد و التعلق غیر مادی کما تقدم بیانه فی بحث علمی فی الجزء الأول من الکتاب و سیأتی فی مواضع تناسبه إن شـاء اللّه.فـالمراد بقـوله: «أَخْرِجُوا أَنْفُسَکُمُ» قطـع علقه أنفسـهم من أبـدانهم و هو الموت، و القول قول الملائکه علی مـا یعطیه السیاق.

و المعنی:و لیتـک تری حین یقـع هؤلاء الظـالمون المـذکورون فی شدائـد الموت و سـکراته و الملائکه آخـذون فی تعـذیبهم بـالقبض الشدیـد العنیف لأرواحهم و إنبائهم بأنهم واقعون فی عالم الموت معـذبون فیه بعـذاب الهون و الـذله جزاء لقولهم علی اللّه غیر الحق و لاستکبارهم عن آیاته.

قوله تعـالی: وَ لَقَدْ جِئْتُمُونٰا فُرٰادیٰ کَمٰا خَلَقْنٰاکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ الی آخر الآیه؛ الفرادی جمع فرد و هو الـذی انفصل عن اختلاط غیره نوعـا من الاختلاط و یقابله الزوج و هو الـذی یختلط بغیره بنحو و یقرب منهما بحسب المعنی الوتر و الشـفع فالوتر ما لم ینضـم الی غیره و الشفع ما انضم الی غیره،و التخویل إعطاء الخول أی المال و نحوه الذی یقوم الإنسان به بالتدبیر و التصرف.

و المراد بالشـفعاء الأرباب المعبودون من دون اللّه لیکونوا شـفعاء عند اللّه فعادوا بذلک شرکاء للّه سبحانه فی خلقه،و الآیه تنبئ عن حقیقه الحیاه الإنسانیه التی سـتظهر له حینما یقـدم علی ربه بالتوفی فیشاهـد حقیقه أمر نفسه و أنه مدبر بالتدبیر الإلهی لا غیر کمـا کـان کـذلک فی أول مره کونته الخلقه،و أن المزاعم التی انضـمت الی حیـاته من التکثر بالأسـباب و الاعتضـاد و الانتصار بالأموال و الأولاد و الأزواج و العشائر و الجموع،و کذا الاستشـفاع بالأرباب من دون اللّه المؤدی الی الإشراک کل ذلک مزاعم و أفکار باطله لا أثر لها فی ساحه

التکوین اصلا.

قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ فٰالِقُ الْحَبِّ وَ النَّویٰ الی آخر الآیه؛الفلق هو الشق.لما انتهی الکلام فی الآیه السابقه الی نفی استقلال الأسباب فی تأثیرها،و بطلان کون أربابهم شفعاء من دون اللّه المؤدی الی کونهم شرکاء للّه صرف الکلام الی بیان أن هذه التی یشتغل بها الإنسان عن ربه لیست الا مخلوقات للّه مدبره بتدبیره،و لا تؤثر أثرا و لا تعمل عملا فی اصلاح حیاه الانسان و سوقه الی غایات خلقته الا بتقدیر من اللّه و تدبیر یدبره هو لا غیر فهو تعالی الرب دون غیره.

فاللّه سبحانه هو یشق الحب و النوی فینبت منهما النبات و الشجر اللذین یرتزق الناس من حبه و ثمره،و هو یخرج الحی من المیت و المیت من الحی-و قد مر تفسیر ذلک فی الکلام علی الآیه ۲۷ من سوره آل عمران-ذلکم اللّه لا غیر فأنی تؤفکون و الی متی تصرفون من الحق الی الباطل.

قوله تعالی: فٰالِقُ الْإِصْبٰاحِ وَ جَعَلَ اللَّیْلَ سَکَناً الی آخر الآیه؛الإصباح بکسر الهمزه هو الصبح و هو فی الاصل مصدر،و السکن ما یسکن الیه،و الحسبان جمع حساب،و قیل:هو مصدر حسب حسابا و حسبانا.و قوله: «وَ جَعَلَ اللَّیْلَ سَکَناً» عطف علی قوله: «فٰالِقُ الْإِصْبٰاحِ» و لا ضیر فی عطف الجمله الفعلیه علی الاسمیه اذا اشتملت علی معنی الفعل و قرئ:«و جاعل».

و فی فلق الصبح و جعل اللیل سکنا یسکن فیه المتحرکات عن حرکاتها لتجدید القوی و دفع ما عرض لها من التعب و العی و الکلال من جهه حرکاتها طول النهار،و جعل الشمس و القمر بما یظهر من اللیل و النهار و الشهور و السنین من حرکاتهما فی ظاهر الحس حسبانا تقدیر عجیب للحرکات فی هذه النشأه المتغیره المتحوله ینتظم بذلک نظام المعاش الانسانی و یستقیم به أمر حیاته،و لذلک ذیلها بقوله: «ذٰلِکَ تَقْدِیرُ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ» فهو العزیز الذی لا

يقهره قاهر فيفسد عليه شيئا من تدبيره،و العليم الذى لا يجهل بشىء من مصالح مملكته حتى ينظمه نظما ربما يفسد من نفسه و لا يدوم بطبعه.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهٰا الى آخر الآيه؛المعنى واضح و المراد بتفصيل الآيات اما تفصيلها بحسب الجعل التكوينى أو تفصيلها بحسب البيان اللفظى.

و لا تنافى بين اراده مصالح الانسان فى حياته و عيشته فى هذه النشأه مما يتراءى لظاهر الحس من حركات هذه الاجرام العظيمه العلويه و الكرات المتجاذبه السماويه،و بين كون كل من هذه الاجرام مرادا بإراده إلهيه مستقله و مخلوقه بمشيه تتعلق بنفسه و تخص شخصه فإن الجهات مختلفه،و تحقق بعض هذه الجهات لا يدع تحقق بعض آخر و الارتباط و الاتصال حاكم على جميع أجزاء العالم.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ الى آخر الآيه؛قرئ«مستقر»بفتح القاف و كسرها و هو على القراءه الاولى اسم مكان بمعنى محل الاستقرار فيكون «مُسْتَوْدَعٌ» أيضا اسم مكان بمعنى محل الاستيداع و هو المكان الذى توضع فيه الوديعه.و قد وقع ذكر المستقر و المستودع فى قوله تعالى: وَ مٰا مِنْ دَابَّهٍ فِی الْأَرْضِ إِلاّٰ عَلَى اللّٰهِ رِزْقُهٰا وَ یَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا کُلٌّ فِی کِتٰابٍ مُبِینٍ (هود۶/)و فى الكلام حذف و إيجاز،و التقدير:فمنكم من هو فى مستقر و منكم من هو فى مستودع،و على القراءه الثانيه و هى الرجحى«مستقر»اسم فاعل و يكون المستودع اسم مفعول لا محاله،و التقدير فمنكم مستقر و منكم مستودع لم يستقر بعد.

و الظاهر أن المراد بقوله: «وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ» انتهاء الذريه الإنسانيه على كثرتها و انتشارها الى آدم الذى يعده القرآن الكريم مبدأ للنسل الإنسانى الموجود،و أن المراد بالمستقر هو البعض الذى تلبس بالولاده من أفراد الإنسان فاستقر فى الأرض التى هى

المستقر لهذا النوع كما قال تعالى: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ (البقره/٣۶)،و المراد بالمستودع من استودع فی الأصلاب و الأرحام و لم يولد بعد و سيولد بعد حين،فهذا هو المناسب لمقام بيان الآيه بإنشاء جميع الأفراد النوعيه من فرد واحد و من الممكن أن يؤخذ مستقر و مستودع مصدرين ميميين.

و قد عبّر بلفظ الإنشاء دون الخلق و نحوه و هو ظاهر فی الدفعه و ما فی حكمه دون التدريج، و يؤيد هذا المعنی أيضا ما تقدم من قوله تعالی: «وَ مٰا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاّٰ عَلَى اللّٰهِ رِزْقُهٰا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا» كما لا يخفی أی يعلم ما استقر منها فی الأرض بفعليه التكون «و ما هو فی طريق التكون مما لم يتكون بالفعل و لم يستقر فی الأرض».

فالمعنی:و هو الذی أوجدكم معشر الأناسی من نفس واحده و عمر بكم الأرض الی حين فهی مشغوله بكم ما لم تنقرضوا فلا يزال بعضكم مستقرا فيها و بعضكم مستودع فی الأصلاب و الأرحام أو فی الأصلاب فقط فی طريق الاستقرار فيها.

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً الی آخر الآيه؛السماء هی جهه العلو فكلما علاك و أظلك فهو سماء،و المراد بقوله: «فَأَخْرَجْنٰا بِهِ نَبٰاتَ كُلِّ شَيْءٍ» علی ما قيل، فأخرجنا بالماء الذی أنزلناه من السماء النبات و النمو الذی فی كل شیء نام له قوه النبات من الكمون الی البروز،أی أنبتنا به كل شیء نباتی كالنجم و الشجر و الإنسان و سائر الحيوان.

و الخضر هو الأخضر و كأنه مخفف الخاضر،و تراكب الحب انعقاد بعضه فوق بعض كما فی السنبله،و الطلع أول ما يبدو من ثمر النخل،و القنوان جمع قنو و هو العذق بالكسر و هو من التمر كالعنقود م العنب،و الدانيه أی القريبه،و المشتبه و غير المتشابه المشاكل و غير المشاكل فی النوع و الشكل و غيرهما.و ينع الثمر نضجه.

قوله تعالی: وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ الی آخر الآيه؛الجن إما مفعول لجعلوا و مفعوله الآخر شركاء أو بدل من شركاء،و قوله: «وَ خَلَقَهُمْ» كأنه حال و إن

منعه بعض النحاه و حجتهم غير واضحه.و كيف كان فالكلمه فى مقام ردهم،و المعنى و جعلوا له شركاء الجن و هو خلقهم و المخلوق لا يجوز أن يشارك خالقه فى مقامه.

و المراد بالجن الشياطين كما ينسب الى المجوس القول:بأهر من و يزدان.و نظيره ما عليه اليزيديه الذى يقولون بالوهيه إبليس(الملك طاوس-شاه بريان)أو الجن المعروف بناء على ما نسب الى قريش أنهم كانوا يقولون:إن اللّه قد صاهر الجن فحدث بينهما الملائكه،و هذا أنسب بسياق قوله:«و جعلوا له شركاء الجن و خلفهم و خرقوا له بنين و بنات بغير علم» و على هذا فالبنون و البنات هم جميعا من الملائكه خرقوهم أى اختلقوهم و نسبوهم إليه افتراء عليه سبحانه و تعالى عما يشركون.

و لو كان المراد من هو أعم من الملائكه لم يبعد أن يكون المراد بهم ما يوجد فى سائر الملل غير الإسلام فالبرهمنيه و البوذيه يقولون بنظير ما قالته النصارى من بنوه المسيح كما تقدم فى الجزء الثالث من الكتاب،و سائر الوثنيين القدماء كانوا يثبتون للّه سبحانه بنين و بناء من الآلهه على ما يدل على الآثار المكتشفه،و مشركوا العرب كانوا يقولون:إن الملائكه بنات اللّه.

قوله تعالى: بَدِيعُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الى آخر الآيه؛جواب عن قولهم بالبنين و البنات،و محصله أن لا سبيل لتحقق حقيقه الولد إلا اتخاذ الصاحبه و لم يكن له تعالى صاحبه فأنّى يكون له ولد؟

و أيضا هو تعالى الخالق لكل شىء و فاطره،و الولد هو الجزء من الشىء يربيه بنوع من اللقاح و جزء الشىء و المماثل له لا يكون مخلوقا له البته،و يجمع الجميع أنه تعالى بديع السماوات و الأرض الذى لا يماثله شىء من أجزائها بوجه من الوجوه فكيف يكون له صاحبه يتزوج بها أو بنون و بنات يماثلونه فى النوع فهذا أمر يخبر به اللّه الذى لا سبيل للجهل إليه فهو بكل شىء عليم،و قد تقدم فى الكلام على قوله تعالى: مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ الخ

(آل عمران/٧٩)؛فى الجزء الثالث من الكتاب ما ينفع فى المقام.

قوله تعالى: ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ الى آخر الآيتين الجمله الاولى أعنى قوله: «ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ» نتيجه متخذه من البيان المورد فى الآيات السابقه،و المعنى:اذا كان الأمر على ما ذكر فاللّه الذى وصفناه هو ربكم لا غير،و قوله: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» كالتصريح بالتوحيد الضمنى الذى تشتمل عليه الجمله السابقه،و هو مع ذلك يفيد معنى التعليل أى هو الرب ليس دونه رب لأنه اللّه الذى ليس دونه إله و كيف يكون غيره ربا و ليس بإله.

و قوله: خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ تعليل لقوله: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» أى إنما انحصرت الالوهيه فيه لأنه خالق كل شىء من غير استثناء فلا خالق غيره لشىء من الأشياء حتى يشاركه فى الالوهيه،و كل شىء مخلوق له خاضع له بالعبوديه فلا يعادله فيها.

و قوله: فَاعْبُدُوهُ متفرع كالنتيجه على قوله: «ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ» أى اذا كان اللّه سبحانه هو ربكم لا غير فاعبدوه،و قوله: «وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» أى هو القائم على كل شىء المدبر لأمره الناظم نظام وجوده و حياته و اذا كان كذلك كان من الواجب أن يتقى فلا يتخذ له شريك بغير علم فالجمله كالتأكيد لقوله: «فَاعْبُدُوهُ» أى لا تستنكفوا عن عبادته لأنه وكيل عليكم غير غافل عن نظام أعمالكم.

و أما قوله: لاٰ تُدْرِكُهُ الْأَبْصٰارُ فهو لدفع الدخل الذى يوهمه قوله: «وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» بحسب ما تتلقاه أفهام المشركين الساذجه و الخطاب معهم،و هو أنه اذا صار وكيلا عليهم كان أمرا جسمانيا كسائر الجسمانيات التى تتصدى الأعمال الجسمانيه فدفعه بأنه تعالى لا تدركه الأبصار لتعاليه عن الجسميه و لوازمها،و قوله: «وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصٰارَ» دفع لما يسبق الى أذهان هؤلاء المشركين الذين اعتادوا بالتفكّر المادى،و أخلدوا الى الحس و المحسوس و هو أنه تعالى اذا ارتفع عن تعلق الأبصار به خرج عن حيطه الحس و المحسوس

و بطل نوع الاتصال الوجودی الذی هو مناط الشعور و العلم،و انقطع عن مخلوقاته فلا یعلم بشیء کما لا یعلم به شیء،و لا یبصر شیئا کما لا یبصره شیء فأجاب تعالی عنه بقوله: «وَ هُوَ یُدْرِکُ اَلْأَبْصٰارَ» ثم علل هذه الدعوی بقوله: «وَ هُوَ اَللَّطِیفُ اَلْخَبِیرُ» و اللطیف هو الرقیق النافذ فی الشیء،و الخبیر من له الخبره،فإذا کان تعالی محیطا بکل شیء بحقیقه معنی الإحاطه کان شاهدا علی کل شیء لا یفقده ظاهر شیء من الأشیاء و لا باطنه،و هو مع ذلک ذو علم و خبره کان عالما بظواهر الأشیاء و بواطنها من غیر أن یشغله شیء عن شیء أو یحتجب عنه شیء بشیء فهو تعالی یدرک البصر المبصر معا،و البصر لا یدرک إلا المبصر.

و قد نسب إدراکه الی نفس الأبصار دون اولی الأبصار لأن الإدراک الموجود فیه تعالی لیس من قبیل إدراکاتنا الحسیه حتی یتعلق بظواهر الأشیاء من أعراضها کالبصر مثلا الذی یتعلق بالأضواء و الألوان و یدرک به القرب و البعد و العظم و الصغر و الحرکه و السکون بنحو بل الأعراض و موضوعاتها بظواهرها و بواطنها حاضره عنده مکشوفه له غیر محجوبه عنه و لا غائبه فهو تعالی یجد الأبصار بحقائقها و ما عندها و لیست تناله.

ففی الآیتین من سطح البیان و سهوله الطریق و إیجاز القول ما یحیر اللب و هما مع ذلک تهدیان المتدبر فیهما الی أسرار دونها أستار (1).

قوله تعالی: قَدْ جٰاءَکُمْ بَصٰائِرُ مِنْ رَبِّکُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِیَ فَعَلَیْهٰا الخ؛قال فی المجمع:البصیره البینه و الدلاله التی یبصر بها الشیء علی ما هو به و البصائر جمعها انتهی.و قیل:البصیره للقلب کالبصر للعین،و الأصل فی الباب علی أی حال هو الإدراک بحاسه البصر الذی یعد أقوی الإدراکات،و نیلا من خارج الشیء المشهود، و الإصار و العمی فی الآیه هو العلم و الجهل أو الإیمان و الکفر توسعا.

ص: ۳۸۵

۱- ۱) .الانعام ۹۱-۱۰۵:کلام فی عموم الخلقه و انبساطها علی کل شیء.

و كـأنه تعـالى يشـير بقوله: «قَدْ جٰاءَكُمْ بَصٰائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ» الى ما ذكره الآيات السابقه من الحجج الباهره على وحـدانيته و انتفاء الشـريك عنه،و المعنى أن هـذه الحجـج بصائر قد جاءتكم من جانب اللّه بالوحى إلى،و الخطاب من قبل النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم ثم ذكر للمخاطبين و هم المشـركون أنهم على خيره من أمر أنفسـهم إن شاءوا أبصـروا بها و إن شاءوا عموا عنها غير أن الإبصار لأنفسهم و العمى عليها.

و من هنـا يظهر أن المراد بالحفـظ عليهم رجوع أمر نفوسـهم و تـدبير قلوبهم إليه فهو إنما ينفى كونه حفيظا عليهم تكوينا و إنما هو ناصح لهم.و الآيه كالمعترضه بين الآيات السابقه و الآيه اللاحقه،و هو خطاب منه تعالى عن لسان نبيه كالرسول يأتى بالرساله الى قوم فيؤديها إليهم و فى خلال ما يؤديه يكلمهم من نفسه بما يهيجهم للسـمع و الطاعه و يحثهم على الانقياد بإظهار النصـح و نفى الأغراض الفاسده عن نفسه.

قـوله تعـالى: وَ كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيٰاتِ وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ الـخ؛و قرئ:دارسـت بالخطابـات و درسـت بالتـأنيث و الغيبه،قيـل:إن التصريف هو إجراء المعنى الدائر فى المعانى المتعاقبه ليجتمع فيه وجوه الفائده،و قوله: «دَرَسْتَ» من الدرس و هو التعلم و التعليم من طريق التلاوه،و على هـذا المعنى قراءه دارست غير أن زيـاده المبانى تـدل على زياده المعانى و أما قراءه «دَرَسْتَ» بالتأنيث و الغيبه فهو من الدروس بمعنى تعفّى الأثر أى اندرست هذه الأقوال كقولهم:أساطير الأولين.

و المعنى:على هـذا المثـال نصرف الآيات و نحولها بيانا لغايات كثيره و منها أن يسـتكمل هؤلاء الأشـقياء شـقوتهم فيتهموك يا محمد بأنک تعلمتها من بعض أهل الكتاب أو يقولوا:

اندرست هذه الأقاويل و انقرض عهدها و لا نفع فيها اليوم،و لنبينه لقوم يعلمون بتطهير قلوبهم و شرح صدورهم به،و هذا كقوله: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

وَ لاٰ یَزِیدُ الظّٰالِمِینَ إِلاّٰ خَسٰاراً (الإسراء۸۲/) (۱).

[سوره الأنعام (۶): الآیات ۱۰۶ الی ۱۱۳]

اشاره

اِتَّبِعْ مٰا أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ اَلْمُشْرِکِینَ (۱۰۶) وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا أَشْرَکُوا وَ مٰا جَعَلْنٰاکَ عَلَیْهِمْ حَفِیظاً وَ مٰا أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِوَکِیلٍ (۱۰۷) وَ لاٰ تَسُبُّوا اَلَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ فَیَسُبُّوا اَللّٰهَ عَدْواً بِغَیْرِ عِلْمٍ کَذٰلِکَ زَیَّنّٰا لِکُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلیٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَیُنَبِّئُهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۱۰۸) وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ لَئِنْ جٰاءَتْهُمْ آیَةٌ لَیُؤْمِنُنَّ بِهٰا قُلْ إِنَّمَا اَلْآیٰاتُ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ مٰا یُشْعِرُکُمْ أَنَّهٰا إِذٰا جٰاءَتْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (۱۰۹) وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصٰارَهُمْ کَمٰا لَمْ یُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِی طُغْیٰانِهِمْ یَعْمَهُونَ (۱۱۰) وَ لَوْ أَنَّنٰا نَزَّلْنٰا إِلَیْهِمُ اَلْمَلاٰئِکَةَ وَ کَلَّمَهُمُ اَلْمَوْتیٰ وَ حَشَرْنٰا عَلَیْهِمْ کُلَّ شَیْءٍ قُبُلاً مٰا کٰانُوا لِیُؤْمِنُوا إِلاّٰ أَنْ یَشٰاءَ اَللّٰهُ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ یَجْهَلُونَ (۱۱۱) وَ کَذٰلِکَ جَعَلْنٰا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا شَیٰاطِینَ اَلْإِنْسِ وَ اَلْجِنِّ یُوحِی بَعْضُهُمْ إِلیٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ اَلْقَوْلِ غُرُوراً وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّکَ مٰا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مٰا یَفْتَرُونَ (۱۱۲) وَ لِتَصْغیٰ إِلَیْهِ أَفْئِدَةُ اَلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِیَرْضَوْهُ وَ لِیَقْتَرِفُوا مٰا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (۱۱۳)

---

۱ – ۱) .الانعام ۹۱-۱۰۵:بحث روائی فی:معنی الآیه «وَ مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ »؛علة تسمیه النبی صلّی اللّٰه علیه و آله و سلم امّیا؛خلق آدم؛التزویج باللیل؛التوحید.

بيان:

قوله تعـالی: اِتَّبِعْ مٰا أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ أمر باتباع ما أوحی إلیه من ربه من أمر التوحید و أصول شرائع الدین من غیر أن یصده ما یشاهده من استکبار المشرکین عن الخضوع لکلمه الحق و الإعراض عن دعوه الدین.

و فی قوله: مِنْ رَبِّکَ المشعر بمزید الاختصاص تلویح الی شمول العنایه الخاصه الإلهیه إلا أن قوله: «مِنْ رَبِّکَ» لما کان ملحوقا بقوله: «وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ» و کان ذلک ربما یوهم أن المراد:اتبع الوحی و اعبد ربک،و اعرض عنهم یعبدوا أربابهم،و لا یخلو ذلک عن إمضاء لطریقتهم و شرکهم قدم علی قوله: «وَ أَعْرِضْ» الخ؛قوله: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» لیندفع به هذا الوهم،و یجلو معنی قوله: «وَ أَعْرِضْ» الخ؛و یأخذ موضعه.

فالمعنی:اتبع ما أوحی إلیک من ربک الذی له العنایه البالغه بک و الرحمه المشتمله علیک اذ خصک بوحیه و أیدک بروح الاتباع،و أعرض عن هؤلاء المشرکین لا بأن تدعهم و ما یعبدون و تسکت راضیا بما یشرکون فیکون ذلک إمضاء للوثنیه فإنما الإله واحد و هو ربک الذی یوحی إلیک لا إله إلا هو بل أن تعرض عنهم فلا تجهد نفسک فی حملهم علی التوحید و لا

تتحمل شقا فوق طاقتک فإنما علیک البلاغ و لست علیهم بحفیظ و لا وکیل،إنما الحفیظ الوکیل هو اللّه و لم یشأ لهم التوحید و لو شاء ما أشرکوا لکنه ترکهم و ضلالهم لأنهم أعرضوا عن الحق و استنکفوا عن الخضوع له.

قوله تعالی: وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا أَشْرَکُوا وَ مٰا جَعَلْنٰاکَ عَلَیْهِمْ حَفِیظاً وَ مٰا أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِوَکِیلٍ تطییب لقلب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن لا یجد لشرکهم و لا یحزن لخیبه المسعی فی دعوتهم فإنهم غیر معجزین للّه فیما أشرکوا فإنما المشیه للّه لو شاء ما أشرکوا بل تلبسوا بالإیمان عن طوع و رغبه کما تلبس من وفق للإیمان،و ذلک أنهم استکبروا فی الأرض و استعلوا علی اللّه و مکروا به و قد أهلکوا بذلک أنفسهم فرد اللّه مکرهم إلیهم و حرمهم التوفیق للإیمان و الاهتداء اذ کما أن السنه الجاریه فی التکوین هی سنه الأسباب و قانون العلیه و المعلولیه العام،و المشیه الإلهیه إنما تتعلق بالأشیاء و تقع علی الحوادث علی وفقها فما تمت فیه العلل و الشرائط و ارتفعت عن وجوده الموانع کان هو الذی تتعلق بتحققه المشیه الإلهیه و إن کان اللّه سبحانه له فیه المشیه مطلقا إن لم یشأه لم یکن و إن شاء کان،کذلک السنه فی نظام التشریع و الهدایه هی سنه الأسباب فمن استرحم اللّه رحمه و من أعرض عن رحمته حرمه،و الهدایه بمعنی إراءه الطریق تعم الجمیع فمن تعرض لهذه النفحه الإلهیه و لم یقطع طریق وصولها إلیه بالفسق و الکفر و العناد شملته و أحیته بأطیب الحیاه،و من اتبع هواه و عاند الحق و استعلی علی اللّه و أخذ یمکن اللّه،و یستهزئ بآیاته حرمه اللّه السعاده و أنزل اللّه علیه الشقوه و أضله علی علم و طبع علیه بالکفر فلا ینجو أبدا.

و لو لا جریان المشیه الإلهیه علی هذه السنه بطل نظام الأسباب و قانون العلیه و المعلولیه و حلت الإراده الجزافیه محله و لغت المصالح و الحکم و الغایات،و أدی فساد هذا النظام الی فساد نظام التکوین لأن التشریع ینتهی بالآخره الی التکوین بوجه و دبیب الفساد إلیه یؤدی الی فساد أصله.

ص :۳۸۹

و هذا كما أن اللّه سبحانه لو اضطر المشركين على الإيمان و خرج بذلك النوع الإنسانى عن منشعب طريقى الإيمان و الكفر،و سقط الاختيار الموهوب له و لازم بحسب الخلقه الإيمان، و استقر فى أول وجوده على أريكه الكمال،و تساوى الجميع فى القرب و الكرامه كان لازم ذلك بطلان نظام الدعوه و لغو التربيه و التكميل،و ارتفع الاختلاف بين الدرجات و أدى ذلك الى بطلان اختلاف الاستعدادات و الاعمال و الاحوال و الملكات و انقلب بذلك النظام الإنسانى و ما يحيط به و يعمل فيه من نظام الوجود الى نظام آخر لا خبر فيه عن إنسان أو ما يشعر به فافهم ذلك.

فالمعنى:أعرض عنهم و لا يأخذك من جهه شركهم وجد و لا حزن فإن اللّه قادر أن يشاء منهم الإيمان فيؤمنوا كما شاء ذلك من المؤمنين فآمنوا.على أنك لست بمسئول عن أمرهم لا تكوينا و لا غير فلتطب نفسك.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَيَسُبُّوا اللّٰهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ السب معروف،قال الراغب فى المفردات:العدو التجاوز و منافاه الالتيام فتاره يعتبر بالقلب فيقال له:العداوه و المعاداه،و تاره بالمشى فيقال له العدو،و تاره فى الإخلال بالعداله فى المعامله فيقال له العدوان و العدو قال:فيسبوا اللّه عدوا بغير علم و تاره بأجزاء المقر فيقال له العدواء يقال:مكان ذو عدواء أى غير متلائم الأجزاء.انتهى.

و الآيه تذكر أدبا دينيا تصان به كرامه مقدسات المجتمع الدينى و تتوقى ساحتها أن يتلوث بدرن الإهانه و الإزراء بشنيع القول و السب و الشتم و السخريه و نحوها فإن الإنسان مغروز على الدفاع عن كرامه ما يقدسه،و المقابله فى التعدى على ما يحسبه متعديا الى نفسه،و ربما حمله الغضب على الهجر و السب لما له عنده أعلى منزله العزه و الكرامه فلو سب المؤمنون آلهه المشركين حملتهم عصبيه الجاهليه أن يعارضوا المؤمنين بسب ما له عندهم كرامه الالوهيه و هو اللّه عز اسمه ففى سب آلهتهم نوع تسبيب الى ذكره تعالى ما لا يليق بساحه قدسه

و کبریائه.

و عموم التعلیل المفهوم من قوله: «کَذٰلِکَ زَیَّنّٰا لِکُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ» یفید عموم النهی لکل قم سیئ یؤدی الی ذکر شیء من المقدسات الدینیه بالسوء بأی وجه أدی.

قوله تعالی: کَذٰلِکَ زَیَّنّٰا لِکُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلیٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَیُنَبِّئُهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ الزینه أمر جمیل محبوب یضم الی الشیء ضما یجلب الرغبه إلیه و یحببه عند طالبه فیتحرک نحو الزینه و ینتهی الی الشیء المتزین بها کاللباس المزین بهیئته الحسنه الذی یلبسه الإنسان لزینته فیصان به بدنه عن الحر و البرد.

و قد أراد اللّه سبحانه أن یعیش الإنسان هذه العیشه الدنیویه ذات الشعب و الفروع و یدیم حیاته الأرضیه الخاصه به من طریق إعمال قواه الفعاله فیدرک ما ینفعه و ما یضره بحواسه الظاهره ثم یتصرف فیها بحواسه و قواه الباطنه ثم یتغذی بأکل أشیاء و شرب أشیاء و یهیج الی النکاح بأعمال خاصه و یلبس و یأوی و یجلب و یدفع و هکذا.

و له فی جمیع هذه الأعمال و ما یتعلق بها لذائذ یقارنها و غایات حیویه ینتهی إلیها و آخر ما ینتهی الیه الحیاه السعیده الحقیقه التی خلق لها أو الحیاه التی یظنها الحیاه السعیده الحقیقیه.

و هو إنما یقصد بما یعمله من عمل ما یتصل به من اللذه المادیه کلذه الطعام و الشراب و النکاح و غیر ذلک أو اللذه الفکریه کلذه الدواء و لذه التقدم و الانس و المدح و الفخر و الذکر الخالد و الانتقام و الثروه و الأمن و غیر ذلک مما لا یحصی.

و هذه اللذائذ أمور زینت بها هذه الأعمال و متعلقاتها،و قد سخر اللّه سبحانه بها الإنسان فهو یوقع الأفعال و یتوخی الأعمال لأجلها،و بتحققها یتحقق الغایات الإلهیه و الأغراض التکوینیه کبقاء الشخص،و دوام النسل،و لو لا ما فی الأکل و الشرب و النکاح من اللذه المطلوبه لم یکن الإنسان لیتعب نفسه بهذه الحرکات الشاقه المتعبه لجسمه و الثقیله علی روحه فاختل بذلک نظام الحیاه،و فنی الشخص،و انقطع النسل فانقرض النوع،و بطلت حکمه

التکوین بلا ریب فی ذلک (۱).

و قوله تعالی: ثُمَّ إِلیٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَیُنَبِّئُهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ یؤید ما تقدم أن حکم التزیین عامّ شامل لجمیع الاعمال الباطنیه کالإیمان و الکفر و الظاهریه کأعمال الجوارح الحسنه و السیئه فإن ظاهر الآیه أن الإنسان إنما یقصد هذه الاعمال و یوقعها لاجل ما یرغب فیه من زینته غافلا عن الحقائق المستوره تحت هذه الزینات المضروب علیها بحجاب الغفله ثم اذا رجعوا الی ربهم نبأهم بحقیقه ما کانوا یعملونه،و عاینوا ما هم مصروفون عنه، أما أولیاء الرحمن فوجدوا ما لم یکن یعلم مما أخفی لهم من قره أعین،و أما أولیاء الشیطان فبدا لهم من اللّه ما لم یکونوا یحتسبون فظهور حقائق الاعمال یوم القیامه لا یختص بأحد القبیلین من الحسنات و السیئات.

قوله تعالی: وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ -الی قوله- عِنْدَ اللّٰهِ الجهد بفتح الجیم الطاقه و الإیمان جمع یمین و هی القسم،و جهد الإیمان أی ما تبلغه قدرتها و هو الطاقه، و المراد أنهم بالغوا فی القسم و أکدوه ما استطاعوا،و المراد بکون الآیات عند اللّه کونها فی ملکه و تحت سلطته لا ینالها أحد إلا بإذنه.

فالمعنی:و أقسموا باللّه و بالغوا فیه لئن جاءتهم آیاته تدل علی صدق النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فیما یدعو إلیه لیؤمنن بتلک الآیه-و هذا اقتراح منهم للآیه کنایه-قل إنما الآیات عند اللّه و هو الذی یملکها و یحیط بها و لیس إلیّ من أمرها شیء حتی أجیبکم إلیها من تلقاء نفسی.

قوله تعالی: وَ مٰا یُشْعِرُکُمْ أَنَّهٰا إِذٰا جٰاءَتْ لاٰ یُؤْمِنُونَ قرئ:لا یؤمنون بیاء الغیبه و تاء الخطاب جمیعا،و الخطاب علی القراءه الاولی للمؤمنین بنوع من الالتفات،و علی القراءه الثانیه للمشرکین و الکلام من تتمه قول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و هو ظاهر.

ص :۳۹۲

۱- ۱) .الانعام ۱۰۶-۱۱۳:بحث فی:اللذائذ و اقسامها؛تزیین الاعمال.

و الظاهر أن وَ مٰا فى قوله: وَ مٰا يُشْعِرُكُمْ للاستفهام،و المعنى:و ما هو الذى يفيد لكم العلم بواقع الأمر و هو أنهم لا يؤمنون اذا جاءتهم الآيات؟فالكلام فى معنى قولنا:

هؤلاء يحلفون باللّه لئن جاءتكم الآيات ليؤمنن بها فربما آمنتم و صدقتم بحلفهم و ليس لكم علم بأنّهم اذا جاءتهم الآيات لا يؤمنون بها لأن اللّه لم يشأن إيمانهم فالكلام من الملاحم.

قوله تعالى: وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصٰارَهُمْ كَمٰا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ الخ؛ ظاهر السياق أن الجمله عطف على قوله: «لاٰ يُؤْمِنُونَ» و هى بمنزله التفسير لعدم إيمانهم، و المراد بقوله: «أَوَّلَ مَرَّةٍ» الدعوه الاولى قبل نزول الآيات قبال ما يتصور له من المره الثانيه التى هى الدعوه مع نزول الآيات.

و المعنى أنهم لا يؤمنون لو نزلت عليهم الآيات،و ذلك أنا نقلب أفئدتهم فلا يعقلون بها كما ينبغى أن يعقلوه،و أبصارهم فلا يبصرون بها ما من حقهم أن يبصروه فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالقرآن أول مره من الدعوه قبل نزول هذه الآيات المفروضه و نذرهم فى طغيانهم يترددون و يتحيرون.هذا ما يقضى به ظاهر سياق الآيه.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّنٰا نَزَّلْنٰا إِلَيْهِمُ الْمَلاٰئِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتىٰ الى آخر الآيه؛ بيان آخر لقوله: «إِنَّمَا الْآيٰاتُ عِنْدَ اللّٰهِ» و أن قولهم: «لَئِنْ جٰاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهٰا» دعوى كاذبه أجرأهم عليها جهلهم بمقام ربهم فليس فى وسع الآيات التى يظنون أنها أسباب مستقله فى إيجاد الإيمان فى قلوبهم و إقدارهم على التلبس به أن تودع فى نفوسهم الإيمان إلا بمشيه اللّه.

فهذا السياق يدل على أن فى الكلام حذفا و إيجازا،و المعنى:و لو أننا أجبناهم فى مسألتهم و آتيناهم أعاجيب الآيات فنزلنا اليهم الملائكه فعاينوهم،و أحيينا لهم الموتى فواجهوهم و كلموهم و أخبروهم بصدق ما يدعون اليه،و حشرنا و جمعنا عليهم كل شىء قبيلا قبيلا و صنفا صنفا،أو حشرنا عليهم كل شىء قبلا و مواجهه فشهدوا لهم بلسان الحال أو القال،ما

كانوا ليؤمنوا و لم يؤثر شيء من ذلك في استجابتهم للايمان إلا أن يشاء اللّه إيمانهم.

فلا يتم لهم الإيمان بشيء من الاسباب و العلل إلا بمشيه اللّه فإن النظام الكوني على عرضه العريض و إن كان يجرى على طبق حكم السببيه و قانون العليه العام غير أن العلل و الاسباب مفتقره في أنفسها متدليه الى ربها غير مستقله في شيء من شئونها و مقتضياتها فلا يظهر لها حكم الا بمشيه اللّه و لا يحيا لهم رسم الا بإذنه.

غير أن المشركين أكثرهم-و لعلهم غير العلماء الباغين منهم-يجهلون مقام ربهم و يتعلقون بالاسباب على أنها مستقله في نفسها مستغنيه عن ربها فيظنون أن لو أتاهم سبب الايمان -و هو الآيه المقترحه-آمنوا و اتبعوا الحق و قد اختلط عليهم الامر بجهلهم فأخذوا هذه الأسباب الناقصه المفتقره الى مشيّه اللّه أسبابا مستقله تامه مستغنيه عنه.

قوله تعالى: وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيٰاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ الى آخر الآيه؛الشياطين جمع شيطان و هو في اللغه الشرير غلب استعماله في إبليس الذى يصفه القرآن و ذريته،و الجن من الجن بالفتح و هو الاستتار،و هو في عرف القرآن نوع من الموجودات ذوات الشعور و الإراده مستور عن حواسنا بحسب طبعها و هم غير الملائكه.

يذكر القرآن أن إبليس الشيطان من سنخهم.و الوحى هو القول الخفى بإشاره و نحوها، و الزخرف الزينه المزوّقه أو الشيء المزوق فزخرف القول الكلام المزوق المموه الذى يشبه الحق و ليس به،و غرورا مفعول مطلق لفعل مقدر من جنسه أو مفعول له.

و المعنى:و مثل ما جعلنا لك جعلنا لكل نبى عدوا هم شياطين الإنس و الجن يشير بعضهم الى بعض-و كأن المراد وحى شياطين الجن بالوسوسه و النزغه الى شياطين الإنس و وحى بعض شياطين الإنس الى بعض آخر منهم بإسرار المكر و التسويل-بأقوال مزوّقه و كلمات مموّهه يغرونهم بذلك غرورا أو لعرورهم و إضلالهم بذلك.

و قوله: وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّكَ مٰا فَعَلُوهُ يشير بذلك الى أن حكم المشيّه عامّ جار نافذ

فكما أن الآيات لا تؤثر فى إيمانهم شيئا إلا بمشيّه اللّه كذلك معاداه الشياطين الأنبياء و وحيهم زخرف القول غرورا كل ذلك بإذن اللّه و لو شاء اللّه ما فعلوه و لم يوحوا ذلك فلم يكونوا عدوا للأنبياء،و بهذا المعنى يتصل هذه الآيه بما قبلها لاشتراكهما فى بيان توقّف الامور على المشيه.

و قوله: فَذَرْهُمْ وَ مٰا يَفْتَرُونَ تفريع على نفوذ الشميه أى اذا كانت هذه المعاداه و الإفساد بالوساوس كل ذلك بإذن اللّه و لم يكونوا بمعجزين للّه فى مشيته النافذه الغالبه فلا يحزنك ما تشاهد من إخلالهم بالأمر و إفسادهم له بل اتركهم و ما يفترونه على اللّه من دعوى الشريک و نحوها.

فقوله: وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّکَ مٰا فَعَلُوهُ الى آخر الآيه؛فى معنى قوله فى صدر الآيات «وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا أَشْرَكُوا» .

و الكلام فى قوله تعالى: «وَ كَذٰلِکَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيٰاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ» الخ؛حيث أسند ظاهرا جعلهم عدوا للأنبياء-و فيه التسبب الى الشر و البعث الى الشرک و المعصيه-الى اللّه سبحانه و هو منزه من كل شر و سوء نظير الكلام فى إسناده تزيين الأعمال الى اللّه سبحانه فى قوله: «كَذٰلِکَ زَيَّنّٰا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ» و قد تقدم الكلام فيه،و كذا الكلام فى ظاهر ما يفيده قوله فى الآيه التاليه: «وَ لِتَصْغىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ» الخ؛حيث جعل هذه المظالم و الآثام غايات إلهيه للدعوه الحقه.

قوله تعالى: وَ لِتَصْغىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ الى آخر الآيه؛ الاقتراف هو الاكتساب،و ضمير المفرد للوحى المذكور فى الآيه السابقه،و اللازم فى قوله «لِتَصْغىٰ» للغايه و الجمله معطوفه على مقدر،و التقدير:فعلنا ما فعلنا و شئنا ما شئنا و لم نمنع عن وحى بعضهم لبعض زخرف القول غرورا لغايات مستوره و لتصغى و تجيب إليه أفئده الذين لا يؤمنون بالآخره و ليرضوه و ليكتسبوا ما هم مكتسبون لينالوا بذلك جميعا ما

یسألونه بلسان استعدادهم من شقاء الآخره،فإن اللّه سبحانه یمد کلا من أهل السعاده و أهل الشقاء بما یتم به سیرهم الی منازلهم و یرزقهم ما یقترحونه بلسان استعدادهم قال تعالی:

کُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هَؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّکَ وَ مٰا کٰانَ عَطٰاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً (الإسراء ۲۰/) (۱).

[سوره الأنعام (۶): الآیات ۱۱۴ الی ۱۲۱]

اشاره

أَ فَغَیْرَ اَللّٰهِ أَبْتَغِی حَکَماً وَ هُوَ اَلَّذِی أَنْزَلَ إِلَیْکُمُ اَلْکِتٰابَ مُفَصَّلاً وَ اَلَّذِینَ آتَیْنٰاهُمُ اَلْکِتٰابَ یَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّکَ بِالْحَقِّ فَلاٰ تَکُونَنَّ مِنَ اَلْمُمْتَرِینَ (۱۱۴) وَ تَمَّتْ کَلِمَهُ رَبِّکَ صِدْقاً وَ عَدْلاً لاٰ مُبَدِّلَ لِکَلِمٰاتِهِ وَ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۱۱۵) وَ إِنْ تُطِعْ أَکْثَرَ مَنْ فِی اَلْأَرْضِ یُضِلُّوکَ عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاّٰ یَخْرُصُونَ (۱۱۶) إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ یَضِلُّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ (۱۱۷) فَکُلُوا مِمّٰا ذُکِرَ اِسْمُ اَللّٰهِ عَلَیْهِ إِنْ کُنْتُمْ بِآیٰاتِهِ مُؤْمِنِینَ (۱۱۸) وَ مٰا لَکُمْ أَلاّٰ تَأْکُلُوا مِمّٰا ذُکِرَ اِسْمُ اَللّٰهِ عَلَیْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَکُمْ مٰا حَرَّمَ عَلَیْکُمْ إِلاّٰ مَا اُضْطُرِرْتُمْ إِلَیْهِ وَ إِنَّ کَثِیراً لَیُضِلُّونَ بِأَهْوٰائِهِمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِینَ (۱۱۹) وَ ذَرُوا ظٰاهِرَ اَلْإِثْمِ وَ بٰاطِنَهُ إِنَّ اَلَّذِینَ یَکْسِبُونَ اَلْإِثْمَ سَیُجْزَوْنَ بِمٰا کٰانُوا یَقْتَرِفُونَ (۱۲۰) وَ لاٰ تَأْکُلُوا مِمّٰا لَمْ یُذْکَرِ اِسْمُ اَللّٰهِ عَلَیْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنَّ اَلشَّیٰاطِینَ لَیُوحُونَ إِلیٰ أَوْلِیٰائِهِمْ لِیُجٰادِلُوکُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّکُمْ لَمُشْرِکُونَ (۱۲۱)

۱- ۱) .الانعام ۱۰۶-۱۱۳:بحث روائی فی:مشرکی مکه و اقتراحهم علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی ترک الدعوی الی التوحید و جواب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لهم؛تقلب القلوب الابصار.

بيان:

قوله تعالى: أَ فَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتاٰبَ مُفَصَّلاً قال فى المجمع:الحكم و الحاكم بمعنى واحد إلا أن الحكم أمدح لأن معناه من يستحق أن يتحاكم إليه فهو لا يقضى إلا بالحق و قد يحكم الحاكم بغير حق.قال:و معنى التفصيل تبين المعانى بما ينفى التخليط المعمى للمعنى،و ينفى أيضا التداخل الذى يوجب نقصان البيان عن المراد،انتهى.

و فى قوله: أَ فَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِى حَكَماً تفريع على ما تقدم من البصائر التى جاءت من قبله تعالى،و قد ذكر قبل ذلك فى القرآن أنه كتاب أنزله مبارك مصدق الذى بين يديه من التوراه و الإنجيل،و المعنى:أ فغير اللّه من سائر من تدعون من الآلهه أو من ينتمى إليهم أطلب حكما يتبع حكمه و هو الذى أنزل عليكم هذا الكتاب و هو القرآن مفصلا متميزا بعض معارفه من بعض غير مختلط بعض أحكامه ببعض،و لا يستحق الحكم إلا من هو على هذه الصفه فالآيه كقوله تعالى: وَ اللّهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ اللّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (المؤمن ۲۰/).

و قوله: أَ فَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاٰ يَهِدِّى إِلاّٰ أَنْ يُهْدىٰ (يونس/ ۳۵).

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يَعْلَمُونَ الى آخر الآيه؛رجوع الى خطاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بما يتأكد به يقينه و يزيد فى ثبوت قدمه فيما ألقاه إلى المشركين من

الخطاب المشعر بأن الكتاب النازل إليه منزل من ربه بالحق ففى الكلام التفات،و هو بمنزله المعترضه ليزيد بذلک رسوخ قدمه و اطمئنان قلبه و ليعلم المشركون أنه على بصيره من أمره.

و قوله: بِالْحَقِّ متعلق بقوله: «مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّکَ» و كون التنزيل بالحق هو أن لا يكون بتنزيل الشياطين بالتسويل أو بطريق الكهانه كما فى قوله تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ، تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ (الشعراء۲۲۲/)أو بتخليط الشياطين بعض الباطل بالوحى الإلهى،و قد أمن اللّه رسوله من ذلک بمثل قوله: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ (الجن۲۸/).

قوله تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَهُ رَبِّکَ صِدْقاً وَ عَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ الكلمه-و هى ما دل على معنى تام أو غيره- ربما استعملت فى القرآن فى القول الحق الذى قاله اللّه عزّ من قائل من القضاء أو الوعد كما فى قوله: وَ لَوْ لا كَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (يونس۱۹/)يشير الى قوله لآدم عند الهبوط وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ (البقره۳۶/)و قوله تعالى: حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّکَ (يونس/ ۹۶)يشير الى قوله تعالى لإبليس: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص/ ۸۵)و قد فسرها فى موضع آخر بقوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَهُ رَبِّکَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّاسِ أَجْمَعِينَ (هود۱۱۹/)و كقوله تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّکَ الْحُسْنى عَلى بَنِى إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا (الأعراف۱۳۷/)يشير الى ما وعدهم أنه سينجيهم من فرعون و يورثهم الأرض كما يشير إليه قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّهً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (القصص۵/).

و ربما استعملت الكلمه فى العين الخارجى كالإنسان مثلا كقوله تعالى: إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ

بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (آل عمران/۴۵)و العنایه فیه أنه علیه السّلام خرق عاده التدریج و خلق بکلمه إلهیه موجده قال تعالی: إِنَّ مَثَلَ عِیسیٰ عِنْدَ اللّٰهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (آل عمران/۵۹).

فظاهر سیاق الآیات فیما نحن فیه یعطی أن یکون المراد بقوله: «وَ تَمَّتْ کَلِمَةُ رَبِّکَ صِدْقاً وَ عَدْلاً» کلمه الدعوه الإسلامیه و ما یلازمها من نبوه محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم و نزول القرآن المهیمن علی ما تقدم علیه من الکتب السماویه المشتمل علی جوامع المعارف الإلهیه و کلیات الشرائع الدینیه کما أشار إلیه فیما حکی من دعاء إبراهیم علیه السّلام عند بناء الکعبه رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِیهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِکَ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ یُزَکِّیهِمْ (البقره/۱۲۹).

و أشار الی تقدم ذکره فی الکتب السماویه فی قوله: اَلَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِیلِ (الأعراف/۱۵۷)و بذلک یشعر قوله فی الآیه السابقه: «وَ الَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ یَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّکَ بِالْحَقِّ» و قوله اَلَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ یَعْرِفُونَهُ کَما یَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ (البقره/۱۴۶)الی غیر من ذلک الآیات الکثیره.

فالمراد بتمام الکلمه-و اللّه أعلم-بلوغ هذه الکلمه أعنی ظهور الدعوه الإسلامیه بنبوه محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم و نزول الکتاب المهیمن علی جمیع الکتب،مرتبه الثبوت و استقرارها فی مستقر التحقق بعد ما کانت تسیر دهرا طویلا-فی مدارج التدریج بنبوه بعد نبوه و شریعه بعد شریعه فإن الآیات الکریمه داله علی أن الشریعه الإسلامیه تتضمن جمل ما تقدمت علیه من الشرائع و تزید علیها بما لیس فیها کقوله تعالی: شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ ما وَصّٰی بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ وَ ما وَصَّیْنا بِهِ إِبْراهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ (الشوری/۱۳).

و بذلک یظهر معنی تمام الکلمه و أن المراد به انتهاء تدرج الشرائع من مراحل النقص الی مرحله الکمال،و مصداقه الدین المحمدی قال تعالی: وَ اللّٰهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْکافِرُونَ

هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدیٰ وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ (الصف/ ٩).

و تمام هذه الکلمه الإلهیه صدقا هو أن یصدق القول بتحققها فی الخارج بالصفه التی بیّن بها،و عدلا أن تتصف بالتقسیط علی سواء فلا یتخلف بعض أجزائه عن بعض و تزن الأشیاء علی النحو الذی من شأنها أن توزن به من غیر إخسار أو حیف و ظلم،و لذلک بیّن هذین القیدین أعنی «صِدْقاً وَ عَدْلاً» بقوله: «لاٰ مُبَدِّلَ لِکَلِمٰاتِهِ» فإن الکلمه الإلهیه اذا لم تقبل تبدیلا من مبدل سواء کان المبدل هو نفسه تعالی کأن ینقض ما قضی بتبدل إراده أو یخلف میعاده،أو کان المبدل غیره تعالی کأن یعجزه غیره و یقهره علی خلاف ما یرید کانت کلمته صدقا تقع کما قال،و عدلا لا تنحرف عن حالها التی کانت علیها وصفها الذی وصفت به فالجمله أعنی قوله: «لاٰ مُبَدِّلَ لِکَلِمٰاتِهِ» بمنزله التعلیل یعلل بها قوله: «صِدْقاً وَ عَدْلاً» .

و قوله تعالی: «وَ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ» أی السمیع المستجیب لما تدعونه بلسان حاجتکم، العلیم بحقیقه ما عندکم من الحاجه،أو السمیع بما یحدث فی ملکه بواسطه الملائکه الرسل، و العلیم بذلک من غیر واسطه،أو السمیع لأقوالکم،العلیم بأفعالکم.

قوله تعالی: وَ إِنْ تُطِعْ أَکْثَرَ مَنْ فِی الْأَرْضِ یُضِلُّوکَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ الی آخر الآیه؛الخرص الکذب و التخمین،و المعنی الثانی هو الأنسب بسیاق الآیه فإن الجمله أعنی قوله: «وَ إِنْ هُمْ إِلاّٰ یَخْرُصُونَ» و التی قبلها أعنی قوله:«إن لا یتبعون إلا الظن»واقعتان موقع التعلیل لقوله: «وَ إِنْ تُطِعْ أَکْثَرَ مَنْ فِی الْأَرْضِ» الخ؛و اتباع الظن و القول بالخرص و التخمین سببان بالطبع للضلال فی الامور التی لا یسوغ الاعتماد فیها إلا علی العلم و الیقین کالمعارف الراجعه إلیه تعالی و الشرائع المأخوذه من قبله.

و سیر الإنسان و سلوکه الحیوی فی الدنیا و إن کان لا یتم دون الرکون الی الظن و الاستمداد من التخمین حتی أن الباحث عن علوم الإنسان الاعتباریه و العلل و الأسباب التی تدعوه الی

صوغه لها و تقليبها فى قالب الاعتبار،و ارتباطها بشئونه الحيويه و أعماله و أحواله لا يكاد يجد مصداقا يركن الإنسان فيه الى العلم الخالص و اليقين المحض اللهم إلا بعض الكليات النظريه التى ينتهى إليها مما يضطر الى الإذعان بها و الاعتماد عليها.

إلاـ أن ذلك كله فيما يقبل التقريب و التخمين من جزئيات الامور فى الحياه،و أما السعاده الإنسانيه التى فيه فوز هذا النوع و فلاحه،و الشقاء الذى يرتبط به الهلاك الأبدى و الخسران الدائم،و ما يتوقف عليه التبصر فيهما من النظر فى العالم و صانعه و الغرض من إيجاده و ما ينتهى إليه الأمر من البعث و النشور و ما يتعلق به من النبوه و الكتاب و الحكم فإن ذلك كله مما لا يقبل الركون الى الظن و التخمين و اللّه سبحانه لا يرتضى من عباده فى ذلك إلا العلم و اليقين، و الآيات فى ذلك كثيره جدا كقوله تعالى: وَ لاٰ تَقْفُ مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ (الإسراء/۳۶).

و من أوضحها دلاله هذه الآيه التى نحن فيها يبيّن فيها أن أكثر اهل الأرض لركونهم العام الى الظن و التخمين لا يجوز طاعتهم فيما يدعون إليه و يأمرون به فى سبيل اللّه و طريق عبوديته لأن الظن ليس مما يكشف به الحق الذى يستراح إليه فى أمر الربوبيه و العبوديه لملازمته الجهل بالواقع و عدم الاطمئنان إليه،و لا عبوديه مع الجهل بالرب و ما يريده من عبده.

فهذا هو الذى يقضى به العقل الصريح،و قد أمضاه اللّه سبحانه كما فى قوله فى الآيه التاليه فى معنى تعليل النهى عن الطاعه: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ حيث علل الحكم بعلم اللّه دون حكم العقل،و قد جمع سبحانه بين الطريقين جميعا فى قوله:

وَ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لاٰ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً -و هذا أخذ بحكم العقل- فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِكْرِنٰا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدىٰ (النجم/۳۰)و فى ذيل الآيه استناد الى علم اللّه سبحانه و حكمه.

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

ذكروا أن «أَعْلَمُ» إذا لم يتم بمن ربما أفاد معنى التفضيل و ربما استعمل بمعنى الصفه خاليه عن التفضيل،و الآيه تحتمل المعنيين جميعا إن أريد حقيقه العلم بالضالين و المهتدين فهو للّه سبحانه لا يشاركه فيها أحد حتى يفضل عليه،و إن اريد مطلق العلم أعم مما كان المتصف به متصفا بذاته أو كان اتصافه به بعطيه منه تعالى كان المتعين هو معنى التفضيل فإن لغيره تعالى علما بالضال و المهتدى قدر ما أفاضه اللّه عليه من العلم.

و تعدّى أعلم بالباء فى قوله: «أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» يدل على أن قوله: «مَنْ يَضِلُّ» منصوب بنزع الخافض و التقدير:«أعلم بمن يضل»و يؤيده ما نقلناه آنفا من آيه سوره النجم.

قوله تعالى: فَكُلُوا مِمّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ لما تمهّد ما قدّمه من البيان الذى هو حجه على أن اللّه سبحانه هو أحق بأن يطاع من غيره استنتج منه وجوب الأخذ بالحكم الذى شرّعه و هو الذى يدل عليه هذه الآيه،و وجوب رفض ما يبيحه غيره بهواه من غير علم و يجادل المؤمنين فيه بوحى الشياطين إليه،و هو الذى يدل عليه قوله:

«وَ لا تَأْكُلُوا مِمّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ» الى آخر الآيه.

و من هنا يظهر أن العنايه الأصليه متعلقه بجملتين من بين الجمل المتسقه فى الآيه الى تمام أربع آيات،و سائر الجمل مقصوده بتبعها يبين بها ما يتوقف عليه المطلوب بجهاته فأصل الكلام:فكلوا مما ذكر اسم اللّه عليه و لا تأكلوا مما لم يذكر اسم اللّه عليه أى فرّقوا بين المذكى و الميته فكلوا من هذه و لا تأكلوا من ذاك،و إن كان المشركون يجادلونكم فى أمر التفريق.

فقوله: فَكُلُوا مِمّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ تفريع للحكم على البيان السابق،و لذا أردفه بقوله: «إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ» و المراد بما ذكر اسم اللّه عليه الذبيحه المذكّاه.

قوله تعالى: وَ ما لَكُمْ أَلاّ تَأْكُلُوا مِمّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ الى آخر الآيه؛بيان تفصيلى لإجمال التفريع الذى فى الآيه السابقه،و المعنى:أن اللّه فصل لكم ما حرّم عليكم و استثنى صوره الاضطرار و ليس فيما فصّل لكم ما ذكر اسم اللّه عليه فلا بأس بأكله و إن كثيرا

ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين المتجاوزين عن حدوده و هؤلاء هم المشركون القائلون:لا فرق بين ما قتلتموه أنتم و ما قتله اللّه فكلوا الجميع أو دعوا الجميع.

و يظهر بما مر أن معنى قوله: «وَ مٰا لَكُمْ أَلاّٰ تَأْكُلُوا» ما لكم من نفع فى أن لا تأكلوا،و ما للاستفهام التعجيبى،و قيل:المعنى ليس لكم أن لا تأكلوا،و ما للنفى.

و يظهر من الآيه أن محرّمات الأكل نزلت قبل سوره الأنعام و قد وقعت فى سوره النحل من السور المكيه فهى نازله قبل الأنعام.

قوله تعالى: وَ ذَرُوا ظٰاهِرَ الْإِثْمِ وَ بٰاطِنَهُ الى آخر الآيه؛و إن كانت مطلقه بحسب المضمون تنهى عن عامه الإثم ظاهره و باطنه غير أن ارتباطها بالسياق المتصل الذى لسابقتها و لاحقتها يقضى بكونها تمهيدا للنهى الآتى فى قوله: «وَ لاٰ تَأْكُلُوا مِمّٰا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّٰهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ» و لازم ذلك أن يكون الأكل مما لم يذكر اسم اللّه عليه من مصاديق الإثم حتى يرتبط بالتمهيد السابق عليه فهو من الإثم الظاهر أو الباطن لكن التأكيد البليغ الذى فى قوله: «وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ» يفيد أنه من الإثم الباطن و إلا لم تكن حاجه الى تأكيده ذاك التأكيد الأكيد.

و قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمٰا كٰانُوا يَقْتَرِفُونَ تعليل للنهى و إنذار بالجزاء السيئ.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَأْكُلُوا مِمّٰا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّٰهِ عَلَيْهِ نهى هو زميل قوله «فَكُلُوا مِمّٰا ذُكِرَ اسْمُ اللّٰهِ عَلَيْهِ» كما تقدم.

و قوله: وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ الى آخر الآيه؛بيان لوجه النهى و تثبيت له أما قوله: «وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ» فهو تعليل و التقدير:إنه لفسق و كل فسق يجب اجتنابه فالأكل مما لم يذكر اسم اللّه عليه واجب الاجتناب.

و أما قوله: وَ إِنَّ الشَّيٰاطِينَ لَيُوحُونَ إِلىٰ أَوْلِيٰائِهِمْ لِيُجٰادِلُوكُمْ ففيه رد ما كان المشركون يلقونه الى المؤمنين من الشبهه،و المراد بأولياء الشياطين هم المشركون،و معناه أن

ما يجادلكم به المشركون و هو قولهم:إنكم تأكلون مما قتلتم و لا تأكلون مما قتله اللّه يعنون الميته،هو مما أوحاه إليهم الشياطين من باطل القول،و الفارق أن أكل الميته فسق دون أكل المذكى،و أن اللّه حرّم أكل الميته و لم يحرم أكل المذكى فليس فيما حرّمه اللّه ذكر ما ذكر اسم اللّه عليه.

و أما قوله: وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ فهو تهديد و تخويف بالخروج من الإيمان،و المعنى:إن أطعتم المشركين فى أكل الميته الذى يدعونكم إليه صرتم مشركين مثلهم إما لأنكم استننتم بسنّه المشركين،أو لأنكم بطاعتهم تكونوا أولياء لهم فتكونون منهم قال تعالى: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ (المائده۵۱/).

و وقوع هذه الجمله أعنى قوله: «وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ» الخ؛فى ذيل النهى عن أكل ما لم يذكر اسم اللّه عليه دون الأمر بأكل ما ذكر اسم اللّه عليه يدل على أن المشركين كانوا يريدون من المؤمنين بجدالهم أن لا يتركوا أكل الميته لا أن يتركوا أكل المذكى.

[سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۲۲ الى ۱۲۷]

اشاره

أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي اَلنّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي اَلظُّلُمٰاتِ لَيْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكٰافِرِينَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۲) وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكٰابِرَ مُجْرِمِيهٰا لِيَمْكُرُوا فِيهٰا وَ مٰا يَمْكُرُونَ إِلاّٰ بِأَنْفُسِهِمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ (۱۲۳) وَ إِذٰا جٰاءَتْهُمْ آيَةٌ قٰالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتّٰى نُؤْتىٰ مِثْلَ مٰا أُوتِيَ رُسُلُ اَللّٰهِ اَللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ سَيُصِيبُ اَلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغٰارٌ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا كٰانُوا يَمْكُرُونَ (۱۲۴) فَمَنْ يُرِدِ اَللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمٰا يَصَّعَّدُ فِي اَلسَّمٰاءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اَللّٰهُ اَلرِّجْسَ عَلَى اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۱۲۵) وَ هٰذٰا صِرٰاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا اَلْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (۱۲۶) لَهُمْ دٰارُ اَلسَّلاٰمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۷)

بیان:

قوله تعـالی: أَ وَ مَنْ کَانَ مَیْتـاً فَأَحْیَیْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النَّاسِ کَمَنْ مَثَلُهُ فِی الظُّلُمَاتِ لَیْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا الآیه واضـحه المعنی و هی بحسب ما یسـبق الی الفهم البسـیط الساذج مثل مضروب لکل من المؤمن و الکافر یظهر بالتدبر فیه حقیقه حاله فی الهدی و الضلال.

فالإنسـان قبل أن یمسه الهـدی الإلهی کالمیت المحروم من نعمه الحیاه الـذی لا حس له و لا حرکه فإن آمن بربه إیمانا یرتضـیه کان کمن أحیاه اللّه بعد موته،و جعل له نورا یدور معه حیث دار یبصر فی شعاعه خیره من شره و نفعه من ضره فیأخذ ما ینفعه و یدع ما یضره و هکذا یسیر فی مسیر الحیاه.

و أمـا الکـافر فهو کمن وقع فی ظلمـات لاـ مخرج له منهـا لاـ منـاص له عنها ظلمه الموت و ما بعـد ذلک من ظلمات الجهل فی مرحله تمییز الخیر من الشـر و النـافع من الضـار،و نظیر هـذه الآـیه فی معناهـا بوجه قوله تعـالی: إِنَّمَا یَسْتَجِیبُ الَّذِینَ یَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتَی یَبْعَثُهُمُ اللَّهُ (الأنعام۳۶/) و قال تعالی: مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثَی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حَیَاهً طَیِّبَهً (النحل/ ۹۷).

ص :۴۰۵

ففى الكلام استعاره الموت للضلال و استعاره الحياه للإيمان أو الاهتداء و الإحياء للهدايه الى الايمان و النور للتبصر بالأعمال الصالحه،و الظلمه للجهل كل ذلك فى مستوى التفهيم و التفهّم العموميّين لما أن أهل هذا الظرف لا يرون للإنسان بما هو إنسان حياه وراء الحياه الحيوانيه التى هى المنشأ للشعور باللذائذ الماديه و الحركه الاراديه نحوها.

فهؤلاء يرون أن المؤمن و الكافر لا يختلفان فى هذه الموهبه و هى فيهما شرع سواء فلا محاله عد المؤمن حيا بحياه الايمان ذا نور يمشى به فى الناس،وعد الكافر ميتا بميته الضلال فى ظلمات لا مخرج منها ليس إلا مبتنيا على عنايه تخييليه و استعاره تمثيليه يمثل بها حقيقه المعنى المقصود.

لكن التدبر فى أطراف الكلام و التأمل فيما يعرّفه القرآن الكريم يعطى للآيه معنى وراء هذا الذى يناله الفهم العامى فإن اللّه سبحانه ينسب للإنسان الالهى فى كلامه حياه خالده أبديه لا تنقطع بالموت الدنيوى هو فيها تحت ولايه اللّه محفوظ بكلاءته مصون بصيانته لا يمسه نصب و لا لغوب،و لا مذله شقاء و لا تعب،مستغرب فى حب ربه مبتهج ببهجه القرب لا يرى إلا خيرا،و لا يوجه إلا سعاده و هو فى أمن و سلام لا خوف معه و لا خطر،و سعاده و بهجه و لذه لا نفاذ لها و لا نهايه لأمدها.

و من كان هذا شأنه فإنه يرى ما لا يراه الناس،و يسمع ما لا يسمعونه،و يعقل ما لا يعقلونه،و يريد ما لا يريدونه و إن كانت ظواهر أعماله و صور حركاته و سكناته تحاكى أعمال غيره و حركاتهم سكناتهم و تشابهها فله شعور و إراده فوق ما لغيره من الشعور و الإراده فعنده من الحياه التى هى منشأ الشعور و الإراده ما ليس عند غيره من الناس فللمؤمن مرتبه من الحياه ليست عند غيره.

فقوله: أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ أى ضالا من حيث نفسه أو ضالا كافرا قبل أن يؤمن بربه و هو نوع من الموت فأحييناه بحياه الإيمان أو الهدايه و المآل واحد-و جعلنا له

نورا أی علما متولدا من إیمانه کما قال صلّی اللّه علیه و آله و سلم فیما رواه الفریقان:«من عمل بما علم رزقه اللّه علم ما لم یعلم أو علمه اللّه ما لم یعلم».فإن روح الإیمان اذا تمکنت من نفس الإنسان و استقرت فیها حوّلت الآراء و الأعمال الی صور تناسبها و لا ـ تخالفها و کذلک سائر الملکات أعم من الفضائل و الرذائل اذا استقرت فی باطن الانسان لم تلبث دورا تحوّل آراءه و اعماله الی أشکال تحاکیها.

قوله تعالی: کَذٰلِکَ زُیِّنَ لِلْکافِرِینَ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ ظاهر سیاق صدر الآیه أن یکون التشبیه فی قوله: «کَذٰلِکَ» من قبیل تشبیه الفرع بالأصل بعنایه إعطاء القاعده الکلیه کقوله تعالی: کَذٰلِکَ یَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَ الْبٰاطِلَ و قوله: کَذٰلِکَ یَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثٰالَ (الرعد/١٧)أی اتخذ ما ذکرناه من المثل أصلا و قس علیه کل ما عثرت به من مثل مضروب فمعنی قوله: «کَذٰلِکَ زُیِّنَ» الخ؛علی هذا المثال المذکور أن الکافر لا ـ مخرج له من الظلمات،زین للکافرین أعمالهم فقد زینت لهم أعمالهم زینه تجذبهم إلیها و تحبسهم و لا تدعهم یخرجوا منها الی فضاء السعاده و فسحه النور أبدا و اللّه لا یهدی القوم الظالمین.

قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ جَعَلْنٰا فِی کُلِّ قَرْیَهٍ أَکٰابِرَ مُجْرِمِیهٰا الی آخر الآیه؛کأن المراد بالآیه أنا أحیینا جمعا و جعلنا لهم نورا یمشون به فی الناس،و آخرین لم نحیهم فمکثوا فی الظلمات فهم غیر خارجین منها و لا ـ أن أعمالهم المزینه تنفعهم و تخلصهم منها کذلک جعلنا فی کل قریه أکابر مجرمیها لیمکروا فیها بالدعوه الدینیه و النبی و المؤمنین لکنه لا ینفعهم فإنهم فی ظلمات لا یبصرون بل إنما یمکرون بأنفسهم و لا یشعرون.

و علی هذا فقوله: «کَذٰلِکَ زُیِّنَ لِلْکٰافِرِینَ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ» مسوق لبیان أن أعمالهم المزینه لهم لا تنفعهم فی استخلاصهم من الظلمات التی هم فیها،و قوله: «وَ کَذٰلِکَ جَعَلْنٰا فِی کُلِّ قَرْیَهٍ» الخ؛مسوق لبیان أن أعمالهم و مکرهم لا یضر غیرهم إنما و یقع مکرهم علی أنفسهم و ما یشعرون لمکان ما غمرهم من الظلمه.

و الجعـل فى قـوله: «جَعَلْنا فِی کُلِّ قَرْيَةٍ أَکابِرَ مُجْرِمِيها» کالجعـل فى قـوله: «وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً» فالأنسب أنـه بمعنى الخلق،و المعنى:خلقنا فى کل قريه أکابر مجرميها ليمکروا فيها و کون مکرهم غايه للخلقه و غرضا للجعل نظير کون دخول النار غرضا إلهيا فى قوله: وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ کَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ (الأعراف/١٧٩)و قد مر الکلام فى معنى ذلک فى مواضع من هذا الکتاب.و إنما خص بالذکر أکابر مجرميها لأن المطلوب بيان رجوع المکر الى ماکره،و المکر باللّه و آياته إنما يصدر منهم،و أما أصاغر المجرمين و هم العامه من الناس فإنما هم أتباع و أذناب.

و أما قوله: وَ ما يَمْکُرُونَ إِلاّ بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ فذلک أن المکر هو العمل الذى يستبطن شرا و ضرا يعود الى الممکور به فيفسد به غرضه المطلوب و يضل به سعيه و يبطل نجاح عمله،و لا غرض للّه سبحانه فى دعوته الدينيه،و لا نفع فيها إلا ما يعود الى نفس المدعوّين فلو مکر الإنسان مکرا باللّه و آياته ليفسد بذلک الغرض من الدعوه و يمنع عن نجاح السعى فيها فإنما مکر بنفسه من حيث لا يشعر:و استضر بذلک هو نفسه دون ربه.

قوله تعالى: وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ -الى قوله- رِسالَتَهُ قولهم: «لَنْ نُؤْمِنَ حَتّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ» يريدون به أن يؤتوا نفس الرساله بما لها من مواد الدعوه الدينيه دون مجرد المعارف الدينيه من أصول و فروع و إلا کان اللفظ المناسب له أن يقال:«مثل ما أوتى أنبياء اللّه»أو ما يشاکل ذلک کقولهم: لَوْ لا يُکَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ (البقره/١١٨)و قولهم: لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِکَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا (الفرقان/٢١).

فمرادهم أنا لن نؤمن حتى نؤتى الرساله کما أوتيها الرسل،و فيه شىء من الاستهزاء فإنهم ما کانوا قائلين بالرساله فهو بوجه نظير قولهم: لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (الزخرف/٣١)کما أن جوابه نظير جوابه و هو قوله تعالى: أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّکَ «اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» .

و مما تقدم يظهر أن الضمير في قوله: «وَ إِذٰا جٰاءَتْهُمْ آيَةٌ قٰالُوا» الخ؛عائد الى «أَكٰابِرَ مُجْرِمِيهٰا» فى الآيه السابقه،اذ لو رجع الى عامه المشركين لغى قولهم: «حَتّٰى نُؤْتىٰ مِثْلَ مٰا أُوتِيَ رُسُلُ اللّٰهِ» اذ لا معنى لرساله جميع الناس حيث لا أحد يرسلون إليه،و لم يقع قوله: «اللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ» موقعه بل كان حق الجواب أنه لغو من القول كما عرفت.

و يؤيده الوعيد الذى فى ذيل الآيه: «سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغٰارٌ عِنْدَ اللّٰهِ وَ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا كٰانُوا يَمْكُرُونَ» حيث وصفهم بالإجرام و علل الوعيد بمكرهم،و لم ينسب المكر فى الآيه السابقه إلا الى أكابر مجرميها،و الصغار الهوان و الذله.

قوله تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ الشرح هو البسط و قد ذكر الراغب فى مفرداته أن أصله بسط اللحم و نحوه،و شرح الصدر الذى يعد فى الكلام وعاء للعلم و العرفان هو التوسعه فيه بحيث يسع ما يصادفه من المعارف الحقه و لا يدفع كلمه الحق اذا ألقيت إليه كما يدل عليه ما ذكر فى وصف الإضلال بالمقابله و هو قوله:

«يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً» الخ؛فمن شرح اللّه صدره للإسلام و هو التسليم للّه سبحانه فقد بسط صدره و وسعه لتسليم ما يستقبله من قبله تعالى من اعتقاد حق أو عمل دينى صالح فلا يلقى إليه قول حق إلا وعاه و لا عمل صالح إلا أخذ به و ليس إلا أن لعين بصيرته نورا يقع على الاعتقاد الحق فينوره أو العمل الصالح فيشرقه خلاف من عميت عين قلبه فلا يميّز حقا من باطل و لا صدقا من كذب قال تعالى: فَإِنَّهٰا لاٰ تَعْمَى الْأَبْصٰارُ وَ لٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج/۴۶).

و قد بيّن تعالى شرح الصدر بهذا البيان فى قوله: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقٰاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللّٰهِ فوصفه فعرفه بأن صاحبه راكب نور من اللّه يشرق قدامه فى مسيره ثم عرفه بالمقابله بلينه فى القلب يقبل به ذكر اللّه و لا يدفعه لقسوه ثم قال: اَللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتٰاباً مُتَشٰابِهاً مَثٰانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ

تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلىٰ ذِكْرِ اللّهِ ذٰلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ (الزمر۲۳/)فذكر لين القلب الى ذكر اللّه و طوعه للحق و أفاد أن ذلك هو الهدى الإلهى الذى يهدى به من يشاء،و عند ذلك يرجع الآيتان أعنى آيه الزمر و الآيه التى نحن فيها الى معنى واحد و هو أن اللّه سبحانه عند هدايته عبدا من عباده يبسط صدره فيسع كل اعتقاد حق و عمل صالح و يقبله بلين و لا يدفعه بقسوه و هو نوع من النور المعنوى الذى ينور القول الحق و العمل الصالح و ينصر صاحبه فيمسك بما نوّره فهذا معرّف يعرف به الهدايه الإلهيه.

و من هنا يظهر أن الآيه أعنى قوله: «فَمَنْ يُرِدِ اللّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ» بمنزله بيان آخر لقوله: «أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ» و التفريع الذى فى قوله: «فَمَنْ يُرِدِ اللّهُ» الخ؛من قبيل تفريع أحد البيانين على الآخر بدعوى أنه نتيجته كأن التصادق بين البيانين يجعل أحدهما نتيجه مترتبه و فرعا متفرعا على الآخر،و هو عنايه لطيفه.

و المعنى:فإذا كان من أحياه ابعد ما كان ميتا على هذه الصفه و هى أنه على نور من ربه يستضىء به له واجب الاعتقاد و العمل فيأخذ به فمن يرد اللّه أن يهديه يوسّع صدره لأن يسلم لربه و لا يستنكف عن عبادته فالاسلام نور من اللّه،و المسلمون لربهم على نور من ربهم.

قوله تعالى: وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً الى آخر الآيه؛الإضلال مقابل الهدايه،و لذا كان أثره مقابلا لأثرها و هو التضييق المقابل للشرح و التوسعه و أثره أن لا يسع ما يتوجه إليه من الحق و الصدق،و يتحرج عن دخولهما فيه،و لذا أردف كون الصدر ضيقا بكونه حرجا.

و الحرج على ما فى المجمع أضيق الضيق،و قال فى المفردات:أصل الحرج و الحراج مجتمع الشىء و تصور منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج و للإثم حرج.انتهى.

فقوله: حَرَجاً كَأَنَّمٰا يَصَّعَّدُ فِي السَّمٰاءِ فى محل التفسير لقوله: «ضَيِّقاً»

و إشاره الی أن ذلک نوع من الضیق یناظر بوجه التضیق و التحرج الذی یشاهد من الظروف و الأوعیه اذا أرید إدخال ما هو أعظم منها و وضعه فیها.

و قوله: کَذٰلِکَ یَجْعَلُ اللّٰهُ الرِّجْسَ عَلَی الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ إعطاء ضابط کلی فی إضلال الذین لا یؤمنون أنهم یفقدون حال التسلیم للّه و الانقیاد للحق،و قد أطلق عدم الإیمان و إن کان مورد الآیات عدم الإیمان باللّه سبحانه و هو الشرک به لکن الذی سبق من البیان فی الآیه یشمل عدم الإیمان باللّه و هو الشرک،و عدم الإیمان بآیات اللّه و هو رد بعض ما أنزله اللّه من المعارف و الأحکام فقد دل علی ذلک کله بقوله: «یَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ» الخ؛ و بقوله سابقا: «وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ» الخ؛و قوله: «یَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَیِّقاً حَرَجاً» الخ؛و بقوله سابقا: «فِی الظُّلُمٰاتِ لَیْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا» .

و قد سمی فی الآیه الضلال الذی یساوق عدم الإیمان رجسا و الرجس هو القذر غیر أنه اعتبر فیه نوعا من الاستعلاء الدال علیه قوله: «عَلَی الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ» کأن الرجس یعلوهم و یحیط بهم فیحول بینهم و بین غیرهم فیتنفر منهم الطباع کما یتنفر من الغذاء الملطخ بالقذر.

و قد استدل بالآیه علی أن الهدی و الضلال من اللّه لا صنع فیهما لغیره تعالی و هو خطأ فإن الآیه-کما عرفت-فی مقام بیان حقیقه الهدی و الضلال اللذین من اللّه و نوع تعریف لهما و تحدید لا فی مقام بیان انحصارهما فیه و انتفائهما عن غیره کما هو المدعی و هو ظاهر.

قوله تعالی: وَ هٰذٰا صِرٰاطُ رَبِّکَ مُسْتَقِیماً إلی آخر الآیه،الاشاره الی ما تقدم بیانه فی الآیه السابقه من صنعه عن الهدایه و الاضلال و قد تقدم معنی الصراط و استقامته و قد بیّن تعالی فی الآیه عما ذکره من شرح الصدر للاسلام اذا اراد الهدایه و من جعل الصدر ضیقا حرجا عن اراده الاضلال هو صراطه المستقیم و سنته الجاریه التی لا تختلف و لا تتخلف فما من مؤمن إلا و هو منشرح الصدر للاسلام باللّه و غیر المؤمن بالعکس من ذلک.

ص :۴۱۱

فقوله تعالی: وَ هٰذٰا صِرٰاطُ رَبِّکَ مُسْتَقِیماً بیان ثان و تأکید لکون المعرف المذکور فی الآیه السابقه معرّفا جامعا مانعا للهدایه و الضلاله ثم أکد سبحانه البیان بقوله«قد بیّنا الآیات لقوم یذکّرون»أی إن القول حق بیّن عند من تذکر و رجع الی ما أودعه اللّه فی نفسه من المعارف الفطریه و العقائد الأولیه التی بتذکرها یهتدی الإنسان الی معرفه کل حق و تمییزه من الباطل،و البیان مع ذلک للّه سبحانه فإنه هو الذی یهدی الإنسان الی النتیجه بعد هدایته الی الحجه.

قوله تعالی: لَهُمْ دٰارُ السَّلاٰمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِیُّهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ المراد بالسلام هو معناه اللغوی-علی ما یعطیه ظاهر السیاق-و هو التعری من الآفات الظاهره و الباطنه،و دار السلام هی المحل الذی لا آفه تهدد من حل فیه من موت و عاهه و مرض و فقر و ای عدم و فقد آخر و غم و حزن،و هذه هی الجنه الموعوده و لا سیما بالنظر الی تقییده بقوله: «عِنْدَ رَبِّهِمْ» .

نعم اولیاء اللّه تعالی یجدون فی هذه النشأه ما وعدهم اللّه من إسکانهم دار السلام لأنهم یرون الملک للّه فلا یملکون شیئا حتی یخافوا فقده أو یحزنوا لفقده قال تعالی: أَلاٰ إِنَّ أَوْلِیٰاءَ اللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ (یونس۶۲/)و هم لا شغل لهم إلا بربهم خلوا به فی حیاتهم فلهم دار السلام عند ربهم-و هم قاطنون فی هذه الدنیا-و هو ولیهم بما کانوا یعملون و هو سیرهم فی الحیاه بنور الهدایه الإلهیه الذی جعله فی قلوبهم،و نوّر به أبصارهم و بصائرهم.

و رما قیل:المراد بالسلام هو اللّه،و داره الجنه،و السیاق یأباه و ضمائر الجمع فی الآیه راجعه الی القوم فی قوله: «لِقَوْمٍ یَذَّکَّرُونَ» - علی ما قیل-لأنه أقرب المراجع لرجوعها إلیها غیر أن التدبّر فی الآیات یؤید رجوعها الی المهتدین بالهدایه المذکوره بما أن الکلام فیهم و الآیات مسوقه لبیان حسن صنع اللّه بهم فالوعد الحسن المذکور یجب أن یعود إلیهم،و أما

القوم المتذكرون فإنما ذكروا و دخلوا فى غرض الكلام بالتبع (۱)(۲).

[سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۲۸ الی ۱۳۵]

اشاره

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ اَلْجِنِّ قَدِ اِسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ اَلْإِنْسِ وَ قَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ اَلْإِنْسِ رَبَّنَا اِسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنَا أَجَلَنَا اَلَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ اَلنَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اَللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۲۸) وَ كَذٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ اَلظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۱۲۹) يَا مَعْشَرَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَ غَرَّتْهُمُ اَلْحَيَاةُ اَلدُّنْيَا وَ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (۱۳۰) ذٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ اَلْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا غَافِلُونَ (۱۳۱) وَ لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (۱۳۲) وَ رَبُّكَ اَلْغَنِيُّ ذُو اَلرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (۱۳۳) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۱۳۴) قُلْ يَا قَوْمِ اِعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ اَلدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ اَلظَّالِمُونَ (۱۳۵)

۱- ۱) .الانعام ۱۲۲-۱۲۷:كلام فى معنى الهدايه الالهيه.

۲- ۲) .الانعام ۱۲۲-۱۲۷:بحث روائى:معنى الحياه و الموت؛القلب؛شرح الصدر.

بیان:

قوله تعالی: وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً یٰا مَعْشَرَ الْجِنِّ -الی قوله- أَجَّلْتَ لَنٰا یقال:أکثر من الشیء أو الفعل و استکثر منه اذا أتی بالکثیر،و استکثار الجن من الإنس لیس من جهه أعیانهم فإن الآتی بأعیانهم فی الدنیا و المحضر لهم یوم القیامه هو اللّه سبحانه،و إنما للشیاطین الاستکثار مما هم مسلطون علیه و هو إغواء الإنس من طریق ولایتهم علیهم و لیست بولایه إجبار و اضطرار بل من قبیل التعامل من الطرفین یتبع التابع المتبوع ابتغاء لما یری فی اتباعه من الفائده،و یتولی المتبوع أمر التابع ابتغاء لما یستدر من النفع فی ولایته علیه و إداره شئونه،فللجن نوع التذاذ من إغواء الإنس و الولایه علیهم،و للإنس نوع التذاذ من اتباع الوساوس و التسویلات لیستدروا بذلک اللذائذ المادیه و التمتعات النفسانیه.

و هذا هو الذی یعترف به أولیاء الجن من الإنس بقولهم:ربنا استمتع بعضنا ببعض فتمتعنا بوساوسهم و تسویلاتهم من متاع الدنیا و زخارفها،و تمتعوا منا بما کانت تشتهیه أنفسهم حتی آل أمرنا الی ما آل إلیه.

و من هنا یظهر-کما یعطیه السیاق-أن المراد بالأجل فی قولهم: «وَ بَلَغْنٰا أَجَلَنَا الَّذِی أَجَّلْتَ لَنٰا» الحد الذی قدر لوجودهم و الدرجه التی حصلت لهم من أعمالهم دون الوقت الذی ینتهی إلیه أعمارهم و بعباره اخری آخر درجه نالوها من فعلیه الوجود لا الساعه التی ینتهی إلیها حیاتهم فیرجع المعنی الی أن بعضنا استمتع ببعض بسوء اختیاره و سیّئ عمله فبلغنا بذلک السیر الاختیاری ما قدرت لنا من الأجل،و هو أنّا ظالمون کافرون.

فمعنی الآیه:و یوم یحشرهم جمیعا لیتم أمر الحجاج علیهم فیقول للجن:یا معشر الجن قد استکثرتم من ولایه الإنس و إغوائهم،و قال أولیاؤهم من الإنس فی الاعتراف بحقیقه الأمر:

ربنا استمتع بعضنا ببعض فاستمتعنا معشر الإنس من الجن بأن تمتعنا بزخارف الدنیا و ما

تهواه أنفسنا بتسويلاتهم،و تمتع الجن منا باتباع ما كانوا يلقون إلينا من الوساوس و كنا على ذلك حتى بلغنا آخر ما بلغنا من فعليه الحياه الشقيه و درجه العمل.

فهذا اعتراف منهم بأن الأجل و إن كان بتأجيل اللّه سبحانه لكنهم إنما بلغوه بطيهم طريق تمتع البعض من البعض،و هو طريق سلكوه باختيارهم.و لا يبعد أن يستظهر من هنا أن المراد بالجن الشياطين الذين يوسوسون فى صدور الناس من الجن.

قوله تعالى: قَالَ النّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاّ مَا شَاءَ اللّهُ الخ؛هذا جواب منه سبحانه و قضاء عليه،و متن ما قضى به قوله: «النّارُ مَثْوَاكُمْ» الخ.

و المثوى اسم مكان من قولهم:ثوى يثوى ثواء أى أقام مع استقرار فقوله:النار مثواكم أى مقامكم الذى تستقرون فيه من غير خروج و لذا أكده بقوله؟ «خَالِدِينَ فِيهَا» و قوله «إِلاّ مَا شَاءَ اللّهُ» استثناء يفيد أن القدره الإلهيه باقيه مع ذلك على ما كانت فله مع ذلك أن يخرجكم منها و إن كان لا يفعل.

ثم تمم الآيه بقوله: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» و هو يفيد تعليل البيان الواقع فى الآيه و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: وَ كَذٰلِكَ نُوَلِّی بَعْضَ الظّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فيه بيان أن جعله تعالى بعض الظالمين أولياء يجرى على الحقيقه المبينه فى الآيه السابقه،و هو أن التابع يستمتع المتبوع من طريق تسويله و إغوائه فيكسب بذلك الذنوب و الآثام حتى يجعل اللّه المتبوع وليا عليه و يدخل التابع فى ولايته.

و قوله: بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ الباء للسببيه أو المقابله،و هو يفيد أن هذه التوليه إنما هى بنحو المجازاه يجازى بها الظالمين فى قبال ما اكتسبوه من المظالم لا توليه ابتدائيه من غير ذنب سابق نظير ما فى قوله: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِی بِهِ كَثِيراً وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ» (البقره۲۶/).و قد التفت فى الآيه من الغيبه الى التكلم ليختص النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ببيان هذه

الحقیقه فإنهم غیر لائقین بتلقیها و إنما التفت الی التکلم لأن التکلم هو المناسب للمساره هذا و فی الآیات موارد أخر من الالتفات لا یخفی وجهها علی المتدبر.

قوله تعالی: یا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ یَأْتِکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ الی آخر الآیه.

فی هذا الخطاب دفع دخل یمکن أن یتوجه الی الحجه السابقه المأخوذه من اعترافهم بأنهم إنما وقعوا فیما وقعوا فیه من ولایه الشیاطین بسوء اختیارهم.

و هو أنهم و إن ابتلوا بذلک من طریق الاختیار لکنهم لم یکونوا یعلمون أن هذه المعاصی و التمتعات سوف توردهم مورد الهلکه و تسجل علیهم ولایه الظالمین و الشیاطین و یخسرهم بالشقاء الذی لا سعاده بعده أبدا فهم کانوا علی غفله من ذلک و إن کانوا علی علم فی الجمله بمساءه أعمالهم و شناعه أفعالهم و مؤاخذه الغافل ظلم.

فدفعه اللّه سبحانه بهذا الخطاب الذی یسألهم فیه عن إتیان الرسل و ذکرهم آیات اللّه و إنذارهم بیوم الجمع و الحساب فلما شهدوا علی أنفسهم بالکفر بما جاء به الرسل تمت الکلمه و لزمت الحجه.

فمعنی الآیه:أنا نخاطبهم جمیعا فنقول لهم:یا معشر الجن و الإنس أ لم یأتکم رسل منکم أرسلناهم إلیکم یقصون علیکم آیاتی التی تدل علی الدین الحق،و ینذرونکم لقاء یومکم هذا و هو یوم القیامه و أن اللّه سیوقفکم موقف المساءله فیحاسبکم علی أعمالکم ثم یجازیکم بما عملتم إن خیرا فخیرا و إن شرا فشرا فإذا سألناهم عن ذلک أجابونا و قالوا:شهدنا علی أنفسنا أن الرسل أتونا و قصوا علینا آیاتک،و أنذرونا لقاء یومنا هذا،و شهدوا علی أنفسهم أنهم کانوا کافرین بما جاء به الرسل رادین علیهم عن علم و ما کانوا غافلین.

قوله تعالی: ذٰلِکَ أَنْ لَمْ یَکُنْ رَبُّکَ مُهْلِکَ الْقُریٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهٰا غٰافِلُونَ الإشاره بقوله: «ذٰلِکَ» إلی مضمون ما تقدم من البیان-علی ما یعطیه السیاق-و قوله: «أَنْ لَمْ یَکُنْ» بتقدیر لام التعلیل فالمعنی أن الذی بیّناه من إرسال الرسل و التذکیر بالآیات و الإنذار

بيوم القيامه إنما هو لان اللّه سبحانه ليس من سنته أن يهلك أهل القرى و يوردهم مورد السخط و العذاب و هم غافلون عما يريده منهم من الطاعه و يفعله بهم على تقدير المخالفه، و ذلك ظلم منه تعالى.

فهم و إن نزلوا منزل الشقاء بتأجيل اللّه سبحانه و قضائه و جعله بعضهم أولياء بعض لكنه تعالى لم يسلبهم القدره على الطاعه و لم يبطل منهم الاختيار فاختاروا الشرك و المعصيه ثم أرسل إليهم رسلا منهم يقصون عليهم آياته و ينذرونهم لقاء يوم الحساب فكفروا بهم و مكثوا على بغيهم و عتوهم فجزاهم بولايه بعضهم بعضا و قضى عليهم بأن النار مثواهم فهم أنفسهم استدعوا الهلاك عن علم و إراده،و لم يهلكهم اللّه و هم غافلون حتى يكون يظلمهم فهو الحكم العدل تبارك اسمه.

قوله تعالى: وَ لِكُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا وَ مٰا رَبُّکَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا يَعْمَلُونَ متعلق الكلم محذوف و هو الضمير الراجع الى الطائفتين،و المعنى:و لكل طائفه من طائفتى الجن و الإنس درجات من أعمالهم فإن الأعمال مختلفه و باختلافها يختلف ما توجبه من الدرجات،و ما ربک بغافل عن أعمالهم.

قوله تعالى: وَ رَبُّکَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَهِ الى آخر الآيه؛بيان عام لنفى الظلم عنه تعالى فى الخلقه.

و توضيحه:أن الظلم هو وضع الشىء فى غير موضعه الذى ينبغى أن يوضع عليه و بعباره أخرى إبطال حق إنما يتحقق من الظلم بأخذ شىء أو تركه لأحد أمرين إما لحاجه منه إليه بوجه من الوجوه كأن يعود إليه أو الى من يهواه منه نفع أو يندفع عنه أو عما يعود إليه بذلک ضرر،و إما لا لحاجه منه إليه بل لشقوه باطنيه و قسوه نفسانيه لا يعبأ بها بما يقاسيه المظلوم من المصيبه و يكابده من المحنه،ليس ذلک منه لحاجه بل من آثار الملكه المشومه.

و اللّه سبحانه منزه من هاتين الصفتين السيئتين فهو الغنى الذى لا تمسه حاجه و لا يعرضه

فقر،و ذو الرحمه المطلقه التی ینعم بها علی کل شیء بما یلیق بحاله فلا یظلم سبحانه أحدا، و هذا هو الذی یدل علیه قوله: «وَ رَبُّکَ الْغَنِیُّ ذُو الرَّحْمَهِ» الخ؛و معنی الآیه:و ربک هو الذی یوصف بالغنی المطلق الذی لا فقر معه و لا حاجه،و بالرحمه المطلقه التی وسعت کل شیء و مقتضی ذلک أنه قادر علی أن یذهبکم و یستخلف من بعدکم ما یشاء من الخلق برحمته و الشاهد علیه أنه أنشأکم برحمته من ذریه قوم آخرین أذهبهم بغناه عنهم.

و فی قوله: مٰا یَشٰاءُ دون أن یقال:من یشاء،إبهام للدلاله علی سعه القدره.

قوله تعالی: إِنَّ مٰا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ أی الأمر الإلهی من البعث و الجزاء و هو الذی توعدون من طریق الوحی لآت البته و ما أنتم بمعجزین للّه حتی تمنعوا شیئا من ذلک أن یتحقق ففی الکلام تأکید للوعد و الوعید السابقین.

قوله تعالی: قُلْ یٰا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلیٰ مَکٰانَتِکُمْ إِنِّی عٰامِلٌ الی آخر الآیه؛ المکانه هی المنزله و الحاله التی یستقر علیها الشیء،و عاقبه الشیء ما ینتهی إلیه،و هی فی الأصل مصدر کالعقبی علی ما قیل،و قولهم:کانت له عاقبه الدار کنایه عن نجاحه فی سعیه و تمکنه مما قصده،و فی الآیه انعطاف الی ما بدئ به الکلام،و هو قوله تعالی قبل عده آیات:

«اتَّبِعْ مٰا أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ» .

و المعنی:قل للمشرکین:یا قوم اعملوا علی منزلتکم و حالتکم التی أنتم علیها من الشرک و الکفر-و فیه تهدید بالأمر-و دوموا علی ما أنتم علیه من الظلم إنی عامل و مقیم علی ما أنا علیه من الإیمان و الدعوه الی التوحید فسوف تعلمون من یسعد و ینجح فی عمله،و أنا الناجح دونکم فإنکم ظالمون بشرککم و الظالمون لا یفلحون فی ظلمهم.

و ربما قیل:إن قوله: «إِنِّی عٰامِلٌ» إخبار عن اللّه سبحانه أنه یعمل بما وعد به من البعث و الجزاء،و هو فاسد یدفعه سیاق قوله:«فسوق تعلمون من تکون له عاقبه الدار».

ص :۴۱۸

اشاره

وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّٰا ذَرَأَ مِنَ اَلْحَرْثِ وَ اَلْأَنْعٰامِ نَصِيباً فَقٰالُوا هٰذٰا لِلّٰهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هٰذٰا لِشُرَكٰائِنٰا فَمٰا كٰانَ لِشُرَكٰائِهِمْ فَلاٰ يَصِلُ إِلَى اَللّٰهِ وَ مٰا كٰانَ لِلّٰهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلىٰ شُرَكٰائِهِمْ سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ (۱۳۶) وَ كَذٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاٰدِهِمْ شُرَكٰاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مٰا يَفْتَرُونَ (۱۳۷) وَ قٰالُوا هٰذِهِ أَنْعٰامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لاٰ يَطْعَمُهٰا إِلاّٰ مَنْ نَشٰاءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعٰامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهٰا وَ أَنْعٰامٌ لاٰ يَذْكُرُونَ اِسْمَ اَللّٰهِ عَلَيْهَا اِفْتِرٰاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (۱۳۸) وَ قٰالُوا مٰا فِي بُطُونِ هٰذِهِ اَلْأَنْعٰامِ خٰالِصَةٌ لِذُكُورِنٰا وَ مُحَرَّمٌ عَلىٰ أَزْوٰاجِنٰا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكٰاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۳۹) قَدْ خَسِرَ اَلَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاٰدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا مٰا رَزَقَهُمُ اَللّٰهُ اِفْتِرٰاءً عَلَى اَللّٰهِ قَدْ ضَلُّوا وَ مٰا كٰانُوا مُهْتَدِينَ (۱۴۰) وَ هُوَ اَلَّذِي أَنْشَأَ جَنّٰاتٍ مَعْرُوشٰاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشٰاتٍ وَ اَلنَّخْلَ وَ اَلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ اَلزَّيْتُونَ وَ اَلرُّمّٰانَ مُتَشٰابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشٰابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذٰا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصٰادِهِ وَ لاٰ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاٰ يُحِبُّ اَلْمُسْرِفِينَ (۱۴۱) وَ مِنَ اَلْأَنْعٰامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً كُلُوا مِمّٰا رَزَقَكُمُ اَللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُوٰاتِ اَلشَّيْطٰانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۱۴۲) ثَمٰانِيَةَ أَزْوٰاجٍ مِنَ اَلضَّأْنِ اِثْنَيْنِ وَ مِنَ اَلْمَعْزِ اِثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ اَلْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اِشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحٰامُ اَلْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۱۴۳) وَ مِنَ اَلْإِبِلِ اِثْنَيْنِ وَ مِنَ اَلْبَقَرِ اِثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ اَلْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اِشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحٰامُ اَلْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدٰاءَ إِذْ وَصّٰاكُمُ اَللّٰهُ بِهٰذٰا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرىٰ عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً لِيُضِلَّ اَلنّٰاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِينَ (۱۴۴) قُلْ لاٰ أَجِدُ فِي مٰا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلىٰ طٰاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاّٰ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اَللّٰهِ بِهِ فَمَنِ اُضْطُرَّ غَيْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴۵) وَ عَلَى اَلَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَ مِنَ اَلْبَقَرِ وَ اَلْغَنَمِ حَرَّمْنٰا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمٰا إِلاّٰ مٰا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمٰا أَوِ اَلْحَوٰايٰا أَوْ مَا اِخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذٰلِكَ جَزَيْنٰاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ (۱۴۶) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وٰاسِعَةٍ وَ لاٰ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ اَلْقَوْمِ اَلْمُجْرِمِينَ (۱۴۷) سَيَقُولُ اَلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا أَشْرَكْنٰا وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ شَيْءٍ كَذٰلِكَ كَذَّبَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّٰى ذٰاقُوا بَأْسَنٰا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنٰا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ تَخْرُصُونَ (۱۴۸) قُلْ فَلِلّٰهِ اَلْحُجَّةُ اَلْبٰالِغَةُ فَلَوْ شٰاءَ لَهَدٰاكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۴۹) قُلْ هَلُمَّ شُهَدٰاءَكُمُ اَلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اَللّٰهَ حَرَّمَ هٰذٰا فَإِنْ شَهِدُوا فَلاٰ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (۱۵۰)

بيان:

قوله تعالى: وَ جَعَلُوا لِلّهِ مِمّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً الى آخر الآيه؛الذرء الإيجاد على وجه الاختراع و كأن الأصل فى معناه الظهور،و الحرث الزرع، و قوله:«بزعمهم»فى قوله: «فَقالُوا هٰذا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ» نوع من التنزيه كقوله: وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحانَهُ (الأنبياء۲۶/).و الزعم الاعتقاد و يستعمل غالبا فيما لا يطابق الواقع منه.

و قوله: وَ هٰذا لِشُرَكائِنا أضاف الشركاء إليهم لأنهم هم الذين أثبتوها و اعتقدوا بها نظير أئمه الكفر و أئمتهم و أولياؤهم،و قيل:أضيفت الشركاء إليهم لأنهم كانوا يجعلون بعض أموالهم لهم فيتخذونهم شركاء لأنفسهم.

و كيف كان فمجموع الجملتين أعنى قوله: «فَقالُوا هٰذا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هٰذا لِشُرَكائِنا» من تفريع التفصيل على الإجمال يفسر به جعلهم للّه نصيبا من خلقه،و فيه توطئه و تمهيد لتفريع حكم آخر عليه،و هو الذى يذكره فى قوله: «فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَ ما كانَ لِلّهِ

فَهُوَ يَصِلُ إِلىٰ شُرَكائِهِمْ» .

و إذا كـان هـذا الحكم على بطلانه من أصـله و كونه افتراء على اللّه لا يخلو عن إزراء بساحته تعالى بتغليب جانب الأصـنام على جانبه قبحه بقوله: «سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ» و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعـالى: وَ كَذٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاٰدِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ الى آخر الآيه؛قرأ غير ابن عامر «زين» بفتـح الزاى فعل معلوم،و «قتـل» بنصب اللام مفعول «زَيَّنَ» و هو مضاف الى «أَوْلاٰدِهِمْ» بالجر و هو مفعول «قَتْلَ» اضـيف إليه، و «شُرَكاؤُهُمْ» فاعل «زَيَّنَ» .

و المعنى أن الأصـنام بمـا لهـا من الوقع فى قلوب المشـركين و الحب الوهمى فى نفوسـهم زينت لكـثير من المشـركين أن يقتلوا أولادهم و يجعلوهم قرابين يتقربون بـذلك الى الآلهه كما يضـبطه تاريـخ قدماء الوثنيين و الصابئين،و هذا غير مسأله الوأد الذى كانت بنو تميم من العرب يعملون به فإن المأخوذ فى سياق الآيه الأولاد دون البنات خاصه.

قوله تعالى: وَ قٰالُوا هٰذِهِ أَنْعٰامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ الى آخر الآيه؛الحجر بكسـر الحاء المنع و يفسـره قوله بعده: «لاٰ يَطْعَمُهٰا إِلاّٰ مَنْ نَشٰاءُ» أى هذه الأنعام و الحرث حرام إلا على من نشاء أن نأذن لهم،و روى:أنهم كانوا يقدمونها لآلهتهم و لا يحلون أكلها إلا لمن كان يخدم آلهتهم من الرجال دون النساء بزعمهم.

و قوله: وَ أَنْعٰامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهٰا أى و قـالوا:هـذه أنعـام حرمت ظهورهـا أو و لهم أنعام حرمت ظهورها،و هى السائبه و البحيره و الحامى التى نفاها اللّه تعالى فى قوله: مٰا جَعَلَ اللّٰهُ مِنْ بَحِيرَهٍ وَ لاٰ سٰائِبَهٍ وَ لاٰ وَصِيلَهٍ وَ لاٰ حٰامٍ وَ لٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ (المائده/١٠٣)و قيل:هى بعض هؤلاء على الخلاف السابق فى معناها فى تفسير آيه المائده.

و قوله: وَ أَنْعٰامٌ لاٰ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّٰهِ عَلَيْهَا أى و لهم أنعام،الخ؛و هى الأنعام

التی کانوا یهلون علیها بأصنامهم لا باسم اللّه،و قیل:هی التی کانوا لا یرکبونها فی الحج، و قیل:أنعام کانوا لا یـذکرون اسم اللّه علیها و لا فی شأن من شئونها،و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالی: وَ قٰالُوا مٰا فِی بُطُونِ هٰذِهِ الْأَنْعٰامِ خٰالِصَهٌ لِذُکُورِنٰا الی آخر الآیه،المراد بما فی البطون أجنه البحائر و السیب،فقد کانوا یحلونها اذا ولدت حیه للرجال دون النساء و إن ولدت میته أکله الرجال و النساء جمیعا،و قیل:المراد بها الألبان،و قیل:

الأجنه و الألبان جمیعا.

و المراد بقـوله: سَیَجْزِیهِمْ وَصْفَهُمْ سـیجزیهم نفس وصـفهم فـإنه یعـود وبالاً و عـذابا علیهـم ففیـه نـوع مـن العنـایه،و قیـل:التقـدیر:سیجزیهم بوصـفهم،و قیل:التقـدیر:سیجزیهم جزاء وصـفهم،فحـذف المضاف و أقیم المضاف إلیه مقامه،و المعنی ظاهر.

قوله تعـالی: قَدْ خَسِرَ الَّذِینَ قَتَلُوا أَوْلاٰدَهُمْ سَفَهاً بِغَیْرِ عِلْمٍ الـخ؛رد لما حکی عنهم فی الآیات السابقه من الأحکام المفتراه و هی قتل الأولاد و تحریم أصناف من الأنعام و الحرث و ذکر أن ذلک منهم خسران و ضلال من غیر اهتداء.

و قـد وصف قتـل الأولاد بأنه سـفه بغیر علم،و کـذلک بـدل الأنعام و الحرث من قوله ما رزقهم اللّه و وصف تحریمها بأنه افتراء علی اللّه لیکون فی ذلک تنبیه کالتعلیل علی خسرانهم فی ذلک کأنه قیل:خسـروا فی قتلهم أولادهم لأنهم سـفهوا به سـفها بغیر علم،و خسروا فی تحریمهم أصـنافا من الأنعـام و الحرث افـتراء علی اللّه لأنهـا من رزق اللّه و حاشـاه تعـالی أن یرزقهم شـیئا ثم یحرمه علیهم.

ثم بین ضلالهم فی تحریم الحرث و الأنعام مع کونها من رزق اللّه بیانا تفصیلیا بالاحتجاج من ناحیه العقل و مصلحه معاش العباد بقوله: وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَ جَنّٰاتٍ الی تمام أربع آیات؛ ثم من ناحیه السمع و نزول الوحی بقوله: «قُلْ لاٰ أَجِدُ فِی مٰا أُوحِیَ إِلَیَّ مُحَرَّماً عَلیٰ طٰاعِمٍ یَطْعَمُهُ» الی تمام الآیه.

فیکون محصل الآیات الخمس أن تحریمهم أصنافا من الحرث و الأنعام ضلال منهم لا یساعدهم علی ذلک حجه فلا العقل و رعایه مصلحه العباد یدلهم علی ذلک،و لا الوحی النازل من اللّه سبحانه یهدیهم إلیه فهم فی خسران منه.

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَ جَنّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَیْرَ مَعْرُوشاتٍ -الی قوله- وَ غَیْرَ مُتَشابِهٍ .الشجره المعروشه هی التی ترفع أغصانها بعضا علی بعض بدعائم کالکرم و أصل العرش الرفع فالجنات المعروشات هی بساتین الکرم و نحوها،و الجنات غیر المعروشات ما کانت أشجارها قائمه علی أصولها من غیر دعائم.

و قوله: وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُکُلُهُ أی ما یؤکل منه من الحبات کالحنطه و الشعیر و العدس و الحمص.

و قوله: وَ الزَّیْتُونَ وَ الرُّمّانَ مُتَشابِهاً وَ غَیْرَ مُتَشابِهٍ أی متشابه کل منها و غیر متشابه علی ما یفیده السیاق،و التشابه بین الثمرتین باتحادهما فی الطعم أو الشکل أو اللون أو غیر ذلک.

قوله تعالی: کُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ الی آخر الآیه؛الأمر للإباحه لوروده فی رفع الحظر الذی یدل علیه إنشاء الجنات و النخل و الزرع و غیرها،و السیاق یدل علی أن تقدیر الکلام:و هو الذی أنشأ جنات و النخل و الزرع،الخ؛و أمرکم بأکل ثمر ما ذکر و أمرکم بإیتاء حقه یوم حصاده،و نهاکم عن الإسراف.فأی دلیل أدل من ذلک علی إباحتها؟

و قوله: وَ آتُوا حَقَّهُ یَوْمَ حَصادِهِ أی الحق الثابت فیه المتعلق به فالضمیر راجع الی الثمر و أضیف إلیه الحق لتعلقه به کما یضاف الحق أیضا الی الفقراء لارتباطه بهم و ربما احتمل رجوع الضمیر الی اللّه کالضمیر الذی بعده فی قوله: «إِنَّهُ لا یُحِبُّ الْمُسْرِفِینَ» و إضافته إلیه تعالی لانتسابه إلیه بجعله.

و هذا إشاره الی جعل حق ما للفقراء فی الثمر من الحبوب و الفواکه یؤدی إلیهم یوم الحصاد

يـدل عليه العقـل و يمضـيه الشـرع و ليس هو الزكاه المشـرعه فى الإسـلام اذ ليست فى بعض ما ذكر فى الآيه زكاه.على أن الآيه مكيه و حكم الزكاه مدنى.

نعم لاـ يبعـد أن يكون أصـلا لتشـريعها فـإن أصول الشـرائع النازله فى السور المـدنيه نازله على وجه الإجمال و الإبهام فى السور المكيه كقوله تعـالى بعـد عـده آيـات عنـد تعـداد كليـات المحرمـات: قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّكُمْ -الى أن قـال- وَ لاٰ تَقْرَبُوا الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ (الأنعام/١٥١).

و قوله: وَ لاٰ تُسْرِفُوا الخ؛أى لا تتجاوزوا الحد الذى يصـلح به معاشـكم بالتصـرف فيه فلا يتصرف صاحب المال منكم بالإسراف فى أكله أو التبذير فى بذله أو وضـعه فى غير موضعه من معاصى اللّه و هكذا،و لا يسرف الفقير الآخذ بتضييعه و نحو ذلك،ففى الكلام إطلاق،و الخطاب فيه لجميع الناس.

قوله تعالى: وَ مِنَ الْأَنْعٰامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً الى آخر الآيه؛الحموله أكابر الأنعام لإطاقتها الحمل،و الفرش أصاغرها لأنها كأنها تفترش على الأـرض أو لأنهـا توطـأ كما يوطأ الفرش،و قوله: «كُلُوا مِمّٰا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ» إباحه للأكل و إمضاء لما يـدل عليه العقل نظير قوله فى الآـيه السـابقه: «كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ» و قوله: «لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُوٰاتِ الشَّيْطٰانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» أى لا تسـيروا فى هـذا الأمر المشـروع إباحته باتباع الشـيطان بوضع قدمكم موضع قدمه بأن تحرموا ما أحله،و قد تقدم أن المراد باتباع خطوات الشيطان تحريم ما أحله اللّه بغير علم.

قوله تعالى: ثَمٰانِيَهَ أَزْوٰاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ الى آخر الآيه؛تفصـيل للأنعام بعـد الإجمال و المراد به تشديد اللوم و التوبيخ عليهم ببسطه على كل صوره من الصور و الوجوه،فقوله: «ثَمٰانِيَهَ أَزْوٰاجٍ» عطف بيان من «حَمُولَةً وَ فَرْشاً» فى الآيه السابقه.

و الأزواج جميع زوج،و يطلق الزوج على الواحد الذى يكون معه آخر و على الاثنين،

و أنواع الأنعام أربعه:الضأن و المعز و البقر و الإبل،و اذا لوحظت ذكرا و انثی کانت ثمانیه أزواج.

و المعنی:أنشأ ثمانیه أزواج من الضأن زوجین اثنین هما الذکر و الانثی و من المعز زوجین اثنین کالضأن قل آلذکرین من الضأن و المعز حرم اللّه أم الانثیین منهما أم حرم ما اشتملت علیه أرحام الانثیین من الضأن و المعز نبئونی ذلک بعلم إن کنتم صادقین.

قوله تعالی: وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ -الی قوله- اَلْأُنْثَيَيْنِ معناه ظاهر مما مر،و قیل:المراد بالاثنین فی المواضع الأربعه من الآیتین الأهلی و الوحشی.

قوله تعالی: أَمْ كُنْتُمْ شُهَدٰاءَ إِذْ وَصّٰاكُمُ اللّٰهُ بِهٰذٰا الی آخر الآیه؛هذا شق من تردید حذف شقه الآخر علی ما یدل علیه الکلام،و تقدیره:أعلمتم ذلک من طریق الفکر کعقل أو سمع أم شاهدتم تحریم اللّه ذلک و شافهتموه فادعیتم ذلک.

و قوله: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً الخ؛تفریع علی ما قبله باعتبار دلالته علی انقطاعهم عن الجواب و علی ذلک فمعناه:فمن أظلم منکم،و یکون قوله: «مِمَّنِ افْتَرىٰ» الخ؛کنایه عن المشرکین المخاطبین وضع موضع ضمیر الخطاب الراجع إلیهم لیدل به علی سبب الحکم المفهوم من الاستفهام الإنکاری و التقدیر:لا أظلم منکم لأنکم افتریتم علی اللّه کذبا لتضلوا الناس بغیر علم،و اذ ظلمتم فإنکم لا تهتدون إن اللّه لا یهدی القوم الظالمین.

قوله تعالی: قُلْ لاٰ أَجِدُ فِي مٰا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلىٰ طٰاعِمٍ يَطْعَمُهُ الخ؛ معنی الآیه ظاهر،و قد تقدم فی نظیره الآیه من سوره المائده آیه ۳،و فی سوره البقره آیه ۱۷۳ ما ینفع فی المقام.

قوله تعالی: وَ عَلَى الَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ الخ؛الظفر واحد الأظفار و هو العظم النابت علی رءوس الأصابع،و الحوایا المباعر قال فی المجمع:موضع

الحوایا یحتمل أن یکون رفعا عطفا علی الظهور و تقدیره:أو ما حملت الحوایا،و یحتمل أن یکون نصبا عطفا علی ما فی قوله: «إِلاّ مٰا حَمَلَتْ» فأما قوله: «أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ» فإن ما هذه معطوفه علی ما الاول(انتهی)و الوجه الأول أقرب.

ثم قال:ذلک فی قوله-ذلک جزیناهم-یجوز أن یکون منصوب الموضع بأنه مفعول ثان لجزیناهم التقدیر:جزیناهم ذلک ببغیهم،و لا یجوز أن یرفع بالابتداء لأنه یصیر التقدیر:ذلک جزیناهموه فیکون کقولهم:زید ضربت أی ضربته،و هذا إنما یجوز فی ضروره الشعر.انتهی.

و الآیه کأنها فی مقام الاستدراک و دفع الدخل ببیان أن ما حرم اللّه علی بنی إسرائیل من طیبات ما رزقهم إنما حرمه جزاء لبغیهم فلا ینافی ذلک کونه حلا بحسب طبعه الأوّلی کما یشیر الی ذلک قوله: کُلُّ الطَّعٰامِ کٰانَ حِلاًّ لِبَنِی إِسْرٰائِیلَ إِلاّٰ مٰا حَرَّمَ إِسْرٰائِیلُ عَلیٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرٰاهُ (آل عمران۹۳/)و قوله: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَیْهِمْ طَیِّبٰاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ کَثِیراً (النساء ۱۶۰/).

قوله تعالی: فَإِنْ کَذَّبُوکَ فَقُلْ رَبُّکُمْ ذُو رَحْمَهٍ وٰاسِعَهٍ الی آخر الآیه؛معنی الآیه ظاهر،و فیها أمر بإنذارهم و تهدیدهم إن کذبوا بالبأس الإلهی الذی لا مرد له لکن لا ببیان یسلط علیهم الیأس و القنوط بل بما یشوبه بعض الرجاء،و لذلک قدم علیه قوله:

«رَبُّکُمْ ذُو رَحْمَهٍ وٰاسِعَهٍ» .

قوله تعالی: سَیَقُولُ الَّذِینَ أَشْرَکُوا لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا أَشْرَکْنٰا وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ شَیْءٍ الآیه تذکر احتجاجهم بهذه الحجه ثم ترد علیهم بأنهم جاهلون بها و إنما یرکنون فیها الی الظن و التخمین،و الکلمه کلمه حق وردت فی کثیر من الآیات القرآنیه لکنها لا تنتج ما قصدوه منها.

فإنهم إنما احتجوا بها لإثبات أن شرکهم و تحریمهم ما رزقهم اللّه بإمضاء من اللّه سبحانه لا بأس علیهم فی ذلک فحجتهم أن اللّه لو شاء منا خلاف ما نحن علیه من الشرک و التحریم لکنا

مضطرین علی ترک الشرک و التحریم فإذ لم یشأ کان ذلک إذنا فی الشرک و التحریم فلا بأس بهذا الشرک و التحریم.

و هـذه الحجه لاـ تنتـج هـذه النتیجه و إنمـا تنتـج أن اللّه سبحانه اذ لم یشأ منهم ذلک لم یوقعهم موقع الاضـطرار و الإجبار فهم مختـارون فی الشـرک و الکـف عنـه و فی التحریم و ترکه فله تعـالی أن یـدعوهم الی الإیمـان به و رفض الاـفتراض فلله الحجه البالغه و لا حجه لهم فی ذلک إلا اتباع الظن و التخمین.

قوله تعالی: قُلْ فَلِلّٰهِ الْحُجَّةُ الْبٰالِغَةُ فَلَوْ شٰاءَ لَهَدٰاکُمْ أَجْمَعِینَ کأن الفاء الاولی لتفریع مضـمون الجمله علی ما تقـدم من قولهم: «لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا أَشْرَکْنٰا» الخ؛و الفاء الثانیه للتعلیل فیکون الکلام من قبیل قلب الحجه علی الخصم بعد بیان مقتضاها.

و المعنی ان نتیجه الحجه قـد التبست علیکم بجهلکم و اتبـاعکم الظن و خرصـکم فی المعارف الإلهیه فحجتکم تـدل علی أن لا حجه لکم فی دعوته إیاکم الی رفض الشـرک و ترک الافتراء علیه،و إن الحجه إنما هی للّه علیکم فإنه لو شاء لهـداکم أجمعین و أجبرکم علی الإیمان و ترک الشـرک و التحریم،و اذ لم یجبرکم علی ذلک و أبقاکم علی الاختیار فله أن یدعوکم الی ترک الشرک و التحریم.

و بعبـاره أخری:یتفرع علی حجتکم أن الحجه للّه علیکم لأـنه لو شاء لأجبر علی الإیمان فهـداکم أجمعین،و لم یفعل بل جعلکم مختارین یجوز بذلک دعوتکم الی ما دعاکم إلیه.

و قـد بیّن تعالی فی طائفه من الآیات السابقه أنه تعالی لم یضـطر عباده علی الإیمان و لم یشأ منهم ذلک بالمشـیه التکوینیه حتی یکونوا مجبرین علیه بـل أذن لهم فی خلاـفه و هـذا الإـذن الـذی هو رفع المانع التکوینی هو اختیار العباد و قـدرتهم علی جانبی الفعل و الترک،و هذا الإذن لا ینافی الأمر التشریعی بترک الشرک مثلا بل هو الأساس الذی یبتنی علیه الأمر و النهی.

ص :۴۲۸

قوله تعالی: قُلْ هَلُمَّ شُهَدٰاءَکُمُ اَلَّذِینَ یَشْهَدُونَ الی آخر الآیه؛هلم شهداءکم أی هاتوا شهداءکم و هو اسم فعل یستوی فیه المفرد و المثنی و المجموع،و المراد بالشهاده شهاده الأداء و الإشاره بقوله: «هٰذٰا» الی ما ذکر من المحرمات عندهم،و الخطاب خطاب تعجیزی أمر به اللّه سبحانه لیکشف به أنهم مفترون فی دعواهم أن اللّه حرم ذلک فهو کنایه عن عدم التحریم.

و قوله: فَإِنْ شَهِدُوا فَلاٰ تَشْهَدْ مَعَهُمْ فی معنی الترقی،و المعنی:لا شاهد فیهم یشهد بذلک فلا تحریم حتی أنهم لو شهدوا بالتحریم فلا تشهد معهم اذ لا تحریم و لا یعبأ بشهادتهم فإنهم قوم یتبعون أهواءهم.

فقوله: وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا الخ؛عطف تفسیر لقوله: «فَإِنْ شَهِدُوا فَلاٰ تَشْهَدْ مَعَهُمْ» أی أن شهادتک اتباع لأهوائهم کما أن شهادتهم من اتباع الأهواء و کیف لا؟و هم قوم کذبوا بآیات اللّه الباهره،و لا یؤمنون بالآخره و یعدلون بربهم غیره من خلقه کالأوثان،و لا یجترئ علی ذلک مع کمال البیان و سطوع البرهان إلا الذین یتبعون الأهواء (۱).

[سوره الأنعام (۶): الآیات ۱۵۱ الی ۱۵۷]

اشاره

قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّکُمْ عَلَیْکُمْ أَلاّٰ تُشْرِکُوا بِهِ شَیْئاً وَ بِالْوٰالِدَیْنِ إِحْسٰاناً وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَوْلاٰدَکُمْ مِنْ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُکُمْ وَ إِیّٰاهُمْ وَ لاٰ تَقْرَبُوا اَلْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ وَ لاٰ تَقْتُلُوا اَلنَّفْسَ اَلَّتِی حَرَّمَ اَللّٰهُ إِلاّٰ بِالْحَقِّ ذٰلِکُمْ وَصّٰاکُمْ بِهِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (۱۵۱) وَ لاٰ تَقْرَبُوا مٰالَ اَلْیَتِیمِ إِلاّٰ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ حَتّٰی یَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا اَلْکَیْلَ وَ اَلْمِیزٰانَ بِالْقِسْطِ لاٰ نُکَلِّفُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا وَ إِذٰا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ کٰانَ ذٰا قُرْبیٰ وَ بِعَهْدِ اَللّٰهِ أَوْفُوا ذٰلِکُمْ وَصّٰاکُمْ بِهِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ (۱۵۲) وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِی مُسْتَقِیماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا اَلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِکُمْ عَنْ سَبِیلِهِ ذٰلِکُمْ وَصّٰاکُمْ بِهِ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ (۱۵۳) ثُمَّ آتَیْنٰا مُوسَی اَلْکِتٰابَ تَمٰاماً عَلَی اَلَّذِی أَحْسَنَ وَ تَفْصِیلاً لِکُلِّ شَیْءٍ وَ هُدیً وَ رَحْمَهً لَعَلَّهُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ یُؤْمِنُونَ (۱۵۴) وَ هٰذٰا کِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ مُبٰارَکٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۱۵۵) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمٰا أُنْزِلَ اَلْکِتٰابُ عَلیٰ طٰائِفَتَیْنِ مِنْ قَبْلِنٰا وَ إِنْ کُنّٰا عَنْ دِرٰاسَتِهِمْ لَغٰافِلِینَ (۱۵۶) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنّٰا أُنْزِلَ عَلَیْنَا اَلْکِتٰابُ لَکُنّٰا أَهْدیٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جٰاءَکُمْ بَیِّنَهٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ هُدیً وَ رَحْمَهٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ کَذَّبَ بِآیٰاتِ اَللّٰهِ وَ صَدَفَ عَنْهٰا سَنَجْزِی اَلَّذِینَ یَصْدِفُونَ عَنْ آیٰاتِنٰا سُوءَ اَلْعَذٰابِ بِمٰا کٰانُوا یَصْدِفُونَ (۱۵۷)

۱- ۱) .الانعام ۱۲۶-۱۵۰:بحث روائی فی المشرکین و سننهم؛ما احل اللّه و ما حرّم.

بيان:

قوله تعالى: قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاّٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً قيل:تعال مشتق من العلو و هو أمر بتقدير أن الأمر فى مكان عال و إن لم يكن الأمر على ذلك

ص: ۴۳۰

بحسب الحقيقه،و التلاوه قريب المعنى من القراءه و قوله: «عَلَيْكُمْ» متعلق بقوله: «أَتْلُ» أو قوله: «حَرَّمَ» على طريق التنازع فى المتعلق،و ربما قيل:إن: «عَلَيْكُمْ» اسم فعل بمعنى خذوا و قوله: «أَلاّ تُشْرِكُوا» معموله و النظم:عليكم أن لا تشركوا به شيئا و بالوالدين إحسانا، الخ؛و هو خلاف ما يسبق الى الذهن من السياق.

و لما كان قوله: «تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ» الخ؛دعوه الى التلاوه وضع فى الكلام عين ما جاء به الوحى فى مورد المحرمات من النهى فى بعضها و الأمر بالخلاف فى بعضها الآخر فقال: «أَلاّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً» كما قال: «وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ» «وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ» الخ؛ و قال: «وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً» كما قال: «وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ» «وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا» الخ.

و قد قدم الشرك على سائر المحرمات لأنه الظلم العظيم الذى لا مطمع فى المغفره الإلهيه معه قال: إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ (النساء۴۸/)و إليه ينتهى كل معصيه كما ينتهى الى التوحيد بوجه كل حسنه.

قوله تعالى: وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً أى أحسنوا بالوالدين إحسانا،و فى المجمع:أى و أوصى بالوالدين إحسانا و يدل على ذلك أن فى«حرم كذا»معنى أوصى بتحريمه و أمر بتجنبه.انتهى.

و قد عدّ فى مواضع من القرآن الكريم إحسان الوالدين تاليا للتوحيد و نفى الشرك فامر به بعد الأمر بالتوحيد أو النهى عن الشرك به كقوله: وَ قَضى رَبُّكَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً (الإسراء۲۳/)و قوله: وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لاِبْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ (لقمان۱۴/)و غير ذلك من الآيات.

و يدل ذلك على أن عقوق الوالدين من أعظم الذنوب أو هو أعظمها بعد الشرك باللّه العظيم،و الاعتبار يهدى الى ذلك فإن المجتمع الإنسانى الذى لا يتم للإنسان دونه حياه و لا

دين هو أمر وضعى اعتبارى لا يحفظه فى حدوثه و بقائه إلا حب النسل الذى يتكئ على رابطه الرحمه المتكونه فى البيت القائمه بالوالدين من جانب و بالأولاد من جانب آخر، و الأولاد إنما يحتاجون الى رحمتهما و إحسانهما فى زمان تتوق أنفسهما الى نحو الأولاد بحسب الطبع،و كفى به داعيا و محرضا لهما الى الإحسان إليهم بخلاف حاجتهم الى رأفه الأولاد و رحمتهم فإنها بالطبع يصادف كبرهما و يوم عجزهما عن الاستقلال بالقيام بواجب حياتهما و شباب الأولاد و قوتهم على ما يعنيهم.

و جفاء الأولاد للوالدين و عقوقهم لهما يوم حاجتهما إليهم و رجائهما منهم و انتشار ذلك بين النوع يؤدى بالمقابله الى بطلان عاطفه التوليد و التربيه،و يدعو ذلك من جهه الى ترك التناسل و انقطاع النسل،و من جهه الى كراهيه تأسيس البيت و التكاهل فى تشكيل المجتمع الصغير،و الاستنكاف عن حفظ سمه الابوه و الاموه،و ينجر الى تكوّن طبقه من الذريه الإنسانيه لا قربه بينهم و لا أثر من رابطه الرحم فيهم،و يتلاشى عندئذ أجزاء المجتمع، و يتشتت شملهم،و يتفرق جمعهم،و يفسد أمرهم فسادا لا يصلحه قانون جار و لا سنه دائره، و يرتحل عنهم سعاده الدنيا و الآخره،و سنقدم إليك بحثا ضافيا فى هذه الحقيقه الدينيه إن شاء اللّه.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَوْلاٰدَكُمْ مِنْ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيّٰاهُمْ الإملاق الإفلاس من المال و الزاد و منه التملق،و قد كان هذا كالسنه الجاريه بين العرب فى الجاهليه لتسرع الجدب و القحط الى بلادهم فكان الرجل اذا هدّده الإفلاس بادر الى قتل أولاده تأنفا من أن يراهم على ذله العدم و الجوع.

و قد علل النهى بقوله: «نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيّٰاهُمْ» أى إنما تقتلونهم مخافه أن لا تقدروا على القيام بأمر رزقهم و لستم برازقين لهم بل اللّه يرزقكم و إياهم جميعا فلا تقتلوهم.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَقْرَبُوا الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ الفواحش جميع

فاحشه و هى الأمر الشنيع المستقبح،و قد عدّ اللّه منها فى كلامه الزنا و اللواط و قذف المحصنات،و الظاهر أن المراد مما ظهر و مما بطن العلانيه و السر كالزنا العلنى و اتخاذ الأخدان و الأخلاء سرا.

و فى استباحه الفاحشه إبطال فحشها و شناعتها،و فى دلك شيوعها لأنها من أعظم ما تتوق إليه النفس الكارهه لأن يضرب عليها بالحرمان من ألذ لذائذها و تحجب عن أعجب ما تتعلق به و تعزم به شهوتها،و فى شيوعها انقطاع النسل و بطلان المجتمع البيتى و فى بطلانه بطلان المجتمع الكبير الإنسانى،و سوف نستوفى هذا البحث إن شاء اللّه فيما يناسبه من المحل.

و كذلك استباحه القتل و ما فى تلوه من الفحشاء إبطال للأمن العام و فى بطلانه انهدام بنيه المجتمع الإنسانى و تبدد أركانه.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللّٰهُ إِلاّٰ بِالْحَقِّ أى حرم اللّه قتلها أو حرمها بالحرمه المشرعه لها التى تقيها و تحميها من الضيعه فى دم أو حق،قيل:إنه تعالى أعاد ذكر القتل و إن كان داخلا فى الفواحش تفخيما لشأنه و تعظيما لأمره،و نظيره الكلام فى قتل الأولاد خشيه الإملاق اختص بالذكر عنايه به،و قد كانت العرب يفعل ذلك بزعمهم أن خشيه الإملاق يبيح للوالد أن يقتل أولاده،و يصان به ماء وجهه من الابتذال،و الابوه عندهم من أسباب الملك.

و قد استثنى اللّه تعالى من جهه قتل النفس المحترمه التى هى نفس المسلم و المعاهد قتلها بالحق و هو القتل بالقود و الحد الشرعى.

ثم أكد تحريم المذكورات فى الآيه بقوله: «ذٰلِكُمْ وَصّٰاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» سيجىء الوجه فى تعليل هذه المناهى الخمس بقوله: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» .

قوله تعالى: وَ لاٰ تَقْرَبُوا مٰالَ الْيَتِيمِ إِلاّٰ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتّٰى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ النهى عن القرب للدلاله على التعميم فلا يحل أكل ماله و لا استعماله و لا أى تصرف فيه إلا

بالطریقه التی هی أحسن الطرق المتصوره لحفظه،و یمتد هذا النهی و تدوم الحرمه الی أن یبلغ أشده فإذا بلغ أشده لم یکن یتیما قاصرا عن إداره ماله و کان هو المتصرف فی مال نفسه من غیر حاجه بالطبع الی تدبیر الولی لماله.

و من هنا یظهر أن المراد ببلوغه أشده هو البلوغ و الرشد کما یدل علیه أیضا قوله: وَ ابْتَلُوا الْیَتٰامیٰ حَتّٰی إِذٰا بَلَغُوا النِّکٰاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَیْهِمْ أَمْوٰالَهُمْ وَ لاٰ تَأْکُلُوهٰا إِسْرٰافاً وَ بِدٰاراً أَنْ یَکْبَرُوا (النساء۶/).

و یظهر أیضا أنه لیس المراد بتحدید حرمه التصرف فی مال الیتیم بقوله: «حَتّٰی یَبْلُغَ أَشُدَّهُ» رفع الحرمه بعد بلوغ الأشد و إباحه التصرف حینئذ بل المراد بیان الوقت الذی یصلح للاقتراب من ماله،و ارتفاع الموضوع بعده فإن الکلام فی معنی:و أصلحوا مال الیتیم الذی لا یقدر علی إصلاح ماله و إنمائه حتی یکبر و یقدر.

قوله تعالی: وَ أَوْفُوا الْکَیْلَ وَ الْمِیزٰانَ بِالْقِسْطِ لاٰ نُکَلِّفُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا الإیفاء بالقسط هو العمل بالعدل فیهما من غیر بخس،و قوله: «لاٰ نُکَلِّفُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا» بمنزله دفع الدخل کأنه قیل:«إن الإیفاء بالقسط و الوقوع فی العدل الحقیقی الواقعی لا یمکن للنفس الإنسانیه التی لا مناص لها عن أن تلتجئ فی أمثال هذه الامور إلی التقریب فاجیب بأنا لا نکلف نفسا إلا وسعها،و من الجائز أن یتعلق قوله: «لاٰ نُکَلِّفُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا» بالحکمین جمیعا أعنی قوله: «وَ لاٰ تَقْرَبُوا مٰالَ الْیَتِیمِ» الخ؛و قوله: «وَ أَوْفُوا الْکَیْلَ وَ الْمِیزٰانَ» .

قوله تعالی: وَ إِذٰا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ کٰانَ ذٰا قُرْبیٰ ذکر ذی القربی و هو الذی تدعو عاطفه القرابه و الرحم الی حفظ جانبه و صیانته من وقوع الشر و الضرر فی نفسه و ماله یدل علی أن المراد بالقول هو القول الذی یمکن أن یترتب علیه انتفاع الغیر أو تضرره کما أن ذکر العدل فی القول یؤید ذلک،و یدل علی أن هناک ظلما،و إن القول متعلق ببعض الحقوق کالشهاده و القضاء و الفتوی و نحو ذلک.

فالمعنى:و راقبوا أقوالكم التى فيها نفع أو ضرر للناس و اعدلوا فيها،و لا يحملنكم رحمه أو رأفه أو أى عاطفه على أن تراعوا جانب أحد فتحرّفوا الكلام و تجاوزوا الحق فتشهدوا أو تقضوا بما فيه رعايه لجانب من تحبونه و إبطال حق من تكرهونه.

قال فى المجمع:و هذا من الأوامر البليغه التى يدخل فيها مع قله حروفها الأقارير و الشهادات،و الوصايا،و الفتاوى،و القضايا،و الأحكام،و المذاهب،و الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر.

قوله تعالى: وَ بِعَهْدِ اللّٰهِ أَوْفُوا قال الراغب فى المفردات:العهد حفظ الشىء و مراعاته حالا بعد حال.انتهى.و لذا يطلق على الفرامين و التكاليف المشرّعه و الوظائف المحوّله و على العهد الذى هو الموثق و على النذر و اليمين.

و كثره استعماله فى القرآن الكريم فى الفرامين الإلهيه،و إضافته فى الآيه الى اللّه سبحانه، و مناسبه المورد و فيه بيان الأحكام و الوصايا الإلهيه العامه كل ذلك يؤيد أن يكون المراد بقوله: «وَ بِعَهْدِ اللّٰهِ أَوْفُوا» التكاليف الدينيه الإلهيه،و إن كان من الممكن أن يكون المراد بالعهد هو الميثاق المعقود بمثل قولنا:عاهدت اللّه على كذا و كذا،قال تعالى: وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كٰانَ مَسْؤُلاً (الإسراء/۳۴)فيكون إضافته الى اللّه نظير إضافه الشهاده إليه فى قوله:

وَ لاٰ نَكْتُمُ شَهٰادَةَ اللّٰهِ (المائده/۱۰۶)للإشاره الى أن المعامله فيه معه سبحانه.ثم أكد التكاليف المذكوره فى الآيه بقوله: «ذٰلِكُمْ وَصّٰاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» .

قوله تعالى: وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ الى آخر الآيه،قرئ «وَ أَنَّ» بفتح الهمزه و تشديد النون و تخفيفها و كأنه بالعطف على موضع قوله: «أَلاّٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً» و قرئ بكسر الهمزه على الاستئناف.

و الذى يعطيه سياق الآيات أن يكون مضمون هذه الآيه أحد الوصايا التى أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يتلوها عليهم و يخبرهم بها حيث قيل: «قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ» ،و لازم ذلك

أن یکون قوله: «وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِی مُسْتَقِیماً فَاتَّبِعُوهُ» مسوقا لا لتعلق الغرض به بنفسه لأن کلیات الدین قد تمت فی الآیتین السابقتین علیه بل لیکون توطئه و تمهیدا لقوله بعده: «وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ» کما أن هذه الجمله بعینها کالتوطئه لقوله: «فَتَفَرَّقَ بِکُمْ عَنْ سَبِیلِهِ» فالمراد بالآیه ان لا تتفرقوا عن سبیله و لا تختلفوا فیه،فتکون الآیه مسوقه سوق قوله: شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ مٰا وَصّٰی بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ وَ مٰا وَصَّیْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ أَنْ أَقِیمُوا الدِّینَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِیهِ (الشوری/۱۳)فالأمر فی الآیه بإقامه الدین هو ما وصی من الدین المشروع کأنه أعید لیکون تمهیدا للنهی عن التفرق بالدین.

فالمعنی:و مما حرم ربکم علیکم و وصاکم به أن لا تتبعوا السبل التی دون هذا الصراط المستقیم الذی لا یقبل التخلف و الاختلاف و هی غیر سبیل اللّه فإن اتباع السبل دونه یفرقکم عن سبیله فتختلفون فیه فتخرجون من الصراط المستقیم اذ الصراط المستقیم لا اختلاف بین أجزائه و لا بین سالکیه.

و مقتضی ظاهر السیاق أن یکون المراد بقوله: «صِرٰاطِی» صراط النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فإنه هو الذی یخاطب الناس بهذه التکالیف عن أمر من ربه اذ یقول: «قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ» الخ؛فهو المتکلم معهم المخاطب لهم،و للّه سبحانه فی الآیات مقام الغیبه حتی فی ذیل هذه الآیه اذ یقول:

«فَتَفَرَّقَ بِکُمْ عَنْ سَبِیلِهِ ذٰلِکُمْ وَصّٰاکُمْ بِهِ» و لا ضیر فی نسبه الصراط المستقیم الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فقد نسب الصراط المستقیم الی جمع من عباده الذین أنعم اللّه علیهم من النبیین و الصدیقین و الشهداء و الصالحین فی قوله: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِیمَ، صِرٰاطَ الَّذِینَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِمْ (الحمد/۷).

قوله تعالی: ثُمَّ آتَیْنٰا مُوسَی الْکِتٰابَ تَمٰاماً عَلَی الَّذِی أَحْسَنَ الی آخر الآیه،لما کان ما ذکره و وصی به من کلیات الشرائع تکالیف مشرعه عامه لجمیع ما أوتی الأنبیاء من الدین،و هی أمور کلیه مجمله صحح ذلک الالتفات الی بیان أنه تعالی بعد ما

شرعها للجميع إجمالا فصلها حيث اقتضت تفصيلها لموسى عليه السّلام أولا فيما أنزل عليه من الكتاب،و للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ثانيا فيما أنزله عليه من كتاب مبارك فقال تعالى: «ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِی أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ» الخ.

فمعنى الآيه:أنا بعد ما شرعنا من إجمال الشرائع الدينيه آتينا موسى الكتاب تماما تتم به نقيصه من أحسن منهم من حيث الشرع الإجمالى و تفصيلا يفصل به كل شىء من فروع هذه الشرائع الإجماليه مما يحتاج إليه بنو إسرائيل و هدى لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون.هذا هو الذى يعطيه سياق الآيه المتصل بسياق الآيات الثلاث السابقه.

فقوله: «ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ» رجوع الى السياق السابق الذى قبل قوله: «قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ» الآيات؛و هو خطاب اللّه لنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بصيغه المتكلم مع الغير،و قد افيد بالتأخير المستفاد من لفظه «ثُمَّ» أن هذا الكتاب إنما انزل ليكون تماما و تفصيلا للإجمال الذى فى تلك الشرائع العامه الكليه.

و قوله: تَماماً عَلَى الَّذِی أَحْسَنَ يبيّن أن إنزال الكتاب لتتم به نقيصه الذين أحسنوا من بنى إسرائيل فى العمل بهذه الشرائع الكليه العامه،و قد قال تعالى فى قصه موسى بعد نزول الكتاب: وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها (الأعراف/١۴۵)و قال: وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (البقره/۵٨)و على هذا فالموصول فى قوله: «عَلَى الَّذِی أَحْسَنَ» يفيد الجنس.

و قوله: «وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ» أى مما يحتاج إليه بنو إسرائيل أو ينتفع به غيرهم ممن بعدهم،و هدى يهتدى به و رحمه ينعمون بها.و قوله: «لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ» فيه إشاره الى أن بنى إسرائيل كانوا يتثاقلون أو يستنكفون عن الإيمان بلقاء اللّه و اليوم الآخر،و مما يؤيده أن التوراه الحاضره التى يذكر القرآن أنها محرفه لا يوجد فيها ذكر من البعث يوم

القيامه،و قد ذكر بعض المؤرخين منهم أن شعب إسرائيل ما كانت تعتقد المعاد.

قوله تعالى: وَ هٰذٰا كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ مُبٰارَكٌ الى آخر الآيه؛أى و هذا كتاب مبارك يشارك كتاب موسى فيما ذكرناه من الخصيصه فاتبعوه،الخ.

قوله تعالى: أَنْ تَقُولُوا إِنَّمٰا أُنْزِلَ الْكِتٰابُ عَلىٰ طٰائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنٰا الخ؛ «أَنْ تَقُولُوا» معناه كراهه أن تقولوا،أو لئلا تقولوا،و هو شائع فى الكلام،و هو متعلق بقوله فى الآيه السابقه:و «أَنْزَلْنٰاهُ» .

و قوله: «طٰائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنٰا» يراد به اليهود و النصارى أنزل عليهما التوراه و الإنجيل،و أما كتب الأنبياء النازله قبلهما مما يذكره القرآن مثل كتاب نوح و كتاب إبراهيم عليهما السّلام فلم يكن فيها تفصيل الشرائع و إن اشتملت على أصلها،و أما سائر ما ينسب الى الأنبياء عليهم السّلام من الكتب كزبور داود عليه السّلام و غيره فلم تكن فيها شرائع و لا لهم بها عهد.

و المعنى أنا أنزلناه القرآن كراهه أن تقولوا:إن الكتاب الإلهى المفصل لشرائعه إنما انزل على طائفتين من قبلنا هم اليهود و النصارى و إنما كنا غافلين عن دراستهم و تلاوتهم،و لا بأس علينا مع الغفله.

قوله تعالى: أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنّٰا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتٰابُ لَكُنّٰا أَهْدىٰ مِنْهُمْ الى آخر الآيه؛أى من الذين أنزل إليهم الكتاب قبلنا و قوله: «فَقَدْ جٰاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» تفريع لقوليه: «أَنْ تَقُولُوا» «أَوْ تَقُولُوا» جميعا،و قد بدل الكتاب من البيّنه ليدل به على ظهور حجته و وضوح دلالته بحيث لا يبقى عذر لمعتذر و لا عله لمتعلل،و الصدف الإعراض و معنى الآيه ظاهر.

[سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۵۸ الى ۱۶۰]

اشاره

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيٰاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيٰاتِ رَبِّكَ لاٰ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمٰانُهٰا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمٰانِهٰا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنّٰا مُنْتَظِرُونَ (۱۵۸) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كٰانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمٰا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّٰهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ (۱۵۹) مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاٰ يُجْزىٰ إِلاّٰ مِثْلَهٰا وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (۱۶۰)

بیان:

قوله تعالی: هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ تَأْتِیهُمُ الْمَلائِکَهُ أَوْ یَأْتِیَ رَبُّکَ أَوْ یَأْتِیَ بَعْضُ آیاتِ رَبِّکَ استفهام إنکاری فی مقام لا تنفع فیه عظه و لا تنجح فیه دعوه فالامور المذکوره فی الآیه لا محاله امور لا تصحب إلا القضاء بینهم بالقسط و الحکم الفصل بإذهابهم و تطهیر الأرض من رجسهم.

و لازم هذا السیاق أن یکون المراد بإتیان الملائکه نزولهم بآیه العذاب کما یدل علیه قوله تعالی: وَ قالُوا یا أَیُّهَا الَّذِی نُزِّلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ، لَوْ ما تَأْتِینا بِالْمَلائِکَهِ إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّادِقِینَ، ما نُنَزِّلُ الْمَلائِکَهَ إِلاّ بِالْحَقِّ وَ ما کانُوا إِذاً مُنْظَرِینَ (الحجر۸/).

و یکون المراد بإتیان الرب هو یوم اللقاء و هو الانکشاف التام لآیه التوحید بحیث لا یبقی علیه ستر کما هو شأن یوم القیامه المختص بانکشاف الغطاء،و المصحح لإطلاق الإتیان علی ذلک هو الظهور بعد الخفاء و الحضور بعد الغیبه جل شأنه عن الاتصاف بصافت الأجسام.

و ربما یقال:إن المراد إتیان أمر الرب و قد مرّ نظیره فی قوله تعالی: هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ یَأْتِیَهُمُ اللّهُ فِی ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ (البقره۲۱۰/)فی الجزء الثانی من الکتاب.

و يكون المراد بإتيان بعض آيات الرب إتيان آيه تلازم تبدّل نشأه الحياه عليهم بحيث لا سبيل الى العود الى فسحه الاختيار كآيه الموت التى تبدّل نشأه العمل نشأه الجزاء البرزخى أو تلازم استقرار ملكه الكفر و الجحود فى نفوسهم استقرارا لا يمكنهم معه الإذعان بالتوحيد و الإقبال بقلوبهم الى الحق إلا ما كان بلسانهم خوفا من شمول السخط و العذاب كما ربما دل عليه قوله تعالى: وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (النمل/٨٢).

و كذا قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ، قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (السجده/٢٩)فإن الظاهر أن المراد بالفتح هو الفتح للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالقضاء بينه و بين أمته بالقسط كما حكاه اللّه تعالى عن شعيب عليه السّلام فى قوله: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (الأعراف/٨٩)و حكاه عن رسله فى قوله: وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ كُلُّ جَبّارٍ عَنِيدٍ (إبراهيم/١٥).

أو تلازم بأسا من اللّه تعالى لا مرد له و لا محيص عنه فيضطرهم اللّه الإيمان ليتقوا به أليم العذاب لكن لا ينفعهم ذلك فلا ينفع من الإيمان إلا ما كان عن اختيار كما يدل عليه قوله تعالى: فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (المؤمن/٨٥).

فهذه أعنى إتيان الملائكه أو إتيان الرب أو إتيان بعض آياته أمور تصاحب القضاء بينهم بالقسط و هم لكونهم لا تؤثر فيهم حجه و لا تنفعهم موعظه لا ينظرون إلا ذلك و إن ذهلوا عنه فإن الواقع أمامهم علموا أو جهلوا.

و ربما قيل:إن الاستفهام للتهكم،فإنهم كانوا يقترحون على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن ينزّل عليهم الملائكه أو يروا ربهم أو يأتيهم بآيه كما أرسل الأوّلون فكأنه قيل:هؤلاء لا يريدون حجه

و إنما ينتظرون ما اقترحوه من الامور.

و هـذا الوجه غير بعيـد بالنسـبه الى صـدر الآيه لكن ذيلها أعنى قوله: «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ» الـخ؛لا يلائمه تلك الملاءمه فإن التهكم لا يتعدى فيه الى بيان الحقائق و تفصيل الآثار.

قوله تعالى: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ الى آخر الآيه؛يشرح خاصه يوم ظهور هذه الآيات،و هي في الحقيقه خاصه نفس الآيات و هى أن الإيمان لا ينفع نفسا لم تؤمن قبل ذلك اليوم إيمان طوع و اختيار أو آمنت قبله و لم تكن كسبت فى إيمانها خيرا و لم تعمل صالحا بل انهمكت فى السيئات و المعاصى اذ لا توبه لمثل هـذا الإنسان،قال تعالى: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ (النساء/ ١٨)،فالنفس التى لم تؤمن من قبل إيمان طوع و رضى أو آمنت باللّه و كذبت بآيات اللّه و لم تعتن بشـىء من شـرائع اللّه و استرسلت فى المعاصى الموبقه و لم تكتسب شيئا من صالح العمل فيما كان عليها ذلك ثم شاهـدت البأس الإلهى فحملها الاضـطرار الى الإيمان لترد به بأس اللّه تعالى لم ينفعها ذلك،و لم يرد عنها بأسا و لا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

و فى قوله: لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ الفصل بين الموصوف و الوصف بفاعل الفعل و هو إيمانها و كأنه للاحتراز عن الفصل الطويل بين الفعل و فاعله،و اجتماع: «فِي إِيمَانِهَا» و «إِيمَانُهَا» فى اللفظ.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ الـخ؛وجه الكلام السابق و إن كان مع المشـركين و قد ابتلوا بتفريق الـدين الحنيف،و كان أيضا لأهل الكتاب نصـيب من الكلام و ربما لوّح إليهم بعض التلويـح و لازم ذلك أن ينطبق قوله «الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيَعاً» على المشركين بل عليهم و على اليهود و النصارى لاشتراك الجميع فى التفرق و الاختلاف فى الدين الإلهى.

ص :۴۴۱

لکن اتصال الکلام بالآیات المبینه للشرائع العامه الإلهیه التی تبتدئ بالنهی عن الشرک و تنتهی الی النهی عن التفرق عن سبیل اللّه یستدعی أن یکون قوله: «الَّذِینَ فَرَّقُوا دِینَهُمْ وَ کانُوا شِیَعاً» موضوعا لبیان حال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم مع من کان هذا وصفه فالإتیان بصیغه الماضی فی قوله: «فَرَّقُوا دِینَهُمْ» لبیان أصل التحقق سواء کان فی الماضی أو الحال أو المستقبل لا تحقق الفعل فی الزمان الماضی فحسب.

و من المعلوم أن تمییز النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و إخراجه من أولئک المختلفین فی الدین المتفرقین شیعه شیعه کل شیعه یتبع إماما یقودهم لیس إلا لأنه رسول یدعو الی کلمه الحق و دین التوحید، و مثال کامل یمثل بوجوده الإسلام و یدعو بعمله إلیه فیعود معنی قوله: «لَسْتَ مِنْهُمْ فِی شَیْءٍ» الی أنهم لیسوا علی دینک الذی تدعو إلیه،و لا علی مستوی طریقک الذی تسلکه.

فمعنی الآیه أن الذین فرقوا دینهم بالاختلافات التی هی لا محاله ناشئه عن العلم-و ما اختلف الذین أوتوه إلا بغیا بینهم-و الانشعابات المذهبیه لیسوا علی طریقتک التی بنیت علی وحده الکلمه و نفی الفرقه إنما أمرهم فی هذا التفریق الی ربهم لا یماسک منهم شیء فینبئهم یوم القیامه بما کانوا یفعلون و یکشف لهم حقیقه أعمالهم التی هم رهناؤها.

و قد تبین بما مر أن لا وجه لتخصیص الآیه بتبرئته صلّی اللّه علیه و آله و سلم من المشرکین أو منهم و من الیهود و النصاری،أو من المختلفین بالمذاهب و البدع من هذه الامه فالآیه عامه تعم الجمیع.

قوله تعالی: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّیِّئَهِ فَلا یُجْزیٰ إِلاّ مِثْلَها وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ الآیه تامه فی نفسها تکشف عن منّه إلهیه یمتن بها علی عباده أنه یجازی الحسنه بعشر أمثالها،و لا یجازی السیئه إلا بمثلها أی یحسب الحسنه عشره و السیئه واحده و لا یظلم فی الإیفاء فلا ینقص من تلک و لا یزید فی هذه،إن أمکن أن یزید فی جزاء الحسنه فیزید علی العشر کما یدل علیه قوله: مَثَلُ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِی سَبِیلِ اللّهِ کَمَثَلِ حَبَّهٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِی کُلِّ سُنْبُلَهٍ مِائَهُ حَبَّهٍ وَ اللّهُ یُضاعِفُ لِمَنْ یَشاءُ

(البقره۲۶۱/)و أمكن أن يعفو عن السيئه فلا يحسب حتى المثل الواحد.

لكنها أعنى الآيه باتصالها بما تقدمها و انتظامها معها فى سياق واحد تفيد معنى آخر كأنه قيل بعد سرد الكلام فى الآيات السابقه فى الاتفاق و الاجتماع على الحق و التفرق فيه:فهاتان خصلتان حسنه و سيئه يجزى فيهما ما يماثلهما و لا ظلم فإن الجزاء يماثل العمل فمن جاء بالحسنه فله مثلها و يضاعف له و من جاء بالسيئه و هى الاختلاف المنهى عنه فلا يجزى إلا سيئه مثلها و لا يطمعنّ فى الجزاء الحسن،و عاد المعنى الى نظير ما استفيد من قوله: وَ جَزٰاءُ سَيِّئَهٍ سَيِّئَهٌ مِثْلُهٰا (الشورى۴۰/)أن المراد به بيان مماثله جزاء السيئه لها فى كونها سيئه لا يرغب فيها لا إثبات الوحده و نفى المضاعفه.

[سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۶۱ الى ۱۶۵]

اشاره

قُلْ إِنَّنِی هَدٰانِی رَبِّی إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ دِیناً قِیَماً مِلَّهَ إِبْرٰاهِیمَ حَنِیفاً وَ مٰا کٰانَ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ (۱۶۱) قُلْ إِنَّ صَلاٰتِی وَ نُسُکِی وَ مَحْیٰایَ وَ مَمٰاتِی لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۱۶۲) لاٰ شَرِیکَ لَهُ وَ بِذٰلِکَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ اَلْمُسْلِمِینَ (۱۶۳) قُلْ أَ غَیْرَ اَللّٰهِ أَبْغِی رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ کُلِّ شَیْءٍ وَ لاٰ تَکْسِبُ کُلُّ نَفْسٍ إِلاّٰ عَلَیْهٰا وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَهٌ وِزْرَ أُخْریٰ ثُمَّ إِلیٰ رَبِّکُمْ مَرْجِعُکُمْ فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ (۱۶۴) وَ هُوَ اَلَّذِی جَعَلَکُمْ خَلاٰئِفَ اَلْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَکُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰاتٍ لِیَبْلُوَکُمْ فِی مٰا آتٰاکُمْ إِنَّ رَبَّکَ سَرِیعُ اَلْعِقٰابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۶۵)

بیان:

قوله تعالی: قُلْ إِنَّنِی هَدانِی رَبِّی إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ الی آخر الآیتین؛القیم بالکسر فالفتح مخفف القیام وصف به الدین للمبالغه فی قیامه علی مصالح العباد،و قیل:

وصف بمعنی القیّم علی الأمر.

یأمر اللّه سبحانه أن یخبرهم بأن ربه الذی یدعو إلیه هداه بهدایه إلهیه الی صراط مستقیم و سبیل واضح قیّم علی سالکیه لا تخلف فیه و لا اختلاف دینا قائما علی مصالح الدنیا و الآخره أحسن القیام-لکونه مبنیا علی الفطره-مله إبراهیم حنیفا مائلا عن التطرف بالشرک الی اعتدال التوحید و ما کان من المشرکین،و قد تقدم توضیح هذه المعانی فی تفسیر الآیات السابقه من السوره.

قوله تعالی: قُلْ إِنَّ صَلاتِی وَ نُسُکِی وَ مَحْیایَ وَ مَماتِی لِلّٰهِ رَبِّ الْعالَمِینَ -الی قوله- أَوَّلُ الْمُسْلِمِینَ النسک مطلق العباده،و کثر استعماله فی الذبح أو الذبیحه تقربا الی اللّه سبحانه.

أمره صلّی اللّه علیه و آله و سلم ثانیا أن یخبرهم بأنه عامل بما هداه اللّه إلیه متلبس به کما أنه مأمور بذلک لیکون أبعد من التهمه عندهم و أقرب الی تلقیهم بالقبول فإن من اماره الصدق أن یعمل الإنسان بما یندب إلیه،و یطابق فعله قوله.

فقال:قل:إننی جعلت صلاتی و مطلق عبادتی-و اختصت الصلاه بالذکر استقلالا لمزید العنایه بها منه تعالی-و محیای بجمیع ما له من الشئون الراجعه إلی من أعمال و أوصاف و أفعال و تروک،و مماتی بجمیع ما یعود إلی من اموره و هی الجهات التی ترجع منه الی الحیاه-کما قال:

کما تعیشون تموتون-جعلتها کلها للّه رب العالمین من غیر أن أشرک به فیها أحدا فأنا عبد فی جمیع شئونی فی حیاتی و مماتی للّه وحده وجهت وجهی إلیه لا أقصد شیئا و لا أترکه إلا له و لا

أسير فى مسير حياتى و لا أراد مماتى إلا له فإنه رب العالمين،يملك الكل و يدبر أمرهم.

و قد أمرت بهذا النحو من العبوديه،و أنا أول المسلمين للّه فيما أراده من العبوديه التامه فى كل باب وجهه.

قوله تعالى: قُلْ أَ غَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ الخ؛هذه الآيه و التى بعدها تشتملان على حجج ثلاث هى جوامع الحجج المذكوره فى السوره للتوحيد،و هى الحجه من طريق بدء الخلقه،و الحجه من طريق عودها،و الحجه من حال الإنسان و هو بينهما و بعباره أخرى الحجه من نشأه الحياه الدنيا و النشأه التى قبلها و التى بعدها.

فالحجه من طريق البدء ما فى قوله: «أَ غَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ» و من المعلوم أنه اذا كان رب كل شىء كان كل شىء مربوبا له فلا رب غيره على الإطلاق يصلح أن يعبد.

و الحجه من طريق العود ما يشتمل عليه قوله: «وَ لاٰ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاّٰ عَلَيْهٰا» الى آخر الآيه،أى أن كل نفس لا تعمل عملا و لا تكسب شيئا إلا حمل عليها و لا تزر وازره وزر اخرى حتى يحمل ما اكتسبته نفس على غيرها ثم المرجع الى اللّه و إليه الجزاء بالكشف عن حقائق أعمال العباد،و اذا كان لا محيص عن الجزاء و هو المالك ليوم الدين فهو الذى تتعين عبادته لا غيره ممن لا يملك شيئا.

و الحجه من طريق النشأه الدنيا ما فى قوله: «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاٰئِفَ» الخ؛و محله أن هذا النظام العجيب الذى يحكم فى معاشكم فى الحياه الدنيا و هو مبنى على خلافتكم فى الأرض و اختلاف شئونكم بالكبر و الصغر و القوه و الضعف و الذكوريه و الانوثيه و الغنى و الفقر و الرئاسه و المرءوسيه و العلم و الجهل و غيرها و إن كان نظاما اعتباريا لكنه ناش من عمل التكوين منته إليه فاللّه سبحانه هو ناظمه،و إنما فعل ذلك لامتحانكم و ابتلائكم فهو الرب الذى يدبر أمر سعادتكم،و يوصل من أطاعه الى سعادته المقدره له و يذر الظالمين فيها جثيا، فهو الذى يحق عبادته.

ص: ۴۴۵

و قد تبیّن بما مر أن مجموع الجملتین: «وَ لاٰ تَکْسِبُ کُلُّ نَفْسٍ إِلاّٰ عَلَیْهٰا وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَهٌ وِزْرَ أُخْریٰ» سیق لإفاده معنی واحد و هو أن ما کسبته نفس یلزمها و لا یتعداها،و هو مفاد قوله:

کُلُّ نَفْسٍ بِمٰا کَسَبَتْ رَهِینَهٌ (المدثر۳۸/).

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَکُمْ خَلاٰئِفَ الْأَرْضِ الخلائف جمع خلیفه أی یستخلف بعضکم بعضا أو استخلفکم لنفسه فی الأرض و قد مر کلام فی معنی هذه الخلافه فی تفسیر قوله تعالی: إِنِّی جٰاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَهً (البقره۳۰/)فی الجزء الأول من الکتاب، و معنی الآیه ظاهر بما مر من البیان،و قد ختمت السور بالمغفره و الرحمه.

ص :۴۴۶

سوره الأعراف مکیه و هی مائتا و سته آیه

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیمِ

[سوره الأعراف (۷): الآیات ۱ الی ۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;المص (۱) کِتٰابٌ أُنْزِلَ إِلَیْکَ فَلاٰ یَکُنْ فِی صَدْرِکَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِکْریٰ لِلْمُؤْمِنِینَ (۲) اِتَّبِعُوا مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیٰاءَ قَلِیلاً مٰا تَذَکَّرُونَ (۳) وَ کَمْ مِنْ قَرْیَهٍ أَهْلَکْنٰاهٰا فَجٰاءَهٰا بَأْسُنٰا بَیٰاتاً أَوْ هُمْ قٰائِلُونَ (۴) فَمٰا کٰانَ دَعْوٰاهُمْ إِذْ جٰاءَهُمْ بَأْسُنٰا إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا إِنّٰا کُنّٰا ظٰالِمِینَ (۵) فَلَنَسْئَلَنَّ اَلَّذِینَ أُرْسِلَ إِلَیْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ اَلْمُرْسَلِینَ (۶) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَیْهِمْ بِعِلْمٍ وَ مٰا کُنّٰا غٰائِبِینَ (۷) وَ اَلْوَزْنُ یَوْمَئِذٍ اَلْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِینُهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۸) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِینُهُ فَأُولٰئِکَ اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمٰا کٰانُوا بِآیٰاتِنٰا یَظْلِمُونَ (۹)

ص: ۴۴۷

بيان:

السوره تشتمل من الغرض على مجموع ما تشتمل عليه السور المصدّره بالحروف المقطعه «الم»و السوره المصدره بحرف«ص»فليكن على ذكر منک حتى نستوفى ما استيفاؤه من البحث فى أول سوره حم عسق إن شاء اللّه تعالى عن الحروف المقطعه القرآنيّه.

و السوره كأنها تجعل العهد الإلهى المأخوذ من الإنسان على أن يعبد اللّه و لا يشرك به شيئا أصلا يبحث عما آل إليه أمره بحسب مسير الإنسانيه فى الامم و الأجيال فأكثرهم نقضوه و نسوه ثم اذا جاءتهم آيات مذكره لهم أو أنبياء يدعونهم إليه كذّبوا و ظلموا بها و لم يتذكر بها إلا الأقلون.

و ذلک أن العهد الإلهى الذى هو إجمال ما تتضمنه الدعوه الدينيه الإلهيه اذا نزل بالإنسان -و طبائع الناس مختلفه فى استعداد القبول و الرد-تحوّل لا محاله بحسب أماكن نزوله و الأوضاع و الأحوال و الشرائط الحافّه بنفوس الناس فأنتج فى بعض النفوس-و هى النفوس الطاهره الباقيه على أصل الفطره-الاهتداء الى الإيمان باللّه و آياته،و فى آخرين و هم الأكثرون ذووا النفوس المخلده الى الأرض المستغرقه فى شهوات الدنيا خلاف ذلک من الكفر و العتوّ.

و استتبع ذلک ألطافا إلهيه خاصه بالمؤمنين من توفيق و نصر و فتح فى الدنيا،و نجاه من النار و فوز بالجنه و أنواع نعيمها الخالد فى الآخره،و غضبا و لعنا نازلا على الكافرين و عذابا واقعا يهلک جمعهم،و يقطع نسلهم،و يخمد نارهم،و يجعلهم أحاديث و يمزقهم كل ممزق،

و لعذاب الآخره أخزى و هم لا ينصرون.

فهذه هى سنه اللّه التى قد خلت فى عباده و على ذلک ستجرى،و اللّه يحكم لا معقب لحكمه و هو على صراط مستقيم.

فتفاصيل هذه السنه اذا وصفت لقوم ليدعوهم ذلک الى الإيمان باللّه و آياته كان ذلک إنذارا لهم،و اذا وصفت لقوم مؤمنين و لهم علم بربهم فى الجمله و معرفه بمقامه الربوبىّ كان ذلک تذكيرا لهم بآيات اللّه و تعليما بما يلزمه من المعارف و هى معرفه اللّه و معرفه أسمائه الحسنى و صفاته العليا و سنته الجاريه فى الآخره و الاولى و هذا هو الذى يلوح من قوله تعالى فى الآيه الثانيه من السوره: «لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ» أن غرضها هو الإنذار و الذكرى.

و السوره على أنها مكيه-إلا آيات اختلف فيها-وجه الكلام فيها بحسب الطبع الى المشركين و طائفه قليله آمنوا بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم على ما يظهر من آيات أولها و آخرها إنذار لعامه الناس بما فيها من الحجه و الموعظه و العبره،و قصه آدم عليه السّلام و إبليس و قصص نوح و هود و صالح و لوط و شعيب و موسى عليهم السّلام،و هى ذكرى للمؤمنين تذكرهم ما يشتمل عليه إجمال إيمانهم من المعارف المتعلقه بالمبدإ و المعاد و الحقائق التى هى آيات إلهيه.

و السوره تتضمن طرفا عاليا من المعارف الإلهيه منها وصف إبليس و قبيله،و وصف الساعه و الميزان و الأعراف و عالم الذر و الميثاق و وصف الذاكرين للّه،و ذكر العرش،و ذكر التجلى،و ذكر الأسماء الحسنى،و ذكر أن للقرآن تأويلا الى غير ذلک.

و هى تشتمل على ذكر إجمالى من الواجبات و المحرمات كقوله: قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ الآيه ۲۹،و قوله: إِنَّمٰا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ (الآيه۳۳/)،و قوله قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّٰهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبٰادِهِ وَ الطَّيِّبٰاتِ مِنَ الرِّزْقِ (الآيه۳۲/)فنزولها قبل نزول سوره الأنعام التى فيها قوله: قُلْ لاٰ أَجِدُ فِى مٰا أُوحِىَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلىٰ طٰاعِمٍ يَطْعَمُهُ الآيه(الأنعام۱۴۵/)،فإن ظاهر الآيه أن الحكم بإباحه غير ما استثنى من المحرمات كان

نازلا قبل السوره فالإشاره بها الی ما فی هذه السوره.

علی أن الأحکام و الشرائع المذکوره فی هذه السوره أوجز و أکثر إجمالا مما ذکر فی سوره الأنعام فی قوله: «قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّکُمْ عَلَیْکُمْ» الآیات؛و ذلک یؤید کون هذه السوره قبل الأنعام نزولا علی ما هو المعهود من طریقه تشریع الأحکام فی الإسلام تدریجا آخذا من الإجمال الی التفصیل.

قوله تعالی: المص، کِتٰابٌ أُنْزِلَ إِلَیْکَ فَلاٰ یَکُنْ فِی صَدْرِکَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِکْریٰ لِلْمُؤْمِنِینَ تنکیر الکتاب و توصیفه بالإنزال إلیه من غیر ذکر فاعل الإنزال کل ذلک للدلاله علی التعظیم و یتخصص وصف الکتاب و وصف فاعله بعض التخصص بما یشتمل علیه قوله: «فَلاٰ یَکُنْ فِی صَدْرِکَ حَرَجٌ مِنْهُ» من التفریع کأنه قیل:هذا کتاب مبارک یقص آیات اللّه أنزله إلیک ربّک فلا یکن فی صدرک حرج منه کما أنه لو کان کتابا غیر الکتاب و ألقاه إلیک ربک لکان من حقه أن یتحرج و یضیق منه صدرک لما فی تبلیغه و دعوه الناس الی ما یشتمل علیه من الهدی من المشاق و المحن.

و قوله: «لِتُنْذِرَ بِهِ» غایه للإنزال متعلقه به کقوله: «وَ ذِکْریٰ لِلْمُؤْمِنِینَ» و تخصیص الذکری بالمؤمنین دلیل علی أن الإنذار یعمّهم و غیرهم،فالمعنی:أنزل إلیک الکتاب لتنذر به الناس و هو ذکری للمؤمنین خاصه لأنهم یتذکرون بالآیات و المعارف الإلهیه المذکوره فیها مقام ربهم فیزید بذلک إیمانهم و تقرّ بها أعینهم،و أما عامه الناس فإن هذا الکتاب یؤثر فیهم أثر الإنذار بما یشتمل علیه من ذکر سخط اللّه و عقابه للظالمین فی الدار الآخره،و فی الدنیا بعذاب الاستئصال کما تشرحه قصص الأمم السالفه.

قوله تعالی: اِتَّبِعُوا مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیٰاءَ قَلِیلاً مٰا تَذَکَّرُونَ لما ذکر لنبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم أنه کتاب أنزل إلیه لغرض الإنذار شرع فی الإنذار و رجع من خطابه صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی خطابهم فإن الإنذار من شأنه أن یکون بمخاطبه المنذرین-اسم

مفعول-و قد حصل الغرض من خطاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

و خاطبهم بالأمر باتباع ما أنزل إلیهم من ربهم،و هو القرآن الآمر لهم بحقّ الاعتقاد و حق العمل أعنی الإیمان باللّه و آیاته و العمل الصالح الذین یأمر بهما اللّه سبحانه فی کتابه و ینهی عن خلافهما،و الجمله أعنی قوله: «اتَّبِعُوا مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ» موضوعه وضع الکنایه کنّی بها عن الدخول تحت ولایه اللّه سبحانه و الدلیل علیه قوله: «وَ لاٰ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیٰاءَ» حیث لم یقل فی مقام المقابله:و لا تتبعوا غیر ما أنزل إلیکم.

و المعنی:و لا تتبعوا غیره تعالی-و هم کثیرون-فیکونوا لکم أولیاء من دون اللّه قلیلا ما تذکّرون،و لو تذکرتم لدریتم أن اللّه تعالی هو ربّکم لا ربّ لکم سواه فلیس لکم من دونه أولیاء.

قوله تعالی: وَ کَمْ مِنْ قَرْیَهٍ أَهْلَکْنٰاهٰا فَجٰاءَهٰا بَأْسُنٰا بَیٰاتاً أَوْ هُمْ قٰائِلُونَ تذکیر لهم بسنّه اللّه الجاریه فی المشرکین من الامم الماضیه اذ اتخذوا من دون اللّه أولیاء فأهلکهم اللّه بعذاب أنزله إلیهم لیلا أو نهارا فاعترفوا بظلمهم.

و«البیات»التبیت و هو قصد العدو لیلا،و«القائلون»من القیلوله و هو النوم نصف النهار،و قوله: «بَیٰاتاً أَوْ هُمْ قٰائِلُونَ» و لم یقل لیلا أو نهارا کأنه للإشاره الی أخذ العذاب إیاهم و هم آخذون فی النوم آمنون مما کمن لهم من البأس الإلهی الشدید غافلون مغفلون.

قوله تعالی: فَمٰا کٰانَ دَعْوٰاهُمْ إِذْ جٰاءَهُمْ بَأْسُنٰا إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا إِنّٰا کُنّٰا ظٰالِمِینَ تتمیم للتذکیر یبین أن الإنسان بوجدانه و سرّه یشاهد الظلم من نفسه إن اتخذ من دون اللّه أولیاء بالشرک،و أن السنه الإلهیه أن یأخذ منه الاعتراف بذلک ببأس العذاب إن لم یعترف به طوعا و لم یخضع لمقام الربوبیه فلیعترف اختیارا و إلا فسیعترف اضطرارا.

قوله تعالی: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِینَ أُرْسِلَ إِلَیْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِینَ دل البیان السابق علی أنهم مکلفون بتوحید اللّه سبحانه موظفون برفض الأولیاء من دونه غیر مخلین

و ما فعلوا،و لا متروكون و ما شاءوا،فإذا كان كذلك فهم مسئولون عما أمروا به من الإيمان و العمل الصالح،و ما كلفوا به من القول الحق،و الفعل الحق و هذا الأمر و التكليف قائم بطرفين:

الرسول الذى جاءهم به و القوم الذين جاءهم،و لهذا فرع على ما تقدم من حديث إهلاك القرى و أخذ الاعتراف منهم بالظلم قوله: «فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ» .

قوله تعالى: فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ مٰا كُنّٰا غٰائِبِينَ دل البيان السابق على أنهم مربوبون مدبرون فسيسألون عن أعمالهم ليجزوا بما عملوا،و هذا إنما يتم فيما اذا كان السائل على علم من أمر أعمالهم فإن المسئول لا يؤمن أن يكذب لجلب النفع الى نفسه و دفع الضرر عن نفسه فى مثل هذا الموقف الصعب الهائل الذى يهدده بالهلاك الخالد و الخسران المؤبد.

و لذلك فرّع عليه قوله: «فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ» الخ؛و قد نكّر العلماء للاعتناء بشأنه و أنه علم لا يخطئ و لا يغلط،و لذلك أكده بعطف قوله: «وَ مٰا كُنّٰا غٰائِبِينَ» عليه للدلاله على أنه كان شاهدا غير غائب،و إن وكل عليهم من الملائكه من يحفظ عليهم أعمالهم بالكتابه فإنه بكل شىء محيط.

قوله تعالى: وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الى آخر الآيتين الآيتان تخبران عن الوزن و هو توزين الأعمال أو الناس العاملين من حيث عملهم،و الدليل عليه قوله تعالى: وَ نَضَعُ الْمَوٰازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيٰامَهِ -الى أن قال- وَ كَفىٰ بِنٰا حٰاسِبِينَ (الأنبياء۴۷/)،حيث دل على أن هذا الوزن من شعب حساب الأعمال،و أوضح منه قوله: يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّٰاسُ أَشْتٰاتاً لِيُرَوْا أَعْمٰالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّهٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّهٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزال۸/)،حيث ذكر العمل و أضاف الثقل اليه خيرا و شرا.

ص :۴۵۲

و بالجمله الوزن إنما هو للعمل دون عامله فالآیه تثبت للعمل وزنا سواء کان خیرا أو شرا غیر أن قوله تعالی: أُولٰئِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیٰاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقٰائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فَلاٰ نُقِیمُ لَهُمْ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ وَزْناً (الکهف/١٠۵)،یدل علی أن الأعمال فی صور الحبط-و قد تقدم الکلام فیه فی الجزء الثانی من هذا الکتاب-لا وزن لها أصلا،و یبقی للوزن أعمال من لم تحبط أعماله (١)(٢).

[سوره الأعراف (٧): الآیات ١٠ الی ٢۵]

اشاره

وَ لَقَدْ مَکَّنّٰاکُمْ فِی اَلْأَرْضِ وَ جَعَلْنٰا لَکُمْ فِیهٰا مَعٰایِشَ قَلِیلاً مٰا تَشْکُرُونَ (١٠) وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاکُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاکُمْ ثُمَّ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِکَهِ اُسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِیسَ لَمْ یَکُنْ مِنَ اَلسّٰاجِدِینَ (١١) قٰالَ مٰا مَنَعَکَ أَلاّٰ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُکَ قٰالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ (١٢) قٰالَ فَاهْبِطْ مِنْهٰا فَمٰا یَکُونُ لَکَ أَنْ تَتَکَبَّرَ فِیهٰا فَاخْرُجْ إِنَّکَ مِنَ اَلصّٰاغِرِینَ (١٣) قٰالَ أَنْظِرْنِی إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ (١۴) قٰالَ إِنَّکَ مِنَ اَلْمُنْظَرِینَ (١۵) قٰالَ فَبِمٰا أَغْوَیْتَنِی لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرٰاطَکَ اَلْمُسْتَقِیمَ (١۶) ثُمَّ لَآتِیَنَّهُمْ مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَیْمٰانِهِمْ وَ عَنْ شَمٰائِلِهِمْ وَ لاٰ تَجِدُ أَکْثَرَهُمْ شٰاکِرِینَ (١٧) قٰالَ اُخْرُجْ مِنْهٰا مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکُمْ أَجْمَعِینَ (١٨) وَ یٰا آدَمُ اُسْکُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُکَ اَلْجَنَّهَ فَکُلاٰ مِنْ حَیْثُ شِئْتُمٰا وَ لاٰ تَقْرَبٰا هٰذِهِ اَلشَّجَرَهَ فَتَکُونٰا مِنَ اَلظّٰالِمِینَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا اَلشَّیْطٰانُ لِیُبْدِیَ لَهُمٰا مٰا وُورِیَ عَنْهُمٰا مِنْ سَوْآتِهِمٰا وَ قٰالَ مٰا نَهٰاکُمٰا رَبُّکُمٰا عَنْ هٰذِهِ اَلشَّجَرَهِ إِلاّٰ أَنْ تَکُونٰا مَلَکَیْنِ أَوْ تَکُونٰا مِنَ اَلْخٰالِدِینَ (٢٠) وَ قٰاسَمَهُمٰا إِنِّی لَکُمٰا لَمِنَ اَلنّٰاصِحِینَ (٢١) فَدَلاّٰهُمٰا بِغُرُورٍ فَلَمّٰا ذٰاقَا اَلشَّجَرَهَ بَدَتْ لَهُمٰا سَوْآتُهُمٰا وَ طَفِقٰا یَخْصِفٰانِ عَلَیْهِمٰا مِنْ وَرَقِ اَلْجَنَّهِ وَ نٰادٰاهُمٰا رَبُّهُمٰا أَ لَمْ أَنْهَکُمٰا عَنْ تِلْکُمَا اَلشَّجَرَهِ وَ أَقُلْ لَکُمٰا إِنَّ اَلشَّیْطٰانَ لَکُمٰا عَدُوٌّ مُبِینٌ (٢٢) قٰالاٰ رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا لَنَکُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِینَ (٢٣) قٰالَ اِهْبِطُوا بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَکُمْ فِی اَلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلیٰ حِینٍ (٢۴) قٰالَ فِیهٰا تَحْیَوْنَ وَ فِیهٰا تَمُوتُونَ وَ مِنْهٰا تُخْرَجُونَ (٢۵)

١- ١) .الاعراف ١-٩:کلام فی وزن الاعمال یوم القیامه.

٢- ٢) .الاعراف ١-٩:بحث روائی فی:میزان الاعمال یوم القیامه؛تجسم الاعمال.

بيان:

قوله تعالى: وَ لَقَدْ مَكَّنّٰاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنٰا لَكُمْ فِيهٰا مَعٰايِشَ قَلِيلاً مٰا تَشْكُرُونَ التمكين فى الأرض هو الإسكان و الإيطان فيها أى جعلنا مكانكم الأرض، و يمكن أن يكون من التمكين بمعنى الإقدار و التسليط،و يؤيد المعنى الثانى أن هذه الآيات تحاذى بنحو ما فى سوره البقره من قصه آدم و إبليس و قد بدئت الآيات فيها بقوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً البقره٢٩/)،و هو التسليط و التسخير.

غير أن هذه الآيات التى نحن فيها لمّا كانت تنتهى الى قوله: «وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلىٰ حِينٍ» كان المعنى الأول هو الأنسب و قوله: «وَ لَقَدْ مَكَّنّٰاكُمْ فِي الْأَرْضِ» الخ؛ كالإجمال لما تفصّله الآيات التاليه الى آخر قصه الجنه.

و المعايش جمع معيشه و هى ما يعاش به من مطعم أو مشرب أو نحوهما،و الآيه فى مقام الامتنان عليهم بما أنعم اللّه عليهم من نعمه سكنى الأرض أو التسلط و الاستيلاء عليها، و جعل لهم فيها من أنواع ما يعيشون به،و لذلك ختم الكلام بقوله: «قَلِيلاً مٰا تَشْكُرُونَ» .

قوله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاكُمْ ثُمَّ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ صوره قصه تبتدئ من هذه الآيه الى تمام خمس عشره آيه يفصل فيها إجمال الآيه السابقه و تبين فيها العلل و الأسباب التى انتهت الى تمكين الإنسان فى الأرض المدلول عليه بقوله «وَ لَقَدْ مَكَّنّٰاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنٰا لَكُمْ فِيهٰا مَعٰايِشَ» .

و لذلك بدئ الكلام فى قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاكُمْ» الخ؛بلام القسم،و لذلك ايضا سيقت القصتان أعنى قصه الأمر بالسجده،و قصه الجنه فى صوره قصه واحده من غير أن تفصل القصه الثانيه بما يدل على كونها قصه مستقله كل ذلك ليتخلص الى قوله: «قٰالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ» الى آخر الآيتين؛فينطبق التفصيل على إجمال

قوله: «وَ لَقَدْ مَكَّنّاكُمْ فِی الْأَرْضِ» الآیه.

و قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاكُمْ» الخطاب فیه لعامّه الآدمیین و هو خطاب امتنانی كما مر نظیره فی الآیه السابقه لأن المضمون هو المضمون و إنما یختلفان بالإجمال و التفصیل.

و علی هذا فالانتقال فی الخطاب من العموم الی الخصوص أعنی قوله: «ثُمَّ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» بعد قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاكُمْ» یفید بیان حقیقتین:الاولی:أن السجده كانت من الملائكه لجمیع بنی آدم أی للنشأه الإنسانیه و إن كان آدم علیه السّلام هو القبله المنصوبه للسجده فهو علیه السّلام فی أمر السجده كان مثالا یمثل به الإنسانیه نائبا مناب أفراد الإنسان علی كثرتهم لا مسجودا له من جهه شخصه كالكعبه المجعوله قبله یتوجه إلیها فی العبادات،و تمثل بها ناحیه الربوبیه.

قوله تعالی: فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِیسَ لَمْ یَكُنْ مِنَ السّٰاجِدِینَ أخبر تعالی عن سجود الملائكه جمیعا كما یصرح به فی قوله: فَسَجَدَ الْمَلاٰئِكَهُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ .(الحجر/ ۳۰)،و استثنی منهم إبلیس و قد علل عدم ائتماره بالأمر فی موضع آخر بقوله: كٰانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (الكهف/۵۰)،و قد وصف الملائكه بمثل قوله: بَلْ عِبٰادٌ مُكْرَمُونَ لاٰ یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ (الأنبیاء/۲۷)،و هو بظاهره یدل علی أنه من غیر نوع الملائكه.

و لهذا وقع الخلاف بینهم فی توجیه هذا الاستثناء:أ هو استثناء متصل بتغلیب الملائكه لكونهم أكثر و أشرف أو أنه استثناء منفصل و إنما أمر بأمر علی حده غیر الأمر المتوجه الی جمع الملائكه و إن كان ظاهر قوله: «مٰا مَنَعَكَ أَلاّٰ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» أن الأمر لم یكن إلا واحدا و هو الذی وجهه اللّه الی الملائكه.

قوله تعالی: قٰالَ مٰا مَنَعَكَ أَلاّٰ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قٰالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ یرید ما منعك أن تسجد كما وقع فی سوره ص من

قوله قالَ یا إِبْلِیسُ ما مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِیَدَیَّ (ص۷۵/)،و لذلک ربما قیل:إن «لا»زائده جیء بها للتأکید کما فی قوله: لِئَلاّ یَعْلَمَ أَهْلُ الْکِتابِ أَلاّ یَقْدِرُونَ عَلی شَیْءٍ مِنْ فَضْلِ اللّهِ (الحدید۲۹/).

و الظاهر أن«منع»مضمن نظیر معنی حمل أو دعا،و المعنی:ما حملک أو ما دعاک علی أن لا تسجد مانعا لک.

و قوله: «قالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ» یحکی عمّا أجاب به لعنه اللّه، و هو أول معصیته و أول معصیه عصی بها اللّه سبحانه فإن جمیع المعاصی ترجع بحسب التحلیل الی دعوی الإنسیّه و منازعه اللّه سبحانه فی کبریائه،و له رداء الکبریاء لا شریک له فیه، فلیس لعبد مخلوق أن یعتمد علی ذاته و یقول:أنا قبال الإنّیّه الإلهیه التی عنت له الوجود، و خضعت له الرقاب،و خشعت له الأصوات،و ذل له کل شیء.

و لو لم تنجذب نفسه إلی نفسه،و لم یحتبس نظره فی مشاهده إنیّته لم یتقید باستقلال ذاته، و شاهد الإله القیوم فوقه فذلت له إنّیّته ذله تنفی عنه کل استقلال و کبریاء فخضع للأمر الإلهی،و طاوعته نفسه فی الایتمار و الامتثال،و لم تنجذب نفسه إلی ما کان یتراءی من کونه خیرا منه لأنه من النار و هو من الطین بل انجذبت نفسه إلی الأمر الصادر عن مصدر العظمه و الکبریاء و منبع کل جمال و جلال.

و کان من الحری إذا سمع قوله: «ما مَنَعَکَ أَلاّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُکَ» أن یأتی بما یطابقه من الجواب کأن یقول:منعنی أنی خیر منه لکنه أتی بقوله: «أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ» لیظهر به الإنّیّه،و یفید الثبات و الاستمرار،و یستفاد منه أیضا أن المانع له من السجده ما یری لنفسه من الخیریه فقوله: «أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ» أظهر و آکد فی إفاده التکبر.

و من هنا یظهر أن هذا التکبر هو التکبر علی اللّه سبحانه دون التکبر علی آدم.

ثم إنه فی قوله: «أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ» استدل علی کونه خیرا من

آدم بمبدإ خلقته و هو النار و أنها خير من الطين الذی خلق منه آدم،و قد صدّق اللّه سبحانه ما ذکره من مبدأ خلقته حیث ذکر أنه کان من الجن،و أن الجن مخلوق من النار قال تعالی: کٰانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (الکهف/۵۰)و قال: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ مِنْ صَلْصٰالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَ الْجَانَّ خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نٰارِ السَّمُومِ (الحجر/۲۷)،و قال أیضا: خَلَقَ الْإِنْسٰانَ مِنْ صَلْصٰالٍ کَالْفَخّٰارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مٰارِجٍ مِنْ نٰارٍ (الرحمن/۱۵).

لکنه تعالی لم یصدقه فیما ذکره من خیریته منه فإنه تعالی و إن لم یرد علیه قوله: «أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نٰارٍ» الخ؛فی هذه السوره إلا أنه بین فضل آدم علیه و علی الملائکه فی حدیث الخلافه الذی ذکره فی سوره البقره للملائکه (۱).

قوله تعالی: قٰالَ فَاهْبِطْ مِنْهٰا فَمٰا یَکُونُ لَکَ أَنْ تَتَکَبَّرَ فِیهٰا فَاخْرُجْ إِنَّکَ مِنَ الصّٰاغِرِینَ التکبر هو أخذ الإنسان مثلا الکبر لنفسه و ظهوره به علی غیره فإن الکبر و الصغر من الامور الإضافیه،و یستعمل فی المعانی غالبا فإذا أظهر الإنسان بقول أو فعل أنه أکبر من غیره شرفا أو جاها أو نحو ذلک فقد تکبر علیه وعده صغیرا،و إذا کان لا شرف و لا کرامه لشیء علی شیء إلا ما شرفه اللّه و کرمه کان التکبر صفه مذمومه فی غیره تعالی علی الإطلاق اذ لیس لما سواه تعالی إلا الفقر و المذله فی أنفسهم من غیر فرق بین شیء و شیء و لا کرامه إلا باللّه من قبله،فلیس لأحد من دون اللّه أن یتکبر علی أحد،و إنما هو صفه خاصه باللّه سبحانه فهو الکبیر المتعال علی الإطلاق فمن التکبر ما هو حق محمود و هو الذی للّه عز اسمه أو ینتهی الیه بوجه کالتکبر علی أعداء اللّه الذی هو فی الحقیقه اعتزاز باللّه،و منه ما هو باطل مذموم و هو الذی یوجد عند غیره بدعوی الکبر لنفسه لا بالحق.

و «الصّٰاغِرِینَ» جمع صاغر من الصغار و هو الهوان و الذله،و الصغار فی المعانی کالصغر فی

۱- ۱) .الأعراف ۱۰-۲۵:بحث فی:تمرد ابلیس:کون استکبار ابلیس علی ربّه لا علی آدم علیه السّلام.

الصور،و قوله: «فَاخْرُجْ إِنَّکَ مِنَ الصّٰاغِرِینَ» تفسیر و تأکید لقوله: «فَاهْبِطْ مِنْهٰا» لأن الهبوط خروج الشیء من مستقره نازلا فیدل ذلک علی أن الهبوط المذکور إنما کان هبوطا معنویا لا نزولا من مکان جسمانی الی مکان آخر،و یتأید به ما تقدم أن مرجع الضمیر فی قوله:«منها»و قوله:«فیها»هو المنزله دون السماء أو الجنه إلا أن یرجعا الی المنزله بوجه.

و المعنی:قال اللّه تعالی:فتنزل عن منزلتک حیث لم تسجد لما أمرتک فإن هذه المنزله منزله التذلل و الانقیاد لی فما یحق لک أن تتکبر فیها فاخرج إنک من الصاغرین أهل الهوان،و إنما أخذ بالصغار لیقابل به التکبر.

قوله تعالی: قٰالَ أَنْظِرْنِی إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ، قٰالَ إِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِینَ استمهال و إمهال،و قد فصل اللّه تعالی ذلک فی موضع آخر بقوله: قٰالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ قٰالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِینَ إِلیٰ یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (الحجر/۳۸)،(ص/۸۱)،و منه یعلم أنه أمهل بالتقیید لا بالإطلاق الذی ذکره فلم یمهل الی یوم البعث بل ضرب اللّه لمهلته أجلا دون ذلک و هو یوم الوقت المعلوم،و سیجیء الکلام فیه فی سوره الحجر إنشاء اللّه تعالی.

فقوله تعالی: «إِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِینَ» إنما یدل علی إجمال ما أمهل به،و فیه دلاله علی أن هناک منظرین غیره.

و استمهاله الی یوم البعث یدل علی أنه کان من همه أن یدیم علی إغواء هذا النوع فی الدنیا و فی البرزخ جمیعا حتی تقوم القیامه فلم یجبه اللّه سبحانه الی ما استدعاه بل لعله أجابه الی ذلک الی آخر الدنیا دون البرزخ فلا سلطان له فی البرزخ سلطان الإغواء و الوسوسه و إن کان ربما صحب الإنسان بعد موته فی البرزخ مصاحبه الزوج و القرین کما یدل علیه ظاهر قوله تعالی: وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطٰاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ وَ إِنَّهُمْ لَیَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِیلِ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتّٰی إِذٰا جٰاءَنٰا قٰالَ یٰا لَیْتَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ بُعْدَ الْمَشْرِقَیْنِ فَبِئْسَ

الْقَرِينُ وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (الزخرف۳۹/)،و ظاهر قوله: اُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ (الصافات۲۲/).

قوله تعالى: قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ الى آخر الآيه؛الإغواء هو الإلقاء فى الغى و الغى و الغوايه هو الضلال بوجه و الهلاك و الخيبه،و الجمله أعنى قوله: «أَغْوَيْتَنِي» و إن فسر بكل من هذه المعانى على اختلاف أنظار المفسرين غير أن قوله تعالى فى سوره الحجر فيما حكاه عنه: «قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» يؤيد أن مراده هو المعنى الأول،و الباء فى قوله:«فبما»للسببيه أو المقابله،و المعنى:فبسبب إغوائك إياى أو فى مقابله إغوائك إياى لأقعدن لهم،الخ؛و قد أخطأ من قال:إنها للقسم و كأن القائل أراد أن يطبقه على قوله تعالى فى موضع آخر حكايه عنه: قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (ص/ ۸۲).

و قوله: «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» أى لأجلسن لأجلهم على صراطك المستقيم و سبيلك السوى الذى يوصلهم إليك و ينتهى بهم الى سعادتهم لما أن الجميع سائرون إليك سالكون لا محاله مستقيم صراطك فالقعود على الصراط فالعقود على الصراط المستقيم كنايه عن التزامه و الترصد لعابريه ليخرجهم منه.

و قوله: «ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ» بيان لما يصنعه بهم و قد كمن لهم قاعدا على الصراط المستقيم،و هو أنه يأتيهم من كل جانب من جوانبهم الأربعه.

و إذ كان الصراط المستقيم الذى كمن لهم قاعدا عليه أمرا معنويا كانت الجهات التى يأتيهم منها معنويه لا حسيه و الذى يستأنس من كلامه تعالى لتشخيص المراد بهذه الجهاد كقوله تعالى: يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاّ غُرُوراً (النساء ۱۲۰/)،و قوله إِنَّما

ذٰلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ (آل عمران۱۷۵/)و قوله: وَ لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ (البقره۱۶۸/)،و قوله: اَلشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ (البقره۲۶۸/)الى غير دلك من الآيات الكثيره هو أن المراد مما بين أيديهم ما يستقبلهم من الحوادث أيام حياتهم مما يتعلق به الآمال و الأمانى من الامور التى تهواه النفوس و تستلذه الطباع،و مما يكرهه الإنسان و يخاف نزوله به كالفقر يخاف منه لو أنفق المال فى سبيل اللّه أو ذم الناس و لومهم لو ورد سبيلا من سبل الخير و الثواب.

و المراد بخلفهم ناحيه الأولاد و الأعقاب فللإنسان فيمن يخلفه بعده من الأولاد آمال و أمانى و مخاوف و مكاره فإنه يخيل إليه أنه يبقى ببقائهم فيسره ما يسرهم و يسوءه ما يسوؤهم فيجمع المال من حلاله و حرامه لأجلهم،و يعد لهم ما استطاع من قوه فيهلك نفسه فى سبيل حياتهم.

و المراد باليمين و هو الجانب القوى الميمون من الإنسان ناحيه سعادتهم و هو الدين و إتيانه من جانب اليمين أن يزين لهم المبالغه فى بعض الامور الدينيه،و التكلف بما لم يأمرهم به اللّه و هو الذى يسميه اللّه تعالى باتباع خطوات الشيطان.

و المراد بالشمال خلاف اليمين،و إتيانه منه أن يزين لهم الفحشاء و المنكر و يدعوهم إلى ارتكاب المعاصى و اقتراف الذنوب و اتباع الأهواء.

قوله تعالى: قٰالَ اخْرُجْ مِنْهٰا مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ الخ؛المذءوم من ذامه يذامه و يذيمه اذا عابه و ذمه،و المدحور من دحره اذا طرده و دفعه بهوان.

و قوله: «لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ» الخ؛اللام للقسم و جوابه هو قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ» الخ؛لما كان مورد كلام إبليس-و هو فى صوره التهديد بالانتقام-هو بنى آدم و أنه سيبطل غرض الخلقه فيهم و هو كونهم شاكرين أجابه تعالى بما يفعل بهم و به فقال: «لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ» محاذاه لكلامه ثم قال: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ» أى منك و منهم فأشركه فى الجزاء معهم.

و قد امتن تعالی فی کلمته هذه التی لا بد أن تتم فلم یذکر جمیع من تبعه بل أتی بقوله «مِنْکَمْ» و هو یفید التبعیض.

قوله تعالی: وَ یٰا آدَمُ اسْکُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُکَ الْجَنَّهَ الی آخر الآیه؛خص بالخطاب آدم علیه السّلام و ألحق به فی الحکم زوجته،و قوله: «فَکُلاٰ مِنْ حَیْثُ شِئْتُمٰا» توسعه فی إباحه التصرف إلا ما استثناء بقوله: «وَ لاٰ تَقْرَبٰا هٰذِهِ الشَّجَرَهَ» و الظلم هو الظلم علی النفس دون معصیه الأمر المولوی فإن الأمر إرشادی.

قوله تعالی: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّیْطٰانُ الی آخر الآیه؛الوسوسه هی الدعاء الی أمر بصوت خفی،و المواراه ستر الشیء بجعله وراء ما یستره،و السوآت جمع السوءه و هی العضو الذی یسوء الإنسان إظهاره و الکشف عنه،و قوله: «مٰا نَهٰاکُمٰا رَبُّکُمٰا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَهِ إِلاّٰ أَنْ تَکُونٰا مَلَکَیْنِ» الخ؛أی إلا کراهه أن تکونا ملکین أو تکونا من الخالدین.

و الملک و إن قرئ بفتح اللام إلا أن فیه معنی الملک-بالضم فالسکون-و الدلیل علیه قوله فی موضع آخر: قٰالَ یٰا آدَمُ هَلْ أَدُلُّکَ عَلیٰ شَجَرَهِ الْخُلْدِ وَ مُلْکٍ لاٰ یَبْلیٰ (طه/ ١٢٠).

و نقل فی المجمع عن السید المرتضی رحمه اللّه احتمال أن یکون المراد بقوله: «إِلاّٰ أَنْ تَکُونٰا مَلَکَیْنِ» الخ؛أنه أوهمهما أن المنهی عن تناول الشجره الملائکه خاصه و الخالدون دونهما فیکون کما یقول أحدنا لغیره:ما نهیت عن کذا إلا أن تکون فلانا،و إنما یرید أن المنهی إنما هو فلان دونک،و هذا أوکد فی الشبهه و اللبس علیهما(انتهی).لکن آیه سوره طه المنقوله آنفا تدفعه.

قوله تعالی: وَ قٰاسَمَهُمٰا إِنِّی لَکُمٰا لَمِنَ النّٰاصِحِینَ المقاسمه المبالغه فی القسم أی حلف لهما و أغلظ فی حلفه أنه لهما لمن الناصحین،و النصیح خلاف الغش.

قوله تعالی: فَدَلاّٰهُمٰا بِغُرُورٍ الی آخر الآیه؛التدلیه التقریب و الإیصال کما أن

التدلی الدنو و الاسترسال،و كأنه من الاستعاره من دلوت الدلو أی أرسلتها،و الغرور إظهار النصح مع إبطان الغش،و الخصف الضم و الجمع،و منه خصف النعل.

و فی قوله: «وَ نٰادٰاهُمٰا رَبُّهُمٰا أَ لَمْ أَنْهَكُمٰا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَهِ» دلاله علی أنهما عند توجه هذا الخطاب كانا فی مقام البعد من ربهما لأن النداء هو الدعاء من بعد،و كذا من الشجره بدليل قوله: «تِلْكُمَا الشَّجَرَهِ» بخلاف قول عند أول ورودهما الجنه: «وَ لاٰ تَقْرَبٰا هٰذِهِ الشَّجَرَهَ» .

قوله تعالی: قٰالاٰ رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِينَ هذا منهما نهايه التذلل و الابتهال،و لذلك لم يسألا شيئا و إنما ذكرا حاجتهما الی المغفره و الرحمه و تهديد الخسران الدائم المطلق لهما حتی يشاء اللّٰه ما يشاء.

قوله تعالی: قٰالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ الی آخر الآيه؛كأن الخطاب لآدم و زوجته و إبليس،و عداوه بعضهم لبعض هو ما يشاهد من اختلاف طبائعهم،و هذا قضاء منه تعالی و القضاء الآخر قوله: «وَ لَكُمْ فِی الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلیٰ حِينٍ أی الی آخر الحياه الدنيويه،و ظاهر السياق أن الخطاب الثانی أيضا يشترك فيه الثلاثه.

قوله تعالی: قٰالَ فِيهٰا تَحْيَوْنَ وَ فِيهٰا تَمُوتُونَ وَ مِنْهٰا تُخْرَجُونَ قضاء آخر يوجب تعلقهم بالأرض الی حين البعث،و ليس من البعيد أن يختص هذا الخطاب بآدم و زوجته و بنيهما،لما فيه من الفصل بلفظه«قال»و قد مر تفصيل الكلام فی قصه الجنه فی سوره البقره فليراجعها من شاء (۱)(۲)(۳).

۱- ۱) .الاعراف ۱۰-۲۵:كلام فی ابليس و عمله.

۲ - ۲) .الاعراف ۱۰-۲۵:بحث عقلی و قرآنی فی:صوره مناظره جرت بين الملائكه و ابليس؛الحكمه فی الخلق؛الفائده فی التكليف؛التكليف بالسجود لآدم؛ما الفائده فی عقاب ابليس؛لم سلط ابليس علی اولاد آدم.

۳- ۳) .الاعراف ۱۰-۲۵:بحث روائی فی الشيطان و عمله.

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٢۶ الی ٣۶]

اشاره

یا بَنِی آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَیْکُمْ لِباساً یُوارِی سَوْآتِکُمْ وَ رِیشاً وَ لِباسُ اَلتَّقْوی ذٰلِکَ خَیْرٌ ذٰلِکَ مِنْ آیاتِ اَللّٰهِ لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ (٢۶) یا بَنِی آدَمَ لا یَفْتِنَنَّکُمُ اَلشَّیْطانُ کَما أَخْرَجَ أَبَوَیْکُمْ مِنَ اَلْجَنَّهِ یَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِیُرِیَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ یَراکُمْ هُوَ وَ قَبِیلُهُ مِنْ حَیْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنّا جَعَلْنَا اَلشَّیاطِینَ أَوْلِیاءَ لِلَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ (٢٧) وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَهً قالُوا وَجَدْنا عَلَیْها آباءَنا وَ اَللّٰهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اَللّٰهَ لا یَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَی اَللّٰهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّی بِالْقِسْطِ وَ أَقِیمُوا وُجُوهَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ وَ اُدْعُوهُ مُخْلِصِینَ لَهُ اَلدِّینَ کَما بَدَأَکُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِیقاً هَدی وَ فَرِیقاً حَقَّ عَلَیْهِمُ اَلضَّلالَهُ إِنَّهُمُ اِتَّخَذُوا اَلشَّیاطِینَ أَوْلِیاءَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) یا بَنِی آدَمَ خُذُوا زِینَتَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ وَ کُلُوا وَ اِشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا یُحِبُّ اَلْمُسْرِفِینَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَهَ اَللّٰهِ اَلَّتِی أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ اَلطَّیِّباتِ مِنَ اَلرِّزْقِ قُلْ هِیَ لِلَّذِینَ آمَنُوا فِی اَلْحَیاهِ اَلدُّنْیا خالِصَهً یَوْمَ اَلْقِیامَهِ کَذٰلِکَ نُفَصِّلُ اَلْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّیَ اَلْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ اَلْإِثْمَ وَ اَلْبَغْیَ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِکُوا بِاللّٰهِ ما لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَی اَللّٰهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَ لِکُلِّ أُمَّهٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا یَسْتَأْخِرُونَ ساعَهً وَ لا یَسْتَقْدِمُونَ (٣۴) یا بَنِی آدَمَ إِمّا یَأْتِیَنَّکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ یَقُصُّونَ عَلَیْکُمْ آیاتِی فَمَنِ اِتَّقی وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (٣۵) وَ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ اِسْتَکْبَرُوا عَنْها أُولٰئِکَ أَصْحابُ اَلنّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ (٣۶)

ص: ۴۶۴

بیان:

قوله تعالی: یا بَنِی آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَیْکُمْ لِباساً یُوارِی سَوْآتِکُمْ وَ رِیشاً اللباس کل ما یصلح للبس و ستر البدن و غیره،و أصله مصدر یقال:لبس یلبس لبسا -بالکسر و الفتح-و لباسا،و الریش ما فیه الجمال مأخوذ من ریش الطائر لما فیه من أنواع الجمال و الزینه،و ربما یطلق علی أثاث البیت و متاعه.

و کأن المراد من انزال اللباس و الریش علیهم خلقه لهم کما فی قوله تعالی: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِیدَ فِیهِ بَأْسٌ شَدِیدٌ وَ مَنافِعُ (الحدید/۲۵)،و قوله: وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِیَهَ أَزْواجٍ (الزمر/۶)،و قد قال تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/۲۱)،فقد أنزل اللّه اللباس و الریش بالخلق من غیب ما عنده الی عالم الشهاده و هو

الخلق.

و اللباس هو الذى يعمله الإنسان صالحا لأن يستعمله بالفعل دون المواد الأصليه من قطن أو صوف أو حرير أو غير ذلك مما يأخذه الإنسان فيضيف إليه أعمالا ـ صناعيه من تصفيه و غزل و نسج و قطع و خياطه فيصير لباسا صالحا للبس فعد اللباس و الريش من خلق اللّه و هما من عمل الإنسان نظير ما فى قوله تعالى: وَ اللّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ (الصافات/ ٩۶)،من النسبه.

و لا فرق من جهه النظر فى التكوين بين نسبه ما عمله الإنسان الى اللّه سبحانه و ما عمله منته الى أسباب جمه أحدها الإنسان،و نسبه سائر ما عملته الطبائع و لها أسباب كثيره أحدها الفاعل كنبات الأرض و صفره الذهب و حلاوه العسل فإن جميع الأسباب بجميع ما فيها من القدره منتهيه إليه سبحانه و هو محيط بها.

و ليست الخلقه منتسبه الى الأشياء على وتيره واحده و إن كانت جميع مواردها متفقه فى معنى الانتهاء إليه إلا ـ ما فيه معنى النقص و القبح و الشناعه من المعاصى و نحوها فحقيقتها فقدان الخلقه الحسنه أو مخالفه الأمر الإلهى،و ليست بمخلوقه له و إنما هى أوصاف نقص فى أعمال الإنسان مثلا ـ فى باطنه أو ظاهره،و قد تكررت الإشاره الى هذه الحقيقه فيما مر من أجزاء هذا الكتاب.

و توصيف اللباس بقوله: «يُوارِى سَوْآتِكُمْ» للدلاله على أن المراد باللباس ما ترفع به حاجه الإنسان التى اضطرته الى اتخاذ اللباس و هى مواراه سوآته التى يسوؤه انكشافها و أما الريش فإنما يتخذه لجمال زائد على أصل الحاجه.

و فى الآيه امتنان بهدايه الإنسان الى اللباس و الريش و فيها-كما قيل-دلاله على إباحه لباس الزينه.

قوله تعالى: وَ لِباسُ التَّقْوىٰ ذٰلِكَ خَيْرٌ الى آخر الآيه؛انتقل سبحانه من ذكر

لباس الظاهر الذی یواری سوآت الإنسان فیتقی به أن یظهر منه ما یسوؤه ظهوره،الی لباس الباطن الذی یواری السوآت الباطنیه التی یسوء الإنسان ظهورها و هی رذائل المعاصی من الشرک و غیره،و هذا اللباس هو التقوی الذی أمر اللّه به.

و ذلک أن الذی یصیب الإنسان من ألم المساءه و ذله الهوان من ظهور سوآته روحی من سنخ واحد فی السوآتین إلا أن ألم ظهور السوآت الباطنیه أشد و أمر و أبقی فالمحاسب هو اللّه، و التبعه شقوه لازمه،و نار تطلع علی الأفئده،و لذلک کان لباس التقوی خیرا من لباس الظاهر.

و للإشاره الی هذا المعنی و تتمیم الفائده عقب الکلام بقوله: «ذٰلِکَ مِنْ آیٰاتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ» فاللباس الذی اهتدی إلیه الإنسان لیرفع به حاجته الی مواراه سوآته التی یسوؤه ظهورها آیه إلهیه إن تأمله الإنسان و تبصر به تذکر أن له سوآت باطنیه تسوؤه إن ظهرت و هی رذائل النفس،و سترها علیه أوجب و ألزم من ستر السوآت الظاهریه بلباس الظاهر و اللباس الذی یسترها و یرفع حاجه الإنسان الضروریه هو لباس التقوی الذی أمر اللّه به و بیّنه بلسان أنبیائه.

قوله تعالی: یٰا بَنِی آدَمَ لاٰ یَفْتِنَنَّکُمُ الشَّیْطٰانُ کَمٰا أَخْرَجَ أَبَوَیْکُمْ مِنَ الْجَنَّهِ الی آخر الآیه.الکلام و إن کان مفصولا عما قبله بتصدیره بخطاب: «یٰا بَنِی آدَمَ» إلا أنه بحسب المعنی من تتمه المفاد السابق،و لذا أعاد ذکر السوآت ثانیا فیرجع المعنی الی أن لکم معاشر الآدمیین سوآت لا یسترها إلا لباس التقوی الذی ألبسناکموه بحسب الفطره التی فطرناکم علیها فإیاکم أن یفتنکم الشیطان فینزع عنکم ذلک کما نزع لباس أبویکم فی الجنه لیریهما سوآتهما فإنا جعلنا الشیاطین أولیاء لمن تبعهم و لم یؤمن بآیاتنا.

و من هنا یظهر أن ما صنعه إبلیس بهما فی الجنه من نزع لباسهما لیریهما سوآتهما کان مثالا لنزع لباس التقوی عن الآدمیین بالفتنه و أن الإنسان فی جنه السعاده ما لم یفتتن به فإذا افتتن

أخرجه اللّه منها.

و قوله: «إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاٰ تَرَوْنَهُمْ» تأكيد للنهى و بيان لدقه مسلكه و خفاء سربه دقه لا يميزه حس الإنسان و خفاء لا يقع عليه شعوره فإنه لا يرى إلا نفسه من غير أن يشعر أن وراءه من يأمر بالشر و يهديه الى الشقوه.

و قوله: «إِنّٰا جَعَلْنَا الشَّيٰاطِينَ أَوْلِيٰاءَ لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ» تأكيدا آخر للنهى،و ليست ولايتهم و تصرفهم فى الإنسان إلا ولايه الفتنه و الغرور فإذا افتتن و اغتر بهم تصرفوا بما شاءوا و كما أرادوا كما قال تعالى مخاطبا لإبليس: وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ وَ شٰارِكْهُمْ فِي الْأَمْوٰالِ وَ الْأَوْلاٰدِ وَ عِدْهُمْ وَ مٰا يَعِدُهُمُ الشَّيْطٰانُ إِلاّٰ غُرُوراً إِنَّ عِبٰادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ وَ كَفىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (الإسراء/۶۵)،و قال: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (النحل/۹۹)،و قال: إِنَّ عِبٰادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلاّٰ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغٰاوِينَ (الحجر/۴۲).

و من الآيات بانضمامها الى آيتنا المبحوث عنها يظهر أن لا ولايه لهم على المؤمنين و إن مسهم طائف منهم أحيانا،و أن لا سلطان له على المتوكلين من المؤمنين و هم الذين عدّهم اللّه عبادا له بقوله: «عِبٰادِي» فلا ولايه له إلا على الذين لا يؤمنون.

و الظاهر أن المراد به عدم الإيمان بآيات اللّه بتكذيبها و هو أخص من وجه من عدم الإيمان باللّه الذى هو الكفر باللّه بشرك أو نفى،و ذلك لأن هذا الكفر هو المذكور فى الخطاب العام الذى فى ذيل القصه من سوره البقره حيث قال تعالى: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهٰا جَمِيعاً فَإِمّٰا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً -الى أن قال- وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (البقره/۳۹)،و فى ذيل هذه الآيات من هذه السوره حيث قال: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (الأعراف/۳۶).

قوله تعالى: وَ إِذٰا فَعَلُوا فٰاحِشَةً قٰالُوا وَجَدْنٰا عَلَيْهٰا آبٰاءَنٰا وَ اللّٰهُ أَمَرَنٰا بِهٰا

الی آخر الآیه؛رجوع من الخطاب العام لبنی آدم الی خطاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم خاصه لیتوسل به الی انتزاع خطابات خاصه یوجهها الی أمته کما جری نظیره من الالتفات فی الخطاب المتقدم یا بنی آدم قد أنزلنا علیکم لباسا حیث قال: «ذٰلِکَ مِنْ آیٰاتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ» لنظیر الغرض.

قوله تعالی: قُلْ أَمَرَ رَبِّی بِالْقِسْطِ وَ أَقِیمُوا وُجُوهَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ لما نفت الآیه السابقه أن یأمر اللّه سبحانه بالفحشاء و ذکرت أن ذلک افتراء علیه و قول بغیر علم لعدم انتهائه الی وحی ما أوحی به اللّه بادرت هذه الآیه إلی ذکر ما أمر به و هو لا محاله أمر یقابل ما استشنعته الآیه السابقه وعدته فحشاء لما فیه من بلوغ القبح و الإفراط و التفریط فقال: «قُلْ أَمَرَ رَبِّی بِالْقِسْطِ» الخ.

و القسط علی ما ذکره الراغب هو النصیب بالعدل کالنصف و النصفه قال: «لِیَجْزِیَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ بِالْقِسْطِ» «وَ أَقِیمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ» و القسط هو أن یأخذ قسط غیره،و ذلک جور و الإقساط أن یعطی قسط غیره،و ذلک إنصاف و لذلک قیل:قسط الرجل اذا جار و أقسط اذا عدل قال: «وَ أَمَّا الْقٰاسِطُونَ فَکٰانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً» و قال «وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللّٰهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ» .انتهی کلامه.

فالمراد:قل أمر ربی بالنصیب العدل و لزوم وسط الاعتدال فی الامور کلها و أن تجتنبوا جانبی الإفراط و التفریط فأقسطوا و أنیبوا و أقروا نفوسکم عند کل معبد تعبدون اللّه فیه و ادعوه بإخلاص الدین له من غیر أن تشرکوا بعبادته صنما أو أحدا من آبائکم و کبرائکم بالتقلید لهم و هذا هو القسط فی العباده.

فقوله: «وَ أَقِیمُوا وُجُوهَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ» معطوف ظاهرا علی مقول القول لأن معنی أمر ربی بالقسط:أقسطوا،فیکون التقدیر:أقسطوا و أقیموا،الخ؛و الوجه هو ما یتوجه به الی الشیء،و هو فی حال تمام النفس الإنسانیه،و إقامتها عندها إیجاد القیام بالأمر لها أی إیفاؤه

و الإتيان به كما ينبغى تاما غير ناقص فيؤول معنى إقامه الوجه عند العباده الى الاشتغال بالعباده و الانقطاع عن غيرها.

فيفيد قوله: «وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» اذا انضم إليه قوله: «وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» وجوب الانقطاع للعباده عن غيرها و للّه سبحانه عن غيره كما عرفت و من الغير الذى يجب الانقطاع عنه الى اللّه سبحانه نفس العباده،و إنما العباده توجه لا متوجه إليها،و التوجه إليها يبطل معنى كونها عباده و توجها الى اللّه فيجب أن لا يذكر الناسك فى نسكه إلا ربه و ينسى غيره.

قوله تعالى: كَمٰا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ، فَرِيقاً هَدىٰ وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاٰلَةُ الى آخر الآيه.ظاهر السياق أن يكون قوله: «فَرِيقاً هَدىٰ وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاٰلَةُ» حالا من فاعل «تَعُودُونَ» و يكون هو الوجه المشترك الذى شبه فيه العود بالبدء، و المعنى تعودون فريقين كما بدأكم فريقين نظير قوله تعالى: وَ لَقَدْ جِئْتُمُونٰا فُرٰادىٰ كَمٰا خَلَقْنٰاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (الأنعام/۹۴)،و المعنى لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مره فرادى.

فهذا هو الظاهر المستفاد من الكلام،و أما كون «فَرِيقاً هَدىٰ» الخ؛حالا لا يعدو عالمه، و وجه الشبه بين البدء و العود أمرا آخر غير مذكور ككونهم فرادى بدءا و عودا أو كون الخلق الأول و الثانى جميعا من تراب أو كون البعث مثل الإنشاء فى قدره اللّه الى غير ذلك مما احتملوه فوجوه بعيده عن دلاله الآيه،و أى فائده فى حذف وجه الشبه من الذكر و ذكر ما لا حاجه إليه مع وقوع اللبس،و سيجىء إن شاء اللّه توضيح ذلك.

و ظاهر البدء فى قوله: «بَدَأَكُمْ» أول خلقه الإنسان الدنيويه لا مجموع الحياه الدنيويه قبال الحياه الاخرويه فيكون البدء هو الحياه الدنيا و العود هو الحياه الاخرى فيكون المعنى كنتم فى الدنيا مخلوقين له هدى فريقا منكم و حقت الضلاله على فريق آخر كذلك تعودون كما

يؤول إليه قول من قال:«إن معنى الآيه:تبعثون على ما متم عليه:المؤمن على إيمانه،و الكافر على كفره».

و ذلك أن ظاهر البدء اذا نسب الى شيء ذى امتداد و استمرار بوجه أن يقع على أقدم أجزاء وجوده الممتد المستمر لا على الجميع،و الخطاب للناس فبدؤهم أول خلقه النوع الإنسانى و بدء ظهوره.على أن الآيه من تتمه الآيات التى يبين اللّه سبحانه فيها بدء إيجاده الإنسان بمثل قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاكُمْ ثُمَّ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» الخ؛ فالمراد به كيفيه البدء التى قصها فى أول كلامه،و قد كان من القصه أن اللّه قال لإبليس لما رجمه:

اُخْرُجْ مِنْهٰا مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ و فيه قضاء أن ينقسم بنو آدم فريقين فريقا مهتدين على الصراط المستقيم،و فريقا ضالين حقا فهذا هو الذى بدأهم به و كذلك يعودون.

و أما قوله: «إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيٰاطِينَ أَوْلِيٰاءَ» فهو تعليل لثبوت الضلاله و لزومها لهم فى قوله:«حقت عليهم الضلاله»كأن كلمه الضلال و الخسران صدرت من مصدر القضاء فى حقهم مشروطا بولايه الشيطان كما يذكره فى قوله: كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاّٰهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ (الحج۴/).

فلما تولوا الشياطين فى الدنيا حقت عليهم الضلاله و لزمتهم لزوما لا انفكاك بعده أبدا و هذا نظير ما يستفاد من قوله: وَ قَيَّضْنٰا لَهُمْ قُرَنٰاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كٰانُوا خٰاسِرِينَ (حم السجده۲۵/).

و أما قوله: «وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ» فهو كعطف التفسير بالنسبه الى الجمله السابقه يفسر به معنى تحقق الضلاله و لزومها فإن الإنسان مهما ركب غير طريق الحق و اعتنق الباطل و هو يعترف بأنه من الباطل و لما ينس الحق أوشك أن يعود الى الحق الذى فارقه و كان مرجوا

أن ينتزع عن ضلاله الى الهدى أما اذا اعتقد حقيه الباطل الذى هو عليه،و حسب أنه على الهدى و هو فى ضلال فقد استقر فيه شيمه الغى و حقت عليه الضلاله و لا يرجى معه فلاح أبدا.

فقوله: «وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ» كالتفسير لتحقق الضلاله لكونه من لوازمه،و قد قال تعالى فى موضع آخر: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمٰالاً اَلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (الكهف/۱۰۴)،و قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلىٰ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَهٌ (البقره/۷).

فقوله: «كَمٰا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» معناه فليس بعثكم بأشد من ابتدائكم.

و فيه:ما فى الوجه السابق على أنه تحكم من غير دليل.

و من قائل:إنه كلام مستأنف.و قد تقدم ذكره.

و من قائل:إنه متصل بما سبقه،و المعنى:أخلصوا للّه فى حياتكم فإنكم تبعثون على متم عليه:المؤمن على إيمانه،و الكافر على كفره.

و فيه:أنه مبنى على كون المراد بالبدء هو مجموع الحياه الدنيا فى قبال الحياه الآخره ثم تشبيه بالعود و هو الحياه الآخره بآخر الحياه الاولى المسماه بعثا،و الآيه-كما تقدم-بمعزل عن الدلاله على هذا المعنى.

قوله تعالى: يٰا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ الى آخر الآيه؛قال الراغب:السرف تجاوز الحد فى كل فعل يفعله الإنسان،و إن كان ذلك فى الإنفاق اشهر، انتهى.

أخذ الزينه عند كل مسجد هو التزين الجميل عند الحضور فى المسجد،و هو إنما يكون بالطبع للصلاه و الطواف و سائر ذكر اللّه فيرجع المعنى الى الأمر بالتزين الجميل للصلاه

و نحوها،و يشمل باطلاقه صلوات الأعياد و الجماعات اليوميه و سائر وجوه العباده و الذكر.

و قوله: «وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لاٰ تُسْرِفُوا» الخ؛أمران إباحيان و نهى تحريمى معلل بقوله: «إِنَّهُ لاٰ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» و الجميع مأخوذه من قصه الجنه كما مرت الإشاره إليه،و هى كما تقدم خطابات عامه لا تختص بشرع دون شرع و لا بصنف من أصناف الناس دون صنف.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّٰهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبٰادِهِ وَ الطَّيِّبٰاتِ مِنَ الرِّزْقِ هـذا من استخراج حكم خاص-بهذه الامه-من الحكم العام السابق عليه بنوع من الالتفات نظير ما تقدم فى قوله: «ذٰلِكَ مِنْ آيٰاتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» و قوله وَ إِذٰا فَعَلُوا فٰاحِشَةً» الآيه.

و الاستفهام إنكارى،و الزين يقابل الشين و هو ما يعاب به الإنسان فالزينه ما يرتفع به العيب و يذهب بنفره النفوس،و الإخراج كنايه عن الإظهار و استعاره تخييليه كأن اللّه سبحانه بإلهامه و هدايته الإنسان من طريق الفطره الى إيجاد أنواع الزينه التى يستحسنها مجتمعه و يستدعى انجذاب نفوسهم إليه و ارتفاع نفرتهم و اشمئزازهم عنه يخرج لهم الزينه و قد كانت مخبيه خفيه فأظهرها لحواسهم (۱)(۲).

قوله تعالى: قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا خٰالِصَةً يَوْمَ الْقِيٰامَةِ لا ريب أن الخطاب فى صدر الآيه إما لخصوص الكفار أو يعمهم و المؤمنين جميعا كما يعمهم جميعا ما فى الآيه السابقه من الخطاب بقوله: «يٰا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لاٰ تُسْرِفُوا» و لازمه أن تكون الزينه و طيبات الرزق موضوعه على الشركه بين الناس جميعا،مؤمنهم و كافرهم.

۱- ۱) .الاعراف ۲۶-۳۶:كلام فى معنى اخراج زينه اللّه لعباده و الطيبات من الرزق.

۲ - ۲) .الاعراف ۲۶-۳۶:كلام فى جواب بعض المنصفين من النصارى الى دعاه النصرانيه فى الطعن فى الإسلام.

فقوله: «قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛مسوق لبيان ما خص اللّه سبحانه به المؤمنين من عباده من الكرامه و المزيه،و اذ قد اشتركوا فى نعمه فى الدنيا فهى خالصه لهم فى الآخره،و لازم ذلك أن يكون قوله: «فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا» متعلقا بقوله: «آمَنُوا» و قوله: «يَوْمَ الْقِيٰامَةِ» متعلقا بما تعلق به قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» و هو قولنا كائنه أو ما يقرب منه،«و خالصه»حال عن الضمير المؤنث و قدمت على قوله: «يَوْمَ الْقِيٰامَةِ» لتكون فاصله بين قوله: «فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا» و «يَوْمَ الْقِيٰامَةِ» و المعنى:قل هى للمؤمنين يوم القيامه و هى خالصه لهم لا يشاركهم فيها غيرهم كما شاركوهم فى الدنيا فمن آمن فى الدنيا ملك نعمها يوم القيامه.

و قد امتن اللّه تعالى فى ذيل الآيه على أهل العلم بتفصيل البيان اذ قال: «كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» .

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمٰا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ الى آخر الآيه،قد تقدم البحث المستوفى عن مفردات الآيه فيما مر،و أن الفواحش هى المعاصى البالغه قبحا و شناعه كالزنا و اللواط و نحوهما،و الإثم هو الذنب الذى يستعقب انحطاط الإنسان فى حياته و ذله و هوانا و سقوطا كشرب الخمر الذى يستعقب للإنسان تهلكه فى جاهه و ماله و عرضه و نفسه و نحو ذلك،و البغى هو طلب الإنسان ما ليس له بحق كأنواع الظلم و التعدى على الناس و الاستيلاء غير المشروع عليهم،و وصفه بغير الحق من قبيل التوصيف باللازم نظير التقييد الذى فى قوله: «مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰاناً» .

و كان إلقاء الخطاب بإباحه الزينه و طيبات الرزق داعيا لنفس السامع الى أن يحصل على ما حرمه اللّه فألقى اللّه سبحانه فى هذه الآيه جماع القول فى ذلك،و لا يشذ عما ذكره شيء من المحرمات الدينيه،و هى تنقسم بوجه الى قسمين:ما يرجع الى الأفعال و هى الثلاثه الاول، و ما يرجع الى الأقوال و الاعتقادات و هو الأخيران،و القسم الأول منه ما يرجع الى الناس و هو البغى بغير الحق،و منه غيره و هو إما ذو قبح و شناعه فالفاحشه،و إما غيره فالإثم،

و القسم الثانی إما شرک باللّه أو افتراء علی اللّه سبحانه.

قوله تعالی: وَ لِکُلِّ أُمَّهٍ أَجَلٌ الی آخر الآیه؛هی حقیقه مستخرجه من قوله تعالی فی ذیل القصه: «قٰالَ فِیهٰا تَحْیَوْنَ وَ فِیهٰا تَمُوتُونَ وَ مِنْهٰا تُخْرَجُونَ» نظیر الأحکام الأخر المستخرجه منها المذکوره سابقا،و مفاده أن الامم و المجتمعات لها أعمال و آجال نظیر ما للأفراد من الأعمار و الآجال.

و ربما استفید من هذا التفریع و الاستخراج أن قوله تعالی فی ذیل القصه سابقا: «قٰالَ فِیهٰا تَحْیَوْنَ» الخ؛راجع الی حیاه کل فرد فرد و کل أمه أمه،و هی بعض عمر الإنسانیه العامه،و أن قوله قبله: «وَ لَکُمْ فِی الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلیٰ حِینٍ» راجع الی حیاه النوع الی حین و هو حین الانقراض أو البعث،و هذا هو عمر الإنسانیه العامه فی الدنیا.

قوله تعالی: یٰا بَنِی آدَمَ إِمّٰا یَأْتِیَنَّکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ یَقُصُّونَ عَلَیْکُمْ آیٰاتِی الی آخر الآیتین. «إِمّٰا» أصله إن الشرطیه دخلت علی ما،و فی شرطها النون الثقیله،و کأن ذلک یفید أن الشرط محقق لا محاله،و المراد بقص الآیات بیانها و تفصیلها لما فیه من معنی القطع و الإبانه عن مکمن الخفاء.

و الآیه احدی الخطابات العامه المستخرجه من قصه الجنه المذکوره هاهنا و هی رابعها و آخرها یبین للناس التشریع الإلهی العام للدین باتباع الرساله و طریق الوحی،و الأصل المستخرج عنه هو مثل قوله فی سوره طه: قٰالَ اهْبِطٰا مِنْهٰا جَمِیعاً بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمّٰا یَأْتِیَنَّکُمْ مِنِّی هُدیً الخ؛فبین أن اتیان الهدی منه انما یکون بطریق الرساله (۱)(۲).

ص: ۴۷۵

---

۱ – ۱) .الاعراف ۲۶-۳۶:بحث روائی فی:سنن الجاهلیه فی الطواف؛تحریم ما احل اللّه؛ان اللّه لا یأمر بالفحشاء؛ان اللّه جمیل یحب الجمال.

۲ – ۲) .الاعراف ۲۶-۳۶:بحث روائی مختلط بغیره فی کیفیه خلق الانسان؛سعاده الانسان و شقاوته؛معنی کون الطینه من الجنه أو النار؛الماء العذب الفرات و الملح الاجاج؛النور و الظلمه؛فعل اللّه.

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٣٧ الى ٥٣]

اشاره

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرىٰ عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيٰاتِهِ أُولٰئِكَ يَنٰالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ اَلْكِتٰابِ حَتّٰى إِذٰا جٰاءَتْهُمْ رُسُلُنٰا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قٰالُوا أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ قٰالُوا ضَلُّوا عَنّٰا وَ شَهِدُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كٰانُوا كٰافِرِينَ (٣٧) قٰالَ اُدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ فِي اَلنّٰارِ كُلَّمٰا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهٰا حَتّٰى إِذَا اِدّٰارَكُوا فِيهٰا جَمِيعاً قٰالَتْ أُخْرٰاهُمْ لِأُولاٰهُمْ رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ أَضَلُّونٰا فَآتِهِمْ عَذٰاباً ضِعْفاً مِنَ اَلنّٰارِ قٰالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لٰكِنْ لاٰ تَعْلَمُونَ (٣٨) وَ قٰالَتْ أُولاٰهُمْ لِأُخْرٰاهُمْ فَمٰا كٰانَ لَكُمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا اَلْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) إِنَّ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ اِسْتَكْبَرُوا عَنْهٰا لاٰ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوٰابُ اَلسَّمٰاءِ وَ لاٰ يَدْخُلُونَ اَلْجَنَّةَ حَتّٰى يَلِجَ اَلْجَمَلُ فِي سَمِّ اَلْخِيٰاطِ وَ كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهٰادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوٰاشٍ وَ كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلظّٰالِمِينَ (٤١) وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لاٰ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّةِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (٤٢) وَ نَزَعْنٰا مٰا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ اَلْأَنْهٰارُ وَ قٰالُوا اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِي هَدٰانٰا لِهٰذٰا وَ مٰا كُنّٰا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لاٰ أَنْ هَدٰانَا اَللّٰهُ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُ رَبِّنٰا بِالْحَقِّ وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ اَلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَ نٰادىٰ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّةِ أَصْحٰابَ اَلنّٰارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنٰا مٰا وَعَدَنٰا رَبُّنٰا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مٰا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قٰالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اَللّٰهِ عَلَى اَلظّٰالِمِينَ (٤٤) اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ يَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كٰافِرُونَ (٤٥) وَ بَيْنَهُمٰا حِجٰابٌ وَ عَلَى اَلْأَعْرٰافِ رِجٰالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمٰاهُمْ وَ نٰادَوْا أَصْحٰابَ اَلْجَنَّةِ أَنْ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهٰا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ (۴۶) وَ إِذٰا صُرِفَتْ أَبْصٰارُهُمْ تِلْقٰاءَ أَصْحٰابِ اَلنّٰارِ قٰالُوا رَبَّنٰا لاٰ تَجْعَلْنٰا مَعَ اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ (٤٧) وَ نٰادىٰ أَصْحٰابُ اَلْأَعْرٰافِ رِجٰالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمٰاهُمْ قٰالُوا مٰا أَغْنىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَ هٰؤُلاٰءِ اَلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاٰ يَنٰالُهُمُ اَللّٰهُ بِرَحْمَةٍ اُدْخُلُوا اَلْجَنَّةَ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لاٰ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَ نٰادىٰ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ أَصْحٰابَ اَلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنٰا مِنَ اَلْمٰاءِ أَوْ مِمّٰا رَزَقَكُمُ اَللّٰهُ قٰالُوا إِنَّ اَللّٰهَ حَرَّمَهُمٰا عَلَى اَلْكٰافِرِينَ (٥٠) اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ اَلْحَيٰاةُ اَلدُّنْيٰا فَالْيَوْمَ نَنْسٰاهُمْ كَمٰا نَسُوا لِقٰاءَ يَوْمِهِمْ هٰذٰا وَ مٰا كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يَجْحَدُونَ (٥١) وَ لَقَدْ جِئْنٰاهُمْ بِكِتٰابٍ فَصَّلْنٰاهُ عَلىٰ عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ اَلَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جٰاءَتْ رُسُلُ رَبِّنٰا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنٰا مِنْ شُفَعٰاءَ فَيَشْفَعُوا لَنٰا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ اَلَّذِي كُنّٰا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)

بیان:

قوله تعالی: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيٰاتِهِ تفریع علی ما تتضمنه الآیه السابقه من أعلام الشریعه العامه المبلغه بواسطه الرسل أی اذا کان الأمر علی ذلک و قد أبلغ اللّه دینه العام جمیع أولاد آدم و أخبر بما أعده من الجزاء للأخذ به و ترکه فمن أظلم ممن استنکف عن ذلک إما بافتراء الکذب علی اللّه،و نسبه دین إلیه،و وضعه موضع ما أتی به الرسل من دین التوحید،و قد أخبر اللّه أنهم وسائط بینه و بین خلقه فی تبلیغهم دینه،و إما بالتکذیب لآیاته الداله علی وحدانیته و ما یتبعه من الشرائع.

و من هنا یظهر أن افتراء الکذب علی اللّه و إن کان یعم کل بدعه فی الدین أصوله و فروعه غیر أن المورد هو الشرک باللّه باتخاذ آلهه دون اللّه،و یدل علیه ما سیأتی من قوله «قٰالُوا أَيْنَ مٰا

كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ» .

قوله تعالى: أُولٰئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا الى آخر الآيه.المراد بالكتاب ما قضى و كتب أن يصيب الإنسان من مقدرات الحياه من عمر و معيشه و غنى و صحه و مال و ولد و غير ذلک،و الدليل عليه تقييده بقوله: «حَتّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا» الخ؛و المراد به أجل الموت،و من المعلوم أنه غايه للحياه الدنيا بجميع شئونها و مقارناتها.

و المراد بالنصيب من الكتاب السهم الذى يختص كل واحد منهم من مطلق ما كتب له و لغيره،و فى جعل النصيب من الكتاب هو الذى ينالهم،و الأمر منعكس بحسب الظاهر دلاله على أن النصيب الذى فرض للإنسان و قضى له من اللّه سبحانه لم يكن ليخطئه البته و ما لم يفرض له لم يكن ليصيبه البته.

و المعنى:أولئک الذين كذبوا على اللّه بالشرک أو كذبوا بآياته بالرد لجميع الدين أو شطر منه ينالهم نصيبهم من الكتاب،و نصيبهم ما قضى فى حقهم من الخير و الشر فى الحياه الدنيا حتى اذا قضوا أجلهم و جاءتهم رسلنا من الملائكه و هم ملک الموت و أعوانه نزلوا عليهم و هم يتوفونهم و يأخذون أرواحهم و نفوسهم من أبدانهم سألوهم و قالوا:أين ما كنتم تدعون من دون اللّه من الشركاء الذين كنتم تدعون أنهم شركاء اللّه فيكم و شفعاؤكم عنده؟قالوا ضلوا عنا و إنما ضلت أوصافهم و نعوتهم،و شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بمعاينه حقيقه الأمر أن غير اللّه سبحانه لا ينفع و لا يضر شيئا،و قد أخطئوا فى نسبه ذلک الى أوليائهم.

و فى مضمون الآيه جهات من البحث تقدمت فى نظيره الآيه من سوره الأنعام و غيرها.

ص :۴۷۹

و المخاطبون بحسب سياق اللفظ هم بعض الكفار و هم الذين توفيت قبلهم أمم من الجن و الإنس إلا أن الخطاب في معنى:ادخلوا فيما دخل فيه سابقوكم و لاحقوكم و إنما نظم الكلام هذا النظم ليتخلص به الى ذكر التخاصم الذى يقع بين متقدميهم و متأخريهم،و قد قال تعالى:

إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النّارِ (ص/۶۴).

و فى الآيه دلاله على أن من الجن أمما يموتون بآجال خاصه قبل انتهاء أمد الدنيا على خلاف إبليس الباقى الى يوم الوقت المعلوم.

قوله تعالى: كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها هذا من جمله خصامهم فى النار و هو لعن كل داخل من تقدم عليه فى الدخول،و اللعن هو الإبعاد من الرحمه و من كل خير و الاخت المثل.

قوله تعالى: حَتّٰى إِذَا ادّارَكُوا فِيها جَمِيعاً الى آخر الآيتين؛ادارکوا أى تداركوا أى أدرك بعضهم بعضا اللاحقون السابقين أى اجتمعوا فى النار جميعا.

و المراد بالاولى و الاخرى اللتين تتخاصمان ما هو كذلك بحسب الرتبه أو بحسب الزمان فإن الاولى منهم مقاما و هم رؤساء الضلال،و أئمه الكفر المتبوعون أعانوا تابعيهم بإضلالهم على الضلال،و كذا الاولى منهم زمانا و هم الأسلاف المتقدمون أعانوا متأخريهم على ضلالتهم لأنهم هم الذين جرءوهم بفتح الباب لهم و تمهيد الطريق لسلوكهم.

و الضعف بالكسر فالسكون ما يكرر الشىء فضعف الواحد اثنان و ضعف الاثنين أربعه غير أنه ربما أريد به ما يوجب تكرار شىء آخر فقط كالاثنين يوجب بنفسه تكرار الواحد فضعف الواحد اثنان و ضعفاه أربعه،و ربما أريد به ما يوجب التكرار بانضمامه الى شىء كالواحد يوجب تكرار واحد آخر بانضمامه إليه لأنهما يصيران بذلك اثنين فكل واحد من جزئى الاثنين ضعف و هما جميعا ضعفان نظير الزوج فالاثنان زوج و هما زوجان و على كلا الاعتبارين ورد استعماله فى كلامه تعالى،قال تعالى كما فى هذه الآيه: «فَآتِهِمْ عَذٰاباً ضِعْفاً»

و قال تعالى: «ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذٰابِ» .

و قوله: «قٰالَتْ أُخْرٰاهُمْ لِأُولاٰهُمْ رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ أَضَلُّونٰا» الخ؛نوع من الالتفات لطيف فى بابه فيه رجوع من مخاطبتهم بالمخاصمه الى مخاطبه اللّه سبحانه بالدعاء عليهم معللا بظلمهم فيفيد فائده التكنيه بالإشاره الى الملزوم و إفاده الملازمه،و فيه مع ذلك نوع من الإيجاز فإن فيه اكتفاء بمحاوره واحده عن محاورتين،و التقدير قالت أخراهم لاولاهم أنتم أشد ظلما منا لأنكم ضالون فى أنفسكم و قد أضللتمونا فليعذبكم اللّه عذابا ضعفا من النار،ثم رجعوا الى ربهم بالدعاء عليهم و قالوا ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا،الخ؛فأجابهم اللّه و قال لكل ضعف و لكن لا تعلمون،ثم أجابتهم أولاهم و قالوا:فما كان لكم علينا من فضل،الخ.

فمعنى الآيه: حَتّٰى إِذَا ادّٰارَكُوا و اجتمعوا بلحوق أخراهم لأولاهم «فِيهٰا» أى فى النار تخاصموا «قٰالَتْ أُخْرٰاهُمْ» و هم اللاحقون مرتبه أو زمانا من التابعين «لِأُولاٰهُمْ» و هم الملحقون المتبوعون من رؤسائهم و أئمتهم،و من آبائهم و الأجيال السابقه عليهم زمانا الممهدين لهم الطريق الى الضلال أنتم أضللتمونا بإعانتكم عليه فلتعذبوا بأشد من عذابنا فسألوا ربهم ذلك و قالوا: «رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ أَضَلُّونٰا فَآتِهِمْ عَذٰاباً ضِعْفاً مِنَ النّٰارِ» يكون ضعف عذابنا لأنهم ضلوا فى أنفسهم و أضلوا غيرهم بالإعانه«قال»اللّه سبحانه«لكل»من الاولى و الاخرى«ضعف من العذاب»أما أولاكم فإنهم ضلوا و أعانوكم على الضلال،و أما أنتم فإنكم ضللتم و أعنتموهم على الإضلال باتباع أمرهم و إجابه دعوه الرؤساء منهم،و تكثير سواد السابقين منهم باللحوق بهم «وَ لٰكِنْ لاٰ تَعْلَمُونَ» فإن العذاب إنما يتحقق أو يتم فى مرحله الإدراك و العلم.و أنتم تشاهدونهم أمثال أنفسكم فى شمول العذاب و إحاطه النار فتتوهمون أن عذابهم مثل عذابكم و ليس كذلك بل لهم من العذاب ما لا طريق لكم الى إدراكه و الشعور به كما أنهم بالنسبه إليكم كذلك فما عندكم و عندهم من العذاب ضعف و لكن إحاطه العذاب شغلكم عن العلم بذلك.

و هذا خطاب إلهى مبنى على القهر و الإذلال فيه تعذيب لهم يسمعه أولاهم و أخراهم جميعا فتعود به أولاهم لاخراهم بالتهكم و تقول كما حكى اللّه: «قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ» بخفه العذاب «فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» فى الدنيا من الذنوب و الآثام.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ الى آخر الآيه؛السم هو الثقب و جمعه السموم،و الخياط و المخيط الإبره.

و الذى نفاه اللّه تعالى من تفتيح أبواب السماء مطلق فى نفسه الفتح لولوج أدعيتهم و صعود أعمالهم و دخول أرواحهم غير أن تعقيبه بقوله: «وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» الخ؛كالقرينه على أن المراد نفى أن يفتح بابها لدخولهم الجنه فإن ظاهر كلامه سبحانه أن الجنه فى السماء كما هو فى قوله: وَ فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ (الذاريات۲۲/).

و قوله: حَتّٰى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ من التعليق بالمحال و إنما يعلق الأمر بالمحال كنايه عن عدم تحققه و إياسا من وجوده كما يقال:لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب و يبيض الفار،و قد قال تعالى فى موضع آخر فى هذا المعنى: وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النّارِ (البقره۱۶۷/)،و الآيه فى معنى تعليل مضمون الآيه السابقه،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ الخ؛جهنم اسم من أسماء نار الآخره التى بها التعذيب،و قد قيل:إنه مأخوذ من قولهم:«بئر جهنام»أى بعيده القعر و قيل:فارسى معرب،و«المهاد»الوطاء الذى يتفرش،و منه مهد الصبى و الغواشى جمع غاشيه و هى ما يغشى الشىء و يستره و منه غاشيه السرج.

و قد أفيد بقوله: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ» أنهم محاطون بالعذاب من تحتهم و من فوقهم،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها

الخ؛الآيه و ما يتلوها لتتميم بيان حال الطائفتين الكفار و المؤمنين،و لتكون كالتوطئه لقوله الآتى «وَ نادى أَصْحابُ الْجَنَّهِ أَصْحابَ النّارِ» الخ.

و قوله: «لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها» مسوق للتخفيف و تقويه الرجاء فى قلوب المؤمنين فإن تقييد الإيمان بعمل الصالحات-و الصالحات جمع محلى باللام و هو يفيد الاستغراق-يفيد بظاهره لزوم العمل بجميع الصالحات حتى لا يشذ عنها شاذ،و ما أقل من وفق لذلك من طبقه أهل الإيمان و يسد ذلك باب الرجاء على أكثر المؤمنين فذكر اللّه سبحانه أن التكليف على قدر الوسع فمن عمل من الصالحات ما وسعه أن يعمله من غير أن يشق على نفسه و يتحمل ما لا طاقه له به بعد الإيمان باللّه فهو من أهل هذه الآيه،و من أصحاب الجنه هم فيها خالدون.

قوله تعالى: وَ نَزَعْنا ما فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ الغل هو الحقد و ضغن القلوب و عداوتها،و فى مادتها معنى التوسط باللطف و الحيله و منه الغلاله و هى الثوب المتوسطه بين الدثار و الشعار،و غل الصدور من أعظم ما ينغص عيش الإنسان،و ما من إنسان يعاشر إنسانا و يأتلف به إلا و ائتلافه مشروط بأن يوافقه فيما يراه و يريده فإذا شاهد من حاله ما لا يرتضيه جأش صدره بالغل و راحت الألفه و نغصت العيشه فإذا ذهب اللّه سبحانه بغل الصدور لم يسؤ الإنسان ما يشاهده من أليفه على الإطلاق و هى اللذه الكبرى و فى قوله: «تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ» إشاره الى أنهم ساكنون فى قصورها العاليه.

قوله تعالى: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى هَدانا -إلى قوله- بِالْحَقِّ فى نسبه التحميد إليهم دلاله على أن اللّه سبحانه يخلصهم لنفسه فلا يوجد عندهم اعتقاد باطل و لا عمل سيئ كما قال تعالى: «لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً إِلاّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً» الواقعه ۲۶، فيصح منهم تحميد اللّه سبحانه و يقع توصيفهم موقعه فليس توصيفه تعالى بحيث يصيب غرضه و يقع موقعه بذلك المبتذل حتى يناله كل نائل،قال تعالى: سُبْحانَ اللّهِ عَمّا يَصِفُونَ

إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ (الصافات/۱۶۰)،و قد تقدم القول فی معنی الحمد و خصوصیه حمده تعالی فی تفسیر سوره الحمد.

و فی قولهم: هَدٰانٰا لِهٰذٰا وَ مٰا كُنّٰا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لاٰ أَنْ هَدٰانَا اللّٰهُ إشاره الی اختصاص الهدایه به تعالی فلیس الی الإنسان من الأمر شیء.

و فی قولهم: لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُ رَبِّنٰا بِالْحَقِّ اعتراف بحقیه ما وعدهم اللّه تعالی بلسان أنبیائه،و هو الذی یأخذون الاعتراف به من أصحاب النار علی ما تقصه الآیه التالیه، و فی هذا الاعتراف و سائر الاعترافات المأخوذه من الفریقین یوم القیامه من قبل مصدر العظمه و الکبریاء ظهور منه تعالی بالقهر و تمام الربوبیه،و یکون ذلک من أهل الجنه شکرا، و من أهل النار تماما للحجه.

و اعتراف أهل المجمع بحقیه ما وعدهم اللّه سبحانه بواسطه رسله هو من الحقائق العالیه القرآنیه و إن کان بحسب ساذج النظر معنی بسیطا مبتذلا،و لعلنا نوفق لشطر من البحث فیه فی ذیل الکلام علی هذه الآیات.

قوله تعالی: وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فی الإشاره بلفظ البعید-تلکم-إشاره الی رفعه قدر الجنه و علو مکانها فإن ظاهر السیاق-کما قیل-أن النداء إنما هو حین کونهم فی الجنه،و قد جعلت الجنه إرثا لهم فی قبال عملهم و إنما یتحقق الإرث فیما اذا کان هناک مال أو نحوه مما ینتفع به و هو فی معرض انتفاع شخص ثم زال عنه الشخص فبقی لغیره یقال:ورث فلان أباه أی مات و ترک مالا بقی له،و العلماء ورثه الأنبیاء أی مختصون بما ترکوا لهم من العلم،و یرث اللّه الأرض أی إنه کان خولهم ما بها من مال و نحوه و سوف یموتون فیبقی له ما خولهم.

و علی هذا فکون الجنه إرثا لهم أورثوها معناه کونها خلقت معروضه لأن یکسبها بالعمل المؤمن و الکافر جمیعا غیر أن الکافر زال عنها بشرکه و معاصیه فترکها فبقیت للمؤمن فهو

الوارث لها بعمله،و لو لا عمله لم يرثها،قال تعالى: أَولٰئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ اَلَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ (المؤمنون١١/).

و قال تعالى:حكايه عن أهل الجنه: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّهِ حَيْثُ نَشاءُ (الزمر٧۴/).

قوله تعالى: وَ نادىٰ أَصْحابُ الْجَنَّهِ أَصْحابَ النّٰارِ الى آخر الآيه؛هـذا فى نفسه أخذ اعتراف من أصحاب النار بتوسط أصحاب الجنه و واقع موقع التهكم و السخريه يتهكم و يسخر به أصحاب الجنه من أصحاب النار.و الاستهزاء و السخريه إنما يكون من اللغو الباطل اذا لم يتعلق به غرض حق كالاستهزاء بالحق و أهله أما اذا كان لغرض المقابله و المجاراه أو لغرض آخر حق من غير محذور فليس من قبيل اللغو الذى لا يصدر عن أهل الجنه قال تعالى حكايه عن نوح عليه السّلام: وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قٰالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (هود٣٨/)،و قال: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كٰانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَ إِذٰا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغٰامَزُونَ -الى أن قال- فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفّٰارِ يَضْحَكُونَ (المطففين٣۴/).

و أما الفرق بين قولهم: «مٰا وَعَدَنٰا رَبُّنٰا» و قولهم: «مٰا وَعَدَ رَبُّكُمْ» حيث ذكر المفعول فى الوعد الأول دون الثانى فلعل ذلك للدلاله على نوع من التشريف فإن الظاهر أن المراد بما وعد اللّه جميع ما وعده من الثواب و العقاب لعامه الناس.

و هناك وجه آخر و هو أن متعلق اعتراف المؤمنين و إنكار الكفار من أمر المعاد مختلف فى الدنيا فإن المؤمنين يثبتون البعث بجميع خصوصياته التى بينها اللّه لهم و وعدها إياهم،و أما الكفار المنكرون فإنهم ينكرون أصل البعث الذى اشترك فى الوعد به المؤمنون و الكفار جميعا،و لذلك احتج اللّه سبحانه و يتم الحجه عليهم بأصله دون خصوصياته كقوله تعالى:

وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلىٰ رَبِّهِمْ قٰالَ أَ لَيْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ قٰالُوا بَلىٰ وَ رَبِّنٰا (الأنعام٣٠/)،

و قوله: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ أَ لَيْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ قٰالُوا بَلىٰ وَ رَبِّنٰا (الأحقاف/ ٣۴).

و على هـذا فقوله: «أَنْ قَدْ وَجَدْنٰا مٰا وَعَدَنٰا رَبُّنٰا حَقًّا» اعتراف منهم بحقيه ما وعدهم اللّه و كانوا يذعنون به و يشـهدون من جميع خصوصـيات البعث بمـا قصـهم اللّه فى الـدنيا بلسـان أنبيـائه،و أمـا الكفـار فقـد كـانوا ينكرون أصـل البعث و العـذاب،و هو مما يشتركون فيه هم و المؤمنون فلـذا قيـل: «فَهَلْ وَجَدْتُمْ مٰا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا» و لم يقل ما وعـدكم ربكم لأن الوعـد بأصل البعث و العذاب لم يكن مختصا بهم.

و بـذلك يظهر الجواب عمـا قيل:إن الوفاء بالوعـد واجب دون الوفاء بالوعيـد على ما ذكره المتكلمون فما معنى أخـذ الاعتراف بحقيه ما ذكره اللّه من عقاب الكفار و المجرمين و أنذرهم به فى الدنيا،و ليس تحققه بلازم.

و ذلـك أن الملاـك فيما ذكروه من الفرق أن الثواب حق العامل على ولى الثواب الـذى بيـده الأمر،و العقاب حق الولى المثيب على العامل،و من الجائز أن يصـرف الشـخص نظره عن إعمال حق نفسه لكن لا يجوز إبطال حق الغير فإنجاز الوعـد واجب دون إنجاز الوعيـد،و هـذا إنما يتم فى موارد الوعيد الخاصه و مصاديقه فى الجمله،و أما عدم إنجاز أصل العقاب على الذنب و إبطال أساس المجازاه على التخلف فليس كذلك اذ فيه إبطال التشريع من أصله و إخلال النظام العام.

و ربما وجه الفرق فى قوليه: «وَعَدَنٰا رَبُّنٰا» «وَعَدَ رَبُّكُمْ» بأن المراد بقوله: «وَعَدَنٰا» ما وعد اللّه المتقين من خصوصيات ما يعاملهم به يوم القيامه،و بقوله: «وَعَدَ رَبُّكُمْ» عموم ما وعـد به المؤمنين و الكفار من الثواب و العقاب يوم القيامه كالـذى فى قوله:«يا بنى آدم فَإِمّٰا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدٰاىَ» الى آخر الآيتين؛و من المعلوم أن هـذا الوعـد لا يختص بالكفار حتى يقال:وعدكم ربكم بل التعبير الحق وعد ربكم.

و فیه:أن أصل الفرق لا بأس به لکنه لا یقطع السؤال فللسائل أن یعود فیقول ما هو السبب الفارق فی أن أصحاب الجنه لما أوردوا اعتراف نفسهم اقتصروا بذکر ما یخصهم من أمور یوم القیامه،و أما اذا سألوا أصحاب النار سألوهم عن جمیع ما وعد اللّه به المؤمنین و الکفار؟و بعباره أخری هناک ما یشترک فیه الطائفتان و ما یختص به کل منهما فما بالهم اذا اعترفوا هم أنفسهم اعترفوا بما یختص بأنفسهم و یسألون أصحاب النار الاعتراف بما یشترک فیه الجمیع؟.

و ربما وجه الفرق بأن المراد بقوله: «مٰا وَعَدَ رَبُّکُمْ» الذی وعده أصحاب الجنه من أنواع الثواب الجزیل فإن أصحاب النار یشاهدون ذلک کما یجدون ما بهم من ألیم العقاب.و هو وجه سخیف علی سخافته لا یغنی طائلا.

و قوله: «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَیْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَی الظّٰالِمِینَ» تفریع علی تحقق الاعتراف من الطائفتین جمیعا علی حقیه ما وعده اللّه سبحانه،و الأذان هو قوله: «لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَی الظّٰالِمِینَ» و هو إعلام عام للفریقین-و الدلیل علیه ظاهر قوله:«بینهم»بقضاء اللعنه و هی الإبعاد و الطرد من الرحمه الإلهیه علی الظالمین و قد فسر الظالمین الذین ضربت علیهم باللعنه بقوله

«الَّذِینَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ وَ یَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ کٰافِرُونَ» فهم الکافرون المنکرون للآخره الذین یصدون عن سبیل اللّه محرفه منحرفه،و یصرفون غیرهم عن سلوک الصراط المستقیم فهؤلاء هم المعاندون للحق المنکرون للمعاد.

و هذا الوصف یشمل جمیع المعاندین للحق الکافرین بالجزاء حتی المنکرین للصانع الذین لا یدینون بدین فإن اللّه سبحانه یذکر فی کتابه أن دینه و سبیله الذی یهدی إلیه و به هو سبیل الإنسانیه الذی تدعو إلیه الفطره الإنسانیه و الخلقه خص بها الإنسان لیس وراءه إسلام و لا دین.

فالسبیل الذی یسلکه الإنسان فی حیاته هو سبیل اللّه و صراطه و هو الدین الإلهی فإن

سلکه علی استقامه ما تدعو إلیه الفطره و هو الذی یسوقه الی سعاده کان هو الصراط المستقیم و الإسلام الذی هو الدین عند اللّه و سبیل اللّه الذی لا عوج فیه،و إن سلک غیر ذلک سواء کان فیه إذعان بالوهیه و عباده لمعبود کالملل و الأدیان الباطله أو لم یکن فیه خضوع لشیء و عباده لمعبود کالمادیه المحضه فهو سلوک یبغون فیه سبیل اللّه عوجا و هو الإسلام محرفا عن وجهه، و نعمه اللّه التی بدلت کفرا،فافهم ذلک.

و قد أبهم اللّه هذا الذی یخبر عنه بقوله: «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ» و لم یعرفه من هو؟أ من الإنس أم من الجن أم من الملائکه؟لکن الذی یقتضیه التدبر فی کلامه تعالی أن یکون هذا المؤذن من البشر لا من الجن و لا من الملائکه:أما الجن فلم یذکر فی شیء من تضاعیف کلامه تعالی أن یتصدی الجن شیئا من التوسط فی أمر الإنسان من لدن وروده فی عالم الآخره و هو حین نزول الموت الی أن یستقر فی جنه أو نار فیختم أمره فلا موجب لاحتمال کونه من الجن.

و أما الملائکه فإنهم وسائط لأمر اللّه و حمله لإرادته بأیدیهم إنفاذ الأوامر الإلهیه، و بوساطتهم یجری ما قضی به فی خلقه،و قد ذکر اللّه سبحانه أشیاء من أمرهم و حکمهم فی عالم الموت و فی جنه الآخره و نارها کقولهم للظالمین حین القبض «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ» الخ (الأنعام/۹۳)؛و قولهم لأهل الجنه الجنه: سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ الخ(النحل/۳۲)؛ و قول مالک لأهل النار: إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ الخ(الزخرف/۷۷)؛و نظائر ذلک.

و أما المحشر و هو حظیره البعث و السؤال و الشهاده و تطایر الکتب و الوزن و الحساب و الظرف الذی فیه الحکم الفصل فلم یذکر للملائکه فیه شیء من الحکم أو الأمر و النهی و لا لغیرهم صریحا إلا ما صرح تعالی به فی حق الإنسان.

کقوله تعالی فی أصحاب الأعراف فی ذیل هذه الآیات حکایه عنهم: «وَ نٰادَوْا أَصْحٰابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ» و قولهم لجمع من المؤمنین هناک: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لاٰ

أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» و هـذا حكم و أمر و تـأمين بـإذن اللّه،و قوله تعالى فيما يصف يوم القيامه: قٰالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكٰافِرِينَ (النحل/۲۷)و قوله تعـالى بعـد ذكر سؤاله أهـل الجمع عن مـده لبثهم فى الأرض: وَ قٰالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمٰانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتٰابِ اللّٰهِ إِلىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهٰذٰا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (الروم/۵۶).

فهـذه جهات من تصدى الشـئون،و القيام بالأمر يوم القيامه حبا اللّه الإنسان به دون الملائكه مضافا الى أمثال الشـهاده و الشـفاعه اللتين له.

فهذا كله يقرب إلى الذهن أن يكون هذا المؤذن من الإنسان دون الملائكه،و يأتى فى البحث الروائى ما له تعلق بالمقام.

قوله تعـالى: وَ بَيْنَهُمٰا حِجٰابٌ وَ عَلَى الْأَعْرٰافِ رِجٰالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمٰاهُمْ الحجاب معروف و هو الستر المتخلل بين شـيئين يستر أحدهما من الآخر.

و الأعراف أعالى الحجاب،و التلال من الرمل و العرف للديك و للفرس و هو الشعر فوق رقبته و أعلى كل شيء ففيه معنى العلو على أى حال،و ذكر الحجاب قبل الأعراف،و ما ذكر بعده من إشـرافهم على الجميع و ندائهم أهل الجنه و النار جميعا كل ذلك يؤيد أن يكون المراد بالأعراف أعالى الحجاب الذى بين الجنه و النار و هو المحل المشرف على الفريقين أهل الجنه و أهل النار جميعا.

و السيماء العلامه قال الراغب:السيماء و السيمياء العلامه،قال الشاعر:

له سيمياء لا تشق على البصر

و قال تعالى: «سِيمٰاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ» و قد سومته أى أعلمته،و مسومين أى معلمين (انتهى).

و الـذى يعطيه التـدبر فى معنى هـذه الآيه و ما يلحق بها من الآيات أن هـذا الحجاب الذى ذكره اللّه تعالى إنما هو بين اصـحاب الجنه و أصحاب النار فهما مرجع الضمير فى قوله «وَ بَيْنَهُمٰا»

ص: ۴۸۹

و قد أنبأنا اللّه سبحانه بمثل هذا المعنى عند ذكر محاوره بين المنافقين و المؤمنين يوم القيامه بقوله: يَوْمَ يَقُولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الْمُنٰافِقٰاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونٰا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرٰاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بٰابٌ بٰاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَهُ وَ ظٰاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذٰابُ (الحديد١٣/)،و إنما هو حجاب لكونه يفرق بين الطائفتين و يحجب إحداهما عن الاخرى لا أنه ثوب منسوج مخيط على هيئه خاصه معلق بين الجنه و النار.

ثم أخبر اللّه سبحانه أن على أعراف الحجاب و أعاليه رجالا مشرفين على الجانبين لارتفاع موضعهم يعرفون كلا من الطائفتين أصحاب الجنه و أصحاب النار بسيماهم و علامتهم التى تختص بهم.

و لا ريب فى أن السياق يفيد أن هؤلاء الرجال منحازون على الطائفتين متمايزون من جماعتهم فهل ذلك لكونهم خارجين عن نوع الإنسان كالملائكه أو الجن مثلا،أو لكونهم خارجين عن أهل الجمع من حيث ما يتعلق بهم من السؤال و الحساب و سائر الشئون الشبيهه بهما فيكون بدلك أهل الجمع منقسمين الى طوائف ثلاث:أصحاب الجنه،و أصحاب النار،و أصحاب الأعراف كما قسمهم اللّه فى الدنيا الى طوائف ثلاث:المؤمنين و الكفار و المستضعفين الذين لم تتم عليهم الحجه و قصروا عن بلوغ التكليف كضعفاء العقول من النساء و الأطفال غير البالغين و الشيخ الهرم الخرف و المجنون و السفيه و أضرابهم،أو لكونهم مرتفعين عن موقف أهل الجمع بمكانتهم؟

لا ريب أن إطلاق لفظ«رجال»لا يشمل الملائكه فإنهم لا يتصفون بالرجوليه و الانوثيه كما يتصف به جنس الحيوان و إن قيل:إنهم ربما يظهرون فى شكل الرجال فإن ذلك لا يصحح الاتصاف و التسميه،على أنه لا دليل يدل عليه.

ثم إن التعبير بمثل قوله: «رِجٰالٌ يَعْرِفُونَ» الخ؛و خاصه بالتنكير يدل بحسب عرف اللغه على اعتناء تام بشأن الأفراد المقصودين باللفظ نظرا الى دلاله الرجل بحسب العاده على

الإنسان القوی فی تعلقه و إرادته الشدید فی قوامه.

و علی ذلک یجری ما یوجد فی کلامه تعالی من مثل هذا التعبیر کقوله تعالی: رِجٰالٌ لاٰ تُلْهِیهِمْ تِجٰارَهٌ وَ لاٰ بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللّٰهِ (النور۳۷/)،و قوله: فِیهِ رِجٰالٌ یُحِبُّونَ أَنْ یَتَطَهَّرُوا (التوبه۱۰۸/)،و قوله: رِجٰالٌ صَدَقُوا مٰا عٰاهَدُوا اللّٰهَ عَلَیْهِ (الأحزاب۲۳/)،و قوله:

وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِکَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِی إِلَیْهِمْ (یوسف۱۰۹/)حتی فی مثل قوله: مٰا لَنٰا لاٰ نَریٰ رِجٰالاً کُنّٰا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرٰارِ (ص۶۲/)،و قوله: وَ أَنَّهُ کٰانَ رِجٰالٌ مِنَ الْإِنْسِ یَعُوذُونَ بِرِجٰالٍ مِنَ الْجِنِّ (الجن۶/).

فالمراد برجال فی الآیه أفراد تامون فی إنسانیتهم لا محاله،و إن فرض أن فیهم أفرادا من النساء کان من التغلیب (۱).

قوله تعالی: وَ نٰادَوْا أَصْحٰابَ الْجَنَّهِ أَنْ سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ لَمْ یَدْخُلُوهٰا وَ هُمْ یَطْمَعُونَ المنادون هم الرجال الذین علی الأعراف-علی ما یعطیه السیاق-و قوله «أَنْ سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ» یفسر ما نادوا به،و قوله: «لَمْ یَدْخُلُوهٰا وَ هُمْ یَطْمَعُونَ» جملتان حالیتان فجمله «لَمْ یَدْخُلُوهٰا» من أصحاب الجنه،و جمله «وَ هُمْ یَطْمَعُونَ» حال آخر من أصحاب الجنه و المعنی:أن أصحاب الجنه نودوا و هم فی حال لم یدخلوا الجنه بعدوهم یطمعون فی أن یدخلوها؛أو حال من ضمیر الجمع فی «لَمْ یَدْخُلُوهٰا» و هو العامل فیه،و المعنی أن أصحاب الجنه نودوا بذلک و هم فی الجنه لکنهم لم یدخلوا الجنه علی طمع فی دخولها لأن ما شاهدوه من أهوال الموقف و دقه الحساب کان أیأسهم من أن یفوزوا بدخول الجنه لکن قوله بعد «أَ هٰؤُلاٰءِ الَّذِینَ» الی آخر الآیه یؤید أول الاحتمالین و أنهم إنما سلموا علیهم قبل دخولهم

۱- ۱) .الاعراف ۳۷-۵۳:کلام فی اصحاب الاعراف. الاعراف ۳۷-۵۳:بحث روائی فی:سنن الجاهلیه فی الطواف،تحریم ما احل اللّه،ان اللّه لا یأمر بالفحشاء،ان اللّه جمیل و یحب الجمال.

الجنه.

و أما احتمال أن تكون الجملتان حالين من ضمير الجمع فى «نَادَوْا» فيوجب سقوط الجمله عن الإفاده كما هو ظاهر،و ذلك لرجوع المعنى الى أن هؤلاء الرجال الذين هم على أعراف الحجاب بين الجنه و النار نادوا و هم لم يدخلوا.

و على من يميل إلى أن يجعل قوله: «لَمْ يَدْخُلُوهٰا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ» بيانا لحال أصحاب الأعراف أن يجعل قوله: «لَمْ يَدْخُلُوهٰا» استئنافا يخبر عن حال أصحاب الأعراف أو صفه لرجال و التقدير:و على الأعراف رجال لم يدخلوها و هم يطمعون و اذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا...الخ؛كما نقل عن الزمخشرى فى الكشاف.

لكن يبعد الاستئناف أن اللازم حينئذ إظهار الفاعل فى قوله: «لَمْ يَدْخُلُوهٰا» دون إضماره لمكان اللبس كما فعل ذلك فى قوله: «وَ نٰادىٰ أَصْحٰابُ الْأَعْرٰافِ رِجٰالاً» الخ؛و يبعد الوصفيه الفصل بين الموصوف و الصفه بقوله: «وَ نٰادَوْا أَصْحٰابَ الْجَنَّهِ أَنْ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ» من غير ضروره موجبه.

و هذا التقدير الذى تقدم أعنى رجوع معنى قوله: «لَمْ يَدْخُلُوهٰا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ وَ إِذٰا صُرِفَتْ أَبْصٰارُهُمْ» الى آخر الآيه؛الى قولنا:و على الأعراف رجال يطمعون فى دخول الجنه و يتعوذون من دخول النار-على ما زعموا-هو الذى مهد لهم الطريق و سواه للقول بأن أصحاب الأعراف رجال استوت حسناتهم و سيئاتهم فلم يترجح لهم أن يدخلوا الجنه أو النار فاوقفوا على الأعراف!.

لكنك عرفت أن قوله: «لَمْ يَدْخُلُوهٰا» الخ؛حال أصحاب الجنه لا وصف أصحاب الأعراف،و أما قوله: «وَ إِذٰا صُرِفَتْ أَبْصٰارُهُمْ» الخ؛فسيأتى ما فى كونه بيانا أصحاب الأعراف من الكلام.

قوله تعالى: وَ إِذٰا صُرِفَتْ أَبْصٰارُهُمْ تِلْقٰاءَ أَصْحٰابِ النّٰارِ قٰالُوا رَبَّنٰا لاٰ

تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ التلقاء كالبيان مصدر لقى يلقى ثم استعمل بمعنى جهه اللقاء، و ضمير الجمع فى قوله: «أَبْصارُهُمْ» و قوله: «قالُوا» عائد الى«رجال»و التعبير عن النظر الى أصحاب النار بصرف أبصارهم إليه كأن الوجه فيه أن الإنسان لا يحب إلقاء النظر الى ما يؤلمه النظر إليه و خاصه فى مثل المورد الذى يشاهد الناظر فيه أفظع الحال و أمر العذاب و أشقه الذى لا يطاق النظر إليه غير أن اضطراب النفس و قلق القلب ربما يفتح العين نحوه للنظر إليه كأن غيره هو الذى صرف نظره إليه و إن كان الإنسان لو خلى و طبعه لم يرغب فى النظر و لو بوجه نحوه،و لـذا قيل: «وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ» الخ؛و لم يقل و اذا نظروا إليه أو ما يفيد مفاده.

و معنى الآيه:و اذا نظر أصحاب الأعراف أحيانا الى أصحاب النار تعوذوا باللّه من أن يجعلهم مع أصحاب النار فيدخلهم النار،و قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

و ليس دعاؤهم هـذا الـدعاء دالا على سقوط منزلتهم،و خوفهم من دخول النار كما يـدل على رجائهم دخول الجنه قوله: «وَ هُمْ يَطْمَعُونَ» و ذلك أن ذلك مما دعا به أولو العزم من الرسل و الأنبياء المكرمون و العباد الصالحون و كـذا الملائكه المقربون فلا دلالـه فيه و لو بالإشعار الضعيف على كون الـداعى ذا سقوط فى حاله و حيره من أمره.هـذا ما فسروا به الآيه بإرجاع ضميرى الجمع الى«رجال».

لكنك خبير بأن ذلك لاـ يلائم الإظهار الـذى فى مفتتح الآيه التاليه فى قوله: «وَ نادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ» اذ الكلام فى هـذه الآيات الأربع حال جار فى أوصاف أصحاب الأعراف و أخبارهم كقوله: «يَعْرِفُونَ كُلًّا» الخ؛و قوله: «وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّهِ» الخ؛و قوله «لَمْ يَدْخُلُوها» الخ؛على احتمال،و قوله: «وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ» الخ؛و ليس فى الكلام أى لبس و لا نكته ظاهره توجب العدول من الإضمار الذى هو الأصل فى المقام الى الإظهار بمثل قوله:

«وَ نادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ» .

ص: ۴۹۳

فالظاهر أن ضميرى الجمع أعنى ما فى قوله: «أَبْصٰارُهُمْ» و قوله: «قٰالُوا» راجعان الى أصحاب الجنه،و الجمله إخبار عن دعائهم اذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار كما أن الجمله السابقه بيان لطمعهم فى دخول الجنه،و كل ذلك قبل دخولهم الجنه.

قوله تعالى: وَ نٰادىٰ أَصْحٰابُ الْأَعْرٰافِ رِجٰالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمٰاهُمْ الى آخر الآيه؛فى توصيف الرجال بقوله: «يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمٰاهُمْ» دلاله على أن سيماءهم كما يدلهم على أصل كونهم من أصحاب الجنه يدلهم على أمور أخر من خصوصيات أحوالهم،و قد مرت الإشاره إليه.

و قوله: «قٰالُوا مٰا أَغْنىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ» تقريع لهم و شماته،و كشف عن تقطع الأسباب الدنيويه عنهم فقد كانوا يستكبرون عن الحق و يستذلونه و يغترون بجمعهم.

قوله تعالى: أَ هٰؤُلاٰءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاٰ يَنٰالُهُمُ اللّٰهُ بِرَحْمَهٍ الى آخر الآيه.

الإشاره الى أصحاب الجنه،و الاستفهام للتقرير أى هؤلاء هم الذين كنتم تجزمون قولا أنهم لا يصيبهم فيما يسلكونه من طريق العبوديه خير،و إصابه الخير هى نيله تعالى إياهم برحمه و وقوع النكره-برحمه-فى حيز النفى يفيد استغراق الشىء للجنس،و قد كانوا ينفون عن المؤمنين كل خير.

و قوله:أدخلوا الجنه لا خوف عليكم و لا أنتم تحزنون،أمر من أصحاب الأعراف للمؤمنين أن يدخلوا الجنه بعد تقرير حالهم بالاستفهام،و هذا هو الذى يفيده السياق (۱).

قوله تعالى: وَ نٰادىٰ أَصْحٰابُ النّٰارِ أَصْحٰابَ الْجَنَّهِ أَنْ أَفِيضُوا الخ؛الإفاضه من الفيض و هو سيلان الماء منصبا،قال تعالى: تَرىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ أى يسيل دمعها منصبا،و عطف سائر ما رزقهم اللّه من النعم على الماء يدل على أن المراد بالإفاضه صب

۱- ۱) .الاعراف ۳۷-۵۳:كلام فى معنى الاعراف فى القرآن.

مطلق النعم أعم من المـائع و غيره على نحو عموم المجـاز،و ربمـا قيـل:إن الإفـاضه حقيقه فى إعطاء النعمه الكثيره فيكون تعليقه على الماء و غيره حقيقه حينئذ.

و كيف كان ففى الآيه إشعار بعلو مكانه أهل الجنه بالنسبه الى مكان أهل النار.

و إنمـا أفرز المـاء و هو من جمله مـا رزقهم اللّه ثم قـدم فى الـذكر على سـائر ما رزقهم اللّه لأن الحاجه الى بارد الماء أسـبق الى الذهن طبعا بالنسبه الى غيره عند ما تحيط الحراره بالإنسان، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً الى آخر الآيه؛اللهو ما يشـغلك عما يهمك،و اللعب الفعل المأتى به لغايه خياليه غير حقيقيه،و الغرور إظهار النصح و اسـتبطان الغش،و النسيان يقابل الذكر،و ربما يستعار لترك الشىء و عدم الاعتناء بشأنه كالشىء المنسـى،و على ذلـك يجرى فى الآـيه،و الجحـد النفى و الإنكار،و الآيه مسوقه لتفسـير الكافرين، و يسـتفاد منها تفسـيرات ثلاثه للكفر:أولها:أنه اتخاذ الإنسان دينه لهوا و لعبا و غرور الحياه الدنيا له،و الثانى:نسـيان يوم اللقاء،و الثالث:الجحد بآيات اللّه،و لكل من التفاسير وجه.

و فى قوله تعـالى: «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِبـاً» دلاـله على أن الإنسـان لاـ غنى له عن الـدين على أى حال حتى من اشـتغل بـاللهو و اللعب و محض حياته فيها محضا فإن الـدين-كما تقـدمت الإشاره إليه فى تفسـير قوله: «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً» الآيه- هو طريق الحياه الذى يسـلكه الإنسان فى الدنيا،و لا محيص له عن سـلوكه،و قد نظمه اللّه سبحانه بحسب ما تهـدى إليه الفطره الإنسـانيه ودعت إليه،و هو دين الإنسـان الـذى يخصه و ينسب إليه،و هو الـذى يهم الإنسـان و يسوقه الى غايه حقيقيه هى سعاده حياته.

فحيث جرى عليه الإنسـان و سـلكه كـان على دينه الـذى هـو دين اللّه الفطرى،و حيث اشـتغل عنه الى غيره الـذى يلهـو عنه و لا يهـديه إلا الى غايات خياليه و هى اللذائذ الماديه التى لا بقاء لها و لا نفع فيها يعود الى سـعادته فقد اتخذ دينه لهوا و لعبا و غرته الحياه الدنيا بسراب

زخارفها.

و قوله تعالى: فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا أى اليوم نتركهم و لا نقوم بلوازم حياتهم السعيده كما تركوا يومهم هذا فلم يقوموا بما يجب أن يعملوا له و بما كانوا بآياتنا يجحدون و نظير الآيه فى جعل تكذيب الآيات سببا لنسيان اللّه له يوم القيامه قوله قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (طه/۱۲۶)،و قد بدل هناك الجحد نسيانا.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ الآيه؛عود على بدء الكلام أعنى قوله فى أول الآيات: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ» أى من أعظم من هؤلاء ظلما و لقد أتممنا عليهم الحجه و أقمنا لهم البيان فجئناهم بكتاب فصلناه و أنزلناه إليهم على علم منا بنزوله؟.

فقوله: «عَلى عِلْمٍ» متعلق بقوله: «لَقَدْ جِئْناهُمْ» و الكلمه تتضمن احتجاجا على حقيه الكتاب و التقدير:و لقد جئناهم بكتاب حق:و كيف لا يكون حقا؟و قد نزل على علم منا بما يشتمل عليه من المطالب.

و قوله: «هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أى هدى و إراءه طريق للجميع و رحمه للمؤمنين به خاصه؛أو هدى و إيصالا بالمطلوب للمؤمنين و رحمه لهم،و الأول أنسب بالمقام و هو مقام الاحتجاج.

قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ تَأْوِيلَهُ الى آخر الآيه؛الضمير فى تأويله راجع الى الكتاب،و قد تقدم فى تفسير قوله: هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ الآيه (آل عمران/۷)؛أن التأويل فى عرف القرآن هو الحقيقه التى يعتمد عليها حكم أو خبر أو أى أمر ظاهر آخر اعتماد الظاهر على الباطن و المثل على المثل.

فقوله: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ تَأْوِيلَهُ» معناه هل ينتظر هؤلاء الذين يفترون على اللّه كذبا أو

یکذبون بآیاته و قد تمت علیهم الحجه بالقرآن النازل علیهم،إلا حقیقه الأمر التی کانت هی الباعثه علی سوق بیاناته و تشریع أحکامه و الإنذار و التبشیر الذین فیه؟فلو لم ینتظروه لم یترکوا الأخذ بما فیه.

ثم یخبر تعالی عن حالهم فی یوم إتیان التأویل بقوله:یوم یأتی تأویله یقول الذین نسوه، الخ؛أی اذا انکشفت حقیقه الأمر یوم القیامه یعترف التارکون له بحقیه ما جاءت به الرسل من الشرائع التی أوجبوا العمل بها،و أخبروا أن اللّه سیبعثهم و یجازیهم علیها.

و اذ شاهدوا عند ذلک أنهم صفر الأیدی من الخیر،هالکون بفساد أعمالهم سألوا أحد أمرین یصلح به ما فسد من أمرهم إما شفعاء ینجونهم من الهلاک الذی أطل علیهم أو أنفسهم،بأن یردوا الی الدنیا فیعملوا صالحا غیر الذی کانوا یعملون من السیئات و ذلک قوله حکایه عنهم: «فَهَلْ لَنٰا مِنْ شُفَعٰاءَ فَیَشْفَعُوا لَنٰا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَیْرَ الَّذِی کُنّٰا نَعْمَلُ» ؟.

و قوله تعالی: «قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا کٰانُوا یَفْتَرُونَ» فصل فی معنی التعلیل لما حکی عنهم من سؤال أحد أمرین:إما الشفعاء و إما الرد الی الدنیا کأنه قیل:لما ذا یسألون هذا الذی یسألون؟فقیل: «قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» فیما بدلوا دینهم لهوا و لعبا،و اختاروا الجحود علی التسلیم و قد زال عنهم الافتراءات المضله التی کانت تحجبهم عن ذلک فی الدنیا فبان لهم أنهم فی حاجه الی من یصلح لهم أعمالهم إما أنفسهم أو غیرهم ممن یشفع لهم.

و قد تقدم فی مبحث الشفاعه فی الجزء الأول من الکتاب أن فی قوله: «فَهَلْ لَنٰا مِنْ شُفَعٰاءَ فَیَشْفَعُوا لَنٰا» دلاله علی أن هناک شفعاء یشفعون للناس اذ قال:من شفعاء،و لم یقل:من شفیع فیشفع لنا (۱).

۱- ۱) .الاعراف ۳۷-۵۳:بحث روائی فی:عذاب القبر؛کیفیه قبض روح المؤمن و الکافر؛کیفیه الورود الی عالم البرزخ؛اصحاب الاعراف.

[سوره الأعراف (۷): الآيات ۵۴ الى ۵۸]

اشاره

إِنَّ رَبَّكُمُ اَللّٰهُ اَلَّذِى خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اِسْتَوىٰ عَلَى اَلْعَرْشِ يُغْشِى اَللَّيْلَ اَلنَّهٰارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ وَ اَلنُّجُومَ مُسَخَّرٰاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاٰ لَهُ اَلْخَلْقُ وَ اَلْأَمْرُ تَبٰارَكَ اَللّٰهُ رَبُّ اَلْعٰالَمِينَ (۵۴) اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لاٰ يُحِبُّ اَلْمُعْتَدِينَ (۵۵) وَ لاٰ تُفْسِدُوا فِى اَلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا وَ اُدْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اَللّٰهِ قَرِيبٌ مِنَ اَلْمُحْسِنِينَ (۵۶) وَ هُوَ اَلَّذِى يُرْسِلُ اَلرِّيٰاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتّٰى إِذٰا أَقَلَّتْ سَحٰاباً ثِقٰالاً سُقْنٰاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنٰا بِهِ اَلْمٰاءَ فَأَخْرَجْنٰا بِهِ مِنْ كُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ كَذٰلِكَ نُخْرِجُ اَلْمَوْتىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۵۷) وَ اَلْبَلَدُ اَلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبٰاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ اَلَّذِى خَبُثَ لاٰ يَخْرُجُ إِلاّٰ نَكِداً كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ اَلْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (۵۸)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللّٰهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيّٰامٍ سيأتى البحث فى معنى السماء و الأيام السته التى خلقتا فيها فى تفسير سوره حم السجده إن شاء اللّه.

قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ -الى قوله- بِأَمْرِهِ الاستواء الاعتدال

ص: ۴۹۸

على الشـىء و الاستقرار عليه،و ربما استعمل بمعنى التساوى،يقال:استوى زيد و عمرو أى تساويا قال تعالى: «لاٰ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللّٰهِ»
.

و العرش ما يجلس عليه الملك و ربما كنى به عن مقام السلطنه،قال الراغب فى المفردات:

العرش فى الأصل شىء مسقف،و جمعه عروش قال: «وَ هِيَ خٰاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوشِهٰا» و منه قيل:

عرشت الكرم و عرشـتها إذا جعلت له كهيئه سـقف.قال:و العرش شـبه هودج للمرأه تشبيهـا فى الهيئه بعرش الكرم،و عرشت البئر جعلت له عريشا،و سمى مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه.قال:و عرش اللّه ما لا يعلمه البشر على الحقيقه إلا بالاسم،و ليس كما يـذهب إليه أوهـام العـامه فـإنه لو كـان كـذلك لكـان حاملا له-تعالى عن ذلك-لا محمولا و اللّه تعالى يقول: إِنَّ اللّٰهَ يُمْسِكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولاٰ وَ لَئِنْ زٰالَتٰا إِنْ أَمْسَكَهُمٰا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ،و قال قوم:

هو الفلك الأعلى و الكرسـى فلك الكواكب،و اسـتدل بما روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:ما السماوات السبع و الأرضون السبع فى جنب الكرسى إلا كحلقه ملقاه فى أرض فلاه و الكرسى عند العرش كذلك(انتهى).

قوله تعالى: أَلاٰ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبٰارَكَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمِينَ الخلق هو التقدير بضم شـىء الى شـىء و إن استقر ثانيا فى عرف الدين و أهله فى معنى الإيجاد أو الإبداع على غير مثال سابق،و أما الأمر فيسـتعمل فى معنى الشأن و جمعه أمور،و مصدرا بمعنى يقرب من بعث الإنسان غيره نحو ما يريـده يقال أمرته بكذا أمرا،و ليس من البعيد أن يكون هذا هو الأصل فى معنى اللفظ ثم يسـتعمل الأـمر اسم مصـدر بمعنى نتيجه الأـمر و هو النظم المسـتقر فى جميع أفعـال المأمور المنبسط على مظاهر حياته،فينطبق فى الإنسان على شأنه فى الحياه ثم يتوسع فيه فيسـتعمل بمعنى الشأن فى كل شـىء فأمر كل شىء هو الشأن الذى يصلح له وجوده،و ينظم له تفاريق حركاته و سـكناته و شتى أعماله و إراداته،يقال:أمر العبـد الى مولاه، أى هو يدبر حياته و معاشه،و أمر المال الى مالكه،و أمر الإنسان الى ربه أى بيده تدبيره فى

مسیر حیاته.

و لا یرد علیه أن الأمر بمعنی الشأن یجمع علی«أمور»و بمعنی یقابل النهی علی«أوامر» و هو ینافی رجوع أحدهما الی الآخر معنی!،فإن أمثال هذه التفننات کثیره فی اللغه یعثر علیها المتتبع الناقد فالأمر کالمتوسط بین من یملکه و بین من یملک منه کالمولی و العبد و یضاف الی کل منهما یقال:أمر العبد و أمر المولی،قال تعالی: وَ أَمْرُهُ إِلَی اللّٰهِ (البقره/۲۷۵)،و قال: أَتیٰ أَمْرُ اللّٰهِ (النحل/۱).

و قد فسر سبحانه أمره الذی یملکه من الأشیاء بقوله: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ فَسُبْحٰانَ الَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ (یس/۸۳)،فبین أن أمره الذی یملکه من کل شیء سواء کان ذاتا أو صفه أو فعلا و أثرا هو قول کن و کلمه الإیجاد و هو الوجود الذی یفیضه علیه فیوجد هو به،فإذا قال لشیء:کن فکان،فقد أفاض علیه ما وجد به من الوجود،و هذا الوجود الموهوب له نسبه الی اللّه سبحانه و هو بذاک الاعتبار أمره تعالی و کلمه «کن»الإلهیه،و له نسبه الی الشیء الموجود،و هو بذاک الاعتبار أمره الراجع الی ربه،و قد عبر عنه فی الآیه بقوله: «فَیَکُونُ» .

و قد ذکر تعالی لکل من النسبتین-و إن شئت فقل:للإیجاد المنسوب إلیه تعالی و للوجود المنسوب الی الشیء-نعوتا و أحکاما مختلفه سنبحث عنها إن شاء اللّه فی محل یناسبه.

و الحاصل:أن الأمر هو الإیجاد سواء تعلق بذات الشیء أو بنظام صفاته و أفعاله فأمر ذوات الأشیاء الی اللّه و أمر نظام وجودها الی اللّه لأنها لا تملک لنفسها شیئا البته،و الخلق هو الإیجاد عن تقدیر و تألیف سواء کان ذلک بنحو ضم شیء الی شیء کضم أجزاء النطفه بعضها الی بعض و ضم نطفه الذکور الی نطفه الإناث ثم ضم الأجزاء الغذائیه إلیها فی شرائط خاصه حتی یخلق بدن انسان مثلا،أم من غیر أجزاء مؤلفه کتقدیر ذات الشیء البسیط و ضم ماله من درجه الوجود وحده و ما له من الآثار و الروابط التی له مع غیره،فالاصول الأولیه مقدره

مخلوقه كما أن المركبات مقدره مخلوقه.قال اللّه تعالى: وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (الفرقان۲/)،و قال: اَلَّذِی أَعْطیٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدیٰ (طه۵۰/)،و قال: اَللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الزمر۶۲/)،فعمم خلقه كل شیء.

فقد اعتبر فی معنی الخلق تقدير جهات وجود الشیء و تنظيمها سواء كانت متمايزه منفصلا بعضها عن بعض أم لا بخلاف الأمر.

و لذا كان الخلق يقبل التدريج كما قال: «خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّهِ أَيّٰامٍ» بخلاف الأمر قال تعالى: وَ مٰا أَمْرُنٰا إِلاّٰ وٰاحِدَهٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (القمر۵۰/)،و لذلك أيضا نسب فی كلامه الی غيره الخلق كقوله: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَهِ الطَّيْرِ بِإِذْنِی فَتَنْفُخُ فِيهٰا (المائده/ ۱۱۰)،و قال فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخٰالِقِينَ (المؤمنون۱۴/).

و أما الأمر بهذا المعنی فلم ينسبه الی غيره بل خصه بنفسه،و جعله بينه و بين ما يريد حدوثه و كينونته كالروح الذی يحيی به الجسد.

انظر الی قوله تعالى: وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّرٰاتٍ بِأَمْرِهِ و قوله: وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ (الروم۴۶/)،و قوله: يُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَهَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ (النحل۲/)و قوله:

وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء۲۷/)،الی غير ذلك من الآيات تجد أنه تعالی يجعل ظهور هذه الأشياء بسببيه أمره أو بمصاحبه أمره،فنلخص أن الخلق و الأمر يرجعان بالأخره الی معنی واحد و إن كانا مختلفين بحسب الاعتبار.

فإذا انفرد كل من الخلق و الأمر صح أن يتعلق بكل شیء،كل بالعنايه الخاصه به،و إذا اجتمعا كان الخلق أحری بأن يتعلق بالذوات لما أنها أوجدت بعد تقدير ذواتها و آثارها، و يتعلق الأمر بآثارها و النظام الجاری فيها بالتفاعل العام بينها لما أن الآثار هی التی قدرت للذوات و لا وجه لتقدير المقدر فافهم ذلك.

و لذلك قال تعالى: «أَلاٰ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ» فأتی بالعطف المشعر بالمغايره بوجه و كأن

المراد بالخلق ما يتعلق من الإيجاد بذوات الأشياء،و بالامر ما يتعلق بآثارها و الأوضاع الحاصله فيها و النظام الجارى بينها كما ميز بين الجهتين فى أول الآيه حيث قال: «خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ» و هذا هو إيجاد الذوات: ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ و هو إيجاد النظام الاحسن بينها بإيقاع الامر تلو الامر و الإتيان بالواحد منه بعد الواحد.

و ما ربما يقال:إن العطف لا يقتضى المغايره،و لو اقتضى ذلك لدل فى قوله: مَنْ كٰانَ عَدُوًّا لِلّٰهِ وَ مَلاٰئِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ (البقره/۹۸)على كون جبريل من غير جنس الملائكه! مدفوع بأن المراد مغايره ما و لو اعتبارا لقبح قولنا جاءنى زيد و زيد و رأيت عمرا و عمرا فلا محيص عن مغايره ما و لو بحسب الاعتبار،و جبريل مع كونه من جنس الملائكه يغايره غيره بما له من المقام المعلوم و القوه و المكانه عند ذى العرش.

و قوله تعالى: «فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمِينَ» أى كان ذا بركات ينزلها على مربوبيه من جميع من فى العالمين فهو ربهم (۱).

قوله تعالى: اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً الى آخر الآيتين؛التضرع هو التذلل من الضراعه و هى الضعف و الذله.و الخفيه هى الاستتار،و ليس من البعيد أن يكون كنايه عن التذلل جىء به لتأكيد التضرع فإن المتذلل يكاد يختفى من الصغار و الهوان.

الآيه السابقه: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللّٰهُ الَّذِي خَلَقَ» الآيه تذكر بربوبيته وحده لا شريك له من جهه أنه هو الخالق وحده،و إليه تدبير خلقه وحده؛فتعقيبها بهاتين الآيتين بمنزله أخذ النتيجه من البيان،و هى الدعوه الى دعائه و عبوديته،و الحكم بأخذ دين يوافق ربوبيته تعالى و هى الربوبيه من غير شريك فى الخلق و لا فى التدبير.

۱- ۱) .الاعراف ۵۴-۵۸:كلام فى معنى العرش.

و لذلك عاد أولا الى دين العبوديه فقال: اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لاٰ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَ لاٰ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا فأمر أن يدعوه بالتضرع و التذلل و أن يكون ذلك خفيه من غير المجاهره البعيده عن أدب العبوديه الخارجه عن زيها-بناء على أن تكون الواو فى «تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً» للجمع-أو أن يدعوه بالتضرع و الابتهال الملازم عاده للجهر بوجه أو بالخفيه إخفاتا فإن ذلك هو لازم العبوديه و من عدا ذلك فقد اعتدى عن طور العبوديه و إن اللّه لا يحب المعتدين.

و من الممكن أن يكون المراد بالتضرع و الخفيه:الجهر و السر و إنما وضع التضرع موضع الجهر لكون الجهر فى الدعاء منافيا لأدب العبوديه إلا أن يصاحب التضرع.

هذا فيما بينهم و بين اللّه،و أما فيما بينهم و بين الناس فإن لا يفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها فليس حقيقه الدين فيما يرجع الى حقوق الناس إلا أن يصلح شأنهم بارتفاع المظالم من بينهم و معاملتهم بما يعينهم على التقوى،و يقربهم من سعاده الحياه فى الدنيا و الآخره.

ثم كرر الدعوه إليه و أعاد البعث الى دعائه بالجمع بين الطريقين الذين لم يزل البشر يعبد الرب أو الأرباب من أحدهما و هما طريق الخوف و طريق الرجاء فإن قوما كانوا يتخذون الأرباب خوفا فيعبدونهم ليسلموا من شرورهم،و كان قوما يتخذون الأرباب طمعا فيعبدونهم لينالوا خيرهم و بركتهم لكن العباده عن محض الخوف ربما ساق الإنسان الى اليأس و القنوط فدعاه الى ترك العباده،و قد شوهد ذلك كثيرا،و العباده عن محض الطمع ربما قاد الى استرسال الوقاحه و زوال زى العبوديه فدعاه الى ترك العباده،و قد شوهد أيضا كثيرا فجمع سبحانه بينهما و دعا الى الدعاء باستعمالهما معا فقال: «وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً» ليصلح كل من الصفتين ما يمكن أن تفسده الاخرى،و فى ذلك وقوع فى مجرى الناموس العام الجارى فى العالم أعنى ناموس الجذب و الدفع.

و قد سمى اللّه سبحانه هذا الاعتدال فى العباده و التجنب عن إفساد الأرض بعد إصلاحها

ص :503

إحسانا و بشر المجيبين لدعوته بأنهم يكونون حينئذ محسنين فتقرب منهم رحمته إن رحمه اللّه قريب من المحسنين.

و لم يقل:«رحمه اللّه قريبه»،قيل:لأن الرحمه مصدر يستوى فيه الوجهان،و قيل:لأن المراد بالرحمه الإحسان،و قيل:لأن قريب فعيل بمعنى المفعول فيستوى فيه المذكر و المؤنث و نظيره قوله تعالى: لَعَلَّ السّٰاعَةَ قَرِيبٌ (الشورى١٧/).

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيٰاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ الى آخر الآيه؛و فى الآيه بيان لربوبيته تعالى من جهه العود كما أن فى قوله: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللّٰهُ» الآيه بيانا لها من جهه البدء.

و قوله: «بُشْراً» و أصله البشر بضمتين جمع بشير كالنذر جمع نذير،و المراد بالرحمه المطر، و قوله: «بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» أى قدام المطر،و فيه استعاره تخييليه بتشبيه المطر بالإنسان الغائب الذى ينتظره أهله فيقدم و بين يديه بشير يبشر بقدومه.

و الإقلال الحمل،و السحاب و السحابه الغمام و الغمامه كتمر و تمره و كون السحاب ثقالا باعتبار حمله ثقل الماء،و قوله: «لِبَلَدٍ مَيِّتٍ» أى لأجل بلد ميت أو الى بلد ميت و الباقى ظاهر.

و الآيه تحتج بإحياء الأرض على جواز إحياء الموتى لأنهما من نوع واحد،و حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد و ليس الأحياء الذين عرض لهم عارض الموت بمنعدمين من أصلهم فإن أنفسهم و أرواحهم باقيه محفوظه و إن تغيرت أبدانهم،كما أن النبات يتغير ما على وجه الأرض منها و يبقى ما فى أصله من الروح الحيه على انعزال من النشوء و النماء ثم تعود إليه حياته الفعاله كذلك يخرج اللّه الموتى فما إحياء الموتى فى الحشر الكلى يوم البعث إلا كإحياء الأرض الميته فى بعثه الجزئى العائد كل سنه،و للكلام ذيل سيوافيك فى محل آخر إن شاء اللّه تعالى.

قوله تعالى: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبٰاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ الى آخر الآيه؛النكد

القلیل.و الآیه بالنظر الی نفسها کالمثل العام المضروب لترتب الأعمال الصالحه و الآثار الحسنه علی الذوات الطیبه الکریمه کخلافها علی خلافها کما تقدم فی قوله: کَمٰا بَدَأَکُمْ تَعُودُونَ لکنها بانضمامها الی الآیه السابقه تفید أن الناس و إن اختلفوا فی قبول الرحمه فالاختلاف من قبلهم و الرحمه الإلهیه عامه مطلقه (۱).

[سوره الأعراف (۷): الآیات ۵۹ الی ۶۴]

اشاره

لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلیٰ قَوْمِهِ فَقٰالَ یٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ إِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۵۹) قٰالَ اَلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنّٰا لَنَرٰاکَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ (۶۰) قٰالَ یٰا قَوْمِ لَیْسَ بِی ضَلاٰلَهٌ وَ لٰکِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۶۱) أُبَلِّغُکُمْ رِسٰالاٰتِ رَبِّی وَ أَنْصَحُ لَکُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (۶۲) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جٰاءَکُمْ ذِکْرٌ مِنْ رَبِّکُمْ عَلیٰ رَجُلٍ مِنْکُمْ لِیُنْذِرَکُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۶۳) فَکَذَّبُوهُ فَأَنْجَیْنٰاهُ وَ اَلَّذِینَ مَعَهُ فِی اَلْفُلْکِ وَ أَغْرَقْنَا اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا إِنَّهُمْ کٰانُوا قَوْماً عَمِینَ (۶۴)

ص: ۵۰۵

۱- ۱) .الاعراف ۵۴-۵۸:بحث روائی فی العرش الکرسی.

بيان:

قوله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ الى آخر الآيه؛بدأ اللّه سبحانه بقصته و هو أول رسول يذكر اللّه سبحانه تفصيل قصته فى القرآن كما سيأتى تفصيل القول فى قصته فى سوره هود إن شاء اللّه تعالى.

و اللام فى قوله: «لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً» للقسم جيء بها للتأكيد لأن وجه الكلام الى المشركين و هم ينكرون النبوه،و قوله: «فَقٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ» ناداهم بقوله: «يٰا قَوْمِ» فأضافهم الى نفسه ليكون جريا على مقتضى النصح الذى سيخبرهم به عن نفسه،و دعاهم اول ما دعاهم الى توحيد اللّه تعالى فإن دعاهم الى عبادته،و أخبرهم بانتفاء كل إله غيره فيكون دعوه الى عباده اللّه وحده من غير أن يشرك به فى عبادته غيره،و هو التوحيد.

ثم أنذرهم بقوله: «إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» و ظاهره يوم القيامه فيكون فى ذلك دعوه الى أصلين من أصول الدين و هما التوحيد و المعاد،و أما الأصل الثالث و هو النبوه فيصرح به فى قوله: «يٰا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاٰلَةٌ وَ لٰكِنِّي رَسُولٌ» الآيه.

على أن فى نفس الدعوه و هى دعوه الى نوع من العباده لا يعرفونها و كذا الإنذار بما لم يكونوا يعلمونه و هو عذاب القيامه إشعارا بالرساله من قبل من يدعو إليه،و من الشاهد على ذلك قوله فى جوابهم: «أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جٰاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ» فإنه يدل على تعجبهم من رسالته باستماع أول ما خاطبهم به من الدعوه و هو قوله: «يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ» .

قوله تعالى: قٰالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنّٰا لَنَرٰاكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ الملأ هم أشراف القوم و خواصهم سموا به لأنهم يملئون القلوب هيبه و العيون جمالا و زينه،و إنما رموا

بالضـلال المبين و أكـدوه تأكيـدا شديـدا لأنهم لم يكونوا ليتوقعوا أن معترضا يعترض عليهم بالدعوه الى رفض آلهتهم و توجيه العباده الى اللّه سـبحانه بالرساله و الإنذار فتعجبوا من ذلك فأكدوا ضـلاله مدعين أن ذلك من بيّن الضـلال تحقيقا.و الرؤيه هى الرؤيه بحسب الفكر أعنى الحكم.

قوله تعالى: قٰالَ يٰا قَوْمِ لَيْسَ بِی ضَلاٰلَهٌ الآيه؛أجابهم بنفى الضـلال عن نفسه و الاسـتدراک بکونه رسولا من اللّه سـبحانه،و ذکره بوصـفه: «رَبِّ الْعٰالَمِينَ» ليجمع له الربوبيه كلهـا قبال تقسـيمهم إياها بين آلهتهم بتخصـيص كل منها بشـیء من شـئونها و أبوابها كربوبيه البحر و ربوبيه البر و ربوبيه الأرض و ربوبيه السماء و غير ذلک.

و قد جرد عليه السّلام جوابه عن التأكيد للإشاره الى ظهور رسالته و عدم ضلالته تجاه إصرارهم بذلک و تأكيد دعواهم.

قوله تعـالى: أُبَلِّغُكُمْ رِسٰالاٰتِ رَبِّی وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ أخـبرهم بأوصـاف نفسه فبين أنه يبلغهم رسالاـت ربه،و هذا شأن الرساله و مقتضاها القريب الضرورى،و فى جمع الرساله دلاله على كونها كثيره و أن له مقاصد أمره ربه أن يبلغها إياهم وراء التوحيد و المعاد فإنه نبى رسول من أولى العزم صاحب كتاب و شريعه.

ثم ذكر أنه ينصح لهم و هو عظاته بالإنذار و التبشير ليقربهم من طاعه ربهم و يبعدهم عن الاسـتكبار و الاستنكاف عن عبوديته كـل ذلـک بـذكر ما عرف اللّه من بـدء الخلقه و عودها و سـنته تعالى الجاريه فيها،و لـذا ذكر ثالثا أنه يعلم من اللّه ما لا يعلمون كوقائع يوم القيامه من الثواب و العقاب و غير ذلک،و ما يستتبع الطاعه و المعصيه من رضاه تعالى و سخطه و وجوه نعمه و نقمه.

و من هنا يظهر أن الجمل الثلاث كل مسوق لغرض خاص أعنى قوله: «أُبَلِّغُكُمْ» الآيه

ص :۵۰۷

و «أَنْصَحُ لَكَمْ» و «أَعْلَمُ» الآيه و هى ثلاثه أوصاف متواليه لا كما قيل:إن الاوليان صفتان، و الثالثه جمله حاليه عن فاعل «وَ أَنْصَحُ لَكُمْ» .

قوله تعالى: أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جٰاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ الى آخر الآيه؛استفهام إنكارى ينكر تعجبهم من دعواه الرساله و دعوته إياهم الى الدين الحق و المراد بالذكر ما يذكر به اللّه و هو المعارف الحقه التى أوحيت إليه،و قوله: «مِنْ رَبِّكُمْ» متعلق بمقدر أى ذكر كائن من ربكم.

و قوله: «لِيُنْذِرَكُمْ» و «لِتَتَّقُوا» و «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» متعلقات بقوله: «جٰاءَكُمْ» و المعنى لغرض أن ينذركم الرسول،و لتتقوا أنتم،و يؤدى ذلک الى رجاء أن تشملكم الرحمه الإلهيه فإن التقوى و إن كان يؤدى الى النجاه لكنها ليست بعله تامه،و قد اشتمل ما حكى من إجمال كلامه عليه السّلام من معارف عاليه إلهيه.

قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الفلك السفينه يستعمل واحدا و جمعا على ما ذكره الراغب و يذكر و يؤنث كما فى الصحاح و قوله: «قَوْماً عَمِينَ» موصوف و صفه.و عمين جمع عمى كخشن صفه مشبهه من عمى يعمى،عمى كالأعمى إلا أن العمى يختص بعمى البصيره و الأعمى بعمى البصر،كما قيل،و معنى الآيه ظاهر.

[سوره الأعراف (۷): الآيات ۶۵ الى ۷۲]

اشاره

وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً قٰالَ يٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَ فَلاٰ تَتَّقُونَ (۶۵) قٰالَ اَلْمَلَأُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنّٰا لَنَرٰاكَ فِي سَفٰاهَةٍ وَ إِنّٰا لَنَظُنُّكَ مِنَ اَلْكٰاذِبِينَ (۶۶) قٰالَ يٰا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفٰاهَةٌ وَ لٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۶۷) أُبَلِّغُكُمْ رِسٰالاٰتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ نٰاصِحٌ أَمِينٌ (۶۸) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جٰاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ اُذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفٰاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زٰادَكُمْ فِي اَلْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاٰءَ اَللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۶۹) قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا لِنَعْبُدَ اَللّٰهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ مٰا كٰانَ يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِينَ (۷۰) قٰالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَ تُجٰادِلُونَنِي فِي أَسْمٰاءٍ سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ مٰا نَزَّلَ اَللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ اَلْمُنْتَظِرِينَ (۷۱) فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ اَلَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ قَطَعْنٰا دٰابِرَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ مٰا كٰانُوا مُؤْمِنِينَ (۷۲)

بیان:

قوله تعالى: وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً قٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ الى آخر الآيه؛ الأخ و أصله أخو هو المشارك غيره فى الولاده تكوينا لمن ولده و غيره أب أو أم أو هما معا أو بحسب شرع إلهى كالأخ الرضاعى أو سنه اجتماعيه كالأخ بالدعاء على ما كان يراه أقوام فهذا أصله،ثم استعير لكل من ينتسب الى قوم أو بلده أو صنعه أو سجيه و نحو ذلك يقال:أخو بنى تميم و أخو يثرب و أخو الحياكه و أخو الكرم،و من هذا الباب قوله: «وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ

ص: ۵۰۹

هُوداً» .

و الكلام فى قوله: «فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» كالكلام فى نظير الخطاب من القصه السابقه.فإن قلت:لم حذف العاطف من قوله: «قالَ يا قَوْمِ» و لم يقل:فقال كما فى قصه نوح؟قلت:هو على تقدير سؤال كأنه لما قال: «وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً» قيل:فما قال هود؟فاجيب و قيل:قال يا قوم اعبدوا اللّه الآيه.كذا قاله الزمخشرى فى الكشاف.

و لا يجرى هذا الكلام فى قصه نوح لأنه أول قصه أوردت،و هذه القصه قصه بعد قصه يهيأ فيها ذهن المخاطب للسؤال بعد ما وعى إجمال القصه و علم أن قصه الإرسال تتضمن دعوه وردا و قبولا فكان بالحرى إذا سمع المخاطب قوله: «وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً» أن يسأل فيقول:

ما قال هود لقومه؟و جوابه قال لهم؛الخ.

قوله تعالى: قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ الى آخر الآيه؛لما كان فى هذا الملأ من يؤمن باللّه و يستر إيمانه كما سيأتى فى القصه بخلاف الملأ من قوم نوح قال هاهنا فى قصه هود: قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ و قال فى قصه نوح: قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ كذا ذكره الزمخشرى.و قوله تعالى حكايه عن قولهم: «إِنّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَ إِنّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ» أكدوا كلامهم مره بعد مره لأنهم سمعوا منه مقالا ما كانوا ليتوقعوا صدوره من أحد، و قد أخذت آلهتهم موضعها من قلوبهم،و استقرت سنه الوثنيه بينهم استقرارا لا يجترئ معه أحد على أن يعترض عليها فتعجبوا من مقاله فردوه ردا عن تعجب،فجبهوه أولا بأن فيه سفاهه و هو خفه العقل التى تؤدى الى الخطأ فى الآراء،و ثانيا بأنهم يظنون بظن قوى جدا أنه من الكاذبين،و كأنهم يشيرون بالكاذبين الى أنبيائهم لأن الوثنيين ما كانوا ليذعنوا بالنبوه و قد جاءهم أنبياء قبل هود كما يذكره تعالى بقوله: وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ (هود۵۹/).

قوله تعالى: قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ الكلام فى الآيه نظير الكلام فى نظيره

من قصه نوح غير أن عادا زادوا وقاحه على قوم نوح حيث إن أولئك رموا نوحا بالضلال فى الرأى و هؤلاء رموا هودا بالسفاهه لكن هودا لم يترك ما به من وقار النبوه،و لم ينس ما هو الواجب من أدب الدعوه الإلهيه فأجابهم بقوله: «يا قَوْمِ» فأظهر عطوفته عليهم و حرصه على إنجائهم «لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَ لٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» فجرى على تجريد الكلام من كل تأكيد و اكتفى بمجرد رد تهمتهم و إثبات ما كان يدعيه من الرساله للدلاله على ظهوره.

قوله تعالى: أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ أى لا شأن لى بما أنى رسول إلا تبليغ رسالات ربى خالصا من شوب ما تظنون بى من كونى كاذبا فلست بغاش لكم فيما أريد أن أحملكم عليه،و لا خائن لما عندى من الحق بالتغيير و لا لما عندى من حقوقكم بالإضاعه،فما أريده منكم من التدين بدين التوحيد هو الذى أراه حقا،و هو الذى فيه نفعكم و خيركم،فإنما وصف نفسه بالأمين محاذاه لقولهم: «وَ إِنّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ» .

قوله تعالى: أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ الى آخر الآيه؛البصطه هى البسطه قلبت السين صادا لمجاورتها الطاء و هو من حروف الإطباق كالصراط و السراط و الآلاء جمع ألى بفتح الهمزه و كسرها بمعنى النعمه كآناء جمع أنى و إنى.

ثم أنكر عليه السّلام تعجبهم من رسالته إليهم نظير ما تقدم من نوح عليه السّلام و ذكّرهم نعم اللّه عليهم، و خص من بينها نعمتين ظاهرتين هما أن اللّه جعلهم خلفاء فى الأرض بعد نوح،و أن اللّه خصهم من بين الأقوام ببسطه الخلق و عظم الهيكل البدنى المستلزم لزياده الشده و القوه،و من هنا يظهر أنهم كانوا ذوى حضاره و تقدم،وصيت فى البأس و القوه و القدره.ثم أتبعهما بالإشاره الى سائر النعم بقوله تعالى: «فَاذْكُرُوا آلاءَ اللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» .

قوله تعالى: قالُوا أَ جِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللّٰهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا الآيه؛فيه تعلق منهم بتقليد الآباء،و تعجيز هود مشوبا بنوع من الاستهزاء بما أنذرهم به من العذاب.

قوله تعالى: قٰالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ الى آخر الآيه؛ الرجس و الرجز هو الأمر الذى إذا وقع على الشىء أوجب ابتعاده أو الابتعاد عنه،و لذا يطلق على القاذوره لأن الإنسان يتنفر و يبتعد عنه،و على العذاب لأن المعذب-اسم مفعول- يبتعد عمن يعذبه أو من الناس الآمنين من العذاب.

أجابهم بأن إصرارهم على عباده الأوثان بتقليد آبائهم أوجب أن يحق عليهم البعد عن اللّه بالرجس و الغضب؛ثم فرع عليه أن هددهم بما يستعجلون من العذاب،و أخبرهم بنزوله عليهم لا محاله،و كنى عن ذلك بأمرهم بالانتظار و اخبارهم بأنه مثلهم فى انتظار نزول العذاب فقال: «فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ» .

و أما قوله: «أَ تُجٰادِلُونَنِي فِي أَسْمٰاءٍ سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ مٰا نَزَّلَ اللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ» فهو رد لما استندوا إليه فى أولهيه آلهتهم و هو أنهم وجدوا آباءهم على عبادتها-و هم أكمل منهم و ممن فى طبقتهم كهود و أعقل-فيجب عليهم أن يقلدوهم.

و محصله أنكم و آباءكم سواء فى أنكم جميعا أتيتم بأشياء ليس لكم على ما ادعيتم من صفتها و هى الالوهيه من سلطان و هو البرهان و الحجه القاطعه فلا يبقى لها من الالوهيه إلا الأسماء التى سميتموها بها إذ قلتم:إله الخصب و إله الحرب و إله البحر و إله البر،و ليس لهذه الأسماء مصاديق إلا فى أوهامكم،فهل تجادلوننى فى الأسماء،و للإنسان أن يسمى كل ما شاء بما شاء إذا لم يعتبر تحقق المعنى فى الخارج.

و قد تكرر فى القرآن الاستدلال على بطلان الوثنيه بهذا البيان: «أَسْمٰاءٍ سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ مٰا نَزَّلَ اللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ» و هو من ألطف البيان و أرقه،و أبلغ الحجه و أقطعها إذ لو لم يأت الإنسان لما يدعيه من دعوى بحجه برهانيه لم يبق لما يدعيه من النعت إلا التسميه و التعبير،و من أبده الجهل أن يعتمد الإنسان على مثل هذا النعت الموهوم.

و هذا البيان يطرد و يجرى بالتحليل فى جميع الموارد التى يثق فيها الإنسان على غير اللّه

سبحانه من الأسباب،و يعطيها من الاستقلال ما يوجب تعلق قلبه بها و طاعته لها و تقربه منها فإن اللّه سبحانه عد فی موارد من كلامه طاعه غيره و الركون الى من سواه عباده له قال أ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِی آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِی (يس/ ۶۱).

قوله تعالی: فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَهٍ مِنّا الى آخر الآيه؛تنكير الرحمه للدلاله على النوع أی بنوع من الرحمه و هی الرحمه التی تختص بالمؤمنين من النصره الموعوده لهم قال تعالی: إِنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِی الْحَياهِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (المؤمن/۵۱)،و قال: وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم/۴۷).

و قوله: «وَ قَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا» الآيه كنايه عن إهلاكهم و قطع نسلهم فإن الدابر هو الذی يلی الشیء من خلفه فربما وصف به الأمر السابق على الشیء كأمس الدابر، و ربما وصف به اللاحق كدابر القوم و هو الذی فی آخرهم فنسبه القطع الى الدابر بعنايه أن النسل اللاحق دابر متصل بالإنسان فی سبب ممتد،و إهلاك الإنسان كذلك كأنه قطع هذا السبب الموصول فيما بينه و بين نسله.

و سيأتی تفصيل البحث عن قصه هود عليه السّلام فی تفسيره سوره هود إن شاء اللّه.

[سوره الأعراف (۷): الآيات ۷۳ الى ۷۹]

اشاره

وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَهٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَهُ اَللّهِ لَكُمْ آيَهً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِی أَرْضِ اَللّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۳) وَ اُذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِی اَلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَ تَنْحِتُونَ اَلْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اَللّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِی اَلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۷۴) قالَ اَلْمَلَأُ اَلَّذِينَ اِسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اُسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۷۵) قالَ اَلَّذِينَ اِسْتَكْبَرُوا إِنّا بِالَّذِی آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (۷۶) فَعَقَرُوا اَلنّاقَهَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قالُوا يا صالِحُ اِئْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلْمُرْسَلِينَ (۷۷) فَأَخَذَتْهُمُ اَلرَّجْفَهُ فَأَصْبَحُوا فِی دارِهِمْ جاثِمِينَ (۷۸) فَتَوَلّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَهَ رَبِّی وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ اَلنّاصِحِينَ (۷۹)

بیان:

قوله تعالی: وَ إِلیٰ ثَمُودَ أَخٰاهُمْ صٰالِحاً الی آخر الآیه؛ثمود أمه قدیمه من العرب سکنوا أرض الیمن بالأحقاف بعث اللّه إلیهم «أَخٰاهُمْ صٰالِحاً» و هو منهم «قٰالَ یٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ» دعاهم الی التوحید و قد کانوا مشرکین یعبدون الأصنام علی النحو الذی دعا نوح و هود علیهما السّلام قومهما المشرکین.

و قوله: قَدْ جٰاءَتْکُمْ بَیِّنَهٌ مِنْ رَبِّکُمْ أی شاهد قاطع فی شهادته و یبینه قوله بالإشاره الی نفس البینه «هٰذِهِ نٰاقَهُ اللّٰهِ لَکُمْ آیَهً» و هی الناقه التی أخرجها اللّه لهم من الجبل آیه لنبوته بدعائه علیه السّلام،و هی العنایه فی إضافه الناقه الی اللّه سبحانه.

ص :۵۱۴

و قوله: فَذَرُوهٰا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّٰهِ الآيه؛تفريع على كون الناقه آيه للّه، و حكم لا يخلو عن تشديد عليهم يستتبع كلمه العذاب التى تفصل بين كل رسول و أمته قال تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (يونس/ ۴۷)،و فى الآيه تلويح الى أن تخليتهم الناقه و شأنها فى الأكل و السير فى الأرض كانت مما يشق عليهم فكانوا يتحرجون من ذلك،و فى قوله: «فِي أَرْضِ اللّٰهِ» إيماء إليه فوصاهم و حذرهم أن يمنعوها من إطلاقها و يمسوها بسوء كالعقر و النحر فإن وبال ذلك عذاب أليم يأخذهم.

قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفٰاءَ مِنْ بَعْدِ عٰادٍ الى آخر الآيه؛دعاهم الى أن يذكروا نعم اللّه عليهم كما دعا هود عادا الى ذلك،و ذكرهم أن اللّه جعلهم خلفاء يخلفون أمما من قبلهم كعاد،و بوأهم من الأرض أى مكنهم فى منازلهم منها،يتخذون من سهولها -و السهل خلاف الجبل سمى به لسهوله قطعه-قصورا و هى الدور التى لها سور على ما قيل، و ينحتون الجبال بيوتا يأوون إليها و يسكنونها.

ثم جمع الجميع و لخصها فى قوله: «فَاذْكُرُوا آلاٰءَ اللّٰهِ» و أورده فى صوره التفريع مع أنه إجمال للتفصيل الذى قبله بإيهام المغايره كأنه لما أمر بذكر النعم و عد من تفاصيل النعم أشياء كأنهم لا يعلمون بها قيل ثانيا:فإذا كان للّه فيكم آلاء و نعم عظيمه أمثال التى ذكرت فاذكروا آلاء اللّه.

و أما قوله وَ لاٰ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فمعطوف على قوله: «فَاذْكُرُوا» عطف اللازم على ملزومه،و فسر العثى بالفساد و فسر بالاضطراب و المبالغه.قال الراغب فى المفردات:العيث و العثى يتقاربان نحو جذب و جبذ إلا أن العيث أكثر ما يقال فى الفساد الذى يدرك حسا،و العثى فيما يدرك حكما يقال:عثى يعثى عثيا،و على هذا «وَ لاٰ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» .انتهى.

قوله تعالى: قٰالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ

آمَنَ مِنْهُمْ الی آخر الآیتین؛دل سبحانه ببیان قوله: «لِلَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا» بقوله: «لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ» علی أن المستضعفین هم المؤمنون و أن المؤمنین إنما كانوا من المستضعفین و لم یكن لیؤمن به أحد من المستكبرین،و الباقی ظاهر.

قوله: فَعَقَرُوا النّ اقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ الی آخر الآیه؛عقر النخله قطعها من أصلها،و عقر الناقه نحرها،و عقر الناقه أیضا قطع قوائمها،و العتو هو التمرد و الامتناع و ضمن فی الآیه معنی الاستكبار بدلیل تعدیته بعن،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَهُ فَأَصْبَحُوا فِی دارِهِمْ جاثِمِینَ الی آخر الآیتین؛الرجفه هی الاضطراب و الاهتزاز الشدید كما فی زلزله الأرض و تلاطم البحر، و الجثوم فی الإنسان و الطیر كالبروک فی البعیر.

و قد ذكر اللّه هنا فی سبب هلاكهم أنه أخذتهم الرجفه،و قال فی موضع آخر: وَ أَخَذَ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَهُ (هود۶۷/)،و فی موضع آخر: فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَهُ الْعَذابِ الْهُونِ (حم السجده۱۷/)،و الصواعق السماویه لا تخلو عن صیحه هائله تقارنها،و لا ینفک ذلک غالبا عن رجفه الأرض هی نتیجه الاهتزاز الجوی الشدید الی الأرض،و توجف من جهه أخری القلوب و ترتعد الأركان،فالظاهر أن عذابهم إنما كان بصاعقه سماویه اقترنت صیحه هائله و رجفه فی الأرض أو فی قلوبهم فأصبحوا فی دارهم أی فی بلدهم جاثمین ساقطین علی وجوههم و ركبهم.

و الآیه تدل علی أن ذلک كان مرتبطا بما كفروا و ظلموا آیه من آیات اللّه مقصودا بها عذابهم عذاب الاستئصال،و لا نظر فی الآیه الی كیفیه حدوثها،و الباقی ظاهر.

[سوره الأعراف (۷): الآیات ۸۰ الی ۸۴]

اشاره

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ اَلْفاحِشَهَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ اَلْعالَمِینَ (۸۰) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ اَلرِّجالَ شَهْوَهً مِنْ دُونِ اَلنِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (۸۱) وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْیَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ یَتَطَهَّرُونَ (۸۲) فَأَنْجَیْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ اِمْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ اَلْغابِرِینَ (۸۳) وَ أَمْطَرْنا عَلَیْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَیْفَ كانَ عاقِبَهُ اَلْمُجْرِمِینَ (۸۴)

بیان:

قوله تعالی: وَ لُوطاً إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفٰاحِشَةَ الی آخر الآیه؛ظاهره أنه من عطف القصه علی القصه أی عطف قوله: «لُوطاً» علی «نُوحاً» فی قوله فی القصه الاولی «لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً» فیکون التقدیر و لقد أرسلنا لوطا إذ قال لقومه،الخ؛لکن المعهود من نظائر هذا النظم فی القرآن أن یکون بتقدیر«اذکر»بدلاله السیاق،و علی ذلک فالتقدیر:

و اذکر لوطا الذی أرسلناه إذ قال لقومه،الخ؛و الظاهر أن تغییر السیاق من جهه أن لوطا من الأنبیاء التابعین لشریعه إبراهیم علیهما السّلام لا لشریعه نوح علیه السّلام،و لذلک غیر السیاق فی بدء قصته عن السیاق السابق فی قصص نوح و هود و صالح فغیر السیاق فی بدء قصته ثم رجع الی السیاق فی قصه شعیب علیه السّلام.

و قد کان لوط-علی ما سیأتی إن شاء اللّه من تفصیل قصته فی سوره هود-مرسلا الی أهل سدوم و غیره یدعوهم الی دین التوحید و کانوا مشرکین عبده أصنام.

و قوله: أَ تَأْتُونَ الْفٰاحِشَةَ یرید بالفاحشه اللواط بدلیل قوله: «إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ شَهْوَةً» و فی قوله: «مٰا سَبَقَکُمْ بِهٰا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعٰالَمِینَ» أی أحد من الامم و الجماعات

دلاله على أن تاريخ ظهور هذه الفاحشه الشنيعه تنتهى الى قوم لوط،و سيأتى جل ما يتعلق به من الكلام فى تفصيل قصته فى سوره هود.

قوله تعالى: إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ الآيه؛إتيان الرجال كنايه عن العمل بهم بذلك،و قوله: «شَهْوَةً» قرينه عليه،و قوله: «مِنْ دُونِ النِّساءِ» قرينه أخرى على ذلك،و يفيد مضافا الى ذلك أنهم كانوا قد تركوا سبيل النساء و اكتفوا بالرجال،و لتعديهم سبيل الفطره و الخلقه الى غيره عدهم متجاوزين مسرفين فقال: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» .

و لكون عملهم فاحشه مبتدعه لم يسبقهم إليها أحد من العالمين استفهم عن ذلك مقارنا ب«إن»المفيده للتحقيق فافاد التعجب و الاستغراب،و التقدير: «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ» الآيه.

قوله تعالى: وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاّ أَنْ قالُوا الى آخر الآيه؛أى لم يكن عندهم جواب فهددوه بالإخراج من البلد فإن قولهم: «أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ» الآيه؛ليس جوابا عن قول لوط لهم: «أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ» الآيه؛فجواب الكلام فى ظرف المناظره إما إمضاؤه و الاعتراف بحقيته و إما بيان وجه فساده،و ليس فى قولهم:

«أَخْرِجُوهُمْ» الى آخر شىء من ذلك فوضع ما ليس بجواب فى موضع الجواب كنايه عن عدم الجواب و دلاله على سفههم.

و قد استهانوا أمر لوط إذ قالوا: «أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ» الآيه؛أى أن القريه أى البلده لكم و هم نزلاء ليسوا منها و هم يتنزهون عما تأتونه و يتطهرون،و لا يهمنكم أمرهم فليسوا إلا أناسا لا عده لهم و لا شده.

قوله تعالى: فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ فيه دلاله على أنه لم يكن آمن به إلا أهله،و قد قال تعالى فى موضع آخر: فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (الذاريات/٣٦).

و قوله: كٰانَتْ مِنَ الْغٰابِرِينَ أى الماضين من القوم،و هو استعاره بالكنايه عن الهلاك و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ذكر الإمطار فى مورد ترقب ذكر العذاب يدل على أن العذاب كان به و قد نكّر المطر للدلاله على غرابه أمره و غزاره أثره،و قد فسره اللّه تعالى فى موضع آخر بقوله: وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهٰا حِجٰارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ مٰا هِيَ مِنَ الظّٰالِمِينَ بِبَعِيدٍ (هود۸۳/).

و قوله: «فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ» توجيه خطاب الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ليعتبر به هو و أمته.

[سوره الأعراف (۷): الآيات ۸۵ الى ۹۳]

اشاره

وَ إِلىٰ مَدْيَنَ أَخٰاهُمْ شُعَيْباً قٰالَ يٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جٰاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا اَلْكَيْلَ وَ اَلْمِيزٰانَ وَ لاٰ تَبْخَسُوا اَلنّٰاسَ أَشْيٰاءَهُمْ وَ لاٰ تُفْسِدُوا فِي اَلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۸۵) وَ لاٰ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرٰاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ اُذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَ اُنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلْمُفْسِدِينَ (۸۶) وَ إِنْ كٰانَ طٰائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طٰائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتّٰى يَحْكُمَ اَللّٰهُ بَيْنَنٰا وَ هُوَ خَيْرُ اَلْحٰاكِمِينَ (۸۷) قٰالَ اَلْمَلَأُ اَلَّذِينَ اِسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يٰا شُعَيْبُ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنٰا قٰالَ أَ وَ لَوْ كُنّٰا كٰارِهِينَ (۸۸) قَدِ اِفْتَرَيْنٰا عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً إِنْ عُدْنٰا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجّٰانَا اَللّٰهُ مِنْهٰا وَ مٰا يَكُونُ لَنٰا أَنْ نَعُودَ فِيهٰا إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اَللّٰهُ رَبُّنٰا وَسِعَ رَبُّنٰا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اَللّٰهِ تَوَكَّلْنٰا رَبَّنَا اِفْتَحْ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَ قَوْمِنٰا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ اَلْفٰاتِحِينَ (۸۹) وَ قٰالَ اَلْمَلَأُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اِتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخٰاسِرُونَ (۹۰) فَأَخَذَتْهُمُ اَلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ (۹۱) اَلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا اَلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كٰانُوا هُمُ اَلْخٰاسِرِينَ (۹۲) فَتَوَلّٰى عَنْهُمْ وَ قٰالَ يٰا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسٰالاٰتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسىٰ عَلىٰ قَوْمٍ كٰافِرِينَ (۹۳)

بيان:

قوله تعالى: وَ إِلىٰ مَدْيَنَ أَخٰاهُمْ شُعَيْباً الآيه معطوف على القصه الاولى و هى قصه نوح عليه السّلام،و قد بنى عليه السّلام دعوته على أساس التوحيد كما بناها عليه من قبله من الرسل المذكورين فى القصص المتقدمه.

و قوله: قَدْ جٰاءَتْكُمْ بَيِّنَهٌ مِنْ رَبِّكُمْ يدل على مجيئه بآيه تدل على رسالته و لكن اللّه سبحانه لم يذكر ذلك فى كتابه و ليست هذه الآيه هى آيه العذاب التى يذكرها اللّه تعالى فى آخر قصته فإن عامه قومه من الكفار لم ينتفعوا بها بل كان فيها هلاكهم و لا معنى لكون آيه

ص :۵۲۰

العذاب آيه للرساله مبينه للدعوه.

على أنه يفرع قوله: «فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزٰانَ» الآيه؛على مجىء الآيه ظاهرا،و إنما يستقيم الدعوه الى العمل بالدين قبل نزول العذاب و تحقق الهلاك.و هو ظاهر.

و قد دعاهم أولا بعد التوحيد الذى هو أصل الدين الى إيفاء الكيل و الميزان و أن لا يبخسوا الناس أشياءهم فقد كان الإفساد فى المعاملات رائجا فيهم شائعا بينهم.

ثم دعاهم ثانيا بقوله: «وَ لاٰ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا» الى الكف عن الإفساد فى الأرض بعد ما أصلحها اللّه بحسب طبعها،و الفطره الإنسانيه الداعيه الى اصلاحها كى ينتظم بذلك أمر الحياه السعيده،و الإفساد فى الأرض و ان كان بحسب اطلاق معناه يشمل جميع المعاصى و الذنوب مما يتعلق بحقوق اللّه أو بحقوق الناس كائنه ما كانت لكن مقابلته لما قبله و ما بعده يخصه-تقريبا-بالإفساد الذى يسلب الأمن العام فى الأموال و الأعراض و النفوس كقطع الطرق و نهب الأموال و هتك الأعراض و قتل النفوس المحترمه.

ثم علل دعوته الى الأمرين بقوله: «ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» أما كون إيفاء الكيل و الميزان و عدم بخس الناس أشياءهم خيرا فلأن حياه الإنسان الاجتماعيه فى استقامتها مبنيه على المبادله بين الأفراد بإعطاء كل منهم ما يفضل من حاجته،و أخذ ما يعادله مما يتمم به نقصه فى ضروريات الحياه و ما يتبعها،و هذا يحتاج الى أمن عام فى المعاملات تحفظ به أوصاف الأشياء و مقاديرها على ما هى عليه فمن يجوز لنفسه البخس فى أشياء الناس فهو يجوز ذلك لكل من هو مثله،و هو شيوعه،و إذا شاع البخس و الغش و الغرر من غير أن يؤمن حلول السم محل الشفاء و الردى مكان الجيد،و الخليط مكان الخالص،و بالأخره كل شىء محل كل شىء بأنواع الحيل و العلاجات كان فيه هلاك الأموال و النفوس جميعا.

و أما كون الكف عن إفساد الأرض خيرا لهم فلأن سلب الأمن العام يوقف رحى المجتمع الإنسانى عن حركتها من جميع الجهات و فى ذلك هلاك الحرث و النسل و فناء الإنسانيه.

فالمعنى:إيفاء الكيل و الميزان و عدم البخس و الكف عن الفساد فى الأرض خير لكم يظهر لكم خيريته إن كنتم مصدقين لقولى مؤمنين بى،أو المعنى:ذلكم خير لكم تعلمون أنه خير إن كنتم ذوى إيمان بالحق.

و ربما قيل:إن المعنى ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين بدعوتى فإن غير المؤمن لا ينتفع بسبب ما عنده من الكفر القاضى بشقائه و خسرانه و ضلال سعيه بهذه الخيرات الدنيويه بحسب الحقيقه لأن انتفاعه إنما هو انتفاع فى موطن خيالى و هو الحياه الدنيا التى هى لعب،و إن الدار الآخره لهى الحيوان لو كانوا يعلمون.

هذا كله على تقدير كون المشار إليه بقوله: «ذٰلِكُمْ» هو إيفاء الكيل و ما بعده كما هو ظاهر السياق،و أما اخذ الإشاره الى جميع ما تقدم و جعل المراد بالإيمان هو الإيمان المصطلح دون الإيمان اللغوى كما احتمله بعضهم فهو أشبه باشتراط الشىء بنفسه لرجوع المعنى الى نحو قولنا إن كنتم مؤمنين فالعباده للّه وحده بالإيمان به و إيفاء الكيل و الميزان و عدم الفساد فى الأرض خير لكم.

و يرد على الوجهين الأخيرين جميعا أن ظاهر قوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» ثبوت اتصافهم بالإيمان قبل حال الخطاب فإنه مقتضى تعليق الحكم بقوله: «كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» المؤلف من ماضى الكون الناقص و اسم الفاعل من الإيمان،المقتضى لاستقرار الصفه فيهم زمانا،و لا يخاطب بمثل هذا المعنى القوم الذين فيهم الكافر و المؤمن و المستكبر و المنقاد و لو كان كما يقولون لكان من حق الكلام أن يقال:ذلكم خير لكم إن آمنتم أو إن تؤمنوا فالظاهر أنه لا محيص من كون المراد بالإيمان غير الإيمان المصطلح.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرٰاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَهٰا عِوَجاً الآيه؛ظاهر السياق أن «تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ» حالان من فاعل «لاٰ تَقْعُدُوا» و قوله: «وَ تَبْغُونَهٰا» حال من فاعل «تَصُدُّونَ» .

ثم دعاهم ثالثا الى ترک التعرض لصراط اللّه المستقیم الذی هو الدین فإن فی الکلام تلویحا الی أنهم کانوا یقعدون علی طریق المؤمنین بشعیب علیه السّلام و یوعدونهم علی إیمانهم به و الحضور عنده و الاستماع منه و إجراء العبادات الدینیه معه،و یصرفونهم عن التدین بدین الحق و السلوک فی طریقه التوحید و هم یسلکون طریق الشرک،و یطلبون سبیل اللّه الذی هو دین الفطره عوجا.

و بالجمله کانوا یقطعون الطریق علی الإیمان بکل ما یستطیعون من قوه و احتیال فنهاهم عن ذلک،و وصاهم أن یذکروا نعمه اللّه علیهم و یعتبروا بالنظر الی ما یعلمونه من تاریخ الامم الغابره،و ما آل إلیه أمر المفسدین من عاقبه السوء.

فقوله: وَ اذْکُرُوا إِذْ کُنْتُمْ قَلِیلاً فَکَثَّرَکُمْ ،و انظروا کیف کان عاقبه المفسدین کلام مسوق سوق العظه و التوصیه و هو یقبل التعلق بجمیع ما تقدم من الأوامر و النواهی فقوله: «وَ اذْکُرُوا إِذْ کُنْتُمْ قَلِیلاً فَکَثَّرَکُمْ» أمر بتذکر تدرجهم من القله الی الکثره بازدیاد النسل فإن ذلک من نعم اللّه العظیمه علی هذا النوع الإنسانی لأن الإنسان لا یقدر علی أن یعیش وحده من غیر اجتماع إذ الغایه الشریفه و السعاده العالیه الإنسانیه التی یمتاز بها عن سائر الأنواع الحیوانیه و غیرها اقتضت أن تهب العنایه الإلهیه له أدوات و قوی مختلفه و ترکیبا وجودیا خاصا لا یستطیع أن یقوم بضروریات حوائجها العجیبه المتفننه وحده بل بالتعاضد مع غیره فی تحصیل المأکل و المشرب و الملبس و المسکن و المنکح و غیرها تعاضدا فی الفکر و الإراده و العمل.

قوله تعالی: وَ إِنْ کٰانَ طٰائِفَهٌ مِنْکُمْ آمَنُوا بِالَّذِی أُرْسِلْتُ بِهِ الی آخر الآیه؛ ثم دعاهم رابعا الی الصبر علی تقدیر وقوع الاختلاف بینهم بالإیمان و الکفر فإنه کان یوصیهم جمیعا قبل هذه الوصیه بالاجتماع علی الإیمان باللّه و العمل الصالح،و کأنه أحس منهم أن ذلک مما لا یکون البته،و أن الاختلاف کائن لا محاله،و أن الملأ المستکبرین من قومه و هم الذین

کانوا یوعدون و یصدون عن سبیل اللّه سیأخذون فی افساد الأرض و ایذاء المؤمنین و یوجب ذلک فی المؤمنین وهن عزیمتهم،و تسلط الناس علی قلوبهم فأمرهم جمیعا بالصبر و انتظار أمر اللّه فیهم لیحکم بینهم و هو خیر الحاکمین.

فإن فی ذلک صلاح المجتمع،أما المؤمنون فلا یقعون فی الباس من الحیاه الآمنه، و الاضطراب و الحیره من جهه دینهم،و أما الکفار فلا یقعون فی ندامه الإقدام من غیر رؤیه و مفسده المظلمه علی جهاله فحکم اللّه خیر فاصل بین الطائفتین فهو خیر الحاکمین لا یساهل فی حکم اذا حان حینه،و لا یجور فی حکم اذا ما حکم.

فقوله: «فَاصْبِرُوا» بالنسبه الی الکفار أمر ارشادی،و بالنسبه الی المؤمنین أمر مولوی أو ارشادی،و هو ارشاد الجمیع الی ما یصلح حالهم.

قوله تعالی: قٰالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّکَ یٰا شُعَیْبُ الآیه.لم یسترشد الملأ المستکبرون من قومه بما أرشدهم الیه من الصبر و انتظار الحکم الفصل فی ذلک من اللّه سبحانه بل بادروه بتهدیده و تهدید المؤمنین بإخراجهم من أرضهم الا أن یرجعوا الی ملتهم بالارتداد عن دین التوحید.

و فی تأکیدهم القول: «لَنُخْرِجَنَّکَ» و «لَتَعُودُنَّ» بالقسم و نون التأکید دلاله علی قطعهم العزم علی ذلک،و لذا بادر علیه السّلام بعد استماع هذا القول منهم الی الاستفتاح من اللّه سبحانه.

قوله تعالی: قٰالَ أَ وَ لَوْ کُنّٰا کٰارِهِینَ، قَدِ افْتَرَیْنٰا عَلَی اللّٰهِ کَذِباً إِنْ عُدْنٰا فِی مِلَّتِکُمْ الآیه؛أجاب علیه السّلام بکراهه العود فی ملتهم بدلیل ما بعده من الجمل،و لازم ذلک اختیار الشق الآخر علی تقدیر الاضطرار الی أحدهما کما أخبروه.

و قد أجاب علیه السّلام عن نفسه و عن المؤمنین به من قومه،و ذکر أنه و المؤمنین به جمیعا کارهون للعود الی ملتهم فإن فی ذلک افتراء للکذب علی اللّه سبحانه بنسبه الشرکاء إلیه،و ما یتبعها من الأحکام المفتراه فی دین الوثنیه فقوله: «قَدِ افْتَرَیْنٰا عَلَی اللّٰهِ کَذِباً» الآیه؛بمنزله التعلیل لقوله:

«أَ وَ لَوْ كُنّٰا كٰارِهِينَ» .

و من أسخف الاستدلال الاحتجاج بقوله: «إِنْ عُدْنٰا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجّٰانَا اللّٰهُ مِنْهٰا» على أن شعيبا عليه السّلام كان قبل نبوته مشركا وثنيا-حاشاه-و قد تقدم آنفا أنه يتكلم عن نفسه و عن المؤمنين به من قومه و قد كانوا كفارا مشركين قبل الإيمان به فأنجاهم اللّه من مله الشرك و هداهم بشعيب الى التوحيد فقول شعيب: «نَجّٰانَا اللّٰهُ» تكلم عن المجموع بنسبه وصف الجل الى الكل،هذا لو كان المراد بالتنجيه التنجيه الظاهريه من الشرك الفعلى و أما لو أريد بها التنجيه الحقيقه و هى الإخراج من كل ضلال محقق موجود أو مقدر مترقب كان شعيب-و هو لم يشرك باللّه طرفه عين-و قومه-و هم كانوا مشركين قبل زمان إيمانهم بشعيب-جميعا من نجاهم اللّه من الشرك إذ لا يملك الإنسان لنفسه الهالكه ضرا و لا نفعا و ما أصابه من خير فهو من اللّه سبحانه.

و قوله: وَ مٰا يَكُونُ لَنٰا أَنْ نَعُودَ فِيهٰا إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ رَبُّنٰا كالإضراب و الترقى بالجواب القاطع كأنه قال:نحن كارهون العود الى ملتكم لأن فيه افتراء على اللّه بل إن ذلك مما لا يكون البته،و ذلك أن كراهه شىء إنما توجب تعسر التلبس به دون تعذره فأجاب عليه السّلام ثانيا بتعذر العود بعد جوابه أولا بتعسره،و هو ما ذكرناه من الإضراب و الترقى.

و لما كان قوله: «وَ مٰا يَكُونُ لَنٰا أَنْ نَعُودَ فِيهٰا» فى معنى أن يقال:«لن نعود إليها أبدا»و القطع فى مثل هذه العزمات مما هو بعيد عن أدب النبوه فإنه فى معنى:لن نعود على أى تقدير فرض حتى لو شاء اللّه،و هو من الجهل بمقامه تعالى،استثنى مشيه اللّه سبحانه فقال «إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ رَبُّنٰا» فإن الإنسان كيفما كان جائز الخطأ فمن الجائز أن يخطئ بذنب فيعاقبه اللّه بسلب عنايته به فيطرده من دينه فيهلك على الضلال.

و فى الجمع بين الاسمين فى قوله: «اللّٰهُ رَبُّنٰا» إشاره الى أن اللّه الذى يحكم ما يشاء هو الذى يدبر أمرنا و هو إله و رب،على ما يقتضيه دين التوحيد لا كما يعلمه دين الوثنيه فإنه يسلم

الالوهيه للّه ثم يفرز الربوبيه بمختلف شئونها بين الأوثان و يسميها رب البحر و رب البر و هكذا.

و قوله: وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً كالتعليل لتعقيب الكلام بالاستثناء كأنه قيل لما استثنيت بعد ما أطلقت الكلام و قطعت فى العزم؟فقال:لأنه وسع ربى كل شىء علما و لا أحيط من علمه إلا بما شاء فمن الجائز أن يتعلق مشيته بشىء غائب عن علمى ساءنى أو سرنى كأن يتعلق علمه بأنا سنخالفه فى بعض أوامره فيشاء عودنا الى ملتكم،و إن كنا اليوم كارهين له،و لعل هذا المعنى هو السبب فى تعقيب هذا القول بمثل قوله: «عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنا» فإن من يتوكل على اللّه كان حسبه و صانه من شر ما يخاف.

و لما بلغ الكلام هذا المبلغ و قد أخبروهم بعزمهم على أحد الأمرين:الإخراج أو العود، و أخبرهم شعيب عليه السّلام بالعزم القاطع على عدم العود الى ملتهم البته التجأ عليه السّلام الى ربه و استفتح بقوله عن نفسه و عن المؤمنين «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ» يسأل ربه أن يفتح بينهم أى بين شعيب و المؤمنين به،و بين المشركين من قومه،و هو الحكم الفصل فإن الفتح بين شيئين يستلزم إبعاد كل منهما عن صاحبه حتى لا يماس هذا ذاك و لا ذاك هذا دعا عليه السّلام بالفتح و كنى به عن الحكم الفصل و هو الهلاك أو هو بمنزله و أبهم الخاسر من الرابح و الهالك من الناجى و هو يعلم أن اللّه سينصره و أن الخزى اليوم و السوء على الكافرين لكنه عليه السّلام أخذ بالنصفه للحق و تأدب بإرجاع الأمر فى ذلك الى اللّه كما أتى بنظير ذلك فى قوله السابق: «فَاصْبِرُوا حَتّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنا وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ» .

و خير الحاكمين و خير الفاتحين اسمان من أسماء اللّه الحسنى،و قد تقدم البحث عن معنى الحكم فيما مر،و عن معنى الفتح آنفا،و سيجىء الكلام المستوفى فى الأسماء الحسنى فى تفسير قوله تعالى: وَ لِلّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها (الآيه ۱۸۰)من السوره إن شاء اللّه تعالى.

قوله تعالى: وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ الى آخر الآيه؛هذا تهديد

منهم لمن آمن بشعيب أو أراد أن يؤمن به و يكون من جمله الإيعاد و الصد اللذين كان شعيب ينهى عنهما بقوله: «وَ لاٰ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرٰاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ» و يكون إفراد هذا بالذكر هاهنا من بين سائر أقوالهم ليكون كالتوطئه و التمهيد لما سيأتى من قولهم بعد ذكر هلاكهم: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كٰانُوا هُمُ الْخٰاسِرِينَ» .

و يحتمل أن يكون الاتباع بمعناه الظاهر العرفى و هو اقتفاء أثر الماشى على الطريق و السالك السبيل بأن يكون الملأ المستكبرون لما اضطروه و من معه الى أحد الأمرين:الخروج من أرضهم أو العود فى ملتهم ثم سمعوه يرد عليهم العود الى ملتهم ردا قاطعا ثم يدعو بمثل قوله:

«رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَ قَوْمِنٰا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفٰاتِحِينَ» لم يشكّوا أنه سيتركهم و يهاجر الى أرض غير أرضهم،و يتبعه فى هذه المهاجره المؤمنون به من القوم خاطبوا عند ذلك طائفه المؤمنين بقولهم: «لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخٰاسِرُونَ» فهددوهم و خوفوهم بالخسران إن تبعوه فى الخروج من أرضهم ليخرج شعيب وحده فإنهم إنما كانوا يعادونه إياه بالأصاله،و أما المؤمنون فإنما كانوا يبغضون من جهته و لأجله.

و على أى الوجهين كان فالآيه كالتوطئه و التمهيد للآيه الآتيه: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كٰانُوا هُمُ الْخٰاسِرِينَ» كما تقدم الإشاره إليه.

قوله تعالى: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ أصبحوا أى صاروا أو دخلوا فى الصباح،و قد تقدم معنى الآيه فى نظيرتها من قصه صالح.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا -الى قوله- اَلْخٰاسِرِينَ قال الراغب فى المفردات:و غنى فى مكان كذا إذا طال مقامه فيه مستغنيا به عن غيره بغنى قال:كأن لم يغنوا فيها(انتهى).و«كأن»مخفف كأن خفف لدخوله الجمله الفعليه.

فقوله: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا» فيه تشبيه حال المكذبين من قومه بمن لم يطيلوا الإقامه فى أرضهم فإن أمثال هؤلاء يسهل زوالهم لعدم تعلقهم بها فى عشيره أو أهل أو

دار أو ضياع و عقار،و أما من تمكن فى أرض و استوطنها و أطال المقام بها و تعلق بها بكل ما يقع به التعلق فى الحياه الماديه فإن تركها له متعسر كالمتعذر و خاصه ترك الامه القاطنه فى أرض أرضها و ما اقتنته فيها طل مقامها.و قد ترك هؤلاء و هم أمه عريقه فى الأرض دارهم و ما فيها،فى أيسر زمان أخذتهم الرجفه فأصبحوا فى دارهم جاثمين.

و قد كانوا يزعمون أن شعيبا و من تبعه منهم سيحشرون فخاب ظنهم و انقلبت الدائره عليهم فكانوا هم الخاسرين فمكروا و مكر اللّه و اللّه خير الماكرين.

و الى هذا يشير تعالى حيث ذكر أولا قولهم:إن متبعى شعيب خاسرون،ثم ذكر نزول العذاب و أبهم الذين أخذتهم الرجفه فقال: «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَهُ» و لم يقل:فأخذت الذين كفروا الرجفه،ثم صرح فى قوله: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً» الآيه أن الحكم الإلهى و الهلاك و الخسران كان لشعيب و من تبعه على الذين كذبوه من قومه فكانوا هم الخاسرين الممكور بهم،و هم يزعمون خلافه.

قوله تعالى: فَتَوَلّٰى عَنْهُمْ الى آخر الآيه.ظاهر السياق أنه إنما تولى بعد نزول العذاب عليهم و هلاكهم،و أن الخطاب خطاب اعتبار،و قوله: «فَكَيْفَ آسىٰ» الخ؛هو من الأسى أى كيف أحزن،و الباقى ظاهر (١).

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٩۴ الى ١٠٢]

اشاره

وَ مٰا أَرْسَلْنٰا فِي قَرْيَهٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاّٰ أَخَذْنٰا أَهْلَهٰا بِالْبَأْسٰاءِ وَ اَلضَّرّٰاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩۴) ثُمَّ بَدَّلْنٰا مَكٰانَ اَلسَّيِّئَهِ اَلْحَسَنَهَ حَتّٰى عَفَوْا وَ قٰالُوا قَدْ مَسَّ آبٰاءَنَا اَلضَّرّٰاءُ وَ اَلسَّرّٰاءُ فَأَخَذْنٰاهُمْ بَغْتَهً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ (٩۵) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ اَلْقُرىٰ آمَنُوا وَ اِتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنٰاهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (٩۶) أَ فَأَمِنَ أَهْلُ اَلْقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنٰا بَيٰاتاً وَ هُمْ نٰائِمُونَ (٩٧) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ اَلْقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنٰا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اَللّٰهِ فَلاٰ يَأْمَنُ مَكْرَ اَللّٰهِ إِلاَّ اَلْقَوْمُ اَلْخٰاسِرُونَ (٩٩) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ اَلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهٰا أَنْ لَوْ نَشٰاءُ أَصَبْنٰاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ اَلْقُرىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبٰائِهٰا وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اَللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِ اَلْكٰافِرِينَ (١٠١) وَ مٰا وَجَدْنٰا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنٰا أَكْثَرَهُمْ لَفٰاسِقِينَ (١٠٢)

١- ١) .الاعراف ٩۴-١٠٢:كلام فى سنه الامتحان و اختبار الامم بالبأساء و الضراء؛ان اللّه عز اسمه ليس سببا فى عرض الاسباب.

بیان:

قوله تعالی: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا فِی قَرْیَهٍ مِنْ نَبِیٍّ الی آخر الآیه؛قیل:البأساء فی المال کالفقر،و الضراء فی النفس کالمرض،و قیل:یعنی بالبأساء ما نالهم من الشده فی أنفسهم و بالضراء ما نالهم فی أموالهم،و قیل:غیر ذلک.و قیل:إن البأس و البأساء یکثر استعمالهما فی الشده التی هی بالنکایه و التنکیل کما فی قوله تعالی: وَ اللّٰهُ أَشَدُّ بَأْساً وَ أَشَدُّ تَنْکِیلاً .

و لعل قوله بعد: «الضَّرّٰاءُ وَ السَّرّٰاءُ» حیث أرید بهما ما یسوء الإنسان و ما یسره یکون قرینه علی إراده مطلق ما یسوء الإنسان من الشدائد من الضراء،و یکون قوله: «بِالْبَأْسٰاءِ

ص :۵۲۹

وَ الضَّرّٰاءِ» من ذكر العام بعد الخاص.

يذكر سبحانه أن السنه الإلهيه جرت على أنه كلما أرسل نبيا من الأنبياء الى قريه من القرى -و ما يرسلهم إليهم إلا ليهديهم سبيل الرشاد-ابتلاهم بشىء من الشدائد فى النفوس و الأموال رجاء أن يبعثهم ذلك الى التضرع إليه سبحانه ليتم بذلك أمر دعوتهم الى الإيمان باللّه و العمل الصالح.

فالابتلاءات و المحن نعم العون لدعوه الأنبياء فإن الإنسان ما دام على النعمه شغله ذلك عن التوجه الى من أنعمها عليه و استغنى بها،و إذا سلب النعمه أحس بالحاجه،و نزلت عليه الذله و المسكنه،و علاه الجزع،و هدده الفناء فيبعثه ذلك بحسب الفطره الى الالتجاء و التضرع الى من بيده سد خلته و دفع ذلته،و هو اللّه سبحانه و إن كان لا يشعر به و إذا نبه عليه كان من المرجو اهتداؤه الى الحق،قال تعالى: وَ إِذٰا أَنْعَمْنٰا عَلَى الْإِنْسٰانِ أَعْرَضَ وَ نَأىٰ بِجٰانِبِهِ وَ إِذٰا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعٰاءٍ عَرِيضٍ (حم السجده۵۱/).

قوله تعالى: ثُمَّ بَدَّلْنٰا مَكٰانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتّٰى عَفَوْا الى آخر الآيه؛ تبديل الشىء شيئا وضع الشىء الثانى مكان الشىء الأول و السيئه و الحسنه معناهما ظاهر، و المراد بهما ما هما كالشده و الرخاء،و الخوف و الأمن،و الضراء و السراء كما يدل عليه قوله بعد: «قَدْ مَسَّ آبٰاءَنَا الضَّرّٰاءُ وَ السَّرّٰاءُ» .

و قوله: حَتّٰى عَفَوْا من العفو و فسر بالكثره أى حتى كثروا أموالا و نفوسا بعد ما كان اللّه قللهم بالابتلاءات و المحن،و ليس-ببعيد و إن لم يذكروه-أن يكون من العفو بمعنى إمحاء الأثر كقوله:

ربع عفاه الدهر طولا فانمحى

قد كان من طول البلى أن يمسحا

فيكون المراد أنهم محوا بالحسنه التى أوتوها آثار السيئه السابقه و قالوا: «قَدْ مَسَّ آبٰاءَنَا الضَّرّٰاءُ وَ السَّرّٰاءُ» أى أن الإنسان و هو فى عالم الطبيعه المتحوله المتغيره من حكم موقفه أن

یمسه الضراء و السراء،و تتعاقب علیه الحدثان مما یسوؤه أو یسره من غیر أن یکون لذلک انتساب الی امتحان إلهی و نقمه ربانیه.

و من الممکن بالنظر الی هذا المعنی الثانی أن یکون قوله: «وَ قَالُوا» الخ؛عطف تفسیر لقوله: «عَفَوْا» و المراد أنهم محوا رسم الامتحان الإلهی بقولهم:إن الضراء و السراء إنما هما من عادات الدهر المتبادله المتداوله یداولنا بذلک کما کان یداول آباءنا کما قال تعالی وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً (حم السجده/۵۰).

و«حتی»فی قوله: «حَتَّى عَفَوْا وَ قَالُوا» الآیه؛للغایه،و المعنی:ثم آتیناهم النعم مکان النقم فاستغرقوا فیها الی أن نسوا ما کانوا علیه فی حال الشده و قالوا:إن هذه الحسنات و تلک السیئات من عاده الدهر فانتهی بهم إرسال الشده ثم الرخاء الی هذه الغایه،و کان ینبغی لهم أن یتذکروا عند ذلک و یهتدوا الی مزید الشکر بعد التضرع لکنهم غیروا الأمر فوضعوا هذه الغایه مکان تلک الغایه التی رضیها لهم ربهم فطبع اللّه بذلک علی قلوبهم فلا یسمعون کلمه الحق.

و لعل قوله: اَلضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ قدم فیه الضراء علی السراء لیحاذی ما فی قوله تعالی: «ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ» من الترتیب.

و فی قوله: فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاَ يَشْعُرُونَ تلویح الی جهل الأنساب بجریان الأمر الإلهی،و لذا کان الأخذ بغته و فجأه من غیر أن یشعروا به،و هم یظنون أنهم عالمون بمجاری الامور،و خصوصیات الأسباب،لهم أن یتقوا ما یهددهم من أسباب الهلاک بوسائل دافعه یهدیهم إلیها العلم،قال تعالی: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (المؤمن/۸۳).

قوله تعالی: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ الی

آخر الآیه؛البرکات أنواع الخیر الکثیر ربما یبتلی الإنسان بفقده کالأمن و الرخاء و الصحه و المال و الأولاد و غیر ذلک.

و قوله: لَفَتَحْنا عَلَیْهِمْ بَرَکاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ فیه استعاره بالکنایه فقد شبهت البرکات بمجاری تجری منها علیهم کل ما یتنعمون به من نعم اللّه لکنها سدت دونهم فلا یجری علیهم منها شیء لکنهم لو آمنوا و اتقوا لفتحها اللّه سبحانه فجری علیهم منها برکات السماء من الأمطار و الثلوج و الحر و البرد و غیر ذلک کل فی موقعه و بالمقدار النافع منه،و برکات الأرض من النبات و الفواکه و الأمن و غیرها ففی الکلام استعاره المجاری للبرکات ثم ذکر بعض لوازمه و آثاره و هو الفتح للمستعار له.

و فی قوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُریٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا الآیه دلاله علی أن افتتاح ابواب البرکات مسبب لإیمان أهل القری جمیعا و تقواهم أی أن ذلک من آثار إیمان النوع الإنسانی و تقواه لا إیمان البعض و تقواه فإن إیمان البعض و تقواه لا ینفک عن کفر البعض الآخر و فسقه، و مع ذلک لا یرتفع سبب الفساد و هو ظاهر.

و فی قوله: وَ لٰکِنْ کَذَّبُوا فَأَخَذْنٰاهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ دلاله علی أن الأخذ بعنوان المجازاه و قد تقدم فی البیان المذکور آنفا ما یتبین به کیفیه ذلک،و أنه فی الحقیقه أعمال الإنسان ترد إلیه.

قوله تعالی: أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُریٰ أَنْ یَأْتِیَهُمْ بَأْسُنٰا بَیٰاتاً وَ هُمْ نٰائِمُونَ البیات و التبییت قصد العدو لیلا،و هو من المکر لأن اللیل سکن یسکن فیه الإنسان و یمیل بالطبع الی أن یستریح و ینقطع عن غیره بالنوم و السکون.

و قد فرع مضمون الآیه علی ما قبله أی إذا کان هذا حال أهل القری أنهم یغترون بما تحت حسهم عما وراءه فیفجئون و یأخذهم العذاب بغته و هم لا یشعرون فهل أمنوا أن یأتیهم عذاب اللّه لیلا و هم فی حال النوم،و قد عمتهم الغفله؟.

قوله تعالی: أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ الضحی صدر النهار حین تنبسط الشمس،و المراد باللعب الأعمال التی یشتغلون بها لرفع حوائج الحیاه الدنیا و التمتع من مزایا الشهوات،و هی إذا لم تکن فی سبیل السعاده الحقیقه، و طلب الحق کانت لعبا،فقوله: «وَ هُمْ يَلْعَبُونَ» کنایه عن العمل للدنیا و ربما قیل:إنه استعاره أی یشتغلون بما لا نفع فیه کأنهم یلعبون،و لیس ببعید أن یکون قوله فی الآیه السابقه: «وَ هُمْ نائِمُونَ» کنایه عن الغفله.و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالی: أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللّٰهِ فَلاٰ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّٰهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخٰاسِرُونَ مکر به مکرا أی مسه بالضرر أو بما ینتهی الی الضرر و هو لا یشعر و هو إنما یصح منه تعالی إذا کان علی نحو المجازاه کأن یأتی الإنسان بالمعصیه فیؤاخذه اللّه بالعذاب من حیث لا یشعر أو یفعل به ما یسوقه الی العذاب و هو لا یشعر،و أما المکر الابتدائی من غیر تحقق معصیه سابقه فمما یمتنع علیه تعالی و قد مرت الإشاره إلیه کرارا.

و ما ألطف قوله تعالی: «أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرىٰ» و«أ و أمن أهل القری»ثم قوله: «أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللّٰهِ» ،و الثالث-و هو الذی فی هذه الآیه-جمع و تلخیص للإنکارین السابقین فی الآیتین،و قد أظهر فی الآیتین جمیعا من غیر أن یقول فی الثانیه:أو أمنوا،الخ؛لیعود الضمیر فی الآیه الثالثه الی من فی الآیتین جمیعا کأنه أخذ أهل القری و هم نائمون غیر أهل القری و هم یلعبون.

و قوله: فَلاٰ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّٰهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخٰاسِرُونَ و ذلک لأنه تعالی بین فی الآیتین الاولیین أن الأمن من مکر اللّه نفسه مکر إلهی یتعقبه العذاب الإلهی فالآمنون من مکر اللّه خاسرون لانهم ممکور بهم بهذا الأمن بعینه.

قوله تعالی: أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهٰا الی آخر الآیه؛ الظاهر أن فاعل قوله:«یهد»ضمیر راجع الی ما أجمله من قصص أهل القری،و قوله «لِلَّذِينَ يَرِثُونَ» مفعوله عدی إلیه باللام لتضمینه معنی التبیین،و المعنی:أو لم یبین ما تلوناه من قصص

أهل القرى للـذين يرثون الأرض من بعـد أهلها هاديا لهم،و قوله: «أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ» الآيه مفعول«يهد»و المراد بالذين يرثون الأرض من بعد أهلها الأخلاف الذين ورثوا الأرض من أسلافهم.

و محصـل المعنى:أو لم يتبين أخلاف هؤلاء الـذين ذكرنـا أنـا آخـذناهم بمعاصـيهم بعـد ما امتحناهم ثم طبعنا على قلوبهم فلم يستطيعوا أن يسمعوا مواعظ أنبيائهم أنّا لو نشاء لأصبناهم بذنوبهم من غير أن يمنعنا منهم مانع أو يتقوا بأسنا بشيء.

و ربما قيل:إن قوله:«يهد»منزل منزله اللازم و المعنى:أو لم يفعل بهم الهدايه أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم،و نظيره قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ (الم السجده۲۶/).

و أما قوله: «وَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ» فمعطوف على قوله: «أَصَبْناهُمْ» لأن الماضى هاهنا فى معنى المستقبل،و المعنى أو لم يهد لهم أو لو نشاء نطبع،الخ؛و قيل جمله معترضه تذييليه،و فى الآيه وجوه و أقوال أخر خاليه عن الجدوى.

قوله تعالى: تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها الى آخر الآيه؛تلخيص ثان لقصصهم المقصوصه سابقا بعد التلخيص الذى مر فى قوله: «وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَهٍ مِنْ نَبِيٍّ» الى آخر الآيتين أو الآيات الثلاث.

و الفرق بين التلخيصـين أن الأول تلخيص من جهه صنم اللّه من أخذهم بالبأساء و الضراء ثم تبديل السيئه حسنه ثم الأخذ بغته و هم لا يشعرون،و الثانى تلخيص من جهه حالهم فى أنفسـهم قبال الدعوه الإلهيه،و هو أنهم و إن جاءتهم رسلهم بالبينات لكنهم لم يؤمنوا لتكذيبهم من قبل و ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل،و هذا من طبع اللّه على قلوبهم.

و قوله: فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ظاهر الآيه أن قوله: «بِما» متعلق بقوله: «لِيُؤْمِنُوا» و لازم ذلك أن تكون«ما»موصوله و يؤيده قوله تعالى فى موضع

آخر: فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ (يونس/٧۴)فإنه أظهر فى كون«ما» موصوله لمكان ضمير «بِهِ» و يؤول المعنى الى أنهم كذبوا بما دعوا إليه أولا ثم لم يؤمنوا به عند الدعوه النبويه ثانيا.

و يؤيده ظاهر قوله: «فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا» فإن هذا التركيب يدل على نفى التهيؤ القبلى يقال:

ما كنت لآتى فلانا،و ما كنت لا كرم فلانا و قد فعل كذا أى لم يكن من شأنى كذا و لم أكن بمتهيئ لكذا،و فى التنزيل: مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلىٰ مٰا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّٰى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ (آل عمران/١٧٩)،أى كان فى إرادته التمييز من قبل.

و قال تعالى: لَمْ يَكُنِ اللّٰهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لاٰ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (النساء/١٣٧).

و يؤيده أيضا قوله فى الآيه التاليه: «وَ مٰا وَجَدْنٰا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنٰا أَكْثَرَهُمْ لَفٰاسِقِينَ» فإن ظاهر السياق أن هذه الآيه معطوفه عطف تفسير على قوله: «فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» فيتبين بها أنهم كانوا عهد إليهم بعهد ففسقوا عنه و كذبوا به حين عهد إليهم ثم إذا جاءتهم الرسل بالبينات كذبوهم و لم يؤمنوا بهم،و ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل.

و الآيه أعنى قوله: «وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» مذيله بقوله: «كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِ الْكٰافِرِينَ» فدل ذلك على أن ما وصفه من مجىء الرسل بالبينات و عدم إيمانهم لتكذيبهم بذلك قبلا هو من مصاديق الطبع المذكور،و حقيقته أن اللّه ثبت التكذيب فى قلوبهم و مكنه من نفوسهم حتى إذا جاءتهم الرسل بالبينات لم يكن محل لقبول دعوتهم لكون المحل مشغولا بضده.

فتنطبق هاتان الآيتان بحسب المعنى على الآيتين الاوليين أعنى قوله: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاّٰ أَخَذْنٰا أَهْلَهٰا» الى آخر الآيتين؛حيث تصفان سنه اللّه أنه يرسل آيات داله على حقيه أصول الدعوه من التوحيد و غيره بأخذهم بالبأساء و الضراء ثم تبديل السيئه حسنه ثم يطبع على قلوبهم جزاء لجرمهم.

و على هذا فالمعنى فى الآيه:لقد جاءتهم رسلهم بالبينات لكنهم لما لم يؤمنوا بالآيات المرسله إليهم الداعيه لهم الى التضرع الى اللّه و الشكر لإحسانه بل شكوا فيها بل حملوها على عاده الدهر و تصريف الأيام و تقليبها الإنسان من حال الى حال فكذبوا بهذه الآيات،و استقر التكذيب فى قلوبهم فلما دعاهم الأنبياء الى الدين الحق لم يؤمنوا بما كانوا يدعون إليه من الحق و بما كانوا يذكرونهم بها من الآيات لأنهم كذبوا بها من قبل و ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل فإن اللّه عزّ و جل طبع على قلوبهم فهم لا يسمعون.

فعدم إيمانهم أثر الطبع الإلهى،و الطبع أثر تكذيبهم بدلاله الابتلاء بالبأساء و الضراء ثم تبديل السيئه حسنه ثانيا،و من الدليل عليه قوله: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (يونس/١٣)، و قوله: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ -يعنى نوحا- رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (يونس/٧۴)،و على هذا فقوله: «فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» تفريع على قوله: «وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ» ،و المراد بما كذبوا به الآيات البينات التى ذكرتهم بها الأنبياء من آيات الآفاق و الانفس و ما جاءوا به من الآيات المعجزه فالجميع آياته،و المراد بتكذيبهم بها من قبل،تكذيبهم بها من حيث دلاله عقولهم بمشاهدتها أنهم مربوبون للّه لا رب سواه،و بعدم إيمانهم ثانيا عدم إيمانهم بها حين يذكرهم بها الانبياء.

فالمعنى فما كانوا ليؤمنوا بما يذكرهم به و يأتى به الأنبياء من الآيات التى كذبوا بها حين ذكرتهم بها عقولهم،و أرسلها اللّه إليهم ليذكروا و يتضرعوا إليه و يشكروا له.

و على هذا فالمراد بالعهد فى قوله فى الآيه التاليه: «وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ» هو العهد الذى عهده اللّه سبحانه إليهم من طريق العقل بلسان الآيات:أن لا يعبدوا إلا إياه،و المراد بالفسق خروجهم عن ذلك العهد بعدم الوفاء به.

ص :۵۳۶

و لهذا العهد تحقق سابق على هذا التحقق و هو أن اللّه سبحانه أخذه بعينه منهم حين خلقهم و سواهم بخلق أبيهم آدم و تسويته ثم جعله مثالا للإنسانيه العامه فاسجد له الملائكه و أدخله الجنه ثم عهد إليه حين أمر بهبوطه الأرض أن يعبده هو و ذريته و لا يشركوا به شيئا.

و قد قدر اللّه سبحانه هنالك ما قدر فهدى بحسب تقديره قوما و لم يهد آخرين ثم اذا وردوا الدنيا و أخذوا فى سيرهم فى مسير الحياه اهتدى الأولون،و فسق عن عهده الآخرون حتى طبع اللّه على قلوبهم و حقت عليهم الضلاله فى الدنيا بعد أعمالهم السيئه كما تقدم بيانه فى تفسير قوله: كَمٰا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقاً هَدىٰ وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاٰلَةُ (الآيه ۳۰ من السوره).

فمعنى الآيه على هذا:فما كانوا ليؤمنوا عند دعوه الأنبياء بما كذبوا به و لم يقبلوه عند أخذ العهد الأول،و ما وجدنا لأكثرهم من وفاء فى الدنيا بالعهد الذى عهدناه هناك و إن وجدنا أكثرهم لفاسقين خارجين عن حكم ذلك العهد.

فهذا معنى لكنه غير مناف للمعنى السابق فإن أحد المعنيين فى طول الآخر و ليسا بمتعارضين فإن تعين طريق الإنسان و غايته من سعاده و شقاوه بحسب القدر لا ينافى إمكان سعادته و شقاوته فى الدنيا،و إناطه تحقق كل منهما باختياره ذلك و انتخابه.

و فيه:أنه معنى صحيح فى نفسه غير أنه من البطن دون الظهر الذى عليه يدور التفسير، و الدليل عليه قوله بعده: «كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِ الْكٰافِرِينَ» فإنه يصرح بأن عدم إيمانهم كذلك إنما كان بالطبع على قلوبهم،و إن اللّه طبع على قلوبهم بتكذيبهم السابق فلم يؤمنوا به عند الدعوه اللاحقه،و الطبع لا يكون ابتدائيا فى الدنيا بل لجرم سابق فيها،و هذا أحسن شاهد على أن هذا التكذيب الذى أورث لهم الطبع على قلوبهم كان فى الدنيا ثم الطبع أوجب لهم أن لا يؤمنوا بما كذبوا به من قبل.

و فى هذا المعنى آيات أخر تدل على أن الطبع و الختم الإلهى إنما هو عن جرم سابق

دنیوی،و لیس مجرد سبق التکذیب فی المیثاق ینتج الطبع الابتدائی فی الدنیا فإنه مما لا یلیق به سبحانه البته،و قد قال: یُضِلُّ بِهِ کَثِیراً وَ یَهْدِی بِهِ کَثِیراً وَ مٰا یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِینَ (البقره۲۶/).

قوله تعالی: «وَ مٰا وَجَدْنٰا لِأَکْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ» الی آخر الآیه،قال فی المجمع:من عهد أی من وفاء بعهد کما یقال:فلان لا عهد له أی لا وفاء له بالعهد،و لیس یحافظ للعهد(انتهی).و من الجائز أن یراد بالعهد عهد اللّٰه الذی عهده إلیهم من ناحیه آیاته أو عهدهم الذی عاهدوا اللّٰه علیه أن یعبدوه و لا یشرکوا به شیئا و من ناحیه حاجه أنفسهم و دلاله عقولهم،و قد ظهر معنی الآیه مما تقدم.

[سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۰۳ الی ۱۲۶]

اشاره

ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسیٰ بِآیٰاتِنٰا إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَظَلَمُوا بِهٰا فَانْظُرْ کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَةُ اَلْمُفْسِدِینَ (۱۰۳) وَ قٰالَ مُوسیٰ یٰا فِرْعَوْنُ إِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۱۰۴) حَقِیقٌ عَلیٰ أَنْ لاٰ أَقُولَ عَلَی اَللّٰهِ إِلاَّ اَلْحَقَّ قَدْ جِئْتُکُمْ بِبَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ فَأَرْسِلْ مَعِیَ بَنِی إِسْرٰائِیلَ (۱۰۵) قٰالَ إِنْ کُنْتَ جِئْتَ بِآیَةٍ فَأْتِ بِهٰا إِنْ کُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِینَ (۱۰۶) فَأَلْقیٰ عَصٰاهُ فَإِذٰا هِیَ ثُعْبٰانٌ مُبِینٌ (۱۰۷) وَ نَزَعَ یَدَهُ فَإِذٰا هِیَ بَیْضٰاءُ لِلنّٰاظِرِینَ (۱۰۸) قٰالَ اَلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ عَلِیمٌ (۱۰۹) یُرِیدُ أَنْ یُخْرِجَکُمْ مِنْ أَرْضِکُمْ فَمٰا ذٰا تَأْمُرُونَ (۱۱۰) قٰالُوا أَرْجِهْ وَ أَخٰاهُ وَ أَرْسِلْ فِی اَلْمَدٰائِنِ حٰاشِرِینَ (۱۱۱) یَأْتُوکَ بِکُلِّ سٰاحِرٍ عَلِیمٍ (۱۱۲) وَ جٰاءَ اَلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قٰالُوا إِنَّ لَنٰا لَأَجْراً إِنْ کُنّٰا نَحْنُ اَلْغٰالِبِینَ (۱۱۳) قٰالَ نَعَمْ وَ إِنَّکُمْ لَمِنَ اَلْمُقَرَّبِینَ (۱۱۴) قٰالُوا یٰا مُوسیٰ إِمّٰا أَنْ تُلْقِیَ وَ إِمّٰا أَنْ نَکُونَ نَحْنُ اَلْمُلْقِینَ (۱۱۵) قٰالَ أَلْقُوا فَلَمّٰا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْیُنَ اَلنّٰاسِ وَ اِسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جٰاؤُ بِسِحْرٍ عَظِیمٍ (۱۱۶) وَ أَوْحَیْنٰا إِلیٰ مُوسیٰ أَنْ أَلْقِ عَصٰاکَ فَإِذٰا هِیَ تَلْقَفُ مٰا یَأْفِکُونَ (۱۱۷) فَوَقَعَ اَلْحَقُّ وَ بَطَلَ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۱۱۸) فَغُلِبُوا هُنٰالِکَ وَ اِنْقَلَبُوا صٰاغِرِینَ (۱۱۹) وَ أُلْقِیَ اَلسَّحَرَةُ سٰاجِدِینَ (۱۲۰) قٰالُوا آمَنّٰا بِرَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۱۲۱) رَبِّ مُوسیٰ وَ هٰارُونَ (۱۲۲) قٰالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَکُمْ إِنَّ هٰذٰا لَمَکْرٌ مَکَرْتُمُوهُ فِی اَلْمَدِینَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهٰا أَهْلَهٰا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۱۲۳) لَأُقَطِّعَنَّ أَیْدِیَکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ مِنْ خِلاٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّکُمْ أَجْمَعِینَ (۱۲۴) قٰالُوا إِنّٰا إِلیٰ رَبِّنٰا مُنْقَلِبُونَ (۱۲۵) وَ مٰا تَنْقِمُ مِنّٰا إِلاّٰ أَنْ آمَنّٰا بِآیٰاتِ رَبِّنٰا لَمّٰا جٰاءَتْنٰا رَبَّنٰا أَفْرِغْ عَلَیْنٰا صَبْراً وَ تَوَفَّنٰا مُسْلِمِینَ (۱۲۶)

بیان:

قوله تعالی: ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ بِآيٰاتِنٰا إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ الی آخر الآیه؛فی تغییر السیاق فی أول القصه دلاله علی تجدد الاهتمام بأمر موسی علیه السّلام فإنه من أولی العزم صاحب کتاب و شریعه،و قد ورد الدین ببعثته فی مرحله جدیده من التفصیل بعد المرحلتین اللتین قطعهما ببعثه نوح و إبراهیم علیهما السّلام،و فی لفظ الآیات شیء من الإشاره الی تبدل المراحل فقد قال تعالی أولا: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً وَ إِلىٰ ثَمُودَ أَخٰاهُمْ صٰالِحاً فجری علی سیاق واحد لأن هودا و صالحا کانا علی شریعه نوح؛ثم غیر السیاق فقال: وَ لُوطاً إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ لأن لوطا من أهل المرحله الثانیه فی الدین و هی مرحله شریعه إبراهیم،و کان لوط علی شریعته ثم عاد الی السیاق السابق فی بدء قصه شعیب،ثم غیر السیاق فی بدء قصه موسی بقوله: «ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ بِآيٰاتِنٰا إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ» لأنه ثالث أولی العزم صاحب کتاب جدید و شریعه جدیده،و دین اللّه و شرائعه و إن کان واحدا لا تناقض فیه و لا تنافی غیر أنه مختلف بالإجمال و التفصیل و الکمال و زیادته بحسب تقدم البشر تدریجیا من النقص الی الکمال،و اشتداد استعداده لقبول المعارف الإلهیه عصرا بعد عصر الی أن ینتهی الی موقف علمی هی أعلی المواقف فیختتم عند ذلک الرساله و النبوه،و یستقر الکتاب و الشریعه استقرارا لا مطمع بعده فی کتاب جدید أو شریعه جدیده و لا یبقی للبشر بعد ذلک إلا التدرج فی الکمال من حیث انتشار الدین و انبساطه علی المجتمع البشری و استیعابه لهم،و إلا التقدم من جهه التحقق بحقائق المعارف،و الترقی فی مراقی العلم و العمل التی یدعو إلیها الکتاب،و یحرض علیها الشریعه و الأرض للّه یورثها من یشاء

من عباده و العاقبه للمتقين.

فقوله تعالى: «ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا» الى آخر الآيه؛إجمال لقصه موسى عليه السّلام ثم يؤخذ فى التفصيل من قوله: «وَ قالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ» الآيه؛و إنا و إن كنا نسمى هذه القصص بقصه موسى و قصه نوح و قصه هود و هكذا فإنها بحسب ما سردت فى هذه السوره قصص الامم و الأقوام الذين أرسل إليهم هؤلاء الرسل الكرام يذكر فيها حالهم فيما واجهوا به رسل اللّه من الإنكار و الرد،و ما آل إليه أمرهم من نزول العذاب الإلهى الذى أفنى جمعهم، و قطع دابرهم و لذلك ترى أن عامه القصص المذكوره مختومه بذكر نزول العذاب و هلاك القوم.

و لا تنس ما قدمناه فى مفتتح الكلام أن الغرض منها بيان حال الناس فى قبول العهد الإلهى المأخوذ منهم جميعا ليكون إنذارا للناس عامه و ذكرى للمؤمنين خاصه،و أنه الغرض الجامع بين ما فى سور«الم»و ما فى سوره«ص»من الغرض و هو الإنذار و الذكرى.

فقوله: «ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ» أى من بعد من ذكروا من الأنبياء و هم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب عليهم السّلام «مُوسى وَ هارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ» أى الى ملك مصر و الأشراف الذين حوله، و «فِرْعَوْنَ» لقب كان يطلق على ملوك مصر كالخديو كما كان يلقب بقيصر و كسرى و فغفور ملوك الروم و إيران و الصين،و لم يصرح القرآن الكريم باسم هذا الفرعون الذى أرسل إليه موسى فأغرقه اللّه بيده.

و قوله: «بِآياتِنا» الظاهر أن المراد بها ما أتى به فى أول الدعوه من إلقاء العصا فإذا هى ثعبان،و إخراج يده من جيبه فإذا هى بيضاء،و الآيات التى أرسلها اللّه إليهم بعد ذلك من الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات،و لم ينقل القرآن الكريم لنبى من الأنبياء من الآيات الكثيره ما نقله عن موسى عليه السّلام.

و قوله: «فَظَلَمُوا بِها» أى بالآيات التى أرسل بها على ما سيذكره اللّه سبحانه فى خلال

القصه،و ظلم كل شیء بحسبه،و ظلم الآیات إنما هو التكذیب بها و الإنكار لها.

و قوله: «فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» ذكر عاقبه الإفساد فی الاعتبار بأمرهم لأنهم كانوا یفسدون فی الأرض و یستضعفون بنی إسرائیل،و قد كان فی متن دعوه موسی حین ألقاها الی فرعون «فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ» و فی سوره طه: فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ (طه٤٧/).

قوله تعالی: وَ قالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ شروع فی تفصیل قصه الدعوه كما تقدمت الإشاره إلیه،و قد عرف نفسه بالرساله لیكون تمهیدا لذكر ما أرسل لأجله،و ذكره تعالی باسمه رب العالمین أنسب ما یتصور فی مقابله الوثنیین الذین لا یرون إلا أن لكل قوم أو لكل شأن من شئون العالم و طرف من أطرافه ربا علی حده.

قوله تعالی: حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ الی آخر الآیه؛ تأكید لصدقه فی رسالته أی أنا حری بأن أقول قول الحق و لاـ أنسب الی اللّه فی رسالتی منه إلیك شیئا من الباطل لم یأمرنی به اللّه سبحانه،و قوله: «قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» فی موضع التعلیل بالنسبه الی جمیع ما تقدم أو بالنسبه الی قوله: «إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» لأنه هو الأصل الذی یتفرع علیه غیره.

و لعل تعدیه«حقیق»بعلی من جهه تضمینه معنی حریص أی حریص علی كذا حقیقا به، و المعروف فی اللغه تعدیه حقیق بمعنی حری بالباء یقال:فلان حقیق بالإكرام أی حری به لائق.

و قرئ «حَقِيقٌ عَلى» بتشدید الباء و الحقیق علی هذا مأخوذ من حق علیه كذا أی وجب،و المعنی واجب علیّ أن لا أقول علی اللّه إلا الحق فالحقیق خبر و مبتداه قوله:أن لا أقول،الآیه و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ

الشرط فى صدر الآيه أعنى قوله: «إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَهٍ» يتضمن صدقه عليه السّلام فإنه إذا كان جائيا بآيه واقعه فقد صدق فى إخباره بأنه قد جاء بآيه لكن الشرط فى ذيل الآيه تعريض يومئ به الى أنه ما يعتقد بصدقه فى إخباره بوجود آيه معه،فكأنه قال:إن كنت جئت بآيه فأت بها و ما أظنك تصدق فى قولك،فلا تكرار فى الشرط.

قوله تعالى: فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ الفاء جوابيه كما قيل أى فأجابه بإلقاء عصاه،و هذه هى فاء التفريع و الجواب مستفاد من خصوصيه المورد.و الثعبان الحيه العظيمه و لا تنافى بين وصفه هاهنا بالثعبان المبين و بين ما فى موضع آخر من قوله تعالى:

فَلَمّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ (القصص/٣١)،و الجان هى الحيه الصغيره لاختلاف القصتين كما قيل فإن ذكر الجان إنما جاء فى قصه ليله الطور و قد قال تعالى فيها فى موضع آخر: فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّهٌ تَسْعى (طه/٢٠)،و أما ذكر الثعبان فقد جاء فى قصه إتيانه لفرعون بالآيات حين سأله ذلك.

قوله تعالى: وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنّاظِرِينَ أى نزع يده من جيبه على ما يدل عليه قوله تعالى: وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ (طه/٢٢)، و قوله: اُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ (القصص/٣٢).

و الأخبار و إن وردت فيها أن يده عليه السّلام كانت تضيء كالشمس الطالعه عند إراده الإعجاز بها لكن الآيات لا تقص أزيد من أنها كانت تخرج بيضاء للناظرين إلا أن كونها آيه معجزه تدل على أنها كانت تبيض ابيضاضا لا يشك الناظرون فى أنها حاله خارقه للعاده.

قوله تعالى: قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ لم يذكر تعالى ما قاله فرعون عند ذلك،و إنما الذى ذكر محاوره الملإ بعضهم بعضا كأنهم فى مجلس مشاوره يذاكر بعضهم بعضا و يشير بعضهم الى ما يراه و يصوبه آخرون فيقدمون ما صوبوه من رأى الى فرعون ليعمل به فهم لما تشاوروا فى أمر موسى و ما شاهدوه من آياته المعجزه قالوا:إن

هذا لساحر عليم،و إذا كان ساحرا غير صادق فيما يذكره من رساله اللّه سبحانه فإنما يتوسل بهذه الوسيله الى نجاه بنى إسرائيل و استقلالهم فى أمرهم ليتأيد بهم ثم يخرجكم من أرضكم و يذهب بطريقتكم المثلى فما ذا تأمرون به فى إبطال كيده،و إخماد ناره التى أوقدها؟أ من الواجب مثلا أن يقتل أو يصلب أو يسجن أو يعارض بساحر مثله؟.

فاستصوبوا آخر الآراء،و قدموه الى فرعون أن أرجه و أخاه و ابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم.

و من ذلك يظهر أن قوله تعالى: «فَمٰا ذٰا تَأْمُرُونَ» حكايه ما قاله بعض الملإ لبعض و قوله «قٰالُوا أَرْجِهْ» ،الخ؛حكايه ما قدموه من رأى الجميع الى فرعون و قد اتفقوا عليه،و قد حكى اللّه سبحانه فى موضع آخر من كلامه هذا القول بعينه من فرعون يخاطب به ملأه قال تعالى:

قٰالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمٰا ذٰا تَأْمُرُونَ قٰالُوا أَرْجِهْ وَ أَخٰاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدٰائِنِ حٰاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحّٰارٍ عَلِيمٍ (الشعراء۳۷/).

و يظهر مما فى الموضعين أنهم إنما شاوروا حول ما قاله فرعون ثم صوبوه و رأوا أن يجيبه بسحر مثل سحره،و قد حكى اللّه أيضا هذا القول عن فرعون يخاطب به موسى حتى بالذى أشار إليه الملأ من معارضه سحره بسحر آخر مثله إذ قال: قٰالَ أَ جِئْتَنٰا لِتُخْرِجَنٰا مِنْ أَرْضِنٰا بِسِحْرِكَ يٰا مُوسىٰ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ (طه۵۸/)،و لعل ذلك محصل ما خرج من مشاورتهم حول ما قاله فرعون بعد ما قدم الى فرعون مخاطب به موسى من قبل نفسه.

و للملإ جلسه مشاوره أخرى أيضا بعد قدوم السحره الى فرعون ناجى فيها بعضهم بعضا بمثل ما فى هذه الآيات قال تعالى: فَتَنٰازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوىٰ قٰالُوا إِنْ هٰذٰانِ لَسٰاحِرٰانِ يُرِيدٰانِ أَنْ يُخْرِجٰاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمٰا وَ يَذْهَبٰا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلىٰ (طه۶۳/).

فتبين أن أصل الكلام لفرعون ألقاه إليهم ليتشاوروا فيه و يروا رأيهم فيما يفعل به فرعون فتشاوروا و صدقوا قوله و أشاروا بالإرجاء و جمع السحره للمعارضه فقبله ثم ذكره لموسى ثم

اجتمعوا للمشاوره و المناجاه ثانيا بعد مجیء السحره و اتفقوا أن يجتمعوا عليه و يعارضوه بكل ما يقدرون عليه من السحر صفا واحدا.

قوله: يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمٰا ذٰا تَأْمُرُونَ أی يريد أن يتأيد ببنى إسرائيل فيتملك مصر،و يبطل استقلالكم و يخرجكم من أرضكم،و كثيرا ما كان يتفق فى الأعصار السابقه أن يهجم قوم على قوم فيتغلبوا عليهم فيشغلوا أرضهم و يتملكوا ديارهم فيخرجوهم منها و يشردوهم فى الأرض.

قوله تعالى: قٰالُوا أَرْجِهْ وَ أَخٰاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدٰائِنِ حٰاشِرِينَ الى آخر الآيه التاليه؛أرجه بسكون الهاء أمر من الإرجاء بمعنى التأخير و الهاء للسكت أی أخره و أخاه و لا تعجل لهما بشر كالقتل و نحوه حتى ترمى بظلم أو قسوه و نحوهما بل ابعث فى المدائن من جنودك حاشرين يجمعون السحره فيأتوك بهم ثم عارض سحر موسى بسحر السحره.

و قرئ:أرجه بكسر الجيم و الهاء و أصله أرجئه قلبت الهمزه ياء ثم حذفت،و الهاء ضمير راجع الى موسى،و أخوه هو هارون عليهما السّلام.

قوله تعالى: وَ جٰاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قٰالُوا إِنَّ لَنٰا لَأَجْراً الى آخر الآيه التاليه أی فأرسل حاشرين فحشروهم و جاء السحره كل ذلك محذوف للإيجاز.

و قولهم: «إِنَّ لَنٰا لَأَجْراً» سؤال للأجر جیء به فى صوره الخبر للتأكيد،و إفاده الطلب الانشائى فى صوره الإخبار شائع،و يمكن أن يكون استفهاما بحذف أداته،و يؤيده قراءه ابن عامر «إِنَّ لَنٰا لَأَجْراً»

و قوله: «قٰالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» إجابه لمسئولهم مع زياده وعدهم بالتقريب.

قوله تعالى: قٰالُوا يٰا مُوسىٰ إِمّٰا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمّٰا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ خيروه بين أن يكون هو الملقى بعصاه،و بين أن يكونوا هم الملقين لما أعدوه من الحبال و العصى

و هذا التخيير فى مقام استعدوا لمقابلته،و لا محاله يفيد التخيير فى الابتداء بالإلقاء فمعناه إن شئت ألق عصاك أولا و إن شئت ألقينا حبالنا و عصينا أولا.

و فيه نوع من التجلد لدلالته على أنهم لا يبالون بأمره سواء ألقى قبلهم أو بعدهم فلا يهابونه على أى حال لوثوقهم بأنهم هم الغالبون،و لا يخلو التخيير مع ذلك مع نوع من التأدب.

قوله تعالى: قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ الى آخر الآيه،السحر هاهنا نوع تصرف فى حاسه الإنسان بإدراك أشياء لا حقيقه لها فى الخارج،و قد تقدم الكلام فيه فى تفسير قوله: وَ اتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ (البقره/١٠٢)فى الجزء الأول من الكتاب،و الاسترهاب الإخافه،و معنى الآيه ظاهر،و قد عد اللّه فيها سحرهم عظيما.

قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ الى آخر الآيتين،أن تفسيريه و اللقف و اللقفان تناول الشىء بسرعه،و الإفك هو صرف الشىء عن وجهه و لذا يطلق على الكذب، و فى الآيه وجوه من الإيجاز ظاهره،و التقدير:و أوحينا الى موسى بعد ما ألقوا أن ألق عصاك فألقاها فإذا هى حيه و إذا هى تلقف ما يأفكون.

و قوله: فَوَقَعَ الْحَقُّ فيه استعاره بالكنايه بتشبيه الحق بشىء كأنه معلق لا يعلم عاقبه حاله أ يستقر فى الأرض بالوقوع عليها و التمكن فيها أم لا؟فوقع و استقر «وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» من السحر.

قوله تعالى: فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ أى غلب فرعون و اصحابه «هُنَالِكَ» أى فى ذلك المجمع العظيم الذى تهاجم عليهم فيه الناس من كل جانب ففى لفظ «هُنَالِكَ» إشاره الى ذلك و هو للبعيد، «وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ» أى عادوا و صاروا أذلاء مهانين.

قوله تعالى: وَ أُلْقِيَ السَّحَرَهُ سَاجِدِينَ، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ

مُوسىٰ وَ هٰارُونَ أبهم فاعل الإلقاء فى قوله: «وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ سٰاجِدِينَ» و هو معلوم فإن السحره هم الذين ألقوا بأنفسهم الى الأرض ساجدين،و ذلک للإشاره الى كما تأثير آيه موسى فيهم و إدهاشها إياهم فلم يشعروا بأنفسهم حين ما شاهدوا عظمه الآيه و ظهورها عليهم إلا و هم ملقون ساجدون فلم يدروا من الذى أوقع بهم ذلک.

فاضطرتهم الآيه الى الخرور على الأرض ساجدين،و الإيمان برب العالمين الذى اتخذه موسى و هارون،و فى ذكر موسى و هارون دلاله على الإيمان بهما مع الإيمان برب العالمين.

و ربما قيل:إن بيانهم رب العالمين برب موسى و هارون لدفع توهم أن يكون إيمانهم لفرعون فإنه كان يدعى أنه رب العالمين فلما بينوه بقوله: «رَبِّ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ» و لم يأخذا فرعون ربا اندفع ذلک التوهم،و لا يخلو عن خفاء فإن الوثنيه ما كانت تقول برب العالمين بحقيقه معناه بمعنى من يملک العالمين و يدبر أمر جميع أجزائها بالاستقامه بل قسموا أجزاء العالم و شئونها بين أرباب شتى،و إنما أعطوا اللّه سبحانه مقام إله الآلهه و رب الأرباب لا رب الأرباب و مربوبيها.

و الذى ادعاه فرعون لنفسه على ما حكاه اللّه من قوله: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ (النازعات/۲۴)،إنما هو العلو من جهه القيام بحاجه الناس-و هم أهل مصر خاصه-عن قرب و اتصال لا من جهه القيام بربوبيه جميع العالمين،و مع ذلک كله قد أحاطت الخرافات على الوثنيه بحيث لا يستبعد أن يتفوهوا بكون فرعون رب العالمين و إن خالف أصول مذاهبهم قطعا.

قوله تعالى: قٰالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ الى آخر الآيتين؛ خاطبهم فرعون بقوله: «آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ» تأنفا و استكبارا،و هو إخبار يفيد بحسب المقام و الإنكار و التوبيخ،و من الجائز أن يكون استفهاما انكاريا أو توبيخيا محذوف الأداه.

و قوله: إِنَّ هٰذٰا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ الآيه؛يتهمهم بالمواطأه و المواضعه فى المدينه يريد أنهم لما اجتمعوا فى مدينته بعد ما حشرهم الحاشرون من مدائن مختلفه شتى فجاءوا بهم اليه و لقوا موسى أجمعوا على أن يمكروا بفرعون و أصحابه فيتسلطوا على المدينه فيخرجوا منها أهلها،و ذلك لأنهم لم يشاهدوا موسى قبل ذلك فلو كانوا تواطئوا على شيء فقد كان ذلك بعد اجتماعهم فى مدينته.

أنكر عليهم ايمانهم بقوله: «آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ» ثم اتهمهم بأنهم تواطئوا جميعا على المكر ليخرجوا أهل المدينه منها بقوله: «إِنَّ هٰذٰا لَمَكْرٌ» الخ؛ليثبت لهم جرم الإفساد فى الأرض المبيح له سياستهم و تنكيلهم بأشد العقوبات.

ثم هددهم بقوله: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» ثم بينه و فصله بقوله:

«لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ» فهددهم تهديدا أكيدا أولا بقطع الأيدى الأرجل من خلاف و هو أن يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو اليد اليسرى مع الرجل اليمنى و بالجمله قطع كل من اليد و الرجل من خلاف الجهه التى قطعت منها الاخرى.

و ثانيا بالصلب و هو شد المجرم بعد تعذيبه على خشبه و رفع الخشبه بإثبات جانبه على الأرض ليشاهده الناس فيكون لهم عبره،و قد تقدم تفصيل بيانه فى قصص المسيح عليه السّلام فى تفسير سوره آل عمران.

قوله تعالى: قٰالُوا إِنّٰا إِلىٰ رَبِّنٰا مُنْقَلِبُونَ الى آخر الآيات؛جواب السحره و هم القائلون هذا المقال و قد قابلوه بما يبطل به كيده،و تنقطع به حجته،و هو أنك تهددنا بالعذاب قبال ما تنقم منا من الإيمان بربنا ظنا منك أن ذلك شر لنا من جهه انقطاع حياتنا به و ما نقاسيه من ألم العذاب،و ليس ذلك شرا فإنا نرجع الى ربنا،و نحيا عنده بحياه القرب السعيده،و لم نجترم إلا ما تعده أنت لنا جرما و هو إيماننا بربنا فما دوننا إلا الخير.

و هذا معنى قوله: قٰالُوا إِنّٰا إِلىٰ رَبِّنٰا مُنْقَلِبُونَ و هو إيمان منهم بالمعاد «وَ مٰا تَنْقِمُ

مِنّا إِلاّ أَنْ آمَنّا بِآيٰاتِ رَبِّنا لَمّا جٰاءَتْنا» و عدوا أمر العصا-على الظاهر-آيات كثيره لاشتماله على جهات كل منها آيه كصيرورتها ثعبانا،و لقفها حبالهم و عصيهم واحدا بعد واحد، و رجوعها الى حالتها الاولى.

و النقم هو الكراهه و البغض يقال:نقم منه كذا ينقم من باب ضرب و علم:إذا كره و أبغض.

ثم أخذتهم الجذبه الإلهيه من غير أن يذعروا مما هددهم به،و استغاثوا بربهم على ما عزم به من تعذيبهم و قتلهم فسألوه تعالى قائلين: «رَبَّنٰا أَفْرِغْ عَلَيْنٰا صَبْراً -على ما يريد أن يوقع بنا من العذاب الشديد- وَ تَوَفَّنٰا مُسْلِمِينَ» إن قتلنا.

و فى إطلاق الإفراغ على إعطاء الصبر استعاره بالكنايه فشبهوا نفوسهم بالآنيه،و الصبر بالماء،و إعطاءه بإفراغ الإناء بالماء و هو صبه فيه حتى يغمره،و إنما سألوا ذلك ليفيض اللّه عليهم من الصبر ما لا يجزعون به عند نزول أى عذاب و أ لم ينزل بهم.

و قد جاءوا بالعجب العجاب فى مشافهتهم هذه مع فرعون و هو الجبار العنيد الذى ينادى «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ» و يعبده ملك مصر فلم يذعرهم ما شاهدوا من قدرته و سطوته فأعربوا عن حجتهم بقلوب مطمئنه،و نفوس كريمه،و عزم راسخ،و إيمان ثابت،و علم عزيز،و قول بليغ؛و إن تدبرت ما حكاه اللّه سبحانه من مشافهتهم و محاورتهم فرعون فى موقفهم هذا فى هذه السوره و فى سورتى طه و الشعراء أرشدك ما فى خلال كلامهم من الحجج البالغه الى علوم جمه،و حالات روحيه شريفه،و أخلاق كريمه،و لو لا محذور الخروج عن طور هذا الكتاب لأوردنا شذره منها فى هذا المقام فلينتظر الى حين (۱).

۱- ۱) .الاعراف ۱۰۳-۱۲۶:بحث روائى حول قصه موسى و فرعون.

[سوره الأعراف (۷): الآيات ۱۲۷ الی ۱۳۷]

اشاره

وَ قٰالَ اَلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسىٰ وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي اَلْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قٰالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنٰاءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسٰاءَهُمْ وَ إِنّٰا فَوْقَهُمْ قٰاهِرُونَ (۱۲۷) قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ اِسْتَعِينُوا بِاللّٰهِ وَ اِصْبِرُوا إِنَّ اَلْأَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُهٰا مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ اَلْعٰاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (۱۲۸) قٰالُوا أُوذِينٰا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنٰا وَ مِنْ بَعْدِ مٰا جِئْتَنٰا قٰالَ عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي اَلْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (۱۲۹) وَ لَقَدْ أَخَذْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ اَلثَّمَرٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۱۳۰) فَإِذٰا جٰاءَتْهُمُ اَلْحَسَنَةُ قٰالُوا لَنٰا هٰذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسىٰ وَ مَنْ مَعَهُ أَلاٰ إِنَّمٰا طٰائِرُهُمْ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۱۳۱) وَ قٰالُوا مَهْمٰا تَأْتِنٰا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنٰا بِهٰا فَمٰا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (۱۳۲) فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمُ اَلطُّوفٰانَ وَ اَلْجَرٰادَ وَ اَلْقُمَّلَ وَ اَلضَّفٰادِعَ وَ اَلدَّمَ آيٰاتٍ مُفَصَّلاٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كٰانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (۱۳۳) وَ لَمّٰا وَقَعَ عَلَيْهِمُ اَلرِّجْزُ قٰالُوا يٰا مُوسَى اُدْعُ لَنٰا رَبَّكَ بِمٰا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا اَلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ (۱۳۴) فَلَمّٰا كَشَفْنٰا عَنْهُمُ اَلرِّجْزَ إِلىٰ أَجَلٍ هُمْ بٰالِغُوهُ إِذٰا هُمْ يَنْكُثُونَ (۱۳۵) فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنٰاهُمْ فِي اَلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِينَ (۱۳۶) وَ أَوْرَثْنَا اَلْقَوْمَ اَلَّذِينَ كٰانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشٰارِقَ اَلْأَرْضِ وَ مَغٰارِبَهَا اَلَّتِي بٰارَكْنٰا فِيهٰا وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ اَلْحُسْنىٰ عَلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ بِمٰا صَبَرُوا وَ دَمَّرْنٰا مٰا كٰانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ مٰا كٰانُوا يَعْرِشُونَ (۱۳۷)

بيان:

قوله تعالی: وَ قٰالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسیٰ وَ قَوْمَهُ الی آخر الآیه؛هذا إغراء منهم لفرعون و تحریض له أن یقتل موسی و قومه،و لذلک رد فرعون قولهم بأنه لا یهمنا قتلهم فإنا فوقهم قاهرون علی أی حال بل سنعید علیهم سابق عذابنا فنقتل أبناءهم و نستحیی نساءهم،و لو کان ما سألوا مطلق تعذیبهم غیر القتل لم یقع قوله: «وَ إِنّٰا فَوْقَهُمْ قٰاهِرُونَ» موقعه ذلک الوقوع.

و قوله: وَ یَذَرَکَ وَ آلِهَتَکَ تأکید لتحریضهم إیاه علی قتلهم،و المعنی أن موسی یترکک و آلهتک فلا یعبدکم مع ما یفسد هو و قومه فی الأرض،و فیه دلاله علی أن فرعون کما کان یدعی الالوهیه،و یستعبد الناس لنفسه کان یعبد آلهه أخری،و هو کذلک و التاریخ یثبت نظائر لذلک فی الامم السالفه،و قد نقل:أن عظماء البیوت و سادات القوم فی الروم و ممالک

أخرى غيرها كان يعبدهم مرءوسوهم من بيتهم و عشائرهم و هم أنفسهم كانوا يعبدون آباءهم الأولين و أصناما أخرى غيرهم كما يعبدهم ضعفاؤهم،و أيضا بين الأرباب التى تعبدها الوثنيه ما هو رب لغيره من الأرباب أو رب لرب آخر كربوبيه الأب و الام للابن و غير ذلك.

إلا أن قوله لقومه فيما حكاه اللّه سبحانه: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ (النازعات/۲۴)،و قوله:

مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي (القصص/۳۸)،ظاهر فى أنه كان لا يتخذ لنفسه ربا، و كان يأمر قومه أن لا يعبدوا إلا إياه،و لذلك قال بعضهم:إنه كان دهريا لا يعترف بصانع، و يأمر قومه بترك عباده الآلهه مطلقا،و قصر العباده فيه،و لذلك قرأ بعضهم-على ما قيل- «و إلهتك» بكسر الهمزه و فتح اللام و إثبات الألف بعدها كالعباده وزنا و معنى.

لكن الأوجه أنه كان يريد بقوله: مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي نفى إله يخص قومه القبطيين يملكهم و يدبر أمورهم غير نفسه كما هو المعهود من عقائد الوثنيين أن لكل صنف من أصناف الخلائق كالسماء و الأرض و البر و البحر و قوم كذا،أو من أصناف الحوادث و الامور كالسلم و الحرب و الحب و الجمال ربا على حده،و إنما كانوا يعبدون من بينها ما يهمهم عبادته كعباده سكان سواحل البحار رب البحر و الطوفان.

فمعنى كلامه أنى أنا ربكم معاشر القبطيين لا ما اتخذه موسى و هو يدعى أنه ربكم أرسله إليكم،و يؤيده ما ذكرناه ما احتف به من القرينه بقوله: مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي ،فإنه تعالى يقول: وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ يٰا أَيُّهَا الْمَلَأُ مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يٰا هٰامٰانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكٰاذِبِينَ (القصص/۳۸)،فظاهرها أنه كان يشك فى كونه إلها لموسى،و أن معنى قوله: مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي نفى العلم بوجود إله غيره لا العلم بعدم وجود إله غيره،و بالجمله فكلامه لا ينفى إلها غيره.

و قوله تعالى: قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ وعد منه للملإ من قومه أن يعيد الى بنى إسرائيل تعذيبه السابق و هو قتل أبنائهم و استحياء نسائهم و استبقاؤهن للخدمه،و عقبه بقوله: «وَ إِنّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ» و هو تطييب قلوبهم و إسكان ما فى نفوسهم من الاضطراب و الطيش.

قوله تعالى: قَالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّٰهِ وَ اصْبِرُوا الى آخر الآيه؛ و هذا من موسى عليه السّلام بعث لبنى إسرائيل و استنهاض لهم على الاستعانه باللّه على مقصدهم و هو التخلص من إساره آل فرعون و استعبادهم ثم بعث على الصبر على شدائد يهددهم بها فرعون من ألوان العذاب،و الصبر هو رائد الخير و فرط كل فرج؛ثم علل ذلك بقوله: «إِنَّ الْأَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُهٰا مَنْ يَشٰاءُ» .

و محصله أن فرعون لا يملك الأرض حتى يمنحها من يشاء،و يمنع من التمتع بها من يشاء بل هى للّه يورثها من يشاء،و قد جرت السنه الإلهيه أن يخص بحسن العاقبه من يتقيه من عباده فإن استعنتم باللّه و صبرتم فى ذات اللّه على ما يهددكم من الشدائد-و هو التقوى-أورثكم الأرض التى ترونها فى أيدى آل فرعون.

و لذلك عقب قوله: «إِنَّ الْأَرْضَ لِلّٰهِ» الآيه بقوله: «وَ الْعٰاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» العاقبه ما يعقب الشىء كالبادئه لما يبدأ بالشىء،و كون العاقبه مطلقا للمتقين من جهه أن السنه الإلهيه تقضى بذلك و ذلك أنه تعالى نظم الكون نظما يؤدى كل نوع الى غايه وجوده و سعادته التى خلق لأجلها فإن جرى على صراطه الذى ركب عليه،و لم يخرج عن خط مسيره الذى خط له بلغ غايه سعادته لا محاله،و الإنسان الذى هو أحد هذه الأنواع أيضا حاله هذا الحال إن جرى على صراطه الذى رسمته له الفطره و اتقى الخروج عنه و التعدى منه الى غير سبيل اللّه بالكفر بآياته و الإفساد فى أرضه هداه اللّه الى عاقبته الحسنه،و أحياه الحياه الطيبه،و أرشده الى كل خير يبتغيه.

قوله تعالى: قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا الإتيان و المجیء فی الآیه بمعنی واحد،و الاختلاف فی التعبیر للتفنن،و ما قیل إن المعنی من قبل أن تأتینا بالآیات و من بعد ما جئتنا لا دلیل علی ما فیه من التقدیر.علی أن غرضهم إظهار أن مجیء موسی و قد وعدوا أن اللّه ینجیهم بیده من مصیبه الإساره و هاویه المذله لم یؤثر أثره فإن الأذی الذی کانوا یحملونه و یؤذون به علی حاله،و لا تعلق لغرضهم بأنه أتاهم بالآیات البته.

و هذا الکلام شکوی منهم یبثونها الی موسی علیه السّلام.

قوله تعالی: قَالَ عَسیٰ رَبُّکُمْ أَنْ یُهْلِکَ عَدُوَّکُمْ وَ یَسْتَخْلِفَکُمْ فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرَ کَیْفَ تَعْمَلُونَ و هذا جواب من موسی عن قولهم: «أُوذِینَا» الخ؛یسلیهم به و یعزیهم بالرجاء،و هو فی الحقیقه تکرار لقوله السابق: «اسْتَعِینُوا بِاللّٰهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلّٰهِ» الآیه؛کأنه یقول:ما أمرتکم به أن اتقوا اللّه فی سبیل مقصدکم کلمه حیه ثابته فإن عملتم بها کان من المرجو أن یهلک اللّه عدوکم،و یستخلفکم فی الأرض بإیراثکم إیاها و لا یصطفیکم بالاستخلاف اصطفاء جزافا،و لا یکرمکم إکراما مطلقا من غیر شرط و لا قید بل لیمتحنکم بهذا الملک و یبتلیکم بهذا التسلیط و الاستخلاف فینظر کیف تعملون،قال تعالی:

وَ تِلْکَ الْأَیّٰامُ نُدٰاوِلُهٰا بَیْنَ النّٰاسِ وَ لِیَعْلَمَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ یَتَّخِذَ مِنْکُمْ شُهَدٰاءَ (آل عمران/۱۴۰).

و هذا مما یخطّئ به القرآن ما یعتقده الیهود من کرامتهم علی اللّه کرامه لا تقبل عزلا،و لا تحتمل شرطا و لا قیدا،و التوراه تعد شعب إسرائیل شعب اللّه الذی لهم الأرض المقدسه کأنهم ملکوها من اللّه سبحانه ملکا لا یقبل نقلا و لا إقاله.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَخَذْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِینَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرٰاتِ السنون جمع سنه و هی القحط و الجدب،و کأن أصله سنه القحط ثم قیل:السنه إشاره إلیها ثم کثر الاستعمال حتی تعینت السنه لمعنی القحط و الجدب.

و اللّه سبحانه يـذكر فى الآـيه-و يقسم-أنه أخـذ آل فرعون و هم قومه المختصون به من القبطين بالقحوط المعـدده و نقص من الثمرات لعلهم يذّكرون.

و هما نوعان من الآيات التى أرسلها اللّه الى آل فرعون،و ظاهر السياق أنه أرسل ما أرسل منهما فصلا فصلا،و لذا جمع السنين و لا يصدق الجمع إلا مع الفصل بين سنه و سنه.على

أنه يقول: «فَإِذٰا جٰاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قٰالُوا لَنٰا هٰذِهِ» الآيه؛و ظاهره الحسنه التى بعد السيئه ثم السيئه التى بعد هذه الحسنه.

قوله تعالى: فَإِذٰا جٰاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قٰالُوا لَنٰا هٰذِهِ الى آخر الآيه؛كانوا اذا جاءهم الخصب و وفور النعمه وسعه الرزق بعد ارتفاع السنه و نقص الثمرات قالوا: «لَنٰا هٰذِهِ» يريدون به الاختصاص و إنما قلنا:إنهم كانوا يقولون ذلك بعد ارتفاع السنه و نقص الثمرات لأن الإنسان بحسب الطبع لا ينتقل الى ذكر النعمه بما هى نعمه،و لا يتنبه لقـدرها إلا بعـد مشاهـده النقمه التى هى خلافها،و لا داعى يدعو آل فرعون الى ذكر النعمه الحسـنه و تخصيصها بأنفسهم لو لا أنهم رأوا خلافها وعدوه أمرا بدعا لم يكونوا رأوه قبل ذلك فاطيروا بموسى و من معه ثم اذا بدلت السيئه حسـنه عدوها لأنفسـهم فالتطير عند السيئه بحسب الوقوع قبل قولهم فى الحسنه:لنا هـذه و إن كـان الأمر بحسب الطبع على خلاف ذلك بمعنى أنهم لو لم يزعموا و لم يرتكز فى نفوسـهم من اعتيادهم بالرفاهيه و وفور النعمه و الخصب أنهم مخصوصون بذلك يملكونه لم يتطيروا بموسى عند نزول المصيبه عليهم فإن من لم تروحه الراحه و العافيه لا يتحرج عن خلافهما.

و لعـل هـذا هـو الـوجه فى تقـديمه تعالى اغـترارهم بـالنعمه قبـل تطيرهـم عنـد النقمـه ثـم ذكر الحسـنه بكلمـه«اذا»و السـيئه بلفظه«إن»حيث قـال: «فَإِذٰا جٰاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قٰالُوا لَنٰا هٰذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسىٰ وَ مَنْ مَعَهُ» فقـد جعل مجىء الحسـنه كالأصل الثابت فذكره بإذا و التعريف بلام الجنس،ثم ذكر إصابه السيئه بطريق الشرط،و نكر السيئه ليدل على ندرتها

ص:۵۵۵

و كونها اتفاقيه.

و التطير مشتق من الطير باعتبار اشتماله على نسبه من النسب،و هى نسبه التشؤم فإنهم كانوا يتشأمون ببعض الطيور كالغراب فاشتق منه ما يفيد معنى التشؤم و هو التطير و معناه التشؤم بالطير حتى سمى مطلق النصيب أو النصيب من الشر و الشأمه طائرا.

فقوله تعالى: «أَلاٰ إِنَّمٰا طٰائِرُهُمْ عِنْدَ اللّٰهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ» معناه أن نصيبهم من الشر و الشؤم الذى يحق به أن يسمى نصيب الشر و هو العذاب،هو عند اللّه،و لكن أكثرهم لا يعلمون لظنهم أن ما تجنيه أيديهم يفوت و يزول و لا يحفظ عليهم.

قوله تعالى: وَ قٰالُوا مَهْمٰا تَأْتِنٰا بِهِ مِنْ آيَهٍ لِتَسْحَرَنٰا بِهٰا فَمٰا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ مهما من أسماء الشرط معناه أى شىء،و قولهم هذا إياس منهم لموسى من أن يؤمنوا به و إن أتى بأى آيه و فى قولهم: «مِنْ آيَهٍ لِتَسْحَرَنٰا بِهٰا» استهزاء به حيث سموها آيه و جعلوا غرضه منها أن يسحرهم أى إنك تأتينا بالسحر و تسميها آيه.

قوله تعالى: فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمُ الطُّوفٰانَ وَ الْجَرٰادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفٰادِعَ وَ الدَّمَ آيٰاتٍ مُفَصَّلاٰتٍ الآيه؛الطوفان على ما قاله الراغب-كل حادثه تحيط بالإنسان،و صار متعارفا فى الماء المتناهى فى الكثره،و فى المجمع:أنه السيل الذى يعم بتغريقه الأرض و هو مأخوذ من الطوف فيها(انتهى).

و القمل بالضم و التشديد قيل:كبار القردان،و قيل:صغار الذباب و بالفتح فالسكون معروف،و الجراد و الضفادع و الدم معروفه.

و التفصيل تفريق الشىء الى أجزاء مفصوله منفصله بعضها عن بعض،و لازم ذلك تميز كل بعض و ظهوره فى نفسه فقوله: «آيٰاتٍ مُفَصَّلاٰتٍ» يدل على أنها أرسلت إليهم لا مجتمعه و دفعه بل متفرقه منفصله بعضها عن بعض ظاهره فى أنها آيات إلهيه مقصوده غير اتفاقيه و لا جزافيه.

ص:۵۵۶

و من الدليل على كون المفصلات بهذا المعنى قوله فى الآيه التاليه: «وَ لَمّٰا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قٰالُوا» الآيه؛الظاهر أن الآيه كانت تأتيهم عن إخبار من موسى و إنذار ثم اذا نزلت بهم و دهمتهم التجئوا إليه فسألوه أن يدعو لهم لتنكشف عنهم،و أعطوه عهدا إن كشفت عنهم آمنوا به و أرسلوا معه بنى إسرائيل فلما كشفت نكثوا و نقضوا و على هذا القياس.

قوله تعالى: وَ لَمّٰا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قٰالُوا يٰا مُوسَى ادْعُ لَنٰا رَبَّكَ الى آخر الآيه؛الرجز هو العذاب و يعنى به العذاب الذى كانت تشتمل عليه كل واحده من الآيات المفصلات فإنها آيات عذاب و نكال و قوله: «بِمٰا عَهِدَ عِنْدَكَ» على ما يؤيده المقام أى بما التزم عندك أن لا يرد دعاءك فيما تسأله،و اللام عندئذ للقسم،و المعنى ادع لنا ربك بالعهد الذى له عندك.

و قوله: لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِی إِسْرٰائِيلَ هو ما عاهدوا به موسى لكشف الرجز عنهم.

قوله تعالى: فَلَمّٰا كَشَفْنٰا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلىٰ أَجَلٍ هُمْ بٰالِغُوهُ إِذٰا هُمْ يَنْكُثُونَ النكث نقض العهد،و قوله: «إِلىٰ أَجَلٍ هُمْ بٰالِغُوهُ» متعلق بقوله: «كَشَفْنٰا» و هو يدل على أنه كان يضم الى معاهده أجل مضروب كأن يقول موسى عليه السّلام إن اللّه سيرفع العذاب عنكم بشرط أن تؤمنوا و ترسلوا معى بنى اسرائيل الى أجل كذا،أو يقول آل فرعون ما يشابه هذا المعنى فلما كشف العذاب عنهم و حل الأجل المضروب نكثوا و نقضوا عهدهم الذى عاهدوا اللّه و عاهدوا موسى عليه.و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنٰاهُمْ فِی الْيَمِّ اليم البحر،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كٰانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشٰارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغٰارِبَهَا الى آخر الآيه.الظاهر أن المراد بالأرض أرض الشام و فلسطين و يؤيده أو يدل عليه قوله بعد: «الَّتِی بٰارَكْنٰا فِيهٰا» فإن اللّه سبحانه لم يذكر بالبركه غير الأرض

المقدسه التی هی نواحی فلسطین إلا ما وصف به الکعبه المبارکه،و المعنی:أورثنا بنی إسرائیل و هم المستضعفون الأرض المقدسه بمشارقها و مغاربها،و انما ذکرهم بوصفهم فقال:القوم الذین کانوا یستضعفون لیدل علی عجیب صنعه تعالی فی رفع الوضیع، و تقویه المستضعف،و تملیکه من الأرض ما لا یقدر علی مثله عاده الا کل قوی ذو أعضاد و أنصار.

و قوله: وَ تَمَّتْ کَلِمَتُ رَبِّکَ الْحُسْنیٰ الآیه؛یرید به ما قضاه فی حقهم أنه سیورثهم الأرض و یهلک عدوهم،و الیه اشاره موسی علیه السّلام فی قوله لهم و هو یسلیهم و یؤکد رجاءهم: «عَسیٰ رَبُّکُمْ أَنْ یُهْلِکَ عَدُوَّکُمْ وَ یَسْتَخْلِفَکُمْ فِی الْأَرْضِ» و یشیر سبحانه الیه فی قوله: وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی الَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّهً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوٰارِثِینَ (القصص۵/)،و تمام الکلمه خروجها من مرحله القوه الی مرحله الفعلیه،و علل ذلک بصبرهم.

و قوله: وَ دَمَّرْنٰا مٰا کٰانَ یَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ الآیه؛أی أهلکنا ما کانوا یصنعونه و ما کانوا یسقفونه من القصور و الأبنیه و ما کانوا یعرشونه من الکرم و غیره (۱).

[سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۳۸ الی ۱۵۴]

اشاره

وَ جٰاوَزْنٰا بِبَنِی إِسْرٰائِیلَ اَلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلیٰ قَوْمٍ یَعْکُفُونَ عَلیٰ أَصْنٰامٍ لَهُمْ قٰالُوا یٰا مُوسَی اجْعَلْ لَنٰا إِلٰهاً کَمٰا لَهُمْ آلِهَهٌ قٰالَ إِنَّکُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۱۳۸) إِنَّ هٰؤُلاٰءِ مُتَبَّرٌ مٰا هُمْ فِیهِ وَ بٰاطِلٌ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۱۳۹) قٰالَ أَ غَیْرَ اَللّٰهِ أَبْغِیکُمْ إِلٰهاً وَ هُوَ فَضَّلَکُمْ عَلَی اَلْعٰالَمِینَ (۱۴۰) وَ إِذْ أَنْجَیْنٰاکُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ یَسُومُونَکُمْ سُوءَ اَلْعَذٰابِ یُقَتِّلُونَ أَبْنٰاءَکُمْ وَ یَسْتَحْیُونَ نِسٰاءَکُمْ وَ فِی ذٰلِکُمْ بَلاٰءٌ مِنْ رَبِّکُمْ عَظِیمٌ (۱۴۱) وَ وٰاعَدْنٰا مُوسیٰ ثَلاٰثِینَ لَیْلَهً وَ أَتْمَمْنٰاهٰا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِیقٰاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِینَ لَیْلَهً وَ قٰالَ مُوسیٰ لِأَخِیهِ هٰارُونَ اُخْلُفْنِی فِی قَوْمِی وَ أَصْلِحْ وَ لاٰ تَتَّبِعْ سَبِیلَ اَلْمُفْسِدِینَ (۱۴۲) وَ لَمّٰا جٰاءَ مُوسیٰ لِمِیقٰاتِنٰا وَ کَلَّمَهُ رَبُّهُ قٰالَ رَبِّ أَرِنِی أَنْظُرْ إِلَیْکَ قٰالَ لَنْ تَرٰانِی وَ لٰکِنِ اُنْظُرْ إِلَی اَلْجَبَلِ فَإِنِ اِسْتَقَرَّ مَکٰانَهُ فَسَوْفَ تَرٰانِی فَلَمّٰا تَجَلّٰی رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَکًّا وَ خَرَّ مُوسیٰ صَعِقاً فَلَمّٰا أَفٰاقَ قٰالَ سُبْحٰانَکَ تُبْتُ إِلَیْکَ وَ أَنَا أَوَّلُ اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۴۳) قٰالَ یٰا مُوسیٰ إِنِّی اِصْطَفَیْتُکَ عَلَی اَلنّٰاسِ بِرِسٰالاٰتِی وَ بِکَلاٰمِی فَخُذْ مٰا آتَیْتُکَ وَ کُنْ مِنَ اَلشّٰاکِرِینَ (۱۴۴) وَ کَتَبْنٰا لَهُ فِی اَلْأَلْوٰاحِ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ مَوْعِظَهً وَ تَفْصِیلاً لِکُلِّ شَیْءٍ فَخُذْهٰا بِقُوَّهٍ وَ أْمُرْ قَوْمَکَ یَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهٰا سَأُرِیکُمْ دٰارَ اَلْفٰاسِقِینَ (۱۴۵) سَأَصْرِفُ عَنْ آیٰاتِیَ اَلَّذِینَ یَتَکَبَّرُونَ فِی اَلْأَرْضِ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ وَ إِنْ یَرَوْا کُلَّ آیَهٍ لاٰ یُؤْمِنُوا بِهٰا وَ إِنْ یَرَوْا سَبِیلَ اَلرُّشْدِ لاٰ یَتَّخِذُوهُ سَبِیلاً وَ إِنْ یَرَوْا سَبِیلَ اَلْغَیِّ یَتَّخِذُوهُ سَبِیلاً ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ کٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِینَ (۱۴۶) وَ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ لِقٰاءِ اَلْآخِرَهِ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ هَلْ یُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۱۴۷) وَ اِتَّخَذَ قَوْمُ مُوسیٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِیِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوٰارٌ أَ لَمْ یَرَوْا أَنَّهُ لاٰ یُکَلِّمُهُمْ وَ لاٰ یَهْدِیهِمْ سَبِیلاً اِتَّخَذُوهُ وَ کٰانُوا ظٰالِمِینَ (۱۴۸) وَ لَمّٰا سُقِطَ فِی أَیْدِیهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قٰالُوا لَئِنْ لَمْ یَرْحَمْنٰا رَبُّنٰا وَ یَغْفِرْ لَنٰا لَنَکُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِینَ (۱۴۹) وَ لَمّٰا رَجَعَ مُوسیٰ إِلیٰ قَوْمِهِ غَضْبٰانَ أَسِفاً قٰالَ بِئْسَمٰا خَلَفْتُمُونِی مِنْ بَعْدِی أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّکُمْ وَ أَلْقَی اَلْأَلْوٰاحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِیهِ یَجُرُّهُ إِلَیْهِ قٰالَ اِبْنَ أُمَّ إِنَّ اَلْقَوْمَ اِسْتَضْعَفُونِی وَ کٰادُوا یَقْتُلُونَنِی فَلاٰ تُشْمِتْ بِیَ اَلْأَعْدٰاءَ وَ لاٰ تَجْعَلْنِی مَعَ اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِینَ (۱۵۰) قٰالَ رَبِّ اِغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی وَ أَدْخِلْنٰا فِی رَحْمَتِکَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ اَلرّٰاحِمِینَ (۱۵۱) إِنَّ اَلَّذِینَ اِتَّخَذُوا اَلْعِجْلَ سَیَنٰالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّهٌ فِی اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ کَذٰلِکَ نَجْزِی اَلْمُفْتَرِینَ (۱۵۲) وَ اَلَّذِینَ عَمِلُوا اَلسَّیِّئٰاتِ ثُمَّ تٰابُوا مِنْ بَعْدِهٰا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۵۳) وَ لَمّٰا سَکَتَ عَنْ مُوسَی اَلْغَضَبُ أَخَذَ اَلْأَلْوٰاحَ وَ فِی نُسْخَتِهٰا هُدیً وَ رَحْمَهٌ لِلَّذِینَ هُمْ لِرَبِّهِمْ یَرْهَبُونَ (۱۵۴)

۱- ۱) .الاعراف ۱۲۷-۱۳۷:بحث روائی فی ما ارسل اللّه علی قوم فرعون.

بيان:

قوله تعالی: وَ جَاوَزْنَا بِبَنِی إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَیٰ قَوْمٍ الآيه؛العکوف الإقبال علی الشیء و ملازمته علی سبيل التعظيم.ذکره الراغب فی المفردات،و قولهم «اجْعَلْ لَنَا إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ» أی کما لهم آلهه مجعوله.

کان بنو إسرائيل علی شريعه جدهم إبراهيم عليه السّلام،و قد خلا فيهم من الأنبياء إسحاق و يعقوب و يوسف،و هم علی دين التوحيد الذی لا يعبد فيه إلا اللّه سبحانه وحده لا شريک له المتعالی عن أن يکون جسما أو جسمانيا يعرض له شکل أو قدر غير أن بنی إسرائيل کما يستفاد من قصصهم کانوا قوما ماديين حسيين يجرون فی حياتهم علی أصاله الحس و لا يعتنون بما وراء الحس إلا اعتناء تشريفيا من غير أصاله و لا حقيقه،و قد مکثوا تحت إساره القبط سنين متطاوله،و هم يعبدون الأوثان فتأثرت من ذلک أرواحهم و إن کانت العصبيه القوميه تحفظ لهم دين آبائهم بوجه.

و لذلک کان جلهم لا يتصورون من اللّه سبحانه إلا أنه جسم من الأجسام بل جوهر ألوهی يشاکل الإنسان کما هو الظاهر المستفاد من التوراه الدائره اليوم،و کلما کان موسی يقرب الحق من أذهانهم حولوه الی أشکال و تماثيل يتوهمون له تعالی،لهذه العله لما شاهدوا فی مسيرهم قوما يعکفون علی أصنام لهم استحسنوا مثل ذلک لأنفسهم فسألوا موسی عليه السّلام أن يجعل لهم إلها کما لهم آلهه يعکفون عليها.

فلم يجد موسی عليه السّلام بدا من أن يتنزل فی بيان توحيد اللّه سبحانه الی ما يقارب أفهامهم علی قصورها فلامهم أولا علی جهلهم بمقام ربهم مع وضوح أن طريق الوثنيه طريق باطل هالک

ثم عرف لهم ربهم بالصفه،و أنه لا يقبل صنما و لا يحد بمثال كما سيجیء.

قوله تعالی: إِنَّ هٰؤُلاٰءِ مُتَبَّرٌ مٰا هُمْ فِيهِ وَ بٰاطِلٌ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ المتبر من التبار و هو الهلاک،و المراد بقوله: «مٰا هُمْ فِيهِ» سبيلهم الذی يسلكونه و هو عباده الأصنام و المراد بقوله: «مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ» أعمالهم العباديه،و المعنی أن هؤلاء الوثنيه طريقتهم هالكه و أعمالهم باطله فلا يحق أن يميل إليه إنسان عاقل لأن الغرض من عباده اللّه سبحانه أن يهتدی به الإنسان الی سعاده دائمه و خير باق.

قوله تعالی: قٰالَ أَ غَيْرَ اللّٰهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعٰالَمِينَ «أَبْغِيكُمْ» أی أطلب لكم و ألتمس،يعرف ربهم و يصفه لهم،و قوله: «أَ غَيْرَ اللّٰهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهاً» فيه تأسيس أن كل إله أبغيه لكم بجعل أو صنع فإنما هو غير اللّه سبحانه،و الذی يجب عليكم أن تعبدوا اللّه ربكم بصفه الربوبيه التی هی تفضيله إياكم علی العالمين.

فكأنهم قالوا:اجعل لنا إلها كما لهم آلهه فقال:كيف ألتمس لكم ربا مصنوعا و هو غير اللّه ربكم،و إذا كان غيره فعبادته متبره باطله؟فقالوا:فكيف نعبده و لا نراه و لا سبيل لنا إلی ما لا نشاهده؟كما يقوله عبده الأصنام.فقال:اعبدوه بما تعرفونه من صفته فإنه فضلكم علی سائر الامم بآياته الباهره و دينه الحق و إنجائكم من فرعون و عمله،فالآيه-كما تری-ألطف بيان و أوجز برهان يجلی عن الحق الصريح للأذهان الضعيفه التعقل.

قوله تعالی: وَ إِذْ أَنْجَيْنٰاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذٰابِ إلی آخر الآيه؛سامه العذاب يسومه أی حمله ذلک علی طريق الإذلال،و التقتيل الإكثار فی القتل و الاستحياء الاستبقاء للخدمه و قد تقدم،و الظاهر أن قوله: «وَ فِی ذٰلِكُمْ» إشاره إلی ما ذكر من سوء تعذيب آل فرعون لهم.

و الآيه خطاب امتنانی للموجودين من أخلافهم حين النزول يمتن اللّه فيها عليهم بما منّ به علی آبائهم فی زمن فرعون كما قيل،و الأنسب بالسياق أن يكون خطابا لأصحاب موسی

بعينهم مسوقا سوق التعجب إذا نسوا عظيم نعمه اللّه عليهم اذ أنجاهم من تلك البليه العظيمه، و نظيره فى الغيبه قوله تعالى فيما سيأتى: «أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاٰ يُكَلِّمُهُمْ وَ لاٰ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً» .

قوله تعالى: وَ وٰاعَدْنٰا مُوسىٰ ثَلاٰثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنٰاهٰا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقٰاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً الى آخر الآيه؛الميقات قريب المعنى من الوقت،قال فى المجمع:الفرق بين الميقات و الوقت أن الميقات ما قدر ليعمل فيه عمل من الأعمال،و الوقت وقت الشىء و قدره، و لذلك قيل:مواقيت الحج و هى المواضع التى قدرت للإحرام فيها(انتهى).

و قد ذكر اللّه سبحانه المواعده و أخذ أصلها ثلاثين ليله ثم أتمها بعشر ليال أخر ثم ذكر الفذلكه و هى أربعون،و أما الذى ذكره فى موضع آخر إذ قال: وَ إِذْ وٰاعَدْنٰا مُوسىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً (البقره۵۱/)فهو المجموع المتحصل من المواعدتين أعنى أن آيه البقره تدل على أن مجموع الأربعين كان عن مواعده،و آيه الأعراف على أن ما فى آيه البقره مجموع المواعدتين.

و بالجمله يعود المعنى إلى أنه تعالى وعده ثلاثين ليله للتقريب و التكليم ثم وعده عشرا آخر لإتمام ذلك فتم ميقات ربه اربعين ليله،و لعله ذكر الليالى دون الأيام-مع أن موسى مكث فى الطور الأربعين بأيامها و لياليها،و المتعارف فى ذكر المواقيت و الأزمنه ذكر الأيام دون الليالى-لأن الميقات كان للتقرب الى اللّه سبحانه و مناجاته و ذكره،و ذلك أخص بالليل و أنسب لما فيه من اجتماع الحواس عن التفرق و زياده تهيؤ النفس للانس و قد كان من بركات هذا الميقات نزول التوراه.

و هذا كما يشير إلى مثله قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاّٰ قَلِيلاً -إلى أن قال- إِنّٰا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً إِنَّ نٰاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلاً إِنَّ لَكَ فِي النَّهٰارِ سَبْحاً طَوِيلاً (المزمل۷/)،و قوله تعالى: «وَ قٰالَ مُوسىٰ لِأَخِيهِ هٰارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي» إنما قاله حين ما كان يفارقهم للميقات،و الدليل على ذلك قوله: «اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي» فإن الاستخلاف لا يكون إلا فى غيبه.و إنما عبر بلفظ «قَوْمِي» دون بنى إسرائيل لتجرى القصه على سياق

سائر القصص المذکوره فی هذه السوره فقد حکی فیها عن لفظ نوح و هود و صالح و غیرهم:یا قوم یا قوم،و علی ذلک أجریت هذه القصه فعبر فیها عن بنی إسرائیل فی بضعه مواضع بلفظ القوم،و قد عبر عنهم فی سوره طه ببنی إسرائیل.

و أما قوله لأخیه ثانیا: «وَ أَصْلِحْ وَ لاٰ تَتَّبِعْ سَبِیلَ الْمُفْسِدِینَ» فهو أمر له بالإصلاح و أن لا یتبع سبیل أهل الفساد،و هارون نبی مرسل معصوم لا تصدر عنه المعصیه،و لا یتأتی منه اتباع أهل الفساد فی دینهم،و موسی علیه السّلام أعلم بحال أخیه فلیس مراده نهیه عن الکفر و المعصیه بل أن لا یتبع فی إداره أمور قومه ما یشیر إلیه و یستصوبه المفسدون من القوم أیام خلافته ما دام موسی غائبا.

و من الدلیل علیه قوله: «وَ أَصْلِحْ» فإنه یدل علی أن المراد بقوله: «وَ لاٰ تَتَّبِعْ سَبِیلَ الْمُفْسِدِینَ» أن یصلح أمرهم و لا یسیر فیهم سیره هی سبیل المفسدین الذی یستحسنونه و یشیرون إلیه بذلک.

و من هنا یتأید أنه کان فی قومه یومئذ جمع من المفسدین یفسدون و یقلبون علیه الامور و یتربصون به الدوائر فنهی موسی أخاه أن یتبع سبیلهم فیشوشوا علیه الأمر و یکیدوا و یمکروا به فیتفرق جمع بنی إسرائیل و یتشتت شملهم بعد تلک المحن و الأذایا التی کابدها فی إحیاء کلمه الاتحاد بینهم.

قوله تعالی: وَ لَمّٰا جٰاءَ مُوسیٰ لِمِیقٰاتِنٰا وَ کَلَّمَهُ رَبُّهُ قٰالَ رَبِّ أَرِنِی أَنْظُرْ إِلَیْکَ قٰالَ لَنْ تَرٰانِی وَ لٰکِنِ انْظُرْ إِلَی الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَکٰانَهُ فَسَوْفَ تَرٰانِی الآیه؛التجلی مطاوعه التجلیه من الجلاء بمعنی الظهور،والدک هو أشد الدق،و جعله دکا أی مدکوکا و الخرور هو السقوط،و الصعقه هی الموت أو الغشیه بجمود الحواس و بطلان إدراکها، و الإفاقه الرجوع إلی حال سلامه العقل و الحواس یقال:أفاق من غشیته أی رجع إلی حال استقامه الشعور و الإدراک.

ص :۵۶۴

و معنى الآيه على ما يستفاد من ظاهر نظمها أنه «لَمّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا» الـذى وقتناه له «وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ» بكلامه «قالَ» أى موسى «رَبِّ أَرِنِی أَنْظُرْ إِلَيْكَ» أى أرنى نفسك انظر إليك أى مكنى من النظر إليك حتى انظر إليك و أراك فإن الرؤيه فرع النظر،و النظر فرع التمكين من الرؤيه و التمكن منها، «قالَ» اللّه تعالى لموسى: «لَنْ تَرانِی» أبدا «وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَی الْجَبَلِ» و كان جبلا بحياله مشهودا له أشير إليه بلام العهد الحضورى: «وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَی الْجَبَلِ فإن استقر مكانه و أطاق رؤيتى فاعلم أنك تطيق النظر إلى و رؤيتى «فَلَمّا تَجَلّی» و ظهر «رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ» بتجليه «دَكًّا» مدكوكا متلاشيا فى الجو أو سائحا «وَ خَرَّ مُوسی صَعِقاً» ميتا أو مغشيا عليه من هول ما رأى «فَلَمّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ» رجعت إليك مما اقترحته عليك «وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» بأنك لا ترى.هذا ظاهر ألفاظ الآيه.

و الذى يعطيه التدبر فيها أن حديث الرؤيه و النظر الذى وقع فى الآيه اذا عرضناه على الفهم العامى المتعارف حمله على رؤيه العين و نظر الإبصار،و لا نشك و لن نشك أن الرؤيه و الإبصار يحتاج الى عمل طبيعى فى جهاز الإبصار يهيئ للباصر صوره مماثله لصوره الجسم المبصر فى شكله و لونه.

و بالجمله هذا الذى نسميه الإبصار الطبيعى يحتاج الى ماده جسميه فى المبصر و الباصر جميعا،و هذا لا شك فيه.

قوله تعالى: قالَ يا مُوسی إِنِّی اصْطَفَيْتُكَ عَلَی النّاسِ بِرِسالاتِی وَ بِكَلامِی فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ المراد باصطفاء الاختيار على وجه التصفيه،و لذلك عدى الى الناس بعلى،و المراد بالرسالات هو ما حمل من الأوامر و النواهى الإلهيه من المعارف و الحكم و الشرائع ليبلغه الناس سواء كان التحميل بواسطه ملك أو بتكليم بلا واسطه ملك فهى غير الكلام و إن حملت بكلام فإن الكلام أمر،و المعانى التى يتلقاها السامع منه أمر آخر.

و المراد بالکلام هو ما شافه به اللّه سبحانه من غیر واسطه ملک و بعباره أخری هو ما یکشف به عن مکنون الغیب،و اما أن یکون من نوع الکلام الدائر بیننا معاشر الإنسان فلا فإن الکلام عندنا هو أنا نصطلح و نتعهد فیما بیننا علی تخصیص صوت مخصوص من الأصوات لمعنی من المعانی لینتقل ذهن السامع الی ذلک المعنی ثم نتوسل عند إراده تفهیمه الی إیجاد تموج خاص فی الهواء یبتدی منا و ینتهی الی السامع لننقل به ما فی ضمیرنا الی ضمیر السامع المخاطب و التکلم بهذا الوجه یستلزم التجسم فی المتکلم و اللّه سبحانه منزه عنه،و مجرد إیجاد الصوت و تمویج الهواء بإیجاد أسباب الصوت فی مکان لا یدل علی کون المعانی التی ینتقل إلیها الذهن مقصوده للّه سبحانه ما لم تکشف الإراده بأمر آخر وراء نفس الصوت کما أن من أوجد منا بدق أو ضرب أو نحوهما صوتا یدل علی معنی لم نحکم بإرادته ذلک ما لم یکشف من حاله أو مقاله قبلا أنه قاصد لمعنی ما یوجده من الأصوات.

و ما کلم به اللّه سبحانه موسی علیه السّلام مما حکاه القرآن الشریف خال عن سؤال الدلیل عن کونه کلامه،و علی کونه تعالی مریدا لمعناه فلم یسأل موسی ربه حین سمع النداء من جانب الطور الأیمن من الشجره:هل هذا منک یا رب؟و هل أنت مرید معناه؟بل أیقن بذلک إیقانا، و نظیر الکلام جار فی سائر أقسام الوحی غیر الکلام.

و هذا یکشف کشفا قطعیا عن ارتباط خاص من السامع بإراده مصدر الکلام و الوحی یوجب الانتقال الی المعنی المقصود و إلا فمجرد صدور صوت له معنی مفهوم فی اللغه منه تعالی لا- یستلزم صحه الانتساب إلیه تعالی و لا کونه کلامه کیف؟و جمیع الألفاظ الصادره من المتکلمین بما أنها أصوات تنتهی إلیه تعالی و لیست کلاما له تعالی بل المتکلم بها غیره، و کثیرا ما یحدث من تصادم الأجسام المختلفه أصوات ذوات معان فی اللغه و لا نعده کلاما له تعالی.

و بالجمله تکلیمه تعالی هو إیجاده اتصالا و ارتباطا خاصا بین مخاطبه و بین الغیب ینتقل به

بمشاهده بعض مخلوقاته الی معنی مراد،و لا نمنع مقارنه ذلک بأصوات یوجدها اللّه تعالی فی خارج أو سمع أو غیر ذلک،و قد تقدم بعض الکلام فی الکلام فیما تقدم.و سیأتی منه تتمه فی تفسیر سوره الشوری إن شاء اللّه تعالی.

و کیف کان فقوله تعالی: «قٰالَ یٰا مُوسیٰ إِنِّی اصْطَفَیْتُکَ» الآیه.وارد فی مورد الامتنان و موعظه لموسی علیه السّلام أن یکتفی بما اصطفاه اللّه به من رسالاته و کلامه و یشکره و لا یستزید.

قوله تعالی: وَ کَتَبْنٰا لَهُ فِی الْأَلْوٰاحِ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ مَوْعِظَهً وَ تَفْصِیلاً لِکُلِّ شَیْءٍ الآیه؛اللوح صحیفه معده للکتابه فیه لأنه یلوح و یظهر بما فیه من الخط و أصله من لاح البرق اذا لمع.

و قوله: مِنْ کُلِّ شَیْءٍ من فیه للتبعیض کما یؤیده السیاق اللاحق،و قوله «مَوْعِظَهً» الظاهر أنه بیان لکل شیء،و یعطف علیه قوله: «وَ تَفْصِیلاً لِکُلِّ شَیْءٍ» و تنکیر قوله: «تَفْصِیلاً» لإفاده الإبهام و التبعیض،و یؤول المعنی الی مثل قولنا:و کتبنا لموسی فی الألواح و هی التوراه النازله مختارات من کل شیء و نعنی بذلک أنا کتبنا له موعظه و تفصیلا ما و تشریحا ما لکل شیء حسب ما یحتاج إلیها قومه فی الاعتقاد و العمل.

ففی الکلام دلاله علی أن التوراه لم تستکمل جمیع ما تمس به حاجه البشر من المعارف و الشرائع،و هو کذلک کما یدل علیه أیضا قوله تعالی بعد ذکر التوراه و الإنجیل: وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ الْکِتٰابِ وَ مُهَیْمِناً عَلَیْهِ (المائده/۴۸)،و قد تقدم تفسیره.

قوله: فَخُذْهٰا بِقُوَّهٍ وَ أْمُرْ قَوْمَکَ یَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهٰا عطف تفریع علی قوله «وَ کَتَبْنٰا لَهُ فِی الْأَلْوٰاحِ» الآیه؛لأنه مشعر بمعنی القول،و التقدیر:و قلنا إنا کتبنا لک فی الألواح من کل شیء فخذها بقوه.

و الأخذ بالقوه کنایه عن الأخذ بالجد و الحزم فإن من یجد و یحزم فی أمر یستعمل ما عنده

من القوه فيه حذرا أن يفوته فالأخذ بالقوه لازم الأخذ بالجد و الحزم كنى به عنه.

و قوله: وَ أْمُرْ قَوْمَکَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهٰا الظاهر أن الضمير فى «بِأَحْسَنِهٰا» راجع الى الأشياء المدلول عليها بقوله قبلا: «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» من المواعظ و تفاصيل الآداب و الشرائع و الأخذ بالأحسن كنايه عن ملازمه الحسن فى الامور و اتباعه و اختياره فإن من يهم بأمر الحسن فى الامور اذا وجد سيئا و حسنا اختار الحسن الجميل،و اذا وجد حسنا و أحسن منه اضطره حب الجمال الى اختيار الأحسن و تقديمه عن الحسن فالأخذ بأحسن الامور لازم حب الجمال و ملازمه الحسن فكنى به عنه،و المعنى:و أمر قومك يجتنبوا السيئات و يلازموا ما تهدى إليه التوراه من الحسنات،و نظير الآيه فى التكنيه قوله تعالى: اَلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدٰاهُمُ اللّٰهُ وَ أُولٰئِکَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبٰابِ (الزمر١٨/).

و قوله: سَأُرِيكُمْ دٰارَ الْفٰاسِقِينَ ظاهر السياق أن المراد بهؤلاء الفاسقين هم الذين يفسقون بعدم ائتمار قوله: «وَ أْمُرْ قَوْمَکَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهٰا» على ما تقدم من معناه من ملازمه طريق الإحسان فى الامور و اتباع الحق و الرشد فإن من فسق عن الطريق صرفه اللّه عن الصراط المستقيم الى تتبع السيئات و الميل عن الرشد الى الغى كما يفصله فى الآيه التاليه فكانت عاقبه أمره خسرانا و آل أمره الى الهلاك.

و على هذا فما فى الآيه التاليه: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيٰاتِيَ» الآيه؛تفسير أو كالتفسير لقوله «سَأُرِيكُمْ دٰارَ الْفٰاسِقِينَ» و قيل المراد بدار الفاسقين جهنم،و فى الكلام تهديد و تحذير،و قيل المراد بها منازل فرعون و قومه بمصر،و قيل:منازل عاد و ثمود،و قيل المراد دار العمالقه و غيرهم بالشام و أن اللّه سيدخلهم فيها فيرونها،و قيل:المراد سيجيئكم قوم فساق تكون الدوله لهم عليكم.

قوله تعالى: سَأَصْرِفُ عَنْ آيٰاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَهٍ لاٰ يُؤْمِنُوا بِهٰا الآيه؛تقييد التكبر فى الأرض بغير الحق مع أن التكبر فيها لا يكون إلا بغير الحق كتقييد البغى فى الأرض بغير الحق للتوضيح لا للاحتراز و يراد به الدلاله على وجه الذم فى العمل و أن التكبر كالبغى مذموم لكونه بغير الحق.

و أما ما قيل:إن القيد احترازى للدلاله على أن المراد هو التكبر المذموم دون التكبر الممدوح كالتكبر على أعداء اللّه و التكبر على المتكبر،و هو تكبر بالحق ففيه أن المذكور فى الآيه ليس مطلق التكبر بل التكبر فى الأرض،و هو الاستعلاء على عباد اللّه و استذلالهم و التغلب عليهم،و هذا لا يكون إلا بغير الحق.

و قوله: وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَهٍ لاٰ يُؤْمِنُوا بِهٰا عطف على قوله: «يَتَكَبَّرُونَ» و بيان لأحد أوصافهم و هو الإصرار على الكفر و التكذيب.

و كذا قوله: وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاٰ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً الآيه؛و تكرار الجملتين المثبته و المنفيه بجميع خصوصياتهما للدلاله على اعتنائهم الشديد و مراقبتهم الدقيقه على مخالفه سبيل الرشد و اتباع سبيل الغى بحيث لا يعذرون بخطإ و لا يحتمل فى حقهم جهل أو اشتباه.

و قوله: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا الى آخر الآيه؛تعليل لما تحقق فيهم من رذائل الصفات أى إنما جروا على ما جروا بسبب تكذيبهم لآياتنا و غفلتهم عنها،و من المحتمل أن يكون تعليلا لقوله تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيٰاتِيَ» .

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ لِقٰاءِ الْآخِرَهِ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ معنى الآيه ظاهر و يتحصل منها:

أولا:أن الجزاء هو نفس العمل و قد تقدم توضيحه كرارا فى أبحاثنا السابقه.

و ثانيا:أن الحبط من الجزاء فإن الجزاء بالعمل و اذا كان العمل حابطا فإحباطه هو الجزاء، و الحبط إنما يتعلق بالأعمال التى فيها جهه حسن فتكون نتيجه إحباط الحسنات ممن له

حسنات و سيئات أن يجزى بسيئاته جزاء سيئا و يجزى بحسناته بإحباطها فيتمحض له الجزاء السيئ.

و يمكن أن تنزل الآيه على معنى آخر و هو أن يكون المراد بالجزاء،الجزاء الحسن و قوله «هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاّ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ» كنايه عن أنهم لا يثابون بشىء اذ لا عمل من الأعمال الصالحه عندهم لمكان الحبط قال تعالى: وَ قَدِمْنٰا إِلىٰ مٰا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنٰاهُ هَبٰاءً مَنْثُوراً (الفرقان/٢٣)،و الدليل على كون المراد بالجزاء هو الثواب أن هذا الجزاء هو جزاء الأعمال المذكوره فى الآيه قبلا،و المراد بها بقرينه ذكر الحبط هى الأعمال الصالحه.

قوله تعالى: وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوٰارٌ الى آخر الآيه،الحلى على فعول جمع حلى كالثدى جمع ثدى،و هو ما يتحلى و يتزين به من ذهب أو فضه أو نحوهما،و العجل ولد البقره،و الخوار صوت البقره خاصه،و فى قوله تعالى: «جَسَداً لَهُ خُوٰارٌ» -و هو بيان للعجل-دلاله على أنه كان غير ذى حياه و إنما وجدوا عنده خوارا كخوار البقر.

و الآيه و ما بعده تذكر قصه عباده بنى إسرائيل العجل بعد ما ذهب موسى الى ميقات ربه و استبطئوا رجوعه إليهم،فكادهم السامرى و أخذ من حليهم فصاغ لهم عجلا من ذهب له خوار كخوار العجل و ذكر لهم أنه إلههم و إله موسى فسجدوا له و اتخذوه إلها،و قد فصل اللّه سبحانه القصه فى سوره طه تفصيلا،و الذى ذكره فى هذه الآيات من هذه السوره لا يستغنى عما هناك،و هو يؤيد نزول سوره طه قبل سوره الأعراف.

و كيف كان فقوله: «وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً» معناه اتخذ قوم موسى من بعد ذهابه لميقات ربه قبل أن يرجع-فإنه سيذكر رجوعه إليهم غضبان-عجلا فعبدوه، و كان هذا العجل الذى اتخذوه «جَسَداً لَهُ خُوٰارٌ» ثم ذمهم اللّه سبحانه بأنهم لم يعبئوا بما هو ظاهر جلى بين عند العقل فى أول نظرته أنه لو كان هو اللّه سبحانه لكلمهم و لهداهم السبيل

فقال تعالى: «أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاٰ يُكَلِّمُهُمْ وَ لاٰ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً» .

و إنما ذكر من صفاته المنافيه للالوهيه عدم تكليمه إياهم و عدم هدايته لهم و سكت عن سائر ما فيه كالجسميه و كونه مصنوعا و محدودا ذا مكان و زمان و شكل الى غير ذلك مع أن الجميع ينافى الالوهيه لأن هاتين الصفتين أعنى التكليم و الهدايه من أوضح ما تستلزمه الالوهيه من الصفات عند من يتخذ شيئا إلها اذ من الواجب أن يعبده بما يرتضيه و يسلك إليه من طريق يوصل إليه،و لا يعلم ذلك إلا من قبل الإله بوجه فهو الذى يجب أن يهديه الى طريق عبادته بنوع من التكليم و التفهيم،و قد رأوا أنه لا يكلمهم و لا يهديهم سبيلا.

على أنهم عهدوا من موسى أن اللّه سبحانه يكلمه و يهديه،و يكلمهم و يهديهم بواسطته، و قد قالوا حين أخرج السامرى لهم العجل: هٰذٰا إِلٰهُكُمْ وَ إِلٰهُ مُوسىٰ (طه/٨٨)،فلو كان العجل هو الذى أومأ إليه السامرى لكلمهم و هداهم سبيلا.

و بالجمله فقد كان من الواضح البين عند عقولهم لو عقلوا أنه ليس هو،و لذلك أردفه بقوله: «اتَّخَذُوهُ وَ كٰانُوا ظٰالِمِينَ» .كأنه قيل:فلم اتخذوه و أمره بذاك الوضوح،فقيل: «اتَّخَذُوهُ وَ كٰانُوا ظٰالِمِينَ» .

قوله تعالى: وَ لَمّٰا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا الى آخر الآيه؛قال فى المجمع:معنى «سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ» وقع البلاء فى أيديهم أى وجدوه وجدان من يده فيه يقال ذلك للنادم عند ما يجده مما كان خفى عليه،و يقال:سقط فى يده،و أسقط فى يده و بغير ألف أفصح،و قيل:معناه صار الذى يضر به ملقى فى يده انتهى.

قوله تعالى: وَ لَمّٰا رَجَعَ مُوسىٰ إِلىٰ قَوْمِهِ غَضْبٰانَ أَسِفاً الى آخر الآيه؛ الأسف بكسر السين صفه مشبهه من الأسف و هو شده الغضب و الحزن و الخلافه القيام بالأمر بعد غيره،و العجله طلب الشىء و تحريه قبل أوانه على ما ذكره الراغب يقال:عجلت أمرا كذا أى طلبته قبل أوانه الذى له بحسب الطبع فمعنى الآيه:و لما رجع موسى الى قومه و هو فى حال

غضب و أسف لما أخبره اللّه تعالى لدى الرجوع بأن قومه ضلوا بعباده العجل بعده فوبخهم و ذمهم بما صنعوا و قال:بئسما خلفتمونی من بعدی أعجلتم أمر ربکم و طلبتموه قبل بلوغ أجله،و هو أمر من بیده خیرکم و صلاحکم و لا یجری أمرا إلا علی ما یقتضیه حکمته البالغه، و لا یؤثر فیه عجله غیره و لا طلبه و لا رضاه إلا بما شاء،و الظاهر أن المراد بأمر ربهم أمره الذی لأجله واعد موسی لمیقاته،و هو نزول التوراه.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی وَ أَدْخِلْنٰا فِی رَحْمَتِکَ الآیه؛دعاء منه علیه السّلام و قد تقدم فی الکلام علی المغفره فی آخر الجزء السادس من الکتاب أن المغفره أعم موردا من المعصیه.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَیَنٰالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ الآیه؛ تنکیر الغضب و کذا الذله للإشعار بعظمتها و قد أبهم اللّه سبحانه ما سینالهم من غضبه و ذله الحیاه فلم یبین ما هما فمن المحتمل أن تکون الإشاره بذلک الی ما جری علیهم بعد ذلک من تحریق العجل المعبود و نسفه فی الیم نسفا و طرد السامری و قتل جمع منهم،أو أن یکون المراد به ما ضرب اللّه علی قومهم من الذله و المسکنه و القتل و الإباده و الإساره،و یمکن أن یکون المراد بالغضب هو عذاب الآخره فیجمع لهم بذلک هوان الآخره و ذله الدنیا.

و کیف کان فذیل الآیه: «وَ کَذٰلِکَ نَجْزِی الْمُفْتَرِینَ» بظاهره یدل علی أن ذلک أعنی نیل غضب الرب سبحانه و ذله الحیاه الدنیا سنه جاریه إلهیه فی المفترین علی اللّه و هذا الذی یدل علیه الآیه یهدی إلیه الأبحاث العقلیه أیضا کما مر مرارا.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ عَمِلُوا السَّیِّئٰاتِ ثُمَّ تٰابُوا مِنْ بَعْدِهٰا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِیمٌ ضمیر «مِنْ بَعْدِهٰا» الأول راجع الی السیئات،و الثانی الی التوبه،و معنی الآیه ظاهر.

و الآیه و إن کانت فی نفسها عامه لکنها بالنظر الی المورد بمنزله الاستثناء من الذین اتخذوا

العجل المذكورين فی الآیه السابقه فالتوبه اذا تحققت بحقیقه معناها فی أیه سیئا کانت لم یمنع من قبولها مانع کما تقدم فی تفسیر قوله تعالی: إِنَّمَا اَلتَّوْبَهُ عَلَی اَللّٰهِ الآیه(النساء/۱۷).

و هذه الآیه و التی قبلها معترضتان فی القصه،و وجه الخطاب فیهما الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و الدلیل علی ذلک قوله فی الآیه الاولی: «وَ کَذٰلِکَ نَجْزِی اَلْمُفْتَرِینَ» و فی الآیه الثانیه: «إِنَّ رَبَّکَ» الآیه و ظاهر السیاق أن الکلام فیهما جار علی حکایه الحال الماضیه بدلیل قوله «سَیَنٰالُهُمْ غَضَبٌ» .

قوله تعالی: وَ لَمّٰا سَکَتَ عَنْ مُوسَی اَلْغَضَبُ أَخَذَ اَلْأَلْوٰاحَ الآیه؛الرهبه هی خوف مع تحرز:و الباقی ظاهر (۱)(۲).

[سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۵۵ الی ۱۶۰]

اشاره

وَ اِخْتٰارَ مُوسیٰ قَوْمَهُ سَبْعِینَ رَجُلاً لِمِیقٰاتِنٰا فَلَمّٰا أَخَذَتْهُمُ اَلرَّجْفَهُ قٰالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَکْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِیّٰایَ أَ تُهْلِکُنٰا بِمٰا فَعَلَ اَلسُّفَهٰاءُ مِنّٰا إِنْ هِیَ إِلاّٰ فِتْنَتُکَ تُضِلُّ بِهٰا مَنْ تَشٰاءُ وَ تَهْدِی مَنْ تَشٰاءُ أَنْتَ وَلِیُّنٰا فَاغْفِرْ لَنٰا وَ اِرْحَمْنٰا وَ أَنْتَ خَیْرُ اَلْغٰافِرِینَ (۱۵۵) وَ اُکْتُبْ لَنٰا فِی هٰذِهِ اَلدُّنْیٰا حَسَنَهً وَ فِی اَلْآخِرَهِ إِنّٰا هُدْنٰا إِلَیْکَ قٰالَ عَذٰابِی أُصِیبُ بِهِ مَنْ أَشٰاءُ وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْءٍ فَسَأَکْتُبُهٰا لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ وَ یُؤْتُونَ اَلزَّکٰاهَ وَ اَلَّذِینَ هُمْ بِآیٰاتِنٰا یُؤْمِنُونَ (۱۵۶) اَلَّذِینَ یَتَّبِعُونَ اَلرَّسُولَ اَلنَّبِیَّ اَلْأُمِّیَّ اَلَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی اَلتَّوْرٰاهِ وَ اَلْإِنْجِیلِ یَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهٰاهُمْ عَنِ اَلْمُنْکَرِ وَ یُحِلُّ لَهُمُ اَلطَّیِّبٰاتِ وَ یُحَرِّمُ عَلَیْهِمُ اَلْخَبٰائِثَ وَ یَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ اَلْأَغْلاٰلَ اَلَّتِی کٰانَتْ عَلَیْهِمْ فَالَّذِینَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اِتَّبَعُوا اَلنُّورَ اَلَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۱۵۷) قُلْ یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ إِنِّی رَسُولُ اَللّٰهِ إِلَیْکُمْ جَمِیعاً اَلَّذِی لَهُ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ یُحیِی وَ یُمِیتُ فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ اَلنَّبِیِّ اَلْأُمِّیِّ اَلَّذِی یُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ کَلِمٰاتِهِ وَ اِتَّبِعُوهُ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵۸) وَ مِنْ قَوْمِ مُوسیٰ أُمَّهٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ یَعْدِلُونَ (۱۵۹) وَ قَطَّعْنٰاهُمُ اِثْنَتَیْ عَشْرَهَ أَسْبٰاطاً أُمَماً وَ أَوْحَیْنٰا إِلیٰ مُوسیٰ إِذِ اِسْتَسْقٰاهُ قَوْمُهُ أَنِ اِضْرِبْ بِعَصٰاکَ اَلْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اِثْنَتٰا عَشْرَهَ عَیْناً قَدْ عَلِمَ کُلُّ أُنٰاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنٰا عَلَیْهِمُ اَلْغَمٰامَ وَ أَنْزَلْنٰا عَلَیْهِمُ اَلْمَنَّ وَ اَلسَّلْویٰ کُلُوا مِنْ طَیِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاکُمْ وَ مٰا ظَلَمُونٰا وَ لٰکِنْ کٰانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۱۶۰)

۱- ۱) .الاعراف ۱۳۸-۱۵۴:بحث روائی فی:میقات موسی علیه السّلام؛مسأله رویه اللّه؛تجلی سبحانه للجبل.

۲- ۲) .الاعراف ۱۳۸-۱۵۴:بحث روائی فی:الرؤیا القلبیه؛معرفه اللّه سبحانه.

بیان:

قوله تعالی: وَ اخْتٰارَ مُوسیٰ قَوْمَهُ سَبْعِینَ رَجُلاً لِمِیقٰاتِنٰا أی اختار من قومه

ص :۵۷۴

فالقوم منصوب بنزع الخافض.

و الآيه تدل على أن اللّه سبحانه عين لهم ميقاتا فحضره منهم سبعون رجلا اختارهم موسى من القوم،و لا يكون ذلك إلا لأمر ما عظيم لكن اللّه سبحانه لم يبين هاهنا ما هو الغايه المقصوده من حضورهم غير أنه ذكر أنهم أخذتهم الرجفه و لم تأخذهم إلا لظلم عظيم ارتكبوه حتى أدى بهم الى الهلاك بدليل قول موسى عليه السّلام: «رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيّايَ أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنّا» فيظهر من هنا أن الرجفه أهلكتهم.

و يتأيد بذلك أن هذه القصه هى التى يشير سبحانه إليها بقوله: وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى نَرَى اللّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (البقره۵۶/)،و بقوله: يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ فَعَفَوْنا عَنْ ذلِكَ (النساء۱۵۳/).

و من ذلك يظهر أن المراد بالرجفه التى أخذتهم فى الميقات رجفه الصاعقه لا رجفه فى أبدانهم كما احتمله بعض المفسرين و لا ضير فى ذلك فقد تقدم نظير التعبير فى قصه قوم صالح حيث قال تعالى: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (الأعراف۷۸/)،و قال فيهم: فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ (حم السجده۱۷/).

و فى آيه النساء المنقوله آنفا إشعار بأن سؤالهم الرؤيه كان مربوطا بنزول الكتاب و أن اتخاذ العجل كان بعد ذلك فكأنهم حضروا الميقات لنزول التوراه،و أنهم إنما سألوا الرؤيه ليكونوا على يقين من كونها كتابا سماويا نازلا من عند اللّه،و يؤيد ذلك ان الظاهر أن هؤلاء المختارين كانوا مؤمنين بأصل دعوه موسى،و إنما أرادوا بقولهم: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى نَرَى اللّهَ جَهْرَةً تعليق إيمانهم به من جهه نزول التوراه عليه على الرؤيه.

و بهذا كله يتأيد أن هذه القصه جزء من قصه الميقات و نزول التوراه،و أن موسى عليه السّلام لما

أراد الحضور لميقات ربه و نزول التوراه اختار هؤلاء السبعين فذهبوا معه الى الطور و لم يقنعوا بتكليم اللّه كليمه،و سألوا الرؤيه فأخذتهم الصاعقه فماتوا ثم أحياهم اللّه بدعوه موسى،ثم كلم اللّه موسى و سأل الرؤيه و كان ما كان،و مما كان اتخاذ بنى إسرائيل العجل بعد غيبتهم و ذهابهم لميقات اللّه،و قد وقع هذا المعنى فى بعض الأخبار المأثوره عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام كما سيجىء إن شاء اللّه.

و على أى حال العنايه فى هذه القصه ببيان ظلمهم و نزول العذاب عليهم و دعاء موسى لهم لا بيان كون هذه القصه جزءا من القصه السابقه لو كان جزءا،و لا مغايرتها لها لو كانت مغايره فلا دلاله فى اللفظ تنبه على شىء من ذلك.

و أما قوله: بِمٰا فَعَلَ السُّفَهٰاءُ و قد كان الصادر منهم قولا لا فعلا فالوجه فى ذلك أن المؤاخذه إنما هو على المعصيه،و المعصيه تعد عملا-و فعلا-و إن كانت من قبيل الأقوال كما قال تعالى: إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التحريم۷)،فإنه شامل لقول كلمه الكفر و الكذب و الافتراء و نحو ذلك بلا ريب،و الظاهر أنهم عذبوا بما كان يستلزمه قولهم من سوء الأدب و العناد و الاستهانه بمقام ربهم.

على أن ظاهر تلك الاقوال جميعا أنهم إنما عذبوا بالرجفه قبال ما قالوه دون ما فعلوه فالإشكال على تقدير وروده مشترك بين جميع الأقوال فالأقرب كون القصه جزءا من سابقتها كما تقدم.

قوله تعالى: قٰالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيّٰايَ -الى قوله- مَنْ تَشٰاءُ يريد عليه السّلام بذلك أن يسأل ربه أن يحييهم خوفا من أن يتهمه بنو إسرائيل فيخرجوا به عن الدين،و يبطل بذلك دعوته من أصلها فهذا هو الذى يبتغيه غير أن المقام و الحال يمنعانه من ذلك فها هو عليه السّلام واقع أمام معصيه موبقه من قومه صرعتهم و غضب إلهى شديد أحاط بهم حتى أهلكهم.

و لذلک أخذ یمهد الکلام رویدا و یسترحم ربه بجمل من الثناء حتی یهیج الرحمه علی الغضب،و یثیر الحنان و الرأفه الإلهیه ثم یتخلص الی مسألته و ذکر حاجته فی جو خال من موانع الإجابه.

«قالَ» مبتدئا باسم الربوبیه المهیجه للرحمه: «رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَکْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ» فالأمر الی مشیتک،و لو أهلکتهم من قبل «وَ إِیّایَ» لم یتجه من قومی إلی تهمه فی هلاکهم،ثم ذکر أنه لیس من شأن رحمته و سنه ربوبیته أن یؤاخذ قوما بفعل سفهائهم فقال فی صوره الاستفهام تأدبا «أَ تُهْلِکُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنّا» ؟ثم أکد القول بقوله: «إِنْ هِیَ إِلاّ فِتْنَتُکَ» و امتحانک «تُضِلُّ بِها» أی بالفتنه «مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِی مَنْ تَشاءُ» أی أن هذا المورد أحد موارد امتحانک و ابتلائک العام الذی تبتلی به عبادک و تجریه علیهم لیضل من ضل و یهتدی من اهتدی،و لیس من سنتک أن تهلک کل من افتتن بفتنتک فانحرف عن سوی صراطک.

و بالجمله أنت الذی سبقت رحمتک غضبک لیس من دأبک أن تستعجل المسیئین من عبادک بالعقوبه أو تعاقبهم بما فعل سفاؤهم،و أنت الذی أرسلتنی الی قومی و وعدتنی أن تنصرنی فی نجاح دعوتی،و هلاک هؤلاء المصعوقین یجلب علی التهمه من قومی.

قوله تعالی: أَنْتَ وَلِیُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَیْرُ الْغافِرِینَ شروع منه علیه السّلام فی الدعاء بعد ما قدمه من الثناء،و بدأه بقوله: «أَنْتَ وَلِیُّنا» و ختمه بقوله: «وَ أَنْتَ خَیْرُ الْغافِرِینَ» لیقع ما یسأله بین صفتی ولایه اللّه الخاصه به،و مغفرته التی هی خیر مغفره ثم سأل حاجته بقوله: «فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا» لأنه خیر حاجه یرتضی اللّه من عباده أن یسألوها عنه،و لم یصرح بخصوص حاجته التی بعثته الی الدعاء،و هی إحیاء السبعین الذین أهلکهم اللّه تذللا و استحیاء.

و حاجه هذه مندرجه فی قوله: «فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا» لا محاله فإن اللّه سبحانه یذکر فی آیه سوره البقره أنه بعثهم بعد موتهم،و لم یکن لیحییهم بعد ما أهلکهم إلا بشفاعه موسی علیه السّلام و لم

یذکر من دعائه المرتبط بحالهم إلا هذا الدعاء فهو إنما سأله ذلک تلویحا بقوله «فَاغْفِرْ لَنٰا» الخ؛ کما تقدم لا تصریحا.

قوله تعالی: وَ اكْتُبْ لَنٰا فِی هٰذِهِ الدُّنْیٰا حَسَنَةً وَ فِی الْآخِرَةِ إِنّٰا هُدْنٰا إِلَیْکَ أی رجعنا إلیک من هاد یهود إذا رجع،و هو أعنی قوله: «إِنّٰا هُدْنٰا إِلَیْکَ» تعلیل لهذا الفصل من الدعاء سأل فیه أن یکتب اللّه أی یقضی لهم بحسنه فی الدنیا و حسنه فی الآخره و المراد بالحسنه لا محاله الحیاه و العیشه الحسنه فإن الرجوع إلی اللّه أی سلوک طریقته و التزام سبیل فطرته یهدی الإنسان الی حیاه طیبه و عیشه حسنه فی الدنیا و الآخره جمیعا،و هذا هو الوجه فیما ذکرنا أن قوله: «إِنّٰا هُدْنٰا إِلَیْکَ» تعلیل لهذا الفصل من دعائه فإن الحیاه الطیبه من آثار الرجوع إلی اللّه،و هی شیء من شأنه أن یرزقوه-لو رزقوا-فی مستقبل أمرهم،و هو المناسب للکتابه و القضاء،و أما الفصل الأول من الدعاء أعنی قوله: «فَاغْفِرْ لَنٰا وَ ارْحَمْنٰا» الخ؛ فتکفی فی تعلیله الجمل السابقه علیه،و ما احتف به من قوله: «أَنْتَ وَلِیُّنٰا» و قوله: «وَ أَنْتَ خَیْرُ الْغٰافِرِینَ» و لا یتعلق بقوله: «إِنّٰا هُدْنٰا إِلَیْکَ» فافهم ذلک.

قوله تعالی: قٰالَ عَذٰابِی أُصِیبُ بِهِ مَنْ أَشٰاءُ وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْءٍ هذا جواب منه سبحانه لموسی،و فیه محاذاه لما قدّمه موسی قبل مسألته من قوله: «رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَکْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِیّٰایَ» ،و قد قیّد اللّه سبحانه إصابه عذابه بقوله: «مَنْ أَشٰاءُ» دون سعه رحمته لأن العذاب إنما ینشأ من اقتضاء من قبل المعذبین لا من قبله سبحانه،قال تعالی مٰا یَفْعَلُ اللّٰهُ بِعَذٰابِکُمْ إِنْ شَکَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ (النساء۱۴۷/)و قال: لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ وَ لَئِنْ کَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِی لَشَدِیدٌ (إبراهیم۷/)فلا یعذّب اللّه سبحانه باقتضاء من ربوبیته و لو کان کذلک لعذّب کل أحد بل إنما یعذب بعض من تعلقت به مشیته فلا تتعلق مشیته إلا بعذاب من کفروا نعمه فالعذاب إنما هو باقتضاء من قبل المعذّبین لکفرهم لا من قبله.

علی أن کلامه سبحانه یعطی أن العذاب إنما حقیقته فقدان الرحمه،و النقمه عدم بذل

النعمه،و لا ـ يتحقق ذلـك إلا ـ لعـدم اسـتعداد المعـذّب بواسـطه الكفران و الـذنب لإفاضه النعمه عليه و شـمول الرحمه له،فسـبب العذاب فی الحقیقه عدم وجود سبب الرحمه.

و أما سعه الرحمه و إفاضه النعمه فمن المعلوم أنه من مقتضیات الالوهیه و لوازم صفه الربوبیه فما من موجود مخلوق إلا و وجود نعمه لنفسه و لكـثیر ممن دونه لارتبـاط أجزاء الخلقه،و كـل مـا عنـده من خیر أو شـر نعمه إمـا لنفسه و لغیره كـالقوه و الـثروه و غیرهما التی یستفید منها الإنسان و غیره،و إما لغیره اذا كان نقمه بالنسبه إلیه كالعاهات و الآفات و البلایا یستضر بها شیء و ینتفع أشـیاء و علی هذا فالرحمه الإلهیه واسـعه كل شـیء فعلا لا شأنا،و لا یختص بمؤمن و لا كافر و لا ذی شعور و لا غیره و لا دنیا و لا آخره،و المشیئه لازمه لها.

نعم تحقق العذاب و النقمه فی بعض الموارد-و هو معنی قیاسی-یوجب أن یتحقق هناك رحمه تقابلها و تقاس إلیها فإن حرمان البعض من النعمه التی أنعم اللّه بهـا علی بعض آخر اذا كان عـذابا كان ما یجـده البعض الآخر رحمه تقابل هـذا العـذاب،و كـذا نزول ما یتألم به و یؤذی علی بعض كالعقوبات الدنیویه و الأخرویه اذا كان عذابا كان الأمن و السلامه التی یجدها البعض الآخر رحمه بالنسبه إلیه و تقابله،و إن كانت الرحمه المطلقه بالمعنی الذی تقدم بیانه بشملها جمیعا.

فهناك رحمه إلهیه عامه یتنعم بها المؤمن و الكافر و البرّ و الفاجر و ذو الشـعور و غیر ذی الشعور فیوجدون بها و یرزقون بها فی أول وجودهم ثم فی مسـیره الوجود مـا داموا سـالكین سبیـل البقـاء،و رحمه إلهیه خـاصه و هی العطیه الهنیئه الـتی یجود بهـا اللّه سبحـانه فی مقابـل الإیمـان و العبودیه،و تختص لا محاله بالمؤمنین الصالحین من عباده من حیاه طیبه نورانیه فی الـدنیا، و جنه و رضوان فی الآخره و لا نصـیب فیها للكافرین و المجرمین،و یقابل الرحمه الخاصه عذاب و هو اللاملائم الذی یصیب الكافرین و المجرمین من جهه كفرهم و جرمهم فی الـدنیا كعـذاب الاستئصال و المعیشه الضـنك و فی الآخره من النار و آلامها،و لا یقابل الرحمه العامه شیء من

العذاب اذ كل ما يصدق عليه اسم شىء فهو من مصاديق الرحمه العامه لنفسه أو لغيره،و كونه رحمه هى المقصوده فى الخلقه،و ليس وراء الشىء شىء.

اذا تحقق هذا تبين أن قوله تعالى: «عَذٰابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشٰاءُ وَ رَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» بيان لخصوص العذاب و عموم الرحمه،و إنما قابل بين العذاب و الرحمه العامه مع عدم تقابلهما لأن ذكر الرحمه العامه توطئه و تمهيد لما سيذكره من صيرورتها رحمه خاصه فى حق المتقين من المؤمنين.

و قد اتضح بما تقدم أن سعه الرحمه ليست سعه شأنيه و أن قوله: «وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» ليس مقيدا بالمشيئه المقدره بل من لوازم سعه الرحمه الفعليه كما تقدم،و ذلك لأن الظاهر من الآيه أن المراد بالرحمه العامه و هى تسع كل شىء بالفعل و قد شاء اللّه ذلك فلزمتها فلا محل لتقدير«إن شئت»خلافا لظاهر كلام جمع من المفسرين.

قوله تعالى: فَسَأَكْتُبُهٰا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيٰاتِنٰا يُؤْمِنُونَ تفريع على قوله: «عَذٰابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشٰاءُ وَ رَحْمَتِي» الآيه؛أى لازم وجوب إصابه العذاب بعض الناس وسعه الرحمه لكل شىء أن أوجب الرحمه على البعض الباقى،و هم الذين يتقون و يؤتون الزكاه الآيه.

و قد ذكر سبحانه الذين تنالهم الرحمه بأوصاف عامه و هى التقوى و إيتاء الزكاه و الإيمان بآيات اللّه من غير أن يقيّدهم بما يخص قومه كقولنا:للذين يتقون منكم و نحو ذلك لأن ذلك مقتضى عموم البيان فى قوله: «عَذٰابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشٰاءُ» الآيه و البيان العام ينتج نتيجه عامه.

و اذا قوبلت مسأله موسى بالآيه كانت الآيه بمنزله المقيده لها فإنه عليه السّلام سأل الحسنه و الرحمه لقومه ثم عللها بقوله: «إِنّٰا هُدْنٰا إِلَيْكَ» فكان معنى ذلك مسأله الرحمه لكل من هاد و رجع منهم بأن يكتب اللّه حسنه الدنيا و الآخره لمجرد هودهم و عودهم إليه فكان فيما أجابه

اللّه به أنه سيكتب رحمته للذين آمنوا و اتقوا فكأنه قال:اكتب رحمتك لمن هاد إليك منا، فأجابه اللّه أن سأكتب رحمتى لمن هاد و اتقى و آمن بآياتى فكان فى ذلك تقييد لمسألته.

و لا ضير فى ذلك فإنه سبحانه هو الهادى لأنبيائه و رسله المعلم لهم يعلّم كليمه أن يقيّد مسألته بالتقوى و هو الورع عن محارمه و بالإيمان بآياته و هو التسليم لأنبيائه و للأحكام النازله إليهم،و لا يطلق الهود و هو الرجوع الى اللّه بالإيمان به،فهذا تصرف فى دعاء موسى بتقييده كما تصرّف تعالى فى دعاء إبراهيم بالتقييد فى قوله: قٰالَ إِنِّی جٰاعِلُکَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً قٰالَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی قٰالَ لاٰ یَنٰالُ عَهْدِی الظّٰالِمِینَ (البقره/۱۲۴)،و بالتعميم و الإطلاق فى قوله فيما يحكى من دعائه لأهل مكه: وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرٰاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ قٰالَ وَ مَنْ کَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِیلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلیٰ عَذٰابِ النّٰارِ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ (البقره/۱۲۶)،فقد تبين أولا أن الآيه تتضمن استجابته تعالى لدعاء موسى: «وَ اکْتُبْ لَنٰا فِی هٰذِهِ الدُّنْیٰا حَسَنَهً وَ فِی الْآخِرَهِ» بتقييد ما له فمن العجيب ما ذكره بعضهم:أن الآيه بسياقها تدل على أن اللّه سبحانه رد دعوه موسى و لم يستجبها،و كذا قول بعضهم:إن موسى عليه السّلام دعا لقومه فاستجابه اللّه فى حق أمه محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم بناء على بيانيّه قوله: «الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» الآيه؛لقوله: «لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ» الآيه و سيجىء.

و ثانيا:أنه تعالى استجاب ما اشتمل عليه الفصل الأول من دعائه فإنه تعالى لم يرده، و حاشا أن يحكى اللّه فى كلامه دعاء لاغيا غير مستجاب،و قوله: «فَسَأَکْتُبُهٰا لِلَّذِینَ» الآيه فإنه يحاذى ما سأله عليه السّلام من الحسنه المستمره الباقيه فى الدنيا و الآخره لقومه،و أما طلب المغفره لذنب دفعى صدر عنهم بقولهم: «أَرِنَا اللّٰهَ جَهْرَهً» فلا يحاذيه قوله: «فَسَأَکْتُبُهٰا» الآيه؛بوجه،فسكوته تعالى عن رد دعوته دليل إجابتها كما فى سائر الموارد التى تشابهه فى القرآن.

و يلوّح الى استجابه دعوته لهم بالمغفره قوله فى القصه فى موضع آخر: ثُمَّ بَعَثْنٰاکُمْ مِنْ

بَعْدِ مَوْتِكَمْ لَعَلَّكَمْ تَشْكَرُونَ (البقره/۵۶)فمن البعيد المستبعد أن يحييهم اللّه بعد إهلاكهم و لم يغفر لهم ذنبهم الذى أهلكوا به.

و على أى حال معنى الآيه «فَسَأَكْتُبُها» أى سأكتب رحمتى و أقضيها و أوجبها استعيرت الكتابه للإيجاب لأن الكتابه أثبت و أحكم «لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» و يجتنبون المعاصى و ترك الواجبات «وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ» و هى الحق المالى أو مطلق الإنفاق فى سبيل اللّه الذى ينمو به المال،و يصلح به مفاسد الاجتماع،و يتم به نواقصه،و ربما قيل:إن المراد بها زكاه النفس و طهارتها،و إيتاء الزكاه إصلاح أخلاق النفس.و ليس بشىء.

«وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ» أى يسلّمون لما جاءتهم من عند اللّه من الآيات و العلامات سواء كانت آيات معجزه كمعجزات موسى و عيسى و محمد عليه السّلام و عليهم،أو أحكاما سماويه كشرائع موسى و أوامره و شرائع غيره من الأنبياء،أو الأنبياء أنفسهم أو علامات صدق الأنبياء كعلائم محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم التى ذكرها اللّه تعالى لهم فى كتاب موسى و عيسى عليهما السّلام فكل ذلك آيات له تعالى يجب عليهم و على غيرهم أن يؤمنوا بها و يسلموا لها،و لا يكذبوا بها.

و فى الآيه التفات من سياق التكلم مع الغير الى الغيبه فإنه قال أولا: «وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا» .ثم قال: «قالَ عَذابِى أُصِيبُ بِهِ» الآيه و كأن النكته فيه إظهار ماله سبحانه من العنايه الخاصه باستجابه دعاء الداعين من عباده فيقبل عليهم هو تعالى من غير أن يشاركه فيه غيره و لو بالتوسط فإن التكلم بلفظ المتكلم مع الغير لإظهار العظمه لمكان أن العظماء يتكلمون عنهم و عن أتباعهم فإذا أريد إظهار عنايه خاصه بالمخاطب أو بالخطاب تكلم بلفظ المتكلم وحده.

و على هذا جرى كلامه تعالى فاختار سياق المتكلم وحده المناسب المناجاه و المسارّه فيما حكى من أدعيه أنبيائه و أوليائه و استجابته لهم فى كلامه كأدعيه نوح و إبراهيم و دعاء موسى ليله الطور،و أدعيه سائر الصالحين و استجابته لهم،و لم يعدل عن سياق المتكلم وحده إلا

لنکته زائده.

و أما قوله: «وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیاتِنا یُؤْمِنُونَ» و ما فیه من العدول من التکلم وحده-السیاق السابق-الی التکلم مع الغیر فالظاهر أن النکته فیه إیجاد الاتصال بین هذه الآیه و الآیه التالیه التی هی نوع من البیان لهذه الجمله أعنی قوله: «وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیاتِنا یُؤْمِنُونَ» فإن الآیه التالیه -کما سیجیء-بمنزله المعترضه من النتیجه المأخوذه فی ضمن الکلام الجاری،و سیاقها سیاق خارج عن سیاق هذه القطعه المتعرضه للمشافهه و المناجاه بین موسی و بینه تعالی راجع الی السیاق الأصلی السابق الذی هو سیاق المتکلم مع الغیر.

فبتبدیل«و الذین هم بآیاتی یؤمنون»الی قوله: «وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیاتِنا یُؤْمِنُونَ» یتصل الآیه التالیه بسابقتها فی السیاق بنحو لطیف فافهم ذلک و تدبر فیه فإنه من عجب السیاقات القرآنیه.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْراهِ وَ الْإِنْجِیلِ -الی قوله- کانَتْ عَلَیْهِمْ .قال الراغب فی المفردات:

الإصر عقد الشیء و حبسه بقهره یقال:أصرته فهو مأصور،و المأصر و المأصر-بفتح الصاد و کسرها-محبس السفینه،قال تعالی:و یضع عنهم إصرهم أی الأمور التی تثبطهم و تقیدهم عن الخیرات،و عن الوصول الی الثوابات،و علی ذلک:و لا تحمل علینا إصرا،و قیل ثقلا و تحقیقه ما ذکرت.(انتهی)و الأغلال جمع غل و هو ما یقیّد به.

و قوله: «الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ» الآیه بحسب ظاهر السیاق بیان لقوله «وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیاتِنا یُؤْمِنُونَ» و یؤیده ما هو ظاهر الآیه أنّ کونه صلّی اللّه علیه و آله و سلم رسولا نبیّا أمیّا و یأمر بالمعروف و ینهی عن المنکر،و یحل لهم الطیّبات و یحرّم علیهم الخبائث،و یضع عنهم إصرهم و الأغلال التی کانت علیهم کلّ ذلک من أمارات النبوّه الخاتمیه و آیاتها المذکوره لهم فی التوراه و الإنجیل فمن الإیمان بآیات اللّه الذی شرطه اللّه تعالی لهم فی کلامه:أن یؤمنوا بالآیات المذکوره لهم أمارات لنبوه محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

ص :۵۸۳

غیر أن من المسلّم الـذی لا ـ مریه فیه أن الرحمه الـتی وعـد اللّه کتـابته للیهود بشـرط التقوی و الإیمـان بآیـات اللّه لیست بحیث تختص بالذین آمنوا منهم بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و یحرم عنها صالحو بنی إسرائیل من لدن أجاب اللّه دعوه موسی علیه السّلام الی أن بعث اللّه محمدا صلّی اللّه علیه و آله و سلم فآمن به شرذمه قلیله من الیهود،فإن ذلک مما لا ینبغی توهمه أصلا.فبین موسی و عیسی علیهما السّلام،و کذا بعد عیسی علیه السّلام ممن آمن به من بنی إسرائیل جمّ غفیر من المؤمنین الذین آمنوا بالدعوه الإلهیه فقبل اللّه منهم إیمانهم و وعدهم بالخیر،و الکلام الإلهی بذلک ناطق فکیف یمکن أن تقصر الرحمه الإلهیه المبسوطه علی بنی إسرائیل فی جماعه قلیله منهم آمنوا بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

فقوله: «اَلَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ» الآیه؛و إن کان بیانا لقوله: «وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیٰاتِنٰا یُؤْمِنُونَ» إلا ـ أنه لیس بیانا مساویا فی السعه و الضیق لمبیّنه بل بیان مستخرج من مبیّنه انتزع منه،و خص بالذکر لیستفاد منه فیما هو الغرض من سوق الکلام،و هو بیان حقیقه الدعوه المحمدیه،و لزوم إجابتهم لها و تلبیتهم لداعیها.

و لذلک فی القرآن الکریم نظائر من حیث التضییق و التوسعه فی البیان کما قال تعالی حاکیا عن إبلیس: «فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ» الآیه؛ثم قال فی موضع آخر حاکیا عنه لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبٰادِکَ نَصِیباً مَفْرُوضاً وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّیَنَّهُمْ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَیُبَتِّکُنَّ آذٰانَ الْأَنْعٰامِ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَیُغَیِّرُنَّ خَلْقَ اللّٰهِ (النساء/١١٩)فإن القول الثانی المحکی عن إبلیس مستخرج من عموم قوله المحکی أولا: لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ .

و قال تعالی فی أول هذه السوره: وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاکُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاکُمْ -الی أن قال- یٰا بَنِی آدَمَ إِمّٰا یَأْتِیَنَّکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ الآیه؛و قد تقدم أن ذلک من قبیل استخراج الخطاب من الخطاب لغرض التعمیم الی غیر ذلک من النظائر.

فیؤول معنی بیانیه قوله: «اَلَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» الی استخراج بیان من بیان للتطبیق علی مورد الحاجه کأنه قیل:فإذا کان المکتوب من رحمه اللّه لبنی إسرائیل قد کتب للذین

يتقون و يؤتون الزكاه و الـذين هم بآياتنا يؤمنون فمصداقه اليوم-يوم بعث محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم-هم الذين يتبعونه من بنى إسرائيل لأنهم الذين اتقوا و آتوا الزكاه و هم الذين آمنوا بآياتنا فإنهم آمنوا بموسى و عيسى و محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هم آياتنا،و آمنوا بمعجزات هؤلاء الرسل و ما نزّل عليهم من الشرائع و الأحكام و هى آياتنا،و آمنوا بما ذكرنا لهم فى التوراه و الإنجيل من أمارات نبوه محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم و علامات ظهوره و دعوته،و هى آياتنا.

ثم قوله: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» الآيه أخـذ فيه «يَتَّبِعُونَ» موضع يؤمنون، و هو من أحسن التعبير لأن الإيمان بآيات اللّه سبحانه كأنبيائه و شرائعهم إنما هو بالتسليم و الطاعه فاختير لفظ الاتباع للدلاله على أن الإيمان بمعنى الاعتقاد المجرد لا يغنى شيئا فإن ترك التسليم و الطاعه عملا تكذيب بآيات اللّه و إن كان هناك اعتقاد بأنه حق.

و ذكره صلّى اللّه عليه و آله و سلم بهذه الأوصاف الثلاث:الرسول النبى الامى،و لم يجتمع له فى موضع من كلامه تعالى إلا فى هـذه الآيه و الآيه التاليه،مع قوله تعالى بعـده: «الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرٰاهِ وَ الْإِنْجِيلِ» تدل على أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان مذكورا فيهما معرّفا بهذه الأوصاف الثلاث.

و لو لا أن الغرض من توصيفه بهـذه الثلاث هو تعريفه بما كانوا يعرفونه به من النعوت المذكوره له فى كتابيهم لما كانت لذكر الثلاث «الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» و خاصه الصفه الثالثه نكته ظاهره.

و كذلك ظاهر الآيه يدل أو يشعر بأن قوله:يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر الى آخر الامور الخمسه التى وصفه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بها فى الآيه من علائمه المذكوره فى الكتابين،و هى مع ذلك من مختصات النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بها فى الآيه من علائمه المذكوره فى الكتابين،و هى مع ذلك من مختصات النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و ملّته البيضاء فإن الأمم الصالحه و إن كانوا يقومون بوظيفه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر كما ذكره تعالى من أهل الكتاب فى قوله: لَيْسُوا سَوٰاءً مِنْ أَهْلِ

اَلْكِتَابِ أُمَّهٌ قَائِمَهٌ -الى أن قال- وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَ أُولٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (آل عمران/۱۱۴).

و كذلك تحليل الطيبات و تحريم الخبائث فى الجمله من جمله الفطريات التى أجمع عليها الأديان الإلهيه،و قد قال تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَهَ اللّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ (الأعراف/۳۲).

و كذلك وضع الإصر و الأغلال و إن كان مما يوجد فى الجمله فى شريعه عيسى عليه السّلام كما يدل عليه قوله فيما حكى اللّه عنه فى القرآن الكريم: وَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاهِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ (آل عمران/۵۰)و يشعر به قوله خطابا لبنى إسرائيل: قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَهِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ (الزخرف/۶۳).

إلا أنه لا يرتاب ذو ريب فى أن الدين الذى جاء به محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم بكتاب من عند اللّه مصدّق لما بين يديه من الكتب السماويه-و هو دين الإسلام-هو الدين الوحيد الذى نفخ فى جثمان الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر كل ما يسعه من روح الحياه،و بلغ به من حد الدعوه الخاليه الى درجه الجهاد فى سبيل اللّه بالأموال و النفوس،و هو الدين الوحيد الذى أحصى جميع ما يتعلق به حياه الإنسان من الشئون و الأعمال ثم قسمها الى طيبات فأحلها،و الى خبائث فحرمها،و لا يعادله فى تفصيل القوانين المشرعه أى شريعه دينيه و قانون اجتماعى،و هو الدين الذى نسخ جميع الأحكام الشاقه الموضوعه على أهل الكتاب و اليهود خاصه،و ما تكلّفها علماؤهم،و ابتدعها أحبارهم و رهبانهم من الأحكام المبتدعه.

فقد اختص الإسلام بكمال هذه الامور الخمسه و إن كانت توجد فى غير نماذج من ذلك.

على أن كمال هذه الامور الخمسه فى هذه الملّه البيضاء أصدق شاهد و أبين بيّنه على صدق الناهض بدعوتها صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و لو لم تكن تذكر أمارات له فى الكتابين فإن شريعته كمال شريعه الكليم و المسيح عليه السّلام و هل يطلب من شريعه حقّه إلا عرفانها المعروف و إنكارها المنكر،

و تحليلها الطيبات،و تحريمها الخبائث،و إلغاؤها كل إصر و غل؟و هى تفاصيل الحق الذى يدعو إليه الشرائع الإلهيه فليعترف أهل التوراه و الإنجيل أن الشريعه التى تتضمن كمال هذه الأمور بتفاصيلها هى عين شريعتهم فى مرحله كامله.

و بهذا البيان يظهر أن قوله تعالى: «يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهٰاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ» الآيه يفيد بمجموعه معنى تصديقه لما فى كتابيهم من شرائع اللّه تعالى كانه قيل مصدقا لما بين يديه كما فى قوله تعالى: وَ لَمّٰا جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِمٰا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ كِتٰابَ اللّهِ وَرٰاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (البقره/۱۰۱)و قوله: وَ لَمّٰا جٰاءَهُمْ كِتٰابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِمٰا مَعَهُمْ وَ كٰانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ مٰا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الْكٰافِرِينَ (البقره/۸۹)يريد مجىء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بكمال ما فى كتابهم من الشريعه مصدّقا له ثم كفرهم به و هم يعلمون أنه المذكور فى كتبهم المبشر به بلسان أنبيائهم كما حكى سبحانه عن المسيح فى قوله: يٰا بَنِى إِسْرٰائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرٰاهِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ (الصف/۶).

و سنبحث عن بشاراته عليه السّلام الواقعه فى كتبهم المقدسه بما تيسر من البحث إن شاء اللّه العزيز.

غير أنه تعالى لم يقل:مصدقا لما بين يديه بدل قوله: «يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ» الآيه لأن وجه الكلام الى جميع الناس دون أهل الكتاب خاصه،و لذا أمر نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى الآيه التاليه بقوله:

«قُلْ يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنِّى رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً» و لم يقيّد الكلام فى قوله: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ» الخ؛بما يختص به بأهل الكتاب.

قوله تعالى: فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الى آخر الآيه؛التعزير النصره مع التعظيم،و المراد بالنور النازل معه القرآن الكريم ذكر بنعت النوريه ليدل به على أنه ينير طريق لا حياه،و يضىء الصراط الذى يسلكه الإنسان الى موقف

السعاده و الكمال،و الكلام فى هذا الشأن.

و فى قوله: أُنْزِلَ مَعَهُ و لم يقل:أنزل عليه أو أنزل إليه و«مع»تدل على المصاحبه و المقارنه تلويح الى معنى الإماره و الشهاده التى ذكرناها كأنه قيل:و اتبعوا النور الذى أنزل عليه و هو بما يحتوى عليه من كمال الشرائع السابقه،و يظهره بالإضاءه شاهد على صدقه، و أماره أنه هو الذى وعد به أنبياؤهم،و ذكر لهم فى كتبهم فقوله: «مَعَهُ» حال من نائب فاعل «أُنْزِلَ» .و قد وقع نظيره فى قوله تعالى: فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّٰاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقره/۲۱۳).

و قوله: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ» الآيه؛بمنزله التفسير لقوله فى صدر الآيه «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» و أن المراد باتباعه حقيقه اتباع كتاب اللّه المشتمل على شرائعه،و أن الذى له عليه السّلام من معنى الاتباع هو الإيمان بنبوته و رسالته من غير تكذيب به، و احترامه بالتسليم له و نصرته فيما عزم عليه من سيرته.

و الكلام أعنى قوله: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ» الآيه نتيجه متفرعه على قوله فى صدر الآيه «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» الآيه؛بناء على ما قدمناه من أنه بيان خاص مستخرج من قوله «وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيٰاتِنٰا يُؤْمِنُونَ» الذى هو بيان عام،و المعنى اذا كان اتباع الرسول بهذه الأوصاف و النعوت هو من الإيمان بآياتنا الذى شرطناه على بنى إسرائيل فى قبول دعوه موسى لهم ببسط الرحمه فى الدنيا و الآخره و فيه الفلاح بكتابه الحسنه فى الدنيا و الآخره فالذين آمنوا به-الى آخر ما شرط اللّه-أولئك هم المفلحون.

قوله تعالى: قُلْ يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً -إلى قوله- وَ يُمِيتُ لما لاح من الأوصاف التى وصف بها نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن عنده كمال الدين الذى به حياه الناس الطيبه فى أى مكان فرضوا و فى أى زمان قدّر وجودهم،و لا حاجه للناس فى طيّب حياتهم الى أزيد من أن يؤمروا بالمعروف،و ينهوا عن المنكر،و تحلل لهم الطيبات،و تحرّم

علیهم الخبائث،و یوضع عنهم إصرهم و الأغلال التی علیهم أمر نبیهم صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یعلن بنبوته الناس جمیعا من غیر أن تختص بقوم دون قوم فقال: «قُلْ یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنِّی رَسُولُ اللّٰهِ إِلَیْکُمْ جَمِیعاً» .

و قوله: اَلَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ یُحیِی وَ یُمِیتُ صفات وصف اللّه بها،و هی بمجموعها بمنزله تعلیل یبین بها إمکان الرساله من اللّه فی نفسها أولا و إمکان عمومها لجمیع الناس ثانیا فیرتفع به استیحاش بنی إسرائیل أن یرسل إلیهم من غیر شعبهم و خاصه من الامیین و هم شعب اللّه و من مزاعمهم أنه لیس علیهم فی الامیین سبیل،و هم خاصه اللّه و أبناؤه و أحباؤه،و به یزول استبعاد غیر العرب من جهه العصبیه القومیه أن یرسل إلیهم رسول عربی.

و ذلک أن اللّه الذی اتخذه رسولا هو الذی له ملک السماوات و الأرض و السلطنه العامه علیها،و لا إله غیره حتی یملک شیئا منها فله أن یحکم بما یشاء من غیر أن یمنع عن حکمه مانع یزاحمه أو تعوق إرادته إراده غیره فله أن یتخذ رسولا الی عباده و أن یرسل رسوله الی بعض عباده أو الی جمیعهم کیف شاء.

و هو الذی له الإحیاء و الإماته فله أن یحیی قوما أو الناس جمیعا بحیاه طیبه سعیده و السعاده و الهدی من الحیاه کما أن الشقاوه و الضلاله موت،قال تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَجِیبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاکُمْ لِمٰا یُحْیِیکُمْ (الأنفال/۲۴)،و قال: أَ وَ مَنْ کٰانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّٰاسِ (الأنعام/۱۲۲)،و قال: إِنَّمٰا یَسْتَجِیبُ الَّذِینَ یَسْمَعُونَ،وَ الْمَوْتیٰ یَبْعَثُهُمُ اللّٰهُ (الأنعام/۳۶).

قوله تعالی: فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِیِّ الْأُمِّیِّ الی آخر الآیه تفریع علی ما تقدم أی اذا کان الحال هذا الحال فآمنوا بی فإنی ذاک الرسول النبی الامی الذی بشر به فی التوراه و الإنجیل،و أنا أومن باللّه و لا أکفر به و أومن بکلماته و هی ما قضی به من الشرائع

النازله علىّ و على الأنبياء السالفين،و اتبعونى لعلكم تفلحون.

هـذا مـا يقتضـيه السـياق،و منه يعلم وجه الالتفـات من التكلم الى الغيبه فى قوله «وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِی» الآيه فإن الظاهر من السياق أن هذه الآيه ذيل الآيه السابقه،و هما جميعا من كلام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و وجه الالتفـات-كمـا ظهر ممـا تقـدم-أن يـدل بالأوصاف الموضوعه مكان ضـمير المتكلم على تعليل الأمر فى قوله: «فَآمِنُوا» و قوله: «وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» .

و المراد بالاهتـداء الاهتداء الى السـعاده الآخره التى هى رضوان اللّه و الجنه لا الاهتداء الى سبيل الحق فإن الإيمان باللّه و رسوله و اتباع رسوله بنفسه اهتـداء،فيرجع معنى قوله «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» الى معنى قوله فى الآيه السابقه فى نتيجه الإيمان و الاتباع «أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» .

قوله تعالى: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ و هـذا من نصـفه القرآن مـدح من يسـتحق المـدح،و حمـد صالح أعمـالهم بعـد مـا قرّعهم بمـا صـدر عنهم من السيّئات فـالمراد أنهم ليسوا جميعا على ما وصـفنا من مخالفه اللّه و رسوله،و التزام الضلال و الظلم بل منهم أمه يهدون الناس بالحق و بالحق يعدلون فيما بينهم فالباء فى قوله: «بِالْحَقِّ» للآله و تحتمل الملابسه.

و على هـذا فالآيه من الموارد التى نسـبت الهـدايه فيهـا الى غيره تعـالى و غير الأنبياء و الأئمه كما فى قوله حكايه عن مؤمن آل فرعون و لم يكن بنبى ظاهرا: وَ قٰالَ الَّذِی آمَنَ يٰا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشٰادِ (المؤمن٣٨/).

و لا يبعد أن يكون المراد بهذه الأمه من قوم موسـى عليه السّلام الأنبياء و الأئمه الذين نشـئوا فيهم بعد موسـى و قد وصفهم اللّه فى كلامهم بالهـدايه كقوله تعالى: وَ جَعَلْنٰا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا لَمّٰا صَبَرُوا وَ كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يُوقِنُونَ (الم السـجده٢۴/)و غيره من الآيات و ذلك أن الآيه أعنى

قوله: «أَمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» لو حملت على حقيقه معناها من الهدايه بالحق و العدل بالحق لم يتيسر لغير النبى و الإمام أن يتلبس بذلك و قد تقدم كلام فى الهدايه فى تفسير قوله:

قالَ إِنِّى جاعِلُكَ لِلنّاسِ إِماماً (البقره/۱۲۴)و قوله: فَمَنْ يُرِدِ اللّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ (الأنعام/۱۲۵).و غيرهما من الآيات.

قوله تعالى: وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَىْ عَشْرَهَ أَسْباطاً أُمَماً الى آخر الآيه؛السبط بحسب اللغه ولد الولد أو ولد البنت.و الجمع أسباط،و هو فى بنى إسرائيل بمعنى قوم خاص، فالسبط عندهم بالمنزله القبيله عند العرب.و قد نقل عن ابن الحاجب أن أسباطا فى الآيه بدل من العدد لا تمييز و إلا لكانوا سته و ثلاثين سبطا على إراده أقل الجمع من «أَسْباطاً» و تمييز العدد محذوف للدلاله عليه بقوله: «أَسْباطاً» و التقدير و قطّعناهم اثنتى عشره فرقه أسباطا هذا.و ربما قيل:إنه تمييز لكونه بمعنى المفرد و المعنى اثنتى عشره جماعه مثلا.

و قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ الآيه؛الانبجاس هو الانفجار و قيل الانبجاس خروج الماء بقله،و الانفجار خروجه بكثره،و ظاهر من قوله: «فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَهَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ» أن العيون كانت بعدد الأسباط و أن كل سبط اختصوا بعين من العيون،و أن ذلك كانت عن مشاجره بينهم و منافسه،و هو يؤيد ما فى الروايات من قصتها.و باقى الآيه ظاهر.

و قد عدّ اللّه سبحانه فى هذه الآيات من معجزات موسى عليه السّلام و آياته:الثعبان و اليد البيضاء،و سنى آل فرعون و نقص ثمراتهم،و الطوفان،و الجراد،و القمل،و الضفادع،و الدم، و فلق البحر،و إهلاك السبعين،و إحياءهم،و انبجاس العيون من الحجر بضرب العصا، و التظليل بالغمام،و إنزال المنّ و السلوى،و نتق الجبل فوقهم كأنه ظله.و يمكنك أن تضيف إليها التكليم و نزول التوراه،و مسخ بعضهم قرده خاسئين.و سيجىء تفصيل البحث فى قصته عليه السّلام

فی تفسیر سوره هود إن شاء اللّه (۱).

[سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۶۱ الی ۱۷۱]

اشاره

وَ إِذْ قِیلَ لَهُمُ اُسْکُنُوا هٰذِهِ اَلْقَرْیَهَ وَ کُلُوا مِنْهٰا حَیْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّهٌ وَ اُدْخُلُوا اَلْبٰابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَکُمْ خَطِیئٰاتِکُمْ سَنَزِیدُ اَلْمُحْسِنِینَ (۱۶۱) فَبَدَّلَ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَیْرَ اَلَّذِی قِیلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمْ رِجْزاً مِنَ اَلسَّمٰاءِ بِمٰا کٰانُوا یَظْلِمُونَ (۱۶۲) وَ سْئَلْهُمْ عَنِ اَلْقَرْیَهِ اَلَّتِی کٰانَتْ حٰاضِرَهَ اَلْبَحْرِ إِذْ یَعْدُونَ فِی اَلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِیهِمْ حِیتٰانُهُمْ یَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ یَوْمَ لاٰ یَسْبِتُونَ لاٰ تَأْتِیهِمْ کَذٰلِکَ نَبْلُوهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَفْسُقُونَ (۱۶۳) وَ إِذْ قٰالَتْ أُمَّهٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اَللّٰهُ مُهْلِکُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذٰاباً شَدِیداً قٰالُوا مَعْذِرَهً إِلیٰ رَبِّکُمْ وَ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ (۱۶۴) فَلَمّٰا نَسُوا مٰا ذُکِّرُوا بِهِ أَنْجَیْنَا اَلَّذِینَ یَنْهَوْنَ عَنِ اَلسُّوءِ وَ أَخَذْنَا اَلَّذِینَ ظَلَمُوا بِعَذٰابٍ بَئِیسٍ بِمٰا کٰانُوا یَفْسُقُونَ (۱۶۵) فَلَمّٰا عَتَوْا عَنْ مٰا نُهُوا عَنْهُ قُلْنٰا لَهُمْ کُونُوا قِرَدَهً خٰاسِئِینَ (۱۶۶) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکَ لَیَبْعَثَنَّ عَلَیْهِمْ إِلیٰ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ مَنْ یَسُومُهُمْ سُوءَ اَلْعَذٰابِ إِنَّ رَبَّکَ لَسَرِیعُ اَلْعِقٰابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۶۷) وَ قَطَّعْنٰاهُمْ فِی اَلْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ اَلصّٰالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذٰلِکَ وَ بَلَوْنٰاهُمْ بِالْحَسَنٰاتِ وَ اَلسَّیِّئٰاتِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۱۶۸) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا اَلْکِتٰابَ یَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا اَلْأَدْنیٰ وَ یَقُولُونَ سَیُغْفَرُ لَنٰا وَ إِنْ یَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ یَأْخُذُوهُ أَ لَمْ یُؤْخَذْ عَلَیْهِمْ مِیثٰاقُ اَلْکِتٰابِ أَنْ لاٰ یَقُولُوا عَلَی اَللّٰهِ إِلاَّ اَلْحَقَّ وَ دَرَسُوا مٰا فِیهِ وَ اَلدّٰارُ اَلْآخِرَهُ خَیْرٌ لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (۱۶۹) وَ اَلَّذِینَ یُمَسِّکُونَ بِالْکِتٰابِ وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰهَ إِنّٰا لاٰ نُضِیعُ أَجْرَ اَلْمُصْلِحِینَ (۱۷۰) وَ إِذْ نَتَقْنَا اَلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ کَأَنَّهُ ظُلَّهٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ وٰاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مٰا آتَیْنٰاکُمْ بِقُوَّهٍ وَ اُذْکُرُوا مٰا فِیهِ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ (۱۷۱)

ص: ۵۹۲

۱- ۱) .الاعراف ۱۵۵-۱۶۰:بحث روائی فی:العله التی تمنع القوم من اختیار امام لانفسهم؛میقات موسی علیه السّلام اوضاع بنی اسرائیل بعد موت موسی علیه السّلام.

بیان:

قوله تعالى: وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ الى آخر الآيتين؛القريه هى التى كانت فى الأرض المقدسه أمروا بدخولها و قتال أهلها من العمالقه و إخراجهم منها فتمرّدوا عن الأمر،و ردّوا على موسى عليه السّلام فابتلوا بالتيه،و القصه مذكوره فى سوره المائده آيه ۲۰-۲۶.

و قوله: وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبٰابَ سُجَّداً الآيه تقدم الكلام فى نظيره من سوره البقره آيه:۵۸-۵۹،و قوله: «سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» فى موضع الجواب عن سؤال مقدّر كأنه لمّا قال: «نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئٰاتِكُمْ» قيل:ثم ما ذا فقال: «سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» .

ص :۵۹۳

قوله تعالی: وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَهِ الَّتِی كانَتْ حاضِرَهَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِی السَّبْتِ الی آخر الآیه؛أی اسأل بنی إسرائيل عن حال أهل القريه: «الَّتِی كانَتْ حاضِرَهَ الْبَحْرِ» أی قريبه منه مشرفه عليه من حضر الأمر اذا أشرف عليه و شهده «إِذْ يَعْدُونَ» و يتجاوزون حدود ما أمر اللّه به فی أمر «السَّبْتِ» و تعظيمه و ترک الصيد فيه «إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ» و السمک الذی فی ناحيتهم «يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً» جمع شارع و هو الظاهر البيّن «وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ» أی إن تجاوزهم عن حدود ما أمر به اللّه كان اذ كانت الحيتان تأتيهم شرّعا يوم منعوا من الصيد و أمروا بالسبت،و أمّا اذا مضی اليوم و أبيح لهم الصيد و ذلک غير يوم السبت فكان لا تأتيهم الحيتان و كان ذلک من بلاء اللّه و أبيح لهم الصيد و ذلک غير يوم السبت فكان لا تأتيهم الحيتان و كان ذلک من بلاء اللّه و امتحانه ابتلاهم بذلک لشيوع الفسق بينهم فبعثهم الحرض علی صيدها علی مخالفه أمر اللّه سبحانه،و لم يمنعهم تقوی عن التعدی، و لذلک قال: «كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ» أی نمتحنهم «بِما كانُوا يَفْسُقُونَ» .

قوله تعالی: وَ إِذْ قالَتْ أُمَّهٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ الی آخر الآیه؛إنما قالت هذه الامه ما قالت،لامه أخری منهم كانت تعظهم و تنهاهم عن مخالفه أمر اللّه فی السبت.

فالتقدير:«و اذ قالت أمه منهم لامه أخری كانت تعظهم»حذف للإيجاز و ظاهر كلامهم «لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً» أنهم كانوا أهل تقوی يجتنبون مخالفه الأمر إلا أنهم تركوا نهيهم عن المنكر فخالطوهم و عاشروهم و لو كان هؤلاء اللائمون من المتعدين الفاسقين لوعظهم أولئک الملومون،و لم يجيبوهم بمثل قولهم:معذره الی ربكم،الخ؛ و أن المتعدين طغوا فی تعديهم و تجاهروا فی فسقهم فلم يكونوا لينتهوا بنهی ظاهرا غير أن الامه التی كانت تعظهم لم ييأسوا من تأثير العظه فيهم،و كانوا يرجون منهم الانتهاء لو استمروا فی عظتهم،و لا أقل من انتهاء بعضهم و لو بعض الانتهاء،و ليكون ذلک معذره منهم

الی اللّه سبحانه بإظهار أنهم غیر موافقین لهم فی فسقهم منزجرون عن طغیانهم بالتمرد.

و لذلک أجابوا عن قولهم: «لِمَ تَعِظُونَ» الخ؛بقولهم «مَعْذِرَةً إِلیٰ رَبِّکُمْ وَ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ» أی إنما نعظهم لیکون ذلک عذرا الی ربکم،و لأنّا نرجو منهم أن یتّقوا هذا العمل.

و فی قولهم: إِلیٰ رَبِّکُمْ حیث أضافوا الرب الی اللائمین و لم یقولوا:الی ربنا إشاره الی أن التکلیف بالعظه لیس مختصا بنا بل أنتم أیضا مثلنا یجب علیکم أن تعظوهم لأن ربکم لمکان ربوبیته یجب أن یعتذر إلیه،و یبذل الجهد فی فراغ الذمه من تکالیفه و الوظائف التی أحالها الی عباده،و أنتم مربوبون له کما نحن مربوبون فعلیکم من التکالیف ما هو علینا.

قوله تعالی: فَلَمّٰا نَسُوا مٰا ذُکِّرُوا بِهِ أَنْجَیْنَا الَّذِینَ یَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ المراد بنسیانهم ما ذکّروا انقطاع تأثیر الذکر فی نفوسهم و إن کانوا ذاکرین لنفس التذکر حقیقه فإنّما الأخذ الإلهی مسبب عن الاستهانه بأمره و الإعراض عن ذکره،بل حقیقه النسیان بحسب الطبع مانع عن فعلیه التکلیف و حلول العقوبه.

فالإنسان یطوف علیه طائف من توفیق اللّه یذکّره بتکالیف هامه إلهیه ثم إن استقام و ثبت، و إن ترک الاستقامه و لم یزجره زاجر باطنی و لا ردعه رادع نفسانی عدا حدود اللّه بالمعصیه غیر أنه فی بادئ أمره یتألم تألما باطنیا و یتحرج تحرجا قلبیا من ذلک ثم اذا عاد إلیها ثانیا من غیر توبه زادت صوره المعصیه فی نفسه تمکنا،و ضعف أثر التذکیر و هان أمره،و کلما عاد إلیها و تکررت منه المخالفه زادت تلک قوه و هذه ضعفا حتی یزول أثر التذکیر من أصله،ساوی وجوده عدمه فلحق بالنسیان فی عدم التأثیر،و هو المراد بقوله «فَلَمّٰا نَسُوا مٰا ذُکِّرُوا» أی زال أثره کأنه منسی زائل،الصوره عن النفس.

و فی الآیه دلاله علی أن الناجین کانوا هم الناهین عن السوء فقط،و قد أخذ اللّه الباقین، و هم الذین یعدون فی السبت و الذین قالوا: «لِمَ تَعِظُونَ» الخ.

و فیه دلاله علی أن اللائمین کانوا مشارکین للعادین فی ظلمهم و فسقهم حیث ترکوا عظتهم

و لم يهجروهم.

و فى الآيه دلاله على سنّه إلهيه عامه،و هى أن عدم ردع الظالمين عن ظلمهم بمنع،و عظه إن لم يمكن المنع أو هجره إن لم تمكن العظه أو بطل تأثيرها،مشاركه معهم فى ظلمهم،و أن الأخذ الإلهى الشديد كما يرصد الظالمين كذلك يرصد مشاركيهم فى ظلمهم.

قوله تعالى: فَلَمّٰا عَتَوْا عَنْ مٰا نُهُوا عَنْهُ قُلْنٰا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خٰاسِئِينَ العتو المبالغه فى المعصيه و القرده جمع القرد و هو الحيوان المعروف،و الخاسئ الطريد البعيد من خسأ الكلب اذا بعد.

و قوله: «فَلَمّٰا عَتَوْا عَنْ مٰا نُهُوا عَنْهُ» أى عن ترك ما نهوا عنه فإن العتو إنما يكون عن ترك المنهيات لا عن نفسها،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ الى آخر الآيه؛ تأذّن و أذن بمعنى أعلم،و اللام فى قوله: «لَيَبْعَثَنَّ» للقسم،و المعنى:و اذكر اذ أعلم ربك أنه قد أقسم ليبعثن على هؤلاء الظالمين بعثا يدون عليهم ما دامت الدنيا من يذيقهم و يولّيهم سوء العذاب.

و قوله: إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقٰابِ معناه أن من عقابه ما يسرع الى الناس كعقاب الطاغى لطغيانه،قال تعالى: اَلَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاٰدِ - الى أن قال- إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصٰادِ (الفجر/۱۴)و الدليل على ما فسرنا به قوله بعده: «وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» فإن الظاهر أنه لم يؤت به إلا للدلاله على أنه تعالى ليس بسريع العقاب دائما و إلا فمضمون الآيه ليس مما يناسب التذليل باسمى الغفور و الرحيم لتمحضه فى معنى المؤاخذه و الانتقام فمعنى قوله: «إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقٰابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» أنه تعالى غفور للذنوب رحيم بعباده لكنه اذا قضى لبعض عباده بالعقاب لاستيجابهم ذلك بطغيان و عتو و نحو ذلك فسرعان ما يتبعهم اذ لا مانع يمنع عنه و لا عائق يعوقه.

و لعل هذا هو معنى قول بعضهم:إن معنى قوله: «إِنَّ رَبَّکَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ» سريع العقاب لمن شاء أن يعاقبه فى الدنيا،و إن كان الأنسب أن يقال:إن ذلک معنى قوله: «إِنَّ رَبَّکَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» ،و يرتفع به ما يمكن أن يتوهم أن كونه تعالى سريع العقاب ينافى كونه حليما لا يسرع الى المؤاخذه.

قوله تعالى: وَ قَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ الى آخر الآيه؛ قال:فى المجمع:دون فى موضع الرفع بالابتداء،و لكنه جاء منصوبا لتمكنه فى الظرفيه،و مثله على قول أبى الحسن: «لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ» هو فى موضع الرفع فجاء منصوبا لهذا المعنى،و كذلک فى قوله: «يَوْمَ الْقِيَامَهِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ» بين فى موضع رفع لقيامه مقام الفاعل،و إن شئت كان التقدير:و منهم جماعه دون ذلک فحذف الموصوف و قامت صفته مقامه.انتهى.

و المراد بالحسنات و السيئات نعماء الدنيا و ضرّاءها و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ الى آخر الآيه،العرض ما لا ثبات له،و منه قوله تعالى: عَرَضَ الْحَيَاهِ الدُّنْيَا (النساء/۹۴)أى ما لا ثبات له من شئونها،و المراد بعرض هذا الأدنى عرض هذه الحياه الدنيا و الدار العاجله غير أنه أشير إليها بلفظ التذكير لأخذها شيئا ليس له من الخصوصيات إلا أن يشار إليه تجاهلا بخصوصياتها تحقيرا لشأنها كأنها لا يخص بنعت من النعوت يرغب فيها،و قد تقدم نظيره فى قول إبراهيم عليه السّلام على ما حكاه اللّه: هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ (الأنعام/۷۸)يريد الشمس.

و قوله: وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا قول جزافى لهم قالوه،و لا معوّل لهم فيه إلا الاغترار بشعبهم الذى سمّوه شعب اللّه كما سموا أنفسهم أبناء اللّه و أحبّاءه،و لم يقولوا ذلک لوعد النفس بالتوبه لأن ذلک قيد لا يدل عليه الكلام،و لا أنهم قالوا ذلک رجاء للمغفره الإلهيه فإن للرجاء آثارا لا تلائم هذه المشيئه اذ رجاء الخير لا ينفک عن خوف الشر الذى يقابله و كما أن الرجاء يستدعى شيئا من ثبات النفس و طيبها كذلک الخوف يوجب قلق النفس و اضطرابها

و مساءتها فآيه الرجاء الصادق توسط النفس بين سكون و اضطراب،و جذب و دفع،و مسرّه و مساءه،و أما من توغل فی شهوات نفسه و انغمر فی لذائذ الدنيا من غير أن يتذكّر بعقوبه ما يجنيه و يتقرفه ثم اذا ردعه رادع من نفسه أو غيره بما أوعد اللّه الظالمين،و ذكّره شيئا من سوء عاقبه المجرمين قال:إن اللّه غفور رحيم يتخلص به من اللوم،و يخلص به الی صافی لذائذه الدنيه فليس ما يتظاهر به رجاء صادقا بل أمنيه نفسانيه كاذبه،و تسويل شيطانی موبق فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا و لا يشرك بعباده ربه أحدا.

و قوله: وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أی لم يقنعوا بما أخذوه من العرض بمرّه حتی يكون تركهم ذلك و رجوعهم الی اتقاء محارم اللّه نحوا من التوبه،و قولهم: «سَيُغْفَرُ لَنٰا» نوعا من الرجاء يتلبّس به النائبون بل كلما وجدوا شيئا من عرض الدنيا أخذوه من غير أن يراقبوا اللّه تعالی فيه فالجمله أعنی قوله: «وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ» فی معنی قوله تعالی فی وصفهم فی موضع آخر: كٰانُوا لاٰ يَتَنٰاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ (المائده/۷۹).

و قوله: وَ دَرَسُوا مٰا فِيهِ كأن الواو للحال،و الجمله حال عن ضمير «عَلَيْهِمْ» و قيل الجمله معطوفه علی قوله: «وَرِثُوا الْكِتٰابَ» فی صدر الآيه،و لا يخلو من بعد.

و المعنی: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ» أی من بعد هؤلاء الأسلاف من بنی إسرائيل و حالهم فی تقوی اللّه و اجتناب محارمه ما وصف: «خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتٰابَ» و تحمّلوا ما فيه من المعارف و الأحكام و المواعظ و العبر،و كان لازمه أن يتّقوا و يختاروا الدار الآخره،و يتركوا أعراض الدنيا الفانيه الصارفه عما عند اللّه من الثواب الدائم «يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الْأَدْنیٰ» و ينكّبون علی اللذائذ الفانيه العاجله،و لا يبالون بالمعصيه و إن كثرت «وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنٰا» قولا بغير الحق و لا يرجعون عن المعصيه بالمره و المرتين بل هم علی قصد العود إليها كلما أمكن «وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ» و لا يتناهون عما اقترفوه من المعصيه.

«أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثٰاقُ الْكِتٰابِ» و هو الميثاق المأخوذ عليهم عند حملهم إيّاه «أَنْ لاٰ

يَقُولُوا عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ» و الحال أنهم درسوا ما فيه،و علموا بذلك أن قولهم: «سَيُغْفَرُ لَنا» قول بغير الحق ليس لهم أن يتفوّهوا به،و هو يجرّئهم على معاصى اللّه و هدم أركان دينه.«و» الحال أن «الدّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» لدوام ثوابها و أمنها من كل مكروه «أَ فَلا تَعْقِلُونَ» .

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ قال فى المجمع:أمسك و مسّك و تمسّك و استمسك بالشىء بمعنى واحد أى اعتصم به.انتهى.

و تخصيص إقامه الصلاه بالذكر من بين سائر أجزاء الدين لشرفها و كونها ركنا من الدين يحفظ بها ذكر اللّه و الخضوع الى مقامه الذى هو بمنزله الروح الحيه فى هيكل الشرائع الدينيه.

و الآيه تعدّ التمسّك بالكتاب اصلاحا و الإصلاح يقابل الإفساد و هو الإفساد فى الأرض أو إفساد المجتمع البشرى فيها،و لا تفسد الأرض و لا المجتمع البشرى إلا بإفساد طريقه الفطره التى فطر اللّه الناس عليها،و الدين الذى يشتمل عليه الكتاب الإلهى النازل فى عصر من الأعصار هو المتضمن لطرق الفطره بحسب ما يستدعيه استعداد أهله فإن اللّه سبحانه يذكر فى كلامه أن الدين القيّم الذى يقوم بحوائج الحياه هى الفطره التى فطر الناس عليها،و الخلقه التى لا حقيقه لهم وراءها قال: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ (الروم/۳۰)ثم قال: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْلامُ (آل عمران/۱۹)و الإسلام هو التسليم للّه سبحانه فى سنّته الجاريه فى تكوينه المبتنيه عليها تشريعه.

و الآيه أعنى قوله: «وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ» الآيه فى نفسها عامه مستقله لكنها بحسب دخولها فى سياق الكلام فى بنى إسرائيل معتنيه بشأنهم،و المراد بالكتاب بهذا النظر التوراه أو هى و الإنجيل.

قوله تعالی: وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّهٌ الآیه؛النتق قلع الشیء من أصله،و الظلمه هی الغمامه،و ما یستظلّ بها من نحو السقف،و الباقی ظاهر.

و الآیه تقصّ رفع الطور فوق رءوس بنی إسرائیل،و قد تقدمت هذه القصه مکرره فی سورتی البقره و النساء (۱).

[سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۷۲ الی ۱۷۴]

اشاره

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ قٰالُوا بَلیٰ شَهِدْنٰا أَنْ تَقُولُوا یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ إِنّٰا کُنّٰا عَنْ هٰذٰا غٰافِلِینَ (۱۷۲) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمٰا أَشْرَکَ آبٰاؤُنٰا مِنْ قَبْلُ وَ کُنّٰا ذُرِّیَّهً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِکُنٰا بِمٰا فَعَلَ اَلْمُبْطِلُونَ (۱۷۳) وَ کَذٰلِکَ نُفَصِّلُ اَلْآیٰاتِ وَ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۱۷۴)

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ قٰالُوا بَلیٰ شَهِدْنٰا أخذ الشیء من الشیء یوجب انفصال المأخوذ من المأخوذ منه و استقلاله دونه بنحو من الأنحاء،و هو یختلف باختلاف العنایات المتعلقه بها و الاعتبارات المأخوذه فیها کأخذ اللقمه من الطعام و أخذ الجرعه من ماء القدح و هو نوع من الأخذ،و أخذ المال و الأثاث من زید الغاصب أو الجواد أو البائع أو

ص: ۶۰۰

۱- ۱) .الاعراف ۱۶۱-۱۷۱:بحث روائی فی طائفه من بنی اسرائیل و موضوع صید الحیتان؛نزول العذاب الالهی علی بنی اسرائیل و نجاه الناهین عن المنکر؛نزول التوراه و عدم ایمان بنی اسرائیل.

المعير و هو نوع آخر،أو أنواع مختلفه اخرى،و كأخـذ العلم من العالم و أخذ الاهبه من المجلس و أخذ الحظ من لقاء الصديق و هو نوع و أخذ الولد من والده للتربيه و هو نوع الى غير ذلك.

فمجرد ذكر الأخذ من الشـىء لا يوضح نوعه إلا ببيان زائد،و لذلك أضاف اللّه سبحانه إلى قوله: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ» الـدال على تفريقهم و تفصـيل بعضـهم من بعض،قوله «مِنْ ظُهُورِهِمْ» ليدل على نوع الفصل و الأخذ،و هو أخذ بعض الماده منها بحيث لاـ تنقص المـاده المـأخوذه منهـا بحسب صورتهـا و لاـ تنقلب عن تمامهـا و اسـتقلالها ثم تكميل الجزء المأخوذ شـيئا تاما مسـتقلا من نوع المأخوذ منه فيؤخـذ الولـد من ظهر من يلـده و يولـده،و قـد كان جزء ثم يجعل بعـد الأخـذ و الفصل إنسانا تاما مستقلا من والديه بعد ما كان جزء منهما.

ثم يؤخـذ من ظهر هـذا المـأخوذ مـأخوذ آخر و على هـذه الوتيره حتى يتم الأخـذ و ينفصل كل جزء عما كان جزء منه،و يتفرق الأناسـى و ينتشـر الأفراد و قد اسـتقل كل منهم عمن سواه و يكون لكل واحد منهم نفس مسـتقله لها ما لها و عليها ما عليها،فهذا مفـاد قوله «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» و لو قال:أخـذ ربك من بنى آدم ذريتهم أو نشـرهم و نحو ذلك بقى المعنى على إبهامه.

و قوله: «وَ أَشْهَدَهُمْ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ» ينبئ عن فعل آخر إلهى تعلق بهم بعد ما أخذ بعضهم من بعض و فصل بين كل واحـد منهم و غيره و هو إشـهادهم على أنفسـهم، و الإشـهاد على الشـىء هو إحضار الشاهـد عنده و إراءته حقيقته ليتحمله علما تحملاـ شـهوديا فإشـهادهم على أنفسـهم هو إراءتهم حقيقه أنفسـهم ليتحملوا ما اريـد تحملهم من أمرها ثم يؤدوا ما تحملوه اذا سئلوا.

و للنفس فى كل ذى نفس جهات من التعلق و الارتباط بغيرها يمكن أن يستشـهد الإنسان على بعضها دون بعض غير أن قوله: «أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ» يوضح ما أشهدوا لأجله و اريد شهادتهم عليه،و هو أن يشهدوا ربوبيته سبحانه لهم فيؤدوها عند المسأله.

فالإنسان و إن بلغ من الكبر و الخيلاء ما بلغ،و غرته مساعده الأسباب ما غرته و استهوته لا يسعه أن ينكر أنه لا يملك وجود نفسه و لا يستقل بتدبير أمره،و لو ملك نفسه لوقاها مما يكرهه من الموت و سائر آلام الحياه و مصائبها،و لو استقل بتدبير أمره لم يفتقر إلى الخضوع قبال الأسباب الكونيه،و الوسائل التی یری لنفسه أنه یسودها و یحکم فیها ثم هی کالإنسان فی الحاجه الی ما وراءها،و الانقياد الى حاكم غائب عنها يحكم فيها لها أو عليها،و ليس الى الإنسان أن يسد خلتها و يرفع حاجتها.

فالحاجه الى رب-مالك مدبر-حقيقه الإنسان،و الفقر مكتوب على نفسه،و الضعف مطبوع على ناصيته،لا يخفى ذلك على إنسان له أدنى الشعور الإنساني،و العالم و الجاهل و الصغير و الكبير و الشريف الوضيع فی ذلک سواء.

فالإنسان فی أی منزل من منازل الإنسانيه نزل يشاهد من نفسه أن له ربا يملكه و يدبر أمره،و كيف لا يشاهد ربه و هو يشاهد حاجته الذاتيه؟و كيف يتصور وقوع الشعور بالحاجه من غير شعور بالذى يحتاج إليه؟فقوله: «أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ» بيان ما أشهد عليه،و قوله: «قالُوا بَلىٰ شَهِدْنا» اعتراف منهم بوقوع الشهاده و ما شهدوه،و لذا قيل:إن الآيه تشير الى ما يشاهده الإنسان فی حياته الدنيا أنه محتاج فی جميع جهات حياته من وجوه و ما يتعلق به وجوده من اللوازم و الأحكام،و معنى الآيه أنا خلقنا بنى آدم فی الأرض و فرقناهم و ميزنا بعضهم من بعض بالتناسل و التوالد،و أوقفناهم على احتياجهم و مربوبيتهم لنا فاعترفوا بذلك قائلين:بلى شهدنا أنك ربنا.

و على هذا يكون قولهم: «بَلىٰ شَهِدْنا» من قبيل القول بلسان الحال أو إسناد اللازم القول الى القائل بالملزوم حيث اعترفوا بحاجاتهم و لزمه الاعتراف بمن يحتاجون إليه،و الفرق بين لسان الحال،و القول بلازم القول:أن الأول انكشاف المعنى عن الشیء لدلاله صفه من صفاته و حال من أحواله عليه سواء شعر به أم لا كما تفصح آثار الديار الخربه عن حال ساكنيها،

و کیف لعب الدهر بهم؟و عدت عادیه الأیام علیهم؟فأسکنت اجراسهم و أخمدت أنفاسهم، و کما یتکلم سیماء البائس المسکین عن فقره و مسکنته و سوء حاله.و الثانی انکشاف المعنی عن القائل لقوله بما یستلزمه أو تکلمه بما یدل علیه بالالتزام.

فعلی أحد هذین النوعین من القول أعنی القول بلسان الحال و القول بالاستلزام یحمل اعترافهم المحکی بقوله تعالی: «قٰالُوا بَلیٰ شَهِدْنٰا» و الأول أقرب و أنسب فإنه لا یکتفی فی مقام الشهاده إلا بالصریح منها المدلول علیه بالمطابقه دون الالتزام.

و من المعلوم أن هذه الشهاده علی أی نحو تحققت فهی من سنخ الاستشهاد المذکور فی قوله: «أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ» فالظاهر أنه قد استوفی الجواب بعین اللسان الذی سألهم به،و لذلک کان هناک نحو ثالث یمکن أن یحمل علیه هذه المساءله و المجاوبه فإن الکلام الإلهی یکشف به عن المقاصد الإلهیه بالفعل،و الإیجاد کلام حقیقی-و إن کان بنحو التحلیل-کما تقدم مرارا فی مباحثنا السابقه فلیکن هنا قوله: «أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ» و قولهم: «بَلیٰ شَهِدْنٰا» من ذاک القبیل، و سیجیء للکلام تتمه.

و کیف کان فقوله: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ» الآیه یدل علی تفصیل بنی آدم بعضهم من بعض،و إشهاد کل واحد منهم علی نفسه،و أخذ الاعتراف علی الربوبیه منه،و یدل ذیل الآیه و ما یتلوه أعنی قوله: «أَنْ تَقُولُوا یَوْمَ الْقِیٰامَهِ إِنّٰا کُنّٰا عَنْ هٰذٰا غٰافِلِینَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمٰا أَشْرَکَ آبٰاؤُنٰا مِنْ قَبْلُ وَ کُنّٰا ذُرِّیَّهً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِکُنٰا بِمٰا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ» علی الغرض من هذا الأخذ و الإشهاد.

و هو علی ما یفیده السیاق إبطال حجتین للعباد علی اللّه و بیان أنه لو لا هذا الأخذ و الإشهاد و أخذ المیثاق علی انحصار الربوبیه کان للعباد أن یتمسکوا یوم القیامه بإحدی حجتین یدفعون بها تمام الحجه علیهم فی شرکهم باللّه و القضاء بالنار،علی ذلک من اللّه سبحانه.

ص:۶۰۳

و التـدبر فى الآيتين و قـد عطفت إحدى الحجتين على الاخرى بأو الترديديه،و بنيت الحجتان جميعا على العلم اللازم للإشـهاد،و نقلتـا جميعا عن بنى آدم المأخوذين المفرقين يعطى أن الحجتين كل واحـده منهما مبنيه على تقـدير من تقـديرى عـدم الإشـهاد كذلك.

و المراد أنـا أخـذنا ذريتهم من ظهورهم و أشـهدناهم على أنفسـهم فـاعترفوا بربوبيتنـا فتمت لنا الحجه عليهم يوم القيامه،و لو لم نفعل هذا و لم نشـهد كل فرد منهم على نفسه بعد أخذه فإن كنا أهملنا الإشهاد من رأس فلم يشهد أحد نفسه و أن اللّه ربه،و لم يعلم به لأقـاموا جميعا الحجه علينا يوم القيامه بأنهم كانوا غافلين فى الـدنيا عن ربوبيتنا،و لا تكليف على غافل و لا مؤاخـذه،و هو قوله تعالى: «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَهِ إِنّا كُنّا عَنْ هٰذا غافِلِينَ» .

و إن كنا لم نهمل أمر الإشـهاد من رأس،و أشـهدنا بعضهم على أنفسهم دون بعض بأن أشهدنا الآباء على هذا الأمر الهام العظيم دون ذرياتهم ثم أشـرك الجميع كان شـرك الآباء شركا عن علم بأن اللّه هو الرب لا رب غيره فكانت معصيه منهم،و أما الذريه فإنما كان شـركهم بمجرد التقليد فيما لا سبيل لهم الى العلم به لا إجمالا و لا تفصيلا،و متابعه عمليه محضه لآبائهم فكان آباؤهم هم المشـركون بـاللّه العـاصون فى شـركهم لعلمهم بحقيقه الأـمر،و قـد قادوا ذريتهم الضـعاف فى سبيل شـركهم بتربيتهم عليه و تلقينهم ذلک،و لا سبيل لهم الى العلم بحقيقه الأمر و إدراک ضـلال آبائهم و إضـلالهم إياهم،فكانت الحجه لهؤلاء الذريه على اللّه يوم القيامه لأن الذين أشـركوا أو عصوا بذلک و أبطلوا الحق هم الآباء فهم المستحقين للمؤاخذه،و الفعل فعلهم،و أما الذريه فلم يعرفوا حقـا حـتى يؤمروا به فيعصوا بمخـالفته فهم لم يعصوا شـيئا و لم يبطلوا حقـا،و حينئـذ لم تتم حجه على الـذريه فلم تتم الحجه على جميع بنى آدم،و هذا معنى

الْمُبْطِلُونَ

(۱)

.

رجعنا الی الآیه:

قوله: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ أی و اذکر لأهل الکتاب فی تتمیم البیان السابق أو و اذکر للناس فی بیان ما نزلت السوره لأجل بیانه و هو أن للّه عهدا علی الإنسان و هو سائله عنه و أن أکثر الناس لا یفون به و قد تمت علیهم الحجه.

أذکر لهم موطنا قبل الدنیا أخذ فیه ربک «مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ» فما من أحد منهم إلا استقل من غیره و تمیز منه فاجتمعوا هناک جمیعا و هم فرادی فأراهم ذواتهم المتعلقه بربهم «وَ أَشْهَدَهُمْ عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ» فلم یحتجبوا عنه و عاینوا أنه ربهم کما أن کل شیء بفطرته یجد ربه من نفسه من غیر أن یحتجب عنه،و هو ظاهر الآیات القرآنیه کقوله وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰکِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِیحَهُمْ (الإسراء۴۴/).

«أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ» و هو خطاب حقیقی لهم لا بیان حال و تکلیم إلهی لهم فإنهم یفهمون مما یشاهدون أن اللّه سبحانه یرید به منهم الاعتراف و إعطاء الموثق،و لا نعنی بالکلام إلا ما یلقی للدلاله به علی معنی مراد،و کذا الکلام فی قوله: «قٰالُوا بَلیٰ شَهِدْنٰا»

.

و قوله: أَنْ تَقُولُوا یَوْمَ الْقِیٰامَهِ إِنّٰا کُنّٰا عَنْ هٰذٰا غٰافِلِینَ الخطاب للمخاطبین بقوله: «أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ» القائلین: «بَلیٰ شَهِدْنٰا» فهم هناک یعاینون الإشهاد و التکلیم من اللّه و التکلم بالاعتراف من أنفسهم،و إن کانوا فی نشأه الدنیا علی غفله مما عدا المعرفه بالاستدلال،ثم اذا کان یوم البعث و انطوی بساط الدنیا،و انمحت هذه الشواغل و الحجب عادوا الی مشاهدتهم و معاینتهم،و ذکروا ما جری بینهم و بین ربهم.

و یحتمل أن یکون الخطاب راجعا إلینا معاشر المخاطبین بالآیات أی إنما فعلنا ببنی آدم

۱- ۱) .الاعراف ۱۷۲-۱۷۴:بحث فی اشهاد بنی آدم علی انفسهم؛عالم الذر.

ذلک حذر أن تقولوا أیها الناس یوم القیامه کذا و کذا،و الأول أقرب و یؤیده قراءه «أن یقولوا» بلفظ الغیبه.

و قوله: أَوْ تَقُولُوا إِنَّمٰا أَشْرَکَ آبٰاؤُنٰا مِنْ قَبْلُ هـذه حجه الناس إن فرض الإشـهاد و أخذ المیثاق من الآباء خاصه دون الذریه کما أن قوله: «أَنْ تَقُولُوا» الخ؛حجه الناس إن ترک الجمیع فلم یقع إشهاد و لا أخذ میثاق من أحد منهم.

و من المعلوم أن لو فرض ترک الإشـهاد و أخذ المیثاق فی تلک النشأه کان لازمه عدم تحقق المعرفه بالربوبیه فی هذه النشأه اذ لا ـ حجاب بینهم و بین ربهم فی تلک النشأه فلو فرض هناک علم منهم کان ذلک إشـهادا و أخـذ میثاق،و أما هـذه النشأه فالعلم فیها من وراء الحجاب و هو المعرفه من طریق الاستدلال.

فلو لم یقع هناک بالنسبه الی الذریه إشـهاد و أخذ میثاق کان لازمه فی هذه النشأه أن لا یکون لهم سبیل إلی معرفه الربوبیه فیها أصـلا،و حینئذ لم یقع منهم معصیه شرک بل کان ذلک فعل آبائهم،و لیس لهم إلا التبعیه العملیه لآبائهم و النشوء علی شرکهم من غیر علم فصح لهم أن یقولوا:إنما أشرک آباؤنا من قبل و کنا ذریه من بعدهم أ فتهلکنا بما فعل المبطلون.

قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ نُفَصِّلُ الْآیٰاتِ وَ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ تفصـیل الآیات تفریق بعضـها و تمییزه من بعض لیتبین بـذلک مدلول کل منهـا و لا تختلط وجود دلالتها،و قوله «وَ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ» عطف علی مقـدر،و التقـدیر:لغایات عالیه کـذا و کـذا و لعلهم یرجعون من الباطل الی الحق (۱).

[سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۷۵ الی ۱۷۹]

اشاره

وَ اُتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ اَلَّذِی آتَیْنٰاهُ آیٰاتِنٰا فَانْسَلَخَ مِنْهٰا فَأَتْبَعَهُ اَلشَّیْطٰانُ فَکٰانَ مِنَ اَلْغٰاوِینَ (۱۷۵) وَ لَوْ شِئْنٰا لَرَفَعْنٰاهُ بِهٰا وَ لٰکِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَی اَلْأَرْضِ وَ اِتَّبَعَ هَوٰاهُ فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ اَلْکَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَیْهِ یَلْهَثْ أَوْ تَتْرُکْهُ یَلْهَثْ ذٰلِکَ مَثَلُ اَلْقَوْمِ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا فَاقْصُصِ اَلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ (۱۷۶) سٰاءَ مَثَلاً اَلْقَوْمُ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ أَنْفُسَهُمْ کٰانُوا یَظْلِمُونَ (۱۷۷) مَنْ یَهْدِ اَللّٰهُ فَهُوَ اَلْمُهْتَدِی وَ مَنْ یُضْلِلْ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلْخٰاسِرُونَ (۱۷۸) وَ لَقَدْ ذَرَأْنٰا لِجَهَنَّمَ کَثِیراً مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاٰ یَفْقَهُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ أَعْیُنٌ لاٰ یُبْصِرُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ آذٰانٌ لاٰ یَسْمَعُونَ بِهٰا أُولٰئِکَ کَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْغٰافِلُونَ (۱۷۹)

۱- ۱) .الاعراف ۱۷۲-۱۷۴:بحث روائی فی:عالم الذرّ،اشهاد بنی آدم علی انفسهم؛التوحید.

بیان:

قوله تعالی: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا الی آخر الآیه معنی إیتاء الآیات علی ما یعطیه السیاق التلبس من الآیات الأنفسیه و الکرامات الخاصه الباطنیه بما یتنور به طریق معرفه اللّه له،و ینکشف له ما لا یبقی له معه ریب فی الحق و الانسلاخ خروج الشیء و انتزاعه من جلده،و هو کنایه استعاریه عن أن الآیات کانت لزمتها لزوم الجلد فخرج منها الخبث فی ذاته،و الاتباع کالتبع و الاتباع التعقیب و اقتفاء الأثر یقال:تبع و أتبع و اتّبع،و الکل بمعنی واحد،و الغی و الغوایه هی الضلال،کأنه لخروج من الطریق للقصور عن حفظ المقصد الذی یوصل إلیه الطریق ففیه نسیان المقصد و الغایه،

ص: ۶۰۷

فالمتحير فى أمره و هو فى الطريق غوى،و الخارج عن الطريق و هو ذاكر لمقصده ضال،و هو الأنسب لمورد الآيه فإن صاحب النبأ بعد ما انسلخ عن آيات اللّه و أتبعه الشيطان غاب عنه سبيل الرشد فلم يتمكن من إنجاء نفسه عن ورطه الهلاك،و ربما استعمل كل من الغوايه و الضلاله فى معنى واحد.و هو الخروج عن الطريق الموصل إلى الغايه.

و قد اختلف المفسرون فى تعيين من هو صاحب النبأ فى هذه الآيه على أقوال مختلفه سنشير الى جلها أو كلها فى البحث الروائى الآتى إن شاء اللّه.

و الآيه-كما ترى-أبهمت اسمه و اقتصرت على الإشاره الى إجمال قصته لكنها مع ذلك ظاهره فى أنه نبأ واقع لا مجرد تمثيل فلا وقع لقول من قال:إنها مجرد تمثيل من غير نبأ واقع.

و المعنى: «وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ» أى على بنى إسرائيل أو على الناس خبرا عن أمر عظيم و هو «نَبَأَ» الرجل «الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا» و كشفنا لباطنه عن علائم و آثار إلهيه عظام يتنور له بها حق الأمر «فَانْسَلَخَ مِنْهَا» و رفضها بعد لزومها «فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ» فلم يقو على إنجاء نفسه من الهلاك.

قوله تعالى: وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ الآيه؛الإخلاد اللزوم على الدوام،و الإخلاد الى الأرض اللصوق بها،و هو كنايه عن الميل الى التمتع بالملاذ الدنيويه و التزامها،و اللهث من الكلب أن يدلع لسانه من العطش.

فقوله: «وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا» أى لو شئنا لرفعناه بتلك الآيات و قربناه إلينا لأن فى القرب الى اللّه ارتفاعا عن حضيض هذه الدنيا التى هى بمالها من اشتغال الإنسان بنفسها عن اللّه و آياته أسفل سافلين،و رفعه بتلك الآيات بما أنها أسباب إلهيه ظاهريه تفيد اهتداء من تلبس بها لكنها لا تحتم السعاده للإنسان لأن تمام تأثيرها فى ذلك منوط بمشيئه اللّه،و اللّه سبحانه لا يشاء ذلك لمن أعرض عنه و أقبل الى غيرها.و هى الحياه الأرضيه اللاهيه عن اللّه و دار كرامته فإن الإعراض عن اللّه سبحانه و تكذيب آياته ظلم،و قد حق القول منه سبحانه أنه لا

يهدى القوم الظالمين،و أن الذين كفروا و كذبوا بآياته اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

و لذلك عقب تعالى قوله: «وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها» بقوله: «لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ» فالتقدير:لكنا لم نشأ ذلك لأنه أخلد الى الأرض و اتبع هواه و كان ذلك موردا لإضلالنا لا لهدايتنا كما قال تعالى: وَ يُضِلُّ اللّهُ الظّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللّهُ ما يَشاءُ (إبراهيم/٢٧).

و قوله: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ أى إنه ذو هذه السجيه لا يتركها سواء زجرته و منعته أو تركته و «تَحْمِلْ» من الحمله لا من الحمل «ذلك مثل الذين كذبوا بآياتنا»فالتكذيب منهم سجيه و هيئه نفسانيه خبيثه لازمه فلا تزال آياتنا تتكرر على حواسهم و يتكرر التكذيب بها منهم «فَاقْصُصِ الْقَصَصَ» و هو مصدر أى اقصص قصصا أو اسم مصدر أى اقص القصه «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» فينقادوا للحق و ينتزعوا عن الباطل.

قوله تعالى: ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ أَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ ذم لهم من حيث وصفهم،و إعلام لهم أنهم لا يضرون شيئا فى تكذيب آياته بل ذلك ظلم منهم لأنفسهم اذ يستضر بذلك غيرهم.

قوله تعالى: مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ اللام فى «الْمُهْتَدِي» و «الْخاسِرُونَ» يفيد الكمال دون الحصر ظاهرا،و مفاد الآيه أن مجرد الاهتداء الى شىء لا ينفع شيئا و لا يؤثر أثر الاهتداء إلا اذا كانت معه هدايه اللّه سبحانه فهى التى يكمل بها الاهتداء،و تتحتم معها السعاده،و كذلك مجرد الضلال لا يضر ضررا قطعيا إلا بانضمام إضلال اللّه سبحانه إليه فعند ذلك يتم أثره،و يتحتم الخسران.

فمجرد اتصال الإنسان بأسباب السعاده كظاهر الإيمان و التقوى و تلبسه بذلك لا يورده مورد النجاه،و كذلك اتصاله و تلبسه بأسباب الضلال لا يورده مورد الهلاك و الخسران إلا أن يشاء اللّه ذلك فيهدى بمشيئته من هدى،و يضل بها من أضل.

فیئول المعنی الی أن الهدایه إنما تکون هدایه حقیقه تترتب علیها آثارها اذا کان للّه فیها مشیه،و إلا فهی صوره هدایه و لیست بها حقیقه،و کذلک الأمر فی الإضلال،و إن شئت فقل:

إن الکلام یدل علی حصر الهدایه الحقیقه فی اللّه سبحانه،و کذلک الإضلال و لا یضل به إلا الفاسقین.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ ذَرَأْنٰا لِجَهَنَّمَ کَثِیراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ الی آخر الآیه؛ الذرء هو الخلق،و قد عرف اللّه سبحانه جهنم غایه لخلق کثیر من الجن و الإنس،و لا ینافی ذلک ما عرف فی موضع آخر أن الغایه لخلق الخلق هی الرحمه و هی الجنه فی الآخره کقوله تعالی: إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ رَبُّکَ وَ لِذٰلِکَ خَلَقَهُمْ (هود۱۱۹/)فإن الغرض یختلف معناه بحسب کمال الفعل و نهایه الفعل التی ینتهی إلیها.

بیان ذلک أن النجار إذا أراد أن یصنع بابا عمد إلی أخشاب یهیئها له ثم هندسه فیها ثم شرع فی النشر و النحت و الخرط حتی أتم الباب فکمال غرضه من إیقاع الفعل علی تلک الخشبات هو حصول الباب لا غیر،هذا من جهه و من جهه اخری هو یعلم من أول الأمر أن جمیع أجزاء تلک الخشبات لیست تصلح لأن تکون أجزاء للباب فإن للباب هیئه خاصه لا تجامع هیئه الخشبات،و لا بد فی تغییر هیئتها من ضیعه بعض الأجزاء لخروجها عن هندسه العمل فصیروره هذه الأبعاض فضله یرمی بها داخله فی قصد الصانع مراده له بإراده تسمی قصدا ضروریا فللنجار فی صنع الباب بالنسبه إلی الأخشاب التی بین یدیه نوعان من الغایه:

أحدهما الغایه الکمالیه و هی أن یصنع منها بابا،و الثانی الغایه التابعه و هی أن یصنع بعضها بابا و یجعل بعضها فضله لا ینتفع بها وضیعه یرمی بها،و ذلک لعدم استعدادها لتلبس صوره الباب.

و کذا الزارع یزرع أرضا لیحصد قمحا فلا یخلص لذلک الی یوم الحصاد إلا بعض ما صرفه من البذر،و یذهب غیره سدی یضیع فی الأرض أو تفسده الهوام أو یخصفه المواشی و الجمیع

مقصوده للزراع من وجه،و المحصول من القمح مقصود من وجه آخر.

و قد تعلقت المشيه الإلهيه أن يخلق من الأرض إنسانا سويا يعبده و يدخل بذلك فى رحمته، و اختلاف الاستعدادات المكتسبه من الحياه الدنيويه على ما لها من مختلف التأثيرات لا يدع كل فرد من أفراد هذا النوع أن يجرى فى مجراه الحقيقى و يسلك سبيل النجاه إلا من وفق له، و عند ذلك تختلف الغايات و صح أن للّه سبحانه غايه فى خلقه الإنسان مثلا و هو أن يشملهم برحمته و يدخلهم جنته،و صح أن للّه غايه فى أهل الخسران و الشقاوه من هذا النوع و هو أن يدخلهم النار و قد كان خلقهم للجنه غير أن الغايه الاولى غايه أصليه كماليه،و الغايه الثانيه غايه تبعيه ضروريه،و القضاء الإلهى المتعلق بسعاده من سعد و شقاوه من شقى ناظر إلى هذا النوع الثانى من الغايه فإنه تعالى يعلم ما يئول إليه حال الخلق من سعاده أو شقاء فهو مريد لذلك بإراده تبعيه لا أصليه.

و على هذا النوع من الغايه ينزل قوله تعالى: «وَ لَقَدْ ذَرَأْنٰا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ» و ما فى هذا المساق من الآيات الكريمه و هى كثيره.

و قوله: لَهُمْ قُلُوبٌ لاٰ يَفْقَهُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لاٰ يُبْصِرُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ آذٰانٌ لاٰ يَسْمَعُونَ بِهٰا إشاره الى بطلان استعدادهم للوقوع فى مجرى الرحمه الإلهيه،و الوقوف فى مهب النفحات الربانيه،فلا ينفعهم ما يشاهدونه من آيات اللّه،و ما يسمعونه من مواعظ أهل الحق،و ما تلقنه لهم فطرتهم من الحجه و البينه.

و لا يفسد عقل و لا عين و لا أذن فى عمله و قد خلقها اللّه لذلك،و قد قال: لاٰ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ (الروم/۳۰)إلا أن يكون الذى يغيره هو اللّه سبحانه فيكون من جمله الخلق لكنه سبحانه لا يغير ما انعمه على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم،قال تعالى: ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهٰا عَلىٰ قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ (الأنفال/۵۳).

فالذى أبطل ما عندهم من الاستعداد،و أفسد أعمال قلوبهم و أعينهم و آذانهم هو اللّه

سبحانه فعل بهم ما فعل جزاء بما كسبوا نكالا- فهم غيروا نعمه اللّه بتغيير طريق العبوديه فجازاهم اللّه بالطبع على قلوبهم فلا يفقهون بها،و جعل الغشاوه على أبصارهم فلا يبصرون بها،و الوقر على آذانهم فلا يسمعون بها فهذه آيه أنهم مسيرون إلى النار.

و قوله: أُولٰئِكَ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ نتيجه ما تقدم،و بيان لحالهم فإنهم فقدوا ما يتميز به الإنسان من سائر الحيوان،و هو تمييز الخير و الشر و النافع و الضار بالنسبه الى الحياه الإنسانيه السعيده من طريق السمع و البصر و الفؤاد.

و إنما شبهوا من بين الحيوان العجم بالأنعام من أن فيهم خصال السباع الضاريه و خصائصها كخصال الأنعام الراعيه،لأن التمتع بالأكل و السفاد أقدم و أسبق بالنسبه إلى الطبع الحيوانى فجلب النفع أقدم من دفع الضر،و ما فى الإنسان من القوى الدافعه الغضبيه مقصوده لأجل ما فيه من القوى الجاذبه الشهويه،و غرض النوع بحسب حياته الحيوانيه يتعلق أولا بالتغذى و التوليد،و يتحفظ على ذلك بإعمال القوى الدافعه فالآيه تجرى مجرى قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَمٰا تَأْكُلُ الْأَنْعٰامُ وَ النّٰارُ مَثْوىً لَهُمْ (محمد/ ١٢).

و أما كونهم أكثر أو أشد ضلالا من الأنعام،و لازمه ثبوت ضلال ما فى الأنعام فلأن الضلال فى الأنعام نسبى غير حقيقى فإنها مهتديه بحسب ما لها من القوى المركبه الباعثه لها الى قصر الهمه فى الأكل و التمتع غير ضاله فيما هيئت لها من سعاده الحياه و لا مستحقه للذم فيما أخذت إليه،و إنما تعد ضاله بقياسها الى السعاده الإنسانيه التى ليست لها و لا جهزت بما تتوسل به إليها.

و أما هؤلاء المطبوع على قلوبهم و أعينهم و آذانهم فالسعاده سعادتهم و هم مجهزون بما يوصلهم إليها و يدلهم عليها من السمع و البصر و الفؤاد لكنهم أفسدوا و ضيعوا أعمالها و نزلوها منزله السمع و البصر و القلب التى فى الأنعام،و استعملوها فيما تستعملها فيه الأنعام و هو التمتع

من لذائذ البطن و الفرج فهم أكثر أو أشد ضلالا من الأنعام،و إليهم يعود الذم.

و قوله: أُولٰئِكَ هُمُ الْغٰافِلُونَ نتيجه و بيان حال اخرى لهم و هو أن حقيقه الغفله هى التى توجد عندهم فإنها بمشيه اللّه سبحانه،ألبسها إياهم بالطبع الذى طبع به على قلوبهم و أعينهم و آذانهم و الغفله ماده كل ضلال و باطل (1).

[سوره الأعراف (7): الآيات 180 الى 186]

اشاره

وَ لِلّٰهِ اَلْأَسْمٰاءُ اَلْحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِهٰا وَ ذَرُوا اَلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمٰائِهِ سَيُجْزَوْنَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَ مِمَّنْ خَلَقْنٰا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مٰا بِصٰاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اِقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اَللّٰهُ فَلاٰ هٰادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)

بيان:

قوله تعالى: وَ لِلّٰهِ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِهٰا الاسم بحسب اللغه ما يدل به

١- ١) .الاعراف ١٧٥-١٧٩:بحث روائى فى:بلعم بن باعورا؛طبع القلب.

على الشىء سواء أفاد مع ذلک معنى وصفيا كاللفظ الذى يشار به إلى الشىء لدلالته على معنى موجود فيه،أو لم يفد إلا الإشاره إلى الذات كزيد و عمرو و خاصه المرتجل من الأعلام، و توصيف الأسماء الحسنى-و هى مؤنث أحسن-يدل على أن المراد بها الأسماء التى فيها معنى وصفى دون ما لا دلاله لها إلا على الذات المتعاليه فقط لو كان بين أسمائه تعالى ما هو كذلک،و لا كل معنى وصفى،بل المعنى الوصفى الذى فيه شىء من الحسن،و لا كل معنى وصفى حسن بل ما كان أحسن بالنسبه الى غيره اذا اعتبرا مع الذات المتعاليه:فالشجاع و العفيف من الأسماء الحسنه لكنهما لا يليقان بساحه قدسه لإنبائهما عن خصوصيه جسمانيه لا يمكن سلبها عنهما، و لو أمكن لم يكن مانع عن إطلاقهما عليه كالجواد و العدل و الرحيم.

فكون اسم ما من أسمائه تعالى أحسن الأسماء أن يدل على معنى كمالى غير مخالط لنقص أو عدم،مخالطه لا يمكن معها تحرير المعنى من ذلک النقص و العدم و تصفيته،و ذلک فى كل ما يستلزم حاجه أو عدما و فقدا كالأجسام و الجسمانيات و الأفعال المستقبحه أو المستشنعه، و المعانى العدميه:

فهذه الأسماء بأجمعها محصول لغاتنا لم نضعها إلا لمصاديقها فينا التى لا تخلو عن شوب الحاجه و النقص غير أن منها ما لا يمكن سلب جهات الحاجه و النقص عنها كالجسم و اللون و المقدار و غيرها،و منها ما يمكن فيه ذلک كالعلم و الحياه و القدره فالعلم فينا الإحاطه بالشىء من طريق أخذ صورته من الخارج بوسائل ماديه،و القدره فينا المنشئيه للفعل بكيفيّه ماديه موجوده لعضلاتنا،و الحياه كوننا بحيث نعلم و نقدر بمالنا من وسائل العلم و القدره فهذه لا تليق بساحه قدسه غير أنا اذا جردنا معانيها عن خصوصيات الماده عاد العلم و هو الإحاطه بالشىء بحضوره عنده،و القدره هى المنشئيه للشىء بإيجاده،و الحياه كون الشىء بحيث يعلم و يقدر،و هذه لا مانع من إطلاقها عليه لأنها معان كماليه خاليه عن جهات النقص و الحاجه، و قد دل العقل و النقل أن كل صفه كماليه فهى له تعالى و هو المفيض لها على غيره من غير مثال

سابق فهو تعالی عالم قادر حی لکن لا کعلمنا و قدرتنا و حیاتنا بل بما یلیق بساحه قدسه من حقیقه هذه المعانی الکمالیه مجرده عن النقائص.

و قد قدم الخبر فی قوله: «وَ لِلّٰهِ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنیٰ» و هو یفید الحصر،و جیء بالأسماء محلی باللام،و الجمع المحلی باللام یفید العموم،و مقتضی ذلک أن کل اسم أحسن فی الوجود فهو للّه سبحانه لا یشارکه فیه أحد،و إذ کان اللّه سبحانه ینسب بعض هذه المعانی إلی غیره و یسمیه به کالعلم و الحیاه و الخلق و الرحمه فالمراد بکونها للّه کون حقیقتها له وحده لا شریک له.

و ظاهر الآیات بل نص بعضها یؤید هذا المعنی کقوله: أَنَّ الْقُوَّهَ لِلّٰهِ جَمِیعاً (البقره/ ۱۶۵).و قوله: فَإِنَّ الْعِزَّهَ لِلّٰهِ جَمِیعاً (النساء/۱۳۹)،و قوله: وَ لاٰ یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ (البقره/۲۵۵)،و قوله: هُوَ الْحَیُّ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ (المؤمن/۶۶)فللّه سبحانه حقیقه کل اسم أحسن لا یشارکه غیره إلا بما ملکهم منه کیفما أراد و شاء.

و یؤید هذا المعنی ظاهر کلامه أینما ذکر أسماءه فی القرآن کقوله تعالی: اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنیٰ (طه/۸)و قوله: قُلِ ادْعُوا اللّٰهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَیًّا مٰا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنیٰ (أسری/۱۱۰)،و قوله: لَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنیٰ یُسَبِّحُ لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (الحشر/۲۴)فظاهر الآیات جمیعا کون حقیقه کل اسم أحسن للّه سبحانه وحده.

و ما احتمله بعضهم أنّ اللام فی «الْأَسْمٰاءُ» للعهد مما لا دلیل علیه و لا فی القرائن الحافه بالآیات ما یؤیده غیر ما عهده القائل من الأخبار العاده للأسماء الحسنی،و سیجیء الکلام فیها فی البحث الروائی التالی إن شاء اللّه.

و قوله: فَادْعُوهُ بِهٰا إمّا من الدعوه بمعنی التسمیه کقولنا:دعوته زیدا و دعوتک أبا عبد اللّه أی سمیته و سمیتک،و إما من الدعوه بمعنی النداء ای نادوه بها فقولوا:یا رحمان یا رحیم و هکذا.أو من الدعوه بمعنی العباده أی فاعبدوه مذعنین أنه متصف بما یدل علیه هذه الاسماء من الصفات الحسنه و المعانی الجمیله.

و قد احتملوا جميع هذه المعانى غير أنّ كلامه تعالى فى مواضع مختلفه يذكر فيها دعاء الربّ يؤيد هذا المعنى الأخير كما فى الآيه السابقه: قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى و قوله: وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِی سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (المؤمن ۶۰/)حيث ذكر أولا الدعاء ثم بدله ثانيا من العباده إيماء الى اتحادهما،و قوله: وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَهِ وَ هُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ وَ إِذا حُشِرَ النّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ (الأحقاف۶/)،و قوله: هُوَ الْحَیُّ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (المؤمن۶۵/) يريد إخلاص العباده.

و يؤيده ذيل الآيه: «وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِی أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» بظاهره فإنه لو كان المراد بالدعاء التسميه أو النداء دون العباده لكان الأنسب أن يقال:بما كانوا يصفون كما قال فى موضع آخر: سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ (الأنعام۱۳۹/).

فمعنى الآيه-و اللّه أعلم-و للّه جميع الأسماء التى هى أحسن فاعبدوه و توجهوا إليه بها، و التسميه و النداء من لواحق العباده.

قوله تعالى: وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِی أَسْمائِهِ الى آخر الآيه.اللحد و الإلحاد بمعنى واحد و هو التطرف و الميل عن الوسط إلى أحد الجانبين،و منه لحد القبر لكونه فى جانبه بخلاف الضريح الذى فى الوسط فقراءه يلحدون بفتح الياء من المجرد،و يلحدون بضم الياء من باب الإفعال بمعنى واحد،و نقل عن بعض اللغويين:أنّ اللحد بمعنى الميل إلى جانب،و الإلحاد بمعنى الجدال و المماراه.

و قوله: سَيُجْزَوْنَ الآيه؛بالفصل لأنه بمنزله الجواب لسؤال مقدر كأنه لما قيل «وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِی أَسْمائِهِ» قيل:إلى م يصير حالهم؟فأجيب «سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» و للبحث فى الأسماء الحسنى بقايا ستوافيك فى كلام مستقل نورده بعد الفراغ عن

تفسير الآيات إن شاء اللّه تعالی.

قوله تعالی: وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ قد مر بعض ما يتعلق به من الكلام فی قوله تعالی: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسی أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (الآيه١٥٩/)من السوره و تختص هذه الآيه بأنها لوقوعها فی سياق تقسيم الناس إلی ضال و مهتد،و بيان أن الملاک فی ذلک دعاؤه سبحانه بأحسن الأسماء اللائقه بحضرته و الإلحاد فی أسمائه،تدل علی أن النوع الإنسانی يتضمن طائفه قليله أو كثيره مهتديه حقيقه إذ الكلام فی الاهتداء و الضلال الحقيقيين المستندين إلی صنع اللّه،و من يهدی اللّه فهو المهتدی و من يضلل فاولئک هم الخاسرون،و الاهتداء الحقيقی لا يكون إلا عن هدايه حقيقيه،و هی التی للّه سبحانه،و قد تقدّم فی قوله تعالی: فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ (الأنعام٨٩/)،و غيره أن الهدايه الحقيقيه الإلهيه لا تتخلف عن مقتضاها بوجه و توجب العصمه من الضلال،كما أن الترديد الواقع فی قوله تعالی: أَ فَمَنْ يَهْدِی إِلَی الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّی إِلاّ أَنْ يُهْدی (يونس٣٥/).يدل علی أن من يهدی إلی الحق يجب أن لا يكون مهتديا بغيره إلا باللّه فافهم ذلک.

و علی هذا فإسناد الهدايه إلی هذه الامه لا يخلو عن الدلاله عن مصونيتهم من الضلال و اعتصامهم باللّه من الزيغ إما بكون جميع هؤلاء المشار إليهم بقوله: «أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ» متصفين بهذه العصمه و الصيانه كالانبياء و الأوصياء،و إما بكون بعض هذه الأمّه كذلک و توصيف الكل بوصف البعض نظير قوله تعالی: وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِی إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ (الجاثيه١٦/)،و قوله: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً (المائده٢٠/)،و قوله: لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَی النّاسِ (البقره١٤٣/)،و إنما المتّصف بهذه المزايا بعضهم دون الجميع.

و المراد بالآيه-و اللّه أعلم-إنا لا نأمركم بامر غير واقع أو خارج عن طوق البشر فإنّ ممّن خلقنا أمه متلبسه بالاهتداء الحقيقی هادين بالحقّ لأن اللّه كرّمهم بهدايته الخاصّه.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ الاستدراج الاستصعاد أو الاستنزال درجه فدرجه،و الاستدناء من أمر أو مكان،و قرينه المقام تدل على أن المراد به هنا الاستدناء من الهلاك إما فى الدنيا أو فى الآخره.

و تقييد الاستدراج بكونه من حيث لا يعلمون للدلاله على أن هذا التقريب خفى غير ظاهر عليهم بل مستبطن فيما يتلهون فيه من مظاهر الحياه الماديه فلا يزالون يقتربون من الهلاك باشتداد مظالمهم فهو تجديد نعمه بعد نعمه حتى يصرفهم التلذذ بها عن التأمل فى وبال أمرهم كما مر فى قوله تعالى: ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا (الأعراف۹۵/)، و قال تعالى: لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهَادُ (آل عمران۱۹۷/).

و من وجه آخر لما انقطع هؤلاء عن ذكر ربهم و كذبوا بآياته سلبوا اطمئنان القلوب و أمنها بالتشبث بذيل الأسباب التى من دون اللّه،و عذبوا باضطراب النفوس و قلق القلوب و قصور الأسباب و تراكم النوائب،و هم يظنون أنها الحياه ناسين معنى حقيقه الحياه السعيده فلا يزالون يستزيدون من مهلكات زخارف الدنيا فيزدادون عذابا و هم يحسبونه زياده فى النعمه حتى يردوا عذاب الآخره و هو أمر و أدهى،فهم يستدرجون فى العذاب من لدن تكذيبهم بآيات ربهم حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون.

قال تعالى: أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (الرعد۲۸/)،و قال: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً (طه۱۲۴/)،و قال: فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (التوبه۵۵/)،و هذا معنى آخر من الاستدراج لكن قوله تعالى بعده: «وَ أُمْلِي لَهُمْ» لا يلائم ذلك فالمتعين هو المعنى الأول.

قوله تعالى: وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ الإملاء هو الإمهال،و قوله: «إِنَّ كَيْدِي

مَتِينٌ» تعليل لمجموع ما فى الآيتين،و فى قوله: «وَ أَمْلِي» بعد قوله: «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ» الآيه؛ التفات من التكلم مع الغير إلى التكلم وحده للدلاله على مزيد العنايه بتحريمهم من الرحمه الإلهيه و إيرادهم مورد الهلكه.

و أيضا الإملاء هو إمهالهم إلى أجل مسمى.فيكون فى معنى قوله: وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (الشورى/١۴)،و هذه الكلمه هى قوله لآدم عليه السّلام حين إهباطه إلى الأرض: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلىٰ حِينٍ (البقره/٣۶)و هو القضاء الإلهى و القضاء مختص به تعالى لا يشاركه فيه غيره،و هذا بخلاف الاستدراج الذى هو إيصال النعمه بعد النعمه و تجديدها فإنها نعم إلهيه مفاضه بالوسائط من الملائكه و الأمر فلهذا السبب جىء فى الاستدراج بصيغه المتكلم مع الغير،و غير ذلك فى الإملاء و فى الكيد الذى هو أمر متحصل من الاستدراج و الإملاء الى لفظ المتكلم وحده.

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مٰا بِصٰاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ فى تركيب الكلام اختلاف شديد بينهم،و الذى يستبق إلى الذهن من السياق أن يكون قوله «أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا» كلاما تاما سيق للإنكار و التوبيخ ثم قوله: «مٰا بِصٰاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ» الآيه كلاما آخر سيق لبيان صدق النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى دعواه النبوّه،و هو يشير إلى ما يتفكرون فيه كأنه قيل:أ و لم يتفكروا فى أنه ما بصاحبهم من جنه الآيه؛حتى يتبين لهم ذلك؟نعم،ما به من جنه إن هو إلا نذير مبين.

و التعبير عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بصاحبهم للإشاره إلى ماده الاستدلال الفكرى فإنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان يصحبهم و يصحبونه طول حياته بينهم فلو كان به شىء من جنه لبان لهم ذلك البته فهو فيما جاء به نذير لا مجنون،و الجنه بناء نوع من الجنون على ما قيل و إن كان من الجائز أن يكون المراد به الفرد من الجن بناء على ما يزعمونه أنّ المجنون يحلّ فيه بعض الجنّ فيتكلم من فيه و بلسانه.

قوله تعالی: أَ وَ لَمْ یَنْظُرُوا فِی مَلَکُوتِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الی آخر الآیه؛ قد مر کرارا أنّ الملکوت فی عرف القرآن علی ما یظهر من قوله تعالی: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ فَسُبْحٰانَ الَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ (یس٨٣/)هو الوجه الباطن من الأشیاء الذی یلی جهه الرب تعالی،و أنّ النظر إلی هذا الوجه و الیقین متلازمان کما یفهم من قوله: وَ کَذٰلِکَ نُرِی إِبْرٰاهِیمَ مَلَکُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِیَکُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ (الأنعام٧۵/).

فالمراد توبیخهم فی الإعراض و الانصراف عن الوجه الملکوتی للأشیاء لم نسوه و لم ینظروا فیه حتی یتبین لهم أنّ ما یدعوهم إلیه هو الحق؟

و قوله: وَ مٰا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَیْءٍ عطف علی موضع السماوات،و قوله: «مِنْ شَیْءٍ» بیان لما الموصوله،و معنی الآیه:لم لم ینظروا فی خلق السماوات و الأرض و أی شیء آخر ممّا خلقه اللّه؟لکن لا من الوجه الذی یلی الأشیاء حتی ینتج العلم بخواص الأشیاء الطبیعیه بل من جهه أن وجوداتها غیر مستقله بنفسها مرتبطه بغیرها محتاجه الی ربّ یدبر أمرها و أمر کلّ شیء،و هو رب العالمین.

و قوله: وَ أَنْ عَسیٰ أَنْ یَکُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ عطف علی قوله: «مَلَکُوتِ» الآیه؛لکونه فی تأویل المفرد و التقدیر:أ و لم ینظروا فی أنه عسی أن یکون قد اقترب أجلهم فإنّ النظر فی هذا الاحتمال ربما صرفهم عن التمادی علی ضلالهم و غیهم فأغلب ما یصرف الإنسان عن الاشتغال بأمر الآخره،و یوجه وجهه إلی الاغترار بالدنیا نسیان الموت الذی لا یدری متی یرد رائده،و أما إذا التفت إلی ذلک و شاهد جهله بأجله و أنّ من المرجو المحتمل أن یکون قد اقترب منهم فإنه یقطع منابت الغفله و یمنعه عن اتباع الهوی و طول الأمل.

و قوله: فَبِأَیِّ حَدِیثٍ بَعْدَهُ یُؤْمِنُونَ الضمیر للقرآن علی ما یستدعیه السیاق، و فی الکلام إیئاس من إیمانهم بالمره أی إن لم یؤمنوا بالقرآن و هو تجلیه سبحانه علیهم بکلامه

يكلمهم بما يضطر عقولهم بقبوله من الحجج و البراهين و الموعظه الحسنه و هو مع ذلك معجزه باهره فلا يؤمنون بشيء آخر البته،و قد أخبر سبحانه أنه طبع على قلوبهم فلا سبيل لهم إلى فقه القول و الإيمان بالحق،و لذلك عقبه بقوله فى الآيه التاليه: «مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَلاٰ هٰادِيَ لَهُ» الآيه.

قوله تعالى: مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَلاٰ هٰادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ العمه الحيره و التردد فى الضلال أو عدم معرفه الحجه،و إنما لم يذكر ما يقابله و هو أن من يهدى فلا مضل له لأن الكلام مسوق لتعليل الآيه السابقه: «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ» الآيه؛كأنه قيل:لم لا يؤمنون بحديث البته؟فقيل:لأمن يضلل اللّٰه الآيه (۱)(۲).

[سوره الأعراف (۷): الآيات ۱۸۷ الى ۱۸۸]

اشاره

يَسْئَلُونَكَ عَنِ اَلسّٰاعَةِ أَيّٰانَ مُرْسٰاهٰا قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّي لاٰ يُجَلِّيهٰا لِوَقْتِهٰا إِلاّٰ هُوَ ثَقُلَتْ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ لاٰ تَأْتِيكُمْ إِلاّٰ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهٰا قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ اَللّٰهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (۱۸۷) قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اَللّٰهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ اَلْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ اَلْخَيْرِ وَ مٰا مَسَّنِيَ اَلسُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۱۸۸)

۱- ۱) .الاعراف ۱۸۰-۱۸۶:كلام فى الأسماء الحسنى فى فصول(ما معنى الاسماء الحسنى،ما هو حد ما نصفه أو نسميه به من الاسماء؟الانقسامات التى لها،نسب الصفات و الأسماء إلينا،ما معنى الاسم الاعظم،عدد الاسماء الحسنى. هل اسماء اللّٰه توقيفيه؟

۲- ۲) .الاعراف ۱۸۰-۱۸۶:بحث روائى فى الاسماء الحسنى.

بیان:

قوله تعالی: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السّٰاعَةِ أَيّٰانَ مُرْسٰاهٰا -الی قوله- إِلاّٰ هُوَ الساعه ساعه البعث و الرجوع إلی اللّه لفصل القضاء العام فاللام للعهد لکنه صار فی عرف القرآن و الشرع کالحقیقه فی هذا المعنی.

و المرسی اسم زمان و مکان و مصدر میمی من أرسیت الشیء إذا أثبته،أی متی وقوعها و ثبوتها،و التجلیه الکشف و الإظهار یقال جلاه فانجلی أی کشف عنه فانکشف.

فقوله: لاٰ يُجَلِّيهٰا لِوَقْتِهٰا إِلاّٰ هُوَ أی لا یظهرها و لا یکشف عنها فی وقتها و عند وقوعها إلا اللّه سبحانه،و یدل ذلک علی أن ثبوتها و وجودها و العلم بها واحد أی إنها محفوظه فی مکمن الغیب عند اللّه تعالی یکشف عنها و یظهرها متی شاء من غیر أن یحیط بها غیره سبحانه أو یظهر لشیء من الأشیاء،و کیف یمکن أن یحیط بها شیء من الأشیاء أو ینکشف عنده،و تحققها و ظهورها یلازم فناء الأشیاء،و لا شیء منها یسعه أن یحیط بفناء نفسه أو یظهر له فناء ذاته،و النظام السببی الحاکم من الکون یتبدل عند وقوعها،و هذا العلم الذی یصحبها من هذا النظام.

و من هنا یظهر:أن المراد بقوله: «ثَقُلَتْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» -و اللّه أعلم-ثقل علمها فی السماوات و الأرض و هو بعینه ثقل وجودها فلا ثمره لاختلافهم فی أن المراد بثقل الساعه فیها ثقل علمها علیها،أو المراد ثقل صفتها علی أهل السماوات و الأرض لما فیها من الشدائد و العقاب و الحساب و الجزاء،أو ثقل وقوعها علیهم لما فیها من انطواء السماء و انتثار الکواکب و اجتماع الشمس و القمر و تسییر الجبال،أو أن السماوات و الأرض لا تطیق حملها لعظمتها و شدتها.

و ذلک أنها ثقیله بجمیع ما یرجع إلیها من ثبوتها و العلم بها و صفاتها علی السماوات

و الأرض،و لا تطيق ظهورها لملازمته فناءها و الشیء لا يطيق فناء نفسه.

و من ذلك يظهر أيضا وجه قوله سبحانه: «لاٰ تَأْتِيكُمْ إِلاّٰ بَغْتَةً» فإن البغته و الفجأه ظهور الشیء من غير أن يعلم به قبل ظهوره،و الساعه لثقلها لا يظهر وصف من أوصافها،و لا جزء من أجزائها قبل ظهورها النام،و لذلك كان ظهورها لجميع الأشياء بغته.

و من هنا أيضا يظهر معنى تتمه الآيه: «يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهٰا قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ اللّٰهِ» الآيه؛على ما سيأتی.

قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهٰا الى آخر الآيه؛قال الراغب:الحفی العالم بالشیء(انتهی)و كأنه مأخوذ من حفيت فی السؤال إذا ألحت،و قوله: «كَأَنَّكَ حَفِيٌّ» متخلل بين يسألونك و الظرف المتعلق به،و الاصل:يسألونك عنها كأنك حفی عالم بها،و هو يلوح الى أنهم كرروا السؤال و ألحوا عليه،و لذلك كرر السؤال و الجواب بوجه فی اللفظ.

ففی قوله ثانيا: «يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهٰا» إشعار أو دلاله على أنهم حسبوا أن جوابه صلّی اللّه عليه و آله و سلم بأمر ربه أولا «إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّی» من قبيل إحاله علم ما لا يعلمه إلى ربه -على ما هو من أدب الدين-و لذا قال: «عِنْدَ رَبِّی» إشعارا بالعبوديه و وظيفتها،و أن قوله «لاٰ يُجَلِّيهٰا لِوَقْتِهٰا إِلاّٰ هُوَ» وصف لعظمتها من غير أن يرتبط ذلك بالعلم بوقتها،و لذلك كله كرروا السؤال ليقول صلّی اللّه عليه و آله و سلم فی ذلك شيئا أو يعترف بجهله لنفسه.

فأمره اللّه سبحانه أن يعيد الجواب عليهم «إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ اللّٰهِ» دالا به على أن القول جد و الجواب فصل،فهو من العلم لا من الجهل،و الغرض به إفاده العلم بانحصار علمها فيه تعالى دون الجهل بها،و إحاله علمها إلى ربه عملا بوظيفه العبوديه،و لذا بدل قوله فی الجواب الأول «عِنْدَ رَبِّی» فی هذا الجواب الثانی إلى قوله: «عِنْدَ اللّٰهِ» .

ثم قال: «وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ» يشير به إلى جهلهم بمعنى قوله: «إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّی» الآيه فإنهم لانسهم بالحس و المحسوس يقيسون كل شیء سمعوه إلى المحسوس،

و يعممون حكمه عليه فيظنون أن كـل مـا وصف لهم بوجه يسع لهم أن يعلموه و يحيطوا به علما، و أنه لو كان هناك أمر أخفى عنهم فإنمـا يخفى بالكتمـان،و لو أظهر لهم أحـاطوا به علما كسائر ما عنـدهم من الامور المحسوسه،و قـد أخطأ قياسـهم و اشـتبه عليهم فإن بعض ما فى الغيب و من جملته الساعه لا يطيق علمه إلا اللّه سبحانه.

و قـد ظهر من الآيه أن علم الساعه مما لا يطيقه شـىء من الأشـياء إلا اللّه سـبحانه،و كذا حقيقه ما له من الأوصاف و النعوت فإن الجميع ثقيله بثقلها.

قوله تعالى: قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ إلى آخر الآيه لما كان فى سؤالهم الغيب عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم إيهام أن دعواه النبوه دعوى لعلم الغيب،و لا يعلم الغيب حقيقه غيره تعالى إلا بوحى و تعليم إلهى،أمر نبيه صـلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يتبرأ من دعوى العلم بالغيب.

و حقيقه السـبب فى اختصـاص العلم بالغيب به تعالى أن غيره تعالى اياما كان محـدود الوجود لا سبيل له إلى الخارج منه الغائب عنه من حيث إنه غائب،و لا شىء غير محدود و لا غير متناه محيط بكل شىء إلا اللّه سبحانه فله العلم بالغيب.

لكن لما كان اولئك السائلون لا يسـعهم فهم هذا السـبب على ما لهم من الأفهام البسـيطه العاميه أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يكلمهم بما يسـعهم فهمه،و هو أن العلم بالغيب يهـدى الإنسان الى كل خير و شـر و العاده تأبى أن يعلم أحد الخير و الشـر و يهتدى إلى موقعهما ثم لا يستفيد من ذلك لنفسه فالإنسان اذا لم يستكثر من الخير و لم يوق من الشر كيف يعلم الغيب؟.

فقوله فى صـدر الآيه: «قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِي» الآيه وصف لنفسه بما ينافى فى نتيجه العلم بالغيب ثم قوله: «وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ» الآـيه بيـان نتيجه العلم بـالغيب،لينتـج من الفصـلين عـدم علمه بـالغيب،ثم قوله: «إِنْ أَنَا إِلاّٰ نَـذِيرٌ» بيان حقيقه حاله فيما يـدعيه من الرساله من غير أن يكون معها دعوى اخرى.

[سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۸۹ الی ۱۹۸]

اشاره

هُوَ اَلَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ وَ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا لِیَسْکُنَ إِلَیْهٰا فَلَمّٰا تَغَشّٰاهٰا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِیفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمّٰا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اَللّٰهَ رَبَّهُمٰا لَئِنْ آتَیْتَنٰا صٰالِحاً لَنَکُونَنَّ مِنَ اَلشّٰاکِرِینَ (۱۸۹) فَلَمّٰا آتٰاهُمٰا صٰالِحاً جَعَلاٰ لَهُ شُرَکٰاءَ فِیمٰا آتٰاهُمٰا فَتَعٰالَی اَللّٰهُ عَمّٰا یُشْرِکُونَ (۱۹۰) أَ یُشْرِکُونَ مٰا لاٰ یَخْلُقُ شَیْئاً وَ هُمْ یُخْلَقُونَ (۱۹۱) وَ لاٰ یَسْتَطِیعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لاٰ أَنْفُسَهُمْ یَنْصُرُونَ (۱۹۲) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَی اَلْهُدیٰ لاٰ یَتَّبِعُوکُمْ سَوٰاءٌ عَلَیْکُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صٰامِتُونَ (۱۹۳) إِنَّ اَلَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ عِبٰادٌ أَمْثٰالُکُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْیَسْتَجِیبُوا لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۱۹۴) أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ یَمْشُونَ بِهٰا أَمْ لَهُمْ أَیْدٍ یَبْطِشُونَ بِهٰا أَمْ لَهُمْ أَعْیُنٌ یُبْصِرُونَ بِهٰا أَمْ لَهُمْ آذٰانٌ یَسْمَعُونَ بِهٰا قُلِ اُدْعُوا شُرَکٰاءَکُمْ ثُمَّ کِیدُونِ فَلاٰ تُنْظِرُونِ (۱۹۵) إِنَّ وَلِیِّیَ اَللّٰهُ اَلَّذِی نَزَّلَ اَلْکِتٰابَ وَ هُوَ یَتَوَلَّی اَلصّٰالِحِینَ (۱۹۶) وَ اَلَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ یَسْتَطِیعُونَ نَصْرَکُمْ وَ لاٰ أَنْفُسَهُمْ یَنْصُرُونَ (۱۹۷) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَی اَلْهُدیٰ لاٰ یَسْمَعُوا وَ تَرٰاهُمْ یَنْظُرُونَ إِلَیْکَ وَ هُمْ لاٰ یُبْصِرُونَ (۱۹۸)

ص: ۶۲۵

بيان:

قوله تعالى: هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ إلی آخر الآیتین.الکلام فی الآیتین جار مجری المثل المضروب لبنی آدم فی نقضهم موثقهم الذی واثقوه،و ظلمهم بآیات اللّه.

و المعنی: «هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ» یا معشر بنی آدم «مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ» هو أبوکم «وَ جَعَلَ مِنْهٰا» أی من نوعها «زَوْجَهٰا لِیَسْکُنَ» الرجل الذی هو النفس الواحده «إِلَیْهٰا» أی إلی الزوج التی هی امرأته «فَلَمّٰا تَغَشّٰاهٰا» و التغشی هو الجماع «حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِیفاً» و المحمول النطفه و هی خفیفه «فَمَرَّتْ بِهِ» أی استمرت الزوج بحملها تذهب و تجیء و تقوم و تقعد حتی نمت النطفه فی رحمها و صارت جنینا ثقیلا.أثقلت به الزوج «فَلَمّٰا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللّٰهَ رَبَّهُمٰا» و عاهداه و واثقاه «لَئِنْ آتَیْتَنٰا» و رزقتنا ولدا «صٰالِحاً» یصلح للحیاه و البقاء بکونه إنسانا سویا تام الأعضاء غیر ذی عاهه و آفه فإن ذلک هو المرجو للولد حین ولادته و بدء نشوئه دون الصلاح الدینی «لَنَکُونَنَّ مِنَ الشّٰاکِرِینَ» لک بإظهار نعمتک،و الانقطاع إلیک فی أمره لا نمیل إلی سبب دونک،و لا نتعلق بشیء سواک.

فَلَمّٰا آتٰاهُمٰا صٰالِحاً کما سألاه و جعله إنسانا سویا صالحا للبقاء و قرت به أعینهما جَعَلاٰ لَهُ شُرَکٰاءَ فِیمٰا آتٰاهُمٰا من الولد الصالح حیث بعثتهما المحبه و الشفقه علیه أن یتعلقا بکل سبب سواه،و یخضعا لکل شیء دونه مع أنهما کانا قد اشترطا له أن یکونا شاکرین له غیر کافرین لنعمته و ربوبیته فنقضا عهدهما و شرطهما.

و هکذا عامه الانسان إلا من رحمه اللّه مهتمون بنقض مواثیقهم و خلف وعدهم،و عدم

الوفاء بعهدهم مع اللّه «فَتَعالَى اللّهُ عَمّا يُشْرِكُونَ» .

و القصه-کما تری-یمکن أن یراد بها بیان حال الأبوین من نوع الإنسان فی استیلادهما الولد بالاعتبار العام النوعی فإن کل إنسان فإنه مولود أبویه فالکثره الإنسانیه نتیجه أبوین یولدان ولدا کما فی قوله تعالی: یا أَیُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثی وَ جَعَلْناکُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ (الحجرات۴۳/).

و الغالب علی حال الأبوین و هما یحبان ولدهما و یشفقان علیه أن ینقطعا طبعا إلی اللّه فی أمر ولدهما و إن لم یلتفتا الی تفصیل انقطاعهما کما ینقطع راکب البحر إلی اللّه سبحانه إذا تلاطمت و أخذت أمواجها تلعب به ینقطع إلی ربه و إن لم یعبد ربا قط فإنما هو حال قلبی یضطر الإنسان إلیه.

فللأبوین انقطاع إلی ربهما فی أمر ولدهما لئن آتیتنا صالحا نرضاه لنکونن من الشاکرین فلما استجاب لهما و آتاهما صالحا جعلا له شرکاء و تشبثا فی حفظه و تربیته بکل سبب،و لا ذا إلی کل کهف.

و یؤید هذا الوجه قوله فی ذیل الآیه: «فَتَعالَى اللّهُ عَمّا یُشْرِکُونَ» فإن المراد بالنفس و زوجها فی صدر الکلام لو کان شخصین من الإنسان بعینهما کآدم و حواء مثلا کان من حق الکلام أن یقال:فتعالی اللّه عن شرکهما أو عما أشرکا.

علی أنه تعالی یعقب هذه الآیه بآیات أخر یذم فیها الشرک و یوبخ المشرکین بما ظاهره أنه الشرک بمعنی عباده غیر اللّه،و حاشا أن یکون صفی اللّه آدم یعبد غیر اللّه و قد نص اللّه سبحانه علی أنه اجتباه و هداه،و نص علی أن لا سبیل للضلال علی من هداه اللّه و أی ضلال أضل من عباده غیر اللّه،قال تعالی: ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَیْهِ وَ هَدی (طه۱۲۲/)،و قال: وَ مَنْ یَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ (أسری۹۷/)،و قال: وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ یَدْعُوا مِنْ دُونِ اللّهِ مَنْ لا یَسْتَجِیبُ لَهُ إِلی یَوْمِ الْقِیامَهِ (الأحقاف۵/)و بذلک یظهر أن الضلال و الشرک غیر منسوب

إلی آدم و إن لم نقل بنبوته أو قلنا بها و لم نقل بعصمه الأنبياء عليهم السّلام.

و إن أريد بالنفس و زوجها فی القصه آدم زوجته كان المراد بشركهما المذكور فی الآيه أنهما اشتغلا بتربيه الولد و اهتما فی أمره بتدبير الأسباب و العوامل،و صرفهما ذلک عن بعض ما لهما من التوجه إلی ربهما و الخلوص فی ذلک،و من الدليل عن ذلک قوله تعالی حكايه عنهما:

«لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّٰاكِرِينَ» و قد تقدم فی تفسير أوائل هذه السوره فی قوله: وَ لاٰ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شٰاكِرِينَ (الآيه۱۷/)أن الشاكرين فی عرف القرآن هم المخلصون-بفتح اللام-الذين لا سبيل لإبليس عليهم و لا دبيب للغفله فی قلوبهم فالعتاب المتوجه إليهما فی قوله «فَتَعٰالَى اللّٰهُ عَمّٰا يُشْرِكُونَ» إنما هو بالشرک بمعنی الاشتغال عن اللّه بغيره من الأسباب الكونيه يوجه خلاف إخلاص القلب له تعالی.

لكن يبقی عليه إتيان قوله: «فَتَعٰالَى اللّٰهُ عَمّٰا يُشْرِكُونَ» بصيغه الجمع،و تعقيبه بما ظاهره أنه الشرک بمعنی عباده غير اللّه.

و ربما دفعه بعضهم بأن الآيه فی التخصيص أولا و التعميم ثانيا عكس قوله تعالی: هُوَ الَّذِی يُسَيِّرُكُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتّٰى إِذٰا كُنْتُمْ فِی الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ (يونس۲۲/) حيث خاطب أولا عامتهم بالتسيير ثم خص الكلام براكبی الفلک منهم خاصه،و الآيه التی نحن فيها تخص أول القصه بآدم و زوجته فهما المعنيان بقوله: «هُوَ الَّذِی خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا» ثم انقضی حديث آدم و زوجته،و خص بالذكر المشركون من بنی آدم الذين سألوا ما سألوا،و جعلوا له شركاء فيما آتاهم أی إن كل اثنين منهم يولدان ولدا هذا حالهما من العهد ثم النقض.

و فيه أن قوله: «هُوَ الَّذِی يُسَيِّرُكُمْ» الآيه؛محفوف بقرينه قطعيه تدل علی المراد و تزيل اللبس بخلاف التدرج من الخصوص إلی العموم فی هذه الآيه فإنه موقع فی اللبس لا يصار إليه فی الكلام البليغ،اللهم إلا أن يجعل قوله: «فَتَعٰالَى اللّٰهُ عَمّٰا يُشْرِكُونَ» إلی آخر الآيات قرينه

على ذلك.

و كيف كان فهذا الوجه كالمأخوذ من الوجهين الأولين بحمل صدر الآيه على الوجه الثانى و ذيلها على الوجه الأول.

و ربما دفع الاعتراض السابق بأن فى الكلام حذفا و إيصالا و التقدير:«فما آتاهما أى آدم و حواء صالحا جعل أولادهما له شركاء»فحذف المضاف و هو الأولاد،و أقيم المضاف إليه و هو ضمير التثنيه المدلول عليه فى قوله:«جعلا مقامه».و فيه أنه لا دليل عليه.

و ربما التزم بعض المفسرين الإشكال،و تسلم أن المراد بهما آدم و زوجته،و أنهما أشركا باللّه عملا بروايات وردت فى القصه عن بعضهم،و هى موضوعه أو مدسوسه مخالفه للكتاب لا سبيل إلى الأخذ بأمثالها.

قوله تعالى: أَ يُشْرِكُونَ مٰا لاٰ يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ إلى آخر الآيات الثلاث.صدر الآيات و إن احتمل أن يكون المراد الشرك بالأصنام أو بسائر الأسباب غير اللّه،التى الاعتماد عليها نوع من الشرك لكن ذيلها ظاهر فى أن المراد هو الشرك بالأصنام المتخذه آلهه و هى جماد لا يستطيع نصر من يعبدها و لا نصر أنفسها،و لا يشعر بشىء من الدعاء و عدمه.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ عِبٰادٌ أَمْثٰالُكُمْ -إلى قوله- يَسْمَعُونَ بِهٰا احتجاج على مضمون الآيات الثلاث السابقه،و المعنى إنما قلنا إنهم مخلوقون لا يقدرون على شىء لأنهم عباد أمثالكم فكما أنكم مخلوقون مدبرون كذلك هم.

و الحجه عليه أنهم لا يستجيبون لكم إن دعوتموهم فادعوهم إن كنتم صادقين فى دعواكم أن لهم علما و قدره و إنما نسب إليهم دعوى كونهم ذوى علم و قدره لما فى دعوتهم من الدلاله على ذلك-و كيف يستجيبون لكم؟و ليست ما عبأتم لهم من الأرجل و الأيدى ماشيه و باطشه،و لا ما صورتم لهم من الأعين و الآذان مبصره و سامعه لأنهم جمادات.

و فی الآیات إطلاق العباد علی الجمادات.

قوله تعالی: قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ إلی آخر الآیات ثم أمره صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یکر علیهم علی انتصارهم بأربابهم و آلهتهم بالتحدی و الإعجاز لیستبین سبیله من سبیلهم،و یظهر أن ربه هو اللّه الذی له کل العلم و القدره،و أن أربابهم لا یملکون علما لیهتدوا به إلی شیء و لا قدره لینصروهم فی شیء.

فقال:قل لهم ادعوا شرکاءکم لنصرکم علی ثم کیدونی فلا تنظرونی و لا تمهلونی إن ربی ینصرنی و یدفع عنی کیدکم فإنه الذی نزل الکتاب لیهدی به الناس،و هو یتولی الصالحین من عباده فینصرهم،و هو القائل:إن الأرض یرثها عبادی الصالحون و أنا من الصالحین فینصرنی و لا محاله،و أما أربابکم الذین تدعون من دونه فلا یستطیعون نصرکم و لا نصر أنفسهم و لا یسمعون و لا یبصرون فلا قدره لهم و لا علم.

و فی الآیات أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یخبرهم أنه من الصالحین و لم یعهد فیما یخبر به القرآن من صلاح الأنبیاء مثل ذلک فی غیره صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

و فیها التحدی علی الأصنام و عبدتهم کما تحدی بذلک غیره من الأنبیاء علیهم السّلام.

[سوره الأعراف (٧): الآیات ١٩٩ الی ٢٠٦]

اشاره

خُذِ اَلْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ اَلْجاهِلِينَ (١٩٩) وَ إِمّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ اَلشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ اَلَّذِينَ اِتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ اَلشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي اَلغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اِجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَ إِذا قُرِئَ اَلْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَ اُذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ اَلْجَهْرِ مِنَ اَلْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ اَلْآصالِ وَ لا تَكُنْ مِنَ اَلْغافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ اَلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)

بیان:

قوله تعالى: خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ الأخـذ بالشـیء هو لزومه أو عدم تركه فأخذ العفو ملازمه الستر على إساءه من أساء إليه، و الإغماض عن حق الانتقام الـذى يعطيه العقل الاجتماعى لبعضـهم على بعض.هـذا بالنسـبه إلى إساءه الغير بالنسـبه إلى نفسه و التضـييع لحق شـخصه،و أمـا ما أضـيع فيه حق الغير بالإساءه إليه فليس مما يسوغ العفو فيه لأنه إغراء بالإثم و تضـييع لحق الغير بنحو أشـد، و إبطـال للنواميس الحـافظه للاجتمـاع،و يمنع عنه جميع الآيـات الناهيه عن الظلم و الإفساد و إعانه الظالمين و الركون إليهم بل جميع الآيات المعطيه لاصول الشرائع و القوانين،و هو ظاهر.

فالمراد بقوله: «خُذِ الْعَفْوَ» هو الستر بالعفو فيما يرجع إلى شـخصه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم،و على ذلك كان يسـير فقد تقدم فى بعض الروايات المتقدمه فى أدبه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:أنه لم ينتقم من أحد لنفسه قط.

ص :۶۳۱

هذا على ما ذكره القوم أن المراد بالعفو ما يساوق المغفره،و فى بعض الروايات الآتيه عن الصادق عليه السّلام أن المراد به الوسط و هو أنسب بالآيه و أجمع للمعنى من غير شائبه التكرار الذى يلزم من قوله: «وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ» على التفسير الأول.

و قوله: وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ و العرف هو ما يعرفه عقلاء المجتمع من السنن و السير الجميله الجاريه بينهم بخلاف ما ينكره المجتمع و ينكره العقل الاجتماعى من الأعمال النادره الشاذه، و من المعلوم أن لازم الأمر بمتابعه العرف أن يكون نفس الآمر مؤتمرا بما يأمر به من المتابعه، و من ذلك أن يكون نفس أمره بنحو معروف غير منكر فمقتضى قوله: «وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ» أن يأمر بكل معروف،و أن لا يكون نفس الأمر بالمعروف على وجه منكر.

و قوله: وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ أمر آخر بالمداراه معهم،و هو أقرب طريق و أجمله لإبطال نتائج جهلهم و تقليل فساد أعمالهم فإن فى مقابله الجاهل بما يعادل جهله إغراء له بالجهل و الإدامه على الغى و الضلال.

قوله تعالى: وَ إِمّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ قال الراغب فى المفردات:النزغ دخول فى أمر لأجل إفساده،قال:من بعد أن نزغ الشيطان بينى و بين إخوتى.انتهى،و قيل:هو الازعاج و الإغراء و أكثر ما يكون حال الغضب،و قيل:هو من الشيطان أدنى الوسوسه،و المعانى متقاربه،و أقربها من الآيه هو الأوسط لمناسبته الآيه السابقه الآمره بالإعراض عن الجاهلين فإن مماستهم الإنسان بالجهاله نوع مداخله من الشيطان لإثاره الغضب،و سوقه إلى جهاله مثله.

فيرجع معنى الآيه إلى أنه لو نزغ الشيطان بأعمالهم المبنيه على الجهاله و إساءتهم إليك ليسوقك بذلك إلى الغضب و الانتقام فاستعذ باللّه إنه سميع عليم،و الآيه مع ذلك عامه خوطب بها النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قصد بها أمته لعصمته.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ

مُبْصِرُونَ نحو تعليل للأمر فى الآيه السابقه و الطائف من الشيطان هو الذى يطوف حول القلب ليلقى إليه الوسوسه أو وسوسته التى تطوف حول القلب لتقع فيه و تستقر عليه،و «مِنَ» بيانيه على الأول،و نشوئيه على الثانى،و مآل المعنيين مع ذلك واحد،و التذكر تفكر من الإنسان فى أمور لتهديه الى نتيجه مغفول عنها أو مجهوله قبله.

و الآيه بمنزله التعليل للأمر بالاستعاذه فى الآيه السابقه،و المعنى استعذ باللّه عند نزغه الشيطان فإن هذا طريق المتقين فهم إذا مسهم طائف من الشيطان.تذكروا أن اللّه هو ربهم الذى يملكهم و يربيهم يرجع إليه أمرهم فأرجعوا إليه الأمر فكفاهم مئونته،و دفع عنهم كيده، و رفع عنهم حجاب الغفله فإذا هم مبصرون غير مضروب على أبصارهم بحجاب الغفله.

فالآيه-كما عرفت-فى معنى قوله: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (النحل٩٩/).

و قد ظهر أيضا أن الاستعاذه باللّه نوع من التذكر لأنها مبنيه على أن اللّه سبحانه و هو ربه هو الركن الوحيد الذى يدفع هذا العدو المهاجم بماله من قوه،و أيضا الاستعاذه نوع من التوكل كما مر.

قوله تعالى: وَ إِخْوٰانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لاٰ يُقْصِرُونَ كأن الجمله حاليه،و المراد بإخوانهم إخوان المشركين و هم الشياطين كما وقع قوله: إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كٰانُوا إِخْوٰانَ الشَّيٰاطِينِ (الإسراء٢٧/)و الإقصار الكف و الانتهاء.

و المعنى:أن الذين اتقوا على هذا الحال من التذكر و الإبصار و الحال أن إخوان المشركين من الشياطين يمدون المشركين فى غيهم و يعينونهم ثم لا يكفون عن مدهم و إعانتهم،أو لا يكف المشركون و لا ينتهون عن غيهم.

قوله تعالى: وَ إِذٰا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قٰالُوا لَوْ لاٰ اجْتَبَيْتَهٰا إلى آخر الآيه؛الإجتباء افتعال من الجبايه،و قولهم: «لَوْ لاٰ اجْتَبَيْتَهٰا» كلام منهم جار مجرى التهكم و السخريه و المعنى

على ما يعطيه السياق:أنك إذا آتيتهم بآيه كذبوا بها و إذا لم تأتهم بآيه كما لو أبطأت فيها قالوا:

لو لا اجتبيت ما تسميه آيه و جمعتها من هنا و هناك فأتيت بها«قل»ليس لى من الأمر شىء «إِنَّمٰا أَتَّبِعُ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّى هٰذٰا» القرآن «بَصٰائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ» يريد أن يبصركم بها «وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» .

قوله تعالى: وَ إِذٰا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ الإنصات السكوت مع استماع،و قيل:هو الاستماع مع سكوت يقال:أنصت الحديث و أنصت له أى استماع،و قيل:هو الاستماع مع سكوت يقال:أنصت الحديث و أنصت له أى استمع ساكتا،و أنصته غيره و أنصت الرجل أى سكت؛فالمعنى:استمعوا للقرآن و اسكتوا.

و الآيه بحسب دلالتها عامه و إن قيل:أنها نزلت فى الصلاه جماعه.

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ إلى آخر الآيه.قسم الذكر إلا ما فى النفس و دون الجهر من القول:ثم أمر بالقسمين، و أما الجهر من القول فى الذكر فمضرب عنه لا لأنه ليس ذكرا بل لمنافاته لأدب العبوديه و يدل على ذلك ما ورد أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم سار بأصحابه فى بعض غزواته فدخلوا واديا موحشا و الليل داج فكان ينادى بعض أصحابه بالتكبير فنهاه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قال:إنكم لا تدعون غائبا بعيدا (۱).

و التضرع من الضراعه و هو التملق بنوع من الخشوع و الخضوع،و الخيفه بناء نوع من الخوف،و المراد به نوع من الخوف يناسب ساحه قدسه تعالى ففى التضرع معنى الميل إلى المتضرع إليه و الرغبه فيه و التقرب منه،و فى الخيفه معنى اتقائه و الرهبه و التبعد عنه،فمقتضى توصيف الذكر بكونه عن تضرع و خيفه أن يكون بحركه باطنيه إليه و منه كالذى يحب شيئا

۱- ۱) .الروايه منقوله بالمعنى.

و يهابه فيـدنو منه لحبه و يتعبـد عنه لمهابته،و اللّه سبحانه و إن كان محض الخير لا شر فيه،و إنما الشر الذى يمسنا هو من قبلنا لكنه تعالى ذو الجلال و الإكرام له أسماء الجمال التى تدعو إليه و تجذب نحوه كل شیء.

و له أسماء الجلال التى تقهر و تدفع عنه كل شىء فحق ذكره و هو اللّه له الأسماء الحسنى كلها أن يكون على ما يقتضيه مجموع أسمائه الجماليه و الجلاليه،و هو أن يذكر تعالى تضرعا و خيفه، و رغبا و رهبا.

و قوله: بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ ظاهره أنه قيد لقوله: «وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ» فيكون الذكر القولى هو الموزع إلى الغدو و الآصال،و ينطبق على بعض الفرائض اليوميه.

و قوله: وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ تأكيد للأمر بالذكر فى أول الآيه و لم ينه تعالى عن أصل الغفله،و إنما نهى عن الدخول فى زمره الغافلين،و هم الموصوفون بالغفله الذين استقرت فيهم هذه الصفه.

و يتبين بذلك أن الذكر المطلوب المأمور به هو أن يكون الإنسان على ذكر من ربه حينا بعد حين،و يبادر إليه لو عرضت له غفله منسيه،و لا يدع الغفله تستقر فى نفسه،و فى الآيه التاليه:دلاله على ذلك على ما سيجیء.

فمحصل الآيه:الأمر بالاستمرار على ذكر اللّه فى النفس تضرعا و خيفه حينا بعد حين، و ذكره بالقول دون الجهر بالغدو و الآصال.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ ظاهر السياق أنه فى موضع التعليل للأمر الواقع فى الآيه السابقه فيكون المعنى:

اذكر ربك كذا و كذا فإن الذين عند ربك كذلك أى اذكر ربك كذا لتكون من الذين عند ربك و لا تخرج من زمرتهم.

و يتبين بذلك أن المراد بقوله: «الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ» ليس هم الملائكه فقط-على ما فسره

كثير من المفسرين-اذ لا معنى لقولنا:اذكر ربك كذا لأن الملائكه يذكرونه كذلك بل مطلق المقربين عنده تعالى على ما يفيده لفظ «عِنْدَ رَبِّكَ» من الحضور من غير غيبه.

و يظهر من الآيه أن القرب من اللّه إنما هو بذكره،فبه يرتفع الحجاب بينه و بين عبده،و إلا فجميع الأشياء متساويه فى النسبه إليه من غير اختلاف بينها بقرب أو بعد أو غير ذلك.

و قوله: «لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ» فيه امور ثلاثه يتصف بها الذكر النفسى كما يتصف بها الذكر القولى فإن للنفس أن تتصف بحال عدم الاستكبار،و بحال تنزيهه تعالى،و بحال السجده و كمال الخشوع له كما يتصف بها الذكر القولى و يعنون بها العمل الخارجى،فليس التسبيح و السجود مما يختص بالأعضاء من لسان و غيره كما يدل عليه قوله:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (أسرى۴۴/)،و قوله: وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدٰانِ (الرحمن۶/)،و قوله: وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ (النحل۴۹/).

و ما فى الآيه توصيف القوم بعدم الاستكبار و التسبيح و السجود أخف و أهون مما يشتمل عليه قوله تعالى: وَ مَنْ عِنْدَهُ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ لاٰ يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ لاٰ يَفْتُرُونَ (الأنبياء۲۰/)و قوله: فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ وَ هُمْ لاٰ يَسْأَمُونَ (حم السجده۳۸/)فإن هذه الآيات ظاهرها الاستمرار الذى لا يتخلله عدم،و لا يتوسطه مناف،و الآيه التى نبحث عنها لم يأمر إلا بما لا تثبت معه الغفله فى النفس كما عرفت.

فهذه الآيه تأمر بمرتبه من الذكر هى دون ما تتضمنه آيات سورتى الأنبياء و حم السجده و اللّه العالم (۱).

۱- ۱) .الاعراف ۱۹۹-۲۰۶:بحث روائى فى:مكارم الاخلاق؛الانصات للقرآن.

سوره الأنفال مدنیه و هی خمس و سبعون آیه

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سوره الأنفال (٨): الآيات ١ الى ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;يَسْئَلُونَکَ عَنِ اَلْأَنْفٰالِ قُلِ اَلْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ اَلرَّسُولِ فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَصْلِحُوا ذٰاتَ بَيْنِکُمْ وَ أَطِيعُوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ اَلَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ اَللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذٰا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ اَلصَّلاٰةَ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۴) كَمٰا أَخْرَجَکَ رَبُّکَ مِنْ بَيْتِکَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ لَكٰارِهُونَ (۵) يُجٰادِلُونَکَ فِی اَلْحَقِّ بَعْدَ مٰا تَبَيَّنَ كَأَنَّمٰا يُسٰاقُونَ إِلَى اَلْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (۶)

بيان:

قوله تعالى: يَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَ الرَّسُولِ الی آخر الآیه؛الأنفال جمع نفل بالفتح و هو الزیاده علی الشیء،و لذا یطلق النفل و النافله علی التطوّع لزیادته علی الفریضه،و تطلق الأنفال علی ما یسمّی فیئا أیضا و هی الأشیاء من الأموال التی لا مالک لها من الناس کرءوس الجبال،و بطون الأودیه،و الدیار الخربه،و القری التی باد أهلها،و ترکه من لا وارث له،و غیر ذلک کأنها زیاده علی ما ملکه الناس فلم یملکها أحد و هی للّه و لرسوله،و تطلق علی غنائم الحرب کأنها زیاده علی ما قصد منها فإن المقصود بالحرب و الغزوه الظفر علی الأعداء و استئصالهم فاذا غلبوا و ظفر بهم فقد حصل المقصود، و الأموال التی غنمه المقاتلون و القوم الذین أسروهم زیاده علی أصل الغرض.

و «ذاتَ» فی الأصل مؤنّث«ذا»بمعنی الصاحب من الألفاظ اللازمه الإضافه غیر أنه کثر استعماله فی نفس الشیء بمعنی ما به الشیء هو هو فیقال:ذات الإنسان أی ما به الإنسان إنسان،و ذات زید أی النفس الإنسانیه الخاصه التی سمّیت بزید،و کأن الأصل فیها النفس ذات أعمال کذا ثم أفردت بالذکر فقیل ذات الأعمال أو ما یؤدّی مؤدّاه ثم قیل ذات،و کذلک الأمر فی ذات البین فلکون الخصومه لا تتحقق إلاّ بین طرفین نسب إلیها البین فقیل ذات البین أی الحاله و الرابطه السیئه التی هی صاحبه البین فالمراد بقوله:أصلحوا ذات بینکم أی أصلحوا الحاله الفاسده و الرابطه السیئه التی بینکم.

و قال الراغب فی المفردات:«ذو»علی وجهین:أحدهما یتوصل به الی الوصف بأسماء الأجناس و الأنواع،و یضاف الی الظاهر دون المضمر،و یثنی و یجمع،و یقال فی التثنیه:ذواتا، و فی الجمع:ذوات،و لا یستعمل شیء منها إلاّ مضافا.

ص :۶۳۸

قال:و قد استعار أصحاب المعانى الذات فجعلوه عباره عن عين الشیء جوهرا كان أو عرضا،و استعملوها مفرده و مضافه الى المضمر و بالألف و اللام،و أجروها مجرى النفس و الخاصه فقالوا:ذاته و نفسه و خاصته،و لیس ذلک من كلام العرب،و الثانی فی لفظ ذو لغه لطيّئ یستعملونه استعمال«الذی»و یجعل فی الرفع و النصب و الجرّ و الجمع و التأنیث علی لفظ واحد نحو:

و بئری ذو حفرت و ذو طویت

أی التی حفرت و التی طویت.انتهی.

و الذی ذكره من عدم إضافته الی الضمیر منقول عن الفرّاء،و لازمه كون استعماله مضافا الی الضمیر من كلام المولّدین و الحق أنه قلیل لا متروک،و قد وقع فی كلام علیّ علیه السّلام فی بعض خطبه كما فی نهج البلاغه.

و قد اختلف المفسرون فی معنی الآیه و موقعها اختلافا شدیدا من جهات:من جهه معنی قوله: «یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ» و قد نسب الی أهل البیت علیهم السّلام و بعض آخر كعبد اللّه بن مسعود و سعد بن أبی وقاص و طلحه بن مصرف أنهم قرءوا «یسألونك الأنفال» فقیل:عن زائده فی القراءه المشهوره،و قیل:بل مقدّره فی القراءه الشاذه،و قیل:إن المراد بالأنفال غنائم الحرب،و قیل:غنائم غزوه بدر خاصه بجعل اللام فی الأنفال للعهد،و قیل:الفیء الذی للّه و الرسول و الإمام،و قیل:إن الآیه منسوخه بآیه الخمس،و قیل:بل محكمه،و قد طالت المشاجره بینهم كما یعلم بالرجوع الی مطوّلات التفاسیر كتفسیری الرازی و الآلوسی و غیرهما.

و الذی ینبغی أن یقال بالاستمداد من السیاق:أن الآیه بسیاقها تدل علی أنه كان بین هؤلاء المشار إلیهم بقوله: «یَسْئَلُونَکَ» تخاصم خاصم به بعضهم بعضا بأخذ كل جانبا من القول لا یرضی به خصمه،و التفریع الذی فی قوله: «فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَیْنِکُمْ» یدل

على أن الخصومه كانت فى أمر الأنفال،و لازم ذلك أن يكون السؤال الواقع منهم المحكىّ فى صدر الآيه إنما وقع لقطع الخصومه،كأنهم تخاصموا فى أمر الأنفال ثم راجعوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يسألونه عن حكمها لتنقطع بما يجيبه الخصومه و ترتفع عما بينهم.

و هذا-كما ترى-يؤيد أولا القراءه المشهوره: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ» فإن السؤال اذا تعدى بعن كان بمعنى استعلام الحكم و الخبر،و أما اذا استعمل متعديا بنفسه كان بمعنى الاستعطاف و لا يناسب المقام إلّا المعنى الأول.

و ثانيا:أن الأنفال بحسب المفهوم و إن كان يعم الغنيمه و الفيء جميعا إلّا ان مورد الآيه هى الأنفال بمعنى غنائم الحرب لا غنائم غزوه بدر خاصه اذ لا وجه للتخصيص فإنهم اذ تخاصموا فى غنائم بدر لم يتخاصموا فيها لأنها غنائم بدر خاصه بل لأنها غنائم مأخوذه من أعداء الدين فى جهاد دينى،و هو ظاهر.

و اختصاص الآيه بحسب موردها بغنيمه الحرب لا يوجب تخصيص الحكم الوارد فيها بالمورد،فان المورد لا يخصص،فإطلاق حكم الآيه بالنسبه الى كل ما يسمى بالنفل فى محله، و هى تدل على ان الأنفال جميعا للّه و لرسوله لا يشارك اللّه و رسوله فيها أحد من المؤمنين سواء فى ذلك الغنيمه و الفيء.

ثم الظاهر من قوله: «قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَ الرَّسُولِ» و ما يعظهم اللّه به بعد هذه الجمله و يحرضهم على الايمان هو ان اللّه سبحانه فصل الخصومه بتشريع ملكها لنفسه و لرسوله، و نزعها من ايديهم و هو يستدعى أن يكون تخاصمهم من جهه دعوى طائفه منهم ان الأنفال لها خاصه دون غيرها،او انها تختص بشيء منها،و إنكال الطائفه الاخرى ذلك،ففصل اللّه سبحانه خصومتهم فيها بسلب ملكهم منها و إثبات ملك نفسه و رسوله،و موعظتهم ان يكفّوا عن المخاصمه و المشاجره،و أما قول من يقول:ان الغزاه يملكون ما اخذوه من الغنيمه بالإجماع فأحرى به ان يورد فى الفقه دون التفسير.

ص: ۶۴۰

و بـالجمله فنزاعهم فی الأنفـال یکشف عن سـابق عهـد لهم بـأن الغنیمه لهم او ما فی معناه غیر انه کان حکما مجملا اختلف فیه المتخاصمان و کل یجر النار الی قرصته،و الآیات الکریمه تؤید ذلک.

توضـیحه:ان ارتباط الآیات فی السوره و التصـریح بقصه وقعه بدر فیها یکشف ان السوره بأجمعها نزلت حول وقعه بدر و بعیدها حتی ان ابن عباس-علی ما نقل عنه-کان یسـمیها سوره بدر،و التی تتعرض لأمر الغنیمه من آیاتها خمس آیات فی مواضع ثلاثه من السوره هی بحسب ترتیب السوره،قوله تعـالی: «یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفٰالِ قُلِ الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ» الآیه؛و قوله تعالی: وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی الْقُرْبیٰ وَ الْیَتٰامیٰ وَ الْمَسٰاکِینِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ إِنْ کُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلیٰ عَبْدِنٰا یَوْمَ الْفُرْقٰانِ یَوْمَ الْتَقَی الْجَمْعٰانِ وَ اللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ ،و قوله تعالی: مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ حَتّٰی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ تُرِیدُونَ عَرَضَ الدُّنْیٰا وَ اللّٰهُ یُرِیدُ الْآخِرَهَ وَ اللّٰهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ لَوْ لاٰ کِتٰابٌ مِنَ اللّٰهِ سَبَقَ لَمَسَّکُمْ فِیمٰا أَخَذْتُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ فَکُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ حَلاٰلاً طَیِّباً وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ .

و سیاق الآیه الثانیه یفیـد انها نزلت بعد الآیه الاولی و الآیات الاخیره جمیعا لمکان قوله فیها: إِنْ کُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلیٰ عَبْدِنٰا یَوْمَ الْفُرْقٰانِ یَوْمَ الْتَقَی الْجَمْعٰانِ فهی نازله بعد الوقعه بزمان.

ثم الآیـات الاـخیره تـدل علی انهم کلموا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی امر الاسـری و سـألوه ان لاـ یقتلهم و یـأخذ الفـدیه،و فیها عتابهم علی ذلک،ثم تجویز ان یأکلوا مما غنموا و کأنهم فهموا من ذلک انهم یملکون الغنائم و الأنفال علی إبهام فی امره:هـل یملکه جمیع من حضـر الوقعه او بعضـهم کالمقاتلین دون القاعـدین مثلا؟و هل یملکون ذلک بالسویه فیقسّم بینهم کذلک أو یختلفون فیه بالزیاده و النقیصه کأن یکون سهم الفرسان منها ازید من المشاه؟او نحو ذلک.

و کان ذلک سبب التخاصم بینهم فتشاجروا فی الامر،و رفعوا ذلک الی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فنزلت الآیه الاولی: «قُلِ الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَصْلِحُوا ذٰاتَ بَیْنِکُمْ» الآیه؛ فخطأتهم الآیه فیما زعموا انهم مالکو الانفال بما استفادوا من قوله: «فَکُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ» الآیه؛ و أقرت ملک الأنفال للّه و الرسول و نهتهم عن التخاصم و التشاجر،فلما انقطع بذلک تخاصمهم ارجعها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم الیهم،و قسّمها بینهم بالسویه،و عزل السهم لعده من اصحابه لم یحضروا الوقعه،و لم یقدم مقاتلا علی قاعد،و لا فارسا علی ماش،ثم نزلت الآیه الثانیه: وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ الآیه؛بعد حین فأخرج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم مما ردّ الیهم من السهام الخمس و بقی لهم الباقی.هذا ما یتحصل من انضمام الآیات المربوطه بالأنفال بعضها ببعض.

فقوله تعالی: «یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفٰالِ» یفید بما ینضم الیه من قرائن السیاق انهم سألوا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم عن حکم غنائم الحرب بعد ما زعموا انهم یملکون الغنیمه،و اختلفوا فیمن یملکها، او فی کیفیه ملکها و انقسامها بینهم،او فیهما معا،و تخاصموا فی ذلک.

و قوله: «قُلِ الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ» جواب عن مسألتهم و فیه بیان انهم لا یملکونها و إنما هی أنفال یملکها اللّه و رسوله،فیوضع حیثما اراد اللّه و رسوله،و قد قطع ذلک اصل ما نشب بینهم من الاختلاف و التخاصم.

و یظهر من هذا البیان ان الآیه غیر ناسخه لقوله تعالی: فَکُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ الی آخر الآیه؛و إنما تبیّن معناها بالتفسیر،و ان قوله:«کلوا»لیس بکنایه عن ملکهم للغنیمه بحسب الأصل،و إنما المراد هو التصرف فیها و التمتع منها إلاّ ان یمتلکوا بقسمه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم إیاها بینهم.

و یظهر ایضا ان قوله تعالی: وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی الْقُرْبیٰ الآیه؛لیس بناسخ لقوله: «قُلِ الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ» الآیه؛فإن قوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ الآیه؛إنما یؤثر بالنسبه الی المجاهدین منعهم عن اکل تمام الغنیمه و التصرف فیه

اذ لم یکن لهم بعد نزول قوله: «الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ» إلاّ ذلک،و أما قوله «الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ» فلا یفید إلاّ کون اصل ملکها للّه و الرسول من دون ان یتعرض لکیفیه التصرف و جواز الأکل و التمتع،فلا یناقضه فی ذلک قوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ الآیه؛حتی یکون بالنسبه إلیه ناسخا،فیتحصل من مجموع الآیات الثلاث:ان اصل الملک فی الغنیمه للّه و الرسول ثم یرجع اربعه أخماسها الی المجاهدین یأکلونها و یمتلکونها و یرجع خمس منها الی اللّه و الرسول و ذی القربی و غیرهم لهم التصرف فیها و الاختصاص بها.

و یظهر بالتأمل فی البیان السابق أیضا:ان فی التعبیر عن الغنائم بالأنفال و هو جمع نفل بمعنی الزیاده إشاره الی تعلیل الحکم بموضوعه الأمّ،کأنه قیل:یسألونک عن الغنائم و هی زیادات لا مالک لها من بین الناس،و اذا کان کذلک فأجبهم بحکم الزیادات و الأنفال،و قل:

الأنفال للّه و الرسول،و لازم ذلک کون الغنیمه للّه و الرسول.

و بذلک ربما تأید کون اللام فی لفظ الانفال الاول للعهد و فی الثانی للجنس او الاستغراق، و تبین وجه الإظهار فی قوله: «قُلِ الْأَنْفٰالُ» الآیه؛حیث لم یقل:قل هی للّه و الرسول.

و یظهر بذلک أیضا:ان قوله: «قُلِ الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ» حکم عام یشمل بعمومه الغنیمه و سائر الاموال الزائده فی المجتمع نظیر الدیار الخالیه و القری البائده و رءوس الجبال و بطون الاودیه و قطائع الملوک و ترکه من لا وارث له،أما الأنفال بمعنی الغنائم فهی متعلقه بالمقاتلین من المسلمین بعمل النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و بقی الباقی تحت ملک اللّه و رسوله.

هذا ما یفیده التأمل فی کرائم الآیات،و للمفسرین فیها اقاویل مختلفه تعلم بالرجوع الی مطولات التفاسیر لا جدوی فی نقلها و التعرض المنقض و الإبرام فیها.

قوله تعالی: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ إِذٰا ذُکِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ الی آخر الآیتین؛الآیتان و التی بعدهما بیان ما یتمیز به المؤمنون بحقیقه الایمان و یختصون به من الاوصاف الکریمه و الثواب الجزیل بیّنت لیتأکد به ما یشتمل علیه قوله تعالی: «فَاتَّقُوا اللّٰهَ

وَ أَصْلِحُوا ذٰاتَ بَيْنِكُمْ» الى آخر الآيه.

و قد ذكر اللّه تعالى لهم خمس صفات اختارها من بين جميع صفاتهم التى ذكرها فى كلامه لكونها مستلزمه لكرائم صفاتهم على كثرتها و ملازمه لحق الايمان،و هى بحيث اذا تنبهوا لها و تأملوها كان ذلك مما يسهّل لهم توطين النفس على التقوى و إصلاح ذات بينهم،و إطاعه اللّه و رسوله.

و هاتيك الصفات الخمس هى:وجل القلب عند ذكر اللّه،و زياده الايمان عند استماع آيات اللّه،و التوكل،و إقامه الصلاه،و الإنفاق مما رزقهم اللّه،و معلوم ان الصفات الثلاث الاول من اعمال القلوب،و الأخيرتان من اعمال الجوارح.

و قد روعى فى ذكرها الترتيب الذى بينها بحسب الطبع،فإن نور الإيمان إنما يشرق على القلب تدريجا،فلا يزال يشتد و يضاعف حتى يتم و يكمل بحقيقته،فأول ما يشرق يتأثر القلب بالوجل و الخشيه اذا تذكّر باللّه عند ذكره،و هو قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ» .

ثم لا يزال ينبسط الإيمان و يتعرّق و ينمو و يتفرع بالسير فى الآيات الداله عليه تعالى، و الهاديه الى المعارف الحقه،فكلما تأمّل المؤمن فى شىء منها زادته ايمانا،فيقوى الايمان و يشتد حتى يستقر فى مرحله اليقين،و هو قوله تعالى: «وَ إِذٰا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً» .

و اذا زاد الايمان و كمل كمالا عرف عندئذ مقام ربه و موقع نفسه،معرفه تطابق واقع الأمر، و هو أن الأمر كله الى اللّه سبحانه فإنه تعالى وحده هو الرب الذى إليه يرجع كل شىء، فالواجب الحق على الإنسان ان يتوكل عليه و يتبع ما يريده منه بأخذه وكيلا فى جميع ما يهمه فى حياته،فيرضى بما يقدر له فى مسير الحياه،و يجرى على ما يحكم عليه من الأحكام و يشرّعه من الشرائع فليأتمر بأوامره و ينتهى عن نواهيه،و هو قوله تعالى: «وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ» .

ثم اذا استقر الإيمان على كماله فى القلب،استوجب ذلك أن ينعطف العبد بالعبوديه الى ربه، و ينصب نفسه فى مقام العبوديه و إخلاص الخضوع و هو الصلاه،و هى أمر بينه و بين ربه،و أن يقوم بحاجه المجتمع فى نواقص مساعيهم بالإنفاق على الفقراء مما رزقه اللّه من مال أو علم أو غير ذلك،و هو أمر بينه و بين سائر أفراد مجتمعه،و هو قوله تعالى: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ» .

و قد ظهر مما تقدم أن قوله تعالى: «زٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً» إشاره الى الزياده من حيث الكيفيه و هو الاشتداد و الكمال،دون الكميه و هى الزياده من حيث عدد المؤمنين كما احتمله بعض المفسرين.

قوله تعالى: أُولٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ قضاء منه تعالى بثبوت الايمان حقا فيمن اتّصف بما عدّه تعالى من الصفات الخمس،و لذلك أطلق ما ذكره لهم من كريم الأجر فى قوله: «لَهُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» الآيه؛ فلهؤلاء من صفات الكمال و كريم الثواب و عظيم الأجر ما لكل مؤمن حقيقى.

و أما قوله: «لَهُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» فالمغفره هى الصفح الإلهى عن ذنوبهم،و الرزق الكريم ما يرتزقون به من نعم الجنه،و قد أراد اللّه سبحانه بالرزق الكريم الجنه و نعمها فى مواضع من كلامه،كقوله تعالى: فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِى آيٰاتِنٰا مُعٰاجِزِينَ أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ الْجَحِيمِ (الحج۵۱/)و غير ذلك.

و بذلك يظهر أن المراد بقوله: «لَهُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» مراتب القرب و الزلفى و درجات الكرامه المعنويه،و هو كذلك.فإن المغفره و الجنه من آثار مراتب القرب من اللّه سبحانه و فروعه البته.

و الـذی یشـتمل علیه الآیه من إثبات الـدرجات لهؤلاء المؤمنین،هو ثبوت جمیع الدرجات لجمیعهم،لا ثبوت جمیعها لکل واحد منهم فإنها من لوازم الإیمان،و الإیمان مختلف ذو مراتب فالدرجات الموهوبه بإزائه کذلک لا محاله،فمن المؤمنین من له درجه واحده،و منهم ذو الدرجتین،و منهم ذو الدرجات علی اختلاف مراتبهم فی الإیمان.

و یؤیـده قوله تعالی: یَرْفَعِ اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ (المجادله۱۱/)،و قوله تعالی: أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللّهِ کَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ، هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللّهِ وَ اللّهُ بَصِیرٌ بِما یَعْمَلُونَ (آل عمران۱۶۳/).

و بمـا تقـدم یظهر أن تفسـیر بعضـهم مـا فی الآیه من الـدرجات بـدرجات الجنه،لیس علی ما ینبغی،و ان المتعین کون المراد بها درجات القرب؛کما تقدم و إن کان کل منهما یلازم الآخر.

قوله تعـالی: کَما أَخْرَجَکَ رَبُّکَ مِنْ بَیْتِکَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِیقاً مِنَ الْمُؤْمِنِینَ لَکارِهُونَ الی آخر الآیتین؛ظاهر السـیاق أن قوله: «کَما أَخْرَجَکَ» متعلق بما یـدل علیه قوله تعالی: «قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَ الرَّسُولِ» و التقـدیر:أن اللّه حکم بکون الأنفال له و لرسوله بالحق مع کراهتهم له،کمـا أخرجـک من بیتک بالحق مع کراهه فریق منهم له،فللجمیع حق یترتب علیه من مصـلحه دینهم و دنیاهم ما هم غافلون عنه.

و المراد بـالحق مـا یقابـل الباطل،و هو الأمر الثابت الـذی یترتب علیه آثاره الواقعیه المطلوبه،و کون الفعل-و هو الإخراج-بالحق هو أن یکون هو المتعین الواجب بحسب الواقع،و قیل:المراد به الوحی،و قیل:المراد به الجهاد،و قیل غیر ذلک،و هی معان بعیده.

و الأصل فی معنی الجدل شده القتل،یقال:زمام جدیل أی شدید القتل،و سمّی الجدال جدالا لأن فیه نزاعا بالفتل عن مذهب الی مذهب کما ذکره فی المجمع.

و معنی الآیتین:ان اللّه تعالی حکم فی امر الأنفال بالحق مع کراهتهم لحکمه کما اخرجک من

بیتک بالمدینه إخراجا یصاحب الحق،و الحال ان فریقا من المؤمنین لکارهون لذلک، ینازعونک فی الحق بعد ما تبین لهم اجمالا،و الحال انهم یشبهون جماعه یساقون الی الموت، و هم ینظرون الی ما أعدّ لهم من أسبابه و أدواته (۱).

[سوره الأنفال (۸): الآیات ۷ الی ۱۴]

اشاره

وَ إِذْ یَعِدُکُمُ اَللّٰهُ إِحْدَی اَلطّٰائِفَتَیْنِ أَنَّهٰا لَکُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَیْرَ ذٰاتِ اَلشَّوْکَهِ تَکُونُ لَکُمْ وَ یُرِیدُ اَللّٰهُ أَنْ یُحِقَّ اَلْحَقَّ بِکَلِمٰاتِهِ وَ یَقْطَعَ دٰابِرَ اَلْکٰافِرِینَ (۷) لِیُحِقَّ اَلْحَقَّ وَ یُبْطِلَ اَلْبٰاطِلَ وَ لَوْ کَرِهَ اَلْمُجْرِمُونَ (۸) إِذْ تَسْتَغِیثُونَ رَبَّکُمْ فَاسْتَجٰابَ لَکُمْ أَنِّی مُمِدُّکُمْ بِأَلْفٍ مِنَ اَلْمَلاٰئِکَهِ مُرْدِفِینَ (۹) وَ مٰا جَعَلَهُ اَللّٰهُ إِلاّٰ بُشْریٰ وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُکُمْ وَ مَا اَلنَّصْرُ إِلاّٰ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۱۰) إِذْ یُغَشِّیکُمُ اَلنُّعٰاسَ أَمَنَهً مِنْهُ وَ یُنَزِّلُ عَلَیْکُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً لِیُطَهِّرَکُمْ بِهِ وَ یُذْهِبَ عَنْکُمْ رِجْزَ اَلشَّیْطٰانِ وَ لِیَرْبِطَ عَلیٰ قُلُوبِکُمْ وَ یُثَبِّتَ بِهِ اَلْأَقْدٰامَ (۱۱) إِذْ یُوحِی رَبُّکَ إِلَی اَلْمَلاٰئِکَهِ أَنِّی مَعَکُمْ فَثَبِّتُوا اَلَّذِینَ آمَنُوا سَأُلْقِی فِی قُلُوبِ اَلَّذِینَ کَفَرُوا اَلرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ اَلْأَعْنٰاقِ وَ اِضْرِبُوا مِنْهُمْ کُلَّ بَنٰانٍ (۱۲) ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ یُشٰاقِقِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اَللّٰهَ شَدِیدُ اَلْعِقٰابِ (۱۳) ذٰلِکُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْکٰافِرِینَ عَذٰابَ اَلنّٰارِ (۱۴)

۱- ۱) .الانفال ۱-۶:بحث روائی فی الانفال.

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذْ یَعِدُکُمُ اللّٰهُ إِحْدَی الطّٰائِفَتَیْنِ أَنَّهٰا لَکُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَیْرَ ذٰاتِ الشَّوْکَهِ تَکُونُ لَکُمْ وَ یُرِیدُ اللّٰهُ أَنْ یُحِقَّ الْحَقَّ بِکَلِمٰاتِهِ وَ یَقْطَعَ دٰابِرَ الْکٰافِرِینَ أی و اذکروا اذ یعدکم اللّه،و هو بیان منن اللّه و عدّ نعمه علیهم لیکونوا علی بصیره من ان اللّه سبحانه لا یستقبلهم بأمر و لا یأتیهم بحکم إلاّ بالحق و فیه حفظ مصالحهم و إسعاد جدّهم فلا یختلفوا فیما بینهم،و لا یکرهوا ما یختاره لهم،و یکلوا أمرهم إلیه فیطیعوه و رسوله.

و المراد بالطائفتین العیر و النفیر،و العیر قافله قریش و فیها تجارتهم و أموالهم و کان علیها أربعون رجلا منهم أبو سفیان بن حرب،و النفیر جیش قریش و هم زهاء ألف رجل.

و قوله: «إِحْدَی الطّٰائِفَتَیْنِ» مفعول ثان لقوله: «یَعِدُکُمُ» و قوله: «أَنَّهٰا لَکُمْ» بدل منه و قوله: «وَ تَوَدُّونَ» الآیه؛فی موضع الحال،و المراد بغیر ذات الشوکه:الطائفه غیر ذات الشوکه و هی العیر الذی کان أقل عدّه و عدّه من النفیر،و الشوکه الحدّه،استعاره من الشوک.

و قوله: «وَ یُرِیدُ اللّٰهُ أَنْ یُحِقَّ الْحَقَّ بِکَلِمٰاتِهِ» فی موضع الحال،و المراد باحقاق الحق إظهاره و إثباته بترتیب آثاره علیه،و کلمات اللّه هی ما قضی به من نصره أنبیائه و إظهار دینه الحق، قال تعالی: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ کَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا الْمُرْسَلِینَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنٰا لَهُمُ الْغٰالِبُونَ (الصافات/۱۷۳)و قال تعالی: یُرِیدُونَ لِیُطْفِؤُا نُورَ اللّٰهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ اللّٰهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْکٰافِرُونَ هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدیٰ وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ

ص :۶۴۸

كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (الصف/۹)؛و قرئ«بكلمته»:و هو اوجه و أقرب و الـدابر ما يأتى بعد الشـىء مما يتعلق به و يتصل إليه و قطع دابر الشىء،كنايه عن إفنائه و استئصاله بحيث لا يبقى بعده شىء من آثاره المتفرعه عليه المرتبطه به.

و معنى الآـيه:و اذكروا اذ يعـدكم اللّه أن إحـدى الطـائفتين لكم تسـتعلون عليهـا بنصـر اللّه إمّا العير و إما النفير و أنتم تودون أن تكون تلـك الطـائفه هى العير لمـا تعلمون من شوكه النفير، و قوتهم و شـدتهم،مع ما لكم من الضـعف و الهوان،و الحال ان اللّه يريد خلاف ذلك و هو أن تلاقوا النفير فيظهركم عليهم و يظهر ما قضى ظهوره من الحق،و يستأصل الكافرين و يقطع دابرهم.

قوله تعالى: لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ظاهر السـياق ان اللام للغايه،و قوله: «لِيُحِقَّ» الآيه؛متعلق بقوله: «يَعِدُكُمُ اللّهُ» أى إنمـا وعـدكم اللّه ذلـك و هو لاـ يخلف الميعـاد ليحق بـذلك الحق و يبطـل الباطـل و لو كان المجرمون يكرهونه و لا يريدونه.

و بذلك يظهر ان قوله: «لِيُحِقَّ الْحَقَّ» الآيه؛ليس تكرارا لقوله: «وَ يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» و إن كان فى معناه.

قوله تعالى: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاٰئِكَهِ مُرْدِفِينَ الاستغاثه طلب الغوث و هو النصره كما فى قوله: فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ (القصص/۱۵)و الإمداد معروف،و قوله: «مُرْدِفِينَ» من الإرداف و هو ان يجعل الراكب غيره ردفـا له،و الردف التـابع،قـال الراغب:الردف التـابع، و ردف المرأه عجيزتهـا،و الترادف:التتـابع،و الرادف:المتـأخر،و المردف المقدم الذى اردف غيره.انتهى.

و بهذا المعنى تلائم الآيه ما فى قوله تعالى فيما يشير به الى هذه القصه فى سوره آل عمران:

وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّهٌ فَاتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَهِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَهِ مُنْزَلِينَ بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَهِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَهِ مُسَوِّمِينَ وَ ما جَعَلَهُ اللّهُ إِلاّ بُشْرى لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (آل عمران۱۲۶/).

فإن تطبيق الآيات من السورتين يوضح ان المراد بنزول الف من الملائكه مردفين نزول الف منهم يستتبعون آخرين فينطبق الألف المردفون على الثلاثه آلاف المنزلين.

قوله تعالى: وَ ما جَعَلَهُ اللّهُ إِلاّ بُشْرى وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ الضميران فى قوله: «جَعَلَهُ» و قوله: «بِهِ» للإمداد بالملائكه على ما يدل عليه السياق،و المعنى ان الإمداد بالملائكه إنما كان لغرض البشرى و اطمئنان نفوسكم لا ليهلك بأيديهم الكفار كما يشير اليه قوله تعالى بعد: «إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَهِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ» .

و بذلك يتأيد ما ذكره بعضهم:ان الملائكه لم ينزلوا ليقتلوا المشركين و لا قتلوا منهم احدا فقد قتل ثلث المقتولين منهم او النصف على عليه السّلام و الثلثين الباقيين او النصف سائر المسلمين.

و إنما كان للملائكه تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بالقوم و تثبيت قلوب المسلمين،و إلقاء الرعب فى قلوب المشركين،و سيجىء بعض الكلام فى ذلك.

و قوله: وَ مَا النَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ بيان انحصار حقيقه النصر فيه تعالى و أنه لو كان بكثره العدد و القوه و الشوكه كانت الدائره يومئذ للمشركين بما لهم من الكثره و القوه على المسلمين على ما بهم من القله و الضعف.

و قد علل بقوله: «إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» جميع مضمون الآيه و ما يتعلق به من الآيه السابقه فبعزّته نصرهم و أمدهم،و بحكمته جعل نصره على هذه الشاكله.

قوله تعالى: إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَهً مِنْهُ الى آخر الآيه.النعاس اول النوم

و هو خفيفه و التغشيه الإحاطه،و الأمنه الامان،و قوله: «أَمَنَةً» أى من اللّه و قيل:أى من العدو،و الرجز هو الرجس و القذاره،و المراد برجز الشيطان القذاره التى يطرأ القلب من وسوسته و تسويله.

و معنى الآيه:ان النصر و الإمداد بالبشرى و اطمئنان القلوب كان فى وقت يأخذكم النعاس للأمن الذى افاضه اللّه على قلوبكم فنمتم و لو كنتم خائفين مرتاعين لم يأخذكم نعاس و لا نوم،و ينزّل عليكم المطر ليطهّركم به و يذهب عنكم وسوسه الشيطان و ليربط على قلوبكم و يشد عليها-و هو كنايه عن التشجيع-و ليثبت بالمطر اقدامكم فى الحرب بتلبّد الرمل او بثبات القلوب.

و الآيه تؤيد ما ورد ان المسلمين سبقهم المشركون الى الماء فنزلوا على كثيب رمل، و أصبحوا محدثين و مجنبين،و أصابهم الظمأ،و وسوس اليهم الشيطان فقال:إن عدوكم قد سبقكم الى الماء،و أنتم تصلون مع الجنابه و الحدث و تسوخ أقدامكم فى الرمل فأمطر عليهم اللّه حتى اغتسلوا به من الجنابه،و تطهروا به من الحدث،و تلبدت به أرضهم،و أوحلت أرض عدوهم.

قوله تعالى: إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَهِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ الى آخر الآيه؛حال الظرف فى أول الآيه كحال الظرف فى قوله: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» و قوله: «إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ» و معنى الآيه ظاهر.

و أما قوله: «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» فالظاهر أن يكون المراد بفوق الأعناق الرءوس و بكل بنان جميع الأطراف من اليدين و الرجلين أو أصابع الأيدى لئلا يطيقوا حمل السلاح بها و القبض عليه.

و من الجائز أن يكون الخطاب بقوله: «فَاضْرِبُوا» الخ؛للملائكه كما هو المتسابق الى

الـذهن،و المراد بضـرب فوق الأعناق و كل بنان ظاهر معناه،أو الكنايه عن اذلالهم و إبطال قوه الإمساك من أيديهم بالإرعاب،و أن يكـون الخطـاب للمـؤمنين و المراد بـه تشـجيعهم على عـدوهم بتثبيت أقـدامهم و الربـط على قلـوبهم،و حثهـم و إغراؤهم بالمشركين.

قوله تعالى: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ المشاقه المخالفه و أصله الشق بمعنى البعض كأن المخالف يميل الى شق غير شق من يخالفه،و المعنى أن هذا العقاب للمشـركين بما أوقع اللّه بهم،لأنهم خالفوا اللّه و رسوله و ألحّوا و أصرّوا على ذلك و من يشاقق اللّه و رسوله فإن اللّه شديد العقاب.

قوله تعـالى: ذٰلِكُمْ فَـذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكٰافِرِينَ عَـذٰابَ النّٰارِ خطـاب تشديـدى للكفـار يشـير الى ما نزل بهم من الخزى و يأمرهم أن يذوقوه،و يذكر لهم أن وراء ذلك عذاب النار (۱).

[سوره الأنفال (۸): الآيات ۱۵ الى ۲۹]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا لَقِيتُمُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاٰ تُوَلُّوهُمُ اَلْأَدْبٰارَ (۱۵) وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاّٰ مُتَحَرِّفاً لِقِتٰالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بٰاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اَللّٰهِ وَ مَأْوٰاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ اَلْمَصِيرُ (۱۶) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ قَتَلَهُمْ وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ رَمىٰ وَ لِيُبْلِيَ اَلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاٰءً حَسَناً إِنَّ اَللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۷) ذٰلِكُمْ وَ أَنَّ اَللّٰهَ مُوهِنُ كَيْدِ اَلْكٰافِرِينَ (۱۸) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جٰاءَكُمُ اَلْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اَللّٰهَ مَعَ اَلْمُؤْمِنِينَ (۱۹) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لاٰ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (۲۰) وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ هُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ (۲۱) إِنَّ شَرَّ اَلدَّوَابِّ عِنْدَ اَللّٰهِ اَلصُّمُّ اَلْبُكْمُ اَلَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ (۲۲) وَ لَوْ عَلِمَ اَللّٰهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۲۳) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اِسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ اَلْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۴) وَ اِتَّقُوا فِتْنَةً لاٰ تُصِيبَنَّ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ (۲۵) وَ اُذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي اَلْأَرْضِ تَخٰافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ اَلنّٰاسُ فَآوٰاكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ اَلطَّيِّبٰاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۲۶) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَخُونُوا اَللّٰهَ وَ اَلرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمٰانٰاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۲۷) وَ اِعْلَمُوا أَنَّمٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ أَوْلاٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اَللّٰهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۲۸) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اَللّٰهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقٰاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اَللّٰهُ ذُو اَلْفَضْلِ اَلْعَظِيمِ (۲۹)

۱- ۱) .الانفال ۷-۱۴:بحث روائى فى:غزوه بدر؛فهرس أسماء شهداء بدر(رض).

بیان:

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذٰا لَقِیتُمُ الَّذِینَ کَفَرُوا زَحْفاً فَلاٰ تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبٰارَ اللقاء مصدر لقی یلقی من المجرّد و لاقی یلاقی من المزید فیه،قال الراغب فی مفردات القرآن:اللقاء مقابله الشیء و مصادفته معا،و قد یعبّر به عن کل واحد منهما یقال:

لقیه یلقاه لقاء و لقیّا و لقیه،و یقال ذلک فی الإدراک بالحس و بالبصر و بالبصیره قال:لقد کنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه،و قال:لقد لقینا من سفرنا هذا نصبا،و ملاقاه اللّه عباره عن القیامه و عن المصیر الیه قال:و اعلموا انکم ملاقوه،و قال:الذین یظنون انهم ملاقوا اللّه، و اللقاء الملاقاه،قال:و قال الذین لا یرجون لقاءنا،و قال:الی ربک کدحا فملاقیه.انتهی.

و قال فی المجمع:اللقاء الاجتماع علی وجه المقاربه لان الاجتماع قد یکون علی غیر وجه المقاربه فلا یکون لقاء کاجتماع الأعراض فی المحل الواحد.انتهی.

و قال فیه:الزحف الدنو قلیلا قلیلا،و التزاحف التدانی یقال:زحف یزحف زحفا و أزحفت للقوم اذا دنوت لقتالهم و ثبتّ لهم.قال اللیث:الزحف جماعه یزحفون الی عدو لهم بمره و جمعه زحوف.انتهی.

و تولیه الأعداء الادبار جعلهم یلونها و هو استدبار العدو و استقبال جهه الهزیمه.

و خطاب الآیه عام غیر خاص بوقت دون وقت و لا غزوه دون غزوه فلا وجه لتخصیصها

بغزوه بدر و قصر حرمه الفرار من الزحف بها كما يحكى عن بعض المفسرين.على انک عرفت أن ظاهر سياق الآيات انها نزلت بعد غزوه بدر لا يومها،و ان الآيات ذيل ما فى صدر السوره من قوله: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَ الرَّسُولِ» الآيه؛و للكلام تتمه ستوافيک فى البحث الروائى إن شاء اللّه تعالى.

قوله تعالى: وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ الى آخر الآيه.التحرف:الزوال عن جهه الاستواء الى جهه الحرف و هو طرف الشىء و هو أن ينحرف و ينعطف المقاتل من جهه الى جهه أخرى ليتمكن من عدوّه و يبادر الى إلقاء الكيد عليه،و التحيّز هو أخذ الحيّز و هو المكان،و الفئه القطعه من جماعه الناس،و التحيز الى فئه أن ينعطف المقاتل عن الانفراد بالعدو الى فئه من قومه فيلحق بهم و يقاتل معهم.

و البواء الرجوع الى مكان و الاستقرار فيه،و لذا قال الراغب:أصل البواء مساواه الأجزاء فى المكان خلاف النبوه الذى هو منافاه الأجزاء.انتهى.فمعنى قوله:باء بغضب من اللّه أى رجع و معه غضب من اللّه.

فمعنى الآيتين:يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا لقاء زحف أو زاحفين للقتال فلا تفروا منهم و من يفر منهم يومئذ أى وقتئذ فقد رجع و معه غضب من اللّه و مأواه جهنم و بئس المصير إلاّ أن يكون فراره للتحرف لقتال أو التحيز الى فئه فلا بأس به.

قوله تعالى: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللّهَ رَمى الى آخر الآيه؛التدبر فى السياق لا يدع شكا فى أن الآيه تشير الى وقعه بدر و ما صنعه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من رميهم بكف من الحصا،و المؤمنون بوضع السيف فيهم و قتلهم القتل الذريع،و ذيل الآيه أعنى قوله:و ليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا يدل على أن الكلام جار مجرى الامتنان منه تعالى،و قد أثبت تعالى عين ما نفاه فى جمله واحده أعنى قوله: «وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ» .

فمن جميع هذه الشواهد يتحصل أن المراد بقوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ قَتَلَهُمْ وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ رَمىٰ» نفى أن تكون وقعه بدر و ما ظهر فيها من استئصال المشركين و الظهور عليهم و الظفر بهم جاريه على مجرى العاده و المعروف من نواميس الطبيعه،و كيف يسع لقوم هم شرذمه قليلون ما فيهم على ما روى الا فرس أو فرسان و بضعه أدرع و بضعه سيوف،أن يستأصلوا جيشا مجهزا بالأفراس و الأسلحه و الرجال و الزاد و الراحله،هم أضعافهم عده و لا يقاسون بهم قوه و شده،و أسباب الغلبه عندهم،و عوامل البأس معهم، و الموقف المناسب للتقدم لهم.

إلاّ ان اللّه سبحانه بما أنزل من الملائكه ثبت أقدام المؤمنين و أرعب قلوب المشركين،و ألقى الهزيمه بما رماه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من الحصاه عليهم فشملهم المؤمنون قتلا و أسرا فبطل بذلك كيدهم و خمدت أنفاسهم و سكنت أجراسهم.

فبالحرى أن ينسب ما وقع عليهم من القتل بأيدى المؤمنين و الرمى الذى شتت شملهم و ألقى الهزيمه فيهم اليه سبحانه دون المؤمنين.

فما فى الآيه من النفى جار مجرى الدعوى بنوع من العنايه،بالنظر الى استناد الوقعه بأطرافها الى سبب إلهى غير عادى،و لا ينافى ذلك استنادها بما وقع فيها من الوقائع الى اسبابها القريبه المعهوده فى الطبيعه بأن يعد المؤمنون قاتلين لمن قتلوا منهم،و النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم راميا لما رماه من الحصاه.

و قوله: وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاٰءً حَسَناً الظاهر ان ضمير «مِنْهُ» راجع الى اللّه تعالى،و الجمله لبيان الغايه و هى معطوفه على مقدر محذوف،و التقدير:إنما فعل اللّه ما فعل من قتلهم و رميهم لمصالح عظيمه عنده،و ليبلى المؤمنين و يمتحنهم بلاء و امتحانا حسنا أو لينعم عليهم بنعمه حسنه،و هو إفناء خصمهم و إعلاء كلمه التوحيد بهم و إغناؤهم بما غنموا من الغنائم.

و قوله: إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ تعليل لقوله: «وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ» أى إنه تعالى يبليهم لأنه سميع باستغاثتهم عليم بحالهم فيبليهم منه بلاء حسنا.

و التفريع الذى فى صدر الآيه «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ» الخ؛متعلق بما يتضمنه الآيات السابقه «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» الى آخر الآيات من المعنى،فإنها تعد منن اللّه عليهم من انزال الملائكه و امدادهم بهم و تغشيه النعاس اياهم و امطار السماء عليهم و ما أوحى الى الملائكه من تأييدهم و تثبيت أقدامهم و القاء الرعب فى قلوب أعدائهم،فلما بلغ الكلام هذا المبلغ فرّع عليه قوله:

«فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ قَتَلَهُمْ وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ رَمىٰ» .

و على هذا فقوله: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا لَقِيتُمُ» الى قوله: «وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ» معترضه متعلقه بقوله: «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنٰاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنٰانٍ» او بمعناه المفهوم من الجمل المسروده،و قوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ» الخ؛متصل بما قبله بحسب النظم.

و ربما يذكر فى نظم الآيه وجهان آخران:

احدهما:ان اللّه سبحانه لما أمرهم بالقتل فى الآيه المتقدمه ذكر عقيبها ان ما كان من الفتح يوم بدر و قهر المشركين انما كان بنصرته و معونته تذكيرا للنعمه.ذكره ابو مسلم.

و الثانى:انهم لما أمروا بالقتال ثم كان بعضهم يقول:أنا قتلت فلانا و أنا فعلت كذا نزلت الآيه على وجه التنبيه لهم لئلا يعجبوا بأعمالهم.و ربما قيل:ان الفاء فى قوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ» لمجرد ربط الجمل بعضها ببعض.و الوجه ما قدمناه.

قوله تعالى: ذٰلِكُمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكٰافِرِينَ قال فى المجمع «ذٰلِكُمْ» موضعه رفع،و كذلك «أَنَّ اللّٰهَ» فى موضع رفع،و التقدير:الأمر ذلكم و الأمر ان اللّه موهن، و كذلك الوجه فيما تقدم من قوله: «ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكٰافِرِينَ عَذٰابَ النّٰارِ» ،و من قال:ان «ذٰلِكُمْ» مبتدأ و «فَذُوقُوهُ» خبره فقد أخطأ لأن ما بعد الفاء لا يكون خبرا لمبتدإ،و لا يجوز:

زيد فمنطلق،و لا:زيد فاضربه،إلاّ ان تضمر«هذا»تريد:هذا زيد فاضربه.انتهى.فمعنى

الآیه:الامر ذلکم الذی ذکرناه و الأمر ان اللّه موهن کید الکافرین.

قوله تعالی: إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جٰاءَکُمُ الْفَتْحُ الی آخر الآیه.ظاهر الآیه بما تشتمل علیه من الجمل المسروده کقوله: «وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَیْرٌ لَکُمْ» و قوله: «وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ» الخ؛ان تکون الخطاب فیه للمشرکین دون المؤمنین باشتمال الکلام علی الالتفات للتهکم،و هو المناسب لقوله فی الآیه السابقه: «وَ أَنَّ اللّٰهَ مُوهِنُ کَیْدِ الْکٰافِرِینَ» .

فالمعنی:إن طلبتم الفتح و سألتم اللّه ایها المشرکون ان یفتح بینکم و بین المؤمنین فقد جاءکم الفتح بما أظهر اللّه من الحق یوم بدر فکانت الدائره للمؤمنین علیکم،و إن تنتهوا عن المکیده علی اللّه و رسوله فهو خیر لکم و ان تعودوا الی مثل ما کدتم نعد الی مثل ما أوهنا به کیدکم، و لن تغنی عنکم جماعتکم شیئا و لو کثرت کما لم تغن فی هذه المره و إن اللّه مع المؤمنین و لن یغلب من هو معه.

و بهذا یتأید ما ورد ان ابا جهل قال یوم بدر حین اصطف الفریقان او حین التقی الفئتان:

اللهم ان محمدا اقطعنا للرحم و أتانا بما لا نعرف فانصر علیه،و فی بعض الروایات-و هو الأنسب-کما فی المجمع عن ابی حمزه:قال ابو جهل:اللهم ربنا دیننا القدیم و دین محمد الحدیث فأی الدینین کان احب الیک و أرضی عندک فانصر أهله الیوم.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لاٰ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ الضمیر علی ما یفیده السیاق راجع الی الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و المعنی:و لا تولوا عن الرسول و أنتم تسمعون ما یلقیه الیکم من الدعوه الحقه و ما یأمرکم به و ینهاکم عنه مما فیه صلاح دینکم و دنیاکم.و مصبّ الکلام اوامره الحربیه و إن کان لفظه أعمّ.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَکُونُوا کَالَّذِینَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ هُمْ لاٰ یَسْمَعُونَ المعنی ظاهر و فیه نوع تعریض للمشرکین اذ قالوا:سمعنا،و هم لا یسمعون،و قد حکی اللّه عنهم ذلک اذ قال بعد عده آیات: وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِمْ آیٰاتُنٰا قٰالُوا قَدْ سَمِعْنٰا لَوْ نَشٰاءُ لَقُلْنٰا مِثْلَ هٰذٰا

(الأنفال/٣١)،لكنهم كذبوا و لم يسمعوا و لو سمعوا لاستجابوا كما قال اللّه تعالى: وَ لَهُمْ آذٰانٌ لاٰ يَسْمَعُونَ بِهٰا (الأعراف/١٧٩)،و قال تعالى حكايه عن اصحاب السعير وَ قٰالُوا لَوْ كُنّٰا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مٰا كُنّٰا فِي أَصْحٰابِ السَّعِيرِ (الملک/١٠)فالمراد بالسمع فی الآیه الاولی تلقی الکلام الحق الذی هو صوت من طریق الاذن،و فی الآیه الثانیه الانقیاد لما یتضمنه الکلام الحق المسموع.

و الآیتان-کما تری-خطاب متعلق بالمؤمنین متصل نوع اتصال بالآیه السابقه علیهما و تعریض للمشرکین،فهو تعالی لما التفت الی المشرکین فذمّهم و تهکم علیهم بسؤالهم الفتح، و ذکر لهم ان الغلبه دائما لکلمه الایمان علی کلمه الکفر و لدعوه الحق علی دعوه الباطل،التفت الی حزبه و هم المؤمنون فأمرهم بالطاعه له و لرسوله،و حذرهم عن التولی عنه بعد استماع کلمه الحق،و أن یکونوا کأولئک اذ قالوا:سمعنا و هم لا یسمعون.

قوله تعالی: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّٰهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ الی آخر الآیتین؛تعریض و ذم للذین سبق ذکرهم من الکفار علی ما یعطیه سیاق الکلام و ما اشتملت علیه الآیه من الموصول و الضمائر المستعمله فی اولی العقل،و علی هذا فالظاهر ان الام فی قوله: «الصُّمُّ الْبُكْمُ» للعهد الذکری،و یؤول المعنی الی ان شر جمیع ما یدب علی الأرض من أجناس الحیوان و أنواعها هؤلاء الصم البکم الذین لا یعقلون،و إنما لم یعقلوا لأنه لا طریق لهم الی تلقی الحق لفقدهم السمع و النطق فلا یسمعون و لا ینطقون.

ثم ذکر تعالی ان اللّه إنما ابتلاهم بالصمم و البکمه فلا یسمعون کلمه الحق و لا ینطقون بکلمه الحق،و بالجمله حرمهم نعمه السمع و القبول،لأنه تعالی لم یجد عندهم خیرا و لم یعلم به و لو کان لعلم،لکن لم یعلم فلم یوفقهم للسمع و القبول،و لو انه تعالی رزقهم السمع و الحال هذه لم یثبت السمع و القبول فیهم بل تولوا عن الحق و هم معرضون.

و من هنا یعلم ان المراد بالخیر حسن السریره الذی یثبت به الاستعداد لقبول الحق

و يستقر فى القلب،و ان المراد بقوله: «وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ» الإسماع على تقدير عدم الاستعداد الثابت المستقر فافهم ذلك فلا يرد انه تعالى لو أسمعهم و رزقهم قبول الحق استلزم ذلك تحقق الخير فيهم و لا وجه مع ذلك لتوليهم و إعراضهم و ذلك ان الشرط فى قوله: «وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ» على تقدير فقدهم الخير على ما يفيده السياق.

قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ لما دعاهم فى قوله: «أَطِيعُوا اللّهَ وَ الرَّسُولَ» الخ؛الى إطاعه الدعوه الحقه و عدم التولى عنها بعد استماعها اكده ثانيا بالدعوه الى استجابه اللّه و الرسول فى دعوه الرسول،ببيان حقيقه الأمر و الركن الواقعى الذى تعتمد عليه هذه الدعوه،و هو ان هذه الدعوه دعوه الى ما يحيى الانسان بإخراجه من مهبط الفناء و البوار،و موقفه فى الوجود،ان اللّه سبحانه اقرب اليه من قلبه و انه سيحشر اليه فليأخذ حذره و ليجمع همّه و يعزم عزمه.

و بالجمله فللإنسان حياه حقيقيه اشرف و أكمل من حياته الدينيه الدنيويه يتلبس بها اذا تم استعداده بالتحلى بحليه الدين و الدخول فى زمره الأولياء الصالحين كما تلبس بالحياه الدنيويه حين تم استعداده للتلبس بها و هو جنين انسانى.

و على ذلك ينطبق قوله تعالى فى الآيه المبحوث عنها: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ» فالتلبس بما تندب اليه الدعوه الحقه من الاسلام يجر الى الانسان هذه الحياه الحقيقيه كما ان هذه الحياه منبع ينبع منه الاسلام و ينشأ منه العلم النافع و العمل الصالح،و فى معنى هذه الآيه قوله تعالى: مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (النحل۹۷/).

و الآيه اعنى قوله فيها: «إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ» مطلق لا يأبى الشمول لجميع دعوته صلّى اللّه عليه و آله و سلم المحييه للقلوب،او بعضها الذى فيه طبيعه الإحياء أو لنتائجها التى هى أنواع الحياه السعيده الحقيقيه كالحياه السعيده فى جوار اللّه سبحانه فى الآخره.

قوله تعالی: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ الحیلوله هی التخلل وسطا،و القلب العضو المعروف.و یستعمل کثیرا فی القرآن الکریم فی الأمر الـذی یدرک به الانسان و یظهر به أحکام عواطفه الباطنه کالحب و البغض و الخوف و الرجاء و التمنی و القلق و نحو ذلک فالقلب هو الذی یقضی و یحکم،و هو الذی یحب شیئا و یبغض آخر،و هو الذی یخاف و یرجو و یتمنی و یسر و یحزن،و هو فی الحقیقه النفس الانسانیه تفعل بما جهزت به من القوی و العواطف الباطنه.

فاللّه سبحانه هو الحائل المتوسط بین الإنسان و بین قلبه و کل ما یملکه الإنسان و یرتبط و یتصل هو به نوعا من الارتباط و الاتصال و هو اقرب الیه من کل شیء کما قال تعالی وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ (ق١۶/).

و الی هـذه الحقیقه یشیر قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ» فهو تعالی لکونه مالکا لکل شیء و من جملتها الإنسان ملکا حقیقیا لا مالک حقیقه سواه، أقرب الیه حتی من نفسه و قوی نفسه التی یملکها لأنه سبحانه هو الـذی یملّکه ایاها فهو حائل متوسط بینه و بینها یملّکه ایاها و یربطها به فافهم ذلک.

و لـذلک عقّب الجمله بقوله: «وَ أَنَّهُ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ» فإن الحشر و البعث هو الذی ینجلی عنده الملک الحق للّه وحده لا شریک له،و یبطل عند ذلک کل ملک صوری و سلطنه ظاهریه إلاّ ملکه الحق جل ثناؤه کما قال سبحانه: لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ لِلّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ (المؤمن/ ١۶)،و قال: یَوْمَ لا تَمْلِکُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَیْئاً وَ الْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلّهِ (الانفطار١٩/).

فکأن الآیه تقول:و اعلموا ان اللّه هو المالک بالحقیقه لکم و لقلوبکم و هو أقرب الیکم من کل شیء،و انه ستحشرون الیه فیظهر حقیقه ملکه لکم و سلطانه علیکم یومئذ فلا یغنی عنکم منه شیء.

قوله تعالی: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِیبَنَّ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْکُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ

اللّهَ شَدِيدُ الْعِقٰابِ قرأ علىّ و الباقر عليهما السّلام من أئمه اهل البيت و كذا زيد بن ثابت و الربيع بن انس و أبو العاليه على ما فى المجمع:لتصيبن باللام و نون التأكيد الثقيله،و القراءه المشهوره:

لا تصيبن بلا الناهيه و نون التأكيد الثقيله.

و على أى تقدير كان،تحذر الآيه جميع المؤمنين عن فتنه تختص بالظالمين منهم،و لا يتعداهم الى غيرهم من الكفار و المشركين،و اختصاصها بالظالمين من المؤمنين و أمر عامتهم مع ذلك باتقائها يدل على انها و إن كانت قائمه ببعض الجماعه لكن السيئ من أثرها يعمّ الجميع ثم قوله تعالى: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقٰابِ» تهديد للجميع بالعقاب الشديد و لا دليل يدل على اختصاص هذا العقاب بالحياه الدنيا و كونه من العذاب الدنيوى من قبيل الاختلافات القوميه و شيوع القتل و الفساد و ارتفاع الأمن و السلام و نحو ذلك.

و مقتضى ذلك ان تكون الفتنه المذكوره على اختصاصها ببعض القوم مما يوجب على عامه الامه ان يبادروا على دفعها،و يقطعوا دابرها و يطفئوا لهيب نارها بما اوجب اللّه عليهم من النهى عن المنكر و الأمر بالمعروف.

فيؤول معنى الكلام الى تحذير عامه المسلمين عن المساهله فى امر الاختلافات الداخليه التى تهدد وحدتهم و توجب شق عصاهم و اختلاف كلمتهم،و لا تلبث دون ان تحزّبهم أحزابا،و تبعّضهم أبعاضا،و يكون الملك لمن غلب منهم،و الغلبه لكلمه الفساد لا لكلمه الحق و الدين الحنيف الذى يشترك فيه عامه المسلمين.

فهذه فتنه تقوم بالبعض منهم خاصه و هم الظالمون غير ان سيئ أثره يعمّ الكل و يشمل الجميع فيستوعبهم الذله و المسكنه و كل ما يترقب من مر البلاء بنشوء الاختلاف فيما بينهم، و هم جميعا مسئولون عند اللّه و اللّه شديد العقاب.

و قد ابهم اللّه تعالى امر هذه الفتنه و لم يعرّفها بكمال اسمها و رسمها غير ان قوله فيما بعد: «لاٰ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» و قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقٰابِ» -كما تقدم-

یوضحها بعض الایضاح،و هو انها اختلاف البعض من الامه مع بعض منها فی امر یعلم جمیعهم وجه الحق فیه فیجمح البعض عن قبول الحق و یقدم الی المنکر بظلمه فلا یرد عونه عن ظلمه و لا ینهونه عن ما یأتیه من المنکر،و لیس کل ظلم،بل الظلم الذی یسری سوء أثره الی کافه المؤمنین و عامه الامه لمکان امره سبحانه الجمیع باتقائه،فالظلم الذی هو لبعض الامه و یجب علی الجمیع ان یتقوه،لیس الاّ ما هو من قبیل التغلب علی الحکومه الحقه الاسلامیه،و التظاهر بهدم القطعیات من الکتاب و السنه التی هی من حقوقها.

و أیّا ما کان ففی الفتن الواقعه فی صدر الاسلام ما ینطبق علیه الآیه اوضح انطباق و قد انهدمت بها الوحده الدینیه،و بدت الفرقه و نفدت القوه،و ذهبت الشوکه علی ما اشتملت علیه من القتل و السبی و النهب و هتک الاعراض و الحرمات و هجر الکتاب و إلغاء السنّه، و قال الرسول:یا رب ان قومی اتخذوا هذا القرآن مهجورا.

و من شمول مشأمتها و تعرّق فسادها ان الامه لا تستطیع الخروج من ألیم عذابها حتی بعد التنبه منهم لسوء فعالهم و تفریطهم فی جنب اللّه کلما أرادوا ان یخرجوا منها اعیدوا فیها و ذوقوا عذاب الحریق.

و قد تفطن بعض المفسرین بأن الآیه تحذر الامه و تهددهم بفتنه تشمل عامتهم و تفرّق جمعهم،و تشتت شملهم،و توعدهم بعذاب اللّه الشدید،و قد احسن التفطن غیر انه تکلف فی توجیه العذاب بالعذاب الدنیوی،و تمحل فی تقیید ما فی الآیه من إطلاق العقاب،و أنی لهم التناوش من مکان بعید.

و لنرجع الی لفظ الآیه:

أما علی قراءه اهل البیت علیهم السّلام و زید «و اتقوا فتنه لتصیبن الذین ظلموا منکم خاصه» فاللام فی«لتصیبن»للقسم و النون الثقیله لتأکیده،و التقدیر:و اتقوا فتنه اقسم لتصیبن الذین ظلموا منکم خاصه،و خاصه حال من الفتنه،و المعنی اتقوا فتنه تختص إصابته بالذین ظلموا

منکم أیها المخاطبون و هم الذین آمنوا،و علیک ان تتذکر ما سلف بیانه ان لفظ «الَّذِینَ آمَنُوا» فی القرآن خطاب تشریفی للمؤمنین فی اول البعثه و بدء انتشار الدعوه لو لا قرینه صارفه عن ذلک،ثم تذکر ان فتن صدر الاسلام تنتهی الی اصحاب بدر،و الآیه علی أی حال یأمر الجمیع ان یتقوا فتنه تثیرها بعضهم،و لیس إلاّ لأن أثرها السیئ یعم الجمیع کما تقدم.

و أما علی قراءه المشهور: «وَ اتَّقُوا فِتْنَهً لا تُصِیبَنَّ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْکُمْ خَاصَّهً» فقد ذکروا:

ان لا فی «لا تُصِیبَنَّ» ناهیه و النون لتأکید النهی،و لیس «لا تُصِیبَنَّ» جوابا للأمر فی«اتقوا» بل الکلام جار مجری الابتداء و الاستیناف کقوله تعالی: یا أَیُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسٰاکِنَکُمْ لا یَحْطِمَنَّکُمْ سُلَیْمٰانُ وَ جُنُودُهُ (النمل۱۸/)فقد قال اولا: «وَ اتَّقُوا فِتْنَهً» ثم استأنف و قال: «لا تُصِیبَنَّ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْکُمْ خَاصَّهً» لاتصال الجملتین معنی.

و ربما جوز بعض النحاه ان یکون «لا تُصِیبَنَّ» نهیا واردا فی جواب الأمر کما یقال:اتق زیدا لا یضربک أو لا یضربنک و التقدیر:اتق زیدا فإنک إن اتقیته لا یضربک و لم یشترط فی نون التأکید أن لا یدخل الخبر.

و الآیه-کما عرفت-تتضمن خطابا اجتماعیا متوجها الی مجموع الامه و ذلک یؤید کون الخطاب فی الآیه السابقه «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَجِیبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاکُمْ لِمٰا یُحْیِیکُمْ» خطابا اجتماعیا متوجها الی کافه المؤمنین،و یتفرع علیه ان المراد بالدعوه الی ما یحییهم الدعوه الی الاتفاق علی الاعتصام بحبل اللّه و إقامه الدین و عدم التفرق فیه کما قال وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِیعاً وَ لا تَفَرَّقُوا (آل عمران۱۰۳/)و قال: أَنْ أَقِیمُوا الدِّینَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِیهِ (الشوری۱۳/)و قوله: وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِی مُسْتَقِیماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِکُمْ عَنْ سَبِیلِهِ (الأنعام۱۵۳/).

و بهذا یتأید بعض الوجوه المذکوره سابقا فی قوله: «إِذٰا دَعٰاکُمْ لِمٰا یُحْیِیکُمْ» و کذا فی قوله:

«أَنَّ اللّٰهَ یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ» و تختص الآیه به بحسب السیاق و إن کانت تفید معنی اوسع من

ذلک باعتبار اخذها فی نفسها مفرده عن السیاق،و الباحث الناقد لا یعوز علیه تمییز ذلک و اللّه الهادی.

قوله تعالی: وَ اذْکُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِیلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِی الْأَرْضِ تَخٰافُونَ أَنْ یَتَخَطَّفَکُمُ النّٰاسُ الی آخر الآیه؛الاستضعاف عدّ الشیء ضعیفا بتوهین امره، و التخطف و الخطف و الاختطاف أخذ الشیء بسرعه انتزاع،و الإیواء جعل الانسان ذا مأوی و مسکن یرجع الیه و یأوی،و التأیید من الأید و هو القوّه.

و السیاق یدل علی ان المراد بقوله: «إِذْ أَنْتُمْ قَلِیلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِی الْأَرْضِ» الزمان الذی کان المسلمون محصورین بمکه قبل الهجره و هم قلیل مستضعفون،و بقوله: «تَخٰافُونَ أَنْ یَتَخَطَّفَکُمُ النّٰاسُ» مشرکوا العرب و صنادید قریش،و بقوله: «فَآوٰاکُمْ» أی بالمدینه، و بقوله: «وَ أَیَّدَکُمْ بِنَصْرِهِ» ما اسبغ علیهم من نعمه النصر ببدر،و بقوله: «وَ رَزَقَکُمْ مِنَ الطَّیِّبٰاتِ» ما رزقهم من الغنائم و أحلها لهم.

و ما عده فی الآیه من احوال المؤمنین و مننه علیهم بالإیواء و إن کانت مما یختص بالمهاجرین منهم دون الأنصار إلاّ ان المراد الامتنان علی جمیعهم من المهاجرین و الأنصار فإنهم امه واحده یوحدهم دین واحد.علی ان فیما ذکره اللّه فی الآیه من مننه التأیید بالنصر و الرزق من الطیبات و هما یعمان الجمیع،هذا بحسب ما تقتضیه الآیه من حیث وقوعها فی سیاق آیات بدر،و لکن هی وحدها و باعتبار نفسها تعم جمیع المسلمین من حیث انهم امه واحده یرجع لاحقهم الی سابقهم فقد بدأ ظهور الاسلام فیهم و هم قلیل مستضعفون بمکه یخافون ان یتخطفهم الناس فآواهم بالمدینه و کثّرهم بالأنصار و أیدهم بنصره فی بدر و غیره و رزقهم من جمیع الطیبات الغنائم و غیرها من سائر النعم لعلهم یشکرون.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَخُونُوا اللّٰهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمٰانٰاتِکُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ الی آخر الآیتین؛الخیانه نقض الأمانه التی هی حفظ الامن

لحق من الحقوق بعهد أو وصيه و نحو ذلک،قال الراغب:الخيانه و النفاق واحد إلّا ان الخيانه تقال اعتبارا بالعهد و الأمانه،و النفاق يقال اعتبارا بالدين ثم يتداخلان فالخيانه مخالفه الحق بنقض العهد فى السر،و نقيض الخيانه الأمانه يقال:خنت فلانا،و خنت امانه فلان و على ذلک قوله:لا تخونوا اللّه و الرسول و تخونوا أماناتکم.انتهى.

و قوله: «وَ تَخُونُوا أَمٰانٰاتِكُمْ» من الجائز ان يكون مجزوما معطوفا على تخونوا السابق، و المعنى:و لا تخونوا اماناتکم،و أن يكون منصوبا بحذف أن و التقدير:و أن تخونوا اماناتکم و يؤيد الوجه الثانى قوله بعده: «وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» .

و ذلک ان الخيانه و إن كانت إنما يتعلق النهى التحريمى بها عند العلم فلا نهى مع جهل بالموضوع و لا تحريم غير ان العلم من الشرائط العامه التى لا ينجز تكليف من التكاليف المولويه إلّا به فلا نكته ظاهره فى تقييد النهى عن الخيانه بالعلم مع ان العلم لكونه شرطا عاما مستغنى عن ذكره،و ظاهر قوله: «وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» بحذف متعلقات الفعل ان المراد:و لكم علم بأنه خيانه لا ما قيل:إن المعنى:و أنتم تعلمون مفاسد الخيانه و سوء عاقبتها و تحريم اللّه اياها فان ذلک لا دليل عليه من جهه اللفظ و لا من جهه السياق.

فالوجه ان تكون الجمله بتقدير:و أن تخونوا أماناتكم،و يكون مجموع قوله: «لاٰ تَخُونُوا اللّٰهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمٰانٰاتِكُمْ» نهيا واحدا متعلقا بنوع خيانه هى خيانه أمانه اللّه و رسوله و هى بعينها خيانه لأمانه المؤمنين انفسهم فان من الأمانه ما هى امانه اللّه سبحانه عند الناس كأحكامه المشرّعه من عنده و منها ما هى أمانه الرسول كسيرته الحسنه،و منها ما هى امانه الناس بعضهم عند بعض كالأمانات من اموالهم او اسرارهم،و منها ما يشترک فيه اللّه و رسوله و المؤمنون،و هى الامور التى امر بها اللّه سبحانه و أجراها الرسول و ينتفع بها الناس و يقوم بها صلب مجتمعهم كالأسرار السياسيه و المقاصد الحربيه التى تضيع بإفشائها آمال الدين و تضل بإذاعتها مساعى الحكومه الاسلاميه فيبطل به حق اللّه و رسوله و يعود ضرره الى

عامه المؤمنين.

لهذا النوع من الأمانه خيانته خيانه للّه و رسوله و للمؤمنين فالخائن بهذه الخيانه من المؤمنين يخون اللّه و الرسول و هو يعلم ان هذه الامانه التى يخونها امانه لنفسه و لسائر اخوانه المؤمنين و هو يخون امانه نفسه،و لن يقدم عاقل على الخيانه لأمانه نفسه فان الانسان بعقله الموهوب له يدرك قبح الخيانه للأمانه فكيف يخون امانه نفسه؟

فالمراد بقوله: «وَ تَخُونُوا أَمٰانٰاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» -و اللّه اعلم-و تخونوا فى ضمن خيانه اللّه و الرسول اماناتكم و الحال انكم تعلمون انها امانات انفسكم و تخونونها،و أى عاقل يقدم على خيانه امانه نفسه و الاضرار بما لا يعود إلاّ الى شخصه فتذييل النهى بقوله:

«وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» لتهييج العصبيه الحقه و إثاره قضاء الفطره لا لبيان شرط من شرائط التكليف.

فكأن بعض افراد المسلمين كان يفشى امورا من عزائم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم المكتومه من المشركين او يخبرهم ببعض اسراره فسمّاه اللّه تعالى خيانه و نهى عنه،و عدّها خيانه للّه و الرسول و المؤمنين.

و يؤيد ذلك قوله بعد هذا النهى: «وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ أَوْلاٰدُكُمْ فِتْنَةٌ» الخ؛فان ظاهر السياق انه متصل بما قبله غير مستقل عنه،و يفيد حينئذ ان موعظتهم فى امر الاموال و الأولاد مع النهى عن خيانه اللّه و الرسول و أماناتهم انما هو لإخبار المخبر منهم المشركين بأسرار رسول اللّه المكتومه،استماله منهم مخافه ان يتعدوا على اموالهم و أولادهم الذين تركوهم بمكه بالهجره الى المدينه،فصاروا يخبرونهم بالأخبار إلقاء للموده و استبقاء للمال و الولد او ما يشابه ذلك نظير ما كان من أبى لبابه مع بنى قريظه.

و هذا يؤيد ما ورد فى سبب النزول ان ابا سفيان خرج من مكه بمال كثير فأخبر جبرئيل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بخروجه و أشار عليه بالخروج اليه و كتمان أمره فكتب اليه بعضهم بالخبر فأنزل اللّه

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَخُونُوا اللّٰهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمٰانٰاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» و فى نزول الآيه بعض أحاديث أخر سيأتى ان شاء اللّه فى البحث الروائى التالى.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللّٰهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقٰاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ الفرقان ما يفرق به بين الشىء و الشىء،و هو فى الآيه بقرينه السياق و تفريعه على التقوى الفرقان بين الحق و الباطل سواء كان ذلك فى الاعتقاد بالتفرقه بين الايمان و الكفر و كل هدى و ضلال او فى العمل بالتمييز بين الطاعه و المعصيه و كل ما يرضى اللّه او يسخطه،او فى الرأى و النظر بالفصل بين الصواب و الخطأ فان ذلك كله مما تثمره شجره التقوى،و قد اطلق الفرقان فى الآيه و لم يقيده و قد عدّ جمل الخير و الشر فى الآيات السابقه و الجميع يحتاج الى الفرقان (1).

[سوره الأنفال (8): الآيات 30 الى 40]

اشاره

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اَللّٰهُ وَ اَللّٰهُ خَيْرُ اَلْمٰاكِرِينَ (٣٠) وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا قٰالُوا قَدْ سَمِعْنٰا لَوْ نَشٰاءُ لَقُلْنٰا مِثْلَ هٰذٰا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِيرُ اَلْأَوَّلِينَ (٣١) وَ إِذْ قٰالُوا اَللّٰهُمَّ إِنْ كٰانَ هٰذٰا هُوَ اَلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنٰا حِجٰارَةً مِنَ اَلسَّمٰاءِ أَوِ اِئْتِنٰا بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَ مٰا لَهُمْ أَلاّٰ يُعَذِّبَهُمُ اَللّٰهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ وَ مٰا كٰانُوا أَوْلِيٰاءَهُ إِنْ أَوْلِيٰاؤُهُ إِلاَّ اَلْمُتَّقُونَ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (٣۴) وَ مٰا كٰانَ صَلاٰتُهُمْ عِنْدَ اَلْبَيْتِ إِلاّٰ مُكٰاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا اَلْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣۵) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ فَسَيُنْفِقُونَهٰا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣۶) لِيَمِيزَ اَللّٰهُ اَلْخَبِيثَ مِنَ اَلطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ اَلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْخٰاسِرُونَ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مٰا قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ اَلْأَوَّلِينَ (٣٨) وَ قٰاتِلُوهُمْ حَتّٰى لاٰ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ اَلدِّينُ كُلُّهُ لِلّٰهِ فَإِنِ اِنْتَهَوْا فَإِنَّ اَللّٰهَ بِمٰا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ مَوْلاٰكُمْ نِعْمَ اَلْمَوْلىٰ وَ نِعْمَ اَلنَّصِيرُ (۴٠)

ص: ۶۶۸

١- (1) .الانفال ١۵-٢٩:بحث روائى فى:الجهاد فى سبيل اللّه؛معنى الآيه «اسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ» ؛ و الآيه «أَنَّ اللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ» ؛أصحاب الجمل.

بيان:

قوله تعالى: وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

ص :۶۶۹

الی آخر الآیه؛قال الراغب:المکر صرف الغیر عما یقصده بحیله،و ذلک ضربان:ضرب محمود و ذلک ان یتحری به فعل جمیل و علی ذلک قال:و اللّه خیر الماکرین،و مذموم و هو ان یتحری به فعل قبیح قال:و لا یحیق المکر السیئ الاّ بأهله.و اذ یمکر بک الذین کفروا.فانظر کیف کان عاقبه مکرهم،و قال فی الأمرین:و مکروا مکرا و مکرنا مکرا،و قال بعضهم:من مکر اللّه امهال العبد و تمکینه من اعراض الدنیا،و لذلک قال امیر المؤمنین رضی اللّه عنه:من وسع علیه دنیاه و لم یعلم انه مکر به فهو مخدوع عن عقله.انتهی.

و فی المجمع:الإثبات الحبس یقال:رماه فأثبته أی حبسه مکانه،و أثبته فی الحرب أی جرحه جراحه مثقله.انتهی.

و مقتضی سیاق الآیات ان یکون قوله: «وَ إِذْ یَمْکُرُ بِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا» الآیه؛معطوفه علی قوله سابقا: «وَ إِذْ یَعِدُکُمُ اللّٰهُ إِحْدَی الطّٰائِفَتَیْنِ أَنَّهٰا لَکُمْ» فالآیه مسوقه لبیان ما اسبغ اللّه علیهم من نعمته،و أیدهم به من ایادیه التی لم یکن لهم فیها صنع.

و معنی الآیه:و اذکر او و لیذکروا اذ یمکر بک الذین کفروا من قریش لإبطال دعوتک ان یوقعوا بک احد أمور ثلاثه:إما ان یحبسوک و اما ان یقتلوک و اما ان یخرجوک و یمکرون و یمکر اللّه و اللّه خیر الماکرین.

و التردید فی الآیه بین الحبس و القتل و الإخراج بیانا لما کانوا یمکرونه من مکر یدل انه کان منهم شوری یشاور فیها بعضهم بعضا فی امر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و ما کان یهمهم و یهتمون به من اطفاء نور دعوته،و بذلک یتأید ما ورد من اسباب النزول ان الآیه تشیر الی قصه دار الندوه علی ما سیجیء فی البحث الروائی التالی ان شاء اللّه تعالی.

قوله تعالی: وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِمْ آیٰاتُنٰا قٰالُوا قَدْ سَمِعْنٰا لَوْ نَشٰاءُ لَقُلْنٰا مِثْلَ هٰذٰا الی آخر الآیه الأساطیر الأحادیث جمع اسطوره و یغلب فی الأخبار الخرافیه،و قوله حکایه عنهم: «قَدْ سَمِعْنٰا» و قوله: «لَوْ نَشٰاءُ لَقُلْنٰا» و قوله: «مِثْلَ هٰذٰا» و لم یقل:مثل هذه او

مثلها كل ذلك للدلاله على اهانتهم بآيات اللّه و إزرائهم بمقام الرساله،و نظيرها قولهم: «إِنْ هٰذٰا إِلاّ أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» .

و المعنى:و اذا تتلى عليهم آياتنا التى لا ريب فى دلالتها على انها من عندنا و هى تكشف عن ما نريده منهم من الدين الحق لجّوا و اعتدوا بها و هونوا امرها و أزروا برسالتنا و قالوا قد سمعنا و عقلنا هذا الذى تلى علينا لا حقيقه له الاّ انه من أساطير الأولين،و لو نشاء لقلنا مثله غير انّا لا نعتنى به و لا نهتم بأمثال هذه الأحاديث الخرافيه.

قوله تعالى: وَ إِذْ قٰالُوا اللّٰهُمَّ إِنْ كٰانَ هٰذٰا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ الى آخر الآيتين.الإمطار هو انزال الشىء من فوق،و غلب فى قطرات الماء من المطر او هو استعاره امطار المطر لغيره كالحجاره و كيف كان فقولهم:امطر علينا حجاره من السماء بالتصريح باسم السماء للدلاله على كونه بنحو الآيه السماويه و الإهلاك الإلهى محضا.

فإمطار الحجاره من السماء عليهم على ما سألوا احد اقسام العذاب و يبقى الباقى تحت قولهم: «أَوِ ائْتِنٰا بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ» و لذلك نكّر العذاب و أبهم وصفه ليدل على باقى اقسام العذاب، و يفيد مجموع الكلام:ان امطر علينا حجاره من السماء او ائتنا بعذاب آخر غيره يكون أليما، و انما افرد امطار الحجاره من بين افراد العذاب الأليم بالذكر لكون الرضخ بالحجاره مما يجتمع فيه عذاب الجسم بما فيه من تألم البدن و عذاب الروح بما فيه من الذله و الإهانه.

ثم قوله: «إِنْ كٰانَ هٰذٰا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ» يدل بلفظه على ان الذى سمعوه من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بلسان القال او الحال بدعوته هو قوله:«هذا هو الحق من عند اللّه»و فيه شىء من معنى الحصر،و هذا غير ما كان يقوله لهم:هذا حق من عند اللّه فان القول الثانى يواجه به الذى لا يرى دينا سماويا و نبوه إلهيه كما كان يقوله المشركون و هم الوثنيه:ما انزل اللّه على بشر من شىء،و اما القول الأول فإنما يواجه به من يرى ان هناك دينا حقا من عند اللّه و رساله إلهيه يبلغ الحق من عنده ثم ينكر كون ما أتى به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أو بعض ما أتى به هو الحق من عند اللّه

تعالی فیواجه بأنه هو الحق من عنـد اللّه لا غیره،ثم یرد بالاشتراط فی مثل قوله:اللهم ان کان هذا هو الحق من عندک فامطر علینا حجاره من السماء او ائتنا بعذاب ألیم.

فالأشبه ان لا یکون هذا حکایه عن بعض المشـرکین بنسـبته الی جمیعهم لاتفاقهم فی الرأی او رضا جمیعهم بما قاله هذا القائل بل کأنه حکایه عن بعض أهل الرده ممن اسلم ثم ارتد او عن بعض اهل الکتاب المعتقدین بدین سماوی حق فافهم ذلک.

قوله تعالی: وَ مٰا لَهُمْ أَلاّٰ یُعَذِّبَهُمُ اللّٰهُ وَ هُمْ یَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ وَ مٰا کٰانُوا أَوْلِیٰاءَهُ الی آخر الآیه استفهام فی معنی الإنکار او التعجب،و قوله: «وَ مٰا لَهُمْ» بتقـدیر فعل یتعلق به الظرف و یکون قوله:«ان لا یعـذبهم»مفعول له او هو من التضـمین نظیر ما قیل فی قوله: هَلْ لَکَ إِلیٰ أَنْ تَزَکّٰی (النازعات۱۸/).

و التقـدیر علی أی حـال نحو من قولنا:«و ما الـذی یثبت و یحق لهم عـدم تعـذیب اللّه ایاهم و الحال انهم یصـدون عن المسـجد الحرام و یمنعون المؤمنین من دخوله و ما کانوا اولیاءه».

فقوله: «وَ هُمْ یَصُدُّونَ» الخ؛حال عن ضمیر «یُعَذِّبَهُمُ» و قوله: «وَ مٰا کٰانُوا أَوْلِیٰاءَهُ» حال عن ضمیر «یَصُدُّونَ» .

و قوله: إِنْ أَوْلِیٰاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ تعلیل لقوله: «وَ مٰا کٰانُوا أَوْلِیٰاءَهُ» أی لیس لهم ان یلوا امر البیت فیجیزوا و یمنعوا من شاءوا لأن هذا المسجد مبنی علی تقوی اللّه فلا یلی امره إلاّ المتقون و لیسوا بهم.

فقوله: «إِنْ أَوْلِیٰاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ» جمله خبریه تعلل القول بأمر بین یـدرکه کل ذی لب، و لیست الجمله إنشائیه مشـتمله علی جعل الولایه للمتقین،و یشهد لما ذکرناه قوله بعد «وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ» کما لا یخفی.

و المراد بالعذاب العذاب بالقتل أو الأعمّ منه علی ما یفیده السـیاق باتصال الآیه بالآیه التالیه،و قد تقدم ان الآیه غیر متصـله ظاهرا بما تقدمها أی ان الآیتین «وَ إِذْ قٰالُوا اللّٰهُمَّ» الخ؛

ص:۶۷۲

«وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ» الخ؛خارجتان عن سياق الآيات،و لازم ذلک ما ذکرناه.

قوله تعالى: وَ مٰا کٰانَ صَلاٰتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاّٰ مُکٰاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذٰابَ بِمٰا کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ المکاء بضم الميم الصفير،و المکّاء بصيغه المبالغه طائر بالحجاز شديد الصفير،و منه المثل السائر:بنيک حمّرى و مککينى.و التصديه التصفيق بضرب اليد على اليد.

و قوله: «وَ مٰا کٰانَ صَلاٰتُهُمْ» الضمير لهؤلاء الصادّين المذکورين فى الآيه السابقه و هم المشرکون من قريش،و قوله: «فَذُوقُوا الْعَذٰابَ بِمٰا کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ» بيان إنجاز العذاب الموعد لهم بقرينه التفريع بالفاء.

و من هنا يتأيد ان الآيتين متصلتان کلاما واحدا،و قوله: «وَ مٰا کٰانَ» الخ؛جمله حاليه و المعنى:و ما لهم ان لا يعذبهم اللّه و الحال انهم يصدّون العبّاد من المؤمنين عن المسجد الحرام و ما کان صلاتهم عند البيت إلاّ ملعبه من المکاء و التصديه فإذا کان کذلک فليذوقوا العذاب بما کانوا يکفرون،و الالتفات فى قوله: «فَذُوقُوا الْعَذٰابَ» عن الغيبه الى الخطاب لبلوغ التشديد.

و يستفاد من الآيتين ان الکعبه المشرّفه لو ترکت بالصدّ استعقب ذلک المؤاخذه الإلهيه بالعذاب قال على عليه السّلام فى بعض وصاياه«اللّه اللّه فى بيت ربکم فانه إن ترک لم تنظروا» (1).

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ کَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ الى آخر الآيه يبين حال الکفار فى ضلال سعيهم الذى يسعونه لإبطال دعوه اللّه و المنع عن سلوک السالکين لسبيل اللّه،و يشرح ذلک قوله: «فَسَيُنْفِقُونَهٰا ثُمَّ تَکُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ» الخ.

۱- ۱) .نهج البلاغه فى باب الوصايا.

و بهذا السياق يظهر ان قوله: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ» بمنزله التعليل،و محصل المعنى ان الكفر سيبعثهم-بحسب سنّه اللّه فى الأسباب-الى ان يسعوا فى إبطال الدعوه و الصدّ عن سبيل الحق غير ان الظلم و الفسق و كل فساد لا يهدى الى الفلاح و النجاح فسينفقون اموالهم فى سبيل هذه الاغراض الفاسده فتضيع الاموال فى هذا الطريق فيكون ضيعتها موجبه لتحسّرهم،ثم يغلبون فلا ينتفعون بها،و ذلك ان الكفار يحشرون الى جهنم و يكون ما يأتون به فى الدنيا من التجمع على الشر و الخروج الى محاربه اللّه و رسوله بحذاء خروجهم محشورين الى جهنم يوم القيامه.

و قوله: «فَسَيُنْفِقُونَهٰا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ» الى آخر الآيه؛من ملاحم القرآن و الآيه من سوره الأنفال النازله بعد غزوه بدر فكأنها تشير الى ما سيقع من غزوه أحد او هى و غيرها،و على هذا فقوله: «فَسَيُنْفِقُونَهٰا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً» اشاره الى غزوه أحد او هى و غيرها،و قوله: «ثُمَّ يُغْلَبُونَ» الى فتح مكه،و قوله: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ» الى حال من لا يوفق للإسلام منهم.

قوله تعالى: لِيَمِيزَ اللّٰهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ هُمُ الْخٰاسِرُونَ الخباثه و الطيب معنيان متقابلان و قد مرّ شرحهما و التمييز إخراج الشىء عما يخالفه و إلحاقه بما يوافقه بحيث ينفصل عما يخالفه،و الركم جمع الشىء فوق الشىء و منه سحاب مركوم أى مجتمع الأجزاء بعضها الى بعض و مجموعها و تراكم الاشياء تراكب بعضها بعضا.

و الآيه فى موضع التعليل لما أخبر به فى الآيه السابقه من حال الكفار بحسب السنّه الكونيه،و هو انهم يسعون بتمام وجدهم و مقدرتهم الى ان يطفئوا نور اللّه و يصدوا عن سبيل اللّه فينفقون فى ذلك الاموال و يبذلون فى طريقه المساعى غير انهم لا يهتدون الى مقاصدهم و لا يبلغون آمالهم بل تضيع اموالهم،و تحبط اعمالهم و تضل مساعيهم،و يرثون بذلك

الحسره و الهزیمه.

قوله تعالی: قُلْ لِلَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ یَنْتَهُوا یُغْفَرْ لَهُمْ مٰا قَدْ سَلَفَ الی آخر الآیه؛الانتهاء الإقلاع عن الشیء لأجل النهی،و السلوف التقدم،و السنّه هی الطریقه و السیره.

امر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم ان یبلغهم ذلک و فی معناه تطمیع و تخویف و حقیقته دعوه الی ترک القتال و الفتنه لیغفر اللّه لهم بذلک ما تقدم من قتلهم و إیذائهم للمؤمنین فان لم ینتهوا عما نهوا عنه فقد مضت سنّه اللّه فی الأولین منهم بالإهلاک و الإباده و خسران السعی.

قوله تعالی: وَ قٰاتِلُوهُمْ حَتّٰی لاٰ تَکُونَ فِتْنَهٌ وَ یَکُونَ الدِّینُ کُلُّهُ لِلّٰهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللّٰهَ بِمٰا یَعْمَلُونَ بَصِیرٌ الآیه؛و ما بعدها یشتملان علی تکلیف المؤمنین بحذاء ما کلف به الکفار فی الآیه السابقه،و المعنی:قل لهم إن ینتهوا عن المحاده للّه و رسوله یغفر لهم ما قد سلف و ان یعودوا الی مثل ما عملوا فقد علموا بما جری علی سابقتهم قل لهم کذا و أما انت و المؤمنون فلا تهنوا فیما یهمکم من إقامه الدین و تصفیه جو صالح للمؤمنین،و قاتلوهم حتی تنتهی هذه الفتن التی تفاجئکم کل یوم،و لا تکون فتنه بعد فإن انتهوا فإن اللّه یجازیهم بما یری من اعمالهم،و إن تولوا عن الانتهاء فأدیموا القتال و اللّه مولاکم فاعلموا ذلک و لا تهنوا و لا تخافوا.

و الفتنه ما یمتحن به النفوس و تکون لا محاله مما یشق علیها،و غلب استعمالها فی المقاتل و ارتفاع الأمن و انتقاض الصلح،و کان کفار قریش یقبضون علی المؤمنین بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم قبل الهجره و بعدها الی مده فی مکه و یعذبونهم و یجبرونهم علی ترک الاسلام و الرجوع الی الکفر، و کانت تسمی فتنه.

و قد ظهر بما یفیده السیاق من المعنی السابق ان قوله: «وَ قٰاتِلُوهُمْ حَتّٰی لاٰ تَکُونَ فِتْنَهٌ» کنایه عن تضعیفهم بالقتال حتی لا یغتروا بکفرهم و لا یلقوا فتنه یفتتن بها المؤمنون،و یکون الدین کله للّه لا یدعو الی خلافه احد،و ان قوله: «فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللّٰهَ بِمٰا یَعْمَلُونَ بَصِیرٌ» المراد

به الانتهاء عن القتال و لـذلک اردفه بمثل قوله: «فَإِنَّ اَللّٰهَ بِمٰا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أی عندئـذ يحكم اللّه فيهم بما يناسب اعمالهم و هو بصـير بهـا،و ان قوله:«و إن تولوا»الـخ؛أی ان تولوا عن الانتهـاء، و لم يكفوا عن القتال و لم يتركوا الفتنه فاعلموا ان اللّه مولاكم و ناصركم و قاتلوهم مطمئنين بنصر اللّه نعم المولی و نعم النصير.

و قـد ظهر ان قوله: «وَ يَكُونَ اَلدِّينُ كُلُّهُ لِلّٰهِ» لاـ ينافی إقرار اهل الكتاب علی دينهم ان دخلوا فی الـذمه و اعطوا الجزيه فلا نسبه للآيه مع قوله تعالی: حَتّٰی يُعْطُوا اَلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صٰاغِرُونَ (التوبه۲۹/)بالناسخيه و المنسوخيه (۱).

[سوره الأنفال (۸): الآيات ۴۱ الی ۵۴]

اشاره

وَ اِعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي اَلْقُرْبیٰ وَ اَلْيَتٰامیٰ وَ اَلْمَسٰاكِينِ وَ اِبْنِ اَلسَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلیٰ عَبْدِنٰا يَوْمَ اَلْفُرْقٰانِ يَوْمَ اِلْتَقَی اَلْجَمْعٰانِ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۱) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ اَلدُّنْيٰا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ اَلْقُصْویٰ وَ اَلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَوٰاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي اَلْمِيعٰادِ وَ لٰكِنْ لِيَقْضِيَ اَللّٰهُ أَمْراً كٰانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيیٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ اَللّٰهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (۴۲) إِذْ يُرِيكَهُمُ اَللّٰهُ فِي مَنٰامِكَ قَلِيلاً وَ لَوْ أَرٰاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنٰازَعْتُمْ فِي اَلْأَمْرِ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۴۳) وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اِلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اَللّٰهُ أَمْراً كٰانَ مَفْعُولاً وَ إِلَی اَللّٰهِ تُرْجَعُ اَلْأُمُورُ (۴۴) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اُذْكُرُوا اَللّٰهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۴۵) وَ أَطِيعُوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لاٰ تَنٰازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اِصْبِرُوا إِنَّ اَللّٰهَ مَعَ اَلصّٰابِرِينَ (۴۶) وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيٰارِهِمْ بَطَراً وَ رِئٰاءَ اَلنّٰاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ بِمٰا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۴۷) وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ اَلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ وَ قٰالَ لاٰ غٰالِبَ لَكُمُ اَلْيَوْمَ مِنَ اَلنّٰاسِ وَ إِنِّي جٰارٌ لَكُمْ فَلَمّٰا تَرٰاءَتِ اَلْفِئَتٰانِ نَكَصَ عَلیٰ عَقِبَيْهِ وَ قٰالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَریٰ مٰا لاٰ تَرَوْنَ إِنِّي أَخٰافُ اَللّٰهَ وَ اَللّٰهُ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ (۴۸) إِذْ يَقُولُ اَلْمُنٰافِقُونَ وَ اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاٰءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَی اَللّٰهِ فَإِنَّ اَللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۴۹) وَ لَوْ تَریٰ إِذْ يَتَوَفَّی اَلَّذِينَ كَفَرُوا اَلْمَلاٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذٰابَ اَلْحَرِيقِ (۵۰) ذٰلِكَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اَللّٰهَ لَيْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ (۵۱) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيٰاتِ اَللّٰهِ فَأَخَذَهُمُ اَللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اَللّٰهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ (۵۲) ذٰلِكَ بِأَنَّ اَللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهٰا عَلیٰ قَوْمٍ حَتّٰی يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اَللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۵۳) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنٰاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كٰانُوا ظٰالِمِينَ (۵۴)

۱- ۱) .الانفال ۳۰-۴۰:بحث روائی فی قصه هجره رسول اللّه،مكر قريش علی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم.

بیان:

قوله تعالی: وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ الی آخر الآیه؛الغنم و الغنیمه إصابه الفائده من جهه تجاره او عمل او حرب و ینطبق بحسب مورد نزول الآیه علی غنیمه الحرب،قال الراغب:الغنم-بفتحتین-معروف قال:و من البقر و الغنم ما حرمنا علیهم شحومهما،و الغنم-بالضم فالسکون-إصابته و الظفر به ثم استعمل فی کل مظفور به من جهه العدی و غیرهم قال:و اعلموا أنما غنمتم من شیء،فکلوا مما غنمتم حلالا طیبا.و المغنم ما یغنم و جمعه مغانم قال:فعند اللّٰه مغانم کثیره،انتهی.

و ذو القربی القریب و المراد به قرابه النبی صلّی اللّٰه علیه و آله و سلم او خصوص اشخاص منهم علی ما یفسره الآثار القطعیه،و الیتیم هو الانسان الذی مات ابوه و هو صغیر،قالوا:کل حیوان یتیم من قبل أمه إلاّ الانسان فان یتمه من قبل ابیه.

و قوله: «فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ» الخ؛قرئ بفتح أن،و یمکن ان یکون بتقدیر حرف الجرّ و التقدیر:

و اعلموا ان ما غنمتم من شیء فعلی أن للّه خمسه ای هو واقع علی هذا الاساس محکوم به، و یمکن ان یکون بالعطف علی أن الاولی،و حذف خبر الاولی لدلاله الکلام علیه،و التقدیر:

اعلموا أن ما غنمتم من شیء یجب قسمته فاعلموا ان خمسه للّه،او یکون الفاء لاستشمام معنی

الشرط فان مآل المعنى الى نحو قولنا:إن غنمتم شيئا فخمسه للّه،الخ؛فالفاء من قبيل فاء الجزاء،و كرر أن للتأكيد،و الأصل اعلموا أن ما غنمتم من شيء أن خمسه للّه،الخ؛و الأصل الذى تعلق به العلم هو:ما غنمتم من شيء خمسه للّه و للرسول،الخ؛و قد قدم لفظ الجلاله للتعظيم.

و قوله: إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ الخ؛قيد للأمر الذى يدل عليه صدر الآيه أى أدوا خمسه إن كنتم آمنتم باللّه و ما انزلنا على عبدنا،و ربما قيل:انه متصل بقوله تعالى فى الآيه السابقه:«فاعلموا ان اللّه موليكم»هذا و السياق الذى يتم بحيلوله قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ» الخ؛لا يلائم ذلك.

و قوله تعالى: وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلىٰ عَبْدِنٰا يَوْمَ الْفُرْقٰانِ الظاهر ان المراد به القرآن بقرينه تخصيص النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالإنزال،و لو كان المراد به الملائكه المنزلون يوم بدر-كما قيل- لكان الأنسب اولا:ان يقال:و من أنزلنا على عبدنا،او ما يؤدى هذا المعنى و ثانيا:ان يقال:

عليكم لا على عبدنا فان الملائكه كما أنزلت لنصره النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنزلت لنصره المؤمنين معه كما يدل عليه قوله: فَاسْتَجٰابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاٰئِكَهِ مُرْدِفِينَ (الأنفال/۹).

و قوله بعد ذلك: إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاٰئِكَهِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا الخ؛(الأنفال/ ۱۲).و نظيرهما قوله: إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاٰثَهِ آلاٰفٍ مِنَ الْمَلاٰئِكَهِ مُنْزَلِينَ بَلىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هٰذٰا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَهِ آلاٰفٍ مِنَ الْمَلاٰئِكَهِ مُسَوِّمِينَ (آل عمران/۱۲۵).

و فى الالتفات من الغيبه الى التكلم فى قوله: «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلىٰ عَبْدِنٰا» من بسط اللطف على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و اصطفائه بالقرب ما لا يخفى.

و يظهر بالتأمل فيما قدمناه من البحث فى قوله تعالى فى اول السوره: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفٰالِ قُلِ الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ» الآيه؛أن المراد بقوله: «وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلىٰ عَبْدِنٰا يَوْمَ الْفُرْقٰانِ» هو قوله

تبارک و تعالی: «فَكُلُوا مِمّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً» بما يحتف به من الآيات.

و المراد بقوله: «يَوْمَ الْفُرْقانِ» يوم بـدر كما يشـهد به قوله بعـده: «يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ» فان يوم بدر هو اليوم الذى فرق اللّه فيه بين الحق و الباطل فأحق الحق بنصرته،و أبطل الباطل بخذلانه.

و قوله تعالى: وَ اللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ بمنزله التعليل لقوله: «يَوْمَ الْفُرْقانِ» بما يدل عليه من تمييزه تعالى بين الحق و الباطل كأنه قيل:و اللّه على كل شىء قدير فهو قادر ان يفرق بين الحق و الباطل بما فرق.

فمعنى الآـيه-و اللّه أعلم-و اعلموا ان خمس ما غنمتم اى شـىء كان هو للّه و لرسوله و لـذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيـل فردوه الى أهله ان كنتم آمنتم بـاللّه و ما أنزله على عبـده محمّـد صلّى اللّه عليه و آله و سلم يوم بـدر،و هو ان الأنفال و غنائم الحرب للّه و لرسوله لا يشارك اللّه و رسوله فيها احـد،و قد أجاز اللّه لكم أن تأكلوا منها و أباح لكم التصرف فيها فالذى أباح لكم التصرف فيها يأمركم ان تؤدوا خمسها الى أهله.

و ظاهر الآيه أنها مشتمله على تشريع مؤبـد كما هو ظاهر التشريعات القرآنيه،و أن الحكم متعلق بما يسـمى غنما و غنيمه سواء كان غنيمه حربيه مأخوذه من الكفار أو غيرها مما يطلق عليه الغنيمه لغه كأرباح المكاسب و الغوص و الملاحه و المستخرج من الكنوز و المعادن،و إن كان مورد نزول الآيه هو غنيمه الحرب فليس للمورد أن يخصص.

و كـذا ظـاهر مـا عـد من موارد الصـرف بقوله: «لِلّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» انحصار الموارد فى هؤلاـء الأصـناف،و أن لكـل منهم سـهما بمعنى اسـتقلاله فى اخـذ السـهم كما يسـتفاد مثله من آيه الزكاه من غير ان يكون ذكر الأصناف من قبيل التمثيل.

فهذا كله مما لا ريب فيه بالنظر الى المتبادر من ظاهر معنى الآيه،و عليه وردت الأخبار

من طرق الشیعه عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام و قد اختلفت کلمات المفسرین من أهل السنه فی تفسیر الآیه و سنتعرض لها فی البحث الروائی التالی إن شاء اللّه تعالی.

قوله تعالی: إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَهِ الدُّنْیا وَ هُمْ بِالْعُدْوَهِ الْقُصْوی وَ الرَّکْبُ أَسْفَلَ مِنْکُمْ وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِی الْمِیعادِ وَ لکِنْ لِیَقْضِیَ اللّهُ أَمْراً کانَ مَفْعُولاً العدوه بالضم و قد یکسر شفیر الوادی،و الدنیا مؤنث أدنی کما ان القصوی و قد یقال:القصیا مؤنث اقصی و الرکب کما قیل هو العیر الذی کان علیه ابو سفیان بن حرب.

و الظرف فی قوله: «إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَهِ» بیان ثان لقوله فی الآیه السابقه: «یَوْمَ الْفُرْقانِ» کما أن قوله: «یَوْمَ الْتَقَی الْجَمْعانِ» بیان اول له متعلق بقوله: «أَنْزَلْنا عَلی عَبْدِنا» و اما ما یظهر من بعضهم إنّه بیان لقوله: «وَ اللّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» بما یفیده بحسب المورد،و المعنی:و اللّه قدیر علی نصرکم و أنتم أذله اذ انتم نزول بشفیر الوادی الأقرب،فلا یخفی بعده و وجه التکلف فیه.

و قوله تعالی: «وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِی الْمِیعادِ» ،سیاق ما تقدمه من الجمل الکاشفه عن تلاقی الجیشین،و کون الرکب اسفل منهم،و ان اللّه بقدرته التی قهرت کل شیء فرق بین الحق و الباطل،و أید الحق علی الباطل،و کذا قوله بعد: «وَ لکِنْ لِیَقْضِیَ اللّهُ أَمْراً کانَ مَفْعُولاً» کل ذلک یشهد علی أن المراد بقوله: «وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِی الْمِیعادِ» بیان ان التلاقی علی هذا الوجه لم یکن إلاّ بمشیه خاصه من اللّه سبحانه حیث نزل المشرکون و هم ذووا عده و شده بالعدوه القصوی و فیها الماء و الأرض الصلبه،و المؤمنون علی قله عددهم و هوان امرهم بالعدوه الدنیا و لا ماء فیها و الأرض رملیه لا تثبت تحت اقدامهم،و تخلص العیر منهم اذ ضرب ابو سفیان فی الساحل أسفل،و تلاقی الفریقان لا حاجز بینهما و لا مناص عندئذ عن الحرب،فالتلاقی و المواجهه علی هذا الوجه ثم ظهور المؤمنین علی المشرکین،لم یکن عن اسباب عادیه بل لمشیّه خاصه إلهیه ظهرت بها قدرته و بانت بها عنایته الخاصه و نصره

و تأييده للمؤمنين.

فقوله: «وَ لَوْ تَوٰاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعٰادِ» بيان ان هذا التلاقى لم يكن عن سابق قصد و عزيمه،و لا رويه او مشوره،و لهذا المعنى عقبه بقوله: «وَ لٰكِنْ لِيَقْضِيَ اللّٰهُ أَمْراً كٰانَ مَفْعُولاً» بما فيه من الاستدراك.

و قوله: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَهٍ وَ يَحْيىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَهٍ لتعليل ما قضى به من الأمر المفعول أى إن اللّه إنما قضى هذا الذى جرى بينكم من التلاقى و المواجهه ثم تأييد المؤمنين و خذلان المشركين ليكون ذلك بينه ظاهره على حقيه الحق و بطلان الباطل فيهلك من هلك عن بينه و يحيى من حى عن بينه.

و بذلك يظهر ان المراد بالهلاكه و الحياه هو الهدى و الضلال لأن ذلك هو الذى يرتبط به وجود الآيه البينه ظاهرا.

و كذا قوله: وَ إِنَّ اللّٰهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ عطف على قوله: «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَهٍ» الخ؛أى و إن اللّه إنما قضى ما قضى و فعل ما فعل لأنه سميع يسمع دعاءكم عليم يعلم ما فى صدوركم،و فيه إشاره الى ما ذكره فى صدر الآيات: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجٰابَ لَكُمْ» الى آخر الآيات.

و على هذا السياق-أى لبيان أن مرجع الأمر فى هذه الواقعه هو القضاء الخاص الإلهى دون الأسباب العاديه-سيق قوله تعالى بعد: «إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّٰهُ فِي مَنٰامِكَ قَلِيلاً» الخ؛و قوله «وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ» الخ؛و قوله: «إِذْ يَقُولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاٰءِ دِينُهُمْ» الخ.

و معنى الآيه يوم الفرقان هو الوقت الذى انتم نزول بالعدوه الدنيا و هم نزول بالعدوه القصوى،و قد توافق نزولكم بها و نزولهم بها بحيث لو تواعدتم بينكم ان تلتقوا بهذا الميعاد لاختلفتم فيه و لم تتلاقوا على هذه الوتيره فلم يكن ذلك منكم و لا منهم و لكن ذلك كان امرا

مفعولا و اللّه قاضیه و حاکمه،و إنما قضی ما قضی لیظهر آیه بینه فتتم بذلک الحجه،و لأنه قد استجاب ذلک دعوتکم بما سمع من استغاثتکم و علم به من حاجه قلوبکم.

قوله تعالی: إِذْ یُرِیکَهُمُ اللّٰهُ فِی مَنٰامِکَ قَلِیلاً الی آخر الآیه؛الفشل هو الضعف مع الفزع،و التنازع هو الاختلاف و هو من النزع نوع من القلع کأن المتنازعین ینزع کل منهما الآخر عما هو فیه،و التسلیم هو النتیجه.

و الکلام علی تقدیر اذکر أی اذکر وقتا یریکهم اللّه فی منامک قلیلا،و إنما أراکهم قلیلا لیربط بذلک قلوبکم و تطمئن نفوسکم و لو اراکهم کثیرا ثم ذکرتها للمؤمنین افزعکم الضعف و اختلفتم فی امر الخروج الیهم و لکنه تعالی نجّاکم بإراءتهم قلیلا عن الفشل و التنازع انه علیم بذات الصدور و هی القلوب یشهد ما یصلح به حال القلوب فی اطمئنانها و ارتباطها و قوتها.

و الآیه تدل علی ان اللّه سبحانه أری نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم رؤیا مبشره رأی فیها ما وعده اللّه من إحدی الطائفتین انها لهم،و قد أراهم قلیلا لا یعبأ بشأنهم،و أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم ذکر ما رآه للمؤمنین و وعدهم وعد تبشیر فعزموا علی لقائهم.و الدلیل علی ذلک قوله: «وَ لَوْ أَرٰاکَهُمْ کَثِیراً لَفَشِلْتُمْ» الخ؛و هو ظاهر.

قوله تعالی: وَ إِذْ یُرِیکُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَیْتُمْ فِی أَعْیُنِکُمْ قَلِیلاً وَ یُقَلِّلُکُمْ فِی أَعْیُنِهِمْ الی آخر الآیه؛معنی الآیه ظاهر،و لا تنافی بین هذه الآیه و قوله تعالی: قَدْ کٰانَ لَکُمْ آیَهٌ فِی فِئَتَیْنِ الْتَقَتٰا فِئَهٌ تُقٰاتِلُ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ وَ أُخْریٰ کٰافِرَهٌ یَرَوْنَهُمْ مِثْلَیْهِمْ رَأْیَ الْعَیْنِ وَ اللّٰهُ یُؤَیِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ یَشٰاءُ (آل عمران/١٣)بناء علی ان الآیه تشیر الی وقعه بدر.

و ذلک ان التقلیل الذی یشیر الیه فی الآیه المبحوث عنها مقید بقوله:«اذ التقیتم»و بذلک یرتفع التنافی کأن اللّه سبحانه أری المؤمنین قلیلا فی اعین المشرکین فی بادئ الالتقاء لیستحقروا جمعهم و یشجعهم ذلک علی القتال و النزال حتی اذا زحفوا و اختلطوا،کثّر المؤمنین فی أعینهم فرأوهم مثلیهم رأی العین فأوهن بذلک عزمهم و أطار قلوبهم فکانت الهزیمه فآیه

الأنفال تشير الى اول الوقعه،و آیه آل عمران الی ما بعد الزحف و الاختلاط و قوله: «لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً» متعلق بقوله: «يُرِيكُمُوهُمْ» و تعلیل لمضمونه.

قوله تعالی: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ الی آخر الآیات الثلاث؛قال الراغب فی المفردات:الثبات-بفتح الثاء- ضد الزوال انتهی فهو فی المورد ضد الفرار من العدو،و هو بحسب ماله من المعنی اعم من الصبر الذی یأمر به فی قوله: «وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللّهَ مَعَ الصّابِرِينَ» فالصبر ثبات قبال المکروه بالقلب بأن لا یضعف و لا یفزع و لا یجزع،و بالبدن بأن لا یتکاسل و لا یتساهل و لا یزول عن مکانه و لا یعجل فیما لا یحمد فیه العجل فالصبر ثبات خاص.

و الریح علی ما قیل،العز و الدوله،و قد ذکر الراغب ان الریح فی الآیه بمعنی الغلبه استعاره کأن من شأن الریح ان تحرک ما هبت علیه و تقلعه و تذهب به،و الغلبه علی العدو یفعل به ما تفعله الریح بالشیء کالتراب فاستعیرت لها.

و قال الراغب:البطر دهش یعتری الانسان من سوء احتمال النعمه و قله القیام بحقها و صرفها الی غیر وجهها قال عزّ و جل: «بَطَراً وَ رِئاءَ النّاسِ» و قال: «بَطِرَتْ مَعِيشَتَها» و أصله:بطرت معیشته فصرف عنه الفعل و نصب،و یقارب البطر الطرب،و هو خفه أکثر ما یعتری من الفرح و قد یقال ذلک فی الترح،و البیطره معالجه الدابه.انتهی.و الرئاء المراءاه.

و قوله: فَاثْبُتُوا أمر بمطلق الثبوت امام العدو،و عدم الفرار منه فلا یتکرر بالأمر ثانیا بالصبر کما تقدمت الإشاره الیه.

و قوله: وَ اذْكُرُوا اللّهَ كَثِيراً ای فی جنانکم و لسانکم فکل ذلک ذکر،و من المعلوم أن الأحوال القلبیه الباطنه من الإنسان هی التی تمیز مقاصده و تشخصها سواء وافقها اللفظ کالفقیر المستغیث باللّه من فقره و هو یقول:یا غنی و المریض المستغیث به من مرضه و هو یقول:یا شافی و لو قال الفقیر فی ذلک:یا اللّه او قال المریض فیه ذلک لکان معناه:یا غنی و یا

شافى لأنهما بمقتضى الحال الباعث لهما على الاستغاثه و الدعوه لا يريدان إلاّ ذلك كما هو ظاهر.

و الذى يخرج الى قتال عدوه،ثم لقيه و استعد الظرف للقتال،و ليس فيه إلاّ زهاق النفوس،و سفك الدماء و نقص الأطراف و كل ما يهدد الانسان بالفناء فى ما يحبه فان حاله يحوّل فكرته و يصرف إرادته الى الظفر بما يريده بالقتال،و الغلبه على العدو الذى يهدده بالفناء،و الذى حاله هذا الحال و تفكيره هذا التفكير انما يذكر اللّه سبحانه بما يناسب حاله و تنصرف اليه فكرته.

و هذا اقوى قرينه على ان المراد بذكر اللّه كثيرا ان يذكر المؤمن ما علّمه تعالى من المعارف المرتبطه بهذا الشأن و هو انه تعالى إلهه و ربه الذى بيده الموت و الحياه و هو على نصره لقدير، و أنه هو مولاه نعم المولى و نعم النصير،و قد وعده النصر اذ قال:إن تنصروا اللّه ينصركم و يثبت اقدامكم،و أن اللّه لا يضيّع أجر من احسن عملا،و أن مآل امره فى قتاله الى احدى الحسنيين إما الظفر على عدوه و رفع رايه الاسلام و إخلاص الجو لسعادته الدينيه،و إما القتل فى سبيل اللّه و الانتقال بالشهاده الى رحمته،و الدخول فى حظيره كرامته،و مجاوره المقربين من اوليائه،و ما فى هذا الصف من المعارف الحقيقيه التى تدعو الى السعاده الواقعيه و الكرامه السرمديه.

و قد قيد الذكر بالكثير لتتجدد به روح التقوى كلما لاح للانسان ما يصرف نفسه الى حب الحياه الفانيه و التمتع بزخارف الدنيا الغارّه و الخطورات النفسانيه التى يلقيها الشيطان بتسويله.

و قوله: وَ أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ ظاهر السياق ان المراد بها إطاعه ما صدر من ناحيته تعالى و ناحيه رسوله من التكاليف و الدساتير المتعلقه بالجهاد و الدفاع عن حومه الدين و بيضه الإسلام مما تشتمل عليه آيات الجهاد و السنّه النبويه كالابتداء بإتمام الحجه

و عدم التعرض للنساء و الذراری و الکف عن تبییت العدو و غیر ذلک من أحکام الجهاد.

و قوله: «وَ لاٰ تَنٰازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِیحُکُمْ» ای و لا تختلفوا بالنزاع فیما بینکم حتی یورث ذلکم ضعف ارادتکم و ذهاب عزتکم و دولتکم او غلبتکم فان اختلاف الآراء یخلّ بالوحده و یوهن القوه.

و قوله: «وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الصّٰابِرِینَ» ای الزموا الصبر علی ما یصیبکم من مکاره القتال مما یهددکم به العدو،و علی الإکثار من ذکر اللّه،و علی طاعه اللّه و رسوله من غیر ان یهزهزکم الحوادث او یزجرکم ثقل الطاعه او تغویکم لذه المعصیه او یضلکم عجب النفس و خیلاؤها.

و قد أکد الأمر بالصبر بقوله: «إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الصّٰابِرِینَ» لأن الصبر اقوی عون علی الشدائد و أشد رکن تجاه التلون فی العزم و سرعه التحول فی الإراده،و هو الذی یخلّی بین الانسان و بین التفکیر الصحیح المطمئن حیث یهجم علیه الخواطر المشوشه و الأبکار الموهنه لإرادته عند الأهوال و المصائب من کل جانب فاللّه سبحانه مع الصابرین.

و قوله: وَ لاٰ تَکُونُوا کَالَّذِینَ خَرَجُوا مِنْ دِیٰارِهِمْ بَطَراً وَ رِئٰاءَ النّٰاسِ الآیه؛نهی عن اتخاذ طریقه هؤلاء البطرین المرائین الصادین عن سبیل اللّه،و هم علی ما یفیده سیاق الکلام فی الآیات،کفّار قریش،و ما ذکره من اوصافهم أعنی البطر و رئاء الناس و الصدّ عن سبیل اللّه هو الذی أوجب النهی عن التشبه بهم و اتخاذ طریقتهم بدلاله السیاق،و قوله:

«وَ اللّٰهُ بِمٰا یَعْمَلُونَ مُحِیطٌ» ینبئ عن إحاطته تعالی بأعمالهم و سلطنته علیها و ملکه لها،و من المعلوم أن لازم ذلک کون أعمالهم داخله فی قضائه متمشیه بإذنه و مشیته و ما هذا شأنه لا یکون مما یعجز اللّه سبحانه فالجمله کالکنایه عما یصرح به بعد عدّه آیات بقوله: وَ لاٰ یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاٰ یُعْجِزُونَ (الأنفال/۵۹).

و ظاهر أن أخذ هذه القیود أعنی قوله: «بَطَراً وَ رِئٰاءَ النّٰاسِ وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ»

یوجب تعلق النهی بها و التقـدیر:و لا تخرجوا من دیارکم الی قتل اعداء الدین بطرین و مراءین بالتجملات الدنیویه،و صد الناس عن سبیل اللّه بـدعوتهم بأقوالکم و أفعالکم الی ترک تقوی اللّه و التوغل فی معاصـیه و الانخلاع عن طاعه اوامره و دساتیره فإن ذلک یحبط أعمالکم و یطفئ نور الإیمان و یبطل أثره عن جمعکم فلا طریق الی نجاح السعی و الفوز بالمقاصد الهامه إلاّ سویّ الصراط الذی یمهّده الدین القویم و تسهّله الملّه الفطریّه و اللّه لا یهدی القوم الفاسقین الی مقاصدهم الفاسده.

و قـد اشـتملت الآیـات الثلاث علی امور سـته أوجب اللّه سـبحانه علی المؤمنین رعایتها فی الحروف الإسـلامیه عنـد اللقاء و هی الثبات،و ذکر اللّه کثیرا،و طاعه اللّه و رسوله،و عدم التنازع،و أن لا یخرجوا بطرا و رئاء الناس و یصدون عن سبیل اللّه.

و مجموع الامور السـته دسـتور حربی جامع لا یفقـد من مهام الدسـتورات الحربیه شـیئا، و التأمل الـدقیق فی تفاصـیل الوقائع فی تاریخ الحروب الإسلامیه الواقعه فی زمن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم کبدر و أحد و الخندق و حنین و غیر ذلک یوضح أن الأمر فی الغلبه و الهزیمه کان یدور مدار رعایه المسلمین موادّ هذا الدستور الإلهی و عدم رعایتها،و المراقبه لها و المساهله فیها.

قوله تعـالی: وَ إِذْ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ وَ قٰالَ لاٰ غٰالِبَ لَکُمُ الْیَوْمَ الی آخر الآیه؛تزیین الشـیطان للانسان عمله هو إلقاؤه فی قلبه کون العمل حسـنا جمیلا یسـتلذ به و ذلک بتهییج قواه الباطنه و عواطفه الداخله المتعلقه بذلک العمل فینجذب إلیه قلبه،و لا یجد فراغا یعقل ماله من سوء الأثر و شؤم العاقبه.

و لیس من البعید ان یکون قوله: «وَ قٰالَ لاٰ غٰالِبَ لَکُمُ الْیَوْمَ» الآیه؛مفسـرا أو بمنزله المفسّـِر للتزیین الشیطانی علی ان یکون المراد بالأعمـال نتائجهـا و هی مـا هیّئوه من قوّه و سـلاح و عـدّه و ما اخرجوه من القیان و المعازف و الخمور،و ما تظاهروا به من نظام الجیش و الجنائب تساق بین أیدیهم،و یمکن أن یکون المراد بها نفس الأعمال و هی أنواع تمادیهم فی الغی

و الضـلال و إصـرارهم فى محـادّه اللّه و رسـوله،و استرسـالهم فى الظلم و الفسق فيكون قوله المحكىّ: «لاٰ غٰالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النّٰاسِ» مما يتم به تزيين الشـيطان،و تطيب به نفوسهم فيما اهتموا به من قتال المسلمين،و قد اكمل ذلك بقوله: «وَ إِنِّى جٰارٌ لَكُمْ» .

و الجوار من سـنن العرب فى الجاهليه التى كانت تعيش عيشه القبائل،و من حقوق الجوار نصـره الجار للجار اذا دهمه عـدو،و له آثار مختلفه بحسب السنن الجاريه فى المجتمعات الإنسانيه.

و قوله: فَلَمّٰا تَرٰاءَتِ الْفِئَتٰانِ نَكَصَ عَلىٰ عَقِبَيْهِ النكوص الإحجام عن الشـىء و «عَلىٰ عَقِبَيْهِ» حال و العقب مؤخر القدم أى أحجم و قد رجع القهقرى منهزما وراءه.

و قـوله: إِنِّى أَرىٰ مٰا لاٰ تَرَوْنَ الآـيه؛تعليـل لقـوله: «إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ» و لعله إشـاره إلى نزول الملاـئكه المردفين الـذين نصـر اللّه المسلمين بهم،و كذا قوله: «إِنِّى أَخٰافُ اللّٰهَ وَ اللّٰهُ شَدِيدُ الْعِقٰابِ» تعليل لقوله: «إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ» و مفسّر للتعليل السابق.

و المعنى و يوم الفرقان هو الوقت الذى زيّن الشـيطان لمشركين ما كانوا يعملونه لمحادّه اللّه و رسوله و قتال المؤمنين،و يتلبسون به للتهىء على إطفاء نور اللّه،فزيّن ذلك فى أنظارهم، و طيّب نفوسهم بقوله:لا غالب لكم اليوم من الناس،و إنى مجير لكم أذب عنكم فلما تراءت الفئتان فرأى المشـركون المؤمنين و المؤمنون المشـركين رجع الشيطان القهقرى منهزما وراءه و قال للمشركين إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترونه من نزول ملائكه النصـر للمؤمنين و ما عنـدهم من العذاب الذى يهددكم انى أخاف عذاب اللّه و اللّه شديد العقاب.

قوله تعـالى: إِذْ يَقُولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاٰءِ دِينُهُمْ الى آخر الآيه؛اى يقول المنافقون و هم الـذين أظهروا الإيمان و أبطنوا الكفر،و الذين فى قلوبهم مرض و هم الضعفاء فى الايمان ممن لا يخلو نفسه من الشك و الارتياب.يقولون

ص :۶۸۸

-مشیرین الی المؤمنین إشاره تحقیر و استذلال-:غرّ هؤلاء دینهم اذ لو لا غرور دینهم لم یقدموا علی هذه المهلکه الظاهره،و هم شرذمه أذلاء لا عده لهم و لا عده،و قریش علی ما بهم من العده و القوه و الشوکه.

قوله تعالی: وَ مَنْ یَتَوَکَّلْ عَلَی اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ فی مقام الجواب عن قولهم و إبانه غرورهم انفسهم؛و قوله: «فَإِنَّ اللّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ» من وضع السبب موضع المسبب،و المعنی:و قد أخطأ هؤلاء المنافقون و الذین فی قلوبهم مرض فی قولهم فان المؤمنین توکلوا علی اللّه و نسبوا حقیقه التأثیر الیه و ضموا انفسهم الی قوّته و حوله،و من یتوکل امره علی اللّه فان اللّه یکفیه لأنه عزیز ینصر من استنصره حکیم لا یخطأ فی وضع کل امر موضعه الذی یلیق به.

و فی الآیه دلیل علی حضور جمع من المنافقین و ضعفاء الایمان ببدر حین تلاقی الفئتین.

قوله تعالی: وَ لَوْ تَریٰ إِذْ یَتَوَفَّی الَّذِینَ کَفَرُوا الْمَلاٰئِکَهُ الی تمام الآیتین؛ التوفی اخذ الحق بتمامه،و یستعمل فی کلامه تعالی کثیرا بمعنی قبض الروح،و نسبه قبض ارواحهم الی الملائکه مع ما فی بعض الآیات من نسبته الی ملک الموت،و فی بعض آخر الی اللّه سبحانه کقوله: قُلْ یَتَوَفّاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ (الم السجده۱۱/)،و قوله: اَللّٰهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِهٰا (الزمر۴۲/)دلیل علی ان لملک الموت اعوانا یتولون قبض الارواح هم بمنزله الأیدی العماله له یصدرون عن إذنه و یعملون عن امره،کما انه یصدر عن إذن من اللّه و یعمل عن امر منه،و بذلک یصح نسبه التوفی الی الملائکه الأعوان،و الی ملک الموت،و الی اللّه سبحانه.

و قوله: یَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ ظاهره انهم یضربون مقادیم ابدانهم و خلافه ذلک فیکنی به عن إحاطتهم و استیعاب جهاتهم بالضرب،و قیل:إن الأدبار کنایه عن الاستاه فبالمناسبه یکون المراد بوجوههم مقدم رءوسهم،و ضرب الوجوه و الأدبار بهذا

المعنى يراد به الإزراء و الإذلال.

و قوله: وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ أى يقول لهم الملائكه:ذوقوا عذاب الحريق و هو النار.

و قوله: ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ تتمه لقولهم المحكى او إشاره الى مجموع ما يفعل بهم و ما يقول لهم الملائكه،و المعنى إنما نذيقكم عذاب الحريق بما قدمت ايديكم او:نضرب وجوهكم و أدباركم و نذيقكم عذاب الحريق بما قدمت ايديكم.

و قوله: وَ أَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاّمٍ لِلْعَبِيدِ معطوف على موضع قوله: «بِما قَدَّمَتْ» أى و ذلك بأن اللّه ليس بظلام للعبيد أى لا يظلم احدا من عبيده فإنه تعالى على صراط مستقيم لا تخلف و لا اختلاف فى فعله فلو ظلم احدا لظلم كل احد،و لو كان ظالما لكان ظلاما للعبيد فافهم ذلك.

و سياق الآيات يشهد على ان المراد بهؤلاء الذين يصفهم اللّه سبحانه بأن الملائكه يتوفاهم و يعذبهم هم المقتولون ببدر من مشركى قريش.

قوله تعالى: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللّهِ الى آخر الآيه؛الدأب و الديدن:العاده و هى العمل الذى يدوم و يجرى على الإنسان،و الطريقه التى يسلكها،و المعنى كفر هؤلاء يشبه كفر آل فرعون و الذين من قبلهم من الأمم الخاليه الكافره كفروا بآيات اللّه و أذنبوا بذلك فأخذهم اللّه بذنوبهم إن اللّه قوى لا يضعف عن اخذهم شديد العقاب اذا اخذ.

قوله تعالى: ذلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ الخ؛أى ان العقاب الذى يعاقب به اللّه سبحانه إنما يعقب نعمه إلهيه سابقه بسلبها و استخلافها،و لا تزول نعمه من النعم الإلهيه و لا تتبدل نقمه و عقابا إلاّ مع تبدل محله و هو النفوس الإنسانيه،فالنعمه التى انعم بها على قوم إنما أفيضت عليهم لما استعدوا لها فى

انفسهم،و لا يسلبونها و لا تتبدل بهم نقمه و عقابا إلّا لتغييرهم ما بأنفسهم من الاستعداد و ملاک الإفاضه و تلبسهم باستعداد العقاب.

و هذا ضابط کلی فی تبدل النعمه الی النقمه و العقاب،و أجمع منه قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ (الرعد/١١)و إن کان ظاهره اظهر انطباقا علی تبدل النعمه الی النقمه.

و کیف کان فقوله: «ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَکُ مُغَيِّراً» الخ؛من قبیل التعلیل بأمر عام و تطبیقه علی مورده الخاص أی اخذ مشرکی قریش بذنوبهم،و عقابهم بهذا العقاب الشدید،و تبدیل نعمه اللّه علیهم عقابا شدیدا إنما هو فرع من فروع سنّه جاریه إلهیه هی ان اللّه لا یغیر نعمه أنعمها علی قوم حتی یغیروا ما بأنفسهم.

و قوله: وَ أَنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ تعلیل آخر بعد التعلیل بقوله: «ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَکُ مُغَيِّراً» و ظاهره-بمقتضی إشعار السیاق-ان المراد به:و ذلک بأن اللّه سمیع لدعواتکم علیم بحاجاتکم سمع استغاثتکم و علم بحاجتکم فاستجاب لکم فعذب أعداءکم الکافرین بآیات اللّه،و یحتمل أن یکون المراد:ذلک بأن اللّه سمیع لأقوالهم علیم بأفعالهم فعذبهم علی ذلک، و یمکن الجمع بین المحتملین.

قوله تعالی: کَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ کَذَّبُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَکْنٰاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ الخ؛کرر التنظیر السابق لمشابهه الفرض مع ما تقدم فقوله «کَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» الخ؛السابق تنظیر لقوله: «ذٰلِکَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيکُمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ» کما ان قوله: «کَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ -الی قوله- وَ کُلٌّ کٰانُوا ظٰالِمِينَ» ثانیا تنظیر لقوله «ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَکُ مُغَيِّراً نِعْمَةً» الخ.

غیر ان التنظیر الثانی یشتمل علی نوع من الالتفات فی قوله: «فَأَهْلَکْنٰاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» و قد وقع بحذائه فی التنظیر الأول «فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ» من غیر التفات و لعل الوجه فیه ان

التنظیر الثانی لما کان مسبوقا بإفاده ان اللّه هو المفیض بالنعم علی عباده و لا یغیرها إلاّ عن تغییرهم ما بأنفسهم،و هذا شأن الرب بالنسبه الی عبیده اقتضی ذلک ان یعد هؤلاء عبیده غیر جارین علی صراط عبودیه ربهم و لذلک غیّر بعض سیاق التنظیم فقال فی الثانی «کَذَّبُوا بِآیاتِ رَبِّهِمْ» و قد کان بحذائه فی الأول قوله: «کَفَرُوا بِآیاتِ اللّهِ» و لذلک التفت هاهنا من الغیبه الی التکلم مع الغیر فقال: «فَأَهْلَکْنٰاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» للدلاله علی انه سبحانه هو ربهم و هو مهلکهم،و قد أخذ المتکلم مع الغیر للدلاله علی عظمه الشأن و جلاله المقام،و ان له وسائط یعملون بأمره و یجرون بمشیته.

و قوله: وَ أَغْرَقْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ أظهر المفعول و لم یقل:و أغرقناهم لیؤمن الالتباس برجوع الضمیر الی آل فرعون و الذین من قبلهم جمیعا.

و قوله تعالی: وَ کُلٌّ کٰانُوا ظٰالِمِینَ أی جمیع هؤلاء الذین أخذهم العذاب الإلهی من کفار قریش و آل فرعون و الذین من قبلهم کانوا ظالمین فی جنب اللّه.

و فیه بیان ان اللّه سبحانه لا یأخذ بعقابه الشدید أحدا،و لا یبدل نعمته علی احد نقمه إلاّ اذا کان ظالما ظلما یبدل نعمه اللّه کفرا بآیاته فهو لا یعذب بعذابه إلاّ مستحقه (۱).

[سوره الأنفال (۸): الآیات ۵۵ الی ۶۶]

اشاره

إِنَّ شَرَّ اَلدَّوَابِّ عِنْدَ اَللّٰهِ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فَهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (۵۵) اَلَّذِینَ عٰاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ یَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِی کُلِّ مَرَّهٍ وَ هُمْ لاٰ یَتَّقُونَ (۵۶) فَإِمّٰا تَثْقَفَنَّهُمْ فِی اَلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ (۵۷) وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِیٰانَهً فَانْبِذْ إِلَیْهِمْ عَلیٰ سَوٰاءٍ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ اَلْخٰائِنِینَ (۵۸) وَ لاٰ یَحْسَبَنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاٰ یُعْجِزُونَ (۵۹) وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اِسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّهٍ وَ مِنْ رِبٰاطِ اَلْخَیْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اَللّٰهِ وَ عَدُوَّکُمْ وَ آخَرِینَ مِنْ دُونِهِمْ لاٰ تَعْلَمُونَهُمُ اَللّٰهُ یَعْلَمُهُمْ وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَیْءٍ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ یُوَفَّ إِلَیْکُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ (۶۰) وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا وَ تَوَکَّلْ عَلَی اَللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۶۱) وَ إِنْ یُرِیدُوا أَنْ یَخْدَعُوکَ فَإِنَّ حَسْبَکَ اَللّٰهُ هُوَ اَلَّذِی أَیَّدَکَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِینَ (۶۲) وَ أَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ جَمِیعاً مٰا أَلَّفْتَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لٰکِنَّ اَللّٰهَ أَلَّفَ بَیْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۶۳) یٰا أَیُّهَا اَلنَّبِیُّ حَسْبُکَ اَللّٰهُ وَ مَنِ اِتَّبَعَکَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۶۴) یٰا أَیُّهَا اَلنَّبِیُّ حَرِّضِ اَلْمُؤْمِنِینَ عَلَی اَلْقِتٰالِ إِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ عِشْرُونَ صٰابِرُونَ یَغْلِبُوا مِائَتَیْنِ وَ إِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ مِائَهٌ یَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ یَفْقَهُونَ (۶۵) اَلْآنَ خَفَّفَ اَللّٰهُ عَنْکُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِیکُمْ ضَعْفاً فَإِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ مِائَهٌ صٰابِرَهٌ یَغْلِبُوا مِائَتَیْنِ وَ إِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ أَلْفٌ یَغْلِبُوا أَلْفَیْنِ بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ مَعَ اَلصّٰابِرِینَ (۶۶)

۱- ۱) .الانفال ۴۱-۵۴:بحث روائی فی:الخمس؛یوم الفرقان.

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّٰهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ الكلام مسوق لبيان كون هؤلاء شر جميع الموجودات الحيه من غير شك فى ذلك لما فى تقييد الحكم بقوله: «عِنْدَ اللّٰهِ» من الدلاله عليه فان معناه الحكم؛و ما يحكم و يقضى به اللّٰه سبحانه لا يتطرق اليه خطأ و قد قال تعالى: لاٰ يَضِلُّ رَبِّى وَ لاٰ يَنْسىٰ (طه۵۲/).

و قد افتتح هذه القطعه من الكلام المتعلق بهم بكونهم شر الدواب عنده لأن مغزى الكلام التحرز منهم و دفعهم،و من المغروز فى الطباع ان الشر الذى لاـ يرجى معه خير يجب دفعه بأى وسيله صحت و أمكنت فناسب ما سيأمره فى حقهم بقوله: «فَإِمّٰا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ» الخ؛الافتتاح ببيان كونهم شر الدواب.

و عقّب قوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا» بقوله: «فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ» مبتدأ بفاء التفريع اى ان من وصفهم الذى يتفرع على كفرهم انهم لا يؤمنون،و لا يتفرع عدم الايمان على الكفر إلّا اذا رسخ فى النفس رسوخا لا يرجى معه زواله فلا مطمع حينئذ فى دخول الإيمان فى قلب هذا شأنه لمكان المضاده التى بين الكفر و الايمان.

و من هنا يظهر ان المراد بقوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا» الذين ثبتوا على الكفر،و عند هذا يرجع معنى هذه الآيه الى نظيرتها السابقه: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّٰهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ وَ لَوْ عَلِمَ اللّٰهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (الأنفال۲۳/).

على ان الآيتين لما دلّتا على حصر الشر عند اللّٰه فى طائفه معينه من الدواب كانت الآيه الاولى مع دلالتها على كون اهلها ممن لا يؤمنون البته داله على ان المراد بقوله فى الآيه الثانيه:

«الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ» كونهم ثابتين على كفرهم لا يزولون عنه البته.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ عٰاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ یَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِی کُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لاٰ یَتَّقُونَ بیان للذین کفروا فی الآیه السابقه او بدل منهم بدل البعض من الکل،و یتفرع علیه أن«من»فی قوله: «مِنْهُمْ» تبعیضیه و المعنی:الذین عاهدتهم من بین الذین کفروا،و أما احتمال ان یکون من زائده و المعنی:الذین عاهدتهم،او بمعنی مع و المعنی:الذین عاهدت معهم:فلیس بشیء.

و المراد بکل مره مرات المعاهده ای ینقضون عهدهم فی کل مره عاهدتهم و هم لا یتقون اللّه فی نقض العهد او لا یتقونکم و لا یخافون نقض عهدکم،و فیه دلاله علی تکرر النقض منهم.

قوله تعالی: فَإِمّٰا تَثْقَفَنَّهُمْ فِی الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ قال فی المجمع الثقف الظفر و الادراک بسرعه،و التشرید التفریق علی اضطراب.

انتهی،و قوله: «فَإِمّٰا تَثْقَفَنَّهُمْ» أصله إن تثقفهم دخل«ما»التأکید علی ان الشرطیه لیصحح دخول نون التأکید علی الشرط و الکلام مسوق للتأکید فی ضمن الشرط.

و المراد بتشرید من خلفهم بهم ان یفعل بهم من التنکیل و التشدید ما یعتبر به من خلفهم، و یستولی الرعب و الخوف علی قلوبهم فیتفرقوا و ینحل عقد عزیمتهم و اتحاد ارادتهم علی قتال المؤمنین و إبطال کلمه الحق.

و علی هذا فالمراد بقوله: «لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ» رجاء ان یتذکروا ما لنقض العهد و الإفساد فی الارض و المحادّه مع کلمه الحق من التبعه السیئه و العاقبه المشئومه فان اللّه لا یهدی القوم الفاسقین و إن اللّه لا یهدی کید الخائنین.

ففی الآیه إیماء الی الأمر بقتالهم ثم التشدید علیهم و التنکیل بهم عند الظفر بهم و ثقفهم، و إیماء الی ان وراءهم من حاله حالهم فی نقض العهد و تربّص الدوائر علی الحق و أهله.

قوله تعالی: وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِیٰانَةً فَانْبِذْ إِلَیْهِمْ عَلیٰ سَوٰاءٍ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ

يُحِبُّ الْخَائِنِينَ الخيـانه-علی ما فی المجمع-نقض العهـد فیما یؤتمن علیه،و هـذا معنی الخیانه فی العهود و المواثیق،و أما الخیانه بمعناها العام فهی نقض ما أبرم من الحق فی عهـد أو امانه،و النبذ هو الإلقاء و منه قوله: فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ (آل عمران۱۸۷/)و السواء بمعنی الاستواء و العدل.

و قوله: «وَ إِمَّا تَخَافَنَّ» کقوله فی الآیه السابقه: «فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ» و معنی الخوف ظهور امارات تـدل علی وقوع ما یجب التحرز منه و الحذر عنه و قوله: «إِنَّ اللَّهَ لاَ یُحِبُّ الْخَائِنِینَ» تعلیل لقوله: «فَانْبِذْ إِلَیْهِمْ عَلیٰ سَوَاءٍ» .

و معنی الآـیه:و إن خفت من قوم بینـک و بینهم عهـد ان یخونوک و ینقضوا عهـدهم و لاـحت آثار دالّه علی ذلک فانبـذ و ألق إلیهم عهـدهم و أعلمهم إلغاء العهـد لتکونوا انتم و هم علی اسـتواء من نقض العهـد او تکون مسـتویا علی عـدل فإن من العـدل المعامله بالمثل و السواء لأنک إن قاتلتهم بغیر إعلام إلغاء العهد کان ذلک منک خیانه و اللّه لا یحب الخائنین.

و ملخص الآـیتین دسـتوران إلهیـان فی قتـال الـذین لا عهـد لهم بالنقض او بخوفه فان کان أهل العهـد من الکفار لا یثبتون علی عهـدهم بنقضه فی کـل مره فعلی ولی الأمر ان یقاتلهم و یشـدد علیهم،و إن کانوا بحیث یخاف من خیانتهم و لا وثوق بعهـدهم فیعلمون إلغاء عهـدهم ثم یقاتلون و لا یبدأ بقتالهم قبل الإعلام فإنما ذلک خیانه،و أما إن کانوا عاهدوا و لم ینقضوا و لم یخف خیانتهم فمن الواجب حفظ عهـدهم و احترام عقـدهم و قـد قال تعالی: فَأَتِمُّوا إِلَیْهِمْ عَهْـدَهُمْ إِلیٰ مُـدَّتِهِمْ (التوبه۴/).و قال: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ (المائده۱/).

قوله تعالی: وَ لاٰ یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاٰ یُعْجِزُونَ القراءه المشهوره «تحسبن» بتاء الخطاب،و هو خطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم تطییبا لنفسه و تقویه لقلبه کالخطاب الآتی بعد عده آیات «یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ حَسْبُکَ اللّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ» و کالخطاب الملقی بعده لتحریض المؤمنین: «یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِینَ عَلَی الْقِتَالِ» .

ص :۶۹۶

و السبق تقدم الشیء علی طالب اللحوق به،و الإعجاز إیجاد العجز،و قوله: «إِنَّهُمْ لاٰ یُعْجِزُونَ» تعلیل لقوله: «وَ لاٰ یَحْسَبَنَّ» الخ؛و المعنی:یا أیها النبی لا تحسبن ان الذین کفروا سبقونا فلا ندرکهم،لأنهم لا یعجزون اللّه و له القدره علی کل شیء.

قوله تعالی: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّهٍ وَ مِنْ رِبٰاطِ الْخَیْلِ الی آخر الآیه؛الإعداد تهیئه الشیء للظفر بشیء آخر و إیجاد ما یحتاج الیه الشیء المطلوب فی تحققه کإعداد الحطب و الوقود للإیقاد و إعداد الإیقاد للطبخ،و القوه کل ما یمکن معه عمل من الأعمال،و هی فی الحرب کل ما یتمشی به الحرب و الدفاع من أنواع الاسلحه،و الرجال المدربین و المعاهد الحربیه التی تقوم بمصلحه ذلک کله،و الرباط مبالغه فی الربط و هو أیسر من العقد یقال:ربطه یربطه ربطا و رابطه یرابطه مرابطه و رباطا فالکل بمعنی غیر ان الرباط ابلغ من الربط،و الخیل هو الفرس،و الإرهاب قریب المعنی من التخویف.

و قوله: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّهٍ وَ مِنْ رِبٰاطِ الْخَیْلِ» امر عام بتهیئه المؤمنین مبلغ استطاعتهم من القوی الحربیه ما یحتاجون الیه قبال ما لهم من الأعداء فی الوجود او فی الفرض و الاعتبار فان المجتمع الانسانی لا یخلو من التألف من أفراد او أقوام مختلفی الطباع و متضادی الأفکار لا ینعقد بینهم مجتمع علی سنّه قیّمه بمنافعهم إلاّ و هناک مجتمع آخر یضادّه فی منافعه،و یخالفه فی سنّته،و لا یعیشان معا برهه من الدهر إلاّ و ینشب بینهما الخلاف و یؤدی ذلک الی التغلب و القهر.

فالحروب المبیده و الاختلافات الداعیه إلیها مما لا مناص عنها فی المجتمعات الانسانیه و المجتمعات هی هذه المجتمعات،و یدل علی ذلک ما نشاهده من تجهّز الانسان فی خلقه بقوی لا یستفاد منها إلاّ للدفاع کالغضب و الشدّه فی الأبدان،و الفکر العامل فی القهر و الغلبه،فمن الواجب الفطریّ علی المجتمع الإسلامی أن یتجهّز دائما بإعداد ما استطاع من قوّه و من رباط الخیل بحسب ما یفترضه من عدو لمجتمعه الصالح.

و قوله تعالى: تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاٰ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ فى مقام التعليل لقوله: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ» أى و أعدوا لهم ذلك لترهبوا و تخوفوا به عدو اللّه و عدوكم،و فى عدّهم عدوا للّه و لهم جميعا بيان للواقع و تأكيد فى التحريض.

و فى قوله: «وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاٰ تَعْلَمُونَهُمُ» دلاله على ان المراد بالأولين هم الذين يعرفهم المؤمنون بالعداوه للّه و لهم،و المراد بهؤلاء الذين لا يعلمهم المؤمنون-على ما يعطيه إطلاق اللفظ-كل من لا خبره للمؤمنين بتهديده إياهم بالعداوه من المنافقين الذين هم فى كسوه المؤمنين و صورتهم يصلّون و يصومون و يحجون و يجاهدون ظاهرا،و من غير المنافقين من الكفار الذين لم يبتل بهم المؤمنون بعد.

و الإرهاب باعداد القوه،و ان كان فى نفسه من الأغراض الصحيحه التى تتفرع عليها فوائد عظيمه ظاهره غير أنه ليس تمام الغرض المقصود من إعداد القوه،و لذلك أردفه بقوله «وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ» ليدل على جماع الغرض.

و ذلك ان الغرض الحقيقى من إعداد القوى هو التمكن من الدفع مبلغ الاستطاعه،و حفظ المجتمع من العدو الذى يهدده فى نفوسه و أعراضه و أمواله،و باللفظ المناسب لغرض الدين إطفاء نائره الفساد الذى يبطل كلمه الحق و يهدم بنيان دين الفطره الذى به يعبد اللّه فى أرضه و يقوم ملاك العدل فى عباده.

قوله تعالى: وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فى المجمع:الجنوح الميل،و منه جناح الطائر لأنه يميل به فى احد شقيه،و لا جناح عليه أى لا ميل الى مأثم.انتهى،و السلم بفتح السين و كسرها الصلح.

و قوله: «وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ» من تتمه الأمر بالجنوح فالجميع فى معنى امر واحد،و المعنى:

و إن مالوا الى الصلح و المسالمه فمل إليها و توكل فى ذلك على اللّه و لا تخف من ان يضطهدك

أسباب خفيه عنك على غفله منك و عدم تهيؤ لها فإن اللّه هو السميع العليم لا يغفله سبب و لا يعجزه مكر بل ينصرك و يكفيك و هذا هو الذى يثبته قوله فى الآيه التاليه: «وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّٰهُ» .

و قد تقدم فيما اسلفناه من معنى التوكل على اللّه انه ليس اعتمادا عليه سبحانه بإلغاء الأسباب الظاهريه بل سلب الاعتماد القطعى على الأسباب الظاهريه لأن الذى يبدو للإنسان منها بعض يسير منها دون جميعها،و السبب التام الذى لا يتخلف عن مسببه هو الجميع الذى يحمل إرادته سبحانه.

فالتوكل هو توجيه الثقه و الاعتماد الى اللّه سبحانه الذى بمشيته يدور رحى الأسباب عامه،و لا ينافيه ان يتوسل المتوكل بما يمكنه التوسل به من الأسباب اللائحه عليه من غير ان يلغى شيئا منها فيركب مطيه الجهل.

قوله تعالى: وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّٰهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ الآيه؛متصله بما قبلها و هى بمنزله دفع الدخل،و ذلك ان اللّه سبحانه لما امر نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالجنوح للسلم ان جنحوا له و لم يرض بالخديعه لأنها من الخيانه فى حقوق المعاشره و المواصله للعامه و اللّه لا يحب الخائنين كان امره بالجنوح المذكور مظنه سؤال و هو ان من الجائز ان يكون جنوحهم للسلم خديعه منهم يضلون بها المؤمنين ليغيروا عليهم فى شرائط و أحوال مناسبه فأجاب سبحانه بأنا امرناك بالتوكل فإن أرادوا بذلك ان يخدعوك فإن حسبك اللّه و قد قال تعالى: «وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ» .

و هذا مما يدل على ان هناك أسبابا وراء ما ينكشف لنا من الأسباب الطبيعيه العاديه تجرى على ما يوافق صلاح العبد المتوكل اذا خانته الأسباب الطبيعيه العاديه و لم تساعده على مطلوبه الحق.

و قوله: «هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ» بمنزله الاحتجاج على قوله: «فَإِنَّ حَسْبَكَ

اللّهُ» بذکر شواهد تدل علی کفایته تعالی و هی انه ایّده بنصره و أیّده بالمؤمنین و ألف بین قلوبهم و هی شیء متباغضه.

قوله تعالی: وَ أَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً مٰا أَلَّفْتَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ أَلَّفَ بَیْنَهُمْ الخ؛قال الراغب:الإلف اجتماع مع التیام یقال:

ألفت بینهم،و منه الألفه،و یقال:للمألوف إلف و آلف قال تعالی: «إِذْ کُنْتُمْ أَعْدٰاءً فَأَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِکُمْ» انتهی.

أورد سبحانه فی جمله ما استشهد علی کفایته لمن توکل علیه انه کفی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم بتألیف قلوب المؤمنین بعد ذکر تأییده بهم،و الکلام مطلق و الملاک المذکور فیه عام یشمل جمیع المؤمنین و إن کانت الآیه اظهر انطباقا علی الأنصار حیث ایّد اللّه بهم نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فآووه و نصروه و ألف اللّه سبحانه بدینه بینهم أنفسهم و قد نشبت فیهم الحروب المبیده و کانت قائمه علی ساقها دهرا طویلا و هی حرب«بغاث»بین الأوس و الخزرج حتی اصطلحوا بنزول الاسلام فی دارهم و أصبحوا بنعمته إخوانا (۱).

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ حَسْبُکَ اللّٰهُ وَ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ تطییب لنفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و قد قال تعالی قبله: «فَإِنَّ حَسْبَکَ اللّٰهُ هُوَ الَّذِی أَیَّدَکَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِینَ» فالمراد-و اللّه اعلم-یکفیک اللّه بنصره و بمن اتبعک من المؤمنین،و لیس المراد ان هناک سببین کافیین او سببا کافیا ذا جزءین یتألف منهما سبب واحد کاف فالتوحید القرآنی یأبی ذلک.

و ربما قیل:ان المعنی حسبک اللّه و حسب من اتبعک من المؤمنین بعطف قوله: «مَنِ اتَّبَعَکَ» علی موضع الکاف من «حَسْبُکَ» .

۱- ۱) .الانفال ۵۵-۶۶:کلام فی:تألیف القلوب؛الحب و البغض.

و الکلام علی ای حال مسوق للتحریض علی القتال علی ما یفیده السیاق و القرائن الخارجه فان تأثیر المؤمنین فی کفایتهم له صلّی اللّه علیه و آله و سلم إنما هو فی القتال علی ما یسبق الی الذهن.

و ذکر بعضهم:ان الآیه نزلت بالبیداء قبل غزوه بدر،و علی هذا لا اتصال لها بما بعدها، و أما اتصالها بما قبلها فغیر مقطوع به.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِینَ عَلَی الْقِتٰالِ الی آخر الآیه؛ التحریض و التحضیض و الترغیب و الحضّ و الحث بمعنی و الفقه ابلغ و أغزر من الفهم،و قوله «إِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ عِشْرُونَ صٰابِرُونَ یَغْلِبُوا مِائَتَیْنِ» ای من الذین کفروا کما قید به الألف بعدا، و کذا قوله: «وَ إِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ مِائَهٌ» ای مائه صابره کما قید بها «عِشْرُونَ» قبلا.

و قوله: بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ یَفْقَهُونَ الباء للسببیه او الآله،و الجمله تعلیلیه متعلقه بقوله: «یَغْلِبُوا» ای عشرون صابرون منکم یغلبون مائتین من الذین کفروا،و مائه صابره منکم یغلبون الفا من الذین کفروا کل ذلک بسبب ان الکفار قوم لا یفقهون.

و فقدان الفقه فی الکفار و بالمقابله ثبوته فی المؤمنین هو الذی اوجب ان یعدل الواحد من العشرین من المؤمنین اکثر من العشره من المائتین من الذین کفروا حتی یغلب العشرون من هؤلاء المائتین من اولئک علی ما بنی علیه الحکم فی الآیه فان المؤمنین انما یقدمون فیما یقدمون عن ایمان باللّه و هو القوه التی لا یعادله و لا یقاومه ای قوه اخری لابتنائه علی الفقه الصحیح الذی یوصفهم بکل سجیه نفسانیه فاضله کالشجاعه و الشهامه و الجرأه و الاستقامه و الوقار و الطمأنینه و الثقه باللّه و الیقین بأنه علی احدی الحسنیین ان قتل ففی الجنه و إن قتل ففی الجنه، و أن الموت بالمعنی الذی یراه الکفار و هو الفناء لا مصداق له.

و أما الکفار فإنما اتکاؤهم علی هوی النفس،و اعتمادهم علی ظاهر ما یسوّله لهم الشیطان، و النفوس المعتمده علی اهوائها لا تتفق للغایه و إن اتفقت احیانا فإنما تدوم علیه ما لم یلح لائح الموت الذی تراه فناء،و ما اندر ما تثبت النفس علی هواها حتی حال ما تهدد بالموت و هی

على استقامه من الفكر بل تميل بأدنى ريح مخالف،و خاصه فى المخاوف العامه و المهاول الشامله كما أثبته التاريخ من انهزام المشركين يوم بدر و هم ألف بقتل سبعين منهم،و نسبه السبعين الى الألف قريبه من نسبه الواحد الى اربعه عشر فكان انهزامهم فى معنى انهزام الأربعه عشر مقاتلا من مقاتل واحد،و ليس ذلك إلاّ لفقه المؤمنين الذى يستصحب العلم و الايمان،و جهل الكفار الذى يلازمه الكفر و الهوى.

قوله تعالى: اَلْآنَ خَفَّفَ اللّٰهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ الخ؛ أى إن يكن منكم مائه صابره يغلبوا مائتين من الذين كفروا و إن يكن منكم ألف صابر يغلبوا الفين من الذين كفروا على وزان ما مرّ فى الآيه السابقه.

و قوله: «وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً» المراد به الضعف فى الصفات الروحيه و لا محاله ينتهى الى الايمان فإن الايقان بالحق هو الذى ينبعث عنه جميع السجايا الحسنه الموجبه للفتح و الظفر كالشجاعه و الصبر و الرأى المصيب و أما الضعف من حيث العده و القوه فمن الضرورى ان المؤمنين لم يزالوا يزيدون عده و قوه فى زمن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و قوله: بِإِذْنِ اللّٰهِ تقييد لقوله: «يَغْلِبُوا» أى إن اللّه لا يشاء خلافه و الحال انكم مؤمنون صابرون،و بذلك يظهر ان قوله: «وَ اللّٰهُ مَعَ الصّٰابِرِينَ» يفيد فائده التعليل بالنسبه الى الإذن.

و قوله تعالى فى الآيه السابقه تعليلا للحكم: «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَفْقَهُونَ» و كذا فى هذه الآيه «وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً» «وَ اللّٰهُ مَعَ الصّٰابِرِينَ» و عدم الفقه و الضعف الروحى و الصبر من العلل و الأسباب الخارجيه المؤثره فى الغلبه و الظفر و الفوز بلا شك يدل على ان الحكم فى الآيتين مبنى على ما اعتبر من الأوصاف الروحيه فى الفئتين:المؤمنين و الكفار،و أن القوى الداخله الروحيه التى اعتبرت فى الآيه الاولى ما فى المؤمن الواحد منها غالبه على القوى الداخله الروحيه فى عشر من الكفار عادت بعد زمان يسير يشير اليه بقوله: «اَلْآنَ خَفَّفَ اللّٰهُ عَنْكُمْ»

ص:۷۰۲

لا یربو ما فی المؤمن الواحد منها-من متوسطی المؤمنین-إلاّ علی اثنین من الکفار فقد فقدت القوه من أثرها بنسبه الثمانین فی المائه،و تبدلت العشرون و المائتان فی الآیه الاولی الی المائه و المائتین فی الآیه الثانیه،و المائه و الألف فی الاولی الی الألف و الألفین فی الثانیه (۱)(۲).

[سوره الأنفال (۸): الآیات ۶۷ الی ۷۱]

اشاره

مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ حَتّٰی یُثْخِنَ فِی اَلْأَرْضِ تُرِیدُونَ عَرَضَ اَلدُّنْیٰا وَ اَللّٰهُ یُرِیدُ اَلْآخِرَهَ وَ اَللّٰهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۶۷) لَوْ لاٰ کِتٰابٌ مِنَ اَللّٰهِ سَبَقَ لَمَسَّکُمْ فِیمٰا أَخَذْتُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ (۶۸) فَکُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ حَلاٰلاً طَیِّباً وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۶۹) یٰا أَیُّهَا اَلنَّبِیُّ قُلْ لِمَنْ فِی أَیْدِیکُمْ مِنَ اَلْأَسْریٰ إِنْ یَعْلَمِ اَللّٰهُ فِی قُلُوبِکُمْ خَیْراً یُؤْتِکُمْ خَیْراً مِمّٰا أُخِذَ مِنْکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۷۰) وَ إِنْ یُرِیدُوا خِیٰانَتَکَ فَقَدْ خٰانُوا اَللّٰهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْکَنَ مِنْهُمْ وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۷۱)

ص: ۷۰۳

۱- ۱) .الانفال ۵۵-۶۶:کلام فی عله تخفیف اللّه فی حکم الجهاد.

۲- ۲) .الانفال ۵۵-۶۶:بحث روائی فی:الذین عاهد منهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ثم ینقضون عهدهم فی کل مرّه؛معنی الآیه «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّهٍ» .

بیان:

قوله تعالی: مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ حَتّٰی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ الی آخر الآیات الثلاث،الأسر:الشد علی المحارب بما یصیر به فی قبضه الآخذ له کما قیل و الأسیر هو المشدود علیه،و جمعه الأسری و الاسراء و الاساری و الأساری،و قیل الأساری جمع جمع و علی هذا فالسبی أعم موردا من الأسر لصدقه علی أخذ من لا یحتاج الی شد کالذراری.

و الثخن بالکسر فالفتح الغلظ،و منه قولهم:أثخنته الجراح و أثخنه المرض قال الراغب فی المفردات:یقال:ثخن الشیء فهو ثخین اذا غلظ فلم سل و لم یستمر فی ذهابه،و منه استعیر قولهم:أثخنته ضربا و استخفافا قال اللّه تعالی: «مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ حَتّٰی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ» «حَتّٰی إِذٰا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثٰاقَ» فالمراد بإثخان النبی فی الأرض استقرار دینه بین الناس کأنه شیء غلیظ انجمد فثبت،بعد ما کان رقیقا سائلا مخشی الزوال بالسیلان.

و العرض ما یطرأ علی الشیء و یسرع فیه الزوال،و لذلک سمی به متاع الدنیا لدثوره و زواله عما قلیل،و الحلال وصف من الحل مقابل العقد و الحرمه کأن الشیء الحلال کان معقودا علیه محروما منه فحل بعد ذلک؛و قد مر معنی الطیب و هو الملائمه للطبع.

و قد اختلف المفسرون فی تفسیر الآیات بعد اتفاقهم علی انها إنما نزلت بعد وقعه بدر تعاتب أهل بدر و تبیح لهم الغنائم (۱).

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِمَنْ فِی أَیْدِیکُمْ مِنَ الْأَسْریٰ الی آخر الآیه

۱- ۱) .الانفال ۶۷-۷۱:بحث فی:الاساری و الغنائم.

كون الأسرى بأيديهم استعاره لتسلطهم عليهم تمام التسلط كالشيء يكون فى يد الانسان يقلبه كيف يشاء.

و قوله: إِنْ يَعْلَمِ اَللّٰهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً كنايه عن الإيمان او اتباع الحق الذى يلازمه الإيمان فإنه تعالى يعدهم فى آخر الآيه بالمغفره،و لا مغفره مع شرك قال تعالى إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ (النساء۴۸/).

و معنى الآيه:يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى الذين تسلطتم عليهم و أخذت منهم الفداء:إن ثبت فى قلوبكم الإيمان و علم اللّه منكم ذلك-و لا يعلم إلاّ ما ثبت و تحقق- يؤتكم خيرا مما أخذ منكم من الفداء و يغفر لكم و اللّه غفور رحيم.

قوله تعالى: وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيٰانَتَكَ فَقَدْ خٰانُوا اَللّٰهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ الخ؛أمكنه منه أى أقدره عليه،و إنما قال اولا: «خِيٰانَتَكَ» ثم قال: «خٰانُوا اَللّٰهَ» لأنهم أرادوا بالفديه ان يجمعوا الشمل ثانيا و يعودوا الى محاربته صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و أما خيانتهم للّه من قبل فهى كفرهم و إصرارهم على ان يطفئوا نور اللّه و كيدهم و مكرهم.

و معنى الآيه:إن آمنوا باللّه و ثبت الإيمان فى قلوبهم آتاهم اللّه خيرا مما أخذ منهم و غفر لهم، و أرادوا خيانتك و العود الى ما كانوا عليه من العناد و الفساد فإنهم خانوا اللّه من قبل فأمكنك منهم و أقدرك عليهم و هو قادر على ان يفعل بهم ذلك ثانيا،و اللّه عليه بخيانتهم لو خانوا حكيم فى إمكانك منهم (۱).

[سوره الأنفال (۸): الآيات ۷۲ الى ۷۵]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ اَلَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهٰاجِرُوا مٰا لَكُمْ مِنْ وَلاٰيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتّٰى يُهٰاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي اَلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ اَلنَّصْرُ إِلاّٰ عَلىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثٰاقٌ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۷۲) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ إِلاّٰ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي اَلْأَرْضِ وَ فَسٰادٌ كَبِيرٌ (۷۳) وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ اَلَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولٰئِكَ هُمُ اَلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۷۴) وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولٰئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُوا اَلْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتٰابِ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۷۵)

ص: ۷۰۵

۱- ۱) .الانفال ۶۷-۷۱:بحث روائى فى غزوه بدر الاسارى.

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا الی قوله: «أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» المراد ب اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا :الطائفه الاولی من المهاجرین قبل نزول السوره بدلیل ما سیذکر من المهاجرین فی آخر الآیات،و المراد بالذین آووا و نصروا:هم الانصار الذین آووا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و المؤمنین المهاجرین و نصروا اللّه و رسوله،و کان ینحصر المسلمون یومئذ فی هاتین الطائفتین إلاّ قلیل ممن آمن بمکه و لم یهاجر.

و قد جعل اللّه بینهم ولایه بقوله: «أُولٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» و الولایه اعمّ من ولایه المیراث و ولایه النصره و ولایه الأمن،فمن آمن منهم کافرا کان نافذا عند الجمیع؛فالبعض

ص: ۷۰۶

من الجميع ولیّ البعض من الجميع كالمهـاجر هو ولی كـل مهـاجر و أنصاری،و الأنصاری ولی كل أنصاری و مهاجر،كل ذلك بدليل إطلاق الولايه فی الآيه.

فلاـ شاهـد علی صـرف الآـيه الی ولاـيه الإرث بالمؤاخاه التی كان النبی صلّی اللّه عليه و آله و سـلم جعلها فی بـدء الهجره بين المهاجرين و الأنصار و كانوا يتوارثون بها زمانا حتی نسخت.

قوله تعـالی: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا الی آخر الآيه؛معناه واضـح و قـد نفيت فيها الولايه بين المؤمنين المهاجرين و الأنصار و بين المؤمنين غير المهـاجرين إلاّـ ولاـيه النصـره اذا استنصـروهم بشـرط ان يكون الاسـتنصار علی قوم ليس بينهم و بين المؤمنين ميثاق.

قوله تعالی: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ای ان ولايتهم بينهم لا تتعداهم الی المؤمنين فليس للمؤمنين ان يتولوهم،و ذلك ان قوله هاهنـا فی الكفـار: «بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ» كقوله فی المؤمنين: «أُولَئِـكَ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ» إنشاء و تشـريع فی صوره الإخبار،و جعل الولايه بين الكفار أنفسهم لا يحتمل بحسب الاعتبار إلاّ ما ذكرناه من نفی تعديه عنهم الی المؤمنين.

قوله تعالی: إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِی الْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ إشاره الی مصلحه جعل الولايه علی النحو الذی جعلت،فان الولايه مما لا غنی عنها فی مجتمع من المجتمعات البشـريه سـيما المجتمع الإسـلامی الذی أسس علی اتباع الحق و بسط العدل الإلهی كما ان تولی الكفار و هم أعداء هذا المجتمع يوجب الاختلاط بينهم فيسـری فيه عقائدهم و أخلاقهم،و تفسد سـيره الإسلام المبنيه علی الحق بسيرهم المبنيه علی اتباع الهوی و عباده الشيطان،و قد صدّق جريان الحوادث فی هذه الآونه ما أشارت اليه هذه الآيه.

قوله تعـالی: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا الی آخر الآيه اثبات لحق الإيمان علی من اتصف بآثاره اتصافا حقا،و وعـد لهم بالمغفره و الرزق الكريم.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا مَعَکُمْ فَأُولئِکَ مِنْکُمْ خطاب للمهاجرین الاولین و الأنصار و إلحاق من آمن و هاجر و جاهد معهم بهم فیشارکونهم فی الولایه.

قوله تعالی: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلی بِبَعْضٍ فِی کِتابِ اللّهِ الی آخر الآیه؛جعل للولایه بین أولی الأرحام و القرابات،و هی ولایه الإرث فان سائر أقسام الولایه لا ینحصر فیما بینهم.

و الآیه تنسخ ولایه الإرث بالمؤاخاه التی أجراها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بین المسلمین فی اول الهجره، و تثبت الإرث بالقرابه سواء کان هناک ذو سهم او لم یکن او کان عصبه او لم یکن فالآیه مطلقه کما هو ظاهر (۱).

ص :۷۰۸

۱- ۱) .الانفال ۷۲-۷۵:بحث روائی فی اولی الارحام.

سوره التوبه مدنیه و هی مائه و تسع و عشرون آیه

اشاره

[سوره التوبه (۹): الآیات ۱ الی ۱۶]

اشاره

بَرٰاءَهٌ مِنَ اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى اَلَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (۱) فَسِيحُوا فِى اَلْأَرْضِ أَرْبَعَهَ أَشْهُرٍ وَ اِعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اَللّٰهِ وَ أَنَّ اَللّٰهَ مُخْزِى اَلْكٰافِرِينَ (۲) وَ أَذٰانٌ مِنَ اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى اَلنّٰاسِ يَوْمَ اَلْحَجِّ اَلْأَكْبَرِ أَنَّ اَللّٰهَ بَرِىءٌ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اَللّٰهِ وَ بَشِّرِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ (۳) إِلاَّ اَلَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظٰاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلْمُتَّقِينَ (۴) فَإِذَا اِنْسَلَخَ اَلْأَشْهُرُ اَلْحُرُمُ فَاقْتُلُوا اَلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ اُحْصُرُوهُمْ وَ اُقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تٰابُوا وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰهَ وَ آتَوُا اَلزَّكٰاهَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵) وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ اِسْتَجٰارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّٰى يَسْمَعَ كَلاٰمَ اَللّٰهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَعْلَمُونَ (۶) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ اَلَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ عِنْدَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ فَمَا اِسْتَقٰامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلْمُتَّقِينَ (۷) كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاٰ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَ لاٰ ذِمَّهً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ تَأْبىٰ قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فٰاسِقُونَ (۸) اِشْتَرَوْا بِآيٰاتِ اَللّٰهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سٰاءَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۹) لاٰ يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لاٰ ذِمَّهً وَ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْمُعْتَدُونَ (۱۰) فَإِنْ تٰابُوا وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰهَ وَ آتَوُا اَلزَّكٰاهَ فَإِخْوٰانُكُمْ فِى اَلدِّينِ وَ نُفَصِّلُ اَلْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۱۱) وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمٰانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقٰاتِلُوا أَئِمَّهَ اَلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاٰ أَيْمٰانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (۱۲) أَ لاٰ تُقٰاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمٰانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْرٰاجِ اَلرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۳) قٰاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اَللّٰهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (۱۴) وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ اَللّٰهُ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۵) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمّٰا يَعْلَمِ اَللّٰهُ اَلَّذِينَ جٰاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ لاٰ رَسُولِهِ وَ لاَ اَلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَهً وَ اَللّٰهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (۱۶)

ص: ۷۰۹

بیان:

قوله تعالی: بَرَاءَةٌ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَی الَّذِینَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِکِینَ قال الراغب:أصل البرء و البراء و التبرّی:التفصی مما یکره مجاورته،و لذلک قیل:برأت من المرض و برأت من فلان و تبرأت،و أبرأته من کذا و برّأته،و رجل بریء و قوم براء و بریئون قال تعالی:براءه من اللّه و رسوله.انتهی.

و الآیه بالنسبه الی الآیات التالیه کالعنوان المصدر به الکلام المشیر الی خلاصه القول علی نهج سائر السور المفصله التی تشیر الآیه و الآیتان من اولها علی إجمال الغرض المسرود لأجل بیانه آیاتها.

و الخطاب فی الآیه للمؤمنین او للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و لهم علی ما یدل علیه قوله: «عَاهَدْتُمْ» و قد أخذ اللّه تعالی و منه الخطاب و رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلم و هو الواسطه،و المشرکون و هم الذین أریدت البراءه منهم،و وجه الخطاب لیبلغ الیهم جمیعا فی الغیبه،و هذه الطریقه فی الأحکام و الفرامین المراد إیصالها الی الناس نوع تعظیم لصاحب الحکم و الأمر.

ص: ۷۱۱

و الآيه تتضمن إنشاء الحكم و القضاء بالبراءه من هؤلاء المشركين و ليس بتشريع محض بدليل تشريكه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى البراءه فان دأب القرآن ان ينسب الحكم التشريعى المحض الى اللّه سبحانه وحده،و قد قال تعالى: وَ لاٰ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (الكهف۲۶/)و لا ينسب الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلاّ الحكم بالمعنى الذى فى الولايه و السياسه و قطع الخصومه.

فالمراد بالآيه القضاء برفع الأمان عن الذين عاهدوهم من المشركين و ليس رفعا جزافيا و إبطالا للعهد من غير سبب يبيح ذلك فان اللّه تعالى سيذكر بعد عده آيات أنهم لا وثوق بعهدهم الذى عاهدوه و قد فسق اكثرهم و لم يراعوا حرمه العهد و نقضوا ميثاقهم،و قد أباح تعالى عند ذلك إبطال العهد بالمقابله نقضا بنقض حيث قال: وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيٰانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلىٰ سَوٰاءٍ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْخٰائِنِينَ (الأنفال۵۸/)فأباح إبطال العهد عند مخافه الخيانه و لم يرض مع ذلك إلاّ بابلاغ النقض اليهم لئلا يؤخذوا على الغفله فيكون ذلك من الخيانه المحظوره.

و لو كان إبطالا لعهدهم من غير سبب مبيح لذلك من قبل المشركين لم يفرق بين من دام على عهده منهم و بين من لم يدم عليه،و قد قال تعالى مستثنيا: «إِلاَّ الَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظٰاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» .

و لم يرض تعالى بنقض عهد هؤلاء المعاهدين الناقضين لعهدهم دون ان ضرب لهم أجلا ليفكروا فى أمرهم و يرتئوا رأيهم و لا يكونوا مأخوذين بالمباغته و المفاجأه.

فمحصل الآيه الحكم ببطلان العهد و رفع الأمان عن جماعه من المشركين كانوا قد عاهدوا المسلمين ثم نقضه اكثرهم و لم يبق الى من بقى منهم وثوق تطمئن به النفس الى عهدهم و تعتمد على يمينهم و تأمن شرهم و أنواع مكرهم.

قوله تعالى: فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّٰهِ وَ أَنَّ اللّٰهَ مُخْزِي الْكٰافِرِينَ السياحه هى السير فى الأرض و الجرى و لذلك يقال

للماء الدائم الجريه فى ساحه:السائح.

و أمرهم بالسياحه اربعه اشهر كنايه عن جعلهم فى مأمن فى هذه البرهه من الزمان و تركهم بحيث لا يتعرض لهم بشرّ حتى يختاروا ما يرونه أنفع بحالهم من البقاء او الفناء مع ما فى قوله:

«وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ» من إعلامهم ان الأصلح بحالهم رفض الشرك،و الإقبال الى دين التوحيد،و موعظتهم ان لا يهلكوا أنفسهم بالاستكبار و التعرض للخزى الإلهى.

و قد وجه فى الآيه الخطاب إليهم بالالتفات من الغيبه الى الخطاب لما فى توجيه الخطاب القاطع و الإراده الجازمه الى الخصم من الدلاله على بسط الاستيلاء و الظهور عليه و استذلاله و استحقار ما عنده من قوه و شده.

قوله تعالى: وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ الأذان هو الإعلام،و ليست الآيه تكرارا لقوله تعالى السابق: «بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» فإن الجملتين و ان رجعتا الى معنى واحد و هو البراءه من المشركين إلاّ ان الآيه الاولى إعلام البراءه و إبلاغه الى المشركين بدليل قوله فى ذيل الآيه:

«إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» بخلاف الآيه الثانيه فإن وجه الخطاب فيه الى الناس ليعلموا براءه اللّه و رسوله من المشركين،و يستعدوا و يتهيئوا لإنفاذ أمر اللّه فيهم بعد انسلاخ الاشهر الحرم بدليل قوله: «إِلَى النّاسِ» و قوله تفريعا: «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» الى آخر الآيه.

و قد اختلفوا فى تعيين المراد بيوم الحج الاكبر على أقوال:

منها:أنه يوم النحر من سنه التسع من الهجره لأنه كان يوما اجتمع فيه المسلمون و المشركون و لم يحج بعد ذلك العام مشرك،و هو المؤيد بالأحاديث المرويه عن أئمه اهل البيت عليهم السّلام و الأنسب بأذان البراءه،و الاعتبار يساعد عليه لأنه كان اكبر يوم اجتمع فيه

المسلمون و المشركون من اهل الحج عامه بمنى و قد ورد من طرق اهل السنّه روايات فى هذا المعنى غير ان مدلول جلها أن الحج الاكبر اسم يوم النحر فيتكرر على هذا كل سنه و لم ثبت من طريق النقل تسميه على هذا النحو.

و منها:أنه يوم عرفه لأن فيه الوقوف،و الحج الاصغر هو الذى ليس فيه وقوف و هو العمره،و هو استحسان لا دليل عليه،و لا سبيل الى تشخيص صحته.

و منها:أنه اليوم الثانى ليوم النحر لأن الإمام يخطب فيه و سقم هذا الوجه ظاهر.

و منها:أنه جميع ايام الحج كما يقال:يوم الجمل،و يوم صفين،و يوم بغاث،و يراد به الحين و الزمان،و هذا القول لا يقابل سائر الاقوال كل المقابله فانه انما يبين أن المراد باليوم جميع ايام الحج،و أما وجه تسميه هذا الحج بالحج الاكبر فيمكن أن يوجه ببعض ما فى الاقوال السابقه كما فى القول الاول.

و كيف كان فالاعتبار لا يساعد على هذا القول لأن وجود يوم بين ايام الحج يجتمع فيه عامه اهل الحج يتمكن فيه من أذان براءه كل التمكن كيوم النحر يصرف قوله: «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» الى نفسه،و يمنع شموله لسائر ايام الحج التى لا يجتمع فيها الناس ذاك الاجتماع.

ثم التفت سبحانه الى المشركين ثانيا و ذكّرهم أنهم غير معجزين للّه ليكونوا على بصيره من امرهم كما ذكّرهم بذلك فى الآيه السابقه بقوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّٰهِ وَ أَنَّ اللّٰهَ مُخْزِي الْكٰافِرِينَ» غير انه زاد عليه فى هذه الآيه قوله: «فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» ليكون تصريحا بما لوّح اليه فى الآيه السابقه فان التذكير بأنهم غير معجزى اللّه انما كان بمنزله العظه و بذل النصح لهم لئلا يلقوا بأيديهم الى التهلكه باختيار البقاء على الشرك و التولى عن الدخول فى دين التوحيد ففى الترديد تهديد و نصيحه و عظه.

ثم التفت سبحانه الى رسوله فخطابه ان يبشر الذين كفروا بعذاب أليم فقال: «وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ» و الوجه فى الالتفات الذى فى قوله: «فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» الخ؛ما

تقدم فی قوله: «فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ» الخ؛و فی الالتفات الذی فی قوله: «وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛أنه رساله لا تتم إلاّ من جهه مخاطبه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

قوله تعالی: إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً الخ؛استثناء من عموم البراءه من المشرکین،و المستثنون هم المشرکون الذین لهم عهد لم ینقضوه لا مستقیما و لا غیر مستقیم فمن الواجب الوفاء بمیثاقهم و إتمام عهدهم الی مدتهم.

و قد ظهر بذلک أن المراد من اضافه قوله: «وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً» الی قوله: «لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً» استیفاء قسمی النقض و هما النقض المستقیم کقتلهم بعض المسلمین، و النقض غیر المستقیم نظیر مظاهرتهم بعض اعداء المسلمین علیهم کإمداد مشرکی مکه بنی بکر علی خزاعه بالسلاح،و کانت بنو بکر فی عهد قریش و خزاعه فی عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فحاربوا فأعانت قریش بنی بکر علی خزاعه و نقضت بذلک عهد حدیبیه الذی عقدوه بینهم و بین النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و کان ذلک من اسباب فتح مکه سنه ثمان.

و قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ فی مقام التعلیل لوجوب الوفاء بالعهد ما لم ینقضه المعاهد المشرک،و ذلک یجعل احترام العهد و حفظ المیثاق احد مصادیق التقوی المطلق الذی لا یزال یأمر به القرآن و قد صرح به فی نظائر هذا المورد کقوله تعالی: وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلىٰ أَلاّٰ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ (المائده۸/)و قوله: وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ أَنْ تَعْتَدُوا،وَ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوىٰ وَ لاٰ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ (المائده۲/).

و بذلک یظهر ما فی قول بعضهم:إن المراد بالمتقین الذین یتقون نقض العهد من غیر سبب، و ذلک أن التقوی بمعنی الورع عن محارم اللّه عامه کالحقیقه الثانیه فی القرآن فیحتاج إراده خلافه الی قرینه صارفه.

قوله تعالی: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ کُلَّ مَرْصَدٍ أصل الانسلاخ من سلخ الشاه و هو نزع جلدها عنها،و انسلاخ الشهر نوع کنایه عن خروجه،و الحصر هو المنع من الخروج عن محیط،و المرصد اسم مکان من الرصد بمعنی الاستعداد للرقوب.

قال الراغب:الرصد الاستعداد للترقّب یقال:رصد له و ترصّد و أرصدته له،قال عزّ و جلّ: «وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ» و قوله عزّ و جل: «إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ» تنبیها أنه لا ملجأ و لا مهرب،و الرصد یقال للراصد الواحد و الجماعه الراصدین و للمرصود واحدا کان او جمعا،و قوله تعالی: «یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً» یحتمل کل ذلک، و المرصد موضع الرصد.انتهی.

و المراد بالأشهر الحرم هی الأربعه الأشهر:أشهر السیاحه التی ذکرها اللّه سبحانه فی قوله: «فَسِیحُوا فِی الْأَرْضِ أَرْبَعَهَ أَشْهُرٍ» و جعلها أجلا مضروبا للمشرکین لا یتعرّض فیها لحالهم و أما الأشهر الحرم المعروفه أعنی ذا القعده و ذا الحجه و المحرم فإنها لا تنطبق علی أذان براءه الواقع فی یوم النحر عاشر ذی الحجه بوجه کما تقدمت الإشاره إلیه.

و علی هذا فاللام فی الأشهر الحرم للعهد الذکری أی اذا انسلخ هذه الأشهر التی ذکرناها و حرمناها للمشرکین لا یتعرّض لحالهم فیها فاقتلوا المشرکین،الخ.

و یظهر بذلک ان لا وجه لحمل قوله: «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ» علی انسلاخ ذی القعده و ذی الحجه و المحرم بأن یکون انسلاخ الاربعه الأشهر بانسلاخ الأشهر الثلاثه منطبقا علیه او یکون انسلاخ الأشهر الحرم مأخوذا علی نحو الإشاره الی انقضاء الاربعه الاشهر و ان لم ینطبق الاشهر علی الاشهر فان ذلک کله مما لا سبیل الیه بحسب السیاق و ان کان لفظ الاشهر الحرم فی نفسه ظاهرا فی شهور رجب و ذی القعده و ذی الحجه و المحرم.

و قوله: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» محقق للبراءه منهم و رفع الاحترام عن

نفوسهم باهدار الدماء فلا مانع من ای نازله نزلت بهم،و فی قوله: «حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» تعميم للحكم فلا مانع حاجب عن وجوب قتلهم حيثما وجدوا فی حل او حرم بل و لو ظفر بهم فی الشهر الحرام-بناء علی تعميم «حَيْثُ» للزمان و المكان كليهما-فيجب علی المسلمين كائنين من كانوا اذا ظفروا بهم ان يقتلوهم،كان ذلک فی الحل او الحرم فی الشهر الحرام او غيره.

و انما امر بقتلهم حيث وجدوا للتوسّل بذلک الی إيرادهم مورد الفناء و الانقراض، و تطييب الارض منهم،و إنجاء الناس من مخالطتهم و معاشرتهم بعد ما سمح و أبيح لهم ذلک فی قوله: «فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» .

و لازم ذلک أن يكون كل من قوله: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» و قوله «وَ خُذُوهُمْ» و قوله: «وَ احْصُرُوهُمْ» و قوله: «وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ» بيانا لنوع من الوسيله الی افناء جمعهم و انفاد عددهم،ليتفصّی المجتمع من شرهم.

فان ظفر بهم و أمكن قتلهم قتلوا،و ان لم يمكن ذلک قبض عليهم و أخذوا،و ان لم يمكن أخذهم حصروا و حبسوا فی كهفهم و منعوا من الخروج الی الناس و مخالطتهم و ان لم يعلم محلهم قعد لهم فی كل مرصد ليظفر بهم فيقتلوا او يؤخذوا.

و لعل هذا المعنی هو مراد من قال:ان المراد:فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم او خذوهم و احصروهم علی وجه التخيير فی اعتبار الاصلح من الامرين،و ان كان لا يخلو عن تكلّف من جهه اعتبار الاخذ و الحصر و القعود فی كل مرصد امرا واحدا فی قبال القتل،و كيف كان فالسياق إنما يلائم ما قدمناه من المعنی.

و اما قول من قال:ان فی قوله:فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم و خذوهم،تقديما و تأخيرا،و التقدير:فخذوا المشركين حيث وجدتموهم و اقتلوهم فهو من التصرّف فی معنی الآيه من غير دليل مجوّز،و الآيه و خاصه ذيلها يدفع ذلک سياقا.

و معنى الآيه:فاذا انسلخ الاشهر الحرم و انقضى الاربعه الاشهر التى امهلناهم بها بقولنا «فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» فأفنوا المشركين بأى وسيله ممكنه رأيتموها اقرب و أوصل الى إفناء جمعهم و إمحاء رسمهم من قتلهم اينما وجدتموهم من حل او حرم و متى ما ظفرتم بهم فى شهر حرام او غيره،و من أخذهم او حصرهم او القعود لهم فى كل مرصد حتى يفنوا عن آخرهم.

قوله تعالى: فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ اشتراط فى معنى الغايه للحكم السابق،و المراد بالتوبه معناها اللغوى و هو الرجوع اى ان رجعوا من الشرك الى التوحيد بالايمان و نصبوا لذلك حجه من اعمالهم و هى الصلاه و الزكاه و التزموا احكام دينكم الراجعه الى الخالق جميعا فخلوا سبيلهم.

و تخليه السبيل كنايه عن عدم التعرض لسالكيه و ان عادت مبتذله بكثره التداول كأن سبيلهم مسدوده مشغوله بتعرّض المتعرضين فاذا خلّى عنها كان ذلك ملازما او منطبقا على عدم التعرض لهم.

و قوله: «إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» تعليل لقوله: «فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ» إما من جهه الأمر الذى يدل عليه بصورته او من جهه المأمور به الذى يدل عليه بمادته اعنى تخليه سبيلهم.

و المعنى على الاول:و إنما امر اللّٰه بتخليه سبيلهم لانه غفور رحيم يغفر لمن تاب اليه و يرحمه.

و على الثانى:خلّوا سبيلهم لان تخليتكم سبيلهم من المغفره و الرحمه،و هما من صفات اللّٰه العليا فتتصفون بذلك بصفه ربكم،و أظهر الوجهين هو الاول.

قوله تعالى: وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّٰهِ الى آخر الآيه؛الآيه تتضمن حكم الإجاره لمن استجار من المشركين لان يسمع كلام اللّٰه،و هى بما تشتمل عليه من الحكم و ان كانت معترضه او كالمعترضه بين ما يدل على البراءه

و رفع الامان عن المشركين إلّا أنها بمنزله دفع الدخل الواجب الذى لا يجوز إهماله فان أساس هذه الدعوه الحقه و ما يصاحبها من الوعد و الوعيد و التبشير و الانذار،و ما يترتب عليه من عقد العقود و إبرام العهود او النقض و البراءه و احكام القتال كل ذلک انما هو لصرف الناس عن سبيل الغى و الضلال الى صراط الرشد و الهدى،و انجائهم من شقاء الشرک الى سعاده التوحيد.

و لازم ذلک الاعتناء التام بكل طريق يرجى فيه الوصول الى هدايه ضال و الفوز باحياء حق و ان كان يسيرا قليلا فان الحق حق و ان كان يسيرا،و المشرک غير المعاهد و إن أبرأ اللّه منه الذمه و أهدر دمه و رفع الحرمه عن كل ما يعود اليه من مال و عرض لكنه تعالى إنما فعل به ذلک ليحيى حق و يبطل باطل فاذا رجى منه الخير منع ذلک من اى قصد سيئ يقصد به حتى يحصل اليأس عن هدايته و انجائه.

فاذا استجار المشرک لينظر فيما تندب اليه الدعوه الحقه و يتبعها ان اتضحت له كان من الواجب اجارته حتى يسمع كلام اللّه و يرتفع عنه غشاوه الجهل و تتم عليه الحجه فاذا تمادى بعد ذلک فى ضلاله و أصر فى استكباره صار ممن ارتفع عنه الأمان و برأت منه الذمه و وجب تطييب الارض من قذاره وجوده بأيه وسيله امكنت و اى طريق كان اقرب و اسهل و هذا هو الذى يفيده قوله تعالى: «وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَکَ فَأَجِرْهُ حَتّی يَسْمَعَ كَلامَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ» الآيه؛بما يكتنف به من الآيات.

فمعنى الآيه:ان طلب منک بعض هؤلاء المشركين الذين رفع عنهم الأمان أن تأمنه فى جوارک ليحضر عندک و يكلمک فيما تدعو اليه من الحق الذى يتضمنه كلام اللّه فأجره حتى يسمع كلام اللّه و يرتفع عنه غشاوه الجهل ثم أبلغه مأمنه حتى يملک منک أمنا تاما كاملا،و إنما شرع اللّه هذا الحكم و بذل لهم هذا الامن التام لانهم قوم جاهلون و لا بأس على جاهل اذا رجى منه الخير بقبول الحق لو وضح له.

ص: ٧١٩

و هذا غایه ما یمکن مراعاته من اصول الفضیله و حفظ الکرامه و نشر الرحمه و الرأفه و شرافه الانسانیه اعتبره القرآن الکریم،و ندب الیه الدین القویم.

قوله تعالی: کَیْفَ یَکُونُ لِلْمُشْرِکِینَ عَهْدٌ عِنْدَ اللّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ الآیه؛ تبیین و توضیح لما مر إجمالا من الحکم بنقض عهد المشرکین ممن لا وثوق بوفائه بعهده، و قتلهم الی ان یؤمنوا باللّه و یخضعوا لدین التوحید،و استثناء من لم ینقض العهد و بقی علی المیثاق حتی ینقضی مده عهدهم.

فالآیه و ما یتلوها الی تمام ست آیات تبین ذلک و توضح الحکم و استثناء ما استثنی منه و الغایه و المغیّی جمیعا.

فقوله: «کَیْفَ یَکُونُ لِلْمُشْرِکِینَ عَهْدٌ عِنْدَ اللّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ» استفهام فی مقام الإنکار،و قد بادرت الآیه الی استثناء الذین عاهدوهم من المشرکین عند المسجد الحرام لکونهم لم ینقضوا عهدا و لم یساهلوا فیما واثقوا به بدلیل قوله تعالی: «فَمَا اسْتَقامُوا لَکُمْ فَاسْتَقِیمُوا لَهُمْ» و ذلک أن الاستقامه لمن استقام و السلم لمن یسالم من لوازم التقوی الدینی،و لذلک علل قوله ذلک بقوله:

«إِنَّ اللّهَ یُحِبُّ الْمُتَّقِینَ» کما جاء مثله بعینه فی الآیه السابقه: «فَأَتِمُّوا إِلَیْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلی مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ یُحِبُّ الْمُتَّقِینَ» .

قوله تعالی: کَیْفَ وَ إِنْ یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ لا یَرْقُبُوا فِیکُمْ إِلاًّ وَ لا ذِمَّهً الی آخر الآیه؛قال الراغب فی المفردات:الإلّ کل حاله ظاهره من عهد حلف،و قرابه تئلّ:تلمع فلا یمکن انکاره،قال تعالی:لا یرقبون فی مؤمن إلاّ و لا ذمه،و ألّ الفرس:اسرع،حقیقته لمع، و ذلک استعاره فی باب الإسراع نحو برق و طار.انتهی.

و قال ایضا:الذمام-بکسر الذال-ما یذمّ الرجل علی إضاعته من عهد،و کذلک الذمه و المذمه،و قیل:لی مذمه فلا تهتکها،و أذهب مذمتهم بشیء:ای اعطهم شیئا لما لهم من الذمام.انتهی.و هو ظاهر فی أن الذمه مأخوذه من الذم بالمعنی الذی یقابل المدح.

و لعل إلقاء المقابله فى الآيه بين الإلّ و الذمه للدلاله على انهم لا يحفظون فى المؤمنين شيئا من المواثيق التى يجب رقوبها و حفظها سواء كانت مبنيه على اصول واقعيه تكوينيه كالقرابه التى توجب بوجه على القريب رعايه حال قريبه،او على الجعل و الاصطلاح كالعهود و المواثيق المعقوده بحلف و نحوه.

و قد كررت لفظه «كَيْفَ» للتأكيد و لرفع الإبهام فى البيان الناشىء من تخلل قوله: «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ» الآيه؛بطولها بين قوله: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ» الآيه؛و قوله: «وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ» الآيه.

فمعنى الآيه:كيف يكون للمشركين عهد عند اللّه و عند رسوله و الحال أنهم إن يظهروا عليكم و يغلبوكم على الامر لا يحفظوا و لا يراعوا فيكم قرابه و لا عهدا من العهود يرضونكم بالكلام المدلّس و القول المزوّق،و يأبى ذلك قلوبهم،و أكثرهم فاسقون.

و من هنا ظهر أن قوله: «يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ» من المجاز العقلى نسب فيه الإرضاء الى الأفواه و هو فى الحقيقه منسوب الى القول و الكلام الخارج من الأفواه المكوّن فيها.

و قوله: يُرْضُونَكُمْ الآيه؛تعليل لإنكار وجود العهد للمشركين و لذلك جىء به بالفصل،و التقدير:كيف يكون لهم عهد و هم يرضونكم بأفواههم و تأبى قلوبهم و أكثرهم فاسقون.

و أما قوله: «وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ» ففيه بيان أن أكثرهم ناقضون للعهد و الميثاق بالفعل من غير ان ينتظروا ظهورهم جميعا عليكم فالآيه توضح حال آحادهم و جميعهم بأن أكثرهم فاسقون بنقض العهد من غير ان يرقبوا فى مؤمن إلّا و لا ذمه،و لو انهم ظهروا عليكم جميعا لم يرقبوا فيكم الإلّ و الذمه.

قوله تعالى: اِشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً الى آخر الآيتين،بين و تفسير لقوله فى الآيه السابقه: «وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ» و كأن قوله: «اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً» الى آخر

الآیه توطئه و تمهید لقوله فی الآیه الثانیه: «لاٰ یَرْقُبُونَ فِی مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لاٰ ذِمَّهً» .

و بـذلک یظهر أن الأقرب أن المراد بالفسق الخروج عن العهد و الذمه دون الفسق بمعنی الخروج عن زی عبودیه اللّه سبحانه و إن کان الامر کذلک.

و قوله: وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ کالتفسیر لجمیع ما مر من أحوالهم الروحیه و أعمالهم الجسمیه،و تفید الجمله مع ذلک جوابا عن سؤال مقـدّر او مـا یجری مجراه و المعنی:اذا کـان هـذا حالهم و هـذه افعالهم فلا تحسبوا ان لو نقضـتم عهـدهم اعتـدیتم علیهم فاولئـک هم المعتـدون علیکم لما اضـمروه من العـداوه و البغضاء و لما اظهره اکثرهم فی مقام العمل من الصـد عن سبیل اللّه،و عدم رعایه قرابه و لا عهد فی المؤمنین.

قوله تعـالی: فَإِنْ تٰابُوا وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰهَ الی آخر الآیتین،الآیتان بیان تفصـیلی لقوله فیما تقـدم: «فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَیْرٌ لَکُمْ وَ إِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّکُمْ غَیْرُ مُعْجِزِی اللّٰهِ» .

و المراد بالتوبه بدلاله السیاق الرجوع الی الایمان باللّه و آیاته،و لذلک لم یقتصـر علی التوبه فقط بل عطف علیها إقامه الصـلاه التی هی أظهر مظاهر عباد اللّه،و إیتاء الزکاه الذی هو اقوی ارکان المجتمع الدینی،و قد أشـیر بهما الی نوع الوظائف الدینیه التی بإتیانها یتم الایمان بآیات اللّه بعد الایمان باللّه عز اسمه فهذا معنی قوله: «تٰابُوا وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰهَ وَ آتَوُا الزَّکٰاهَ» .

و امـا قوله: فَإِخْوٰانُکُمْ فِی الـدِّینِ فالمراد به بیان التساوی بینهم و بین سائر المؤمنین فی الحقوق التی یعتبرها الاسـلام فی المجتمع الاسلامی:لهم ما للمسلمین و علیهم ما علی المسلمین.

و قـد عبّر فی الآـیه عن ذلـک بالاخوّه فی الـدین،و قال فی موضع آخر: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَهٌ (الحجرات/۱۰)اعتبارا بما بینهم من التساوی فی الحقوق الدینیه فان الأخوین شـقیقان اشـتقا من ماده واحده و هما لذلک متساویان فی الشئون الراجعه الی ذلک فی مجتمع المنزل عند والدهما الذی هو رب البیت،و فی مجتمع القرابه عند الأقرباء و العشیره.

و إذا كـان لهـذا المعنى المسمّى بلسـان الـدين أخوّه أحكـام و آثـار شـرعيه اعتنى بها قانون الاسـلام فهو اعتبار حقيقه لنوع من الاخوّه بين افراد المجتمع الاسـلامى لها آثار مترتبه كما أن الاخوّه الطبيعيه فيما اعتبرها الاسـلام لها آثار مترتبه عقلائيه و دينيه و ليست تسـميه ذلك أخوّه مجرد اسـتعاره لفظيه عن عنايه مجازيه،و فيما نقل عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم:قوله:«المؤمنون إخوه يسعى بذمتهم أدناهم،و هم يد واحده على من سواهم».

و قوله: وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمٰانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقٰاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاٰ أَيْمٰانَ لَهُمْ الآيه؛يـدل السـياق أنهم غير المشـركين الذين أمر اللّه سبحانه فى الآيه السابقه بنقض عهدهم و ذكر انهم هم المعتدون لا يرقبون فى مؤمن إلّا و لا ذمه فانهم ناكثون للأيمان ناقضون للعهد،فلا يستقيم فيهم الاشتراط الذى ذكره اللّه سبحانه بقوله:

«وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمٰانَهُمْ» الآيه.

فهؤلاء قوم آخرون لهم مع ولى الأمر من المسلمين عهود و أيمان ينكثون أيمانهم من بعد عهدهم،أى ينقضون عهودهم من بعد عقـدها فـأمر اللّه سـبحانه بقتـالهم و ألغى أيمـانهم و سـمّاهم أئمه الكفر لأـنهم السابقون فى الكفر بآيات اللّه يتّبعهم غيرهم ممن يليهم،يقاتلون جميعا لعلهم ينتهون عن نكث الأيمان و نقض العهود.

قوله تعـالى: أَ لاٰ تُقٰاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمٰانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْرٰاجِ الرَّسُولِ الآيه؛و ما بعـدها الى تمام اربع آيات تحريض للمؤمنين و تهييـج لهم على قتال المشـركين ببيان ما اجرموا به فى جنب اللّه و خانوا به الحق و الحقيقه،و عدّ خطاياهم و طغياناتهم من نكث الأيمان و الهمّ بإخراج الرسول و البدء بالقتال اول مره.

ثم بتعريف المؤمنين أن لازم إيمانهم باللّه الذى يملك كل خير و شـر و نفع و ضـر أن لا يخشوا إلّا إياه ان كانوا مؤمنين به ففى ذلك تقويه لقلوبهم و تشـجيعهم عليهم،و ينتهى الى بيان أنهم ممتحنون من عند اللّه بإخلاص الإيمان له و القطع من المشـركين حتى يؤجروا بما يؤجر به المؤمن

المتحقق فى ايمانه.

قوله تعالى: قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ الى آخر الآيتين.أعاد الأمر بالقتال لأنه صار من جهه ما تقدم من التحريض و التحضيض اوقع فى القبول فان الأمر الاول كان ابتدائيا غير مسبوق بتمهيد و توطئه بخلاف الامر الثانى الوارد بعد اشتداد الاستعداد و كمال التهيؤ من المأمورين.

على ان ما أتبع به الامر من قوله: «يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ» الى قوله: «وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ» يؤكد الامر و يغرى المأمورين على امتثاله و إجرائه على المشركين فان تذكّرهم أن قتل المشركين عذاب إلهى لهم بأيدى المؤمنين،و أن المؤمنين أياد مجريه للّه سبحانه و أن فى ذلك خزيا للمشركين و نصره من اللّه للمؤمنين عليهم و شفاء لصدور قوم مؤمنين و اذهابا لغيظ قلوبهم،يجرّئهم للعمل و ينشطهم و يصفى إرادتهم.

و قوله: «وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ» الآيه بمنزله الاستثناء لئلا يجرى حكم القتال على إطلاقه.

قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمّٰا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جٰاهَدُوا مِنْكُمْ الى آخر الآيه؛بمنزله تعليل آخر لوجوب قتالهم لينتج تحريضهم على القتال و فيه بيان حقيقه الامر،و محصله أن الدار دار الامتحان و الابتلاء فان نفوس الآدميين تقبل الخير و الشر و السعاده و الشقاوه فهى فى اول كينونتها ساذجه مبهمه،و مراتب القرب و الزلفى إنما تبذل بإزاء الايمان الخالص باللّه و آياته،و لا يظهر صفاء الايمان إلاّ بالامتحان الذى يورد المؤمن مقام العمل،ليميز اللّه بذلك الطيب من الخبيث،و الصافى الإيمان ممن ليس عنده إلاّ مجرد الدعوى او المزعمه.

فمن الواجب أن يمتحن هؤلاء المدّعون أنهم باعوا أنفسهم و أموالهم للّه بأن لهم الجنه، و يبتلوا بمثل القتال الذى يميز به الصادق من الكاذب و يفصل الذى قطع روابط المحبه و الصله

من أعداء اللّه سبحانه ممن فى قلبه بقايا من ولايتهم و مودتهم حتى يحيى هؤلاء و يهلك أولئك.

فعلى المؤمنين أن يمتثلوا أمر القتال بل يتسارعوا اليه و يتسابقوا فيه ليظهروا بذلك صفاء جوهرهم و حقيقه إيمانهم و يحتجوا به على ربهم يوم لا نجاح فيه إلّا بحجه الحق.

فقوله: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا» أى بل أ ظننتم ان تتركوا على ما أنتم عليه من الحال و لما تظهر حقيقه صدقكم فى دعوى الإيمان باللّه و بآياته.

و قوله: «وَ لَمّا يَعْلَمِ اللّهُ» الآيه اى و لما يظهر فى الخارج جهادكم و عدم اتخاذكم من دون اللّه و لا رسوله و لا المؤمنين وليجه فإن تحقق الأشياء علم منه تعالى بها و قد مر نظير الكلام مع بسط ما فى تفسير قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّهَ وَ لَمّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ الآيه(آل عمران/١۴٢)فى الجزء الرابع من الكتاب.و من الدليل على هذا الذى ذكرنا فى معنى العلم قوله فى ذيل الآيه: «وَ اللّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ» .

و الوليجه على ما فى مفردات الراغب كل ما يتخذه الإنسان معتمدا عليه و ليس من اهله (١)(٢)(٣).

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٧ الى ٢۴]

اشاره

ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اَللّهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَ فِى اَلنّارِ هُمْ خالِدُونَ (١٧) إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اَللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ أَقامَ اَلصَّلاهَ وَ آتَى اَلزَّكاهَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلاَّ اَللّهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ اَلْمُهْتَدِينَ (١٨) أَ جَعَلْتُمْ سِقايَهَ اَلْحاجِّ وَ عِمارَهَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ جاهَدَ فِى سَبِيلِ اَللّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اَللّهِ وَ اَللّهُ لا يَهْدِى اَلْقَوْمَ اَلظّالِمِينَ (١٩) اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِى سَبِيلِ اَللّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَهً عِنْدَ اَللّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ اَلْفائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَهٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اَللّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اِسْتَحَبُّوا اَلْكُفْرَ عَلَى اَلْإِيمانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ اَلظّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ وَ إِخْوانُكُمْ وَ أَزْواجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوالٌ اِقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَهٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَ مَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اَللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّى يَأْتِىَ اَللّهُ بِأَمْرِهِ وَ اَللّهُ لا يَهْدِى اَلْقَوْمَ اَلْفاسِقِينَ (٢۴)

١- ١) .التوبه ١-١۶:بحث روائى فى سنه العرب فى الحج و طواف البيت؛القتال فى سيره رسول اللّه؛نزول آيات البراءه؛ نزول جبرئيل على ان تبليغ آيات البراءه يتم بواسطه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم او رجل منه؛عزل ابى بكر عن تبليغ آيات البراءه و انتخاب على عليه السّلام؛الغاء السنه الجاهليه؛آراء بعض المفسرين الخاطئه فى قصّ عزل أبى بكر و انتخاب على عليه السّلام لتبليغ الاحكام الالهيه و الرّد على هذه الآراء؛يوم الحج الاكبر؛الاشهر الحرم؛ائمه الكفر.

۲- ۲) .التوبه ۱-۱۶:کلام فی معنی العهد و اقسامه و احکامه.

۳- ۳) .التوبه ۱-۱۶:کلام فی نسبه الاعمال الی الاسباب طولا.

بیان:

قوله تعالی: مٰا کٰانَ لِلْمُشْرِکِینَ أَنْ یَعْمُرُوا مَسٰاجِدَ اللّٰهِ شٰاهِدِینَ عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْکُفْرِ العماره ضد الخراب یقال:عمر الأرض اذا بنی بهـا بناء،و عمر البیت اذا اصلح ما أشرف منها علی الفساد،و التعمیر بمعناه و منه العمر لأنه عماره البدن بالروح، و العمره بمعنی زیاره البیت الحرام لأن فیها تعمیره.

و المسجد اسم مکان بمعنی المحل الذی یتعلق به السجده کالبیت الذی یبنی لیسجد فیه اللّه تعالی،و أعضاء السجده التی تتعلق بها السجده نوع تعلق و هی الجبهه و الکفان و الرکبتان و رءوس إبهامی القدمین.

و قوله: «مٰا کٰانَ لِلْمُشْرِکِینَ» الآیه؛لنفی الحق و الملک فإن اللام للملک و الحق،و النفی الحالی للکون السابق یفید أنه لم یتحقق منهم سبب سابق یوجب لهم أن یملکوا هذا الحق و هو حق ان یعمروا مساجد اللّه و یرمّوا ما استرمّ منها أو یزوروها کقوله تعالی: مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ (الأنفال۶۷/)و قوله: وَ مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَغُلَّ (آل عمران۱۶۱/).

و المراد بالعماره فی قوله: «أَنْ یَعْمُرُوا» إصلاح ما أشرف علی الخراب من البناء ورم ما استرم منه دون عماره المسجد بالزیاره فإن المراد بمساجد اللّه هی المسجد الحرام و کل مسجد للّه و لا عمره فی غیر المسجد الحرام،و الدخول فی المساجد للعباده فیها و إن أمکن ان یسمی عماره و زیاره لکن التعبیر المعهود من القرآن فیه الدخول.

علی أن فی قوله فی الآیه الآتیه: «أَ جَعَلْتُمْ سِقٰایَةَ الْحٰاجِّ وَ عِمٰارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ» تأییدا ما لکون المراد بالعماره هو إصلاح البناء دون زیاره البیت الحرام.

و المراد بمساجد اللّه بیوت العباده المبنیه للّه لکن السیاق یدل علی أن المراد نفی جواز عمارتهم للمسجد الحرام،و یؤید قراءه من قرأ «أن یعمروا مسجد اللّه» بالإفراد.

و لا ضير فی التعبير بالجمع و المقصود الأصيل بيان حكم فرد خاص من أفراده لأن الملاك عام،و التعليل الوارد فی الآيه غير مقيد بخصوص المسجد الحرام فالكلام فی معنی:ما كان لهم ان يعمروا المسجد الحرام لأنه مسجد و المساجد من شأنها ذلك.

و قوله: «شاهِدِينَ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ» المراد بالشهاده أداؤها و هو الاعتراف إما قولا كمن يعترف بالكفر لفظا،و إما فعلا كمن يعبد الأصنام و يتظاهر بكفره فكل ذلك من الشهاده و الملاك واحد.

فمعنی الآيه:لا يحق و لا يجوز للمشركين أن يرمّوا ما استرمّ من المسجد الحرام كسائر مساجد اللّه و الحال أنهم معترفون بالكفر بدلاله قولهم أو فعلهم.

قوله تعالی: أُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ وَ فِي النّٰارِ هُمْ خٰالِدُونَ فی مقام التعليل لما أفيد من الحكم فی قوله: «مٰا كٰانَ» الخ؛و لذلك جیء به بالفصل دون الوصل.

و المراد بالجمله الاولی بيان بطلان الأثر و ارتفاعه عن أعمالهم،و العمل إنما يؤتی به للتوسل به الی أثر مطلوب،و اذ كانت أعمالهم حابطه لا أثر لها لم يكن ما يجوز لهم الإتيان بها،و الأعمال العباديه كعماره مساجد اللّه إنما تقصد لما يطمع فيه و يرجی من أثرها و هو السعاده و الجنه، و العمل الحابط لا يتعقب سعاده و لا جنه البته.

و المراد بالجمله الثانيه بيان ظرفهم الذی يستقرون فيه لو لا السعاده و الجنه و هو النار فكأنه قيل:اولئك لا يهديهم أعمالهم العباديه الی الجنه بل هم فی النار الخالده،و لا تفيد لهم سعاده بل هم فی الشقاوه المؤبده.

و فی الآيه دلاله علی أصلين لطيفين من أصول التشريع:

أحدهما:أن تشريع الجواز بالمعنی الأعم الشامل للواجبات و المستحبات و المباحات يتوقف علی أثر فی الفعل ينتفع به فاعله فلا لغو مشروعا فی الدين،و هذا أصل يؤيده العقل، و هو منطبق علی الناموس الجاری فی الكون:أن لا فعل إلاّ لنفع عائد الی فاعله.

و ثانیهما:ان الجواز فی جمیع موارده مسبوق بحق مجعول من اللّه لفاعله فی أن یأتی بالفعل من غیر مانع.

قوله تعالی: إِنَّمٰا یَعْمُرُ مَسٰاجِدَ اللّٰهِ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ الآیه السیاق کاشف عن ان الحصر من قبیل قصر الإفراد کأن متوهما یتوهم أن للمشرکین و المؤمنین جمیعا أن یعمروا مساجد اللّه فافرد و قصر ذلک فی المؤمنین،و لازم ذلک ان یکون المراد بقوله: «یَعْمُرُ» إنشاء الحق و الجواز فی صوره الإخبار دون الإخبار،و هو ظاهر.

و قد اشترط سبحانه فی ثبوت حق العماره و جوازها أن یتّصف العامر بالإیمان باللّه و الیوم الآخر قبال ما نفی عن المشرکین ان یکون لهم ذلک و لم یقنع بالإیمان باللّه وحده لأن المشرکین یذعنون به تعالی بل شفّع ذلک بالإیمان بالیوم الآخر لأن المشرکین ما کانوا مؤمنین به،و بذلک یختص حق العماره و جوازها بأهل الدین السماوی من المؤمنین.

و لم یقنع بذلک ایضا بل ألحق به قوله: «وَ أَقٰامَ الصَّلاٰهَ وَ آتَی الزَّکٰاهَ وَ لَمْ یَخْشَ إِلاَّ اللّٰهَ» لأن المقام مقام بیان من ینتفع بعمله فیحق له بذلک ان یقترفه،و من کان تارکا للفروع المشروعه فی الدین و خاصه الرکنین:الصلاه و الزکاه فهو کافر بآیات اللّه لا ینفعه مجرّد الإیمان باللّه و الیوم الآخر و إن کان مسلما،اذا لم ینکرها بلسانه،و لو انکرها بلسانه ایضا کان کافرا غیر مسلم.

و قد خصّ من بینها الصلاه و الزکاه بالذکر لکونهما الرکنین الذین لا غنی عنهما فی حال من الاحوال.

و بما ذکرنا من اقتضاء المقام یظهر ان المراد بقوله: «وَ لَمْ یَخْشَ إِلاَّ اللّٰهَ» الخشیه الدینیه و هی العباده دون الخشیه الغریزیه التی لا یسلم منها إلاّ المقرّبون من اولیاء اللّه کالأنبیاء قال تعالی: اَلَّذِینَ یُبَلِّغُونَ رِسٰالاٰتِ اللّٰهِ وَ یَخْشَوْنَهُ وَ لاٰ یَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ (الأحزاب/ ۳۹).

و الوجه فی التکنیه عن العباده بالخشیه ان الأعرف عند الانسان من علل اتخاذ الإله

للعباده الخوف من سخطه او الرجاء لرحمته،و رجاء الرحمه ايضا يعود بوجه الى الخوف من انقطاعها و هو السخط فمن عبد اللّه سبحانه او عبد شيئا من الاصنام فقد دعاه الى ذلک اما الخوف من شمول سخطه او الخوف من انقطاع نعمته و رحمته فالعباده ممثله للخوف و الخشيه مصداق لهما لتمثيلها اياها،و بينهما حاله الاستلزام،و لذلک كنى بها عنها،فالمعنى-و اللّه اعلم- و لم يعبد احدا من دون اللّه من الآلهه.

و قوله: فَعَسىٰ أُولٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ اى اولئک الذين آمنوا باللّه و اليوم الآخر و لم يعبدوا أحدا غير اللّه سبحانه يرجى فى حقهم ان يكونوا من المهتدين،و هذا الرجاء قائم بأنفسهم او بأنفس المخاطبين بالآيه،و أما هو تعالى فمن المستحيل ان يقوم به الرجاء الذى لا يتم إلاّ مع الجهل بتحقق الأمر المرجو الحصول.

و انما أخذ الاهتداء مرجو الحصول لا محقق الوقوع مع أن من آمن باللّه و اليوم الآخر حقيقه و حققه اعماله العباديه فقد اهتدى حقيقه لأن حصول الاهتداء مره او مرات لا يستوجب كون العامل من المهتدين،و استقرار صفه الاهتداء و لزومها له،فالتلبس بالفعل الواقع مره أو مرات غير التلبس بالصفه اللازمه فأولئک حصول الاهتداء لهم محقق،و أما حصول صفه المهتدين فهو مرجوّ التحقق لا محقق.

و قد تحصّل من الآيه أن عماره المساجد لا تحق و لا تجوز لغير المسلم أما المشركون فلعدم إيمانهم باللّه و اليوم الآخر،و أما اهل الكتاب فلأن القرآن لا يعدّ ايمانهم باللّه ايمانا قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً أُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ حَقًّا (النساء/۱۵۱)،و قال ايضا فى آيه ۲۹ من السوره: قٰاتِلُوا الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لاٰ يُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ لاٰ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ الآيه.

قوله تعالی: أَ جَعَلْتُمْ سِقٰايَةَ الْحٰاجِّ وَ عِمٰارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جٰاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ الآیه؛السقایه کالحکایه و الجنایه و النکایه مصدر یقال:سقی یسقی سقایه.

و السقایه ایضا الموضع الذی یسقی فیه الماء،و الإناء الذی یسقی به قال تعالی: جَعَلَ السِّقٰايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ (یوسف۷۰/)،و قد رووا فی الآثار ان سقایه الحاجّ کانت احدی الشئونات الفاخره و المآثر التی یباهی بها فی الجاهلیه،و أن السقایه کانت حیاضا من أدم علی عهد قصیّ بن کلاب احد اجداد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم توضع بفناء الکعبه،و یستقی فیها الماء العذب من الآبار علی الإبل،و یسقی الحاج فجعل قصی امر السقایه عند وفاته لابنه عبد مناف و لم یزل فی ولده حتی ورثه العباس بن عبد المطلب.

و سقایه العباس هو الموضع الذی کان یسقی فیه الماء فی الجاهلیه و الاسلام و هو فی جهه الجنوب من زمزم بینهما اربعون ذراعا،و قد بنی علیه بناء هو المعروف الیوم بسقایه العباس.

و المراد بالسقایه فی الآیه-علی ای حال-معناها المصدری و هو السقی،و یؤیده مقابلتها فی الآیه عماره المسجد الحرام و المراد بها المعنی المصدری قطعا بمعنی الشغل.

قوله تعالی: اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ الی آخر الآیه؛بیان لحق الحکم الذی عند اللّه فی المسأله بعد إنکار المساواه، و هو ان الذی آمن و هاجر و جاهد فی سبیل اللّه ما استطاع ببذل ما عنده من مال و نفس،أعظم درجه عند اللّه و إنما عبر فی صوره الجمع-الذین آمنوا-الخ؛إشاره الی ان ملاک الفصل هو الوصف دون الشخص.

و ما تقدم من دلاله الکلام علی أن الأعمال من غیر إیمان باللّه لا فضل لها و لا درجه لصاحبها عند اللّه،قرینه علی ان لیس المراد بالقیاس الذی یدل علیه أفعل التفضیل فی قوله:

«أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً» الخ؛هو ان بین الفریقین اشتراکا فی الدرجات غیر ان درجه من جاهد

عن إيمان أعظم ممن سقى و عمر.

بل المراد بيان ان النسبه بينهما نسبه الأفضل الى من لا فضل له كالمقايسه المأخوذه بين الأكثر و الأقل فإنها تستدعى وجود حد متوسط بينهما يقاسان اليه فهناك ثلاثه امور امر متوسط يؤخذ مقياسا معدلا و آخر يكون أكثر منه،و آخر يكون أقل منه فاذا قيس الأكثر من الأقل كان الأكثر مقيسا الى ما لا كثره فيه أصلا.

فقوله: أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللّٰهِ أى بالقياس الى هؤلاء الذين لا درجه لهم أصلا، و هذا نوع من الكنايه عن ان لا نسبه حقيقه بين الفريقين لأن أحدهما ذو قدم رفيع فيما لا قدم للآخر فيه أصلا و يدل على ذلك أيضا قوله: «وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْفٰائِزُونَ» بما يدل على انحصار الفوز فيهم و ثبوتها لهم على نهج الاستقرار.

قوله تعالى: يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوٰانٍ وَ جَنّٰاتٍ الى آخر الآيتين ظاهر السياق أن ما يعده من الفضل فى حقهم بيان و تفصيل لما ذكر فى الآيه السابقه من فوزهم جیء به بلسان التبشير.

فالمعنى «يُبَشِّرُهُمْ» أى هؤلاء المؤمنين «رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ» عظيمه لا يقدر قدرها «وَ رِضْوٰانٍ» كذلك «وَ جَنّٰاتٍ لَهُمْ فِيهٰا» فى تلك الجنات «نَعِيمٌ مُقِيمٌ» لا يزول و لا ينفد حالكونهم «خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً» لا ينقطع خلودهم بأجل و لا أمد.

ثم لما كان المقام مقام التعجب و الاستبعاد لكونها بشاره بأمر عظيم لم يعهد فى ما نشاهده من أنواع النعيم الذى فى الدنيا،رفع الاستبعاد بقوله: «إِنَّ اللّٰهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» .

و سيوافيك الكلام فى توضيح معنى رحمته تعالى و رضوانه فيما سيمر من موضع مناسب و قد تقدم بعض الكلام فيهما.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا آبٰاءَكُمْ وَ إِخْوٰانَكُمْ أَوْلِيٰاءَ الى آخر الآيه؛نهى عن تولى الكفار و لو كانوا آباء و إخوانا فإن الملاك عام،و الآيه التاليه تنهى

عن تولی الجمیع غیر أن ظاهر لفظ الآیه النهی عن اتخاذ الآباء و الإخوان أولیاء إن استحبوا الکفر و رجحوه علی الإیمان.

و إنما ذکر الآباء و الإخوان دون الأبناء و الأزواج مع کون القبیلین و خاصه الأبناء محبوبین عندهم کالآباء و الإخوان لأن التولی یعطی للولی ان یداخل امور ولیّه و یتصرف فی بعض شئون حیاته،و هذا هو المحذور الذی یستدعی النهی عن تولی الکفار حتی لا یداخلوا فی امورهم الداخلیه و لا یأخذوا بمجامع قلوبهم،و لا یکف المؤمنون و لا یستنکفوا عن الإقدام فیما یسوؤهم و یضرّهم،و من المعلوم ان النساء و الذراری لا یترقب منهم هذا الأثر السیئ إلاّ بواسطه،فلذلک خصّ النهی عن التولی بالآباء و الإخوان فهم الذین یخاف نفوذهم فی قلوب المؤمنین و تصرفهم فی شئونهم.

و قد ورد النهی عن اتخاذ الکفار اولیاء فی موضع من کلامه تقدم بعضها فی سوره المائده و آل عمران و النساء و الأعراف و فیها إنذار شدید و تهدیدات بالغه کقوله تعالی: وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ (المائده/۵۱)،و قوله: وَ یُحَذِّرُکُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ (آل عمران/ ۲۸)،و قوله: وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ فَلَیْسَ مِنَ اللّٰهِ فِی شَیْءٍ (آل عمران۲۸/)،و قوله أَ تُرِیدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَیْکُمْ سُلْطٰاناً مُبِیناً (النساء۱۴۴/).

و أنذرهم فی الآیه التی نحن فیها بقوله: «وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَأُولٰئِکَ هُمُ الظّٰالِمُونَ» و لم یقل:

«وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» اذ من الجائز ان یتوهم بعض هؤلاء انه منهم لأنهم آباؤه و إخوانه فلا یؤثر فیه التهدید أثرا جدیدا یبعثه نحو رفض الولایه.

و کیف کان فقوله: «وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَأُولٰئِکَ هُمُ الظّٰالِمُونَ» بما فی الجمله من المؤکدات کاسمیه الجمله،و دخول الام علی الخبر و ضمیر الفصل یفید تحقق الظلم منهم و استقراره فیهم،و قد کرر اللّه فی کلامه ان اللّه لا یهدی القوم الظالمین،و قال فی نظیر الآیه من سوره المائده: وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ فهؤلاء محرومون

من الهدایه الإلهیه لا ینفعهم شیء من أعمالهم الحسنه فی جلب السعاده الیهم،و السماحه بالفوز و الفلاح علیهم.

قوله تعالی: قُلْ إِنْ کانَ آباؤُکُمْ وَ أَبْناؤُکُمْ وَ إِخْوانُکُمْ الی آخر الآیه؛التفت من مخاطبتهم الی مخاطبه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم إیماء الی الإعراض عنهم لما یستشعر من حالهم أن قلوبهم مائله الی الاشتغال بما لا ینفع معه النهی عن تولّی آبائهم و إخوانهم الکافرین،و إیجاد الداعی فی نفوسهم الی الصدور عن امر اللّه و رسوله،و قتال الکافرین جهادا فی سبیل اللّه و إن کانوا آباءهم و إخوانهم.

و الذی یمنعهم من ذلک هو الحب المتعلق بغیر اللّه و رسوله و الجهاد فی سبیل اللّه،و قد عدّ اللّه سبحانه اصول ما یتعلق به الحب النفسانی من زینه الحیاه الدنیا،و هی الآباء و الأبناء و الإخوان و الأزواج و العشیره-و هؤلاء هم الذین یجمعهم المجتمع الطبیعی بقرابه نسبیه قریبه او بعیده او سببیه-و الأموال التی اکتسبوها و جمعوها،و التجاره التی یخشون کسادها و المساکن التی یرضونها-و هذه اصول ما یقوم به المجتمع فی المرتبه الثانیه-.

و ذکر تعالی أنهم إن تولوا أعداء الدین،و قدموا حکم هؤلاء الامور علی حب اللّه و رسوله و الجهاد فی سبیل فلیتربصوا و لینتظروا حتی یأتی اللّه بأمره و اللّه لا یهدی القوم الفاسقین.

و من المعلوم أن الشرط أعنی قوله: «إِنْ کانَ آباؤُکُمْ» الی قوله: «فِی سَبِیلِهِ» فی معنی أن یقال:إن لم تنتهوا عما ینهاکم عنه من اتخاذ الآباء و الإخوان الکافرین اولیاء باتخاذکم سببا یؤدی الی خلاف ما یدعوکم الیه،و إهمالکم فی أمر غرض الدین و هو الجهاد فی سبیل اللّه.

فقوله فی الجزاء: «فَتَرَبَّصُوا حَتّی یَأْتِیَ اللّهُ بِأَمْرِهِ» لا محاله إما أمر یتدارک به ما عرض علی الدین من ثلمه و سقوط غرض فی ظرف مخالفتم،و إما عذاب یأتیهم عن مخالفه أمر اللّه و رسوله و الإعراض عن الجهاد فی سبیله.

غیر ان قوله تعالی فی ذیل الآیه: «وَ اللّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْفاسِقِینَ» یعرّض لهم أنهم

خارجون حینئذ عن زیّ العبودیه،فاسقون عن أمر اللّه و رسوله فهم بمعزل من أن یهدیهم اللّه بأعمالهم و یوفقهم لنصره اللّه و رسوله،و إعلاء کلمه الدین و إمحاء آثار الشرک.

فذیل الآیه یهدی الی أن المراد بهذا الأمر الذی یأمرهم اللّه أن یتربصوا له حتی یأتی به أمر منه تعالی،متعلق بنصره دینه و إعلاء کلمته فینطبق علی مثل قوله تعالی فی سوره المائده بعد آیات ینهی فیها عن تولّی الکافرین: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَسَوْفَ یَأْتِی اللّٰهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ أَذِلَّهٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ أَعِزَّهٍ عَلَی الْکٰافِرِینَ یُجٰاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ وَ لاٰ یَخٰافُونَ لَوْمَهَ لاٰئِمٍ ذٰلِکَ فَضْلُ اللّٰهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشٰاءُ وَ اللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِیمٌ (المائده/۵۴).

و الآیه بقیودها و خصوصیاتها-کما تری-تنطبق علی ما تفیده الآیه التی نحن فیها.

فالمراد-و اللّه اعلم-ان اتخذتم هؤلاء اولیاء،و استنکفتم عن اطاعه اللّه و رسوله و الجهاد فی سبیل اللّه فتربصوا حتی یأتی اللّه بأمره،و یبعث قوما لا یحبون إلاّ اللّه،و لا یوالون اعداءه و یقومون بنصره الدین و الجهاد فی سبیل اللّه افضل قیام فانکم اذا فاسقون لا ینتفع بکم الدین،و لا یهدی اللّه شیئا من اعمالکم الی غرض حق و سعاده مطلوبه.

و ربما قیل:ان المراد بقوله: «فَتَرَبَّصُوا حَتّٰی یَأْتِیَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ» الاشاره الی فتح مکه،و لیس بسدید فان الخطاب فی الآیه للمؤمنین من المهاجرین و الانصار و خاصه المهاجرین،و هؤلاء هم الذین فتح اللّه مکه بأیدیهم،و لا معنی لأن یخاطبوا و یقال لهم:ان کان آباؤکم و ابناؤکم، الخ؛أحب الیکم من اللّه و رسوله و جهاد فی سبیله فوالیتموهم و استنکفتم عن اطاعه اللّه و رسوله و الجهاد فی سبیله فتربصوا حتی یفتح اللّه مکه بأیدیکم و اللّه لا یهدی القوم الفاسقین، او فتربصوا حتی یفتح اللّه مکه و اللّه لا یهدیکم لمکان فسقکم فتأمل (۱).

۱- ۱) .التوبه ۱۷-۲۴:بحث روائی فی:سقایه الحاج و عماره المسجد الحرام؛فضائل امیر المؤمنین علی علیه السّلام؛الجهاد فی سبیل اللّه.

[سوره التوبه (۹): الآیات ۲۵ الی ۲۸]

اشاره

لَقَدْ نَصَرَکُمُ اَللّٰهُ فِی مَوٰاطِنَ کَثِیرَهٍ وَ یَوْمَ حُنَیْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْکُمْ کَثْرَتُکُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْکُمْ شَیْئاً وَ ضٰاقَتْ عَلَیْکُمُ اَلْأَرْضُ بِمٰا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّیْتُمْ مُدْبِرِینَ (۲۵) ثُمَّ أَنْزَلَ اَللّٰهُ سَکِینَتَهُ عَلیٰ رَسُولِهِ وَ عَلَی اَلْمُؤْمِنِینَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهٰا وَ عَذَّبَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ ذٰلِکَ جَزٰاءُ اَلْکٰافِرِینَ (۲۶) ثُمَّ یَتُوبُ اَللّٰهُ مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ عَلیٰ مَنْ یَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۲۷) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنَّمَا اَلْمُشْرِکُونَ نَجَسٌ فَلاٰ یَقْرَبُوا اَلْمَسْجِدَ اَلْحَرٰامَ بَعْدَ عٰامِهِمْ هٰذٰا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَیْلَهً فَسَوْفَ یُغْنِیکُمُ اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شٰاءَ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۲۸)

بیان:

قوله تعالی: لَقَدْ نَصَرَکُمُ اللّٰهُ فِی مَوٰاطِنَ کَثِیرَهٍ وَ یَوْمَ حُنَیْنٍ -الی قوله- وَلَّیْتُمْ مُدْبِرِینَ المواطن جمع موطن و هو الموضع الذی یسکنه الإنسان و یتوطن فیه.

و حنین اسم واد بین مکه و الطائف وقع فیه غزوه حنین قاتل فیه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم هوازن و ثقیف و کان یوما شدیدا علی المسلمین انهزموا أوّلا ثم أیدهم اللّه بنصره فغلبوا.

و الإعجاب الإسرار و العجب سرور النفس بما یشاهده نادرا،و الرحب السعه فی المکان و ضدّه الضیق.

ص: ۷۳۶

و قوله: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِی مَوٰاطِنَ کَثِیرَهٍ» ذکر لنصرته تعالی لهم فی مواطن کثیره و مواضع متعدده یدلّ السیاق علی انها مواطن الحروب کوقائع بدر و أحد و الخندق و خیبر و غیرها،و یدل السیاق أیضا أن الجمله کالمقدمه الممهده لقوله: «وَ یَوْمَ حُنَیْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْکُمْ کَثْرَتُکُمْ» الآیه؛فإن الآیات الثلاث مسوقه لتذکیر قصه وقعه حنین،و عجیب ما أفاض اللّه علیهم من نصرته و خصّهم به من تأییده فیها.

و قوله: وَ یَوْمَ حُنَیْنٍ أی و یوما وقعت فیه القتال بینکم و بین اعدائکم بوادی حنین، و إضافه الیوم الی امکنه الوقائع العظیمه شائع فی العرف کما یقال:یوم بدر و یوم أحد و یوم الخندق نظیر إضافته الی الجماعه المتلبسین بذلک کیوم الأحزاب و یوم تمیم،و إضافته الی نفس الحادثه کیوم فتح مکه.

و قوله: إِذْ أَعْجَبَتْکُمْ کَثْرَتُکُمْ أی أسرّتکم الکثره التی شاهدتموها فی انفسکم فانقطعتم عن الاعتماد باللّه و الثقه بأیده و قوّته و استندتم الی الکثره فرجوتم ان ستدفع عنکم کید العدو و تهزم جمعهم،و إنما هو سبب من الأسباب الظاهریه لا أثر فیها إلاّ ما شاء اللّه الذی الیه تسبیب الأسباب.

و بالنظر الی هذا المعنی أردف قوله: «إِذْ أَعْجَبَتْکُمْ کَثْرَتُکُمْ» بقوله: «فَلَمْ تُغْنِ عَنْکُمْ شَیْئاً» أی اتخذتموها سببا مستقلا دون اللّه فأنساکم الاعتماد باللّه،و رکنتم إلیها فبان لکم ما فی وسع هذا السبب الموهوم و هو ان لا غنی عنده حتی یغنیکم فلم یغن عنکم شیئا و لا نصرا و لا شیئا آخر.

و قوله: «وَ ضٰاقَتْ عَلَیْکُمُ الْأَرْضُ بِمٰا رَحُبَتْ» ای مع ما رحبت،و هو کنایه عن إحاطه العدو بهم احاطه لا یجدون مع ذلک مأمنا من الأرض یستقرون فیه و لا کهفا یأوون الیه فیقیهم من العدو،ای فررتم فرارا لا تلوون علی شیء.

فهو قریب المعنی من قوله تعالی فی قصه الأحزاب: إِذْ جٰاؤُکُمْ مِنْ فَوْقِکُمْ وَ مِنْ

أَسْفَلَ مِنْكَمْ وَ إِذْ زٰاغَتِ الْأَبْصٰارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنٰاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللّٰهِ الظُّنُونَا (الأحزاب/١٠).

و قوله: ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ أى جعلتم العدو يلى أدباركم و هو كنايه عن الانهزام و هذا هو الفرار من الزحف ساقهم إليه اطمئنانهم بكثرتهم و الانقطاع من ربهم،قال تعالى يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاٰ تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبٰارَ وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ -الى ان قال- فَقَدْ بٰاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ وَ مَأْوٰاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (الأنفال/١٦)و قال ايضا: وَ لَقَدْ كٰانُوا عٰاهَدُوا اللّٰهَ مِنْ قَبْلُ لاٰ يُوَلُّونَ الْأَدْبٰارَ وَ كٰانَ عَهْدُ اللّٰهِ مَسْؤُلاً (الأحزاب/١٥).

فهذا كله اعنى ضيق الأرض عليهم بما رحبت ثم انهزامهم و فرارهم من الزحف على ما فيه من كبير الإثم،و وقوفهم هذا الموقف الذى يستتبع العتاب من ربهم إنما ساقهم إليه اعتمادهم و اطمئنانهم الى هذه الأسباب السرابيه التى لا تغنى عنهم شيئا.

و اللّٰه سبحانه بسعه رحمته و عظم منه امتن عليهم بنصره و إنزال سكينته و إنزال جنود لم يروها،و تعذيب الكافرين،و وعد مجمل بمغفرته:وعدا ليس بالمقطوع وجوده حتى تبطل به صفه الخوف من قلوبهم،و لا بالمقطوع عدمه حتى تزول صفه الرجاء من نفوسهم بل وعدا يحفظ فيهم الاعتدال و التوسط بين صفتى الخوف و الرجاء،و يربيهم تربيه حسنه تعدهم و تهيئهم للسعاده الواقعيه.

قوله تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الى آخر الآيه؛السكينه-كما تقدم-حاله قلبيه توجب سكون النفس و ثبات القلب ملازمه لازدياد الإيمان مع الإيمان و لكلمه التقوى التى تهدى الى الورع عن محارم اللّٰه على ما تفسرها الآيات.

و هى غير العداله التى هى ملكه نفسانيه تردع عن ركوب الكبائر و الإصرار على الصغائر

فان السکینه تردع عن الصغائر و الکبائر جمیعا.

و قد نسب اللّه السکینه فی کتابه الی نفسه نسبه تشعر بنوع من الاختصاص کما نسب الروح الی نفسه دون العداله و وصفها بالإنزال فلها اختصاص عندی به تعالی بل ربما یشعر بعض الآیات بأنه عدّها من جنوده کقوله تعالی: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ السَّکِینَهَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ لِیَزْدادُوا إِیماناً مَعَ إِیمانِهِمْ وَ لِلّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ (الفتح/۴).

و فی غیر واحد من الآیات المشتمله علی ذکر السکینه ذکر الجنود کقوله: فَأَنْزَلَ اللّهُ سَکِینَتَهُ عَلَیْهِ وَ أَیَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها (التوبه/۴۰)،و کما فی الآیه المبحوث عنها: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللّهُ سَکِینَتَهُ عَلی رَسُولِهِ وَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها» .

و الذی یفهم من السیاق ان هذه الجنود هی الملائکه النازله الی المعرکه،او أن یقال من جملتها الملائکه النازله و الذی ینتسب الی السکینه و الملائکه أن یعذّب بهم الکفار و یسدد و یسعد بهم المؤمنون کما اشتملت علیه آیات آل عمران القاصّه قصه أحد،و آیات فی أول سوره الفتح فراجعها حتی یتبین لک حقیقه الحال إن شاء اللّه تعالی.

و قد تقدم فی قوله تعالی: فِیهِ سَکِینَهٌ مِنْ رَبِّکُمْ (البقره/۲۴۸)فی الجزء الثانی من الکتاب بعض ما یتعلق بالسکینه الإلهیه من الکلام مما لا یخلو من نفع فی هذا المقام.

قوله تعالی: ثُمَّ یَتُوبُ اللّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ عَلی مَنْ یَشاءُ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ قد تقدّم مرارا أن التوبه من اللّه سبحانه هی الرجوع الی عبده بالعنایه و التوفیق أوّلا ثم بالعفو و المغفره ثانیا،و من العبد الرجوع الی ربه بالندامه و الاستغفار،و لا یتوب اللّه علی من لا یتوب الیه.

و الإشاره فی قوله: «مِنْ بَعْدِ ذلِکَ» علی ما یعطیه السیاق الی ما ذکره فی الآیتین السابقتین من خطیئتهم بالرکون الی غیر اللّه سبحانه و معصیتهم بالفرار و التولی ثم إنزال السکینه و إنزال الجنود و تعذیبهم الذین کفروا.

و الملائم لذلک ان یکون الموصول فی «مَنْ یَشٰاءُ» شاملا للمسلمین و الکافرین جمیعا فقد ذکر من الفریقین جمیعا ما یصلح لأن یتوب اللّه علیهم فیه إن تابوا،و هو من الکفار کفرهم و من المسلمین خطیئتهم و معصیتهم،و لا وجه لتخصیص التوبه علی بعضهم مع ما فی آیات التوبه من عموم الحکم وسعته و لم یقیّد فی هذه الآیه المبحوث عنها بما یوجب اختصاصها بأحد الفریقین:المسلمین او الکافرین مع وجود المقتضی فیهما جمیعا.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِکُونَ نَجَسٌ فَلاٰ یَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ بَعْدَ عٰامِهِمْ هٰذٰا قال فی المجمع:کل مستقذر نجس یقال:رجل نجس و امرأه نجس و قوم نجس لأنه مصدر،و اذا استعملت هذه اللفظه مع الرجس قیل:رجس نجس -بکسر النون-قال:و العیله الفقر یقال عال یعیل اذا افتقر.انتهی.

و النهی عن دخول المشرکین المسجد الحرام بحسب المتفاهم العرفی یفید أمر المؤمنین بمنعهم عن دخول المسجد الحرام،و فی تعلیله تعالی منع دخولهم المسجد بکونهم نجسا اعتبار نوع من القذاره لهم کاعتبار نوع من الطهاره و النزاهه للمسجد الحرام،و هی کیف کانت أمر آخر وراء الحکم باجتناب ملاقاتهم بالرطوبه و غیر ذلک.

و المراد بقوله: «عٰامِهِمْ هٰذٰا» سنه تسع من الهجره،و هی السنه التی أذّن فیها علی علیه السّلام بالبراءه،و منع طواف البیت عریانا،و حج المشرکین البیت.

و قوله: وَ إِنْ خِفْتُمْ عَیْلَهً الآیه؛أی و إن خفتم فی إجراء هذا الحکم أن ینقطعوا عن الحج،و یتعطل أسواقکم،و تذهب تجارتکم فتفتقروا و تعیلوا فلا تخافوا فسوق یغنیکم اللّه من فضله،و یؤمنکم من الفقر الذی تخافونه.

و هذا وعد حسن منه تعالی فیه تطییب نفوس أهل مکه و من کان له تجاره هناک بالموسم،و کان حاضر العالم الاسلامی یبشرهم یومئذ بمضمون هذا الوعد فقد کان الاسلام تعلو کلمته،و ینتشر صیته حالا بعد حال،و کانت عامه المشرکین فی عتبه

الاستئصال بعد إیذان براءه لم یبق لهم إلاّ اربعه أشهر إلاّ شرذمه قلیله من العرب کان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم عاهدهم عند المسجد الحرام الی أجل ما بعده من مهل فالجمیع کانوا فی معرض قبول الاسلام (۱).

[سوره التوبه (۹): الآیات ۲۹ الی ۳۵]

اشاره

قٰاتِلُوا اَلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ لاٰ یُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ لاٰ یَدِینُونَ دِینَ اَلْحَقِّ مِنَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ حَتّٰی یُعْطُوا اَلْجِزْیَهَ عَنْ یَدٍ وَ هُمْ صٰاغِرُونَ (۲۹) وَ قٰالَتِ اَلْیَهُودُ عُزَیْرٌ اِبْنُ اَللّٰهِ وَ قٰالَتِ اَلنَّصٰاریٰ اَلْمَسِیحُ اِبْنُ اَللّٰهِ ذٰلِکَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوٰاهِهِمْ یُضٰاهِؤُنَ قَوْلَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قٰاتَلَهُمُ اَللّٰهُ أَنّٰی یُؤْفَکُونَ (۳۰) اِتَّخَذُوا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ اَلْمَسِیحَ اِبْنَ مَرْیَمَ وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِیَعْبُدُوا إِلٰهاً وٰاحِداً لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ سُبْحٰانَهُ عَمّٰا یُشْرِکُونَ (۳۱) یُرِیدُونَ أَنْ یُطْفِؤُا نُورَ اَللّٰهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ یَأْبَی اَللّٰهُ إِلاّٰ أَنْ یُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ کَرِهَ اَلْکٰافِرُونَ (۳۲) هُوَ اَلَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدیٰ وَ دِینِ اَلْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی اَلدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ اَلْمُشْرِکُونَ (۳۳) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ کَثِیراً مِنَ اَلْأَحْبٰارِ وَ اَلرُّهْبٰانِ لَیَأْکُلُونَ أَمْوٰالَ اَلنّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ اَلَّذِینَ یَکْنِزُونَ اَلذَّهَبَ وَ اَلْفِضَّهَ وَ لاٰ یُنْفِقُونَهٰا فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِیمٍ (۳۴) یَوْمَ یُحْمیٰ عَلَیْهٰا فِی نٰارِ جَهَنَّمَ فَتُکْویٰ بِهٰا جِبٰاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هٰذٰا مٰا کَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِکُمْ فَذُوقُوا مٰا کُنْتُمْ تَکْنِزُونَ (۳۵)

ص: ۷۴۱

۱- ۱) .التوبه ۲۵-۲۸:بحث روائی فی:غزوه حنین،فهرس اسماء شهداء حنین.

بیان:

قوله تعالى: قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لاَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أهل الكتاب هم اليهود و النصارى على ما يستفاد من آيات كثيره من القرآن الكريم و كذا المجوس على ما يشعر أو يدل عليه قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصَارىٰ وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَهِ إِنَّ اللَّهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (الحج/۱۷)حيث عدّوا فى الآيه مع سائر ارباب النحل السماويه فى قبال الذين اشركوا، و الصابئون كما تقدّم طائفه من المجوس صبوا الى دين اليهود فاتخذوا طريقا بين الطريقين.

و السياق يدل على ان لفظه «مِنَ» فى قوله: «مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» بيانيه لا تبعيضيه فان كلّا من اليهود و النصارى و المجوس امه واحده كالمسلمين فى اسلامهم و ان تشعبوا شعبا مختلفه و تفرقوا فرقا متشتته اختلط بعضهم ببعض و لو كان المراد قتال البعض و اثبات الجزيه على الجميع او على ذلك البعض بعينه لاحتاج المقام فى افاده ذلك الى بيان غير هذا البيان

ص :۷۴۲

یحصل به الغرض.

و حیث کان قوله: «مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ» بیانا لما قبله من قوله: «الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ» الآیه فالأوصاف المذکوره اوصاف عامه لجمیعهم و هی ثلاثه أوصاف وصفهم اللّه سبحانه بها:عدم الایمان باللّه و الیوم الآخر،و عدم تحریم ما حرّم اللّه و رسوله،و عدم التدیّن بدین الحق.

فأول ما وصفهم به قوله: «الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ لا بِالْیَوْمِ الْآخِرِ» و هو تعالی ینسب الیهم فی کلامه أنهم یثبتونه إلها و کیف لا؟و هو یعدّهم اهل الکتاب،و ما هو إلاّ الکتاب السماوی النازل من عند اللّه علی رسول من رسله و یحکی عنهم القول او لازم القول بالالوهیه فی مئات من آیات کتابه (۱).

فمعنی الآیه-و اللّه اعلم-قاتلوا اهل الکتاب لأنهم لا یؤمنون باللّه و الیوم الآخر إیمانا مقبولا غیر منحرف عن الصواب و لا یحرمون ما حرمه الإسلام مما یفسد اقترافه المجتمع الإنسانی و لا یدینون دینا منطبقا علی الخلقه الإلهیه قاتلوهم و دوموا علی قتالهم حتی یصغروا عندکم و یخضعوا لحکومتکم،و یعطوا فی ذلک عطیه مالیه مضروبه علیهم یمثل صغارهم، و یصرف فی حفظ ذمتهم و حقن دمائهم و حاجه إداره امورهم.

قوله تعالی: وَ قالَتِ الْیَهُودُ عُزَیْرٌ ابْنُ اللّهِ وَ قالَتِ النَّصاری الْمَسِیحُ ابْنُ اللّهِ الی آخر الآیه المضاهاه المشاکله.و الإفک علی ما ذکره الراغب کل مصروف عن وجهه الذی یحق ان یکون علیه فمعنی «یُؤْفَکُونَ» یصرفون فی اعتقادهم عن الحق الی الباطل.

و قوله: «وَ قالَتِ الْیَهُودُ عُزَیْرٌ ابْنُ اللّهِ» عزیز هذا هو الذی یسمیه الیهود عزرا غیرت

ص :۷۴۳

۱- ۱) .التوبه ۲۹-۳۵:بحث فی صله الایمان بالتوحید و بالیوم الآخر؛لم عد اللّه اهل الکتاب کفارا.

اللفظه عند التعريف كما غير لفظ«يسوع»فصار بالتعريب«عيسى»و لفظ«يوحنا»فصار كما قيل«يحيى».

و قوله: «وَ قٰالَتِ النَّصٰارىٰ الْمَسِيحُ ابْنُ اللّٰهِ» كلمه قالتها النصارى،و قد تقدم الكلام فيها و فى ما يتعلق بها فى قصه المسيح عليه السّلام من سوره آل عمران فى الجزء الثالث من الكتاب.

و قوله: يُضٰاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ تنبئ الآيه عن ان القول بالنبوّه منهم مضاهاه و مشاكله لقول من تقدمهم من الأمم الكافره و هم الوثنيون عبده الأصنام فإن من آلهتهم من هو إله أب إله و من هو إله ابن إله،و من هى إلهه ام إله او زوجه إله،و كذا القول بالثالوث مما كان دائرا بين الوثنيين من الهند و الصين و مصر القديم و غيرهم و قد مرّ نبذه من ذلك فيما تقدم من الكلام فى قصه المسيح فى ثالث أجزاء هذا الكتاب.

ثم دعا عليهم بقوله: «قٰاتَلَهُمُ اللّٰهُ أَنّٰى يُؤْفَكُونَ» و ختم به الآيه.

قوله تعالى: اِتَّخَذُوا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ الأحبار جمع حبر بفتح الحاء و كسرها و هو العالم و غلب استعماله فى علماء اليهود و الرهبان جمع راهب و هو المتلبس بلباس الخشيه و غلب على المتنسكين من النصارى.

و اتخاذهم الأحبار و الرهبان أربابا من دون اللّه هو إصغاؤهم لهم و إطاعتهم من غير قيد و شرط و لا يطاع كذلك إلاّ اللّه سبحانه.

و أما اتخاذهم المسيح بن مريم ربا من دون اللّه فهو القول بالوهيته بنحو كما هو المعروف من مذاهب النصارى،و فى إضافه المسيح الى مريم إشاره الى عدم كونهم محقين فى هذا الاتخاذ لكونه إنسانا ابن مرأه.

و لكون الاتخاذين مختلفين من حيث المعنى فصل بينهما فذكر اتخاذهم الأحبار و الرهبان أربابا من دون اللّه أولا،ثم عطف عليه قوله: «وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ» .

و الكلام كما يدل على اختلاف الربوبيتين كذلك لا يخلو عن دلاله على أن قولهم ببنوّه عزير و بنوه المسيح على معنيين مختلفين،و هو البنوه التشريفيه فى عزير و البنوه بنوع من الحقيقه فى المسيح عليه السّلام فإن الآيه أهملت ذكر اتخاذهم عزيرا ربا من دون اللّه،و لم يذكر مكانه إلاّ اتخاذهم الأحبار و الرهبان أربابا من دون اللّه.

فهو رب عندهم بهذا المعنى إما لاستلزام التشريف بالبنوه ذلك أو لأنه من أحبارهم و قد أحسن إليهم فى تجديد مذهبهم ما لا يقاس به إحسان غيره،و أما المسيح فبنوّته غير هذه البنوه.

و قوله: «وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وٰاحِداً لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» جمله حاليه أى اتخذوا لهم أربابا و الحال هذه.

و فى الكلام دلاله أوّلا:على أن الاتخاذ بالربوبيه بواسطه الطاعه كالاتخاذ بها بواسطه العباده فالطاعه اذا كانت بالاستقلال كانت عباده،و لازم ذلك ان الرب الذى هو المطاع من غير قيد و شرط و على نحو الاستقلال إله،فإن الإله هو المعبود الذى من حقه أن يعبد،يدل على ذلك كله قوله تعالى: «وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وٰاحِداً» حيث يدل الرب بالإله،و كان مقتضى الظاهر ان يقال و ما أمروا إلاّ ليتخذوا ربا واحدا فالاتخاذ للربوبيه بواسطه الطاعه المطلقه عباده،و اتخاذ الرب معبودا اتخاذ له إلها فافهم ذلك.

و ثانيا:على ان الدعوه الى عباده اللّه وحده فيما وقع من كلامه تعالى كقوله تعالى: لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاعْبُدُونِ (الأنبياء۲۵/)و قوله: فَلاٰ تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ (الشعراء۲۱۳/) و أمثال ذلك كما أريد بها قصر العباده بمعناها المتعارف فيه تعالى كذلك أريد قصر الطاعه فيه تعالى،و ذلك انه تعالى لم يؤاخذهم فى طاعتهم لأحبارهم و رهبانهم إلاّ بقوله عزّ من قائل:

«وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وٰاحِداً لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» .

و على هذا المعنى يدل قوله تعالى: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ إِنَّهُ

لَكَمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِی هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِیمٌ (یس ۶۱/)،و هذا باب ینفتح منه ألف باب.

و فی قوله: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» تتمیم لکلمه التوحید التی یتضمنها قوله: «وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِیَعْبُدُوا إِلٰهاً وٰاحِداً» فإن کثیرا من عبده الاصنام کانوا یعتقدون بوجود آلهه کثیره،و هم مع ذلک لا یخصون بالعباده إلاّ واحدا منها فعباده إله واحد لا یتم به التوحید الاّ مع القول بأنه لا إله إلاّ هو.

و قد جمع تعالی بین العبادتین مع الإشاره الی مغایره ما بینهما و ان قصر العباده بکلا معنییها علیه تعالی هو معنی الإسلام له سبحانه الذی لا مفر منه للانسان؛فیما أمر به نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم من دعوه أهل الکتاب بقوله: قُلْ یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ تَعٰالَوْا إِلیٰ کَلِمَهٍ سَوٰاءٍ بَیْنَنٰا وَ بَیْنَکُمْ أَلاّٰ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّٰهَ وَ لاٰ نُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً وَ لاٰ یَتَّخِذَ بَعْضُنٰا بَعْضاً أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّٰا مُسْلِمُونَ (آل عمران۶۴/).

و قوله تعالی فی ذیل الآیه: «سُبْحٰانَهُ عَمّٰا یُشْرِکُونَ» تنزیه له تعالی عما یتضمنه قولهم بربوبیه الأحبار و الرهبان،و قولهم بربوبیه المسیح علیه السّلام من الشرک.

و الآیه بمنزله البیان التعلیلی لقوله تعالی فی أول الآیات: «الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْیَوْمِ الْآخِرِ» فان اتخاذ إله او آلهه دون اللّه سبحانه لا یجامع الإیمان باللّه،و لا الإیمان بیوم لا ملک فیه إلاّ اللّه.

قوله تعالی: یُرِیدُونَ أَنْ یُطْفِؤُا نُورَ اللّٰهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ الی آخر الآیه؛الإطفاء اخماد النار او النور،و الباء فی قوله: «بِأَفْوٰاهِهِمْ» للآله او السببیه.

و إنما ذکر الأفواه لأن النفخ الذی یتوسل به الی اخماد الانوار و السرج یکون بالأفواه،قال فی المجمع:و هذا من عجیب البیان مع ما فیه من تصغیر شأنهم و تضعیف کیدهم لأن الفم یؤثر فی الأنوار الضعیفه دون الاقباس العظیمه.انتهی.

ص :۷۴۶

و قال فی الکشاف:مثل حالهم فی طلبهم ان یبطلوا نبوه محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالتکذیب بحال من یرید ان ینفخ فی نور عظیم منبث فی الآفاق یرید اللّه ان یزیده،و یبلغه الغایه القصوی فی الاشراق و الاضاءه لیطفئه بنفخه و یطمسه.انتهی،و الآیه اشاره الی حال الدعوه الإسلامیه، و ما یریده منه الکافرون،و فیها وعد جمیل بأن اللّه سیتم نوره.

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدیٰ وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ الهدی الهدایه الإلهیه التی قارنها برسوله لیهدی بأمره،و دین الحق هو الاسلام بما یشتمل علیه من العقائد و الأحکام المنطبقه علی الواقع الحق.

و المعنی أن اللّه هو الذی ارسل رسوله و هو محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلم مع الهدایه-او الآیات و البینات- و دین فطری لیظهر و ینصر دینه الذی هو دین الحق علی کل الأدیان و لو کره المشرکون ذلک.

و بذلک ظهر أن الضمیر فی قوله: «لِیُظْهِرَهُ» راجع الی دین الحق کما هو المتبادر من السیاق، و ربما قیل:ان الضمیر راجع الی الرسول،و المعنی لیظهر رسوله و یعلمه معالم الدین کلها و هو بعید.

و فی الآیتین من تحریض المؤمنین علی قتال اهل الکتاب و الاشاره الی وجوب ذلک علیهم ما لا یخفی فانهما تدلان علی أن اللّه أراد انتشار هذا الدین فی العالم البشری فلا بد من السعی و المجاهده فی ذلک،و أن اهل الکتاب یریدون أن یطفئوا هذا النور بأفواههم فلا بد من قتالهم حتی یفنوا او یستبقوا بالجزیه و الصغار،و أن اللّه سبحانه یأبی إلاّ ان یتم نوره،و یرید ان یظهر هذا الدین علی غیره فالدائره بمشیه اللّه لهم علی اعدائهم فلا ینبغی لهم ان یهنوا و یحزنوا و هم الأعلون ان کانوا مؤمنین.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ کَثِیراً مِنَ الْأَحْبٰارِ وَ الرُّهْبٰانِ لَیَأْکُلُونَ

أَمْوٰالَ النّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ الظاهر أن الآيه اشاره الى بعض التوضيح لقوله فى أول الآيات: «وَ لاٰ يُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ لاٰ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ» كما ان الآيه السابقه كالتوضيح لقوله فيها: «الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» .

أما ايضاح قوله تعالى: «وَ لاٰ يُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ» بقوله: «إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبٰارِ وَ الرُّهْبٰانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوٰالَ النّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ» فهو إيضاح بأوضح المصاديق و أهمها تأثيرا فى افساد المجتمع الانسانى الصالح،و ابطال غرض الدين.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لاٰ يُنْفِقُونَهٰا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ قال الراغب:الكنز جعل المال بعضه على بعض و حفظه،و أصله من كنزت التمر فى الوعاء،و زمن الكناز وقت ما يكنز فيه التمر،و ناقه كناز مكتنزه اللحم، و قوله: «وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ» أى يدّخرونها،انتهى.

ففى مفهوم الكنز حفظ المال المكنوز و ادّخاره و منعه من ان يجرى بين الناس فى وجوه المعاملات فينمو نماء حسنا،و يعمّ الانتفاع به فى المجتمع فينتفع به هذا بالأخذ،و ذاك بالرد، و ذلك بالعمل عليه و قد كان دأبهم قبل ظهور البنوك و المخازن العامه أن يدفنوا الكنوز فى الأرض سترا عليها من أن تقصد بسوء.

و الآيه و إن اتصلت فى النظم اللفظى بما قبلها من الآيات الذامّه لأهل الكتاب و الموبخه لأحبارهم و رهبانهم فى أكلهم اموال الناس بالباطل و الصدّ عن سبيل اللّه إلاّ أنه لا دليل من جهه اللفظ على نزولها فيهم و اختصاصها بهم البته.

فلا سبيل الى القول بأن الآيه إنما نزلت فى أهل الكتاب و حرّمت الكنز عليهم،و أما المسلمون فهم و ما يقتنون من ذهب و فضه يصنعون بأموالهم ما يشاءون من غير بأس عليهم.

و الآيه توعد الكانزين إيعادا شديدا،و يهددهم بعذاب شديد غير أنها تفسر الكنز

المدلول علیه بقوله: «الَّذِینَ یَکْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّهَ» بقوله: «وَ لاٰ یُنْفِقُونَهٰا فِی سَبِیلِ اللّٰهِ» فتدل بذلک علی أن الذی یبغضه اللّه من الکنز ما یلازم الکف عن إنفاقه فی سبیل اللّه اذا کان هناک سبیل.

فالآیه ناظره الی الکنز الذی یصاحبه الامتناع عن الانفاق فی الحقوق المالیه الواجبه لا بمعنی الزکاه الواجبه فقط بل بمعنی یعمها و غیرها من کل ما یقوم علیه ضروره المجتمع الدینی من الجهاد و حفظ النفوس من الهلکه و نحو ذلک.

و قوله فی ذیل الآیه: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِیمٍ» إیعاد بالعذاب یدل علی تحریمه الشدید.

قوله تعالی: یَوْمَ یُحْمیٰ عَلَیْهٰا فِی نٰارِ جَهَنَّمَ فَتُکْویٰ بِهٰا جِبٰاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ الی آخر الآیه.إحماء الشیء جعله حارا فی الاحساس،و الإحماء علیه الایقاد لیتسخن و الإحماء فوق التسخین،و الکیّ إلصاق الشیء الحار بالبدن.

و المعنی:أن ذلک العذاب المبشّر به فی یوم یوقد علی تلک الکنوز فی نار جهنم فتکون محماه بالنار فتلصق بجباههم و جنوبهم و ظهورهم،و یقال لهم عند ذلک: «هٰذٰا مٰا کَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِکُمْ فَذُوقُوا مٰا کُنْتُمْ تَکْنِزُونَ» :فقد عاد عذابا علیکم تعذّبون به.

و لعل تخصیص الجباه و الجنوب و الظهور لأنهم خضعوا لها و هو السجده التی تکون بالجباه و لاذوا إلیها و اللواذ بالجنوب،و اتّکئوا علیها و الاتکاء بالظهور،و قیل غیر ذلک و اللّه أعلم (۱)(۲).

۱- ۱) .التوبه ۲۹-۳۵:بحث روائی فی:السیوف الثلاثه،سیره الاسلام مع اهل الکتاب و الکفار من غیرهم؛الجزیه؛ معنی اتخاذ اهل الکتاب احبارهم و رهبانهم اربابا من دون اللّه؛ظهور المهدی علیه السّلام؛کنز الذهب و الفضّه؛الدرهم و الدینار.
۲- ۲) .التوبه ۲۹-۳۵:کلام فی معنی الکنز.

[سوره التوبه (۹): الآیات ۳۶ الی ۳۷]

اشاره

إِنَّ عِدَّهَ اَلشُّهُورِ عِنْدَ اَللّٰهِ اِثْنٰا عَشَرَ شَهْراً فِی کِتٰابِ اَللّٰهِ یَوْمَ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ مِنْهٰا أَرْبَعَهٌ حُرُمٌ ذٰلِکَ اَلدِّینُ اَلْقَیِّمُ فَلاٰ تَظْلِمُوا فِیهِنَّ أَنْفُسَکُمْ وَ قٰاتِلُوا اَلْمُشْرِکِینَ کَافَّهً کَمٰا یُقٰاتِلُونَکُمْ کَافَّهً وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ مَعَ اَلْمُتَّقِینَ (۳۶) إِنَّمَا اَلنَّسِیءُ زِیٰادَهٌ فِی اَلْکُفْرِ یُضَلُّ بِهِ اَلَّذِینَ کَفَرُوا یُحِلُّونَهُ عٰاماً وَ یُحَرِّمُونَهُ عٰاماً لِیُوٰاطِؤُا عِدَّهَ مٰا حَرَّمَ اَللّٰهُ فَیُحِلُّوا مٰا حَرَّمَ اَللّٰهُ زُیِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمٰالِهِمْ وَ اَللّٰهُ لاٰ یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلْکٰافِرِینَ (۳۷)

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ عِدَّهَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللّٰهِ اثْنٰا عَشَرَ شَهْراً فِی کِتٰابِ اللّٰهِ یَوْمَ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ الشهر کالسنه و الاسبوع مما یعرفه عامه الناس منذ اقدم اعصار الإنسانیه،و کأن لبعضها تأثیرا فی تنبههم للبعض فقد کان الانسان یشاهد تحول السنین و مرورها بمضی الصیف و الشتاء و الربیع و الخریف و تکررها بالعود ثم العود ثم تنبهوا لانقسامها الی اقسام هی اقصر منها مده حسب ما ساقهم الیه مشاهده اختلاف اشکال القمر من الهلال الی الهلال،و ینطبق علی ما یقرب من ثلاثین یوما و تنقسم بذلک السنه الی اثنی عشر شهرا.

و السنه التی ینالها الحس شمسیه تتألف من ثلاثمائه و خمسه و ستین یوما و بعض یوم لا تنطبق علی اثنی عشر شهرا قمریا هی ثلاثمائه و أربعه و خمسون یوما تقریبا إلاّ برعایه حساب

ص:۷۵۰

الکبیسه غیر ان ذلک هو الذی يناله الحس و ينتفع به عامه الناس من الحاضر و البادی و الصغير و الكبير و العالم و الجاهل.

فقوله تعالی: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللّٰهِ اثْنٰا عَشَرَ شَهْراً» الخ؛ناظر الی الشهور القمریه التی تتألف منها السنون و هی التی لها اصل ثابت فی الحس و هو التشكلات القمريه بالنسبه الی اهل الارض.

و الدليل على كون المراد بها الشهور القمريه-اولا-قوله بعد: «مِنْهٰا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ» لقيام الضروره على ان الاسلام لم يحرم إلّا اربعه من الشهور القمريه التی هی ذو القعده و ذو الحجه و المحرم و رجب،و الاربعه من القمريه دون الشمسيه.

و ثانيا:قوله «عِنْدَ اللّٰهِ» و قوله: «فِی كِتٰابِ اللّٰهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ» فإن هذه القيود تدل على ان هذه العده لا سبيل للتغير و الاختلاف إليها لكونها عند اللّه كذلک و لا يتغير علمه،و كونها فی كتاب اللّه كذلک يوم خلق السماوات و الارض فجعل الشمس تجری لمستقر لها،و القمر قدره منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغی لها ان تدرک القمر و لا الليل سابق النهار و كل فی فلک يسبحون فهو الحكم المكتوب فی كتاب التكوين،و لا معقب لحكمه تعالى.

فمعنى الآيه ان عده الشهور اثنا عشر شهرا تتألف منها السنون،و هذه العده هی التی فی علم اللّه سبحانه،و هی التی أثبتها فی كتاب التكوين يوم خلق السماوات و الارض و أجرى الحركات العامه التی منها حركه الشمس و حركه القمر حول الارض و هی الاصل الثابت فی الكون لهذه العده.

قوله تعالى: مِنْهٰا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاٰ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ الحرم جمع حرام و هو الممنوع منه،و القيم هو القائم بمصلحه الناس المهيمن على إداره امور حياتهم و حفظ شئونها.

ص :٧٥١

و قوله: «مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ» هى الاشهر الاربعه:ذو القعده و ذو الحجه و المحرم و رجب بالنقل القطعى،و الكلمه كلمه تشريع بدليل قوله: «ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» الخ.

و إنما جعل اللّه هذه الاشهر الاربعه حرما ليكف الناس فيها عن القتال و ينبسط عليهم بساط الأمن،و يأخذوا فيها الأهبه للسعاده،و يرجعوا الى ربهم بالطاعات و القربات.

و كانت حرمتها من شريعه إبراهيم،و كانت العرب تحترمها حتى فى الجاهليه حينما كانوا يعبدون الأوثان غير أنهم ربما كانوا يحولون الحرمه من شهر الى شهر سنه أو أزيد منها بالنسىء الذى تتعرض له الآيه التاليه.

و قوله: «ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» ،الإشاره الى حرمه الاربعه المذكوره،و الدين كما تطلق على مجموع ما أنزله اللّه على أنبيائه تطلق على بعضها فالمعنى ان تحريم الأربعه من الشهور القمريه هو الدين الذى يقوم بمصالح العباد.كما يشير اليه فى قوله: جَعَلَ اللّٰهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرٰامَ قِيٰاماً لِلنّٰاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرٰامَ الآيه(المائده/۹۷)؛و قد تقدم الكلام فيه فى الجزء السادس من الكتاب.

و قوله: «فَلاٰ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» الضمير الى الأربعه اذ لو كان راجعا الى «اثْنٰا عَشَرَ» المذكور سابقا لكان الظاهر أن يقال:«فيها»كما نقل عن الفراء،و أيضا لو كان راجعا الى «اثْنٰا عَشَرَ» و هى تمام السنه لكان قوله: «فَلاٰ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» كما قيل فى معنى قولنا:

فلا تظلموا أبدا أنفسكم،و كان الكلام متفرقا على كون عده الشهور عند اللّه اثنى عشر شهرا، و لا تفرع له عليه ظاهرا فالمعنى لما كانت هذه الأربعه حرما تفرع على حرمتها عند اللّه أن تكفوا فيها عن ظلم أنفسكم رعايه لحرمتها و عظم منزلتها عند اللّه سبحانه.

فالنهى عن الظلم فيها يدل على عظم الحرمه و تأكدها لتفرعها على حرمتها أولا و لأنها نهى خاص بعد النهى العام كما يفيده قولنا:لا تظلم أبدا و لا تظلم فى زمان كذا.

و الجمله أعنى قوله: «فَلاٰ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» و إن كانت بحسب إطلاق لفظها نهيا عن

كل ظلم و معصيه لكن السياق يدل على كون المقصود الأهم منها النهى عن القتال فى الأشهر الحرم.

قوله تعالى: وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ قال الراغب فى المفردات:الكف كف الإنسان و هى ما بها يقبض و يبسط،و كففته أصبت كفه،و كففته أصبته بالكف و دفعته بها،و تعورف الكف بالدفع على أى وجه كان،بالكف كان أو غيرها حتى قيل:رجل مكفوف لمن قبض بصره.

و قوله:و ما أرسلناك إلّا كافه للناس أى كافا لهم عن المعاصى،و الهاء فيه للمبالغه كقولهم:

راويه و علامه و نسّابه،و قوله: «وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً» قيل:معناه كافين لهم كما يقاتلونكم كافين،و قيل:معناه جماعه كما يقاتلونكم جماعه،و ذلك أن الجماعه يقال لهم:الكافه كما يقال لهم:الوازعه لقوتهم باجتماعهم،و على هذا قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً» .انتهى.

و قال فى المجمع:كافه بمعنى الإحاطه مأخوذ من كافه الشىء و هى حرفه و اذا انتهى الشىء الى ذلك كف عن الزياده،و أصل الكف المنع.انتهى.

و قوله: «كَافَّةً» فى الموضعين حال عن الضمير الراجع الى المسلمين او المشركين أو فى الأول عن الأول و فى الثانى عن الثانى او بالعكس فهناك وجوه أربعه،و المتبادر الى الذهن هو الوجه الرابع للقرب اللفظى الذى بين الحال و ذى الحال حينئذ،و معنى الآيه على هذا:و قاتلوا المشركين جميعهم كما يقاتلونكم جميعكم.

فالآيه توجب قتال جميع المشركين فتصير نظيره قوله تعالى: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» الآيه؛ينسخ هذه ما ينسخ تلك و تتخصص أو تتقيد بما تخصص او تقيد به هى.

و الآيه مع ذلك إنما تتعرض لحال القتال مع المشركين و هم عبده الأوثان غير أهل الكتاب فإن القرآن و إن كان ربما نسب الشرك تصريحا او تلويحا الى أهل الكتاب لكنه لم يطلق

المشركين على طريق التوصيف إلّا على عبده الأوثان،و أما الكفر فعلا او وصفا فقد نسب الى اهل الكتاب و أطلق عليهم كما نسب و أطلق الى عبده الأوثان.

فالآيه أعنى قوله: «وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» الآيه؛لا هى ناسخه لآيه أخذ الجزيه من أهل الكتاب،و لا هى مخصصه او مقيده بها.و قد قيل فى الآيه بعض وجوه أخر تركناه لعدم جدوى فى التعرض له.

و قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» تعليم و تذكير و فيه حث على الاتصاف بصفه التقوى يترتب عليه من الفائده:أولا:الوعد الجميل بالنصر الإلهى و الغلبه و الظفر فإن حزب اللّه هم الغالبون.

و ثانيا:منعهم ان يتعدّوا حدود اللّه فى الحروب و المغازى بقتل النساء و الصبيان و من ألقى اليهم السلام كما قتل خالد فى غزوه حنين مرأه فأرسل اليه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ينهاه عن ذلک و قتل رجالا من بنى جذيمه و قد اسلموا فوداهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ينهاه عن ذلک و قتل رجالا من بنى جذيمه و قد اسلموا فوداهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و تبرأ الى اللّه من فعله ثلاثا (۱)،و قتل اسامه يهوديا اظهر له الاسلام فنزل قوله تعالى: «وَ لاٰ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقىٰ إِلَيْكُمُ السَّلاٰمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا فَعِنْدَ اللّٰهِ مَغٰانِمُ كَثِيرَةٌ (النساء۹۴/)و قد تقدم.

قوله تعالى: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيٰادَةٌ فِي الْكُفْرِ الى آخر الآيه؛يقال:نسأ الشىء ينسؤه نسأ و منسأه و نسيئا اذا اخّره تأخيرا،و قد يطلق النسىء على الشهر الذى اخّر تحريمه على ما كانت العرب تفعله فى الجاهليه فإنهم ربما كانوا يؤخرون حرمه بعض الأشهر الحرم الى غيره و أما انه كيف كان ذلک فقد اختلف فيه كلام المفسرين كأهل التاريخ.

و الذى يظهر من خلال الكلام المسرود فى الآيه أنه كانت لهم فيها بينهم سنّه جاهليه فى امر الأشهر الحرم و هى المسمّاه بالنسىء،و هو يدل بلفظه على تأخير الحرمه من شهر حرام

ص:۷۵۴

۱- ۱) .القصتان الاوليان مذكورتان فى كتب السير و المغازى و الثالثه تقدمت فى تفسير الآيه سابقا.

الی بعض الشهور غیر المحرّمه الذی بعده،و انهم انما کانوا یؤخرون الحرمه و لا یبطلونها برفعها من اصلها لإرادتهم بذلک ان یتحفظوا علی سنّه قومیه ورثوها عن اسلافهم عن إبراهیم علیه السّلام.

فکانوا لا یترکون أصل التحریم لغی و إنما یؤخرونه الی غیر الشهر سنه او أزید لیواطئوا عدّه ما حرّم اللّه،و هی الأربعه ثم یعودون و یعیدون الحرمه الی مکانها الأول.

و هذا نوع تصرف فی الحکم الإلهی بعد کفرهم باللّه باتخاذ الأوثان شرکاء له تعالی و تقدّس،و لذا عدّه اللّه سبحانه فی کلامه زیاده فی الکفر.

و قد ذکر اللّه سبحانه من الحکم الخاص بحرمه الأشهر الحرم النهی عن ظلم الأنفس حیث قال: «فَلاٰ تَظْلِمُوا فِیهِنَّ أَنْفُسَکُمْ» و اظهر مصادیقه القتال کما ان المصداق الوحید الذی استفتوا فیه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فحکاه اللّه سبحانه بقوله: یَسْئَلُونَکَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرٰامِ قِتٰالٍ فِیهِ الآیه(البقره/۲۱۷)؛و کذا ما فی معناه من قوله: لاٰ تُحِلُّوا شَعٰائِرَ اللّٰهِ وَ لاَ الشَّهْرَ الْحَرٰامَ (المائده/۲)و قوله: جَعَلَ اللّٰهُ الْکَعْبَهَ الْبَیْتَ الْحَرٰامَ قِیٰاماً لِلنّٰاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرٰامَ وَ الْهَدْیَ وَ الْقَلاٰئِدَ (المائده/۹۷).

و کذلک الأثر الظاهر من حرمه البیت او الحرم هو جعل الامن فیه کما قال: وَ مَنْ دَخَلَهُ کٰانَ آمِناً (آل عمران/۹۷)و قال: أَ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً (القصص/۵۷).

فالظاهر ان النسیء الذی تذکره الآیه عنهم إنما هو تأخیر حرمه الشهر الحرام للتوسّل بذلک الی قتال فیه لا لتأخیر الحج الذی هو عباده دینیه مختصه ببعضها.

و هذا کله یؤید ما ذکروه:أن العرب کانت تحرّم هذه الأشهر الحرم،و کان ذلک مما تمسّکت به من مله ابراهیم و اسماعیل علیهما السّلام،و هم کانوا أصحاب غارات و حروب فربما کان یشق علیهم أن یمکثوا ثلاثه اشهر متوالیه لا یغزون فیها فکانوا یؤخرون تحریم المحرّم الی صفر فیحرّمونه و یستحلون المحرم فیمکثون بذلک زمانا ثم یعود التحریم الی المحرّم،و لا یفعلون ذلک ای إنساء

حرمه المحرم الی صفر إلاّ فی ذی الحجه.

و أما ما ذكره بعضهم أن النسیء هو ما كانوا یؤخرون الحج من شهر الی شهر فمما لا ینطبق علی لفظ الآیه البتّه،و سیجیء تفصیل الكلام فیه فی البحث الروائی الآتی ان شاء اللّه.و لنرجع الی ما كنّا فیه.

فقوله تعالی: «إِنَّمَا النَّسِیءُ زِیادَهٌ فِی الْكُفْرِ» أی تأخیر الحرمه التی شرعها اللّه لهذه الأشهر الحرم من شهر منها الی شهر غیر حرام زیاده فی الكفر لأنه تصرف فی حكم اللّه المشروع و كفر بآیاته بعد الكفر باللّه من جهه الشرك فهو زیاده فی الكفر.

و قوله: یُضَلُّ بِهِ الَّذِینَ كَفَرُوا أی ضلوا فیه بإضلال غیرهم إیاهم بذلك،و فی الكلام إشعار أو دلاله علی أن هناك من یحكم بالنسیء،و قد ذكروا أن المتصدی لذلك كان بعض بنی كنانه،و سیجیء تفصیله فی البحث الروائی إن شاء اللّه.

و قوله: یُحِلُّونَهُ عاماً وَ یُحَرِّمُونَهُ عاماً لِیُواطِؤُا عِدَّهَ ما حَرَّمَ اللّهُ فَیُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللّهُ فی موضع التفسیر للإنسان،و الضمیر للشهر الحرام المعلوم فی سیاق الكلام ای و هو انهم یحلّون الشهر الحرام الذی نسئوه بتأخیر حرمته عاما و یحرّمونه عاما،ای یحلّونه عاما بتأخیر حرمته الی غیره،و یحرمونه عاما بإعاده حرمته الیه.

و إنما یعملون علی هذه الشاكله بالتأخیر سنه و الإثبات اخری لیواطئوا و یوافقوا عده ما حرم اللّه فیحلوا ما حرم اللّه فی حال حفظهم اصل العدد ای انهم یریدون التحفظ علی حرمه الاشهر الاربعه بعددها مع التغییر فی محل الحرمه لیتمكنوا مما یریدونه من الحروب و الغارات مع الاستنان بالحرمه.

و قوله: زُیِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَ اللّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْكافِرِینَ المزیّن هو الشیطان كما وقع فی آیات من الكتاب،و ربما الی اللّه سبحانه كما فی آیات أخر،و لا ینسب الشر الیه سبحانه إلاّ ما قصد به الجزاء علی الشر كما قال تعالی: یُضِلُّ بِهِ كَثِیراً وَ یَهْدِی بِهِ

كَثِيراً وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِينَ (البقره۲۶/).

و ذلك بأن يفسق العبد فيمنعه اللّه الهدايه فيكون ذلك إذنا لداعى الضلال و هو الشيطان ان يزيّن له سوء عمله فيغويه و يضله،و لذلك قال تعالى: «زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمٰالِهِمْ» ثم عقّبه بقوله:

«إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ» كأنه لما قيل:زيّن لهم سوء أعمالهم قيل:كيف أذن اللّه فيه و لم يمنع ذلك قيل:إن هؤلاء كافرون وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ (۱).

[سوره التوبه (۹): الآيات ۳۸ الى ۴۸]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا مٰا لَكُمْ إِذٰا قِيلَ لَكُمُ اِنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ اِثّٰاقَلْتُمْ إِلَى اَلْأَرْضِ أَ رَضِيتُمْ بِالْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا مِنَ اَلْآخِرَةِ فَمٰا مَتٰاعُ اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا فِي اَلْآخِرَةِ إِلاّٰ قَلِيلٌ (۳۸) إِلاّٰ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذٰاباً أَلِيماً وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لاٰ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۳۹) إِلاّٰ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اَللّٰهُ إِذْ أَخْرَجَهُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا ثٰانِيَ اِثْنَيْنِ إِذْ هُمٰا فِي اَلْغٰارِ إِذْ يَقُولُ لِصٰاحِبِهِ لاٰ تَحْزَنْ إِنَّ اَللّٰهَ مَعَنٰا فَأَنْزَلَ اَللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهٰا وَ جَعَلَ كَلِمَةَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا اَلسُّفْلىٰ وَ كَلِمَةُ اَللّٰهِ هِيَ اَلْعُلْيٰا وَ اَللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۴۰) اِنْفِرُوا خِفٰافاً وَ ثِقٰالاً وَ جٰاهِدُوا بِأَمْوٰالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴۱) لَوْ كٰانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قٰاصِداً لاَتَّبَعُوكَ وَ لٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ اَلشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَوِ اِسْتَطَعْنٰا لَخَرَجْنٰا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ (۴۲) عَفَا اَللّٰهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَكَ اَلَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ اَلْكٰاذِبِينَ (۴۳) لاٰ يَسْتَأْذِنُكَ اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ أَنْ يُجٰاهِدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (۴۴) إِنَّمٰا يَسْتَأْذِنُكَ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ اِرْتٰابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (۴۵) وَ لَوْ أَرٰادُوا اَلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لٰكِنْ كَرِهَ اَللّٰهُ اِنْبِعٰاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اُقْعُدُوا مَعَ اَلْقٰاعِدِينَ (۴۶) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مٰا زٰادُوكُمْ إِلاّٰ خَبٰالاً وَ لَأَوْضَعُوا خِلاٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ اَلْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمّٰاعُونَ لَهُمْ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظّٰالِمِينَ (۴۷) لَقَدِ اِبْتَغَوُا اَلْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ اَلْأُمُورَ حَتّٰى جٰاءَ اَلْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اَللّٰهِ وَ هُمْ كٰارِهُونَ (۴۸)

۱- ۱) .التوبه ۳۶-۳۷:بحث روائى فى الاشهر الحرم.

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ الآيه؛اثاقلتم أصله تثاقلتم على وزان ادّاركوا و غيره،و كأنه

ص: ۷۵۸

أشرب معنى الميل و نحوه فعدّى بإلى و قيل:اثاقلتم الى الأرض أى ملتم الى الأرض متثاقلين او تثاقلتم مائلين الى الأرض و المراد بالنفر فى سبيل اللّه الخروج الى الجهاد.

و قوله: أَ رَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ كأن الرضا أشرب معنى القناعه فعدّى بمن كما يقال:رضيت من المال بطيّبه،و رضيت من القوم بخلّه فلان،و على هذا ففى الكلام نوع من العنايه المجازيه كأن الحياه الدنيا نوع حقير من الحياه الآخره قنعوا بها منها، و يشعر بذلك قوله بعده: «فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ» .

فمعنى الآيه:يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قال لكم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم-لم صرّح باسمه صونا و تعظيما-اخرجوا الى الجهاد أبطأتم كأنكم لا تريدون الخروج أقنعتم بالحياه الدنيا راضين بها من الآخره فما متاع الحياه الدنيا بالنسبه الى الحياه الآخره إلاّ قليل.

و فى الآيه و ما يتلوها عتاب شديد للمؤمنين و تهديد عنيف و هى تقبل الانطباق على غزوه تبوك كما ورد ذلك فى اسباب النزول.

قوله تعالى: إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ الى آخر الآيه؛العذاب الذى أنذروا به مطلق غير مقيّد فلا وجه لتخصيصه بعذاب الآخره بل هو على إبهامه،و ربما أيّد السياق كون المراد به عذاب الدنيا او عذاب الدنيا و الآخره جميعا.

و قوله: «يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ» أى يستبدل بكم قوما غيركم لا يتثاقلون فى امتثال أوامر اللّه و النفر فى سبيل اللّه اذا قيل لهم:انفروا،و الدليل على هذا المعنى قرينه المقام.

و قوله: «وَ لاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً» إشاره الى هوان أمرهم على اللّه سبحانه لو أراد ان يذهب بهم و يأتى بآخرين فإن اللّه لا ينتفع بهم بل نفعهم لأنفسهم فضررهم على أنفسهم،و قوله: «وَ اللَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» تعليل لقوله: «يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ» .

قوله تعالى: إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ثانى اثنين اى أحدهما،و الغار الثقبه العظيمه فى الجبل،و المراد

به غـار جبـل ثور قرب منى و هو غير غـار حراء الـذى ربمـا كـان النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم يـأوى اليه قبل البعثه للأخبار المستفيضه،و المراد بصاحبه هو ابو بكر للنقل القطعى.

و قوله: إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنا أى لا تحزن خوفا مما تشاهده من الوحده و الغربه و فقد الناصـر و تظاهر الأعداء و تعقيبهم إياى فإن اللّه سبحانه معنا ينصرنى عليهم.

و قوله: فَأَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها أى أنزل اللّه سـكينته على رسوله و أيّد رسوله بجنود لم تروها يصـرفون القوم عنهم بوجوه من الصـرف بجميع العوامـل التى عملت فى انصـراف القوم عن دخول الغار و الظفر به صـلّى اللّه عليه و آله و سلم،و قد روى فى ذلك أشياء ستأتى فى البحث الروائى إن شاء اللّه تعالى.

و الدليل على رجوع الضمير فى قوله: «فَأَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم اولا:

رجوع الضمائر التى قبله و بعده اليه صلّى اللّه عليه و آله و سلم كقوله: «إِلاّ تَنْصُرُوهُ» و «نَصَرَهُ» و «أَخْرَجَهُ» و «يَقُولُ» و «لِصاحِبِهِ» و «أَيَّدَهُ» فلا سبيل الى رجوع ضمير «عَلَيْهِ» من بينها وحده الى غيره من غير قرينه قاطعه تدلّ عليه.

و ثانيـا:أن الكلام فى الآيه مسوق لبيان نصـر اللّه تعالى نبيه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم حيث لم يكن معه أحـد ممن يتمكن من نصـرته اذ يقول تعالى: «إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ» الآيه و إنزال السكينه و التقويه بالجنود من النصر فذاك له صلّى اللّه عليه و آله و سلم خاصه.

و يـدلّ على ذلـك تكرار «إِذْ» و ذكرهـا فى الآـيه ثلاـث مرات كـل منها بيان لما قبله بوجه فقوله: «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» بيان لوقت قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ» و قوله: «إِذْ هُما فِى الْغارِ» بيان لتشخيص الحال الذى هو قوله: «ثانِيَ اثْنَيْنِ» و قوله: «إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ» بيان لتشخيص الوقت الذى يدل عليه قوله: «إِذْ هُما فِى الْغارِ» .

و ثالثا:أن الآيه تجرى فى سياق واحد حتى يقول: «وَ جَعَلَ كَلِمَهَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى

وَ كَلِمَةُ اللّٰهِ هِيَ الْعُلْيٰا» و لا ريب أنه بيان لما قبله،و أن المراد بكلمه الـذين كفروا هى ما قضوا به فى دار النـدوه و عزموا عليه من قتله صلّى اللّه عليه و آله و سلم و إطفاء نور اللّه،و بكلمه اللّه هى ما وعـده من نصـره و إتمام نوره،و كيف يجوز أن يفرّق بين البيان و المبيّن و جعل البيان راجعا الى نصره تعالى إياه صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و المبيّن راجعا الى نصره غيره.

فمعنى الآيه:ان لم تنصروه أنتم ايها المؤمنون فقد اظهر اللّه نصره إياه فى وقت لم يكن له احد ينصره و يدفع عنه و قد تظاهرت عليه الأعداء و أحاطوا به من كل جهه و ذلك اذ هم المشركون به و عزموا على قتله فاضطر الى الخروج من مكه فى حال لم يكن إلّا احد رجلين اثنين،و ذلك اذ هما فى الغار اذ يقول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم لصاحبه و هو ابو بكر:لا تحزن مما تشاهده من الحال ان اللّه معنا بيده النصر فنصره اللّه.

حيث أنزل سكينته عليه و أيّده بجنود غائبه عن ابصاركم،و جعل كلمه الـذين كفروا -و هى قضاؤهم بوجوب قتله و عزيمتهم عليه-كلمه مغلوبه غير نافذه و لا مؤثره،و كلمه اللّه -و هى الوعد بالنصر و إظهار الدين و اتمام النور-هى العليا العاليه القاهره و اللّه عزيز لا يغلب حكيم لا يجهل و لا يغلط فى ما شاءه و فعله.

و قد تبيّن مما تقدم أولا:ان قوله: «فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» متفرّع على قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللّٰهُ» فى عين انه متفرع على قوله: «إِذْ يَقُولُ لِصٰاحِبِهِ لاٰ تَحْزَنْ» فان الظرف ظرف للنصره على ما تقدّم،و الكلام مسوق لبيان نصره تعالى إياه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لا غيره فالتفريع تفريع على الظرف بمظروفه الذى هو قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللّٰهُ» لا على قوله: «يَقُولُ لِصٰاحِبِهِ لاٰ تَحْزَنْ» .

و ربما استدل لذلك بأن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم لم يزل على سكينه من ربه فانزال السكينه فى هذا الظرف خاصه يكشف عن نزوله على صاحبه.

و يدفعه أولا قوله تعالى: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» فى قصه حنين، و القول بأن نفسه الشريفه اضطربت بعض الاضطراب فى وقعه حنين فناسب نزول السكينه

ص :۷۶۱

بخلاف الحال فی الغار.یدفعه أنه من الافتعال بغیر علم فالآیه لا تذکر منه صلّی اللّه علیه و آله و سلم حزنا و لا اضطرابا و لا غیر ذلک إلاّ ما تذکر من فرار المؤمنین.علی أنه یبطل أصل الاستدلال ان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لم یزل علی سکینه من ربه لا یتجدد له شیء منها فکیف جاز له أن یضطرب فی حنین فتنزل علیه سکینه جدیده اللهم إلاّ أن یریدوا به أنه لم یزل فی الغار کذلک.

و نظیرتها الآیه الناطقه بنزول السکینه علیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و علی المؤمنین فی سوره الفتح: إِذْ جَعَلَ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی قُلُوبِهِمُ الْحَمِیَّهَ حَمِیَّهَ الْجاهِلِیَّهِ فَأَنْزَلَ اللّهُ سَکِینَتَهُ عَلی رَسُولِهِ وَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ (الفتح/۲۶).

و یدفعه ثانیا:لزوم تفرّع قوله: «وَ أَیَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها» علی اثر تفرع قوله: «فَأَنْزَلَ اللّهُ سَکِینَتَهُ عَلَیْهِ» لأنهما فی سیاق واحد،و لازمه عدم رجوع التأیید بالجنود الیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم أو التفکیک فی السیاق الواحد من غیر مجوّز یجوّزه.

و ربما التزم بعضهم-فرارا من شناعه لزوم التفکیک-أن الضمیر فی قوله تعالی: «وَ أَیَّدَهُ» أیضا أیضا راجع الی صاحبه،و لازمه کون إنزال السکینه و التأیید بالجنود عائدین الی أبی بکر دون النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

و ربما أیّده بعض آخر بأن الوقائع التی تذکر الآیات فیها نزول جنود لم یروها کوقعه حنین و الأحزاب و کذا نزول الملائکه لوقعه بدر و ان لم تذکر نزولهم علی المؤمنین و لم تصرح بتأییدهم بهم لکنهم حیث کانوا انما نزلوا للنصر و فیه نصر المؤمنین و إمدادهم فلا مانع من القول بأن الجنود التی لم یروها إنما أیدت أبا بکر،و تأییدهم المؤمنین جمیعا أو ابا بکر خاصّه تأیید منهم فی الحقیقه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

و الأولی علی هذا البیان أن یجعل الفرع الثالث الذی هو قوله: «وَ جَعَلَ کَلِمَهَ الَّذِینَ کَفَرُوا السُّفْلی» الآیه؛مترتبا علی ما تقدّمه من الفرعین لئلا یلزم التفکیک فی السیاق.

و لا یخفی علیک أن هذا الذی التزموا به یخرج الآیه عن مستقر معناها الوحدانی الی معنی

متهافت الأطراف يدفع آخره أوله،و ينقض ذيله صدره فقد بدأت الآيه بأن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أكرم علی اللّه و أعز من أن يستذله و يحوجه الی نصره هؤلاء بل هو تعالی وليّه القائم بنصره حيث لم يكن أحد من هؤلاء الحافين حوله المتبعين أثره ثم اذا شرعت فی بيان نصره تعالی إياه بيّن نصره غيره بإنزال السكينه عليه و تأييده بجنود لم يروها الی آخر الآيه.

هب أن نصره تعالی بعض المؤمنين به صلّی اللّه عليه و آله و سلم أو جميعهم نصر منه له بالحقيقه لكن الآيه فی مساق يدفعه البته فإن الآيه السابقه يجمع المؤمنين فی خطاب واحد-يا أيها الذين آمنوا- و يعاتبهم و يهددهم علی التثاقل عن إجابه النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم الی ما أمرهم به من النفر فی سبيل اللّه و الخروج الی الجهاد ثم الآيه الثانيه تهددهم بالعذاب و الاستبدال إن لم ينفروا و تبين لهم أن اللّه و رسوله فی غنی عنهم و لا يضرونه شيئا،ثم الآيه الثالثه توضح ان النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم فی غنی عن نصرهم لأن ربه هو وليّه الناصر له،و قد نصره حيث لم يكن لأحد منهم صنع فيه و هو نصره إياه اذ أخرجه الذين كفروا ثانی اثنين اذ هما فی الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن اللّه معنا.

و من البيّن الذی لا مريه فيه ان مقتضی هذا المقام بيان نصره صلّی اللّه عليه و آله و سلم الخاص به المتعلق بشخصه من اللّه سبحانه خاصه من دون صنع لأحد من المؤمنين فی ذلک لا- بيان نصره إياه بالمؤمنين أو ببعضهم و قد جمعهم فی خطاب المعاتبه،و لا بيان نصره بعض المؤمنين به ممن كان معه.

و لا- أن المقام مقام يصلح لأن يشار بقوله: «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ» إشاره إجماليه الی نصره العزيز لنبيه صلّی اللّه عليه و آله و سلم ثم يؤخذ فی تفصيل ما خص به صاحبه من الخصيصه بإنزال السكينه و التأييد بالجنود فإن المقام علی ما تبين لک يأبی ذلک.

و يدفعه ثالثا:أن فيه غفله عن حقيقه معنی السكينه و قد تقدم الكلام فيها فی ذيل قوله تعالی: ثُمَّ أَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلی رَسُولِهِ وَ عَلَی الْمُؤْمِنِينَ الآيه:۲۶ من السوره.

و الأمر الثانی:أن المراد بتأييده صلّی اللّه عليه و آله و سلم بجنود لم يروها تأييده بذلک يومئذ علی ما يفيده

السیاق،و أما قول بعضهم:إن المراد به ما أیده بالجنود یوم الأحزاب و یوم حنین علی ما نطقت به الآیات فمما لا دلیل علیه من اللفظ البته.

و الأمر الثالث:أن المراد بالکلمه فی قوله: «وَ جَعَلَ کَلِمَهَ الَّذِینَ کَفَرُوا السُّفْلی» هو ما قضوا به فی دار الندوه و عزموا علیه من قتله صلّی اللّه علیه و آله و سلم و إبطال دعوته الحقه بذلک،و بقوله «وَ کَلِمَهُ اللّهِ هِیَ الْعُلْیا» هو ما وعد اللّه نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم من النصر و إظهار دینه علی الدین کله.

و ذلک أن هذه الآیه بما تتضمنه من قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِینَ کَفَرُوا» تشیر الی ما یقصه قوله تعالی: وَ إِذْ یَمْکُرُ بِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِیُثْبِتُوکَ أَوْ یَقْتُلُوکَ أَوْ یُخْرِجُوکَ وَ یَمْکُرُونَ وَ یَمْکُرُ اللّهُ وَ اللّهُ خَیْرُ الْماکِرِینَ (الأنفال/۳۰)،و الذی فی ذیل الآیه من إبطال کلمتهم و إحقاق الکلمه الإلهیه مرتبط بما فی صدر الآیه من حدیث الإخراج أی الاضطرار الی الخروج لا محاله،و الذی اضطره صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی الخروج هو عزمهم علی قتله حسب ما اتفقوا علیه من القضاء بقتله فهذه هی الکلمه التی أبطلها اللّه سبحانه و جعلها السفلی و تقابلها کلمه اللّه و لیست إلاّ النصر و الإظهار.

و من هنا یظهر ان قول بعضهم إن المراد بکلمه الذین کفروا الشرک و الکفر،و بکلمه اللّه تعالی التوحید و الإیمان غیر سدید فإن الشرک و إن کان کلمه لهم،و التوحید کلمه اللّه لکنه لا یستلزم کونهما المرادین کلما ذکرت الکلمتان حتی مع وجود القرینه علی الخلاف.

قوله تعالی: اِنْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالاً وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فِی سَبِیلِ اللّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الخفاف و الثقال جمعا خفیف و ثقیل،و الثقل بقرینه المقام کنایه عن وجود الموانع الشاغله الصارفه للإنسان عن الخروج الی الجهاد نظیر کثره المشاغل المالیه و حب الأهل و الولد و الأقرباء و الأصدقاء الذی یوجب کراهه مفارقتهم،و فقد الزاد و الراحله و السلاح و نحو ذلک،و الخفه کنایه عن خلاف ذلک.

فالأمر بالنفر خفافا و ثقالا و هما حالان متقابلان فی معنی الأمر بالخروج علی أی حال،

و عدم اتخاذ شیء من ذلک عذرا یعتذر به لترک الخروج کما أن الجمع بین الأموال و الأنفس فی الذکر فی معنی الأمر بالجهاد بأی وسیله أمکنت.

و قد ظهر بذلک ان الأمر فی الآیه مطلق لا یأبی التقیید بالأعذار التی یسقط معها وجوب الجهاد کالمرض و العمی و العرج و نحو ذلک فإن المراد بالخفه و الثقل امر وراء ذلک.

قوله تعالی: لَوْ کٰانَ عَرَضاً قَرِیباً وَ سَفَراً قٰاصِداً لاَتَّبَعُوکَ الی آخر الآیه.

العرض ما یسرع الیه الزوال و یطلق علی المال الدنیوی و هو المراد فی الآیه بقرینه السیاق، و المراد بقربه کونه قریبا من التناول،و القاصد من القصد و هو التوسط فی الأمر،و المراد بکون السفر قاصدا کونه غیر بعید المقصد سهلا علی المسافر،و الشقه:المسافه لما فی قطعها من المشقه.

و الآیه کما یلوح من سیاقها تعییر و ذم للمنافقین المتخلفین عن الخروج مع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی الجهاد الی غزوه تبوک اذ الغزوه التی خرج فیها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و تخلف عنه المنافقون و هی علی بعد من المسافه هی غزوه تبوک لا غیرها.

و معنی الآیه:لو کان ما امرتهم به و دعوتهم الیه عرضا قریب التناول و غنیمه حاضره و سفرا قاصدا قریبا هینا لاتبعوک یا محمّد و خرجوا معک طمعا فی الغنیمه و لکن بعدت علیهم الشقه و المسافه فاستصعبوا السیر و تثاقلوا فیه.

و سیحلفون باللّه اذا رجعتم الیهم و لمتموهم علی تخلفهم:لو استطعنا الخروج لخرجنا معکم یهلکون انفسهم بما اخذوه من الطریقه:من الخروج الی القتال طمعا فی عرض الدنیا اذا استیسروا القبض علیه،و التخلف عنه اذا شق علیهم ثم الاعتذار بالعذر الکاذب علی نبیهم و الحلف فی ذلک باللّه کاذبین،او یهلکون انفسهم بهذا الحلف الکاذب،و اللّه یعلم انهم لکاذبون.

قوله تعالی: عَفَا اللّٰهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتّٰی یَتَبَیَّنَ لَکَ الَّذِینَ صَدَقُوا

وَ تَعْلَمَ الْكٰاذِبِينَ الجمله الاولى دعاء للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالعفو نظير الدعاء على الانسان بالقتل فى قوله: قُتِلَ الْإِنْسٰانُ مٰا أَكْفَرَهُ (عبس١٧/)،و قوله: فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (المدثر١٩/)و قوله: قٰاتَلَهُمُ اللّٰهُ أَنّٰى يُؤْفَكُونَ (التوبه٣٠/).

و الجمله متعلقه بقوله: «لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» أى فى التخلف و العقود،و لما كان الاستفهام للإنكار او التوبيخ كان معناه:كان ينبغى ان لا تأذن لهم فى التخلف و القعود،و يستقيم به تعلق الغايه التى يشتمل عليها قوله: «حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا» الآيه؛بقوله: «لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» فالتعلق إنما هو بالمستفهم عنه دون الاستفهام و إلّا أفاد خلاف المقصود،و الكلام مسوق لبيان ظهور كذبهم و أن ادنى الامتحان كالكف عن إذنهم فى القعود يكشف عن فصاحتهم.

و معنى الآيه:عفا اللّه عنك لم أذنت لهم فى التخلف و القعود؟و لو شئت لم تأذن لهم-و كانوا أحق به-حتى يتبين لك الذين صدقوا و تعلم الكاذبين فيتميز عندك كذبهم و نفاقهم.

و الآيه-كما ترى و تقدمت الإشاره اليه-فى مقام دعوى ظهور كذبهم و نفاقهم و أنهم مفتضحون بأدنى امتحان يمتحنون به،و من مناسبات هذا المقام إلقاء العتاب الى المخاطب و توبيخه و الإنكار عليه كأنه هو الذى ستر عليهم فضائح اعمالهم و سوء سريرتهم،و هو نوع من العنايه الكلاميه يتبين به ظهور الأمر و وضوحه لا يراد أزيد من ذلك فهو من اقسام البيان على طريق«إياك اعنى و اسمعى يا جاره».

فالمراد بالكلام إظهار هذه الدعوى لا الكشف عن تقصير النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و سوء تدبيره فى احياء امر اللّه،و ارتكابه بذلك ذنبا-حاشاه-و أولويه عدم الإذن لهم معناها كون عدم الإذن انسب لظهور فضيحتهم و أنهم احق بذلك لما بهم من سوء السريره و فساد النيه لا لأنه كان اولى و أحرى فى نفس و أقرب و أمس بمصلحه الدين.

و الدليل على هذا الذى ذكرنا قوله تعالى بعد ثلاث آيات: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مٰا زٰادُوكُمْ إِلاّٰ خَبٰالاً وَ لَأَوْضَعُوا خِلاٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمّٰاعُونَ لَهُمْ» الى آخر الآيتين،فقد كان

الأصلح ان يؤذن لهم فى التخلف ليصان الجمع من الخبال و فساد الرأى و تفرق الكلمه، و المتعين ان يقعدوا فلا يفتنوا المؤمنين بإلقاء الخلاف بينهم و التفتين فيهم و فيهم ضعفاء الإيمان و مرضى القلوب و هم سماعون لهم يسرعون الى المطاوعه لهم و لو لم يؤذن لهم فأظهروا الخلاف كانت الفتنه اشد و التفرّق فى كلمه الجماعه اوضح و أبين.

و يؤكد ذلك قوله تعالى بعد آيتين: «وَ لَوْ أَرٰادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لٰكِنْ كَرِهَ اللّٰهُ انْبِعٰاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقٰاعِدِينَ» فقد كان تخلفهم و نفاقهم ظاهرا لائحا من عدم إعدادهم العده يتوسمه فى وجوههم كل ذى لب،و لا يخفى مثل ذلك على مثل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قد نبأه اللّه بأخبارهم قبل نزول هذه السوره كرارا فكيف يصح ان يعاتب هاهنا عتابا جديا بأنه لم لم يكف عن الإذن و لم يستعلم حالهم حتى يتبين له نفاقهم و يميز المنافقين من المؤمنين؟فليس المراد بالعتاب إلاّ ما ذكرناه.

و مما تقدم يظهر فساد قول من قال:إن الآيه تدل على صدور الذنب عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لأن العفو لا يتحقق من غير ذنب،و ان الإذن كان قبيحا منه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و من صغائر الذنوب لأنه لا يقال فى المباح لم فعلته؟انتهى.

و هذا من لعبهم بكلام اللّه سبحانه،و لو اعترض معترض على ما يهجون به فى مثل المقام الذى سيقت الآيه فيه لم يرضوا بذلك،و قد اوضحنا ان الآيه مسوقه لغرض غير غرض الجد فى العتاب.

على ان قولهم:إن المباح لا يقال فيه:لم فعلت؟فاسد فإن من الجائز اذا شوهد من رجح غير الأولى على الأولى ان يقال له:لم فعلت ذلك و رجحته على ما هو اولى منه؟على انك قد عرفت ان الآيه غير مسوقه لعتاب جدى.

و نظيره ما ذكره بعض آخر حيث قال:إن بعض المفسرين و لا سيما الزمخشرى قد أساءوا الأدب فى التعبير عن عفو اللّه تعالى عن رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى هذه الآيه،و كان يجب ان يتعلموا

أعلى الأدب معه صلّى اللّه عليه و آله و سلم اذ اخبره ربه و مؤدبه بالعفو قبل الذنب،و هو منتهى التكريم و اللطف.

و بالغ آخرون كالرازى فى الطرف الآخر فأرادوا ان يثبتوا ان العفو لا يدل على الذنب، و غايته ان الإذن الذى عاتبه اللّه عليه هو خلاف الاولى.

و هو جمود مع الاصطلاحات المحدثه و العرف الخاص فى معنى الذنب هو المعصيه،و ما كان ينبغى لهم ان يهربوا من إثبات ما اثبته اللّه فى كتابه تمسكا باصطلاحاتهم و عرفهم المخالف له و المدلول اللغه ايضا.

فالذنب فى اللغه كل عمل يستتبع ضررا او فوت منفعه او مصلحه،مأخوذ من ذنب الدابه،و ليس مرادفا للمعصيه بل اعم منها.و الإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحه المنصوصه فى الآيه و هى تبين الذين صدقوا و العلم بالكاذبين،و قد قال تعالى: إِنّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَکَ اللّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ الآيه(الفتح۲/).

ثم ذكر فى كلام له طويل ان ذلک كان اجتهادا منه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فيما لا وحى فيه من اللّه و هو جائز و واقع من الأنبياء عليهم السّلام و ليسوا بمعصومين من الخطاء فيه و إنما العصمه المتفق عليها خاصه بتبليغ الوحى ببيانه و العمل به فيستحيل على الرسول ان يكذب او يخطئ فيما يبلغه عن ربه او يخالفه بالعمل.

و منه ما تقدم فى سوره الأنفال من عتابه تعالى لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى اخذ الفديه من اسارى بدر حيث قال: ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ حَتّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَ اللّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ (الأنفال۶۷/)ثم بين انه كان مقتضيا لنزول عذاب أليم لو لا كتاب من اللّه سبق فكان مانعا انتهى كلامه بنوع من التخليص.

و ليت شعرى ما الذى زاد فى كلامه على ما تفصّى به الرازى و غيره حيث ذكروا ان ذلک من ترک الاولى،و لا يسمونه ذنبا فى عرف المتشرعين و هو الذى يستتبع عقابا،و ذكر هو انه من ترک الأصلح و سماه ذنبا لغه.

على انک قد عرفت فيما تقدم انه لم يکن ذنبا لا عرفا و لا لغه بدلاله ناصه من الآيات على ان عدم خروجهم کان هو الأصلح لحال جيش المسلمين لتخلصهم بذلک عن غائله وقوع الفتنه و اختلاف الکلمه،و کانت هذه العله بعينها موجوده لو لم يأذن لهم النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم و ظهر منهم ما کانوا ابطنوه من الکفر و الخلاف و أن الذی ذکره اللّه بقوله: «وَ لَوْ أَرٰادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً» ان عدم إعدادهم العده کان يدل على عدم إرادتهم الخروج،کان رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم اجل من ان يخفى عليه ذلک و هم بمرأی منه و مسمع.

مضافا الی انه صلّی اللّه عليه و آله و سلم کان يعرفهم فی لحن القول کما قال تعالی: وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ (محمّد ٣٠/)و کيف يخفى على من سمع من احدهم مثل قوله: «ائْذَنْ لِي وَ لاٰ تَفْتِنِّي» او يقول للنبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم «هُوَ أُذُنٌ» او يلمزه فی الصدقات و لا ينصح له صلّی اللّه عليه و آله و سلم أن ذلک من طلائع النفاق يطلع منهم و ما وراءه إلاّ کفر و خلاف.

فقد کان النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم يتوسم منهم النفاق و الخلاف و يعلم بما فی نفوسهم،و مع ذلک فعتابه صلّی اللّه عليه و آله و سلم بأنه لم لم يکف عن الإذن و لم يستعلم حالهم و لم يميزهم من غيرهم؟ليس إلاّ عتابا غير جدیّ للغرض الذی ذکرناه.

و أما قوله:«إن الإذن المعفوّ عنه قد استتبع فوت المصلحه المنصوصه فی الآيه و هی تبين الذين صدقوا و العلم بالکاذبين»ففيه أن الذی تشتمل عليه الآيه من المصلحه هو تبين الذين صدقوا للنبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم و علمه هو بالکاذبين لا مطلق تبينهم و لا مطلق العلم بالکاذبين،و قد ظهر مما تقدم انه صلّی اللّه عليه و آله و سلم لم يکن يخفى عليه ذلک،و أن حقيقه المصلحه إنما کانت فی الإذن و هی سدّ باب الفتنه و اختلاف الکلمه فانه صلّی اللّه عليه و آله و سلم کان يعلم من حالهم انهم غير خارجين البتّه سواء أذن لهم فی القعود أم لم يأذن فبادر الی الإذن حفظا على ظاهر الطاعه و وحده الکلمه.

و ليس لک ان تتصور انه لو بان نفاقهم يومئذ و ظهر خلافهم بعدم إذن النبی لهم بالقعود لتخلص الناس من تفتينهم و إلقائهم الخلاف لما فی الاسلام يومئذ-و هو يوم خروج

النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی غزوه تبوک-من الشوکه و القوه،و له صلّی اللّه علیه و آله و سلم من نفوذ الکلمه.

فان الإسلام یومئذ إنما کان یملک القوه و المهابه فی أعین الناس من غیر المسلمین کانوا یرتاعون شوکته و یعظمون سواد أهله و یخافون حد سیوفهم،و أما المسلمون فی داخل مجتمعهم و بین انفسهم فلم یخلصوا بعد من النفاق و مرض القلوب،و لم یستول علیهم بعد وحده الکلمه و جدّ الهمه و العزیمه،و الدلیل علی ذلک نفس هذه الآیات و ما یتلوها الی آخر السوره تقریبا.

و قد کانوا تظاهروا بمثل ذلک یوم أحد و قد هجم علیهم العدو فی عقر دارهم فرجع ثلث الجیش الاسلامی من المعرکه و لم یؤثر فیهم عظه و لا إلحاح حتی قالوا:لو نعلم قتالا لاتّبعناکم،فکان ذلک احد الأسباب العامله فی انهزام المسلمین.

و أما قوله:و من عتابه تعالی لرسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی خطائه فی اجتهاده ما تقدم فی سوره الأنفال من عتابه فی اخذ الفدیه من أساری بدر حیث قال: «مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ حَتّٰی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ» الآیه.

ففیه أولا:انه من سوء الفهم فمن البیّن الذی لا یرتاب فیه أن الآیه بلفظها لا تعاتب علی اخذ الفدیه من الأسری و إنما تعاتب علی نفس اخذ الأسری-ما کان لنبی ان یکون له اسری-و لم تنزل آیه و لا وردت روایه فی ان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان امرهم بالأسر بل روایات القصه تدل علی ان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لما أمر بقتل بعض الأسری خاف الناس ان یقتلهم علی آخرهم فکلموه و ألحوا علیه فی أخذ الفدیه منهم لیتقووا بذلک علی أعداء الدین و قد ردّ اللّه علیهم ذلک بقوله: «تُرِیدُونَ عَرَضَ الدُّنْیٰا وَ اللّٰهُ یُرِیدُ الْآخِرَهَ» .

و هذا من أحسن الشواهد علی أن العتاب فی الآیه متوجه الی المؤمنین خاصه من غیر ان یختص به النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم او یشارکهم فیه و أن اکثر ما ورد من الأخبار فی هذا المعنی موضوعه او مدسوسه.

ص:۷۷۰

و ثانيا:ان العتاب فى الآيه لو اختص بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم او شمله و غيره لم يكن من العتاب على ما ذكره على الذنب بمعناه اللغوى و هو تفويت المصلحه بوجه فان هذا العتاب مذيّل بقوله تعالى فى الآيه التاليه: لَوْ لاَ كِتَابٌ مِنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (الأنفال/ ۶۸)فلا يرتاب ذو لب فى أن التهديد بالعذاب العظيم لا يتأتى إلّا مع كون المهدد عليه من المعصيه المصطلحه بل و من كبائر المعاصى،و هذا ايضا من الشواهد على ان العتاب فى الآيه متوجه الى غير النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ الى آخر الآيتين،تذكر الآيتان أحد ما يعرف به المنافق و يتميز به من المؤمن و هو الاستيذان فى التخلف عن الجهاد فى سبيل اللّه.

و قد بيّن اللّه سبحانه ذلك بأن الجهاد فى سبيل اللّه بالأموال و الأنفس من لوازم الايمان باللّه و اليوم الآخر بحقيقه الايمان لما يورثه هذا الايمان من صفه التقوى،و المؤمن لما كان على تقوى من قبل الإيمان باللّه و اليوم الآخر كان على بصيره من وجوب الجهاد فى سبيل اللّه بماله و نفسه.

و لا يدعه ذلك ان يتثاقل عنه فيستأذن فى القعود لكن المنافق لعدم الإيمان باللّه و اليوم الآخر فقد صفه التقوى فارتاب قلبه و لا يزال يتردد فى ريبه فيحب التطرف،و يستأذن فى التخلف و القعود عن الجهاد.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً الى آخر الآيه،العدّه الأهبه، و الانبعاث-على ما فى المجمع-الانطلاق بسرعه فى الأمر،و التثبيط التوقيف عن الأمر بالتزهيد فيه.

و الآيه معطوفه على ما تقدّم من قوله: «وَ اللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» بحسب المعنى أى هم كاذبون فى دعواهم عدم استطاعتهم الخروج بل ما كانوا يريدونه و لو أرادوه لأعدّوا له عدّه لأن من آثار من يريد أمرا من الامور أن يتأهب له بما يناسبه من العدّه و الأهبه و لم يظهر منهم

شیء من ذلک.

و قوله: «وَ لٰكِنْ كَرِهَ اللّٰهُ انْبِعٰاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ» أی جزاء بنفاقهم و امتنانا علیک و علی المؤمنین لئلا یفسدوا جمعکم،و یفرّقوا کلمتکم بالتفتین و إلقاء الخلاف.

و قوله: «وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقٰاعِدِينَ» أمر غیر تشریعی لا ینافی الأمر التشریعی بالنفر و الخروج،فقد أمرهم اللّه بلسان نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالنفر و الخروج-و هو أمر تشریعی-و أمرهم من ناحیه سریرتهم الفاسده و الریب المتردد فی قلوبهم و سجایاهم الباطنیه الخبیثه بالقعود -و هو أمر غیر تشریعی-و لا تنافی بینهما.

و لم ینسب قول: «اقْعُدُوا مَعَ الْقٰاعِدِينَ» الی نفسه تنزیها لنفسه عن الأمر بما لا یرتضیه و هناک اسباب متخلله آخره بذلک کالشیطان و النفس،و إنما ینسب الیه تعالی بالواسطه لانطباق معنی الجزاء و الامتنان علی المؤمنین علیه.

و لیتوافق الأمران المتخالفان صوره فی السیاق أعنی قوله: «قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ» و قوله: «قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقٰاعِدِينَ» .

قوله تعالی: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مٰا زٰادُوكُمْ إِلاّٰ خَبٰالاً وَ لَأَوْضَعُوا خِلاٰلَكُمْ الآیه؛الخبال هو الفساد و اضطراب الرأی،و الإیضاح:الإسراع فی الشر،و الخلال:البین، و البغی هو الطلب فمعنی یبغونکم الفتنه أی یطلبون لکم أو فیکم الفتنه علی ما قیل،و الفتنه هی المحنه کالفرقه و اختلاف الکلمه علی ما یناسب الآیه من معانیها،و السمّاع السریع الإجابه و القبول.

و الآیه فی مقام التعلیل لقوله: «وَ لٰكِنْ كَرِهَ اللّٰهُ انْبِعٰاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ» امتنانا،و لذا جیء بالفصل من غیر عطف،و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتّٰى جٰاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللّٰهِ وَ هُمْ كٰارِهُونَ أی أقسم لقد طلبوا المحنه و اختلاف الکلمه و تفرّق

الجماعه من قبل هذه الغزوه-و هى غزوه تبوك-كما فى غزوه أحد حين رجع عبد اللّه بن أبى بن سلول بثلث القوم و خذل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و قلّبوا لك الأمور بدعوه الناس الى الخلاف و تحريضهم على المعصيه و خذلانهم عن الجهاد و بعث اليهود و المشركين على قتال المؤمنين و التجسس و غير ذلك حتى جاء الحق-و هو الحق الذى يجب أن يتّبع-و ظهر أمر اللّه-و هو الذى يريده من الدين-و هم كارهون لجميع ذلك.

و الآيه تستشهد على الآيه السابقه بذكر الأمثال كما يستدل على الأمر بمثله،و توجيه الخطاب الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم خاصه بعد عمومه فى الآيه السابقه لاختصاص الأمر فيه بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أعنى تقليب الامور عليه بخلاف ما فى الآيه السابقه من خروجهم فى الناس (۱).

[سوره التوبه (۹): الآيات ۴۹ الى ۶۳]

اشاره

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ اِئْذَنْ لِي وَ لاٰ تَفْتِنِّي أَلاٰ فِي اَلْفِتْنَهِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَهٌ بِالْكٰافِرِينَ (۴۹) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَهٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَهٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنٰا أَمْرَنٰا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (۵۰) قُلْ لَنْ يُصِيبَنٰا إِلاّٰ مٰا كَتَبَ اَللّٰهُ لَنٰا هُوَ مَوْلاٰنٰا وَ عَلَى اَللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُؤْمِنُونَ (۵۱) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنٰا إِلاّٰ إِحْدَى اَلْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اَللّٰهُ بِعَذٰابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينٰا فَتَرَبَّصُوا إِنّٰا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (۵۲) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فٰاسِقِينَ (۵۳) وَ مٰا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقٰاتُهُمْ إِلاّٰ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لاٰ يَأْتُونَ اَلصَّلاٰهَ إِلاّٰ وَ هُمْ كُسٰالىٰ وَ لاٰ يُنْفِقُونَ إِلاّٰ وَ هُمْ كٰارِهُونَ (۵۴) فَلاٰ تُعْجِبْكَ أَمْوٰالُهُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُهُمْ إِنَّمٰا يُرِيدُ اَللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهٰا فِي اَلْحَيٰاهِ اَلدُّنْيٰا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كٰافِرُونَ (۵۵) وَ يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مٰا هُمْ مِنْكُمْ وَ لٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (۵۶) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغٰارٰاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ (۵۷) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي اَلصَّدَقٰاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهٰا رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهٰا إِذٰا هُمْ يَسْخَطُونَ (۵۸) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مٰا آتٰاهُمُ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ قٰالُوا حَسْبُنَا اَللّٰهُ سَيُؤْتِينَا اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنّٰا إِلَى اَللّٰهِ رٰاغِبُونَ (۵۹) إِنَّمَا اَلصَّدَقٰاتُ لِلْفُقَرٰاءِ وَ اَلْمَسٰاكِينِ وَ اَلْعٰامِلِينَ عَلَيْهٰا وَ اَلْمُؤَلَّفَهِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي اَلرِّقٰابِ وَ اَلْغٰارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ اِبْنِ اَلسَّبِيلِ فَرِيضَهً مِنَ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶۰) وَ مِنْهُمُ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ اَلنَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَهٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اَللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۶۱) يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كٰانُوا مُؤْمِنِينَ (۶۲) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحٰادِدِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نٰارَ جَهَنَّمَ خٰالِداً فِيهٰا ذٰلِكَ اَلْخِزْيُ اَلْعَظِيمُ (۶۳)

۱- ۱) .التوبه ۳۸-۴۸:بحث روائى فى:هجره رسول اللّه؛نزول السكينه على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى الهجره و تأييد بجنود؛ غزوه تبوك و تخلف المنافقين عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

بيان:

قوله تعالی: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لاٰ تَفْتِنِّي أَلاٰ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا الآيه؛الفتنه هاهنا-علی ما يهدی اليه السياق-إما الإلقاء الی ما يفتتن و يغربه،و إما الإلقاء فی الفتنه و البليه الشامله.

و المراد علی الأول:ائذن لی فی القعود و عدم الخروج الی الجهاد،و لا تلقنی فی الفتنه بتوصيف ما فی هذه الغزوه من نفائس الغنائم و مشتهيات الأنفس فافتتن بها و أضطر الی الخروج،و علی الثانی ائذن لی و لا تلقنی الی ما فی هذه الغزوه من المحنه و المصيبه و البليّه.

فأجاب اللّه عن قولهم بقوله: «أَلاٰ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا» و معناه أنهم يحترزون بحسب زعمهم عن فتنه مترقبه من قبل الخروج،و قد أخطئوا فإن الذی هم عليه من الكفر و النفاق و سوء السريره،و من آثاره هذا القول الذی تفوهوا به هو بعينه فتنه سقطوا فيها فقد فتنهم الشيطان بالغرور،و وقعوا فی مهلكه الكفر و الضلال و فتنته.

هذا حالهم فی هذه النشأه الدنيويه و أما فی الآخره فإن جهنم لمحيطه بالكافرين علی حذو إحاطه الفتنه بهم فی الدنيا و سقوطهم فيها فقوله: «أَلاٰ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا» و قوله: «وَ إِنَّ جَهَنَّمَ

لَمُحِيطَةٌ بِالْكٰافِرِينَ» كأنهما معا يفيدان معنى واحدا و هو ان هؤلاء واقعون فى الفتنه و التهلكه ابدا فى الدنيا و الآخره.

و يمكن ان يفهم من قوله: «وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكٰافِرِينَ» الإحاطه بالفعل دون الإحاطه الاستقباليه كما تهدى اليه الآيات الداله على تجسم الأعمال.

قوله تعالى: إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنٰا أَمْرَنٰا مِنْ قَبْلُ المراد بالحسنه و السيئه بقرينه السياق ما تتعقبه الحروب و المغازى لأهلها من حسنه الفتح و الظفر و الغنيمه و السبى،و من سيئه القتل و الجرح و الهزيمه.

و قوله: «يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنٰا أَمْرَنٰا مِنْ قَبْلُ» كنايه عن الاحتراز عن الشر قبل وقوعه كأن أمرهم كان خارجا من ايديهم فأخذوه و قبضوا و تسلطوا عليه فلم يدعوه يفسد و يضيع.

فمعنى الآيه أن هؤلاء المنافقين هواهم عليك:إن غنمت و ظفرت فى وجهك هذا ساءهم ذلك،و إن قتلت او جرحت او اصبت بأى مصيبه اخرى قالوا قد احترزنا عن الشر من قبل و تولوا و هم فرحون.

و قد أجاب اللّه سبحانه عن ذلك بجوابين اثنين فى آيتين قوله: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنٰا» الخ؛ و قوله: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ» الخ.

قوله تعالى: قُلْ لَنْ يُصِيبَنٰا إِلاّٰ مٰا كَتَبَ اللّٰهُ لَنٰا هُوَ مَوْلاٰنٰا وَ عَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ محصّله أن ولايه امرنا إنما هى للّه سبحانه فحسب-على ما يدل عليه قوله: «هُوَ مَوْلاٰنٰا» من الحصر»لا الى انفسنا و لا الى شىء من هذه الاسباب الظاهره، بل حقيقه الامر للّه وحده و قد كتب كتابه حتم ما سيصيبنا من خير او شر او حسنه او سيئه، و اذا كان كذلك فعلينا امتثال امره و السعى لإحياء امره و الجهاد فى سبيله و للّه المشيّه فيما يصيبنا فى ذلك من حسنه او سيئه فما على العبيد إلاّ ترك التدبير و امتثال الامر و هو التوكل.

و بذلك يظهر:ان المراد بقوله: «وَ عَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» ليس كلاما مستأنفا بل

ص :۷۷۶

معطوف على مـا قبله متمم له،و المعنى ان ولاـيه امرنـا للّه و نحن مؤمنون به،و لاـزمه ان نتوكل عليه و نرجع الأمر اليه من غير ان نختار لأنفسـنا شيئا من الحسنه و السيئه فلو اصابتنا حسنه كان المن له و إن اصابتنا سيئه كانت المشيه و الخيره له،و لا لوم علينا و لا شماته تتعلق بنا،و لا حزن و لا مساءه يطرأ على قلوبنا.

قوله تعالى: قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنٰا إِلاّٰ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ الآيه الحسنيان هما الحسنه و السيئه على ما يدل عليه الآيه الاولى الحاكيه انهم يسوؤهم ما اصاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من حسنه،و تسرهم ما اصابه من سيئه فيقولون قد اخذنا امرنا من قبل فهم على حال تربص ينتظرون ما يقع به و بالمؤمنين من الحسنه او السيئه.

و الحسـنه و السـيئه كلتاهما حسـنيان بحسب النظر الدينى فإن فى الحسنه حسنه الدنيا و عظيم الأجر عند اللّه،و فى السيئه التى هى الشهاده او أى تعب و عناء اصابهم مرضاه اللّه و ثواب خالد دائم.

و معنى الآـيه أنـا نحن و أنتم كـل يتربص بصـاحبه غير انكم تتربصون بنـا إحـدى خصـلتين كـل واحـده منهما خصـله حسـنى و هما:الغلبه على العدو مع الغنيمه،و الشـهاده فى سبيل اللّه،و نحن نتربص بكم ان يعذبكم اللّه بعذاب من عنده كالعذاب السـماوى او بعـذاب يجرى بأيـدينا كـأن يأمرنـا بقتالكم و تطهير الأرض من قـذاره وجودكم فنحن فائزون على أى حال،إن وقع شـىء مما تربصتم سعدنا،و إن وقع ما تربصنا سعدنا فتربصوا إنا معكم متربصون،و هذا جواب ثان على المنافقين.

و قد ذكر فى الآيه الاولى إصابه الحسـنه و السـيئه النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلم،و فى مقام الجواب فى الآيتين الثانيه و الثالثه إصابتهما النبى و المؤمنين جميعا لملازمتهم إياه و مشاركتهم إياه فيما أصابه من حسنه او سيئه.

قوله تعالى: قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً

فاسِقِينَ لفظ امر فى معنى الشرط.و الترديد للتعميم و لفظ الأمر فى هذه الموارد كنايه عن عدم النهى و سد السبيل إيماء الى ان الفعل لغو لا يترتب عليه أثر،و قوله: «لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ» تعليل للأمر كما ان قوله تعالى: «إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ» تعليل لعدم القبول.

و معنى الآيه:لا نمنعكم عن الإنفاق فى حال طوع او كره فإنه لغو غير مقبول لأنكم فاسقون،و لا يقبل عمل الفاسقين،قال تعالى: إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللّٰهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (المائده۲۷/) و التقبل أبلغ من القبول.

قوله تعالى: وَ ما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ بِرَسُولِهِ الخ الآيه؛تعليل تفصيلى لعدم تقبل نفقاتهم،و بعباره اخرى بمنزله الشرح لفسقهم،و قد عدت الكفر باللّٰه تعالى و رسوله و الكسل فى إقامه الصلاه و الكره فى الإنفاق أركانا لنفاقهم.

قوله تعالى: فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها الى آخر الآيه؛الإعجاب بالشىء السرور بما يشاهد فيه من جمال او كمال او نحوهما، و الزهوق خروج الشىء بصعوبه و أصله الهلاك على ما قيل.

و قد نهى اللّٰه سبحانه نبيه صلّى اللّٰه عليه و آله و سلم عن الإعجاب بأموال المنافقين و أولادهم أى بكثرتها على ما يعطيه السياق،و علل ذلك بأن هذه الأموال و الأولاد-و هى شاغله للإنسان لا محاله-ليست من النعمه التى تهتف لهم بالسعاده بل من النقمه التى تجرهم الى الشقاء فإن اللّٰه و هو الذى خوّلهم إياها إنما أراد بها تعذيبهم فى الحياه الدنيا،و توفيهم و هم كافرون.

قوله تعالى: وَ يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ ما هُمْ مِنْكُمْ الى آخر الآيتين؛ الفرق انزعاج النفس من ضرر متوقع،و الملجأ الموضع الذى يلتجأ اليه و يتحصن فيه،و المغار المحل الذى يغور فيه الإنسان فيستره عن الأنظار،و يطلق على الغار و هو الثقف الذى يكون فى الجبال،و المدخل من الافتعال الطريق الذى يتدسس بالدخول فيه،و الجماح مضى المار

مسرعا على وجهه لا يصرفه عنه شىء،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ اللمز العيب،و إنما كانوا يعيبونه فيها اذا لم يعطهم منها لعدم استحقاقهم ذلك او لأسباب أخر كما يدل عليه ذيل الآيه.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ الى آخر الآيه؛ «لَوْ» للتمنى و قوله: «رَضُوا ما آتاهُمُ اللّهُ» كأن الرضى ضمن معنى الأخذ و لذا عدى بنفسه أى اخذوا ذلك راضين به او رضوا آخذين ذلك،و الإيتاء الإعطاء،و حسبنا اللّه أى كفانا فيما نرغب اليه و نأمله.

و قوله: سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ بيان لما يرغب اليه و يطمع فيه و ليس اخبارا عما سيكون،و قوله: «إِنّا إِلَى اللّهِ راغِبُونَ» كالتعليل لقوله: «سَيُؤْتِينَا اللّهُ» الى آخر الآيه.

و المعنى و كان مما يتمنى لهم ان يكونوا اخذوا ما اعطاهم اللّه و رسوله بأمر منه من مال الصدقات او غيره،و قالوا كفانا اللّه سبحانه من سائر الأسباب و نحن راغبون فى فضله و نطمع ان يؤتينا من فضله و يؤتينا رسوله.

و فى الآيه ما لا يخفى من لطيف البيان حيث نسب الايتاء الى اللّه و الى رسوله و خص الكفايه و الفضل و الرغبه باللّه على ما هو لازم دين التوحيد.

قوله تعالى: إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَهِ قُلُوبُهُمْ وَ فِى الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِى سَبِيلِ اللّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ الآيه؛بيان لموارد تصرف إليها الصدقات الواجبه و هى الزكوات بدليل قوله فى آخر الآيه «فَرِيضَهً مِنَ اللّهِ» و هى ثمانيه.وارد على ظاهر ما يعطيه سياق الآيه و لازمه أن يكون الفقير و المسكين موردين أحدهما غير الآخر.

و قد اختلفوا فی الفقیر و المسکین أنهما صنف واحد أو صنفان،ثم علی الثانی فی معناهما علی أقوال کثیره لا ینتهی اکثرها الی حجه بیّنه،و الذی یعطیه ظاهر لفظهما ان الفقیر هو الذی اتصف بالعدم و فقدان ما یرفع حوائجه الحیویه من المال قبال الغنی الذی اتصف بالغنی و هو الجده و الیسار.

و أما المسکین فهو الذی حلت به المسکنه و الذله مضافه الی فقدان المال و ذلک انما یکون بأن یصل فقر الی حد یستذله بذلک کمن لا یجد بدا من ان یبذل ماء وجهه و یسأل کل کریم و لئیم من شده الفقر کالأعمی و الأعرج فالمسکین أسوأ حالا من الفقیر.

و الفقیر و المسکین و إن کانا بحسب النسبه أعمّ و أخص فکل مسکین من جهه الحاجه المالیه فقیر و لا عکس غیر ان العرف یراهما صنفین متقابلین لمکان مغایره الوصفین فی نفسهما فلا یرد أن ذکر الفقیر علی هذا المعنی مغن عن ذکر المسکین لمکان أعمیّته و ذلک أن المسکنه هی وصف الذله کالزمانه و العرج و العمی و ان کان بعض مصادیقه نهایه الذله من جهه فقد المال.

و أما العاملون علیها ای علی الصدقات فهم الساعون لجمع الزکوات و جباتها.

و أما المؤلفه قلوبهم فهم الذین یؤلف قلوبهم بإعطاء سهم من الزکاه لیسلموا أو یدفع بهم العدو او یستعان بهم علی حوائج الدین.

و أما قوله: وَ فِی الرِّقٰابِ فهو متعلق بمقدّر و التقدیر:و المصرف فی الرقاب أی فی فکها کما فی المکاتب الذی لا یقدر علی تأدیه ما شرطه لمولاه علی نفسه لعتقه أو الرق الذی کان فی شدّه.

و قوله: وَ الْغٰارِمِینَ ای و للصرف فی الغارمین الذین رکبتهم الدیون فیقضی دیونهم بسهم من الزکاه.

و قوله: وَ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ ای و للصرف فی سبیل اللّه،و هو کل عمل عام یعود

عائدته الى الإسلام و المسلمين و تحفظ به مصلحه الدين و من أظهر مصاديقه الجهاد فى سبيل اللّه،و يلحق به سائر الأعمال التى تعم نفعه و تشمل فائدته كاصلاح الطرق و بناء القناطر و نظائر ذلك.

و قوله: وَ ابْنِ السَّبِيلِ اى و للصرف فى ابن السبيل و هو المنقطع عن وطنه الفاقد لما يعيش به و إن كان غنيا ذا يسار فى بلده فيرفع حاجته بسهم من الزكاه.

و قد اختلف سياق العد فيما ذكر فى الآيه من الأصناف الثمانيه فذكرت الأربعه الأولى باللام: «لِلْفُقَرٰاءِ وَ الْمَسٰاكِينِ وَ الْعٰامِلِينَ عَلَيْهٰا وَ الْمُؤَلَّفَهِ قُلُوبُهُمْ» ثم غيّر السياق فى الأربعه الباقيه فقيل: «وَ فِی الرِّقٰابِ وَ الْغٰارِمِينَ وَ فِی سَبِيلِ اللّٰهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» فان ظاهر السياق الخاص بهذه الاربعه أن التقدير:و فى الرقاب و فى الغارمين و فى سبيل اللّه و فى ابن السبيل.

اما الأربعه الاول: «لِلْفُقَرٰاءِ وَ الْمَسٰاكِينِ وَ الْعٰامِلِينَ عَلَيْهٰا وَ الْمُؤَلَّفَهِ قُلُوبُهُمْ» فاللام فيها للملك بمعنى الاختصاص فى التصرف فان الآيه بحسب السياق كالجواب عن المنافقين الذين كانوا يطمعون فى الصدقات و هم غير مستحقين لها و كانوا يلمزون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى حرمانهم منها فاجيبوا بالآيه أن للصدقات مواضع خاصه تصرف فيها و لا تتعداها،و الآيه ليست بظاهره فى أزيد من هذا المقدار من الاختصاص.

و أما كون ملكهم للصدقات هو الملك بمعناه المعروف فقها؟و كذا حقيقه هذا الملك مع كون المالكين أصنافا بعناوينهم الصنفيه لا ذوات شخصيه؟و نسبه سهم كل صنف الى بقيه السهام؟فإنما هى مسائل فقهيه خارجه عن غرضنا،و قد اختلفت اقوال الفقهاء فيها اختلافا شديدا فليرجع الى الفقه.

و أما الأربعه الباقيه: «وَ فِی الرِّقٰابِ وَ الْغٰارِمِينَ وَ فِی سَبِيلِ اللّٰهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» فقد قيل فى تغيير السياق فيها و فى تأخيرها عن الأربعه الاول وجوه:

منها:ان الترتيب لبيان الأحق فالأحق من الأصناف،فأحق الأصناف بها الفقراء ثم

المساكين و هكذا على الترتيب،و لكون الاربعه الاخيره بحسب ترتيب الأحقيه واقعه فى المراتب الاربع الاخيره وضع كل فى موضعه الخاص،و لو لا هذا الترتيب لكان الأنسب ان يذكر الأصناف ثم تذكر موارد المصالح فيقال:للفقراء و المساكين و العاملين عليها و المؤلفه قلوبهم و الغارمين و ابن السبيل ثم يقال:و فى الرقاب و سبيل اللّه.

و الحق أن دلاله الترتيب بما فيه من التقديم و التأخير على أهميه الملاك و قوه المصلحه فى اجزاء الترتيب لا ريب فيه فان كان مراده بالأحق فالأحق الأهم ملاكا فالأهم فهو،و لو كان المراد التقدم و التأخر من حيث الإعطاء و الصرف ما يشبه ذلك فلا دلاله من جهه اللفظ عليه البته كما لا يخفى و الذى أيده به من الوجه لا جدوى فيه.

و منها:ان العدول عن الام فى الأربعه الأخيره الى«فى»للإيذان بأنهم ارسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره لأن«فى»للوعاء فتبّه على انهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات و يجعلوا مظنه لها و مصبا،و ذلك لما فى فكّ الرقاب من الكتابه او الرق و الأسر،و فى فكّ الغارمين من الغرم و التخليص و الانقاذ،و لجمع الغازى الفقير او المنقطع فى الحج بين الفقر و العباده،و كذلك ابن السبيل جامع بين الفقر و الغربه عن الأهل و المال.

و تكرير«فى»فى قوله: «وَ فِی سَبِيلِ اللّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب و الغارمين.كذا ذكره فى الكشاف.

و فيه:أنه معارض بكون الأربعه الاول مدخوله للام الملك فان المملوك اشد لزوما و اتصالا بالنسبه الى مالكه من المظروف بالنسبه الى ظرفه،و هو ظاهر.

و منها:أن الأصناف الأربعه الاوائل ملاك لما عساه يدفع اليهم،و إنما يأخذونه ملكا فكان دخول اللام لائقا بهم،و أما الاربعه الاواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم بل و لا يصرف اليهم و لكن فى مصالح تتعلق بهم.

فالمال الذى يصرف فى الرقاب انما يتناوله الساده المكاتبون و البائعون فليس نصيبهم

مصروفا الی ایدیهم حتی یعبّر عن ذلک باللام المشعره بتملکهم لما یصرف نحوهم،و إنما هم محال لهذا الصرف و المصلحه المتعلقه به،و کذلک الغارمون انما یصرف نصیبهم لأرباب دیونهم تخلیصا لذممهم لا لهم،و أما سبیل اللّه فواضح ذلک فیه،و أما ابن السبیل فکأنه کان مندرجا فی سبیل (۱)اللّه،و إنما أفرد بالذکر تنبیها علی خصوصیته مع انه مجرّد من الحرفین جمیعا و عطفه علی المجرور باللام ممکن و لکنه علی التقریب منه أقرب.

و هذا الوجه لا یخلو عن وجه غیر أن اجراءه فی ابن السبیل لا یخلو عن تکلف،و ما ذکر من دخوله فی سبیل اللّه و هو وجه مشترک بینه و بین غیره.

و لو قال قائل بکون الغارمین و ابن السبیل معطوفین علی المجرور باللام ثم ذکر الوجه الاول بالمعنی الذی ذکرناه وجها للترتیب و الوجه الاخیر وجها لاختصاص الرقاب و سبیل اللّه بدخول«فی»لم یکن بعیدا عن الصواب.

و قوله فی ذیل الآیه: «فَرِیضَهً مِنَ اللّهِ وَ اللّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ» إشاره الی کون الزکاه فریضه واجبه مشرّعه علی العلم و الحکمه لا تقبل تغییر المتغیّر،و لا یبعد ان یتعلق الفرض بتقسمها الی الاصناف الثمانیه کما ربما یؤیده السیاق فان الغرض فی الآیه إنما تعلّق ببیان مصارف الصدقات لا بفرض اصلها فالأنسب ان یکون قوله: «فَرِیضَهً مِنَ اللّهِ» اشاره الی ان تقسّمها الی الاصناف الثمانیه امر مفروض من اللّه لا یتعدی عنه علی خلاف ما کان یطمع فیه المنافقون فی لمزهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

و من هنا یظهر ان الآیه لا تخلو عن إشعار بکون الاصناف الثمانیه علی سهمها من غیر اختصاص بزمان دون زمان خلافا لما ذکره بعضهم:أن المؤلفه قلوبهم کانوا جماعه من

۱- ۱) .بل هو ایضا کالغارمین و الرقاب لا یدفع الیه نصیبه و انما یصرف فی المصلحه المتعلقه به من الزاد و اکتراء الراحله حتی یصل الی وطنه(ب).

الاشراف فى زمن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ألّف قلوبهم بإعطاء سهم من الصدقات إياهم،و أما بعده صلّى اللّه عليه و آله و سلم فقد ظهر الاسلام على غيره،و ارتفعت الحاجه الى هذا النوع من التأليفات،و هو وجه فاسد و ارتفاع الحاجه ممنوع.

قوله تعالى: وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ الاذن جارحه السمع المعروفه،و قد أطلقوا عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلم الاذن و سمّوه بها إشاره الى أنه يصغى لكل ما قيل له و يستمع الى كل ما يذكر له فهو أذن.

و قوله: «قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ» من الإضافه الحقيقه اى سمّاع يسمع ما فيه خيركم حيث يسمع من اللّه سبحانه الوحى و فيه خير لكم،و يسمع من المؤمنين النصيحه و فيها خير لكم و يمكن ان يكون من إضافه الموصوف الى الصفه اى أذن هى خير لكم لأنه لا يسمع إلّا ما ينفعكم و لا يضركم.

و الفرق بين الوجهين أن اللازم على الاول ان يكون مسموعه خيرا لهم كالوحى من اللّه و النصيحه من المؤمنين،و اللازم على الثانى ان يكون استماعه استماع خير و إن لم يكن مسموعه خيرا كأن يستمع الى بعض ما ليس خيرا لهم لكنه يستمع اليه فيحترم بذلك قائله ثم يحمل ذلك القول منه على الصحه فلا يهتك حرمته و لا يسىء الظن به ثم لا يرتب أثر الخبر الصادق المطابق للواقع عليه فلا يؤاخذ من قيل فيه بما قيل فيه فيكون قد احترم إيمانه كما احترم إيمان القائل الذى جاءه بالخبر.

و من هنا يظهر أن الأنسب بسياق الآيه هو الوجه الثانى لما عقبه بقوله: «يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» الآيه.

قوله تعالى: يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كٰانُوا مُؤْمِنِينَ قال فى المجمع:«الفرق بين الأحق و الأصلح أن الأحق قد يكون من

غیر صفات الفعل کقولک:زید أحق بالمال،و الأصلح لا یقع هذا الموقع لأنه من صفات الفعل و تقول:اللّه أحق بأن یطاع و لا تقول أصلح»انتهی.

و السبب الأصلی فیه أن الصلاحیه و الصلوح یحمل معنی الاستعداد و التهیؤ،و الحق یحمل معنی الثبوت و اللزوم،و اللّه سبحانه لا یتصف بشیء من معنی الاستعداد و القبول المستلزم لتأثیر الغیر فیه و تأثره عنه.

و قد حول اللّه الخطاب فی الآیه عن نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی المؤمنین التفاتا و کأن الوجه فیه التلویح لهم بما یشتمل علیه قوله: «وَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ یُرْضُوهُ إِنْ کٰانُوا مُؤْمِنِینَ» من الحکم و هو ان من الواجب علی کل مؤمن ان یرضی اللّه و رسوله،و لا یحاد اللّه و رسوله فإن فیه خزیا عظیما نار جهنم خالدا فیها.

و من أدب التوحید فی الآیه ما فی قوله: «أَحَقُّ أَنْ یُرْضُوهُ» من إفراد الضمیر و لم یقل:

أحق ان یرضوهما صونا لمقامه تعالی من ان یعدل به أحد فإن أمثال هذه الحقوق و کذا الاوصاف التی یشارکه تعالی غیره من حیث الإطلاق و الإجراء،له تعالی بالذات و لنفسه و لغیره بالتبع أو بالعرض و من جهته کوجوب الإرضاء و التعظیم و الطاعه و غیرها، و کالاتصاف بالعلم و الحیاه و الإحیاء و الإماته و غیرها.

و قد روعی نظیر هذا الأدب فی القرآن فی موارد کثیره فیما یشارک النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم غیره من الامه من الشئون فأخرج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من بینهم و أفرد بالذکر کما فی قوله: یَوْمَ لاٰ یُخْزِی اللّٰهُ النَّبِیَّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا (التحریم/۸)و قوله: فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَکِینَتَهُ عَلیٰ رَسُولِهِ وَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ (الفتح/۲۶)و قوله: آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَیْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ (البقره/۲۸۵)و غیر ذلک.

قوله تعالی: أَ لَمْ یَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ یُحٰادِدِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نٰارَ جَهَنَّمَ الی آخر الآیه قال فی المجمع:المحاده مجاوزه الحد بالمشاقه،و هی و المخالفه و المجانبه و المعاداه

نظائر،و أصله المنع و المحاده ما يلحق الإنسان من النزق لأنه يمنعه من الواجب و قال:و الخزی الهوان و ما يستحيی منه.انتهی.

و الاستفهام فی الآیه للتعجيب،و الكلام مسوق لبيان كونه تعالی و كون رسوله أحق بالإرضاء و محصله أنهم يعلمون أن محاده اللّه و رسوله و المشاقه و المعاداه مع اللّه و رسوله و الإسخاط يوجب خلود النار،و اذا حرم إسخاط اللّه و رسوله وجب إرضاؤه و إرضاء رسوله علی من كان مؤمنا باللّه و رسوله (۱).

[سوره التوبه (۹): الآيات ۶۴ الی ۷۴]

اشاره

يَحْذَرُ اَلْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِی قُلُوبِهِمْ قُلِ اِسْتَهْزِؤُا إِنَّ اَللّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (۶۴) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (۶۵) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (۶۶) اَلْمُنافِقُونَ وَ اَلْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ اَلْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اَللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ اَلْمُنافِقِينَ هُمُ اَلْفاسِقُونَ (۶۷) وَعَدَ اَللّهُ اَلْمُنافِقِينَ وَ اَلْمُنافِقاتِ وَ اَلْكُفّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِیَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اَللّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (۶۸) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالاً وَ أَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَما اِسْتَمْتَعَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِی خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِی اَلدُّنْيا وَ اَلْآخِرَهِ وَ أُولئِكَ هُمُ اَلْخاسِرُونَ (۶۹) أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْراهِيمَ وَ أَصْحابِ مَدْيَنَ وَ اَلْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اَللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۷۰) وَ اَلْمُؤْمِنُونَ وَ اَلْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ اَلْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ اَلصَّلاهَ وَ يُؤْتُونَ اَلزَّكاهَ وَ يُطِيعُونَ اَللّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اَللّهُ إِنَّ اَللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۷۱) وَعَدَ اَللّهُ اَلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِناتِ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِی جَنّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اَللّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (۷۲) يا أَيُّهَا اَلنَّبِیُّ جاهِدِ اَلْكُفّارَ وَ اَلْمُنافِقِينَ وَ اُغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ اَلْمَصِيرُ (۷۳) يَحْلِفُونَ بِاللّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَهَ اَلْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَ ما نَقَمُوا إِلاّ أَنْ أَغْناهُمُ اَللّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اَللّهُ عَذاباً أَلِيماً فِی اَلدُّنْيا وَ اَلْآخِرَهِ وَ ما لَهُمْ فِی اَلْأَرْضِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۷۴)

۱- ۱) .التوبه ۴۹-۶۳:بحث روائی فی:المنافقين و لمزهم لرسول اللّه فی الصدقات؛الصدقات لمن هی و علی من تجب.

بیان:

قوله تعالی: يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ الی آخر الآیه؛کان المنافقون یشاهدون ان جل ما یستسرون به من شئون النفاق؛و یناجی به بعضهم بعضا من کلمه الکفر و وجوه الهمز و اللمز و الاستهزاء او جمیع ذلک لا یخفی علی الرسول،و یتلی علی الناس فی آیات من القرآن یذکر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم انه من وحی اللّه،و لا محاله کانوا لا یؤمنون بأنه وحی نزل به الروح الأمین علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و یقدرون ان ذلک مما یتجسسه المؤمنون فیخبرون به النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فیخرجه لهم فی صوره کتاب سماوی نازل علیهم و هم مع ذلک کانوا یخافون ظهور نفاقهم و خروج ما خبوه فی سرائرهم الخبیثه لأن السلطنه و الظهور کانت للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم علیهم یجری فیهم ما یأمر به و یحکم علیه.

فهم کانوا یحذرون نزول سوره یظهر بها ما اضمروه من الکفر و هموا به من تقلیب الأمور علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و قصده بما یبطل به نجاح دعوته و تمام کلمته فأمر اللّه نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ان یبلغهم ان اللّه عالم بما فی صدورهم مخرج ما یحذرون خروجه و ظهوره بنزول سوره من عنده أی یخبرهم بأن اللّه منزل سوره هذا نعتها.

و بهذا یستنیر معنی الآیه فقوله: «يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ» الخطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و وجه الکلام الیه،و هو یعلم بتعلیم اللّه ان هذا الکلام الذی یتلوه علی الناس کلام إلهی و قرآن منزل من عنده فیصف سبحانه الکلام الذی یخاف منه المنافقون بما له من

الوصف عند النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و هو انه سوره منزله من اللّه علی الناس و منهم المنافقون لا علی ما یراه المنافقون انه کلام بشری یدعی کونه کلام اللّه.

فهم کانوا یحذرون ان یتلو النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم علیهم و علی الناس کلاما هذا نعته الواقعی و هو انه سوره منزله علیهم بما انها متوجهه بمضمونها الیهم قاصده نحوهم ینبئهم هذه السوره النازله بما فی قلوبهم فیظهر علی الناس و یفشو بینهم ما کانوا یسرونه من کفرهم و سوء نیاتهم،و هذا الظهور فی الحقیقه هو الذی کانوا یحذرونه من نزول السوره.

و قوله: قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مٰا تَحْذَرُونَ کأن المراد بالاستهزاء هو نفاقهم و ما یلحق به من الآثار فإن اللّه سمی نفاقهم استهزاء حاکیا فی ذلک قولهم حیث قال وَ إِذٰا لَقُوا الَّذِینَ آمَنُوا قٰالُوا آمَنّٰا وَ إِذٰا خَلَوْا إِلیٰ شَیٰاطِینِهِمْ قٰالُوا إِنّٰا مَعَکُمْ إِنَّمٰا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (البقره/۱۴)فالمراد بالاستهزاء هو ستر ما یحذرون ظهوره،و الأمر تعجیزی أی دوموا علی نفاقکم و سترکم ما تحذرون خروجه من عندکم الی مرئی الناس و مسمعهم فإن اللّه مخرج ذلک و کاشف عن وجهه الغطاء،و مظهر ما اخفیتموه فی صدورکم.

فصدر الآیه و إن کان یذکر انهم یحذرون تنزیل سوره کذا و کذا و لکنهم إنما کانوا یحذرونها لما فیها من الأنباء التی یحذرون ان یطلع علیها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و تنجلی للناس،و هذا هو الذی یذکر ذیلها انهم یحذرونه فالکلام بمنزله ان یقال:یحذر المنافقون تنزیل سوره قل إن اللّه منزّلها،او یقال:یحذر المنافقون انکشاف باطن امرهم و ما فی قلوبهم قل استهزءوا إن اللّه سیکشف ذلک و ینبئ عما فی قلوبکم.

قوله تعالی: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَیَقُولُنَّ إِنَّمٰا کُنّٰا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللّٰهِ وَ آیٰاتِهِ وَ رَسُولِهِ کُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ الخوض-علی ما فی المجمع-دخول القدم فیما کان مائعا من الماء و الطین ثم کثر حتی استعمل فی غیره.

و قال الراغب فی المفردات:الخوض هو الشروع فی الماء و المرور فیه،و یستعار فی الامور،

و أكثر ما ورد فى القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه.انتهى.

و لم يـذكر اللّه سبحانه متعلق السؤال و أن المسئول عنه الذى إن سأل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم سأل عنه ما هو؟غير أن قوله: «لَيَقُولُنَّ إِنَّمٰا كُنّٰا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ» بما له من السياق المصدر بإنما يدل على أنه كان فعلا صادرا منهم له نوع تعلق بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و كان أمرا مرئيا يسىء الظن بهم،و لم يكن فى وسعهم أن يعتذروا منه بعد ما تبين و انكشف للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلاّ بأنه إنما كان منهم خوضا و لعبا لم يريدوا به غير ذلك.

و الخوض و اللعب الذين اعتذروا بهما من الأعمال السيّئه التى لا يعترف بهما الناس فى حالهم العادى و خاصه المؤمنون و سائر المتظاهرين بالإيمان و خاصه اذا كان ذلك فى أمر يرجع الى اللّه و رسوله غير أنهم لم يجدوا وصفا يصفون به فعلهم لإخراجه عن ظاهر ما يدل عليه، دون أن يعنونوه بأنه كان خوضا و لعبا.

و لذا أمر نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يوبخهم على ما اعتذروا به فقال: «قُلْ أَ بِاللّٰهِ وَ آيٰاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ» ثم فسّر عملهم فى آخر الآيات بقوله: «يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مٰا قٰالُوا وَ لَقَدْ قٰالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاٰمِهِمْ وَ هَمُّوا بِمٰا لَمْ يَنٰالُوا» الآيه.

و يتحصل من مجموع هذه القرائن أن المنافقين كانوا أرادوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بسوء كالفتك به و مفاجأته بما يهلكه و أقدموا على ما قصدوه و تكلموا عند ذلك بشىء من الكلام الردى لكنهم أخطئوا فى ما أوقعوه عليه و اندفع الشر عنه،و لم يصب السهم هدفه فلما خاب سعيهم و بان أمرهم سألهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن ذلك و ما تصدوه به اعتذروا بأنهم كانوا يخوضون و يلعبون فوبخهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بقوله: «أَ بِاللّٰهِ وَ آيٰاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ» و رد اللّه سبحانه إليهم عذرهم الذى اعتذروا به و بين حقيقه ما قصدوا بذلك.

و بالجمله معنى الآيه:و أقسم لئن سألتهم عن فعلهم الذى شوهد منهم:ما الذى أرادوا به؟ و كان ظاهره أنهم همّوا بأمر فيك ليقولنّ:لم يكن قصد سوء و لا بالذى ظننت فأسأت الظن

بنا،و إنما كنا نخوض و نلعب خوض الركب فى الطريق لا على سبيل الجد و لكن لعبا.

و هذا اعتذار منهم بالاستهزاء باللّه و آياته و رسوله فإنهم يعترفون بأنهم فعلوا فيك ما فعلوا خوضا و لعبا فقد استهزءوا باللّه و رسوله فقل:أ بالله و آياته و رسوله كنتم تستهزءون أى أ تعتذرون عن سيّئ فعلكم بسيّئه أخرى هى الاستهزاء باللّه و آياته و رسوله،و هو كفر؟

و ليس من البعيد أن يكون الغرض الأصيل بيان كونه استهزاء بالرسول،و إنما ذكر اللّه و آياته للدلاله على معنى الاستهزاء بالرسول،و أنه لما كان من آيات اللّه كان الاستهزاء به استهزاء بآيات اللّه،و الاستهزاء بآيات اللّه استهزاء باللّه العظيم فالاستهزاء برسول اللّه استهزاء باللّه و آياته و رسوله.

قوله تعالى: لاٰ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمٰانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طٰائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طٰائِفَةً الآيه؛قال الراغب فى المفردات:الطوف المشى حول الشيء و منه الطائف لمن يدور حول البيوت حافظا-الى أن قال-و الطائفه من الناس جماعه منهم و من الشيء القطعه منه.

و قوله تعالى: «فَلَوْ لاٰ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طٰائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ» قال بعضهم:قد يقع ذلك على الواحد فصاعدا،و على ذلك قوله: «وَ إِنْ طٰائِفَتٰانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. إِذْ هَمَّتْ طٰائِفَتٰانِ مِنْكُمْ» .

و الطائفه اذا أريد بها الجمع فجمع طائف،و اذا اريد بها الواحد فيصح أن يكون جمعا و يكنّى به عن الواحد،و يصح أن يجعل كراويه و علامه و نحو ذلك.انتهى.

و قد خطّأ بعضهم القول بجواز صدق الطائفه على الواحد و الاثنين من الناس كما تصدق على الثلاثه فصاعدا،و بالغ فى ذلك حتى عده غلطا و لا دليل له على ما ذكره،و ماده اللفظ لا يستوجب شيئا معينا من العدد،و إطلاقها على القطعه من الشيء يؤيد استعمالها فى الواحد.

و قوله: «لاٰ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمٰانِكُمْ» نهى عن الاعتذار بدعوى أنه لغو كما يدل عليه

قوله: «قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ» فإن الاعتذار لا فائده تترتب عليه بعد الحكم بكفرهم بعد إيمانهم.

و المراد بإيمانهم هو ظاهر الإيمان الـذى كانوا يتظاهرون به لا حقيقه الإيمان الذى هو من الهدايه الإلهيه التى لا يعقبها ضـلال،و يؤيد قوله تعالى فى آخر هذه الآيات: «وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ» فبدل الإيمان إسلاما و هو ظاهر الشهادتين.

و يمكن ان يقـال:إن من مراتب الإيمـان ما هو اعتقاد و اذعان ضـعيف غير آب عن الزوال كإيمان الـذين فى قلوبهم مرض و قد عدهم اللّه من المؤمنين و ذكرهم مع المنافقين لأمنهم،و لا مانع من ان ينسلخوا هذا الإيمان.

و كيف لا؟و قـد سلخ اللّه الايمان ممن هو ارسخ إيمانا منهم كالـذى يقصه فى قوله: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ (الأعراف١٧۶/).

و قـال أيضـا: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً (النساء/ ١٣٧)و قد اكثر القرآن الكريم من ذكر الكفر بعد الايمان فلا مانع من زوال الاعتقاد القلبى قبل رسوخه و هو اعتقاد.

نعم الإيمان المستقر و الاعتقاد الراسخ لا سبيل الى عروض الزوال له قال تعالى: مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي (الأعراف١٧٨/)و قال: فَإِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ (النحل٣٧/).

و قوله: «إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً» يدل على ان هؤلاء المنافقين المذكورين فى الآيات كانوا ذوى عدد و كثره،و ان كلمه العـذاب وقعت عليهم لا بـد لهم من العذاب فلو شـمل بعضـهم عفو إلهى لمصـلحه فى ذلك وقع العذاب على الباقين فهذا معنى الجمله: «إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً» بحسب ما يفهم من نظمه و سياقه.

و بعباره اخرى رابطه اللزوم بين الشرط و الجزاء بترتب الجزاء و تفرعه على الشرط إنما هى بالتبع و أصله ترتب الجزاء هاهنا على امر يتعلق به الشرط و هو ان العذاب وجب على جماعتهم فإن عفى عن بعضهم تعين الباقون من غير تخلف.

قوله تعالى: اَلْمُنٰافِقُونَ وَ الْمُنٰافِقٰاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ الى آخر الآيتين؛ ذكروا أنه استئناف يتعرض لحال عامه المنافقين بذكر أوصافهم العامه الجامعه و تعريفهم بها و ما يجازيهم اللّه فى عاقبه أمرهم ثم يتعرض لحال عامه المؤمنين و يعرفهم بصفاتهم الجامعه و يذكر ما ينبئهم اللّه به على سبيل المقابله استتماما للقسمه،و من الدليل على هذا الاستيفاء ذكر جزاء الكفار مع المنافقين فى قوله: «وَعَدَ اللّٰهُ الْمُنٰافِقِينَ وَ الْمُنٰافِقٰاتِ وَ الْكُفّٰارَ» الآيه.

و الظاهر أن الآيه فى مقام التعليل لقوله فى الآيه السابقه: «إِنْ نَعْفُ عَنْ طٰائِفَهٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طٰائِفَهً» و سياق مخاطبه المنافقين جار لم ينقطع بعد.

فالآيه السابقه لما دلت على أنه تعالى لا يترك المنافقين حتى يعذبهم بإجرامهم فإن ترك بعضا منهم لحكمه و مصلحه أخذ آخرين منهم بالعذاب كان هناك مظنه أن يسأل فيقال:ما وجه أخذ البعض اذا ترك غيره؟و هل هو إلّا كأخذ الجار بجرم الجار فاجيب ببيان السبب و هو أن المنافقين جميعا بعضهم من بعض لاشتراكهم فى خبائث الصفات و الأعمال،و اشتراكهم فى جزاء أعمالهم و عاقبه حالهم.

و لعله ذكر المنافقات مع المنافقين مع عدم سبق لذكرهن للدلاله على كمال الاتحاد و الاتفاق بينهم فى نفسيتهم،و ليكون تلويحا على أن من النساء أيضا أجزاء مؤثره فى هذا المجتمع النفاقى الفاسد المفسد.

فمعنى الآيه لا ينبغى أن يستغرب أخذ بعض المنافقين اذا ترك البعض الآخر لأن المنافقين و المنافقات يحكم عليهم نوع من الوحده النفسيه يوحد كثرتهم فيرجع بعضهم الى بعض، فيشركهم فى الاوصاف و الأعمال و ما يجازون به بوعد من اللّه تعالى.

ص: ۷۹۳

فهم يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف و يمسكون عن الإنفاق فى سبيل اللّه و بعباره اخرى نسوا اللّه تعالى بالإعراض عن ذكره لأنهم فاسقون خارجون عن زى العبوديه فنسيهم اللّه فلم يثبهم بما أثاب عباده الذاكرين مقام ربهم.

ثم ذكر ما وعدهم على ذلك فقال: «وَعَدَ اللّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْكُفّارَ -و عطف عليهم الكفار لأنهم جميعا سواء- نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ» من الجزاء لا يتعدى فيهم الى غيرها «وَ لَعَنَهُمُ اللّهُ» و أبعدهم «وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ» ثابت لا يزول عنهم البته.

و قد ظهر بذلك أن قوله تعالى: «نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ» الخ؛بيان لما تقدمه من قوله «يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ» .

و يتفرع على ذلك أن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و الإنفاق فى سبيل اللّه من الذكر.

قوله تعالى: كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالاً وَ أَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ الخ؛قال الراغب:الخلاق ما اكتسبه الإنسان من الفضيله بخلقه قال تعالى: «وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَهِ مِنْ خَلاقٍ» انتهى و فسّره غيره بمطلق النصيب.

و الآيه من تتمه مخاطبه المنافقين التى فى قوله: «لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ» الآيه؛ فى سياق واحد متصل و فى الآيه تشبيه حال المنافقين بحال من كان قبلهم من الكفار و المنافقين و قياسهم إليهم ليستشهد بذلك على ما قيل:ان المنافقين و المنافقات بعضهم من بعض و أنهم جميعا و الكفار ذووا طبيعه واحده فى الإعراض عن ذكر اللّه و الإقبال على الاستمتاع بما أوتوا من أعراض الدنيا من أموال و أولاد و الخوض فى آيات اللّه ثم فى حبط أعمالهم فى الدنيا و الآخره و الخسران.

و معنى الآيه-و اللّه أعلم-أنتم كالذين من قبلكم كانت لهم قوه و أموال و أولاد بل أشد و أكثر فى ذلك منكم،فاستمتعوا بنصيبهم و قد تفرع على هذه المماثله أنكم استمتعتم كما

استمتعوا و خضتم كما خاضوا اولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا و الآخره و اولئك هم الخاسرون و أنتم أيضا أمثالهم فى الحبط و الخسران و لذا وعدكم النار الخالده و لعنكم.

و ذكر كون قوه من قبلهم أشد و أموالهم و أولادهم أكثر للإيماء الى أنهم لم يعجزوا اللّه بذلك، و لم يدفع ذلك عنهم غائله الحبط و الخسران فكيف بكم و أنتم أضعف قوه و أقل أموالا و أولادا؟

قوله تعالى: أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عٰادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرٰاهِيمَ وَ أَصْحٰابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكٰاتِ الآيه رجوع الى السياق الأول و هو سياق مخاطبه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم مع افتراض الغيبه فى المنافقين،و تذكير لهم بما قص عليهم القرآن من قصص الامم الماضين.

فذاك قوم نوح عمهم اللّه سبحانه بالغرق،و عاد و هم قوم هود أهلكهم بريح صرصر عاتيه،و ثمود و هم قوم صالح عذّبهم بالرجفه،و قوم ابراهيم اهلك ملكهم نمرود و سلب عنهم النعمه،و المؤتفكات و هى القرى المنقلبات على وجهها-من ائتفكت الأرض اذا انقلبت- قرى قوم لوط جعل عاليها سافلها.

و قوله: أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ أى بالواضحات من الآيات و الحجج و البراهين و هو بيان إجمالى لنبئهم أى كان نبأهم انت أتتهم رسلهم بالآيات البينه فكذّبوها فانتهى أمرهم الى الهلاك،و لم يكن من شأن السنّه الإلهيه ان يظلمهم لأنه بيّن لهم الحق و الباطل،و ميّز الرشد من الغى،و الهدى من الضلال،و لكن كان اولئك الأقوام و الامم أنفسهم يظلمون بالاستمتاع من نصيب الدنيا و الخوض فى آيات اللّه و تكذيب رسله.

قوله تعالى: وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ الى آخر الآيه؛ثم وصف اللّه سبحانه حال المؤمنين عامه محاذاه لما وصف به المنافقين فقال: «وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ» ليدل بذلك على انهم مع كثرتهم و تفرقهم من حيث العدد

و من الذكوره و الانوثه ذوو كينونه واحده متفقه لا تشعب فيها و لذلك يتولى بعضهم امر بعض و يدبره.

و لذلك كان يأمر بعضهم بعضا بالمعروف و ينهى بعضهم بعضا عن المنكر فلولايه بعض المجتمع على بعض ولايه ساريه فى جميع الأبعاض دخل فى تصديهم الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فيما بينهم أنفسهم.

ثم وصفهم بقوله: «وَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ» و هما الركنان الوثيقان فى الشريعه فالصلاه ركن العبادات التى هى الرابطه بين اللّه و بين خلقه،و الزكاه فى المعاملات التى هى رابطه بين الناس أنفسهم.

ثم وصفهم بقوله: «وَ يُطِيعُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ» فجمع فى إطاعه اللّه جميع الأحكام الشرعيه الإلهيه و جمع فى إطاعه رسوله جميع الأحكام الولائيه التى صدرها رسوله فى إداره امور الامه و إصلاح شئونهم كفرامينه فى الغزوات،و أحكامه فى القضايا و إجراء الحدود و غير ذلك.

على أن إطاعه شرائع اللّه النازله من السماء من جهه اخرى منطويه فى إطاعه الرسول فان الرسول هو الصادع بالحق القائم بالدعوه الى اصول الدين و فروعه.

و قوله: أُولٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّٰهُ إخبار عما فى القضاء الإلهى من شمول الرحمه الإلهيه لهؤلاء القوم الموصوفين بما ذكر،و كأن فى هذه الجمله محاذاه لما سرد فى المنافقين من قوله تعالى: «نَسُوا اللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ» و الظاهر ايضا أن قوله: «إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» تعليل لما ذكر من الرحمه فلا مانع من رحمته لعزّته،و لا اختلال او وهنا و جزافا فى حكمته.

قوله تعالى: وَعَدَ اللّٰهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ الى آخر الآيه؛العدن مصدر بمعنى الإقامه و الاستقرار يقال:عدن بالمكان اى اقام فيه و استقر و منه المعدن للأرض التى تستقر فيه الجواهر و الفلزات المعدنيه،و على هذا فمعنى جنات عدن جنات إقامه و استقرار و خلود.

و قوله: وَ رِضْوانٌ مِنَ اللّهِ أَكْبَرُ ای رضی اللّه سبحانه عنهم اکبر من ذلک کله -علی ما یفیده السیاق-و قد نكّر«رضوان»إیماء الی انه لا- یقدّر بقدر و لا- یحیط به و هم بشر او لأن رضوانا ما منه و لو کان یسیرا اکبر من ذلک کله لا لأن ذلک کله مما یتفرع علی رضاه تعالی و یترشح منه و إن کان کذلک فی نفسه،بل لأن حقیقه العبودیه التی یندب إلیها کتاب اللّه هی عبودیته تعالی حبا له:لا طمعا فی جنه،او خوفا من نار،و أعظم السعاده و الفوز عند المحب ان یستجلب رضی محبوبه دون ان یسعی لإرضاء نفسه.

و کأنه للإشاره الی ذلک ختم الآیه بقوله: «ذلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ» و تکون فی الجمله دلاله علی معنی الحصر أی أن هذا الرضوان هو حقیقه کل فوز عظیم حتی الفوز العظیم بالجنه الخالده اذ لو لا شیء من حقیقه الرضی الإلهی فی نعیم الجنه کان نقمه لا نعمه.

قوله تعالی: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ جاهِدِ الْکُفّارَ وَ الْمُنافِقِینَ وَ اغْلُظْ عَلَیْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ جهاد القوم و مجاهدتهم بذل غایه الجهد فی مقاومتهم و هو یکون باللسان و بالید حتی ینتهی الی القتال،و شاع استعماله فی الکتاب فی القتال و إن کان ربما استعمل فی غیره کما فی قوله: «وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا» الآیه.

و استعماله فی قتال الکفّار علی رسله لکونهم متجاهرین بالخلاف و الشقاق،و أما المنافقون فهم الذین لا یتظاهرون بکفر و لا یتجاهرون بخلاف،و إنما یبطنون الکفر و یقلبون الامور کیدا و مکرا و لا معنی للجهاد معهم بمعنی قتالهم و محاربتهم؟و لذلک ربما یسبق الی الذهن أن المراد بجهادهم مطلق ما تقتضیه المصلحه من بذل غایه الجهد فی مقاومتهم فإن اقتضت المصلحه هجروا و لم یخالطوا و لم یعاشروا،و ان اقتضت وعظوا باللسان،و ان اقتضت أخرجوا و شردوا الی غیر الأرض أو قتلوا اذا اخذ علیهم الرده،او غیر ذلک.

و ربما شهد لهذا المعنی اعنی کون المراد بالجهاد فی الآیه مطلق بذل الجهد تعقیب قوله «جاهِدِ الْکُفّارَ وَ الْمُنافِقِینَ» بقوله: «وَ اغْلُظْ عَلَیْهِمْ» أی شدّد علیهم و عاملهم بالخشونه.

و أما قوله: «وَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ» فهو عطف على ما قبله من الأمر،و لعل الذى هوّن الأمر فى عطف الإخبار على الإنشاء هو كون الجمله السابقه فى معنى قولنا:«ان هؤلاء الكفار و المنافقين مستوجبون للجهاد».و اللّه أعلم.

قوله تعالى: يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مٰا قٰالُوا وَ لَقَدْ قٰالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاٰمِهِمْ وَ هَمُّوا بِمٰا لَمْ يَنٰالُوا الآيه.سياق الآيه يشعر بأنهم أتوا بعمل سيئ و شفّعوه بقول تفوّهوا به عند ذلك،و أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم عاتبهم على قولهم مؤاخذا لهم فحلفوا باللّه ما قالوا كما تقدّم فى قوله: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمٰا كُنّٰا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ» الى آخر الآيه أنهم كانوا يعتذرون بذلك عن عملهم أنه كان خوضا و لعبا لا غير ذلك.

و اللّه سبحانه يكذّبهم فى الأمرين جميعا:أما فى إنكارهم القول فبقوله: «وَ لَقَدْ قٰالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ» و فسره ثانيا بقوله: «وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاٰمِهِمْ» للدلاله على جد القول فيتفرع عليه الكفر بعد الاسلام.

و لعلّه قال هاهنا: «وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاٰمِهِمْ» و قد قيل سابقا: «قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمٰانِكُمْ» لأن القول السابق للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم الجارى على ظاهر حالهم و هو الإيمان الذى كانوا يدّعونه و يتظاهرون به،و القول الثانى للّه العالم بالغيب و الشهاده فيشهد بأنهم لم يكونوا مؤمنين و لم يتعدوا الشهادتين بلسانهم فهم كانوا مسلمين لا مؤمنين،و قد كفروا بقولهم و خرجوا عن الاسلام الى الكفر،و فى هذا إيماء الى ان قولهم كان كلمه فيه الرد على الشهادتين او إحداهما.

او لأن القول الأول فى قبال عملهم الذى أرادوا ايقاع الشر بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و العمل الخالى من القول و هو لم يصب الغرض لا يضر بالاسلام الذى هو نصيب اللفظ و الشهاده،و انما يضر بالايمان الذى هو نصيب الاعتقاد،و القول الثانى فى قبال قولهم الذى تفوّهوا به،و هو ينافى الاسلام الذى يكتسب باللفظ دون الايمان الذى هو نوع من الاعتقاد القلبى.

و اما فى إنكارهم العمل السيئ الذى اتوا به و تأويلهم إياه الى الخوض و اللعب فبقوله

«وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا» .

ثم قـال فی مقـام ذمّهم و تعییرهم: «وَ ما نَقَمُوا إِلاّ أَنْ أَغْناهُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» أی بسـبب أن اغناهم اللّه و رسوله،ای کان سبب نقمتهم هـذه ان اللّه اغناهم من فضـله بما رزقهم من الغنائم و بسط علیهم الأمن و الرفاهیه فمکّنهم من تولیـد الثروه و انماء المال من کل جهه،و کذا رسوله حیث هداهم الی عیشه صالحه تفتح علیهم أبواب برکات السـماء و الأرض،و قسّم بینهم الغنائم و بسط علیهم العدل.

فهو من قبیل وضع الشـیء موضع ضده:وضع فیه الاغناء و هو بحسب الطبع سـبب للرضـی و الشکر موضع سبب النقمه و السخطه کالظلم و الغضب و ان شـئت قلت:وضع فیه الإحسان موضع الإساءه،ففیه نوع من التهکم المشوب بالذم نظیر ما فی قوله تعالی: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَکُمْ أَنَّکُمْ تُکَذِّبُونَ (الواقعه/۸۲)أی تجعلون رزقکم سببا للتکذیب بآیات اللّه و هو سبب بحسب الطبع لشکر النعمه و الرضا بالموهبه علی ما قیل:إن المعنی:و تجعلون بدل شکر رزقکم أنکم تکذبون.

و الضـمیر فی قوله: «مِنْ فَضْلِهِ» راجع الی اللّه سبحانه،قال فی المجمع:و إنما لـم یقل:من فضلهما لأنه لا یجمع بین اسم اللّه و اسم غیره فی الکنایه تعظیما للّه،و لذلک قال النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم لمن سمعه یقول:«من أطاع اللّه و رسوله فقد اهتدی و من عصاهمـا فقـد غوی»:بئس خطیب القوم أنت فقـال:کیف أقول یا رسول اللّه؟قال:قل:و من یعص اللّه و رسوله،و هکـذا القول فی قوله سبحانه: «وَ اللّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ یُرْضُوهُ» و قیل:إنما لم یقل من فضلهما لأن فضل اللّه منه و فضل رسوله من فضله،انتهی کلامه.

و هنـاک وراء التعظیم أمر آخر قـدّمنا القول فیه فی تفسیر قوله تعـالی: لَقَـدْ کَفَرَ الَّذِینَ قالُوا إِنَّ اللّهَ ثالِثُ ثَلاثَهٍ (المائـده/۷۳)فی الجزء السادس من الکتاب،و هو أن وحـدته تعالی لیست من سـنخ الوحـده العـددیه حتی یصـحّ بـذلک تألیفها مع وحده غیره و استنتاج عدد من

الأعداد منه.

ثم بيّن اللّه سبحانه لهؤلاء المنافقين أن لهم مع هذه الذنوب المهلكه و صريح كفرهم باللّه و همّهم بما لم ينالوا أن يرجعوا الى ربهم،و بيّن عاقبه أمر هذه التوبه و عاقبه التولى و الإعراض عنها فقال: «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ» لادائه الى المغفره و الجنه «وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا» و يعرضوا عن التوبه «يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذاباً أَلِيماً فِی الدُّنْيا» بالسياسه و النكال او بإغراء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم عليهم او بالمكر و الاستدراج،و لو لم يكن من عذابهم إلاّ أنهم مخالفون بنفاقهم نظام الأسباب المبنى على الصدق و الإيمان فتقادمهم سلسله الاسباب و تحطمهم و تفضحهم لكان فيه كفايه،و قد قال اللّه: وَ اللّهُ لا يَهْدِی الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (التوبه/۲۴) «وَ الْآخِرَهِ» بعذاب النار.

و قوله تعالى: وَ ما لَهُمْ فِی الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ معناه أن هؤلاء لا ولى لهم فى الأرض يتولى امرهم و يصرف العذاب عنهم،و لا نصير ينصرهم و يمدّهم بما يدفعون به العذاب الموعود عن انفسهم لأن سائر المنافقين ايضا منهم و كلمه الفساد يجمعهم و أصلهم الفاسد منقطع عن سائر الأسباب الكونيه فلا ولى لهم يتولى امرهم و لا ناصر لهم ينصرهم و لعل هذه الجمله من الآيه إشاره الى ما أومأنا اليه فى معنى عذاب الدنيا (۱).

[سوره التوبه (۹): الآيات ۷۵ الى ۸۰]

اشاره

وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اَللّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلصّالِحِينَ (۷۵) فَلَمّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۷۶) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِی قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اَللّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (۷۷) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اَللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اَللّهَ عَلاّمُ اَلْغُيُوبِ (۷۸) اَلَّذِينَ يَلْمِزُونَ اَلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ فِی اَلصَّدَقاتِ وَ اَلَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اَللّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۹) اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اَللّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اَللّهُ لا يَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلْفاسِقِينَ (۸۰)

۱- ۱) .التوبه ۶۴-۷۴:بحث روائى فى المنافقين و أعمالهم.

بيان:

قوله تعالى: وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصّالِحِينَ الى آخر الآيتين؛الإيتاء الإعطاء،و قد كثر إطلاق الإيتاء من الفضل على إعطاء المال،و من القرائن عليه فى الآيه قوله:«فنصدقن»أى لنتصدقن مما آتانا من المال و كذلك ما فى الآيه التاليه من ذكر البخل به.

و السياق يفيد ان الكلام متعرض لأمر واقع،و الروايات تدل على ان الآيات نزلت فى ثعلبه فى قصه سيأتى نقلها فى البحث الروائى التالى إن شاء اللّه تعالى،و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ الآيه؛الإعقاب الإيراث قال فى المجمع:و أعقبه و أورثه و أداه نظائر و قد يكون أعقبه بمعنى جازاه.انتهى.و هو مأخوذ من العقب،و معناه الإتيان بشىء عقيب شىء.

و الضمير فى قوله: «فَأَعْقَبَهُمْ» راجع الى البخل او الى فعلهم الذى منه البخل،و على هذا

فالمراد بقوله: «يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» يوم لقاء البخل أى جزاء البخل بنحو من العنايه.

و يمكن ان يرجع الضمير اليه تعالى و المراد بيوم يلقونه يوم يلقون اللّه و هو يوم القيامه على ما هو المعروف من كلامه تعالى من تسميه يوم القيامه بيوم لقاء اللّه او يوم الموت كما هو الظاهر من قوله تعالى: مَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰاءَ اللّٰهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ لَآتٍ (العنكبوت/٥).

و هذا الثانى هو الظاهر على الثانى لأن الأنسب عند الذهن ان يقال:فهم على نفاقهم الى ان يموتوا.دون ان يقال:فهم على نفاقهم الى ان يبعثوا اذ لا تغير لحالهم فيما بعد الموت على أى حال.

و قوله: بِمٰا أَخْلَفُوا اللّٰهَ مٰا وَعَدُوهُ وَ بِمٰا كٰانُوا يَكْذِبُونَ الباء فى الموضعين منه للسببيه أى إن هذا البخل اورثهم نفاقا بما كان فيه من الخلف فى الوعد و الاستمرار على الكذب الموجبين لمخالفه باطنهم لظاهرهم و هو النفاق.

و معنى الآيه:فأورثهم البخل و الامتناع عن إيتاء الصدقات نفاقا فى قلوبهم يدوم لهم ذلك و لا يفارقهم الى يوم موتهم و إنما صار هذا البخل و الامتناع سببا لذلك لما فيه من خلف الوعد للّه و الملازمه و الاستمرار على الكذب.

او المعنى:جازاهم اللّه نفاقا فى قلوبهم الى يوم لقائه و هو يوم الموت لأنهم أخلفوه ما وعدوه و كانوا يكذبون.

قوله تعالى: أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰاهُمْ الآيه؛النجوى الكلام الخفى و الاستفهام للتوبيخ و التأنيب.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقٰاتِ وَ الَّذِينَ لاٰ يَجِدُونَ إِلاّٰ جُهْدَهُمْ الآيه؛التطوع الإتيان بما لا تكرهه النفس و لا تحسبه شاقا و لذلك يستعمل غالبا فى المندوبات لما فى الواجبات من شائبه التحميل على النفس بعدم الرضى بالترك.

ص :٨٠٢

و مقابله المطوعين من المؤمنين فى الصدقات بالذين لا يجدون إلاّ جهدهم قرينه على أن المراد بالمطوعين فيها الذين يؤتون الزكاه على السعه و الجده كأنهم لسعتهم و كثره مالهم يؤتونها على طوع و رغبه من غير ان يشق ذلك عليهم بخلاف الذين لا يجدون إلاّ جهدهم أى مبلغ جهدهم و طاقتهم او ما يشق عليهم القنوع بذلك.

و قوله: «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ» الآيه كلام مستأنف او هو وصف للذين ذكروا بقوله: «وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللّهَ» الآيه كما قالوا.و المعنى:الذين يعيبون الذين يتطوعون بالصدقات من المؤمنين الموسرين و الذين لا يجدون من المال إلاّ جهد انفسهم من الفقراء المعسرين فيعيبون المتصدقين موسرهم و معسرهم و غنيهم و فقيرهم و يسخرون منهم سخر اللّه منهم و لهم عذاب أليم،و فيه جواب لاستهزائهم و إيعاد بعذاب شديد.

قوله تعالى: اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ الترديد بين الأمر و النهى كنايه عن تساوى الفعل و الترك أى لغويه الفعل كما مر نظيره فى قوله: أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ (التوبه۵۳/).

فالمعنى ان هؤلاء المنافقين لا تنالهم مغفره من اللّه و يستوى فيهم طلب المغفره و عدمها لأن طلبها لهم لغو لا اثر له.

و قوله: «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ» تأكيدا لما ذكر قبله من لغويه الاستغفار لهم،و بيان ان طبيعه المغفره لا تنالهم البته سواء سئلت المغفره فى حقهم او لم تسأل،و سواء كان الاستغفار مره او مرات قليلا او كثيرا.

فذكر السبعين كنايه عن الكثره من غير ان يكون هناك خصوصيه للعدد حتى يكون الواحد و الاثنان من الاستغفار حتى يبلغ السبعين غير مؤثر فى حقهم فاذا جاوز السبعين أثر اثره،و لذلك علّله بقوله: «ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ» اى ان المانع من شمول المغفره هو كفرهم باللّه و رسوله،و لا يختلف هذا المانع بعدم الاستغفار.و لا وجوده واحدا او كثيرا فهم

علی کفرهم.

و من هنا یظهر أن قوله: «وَ اللّٰهُ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الْفٰاسِقِینَ» متمم لسابقه و الکلام مسوق سوق الاستدلال القیاسی و التقدیر:انهم کافرون باللّه و رسوله فهم فاسقون خارجون عن عبودیه اللّه،و اللّه لا یهدی القوم الفاسقین،لکن المغفره هدایه الی سعاده القرب و الجنه فلا تشملهم المغفره و لا تنالهم البته.

و استعمال السبعین فی الکثره المجرّده عن الخصوصیه کاستعمال المائه و الألف فیها کثیر فی اللغه (۱).

[سوره التوبه (۹): الآیات ۸۱ الی ۹۶]

اشاره

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاٰفَ رَسُولِ اللّٰهِ وَ کَرِهُوا أَنْ یُجٰاهِدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ وَ قٰالُوا لاٰ تَنْفِرُوا فِی الْحَرِّ قُلْ نٰارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ کٰانُوا یَفْقَهُونَ (۸۱) فَلْیَضْحَکُوا قَلِیلاً وَ لْیَبْکُوا کَثِیراً جَزٰاءً بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ (۸۲) فَإِنْ رَجَعَکَ اللّٰهُ إِلیٰ طٰائِفَهٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوکَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِیَ أَبَداً وَ لَنْ تُقٰاتِلُوا مَعِیَ عَدُوًّا إِنَّکُمْ رَضِیتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّهٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخٰالِفِینَ (۸۳) وَ لاٰ تُصَلِّ عَلیٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مٰاتَ أَبَداً وَ لاٰ تَقُمْ عَلیٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ کَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ مٰاتُوا وَ هُمْ فٰاسِقُونَ (۸۴) وَ لاٰ تُعْجِبْکَ أَمْوٰالُهُمْ وَ أَوْلاٰدُهُمْ إِنَّمٰا یُرِیدُ اللّٰهُ أَنْ یُعَذِّبَهُمْ بِهٰا فِی الدُّنْیٰا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ کٰافِرُونَ (۸۵) وَ إِذٰا أُنْزِلَتْ سُورَهٌ أَنْ آمِنُوا بِاللّٰهِ وَ جٰاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَکَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قٰالُوا ذَرْنٰا نَکُنْ مَعَ الْقٰاعِدِینَ (۸۶) رَضُوا بِأَنْ یَکُونُوا مَعَ الْخَوٰالِفِ وَ طُبِعَ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ یَفْقَهُونَ (۸۷) لٰکِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولٰئِکَ لَهُمُ الْخَیْرٰاتُ وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۸۸) أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا ذٰلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (۸۹) وَ جٰاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرٰابِ لِیُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِینَ کَذَبُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ سَیُصِیبُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۹۰) لَیْسَ عَلَی الضُّعَفٰاءِ وَ لاٰ عَلَی الْمَرْضیٰ وَ لاٰ عَلَی الَّذِینَ لاٰ یَجِدُونَ مٰا یُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذٰا نَصَحُوا لِلّٰهِ وَ رَسُولِهِ مٰا عَلَی الْمُحْسِنِینَ مِنْ سَبِیلٍ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۹۱) وَ لاٰ عَلَی الَّذِینَ إِذٰا مٰا أَتَوْکَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاٰ أَجِدُ مٰا أَحْمِلُکُمْ عَلَیْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْیُنُهُمْ تَفِیضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاّٰ یَجِدُوا مٰا یُنْفِقُونَ (۹۲) إِنَّمَا السَّبِیلُ عَلَی الَّذِینَ یَسْتَأْذِنُونَکَ وَ هُمْ أَغْنِیٰاءُ رَضُوا بِأَنْ یَکُونُوا مَعَ الْخَوٰالِفِ وَ طَبَعَ اللّٰهُ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ (۹۳) یَعْتَذِرُونَ إِلَیْکُمْ إِذٰا رَجَعْتُمْ إِلَیْهِمْ قُلْ لاٰ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّٰهُ مِنْ أَخْبٰارِکُمْ وَ سَیَرَی اللّٰهُ عَمَلَکُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلیٰ عٰالِمِ الْغَیْبِ وَ الشَّهٰادَهِ فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۴) سَیَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَکُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَیْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ جَزٰاءً بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ (۹۵) یَحْلِفُونَ لَکُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَرْضیٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفٰاسِقِینَ (۹۶)

۱- ۱) .التوبه ۷۵-۸۰:بحث روائی فی المنافقین و صفاتهم؛نهی اللّه رسوله عن الاستغفار للمنافقین.

بیان:

قوله تعالی: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاٰفَ رَسُولِ اللّٰهِ الآیه؛الفرح و السرور خلاف الغم و هما حالتان نفسیّتان وجدانیّتان ملذه و مؤلمه،و المخلّفون اسم مفعول من قولهم خلفه اذا ترکه بعده و المقعد کالقعود مصدر قعد یقعد و هو کنایه عن عدم الخروج الی الجهاد.

و الخلاف کالمخالفه مصدر خالف یخالف،و ربما جاء بمعنی بعد کما قیل و لعل منه قوله «وَ إِذاً لاٰ یَلْبَثُونَ خِلاٰفَکَ إِلاّٰ قَلِیلاً» و کان قیاس الکلام أن یقال: «خِلاٰفَکَ» لأن الخطاب فیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و إنما قیل: «خِلاٰفَ رَسُولِ اللّٰهِ» للدلاله علی أنهم إنما یفرحون علی مخالفه اللّه العظیم فما علی الرسول إلاّ البلاغ.

و المعنی فرح المنافقون الذین ترکتهم بعدک بعدم خروجهم معک خلافا لک-أو بعدک-

ص :۸۰۶

و کرهوا ان یجاهدوا بأموالهم و أنفسهم فی سبیل اللّه.

و قوله تعالی: «وَ قالُوا لاٰ تَنْفِرُوا فِی الْحَرِّ» خاطبوا بذلک غیرهم لیخذلوا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و یبطلوا مسعاه فی تنفیر الناس الی الغزوه،و لذلک أمره اللّه تعالی ان یجیب عن قولهم ذلک بقوله: «قُلْ نٰارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا» ای ان الفرار عن الحر بالقعود ان انجاکم منه لم ینجکم مما هو اشد منه و هو نار جهنم التی هی اشد حرا فان الفرار عن هذا الهین یوقعکم فی ذاک الشدید.ثم أفاد بقوله: «لَوْ کٰانُوا یَفْقَهُونَ» المصدر بلو التمنی الیأس من فقههم و فهمهم.

قوله تعالی: فَلْیَضْحَکُوا قَلِیلاً وَ لْیَبْکُوا کَثِیراً جَزٰاءً بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ تفریع علی تخلفهم عن الجهاد بالأموال و الأنفس و فرحهم بالقعود عن هذه الفریضه الإلهیه الفطریه التی لا سعاده للإنسان فی حیاته دونها.

و قوله: «جَزٰاءً بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ» و الباء للمقابله او السببیه دلیل علی ان المراد بالضحک القلیل هو الذی فی الدنیا فرحا بالتخلف و القعود و نحو ذلک،و بالبکاء الکثیر ما کان فی الآخره فی نار جهنم التی هی اشد حرا فان الذی فرع علیه الضحک و البکاء هو ما فی الآیه السابقه، و هو فرحهم بالتخلف و خروجهم من حر الهواء الی حر نار جهنم.

فالمعنی:فمن الواجب بالنظر الی ما عملوه و اکتسبوه ان یضحکوا و یفرحوا قلیلا فی الدنیا و ان یبکوا و یحزنوا کثیرا فی الآخره فالأمر بالضحک و البکاء للدلاله علی ایجاب السبب و هو ما کسبوه من الأعمال لذلک.

و اما حمل الأمر فی قوله: «فَلْیَضْحَکُوا» و قوله: «وَ لْیَبْکُوا» علی الأمر المولوی لینتج تکلیفا من التکالیف الشرعیه فلا یناسبه قوله: «جَزٰاءً بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ» .

و یمکن ان یکون المراد الأمر بالضحک القلیل و البکاء الکثیر معا ما هو فی الدنیا جزاء لسابق اعمالهم فانها هدتهم الی راحه وهمیه فی ایام قلائل و هی ایام قعودهم خلاف رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ثم الی هوان و ذله عند اللّه و رسوله و المؤمنین ما داموا احیاء فی الدنیا ثم الی شدید حر

النار فى الآخره بعد موتهم.

قوله تعالى: فَإِنْ رَجَعَكَ اللّٰهُ إِلىٰ طٰائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ الى آخر الآيه المراد بالقعود اول مره التخلف عن الخروج فى اول مره كان عليهم ان يخرجوا فيها فلم يخرجوا،و لعلها غزوه تبوك كما يهدى اليه السياق.

و المراد بالخالفين المتخلفون بحسب الطبع كالنساء و الصبيان و المرضى و الزمنى و قيل:

المتخلفون من غير عذر،و قيل:الخالفون هم أهل الفساد،و الباقى واضح.

و فى قوله: «فَإِنْ رَجَعَكَ اللّٰهُ إِلىٰ طٰائِفَةٍ مِنْهُمْ» الآيه دلاله على ان هذه الآيه و ما فى سياقها المتصل من الآيات السابقه و اللاحقه نزلت و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى سفره و لما يرجع الى المدينه، و هو سفره الى تبوك.

قوله تعالى: وَ لاٰ تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مٰاتَ أَبَداً وَ لاٰ تَقُمْ عَلىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ مٰاتُوا وَ هُمْ فٰاسِقُونَ نهى عن الصلاه لمن مات من المنافقين و القيام على قبره و قد علل النهى بأنهم كفروا و فسقوا و ماتوا على فسقهم،و قد علل لغويه الاستغفار لهم فى قوله تعالى:السابق: اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ (آيه ٨٠ من السوره)،و كذا فى قوله: سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ (المنافقون/٦)بالكفر و الفسق أيضا.

و يتحصل من الجميع ان من فقد الإيمان باللّه باستيلاء الكفر على قلبه و إحاطته به فلا سبيل له الى النجاه يهتدى به،و أن الآيات الثلاث جميعا تكشف عن لغويه الاستغفار للمنافقين و الصلاه على موتاهم و القيام على قبورهم للدعاء لهم.

و فى الآيه إشاره الى ان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان يصلى على موتى المسلمين و يقوم على قبورهم للدعاء.

قوله تعالى: وَ لاٰ تُعْجِبْكَ أَمْوٰالُهُمْ وَ أَوْلاٰدُهُمْ الآيه؛تقدم بعض ما يتعلق بالآيه

ص :٨٠٨

من الکلام فی الآیه ۵۵ من السوره.

قوله تعالی: وَ إِذٰا أُنْزِلَتْ سُورَهٌ أَنْ آمِنُوا بِاللّٰهِ وَ جٰاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ الی آخر الآیتین؛الطول القدره و النعمه،و الخوالف هم الخالفون و الکلام فیه کالکلام فیه،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: لٰکِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ لما ذم المنافقین فی الآیتین السابقتین بالرضا بالقعود مع الخوالف و الطبع علی قلوبهم استدرک بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و الذین آمنوا معه-و المراد بهم المؤمنون حقا الذین خلصت قلوبهم من رین النفاق بدلیل المقابله مع المنافقین-لیمدحهم بالجهاد بأموالهم و أنفسهم أی انهم لم یرضوا بالقعود و لم یطبع علی قلوبهم بل نالوا سعاده الحیاه و النور الإلهی الذی یهتدون به فی مشیهم کما قال تعالی: أَ وَ مَنْ کٰانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّٰاسِ (الأنعام۱۲۲/).

و لذلک عقب الکلام بقوله: «وَ أُولٰئِکَ لَهُمُ الْخَیْرٰاتُ وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» فلهم جمیع الخیرات-علی ما یقتضیه الجمع المحلی باللام-من الحیاه الطیبه و نور الهدی و الشهاده و سائر ما یتقرب به الی اللّه سبحانه،و هم المفلحون الفائزون بالسعاده.

قوله تعالی: أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِی الآیه؛الإعداد هو التهیئه و قد عبر بالإعداد دون الوعد لأن الامور بخواتیمها و عواقبها فلو کان وعدا و هو وعد لجمیع من آمن معه لکان قضاء حتمیا واجب الوفاء سواء بقی الموعودون علی صفاء إیمانهم و صلاح اعمالهم او غیروا و اللّه لا یخلف المیعاد.

و الاصول القرآنیه لا تساعد علی ذلک،و لا الفطره السلیمه ترضی ان ینسب الی اللّه سبحانه ان یطبع بطابع المغفره و الجنه الحتمیه علی احد لعمل عمله من الصالحات ثم یخلی بینه و بین ما شاء و أراد.

ص :۸۰۹

و لـذلك نجده سبحانه اذا وعد وعدا علقه على عنوان من العناوين العامه كالإيمان و العمل الصالح يدور معه الوعد الجميل من غير ان يخص به اشخاصا بأعيانهم فيفيد التناقض بالجمع بين التكليف و التأمين كما قال تعالى: وَعَدَ اللّٰهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ جَنّٰاتٍ (الآيه ۷۲ من السوره)،و قال تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّٰهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّٰاءُ عَلَى الْكُفّٰارِ رُحَمٰاءُ بَيْنَهُمْ -الى ان قال- وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (الفتح۲۹/).

قوله تعالى: وَ جٰاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرٰابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ الآيه؛الظاهر أن المراد بالمعذرين هم اهل العذر كالذى لا يجد نفقه و لا سلاحا بدليل قوله: «وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا» الآيه؛و السياق يدل على ان فى الكلام قياسا لإحدى الطائفتين الى الاخرى ليظهر به لؤم المنافقين و خستهم و فساد قلوبهم و شقاء نفوسهم،حيث ان فريضه الجهاد الدينيه و النصره للّه و رسوله هيج لذلك المعذرين من الأعراب و جاءوا الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم يستأذنونه،و لم يؤثر فى هؤلاء الكاذبين شيئا.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفٰاءِ وَ لاٰ عَلَى الْمَرْضىٰ وَ لاٰ عَلَى الَّذِينَ لاٰ يَجِدُونَ مٰا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ المراد بالضعفاء بدلاله سياق الآيه:الذين لا قوه لهم على الجهاد بحسب الطبع كالزمنى كما ان المرضى لا قوه لهم عليه بحسب عارض مزاجى،و الذين لا يجدون ما ينفقون لا قوه لهم عليه من جهه فقد المال و نحوه.

فهؤلاء مرفوع عنهم الحرج و المشقه أى الحكم بالوجوب الذى لو وضع كان حكما حرجيا،و كذا ما يستتبعه الحكم من الذم و العقاب على تقرير المخالفه.

و قد قيد اللّه تعالى رفع الحرج عنهم بقوله: «إِذٰا نَصَحُوا لِلّٰهِ وَ رَسُولِهِ» و هو ناظر الى الذم و العقاب على المخالفه و القعود فإنما يرفع الذم و العقاب عن هؤلاء المعذورين اذا نصحوا للّه و رسوله،و أخلصوا من الغش و الخيانه و لم يجروا فى قعودهم على ما يجرى عليه المنافقون

المتخلفون من تقليب الامور و إفساد القلوب فی مجتمع المؤمنین،و إلاّ فیجری علیهم ما یجری علی المنافقین من الذم و العقاب.

و قوله: مٰا عَلَی الْمُحْسِنِینَ مِنْ سَبِیلٍ فی مقام التعلیل لنفی الحرج عن الطوائف المذکورین بشرط ان ینصحوا للّه و رسوله أی لأنهم یکونون حینئذ محسنین و ما علی المحسنین من سبیل فلا سبیل یتسلط علیهم یؤتون منه فیصابون بما یکرهونه.

ففی السبیل کنایه عن کونهم فی مأمن مما یصیبهم من مکروه کأنهم فی حصن حصین لا طریق الی داخله یسلکه الشر الیهم فیصیبهم،و الجمله عامه بحسب المعنی و إن کان مورد التطبیق خاصا.

قوله تعالی: وَ لاٰ عَلَی الَّذِینَ إِذٰا مٰا أَتَوْکَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ الآیه؛قال فی المجمع:الحمل إعطاء المرکوب من فرس او بعیر او غیر ذلک تقول:حمله یحمله حملا اذا أعطاه ما یحمل علیه قال:

ألا فتی عنده خفّان یحملنی

علیهما إننی شیخ علی سفر

قال:و الفیض الجری عن امتلاء من قولهم:فاض الإناء بما فیه،و الحزن ألم فی القلب لفوت امر مأخوذ من حزن الأرض و هی الأرض الغلیظه المسلک.انتهی.

و قوله: «وَ لاٰ عَلَی الَّذِینَ» الآیه؛موصول صلته قوله: «تَوَلَّوْا» الآیه،و قوله: «إِذٰا مٰا أَتَوْکَ لِتَحْمِلَهُمْ» کالشرک و الجزاء و المجموع ظرف لقوله: «تَوَلَّوْا» و حزنا مفعول له،«و ان لا یجدوا»منصوب بنزع الخافض.

و المعنی:و لا حرج علی الفقراء الذین اذا ما اتوک لتعطیهم مرکوبا یرکبونه و تصلح سائر ما یحتاجون الیه من السلاح و غیره قلت لا أجد ما احملکم علیه تولوا و الحال ان اعینهم تمتلئ و تسکب دموعا للحزن من ان لا یجدوا-او لأن لا یجدوا-ما ینفقونه فی سبیل اللّه للجهاد مع اعدائه.

و عطف هذا الصنف على ما تقدّمه من عطف الخاص على العام عنايه بهم لأنهم فى أعلى درجه من النصح و احسانهم ظاهر.

قوله تعالى: إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِيَاءُ الآيه؛القصر للإفراد و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ الى آخر الآيه؛خطاب الجمع للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المؤمنين جميعا،و قوله: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ» اى لن نصدقكم على ما تعتذرون به بناء على تعديه الإيمان باللام كالباء-او لن نصدّق تصديقا ينفعكم-بناء على كون اللام للنفع -و الجمله تعليل لقوله: «لاَ تَعْتَذِرُوا» كما أن قوله: «قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ» تعليل لهذه الجمله.

و المعنى يعتذر المنافقون اليكم عند رجوعكم من الغزوه اليهم قل يا محمد لهم:لا تعتذروا الينا لأنا لن نصدّقكم فيما تعتذرون به لأن اللّه قد اخبرنا ببعض اخباركم مما يظهر به نفاقكم و كذبكم فيما تعتذرون به،و سيظهر عملكم ظهور شهود للّه و رسوله ثم تردّون الى اللّه الذى يعلم الغيب و الشهاده يوم القيامه فيخبركم بحقائق اعمالكم.

و فى قوله: «وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ» الخ؛فى إيضاحه كلام سيمرّ بك عن قريب.

قوله تعالى: سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ الآيه؛اى لتعرضوا عنهم فلا تتعرضوا لهم بالعتاب و التقريع و ما يتعقب ذلك فأعرضوا عنهم لا تصديقا لهم فيما يحلفون له من الأعذار بل لأنهم رجس ينبغى أن لا يقترب منهم و مأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

قوله تعالى: يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ اى هذا الحلف منهم كما كان للتوسل الى صرفكم عنهم ليأمنوا الذم و التقريع كذلك هو للتوسّل الى رضاكم عنهم أما الإعراض فافعلوه لأنهم رجس

لاـ ینبغی لنزاهه الإیمـان و طهـارته ان تتعرض لرجس النفـاق و الکـذب و قـذاره الکفر و الفسق، و أمـا الرضـی فـاعلموا انکم ان ترضوا عنهم فان اللّه لا یرضی عنهم لفسقهم و اللّه لا یرضی عن القوم الفاسقین.

فالمراد أنکم إن رضـیتم عنهم فقد رضـیتم عمن لم یرض اللّه عنه ای رضیتم بخلاف رضی اللّه،و لا ینبغی لمؤمن ان یرضی عمّا یسخط ربّه فهو ابلغ کنایه عن النهی عن الرضا عن المنافقین (۱).

[سوره التوبه (۹): الآیات ۹۷ الی ۱۰۶]

اشاره

اَلْأَعْرابُ أَشَدُّ کُفْراً وَ نِفاقاً وَ أَجْدَرُ أَلاّ یَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اَللّهُ عَلی رَسُولِهِ وَ اَللّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۹۷) وَ مِنَ اَلْأَعْرابِ مَنْ یَتَّخِذُ ما یُنْفِقُ مَغْرَماً وَ یَتَرَبَّصُ بِکُمُ اَلدَّوائِرَ عَلَیْهِمْ دائِرَهُ اَلسَّوْءِ وَ اَللّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۹۸) وَ مِنَ اَلْأَعْرابِ مَنْ یُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ یَتَّخِذُ ما یُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اَللّهِ وَ صَلَواتِ اَلرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَهٌ لَهُمْ سَیُدْخِلُهُمُ اَللّهُ فِی رَحْمَتِهِ إِنَّ اَللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۹۹) وَ اَلسّابِقُونَ اَلْأَوَّلُونَ مِنَ اَلْمُهاجِرِینَ وَ اَلْأَنْصارِ وَ اَلَّذِینَ اِتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِیَ اَللّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِی تَحْتَهَا اَلْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها أَبَداً ذلِکَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِیمُ (۱۰۰) وَ مِمَّنْ حَوْلَکُمْ مِنَ اَلْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ اَلْمَدِینَهِ مَرَدُوا عَلَی اَلنِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَیْنِ ثُمَّ یُرَدُّونَ إِلی عَذابٍ عَظِیمٍ (۱۰۱) وَ آخَرُونَ اِعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَ آخَرَ سَیِّئاً عَسَی اَللّهُ أَنْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ إِنَّ اَللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۰۲) خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَهً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَکِّیهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَیْهِمْ إِنَّ صَلاتَکَ سَکَنٌ لَهُمْ وَ اَللّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۱۰۳) أَ لَمْ یَعْلَمُوا أَنَّ اَللّهَ هُوَ یَقْبَلُ اَلتَّوْبَهَ عَنْ عِبادِهِ وَ یَأْخُذُ اَلصَّدَقاتِ وَ أَنَّ اَللّهَ هُوَ اَلتَّوّابُ اَلرَّحِیمُ (۱۰۴) وَ قُلِ اِعْمَلُوا فَسَیَرَی اَللّهُ عَمَلَکُمْ وَ رَسُولُهُ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلی عالِمِ اَلْغَیْبِ وَ اَلشَّهادَهِ فَیُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۰۵) وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اَللّهِ إِمّا یُعَذِّبُهُمْ وَ إِمّا یَتُوبُ عَلَیْهِمْ وَ اَللّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۱۰۶)

۱- ۱) .التوبه ۸۱-۹۶:بحث روائی فی غزوه تبوک؛نهی اللّه رسوله ان یصلی علی المنافقین.

بیان:

قوله تعالی: اَلْأَعْرابُ أَشَدُّ کُفْراً وَ نِفاقاً وَ أَجْدَرُ أَلاّ یَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللّهُ عَلی رَسُولِهِ الآیه؛قال الراغب فی المفردات:العرب ولد اسماعیل، و الأعراب جمعه فی الأصل،و صار ذلک اسما لسکان البادیه، «قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنّا.

و اَلْأَعْرابُ أَشَدُّ کُفْراً وَ نِفاقاً. وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ یُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ» ،و قیل فی جمع

ص :۸۱۴

الأعراب أعاريب،قال الشاعر:

أعاريب ذوو فخر بإفك

و ألسنه لطاف فى المقال

و الأعرابىّ فى التعارف صار اسما للمنسوب الى سكان الباديه،و العربىّ المفصح و الإعراب البيان،انتهى موضع الحاجه.يبين تعالى حال سكان الباديه و أنهم أشد كفرا و نفاقا لأنهم لبعدهم عن المدنيه و الحضاره،و حرمانهم من بركات الإنسانيه من العلم و الأدب أقسى و أجفى،فهم أجدر و أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل اللّه من المعارف الأصيله و الأحكام الشرعيه من فرائض و سنن و حلال و حرام.

قوله تعالى: وَ مِنَ الْأَعْرٰابِ مَنْ يَتَّخِذُ مٰا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوٰائِرَ الآيه،قال فى المجمع:المغرم الغرم و هو نزول نائبه بالمال من غير خيانه،و أصله لزوم الأمر،و منه قوله:إن عذابها كان غراما،و حبّ غرام اى لازم،و الغريم يقال لكل واحد من المتداينين للزوم احدهما الآخر و غرمته كذا أى ألزمته إياه فى ماله،انتهى.

و الدائره الحادثه و تغلب فى الحوادث السوء كأن الحوادث السوء تدور بين الناس فتنزل كل يوم بقوم فتربص الدوائر بالمؤمنين انتظار نزول الحوادث السوء عليهم للتخلص من سلطتهم و الرجوع الى رسوم الشرك و الضلال.

و قوله: «يَتَّخِذُ مٰا يُنْفِقُ مَغْرَماً» أى يفرض الإنفاق غرما او المال الذى ينفقه مغرما-على أن يكون ما مصدريه او موصوله-و المراد الإنفاق فى الجهاد او اى سبيل من سبل الخير على ما قيل،و يمكن ان يكون المراد الإنفاق فى خصوص الصدقات ليكون الكلام كالتوطئه لما سيجىء بعد عده آيات من حكم أخذ الصدقه من اموالهم،و يؤيده ما فى الآيه التاليه من قوله: «وَ يَتَّخِذُ مٰا يُنْفِقُ قُرُبٰاتٍ عِنْدَ اللّٰهِ وَ صَلَوٰاتِ الرَّسُولِ» فانه كالتوطئه لقوله فى آيه الصدقه «وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ» .

فمعنى الآيه:و من سكان الباديه من يفرض الإنفاق فى سبيل الخير او فى خصوص

الصدقات غرما و خساره و ینتظر نزول الحوادث السیئه بکم،علیهم دائره السوء-قضاء منه تعالی او دعاء علیهم-و اللّه سمیع للأقوال علیم بالقلوب.

قوله تعالی: وَ مِنَ الْأَعْرٰابِ مَنْ یُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ یَتَّخِذُ مٰا یُنْفِقُ قُرُبٰاتٍ عِنْدَ اللّٰهِ وَ صَلَوٰاتِ الرَّسُولِ الخ؛الظاهر أن قوله: «صَلَوٰاتِ الرَّسُولِ» عطف علی قوله: «مٰا یُنْفِقُ» و أن الضمیر فی قوله: «أَلاٰ إِنَّهٰا قُرْبَهٌ» عائد الی ما ینفق و صلوات الرسول.

و معنی الآیه:و من الأعراب من یؤمن باللّه فیوحده من غیر شرک و یؤمن بالیوم الآخر فیصدّق الحساب و الجزاء و یتخذ إنفاق المال للّه و ما یتبعه من صلوات الرسول و دعواته بالخیر و البرکه،کل ذلک قربات عند اللّه و تقربات منه الیه ألا إن هذا الإنفاق و صلوات الرسول قربه لهم،و اللّه یعدهم بأنه سیدخلهم فی رحمته لأنه غفور للذنوب رحیم بالمؤمنین به و المطیعین له.

قوله تعالی: وَ السّٰابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهٰاجِرِینَ وَ الْأَنْصٰارِ وَ الَّذِینَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسٰانٍ الخ؛القراءه المشهوره «و الأنصار» بالکسر عطفا علی «الْمُهٰاجِرِینَ» و التقدیر:السابقون الأولون من المهاجرین و السابقون الأولون من الأنصار و الذین اتبعوهم بإحسان؛و قرء یعقوب:و الأنصار بالرفع فالمراد به جمیع الأنصار دون السابقین الأولین منهم فحسب.

و قد اختلفت الکلمه فی المراد بالسابقین الأولین فقیل:المراد بهم من صلی الی القبلتین، و قیل:من بایع بیعه الرضوان و هی بیعه الحدیبیه،و قیل:هم أهل بدر خاصه،و قیل:هم الذین أسلموا قبل الهجره،و هذه جمیعا وجوه لم یوردوا لها دلیلا من جهه اللفظ.

و الذی یمکن أن یؤیده لفظ الآیه بعض التأیید هو أن بیان الموضوع-السابقون الأولون- بالوصف بعد الوصف من غیر ذکر أعیان القوم و أشخاصهم یشعر بأن الهجره و النصره هما

الجهتان اللتان روعی فیهما السبق و الأولیه.

ثم الـذی عطف علیهم من قوله: «وَ الَّذِینَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسٰانٍ ،یذکر قوما ینعتهم بالاتّباع و یقیّده بأن یکون بإحسان و الذی یناسب وصف الاتّبـاع أن یترتب علیه هو وصف السبق دون الأولیه فلا یقـال:أول و تابع و إنما یقال:سابق و تابع،و تصـدیق ذلک قوله تعالی: لِلْفُقَرٰاءِ الْمُهٰاجِرِینَ الَّذِینَ أُخْرِجُوا مِنْ دِیٰارِهِمْ وَ أَمْوٰالِهِمْ الی ان قال: وَ الَّذِینَ تَبَوَّؤُا الـدّٰارَ وَ الْإِیمٰانَ مِنْ قَبْلِهِمْ الی ان قال: وَ الَّذِینَ جٰاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ یَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنٰا وَ لِإِخْوٰانِنَا الَّذِینَ سَبَقُونٰا بِالْإِیمٰانِ الآیات؛(الحشر/۱۰).

فالمراد بالسابقین هم السابقون الی الإیمان من بین المسلمین من لدن طلوع الإسلام الی یوم القیامه (۱).

قوله تعـالی: وَ مِمَّنْ حَوْلَکُمْ مِنَ الْأَعْرٰابِ مُنٰافِقُونَ وَ مِنْ أَهْـلِ الْمَـدِینَهِ الآیـه؛حول الشـیء مـا یجاوره من المکان من اطرافه و هو ظرف،و المرد العتـو و الخروج عن الطـاعه،و الممـارسه و التمرین علی الشـر و هـو المعنی المنـاسب لقوله فی الآیـه: «مَرَدُوا عَلَی النِّفٰاقِ» أی مرنوا علیه و مارسوا حتی اعتادوه.

و معنی الآیـه:و ممن فی حولکم او حول المـدینه من الأعراب الساکنین فی البوادی منافقون مرنوا علی النفاق و من اهل المـدینه أیضا منافقون معتادون علی النفاق لا تعلمهم انت یا محمّد نحن نعلمهم سنعذّبهم مرتین ثم یردون الی عذاب عظیم.

و قـد اختلفت کلمـاتهم فی المراد من تعـذیبهم مرتین.مـا همـا المرتان؟فقیل:یعنی مره فی الـدنیا بالسبی و القتل و نحوهما و مره بعذاب القبر،و قیل:فی الدنیا بأخذ الزکاه و فی الآخره بعذاب القبر،و قیل بالجوع مرتین و قیل مره عند الاحتضار و مره فی القبر و قیل:بإقامه الحدود

ص :۸۱۷

۱- ۱) .التوبه ۹۷-۱۰۶:بحث فی السابقین الاولین من المهاجرین و الانصار و الذین اتبعوهم باحسان.

و عذاب القبر،و قيل:مره بالفضيحه فى الدنيا و مره بالعذاب فى القبر،و قيل غير ذلك،و لا دليل على شىء من هذه الأقوال،و إن كان و لا بد فأولها أولاها.

قوله تعالى: وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صٰالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً الآيه؛اى و من الأعراب جماعه آخرون مذنبون لا ينافقون مثل غيرهم بل اعترفوا بذنوبهم لهم عمل صالح و عمل آخر سيئ خلطوا هذا بذلك من المرجو ان يتوب اللّه عليهم إن اللّه غفور رحيم.

و فى قوله: «عَسَى اللّٰهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» إيجاد الرجاء فى نفوسهم لتكون نفوسهم واقعه بين الخوف و الرجاء من غير ان يحيط بها اليأس و القنوط،و فى قوله: «إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ترجيح جانب الرجاء.

قوله تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوٰالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهٰا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ التطهير إزاله الأوساخ و القذرات من الشىء ليصفى وجوده و يستعد للنشوء و النماء و ظهور آثاره و بركاته،و التزكيه إنماؤه و إعطاء الرشد له بلحوق الخيرات و ظهور البركات كالشجره بقطع الزوائد من فروعها فتزيد فى حسن نموّها و جوده ثمرتها فالجمع بين التطهير و التزكيه فى الآيه من لطيف التعبير.

فقوله: «خُذْ مِنْ أَمْوٰالِهِمْ صَدَقَةً» أمر للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأخذ الصدقه من اموال الناس و لم يقل:

من مالهم ليكون اشاره الى انها مأخوذه من أصناف المال،و هى النقدان:الذهب و الفضه، و الأنعام الثلاثه:الإبل و البقر و الغنم،و الغلاّت الأربع:الحنطه و الشعير و التمر و الزبيب.

و قوله: «تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهٰا» خطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و ليس وصفا لحال الصدقه، و الدليل عليه ضمير بها الراجع الى الصدقه اى خذ يا محمد من اصناف اموالهم صدقه تطهرهم انت و تزكيهم بتلك الصدقه اى أخذها.

و قوله: «وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ» الصلاه عليهم هى الدعاء لهم و السياق يفيد انه دعاء لهم

و لأموالهم بالخير و البركه و هو المحفوظ من سنّه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فكان يدعو لمعطى الزكاه و لماله بالخير و البركه.

و قوله: «إِنَّ صَلاتَکَ سَکَنٌ لَهُمْ» السكن ما يسكن اليه الشىء و المراد به أن نفوسهم تسكن الى دعائك و تثق به و هو نوع شكر لسعيهم فى اللّه كما أن قوله تعالى فى ذيل الآيه: «وَ اللّٰهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ» سكن يسكن اليه نفوس المكلفين ممن يسمع الآيه او يتلوها.

و الآيه تتضمن حكم الزكاه الماليه التى هى من أركان الشريعه و المله على ما هو ظاهر الآيه فى نفسها،و قد فسرتها بذلك اخبار متكاثره من طرق أئمه أهل البيت عليهم السّلام و غيرهم.

قوله تعالى: أَ لَمْ یَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ هُوَ یَقْبَلُ التَّوْبَهَ عَنْ عِبٰادِهِ وَ یَأْخُذُ الصَّدَقٰاتِ وَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ التَّوّٰابُ الرَّحِیمُ استفهام إنكارى بداعى تشويق الناس الى إيتاء الزكاه،و ذلك أنهم إنما يؤتون الصدقه للّه و إنما يسلّمونها الى الرسول او الى عامله و جابيه بما أنه مأمور من قبل اللّه فى اخذها فإيتاؤه إيتاء للّه،و أخذه أخذ من اللّه فاللّه سبحانه هو الآخذ لها بالحقيقه،و قد قال تعالى فى أمثاله: إِنَّ الَّذِینَ یُبٰایِعُونَکَ إِنَّمٰا یُبٰایِعُونَ اللّٰهَ یَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ (الفتح/١٠)و قال: وَ مٰا رَمَیْتَ إِذْ رَمَیْتَ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ رَمیٰ (الأنفال/١٣) و قال قولا عاما: مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ (النساء/٨٠).

فاذا ذكّر الناس بمثل قوله: «أَ لَمْ یَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ» الآيه؛انبعثت رغباتهم و اشتاقوا أن يعاملوا ربهم فيصافحوه و يمسّوا بأيديهم يده تنزّه عن عوارض الأجسام و تعالى عن ملابسه الحدثان.

و مقارنته الصدقه بالتوبه لما أن التوبه تطهّر و إيتاء الصدقه تطهّر فالتصدّق بصدقه توبه ماليه كما ان التوبه بمنزله الصدقه فى الأعمال و الحركات،و لذلك عطف على صدر الآيه قوله ذيلا «وَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ التَّوّٰابُ الرَّحِیمُ» فذكّر عباده باسميه التواب و الرحيم،و جمع فيهما التوبه

و التصدق.

و قد بان من الآيه ان التصدق و إيتاء الزكاه نوع من التوبه.

قوله تعالى: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ الآيه؛الآيه على ظاهر اتّصالها بما قبلها كأنها تخاطب المؤمنين و تسوقهم و تحرضهم الى إيتاء الصدقات.

غير أن لفظها مطلق لا دليل على تخصيص خطابها بالمتصدّقين من المؤمنين و لا بعامه المؤمنين بل هى تشمل كل ذى عمل من الناس من الكفار و المنافقين و المؤمنين و لا أقل من شمولها للمنافقين و المؤمنين جميعا.

إلّا أن نظير الآيه الذى مر أعنى قوله فى سياق الكلام على المنافقين: وَ سَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلىٰ عٰالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَهِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التوبه۹۴/) حيث ذكر اللّه و رسوله فى رؤيه عملهم و لم يذكر المؤمنين لا يخلو من إيماء الى أن الخطاب فى الآيه التى نحن فيها للمؤمنين خاصه فإن ضم إحدى الآيتين الى الاخرى يخطر بالبال ان حقيقه أعمال المنافقين أعنى مقاصدهم من أعمالهم لما كانت خفيه على ملإ الناس فإنما يعلم بها اللّه و رسوله بوحى من اللّه تعالى،و أما المؤمنون فحقائق أعمالهم أعنى مقاصدهم منها و آثارها و فوائدها التى تتفرع عليها و هى شيوع التقوى و إصلاح شئون المجتمع الإسلامى و إمداد الفقراء فى معايشهم و زكاه الأموال و نماؤها يعلمها اللّه تعالى و رسوله و يشاهدها المؤمنون فيما بينهم.

لكن ظهور الأعمال بحقائق آثارها و عامه فوائدها أو مضراتها فى محيط كينونتها و تبدلها بأمثالها و تصورها فى أطوارها زمانا بعد زمان و عصرا بعد عصر مما لا يختص بعمل قوم دون عمل قوم،و لا مشاهدتها و التأثر بها بقوم دون قوم.

فلو كان المراد من رؤيه المؤمنين أعمالا لعاملين ظهور آثارها و نتائجها و بعباره

أخری ظهور أنفسها فی ألبسه نتائجها لهم لم یختص المشاهده بقوم دون قوم و لا بعمل قوم دون عمل قوم فما بال الأعمال یراها المؤمنون و لا یراها المنافقون و هم أهل مجتمع واحد؟و ما بال أعمال المنافقین لا یشاهدها المؤمنون و قد کوّنت فی مجتمعهم و داخلت أعمالهم؟

و هذا مع ما فی الآیه من خصوص السیاق مما یقرب الذهن أن یفهم من الآیه معنی آخر فإن قوله: «سَتُرَدُّونَ إِلیٰ عٰالِمِ الْغَیْبِ وَ الشَّهٰادَهِ فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» یدل أولا علی أن قوله:

«فَسَیَرَی اللّٰهُ عَمَلَکُمْ» الآیه؛ناظر الی ما قبل البعث و هی الدنیا لمکان قوله: «ثُمَّ تُرَدُّونَ» فإنه یشیر الی یوم البعث و ما قبله هو الدنیا.

و ثانیا:أنهم إنما یوقفون علی حقیقه أعمالهم یوم البعث و أما قبل ذلک فإنما یرون ظاهرها، و قد نبهنا علی هذا المعنی کرارا فی أبحاثنا السابقه،و اذ قصر علمهم بحقائق أعمالهم علی إنبائه تعالی إیاهم بها یوم القیامه و ذکر رؤیه اللّه و رسوله و المؤمنین أعمالهم قبل یوم البعث فی الدنیا و قد ذکر اللّه مع رسوله و غیره و هو عالم بحقائقها و له أن یوحی الی نبیه بها کان المراد بها مشاهده اللّه سبحانه و رسوله و المؤمنون حقیقه أعمالهم،و کان المراد بالمؤمنین شهداء الأعمال منهم لا عامه المؤمنین کما یدل علیه أمثال قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ جَعَلْنٰاکُمْ أُمَّهً وَسَطاً لِتَکُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَی النّٰاسِ وَ یَکُونَ الرَّسُولُ عَلَیْکُمْ شَهِیداً (البقره۱۴۳/)و قد مر الکلام فیه فی الجزء الأول من الکتاب.

و علی هذا فمعنی الآیه:و قل یا محمّد اعملوا ما شئتم من عمل خیرا أو شرا فسیشاهد اللّه سبحانه حقیقه عملکم و یشاهدها رسوله و المؤمنون-و هم شهداء الأعمال-ثم تردون الی اللّه عالم الغیب و الشهاده یوم القیامه فیریکم حقیقه عملکم.

و بعباره اخری:ما عملتم من عمل خیر او شر فإن حقیقته مرئیه مشهوده للّه عالم الغیب و الشهاده ثم لرسوله و المؤمنین فی الدنیا ثم لکم أنفسکم معاشر العاملین یوم القیامه.

قوله تعالی: وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمّا یُعَذِّبُهُمْ وَ إِمّا یَتُوبُ عَلَیْهِمْ وَ اللّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ الارجاء التأخیر،و الآیه معطوفه علی قوله: «وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ» و معنی إرجائهم الی امر اللّه انهم لا سبب عندهم یرجح لهم جانب العذاب او جانب المغفره فأمرهم یؤول الی أمر اللّه ما شاء و أراد فیهم فهو النافذ فی حقهم؟

و هذه الآیه تنطبق بحسب نفسها علی المستضعفین الذین هم کالبرزخ بین المحسنین و المسیئین،و إن ورد فی أسباب النزول ان الآیه نازله فی الثلاثه الذین خلفوا ثم تابوا فأنزل اللّه توبتهم علی رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلم و سیجیء إن شاء اللّه تعالی.

و کیف کان فالآیه تخفی ما یؤول الیه عاقبه امرهم و تبقیها علی إبهامها حتی فیما ذیلت به من الاسمین الکریمین:العلیم و الحکیم الدالین علی ان اللّه سبحانه یحکم فیهم بما یقتضیه علمه و حکمته،و هذا بخلاف ما ذیل قوله: «وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ» حیث قال: «عَسَی اللّهُ أَنْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ» (۱)(۲).

[سوره التوبه (۹): الآیات ۱۰۷ الی ۱۱۰]

اشاره

وَ اَلَّذِینَ اِتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرٰاراً وَ کُفْراً وَ تَفْرِیقاً بَیْنَ اَلْمُؤْمِنِینَ وَ إِرْصٰاداً لِمَنْ حٰارَبَ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَیَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنٰا إِلاَّ اَلْحُسْنیٰ وَ اَللّٰهُ یَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَکٰاذِبُونَ (۱۰۷) لاٰ تَقُمْ فِیهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَی اَلتَّقْویٰ مِنْ أَوَّلِ یَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِیهِ فِیهِ رِجٰالٌ یُحِبُّونَ أَنْ یَتَطَهَّرُوا وَ اَللّٰهُ یُحِبُّ اَلْمُطَّهِّرِینَ (۱۰۸) أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْیٰانَهُ عَلیٰ تَقْویٰ مِنَ اَللّٰهِ وَ رِضْوٰانٍ خَیْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْیٰانَهُ عَلیٰ شَفٰا جُرُفٍ هٰارٍ فَانْهٰارَ بِهِ فِی نٰارِ جَهَنَّمَ وَ اَللّٰهُ لاٰ یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِینَ (۱۰۹) لاٰ یَزٰالُ بُنْیٰانُهُمُ اَلَّذِی بَنَوْا رِیبَهً فِی قُلُوبِهِمْ إِلاّٰ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۱۱۰)

۱- ۱) .التوبه ۹۷-۱۰۶:بحث روائی فی السابقین الاولین...؛الاعراب؛الصدقات.

۲- ۲) .التوبه ۹۷-۱۰۶:کلام فی الزکاه و سائر الصدقات.

بيان:

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرٰاراً وَ كُفْراً الى آخر الآيه،الضرار و المضاره إيصال الضرر،و الإرصاد اتخاذ الرصد و الانتظار و الترقب.

و قوله: «وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرٰاراً» إن كانت الآيات نازله مع ما تقدمها من الآيات النازله فى المنافقين فالعطف على ما تقدم ذكرهم من طوائف المنافقين المذكورين بقوله:

و منهم،و منهم اى و منهم الذين اتخذوا مسجدا ضرارا.

و إن كانت مستقله بالنزول فالوجه كون الواو استئنافيه و قوله: «الَّذِينَ اتَّخَذُوا» مبتدأ خبره قوله: «لاٰ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً» و يمكن إجراء هذا الوجه على التقدير السابق أيضا،و قد ذكر المفسرون فى إعراب الآيه وجوها اخرى لا تخلو عن تكلف تركناها.

و قد بيّن اللّه غرض هذه الطائفه من المنافقين فى اتخاذ هذا المسجد و هو الضرار بغيرهم و الكفر و التفريق بين المؤمنين و الإرصاد لمن حارب اللّه و رسوله،و الأغراض المذكوره خاصه ترتبط الى قصه خاصه بعينها،و هى على ما اتفق عليه أهل النقل أن جماعه من بنى عمرو بن عوف بنوا مسجد قبا و سألوا النبى أن يصلى فيه فصلى فيه فحسدهم جماعه من بنى غنم بن عوف و هم منافقون فبنوا مسجدا الى جنب مسجد قبا ليضروا به و يفرقوا المؤمنين منه

و ينتظروا لأبى عامر الراهب الذى وعدهم أن يأتيهم بجيش من الروم ليخرجوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من المدينه،و أمرهم أن يستعدوا للقتال معهم.

و لما بنوا المسجد أتوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو يتجهز الى تبوك و سألوه أن يأتيه و يصلى فيه و يدعو لهم البركه فوعدهم الى الفراغ من أمر تبوك و الرجوع الى المدينه فنزلت الآيات.

فكان مسجدهم لمضارّه مسجد قبا،و للكفر باللّه و رسوله،و لتفريق المؤمنين المجتمعين فى قبا،و لإرصاد ابى عامر الراهب المحارب للّه و رسوله من قبل،و قد أخبر اللّه سبحانه عنهم أنهم ليحلفن إن أردنا من بناء هذا المسجد إلاّ الفعله الحسنى و هو التسهيل للمؤمنين بتكثير معابد يعبد فيها اللّه،و شهد تعالى بكذبهم بقوله: «وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ الْحُسْنىٰ وَ اللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» .

قوله تعالى: لاٰ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً الى آخر الآيه،بدأ بنهى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن أن يقوم فيه ثم ذكر مسجد قبا و رجّح القيام فيه بعد ما مدحه بقوله: «لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ» فمدحه بحسن نيه مؤسسيه من اول يوم و بنى عليه رجحان القيام فيه على القيام فى الضرار.

و الجمله و إن لم تفد تعيّن القيام فى مسجد قبا حيث عبّر بقوله:أحقّ،غير أن سبق النهى عن القيام فى مسجد الضرار يوجب ذلك،و قوله تعالى: «فِيهِ رِجٰالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا» تعليل للرجحان السابق،و قوله: «وَ اللّٰهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ» متمم للتعليل المذكور،و هذا هو الدليل على أن المراد بقوله: «لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ» الخ؛هو مسجد قبا لا مسجد النبى او غيره.

و معنى الآيه:لا تقم أى للصلاه فى مسجد الضرار ابدا،أقسم،لمسجد قبا الذى هو مسجد أسس على تقوى اللّه من اول يوم أحق و أحرى أن تقوم فيه للصلاه و ذلك أن فيه رجالا يحبون التطهر من الذنوب أو من الأرجاس و الأحداث و اللّه يحب المطهّرين و عليك أن تقوم فيهم.

ص :۸۲۴

و قد ظهر بذلك أن قوله: «لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ» الخ؛بمنزله التعليل لرجحان المسجد على المسجد و قوله: «فِيهِ رِجٰالٌ» الخ؛لإفاده رجحان أهله على أهله،و قوله الآتى: «أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيٰانَهُ» الخ؛لبيان الرجحان الثانى.

قوله تعالى: أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيٰانَهُ عَلىٰ تَقْوىٰ مِنَ اللّٰهِ وَ رِضْوٰانٍ خَيْرٌ الى آخر الآيه؛شفا البئر طرفه،و جرف الوادى جانبه الذى انحفر بالماء أصله و هار الشيء يهار فهو هائر و ربما يقال:هار بالقلب و انهار ينهار انهيارا اى سقط عن لين فقوله: «عَلىٰ شَفٰا جُرُفٍ هٰارٍ فَانْهٰارَ بِهِ فِي نٰارِ جَهَنَّمَ» استعاره تخييليه شبّه فيها حالهم بحال من بنى بنيانا على نهايه شفير واد لا ثقه بثباتها و قوامها فتساقطت بما بنى عليه من البنيان و كان فى أصله جهنم فوقع فى ناره،و هذا بخلاف من بنى بنيانه على تقوى من اللّه و رضوان منه اى جرى فى حياته على اتّقاء عذاب اللّه و ابتغاء رضاه.

و ظاهر السياق أن قوله: «أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيٰانَهُ عَلىٰ تَقْوىٰ» الخ؛و قوله: «أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيٰانَهُ عَلىٰ شَفٰا جُرُفٍ» الخ؛مثلان يمثل بهما بنيان حياه المؤمنين و المنافقين و هو الدين و الطريق الذى يجريان عليه فيها فدين المؤمن هو تقوى اللّه و ابتغاء رضوانه عن يقين به،و دين المنافق مبنى على التزلزل و الشك.

و لذلك أعقبه اللّه تعالى و زاد فى بيانه بقوله: «لاٰ يَزٰالُ بُنْيٰانُهُمُ» يعنى المنافقين «الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً» و شكا «فِي قُلُوبِهِمْ» لا يتعدى الى مرحله اليقين «إِلاّٰ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ» فتتلاشى الريبه بتلاشيها «وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» و لذلك يضع هؤلاء و يرفع اولئك.

[سوره التوبه (٩): الآيات ١١١ الى ١٢٣]

اشاره

إِنَّ اللّٰهَ اشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقٰاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرٰاةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللّٰهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بٰايَعْتُمْ بِهِ وَ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) اَلتّٰائِبُونَ الْعٰابِدُونَ الْحٰامِدُونَ السّٰائِحُونَ الرّٰاكِعُونَ السّٰاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النّٰاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحٰافِظُونَ لِحُدُودِ اللّٰهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) مٰا كٰانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كٰانُوا أُولِي قُرْبىٰ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحٰابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَ مٰا كٰانَ اسْتِغْفٰارُ إِبْرٰاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاّٰ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهٰا إِيّٰاهُ فَلَمّٰا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ لَأَوّٰاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدٰاهُمْ حَتّٰى يُبَيِّنَ لَهُمْ مٰا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ تٰابَ اللّٰهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهٰاجِرِينَ وَ الْأَنْصٰارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سٰاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مٰا كٰادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تٰابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الثَّلاٰثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتّٰى إِذٰا ضٰاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمٰا رَحُبَتْ وَ ضٰاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لاٰ مَلْجَأَ مِنَ اللّٰهِ إِلاّٰ إِلَيْهِ ثُمَّ تٰابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللّٰهَ هُوَ التَّوّٰابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ كُونُوا مَعَ الصّٰادِقِينَ (١١٩) مٰا كٰانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرٰابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللّٰهِ وَ لاٰ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لاٰ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لاٰ نَصَبٌ وَ لاٰ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَ لاٰ يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفّٰارَ وَ لاٰ يَنٰالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاّٰ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صٰالِحٌ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَ لاٰ يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لاٰ كَبِيرَةً وَ لاٰ يَقْطَعُونَ وٰادِياً إِلاّٰ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّٰهُ أَحْسَنَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَ مٰا كٰانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لاٰ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طٰائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذٰا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا قٰاتِلُوا اَلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ اَلْكُفّٰارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ مَعَ اَلْمُتَّقِينَ (١٢٣)

ص :٨٢٥

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ اشْتَریٰ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ

ص: ۸۲۷

الْجَنَّةَ الی آخر الآیه؛الاشتراء هو قبول العین المبیعه بنقل الثمن فی المبایعه.

و اللّه سبحانه یذکر فی الآیه وعده القطعی للذین یجاهدون فی سبیل اللّه بأنفسهم و أموالهم بالجنه،و یذکر أنه ذکر ذلک فی التوراه و الإنجیل کما یذکره فی القرآن.

و قد قلبه سبحانه فی قالب التمثیل فصوّر ذلک بیعا،و جعل نفسه مشتریا و المؤمنین بائعین، و أنفسهم و أموالهم سلعه و مبیعا،و الجنه ثمنا،و التوراه و الإنجیل و القرآن سندا للمبایعه،و هو من لطیف التمثیل ثم یبشر المؤمنین ببیعهم ذلک،و یهنئهم بالفوز العظیم.

قوله تعالی: اَلتّٰائِبُونَ الْعٰابِدُونَ الْحٰامِدُونَ السّٰائِحُونَ الی آخر الآیه؛یصف سبحانه المؤمنین بأجمل صفاتهم،و الصفات مرفوعه بالقطع أی المؤمنون هم التائبون العابدون،الخ؛فهم التائبون لرجوعهم من غیر اللّه الی اللّه سبحانه العابدون له و یعبدونه بألسنتهم فیحمدونه بجمیل الثناء،و بأقدامهم فیسیحون و یجولون من معهد من المعاهد الدینیه و مسجد من مساجد اللّه الی غیره،و بأبدانهم فیرکعون له و یسجدون له.

هذا شأنهم بالنسبه الی حال الانفراد و أما بالنسبه الی حال الاجتماع فهم آمرون بالمعروف فی السنّه الدینیه و ناهون عن المنکر فیها ثم هم حافظون لحدود اللّه لا یتعدّونه فی حالتی انفرادهم و اجتماعهم خلوتهم و جلوتهم،ثم یأمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بأن یبشّرهم و قد بشّرهم تعالی نفسه فی الآیه السابقه،و فیه من کمال التأکید ما لا یقدّر قدره.

قوله تعالی: مٰا کٰانَ لِلنَّبِیِّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا أَنْ یَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِکِینَ وَ لَوْ کٰانُوا أُولِی قُرْبیٰ الی آخر الآیتین،معنی الآیه ظاهر غیر أنه تعالی لما ذکره فی الآیه الثانیه التی تبیّن سبب استغفار ابراهیم لأبیه مع کونه کافرا أنه تبرأ منه بعد ذلک لما تبیّن له أنه عدوّ للّه، فدلّ ذلک علی أن تبیّن کون المشرکین أصحاب الجحیم إنما یرشد الی عدم جواز الاستغفار لکونه ملازما لکونهم أعداء للّه فاذا تبیّن للنبی و الذین آمنوا أن المشرکین أعداء للّه کشف ذلک لهم عن حکم ضروری و هو عدم جواز الاستغفار لکونه لغوا لا یترتب علیه أثر و خضوع

الإیمان مانع أن یلغو العبد مع ساحه الکبریاء.

و ذلک أنه تاره یفرض اللّه تعالی عدوا للعبد مبغضا له لتقصیر من ناحیته و سوء من عمله فمن الجائز بالنظر الی سعه رحمه اللّه أن یستغفر له و یسترحم اذا کان العبد متذللا غیر مستکبر،و تاره یفرض العبد عدوا للّه محاربا له مستکبرا مستعلیا کأرباب الجحود و العناد من المشرکین،و العقل الصریح حاکم بأنه لا ینفعه حینئذ شفاعه بمسأله او استغفار إلاّ أن یتوب و یرجع الی اللّه و ینسلخ عن الاستکبار و العناد و یتلبّس بلباس الذلّه و المسکنه فلا معنی لسؤال الرحمه و المغفره لمن یأبی عن القبول،و لا للاستعطاء لمن لا یخضع للأخذ و التناول إلاّ الهزؤ بمقام الربوبیه و اللعب بمقام العبودیه و هو غیر جائز بضروره من حکم الفطره.

و قوله: إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ لَأَوّٰاهٌ حَلِیمٌ تعلیل لوعد ابراهیم و استغفاره لأبیه بأنه تحمّل جفوه أبیه و وعده وعدا حسنا لکونه حلیما و استغفر له لکونه أواها،و الأواه هو الکثیر التأوه خوفا من ربه و طمعا فیه.

قوله تعالی: وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ لِیُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدٰاهُمْ حَتّٰی یُبَیِّنَ لَهُمْ مٰا یَتَّقُونَ الی آخر الآیتین؛الآیتان متصلتان بالآیتین قبلهما المسوقتین للنهی عن الاستغفار للمشرکین.

أما الآیه الاولی اعنی قوله: «وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ لِیُضِلَّ» الخ؛ففیه تهدید لمؤمنین بالإضلال بعد الهدایه إن لم یتقوا ما بین اللّه لهم ان یتقوه و یجتنبوا منه،و هو بحسب ما ینطبق علی المورد ان المشرکین أعداء للّه لا یجوز الاستغفار لهم و التودد الیهم فعلی المؤمنین ان یتقوا ذلک و إلاّ فهو الضلال بعد الهدی،و علیک ان تذکر ما قدمناه فی تفسیر قوله تعالی: اَلْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ (المائده/۳)فی الجزء الخامس من الکتاب و فی تفسیر آیات ولایه المشرکین و أهل الکتاب الواقعه فی السور المتقدمه.

و الآیه بوجه فی معنی قوله تعالی: ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَهً أَنْعَمَهٰا عَلیٰ قَوْمٍ حَتّٰی

يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ (الأنفال/٥٣)و ما فى معناه من الآيات،و هى جميعا تهتف بأن من السنّه الإلهيه ان تستمر على العبد نعمته و هدايته حتى يغير هو ما عنده بالكفران و التعدى فيسلب اللّه منه النعمه و الهدايه.

و أما الآيه الثانيه أعنى قوله: «إِنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ» فذيلها بيان لعله الحكم السابق المدلول عليه بالآيه السابقه و هو النهى عن تولى أعداء اللّه او وجوب التبرى منهم اذ لا ولىّ و لا نصير حقيقه إلاّ اللّه سبحانه و قد بينه للمؤمنين فعليهم بدلاله من إيمانهم ان يقصروا التولى عليه تعالى او من أذن فى توليهم له من اوليائه و ليس لهم ان تعتدوا ذلك الى تولى أعدائه كائنين من كانوا.

و صدر الآيه بيان لسبب هذا السبب و هو ان اللّه سبحانه هو الذى يملك كل شىء و بيده الموت و الحياه فإليه تدبير كل امر فهو الولىّ لا ولىّ غيره.

و قد ظهر من عموم البيان و العله فى الآيات الأربع ان الحكم عام و هو وجوب التبرى او حرمه التولى لأعداء اللّه سواء كان التولى بالاستغفار او بغير ذلك و سواء كان العدو مشركا او كافرا او منافقا او غيرهم من اهل البدع الكافرين بآيات اللّه او المصرّين على بعض الكبائر كالمرابى المحارب للّه و رسوله.

قوله تعالى: لَقَدْ تٰابَ اللّٰهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهٰاجِرِينَ وَ الْأَنْصٰارِ الَّذِينَ الى آخر الآيتين؛الساعه مقدار من الزمان فساعه العسره الزمان الذى تعسّر فيه الحياه لابتلاء الانسان بما تشق معه العيشه عليه كعطش او جوع او حر شديد او غير ذلك،و الزيغ هو الخروج من الطريق و الميل عن الحق،و إضافه الزيغ الى القلوب و ذكر ساعه العسره و سائر ما يلوح من سياق الكلام دليل على ان المراد بالزيغ الاستنكاف عن امتثال امر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الخروج عن طاعته بالتثاقل عن الخروج الى الجهاد او الرجوع الى الأوطان بقطع السير تحرجا من العسره و المشقه التى واجهتهم فى مسيرهم.

و التخليف-على ما فی المجمع-تأخير الشیء عمن مضی فأما تأخير الشیء عنک فی المکان فليس بتخليف،و هو من الخلف الـذی هو مقابل لجهه الوجه يقال،خلفه أی جعله خلفه فهو مخلف.انتهی و الرحب هو السعه التی تقابل الضيق،و بما رحبت أی برحبها فما مصدريه.

و الآيتان و إن کانت کل واحده منهما ناظره الی جهه دون جهه الاخری فالاولی تبين التوبه علی النبی و المهاجرين و الانصار و الثانيه تبيّن توبه الثلاثه المخلفين مضافا الی أن نوع التوبه علی أهل الآيتين مختلف فأهل الآيه الاولی او بعضهم تاب اللّه عليهم من غير معصيه منهم، و أهل الآيه الثانيه تيب عليهم و هم عاصون مذنبون.

قوله تعالی: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ كُونُوا مَعَ الصّٰادِقِينَ الصدق بحسب الأصل مطابقه القول و الخبر للخارج،و يوصف به الانسان اذا طابق خبره الخارج ثم لمّا عدّ کل من الاعتقاد و العزم-الاراده-قولا توسع فی معنی الصدق فعدّ الانسان صادقا اذا طابق خبره الخارج و صادقا اذا عمل بما اعتقده و صادقا اذا اتی بما يريده و يعزم عليه علی الجد.

و ما فی الآيه من إطلاق الامر بالتقوی و اطلاق الصادقين و اطلاق الأمر بالکون معهم -و المعيّه هی المصاحبه فی العمل و هو الاتباع-يدل علی ان المراد بالصدق هو معناه الوسيع العام دون الخاص.

فالآيه تأمر المؤمنين بالتقوی و اتّباع الصادقين فی اقوالهم و افعالهم و هو غير الأمر بالاتصاف بصفتهم فانه الکون منهم لا الکون معهم و هو ظاهر.

قوله تعالی: مٰا كٰانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرٰابِ الی آخر الآيتين؛الرغبه ميل خاص نفسانی و الرغبه فی الشیء الميل اليه لطلب منفعه فيه،و الرغبه عن الشیء الميل عنه بترکه و الباء للسببيه فقوله: «وَ لاٰ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ» معناه و ليس لهم ان يشتغلوا بأنفسهم عن نفسه فيترکوه عند مخاطر المغازی و فی تعب الاسفار و دعثائها

و يقعدوا للتمتع من لذائذ الحياه،و الظمأ العطش،و النصب التعب و المخصمه المجاعه،و الغيظ أشد الغضب،و الموطئ الارض التى توطأ بالاقدام.

و الآيه تسلب حق التخلف عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من أهل المدينه و الأعراب الذين حولها ثم تذكر ان اللّه قابل هذا السلب منهم بأنه يكتب لهم فى كل مصيبه تصيبهم فى الجهاد من جوع و عطش و تعب و فى كل أرض يطئونها فيغيظون به الكفار أو نيل نالوه منهم عملا صالحا فانهم محسنون و اللّه لا يضيع أجر المحسنين،و هذا معنى قوله: «ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لاٰ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ» الخ.

ثم ذكر أن نفقاتهم صغيره يسيره كانت أو كبيره خطيره و كذا كل واد قطعوه فانه مكتوب لهم محفوظ لأجلهم ليجزوا به أحسن الجزاء.

و قوله: لِيَجْزِيَهُمُ اللّٰهُ أَحْسَنَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ غايه متعلقه بقوله: «كُتِبَ لَهُمْ» أى غايه هذه الكتابه هى ان يجزيهم بأحسن أعمالهم،و إنما خص جزاء أحسن الاعمال بالذكر لأن رغبه العامل عاكفه عليه،أو لأن الجزاء بأحسنها يستلزم الجزاء بغيره،أو لأن المراد بأحسن الاعمال الجهاد فى سبيل اللّه لكونه أشقّها و قيام الدعوه الدينيه به.

و هاهنا معنى آخر و هو ان جزاء العمل فى الحقيقه إنما هو نفس العمل عائدا الى اللّه فأحسن الجزاء هو أحسن العمل فالجزاء بأحسن الأعمال فى معنى الجزاء بأحسن الجزاء و معنى آخر و هو ان يغفر اللّه سبحانه سيئاتهم المشوبه بأعمالهم الحسنه و يستر جهات نقصها فيكون العمل أحسن بعد ما كان حسنا ثم يجزهم بأحسن ما كانوا يعملون فافهم ذلك و ربما رجع المعنيان الى معنى واحد.

قوله تعالى: وَ مٰا كٰانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لاٰ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طٰائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ السياق يدل على ان المراد بقوله: «لِيَنْفِرُوا كَافَّةً» لينفروا و ليخرجوا الى الجهاد جميعا،و قوله: «فِرْقَةٍ مِنْهُمْ» الضمير للمؤمنين الذين ليس لهم ان ينفروا كافه،و لازمه ان يكون النفر الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم منهم.

فالآیه تنهی مؤمنی سائر البلاد غیر مدینه الرسول ان ینفروا الی الجهاد کافه بل یحضّضـهم ان ینفر طائفه منهم الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم للتفقه فی الدین،و ینفر الی الجهاد غیرهم.

و الانسب بهذا المعنی ان یکون الضمیر فی قوله: «رَجَعُوا» للطائفه المتفقهین،و فی قوله «إِلَیْهِمْ» لقومهم و المراد اذا رجع هؤلاء المتفقهون الی قومهم،و یمکن العکس بأن یکون المعنی:اذا رجع قومهم من الجهاد الی هؤلاء الطائفه بعد تفقههم و رجوعهم الی اوطانهم.

و معنی الآیه لا یجوز لمؤمنی البلاد ان یخرجوا الی الجهاد جمیعا فهلّا نفروا خرج الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم طائفه من کل فرقه من فرق المؤمنین لیتحققوا الفقه و الفهم فی الدین فیعملوا به لانفسهم و لینذروا بنشر معارف الدین و ذکر آثار المخالفه لاصوله و فروعه قومهم اذا رجعت هذه الطائفه الیهم لعلهم یحذرون و یتقون.

قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِینَ یَلُونَکُمْ مِنَ الْکُفّارِ وَ لْیَجِدُوا فِیکُمْ غِلْظَهً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ امر بالجهاد العام الذی فیه توسّع الاسلام حتی یشیع فی الدنیا فان قتال کل طائفه من المؤمنین من یلیهم من الکفار لا ینتهی إلّا باتساع الاسلام اتساعا باستقرار سلطنته علی الدنیا و احاطته بالناس جمیعا.

و المراد بقوله: «وَ لْیَجِدُوا فِیکُمْ غِلْظَهً» ای الشده فی ذات اللّه و لیس یعنی بها الخشونه و الفظاظه و سوء الخلق و القساوه و الجفاء فجمیع الأصول الدینیه تذم ذلک و تستقبحه،و لحن آیات الجهاد ینهی عن کل تعد و اعتداء و جفاء کما مرّ فی سوره البقره.

و فی قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ» وعد إلهی بالنصر بشرط التقوی،و یؤول معناه الی إرشادهم الی ان یکونوا دائما مراقبین لأنفسهم ذاکرین مقام ربهم منهم،و هو أنه معهم و مولاهم فهم الأعلون إن کانوا یتقون (۱).

---

۱ - ۱) .التوبه ۱۱۱-۱۲۳:بحث روائی حول:الآیه «إِنَّ اللّهَ اشْتَری مِنَ الْمُؤْمِنِینَ أَنْفُسَهُمْ...» ؛النهی عن الاستغفار للمشرکین؛الصادقین.

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٢۴ الی ١٢٩]

اشاره

وَ إِذٰا مٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زٰادَتْهُ هٰذِهِ إِيمٰاناً فَأَمَّا اَلَّذِينَ آمَنُوا فَزٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢۴) وَ أَمَّا اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كٰافِرُونَ (١٢۵) أَ وَ لاٰ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عٰامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاٰ يَتُوبُونَ وَ لاٰ هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢۶) وَ إِذٰا مٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرٰاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ اِنْصَرَفُوا صَرَفَ اَللّٰهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ اَلْعَرْشِ اَلْعَظِيمِ (١٢٩)

بيان:

قوله تعالى: وَ إِذٰا مٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زٰادَتْهُ هٰذِهِ إِيمٰاناً الى آخر الآيتين؛نحو السؤال فى قولهم:هل يراكم من أحد؟!يدلّ على أن سائله لا يخلو من شىء فى قلبه فإن هذا السؤال بالطبع سؤال من لا يجد فى قلبه أثرا من نزول القرآن و كأنه يذعن ان قلوب غيره كقلبه فيما يتلقاه فيتفحص عمن أثر فى قلبه نزول القرآن كأن يرى ان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم يدعى ان القرآن يصلح كل قلب سواء كان مستعدا مهيئا للصلاح ام لا و هو

ص:٨٣۴

لا يذعن بذلك و كلما تليت عليه سوره جديده و لم يجد فى قلبه خشوعا للّه و لا ميلا و حنانا الى الحق زاد شكا فبعثه ذلك الى ان يسأل سائر من حضر عند النزول عن ذلك حتى يستقر فى شكه و يزيد ثباتا فى نفاقه.

و بالجمله السؤال سؤال من لا يخلو قلبه من نفاق.

و قد فصل اللّه سبحانه امر القلوب و فرّق بين قلوب المؤمنين و الذين فى قلوبهم مرض فقال: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا» و هم الذين قلوبهم خاليه عن النفاق بريئه من المرض و هم على يقين من دينهم بقرينه المقابله«فزادتهم»السوره النازله«إيمانا»فإنها بإنارتها أرض القلب بنور هدايتها توجب اشتداد نور الإيمان فيه،و هذه زياده فى الكيف،و باشتمالها على معارف و حقائق جديده من المعارف القرآنيه و الحقائق الإلهيه،و بسطها على القلب نور الإيمان بها توجب زياده إيمان جديد على سابق الإيمان و هذه زياده فى الكميه و نسبه زياده الإيمان الى السوره من قبيل النسبه الى الأسباب الظاهره و كيف كان فالسوره تزيد المؤمنين إيمانا فتنشرح بذلك صدورهم و تتهلل وجوهم فرحا «وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» .

«وَ أَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» و هم اهل الشك و النفاق «فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ» أى ضلالا جديدا الى ضلالهم القديم و قد سمى اللّه سبحانه الضلال رجسا فى قوله وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِى السَّماءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللّٰهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ (الأنعام/۱۲۵)و المقابله الواقعه بين «الَّذِينَ آمَنُوا» و «الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» يفيد ان هؤلاء ليس فى قلوبهم إيمان صحيح و إنما هو الشك او الجحد و كيف كان فهو الكفر و لذلك قال: «وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كٰافِرُونَ» .

و الآيه تدل على ان السوره من القرآن لا تخلو عن تأثير فى قلب من استمعه فإن كان قلبا سليما زادته إيمانا و استبشارا و سرورا،و إن كان قلبا مريضا زادته رجسا و ضلالا نظير ما يفيده قوله: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لاٰ يَزِيدُ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ خَسٰاراً

(الإسراء۸۲/).

قوله تعـالى: أَ وَ لاٰ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عٰامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ الآيه؛ الاسـتفهام للتقرير أى ما لهم لا يتفكرون و لا يعتبرون و هم يرون أنهم يبتلـون و يمتحنـون كـل عـام مره او مرتين فيعصون اللّه و لاـ يخرجون من عهـده المحنه الإلـهيه و هم لاـ يتوبون و لا يتـذكرون و لو تفكروا فى ذلـك انتبهوا لواجب امرهم و أيقنوا ان الاسـتمرار على هـذا الشأن ينتهى بهم الى تراكم الرجس على الرجس و الهلاك الدائم و الخسران المؤبد.

قوله تعالى: وَ إِذٰا مٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُـهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرٰاكُمْ مِنْ أَحَـدٍ الآيه؛و هـذه خصـيصه أخرى من خصائصـهم و هى أنهم عنـد نزول سوره قرآنيه-و لا محاله هم حاضـرون-ينظر بعضـهم الى بعض نظر من يقول:هل يراكم من احـد،و هذا قول من يسـمع حديثا لا يطيقه و يضـيق بذلـك صدره فيتغير لونه و يظهر القلق و الاضـطراب فى وجهه فيخاف ان يلتفت اليه و يظهر السر الذى طواه فى قلبه فينظر الى بعض من كان قد اودعه سـره و أوقفه على باطن امره كأنه يستفسـره هل يطلع على ما بنا من القلق و الاضطراب احد؟

فقوله: «نَظَرَ بَعْضُـهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ» أى بعض المنافقين،و هذا من الدليل على أن الضـمير فى قوله فى الآيه السابقه: «فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ» أيضـا للمنـافقين،و قوله: «نَظَرَ بَعْضُـهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ» أى نظر قلق مضـطرب يحـذر ظهور امره و انهتاك ستره،و قوله: «هَلْ يَرٰاكُمْ مِنْ أَحَدٍ» فى مقام التفسير للنظر أى نظر بعضهم الى بعض نظر من يقول:هل يراكم من احد؟و من للتأكيد و أحد فاعل يراكم.

و قوله: ثُمَّ انْصَـرَفُوا صَرَفَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَفْقَهُونَ ظاهر السياق ان المعنى ثم انصرفوا من عند النبى صلّى اللّه عليه و آله و سـلم فى حـال صـرف اللّه قلوبهم عن وعى الآيـات الإلهيه و الإيمان بها بسـبب انهم قوم لا يفقهون الكلام الحق فالجمله حاليه على ما يجوّزه بعضهم.

و ربما احتمل کون قوله: «صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ» دعاء منه تعالی علی المنافقین،و له نظائر فی القرآن،و الدعاء منه تعالی علی احد إیعاد له بالشر.

قوله تعالی: لَقَدْ جٰاءَکُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِکُمْ عَزِیزٌ عَلَیْهِ مٰا عَنِتُّمْ حَرِیصٌ عَلَیْکُمْ بِالْمُؤْمِنِینَ رَؤُفٌ رَحِیمٌ العنت هو الضرر و الهلاک،و ما فی قوله: «مٰا عَنِتُّمْ» مصدریه التأویل عنتکم،و المراد بالرسول علی ما یشهد سیاق الآیتین محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و قد وصفه بأنه من انفسهم و الظاهر ان المراد به انه بشر مثلکم و من نوعکم اذ لا دلیل یدل علی تخصیص الخطاب بالعرب او بقریش خاصه،و خاصه بالنظر الی وجود رجال من الروم و فارس و الحبشه بین المسلمین فی حال الخطاب.

و المعنی لقد جاءکم ایها الناس رسول من انفسکم،من اوصافه انه یشق علیه ضرّکم او هلاککم و أنه حریص علیکم جمیعا من مؤمن او غیر مؤمن،و أنه رءوف رحیم بالمؤمنین منکم خاصه فیحق علیکم ان تطیعوا امره لأنه رسول لا یصدع إلاّ عن امر اللّه،و طاعته طاعه اللّه،و ان تأنسوا به و تحنّوا الیه لأنه من انفسکم،و ان تجیبوا دعوته و تصغوا الیه کما ینصح لکم.

و من هنا یظهر أن القیود المأخوذه فی الکلام من الاوصاف اعنی قوله: «رَسُولٌ» و «مِنْ أَنْفُسِکُمْ» و «عَزِیزٌ عَلَیْهِ مٰا عَنِتُّمْ» الخ؛جمیعها مسوقه لتأکید الندب الی إجابته و قبول دعوته،و یدل علیه قوله فی الآیه التالیه: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِیَ اللّهُ» .

قوله تعالی: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِیَ اللّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیمِ ای و ان تولوا عنکم و أعرضوا عن قبول دعوتک فقل حسبی اللّه لا إله إلاّ هو ای هو کافی لا إله إلاّ هو.

فقوله: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» فی مقام التعلیل لانقطاعه من الأسباب و اعتصامه بربه فهو کاف لا کافی سواه لأنه اللّه لا إله غیره،و من المحتمل ان تکون کلمه التوحید جیء بها للتعظیم نظیر قوله: وَ قٰالُوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ (البقره/۱۱۶).

و قوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» و فيه معنى الحصر تفسير يفسر به قوله: «حَسْبِيَ اللّهُ» الدالّ على معنى التوكل بالالتزام،و قد تقدم فى بعض الابحاث السابقه ان معنى التوكل هو اتخاذ العبد ربه وكيلا يحل محل نفسه و يتولى تدبير اموره اى انصرافه عن التسبب بذيل ما يعرفه من الاسباب،و لا محاله هو بعض الأسباب الذى هو علّه ناقصه و الاعتصام بالسبب الحقيقى الذى اليه ينتهى جميع الأسباب.

و من هنا يظهر وجه تذييل الكلام بقوله: «وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» اى الملك و السلطان الذى يحكم به على كل شيء و يدبر به كل امر.

و انما قال تعالى: «فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ» الآيه؛و لم يقل:فتوكل على اللّه لإرشاده الى ان يتوكل على ربه و هو ذاكر هذه الحقائق التى تنوّر حقيقه معنى التوكل،و ان النظر المصيب هو ان لا- يثق الانسان بما يدركه من الأسباب الظاهره التى هى لا- محاله بعض الأسباب بل يأخذ بما يعلمه منها على ما طبعه اللّه عليه و يثق بربه و يتوكل عليه فى حصول بغيته و غرضه.

و فى الآيه من الدلاله على عجيب اهتمامه صلّى اللّه عليه و آله و سلم باهتداء الناس ما ليس يخفى فإنه تعالى يأمره بالتوكل على ربه فيما يهتم به من الأمر و هو ما تبينه الآيه السابقه من شده رغبته و حرصه فى اهتداء الناس و فوزهم بالسعاده فافهم ذلك.

الجزء الثالث

اشاره

ص :۱

سوره يونس و هى مائه و تسع آيات

اشاره

[سوره يونس (۱۰): الآيات ۱ الى ۱۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gtالر تِلْكَ آيٰاتُ اَلْكِتٰابِ اَلْحَكِيمِ (۱) أَ كٰانَ لِلنّٰاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ اَلنّٰاسَ وَ بَشِّرِ اَلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قٰالَ اَلْكٰافِرُونَ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ مُبِينٌ (۲) إِنَّ رَبَّكُمُ اَللّٰهُ اَلَّذِى خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اِسْتَوىٰ عَلَى اَلْعَرْشِ يُدَبِّرُ اَلْأَمْرَ مٰا مِنْ شَفِيعٍ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِكُمُ اَللّٰهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ (۳) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اَللّٰهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ بِالْقِسْطِ وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرٰابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذٰابٌ أَلِيمٌ بِمٰا كٰانُوا يَكْفُرُونَ (۴) هُوَ اَلَّذِى جَعَلَ اَلشَّمْسَ ضِيٰاءً وَ اَلْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنٰازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اَلسِّنِينَ وَ اَلْحِسٰابَ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ ذٰلِكَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ اَلْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۵) إِنَّ فِى اِخْتِلاٰفِ اَللَّيْلِ وَ اَلنَّهٰارِ وَ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ فِى اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (۶) إِنَّ اَلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰاءَنٰا وَ رَضُوا بِالْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ اِطْمَأَنُّوا بِهٰا وَ اَلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيٰاتِنٰا غٰافِلُونَ (۷) أُولٰئِكَ مَأْوٰاهُمُ اَلنّٰارُ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (۸) إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمٰانِهِمْ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ اَلْأَنْهٰارُ فِى جَنّٰاتِ اَلنَّعِيمِ (۹) دَعْوٰاهُمْ فِيهٰا سُبْحٰانَكَ اَللّٰهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهٰا سَلاٰمٌ وَ آخِرُ دَعْوٰاهُمْ أَنِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۱۰)

ص: ۷

بيان:

قوله تعالى: الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ الإشاره باللفظ الدال على البعد للدلاله على ارتفاع مكانه القرآن و علو مقامه فإنه كلام اللّه النازل من عنده و هو العلى الأعلى رفيع الدرجات ذو العرش.

و الآيه-و معناها العلامه-و إن كان من الجائز أن يسمى بها ما هو من قبيل المعانى او الأعيان الخارجيه كما فى قوله: أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (الشعراء١٩٧/)و فى قوله: وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء٩١/)و كذا ما هو من قبيل القول كما فى قوله ظاهرا: وَ إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ (النحل١٠١/)و نحو ذلك

ص :٨

لکن المراد بالآیات هاهنا هی أجزاء الکلام الإلهی قطعا فإن الکلام فی الوحی النازل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و هو کلام متلو مقرو بأی معنی من المعانی صورنا نزول الوحی.

فالمراد بالآیات أجزاء الکتاب الإلهی،و تتعین فی الجمله من جهه المقاطع التی تفصل الآیات بعضها من بعض مع إعانه ما من ذوق التفاهم،و لذلک ربما وقع الخلاف فی عدد آیات بعض السور بین علماء الإحصاء کالکوفیین و البصریین و غیرهم.

و المراد بالکتاب الحکیم هو الکتاب الذی استقرت فیه الحکمه،و ربما قیل:إن الحکیم من الفعیل بمعنی المفعول و المراد به المحکم غیر القابل للانثلام و الفساد،و الکتاب الذی هذا شأنه -و قد وصفه تعالی فی الآیه التالیه بأنه من الوحی-هو القرآن المنزل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

قوله تعالی: أَ کٰانَ لِلنّٰاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَیْنٰا إِلیٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ الی آخر الآیه؛ الاستفهام للإنکار فهو إنکار لتعجبهم من إیحاء اللّه الی رجل منهم ما اشتملت علیه الدعوه القرآنیه.

و قوله: أَنْ أَنْذِرِ النّٰاسَ الخ؛تفسیر لما أوحاه الیه،و یتبین به أن الذی ألقاه الیه من الوحی هو بالنسبه الی عامه الناس إنذار و بالنسبه الی الذین آمنوا منهم خاصه تبشیر فهو لا محاله یضر الناس علی بعض التقادیر و هو تقدیر الکفر و العصیان و ینفعهم علی تقدیر الایمان و الطاعه.

و قد فسّر البشری الذی أمره أن یبشّر به المؤمنین بقوله: «أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ» و المراد بقدم الصدق هو المنزله الصادقه کما یشیر الیه قوله: فِی مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِیکٍ مُقْتَدِرٍ (القمر/۵۵)فإن الایمان لما استتبع الزلفی و المنزله عند اللّه کان الصدق فی الایمان یستتبع الصدق فی المنزله التی یستتبعها فلهم منزله الصدق کما أن لهم إیمان الصدق.

فإطلاق القدم علی المنزله و المکانه من الکنایه و لما کان إشغال المکان عاده إنما هو بالقدم استعملت القدم فی المکان إن کان فی المادیات،و فی المکانه و المنزله إن کان فی

المعنویات ثم أضیفت القدم الی الصدق،و هو صدق صاحب القدم فی شأنه أی قدم منسوبه الی صدق صاحبها او قدم هی صادقه لصدق صاحبها فی شأنه.

و هناک معنی آخر و هو أن یراد بالصدق طبیعته کأن للصدق قدما و للکذب قدما و قدم الصدق هی التی تثبت و لا تزول.

و قوله: قَالَ الْکافِرُونَ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ مُبِینٌ أی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و قرئ «إِنَّ هٰذٰا لَسِحْرٌ مُبِینٌ» أی القرآن و مآل القراءتین واحد فإنهم إنما کانوا یرمونه صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالسحر من جهه القرآن الکریم.

و الجمله کالتعلیل لقوله: «کٰانَ لِلنّٰاسِ عَجَباً» یمثل به معنی تعجّبهم و هو أنهم لما سمعوا ما تلاه علیهم من القرآن وجدوه کلاما من غیر نوع کلامهم خارقا للعاده المألوفه فی سنخ الکلام یأخذ بمجامع القلوب و تتولّه الیه النفوس فقالوا:إنه لسحر مبین،و إن الجائی به لساحر مبین.

قوله تعالی: إِنَّ رَبَّکُمُ اللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ لما ذکر فی الآیه السابقه عجبهم من نزول الوحی و هو القرآن علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و تکذیبهم له برمیه بالسحر شرع تعالی فی بیان ما کذّبوا به من الجهتین أعنی من جهه أن ما کذّبوا به من المعارف المشتمل علیها القرآن حق لا ریب فیه،و من جهه أن القرآن الذی رموه بالسحر کتاب إلهی حق و لیس من السحر الباطل فی شیء.

فقوله: إِنَّ رَبَّکُمُ اللّٰهُ الخ؛شروع فی بیان الجهه الاولی و هی أن ما یدعوکم الیه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم مما یعلمکم القرآن حق لا ریب فیه و یجب علیکم أن تتبعوه.

و المعنی:إن ربکم معاشر الناس هو اللّه الذی خلق هذا العالم المشهود کله سماواته و أرضه فی سته أیام ثم استوی علی عرش قدرته و قام مقام التدبیر الذی الیه ینتهی کل تدبیر و إداره فشرع یدبر أمر العالم،و إذا انتهی الیه کل تدبیر من دون الاستعانه بمعین او الاعتضاد بأعضاد

لم یکن لشیء من الأشیاء أن یتوسط فی تدبیر أمر من الامور-و هو الشفاعه-إلاّ من بعد إذنه تعالی فهو سبحانه هو السبب الأصلی الذی لا سبب بالأصاله دونه،و من دونه من الأسباب أسباب بتسبیبه و شفعاء من بعد إذنه.

و إذا کان کذلک کان اللّه تعالی هو ربکم الذی یدبر امرکم لا غیره مما اتخذتموها أربابا من دون اللّه و شفعاء عنده،و هو المراد بقوله: «ذٰلِکُمُ اللّٰهُ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ» أی هلا انتقلتم انتقالا فکریا الی ما یستنیر به أن اللّه هو ربکم لا رب غیره بالتأمل فی معنی الألوهیه و الخلقه و التدبیر.

و قد تقدم الکلام فی معنی العرش و الشفاعه و الإذن و غیر ذلک فی ذیل قوله: إِنَّ رَبَّکُمُ اللّٰهُ (الأعراف/۵۴)فی الجزء الثامن من الکتاب.

قوله تعالی: إِلَیْهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً وَعْدَ اللّٰهِ حَقًّا تذکیر بالمعاد بعد التذکیر بالبدء،و قوله: وَعْدَ اللّٰهِ حَقًّا من قیام المفعول المطلق مقام فعله،و المعنی:وعده اللّه وعدا حقا.

و الحق هو الخبر الذی له أصل فی الواقع یطابق الخبر فکون وعده تعالی بالمعاد حقا معناه کون الخلقه الإلهیه بنحو لا تتم خلقه إلاّ برجوع الأشیاء-و من جملتها الإنسان-الیه تعالی و ذلک کالحجر الهابط من السماء فإنه یعد بحرکته السقوط علی الأرض فإن حرکته سنخ أمر لا یتم إلاّ بالاقتراب التدریجی من الأرض و السقوط و الاستقرار علیها،و الأشیاء علی حال کدح الی ربها حتی تلاقیه،قال تعالی: یٰا أَیُّهَا الْإِنْسٰانُ إِنَّکَ کٰادِحٌ إِلیٰ رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاٰقِیهِ (الانشقاق/۶)فافهم ذلک.

قوله تعالی: إِنَّهُ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ لِیَجْزِیَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ بِالْقِسْطِ الخ؛تأکید لقوله: «إِلَیْهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً» و تفصیل لإجمال ما یتضمنه من معنی الرجوع و المعاد.

و يمكن أن يكون فى مقام التعليل لما تقدمه من قوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ» الخ؛أشير به الى حجتين من الحجج المستعمله فى القرآن لإثبات المعاد:أما قوله: «إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» فلأن الجارى من سنّه اللّه سبحانه أنه يفيض الوجود على ما يخلقه من شىء و يمده من رحمته بما تتم له به الخلقه فيوجد و يعيش و يتنعم برحمه منه تعالى ما دام موجودا حتى ينتهى الى اجل معدود.

و ليس انتهاؤه الى أجله المعدود المضروب له فناء منه و بطلانا للرحمه الإلهيه التى كان بها وجوده و بقاؤه و سائر ما يلحق بذلك من حياه و قدره و علم و نحو ذلك بل بقبضه تعالى ما بسطه عليه من الرحمه فإن ما أفاضه اللّه عليه من عنده هو وجهه تعالى و لن يهلك وجهه.

فنفاد وجود الأشياء و انتهائها الى أجلها ليس فناء منها و بطلانا لها على ما نتوهمه بل رجوعا و عودا منها الى عنده و قد كانت نزلت من عنده،و ما عند اللّه باق فلم يكن إلاّ بسطا ثم قبضا فاللّه سبحانه يبدأ الأشياء ببسط الرحمه،و يعيدها اليه بقبضها و هو المعاد الموعود.

و أما قوله: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ بِالْقِسْطِ الخ؛فإن الحجه فيه أن العدل و القسط الإلهى-و هو من صفات فعله-يأبى أن يستوى عنده من خضع له بالإيمان به و عمل صالحا و من استكبر عليه و كفر به و بآياته،و الطائفتان لا يحس بينهما بفرق فى الدنيا فإنما السيطره فيها للأسباب الكونيه بحسب ما تنفع و تضر بإذن اللّه.

فلا يبقى إلاّ أن يفرّق اللّه بينهما بعدله بعد إرجاعهما اليه فيجزى المؤمنين المحسنين جزاء حسنا و الكفار المسيئين جزاء سيئا من جهه ما يتلذذون به او يتألمون.

فالحجه معتمده على تمايز الفريقين بالإيمان و العمل الصالح و بالكفر و على قوله:

«بِالْقِسْطِ» هذا،و قوله: «لِيَجْزِيَ» متعلق بقوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» على ظاهر التقدير.

و يمكن أن يكون قوله: «لِيَجْزِيَ» الخ؛متعلقا بقوله: «ثُمَّ يُعِيدُهُ» و يكون الكلام مسوقا للتعليل و إشاره الى حجه واحده و هى الحجه الثانيه المذكوره،و الأقرب من جهه اللفظ هو

الأخیر.

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً الی آخر الآیه؛ الضیاء-علی ما قیل-مصدر ضاء یضوء ضوء و ضیاء کعاذ یعوذ عوذا و عواذا،و ربما کان جمع ضوء کسیاط جمع سوط،و اللفظ-علی ما قیل-علی تقدیر مضاف و الأصل جعل الشمس ذات ضیاء القمر ذا نور.

و کذلک قوله: وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ ای و قدّر القمر ذا منازل فی مسیره ینزل کل لیله منزلا من تلک المنازل غیر ما نزله فی اللیله السابقه فلا یزال یتباعد من الشمس حتی یوافیها من الجانب الآخر،و ذلک فی شهر قمریّ کامل فترتسم بذلک الشهور و ترتسم بالشهور السنون،و لذلک قال «لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَ الْحِسابَ» .

و قوله: یُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ من المحتمل أن یراد به التفصیل بحسب التکوین الخارجی او بحسب البیان اللفظی،و لعل الأول اقرب الی سیاق الآیه.

قوله تعالی: إِنَّ فِی اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ ما خَلَقَ اللّهُ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَّقُونَ قال فی المجمع:الاختلاف ذهاب کل واحد من الشیئین فی جهه غیر جهه الآخر فاختلاف اللیل و النهار ذهاب احدهما فی جهه الضیاء و الآخر فی جهه الظلام،انتهی.و الظاهر أنه مأخوذ من الخلف،و الأصل فی معناه أخذ أحد الشیئین الآخر فی جهه خلفه ثم اتسع فاستعمل فی کل تغایر کائن بین شیئین.

یقال:اختلفه ای جعله خلفه،و اختلف الناس فی کذا ضد اتفقوا فیه،و اختلف الناس الیه ای ترددوا بالدخول علیه و الخروج من عنده فجعل بعضهم بعضا خلفه.

و المراد باختلاف اللیل و النهار إما ورود کل منهما علی الأرض خلف الآخر و هو توالی اللیل و النهار الراسم للأسابیع و الشهور و السنین،و إما اختلاف کل من اللیل و النهار فی أغلب بقاع الارض المسکونه فاللیل و النهار یتساویان فی الاعتدال الربیعی ثم یأخذ النهار فی

الزیاده فی المناطق الشمالیه فیزید النهار کل یوم علی النهار السابق علیه حتی یبلغ اول الصیف فیأخذ فی النقیصه حتی یبلغ الاعتدال الخریفی و هو اول الخریف فیتساویان.

ثم یأخذ اللیل فی الزیاده علی النهار الی اول الشتاء و هو منتهی طول اللیالی ثم یعود راجعا الی التساوی حتی ینتهی الی الاعتدال الربیعی و هو اول الربیع هذا فی المناطق الشمالیه و الأمر فی المناطق الجنوبیه بالخلاف منه فکلما زاد النهار طولا فی احد الجانبین زاد اللیل طولا فی الجانب الآخر بنفس النسبه.

و الاختلاف الأول باللیل و النهار هو الذی یدبّر أمر اهل الارض بتسلیط حراره الأشعه ثم بسط برد الظلمه و نشر الریاح و بعث الناس للحرکه المعاشیه ثم جمعهم للسکن و الراحه، قال تعالی: وَ جَعَلْنا نَوْمَکُمْ سُباتاً وَ جَعَلْنَا اللَّیْلَ لِباساً وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (النبأ١١/).

و الاختلاف الثانی هو الذی یرسم الفصول الاربعه السنویه التی یدبّر بها أمر الأقوات و الأرزاق کما قال تعالی: وَ قَدَّرَ فِیها أَقْواتَها فِی أَرْبَعَهِ أَیّامٍ سَواءً لِلسّائِلِینَ (حم السجده١٠/).

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ لاٰ یَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَیاهِ الدُّنْیا وَ اطْمَأَنُّوا بِها الی آخر الآیتین.شروع فی بیان ما یتفرع علی الدعوه السابقه المذکوره بقوله: «ذٰلِکُمُ اللّهُ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ» من حیث عاقبه الأمر فی استجابته و ردّه و طاعته و معصیته.

فبدأ سبحانه بالکافرین بهذا الأمر فقال «إِنَّ الَّذِینَ لاٰ یَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَیاهِ الدُّنْیا وَ اطْمَأَنُّوا بِها وَ الَّذِینَ هُمْ عَنْ آیاتِنا غافِلُونَ» فوصفهم أولا بعدم رجائهم لقاءه،و هو الرجوع الی اللّه بالبعث یوم القیامه،و قد تقدم الکلام فی وجه تسمیته بلقاء اللّه فی مواضع من هذا الکتاب و منها ما فی تفسیر آیه الرؤیه من سوره الأعراف فهؤلاء هم المنکرون لیوم الجزاء، و بإنکاره یسقط الحساب و الجزاء فالوعد و الوعید و الأمر و النهی،و بسقوطها یبطل الوحی و النبوه و ما یتفرع علیه من الدین السماوی.

ص :۱۴

و بإنكار البعث و المعاد ينعطف همّ الانسان على الحياه الدنيا فان الانسان و كذا كل موجود ذى حياه له همّ فطرى ضرورى فى بقائه و طلب لسعاده تلك الحياه فان كان مؤمنا بحياه دائمه تسع الحياه الدنيويه و الاخرويه معا فهو،و إن لم يذعن إلاّ بهذه الحياه المحدوده الدنيويه علقت همّته الفطريه بها،و رضى بها و سكن بسببها عن طلب الآخره،و هو المراد بقوله: «وَ رَضُوا بِالْحَيَاهِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنُّوا بِهَا» .

و من هنا يظهر أن الوصف الثانى أعنى قوله: «وَ رَضُوا بِالْحَيَاهِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنُّوا بِهَا» من لوازم القول الأول أعنى قوله: «لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا» و هو بمنزله المفسر بالنسبه اليه،و أن الباء فى قوله: «اطْمَأَنُّوا بِهَا» للسببيه اى سكنوا بسببها عن طلب اللقاء و هو الآخر.

و قوله: وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ فى محل التفسير لما تقدمه من الوصف لمكان ما بينهما من التلازم فان نسيان الآخره و ذكر الدنيا لا ينفك عن الغفله عن آيات اللّه.

و قوله: أُولٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النّٰارُ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ لبيان لجزائهم بالنار الخالده قبال أعمالهم التى كسبوها.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمٰانِهِمْ الى آخر الآيه،هذا بيان لعاقبه أمر المؤمنين و ما يثيبهم اللّه على استجابتهم لدعوته و طاعتهم لأمره.

ذكر سبحانه أنه يهديهم بإيمانهم،و إما يهديهم الى ربهم لأن الكلام فى عاقبه أمر من يرجو لقاء اللّه،و قد قال تعالى: وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنٰابَ (الرعد/٢٧).فإنما يهدى الإيمان بإذن اللّه الى اللّه سبحانه و كلما اهتدى المؤمنون الى الحق او الى الصراط المستقيم او غير ذلك مما يشتمل عليه كلامه فإنما هى وسائل و مدارج تنتهى بالآخره اليه تعالى،قال تعالى: وَ أَنَّ إِلىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهىٰ (النجم/٤٢).

و قد وصف المؤمنين بالإيمان و الأعمال الصالحه ثم نسب هدايتهم اليه الى الإيمان وحده فإن

الإيمان هو الذى يصعد بالعبد الى مقام القرب،و ليس للعمل الصالح إلاّ اعانه الإيمان و إسعاده فى عمله كما قال تعالى: يَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجٰاتٍ (المجادله١١/)حيث ذكر للرفع الإيمان و العلم و سكت عن العمل الصالح،و أوضحه منه فى الدلاله قوله تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ» (فاطر١٠/).

هذا فى الهدايه التى هى شأن الإيمان،و أما نعم الجنه فإن للعمل الصالح دخلا فيها كما أن للعمل الطالح دخلا فى أنواع العذاب و قد ذكر تعالى فى المؤمنين قوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهٰارُ فِي جَنّٰاتِ النَّعِيمِ» كما ذكر فى الكافرين قوله: «أُولٰئِكَ مَأْوٰاهُمُ النّٰارُ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ» .

و ليتنبه الباحث المتدبّر أنه تعالى ذكر لهؤلاء المهتدين بإيمانهم من مسكن القرب جنات النعيم،و من نعيمها الأنهار التى تجرى من تحتهم فيها،و قد تقدّم فى تفسير قوله تعالى:

صِرٰاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (الحمد٧/)و قوله: فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ الآيه(النساء٦٩/)أن النعيم بحقيقه معناه فى القرآن الكريم هو الولايه الإلهيه،و قد خص اللّه أولياءه المقرّبين بنوع من شراب الجنه اعتنى به فى حقهم كما قال: إِنَّ الْأَبْرٰارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كٰانَ مِزٰاجُهٰا كٰافُوراً عَيْناً يَشْرَبُ بِهٰا عِبٰادُ اللّٰهِ يُفَجِّرُونَهٰا تَفْجِيراً (الإنسان٦/)،و قال أيضا إِنَّ الْأَبْرٰارَ لَفِي نَعِيمٍ -الى أن قال- يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ -الى أن قال- عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (المطفّفين٢٨/)،و عليك بالتدبّر فى الآيات و تطبيق بعضها على بعض حتى ينجلى لك بعض ما أودعه اللّه سبحانه فى كلامه من الأسرار اللطيفه.

قوله تعالى: دَعْوٰاهُمْ فِيهٰا سُبْحٰانَكَ اللّٰهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهٰا سَلاٰمٌ وَ آخِرُ دَعْوٰاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ أول ما يكرم به اللّه سبحانه أولياءه-و هم الذين ليس فى قلوبهم إلاّ اللّه و لا مدبّر لأمرهم غيره-أنه يطهّر قلوبهم عن محبه غيره فلا يحبون إلاّ اللّه فلا يتعلقون بشىء إلاّ اللّه و فى اللّه سبحانه فهم ينزهونه عن كل شريك يجذب قلوبهم الى نفسه عن ذكر اللّه سبحانه،و عن أى شاغل يشغلهم عن ربهم.

و هـذا تنزيه منهم لربهم عن كل ما لا يليق بساحه قدسه من شـريك فى الاسم او فى المعنى او نقص او عدم،و تسبيح منهم له لا فى القول و اللفظ فقط بل قولا و فعلا و لسانا و جنانا،و ما دون ذلك فإن له شوبا من الشرك،و قد قال تعالى: وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف۱۰۶/).

و هؤلاء الـذين طهّر اللّه قلوبهم عن قذاره حب غيره الشاغله عن ذكره و ملأها بحبه فلا يريدون إلاّ إياه و هو سبحانه الخير الذى لا شر معه قال: وَ اللّٰهُ خَيْرٌ (طه۷۳/).

فلا يواجهون بقلوبهم التى هى ملأى بالخير و السـلام أحـدا إلاّ بخير و سـلام اللهم إلاّ أن يكون الـذى واجهوه بقلوبهم هو الذى يبدّل الخير و السلام شرا و ضرا كما أن القرآن شفاء لمن استشفى به لكنه لا يزيد الظالمين إلاّ خسارا.

[سوره يونس (۱۰): الآيات ۱۱ الى ۱۴]

اشاره

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اَللّٰهُ لِلنّٰاسِ اَلشَّرَّ اِسْتِعْجٰالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ اَلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰاءَنٰا فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۱) وَ إِذٰا مَسَّ اَلْإِنْسٰانَ اَلضُّرُّ دَعٰانٰا لِجَنْبِهِ أَوْ قٰاعِداً أَوْ قٰائِماً فَلَمّٰا كَشَفْنٰا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنٰا إِلىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا اَلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمّٰا ظَلَمُوا وَ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ وَ مٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْقَوْمَ اَلْمُجْرِمِينَ (۱۳) ثُمَّ جَعَلْنٰاكُمْ خَلاٰئِفَ فِي اَلْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (۱۴)

ص: ۱۷

بيان:

قوله تعالى: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجٰالَهُمْ بِالْخَيْرِ الخ؛تعجيل الشـیء الإتيان به بسـرعه و عجله،و الاستعجال بالشیء طلب حصوله بسرعه و عجله، و العمه شده الحيره.

و معنى الآيه:و لو يعجّل اللّه للناس الشر و هو العذاب كما يستعجلون بالخير كالنعمه لأنزل عليهم العذاب بقضاء أجلهم لكنه تعالى لا يعجل لهم الشر فيذر هؤلاء المنكرين للمعاد المارقين عن ربقه الدين يتحيرون فی طغيانهم أشد التحيّر.

قوله تعالى: وَ إِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ الضُّرُّ دَعٰانٰا لِجَنْبِهِ أَوْ قٰاعِداً أَوْ قٰائِماً الى آخر الآيه.الضر بالضم ما يمس الانسان من الضرر فی نفسه،و قوله: «دَعٰانٰا لِجَنْبِهِ أَوْ قٰاعِداً أَوْ قٰائِماً» أی دعانا منبطحا لجنبه،الخ؛و الظاهر أن الترديد للتعميم أی دعانا علی أی حال من أحواله فرض من انبطاح او قعود او قيام مصرّا علی دعائه لا ينسانا فی حال،و يمكن أن يكون «لِجَنْبِهِ» الخ؛أحوالا ثلاثه من الانسان لا من فاعل دعانا و العامل فيه «مَسَّ» و المعنی اذا مسّ الانسان الضر و هو منبطح او قاعد او قائم دعانا فی تلك الحال و هذا معنی ما ورد فی بعض المرسلات «دَعٰانٰا لِجَنْبِهِ» العليل الذی لا يقدر أن يجلس «أَوْ قٰاعِداً» الذی لا يقدر أن يقوم «أَوْ قٰائِماً» الصحيح.

و قوله: مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنٰا إِلىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كنايه عن النسيان و الغفله عما كان لا يكاد ينساه.

و المعنی:و إذا مسّ الانسان الضر لم يزل يدعونا لكشف ضره و أصرّ علی الدعاء فإذا كشفنا عنه ضره الذی مسّه نسينا و ترك ذكرنا و انجذبت نفسه الی ما كان يتمتع به من أعماله كذلك زيّن للمسرفين المفرطين فی التمتع بالزخارف الدنيويه أعمالهم فأورثهم نسيان جانب

الربوبیه و الاعراض عن ذکر اللّه تعالی.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَهْلَکْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِکُمْ الی آخر الآیه؛قد ظهر معناه مما تقدم،و فی الآیه التفات فی قوله: «مِنْ قَبْلِکُمْ» من الغیبه الی الخطاب،و کأن النکته فیه التشدید فی الإنذار لأن الإنذار و التخویف بالمشافهه أوقع أثرا و أبلغ من غیره.

ثم فی قوله: کَذٰلِکَ نَجْزِی الْقَوْمَ الْمُجْرِمِینَ التفات آخر بتوجیه الخطاب الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و النکته فیه أنه إخبار عن السنّه الإلهیه فی أخذ المجرمین،و النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم هو الأهل لفهمه و الإذعان بصدقه دونهم و لو أذعنوا بصدقه لآمنوا به و لم یکفروا،و هذا بخلاف قوله:

«وَ لَقَدْ أَهْلَکْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِکُمْ...

وَ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ» فإنه خبر تاریخی لا ضیر فی تصدیقهم به.

قوله تعالی: ثُمَّ جَعَلْنٰاکُمْ خَلاٰئِفَ فِی الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ کَیْفَ تَعْمَلُونَ معناه ظاهر،و فیه بیان أن سنّه الامتحان و الابتلاء عامه جاریه.

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۱۵ الی ۲۵]

اشاره

وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِمْ آیٰاتُنٰا بَیِّنٰاتٍ قٰالَ اَلَّذِینَ لاٰ یَرْجُونَ لِقٰاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَیْرِ هٰذٰا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مٰا یَکُونُ لِی أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقٰاءِ نَفْسِی إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا یُوحیٰ إِلَیَّ إِنِّی أَخٰافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۱۵) قُلْ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا تَلَوْتُهُ عَلَیْکُمْ وَ لاٰ أَدْرٰاکُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِیکُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (۱۶) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَریٰ عَلَی اَللّٰهِ کَذِباً أَوْ کَذَّبَ بِآیٰاتِهِ إِنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ اَلْمُجْرِمُونَ (۱۷) وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ یَضُرُّهُمْ وَ لاٰ یَنْفَعُهُمْ وَ یَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اَللّٰهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اَللّٰهَ بِمٰا لاٰ یَعْلَمُ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِی اَلْأَرْضِ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یُشْرِکُونَ (۱۸) وَ مٰا کٰانَ اَلنّٰاسُ إِلاّٰ أُمَّهً وٰاحِدَهً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لاٰ کَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ فِیمٰا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (۱۹) وَ یَقُولُونَ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا اَلْغَیْبُ لِلّٰهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَکُمْ مِنَ اَلْمُنْتَظِرِینَ (۲۰) وَ إِذٰا أَذَقْنَا اَلنّٰاسَ رَحْمَهً مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُمْ إِذٰا لَهُمْ مَکْرٌ فِی آیٰاتِنٰا قُلِ اَللّٰهُ أَسْرَعُ مَکْراً إِنَّ رُسُلَنٰا یَکْتُبُونَ مٰا تَمْکُرُونَ (۲۱) هُوَ اَلَّذِی یُسَیِّرُکُمْ فِی اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ حَتّٰی إِذٰا کُنْتُمْ فِی اَلْفُلْکِ وَ جَرَیْنَ بِهِمْ بِرِیحٍ طَیِّبَهٍ وَ فَرِحُوا بِهٰا جٰاءَتْهٰا رِیحٌ عٰاصِفٌ وَ جٰاءَهُمُ اَلْمَوْجُ مِنْ کُلِّ مَکٰانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِیطَ بِهِمْ دَعَوُا اَللّٰهَ مُخْلِصِینَ لَهُ اَلدِّینَ لَئِنْ أَنْجَیْتَنٰا مِنْ هٰذِهِ لَنَکُونَنَّ مِنَ اَلشّٰاکِرِینَ (۲۲) فَلَمّٰا أَنْجٰاهُمْ إِذٰا هُمْ یَبْغُونَ فِی اَلْأَرْضِ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ إِنَّمٰا بَغْیُکُمْ عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ مَتٰاعَ اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا ثُمَّ إِلَیْنٰا مَرْجِعُکُمْ فَنُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۳) إِنَّمٰا مَثَلُ اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا کَمٰاءٍ أَنْزَلْنٰاهُ مِنَ اَلسَّمٰاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبٰاتُ اَلْأَرْضِ مِمّٰا یَأْکُلُ اَلنّٰاسُ وَ اَلْأَنْعٰامُ حَتّٰی إِذٰا أَخَذَتِ اَلْأَرْضُ زُخْرُفَهٰا وَ ازَّیَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهٰا أَنَّهُمْ قٰادِرُونَ عَلَیْهٰا أَتٰاهٰا أَمْرُنٰا لَیْلاً أَوْ نَهٰاراً فَجَعَلْنٰاهٰا حَصِیداً کَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ کَذٰلِکَ نُفَصِّلُ اَلْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۲۴) وَ اَللّٰهُ یَدْعُوا إِلیٰ دٰارِ اَلسَّلاٰمِ وَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۲۵)

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذا تُتْلی عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذا أَوْ بَدِّلْهُ هؤلاء المذكورون فی الآيه كانوا قوما و ثنيين يقدّسون الأصنام و يعبدونها،و من سننهم التوغل فی المظالم و الآثام و اقتراف المعاصی،و القرآن ينهی عن ذلک كله،و يدعو الی توحيد اللّه تعالی و رفض الشركاء،و عباده اللّه مع التنزه عن الظلم و الفسق و اتباع الشهوات.

و من المعلوم أن كتابا هذا شأنه اذا تليت آياته علی قوم ذلک شأنهم لم يكن ليوافق ما تهواه أنفسهم بما يشتمل عليه من الدعوه المخالفه فلو قالوا:ائت بقرآن غير هذا دلّ علی انهم يقترحون قرآنا لا يشتمل علی ما يشتمل عليه هذا القرآن من الدعوه الی رفض الشركاء و اتقاء الفحشاء و المنكر،و إن قالوا:بدّل القرآن كان مرادهم تبديل ما يخالف آراءهم من آياته الی ما يوافقها حتی يقع منهم موقع القبول،و ذلک كالشاعر ينشد من شعره او القاصّ يقصّ القصه فلا تستحسنه طباع السامعين فيقولون:ائت بغيره او بدّله،و فی ذلک تنزل القرآن أنزل مراتب الكلام و هو لهو الحديث الذی إنما يلقی لتلهو به نفس سامعه و تنشط به عواطفه ثم

لا يستطيبه السامع فيقول:ائت بغير هذا او بدّله.

فبذلك يظهر أن قولهم اذا تليت عليهم آيات القرآن: «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذٰا» يريدون به قرآنا لا يشتمل من المعارف على ما يتضمنه هذا القرآن بأن يترک هذا و يؤتى بذاک،و قولهم:

«أَوْ بَدِّلْهُ» أن يغيّر ما فيه من المعارف المخالفه لأهوائهم الى معان يوافقها مع حفظ أصله فهذا هو الفرق بين الإتيان بغيره و بين تبديله.

و فى قوله: وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا التفات من الخطاب الى الغيبه،و الظاهر أن النكته فيه أن يكون توطئه الى إلقاء الأمر الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بقوله: «قُلْ مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ» الخ؛فان ذلک لا يتم إلّا بصرف الخطاب عنهم و توجيه اليه صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: قُلْ مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقٰاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ الى آخر الآيه التلقاء،بكسر التاء مصدر كاللقاء نظير التبيان و البيان و يستعمل ظرفا.

و اللّه سبحانه على ما أجاب عن مقترحهم بقولهم: «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذٰا أَوْ بَدِّلْهُ» فى أثناء كلامه بقوله: «بَيِّنٰاتٍ» فإن الآيات إذا كانت بيّنات ظاهره الاستناد الى اللّه سبحانه كشفت كشفا قطعيّا عما يريده اللّه سبحانه منهم من رفض الأصنام و الاجتناب من كل ما لا يرتضيه بما أوحى الى رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم من تفصيل دينه؛ردّ سؤالهم اليهم تفصيلا بتلقين نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم الحجه فى ذلک بقوله: «قُلْ مٰا يَكُونُ لِي» الى آخر الآيات الثلاث.

فقوله: قُلْ مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ الخ؛جواب عن قولهم: أَوْ بَدِّلْهُ و معناه:قل لا أملک-و ليس لى بحق-أن أبدّله من عند نفسى لأنه ليس بكلامى و إنما هو وحى إلهيّ أمرنى ربى أن أتّبعه و لا أتّبع غيره،و إنما لا أخالف أمر ربى لأنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم و هو يوم لقائه.

فقوله: مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ نفى الحق و سلب الخيره،و قوله: إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ

مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ فى مقام التعليل بالنسبه الى قوله: مٰا يَكُونُ لِي و قوله: إِنِّي أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي الخ،فى مقام التعليل بالنسبه الى قوله: إِنْ أَتَّبِعُ الخ؛بما يلوح منه أنه مما تعلق به الأمر الإلهى.

و فى قوله: إِنِّي أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ نوع محاذاه لما فى صدر الكلام من قوله: قٰالَ الَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ الخ؛فإن الإتيان بالوصف للإشعار بأن الباعث لهم أن يقولوا ما قالوا إنما هو إنكارهم للمعاد و عدم رجائهم لقاء اللّه فقابلهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأمر من ربه بقوله: «إِنِّي أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» فيؤول المعنى الى أنكم تسألون ما تسألون لأنكم لا ترجون لقاء اللّه لكننى لا أشك فيه فلا يمكننى إجابتكم اليه لأنى أخاف عذاب يوم اللقاء،و هو يوم عظيم.

و فى تبديل يوم اللقاء بيوم عظيم فائده الإنذار مضافا الى أن العذاب لا يناسب اللقاء تلك المناسب.

قوله تعالى: قُلْ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لاٰ أَدْرٰاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ أدراكم به أى أعلمكم اللّه به،و العمر بضمتين أو بالفتح فالسكون هو البقاء،و إذا استعمل فى القسم كقولهم:لعمرى و لعمرك تعين الفتح.

و هذه الآيه تتضمن رد الشق الأول من سؤالهم و هو قولهم: «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذٰا» و معناها على ما يساعد عليه السياق:أن الأمر فيه الى مشيّه اللّه لا-الى مشيّتى فإنما أنا رسول و لو شاء اللّه أن ينزّل قرآنا غير هذا و لم يشأ هذا القرآن ما تلوته عليكم و لا أدراكم به فإنى مكثت فيكم عمرا من قبل نزول القرآن و عشت بينكم و عاشرتكم و عاشرتمونى و خالطتكم و خالطتمونى فوجدتمونى لا خبر عندى من وحى القرآن،و لو كان ذلك إلىّ و بيدى لبادرت اليه قبل ذلك،و بدت من ذلك آثار و لاحت لوائحه،فليس إلىّ من الأمر شىء،و إنما الأمر فى ذلك الى مشيّه اللّه و قد تعلّقت مشيّته بهذا القرآن لا غيره أ فلا تعقلون؟

قوله تعالى: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيٰاتِهِ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ استفهام إنكارى أى لا أحد أظلم و أشهد إجراما من هذين الفريقين:

المفترى على اللّه كذبا،و المكذب بآياته فان الظلم يعظم بعظمه من يتعلق به و اذا اختص بجنب اللّه كان أشد الظلم.

و ظاهر سياق الاحتجاج فى الآيتين أن هذه الآيه من تمامها و المعنى:لا أجيبكم الى ما اقترحتم علىّ من الإتيان بقرآن غير هذا او تبديله فإن ذلك ليس إلىّ و لا لى حقّ فيه،و لو أجبتكم اليه لكنت أظلم الناس و أشدهم إجراما و لا يفلح المجرمون فإنى لو بدّلت القرآن و غيّرت بعض مواضعه مما لا ترتضونه لكنت مفتريا على اللّه كذبا و لا أظلم منه،و لو تركت هذا القرآن و جئتكم بغيره مما ترتضونه لكنت مكذبا لآيات اللّه،و لا أظلم منه.

و ربما احتمل كون الاستفهام الإنكارى بشقّيه تعريضا للمشركين أى أنتم أظلم الناس بإثباتكم للّه شركاء و هو افتراء الكذب على اللّه و بتكذيبكم بنبوّتى و الآيات النازله علىّ و هو تكذيب بآيات اللّه و لا يفلح المجرمون.

قوله تعالى: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اللّٰهِ الى آخر الآيه،الكلام:موجّه نحو عبده الأصنام من المشركين و إن كان ربما شمل غيرهم كأهل الكتاب بحسب سعه معناه،و ذلك لمكان «مٰا» و كون السوره مكّيه من أوائل ما نزل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من القرآن.

و قد كانت عبده الأصنام و يعبدون الأصنام ليتقربوا بعبادتها الى أربابها و بأربابها الى رب الأرباب و هو اللّه سبحانه،و يقولون:إننا على ما بنا من ألواث البشريه الماديه و قذارات الذنوب و الآثام لا سبيل لنا الى رب الأرباب لطهاره ساحته و قدسها و لا نسبه بيننا و بينه.

فمن الواجب أن نتقرب اليه بأحب خلائقه اليه و هم أرباب الأصنام الذين فوّض اللّه اليهم أمر تدبير خلقه،و نتقرب اليهم بأصنامهم و تماثيلهم و إنما نعبد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند

اللّه لتجلب الينا الخير و تدفع عنا الشر فتقع العباده للأصنام حقيقه،و الشفاعه لأربابها و ربما نسبت إليها.

و قد وضع فى الكلام قوله: مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ موضع الأصنام للتلويح الى موضع خطئهم فى مزعمتهم،و هو أن هذا السعى إنما كان ينجح منهم لو كانت هذه الأصنام ضارّه نافعه فى الامور و كانت ذوات شعور بالعباده و التقرب حتى ترضى عن عبّادها بعبادتهم لها فتشفع او يشفع اربابها لهم عند اللّه إن كان اللّه يرتضى شفاعتهم و هؤلاء اجسام ميته لا تشعر بشىء و لا تضرّ و لا تنفع شيئا.

و قد أمر اللّه سبحانه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يحتج على بطلان دعواهم الشفاعه-مضافا الى ما يلوّح اليه قوله: لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ -بقوله: قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللّٰهَ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ و محصّله أن اللّه سبحانه لا علم له بهذه الشفعاء فى شىء من السماوات و الأرض فدعواكم هذه إخبار منكم إياه بما لا يعلم،و هو من أقبح الافتراء و أشنع المكابره،و كيف يكون فى الوجود شىء لا يعلم به اللّه و هو يعلم ما فى السماوات و الأرض؟

فالاستفهام إنكارى،و نفى العلم بوجود الشفعاء كنايه عن نفى وجودها،و لعل اختيار هذا التعبير لكون الشفاعه مما يتقوّم بالعلم ذاته فإن الشفاعه إنما تتحقق اذا كان المشفوع عنده عالما بوجود الشافع و شفاعته فإذا فرض أنه لا يعلم بالشفعاء فكيف تتحقق الشفاعه عنده و هو لا يعلم.

و قوله: سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ كلمه تنزيه،و هى من كلام اللّه و ليست مقوله قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فان ظرف المشركين بالنسبه اليه هو الخطاب دون الغيبه فلو كان من كلام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم لقيل:عما تشركون بالخطاب.

قوله تعالى: وَ مٰا كٰانَ النّٰاسُ إِلاّٰ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: كٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتٰابَ

بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّٰاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ (البقره۲۱۳/)أن الآيه تكشف عن نوعين من الاختلاف بين الناس.

أحدهما:الاختلاف من حيث المعاش و هو الذى يرجع الى الدعاوى و ينقسم به الناس الى مدّع و مدّعى عليه و ظالم و مظلوم و متعدّ و متعدّى عليه و آخذ بحقه و ضائع حقه،و هذا هو الذى رفعه اللّه سبحانه بوضع الدين و بعث النبيين و إنزال الكتاب معهم ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه،و يعلّمهم معارف الدين و يواجههم بالإنذار و التبشير.

و ثانيهما:الاختلاف فى نفس الدين و ما تضمنه الكتاب الإلهى من المعارف الحقه من الاصول و الفروع،و قد صرّح القرآن فى مواضع من آياته أن هذا النوع من الاختلاف ينتهى الى علماء الكتاب بغيا بينهم،و ليس مما يقتضيه طباع الإنسان كالقسم الأول،و بذلك ينقسم الطريق الى طريقى الهدايه و الضلال فهدى اللّه الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق،و قد ذكر سبحانه فى مواضع من كلامه بعد ذكر هذا القسم من الاختلاف أنه لو لا قضاء من اللّه سبق لحكم بينهم فيما اختلفوا فيه و لكن يؤخرهم الى أجل،قال تعالى وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (الشورى۱۴/)الى غير ذلك من الآيات.

و سياق الآيه السابقه أعنى قوله تعالى: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ الخ؛لا يناسب من الاختلافين المذكورين إلاّ الاختلاف الثانى و هو الاختلاف فى نفس الدين لأنها تذكر ركوب الناس طريق الضلال بعبادتهم ما لا يضرّهم و لا ينفعهم و اتخاذهم شفعاء عند اللّه،و مقتضى ذلك أن يكون المراد من كون الناس سابقا أمه واحده كونهم على دين واحد و هو دين التوحيد ثم اختلفوا فتفرقوا فريقين موحّد و مشرك.

فذكر اللّه فيها أن اختلافهم كان يقضى أن يحكم اللّه بينهم باظهار الحق على الباطل و فيه هلاك المبطلين و إنجاء المحقين لكن السابق من الكلمه الإلهيه منعت من القضاء بينهم،و الكلمه

هی قوله تعالی لما أهبط الإنسان الی الدنیا: وَ لَکُمْ فِی الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلیٰ حِینٍ (البقره۳۶/).

قوله تعالی: وَ یَقُولُونَ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَیْبُ لِلّٰهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَکُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِینَ الآیه؛کقوله قبلها: «وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ» و قوله قبله: «وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِمْ آیٰاتُنٰا» تعد أمورا من مظالم المشرکین فی أقوالهم و أعمالهم ثم ترد علیها بحجج تلقنها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لیقیمها علیهم کما مرّ فی أول الآیات فقوله: «وَ یَقُولُونَ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ» الخ؛عطف علی قول فی أول الآیات «وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِمْ آیٰاتُنٰا».

و فیها مع ذلک عود بعد عود الی إنکارهم أمر القرآن فإن مرادهم بقولهم: «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ» و إن کان طلب آیه أخری غیر القرآن لکنهم إنما قالوه إزراء و تحقیرا لأمر القرآن و استخفافا به لعدم عدّه آیه إلهیه و الدلیل علیه قوله تعالی: «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَیْبُ لِلّٰهِ» و لم یقل «قل»کما قال فی سائر الآیات کأنه یقول:و یطلبون منک آیه أخری غیر مکتفین بالقرآن و لا راضین به فإذا لم یکتفوا به آیه فقل:إنما الآیات من الغیب المختص باللّه و لیست بیدی فانتظروا إنی معکم من المنتظرین.

فهذا هو المستفاد من الآیه و فیها دلاله علی أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان ینتظر آیه فاصله بین الحق و الباطل غیر القرآن قاضیه بینه و بین أمته،و سیجیء الوعد الصریح منه بهذه الآیه-التی یأمر بانتظارها هاهنا-فی قوله: وَ إِمّٰا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِلَیْنٰا مَرْجِعُهُمْ (یونس۴۶/)الی تمام عده آیات.

قوله تعالی: وَ إِذٰا أَذَقْنَا النّٰاسَ رَحْمَهً مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُمْ إِذٰا لَهُمْ مَکْرٌ فِی آیٰاتِنٰا الی آخر الآیه؛مضمون الآیه و إن کان من المعانی العامه الجاریه فی أغلب الناس فی اکثر الأوقات فإن الفرد من الانسان لا یخلو عن أن یمسه سراء بعد ضراء بل قلما یتفق أن لا یتکرر فی حقه ذلک لکن الآیه من جهه السیاق المتقدم کأنها مسوقه للتعریض

للمشركين و مكرهم فى آيات اللّه،و الدليل عليه قوله: «قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً» فقد كان النظر معطوفا على مكر طائفه خاصه و هم المخاطبون بهذه الآيات حيث كانوا يمكرون بآيات السراء و الضراء بعد ظهورها،و من مكرهم مكرهم فى القرآن الذى هو آيه إلهيه و رحمه أذاقهم اللّه إياها بعد ضراء الجهاله العالقه بهم و شمول ضنك العيش و الذّله و التفرقه و تباعد القلوب و بغضائها لهم و هم يمكرون به فتاره يقولون «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذا أَوْ بَدِّلْهُ» و تاره يقولون «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ».

فالآيه تبين لهم أن هذا كله مكر يمكرونه فى آيات اللّه،و تبين لهم أن المكر بآيات اللّه لا يعقب إلّا السوء من غير أن ينفعهم شيئا فإن اللّه أسرع مكرا يأخذهم مكره قبل أن يأخذ مكرهم آياته فإن مكرهم بآيات اللّه عين مكر اللّه بهم.

فمعنى الآيه «وَ إِذٰا أَذَقْنَا النّٰاسَ» عبر عن الإصابه بالإذاقه للايماء الى التذاذهم بالرحمه و عنايه بالقله فإن الذوق يستعمل فى القليل من التغذى «رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُمْ» و التعبير بالرحمه فى موضع السراء للإشاره الى أنها من الرحمه الإلهيه من غير أن يستوجبوا ذلك فكان من الواجب عليهم أن يقوموا بحقه،و يخضعوا لما تدعو اليه الآيه و هو توحيد ربهم و شكر نعمته لكنهم يفاجئون بغير ذلك «إِذٰا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيٰاتِنٰا» كتوجيه الحوادث بما تبطل به دلاله الآيات كقولهم: «قَدْ مَسَّ آبٰاءَنَا الضَّرّٰاءُ وَ السَّرّٰاءُ» و الاعتذار بما لا يرتضيه اللّه كقولهم:

«لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ» و قولهم: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنٰا».

فأمر اللّه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم ان يجيبهم بقوله: «قُلِ اللّٰهُ أَسْرَعُ مَكْراً» ثم علله بقوله: «إِنَّ رُسُلَنٰا يَكْتُبُونَ مٰا تَمْكُرُونَ» فلنا عليكم شهداء رقباء أرسلناهم اليكم يكتبون اعمالكم و يحفظونها، و بمجرد ما عملتم عملا حفظ عليكم و تعيّن جزاؤه لكم قبل ان يؤثر مكركم اثره او لا يؤثر كما فسروه.

و هنا شيء و هو أن الظاهر من قوله تعالى: هٰذٰا كِتٰابُنٰا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنّٰا كُنّٰا

نَسْتَنْسِخُ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثيه۲۹/)على ما سيجىء من البيان فى تفسير الآيه ان شاء اللّه تعالى أن معنى كتابه الملائكه اعمال العباد هو اخراجهم الاعمال من كمون الاستعدادات الى مرحله الفعليه الخارجيه و رسم نفس الاعمال فى صحيفه الكون و بذلك تنجلى عليّه كتابه الرسل لأعمالهم لكونه تعالى اسرع مكر اتمام الانجلاء فان حقيقه المعنى على هذا:أنّا نحن نخرج اعمالكم التى تمكرون بها من داخل ذواتكم و نضعها فى الخارج فكيف يخفى علينا كونهم تريدون بنا المكر بذلك؟و هل المكر إلاّ صرف الغير عمّا يتصده بحيله و ستر عليه بل ذاك الذى تزعمونه مكرا بنا مكر منا بكم حيث نجعلكم تزعمونه مكرا و تقدمون على المكر بنا،و هذه المزعمه و الاقدام ضلال منكم و إضلال منا لكم جزاء بما كسبته ايديكم،و سيأتى نظير هذا المعنى فى قوله: يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنَّمٰا بَغْيُكُمْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ الآيه ۲۳ من السوره.

و فى الآيه التفات من الغيبه الى الخطاب فى قوله: إِنَّ رُسُلَنٰا يَكْتُبُونَ مٰا تَمْكُرُونَ على قراءه تمكرون بتاء الخطاب و هى القراءه المشهوره،و هو من عجيب الالتفات الواقع فى القرآن و لعل النكته فيه تمثيل معنى قوله: قُلِ اللّٰهُ أَسْرَعُ مَكْراً فى العين كأنه تعالى لمّا قال لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم «قُلِ اللّٰهُ أَسْرَعُ مَكْراً» اراد ان يوضحه لهم عيانا ففاجأهم بتجليه لهم دفعه فكلّمهم و أوضح لهم السبب فى كونه اسرع مكرا ثم حجبهم عن نفسه فعادوا الى غيبتهم و عاد الكلام الى حاله،و خوطب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ببقيه الخطاب «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ» الخ؛و هذا من لطيف الالتفات.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتّٰى إِذٰا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ الى آخر الآيه؛الفلك السفينه و تستعمل مفردا و جمعا،و المراد بها هاهنا الجمع بدليل قوله: وَ جَرَيْنَ بِهِمْ و الريح العاصف:الشديده الهبوب،و قوله: أُحِيطَ بِهِمْ كنايه عن الاشراف على الهلاك،و تقديره احاط بهم البلاء او الامواج،و الاشاره بقوله: «مِنْ هٰذِهِ» الى الشده.و معنى الآيه ظاهر.

و فیها من عجیب الالتفات الالتفات من الخطاب الی الغیبه فی قوله: وَ جَرَیْنَ بِهِمْ بِرِیحٍ طَیِّبَهٍ -الی قوله- بِغَیْرِ الْحَقِّ و لعل النکته فیه ارجاعهم الی الغیبه و توجیه الخطاب الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و وصف اعجب جزء من هذه القصه الموصوفه له لیسمعه و یتعجب منه،و یکون فیه مع ذلک اعراض عن الامر بمخاطبتهم لأنهم لا یفقهون القول.

قوله تعالی: فَلَمّٰا أَنْجٰاهُمْ إِذٰا هُمْ یَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ اصل البغی هو الطلب و یکثر استعماله فی مورد الظلم لکونه طلبا لحق الغیر بالتعدی علیه و یقیّد حینئذ بغیر الحق،و لو کان بمعنی الظلم محضا لکان القید زائدا.

و الجمله من تتمه الآیه السابقه،و المجموع اعنی قوله: هُوَ الَّذِی یُسَیِّرُکُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ -الی قوله- بِغَیْرِ الْحَقِّ بمنزله الشاهد و المثال بالنسبه الی عموم قوله قبله: «وَ إِذٰا أَذَقْنَا النّٰاسَ رَحْمَهً مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُمْ» الی آخر الآیه،او لخصوص قوله: قُلِ اللّٰهُ أَسْرَعُ مَکْراً و علی ای حال فقوله: یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنَّمٰا بَغْیُکُمْ عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ الخ؛مما یتوقف علیه تمام الغرض من الکلام فی الآیه السابقه و ان لم یکن من کلام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فافهم ذلک.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنَّمٰا بَغْیُکُمْ عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ مَتٰاعَ الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا ثُمَّ إِلَیْنٰا مَرْجِعُکُمْ الی آخر الآیه؛فی الکلام التفات من الغیبه الی الخطاب فقوله: «یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ» الخ؛خطاب منه تعالی للناس بلا واسطه،و لیس من کلام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم مما امره اللّه سبحانه ان یخاطب به الناس.

و الدلیل علی ذلک قوله تعالی: ثُمَّ إِلَیْنٰا مَرْجِعُکُمْ الی آخر الآیه؛فانه لا یصلح ان یکون من خطاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

و النکته فی هذا الالتفات هی نظیر النکته التی قدّمنا ذکرها فی قوله تعالی فی اول الکلام:

«إِنَّ رُسُلَنٰا یَکْتُبُونَ مٰا تَمْکُرُونَ» فکأنه سبحانه یفاجئهم بالاطلاع علیهم اثناء ما یخاطبهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و هم یحسبون ان ربهم غائب عنهم غافل عن نیّاتهم و مقاصدهم فی اعمالهم

ص:٣٠

فیشرف علیهم و یمثل بذلک کونه معهم فی جمیع احوالهم و احاطته بهم و یقول لهم:انا اقرب الیکم و الی اعمالکم منکم فما تعملونه من عمل تریدون به ان تبتغوا علینا و تمکروا بنا انما توجد بتقدیرنا و تجری بأیدینا فکیف یمکنکم ان تبغوا بها علینا؟بل هی بغی منکم علی انفسکم فانها تبعدکم منا و تکتب آثامها فی صحائف اعمالکم فبغیکم علی انفسکم و هو متاع الحیاه الدنیا تتمتعون به ایاما قلائل ثم الینا مرجعکم فنخبرکم و نوضح لکم هناک حقائق اعمالکم.

و قوله: مَتٰاعَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا بالنصب فی قراءه حفص عن عاصم و التقدیر:تتمتعون متاع الحیاه الدنیا،و بالرفع فی قراءه غیره و هو خبر لمبتدإ محذوف،و التقدیر هو ای بغیکم و عملکم متاع الحیاه الدنیا.

و علی کلتا القراءتین فقوله: «مَتٰاعَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا» الی آخر الآیه،تفصیل لإجمال قوله:

«إِنَّمٰا بَغْيُكُمْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ» فقوله: «مَتٰاعَ» الخ؛فی مقام التعلیل بالنسبه الی کون بغیهم علی انفسهم من قبیل تعلیل الاجمال بالتفصیل و بیانه به.

قوله تعالی: إِنَّمٰا مَثَلُ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا كَمٰاءٍ أَنْزَلْنٰاهُ مِنَ السَّمٰاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبٰاتُ الْأَرْضِ الی آخر الآیه؛لمّا ذکر سبحانه فی الآیه السابقه متاع الحیاه الدنیا مثّل له بهذا المثل یصف فیه من حقیقه امره ما یعتبر به المعتبرون،و هو من الاستعاده التمثیلیه و لیس من تشبیه المفرد بالمفرد من شیء و ان اوهم ذلک قوله: «كَمٰاءٍ أَنْزَلْنٰاهُ» ابتداء،و نظائره شائعه فی امثال القرآن،و الزخرف الزینه و البهجه،و قوله: «لَمْ تَغْنَ» من غنی فی المکان اذا اقام فیه فأطال المقام،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: وَ اللّٰهُ يَدْعُوا إِلىٰ دٰارِ السَّلاٰمِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ الدعاء و الدعوه عطف نظر المدعو الی ما یدعی الیه و جلب توجهه و هو اعم من النداء فان النداء یختص بباب اللفظ و الصوت،و الدعاء یکون باللفظ و الاشاره و غیرهما،

و النداء انما يكون بالجهر و لا يقيّد به الدعاء.

و الدعاء فى اللّه سبحانه تكوينى و هو ايجاد ما يريده لشىء كأنه يدعوه الى ما يريده،قال تعالى: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ (الإسراء۵۲/)اى يدعوكم الى الحياه الاخرويه فتستجيبون الى قبولها،و تشريعى و هو تكليف النامن بما يريده من دين بلسان آياته، و الدعاء من العبد لربه عطف رحمته و عنايته الى نفسه بنصب نفسه فى مقام العبوديه و المملوكيه،و لذا كانت العباده فى الحقيقه دعاء لأن العبد ينصب فيها نفسه فى مقام المملوكيه و الاتصال بمولاه بالتبعيه و الذله ليعطفه بمولويته و ربوبيته الى نفسه و هو الدعاء.

و الى ذلك يشير قوله تعالى: وَ قٰالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دٰاخِرِينَ (المؤمن ۶۰/)حيث عبّر اولا بالدعاء ثم بدّله ثانيا العباده.

[سوره يونس (۱۰): الآيات ۲۶ الى ۳۰]

اشاره

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا اَلْحُسْنىٰ وَ زِيٰادَةٌ وَ لاٰ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لاٰ ذِلَّةٌ أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّةِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (۲۶) وَ اَلَّذِينَ كَسَبُوا اَلسَّيِّئٰاتِ جَزٰاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهٰا وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مٰا لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ كَأَنَّمٰا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اَللَّيْلِ مُظْلِماً أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (۲۷) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكٰانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكٰاؤُكُمْ فَزَيَّلْنٰا بَيْنَهُمْ وَ قٰالَ شُرَكٰاؤُهُمْ مٰا كُنْتُمْ إِيّٰانٰا تَعْبُدُونَ (۲۸) فَكَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنّٰا عَنْ عِبٰادَتِكُمْ لَغٰافِلِينَ (۲۹) هُنٰالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مٰا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اَللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ اَلْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (۳۰)

ص: ۳۲

بيان:

قوله تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنىٰ وَ زِيٰادَةٌ وَ لاٰ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لاٰ ذِلَّةٌ الخ؛الحسنى مؤنّث أحسن و المراد المثوبه الحسنى،و المراد بالزياده الزياده على الاستحقاق بناء على أن اللّه جعل من فضله للعمل مثلا من الجزاء و الثواب ثم جعله حقا للعامل فى مثل قوله: لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (آل عمران١٩٩/)ثم ضاعفه و جعل المضاعف منه أيضا حقا للعامل كما فى قوله: مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا (الأنعام/ ١۶٠)و عند ذلك كان مفاد قوله: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنىٰ» استحقاقهم للجزاء و المثوبه الحسنى،و تكون الزياده هى الزياده على مقدار الاستحقاق من المثل أو العشره الأمثال نظير ما يفيده قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ (النساء١٧٣/).

و لو كان المراد بالحسنى فى قوله: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنىٰ» العاقبه الحسنى،و ليس فيما يعقل فوق الحسنى شيء كان معنى قوله: «وَ زِيٰادَةٌ» الزياده على ما يعقله الإنسان من الفضل الإلهى كما يشير اليه قوله: فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (الم السجده١٧/) و ما فى قوله: لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا وَ لَدَيْنٰا مَزِيدٌ (ق٣۵/)فإن من المعلوم أن كل أمر حسن يشاؤه الإنسان فالمزيد على ما يشاؤه أمر فوق ما يدركه فافهم ذلك.

و الرهق بفتحتين اللحوق و الغشيان يقال:رهقه الدّين أى لحق به و غشيه،و القتر الدخان الأسود أو الغبار الأسود،و فى توصيفهم بقوله: وَ لاٰ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لاٰ ذِلَّةٌ

محاذاه لما فی الآیه التالیه من وصف أهل النار بسواد وجوههم بالقتر و هو سواد صوری و الذله و هی سواد معنوی.

و المعنی:للذین أحسنوا فی الدنیا المثوبه الحسنی و زیاده من فضل اللّه-أو العاقبه الحسنی و زیاده لا تخطر ببالهم-و لا یغشی وجوههم سواد من قتر و لا ذله،و أولئک أصحاب الجنه هم فیها خالدون.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ کَسَبُوا السَّیِّئٰاتِ جَزٰاءُ سَیِّئَهٍ بِمِثْلِهٰا وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّهٌ الی آخر الآیه؛جمله «جَزٰاءُ سَیِّئَهٍ بِمِثْلِهٰا» مبتدأ لخبر محذوف و التقدیر:لهم جزاء سیّئه بمثلها من العذاب،و الجمله خبر للمبتدإ الذی هو قوله: «الَّذِینَ کَسَبُوا السَّیِّئٰاتِ» و المراد أن الذین کسبوا السیئات لا یجزون إلاّ مثل ما عملوه من العقوبات السیئه فجزاء فعله سیئه عقوبه سیئه.

و قوله: مٰا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ أی ما لهم عاصم یعصمهم من اللّه أی من عذابه و فیه نفی لشرکائهم الذین یظنونهم شفعاء علی وجه ینفی کل عاصم مانع سواء کان شریکا شفیعا أو ضدا قویا ممانعا أو أی عاصم غیرهما.

و قوله: کَأَنَّمٰا أُغْشِیَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّیْلِ مُظْلِماً القطع جمع قطعه و مظلما حال من اللیل،و المراد کأن اللیل المظلم قسّم الی قطع فاغشیت وجوههم تلک القطع فاسودّت بالتمام،و المتبادر منه أن یغشی وجه کل من المشرکین بقطعه من تلک القطع لا کما فسّره بعضهم أن المراد أن الوجوه أغشیت تلک القطع قطعه بعد قطعه فصارت ظلمات بعضها فوق بعض.فلیس فی الکلام ما یدل علی ذلک.

و قوله: أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ یدل علی دوام بقائهم فی النار للدلاله الصحابه و الخلود علیه کما أن نظیره فی أصحاب الجنه یدل علی نظیره.

قوله تعالی: وَ یَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِینَ أَشْرَکُوا مَکٰانَکُمْ أَنْتُمْ

وَ شُرَکٰاؤُکُمْ الی آخر الآیه؛المراد حشر جمیع من سبق ذکره من المؤمنین و المشرکین و شرکائهم فإنه تعالی یذکر المشرکین و شرکاءهم فی هذه الآیه و ما یتلوها ثم یشیر الی الجمیع بقوله فی الآیه التالیه: «هُنٰالِکَ تَبْلُوا کُلُّ نَفْسٍ مٰا أَسْلَفَتْ».

و قوله: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِینَ أَشْرَکُوا مَکٰانَکُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَکٰاؤُکُمْ أی الزموا مکانکم أنتم و لیلزم شرکاؤکم مکانهم و تفرع علی هذا الخطاب أن زیّلنا بینهم،و قطعنا الرابطه التی کانت تربطهم بشرکائهم و هی رابطه الوهم و الحسبان التی یتصلون بسببها بشرکائهم فانقطعوا عن شرکائهم و انقطع شرکاؤهم عنهم فبان أن عبادتهم لم تقع علیهم و لم تتعلق بهم لأنهم إنما عبدوا الشرکاء و هم لیسوا بشرکاء.

قوله تعالی: فَکَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً بَیْنَنٰا وَ بَیْنَکُمْ الی آخر الآیه؛ظهر معناه بما مرّ من التقریر،و الفاء فی قوله: «فَکَفیٰ بِاللّٰهِ» یفید التعلیل کقولنا:اعبد اللّه فهو ربک،و هو شائع فی الکلام.

قوله تعالی: هُنٰالِکَ تَبْلُوا کُلُّ نَفْسٍ مٰا أَسْلَفَتْ الی آخر الآیه؛البلاء الاختبار، و الاشاره بقوله: «هُنٰالِکَ» الی الموقف الذی ذکره بقوله: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِینَ أَشْرَکُوا مَکٰانَکُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَکٰاؤُکُمْ فَزَیَّلْنٰا بَیْنَهُمْ.

فذلک الموقف موقف تختبر و تمتحن کل نفس ما أسلفت و قدّمت من الأعمال فتنکشف لها حقیقه أعمالها و تشاهدها مشاهده عیان لا مجرد الذکر او البیان،و بمشاهده الحق من کل شیء عیانا ینکشف أن المولی الحقّ هو اللّه سبحانه،و تسقط و تنهدم جمیع الأوهام،و تضل جمیع الدعاوی التی یفتریها الانسان بأوهامه و أهوائه علی الحقّ.

فهذه الافتراءات و الدعاوی جمیعا إنما نشأت من حیث الروابط التی نضعها فی هذه الدنیا بین الأسباب و المسببات و الاستقلال و المولویه التی نعطیها الأسباب و لا إله إلاّ اللّه و لا مولی حقا إلاّ هو سبحانه فإذا انجلت حقیقه الأمر،و انکشف غیم الوهم و انهتک حجاب الدعاوی

ظهر أن لا مولى حقا إلّا هو سبحانه،و بطل جميع الآلهه التى إنما أثبتها الافتراء من الانسان، و سقطت و حبطت جميع الاعمال إلّا ما عبد به اللّه سبحانه عباده حقّ.

[سوره يونس (۱۰): الآيات ۳۱ الى ۳۶]

اشاره

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ اَلسَّمْعَ وَ اَلْأَبْصٰارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ اَلْحَيَّ مِنَ اَلْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ اَلْمَيِّتَ مِنَ اَلْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ اَلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اَللّٰهُ فَقُلْ أَ فَلاٰ تَتَّقُونَ (۳۱) فَذٰلِكُمُ اَللّٰهُ رَبُّكُمُ اَلْحَقُّ فَمٰا ذٰا بَعْدَ اَلْحَقِّ إِلاَّ اَلضَّلاٰلُ فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ (۳۲) كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَهُ رَبِّكَ عَلَى اَلَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۳۳) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكٰائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اَللّٰهُ يَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ (۳۴) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكٰائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى اَلْحَقِّ قُلِ اَللّٰهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى اَلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاٰ يَهِدِّي إِلاّٰ أَنْ يُهْدىٰ فَمٰا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۵) وَ مٰا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاّٰ ظَنًّا إِنَّ اَلظَّنَّ لاٰ يُغْنِي مِنَ اَلْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ بِمٰا يَفْعَلُونَ (۳۶)

ص: ۳۶

بیان:

قوله تعالی: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ الی آخر الآیه؛الرزق هو العطاء الجاری،و رزقه تعالی للعالم الانسانی من السماء هو نزول الامطار و الثلوج و نحوه،و من الارض هو بانباتها نباتها و تربیتها الحیوان و منهما یرتزق الانسان،و ببرکه هذه النعم الالهیه یبقی النوع الانسانی و المراد بملک السمع و الابصار کونه تعالی متصرفا فی الحواس الانسانیه التی بها ینتظم له انواع التمتع من الارزاق المختلفه التی اذن اللّه تعالی ان یتمتع بها فانما هو یشخص و یمیّز ما یریده مما لا یریده باعمال السمع و البصر و اللمس و الذوق و الشم فیتحرک نحو ما یریده،و یتوقف او یفر مما یکرهه بها.

فالحواس هی التی تتم بها فائده الرزق الالهی،و انما خص السمع و البصر من بینها بالذکر لظهور آثارهما فی الأعمال الحیویه اکثر من غیرهما،و اللّه سبحانه هو الذی یملکها و یتصرف فیهما بالاعطاء و المنع و الزیاده و النقیصه.

و قوله: وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ الحیاه بحسب النظر البادئ فی الانسان هی المبدأ الذی یظهر به العلم و القدره فی الشیء فیصدر اعماله عن العلم و القدره ما دامت الحیاه،و اذا بطلت بطل الصدور کذلک.

قوله تعالی: فَذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمٰا ذٰا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاٰلُ فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ الجمله الاولی نتیجه الحجه السابقه،و قد وصف الرب بالحق لیکون توضیحا لمفاد الحجه،و توطئه و تمهیدا لقوله بعده: «فَمٰا ذٰا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاٰلُ» .

و قوله: اَلْحَقُّ فَمٰا ذٰا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاٰلُ أخذ بلازم الحجه السابقه لاستنتاج أنهم ضالون فی عباده الاصنام فانه اذا کانت ربوبیته تعالی حقه فان الهدی فی اتباعه و عبادته فان الهدی مع الحق لا غیر فلا یبقی عند غیره الذی هو الباطل إلا

الضلال.

فتقدير الكلام:فما ذا بعد الحق الذى معه الهدى إلاّ الباطل الذى معه الضلال فحذف من كل من الطرفين شىء و أقيم الباقى مقامه ايجازا،و قيل:فما ذا بعد الحق إلاّ الضلال،و لذا قال بعضهم:ان فى الآيه احتباكا-و هو من المحسنات البديعيه-و هو أن يكون هناك متقابلان فيحذف من كل منهما شىء يدل عليه الآخر فان تقدير الكلام:فما ذا بعد الحق إلاّ الباطل؟ و ما ذا بعد الهدى إلاّ الضلال؟فحذف الباطل من الأول و الهدى من الثانى و بقى قوله:فما ذا بعد الحق إلاّ الضلال؟و الوجه هو الذى قدّمناه.

ثم تمم الآيه بقوله: فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ اى الى متى تصرفون عن الحق الذى معه الهدى الى الضلال الذى مع الباطل.

قوله تعالى: كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ ظاهر السياق ان الكلمه التى تكلم اللّه سبحانه بها على الفاسقين هى انهم لا يؤمنون اى أنه سبحانه قضى عليهم قضاء حتما و هو ان الفاسقين-و هم على فسقهم-لا يؤمنون و لا تنالهم الهدايه الالهيه الى الايمان،و قد قال تعالى: وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ (المائده۱۰۸/).

و على هذا فالاشاره بقوله: كَذٰلِكَ الى ما تحصل من الآيه السابقه:ان المشركين صرفوا عن الحق و فسقوا عنه فوقعوا فى الضلال اذ ليس بعد الحق إلاّ الضلال.

فمعنى قوله: كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الخ؛ان الكلمه الالهيه و القضاء الحتمى الذى قضى به فى الفاسقين-و هو أنهم لا يؤمنون-هكذا حقت و ثبتت فى الخارج و اخذت مصداقها و هو انهم خرجوا عن الحق فوقعوا فى الضلال اى إنا لم نقض عدم هدى الفاسقين و عدم إيمانهم ظلما و لا جزافا و انما قضينا ذلک لأنهم صرفوا عن الحق و فسقوا فوقعوا فى الضلال و لا واسطه بينهما فافهم ذلک.

ص :۳۸

و فی الآیه دلاله علی ان الامور الضروریه و الاحکام و القوانین البیّنه التی تجری فی النظام المشهود کقولنا:لا واسطه بین الحق و الباطل و لا بین الهدی و الضلال لها نوع استناد الی القضاء الالهی،و لیست ثابته فی ملکه تعالی من تلقاء نفسها.

قوله تعالی: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَکائِکُمْ مَنْ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ الی آخر الآیه؛تلقین للاحتجاج من جهه المبدإ و المعاد فان الذی یبدأ کل شیء ثم یعیده یستحق ان یعبده الانسان اتقاء من یوم لقائه لیأمن من ألیم عذابه و ینال عظیم ثوابه یوم المعاد.

و لما کان المشرکون-و هم المخاطبون بالحجه-غیر قائلین بالمعاد أمر تعالی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ان یتصدی جواب سؤاله بنفسه و قال «قُلِ اللّهُ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ فَأَنّی تُؤْفَکُونَ» و الی متی تصرفون عن الحق.

قوله تعالی: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَکائِکُمْ مَنْ یَهْدِی إِلَی الْحَقِّ قُلِ اللّهُ یَهْدِی لِلْحَقِّ الی آخر الآیه؛یهدی للحق و الی الحق بمعنی واحد فالهدایه تتعدی بکلتا الحرفین، و قد رود تعدیتها باللام فی مواضع کثیره من کلامه تعالی کقوله: أَ وَ لَمْ یَهْدِ لَهُمْ (الم السجده۲۶/)،و قوله: یَهْدِی لِلَّتِی هِیَ أَقْوَمُ (الإسراء۹/)الی غیر ذلک فما ذکره بعضهم من کون اللام فی قوله: «یَهْدِی لِلْحَقِّ» للتعلیل لیس بشیء.

لقّن سبحانه نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم هذه الحجه و هی ثالثه الحجج،و هی حجه عقلیه یعتمد علیها الخاصه من المؤمنین،و توضیحها ان من المرتکز فی الفطره الانسانیه و به یحکم عقله ان من الواجب علی الانسان ان یتّبع الحق حتی انه ان انحرف فی شیء من اعماله عن الحق و اتّبع غیره لغلط او شبهه او هوی فانما اتبعه لحسبانه ایاه حقا و التباس الأمر علیه،و لذا یعتذر عنه بما یحسبه حقا فالحق واجب الاتباع علی الاطلاق و من غیر قید او شرط.

و الهادی الی الحق واجب اتباعه لما عنده من الحق،و من الواجب ترجیحه علی من لا

یهدی الیه او یهدی الی غیره لأن اتباع الهادی الی الحق اتباع لنفس الحق الذی معه وجوب اتباعه ضروری (۱).

و قوله فی ذیل الآیه: فَمٰا لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ استفهام للتعجیب استغرابا لحکمهم باتباع شرکائهم مع حکم العقل الصریح بعدم جواز اتّباع من لا یهتدی و لا یهدی الی الحق.

قوله تعالی: وَ مٰا یَتَّبِعُ أَکْثَرُهُمْ إِلاّٰ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاٰ یُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَیْئاً أغنی یغنی یتعدّی بمن و عن کلتیهما و قد جاء فی الکلام الإلهی بکل من الوجهین فعدیّ بمن کما فی الآیه،و بعن کما فی قوله: مٰا أَغْنیٰ عَنِّی مٰالِیَهْ (الحاقه۲۹/).

و إنما نسب اتّباع الظن الی أکثرهم لأن الأقل منهم و هم أئمه الضلال علی یقین من الحق،و لم یؤثروا علیه الباطل و یدعو الیه إلاّ بغیا کما قال تعالی: وَ مَا اخْتَلَفَ فِیهِ إِلاَّ الَّذِینَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَیِّنٰاتُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ (البقره۲۱۳/).و أما الأکثرون فإنما اتّبعوا آباءهم تقلیدا لهم لحسن ظنهم بهم.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ عَلِیمٌ بِمٰا یَفْعَلُونَ تعلیل لقوله: «وَ مٰا یَتَّبِعُ أَکْثَرُهُمْ إِلاّٰ ظَنًّا» و المعنی أن اللّه علیم بما یأتونه من الأعمال یعلم أنها اتّباع للظن.

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۳۷ الی ۴۵]

اشاره

وَ مٰا کٰانَ هٰذَا اَلْقُرْآنُ أَنْ یُفْتَریٰ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ لٰکِنْ تَصْدِیقَ اَلَّذِی بَیْنَ یَدَیْهِ وَ تَفْصِیلَ اَلْکِتٰابِ لاٰ رَیْبَ فِیهِ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۳۷) أَمْ یَقُولُونَ اِفْتَرٰاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَهٍ مِثْلِهِ وَ اُدْعُوا مَنِ اِسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۳۸) بَلْ کَذَّبُوا بِمٰا لَمْ یُحِیطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمّٰا یَأْتِهِمْ تَأْوِیلُهُ کَذٰلِکَ کَذَّبَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ اَلظّٰالِمِینَ (۳۹) وَ مِنْهُمْ مَنْ یُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لاٰ یُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّکَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِینَ (۴۰) وَ إِنْ کَذَّبُوکَ فَقُلْ لِی عَمَلِی وَ لَکُمْ عَمَلُکُمْ أَنْتُمْ بَرِیئُونَ مِمّٰا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِیءٌ مِمّٰا تَعْمَلُونَ (۴۱) وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْتَمِعُونَ إِلَیْکَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ وَ لَوْ کٰانُوا لاٰ یَعْقِلُونَ (۴۲) وَ مِنْهُمْ مَنْ یَنْظُرُ إِلَیْکَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِی اَلْعُمْیَ وَ لَوْ کٰانُوا لاٰ یُبْصِرُونَ (۴۳) إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَظْلِمُ اَلنّٰاسَ شَیْئاً وَ لٰکِنَّ اَلنّٰاسَ أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۴۴) وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ کَأَنْ لَمْ یَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَهً مِنَ اَلنَّهٰارِ یَتَعٰارَفُونَ بَیْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِلِقٰاءِ اَللّٰهِ وَ مٰا کٰانُوا مُهْتَدِینَ (۴۵)

۱- ۱) .یونس ۳۱-۳۶:بحث فی احتجاج القرآن علی المشرکین و آلهتهم؛معنی الهدایه؛ان لیس من شرکاء المشرکین من یهدی الی الحق و ان اللّه سبحانه یهدی الی الحق.

بيان:

قوله تعالى: وَ مٰا كٰانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ اللّٰهِ الى آخر الآيه؛ قد تقدمت الاشاره الى ان نفى صفه او معنى بنفى الكون يفيد نفى الشأن و الاستعداد،و هو أبلغ

من نفيه نفسه ففرق بين قولنا:ما كان زيد ليقوم،و قولنا:لم قم او ما قام زيد إذ الاول يدل على أن القيام لم يكن من شأن زيد و لا استعد له استعداد،و الثانى ينفى القيام عنه فحسب،و فى القرآن منه شىء كثير كقوله: فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ (يونس٧۴/)، و قوله: مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَ لاَ الْإِيمَانُ (الشورى۵٣/)،و قوله: وَ مَا كَانَ اللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ (العنكبوت۴٠/).

فقوله: «وَ مَا كَانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ اللّٰهِ» نفى لشأنيه الافتراء عن القرآن كما قيل و هو أبلغ من نفى فعليته،و المعنى ليس من شأن هذا القرآن و لا فى صلاحيته أن يكون افتراء من دون اللّه يفتريه على اللّه سبحانه.

و قوله: وَ لٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ اى تصديقا لما هو حاضر منزل من الكتاب و هو التوراه و الإنجيل كما حكى عن المسيح قوله: يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاهِ (الصف۶/)،و إنما وصفهما بما بين يديه مع تقدمهما لأن هناك كتابا غير الكتابين ككتاب نوح و كتاب ابراهيم عليهما السّلام فاذا لوحظ تقدم جميعها عليه كان الاقرب منها زمانا اليه و هو التوراه و الانجيل موصوفا بأنه بين يديه.

و ربما قيل:إن المراد بما بين يديه هو ما يستقبل نزوله من الامور كالبعث و النشور و الحساب و الجزاء،و ليس بشىء.

و قوله: وَ تَفْصِيلَ الْكِتَابِ عطف على «تَصْدِيقَ» و المراد بالكتاب بدلاله من السياق جنس الكتاب السماوى النازل من عند اللّه سبحانه على انبيائه،و التفصيل إيجاد الفصل بين أجزائها المندمجه بعضها فى بعض المنطويه جانب منها فى آخر بالإيضاح و الشرح.

و فيه دلاله على أن الدين الإلهى المنزل على أنبيائه عليهم السّلام واحد لا اختلاف فيه إلاّ بالإجمال و التفصيل،و القرآن يفصّل ما أجمله غيره كما قال تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلاٰمُ

ص :۴٢

(آل عمران١٩/).

و أن القرآن الكريم مفصّل لما أجمله الكتب السماويه السابقه مهيمن عليها جميعا كما قال تعالى: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ (المائده٤٨/).و قوله: لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ اى لا ريب فيه هو من رب العالمين،و الجمله الثانيه كالتعليل للولى.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَهٍ مِثْلِهِ الى آخر الآيه،أم منقطعه و المعنى بل يقولون افتراه،و الضمير للقرآن،و اتصاف السوره بكونها مثل القرآن شاهد على أن القرآن يصدق على الكثير منه و القليل.

و المعنى قل للذين يقولون افتراه:إن كنتم صادقين فى دعواكم فأتوا بسوره مثل هذا القرآن المفترى و ادعوا كل من استطعتم من دون اللّه مستمدين مستظهرين فانه لو كان كلاما مفترى كان كلاما بشريا و جاز او يؤتى بمثله و فى ذلك تحدّ ظاهر بسوره واحده من سور القرآن طويله كانت او قصيره (١).

قوله تعالى: بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ الى آخر الآيه؛الآيه تبين وجه الحقيقه فى عدم إيمانهم به و قولهم إنه افتراء و هو أنهم كذّبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذّبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذّبوا بالقرآن الذى لم يحيطوا بعلمه ففيه معارف حقيقه من قبيل العلوم الواقعيه لا يسعها علمهم،و لم يأتهم تأويله بعد أى تأويل ذاك الذى كذّبوا به حتى يضطرهم الى تصديقه.

هذا ما يقتضيه السياق من المعنى فقوله: وَ لَمّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ يشير الى يوم القيامه كما يؤيده قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ

١- ١) .يونس ٣٧-٤٥:بحث فى تحدى القرآن.

قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِی کُنّا نَعْمَلُ (الأعراف/۵۳).

قوله تعالی: وَ مِنْهُمْ مَنْ یُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لا یُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّکَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِینَ قسّمهم قسمین من یؤمن بالقرآن و من لا یؤمن به ثم کنّی عمن لا یؤمن به أنهم مفسدون فتحصل من ذلک ان الذین یکذّبون بما فی القرآن انما کذّبوا به لأنهم مفسدون.

فالآیه لبیان حالهم الذی هم علیه من ایمان البعض و کفر البعض و أن الکفر ناش من رذیله الإفساد.

قوله تعالی: وَ إِنْ کَذَّبُوکَ فَقُلْ لِی عَمَلِی وَ لَکُمْ عَمَلُکُمْ الی آخر الآیه؛تلقین للتبرّی علی تقدیر تکذیبهم له،و هو من مراتب الانتصار لحق ممن انتهض لاحیائه فالطریق هو حمل الناس علیه ان حملوا و إلاّ فالتبرّی منهم لئلا یحملوه علی باطلهم.

و قوله: أَنْتُمْ بَرِیئُونَ مِمّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِیءٌ مِمّا تَعْمَلُونَ تفسیر لقوله: «لِی عَمَلِی وَ لَکُمْ عَمَلُکُمْ» .

قوله تعالی: وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْتَمِعُونَ إِلَیْکَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ کانُوا لا یَعْقِلُونَ الاستفهام للإنکار،و قوله: «وَ لَوْ کانُوا لا یَعْقِلُونَ» قرینه علی ان المراد بنفی السمع نفی ما یقارنه من تعقّل ما یدل علیه الکلام المسموع و هو المسمّی بسمع القلب.

و المعنی:و منهم الذین یستمعون الیک و هم صمّ لا سمع لقلوبهم،و لست انت قادرا علی إسماعهم و لا سمع لهم.

قوله تعالی: وَ مِنْهُمْ مَنْ یَنْظُرُ إِلَیْکَ الی آخر الآیه.الکلام فیها نظیر الکلام فی سابقتها.

قوله تعالی: إِنَّ اللّهَ لا یَظْلِمُ النّاسَ شَیْئاً وَ لکِنَّ النّاسَ أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ مسوق للاشاره الی ان ما ابتلی به هؤلاء المحرومون من السمع و البصر من جهه الصمم و العمی

من آثار ظلمهم انفسهم من غير ان يكون اللّه تعالى ظلمهم بسلب السمع و البصر عنهم فانهم انما أوتوا من قبل أنفسهم.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ الخ؛ظاهر الآيه ان يكون «يَوْمَ» ظرفا متعلقا بقوله: «قَدْ خَسِرَ» الخ؛و قوله: «كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّ ساعَةً» الخ؛حالا من ضمير الجمع فى «يَحْشُرُهُمْ» و قوله: «يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ» حالا ثانيا مبينا للحال الاول.

و المعنى قد خسر الذين كذّبوا بلقاء اللّه فى يوم يحشرهم اليه حالكونهم يستقلون هذه الحياه الدنيا فيعدّونها كمكث ساعه من النهار و هم يتعارفون بينهم من غير ان ينكر بعضهم بعضا او ينساه.

[سوره يونس (١٠): الآيات ۴۶ الى ۵۶]

اشاره

وَ إِمّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ اَلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اَللّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (۴۶) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۴۷) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا اَلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۸) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لا نَفْعاً إِلاّ ما شاءَ اَللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (۴۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ اَلْمُجْرِمُونَ (۵۰) أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۵۱) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ اَلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۵۲) وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۵۳) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي اَلْأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا اَلنَّدامَةَ لَمّا رَأَوُا اَلْعَذابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۵۴) أَلا إِنَّ لِلّهِ ما فِي اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اَللّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۵۵) هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۵۶)

بیان:

قوله تعالی: وَ إِمّٰا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِلَیْنٰا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّٰهُ شَهِیدٌ عَلیٰ مٰا یَفْعَلُونَ إما نرینّک أصله:إن نرک،زید علیه ما و النون الثقیله للتأکید،و التردید بین الإراده و التوفّی للتسویه و استیعاب التقادیر،و المعنی الینا مرجعهم علی ای تقدیر،و لفظه ثم للتراخی بحسب ترتیب الکلام دون الزمان و الآیه مسوقه لتطییب نفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و لتکون کالتوطئه لحدیث قضاء العذاب الذی ستفصله الآیات التالیه لهذه الآیه.

و المعنی طب نفسا فإنا موقعون بهم ما نعدهم سواء أریناک بعض ذاک او توفّیناک قبل أن نریک ذاک فإن أمرهم الینا و نحن شاهدون لأفعالهم المستوجبه للعذاب لا تغیب عنّا و لا ننساها.

ص :۴۶

و الالتفات من قوله: «نُرِيَنَّكَ» الى قوله: «ثُمَّ اللّٰهُ شَهِيدٌ» للدلاله على علّه الحكم فإن اللّه سبحانه شهيد على كل فعل بمقتضى ألوهيته.

قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ قضاء إلهىّ منحلّ الى قضاءين أحدهما:أن لكل أمه من الامم رسولا يحمل رساله اللّه اليهم و يبلّغها إياهم،و ثانيهما:أنه اذا جاءهم و بلّغهم رسالته فاختلفوا من مصدّق له و مكذّب فإن اللّه يقضى و يحكم بينهم بالقسط و العدل من غير أن يظلمهم.هذا ما يعطيه سياق الكلام من المعنى.

و منه يظهر أن قوله: «فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ» فيه إيجاز بالحذف و الإضمار و التقدير:

فإذا جاء رسولهم اليهم و بلّغ الرساله فاختلف قومه بالتكذيب و التصديق،و يدل على ذلك قوله: «قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ» فإن القضاء إنما يكون فيما اختلف فيه،و لذا كان السؤال عن القسط و عدم الظلم فى القضاء فى مورد العذاب و الضرار أسبق الى الذهن.

قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ سؤال منهم عن وقت هذا القضاء الموعود،و هو القضاء بينهم فى الدنيا،و السائلون هم بعض المشركين من معاصرى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و الدليل عليه أمره أن يجيبهم بقوله: «قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ» الخ؛فقول بعضهم:إن السؤال عن عذاب يوم القيامه او إن السائلين بعض المشركين من الامم السابقه لا يلتفت اليه.

قوله تعالى: قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ الى آخر الآيه؛لما كان قولهم: «مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ» فى معنى قولنا:أىّ وقت يفى ربك بما وعدك او يأتى بما أوعدنا به أنه يقضى بيننا و بينك فيهلكنا و ينجيك و المؤمنين بك فيصفو لكم الجو و يكون لكم الأرض و تخلصون من شرّنا؟فهلا عجّل لكم

ذلك-و ذلك أن كلامهم مسوق سوق الاستعجال تعجيزا و استهزاء كما تدل على استعجالهم الآيات التاليه و هذا نظير قولهم: لَوْ مٰا تَأْتِينٰا بِالْمَلاٰئِكَهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ (الحجر/ ٧).

لكّن سبحانه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يبدأهم فى الجواب ببيان أنه لا يملك لنفسه ضرّا حتى يدفعه عنها و لا نفعا حتى يجلبه إليها و يستعجل ذلك إلاّ ما شاء اللّه أن يملكه من ضرّ و نفع فالأمر الى اللّه سبحانه جميعا،و اقتراحهم عليه بأن يعجّل لهم القضاء و العذاب من الجهل.

قوله تعالى: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُهُ بَيٰاتاً أَوْ نَهٰاراً مٰا ذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ الى آخر الآيتين،البيات و التبييت الإتيان ليلا و يغلب فى الشر كقصد العدو عدوه ليلا.

و لما كان قولهم: «مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ» فى معنى استعجال آيه العذاب التى يلجئهم الى الإيمان رجع بعد بيان تحقق الوقوع الى توبيخهم و ذمهم من الجهتين فوبّخهم أوّلا على استعجالهم بالعذاب،و هو عذاب فجائىّ من الحزم أن يكون الإنسان منه على حذر لا أن يستعجل فيه فقال تعالى ملقّنا لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم «قُلْ أَ رَأَيْتُمْ» و أخبرونى «إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُهُ بَيٰاتاً» ليلا- «أَوْ نَهٰاراً» فإنه عذاب لا يأتيكم إلاّ بغته إذ لستم تعلمون وقت نزوله «مٰا ذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ» من العذاب «الْمُجْرِمُونَ» أى ما ذا يستعجلون منه و أنتم مجرمون لا يتخطاكم اذا أتاكم.

ففى قوله: «مٰا ذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ» التفات من الخطاب الى الغيبه و كأنّ النكته فيه رعايه حالهم أن لا يشافهوا بصريح الشر و ليكون تعرضا لملاك نزول العذاب عليهم و هو إجرامهم.

و وبّخهم ثانيا على تأخير إيمانهم الى حين لا ينفعهم الإيمان فيه و هو حين نزول العذاب فإنه آيه العذاب يلجئهم الى الإيمان على ما هو المجرب من إيمان الإنسان عند إشراف الهلكه،

و من جهه أخرى الإيمان توبه و التوبه غير مقبوله عند ظهور آيه العذاب و الإشراف على الموت.

فقال تعالى أَ ثُمَّ إِذٰا مٰا وَقَعَ العـذاب «آمَنْتُمْ بِهِ» أى بالقرآن او بالـدين أو باللّه «آلْآنَ» أى أ تؤمنون به فى هـذا الآن و الوقت «وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ» و كان معنى استعجالهم عدم الاعتناء بشأن هذا العذاب و تحقيره بالاستهزاء به.

قوله تعالى: ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذٰابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ الأشـبه أن تكون الآيه متصـله بقوله تعالى: «لِكُلِّ أُمَّهٍ أَجَلٌ» الـخ؛فتكون الآـيه الاـولى تبين تحقق وقوع العـذاب عليهم و إهلاـكه إياهم،و الآيه الثانيه تبين أنه يقال لهم بعد الوقـوع و الهلاـك:ذوقـوا عـذاب الخلـد و هـو عـذاب الآـخره و لاـ تجزون إلاّـ أعمـالكم الـتى كنتم تكسـبونها و ذنـوبكم الـتى تحملونهـا،و الخطـاب تكوينى كنّى به عن شـمول العـذاب لهم و نيله إيـاهم،و على هـذا المعنى فالآيتان «قُلْ أَ رَأَيْتُمْ -الى قوله- تَسْتَعْجِلُونَ» واردتان مورد الاعتراض.

قوله تعالى: وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ الى آخر الآيه؛يستنبئونك أى يستخبرونك،و قوله: «أَ حَقٌّ هُوَ» بيان له، و الضمير على ما يفيده السياق راجع الى القضاء أو العذاب،و المآل واحد،و قد أمر سبحانه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يؤكد القول فى إثباته من جميع جهاته،و بعباره أخرى أن يجيبهم بوجود المقتضى و عدم المانع.

فقوله: «قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ» إثبات لتحققه و قد أكد الكلام القسم و الجمله الاسميه و إن و اللام،و قوله: «وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» بيان أنه لا مانع هناك يمنع من حلول العذاب بكم.

قوله تعـالى: وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مٰا فِي الْأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ الى آخر الآـيه،إشـاره الى شـده العـذاب و أهميه التخلص منه عندهم،و إسرار الندامه إخفاؤها

و کتمانها خشیه الشماته و نحوها،و الظاهر أنّ المراد بالقضاء و العذاب فی الآیه هو القضاء و العذاب الدنیویان لا غیر.

قوله تعالی: أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ أَلاٰ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ الآیه و ما بعدها بیان برهانی علی حقّیّه ما ذکره من کونه حقا واقعا لا یمنع عنه مانع فإنّ کل شیء مما فی السماوات و الأرض اذا کان مملوکا للّه وحده لا شریک له کان کل تصرف مفروض فیها الیه تعالی،و لم یکن لغیره شیء من التصرف إلّا بإذنه فإذا تصرف فی شیء کان مستندا الی إرادته فقط من غیر أن یستند الی مقتض آخر خارج یتصرف فی ذاته المقدسه فیحمله علی الفعل،أو یتقید بعدم مانع خارجی اذا وجد تصرف فیه سبحانه بمنعه عن الفعل،فهو تعالی یفعل ما یفعل عن نفسه من غیر أن یرتبط الی مقتض من خارج أو مانع من خارج فإذا أراد سبحانه شیئا فعله من غیر ممدّ او عائق،و اذا وعد وعدا کان حقا لا مردّ له من غیر ان یتغیر عن وعده بصارف (۱).

قوله تعالی: هُوَ یُحیِی وَ یُمِیتُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ احتجاج علی ما تقدم فی الآیه السابقه من ملکه تعالی بالنسبه الی نوع الإنسان کأنه تعالی یقول:إن أمرکم جمیعا من حیاه و موت و رجوع الیه تعالی فکیف لا تکونون ملکا له.

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۵۷ الی ۷۰]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ قَدْ جٰاءَتْکُمْ مَوْعِظَهٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ شِفٰاءٌ لِمٰا فِی اَلصُّدُورِ وَ هُدیً وَ رَحْمَهٌ لِلْمُؤْمِنِینَ (۵۷) قُلْ بِفَضْلِ اَللّٰهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِکَ فَلْیَفْرَحُوا هُوَ خَیْرٌ مِمّٰا یَجْمَعُونَ (۵۸) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ لَکُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرٰاماً وَ حَلاٰلاً قُلْ آللّٰهُ أَذِنَ لَکُمْ أَمْ عَلَی اَللّٰهِ تَفْتَرُونَ (۵۹) وَ مٰا ظَنُّ اَلَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اَللّٰهِ اَلْکَذِبَ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ إِنَّ اَللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی اَلنّٰاسِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَشْکُرُونَ (۶۰) وَ مٰا تَکُونُ فِی شَأْنٍ وَ مٰا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لاٰ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّٰ کُنّٰا عَلَیْکُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِیضُونَ فِیهِ وَ مٰا یَعْزُبُ عَنْ رَبِّکَ مِنْ مِثْقٰالِ ذَرَّهٍ فِی اَلْأَرْضِ وَ لاٰ فِی اَلسَّمٰاءِ وَ لاٰ أَصْغَرَ مِنْ ذٰلِکَ وَ لاٰ أَکْبَرَ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ مُبِینٍ (۶۱) أَلاٰ إِنَّ أَوْلِیٰاءَ اَللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ (۶۲) اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ (۶۳) لَهُمُ اَلْبُشْریٰ فِی اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ فِی اَلْآخِرَهِ لاٰ تَبْدِیلَ لِکَلِمٰاتِ اَللّٰهِ ذٰلِکَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِیمُ (۶۴) وَ لاٰ یَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ إِنَّ اَلْعِزَّهَ لِلّٰهِ جَمِیعاً هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۶۵) أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مَنْ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی اَلْأَرْضِ وَ مٰا یَتَّبِعُ اَلَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ شُرَکٰاءَ إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاّٰ یَخْرُصُونَ (۶۶) هُوَ اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اَللَّیْلَ لِتَسْکُنُوا فِیهِ وَ اَلنَّهٰارَ مُبْصِراً إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَسْمَعُونَ (۶۷) قٰالُوا اِتَّخَذَ اَللّٰهُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ هُوَ اَلْغَنِیُّ لَهُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ إِنْ عِنْدَکُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ بِهٰذٰا أَ تَقُولُونَ عَلَی اَللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (۶۸) قُلْ إِنَّ اَلَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اَللّٰهِ اَلْکَذِبَ لاٰ یُفْلِحُونَ (۶۹) مَتٰاعٌ فِی اَلدُّنْیٰا ثُمَّ إِلَیْنٰا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِیقُهُمُ اَلْعَذٰابَ اَلشَّدِیدَ بِمٰا کٰانُوا یَکْفُرُونَ (۷۰)

۱- ۱) .کلام فی ملکه تعالی لما فی السموات و الارض،حقیقه معنی ملکه و سلطانه.

بیان:

قوله تعالی: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ الی آخر الآیه؛ قال الراغب فی المفردات:الوعظ زجر مقترن بتخویف،و قال الخلیل:هو التذکیر بالخیر فیما یرق له القلب،و العظه و الموعظه الاسم،انتهی.و الصدر معروف و الناس لمّا وجدوا القلب فی الصدر و هم یرون أن الإنسان إنما یدرک ما یدرک بقلبه و به یعقل الامور و یحب و یبغض و یرید و یکره و یشتاق و یرجو و یتمنی،عدّوا الصدر خزانه لما فی القلب من أسراره و الصفات الروحیه التی فی باطن الإنسان من فضائل و رذائل،و فی الفضائل صحه القلب و استقامته،و فی الرذائل سقمه و مرضه،و الرذیله داء یقال:شفیت صدری بکذا اذا ذهب به ما فی صدره من ضیق و حرج،و یقال:شفیت قلبی،فشفاء الصدور و شفاء ما فی الصدور کنایه عن ذهاب ما فیها من الصفات الروحیه الخبیثه التی تجلب الی الإنسان الشقاء و تنغّص عیشته السعیده و تحرمه خیر الدنیا و الآخره.

و الهدی هی الدلاله علی المطلوب بلطف علی ما ذکره الراغب،و قد تقدم فی ذیل قوله تعالی: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاَمِ (الأنعام/۱۲۵)فی الجزء السابع من الکتاب بحث فیها.

ص: ۵۲

و الرحمه تـأثر خـاص فى القلب عن مشاهـده ضـر أو نقص فى الغير يبعث الراحم الى جبر كسـره و إتمام نقصه،و إذا نسـبت اليه تعالى كان بمعنى النتيجه دون أصل التأثّر لتنزّهه تعالى عن ذلك فينطبق على مطلق عطيّته تعالى و إفاضته الوجود على خلقه.

و عطيته اذا نسـبت الى مطلق خلقه كانت هى ما ينسب اليه تعالى من وجودهم و بقائهم و رزقهم الـذى يمـدّ به بقاؤهم و سائر ما ينعم به عليهم من نعمه الـتى لا تحصـى كثره و إن تعـدّوا نعمه اللّه لا تحصوهـا،و اذا نسـبت الى المؤمنين خـاصه كـانت هى ما يختص بهم من سـعاده الحيـاه الانسانيه بمظاهرها المختلفه التى ينعم اللّه بها عليهم من المعارف الحقه الإلهيه،و الأخلاق الكريـمه و الأعمال الصالحه،و الحياه الطيبه فى الدنيا و الآخره و الجنه و الرضوان.

و من ثم اذا وصف القرآن بـأنه رحمه للمؤمنين كـان معناه أنه يغشـى المؤمنين أنواع الخيرات و البركات التى كنزها اللّه فيه لمن تحقق بحقائقهـا و تلبّس بمعانيهـا،قـال تعـالى: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيـدُ الظّالِمِينَ إِلاّ خَساراً (الإسراء۸۲/).

قوله تعالى: قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ الفضل هو الزياده،و تسـمى العطيه فضـلا لأن المعطى إنمـا يعطى غالبـا مـا لا يحتـاج اليه من المال ففى تسـميه ما يفيضه اللّه على عباده فضـلا إشاره الى غناه تعالى و عـدم حاجته فى إفاضته الى ما يفيضه و لا الى من يفيض عليه.

و ليس من البعيـد أن يكون المراد بالفضل ما يبسـطه اللّه من عطائه على عامه خلقه، و بالرحمه خصوص ما يفيضه على المؤمنين فإن رحمه السـعاده الـدينيه اذا انضـمن الى النعمه العامه من حياه و رزق و سائر البركات العامه كان المجمع منهما أحق بالفرج و السرور و أحرى بالانبساط و الابتهاج.

و من الممكن أن يتأيـد ذلـك بقوله: «بِفَضْلِ اللّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ» حيث أدخلت باء السببيه على كل من الفضل و الرحمه،و هو مشـعر بكون كل واحد منهما سببا مستقلا و إن جمع بينهما ثانيا

بقوله: «فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» للدلاله على استحقاق مجموعهما لأن ينحصر فيه الفرح.

و يمكن ان يكون المراد بالفضل غير الرحمه و من الامور المذكوره فى الآيه السابقه اعطنى الموعظه و شفاء ما فى الصدر و الهدى،و المراد بالرحمه:الرحمه بمعناها المذكور فى الآيه السابقه و هى العطيّه الخاصه الإلهيه التى هى سعاده الحياه فى الدنيا و الآخره.

و المعنى على هذا:ان ما تفضل اللّه به عليهم من الموعظه و شفاء ما فى الصدور و الهدى،و ما رحم المؤمنين به من الحياه الطيّبه ذلك احق ان يفرحوا به دون ما يجمعونه من المال.

و ربما تأيد هذا الوجه بقوله سبحانه: وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مٰا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يُزَكِّي مَنْ يَشٰاءُ (النور/٢١)حيث نسب زكاتهم الى الفضل و الرحمه معا و استناد الزكاه الى الفضل بمعنى العطيه العامه بعيد عن الفهم،و مما يؤيد هذا الوجه ملائمته لما ورد فى الروايه من تفسير الآيه بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و على عليه السّلام او بالقرآن و الاختصاص به و سيجىء ان شاء اللّه.

و قوله: فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ذكروا ان الفاء فى قوله: «فَلْيَفْرَحُوا» زائده كقول الشاعر:«فاذا قتلت فعند ذلك فاجزعى»و الظرف اعنى قوله: «فَبِذٰلِكَ» بدل من قوله:

«بِفَضْلِ اللّٰهِ وَ بِرَحْمَتِهِ» ،و متعلق بقوله: «فَلْيَفْرَحُوا» قدّم عليه لإفاده الحسر،و قوله: «هُوَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ» بيان ثان لمعنى الحصر.

فظهر بذلك كله ان الآيه تفريع على مضمون الآيه السابقه فانه تعالى لمّا خاطب الناس امتنانا عليهم أن هذا القرآن موعظه لهم و شفاء لما فى صدورهم و هدى و رحمه للمؤمنين منهم فرّع عليه انه ينبغى لهم حينئذ ان يفرحوا بهذا الذى امتنّ به عليهم من الفضل و الرحمه لا بالمال الذى يجمعونه فان ذلك-و فيه سعادتهم و ما تتوقف عليه سعادتهم-خير من المال الذى ليس إلاّ فتنه ربما اهلكتهم و اشقتهم.

قوله تعالى: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرٰاماً

وَ حَلاٰلاً الى آخر الآیه؛نسبه الرزق و هو ما یمد الانسان فی بقائه من الامور الأرضیه من مأکول و مشروب و ملبوس و غیرها الی الإنزال مبنی علی حقیقه یفیدها القرآن و هی ان الاشیاء لها خزائن عند اللّه تتنزل من هناک علی حسب ما قدّرها اللّه سبحانه،قال تعالی:

وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/۲۱)و قال تعالی:

وَ فِی السَّمٰاءِ رِزْقُکُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ (الذاریات/۲۲)و قال: وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعٰامِ ثَمٰانِیَهَ أَزْوٰاجٍ (الزمر/۶)و قال: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِیدَ (الحدید/۲۵).

و اما ما قیل:ان التعبیر بالانزال انما هو لکون ارزاق العباد من المطر الذی ینزله اللّه من السماء،فوجه بسیط لا یطرد علی تقدیر صحته فی جمیع الموارد التی عبر فیها عن کینونتها بالإنزال کما فی الانعام و فی الحدید،و الرزق الذی تذکر الآیه ان اللّه انزله لهم فجعلوا منه حراما و حلالا هو الأنعام من الإبل و الغنم کالوصیله و السائبه و الحام و غیرها.

و اللام فی قوله: لَکُمْ للغایه و تفید معنی النفع ای انزل اللّه لأجلکم و لتنتفعوا به، و لیست للتعدیه فان الانزال انما یتعدی بعلی او الی،و من هنا افاد الکلام معنی الاباحه و الحل ای انزلها اللّه فأحلها،و هذا هو النکته فی تقدیم التحریم علی الاحلال فی قوله: «فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرٰاماً وَ حَلاٰلاً» ای کان اللّه احله لکم بانزاله رزقا لکم تنتفعون به فی حیاتکم و بقائکم و لکنکم قسمتموه قسمین من عند انفسکم فحرّمته قسما و أحللتم آخر فالمعنی:قل لهم یا محمّد:اخبرونی عما انزل اللّه لکم و لأجلکم من الرزق الحلال فقسمتموه قسمین و جعلتم بعضه حراما و بعضه حلالا ما هو السبب فی ذلک؟و من البیّن انه افتراء علی اللّه لا عن إذن منه تعالی.

و قوله: قُلْ آللّٰهُ أَذِنَ لَکُمْ أَمْ عَلَی اللّٰهِ تَفْتَرُونَ سؤال عن سبب تقسیمهم الرزق الی حرام و حلال،و إذا کان من البیّن انه لیس ذلک عن اذن منه تعالی لعدم اتصالهم بربهم بوحی او رسول کان من المتعیّن انه افتراء فالاستفهام فی سیاق التردید کنایه عن اثبات

الافتراء لهم و توبیخ و ذم.

و الذی یقضی به النظر الابتدائی ان الترديد فی الآیه غیر حاصر اذ کما یجوز ان یکون تقسیمهم رزق اللّه الی حرام و حلال عن اذن من اللّه او افتراء علیه تعالی کذلک یجوز ان یکون عن مصلحه احرزوها او زعموها فی ذلک او عن هوی لهم فیه من غیر أن ینسبوه الی اللّه تعالی فیکون افتراء علیه.

و من وجه آخر الترديد فی الآیه بین إذن اللّه و الافتراء علی اللّه یشعر بأن الحکم إنما هو للّه فالحکم بکون بعض الرزق حراما و بعضه حلالا ـ و هو دائر بینهم إما أن یکون من اللّه او افتراء علیه،و من الممکن أن یمنع ذلک فی بادئ النظر فکثیر من السنن الدائره بین الناس کوّنتها طبیعه مجتمعهم او عادتهم القومیه و غیر ذلک.

لکن التدبر فی کلامه تعالی و البحث العمیق یدفع ذلک فإن القرآن یری أن الحکم یختص باللّه تعالی،و لیس لأحد من خلقه أن یبادر الی تشریع حکم و وضعه فی المجتمع الانسانی،قال تعالی: إِنِ الْحُکْمُ إِلاّ لِلّهِ (یوسف۴۰/).

و قد أشار تعالی الی لمّ ذلک فی قوله: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَیْها لا تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذٰلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ (الروم۳۰/)فتبین به أن معنی کون الحکم للّه کونه معتمدا علی الخلقه و الفطره منطبقا علیها غیر مخالف لما ینطق به الکون و الوجود.

و ذلک أن اللّه سبحانه لم یخلق الخلق عبثا کما قال: أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناکُمْ عَبَثاً (المؤمنون۱۱۵/)بل خلقهم لأغراض إلهیه و غایات کمالیه یتوجهون إلیها بحسب جبلتهم و یسیرون نحوها بفطرتهم بما جهزهم به من الأسباب و الأدوات و هداهم الیه من السبیل المیسّر لهم کما قال: أَعْطیٰ کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدیٰ (طه۵۰/)،و قال: ثُمَّ السَّبِیلَ یَسَّرَهُ (عبس۲۰/).

قوله تعالی: وَ ما ظَنُّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللّهِ الْکَذِبَ یَوْمَ الْقِیامَهِ الی

آخر الآيه؛لما كان جواب الاستفهام المتقدم «آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ» معلوما من المورد،و هو أنه افتراء،استعظم و خامه عاقبته فإنه افتراء على اللّه سبحانه و الافتراء من الآثام و الذنوب بحكم البداهه فلا محاله له أثر سيئ،و لذلك قال تعالى إيعادا و تهديدا «وَ مٰا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ» .

و أما قوله: إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَشْكُرُونَ فهو شكوى و عتبى يشار به الى ما اعتاد عليه الناس من كفران اكثرهم لنعمه اللّه،و عدم شكرهم قبال عطيته و نعمته،و المراد بالفضل هاهنا هو العطيه الإلهيه فإن الكلام فى الرزق الذى أنزله اللّه لهم و هو الفضل،و تحريمهم بعضه و هو الكفران و عدم الشكر.

و برجوع ذيل الآيه الى صدرها يكون الافتراء على اللّه من مصاديق كفران نعمته،و المعنى أن اللّه ذو فضل و عطاء على الناس و لكن أكثرهم كافرون لنعمته و فضله فما ظن الذين يكفرون بنعمه اللّه و رزقه بتحريمه افتراء على اللّه الكذب يوم القيامه.

قوله تعالى: وَ مٰا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مٰا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لاٰ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّٰ كُنّٰا عَلَيْكُمْ شُهُوداً الى آخر الآيه؛قال الراغب:الشأن الحال و الأمر الذى يتفق و يصلح،و لا يقال إلاّ فيما يعظم من الأحوال و الامور قال «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ». انتهى.

و قوله: وَ مٰا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ الظاهر أن الضمير الى اللّه سبحانه و من الاولى للابتداء و النشوء و الثانيه للبيان،و المعنى:و لا تتلو شيئا هو القرآن ناشئا و نازلا من قبله تعالى،و الإفاضه فى الفعل الخوض فيه جمعا.

و قد وقع فى قوله: إِلاّٰ كُنّٰا عَلَيْكُمْ شُهُوداً التفات من الغيبه الى التكلم مع الغير، و النكته فيه الإشاره الى كثره الشهود فإن للّه شهودا على أعمال الناس من الملائكه و الناس و اللّه من ورائهم محيط،و العظماء يتكلمون عنهم و عن غيرهم للدلاله على أن لهم أعوانا و خدمه.

و لیس ینبغی أن یغفل عن أن اصل الالتفات یبدأ من اول الآیه فإن الآیات السابقه کانت تخاطب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و تأخذ المشرکین علی الغیبه و تکلمهم بوساطته من غیر أن تواجهه بشیء من الخطاب یخص نفسه،و قد حوّلت هذه الآیه وجه الکلام الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بما یخص به نفسه فقالت«و ما تکون من شأن و لا تتلوا منه من قرآن»ثم جمعته و المشرکین و غیرهم جمیعا فی خطاب واحد فقالت «وَ لاٰ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّٰ کُنّٰا عَلَیْکُمْ شُهُوداً» و ذلک بضمهم الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و هم علی غیبتهم و بسط الخطاب علی الجمیع بنوع من التغلیب کما تقول لمخاطبک:

أنت و قومک تفعلون کذا و کذا.

و الدلیل علی أن هذا الخطاب بنحو الضم و التغلیب قوله بعده:«و لا یعزی عن ربک»الخ؛ فإن یکشف عن کون الخطاب معه صلّی اللّه علیه و آله و سلم جاریا علی ما کان.

و علی أی حال فالتحول المذکور فی خطاب الآیه للإشاره الی أن السلطنه و الإحاطه التامه الإلهیه واقعه علی الأعمال شهاده و علما علی أتمّ ما یکون من کل جهه من غیر أن یستثنی منه نبی و لا مؤمن و لا مشرک او یغفل عن عمل من الاعمال فلا یتوهمن احد أن اللّه یخفی علیه شیء من أمره فلا یحاسبه علیه یوم القیامه،و لیکن هذا هو ظنه بربه یوم القیامه و لیأخذ حذره.

و ذکر تلاوه القرآن مستقلا مع دخوله فی قوله قبلا: وَ مٰا تَکُونُ فِی شَأْنٍ فإنه احد شئونه صلّی اللّه علیه و آله و سلم للایماء الی أهمیه أمرها و مزید العنایه بها.

و فی الآیه اولا تشدید فی العظه علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و علی أمته،و ثانیا:أن الذی یتلوه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من القرآن للناس من وحی اللّه و کلامه لا یطرقه تغییر و لا یدب فیه باطل لا فی تلقیه منا للّه و لا فی تلاوته للناس فالآیه قریبه المضمون من قوله: عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ (الجن۲۸/).

و قوله: وَ مٰا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقٰالِ ذَرَّةٍ الى آخر الآيه؛العزوب الغيبه و التباعد و الخفاء،و فيه إشاره الى حضور الأشياء عنده تعالى من غير غيبه و حفظه لها فى كتاب من غير زوال،و قد تقدم بعض ما يتعلق به من الكلام فى ذيل قوله: وَ عِنْدَهُ مَفٰاتِحُ الْغَيْبِ (الأنعام/٥٩)فى الجزء السابع من الكتاب.

قوله تعالى: أَلاٰ إِنَّ أَوْلِيٰاءَ اللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ استئناف فى الكلام غير أنه متعلق بغرض السوره و هو الدعوه الى الايمان بكتاب اللّه و الندب الى توحيد اللّه تعالى بمعناه الوسيع.

و للدلاله على أهميه المطلب افتتح بلفظه «أَلاٰ» التنبيهيه،و اللّه سبحانه يذكر فى هذه الآيه و الآيتين بعدها أولياءه و يعرّفهم و يصف آثار ولايتهم و ما يختصون به من الخصيصه.

فأولياء اللّه-على أى حال-هو المؤمنون فإن اللّه يعدّ نفسه وليا لهم فى حياتهم المعنويه حيث يقول: وَ اللّٰهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران/٦٨).

غير أن الآيه التاليه لهذه الآيه المفسره للكلمه تأبى أن تكون الولايه شامله لجميع المؤمنين و فيهم امثال الذين يقول اللّه سبحانه فيهم: وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف/١٠٦)

فإن قوله فى الآيه التاليه: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ» يعرّفهم بالإيمان و التقوى مع الدلاله على كونهم على تقوى مستمر سابق على إيمانهم من حيث الزمان حيث قيل «آمَنُوا» ثم قيل عطفا عليه «وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ» فدلّ على أنهم كانوا يستمرون على التقوى قبل تحقق هذا الإيمان منهم و من المعلوم أن الإيمان الابتدائى غير مسبوق بالتقوى بل هما متقاربان او هو قبل التقوى و خاصه التقوى المستمر.

فالمراد بهذه الإيمان مرتبه أخرى من مراتب الايمان غير المرتبه الاولى منه.فقد تقدم فى الجزء الأول من الكتاب آيه ١٣٠ من البقره أن لكل من الإيمان و الإسلام و كذا الشرك و الكفر مراتب مختلفه بعضها فوق بعض فالمرتبه الاولى من الإسلام إجراء الشهادتين لسانا

و التسليم ظاهرا،و تليه المرتبه الاولى من الإيمان و هو الإذعان بمؤدّى الشهادتين قلبا إجمالا و إن لم يسر الى جميع ما يعتقد في الدين من الاعتقاد الحق،و لذا كان من الجائز أن يجتمع مع الشرک من بعض الجهات،قال تعالى: وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف۱۰۶/).

قوله تعالى: لَهُمُ الْبُشْرىٰ فِی الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ فِی الْآخِرَهِ لاٰ تَبْدِيلَ لِكَلِمٰاتِ اللّٰهِ ذٰلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يبشّرهم اللّه تعالى بشاره إجماليه بما تقر به أعينهم فإن كان قوله: «لَهُمُ الْبُشْرىٰ» إنشاء للبشاره كان معناه وقوع ما بشّر به فى الدنيا و فى الآخره كلتاهما،و إن كان اخبارا بأن اللّه سيبشّرهم بشرى كانت البشاره واقعه فى الدنيا و فى الآخره،و أما المبشّر به فهل يقع فى الآخره فقط او فى الدنيا و الآخره معا؟الآيه ساكته عن ذلک.

و قد وقع فى كلامه تعالى بشارات للمؤمنين بما ينطبق على أوليائه تعالى كقوله تعالى:

وَ كٰانَ حَقًّا عَلَيْنٰا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم۴۷/)و قوله: إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِی الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهٰادُ (المؤمن۵۱/)و قوله: بُشْرٰاكُمُ الْيَوْمَ جَنّٰاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ (الحديد۱۲/)الى غير ذلک.

و قوله: لاٰ تَبْدِيلَ لِكَلِمٰاتِ اللّٰهِ إشاره الى ان ذلک من القضاء المحتوم الذى لا سبيل للتبديل اليه،و فيه تطييب لنفوسهم.

قوله تعالى: وَ لاٰ يَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّهَ لِلّٰهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ تأديب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بتعزيته و تسليته فيما كانوا يؤذونه به بالوقوع فى ربه و الطعن فى دينه و الاعتزاز بشركائهم و آلهتهم كما يشعر به القول فى الآيه التاليه فكاد يحزن للّه فسلاه اللّه و طيّب نفسه بتذكيره ما يسكن وجده و هو أن العزه للّه و أنه سميع لمقالهم عليهم بحاله و حالهم و إذ كان له تعالى كل العزه فلا يعبأ بما اعتزوا به من العزه الوهميه فهذوا ما هذوا،و إذ كان سميعا عليما فلو

شاء لأخذهم بالنكال و إذ كان لا يأخذهم فإنما فى ذلك مصلحه الدعوه و خير العاقبه.

و من هنا يظهر ان كلا من قوله: «إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ» و قوله: «هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» عله مستقله للنهى و لذا جىء بالفصل من غير عطف.

قوله تعالى: أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مَنْ فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ الى آخر الآيه فيه بيان مالكيته تعالى لكل من فى السماوات و الأرض التى بها يتم للإله معنى الربوبيه فإن الرب هو المالك المدبر لأمر مملوكه،و هذا الملك للّه وحده لا شرك له فما يدعون له من الشركاء ليس لهم من معنى الشركه إلاّ ما فى ظن الداعين و فى خرصهم من المفهوم الذى لا مصداق له.

فالآيه تقيس شركاءهم اليه تعالى و تحكم ان نسبتهم اليه تعالى نسبه الظن و الخرص الى الحقيقه و الحق،و الباقى ظاهر.

و قد قيل «مَنْ فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ» و لم قل:ما فى السماوات و ما فى الأرض لأن الكلام فى ربوبيه العباد من ذوى الشعور و العقل و هم الملائكه و الثقلان.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهٰارَ مُبْصِراً الآيه؛الآيه تتمم البيان الذى أورد فى الآيه السابقه لاثبات ربوبيته تعالى و الربوبيه -كما تعلم-هى الملك و التدبير،و قد ذكر ملكه تعالى فى الآيه السابقه،فبذكر تدبير من تدابيره العامه فى هذه الآيه تصلح به عامه معيشه الناس و تستبقى به حياتهم يتم له معنى الربوبيه.

و للاشاره الى هذا التدبير ذكر مع الليل سكنهم فيه،و مع النهار إبصارهم فيه الباعث لهم الى انواع الحركات و التنقلات لكسب مواد الحياه و اصلاح شئون المعاش فليس يتم أمر الحياه الانسانيه بالحركه فقط او بالسكون فقط فدبّر اللّه سبحانه الأمر فى ذلك بظلمه الليل الداعيه الى تجديد تجهيز القوى بعد ما لحقها من العى و التعب و النصب و الى الارتياح و الانس بالأهل

و التمتع مما جمع و اكتسب بالنهار و الفراغ للعبوديه،و بضوء النهار الباعث الى الرؤيه فالاشتياق فالطلب.

قوله تعالى: قٰالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ الى آخر الآيه؛الاستيلاد بمعناه المعروف عند الناس هو ان يفصل الموجود الحى بعض اجزاء مادّته فيربيه بالحمل او البيض تربيه تدريجيه حتى يتكون فردا مثله،و الانسان من بينها خاصه ربما يطلب الولد ليكون عونا له على نوائب الدهر و ذخرا ليوم الفاقه،و هذا المعنى بجميع جهاته محال عليه تعالى فهو عزّ اسمه منزّه عن الاجزاء متعال عن التدريج فى فعله برىء عن المثل و الشبه مستغن عن غيره بذاته.

و قد نفى القرآن الولد عنه بالاحتجاج عليه من كل من الجهات المذكوره كما تعرّض لنفيه من جميعها فى قوله: وَ قٰالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ بَلْ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ بَدِيعُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (البقره۱۱۷/) و قد مرّت الاشاره الى ذلک فى تفسير الآيات فى الجزء الأول من الكتاب.

و اما الآيه التى نحن فيها فهى مسوقه للاحتجاج على نفى الولد من الجهه الاخيره فحسب و هو ان الغرض من وجوده الاستعانه به عند الحاجه و ذلك انما يتصور فيمن كان بحسب طبعه محتاجا فقيرا،و اللّه سبحانه هو الغنى الذى لا يخالفه فقر فانه المالك لما فرض فى السماوات و الارض من شىء.

و قوله: إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ اى برهان «بِهٰذٰا» اثبات لكونهم انما قالوه جهلا من غير دليل فيكون محصل المعنى انه لا دليل لكم على ما قلتموه بل الدليل على خلافه و هو انه تعالى غنى على الاطلاق،و الولد انما يطلبه من به فاقه و حاجه،و الكلام على ما اصطلح عليه فى فن المناظره من قبيل المنع مع السند.

و قوله: أَ تَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ توبيخ لهم فى قولهم ما ليس لهم به

علم،و هو مما يستقبحه العقل الانسانى و لا سيما فى ما يرجع الى رب العالمين عزّ اسمه.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ لاٰ يُفْلِحُونَ تخويف و انذار بشؤم العاقبه،و فى الآيتين من لطيف الالتفات ما هو ظاهر فقد حكى اللّه اولا عنهم من طريق الغيبه قولهم: «اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً» ثم خاطبهم خطاب الساخط الغضبان مما نسبوا اليه و افتروا عليه فقال «إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ بِهٰذٰا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ» و انما خاطبهم متنكرا من غير ان يعرّفهم نفسه حيث قال «عَلَى اللّٰهِ» و لم يقل:علىّ او علينا صونا لعظمه مقامه ان يخالطهم معروفا ثم اعرض عنهم تنزها عن ساحه جهلهم و رجع الى خطاب رسوله قائلا «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ لاٰ يُفْلِحُونَ» لأنه إنذار و الإنذار شأنه.

قوله تعالى: مَتٰاعٌ فِي الدُّنْيٰا ثُمَّ إِلَيْنٰا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذٰابَ الشَّدِيدَ بِمٰا كٰانُوا يَكْفُرُونَ خطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فيه بيان وجه عدم فلاحهم بأنه كفر باللّه ليس بحذائه إلاّ متاع قليل فى الدنيا ثم الرجوع الى اللّه و العذاب الشديد الذى يذوقونه (۱).

[سوره يونس (۱۰): الآيات ۷۱ الى ۷۴]

اشاره

وَ اُتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ يٰا قَوْمِ إِنْ كٰانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقٰامِي وَ تَذْكِيرِي بِآيٰاتِ اَللّٰهِ فَعَلَى اَللّٰهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكٰاءَكُمْ ثُمَّ لاٰ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اُقْضُوا إِلَيَّ وَ لاٰ تُنْظِرُونِ (۷۱) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمٰا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلَى اَللّٰهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ اَلْمُسْلِمِينَ (۷۲) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنٰاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي اَلْفُلْكِ وَ جَعَلْنٰاهُمْ خَلاٰئِفَ وَ أَغْرَقْنَا اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلْمُنْذَرِينَ (۷۳) ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلىٰ قَوْمِهِمْ فَجٰاؤُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذٰلِكَ نَطْبَعُ عَلىٰ قُلُوبِ اَلْمُعْتَدِينَ (۷۴)

ص: ۶۳

۱- ۱) .بحث روائى فى فضل اللّه و رحمته:اولياء اللّه؛البشرى للمتقين فى الحياه الدنيا و فى الآخره.

بیان:

قوله تعالی: وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ الی آخر الآیه؛المقام مصدر میمی و اسم زمان و مکان من القیام،و المراد به الأول او الثالث أی قیامی بأمر الدعوه الی توحید اللّه او مکانتی و منزلتی و هی منزله الرساله،و الإجماع العزم و ربما یتعدی بعلی قال الراغب:و أجمعت کذا اکثر ما یقال فیما یکون جمعا یتوسل الیه بالفکره نحو فأجمعوا کیدکم و شرکاءکم.

و الغمه هی الکربه و الشده و فیه معنی التغطیه کأن الهم یغطی القلب،و منه الغمام للغیم سمی به لتغطیته وجه السماء،و القضاء الی الشیء إتمام أمره بقتل و إفناء و نحو ذلک.

و معنی الآیه وَ اتْلُ یا محمّد «عَلَیْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ» و خبره العظیم حیث واجه قومه و هو واحد یتکلم عن نفسه،و هو مرسل الی أهل الدنیا فتحدی علیهم بأن یفعلوا به ما بدا لهم إن قدروا علی ذلک،و أتم الحجه علی مکذبیه فی ذلک «إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ یا قَوْمِ إِنْ کانَ کَبُرَ عَلَیْکُمْ مَقامِی» و نهضتی لأمر الدعوه الی التوحید او منزلتی من الرساله «وَ تَذْکِیرِی بِآیاتِ اللّهِ» و هو داعیکم لا محاله الی قتلی و إیقاع ما تقدرون علیه من الشر بی لإراحه أنفسکم منی «فَعَلَی اللّهِ تَوَکَّلْتُ» قبال ما یهددنی من تحرج صدورکم و ضیق نفوسکم علیّ بإرجاع أمری الیه و جعله

ص: ۶۴

وكيلا- يتصرف فى شئونى و من غير أن أشتغل بالتدبير «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاءَكُمْ» الذين تزعمون أنهم ينصرونكم فى الشدائد،و اعزموا علىّ بما بدا لكم،و هذا أمر تعجيزى «ثُمَّ لاٰ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً» إن لم تكونوا اجتهدتم فى التوسل الى كل سبب فى دفعى «ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ» بدفعتى و قتلى «وَ لاٰ تُنْظِرُونِ» و لا تمهلونى.

و فى الآيه تحديه عليه السّلام على قومه بأن يفعلوا به ما بدا لهم،و إظهار أن ربه قدير على دفعهم عنه و إن أجمعوا عليه و انتصروا بشركائهم و آلهتهم.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمٰا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ الى آخر الآيه؛تفريع على توكله بربه،و قوله: «فَمٰا سَأَلْتُكُمْ» الخ؛بمنزله وضع السبب موضع المسبب و التقدير فإن توليتم و أعرضتم عن استجابه دعوتى فلا ضير لى فى ذلك فإنى لا أتضرر فى إعراضكم شيئا لأنى إنما كنت أتضرر بإعراضكم عنى لو كنت سألتكم أجرا على ذلك يفوت بالإعراض و ما سألتكم عليه من أجر إن أجرى إلّا على اللّه.

و قوله: وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى الذين يسلّمون الأمر اليه فيما أراده لهم و عليهم،و لا يستكبرون عن امره بالتسليم لسائر الأسباب الظاهره حتى يخضعوا لها و يتوقعوا به ايصال نفع او دفع شر.

قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنٰاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْنٰاهُمْ خَلاٰئِفَ الى آخر الآيه؛الخلائف جمع خليفه أى جعلنا هؤلاء الناجين خلائف فى الارض و الباقين من بعدهم يخلفون سلفهم و يقومون مقامهم،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلىٰ قَوْمِهِمْ الى آخر الآيه؛يريد بالرسل من جاء منهم بعد نوح الى زمن موسى عليهم السّلام.و ظاهر السياق أن المراد بالبينات الآيات المعجزه التى اقترحتها الامم على انبيائهم بعد مجيئهم و دعوتهم و تكذيبهم لهم فأتوا بها و كان فيها القضاء بينهم و بين اممهم،و يؤيده قوله بعده: «فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ» الخ؛

فإن السابق الی الذهن أنهم جاءوهم بالآیات البینات لکن اللّه قد کان طبع علی قلوبهم لاعتدائهم فلم یکن فی وسعهم أن یؤمنوا ثانیا بما کذبوا به أولا.

و لازم ذلک أن یکون تکذیبهم بذلک قبل مجیء الرسل بتلک الآیات البینات فقد کانت الرسل بثّوا دعوتهم فیهم و دعوهم الی توحید اللّه فکذبوا به و بهم ثم اقترحوا علیهم آیه معجزه فجاءوهم بها فلم یؤمنوا.

و قد أسلفنا بعض البحث عن هذه الآیه فی تفسیر قوله: فَمٰا کٰانُوا لِیُؤْمِنُوا بِمٰا کَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ (الأعراف/۱۰۱)فی الجزء الثامن من الکتاب،و بیّنا هناک أن فی الآیه إشاره الی عالم الذرّ غیر أنه لا ینافی إفادتها لما قدمناه من المعنی آنفا فلیراجع.

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۷۵ الی ۹۳]

اشاره

ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسیٰ وَ هٰارُونَ إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ بِآیٰاتِنٰا فَاسْتَکْبَرُوا وَ کٰانُوا قَوْماً مُجْرِمِینَ (۷۵) فَلَمّٰا جٰاءَهُمُ اَلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوا إِنَّ هٰذٰا لَسِحْرٌ مُبِینٌ (۷۶) قٰالَ مُوسیٰ أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَکُمْ أَ سِحْرٌ هٰذٰا وَ لاٰ یُفْلِحُ اَلسّٰاحِرُونَ (۷۷) قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا لِتَلْفِتَنٰا عَمّٰا وَجَدْنٰا عَلَیْهِ آبٰاءَنٰا وَ تَکُونَ لَکُمَا اَلْکِبْرِیٰاءُ فِی اَلْأَرْضِ وَ مٰا نَحْنُ لَکُمٰا بِمُؤْمِنِینَ (۷۸) وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ اِئْتُونِی بِکُلِّ سٰاحِرٍ عَلِیمٍ (۷۹) فَلَمّٰا جٰاءَ اَلسَّحَرَهُ قٰالَ لَهُمْ مُوسیٰ أَلْقُوا مٰا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۸۰) فَلَمّٰا أَلْقَوْا قٰالَ مُوسیٰ مٰا جِئْتُمْ بِهِ اَلسِّحْرُ إِنَّ اَللّٰهَ سَیُبْطِلُهُ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یُصْلِحُ عَمَلَ اَلْمُفْسِدِینَ (۸۱) وَ یُحِقُّ اَللّٰهُ اَلْحَقَّ بِکَلِمٰاتِهِ وَ لَوْ کَرِهَ اَلْمُجْرِمُونَ (۸۲) فَمٰا آمَنَ لِمُوسیٰ إِلاّٰ ذُرِّیَّهٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلیٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِمْ أَنْ یَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعٰالٍ فِی اَلْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ اَلْمُسْرِفِینَ (۸۳) وَ قٰالَ مُوسیٰ یٰا قَوْمِ إِنْ کُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَیْهِ تَوَکَّلُوا إِنْ کُنْتُمْ مُسْلِمِینَ (۸۴) فَقٰالُوا عَلَی اَللّٰهِ تَوَکَّلْنٰا رَبَّنٰا لاٰ تَجْعَلْنٰا فِتْنَهً لِلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِینَ (۸۵) وَ نَجِّنٰا بِرَحْمَتِکَ مِنَ اَلْقَوْمِ اَلْکٰافِرِینَ (۸۶) وَ أَوْحَیْنٰا إِلیٰ مُوسیٰ وَ أَخِیهِ أَنْ تَبَوَّءٰا لِقَوْمِکُمٰا بِمِصْرَ بُیُوتاً وَ اِجْعَلُوا بُیُوتَکُمْ قِبْلَهً وَ أَقِیمُوا اَلصَّلاٰهَ وَ بَشِّرِ اَلْمُؤْمِنِینَ (۸۷) وَ قٰالَ مُوسیٰ رَبَّنٰا إِنَّکَ آتَیْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِینَهً وَ أَمْوٰالاً فِی اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا رَبَّنٰا لِیُضِلُّوا عَنْ سَبِیلِکَ رَبَّنَا اِطْمِسْ عَلیٰ أَمْوٰالِهِمْ وَ اُشْدُدْ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ فَلاٰ یُؤْمِنُوا حَتّٰی یَرَوُا اَلْعَذٰابَ اَلْأَلِیمَ (۸۸) قٰالَ قَدْ أُجِیبَتْ دَعْوَتُکُمٰا فَاسْتَقِیمٰا وَ لاٰ تَتَّبِعٰانِّ سَبِیلَ اَلَّذِینَ لاٰ یَعْلَمُونَ (۸۹) وَ جٰاوَزْنٰا بِبَنِی إِسْرٰائِیلَ اَلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْیاً وَ عَدْواً حَتّٰی إِذٰا أَدْرَکَهُ اَلْغَرَقُ قٰالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اَلَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرٰائِیلَ وَ أَنَا مِنَ اَلْمُسْلِمِینَ (۹۰) آلْآنَ وَ قَدْ عَصَیْتَ قَبْلُ وَ کُنْتَ مِنَ اَلْمُفْسِدِینَ (۹۱) فَالْیَوْمَ نُنَجِّیکَ بِبَدَنِکَ لِتَکُونَ لِمَنْ خَلْفَکَ آیَهً وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ اَلنّٰاسِ عَنْ آیٰاتِنٰا لَغٰافِلُونَ (۹۲) وَ لَقَدْ بَوَّأْنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ اَلطَّیِّبٰاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتّٰی جٰاءَهُمُ اَلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ فِیمٰا کٰانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (۹۳)

بيان:

قوله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ الخ؛أی ثم بعثنا من بعد نوح و الرسل الذين من بعده موسى و أخاه هارون بآياتنا الى فرعون و الجماعه الذين يختصّون به من قومه و هم القبط فاستكبروا عن آياتنا و كانوا مستمرين على الاجرام.

قوله تعالى: فَلَمّٰا جٰاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنٰا الخ؛الظاهر أن المراد بالحق هو الآيه الحقه كالثعبان و اليد البيضاء،و قد جعلهما اللّه آيه لرسالته بالحق فلما جاءهم الحق قالوا و أكدوا القول:إن هذا-يشيرون الى الحق من الآيه-لسحر مبين واضح كونه سحرا،و انما سمّى الآيه حقّا قبال تسميتهم إياها سحرا.

قوله تعالى: قٰالَ مُوسىٰ أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هٰذٰا الخ؛أی فلمّا سمع مقالتهم تلك و رميهم الحق بأنه سحر مبين قال لهم منكرا لقولهم فی صوره الاستفهام:

«أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَكُمْ» إنّه لسحر؟ثم كرّر الانكار مستفهما بقوله: «أَ سِحْرٌ هٰذٰا» ؟فمقول القول فی الجمله الاستفهاميه محذوف إيجازا لدلاله الاستفهام الثانی عليه،و قوله: «وَ لاٰ يُفْلِحُ السّٰاحِرُونَ» يمكن أن يكون جمله حاليّه معلّله للإنكار الذی يدل عليه قوله: «أَ سِحْرٌ هٰذٰا» ،

و يمكن أن يكون إخبارا مستقلا بيانا للواقع يبرّئ به نفسه من أن يقترف السحر لأنه يرى لنفسه الفلاح و للساحرين أنهم لا يفلحون.

قوله تعالى: قَالُوا أَ جِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا الخ؛اللفت هو الصرف عن الشيء،و المعنى:قال فرعون و ملأه لموسى معاتبين له «أَ جِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا» و تصرفنا «عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» يريدون سنّه قدمائهم و طريقتهم «وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ» يعنون الرئاسه و الحكومه و انبساط القدره و نفوذ الإراده يؤمّون بذلك انّكما اتخذتما الدعوه الدينيه وسيله الى إبطال طريقتنا المستقره فى الأرض،و وضع طريقه جديده أنتما واضعان مبتكران لها موضعها تحوزان بإجرائها فى الناس و إيماننا بكما و طاعتنا لكما الكبرياء و العظمه فى المملكه.

و بعباره أخرى إنما جئتما لتبدّلا الدوله الفرعونيه المتعرقه فى القبط الى دوله إسرائيليه تدار بإمامتكما و قيادتكما،و ما نحن لكما بمؤمنين حتى تنالا بذلك أمنيتكما و تبلغا غايتكما من هذه الدعوه المزوّره.

قوله تعالى: وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ كان يأمر به ملأه فيعارض بسحر السحره معجزه موسى كما فصّل فى سائر الآيات القاصّه للقصّه و تدل عليه الآيات التاليه.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا الخ؛اى لمّا جاءوا و واجهوا موسى و تهيئوا لمعارضته قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقوه من الحبال و العصى،و قد كانوا هيئوها ليلقوها فيظهروها فى صور الحيّات و الثعابين بسحرهم.

قوله تعالى: فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ما قاله عليه السّلام بيان لحقيقه من الحقائق لينطبق عليها ما سيظهره اللّه من الحق على يديه من صيروره العصا ثعبانا يلقف ما ألقوه من الحبال و العصى و أظهروه فى صور الحيّات و الثعابين بسحرهم.

ص :۶۹

و الحقیقه التی بیّنها لهم أن الـذی جاءوا به سـحر و السـحر شأنه إظهار ما لیس بحق واقع فی صوره الحق الواقع لحواس الناس و أنظارهم،و إذا کان باطلا فی نفسه فان اللّه سـیبطله لأن السنّه الإلهیه جاریه علی إقرار الحق و احقاقه فی التکوین و إزهاق الباطل و إبطاله فالدوله للحق و ان کانت للباطل جوله أحیانا.

و لذا علّل قوله: إِنَّ اللّٰهَ سَـیُبْطِلُهُ بقوله: «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُصْـلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِینَ» فان الصـلاح و الفساد شأنان متقابلان،و قد جرت السنّه الإلهیه أن یصلح ما هو صالـح و یفسد ما هو فاسد أی ان یرتب علی کل منهما أثره المناسب له المختص به و أثر العمل الصالح ان ینـاسب و یلاـئم سـائر الحقائق الکونیه فی نظامها الـذی تجری هی علیه،و یمتزج بها و یخالطها فیصـلحه اللّه سبحانه و یجریه علی ما کان من طباعه،و أثر العمل الفاسد ان لا یناسب و لا یلائم سائر الحقائق الکونیه فیما تقتضیه بطباعها و تجری علیه بجبلتها فهو امر استثنائی فی نفسه،و لو اصلحه اللّه فی فساده کان ذلک إفسادا للنظام الکونی.

فیعـارضه سائر الأسـباب الکونیه بما لها من القوی و الوسائل المؤثره،و تعیـده الی السـیره الصالحه إن أمکن و إلاّ أبطلته و أفنته و محته عن صحیفه الوجود البته.

قوله تعـالی: وَ یُحِقُّ اللّٰهُ الْحَقَّ بِکَلِمٰاتِهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُجْرِمُونَ لما کشف اللّه عن الحقیقه المتقـدمه فی جانب النفی بقوله: «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُصْـلِحُ عَمَـلَ الْمُفْسِـدِینَ» أبان عنه فی جانب الإثبات أیضا فی هـذه الآیه بقوله: «وَ یُحِقُّ اللّٰهُ الْحَقَّ بِکَلِمٰاتِهِ» و قـد جمع تعالی بین معنیی النفی و الإثبات فی قوله: لِیُحِقَّ الْحَقَّ وَ یُبْطِلَ الْبٰاطِلَ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (الأنفال/۸).

و من هنا یقوی احتمال أن یکون المراد بالکلمات فی الآیه أقسام الأقضیه الإلهیه فی شئون الأشیاء الکونیه الجاریه علی الحق فإن قضـاء اللّه مـاض و سـنّته جـاریه أن یضـرب الحق و الباطـل فی نظـام الکون ثم لا یلبث الباطل دون أن یفنی و یعفی أثره و یبقی الحق علی جلائه، و ذلک قوله تعالی: أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِیَهٌ بِقَدَرِهٰا فَاحْتَمَلَ السَّیْلُ زَبَداً رٰابِیاً

وَ مِمّٰا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّٰارِ ابْتِغٰاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتٰاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَ الْبٰاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفٰاءً وَ أَمّٰا مٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (الرعد/١٧)،و سيجىء استيفاء البحث فيه فى ذيل الآيه إن شاء اللّه تعالى.

و الحاصل أن موسى عليه السّلام إنما ذكر هذه الحقيقه لهم ليوقفهم على سنّه إلهيه حقه غفلوا عنها، و ليهيئ نفوسهم لما سيظهره عملا من غلبه الآيه المعجزه على السحر و ظهور الحق على الباطل،و لذا بادروا الى الإيمان حين شاهدوا المعجزه،و ألقوا أنفسهم على الأرض ساجدين على ما فصله اللّه سبحانه فى مواضع أخرى من كلامه.

و قوله: وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ و ذكر الإجرام من بين أوصافهم لأن فيه معنى القطع فكأنهم قطعوا سبيل الحق على أنفسهم و بنوا على ذلك بنيانهم فهم على كراهيه من ظهور الحق،و لذلك نسب اللّه كراهه ظهور الحق اليهم بما هم مجرمون فى قوله: «وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» و فى معناه قوله فى اول الآيات: «فَاسْتَكْبَرُوا وَ كٰانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ».

قوله تعالى: فَمٰا آمَنَ لِمُوسىٰ إِلاّٰ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِمْ الى آخر الآيتين ذكر بعض المفسرين أن الضمير فى «قَوْمِهِ» راجع الى فرعون، و الذريه الذين آمنوا من قومه كانت أمهاتهم من بنى إسرائيل و آباؤهم من القبط فتبعوا أمهاتهم فى الإيمان بموسى؛و قيل:الذريه بعض أولاد القبط؛و قيل:أريد بها امرأه فرعون و مؤمن آل فرعون،و قد ذكرا فى القرآن و جاريه و امرأه هى مشاطه امرأه فرعون.

و ذكر آخرون أن الضمير لموسى عليه السّلام و المراد بالذريه جماعه من بنى إسرائيل تعلموا السحر و كانوا من أصحاب فرعون؛و قيل:هم جميع بنى إسرائيل و كانوا ستمائه الف نسمه سمّاهم ذريه لضعفهم؛و قيل:ذريه آل إسرائيل ممن بعث اليهم موسى و قد هلكوا بطول العهد، و هذه الوجوه-كما ترى-لا دليل على شىء منها فى الآيات من جهه اللفظ.

و الذى يفيده السياق و هو الظاهر من الآيه أن يكون الضمير راجعا الى موسى و المراد

بالذریه من قوم موسی بعض الضعفاء من بنی إسرائیل دون ملإهم الأقویاء و الشرفاء، و الاعتبار یساعد علی ذلک فإنهم جمیعا کانوا أسراء للقبط محکومین بحکمهم بأجمعهم، و العاده الجاریه فی أمثال هذه الموارد أن یتوسل الشرفاء و الأقویاء بأی وسیله أمکنت الی حفظ مکانتهم الاجتماعیه و جاههم القومی،و یتقربوا الی الجبار المسیطر علیهم بإرضائه بالمال و التظاهر بالخدمه و مراءاه النصح و التجنب عما لا یرتضیه فلم یکن فی وسع الملأ من بنی اسرائیل أن یعلنوا موافقه موسی علی بغیته،و یتظاهروا بالایمان به.

علی أن قصص بنی اسرائیل فی القرآن أعدل شاهد علی أن کثیرا من عتاه بنی اسرائیل و مستکبریهم لم یؤمنوا بموسی الی أواخر عهده و إن کانوا یتسلّمون له و یطیعونه فی عامه اوامره التی کان یصدرها لبذل المساعی فی سبیل نجاه بنی اسرائیل لما کان فیها صلاح قومیتهم و حریه شعبهم و منافع اشخاصهم،فالإطاعه فی هذه الامور أمر و الإیمان باللّه و ما جاء به الرسول أمر آخر.

و یستقیم علی هذا معنی قوله: «وَ مَلاَئِهِمْ» بأن یکون الضمیر الی الذریه و یفید الکلام أن الذریه الضعفاء کانوا فی ایمانهم یخافون الملأ و الأشراف من بنی اسرائیل فانهم ربما کانوا یمنعونهم لعدم إیمانهم انفسهم او تظاهروا بذلک لیرضوا به فرعون و قومه و یطیّبوا أنفسهم فلا یضیّقوا علیهم و ینقصوا من إیذائهم و التشدید علیهم.

و أما ما قیل:إن الضمیر راجع الی فرعون لأنه ذو أصحاب او للذریه لأنهم کانوا من القبط فمما لا یصار الیه البته و خاصه أول الوجهین.

و قوله: أَنْ یَفْتِنَهُمْ ای یعذبهم لیعودوا الی ملته،و قوله: «وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعٰالٍ فِی الْأَرْضِ» ای و الظرف هذا الظرف و هو أن فرعون عال فی الارض مسرف فی الأمر.

فالمعنی-و اللّه أعلم-فتفرع علی قصه بعثهما و استکبار فرعون و ملئه أنه لم یؤمن بموسی إلاّ ضعفاء من بنی اسرائیل و هم یخافون ملأهم و یخافون فرعون أن یعذبهم لإیمانهم و کان

ينبغى لهم و من شأنهم أن يخافوا فإن فرعون كان يومئذ عاليا فى الارض مسلطا عليهم و أنه كان من المسرفين لا يعدل فيما يحكم و يجاوز الحدّ فى الظلم و التعذيب.

و لو صحّ أن يراد بقومه كل من بعث اليهم موسى و بلّغهم الرساله و هم القبط و بنو اسرائيل استقام الكلام من طريق آخر من غير حاجه الى ما تقدم من تكلّفاتهم.

قوله تعالى: وَ قالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ لما كان الايمان باللّه بما يفيده للمؤمن من العلم بمقام ربه و لو إجمالا و أنه سبب فوق الأسباب اليه ينتهى كل سبب،و هو المدبّر لكل أمر،يدعوه الى تسليم الأمر اليه و التجنب عن الاعتماد بظاهر ما يمكنه التسبب به من الأسباب فإنه من الجهل،و لازم ذلك إرجاع الأمر اليه و التوكل عليه،و قد أمرهم فى الآيه بالتوكل على اللّه،علّقه أولا على الشرط الذى هو الإيمان ثم تمم الكلام بالشرط الذى هو الإسلام.

فالكلام فى تقدير:إن كنتم آمنتم باللّه و مسلّمين له فتوكلوا عليه.و قد فرّق بين الشرطين و لعله لم يجمع بينهما فيقول«إن كنتم آمنتم و أسلمتم فتوكلوا»لاختلاف الشرطين بحسب الحال فقد كان الإيمان واقعا محرزا منهم،و أما الاسلام فهو من كمال الإيمان،و ليس من الواجب الضرورى ان يكون كل مؤمن مسلما بل من الأولى الأحرى أن يكمل إيمانه بالإسلام.

فالتفريق بين الشرطين للإشعار بكون احدهما واجبا واقعا منهم،و الآخر مما ينبغى لهم أن يتحققوا به فالمعنى:يا قوم إن كنتم آمنتم باللّه-و قد آمنتم-و كنتم مسلمين له-و ينبغى أن تكونوا كذلك-فتوكلوا على اللّه؛ففى الكلام من لطيف الصنعه ما لا يخفى.

قوله تعالى: فَقالُوا عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ الى آخر الآيتين،إنما توكلوا على اللّه لينجيهم من فرعون و ملئه فدعاؤهم بما دعوا به من قولهم: «رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً» الخ؛سؤال منهم نتيجه توكلهم و هو ان ينزع اللّه منهم لباس الضعف و الذلّه،و ينجيهم من القوم الكافرين.

ص :٧٣

أما الأول فقد اشاروا اليه بقولهم: «رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ» و ذلك أن الذى يغرى الأقوياء الظالمين على الضعفاء المظلومين هو ما يشاهدون فيهم من الضعف فيفتتنون به فيظلمونهم فالضعيف بما له من الضعف فتنه للقوى الظالم كما أن الأموال و الأولاد بما عندها من جاذبه الحب فتنه للانسان،قال تعالى: إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ (التغابن/١٥).

و الدنيا فتنه لطالبها فسؤالهم ربّهم أن لا يجعلهم فتنه للقوم الظالمين سؤال منهم أن يسلبهم الضعف و الذّله بسلب الغرض منه و هو سلب الشىء بسلب سببه.

و أما الثانى أعنى التنجيه فهو الذى ذكره حكايه عنهم فى الآيه الثانيه «وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ».

قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً الخ؛التبوّى أخذ المسكن و المنزل،و مصر بلد فرعون،و القبله فى الأصل بناء نوع من المصدر كجلسه أى الحاله التى يحصل بها التقابل بين الشىء و غيره فهو مصدر بمعنى الفاعل أى اجعلوا بيوتكم متقابله يقابل بعضها بعضا و فى وجهه واحده و كان الغرض أن يتمكنا منهم بالتبليغ و يتمكنوا من إقامه الصلاه جماعه كما يدل عليه او يشعر به قوله بعده: «وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ» لوقوعه بعده.

و أما قوله: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ فالسياق يدل على أن المراد به البشاره بإجابه ما سألوه فى دعائهم المذكور آنفا «رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً» الى آخر الآيتين.

و المعنى:و أوحينا الى موسى و أخيه أن اتّخذا لقومكما مساكن من البيوت فى مصر -و كأنهم لم يكونوا الى ذاك الحين إلاّ كهيئه البدويين يعيشون فى الفساطيط أو عيشه تشبهها- و اجعلا أنتما و قومكما بيوتكم متقابله و فى جهه واحده يتصل بذلك بعضكم ببعض و يتمشى أمر التبليغ و المشاوره و الاجتماع فى الصلوات،و أقيموا الصلاه و بشّر يا موسى أنت المؤمنين بأن اللّه سينجّيهم من فرعون و قومه.

قوله تعالی: وَ قٰالَ مُوسیٰ رَبَّنٰا إِنَّکَ آتَیْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِینَهً وَ أَمْوٰالاً الخ؛الزینه بناء نوع من الزین و هی الهیئه التی تجذب النفس الی الشیء،و النسبه بین الزینه و المال العموم من وجه فبعض الزینه لیس بمال یبذله بإزائه الثمن کحسن الوجه و اعتدال القامه،و بعض المال لبس بزینه کالأنعام و الأراضی،و بعض المال زینه کالحلی و التقابل الواقع بین الزینه و المال یعطی أن یکون المراد بالزینه جهه الزینه من غیر نظر الی المالیه کالحلی و الریاش و الأثاث و الأبنیه الفاخره و غیرها.

و قوله: رَبَّنٰا لِیُضِلُّوا عَنْ سَبِیلِکَ قیل اللام للعاقبه،و المعنی و عاقبه أمرهم أنهم یضلون عن سبیلک،و لا یجوز أن یکون لام الغرض لأنّا قد علمنا بالأدله الواضحه أن اللّه سبحانه لا یبعث الرسول لیأمر الخلق بالضلال و لا یرید أیضا منهم الضلال،و کذلک لا یؤتیهم المال لیضلوا.انتهی.

و هو حقّ لکن فی الإضلال الابتدائی المستحیل علیه تعالی،و أما الإضلال بعنوان المجازاه و مقابله السوء بالسوء فلا دلیل علی امتناعه علی اللّه سبحانه بل یثبته کلامه فی موارد کثیره، و قد کان فرعون و ملؤه مصرّین علی الاستکبار و الإفساد ملحّین علی الإجرام فلا مانع من أن یؤتیهم اللّه بذلک زینه و أموالا لیضلوا عن سبیله جزاء بما کسبوا.

و ربما قیل:إن اللام فی لِیُضِلُّوا للدعاء،و ربما قیل:إن الکلام بتقدیر لا أی لئلا یضلوا عن سبیلک،و السیاق لا یساعد علی شیء من الوجهین.

و الطمس-کما قیل-تغیّر الی الدثور و الدروس فمعنی «اطْمِسْ عَلیٰ أَمْوٰالِهِمْ» غیّرها الی الفناء و الزوال،و قوله: «وَ اشْدُدْ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ» من الشد المقابل للحل أی أقس قلوبهم و اربط علیها ربطا لا ینشرح للحق فلا یؤمنوا حتی یروا العذاب الألیم فهو الطبع علی القلوب،و قول بعضهم:إن المراد بالشد تثبیتهم علی المقام بمصر بعد الطمس علی أموالهم لیکون ذلک أشد علیهم و آلم،و کذا قول آخرین:إنه کنایه عن إماتتهم و إهلاکهم من الوجوه

البعیده.

فمعنی الآیه:و قال موسی-و کان ذلک بعد یأسه من إیمان فرعون و ملئه و یقینه بأنهم لا یدومون إلاّ علی الضلال و الإضلال کما یدل علیه سیاق کلامه فی دعائه-ربّنا إنک جازیت فرعون و ملأه علی کفرهم و عتوّهم جزاء السوء فآتیتهم زینه و أموالا فی الحیاه الدنیا ربّنا إراده منک لأن یضلوا من اتّبعهم عن سبیلک،و إرادتک لا تبطل و غرضک لا یلغو ربّنا أدم علی سخطک علیهم و اطمس علی أموالهم و غیّرها عن مجری النعمه الی مجری النقمه،و اجعل قلوبهم مشدوده مربوطه فلا یؤمنوا حتی یقفوا موقفا لا ینفعهم الإیمان و هو زمان یرون فیه العذاب الإلهی.

و هذا الدعاء من موسی علیه السّلام علی فرعون و ملئه إنما هو بعد یأسه التام من إیمانهم،و علمه أنه لا یترقّب منهم فی الحیاه إلاّ أن یضلوا و یضلوا کدعاء نوح علی قومه فیما حکاه اللّه: رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکٰافِرِینَ دَیّٰاراً إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبٰادَکَ وَ لاٰ یَلِدُوا إِلاّٰ فٰاجِراً کَفّٰاراً (نوح/۲۷)،و حاشا ساحه الأنبیاء علیهم السّلام أن یتکلموا علی الخرص و المظنّه فی موقف یشافهون فیه رب العالمین جلت کبریاؤه و عز شأنه.

قوله تعالی: قٰالَ قَدْ أُجِیبَتْ دَعْوَتُکُمٰا فَاسْتَقِیمٰا وَ لاٰ تَتَّبِعٰانِّ سَبِیلَ الَّذِینَ لاٰ یَعْلَمُونَ الخطاب-علی ما یدل علیه السیاق-لموسی و هارون و لم یحک الدعاء فی الآیه السابقه إلاّ عن موسی،و هذا یؤید ما ذکره المفسرون:أنّ موسی صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان یدعو، و کان هارون یؤمّن له و آمین دعاء فقد کانا معا یدعوان و إن کان متن الدعاء لموسی علیه السّلام وحده.

و الاستقامه هو الثبات علی الأمر،و هو منهما علیهما السّلام الثبات علی الدعوه الی اللّه و علی إحیاء کلمه الحق،و المراد بالذین لا یعلمون الجهله من شعب إسرائیل و قد وصفهم موسی علیه السّلام بالجهل کما فی قوله: قٰالَ إِنَّکُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (الأعراف/۱۳۸).

و المعنى قالَ اللّه مخاطبا لموسى و هارون «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما» من سؤال العذاب الأليم لفرعون و ملئه،و الطمس على أموالهم و الشد على قلوبهم «فَاسْتَقِيما» و اثبتا على ما أمرتما به من الدعوه الى اللّه و إحياء كلمه الحق «وَ لا تَتَّبِعانِّ» البتّه «سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» بإجابه ما يقترحون عليكما عن أهواء أنفسهم و دواعى شهواتهم،و فيه نوع تلويح الى أنهم سيسألون أمورا فيها إحياء سنّتهم القوميه و سيرتهم الجاهليه.

و بالجمله فالآيه تذكر إجابه دعوتهما المتضمنه لعذاب فرعون و ملئه و عدم توفيقهم للايمان و وعدهما بذلك،و لذلك ذكر فى الآيه التاليه وفاؤه تعالى بهذا الوعد بخصوصيته التى فيه.

و لم يكن فى الدعاء ما يدل على مسأله الفور أو التراخى فى القضاء عليهم بالعذاب و على ذلك جرى أيضا سياق الآيه الداله على القبول و الإجابه و كذا الآيه المخبره عن كيفيه إنجازه، و قد نقل فى المجمع عن ابن جريج أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنه قال:و روى ذلك عن أبى عبد اللّه عليه السّلام،و رواه عنه عليه السّلام فى الاحتجاج و كذا فى الكافى و تفسير العياشى عن هشام بن سالم عنه عليه السّلام و فى تفسير القمى عن أبيه عن النوفى عن السكونى عنه عليه السّلام.

قوله تعالى: وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً الى آخر الآيه،البغى و العدو كالعدوان الظلم و إدراك الشىء اللحوق به و التسلط عليه كما أن اتّباع الشىء طلب اللحوق به.

و قوله: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ أى آمنت بأنه.

و قد وصف اللّه بالذى آمنت به بنو إسرائيل ليظفر بما ظفروا به بإيمانهم و هو مجاوزه البحر و الأمان من الغرق،و لذلك أيضا جمع بين الإيمان و الإسلام ليزيل بذلك أثر ما كان يصرّ عليه من المعصيه و هو الشرك باللّه و الاستكبار على اللّه،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ آلآن بالمد أصله

ءالآن أی أ تؤمن باللّه الآن و هو حین أدرککَ العذاب و لا إیمان و توبه حین غشیان العذاب و مجیء الموت من کل مکان،و قد عصیت قبل هذا و کنت من المفسدین،و أفنیت أیامک فی معصیته،و لم تقدم التوبه لوقتها فما ذا ینفعک الإیمان بعد فوت وقته و هذا هو الذی کان موسی و هارون سألاه ربهما ان یأخذه بعذاب ألیم و یسد سبیله الی الإیمان إلّا حین یغشاه العذاب فلا ینفعه الإیمان و لا تغنی عنه التوبه شیئا.

قوله تعالی: فَالْیَوْمَ نُنَجِّیکَ بِبَدَنِکَ لِتَکُونَ لِمَنْ خَلْفَکَ آیَهً وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ النّاسِ عَنْ آیاتِنا لَغافِلُونَ التنجیه و الإنجاء تفعیل و إفعال من النجاه کالتخلیص و الإخلاص من الخلاص وزنا و معنی.

و تنجیته ببدنه تدل علی أن له اما آخر وراء البدن فقده بدنه بغشیان العذاب و هو النفس التی تسمی ایضا روحا،و هذه النفس المأخوذه هی التی یتوفاها اللّه و یأخذها حین موتها کما قال تعالی: اَللّهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِها (الزمر۴۲/)،و قال: قُلْ یَتَوَفّاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ (الم السجده۱۱/)،و هی التی یخبر عنها الانسان بقوله:«أنا»و هی التی بها تتحقق للإنسان إنسانیته،و هی التی تدرک و ترید و تفعل الأفعال الانسانیه بواسطه البدن بما له من القوی و الأعضاء المادیه،و لیس للبدن إلّا أنه آله و أداه تعمل بها النفس أعمالها المادیه.

و لمکان الاتحاد الذی بینها و بین البدن یسمی باسمها البدن و إلّا فأسماء الأشخاص فی الحقیقه لنفوسهم لا لأبدانهم،و ناهیک فی ذلک التغیّر المستمر الذی یعرض البدن مده الحیاه، و التبدل الطبیعی الذی یطرأ علیه حینا بعد حین حتی ربما تبدل البدن بجمیع أجزائه الی أجزاء أخر تترکب بدنا آخر فلو کان زید هو البدن الذی ولدته أمه یوم ولدته و الاسم له لکان غیره و هو ذو سبعین و ثمانین قطعا و الاسم لغیره حتما،و لم یثب و لم یعاقب الانسان و هو شائب علی ما عمله و هو شابّ لأن الطاعه و المعصیه لغیره.

فهذه و أمثالها شواهد قطعيه على أن إنسانيه الانسان بنفسه دون بدنه،و الأسماء للنفوس لا للأبدان يدركها الانسان و يعرفها إجمالا و إن كان ربما أنكرها فى مقام التفصيل.

و بالجمله فالآيه: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ كالصريح أو هو صريح فى أن النفوس وراء الأبدان،و أن الأسماء للنفوس دون الأبدان إلّا ما يطلق على الأبدان بعنايه الاتحاد.

فمعنى: نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ نخرج بدنك من اليم و ننجيه،و هو نوع من تنجيتك-لما بين النفس و البدن من الاتحاد القاضى بكون العمل الواقع على أحدهما واقعا بنحو على الآخر- لتكون لمن خلفك آيه،و هذا بوجه نظير قوله تعالى: مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ (طه/ ۵۵)فإن الذى يعاد الى الأرض هو جسد الانسان دون الانسان التام فليست نسبه الإعاده الى الانسان إلّا لما بين نفسه و بدنه من الاتحاد.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أى أسكناهم مسكن صدق،و إنما يضاف الشىء الى الصدق نحو وعد صدق و قدم صدق و لسان صدق و مدخل صدق و مخرج صدق للدلاله على أن لوازم معناه و آثاره المطلوبه منه موجوده فيه صدقا من غير أن يكذب فى شىء من آثاره التى يعده بلسان دلالته الالتزاميه لطالبه فوعد صدق مثلا هو الوعد الذى سيفى به واعده،و يسر بالوفاء به موعوده،و يحق أن يطمع فيه و يرجى وقوعه.فإن لم يكن كذلك فليس بوعد صدق بل وعد كذب كأنه يكذب فى معناه و لوازم معناه.

و على هذا فقوله: مُبَوَّأَ صِدْقٍ يدل على أن اللّه سبحانه بوّأهم مبوءا يوجد فيه جميع ما يطلبه الإنسان من المسكن من مقاصد السكنى كطيب الماء و الهواء و بركات الأرض و وفور نعمها و الاستقرار فيها و غير ذلك،و هذه هى نواحى بيت المقدس و الشام التى أسكن اللّه بنى إسرائيل فيها و سماها الأرض المقدسه المباركه و قد قص القرآن دخولهم فيها.

و الآيه أعنى قوله: وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ -الى قوله- مِنَ الطَّيِّباتِ

مسوقه سوق الشكوى و العتبى،و يشهد به تذييلها بقوله: «فَمَا اخْتَلَفُوا حَتّى جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ» و قوله: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ» الى آخر الآيه بيان لعاقبه اختلافهم عن علم و بمنزله أخذ النتيجه من القصه.

و المعنى:أنا أتممنا على بنى إسرائيل النعمه و بوأناهم مبوّء صدق و رزقناهم من الطيبات بعد حرمانهم من ذلك مده طويله كانوا فيها فى إساره القبط فوحدنا شعبهم و جمعنا شملهم فكفروا النعمه و فرّقوا الكلمه و اختلفوا فى الحق،و لم يكن اختلافهم عن عذر الجهل و إنما اختلفوا عن علم إن ربك يقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٩۴ الى ١٠٣]

اشاره

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ فَسْئَلِ اَلَّذِينَ يَقْرَؤُنَ اَلْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جٰاءَكَ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاٰ تَكُونَنَّ مِنَ اَلْمُمْتَرِينَ (٩۴) وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ اَللّٰهِ فَتَكُونَ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ (٩۵) إِنَّ اَلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ (٩۶) وَ لَوْ جٰاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتّٰى يَرَوُا اَلْعَذٰابَ اَلْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْ لاٰ كٰانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهٰا إِيمٰانُهٰا إِلاّٰ قَوْمَ يُونُسَ لَمّٰا آمَنُوا كَشَفْنٰا عَنْهُمْ عَذٰابَ اَلْخِزْيِ فِي اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ مَتَّعْنٰاهُمْ إِلىٰ حِينٍ (٩٨) وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي اَلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ اَلنّٰاسَ حَتّٰى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَ مٰا كٰانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاّٰ بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ يَجْعَلُ اَلرِّجْسَ عَلَى اَلَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ اُنْظُرُوا مٰا ذٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا تُغْنِي اَلْآيٰاتُ وَ اَلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاّٰ مِثْلَ أَيّٰامِ اَلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ اَلْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنٰا وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنٰا نُنْجِ اَلْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

بیان:

قوله تعالی: فَإِنْ كُنْتَ فِی شَكٍّ مِمّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَیْكَ الی آخر الآیه الشک الریب، و المراد بقوله: «مِمّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَیْكَ» المعارف الراجعه الی المبدإ و المعاد و السنّه الإلهیه فی القضاء علی الامم مما تقدّم فی السوره،و قوله: «یَقْرَؤُنَ الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكَ» «یَقْرَؤُنَ» فعل مضارع استعمل فی الاستمرار «مِنْ قَبْلِكَ» حال من الکتاب عامله متعلّقه المقدّره و التقدیر منزلا من قبلک.کل ذلک علی ما یعطیه السیاق.

و المعنی «فَإِنْ كُنْتَ» أیها النبی«فی ریب»و شک «مِمّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَیْكَ» من المعارف الراجعه الی المبدإ و المعاد و ما قصصنا علیک اجمالا من قصص الأنبیاء الحاکیه لسنه اللّه الجاریه فی خلقه من الدعوه أولا ثم القضاء بالحق «فَسْئَلِ» اهل الکتاب «الَّذِینَ» لا یزالون «یَقْرَؤُنَ» جنس «الْكِتٰابَ» منزلا من السماء «مِنْ قَبْلِكَ» أقسم «لَقَدْ جٰاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاٰ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِینَ» المتردّدین.

ص :۸۱

و هذا لا يستلزم وجود ريب فى قلب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لا تحقّق شك منه فانّ هذا النوع من الخطاب كما يصحّ أن يخاطب من يجوز عليه الريب و الشك كذلك يصحّ أن يخاطب به من هو على يقين من القول و بيّنه من الأمر على نحو التكنيه عن كون المعنى الذى أخبر به المخبر ممّا تعاضدت عليه الحجج و تجمعت عليه الآيات فان فرض من المخاطب او السامع شكّ فى واحده منها كان له ان يأخذ بالاخرى.

و هذه طريقه شائعه فى عرف التخاطب و التفاهم يأخذ بها العقلاء فيما بينهم جريا على ما تدعوهم اليه قرائحهم ترى الواحد منهم يقيم الحجه على أمر من الامور ثم يقول:فان شككت فى ذلك أو سلّمنا أنها لا توجب المطلوب فهناك حجّه اخرى على ذلك و هى أنّ كذا كذا،و ذلك كنايه عن أنّ الحجج متوفره متعاضده كالدعائم المضروبه على ما لا يحتاج الى أزيد من واحد منها لكنّ الغرض من تكثيرها هو أن تكون العريشه قائمه عليها على تقدير قيام الكل و البعض.

فيئول معنى الكلام الى أن هذه معارف بيّنها اللّه لك بحجج تضطر العقول الى قبولها و قصص تحكى سنّه اللّه فى خلقه و الآثار تدل عليها،بيّنها فى كتاب لا ريب فيه،فعلى ما بيّنه حجّه و هناك حجه أخرى و هى أنّ أهل الكتب السماويه الموفين لها حق قراءتها يجدون ذلك فيما يقرءونه من الكتاب فهناك مبدأ و معاد،و هناك دين الهى بعث به رسله يدعون اليه،و لم يدعوا أمّه من الامم إلاّ انقسموا قبيلين مؤمن و مكذّب فأنزل اللّه آيه فاصله بين الحق و الباطل و قضى بينهم.

و هذا أمر لا يسع أهل الكتاب أن ينكروه،و إنما كانوا ينكرون بشارات النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و بعض ما يختص به الإسلام من المعارف و ما غيّروه فى الكتب من الجزئيات،و من لطيف الإشاره أن اللّه سبحانه لم يذكر فى القصص المذكوره فى هذه السوره قصّه هود و صالح لعدم تعرّض التوراه الموجوده عندهم لقصّتهما و كذا قصه شعيب و قصه المسيح لعدم توافق أهل الكتاب عليها

و ليس إلّا لمكان أن يستشهد فى هذه الآيه بما لا يمتنعون من تصديقه.

فهذه الآيه فى القاء الحجّه على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم وزانها وزان قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمٰاءُ بَنِى إِسْرٰائِيلَ (الشعراء١٩٧/)فى القاء الحجّ الى الناس.

على أنّ السوره من اوائل السور النازله بمكّه،و لم تشتد الخصومه يومئذ بين المسلمين و أهل الكتاب و خاصه اليهود اشتدادها بالمدينه،و لم يركبوا بعد من العناد و اللجاج ذاك المركب الصعب الذى ركبوه بعد هجره النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و نشوب الحروب بينهم و بين المسلمين حتى بلغوا المبلغ الذى قالوا: مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (الأنعام٩١/).

فهذا ما يعطيه سياق الآيه من المعنى،و أظنك إن أمعنت فى تدبر الآيه و سائر الآيات التى تناسبها مما يخاطب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بحقيه ما نزل اليه من ربه،و يتحدى على البشر بعجزهم عن إتيان مثله،و ما يصف النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنه على بصيره من أمره،و أنه على بينه من ربه أقنعك ذلك فيما قدمناه من المعنى،و أغناك عن التمحلات التى ارتكبوها فى تفسير الآيه بما لا جدوى فى نقلها و البحث عنها.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ اللّٰهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخٰاسِرِينَ نهى عن الارتياب و الامتراء أولا ثم ترقى الى النهى عن التكذيب بآيات اللّه و هو العناد مع الحق استكبارا على اللّه فإن الآيه لا تكون آيه إلّا مع وضوح دلالتها و ظهور بيانها و تكذيب ما هذا شأنه لا يكون مبنيا إلّا على العناد و اللجاج.

و قوله: فَتَكُونَ مِنَ الْخٰاسِرِينَ تفريع على التكذيب بآيات اللّه فهو نتيجته و عاقبته فهو المنهى عنه بالحقيقه.و المعنى:و لا تكن من الخاسرين،و الخسران زوال رأس المال بانتقاصه او ذهاب جميعه،و هو الإيمان باللّه و آياته الذى هو رأس مال الإنسان فى سعاده حياته فى الدنيا و الآخره على ما يستفاد من الآيه التاليه حيث يعلل خسرانهم أنهم لا يؤمنون.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ وَ لَوْ جٰاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ الخ؛تعليل للنهى السابق ببيان ما للمنهى عنه من الشأن فإن اصل النظم بحسب المعنى المستفاد من السياق أن يقال:لا تكونن من المكذّبين لأن المكذّبين لا يؤمنون فيكونون خاسرين لأن رأس مال السعاده هو الإيمان فوضع قوله: «الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ» موضع«المكذبين»للدلاله على سبب الحكم و أن المكذّبين إنما يخسرون لأن كلمه اللّه سبحانه تحق عليهم فالأمر على كل حال الى اللّه سبحانه.

و الكلمه الإلهيه التى حقت على المكذّبين بآيات اللّه هى قوله يوم شرع الشريعه العامه لآدم و زوجته فمن بعدهما من ذريتهما: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهٰا جَمِيعاً -الى قوله- وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (البقره۳۹/).

و هذا هو الذى يريده بقوله فى مقام بيان سبب خسران المكذّبين: «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ» و هم المكذّبون حقت عليهم كلمه العذاب فهم «لاٰ يُؤْمِنُونَ» و لذلك كانوا خاسرين لأنهم ضيعوا رأس مال سعادتهم و هو الإيمان فحرموه و حرموا بركاته فى الدنيا و الآخره،و إذ حق عليهم أنهم لا يؤمنون فلا سبيل لهم الى الإيمان و لو جاءتهم كل آيه «حَتّٰى يَرَوُا الْعَذٰابَ الْأَلِيمَ» و لا فائده فى الإيمان الاضطرارى.

قوله تعالى: فَلَوْ لاٰ كٰانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهٰا إِيمٰانُهٰا إِلاّٰ قَوْمَ يُونُسَ لَمّٰا آمَنُوا كَشَفْنٰا عَنْهُمْ عَذٰابَ الْخِزْيِ الخ؛ظاهر السياق أن لو لا للتحضيض،و أن المراد بقوله: «آمَنَتْ» الإيمان الاختيارى الصحيح كما يشعر به قوله بعده: «فَنَفَعَهٰا إِيمٰانُهٰا» و لوقوع التحضيض على أمر ماض لم يتحقق أفادت الجمله معنى اليأس المساوق للنفى فاستقام الاستثناء الذى فى قوله: «إِلاّٰ قَوْمَ يُونُسَ».

و المعنى:هلاّ كانت قريه-من هذه القرى التى جاءتهم رسلنا فكذبوهم-آمنت قبل نزول العذاب إيمانا اختياريا فنفعها إيمانها.لا و لم يؤمن إلاّ قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم عذاب

الخزى فى الحياه الدنيا و متعناهم بالحياه الى حين آجالهم العاديه الطبيعيه.و منه يعلم أن الاستثناء متصل.

قوله تعالى: وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً اى لكنه لم يشأ ذلك فلم يؤمن جميعهم و لا يؤمن فالمشيئه فى ذلك الى اللّه سبحانه و لم يشأ ذلك فلا ينبغى لك أن تطمع فيه و لا أن تجتهد لذلك لأنك لا تقدر على إكراههم و إجبارهم على الإيمان، و الإيمان الذى نريده منهم هو ما كان عن حسن الاختيار لا ما كان عن إكراه و إجبار.

و لذلك قال بعد ذلك فى صوره الاستفهام الإنكارى «أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النّاسَ حَتّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» اى بعد ما بيّنا أن أمر المشيه الى اللّه و هو لم يشأ إيمان جميع الناس فلا يؤمنون باختيارهم البته لم يبق لك إلاّ أن تكره الناس و تجبرهم على الإيمان،و أنا أنكر ذلك عليك فلا أنت تقدر على ذلك و لا أنا أقبل الإيمان الذى هذا نعته.

قوله تعالى: وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ لما ذكر فى الآيه السابقه أن الأمر الى اللّه سبحانه لو شاء أن يؤمن أهل الأرض جميعا لآمنوا لكنه لم يشأ فلا مطمع فى إيمان الجميع زاد فى هذه الآيه فى بيان ذلك ما محصله أن الملك-بالكسر-للّه فله أصاله التصرف فى كل أمر لا يشاركه فى ذلك مشارك إلاّ أن يأذن لبعض ما خلقه فى بعض التصرفات.

و الإيمان باللّه عن اختيار و الاهتداء اليه أمر من الامور يحتاج فى تحققه الى سبب يخصه، و لا يؤثر هذا السبب و لا يتصرف فى الكون بإيجاد مسببه إلاّ عن إذن من اللّه سبحانه فى ذلك لكنّ اللّه سبحانه بجعل الرجس و الضلال على أهل العناد و الجحود لم يأذن فى إيمانهم،و لا رجاء فى سعادتهم.

و لو أنه تعالى أذن فى ذلك لأحد لأذن فى إيمان غير أولئك المكذبين فقوله: «وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ» حكم عام حقيقى ينيط تملك النفوس للايمان الى إذن اللّه،و قوله:

«وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ» الخ؛يسلب عن الذين لا يعقلون استعداد حصول الإذن فيبقى غيرهم.

و قد أريد فى الآيه بالرجس ما يقابل الإيمان من الشك و الريب بمعنى أنه هو المصداق المنطبق عليه الرجس فى المقام لما قوبل بالإيمان،و قد عرّف فى قوله تعالى: وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمٰا يَصَّعَّدُ فِي السَّمٰاءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللّٰهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ (الأنعام١٢۵/).

و قد أريد ايضا بقوله: اَلَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ أهل التكذيب بآيات اللّه من جهه أنهم ممن حقّت عليه كلمه العذاب فإنهم الذين طبع اللّه على قلوبهم فهم لا يعقلون قال: وَ طَبَعَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (التوبه٩٣/).

قوله تعالى: قُلِ انْظُرُوا مٰا ذٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ اى من المخلوقات المختلفه المتشتّته التى كل واحد منها آيه من آيات اللّه تعالى تدعو الى الإيمان،و قوله: «وَ مٰا تُغْنِي الْآيٰاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ» ظاهره أن «مٰا» استفهاميه و الجمله مسوقه بداعى الإنكار و إظهار الأسف كقول الطبيب:بما ذا أعالج الموت؟أى إنا أمرناك أن تنذرهم بقولنا «قُلِ انْظُرُوا مٰا ذٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ» الخ؛لكن أى تأثير للنذر فيهم او للآيات فيهم و هم لا يؤمنون اى عازمون مجمعون على أن لا يؤمنوا بالطبع الذى على قلوبهم و ربما قيل:إن ما نافيه.

قوله تعالى: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاّٰ مِثْلَ أَيّٰامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ تفريع على ما فى الآيه السابقه من قوله: «وَ مٰا تُغْنِي الْآيٰاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ» اى اذا لم تغن الآيات و النذر عنهم شيئا و هم لا يؤمنون البته فهم لا ينتظرون إلاّ مثل ايام الذين خلوا من قبلهم،و إنما يحبسون نفوسهم لآيه العذاب الإلهى التى تفصل بينك و بينهم فتقضى عليهم لأنهم حقّت عليهم كلمه العذاب.

و لذا أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ان يبلّغهم ذلك بقوله: «قُلْ فَانْتَظِرُوا» اى مثل ايام الذين خلوا من قبلكم يعنى يوم العذاب الذى يفصل بينى و بينكم فتؤمنون و لا ينفعكم إيمانكم «إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ

الْمُنْتَظِرِينَ».

و قد تبيّن بما مرّ أن الاستفهام فى الآيه إنكارى.

قوله تعالى: ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا الجمله تتمه صدر الآيه السابقه و قوله: «قُلْ فَانْتَظِرُوا» الخ؛جمله معترضه و النظم الأصلى بحسب المعنى «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ» أى قومک هؤلاء «إِلاّ مِثْلَ أَيّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ» من الامم الذين كانت تحق عليهم كلمه العذاب فنرسل اليهم آيه العذاب «ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا».

و إنما اعترض بقوله: قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ بين الكلام لأنه يتعلق بالجزء الذى يتقدمه من مجموع الكلام المستفهم عنه فإنه المناسب لأن يجعل جوابا لهم، و هو يتضمن انتظار النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم للقضاء بينه و بينهم،و أما تنجيته و تنجيه المؤمنين به فإن المنتظر لها هو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المؤمنون لا هو وحده،و لا يتعلق هذا الانتظار بفصل القضاء بل بالنجاه من العذاب،و هو مع ذلک لا يتعلق به غرض فى المقام الذى سيق فيه الكلام لإنذار المشركين لا لتبشير النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المؤمنين فافهم ذلک.

و أما قوله: كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ فمعناه كما كنا ننجى الرسل و الذين آمنوا فى الامم السابقه عند نزول العذاب كذلک ننجى المؤمنين بک من هذه الامه حقّ علينا ذلک حقا،فقوله: «حَقًّا عَلَيْنا» مفعول مطلق قام مقام فعله المحذوف،و اللام فى «الْمُؤْمِنِينَ» للعهد و المراد به مؤمنو هذه الامه،و هذا هو الوعد الجميل للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المؤمنين من هذه الامه بالإنجاء.

و ليس من البعيد أن يستفاد من قوله: «نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ» أن فيه تلويحا الى أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم لا يدرک هذا القضاء،و إنما يقع بعد ارتحاله حيث ذكر المؤمنون و لم يذكر معهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم مع أنه تعالى ذكر فى السابقين رسله مع المؤمنين بهم كما ربما يخطر بالبال من تكرر قوله تعالى فى كلامه: «فَإِمّا نُرِيَنَّکَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّکَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ» او ما فى معناه.

[سوره يونس (۱۰): الآيات ۱۰۴ الى ۱۰۹]

اشاره

قُلْ يا أَيُّهَا اَلنّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ اَلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّهِ وَ لكِنْ أَعْبُدُ اَللّهَ اَلَّذِي يَتَوَفّاكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ (۱۰۴) وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (۱۰۵) وَ لا تَدْعُ مِنْ دُونِ اَللّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَ لا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ اَلظّالِمِينَ (۱۰۶) وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اَللّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاّ هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِيمُ (۱۰۷) قُلْ يا أَيُّهَا اَلنّاسُ قَدْ جاءَكُمُ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۱۰۸) وَ اِتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَ اِصْبِرْ حَتّى يَحْكُمَ اَللّهُ وَ هُوَ خَيْرُ اَلْحاكِمِينَ (۱۰۹)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ يا أَيُّهَا النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي الخ؛قد تقدم غير مره أن الدين هو السنّه المعمول بها فى الحياه لنيل سعادتها و فيه معنى الطاعه كما فى قوله تعالى:

وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلّٰهِ (النساء/۱۴۶)و ربما استعمل بمعنى الجزاء.

و قوله: إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي أى فى طريقتى التى أسلكها و أثبت عليها و شك الانسان فى دين غيره و طريقته المعموله له إنما يكون فى ثباته عليه هل يستقر عليه و يستقيم؟و قد كان المشركون يطمعون فى دينه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و ربما رجوا أن يحولوه عنه فينجوا من دعوته الى التوحيد و رفض الشرك بالآلهه.

فالمعنى:إن كنتم تشكون فيما أدين به و أدعو اليه هل أستقيم عليه؟أو شككتم فى دينى ما هو؟و لم تحصّلوا الأصل الذى يبتنى عليه فإنى أصرح لكم القول فيه و أبينه لكم و هو أنى لا أعبد آلهتكم و أعبد اللّه وحده.

و قد أخذ فى قوله: وَ لٰكِنْ أَعْبُدُ اللّٰهَ الَّذِي يَتَوَفّٰاكُمْ له تعالى وصف توفّيهم دون غيره من أوصافه تعالى لأنهم إنما كانوا يعبدون الإله لزعمهم الحاجه اليه فى دفع الضرر و جلب النفع،و التوفى أمر لا يشكون أنه سيصيبهم و أنه للّه وحده فمساس الحاجه الى الأمن من ضرره يوجب عباده اللّه سبحانه.

على أن اختيار التوفى للذكر ليكون فى الكلام تلويح الى تهديدهم فإن الآيات السابقه وعدتهم العذاب وعدا قطعيا،و وفاه المشركين ميعاد عذابهم،و يؤيد ذلك اتباع قوله:

وَ لٰكِنْ أَعْبُدُ اللّٰهَ الَّذِي يَتَوَفّٰاكُمْ بقوله: أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فإن نجاتهم من العذاب جزء الوعد الذى ذكره اللّه فى الآيتين السابقتين على هذه الآيه «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاّٰ مِثْلَ أَيّٰامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ -الى قوله- نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ».

و المعنى:فاعلموا و استيقنوا أنى لا أعبد آلهتكم و لكن أعبد اللّه الذى وعد عذاب المكذبين منكم و إنجاء المؤمنين و أمرنى أن أكون منهم كما أمرنى أن أجتنب عباده الآلهه.

قوله: وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً عطف على موضع قوله: «وَ أُمِرْتُ أَنْ» الخ؛فإنه فى معنى و كن من المؤمنين،و قد مر الكلام فى معنى إقامه الوجه للدين الحنيف غير

مره.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُكَ وَ لاٰ يَضُرُّكَ نهى بعد نهى عن الشرك،و بيان أن الشرك يدخل الإنسان فى زمره الظالمين فيحق عليه ما أوعد اللّه به الظالمين فى كلامه.

و من لطيف التعبير قوله حين ذكر الدعاء «مٰا لاٰ يَنْفَعُكَ وَ لاٰ يَضُرُّكَ» و حين ذكر العباده «الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ» فإن العباده بالطبع يعطى للمعبود شعورا و عقلا-فناسب أن يعبر عنه بنحو «الَّذِينَ» المستعمل فى ذوى العلم و العقل،و الدعاء و إن كان كذلك لمساوقته العباده غير أنه لما وصف المدعو بما لا ينفع و لا يضر،و ربما توهم أن ذوى العلم و العقل يصح أن تنفع و تضر،عبّر بلفظه«ما»ليلوّح الى أنها جماد لا يتخيل فى حقهم إراده نفع أو ضرر.

و فى التعبير نفسه أعنى قوله: مٰا لاٰ يَنْفَعُكَ وَ لاٰ يَضُرُّكَ إعطاء الحجه على النهى عن الدعاء.

قوله تعالى: إِنْ يَمْسَسْكَ اللّٰهُ بِضُرٍّ فَلاٰ كٰاشِفَ لَهُ إِلاّٰ هُوَ الخ؛الجمله حاليه و هى تتمه البيان فى الآيه السابقه،و المعنى:و لا تدع من دون اللّه ما لا نفع لك عنده و لا ضرر، و الحال أن ما مسّك اللّه به من ضر لا يكشفه غيره و ما أرادك به من خير لا يرده غيره فلهو القاهر دون غيره يصيب بالخير عباده بمشيئته و إرادته،و هو مع ذلك غفور رحيم يغفر ذنوب عباده و يرحمهم،و اتصافه بهذه الصفات الكريمه و كون غيره صفر الكف منها يقتضى تخصيص العباده و الدعوه به.

قوله تعالى: قُلْ يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ قَدْ جٰاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ و هو القرآن أو ما يشتمل عليه من الدعوه الحقه،و قوله: فَمَنِ اهْتَدىٰ الى آخر الآيه؛إعلام لهم بكونهم مختارين فيما ينتخبونه لأنفسهم من غير أن يسلبوا الخيره ببيان حقيقه هى ان الحق-و قد جاءهم-من حكمه ان من اهتدى اليه فإنما يهتدى و نفعه عائد اليه،و من ضل عنه فإنما يضل

و ضرره على نفسه فلهم ان يختاروا لأنفسهم ما يحبونه من نفع او ضرر،و ليس هو صلّى اللّه عليه و آله و سلم وكيلا لهم يتصدى من الفعل ما هو لهم فالآيه كنايه عن وجوب اهتدائهم الى الحق لان فيه نفعهم.

قوله تعالى: وَ اتَّبِعْ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتّٰى يَحْكُمَ اللّٰهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحٰاكِمِينَ أمر باتباع ما يوحى اليه و الصبر على ما يصيبه فى جنب هذا الاتباع من المصائب و المحن،و وعد بأن اللّه سبحانه سيحكم بينه و بين القوم،و لا يحكم إلّا بما فيه قره عينه فالآيه تشتمل على أمره بالاستقامه فى الدعوه و تسليته فيما يصيبه،و وعده بأن العاقبه الحسنى له.

و قد اختتمت الآيه بحكمه تعالى،و هو الذى عليه يعتمد معظم آيات السوره فى بيانها.

و اللّه اعلم.

ص :٩١

سوره هود مکیه و هی مائه و ثلاث و عشرون آیه

اشاره

[سوره هود (۱۱): الآیات ۱ الی ۴]

اشاره

بِسْمِ اَللَّهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;الر كِتٰابٌ أُحْكِمَتْ آيٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (۱) أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اَللّٰهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ (۲) وَ أَنِ اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتٰاعاً حَسَناً إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (۳) إِلَى اَللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴)

بیان:

قوله تعالی: الر كِتٰابٌ أُحْكِمَتْ آيٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ المقابله بین الاحکام و التفصیل الذی هو ایجاد الفصل بین أجزاء الشیء المتصل بعضها ببعض، و التفرقه بین الامور المندمجه کل منها فی آخر تدل علی أن المراد بالاحکام ربط بعض الشیء

ص: ۹۲

ببعضه الآخر و إرجاع طرف منه الى طرف آخر بحيث يعود الجميع شيئا واحدا بسيطا غير ذى أجزاء و أبعاض.

و من المعلوم أن الكتاب اذا اتصف بالاحكام و التفصيل بهذا المعنى الذى مرّ فإنما يتصف بهما من جهه ما يشتمل عليه من المعنى و المضمون لا ـ من جهه ألفاظه او غير ذلك،و أن حال المعانى فى الاحكام و التفصيل و الاتحاد و الاختلاف غير حال الاعيان فالمعانى المتكثره اذا رجعت الى معنى واحد كان هذا الواحد هو الأصل المحفوظ فى الجميع و هو بعينه على إجماله هذه التفاصيل،و هى بعينها على تفاصيلها ذاك الإجمال و هذا كله ظاهر لا ريب فيه.

و على هذا فكون آيات الكتاب محكمه أوّلا ثم مفصله ثانيا معناه أن الآيات الكريمه القرآنيه على اختلاف مضامينها و تشتت مقاصدها و أغراضها ترجع الى معنى واحد بسيط، و غرض فارد أصلى لا ـ تكثّر فيه و لا تشتت بحيث لا تروم آيه من الآيات الكريمه مقصدا من المقاصد و لا ترمى الى هدف إلّا و الغرض الأصلى هو الروح السارى فى جثمانه و الحقيقه المطلوبه منه.

فلا غرض لهذا الكتاب الكريم على تشتت آياته و تفرّق أبعاضه إلّا غرض واحد متوحّد إذا فصّل كان فى مورد أصلا دينيا و فى آخر أمرا خلقيا و فى ثالث حكما شرعيا و هكذا كلما تنزّل من الاصول الى فروعها و من الفروع الى فروع الفروع لم يخرج من معناه الواحد المحفوظ،و لا يخطى غرضه فهذا الأصل الواحد بتركبه يصير كل واحد واحد من أجزاء تفاصيل العقائد و الأخلاق و الأعمال،و هى بتحليلها و إرجاعها الى الروح السارى فيها الحاكم على أجسادها تعود الى ذاك الأصل الواحد.

فتوحيده تعالى بما يليق بساحه عزّه و كبريائه مثلا فى مقام الاعتقاد هو إثبات أسمائه الحسنى و صفاته العليا،و فى مقام الأخلاق هو التخلق بالأخلاق الكريمه من الرضا و التسليم و الشجاعه و العفّه و السخاء و نحو ذلك و الاجتناب عن الصفات الرذيله،و فى مقام الأعمال

و الأفعال الإتيان بالأعمال الصالحه و الورع عن محارم اللّه.

و إن شئت فقل:إن التوحيد الخالص يوجب فى كل من مراتب العقائد و الأخلاق و الأعمال ما يبيّنه الكتاب الإلهى من ذلك كما أن كلا من هذه المراتب و كذلك أجزاؤها لا تتم من دون توحيد خالص.

فقد تبيّن أن الآيه فى مقام بيان رجوع تفاصيل المعارف و الشرائع القرآنيه الى أصل واحد هو بحيث اذا ركّب فى كل مورد من موارد العقائد و الأوصاف و الأعمال مع خصوصيه ذلك المورد أنتج حكما يخصه من الأحكام القرآنيه.

و قوله تعالى: مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ الحكيم من اسمائه الحسنى الفعليه يدلّ على اتقان الصنع،و كذا الخبير من اسمائه الحسنى يدلّ على علمه بجزئيات احوال الامور الكائنه و مصالحها،و إسناد إحكام الآيات و تفصيلها الى كونه تعالى حكيما خبيرا لما بينهما من النسبه.

قوله تعالى: أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا الآيه؛و ما بعدها تفسير لمضمون الآيه «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» و إذ كانت الآيه تتضمن أنه كتاب من اللّه الى...له آيات محكمه ثم مفصله كانت العنايه فى تفسيرها متوجهه الى إيضاح هذه الجهات.

و من المعلوم ان هذا الكتاب الذى انزله اللّه تعالى من عنده الى رسوله ليتلوه على الناس و يبلّغهم له وجه خطاب الى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و وجه خطاب الى الناس بوساطته اما وجه خطابه الى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو الذى يتلقاه الرسول من وحى اللّه فهو ان انذر و بشّر وادع الناس الى كذا و كذا،و هذا الوجه هو الذى عنى به فى اول سوره يونس حيث قال تعالى:

أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ (يونس٢/).

و اما وجه خطابه الى الناس و هو الذى يتلقاه الناس من الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم فهو ما يلقيه الى

الناس من المعنى فى ضمن تلاوته كلام اللّه عليهم بعنوان الرساله أنى ادعوكم الى اللّه دعوه نذير و بشير،و هذا الوجه من الخطاب هو الذى عنى به فى قوله: «أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ» الخ.

فالآیه من کلام اللّه تفسّر معنى إحكام آيات الكتاب ثم تفصيلها بحكايه ما يتلقاه الناس من دعوه الرسول اياهم بتلاوه كتاب اللّه عليهم،و ليس كلاما للرسول بطريق الحكايه و لا بتقدير القول و لا من الالتفات فى شىء،و لا ان التقدير:امركم بأن لا تعبدوا او«فصّلت آياته لأن لا تعبدوا إلاّ اللّه»بأن يكون قوله:«لا تعبدوا»نفيا لا نهيا فإن قوله بعد «وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ» معطوف على قوله: «أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ» و هو يشهد بأن«لا تعبدوا» نهى لا نفى.على ان التقدير لا يصار اليه من غير دليل فافهم ذلك فإنه من لطيف صنعه البلاغه فى الآيه.

و على هذا فقوله: أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ دعوه الى توحيد العباده بالنهى عن عباده غير اللّه من الآلهه المتخذه شركاء للّه،و قصر العباده فيه تعالى،و قوله: «وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ» امر بطلب المغفره من اللّه و قد اتخذوه ربا لهم برفض عباده غيره ثم امر بالتوبه و الرجوع اليه بالأعمال الصالحه،و يتحصّل من الجميع سلوك الطريق الطبيعى الموصل الى القرب و الزلفى منه تعالى،و هو رفض الآلهه دون اللّه ثم طلب المغفره و الطهاره النفسانيه للحضور فى حظيره القرب ثم الرجوع اليه تعالى بالأعمال الصالحه.

و قد جىء بأن التفسيريه ثانيا فى قوله: «وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا» الخ؛لاختلاف ما بين المرحلتين اللتين يشير اليهما قوله: «أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ» و هى مرحله التوحيد بالعباده مخلصا،و قوله:

«وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ» و هى مرحله العمل الصالح و إن كانت الثانيه من نتائج الاولى و فروعها.

و لكون التوحيد هو الأصل الأساسى و الاستغفار و التوبه نتيجه و فرعا متفرعا عليه أورد

النـذر و البشاره بعد ذكر التوحيد،و الوعد الجميل الذى يتضـمنه قوله: «يُمَتِّعْكُمْ» الخ؛بعد ذكر الاسـتغفار و التوبه فقال «أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّـ اللّهَ إِنَّنِى لَكُمْ مِنْهُ نَـذِيرٌ وَ بَشِـيرٌ» فبيّن به أن النـذر و البشـرى كـائنين مـا كانـا يرجعان الى التوحيـد و يتعلقان به ثم قال «وَ أَنِ اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَـناً» الخ؛فإن الآثار القيمه و النتائج الحسـنه المطلوبه إنما تترتب على الشـىء بعد ما تم فى نفسه و كمل بصـفاته و فروعه و نتائجه،و التوحيد و إن كان هو الأصل الوحيد للدين على سعته لكن شجرته لا تثمر ما لم تقم على ساقهـا و يتفرع عليها فروعها و أغصانها، «كَلِمَهً طَيِّبَهً كَشَـجَرَهٍ طَيِّبَهٍ أَصْـلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِى السَّماءِ تُؤْتِى أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها».

و الظاهر أن المراد بالتوبه فى الآيه الايمان كما فى قوله تعالى: فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ (المؤمنون٧)فيستقيم الجمع بين الاسـتغفار و التـوبه مـع عطـف التوبه عليه بثمّ، و المعنى اتركوا عبـاده الأصـنام بعـد هـذا و اطلبوا من ربكـم غفران مـا قـدمتم من المعصيه ثم آمنوا بربكم.

و قيـل:إن المعنى اطلبـوا المغفره و اجعلوهـا غرضـكم ثم توصـلوا اليه بـالتوبه و هـو غير جيـد و من التكلف مـا ذكره بعضـهم أن المعنى:استغفروا من ذنوبكم الماضـيه ثم توبوا اليه كلمـا أذنبتم فى المسـتقبل و كـذا قول آخر:إن «ثُمَّ» فى الآيه بمعنى الواو لأن التوبه و الاستغفار واحد.

و قوله: يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَـناً إِلى أَجَلٍ مُسَـمًّى الأجل المسـمى هو الوقت الـذى ينتهى اليه الحياه لا تتخطاه البته،فالمراد هو التمتيع فى الحيـاه الـدنيا بـل بالحيـاه الـدنيا لأن اللّه سـبحانه سـماها فى مواضع من كلامه متاعا،فالمتاع الحسن الى أجل مسـمى ليس إلاّ الحياه الدنيا الحسنه.

فيؤول معنى قوله: يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً على تقدير كون «مَتاعاً» مفعولا

مطلقا الی نحو من قولنا:یمتعکم تمتیعا حسنا بالحیاه الحسنه الدنیویه،و متاع الحیاه إنما یکون حسنا إذا ساق الإنسان الی سعادته الممکنه له،و هداه الی أمانی الإنسانیه من التنعم بنعم الدنیا فی سعه و أمن و رفاهیه و عزه و شرافه فهذه الحیاه الحسنه تقابل المعیشه الضنک التی یشیر إلیها فی قوله: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِکْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَهً ضَنْکاً (طه۱۲۴/).

و قوله: وَ یُؤْتِ کُلَّ ذِی فَضْلٍ فَضْلَهُ الفضل هو الزیاده و إذ نسب الفضل فی قوله: «کُلَّ ذِی فَضْلٍ فَضْلَهُ» الی من عنده الفضل من الأفراد کان ذلک قرینه علی کون الضمیر فی «فَضْلَهُ» راجعا الی ذی الفضل دون اسم الجلاله کما احتمله بعضهم و الفضل و الزیاده من المعانی النسبیه التی إنما تتحقق بقیاس شیء الی شیء و إضافته الیه.

فالمعنی:و یعطی کل من زاد علی غیره بشیء من صفاته و أعماله و ما یقتضیه من الاختصاص بمزید الأجر و خصوص موهبه السعاده تلک الزیاده من غیر أن یبطل حقه او یغصب فضله او یملکه غیره کما یشاهد فی المجتمعات غیر الدینیه و إن کانت مدنیه راقیه فلم تزل البشریه منذ سکنت الأرض و کونت أنواع المجتمعات الهمجیه او الراقیه او ما هی أرقی تنقسم الی طائفتین مستعلیه مستکبره قاهره،و مستذله مستعبده مقهوره،و لیس یعدّل هذا الافراط و التفریط و لا یسوی هذا الاختلاف إلاّ دین التوحید.

و قوله: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ عَذٰابَ یَوْمٍ کَبِیرٍ أی فإن تتولوا،الخ؛ بالخطاب،و الدلیل علیه قوله: «عَلَیْکُمْ» و ما تقدم فی الآیتین من الخطابات المتعدده فلا یصغی الی قول من یأخذ قوله: «تَوَلَّوْا» جمعا مذکرا غائبا من الفعل الماضی فإنه ظاهر الفساد.

[سوره هود (۱۱): الآیات ۵ الی ۱۶]

اشاره

أَلاٰ إِنَّهُمْ یَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاٰ حِینَ یَسْتَغْشُونَ ثِیٰابَهُمْ یَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۵) وَ مٰا مِنْ دَابَّهٍ فِی اَلْأَرْضِ إِلاّٰ عَلَی اَللّٰهِ رِزْقُهٰا وَ یَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا کُلٌّ فِی کِتٰابٍ مُبِینٍ (۶) وَ هُوَ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ وَ کٰانَ عَرْشُهُ عَلَی اَلْمٰاءِ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّکُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ اَلْمَوْتِ لَیَقُولَنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِینٌ (۷) وَ لَئِنْ أَخَّرْنٰا عَنْهُمُ اَلْعَذٰابَ إِلیٰ أُمَّهٍ مَعْدُودَهٍ لَیَقُولُنَّ مٰا یَحْبِسُهُ أَلاٰ یَوْمَ یَأْتِیهِمْ لَیْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۸) وَ لَئِنْ أَذَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَهً ثُمَّ نَزَعْنٰاهٰا مِنْهُ إِنَّهُ لَیَؤُسٌ کَفُورٌ (۹) وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ نَعْمٰاءَ بَعْدَ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَیَقُولَنَّ ذَهَبَ اَلسَّیِّئٰاتُ عَنِّی إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (۱۰) إِلاَّ اَلَّذِینَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ أُولٰئِکَ لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ أَجْرٌ کَبِیرٌ (۱۱) فَلَعَلَّکَ تٰارِکٌ بَعْضَ مٰا یُوحیٰ إِلَیْکَ وَ ضٰائِقٌ بِهِ صَدْرُکَ أَنْ یَقُولُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ کَنْزٌ أَوْ جٰاءَ مَعَهُ مَلَکٌ إِنَّمٰا أَنْتَ نَذِیرٌ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ (۱۲) أَمْ یَقُولُونَ اِفْتَرٰاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَیٰاتٍ وَ اُدْعُوا مَنِ اِسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۱۳) فَإِلَّمْ یَسْتَجِیبُوا لَکُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمٰا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اَللّٰهِ وَ أَنْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۴) مَنْ کٰانَ یُرِیدُ اَلْحَیٰاهَ اَلدُّنْیٰا وَ زِینَتَهٰا نُوَفِّ إِلَیْهِمْ أَعْمٰالَهُمْ فِیهٰا وَ هُمْ فِیهٰا لاٰ یُبْخَسُونَ (۱۵) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ لَیْسَ لَهُمْ فِی اَلْآخِرَهِ إِلاَّ اَلنّٰارُ وَ حَبِطَ مٰا صَنَعُوا فِیهٰا وَ بٰاطِلٌ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۱۶)

بيان:

قوله تعالى: أَلاٰ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ الى آخر الآيه؛ثنى الشىء يثناه ثنيا كفتح يفتح فتحا اى عطفه و طواه و ردّ بعضه على بعض قال فى المجمع:اصل الثنى العطف تقول:ثنيته عن كذا اى عطفته،و منه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر فى المعنى،و منه الثناء لعطف المناقب فى المدح،و منه الاستثناء لأنه عطف عليه بالإخراج منه، انتهى.و قال ايضا:الاستخفاء طلب خفاء الشىء يقال:استخفى و تخفّى بمعنى،و كذلك استغشى و تغشّى،انتهى.

فالمراد بقوله: يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أنهم يميلون بصدورهم الى خلف و يطأطئون رءوسهم ليتخفوا من الكتاب اى من استماعه حين تلاوته و هو كنايه عن استخفائهم من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و من حضر عنده حين تلاوه القرآن عليهم للتبليغ لئلا يروا هناك فتلزمهم الحجه.

و قوله: أَلاٰ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيٰابَهُمْ يَعْلَمُ الخ؛كأنهم كانوا يسترون رءوسهم

ایضا بثیابهم عند استخفائهم بثنی الصدور فذکر اللّه سبحانه ذلک و أخبر أنه تعالی یعلم عند ذلک ما یسرّون و ما یعلنون فما یغنیهم التخفی عن استماع القرآن و اللّه یعلم سرّهم و علانیتهم.

و قیل:إن المراد باستغشائهم ثیابهم هو الاستغشاء فی بیوتهم لیلا عند أخذ المضاجع للنوم،و هو أخفی ما یکون فیه الانسان و أخلی أحواله،و المعنی:أنهم یثنون صدورهم لیستخفوا من هذا الکتاب عند تلاوته علیهم،و اللّه یعلم سرّهم و علانیتهم فی أخفی ما یکونون علیه من الحال و هو حال تغشیهم بثیابهم للنوم،و لا یخلو الوجه من ظهور.

قوله تعالی: وَ مٰا مِنْ دَابَّهٍ فِی الْأَرْضِ إِلاّٰ عَلَی اللّٰهِ رِزْقُهٰا الی آخر الآیه، الدابّه علی ما فی کتب اللغه کل ما یدبّ و یتحرّک،و یکثر استعماله فی النوع الخاص منه، و قرینه المقام تقتضی کون المراد منه العموم لظهور أن الکلام مسوق لبیان سعه علمه تعالی، و لذلک عقّب به قوله: «أَلاٰ حِینَ یَسْتَغْشُونَ ثِیٰابَهُمْ یَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ».

و هذا المعنی أعنی کون ذکر وجوب رزق کل دابه علی اللّه لبیان سعه علمه لکل دابه فی جمیع احوالها یستوجب أن یکون قوله: وَ یَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا بمنزله عطف التفسیر لقوله: عَلَی اللّٰهِ رِزْقُهٰا فیعود المعنی الی أن کل دابه من دواب الأرض علی اللّه أن یرزقها-و لن تبقی بغیر رزق-فهو تعالی علیم بها خبیر بحالها أینما کانت فإن کانت فی مستقر لا تخرج منه کالحوت فی الماء و کالصدف فیما وقعت و استقرت فیه من الأرض رزقها هناک و إن کانت خارجه من مستقرها و هی فی مستودع ستترکه الی مستقرّها کالطیر فی الهواء او کالمسافر الغارب عن وطنه او کالجنین فی الرحم رزقها هناک و بالجمله هو تعالی عالم بحال کل دابه فی الأرض و کیف لا و علیه تعالی رزقها و لا یصیب الرزق المرزوق إلاّ بعلم من الرازق بالمرزوق و خبره منه بما حلّ فیه من محل دائم او معجّل و مستقر او مستودع.

و أما قوله: عَلَی اللّٰهِ رِزْقُهٰا فهو دال علی وجوب الرزق علیه تعالی و قد تکرر فی

القرآن أن الرزق من أفعاله تعالى المختصه به و أنه حق للخلق عليه تعالى قال تعالى: أَمَّنْ هٰذَا الَّذِی یَرْزُقُکَمْ إِنْ أَمْسَکَ رِزْقَهُ (الملک۲۱/)،و قال تعالی: إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الرَّزّٰاقُ ذُو الْقُوَّهِ الْمَتِینُ (الذاریات۵۸/)و قال تعالی: وَ فِی السَّمٰاءِ رِزْقُکُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ فَوَ رَبِّ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مٰا أَنَّکُمْ تَنْطِقُونَ (الذاریات۲۳/).

و لا ضیر فی أن یثبت علیه تعالی حق لغیره اذا کان تعالی هو الجاعل الموجب لذلک علی نفسه من غیر أن یداخل فیه غیره،و لذلک نظائر فی کلامه تعالی کما قال: کَتَبَ عَلیٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَهَ (الأنعام۱۲/)،و قال: وَ کٰانَ حَقًّا عَلَیْنٰا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ (الروم۴۷/)الی غیر ذلک من الآیات.

و الاعتبار العقلی یؤید ذلک فإن الرزق هو ما یدیم به المخلوق الحی وجوده و إذ کان وجوده من فیض جوده تعالی فما یتوقف علیه من الرزق من قبله،و إذ لا شریک له تعالی فی إیجاده لا شریک له فی ما یتوقف علیه وجوده کالرزق.

و قد تقدم بعض الکلام فی معنی الکتاب المبین فی سوره الأنعام آیه:۵۹ و فی سوره یونس آیه:۶۱ فلیراجع.

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ وَ کٰانَ عَرْشُهُ عَلَی الْمٰاءِ الکلام المستوفی فی توصیف خلق السماوات و الأرض علی ما یظهر من کلامه تعالی و یفسره ما ورد فی ذلک عن اهل العصمه علیهم السّلام موکول الی ما سیأتی من تفسیر سوره حم السجده إن شاء اللّه تعالی.

و إجمال القول الذی یظهر به معنی قوله: سِتَّهِ أَیّٰامٍ و قوله: وَ کٰانَ عَرْشُهُ عَلَی الْمٰاءِ هو أن الظاهر أن ما یذکره تعالی من السماوات-بلفظ الجمع-و یقارنها بالأرض و یصف خلقها فی سته أیام طبقات من الخلق الجسمانی المشهود تعلو أرضنا فکل ما علاک و أظلک فهو سماء علی ما قیل و العلو و السفل من المعانی الإضافیه.

فهی طبقات من الخلق الجسمانی المشهود تعلو أرضنا و تحیط بها فإن الأرض کرویه الشکل علی ما یفیده قوله تعالی: یُغْشِی اللَّیْلَ النَّهٰارَ یَطْلُبُهُ حَثِیثاً (الأعراف/۵۴).

و السماء الاولی هی التی تزیّنه مصابیح النجوم و الکواکب فهی الطبقه التی تتضمنها او هی فوقها و تتزین بها کالسقف یتزین بالقنادیل و المشاکی و أما ما فوق السماء الدنیا فلم یرد فی کلامه شیء من صفتها غیر ما فی قوله تعالی: سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ طِبٰاقاً (الملک/۳)،و قوله:

أَ لَمْ تَرَوْا کَیْفَ خَلَقَ اللّٰهُ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ طِبٰاقاً وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِیهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرٰاجاً (نوح/۱۶)حیث یدل علی مطابقه بعضها بعضا.

و أما قوله: وَ کٰانَ عَرْشُهُ عَلَی الْمٰاءِ فهو حال و المعنی و کان عرشه یوم خلقهن علی الماء و کون العرش علی الماء یومئذ کنایه عن أن ملکه تعالی کان مستقرا یومئذ علی هذا الماء الذی هو ماده الحیاه فعرش الملک مظهر ملکه،و استقراره علی محل هو استقرار ملکه علیه کما ان استواءه علی العرش احتواءه علی الملک و أخذه فی تدبیره.

قوله تعالی: لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً اللام للغایه و البلاء الامتحان و الاختبار،و قوله: «أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً» بیان للاختبار و الامتحان فی صوره الاستفهام و المراد أنه تعالی خلق السماوات و الأرض علی ما خلق لغایه امتحانکم و تمییز المحسنین منکم من المسیئین (۱).

و أما ما فی الآیه من تعلیل خلق السماوات و الارض بقوله: «لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» و نظائره الکثیره فی القرآن فإنما هو و أمثاله من قبیل التعلیل بالفوائد المترتبه و المصالح المتفرعه و قد أخبر تعالی أن فعله لا یخلو من الحسن إذ قال: اَلَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ (الم السجده/۷)،فهو سبحانه هو الخیر لا شرّ فیه و هو الحسن لا قبح عنده و ما کان کذلک لم

۱- ۱) .هود ۵-۱۶:کلام فی غایه الخلقه.

يصدر عنه شرّ و لا قبيح البته.

و ليس مقتضى ما تقدم أن يكون معنى الحسن هو ما صدر عنه تعالى او الذى أمر به و إن استقبحه العقل،و معنى القبيح هو ما لا يصدر عنه او الذى نهى عنه و إن استحسنه العقل و استصوبه فإن ذلك يأباه أمثال قوله تعالى: قُلْ إِنَّ اللّهَ لاٰ يَأْمُرُ بِالْفَحْشٰاءِ (الأعراف/ ٢٨).

قوله تعالى: وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِينٌ لما كان قوله: «لِيَبْلُوَكُمْ» الخ؛يشير الى المعاد أشار الى ما كان يواجه به الكفار ذكره صلّى اللّه عليه و آله و سلم للمعاد برميه بأنه سحر من القول.

فظاهر الآيه أنهم كما كانوا يسمّون لفظ القرآن الكريم بما فيه من الفصاحه و بلاغه النظم سحرا،كذلك كانوا يسمّون ما يخبر به القرآن او النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من حقائق المعارف التى لا يصدّقه أحلامهم كالبعث بعد الموت سحرا،و على هذا فهو من مبالغتهم فى الافتراء على كتاب اللّه و التعنت و العناد مع الحق الصريح حيث تعدّوا عن رمى اللفظ لفصاحته و بلاغته بالسحر الى رمى المعنى لصحته و استقامته بالسحر.

و من الممكن أن يكون المراد بالسحر المغالطه و التمويه بإظهار الباطل فى صوره الحق على نحو إطلاق الملزوم و إراده اللازم لكن لا يلائمه ظاهر قوله تعالى فى نظير المورد: قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لاٰ يُجٰارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنّٰى تُسْحَرُونَ (المؤمنون٨٩/).

قوله تعالى: وَ لَئِنْ أَخَّرْنٰا عَنْهُمُ الْعَذٰابَ إِلىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مٰا يَحْبِسُهُ الى آخر الآيه؛اللام فى صدر الآيه للقسم و لذلك أكد الجواب أعنى قوله:

«لَيَقُولُنَّ» باللام و النون و المعنى:و أقسم لئن أخرنا عن هؤلاء الكفار ما يستحقونه من العذاب قالوا مستهزءين:ما الذى يحبس هذا العذاب الموعود عنا و لما ذا لا ينزل علينا و لا يحلّ

بنا.

و فى هذا إشاره أو دلاله على أنهم سمعوا من كلامه تعالى أو من كلام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ما يوعدهم بعذاب لا محيص منه و أن اللّه أخر ذلك تأخيرا رحمه لهم فاستهزءوا به و سخروا منه بقولهم: «مٰا يَحْبِسُهُ» و يؤيده قوله تعالى عقيب ذلك: «أَلاٰ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ» الخ.

و بهذا يتأيد أن السوره-سوره هود-نزلت بعد سوره يونس لمكان قوله تعالى فيها:

«وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ» الى آخر الآيات.

و قوله: إِلىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ الامه الحين و الوقت كما فى قوله تعالى: وَ قٰالَ الَّذِي نَجٰا مِنْهُمٰا وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ (يوسف۴۵/)أى بعد حين و وقت.

و ربما أمكن أن يراد بالامه الجماعه فقد وعد اللّه سبحانه أن يؤيد هذا الدين بقوم صالحين لا يؤثرون على دينه شيئا و يمكّن عند ذلك للمؤمنين دينهم الذى ارتضى لهم.

و قوله: أَلاٰ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ بمنزله الجواب عن قولهم: «مٰا يَحْبِسُهُ» الواقع موقع الاستهزاء فإنه فى معنى الرد على ما أوعدوا به من العذاب،و محصله أن هذا العذاب الذى يهددنا لو كان حقا لم يكن لحبسه سبب فإنا كافرون غير عادلين عن الكفر و لا تاركين له فتأخر نزول العذاب من غير موجب لتأخره بل مع الموجب لتعجيله كاشف عن كونه من قبيل الوعد الكاذب.

فأجاب اللّه عن ذلك بأنه سيأتيهم و لا يصرفه يومئذ عنهم صارف و يحيق بهم هذا العذاب الذى كانوا به يستهزءون.

قوله تعالى: وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنٰاهٰا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ قال فى المجمع:الذوق تناول الشىء بالفم لإدراك الطعم،و سمى اللّه سبحانه إحلال اللذّات بالإنسان إذاقه لسرعه زوالها تشبيها بما يذاق ثم يزول كما قيل:أحلام نوم أو كظل

زائل و النزع قلع الشیء عن مکانه،و الیئوس فعول من یئس-صیغه مبالغه-و الیأس القطع بأن الشیء المتوقع لا یکون و نقیضه الرجاء.انتهی.

و قد وضعت الرحمه فی الآیه مکان النعمه لإشعار بأن النعم التی یؤتیها اللّه الإنسان عنوانها الرحمه و هی رفع حاجه الإنسان فیما یحتاج الیه من غیر استحقاق و إیجاب و المعنی:إنا إن آتینا الإنسان شیئا من النعم التی یتنعم بها ثم نزعناها یئس منها و اشتد یأسه حتی کأنه لا یری عودها الیه ثانیا ممکنا و کفر بنعمتنا کأنه یری تلک النعمه من حقه الثابت علینا و یرانا غیر مالکین لها فالإنسان مطبوع علی الیأس عما أخذ منه و الکفران،و قد أخذ فی الآیه لفظ الإنسان-و هو لفظ دال علی نوعه-للدلاله علی أن الذی یذکر من صفته من طبع نوعه.

قوله تعالی: وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ نَعْمٰاءَ بَعْدَ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَیَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّیِّئٰاتُ عَنِّی إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ قال فی المجمع:النعماء إنعام یظهر أثره علی صاحبه و الضرّاء مضرّه یظهر الحال بها لأنهما أخرجتا مخرج الأحوال الظاهره مثل حمراء و عیناء مع ما فیهما من المبالغه،و الفرح و السرور من النظائر و هو انفتاح القلب بما یلتذ به و ضده الغمّ-الی أن قال:-و الفخور الذی یکثر فخره و هو التطاول بتعدید المناقب و هی صفه ذم اذا أطلقت لما فیها من التکبر علی من لا یجوز أن یتکبر علیه.انتهی.

و المراد بالسیئات بقرینه المقام المصائب و البلایا التی یسوء الإنسان نزولها علیه،و المعنی:

و لئن أصبناه بالنعمه بعد الضرّاء لیقولنّ ذهب الشدائد عنی،و هو کنایه عن الاعتقاد بأن هاتیک الشدائد و النوازل لا تعود بعد زوالها و لا تنزل بعد ارتفاعها ثانیا.

و قوله: إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ بمنزله التعلیل لقوله: ذَهَبَ السَّیِّئٰاتُ عَنِّی فإنه یفرح و لا یزال علی ذلک لما ذاقه من النعماء بعد الضرّاء،و لو کان یری أن ما عنده من النعماء جائز الزوال لا وثوق علی بقائه و لا اعتماد علی دوامه.و أن الأمر لیس الیه بل الی غیره و من الجائز أن یعود الیه ما ترکه من السیئات لم یکن فرحا بذلک فإنه لا فرح فی أمر مستعار غیر

ذی قرار.

و انه لیفخر بما أوتی من النعماء علی غیره،و لا ـ فخر إلاّ ـ بکرامه أو منقبه یملکها الإنسان فهو یری ما عنده من النعمه أمرا بیده زمامه لیس لغیره أن یسلبه و ینزعه منه و یعید الیه ما ذهب عنه من السیئات و لذلک یفخر و یکثر من الفخر.

قوله تعالی: إِلاَّ الَّذِینَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ أُولٰئِکَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ کَبِیرٌ ذکر سبحانه ما الإنسان مطبوع علیه عند الشده و البلاء من الیأس و الکفر و عند الرخاء و النعماء من الفرح و الفخر،و مغزی الکلام أنه مخلوق کلیل البصر قصیر النظر إنما یری ما یجده فی حاله الحاضره،و یذهل عما دون ذلک فإن زالت عنه نعمه لم یر لها عوده و أنها کانت من عند اللّه سبحانه،و له تعالی ان یعیدها الیه إن شاء حتی یصبر علی بلائه و یتعلق قلبه به بالرجاء و المسأله،و إن عادت الیه نعمه بعد زوالها رأی أنه یملکها ففرح و فخر و لم یر للّه تعالی صنعا فی ذلک حتی یشکره علیها و یکف عن الفرح و عن التطاول علی غیره بالفخر.

استثنی سبحانه طائفه من الإنسان و وصفهم بقوله: «الَّذِینَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ» ثم وعدهم وعدا حسنا بقوله: «أُولٰئِکَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ کَبِیرٌ» و ذلک أن التخلص من هذا الطبع المذموم إنما یتمشی من الصابرین الذین یصبرون عند الضرّاء فلا یحملهم الجزع علی الیأس و الکفر،و یعملون الصالحات من الشکر بثنائه تعالی علی ما کشف الضرّاء و أعقب بالنعماء و صرف نعمه فی ما یرضیه و یریح خلقه فلا یحملهم الاستغناء علی الفرح و الفخر.

و هؤلاء هم المتخلصون الناجون یغفر لهم ربهم بإمحاء آثار ذلک الطبع المذموم و وضع الخصال المحموده موضعه و لهم عند ربهم مغفره و أجر کبیر.

و فی الآیه دلاله علی أن الصبر مع العمل الصالح لا ینفک عن الإیمان فإنها تعد هؤلاء الصابرین مغفره و أجرا کبیرا،و المغفره لا تنال المشرکین،قال تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ (النساء/۱۱۶).

و قد ورد الوعد بعين ما ذكر فى هذه الآيه أعنى المغفره و الأجر الكبير للمؤمنين فى قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (فاطر/٧)،و قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (الملك/١٢).

قوله تعالى: فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحىٰ إِلَيْكَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ الى آخر الآيه؛لما كانت رساله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بما أيدت به من القرآن الكريم و الآيات البينات و الحجج و البراهين مما لا يسع لذى عقل إنكارها و لا لانسان صحيح المشاعر ردها و الكفر بها كان ما حكى من كفر الكافرين و إنكار المشركين أمرا مستبعدا بحسب الطبع،و إذا كان وقوع أمر على صفه من الصفات مستبعدا أخذ الانسان فى تقرير ذلك الأمر من غير مجرى الاستبعاد طلبا للمخرج من نسبه الوقوع الى ما يستبعده الطبع.

و لما كان المقام فى الآيه الكريمه هذا المقام و كان ما حكاه اللّه سبحانه من كفر المنكرين و إنكار المشركين لما جاء به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم اليهم من الحق الصريح و ما أنزل اليه من كلام اللّه تعالى مع ما يتلوه من البينات و الحجج ما لا ينبغى أن يذعن به لبعده طبعا بيّن تعالى لذلك وجها بعد وجه على سبيل الترجى فقال«و لعلك تارك بعض ما يوحى اليك»الخ؛ «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ» الخ.

فكأنه قيل:من المستبعد أن تهديهم الى الحق الواضح و يسمعوا منك كلامى ثم لا يستجيبوا دعوتك و يكفروا بالحق بعد وضوحه فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك و غير داعيهم اليه و لذلك جبّهوك بالإنكار أم يقولون إن القرآن ليس من كلام اللّه بل هو افتراء افتريته على اللّه و لذلك لم يؤمنوا به.فإن كنت تركت بعض الوحى خوفا من اقتراحهم عليك الآيات فإنما أنت نذير و ليس لك إلاّ ما شاء اللّه،و ان يقولوا افتراه فقل لهم يأتوا بعشر سور مثله مفتريات،الخ.

و قوله: تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحىٰ إِلَيْكَ إنما ذكر البعض لأن الآيات السابقه

متضـمنه لتبليغ الوحى فى الجمله أى لعلـك تركت بعض مـا أوحينا اليك من القرآن فما تلوته عليهم فلم ينكشف لهم الحق كل الانكشـاف حتى لاـ يجبّهوك بما جبّهوك به من الرد و الجحود،و ذلك أن القرآن بعضه يوضـح بعضا و شـطر منه يقرّب شـطرا منه من القبول كآيات الاحتجاج توضح الآيات المشـتمله على الدعاوى،و آيات الثواب و العقاب تقرّب الحق من القبول بالتطميع و التخويف،و آيات القصص و العبر تستميل النفوس و تليّن القلوب.

و قوله: وَ ضٰائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا الخ؛قال فى المجمع:ضائق و ضـيق بمعنى واحد إلاّ أن ضائق هاهنا أحسن لوجهين:أحدهما أنه عارض،و الآخر أنه أشكل بقوله:

«تٰارِكٌ» انتهى.

و الظـاهر أن ضـمير «بِهِ» راجع الى قوله: «بَعْضَ مٰا يُوحىٰ» و إن ذكر بعضـهم أن الضـمير راجع الى قولهم: «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ» الـخ؛أو الى اقتراحهم و هـذا أوفق بكون قوله: «أَنْ يَقُولُوا» الـخ؛بدلا من الضـمير فى «بِهِ» و ما ذكرناه أوفق بكونه مفعولا له لقوله: «تٰارِكٌ» و التقدير:لعلك تارك ذلك مخافه أن يقولوا:لو لا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك.

و قوله: إِنَّمٰا أَنْتَ نَـذِيرٌ جواب عن اقتراحهم بقوله:لو لاـ أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك،و قـد تكرر فى مواضع من كلامه تعالى ذكر ما اقترحوه اقتصـر فى بعضـها على ذكر مجىء الملك و زيد فى بعضـها عليه غيره كاقتراح الإتيان باللّه سـبحانه ليشـهد على الرسـاله و أن يكون له جنّه يأكل منها و أن ينزل من السـماء كتابا يقرءونه.و قـد أجاب اللّه سـبحانه عنها جميعا بمثل ما أجاب به هاهنا و هو أن رسوله ليس له إلاّ الرساله فلبس بيـده و هو بشـر رسول أن يجيبهم الى ما اقترحوا به عليه إلاّ أن يشاء اللّه فى ذلك شيئا و يأذن فى إتيان آيه كما قال: وَ مٰا كٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ (المؤمن۷۸/).

ثم عقب قوله: إِنَّمٰا أَنْتَ نَذِيرٌ بقوله: وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

لتتميم الجواب عن اقتراحهم على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالمعجزات و محصّله:أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بشر مثلهم و لم يؤمر إلاّ بالإنذار و هو الرساله بإعلام الخطر،و القيام بالامور كلها و تدبيرها سواء كانت جاريه على العاده أو خارقه لها إنما هو الى اللّه سبحانه فلا وجه لتعلقهم بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فيما ليس اليه.

و ذلك أن اللّه سبحانه هو الموجد للأشياء كلها و فاطرها و هو القائم على كل شىء فيما يجرى عليه من النظام فما من شىء إلاّ و هو تعالى المبدأ فى أمره و شأنه و المنتهى سواء الامور الجاريه على العاده و الخارقه لها فهو تعالى الذى يسلم اليه أمره و يدبر شأنه فهو تعالى الوكيل عليه فإن الوكيل هو الذى يسلم اليه الأمر و ينفذ فيه منه الحكم فهو تعالى على كل شىء وكيل.

و بذلك يظهر أن قوله: «وَ اللّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» بمعونه من قوله: «إِنَّمٰا أَنْتَ نَذِيرٌ» يفيد قصر القلب فإنهم سألوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أمرا ليس اليه و إنما هو الى اللّه تعالى.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ قد تقدم من الكلام ما يصح به أخذ «أَمْ» متصله لكون قوله: «فَلَعَلَّكَ تٰارِكٌ» الخ؛فى معنى الاستفهام،و التقدير:

أ فأنت تارك بعض ما يوحى اليك خوفا من اقتراحهم المعجزه أم يقولون إنك افتريته علينا فإن من المستبعد أن يقرأ عليهم كلامى ثم لا يؤمنوا به و قيل:إن أم منقطعه و المعنى:بل يقولون افتراه.

و قوله: قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيٰاتٍ فى الكلام تحدّ ظاهر و الضمير راجع الى القرآن او الى السوره بما أنها قرآن و الفاء فى «فَأْتُوا» تفيد تفريع الامر على قوله:

«افْتَرٰاهُ» و فى الكلام حذف و إيصال رعايه للإيجاز،و التقدير:قل لهم:إن كان هذا القرآن مما افتريته على اللّه كان من عندى و كان من الجائز أن يأتى بمثله غيرى فإن كنتم صادقين فى دعواكم و مجدّين غير هازلين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات و استعينوا فى ذلك بدعوه كل من

تستطیعون من دون اللّه من اوثانكم الذین تزعمون انهم آلهه تتسرعون الیهم فی الحاجات و غیرهم من سائر الخلق حتی یتم لكم جمیع الاسباب و الوسائل و لا یبقی أحد ممن یطمع فی تأثیر إعانته و یرجی نفعه فی ذلك فلو كان من عندی لا من عند اللّه جاز أن تأتوا حینئذ بمثله.

و قد بان بهذا البیان ان التحدی بالقرآن فی الآیه الكریمه لیس من حیث نظمه و بلاغته فحسب فإنه تعالی یأمرهم بالاستمداد من كل من استطاعوا دعوته من دون اللّه سواء فی ذلك آلهتهم و غیر آلهتهم و فیهم من لا یعرف الكلام العربی او جزاله نظمه و صفه بلاغته فالتحدی عام لكل ما یتضمنه القرآن الكریم من معارف حقیقیه و الحجج و البراهین الساطعه و المواعظ الحسنه و الأخلاق الكریمه و الشرائع الإلهیه و الأخبار الغیبیه و الفصاحه و البلاغه نظیر ما فی قوله تعالی: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلیٰ أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لاٰ یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كٰانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً (الإسراء/٨٨)،و قد تقدمت الإشاره الی ذلك فی الكلام علی إعجاز القرآن فی الجزء الاول من الكتاب.

قوله تعالی: فَإِلَّمْ یَسْتَجِیبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمٰا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللّٰهِ وَ أَنْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ إجابه الدعوه و استجابتها بمعنی.

و الظاهر من السیاق ان الخطاب فی الآیه للمشركین،و أنه من تمام كلام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم الذی أمر بقوله تعالی: «قُلْ» أن یلقیه الیهم،و علی هذا فضمیر الجمع فی قوله: «فَإِلَّمْ یَسْتَجِیبُوا» راجع الی الآلهه و كل من استعانوا به المدلول علیهم بقوله: «وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ».

و المعنی:فإن لم یستجب لكم معاشر المشركین هؤلاء الذین دعوتموهم من آلهتكم و من بلغاء أهل لسانكم العارفین بأسالیب الكلام و علماء اهل الكتاب الذین عندهم الكتب السماویه و أخبار الأنبیاء و الامم و الكهنه المستمدین من إلقاء شیاطین الجن،

و جهابـذه العلم و الفهم من سـائر النـاس المتعمقين فی المعـارف الانسـانيه بأطرافهـا فاعلموا أنما أنزل هـذا القرآن بعلم اللّه و لم يختلق عن علمی أنـا و لاـ غيری ممن تزعمون أنه يعلمنی و يملی علی،و اعلموا أيضـا ان ما ادعوکم اليه من التوحيـد حق فإنه لو کان هناک إله من دون اللّه لنصرکم علی ما دعوتموه اليه فهل انتم ايها المشرکون مسلمون للّه تعالی منقادون لأمره؟

فقوله تعالی: فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فی معنی قولنا:فإن لم تقدروا علی المعارضه بعد الاستعانه و الاستمداد بمن استطعتم أن تدعوهم من دون اللّه،و ذلک أن الأسباب التی توجب قـدرتهم علی المعارضه هی ما عنـدهم من قدره البيان و قريحه البلاغه و هم يرون أن ذلـک مـن مـواهب آلهتهـم من دون اللّه و کـذا مـا عنـد آلهتهم ممـا لم يهبـوهم بعـد،و لهم أن يؤيـدوهم به إن شـاءوا علی زعمهم،و أيضا ما عنـد غير آلهتهم من المـدد،و اذا لم يسـتجبهم الـذين يـدعونهم فی معارضه القرآن فقد ارتفع جميع الأسـباب الموجبه لقـدرتهم و ارتفعت بـذلک قـدرتهم فعدم إجابته الشـرکاء علی معارضه القرآن ملازم لعدم قدرتهم عليها حتی بما عند أنفسهم من القدره ففی الکلام کنايه.

و قوله: فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ الظاهر أن المراد بعلم اللّه هو العلم المختص به و هو الغيب الـذی لا سبيل لغيره تعالی اليه إلّا بإذنه کما قال تعالی: لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ (النساء/١۶۶)،و قال: ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ (يوسف/ ١٠٢)،و قال: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ (الجن/ ٢٧)،و قال: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الواقعه/٨٠).

فالمعنی:فإن لم تقدروا علی معارضـته بأی سـبب ممد تعلقتم به من دون اللّه فتيقنوا أنه لم ينزل إلّا عن سبب غيبی و أنه من أنباء الغيب الذی يختص به تعالی فهو الذی أنزله علی

و کلمنی به و أراد تفهیمی و تفهیمکم بما فیه من المعارف الحقه و ذخائر الهدایه.

و ذکر بعضهم أن المراد به أنه إنما أنزل علی علم من اللّه بنزوله و شهاده منه له،و ذکر آخرون أن المراد أنه إنما أنزل بعلم من اللّه أنه لا یقبل المعارضه أو بعلم من اللّه بنظمه و ترتیبه و لا یعلم غیره ذلک،و هذه معان واهیه بعیده عن الفهم.

و الجمله أعنی قوله: أَنَّمٰا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللّٰهِ احدی النتیجتین المأخوذتین من عدم استجابه شرکائهم لهم.و النتیجه الأخری قوله: «وَ أَنْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» و لزوم هذه النتیجه من وجهین:أحدهما:أنهم اذا دعوا آلهتهم لما یهمهم من الأمور فلم یجیبوهم کشف ذلک عن أنهم لیسوا بآلهه فلیس الإله إلاّ من یجیب المضطر اذا دعاه و خاصه اذا دعاه لما فیه نفع الإله المدعو فإن القرآن الذی أتی به النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان یقطع دابرهم و یمیت ذکرهم و یصرف الناس عن التوجه الیهم فإذا لم یجیبوا أولیاءهم اذا دعوهم لمعارضه کتاب هذا شأنه کان ذلک من اوضح الدلیل علی نفی ألوهیتهم.

و ثانیهما:أنه اذا صح ان القرآن حق نازل من عند اللّه صادق فیما یخبر به،و مما یخبر به أنه لیس مع اللّه إله آخر علم بذلک أنه لا إله إلاّ اللّه سبحانه.

و قوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أی لما علمتم و اتضح لکم من جهه عدم استجابه شرکائهم من دون اللّه و عجزکم عن المعارضه فهل أنتم مسلّمون لما وقع علیه علمکم هذا من توحید اللّه سبحانه و کون هذا القرآن کتابا نازلا بعلمه؟و هو أمر بالإسلام فی صوره الاستفهام.هذا کله ما یقتضیه ظاهر الآیه.

و قیل:إن الخطاب فی قوله: فَإِلَّمْ یَسْتَجِیبُوا لَکُمْ الخ؛للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم خوطب بلفظ الجمع تعظیما له و تفخیما لشأنه و ضمیر الجمع الغائب راجع الی المشرکین أی فإن لم یستجب المشرکون لما دعوتهم أیها النبی الیه من المعارضه فاعلم أنه منزل بعلم اللّه و أن اللّه واحد فهل أنت مسلم لأمره.

و فيه أنه قد صح أن التعظيم بلفظ الجمع و الكثره يختص فى الكلام العربى بالمتكلم و اما الخطاب و الغيبه فلا تعظيم فيها بلفظ الجمع.

مضافا الى ان استناد الوحى الإلهى و التكليم الربانى اليه تعالى استناد ضرورى لا يقبل الشك حتى يستعان عليه بالدليل فما يتلقاه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم دلالته على كونه كلاما من اللّه دلاله ضروريه غير محتاجه الى حجه حتى يحتج عليه بعدم إجابه المشركين الى معارضه القرآن و عجزهم عنها بخلاف كلام المخلوقين من الانسان و الجن و الملك و أى هاتف آخر فإنه يحتاج فى حصول العلم باستناده الى متكلمه الى دليل خارجى من حسن أو عقل،و قد تقدمت إشاره الى ذلك فى قصه زكريا من سوره آل عمران،و سيجىء البحث المستوفى عن ذلك فيما يناسبه من المورد إنشاء اللّه تعالى.

على أن خطاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بمثل قوله:«و أنه لا إله إلاّ هو»،و قوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» لا يخلو عن بشاعه.على أن نفس الاستدلال ايضا غير تامّ كما سنبين.

و قيل:إن الخطاب فى الآيه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المؤمنين جميعا او للمؤمنين خاصه لأن المؤمنين يشاركونه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى الدعوه الدينيه و التحدّى بالقرآن الذى هو كتاب ربهم المنزل عليهم و المعنى:فإن لم يستجب المشركون لكم فى المعارضه فاعلموا أن القرآن منزل بعلم اللّه و أن لا إله إلاّ هو فهل تسلمون أنتم للّه؟

و لما تفطّن بعضهم أن لا معنى لدعوه المؤمنين و هم مؤمنون باللّه وحده و بكتابه الى العلم بأنه كتاب نازل من عند اللّه و بأنه تعالى واحد لا شريك له أصلحه بأن المراد فاثبتوا على علمكم أنه إنما أنزل بعلم اللّه و ازدادوا به ايمانا و يقينا و أنه لا إله إلاّ هو و لا يستحق العباده سواه فهل أنتم ثابتون على إسلامكم و الإخلاص فيه؟

و فيه أنه تقييد للآيه من غير مقيّد و الحجه غير تامه و ذلك أن المشركين لو كانوا وقفوا موقف المعارضه بما عندهم من البضاعه و استعانوا عليها بدعوه آلهتهم و سائر من يطمعون فيه

من الجن و الإنس ثم عجزوا كان ذلك دليلا واضحا يدلهم على أن القرآن فوق كلام البشر و تمّت بذلك الحجه عليهم،و أما عدم استجابه الكفار للمعارضه فليس يدل على كونه من عند اللّه لأنهم لم يأتمروا بما أمروا به بقوله: «فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ» إما لعلمهم بأنه كلام اللّه الحق و إنما كان قولهم: «افْتَرَاهُ» قولا ناشئا عن العناد و اللجاج لا عن إذعان به او شك فيه، او لأنهم كانوا آيسين من استجابه شركائهم للدعوه على المعارضه،او لأنهم كانوا هازلين فى قولهم ذلك يهذرون هذرا.

و بالجمله عدم استجابه المشركين للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم او للمؤمنين او لهم جميعا لا يدلّ بنفسه على كون القرآن نازلا من عند اللّه إلاّ اذا كان عدم الاستجابه المذكوره بعد تحقق دعوتهم شركاءهم الى المعارضه و عدم استجابتهم لهم،و لم يتحقق من المشركين دعوه على هذه الصفه،و مجرد عدم استجابه المشركين انفسهم لا ينفع شيئا،و لا يبقى إلاّ أن يقال:إن معنى الآيه:فإن دعا المشركون من استطاعوا من دون اللّه فلم يستجيبوا لهم و لم يستجب المشركون لكم أيها النبى و معاشر المؤمنين فاعلموا أنما أنزل بعلم اللّه،الخ؛و هذا هو الذى أومأنا اليه آنفا أنه تقييد للآيه من غير مقيّد.

على أن فيه امرا للمؤمنين أن يهتدوا فى ايمانهم و يقينهم بأمر فرضىّ غير واقع و كلامه تعالى يجلّ عن ذلك،و لو أريدت الدلاله على أنهم غير قادرين على ذلك و إن دعوا شركاءهم الى المعارضه كان من حق الكلام أن يقال:فإن لم يستجيبوا لكم و لن يستجيبوا فاعلموا،الخ؛كما قيل كذلك فى نظيره قال تعالى: وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (البقره۲۴/).

قوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ التوفيه إيصال الحق الى صاحبه و إعطاؤه له بكماله،و البخس

نقص الأجر.

و فی الآیه تهدید لهؤلاء الذین لا یخضعون للحق لما جاءهم و لا یسلمون له إیثارا للحیاه الدنیا و نسیانا للآخره،و بیان لشیء من سنّه الاسباب القاضیه علیهم بالیأس من نعیم الحیاه الآخره.

و ذلک أن العمل کیفما کان فإنما یسمح للإنسان بالغایه التی ارادها به و عمله لأجلها،فإن کانت غایه دنیویه تصلح شئون الحیاه الدنیا من مال و جمال و حسن حال ساقه العمل-إن أعانته سائر الاسباب العامله-الی ما یرجوه بالعمل و أما الغایات الاخرویه فلا خبر عنها لأنها لم تقصد حتی تقع،و مجرد صلاحیه العمل لأن یقع فی طریق الآخره و ینفع فی الفوز بنعیمها کالبر و الإحسان و حسن الخلق لا یوجب الثواب و ارتفاع الدرجات ما لم یقصد به وجه اللّه و دار ثوابه.

و لذلک عقبه بقوله تعالی: «أُولٰئِکَ الَّذِینَ لَیْسَ لَهُمْ فِی الْآخِرَهِ إِلاَّ النّٰارُ وَ حَبِطَ مٰا صَنَعُوا فِیهٰا وَ بٰاطِلٌ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ» فأخبر أنهم اذا وردوا الحیاه الآخره وقعوا فی دار حقیقتها أنها نار تأکل جمیع أعمالهم فی الحیاه کما تأکل النار الحطب و تبیر و تهلک کل ما تطیب به نفوسهم من محاسن الوجود،و تحبط جمیع ما صنعوا فیها و تبطل ما أسلفوا من الأعمال فی الدنیا،و لذلک سماها سبحانه فی موضع آخر بدار البوار أی الهلاک فقال تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ کُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ الْبَوٰارِ جَهَنَّمَ یَصْلَوْنَهٰا (إبراهیم۲۹/)،و بذلک یظهر أن کلا من قوله: «وَ حَبِطَ مٰا صَنَعُوا فِیهٰا» و قوله: «وَ بٰاطِلٌ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ» یفسر قوله: «أُولٰئِکَ الَّذِینَ لَیْسَ لَهُمْ فِی الْآخِرَهِ إِلاَّ النّٰارُ» نوعا ما من التفسیر (۱).

۱ – ۱) .هود ۵-۱۶:بحث روائی فی سیره المشرکین اذا مرّوا برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم؛ان رزق العباد علی اللّه؛السؤال من فضل اللّه؛القضاء بالرزق و الامر بطلبه؛نظر الائمه المعصومین صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی طلب الرزق؛بدء الخلقه؛الاعمال الصالحه.

[سوره هود (۱۱): الآیات ۱۷ الی ۲۴]

اشاره

أَ فَمَنْ کانَ عَلی بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ وَ یَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ کِتابُ مُوسی إِماماً وَ رَحْمَهً أُولئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِهِ مِنَ اَلْأَحْزابِ فَالنّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَکُ فِی مِرْیَهٍ مِنْهُ إِنَّهُ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّاسِ لا یُؤْمِنُونَ (۱۷) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَری عَلَی اَللّهِ کَذِباً أُولئِکَ یُعْرَضُونَ عَلی رَبِّهِمْ وَ یَقُولُ اَلْأَشْهادُ هؤُلاءِ اَلَّذِینَ کَذَبُوا عَلی رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَهُ اَللّهِ عَلَی اَلظّالِمِینَ (۱۸) اَلَّذِینَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اَللّهِ وَ یَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ کافِرُونَ (۱۹) أُولئِکَ لَمْ یَکُونُوا مُعْجِزِینَ فِی اَلْأَرْضِ وَ ما کانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّهِ مِنْ أَوْلِیاءَ یُضاعَفُ لَهُمُ اَلْعَذابُ ما کانُوا یَسْتَطِیعُونَ اَلسَّمْعَ وَ ما کانُوا یُبْصِرُونَ (۲۰) أُولئِکَ اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ (۲۱) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِی اَلْآخِرَهِ هُمُ اَلْأَخْسَرُونَ (۲۲) إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلی رَبِّهِمْ أُولئِکَ أَصْحابُ اَلْجَنَّهِ هُمْ فِیها خالِدُونَ (۲۳) مَثَلُ اَلْفَرِیقَیْنِ کَالْأَعْمی وَ اَلْأَصَمِّ وَ اَلْبَصِیرِ وَ اَلسَّمِیعِ هَلْ یَسْتَوِیانِ مَثَلاً أَ فَلا تَذَکَّرُونَ (۲۴)

ص :۱۱۶

بیان:

قوله تعالی: أَ فَمَنْ كَانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسىٰ إِمَاماً وَ رَحْمَةً الجمله تفریع علی ما مضی من الکلام الذی هو فی محل الاحتجاج علی کون القرآن کتابا منزلا من عند اللّه سبحانه،و «مَنْ» مبتدإ خبره محذوف و التقدیر:کغیره،أو ما یؤدی معناه،و الدلیل علیه قوله تلوا «أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ».

و الاستفهام إنکاری و المعنی:لیس من کان کذا و کذا کغیره ممن لیس کذلک و أنت علی هذه الصفات فلا تک فی مریه من القرآن.

و قوله: عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ البینه صفه مشبهه معناها الظاهره الواضحه غیر أن الامور الظاهره الواضحه ربما أوضحت ما ینضم إلیها و یتعلق بها کالنور الذی هو بیّن ظاهر و یظهر به غیره،و لذلک کثر استعمال البینه فیما یتبین به غیره کالحجه و الآیه،و یقال للشاهد علی دعوی المدّعی بینه.

و الظاهر أن المراد بالبینه فی المقام هو هذا المعنی الأخیر العام بقرینه قوله بعد «أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» و إن کان المراد به بحسب المورد هو النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فإن الکلام مسوق لیتفرّع علیه قوله: «فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ» .

فالمراد بها البصیره الإلهیه التی اوتیها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لا نفس القرآن النازل علیه فإنه لا یحسن ظاهرا ان یتفرع علیه قوله: «فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ» و هو ظاهر و لا ینافیه کون القرآن فی نفسه بیّنه من اللّه من جهه کونه آیه منه تعالی کما فی قوله: قُلْ إِنِّي عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ (الأنعام/۵۷)،فإن المقام غیر المقام.

و قوله تعالی: وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ المراد بالشهاده تأدیه الشهاده التی تفید صحه

الأمر المشهود له دون تحمّلها فإن المقام مقام تثبيت حقّيه القرآن و هو إنما يناسب الشهاده بمعنى التأديه لا بمعنى التحمّل.

و الظاهر أن المراد بهذا الشاهد بعض من أيقن بحقّيه القرآن و كان على بصيره إلهيه من امره فآمن به عن بصيرته و شهد بأنه حقّ منزل من عند اللّه تعالى كما يشهد بالتوحيد و الرساله فإن شهاده الموقن البصير على امر تدفع عن الإنسان مريه الاستيحاش و ريب التفرّد فإن الانسان اذا أذعن بأمر و تفرّد فيه ربما اوحشه التفرّد فيه اذا لم يؤيده احد فى القول به اما اذا قال به غيره من الناس و أيد نظره فى ذلك زالت عنه الوحشه و قوى قلبه و ارتبط جأشه و قد احتج تعالى بما يماثل هذا المعنى فى قوله: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرٰائِيلَ عَلىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ (الأحقاف/١٠).

و على هذا فقوله: «يَتْلُوهُ» من التلو لا من التلاوه،و الضمير فيه راجع الى «مِنْ» او الى «بَيِّنَةٍ» باعتبار انه نور او دليل،و مآل الوجهين واحد فإن الشاهد الذى يلى صاحب البينه يلى بيّنته كما يلى نفسه و الضمير فى قوله: «مِنْهُ» راجع الى «مِنْ» دون قوله: «رَبِّهِ» و عدم رجوعه الى البينه ظاهر و محصّل المعنى:من كان على بصيره إلهيه من امر و لحق به من هو من نفسه فشهد على صحه امره و استقامته.

و على هذا الوجه ينطبق ما ورد فى روايات الفريقين ان المراد بالشاهد علىّ عليه السّلام إن اريد به انه المراد بحسب انطباق المورد لا بمعنى الاراده الاستعماليه.

و قوله تعالى: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَةً الضمير راجع الى الموصول او الى البينه على حد ما ذكرناه فى ضمير «يَتْلُوهُ» و الجمله حال بعد حال اى أ فمن كان على بصيره إلهيه ينكشف له بها ان القرآن حقّ منزل من عند اللّه و الحال ان معه شاهدا منه يشهد بذلك عن بصيره و الحال أن هذا الذى هو على بينه سبقه كتاب موسى إماما و رحمه او قبل بينته التى منها القرآن او هى القرآن المشتمل على المعارف و الشرائع الهاديه الى الحق

کتاب موسی إماما فلیس هو او ما عنده من البینه ببدع من الأمر غیر مسوق بمثل و نظیر بل هناک طریق مسلوک من قبل یهدی الیه کتاب موسی.

قوله تعالی: أُولٰئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزٰابِ فَالنّٰارُ مَوْعِدُهُ المشار الیهم بقوله: «أُولٰئِکَ» بناء علی ما تقدم من معنی صدر الآیه هم الذین کانوا علی بینه من ربهم المدلول علیهم بقوله: «أَ فَمَنْ کٰانَ» الخ،و أما إرجاع الإشاره الی المؤمنین لدلاله السیاق علیهم فبعید عن الفهم.

و کذا الضمیر فی قوله: «بِهِ» راجع الی القرآن من جهه أنه بینه منه تعالی او امر قامت علیه البینه،و أما إرجاعه الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فلا یلائم ما قررناه من معنی الآیه فإن فی صدر الآیه بیان حال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بنحو العموم حتی یتفرع علیه قوله: «فَلاٰ تَکُ فِی مِرْیَهٍ مِنْهُ» کأنه قیل:إنک علی بینه کذا و معک شاهد و قبلک کتاب موسی،و من کان علی هذه الصفه یؤمن بما اوتی من کتاب اللّه،و لا یصح أن یقال:و من کان علی هذه الصفه یؤمن بک،و الکلام فی الضمیر فی «وَ مَنْ یَکْفُرْ بِهِ» کالکلام فی ضمیر «یُؤْمِنُونَ بِهِ» .

و أمر الآیه فیما یحتمله مفردات ألفاظها و ضمائرها عجیب فضرب بعضها فی بعض یرقی الی الوف من المحتملات بعضها صحیح و بعضها خلافه.

قوله تعالی: فَلاٰ تَکُ فِی مِرْیَهٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یُؤْمِنُونَ المریه کجلسه النوع من الشک،و الجمله تفریع علی صدر الآیه،و المعنی أن من کان علی بینه من ربه فی امر و قد شهد علیه شاهد منه و قبله إمام و رحمه ککتاب موسی لیس کغیره من الناس الغافلین المغفلین فهو یؤمن بما عنده من امر اللّه و لا یوحشه إعراض اکثر الناس عما عنده،و أنت کذلک فإنک علی بینه من ربک و یتلوک شاهد و من قبلک کتاب موسی إماما و رحمه و إذا کان کذلک فلا تک فی مریه من امر ما أنزل الیک من القرآن إنه محض الحق من جانب اللّه و لکن اکثر الناس لا یؤمنون.

و قوله: إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ تعليـل للنهى و قـد اكـد بأن و لام الجنس للـدلاله على توافر الأسـباب النافيه للمريه و هى قيام البينه و شهاده الشاهد و تقدم كتاب موسى إماما و رحمه.

قوله تعـالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً الى آخر الآيه؛من الممكن أن يكون ذيلا للسـياق السابق من حيث كان تطييبا لنفس النـبى صلّى اللّه عليه و آله و سـلم فيئـول المعنى الى أنـك إذ كنت على بينه من ربـك لست بظـالم فحاشـاك أن تكون مفتريا على اللّه الكذب لأن المفترى على اللّه كذبا من أظلم الظالمين،و لهم من وبال كذبهم كذا و كذا.

و كيف كان فالمراد بافتراء الكذب على اللّه سبحانه توصيفه تعالى بما ليس فيه او نسبه شىء اليه بغير الحق او بغير علم،و الافتراء من أظهر أفراد الظلم و الإثم،و يعظم الظلم بعظم متعلقه حتى اذا انتهى الى ساحه العظمه و الكبرياء كان من أعظم الظلم.

و قوله تعـالى: أُولٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلىٰ رَبِّهِمْ العرض إظهار الشـىء ليرى و يوقف عليه،و لما كان ارتفاع الحجب بينهم و بين ربهم يوم القيامه بظهور آياته و وضوح الحق الصـريح من غير شاغل يشـغل عنه حضورا اضطراريا منهم لفصل القضاء سماه عرضا لهم على ربهم كما سـمى بوجه آخر بروزا منهم للّه فقال: يَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ (المؤمن/١٦)،و قال: وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ (إبراهيم/٤٨)فقـال «أُولٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلىٰ رَبِّهِمْ» أى يـأتى بهم الملائكه الموكّلون بهم فيوقفونهم موقفا ليس بينهم و بين ربهم حاجب حائل لفصل القضاء.

و قوله: وَ يَقُولُ الْأَشْهٰادُ هٰؤُلاٰءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلىٰ رَبِّهِمْ الأشـهاد جمع شـهيد كأشـراف جمع شـريف و قيل:جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب،و يؤيد الأول قوله تعالى:

فَكَيْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ (النساء/٤١)و قوله: وَ جٰاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِيدٌ (ق/٢١).

و قول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم شهاده منهم عليهم بالافتراء على اللّه اى سجل عليهم بأنهم المفترون من جهه شهاده الأشهاد عليهم بذلك فى موقف لا يذكر فيه إلاّ الحق و لا مناص فيه عن الاعتراف و القبول كما قال تعالى: لاٰ يَتَكَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً (النبأ/۳۸)و قال تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهٰا وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً (آل عمران/۳۰).

قوله تعالى: أَلاٰ لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظّٰالِمِينَ اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ الخ؛تتمه قول الأشهاد،و الدليل عليه قوله تعالى: فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظّٰالِمِينَ اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَ يَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كٰافِرُونَ (الأعراف/ ۴۵).

و هذا القول منهم المحكى فى كلامه تعالى تثبيت منهم للبعد و اللعن على الظالمين و تسجيل للعذاب،و ليس اللعن و الرحمه يوم القيامه كاللعن و الرحمه فى الدنيا كما فى قوله تعالى:

أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّٰهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاّٰعِنُونَ (البقره/۱۵۹)و ذلك أن الدنيا دار عمل و يوم القيامه يوم جزاء فما فيه من لعنه او رحمه هو إيصال ما ادّخر لهم اليهم فلعن اللاعن احدا يوم القيامه طرده من رحمه اللّه الخاصه بالمؤمنين و تسجيل عذاب البعد عليه.

قوله تعالى: أُولٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ أَوْلِيٰاءَ الى آخر الآيه؛الاشاره الى المفترين على اللّه الموصوفين بما مر فى الآيتين السابقتين.

و المقام يدل على ان المراد من كونهم غير معجزين فى الأرض انهم لم يكونوا معجزين للّه سبحانه فى حياتهم الارضيه حيث خرجوا عن زى العبوديه فأخذوا يفترون على اللّه الكذب و يصدون عن سبيله و يبغونها عوجا فكل ذلك لا-لأن قدرتهم المستعاره فاقت قدره اللّه سبحانه و مشيتهم سبقت مشيته،و لا لأنهم خرجوا من ولايه اللّه فدخلوا فى ولايه غيره و هم

الذين اتخذوهم اولياء من اصنامهم و كذا سائر الأسباب التى ركنوا إليها،و ذلك قوله: «وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ أَوْلِيٰاءَ» .

و بالجمله لا قدرتهم غلبت قدره اللّه سبحانه و لا شركاؤهم الذين يسمونهم اولياء لأنفسهم اولياء لهم بالحقيقه يدبرون امرهم و يحملونهم على ما يأتون به من البغى و الظلم بل اللّه سبحانه هو وليهم و هو المدبر لأمرهم يجازيهم على سوء نياتهم و اعمالهم بما يجرهم الى سوء العذاب و يستدرجهم من حيث لا يشعرون كما قال تعالى: فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ (الصف/۵)،و قال: يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِينَ (البقره/ ۲۶).

و قوله: يُضٰاعَفُ لَهُمُ الْعَذٰابُ ذلك لأنهم فسقوا ثم لجوا عليه او لأنهم عصوا اللّه بأنفسهم و حملوا غيرهم على معصيه اللّه فيضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا المعصيه قال تعالى:

لِيَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ كٰامِلَةً يَوْمَ الْقِيٰامَةِ وَ مِنْ أَوْزٰارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ (النحل/۲۵) و قال: وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ (يس/۱۲).

و قوله: مٰا كٰانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ مٰا كٰانُوا يُبْصِرُونَ فى مقام التعليل و لذا جىء بالفصل يقول تعالى إنهم لم يكفروا و لم يعصوا لظهور إرادتهم على إراده اللّه و لا لأن لهم اولياء من دون اللّه يستظهرون بهم على اللّه بل لأنهم ما كانوا يستطيعون ان يسمعوا ما يأتيهم من الإنذار و التبشير من ناحيته او يذكر لهم من البعث و الزجر من قبله و ما كانوا يبصرون آياته حتى يؤمنوا بها كما وصفهم فى قوله: لَهُمْ قُلُوبٌ لاٰ يَفْقَهُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لاٰ يُبْصِرُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ آذٰانٌ لاٰ يَسْمَعُونَ بِهٰا أُولٰئِكَ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ (الأعراف/۱۷۹)،و فى قوله:

وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصٰارَهُمْ كَمٰا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ (الأنعام/۱۱۰)،و قوله: خَتَمَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلىٰ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ (البقره/۷)،و آيات اخرى كثيره تدل على انه تعالى سلبهم عقولهم و اعينهم و آذانهم غير انه تعالى يحكى عنهم مثل قولهم:

وَ قالُوا لَوْ كُنّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنّا فِی أَصْحابِ السَّعِیرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ (الملک۱۱/)، و اعترافهم بأن عدم سمعهم و عقلهم كان ذنبا منهم مع ان ذلک مستند الی سلبه تعالی منهم ذلک یدل علی انهم انفسهم توسلوا الی سلب هذه النعم بالذنوب كما یدل علیه ما تقدم من قوله تعالی: وَ ما یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِینَ (البقره۲۶/)و غیره.

قوله تعالی: أُولئِکَ الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا یَفْتَرُونَ اما خسرانهم فإن الإنسان لا یملک بالحقیقه-و ذلک بتملیک من اللّه تعالی-إلاّ نفسه و اذا اشتری لنفسه ما فیه هلاكها و ضیّعتها بالكفر و المعصیه فقد خسر فی هذه المعامله التی اقدم علیها نفسه فخسران النفس كنایه عن الهلاک،و أما ضلال ما كانوا یفترون فإنه كان كذبا و افتراء لیس له وجود فی الخارج من اوهامهم و مزاعمهم التی زیّنتها لهم الأهواء و الهوسات الدنیویه و بانطواء بساط الحیاه الدنیا یزول و ینمحی تلک الاوهام و یضلّ ما لاح و استقر فیها من الكذب و الافتراء و یومئذ یعلمون ان اللّه هو الحق المبین،و یبدو لهم من اللّه ما لم یكونوا یحتسبون.

قوله تعالی: لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِی الْآخِرَهِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ عن الفراء:أن «لا جَرَمَ» فی الاصل بمعنی لا بد و لا محاله ثم كثرت فحولت الی معنی القسم و صارت بمعنی«حقا» و لهذا تجاب باللام نحو لا جرم لأفعلن كذا.انتهی،و قد ذكروا أن «جَرَمَ» بفتحتین بمعنی القطع فلعلها كانت فی الأصل تستعمل فی نتائج الكلام كلفظه«لا محاله»و تفید أنه لا یقطع هذا القول قاطع إن كذا كذا كما یتصور نظیر المعنی فی«لا محاله»فمعنی الآیه علی هذا:حقا إنهم فی الآخره هم الأخسرون.

و وجه كونهم فی الآخره هم الأخسرین إن فرض أنهم أخسر بالنسبه الی غیرهم من أهل المعاصی هو أنهم خسروا أنفسهم بإهلاكها و إضاعتها بالكفر و العناد فلا مطمع فی نجاتهم من النار فی الآخره كما لا مطمع فی أن یفوزوا فی الدنیا و یسعدوا بالإیمان ما داموا علی العناد،قال

تعالی: اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (الأنعام۱۲/).و قال تعالی فی هؤلاء المختوم علی سمعهم و أبصارهم و قلوبهم: وَ جَعَلْنٰا مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَیْنٰاهُمْ فَهُمْ لاٰ یُبْصِرُونَ وَ سَوٰاءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (یس/ ۱۰).و قال أیضا فی سبب عدم إمکان إیمانهم: أَ فَرَأَیْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلیٰ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلیٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلیٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً فَمَنْ یَهْدِیهِ مِنْ بَعْدِ اللّٰهِ (الجاثیه/ ۲۳).

و ان فرض أنهم أخسر بالنسبه الی الدنیا فذلک لکونهم بکفرهم و صدهم عن سبیل اللّه حرموا سعاده الحیاه التی یمهدها لهم الدین الحق فخسروا فی الدنیا کما خسروا فی الآخره لکنهم فی الآخره أخسر لکونها دائمه مخلده و أما الدنیا فلیست إلاّ قلیلا،قال تعالی: کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَ مٰا یُوعَدُونَ لَمْ یَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَةً مِنْ نَهٰارٍ (الأحقاف۳۵/).

علی أن الأعمال تشتدّ و تتضاعف فی الآخره بنتائجها کما قال تعالی: وَ مَنْ کٰانَ فِی هٰذِهِ أَعْمیٰ فَهُوَ فِی الْآخِرَةِ أَعْمیٰ وَ أَضَلُّ سَبِیلاً (الإسراء۷۲/)،و أحسن الوجهین أولهما لأن ظاهر الآیه حصر الأخسرین فیهم دون إثبات أخسریتهم فی الآخره قبال الدنیا.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلیٰ رَبِّهِمْ الی آخر الآیه؛قال الراغب فی المفردات:الخبت المطمئن من الأرض و أخبت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل و أنجد ثم استعمل الإخبات فی استعمال اللین و التواضع قال اللّه تعالی:

و أخبتوا الی ربهم،و قال:و بشر المخبتین أی المتواضعین نحو لا یستکبرون عن عبادته، و قوله:فتخبت له قلوبهم أی تلین و تخشع.انتهی.

فالمراد بإخباتهم الی اللّه اطمئنانهم الیه بحیث لا یتزلزل ما فی قلوبهم من الإیمان به فلا یزیغون و لا یرتابون کالأرض المطمئنه التی تحفظ ما استقر فیها فلا وجه لما قیل ان الأصل، أخبتوا لربهم فإن ما فی معنی الاطمئنان یتعدی بإلی دون اللام.

و تقییده تعالی الإیمان و العمل الصالح بالإخبات الیه یدل علی أن المراد بهم طائفه خاصه من المؤمنین و هم المطمئنون منهم الی اللّه ممن هم علی بصیره من ربهم،و هو الذی أشرنا الیه فی صدر الآیات عند قوله: «أَ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ» الخ؛أن الآیات تقیس ما بین فریقین خاصین من الناس و هم أهل البصیره الإلهیه و من عمیت عین بصیرته.

قوله تعالی: مَثَلُ الْفَرِیقَیْنِ کَالْأَعْمیٰ وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِیرِ وَ السَّمِیعِ هَلْ یَسْتَوِیٰانِ مَثَلاً أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ المثل هو الوصف،و غلب فی المثل السائر و هو بیان معنی من المعانی الخفیه علی المستمع بأمر محسوس أو کالمحسوس یأنس به ذهنه و یتلقاه فهمه لینتقل به الی المعنی المعقول المقصود بیانه،و المراد بالفریقین من بین حالهما فی الآیات السابقه،و الباقی واضح.

[سوره هود (۱۱): الآیات ۲۵ الی ۳۵]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلیٰ قَوْمِهِ إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ (۲۵) أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اَللّٰهَ إِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ عَذٰابَ یَوْمٍ أَلِیمٍ (۲۶) فَقٰالَ اَلْمَلَأُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مٰا نَرٰاکَ إِلاّٰ بَشَراً مِثْلَنٰا وَ مٰا نَرٰاکَ اِتَّبَعَکَ إِلاَّ اَلَّذِینَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِیَ اَلرَّأْیِ وَ مٰا نَریٰ لَکُمْ عَلَیْنٰا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّکُمْ کٰاذِبِینَ (۲۷) قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ آتٰانِی رَحْمَهً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّیَتْ عَلَیْکُمْ أَ نُلْزِمُکُمُوهٰا وَ أَنْتُمْ لَهٰا کٰارِهُونَ (۲۸) وَ یٰا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مٰالاً إِنْ أَجرِیَ إِلاّٰ عَلَی اَللّٰهِ وَ مٰا أَنَا بِطٰارِدِ اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ وَ لٰکِنِّی أَرٰاکُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۹) وَ یٰا قَوْمِ مَنْ یَنْصُرُنِی مِنَ اَللّٰهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ (۳۰) وَ لاٰ أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزٰائِنُ اَللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ اَلْغَیْبَ وَ لاٰ أَقُولُ إِنِّی مَلَکٌ وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِینَ تَزْدَرِی أَعْیُنُکُمْ لَنْ یُؤْتِیَهُمُ اَللّٰهُ خَیْراً اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا فِی أَنْفُسِهِمْ إِنِّی إِذاً لَمِنَ اَلظّٰالِمِینَ (۳۱) قٰالُوا یٰا نُوحُ قَدْ جٰادَلْتَنٰا فَأَکْثَرْتَ جِدٰالَنٰا فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ کُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِینَ (۳۲) قٰالَ إِنَّمٰا یَأْتِیکُمْ بِهِ اَللّٰهُ إِنْ شٰاءَ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ (۳۳) وَ لاٰ یَنْفَعُکُمْ نُصْحِی إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَکُمْ إِنْ کٰانَ اَللّٰهُ یُرِیدُ أَنْ یُغْوِیَکُمْ هُوَ رَبُّکُمْ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۳۴) أَمْ یَقُولُونَ اِفْتَرٰاهُ قُلْ إِنِ اِفْتَرَیْتُهُ فَعَلَیَّ إِجْرٰامِی وَ أَنَا بَرِیءٌ مِمّٰا تُجْرِمُونَ (۳۵)

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلی قَوْمِهِ إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ القراءه المعروفه«إنی»بکسر الهمزه علی تقدیر القول و قرئ أنی بفتح الهمزه بنزع الخافض و التقدیر بأنی لکم نذیر مبین،و الجمله أعنی قوله: «إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ» علی أی حال بیان إجمالی لما أرسل به فإن جمیع ما بلغه قومه عن ربه و أرسل به الیهم إنذار مبین فهو نذیر مبین.

فکما أنه لو قال:ما سالقیه الیکم من القول إنذار مبین کان بیانا لجمیع ما أرسل به الیهم بأوجز کلمه کذا قوله:إنی لکم نذیر مبین بیان لذلک بالإجمال غیر أنه یزید علی سابقه ببیان

ص :۱۲۶

سمه نفسه و هی أنه رسول من اللّه الیهم لینذرهم بعذاب اللّه،و لیس له من الأمر شیء أزید من أنه واسطه یحمل الرساله.

قوله تعالی: أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّٰهَ إِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ عَذٰابَ یَوْمٍ أَلِیمٍ .

بیان ثان لما ارسل به او بیان لقوله: «إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ» و مآل الوجهین واحد،و أن علی أی حال مفسره،و المعنی أن محصل رسالته النهی عن عباده غیر اللّه تعالی من طریق الإنذار و التخویف.

و الظاهر أن المراد بعذاب یوم ألیم عذاب الاستئصال دون عذاب یوم القیامه او الأعمّ من العذابین یدل علی ذلک قولهم له فیما سیحکیه اللّه تعالی عنهم «یٰا نُوحُ قَدْ جٰادَلْتَنٰا فَأَکْثَرْتَ جِدٰالَنٰا فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِینَ قٰالَ إِنَّمٰا یَأْتِیکُمْ بِهِ اللّٰهُ إِنْ شٰاءَ» الآیه؛فإنه ظاهر فی عذاب الاستئصال.

فهو علیه السّلام کان یدعوهم الی رفض عباده الأوثان و یخوّفهم من یوم ینزل علیهم من اللّه عذاب ألیم ای مؤلم و نسبه الإیلام الی الیوم دون العذاب فی قوله: «عَذٰابَ یَوْمٍ أَلِیمٍ» من قبیل وصف الظرف بصفه المظروف.

و بما تقدم یندفع ما ربما قیل:إن تعذیب المشرکین مقطوع لا محتمل فما الوجه فی خوفه علیه السّلام من تعذیبهم المقطوع؟و الخوف إنما یستقیم فی محتمل الوقوع لا مقطوعه.

و بالجمله کان علیه السّلام یدعوهم الی توحید اللّه سبحانه بتخویفهم من العذاب،و إنما کان یخوّفهم لأنهم کانوا یعبدون الأوثان خوفا من سخطهم فقابلهم نوح علیه السّلام بأن اللّه سبحانه هو الذی خلقهم و دبّر شئون حیاتهم و أمور معاشهم بخلق السماوات و الأرض و إشراق الشمس و القمر و إنزال الأمطار و إنبات الأرض و إنشاء الجنات و شق الأنهار علی ما یحکیه تعالی عنه علیه السّلام فی سوره نوح.

و إذ کان کذلک کان اللّه سبحانه هو ربهم لا رب سواه فلیخافوا عذابه و لیعبدوه وحده.

قوله تعالى: فَقٰالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مٰا نَرٰاكَ إِلاّ بَشَراً مِثْلَنٰا الى آخر الآيه؛الفاء فى صدر الآيه لتفريع جوابهم عن قول نوح عليه السّلام،و فيه إشاره الى انهم بادروه بالرد و الإنكار من دون ان يفكروا فى انفسهم فيختاروا ما هو أصلح لهم.

و المجيبون هم الملأ من قومه و الأشراف و الكبراء الذين كفروا به و لم يتعرضوا فى جوابهم لما ألقى اليهم من حجه التوحيد بل إنما اشتغلوا بنفى رسالته و الاستكبار عن طاعته فإن قوله: «إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» الى آخر الآيتين؛كان مشتملا على دعوى الرساله و ملوّحا الى وجوب الاتباع و قد صرح به فيما حكى عنه فى موضع آخر،قال تعالى: قٰالَ يٰا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ (نوح٣/).

و محصل ما نقله اللّه تعالى من جوابهم هو أنه لا دليل على لزوم اتباعك بل الدليل على خلافه فهو فى الحقيقه حجتان منظومتان على طريق الاضراب و الترقى و لذلك أخر قولهم:

«بَلْ نَظُنُّكُمْ كٰاذِبِينَ» .

و الحجه الاولى التى مدلولها عدم الدليل على وجوب اتباعه مبينه بطرق ثلاث هى قوله: «مٰا نَرٰاكَ إِلاّ بَشَراً» الخ؛و قوله: «وَ مٰا نَرٰاكَ اتَّبَعَكَ» الخ؛و قوله: «وَ مٰا نَرىٰ لَكُمْ عَلَيْنٰا» الخ.

و الحجه بجميع أجزائها مبنيه على إنكار ما وراء الحس كما سنبين و لذلك كرروا فيه قولهم:ما نراك و ما نرى.

فقوله: مٰا نَرٰاكَ إِلاّ بَشَراً مِثْلَنٰا أول جوابهم عما يدعيه نوح عليه السّلام من الرساله، و قد تمسكوا فيه بالمماثله كما هو دأب سائر الامم مع أنبيائهم على ما حكاه اللّه تعالى فى كتابه و تقريره:أنك مثلنا فى البشريه و لو كنت رسولا الينا من عند اللّه لم تكن كذلك و لا نشاهد منك إلاّ أنك بشر مثلنا،و إذ كنت بشرا مثلنا لم يكن هناك موجب لاتباعك.

و قوله: وَ مٰا نَرٰاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِيَ الرَّأْيِ قال فى

المفردات:الرذل-بفتح الراء-و الرذال-بكسرها-المرغوب عنه لرداءته قال تعالى «وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ» و قال «إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِيَ الرَّأْيِ» و قال «قٰالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ» جمع الأرذل.

و قال فى المجمع:الرذل الخسيس الحقير من كل شيء و الجمع ارذل ثم يجمع على اراذل كقولك:كلب و اكلب و كالب،و يجوز ان يكون جمع الأرذل فيكون مثل اكابر جمع اكبر.

و قال:و الرأى الرؤيه من قوله: «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ» أى رؤيه العين و الرأى ايضا ما يراه الإنسان فى الأمر و جمعه آراء.انتهى.

و قال فى المفردات:و قوله: «بٰادِيَ الرَّأْيِ» أى ما يبدأ من الرأى و هو الرأى الفطير، و قرئ:بادى بغير همزه أى الذى يظهر من الرأى و لم يتروّ فيه.انتهى.

و قوله: «بٰادِيَ الرَّأْيِ» يحتمل أن يكون قيدا لقوله: «هُمْ أَرٰاذِلُنٰا» أى كونهم أراذل و سفله فينا معلوم فى ظاهر الرأى و النظر او فى اول نظره.

و يحتمل كونه قيدا لقوله: اِتَّبَعَكَ أى اتبعوك فى ظاهر الرأى او فى اوله من غير تعمّق و تفكر و لو تفكروا قليلا و قلبوا أمرك ظهرا لبطن ما اتبعوك،و هذا الاحتمال لا يستغنى عن تكرار الفعل ثانيا و التقدير:اتبعوك بادى الأمر و إلاّ اختلّ المعنى لو لم يتكرر و قيل:ما نراك اتبعك بادى الرأى إلاّ الّذين هم أراذلنا.و بالجمله معنى الآيه:أنا نشاهد أن متبعيك هم الأراذل و الأخساء من القوم و لو اتبعناك ساويناهم و دخلنا فى زمرتهم و هذا ينافى شرافتنا و يحط قدرنا فى المجتمع،و فى الكلام إيماء الى بطلان رسالته عليه السّلام بدلاله الالتزام فإن من معتقدات العامه أن القول لو كان حقا نافعا لتبعه الشرفاء و العظماء و أولو القوه و الطول فلو استنكفوا عنه او اتبعه الأخساء و الضعفاء كالعبيد و المساكين و الفقراء ممن لا حظ له من مال او جاه و لا مكانه له عند العامه فلا خير فيه.

و قوله: وَ مٰا نَرىٰ لَكَمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ المراد نفى مطلق الفضل من متاع دنيوى يختصون بالتنعم به او شىء من الامور الغيبيه كعلم الغيب او التأيد بقوه ملكوتيه و ذلك لكون النكره-فضل-واقعه فى سياق النفى فتفيد العموم.

و قد أشركوا أتباع نوح عليه السّلام و المؤمنين به منهم فى دعوته إذ قالوا«و لا نرى لكم علينا» و لم يقولوا«و لا نرى لك»لأنهم كانوا يحثونهم و يرغبونهم فى اتباع ما اتبعوه من الطريقه.

و المعنى أن دعوتكم إيانا-و عندنا ما نتمتع به من مزايا الحياه الدنيا كالمال و البنين و العلم و القوه-إنما يستقيم و يؤثر أثره لو كان لكم شىء من الفضل تفضلون به علينا من زينه الحياه الدنيا او علم من الغيب او قوه من الملكوت حتى يوجب ذلك خضوعا منا لكم و لا نرى شيئا من ذلك عندكم فأى موجب يوجب علينا اتباعكم؟

و إنما عممنا الفضل فى كلامه للفضل من حيث الجهات الماديه و غيره كعلم الغيب و القوه الملكوتيه خلافا لأكثر المفسرين حيث فسروا الفضل بالفضل المادى كالمال و الكثره و غيرهما،لما يستفاد من كلامهم من العموم لوقوع النكره فى سياق النفى.

مضافا الى أن ما يحاذى قولهم هذا من جواب نوح عليه السّلام يدل على ذلك و هو قوله: «وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لاٰ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ» الخ؛على ما سيأتى.

و قوله تعالى: بَلْ نَظُنُّكُمْ كٰاذِبِينَ إضراب فى الاحتجاج كما تقدمت الإشاره اليه فمحصله انا لا نرى معكم امرا يوجب اتباعنا لكم بل هناك امر يوجب عدم الاتباع و هو انا نظنكم كاذبين.

و معناه على ما يعطيه السياق-و اللّه اعلم-انه لما لم يكن عندكم ما يشاهد معه صحه دعوتكم و إنكم تلحون علينا بالسمع و الطاعه و انتم صفر الأيدى من مزايا الحياه من مال و جاه و هذه الحال تستدعى الظن بأنكم كاذبون فى دعواكم تريدون بها نيل ما بأيدينا من امانى الحياه بهذه الوسيله و بالجمله هذه اماره توجب عاده الظن بأنها اكذوبه يتوسل بها الى

اقتناء الأموال و القبض على ثروه الناس و الاستعلاء عليهم بالحكم و الرئاسه،و هذا كما حكى اللّه سبحانه عنهم فى مثل القصه إذ قال: فَقٰالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مٰا هٰذٰا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ (المؤمنون/۲۴).و بهذا يظهر وجه تعليقهم الكذب بالظن دون الجزم،و أن المراد بالكذب الكذب المخبرى دون الخبرى.

قوله تعالى: قٰالَ يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّى الى آخر الآيه؛ بيان لما أجاب به نوح عليه السّلام عن حجتهم الى تمام اربع آيات،و التعميه الإخفاء فمعنى عميت عليكم بالبناء للمفعول أخفيت عليكم من ناحيه جهلكم و كراهتكم للحق.و قرئ:عميت بالتخفيف و البناء للفاعل أى خفيت عليكم تلك الرحمه.

لما كانت حجتهم مبنيه على الحس و نفى ما وراءه و قد استنتجوا منها اولا عدم الدليل على وجوب طاعته و اتّباعه ثم اضربوا عنه بالترقى الى استنتاج الدليل على عدم الوجوب بل على وجوب العدم اجابهم عليه السّلام بإثبات ما حاولوا نفيه من رسالته و ما يتبعه،و نفى ما حاولوا اثباته باتهامه و اتهام اتباعه بالكذب غير انه استعطفهم بخطاب يا قوم-بالإضافه الى ضمير التكلم-مره بعد مره ليجلبهم اليه فيقع نصحه موقع القبول منهم.

و قد ابدع الآيات الكريمه فى تقرير حجته عليه السّلام فى جوابهم فقطّعت حجتهم فصلا فصلا و أجابت عن كل فصل بوجهيه أعنى من جهه انتاجه أن لا دليل على اتّباعه عليه السّلام و أن الدليل على خلافه و ذلك قوله: «يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَهٍ» الخ؛و قوله: «وَ مٰا أَنَا بِطٰارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛و قوله: «وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزٰائِنُ اللّٰهِ» الخ؛ثم اخذت من كل حجه سابقه شيئا يجرى مجرى التلخيص فإضافته الى الحجه اللاحقه بادئه به فامتزجت الحجه بالحجه على ما لكل منها من الاستقلال و التمام.

فتمت الحجج ثلاثا كل واحده منها مبدوّه بالخطاب و هى قوله: «يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَهٍ» الخ؛و قوله: «يٰا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً» الخ؛و قوله: «وَ يٰا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى

مِنَ اللّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ» الخ؛فتدبّر فيها.

فقوله: قٰالَ يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّى جواب عن قولهم:

«مٰا نَرٰاکَ إِلاّٰ بَشَراً مِثْلَنٰا» يريدون به أنه ليس معه إلاّ البشريه التى يماثلهم فيها و يماثلونه فبأى شىء يدّعى وجوب اتّباعهم له؟بل هو كاذب يريد بما يدّعيه من الرساله أن يصطادهم فيقتنص بذلک اموالهم و يترأس عليهم.

و إذ كان هذا القول منهم متضمنا لنفى رسالته و سندهم فى ذلک أنه بشر لا أثر ظاهر معه يدل على الرساله و الاتصال بالغيب كان من الواجب تنبيههم على ما يظهر به صدقه فى دعوى الرساله و هو الآيه المعجزه الداله على صدق الرسول فى دعوى الرساله فإن الرساله نوع من الاتصال بالغيب خارق للعاده الجاريه لا طريق الى العلم بتحققه إلاّ بوقوع امر غيبى آخر خارق للعاده يوقن به كون الرسول صادقا فى دعواه الرساله،و لذلک اشار عليه السّلام بقوله:

«يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّى» الى أن معه بينه من اللّه و آيه معجزه تدل على صدقه فى دعواه.

و قوله: وَ آتٰانِى رَحْمَهً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ الظاهر انه عليه السّلام يشير به الى ما آتاه اللّه تعالى من الكتاب و العلم،و قد تكرر فى القرآن الكريم تسميه الكتاب و كذا تسميه العلم باللّه و آياته رحمه قال تعالى: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَهً (هود١٧/)، و قال: وَ نَزَّلْنٰا عَلَيْکَ الْكِتٰابَ تِبْيٰاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَهً (النحل٨٩/)،و قال:

فَوَجَدٰا عَبْداً مِنْ عِبٰادِنٰا آتَيْنٰاهُ رَحْمَهً مِنْ عِنْدِنٰا (الكهف٦۵/)و قال: رَبَّنٰا لاٰ تُزِغْ قُلُوبَنٰا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنٰا وَ هَبْ لَنٰا مِنْ لَدُنْکَ رَحْمَهً (آل عمران٨/).

و أما قوله: فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ فالظاهر ان ضميره راجع الى الرحمه،و المراد أن ما عندى من العلم و المعرفه اخفاها عليكم جهلكم و كراهتكم للحق بعد ما ذكّرتكم به و بثثته فيكم.

و قوله: أَ نُلْزِمُكُمُوهٰا وَ أَنْتُمْ لَهٰا كٰارِهُونَ الإلزام جعل الشیء مع الشیء بحیث لا یفارقه و لا ینفکّ منه،و المراد بإلزامهم الرحمه و هم لها کارهون إجبارهم علی الایمان باللّه و آیاته و التلبّس بما یستدعیه المعارف الالهیه من النور و البصیره.

و معنی الآیه-و اللّه اعلم-اخبرونی إن کانت عندی آیه معجزه تصدّق رسالتی مع کونی بشرا مثلکم و کانت عندی ما تحتاج الیه الرساله من کتاب و علم یهدیکم الی الحق لکن لم یلبث دون ان اخفاه علیکم عنادکم و استکبارکم أ یجب علینا عندئذ ان نجبرکم علیها؟ای عندی جمیع ما یحتاج الیه رسول من اللّه فی رسالته و قد أوقفتکم علیه لکنکم لا تؤمنون به طغیانا و استکبارا و لیس علیّ ان أجبرکم علیها،إذ لا إجبار فی دین اللّه سبحانه.

قوله تعالی: وَ یٰا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مٰالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاّٰ عَلَى اللّٰهِ یرید به الجواب عما اتهموه به من الکذب و لازمه ان تکون دعوته طریقا الی جلب اموالهم و اخذ ما فی ایدیهم طمعا فیه فإنه إذا لم یسألهم شیئا من اموالهم لم یکن لهم ان یتهموه بذلک.

قوله تعالی: وَ مٰا أَنَا بِطٰارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ وَ لٰكِنِّي أَرٰاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ جواب عن قولهم: «وَ مٰا نَرٰاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِيَ الرَّأْيِ» و قد بدل لفظ الأراذل-و هی لفظه إرزاء و تحقیر-من قوله:الذین آمنوا تعظیما لأمر إیمانهم و إشاره الی ارتباطهم بربهم.

نفی فی جوابه ان یکون یطردهم و علل ذلک بقوله: «إِنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ» إیذانا بأن لهم یوما یرجعون فیه الی اللّه فیحاسبهم علی اعمالهم فیجازیهم علی ما عملوه من خیر او شر فحاسبهم علی ربهم و لیس لغیره من الأمر شیء،فلیس علی نوح علیه السّلام ان یحاسبهم فیجازیهم بشیء لکن القوم لجهالتهم یتوقعون علی الفقراء و المساکین و الضعفاء ان یطردوا من مجتمع الخیر و یسلبوا النعمه و الشرافه و الکرامه.

فظهر ان المراد بقوله: إِنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ الإیمان الی محاسبه اللّه سبحانه إیاهم

یوم یرجعون فیه الیه فیلاقونه کما وقع فی نظیر هذا المعنی فی قوله تعالی: وَ لاٰ تَطْرُدِ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاةِ وَ الْعَشِیِّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ مٰا عَلَیْکَ مِنْ حِسٰابِهِمْ مِنْ شَیْءٍ وَ مٰا مِنْ حِسٰابِکَ عَلَیْهِمْ مِنْ شَیْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَکُونَ مِنَ الظّٰالِمِینَ (الأنعام/۵۷).

قوله تعالی: وَ یٰا قَوْمِ مَنْ یَنْصُرُنِی مِنَ اللّٰهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ النصر مضمّن معنی المنع او الانجاء و نحوهما و المعنی من یمنعنی أو من ینجینی من عذاب اللّه إن طردتهم أ فلا تتذکرون أنه ظلم،و اللّه سبحانه ینتصر للمظلوم من الظالم و ینتقم منه، و العقل جازم بأن اللّه سبحانه لا یساوی بین الظالم و المظلوم،و لا یدع الظالم یظلم دون أن یجازیه علی ظلمه بما یسوءه و یشفی به غلیل صدر المظلوم و اللّه عزیز ذو انتقام.

قوله تعالی: وَ لاٰ أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَیْبَ وَ لاٰ أَقُولُ إِنِّی مَلَکٌ جواب عن قولهم:«و لا نری لکم علینا من فضل»یرد علیهم قولهم بأنی لست أدّعی شیئا من الفضل الذی تتوقعون منی أن أدّعیه بما أنی أدّعی الرساله فإنکم تزعمون أن علی الرسول أن یملک خزائن الرحمه الإلهیه فیستقل بإغناء الفقیر و شفاء العلیل و إحیاء الموتی و التصرف فی السماء و الأرض و سائر أجزاء الکون بما شاء و کیف شاء.

و أن یملک علم الغیب فیحصل علی کل خیر محجوب عن العیون مستور عن الأبصار فیجلبه الی نفسه،و یدفع کل شر مستقبل کامن عن نفسه و بالجمله یستکثر من الخیرات و یصان من المکاره.

و أن یرتفع عن درجه البشریه الی مقام الملکیه أی یکون ملکا منزّها من ألواث الطبیعه و مبری من حوائج البشریه و نقائصها فلا یأکل و لا یشرب و لا ینکح و لا یقع فی تعب اکتساب الرزق و اقتناء لوازم الحیاه و أمتعتها.

فهذه هی جهات الفضل التی تزعمون أن الرسول یجب أن یؤتاها و یمتلکها فیستقل بها، و قد أخطأتم فلیس للرسول إلاّ الرساله و إنی لست أدّعی شیئا من ذلک فلا أقول لکم عندی

خزائن اللّه و لا أعلم الغيب و لا أقول إنى ملك،و بالجمله لست أدعى شيئا من الفضل الذى تتوقعونه حتى تكذبونى بفقده،و إنما أقول إنى على بينه من ربى تصدق رسالتى و آتانى رحمه من عنده.

و المراد بقوله: خَزائِنُ اللّهِ جميع الذخائر و الكنوز الغيبيه التى ترزق المخلوقات منها ما يحتاجون اليه فى وجودهم و بقائهم و يستعينون به على تتميم نقائصهم و تكميلها.

فهاتيك هى التى تزعم العامه أن الأنبياء و الأولياء يؤتون مفاتيحها و يمتلكون بها من القدره ما يفعلون بها ما يشاءون و يحكمون ما يريدون كما اقترح على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قد حكاه اللّه تعالى إذ يقول: وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّی تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً أَوْ تَکُونَ لَکَ جَنَّهٌ مِنْ نَخِیلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِیراً أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ کَما زَعَمْتَ عَلَیْنا کِسَفاً أَوْ تَأْتِیَ بِاللّهِ وَ الْمَلائِکَهِ قَبِیلاً أَوْ یَکُونَ لَکَ بَیْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقی فِی السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتّی تُنَزِّلَ عَلَیْنا کِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلاّ بَشَراً رَسُولاً (الإسراء۹۳/).

و إنما قال: وَ لا أَعْلَمُ الْغَیْبَ و لم يقل:و لا أقول إنى أعلم الغيب لأن هذا النوع من العلم لما كان مما يضن به و لا يسمح بإظهاره لم يكن قول القائل:لا أقول إنى أعلم الغيب نافيا لوجوده عند القائل بل يحتاج الى أن يقال:لا أعلم الغيب ليفيد النفى بخلاف قوله:

وَ لا أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزائِنُ اللّهِ و قوله: وَ لا أَقُولُ إِنِّی مَلَکٌ ،و لم يكرر قوله: لَکُمْ لحصول الكفايه بالواحده.

و قد أمر اللّه سبحانه نبيه محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يخاطب قومه بما خاطب به نوح صلّى اللّه عليه و آله و سلم قومه ثم ذيّله بما يظهر به المراد إذ قال: قُلْ لا أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزائِنُ اللّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَیْبَ وَ لا أَقُولُ لَکُمْ إِنِّی مَلَکٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّ ما یُوحی إِلَیَّ قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الْأَعْمی وَ الْبَصِیرُ أَ فَلا تَتَفَکَّرُونَ (الأنعام۵۰/).

انظر الی قوله: لاَ أَقُولُ لَکَمْ الـخ؛ثم الی قوله: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّ مٰا یُوحیٰ إِلَیَّ» ثم الی قوله: «قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الْأَعْمیٰ وَ الْبَصِیرُ» الخ؛فهو ینفی أولا الفضل الذی یتوقعه عامه الناس من نبیهم ثم یثبت للرسول الرساله فحسب ثم یبادل الی إثبات الفضل من جهه أخری غیر الجهه التی یتوقعها الناس و هو أنه بصیر بإبصار اللّه تعالی و أن غیره بالنسبه الیه کالأعمی بالنسبه الی البصیر و هذا هو الموجب لاتباعهم له کما یتّبع الأعمی البصیر،و هو المجوّز له أن یدعوهم الی اتباعه (۱).

قوله تعالی: وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِینَ تَزْدَرِی أَعْیُنُکُمْ لَنْ یُؤْتِیَهُمُ اللّٰهُ خَیْراً اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا فِی أَنْفُسِهِمْ إِنِّی إِذاً لَمِنَ الظّٰالِمِینَ قال فی المفردات:زریت علیه عبته و أزریت به قصدت به و کذلک ازدریت به و أصله افتعلت قال:تزدری أعینکم أی تستقلّهم تقدیره تزدریهم أعینکم أی تستقلّهم و تستهین بهم.انتهی.

و هذا الفصل من کلامه علیه السّلام إشاره الی ما کان یعتقده الملأ الذین کفروا من قومه و بنوا علیه سنّه الاشرافیه و طریقه السیاده،و هو أنّ أفراد الإنسان تنقسم الی قسمین الأقویاء و الضعفاء،أمّا الأقویاء فهم أولو الطول و أرباب القدره المعتضدون بالمال و العدّه،و أمّا الضعفاء فهم الباقون.و الأقویاء هم الساده فی المجتمع الانسانی لهم النعمه و الکرامه، و لأجلهم انعقاد المجتمع،و غیرهم من الضعفاء مخلوقون لأجلهم مقصودون لهم أضاحی منافعهم کالرعیّه بالنسبه الی کرسیّ الحکومه المستبدّه،و العبید بالنسبه الی الموالی، و الخدم و العمله بالنسبه الی المخدومین و النساء بالنسبه الی الرجال،و بالأخره کل ضعیف بالنسبه الی القوی المستعلی علیه.

و بالجمله کان معتقدهم أن الضعیف فی المجتمع إنسان منحطّ أو حیوان فی صوره إنسان

۱- ۱) .هود ۲۵-۳۵:کلام فی قدره الانبیاء و الاولیاء فلسفی و قرآنی.

إنما يرد داخل المجتمع و يشاركهم فى الحياه ليستفيد الشريف من عمله و ينتفع من كدّ يمينه لحياته من غير عكس بل هو محروم من الكرامه مطرود عن حظيره الشرافه آيس من الرحمه و العنايه.

فهذا هو الذى كانوا يرونه و كان هو المعتمد عليه فى مجتمعهم،و قد ردّ نوح عليه السّلام ذلك إليهم بقوله: «وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّٰهُ خَيْراً» .

ثمّ بيّن خطأهم فى معتقدهم بقوله: «اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا فِي أَنْفُسِهِمْ» أى إن أعينكم إنما تزدريهم و تستحقرهم و تستهين أمرهم لما تحسّ ظاهر ضعفهم و هوانهم،و ليس هو الملاك فى إحراز الخير و نيل الكرامه بل الملاك فى ذلك و خاصّه الكرامات و المثوبات الإلهيه أمر النفس و تحلّيها بحلىّ الفضيله و المنقبه المعنويه،و لا طريق لى و لا لكم الى العلم ببواطن النفوس و خبايا القلوب إلاّ للّه سبحانه فليس لى و لا لكم أن نحكم بحرمانهم من الخير و السعاده.

ثم بيّن بقوله: «إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظّٰالِمِينَ» السبب فى تحاشيه عن هذا القول و معناه أنه قول بغير علم،و تحريم الخير على من يمكن أن يستحقه جزافا من غير دليل ظلم لا ينبغى أن يرومه الانسان فيدخل بذلك فى زمره الظالمين.

و هذا المعنى هو الذى يشير تعالى إليه فيما يحكيه من كلام أهل الأعراف يوم القيامه خطابا لهؤلاء الطاغين إذ يقول: وَ نٰادىٰ أَصْحٰابُ الْأَعْرٰافِ رِجٰالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمٰاهُمْ قٰالُوا مٰا أَغْنىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَ هٰؤُلاٰءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاٰ يَنٰالُهُمُ اللّٰهُ بِرَحْمَهٍ (الأعراف/۴۹).

و فى الكلام أعنى قول نوح عليه السّلام «وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ» الخ؛تعريض لهم أنهم كما كانوا يحرّمون على ضعفاء المجتمع المزايا الحيويه الاجتماعيه كذلك كانوا يحرمون عليهم الكرامه الدينيه و يقولون:إنهم لا يسعدون بدين و إنما يسعد به أشراف

المجتمع و أقوياؤهم،و فيه أيضا تعريض بأنهم ظالمون.

و إنما عقّب نوح عليه السّلام قوله: «وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لاٰ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ» و هو ينفى فيه جهات الامتياز التى كانوا يتوقعونها فى الرسول عن نفسه،بقوله: «وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّٰهُ خَيْراً» الخ؛مع أنه راجع الى الضعفاء الذين آمنوا به من قومه لأن الملأ ألحقوهم به فى قولهم: «وَ مٰا نَرىٰ لَكُمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ» .

و توضيحه أن معنى قولهم هذا أن اتّباعنا لك و لمن آمن بك من هؤلاء الأراذل إنما يستقيم لفضل يتم لكم علينا و لا نرى لكم علينا من فضل أمّا أنت فليس معك ما يختصّ به الرسول من قدره ملكوتيه أو علم بالغيب أو أن تكون ملكا منزّها من ألواث المادّه و الطبيعه، و أما المؤمنون بك فإنما هم أراذلنا الآيسون من كرامه الانسانيه المحرومون من الرحمه و العنايه.

فأجاب عنهم نوح بما معناه:أمّا أنا فلا أدّعى شيئا مما تتوقّعون من رسالتى فليست للرسول إلاّ الرساله و أما هؤلاء الضعفاء الذين لهم هوان عندكم فمن الجائز أن يعلم اللّه من نفوسهم خيرا فيؤتيهم خيرا و فضلا فهو أعلم بأنفسهم،و ملاك الكرامه الدينيّه و الرحمه الإلهيّه زكاء النفس و سلامه القلب دون الظاهر الذى تزدريه أعينكم فلست أقول:لن يؤتيهم اللّه خيرا،فإنه ظلم يدخلنى فى زمره الظالمين.

قوله تعالى: قٰالُوا يٰا نُوحُ قَدْ جٰادَلْتَنٰا فَأَكْثَرْتَ جِدٰالَنٰا فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ كلام القوه الى نوح عليه السّلام بعد ما عجزوا عن دحض حجته و إبطال ما دعا إليه من الحق،و هو مسوق سوق التعجيز و المراد بقولهم: «بِمٰا تَعِدُنٰا» ما أنذرهم به فى أوّل دعوته من عذاب يوم أليم.

و المعنى-و اللّه أعلم-يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا حتى سئمنا و مللنا و ما نحن لك بمؤمنين فأتنا بما تعدنا من العذاب،و هم لا يعترفون بالعجز عن خصامه و جداله بل

يؤيسونه من أنفسهم فى الحجاج و يطلبون منه أن يشتغل بما يشتغل الداعى الآيس من السمع و الطاعه و هو الشر الذى يهدّدهم به و يذكره وراء نصحه.

قوله تعالى: قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ لمّا كان قولهم: «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا» الخ؛طلبا منه أن يأتيهم بالعذاب و ليس ذلك اليه فإنما هو رسول، أجاب عن اقتراحهم هذا أيضا-فى سياق قصر القلب-أن الإتيان بالعذاب ليس إلىّ بل إنما هو الى اللّه فهو الذى يملك أمركم فيأتيكم بالعذاب الذى وعدتكموه بأمره فهو ربكم و اليه مرجع أمركم كلّه،و لا يرجع إلىّ من أمر التدبير شىء حتى أنّ وعدى إياكم بالعذاب و اقتراحكم علىّ بطلبه لا يؤثّر فى ساحه كبريائه شيئا فإن يشأ يأتكم به و إن لم يشأ فلا.

و من هنا يظهر أن قوله عليه السّلام: «إِنْ شَاءَ» من ألطف القيود فى هذا المقام أفيد به حق التنزيه و هو أن اللّه سبحانه لا يحكم فيه شىء و لا يقهره قاهر يفعل ما يشاء و لا يفعل ما يشاء غيره نظير ما سيأتى فى آخر السوره من الاستثناء فى قوله: خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (هود/١٠٨).

و قوله: «وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» تنزيه آخر للّه سبحانه و هو مع ذلك جواب عن الأمر التعجيزى الذى ألقوه اليه عليه السّلام فإن ظاهره أنهم لا يعبئون بما هددهم به من العذاب كأنهم معجزون لا يقدر عليهم.

قوله تعالى: وَ لاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ الخ؛قال فى المفردات:النصح تحرى فعل او قول فيه صلاح صاحبه -قال-و هو من قولهم:نصحت له الود أى أخلصته و ناصح العسل خالصه او من قولهم:

نصحت الجلد خطته و الناصح الخياط و النصاح الخيط.

و قال أيضا:الغى جهل من اعتقاد فاسد،و ذلك أن الجهل قد يكون من الانسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا و لا فاسدا،و قد يكون من اعتقاد شىء فاسد،و هذا النحو الثانى

يقال له غيّ قال تعالى: مٰا ضَلَّ صٰاحِبُكَمْ وَ مٰا غَوىٰ ،و قال: وَ إِخْوٰانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِی الغَيِّ .

انتهى.

و على هـذا فالفرق بين الإغواء و الإضـلال أن الإضـلال إخراج من الطريق مع بقاء المقصد فى ذكر الضال،و الإغواء إخراجه منه مع زواله عن ذكره لاشتغاله بغيره جهلا.

و الإراده و المشيه كـالمترادفتين،و هى من اللّه سبحانه تسبيب الأسباب المؤديه لوجود شىء بالضروره فكون الشىء مرادا له تعالى أنه تمم أسباب وجوده و أكملها فهو كائن لا محاله،و أما اصل السببيه الجاريه فهى مراده بنفسها و لذا قيل:خلق اللّه الأشياء بالمشيه و المشيه بنفسها.

و بـالجمله قـوله: وَ لاٰ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِی الـخ؛كأحـد شـقى الترديـد و الشـق الآخر قـوله: «وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» كـأنه عليه السّلام يقول:أمركم الى اللّه إن شاء أن يعـذبكم أتاكم بالعـذاب و لا يـدفع عـذابه و لا يقهر مشـيته شـىء فلا أنتم معجزوه،و لا نصـحى ينفعكم إن أردت أن أنصح لكم بعد ما أراد اللّه أن يغويكم لتكفروا به فيحق عليكم كلمه العذاب،و قيد نصحه بالشرط لأنهم لم يكونوا يسلمون له أنه ينصحهم.

و الإغواء كالإضـلال و إن لم يجز نسبته اليه تعالى اذا كان إغواء ابتدائيا لكنه جائز اذا كان بعنوان المجازاه كأن يعصى الإنسان و يستوجب به الغوايه فيمنعه اللّه أسباب التوفيق و يخليه و نفسه فيغوى و يضل عن سبيل الحق،قال تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِی بِهِ كَثِيراً وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِينَ (البقره۲۶/).

و فى الكلام إشاره الى أن نزول عذاب الاستئصال عليهم مسبوق بالإغواء الإلهى كما يلوح اليه قوله تعالى: وَ إِذٰا أَرَدْنٰا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَهً أَمَرْنٰا مُتْرَفِيهٰا فَفَسَقُوا فِيهٰا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنٰاهٰا تَدْمِيراً (الإسراء۱۶/)،و قال: وَ قَيَّضْنٰا لَهُمْ قُرَنٰاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ (حم السجده۲۵/).

و قوله: هُوَ رَبُّكَمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ تعليل لقوله: «وَ لاٰ يَنْفَعُكَمْ نُصْحِی» الخ؛أو لقوله: «إِنَّمٰا يَأْتِيكَمْ بِهِ اللّٰهُ إِنْ شٰاءَ -الی قوله- يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» جميعا و محصله أن أمر تدبير العباد الی الرب الذی اليه يرجع الامور،و اللّه سبحانه هو ربكم و إليه ترجعون فليس لی أن آتيكم بعذاب موعود،و ليس لكم أن تعجزوه إن شاء أن يأتيكم بالعذاب فأتاكم به لاستئصالكم و ليس لنصحی أن ينفعكم إن أراد هو أن يغويكم ليعذبكم.

قوله تعالی: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرٰامِی وَ أَنَا بَرِیءٌ مِمّٰا تُجْرِمُونَ أصل الجرم-علی ما ذكره الراغب فی مفرداته- قطع الثمره من الشجره و أجرم أی صار ذا جرم،و استعير لكل اكتساب مكروه فالجرم بضم الجيم و فتحها بمعنی الاكتساب المكروه و هو المعصيه،و الآيه،واقعه موقع الاعتراض،و النكته فيه أن دعوه نوح و احتجاجاته علی وثنيه قومه و خاصه ما أورده اللّه تعالی فی هذه السوره من احتجاجه أشبه شیء بدعوه النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم،و احتجاجه علی وثنيه أمّته.

و إن شئت زياده تصديق فی ذلک فارجع الی سوره الأنعام-و هی فی الحقيقه سوره الاحتجاج-و قابل ما حكاه اللّه تعالی عن نوح فی هذه السوره ما أمر اللّه به النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم فی تلك السوره بقوله: «قُلْ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِی خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّی مَلَکٌ -الی أن قال- وَ لاٰ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاهِ وَ الْعَشِیِّ- الی أن قال -قُلْ لاٰ أَتَّبِعُ أَهْوٰاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّی عَلیٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ» .

و لک أن تطبّق سائر ما ذكر من حججه عليه السّلام فی سوره نوح و الأعراف علی ما ذكر من الحجج فی سوره الأنعام و فی هذه السوره فتشاهد صدق ما ادّعيناه.

و فی قوله: وَ أَنَا بَرِیءٌ مِمّٰا تُجْرِمُونَ إثبات إجرام مستمر لهم و قد أرسل إرسال المسلّمات كما فی قوله: «فَعَلَيَّ إِجْرٰامِی» من إثبات الجرم و ذلک أن الذی ذكر من حجج نوح إن كان من الافتراء كان كذبا من حيث إن نوحا عليه السّلام لم يحتج بهذه الحجج و هی حقّه،

لکنها من حیث إنها حجج عقلیه قاطعه لا تقبل الکذب و هی تثبت لهؤلاء الکفار إجراما مستمرا فی رفض ما یهدیهم الیه من الإیمان و العمل الصالح فهم فی خروجهم عن مقتضی هذه الحجج مجرمون قطعا،و النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم مجرم لا قطعا بل علی تقدیر أن یکون مفتریا و لیس بمفتر.

[سوره هود (۱۱): الآیات ۳۶ الی ۴۹]

اشاره

وَ أُوحِیَ إِلیٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ یُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِکَ إِلاّٰ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا کٰانُوا یَفْعَلُونَ (۳۶) وَ اِصْنَعِ اَلْفُلْکَ بِأَعْیُنِنٰا وَ وَحْیِنٰا وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِی فِی اَلَّذِینَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۳۷) وَ یَصْنَعُ اَلْفُلْکَ وَ کُلَّمٰا مَرَّ عَلَیْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قٰالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْکُمْ کَمٰا تَسْخَرُونَ (۳۸) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ یَأْتِیهِ عَذٰابٌ یُخْزِیهِ وَ یَحِلُّ عَلَیْهِ عَذٰابٌ مُقِیمٌ (۳۹) حَتّٰی إِذٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا وَ فٰارَ اَلتَّنُّورُ قُلْنَا اِحْمِلْ فِیهٰا مِنْ کُلٍّ زَوْجَیْنِ اِثْنَیْنِ وَ أَهْلَکَ إِلاّٰ مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ اَلْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ مٰا آمَنَ مَعَهُ إِلاّٰ قَلِیلٌ (۴۰) وَ قٰالَ اِرْکَبُوا فِیهٰا بِسْمِ اَللّٰهِ مَجْرٰاهٰا وَ مُرْسٰاهٰا إِنَّ رَبِّی لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۴۱) وَ هِیَ تَجْرِی بِهِمْ فِی مَوْجٍ کَالْجِبٰالِ وَ نٰادیٰ نُوحٌ اِبْنَهُ وَ کٰانَ فِی مَعْزِلٍ یٰا بُنَیَّ اِرْکَبْ مَعَنٰا وَ لاٰ تَکُنْ مَعَ اَلْکٰافِرِینَ (۴۲) قٰالَ سَآوِی إِلیٰ جَبَلٍ یَعْصِمُنِی مِنَ اَلْمٰاءِ قٰالَ لاٰ عٰاصِمَ اَلْیَوْمَ مِنْ أَمْرِ اَللّٰهِ إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ وَ حٰالَ بَیْنَهُمَا اَلْمَوْجُ فَکٰانَ مِنَ اَلْمُغْرَقِینَ (۴۳) وَ قِیلَ یٰا أَرْضُ اِبْلَعِی مٰاءَکِ وَ یٰا سَمٰاءُ أَقْلِعِی وَ غِیضَ اَلْمٰاءُ وَ قُضِیَ اَلْأَمْرُ وَ اِسْتَوَتْ عَلَی اَلْجُودِیِّ وَ قِیلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِینَ (۴۴) وَ نٰادیٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقٰالَ رَبِّ إِنَّ اِبْنِی مِنْ أَهْلِی وَ إِنَّ وَعْدَکَ اَلْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْکَمُ اَلْحٰاکِمِینَ (۴۵) قٰالَ یٰا نُوحُ إِنَّهُ لَیْسَ مِنْ أَهْلِکَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَیْرُ صٰالِحٍ فَلاٰ تَسْئَلْنِ مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّی أَعِظُکَ أَنْ تَکُونَ مِنَ اَلْجٰاهِلِینَ (۴۶) قٰالَ رَبِّ إِنِّی أَعُوذُ بِکَ أَنْ أَسْئَلَکَ مٰا لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَ إِلاّٰ تَغْفِرْ لِی وَ تَرْحَمْنِی أَکُنْ مِنَ اَلْخٰاسِرِینَ (۴۷) قِیلَ یٰا نُوحُ اِهْبِطْ بِسَلاٰمٍ مِنّٰا وَ بَرَکٰاتٍ عَلَیْکَ وَ عَلیٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَکَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ یَمَسُّهُمْ مِنّٰا عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۴۸) تِلْکَ مِنْ أَنْبٰاءِ اَلْغَیْبِ نُوحِیهٰا إِلَیْکَ مٰا کُنْتَ تَعْلَمُهٰا أَنْتَ وَ لاٰ قَوْمُکَ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا فَاصْبِرْ إِنَّ اَلْعٰاقِبَةَ لِلْمُتَّقِینَ (۴۹)

ص:۱۴۲

بیان:

قوله تعالی: وَ أُوحِيَ إِلىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاّٰ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ الابتئاس من البؤس و هو حزن مع استکانه.

و قوله: لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاّٰ مَنْ قَدْ آمَنَ إیئاس و إقناط له علیه السّلام من إیمان الکفار من قومه بعد ذلک،و لذلک فرّع علیه قوله: «فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ» لأن الداعی الی أمر إنما یبتئس و یغتمّ من مخالفه المدعوین و تمردهم ما دام یرجو منهم الإیمان و الاستجابه لدعوته،و أما إذا یئس من إجابتهم فلا یهتم بهم و لا یتعب نفسه فی دعوتهم الی السمع و الطاعه و الإلحاح علیهم بالإقبال الیه و لو دعاهم بعدئذ فإنما یدعوهم لغرض آخر کإتمام الحجه و إبراز المعذره.

و علی هذا ففی قوله: فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ تسلیه من اللّه لنحو علیه السّلام و تطییب لنفسه الشریفه من جهه ما فی الکلام من الإشاره الی حلول حین فصل القضاء بینه و بین قومه،و صیانه لنفسه من الوجد و الغم لما کان یشاهد من فعلهم به و بالمؤمنین به من قومهم من إیذائهم إیاهم فی دهر طویل(مما یقرب من ألف سنه)لبث فیه بینهم.

قوله تعالی: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنٰا وَ وَحْيِنٰا وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ الفلک هی السفینه مفردها و جمعها واحد و الأعین جمع قله للعین و إنما جمع للدلاله علی کثره المراقبه و شدتها فإن الجمله کنایه عن المراقبه فی الصنع.

و ذکر الأیّن قرینه علی أن المراد بالوحی لیس هو هذا الوحی أعنی قوله: «وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ» الخ؛حتی یکون وحیا للحکم بل وحی فی مقام العمل و هو تسدید و هدایه عملیه بتأییده بروح القدس الذی یشیر الیه أن افعل کذا و افعل کذا کما ذکره تعالی فی الأئمه من آل ابراهیم علیهم السّلام بقوله: وَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرٰاتِ وَ إِقٰامَ الصَّلاٰةِ وَ إِيتٰاءَ الزَّكٰاةِ وَ كٰانُوا لَنٰا

عابِدِينَ (الأنبياء۷۳/)و قد تقدمت الاشاره اليه فی المباحث السابقه و سيجیء ان شاء اللّه فی تفسير الآيه.

و قوله: وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِی فِی اَلَّذِينَ ظَلَمُوا ای لا تسألنی فی امرهم شيئا تدفع به الشر و العذاب و تشفع لهم لتصرف عنهم السوء لأن القضاء فصل و الحكم حتم و بذلك يظهر أن قوله: «إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» فی محل التعليل لقوله: «وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِی» الخ؛او لمجموع قوله:

«وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنٰا وَ وَحْيِنٰا وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِی فِی اَلَّذِينَ ظَلَمُوا» و يظهر ايضا أن قوله: «وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِی» الخ؛كنايه عن الشفاعه.

و المعنی:و اصنع السفينه تحت مراقبتنا الكامله و تعليمنا إياك و لا تسألنی صرف العذاب عن هؤلاء الذين ظلموا فإنهم مقضیّ عليهم الغرق قضاء حتم لا مردّ له.

قوله تعالی: وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّمٰا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قٰالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمٰا تَسْخَرُونَ قال فی المجمع:السخريه إظهار خلاف الإبطان علی وجه يفهم منه استضعاف العقل،و منه التسخير لتذليل يكون استضعافا بالقهر،و الفرق بين السخريه و اللعب أن فی السخريه خديعه و استنقاصا و لا تكون إلاّ فی الحيوان و قد يكون اللعب بجماد،انتهی.

و قال الراغب فی المفردات:سخرت منه و استسخرته للهزء منه قال تعالی «إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمٰا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» «بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ» و قيل:رجل سخره-بالضم فالفتح-لمن سخر و سخره-بالضم فالسكون-لمن يسخر منه،و السخريه -بالضم-و السخريه-بالكسر-لفعل الساخر،انتهی.

و قوله: وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ حكايه الحال الماضيه يمثّل بها ما يجری علی نوح عليه السّلام من إيذاء قومه و قيام طائفه منهم بعد طائفه علی إهانته و الاستهزاء به فی عمل السفينه و صبره عليه فی جنب الدعوه الإلهيه و إقامه الحجه عليهم من غير ان يفشل و ينثنی.

ص:۱۴۵

و قوله: كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ حال من فاعل يصنع و الملأ هاهنا الجماعه الذين يعبأ بهم،و فى الكلام دلاله على أنهم كانوا يأتونه و هو يصنع الفلك جماعه بعد جماعه بالمرور عليه ساخرين،و أنه عليه السّلام كان يصنعها فى مرأى منهم و ممرّ عام.

و قوله: قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ فى موضع الجواب لسؤال مقدّر كأن قائلا قال:فما ذا قال نوح عليه السّلام؟فقيل «قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ» و لذا فصل الكلام من غير عطف.

و لم يقل عليه السّلام:إن تسخروا منى فإنى أسخر منكم ليدفع به عن نفسه و عن عصابه المؤمنين به و كأنه كان يستمد من أهله و أتباعه فى ذلك و كانوا يشاركونه فى عمل السفينه و كانت السخريه تتناولهم جميعا فظاهر الكلام أن الملأ كانوا يواجهون نوحا و من معه فى عمل السفينه بسخريه نوح و رميه عليه السّلام بالخبل و الجنون فيشمل هزؤهم نوحا و من معه و إن كانوا لم يذكروا فى هزئهم إلاّ نوحا فقط.

على أن الطبع و العاده يقضيان أن يكونوا يسخرون من أتباعه ايضا كما كانوا يسخرون منه فهم أهل مجتمع واحد تربط المعاشره بعضهم بعض و إن كانت سخريتهم من أتباعه سخريه منه فى الحقيقه لأنه هو الأصل الذى تقوم به الدعوه،و لذا قيل «سَخِرُوا مِنْهُ» و لم يقل:سخروا منه و من المؤمنين.

و السخريه و إن كانت قبيحه و من الجهل اذا كانت ابتدائيه لكنها جائزه اذا كانت مجازاه و بعنوان المقابله و خاصه اذا كانت تترتب عليها فائده عقلائيه كإنفاذ العزيمه و إتمام الحجه، قال تعالى: فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (التوبه/۷۹)،و يدل على اعتبار المجازاه و المقابله بالمثل فى الآيه قوله: «كَما تَسْخَرُونَ» .

قوله تعالى: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ

مُقِيمٌ السياق يقضى أن يكون قوله: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» تفريعا على الجمله الشرطيه السابقه «إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْكَمْ» و تكون الجمله المتفرعه هو متن السخريه التى أتى بها نوح عليه السّلام،و يكون قوله: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ» الخ؛متعلقا بتعلمون على أنه معلوم العلم.

و المعنى:ان تسخروا منا فإنا نسخر منكم فنقول لكم:سوف تعلمون من يأتيه العذاب؟ نحن او انتم؟و هذه سخريه بقول حق.

و قوله: مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ المراد به عذاب الاستئصال فى الدنيا و هو الغرق الذى أخزاهم و أذلهم،و المراد بقوله: «وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذٰابٌ مُقِيمٌ» اى ينزل عليه عذاب ثابت لازم لا يفارق،هو عذاب النار فى الآخره،و الدليل على ما ذكرنا من كون العذاب الأول هو الذى فى الدنيا و الثانى هو عذاب الآخره هو المقابله و تكرر العذاب-منكّرا-فى اللفظ و توصيف الأول بالإخزاء و الثانى بالإقامه.

و ربما أخذ بعضهم قوله: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» تاما من غير ذكر متعلق العلم و قوله: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ» الخ؛ابتداء كلام من نوح عليه السّلام و هو بعيد عن السياق.

قوله تعالى: حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا وَ فٰارَ التَّنُّورُ الى آخر الآيه؛يقال:فار القدر يفور فورا و فورانا اذا غلا و اشتدّ غليانه،و فارت النار اذا اشتعلت و ارتفع لهيبها،و التنوّر تنّور الخبز،و هو مما اتفقت فيه اللغتان:العربيه و الفارسيه او الكلمه فارسيه فى الاصل.

و فوران التنّور نبع الماء و ارتفاعه منه،و قد ورد فى الروايات:أن أول ما ابتدأ الطوفان يومئذ كان ذلك بتفجّر الماء من تنّور،و على هذا فاللام فى التنّور للعهد يشار بها الى تنور معهود فى الخطاب،و يحتمل اللفظ أن يكون كنايه عن اشتداد غضب اللّه تعالى فيكون من قبيل قولهم:«حمى الوطيس»اذا اشتدّ الحرب.

فقوله: حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا وَ فٰارَ التَّنُّورُ أى كان الأمر على ذلك حتى اذا جاء

أمرنا أى تحقّق الأمر الربوبىّ و تعلّق بهم و فار الماء من التنّور أو اشتدّ غضب الربّ تعالى قلنا له كذا و كذا.

و فى التنّور أقوال أخر بعيده من الفهم كقول من قال:إن المراد به طلوع الفجر و كان عند ذلك أوّل ظهور الطوفان،و قول بعضهم:إن المراد به أعلى الأرض و أشرفها أى انفجر الماء من الأمكنه المرتفعه و نجود الارض،و قول آخرين:ان التنور وجه الأرض هذا.

و قوله: قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أى أمرنا نوحا عليه السّلام أن يحمل فى السفينه من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين و هى الذكر و الانثى.

و قوله: وَ أَهْلَكَ إِلاّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ أى و احمل فيها أهلك و هم المختصون به من زوج و ولد و أزواج الأولاد و أولادهم الاّ من سبق عليه قولنا و تقدّم عليه عهدنا أنّه هالك،و كان هذا المستثنى زوجته الخائنه التى يذكرها اللّه تعالى فى قوله:

ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما (التحريم١٠/).و ابن نوح الذى يذكره اللّه تعالى فى الآيات التاليه و كان نوح عليه السّلام يرى أن المستثنى هو امرأته فحسب حتى بيّن اللّه سبحانه أن ابنه ليس من أهله و أنه عمل غير صالح فعند ذلك علم أنه من الذين ظلموا.

و قوله: وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلاّ قَلِيلٌ أى و احمل فيها من آمن بك من قومك غير اهلك لأن من آمن به من اهله أمر بحمله بقوله: «وَ أَهْلَكَ» و لم يؤمن به من القوم إلاّ قليل.

فى قوله: وَ ما آمَنَ مَعَهُ دون ان يقال:و ما آمن به تلويح الى أن المعنى:و ما آمن باللّه من نوح إلاّ قليل،و ذلك انسب بالمقام و هو مقام ذكر من أنجاه اللّه من عذاب الغرق، و الملاك فيه هو الإيمان باللّه و الخضوع لربوبيّته،و كذا فى قوله: «إِلاّ قَلِيلٌ» دون أن يقال:إلاّ قليل منهم بلوغا فى استقلالهم أن من آمن كان قليلا فى نفسه لا بالقياس الى القوم فقد كانوا

فى نهايه القلّه.

قوله تعالى: وَ قٰالَ ارْكَبُوا فِيهٰا بِسْمِ اللّٰهِ مَجْرٰاهٰا وَ مُرْسٰاهٰا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ قرئ مجراها بفتح الميم و هو مجرى السفينه و سيرها،و مجراها بضم الميم و هو إجراء السفينه و سياقها،و مرساها بضم الميم مصدر ميمىّ مرادف الإرساء،و الإرساء الإثبات و الإيقاف،قال تعالى: وَ الْجِبٰالَ أَرْسٰاهٰا (النازعات٣٢/).

و قوله: وَ قٰالَ ارْكَبُوا فِيهٰا معطوف على قوله فى الآيه السابقه: «جٰاءَ أَمْرُنٰا» أى حتى إذا قال نوح،الخ؛و خطابه لأهله و سائر المؤمنين أو لجميع من فى السفينه.

و قوله: بِسْمِ اللّٰهِ مَجْرٰاهٰا وَ مُرْسٰاهٰا تسميه منه عليه السّلام يجلب به الخير و البركه لجرى السفينه و إرسائها فإن فى تعليق فعل من الأفعال أو أمر من الامور على اسم اللّه تعالى و ربطه به صيانه له من الهلاك و الفساد و اتقاء من الضلال و الخسران لما أنه تعالى رفيع الدرجات منيع الجانب لا سبيل للدثور و الفناء و العىّ و العناء اليه فما تعلق به مصون لا محاله من تطرق عارض السوء.

فهو عليه السّلام يعلق جرى السفينه و إرساءها باسم اللّه و هذان هما السببان الظاهران فى نجاه السفينه و من فيها من الغرق،و إنما ينجح هذان السببان لو شملت العنايه الإلهيه من ركبها و إنما تشمل للعنايه بشمول المغفره الإلهيه لخطايا ركابها و الرحمه الإلهيه لهم لينجوا من الغرق و يعيشوا على رسلهم فى الأرض،و لذلك علل عليه السّلام تسميته بقوله: «إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» أى إنما أذكر اسم اللّه على مجرى سفينتى و مرساها لأنه ربى الغفور الرحيم،له أن يحفظ مجراها و مرساها من الاختلال و التخبط حتى ننجو بذلك من الغرق بمغفرته و رحمته.

و نوح عليه السّلام اول إنسان حكى اللّه سبحانه عنه التسميه باسمه الكريم فيما أوحاه من كتابه فهو عليه السّلام اول فاتح فتح هذا الباب كما أنه اول من أقام الحجه على التوحيد،و أول من جاء

بكتاب و شريعه و أول من انتهض لتعديل الطبقات و رفع التناقض عن المجتمع الإنسانى.

و ما قدمناه من معنى قوله: «بِسْمِ اللّهِ مَجْراها وَ مُرْساها» مبنى على ما هو الظاهر من كون الجمله تسميه من نوح عليه السّلام و المجرى و المرسى مصدرين ميميين و ربما احتمل كونه تسميه ممن مع نوح بأمره او كون مجراها و مرساها اسمين للزمان او المكان فيختلف المعنى.

قال فى الكشاف فى الآيه:يجوز أن يكون كلاما واحدا و كلامين:فالكلام الواحد أن يتصل باسم اللّه اركبوا حالا من الواو بمعنى اركبوا فيها مسمين اللّه او قائلين بسم اللّه وقت إجرائها و وقت إرسائها إما لأن المجرى و المرسى للوقت و اما لأنهما مصدر ان كالإجراء و الإرساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم:خفوق النجم و مقدم الحاج،و يجوز أن يراد مكانا الإجراء و الإرساء،و انتصابهما بما فى بسم اللّه من معنى الفعل او بما فيه من اراده القول.

و الكلامان أن يكون بسم اللّه مجراها و مرساها جمله من مبتدإ و خبر مقتضيه (1)أى بسم اللّه اجراؤها و ارساؤها،يروى أنه كان اذا أراد أن تجرى قال:بسم اللّه فجرت،و اذا أراد أن ترسوا قال:بسم اللّه فرست،و يجوز أن يقحم (2)الاسم كقوله:ثم اسم السلام عليكما و يراد باللّه اجراؤها و ارساؤها.

قال:و قرئ مجراها و مرساها (3)بفتح الميم من جرى و رسى اما مصدرين او وقتين او مكانين،و قرأ مجاهد:مجراها و مرسيها بلفظ اسم الفاعل مجرورى المحل صفتين للّه.

ص: ۱۵۰

۱- ۱) .اقتضاب الكلام ارتجاله و المراد من كون الجمله مقتضيه كونها ابتدائيه اى كونها كلاما ابتدائيه من نوح مقطوعا عما قبله.

۲- ۲) .التقحيم إدخال الكلمه بين الكلمتين المتلازمتين المتصلتين كالمضاف و المضاف اليه و المراد كون الاسم معترضا بين «ثم»و«السلام»و كذا بين الباء و لفظ الجلاله فى قوله:بسم اللّه.

۳- ۳) .قراءه مرساها بفتح الميم من الشواذ منسوب الى ابن محيصن.

قوله تعالى: وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبٰالِ الضمير للسفينه،و الموج اسم جنس كتمر او جمع موجه-على ما قيل-و هى قطعه عظيمه ترتفع عن جمله الماء و فى الآيه اشعار بأن السفينه كانت تسير على الماء و لم تكن تسبح جوف الماء كالحيتان كما قيل.

قوله تعالى: وَ نٰادىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَ كٰانَ فِي مَعْزِلٍ يٰا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنٰا وَ لاٰ تَكُنْ مَعَ الْكٰافِرِينَ المعزل اسم مكان من العزل و قد عزل ابنه نفسه عن ابيه و المؤمنين فى مكان لا يقرب منهم،و لذلك قال «وَ نٰادىٰ نُوحٌ ابْنَهُ» و لم يقل:و قال نوح لابنه.

و المعنى:و نادى نوح ابنه و كان ابنه فى مكان منعزل بعيد منهم و قال فى ندائه:يا بنىّ -بالتصغير و الإضافه دلاله على الإشفاق و الرحمه-اركب معنا السفينه و لا تكن مع الكافرين فتشاركهم فى البلاء كما شاركتهم فى الصحبه و عدم ركوب السفينه،و لم يقل عليه السّلام:

و لا تكن من الكافرين لأنه لم يكن يعلم نفاقه و أنه غير مؤمن الاّ باللفظ،و لذلك دعاه الى الركوب.

قوله تعالى: قٰالَ سَآوِي إِلىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمٰاءِ قٰالَ لاٰ عٰاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ الخ؛قال الراغب:المأوى مصدر أوى يأوى أويّا و مأوى تقول:أوى الى كذا:انضم اليه يأوى أويا و مأوى و آواه غيره يؤويه ايواء،انتهى.

و المعنى:اقل ابن نوح مجيبا لأبيه رادّا لأمره:سأنضم الى جبل يعصمنى و يقينى من الماء فلا أغرق،قال نوح:لا عاصم اليوم-و هو يوم اشتد غضب اللّه و قضى بالغرق لأهل الأرض الاّ من التجأ منهم الى اللّه-من اللّه لا جبل و لا غيره،و حال بين نوح و ابنه الموج فكان ابنه من المغرقين و لو لم يحل الموج بينهما و لم ينقطع الكلام بذلك لعرف كفره و تبرأ منه.

و فى الكلام اشاره الى ان ارضهم كانت ارضا جبليه لا مئونه زائده فى صعود الانسان الى

بعض جبال كانت هناك.

قوله: وَ قِيلَ يٰا أَرْضُ ابْلَعِي مٰاءَكِ وَ يٰا سَمٰاءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْمٰاءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ البلع اجراء الشىء فى الحلق الى الجوف،و الإقلاع الإمساك و ترك الشىء من أصله،و الغيض جذب الأرض المائع الرطب من ظاهرها الى باطنها و هو كالنشف يقال:غاضت الارض الماء اى نقّصته.

و الجوديّ مطلق الجبل و الأرض الصلبه،و قيل:هو جبل بأرض موصل فى سلسله جبال تنتهى الى ارمينيه و هى المسماه«آرارات».

و قوله: وَ قِيلَ يٰا أَرْضُ ابْلَعِي مٰاءَكِ وَ يٰا سَمٰاءُ أَقْلِعِي نداء صادر من ساحه العظمه و الكبرياء لم يصرّح باسم قائله و هو اللّه عز اسمه للتعظيم،و الأمر تكوينى تحمله كلمه«كن»الصادره من ذى العرش تعالى يترتب عليه من غير فصل أن تبتلع الأرض ما على وجهها من الماء المتفجّر من عيونها،و أن تكفّ السماء عن امطارها.

و فيه دلاله على أن الارض و السماء كانتا مشتركتين فى اطغاء الماء بأمر اللّه كما يبيّنه قوله تعالى: فَفَتَحْنٰا أَبْوٰابَ السَّمٰاءِ بِمٰاءٍ مُنْهَمِرٍ وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمٰاءُ عَلىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (القمر١٢/).

و قوله: وَ غِيضَ الْمٰاءُ اى نقص الماء و نشف عن ظاهر الارض و انكشف البسيط،و ذلك انما يكون بالطبع باجتماع ما يمكن اجتماعه منه فى الغدران و تشكيل البحار و البحيرات،و انتشاف ما على سائر البسيطه.

و قوله: وَ قُضِيَ الْأَمْرُ اى أنجز ما وعد لنوح عليه السّلام من عذاب القوم و أنفذ الأمر الإلهى يغرقهم و تطهّر الارض منهم اى كان ما قيل له كن كما قيل فقضاء الامر كما يقال على جعل الحكم و اصداره كذلك يقال على امضائه و انفاذه و تحقيقه فى الخارج،غير أن القضاء الإلهى و الحكم الربوبى الذى هو عين الوجود الخارجى جعله و انفاذه واحد،و انما

الاختلاف بحسب التعبير.

و قوله: وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ای استقرت السفينه على الجبل او على جبل الجودى المعهود،و هو اخبار عن اختتام ما كان يلقاه نوح و من معه من امر الطوفان.

و قوله: وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ اى قال اللّه عزّ اسمه: بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ اى ليبعدوا بعدا فأبعدهم بذلك من رحمته و طردهم عن دار كرامته،و الكلام فى ترك ذكر فاعل «قِيلَ» هاهنا كالكلام فيه فى «قِيلَ» السابق.

و الأمر أيضا فى قوله: بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ كالأمرين السابقين يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي تكوينى فهو عين ما أنفذه اللّه فيهم من الغرق المؤدى الى خزيهم فى الدنيا و خسرانهم فى الآخره،و ان كان من وجه آخر من جنس الأمر التشريعى لتفرعه على مخالفتهم الأمر الإلهى بالإيمان و العمل،و كونه جزاء لهم على استكبارهم و استعلائهم على اللّه عزّ و جل.

و للصفح عن ذكر الفواعل فى قوله: «وَ قِيلَ يا أَرْضُ» الخ؛و قوله: «وَ قُضِيَ الْأَمْرُ» و قوله: «وَ قِيلَ بُعْداً» الخ؛فى الآيه وجه آخر مشترك و هو أن هذه الامور العظيمه الهائله المدهشه لن يقدر عليها إلاّ الواحد القاهر الذى لا شريك له فى أمره فلا يذهب الوهم الى غيره لو لم يذكر على فعله فما هو إلاّ فعله ذكر أم لم يذكر.

و لمثل هذه النكته حذف فاعل «غِيضَ الْماءُ» و هو الأرض،و فاعل «اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ» و هو السفينه،و لم يعين القوم الظالمون بأنهم قوم نوح،و لا الناجون بأنهم نوح عليه السّلام و من معه فى السفينه فإن الآيه بلغت فى بلاغتها العجيبه من حيث سياق القصه مبلغا ليس فيه الاسماء تنزل امطارها،و ارض انفجرت بعيونها و انغمرت بالماء و سفينه تجرى فى امواجه،و امر مقضى،و قوم ظالمون هم قوم نوح و امر الهى يوعد القوم بالهلاك فلو غيض الماء فإنما تغيضه الأرض،و لو استقر شىء و استوى فإنما هى السفينه تستقر على الأرض

كما انه لو قيل:يا ارض ابلعى ماءك و يا سماء اقلعى و قيل:بعدا للقوم الظالمين فإنما القائل هو اللّه عز اسمه و القوم الظالمون هم المقضى عليهم بالعذاب،و لو قيل:قضى الأمر فإنما القاضى هو اللّه سبحانه،و الأمر هو ما وعده نوحا و نهاه ان يراجعه فى ذلك و هو انهم مغرقون،و لو قيل للسماء:اقلعى بعد ما قيل للأرض:ابلعى ماءك فإنما يراد اقلاعها و امساكها ماءها.

ففى الآيه الكريمه اجتماع عجيب من اسباب الإيجاز و توافق لطيف فيما بينها كما أن الآيه واقفه على موقف عجيب من بلاغه القرآن المعجزه يبهر العقول و يدهش الألباب و ان كانت الآيات القرآنيه كلها معجزه فى بلاغتها.

و قد اهتم بأمرها رجال البلاغه و علماء البيان فغاصوا لجىّ بحرها و اخرجوا ما استطاعوا نيله من لئاليها،و ما هو-و قد اعترفوا بذلك-الاّ كغرفه من بحر أو حصاه من بر.

قوله تعالى: وَ نٰادىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقٰالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحٰاكِمِينَ دعاء نوح عليه السّلام لابنه الذى تخلف عن ركوب السفينه و قد كان آخر عهده به يوم ركب السفينه فوجده فى معزل فناداه و امره بركوب السفينه فلم يأتمر ثم حال بينهما الموج فوجد نوح عليه السّلام و هو يرى انه مؤمن باللّه من اهله و قد وعده اللّه بإنجاء اهله.

و لما به من الوجد و الحزن رفع صوته بالدعاء كما يدل عليه قوله تعالى: «وَ نٰادىٰ نُوحٌ رَبَّهُ» و لم يقل:سأل او قال او دعا،و رفع الصوت بالاستغاثه من المضطر الذى اشتد به الضر و هاج به الوجد امر طبعى.و الدعاء اعنى نداء نوح عليه السّلام ربه فى ابنه و ان ذكر فى القصه بعد ذكر انجاز غرق القوم و ظاهره كون النداء بعد تمام الأمر و استواء الفلك لكن مقتضى ظاهر الحال ان يكون النداء بعد حيلوله الموج بينهما و على هذا فذكره بعد ذكر انقضاء الطوفان انما هو لمكان العنايه ببيان جميع ما فى القصه من الهيئه الهائله فى محل واحد لتكميل

تمثيل الواقعه ثم الأخذ ببيان بعض جهاته الباقيه.

و قد كان عليه السّلام رسولا احد الأنبياء أولى العزم عالما باللّه عارفا بمقام ربه بصيرا بموقف نفسه فى العبوديه،و الظرف ظهرت فيه آيه الربوبيه و القهر الإلهى اكمل ظهورها فأغرقت الدنيا و اهلها،و نودى من ساحه العظمه و الكبرياء على الظالمين بالبعد،فأخذ نوح عليه السّلام يدعو لابنه و الظرف هذا الظرف لم يجترئ عليه السّلام-على ما يقتضيه ادب النبوه-على ان يسأل ما يريده من نجاه ابنه بالتصريح،بل اورد القول كالمستفسر عن حقيقه الأمر،و ابتدر بذكر ما وعده اللّه من نجاه اهله حين أمره أن يجمع الناجين معه فى السفينه فقال له «احْمِلْ فِيهٰا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ» .

و كان أهله-غير امرأته-حتى ابنه هذا مؤمنين به ظاهرا و لو لم يكن ابنه هذا على ما كان يراه نوح عليه السّلام مؤمنا لم يدعه البتّه الى ركوب السفينه فهو عليه السّلام الداعى على الكافرين السائل هلاكهم بقوله: رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰافِرِينَ دَيّٰاراً فقد كان يرى ابنه هذا مؤمنا و لم يكن مخالفته لأمر أبيه اذ أمره بركوب السفينه كفرا أو مؤدّيا الى الكفر و انما هى معصيه دون الكفر.

و لذلك كله قال عليه السّلام «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» فذكر وعد ربّه و ضمّ اليه أنّ ابنه من أهله-على ما فى الكلام من دلاله«ربى»على الاسترحام،و دلاله الإضافه فى «ابْنِي» على الحجّه فى قوله: «مِنْ أَهْلِي» و دلاله التأكيد بأن و لام الجنس فى قوله: «وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» على أداء حق الإيمان.

و كانت الجملتان «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» «وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» ينتجان بانضمام بعضهما الى بعض الحكم بلزوم نجاه ابنه لكنه عليه السّلام لم يأخذ بما ينتجه كلامه من الحكم أدبا فى مقام العبوديّه فلا حكم إلاّ للّه بل سلّم الحكم الحقّ و القضاء الفصل الى اللّه سبحانه فقال «وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحٰاكِمِينَ» .

ص :۱۵۵

فالمعنى:ربّ إنّ ابنى من أهلى،و انّ وعدك حقّ كل الحقّ،و انّ ذلك يدلّ على أن لا تأخذه بعذاب القوم بالغرق و مع ذلك فالحكم الحقّ اليك فأنت أحكم الحاكمين كأنه عليه السّلام يستوضح ما هو حقيقه الأمر و لم يذكر نجاه ابنه و لا زاد على هذا الذى حكاه اللّه عنه شيئا و سيوافيك بيان ذلك.

قوله تعالى: قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ الخ؛بيّن سبحانه لنوح عليه السّلام وجه الصواب فيما ذكره بقوله: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ» الخ؛و هو يستوجب به نجاه ابنه فقال تعالى «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» فارتفع بذلك اثر حجّته.

و المراد بكونه ليس من اهله-و اللّه اعلم-أنّه ليس من اهله الذين وعده اللّه بنجاتهم لأنّ المراد بالأهل فى قوله: «وَ أَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» الأهل الصالحون،و هو ليس بصالح و ان كان ابنه و من أهله بمعنى الاختصاص،و لذلك علّل قوله: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» بقوله: «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» .

فإن قلت:لازم ذلك ان يكون امرأته الكافره من اهله لأنها انما خرجت من الحكم بالاستثناء و هى داخله موضوعا فى قوله: «وَ أَهْلَكَ» و يكون ابنه ليس من اهله و خارجا موضوعا لا بالاستثناء و هو بعيد.

قلت:المراد بالأهل فى قوله: «وَ أَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» هم الأهل بمعنى الاختصاص و بالمستثنى-من سبق عليه القول-غير الصالحين و مصداقه امرأته و ابنه هذا، و اما الأهل الواقع فى قوله هذا: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» فهم الصالحون من المختصّين به عليه السّلام طبقا لما وقع فى قوله: «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» فإنه عليه السّلام لا يريد بالأهل فى قوله هذا غير الصالحين من اولى الاختصاص و إلاّ شمل امرأته و بطلت حجته فافهم ذلك.

فهذا هو الظاهر من معنى الآيه،و يؤيده بعض ما ورد عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام مما سيأتى

فی البحث الروائی التالی ان شاء اللّه.

و ذکروا فی تفسیر الآیه معان أخر.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ إِنِّی أَعُوذُ بِکَ أَنْ أَسْئَلَکَ مٰا لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَ إِلاّٰ تَغْفِرْ لِی وَ تَرْحَمْنِی أَکُنْ مِنَ الْخٰاسِرِینَ لما تبین لنوح علیه السّلام أنه لو ساقه طبع الخطاب الذی خاطب به ربه الی السؤال کان سائلا ما لیس له به علم و کان من الجاهلین و ان عنایه اللّه حالت بینه و بین الهلکه،شکر ربه فاستعاذ بمغفرته و رحمته عن ذلک السؤال المخسر فقال «رَبِّ إِنِّی أَعُوذُ بِکَ أَنْ أَسْئَلَکَ مٰا لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ» .

و الکلام فی الاستعاذه مما لم یقع بعد من الامور المهلکه و المعاصی الموبقه کالنهی عما لم یقع من الذنوب و الآثام و قد تقدم الکلام فیه و قد امر اللّه نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالاستعاذه من الشیطان و هو معصوم لا سبیل للشیطان الیه،قال تعالی: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النّٰاسِ -الی ان قال- مِنْ شَرِّ الْوَسْوٰاسِ الْخَنّٰاسِ اَلَّذِی یُوَسْوِسُ فِی صُدُورِ النّٰاسِ (الناس/۵)و قال:

وَ أَعُوذُ بِکَ رَبِّ أَنْ یَحْضُرُونِ (المؤمنون/۹۸)و الوحی مصون عن مس الشیاطین کما قال تعالی: عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ (الجن/۲۸).

و قوله: وَ إِلاّٰ تَغْفِرْ لِی وَ تَرْحَمْنِی أَکُنْ مِنَ الْخٰاسِرِینَ کلام صورته صوره التوبه و حقیقته الشکر علی ما أنعم اللّه علیه من التعلیم و التأدیب.

أما صوره توبته فإن فی ذلک رجوعا الی ربه تعالی بالاستعاذه و لازمها طلب مغفره اللّه و رحمته ای ستره علی الإنسان ما فیه زلّته و هلاکته و شمول عنایته لحاله و قد تقدّم فی أواخر الجزء السادس من الکتاب بیان أن الذنب أعمّ من مخالفه الأمر التشریعی بل کل وبال و أثر سیئ یسوء الإنسان بوجه،و أن المغفره أعمّ من الستر علی المعصیه المعروفه عند المتشرعه بل کل ستر إلهی یسعد الإنسان و یجمع شمله.

و أما حقيقه الشكر فإن العنايه الإلهيه التى حالت بينه و بين السؤال الذى كان يوجب دخوله فى زمره الجاهلين و عصمته ببيان وجه الصواب كانت سترا إلهيا على زلّه فى طريقه و رحمه و نعمه أنعم اللّه سبحانه بها عليه فقوله عليه السّلام: «وَ إِلاّٰ تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخٰاسِرِينَ» أى إن لم تعذنى من الزّلات لخسرت،ثناء و شكر لصنعه الجميل.

قوله تعالى: قِيلَ يٰا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاٰمٍ مِنّٰا وَ بَرَكٰاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ الخ؛السلام هو السلامه أو التحيه غير ان ذكر مسّ العذاب فى آخر الآيه يؤيد كون المراد به فى صدرها السلامه من العذاب و كذا تبديل البركه فى آخر الآيه الى التمتع يدل على ان المراد بالبركات ليس مطلق النعم و أمتعه الحياه بل النعم من حيث تسوق الانسان الى الخير و السعاده و العاقبه المحموده.

فقوله: قِيلَ -و لم ذكر القائل و هو اللّه سبحانه للتعظيم-يٰا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاٰمٍ مِنّٰا وَ بَرَكٰاتٍ عَلَيْكَ معناه-و اللّه أعلم-يا نوح انزل مع سلامه من العذاب-الطوفان-و نعم ذوات بركات و خيرات نازله منا عليك،أو انزل بتحيه و بركات نازله منا عليك.

و قوله: وَ عَلىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ معطوف على قوله: «عَلَيْكَ» و تنكير أمم يدل على تبعيضهم لأن من الامم من يذكره تعالى بعد فى قوله: «وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ» .

و الخطاب أعنى قوله تعالى: يٰا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاٰمٍ مِنّٰا وَ بَرَكٰاتٍ عَلَيْكَ الى آخر الآيه بالنظر الى ظرف صدوره و ليس وقتئذ متنفّس على وجه الأرض من انسان او حيوان و قد أغرقوا جميعا و لم يبق منهم إلاّ جماعه قليله فى السفينه و قد رست و استوت على الجوديّ،و قد قضى أن ينزلوا الى الأرض فيعمروها و يعيشوا فيها الى حين.

خطاب عام شامل للبشر من لدن خروجهم منها الى يوم القيامه نظير ما صدر من الخطاب الإلهى يوم أهبط آدم عليه السّلام من الجنه الى الارض و قد حكاه اللّه تعالى فى موضع بقوله: وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلىٰ حِينٍ -الى أن

قال- قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّی هُدیً فَمَنْ تَبِعَ هُدٰایَ فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (البقره۳۹/) و فی موضع آخر بقوله: قٰالَ فِيهٰا تَحْيَوْنَ وَ فِيهٰا تَمُوتُونَ وَ مِنْهٰا تُخْرَجُونَ (الأعراف/ ۲۵).

و هذا الخطاب خطاب ثان مشابه لذاك الخطاب الأول موجّه الی نوح علیه السّلام و من معه من المؤمنین-و إلیهم ینتهی نسل البشر الیوم-متعلق بهم و بمن یلحق بهم من ذراریهم الی یوم القیامه،و هو یتضمن تقدیر حیاتهم الأرضیه و الإذن فی نزولهم إلیها و استقرارهم فیها و إیوائهم إیاها.

و قد قسّم اللّه هؤلاء المأذون لهم قسمین فعبّر عن إذنه لطائفه منهم بالسلام و البرکات و هم نوح علیه السّلام و أمم ممن معه،و لطائفه أخری بالتمتیع،و عقّب التمتیع بمس العذاب لهم کما أن کلمتی السلام و البرکات لا تخلوان من بشری الخیر و السعاده بالنسبه الی ما تعلقتا به.

و قوله: وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنّٰا عَذٰابٌ أَلِيمٌ کأنه مبتدأ لخبر محذوف و التقدیر:و ممن معک أمم او و هناک أمم سنمتعهم،الخ؛و قد أرجهم اللّه سبحانه من زمره المخاطبین بخطاب الإذن فلم یقل:و متاع لامم آخرین سیعذبون طردا لهم من موقف الکرامه،فأخبر أن هناک أمما آخرین سنمتعهم ثم نعذبهم و هم غیر مأذون لهم فی التصرف فی أمتعه الحیاه إذن کرامه و زلفی.

قوله تعالی: تِلْكَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهٰا إِلَيْكَ أی هذه القصص أو هذه القصه من أنباء الغیب نوحیها الیک.

و قوله: مٰا كُنْتَ تَعْلَمُهٰا أَنْتَ وَ لاٰ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا أی کانت و هی علی محوضه الصدق و الصحه مجهوله لک و لقومک من قبل هذا،و الذی عند أهل الکتاب منها محرّف مقلوب عن وجه الصواب کما سیوافیک ما فی التوراه الحاضره من قصته علیه السّلام.

و قوله: فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ أمر منتزع عن تفصيل القصّه أی اذا علمت ما آل اليه أمر نوح عليه السّلام و قومه من هلاک قومه و نجاته و نجاه من معه من المؤمنين و قد ورّثهم اللّه الأرض على ما صبروا،و نصر نوحا على أعدائه على ما صبر فاصبر على الحق فإن العاقبه للمتّقين،و هم الصابرون فی جنب اللّه سبحانه (۱)(۲)(۳)(۴).

[سوره هود (۱۱): الآيات ۵۰ الى ۶۰]

اشاره

وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً قٰالَ يٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُفْتَرُونَ (۵۰) يٰا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلَى اَلَّذِي فَطَرَنِي أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (۵۱) وَ يٰا قَوْمِ اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ اَلسَّمٰاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرٰاراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلىٰ قُوَّتِكُمْ وَ لاٰ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (۵۲) قٰالُوا يٰا هُودُ مٰا جِئْتَنٰا بِبَيِّنَةٍ وَ مٰا نَحْنُ بِتٰارِكِي آلِهَتِنٰا عَنْ قَوْلِكَ وَ مٰا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (۵۳) إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اِعْتَرٰاكَ بَعْضُ آلِهَتِنٰا بِسُوءٍ قٰالَ إِنِّي أُشْهِدُ اَللّٰهَ وَ اِشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمّٰا تُشْرِكُونَ (۵۴) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ (۵۵) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اَللّٰهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ مٰا مِنْ دَابَّةٍ إِلاّٰ هُوَ آخِذٌ بِنٰاصِيَتِهٰا إِنَّ رَبِّي عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۶) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مٰا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لاٰ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (۵۷) وَ لَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا هُوداً وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ نَجَّيْنٰاهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِيظٍ (۵۸) وَ تِلْكَ عٰادٌ جَحَدُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اِتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبّٰارٍ عَنِيدٍ (۵۹) وَ أُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ اَلدُّنْيٰا لَعْنَةً وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ أَلاٰ إِنَّ عٰاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْداً لِعٰادٍ قَوْمِ هُودٍ (۶۰)

ص: ۱۶۰

---

۱ – ۱) .هود ۳۶–۴۹:بحث روائی حول قصه نوح عليه السّلام.

۲ – ۲) .هود ۳۶–۴۹:ابحاث حول قصه نوح فی فصول و هی ابحاث قرآنيه و روائيه و تاريخيه و فلسفيه،الاشاره الى قصته،قصته عليه السّلام فی القرآن،بعثه و ارساله،دينه و شريعته عليه السّلام،اجتهاده عليه السّلام فی دعوته،لبثه فی قومه، صنعه عليه السّلام الفلک،نزول العذاب و مجیء الطوفان،قضاء الامر و نزوله و من معه الى الارض،قصه ابن نوح الغريق،خصائص نوح عليه السّلام،قصته عليه السّلام فی التوراه الحاضره،ما جاء فی امر الطوفان فی اخبار الامم و اساطيرهم،هل كانت نبوته عليه السّلام عامه للبشر؟،هل الطوفان كانت عامه لجميع الارض؟،انبساط البحار و اتساعها بانحدار المياه إليها،العوامل المؤثره فی ازدياد المياه و غزاره عملها فی عهد الطوفان،عمره عليه السّلام الطويل، اين هو جبل الجودی؟.

۳ – ۳) .هود ۳۶–۴۹:كلام فی عباده الاصنام فی فصول(الانسان و اطمئنانه الى الحس،الاقبال الى اللّه بالعباده،كيف نشأت الوثنيه؟،و بما ذا بدأت،اتخاذ الاصنام لأرباب الانواع و غيرهم،الوثنيه الصابئه،الوثنيه البرهميه، الوثنيه البوذيه،و ثنيه العرب،دفاع الاسلام عن التوحيد و منازلته الوثنيه،بناء سيره النبی على التوحيد و نفی الشركاء).

۴ – ۴) .هود ۳۶–۴۹:كلام فی:التناسخ عند الوثنيين؛سريان هذه المحاذير الى سائر الاديان؛اصلاح الاسلام لهذه المفاسد.

بيان:

قوله تعالى: وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً كان أخاهم فی النسب لكونه منهم و أفراد القبيله يسمون إخوه لانتسابهم جميعا الی أب القبيله،و الجمله معطوفه على قوله تعالى سابقا: «نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ» و التقدير«و لقد أرسلنا الی عاد أخاهم هودا»و لعلّ حذف الفعل هو الموجب لتقديم الظرف على المفعول فی المعطوف على خلاف المعطوف عليه حيث قيل «وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ» الخ؛و لم يقل:و هودا الی عاد مثلا كما قال «نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ» لأن دلاله الظرف أعنی «إِلىٰ عٰادٍ» على تقدير الإرسال أظهر و أوضح.

قوله تعالى: قٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُفْتَرُونَ الكلام وارد مورد الجواب كأن السامع لما سمع قوله: «وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً» قال:فما ذا قال لهم؟فقيل «قٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ» الخ؛و لذا جیء بالفصل من غير عطف.

و قوله: اُعْبُدُوا اللّٰهَ فی مقام الحصر أی اعبدوه و لا تعبدوا غيره من آلهه اتخذتموها أربابا من دون اللّه تعبدونها لتكون لكم ضعفاء عند اللّه من غير أن تعبدوه تعالى.

و الدليل على الحصر المذكور قوله بعد: «مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُفْتَرُونَ» حيث يدل على أنهم كانوا قد اتخذوا آلهه يعبدونها افتراء على اللّه بالشركه و الشفاعه.

قوله تعالى: يٰا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً الی آخر الآيه؛قال فی المجمع الفطر الشق عن أمر اللّه كما ينفطر الورق عن الشجر،و منه فطر اللّه الخلق لانه بمنزله ما شق منه فظهر.انتهی،و قال الراغب:أصل الفطر الشق طولا يقال:فطر فلان كذا فطرا و أفطر هو فطورا و انفطر انفطارا-الی أن قال-و فطر اللّه الخلق و هو ايجاد الشیء و إبداعه على هيئه مترشحه لفعل من الأفعال فقوله:فطره اللّه التی فطر الناس عليها إشاره منه تعالى الی ما فطر أی أبدع و ركز فی الناس من معرفته،و فطره اللّه هی ما ركز فيه من قوّته على معفره الايمان

و هو المشار اليه بقوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّهُ. انتهى.

و الظاهر أن الفطر هو الايجاد عن عدم بحت،و الخصوصيه المفهومه من مثل قوله:

«فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها» إنما نشأت من بناء النوع الذى تشتمل عليه فطره و هى فعله،و على هذا فتفسير بعضهم الفطره بالخلقه بعيد من الصواب،و إنما الخلق هو إيجاد الصوره عن ماده على طريق جمع الأجزاء،قال تعالى: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَهِ الطَّيْرِ (المائده/۱۱۰).

و الكلام مسوق لرفع التهمه و العبث و المعنى يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم أجرا و جزاء حتى تهتمونى أنى أستدر به نفعا يعود إلىّ و إن أضرّ بكم،و لست أدعوكم من غير جزاء مطلوب حتى يكون عبثا من الفعل بل إنما أطلب به جزاء من اللّه الذى أوجدنى و أبدعنى أ فلا تعقلون عنى ما أقوله لكم حتى يتضح لكم أنى ناصح لكم فى دعوتى،و ما أريد إلّا أن أحملكم على الحق.

قوله تعالى: وَ يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً الى آخر الآيه؛تقدم الكلام فى معنى قوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» فى صدر السوره.

و قوله: «يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً» فى موقع الجزاء لقوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ» الخ؛ أى أن تستغفروه و تتوبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا،و المراد بالسماء السحاب فإن كل ما علا و أظلّ فهو سماء،و قيل المطر و هو شائع فى الاستعمال،و المدرار مبالغه من الدرّ، و أصل الدرّ اللبن ثم استعير للمطر و لكل فائده و نفع فإرسال السماء مدرارا إرسال سحب تمطر أمطارا متتابعه نافعه تحيى بها الارض و ينبت الزرع و العشب،و تنضر بها الجنات و البساتين.

و قوله: وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ قيل المراد بها زياده قوه الايمان على قوه

الأبـدان و قـد كان القوم أولى قوه و شـده فى أبـدانهم و لو أنهم آمنوا انضافت قوه الإيمان على قوه أبدانهم،و قيل المراد بها قوه الأبدان كما قال نوح لقومه: اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ (نوح١٢/)و لعل التعميم اولى.

و قوله: «وَ لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ» بمنزله التفسير لقوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» أى إن عبادتكم لما اتخذتموه من الآلهه دون اللّه إجرام منكم و معصيه توجب نزول السخط الإلهى عليكم فاستغفروا اللّه من إجرامكم و ارجعوا اليه بالإيمان حتى يرحمكم بإرسال سحب هاطله ممطره و زياده قوه الى قوتكم.

قوله تعالى: قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَهٍ وَ ما نَحْنُ بِتارِكِى آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَ ما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ سألهم هود فى قوله: «يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» الى آخر الآيات الثلاث؛أمرين هما أن يتركوا آلهتهم و يعودوا الى عباده اللّه وحده و أن يؤمنوا به و يطيعوه فيما ينصح لهم فردّوا عليه القول بما فى هذه الآيه إجمالا و تفصيلا:

أما إجمالا فبقولهم: «ما جِئْتَنا بِبَيِّنَهٍ» يعنون أن دعوتك خاليه عن الحجه و الآيه المعجزه و لا موجب للإصغاء الى ما هذا شأنه.

و أما تفصيلا فقد أجابوا عن دعوته إياهم الى رفض الشركاء بقولهم: «وَ ما نَحْنُ بِتارِكِى آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ» و عن دعوته إياهم الى الايمان و الطاعه بقولهم: «وَ ما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» فأيسوه فى كلتا المسألتين.

ثم ذكروا له ما ارتأوا فيه من الرأى ليبأس من إجابتهم بالمره فقالوا «إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ» و الاعتراء الاعتراض و الإصابه يقولون:إنما نعتقد فى أمرك أن بعض آلهتنا أصابك بسوء كالخبل و الجنون لشتمك إياها و ذكرك لها بسوء فذهب بذلك عقلك فلا يعبأ بما تفوهت به فى صوره الدعوه.

قوله تعالى: قالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ مِنْ

دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ أجاب هود عليه السّلام عن قولهم باظهار البراءه من شركائهم من دون اللّه ثم التحدى عليهم بأن يكيدوا به جميعا و لا ينظروه.

فقوله: أَنِّى بَرِىءٌ مِمّٰا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ إنشاء و ليس بإخبار كما هو المناسب لمقام التبرى،و لا ينافى ذلك كونه بريئا من أول أمره فإن التبرز بالبراءه لا ينافى تحققها من قبل،و قوله: «فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ» أمر و نهى تعجيزيان.

و إنما أجاب عليه السّلام بما أجاب ليشاهد القوم من آلهتهم أنها لا تمسه عليه السّلام بسوء مع تبرّزه بالبراءه،و لو كانت آلهه ذات علم و قدره لقهرته و انتقمت منه لنفسها كما ادعوا أن بعض آلهتهم اعتراه بسوء و هذه حجه بينه على أنها ليست بآلهه و على أنها لم تعتره بسوء كما ادعوه،ثم يشاهدوا من أنفسهم أنهم لا يقدرون عليه بقتل او تنكيل مع كونهم ذوى شده و قوه لا يعادلهم غيرهم فى الشده و البطش،و لو لا أنه نبى من عند اللّه صادق فى ما يقوله مصون من عند ربه لقدروا عليه بكل ما أرادوه من عذاب او دفع.

فالحق أن قوله: إِنِّى أُشْهِدُ اللّٰهَ وَ اشْهَدُوا الى آخر الآيتين؛مشتمل على حجه عقليه على بطلان ألوهيه الشركاء،و على آيه معجزه لصحه رساله هود عليه السّلام.

و فى قوله: جَمِيعاً إشاره الى أن مراده تعجيزهم و تعجيز آلهتهم جميعا فيكون أتم دلاله على كونه على الحق و كونهم على الباطل.

قوله تعالى: إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّٰهِ رَبِّى وَ رَبِّكُمْ الى آخر الآيه؛لما كان الأمر الذى فى صوره التعجيز صالحا لأن يكون بداعى إظهار عجز الخصم و عدم قدرته،و صالحا لأن يصدر بداعى أن الآمر لا يخاف الخصم و إن كان الخصم قادرا على الإتيان بما يؤمر به لكنه غير قادر على تخويفه و إكراهه على الطاعه و حمله على ما يريد منه كقول السحره لفرعون: فَاقْضِ مٰا أَنْتَ قٰاضٍ إِنَّمٰا تَقْضِى هٰذِهِ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا (طه۷۲/).

و كان قوله: «فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ» محتملا لأن يكون المراد به إظهار أنه لا

يخافهم و إن فعلوا به ما فعلوا،عقبه لـدفع هذا الاحتمال بقوله: «إِنِّی تَوَکَّلْتُ عَلَی اللّٰهِ رَبِّی وَ رَبِّکَمْ» فذکر أنه متوکل فی أمره علی اللّه الذی هو یدبّر أمره و أمرهم ثم عقبه بقوله: «مٰا مِنْ دَابَّهٍ إِلاّٰ هُوَ آخِذٌ بِنٰاصِیَتِهٰا إِنَّ رَبِّی عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ» فذکر أنه ناجح فی توکله هذا فإن اللّه محیط بهم جمیعا قاهر لهم یحکم علی سنّه واحده و هی نصره الحق و إظهاره علی الباطل اذا تقابلا و تغالبا.

فتبرّیه من أصـنامهم و تعجیزهم علی ما هم علیه من الحال بقوله: «فَکِیدُونِی جَمِیعاً ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ» ثم لبثه بینهم فی عاقبه و سلامه لا یمسونه بسوء و لا یستطیعون أن ینالوه بشر آیه معجزه و حجه سماویه علی أنه رسول اللّه الیهم.

و قوله: مٰا مِنْ دَابَّهٍ إِلاّٰ هُوَ آخِذٌ بِنٰاصِیَتِهٰا إِنَّ رَبِّی عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ الدابه کل ما یدب فی الأرض من أصناف الحیوان،و الأخذ بالناصـیه کنـایه عن کمال السـلطه و نهایه القـدره،و کونه تعالی علی صـراط مسـتقیم هو کون سـنته فی الخلیقه واحـده ثابته غیر متغیره و هو تدبیر الامور علی منهاج العدل و الحکمه فهو یحق الحق و یبطل الباطل إذا تعارضا.

فـالمعنی إنی توکلت علی اللّه ربی و ربکم فی نجـاح حجتی التی ألقیتها الیکم و هو التبرز بالبراءه من آلهتکم و أنکم و آلهتکم لاـ تضـرّوننی شـیئا فـإنه المالـک ذو السـلطنه علی و علیکم و علی کـل دابه،و سـنته العـادله ثابته غیر متغیره فسوف ینصـر دینه و یحفظنی من شرکم.

و لم یقل«إن ربی و ربکم علی صراط مستقیم»علی وزان قوله: «عَلَی اللّٰهِ رَبِّی وَ رَبِّکُمْ» فإنه فی مقام الدعاء لنفسه علی قومه یتوقع أن یحفظه اللّه من شـرهم،و هو یأخذه تعالی ربا بخلاف القوم فکان الأنسب أن یعده ربا لنفسه و یسـتمسک برابطه العبودیه التی بینه و بین ربه حتی ینجـح طلبته،و هـذا بخلاف مقام قوله: «تَوَکَّلْتُ عَلَی اللّٰهِ رَبِّی وَ رَبِّکُمْ» فانه یریـد هناک بیان عموم السـلطه و الاحاطه.

قوله تعالی: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مٰا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ و هذه الجمله من کلامه علیه السّلام ناظر الی قولهم فی آخر جدالهم: «إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرٰاكَ بَعْضُ آلِهَتِنٰا بِسُوءٍ» الدال علی أنهم قاطعون علی أن لا یؤمنوا به و دائمون علی الجحد،و المعنی إن تتولوا و تعرضوا عن الإیمان بی و الإطاعه لأمری فقد أبلغتکم رساله ربی تمت علیکم الحجه و لزمتکم البلیه.

قوله تعالی: وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لاٰ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ هذا وعید و إخبار بالتبعه التی یستتبعها إجرامهم،فإنه کان وعدهم ان یستغفروا اللّه و یتوبوا الیه أن یرسل السماء علیهم مدرارا و یزید قوه الی قوتهم،و نهاهم أن یتولوا مجرمین ففیه العذاب الشدید.

و قوله: وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ ای یجعل قوما غیرکم خلفاء فی الأرض مکانکم فإن الإنسان خلیفه منه فی الأرض کما قال تعالی: إِنِّي جٰاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقره۳۰/)،و قد کان علیه السّلام بیّن لهم أنهم خلفاء فی الارض من بعد قوم نوح کما قال تعالی حکایه عن قوله لقومه: وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفٰاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زٰادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً الآیه؛(الأعراف۶۹/).

و ظاهر السیاق أن الجمله الخبریه معطوفه علی أخری مقدّره،و التقدیر:و سیذهب بکم ربی و یستخلف قوما غیرکم علی حد قوله: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مٰا يَشٰاءُ (الأنعام۱۳۳/).

و قوله: «وَ لاٰ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً» ظاهر السیاق أنه تتمه لما قبله ای لا تقدرون علی إضراره بشیء من الفوت و غیره إن اراد أن یهلککم و لا أن تعذیبکم و إهلاککم یفوت منه شیئا مما یریده فإن ربی علی کل شیء حفیظ لا یعزم عن علمه عازب و لا یفوت من قدرته فائت؛ و للمفسرین فی الآیه وجوه أخر بعیده عن الصواب أعرضنا عنها؟

قوله تعالی: وَ لَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ نَجَّيْنٰاهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِيظٍ المراد بمجیء الأمر نزول العذاب و بوجه أدقّ صدور الأمر الإلهی الذی يستتبع القضاء الفاصل بين الرسول و بين قومه كما قال تعالی: وَ مٰا كٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ فَإِذٰا جٰاءَ أَمْرُ اللّٰهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنٰالِكَ الْمُبْطِلُونَ (المؤمن/۷۸).

و قوله: بِرَحْمَةٍ مِنّٰا الظاهر أن المراد بها الرحمه الخاصه بالمؤمنين المستوجبه نصرهم فی دينهم و إنجاءهم من شمول الغضب الإلهی و عذاب الاستئصال،قال تعالی: إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهٰادُ (المؤمن/۵۱).

و قوله: وَ نَجَّيْنٰاهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِيظٍ ظاهر السياق أنه العذاب الذی شمل الكفار من القوم فيكون من قبيل عطف التفسير بالنسبه الی ما قبله،و قيل:المراد به عذاب الآخره و ليس بشیء.

قوله تعالی: وَ تِلْكَ عٰادٌ جَحَدُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبّٰارٍ عَنِيدٍ الآيه؛و ما بعدها تلخيص بعد تلخيص لقصه عاد فأول التلخيصين قوله: «وَ تِلْكَ عٰادٌ -الی قوله- وَ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ» يذكر فيه أنهم جحدوا بآيات ربهم من الحكمه و الموعظه و الآيه المعجزه التی أبانت لهم طريق الرشد و ميّزت لهم الحق من الباطل فجحدوا بها بعد ما جاءهم من العلم.

و عصوا رسل ربهم و هم هود و من قبله من الرسل فإن عصيان الواحد منهم عصيان للجميع فكلهم يدعون الی دين واحد فهم إنما عصوا شخص هود و عصوا بعصيانه سائر رسل اللّه و هو ظاهر قوله فی موضع آخر: كَذَّبَتْ عٰادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ (الشعراء/۱۲۴).و يشعر به ايضا قوله: وَ اذْكُرْ أَخٰا عٰادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقٰافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ (الأحقاف/۲۱)،و من الممكن أن يكون لهم

رسل آخرون بعثوا اليهم فيما بين هود و نوح عليهما السّلام لم يذكروا فى الكتاب العزيز لكن سياق الآيات لا يساعد على ذلك.

و اتّبعوا أمر كل جبار عنيد من جبابرتهم فألهاهم ذلك عن اتباع هود و ما كان يدعو اليه، و الجبّار العظيم الذى يقهر الناس بإرادته و يكرههم على ما أراد و العنيد الكثير العناد الذى لا يقبل الحق،فهذا ملخص حالهم و هو الجحد بالآيات و عصيان الرسل و طاعه الجبابره.

ثم ذكر اللّه وبال أمرهم بقوله: وَ أُتْبِعُوا فِى هٰذِهِ الدُّنْيٰا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ اى و أتبعهم اللّه فى هذه الدنيا لعنه و إبعادا من الرحمه،و مصداق هذا اللعن العذاب الذى عقّبهم فلحق بهم،أو الآثام و السيئات التى تكتب عليهم ما دامت الدنيا فإنهم سنّوا سنّه الإشراك و الكفر لمن بعدهم،قال تعالى: وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ (يس١٢/).

و قيل:المعنى لحقت بهم لعنه فى هذه الدنيا فكان كل من علم بحالهم من بعدهم،و من أدرك آثارهم،و كل من بلّغهم الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم.

و أما اللعنه يوم القيامه فمصداقه العذاب الخالد الذى يلحق بهم يومئذ فإن يوم القيامه يوم جزاء لا غير.

و فى تعقيب قوله فى الآيه: وَ اتَّبَعُوا بقوله: وَ أُتْبِعُوا لطف ظاهر.

قوله تعالى: أَلاٰ إِنَّ عٰاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْداً لِعٰادٍ قَوْمِ هُودٍ أى كفروا بربهم فهو منصوب بنزع الخافض و هذا هو التلخيص الثانى الذى أشرنا اليه لخص به التلخيص الاول فقوله: أَلاٰ إِنَّ عٰاداً الخ؛يحاذى به وصف حالهم المذكور فى قوله: «وَ تِلْكَ عٰادٌ جَحَدُوا» الخ؛و قوله: «أَلاٰ بُعْداً لِعٰادٍ» الخ؛يحاذى به قوله: «وَ أُتْبِعُوا فِى هٰذِهِ الدُّنْيٰا لَعْنَةً» الخ.

و يتأيد من هذه الجمله أن المراد باللعنه السابقه اللعنه الإلهيه دون لعن الناس، و الأنسب به أحد الوجهين الأولين من الوجوه الثلاثه السابقه و خاصه الوجه الثانى دون

الوجه الثالث (۱).

[سوره هود (۱۱): الآیات ۶۱ الی ۶۸]

اشاره

وَ إِلیٰ ثَمُودَ أَخٰاهُمْ صٰالِحاً قٰالَ یٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ هُوَ أَنْشَأَکُمْ مِنَ اَلْأَرْضِ وَ اِسْتَعْمَرَکُمْ فِیهٰا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ إِنَّ رَبِّی قَرِیبٌ مُجِیبٌ (۶۱) قٰالُوا یٰا صٰالِحُ قَدْ کُنْتَ فِینٰا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذٰا أَ تَنْهٰانٰا أَنْ نَعْبُدَ مٰا یَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا وَ إِنَّنٰا لَفِی شَکٍّ مِمّٰا تَدْعُونٰا إِلَیْهِ مُرِیبٍ (۶۲) قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ آتٰانِی مِنْهُ رَحْمَهً فَمَنْ یَنْصُرُنِی مِنَ اَللّٰهِ إِنْ عَصَیْتُهُ فَمٰا تَزِیدُونَنِی غَیْرَ تَخْسِیرٍ (۶۳) وَ یٰا قَوْمِ هٰذِهِ نٰاقَهُ اَللّٰهِ لَکُمْ آیَهً فَذَرُوهٰا تَأْکُلْ فِی أَرْضِ اَللّٰهِ وَ لاٰ تَمَسُّوهٰا بِسُوءٍ فَیَأْخُذَکُمْ عَذٰابٌ قَرِیبٌ (۶۴) فَعَقَرُوهٰا فَقٰالَ تَمَتَّعُوا فِی دٰارِکُمْ ثَلاٰثَهَ أَیّٰامٍ ذٰلِکَ وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ (۶۵) فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّیْنٰا صٰالِحاً وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَهٍ مِنّٰا وَ مِنْ خِزْیِ یَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ اَلْقَوِیُّ اَلْعَزِیزُ (۶۶) وَ أَخَذَ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا اَلصَّیْحَهُ فَأَصْبَحُوا فِی دِیٰارِهِمْ جٰاثِمِینَ (۶۷) کَأَنْ لَمْ یَغْنَوْا فِیهٰا أَلاٰ إِنَّ ثَمُودَ کَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْداً لِثَمُودَ (۶۸)

۱- ۱) .هود ۵۰-۶۰:کلام فی قصه هود(عاد قوم هود،شخصیه هود المعنویه).

بيان:

قوله تعالى: وَ إِلىٰ ثَمُودَ أَخٰاهُمْ صٰالِحاً قٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ تقدم الكلام فی نظيره الآيه فی قصه هود.

قوله تعالى: هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهٰا الی آخر الآيه؛قال الراغب الإنشاء إيجاد الشیء و تربيته و أكثر ما يقال ذلك فی الحيوان قال «هُوَ الَّذِی أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصٰارَ». انتهی،و قال:العماره ضد الخراب يقال:عمر أرضه يعمرها عماره قال «وَ عِمٰارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ» يقال:عمرته فعمر فهو معمور قال «وَ عَمَرُوهٰا أَكْثَرَ مِمّٰا عَمَرُوهٰا» «وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ» و أعمرته الأرض و استعمرته إذا فوّضت اليه العماره قال «وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهٰا» انتهی،فالعماره تحويل الارض الی حال تصلح بها أن ينتفع من فوائدها المترقّبه منها كعماره الدار للسكنی و المسجد للعباده و الزرع للحرث و الحديقه لاجتناء فاكهتها و التنزه فيها و الاستعمار هو طلب العماره بأن يطلب من الانسان أن يجعل الأرض عامره تصلح لأن ينتفع بما يطلب من فوائدها.

و علی ما مرّ يكون معنی قوله: هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهٰا -و الكلام يفيد الحصر-أنه تعالی هو الذی اوجد علی المواد الارضيه هذه الحقيقه المسماه بالإنسان ثم كمّلها بالتربيه شيئا فشيئا و أفطره علی ان يتصرف فی الأرض بتحويلها الی حال ينتفع بها فی حياته،و يرفع بها ما يتنبّه له من الحاجه و النقيصه ای إنكم لا تفتقرون فی وجودكم و بقائكم إلا اليه تعالی و تقدّس.

فقول صالح:هو الذی أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها فی مقام التعليل و حجه يستدل بها علی ما ألقاه اليهم من الدعوه بقوله: «يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ» و لذلك جیء بالفصل كأنه قيل له:لم نعبده وحده؟فقال:لأنه هو الذی أنشأكم من

الارض و استعمركم فيها.

و قد علّل قوله: فَاسْتَغْفِرُوهُ الخ؛بقوله: «إِنَّ رَبِّی قَرِیبٌ مُجِیبٌ» لأنه استنتج من حجته المذكوره أنه تعالى يقوم بإيجاد الانسان و تربيته و تدبير أمر حياته،و أنه لا استقلال لشىء من الأسباب العمّاله فى الكون بل اللّه تعالى هو الذى يسوق هذا الى هنا،و يصرف ذاك عن هناك فهو تعالى الحائل بين الانسان و بين حوائجه و جميع الأسباب العمّاله فيها، القريب منه لا كما يزعمون أنه لا يدركه فهم و لا يناله عباده و قربان،و إذا كان قريبا فهو مجيب،و إذا كان قريبا مجيبا و هو اللّه لا إله غيره فمن الواجب أن يستغفروه ثم يتوبوا اليه.

قوله تعالى: قالُوا یا صالِحُ قَدْ کُنْتَ فِینا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذا أَ تَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما یَعْبُدُ آباؤُنا الخ؛الرجاء إنما يتعلق بالإنسان لا من جهه ذاته بل من جهه أفعاله و آثاره، و لا يرجى منها الخير و يرقب منه النفع،و قوله «قَدْ کُنْتَ فِینا» دليل على كونه مرجوا لعامتهم و جمهورهم.

فقولهم: قالُوا یا صالِحُ قَدْ کُنْتَ فِینا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذا معناه أن ثمود كانت ترجو منك أن تكون من أفرادها الصالحه تنفع بخدماتك مجتمعهم و تحمل الامه على صراط الترقى و التعالى لما كانت تشاهد فيك من امارات الرشد و الكمال لكنهم يئسوا منك و من رزانه رأيك اليوم بما أبدعت من القول و أقمت من الدعوه.

و قولهم: أَ تَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما یَعْبُدُ آباؤُنا استفهام إنكارى بداعى المذمه و الملامه،و الاستفهام فى مقام التعليل لما قبله محصله أن سبب يأسهم منك اليوم أنك تنهاهم من إقامه سنه من سنن مليتهم و تمحو أظهر مظاهر قوميتهم فإن اتخاذ الأوثان من سنن هذا المجتمع المقدسه،و استمرار إقامه السنن المقدسه من المجتمع دليل على أنهم ذوو أصل عريق ثابت،و وحده قوميه لها استقامه فى الرأى و الإراده.

و قوله: وَ إِنَّنا لَفِی شَکٍّ مِمّا تَدْعُونا إِلَیْهِ مُرِیبٍ حجه ثانيه لهم فى رد دعوه

صالح علیه السّلام،و حجتهم الاولی ما یتضمنه صدر الآیه و محصلها أن ما تدعو الیه من رفض عباده الأصنام بدعه منکره تذهب بسنه ثمود المقدسه و تهدم بنیان ملیتهم،و تمیت ذکرهم فعلینا أن نرده،و الثانیه أنک لم تأت بحجه بینه علی ما تدعو الیه تورث الیقین و تمیط الشک عنا فنحن فی شک مریب مما تدعونا الیه و لیس لنا أن نقبل ما تندب الیه علی شک منا فیه.

و الإرابه الاتهام و إساءه الظن یقال:رابنی منه کذا إذا أوجب فیه الشک و أرابنی کذا إرابه إذا حملک علی اتهامه و سوء الظن به.

قوله تعالی: قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ آتٰانِی مِنْهُ رَحْمَهً الی آخر الآیه؛المراد بالبینه الآیه المعجزه و بالرحمه النبوه،و قد تقدم الکلام فی نظیر الآیه من قصه نوح علیه السّلام فی السوره.

و قوله: فَمَنْ یَنْصُرُنِی مِنَ اللّٰهِ إِنْ عَصَیْتُهُ جواب الشرط،و حاصل المعنی:

أخبرونی إن کنت مؤیدا بآیه معجزه تنبئ عن صحه دعوتی و أعطانی اللّه الرساله فأمرنی بتبلیغ رسالته فمن ینجنی من اللّه و یدفع عنی إن أطعتکم فیما تسألون و وافقتکم فیما تریدونه منی و هو ترک الدعوه.

ففی الکلام جواب عن کلتا حجتیهم و اعتذار عما لاموه علیه من الدعوه المبتدعه.

و قوله: فَمٰا تَزِیدُونَنِی غَیْرَ تَخْسِیرٍ تفریع علی قوله السابق الذی ذکره فی مقام دحض الحجتین و الاعتذار عن مخالفتهم و القیام بدعوتهم الی خلاف سنتهم القومیه فالمعنی فما تزیدوننی فی حرصکم علی ترک الدعوه و الرجوع الیکم و اللحوق بکم غیر أن تخسرونی فما مخالفه الحق إلاّ خساره.

و قیل:المراد أنکم ما تزیدوننی فی قولکم:أ تنهانا أن نعبد ما یعبد آباؤنا؟غیر نسبتی إیاکم الی الخساره.و قیل:المعنی ما تزیدوننی إلاّ بصیره فی خسارتکم و الوجه الأول أوجه.

ص :۱۷۳

قوله تعالى: وَ يَا قَوْمِ هٰذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللّهِ وَ لاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ إضافه الناقه الى اللّه إضافه تشريف كبيت اللّه و كتاب اللّه.و كانت الناقه آيه معجزه له عليه السّلام تؤيد نبوته،و قد أخرجها عن مسألتهم من صخر الجبل بإذن اللّه،و قال لهم:إنها تأكل فى أرض اللّه محرره،و حذرهم أن يمسوها بسوء أى يصيبوها بضرب أو جرح أو قتل.و أخبرهم أنهم ان فعلوا ذلك أخذهم عذاب قريب معجل،و هذا معنى الآيه.

قوله تعالى: فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيّامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ عقر الناقه نحرها،و الدار هى المكان الذى يبنيه الانسان فيسكن فيه و يأوى اليه هو و أهله،و المراد بها فى الآيه المدينه سميت دارا لأنها تجمع أهلها كما تجمع الدار أهلها،و قيل المراد بالدار الدنيا،و هو بعيد.

و المراد بتمتعهم فى مدينتهم العيش و التنعم بالحياه لأن الحياه الدنيا متاع يتمتع به،او الالتذاذ بأنواع النعم التى هيئوها فيها من مناظر ذات بهجه و الأثاث و المأكول و المشروب و الاسترسال فى أهواء أنفسهم.

و قوله: ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ الإشاره الى قوله: تَمَتَّعُوا الخ؛و «وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ» بيان له.

قوله تعالى: فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا صٰالِحاً الى آخر الآيه؛أما قوله:«و لما جاء أمرنا نجينا صالحا و الذين آمنوا معه برحمه منا»فقد تقدم الكلام فى مثله فى قصه هود.

و أما قوله: وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ فمعطوف على محذوف و التقدير نجيناهم من العذاب و من خزى يومئذ،و الخزى العيب الذى تظهر فضيحته و يستحيى من إظهاره او أن التقدير:نجيناهم من القوم و من خزى يومئذ على حد قوله: وَ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ.

ص:۱۷۴

و قوله: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ الْقَوِیُّ الْعَزِیزُ فی موضع التعلیل لمضمون صدر الآیه و فیه التفات من التکلم بالغیر الی الغیبه،و قد تقدم نظیره فی آخر قصه هود فی قوله: «أَلاٰ إِنَّ عٰاداً کَفَرُوا رَبَّهُمْ» و الوجه فیه ذکر صفه الربوبیه لیدل به علی خروجهم من زی العبودیه و کفرهم بالربوبیه و کفرانهم نعم ربهم.

قوله تعالی: وَ أَخَذَ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَهُ فَأَصْبَحُوا فِی دِیٰارِهِمْ جٰاثِمِینَ یقال:جثم جثوما اذا وقع علی وجهه،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: کَأَنْ لَمْ یَغْنَوْا فِیهٰا غنی بالمکان أی أقام فیه،و الضمیر راجع الی الدیار.

قوله تعالی: أَلاٰ إِنَّ ثَمُودَ کَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْداً لِثَمُودَ الجملتان تلخیص ما تقدم تفصیله من القصه فالجمله الاولی تلخی ما انتهی الیه أمر ثمود و دعوه صالح علیه السّلام، و الثانیه تلخیص ما جازاهم اللّه به،و قد تقدم نظیره الآیه فی آخر قصه هود (۱)(۲).

[سوره هود (۱۱): الآیات ۶۹ الی ۷۶]

اشاره

وَ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُنٰا إِبْرٰاهِیمَ بِالْبُشْریٰ قٰالُوا سَلاٰماً قٰالَ سَلاٰمٌ فَمٰا لَبِثَ أَنْ جٰاءَ بِعِجْلٍ حَنِیذٍ (۶۹) فَلَمّٰا رَأیٰ أَیْدِیَهُمْ لاٰ تَصِلُ إِلَیْهِ نَکِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَهً قٰالُوا لاٰ تَخَفْ إِنّٰا أُرْسِلْنٰا إِلیٰ قَوْمِ لُوطٍ (۷۰) وَ امْرَأَتُهُ قٰائِمَهٌ فَضَحِکَتْ فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ یَعْقُوبَ (۷۱) قٰالَتْ یٰا وَیْلَتیٰ أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هٰذٰا بَعْلِی شَیْخاً إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ عَجِیبٌ (۷۲) قٰالُوا أَ تَعْجَبِینَ مِنْ أَمْرِ اَللّٰهِ رَحْمَتُ اَللّٰهِ وَ بَرَکٰاتُهُ عَلَیْکُمْ أَهْلَ اَلْبَیْتِ إِنَّهُ حَمِیدٌ مَجِیدٌ (۷۳) فَلَمّٰا ذَهَبَ عَنْ إِبْرٰاهِیمَ اَلرَّوْعُ وَ جٰاءَتْهُ اَلْبُشْریٰ یُجٰادِلُنٰا فِی قَوْمِ لُوطٍ (۷۴) إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ لَحَلِیمٌ أَوّٰاهٌ مُنِیبٌ (۷۵) یٰا إِبْرٰاهِیمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذٰا إِنَّهُ قَدْ جٰاءَ أَمْرُ رَبِّکَ وَ إِنَّهُمْ آتِیهِمْ عَذٰابٌ غَیْرُ مَرْدُودٍ (۷۶)

۱- ۱) .هود ۶۱-۶۸:بحث روائی حول قصه صالح و قومه.

۲- ۲) .هود ۶۱-۶۸:کلام فی قصه صالح فی فصول(ثمود قوم صالح علیه السّلام،بعثه صالح علیه السّلام،شخصیه صالح علیه السّلام).

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُنٰا إِبْرٰاهِیمَ بِالْبُشْریٰ الی آخر الآیه؛البشری هی البشاره،و العجل ولد البقره،و الحنیذ فعیل بمعنی المفعول أی المحنوذ و هو اللحم المشوی علی حجاره محماه بالنار کما أن القدید هو المشوی علی حجاره محماه بالشمس علی ما ذکره بعض اللغویین،و ذکر بعضهم أنه المشوی الذی یقطر ماء و سمنا،و قیل:هو مطلق المشوی،و قوله تعالی فی سوره الذاریات فی القصه: «فَرٰاغَ إِلیٰ أَهْلِهِ فَجٰاءَ بِعِجْلٍ سَمِینٍ» لا یخلو من تأیید ما للمعنی الثانی.

و قوله: وَ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُنٰا إِبْرٰاهِیمَ بِالْبُشْریٰ معطوف علی قوله سابقا:

«وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلیٰ قَوْمِهِ» قال فی المجمع:و إنما دخلت اللام لتأکید الخبر و معنی قد هاهنا أن السامع لقصص الأنبیاء یتوقع قصه بعد قصه،و قد للتوقّع فجاءت لتؤذن أن السامع

فی حال توقع.انتهی.

و الرسل هم الملائکه المرسلون الی إبراهیم للبشاره و الی لوط لإهلاک قومه و قد اختلفت کلمات المفسرین فی عددهم مع القطع بکونهم فوق الاثنین لدلاله لفظ الجمع -الرسل-علی ذلک،و فی بعض الروایات عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام أنهم کانوا أربعه من الملائکه الکرام،و سیأتی نقلها إن شاء اللّه فی البحث الروائی.

و البشری التی جاءت بها الرسل إبراهیم علیه السّلام لم یذکر بلفظها فی القصه،و التی ذکرت فیها منها هی البشاره لامرأته،و إنما ذکرت بشاره إبراهیم نفسه فی غیر هذا المورد کسورتی الحجر و الذاریات،و لم یصرّح فیهما باسم من بشر به إبراهیم أ هو إسحاق أم إسماعیل علیهم السّلام أو أنهم بشروه بکلیهما؟و ظاهر سیاق القصه فی هذه السوره أنها البشاره بإسحاق،و سیأتی البحث المستوفی عن ذلک فی آخر القصه.

و قوله: قٰالُوا سَلاٰماً قٰالَ سَلاٰمٌ أی تسالموا هم و إبراهیم فقالوا:سلاما أی سلّمنا علیک سلاما،و قال إبراهیم:سلام أی علیکم سلام.

و السلام الواقع فی تحیه ابراهیم علیه السّلام نکره و وقوعه نکره فی مقام التحیه دلیل علی ان المراد به الجنس أو أن له وصفا محذوفا للتفخیم و مزید التکریم و التقدیر:علیکم سلام زاک طیب أو ما فی معناه،و لذا ذکر بعض المفسرین:ان رفع السلام أبلغ من نصبه فقد حیّاهم بأحسن من تحیتهم فبالغ فی إکرامهم ظنا منه أنهم ضیف.

و قوله: فَمٰا لَبِثَ أَنْ جٰاءَ بِعِجْلٍ حَنِیذٍ أی ما أبطأ فی أن قدّم الیهم عجلا مشویا یقطر ماء و سمنا و أسرع فی ذلک.

قوله تعالی: فَلَمّٰا رَأیٰ أَیْدِیَهُمْ لاٰ تَصِلُ إِلَیْهِ نَکِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَهً عدم وصول ایدیهم الیه کنایه عن أنهم ما کانوا یمدون أیدیهم الی الطعام،و ذلک أماره العداوه و إضمار الشر،و نکرهم و أنکرهم بمعنی واحد و إنما کان أنکرهم لإنکاره ما شاهد

منهم من فعل غير معهود.

و الإيجاس الخطور القلبى،قال الراغب:الوجس الصوت الخفى،و التوجس التسمع، و الإيجاس وجود ذلك النفس قال:و أوجس منهم خيفه،و الواجس قالوا:هو حاله تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الواجس الخاطر.انتهى.

فالجمله من الكنايه كأن لطروق الخيفه-و هو النوع من الخوف-و خطوره فى النفس صوتا تسمع بالسمع القلبى،و المراد أنه استشعر فى نفسه خوفا و لذلك أمّنوه و طيبوا نفسه بقولهم:

«لاٰ تَخَفْ إِنّٰا أُرْسِلْنٰا إِلىٰ قَوْمِ لُوطٍ».

و معنى الآيه أن إبراهيم عليه السّلام لما قدم اليهم العجل المشوى رآهم لا يأكلون منه كالممتنع من الأكل-و ذلك أماره الشر-استشعر فى نفسه منهم خوفا قالوا تأمينا له و تطييبا لنفسه:لا تخف إنا أرسلنا الى قوم لوط فعلم أنهم من الملائكه الكرام المنزهين من الأكل و الشرب و ما يناظر ذلك من لوازم البدن الماديه،و أنهم مرسلون لخطب جليل.

قوله تعالى: وَ امْرَأَتُهُ قٰائِمَهٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ يَعْقُوبَ ضحكت من الضحك بفتح الضاد اى حاضت،و يؤيده تفريع البشاره عليه فى قوله عقيبه:«فبشرناهم»الخ؛و يكون ضحكها أماره تقرّب البشرى الى القبول، و آيه تهيئ نفسها للإذعان بصدقهم فيما يبشرون به،و يكون ذكر قيامها لتمثيل المقام و أنها ما كانت تخطر ببالها أنها ستحيض و هى عجوز،و إنما كانت قائمه تنظر ما يجرى عليه الأمر بين بعله و بين الضيفان النازلين به و تحادثهم.

و المعنى أن ابراهيم عليه السّلام كان يكلمهم و يكلمونه فى امر الطعام و الحال أن امرأته قائمه هناك تنظر الى ما يجرى بين الضيفان و بين ابراهيم و ما كان يخطر ببالها شيء دون ذلك ففاجأها انها حاضت فبشرته الملائكه بالولد.

و قوله: فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ يَعْقُوبَ إسحاق هو ابنها من

ابراهیم،و یعقوب هو ابن إسحاق علیهما السّلام فالمراد أن الملائکه بشروها بأنها ستلد إسحاق و إسحاق سیولد له یعقوب ولد بعد ولد.هذا علی قراءه یعقوب بالفتح و هو منزوع الخافض و قرئ برفع یعقوب و هو بیان لتتمه البشاره،و الاولی ارجح.

و کأن فی هذا التعبیر: وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ یَعْقُوبَ إشاره الی وجه تسمیه یعقوب علیه السّلام بهذا الاسم،و هو أنه کان یعقب بحسب هذه البشاره أباه إسحاق و قد ذکر فیها أنه وراءه،و یکون فیها تخطئه لما فی التوراه من السبب فی تسمیه یعقوب به.

قوله تعالی: قٰالَتْ یٰا وَیْلَتیٰ أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هٰذٰا بَعْلِی شَیْخاً إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ عَجِیبٌ الویل القبح و کل مساءه توجب التحسّر من هلکه او مصیبه او فجیعه او فضیحه،و نداؤه کنایه عن حضوره و حلوله یقال:یا ویلی أی حضرنی و حل بی ما فیه تحسّری،و یا ویلتا بزیاده التاء عند النداء مثل یا أبتا.

و العجوز الشیخه من النساء،و البعل زوج المرأه و الأصل فی معناه القائم بالأمر المستغنی عن الغیر یقال للنخل الذی یستغنی بماء السماء عن سقی الأنهار و العیون بعل، و یقال للصاحب و للرب:بعل.و منه بعلبک لأنه کان فیه هیکل بعض أصنامهم.

و العجیب صفه مشبهه من العجب و هو الحال العارض للإنسان من مشاهده ما لا یعلم سببه،و لذا یکثر من الامور الشاذه النادره للجهل بسببها عاده و قولها: «یٰا وَیْلَتیٰ أَ أَلِدُ» الخ؛ وارد مورد التعجب و التحسر فإنها لما سمعت بشاره الملائکه تمثّل لها الحال بتولد ولد من عجوز عقیم و شیخ هرم بالغین فی الکبر لا یعهد من مثلهما الاستیلاد فهو أمر عجیب علی ما فیه من العار و الشین عند الناس فیضحکون منهما و یهزءون بهما و ذلک فضیحه.

قوله تعالی: قٰالُوا أَ تَعْجَبِینَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ رَحْمَتُ اللّٰهِ وَ بَرَکٰاتُهُ عَلَیْکُمْ أَهْلَ الْبَیْتِ إِنَّهُ حَمِیدٌ مَجِیدٌ المجد هو الکرم و المجید الکریم کثیر النوال و قد تقدم معنی بقیه مفردات الآیه.

ص :۱۷۹

و قولهم: أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ استفهام إنكارى انكرت الملائكه تعجبها عليها لأن التعجب إنما يكون للجهل بالسبب و استغراب الأمر،و الأمر المنسوب الى اللّه سبحانه و هو الذى يفعل ما يشاء و هو على كل شىء قدير لا وجه للتعجب منه.

على أنه تعالى خص بيت إبراهيم بعنايات عظيمه و مواهب عاليه يتفردون بها من بين الناس فلا ضير إن ضم الى ما مضى من نعمه النازله عليهم نعمه اخرى مختصه بهم من بين الناس و هو ولد من زوجين شائخين لا يولد من مثلهما ولد عاده.

و لهذا الذى ذكرنا قالت الملائكه لها فى إنكار ما رأوا من تعجبها أولا «أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ» فأضافوا الأمر الى اللّه لينقطع بذلك كل استعجاب و استغراب لأن ساحه الالوهيه لا يشق شىء عليها و هو الخالق لكل شىء.

و ثانيا رَحْمَتُ اللّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ فنبهوها بذلك أن اللّه انزل رحمته و بركاته عليهم أهل البيت،و ألزمهم ذلك فليس من البعيد ان يكون من ذلك تولد مولود من والدين فى غير سنهما العادى المألوف لذلك.

و قوله: إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ فى مقام التعليل لقوله: «رَحْمَتُ اللّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ» اى إنه تعالى مصدر كل فعل محمود و منشأ كل كرم وجود يفيض من رحمته و بركاته على كل من يشاء من عباده.

قوله تعالى: فَلَمّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِى قَوْمِ لُوطٍ الروع الخوف و الرعب و المجادله فى الأصل الإلحاح فى البحث و المساءله للغلبه فى الرأى،و المعنى انه لما ذهب عن إبراهيم ما اعتراه من الخيفه بتبين ان النازلين به لا يريدون به سوءا و لا يضمرون له شرّا.و جاءته البشرى بأن اللّه سيرزقه و زوجه إسحاق و من وراء إسحاق يعقوب اخذ يجادل الملائكه فى قوم لوط يريد بذلك ان يصرف عنهم العذاب.

فقوله: يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ لحكايه الحال الماضيه او بتقدير فعل ماض قبله و تقديره:اخذ يجادلنا،الخ،لأن الأصل فى جواب لما ان يكون فعلا ماضيا.

و يظهر من الآيه ان الملائكه اخبروه اولا-بأنهم مرسلون الى قوم لوط ثم ألقوا اليه البشاره ثم جرى بينهم الكلام فى خصوص عذاب قوم لوط فأخذ إبراهيم عليه السّلام يجادلهم ليصرف عنهم العذاب فأخبروه بأن القضاء حتم،و العذاب نازل لا مرد له.

و الذى ذكره اللّه من مجادلته عليه السّلام الملائكه هو قوله فى موضع آخر: وَ لَمّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَهِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (العنكبوت٣٢/).

قوله تعالى: إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوّاهٌ مُنِيبٌ الحليم هو الذى لا يعاجل العقوبه و الانتقام،و الأوّاه كثير التأوه مما يصيبه او يشاهده من السوء،و المنيب من الإنابه و هو الرجوع و المراد الرجوع فى كل أمر الى اللّه.

و الآيه مسوقه لتعليل قوله فى الآيه السابقه: «يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ» و فيه مدح بالغ لإبراهيم عليه السّلام و بيان أنه إنما كان يجادل فيهم لأنه كان حليما لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا و يستقيموا،و كان كثير التأثر من ضلال الناس و حلول الهلاک بهم مراجعا الى اللّه فى نجاتهم.لا أنه عليه السّلام كان يكره عذاب الظالمين و ينتصر لهم بما هم ظالمون و حاشاه عن ذلک.

قوله تعالى: يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّکَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ هذا حكايه قول الملائكه لإبراهيم عليه السّلام و بذلک قطعوا عليه جداله فانقطع حيث علم أن الإلحاح فى صرف العذاب عنهم لن يثمر ثمرا فإن القضاء حتم و العذاب واقع لا محاله.فقولهم: «يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذا» أى انصرف عن هذا الجدال و لا تطمع فى نجاتهم فإنه طمع فيما لا مطمع فيه.

و قولهم: إِنَّهُ قَدْ جٰاءَ أَمْرُ رَبِّکَ أی بلغ أمره مبلغا لا یدفع بدافع و لا یتبدّل بمبدل و یؤیده قوله فی الجمله التالیه: «وَ إِنَّهُمْ آتِیهِمْ عَذٰابٌ غَیْرُ مَرْدُودٍ» فإن ظاهره المستقبل و لو کان الأمر صادرا لم یتخلف القضاء عن المقضی البته و یؤیده ایضا قوله فی ما سیأتی من آیات قصه قوم لوط: فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا جَعَلْنٰا عٰالِیَهٰا سٰافِلَهٰا الخ؛آیه ۸۲ من السوره.

و قولهم: وَ إِنَّهُمْ آتِیهِمْ عَذٰابٌ غَیْرُ مَرْدُودٍ ای غیر مدفوع عنهم بدافع فللّه الحکم لا معقب لحکمه،و الجمله بیان لما أمر به جیء بها تأکیدا للجمله السابقه و المقام مقام التأکید،و لذلک جیء فی الجمله الاولی بضمیر الشأن و قد المفید للتحقیق،و صدرت الجملتان معا بإن،و أضافوا الأمر الی رب إبراهیم علیه السّلام دون امر اللّه لیعینهم ذلک علی انقطاعه عن الجدال (۱)(۲).

[سوره هود (۱۱): الآیات ۷۷ الی ۸۳]

اشاره

وَ لَمّٰا جٰاءَتْ رُسُلُنٰا لُوطاً سِیءَ بِهِمْ وَ ضٰاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قٰالَ هٰذٰا یَوْمٌ عَصِیبٌ (۷۷) وَ جٰاءَهُ قَوْمُهُ یُهْرَعُونَ إِلَیْهِ وَ مِنْ قَبْلُ کٰانُوا یَعْمَلُونَ اَلسَّیِّئٰاتِ قٰالَ یٰا قَوْمِ هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِی هُنَّ أَطْهَرُ لَکُمْ فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ فِی ضَیْفِی أَ لَیْسَ مِنْکُمْ رَجُلٌ رَشِیدٌ (۷۸) قٰالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِی بَنٰاتِکَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّکَ لَتَعْلَمُ مٰا نُرِیدُ (۷۹) قٰالَ لَوْ أَنَّ لِی بِکُمْ قُوَّةً أَوْ آوِی إِلیٰ رُکْنٍ شَدِیدٍ (۸۰) قٰالُوا یٰا لُوطُ إِنّٰا رُسُلُ رَبِّکَ لَنْ یَصِلُوا إِلَیْکَ فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِنَ اَللَّیْلِ وَ لاٰ یَلْتَفِتْ مِنْکُمْ أَحَدٌ إِلاَّ اِمْرَأَتَکَ إِنَّهُ مُصِیبُهٰا مٰا أَصٰابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ اَلصُّبْحُ أَ لَیْسَ اَلصُّبْحُ بِقَرِیبٍ (۸۱) فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا جَعَلْنٰا عٰالِیَهٰا سٰافِلَهٰا وَ أَمْطَرْنٰا عَلَیْهٰا حِجٰارَةً مِنْ سِجِّیلٍ مَنْضُودٍ (۸۲) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّکَ وَ مٰا هِیَ مِنَ اَلظّٰالِمِینَ بِبَعِیدٍ (۸۳)

۱- ۱) .هود ۶۹-۷۶:بحث روائی فی اهلاک قوم لوط.

۲- ۲) .هود ۶۹-۷۶:کلام فی قصه البشری(حدیث ضیف ابراهیم علیه السّلام).

بیان:

قوله تعالى: وَ لَمّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِیءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا یَوْمٌ عَصِیبٌ یقال:ساءه الأمر مساءه ای أوقع علیه السوء،و سیئ بالأمر بالبناء للمجهول ای أوقع علیه من ناحیته و بسببه.

و الذرع مقایسه الأطوال مأخوذ من الذراع العضو المعروف لأنهم کانوا یقیسون بها، و یطلق علی نفس المقیاس ایضا،و یقال:ضاق بالأمر ذرعا و هو کنایه عن انسداد طریق الحیله و العجز عن الاهتداء الی مخلص ینجو به الانسان من النائبه کالذی یذرع ما لا ینطبق علیه ذرعه.

و العصیب فعیل بمعنی المفعول من العصب بمعنی الشدّ و الیوم العصیب هو الیوم الذی شدّ بالبلاء شدا لا یقبل الانحلال و لا بعض أجزائه ینفکّ عن بعض.

و المعنی جاءت رسلنا لوطا و هم الملائکه النازلون بإبراهیم علیه السّلام ساء مجیئهم لوطا، و عجز عن الاحتیال لنجاتهم من شر القوم فإنهم دخلوا علیه فی صور غلمان مرد صبیحی المنظر و کان قومه ذوی حرص شدید علی إتیان الفحشاء ما کان من المترقب أن یعرضوا

عنهم و يتركوهم على حالهم،و لذلک لم يملک لوط نفسه دون أن قال «هٰذٰا يَوْمٌ عَصِيبٌ» اى شديد ملتفّ بعض شره ببعض.

قوله تعالى: وَ جٰاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كٰانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئٰاتِ قال الراغب:يقال:هرع و أهرع ساقه سوقا بعنف و تخويف،انتهى.و عن كتاب العين الإهراع السوق الحثيث،انتهى.

و قوله: وَ مِنْ قَبْلُ كٰانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئٰاتِ اى و من قبل ذلک كانوا يقترفون المعاصى و يأتون بالمنكرات فكانوا مجترئين على إيقاع الفحشاء معتادين بذلک لا ينصرفون عنه بصارف،و لا يحجبهم عن ذلک استحياء او استشناع،و لا ينزجرون بموعظه او ملامه او مذمه لأن العاده تسهّل كل صعب و تزيّن كل قبيح و وقيح.

و الجمله كالمعترضه بين قوله: وَ جٰاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ و قوله: قٰالَ يٰا قَوْمِ هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِى الخ؛و هى نافعه فى مضمون طرفيها أما فيما قبلها فإنها توضح أن الذى كان يهرعهم و يسوقهم الى لوط عليه السّلام هو أنهم كانوا يعملون السيئات و صورا بذلک معتادين على إتيان الفحشاء و لعين به فساقهم ذلک الى المجیء اليه و قصد السوء بأضيافه.

و أما فيما بعدها فإنها تفيد أنهم لرسوخ الملكه و استقرار العاده سلبوا سمع القبول و أن يزجرهم زاجر من عظه او نصيحه،و لذلک بدأ لوط فى تكليمهم بعرض بناته عليهم ثم قال لهم«اتقوا الله و لا تخزون فى ضيفى»الخ.

قوله تعالى: قٰالَ يٰا قَوْمِ هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ الى آخر الآيه؛لما رآهم تجمّعوا على الشر لا يصرفهم عن ذلک مجرد القول بعظه او إغلاظ فى الكلام أراد أن يصرفهم عنه بتبديل ما يريدون من الفحشاء مما لا معصيه فيه من الحلال فعرض بناته عليهم و رجّحه لهم بأنهنّ أطهر لهم.

و إنما المراد بصيغه التفضيل-أطهر-مجرد الاشتمال على الطهاره من غير شوب

ص:١٨۴

بقذاره،و المراد هی طهاره محضا،و هو استعمال شائع،قال تعالی: مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ (الجمعه/١١)،و قال: وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ (النساء/١٢٨).و تفید معنی الأخذ بالمتیقن.

و تقیید قوله: هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِی بقوله: هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ شاهد صدق علی أنه إنما عرض لهم مسّهن عن نکاح لا عن سفاح و حاشا مقام نبیّ اللّه عن ذلک،و ذلک لأن السفاح لا طهاره فیه أصلا و قد قال تعالی: وَ لاٰ تَقْرَبُوا الزِّنیٰ إِنَّهُ كٰانَ فٰاحِشَةً وَ سٰاءَ سَبِيلاً (الإسراء/٣٢)،و قال: وَ لاٰ تَقْرَبُوا الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ (الأنعام/١٥١)، و قد تقدم فی تفسیر هذه الآیه أن ما تتضمنه هو من الأحکام العامه المشرّعه فی جمیع الشرائع الإلهیه النازله علی أنبیائه.

و قوله: فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ فِی ضَيْفِی بیان للمطلوب،و قوله: «وَ لاٰ تُخْزُونِ فِی ضَيْفِی» عطف تفسیری لقوله: «فَاتَّقُوا اللّٰهَ» فإنه علیه السّلام إنما کان یطلب منهم أن لا یتعرضوا لضیفه لتقوی اللّه لا لهوی نفسه و عصبیه جاهلیه منه،و لم یکن عنده فرق بین ضیفه و غیرهم فیما کان یردعهم،و قد وعظهم بالردع عن هذا الذنب الشنیع و ألحّ علی ذلک سنین متمادیه.

و إنما علق الردع علی معنی الضیافه و أضاف الضیف الی نفسه و ذکر الخزی الوارد علیه من التعرض لهم کل ذلک رجاء أن یهیج صفه الفتوّه و الکرامه فیهم و لذلک عقب ذلک بالاستغاثه و الاستنصار بقوله: «أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ» لعله یجد فیهم ذا رشد إنسانی فینتصر له و ینجیه و ضیوفه من أیدی اولئک الظالمین لکن القوم کانوا کما قال اللّه تعالی:

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِی سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (الحجر/٧٢)و لم یؤثر ذلک فیهم أثرا و لم ینتهوا عن قوله بل أجابوا بما أیأسوه به من أی إلحاح فی ذلک.

قوله تعالی: قٰالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِی بَنٰاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مٰا

نُرِيدُ هذا جواب القوم عما دعاهم اليه لوط من النكاح المباح أجابوا بنفى أن يكون لهم فى بناته من حق و أنه يعلم ذلک و يعلم ما هو بغيتهم فى هذا الهجوم و ما ذا يريدون.

و قد قيل فى معنى نفيهم الحق:إن معناه ما لنا فى بناته من حاجه و ما ليس للانسان فيه حاجه فكأنه لا حق له فيه ففى الكلام نوع استعاره.

و قيل:إن المراد ليس لنا فى بناتک من حق لأنا لا نتزوجهن و من لم يتزوج بامرأه فلا حق له فيها فالمراد بنفى الحق نفى سببه و هو الازدواج.

و قيل:المراد بالحق هو الحظ و النصيب دون الحق الشرعى او العرفى أى لا رغبه لنا فيهن لأنهن نساء و لا ميل لنا اليهن.

و الذى يجب الالتفات اليه أنهم لم يقولوا:ما لنا فى بناتک من حق بل قالوا «لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِي بَنٰاتِكَ مِنْ حَقٍّ» فلم يجيبوا عنه بذلک بل بعلمه بذلک و بين القولين فرق فالظاهر أنهم ذكّروه بما كان يعلم من السنّه القوميه الجاريه بينهم،و هو المنع من التعرض لنساء الناس و خاصه بالقهر و الغلبه او ترک إتيان النساء بالمرّه و استباحه التعرض للغلمان و قضاء الوطر منهم،و قد كان لوط يردعهم عن سنّتهم ذلک إذ يقول لهم: إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسٰاءِ (الأعراف۸۱/) أَ تَأْتُونَ الذُّكْرٰانَ مِنَ الْعٰالَمِينَ وَ تَذَرُونَ مٰا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ (الشعراء۱۶۶/) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نٰادِيكُمُ الْمُنْكَرَ (العنكبوت۲۹/)،و لا شک أن السنّه القوميه الجاريه على فعل شىء يثبت حقا فيه،و الجاريه على تركه ينفى الحق.

و بالجمله هم يلفتون نظره عليه السّلام الى ما يعلم من انتفاء حقهم عن بناته بما هن نساء بحسب السنّه القوميه و ما يعلم من إرادتهم فى الهجوم على داره هذا و لعلّ هذا أحسن الوجوه،و بعده الوجه الثالث.

قوله تعالى: قٰالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ يقال:أوى

الی كذا يأوی أويّا و مأوی أی انضم اليه،و آواه اليه يؤويه إيواء أی ضمه اليه.و الركن هو ما يعتمد عليه البناء بعد الأساس.

الظاهر انه لما وعظهم لوط عليه السّلام بالأمر بتقوی اللّه و تهييج فتوّتهم فی حفظ موقعه و رعايه حرمته فی عدم التعرض لضيفه بما يجلب اليه العار و الخزی،و قد قطع عذرهم بعرض بناته عليهم بالنكاح ثم استغاث بالاستنصار من أولی الرشد منهم رجاء أن يوجد فيهم رجل رشيد ينصره عليهم و يدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل و لا انماز من بينهم ذو رشد ينصره عليهم و يدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل و لا انماز من بينهم ذو رشد ينصره و يدفع عنه بل أيأسوه بقولهم: «لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِی بَنٰاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مٰا نُرِيدُ» لم يبق له إلاّ أن يظهر ما به من البث و الحزن فی صوره التمنی فتمنی أن يكون له منهم قوه يقوی به علی دفع عتاتهم الظالمين-و هو الرجل الرشيد الذی كان يسأل عنه فی استغاثته-او يكون له ركن شديد و عشيره منيعه ينضم اليهم فيدفعهم بهم.

فقوله: لَوْ أَنَّ لِی بِكُمْ قُوَّةً أی ليت لی قدره بسببكم بانضمام رجل منكم رشيد إلیّ يقوم بنصرتی فأدفعكم به،و قوله: «أَوْ آوِی إِلیٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ» أی او كنت أنضم الی ركن شديد أی عشيره منيعه يمنعكم منی هذا ما يعطيه ظاهر السياق.

قوله تعالی: قٰالُوا يٰا لُوطُ إِنّٰا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ الی آخر الآيه؛ عدم وصولهم اليه كنايه عن عدم قدرتهم علی ما يريدون،و المعنی لما بلغ الأمر هذا المبلغ قالت الملائكه مخاطبين للوط:إنا رسل ربك فأظهروا له أنهم ملائكه و عرفوه أنهم مرسلون من عند اللّه،و طيبوا نفسه أن القوم لن يصلوا اليه و لن يقدروا أن يصيبوا منه ما يريدون فكان ما ذكره اللّه تعالی فی موضع آخر من كلامه: وَ لَقَدْ رٰاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنٰا أَعْيُنَهُمْ (القمر/٣٧)،فأذهب اللّه بأبصار الذين تابعوا علی الشر و ازدحموا علی بابه فصاروا عميانا يتخبطون.

و قوله: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لاٰ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ الإسراء و السرى بالضم السير بالليل فيكون قوله: «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» نوع توضيح له،و الباء للمصاحبه او بمعنى فى.و القطع من الشىء طائفه منه و بعضه،و الالتفات افتعال من اللفت، قال الراغب:يقال:لفته عن كذا صرفه عنه،قال تعالى «قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا لِتَلْفِتَنٰا» أى تصرفنا، و منه التفت فلان اذا عدل عن قبله بوجهه،و امرأه لفوت تلفت من زوجها الى ولدها من غيره.انتهى.

و القول دستور من الملائكه للوط عليه السّلام إرشادا له الى النجاه من العذاب النازل بالقوم صبيحه ليلتهم هاتيك،و فيه معنى الاستعجال كما يشعر به قوله بعد: «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ» .

و المعنى أنا مرسلون لعذاب القوم و هلاكهم فانج أنت بنفسك و أهلك و سيروا أنت و أهلك بقطع من هذا الليل و اخرجوا من ديارهم فإنهم هالكون بعذاب اللّه صبيحه ليلتهم هذه،و لا كثير وقت بينك و بين الصبح،و لا ينظر احدكم الى وراء.

و قوله: إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهٰا مٰا أَصٰابَهُمْ ظاهر السياق أنه استثناء من قوله:

«بِأَهْلِكَ» لا من قوله: «أَحَدٌ» و فى قوله: «إِنَّهُ مُصِيبُهٰا مٰا أَصٰابَهُمْ» بيان السبب لاستثنائها، و قال تعالى فى غير هذا الموضع: إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنٰا إِنَّهٰا لَمِنَ الْغٰابِرِينَ (الحجر ۶۰/).

و قوله: إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ اى موعد هلاكهم الصبح و هو صدر النهار بعد طلوع الفجر حين الشروق،كما قال تعالى فى موضع آخر فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (الحجر۷۳/).

و الجمله الاولى تعليل لقوله: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» و فيه نوع استعجال كما تقدّم،و يؤكده قوله: «أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» و من الجائز أن يكون لوط عليه السّلام يستعجلهم فى عذاب القوم فيجيبوه بقولهم: «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» أى إن من المقدّر أن يهلكوا بالصبح و ليس موعدا بعيدا او يكون الجمله الاولى استعجالا من الملائكه،

و الثانيه تسليه منهم للوط فى استعجاله.

و لم يذكر فى الآيات ما هى الغايه لسراهم و المحل الذى يتوجهون اليه،و قد قال تعالى فى موضع آخر من كلامه: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبٰارَهُمْ وَ لاٰ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (الحجر/٦٥)،و ظاهره أن الملائكه لم يذكروا له المقصد و أحالوا ذلك الى ما سيأتيه من الدلاله بالوحى الإلهى.

قوله تعالى: فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا جَعَلْنٰا عٰالِيَهٰا سٰافِلَهٰا وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهٰا حِجٰارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ضمائر التأنيث الثلاث راجعه الى أرض القوم او القريه او بلادهم المعلومه من السياق،و السجّيل على ما فى المجمع بمعنى السجّين و هو النار،و قال الراغب:السجّين حجر و طين مختلط،و أصله فيما قيل فارسى معرّب، انتهى.يشير الى ما قيل إن أصله سنككل،و قيل:إنه مأخوذ من السجلّ بمعنى الكتاب كأنها كتب فيها ما فيها من عمل الإهلاك،و قيل:مأخوذ من أسجلت بمعنى أرسلت.

و الظاهر أن الأصل فى جميع هذه المعانى هو التركيب الفارسى المعرّب المفيد معنى الحجر و الطين،و السجل بمعنى الكتاب ايضا منه فإنهم على ما قيل كانوا يكتبون على الحجر المعمول ثم توسّع فسمّى كل كتاب سجلا و إن كان من قرطاس،و الإسجال بمعنى الإرسال مأخوذ من ذلك.

و النضد هو النظم و الترتيب،و التسويم جعل الشىء ذا علامه من السيماء بمعنى العلامه.

و المعنى:و لما جاء أمرنا بالعذاب و هو أمره تعالى الملائكه بعذابهم و هو كلمه«كن» التى أشار إليها فى قوله: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ (يس/٨٣)،جعلنا عالى أرضهم و بلادهم سافلها بتقليبها عليهم و أمطرنا عليها حجاره من سجيل منضود معلّمه عند ربك و فى علمه ليس لها أن تخطئ هدفها الذى رميت لأجل إصابته.

و قوله تعالى: وَ مٰا هِيَ مِنَ الظّٰالِمِينَ بِبَعِيدٍ قيل المراد بالظالمين ظالمو أهل

مکه او المشرکون من قوم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و الکلام مسوق للتهدید،و المعنی و لیست هذه الحجاره من ظالمی مکه ببعید او المعنی:لیست هذه القری المخسوفه من ظالمی قومک ببعید فإنه فی طریقهم بین مکه و الشام،کما قال تعالی فی موضع آخر: وَ إِنَّهٰا لَبِسَبِیلٍ مُقِیمٍ (الحجر/۷۶)،و قال: وَ إِنَّکُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَیْهِمْ مُصْبِحِینَ وَ بِاللَّیْلِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (الصافات/۱۳۸).

و یؤید العدول من سیاق التکلم الی الغیبه فی قوله: «مُسَوَّمَهً عِنْدَ رَبِّکَ» فکأنه تعالی عدل عن مثل قولنا:مسوّمه عندنا،الی هذا التعبیر لیتعرض لقومه صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالتهدید أو بإنهاء الحدیث الی حسّهم لیکون أقوی تأثیرا فی الحجاج علیهم.

و ربما احتمل أن المراد تهدید مطلق الظالمین و المراد انه لیست الحجاره ای إمطارها من عند اللّه تعالی من معشر الظالمین و منهم قوم لوط الظالمون ببعید،و یکون وجه الالتفات فی قوله: «عِنْدَ رَبِّکَ» ایضا التعریض لقوم النبی الظالمین المشرکین (۱)(۲).

[سوره هود (۱۱): الآیات ۸۴ الی ۹۵]

اشاره

وَ إِلیٰ مَدْیَنَ أَخٰاهُمْ شُعَیْباً قٰالَ یٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ وَ لاٰ تَنْقُصُوا اَلْمِکْیٰالَ وَ اَلْمِیزٰانَ إِنِّی أَرٰاکُمْ بِخَیْرٍ وَ إِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ عَذٰابَ یَوْمٍ مُحِیطٍ (۸۴) وَ یٰا قَوْمِ أَوْفُوا اَلْمِکْیٰالَ وَ اَلْمِیزٰانَ بِالْقِسْطِ وَ لاٰ تَبْخَسُوا اَلنّٰاسَ أَشْیٰاءَهُمْ وَ لاٰ تَعْثَوْا فِی اَلْأَرْضِ مُفْسِدِینَ (۸۵) بَقِیَّتُ اَللّٰهِ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ وَ مٰا أَنَا عَلَیْکُمْ بِحَفِیظٍ (۸۶) قٰالُوا یٰا شُعَیْبُ أَ صَلاٰتُکَ تَأْمُرُکَ أَنْ نَتْرُکَ مٰا یَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِی أَمْوٰالِنٰا مٰا نَشٰؤُا إِنَّکَ لَأَنْتَ اَلْحَلِیمُ اَلرَّشِیدُ (۸۷) قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ رَزَقَنِی مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَ مٰا أُرِیدُ أَنْ أُخٰالِفَکُمْ إِلیٰ مٰا أَنْهٰاکُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِیدُ إِلاَّ اَلْإِصْلاٰحَ مَا اِسْتَطَعْتُ وَ مٰا تَوْفِیقِی إِلاّٰ بِاللّٰهِ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَ إِلَیْهِ أُنِیبُ (۸۸) وَ یٰا قَوْمِ لاٰ یَجْرِمَنَّکُمْ شِقٰاقِی أَنْ یُصِیبَکُمْ مِثْلُ مٰا أَصٰابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صٰالِحٍ وَ مٰا قَوْمُ لُوطٍ مِنْکُمْ بِبَعِیدٍ (۸۹) وَ اِسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ إِنَّ رَبِّی رَحِیمٌ وَدُودٌ (۹۰) قٰالُوا یٰا شُعَیْبُ مٰا نَفْقَهُ کَثِیراً مِمّٰا تَقُولُ وَ إِنّٰا لَنَرٰاکَ فِینٰا ضَعِیفاً وَ لَوْ لاٰ رَهْطُکَ لَرَجَمْنٰاکَ وَ مٰا أَنْتَ عَلَیْنٰا بِعَزِیزٍ (۹۱) قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَهْطِی أَعَزُّ عَلَیْکُمْ مِنَ اَللّٰهِ وَ اِتَّخَذْتُمُوهُ وَرٰاءَکُمْ ظِهْرِیًّا إِنَّ رَبِّی بِمٰا تَعْمَلُونَ مُحِیطٌ (۹۲) وَ یٰا قَوْمِ اِعْمَلُوا عَلیٰ مَکٰانَتِکُمْ إِنِّی عٰامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ یَأْتِیهِ عَذٰابٌ یُخْزِیهِ وَ مَنْ هُوَ کٰاذِبٌ وَ اِرْتَقِبُوا إِنِّی مَعَکُمْ رَقِیبٌ (۹۳) وَ لَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّیْنٰا شُعَیْباً وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَهٍ مِنّٰا وَ أَخَذَتِ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا اَلصَّیْحَهُ فَأَصْبَحُوا فِی دِیٰارِهِمْ جٰاثِمِینَ (۹۴) کَأَنْ لَمْ یَغْنَوْا فِیهٰا أَلاٰ بُعْداً لِمَدْیَنَ کَمٰا بَعِدَتْ ثَمُودُ (۹۵)

۱- ۱) .بحث روائی حول قصه لوط علیه السّلام و قومه.

۲- ۲) .هود ۷۷-۸۳:کلام فی قصه لوط و قومه فی فصول(قصته و قصه قومه فی القرآن،عاقبه امرهم،شخصیه لوط المعنویه،لوط و قومه فی التوراه).

بیان:

قوله تعالی: وَ إِلیٰ مَدْیَنَ أَخٰاهُمْ شُعَیْباً الی آخر الآیه؛عطف علی ما تقدمه من قصص الأنبیاء و أممهم،و مدین اسم مدینه کان یسکنها قوم شعیب ففی نسبه إرسال شعیب الی مدین و کان مرسلا الی أهله نوع من المجاز فی الإسناد کقولنا:جری المیزاب،و فی عدّ شعیب علیه السّلام أخا لهم دلاله علی أنه کان ینتسب الیهم.

و قوله: قٰالَ یٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ تقدم تفسیره فی نظائره.

و قوله: «وَ لاٰ تَنْقُصُوا الْمِکْیٰالَ وَ الْمِیزٰانَ» المکیال و المیزان اسما آله بمعنی ما یکال به و ما یوزن به،و لا یوصفان بالنقص و إنما یوصف بالنقص کالزیاده و المساواه المکیل و الموزون فنسبه النقص الی المکیال و المیزان من المجاز العقلی.

و فی تخصیص نقص المکیال و المیزان من بین معاصیهم بالذکر دلاله علی شیوعه بینهم و إقبالهم علیه و إفراطهم فیه بحیث ظهر فساده و بان سیئ أثره فأوجب ذلک شده اهتمام به من داعی الحق فدعاهم الی ترکه بتخصیصه بالذکر من بین المعاصی.

و قوله: إِنِّی أَرٰاکُمْ بِخَیْرٍ أی أشاهدکم فی خیر،و هو ما أنعم اللّه تعالی علیکم من المال و سعه الرزق و الرخص و الخصب فلا حاجه لکم الی نقص المکیال و المیزان، و اختلاس الیسیر من اشیاء الناس طمعا فی ذلک من غیر سبیله المشروع و ظلما و عتوّا، و علی هذا فقوله: إِنِّی أَرٰاکُمْ بِخَیْرٍ تعلیل لقوله: وَ لاٰ تَنْقُصُوا الْمِکْیٰالَ وَ الْمِیزٰانَ.

ص: ۱۹۲

و يمكن تعميم الخير بأن يراد به أنكم مشمولون لعنايه اللّه معنيون بنعمه آتاكم عقلا و رشدا و رزقكم رزقا فلا مسوّغ لأن تعبدوا الآلهه من دونه و تشركوا به غيره،و أن تفسدوا فى الأرض بنقص المكيال و الميزان،و على هذا يكون تعليلا لما تقدمه من الجملتين أعنى قوله: «اعْبُدُوا اللّهَ» الخ؛و قوله: «وَ لاٰ تَنْقُصُوا» الخ؛كما أن قوله: «وَ إِنِّى أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ» كذلك.

فمحصل قوله: إِنِّى أَرٰاكُمْ الى آخر الآيه أن هناك رادعين يجب أن يردعاكم عن معصيه اللّه:أحدهما:أنكم فى خير و لا حاجه لكم الى بخس أموال الناس من غير سبيل حلها.و ثانيهما:ان وراء مخالفه امر اللّه يوما محيطا يخاف عذابه.

و ليس من البعيد أن يراد بقوله: «إِنِّى أَرٰاكُمْ بِخَيْرٍ» أنى أراكم برؤيه خير أى انظر اليكم نظر الناصح المشفق الذى لا يصاحب نظره إلاّ الخير و لا يريد بكم غير السعاده،و على هذا يكون قوله: «وَ إِنِّى أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ» كعطف التفسير النسبه اليه.

و قوله: وَ إِنِّى أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ يشير به الى يوم القيامه او يوم نزول عذاب الاستئصال و معنى كون اليوم-هو يوم القضاء بالعذاب-محيطا أنه لا مخرج منه و لا مفر و لا ملاذ من دون اللّه فلا يدفع فيه ناصر و لا معين،و لا ينفع فيه توبه و لا شفاعه،و يئول معنى الإحاطه الى كون العذاب قطعيا لا مناص منه،و معنى الآيه أن للكفر و الفسوق عذابا غير مردود أخاف أن يصيبكم ذلك.

قوله تعالى: وَ يٰا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيٰالَ وَ الْمِيزٰانَ بِالْقِسْطِ وَ لاٰ تَبْخَسُوا النّٰاسَ أَشْيٰاءَهُمْ الخ؛الإيفاء إعطاء الحق بتمامه و البخس النقص كرر القول فى المكيال و الميزان بالأخذ بالتفصيل بعد الإجمال مبالغه فى الاهتمام أمر لا غنى لمجتمعهم عنه، و ذلك أنه دعاهم اولا الى الصلاح بالنهى عن نقص المكيال و الميزان،و عاد ثانيا فأمر بايفاء المكيال و الميزان و نهى عن بخس الناس اشياءهم إشاره الى أن مجرد التحرز عن نقص

المکیال و المیزان لا یکفی فی إعطاء هذا الأمر حقه-و إنما نهی عنه اولا لتکون معرفه إجمالیه هی کالمقدمه لمعرفه التکلیف تفصیلا-بل یجب أن یوفی الکائل و الوازن مکیاله و میزانه و یعطیاهما حقهما و لا یبخسا و لا ینقصا الأشیاء المنسوبه الی الناس بالمعامله حتی یعلما انهما ادیا الی الناس اشیاءهم و ردا الیهم ما لهم علی ما هو علیه.

و قوله: وَ لاٰ تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ قال الراغب:العیث و العثی یتقاربان نحو جذب و جبذ إلاّ ان العیث اکثر ما یقال فی الفساد الذی یدرک حسا و العثی فیما یدرک حکما یقال:عثی یعثی عثیا،و علی هذا «وَ لاٰ تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ» و عثا یعثو عثوا.

انتهی.

و علی هذا فقوله: مُفْسِدِینَ حال من ضمیر «لاٰ تَعْثَوْا» لإفاده التأکید نظیر ما یفیده قولنا:لا تفسدوا إفسادا.

و الجمله اعنی قوله: وَ لاٰ تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ نهی مستأنف عن الفساد فی الارض من قتل او جرح او أی ظلم مالی او جاهی او عرضی لکن لا یبعد ان یستفاد من السیاق کون الجمله عطفا تفسیریا للنهی السابق فیکون نهیا تأکیدیا عن التطفیف و نقص المکیال و المیزان لأنه من الفساد فی الأرض.

قوله تعالی: بَقِیَّتُ اللّٰهِ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ وَ مٰا أَنَا عَلَیْکُمْ بِحَفِیظٍ البقیه بمعنی الباقی و المراد به الربح الحاصل للبائع و هو الذی یبقی له بعد تمام المعامله فیضعه فی سبیل حوائجه،و ذلک ان المبادله و إن لم یوضع بالقصد الأول علی أساس الاسترباح،و إنما کان الواحد منهم یقتنی شیئا من متاع الحیاه،فإذا کان یزید علی ما یحتاج الیه بدّل الزائد المستغنی عنه من متاع آخر یحتاج الیه و لا یملکه ثم اخذت نفس التجاره و تبدیل الأمتعه من الأثمان حرفه یکتسب بها المال و یقتنی بها الثروه فأخذ الواحد منهم متاعا من نوع واحد او انواع شتی و عرضه علی أرباب الحاجه للمبادله،و أضاف الی

رأس ماله فيه شيئا من الربح بإزاء عمله فی الجمع و العرض و رضی بذلک الناس المشترون لما فيه من تسهيل امر المبادله عليهم فللتاجر فی تجارته ربح مشروع يرتضيه المجتمع بحسب فطرتهم يقوّم معيشته و يحوّل اليه ثروه يقتنيها و يقيم بها صلب حياته.

فالمراد أن الربح الذی هو بقيه إلهيه هداكم اللّه اليه من طريق فطرتكم هو خير لكم من المال الذی تقتنونه من طريق التطفيف و نقص المكيال و الميزان و إن كنتم مؤمنين فإن المؤمن إنما ينتفع من المال بالمشروع الذی ساقه اللّه اليه من طريق حله،و أما غير ذلک مما لا يرتضيه اللّه و لا يرتضيه الناس بحسب فطرتهم فلا خير له فيه و لا حاجه له اليه.

و قوله: وَ مٰا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ای و ما يرجع الی قدرتی شیء مما عندكم من نفس او عمل او طاعه او رزق و نعمه فإنما انا رسول ليس عليه إلاّ البلاغ،لكم ان تختاروا ما فيه رشدكم و خيركم او تسقطوا فی مهبط الهلكه من غير ان اقدر علی جلب خير اليكم او دفع شر منكم فهو كقوله تعالی: فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهٰا وَ مٰا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (الأنعام/۱۰۴).

قوله تعالی: قٰالُوا يٰا شُعَيْبُ أَ صَلاٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مٰا يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا الی آخر الآيه؛ردّ منهم لحجه شعيب عليه،و هو من ألطف التركيب،و مغزی مرادهم أنّا فی حريه فيما نختاره لأنفسنا من دين او نتصرف به فی اموالنا من وجوه التصرف و لست تملكنا حتی تأمرنا بكل ما أحببت او تنهانا عن كل ما كرهت فإن ساءک شیء مما تشاهد منا بما تصلّی و تتقرب الی ربک و أردت ان تأمر و تنهی فلا تتعدّ نفسک لأنک لا تملک إلاّ إياها.

و قد أدّوا مرادهم هذا فی صوره بديعه مشوبه بالتهكم و اللوم معا و مسبوكه فی قالب الاستفهام الإنكاری و هو ان الذی تريده منا من ترک عباده الأصنام،و ترک ما شئنا من التصرف فی اموالنا هو الذی بعثتک اليه صلاتک و شوهته فی عينک فأمرتک به لما انها ملكتک لكنک اردت منا ما ارادته منک صلاتک و لست تملكنا انت و لا صلاتک لأننا احرار فی

شعورنا و إرادتنا لنا ان نختار ای دین شئنا و نتصرف فی اموالنا ای تصرف اردنا من غیر حجر و لا منع و لم ننتحل إلاّ دیننا الذی هو دین آبائنا و لم نتصرف إلاّ فی اموالنا و لا حجر علی ذی مال فی ماله.

فما معنی ان تأمرک إیاک صلاتک بشیء و نکون نحن الممتثلون لما امرتک به؟و بعباره أخری ما معنی ان تأمرک صلاتک بفعلنا القائم بنا دونک؟فهل هذا إلاّ سفها من الرأی؟و إنک لأنت الحلیم الرشید و الحلیم لا یعجل فی زجر من یراه مسیئا و انتقام من یراه مجرما حتی ینجلی له وجه الصواب،و الرشید لا یقدم علی امر فیه غیّ و ضلال فکیف اقدمت علی مثل هذا الأمر السفهی الذی لا صوره له إلاّ الجهاله و الغی؟

قوله تعالی: قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ رَزَقَنِی مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً الی آخر الآیه؛المراد بکونه علی بیّنه من ربه کونه علی آیه بیّنه و هی آیه النبوّه و المعجزه الداله علی صدق النبیّ فی دعوی النبوّه،و المراد بکونه رزق من اللّه رزقا حسنا أن اللّه آتاه من لدنه وحی النبوه المشتمل علی أصول المعارف و الشرائع،و قد مرّ توضیح نظیر هاتین الکلمتین فیما تقدّم.

و المعنی:أخبرونی إن کنت رسولا من اللّه الیکم و خصّنی بوحی المعارف و الشرائع و أیّدنی بآیه بیّنه یدلّ علی صدق دعوای فهل أنا سفیه فی رأیی؟و هل ما أدعوکم الیه دعوه سفهیه؟و هل فی ذلک تحکّم منی علیکم او سلب منی لحریتکم؟فإنما هو اللّه المالک لکل شیء و لستم أحرار بالنسبه الیه بل انتم عباده یأمرکم بما شاء،و له الحکم و الیه ترجعون.

و قوله: وَ مٰا أُرِیدُ أَنْ أُخٰالِفَکُمْ إِلیٰ مٰا أَنْهٰاکُمْ عَنْهُ تعدیه المخالفه بالی لتضمینه معنی ما یتعدی بها کالمیل و نحوه؟و التقدیر:أخالفکم مائلا الی ما أنهاکم عنه او أمیل الی ما أنهاکم عنه مخالفا لکم.

و الجمله جواب عن ما اتّهموه به أنه یرید أن یسلب عنهم الحریه فی أعمالهم

و يستعبدهم و يتحكم عليهم،و محصّله أنه لو كـان مريـدا ذلـك لخـالفهم فيما ينهاهم عنه،و هو لا يريـد مخالفتهم فلا يريـد ما اتّهموه به و إنما يريد الإصلاح ما استطاع (۱).

و قوله: وَ مٰا تَوْفِيقِي إِلاّٰ بِاللّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ فی مقـام الاسـتثناء من الاسـتطاعه فـإنه علیه السّلام لما ذکر لهم انه یرید إصـلاح مجتمعهم بالعلم النافع و العمل الصالح علی مقدار ماله من الاسـتطاعه و فی ضوئها أثبت لنفسه استطاعه و قدره و لیست للعبد باستقلاله و حیال نفسه استطاعه دون اللّه سبحانه أتم ما فی کلامه من النقص و القصور بقوله:

«وَ مٰا تَوْفِيقِي إِلاّٰ بِاللّٰهِ» أی إن الـذی یترشـح من إرادتی باسـتطاعه منی من تدبیر أمور مجتمعکم و توفیق الأسـباب بعضـها ببعض الناتجه لسـعادته إنما هو باللّه سـبحانه لا غنی عنه و لا مخرج من إحاطته و لا استقلال فی امر دونه فهو الذی اعطانی ما هو عندی من الاستطاعه،و هو الذی یوفق الأسباب من طریق استطاعتی فاستطاعتی منه و توفیقی به (۲)(۳).

قوله تعالی: وَ يٰا قَوْمِ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقٰاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مٰا أَصٰابَ قَوْمَ نُوحٍ الجرم بالفتح فالسـکون-علی ما ذکره الراغب-قطع الثمره عن الشـجر و قـد اسـتعیر لکل اکتساب مکروه،و الشـقاق المخالفه و المعاداه.و المعنی:احذروا أن یکتسب لکم مخالفتی و معاداتی بسـبب ما أدعوکم الیه إصابه مصیبه مثل مصیبه قوم نوح و هی الغرق او قوم هود و هی الریح العقیم او قوم صالح و هی الصیحه و الرجفه.

و قوله: وَ مٰا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ای لا فصل کثیرا بین زمانهم و زمانکم و قـد کانت الفاصـله الزمانیه بین القومین أقل من ثلاثه قرون،و قد کان لوط معاصرا لإبراهیم علیهما السّلام

۱- ۱) .هود ۷۴-۹۵:کلام فی حکمه احکام اللّه.

۲- ۲) .هود ۸۴-۹۵:کلام فی انه تعالی وکیل کل شیء.

۳- ۳) .هود ۸۴-۹۵:کلام فی معنی حریه الانسان فی عمله.

و شعیب معاصرا لموسی علیهما السّلام.

و قیل:المراد به نفی البعد المکانیّ،و الإشاره الی أن بلادهم الخربه قریبه منکم لقرب مدین من سدوم و هو بالأرض المقدسه،فالمعنی:و ما کان قوم لوط منکم ببعید تشاهدون مدائنهم المخسوفه و آثارهم الباقیه الظاهره.و السیاق لا یساعد علیه و التقدیر خلاف الأصل لا یصار الیه إلاّ بدلیل.

قوله تعالی: وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ إِنَّ رَبِّی رَحِیمٌ وَدُودٌ قد تقدم الکلام فی معنی قوله: «وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ» ای استغفروا اللّه من ذنوبکم و ارجعوا الیه الإیمان به و برسوله إن اللّه ذو رحمه و مودّه یرحم المستغفرین التائبین و یحبّهم.

و قد قال أولا-«اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ» فأضاف الرب الیهم ثم قال فی مقام تعلیله «إِنَّ رَبِّی رَحِیمٌ وَدُودٌ» و لعل الوجه فیه أنه ذکر فی مرحله الأمر بالاستغفار و التوبه من اللّه سبحانه صفه ربوبیته لأنها الصفه التی ترتبط بها العباده و منها الاستغفار و التوبه،و أضاف ربوبیته الیهم بقوله: «رَبَّکُمْ» لتأکید الارتباط و للإشعار بأنه هو ربهم لا ما یتخذونها من الارباب من دون اللّه.

و کان من حق الکلام ان یقول فی تعلیله:إن ربکم رحیم ودود لکنه لما کان مع کونه تعلیلا ثناء علی اللّه سبحانه،و قد أثبت سابقا انه رب القوم أضافه ثانیا الی نفسه لیفید الکلام بمجموعه معنی إن ربکم و ربی رحیم ودود.

علی ان فی هذه الإضافه معنی المعرفه و الخبره فتفید تأییدا لصحه القول فإنه فی معنی انه تعالی رحیم ودود و کیف لا؟و هو ربی أعرفه بهذین الوصفین.

و الودود من أسماء اللّه تعالی،و هو فعول من الودّ بمعنی الحب إلاّ ان المستفاد من موارد استعماله انه نوع خاص من المحبه و هو الحب الذی له آثار و تبعات ظاهره کالالفه و المراوده و الإحسان،قال تعالی: وَ مِنْ آیٰاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْوٰاجاً لِتَسْکُنُوا

إِلَيْهٰا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً (الروم٢١/).

و اللّه سبحانه يحب عباده و يظهر آثار حبه بإفاضه نعمه عليهم: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا (إبراهيم٣۴/)فهو تعالى ودود لهم.

قوله تعالى: قٰالُوا يٰا شُعَيْبُ مٰا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمّٰا تَقُولُ وَ إِنّٰا لَنَرٰاكَ فِينٰا ضَعِيفاً الى آخر الآيه؛الفقه أبلغ من الفهم و أقوى،و رهط الرجل عشيرته و قومه،و قيل:

إنه من الثلاثه الى السبعه او العشره و على هذا ففى قولهم:رهطك،إشاره الى قلتهم و هو ان امرهم،و الرجم هو الرمى بالحجاره.

لما حاجّهم شعيب عليه السّلام و أعياهم بحجته لم يجدوا سبيلا دون ان يقطعوا عليه كلامه من غير طريق الحجه فذكروا له:

أولا:ان كثيرا مما يقوله غير مفهوم لهم فيذهب كلامه لغى لا أثر له،و هذا كنايه عن أنه يتكلم بما لا فائده فيه.

ثم عقبه بقولهم: «وَ إِنّٰا لَنَرٰاكَ فِينٰا ضَعِيفاً» أى لا نفهم ما تقول و لست قويا فينا حتى تضطرنا قوتك على الاجتهاد فى فهم كلامك و الاهتمام بأخذه،و السمع و القبول له فإنا لا نراك فينا إلاّ ضعيفا لا يعبأ بأمره و لا يلتفت الى قوله.

ثم هدّدوه بقولهم: «وَ لَوْ لاٰ رَهْطُكَ لَرَجَمْنٰاكَ» اى و لو لا هذا النفر القليل الذين هم عشيرتك لرجمناك لكنا نراعى جانبهم فيك،و فى تقليل العشيره إيماء الى أنهم لو أرادوا قتله يوما قتلوه من غير ان يبالوا بعشيرته،و إما كفّهم عن قتله نوع احترام و تكريم منهم لعشيرته.

ثم عقبوه بقولهم: «وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْنٰا بِعَزِيزٍ» تأكيدا لقولهم: «لَوْ لاٰ رَهْطُكَ لَرَجَمْنٰاكَ» أى لست بقوى منيع جانبا علينا حتى يمنعنا ذلك من قتلك بشرّ القتل،و إنما يمنعنا رعايه جانب رهطك.فمحصل قولهم إهانه شعيب و أنهم لا يعبئون به و لا بما قال،و إنما يراعون فى ترك

ص:١٩٩

التعرض له جانب رهطه.

قوله تعالى: قٰالَ يٰا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللّٰهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرٰاءَكُمْ ظِهْرِيًّا الظهری نسبه الی الظهر بفتح الظاء المعجمه و إنما غیّر بالنسب و هو الشیء الذی وراء الظهر فیترک نسیا منسیّا یقال:اتخذه وراء ظهریّا ای نسیه و لم ذکره و لم یعتن به.

و هذا نقض من شعیب لقولهم: وَ لَوْ لاٰ رَهْطُكَ لَرَجَمْنٰاكَ ای کیف تعزّزون رهطی و تحترمون جانبهم،و لا تعززون اللّه سبحانه و لا تحترمون جانبه و إنی انا الذی أدعوکم الیه من جانبه؟فهل رهطی أعزّ علیکم من اللّه؟و قد جعلتموه نسیا منسیا و لیس لکم ذلک و ما کان لکم ان تفعلوه إن ربی بما تعملون محیط بما له من الإحاطه بکل شیء وجودا و علما و قدره.و فی الآیه طعن فی رأیهم بالسفه کما طعنوا فی الآیه السابقه فی رأیه بالهوان.

قوله تعالی: وَ يٰا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكٰانَتِكُمْ إِنِّي عٰامِلٌ الی آخر الآیه؛قال فی المجمع:المکانه الحال التی یتمکن بها صاحبها من عمل.انتهی و هو فی الأصل.کما قیل-من مکن مکانه کضخم ضخامه إذا قوی علی العمل کل القوه و یقال-تمکن من کذا أی أحاط به قوه.

و هذا تهدید من شعیب لهم أشد التهدید فإنه یشعر بانه علی وثوق مما یقول لا یأخذه قلق و لا اضطراب من کفرهم به و تمردهم عن دعوته فلیعملوا علی ما لهم من القوه و التمکن فلهم عملهم و له عمله فسوق یفاجئهم عذاب مخز یعلمون عند ذلک من هو الذی یأخذه العذاب.و هو أو هو؟و یعلمون من هو کاذب؟فلیرتقبوا و هو معهم رقیب لا یفارقهم.

قوله تعالی: وَ لَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا شُعَيْباً -الی قوله- جٰاثِمِينَ تقدم ما یتضح به معنی الآیه.

قوله تعالی: كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهٰا أَلاٰ بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمٰا بَعِدَتْ ثَمُودُ غنی فی المکان إذا أقام فیه.و قوله: «أَلاٰ بُعْداً لِمَدْيَنَ» الخ؛فیه لعنهم کما لعنت ثمود،و قد تقدم بعض

الکلام فیه فی القصص السابقه (۱).

[سوره هود (۱۱): الآیات ۹۶ الی ۹۹]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ بِآيٰاتِنٰا وَ سُلْطٰانٍ مُبِينٍ (۹۶) إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مٰا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (۹۷) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ فَأَوْرَدَهُمُ اَلنّٰارَ وَ بِئْسَ اَلْوِرْدُ اَلْمَوْرُودُ (۹۸) وَ أُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ لَعْنَهً وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ بِئْسَ اَلرِّفْدُ اَلْمَرْفُودُ (۹۹)

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ بِآيٰاتِنٰا وَ سُلْطٰانٍ مُبِينٍ الباء فی قوله:

«بِآيٰاتِنٰا» للمصاحبه ای و لقد ارسلنا موسی مصحوبا لآیاتنا و ذلک أن الذین بعثهم اللّه من الأنبیاء و الرسل و أیدهم بالآیات المعجزه طائفتان منهم من أوتی الآیه المعجزه علی حسب ما اقترحه قومه کصالح علیه السّلام المؤید بآیه الناقه،و طائفه أیدوا بآیه من الآیات فی بدء بعثتهم کموسی و عیسی و محمّد علیهم السّلام،کما قال تعالی خطابا لموسی علیه السّلام: اِذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيٰاتِي (طه/۴۲)،و قال فی عیسی علیه السّلام: وَ رَسُولاً إِلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَهٍ مِنْ رَبِّكُمْ الخ؛(آل عمران/۴۹)،و قال فی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلم: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ (الصف/۹)،و الهدی القرآن بدلیل قوله: ذٰلِكَ الْكِتٰابُ لاٰ رَيْبَ فِيهِ هُدىً

ص:۲۰۱

۱- ۱) .هود ۸۴-۹۵:کلام فی قصه شعیب و قومه فی القرآن فی فصول(هو علیه السّلام ثالث المرسل،شخصیته المعنویه،ذکره فی التوراه).

لِلْمُتَّقِينَ (البقره/۲)،و قال تعالى: وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ (الأعراف/۱۵۷).

فموسى عليه السّلام مرسل مع آيات و سلطان مبين،و ظاهر أن المراد بهذه الآيات الامور الخارقه التى كانت تجرى على يده،و يدل على ذلك سياق قصصه عليه السّلام فى القرآن الكريم.

و أما السلطان و هو البرهان و الحجه القاطعه التى يتسلط على العقول و الافهام فيعمّ الآيه المعجزه و الحجه العقليه،و على تقدير كونه بهذا المعنى يكون عطفه على الآيات من قبيل عطف العامّ على الخاصّ.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بإرساله بسلطان مبين أن اللّه سبحانه سلطه على الأوضاع الجاريه بينه و بين آل فرعون ذاك الجبار الطاغى الذى ما ابتلى بمثله أحد من الرسل غير موسى عليه السّلام لكنّ اللّه تعالى أظهر موسى عليه حتى أغرقه و جنوده و نجى بنى اسرائيل بيده،و يشعر بهذا المعنى قوله: قالاَ رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغىٰ قالَ لاٰ تَخافا إِنَّنِی مَعَکُما أَسْمَعُ وَ أَرىٰ (طه/۴۶)،و قوله لموسى عليه السّلام: لاٰ تَخَفْ إِنَّکَ أَنْتَ الْأَعْلىٰ (طه/۶۸).

و فى هذه الآيه و نظائرها دلاله واضحه على أن رساله موسى عليه السّلام ما كانت تختصّ بقومه من بنى اسرائيل بل كانت تعمّهم و غيرهم.

قوله تعالى: إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مٰا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ نسبه رسالته الى فرعون و ملاه-و الملأ هم أشراف القوم و عظماؤهم الذين يملئون القلوب هيبه-دون جميع قومه لعلها للإشاره الى أن عامتهم لم يكونوا إلاّ أتباعا لا رأى لهم إلاّ ما رآه لهم عظماؤهم.

و قوله: فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ الخ؛الظاهر أن المراد بالأمر ما هو الأعمّ من القول و الفعل كما حكى اللّه عن فرعون فى قوله: قٰالَ فِرْعَوْنُ مٰا أُرِيكُمْ إِلاّٰ مٰا أَرىٰ وَ مٰا أَهْدِيكُمْ إِلاّٰ سَبِيلَ الرَّشٰادِ (المؤمن/۲۹)،فينطبق على السنّه و الطريقه التى كان يتخذها و يأمر

بها.و كأن الآيه محاذاه لقول فرعون هذا فكذّبه اللّه تعالى بقوله: «وَ مٰا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» .

و الرشيد فعيل من الرشد خلاف الغيّ اى و ما أمر فرعون بذى رشد حتى يهدى الى الحق بل كان ذا غيّ و جهاله،و قيل:الرشيد بمعنى المرشد.

و فى الجمله أعنى قوله: «وَ مٰا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» وضع الظاهر موضع المضمر و الأصل «أمره»و لعل الفائده فيه ما يفيده اسم فرعون من الدليل على عدم رشد الأمر و لا يستفاد ذلك من الضمير البته.

قوله تعالى: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ أى يقدم فرعون قومه فإنهم اتبعوا أمره فكان إماما لهم من أئمه الضلال،قال تعالى: وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّهً يَدْعُونَ إِلَى النّٰارِ (القصص۴۱/).

قوله: فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ تفريع على سابقه أى يقدمهم فيوردهم النار،و التعبير بلفظ الماضى لتحقق الوقوع،و ربما قيل:تفريع على قوله: «فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ» أى اتبعوه فأوردهم الاتباع النار،و قد استدل لتأييد هذا المعنى بقوله: وَ حٰاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذٰابِ اَلنّٰارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهٰا غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَهُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذٰابِ (المؤمن۴۶/)حيث تدل الآيات على تعذيبهم من حين الموت قبل يوم القيامه هذا،و لا يخفى ان الآيات ظاهره فى خلاف ما استدل بها عليه لتعبيرها فى العذاب قبل يوم القيامه بالعرض غدوّا و عشيّا،و فى يوم القيامه بالدخول فى أشد العذاب الذى سجل فيها أنه النار.

و قوله: وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ الورد هو الماء الذى يرده العطاش من الحيوان و الإنسان للشرب،قال الراغب فى المفردات:الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل فى غيره يقال:وردت الماء أرد ورودا فأنا وارد و الماء مورود.و قد أوردت الإبل الماء قال «وَ لَمّٰا وَرَدَ مٰاءَ مَدْيَنَ» و الورد الماء المرشح للورود.انتهى.

و على هذا ففى الكلام استعاره لطيفه بتشبيه الغايه التى يقصدها الإنسان فى الحياه لمساعيه المبذوله بالماء الذى يقصده العطشان فعذب السعاده التى يقصدها الإنسان بأعماله ورد يرده،و سعاده الإنسان الأخيره هى رضوان اللّه و الجنه و لكنهم لما غووا باتباع أمر فرعون و أخطئوا سبيل السعاده الحقيقه تبدلت غايتهم الى النار فكانت النار هو الورد الذى يردونه،و بئس الورد المورود،لأن الورد هو الذى يخمد لهيب الصدر و يروى الحشا العطشان و هو عذب الماء و نعم المنهل السائغ و أما إذا تبدل الى عذاب النار فبئس الورد المورود.

قوله تعالى: وَ أُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ أى هم اتبعوا أمر فرعون فاتبعتهم لعنه من اللّه فى هذه الدنيا و إبعاد من رحمته و طرد من ساحه قربه،و مصداق اللعن الذى أتبعوه هو الغرق،أو أنه الحكم منه تعالى بإبعادهم من الرحمه المكتوب فى صحائف أعمالهم الذى من آثاره الغرق و عذاب الآخره.

و قوله: وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ الرفد هو العطيه و الأصل فى معناه العون،و سميت العطيه رفدا و مرفودا لأنه عون للآخذ على حوائجه،و المعنى و بئس الرفد رفدهم يوم القيامه و هو النار التى يسجرون فيها،و الآيه نظيره قوله فى موضع آخر:

وَ أَتْبَعْنٰاهُمْ فِي هٰذِهِ اَلدُّنْيٰا لَعْنَةً وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ هُمْ مِنَ اَلْمَقْبُوحِينَ (القصص۴۲/).

و ربما أخذ «يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ» ظرفا فالآيه متعلقا بقوله: «أُتْبِعُوا» أو بقوله: «لَعْنَةً» نظير قوله: «فِي هٰذِهِ» ،و المعنى:و أتبعهم اللّه فى الدنيا و الآخره لعنه أو فأتبعهم اللّه لعنه الدنيا و الآخره ثم استؤنف فقيل:بئس الرفد المرفود اللعن الذى أتبعوه أو الاتباع باللعن.

[سوره هود (۱۱): الآيات ۱۰۰ الى ۱۰۸]

اشاره

ذٰلِكَ مِنْ أَنْبٰاءِ اَلْقُرىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهٰا قٰائِمٌ وَ حَصِيدٌ (۱۰۰) وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمٰا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ اَلَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ لَمّٰا جٰاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مٰا زٰادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (۱۰۱) وَ كَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذٰا أَخَذَ اَلْقُرىٰ وَ هِيَ ظٰالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (۱۰۲) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خٰافَ عَذٰابَ اَلْآخِرَةِ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ اَلنّٰاسُ وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (۱۰۳) وَ مٰا نُؤَخِّرُهُ إِلاّٰ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (۱۰۴) يَوْمَ يَأْتِ لاٰ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (۱۰۵) فَأَمَّا اَلَّذِينَ شَقُوا فَفِي اَلنّٰارِ لَهُمْ فِيهٰا زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ (۱۰۶) خٰالِدِينَ فِيهٰا مٰا دٰامَتِ اَلسَّمٰاوٰاتُ وَ اَلْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعّٰالٌ لِمٰا يُرِيدُ (۱۰۷) وَ أَمَّا اَلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي اَلْجَنَّةِ خٰالِدِينَ فِيهٰا مٰا دٰامَتِ اَلسَّمٰاوٰاتُ وَ اَلْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّكَ عَطٰاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (۱۰۸)

بیان:

قوله تعالی: ذٰلِکَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْقُریٰ نَقُصُّهُ عَلَیْکَ مِنْهٰا قٰائِمٌ وَ حَصِیدٌ الإشاره الی ما تقدم من القصص،و من تبعیضیّه أی الذی قصصناه علیک هو بعض أخبار المدائن و البلاد أو أهلهم نقصه علیک.

و قوله: مِنْهٰا قٰائِمٌ وَ حَصِیدٌ الحصد قطع الزرع،شبّهها بالزرع یکون قائما و یکون حصیدا،و المعنی إن کان المراد بالقری نفسها أنّ من القری التی قصصنا أنباءها علیک ما هو

ص:۲۰۵

قائم لم تـذهب بقايا آثارها التى تـدلّ عليها بالمرّه كقرى قوم لوط حين نزول قصّـتهم فى القرآن كما قال: وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (العنكبوت/٣٥)و قال:

وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (الصافات/١٣٨)،و منها ما انمحت آثاره و انطمست أعلامه كقرى قوم نوح و عاد.

و إن كـان المراد بـالقرى أهلها فالمعنى أنّ من تلك الامم و الأجيال من هو قائم لم يقطع دابرهم البتّه كأمه نوح و صالـح،و منها من قطع اللّه دابرهم كقوم لوط لم ينج منهم إلاّ أهل بيت لوط و لم يكن لوط منهم.

قوله تعالى: وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَـهُمْ الى آخر الآيه؛أى ما ظلمناهم فى إنزال العذاب عليهم و إهلاكهم إثر شـركهم و فسوقهم و لكن ظلموا أنفسـهم حين أشـركوا و خرجوا عن زىّ العبوديّه،و كلمـا كـان عمـل و عقوبه عليه كان أحـدهما ظلما إمّا العمل و إما العقوبه عليه فإذا لم تكن العقوبه ظلما كان الظلم هو العمل استتبع العقوبه.

فمحصّـل القول أنّا عاقبناهم ظلمهم و لـذا عقبه بقوله: «فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ» الـخ؛لأن محصّل النظم أخـذناهم فما أغنت عنهم آلهتهم،فالمفرّع عليه هو الذى يدل عليه قوله:

«وَ ما ظَلَمْناهُمْ» الـخ؛و المعنى أخـذناهم فلم يكفهم فى ذلك آلهتهم التى كانوا يـدعونها من دون اللّه لتجلب اليهم الخير و تدفع عنهم الشرّ،و لم تغنهم شيئا لما جاء أمر ربّك و حكمه بأخذهم أو لمّا جاء عذاب ربّك.

و قوله: وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ التتبيب التدمير و الإهلاک من التبّ و أصـله القطع لأن عبادتهم الأصنام كان ذنبا مقتضيا لعذابهم و لمّا أحسّوا بالعـذاب و البؤس فالتجئوا الى الأصـنام و دعوها لكشـفه و دعاؤها ذنب آخر زاد ذلک فى تشديـد العذاب عليهم و تغليظ العقاب لهم فما زادوهم غير هلاک.

و نسبه التتبيب الى آلهتهم مجاز و هو منسوب فى الحقيقه الى دعائهم إيّاها،و هو عمل

قائم الحقيقه بالداعی لا بالمدعوّ.

قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ أَخْذُ رَبِّکَ إِذٰا أَخَذَ الْقُریٰ وَ هِیَ ظٰالِمَهٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِیمٌ شَدِیدٌ الإشاره الی ما تقدم من أنباء القری،و ذلک بعض مصادیق أخذه تعالی بالعقوبه قاس به مطلق أخذه القری فی أنّه ألیم شدید،و هذا من قبیل التشبیه الکلی ببعض مصادیقه فی الحکم للدلاله علی أن الحکم عام شامل لجمیع الأفراد و هو نوع من فنّ التشبیه شائع و قوله: «إِنَّ أَخْذَهُ أَلِیمٌ شَدِیدٌ» بیان لوجه الشبه و هو الألم و الشدّه.

و المعنی کما أخذ اللّه سبحانه هؤلاء الامم الظالمه:قوم نوح و هود و صالح و لوط و شعیب و قوم فرعون أخذا ألیما شدیدا،کذلک یأخذ سائر القری الظالمه إذا أخذها فلیعتبر بذلک المعتبرون.

قوله تعالی: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِمَنْ خٰافَ عَذٰابَ الْآخِرَهِ الی آخر الآیه؛ الإشاره الی ما أنبأه اللّه من قصص تلک القری الظالمه التی أخذها بظلمها أخذا ألیما شدیدا.

و أنبأ أن أخذه کذلک یکون،و فی ذلک آیه لمن خاف عذاب الحیاه الآخره،و علامه تدل علی أن اللّه سبحانه و تعالی سیأخذ فی الآخره المجرمین بإجرامهم،و إن أخذه سیکون ألیما شدیدا فیوجب اعتباره بذلک و تحرزه ممّا یستتبع سخط اللّه تعالی.

و قوله: ذٰلِکَ یَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّٰاسُ أی ذلک الیوم الذی یقع فیه عذاب الآخره یوم مجموع له الناس فالإشاره الی الیوم الذی یدل علیه ذکر عذاب الآخره،«و لذلک أتی بلفظ المذکر»کما قیل،و یمکن أن یکون تذکیر الإشاره لیطابق المبتدأ الخبر.

و وصف الیوم الآخر بأنه مجموع له الناس دون ان یقال:سیجمع أو یجمع له الناس إنما هو للدلاله علی أن جمع الناس له من أوصافه المقضیه له التی تلزمه و لا تفارقه من غیر أن یحتاج الی الإخبار عنه بخبر.

فمشخّص هذا الیوم أن الناس مجموعون لأجله-و اللام للغایه-فللیوم شأن من الشأن

لا- يتم إلاّ بجمع الناس بحيث لا- يغادر منهم أحد و لا- يتخلف عنه متخلف:و للناس شأن من الشأن يرتبط به كل واحد منهم بالجميع،و يمتزج فيه الأول مع الآخر و الآخر مع الأول و يختلط فيه الكل بالبعض و البعض بالكلّ،و هو حساب أعمالهم من جهه الإيمان و الكفر و الطاعه و المعصيه،و بالجمله من حيث السعاده و الشقاوه.

و قوله: وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ كالمتفرع بظاهره على الجمله السابقه «ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّٰاسُ» إذ الجمع يوجب المشاهده غير أن اللفظ غير مقيد بالناس و إطلاقه يشعر بأنه مشهود لكل من له أن يشهد كالناس و الملائكه و الجن،و الآيات الكثيره الداله على حشر الجن و الشياطين و حضور الملائكه هناك يؤيد إطلاق الشهاده كما ذكر.

قوله تعالى: وَ مٰا نُؤَخِّرُهُ إِلاّٰ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ أى أن لذلك اليوم أجلا قضى اللّه أن لا يقع قبل حلول أجله و اللّه يحكم لا معقب لحكمه و لا رادّ لقضائه،و لا يؤخر اليوم إلاّ لأجل يعده فإذا تم العدد و حل الأجل حق القول و وقع اليوم.

قوله تعالى: يَوْمَ يَأْتِ لاٰ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ فاعل «يَأْتِ» ضمير راجع الى الأجل السابق الذكر أى يوم يأتى الأجل الذى تؤخر القيامه اليه لا تتكلم نفس إلاّ بإذنه، قال تعالى: مَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰاءَ اللّٰهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ لَآتٍ (العنكبوت/٥).

و ذكر بعضهم كما فى المجمع أن المعنى يوم يأتى القيامه و الجزاء،و لازمه إرجاع الضمير الى القيامه و الجزاء لدلاله سابق الكلام اليه بوجه،و هو تكلف لا حاجه اليه.

و ذكر آخرون-كما فى تفسير صاحب المنار-أن المعنى فى الوقت الذى يجيء فيه ذلك اليوم المعين لا تتكلم نفس من الأنفس الناطقه إلاّ بإذن اللّه تعالى فالمراد باليوم فى الآيه مطلق الوقت أى غير المحدود لأنه ظرف لليوم المحدود الموصوف بما ذكر الذى هو فاعل يأتى.

و هو خطأ لاستلزامه ظرفيه اليوم لليوم لعود المعنى حقيقه الى قولنا:فى الوقت الذى يجيء فيه ذلك الوقت المعيّن أو اليوم الذى يجيء فيه ذلك اليوم المعين،و التفرقه بين

الیومین یجعل أحدهما خاصا و معینا و الآخر عاما و مرسلا لا ینفع فی دفع محذور ظرفیه الشیء لنفسه و مظروفیه الزمان-و هو ظرف بذاته-لزمان آخر،و هو محال لا ینقلب ممکنا بتغییر اللفظ.

و ما ذکره من التفرقه بین الیومین بالاطلاق و التحدید مجرد تصویر لا تغنی شیئا فان الیوم الذی یأتی فیه ذلک الیوم الموصوف و ذلک الیوم الموصوف متساویان إطلاقا و تحدیدا و سعه و ضیقا،نعم ربما یؤخذ الزمان متحدا بما یقع فیه من الحوادث فیصیر حادثا من الحوادث و تلغی ظرفیته فیجعل مظروفا لزمان آخر کما یقال یوم الأضحی فی شهر ذی الحجه و یوم عاشوراء فی المحرم،قال تعالی: وَ یَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ (الجاثیه/۲۷) فإن صحت هذه العنایه فی الآیه أمکن به أن یعود ضمیر یأتی الی الیوم.

و قوله: لاٰ تَکَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ أی لا تتکلم نفس ممن حضر إلاّ بإذن اللّٰه سبحانه،و حذف أحد التاءین المجتمعین فی المستقبل من باب التفعل شائع قیاسی.

و الباء فی قوله: بِإِذْنِهِ للمصاحبه فالاستثناء فی الحقیقه من الکلام لا من المتکلم کما فی قوله: لاٰ یَتَکَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ (النبأ/۳۸)و المعنی لا تتکلم نفس بشیء من الکلام إلاّ بالکلام الذی یصاحب إذنه لا کالدنیا یتکلم فیها الواحد منهم بما اختاره و أراده،أذن فیه اللّٰه إذن تشریع أم لم یأذن.

و قد ذکرت الصفه أعنی عدم تکلم نفس إلاّ بإذنه من خواص یوم القیامه المعرفه له، و لیست بمختصه به فإنه لا تتکلم أی نفس من النفوس و لا یحدث أی حادث من الحوادث دائما إلاّ بإذنه من غیر أن یختص ذلک بیوم القیامه (۱).

ص: ۲۰۹

۱- ۱) .هود ۱۰۰-۱۰۸:بحث فی زوال الستر و الحجاب و ظهور الحقائق یوم القیامه،معنی عدم تکلم الانسان یوم القیامه.

قوله تعالی: فَأَمَّا الَّذِینَ شَقُوا فَفِی النّارِ لَهُمْ فِیها زَفِیرٌ وَ شَهِیقٌ قال فی المجمع:الزفیر أول نهاق الحمار و الشهیق آخر نهاقه انتهی.و قال فی الکشاف:الزفیر إخراج النفس و الشهیق رده انتهی.و قال الراغب فی المفردات،الزفیر تردد النفس حتی ینتفخ الضلوع منه.و قال:الشهیق طول الزفیر و هو رده و الزفیر مده،قال تعالی «لَهُمْ فِیها زَفِیرٌ وَ شَهِیقٌ» «سَمِعُوا لَها تَغَیُّظاً وَ زَفِیراً» و قال «سَمِعُوا لَها شَهِیقاً» و أصله من جبل شاهق أی متناهی الطول.انتهی.

و المعانی-کما تری-متقاربه و کأن فی الکلام استعاره،و المراد أنهم یردون أنفاسهم الی صدورهم ثم یخرجونها فیمدونها برفع الصوت بالبکاء و الأنین من شده حر النار و عظم الکربه و المصیبه کما یفعل الحمار ذلک عند نهیقه.

و کان الظاهر من سیاق قوله: «فَمِنْهُمْ شَقِیٌّ وَ سَعِیدٌ» أن یقال بعده:فأما الذی شقی ففی النار له فیها زفیر و شهیق،الخ؛لکن السیاق السابق علیه الذی افتتح به وصف یوم القیامه أعنی قوله: «ذٰلِکَ یَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّاسُ وَ ذٰلِکَ یَوْمٌ مَشْهُودٌ» مبنی علی الکثره و الجماعه، و مقتضاها المضی علی هیئه الجمع:الذین شقوا و الذین سعدوا،و إنما عبر بقوله:شقی و سعید لما قیل قبله «لاٰ تَکَلَّمُ نَفْسٌ» فاختیر المفرد المنکر لیفید النفی بذلک الاستغراق و العموم فلما حصل الغرض بقوله: «لاٰ تَکَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِیٌّ وَ سَعِیدٌ» عاد السیاق السابق المبنی علی الکثره و الجماعه فقیل «فَأَمَّا الَّذِینَ شَقُوا» بلفظ الجمع الی آخر الآیات الثلاث.

قوله تعالی: خٰالِدِینَ فِیهٰا مٰا دٰامَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّکَ إِنَّ رَبَّکَ فَعّٰالٌ لِمٰا یُرِیدُ .بیان لمکث أهل النار فیها کما أن الآیه التالیه «وَ أَمَّا الَّذِینَ سُعِدُوا فَفِی الْجَنَّهِ خٰالِدِینَ فِیهٰا مٰا دٰامَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّکَ عَطٰاءً غَیْرَ مَجْذُوذٍ» بیان لمکث أهل الجنه فیها و تأیید لاستقرارهم فی مأواهم.

قال الراغب فی المفردات:الخلود هو تبری الشیء من اعتراض الفساد و بقاؤه علی الحاله التی هو علیها،و کل ما یتباطأ عنه التغییر و الفساد یصفه العرب بالخلود کقولهم للأثافی (۱):خوالد و ذلک لطول مکثها لا لدوام بقائها یقال:خلد یخلد خلودا،قال تعالی «لَعَلَّکُمْ تَخْلُدُونَ» و الخلد-بالفتح فالسکون-اسم للجزء الذی یبقی من الانسان علی حالته فلا یستحیل ما دام الانسان حیا استحاله سائر اجزائه،و أصل المخلد الذی یبقی مده طویله،و منه قیل:رجل مخلد لمن أبطأ عن الشیب،و دابه مخلده هی التی تبقی ثنایاها حتی تخرج رباعیتها ثم استعیر للمبقی دائما.

و الخلود فی الجنه بقاء الأشیاء علی الحاله التی علیها من غیر اعتراض الفساد علیها قال تعالی: أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ الْجَنَّهِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ وَ مَنْ یَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ خٰالِداً فِیهٰا .

و قوله تعالی: یَطُوفُ عَلَیْهِمْ وِلْدٰانٌ مُخَلَّدُونَ قیل:مبقون بحالتهم لا یعتریهم الفساد،و قیل:مقرطون بخلده،و الخلده ضرب من القرطه،و إخلاد الشیء جعله مبقی و الحکم علیه بکونه مبقی،و علی هذا قوله سبحانه: «وَ لٰکِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَی الْأَرْضِ» أی رکن إلیها ظانا أنه یخلد فیها.انتهی.

و قوله: مٰا دٰامَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ نوع من التقیید یفید تأکید الخلود و المعنی دائمین فیها دوام السماوات و الأرض لکن الآیات القرآنیه ناصه علی أن السماوات و الأرض لا تدوم دوام الأبد و هی مع ذلک ناصه علی بقاء الجنه و النار بقاء لا الی فناء و زوال.

و من الآیات الناصه علی الأول قوله تعالی: مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّی (الأحقاف/۳)،و قوله: یَوْمَ نَطْوِی السَّمٰاءَ کَطَیِّ السِّجِلِّ لِلْکُتُبِ

۱- ۱) .الأثافی،جمع الأثفیه بضم الهمزه و هی الحجر الذی توضع علیه القدر و هما أثفیتان.

کَمٰا بَدَأْنٰا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنٰا إِنّٰا كُنّٰا فٰاعِلِينَ (الأنبياء۱۰۴/)،و قوله:

وَ السَّمٰاوٰاتُ مَطْوِيّٰاتٌ بِيَمِينِهِ (الزمر۶۷/)،و قوله: إِذٰا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَ بُسَّتِ الْجِبٰالُ بَسًّا فَكٰانَتْ هَبٰاءً مُنْبَثًّا (الواقعه۶/).

و منها في النص على الثاني قوله: جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً (التغابن۹/)،و قوله: وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً لاٰ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً (الأحزاب۶۵/) (۱)(۲).

[سوره هود (۱۱): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۹]

اشاره

فَلاٰ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمّٰا يَعْبُدُ هٰؤُلاٰءِ مٰا يَعْبُدُونَ إِلاّٰ كَمٰا يَعْبُدُ آبٰاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنّٰا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (۱۰۹) وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى اَلْكِتٰابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۱۱۰) وَ إِنَّ كُلاًّ لَمّٰا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمٰالَهُمْ إِنَّهُ بِمٰا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۱۱۱) فَاسْتَقِمْ كَمٰا أُمِرْتَ وَ مَنْ تٰابَ مَعَكَ وَ لاٰ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۱۲) وَ لاٰ تَرْكَنُوا إِلَى اَلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ اَلنّٰارُ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مِنْ أَوْلِيٰاءَ ثُمَّ لاٰ تُنْصَرُونَ (۱۱۳) وَ أَقِمِ اَلصَّلاٰةَ طَرَفَيِ اَلنَّهٰارِ وَ زُلَفاً مِنَ اَللَّيْلِ إِنَّ اَلْحَسَنٰاتِ يُذْهِبْنَ اَلسَّيِّئٰاتِ ذٰلِكَ ذِكْرىٰ لِلذّٰاكِرِينَ (۱۱۴) وَ اِصْبِرْ فَإِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ اَلْمُحْسِنِينَ (۱۱۵) فَلَوْ لاٰ كٰانَ مِنَ اَلْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ اَلْفَسٰادِ فِي اَلْأَرْضِ إِلاّٰ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنٰا مِنْهُمْ وَ اِتَّبَعَ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا مٰا أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كٰانُوا مُجْرِمِينَ (۱۱۶) وَ مٰا كٰانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ اَلْقُرىٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهٰا مُصْلِحُونَ (۱۱۷) وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ اَلنّٰاسَ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لاٰ يَزٰالُونَ مُخْتَلِفِينَ (۱۱۸) إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ اَلْجِنَّةِ وَ اَلنّٰاسِ أَجْمَعِينَ (۱۱۹)

۱- ۱) .هود ۱۰۰-۱۰۸:بحث حول الخلود فى الآخره.

۲- ۲) .هود ۱۰۰-۱۰۸:بحث روائى فى:السعاده و الشقاوه،الخلود فى الجنه و النار.

بیان:

قوله تعالی: فَلاٰ تَکُ فِی مِرْیَهٍ مِمّٰا یَعْبُدُ هٰؤُلاٰءِ مٰا یَعْبُدُونَ إِلاّٰ کَمٰا یَعْبُدُ آبٰاؤُهُمْ الخ؛تفریع لما تقدم من تفصیل قصص الامم الماضیه التی ظلموا أنفسهم باتخاذ الشرکاء و الفساد فی الأرض فأخذهم اللّه بالعذاب،و المشار الیهم بقوله: «هٰؤُلاٰءِ» هم قوم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و قوله: «مٰا یَعْبُدُونَ إِلاّٰ کَمٰا یَعْبُدُ آبٰاؤُهُمْ» أی إنهم یعبدونها تقلیدا کآبائهم فالآخرون یسلکون الطریق الذی سلکه الأولون من غیر حجه،و المراد بنصیبهم ما هو حظهم قبال شرکهم و فسقهم.

و قوله: غَیْرَ مَنْقُوصٍ حال من النصیب و فیه تأکید لقوله: «لَمُوَفُّوهُمْ» فإن التوفیه تأدیه حق الغیر بالتمام و الکمال،و فیه إیئاس الکافرین من العفو الإلهی.

و معنی الآیه:فإذا سمعت قصص الأولین و أنهم کانوا یعبدون آلهه من دون اللّه و یکذبون

بآياته،و علمت سنه اللّه تعالى فيهم و أنها الهلاك فى الدنيا و المصير الى النار الخالده فى الآخره لا تكن فى شك و مريه من عباده هؤلاء الذين هم قومك ما يعبدون إلّا كعباده آبائهم على التقليد من غير حجه و لا بينه،و إنا سنعطيهم ما هو نصيبهم من جزاء أعمالهم من غير أن ننقص من ذلك شيئا بشفاعه أو عفو كيفما كان.

و يمكن أن يكون المراد بآبائهم،الامم الماضيه الهالكه دون آباء العرب بعد إسماعيل مثلا و ذلك أن اللّه سماهم آباء لهم أولين كما فى قوله: أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جٰاءَهُمْ مٰا لَمْ يَأْتِ آبٰاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (المؤمنون/۶۸)و هذا أنسب و أحسن و المعنى-على هذا-فلا تكن فى شك من عباده قومك ما يعبد هؤلاء إلّا كمثل عباده أولئك الامم الهالكه الذين هم آباؤهم،و لا شك أنا سنعطيهم حظهم من الجزاء كما فعلنا ذلك بآبائهم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى الْكِتٰابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ لما كانت هذه الآيات مسوقه للاعتبار بالقصص المذكوره فى السوره،و كانت القصص نفسها سردت ليتعظ بها القوم و يقضوا بالحق فى اتخاذهم شركاء للّه سبحانه،و تكذيبهم بآيات اللّه و رمى القرآن بأنه افتراء على اللّه تعالى.

تعرض فى هذه الآيات-المسوقه للاعتبار-لأمر اتخاذهم الآلهه و تكذيب القرآن فذكر تعالى أن عباده القوم للشركاء كعباده أسلافهم من الامم الماضيه لها و سينالهم العذاب كما نال أسلافهم و أن اختلافهم فى كتاب اللّه كاختلاف أمه موسى عليه السّلام فيما آتاه اللّه من الكتاب و أن سيقضى بينهم فيما اختلفوا فيه،فقوله: «وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى الْكِتٰابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ» إشاره الى اختلاف اليهود فى التوراه بعد موسى.

و قوله: وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ كرر سبحانه فى كتابه ذكر أن اختلاف الناس فى أمر الدنيا أمر فطروا عليها لكن اختلافهم فى أمر الدين لا منشأ له إلّا

البغى بعد ما جاءهم العلم،قال تعالى: وَ مٰا كٰانَ النّٰاسُ إِلاّٰ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا (يونس/ ١٩)،و قال: وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ (آل عمران١٩/)،و قال: كٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّٰاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ (البقره٢١٣/).

و قوله: وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ الإرابه إلقاء الشك فى القلب،فتوصيف الشك بالمريب من قبيل قوله: «ظِلاًّ ظَلِيلاً» و «حِجٰاباً مَسْتُوراً» و «حِجْراً مَحْجُوراً» و غير ذلك،و يفيد تأكدا لمعنى الشك.

و الظاهر أن مرجع الضمير فى قوله: «وَ إِنَّهُمْ» امه موسى و هم اليهود،و حق لهم أن يشكوا فيه فإن سند التوراه الحاضره ينتهى الى ما كتبه لهم رجل من كهنتهم يسمى عزراء عند ما أرادوا أن يرجعوا من بابل بعد انقضاء السبى الى الأرض المقدسه،و قد أحرقت التوراه قبل ذلك بسنين عند إحراق الهيكل فانتهاء سندها الى واحد يوجب الريب فيها طبعا و نظيرها الإنجيل من جهه سنده.

قوله تعالى: وَ إِنَّ كُلاًّ لَمّٰا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمٰالَهُمْ إِنَّهُ بِمٰا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لفظه إن هى المشبهه بالفعل و اسمها قوله: «كُلاًّ» منونا مقطوعا عن الإضافه و التقدير كلهم أى المختلفين،و خبرها قوله: «لَيُوَفِّيَنَّهُمْ» و اللام و النون لتأكيد الخبر،و قوله: «لَمّٰا» مؤلف من لام تدل على القسم و ما مشدده تفصل بين اللامين،و تفيد مع ذلك تأكيدا،و جواب القسم محذوف يدل عليه خبر إن.

و المعنى-و اللّه أعلم-و إن كل هؤلاء المختلفين أقسم ليوفيّنهم و يعطينهم ربك أعمالهم أى جزاءها إنه بما يعملون من أعمال الخير و الشر خبير.

و نقل فى روح المعانى عن أبى حيان عن ابن الحاجب أن «لَمّٰا» فى الآيه هى ما الجازمه

و حذف مدخولها شائع فی الاستعمال یقال:خرجت و لما،و سافرت و لما.ثم قال:و الاولی علی هذا أن یقدر:لما یوفوها أی و إن کلا منها لما یوفوا أعمالهم لیوفیّنهم ربک إیاها.و هذا وجه وجیه.

قوله تعالی: فَاسْتَقِمْ کَمٰا أُمِرْتَ وَ مَنْ تٰابَ مَعَکَ وَ لاٰ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ یقال:قام کذا و ثبت و رکز بمعنی واحد کما ذکره الراغب و غیره،و الظاهر أن الأصل المأخوذ به فی ذلک قیام الإنسان و ذلک أن الإنسان فی سائر حالاته و أوضاعه غیر القیام کالقعود و الانبطاح و الجثو و الاستلقاء و الانکباب لا یقوی علی جمیع ما یرومه من الأعمال کالقبض و البسط و الأخذ و الرد و سائر ما الإنسان مهیمن علیه بالطبع لکنه إذا قام علی ساقه قیاما کان علی أعدل حالاته الذی یسلطه علی عامه أعماله من ثبات و حرکه و أخذ و رد و إعطاء و منع و جلب و دفع،و ثبت مهیمنا علی ما عنده من القوی و أفعالها،فقیام الإنسان یمثل شخصیته الإنسانیه بماله من الشئون.

ثم استعیر فی کل شیء لأعدل حالاته الذی یسلط معه علی آثاره و أعماله فقیام العمود أن یثبت علی طوله،و قیام الشجر أن یرکز علی ساقه متعرقا بأصله فی الأرض،و قیام الإناء المحتوی علی مائع أن یقف علی قاعدته فلا یهراق ما فیه و قیام العدل أن ینبسط علی الارض،و قیام السنه و القانون أن تجری فی البلاد.

و الإقامه جعل الشیء قائما أی جعله بحال یترتب علیه جمیع آثاره بحیث لا یفقد شیئا منها کإقامه العدل و إقامه السنه و إقامه الصلاه و إقامه الشهاده،و إقامه الحدود،و إقامه الدین و نحو ذلک.

و الاستقامه طلب القیام من الشیء و استدعاء ظهور عامه آثاره و منافعه فاستقامه الطریق اتصافه بما یقصد من الطریق کالاستواء و الوضوح و عدم إضلاله من رکبه،و استقامه الإنسان فی أمر أن یطلب من نفسه القیام به و إصلاحه بحیث لا یتطرق الیه فساد و لا نقص،

و يـأتى تامـا كاملا،قال تعالى: قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمٰا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ (حم السجده/۶)أى قوموا بحق توحيـده فى الوهيته،و قـال: إِنَّ الَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا (حم السـجده/۳۰)أى ثبتوا على مـا قـالوا فى جميع شـئون حيـاتهم لاـ يركنون فى عقائـدهم و أخلاـقهم و أعمـالهم إلاّـ الى مـا يوافق التوحيـد و يلاـئمه أى يراعونه و يحفظونه فى عامه ما يواجههم فى بـاطنهم و ظـاهرهم.و قـال: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً (الروم/۳۰)فـإن المراد بإقـامه الـوجه إقـامه النفس من حيث تستقبل العمل و تواجهه،و إقامه الإنسان نفسه فى أمر هى استقامته فيه فافهم.

فقوله: فَاسْتَقِمْ كَمٰا أُمِرْتَ أى كن ثابتـا على الـدين موفيا حقه طبق ما أمرت بالاسـتقامه،و قـد أمر به فى قوله: وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (يونس/۱۰۵)،و قوله: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِى فَطَرَ النّٰاسَ عَلَيْهٰا لاٰ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (الروم/۳۰).

و قوله: وَ مَنْ تٰابَ مَعَكَ عطف على الضـمير المسـتكن فى «فَاسْتَقِمْ» أى اسـتقم أنت و من تاب معك أى استقيموا جميعا و إنما أخرج النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم من بينهم و افرده بالـذكر معه تشـريفا لمقـام النبوه،و على ذلـك تجرى سـنته تعـالى فى كلامه كقوله تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ (البقره/۲۸۵)و قوله: يَوْمَ لاٰ يُخْزِى اللّٰهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (التحريم/۸).

على أن الأـمر الـذى تقيّـد به قوله: «فَاسْتَقِمْ» أعنى قوله: «كَمٰا أُمِرْتَ» يختص بالنبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم و لا يشاركه فيه غيره فإن ما ذكر من مثل قوله: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ» الخ؛ خاص به فلو قيل:فاستقيموا لم يصح تقييده بالأمر السابق.

و المراد بمن تاب مع النبى المؤمنون الذين رجعوا الى اللّه بالإيمان و إطلاق التوبه على أصل الإيمان-و هو رجوع من الشـرك-كثير الورود فى القرآن كقوله تعالى: وَ يَسْتَغْفِرُونَ

لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ (المؤمن۷/)الی غیر ذلک.

و قوله: وَ لا تَطْغَوْا أی لا تتجاوزوا حدکم الذی خطته لکم الفطره و الخلقه و هو العبودیه للّه وحده کما تجاوزه الذین قبلکم فأفضاهم الی الشرک و ساقهم الی الهلکه، و الظاهر أن الطغیان بهذا المعنی مأخوذ من طغی الماء إذا جاوز حده،ثم استعیر لهذا الأمر المعنوی الذی هو طغیان الإنسان فی حیاته لتشابه الأثر و هو الفساد.

و قوله: إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ تعلیل لمضمون ما تقدمه،و معنی الآیه اثبت علی دین التوحید و الزم طریق العبودیه من غیر تزلزل و تذبذب،و لیثبت الذین آمنوا معک،و لا تتعدوا الحد الذی حد لکم لأن اللّه بصیر بما تعملون فیؤاخذکم لو خالفتم أمره.

و فی الآیه الکریمه من لحن التشدید ما لا یخفی فلا یحس فیها بشیء من آثار الرحمه و أمارات الملاطفه و قد تقدمها من الآیات ما یتضمن من حدیث مؤاخذه الامم الماضیه و القرون الخالیه بأعمالهم و استغناء اللّه سبحانه عنهم ما تصعق له النفوس و تطیر القلوب.

غیر ما فی قوله: فَاسْتَقِمْ کَما أُمِرْتَ من إفراد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالذکر و إخراجه من بین المؤمنین تشریفا لمقامه لکن ذلک یفید بلوغ التشدید فی حقه فإن تخصیصه قبلا بالذکر یوجب توجه هول الخطاب و روع التکلیم من مقام العزه و الکبریاء الیه وحده عدل ما یتوجه الی جمیع الامه الی یوم القیامه کما وقع نظیر التشدید فی قوله تعالی: وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناکَ لَقَدْ کِدْتَ تَرْکَنُ إِلَیْهِمْ شَیْئاً قَلِیلاً إِذاً لَأَذَقْناکَ ضِعْفَ الْحَیاهِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ (الإسراء۷۵/).

و لذلک ذکر أکثر المفسرین أن قوله علیه السّلام:«شیبتنی سوره هود»ناظر الی هذه الآیه، و سیوافیک الکلام فیه فی البحث الروائی الآتی إن شاء اللّه تعالی.

قوله تعالی: وَ لا تَرْکَنُوا إِلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّکُمُ النّارُ وَ ما لَکُمْ مِنْ دُونِ

اللّهِ مِنْ أَوْلِیٰاءَ ثُمَّ لاٰ تُنْصَرُونَ قال فی الصحاح:رکن الیه کنصر،رکونا:مال و سکن،و الرکن بالضم الجانب الأقوی.و الأمر العظیم و العز و المنعه انتهی و عن لسان العرب مثله،و عن المصباح أن الرکون هو الاعتماد علی الشیء.

و قال الراغب:رکن الشیء جانبه الذی یسکن الیه،و یستعار للقوه،قال تعالی: لَوْ أَنَّ لِی بِکُمْ قُوَّهً أَوْ آوِی إِلیٰ رُکْنٍ شَدِیدٍ و رکنت الی فلان أرکن بالفتح و الصحیح أن یقال:

رکن یرکن-کنصر-و رکن یرکن-کعلم-قال تعالی «وَ لاٰ تَرْکَنُوا إِلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا» و ناقه مرکنه الضرع له أرکان تعظمه و المرکن الإجابه،و أرکان العبادات جوانبها التی علیها مبناها،و بترکها بطلانها.انتهی و هذا قریب مما ذکره فی المصباح.

و الحق أنه الاعتماد علی الشیء عن میل الیه لا مجرد الاعتماد فحسب و لذلک عدی بإلی لا بعلی و ما ذکره أهل اللغه تفسیر له بالأعم من معناه علی ما هو دأبهم.

فالرکون الی الذین ظلموا هو نوع اعتماد علیهم عن میل الیهم إما فی نفس الدین کأن یذکر بعض حقائقه بحیث ینتفعون به أو یغمض عن بعض حقائقه التی یضرهم إفشاؤها، و إما فی حیاه دینیه کأن یسمح لهم بنوع من المداخله فی إداره امور المجتمع الدینی بولایه الامور العامه أو الموده التی تفضی الی المخالطه و التأثیر فی شئون المجتمع أو الفرد الحیویه.

و بالجمله الاقتراب فی أمر الدین أو الحیاه الدینیه من الذین ظلموا بنوع من الاعتماد و الاتکاء یخرج الدین أو الحیاه الدینیه عن الاستقلال فی التأثیر و یغیرهما عن الوجهه الخالصه،و لازم ذلک السلوک الی الحق من طریق الباطل أو إحیاء حق بإحیاء باطل و بالأخره إماته الحق لإحیائه.

و الدلیل علی هذا الذی ذکرنا أنه تعالی جمع فی خطابه فی هذه الآیه الذی هو من تتمه الخطاب فی الآیه السابقه بین النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و بین المؤمنین من أمته،و الشئون التی له و لامته

هی المعارف الدینیه و الأخلاق و السنن الإسلامیه فی تبلیغها و حفظها و إجرائها و الحیاه الاجتماعیه بما یطابقها،و ولایه امور المجتمع الإسلامی،و انتحال الفرد بالدین و استنانه بسنه الحیاه الدینیه فلیس للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و لا لامته أن یرکنوا فی شیء من ذلک الی الذین ظلموا.

علی أن من المعلوم أن هاتین الآیتین کالنتیجه المأخوذه من قصص القری الظالمه التی أخذهم اللّه بظلمهم و هما متفرعتان علیها ناظرتان إلیها،و لم یکن ظلم هؤلاء الامم الهالکه و فی شرکهم باللّه تعالی و عباده الأصنام فحسب بل کان مما ذمه اللّه من فعالهم اتباع الظالمین و الفساد فی الارض بعد إصلاحها و هو الاستنان بالسنن الظالمه التی یقیمها الولاه الجائرون،و یستن بها الناس و هم بذلک ظالمون.

و من المعلوم أیضا أن الآیتین مترتبتان فی غرضهما فالاولی تنهی عن أن یکونوا من اولئک الذین ظلموا،و الثانیه تنهی أن یقتربوا منهم و یمیلوا الیهم و یعتمدوا (1)فی حقهم علی باطلهم فقوله: «وَ لاٰ تَرْکَنُوا إِلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا» نهی عن المیل الیهم و الاعتماد علیهم و البناء علی باطلهم فی أمر أصل الدین و الحیاه الدینیه جمیعا.

و وقوع الآیتین موقع النتیجه المتفرعه علی ما تقدم من القصص المذکوره یفید أن المراد بالذین ظلموا فی الآیه لیس من تحقق منه الظلم تحققا ما و إلاّ لعم جمیع الناس إلاّ أهل العصمه و لم یبق للنهی حینئذ معنی،و لیس المراد بالذین ظلموا الظالمین أی المتلبسین بهذا الوصف المستمرین فی ظلمهم فإن لإفاده الفعل الدال علی مجرد التحقق معنی الصفه الداله علی التلبس و الاستمرار أسبابا لا یوجد فی المقام منها شیء و لا دلاله لشیء علی شیء جزافا.

۱- ۱) .ای أن یتوسلوا فی اجراء الحق بین أنفسهم بالوسیله الباطله التی عند اعداء الدین من الظالمین.

بل المراد بالذين ظلموا اناس حالهم فی الظلم حال اولئک الذین قصهم اللّه فی الآیات السابقه من الامم الهالکه،و کان الشأن فی قصتهم أنه تعالی أخذ الناس جمله واحده فی قبال الدعوه الإلهیه المتوجهه الیهم ثم قسمهم الی من قبلها منهم و الی من ردها ثم عبر عمّن قبلها بالذین آمنوا فی بضعه مواضع من القصص المذکوره و عمن ردها بالذین ظلموا و ما یقرب منه فی أکثر من عشر مواضع کقوله: وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِی فِی الَّذِینَ ظَلَمُوا و قوله:

وَ أَخَذَتِ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَهُ و قوله: وَ تِلْکَ عٰادٌ جَحَدُوا بِآیٰاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ کُلِّ جَبّٰارٍ عَنِیدٍ و قوله: أَلاٰ إِنَّ ثَمُودَ کَفَرُوا رَبَّهُمْ و قوله: أَلاٰ بُعْداً لِمَدْیَنَ کَمٰا بَعِدَتْ ثَمُودُ الی غیر ذلک (1).

قوله تعالی: وَ أَقِمِ الصَّلاٰهَ طَرَفَیِ النَّهٰارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّیْلِ إِنَّ الْحَسَنٰاتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئٰاتِ الخ؛طرفا النهار هو الصباح و المساء،و الزلف جمع زلفی کقرب جمع قربی لفظا و معنی علی ما قیل،و هو وصف ساد مسد موصوفه کالساعات و نحوها،و التقدیر و ساعات من اللیل أقرب من النهار.

و المعنی أقم الصلاه فی الصلاح و المساء و فی ساعات من اللیل هی أقرب من النهار، و ینطبق من الصلوات الخمس الیومیه علی صلاه الصبح و العصر و هی صلاه المساء و المغرب و العشاء الآخره،وقتهما زلف من اللیل کما قاله بعضهم،أو علی الصبح و المغرب و وقتهما طرفا النهار و العشاء الآخره و وقتها زلف من اللیل کما قاله آخرون،و قیل غیر ذلک.

لکن البحث لما کان فقیها کان المتبع فیه ما ورد عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و أئمه أهل بیته علیهم السّلام من البیان،و سیجیء فی البحث الروائی الآتی إن شاء اللّه تعالی.

و قوله: إِنَّ الْحَسَنٰاتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئٰاتِ تعلیل لقوله: «وَ أَقِمِ الصَّلاٰهَ» و بیان أن

۱- ۱) .هود ۱۰۹-۱۱۹:بحث فی معنی الرکون الی الذین ظلموا.

الصلوات حسنات وارده على نفوس المؤمنين تذهب بآثار المعاصى و هى ما تعتريها من السيئات،و قد تقدم كلام فى هذا الباب فى مسأله الحبط فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

و قوله: ذٰلِكَ ذِكْرىٰ لِلذّٰاكِرِينَ أى هذا الذى ذكر و هو أن الحسنات يذهبن السيئات على رفعه قدره تذكار للمتلبسين بذكر اللّه تعالى من عباده.

قوله تعالى: وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ثم أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالصبر بعد ما أمره بالصلاه كما جمع بينهما فى قوله: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاٰهِ (البقره/۴۵)و ذلک أن كلا منهما فى بابه من أعظم الأركان أعنى الصلاه فى العبادات، و الصبر فى الأخلاق و قد قال تعالى فى الصلاه: وَ لَذِكْرُ اللّٰهِ أَكْبَرُ (العنكبوت/۴۵)و قال فى الصبر: إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (الشورى/۴۳).

و اجتماعهما أحسن وسيله يستعان بها على النوائب و المكاره فالصبر يحفظ النفس عن القلق و الجزع و الانهزام،و الصلاه توجهها الى ناحيه الرب تعالى فتنسى ما تلقاه من المكاره،و قد تقدم بيان فى ذلک فى تفسير الآيه ۴۵ من سوره البقره فى الجزء الأول من الكتاب.

و إطلاق الإمر بالصبر يعطى أن المراد به الأعم من الصبر على العباده و الصبر عن المعصيه و الصبر عند النائبه،و على هذا يكون أمرا بالصبر على جميع ما تقدم من الأوامر و النواهى أعنى قوله: «فَاسْتَقِمْ» «وَ لاٰ تَطْغَوْا» «وَ لاٰ تَرْكَنُوا» «وَ أَقِمِ الصَّلاٰهَ» .

لكن إفراد الأمر و تخصيصه بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم يفيد أنه صبر فى أمر يختص به و إلاّ قيل «وَ اصْبِرُوا» جريا على السياق،و هذا يؤيد قول من قال:إن المراد اصبر على أذى قومک فى طريق دعوتک الى اللّه سبحانه و ظلم الظالمين منهم،و أما قوله: «وَ أَقِمِ الصَّلاٰهَ» فإنه ليس أمرا بما يخصه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من الصلاه بل أمر بإقامته الصلاه بمن تبعه من المؤمنين جماعه فهو أمر لهم جميعا بالصلاه فافهم ذلک.

ص :۲۲۲

و قوله: فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ تعليل للأمر بالصبر.

قوله تعالى: فَلَوْ لاٰ كٰانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسٰادِ فِي الْأَرْضِ الخ؛لو لا بمعنى هلا و ألا يفيد التعجيب و التوبيخ،و المعنى هلا كان من القرون التى كانت من قبلكم و قد أفنيناها بالعذاب و الهلاك اولو بقيه أى قوم باقون ينهون عن الفساد فى الأرض ليصلحوا بذلك فيها و يحفظوا امتهم من الاستئصال.

و قوله: إِلاّٰ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنٰا مِنْهُمْ استثناء من معنى النفى فى الجمله السابقه فإن المعنى:من العجب أنه لم يكن من القرون الماضيه مع ما رأوا من آيات اللّٰه و شاهدوا من عذابه بقايا ينهون عن الفساد فى الأرض إلاّ قليلا ممن أنجينا من العذاب و الهلاك منهم فإنهم كانوا ينهون عن الفساد.

و قوله: وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مٰا أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كٰانُوا مُجْرِمِينَ بيان حال الباقى منهم بعد الاستثناء و هم أكثرهم و عرّفهم بأنهم الذين ظلموا و بين أنهم اتبعوا لذائذ الدنيا التى اترفوا فيها و كانوا مجرمين.

و قد تحصل بهذا الاستثناء و هذا الباقى الذى ذكر حالهم تقسيم الناس الى صنفين مختلفين:الناجون بإنجاء اللّٰه و المجرمون و لذلك عقبه بقوله: «وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّٰاسَ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لاٰ يَزٰالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» .

قوله تعالى: وَ مٰا كٰانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرىٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهٰا مُصْلِحُونَ أى لم يكن من سنته تعالى إهلاك القرى التى أهلها مصلحون لأن ذلك ظلم و لا يظلم ربك أحدا فقوله: «بِظُلْمٍ» قيد توضيحى لا احترازى،و يفيد أن سنته تعالى عدم إهلاك القرى المصلحه لكونه من الظلم «وَ مٰا رَبُّكَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ» .

قوله تعالى: وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّٰاسَ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لاٰ يَزٰالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ -الى قوله- أَجْمَعِينَ الخلف خلاف القدام و هو الأصل فيما اشتق من

هـذه الماده من المشـتقات يقال:خلف أباه أى سـد مسـده لوقوعه بعـده،و أخلف وعـده أى لم يف به كأنه جعله خلفه،و مات و خلف ابنا أى تركه خلفه،و اسـتخلف فلانا أى طلب منه أن ينوب عنه بعد غيبته أو موته أو بنوع من العنايه كاستخلاف اللّه تعالى آدم و ذريته فى الأـرض،و خـالف فلاـن فلانا و تخالفا إذا تفرقا فى رأى أو عمل كأن كلا منهما يجعل الآخر خلفه،و تخلف عن أمره إذا أدبر و لم يـأتمر به،و اختلف القوم فى كـذا إذا خـالف بعضـهم بعضا فيه فجعله خلفه،و اختلف القوم الى فلان إذا دخلوا عليه واحدا بعد واحد،و اختلف فلان الى فلان إذا دخل عليه مرات كل واحده بعد اخرى.

ثم الاختلاـف و يقـابله الاتفـاق من الاـمور التى لاـ يرتضـيها الطبع السـليم لما فيه من تشتيت القوى و تضـعيفها و آثار اخرى غير محموده من نزاع و مشـاجره و جـدال و قتال و شـقاق كل ذلكـ يـذهب بالأمن و السـلام غير أن نوعا منه لا مناص منه فى العالم الإنسـانى و هو الاختلاـف من حيث الطبـائع المنتهيه الى اختلاـف البنى فإن التركيبات البـدنيه مختلفه فى الأفراد و هو يؤدى الى اختلاـف الاسـتعدادات البـدنيه و الروحيه و بانضـمام اختلاـف الأـجواء و الظروف الى ذلـكـ يظهر اختلاف السـلائق و السـنن و الآداب و المقاصـد و الأعمال النوعيه و الشخصـيه فى المجتمعات الإنسانيه،و قد أوضـحت الأبحاث الاجتماعيه أن لو لا ذلكـ لم يعش المجتمع الإنسانى و لا طرفه عين (١).

و قوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَهُ رَبِّکَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّٰاسِ أَجْمَعِينَ أى حقت كلمته تعالى و أخـذت مصـداقها منهم بما ظلموا و اختلفوا فى الحق من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم،و الكلمه هى قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ» الخ.

و الآيه نظيره قوله: وَ لَوْ شِئْنٰا لَآتَيْنٰا كُلَّ نَفْسٍ هُدٰاهٰا وَ لٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

١- ١) .هود ١٠٩-١١٩:بحث فى:اختلاف فى الطبائع،اختلاف فى الدين.

مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّٰاسِ أَجْمَعِينَ (الم السجده۱۳/)و الأصل فی هذه الکلمه ما ألقاه اللّه تعالی الی إبلیس لعنه اللّه إذ قال: فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاّٰ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قٰالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص۵۸/)و الآیات متحده المضمون یفسر بعضها بعضا (۱).

[سوره هود (۱۱): الآیات ۱۲۰ الی ۱۲۳]

اشاره

وَ کُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْکَ مِنْ أَنْبٰاءِ اَلرُّسُلِ مٰا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤٰادَکَ وَ جٰاءَکَ فِی هٰذِهِ اَلْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِکْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (۱۲۰) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ اِعْمَلُوا عَلىٰ مَکٰانَتِکُمْ إِنّٰا عٰامِلُونَ (۱۲۱) وَ اِنْتَظِرُوا إِنّٰا مُنْتَظِرُونَ (۱۲۲) وَ لِلّٰهِ غَيْبُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ اَلْأَمْرُ کُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَکَّلْ عَلَيْهِ وَ مٰا رَبُّکَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ (۱۲۳)

بیان:

قوله تعالی: وَ کُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْکَ مِنْ أَنْبٰاءِ الرُّسُلِ مٰا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤٰادَکَ الی آخر الآیه أی و کل القصص نقص علیک تفصیلا أو إجمالا،و قوله: «مِنْ أَنْبٰاءِ الرُّسُلِ» بیان لما اضیف الیه کل،و قوله: «مٰا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤٰادَکَ» عطف بیان للأنباء اشیر به الی فائده القصص بالنسبه الیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و هو تثبیت فؤاده و حسم ماده القلق و الاضطراب منه.

و المعنی نقص علیک أنباء الرسل لنثبت به فؤادک و نربط جأشک فی ما أنت علیه من

---

۱ – ۱) .هود ۱۰۹-۱۱۹:بحث روائی حول معنی الرکون الی الذین ظلموا؛الصلوات الخمس الیومیه؛ان الحسنات یذهبن السیئات؛اهلاک القری؛الاختلاف فی الدین.

سلوک سبیل الدعوه الی الحق،و النهضه علی قطع منابت الفساد،و المحنه من أذی قومک.

ثم ذکر تعالی من فائده السوره ما یعمه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و قومه مؤمنین و کافرین فقال فیما یرجع الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من فائده نزول السوره «وَ جٰاءَکَ فِی هٰذِهِ الْحَقُّ» و الإشاره الی السوره أو الی الآیات النازله فیها أو الأنباء علی وجه،و مجیء الحق فیها هو ما بین اللّه تعالی فی ضمن القصص و قبلها و بعدها من حقائق المعارف فی المبدإ و المعاد و سنته تعالی الجاریه فی خلقه بإرسال الرسل و نشر الدعوه ثم إسعاد المؤمنین فی الدنیا بالنجاه،و فی الآخره بالجنه،و إشقاء الظالمین بالأخذ فی الدنیا و العذاب الخالد فی الآخره.

و قال فیما یرجع الی المؤمنین «وَ مَوْعِظَهٌ وَ ذِکْریٰ لِلْمُؤْمِنِینَ» فإن فیما ذکر فیها من حقائق المعارف تذکره للمؤمنین یذکرون بها ما نسبوه من علوم الفطره فی المبدإ و المعاد و ما یرتبط بهما،و فیما ذکر فیها من القصص و العبر موعظه یتعظون بها.

قوله تعالی: وَ قُلْ لِلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلیٰ مَکٰانَتِکُمْ إِنّٰا عٰامِلُونَ وَ انْتَظِرُوا إِنّٰا مُنْتَظِرُونَ و هذا فیما یرجع الی غیر المؤمنین یأمر نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یختم الحجاج معهم و یقطع خصامهم بعد ما تلا القصص علیهم بهذه الجمل فیقول لهم:أما إذا لم تؤمنوا و لم تنقطعوا عن الشرک و الفساد بما ألقیت الیکم من التذکره و العبر و لم تصدقوا بما قصه اللّه من أنباء الامم و أخبر به من سنته الجاریه فیهم فاعملوا علی ما أنتم علیه من المکانه و المنزله،و بما تحسبونه خیرا لکم إنا عاملون،و انتظروا ما سیستقبلکم من عاقبه عملکم إنا منتظرون فسوف تعرفون صدق النبإ الإلهی و کذبه.

و هذا قطع للخصام و نوع تهدید أورده اللّه فی القصص الماضیه قصه نوح و هود و صالح علیهم السّلام،و فی قصه شعیب علیه السّلام حاکیا عنه وَ یٰا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلیٰ مَکٰانَتِکُمْ إِنِّی عٰامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ یَأْتِیهِ عَذٰابٌ یُخْزِیهِ وَ مَنْ هُوَ کٰاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّی مَعَکُمْ رَقِیبٌ (آیه ۹۳ من السوره).

قوله تعالی: وَ لِلّٰهِ غَیْبُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَیْهِ یُرْجَعُ الْأَمْرُ کُلُّهُ لما کان أمره تعالی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یأمرهم بالعمل بما تهوی أنفسهم و الانتظار،و إخبارهم بأنه و من آمن معه عاملون و منتظرون،فی معنی أمره و من تبعه بالعمل و الانتظار عقبه بهاتین الجملتین لیکون علی طیب من النفس و ثبات من القلب من أن الدائره ستکون له علیهم.

و المعنی فاعمل و انتظر أنت و من تبعک فغیب السماوات و الأرض الذی یتضمن عاقبه أمرک و أمرهم إنما یملکه ربک الذی هو اللّه سبحانه دون آلهتهم التی یشرکون بها و دون الأسباب التی یتوکلون علیها حتی یدیروا الدائره لأنفسهم و یحولوا العاقبه الی ما ینفعهم، و الی ربک الذی هو اللّه یرجع الأمر کله فیظهر من غیبه عاقبه الأمر علی ما شاءه و أخبر به، فالدائره لک علیهم،و هذا من عجیب البیان.

و من هنا یظهر وجه تبدیل قوله: «رَبُّکَ» المکرر من هذه الآیات بلفظ الجلاله«الله»لأن فیه من الإشعار بالإحاطه بکل ما دق و جل ما لیس فی غیره،و المقام یقتضی الاعتماد و الالتجاء الی ملجإ لا یقهره قاهر و لا یغلب علیه غالب،و هو اللّه سبحانه و لذلک تری أنه یعود بعد انقضاء هذه الجمل الی ما کان یکرره من صفه الرب،و هو قوله: «وَ مٰا رَبُّکَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ» .

قوله تعالی: فَاعْبُدْهُ وَ تَوَکَّلْ عَلَیْهِ الظاهر أنه تفریع لقوله: «وَ إِلَیْهِ یُرْجَعُ الْأَمْرُ کُلُّهُ» أی إذا کان الأمر کله مرجوعا الیه تعالی فلا یملک غیره شیئا و لا یستقل بشیء فاعبده سبحانه و اتخذه وکیلا فی جمیع الامور و لا تتوکل علی شیء من الأسباب دونه لأنها أسباب بتسبیبه غیر مستقله دونه،فمن الجهل الاعتماد علی شیء منها.و ما ربک بغافل عما تعملون فلا یجوز التساهل فی عبادته و التوکل علیه.

ص :۲۲۷

سوره يوسف مكيه و هي مائه و إحدى عشره آيه

اشاره

[سوره يوسف (١٢): الآيات ١ الى ٣]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;الر تِلْكَ آيٰاتُ اَلْكِتٰابِ اَلْمُبِينِ (١) إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ اَلْقَصَصِ بِمٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ هٰذَا اَلْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ اَلْغٰافِلِينَ (٣)

بيان:

غرض السوره بيان ولايه اللّه لعبـده الـذى أخلص إيمانه له تعالى إخلاصا و امتلأ بمحبته تعالى لا يبتغى له بدلا و لم يلو الى غيره تعالى من شـىء،و أن اللّه تعالى يتولى هو أمره فيربيه أحسن تربيه فيورده مورد القرب و يسـقيه فيرويه من مشرعه الزلفى فيخلصه لنفسه و يحييه حياه إلهيه و إن كانت الأسباب الظاهره أجمعت على هلاكه،و يرفعه و إن توفرت الحوادث على ضعته،و يعزه و ان دعت النوائب و رزايا الدهر الى ذلته و حط قدره.

ص :۲۲۸

و قد بین تعالی ذلک بسرد قصه یوسف الصدیق علیه السّلام.و لم یرد فی سور القرآن الکریم تفصیل قصه من القصص باستقصائها من أولها الی آخرها غیر قصته علیه السّلام،و قد خصت السوره بها من غیر شرکه ما من غیرها.

فقد کان علیه السّلام عبدا مخلصا فی عبودیته فأخلصه اللّه لنفسه و أعزه بعزته و قد تجمعت الأسباب علی إذلاله وضعته فکلما ألقته فی إحدی المهالک أحیاه اللّه تعالی من نفس السبیل التی کانت تسوقه الی الهلاکه:حسده إخوته فألقوه فی غیابه الجب ثم شروه بثمن بخس دراهم معدوده فذهب به ذلک الی مصر و أدخله فی بیت الملک و العزه،راودته التی هو فی بیتها عن نفسه و اتهمته عند العزیز و لم تلبث دون أن اعترفت عند النسوه ببراءته ثم اتهمته و أدخلته السجن فکان ذلک سبب قربه عند الملک،و کان قمیصه الملطخ بالدم الذی جاءوا به الی أبیه یعقوب أول یوم هو السبب الوحید فی ذهاب بصره فصار قمیصه بعینه و قد أرسله بید إخوته من مصر الی أبیه آخر یوم هو السبب فی عود بصره الیه،و علی هذا القیاس.

و بالجمله کلما نازعه شیء من الأسباب المخالفه أو اعترضه فی طریق کماله جعل اللّه تعالی ذلک هو السبب فی رشد أمره و نجاح طلبته،و لم یزل سبحانه یحوله من حال الی حال حتی آتاه الحکم و الملک و اجتباه و علمه من تأویل الأحادیث و أتم نعمته علیه کما وعده أبوه.

و قد بدأ اللّه سبحانه قصته بذکر رؤیا رآها فی بادئ الأمر و هو صبی فی حجر أبیه و الرؤیا من المبشرات ثم حقق بشارته و أتم کلمته فیه بما خصه به من التربیه الإلهیه،و هذا هو شأنه تعالی فی أولیائه کما قال تعالی: أَلاٰ إِنَّ أَوْلِیٰاءَ اللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْریٰ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ فِی الْآخِرَهِ لاٰ تَبْدِیلَ لِکَلِمٰاتِ اللّٰهِ ذٰلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (یونس/۶۴).

و فی قوله تعالی بعد ذکر رؤیا یوسف و تعبیر أبیه علیه السّلام لها: لَقَدْ کٰانَ فِی یُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ

آیَاتٌ لِلسّٰائِلِینَ إشعار بأنه كان هناك قوم سألوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم عما يرجع الى هذه القصه، و هو يؤيد ما ورد أن قوما من اليهود بعثوا مشركى مكه أن يسألوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن سبب انتقال بنى إسرائيل الى مصر و قد كان يعقوب عليه السّلام ساكنا فى أرض الشام فنزلت السوره.

و على هذا فالغرض بيان قصته عليه السّلام و قصه آل يعقوب،و قد استخرج تعالى ببيانه ما هو الغرض العالى منها و هو طور ولايه اللّه لعباده المخلصين كما هو اللائح من مفتتح السوره و مختتمها،و السوره مكيه على ما يدل عليه سياق آياتها،و ما ورد فى بعض الروايات عن ابن عباس أن أربعا من آياتها مدنيه،و هى الآيات الثلاث التى فى أولها،و قوله: لَقَدْ كٰانَ فِی یُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آیَاتٌ لِلسّٰائِلِینَ مدفوع بما تشتمل عليه من السياق الواحد.

قوله تعالى: الر تِلْكَ آیَاتُ الْكِتٰابِ الْمُبِینِ الاشاره بلفظ البعيد للتعظيم و التفخيم،و الظاهر أن يكون المراد بالكتاب المبين هذا القرآن المتلو و هو مبين واضح فى نفسه و مبين موضح لغيره ما ضمنه اللّه تعالى من المعارف الإلهيه و حقائق المبدإ و المعاد.

و قد وصف الكتاب فى الآيه بالمبين لا كما فى قوله فى أول سوره يونس: تِلْكَ آیَاتُ الْكِتٰابِ الْحَكِیمِ لكون هذه السوره نازله فى شأن قصه آل يعقوب و بيانها،و من المحتمل أن يكون المراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ الضمير للكتاب بما أنه مشتمل على الآيات الإلهيه و المعارف الحقيقيه،و إنزاله قرآنا عربيا هو إلباسه فى مرحله الإنزال لباس القراءه و العربيه،و جعله لفظا متلوا مطابقا لما يتداوله العرب من اللغه كما قال تعالى فى موضع آخر: إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَیْنٰا لَعَلِیٌّ حَكِیمٌ (الزخرف۴/).

و قوله: لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ من قبيل توسعه الخطاب و تعميمه فان السوره مفتتحه بخطاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم «تِلْكَ آیَاتُ الْكِتٰابِ» ،و على ذلك يجرى بعد كما فى قوله: «نَحْنُ

نَقُصُّ عَلَيْکَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْکَ» الخ.

فمعنى الآيه-و اللّه أعلم-إنا جعلنا هذا الكتاب المشتمل على الآيات فى مرحله النزول ملبسا بلباس اللفظ العربى محلى بحليته ليقع فى معرض التعقل منک و من قومک أو امتک، و لو لم يقلب فى وحيه فى قالب اللفظ المقرو أو لم يجعل عربيا مبينا لم يعقل قومک ما فيه من أسرار الآيات بل اختص فهمه بک لاختصاصک بوحيه و تعليمه.

و فى ذلک دلاله ما على أن الألفاظ الكتاب العزيز من جهه تعينها بالاستناد الى الوحى و كونها عربيه دخلا فى ضبط أسرار الآيات و حقائق المعارف،و لو أنه اوحى الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بمعناه و كان اللفظ الحاكى له لفظه صلّى اللّه عليه و آله و سلم كما فى الأحاديث القدسيه مثلا أو ترجم الى لغه اخرى خفى بعض أسرار آياته البينات عن عقول الناس و لم تنله أيدى تعقلهم و فهمهم.

و عنايته تعالى فيما أوحى من كتاب باللفظ مما لا يرتاب فيه المتدبر فى كلامه كيف؟ و قد قسمه الى المحكمات و المتشابهات و جعل المحكمات ام الكتاب ترجع إليها المتشابهات قال تعالى: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَيْکَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ (آل عمران/٧)و قال تعالى أيضا: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِی يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (النحل/١٠٣).

قوله تعالى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْکَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْکَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ قال الراغب فى المفردات:القص تتبع الأثر يقال:قصصت أثره،و القصص الأثر قال:فارتدا على آثارهما قصصا،و قالت لاخته قصيه.قال:و القصص الأخبار المتتبعه قال تعالى: لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ .فى قصصهم عبره، و قص عليه القصص،نقص عليک أحسن القصص.انتهى فالقصص هو القصه و أحسن القصص أحسن القصه و الحديث،و ربما قيل:إنه مصدر بمعنى الاقتصاص.

ص :٢٣١

فإن كان اسم مصدر فقصه يوسف عليه السّلام أحسن قصه لأنها تصف إخلاص التوحيد فی العبوديه،و تمثل ولايه اللّه سبحانه لعبده و أنه يربيه بسلوكه فی صراط الحب و رفعه من حضيض الذله الی أوج المعزه،و أخذه من غيابه جبّ الإساره و مربط الرقيه و سجن النكال و النقمه الی عرش العزه و سرير الملك.

و إن كان مصدرا فالاقتصاص عن قصته بالطريق الذی اقتص سبحانه به أحسن الاقتصاص لأنه اقتصاص لقصه الحب و الغرام بأعف ما يكون و أستر ما يمكن.

و المعنی-و اللّه أعلم-نحن نقص عليك أحسن القصص بسبب وحينا هذا القرآن اليك و إنك كنت قبل اقتصاصنا عليك هذه القصه من الغافلين عنها.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ۴ الی ۶]

اشاره

إِذْ قٰالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يٰا أَبَتِ إِنِّی رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِی سٰاجِدِينَ (۴) قٰالَ يٰا بُنَیَّ لاٰ تَقْصُصْ رُؤْيٰاكَ عَلیٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ اَلشَّيْطٰانَ لِلْإِنْسٰانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۵) وَ كَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ اَلْأَحٰادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلیٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمٰا أَتَمَّهٰا عَلیٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶)

بيان:

قوله تعالی: إِذْ قٰالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يٰا أَبَتِ إِنِّی رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِی سٰاجِدِينَ لم يذكر يعقوب عليه السّلام باسمه بل كنی عنه

بالأب للدلاله على ما بينهما من صفه الرحمه و الرأفه و الشفقه كما يدل عليه ما فى الآيه التاليه «قٰالَ يٰا بُنَيَّ لاٰ تَقْصُصْ» الخ.

و قوله: رَأَيْتُ و رَأَيْتُهُمْ من الرؤيا و هى ما يشاهده النائم فى نومته أو الذى خمدت حواسه الظاهره بإغماء أو ما يشابهه،و يشهد به قوله فى الآيه التاليه: «لاٰ تَقْصُصْ رُؤْيٰاكَ عَلىٰ إِخْوَتِكَ» و قوله فى آخر القصّه: «يٰا أَبَتِ هٰذٰا تَأْوِيلُ رُءْيٰايَ» .

و تكرار ذكر الرؤيه لطول الفصل بين قوله: «رَأَيْتُ» و قوله: «لِي سٰاجِدِينَ» و من فائده التكرير الدلاله على أنه إنما رآهم مجتمعين على السجود جميعا لا فرادى.على أن ما حصل له من المشاهده نوعان مختلفان فمشاهده أشخاص الكواكب و الشمس و القمر مشاهده أمر صوريّ و مشاهده سجدتهم و خضوعهم و تعظيمهم له مشاهده أمر معنوى.

و قد عبر عن الكواكب و النيرين فى قوله: «رَأَيْتُهُمْ لِي سٰاجِدِينَ» بما يختص بأولى العقل-ضمير الجمع المذكر و جمع المذكر السالم-للدلاله على أن سجدتهم كانت عن علم و إراده كما يسجد واحد من العقلاء لآخر.

قوله تعالى: قٰالَ يٰا بُنَيَّ لاٰ تَقْصُصْ رُؤْيٰاكَ عَلىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطٰانَ لِلْإِنْسٰانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ذكر فى المفردات:أن الكيد ضرب من الاحتيال، و قد يكون مذموما و ممدوحا و إن كان يستعمل فى المذموم أكثر و كذلك الاستدراج و المكر.

انتهى.و قد ذكروا أن الكيد يتعدّى بنفسه و باللام.

و الآيه تدل على أن يعقوب لما سمع ما قصه عليه يوسف من الرؤيا أيقن بما يدل عليه أن يوسف عليه السّلام سيتولى اللّه أمره و يرفع قدره،يسنده على أريكه الملك و عرش العزه،و يخصه من بين آل يعقوب بمزيد الكرامه فأشفق على يوسف عليه السّلام و خاف من اخوته عليه و هم عصبه أقوياء أن لو سمعوا الرؤيا-و هى ظاهره الانطباق على يعقوب عليه السّلام و زوجه و أحد عشر من ولده غير يوسف،و ظاهره الدلاله على انهم جميعا سيخضعون و يسجدون

ليوسف-حملهم الكبر و الأنفه أن يحسدوه فيكيدوا له كيدا ليحولوا بينه و بين ما تبشره به رؤياه.

و لـذلك خاطب يوسف عليه السّلام خطاب الإشفاق كما يدل عليه قوله: «يٰا بُنَيَّ» بلفظ التصغير، و نهاه عن اقصاص رؤياه على إخوته قبل أن يعبرها له و ينبئه بما تدل عليه رؤياه من الكرامه الإلهيه المقضيه فى حقه،و لم يقدم النهى على البشاره إلاّ لفرط حبه له و شده اهتمامه به و اعتنائه بشأنه،و ما كان يتفرس من إخوته أنهم يحسدونه و أنهم امتلئوا منه بغضا و حنقا.

و الدليل على بلوغ حسدهم و ظهور حنقهم و بغضهم قوله: «لاٰ تَقْصُصْ رُؤْيٰاکَ عَلىٰ إِخْوَتِکَ فَيَكِيدُوا لَکَ كَيْداً» فلم يقل:إنى أخاف أن يكيدوا،أو لا آمنهم عليك بتفريع الخوف من كيدهم أو عدم الأمن من جهتهم بل فرّع على اقتصاص الرؤيا نفس كيدهم و أكّد تحقق الكيد منهم بالمصدر-المفعول المطلق-اذ قال «فَيَكِيدُوا لَکَ كَيْداً» ثمّ أكد ذلك بقوله ثانيا فى مقام التعليل: «إِنَّ الشَّيْطٰانَ لِلْإِنْسٰانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ» أى إن لكيدهم سببا آخر منفصلا يؤيد ما عندهم من السبب الذى هو الحسد و يثيره و يهيجه ليؤثر أثره السيئ و هو الشيطان الذى هو عدو للإنسان مبين لا خله بينه و بينه أبدا يحمل الإنسان بوسوسته و تسويله على أن يخرج من صراط الاستقامه و السعاده الى سبيل عوج فيه شقاء دنياه و آخرته فيفسد ما بين الوالد و ولده و ينزع بين الشقيق و شقيقه و يفرق بين الصديق و صديقه ليضلهم عن الصراط.

فكأن المعنى:قال يعقوب ليوسف عليهما السّلام:يا بنىّ لا تقصص رؤياک على إخوتک فانهم يحسدونک و يغتاظون من أمرک فيكيدونک عندئذ بنزع و إغراء من الشيطان و قد تمكن من قلوبهم و لا يدعهم يعرضوا عن كيدک فإن الشيطان للإنسان عدوّ مبين.

قوله تعالى: وَ كَذٰلِکَ يَجْتَبِيکَ رَبُّکَ وَ يُعَلِّمُکَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحٰادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْکَ وَ عَلىٰ آلِ يَعْقُوبَ الى آخر الآيه؛الاجتباء من الجبايه و هى الجمع يقال:جبيت الماء فى الحوض إذا جمعته فيه،و منه جبايه الخراج أى جمعه قال تعالى

يُجْبىٰ إِلَيْهِ ثَمَرٰاتُ كُلِّ شَيْءٍ (القصص/۵۷)ففى معنى الاجتباء جمع أجزاء الشىء و حفظها من التفرّق و التشتت،و فيه سلوك و حركه من الجابى نحو المجبى فاجتباه اللّه سبحانه عبدا من عباده هو أن يقصده برحمته و يخصّه بمزيد كرامته فيجمع شمله و يحفظه من التفرق فى السبل المتفرّقه الشيطانيه المفرقه للإنسان و يركبه صراطه المستقيم و هو أن يتولّى أمره و يخصه بنفسه فلا يكون لغيره فيه نصيب كما أخبر تعالى بذلك فى يوسف عليه السّلام إذ قال إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُخْلَصِينَ (الآيه ۲۴ من السوره).

و قوله: وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحٰادِيثِ التأويل هو ما ينتهى اليه الرؤيا من الأمر الذى تتعقبه،و هو الحقيقه التى تتمثل لصاحب الرؤيا فى رؤياه بصوره من الصور المناسبه لمداركه و مشاعره كما تمثل سجده أبوى يوسف و إخوته الأحد عشر فى صوره أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر و خرورها أمامه ساجده له،و قد تقدم استيفاء البحث عن معنى التأويل فى تفسير قوله: فَيَتَّبِعُونَ مٰا تَشٰابَهَ مِنْهُ ابْتِغٰاءَ الْفِتْنَهِ وَ ابْتِغٰاءَ تَأْوِيلِهِ الآيه، (آل عمران/۷)فى الجزء الثالث من الكتاب.

و الأحاديث جمع الحديث و ربما اريد به الرّؤى لأنها من حديث النفس فان نفس الانسان تصور له الامور فى المنام كما يصور المحدث لسماعه الامور فى اليقظه فالرؤيا حديث مثله و منه يظهر ما فى قول بعضهم:إن الرؤى سمّيت أحاديث باعتبار حكايتها و التحديث بها و هو كما ترى.

و قوله: وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلىٰ آلِ يَعْقُوبَ قال الراغب فى المفردات:

النعمه(بالكسر فالسكون)الحاله الحسنه،و بناء النعمه بناء الحاله التى يكون عليها الإنسان كالجلسه و الركبه،و النعمه(بالفتح فالسكون)التنعم و بناؤها بناء المرّه من الفعل كالضربه و الشتمه،و النعمه للجنس تقال للقليل و الكثير.

قال:و الإنعام إيصال الإحسان الى الغير،و لا يقال إلاّ إذا كان الموصل اليه من جنس

الناطقين فإنه لا يقال:أنعم فلان على فرسه،قال تعالى «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» «وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِی أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ» و النعماء بإزاء الضرّاء.

قال:و النعيم النعمه الكثيره قال تعالى «فِی جَنّٰاتِ النَّعِيمِ» و قال تعالى «جَنّٰاتِ النَّعِيمِ» ، و تنعم تناول ما فيه النعمه و طيب العيش،يقال:نعمه تنعيما فتنعم أی لين عيش و خصب قال تعالى «فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ» و طعام ناعم و جاريه ناعمه.انتهی.

فقوله: وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلىٰ آلِ يَعْقُوبَ يريد أن اللّه أنعم عليكم بما تسعدون به فی حياتكم لكنه يتم ذلك فی حقك و فی حق آل يعقوب و هم يعقوب و زوجه و سائر بنيه كما كان رآه فی رؤياه.

و قد جعل يوسف عليه السّلام أصلا و آل يعقوب معطوفا عليه إذ قال «عَلَيْكَ وَ عَلىٰ آلِ يَعْقُوبَ» كما يدل عليه الرؤيا إذ رأی يوسف نفسه مسجودا له و رأی آل يعقوب فی هيئه الشمس معها القمر و أحد عشر كوكبا سجدا له.

و قد ذكر اللّه تعالى مما أتم به النعمه على يوسف عليه السّلام أنه آتاه الحكم و النبوه و الملك و العزه فی مصر مضافا الی أن جعله من المخلصين و علمه من تأويل الأحاديث،و مما أتم به النعمه على آل يعقوب أنه أقر عين يعقوب بابنه يوسف عليهما السّلام،و جاء به و بأهله جميعا من البدل و رزقهم الحضاره بنزول مصر.

و قوله: كَمٰا أَتَمَّهٰا عَلىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ أی نظير ما أتم النعمه من قبل على إبراهيم و إسحاق و هما أبواك فإنه آتاهما خير الدنيا و الآخره فقوله:

«مِنْ قَبْلُ» متعلق بقوله: «أَتَمَّهٰا» و ربما احتمل كونه ظرفا مستقرا وصفا لقوله: «أَبَوَيْكَ» و التقدير كما أتمها على أبويك الكائنين من قبل.

و «إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ» بدل أو عطف بيان لقوله: «أَبَوَيْكَ» و فائده هذا السياق الإشعار بكون النعمه مستمره موروثه فی بيت إبراهيم من طريق إسحاق حيث اتمها اللّه على إبراهيم

و إسحاق و يعقوب و يوسف عليهم السّلام و سائر آل يعقوب.

و معنى الآيه:و كما رأيت فى رؤياك يخلصك ربك لنفسه بإنقائك من الشرك فلا يكون فيك نصيب لغيره،و يعلمك من تأويل الأحاديث و هو ما يئول اليه الحوادث المصوره فى نوم أو يقظه و يتم نعمته هذه و هى الولايه الإلهيه بالنزول فى مصر و اجتماع الأهل و الملك و العزه عليك و على ابويك و إخوتك و إنما يفعل ربك بك ذلك لأنه عليم بعباده خبير بحالهم حكيم يجرى عليهم ما يستحقونه فهو عليم بحالك و ما يستحقونه من غضبه (۱).

[سوره يوسف (۱۲): الآيات ۷ الى ۲۱]

اشاره

لَقَدْ كٰانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آيٰاتٌ لِلسّٰائِلِينَ (۷) إِذْ قٰالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلىٰ أَبِينٰا مِنّٰا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبٰانٰا لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۸) اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اِطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صٰالِحِينَ (۹) قٰالَ قٰائِلٌ مِنْهُمْ لاٰ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيٰابَتِ اَلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ اَلسَّيّٰارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ (۱۰) قٰالُوا يٰا أَبٰانٰا مٰا لَكَ لاٰ تَأْمَنّٰا عَلىٰ يُوسُفَ وَ إِنّٰا لَهُ لَنٰاصِحُونَ (۱۱) أَرْسِلْهُ مَعَنٰا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ (۱۲) قٰالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخٰافُ أَنْ يَأْكُلَهُ اَلذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غٰافِلُونَ (۱۳) قٰالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ اَلذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنّٰا إِذاً لَخٰاسِرُونَ (۱۴) فَلَمّٰا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيٰابَتِ اَلْجُبِّ وَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هٰذٰا وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ (۱۵) وَ جٰاؤُ أَبٰاهُمْ عِشٰاءً يَبْكُونَ (۱۶) قٰالُوا يٰا أَبٰانٰا إِنّٰا ذَهَبْنٰا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنٰا يُوسُفَ عِنْدَ مَتٰاعِنٰا فَأَكَلَهُ اَلذِّئْبُ وَ مٰا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنٰا وَ لَوْ كُنّٰا صٰادِقِينَ (۱۷) وَ جٰاؤُ عَلىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قٰالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اَللّٰهُ اَلْمُسْتَعٰانُ عَلىٰ مٰا تَصِفُونَ (۱۸) وَ جٰاءَتْ سَيّٰارَةٌ فَأَرْسَلُوا وٰارِدَهُمْ فَأَدْلىٰ دَلْوَهُ قٰالَ يٰا بُشْرىٰ هٰذٰا غُلاٰمٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضٰاعَةً وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ (۱۹) وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرٰاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كٰانُوا فِيهِ مِنَ اَلزّٰاهِدِينَ (۲۰) وَ قٰالَ اَلَّذِي اِشْتَرٰاهُ مِنْ مِصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوٰاهُ عَسىٰ أَنْ يَنْفَعَنٰا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ كَذٰلِكَ مَكَّنّٰا لِيُوسُفَ فِي اَلْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ اَلْأَحٰادِيثِ وَ اَللّٰهُ غٰالِبٌ عَلىٰ أَمْرِهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (۲۱)

۱- ۱) .يوسف ۱-۶:بحث حول سجده يعقوب عليه السّلام ليوسف عليه السّلام.

بيان:

قوله تعالى: لَقَدْ کانَ فِی یُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آیاتٌ لِلسّائِلِینَ شروع فی

ص :۲۳۸

القصه و فيه التنبيه على أن القصه مشتمله على آيات إلهيه داله على توحيد اللّه سبحانه،و أنه هو الولى يلى امور عباده المخلصين حتى يرفعهم الى عرش العزه،و يثبتهم فى أريكه الكمال فهو تعالى الغالب على أمره يسوق الأسباب الى حيث يشاء لا الى حيث يشاء غيره و يستنتج منها ما يريد لا ما هو اللائح الظاهر منها.

و فى قوله تعالى: لِلسّائِلِينَ دلاله على أنه كان هناك جماعه سألوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن القصه أو عما يرجع بوجه الى القصه فانزلت فى هذه السوره.

قوله تعالى: إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ذكر فى المجمع أن العصبه هى الجماعه التى يتعصب بعضها لبعض،و يقع على جماعه من عشره الى خمسه عشر،و قيل:ما بين العشره الى الأربعين، و لا واحد له من لفظه كالقوم و الرهط و النفر.انتهى.

و قوله: إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنّا القائلون هم أبناء يعقوب ما خلا يوسف و أخاه الذى ذكروه معه،و كانت عدتهم عشره و هم رجال اقوياء بيدهم تدبير بيت أبيهم يعقوب و إداره مواشيه و أمواله كما يدل عليه قولهم: «وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ» .

و قولهم: «لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ» بنسبته الى يوسف مع أنهم جميعا أبناء ليعقوب و إخوه فيما بينهم يشعر بأن يوسف و أخاه هذا كانا أخوين لام واحده و أخوين لهؤلاء القائلين لأب فقط،و الروايات تذكر أن اسم أخى يوسف هذا«بنيامين»،و السياق يشهد أنهما كانا صغيرين لا يقومان بشىء من أمر بيت يعقوب و تدبير مواشيه و أمواله.

و قولهم: وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ أى عشره أقوياء مشدود ضعف بعضنا بقوه بعض،و هو حال عن الجمله السابقه يدل على حسدهم و حنقهم لهما و غيظهم على أبيهم يعقوب فى حبه لهما أكثر منهم،و هو بمنزله تمام التعليل لقولهم بعده: «إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» .

و قولهم: إِنَّ أَبٰانٰا لَفِی ضَـلاٰلٍ مُبِینٍ قضـاء منهم علی أبیهم بالضـلال و یعنون بالضـلال الاعوجاج فی السـلیقه و فساد السـیره دون الضلال فی الدین (۱).

قوله تعـالی: اُقْتُلُوا یُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً یَخْلُ لَکُمْ وَجْهُ أَبِیکُمْ وَ تَکُونُوا مِنْ بَعْـدِهِ قَوْماً صٰالِحِینَ تتمه قول إخوه یوسف و الآیه تتضـمن الفصل الثانی من مؤامرتهم فی مؤتمرهم الذی عقدوه فی أمر یوسف لیرسـموا بذلک خطه تریح نفوسهم منه کما ذکره تعالی بقوله: وَ مٰا کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ یَمْکُرُونَ (الآیه ۱۰۲ من السوره).

و قد ذکر اللّه سبحانه متن مؤامرتهم فی هذه الآیات الثلاث «قٰالُوا لَیُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلیٰ أَبِینٰا مِنّٰا وَ نَحْنُ عُصْبَهٌ -الی قوله- إِنْ کُنْتُمْ فٰاعِلِینَ» .

فأوردوا أولا ذکر مصیبتهم فی یوسف و أخیه إذ صرفا وجه یعقوب عنهم الی أنفسهما و جذبا نفسه الیهما عن سائر الأولاد فصار یلتزمهمـا و لاـ یعبأ بغیرهما ما فعلوا،و هـذه محنه حاله بهم توعـدهم بخطر عظیم فی مسـتقبل الامر فیه سـقوط شخصـیتهم و خیبه مسعاهم و ذلتهم بعد العزه و ضعفهم بعد القوه،و هو انحراف من یعقوب فی سیرته و طریقته.

ثم تـذاکروا ثانیـا فی طریق التخلص من الرزیه بطرح کـل منهم مـا هیـأه من الخطه و یراه من الرأی فأشـار بعضـهم الی لزوم قتل یوسف،و آخرون الی طرحه أرضا بعیده لا یسـتطیع معه العود الی أبیه و اللحوق بأهله فینسـی بذلک اسـمه و یمحو رسـمه فیخلو وجه أبیهم لهم و ینبسط حبه و حبائه فیهم.

ثم اتفقوا علی ما یقرب من الرأی الثانی و هو أن یلقوه فی قعر بئر لیلتقطه بعض السیاره

۱- ۱) .یوسف ۷-۲۱:بحث فی معنی قول ابنـاء یعقوب «إِنَّ أَبٰانٰا لَفِی ضَـلاٰلٍ مُبِینٍ» عله حسـد اخوان یوسف علیه؛ان یعقوب کان یحبّ یوسف و اخاه فی اللّه.

و يذهبوا به الى بعض البلاد النائيه البعيده فينقطع بذلك خبره و يعفى أثره.

فقوله تعالى: اُقْتُلُوا يُوسُفَ حكايه لأحد الرأيين منهم فى أمره،و فى ذكرهم يوسف وحده-و قد ذكروا فى مفتتح كلامهم فى المؤامره يوسف و أخاه معا «لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنّا» -دليل على أنه كان مخصوصا بمزيد حب يعقوب و بلوغ عنايته و اهتمامه و إن كان أخوه أيضا محبو بالحب و الإكرام من بينهم و كيف لا؟و يوسف هو الذى رأى الرؤيا و بشر بأخص العنايات الإلهيه و الكرامات الغيبيه،و قد كان أكبرهما و الخطر المتوجه من قبله اليهم أقرب مما من قبل أخيه،و لعل فى ذكر الأخوين معا إشاره الى حب يعقوب لامهما الموجب لحبه بالطبع لهما و تهييج حسد الإخوه و غيظهم و حقدهم بالنسبه اليهما.

و قوله: أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً حكايه رأيهم الثانى فيه،و المعنى صيروه أو غربوه فى أرض لا يقدر معه على العود الى بيت أبيه فيكون كالمقتول ينقطع أثره و يستراح من خطره كإلقائه فى بئر أو تغريبه الى مكان ناء و نظير ذلك.

و الدليل عليه تنكير«أرض»و لفظ الطرح الذى يستعمل فى القاء الانسان المتاع أو الأثاث الذى يستغنى عنه و لا ينتفع به للإعراض عنه.

و فى نسبه الرأيين بالترديد اليهم،دليل على أن مجموع الرأيين كان هو المرضى عند أكثر الإخوه حتى قال قائل منهم:لا تقتلوا يوسف،الخ.

و قوله: يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ أى افعلوا به أحد الأمرين حتى يخلو لكم وجه أبيكم و هو كنايه عن خلوص حبه لهم بارتفاع المانع الذى يجلب الحب و العطف الى نفسه كأنهم و يوسف إذا اجتمعوا و أباهم حال يوسف بينه و بينهم و صرف وجهه الى نفسه فإذا ارتفع خلا وجه أبيهم لهم و اختص حبه بهم و انحصر إقباله عليهم.

و قوله: وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ أى و تكونوا من بعد يوسف أو من

بعد قتله أو نفیه-و المآل واحد-قوما صالحین بالتوبه من هذه المعصیه.

و فی هذا دلیل علی أنهم کانوا یرونه ذنبا و إثما،و کانوا یحترمون أمر الدین و یقدسونه لکن غلبهم الحسد و سولت لهم أنفسهم اقتراف الـذنب و ارتکاب المظلمه و آمنهم من عقوبه الذنب بتلقین طریق یمکنهم من الاقتراف من غیر لزوم العقوبه الإلهیه و هو أن یقترفوا الذنب ثم یتوبوا.

و هـذا من الجهـل فـإن التوبه التی شأنهـا هـذا الشـأن غیر مقبوله البته فـإن من یوطن نفسه من قبل علی المعصـیه ثم التوبه منها لا یقصـد بتـوبته الرجوع الی اللّه و الخضوع لمقـامه حقیقه بـل إنمـا یقصـد المکر بربه فی دفع مـا أوعـده من العـذاب و العقوبه مع المخالفه لأمره أو نهیه، فتوبته ذیل لما وطن علیه نفسه أولا:أن یذنب فیتوب فهی فی الحقیقه تتمه ما رامه أولا من نوع المعصیه و هو الـذنب الـذی تعقبه توبه و لیست رجوعا الی ربه بالنـدم علی ما فعل.و قد تقدم البحث عن معنی التوبه فی تفسـیر قوله تعالی: إِنَّمَا التَّوْبَهُ عَلَی اللّٰهِ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهٰالَهٍ الآیه،(النساء١٧/)الجزء الرابع من الکتاب.

و قیـل المراد بالصـلاح فی الآیه صـلاح الأمر من حیث سـعاده الحیاه الـدنیا و انتظام الامور فیها و المعنی و تکونوا من بعـده قوما صالحین بصلاح أمرکم مع أبیکم.

قوله تعـالی: قٰالَ قٰائِلٌ مِنْهُمْ لاٰ تَقْتُلُوا یُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِی غَیٰابَتِ الْجُبِّ یَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّیّٰارَهِ إِنْ کُنْتُمْ فٰاعِلِینَ الجب هو البئر التی لم یطو أی لم یبن داخلهـا بالحجـاره،و إن بنی بها سـمیت البئر طویا،و الغیابه بفتـح الغین المنهبط من الأرض الـذی یغیب ما فیه من الأنظار و غیابه الجب قعره الذی لا یری لما فیه من الظلمه.

و قـد اختار هـذا القائل الرأی الثانی المـذکور فی الآیه السابقه الذی یشـیر الیه قوله: «أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً» إلاّ أنه قیده بما یؤمن معه القتـل أو أمر آخر یؤدی الی هلاـکه کـأن یلقی فی بئر و یترک فیهـا حتی یموت جوعـا أو مـا یشاکل ذلک،فما أبـداه من الرأی یتضمن نفی یوسف

من الأرض من غير أن يتسبب الى هلاكه بقتل أو موت أو نقص يشبهه فيكون اهلاكا لذى رحم،و هو أن يلقى فى بعض الآبار التى على طريق الماره حتى يعثروا به عند الاستقاء فيأخذوه و يسيروا به الى بلاد نائيه تعفو أثره و تقطع خبره،و السياق يشهد بأنهم ارتضوا هذا الرأى إذ لم يذكر رد منهم بالنسبه اليه و قد جرى عملهم عليه كما هو مذكور فى الآيات التاليه.

قوله تعالى: قٰالُوا يٰا أَبٰانٰا مٰا لَكَ لاٰ تَأْمَنّٰا عَلىٰ يُوسُفَ وَ إِنّٰا لَهُ لَنٰاصِحُونَ أصل «لاٰ تَأْمَنّٰا» لا تأمننا ثم ادغم بالإدغام الكبير.

و الآيه تدل على ان الإخوه أجمعوا على قول القائل:لا تقتلوا يوسف و ألقوه فى غيابه الجب،و أجمعوا على أن يمكروا بأبيهم فيأخذوا يوسف و يفعلوا به ما عزموا عليه و قد كان أبوهم لا يأمنهم على يوسف و لا يخليه و إياهم فكان من الواجب قبلا أن يزكوا أنفسهم عند أبيهم و يجلّوا قلبه من كدر الشبهه و الارتياب حتى يتمكنوا من أخذه و الذهاب به.و لذلك جاءوا أباهم و خاطبوه بقولهم: «يٰا أَبٰانٰا -و فيه اثاره للعطف و الرحمه و إيثار للموده- مٰا لَكَ لاٰ تَأْمَنّٰا عَلىٰ يُوسُفَ وَ إِنّٰا لَهُ لَنٰاصِحُونَ» أى و الحال أنا لا نريد به إلاّ الخير و لا نبتغى إلاّ ما يرضيه و يسره.

ثم سألوه ما يريدونه و هو أن يرسله معهم الى مرتعهم الذى كانوا يخرجون اليه ماشيتهم و غنمهم ليرتع و يلعب هناك،و هم حافظون له فقالوا «أَرْسِلْهُ مَعَنٰا» الخ.

قوله: أَرْسِلْهُ مَعَنٰا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ الرتع هو توسع الحيوان فى الرعى و الانسان فى التنزه و أكل الفواكه و نحو ذلك.

و قولهم: «أَرْسِلْهُ مَعَنٰا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ» اقتراح لمسئولهم كما تقدمت الإشاره اليه و قولهم: «وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ» اكدوه بوجوه التأكيد:إن و اللام و الجمله الاسميه على وزان قولهم: «وَ إِنّٰا لَهُ لَنٰاصِحُونَ» كما يدل ان كل واحده من الجملتين تتضمن نوعا من التطيب

لنفس أبيهم كأنهم قالوا:ما لك لا تأمنا على يوسف فإن كنت تخاف عليه ايانا معشر الإخوه كأن نقصده بسوء فإنا له لناصحون و إن كنت تخاف عليه غيرنا مما يصيبه أو يقصده بسوء كأن يدهمه مكروه و نحن مساهلون فى حفظه و مستهينون فى كلاءته فإنا له لحافظون.

فالكلام مسوق على ترتيبه الطبعى:ذكروا أولا أنه فى أمن من ناحيتهم دائما ثم سألوا إن يرسله معهم غداه غد ثم ذكروا أنهم حافظون له ما دام عندهم،و بذلك يظهر ان قولهم: «وَ إِنّا لَهُ لَناصِحُونَ» تأمين له دائمى من ناحيه انفسهم،و قولهم: «وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ» تأمين له موقت من غيرهم.

قوله تعالى: قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ هذا ما ذكر أبوهم جوابا لما سألوه،و لم ينف عن نفسه أنه لا يأمنهم عليه و إنما ذكر ما يأخذه من الحاله النفسانيه لو ذهبوا به فقال و قد أكد كلامه «إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ» و قد كشف عن المانع أنه نفسه التى يحزنها ذهابهم به لا ذهابهم به الموجب لحزنه تلطفا فى الجواب معهم و لئلا يهيج ذلك عنادهم و لجاجهم و هو من لطائف النكت.

و اعتذر اليهم فى ذلك بقولهم: «وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ» و هو عذب موجه فإن الصحارى ذوات المراتع التى تأوى إليها المواشى و ترتع فيها الأغنام لا تخلو طبعا من ذئاب او سباع تقصدها و تكمن فيها للافتراس و الاصطياد فمن الجائز أن يقبلوا على بعض شأنهم و يغفلوا عنه فيأكله الذئب.

قوله تعالى: قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنّا إِذاً لَخاسِرُونَ تجاهلوا لأبيهم كأنهم لم يفقهوا إلاّ أنه يأمنهم عليه لكن يخاف أن يأكله الذئب على حين غفله منهم فردوه رد منكر مستغرب،و ذكروا لتطيب نفسه انهم جماعه اقوياء متعاضدون ذووا بأس و شده،و اقسموا باللّه إن أكل الذئب إياه و هم عصبه يقضى بخسرانهم و لن يكونوا

خاسرين البته،و إنما أقسموا-كما يدل عليه لام القسم-ليطيبوا نفسه و يذهبوا بحزنه فلا يمنعهم من الذهاب به،و هذا شائع فى الكلام«و فى الكلام وعد ضمنى منهم له أنهم لن يغفلوا»لكنهم لم يلبثوا يوما حتى كذبوا أنفسهم فيما أقسموا له و اخلفوه ما وعدوه،إذ قالوا «يٰا أَبٰانٰا إِنّٰا ذَهَبْنٰا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنٰا يُوسُفَ عِنْدَ مَتٰاعِنٰا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ» الآيه.

قوله تعالى: فَلَمّٰا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِى غَيٰابَتِ الْجُبِّ قال الراغب:أجمعت على كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعا يتوصل اليه بالفكره نحو فأجمعوا أمركم و شركاءكم.قال:و يقال:أجمع المسلمون على كذا اتفقت آراؤهم عليه.انتهى.

و فى المجمع:أجمعوا أى عزموا جميعا أن يجعلوه فى غيابه الجب أى قعر البئر و اتفقت دواعيهم عليه فإن من دعاه داع واحد الى الشىء لا يقال فيه إنه أجمع عليه فكأنه مأخوذ من اجتماع الدواعى.انتهى.

و الآيه تشعر بأنهم أقنعوا أباهم بما قالوا له من القول و أرضوه أن لا يمنعهم أن يخرجوا يوسف معهم الى الصحراء فحملوه معهم لإنفاذ ما ازمعوا عليه من القائه فى غيابه الجب.

و جواب لما محذوف للدلاله على فجاعه الأمر و فظاعته،و هى صنعه شائعه فى الكلام ترى المتكلم يصف أمرا فظيعا كقتل فجيع يحترق به القلب و لا يطيقه السمع فيشرع فى بيان أسبابه و الاحوال التى تؤدى اليه فيجرى فى وصفه حتى إذا بلغ نفس الحادثه سكت سكوتا عميقا ثم وصف ما بعد القتل من الحوادث فيدل بذلك على أن صفه القتل بلغت من الفجاعه مبلغا لا يسع المتكلم أن يصرح به و لا يطيق السامع أن يسمعه.

فكأن الذى يصف القصه-عزّ اسمه-لما قال «فَلَمّٰا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِى غَيٰابَتِ الْجُبِّ» سكت مليا و أمسك عن ذكر ما فعلوا به أسى و أسفا لأن السمع لا يطيق وعى ما فعلوا بهذا الطفل المعصوم المظلوم النبى ابن الأنبياء و لم يأت بجرم يستحق به شيئا مما ارتكبوه فيه و هم اخوته و هم يعلمون مبلغ حب أبيه النبى الكريم يعقوب له فيا قاتل اللّه

الحسد يهلك شقيقا مثل يوسف الصديق بأيدى إخوته،و يثكل أبا كريما مثل يعقوب بأيدى أبنائه،و يزين بغيا شنيعا كهذا فى اعين رجال ربوا فى حجر النبوه و نشئوا فى بيت الأنبياء.

و لما حصر الغرض بالسكوت عن جواب لما جرى سبحانه فى ذيل القصه فقال «وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ» الخ.

قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هٰذا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ الضمير ليوسف و ظاهر الوحى أنه من وحى النبوه،و المراد بأمرهم هذا إلقاؤهم إياه فى غيابه الجب، و كذا الظاهر أن جمله «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» حال من الإيحاء المدلول عليه بقوله: «وَ أَوْحَيْنا» الخ؛و متعلق «لا يَشْعُرُونَ» هو الأمر أى لا يشعرون بحقيقه أمرهم هذا أو الإيحاء أى و هم لا يشعرون بما أوحينا اليه.

و المعنى-و اللّه أعلم-و أوحينا الى يوسف أقسم لتخبرنهم بحقيقه أمرهم هذا و تأويل ما فعلوا بك فإنهم يرونه نفيا لشخصك و إنساء لاسمك و إطفاء لنورك و تذليلا لك و حطا لقدرك و هو فى الحقيقه تقريب لك الى أريكه العزه و عرش المملكه و إحياء لذكرك و إتمام لنورك و رفع لقدرك و هم لا يشعرون بهذه الحقيقه و ستنبئهم بذلك،و هو قوله لهم و قد اتّكأ على أريكه العزه و هم قيام أمامه يسترحمونه بقولهم: يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنا بِبِضاعَهٍ مُزْجاهٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللّٰهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ إذ قال هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ -الى أن قال- أَنَا يُوسُفُ وَ هٰذا أَخِى قَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْنا الخ.

انظر الى موضع قوله: «هَلْ عَلِمْتُمْ» فإنه إشاره الى أن هذا الذى تشاهدونه اليوم من الحال هو حقيقه ما فعلتم بيوسف،و قوله: «إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ» فإنه يحاذى من هذه الآيه التى نحن فيها قوله: «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» .

قوله تعالى: وَ جاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ العشاء آخر النهار،و قيل:من صلاه

المغرب الی العتمه،و إنما کانوا یبکون لیلبسوا الأمر علی أبیهم فیصدقهم فیما یقولون و لا یکذبهم.

قوله تعالی: قٰالُوا یٰا أَبٰانٰا إِنّٰا ذَهَبْنٰا نَسْتَبِقُ وَ تَرَکْنٰا یُوسُفَ عِنْدَ مَتٰاعِنٰا فَأَکَلَهُ الذِّئْبُ الی آخر الآیه؛قال الراغب فی المفردات:أصل السبق التقدم فی السیر نحو«و السابقات سبقا»و الاستباق التسابق و قال «إِنّٰا ذَهَبْنٰا نَسْتَبِقُ» «وَ اسْتَبَقَا الْبٰابَ» انتهی،و قال الزمخشری فی الکشاف:نستبق أی نتسابق،و الافتعال و التفاعل یشترکان کالانتضال و التناضل و الارتماء و الترامی و غیر ذلک،و المعنی نتسابق فی العدو أو فی الرمی.انتهی.

و قوله: بِمُؤْمِنٍ لَنٰا أی بمصدق لقولنا،و الإیمان یتعدی باللام کما یتعدی بالباء قال تعالی فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ (العنکبوت۲۶/).

و المعنی-إنهم حینما جاءوا أباهم عشاء یبکون-قالوا لأبیهم:یا أبانا إنا معشر الإخوه ذهبنا الی البیداء نتسابق فی عدو أو رمی-و لعله کان فی عدو-فإن ذلک أبلغ فی إبعادهم من رحلهم و متاعهم و کان عنده یوسف علی ما ذکروا-و ترکنا یوسف عند رحلنا و متاعنا فأکله الذئب،و من خیبتنا و مسکنتنا أنک لست بمصدق لنا فیما نقوله و نخبر به و لو کنا صادقین فیه.

و قولهم: وَ مٰا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنٰا وَ لَوْ کُنّٰا صٰادِقِینَ کلام یأتی بمثله المعتذر إذا انقطع عن الأسباب و انسدت علیه طرق الحیله،للدلاله علی أن کلامه غیر موجه عند من یعتذر الیه و عذره غیر مسموع و هو یعلم بذلک لکنه مع ذلک مضطر أن یخبر بالحق و یکشف عن الصدق و إن کان غیر مصدق فیه،فهو کنایه عن الصدق فی المقال.

قوله تعالی: وَ جٰاؤُ عَلیٰ قَمِیصِهِ بِدَمٍ کَذِبٍ الکذب بالفتح فالکسر مصدر أرید به الفاعل للمبالغه أی بدم کاذب بین الکذب.

و فی الآیه إشعار بأن القمیص و علیه دم-و قد نکر الدم للدلاله علی هو ان دلالته و ضعفها علی ما وصفوه-کان علی صفه تکشف عن کذبهم فی مقالهم فإن من افترسته السباع و أکلته لم تترک له قمیصا سالما غیر ممزق.هذا شأن الکذب لا یخلو الحدیث الکاذب و لا الاحدوثه الکاذبه من تناف بین أجزائه و تناقض بین أطرافه أو شواهد من أوضاع و أحوال خارجیه تحف به و تنادی بالصدق و تکشف القناع عن قبیح سریرته و باطنه و إن حسنت صورته (۱).

قوله تعالی: قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنْفُسُکُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِیلٌ وَ اللّٰهُ الْمُسْتَعٰانُ عَلیٰ مٰا تَصِفُونَ هذا جواب یعقوب و قد فوجئ بنعی ابنه و حبیبه یوسف دخلوا علیه و لیس معهم یوسف و هم یبکون یخبرونه أن یوسف قد أکله الذئب و هذا قمیصه الملطخ بالدم،و قد کان یعلم بمبلغ حسدهم له و هم قد انتزعوه من یده بإلحاح و إصرار و جاءوا بقمیصه و علیه دم کذب ینادی بکذبهم فیما قالوه و أخبروا به.

فأضرب عن قولهم: «إِنّٰا ذَهَبْنٰا نَسْتَبِقُ» الخ؛بقوله: «بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنْفُسُکُمْ أَمْراً» و التسویل الوسوسه أی لیس الأمر علی ما تخبرون بل وسوست لکم أنفسکم فیه أمرا،و أبهم الأمر و لم یعنیه ثم أخبر أنه صابر فی ذلک من غیر أن یؤاخذهم و ینتقم منهم لنفسه انتقاما و إنما یکظم ما هجم نفسه کظما.

فقوله: بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنْفُسُکُمْ أَمْراً تکذیب لما أخبروا به من أمر یوسف و بیان أنه علی علم من أن فقد یوسف لا یستند الی ما ذکروه من افتراس السبع و إنما یستند الی مکر مکروه و تسویل من أنفسهم لهم،و الکلام بمنزله التوطئه لما ذکره بعد من قوله:

«فَصَبْرٌ جَمِیلٌ» الی آخر الآیه.

۱- ۱) .یوسف ۷-۲۱:کلام فی ان الکذب لا یفلح.

و قوله: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ مدح للصبر و هو من قبيل وضع السبب موضع المسبب و التقدير:سأصبر على ما أصابنى فإن الصبر جميل و تنكير الصبر و حذف صفته و إبهامها للإشاره الى فخامه أمره و عظم شأنه أو مراره طعمه و صعوبه تحمله.

و قد فرّع قوله: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» على ما تقدم للإشعار بأن الأسباب التى أحاطت به و أفرغت عليه هذه المصيبه هى بحيث لا يسع له معها إلاّ أن يملك سبيل الصبر،و ذلك أنه عليه السّلام فقد أحب الناس اليه يوسف و هو ذا يذكر له أنه صار أكله للذئب و هذا قميصه ملطخا بالدم و هو يرى أنهم كاذبون فيما يخبرونه به،و يرى أن لهم صنعا فى افتقاده و مكرا فى أمره و لا طريق له الى التحقيق فيما جرى على يوسف و التجسس مما آل اليه أمره و أين هو؟و ما حاله؟فإنما أعوانه على أمثال هذه النوائب و أعضاده لدفع ما يقصده من المكاره إنما هم أبناؤه و هم عصبه أولو قوه و شده فإذا كانوا هم الأسباب لنزول النائبه و وقوع المصيبه فبمن يقع فيهم؟و بما ذا يدفعهم عن نفسه؟فلا يسعه إلاّ الصبر.

فقوله: وَ اللّهُ الْمُسْتَعٰانُ عَلىٰ مٰا تَصِفُونَ -و هو من أعجب الكلام-بيان لتوكله على ربه يقول:إنى أعلم أن لكم فى الأمر مكرا و أن يوسف لم يأكله ذئب لكنى لا أركن فى كشف كذبكم و الحصول على يوسف بالأسباب الظاهره التى لا تغنى طائلا بغير إذن من اللّه و لا أتشحط بينها بل أضبط استقامه نفسى بالصبر و أوكل ربى أن يظهر على ما تصفون أن يوسف قد قضى نحبه و صار أكله لذئب.

فظهر أن قوله: «وَ اللّهُ الْمُسْتَعٰانُ عَلىٰ مٰا تَصِفُونَ» دعاء فى موقف التوكل و معناه:اللهم إنى توكلت عليك فى أمرى هذا فكن عونا لى على ما يصفه بنى هؤلاء،و الكلمه مبنيه على توحيد الفعل فإنها مسوقه سوق الحصر و معناها أن اللّه سبحانه هو المستعان لا مستعان لى غيره فإنه عليه السّلام كان يرى أن لا حكم حقا إلاّ حكم اللّه كما قال فيما سيأتى من كلامه «إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» ،و لتكميل هذا التوحيد بما هو أعلى منه لم يذكر نفسه فلم يقل:

سأصبر و لم يقل:و اللّه أستعين على ما تصفون بل ترك نفسه و ذكر اسم ربه و أن الأمر منوط بحكمه الحق و هو من كمال توحيده و هو مستغرق فى وجده و أسفه و حزنه ليوسف غير أنه ما كان يحب يوسف و لا يتوله فيه و لا يجد لفقده إلاّ للّه و فى اللّه.

قوله تعالى: وَ جٰاءَتْ سَيّٰارَةٌ فَأَرْسَلُوا وٰارِدَهُمْ فَأَدْلىٰ دَلْوَهُ قٰالَ يٰا بُشْرىٰ هٰذٰا غُلاٰمٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضٰاعَةً وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ قال الراغب:الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل فى غيره.انتهى،و قال:دلوت الدلو إذا أرسلتها،و أدليتها إذا أخرجتها.انتهى،و قيل بالعكس،و قال:الإسرار خلاف الإعلان.انتهى.

و قوله: قٰالَ يٰا بُشْرىٰ هٰذٰا غُلاٰمٌ إيراده بالفصل مع أنه متفرع وقوعا على إدلاء الدلو للدلاله على أنه كان أمرا غير مترقب الوقوع فإن الذى يترقب وقوعه غير الإدلاء هو خروج الماء دون الحصول على غلام فكان مفاجئا لهم و لذا قال «قٰالَ يٰا بُشْرىٰ» و نداء البشرى كنداء الأسف و الويل و نظائرهما للدلاله على حضوره و جلاء ظهوره.

و قوله: وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ مفاده ذم عملهم و الإنابه عن كونه معصيه محفوظه عليهم سيؤاخذون بها،و يمكن أن يكون المراد به أن ذلك إنما كان بعلم من اللّه أراد بذلك أن يبلغ يوسف مبلغه الذى قدر له فإنه لو لم يخرج من الجب و لم يسر بضاعه لم يدخل بيت العزيز بمصر فلم يؤت ما اوتيه من الملك و العزه.

و المعنى الآيه:و جاءت جماعه ماره الى هناك فأرسلوا من يطلب لهم الماء فأرسل دلوه فى الجب ثم لما أخرجها فاجأهم بقوله: «يٰا بُشْرىٰ هٰذٰا غُلاٰمٌ» -و قد تعلق يوسف بالحبل فخرج-فأخفوه بضاعه يقصد بها البيع و التجاره و الحال أن اللّه سبحانه عليم بما يعملون يؤاخذهم عليه أو أن ذلك كان بعلمه تعالى و كان يسير يوسف هذا المسير ليستقر فى مستقر العزه و الملك و النبوه.

قوله تعالى: وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرٰاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كٰانُوا فِيهِ مِنَ

اَلزّاهِدِینَ الثمن البخس هو الناقص عن حق القیمه،و دراهم معدوده أی قلیله و الوجه فیه-علی ما قیل-أنهم کانوا إذا کثرت الدراهم أو الدنانیر وزنوها و لا یعدون إلاّ القلیله منها و المراد بالدراهم النقود الفضیه الدائره بینهم یومئذ،و الشراء هو البیع،و الزهد هو الرغبه عن الشیء أو هو کنایه عن الاتقاء.

و الظاهر من السیاق أن ضمیری الجمع فی قوله: «وَ شَرَوْهُ» «وَ کٰانُوا» للسیاره و المعنی أن السیاره الذین أخرجوه من الجب و أسروه بضاعه باعوه بثمن بخس ناقص و هی دراهم معدوده قلیله و کانوا یتقون أن یظهر حقیقه الحال فینتزع هو من أیدیهم.

قوله تعالی: وَ قٰالَ الَّذِی اشْتَرٰاهُ مِنْ مِصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَکْرِمِی مَثْوٰاهُ عَسیٰ أَنْ یَنْفَعَنٰا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً السیاق یدل علی أن السیاره حملوا یوسف معهم الی مصر و عرضوه هناک للبیع فاشتراه بعض أهل مصر و أدخله فی بیته.

و قد أعجبت الآیات فی ذکر هذا الذی اشتراه و تعریفه فذکر فیها اولا بمثل قوله تعالی:

وَ قٰالَ الَّذِی اشْتَرٰاهُ مِنْ مِصْرَ فأنبأت أنه کان رجلا من أهل مصر،و ثانیا بمثل قوله: وَ أَلْفَیٰا سَیِّدَهٰا لَدَی الْبٰابِ فعرفته بأنه کان سیدا مصمودا الیه،و ثالثا بمثل قوله: وَ قٰالَ نِسْوَةٌ فِی الْمَدِینَةِ امْرَأَتُ الْعَزِیزِ تُرٰاوِدُ فَتٰاهٰا عَنْ نَفْسِهِ فأوضحت أنه کان عزیزا فی مصر یسلم له أهل المدینه العزه و المناعه،ثم أشارت الی أنه کان له سجن و هو من شئون مصدریه الامور و الرئاسه بین الناس،و علم بذلک أن یوسف کان ابتیع أول یوم لعزیز مصر و دخل بیت العزه.

و بالجمله لم یعرف الرجل کل مره فی کلامه تعالی إلاّ بمقدار ما یحتاج الیه موقف الحدیث من القصه،و لم یکن لأول مره فی تعریفه حاجه الی أزید من وصفه بأنه کان رجلا من أهل مصر و بها بیته فلذا اقتصر فی تعریفه بقوله: «وَ قٰالَ الَّذِی اشْتَرٰاهُ مِنْ مِصْرَ» .

و کیف کان،الآیه تنبئ علی إیجازها بأن السیاره حملوا یوسف معهم و أدخلوه مصر و شروه من بعض أهلها فأدخله بیته و وصاه امرأته قائلا:اکرمی مثواه عسی أن ینفعنا أو

نتخذه ولدا.

فقوله: وَ قٰالَ الَّذِی اشْتَرٰاهُ مِنْ مِصْرَ أی العزیز «لاِمْرَأَتِهِ» و هی العزیزه «أَکْرِمِی مَثْوٰاهُ» أی تصدی بنفسک أمره و اجعلی له مقاما کریما عندک «عَسیٰ أَنْ یَنْفَعَنٰا» فی مقاصدنا العالیه و امورنا الهامه «أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» بالتبنی.

قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ مَکَّنّٰا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحٰادِیثِ وَ اللّٰهُ غٰالِبٌ عَلیٰ أَمْرِهِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ قال فی المفردات المکان عند أهل اللغه الموضع الحاوی للشیء قال و یقال:مکنته و مکنت له فتمکن،قال تعالی: وَ لَقَدْ مَکَّنّٰاکُمْ فِی الْأَرْضِ وَ لَقَدْ مَکَّنّٰاهُمْ فِیمٰا إِنْ مَکَّنّٰاکُمْ فِیهِ أَ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ وَ نُمَکِّنَ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ قال:قال الخلیل:المکان مفعل من الکون، و لکثرته فی الکلام أجری مجری فعال فقیل:تمکن و تمسکن مثل تمنزل.انتهی.فالمکان هو مقر الشیء من الأرض،و الإمکان و التمکین الإقرار و التقریر فی المحل،و ربما یطلق المکان المکانه لمستقر الشیء من الامور المعنویه کالمکانه فی العلم و عند الناس یقال:

أمکنته من الشیء فتمکن منه أی أقدرته فقدر علیه و هو من قبیل الکنایه.

و لعل المراد من تمکین یوسف فی الأرض إقراره فیه بما یقدر معه علی التمتع من مزایا الحیاه و التوسع فیها بعد ما حرّم علیه إخوته القرار علی وجه الأرض فألقوه فی غیابه الجب ثم شروه بثمن بخس لیسیر به الرکبان من أرض الی أرض و یتغرّب عن أرضه و مستقر أبیه.

و قد ذکر تعالی تمکینه لیوسف فی الأرض فی خلال قصته مرتین إحداهما بعد ذکر خروجه من غیابه الجب و تسییر السیاره إیاه الی مصر و بیعه من العزیز و هو قوله فی هذه الآیه: وَ کَذٰلِکَ مَکَّنّٰا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ و ثانیتهما بعد ذکر خروجه من سجن العزیز و انتصابه علی خزائن أرض مصر حیث قال تعالی: وَ کَذٰلِکَ مَکَّنّٰا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ یَتَبَوَّأُ مِنْهٰا حَیْثُ یَشٰاءُ (الآیه ۵۶ من السوره)و العنایه فی الموضعین واحده.

و قوله: وَ كَذٰلِكَ مَكَّنّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ الإشاره الى ما ذكره من إخراجه من الجب و بيعه و استقراره فى بيت العزيز فإن كان المراد من تمكينه فى الأرض هذا المقدار من التمكين الذى حصل به من دخوله فى بيت العزيز و استقراره فيه على أهنإ عيش بتوصيه العزيز فالتشبيه من قبيل تشبيه الشىء بنفسه ليدل به على غزاره الاوصاف المذكوره له و ليس من القسم المذموم من تشبيه الشيء بنفسه كقوله:

كأننا و الماء من حولنا

قوم جلوس حولهم ماء

بل المراد أن ما فعلنا به من التمكين فى الأرض كان يماثل هذا الذى وصفناه و أخبرنا عنه فهو يتضمن من الاوصاف الغزيره ما يتضمنه ما حدثناه فهو تلطف فى البيان بجعل الشيء مثل نفسه بالتشبيه دعوى ليلفت به ذهن السامع الى غزاره أوصافه و أهميتها و تعلق النفس بها كما هو شأن التشبيه.

و من هذا الباب قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (الشورى/١١)و قوله تعالى: لِمِثْلِ هٰذٰا فَلْيَعْمَلِ الْعٰامِلُونَ (الصافات/٦١)و المراد أن كل ما اتصف من الصفات بما اتصف به اللّه سبحانه لا يشبهه و لا يماثله شيء،و أن كل ما اشتمل من الصفات على ما اشتملت عليه الجنه و ماثلها فى صفاتها فليعمل العاملون لأجل الفوز به.

و إن كان المراد بالتمكين مطلق تمكينه فى الأرض فتشبيه بما ذكر من الوصف من قبيل تشبيه الكلى ببعض أفراده ليدل به على أن سائر الأفراد حالها حال هذا الفرد أو تشبيه الكل ببعض اجزائه للدلاله على أن الأجزاء الباقيه حالها حال ذاك الجزء المذكور فيكون المعنى كان تمكيننا ليوسف فى الأرض يجرى على هذا النمط المذكور فى قصه خروجه من الجب و دخوله مصر و استقراره فى بيت العزيز على أحسن حال فإن إخوته حسدوه و حرموا عليه القرار على وجه الأرض عند أبيه فألقوه فى غيابه الجب و سلبوه نعمه التمتع فى وطنه فى الباديه و باعوه من السياره ليغربوه من أهله فجعل اللّه سبحانه كيدهم هذا بعينه سببا يتوسل

به الی التمکن و الاستقرار فی بیت العزیز بمصر علی أحسن حال ثم تعلقت به امرأه العزیز و راودته هی و نسوه مصر لیوردنه فی الصبوه و الفحشاء فصرف اللّه عنه کیدهن و جعل ذلک بعینه وسیله لظهور إخلاصه و صدقه فی ایمانه ثم بدا لهم أن یجعلوه فی السجن و یسلبوا عنه حریه معاشره الناس و المخالطه لهم فتسبب اللّه سبحانه بذلک بعینه الی تمکینه فی الأرض تمکینا یتبوّأ من الأرض حیث یشاء لا یمنعه مانع و لا یدفعه دافع.

و بالجمله الآیه علی هذا التقدیر من قبیل قوله تعالی: کَذٰلِکَ یُضِلُّ اللّٰهُ الْکٰافِرِینَ (المؤمن/۷۴)و قوله: کَذٰلِکَ یَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثٰالَ (الرعد/۱۷)أی إن إضلاله تعالی للکافرین یجری دائما هذا المجری،و ضربه الأمثال أبدا علی هذا النحو من المثل المضروب و هو أنموذج ینبغی أن یقال الیه غیره.

و قوله: وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحٰادِیثِ بیان لغایه التمکین المذکور و اللام للغایه،و هو معطوف علی مقدر و التقدیر:مکنا له فی الأرض لنفعل به کذا و کذا و لنعلمه من تأویل الأحادیث و إنما حذف المعطوف علیه للدلاله علی أن هناک غایات أخر لا یسعها مقام التخاطب،و من هذا القبیل قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ نُرِی إِبْرٰاهِیمَ مَلَکُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِیَکُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ (الأنعام/۷۵)و نظائره.

و قوله: وَ اللّٰهُ غٰالِبٌ عَلیٰ أَمْرِهِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ الظاهر أن المراد بالأمر الشأن و هو ما یفعله فی الخلق مما یترکب منه نظام التدبیر قال تعالی: یُدَبِّرُ الْأَمْرَ (یونس/۳)،و إنما أضیف الیه تعالی لأنه مالک کل أمر کما قال تعالی: أَلاٰ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبٰارَکَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمِینَ (الأعراف/۵۴).

و المعنی أن کل شأن من شئون الصنع و الإیجاد من أمره تعالی و هو تعالی غالب علیه و هو مغلوب له مقهور دونه یطیعه فیما شاء،ینقاد له فیما أراد،لیس له أن یستکبر او یتمرد فیخرج من سلطانه کما لیس له أن یسبقه تعالی و یفوته،قال تعالی: إِنَّ اللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ

(الطلاق/۳).

و بالجمله هو تعالى غالب على هـذه الأسـباب الفعاله بإذنه يحمل عليها ما يريده فليس لها إلّا السـمع و الطاعه و لكن أكثر الناس لا يعلمون لحسـبانهم أن الأسباب الظاهره مستقله فى تأثيرها فعاله برءوسها فإذا ساقت الحوادث الى جانب لم يحولها عن وجهتها شىء و قد أخطئوا (۱).

[سوره يوسف (۱۲): الآيات ۲۲ الى ۳۴]

اشاره

وَ لَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذٰلِكَ نَجْزِى اَلْمُحْسِنِينَ (۲۲) وَ رٰاوَدَتْهُ اَلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهٰا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ اَلْأَبْوٰابَ وَ قٰالَتْ هَيْتَ لَكَ قٰالَ مَعٰاذَ اَللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوٰاىَ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ اَلظّٰالِمُونَ (۲۳) وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهٰا لَوْ لاٰ أَنْ رَأىٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ اَلسُّوءَ وَ اَلْفَحْشٰاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا اَلْمُخْلَصِينَ (۲۴) وَ اِسْتَبَقَا اَلْبٰابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَيٰا سَيِّدَهٰا لَدَى اَلْبٰابِ قٰالَتْ مٰا جَزٰاءُ مَنْ أَرٰادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاّٰ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۲۵) قٰالَ هِىَ رٰاوَدَتْنِى عَنْ نَفْسِى وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ أَهْلِهٰا إِنْ كٰانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ اَلْكٰاذِبِينَ (۲۶) وَ إِنْ كٰانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ اَلصّٰادِقِينَ (۲۷) فَلَمّٰا رَأىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قٰالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (۲۸) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذٰا وَ اِسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ اَلْخٰاطِئِينَ (۲۹) وَ قٰالَ نِسْوَةٌ فِى اَلْمَدِينَةِ اِمْرَأَتُ اَلْعَزِيزِ تُرٰاوِدُ فَتٰاهٰا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهٰا حُبًّا إِنّٰا لَنَرٰاهٰا فِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۳۰) فَلَمّٰا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَ آتَتْ كُلَّ وٰاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَ قٰالَتِ اُخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمّٰا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا هٰذٰا بَشَراً إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ مَلَكٌ كَرِيمٌ (۳۱) قٰالَتْ فَذٰلِكُنَّ اَلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَ لَقَدْ رٰاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مٰا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ اَلصّٰاغِرِينَ (۳۲) قٰالَ رَبِّ اَلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّٰا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَ إِلاّٰ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ اَلْجٰاهِلِينَ (۳۳) فَاسْتَجٰابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (۳۴)

۱- ۱) .يوسف ۷-۲۱:بحث روائى حول اطعام المساكين؛يوسف و اخوته؛انواع الانبياء.

بيان:

قوله تعالى: وَ لَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ بلوغ الأشد أن يعمر الإنسان ما تشتد به قوى بدنه و تتقوى به أركانه بذهاب آثار الصباوه،و يأخذ ذلك من ثمانيه شرّ من عمره الى سن الكهوله التى عندها يكمل العقل و يتم الرشد.

و الظاهر أن المراد به الانتهاء الى أول سن الشباب دون التوسط فيه أو الانتهاء الى آخره كالأربعين،و الدليل عليه قوله تعالى فى موسى عليه السّلام: وَ لَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوىٰ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً (القصص١۴/)حيث دل على التوسط فيه بقوله: «اسْتَوىٰ» ،و قوله: حَتّى إِذٰا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قٰالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الآيه؛(الأحقاف١۵/)فلو كان بلوغ الأشد هو بلوغ الأربعين لم تكن حاجه الى تكرار قوله: «بَلَغَ» .

و قوله: آتَيْنٰاهُ حُكْماً الحكم هو القول الفصل و إزاله الشك و الريب من الامور القابله للاختلاف-على ما يتحصل من اللغه-و لازمه إصابه النظر فى عامه المعارف الإنسانيه الراجعه الى المبدأ و المعاد و الأخلاق النفسانيه و الشرائع و الآداب المرتبطه بالمجتمع البشرى.

و بالنظر الى قوله عليه السّلام لصاحبيه فى السجن: إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ (الآيه ۴٠ من السوره)، و قوله بعد: قُضِىَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيٰانِ (الآيه ۴١ من السوره)،يعلم أن هذا الحكم الذى أوتيه كان هو حكم اللّه فكان حكمه حكم اللّه،و هذا هو الذى سأله إبراهيم عليه السّلام من ربه إذ قال: رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَ أَلْحِقْنِى بِالصّٰالِحِينَ (الشعراء٨٣/).

و قوله: وَ عِلْماً و هذا العلم المذكور المنسوب الى إيتائه تعالى كيفما كان و أى مقدار كان علم لا يخالطه جهل كما أن الحكم المذكور معه حكم لا يخالطه هوى نفسانى و لا

تسویل شیطانی کیف؟و الذی آتاهما هو اللّه سبحانه و قد قال تعالی: وَ اللّهُ غٰالِبٌ عَلیٰ أَمْرِهِ (الآیه ۲۱ من السوره)،و قال: إِنَّ اللّهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ (الطلاق۳/)فما آتاه من الحکم لا یخالطه تزلزل الریب و الشک،و ما یؤتیه من العلم لا یکون جهلا البته.

ثم من المعلوم أن هذه المواهب الإلهیه لیست بأعمال جزافیه و لا لغوا أو عبثا منه تعالی فالنفوس التی تؤتی هذا الحکم و العلم لا تستوی هی و النفوس الخاطئه فی حکمها المنغمره فی جهلها،و قد قال تعالی: وَ الْبَلَدُ الطَّیِّبُ یَخْرُجُ نَبٰاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِی خَبُثَ لاٰ یَخْرُجُ إِلاّٰ نَکِداً (الأعراف۵۸/)و الی ذلک الإشاره بقوله: «وَ کَذٰلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ» حیث یدل علی أن هذا الحکم و العلم اللذین آتاهما اللّه إیاهما اللّه إیاه لم یکونا موهبتین ابتدائیتین لا مستدعی لهما أصلا بل هما من قبیل الجزاء جزاه اللّه بهما لکونه من المحسنین.

و لیس من البعید أن یستفاد من قوله: «وَ کَذٰلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ» أن اللّه تعالی یجزی کل محسن-علی اختلاف صفات الإحسان-شیئا من الحکم و العلم یناسب موقعه فی الإحسان و قد قال تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ یُؤْتِکُمْ کِفْلَیْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ یَجْعَلْ لَکُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ (الحدید۲۸/)و قال تعالی: أَ وَ مَنْ کٰانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّٰاسِ (الأنعام۱۲۲/).

و هذا العلم المذکور فی الآیه یتضمن ما وعد اللّه سبحانه تعلیمه لیوسف من تأویل الأحادیث فإنه واقع بین قوله تعالی فی الآیات السابقه: «وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحٰادِیثِ» و قوله حکایه عن یوسف فی قوله لصاحبیه فی السجن: «ذٰلِکُمٰا مِمّٰا عَلَّمَنِی رَبِّی» فافهم ذلک.

قوله تعالی: وَ رٰاوَدَتْهُ الَّتِی هُوَ فِی بَیْتِهٰا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوٰابَ وَ قٰالَتْ هَیْتَ لَکَ قٰالَ مَعٰاذَ اللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوٰایَ إِنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ الظّٰالِمُونَ قال فی المفردات:الرود هو التردد فی طلب الشیء برفق و منه الرائد لطالب الکلاء،قال:و الإراده

منقوله من راد یرود إذا سعی فی طلب شیء،قال:و المراوده أن تنازع غیرک فی الإراده فترید غیر ما یرید أو ترود غیر ما یرود،و راودت فلانا عن کذا،قال تعالی: هِیَ رٰاوَدَتْنِی عَنْ نَفْسِی و قال: تُرٰاوِدُ فَتٰاهٰا عَنْ نَفْسِهِ أی تصرفه عن رأیه،و علی ذلک قوله: وَ لَقَدْ رٰاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ سَنُرٰاوِدُ عَنْهُ أَبٰاهُ انتهی.

و فی المجمع:المراوده المطالبه بأمر بالرفق و اللین لیعمل به و منه المرود لأنه یعمل به، و لا یقال فی المطالبه بدین:راوده،و أصله من راد یرود إذا طلب المرعی،و فی المثل:الرائد لا یکذب أهله،و التغلیق إطباق الباب بما یعسر فتحه،و إنما شدد ذلک لتکثیر الإغلاق أو للمبالغه فی الإیثاق،انتهی.

و هیت لک اسم فعل بمعنی هلم،و معاذ اللّه أی اعوذ باللّه معاذا فهو مفعول مطلق قائم مقام فعله.

و الآیه الکریمه «وَ رٰاوَدَتْهُ الَّتِی هُوَ فِی بَیْتِهٰا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوٰابَ وَ قٰالَتْ هَیْتَ لَکَ قٰالَ مَعٰاذَ اللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوٰایَ إِنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ الظّٰالِمُونَ» علی ما فیها من الإیجاز تنبئ عن إجمال قصه المراوده غیر أن التدبر فی القیود المأخوذه فیها و السیاق الذی هی واقعه فیه و سائر ما یلوح من أطراف قصته المورده فی السوره یجلی عن حقیقه الحال و یکشف القناع عن تفصیل ما خبئ من الأمر (1).

و قوله: قٰالَ مَعٰاذَ اللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوٰایَ الی آخر الآیه؛جواب لیوسف یقابل به مسألتها بالعیاذ باللّه یقول:أعوذ باللّه معاذا مما تدعیننی الیه لأنه ربی الذی تولی أمری و أحسن مثوای و جعلنی بذلک سعیدا مفلحا و لو اقترفت هذا الظلم لتغربت به عن الفلاح و خرجت به من تحت ولایته.

1- 1) .یوسف 22-34:کلام حول قصه یوسف(یوسف،امرأه العزیز،یوسف و امرأه العزیز).

و قـد راعى عليه السّـلام فى كلامه هذا أدب العبوديه كله كما تقدم و قد أتى أولا بلفظه«الجلاله» ثم بصـفه الربوبيه ليدل به على أنه لا يعبد ربا غير اللّه مله آبائه إبراهيم و إسحاق و يعقوب.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ التدبر البالغ فى أطراف القصه و إمعان النظر فيما محتف به الجهات و الأسباب و الشرائط العامله فيها يعطى أن نجاه يوسف منها لم تكن إلاّ أمرا خارقا للعاده و واقعه هى أشبه بالرؤيا منها باليقظه.

فقـد كـان يوسف عليه السّـلام رجلاـ و من غريزه الرجال الميل الى النساء،و كان شابا بالغا أشـده و ذلك أو ان غليان الشـهوه و ثوران الشـبق،و كان ذا جمال بديع يدهش العقول و يسلب الألباب و الجمال و الملاحه يدعو الى الهوى و الترح،و كان مستغرقا فى النعمه و هنىء العيش محبورا بمثوى كريم و ذلك من أقوى أسباب التهوس و الإـتراف،و كانت الملكه فتاه فائقه الجمال و كذلك تكون حرم الملوك و العظماء.

و كانت لا محاله متزينه بما يأخذ بمجامع كل قلب،و هى عزيزه مصر و هى عاشقه و آلهه تتوق إليها النفوس نفسها اليه،و كانت لهـا سوابق الإـكرام و الإحسـان و الإنعـام ليوسف و ذلك كله ممـا يقطع اللسان و يصـمت الإنسان،و قـد تعرضت له و دعته الى نفسـها و الصبر مع التعرض أصـعب،و قـد راودته هـذه الفتـانه و أتت فيها بما فى مقـدرتها من الغنـج و الـدلال،و قـد ألحت عليه فجذبته الى نفسها حتى قدت قميصه و الصبر معها أصعب و أشق،و كانت عزيزه لا يرد أمرها و لا يثنى رأيها،و هى ربته خصه بها العزيز،و كانا فى قصر زاه من قصور الملوك ذى المناظر الرائقه التى تبهر العيون و تدعو الى كل عيش هنىء.

و كانـا فى خلوه و قـد غلقت الأبواب و أرخت السـتور،و كان لا يأمن الشـر مع الامتناع، و كان فى أمن من ظهور الأمر و انهتاك الستر لأنهـا كـانت عزيزه بيـدها أسـباب الستر و التعميه، و لم تكن هـذه المخالطه فائته لمره بل كان مفتاحا لعيش هنىء طويل،و كان يمكن ليوسف

أن يجعل هذه المخالطه و المعاشقه وسيله يتوسل بها الى كثير من آمال الحياه و أمانيها كالملک و العزه و المال.

فهذه أسباب و أمور هائله لو توجهت الى جبل لهدته أو أقبلت على صخره صماء لأذابتها و لم يكن هناک مما يتوهم مانعا إلّا الخوف من ظهور الأمر أو مناعه نسب يوسف أو قبح الخيانه للعزيز.

أما الخوف من ظهور الأمر فقد مر أنه كان فى أمر منه.و لو كان بدأ من ذلک شیء لكان فى وسع العزيزه أن تؤوله تأويلا كما فعلت فيما ظهر من أمر مراودتها فكادت حتى أرضت نفس العزيز إرضاء فلم يؤاخذها بشیء و قلبت العقوبه ليوسف حتى سجن.

و أما مناعه النسب فلو كانت مانعه لمنعت إخوه يوسف عما هو أعظم من الزنا و أشد إثما فإنهم كانوا أبناء إبراهيم و إسحاق و يعقوب أمثال يوسف فلم تمنعهم شرافه النسب من أن يهموا بقتله و يلقوه فى غيابت الجب و يبيعون من السياره بيع العبيد و يثكلوا فيه أباهم يعقوب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فبكى حتى ابيضت عيناه.

و أما قبح الخيانه و حرمتها فهو من القوانين الاجتماعيه و القوانين الاجتماعيه إنما تؤثر أثرها بما تستتبعه من التبعه على تقدير المخالفه،و ذلک إنما يتم فيما إذا كان الإنسان تحت سلطه القوه المجريه و الحكومه العادله،و أما لو أغفلت القوه المجريه أو فسقت فأهملت أو خفى الجرم عن نظرها أو خرج من سلطانها فلا تأثير حينئذ لشیء من هذه القوانين كما سنتكلم فيه عن قريب.

فلم يكن عند يوسف عليه السّلام ما يدفع به عن نفسه و يظهر به على هذه الأسباب القويه التى كانت لها عليه إلّا أصل التوحيد و هو الإيمان باللّه.و إن شئت فقل المحبه الإلهيه التى ملأت وجوده و شغلت قلبه فلم تترک لغيرها محلا و لا موضع إصبع.فهذا هو ما يفيده التدبر فى القصه.و لنرجع الى متن الآيه.

فقوله تعالى: وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهٰا لَوْ لاٰ أَنْ رَأىٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشٰاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُخْلَصِينَ لا ريب أن الآيه تشير الى وجه نجاه يوسف من هذه الغائله،و السياق يعطى أن المراد بصرف السوء و الفحشاء عنه إنجاؤه مما أريد منه و سئل بالمراوده و الخلوه،و إن المشار اليه بقوله: «كَذٰلِكَ» هو ما يشتمل عليه قوله: «أَنْ رَأىٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ» .

فيئول معنى قوله: «كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ» الى آخر الآيه؛الى أنه عليه السّلام لما كان من عبادنا المخلصين صرفنا عنه السوء و الفحشاء بما رأى من برهان ربه فرؤيه برهان ربه هى السبب الذى صرف اللّه سبحانه به السوء و الفحشاء عن يوسف عليه السّلام.

و لازم ذلك أن يكون الجزاء المقدر لقوله: «لَوْ لاٰ أَنْ رَأىٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ» هو ارتكاب السوء و الفحشاء،و لازم ذلك أن يكون «لَوْ لاٰ أَنْ رَأىٰ» الخ؛قيدا لقوله: «وَ هَمَّ بِهٰا» و ذلك يقتضى أن يكون المراد بهمه بها نظير همها به هو القصد الى المعصيه و يكون حينئذ همه بها داخلا تحت الشرط،و المعنى أنه لو لا أن رأى برهان ربه لهم بها و أوشك أن يرتكب فإن «لَوْ لاٰ» ،و إن كانت ملحقه بأدوات الشرط و قد منع النحاه تقدم جزائها عليها قياسا على إن الشرطيه إلاّ أن قوله: «وَ هَمَّ بِهٰا» ليس جزاء لها بل هو مقسم به بالعطف على قوله: «وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ» و هو فى معنى الجزاء استغنى به عن ذكر الجزاء فهو كقولنا:و اللّه لأضربنه إن يضربنى و المعنى:و اللّه إن يضربنى أضربه.

و معنى الآيه:و اللّه لقد همت به و اللّه لو لا أن رأى برهان ربه لهمّ بها و أوشك أن يقع فى المعصيه،و إنما قلنا:أوشك أن يقع،و لم نقل:وقع لأن الهم-كما قيل-لا يستعمل إلاّ فيما كان مقرونا بالمانع كقوله تعالى: وَ هَمُّوا بِمٰا لَمْ يَنٰالُوا (التوبه/۷۴)،و قوله: إِذْ هَمَّتْ طٰائِفَتٰانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاٰ (آل عمران/۱۲۲)،و قول صخر:

أهمّ بأمر الحزم لا أستطيعه

و قد حيل بين العير و النزوان

فلو لا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهم و الاقتراب دون الارتكاب و الاقتراف،و قد أشار سبحانه الى ذلک بقوله: «لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ» و لم يقل:لنصرفه عن السوء و الفحشاء فتدبر فيه.

و من هنا يظهر أن الأنسب أن يكون المراد بالسوء هو الهمّ بها و الميل إليها كما أن المراد بالفحشاء اقتراف الفاحشه و هى الزنا فهو عليه السّلام لم فعل و لم يكد،و لو لا ما أراه اللّه من البرهان لهمّ و كاد أن يفعل،و هذا المعنى هو الذى يؤيده ما قدمناه من الاعتبار و التأمل فى الأسباب و العوامل المجتمعه فى هذا الحين القاضيه لها عليه.

فقوله تعالى: وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ اللام فيه للقسم،و المعنى و أقسم لقد قصدت يوسف بما تريده منه و لا يكون الهم إلاّ بأن تشفع الإراده بشىء من العمل.

و قوله: وَ هَمَّ بِهٰا لَوْ لاٰ أَنْ رَأىٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ معطوف على مدخول لام القسم من الجمله السابقه،و المعنى أقسم لو لا رؤيته برهان ربه لهمّ بها و كاد أن يجيبها لما تريده منه.

و البرهان هو السلطان و يراد به السبب المفيد لليقين لتسلطه على القلوب كالمعجزه قال تعالى: فَذٰانِکَ بُرْهٰانٰانِ مِنْ رَبِّکَ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ (القصص۳۲/)،و قال: يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ قَدْ جٰاءَكُمْ بُرْهٰانٌ مِنْ رَبِّكُمْ (النساء۱۷۴/)،و قال: أَ إِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (النمل۶۴/)و هو الحجه اليقينيه التى تجلى الحق و لا تدع ريبا لمرتاب.

و الذى رآه يوسف عليه السّلام من برهان ربه و إن لم يوضحه كلامه تعالى كل الإيضاح لكنه -على أى حال-كان سببا من أسباب اليقين لا يجامع الجهل و الضلال بتاتا،و يدل على أنه كان من قبيل العلم قول يوسف عليه السّلام فيما يناجى ربه كما سيأتى: وَ إِلاّٰ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجٰاهِلِينَ (الآيه ۳۳ من السوره)،و يدل على أنه ليس من العلم المتعارف بحسن الأفعال و قبحها و مصلحتها و مفسدتها أن هذا النوع من العلم قد

يجامع الضـلال و المعصـيه و هو ظاهر،قال تعالى: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ (الجاثيه۲۳/)و قال: وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ (النمل۱۴/).

فالبرهـان الـذى أراه به و هو الـذى يريه اللّه عبـاده المخلصـين نوع من العلم المكشوف و اليقين المشـهود تطيعه النفس الإنسانيه طاعه لا تميل معها الى معصيه أصلا،و سنورد فيه بعض الكلام إن شاء اللّه تعالى.

و قـوله: كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشٰاءَ اللام فى «لِنَصْرِفَ» للغـايه أو التعليـل و المـآل واحـد و «كَذٰلِكَ» متعلق بقوله: «لِنَصْرِفَ» و الإشاره الى ما ذكر من رؤيه برهان ربه،و السوء هو الذى يسوء صدوره من العبد بما هو عبد و هو مطلق المعصيه أو الهمّ بها،و الفحشاء هو ارتكاب الأعمال الشنيعه كالزنا،و قد تقدم أن ظاهر السياق انطباق السوء و الفحشاء على الزنا و الهمّ به.

و المعنى:الغايه-أو السبب-فى أن رأى برهان ربه هى أن نصرف عنه الفحشاء و الهمّ بها.

و من لطيـف الإشـاره فى الآـيه مـا فى قـوله: «لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشٰاءَ» حيث أخـذ السوء و الفحشـاء مصـروفين عنه لاـ هو مصـروفا عنهما،لما فى الثانى من الـدلاله على أنه كان فيه ما يقتضـى اقترافهما المحوج الى صـرفه عن ذلك،و هو ينافى شـهادته تعـالى بأنه من عباده المخلصـين و هم الـذين أخلصـهم اللّه لنفسه فلا يشاركه فيهم شـىء فلا يطيعون غيره من تسويل شيطان أو تزيين نفس أو أى داع يدعو من دون اللّه سبحانه.

و قوله: إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُخْلَصِينَ فى مقام التعليل لقوله: «كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ» الـخ؛و المعنى:عاملنا يوسف كـذلك لأنه من عبادنا المخلصين،و هم يعاملون هذه المعامله.

و يظهر من الآـيه أن من شأن المخلصـين من عباد اللّه أن يروا برهان ربهم،و أن اللّه سـبحانه يصـرف كل سوء و فحشاء عنهم فلا يقترفون معصيه و لا يهمون بها بما يريهم اللّه من برهانه،

و هذه هی العصمه الإلهیه.

و یظهر أیضا أن هذا البرهان سبب علمی یقینی لکن لا من العلوم المتعارفه المعهوده لنا (۱).

قوله تعالی: وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ وَ قَدَّتْ قَمِیصَهُ مِنْ دُبُرٍ الاستباق هو التسابق و قد تقدم،و القد و القط هو الشق إلاّ أن القد هو الشق طولا و القط هو الشق عرضا،و الدبر و القبل کالخلف و الأمام.

و السیاق یعطی أن استباقهما کان لغرضین مختلفین فکان یوسف علیه السّلام یرید أن یفتحه و یتخلص منها بالخروج من البیت،و امرأه العزیز کانت ترید أن تسبقه الیه فتمنعه من الفتح و الخروج لعلها تفوز بما تریده منه،و أن یوسف سبقها الی الباب فاجتذبته من قمیصه من الوراء فقدته و لم ینقدّ إلاّ لأنه کان فی حال الهرب مبتعدا منها و إلاّ لم ینشق طولا.

و قوله: وَ أَلْفَیٰا سَیِّدَهٰا لَدَی الْبَابِ الإلفاء الوجدان یقال:ألفیته کذا أی وجدت و المراد بسیدها زوجها.قیل:إنه جری علی عرف مصر و قد کانت النساء بمصر یلقین زوجهن بالسید،و هو مستمر الی هذا الزمان.

قوله تعالی: قٰالَتْ مٰا جَزٰاءُ مَنْ أَرٰادَ بِأَهْلِکَ سُوءاً إِلاّٰ أَنْ یُسْجَنَ أَوْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ لما ألفیا سیدها لدی الباب انقلب مجلس المراوده الی موقف التحقیق،و إنما أوجد هذا الموقف وجود العزیز لدی الباب و حضورهما و الهیئه هذه الهیئه عنده،و یتکفل ما جری فی هذا الموقف قوله: «وَ أَلْفَیٰا سَیِّدَهٰا لَدَی الْبَابِ» الی تمام خمس آیات.

فبدأت امرأه العزیز تشکو یوسف الیه و تسأله أن یجازیه فذکرت أنه أراد بها سوء و علیه أن یسجنه أو یعذبه عذابا ألیما لکنها لم تصرح بذلک و لا بشیء من أطراف الواقعه بل کنّت

۱- ۱) .یوسف ۲۲-۳۴:بحث تفسیری و آراء المفسرین حول الآیه «وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهٰا» ؛معنی هم یوسف بها.

و أتت بحكم عام عقلائى يتضمن مجازاه من قصد ذوات البعل بالفحشاء فقالت «مٰا جَزٰاءُ مَنْ أَرٰادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاّٰ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ» فلم يصرح باسم يوسف و هو المريد،و لا باسم نفسها و هى الأهل،و لا باسم السوء و هو الزنا بذات البعل كل ذلك تأدبا فى حضره العزيز و تقديسا لساحته.

و لم يتعين الجزاء بل رددته بين السجن و العذاب الأليم لأن قلبها الواله اليه المليء بحبه ما كان يساعدها على التعيين فإن فى الإبهام نوعا من الفرج إلاّ أن فى تعبيرها بقولها:

«بِأَهْلِكَ» نوعا من التحريض عليه و تهييجه على مؤاخذته و لم يكن ذلك إلاّ كيدا منها للعزيز بالتظاهر بالوجد و الأسى لئلا يتفطن بواقع الأمر فيؤاخذها أما إذا صرفته عن نفسها المجرمه فإن صرفه عن مؤاخذه يوسف عليه السّلام لم يكن صعبا عليها تلك الصعوبه.

قوله تعالى: قٰالَ هِيَ رٰاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي لم يبدأ يوسف عليه السّلام بالقول أدبا مع العزيز و صونا لها أن يرميها بالجرم لكن لما اتهمته بقصدها بالسوء لم ير بدا دون أن يصرح بالحق فقال «هِيَ رٰاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي» و فى الكلام دلاله على القصر و هى من قصر القلب أى لم اردها بالسوء بل هى التى أرادت ذلك فراودتنى عن نفسى.

و فى كلامه هذا-و هو خال عن أقسام التأكيد كالقسم و نحوه-دلاله على سكون نفسه عليه السّلام و طمأنينته و أنه لم يحتشم و لم يجزع و لم يتملق حين دعوى براءته مما رمته به إذ كان لم يأت بسوء و لا يخافها و لا ما اتهمته و قد استعاذ بربه حين قال «مَعٰاذَ اللّٰهِ» .

قوله تعالى: وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ أَهْلِهٰا إِنْ كٰانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكٰاذِبِينَ الى آخر الآيتين.لما كانت الشهاده فى معنى القول كان قوله: «إِنْ كٰانَ قَمِيصُهُ» الخ؛بمنزله مقول القول بالنسبه اليه فلا حاجه الى تقدير القول قبل قوله: «إِنْ كٰانَ قَمِيصُهُ» الخ؛و قد قيل:إن هذا القول لما أدى مؤدى الشهاده عبر عنه بلفظ الشهاده.

و قد أشار هذا الشاهد الى دليل ينحل به العقده و يتضح طريق القضيه فتكلم فقال «إِنْ

كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ» فإن من البين أن أحدهما صادق فى دعواه و الآخر كاذب،و كون القدّ من قبل يدل على منازعتهما و مصارعتهما بالمواجهه فالقضاء لها عليه،و إن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت و هو من الصادقين فإن كون القدّ من دبر يدل على هربه منها و تعقيبها إياه و اجتذابها له الى نفسها فالقضاء له عليها.و هو ظاهر.

و أمّا من هذا الشاهد؟فقد اختلف فيه المفسرون فقال بعضهم:كان رجلا حكيما أشار للعزيز بما أشار كما عن الحسن و قتاده و عكرمه،و قيل:كان رجلا و هو ابن عم المرأه و كان جالسا من زوجها لدى الباب،و قيل:لم يكن من الإنس و لا الجن بل خلقا من خلق اللّه كما عن مجاهد،و رد بمنافاته الصريحه لقوله تعالى: «مِنْ أَهْلِها» .

و من طرق أهل البيت عليهم السّلام و بعض طرق أهل السنه أنه كان صبيا فى المهد من أهلها، و سيجىء فى البحث الروائى التالى إن شاء اللّه تعالى.

و الذى ينبغى أن ينظر فيه أن الذى أتى به هذا الشاهد بيان عقلى و دليل فكرى يؤدى الى نتيجه هى القاضيه لأحد هذين المتداعيين على الآخر،و مثل هذا لا يسمى شهاده عرفا فإنها هى البيان المعتمد على الحس أو ما فى حكمه و بالجمله القول الذى لا يعتمد على التفكير و التعقل كما فى قوله: شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ (حم السجده/ ٢٠)،و قوله: قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللّهِ (المنافقون١/)فإن الحكم بصدق الرساله و إن كان فى نفسه مستندا الى التفكر و التعقل لكن المراد بالشهاده تأديه ما عنده من الحق المعلوم قطعا من غير ملاحظه كونه عن تفكر و تعقل كما فى موارد يعبر عنه فيها بالقول و نحوه.

فليس من البعيد أن يكون فى التعبير عن قول هذا القائل بمثل «وَ شَهِدَ شاهِدٌ» إشاره الى كون ذلك كلاما صدر عنه من غير ترو و فكر فيكون شهاده لعدم اعتماده على تفكر و تعقل لا قولا يعبر به عرفا عن البيان الذى يبتنى على ترو و تفكر،و بهذا يتأيد ما ورد من الروايه أنه

كان صبيا فى المهد فقد كان ذلك بنوع من الإعجاز أيد اللّه سبحانه به قول يوسف عليه السّلام.

قوله تعـالى: فَلَمّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ،أى فلما رأى العزيز قميص يوسف و الحال أنه مقدود مشوق من خلف،قال إن الأمر من كيدكن معاشر النساء إن كيدكن عظيم فمرجع الضمائر معلوم من السياق.

و نسـبه الكيد الى جماعه النساء مع كونه من امرأته الدلاله على أنه إنما صدر منها بما أنها من النساء،و كيدهن معهود معروف،و لـذا اسـتعظمه و قـال ثانيـا «إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ» و ذلـك أن الرجـال اوتوا من الميل و الانجـذاب اليهن ما ليس يخفى و اوتين من أسـباب الاسـتماله و الجلب مـا فى وسـعهن أن يأخـذن بمجـامع قلوب الرجال و يسـخرن أرواحهم بجلوات فتانه و أطوار سـحاره تسـلب أحلامهم،و تصرفهم الى إرادتهن من حيث لا يشعرون و هو الكيد و إراده الإنسان بالسوء و مفاد الآيه أن العزيز لما شاهد أن قميصه مقدود من خلف قضى ليوسف عليه السّلام على امرأته.

قوله تعـالى: يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَ اسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ من مقول قول العزيز أى إنه بعـد ما قضـى له عليها أمر يوسف أن يعرض عن الأمر و أمر امرأته أن تستغفر لذنبها و من خطيئتها.

فقوله: يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا يشـير الى ما وقع من الأمر و يعزم على يوسف أن يعرض عنه و يفرضه كأن لم يكن فلا يحدث به و لا يـذيعه،و لم يرد فى كلامه تعالى ما يدل على أن يوسف عليه السّلام حدث به أحدا و هو الظن به عليه السّلام كما نرى أنه لم يظهر حـديث المراوده للعزيز حتى اتهمته بسوء القصـد فـذكر الحق عنـد ذلـك لكن كيف يخفى حـديث اسـتمر عهـدا ليس بالقصـير،و قـد اسـتولى عليهـا الوله و سـلب منهـا الغرام كل حلم و حزم،و لم تكن المراوده مره أو مرتين و الـدليل على ذلك ما سيأتى من قول النسوه «امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا» .

و قوله: وَ اسْتَغْفِرِی لِذَنْبِکِ إِنَّکِ کُنْتِ مِنَ الْخٰاطِئِینَ یقرر لها الذنب و یأمرها أن تستغفر ربها لذلک الذنب لأنها کانت بذلک من أهل الخطیئه،و لذلک قیل «مِنَ الْخٰاطِئِینَ» و لم قل من الخاطئات.

و هذا کله من کلام العزیز علی ما یعطیه السیاق لا من کلام الشاهد لأنه قضاء و حکم و القضاء العزیز لا للشاهد.

قوله تعالی: وَ قٰالَ نِسْوَهٌ فِی الْمَدِینَهِ امْرَأَتُ الْعَزِیزِ تُرٰاوِدُ فَتٰاهٰا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهٰا حُبًّا إِنّٰا لَنَرٰاهٰا فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ قصه نسوه مصر مع یوسف فی بیت العزیز تتضمنها الآیه الی تمام ست آیات.

و الذی یعطیه التدبر فیها بما ینضم إلیها من قرائن الأحوال و ما یستوجبه طبع القصه أنه لما کان من أمر یوسف و العزیزه ما کان،شاع الخبر فی المدینه تدریجا،و صارت النساء و هن سیدات المدینه یتحدثن به فی مجامعهن و محافلهن فیما بینهن و یعیرن بذلک عزیزه مصر و یعبنها أنها تولهت الی فتاها و افتتنت به و قد أحاط بها حبا فظلت تراوده عن نفسه، و ضلت به ضلالا مبینا.

و کان ذلک مکرا منهن بها علی ما فی طبع أکثر النساء من الحسد و العجب فإن المرأه تغلبه العواطف الرقیقه و الإحساسات اللطیفه و رکوز لطف الخلقه و جمال الطبیعه فیها مشعوفه القلب بالزینه و الجمال متعلقه الفؤاد برسوم الدلال،و یورث ذلک فیها و خاصه فی الفتیات إعجابا بالنفس و حسدا للغیر.

فقوله تعالی: وَ قٰالَ نِسْوَهٌ فِی الْمَدِینَهِ امْرَأَتُ الْعَزِیزِ تُرٰاوِدُ فَتٰاهٰا الخ؛النسوه اسم جمع للمرأه و تقییده بقوله:فی المدینه تفید أنهن کن من جهه العدد أو الشأن بحال تؤثر قولهن فی شیوع الفضیحه.

و امرأه العزیز هی التی کان یوسف فی بیتها و قد راودته عن نفسه و العزیز معناه معروف،

و قد كان يلقب به السيد الذى اشترى يوسف من السياره و كان يلقب به الرؤساء بمصر كما لقب به يوسف بعد ما جعل على خزائن الأرض.

و فى قوله: تُرٰاوِدُ دلاله على الاستمرار و هو أفحش المراوده،و الفتى الغلام الشاب و المرأه فتاه،و قد شاع تسميه العبد فتى و كأنه بهذه العنايه اضيف الى ضميرها فقيل «فَتٰاهٰا» .

و فى المفردات «شَغَفَهٰا حُبًّا» أى أصاب شغاف قلبها أى باطنه.عن الحسن،و قيل:

وسطه.عن أبى على،و هما يتقاربان انتهى.و شغاف القلب غلافه المحيط به.

و المعنى:و قال عده من نساء المدينه لا يخلو قولهن من أثر فيها و فى حقها:امرأه تستمر فى مراوده عبدها عن نفسه و لا يحرى بها ذلك لأنها مرأه و من القحه أن تراود المرأه الرجل بل ذاك-إن كان-من طبع الرجال و إنها امرأه العزيز فهى عزيزه مصر فمن الواجب الذى لا معدل عنه أن تراعى شرف بيتها و عزه زوجها و مكانه نفسها،و إن الذى علقت به عبدها و من الشنيع أن يتوله مثلها و هى عزيزه مصر بعبد عبرانى من جمله عبيده،و إنها أحبته و تعدت ذلك الى مراودته فامتنع من إجابتها فلم تنته حتى ألحت و استمرت على مراودته و ذلك أقبح و أشنع و أمعن فى الضلال.

و ذلك عقبن قوله: «امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرٰاوِدُ» الخ؛بقولهن: «إِنّٰا لَنَرٰاهٰا فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ» .

قوله تعالى: فَلَمّٰا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَ آتَتْ كُلَّ وٰاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً قال فى المجمع:المكر هو القتل بالحيله على ما يراد من الطلبه.انتهى.و تسميه هذا القول منهن مكرا بامرأه العزيز لما فيه من فضاحتها و هتك سترها من ناحيه رقيباتها حسدا و بغيا،و إنما أرسلت اليهن لتريهن يوسف و تبتليهن بما ابتليت به نفسها فيكففن عن لومها و يعذرنها فى حبه.

و على هذا إنما سمى قولهن مكرا و نسب السمع اليه لأنه صدر منهن حسدا و بغيا لغايه

فضاحتها بين الناس.

و قوله: أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ معناه معلوم و هو كنايه عن الدعوه الى الحضور عندها.

و قوله: وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَ آتَتْ كُلَّ وٰاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً الإعتاد الإعداد و المراد به ما يتكأ عليه من نمرق أو كرسى كما كان معمولا فى بيوت العظماء.

و فسر المتكأ بالاترج و هو نوع من الفاكهه كما قرئ فى الشواذ «مُتَّكَأً» بالضم فالسكون و هو الاترج و قرئ «مُتَّكَأً» بضم الميم و تشديد التاء من غير همز.

و قوله: وَ آتَتْ كُلَّ وٰاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً أى لقطع ما يرون أكله من الفاكهه كالاترج أو ما يشابهه من الفواكه المأكوله بالقطع و قوله: «وَ قٰالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ» أى أمرت يوسف أن يخرج عليهن و هن خاليات الأذهان فارغات القلوب مشتغلات بأخذ الفاكهه و قطعها،و فى اللفظ دلاله على أنه عليه السّلام كان غائبا عنهن و كان فى مخدع هناك أو بيت آخر فى داخل بيت المأدبه الذى كن فيه فإنها قالت «اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ» و لو كان فى خارج من البيت لقالت«ادخل عليهن».

و فى السياق دلاله على أن هذا التدبير كان مكرا منها تجاه مكرهن ليفتضحن به فيعذرنها فيما عذلنها،و قد أصابت فى رأيها حيث نظمت برنامج الملاقاه فأعتدت لهن متكأ و آتت كل واحده منهن سكينا،و أخفت يوسف عن أعينهن ثم فاجأتهن بإظهاره دفعه لهن ليغبن عن عقولهن،و يندهشن بذاك الجمال البديع و يأتين بما لا يأتى به ذو شعور البته و هو تقطيع الأيدى مكان الفواكه لا من الواحده و الثنتين منهن بل من الجميع.

قوله تعالى: فَلَمّٰا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا هٰذٰا بَشَراً إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ مَلَكٌ كَرِيمٌ الإكبار الإعظام و هو كنايه عن اندهاشهن و غيبتهن عن شعورهن و إرادتهن بمفاجأه مشاهده ذاك الحسن الرائع طبقا للناموس الكونى العام و هو خضوع الصغير للكبير و قهر العظيم للحقير فإذا ظهر العظيم الكبير بعظمته و كبريائه لشعور

الإنسان قهر سائر ما فی ذهنه من المقاصد و الأفکار فأنساها و صار یتخبط فی أعماله.

و لـذلک لمـا رأینه قهرت رؤیته شعورهن فقطعن ایـدیهن تقطیعـا مکان الفاکهه التی کن یردن قطعها،و فی صیغه التفعیل دلاله علی الکثره یقال:قتل القوم تقتیلا و موّتهم الجدب تمویتا.

و قوله: وَ قُلْنَ حٰاشَ لِلّٰهِ تنزیه للّه سبحانه فی أمر یوسف و هذا کقوله تعالی: مٰا یَکُونُ لَنٰا أَنْ نَتَکَلَّمَ بِهٰذٰا سُبْحٰانَکَ هٰذٰا بُهْتٰانٌ عَظِیمٌ (النور۱۶/)و هـو أدب الکلاـم عنـد الملیین إذا جری القول فی أمر فیه نوع تنزیه و تـبرئه لأحـد یبـدأ فینزه اللّه سـبحانه ثم یشـتغل بتنزیه من ارید تنزیهه فهن لما أردن تنزیه علیه السّلام بقولهن: «مٰا هٰذٰا بَشَراً» الخ؛بدأن بتنزیهه تعالی،ثم أخذن ینزهنه.

و قوله: مٰا هٰذٰا بَشَراً إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ مَلَکٌ کَرِیمٌ نفی أن یکون یوسف علیه السّـلام بشـرا و إثبات أنه ملک کریم،و هـذا بناء علی ما یعتقـده الملیون و منهم الوثنیون أن الملاـئکه موجودات شـریفه هم مبـادئ کل خیر و سـعاده فی العالم منهم یترشـح کل حیاه و علم و حسن و بهاء و سـرور و سائر ما یتمنی و یؤمل من الامور ففیهم کل جمال صوری و معنوی، و إذا مثلوا تخیلوا فی حسن لا یقدر بقدر،و یتصوره أصحاب الأصنام فی صور إنسانیه حسنه بهیه.

و لعل هذا هو السـبب فی قولهن: «إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ مَلَکٌ کَرِیمٌ» حیث لم یصفنه بما یدل علی حسن الوجه و جمال المنظر مع أن الذی فعل بهن ما فعل هو حسن وجهه و اعتدال صورته بل سـمینه ملکا کریما لتکون فیه إشاره الی حسن صورته و سیرته معا،و جمال خلقه و خلقه و ظاهره و باطنه جمیعا.و اللّه أعلم.

و تقـدم قولهن هذا علی قول امرأه العزیز:«فذلکن الذی لمتنی فیه»یدل علی أنهن لم یفهمهن بهذا الکلام إعذار لامرأه العزیز فی حبها له و تیمها و غرامها به،و إنما کان ذلک اضطرارا

منهن على الثناء عليه و إظهارا قهريا لانجذاب نفوسهن و توله قلوبهن اليه فقد كان فيه فضاحتهن،و لم تقل امرأه العزيز«فذلكن الذى لمتنى فيه»إلاّ بعد ما فضحتهن فعلا و قولا بتقطيع الأيدى و تنزيه الحسن فلم يبق لهن إلاّ أن يصدقنها فيما تقول و يعذرنها فيما تفعل.

قوله تعالى: قٰالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ رٰاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ الى آخر الآيه؛الكلام فى موضع دفع الدخل كأن قائلا يقول:فما ذا قالت امرأه العزيز لهن؟فقيل «قٰالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ» .

و قد فرعت كلامها على ما تقدمه من قولهن و فعلهن و أشارت الى شخص الذى لمنها فيه و وصفته بأنه الذى لمنها فيه ليكون هو بعينه جوابا لما رمينها به من ترك شرف بيتها و عزه زوجها و عفه نفسها فى حبه،و عذرا قبال لومهن إياها فى مراودته،و أقوى البيان أن يحال السامع الى العيان،و من هذا الباب قوله تعالى: أَ هٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ (الأنبياء/ ۳۶)،و قوله: رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ أَضَلُّونٰا (الأعراف/۳۸).

ثم اعترفت بالمراوده و ذكرت لهن أنها راودته لكنه أخذ بالعفه و طلب العصمه،و إنما استرسلت و أظهرت لهن ما لم تزل تخفيه لما تخفيه لما رأت موافقه القلوب على التوله فيه فبثت الشكوى لهن و نبهت يوسف أنها غير تاركته فلوطن نفسه على طاعتها فيما تأمر به، و هذا معنى قولها: «وَ لَقَدْ رٰاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ» .

ثم ذكرت لهن ما عزمت عليه من إجباره على الموافقه و سياسته لو خالف فقالت «وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مٰا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصّٰاغِرِينَ» و قد أكدت الكلام بوجوه من التأكيد كالقسم و النون و اللام و نحوها ليدل على أنها عزمت على ذلك عزيمه جازمه،و عندها ما يجبره على ما أرادته و لو استنكف فليوطن نفسه على السجن بعد الراحه،و الصغار و الهوان بعد الإكرام و الاحترام،و فى الكلام تجلد و نوع تعزز و تمنع بالنسبه اليهن و نوع تنبيه و تهديد بالنسبه الى يوسف عليه السّلام.

و هـذا التهديـد الذى يتضـمنه قولها: «وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مٰا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصّٰاغِرِينَ» أشد و أهول مما سألته زوجها يوم المراوده بقولها: «مٰا جَزٰاءُ مَنْ أَرٰادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاّٰ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ» .

أما أولا:فلانها رددت الجزاء هناك بين السجن و العذاب الاليم و جمع هاهنا بين الجزاءين و هو السجن و الكون من الصاغرين.

و أمـا ثانيا:فلانها هاهنا قامت بالتهديـد بنفسـها لا بأن تسأل زوجها،و كلامها كلام من لا يتردد فيما عزم عليه و لا يرجع عما حزم به.و قد حققت أنها تملك قلب زوجها و تقدر أن تصرفه مما يريده الى ما تريده،و تقوى على التصرف فى أمره كيفما شاءت؟

قوله تعالى: قٰالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّٰا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلاّٰ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجٰاهِلِينَ قال الراغب فى المفردات:صبا فلان يصبو صبوا و صبوه إذا نزع و اشتاق و فعل فعل الصبيان،قال تعالى «أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجٰاهِلِينَ» انتهى.و فى المجمع:الصبوه لطافه الهوى.انتهى.

تفاوضت امرأه العزيز و النسوه فقالت و قلن و استرسلن فى بت ما فى ضـمائرهن و يوسف عليه السّلام واقف أمامهن يـدعونه و يراودونه عن نفسه لكن يوسف عليه السّلام لم يلتفت اليهن و لا كلمهن و لا بكلمه بـل رجع الى ربه الـذى ملـك قلبه بقلب لا مكان فيه إلاّ له و لا شغل لا إلاّ به «قٰالَ:رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّٰا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» الخ.

و قوله هـذا ليس بدعاء على نفسه بالسـجن و أن يصرف اللّه عنه ما يدعونه اليه بالقائه فى السـجن،و إنما هو بيان حال لربه و أنه عن تربيه إلهيه يرجـح عـذاب السـجن فى جنب اللّه على لذه المعصيه و البعد منه،فهذا الكلام منه نظير ما قاله لامرأه العزيز حين خلت به و راودته عن نفسه «مَعٰاذَ اللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوٰايَ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ الظّٰالِمُونَ» ففى الكلامين معا تمنع و تعزز باللّه،و إنما الفرق أنه يخاطب بأحدهما امرأه العزيز و بالآخر ربه القوى العزيز و ليس شىء

من الكلامين دعاء البته.

و فی قوله: رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ الخ؛نوع توطئه لقوله: «وَ إِلاّ تَصْرِفْ عَنِّی کَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» الخ؛الذی هو دعاء فی صوره بيان الحال.

فمعنی الآيه:رب إنی لو خيرت بين السجن و بين ما يدعوننی اليه لاخترت السجن علی غيره و أسألک أن تصرف عنی کيدهن فإنک إن لا تصرف عنی کيدهن أنتزع و أمل اليهن و أکن من الجاهلين فإنی إنما أتوقی شرهن بعلمک الذی علمتنيه و تصرف به عنی کيدهن فإن أمسکت عن إفاضته علی صرت جاهلا و وقعت فی مهلکه الصبوه و الهوی.

قوله تعالی: فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ کَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أی استجاب اللّه مسألته فی صرف کيدهن عنه حين قال «وَ إِلاّ تَصْرِفْ عَنِّی کَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» إنه هو السميع بأقوال عباده العليم بأحوالهم (۱)(۲).

[سوره يوسف (۱۲): الآيات ۳۵ الی ۴۲]

اشاره

ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا اَلْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتّی حِينٍ (۳۵) وَ دَخَلَ مَعَهُ اَلسِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّی أَرانِی أَعْصِرُ خَمْراً وَ قالَ اَلْآخَرُ إِنِّی أَرانِی أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِی خُبْزاً تَأْکُلُ اَلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنّا نَراکَ مِنَ اَلْمُحْسِنِينَ (۳۶) قالَ لا يَأْتِيکُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاّ نَبَّأْتُکُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَکُما ذلِکُما مِمّا عَلَّمَنِی رَبِّی إِنِّی تَرَکْتُ مِلَّهَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ کافِرُونَ (۳۷) وَ اِتَّبَعْتُ مِلَّهَ آبائِی إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ ما کانَ لَنا أَنْ نُشْرِکَ بِاللّهِ مِنْ شَیْءٍ ذلِکَ مِنْ فَضْلِ اَللّهِ عَلَيْنا وَ عَلَی اَلنّاسِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّاسِ لا يَشْکُرُونَ (۳۸) يا صاحِبَیِ اَلسِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اَللّهُ اَلْواحِدُ اَلْقَهّارُ (۳۹) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُکُمْ ما أَنْزَلَ اَللّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ اَلْحُکْمُ إِلاّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ ذلِکَ اَلدِّينُ اَلْقَيِّمُ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۴۰) يا صاحِبَیِ اَلسِّجْنِ أَمّا أَحَدُکُما فَيَسْقِی رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا اَلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْکُلُ اَلطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِیَ اَلْأَمْرُ اَلَّذِی فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (۴۱) وَ قالَ لِلَّذِی ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اُذْکُرْنِی عِنْدَ رَبِّکَ فَأَنْساهُ اَلشَّيْطانُ ذِکْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِی اَلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (۴۲)

۱- ۱) .يوسف ۲۲-۳۴:ابحاث حول التقوی الدينی و درجاته فی فصول(القانون و الاخلاق الکريمه و التوحيد،يحصل التقوی الدينی بأحد امور ثلاثه،کيف يورث الحب الاخلاص).

۲- ۲) .يوسف ۲۲-۳۴:بحث روائی حول قصه يوسف عليه السّلام؛معنی هم يوسف بها.

بیان:

قوله تعالی: ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتّى حِينٍ البداء هو ظهور رأی بعد ما لم یکن یقال؟بدا لی فی أمر کذا أی ظهر لی فیه رأی جدید، و الضمیر فی قوله: «لَهُمْ» الی العزیز و امرأته و من یتلوهما من أهل الاختصاص و أعوان الملک و العزه.

و المراد بالآیات الشواهد و الأدله الداله علی براءه یوسف علیه السّلام و طهاره ذیله مما اتهموه به

ص: ۲۷۶

كشهاده الصبى و قدّ القميص من خلفه و استباقهما الباب معا،و لعل منها تقطيع النسوه أيديهن برؤيته و استعصامه عن مراودتهن إياه عن نفسه و اعتراف امرأه العزيز لهن أنها راودته عن نفسه فاستعصم.

و قوله: لَيَسْجُنُنَّهُ اللام فيه للقسم أى أقسموا و عزموا ليسجننه البته،و هو تفسير للرأى الذى بدا لهم،و يتعلق به قوله: «حَتّٰى حِينٍ» و لا يخلو من معنى الانتظار بالنظر الى قطع حين عن الإضافه و المعنى على هذا ليسجننه حتى ينقطع حديث المراوده الشائع فى المدينه و ينساه الناس.

و معنى الآيه:ثم ظهر للعزيز و من يتلوه من امرأته و سائر مشاوريه رأى جديد فى يوسف من بعد ما رأوا هذه الآيات الداله على براءته و عصمته و هو أن يسجنوه حينا من الزمان حتى ينسى حديث المراوده الذى يجلب لهم العار و الشين و أقسموا على ذلك.

و يظهر بذلك أنهم إنما عزموا على ذلك لمصلحه بيت العزيز و صونا لاسرته عن هوان التهمه و العار،و لعل من غرضهم أن يتحفظوا على أمن المدينه العام و لا يخلوا الناس و خاصه النساء أن يفتتنوا به فإن الحسن الذى أوله امرأه العزيز و السيدات من شرفاء المدينه و فعل بهم ما فعل من طبعه أن لا يلبث دون أن يقيم فى المدينه بلوى.

لكن الذى يظهر من قوله فى السجن لرسول الملك: «ارْجِعْ إِلىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مٰا بٰالُ النِّسْوَةِ اللاّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» الى آخر ما قال،ثم قول الملك لهن:ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه،و قولهن:حاش للّه ما علمنا عليه من سوء ثم قول امرأه العزيز:الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه و إنه لمن الصادقين،كل ذلك يدل على أن المرأه ألبست الأمر بعد على زوجها و أرابته فى براءه يوسف عليه السّلام فاعتقد خلاف ما دلت عليه الآيات أو شك فى ذلك،و لم يكن ذلك إلاّ عن سلطه تامه منها عليه و تمكن كامل من قلبه و رأيه.

و على هذا فقد كان سجنه بتوسل أو بأمر منها لتدفع بذلك تهمه الناس عن نفسها و تؤدب

يوسف لعله ينقاد لها و يرجع الى طاعتها فيما كانت تأمره به كما هددته به بمحضر من النسوه بقولها: «وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مٰا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصّٰاغِرِينَ» .

قوله تعالى: وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيٰانِ الى آخر الآيه؛الفتى العبد و سياق الآيات يدل على أنهما كانا عبدين من عبيد الملك،و قد وردت به الروايات كما سيأتى إن شاء اللّه تعالى.

و قوله: قٰالَ أَحَدُهُمٰا إِنِّى أَرٰانِى أَعْصِرُ خَمْراً فصل قوله: «قٰالَ أَحَدُهُمٰا» للدلاله على الفصل بين حكايه الرؤيا و بين الدخول كما يشعر به ما فى السياق من قوله:

«أَرٰانِى» و خطابه له بصاحب السجن.

و قوله: أَرٰانِى لحكايه الحال الماضيه كما قيل،و قوله: «أَعْصِرُ خَمْراً» أى أعصر عنبا كما يعصر ليتخذ خمرا فقد سمى العنب خمرا باعتبار ما يؤول اليه.

و المعنى أصبح أحدهما و قال ليوسف عليه السّلام إنى رأيت فيما يرى النائم أنى أعصر عنبا للخمر.

و قوله: وَ قٰالَ الْآخَرُ إِنِّى أَرٰانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ أى تنهشه و هى رؤيا أخرى ذكرها صاحبه.و قوله: «نَبِّئْنٰا بِتَأْوِيلِهِ إِنّٰا نَرٰاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أى قالا نبئنا بتأويله فاكتفى عن ذكر الفعل بقوله: «قٰالَ» «وَ قٰالَ» و هذا من لطائف تفنن القرآن،و الضمير فى قوله: «بِتَأْوِيلِهِ» راجع الى ما يراه المدلول عليه بالسياق، و فى قوله: «إِنّٰا نَرٰاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» تعليل لسؤالهما التأويل و «نَرٰاكَ» أى نعتقدك من المحسنين لما نشاهد فيك من سيماهم،و إنما أقبلا عليه فى تأويل رؤياهما لإحسانه، لما يعتقد عامه الناس أن المحسنين الأبرار ذووا قلوب طاهره و نفوس زاكيه فهم ينتقلون الى روابط الامور و جريان الحوادث انتقالا أحسن و أقرب الى الرشد من انتقال غيرهم.

و المعنى:قال أحدهما ليوسف:إنى رأيت فيما يرى النائم كذا و قال الآخر:إنى رأيت

کذا،و قالا له:أخبرنا بتأویل ما رآه کل منا لأنا نعتقد أنک من المحسنین،و لا یخفی لهم أمثال هذه الامور الخفیه لزکاء نفوسهم و صفاء قلوبهم.

قوله تعالی: قٰالَ لاٰ یَأْتِیکُمٰا طَعٰامٌ تُرْزَقٰانِهِ إِلاّٰ نَبَّأْتُکُمٰا بِتَأْوِیلِهِ قَبْلَ أَنْ یَأْتِیَکُمٰا لما أقبل صاحبا السجن علی یوسف علیه السّلام فی سؤاله عن تأویل رؤیا رأیاها عن حسن ظن به من جهه ما کانا یشاهدان منه سیماء المحسنین اغتنم علیه السّلام الفرصه فی بث ما عنده من أسرار التوحید و الدعوه الی ربه سبحانه الذی علمه ذلک فأخبرهما أنه علیم بذلک بتعلیم من ربه خبیر بتأویل الأحادیث و توسل بذلک الی الکشف عن سر التوحید و نفی الشرکاء ثم أول رؤیاهما.

فقال أولا:لا یأتیکما طعام ترزقانه-و أنتما فی السجن-إلاّ نبأتکما بتأویله-أی بتأویل ذاکما الطعام و حقیقته و ما یؤول الیه أمره-فأنا خبیر بذلک فلیکن آیه لصدقی فیما أدعوکما الیه من دین التوحید.

هذا علی تقدیر عود الضمیر فی قوله: «بِتَأْوِیلِهِ» الی الطعام،و یکون علیه إظهارا منه علیه السّلام لآیه نبوته نظیر قول المسیح علیه السّلام لبنی إسرائیل: وَ أُنَبِّئُکُمْ بِمٰا تَأْکُلُونَ وَ مٰا تَدَّخِرُونَ فِی بُیُوتِکُمْ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (آل عمران۴۹/)،و یؤید هذا المعنی بعض الروایات الوارده من طرق أهل البیت علیهم السّلام کما سیأتی فی بحث روائی إن شاء اللّه تعالی.

و أما علی تقدیر عود ضمیر «بِتَأْوِیلِهِ» الی ما رأیاه من الرؤیا فقوله: «لاٰ یَأْتِیکُمٰا طَعٰامٌ» الخ؛وعد منه لهما تأویل رؤیاهما و وعد بتسریعه غیر أن هذا المعنی لا یخلو من بعد بالنظر الی السیاق.

قوله تعالی: ذٰلِکُمٰا مِمّٰا عَلَّمَنِی رَبِّی إِنِّی تَرَکْتُ مِلَّهَ قَوْمٍ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ کٰافِرُونَ وَ اتَّبَعْتُ مِلَّهَ آبٰائِی إِبْرٰاهِیمَ وَ إِسْحٰاقَ وَ یَعْقُوبَ

بين عليه السّلام أن العلم و التنبؤ بتأويل الأحاديث ليس من العلم العادى الاكتسابى فى شىء بل هو مما علمه إياه ربه ثم علل ذلك بتركه مله المشركين و اتباعه مله آبائه إبراهيم و إسحاق و يعقوب أى رفضه دين الشرك و أخذه بدين التوحيد.

و المشركون من أهل الأوثان يعتقدون باللّه سبحانه و يثبتون يوم الجزاء بالقول بالتناسخ كما تقدم فى الجزء السابق من الكتاب لكن دين التوحيد يحكم أن الذى يقدر له شركاء فى التأثير أو فى استحقاق العباده ليس هو اللّه و كذا عود النفوس بعد الموت بأبدان أخرى تتنعم فيها أو تعذب ليس من المعاد فى شيء،و لذلك نفى عليه السّلام عنهم الإيمان باللّه و بالآخره،و أكد كفرهم بالآخره بتكرار الضمير حيث قال «وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ كافِرُونَ» و ذلك لأن من لا يؤمن باللّه فأحرى به أن لا يؤمن برجوع العباد اليه.

و هذا الذى يقصه اللّه سبحانه من قول يوسف عليه السّلام «وَ اتَّبَعْتُ مِلَّهَ آبائِی إِبْراهِیمَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ» هو أول ما أنبأ فى مصر نسبه و أنه من أهل بيت إبراهيم و إسحاق و يعقوب عليهم السّلام.

قوله تعالى: ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِکَ بِاللّهِ مِنْ شَیْءٍ ذلِکَ مِنْ فَضْلِ اللّهِ عَلَیْنا وَ عَلَی النّاسِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النّاسِ لا یَشْکُرُونَ أى لم يجعل اللّه سبحانه لنا أهل البيت سبيلا الى أن نشرك به شيئا و منعنا من ذلك،ذلك المنع من فضل اللّه و نعمته علينا أهل البيت و على الناس و لكن أكثر الناس لا يشكرون فضله تعالى بل يكفرون به.

و أما أنه تعالى جعلهم بحيث لا سبيل لهم الى أن يشركوا به فليس جعل إجبار و إلجاء بل جعل تأيد و تسديد حيث أنعم عليهم بالنبوه و الرساله و اللّه أعلم حيث يجعل الرساله فاعتصموا باللّه عن الشرك و دانوا بالتوحيد.

و أما أن ذلك من فضل اللّه عليهم و على الناس فلأنهم أيدوا بالحق و هو أفضل الفضل و الناس فى وسعهم أن يرجعوا اليهم فيفوزوا باتباعهم و يهتدوا بهداهم.

و أما أن أكثر الناس لا يشكرون فلأنهم يكفرون بهذه النعمه و هى النبوه و الرساله فلا

یعبئون بها و لا یتبعون أهلها أو لأنهم یکفرون بنعمه التوحید و یتخذون للّه سبحانه شرکاء من الملائکه و الجن و الإنس یعبدونهم من دون اللّه.

هذا ما ذکره أکثر المفسرین فی معنی الآیه.

و یبقی علیه شیء و هو أن التوحید و نفی الشرکاء لیس مما یرجع فیه الی بیان النبوه فإنه مما یستقل به العقل و تقضی به الفطره فلا معنی لعده فضلا علی الناس من جهه الاتباع بل هم و الأنبیاء فی أمر التوحید علی مستوی واحد و شرع سواء و لو کفروا بالتوحید فإنما کفروا لعدم إجابتهم لنداء الفطره لا لعدم اتباع الأنبیاء (۱).

قوله تعالی: یٰا صٰاحِبَیِ السِّجْنِ أَ أَرْبٰابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَیْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ لفظه الخیر بحسب الوزن صفه من قولهم:خار یخار خیره إذا انتخب و اختار أحد شیئین یتردد بینهما من حیث الفعل أو من حیث الأخذ بوجه فالخبر منهما هو الذی یفضل علی الآخر فی صفه المطلوبیه فیتعین الأخذ به فخیر الفعلین هو المطلوب منهما الذی یتعین القیام به و خیر الشیئین هو المطلوب منهما من جهه الأخذ به کخیر المالین من جهه التمتع به و خیر الدارین من جهه سکناها و خیر الانسانین من جهه مصاحبته،و خیر الرأیین من جهه الأخذ به،و خیر الإلهین من جهه عبادته،و من هنا ذکر أهل الأدب أن الخیر فی الأصل «أخیر»أفعل تفضیل،و الحقیقه أنه صفه مشبهه تفید بحسب الماده ما یفیده أفعل التفضیل من الفضل فی القیاس.

و بما مر یتبین أن قوله علیه السّلام: «أَ أَرْبٰابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَیْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» الخ؛مسوق لبیان الحجه علی تعینه تعالی للعباده إذا فرض تردد الأمر بینه و بین سائر الأرباب التی تدعی من دون اللّه لا لبیان أنه تعالی هو الحق الموجود دون غیره من الأرباب أو أنه تعالی هو

۱- ۱) .یوسف ۳۵-۴۲:کلام فی التوحید و نفی الشرکاء.

الإله الـذى تنتهى اليه الأشـياء بدءا و عودا دونها أو غير ذلك فإنه الشـىء إنما يسـمى خيرا من جهه طلبه و تعيينه بالأخذ به بنحو فقوله عليه السّلام:أ هو خير أم سائر الأرباب يريد به السؤال عن تعين أحد الطرفين من جهه الأخذ به و الأخذ بالرب هو عبادته.

ثم إنه عليه السّلام سـمى آلهتهم أربابـا متفرقين لأنهم كانوا يعبـدون الملائكه و هم عنـدهم صـفات اللّه سـبحانه أو تعينات ذاته المقدسه التى تسـتند إليها جهات الخير و السعاده فى العالم فيفرقون بين الصفات بتنظيمها طولا و عرضا و يعبدون كلا بما يخصه مـن الشـأن فهنـاك إلـه العلم و إله القـدره و إله السـماء و إله الأرض و إله الحسن و إله الحب و إله الأمن و إله الخصب و غير ذلـك،و يعبـدون الجن و هم مبادئ الشـر فى العالم كالموت و الفناء و الفقر و القبـح و الألم و الغم و غير ذلك،و يعبـدون أفراد كالكملين من الأولياء و الجبابره من السـلاطين و الملوك و غيرهـم،و هم جميعا متفرقون من حيث أعيانهم و من حيث أصـنامهم و التماثيل المتخذه لهم المنصوبه للتوجه بها اليهم.

و قابـل الأربـاب المتفرقين بـذكر اللّه عز اسـمه و وصـفه بالواحـد القهار حيث قال «أَمِ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» فالكلمه تفيـد بحسـب المعنى خلاف ما يفيده قوله: «أَرْبٰابٌ مُتَفَرِّقُونَ» لضروره التقابل بين طرفى الترديد.

قوله تعالى: مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّٰ أَسْمٰاءً سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ أَمَرَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِيّٰاهُ الخ؛ بدأ عليه السّلام بخطاب صاحبيه فى السـجن أولا ثم عمم الخطاب للجميع لأن الحكم مشترك بينهما و بين غيرهما من عبده الأوثان.

و نفى العباده إلاّ عن الأسـماء كنايه عن أنه لا مسـميات وراء هذه الأسماء فتقع العباده فى مقابل الأسـماء كلفظه إله السماء و إله الأرض و إله البحر و إله البر و الأب و الام و ابن الإله و نظائر ذلك.

و قد أكد كون هذه الأسماء ليس وراءها مسميات بقوله: «أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ» فإنه في معنى الحصر أى لم يضع هذه الأسامى أحد غيركم بل أنتم و آباؤكم وضعتموها،ثم أكده ثانيا بقوله: «مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ» و السلطان هو البرهان لتسلطه على العقول أى ما أنزل اللّه بهذه الأسماء أو بهذه التسميه من برهان يدل على أن لها مسميات وراءها،و حينئذ كان يثبت لها الالوهيه أى المعبوديه فصحت عبادتكم لها.

و من الجائز أن يكون ضمير «بِهٰا» عائدا الى العباده أى ما أنزل اللّه حجه على عبادتها بأن يثبت لها شفاعه و استقلالا فى التأثير حتى تصح عبادتها و التوجه إليها فإن الأمر الى اللّه على كل حال.و اليه أشار بقوله بعده: «إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ» .

و هو أعنى قوله: إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ مما لا ريب فيه البته إذ الحكم فى أمر ما لا يستقيم إلاّ ممن يملك تمام التصرف،و لا مالك للتصرف و التدبير فى امور العالم و تربيه العباد حقيقه إلاّ اللّه سبحانه فلا حكم بحقيقه المعنى إلاّ له.

و هو أعنى قوله: «إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ» مفيد فيما قبله و ما بعده صالح لتعليلهما معا،أما فائدته فى قوله قبل: «مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ» فقد ظهرت آنفا،و أما فائدته فى قوله بعد:

«أمر أن لا تعبدوا إلاّ إياه»فلأنه متضمن لجانب إثبات الحكم كما أن قوله قبل: «مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ» متضمن لجانب السلب،و حكمه تعالى نافذ فى الجانبين معا فكأنه لما قيل «مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ» قيل«فما ذا حكم به فى أمر العباده»فقيل«أمر أن لا تعبدوا إلاّ إياه»و لذلك جيء بالفعل.

و معنى الآيه-و اللّه أعلم-ما تعبدون من دون اللّه إلاّ أسماء خاليه عن المسميات لم يضعها إلاّ أنتم و آباؤكم من غير أن ينزل اللّه سبحانه من عنده برهانا يدل على أن لها شفاعه عند اللّه أو شيئا من الاستقلال فى التأثير حتى يصح لكم دعوى عبادتها لنيل شفاعتها،أو طمعا فى خيرها أو خوفا من شرها.

و أما قوله: ذٰلِکَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ فيشير به الى ما ذكره من توحيد اللّه و نفى الشريک عنه،و القيم هو القائم بالأمر القوى على تدبيره أو القائم على ساقه غير المتزلزل و المتضعضع،و المعنى أن دين التوحيد وحده هو القوى على إداره المجتمع و سوقه الى منزل السعاده،و الدين المحكم غير المتزلزل الذى فيه الرشد من غير غى و الحقيه من غير بطلان،و لكن أكثر الناس لانسهم بالحس و المحسوس و انهما كهم فى زخارف الدنيا الفانيه حرموا سلامه القلب و استقامه العقل لا يعلمون ذلک،و إنما يعلمون ظاهرا من الحياه الدنيا و هم عن الآخره معرضون.

أما أن التوحيد دين فيه الرشد و مطابقه الواقع فيكفى فى بيانه ما أقامه عليه السّلام من البرهان، و أما أنه هو القوى على إداره المجتمع الإنسانى فلأن هذا النوع إنما يسعد فى مسير حياته إذا بنى سنن حياته و أحكام معاشه على مبنى حق مطابق للواقع فسار عليها لا إذا بناها على مبنى باطل خرافى لا يعتمد على أصل ثابت (۱).

قوله تعالى: يٰا صٰاحِبَيِ السِّجْنِ أَمّٰا أَحَدُكُمٰا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيٰانِ معنى الآيه ظاهر،و قرينه المناسبه قاضيه بأن قوله: «أَمّٰا أَحَدُكُمٰا» الخ؛تأويل رؤيا من قال منهما «إِنِّي أَرٰانِي أَعْصِرُ خَمْراً» و قوله: «وَ أَمَّا الْآخَرُ» الخ؛تأويل لرؤيا الآخر.

و قوله: قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيٰانِ لا يخلو من إشعار بأن الصاحبين أو أحدكما كذب نفسه فى دعواه الرؤيا و لعله الثانى لما سمع تأويل رؤياه بالصلب و أكل الطير من رأسه،و يتأيد بهذا ما ورد من الروايه من طرق أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن الثانى من الصاحبين قال له:إنى كذبت فيما قصصت عليک من الرؤيا فقال عليه السّلام «قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيٰانِ»

۱- ۱) .يوسف ۳۵-۴۲:برهان على توحيد العباده للّه تعالى.

أی إن التأویل الذی استفتیتما فیه مقضیّ مقطوع لا مناص عنه.

قوله تعالی: وَ قٰالَ لِلَّذِی ظَنَّ أَنَّهُ نٰاجٍ مِنْهُمَا اذْکُرْنِی عِنْدَ رَبِّکَ فَأَنْسٰاهُ الشَّیْطٰانُ ذِکْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِی السِّجْنِ بِضْعَ سِنِینَ الضمائر فی قوله: «قٰالَ» و «ظَنَّ» و «فَلَبِثَ» راجعه الی یوسف أی قال یوسف للذی ظن هو أنه سینجو منهما:اذکرنی عند ربک بما یثیر رحمته لعله یخرجنی من السجن.

و إطلاق الظن علی اعتقاده مع تصریحه لهما بأنه من المقضیّ المقطوع به و تصریحه بأن ربه علّمه تأویل الأحادیث لعله من إطلاق الظن علی مطلق الاعتقاد و له نظائر فی القرآن کقوله تعالی: اَلَّذِینَ یَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ (البقره/۴۶).

و قوله: فَأَنْسٰاهُ الشَّیْطٰانُ ذِکْرَ رَبِّهِ الخ؛الضمیران راجعان الی«الذی»أی فأنسی الشیطان صاحبه الناجی أن یذکره لربه أو عند ربه فلبث یوسف فی السجن بضع سنین و البضع ما دون العشره فإضافه الذکر الی ربه من قبیل إضافه المصدر الی معموله المعدی الیه بالحرف أو الی المظروف بنوع من الملابسه.

و أما إرجاع الضمیرین الی یوسف حتی یفید أن الشیطان أنسی یوسف ذکر اللّه سبحانه فتعلق بذیل غیره فی نجاته من السجن فعوقب علی ذلک فلبث فی السجن بضع سنین کما ذکره بعضهم و ربما نسب الی الروایه.

فمما یخالف نص الکتاب فإن اللّه سبحانه نص علی کونه علیه السّلام من المخلصین و نص علی أن المخلصین لا سبیل للشیطان الیهم مضافا الی ما أثنی اللّه علیه فی هذه السوره.

و الإخلاص للّه لا یستوجب ترک التوسل بالأسباب فإن ذلک من أعظم الجهل لکونه طمعا فیما لا مطمع فیه بل إنما یوجب ترک الثقه بها و الاعتماد علیها و لیس فی قوله: «اذْکُرْنِی عِنْدَ رَبِّکَ» ما یشعر بذلک البته.

علی أن قوله تعالی بعد آیتین: «وَ قٰالَ الَّذِی نَجٰا مِنْهُمٰا وَ ادَّکَرَ بَعْدَ أُمَّهٍ» الخ؛قرینه صالحه

على أن الناسى هو الساقى دون يوسف.

[سوره يوسف (۱۲): الآيات ۴۳ الى ۵۷]

اشاره

وَ قٰالَ اَلْمَلِکُ إِنِّی أَرىٰ سَبْعَ بَقَرٰاتٍ سِمٰانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجٰافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاٰتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يٰابِسٰاتٍ يٰا أَيُّهَا اَلْمَلَأُ أَفْتُونِی فِی رُءْيٰایَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيٰا تَعْبُرُونَ (۴۳) قٰالُوا أَضْغٰاثُ أَحْلاٰمٍ وَ مٰا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ اَلْأَحْلاٰمِ بِعٰالِمِينَ (۴۴) وَ قٰالَ اَلَّذِی نَجٰا مِنْهُمٰا وَ اِدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (۴۵) يُوسُفُ أَيُّهَا اَلصِّدِّيقُ أَفْتِنٰا فِی سَبْعِ بَقَرٰاتٍ سِمٰانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجٰافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلاٰتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يٰابِسٰاتٍ لَعَلِّی أَرْجِعُ إِلَى اَلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (۴۶) قٰالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمٰا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِی سُنْبُلِهِ إِلاّٰ قَلِيلاً مِمّٰا تَأْكُلُونَ (۴۷) ثُمَّ يَأْتِی مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ سَبْعٌ شِدٰادٌ يَأْكُلْنَ مٰا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاّٰ قَلِيلاً مِمّٰا تُحْصِنُونَ (۴۸) ثُمَّ يَأْتِی مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عٰامٌ فِيهِ يُغٰاثُ اَلنّٰاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ (۴۹) وَ قٰالَ اَلْمَلِكُ اِئْتُونِی بِهِ فَلَمّٰا جٰاءَهُ اَلرَّسُولُ قٰالَ اِرْجِعْ إِلىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مٰا بٰالُ اَلنِّسْوَةِ اَللاّٰتِی قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّی بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (۵۰) قٰالَ مٰا خَطْبُكُنَّ إِذْ رٰاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا عَلِمْنٰا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قٰالَتِ اِمْرَأَةُ اَلْعَزِيزِ اَلْآنَ حَصْحَصَ اَلْحَقُّ أَنَا رٰاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ اَلصّٰادِقِينَ (۵۱) ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّی لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِی كَيْدَ اَلْخٰائِنِينَ (۵۲) وَ مٰا أُبَرِّئُ نَفْسِی إِنَّ اَلنَّفْسَ لَأَمّٰارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاّٰ مٰا رَحِمَ رَبِّی إِنَّ رَبِّی غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵۳) وَ قٰالَ اَلْمَلِكُ اِئْتُونِی بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِی فَلَمّٰا كَلَّمَهُ قٰالَ إِنَّكَ اَلْيَوْمَ لَدَيْنٰا مَكِينٌ أَمِينٌ (۵۴) قٰالَ اِجْعَلْنِی عَلىٰ خَزٰائِنِ اَلْأَرْضِ إِنِّی حَفِيظٌ عَلِيمٌ (۵۵) وَ كَذٰلِكَ مَكَّنّٰا لِيُوسُفَ فِی اَلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهٰا حَيْثُ يَشٰاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنٰا مَنْ نَشٰاءُ وَ لاٰ نُضِيعُ أَجْرَ اَلْمُحْسِنِينَ (۵۶) وَ لَأَجْرُ اَلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ (۵۷)

بیان:

قوله تعالی: وَ قٰالَ الْمَلِکُ إِنِّی أَریٰ سَبْعَ بَقَرٰاتٍ سِمٰانٍ یَأْکُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجٰافٌ الی آخر الآیه؛رؤیا للملک یخبر بها الملأ و الدلیل علیه قوله: «یٰا أَیُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِی فِی رُءْیٰایَ» و قوله: «إِنِّی أَریٰ» حکایه حال ماضیه،و من المحتمل أنها کانت رؤیا متکرره کما یحتمل مثله فی قوله سابقا: «إِنِّی أَرٰانِی أَعْصِرُ خَمْراً» «إِنِّی أَرٰانِی أَحْمِلُ» الخ.

و السمان جمع سمینه و العجاف جمع عجفاء بمعنی المهزوله،قال فی المجمع:و لا یجمع فعلاء

ص: ۲۸۷

على فعال غير العجفاء على عجاف و القياس فى جمعه العجف بضم العين و سكون الجيم كالحمراء و الخضراء و البيضاء على حمر و خضر و بيض،و قال غيره:إن ذلک من قبيل الاتباع و الجمع القياسى عجف.

و الإفتاء إفعال من الفتوى و الفتيا،قال فى المجمع:الفتيا الجواب عن حکم المعنى و قد يكون الجواب عن نفس المعنى فلا يكون فتيا انتهى.

و قوله: تَعْبُرُونَ من العبر و هو بيان تأويل الرؤيا و قد يسمى تعبيرا،و هو على أى حال مأخوذ من عبور النهر و نحوه کأن العابر يعبر من الرؤيا الى ما وراءها من التأويل،و هو حقيقه الأمر التى تمثلت لصاحب الرؤيا فى صوره خاصه مألوفه له.

و معنى الآيه:و قال ملک مصر لملئه إنى أرى فى منامى سبع بقرات سمات يأكلهن سبع بقرات مهازيل و أرى سبع سنبلات خضر و سنبلات أخر يابسات يا أيها الملأ بينوا لى ما عندکم من حکم رؤياى إن کنتم للرؤيا تعبرون.

قوله تعالى: قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ اَلْأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ الأحلام جمع حلم بضمتين و قد يسكن وسطه هو ما يراه النائم فى منامه و کأن الأصل فى معناه ما يتصور للإنسان من داخل نفسه من غير توصله اليه بالحس،و منه تسميه العقل حلما لأنه استقامه التفكر،و منه أيضا الحلم لزمان البلوغ قال تعالى: وَ إِذَا بَلَغَ اَلْأَطْفَالُ مِنْكُمُ اَلْحُلُمَ (النور/٥٩)أى زمان البلوغ،بلوغ العقل،و منه الحلم بكسر الحاء بمعنى الأناءه ضد الطيش و هو ضبط النفس و الطبع عن هيجان الغضب و عدم المعاجله فى العقوبه فإنه إنما يكون عن استقامه التفكر،و ذکر الراغب:أن الأصل فى معناه الحلم بكسر الحاء،و لا يخلو من تكلف.

و قال الراغب:الضغث قبضه ريحان أو حشيش أو قضبان و جمعه أضغاث،قال تعالى «وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً» و به شبه الأحلام المختلفه التى لا تتبين حقائقها «قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ» حزم أخلاط من الأحلام انتهى.

ص :٢٨٨

و تسمیه الرؤیا الواحده بأضغاث الأحلام کأنه بعنایه دعوی کونها صورا متفرقه مختلطه مجتمعه من رؤی مختلفه لکل واحد منها تأویل علی حده فإذا اجتمعت و اختلطت عسر للمعبر الوقوف علی تأویلها،و الإنسان کثیرا ما ینتقل فی نومه واحده من رؤیا الی اخری و منهما الی ثالثه و هکذا فإذا اختلطت أبعاضها کانت أضغاث أحلام و امتنع الوقوف علی حقیقتها،و یدل علی ما ذکرنا من العنایه التعبیر بأضغاث أحلام بتنکیر المضاف و المضاف الیه معا کما لا یخفی.

علی أن الآیه أعنی قوله: «وَ قٰالَ الْمَلِکُ إِنِّی أَریٰ» الخ؛غیر صریحه فی کونه رؤیا واحده و فی التوراه أنه رأی البقرات السمان و العجاف فی رؤیا و السنبلات الخضر و الیابسات فی رؤیا اخری.

و قوله: وَ مٰا نَحْنُ بِتَأْوِیلِ الْأَحْلاٰمِ بِعٰالِمِینَ إن کان الألف و اللام العهد فالمعنی و ما نحن بتأویل هذه المنامات التی هی أضغاث أحلام بعالمین.و إن کان لغیر العهد و الجمع المحلی باللام یفید العموم فالمعنی و ما نحن بتأویل جمیع المنامات بعالمین و إنما نعبر غیر أضغاث الأحلام منها،و علی أی حال لا تدافع بین عدهم رؤیاه أضغاث أحلام و بین نفیهم العلم بتأویل الأحلام عن أنفسهم،و لو کان المراد بالأحلام الأحلام الصحیحه فحسب کان کل من شطری کلامهم یغنی عن الآخر.

و معنی الآیه قالوا أی قال الملأ للملک:ما رأیته أضغاث أحلام و أخلاط من منامات مختلفه و ما نحن بتأویل هذا النوع من المنامات بعالمین أو و ما نحن بتأویل جمیع المنامات بعالمین و إنما نعلم تأویل الرؤی الصالحه.

قوله تعالی: وَ قٰالَ الَّذِی نَجٰا مِنْهُمٰا وَ ادَّکَرَ بَعْدَ أُمَّهٍ أَنَا أُنَبِّئُکُمْ بِتَأْوِیلِهِ فَأَرْسِلُونِ الامه الجماعه التی تقصد لشأن و یغلب استعمالها فی الإنسان،و المراد بها هاهنا الجماعه من السنین و هی المده التی نسی فیها هذا القائل و هو ساقی الملک أن یذکر یوسف عند به

و قد سأله يوسف ذلک فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث يوسف فى السجن بضع سنين.

و المعنى:و قال الـذى نجا من السـجن يا صاحبى يوسف فيه و ادكر بعد جماعه من السـنين ما سأله يوسف فى السـجن حين أول رؤياه:أنا أنبئكم بتأويل ما رآه الملک فى منامه فأرسلونى الى يوسف فى السجن حتى أخبركم بتأويل ذلک.

و خطـاب الجمع فى قوله: «أُنَبِّئُكُمْ» و قوله: «فَأَرْسِلُونِ» تشـريک لمن حضـر مع الملـک و هم الملأـ من أركـان الـدوله و أعضاد المملكه الذين يلون أمور الناس،و الدليل عليه قوله الآتى:

«لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النّاسِ» كما سيأتى.

قوله تعالى: يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِى سَبْعِ بَقَرٰاتٍ سِمٰانٍ الى آخر الآيه؛فى الكلام حـذف و تقـدير إيجازا،و التقدير:فأرسـلوه فجاء الى يوسف فى السجن فقال:

يـا يوسف أيها الصـديق أفتنا فى رؤيا الملک و ذكر الرؤيا و ذكر أن الناس فى انتظار تأويله و هـذا الاسـلوب من لطائف أساليب القرآن الكريم.

و سـمى يوسف صـديقا و هو كثير الصدق المبالغ فيه لما كان رأى من صدقه فيما عبر به منامه و منام صاحبه فى السـجن و أمور أخرى شاهدها من فعله و قوله فى السجن،و قد أمضى اللّه سبحانه كونه صديقا بنقله ذلک من غير رد.

و قد ذكر متن الرؤيا من غير أن يصرح أنه رؤيا فقال «أَفْتِنا فِى سَبْعِ بَقَرٰاتٍ سِمٰانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجٰافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلاٰتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يٰابِسٰاتٍ» لأن قوله: «أَفْتِنا» و هو سؤال الحكم الذى يؤدى اليه نظره،و كون المعهود فيما بينه و بين يوسف تأويل الرؤيا،و كذا ذيل الكلام يدل على ذلک و يكشف عنه.

و قوله: لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ لعل الأول تعليل لقوله:

«أَفْتِنا» و لعل الثانى تعليل لقوله: «أَرْجِعُ» و المراد أفتنا فى أمر هـذه الرؤيا ففى إفتائک رجاء أن أرجع به الى الناس و أخبرهم بها و فى رجوعى اليهم رجاء أن يعلموا به فيخرجوا به من الحيره

و الجهاله.

و من هنا يظهر أن قوله: «أَرْجِعُ» فى معنى أرجع بذلك فمن المعلوم أنه لو أفتى فيه فرجع المستفتى الى الناس كان رجوعه رجوع عالم بتأويله خبير بحكمه فرجوعه عندئذ اليهم رجوع بمصاحبه ما ألقى اليه من التأويل فافهم ذلك.

و فى قوله أولا: «أَفْتِنا» و ثانيا «لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النّاسِ» دلاله على أنه كان يستفتيه بالرساله عن الملك و الملأ و لم يكن يسأله لنفسه حتى يعلمه ثم يخبرهم به بل ليحمله اليهم و لذلك لم يخصه يوسف بالخطاب بل عم الخطاب له و لغيره فقال «تَزْرَعُونَ» الخ.

و فى قوله: إِلَى النّاسِ إشعار أو دلاله على أن الناس كانوا فى انتظار أن يرتفع بتأويله حيرتهم،و ليس إلّا أن الملأ كانوا هم أولياء أمور الناس و خيرتهم فى الأمر خيره الناس أو أن الناس أنفسهم كانوا على هذا الحال لتعلقهم بالملك و اهتمامهم برؤياه لأن الرؤيا ناظره غالبا الى ما يهتم به الإنسان من شئون الحياه و الملوك إنما يهتمون بشئون الملكه و أمور الرغبه.

قوله تعالى: قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلاّ قَلِيلاً مِمّا تَأْكُلُونَ قال الراغب:الدأب إدامه السير دأب فى السير دأبا قال تعالى:

وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ و الدأب العاده المستمره دائما على حاله،قال تعالى:

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ أى كعادتهم التى يستمرون عليها.انتهى و عليه فالمعنى تزرعون سبع سنين زراعه متواليه مستمره،و قيل:هو من دأب بمعنى التعب أى تزرعون بجد و اجتهاد، و يمكن أن يكون حالا أى تزرعون دائبين مستمرين أو مجدين مجتهدين فيه.

ذكروا أن «تَزْرَعُونَ» خبر فى معنى الإنشاء،و كثيرا ما يؤتى بالأمر فى صوره الخبر مبالغه فى وجوب الامتثال كأنه واقع يخبر عنه كقوله تعالى: تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ (الصف١١/)،و الدليل عليه قوله بعد: «فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ» ،قيل:

ص :٢٩١

و إنما أمر بوضعه و تركه فى سنبله لأن السنبل لا يقع فيه سوس و لا يهلك و إن بقى مده من الزمان،و إذا ديس وصفى أسرع اليه الهلاك.

و المعنى:ازرعوا سبع سنين متواليات فما حصدتم فذروه فى سنبله لئلا يهلك و احفظوه كذلك إلّا قليلا و هو ما تأكلون فى هذه السنين.

قوله تعالى: ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ سَبْعٌ شِدٰادٌ يَأْكُلْنَ مٰا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاّٰ قَلِيلاً مِمّٰا تُحْصِنُونَ الشداد جمع شديد من الشده بمعنى الصعوبه لما فى سنى الجدب و المجاعه من الصعوبه و الحرج على الناس أو هو من شد عليه إذا كر،و هذا أنسب لما بعده من توصيفها بقوله: «يَأْكُلْنَ مٰا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ» .

و عليه فالكلام يشتمل على تمثيل لطيف كأن هذه السنين سباع ضاريه تكر على الناس لافتراسهم و أكلهم فيقدمون إليها ما ادخروه عندهم من الطعام فتأكله و تنصرف عنهم.

و الإحصان الإحراز و الادخار،و المعنى ثم يأتى من بعد ذلك أى ما ذكر من السنين الخصبه سبع سنين شداد يشددن عليكم يأكلن ما قدمتم لهن إلّا قليلا مما تحرزون و تدخرون.

قوله تعالى: ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عٰامٌ فِيهِ يُغٰاثُ النّٰاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ يقال:غاثه اللّه و أغاثه أى نصره،و يغيثه بفتح الياء و ضمها أى بنصره و هو من الغوث بمعنى النصره و غاثهم اللّه يغيثهم من الغيث و هو المطر،فقوله: «فِيهِ يُغٰاثُ النّٰاسُ» إن كان من الغوث كان معناه:ينصرون فيه من قبل اللّه سبحانه بكشف الكربه و رفع الجدب و المجاعه و إنزال النعمه و البركه،و إن كان من الغيث كان معناه:يمطرون فيرتفع الجدب من بينهم.

و هذا المعنى الثانى أنسب بالنظر الى قوله بعده: «وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ» و لا يصغى الى قوله من يدعى:أن المعنى الأول هو المتبادر من سياق الآيه إلّا على قراءه «يَعْصِرُونَ» بالبناء للمجهول و معناه يمطرون.

و ما أورده بعض المستشرقين على المعنى الثانى أنه لا ينطبق على مورد الآيه فإن خصب

مصر إنما يكون بفيضان النيل لا بالمطر فالامطار لا تؤثر فيها أثرا.

رد عليه بأن الفيضان نفسه لا يكون إلاّ بالمطر الذى يمده فى مجاريه من بلاد السودان.

على أن من الجائز أن يكون «يُغاثُ» مأخوذا من الغيث بمعنى النبات،قال فى لسان العرب:و الغيث الكلاء ينبت من ماء السماء انتهى،و هذا أنسب من المعنيين السابقين بالنظر الى قوله: «وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ» .

و قوله: وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ من العصر و هو إخراج ما فى الشىء من ماء أو دهن بالضغط كإخراج ماء العنب و التمر للدبس و غيره و إخراج دهن الزيت و السمسم للائتدام و الاستصباح و غيرهما،و يمكن أن يراد بالعصر الحلب أى يحلبون ضروع أنعامهم كما فسره بعضهم به.

و المعنى ثم يأتى من بعد ذلك أى ما ذكر من السبع الشداد عام فيه تنبت أراضيهم-أو يمطرون أو ينصرون-و فيه يتخذون الأشربه و الأدهنه من الفواكه و البقول أو يحلبون ضروع أنعامهم.و فيه كنايه عن توفر النعمه عليهم و على أنعامهم و مواشيهم.

قوله تعالى: وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَهِ اللاّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ فى الكلام حذف و إضمار إيجازا،و التقدير-على ما يدل عليه السياق و الاعتبار بطبيعه الأحوال- و جاء الرسول و هو الساقى فنبأهم بما ذكره يوسف من تأويل الرؤيا و قال الملك بعد ما سمعه:

ائتونى به.

و ظاهر أن الذى أنبأهم به من جدب سبع سنين متواليه كان أمرا عظيما،و الذى أشار اليه من الرأى البين الصواب أعظم منه و أغرب عند الملك المهتم بأمر أمته المعتنى بشئون مملكته، و قد أفزعه ما سمع و أدهشه،و لذلك بإحضاره ليكلمه و يتبصره بما يقوله مزيد تبصر،و يشهد بهذا ما حكاه اللّه تعالى من تكليمه إياه بقوله:«فلما جاءه و كلمه»الخ.

و لم يكن أمره بإتيانه به إشخاصا له بل إطلاقا من السجن و إشخاصا للتكليم،و لو كان إشخاصا و إحضارا لمسجون يعود الى السجن بعد التكليم لم يكن ليوسف عليه السّلام أن يستنكف عن الحضور بل أجبر عليه إجبارا بل كان إحضارا عن عفو و إطلاق فوسعه أن يأتى الحضور و يسأله أن يقضى فيه بالحق،و كانت نتيجه هذا الإباء و السؤال أن يقول الملك ثانيا:ائتونى به أستخلصه لنفسى بعد ما قال أولا:ائتونى به.

و قد راعى عليه السّلام أدبا بارعا فى قوله للرسول: «ارْجِعْ إِلىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مٰا بٰالُ النِّسْوَهِ اللاّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» فلم يذكر امرأه العزيز بما يسوؤه و ليس يريد إلاّ أن يقضى بينه و بينها،و إنما أشار الى النسوه اللاتى راودنه،و لم يذكرهن أيضا بسوء إلاّ بأمر يظهر بالتحقيق فيه براءته و لا براءته من مراوده امرأه العزيز بل نزاهته من أى مراوده و فحشاء تنسب اليه فقد كان بلاؤه عظيما.

و لم يذكرهن بشىء من المكروه إلاّ ما فى قوله: «إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ» و ليس إلاّ نوعا من بث الشكوى لربه.

و ما ألطف قوله فى صدر الآيه و ذيلها حيث يقول للرسول: «ارْجِعْ إِلىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ» ثم يقول «إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ» و فيه نوع من تبليغ الحق،و ليكن فيه تنبه لمن يزعم أن مراده من «رَبِّى» فيما قال لامرأه العزيز «إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوٰاىَ» هو زوجها،و أنه يسميه ربا لنفسه.

و ما ألطف قوله: «مٰا بٰالُ النِّسْوَهِ اللاّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» و البال هو الأمر الذى يهتم به يقول:ما هو الأمر العظيم و الشأن الخطير الذى أوقعهن فيما وقعن فيه،و ليس إلاّ هواهنّ فيه و و لهنّ فى حبه حتى أنساهن أنفسهن فقطعن الأيدى مكان الفاكهه تقطيعا فليفكر الملك فى نفسه أن الابتلاء بمثل هذه العاشقات الوالهات عظيم جدا،و الكف عن معاشقتهن و الامتناع من إجابتهن بما يردنه وهن يفدينه بالأنفس و الأموال أعظم،و لم يكن المراوده بالمره و المرتين و لا الإلحاح و الإصرار يوما أو يومين و لن تتيسر المقاومه و الاستقامه تجاه ذلك إلاّ لمن صرف

اللّه عنه السوء و الفحشاء ببرهان من عنده.

قوله تعالى: قٰالَ مٰا خَطْبُكُنَّ إِذْ رٰاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا عَلِمْنٰا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ الآيه؛قال الراغب:الخطب الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب قال تعالى «فَمٰا خَطْبُكَ يٰا سٰامِرِيُّ» «فَمٰا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ» .انتهى.

و قال أيضا:حصحص الحق أى وضح و ذلك بانكشاف ما يظهره،و حص و حصحص نحو كف و كفكف و كب و كبكب،و حصه قطع منه إما بالمباشره و إما بالحكم-الى أن قال-و الحصه القطعه من الجمله،و يستعمل استعمال النصيب.انتهى.

و قوله: «قٰالَ مٰا خَطْبُكُنَّ إِذْ رٰاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ؟» جواب عن سؤال مقدر على ما فى الكلام من حذف و إضمار إيجازا-كل ذلك يدل عليه السياق-و التقدير:كأن سائلا يسأل فيقول:فما الذى كان بعد ذلك؟و ما فعل الملك؟فقيل:رجع الرسول الى الملك و بلغه ما قاله يوسف و سأله من القضاء فأحضر النسوه و سألهن عما يهمّ من شأنهن فى مراودتهن ليوسف:ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟قلن «حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا عَلِمْنٰا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ» فنزهه عن كل سوء،و شهدن أنهن لم يظهر لهن منه ما يسوء فيما راودنه عن نفسه.

و ذكرهن كلمه التنزيه «حٰاشَ لِلّٰهِ» نظير تنزيههن حينما رأينه لأول مره «حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا هٰذٰا بَشَراً» يدل على بلوغه عليه السّلام النهايه فى النزاهه و العفه فيما علمنه كما أن كان بالغا فى الحسن.

و الكلام فى فصل قوله: «قٰالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ» نظير الكلام فى قوله: «قٰالَ مٰا خَطْبُكُنَّ» و قوله: «قُلْنَ حٰاشَ لِلّٰهِ» فعند ذلك تكلمت امرأه العزيز و هى الأصل فى هذه الفتنه و اعرفت بذنبها و صدّقت يوسف عليه السّلام فيما كان يدعيه من البراءه قالت:الآن حصحص و وضح الحق و هو أنه:أنا راودته عن نفسه و إنه لمن الصادقين فنسبت المراوده الى نفسها و كذبت نفسها فى اتهامه بالمراوده،و لم تقنع بذلك بر برأته تبرئه كامله أنه لم يراود و لا أجابها فى مراودتها بالطاعه.

و اتضحت بذلک براءته علیه السّلام من کل وجه،و فی قول النسوه و قول امرأه العزیز جهات من التأکید بالغه فی ذلک کنفی السوء عنه بالنکره فی سیاق النفی مع زیاده من «مٰا عَلِمْنٰا عَلَیْهِ مِنْ سُوءٍ» مع کلمه التنزیه «حٰاشَ لِلّٰهِ» فی قولهن،و اعترافها بالذنب فی سیاق الحصر «أَنَا رٰاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ» و شهادتها بصدقه مؤکده بإنّ و اللام و الجمله الاسمیه «وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصّٰادِقِینَ» و غیر ذلک فی قولها.و هذا ینفی عنه علیه السّلام کل سوء أعم من الفحشاء و المراوده لها و أی میل و نزعه إلیها و کذب و افتراء،بنزاهه من حسن اختیاره.

قوله تعالی: ذٰلِکَ لِیَعْلَمَ أَنِّی لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَیْبِ وَ أَنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی کَیْدَ الْخٰائِنِینَ من کلام یوسف علیه السّلام علی ما یدل علیه السیاق،و کأنه قاله عن شهاده النسوه علی براءه ساحته من کل سوء و اعتراف امرأه العزیز بالذنب و شهادتها بصدقه و قضاء الملک ببراءته.

و حکایه القول کثیر النظیر فی القرآن کقوله: آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَیْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ کُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لاٰ نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (البقره/ ۲۸۵)أی قالوا لا نفرق،الخ؛و قوله: وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (الصافات۱۶۶/).

و علی هذا فالإشاره بقوله: «ذٰلِکَ» الی إرجاع الرسول الی الملک و سؤاله القضاء، و الضمیر فی «لِیَعْلَمَ» و «لَمْ أَخُنْهُ» عائد الی العزیز و المعنی إنما أرجعت الرسول الی الملک و سألته أن یحقق الأمر و یقضی بالحق لیعلم العزیز أنی لم أخنه بالغیب بمراوده امرأته و لیعلم أن اللّٰه لا یهدی کید الخائنین.

یذکر علیه السّلام لما فعله من الإرجاع و السؤال غایتین:

أحدهما:أن یعلم العزیز أنه لم یخنه و تطیب نفسه منه و یزول عنها و عن أمره أی شبهه و ریبه.

ص :۲۹۶

و الثانی:أن یعلم أن الخائن مطلقا لا ینال بخیانته غایته و أنه سیفتضح لا محاله سنه اللّه التی قد خلت فی عباده و لن تجد لسنه اللّه تبدیلا فإن الخیانه من الباطل،و الباطل لا یدوم و سیظهر الحق علیه ظهورا،و لو اهتدی الخائن الی بغیته لم تفتضح النسوه الآتی قطعن أیدیهن و أخذن بالمراوده و لا امرأه العزیز فیما فعلت و أصرت علیه فاللّه لا یهدی کید الخائنین.

و کان الغرض من الغایه الثانیه «وَ أَنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی کَیْدَ الْخٰائِنِینَ» و تذکیره و تعلیمه للملک، الحصول علی لازم فائده الخبر و هو أن یعلم الملک أنه علیه السّلام عالم بذلک مذعن بحقیقته فإذا کان لم یخنه فی عرضه بالغیب و لا یخون فی شیء البته کان جدیرا بأن یؤتمن علی کل شیء نفسا کان أو عرضا أو مالا.

و بهذا الامتیاز البیّن یتهیأ لیوسف ما کان بباله أن یسأل الملک إیاه و هو قوله بعد أن أشخص عند الملک: «اجْعَلْنِی عَلیٰ خَزٰائِنِ الْأَرْضِ إِنِّی حَفِیظٌ عَلِیمٌ» .

و الآیه ظاهره فی أن هذا الملک هو غیر عزیز مصر زوج المرأه الذی أشیر الیه بقوله:

«وَ أَلْفَیٰا سَیِّدَهٰا لَدَی الْبٰابِ» و قوله: «وَ قٰالَ الَّذِی اشْتَرٰاهُ مِنْ مِصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَکْرِمِی مَثْوٰاهُ» .

و قد ذکر بعض المفسرین أن هذه الآیه و التی بعدها تتمه قول امرأه العزیز «الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رٰاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصّٰادِقِینَ» و سیأتی الکلام علیه.

قوله تعالی: وَ مٰا أُبَرِّئُ نَفْسِی إِنَّ النَّفْسَ لَأَمّٰارَهٌ بِالسُّوءِ إِلاّٰ مٰا رَحِمَ رَبِّی إِنَّ رَبِّی غَفُورٌ رَحِیمٌ تتمه کلام یوسف علیه السّلام و ذلک أن قوله: «أَنِّی لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَیْبِ» کان لا یخلو من شائبه دعوی الحول و القوه و هو علیه السّلام من المخلصین المتوغلین فی التوحید الذین لا یرون لغیره تعالی حولا و لا قوه فبادر علیه السّلام الی نفی الحول و القوه عن نفسه و نسبه ما ظهر منه من عمل صالح أو صفه جمیله الی رحمه ربه،و تسویه نفسه بسائر النفوس التی هی بحسب الطبع مائله الی الأهواء أماره بالسوء فقال «وَ مٰا أُبَرِّئُ نَفْسِی إِنَّ النَّفْسَ لَأَمّٰارَهٌ بِالسُّوءِ إِلاّٰ مٰا رَحِمَ رَبِّی» فقوله هذا کقول شعیب علیه السّلام: إِنْ أُرِیدُ إِلاَّ الْإِصْلاٰحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ مٰا تَوْفِیقِی إِلاّٰ

بِاللّٰهِ (هود۸۸/).

فقوله: وَ مَا أُبَرِّئُ نَفْسِی إشاره الی قوله: «أَنِّی لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَیْبِ» و أنه لم قل هذا القول بداعی تنزیه نفسه و تزکیتها بل بداعی حکایه رحمه من ربه،و علل ذلک بقوله: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمّارَهٌ بِالسُّوءِ» أی إن النفس بطبعها تدعو الی مشتهیاتها من السیئات علی کثرتها و وفورها فمن الجهل أن تبرأ من المیل الی السوء،و إنما تکفّ عن أمرها بالسوء و دعوتها الی الشر برحمه من اللّه سبحانه تصرفها عن السوء و توفّقها لصالح العمل.

قوله تعالی: وَ قٰالَ الْمَلِکُ ائْتُونِی بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِی فَلَمّٰا کَلَّمَهُ قٰالَ إِنَّکَ الْیَوْمَ لَدَیْنٰا مَکِینٌ أَمِینٌ یقال:أستخلصه أی جعله خالصا،و المکین صاحب المکانه و المنزله،و فی قوله: «فَلَمّٰا کَلَّمَهُ» حذف للإیجاز و التقدیر:فلما أتی به الیه و کلمه قال إنک الیوم،الخ؛و فی تقیید الحکم بالیوم اشاره الی التعلیل،و المعنی إنک الیوم و قد ظهر من مکارم أخلاقک فی التجنب عن السوء و الفحشاء و الخیانه و الظلم،و الصبر علی مکروه و صغار فی سبیل طهاره نفسک،و اختصاصک بتأیید من ربک غیبی و علم بالأحادیث و الرأی و الحزم و الحکمه و العقل لدینا ذو مکانه و أمانه،و قد أطلق قوله: «مَکِینٌ أَمِینٌ» فأفاد بذلک عموم الحکم.

و المعنی:و قال الملک ائتونی بیوسف أجعله خالصا لنفسی و خاصه لی فلما أتی به الیه و کلمه قال له إنک الیوم و قد ظهر من کمالک ما ظهر لدینا ذو مکانه مطلقه و أمانه مطلقه یمکنک من کل ما ترید و یأتمنک علی جمیع شئون الملک و فی ذلک حکم صدارته.

قوله تعالی: قٰالَ اجْعَلْنِی عَلیٰ خَزٰائِنِ الْأَرْضِ إِنِّی حَفِیظٌ عَلِیمٌ لما عهد الملک لیوسف إنک الیوم لدینا مکین أمین و أطلق القول سأله یوسف علیه السّلام أن ینصبه علی خزائن الأرض و یفوّض الیه أمرها،و المراد بالأرض أرض مصر.

و لم یسأله ما سأل إلاّ لیتقلد بنفسه إداره أمر المیره و أرزاق الناس الناس فیجمعها

و یـدخرها لسـنین السـبع الشـداد التی سیسـتقبل الناس و تنزل علیهم جدیها و مجاعتها و یقوم بنفسه لقسـمه الأرزاق بین الناس و إعطاء کل منهم ما یستحقه من المیره من غیر حیف.

و قـد علل سؤاله ذلک بقوله: «إِنِّی حَفِیظٌ عَلِیمٌ» فإن هاتین الصـفتین هما اللازم وجودهما فیمن یتصـدی مقاما هو سائله و لا غنی عنهما له،و قد أجیب الی ما سأل و اشتغل بما کان یریده کل ذلک معلوم من سیاق الآیات و ما یتلوها.

قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ مَکَّنّٰا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ یَتَبَوَّأُ مِنْهٰا حَیْثُ یَشٰاءُ نُصِیبُ بِرَحْمَتِنٰا مَنْ نَشٰاءُ وَ لاٰ نُضِیعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِینَ التمکین هو الإقدار و التبوّؤ أخذ المکان.

و الإشاره بقوله: «کَذٰلِکَ» الی ما ساقه من القصه بما انتهی الی نیله علیه السّلام عزه مصر،و هو حدیث السجن و قد کانت امرأه العزیز هـددته بالصـغار بالسـجن فجعله اللّه سـببا للعزه،و علی هـذا النمط کان یجری أمره علیه السّلام أکرمه أبوه فحسده إخوته فکـادوا به بإلقـائه فی غیابه الجب و بیعه من السـیّاره لیـذلوه فأکرم اللّه مثواه فی بیت العزیز،و کادت به امرأه العزیز و نسوه مصر لیوردنه مورد الفجور فأبان اللّه عصمته ثم کادت به بالسجن لصغاره فتسبب اللّه بذلک لعزته.

و للإشاره الی أمر السجن و حبسه و سلبه حریه الاختلاط و العشره،قال تعالی «وَ کَذٰلِکَ مَکَّنّٰا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ یَتَبَوَّأُ مِنْهٰا حَیْثُ یَشٰاءُ» أی رفعنـا عنه حرج السـجن الـذی سلب منه إطلاق الإراده فصار مطلق المشـیه له أن یتبوّأ فی أی بقعه یشاء فهـذا الکلام بوجه یحاذی قوله تعالی السابق فیه حین دخل بیت العزیز و وصّاه امرأته: «وَ کَذٰلِکَ مَکَّنّٰا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحٰادِیثِ وَ اللّٰهُ غٰالِبٌ عَلیٰ أَمْرِهِ» .

و بهذه المقایسه یظهر أن قوله هاهنا: «نُصِیبُ بِرَحْمَتِنٰا مَنْ نَشٰاءُ» فی معنی قوله هناک: «وَ اللّٰهُ غٰالِبٌ عَلیٰ أَمْرِهِ» و أن المراد أن اللّه سبحانه إذا شاء أن یصـیب برحمته أحدا لم یغلب فی مشـیته و لا یسع لأی مانع مفروض أن یمنع من إصابته.و لو وسع لسـبب أن یبطل مشیه اللّه فی أحد

لوسع فی یوسف الذی تعاضدت الأسباب القاطعه و تظاهرت لخفضه فرفعه اللّه و لإذلاله فأعزه اللّه،إن الحکم إلاّ للّه.

و قوله: وَ لاٰ نُضِیعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِینَ إشاره الی أن هذا التمکین أجر اوتیه یوسف علیه السّلام،و وعد جمیل للمحسنین جمیعا أن اللّه لا یضیع أجرهم.

قوله تعالی: وَ لَأَجْرُ الْآخِرَهِ خَیْرٌ لِلَّذِینَ آمَنُوا وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ أی لأولیاء اللّه من عباده فهو وعد جمیل اخروی لأولیائه تعالی خاصه و کان یوسف علیه السّلام منهم.

و الدلیل علی أنه لا یعم عامه المؤمنین الجمله الحالیه «وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ» الداله علی أن هذا الإیمان و هو حقیقه الإیمان لا محاله کان منهم مسبوقا بتقوی مستمر حقیقی و هذا التقوی لا یتحقق من غیر إیمان فهو إیمان بعد إیمان و تقوی و هو المساوق لولایه اللّه سبحانه قال تعالی أَلاٰ إِنَّ أَوْلِیٰاءَ اللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْریٰ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ فِی الْآخِرَهِ (یونس۶۴/) (۱).

[سوره یوسف (۱۲): الآیات ۵۸ الی ۶۲]

اشاره

وَ جٰاءَ إِخْوَهُ یُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَیْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْکِرُونَ (۵۸) وَ لَمّٰا جَهَّزَهُمْ بِجَهٰازِهِمْ قٰالَ اِئْتُونِی بِأَخٍ لَکُمْ مِنْ أَبِیکُمْ أَ لاٰ تَرَوْنَ أَنِّی أُوفِی اَلْکَیْلَ وَ أَنَا خَیْرُ اَلْمُنْزِلِینَ (۵۹) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِی بِهِ فَلاٰ کَیْلَ لَکُمْ عِنْدِی وَ لاٰ تَقْرَبُونِ (۶۰) قٰالُوا سَنُرٰاوِدُ عَنْهُ أَبٰاهُ وَ إِنّٰا لَفٰاعِلُونَ (۶۱) وَ قٰالَ لِفِتْیٰانِهِ اِجْعَلُوا بِضٰاعَتَهُمْ فِی رِحٰالِهِمْ لَعَلَّهُمْ یَعْرِفُونَهٰا إِذَا انْقَلَبُوا إِلیٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۶۲)

۱- ۱) .یوسف ۴۳-۵۷:بحث روائی حول رؤیا ملک مصر و انباء یوسف بتأویله.

بيان:

قوله تعالى: وَ جٰاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ فى الكلام حذف كثير و إنما ترك الاقتصاص له لعدم تعلق غرض هام به،و إنما الغرض بيان لحوق أخى يوسف من أمه به و إشراكه معه فى النعمه و المنّ الإلهى ثم معرفتهم بيوسف و لحوق بيت يعقوب به فهو شطر مختار من قصته و ما جرى عليه بعد عزه مصره.

و الذى جاء اليه من إخوته هم العصبه ما خلا أخيه من أمه فإن يعقوب عليه السّلام كان يأنس به و لا يخلى بينه و بينهم بعد ما كان من أمر يوسف ما كان،و الدليل على ذلك كله ما سيأتى من الآيات.

و كان بين دخولهم هذا على أخيهم يوسف و بين انتصابه على خزائن الأرض و تقلده عزه مصر بعد الخروج من السجن أكثر من سبع سنين فإنهم إنما جاءوا اليه فى بعض السنين المجدبه و قد خلت السبع السنون المخصبه،و لم يروه منذ سلموه الى السياره يوم أخرج من الجب و هو صبى و قد مر عليه سنون فى بيت العزيز و لبث بضع سنين فى السجن و تولى أمر الخزائن منذ أكثر من سبع سنين،و هو اليوم فى زى عزيز مصر لا يظن به أنه رجل عبرى من غير القبط، و هذا كله صرفهم عن أن يظنوا به أنه أخوهم و يعرفوه لكنه عرفهم بكياسته أو بفراسه النبوه كما قال تعالى «وَ جٰاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ» .

قوله تعالى: وَ لَمّٰا جَهَّزَهُمْ بِجَهٰازِهِمْ قٰالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لاٰ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ قال الراغب فى المفردات:الجهاز ما يعد من متاع و غيره،و التجهيز حمل ذلك أو بعثه.انتهى.فالمعنى و لما حملهم ما أعد لهم من الجهاز و الطعام الذى باعه منهم أمرهم بأن يأتوا اليه بأخ لهم من أبيهم و قال ائتونى،الخ.

و قوله: «أَ لاٰ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ- أى لا أبخس فيه و لا أظلمكم بالاتكاء على قدرتى

و عزتی -وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» أکرم النازلين بی و أحسن مثواهم،و هذا تحريض لهم أن يعودوا اليه ثانيا و يأتوا اليه بأخيهم من أبيهم كما أن قوله فی الآيه التاليه: «فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِی بِهِ فَلاٰ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِی وَ لاٰ تَقْرَبُونِ» تهديد لهم لئلا يعصوا أمره،و كما أن قولهم فی الآيه: «سَنُرٰاوِدُ عَنْهُ أَبٰاهُ وَ إِنّٰا لَفٰاعِلُونَ» تقبل منهم لذلک فی الجمله و تطييب لنفس يوسف عليه السّلام.

ثم من المعلوم أن قوله عليه السّلام أوان خروجهم: «ائْتُونِی بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ» مع ما فيه من التأكيد و التحريض و التهديد ليس من شأنه أن يورد كلاما ابتدائيا من غير مقدمه و توطئه تعمی عليهم و تصرفهم أن يتفطنوا أنه يوسف أو يتوهموا فيه ما يريبهم فی أمره.و هو ظاهر.

و قد أورد المفسرون فی القصه من مفاوضته لهم و تكليمه إياهم أمورا كثيره لا دليل علی شیء منها من كلامه تعالی فی سياق القصه و لا أثر يطمأن اليه فی أمثال المقام.

و كلامه تعالی خال عن التعرض لذلک،و إنما الذی يستفاد منه أنه سألهم عن خطبهم فأخبروه و هم عشره أنهم إخوه و أن لهم أخا آخر بقی عند أبيهم لا يفارقه أبوه و لا يرضی أن يفارقه لسفر أو غيره فأحب العزيز أن يأتوا به اليه فيراه.

قوله تعالی: فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِی بِهِ فَلاٰ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِی وَ لاٰ تَقْرَبُونِ الكيل بمعنی المكيل و هو الطعام،و لا تقربون أی لا تقربونی بدخول أرضی و الحضور عندی للامتيار و اشتراء الطعام.و معنی الآيه ظاهر،و هو تهديد منه لهم لو خالفوا عن أمره كما تقدم.

قوله تعالی: قٰالُوا سَنُرٰاوِدُ عَنْهُ أَبٰاهُ وَ إِنّٰا لَفٰاعِلُونَ المراوده كما تقدم هی الرجوع فی أمر مره بعد مره بالإلحاح أو الاستخدام،ففی قولهم ليوسف عليه السّلام: «سَنُرٰاوِدُ عَنْهُ أَبٰاهُ» دليل علی أنهم قصوا عليه قصته أن أباهم يضن به و لا يرضی بمفارقته له و يأبی أن يبتعد منه لسفر أو أی غيبه،و فی قولهم: «أَبٰاهُ» و لم قولوا:أبانا تأييد لذلک.

و قولهم: وَ إِنّٰا لَفٰاعِلُونَ أی فاعلون للإتيان به أو للمراوده لحمله معهم و الإتيان به اليه،و معنی الآيه ظاهر،و فيه تقبل منهم لذلک فی الجمله و تطييب لنفس يوسف عليه السّلام

كما تقدم.

قوله تعالى: وَ قٰالَ لِفِتْيٰانِهِ اجْعَلُوا بِضٰاعَتَهُمْ فِي رِحٰالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهٰا إِذَا انْقَلَبُوا إِلىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ الفتيان جمع الفتى و هو الغلام،و قال الراغب:

البضاعه قطعه وافره من المال يقتنى للتجاره يقال:أبضع بضاعه و ابتضعها،قال تعالى «هٰذِهِ بِضٰاعَتُنٰا رُدَّتْ إِلَيْنٰا» و قال تعالى «بِبِضٰاعَةٍ مُزْجٰاةٍ» و الأصل فى هذه الكلمه البضع-بفتح الباء-و هو جمله من اللحم ببضع أي يقطع-قال-و فلان بضعه منى أى جار مجرى بعض جسدى لقربه منى-قال-و البضع بالكسر المنقطع من العشره،و يقال ذلك لما بين الثلاث الى العشره و قيل:بل هو فوق الخمس و دون العشره.انتهى،و الرحال جمع رحل و هو الوعاء و الأثاث،و الانقلاب الرجوع.

و معنى الآيه:و قال يوسف عليه السّلام لغلمانه:اجعلوا مالهم و بضاعتهم التى قدموها ثمنا لما اشتروه من الطعام فى أوعيتهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا و رجعوا الى أهلهم-و فتحوا الأوعيه-لعلهم يرجعون إلينا و يأتوا بأخيهم فإن ذلك يقع فى قلوبهم و يطمعهم الى الرجوع و التمتع من الإكرام و الإحسان.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٦٣ الى ٨٢]

اشاره

فَلَمّٰا رَجَعُوا إِلىٰ أَبِيهِمْ قٰالُوا يٰا أَبٰانٰا مُنِعَ مِنَّا اَلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنٰا أَخٰانٰا نَكْتَلْ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ (٦٣) قٰالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاّٰ كَمٰا أَمِنْتُكُمْ عَلىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللّٰهُ خَيْرٌ حٰافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ اَلرّٰاحِمِينَ (٦٤) وَ لَمّٰا فَتَحُوا مَتٰاعَهُمْ وَجَدُوا بِضٰاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قٰالُوا يٰا أَبٰانٰا مٰا نَبْغِي هٰذِهِ بِضٰاعَتُنٰا رُدَّتْ إِلَيْنٰا وَ نَمِيرُ أَهْلَنٰا وَ نَحْفَظُ أَخٰانٰا وَ نَزْدٰادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قٰالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتّٰى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اَللّٰهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاّٰ أَنْ يُحٰاطَ بِكُمْ فَلَمّٰا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قٰالَ اَللّٰهُ عَلىٰ مٰا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَ قٰالَ يٰا بَنِيَّ لاٰ تَدْخُلُوا مِنْ بٰابٍ وٰاحِدٍ وَ اُدْخُلُوا مِنْ أَبْوٰابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ مٰا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ اَلْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَ لَمّٰا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مٰا كٰانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ حٰاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضٰاهٰا وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمٰا عَلَّمْنٰاهُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (٦٨) وَ لَمّٰا دَخَلُوا عَلىٰ يُوسُفَ آوىٰ إِلَيْهِ أَخٰاهُ قٰالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمّٰا جَهَّزَهُمْ بِجَهٰازِهِمْ جَعَلَ اَلسِّقٰايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا اَلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسٰارِقُونَ (٧٠) قٰالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مٰا ذٰا تَفْقِدُونَ (٧١) قٰالُوا نَفْقِدُ صُوٰاعَ اَلْمَلِكِ وَ لِمَنْ جٰاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قٰالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مٰا جِئْنٰا لِنُفْسِدَ فِي اَلْأَرْضِ وَ مٰا كُنّٰا سٰارِقِينَ (٧٣) قٰالُوا فَمٰا جَزٰاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كٰاذِبِينَ (٧٤) قٰالُوا جَزٰاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزٰاؤُهُ كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلظّٰالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعٰاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اِسْتَخْرَجَهٰا مِنْ وِعٰاءِ أَخِيهِ كَذٰلِكَ كِدْنٰا لِيُوسُفَ مٰا كٰانَ لِيَأْخُذَ أَخٰاهُ فِي دِينِ اَلْمَلِكِ إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اَللّٰهُ نَرْفَعُ دَرَجٰاتٍ مَنْ نَشٰاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قٰالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهٰا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهٰا لَهُمْ قٰالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكٰاناً وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا تَصِفُونَ (٧٧) قٰالُوا يٰا أَيُّهَا اَلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنٰا مَكٰانَهُ إِنّٰا نَرٰاكَ مِنَ اَلْمُحْسِنِينَ (٧٨) قٰالَ مَعٰاذَ اَللّٰهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاّٰ مَنْ وَجَدْنٰا مَتٰاعَنٰا عِنْدَهُ إِنّٰا إِذاً لَظٰالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اِسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قٰالَ كَبِيرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبٰاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اَللّٰهِ وَ مِنْ قَبْلُ مٰا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ اَلْأَرْضَ حَتّٰى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اَللّٰهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ اَلْحٰاكِمِينَ (٨٠) اِرْجِعُوا إِلىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يٰا أَبٰانٰا إِنَّ اِبْنَكَ سَرَقَ وَ مٰا شَهِدْنٰا إِلاّٰ بِمٰا

عَلِمْنٰا وَ مٰا كُنّٰا لِلْغَيْبِ حٰافِظِينَ (٨١) وَ سْئَلِ اَلْقَرْيَهَ اَلَّتِى كُنّٰا فِيهٰا وَ اَلْعِيرَ اَلَّتِى أَقْبَلْنٰا فِيهٰا وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ (٨٢)

ص :٣٠٣

بيان:

قوله تعالى: فَلَمّا رَجَعُوا إِلىٰ أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ الاكتيال أخذ الطعام كيلا إن كان مما يكال،قال الراغب:الكيل كيل الطعام يقال:كلت له الطعام إذا توليت له ذلك،و كلته الطعام إذا أعطيته كيلا،و اكتلت عليه إذا أخذت منه كيلا،قال تعالى: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ اَلَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النّاسِ -يَسْتَوْفُونَ- وَ إِذا كالُوهُمْ.

و قوله: قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ أى لو لم نذهب بأخينا و لم يذهب معنا الى مصر،بدليل قوله: «فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا» فهو إجمال ما جرى بينهم و بين عزيز مصر من أمره بمنعهم من الكيل إن لم يأتوا بأخ لهم من أبيهم،يقصونه لأبيهم و يسألونه أن يرسله معهم ليكتالوا و لا يحرموا.

و قولهم: أَخانا إظهار رأفه و إشفاق لتطييب نفس ابيهم من انفسهم كقولهم: «وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ» بما فيه من التأكد البالغ.

قوله تعالى: قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللّٰهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ قال فى المجمع:الأمن اطمئنان القلب الى سلامه الأمر يقال:أمنه يأمنه أمنا انتهى فقوله: «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ» الخ؛أى هل اطمأن اليكم فى ابنى هذا إلاّ مثل ما اطمأننت اليكم فى أخيه يوسف من قبل هذا فكان ما كان.

و محصله أنكم تتوقعون منى أن أثق فيه بكم و تطمئن نفسى اليكم كما وثقت بكم و اطمأننت

اليكم فی أخيه من قبل و تعدوننی بقولكم «وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ» أن تحفظوه كما وعدتم فی يوسف بقولكم «وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ» و قد أمنتكم بمثل هذا الأمن علی يوسف فلم تغنوا عنی شيئا و جئتم بقميصه الملطخ بالدم أن الذئب أكله و أمنی لكم علی هذا الأخ مثل أمنی علی أخيه من قبل أمن لمن لا يغنی أمنه و الاطمئنان اليه شيئا و لا بيده حفظ ما سلم اليه و ائتمن له.

و قوله: فَاللّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ تفريع علی سابق كلامه «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ» الخ؛و تفيد الاستنتاج أی إذا كان الاطمئنان اليكم فی أمره لغیّ لا أثر له و لا يغنی شيئا فخير الاطمئنان و الاتكال ما كان اطمئنانا الی اللّه سبحانه من حيث حفظه،و إذا تردد الأمر بين التوكل عليه و التفويض اليه و بين الاطمئنان الی غيره كان الوثوق به تعالی هو المختار المتعين.

و قوله: وَ هُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ فی موضع التعليل لقوله: «فَاللّهُ خَيْرٌ حافِظاً» أی إن غيره تعالی ربما أمن فی أمر و ائتمن عليه فی أمانه سلم له فلم يرحم المؤتمن وضيع الأمانه لكنه سبحانه أرحم الراحمين لا يترك الرحمه فی محل الرحمه و يترحم العاجز الضعيف الذی فوض اليه أمرا و توكل عليه،و من يتوكل علی اللّه فهو حسبه.

قوله تعالی: وَ لَمّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ الی آخر الآيه؛البغی هو الطلب و يستعمل كثيرا فی الشر و منه البغی بمعنی الظلم و البغی بمعنی الزنا، و قال فی المجمع:الميره الأطعمه التی تحمل من بلد الی بلد و يقال:مرتهم أميرهم ميرا:إذا أتيتهم بالميره،و مثله:امترتهم امتيارا.انتهی.

و قوله: يا أَبانا ما نَبْغِی استفهام أی لما فتحوا متاعهم و وجدوا بضاعتهم ردت اليهم و كان ذلك دليلا علی اكرم العزيز لهم و أنه غير قاصد بهم سوء و قد سلم اليهم الطعام و رد اليهم الثمن فكان ذهابهم الی مصر للامتيار خير سفر نفعا و درا راجعوا أباهم و قالوا:يا أبانا ما الذی نطلب من سفرنا الی مصر وراء هذا؟فقد اوفی لنا الكيل و رد الينا ما بذلناه من البضاعه

ثمنا.

فقولهم: يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى هٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا أرادوا به تطييب نفس أبيهم ليرضى بذهاب أخيهم معهم لأنه فى أمن من العزيز و هم يحفظونه كما وعدوه و لذلك عقبوه بقولهم: «وَ نَمِيرُ أَهْلَنَا وَ نَحْفَظُ أَخَانَا وَ نَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ» أى سهل.

و ربما قيل:إن «مَا» فى قوله: «مَا نَبْغِى» للنفى أى ما نطلب بما أخبرناك من العزيز و إكرامه لنا الكذب فهذه بضاعتنا ردت الينا،و كذا قيل:إن اليسير بمعنى القليل أى إن الذى جئنا به اليك من الكيل قليل لا يقنعنا فنحتاج الى أن نضيف اليه كيل بعير أخينا.

قوله تعالى: قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتّٰى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ إِلاّٰ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمّٰا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّٰهُ عَلىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ الموثق بكسر الثاء ما يوثق به و يعتمد عليه،و الموثق من اللّه هو أمر يوثق به و يرتبط مع ذلك باللّه و إيتاء موثق إلهى و إعطاؤه هو أن يسلط الإنسان على أمر إلهى يوثق به كالعهد و اليمين بمنزله الرهينه،و المعاهد و المقسم بقوله عاهدت اللّه أن أفعل كذا أو باللّه لأفعلن كذا يراهن كرامه اللّه و حرمته فيضعها رهينه عند من يعاهده أو يقسم له،و لو لم يف بما قال خسر فى رهينته و هو مسئول عند اللّه لا محاله.

و الإحاطه من حاط بمعنى حفظ و منه الحائط للجدار الذى يدور حول المكان ليحفظه و اللّه سبحانه محيط بكل شىء أى مسلط عليه حافظ له من كل جهه لا يخرج و لا شىء من أجزائه من قدرته،و أحاط به البلاء و المصيبه أى نزل به على نحو انسدت عليه جميع طرق النجاه فلا مناص له منه،و منه قولهم:أحيط به أى هلك أو فسد أو انسدت عليه طرق النجاه و الخلاص قال تعالى: وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلىٰ مٰا أَنْفَقَ فِيهٰا (الكهف/۴۲)،و قال:

وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (يونس/۲۲)و منه قوله فى الآيه:

«إِلاّٰ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ» أى أن ينزل بكم من النازله ما يسلب منكم كل استطاعه و قدره فلا

يسعكم الإتيان به إلى.

و الوكاله نوع تسلط على أمر يعود الى الغير ليقوم به،و توكيل الإنسان غيره فى أمر تسليطه عليه ليقوم فى إصلاحه مقامه،و التوكل عليه اعتماده و الاطمئنان اليه فى أمر،و توكيله تعالى و التوكل عليه فى الامور ليس بعنايه أنه خالق كل شىء و مالكه و مدبره بل بعنايه أنه أذن فى نسبه الامور الى مصادرها و الأفعال الى فواعلها و ملكها إياها بنحو من التمليك و هى فاقده للأصاله و الاستقلال فى التأثير و اللّه سبحانه هو السبب المستقل القاهر لكل سبب الغالب عليه فمن الرشد إذا أراد الإنسان أمرا و توصل اليه بالأسباب العاديه التى بين يديه أن يرى اللّه سبحانه هو السبب الوحيد المستقل بتدبير الأمر و ينفى الاستقلال و الأصاله عن نفسه و عن الأسباب التى استعملها فى طريق الوصول اليه فيتوكل عليه سبحانه.فليس التوكل هو قطع الإنسان أو نفيه نسبه الامور الى نفسه أو الى الأسباب بل هو نفيه دعوى الاستقلال عن نفسه و عن الأسباب و إرجاع الاستقلال و الأصاله اليه تعالى مع إبقاء أصل النسبه غير المستقله التى الى نفسه و الى الأسباب.

و لذلك نرى أن يعقوب عليه السّلام فيما تحكيه الآيات من توكله على اللّه لم بلغ الأسباب و لم يهملها بل تمسك بالأسباب العاديه فكلم أولا بنيه فى أخيهم ثم أخذ منهم موثقا من اللّه ثم توكل على اللّه و كذا فيما وصاهم فى الآيه الآتيه بدخولهم من أبواب متفرقه ثم توكله على ربه تعالى.

فاللّه سبحانه على كل شىء وكيل من جهه الامور التى لها نسبه إليها كما أنه ولى لها من جهه استقلاله بالقيام على الامور المنسوبه إليها و هى عاجزه عن القيام بها بحول و قوه،و أنه رب كل شىء من جهه أنه المالك المدبر لها.

و معنى الآيه «قَالَ» يعقوب لبنيه «لَنْ أُرْسِلَهُ» أى أخاكم من ام يوسف «مَعَكُمْ حَتّٰى تُؤْتُونِ» و تعطونى «مَوْثِقاً مِنَ اللّٰهِ» أثق به و أعتمد عليه من عهد أو يمين «لَتَأْتُنَّنِي بِهِ» و اللام للقسم و لما كان إيتاؤهم موثقا من اللّه إنما كان يمضى و يفيد فيما كان راجعا الى استطاعتهم

ص:۳۰۹

و قـدرتهم اسـتثنى فقال «إِلاّ أَنْ يُحاطَ بِكَمْ» و تسـلبوا الاسـتطاعه و القـدره «فَلَمّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ» من اللّه «قالَ» يعقوب «اللّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيـلٌ» أى إنـا قاولنـا جميعا فقلت و قلتم و توسـلتم بـذلك الى هـذه الأسـباب العاديه للوصول الى غرض نبتغيه فليكن اللّه سبحانه وكيلا على هذه الأقاويل يجريها على رسلها فمن التزم بشىء فليأت به كما التزم و إن تخلف فليجازه اللّه و ينتصف منه.

قوله تعالى: وَ قالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَهٍ الى آخر الآيه؛هذه كلمه ألقاها يعقوب عليه السّلام الى بنيه حين آتوه موثقا من اللّه و تجهزوا و استعدوا للرحيل،و من المعلوم من سياق القصه أنه خاف على بنيه و هم أحـد عشـر عصبه-لا من أن يراهم عزيز مصر مجتمعين صـفا واحدا لأنه كان من المعلوم أنه سيشخصـهم اليه فيصطفون عنده صفا واحدا و هم أحد عشر إخوه لأب واحد-بل إنما كان يخاف عليهم أن يراهم الناس فيصيبهم عين على ما قيل أو يحسدون أو يخاف منهم فينالهم ما يتفرق به جمعهم من قتل أو أى نازله اخرى.

و قوله بعـده: «وَ ما أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللّهِ مِنْ شَىْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ» لا يخلو من دلاله أو إشعار بأنه كان يخاف ذلك جدا فكأنه عليه السّلام-و اللّه أعلم-أحس حينمـا تجهزوا للسـفر و اصـطفوا أمـامه للوداع إحسـاس إلهـام أن جمعهم و هم على هـذه الهيئه الحسنه سيفرّق و ينقّص من عددهم فأمرهم أن لا يتظاهروا بالاجماع كذلك و حذّرهم عن الدخول من باب واحد و عزم عليهم أن يدخلوا من أبواب متفرقه رجاء أن يندفع بذلك عنهم بلاء التفرقه بينهم و النقص فى عددهم.

ثم رجع الى إطلاق كلامه الظاهر فى كون هذا السبب الذى ركن اليه فى دفع ما خطر بباله من المصـيبه سببا أصيلا مستقلا-و لا مؤثر فى الوجود بالحقيقه إلاّ اللّه سبحانه-فقيـد كلامه بما يصـلحه فقال مخاطبا لهم «وَ ما أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللّهِ مِنْ شَىْءٍ» ثم علله بقوله: «إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ» أى لست أرفع حاجتكم الى اللّه سبحانه بما أمرتكم به من السبب الذى تتقون به نزول النازله

و تتوسلون به الى السلامه و العافيه و لا أحكم بأن تحفظوا بهذه الحيله فإن هذه الأسباب لا تغنى من اللّه شيئا و لا لها حكم دون اللّه سبحانه فليس الحكم مطلقا إلاّ للّه بل هذه أسباب ظاهريه إنما تؤثر إذا أراد اللّه لها أن تؤثر.

و لذلك عقب كلامه هذا بقوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» أى إن هذا سبب أمرتكم باتخاذه لدفع ما أخافه عليكم من البلاء و توكلت مع ذلك على اللّه فى أخذ هذا السبب و فى سائر الأسباب التى أخذتها فى امورى،و على هذا المسير يجب أن يسير كل رشيد غير غوى يرى أنه لا يقوى باستقلاله لإداره اموره و لا أن الأسباب العاديه باستقلالها تقوى على إيصاله الى ما يبتغيه من المقاصد بل عليه أن يلتجئ فى اموره الى وكيل يصلح شأنه و يدبر أمره أحسن تدبير فذلك الوكيل هو اللّه سبحانه القاهر الذى لا يقهره شىء الغالب الذى لا يغلبه شىء يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

قوله تعالى: وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا الى آخر الآيه؛الذى يعطيه سياق الآيات السابقه و اللاحقه و التدبر فيها-و اللّه أعلم-أن يكون المراد بدخولهم من حيث أمرهم أبوهم أنهم دخلوا مصر أو دار العزيز فيها من ابواب متفرقه كما أمرهم ابوهم حينما و دعوه للرحيل،و إنما اتخذ يعقوب عليه السّلام هذا الأمر وسيله لدفع ما تفرّسه من نزول مصيبه بهم تفرق جمعهم و تنقص من عددهم كما أشير اليه فى الآيه السابقه لكن اتخاذ هذه الوسيله و هى الدخول من حيث أمرهم أبوهم لم يكن ليدفع عنهم البلاء و كان قضاء اللّه سبحانه ماضيا فيهم و أخذ العزيز أخاهم من أبيهم لحديث سرقت الصواع و انفصل منهم كبيرهم فبقى فى مصر و أدى ذلك الى تفرق جمعهم و نقص عددهم فلم يغن يعقوب أو الدخول من حيث أمرهم من اللّه من شىء.

لكن اللّه سبحانه قضى بذلك حاجه فى نفس يعقوب عليه السّلام فإنه جعل هذا السبب الذى تخلف

عن أمره و أدى الى تفرق جمعهم و نقص عددهم بعينه سببا لوصول يعقوب الى يوسف عليهما السّلام فإن يوسف أخذ أخاه اليه و رجع سائر الإخوه إلاّ كبيرهم الى أبيهم ثم عادوا الى يوسف يسترحمونه و يتذللون لعزته فعرفهم نفسه و أشخص أباه و أهله الى مصر فاتصلوا به.

فقوله: مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ أى لم يكن من شأن يعقوب أو هذا الأمر الذى اتخذه وسيله لتخلصهم من هذه المصيبه النازله أن يغنى عنهم من اللّه شيئا البته و يدفع عنهم ما قضى اللّه أن يفارق اثنان منهم جمعهم بل أخذ منهم واحد و فارقهم و لزم أرض مصر آخر و هو كبيرهم.

و قوله: إِلاّٰ حٰاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضٰاهٰا قيل:إن «إِلاّٰ» بمعنى لكن أى لكن حاجه فى نفس يعقوب قضاها اللّه فرد اليه ولده الذى فقده و هو يوسف.

و لا يبعد أن يكون «إِلاّٰ» استثنائيه فإن قوله: «مٰا كٰانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ» فى معنى قولنا:لم ينفع هذا السبب يعقوب شيئا أو لم ينفعهم جميعا شيئا و لم يقض اللّه لهم جميعا به حاجه إلاّ حاجه فى نفس يعقوب،و قوله: «قَضٰاهٰا» استئناف و جواب سؤال كأن سائلا يسأل فيقول:ما ذا فعل بها؟فاجيب بقوله: «قَضٰاهٰا» .

و قوله: وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمٰا عَلَّمْنٰاهُ الضمير ليعقوب أى إن يعقوب لذو علم بسبب ما علمناه من العلم أو بسبب تعليمنا إياه و ظاهر نسبه التعليم اليه تعالى أنه علم موهبى غير اكتسابى و قد تقدم أن إخلاص التوحيد يؤدى الى مثل هذه العنايه الإلهيه،و يؤيد ذلك أيضا قوله تعالى بعده: «وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ» إذ لو كان من العلم الاكتسابى الذى يحكم بالأسباب الظاهريه و يتوصل اليه من الطرق العاديه المألوفه لعلمه الناس و اهتدوا اليه.

و الجمله «وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمٰا عَلَّمْنٰاهُ» الخ؛ثناء على يعقوب عليه السّلام،و العلم الموهبى لا يضل فى هدايته و لا يخطئ فى إصابته و الكلام كما يفيده السياق يشير الى ما تفرس له يعقوب عليه السّلام من البلاء و توسل به من الوسيله و حاجته فى يوسف فى نفسه لا ينساها و لا يزال يذكرها،فمن

هذه الجهات يعلم أن فى قوله: «وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمٰا عَلَّمْنٰاهُ» الخ؛تصديقا ليعقوب عليه السّلام فيما قاله لبنيه و تصويبا لما اتخذه من الوسيله لحاجته بأمرهم بما أمر توكله على اللّه فقضى اللّه له حاجه فى نفسه.

قوله تعالى: وَ لَمّٰا دَخَلُوا عَلىٰ يُوسُفَ آوىٰ إِلَيْهِ أَخٰاهُ قٰالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ الإيواء اليه ضمه و تقريبه منه فى مجلسه و نحوه، و الابتئاس اجتلاب البؤس و الاغتمام و الحزن،و ضمير الجمع للإخوه.

و معنى الآيه «وَ لَمّٰا دَخَلُوا عَلىٰ يُوسُفَ» بعد دخولهم مصر «آوىٰ» و قرب «إِلَيْهِ أَخٰاهُ» الذى أمرهم أن يأتوا به اليه و كان أخا له من أبيه و أمه «قٰالَ» له «إِنِّى أَنَا أَخُوكَ» أى يوسف الذى فقدته منذ سنين-و الجمله خبر بعد خبر أو جواب سؤال مقدر- «فَلاٰ تَبْتَئِسْ» و لا تغتم «بِمٰا كٰانُوا» أى الإخوه «يَعْمَلُونَ» من أنواع الأذى و المظالم التى حملهم عليها حسدهم لى و لك و نحن أخوان من ام أو لا تبتئس بما كان غلمانى يعملون فإنه كيد لحبسك عندى.

و ظاهر السياق أنه عرفه نفسه بإسرار القول اليه و سلاه على ما عمله الإخوه و طيب نفسه فلا يعبأ بقول بعضهم أن معنى قوله:إنى أنا أخوك:أنا أخوك مكان أخيك الهالك-و قد كان أخبره أنه كان له أخ من أمه هلك من قبل فبقى وحده لا أخ له من أمه- و لم يعترف يوسف له بالنسب و لكنه أراد أن يطيب نفسه.

و ذلك أنه ينافيه ما فى قوله: «إِنِّى أَنَا أَخُوكَ» من وجوه التأكيد و ذلك إنما يناسب تعريفه نفسه بالنسب ليستيقن أنه هو يوسف.على أنه ينافى أيضا ما سيأتى من قوله لإخوته عند تعريفهم نفسه: «أَنَا يُوسُفُ وَ هٰذٰا أَخِى قَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْنٰا» فإنه إنما يناسب ما إذا علم أخوه أنه أخوه فأعتز بعزته كما لا يخفى.

قوله تعالى: فَلَمّٰا جَهَّزَهُمْ بِجَهٰازِهِمْ جَعَلَ السِّقٰايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسٰارِقُونَ السقايه الظرف الذى يشرب فيه،و الرحل ما

یوضع علی البعیر للرکوب،و العیر القوم الـذین معهم أحمـال المیره و ذلـک اسم للرجـال و الجمـال الحـامله للمیره و إن کان قد یستعمل فی کل واحد من دون الآخر،ذکر ذلک الراغب فی مفرداته.

و معنی الآیه ظاهر و هـذه حیله احتالها یوسف علیه السّـلام لیأخـذ بها أخاه الیه کما قصه و فصـله اللّه تعالی و جعل ذلک مقدمه لتعریفهم نفسه فی حال التحق به أخوه و هما منعمان بنعمه اللّه مکرمان بکرامته.

و قـوله: ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَیَّتُهَا الْعِیرُ إِنَّکُمْ لَسارِقُونَ الخطـاب لإخوه یوسـف و فیهم أخـوه لامه،و من الجـائز توجیه الخطـاب الی الجماعه فی أمر یعود الی بعضـهم إذا کان لا یمتاز عن الآخرین،و فی القرآن منه شـیء کثیر،و هذا الأمر الذی سـمی سرقه و هو وجود السـقایه فی رحل البعیر کان قائما بواحـد منهم و هو أخو یوسف لامه لکن عـدم تعینه بعـد من بینهم کان مجوزا لخطابهم جمیعـا بـأنکم سارقون فإن معنی هـذا الخطاب فی مثل هـذا المقام أن السـقایه مفقوده و هی عنـد بعضـکم ممن لا یتعین إلاّ بعد الفحص و التفتیش.

و من المعلوم من السیاق أن أخا یوسف لامه کان عالما بهذا الکید مستحضرا منه و لذلک لم یتکلم من أول الأمر الی آخره و لا بکلمه و لا نفی عن نفسه السرقه و لا اضـطرب کیف؟و قد عرّفه یوسف أنه أخاه و سـلاه و طیب نفسه فلیس إلاّ أن یوسف علیه السّـلام کان عرّفه ما هو غرضه من هذا الصـنع،و أنه إنما یرید بتسـمیته سارقا و إخراج السـقایه من رحله أن یقبض علیه و یأخذه الیه فتسـمیته سارقـا إنما کان اتهاما فی نظر الإخوه و أما بالنسـبه الیه و فی نظره فلم یکن تسـمیه جـدیه و تهمه حقیقه بل توصـیفا صوریا فحسب لمصلحه لازمه جازمه.

فنسبه السرقه الیهم-بالنظر الی هذه الجهات-لم تکن من الافتراء المذموم عقلا المحرم شرعا،علی أن القائل هو المؤذن الذی أذن بذلک.

قوله تعالی: قالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَیْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ الفقد-کما قیل-غیبه الشیء

عن الحس بحيث لا يعرف مكانه،و الضمير فى قوله: «قٰالُوا» للإخوه و هم العير،و قوله:

«مٰا ذٰا تَفْقِدُونَ» مقول القول و الضمير فى قوله: «عَلَيْهِمْ» ليوسف و فتيانه كما يدل عليه السياق.

و المعنى قال إخوه يوسف المقبلين ليوسف و فتيانه:ما ذا تفقدون؟و فى السياق دلاله على أن المنادى إنما ناداهم من ورائهم و قد أخذوا فى السير.

قوله تعالى: قٰالُوا نَفْقِدُ صُوٰاعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جٰاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ الصواع بالضم السقايه و قيل:إن الصواع هو الصاع الذى يكال به،و كان صواع الملك إناء يشرب فيه و يكال به و لذلك سمى تاره سقايه و اخرى صواعا،و يجوز فيه التذكير و التأنيث،و لذلك قال «وَ لِمَنْ جٰاءَ بِهِ» و قال «ثُمَّ اسْتَخْرَجَهٰا» .

و الحمل ما يحمله الحامل من الأثقال،و قد ذكر الراغب أن الأثقال المحموله فى الظاهر كالشىء المحمول على الظهر تختص باسم الحمل بكسر الحاء،و الأثقال المحموله فى الباطن كالولد فى البطن و الماء فى السحاب و الثمره فى الشجره تختص باسم الحمل بفتح الحاء.

و قال فى المجمع:الزعيم و الكفيل و الضمين نظائر و الزعيم أيضا القائم بأمر القوم و هو الرئيس.

و لعل القائل «نَفْقِدُ صُوٰاعَ الْمَلِكِ» هو فتيان يوسف و القائل «وَ لِمَنْ جٰاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ» يوسف عليه السّلام نفسه لأنه هو الرئيس الذى قوم أمر الإعطاء و المنع و الضمانه و الكفاله و الحكم،و يعود معنى الكلام على هذا الى نحو من قولنا:أجاب عنهم يوسف و فتيانه أما فتيانه فقالوا:نفقد صواع الملك،و أما يوسف فقال:و لمن جاء به حمل بعير و أنا به زعيم،و هذه جعاله.

و ظاهر بعض المفسرين:أن قوله: «وَ لِمَنْ جٰاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ» تتمه قول المؤذن «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسٰارِقُونَ» و على هذا فقوله: «قٰالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ -الى قوله- صُوٰاعَ

الْمَلِكِ» معترض.

قوله تعالى: قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ المراد بالأرض أرض مصر و هى التى جاؤها و معنى الآيه ظاهر.

و فى قولهم: لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ دلاله على أنهم فتشوا و حقق فى أمرهم أول ما دخلوا مصر للميره بأمر يوسف عليه السّلام بدعوى الخوف من أن يكونوا جواسيس و عيونا أو نازلين بها لأغراض فاسده اخرى فسئلوا عن شأنهم و محلهم و نسبهم و أمثال ذلك،و به يتأيد ما ورد فى بعض الروايات أن يوسف أظهر لهم أنه فى ريب من أمرهم فسألهم عن شأنهم و مكانهم و أهلهم و عند ذلك ذكروا أن لهم أبا شائخا و أخا من أبيهم فأمر بإتيانهم به،و سيأتى فى البحث الروائى التالى إن شاء اللّه تعالى.

و قولهم: وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ نفى أن يكونوا متصفين بهذه الصفه الرذيله من قبل أن يعهد منهم أهل البيت ذلك.

قوله تعالى: قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ أى قال فتيان يوسف أو هو و فتيانه سائلين منهم عن الجزاء:ما جزاء السرق أو ما جزاء الذى سرق منكم إن كنتم كاذبين فى إنكاركم.

و الكلام فى قولهم: «إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ» فى نسبه الكذب اليهم يقرب من الكلام فى قولهم:

«إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» و قد تقدم.

قوله تعالى: قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ مرادهم أن جزاء السرق نفس السارق أو جزاء السارق نفسه بمعنى أن من سرق مالا يصير عبدا لمن سرق ماله و هكذا كان حكمه فى سنه يعقوب عليه السّلام كما يدل عليه قولهم:

«كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» أى هؤلاء الظالمين و هم السراق لكنهم عدلوا عنه الى قولهم: «جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ» للدلاله على أن السرقه إنما يجازى بها نفس السارق لا رفقته

و صحبه و هم أحد عشر نسمه لا ينبغى أن يؤاخذ منهم لو تحققت السرقه إلّا السارق بعينه من غير أن يتعدى الى نفوس الآخرين و رحالهم ثم للمسروق منه أن يملك السارق نفسه يفعل به ما يشاء.

قوله تعالى: فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعٰاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهٰا مِنْ وِعٰاءِ أَخِيهِ فيه تفريع على ما تقدم أى أخذ بالتفتيش و الفحص بالبناء على ما ذكروه من الجزاء فبدأ بأوعيتهم و ظروفهم قبل وعاء أخيه للتعميه عليهم حذرا من أن يتنبهوا و يتفطنوا أنه هو الذى وضعها فى رحل أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه و عند ذلك استقر الجزاء عليه لكونها فى رحله.

قوله تعالى: كَذٰلِكَ كِدْنٰا لِيُوسُفَ مٰا كٰانَ لِيَأْخُذَ أَخٰاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ الى آخر الآيه؛الإشاره الى ما جرى من الأمر فى طريق أخذ يوسف عليه السّلام أخاه لامه من عصبه إخوته،و قد كان كيدا لأنه يوصل الى ما يطلبه منهم من غير أن يعلموا و يتفطنوا به و لو علموا لما رضوا به و لا مكنوه منه،و هذا هو الكيد غير أنه كان بإلهام من اللّه سبحانه أو وحى منه اليه علمه به طريق التوصل الى أخذ أخيه.و لذلك نسب اللّه سبحانه ذلك الى نفسه مع توصيفه بالكيد فقال «كَذٰلِكَ كِدْنٰا لِيُوسُفَ» .

و ليس كل كيد بمنفى عنه تعالى،و إنما تتنزه ساحه قدسه عن الكيد الذى هو ظلم و نظيره المكر و الإضلال و الاستدراج و غيرها.

و قوله: مٰا كٰانَ لِيَأْخُذَ أَخٰاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ بيان للسبب الداعى الى الكيد،و هو أنه كان يريد أن يأخذ أخاه اليه،و لم يكن فى دين الملك أى سنته الجاريه فى أرض مصر طريق يؤدى الى أخذه،و لا أن السرقه حكمها استعباد السارق و لذلك كادهم يوسف-بأمر من اللّه-بجعل السقايه فى رحله ثم إعلام أنهم سارقون حتى ينكروه فيسألهم عن جزائه ان كانوا كاذبين فيخبروا أن جزاء السرق عن عندهم أخذ السارق

و استعباده فيأخذهم بما رضوا به لأنفسهم.

و على هـذا فلم يكن له أن يأخذ أخاه فى دين الملك إلاّ فى حال يشاء اللّه ذلك و هو هذا الحال الذى رضوا فيه أن يجازوا بما رضوا به لأنفسهم.

و من هنا يظهر أن الاستثناء يفيد أنه كان من دين الملك أن يؤخذ المجرم بما يرضاه لنفسه من الجزاء و هو أشق،و كان ذلك متداولا فى كثير من السنن القوميه و سياسات الملوك.

و قوله: نَرْفَعُ دَرَجٰاتٍ مَنْ نَشٰاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِی عِلْمٍ عَلِيمٌ امتنان على يوسف عليه السّلام بما رفعه اللّه على إخوته،و بيان لقوله: «كَذٰلِكَ كِدْنٰا لِيُوسُفَ» و كان امتنانا عليه.

و فى قوله: وَ فَوْقَ كُلِّ ذِی عِلْمٍ عَلِيمٌ بيان أن العلم من الامور التى لا يقب على حد ينتهى اليه بل كان ذى علم يمكن ان يفرض من هو أعلم منه.

و ينبغى أن يعلم ان ظاهر قوله: «ذِی عِلْمٍ» هو العلم الطارى على العالم الزائد على ذاته لما فى لفظه «ذِی» من الدلاله على المصاحبه و المقارنه فاللّه سبحانه و علمه الذى هو صفه ذاته عين ذاته،و هو تعالى علم غير محدود كما ان وجوده أحدى غير محدود،خارج بذاته عن إطلاق الكلام.

على ان الجمله «وَ فَوْقَ كُلِّ ذِی عِلْمٍ عَلِيمٌ» إنما تصدق فيما أمكن هناك فرض «فَوْقَ» و اللّه سبحانه لا فوق له و لا تحت له و لا وراء لوجوده و لا حد لذاته و لا نهايه.

و لا يبعد ان يكون قوله: «وَ فَوْقَ كُلِّ ذِی عِلْمٍ عَلِيمٌ» إشاره الى كونه تعالى فوق كل ذى علم أن يكون المراد بعليم هو اللّه سبحانه أورد فى هيئه النكره صونا للسان عن تعريفه للتعظيم.

قوله تعالى: قٰالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ الى آخر الآيه؛ القائلون هم إخوه يوسف عليه السّلام لأبيه،و لذلك نسبوا يوسف الى أخيهم المتهم بالسرقه لأنهما كانا من أم واحده،و المعنى أنهم قالوا:إن يسرق هذا صواع الملك فليس ببعيد منه لأنه كان

له اخ و قد تحققت السرقه منه من قبل فهما يتوارثان ذلک من ناحیه امهما و نحن مفارقوهما فی الام.

و فی هذا نوع تبرئه لأنفسهم من السرقه لکنه لا یخلو من تکذیب لما قالوه آنفا «وَ مٰا كُنّٰا سٰارِقِينَ» لأنهم کانوا ینفقون به السرقه عن أبناء یعقوب جمیعا و إلاّ لم یکن ینفعهم البته فقولهم: «فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ» یناقضه و هو ظاهر.علی أنهم أظهروا بهذه الکلمه ما فی نفوسهم من الحسد لیوسف و اخیه-و لعلهم لم یشعروا به-و هذا یکشف عن أمور مؤسفه کثیره فیما بینهم.

و بهذا یتضح بعض الاتضاح معنی قول یوسف «أَنْتُمْ شَرٌّ مَكٰاناً» کما ان الظاهر ان قوله:

«أَنْتُمْ شَرٌّ مَكٰاناً» الی آخر الآیه کالبیان لقوله: «فَأَسَرَّهٰا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهٰا لَهُمْ» و کما أن قوله: «وَ لَمْ يُبْدِهٰا لَهُمْ» عطف تفسیر لقوله: «فَأَسَرَّهٰا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ» .

و المعنی-و اللّه أعلم- «فَأَسَرَّهٰا» أی اخفی هذه الکلمه التی قالوها ای لم یتعرض لما نسبوا الیه من السرقه و لم ینفه و لم یبین حقیقه الحال بل «فَأَسَرَّهٰا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهٰا لَهُمْ» و کأن هناک قائلا یقول:کیف أسرها فی نفسه فاجیب أنه «قٰالَ:أَنْتُمْ شَرٌّ مَكٰاناً» و أسوأ حالا لما فی اقوالکم من التناقض و فی نفوسکم من غریزه الحسد الظاهره و اجترائکم علی الکذب فی حضره العزیز بعد هذا الإکرام و الإحسان کله «وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا تَصِفُونَ» إنه قد سرق أخ له من قل فلم یکذبهم فی وصفهم و لم ینفه.

قوله تعالی: قٰالُوا يٰا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنٰا مَكٰانَهُ إِنّٰا نَرٰاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ سیاق الآیات یدل علی أنهم إنما قالوا هذا القول لما شاهدوا أنه استحق الأخذ و الاستعباد،و ذکروا أنهم أعطوا أباهم موثقا من اللّه أن یرجعوه الیه فلم یکن فی مقدرتهم أن یرجعوا الی أبیهم و لا یکون معهم،فعند ذلک عزموا أن یفدوه بواحد منهم إن قبل العزیز،و کلموا العزیز فی ذلک أن یأخذ أی من شاء منهم،و یخلی عن سبیل أخیهم المتهم

ليرجعوه اليه أبيه.

و معنى الآيه ظاهر،و فى اللفظ ترقيق و استرحام و إثاره لصفه الفتوه و الإحسان من العزيز.

قوله تعالى قٰالَ مَعٰاذَ اللّٰهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاّٰ مَنْ وَجَدْنٰا مَتٰاعَنٰا عِنْدَهُ إِنّٰا إِذاً لَظٰالِمُونَ رد منه عليه السّلام لسؤالهم أن يأخذ أحدهم مكانه و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا الى آخر الآيه؛قال فى المجمع:

اليأس قطع الطمع من الأمر يقال يئس ييأس و أيس يأيس لغه،و استفعل مثل استيأس و استأيس.قال:و يئس و استيأس بمعنى مثل سخر و استسخر و عجب و استعجب.

و النجى القوم يتناجون الواحد و الجمع فيه سواء قال سبحانه «وَ قَرَّبْنٰاهُ نَجِيًّا» و إنما جاز ذلك لأنه مصدر وصف به،و المناجاه المساره و أصله من النجوه هو المرتفع من الأرض فإنه رفع السر من كل واحد الى صاحبه فى خفيه،و النجوى يكون اسما مصدريا قال سبحانه «وَ إِذْ هُمْ نَجْوىٰ» أى يتناجون،و قال فى المصدر «إِنَّمَا النَّجْوىٰ مِنَ الشَّيْطٰانِ» و جمع النجى أنجيه قال:

و برح الرجل براحا إذا تنحى عن موضعه.انتهى.

و الضمير فى قوله: «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ» ليوسف و يمكن أن يكون لأخيه و المعنى «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا» أى إخوه يوسف «مِنْهُ» أى من يوسف أن يخلى عن سبيل أخيه و لو بأخذ أحدهم بدلا منه «خَلَصُوا» و خرجوا من بين الناس الى فراغ «نَجِيًّا» يتناجون فى أمرهم أ يرجعون الى أبيهم و قد أخذ منهم موثقا من اللّه أن يعيدوا أخاهم اليه أم يقيمون هناك و لا فائده فى إقامتهم؟ ما ذا يصنعون؟

«قٰالَ كَبِيرُهُمْ» مخاطبا لسائرهم «أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبٰاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللّٰهِ» ألا ترجعوا من سفركم هذا اليه إلاّ بأخيكم، «وَ مِنْ قَبْلُ» هذه الواقعه «مٰا فَرَّطْتُمْ» أى تفريطكم و تقصيركم «فِي» أمر «يُوسُفَ» عهدتم أباكم أن تحفظوه و تردوه اليه سالما فألقيتموه فى الجب

ثم بعتموه من السياره ثم أخبرتم أباكم أنه أكله الذئب.

«فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ» أى فإذا كان الشأن هذا الشأن لن أتنحى و لن أفارق أرض مصر «حَتّٰى يَأْذَنَ لِى أَبِى» برفعه اليد عن الموثق الذى واثقته به «أَوْ يَحْكُمَ اللّٰهُ لِى وَ هُوَ خَيْرُ الْحٰاكِمِينَ» فيجعل لى طريقا الى النجاه من هذه المضيقه التى سدت لى كل باب و ذلك إما بخلاص أخى من يد العزيز من طريق لا أحتسبه أو بموتى أو بغير ذلك من سبيل!!.

أما أنا فأختار البقاء هاهنا و أما أنتم فارجعوا الى أبيكم الى آخر ما ذكر فى الآيتين التاليتين.

قوله تعالى: اِرْجِعُوا إِلىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يٰا أَبٰانٰا إِنَّ ابْنَکَ سَرَقَ وَ مٰا شَهِدْنٰا إِلاّٰ بِمٰا عَلِمْنٰا وَ مٰا کُنّٰا لِلْغَيْبِ حٰافِظِينَ قيل المراد بقوله: «وَ مٰا شَهِدْنٰا إِلاّٰ بِمٰا عَلِمْنٰا» أنا لم نشهد فى شهادتنا هذه «إِنَّ ابْنَکَ سَرَقَ» إلاّ بما علمنا من سرقته،و قيل المراد ما شهدنا عند العزيز أن السارق يؤخذ بسرقته و يسترق إلاّ بما علمنا من حكم المسأله،قيل و إنما قالوا ذلك حين قال لهم يعقوب:ما يدرى الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته و يسترق؟و إنما علم ذلك بقولكم،و أقرب المعنيين الى السياق أولهما.

و قوله: وَ مٰا کُنّٰا لِلْغَيْبِ حٰافِظِينَ قيل أى لم نكن نعلم أن ابنك سيسرق فيؤخذ و يسترق و إنما كنا نعتمد على ظاهر الحال و لو كنا نعلم ذلك لما بادرنا الى تسفيره معنا و لا أقدمنا على الميثاق.

و الحق أن المراد بالغيب كونه سارقا مع جهلهم بما و معنى الآيه إن ابنك سرق و ما شهدنا فى جزاء السرقه إلاّ بما علمنا و ما كنا نعلم أنه سرق السقايه و أنه سيؤخذ بها حتى نكف عن تلك الشهاده فما كنا نظن به ذلك.

قوله تعالى: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى کُنّٰا فِيهٰا وَ الْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنٰا فِيهٰا وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ أى و اسأل جميع من صاحبنا فى هذه السفره أو شاهد جريان حالنا عند العزيز التى لا يبقى لك أدنى ريب فى أنا لم نفرط فى أمره بل إنه سرق فاسترق.

فالمراد بالقريه التى كانوا فيها بلده مصر-على الظاهر-و بالعير التى أقبلوا فيها القافله التى كانوا فيها و كان رجالها يصاحبونهم فى الخروج الى مصر و الرجوع منها ثم أقبلوا مصاحبين لهم،و لذلك عقبوا عرض السؤال بقولهم: «وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ» أى فيما نخبرك من سرقته و استرقاقه لذلك،و نكلفك السؤال لإزاله الريب من نفسك.

[سوره يوسف (۱۲): الآيات ۸۳ الى ۹۲]

اشاره

قٰالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اَللّٰهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ اَلْعَلِيمُ اَلْحَكِيمُ (۸۳) وَ تَوَلّٰى عَنْهُمْ وَ قٰالَ يٰا أَسَفىٰ عَلىٰ يُوسُفَ وَ اِبْيَضَّتْ عَيْنٰاهُ مِنَ اَلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (۸۴) قٰالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتّٰى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ اَلْهٰالِكِينَ (۸۵) قٰالَ إِنَّمٰا أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اَللّٰهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (۸۶) يٰا بَنِيَّ اِذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لاٰ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اَللّٰهِ إِنَّهُ لاٰ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اَللّٰهِ إِلاَّ اَلْقَوْمُ اَلْكٰافِرُونَ (۸۷) فَلَمّٰا دَخَلُوا عَلَيْهِ قٰالُوا يٰا أَيُّهَا اَلْعَزِيزُ مَسَّنٰا وَ أَهْلَنَا اَلضُّرُّ وَ جِئْنٰا بِبِضٰاعَةٍ مُزْجٰاةٍ فَأَوْفِ لَنَا اَلْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنٰا إِنَّ اَللّٰهَ يَجْزِي اَلْمُتَصَدِّقِينَ (۸۸) قٰالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مٰا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جٰاهِلُونَ (۸۹) قٰالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قٰالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هٰذٰا أَخِي قَدْ مَنَّ اَللّٰهُ عَلَيْنٰا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ اَلْمُحْسِنِينَ (۹۰) قٰالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ اَللّٰهُ عَلَيْنٰا وَ إِنْ كُنّٰا لَخٰاطِئِينَ (۹۱) قٰالَ لاٰ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اَلْيَوْمَ يَغْفِرُ اَللّٰهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ اَلرّٰاحِمِينَ (۹۲)

بيان:

قوله تعالی: قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ فی المقام حذف کثیر یدل علیه قوله:

«ارْجِعُوا إِلىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا» الی آخر الآیتین؛و التقدیر و لما رجعوا الی أبیهم و قالوا ما وصاهم به کبیرهم قال أبوهم بل سولت لکم أنفسکم أمرا،الخ.

و قوله: قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً حکایه ما أجابهم به یعقوب علیه السّلام و لم یقل علیه السّلام هذا القول تکذیبا لهم فیما أخبروه به و حاشاه أن یکذب خبرا یحتف بقرائن الصدق و تصاحبه شواهد یمکن اختباره بها،و لا رماهم بقوله: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً» رمیا بالمظنه بل لیس إلاّ أنه وجد بفراسه إلهیه أن هذه الواقعه ترتبط و تتفرع علی تسویل نفسانی منهم إجمالا و کذلک کان الأمر فإن الواقعه من أذناب واقعه یوسف و کانت واقعته من تسویل نفسانی منهم.

و من هنا یظهر أنه علیه السّلام لم ینسب الی تسویل أنفسهم عدم رجوع أخی یوسف فحسب بل عدم رجوعه و عدم رجوع کبیرهم الذی توقف بمصر و لم یرجع الیه،و یشهد لذلک قوله:

«عَسَی اللّهُ أَنْ یَأْتِیَنِی بِهِمْ جَمِیعاً» فجمع فی ذلک بین یوسف و أخیه و کبیر الإخوه فلم یـذکر أخا یوسف وحـده و لا یوسف و أخاه معا،فظاهر السیاق أن ترجیه رجوع بنیه الثلاثه مبنی علی صبره الجمیل قبال ما سولت لهم أنفسهم أمرا.

فالمعنی-و اللّه أعلم-أن هذه الواقعه مما سولت لکم أنفسکم کما قلت ذلک فی واقعه یوسف فصبر جمیل قبال تسویل انفسکم عسی اللّه أن یأتینی بأبنائی الثلاثه جمیعا.

و من هنا یظهر أن قولهم:إن المعنی:ما عندی ان الأمر علی ما تصفونه بل سولت لکم انفسکم أمرا فیما أظن،لیس فی محله.

و قوله: عَسَی اللّهُ أَنْ یَأْتِیَنِی بِهِمْ جَمِیعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ ترج مجرد لرجوعهم جمیعا مع ما فیه من الإشاره الی أن یوسف حی لم یمت-علی ما یراه-و لیس مشربا معنی الدعاء،و لو کان فی معنی الدعاء لم یختمه بقوله: «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ» بل بمثل قولنا:

إنه هو السمیع العلیم أو الرءوف الرحیم أو ما یناظرهما کما هو المعهود فی الأدعیه المنقوله فی القرآن الکریم.

بل هو رجاء لثمره الصبر فهو یقول:إن واقعه یوسف السابقه و هذه الواقعه التی أخذت منی ابنین آخرین إنما هما لأمر ما سولته لکم انفسکم فسأصبر صبرا و أرجو به ان یأتینی اللّه بأبنائی جمیعا و یتم نعمته علی آل یعقوب کما وعدنیه إنه هو العلیم بمورد الاجتباء و إتمام النعمه حکیم فی فعله یقدر الامور علی ما تقتضیه الحکمه البالغه فلا ینبغی للإنسان ان یضطرب عند البلایا و المحن بالطیش و الجزع و لا أن ییأس من روحه و رحمته.

و الاسمان:العلیم الحکیم هما اللذان ذکرهما یعقوب لیوسف علیه السّلام لأول مره أول رؤیاه فقال «إِنَّ رَبَّکَ عَلِیمٌ حَکِیمٌ» ثم ذکرهما یوسف لیعقوب علیهما السّلام ثانیا حیث رفع ابویه علی العرش و خرّوا له سجدا فقال «یا أَبَتِ هذا تَأْوِیلُ رُءْیایَ -الی أن قال- وَ هُوَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ» .

قوله تعالی: وَ تَوَلّی عَنْهُمْ وَ قٰالَ یٰا أَسَفیٰ عَلیٰ یُوسُفَ وَ ابْیَضَّتْ عَیْنٰاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ کَظِیمٌ قال الراغب فی المفردات:الأسف الحزن و الغضب معا،و قد یقال لکل واحد منهما علی الانفراد و حقیقته ثوران دم القلب شهوه الانتقام فمتی کان ذلک علی من دونه انتشر فصار غضبا،و متی کان علی من فوقه انقبض فصار حزنا-الی ان قال-و قوله تعالی:

«فَلَمّٰا آسَفُونٰا انْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ» أی أغضبونا قال أبو عبد الله (۱)الرضا:إن الله لا یأسف کأسفنا و لکن له أولیاء یأسفون و یرضون فجعل رضاهم رضاه و غضبهم غضبه.قال:و علی ذلک قال:من أهان لی ولیا فقد بارزنی بالمحاربه.انتهی.

و قال:الکظم مخرج النفس یقال:أخذ بکظمه،و الکظوم احتباس النفس و یعبر به عن السکوت کقولهم:فلان لا یتنفس إذا وصف بالمبالغه فی السکوت،و کظم فلان حبس نفسه قال تعالی «إِذْ نٰادیٰ وَ هُوَ مَکْظُومٌ» و کظم الغیظ حبسه قال تعالی «وَ الْکٰاظِمِینَ الْغَیْظَ» ،و منه کظم البعیر إذا ترک الاجترار و کظم السقاء شده بعد ملئه مانعا لنفسه.انتهی.

و قوله: وَ ابْیَضَّتْ عَیْنٰاهُ مِنَ الْحُزْنِ ابیضاض العین أی سوادها هو العمی و بطلان الإبصار و ربما یجامع قلیل إبصار لکن قوله الآتی: اِذْهَبُوا بِقَمِیصِی هٰذٰا فَأَلْقُوهُ عَلیٰ وَجْهِ أَبِی یَأْتِ بَصِیراً (الآیه ۹۳ من السوره)یشهد بأنه کنایه عن ذهاب البصر.

و معنی الآیه «ثُمَّ تَوَلّی» و أعرض یعقوب علیه السّلام «عَنْهُمْ» أی عن أبنائه بعد ما خاطبهم بقوله:بل سولت لکم أنفسکم أمرا «وَ قٰالَ یٰا أَسَفیٰ» و یا حزنی «عَلیٰ یُوسُفَ وَ ابْیَضَّتْ عَیْنٰاهُ» و ذهب بصره «مِنَ الْحُزْنِ» علی یوسف «فَهُوَ کَظِیمٌ» حابس غیظه متجرع حزنه لا یتعرض لبنیه بشیء.

قوله تعالی: قٰالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَؤُا تَذْکُرُ یُوسُفَ حَتّٰی تَکُونَ حَرَضاً أَوْ تَکُونَ

۱- ۱) .کذا فی النسخه المنقوله عنها و الصحیح ابو الحسن.

مِنَ الْهالِكِينَ الحرض و الحارض المشرف على الهلاك و قيل:هو الـذى لا ميت فينسى و لا حى فيرجى،و المعنى الأول أنسب بالنظر الى مقابلته الهلاك،و الحرض لا يثنى و لا يجمع لأنه مصدر.

و المعنى:نقسم بـالله لاـ تزال تـذكر يوسف و تـديم ذكره منـذ سـنين لاـ تكف عنه حتى تشرف على الهلاك أو تهلك،و ظاهر قولهم هـذا أنهم إنمـا قـالوه رقه بحـاله و رأفه به،و لعلهم إنمـا تفوهوا به تبرّما ببكائه و سأمه من طول نياحه ليوسف،و خاصه من جهه أنه كان يكـذبهم فى ما كانوا يـدعونه من أمر يوسف،و كان ظاهر بكائه و تأسـفه أنه يشكوهم كما ربما يؤيـده قوله: «إِنَّما أَشْكُوا» الخ.

قوله تعـالى: قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّى وَ حُزْنِى إِلَى اللّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ قال فى المجمع:البث الهم الـذى لا يقـدر صاحبه على كتمانه فيبثه أى يفرقه،و كل شىء فرقته فقد بثثته و منه قوله: «وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّهٍ» انتهى فهو من المصدر بمعنى المفعول أى المبثوث.

و الحصر الـذى فى قوله: «إِنَّما أَشْكُوا» الـخ؛من قصر القلب فيكون مفاده أنى لست أشكو بثى و حزنى اليكم معاشر ولـدى و أهلى،و لو كنت أشكوه اليكم لأـنقطع فى أقل زمان كما يجرى عليه دأب الناس فى بثهم و حزنهم عنـد المصائب،و إنما أشكو بثى و حزنى الى اللّه سبحانه،و لا يأخذه ملل و لا سأمه فيما يسأله عنه عباده و يبرمه أرباب الحوائج و يلحون عليه و أعلم من اللّه ما لا تعلمون فلست أيأس من روحه و لا أقنط من رحمته.

و فى قوله: وَ أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ إشاره إجماليه الى علمه باللّه لا يستفاد منه إلاّ ما يساعد على فهمه المقام كما اشرنا اليه.

قوله تعـالى: يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لاـ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ قال فى المجمع:

التحسس-بالحاء-طلب الشیء بالحاسه و التجسس-بالجیم-نظیره و فی الحدیث:لا تحسسوا و لا تجسسوا،و قیل إن معناهما واحد و نسق أحدهما علی الآخر لاختلاف اللفظین کقول الشاعر «متی أدن منه ینأ عنه و یبعد».

و قیل:التجسس بالجیم البحث عن عورات الناس،و بالحاء الاستماع لحدیث قوم و سئل ابن عباس عن الفرق بینهما؟قال:لا یبعد أحدهما عن الآخر:التحسس فی الخیر و التجسس فی الشر.انتهی.

و قوله: وَ لاٰ تَیْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ الروح بالفتح فالسکون النفس أو النفس الطیب و یکنی به عن الحاله التی هی ضد التعب و هی الراحه و ذلک أن الشده التی فیها انقطاع الأسباب و انسداد طرق النجاه تتصور اختناقا و کظما للإنسان و بالمقابله الخروج الی فسحه الفرج و الظفر بالعافیه تنفسا و روحا لقولهم یفرج الهمّ و ینفس الکرب،فالروح المنسوب الیه تعالی هو الفرج بعد الشده بإذن اللّه و مشیته،و علی من یؤمن باللّه أن یعتقد أن اللّه یفعل ما یشاء و یحکم ما یرید لا قاهر لمشیته و لا معقب لحکمه،و لیس له أن ییأس من روح اللّه و یقنط من رحمته فإنه تحدید لقدرته و فی معنی الکفر باحاطته وسعه رحمته کما قال تعالی حاکیا عن لسان یعقوب علیه السّلام «إِنَّهُ لاٰ یَیْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْکٰافِرُونَ» و قال حاکیا عن لسان إبراهیم علیه السّلام وَ مَنْ یَقْنَطُ مِنْ رَحْمَهِ رَبِّهِ إِلاَّ الضّٰالُّونَ (الحجر/۵۶)،و قد عد الیأس من روح اللّه فی الأخبار المأثوره من الکبائر الموبقه.

و معنی الآیه-ثم قال یعقوب لبنیه آمرا لهم- «یٰا بَنِیَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا» من یوسف و أخیه،الذی أخذ بمصر و ابحثوا عنهما لعلکم تظفرون بهما «وَ لاٰ تَیْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ» و الفرج الذی یرزقه اللّه بعد الشده «إِنَّهُ لاٰ یَیْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْکٰافِرُونَ» الذین لا یؤمنون بأن اللّه یقدر أن یکشف کل غمه و ینفس عن کل کربه.

قوله تعالی: فَلَمّٰا دَخَلُوا عَلَیْهِ قٰالُوا یٰا أَیُّهَا الْعَزِیزُ مَسَّنٰا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ

وَ جِئْنٰا بِبِضٰاعَةٍ مُزْجٰاةٍ الـخ؛البضاعه المزجاه المتاع القليل،و فى الكلام حـذف و التقدير فساروا بنى يعقوب الى مصـر و لما دخلوا على يوسف قالوا،الخ.

كـانت لهم-على مـا يـدل عليه السـياق-حاجتان الى العزيز و لا مطمع لهم بحسب ظاهر الأسـباب الى قضائهما و اسـتجابته عليهم فيهما.

إحـداهما:أن يبيع منهم الطعام و لا ثمن عنـدهم يفى بما يريـدونه من الطعام على أنهم عرفوا بالكذب و سـجل عليهم السـرقه من قبل و هان أمرهم على العزيز لا يرجى منه أن يكرمهم بما كان يكرمهم به فى الجيئه الاولى.

و ثانيتهما:أن يخلى عن سبيل أخيهم المأخوذ بالسـرقه،و قد استيأسوا منه بعد ما كانوا ألحوا عليه فأبى العزيز حتى عن تخليه سبيله بأخذ أحدهم مكانه.

و لـذلك لمـا حضـروا عنـد يوسف العزيز و كلموه و هم يريـدون أخـذ الطعـام و إعتـاق أخيهم أوقفوا أنفسـهم موقف التـذلل و الخضوع و بالغوا فى رقه الكلام استرحاما و اسـتعطافا فذكروا أولا ما مسـهم و أهلهم من الضـر و سوء الحال ثم ذكروا قله ما أتوا به من البضاعه ثم سألوه إيفاء الكيل،و أما حـديث أخيهم المأخوذ فلم يصـرحوا بسؤال تخليه سبيله بل سألوه أن يتصدق عليهم و إنمـا يتصـدق بالمـال و الطعام مال و أخوهم المسترق مال العزيز ظاهرا ثم حرضوه بقولهم: «إِنَّ اللّٰهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» و هو فى معنى الدعاء.

فمعنى الآيه «يٰا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنٰا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ» و أحاط بنا جميعا المضيقه و سوء الحال «وَ جِئْنٰا» اليك «بِبِضٰاعَةٍ مُزْجٰاةٍ» و متاع قليل لاـ يعـدل مـا نسألك من الطعام غير أنه نهايه ما فى وسـعنا «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنٰا» و كأنهم يريـدون به أخاهم أو إياه و الطعام «إِنَّ اللّٰهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» خيرا.

و قـد بـدءوا القول بخطاب «يٰا أَيُّهَا الْعَزِيزُ» و ختموه بما فى معنى الدعاء،و أتوا خلاله بذكر سوء حالهم و الاعتراف بقله بضاعتهم و سؤاله أن يتصدق عليهم و هو من أمر السؤال

و الموقف موقف الاسترحام ممن لا يستحق ذلک لسوء سابقته،و هم عصبه قد اصطفوا أما عزيز مصر.

و عند ذلک تمت الکلمه الإلهيه أنه سيرفع يوسف و أخاه و يضع عنده سائر بنی يعقوب لظلمهم،و لذلک لم يلبث يوسف عليه السّلام دون أن أجابهم قوله: «هَلْ عَلِمْتُمْ مٰا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ» و عرفهم نفسه،و قد کان يمکنه عليه السّلام أن يخبر أباه و أخوته مکانه و أنه بمصر طول هذه المده غير القصيره لکن اللّه سبحانه شاء أن يوقف إخوته أمامه و معه أخوه المحسود متوقف المذله و المسکنه و هو متک علی أريکه العزه.

قوله تعالی: قٰالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مٰا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جٰاهِلُونَ إنما يخاطب المخطئ المجرم بمثل هل علمت و أ تدری و أ رأيت و نحوها و هو عالم بما فعل لتذکيره جزاء عمله و وبال ذنبه لکنه عليه السّلام أعقب استفهامه بقوله: «إِذْ أَنْتُمْ جٰاهِلُونَ» و فيه تلقين عذر.

فقوله: هَلْ عَلِمْتُمْ مٰا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ مجرد تذکير لعملهم بهما من غير توبيخ و مؤاخذه ليعرفهم من اللّه عليه و علی أخيه و هذا من عجيب فتوه يوسف عليه السّلام،و يا لها من فتوه.

قوله تعالی: قٰالُوا أَ إِنَّکَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قٰالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هٰذٰا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْنٰا الی آخر الآيه تأکيد الجمله المستفهم عنها للدلاله علی أن الشواهد القطعيه قامت علی تحقق مضمونها و إنما يستفهم لمجرد الاعتراف فحسب.

و قد قامت الشواهد عندهم علی کون العزيز هو أخاهم يوسف و لذلک سألوه بقولهم:

«أَ إِنَّکَ لَأَنْتَ يُوسُفُ» مؤکدا بإن و اللام و ضمير الفصل فأجابهم بقوله: «أَنَا يُوسُفُ وَ هٰذٰا أَخِي» و إنما ألحق أخاه بنفسه و لم يسألوا عنه و ما کانوا يجهلونه ليخبر عن من اللّه عليهما،و هما معا المحسودان و لذا قال «قَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْنٰا» .

ثم أخبر عن سبب المن الإلهی بحسب ظاهر الأسباب فقال «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ

يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» و فيه دعوتهم الى الإحسان و بيان أنه يتحقق بالتقوى و الصبر.

قوله تعالى: قٰالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَکَ اللّٰهُ عَلَيْنٰا وَ إِنْ كُنّٰا لَخٰاطِئِينَ الإيثار هو الاختيار و التفضيل،و الخطأ ضد الصواب و الخاطئ و المخطئ من خطأ خطأ و أخطأ إخطاء بمعنى واحد،و معنى الآيه ظاهر و فيها اعترافهم بالخطإ و تفضيل اللّه يوسف عليهم.

قوله تعالى: قٰالَ لاٰ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرّٰاحِمِينَ التثريب التوبيخ و المبالغه فى اللوم و تعديد الذنوب،و إنما قيّد نفى التثريب باليوم ليدل على مكانه صفحه و إغماضه عن الانتقام منهم و الظرف هذا الظرف هو عزيز مصر اوتى النبوه و الحكم و علم الأحاديث و معه أخوه و هم أذلاء بين يديه معترفون بالخطيئه و أن اللّه آثره عليهم بالرغم من قولهم أول يوم: «لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلىٰ أَبِينٰا مِنّٰا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبٰانٰا لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ» .

ثم دعا لهم و استغفر بقوله: «يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرّٰاحِمِينَ» و هذا دعاء و استغفار منه لإخوته الذين ظلموه جميعا و إن كان الحاضرون عنده اليوم بعضهم لا جميعهم كما يستفاد من قوله تعالى الآتى: «قٰالُوا تَاللّٰهِ إِنَّکَ لَفِي ضَلاٰلِکَ الْقَدِيمِ» و سيجىء إن شاء اللّه تعالى (1).

[سوره يوسف (12): الآيات 93 الى 102]

اشاره

اِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذٰا فَأَلْقُوهُ عَلىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَ لَمّٰا فَصَلَتِ اَلْعِيرُ قٰالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لاٰ أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩۴) قٰالُوا تَاللّٰهِ إِنَّکَ لَفِي ضَلاٰلِکَ اَلْقَدِيمِ (٩۵) فَلَمّٰا أَنْ جٰاءَ اَلْبَشِيرُ أَلْقٰاهُ عَلىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قٰالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (٩۶) قٰالُوا يٰا أَبٰانَا اِسْتَغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا إِنّٰا كُنّٰا خٰاطِئِينَ (٩٧) قٰالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمّٰا دَخَلُوا عَلىٰ يُوسُفَ آوىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قٰالَ اُدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شٰاءَ اَللّٰهُ آمِنِينَ (٩٩) وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى اَلْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قٰالَ يٰا أَبَتِ هٰذٰا تَأْوِيلُ رُءْيٰايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهٰا رَبِّي حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ اَلسِّجْنِ وَ جٰاءَ بِكُمْ مِنَ اَلْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ اَلشَّيْطٰانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمٰا يَشٰاءُ إِنَّهُ هُوَ اَلْعَلِيمُ اَلْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ اَلْمُلْکِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ اَلْأَحٰادِيثِ فٰاطِرَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصّٰالِحِينَ (١٠١) ذٰلِکَ مِنْ أَنْبٰاءِ اَلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْکَ وَ مٰا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)

1- 1) .يوسف 83-92:بحث روائى حول قصه يوسف و اخوانه فى مصر؛سيره يوسف فى مصر؛حزن يعقوب على يوسف و تغيير حالته من الحزن.

بیان:

قوله تعالی: اِذْهَبُوا بِقَمِيصِی هٰذٰا فَأَلْقُوهُ عَلىٰ وَجْهِ أَبِی یَأْتِ بَصِیراً وَ أْتُونِی بِأَهْلِکُمْ أَجْمَعِینَ تتمه کلام یوسف علیه السّلام یأمر فیه إخوته أن یذهبوا بقمیصه الی أبیه فیلقوه علی وجهه لیشفی اللّه به عینیه و یأتی بصیرا بعد ما صار من کثره الحزن و البکاء ضریرا لا یبصر.

و هذا آخر العنایات البدیعه التی أظهرها اللّه سبحانه فی حق یوسف علیه السّلام علی ما یقصه فی هذه السوره مما غلب اللّه الاسباب فحولها الی خلاف الجهه التی کانت تجری إلیها حسده إخوته فاستذلوه و غربوه عن مستقره بالقائه فی الجب و بیعه من السیاره بثمن بخس فجعل اللّه سبحانه هذا السبب بعینه سببا لقراره فی بیت عزیز مصر فی أکرم مثوی ثم أقره فی أریکه عزه تضرع الیه أمامها إخوته بقولهم: «یٰا أَیُّهَا الْعَزِیزُ مَسَّنٰا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنٰا بِبِضٰاعَهٍ مُزْجٰاهٍ فَأَوْفِ لَنَا الْکَیْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَیْنٰا إِنَّ اللّٰهَ یَجْزِی الْمُتَصَدِّقِینَ» .

ثم أحبته امرأه العزیز و نسوه مصر فراودنه عن نفسه لیوردنه فی مهلکه الفجور فحفظه اللّه و جعل ذلک سببا لظهور براءه ساحته و کمال عفته،ثم استذلوه فسجنوه فجعله اللّه سببا لعزته و ملکه.

و جاء إخوته الی أبیه یوم ألقوه فی غیابه الجب بقمیصه الملطخ بالدم فأخبروه بموته کذبا فکان القمیص سببا لحزن أبیه و بکائه فی فراق ابنه حتی ابیضت عیناه و ذهب بصره فرد اللّه سبحانه به بصره الیه و بالجمله اجتمعت الأسباب علی خفضه و أراد اللّه سبحانه رفعه فکان ما أراده اللّه دون الذی توجهت الیه الأسباب و اللّه غالب علی أمره.

و قوله: وَ أْتُونِی بِأَهْلِکُمْ أَجْمَعِینَ أمر منه بانتقال بیت یعقوب من یعقوب و أهله و بنیه و ذراریه جمیعا من البدو الی مصر و نزولهم بها.

قوله تعالى: وَ لَمّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ الفصل القطع و الانقطاع و التنفيد تفعيل من الفند بفتحتين و هو ضعف الرأى، و المعنى لما خرجت العير الحامله لقميص يوسف من مصر و انقطعت عنها قال أبوهم يعقوب لمن عنده من بنيه:إنى لأجد ريح يوسف لو لا أن ترمونى بضعف الرأى أى إنى لأحس بريحه و أرى أن اللقاء قريب و من حقه أن تذعنوا بما أجده لو لا أن تخطئونى لكن من المحتمل أن تفندونى فلا تذعنوا بقولى.

قوله تعالى: قالُوا تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ القديم مقابل الجديد و المراد به المتقدم وجودا،و هذا ما واجهه به بعض بنيه الحاضرين عنده،و هو من سيئ حظهم فى هذه القصه تفوّهوا بمثله فى بدء القصه إذ قالوا «إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» و فى ختمها و هو قولهم هذا: «تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ» .

و الظاهر أن مرادهم بالضلال هاهنا هو مرادهم بالضلال هناك و هو المبالغه فى حب يوسف و ذلك أنهم كانوا يرون أنهم أحق بالحب من يوسف و هم عصبه اليهم تدبير بيته و الدفاع عنه لكن أباهم قد ضل عن مستوى طريق الحكمه و قدم عليهم فى الحب طفلين صغيرين لا يغنيان عنه شيئا فأقبل بكله اليهما و نسيهم،ثم لما فقد يوسف جزع له و لم يزل يجزع و يبكى حتى ذهبت عيناه و تقوّس ظهره.

فهذا هو مرادهم من كونه فى ضلاله القديم ليسوا يعنون به الضلال فى الدين حتى يصيروا بذلك كافرين:

أما أولا:فلأن ما ذكر من فصول كلامهم فى خلال القصه يشهد على أنهم كانوا موحدين على دين آبائهم إبراهيم و إسحاق و يعقوب عليهم السّلام.

و أما ثانيا:فلأن المقام هاهنا و كذا فى بدء القصه حين قالوا:إن أبانا لفى ضلال مبين لا مساس له بالضلال فى الدين حتى يحتمل رميهم أباهم فيه،و إنما يمس أمرا عمليا حيويا و هو

حب أب لبعض أولاده و تقديمه فى الكرامه على آخرين فهو المعنى بالضلال.

قوله تعالى: فَلَمّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّی أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ البشير حامل البشاره و كان حامل القميص و قوله: «أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّی أَعْلَمُ» يشير عليه السّلام الى قوله لهم حين لاموه على ذكر يوسف:

«إِنَّما أَشْكُوا بَثِّی وَ حُزْنِی إِلَى اللّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنّا كُنّا خاطِئِينَ القائلون بنو يعقوب بدليل قولهم: «يا أَبانَا» و يريدون بالذنوب ما فعلوه به فى أمر يوسف و أخيه،و أما يوسف فقد كان استغفر لهم قبل.

قوله تعالى: قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّی إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ أخر عليه السّلام الاستغفار لهم كما هو مدلول قوله: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّی» و لعله إنما أخره ليتم له النعمه بلقاء يوسف و تطيب نفسه به كل الطيب بنسيان جميع آثار الفراق ثم يستغفر لهم و فى بعض الأخبار:أنه أخره الى وقت يستجاب فيه الدعاء و سيجىء إن شاء اللّه.

قوله تعالى: فَلَمّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللّهُ آمِنِينَ فى الكلام حذف و التقدير فخرج يعقوب و آله من أرضهم و ساروا الى مصر و لما دخلوا«الخ».

و قوله: آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ فسروه بضمهما اليه،و قوله: «وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ» الخ؛ ظاهر فى أن يوسف خرج من مصر لاستقبالهما و ضمهما اليه هناك ثم عرض لهما دخول مصر إكراما و تأدبا و قد أبدع عليه السّلام فى قوله: «إِنْ شاءَ اللّهُ آمِنِينَ» حيث أعطاهم الأمن و اصدر لهم حكمه على سنه الملوك و قيد ذلك بمشيه اللّه سبحانه للدلاله على أن المشيه الإنسانيه لا تؤثر أثرها كسائر الاسباب إلاّ إذا وافقت المشيه الإلهيه على ما هو مقتضى التوحيد الخالص، و ظاهر هذا السياق أنه لم يكن لهم الدخول و الاستقرار فى مصر إلاّ بجواز من ناحيه الملك،

و لذا أعطاهم الأمن فی مبتدإ الأمر.

و قد ذکر سبحانه «أَبَوَیْهِ» و المفسرون مختلفون فی أنهما کانا والدیه أباه و أمه حقیقه أو أنهما یعقوب و زوجه خاله یوسف بالبناء علی أن أمه ماتت و هو صغیر،و لا یوجد فی کلامه تعالی ما یؤید أحد المحتملین غیر أن الظاهر من الأبوین هما الحقیقیان.

و معنی الآیه «فَلَمّا دَخَلُوا» أی أبواه و إخوته و أهلهم «عَلیٰ یُوسُفَ» و ذلک فی خارج مصر «آویٰ» و ضم «إِلَیْهِ أَبَوَیْهِ وَ قالَ» لهم مؤمنا لهم «ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللّٰهُ آمِنِینَ» .

قوله تعالی: وَ رَفَعَ أَبَوَیْهِ عَلَی الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قالَ یا أَبَتِ هٰذا تَأْوِیلُ رُؤْیایَ الی آخر الآیه؛العرش هو السریر العالی و یکثر استعماله فیما یجلس علیه الملک و یختص به،و الخرور السقوط علی الارض و البدو البادیه فإن یعقوب کان یسکن البادیه.

و قوله: وَ رَفَعَ أَبَوَیْهِ عَلَی الْعَرْشِ أی رفع یوسف أبویه علی عرش الملک الذی کان یجلس علیه و مقتضی الاعتبار و ظاهر السیاق أنهما رفعا علی العرش بأمر من یوسف تصداه خدمه لا هو بنفسه کما یشعر به قوله: «وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً» فإن الظاهر أن السجده إنما وقعت لأول ما طلع علیهم یوسف فکأنهم دخلوا البیت و اطمأن بهم المجلس ثم دخل علیهم یوسف فغشیهم النور الإلهی المتلألئ من جماله البدیع فلم یملکوا أنفسهم دون أن خرّوا له سجدا.

و قوله: وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً الضمیر لیوسف کما یعطیه السیاق فهو المسجود له، و قول بعضهم:إن الضمیر للّه سبحانه نظرا الی عدم جواز السجود لغیر اللّه لا دلیل علیه من جهه اللفظ،و قد وقع نظیره فی القرآن الکریم فی قصه آدم و الملائکه قال تعالی وَ إِذْ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِکَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِیسَ (طه۱۱۶/).

و الدلیل علی أنها لم تکن منهم سجده عباده لیوسف أن بین هؤلاء الساجدین یعقوب علیه السّلام

ص :۳۳۵

و هو ممن نصّ القرآن الكريم على كونه مخلصا-بالفتح-للّه لا يشرك به شيئا،و يوسف عليه السّلام -و هو المسجود له-منهم بنص القرآن و هو القائل لصاحبيه فى السجن:ما كان لنا أن نشرك باللّه من شىء و لم يردعهم.

فليس إلاّ أنهم إنما أخذوا يوسف آيه اللّه فاتخذوه قبله فى سجدتهم و عبدوا اللّه بها لا غير كالكعبه التى تؤخذ قبله فيصلى إليها فيعبد بها اللّه دون الكعبه،و من المعلوم أن الآيه من حيث إنها آيه لا نفسيه لها أصلا فليس المعبود عندها إلاّ اللّه سبحانه و تعالى،و قد تكرر الكلام فى هذا المعنى فيما تقدم من أجزاء الكتاب.

قوله تعالى: قٰالَ يٰا أَبَتِ هٰذٰا تَأْوِيلُ رُؤْيٰايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهٰا رَبِّي حَقًّا الى آخر الآيه؛لما شاهد عليه السّلام سجده أبويه و إخوته الأحد عشر ذكر الرؤيا التى رأى فيها أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر له ساجدين و أخبر بها أباه و هو صغير فأوّلها له،فأشار الى سجودهم له و قال «يٰا أَبَتِ هٰذٰا تَأْوِيلُ رُؤْيٰايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهٰا -أى الرؤيا- رَبِّي حَقًّا».

ثم أثنى على ربه شاكرا له فقال «وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ» فذكر إحسان ربه به فى إخراجه من السجن و هو ضرّاء و بلاء دفعه اللّه عنه بتبديله سراء و نعمه من حيث لا يحتسب حيث جعله وسيله لنيله العزه و الملك.

و لم يذكر إخراجه من الجب قبل ذلك لحضور إخوته عنده و كان لا يريد أن يذكر ما يسوؤهم ذكره كرما و فتوه بل أشار الى ذلك بأحسن لفظ يمكن أن يشار به اليه من غير أن يتضمن طعنا فيهم و شنآنا فقال «وَ جٰاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطٰانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي» و النزغ هو الدخول فى أمر لإفساده.

و المراد:و قد أحسن بى من بعد أن أفسد الشيطان بينى و بين إخوتى فكان من الأمر ما كان فأدّى ذلك الى فراق بينى و بينكم فساقنى ربى الى مصر فأقرّنى فى أرغد عيش و أرفع عزه و ملك ثم قرّب بيننا بنقلكم من الباديه إلىّ فى دار المدنيه و الحضاره.

يعنى أنه كانت نوائب نزلت بى إثر إفساد الشيطان بينى و بين إخوتى و مما أخصه بالذكر من بينها فراق بينى و بينكم ثم رزيه السجن فأحسن بى ربى و دفعها عنى واحده بعد أخرى و لم يكن من المحن و الحوادث العاديه بل رزايا صماء و عقودا لا تنحل لكن ربى نفذ فيها بلطفه و نفوذ قدرته فبدلها أسباب حياه و نعمه بعد ما كانت أسباب هلاك و شقاء و لهذه الثلاثه الأخيره عقب قوله: «وَ قَدْ أَحْسَنَ بِى» الخ؛بقوله: «إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمٰا يَشٰاءُ» .

فقوله: إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمٰا يَشٰاءُ تعليل لإخراجه من السجن و مجيئهم من البدو، و يشير به الى ما خصه اللّه به من العنايه و المنه و أن البلايا التى أحاطت به لم تكن لتنحل عقدتها أو لتنحرف عن مجراها لكن اللّه لطيف لما يشاء نفذ فيها فجعل عوامل الشده عوامل رخاء و راحه و أسباب الذله و الرقيه وسائل عزه و ملك.

و اللطيف من أسمائه تعالى يدل على حضوره و إحاطته تعالى بما لا سبيل الى الحضور فيه و الإحاطه به من باطن الأشياء و هو من فروع إحاطته تعالى بنفوذ القدره و العلم قال تعالى:

أَ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الملك١۴/)و الأصل فى معناه الصغر و الدقه و النفوذ يقال:لطف الشىء بالضم يلطف لطافه إذا صغر و دق حتى نفذ فى المجارى و الثقب الصغار،و يكنى به عن الإرفاق و الملاءمه و الاسم اللطف.

و قوله: هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ تعليل لجميع ما تقدم من قوله: «يٰا أَبَتِ هٰذٰا تَأْوِيلُ رُءْيٰاىَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهٰا رَبِّى حَقًّا» الخ؛و قد علل عليه السّلام الكلام و ختمه بهذين الاسمين محاذاه لأبيه حيث تكلم فى رؤياه و قال «وَ كَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ -الى أن قال- إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» و ليس يبعد أن يفيد اللام فى قوله: «الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» معنى العهد فيفيد تصديقه لقول أبيه عليه السّلام و المعنى:و هو ذاك العليم الحكيم الذى وصفته لى يوم أوّلت رؤياى.

قوله تعالى: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحٰادِيثِ

الى آخر الآيه؛لما أثنى عليه السّلام على ربه و عدّ ما دفع عنه من الشدائد و النوائب أراد أن يذكر ما خصه به من النعم المثبته و قد هاجت به المحبه الإلهيه و انقطع بها عن غيره تعالى فترك خطاب أبيه و انصرف عنه و عن غيره ملتفتا الى ربه و خاطب ربه عز اسمه فقال «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» .

و قوله: فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ إضراب و ترق فى الثناء،و رجوع منه عليه السّلام الى ذكر أصل الولايه الإلهيه بعد ما ذكر بعض مظاهرها الجليه كاخراجه من السجن و المجىء بأهله من البدو و إيتائه من الملك و تعليمه من تأويل الأحاديث فإن اللّه سبحانه رب فيما دق و جلّ معا،و لى فى الدنيا و الآخره جميعا.

و ولايته تعالى أعنى كونه قائما كل شىء فى ذاته و صفاته و أفعاله منشأها إيجاده تعالى إياها جميعا و إظهاره لها من كتم العدم فهو فاطر السموات و الأرض و لذا يتوجه اليه تعالى قلوب أوليائه و المخلصين من عباده من طريق هذا الاسم الذى يفيد وجوده تعالى لذاته و إيجاده لغيره قال تعالى: قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (إبراهيم/١٠).

و لذا بدأ به يوسف عليه السّلام و هو من المخلصين فى ذكر ولايته فقال «فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ» أى إنى تحت ولايتك التامه من غير أن يكون لى صنع فى نفسى و استقلال فى ذاتى و صفاتى و أفعالى أو أملك لنفسى شيئا من نفع أو ضر أو موت أو حياه أو نشور.

و قوله: تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ لما استغرق عليه السّلام فى مقام الذله قبال رب العزه و شهد بولايته له فى الدنيا و الآخره سأله سؤال المملوك المولى عليه أن يجعله كما يستدعيه ولايته عليه فى الدنيا و الآخره و هو الإسلام ما دام حيا فى الدنيا و الدخول فى

زمره الصالحين فى الآخره فإن كمال العبد المملوك أن يسلم لربه ما يريده منه ما دام حيا و لا يظهر منه ما يكرهه و لا يرتضيه فيما يرجع اليه من الأعمال الاختياريه و أن يكون صالحا لقرب مولاه لائقا لمواهبه الساميه فيما لا يرجع الى العبد و اختياره،و هو سؤاله عليه السّلام الإسلام فى الدنيا و الدخول فى زمره الصالحين فى الآخره و هو الذى منحه اللّه سبحانه لجده إبراهيم عليه السّلام وَ لَقَدِ اصْطَفَيْنٰاهُ فِي الدُّنْيٰا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰالِحِينَ إِذْ قٰالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قٰالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعٰالَمِينَ (البقره١٣١/).

و هذا الإسلام الذى سأله عليه السّلام أقصى درجات الإسلام و أعلى مراتبه،و هو التسليم المحض للّه سبحانه،و هو أن لا يرى العبد لنفسه و لا لآثار نفسه شيئا من الاستقلال حتى لا يشغله شىء من نفسه و لا صفاتها و لا أعمالها من ربه،و إذا نسب اليه تعالى كان إخلاصه عبده لنفسه.

و مما تقدم ظهر أن قوله: «تَوَفَّنِي مُسْلِماً» سؤال منه لبقاء الإخلاص و استمرار الإسلام ما دام حيا و بعباره أخرى أن يعيش مسلما حتى يتوفاه اللّه فهو كنايه عن أن يثبته اللّه على الإسلام حتى يموت،و ليس يراد به أن يموت فى حال الإسلام و لو لم يكن قبل ذلك مسلما،و لا سؤالا للموت و هو مسلم حتى يكون المعنى أنى مسلم فتوفنى.

و يتبين بذلك فساد ما روى عن عده من قدماء المفسرين أن قوله: «تَوَفَّنِي مُسْلِماً» دعاء منه يسأل به الموت من اللّه سبحانه حتى قال بعضهم:لم يسأل أحد من الأنبياء الموت من اللّه و لا تمناه إلاّ يوسف عليه السّلام.

قوله تعالى: ذٰلِكَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مٰا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ الإشاره الى نبأ يوسف عليه السّلام،و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و ضمير الجمع لإخوه يوسف و الإجماع العزم و الإراده.

و قوله: وَ مٰا كُنْتَ لَدَيْهِمْ الخ؛حال من ضمير الخطاب من «إِلَيْكَ» و قوله: «نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مٰا كُنْتَ» الى آخر الآيه بيان لقوله: «ذٰلِكَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَيْبِ» و المعنى أن نبأ يوسف من

ص :٣٣٩

أنباء الغيب فإنا نوحيه اليك و الحال أنك ما كنت عند إخوه يوسف إذ عزموا على أمرهم و هم يمكرون فى أمر يوسف (۱)(۲)(۳).

[سوره يوسف (١٢): الآيات ١٠٣ الى ١١١]

اشاره

وَ مٰا أَكْثَرُ اَلنّٰاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَ مٰا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ (١٠٤) وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَهٍ فِى اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهٰا وَ هُمْ عَنْهٰا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غٰاشِيَهٌ مِنْ عَذٰابِ اَللّٰهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ اَلسّٰاعَهُ بَغْتَهً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اَللّٰهِ عَلىٰ بَصِيرَهٍ أَنَا وَ مَنِ اِتَّبَعَنِى وَ سُبْحٰانَ اَللّٰهِ وَ مٰا أَنَا مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ اَلْقُرىٰ أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِى اَلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَهُ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَدٰارُ اَلْآخِرَهِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اِتَّقَوْا أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتّٰى إِذَا اِسْتَيْأَسَ اَلرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جٰاءَهُمْ نَصْرُنٰا فَنُجِّىَ مَنْ نَشٰاءُ وَ لاٰ يُرَدُّ بَأْسُنٰا عَنِ اَلْقَوْمِ اَلْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كٰانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَهٌ لِأُولِى اَلْأَلْبٰابِ مٰا كٰانَ حَدِيثاً يُفْتَرىٰ وَ لٰكِنْ تَصْدِيقَ اَلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَهً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

ص: ٣٤٠

۱- ۱) .يوسف ۹۳-۱۰۲:بحث روائى حول قصه يوسف و اخوانه و يعقوب حين وجدوا يوسف.

۲- ۲) .يوسف ۹۳-۱۰۲:كلام فى قصه يوسف فى فصول(قصته فى القرآن،ما اثنى اللّه عليه و منزلته المعنويه،قصته فى التوراه الحاضره).

۳- ۳) .يوسف ۹۳-۱۰۲:كلام فى الرؤيا فى فصول(الاعتناء بشأنها،للرؤيا حقيقه،المنامات الحقه،فى القرآن ما يؤيد ذلك).

بیان:

قوله تعالی: وَ مٰا أَكْثَرُ النّٰاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ أی لیس من شأن أكثر الناس لانكبابهم علی الدنیا و انجذاب نفوسهم الی زینتها و سهوهم عما أودع فی فطرهم من العلم باللّه و آیاته أن یؤمنوا به،و لو حرصت و أحببت إیمانهم،و الدلیل علی هذا المعنی الآیات التالیه.

قوله تعالی: وَ مٰا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ الواو حالیه أی ما هم بمؤمنین و الحال أنک ما تسألهم علی إیمانهم أو علی هذا القرآن الذی ننزله علیک و تتلوه علیهم من أجر حتی یصدهم الغرامه المالیه و إنفاق ما یحبونه من المال عن قبول دعوته و الإیمان به.

و قوله: إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ بیان لشأن القرآن الواقعی و هو أنه ممحض فی أنه ذكر للعالمین یذكرون به ما أودع اللّه فی قلوب جماعات البشر من العلم به و بآیاته فما هو إلاّ ذكر یذكرون به ما أنستهم الغفله و الإعراض و لبس من الأمتعه التی یكتسب بها الأموال أو ینال بها عزه أو جاه أو غیر ذلک.

قوله تعالی: وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهٰا وَ هُمْ

عَنْها مُعْرِضُونَ الواو حاليه و يحتمل الاستئناف و المرور على الشىء هو موافاته ثم تركه بموافاه ما وراءه فالمرور على الآيات السماويه و الأرضيه مشاهدتها واحده بعد أخرى.

و المعنى أن هناك آيات كثيره سماويه و أرضيه تدل بوجودها و النظام البديع الجارى فيها على توحيد بهم و هم يشاهدونها واحده بعد أخرى فتتكرر عليهم و الحال أنهم معرضون عنها لا يتنبهون.

و لو حمل قوله: «يَمُرُّونَ عَلَيْها» على التصريح من دون الكنايه كان من الدليل على ما يبتنى عليه الهيئه الحديثه من حركه الأرض وضعا و انتقالا فإنا نحن المارون على الأجرام السماويه بحركه الأرض الانتقاليه و الوضعيه لا بالعكس على ما يخيل الينا فى ظاهر الحس.

قوله تعالى: وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ الضمير فى «أَكْثَرُهُمْ» راجع الى الناس باعتبار إيمانهم أى أكثر الناس ليسوا بمؤمنين و إن لم تسألهم عليه أجرا و إن كانوا يمرون على الآيات السماويه و الأرضيه على كثرتها و الذين آمنوا منهم-و هم الأقلون-ما يؤمن أكثرهم باللّه إلاّ و هم متلبسون بالشرك.

و تلبس الإنسان بالإيمان و الشرك معا مع كونهما معنيين متقابلين لا يجتمعان فى محل واحد نظير تلبسه بسائر الاعتقادات المتناقضه و الأخلاق المتضاده إنما يكون من جهه كونها من المعانى التى تقبل فى نفسها القوه و الضعف فتختلف بالنسبه و الإضافه كالقرب و البعد فإن القرب و البعد المطلقين لا يجتمعان إلاّ أنهما إذا كانا نسبيين لا يمتنعان الاجتماع و التصادق كمكه فإنها قريبه بالنسبه الى المدينه بعيده بالنسبه الى الشام،و كذا هى بعيده من الشام إذا قيست الى المدينه قريبه منه إذا قيست الى بغداد.

و الإيمان باللّه و الشرك به و حقيقتهما تعلق القلب باللّه بالخضوع للحقيقه الواجبيه و تعلق القلب بغيره تعالى مما لا يملك شيئا إلاّ بإذنه تعالى يختلفان بحسب النسبه و الإضافه فإن من الجائز أن يتعلق الإنسان مثلا بالحياه الدنيا الفانيه و زينتها الباطله و ينسى مع ذلک كل حق

و حقیقه،و من الجائز أن ینقطع عن کل ما یصد النفس و یشغلها عن اللّه سبحانه و یتوجه بکله الیه و یذکره و لا یغفل عنه فلا یرکن فی ذاته و صفاته إلاّ الیه و لا یرید إلاّ ما یریده کالمخلصین من أولیائه تعالی.

و بین المنزلتین مراتب مختلفه بالقرب من أحد الجانبین و البعد منه و هی التی یجتمع فیها الطرفان بنحو من الاجتماع،و من الدلیل علی ذلک الأخلاق و الصفات المتمکنه فی النفوس التی تخالف مقتضی ما تعتقده من حق أو باطل،و الأعمال الصادره منها کذلک تری من یدعی الإیمان باللّه یخاف و ترتعد فرائصه من أی نائبه أو مصیبه تهدده و هو یذکر أن لا قوه إلاّ باللّه، و یلتمس العزه و الجاه من غیره و هو یتلو قوله تعالی: «إِنَّ الْعِزَّهَ لِلّهِ جَمِیعاً» و یقرع کل باب یبتغی الرزق و قد ضمنه اللّه،و یعصی اللّه و لا یستحیی و هو یری أن ربه علیم بما فی نفسه سمیع لما یقول بصیر بما یعمل و لا یخفی علیه شیء فی الأرض و لا فی السماء،و علی هذا القیاس.

فالمراد بالشرک فی الآیه بعض مراتبه الذی یجامع بعض مراتب الإیمان و هو المسمی باصطلاح فن الأخلاق بالشرک الخفی.

قوله تعالی: أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِیَهُمْ غاشِیَهٌ مِنْ عَذابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِیَهُمُ السّاعَهُ بَغْتَهً وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ الغاشیه صفه ساده مسد الموصوف المحذوف لدلاله کلمه العذاب علیه،و التقدیر عقوبه غاشیه تغشاهم و تحیط بهم.

و البغته الفجأه.و قوله: «وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ» حال من ضمیر الجمع أی تفاجئهم الساعه فی إتیانها و الحال أنهم لا یشعرون بإتیانها لعدم مسبوقیتها بعلامات تعین وقتها و تشخص قیامها و الاستفهام للتعجیب،و المعنی أن أمرهم فی إعراضهم عن آیات السماء و الأرض و عدم إخلاصهم الإیمان للّه و تمادیهم فی الغفله عجیب أ فأمنوا عذابا من اللّه یغشاهم أو ساعه تفاجئهم و تبهتهم؟

قوله تعالی: قُلْ هٰذِهِ سَبِیلِی أَدْعُوا إِلَی اللّهِ عَلیٰ بَصِیرَهٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِی

وَ سُبْحانَ اللّهِ وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لما ذكر سبحانه أن محض الإيمان به و إخلاص التوحيد له عزيز المنال و هو الحق الصريح الذى تدل عليه آيات السماوات و الأرض أمر نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يبين لهم أن سبيله هو الدعاء الى هذا التوحيد على بصيره.

فقوله: هٰذِهِ سَبِيلِى إعلان لسبيله،و قوله: «أَدْعُوا إِلَى اللّهِ عَلىٰ بَصِيرَةٍ» بيان للسبيل،و قوله: «وَ سُبْحانَ اللّهِ» اعتراض للتنزيه،و قوله: «وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» تأكيد لمعنى الدعوه الى اللّه و بيان أن هذه الدعوه ليست دعوه اليه تعالى كيف كان بل دعوه على أساس التوحيد الخالص لا معدل عنه الى شرك أصلا.

و أما قوله: أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِى فتوسعه و تعميم لحمل الدعوه و أن السبيل و إن كانت سبيل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم مختصه به لكن حمل الدعوه و القيام به لا يختص به بل من اتبعه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يقوم بها لنفسه.

لكن السياق يدل على أن الإشراك ليس بذاك العموم الذى يتراءى من لفظ «مَنِ اتَّبَعَنِى» فإن السبيل التى تعرفها الآيه هى الدعوه عن بصيره و يقين الى إيمان محض و توحيد خالص و انما يشاركه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فيها من كان مخلصا للّه فى دينه عالما بمقام ربه ذا بصيره و يقين و ليس كل من صدق عليه أنه اتبعه على هذا النعت،و لا أن الاستواء على هذا المستوى مبذول لكل مؤمن حتى الذين عدهم اللّه سبحانه فى الآيه السابقه من المشركين و ذمهم بأنهم غافلون عن ربهم آمنون من مكره معرضون عن آياته،و كيف يدعو الى اللّه من كان غافلا عنه آمنا من مكره معرضا عن آياته و ذكره؟و قد وصف اللّه فى آيات كثيره أصحاب هذه النعوت بالضلال و العمى و الخسران و لا تجتمع هذه الخصال بالهدايه و الإرشاد البته.

قوله تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرىٰ الى آخر الآيه؛لما ذكر سبحانه حال الناس فى الإيمان به ثم حال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى دعوته إياهم عن رساله إلهيه من غير أن يسألهم فيها أجرا و يجر لنفسه نفعا بين أن ذلک ليس

ببـدع من الأـمر بـل ممـا جرت عليه السـنه الإلهيه فى الـدعوه الـدينيه فلم يكن الرسل الماضون ملائكه و إنما بعثوا من بين هؤلاء النـاس و كانوا رجالا من أهل القرى يخالطون الناس و يعرفون عنـدهم أوحى اللّه اليهم و أرسـلهم نحوهم يـدعونهم اليه كما أن النبى كـذلك،و من الممكن أن يسـير هؤلاـء المـدعوون فى الأـرض فينظروا كيف كان عاقبه الـذين من قبلهم فبلادهم الخربه و مساكنهم الخاليه تفصح عما آل اليه أمرهم،و تنبئ عن عاقبه كفرهم و جحودهم و تكذيبهم لآيات اللّه.

فـالنبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم لاـ يـدعوهم إلاّـ كمـا كان يـدعوهم الأنبياء من قبله،و ليس يـدعوهم إلاّ الى ما فيه خيرهـم و صلاـح حـالهم و هو أن يتقوا اللّه فيفلحوا و يفوزوا بسـعاده خالـده و نعيم مقيم فى دار باقيه و لـدار الآخره خير للـذين اتقوا أ فلا تعقلون.

فقوله: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرىٰ تطبيق لدعوه النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلم على دعوه من قبله من الرسل.و لعل توصـيفهم بأنهم كانوا من أهل القرى للـدلاله على أنهم كانوا من أنفسـهم يعيشون بينهم و معروفين عندهم بالمعاشره و المخالطه و لم يكونوا ملائكه و لا من غير أنفسهم،و يؤيد ذلک توصيفهم بأنهم كانوا رجالا فإن الرجال كانوا أقرب الى المعرفه من النساء ذوات الخدر.

و قوله: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ إنـذار لامه النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم بمثل ما أنذر به الامم الخاليه فلم يسمعوا فذاقوا وبال أمرهم.

و قوله: وَ لَدٰارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ بيان النصح و أن ما يدعون اليه و هو التقوى ليس وراءه الاّ ما فيه كل خيرهم و جماع سعادتهم.

قوله تعالى: حَتّٰى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جٰاءَهُمْ نَصْرُنٰا الى آخر الآيه ذكروا أن يئس و استيأس بمعنى،و لا يبعد أن يقال:إن الاستيئاس هو الاقتراب من اليأس بظهور آثاره لمكان هيئه الاستفعال و هو مما يعد يأسا عرفا و ليس باليأس

القاطع حقيقه.

و قوله: حَتّی إِذَا اسْتَیْأَسَ الـخ؛متعلق الغایه بما یتحصل من الآیه السابقه و المعنی تلک الرسل الذین کانوا رجالا أمثالک من أهل القری و تلـک قراهم البائـده دعوهم فلم یسـتجیبوا و أنـذروهم بعـذاب اللّه فلم ینتهوا حتی إذا استیـأس الرسـل من إیمان اولئک الناس، و ظن الناس أن الرسل قـد کـذبوا أی اخبروا بالعـذاب کـذبا جاء نصـرنا فنجیء بـذلک من نشاء و هم المؤمنون و لا یرد بأسنا أی شدتنا عن القوم المجرمین.

أمـا استیئـاس الرسـل من إیمـان قـومهم فکمـا أخـبر فی قصه نـوح: وَ أُوحِیَ إِلی نُـوحٍ أَنَّهُ لَنْ یُـؤْمِنَ مِنْ قَوْمِـکَ إِلاّ مَنْ قَـدْ آمَنَ (هود/۳۶) وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَـذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکافِرِینَ دَیّاراً إِنَّکَ إِنْ تَـذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبادَکَ وَ لا یَلِدُوا إِلاّ فاجِراً کَفّاراً (نوح/۲۷)و یوجد نظیره فی قصص هود و صالح و شعیب و موسی و عیسی علیهم السّلام.

و أمـا ظن امـمهم أنهم قـد کـذبوا فکمـا اخبر عنه فی قصه نوح من قولهم: بَـلْ نَظُنُّکُمْ کاذِبِینَ (هود/۲۷)،و کـذا فی قصه هود و صالح و قوله: فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّی لَأَظُنُّکَ یا مُوسی مَسْحُوراً (الإسراء/۱۰۱).

و أما تنجیه المؤمنین بالنصر فکقوله تعالی: وَ کانَ حَقًّا عَلَیْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ (الروم/ ۴۷)و قد أخبر به فی هلاک بعض الامم أیضا کقـوله: نَجَّیْنا هُـوداً وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ (هود/ ۵۸) نَجَّیْنا صالِحـاً وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ (هـود/۶۶) نَجَّیْنا شُـعَیْباً وَ الَّذِینَ آمَنُـوا مَعَهُ (هود/۴)الی غیر ذلک.

و أما أن بأس اللّه لا یرد عن المجرمین فمذکور فی آیات کثیره عموما و خصوصا کقوله:

وَ لِکُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (یونس/۴۷)، و قوله: وَ إِذا أَرادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (الرعد/۱۱)الی غیر ذلک من الآیات.

ص :۳۴۶

هذا أحسن ما أوردوه فی الآیه من المعانی،و الدلیل علی کون الآیه بمضمونها غایه لما تتضمنه سابقتها کما قدمناه،و قد أوردوا لها معانی اخری لا یخلو شیء منها من السقم و الإضراب عنها اوجه.

قوله تعالی: لَقَدْ کٰانَ فِی قَصَصِهِمْ عِبْرَهٌ لِأُولِی الْأَلْبٰابِ الی آخر الآیه؛قال الراغب اصل العبر تجاوز من حال الی حال فأما العبور فیختص بتجاوز الماء-الی أن قال- و الاعتبار و العبره بالحاله التی یتوصل بها من معرفه المشاهد الی ما لیس بمشاهد قال تعالی:

إن فی ذلک لعبره.انتهی.

و الضمیر فی قصصهم للأنبیاء و منهم یوسف صاحب القصه فی السوره،و احتمل رجوعه الی یوسف و إخوته و المعنی اقسم لقد کان فی قصص الأنبیاء أو یوسف و إخوته عبره لأصحاب العقول،ما کان القصص المذکور فی السوره حدیثا یفتری و لکن تصدیق الذی بین یدی القرآن،و هو التوراه المذکور فیه القصه یعنی توراه موسی علیه السّلام.

و قوله: وَ تَفْصِیلَ کُلِّ شَیْءٍ الخ؛أی بیانا و تمییزا لکل شیء مما یحتاج الیه الناس فی دینهم الذی علیهم بناء سعادتهم فی الدنیا و الآخره،و هدی الی السعاده و الفلاح و رحمه خاصه من اللّه سبحانه لقوم یؤمنون به فإنه رحمه من اللّه لهم یهتدون بهدایته الی صراط مستقیم (۱).

۱- ۱) .یوسف ۱۰۳-۱۱۱:بحث روائی فی:التوحید و الشرک؛التسبیح؛استیئاس الرسل و مجیء نصر اللّه.

سوره الرعد مکیه و هی ثلاث و أربعون آیه

اشاره

[سوره الرعد (۱۳): الآیات ۱ الی ۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gtالمر تِلْکَ آیٰاتُ اَلْکِتٰابِ وَ اَلَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ اَلْحَقُّ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ یُؤْمِنُونَ (۱) اَللّٰهُ اَلَّذِی رَفَعَ اَلسَّمٰاوٰاتِ بِغَیْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا ثُمَّ اِسْتَویٰ عَلَی اَلْعَرْشِ وَ سَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَمًّی یُدَبِّرُ اَلْأَمْرَ یُفَصِّلُ اَلْآیٰاتِ لَعَلَّکُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّکُمْ تُوقِنُونَ (۲) وَ هُوَ اَلَّذِی مَدَّ اَلْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِیهٰا رَوٰاسِیَ وَ أَنْهٰاراً وَ مِنْ کُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ جَعَلَ فِیهٰا زَوْجَیْنِ اِثْنَیْنِ یُغْشِی اَللَّیْلَ اَلنَّهٰارَ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۳) وَ فِی اَلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجٰاوِرٰاتٌ وَ جَنّٰاتٌ مِنْ أَعْنٰابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِیلٌ صِنْوٰانٌ وَ غَیْرُ صِنْوٰانٍ یُسْقیٰ بِمٰاءٍ وٰاحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهٰا عَلیٰ بَعْضٍ فِی اَلْأُکُلِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۴)

ص: ۳۴۸

بیان:

غرض السوره بیان حقیه ما نزل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من الکتاب و أنه آیه الرساله و أن قولهم:

«لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ» و هم یعرّضون به للقرآن و لا یعدونه آیه کلام مردود الیهم و لا ینبغی للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یصغی الیه و لا لهم أن یتفوهوا به.

و یدل علی ذلک ابتداء السوره بمثل قوله: «وَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ الْحَقُّ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یُؤْمِنُونَ» و اختتامها بقوله: «وَ یَقُولُ الَّذِینَ کَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ» الآیه؛و تکرار حکایه قولهم:لو لا أنزل علیه آیه من ربه.

و محصل البیان علی خطاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن هذا القرآن النازل علیک حق لا یخالطه باطل فإن الذی یشتمل علیه من کلمه الدعوه هو التوحید الذی تدل علیه آیات الکون من رفع السماوات و مد الأرض و تسخیر الشمس و القمر و سائر ما یجری علیه عجائب تدبیره و غرائب تقدیره تعالی.

و تدل علی حقیه دعوته أیضا أخبار الماضین و آثارهم جاءتهم الرسل بالبینات فکفروا و کذبوا فأخذهم اللّه بذنوبهم.فهذا ما یتضمنه هذا الکتاب و هو آیه داله علی رسالتک.

و قولهم: «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ» تعریضا منهم للقرآن مردود الیهم اولا-بأنک لست إلاّ-منذرا و لیس لک من الأمر شیء حتی یقترح علیک بمثل هذه الکلمه و ثانیا أن الهدایه و الإضلال لیسا کما یزعمون فی وسع الآیات حتی یرجوا الهدایه من آیه یقترحونها و إنما ذلک الی اللّه سبحانه یضل من یشاء و یهدی من یشاء علی نظام حکیم و أما قولهم:لست مرسلا فیکفیک من الحجه شهاده اللّه فی کلامه علی رسالتک و دلاله ما فیه من المعارف الحقه علی ذلک.

و من الحقائق الباهره المذکوره فی هذه السوره ما یتضمنه قوله: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً»

الآیه؛و قوله: «أَلاٰ بِذِکْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» ،و قوله: «یَمْحُوا اللّٰهُ مٰا یَشٰاءُ وَ یُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْکِتٰابِ» ،و قوله: «فَلِلّٰهِ الْمَکْرُ جَمِیعاً» .

و السوره مکیه کلها علی ما یدل علیه سیاق آیاتها و ما تشتمل علیه من المضامین،و نقل عن بعضهم أنها مکیه إلاّ آخر آیه منها فإنها نزلت بالمدینه فی عبد اللّه بن سلام،و عزی ذلک الی الکلبی و مقاتل،و یدفعه أنها مختتم السوره قوبل بها ما فی مفتتحها من قوله: «وَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ الْحَقُّ» .

و قیل:إن السوره مدنیه کلها إلاّ آیتین منها و هما قوله: «وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُیِّرَتْ بِهِ الْجِبٰالُ» الآیه؛و الآیه التی بعدها،و نسب ذلک الی الحسن و عکرمه و قتاده،و یدفعه سیاق الآیات بما تشتمل علیه من المضامین فإنها لا تناسب ما کان یجری علیه الحال فی المدینه و بعد الهجره.

و قیل:إن المدنی منها قوله تعالی: «وَ لاٰ یَزٰالُ الَّذِینَ کَفَرُوا تُصِیبُهُمْ بِمٰا صَنَعُوا قٰارِعَهٌ» الآیه؛ و الباقی مکی و کأن القائل اعتمد فی ذلک علی قبولها الانطباق علی أوائل حال الإسلام بعد الهجره الی الفتح و سیأتی فی بیان معنی الآیه ما یتضح به اندفاعه.

قوله تعالی: المر تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ وَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ الْحَقُّ الخ؛الحروف المصدره بها السوره هی مجموع الحروف التی صدرت بها سوره «الم» و سور «الر» کما أن المعارف المبینه فی السوره کأنها المجموع من المعارف المعنیه فی ذینک الصنفین من السور،و فی الرجاء أن نشرح القول فی ذلک فیما سیأتی إن شاء اللّه العزیز.

و قوله: تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ ظاهر سیاق الآیه و ما یتلوها من الآیات الثلاث علی ما بها من الاتصال و هی تعد الآیات الکونیه من رفع السماوات و مد الأرض و تسخیر الشمس و القمر و غیر ذلک الداله علی توحید اللّه سبحانه الذی یفصح عنه القرآن الکریم و تندب الیه الدعوه الحقه،و هی تذکر أن التدبر فی تفصیلها و التفکر فیها یورث الیقین بالمبدإ و المعاد و العلم،بأن الذی أنزل الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم حق.

فظاهر ذلک کله أن یکون المراد بالآیات المشار إلیها بقوله: «تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ» الموجودات الکونیه و الأشیاء الخارجیه المسخره فی النظام العام الإلهی،و المراد بالکتاب هو مجموع الکون الذی هو بوجه اللوح المحفوظ أو المراد به القرآن الکریم بما یشتمل علی الآیات الکونیه بنوع من العنایه و المجاز.

و علی هذا یکون فی الآیه إشاره الی نوعین من الدلاله و هما الدلاله الطبعیه التی تتلبس بها الآیات الکونیه من السماء و الأرض و ما بینهما،و الدلاله اللفظیه التی تتلبس بها الآیات القرآنیه المنزله من عنده تعالی الی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و یکون قوله: «وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یُؤْمِنُونَ» استدراکا متعلق بالجملتین معا أعنی بقوله: «تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ» و قوله: «وَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ الْحَقُّ» لا بالجمله الأخیره فحسب.

و المعنی-و اللّه أعلم-تلک الامور الکونیه-و قد أشیر بلفظ البعید دلاله علی ارتفاع مکانتها-آیات الکتاب العام الکونی داله علی أن اللّه سبحانه واحد لا شریک له فی ربوبیته و القرآن الذی أنزل الیک من ربک حق لیس بباطل-و اللام فی قوله: «الْحَقُّ» للحصر فتفید المحوضه-فتلک آیات قاطعه فی دلالتها و هذا حق فی نزوله و لکن أکثر الناس لا یؤمنون،لا بتلک الآیات العینیه و لا بهذا الحق النازل،و فی لحن الکلام شیء من اللوم و العتاب.

قوله تعالی: اَللّٰهُ الَّذِی رَفَعَ السَّمٰاوٰاتِ بِغَیْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا ثُمَّ اسْتَویٰ عَلَی الْعَرْشِ الی آخر الآیه؛قال الراغب فی المفردات:العمود ما تعتمد علیه الخیمه و جمعه عمد -بضمتین-و عمد-بفتحتین-قال:فی عمد ممده،و قرئ فی عمد،و قال:بغیر عمد ترونها انتهی.و قیل:إن العمد بفتحتین اسم جمع للعماد لا جمع.

و المراد بالآیه التذکیر بدلیل ربوبیته تعالی وحده لا شریک له و أن السماوات مرفوعه بغیر عمد تعتمد علیها تدرکها أبصارکم و هناک نظام جار و هناک شمس و قمر مسخران یجریان الی أجل مسمی،و لا بد ممن یقوم علی هذه الامور فیرفع السماء و ینظم النظام و یسخر الشمس

و القمر و یـدبر الأمر و یفصل هذه الآیات بعضـها عن بعض تفصـیلا فیه رجاء أن توقنوا بلقاء ربکم فاللّه سبحانه هو ذاک القائم بما ذکر من أمر رفع السـماوات و تنظیم النظام و تسـخیر الشـمس و القمر و تـدبیر الأمر و تفصـیل الآیات فهو تعالی رب الکل لا رب غیره.

فقوله: اَلَّذِی رَفَعَ السَّمٰاوٰاتِ بِغَیْرِ عَمَـدٍ تَرَوْنَهٰا رفع السـماوات هو فصـلها من الأرض فصـلا یتسلط به علی الأرض بإلقاء أشعتها و إنزال أمطارها و صواعقها علیها و غیر ذلک فهی مرفوعه علی الأرض من غیر عمـد محسوسه للإنسان تعتمـد علیها فعلی الإنسان أن یتفطن أن لها رافعا حافظا لها أن تتحول من مکانها ممسکا لها أن تزول من مستقرها.

و قـوله: ثُمَّ اسْـتَویٰ عَلَی الْعَرْشِ وَ سَـخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ تقـدم الکلاـم فی معنی العرش و الاسـتواء و التسـخیر فی تفسـیر سـوره الأعراف الآیه ۵۴.

و قوله: کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَـمًّی أی کل منهما یجری الی أجل معین یقف عنـده و لا یتعـداه کذا قیل و من الجائز بل الراجح أن یکون الضـمیر المحذوف ضـمیر جمع راجعا الی الجمیع و المعنی کل من السـماوات و الشـمس و القمر یجری الی أجل مسمی فإن حکم الجری و الحرکه و عام مطرد فی جمیع هذه الأجسام.

و قد تقدم الکلام فی معنی الأجل المسمی فی تفسیر سوره الأنعام الآیه ۱ فراجع.

و قوله: یُدَبِّرُ الْأَمْرَ التدبیر هو الإتیان بالشـیء عقیب الشیء و یراد به ترتیب الأشیاء المتعدده المختلفه و نظمها بوضع کل شیء فی موضـعه الخاص به بحیث یلحق بکل منها ما یقصـد به من الغرض و الفائـده و لا یختل الحال بتلاشـی الأصل و تفاسـد الأجزاء و تزاحمها یقال:دبر أمر البیت أی نظم اموره و التصرفات العائده الیه بحیث أدی الی صلاح شأنه و تمتع أهله بالمطلوب من فوائده.

فتـدبیر أمر العالم نظم أجزائه نظما جیدا متقنا بحیث یتوجه به کل شـیء الی غایته المقصوده منه و هی آخر ما یمکنه من الکمال الخاص به و منتهی ما ینساق الیه من الأجل المسمی،

و تدبیر الکل إجراء النظام العام العالمی بحیث بتوجه الی غایته الکلیه و هی الرجوع الی اللّه و ظهور الآخره بعد الدنیا.

و قوله: یُفَصِّلُ الْآیٰاتِ لَعَلَّکُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّکُمْ تُوقِنُونَ ظاهر السیاق أن المراد بالآیات هی الآیات الکونیه فالمراد بتفصیلها هو تمییز بعضها من بعض و فتقها بعد رتقها، و هذا من سنته تعالی یفصل الأشیاء و یمیز کل شیء من کل شیء و یخرج من کل شیء ما هو کامن فیه مستخف فی باطنه فینفصل به النور من الظلمه و الحق من الباطل و الخیر من الشر و الصالح من الطالح و المثیب من المجرم.

و لذا عقبه بقوله: «لَعَلَّکُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّکُمْ تُوقِنُونَ» فإن یوم اللقاء هو الساعه التی سماها اللّه بیوم الفصل و وعد فیه تمییز المتقین من المجرمین و الفجار قال: إِنَّ یَوْمَ الْفَصْلِ مِیقٰاتُهُمْ أَجْمَعِینَ (الدخان۴۰/)،و قال: وَ امْتٰازُوا الْیَوْمَ أَیُّهَا الْمُجْرِمُونَ (یس۵۹/)،و قال: لِیَمِیزَ اللّٰهُ الْخَبِیثَ مِنَ الطَّیِّبِ وَ یَجْعَلَ الْخَبِیثَ بَعْضَهُ عَلیٰ بَعْضٍ فَیَرْکُمَهُ جَمِیعاً فَیَجْعَلَهُ فِی جَهَنَّمَ أُولٰئِکَ هُمُ الْخٰاسِرُونَ (الأنفال۳۷/).

و فی قوله: لَعَلَّکُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّکُمْ و لم یقل:لعلکم بلقائه،وضع الظاهر موضع المضمر و الوجه فیه الإصرار علی تثبیت الربوبیه و التأکید له و الإشاره الی أن الذی خلق العالم و دبر أمره فصار ربا له هو رب لکم أیضا فلا رب إلاّ رب واحد لا شریک له.

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِیهٰا رَوٰاسِیَ وَ أَنْهٰاراً الی آخر الآیه؛الرواسی جمع راسیه من رسی إذا ثبت و قر،و المراد بها الجبال لثباتها فی مقرها،و الزوج خلاف الفرد و یطلق علی مجموع الأمرین و علی أحدهما فهما زوج و هما زوجان،و ربما یقید الزوجان باثنین تأکیدا للدلاله علی أن المراد هو اثنان لا أربعه کما فی الآیه.

و قوله: هُوَ الَّذِی مَدَّ الْأَرْضَ أی بسطها بسطا صالحا لأن یعیش فیه الحیوان و ینبت فیه الزرع و الشجر،و الکلام فی نسبه مد الأرض الیه تعالی و کونه کالتوطئه و التمهید لما

يلحق به من قوله: «وَ جَعَلَ فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْهٰاراً» الخ؛نظير الكلام فى قوله فى الآيه السابقه:

«اللّٰهُ الَّذِی رَفَعَ السَّمٰاوٰاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا» .

و قوله: وَ جَعَلَ فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْهٰاراً الضمير للأرض و الكلام مسوق بحيث يستتبع بعض أجزائه بعضا و الغرض-و اللّه أعلم-بيان تدبيره تعالى أمر سكنه الأرض من إنسان و حيوان فى حركته لطلب الرزق و سكونه للارتياح فقد مد اللّه سبحانه الأرض و لو لا ذلك لم يصلح لبقاء نوع الإنسان و الحيوان و لو كانت ممدوده فحسب من غير ارتفاع و انخفاض فى سطحها لم تصلح لظهور ما ادخر فيها من خزائن الماء على سطحها لشرب الزروع و البساتين فجعل سبحانه فيها الجبال الرواسى و ادخر فيها ما ينزل على الأرض من ماء السماء و شق من أطرافها أنهارا و فجر منها عيونا مطله على السهل تسقى الزروع و الجنان فيخرج به ثمرات مختلفه حلوه و مره صيفه و شتويه بريه و أهليه،و سلط على وجه الأرض الليل و النهار و هما عاملان قويان فى رشد الأثمار و الفواكه بتسليط الحراره و البروده المؤثرتين فى النضج و النمو و الانبساط و الانقباض،و تسليط الضوء و الظلمه النظامين لحركه الدواب و الإنسان و سعيهما فى طلب الرزق و سكونهما للنوم و الرقده.

فمد الأرض يسهل الطريق لجعل الجبال الرواسى و ذلك لشق الأنهار و ذلك لجعل الثمرات المزدوجه المختلفه و بالليل و النهار يتم المطلوب و فى ذلك كله تدبير متصل متحد يكشف عن مدبر حكيم واحد لا شريك له فى ربوبيته،و إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

و قوله: وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰاتِ جَعَلَ فِيهٰا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أى و من جميع الثمرات الممكنه الكينونه جعل فى الأرض أنواعا متخالفه نوعا يخالف آخر كالصيفى و الشتوى و الحلو و غيره و الرطب و اليابس.

هذا هو المعروف فى تفسير زوجين اثنين فالمراد بالزوجين الصنف يخالفه صنف آخر سواء كانا صنفين لا ثالث لهما أم لا،نظير ما تأتى فيه التثنيه للتكرير كقوله تعالى: ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ

كَرَّتَيْنِ (الملك۴/)أريد به الرجوع كره بعد كره و إن بلغ من الكثره ما بلغ (۱).

و قوله: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ أى يلبس ظلمه الليل ضوء النهار فيظلم الهواء بعد ما كان مضيئا،و ذكر بعضهم أن المراد به إغشاء كل من الليل و النهار غيره و تعقيب الليل النهار و النهار الليل،و لا قرينه تدل على ذلك.

ثم ختم الآيه بقوله: «إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» فإن التفكر فى النظام الجارى عليها الحاكم فيها القاضى باتصال بعضها ببعض و تلاؤم بعضها مع بعض المؤدى الى توجه المجموع و كل جزء من أجزائها الى غايات تخصها يكشف عن ارتباطها بتدبير واحد عقلى فى غايه الإتقان و الإحكام فيدل على أن لها ربا واحدا لا شريك له فى ربوبيته عليما لا يعتريه جهل قديرا لا يغلب فى قدرته ذا عنايه بكل شىء و خاصه بالإنسان يسوقه الى ما فيه سعادته الخالده.

قوله تعالى: وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَ غَيْرُ صِنْوَانٍ الى آخر الآيه؛قال الراغب:الصنو الغصن الخارج عن أصل الشجره يقال:هما صنوا نخله و فلان صنو أبيه و التثنيه صنوان و جمعه صنوان قال تعالى:

صنوان و غير صنوان.انتهى،و قال:و الاكل لما يؤكل بضم الكاف و سكونه قال تعالى «أُكُلُهَا دَائِمٌ» و الأكله للمره و الأكله كاللقمه.انتهى.

و المعنى أن من الدليل على أن هذا النظام الجارى قائم بتدبير مدبر وراءه يخضع له الأشياء بطبائعها و يجريها على ما يشاء و كيف يشاء أن فى الأرض قطعا متجاورات متقاربه بعضها من بعض متشابهه فى طبع ترابها و فيها جنات من أعناب و العنب من الثمرات التى تختلف اختلافا عظيما فى الشكل و اللون و الطعم و المقدار و اللطافه و الجوده و غير ذلك،و فيها زرع مختلف فى

۱- ۱) .الرعد ۱-۴:بحث فى معنى «زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» فى قوله تعالى: «وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» .

جنسه و صنفه من القمح و الشعير و غير ذلك،و فيها نخيل صنوان أی أمثال نابته علی أصل مشترک فيه و غير صنوان أی متفرقه تسقی الجميع من ماء واحد و نفضل بعضها علی بعض بما فيه من المزيه المطلوبه فی شیء من صفاته.

[سوره الرعد (۱۳): الآيات ۵ الی ۶]

اشاره

وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذٰا كُنّٰا تُرٰاباً أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولٰئِکَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولٰئِکَ اَلْأَغْلاٰلُ فِی أَعْنٰاقِهِمْ وَ أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (۵) وَ يَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّيِّئَهِ قَبْلَ اَلْحَسَنَهِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ اَلْمَثُلاٰتُ وَ إِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَهٍ لِلنّٰاسِ عَلیٰ ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّکَ لَشَدِيدُ اَلْعِقٰابِ (۶)

بيان:

قوله تعالی: وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذٰا كُنّٰا تُرٰاباً أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِيدٍ الی آخر الآيه؛قال فی المجمع:العجب و التعجب هجوم ما لا يعرف سببه علی النفس الغسل طوق تشد به اليد الی العنق انتهی.

أشار تعالی فی مفتتح کلامه الی حقيه ما أنزله الی نبيه من معارف الدين فی کتابه ملوحا الی أن آيات التکوين تهدی اليه و تدل عليه و أصولها التوحيد و الرساله و البعث ثم فصل القول فی دلاله الآيات التکوينيه علی ذلک و استنتج من حجج ثلاث ذکرها توحيد الربوبيه و البعث بالتصريح،و يستلزم ذلک حقيه الرساله و الکتاب المنزل الذی هو آيتها،فلما اتضح ذلک و استنار تمهدت الطريق لذکر شبه الکفار فيما يرجع الی الاصول الثلاثه فأشار فی هذه الآيه الی

شبهتهم فی البعث و سیتعرض لشبههم و أقاویلهم فی الرساله و التوحید فی الآیات التالیه.

و شبهتهم فی ذلک قولهم: «أَ إِذٰا کُنّٰا تُرٰاباً أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ» أورده بعنوان أنه عجب أحری به أن یتعجب منه لظهور بطلانه و فساده ظهورا لا مسوغ لإنسان سلیم العقل أن یرتاب فیه فلو تفوه به إنسان لکان من موارد العجب فقال: «وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ» الخ.

و معنی الجمله علی ما یرشد الیه حذف متعلق «تَعْجَبْ» إن تحقق منک تعجب-و لا محاله یتحقق لأن الإنسان لا یخلو منه- فقولهم هذا عجیب یجب أن یتعلق به تعجبک،فالترکیب کنایه عن وجوب التعجب من قولهم هذا لکونه قولا ظاهر البطلان لا یمیل الیه ذو لب و حجی.

و قولهم: أَ إِذٰا کُنّٰا تُرٰاباً أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ مرادهم من التراب بقرینه السیاق ما یصیر الیه بدن الإنسان بعد الموت من صوره التراب و ینعدم عند ذلک الإنسان الذی هو الهیکل اللحمی الخاص المرکب من أعضاء خاصه المجهّز بقوی مادیه علی زعمهم و کیف یشمل الخلقه أمرا منعدما من أصله فیعود مخلوقا جدیدا؟.

و لشبهتهم هذه جهات مختلفه أجاب اللّه سبحانه فی کلامه عن کل واحده منها بما یناسبها و یحسم مادتها:

فمنها:استبعاد أن یستحیل التراب إنسانا سویا،و قد أجیب عنه بأن إمکان استحاله المواد الأرضیه منیا ثم المنی علقه ثم العلقه مضغه ثم المضغه بدن إنسان سوی و وقوع ذلک بعد إمکانه لا یدع ریبا فی جواز صیروره التراب ثانیا إنسانا سویا قال تعالی: یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّٰا خَلَقْنٰاکُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَهٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَهٍ مُخَلَّقَهٍ وَ غَیْرِ مُخَلَّقَهٍ الآیه،(الحج/۵).

و منها:استبعاد إیجاد الشیء بعد عدمه.و أجیب بأنه مثل الخلق الاول فلیجز کما جاز قال

تعالى: وَ ضَرَبَ لَنٰا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قٰالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظٰامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّةٍ (يس٧٩/).

و منهـا:أن الإنسـان تنتفى ذاته بالموت فلا ذاته بالموت فلا ذات حتى تتلبس بالخلق الجديـد و لا إنسان بعـد الموت و الفوت إلاّ فى تصور المتصور دون الخارج بنحو.

و قـد أجيب فى كلامـه تعالى عنه ببيان أن الإنسان ليس هو البـدن المركب من عـده أعضاء ماديه حتى ينعـدم من أصـله ببطلان التركيب و انحلاله بل حقيقته روح علويه-و إن شئت قلت:نفس-متعلق بهـذا المركب المادى تستعمله فى أغراضه و مقاصده و بها حياه البدن يبقى بها الإنسان محفوظ الشخصـيه و إن تغير بدنه و تبدل بمرور السـنين و مضـى العمر ثم الموت هو أن يأخذها اللّه من البدن و تقطع علقتها به ثم البعث هو أن يجدد اللّه خلق البدن و تعليقها به و هو القيام للّه لفصل القضاء.

قـال تعـالى: وَ قٰالُوا أَ إِذٰا ضَـلَلْنٰا فِي الْأَرْضِ أَ إِنّٰا لَفِي خَلْقٍ جَدِيـدٍ بَلْ هُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ كٰافِرُونَ قُلْ يَتَوَفّٰاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (الم السجده١١/)يقول إنكم بالموت لا تضلون فى الأرض و لا تنعدمون بل الملك الموكل بالموت يأخذ الأمر الذى تدل عليه لفظه«كم»و«نا»و هى النفوس فتبقى فى قبضـته و لا تضل ثم إذا بعثتم ترجعون الى اللّه بلحوق أبدانكم الى نفوسكم و أنتم انتم.

فللإنسـان حياه باقيه غير محـدوده بما فى هـذه الـدنيا الفانيه و له عيشه فى دار اخرى باقيه ببقاء اللّه و لا يتمتع فى حياته الثانيه إلاّ بمـا يكتسـبه فى حيـاته الاولى من الإيمان باللّه و الأعمال الصالحه و يعـده فى يومه لغـده من مواد السـعاده فإن اتبع الحق و آمن بآيـات اللّـه سـعد فى أخراه بكرامـه القرب و الزلفى و ملـك لاـ يبلى،و إن أخلـد الى الأـرض و انكـب على الـدنيا و أعرض عن الذكرى بقى فى دار الشقاء و البوار و غل بأغلال الخيبه و الخسران فى مهبط اللعن و حضيض البعد و كان من أصحاب النار.

و إذا عرفت هذا الذی قدمناه و تأملته تأملا کافیا بأن لک أن قوله تعالی: «أُولٰئِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» الی آخر الآیه؛لیس بمجرد تهدید بالعذاب لهؤلاء القائلین «أَ إِذٰا کُنّٰا تُرٰاباً أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ» علی ما یتخیل فی بادئ النظر بل جواب بلازم القول.

توضیح ذلک أن لازم قولهم:إن الإنسان إذا مات و صار ترابا بطلت الإنسانیه و انعدمت الشخصیه أن یکون الإنسان صوره مادیه قائمه بهذا الهیکل البدنی المادی العائش بحیاه مادیه من غیر أن تکون له حیاه اخری خالده بعد الموت یبقی فیها ببقاء الرب تعالی و یسعد بقربه و یفوز عنده و بعباره اخری تکون حیاته محدوده بهذه الحیاه المادیه غیر أن تنبسط علی ما بعد الموت و تدوم أبدا،و هذا فی الحقیقه إنکار للعالم الربوبی إذ لا معنی لرب لا معاد الیه.

و لازم ذلک أن یقصر الإنسان همه فی المقاصد الدنیویه و الغایات المادیه من غیر أن یرتقی فهمه الی ما عند اللّه من النعیم المقیم و الملک العظیم فیسعی لقربه تعالی و یعمل فی یومه لغده کالمغلول الذی لا یستطیع حراکا و لا یقدر علی السعی لواجب أمره.

و لازم ذلک أن یثبت الإنسان فی شقاء لازم و عذاب دائم فإنه افسد استعداد السعاده و قطع الطریق و هذه اللوازم الثلاث هی التی أشار تعالی الیه بقوله: «أُولٰئِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا» الخ.

فقوله: أُولٰئِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ إشاره الی اللازم الأول و هو إعراض منکری المعاد عن العالم الربوبی و الحیاه الباقیه و الستر علی ما عند اللّه من النعیم المقیم و الکفر به.

و قوله: وَ أُولٰئِکَ الْأَغْلاٰلُ فِی أَعْنٰاقِهِمْ إشاره الی اللازم الثانی و هو الإخلاد الی الأرض و الرکون الی الهوی و التقید بقیود الجهل و أغلال الجحد و الإنکار،و قد مر فی تفسیر قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَسْتَحْیِی أَنْ یَضْرِبَ مَثَلاً الآیه،(البقره۲۶/)فی الجزء الأول من الکتاب کلام فی کون هذه التعبیرات القرآنیه حقائق او مجازات فراجع الیه.

و قوله: أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ إشاره الی اللازم الثالث و هو مکثهم فی العذاب و الشقاء.

ص :۳۵۹

قوله تعالی: وَ یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّیِّئَهِ قَبْلَ الْحَسَنَهِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ الی آخر الآیه؛قال فی المجمع:الاستعجال طلب التعجیل بالأمر و التعجیل تقدیم الأمر قبل وقته،و السیئه خصله تسوء النفس و نقیضها الحسنه و هی خصه تسر النفس، و المثلات العقوبات واحدها مثله بفتح المیم و ضم الثاء،و من قال فی الواحد:مثله بضم المیم و سکون الثاء قال فی الجمع:مثلات بضمتین نحو غرفه و غرفات،و قیل فی المجمع:مثلات و مثلات-أی بسکون الثاء و فتحها-انتهی.

و قال الراغب فی المفردات:المثله نقمه تنزل بالإنسان فیجعل مثالا یرتدع به غیره و ذلک کالنکال و جمعه مثلات و مثلات-أی بضم المیم أو فتحها و ضم الثاء-و قد قرئ:من قبلهم المثلات،و المثلات بإسکان الثاء علی التخفیف نحو عضد و عضد.انتهی.

و قوله: وَ یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّیِّئَهِ قَبْلَ الْحَسَنَهِ ضمیر الجمع للذین کفروا المذکورین فی الآیه السابقه،و المراد باستعجالهم بالسیئه قبل الحسنه سؤالهم نزول العذاب الیهم استهزاء بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم قبل سؤال الرحمه و العافیه،و الدلیل علیه قوله: «وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ» -و الجمله فی موضع الحال-فإن المراد به العقوبات النازله علی الأمم الماضین القاطعه لدابرهم.

و المعنی:یسألک الذین کفروا أن تنزل علیهم العقوبه الإلهیه قبل الرحمه و العافیه بعد ما سمعوک تنذرهم بعذاب اللّه استهزاء و هم علی علم بالعقوبات النازله قبلهم علی الامم الماضین الذین کفروا برسلهم و الآیه فی مقام التعجیب.

و قوله: وَ إِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَهٍ لِلنّاسِ عَلی ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّکَ لَشَدِیدُ الْعِقابِ استئناف أو فی موضع الحال،و یفید بیان السبب فی کون استعجالهم أمرا عجیبا أی إن ربک ذو رحمه واسعه تسع الناس فی جمیع أحوالهم حتی حال ظلمهم و ذو غضب شدید و قد سبقت رحمته غضبه فما بالهم یعرضون عن وسیع رحمته و مغفرته و یسألون شدید عقابه و هم

مستعجلون؟إن ذلك لعجيب.

[سوره الرعد (١٣): الآيات ٧ الى ١٦]

اشاره

وَ يَقُولُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمٰا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ (٧) اَللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثىٰ وَ مٰا تَغِيضُ اَلْأَرْحٰامُ وَ مٰا تَزْدٰادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ (٨) عٰالِمُ اَلْغَيْبِ وَ اَلشَّهٰادَةِ اَلْكَبِيرُ اَلْمُتَعٰالِ (٩) سَوٰاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ اَلْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سٰارِبٌ بِالنَّهٰارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبٰاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذٰا أَرٰادَ اَللّٰهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلاٰ مَرَدَّ لَهُ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وٰالٍ (١١) هُوَ اَلَّذِي يُرِيكُمُ اَلْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنْشِئُ اَلسَّحٰابَ اَلثِّقٰالَ (١٢) وَ يُسَبِّحُ اَلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ اَلصَّوٰاعِقَ فَيُصِيبُ بِهٰا مَنْ يَشٰاءُ وَ هُمْ يُجٰادِلُونَ فِي اَللّٰهِ وَ هُوَ شَدِيدُ اَلْمِحٰالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ اَلْحَقِّ وَ اَلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاّٰ كَبٰاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى اَلْمٰاءِ لِيَبْلُغَ فٰاهُ وَ مٰا هُوَ بِبٰالِغِهِ وَ مٰا دُعٰاءُ اَلْكٰافِرِينَ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ (١۴) وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلاٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ اَلْآصٰالِ (١۵) قُلْ مَنْ رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ قُلِ اَللّٰهُ قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ لاٰ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي اَلْأَعْمىٰ وَ اَلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي اَلظُّلُمٰاتُ وَ اَلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشٰابَهَ اَلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اَللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ اَلْوٰاحِدُ اَلْقَهّٰارُ (١۶)

ص: ٣۶١

بیان:

قوله تعالی: وَ یَقُولُ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ الی آخر الآیه؛لیس المراد بهذه الآیه الآیه القاضیه بین الحق و الباطل المهلکه للامه و هی المذکوره فی الآیه السابقه بقوله: «وَ یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّیِّئَهِ قَبْلَ الْحَسَنَهِ» بأن یکون تکرارا لها و ذلک لعدم إعانه السیاق علی ذلک،و لو أرید ذلک لکان من حق الکلام أن یقال:و یقولون لو لا «الخ».

بل المراد أنهم یقترحون علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم آیه أخری غیر القرآن تدل علی صدقه فی دعوی الرساله و کانوا یحقرون أمر القرآن الکریم و لا یعبئون به و یسألون آیه أخری معجزه کما أوتی موسی و عیسی و غیرهما علیهم السّلام فکان فی قولهم: «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ» تعریض منهم للقرآن.

و أما قوله: إِنَّمٰا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِکُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ فإعطاء جواب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و فی

ص: ۳۶۲

توجيه الخطاب اليه دونهم و عدم أمره أن يبلغ الجواب إياهم تعريض لهم أنهم لا يستحقون جوابا لعدم فقههم به و فقدهم القدر اللازم من العقل و الفهم و ذلك أن اقتراحهم الآيه مبنى على زعمهم-كما يـدل عليه كثير مما حكى عنهم القرآن فى هذا الباب على أن من الواجب أن يكون للرسول قدره غيبيه مطلقه على كل ما يريد فله أن يوجد ما أراد و عليه أن يوجد ما أريد منه.

و الحال أن الرسول ليس إلاّ بشـرا مثلهم أرسـله اللّه اليهم لينـذرهم عـذاب اللّه و يحذرهم أن يسـتكبروا عن عبادته و يفسدوا فى الأرض بناء على السـنه الإلهيه الجاريه فى خلقه أنه يهدى كل شـىء الى كماله المطلوب و يدل عباده على ما فيه صلاح معاشهم و معادهم.

فـالرسول بما هو رسول بشـر مثلهم لا يملك لنفسه ضـرا و لا نفعا و لا موتا و لا حياه و لا نشورا و ليس عليه إلاّ تبليغ رساله ربه و أما الآيات فأمرها الى اللّه ينزلها إن شاء و كيف شاء فاقتراحها على الرسول جهل محض.

فالمعنى:أنهم يقترحون عليك آيه-و عنـدهم القرآن أفضل آيه-و ليس اليك شـىء من ذلك و إنما أنت هاد تهديهم من طريق الإنذار و قد جرت سنه اللّه فى عباده أن يبعث فى كل قوم هاديا يهديهم.

و الآيه تـدل على أن الأرض لا تخلو من هاد يهـدى الناس الى الحق إما نبى منذر و إما هاد غيره يهدى بأمر اللّه و قد مر بعض ما يتعلق بالمقام فى أبحاث النبوه فى الجزء الثانى و فى أبحاث الإمامه فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: اَللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثیٰ وَ مٰا تَغِيضُ الْأَرْحٰامُ وَ مٰا تَزْدٰادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ قال فى المفردات:غاض الشىء و غاضه غيره نحو نقص و نقصه غيره قال تعالى «وَ غِيضَ الْمٰاءُ» «وَ مٰا تَغِيضُ الْأَرْحٰامُ» أى تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذى تبتلعه الأرض و الغيضه المكان الذى يقف فيه الماء فيبتلعه و ليله غائضه أى

مظلمه انتهی.

و علی هذا فالأنسب أن تکون الامور الثلاثه المذکوره فی الآیه أعنی قوله: «مٰا تَحْمِلُ کُلُّ أُنْثیٰ» و «مٰا تَغِیضُ الْأَرْحٰامُ» و «مٰا تَزْدٰادُ» إشاره الی ثلاثه من أعمال الأرحام فی أیام الحمل فما تحمله کل أنثی هو الجنین الذی تعیه و تحفظه و ما تغیضه الأرحام هو دم الحیض تنصب فیها فتصرفه الرحم فی غذاء الجنین،و ما تزداده هو الدم التی تدفعها الی خارج کدم النفاس و الدم أو الحمره التی تراها أیام الحمل أحیانا و هو الذی یظهر من بعض ما روی عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام و ربما ینسب الی ابن عباس.

و قوله: وَ کُلُّ شَیْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ المقدار هو الحد الذی یحد به الشیء و یتعین و یمتاز به من غیره إذ لا ینفک الشیء الموجود عن تعین فی نفسه و امتیاز من غیره و لو لا ذلک لم یکن موجودا البته.

و هذا المعنی أعنی کون کل شیء مصاحبا لمقدار و قرینا لحد لا یتعداه حقیقه قرآنیه تکرر ذکرها فی کلامه تعالی کقوله: قَدْ جَعَلَ اللّٰهُ لِکُلِّ شَیْءٍ قَدْراً (الطلاق/٣)،و قوله:

وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/٢١)و غیر ذلک من الآیات.

فإذا کان الشیء محدودا بحد لا یتعداه و هو مضروب علیه ذلک الحد عند اللّه و بأمره و لن یخرج من عنده و إحاطته و لا یغیب عن علمه شیء کما قال: إِنَّ اللّٰهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (الحج/١٧)و قال: أَلاٰ إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطٌ (حم السجده/٥۴)،و قال: لاٰ یَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقٰالُ ذَرَّهٍ (السبأ/٣)فمن المحال أن لا یعلم تعالی ما تحمل کل أنثی و ما تغیض الأرحام و ما تزداد.

فذیل الآیه أعنی قوله: «وَ کُلُّ شَیْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ» تعلیل لصدرها أعنی قوله: «اللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا تَحْمِلُ کُلُّ أُنْثیٰ» الخ؛و الآیه و ما یتلوها کالتذلیل للآیه السابقه أن اللّه یعلم بکل شیء و یقدر

علی کل شیء و یجیب الدعوه و یخضع له کل شیء فهو أحق بالربوبیه فإلیه أمر الآیات لا إلیک و إنما أنت منذر.

قوله تعالی: عَالِمُ الْغَیْبِ وَ الشَّهَادَهِ الْکَبِیرُ الْمُتَعَالِ الغیب و الشهاده کما سمعت مرارا معنیان إضافیان فالشیء الواحد یمکن أن یکون غیبا بالنسبه الی شیء و شهاده بالنسبه الی آخر و ذلک أن الاشیاء-کما تقدم-لا تخلو من حدود تلزمها و لا تنفک عنها فما کان من الاشیاء داخلا فی حد الشیء غیر خارج عنه فهو شهاده بالنسبه الیه مشهود لإدراکه و ما کان خارجا عن حد الشیء غیر داخل فیه فهو غیب بالنسبه الیه غیر مشهود لإدراکه.

و من هنا یظهر أن الغیب لا یعلم به إلاّ اللّه سبحانه أما أنه لا یصیر معلوما لشیء فلأن العلم نوع إحاطه و لا معنی لإحاطه الشیء بما هو خارج عن حد وجوده أجنبی عن إحاطته،و أما أنه تعالی یعلم الغیب فلأنه تعالی غیر محدود الوجود بحد و هو بکل شیء محیط فلا یمتنع شیء عنه بحده فلا یکون غیبا بالنسبه الیه و الی فرض أنه غیب بالنسبه الی غیره.

فیرجع معنی علمه بالغیب و الشهاده بالحقیقه الی أنه لا غیب بالنسبه الیه بل الغیب و الشهاده اللذان یتحققان فیما بین الأشیاء بقیاس بعضها الی بعض هما معا شهادتان بالنسبه الیه تعالی،و یصیر معنی قوله: «عَالِمُ الْغَیْبِ وَ الشَّهَادَهِ» أن الذی یمکن أن یعلم به أرباب العلم و هو الذی لا یخرج عن حد وجودهم و الذی لا یمکن أن یعلموا به لکونه غیبا خارجا عن حد وجودهم هما معا معلومان مشهودان له تعالی لإحاطته بکل شیء.

و قوله: اَلْکَبِیرُ الْمُتَعَالِ اسمان من أسمائه تعالی الحسنی،و الکبر و یقابله الصغر من المعانی المتضایفه فإن الأجسام إذا قیس بعضها الی بعض من حیث حجمها المتفاوت فما احتوی علی مثل حجم الآخر و زیاده کان کبیرا و ما لم یکن کذلک کان صغیرا ثم توسعوا فاعتبروا ذلک فی غیر الأجسام،و الذی یناسب ساحه قدسه تعالی من معنی الکبریاء أنه تعالی یملک کل کمال لشیء و یحیط به فهو تعالی کبیر أی له کمال کل ذی کمال و زیاده.

ص :۳۶۵

و المتعال صفه من التعالى و هو المبالغه فى العلو كما يدل عليه قوله: تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (الإسراء۴۳/)فإن قوله: «عُلُوًّا كَبِيراً» مفعول مطلق لقوله: «تَعَالَى» و موضوع فى محل قولنا:«تعاليا»فهو سبحانه على و متعال أما أنه على فلأنه علا كل شىء و تسلط عليه و العلو هو التسلط،و أما أنه متعال فلأن له غايه العلو لأن علوه كبير بالنسبه الى كل علو فهو العالى المتسلط على كل عال من جهه.

و من هنا تظهر النكته فى تعقيب قوله: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَهِ» بقوله: «الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ» لأن مفاد مجموع الاسمين أنه سبحانه محيط بكل شىء متسلط عليه و لا يتسلط عليه و لا يغلبه شىء من جهه البته فهو يعلم الغيب كما يعلم الشهاده و لا يتسلط عليه و لا يغلبه غيب حتى يعزى عن علمه بغيبته كما لا يتسلط عليه شهاده فهو عالم الغيب و الشهاده لأنه كبير متعال.

قوله تعالى: سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سَارِبٌ بِالنَّهَارِ السرب بفتحتين و السروب الذهاب فى حدور و سيلان الدمع و الذهاب فى مطلق الطريق يقال سرب سربا و سروبا نحو مر مرا و مرورا.كذا فى المفردات فالسارب هو الذاهب فى طريق المعلن بنفسه.

و الآيه كالتفريع على الآيه السابقه أى إذا كان اللّه سبحانه عالما بالغيب و الشهاده على سواء فسواء منكم من أسر القول و من جهر به أى بالقول و اللّه سبحانه يعلم بقولهما و يسمع حديثهما من غير أن يخفى عليه إسرار من أسر بقوله،و سواء منكم من هو مستخف بالليل يستمد بظلمه الليل و إرخاء سدولها لأن يخفى من أعين الناظرين و من هو سارب بالنهار ذاهب فى طريقه متبرز غير مخل لنفسه فاللّه يعلم بهما من غير أن يخفى المستخفى بالليل بمكيدته.

قوله تعالى: لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ الخ؛ظاهر السياق أن الضمائر الأربع «لَهُ» «يَدَيْهِ» «خَلْفِهِ» «يَحْفَظُونَهُ» مرجعها واحد و لا

مرجع يصلح لها جميعا إلاّ ما فی الآيه السابقه أعنی الموصول فی قوله: «مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ» الخ؛ فهذا الإنسان الذی يعلم به اللّه سبحانه فی جميع أحواله هو الذی له معقبات من بين يديه و من خلفه.

و تعقيب الشیء إنما يكون بالمجیء بعده و الإتيان من عقبه فتوصيف المعقبات بقوله: «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ» إنما يتصور إذا كان سائرا فی طريق،ثم طاف عليه المعقبات حوله و قد أخبر سبحانه عن كون الإنسان سائرا هذا السير بقوله: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (الانشقاق۶/)و فی معناه سائر الآيات الداله علی رجوعه الی ربه كقوله:

وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (يس۸۳/) وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (العنكبوت۲۱/)فللإنسان و هو سائر الی ربه معقبات تراقبه من بين يديه و من خلفه.

و الآيه أعنی قوله: «إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ» الخ؛يدل بالجمله علی أن اللّه قضی قضاء حتم بنوع من التلازم بين النعم الموهوبه من عنده للإنسان و بين الحالات النفسيه الراجعه الی الإنسان الجاريه علی استقامه الفطره فلو جری قوم علی استقامه الفطره و آمنوا باللّه و عملوا صالحا أعقبهم نعم الدنيا و الآخره كما قال: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا (الأعراف۹۶/)و الحال ثابته فيهم دائمه عليهم ما داموا علی حالهم فی أنفسهم فإذا غيروا حالهم فی أنفسهم غير اللّه سبحانه حالهم الخارجيه بتغيير النعم نقما.

و أما قوله تعالی: وَ إِذا أَرادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ فإنما دخل فی الحديث لا بالقصد الأولی لكنه تعالی لما ذكر أن كل شیء عنده بمقدار و أن لكل إنسان معقبات يحفظونه بأمره من أمره و لا يدعونه يهلك أو يتغير أو يضطرب فی وجوده و النعم التی اوتيها، و هم علی حالهم من اللّه لا يغيرها عليهم حتی يغيروا ما بأنفسهم وجب أن يذكر أن هذا التغيير من السعاده الی الشقاء و من النعمه الی النقمه أيضا من الامور المحكمه المحتومه التی

ليس لمانع أن يمنع من تحققها،و إنما أمره الى اللّه لا حظ فيه لغيره،و بذلك يتم أن الناس لا مناص لهم من حكم اللّه فى جانبى الخير و الشر و هم مأخوذ عليهم و فى قبضته.

فالمعنى:و إذا أراد اللّه بقوم سوء لا يريد ذلك إلاّ إذا غيروا ما بأنفسهم من سمات معبوديه و مقتضيات الفطره فلا مرد لذلك السوء من شقاء أو نقمه أو نكال.

ثم قوله: وَ مٰا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وٰالٍ عطف تفسيرى على قوله: «إِذٰا أَرٰادَ اللّٰهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلاٰ مَرَدَّ لَهُ» و يفيد معنى التعليل له فإنه إذا لم يكن لهم من وال يلى أمرهم إلاّ اللّه سبحانه لم يكن هناك أحد يرد ما أراد اللّه بهم من السوء.

فقد بان من جميع ما تقدم أن معنى الآيه-على ما يعطيه السياق-و اللّه أعلم-أن لكل من الناس على أى حال كان معقبات يعقبونه فى مسيره الى اللّه من بين يديه و من خلفه أى فى حاضر حاله و ماضيه يحفظونه بأمر اللّه من أن يتغير حاله بهلاك أو فساد أو شقاء بأمر آخر من اللّه،و هذا الأمر الآخر الذى يغير الحال إنما يؤثر أثره إذا غير قوم ما بأنفسهم فعند ذلك يغير اللّه ما عندهم من نعمه و يريد بهم السوء و إذا أراد بقوم سوء فلا مرد له لأنهم لا والى لهم يلى أمرهم من دونه حتى يرد ما أراد اللّه بهم من سوء (١).

قوله تعالى: هُوَ الَّذِی یُرِیکُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ یُنْشِئُ السَّحٰابَ الثِّقٰالَ السحاب بفتح السين جمع سحابه بفتحها و لذلك وصف بالثقال.

و الإراء إظهار ما من شأنه أن يحس بالبصر للمبصر ليبصره أو جعل الإنسان على صفه الرؤيه و الإبصار،و التقابل بين قوله: «یُرِیکُمُ» و قوله: «یُنْشِئُ» يؤيد المعنى الأول.

و قوله: خَوْفاً وَ طَمَعاً مفعول له أى لتخافوا و تطمعوا،و يمكن أن يكون مصدرين بمعنى الفاعل حالين من ضمير«كم»أى خائفين و طامعين.

١- ١) .الرعد ٧-١۶:بحث فى التلازم بين شيوع الصلاح فى قوم و دوام النعمه عليهم.

و المعنی:هو الذی یظهر لعیونکم البرق لیظهر فیکم صفتا الخوف و الطمع کما أن المسافر یخافه و الحاضر یطمع فیه،و أهل البحر یخافونه و أهل البر یطمعون فیه و یخاف صاعقته و یطمع فی غیثه،و یخلق بإنشائه السحابات التی تثقل بالمیاه التی تحملها،و فی ذکر آیه البرق بالإراءه و آیه السحاب بالإنشاء لطف ظاهر.

قوله تعالی: وَ یُرْسِلُ الصَّوٰاعِقَ فَیُصِیبُ بِهٰا مَنْ یَشٰاءُ الـخ؛الصواعق جمع صاعقه و هو القطعه الناریه النازله من السماء عن برق و رعد،و الجدل المفاوضه و المنازعه فی القول علی سبیل المغالبه،و أصله من جدلت الحبل إذا أحکمت فتله،و المحال بکسر المیم مصدر ماحله یماحله اذا ماکره و قاواه لیتبین أیهما أشد و جادله لإظهار مساویه و معائبه فقوله: «وَ هُمْ یُجٰادِلُونَ فِی اللّٰهِ وَ هُوَ شَدِیدُ الْمِحٰالِ» معناه-و اللّه أعلم-أن الوثنیین-و الیهم وجه الکلام فی إلقاء هذه الحجج-یجادلون فی ربوبیته تعالی بتلفیق الحجه علی ربوبیه أربابهم کالتمسک بدأب آبائهم و اللّه سبحانه شدید المماحله لأنه علیم بمساویهم و معائبهم قدیر علی إظهارها و فضاحتهم.

قوله تعالی: لَهُ دَعْوَهُ الْحَقِّ وَ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ یَسْتَجِیبُونَ لَهُمْ بِشَیْءٍ الی آخر الآیه؛الدعاء و الدعوه توجیه نظر المدعو الی الداعی و یتأتی غالبا بلفظ أو إشاره،و الاستجابه و الإجابه إقبال المدعو علی الداعی عن دعائه،و أما اشتمال الدعاء علی سؤال الحاجه و اشتمال الاستجابه علی قضائها فذلک غایه متممه لمعنی الدعاء و الاستجابه غیر داخله فی مفهومیهما.

نعم:الدعاء إنما یکون دعاء حقیقه إذا کان المدعو ذا نظر یمکن أن یوجه الی الداعی و ذا جده و قدره یمکنه بهما استجابه الدعاء و أما دعاء من لا یفقه أو یفقه و لا یملک ما ترفع به الحاجه فلیس بحق الدعاء و إن کان فی صورته.

و لما کانت الآیه الکریمه قرر فیها التقابل بین قوله: «لَهُ دَعْوَهُ الْحَقِّ» و بین قوله: «وَ الَّذِینَ

يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» الخ؛الذی یذکر أن دعاء غیره خال عن الاستجابه ثم یصف دعاء الکافرین بأنه فی ضلال علمنا بذلک أن المراد بقوله: «دَعْوَةُ الْحَقِّ» الدعوه الحقه غیر الباطله و هی الدعوه التی یسمعها المدعو ثم یستجیبها البته،و هذا من صفاته تعالی و تقدس فإنه سمیع الدعاء قریب مجیب و هو الغنی ذو الرحمه و قد قال: أُجِیبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ (البقره/ ۱۱۶)و قال: اُدْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ (المؤمن ۶۰/)فأطلق و لم یشترط فی الاستجابه إلاّ أن تتحقق هناک حقیقه الدعاء و أن یتعلق ذلک الدعاء به تعالی لا غیر.

فلفظه دعوه الحق من إضافه الموصوف الی الصفه أو من الإضافه الحقیقیه بعنایه أن الحق و الباطل کأنهما یقتسمان الدعاء فقسم منه للحق و هو الذی لا یتخلف عن الاستجابه،و قسم منه للباطل و هو الذی لا یهتدی الی هدف الإجابه کدعاء من لا یسمع أو لا یقدر علی الاستجابه.

فهو تعالی لما ذکر فی الآیات السابقه أنه علیم بکل شیء و أن له القدره العجیبه ذکر فی هذه الآیه أن له حقیقه الدعاء و الاستجابه فهو مجیب الدعاء کما أنه علیم قدیر،و قد ذکر ذلک فی الآیه بطریقی الإثبات و النفی أعنی إثبات حق الدعاء لنفسه و نفیه عن غیره.

و مثل من یدعو غیر اللّه سبحانه مثل هذا الباسط کفیه الی الماء لیبلغ فاه و لیس له من الدعاء إلاّ صورته الخالیه من المعنی و اسمه من غیر مسمی فهؤلاء المدعوون من دون اللّه لا یستجیبون للذین یدعونهم بشیء و لا یقضون حاجتهم إلاّ کما یستجاب لباسط کفیه الی الماء لیبلغ فاه و یقضی حاجته أی لا یحصل لهم إلاّ صوره الدعاء کما لا یحصل لذلک الباسط إلاّ صوره الطلب ببسط الکفین.

و من هنا یعلم أن هذا الاستثناء «إِلاّ کَباسِطِ کَفَّیْهِ» الخ؛لا ینتقض به عموم النفی فی المستثنی منه و لا یتضمن إلاّ صوره الاستثناء فهو یفید تقویه الحکم فی جانب المستثنی منه فإن مفاده أن الذین یدعون من دون اللّه لا یستجاب لهم إلاّ کما یستجاب لباسط کفیه الی

الماء و لن يستجاب له،و بعباره أخرى لن ينالوا بدعائهم إلّا أن لا ينالوا شيئا أى لن ينالوا شيئا البته.

و هذا من لطيف كلامه تعالى و يناظر من وجه قوله تعالى الآتى: «قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ لاٰ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا» و آكد منه كما سيجىء إن شاء اللّه.

ثم أكد سبحانه الكلام بقوله: «وَ مٰا دُعٰاءُ الْكٰافِرِينَ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ» مع ما فيه من الإشاره الى حقيقه أصيله أخرى و هى أنه لا غرض لدعاء إلاّ اللّه سبحانه فإنه العليم القدير و الغنى ذو الرحمه فلا طريق له إلّا طريق التوجه اليه تعالى فمن دعا غيره و جعله الهدف لدعائه فقد الارتباط بالغرض و الغايه و خرج بذلك عن الطريق فضل دعاؤه فإن الضلال هو الخروج عن الطريق و سلوك ما لا يوصل الى المطلوب.

قوله تعالى: وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلاٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ السجود الخرور على الأرض بوضع الجبهه أو الذقن عليها قال تعالى وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً (يوسف/١٠٠)،و قال يَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ سُجَّداً (الإسراء/١٠٧).و الواحده منه سجده.

و الكره ما يأتى به الإنسان من الفعل بمشقه فإن حمل عليه من خارج فهو الكره بفتح الكاف و ما حمل عليه من داخل نفسه فهو الكره بضمها و الطوع يقابل الكره مطلقا.

و قال الراغب:الغدوه و الغداه من أول النهار،و قوبل فى القرآن الغدو بالآصال نحو قوله:

«بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ» و قوبل الغداه بالعشى قال «بِالْغَدٰاهِ وَ الْعَشِيِّ» انتهى و الغدو جمع غداه كقنى و قناه و قال فى المجمع:الآصال جمع أصل-بضمتين-و أصل جمع أصيل فهو جمع الجمع مأخوذ من الأصل فكأنه أصل الليل الذى ينشأ منه و هو ما بين العصر الى مغرب الشمس.

انتهى.

و أما قوله: وَ ظِلاٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ ففيه إلحاق أظلال الأجسام الكثيفه بها

فی السجود فإن الظل و إن کان عدمیا من حجب الجسم بکثافته عن نفوذ النور إلاّ أن له أثارا خارجیه و هو یزید و ینقص فی طرفی النهار و یختلف اختلافا ظاهرا للحس فله نحو من الوجود ذو آثاره یخضع فی وجوده و آثاره للّه و یسجد له.

و هی تسجد للّه سبحانه سجده طوع فی جمیع الأحیان،و إنما خص الغدو و الآصال بالذکر لا لما قیل:إن المراد بهما الدوام لأنه یذکر مثل ذلک للتأیید إذ لو أرید سجودها الدائم لکان الأنسب به أن یقال:بأطراف النهار حتی یعم جمیع ما قبل الظهر و ما بعده کما وقع فی قوله:

وَ مِنْ آنٰاءِ اللَّیْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرٰافَ النَّهٰارِ لَعَلَّکَ تَرْضیٰ (طه ۱۳۰/).

بل النکته فیه-و اللّه أعلم-أن الزیاده و النقیصه دائمتان للأظلال فی الغداه و الأصیل فیمثلان للحس السقوط علی الأرض و ذله السجود،و أما وقت الظهیره و أوساط النهار فربما انعدمت الأظلال فیها أو نقصت و کانت کالساکنه لا یظهر معنی السجده منها ذلک الظهور.

قوله تعالی: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللّٰهُ قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِیٰاءَ لاٰ یَمْلِکُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا الآیه بما تشتمل علی أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالاحتجاج علی المشرکین بمنزله الفذلکه من الآیات السابقه.

و ذلک أن الآیات السابقه تبین بأوضح البیان أن تدبیر السماوات و الأرض و ما فیهما من شیء الی اللّه سبحانه کما أن خلقها منه و أنه یملک ما یفتقر الیه الخلق و التدبیر من العلم و القدره و الرحمه و أن کل من دونه مخلوق مدبر لا یملک لنفسه نفعا و لا ضرا و ینتج ذلک أنه الرب دون غیره.

فأمر تعالی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یسجل علیهم نتیجه بیانه السابق و یسألهم بعد تلاوه الآیات السابقه علیهم الکاشفه عن وجه الحق لهم بقوله: «مَنْ رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» أی من هو الذی یملک السماوات و الأرض و ما فیهما و یدبر أمرها؟ثم أمره أن یجیب هو نفسه عن السؤال و یقول «اللّٰهُ» لأنهم و هم مشرکون معاندون یمتنعون عن الإقرار بتوحید الربوبیه و فی ذلک

تلويح الى أنهم لا يعقلون حجه و لا يفقهون حديثا.

ثم استنتج بمعونه هذه النتيجه نتيجه ثانيه بها يتضح بطلان شركهم أوضح البيان و هى أن مقتضى ربوبيته تعالى الثابته بالحجج السابقه أنه هو المالك للنفع و الضرر فكل من دونه لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا فكيف لغيره؟فاتخاذ أرباب من دون اللّه أى فرض أولياء من دونه يلون أمر العباد و يملكون لهم نفعا و ضرا فى الحقيقه فرض لأولياء ليسوا بأولياء لأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا و لا ضرا فكيف يملكون لغيرهم ذلك؟

و هذا هو المراد بقوله مفرعا على السؤال السابق: «قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ لاٰ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا» أى فكيف يملكون لغيرهم ذلك:أى إذا كان اللّه سبحانه هو رب السماوات و الأرض فقد قلتم باتخاذكم أولياء آلهه من دونه قولا يكذبه نفسه و هو عدم ولايتهم فى عين ولايتهم و هو التناقض الصريح بأنهم أولياء غير أولياء و أرباب لا ربوبيه لهم.

و بالتأمل فيما قدمناه أن الآيه بمنزله الفذلكه من سابق البيانات يعود مفاد الآيه الى مثل قولنا:إذا تبين ما تقدم فمن رب السماوات و الأرض إلاّ اللّه؟أ فاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون نفعا و لا ضرا؟فالعدول عن التفريع الى أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بقوله:قل كذا و قل كذا و تكراره مره بعد مره إنما هو للتنزه عن خطابهم على ما بهم من قذاره الجهل و العناد و هذا من لطيف نظم القرآن.

قوله تعالى: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمىٰ وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمٰاتُ وَ النُّورُ مثلان ضربهما اللّه سبحانه بعد تمام الحجه و إتمامها عليهم و أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يضربهما لهم يبين بأحدهما حال المؤمن و الكافر فالكافر بالحجه الحقه و الآيات البينات غير المسلم لها أعمى و المؤمن بها بصير فالعاقل لا يسوى بينهما ببديهه عقله،و يبين بالثانى أن الكفر بالحق ظلمات كما أن الكافر الواقع فيها غير بصير و الإيمان بالحق نور كما أن المؤمن الآخذ به بصير و لا يستويان البته فمن الواجب على المشركين إن كان لهم عقول سليمه-كما

يدعون-أن يسلموا للحق و يرفضوا الباطل و يؤمنوا باللّه وحده.

قوله تعالى: أَمْ جَعَلُوا لِلّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ -الى قوله- وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهّارُ فى التعبير بقوله: «جَعَلُوا» و «عَلَيْهِمْ» دون أن يقال جعلتم و عليكم دليل على أن الكلام مصروف عنهم الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم دون أن يؤمر بإلقائه اليهم.

ثم العود فى جواب هذا الاحتمال الذى يتضمنه قوله: «أَمْ جَعَلُوا لِلّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ» الى الأمر بإلقائه اليهم بقوله: «قُلِ اللّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهّارُ» دليل على أن السؤال إنما هو عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المطلوب من إلقاء توحيد الخالق اليهم هو الإلقاء الابتدائى لا-الإلقاء بنحو الجواب،و ليس إلاّ لأنهم لا يقولون بخالق غير اللّه سبحانه كما قال تعالى: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّهُ (لقمان۲۵/)، (الزمر۳۸/)و قد كرر تعالى نقل ذلك عنهم.

فهؤلاء الوثنيون ما كانوا يرون للّه سبحانه شريكا فى الخلق و الإيجاد و إنما كانوا ينازعون الإسلام فى توحيد الربوبيه لا فى توحيد الالوهيه بمعنى الخلق و الإيجاد،و تسليمهم توحيد الخالق المبدع و قصر ذلك على اللّه يبطل قولهم بالشركاء فى الربوبيه و تتم الحجه عليهم لأن اختصاص الخلق و الإيجاد باللّه سبحانه ينفى استقلال الوجود و العلم و القدره عن غيره تعالى و لا ربوبيه مع انتفاء هذه النعوت الكماليه.

و لذلك لم يبق لهم فى القول بربوبيه شركائهم مع اللّه سبحانه إلاّ أن ينكروا توحده تعالى فى الخلق و الإيجاد و يثبتوا بعد الخلق و الإيجاد لآلهتهم و هم لا يفعلونه.و هذا هو الموجب لذكره تعالى هذا الاحتمال لنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من دون أن يخاطبهم به أو يأمره أن يخاطبهم.

فكأنه تعالى إذ يقول «أَمْ جَعَلُوا لِلّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ» يقول لنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:هؤلاء تمت عليهم الحجه فى توحيد الربوبيه من جهه اختصاصه تعالى بالخلق و الايجاد فلم يبق لهم إلاّ أن يقولوا بشركه شركائهم فى الخلق و الايجاد فهل هم قائلون بأن

شرکائهم خلقوا خلقا کخلقه ثم تشابه الخلق علیهم فقالوا بربوبیتهم إجمالا مع اللّه.

ثم أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یلقی الیهم ما یقطع دابر هذا الاحتمال فقال «قُلِ اللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» و الجمله صدرها دعوی دلیلها ذیلها أی أنه تعالی واحد فی خالقیته لا شریک له فیها،و کیف یکون له فیها شریک و له وحده یقهر کل عدد و کثره و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی: أَ أَرْبٰابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ (یوسف۳۹/)بعض الکلام فی معنی کونه تعالی هو الواحد القهار،و تبین هناک أن مجموع هاتین الصفتین ینتج صفه الأحدیه.

و قد بان مما ذکرناه وجه تغییر السیاق فی قوله: «أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشٰابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ» و الإعراض عن سیاق الخطاب السابق فتأمل فی ذلک و اعلم أن أکثر المفسرین اشتبه علیهم الحال فی الحجج التی تقیمها الآیات القرآنیه لإثبات ربوبیته تعالی و توحیده فیها و نفی الشریک عنه فخلطوا بینها و بین ما أقیمت لإثبات الصانع فتنبه لذلک (۱).

[سوره الرعد (۱۳): الآیات ۱۷ الی ۲۶]

اشاره

أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهٰا فَاحْتَمَلَ اَلسَّيْلُ زَبَداً رٰابِياً وَ مِمّٰا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي اَلنّٰارِ اِبْتِغٰاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتٰاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اَللّٰهُ اَلْحَقَّ وَ اَلْبٰاطِلَ فَأَمَّا اَلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفٰاءً وَ أَمّٰا مٰا يَنْفَعُ اَلنّٰاسَ فَيَمْكُثُ فِي اَلْأَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اَللّٰهُ اَلْأَمْثٰالَ (۱۷) لِلَّذِينَ اِسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمُ اَلْحُسْنىٰ وَ اَلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مٰا فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ أُولٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ اَلْحِسٰابِ وَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ اَلْمِهٰادُ (۱۸) أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ اَلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمىٰ إِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ أُولُوا اَلْأَلْبٰابِ (۱۹) اَلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اَللّٰهِ وَ لاٰ يَنْقُضُونَ اَلْمِيثٰاقَ (۲۰) وَ اَلَّذِينَ يَصِلُونَ مٰا أَمَرَ اَللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخٰافُونَ سُوءَ اَلْحِسٰابِ (۲۱) وَ اَلَّذِينَ صَبَرُوا اِبْتِغٰاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰةَ وَ أَنْفَقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَ عَلاٰنِيَةً وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ اَلسَّيِّئَةَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى اَلدّٰارِ (۲۲) جَنّٰاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهٰا وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبٰائِهِمْ وَ أَزْوٰاجِهِمْ وَ ذُرِّيّٰاتِهِمْ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بٰابٍ (۲۳) سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ بِمٰا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى اَلدّٰارِ (۲۴) وَ اَلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اَللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِيثٰاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ مٰا أَمَرَ اَللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي اَلْأَرْضِ أُولٰئِكَ لَهُمُ اَللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ اَلدّٰارِ (۲۵) اَللّٰهُ يَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ وَ فَرِحُوا بِالْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ مَا اَلْحَيٰاةُ اَلدُّنْيٰا فِي اَلْآخِرَةِ إِلاّٰ مَتٰاعٌ (۲۶)

۱- ۱) .الرعد ۷-۱۶:بحث روائی فی:قول اللّه تبارک و تعالی «إِنَّمٰا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ» ؛ان المنذر هو رسول اللّه و علی علیه السّلام هو الهادی؛الغیب و الشهاده؛ان لیس من عبد الاّ و معه ملائکه یحفظونه.

بيان:

قوله تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً الی آخر الآیه؛قال فی مجمع البیان:الوادی سفح الجبل العظیم المنخفض الذی یجتمع فیه ماء المطر،و منه اشتقاق الدیه لأنه جمع المال العظیم الذی یؤدی عن القتیل،و القدر اقتران الشیء بغیره من غیر زیاده و لا نقصان و الوزن یزید و ینقص فإذا کان مساویا فهو القدر،و قرء الحسن بقدرها بسکون الدال،و هما لغتان یقال:أعطی قدر شبر و قدر شبر،و المصدر بالتخفیف لا غیر.

قال:و الاحتمال رفع الشیء علی الظهر بقوه الحامل له،و یقال:علا صوته علی فلان فاحتمله و لم یغضبه،و الزید و ضر الغلیان و هو خبث الغلیان و منه زبد القدر و زبد السیل.

و الجفاء ممدود مثل الغثاء و أصله الهمز یقال:جفأ الوادی جفاء قال أبو زید:یقال:جفأت الرجل إذا صرعته و أجفأت القدر بزبدها إذا ألقیت زبدها عنها،قال الفراء:کل شیء ینضم بعضه الی بعض فإنه یجیء علی فعال مثل الحطام و القماش و الغثاء و الجفاء.

و الإیقاد إلقاء الحطب فی النار استوقدت النار،و انقدت و توقدت،و المتاع ما تمتعت به، و المکث السکون فی المکان علی مرور الزمان یقال:مکث و مکث-بفتح الکاف و ضمها- و تمکث أی تلبث.انتهی.

و قال الراغب:الباطل نقیض الحق و هو ما لا ثبات له عند الفحص عنه قال تعالی «ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مٰا یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبٰاطِلُ» و قد یقال ذلک فی الاعتبار الی المقال و الفعال یقال:بطل بطولا و بطلا و بطلانا و أبطله غیره قال عزّ و جلّ «وَ بَطَلَ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ» و قال «لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبٰاطِلِ» .انتهی موضع الحاجه.

فبطلان الشیء هو أن یقدر للشیء نوع من الوجود ثم إذا طبق علی الخارج لم یثبت علی ما قدر و لم یطابقه الخارج و الحق بخلافه فالحق و الباطل یتصف بهما أولا الاعتقاد ثم غیره بعنایه

ما.

فالقول نحو السماء فوقنا و الأرض تحتنا بكون حقا لمطابقه الواقع إياه إذا فحص عنه و طبق عليه،و لقولنا:السماء تحتنا و الأرض فوقنا كان باطلا۔لعدم ثباته فی الواقع علی ما قدر له من الثبات،و الفعل يكون حقا إذا وقع علی ما قدر له من الغايه أو الأمر كالأكل للشبع و السعی للرزق و شرب الدواء للصحه مثلا إذا أثره و بلغ غرضه،و يكون باطلا إذا لم يقع علی ما قدر عليه من الغايه أو الأمر،و الشیء الموجود فی الخارج حق من جهه أنه موجود كما اعتقد كوجود الحق تعالی،و الشیء غير الموجود و قد اعتقد له الوجود باطل و كذا لو كان موجودا لكن قدر له من خواص الوجود ما ليس له كتقدير الاستقلال و البقاء للموجود الممكن فالموجود الممكن باطل من جهه عدم الاستقلال أو البقاء المقدر له و إن كان حقا من جهه أصل الوجود قال:

ألا كل شیء ما خلا اللّه باطل

و كل نعيم لا محاله زائل

و الآيه الكريمه من غرر الآيات القرآنيه تبحث عن طبيعه الحق و الباطل فتصف بدء تكونهما و كيفيه ظهورهما و الآثار الخاصه بكل منهما و سنه اللّه سبحانه الجاريه فی ذلک و لن تجد لسنه اللّه تحويلا و لن تجد لسنه اللّه تبديلا.

بين تعالی ذلک بمثل ضربه للناس،و ليس بمثلين كما قاله بعضهم و لا بثلاثه أمثال كما ذكره آخرون كما سنشير اليه إن شاء اللّه و إنما هو مثل واحد ينحل الی أمثال فقال تعالی «أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهٰا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رٰابِياً» و قوله: «أَنْزَلَ» فعل فاعله هو اللّه سبحانه لم يذكر لوضوحه،و تنكير «مٰاءً» للدلاله علی النوع و هو الماء الخالص الصافی يعنی نفس الماء من غير أن يختلط بشیء أو يشوبه تغير،و تنكير «أَوْدِيَةٌ» للدلاله علی اختلافها فی الكبر و الصغر و الطول و القصر و تغايرها فی السعه و الوعی،و نسبه السيلان الی الاوديه نسبه مجازيه نظير قولنا:جری الميزاب و توصيف الزبد بالرابی لكونه طافيا يعلو

السيل دائما و هذا كله بدلاله السياق،و إنما مثل بالسيل لأن احتمال الزبد الرابى فيه أظهر.

و المعنى:أنزل اللّه سبحانه من السماء و هى جهه العلو ماء بالإمطار فسالت الأوديه الواقعه فى محل الامطار المختلفه بالسعه و الضيق و الكبر و الصغر بقدرها أى كل بقدره الخاص به فالكبير بقدره و الصغير بقدره فاحتمل السيل الواقع فى كل واحد من الأوديه المختلفه زبدا طافيا عاليا و هو الظاهر على الحس يستر الماء سترا.

ثم قال تعالى وَ مِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ من نشويه و ما يوقدون عليه أنواع الفلزات و المواد الأرضيه القابله للإذابه المصوغه منها آلات الزينه و أمتعه الحياه التى يتمتع بها و المعنى و يخرج من الفلزات و المواد الأرضيه التى يوقدون عليها فى النار طلبا للزينه كالذهب و الفضه أو طلبا لمتاع كالحديد و غيره يتخذ منه الآلات و الأدوات،زبد مثل الزبد الذى يربو السيل يطفو على الماده المذابه و يعلوه.

ثم قال تعالى كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَ الْبٰاطِلَ أى يثبت اللّه الحق و الباطل نظير ما فعل فى السيل و زبده و ما يوقدون عليه فى النار و زبده.

فالمراد بالضرب-و اللّه أعلم-نوع من التثبيت من قبيل قولنا:ضربت الخيمه أى نصبتها و قوله:ضربت عليهم الذله و المسكنه أى أوقعت و أثبتت و ضرب بينهم بسور أى أوجد و بنى،و اضرب لهم طريقا فى البحر أى افتح و ثبت و الى هذا المعنى أيضا يعود ضرب المثل لأنه تثبيت و نصب لما يماثل الممثل حتى يتبين به حاله،و الجميع فى الحقيقه من قبيل إطلاق الملزوم و إراده اللازم فإن الضرب و هو إيقاع شىء على شىء بقوه و عنف لا ينفك عاده عن تثبيت أمر فى ما وقع عليه الضرب كثبوت الوتد فى الأرض بضرب المطرقه و حلول الألم فى جسم الحيوان بضربه فقد أطلق الضرب و هو الملزوم و أريد التثبيت و هو الأمر اللازم.

ص :۳۷۹

ثم قال تعالى فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفٰاءً وَ أَمّٰا مٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ فَيَمْكَثُ فِي الْأَرْضِ جمع بين الزبدين أعنى زبد السيل و زبد ما يوقدون عليه و قد كانا متفرقين فى الذكر لاشتراك الجميع فيما يذكر من الخاصه و هو أنه يذهب جفاء،و لذا قدمنا آنفا أن الآيه تتضمن مثلا واحدا و إن انحل الى غير واحد من الأمثال.

و قد عدل عن ذكر الماء و غيره الى قوله: «وَ أَمّٰا مٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ» للدلاله على خاصه يختص بها الحق و هو أن الناس ينتفعون به و هو الغايه المطلوبه لهم.

و المعنى:فأما الزبد الذى كان يطفو على السيل و يعلوه أو يخرج مما يوقدون عليه فى النار فيذهب جفاء و يصير باطلا متلاشيا،و أما الماء الخالص أو العين الارضيه المصوغه و فيهما انتفاع الناس و تمتعهم فى معاشهم فيمكث فى الأرض ينتفع به الناس.

ثم قال تعالى كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثٰالَ و ختم به القول أى إن الأمثال المضروبه للناس فى كلامه تعالى يشابه المثل المضروب فى هذه الآيه فى أنها تميز الحق من الباطل و تبين للناس ما ينفعهم فى معاشهم و معادهم.

و لا يبعد أن تكون الإشاره بقوله: «كَذٰلِكَ» الى ما ذكره من أمر نزول المطر و جريان الاوديه بسيولها المزبده و إيقاد المواد الأرضيه و خروج زبدها،أعنى أن تكون الإشاره الى نفس هذه الحوادث الخارجيه و التكونات العينيه لا القول فيدل على أن هذه الوقائع الكونيه و الحوادث الواقعه فى عالم الشهاده أمثال مضروبه تهدى اولى النهى و البصيره الى ما فى عالم الغيب من الحقائق كما أن ما فى عالم الشهاده آيات داله على ما فى عالم الغيب على ما تكرر ذكره فى القرآن الكريم،و لا كثير فرق بين كون هذه المشهودات أمثالا مضروبه أو آيات داله و هو ظاهر.

قوله تعالى: لِلَّذِينَ اسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنىٰ وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ الى آخر الآيه؛المهاد الفراش الذى يوطأ لصاحبه و المكان الممهد الموطأ و سميت جهنم لأنها

مهدت لاستقرارهم فيها لكفرهم و أعمالهم السيئه.

و الآيه و ما بعدها من الآيات التسعه متفرعه على المثل المضروب فى الآيه السابقه كما تقدمت الإشاره اليه يبين اللّه سبحانه فيها آثار الاعتقاد الحق و الإيمان به و الاستجابه لدعوته،و آثار الاعتقاد الباطل و الكفر به و عدم استجابه دعوته و يشهد بذلك سياق الآيات فإن الحديث فيها يدور حول عاقبه الإيمان و الكفر و أن العاقبه المحموده التى للإيمان لا يقوم مقامها شىء و لو كان ضعف ما فى الدنيا من نعمه.

و على هذا فالأظهر أن يكون المراد بالحسنى العاقبه الحسنى و ما ذكره بعضهم أن المراد بها المثوبه الحسنى أو الجنه و إن كان حقا بحسب المآل فإن عاقبه الإيمان و العمل الصالح المحموده هى المثوبه الإلهيه الحسنى و هى الجنه لكن المثوبه أو الجنه غير مقصوده فى المقام بما أنها مثوبه أو جنه بل بما أنها عاقبه أمرهم و ينتهى إليها سعيهم.

و يؤيده بل يدل عليه قوله تعالى فيهم فى الآيات التاليه بعد تعريفهم بصفاتهم المختصه بهم:

«أُولٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدّٰارِ جَنّٰاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهٰا» الآيه.

و على هذا أيضا فقوله: «لَوْ أَنَّ لَهُمْ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ» موضوع موضع الغايه المحذوفه للدلاله على فخامه أمرها و بلوغها الغايه من حمل الهول و الدهشه و الشر و الشقوه بما لا يذكر.

و المعنى:و الذين لم يستجيبوا لربهم يحل بهم أمر-أو يفوتهم أمر و هو نتيجه الاستجابه و عاقبتها الحسنى-من صفته أنه لو أن لهم ما فى الارض من نعمه تلتذ بها النفس الانسانيه و هو غايه ما يمكن لإنسان أن يأمله و يتمناه ثم أضيف اليه مثله و هو فوق منيه الإنسان و بعباره ملخصه لو كانوا يملكون غايه مناهم فى الحياه و ما فوق هذه الغايه رضوا أن يفتدوا بهذا الذى يملكونه فرضا عما يفوتهم من الحسنى،و فى بعض كلمات على عليه السّلام فى وصفه«غير موصوف ما نزل بهم».

ثم أخبر تعالى عن هذا الذى لا يوصف من عاقبه أمرهم فقال «أُولٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسٰابِ وَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ» و سوء الحساب الحساب الذى يسوؤهم و لا يسرهم فهو من إضافه الصفه الى الموصوف ثم ذم تعالى ذلك مشيرا الى سوء العاقبه بقوله: «وَ بِئْسَ الْمِهٰادُ» أى بئس المهاد مهادهم الذى مهد لهم و يستقرون فيه،و مجموع قوله: «أُولٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسٰابِ» الخ؛فى موضع التعليل لما ذكر من الافتداء و التعليل بالإشاره كثير فى الكلام يقال:افعل بفلان كذا و كذا ذاك الذى من صفته كذا و كذا.

و معنى الآيه-و اللّه أعلم-للذين استجابوا لدعوه ربهم الحقه العاقبه الحسنى و الذين لم يستجيبوا له لهم من عاقبه الامر ما يرضون أن يفدوا للتخلص منه فوق ما يمكنهم أن يتمنوه لأن الذى يحل بهم من العاقبه السيئه يتضمن أو يقارن سوء الحساب و القرار فى و بئس المهاد مهادهم.

و قد وضع فى الآيه الاستجابه و عدم الاستجابه مكان الإيمان و الكفر لمناسبه المثل المضروب فى الآيه السابقه من نزول الماء من السماء و قبول الأوديه منه كل بقدره، و الاستجابه قبول الدعوه.

قوله تعالى: أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمىٰ إِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبٰابِ استفهام إنكارى و هو فى موضع التعليل لما تضمنه الآيه السابقه، و بيان تفصيلى لعاقبه حال الفريقين من حيث استجابه دعوه الحق و عدمها.

و ملخص البيان:أن الحق يستقر فى قلوب هؤلاء الذين استجابوا لربهم فتصير قلوبهم ألبابا و قلوبا حقيقيه لها آثارها و بركاتها و هو التذكر و التبصر،و من خواص هذه القلوب التى يعرف بها صاحبوها أن اولى الألباب يثبتون على الوفاء بعهد اللّه المأخوذ عنهم بفطرتهم فلا ينقضون ميثاق ربهم،و يثبتون على احترام ما وصلهم اللّه به و هى الرحم التى أجرى اللّه الخلقه من طريقها فيصلونها و هم خاشعون خائفون،و يثبتون بالصبر عند المصائب و عن

المعصیه و علی الطاعه،و یجرون بالتوجه الی ربهم و هو الصلاه،و إصلاح المجتمع و هو الإنفاق، و درء السیئات بالحسنات.

فهؤلاء لهم عاقبه الدار المحموده و هی الجنه یدخلونها و تنعکس الیهم فیها مثوبات أعمالهم الحسنه المذکوره فیصاحبون فیها الصالحین من آبائهم و أزواجهم و ذریاتهم کما وصلوا الرحم فی الدنیا،و الملائکه یدخلون علیهم من کل باب مسلمین علیهم بما صبروا کما فتحوا أبواب العبادات و الطاعات المختلفه فی الدنیا فهذا هو أثر الحق.

و قوله: أَ فَمَنْ یَعْلَمُ أَنَّمٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ الْحَقُّ کَمَنْ هُوَ أَعْمیٰ الاستفهام فیه للإنکار-کما تقدم-و فیه نفی التساوی بین من استقر فی قلبه العلم بالحق و من جهل الحق و فی توصیف الجاهل بالحق بالأعمی إیماء الی أن العالم به یصیر و قد سماه بالأعمی و البصیر فی قوله آنفا: «قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الْأَعْمیٰ وَ الْبَصِیرُ» الآیه،فالعلم بالحق بصیره و الجهل به عمی و التبصر یفید التذکر و لذا عده من خواص اولی العلم بقوله: «إِنَّمٰا یَتَذَکَّرُ» .

و قوله: إِنَّمٰا یَتَذَکَّرُ أُولُوا الْأَلْبٰابِ فی مقام التعلیل لما سبقه أعنی قوله: «أَ فَمَنْ یَعْلَمُ» الخ؛أی إنهما لا یستویان لأن لاولی العلم تذکر لیس لاولی العمی و الجهل،و قد وضع فی موضع اولی العلم اولو الألباب فدل علی دعوی أخری تفید فائده التعلیل کأنه قیل:لا یستویان لأن لأحد الفریقین تذکرا لیس للآخر،و إنما اختص التذکر بهم لأن لهم ألبابا و قلوبا و لیس ذلک لغیرهم.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ یُوفُونَ بِعَهْدِ اللّٰهِ وَ لاٰ یَنْقُضُونَ الْمِیثٰاقَ ظاهر السیاق أن الجمله الثانیه عطف تفسیری علی الجمله الاولی فالمراد بالمیثاق الذی لا ینقضونه هو عهد اللّه الذی یوفون به،و المراد بهذا العهد و المیثاق بقرینه ما ذکر فی الآیه السابقه من تذکرهم هو ما عاهدوا به ربهم و واثقوه بلسان فطرتهم أن یوحدوه و یجروا علی ما یقتضیه توحیده من الآثار فإن الانسان مفطور علی توحیده تعالی و ما یهتف به توحیده،و هذا عهد عاهدته

الفطره و عقد عقدته.

و أما العهود و المواثيق المأخوذه بوسيله الأنبياء و الرسل على أمر من اللّه و الأحكام و الشرائع فكل ذلك من فروع الميثاق الفطرى فإن الدين فطرى.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ مٰا أَمَرَ اللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ الخ؛الظاهر أن المراد بالأمر هو الأمر التشريعى النازل بشهاده ذيل الآيه «وَ يَخٰافُونَ سُوءَ الْحِسٰابِ» فإن الحساب على الأحكام النازله فى الشريعه ظاهرا و إن كانت مدركه بالفطره كقبح الظلم و حسن العدل فإن المستضعف الذى لم يبلغه الحكم الإلهى و لم يقصر لا يحاسب عليه كما يحاسب غيره،و قد تقدم فى أبحاثنا السابقه أن الحجه لا تتم على الإنسان بمجرد الإدراك الفطرى لو لا انضمام طريق الوحى اليه قال تعالى: لِئَلاّٰ يَكُونَ لِلنّٰاسِ عَلَى اللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (النساء/ ۱۶۵).

و الآيه مطلقه فالمراد به كل صله أمر اللّه سبحانه بها و من أشهر مصاديقه صله الرحم التى أمر اللّه بها و أكد القول فى وجوبها،قال تعالى: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِى تَسٰائَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحٰامَ (النساء/۱).

و قد أكد القول فيه بما فى ذيل الآيه من قوله: «وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخٰافُونَ سُوءَ الْحِسٰابِ» فأشار الى أن فى ترك الصله مخالفه لأمر اللّه فليخش اللّه فى ذلك و عملا سيئا مكتوبا فى صحيفه العمل محفوظا على الإنسان يجب أن يخاف من حسابه السيئ.

و الظاهر أن الفرق بين الخشيه و الخوف أن الخشيه تأثر القلب من إقبال الشر أو ما فى حكمه،و الخوف هو التأثر عملا بمعنى الإقدام على تهيئه ما يتقى به المحذور و إن لم يتأثر القلب و لذا قال سبحانه فى صفه أنبيائه: وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ (الأحزاب/۳۹).فنفى عنهم الخشيه عن غيره و قد أثبت الخوف لهم عن غيره فى مواضع من كلامه كقوله: فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسىٰ (طه/۶۷)و قوله: وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيٰانَةً (الأنفال/۵۸).

و لعله الیه یرجع ما ذکره الراغب فی الفرق بینهما أن الخشیه خوف یشوبه تعظیم و أکثر ما یکون ذلک عن علم.و لذا خص العلماء بها فی قوله: إِنَّما یَخْشَی اللّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ و کذا قول بعضهم:إن الخشیه أشد الخوف لأنها مأخوذه من قولهم:شجره خشیه أی یابسه.

و کذا قول بعضهم:إن الخوف یتعلق بالمکروه و بمنزله یقال:خفت المرض و خفت زیدا بخلاف الخشیه فإنها تتعلق بالمنزل دون المکروه نفسه یقال:خشیت اللّه.

و لو لا رجوعها الی ما قدمناه لکانت ظاهره النقض و ذکر بعضهم أن الفرق أغلبی لا کلی، و الآخرون أن لا فرق بینهما أصلا و هو مردود بما قدمناه من الآیات.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاهَ وَ أَنْفَقُوا الی آخر الآیه؛إطلاق الصبر یدل علی اتصافهم بجمیع شعبه و أقسامه و هی الصبر عند المصیبه و الصبر علی الطاعه و الصبر عن المعصیه لکنه مع ذلک مقید بقوله: «ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ» أی طلبا لوجه ربهم فصفتهم التی یمدحون بها أن یکون صبرهم لوجه اللّه لأن الکلام فی صفاتهم التی تنشأ و تنمو فیهم من استجابتهم لربهم و علمهم بحقبه ما أنزل الیهم من ربهم لا کل صفه یمدحها الناس فیما بینهم و إن لم ترتبط بعبودیتهم و إیمانهم بربهم کالصبر عند الکریهه تمنعا و عجبا بالنفس أو طلبا لجمیل الثناء و نحوه کما قیل:

و قولی کلما جشأت و جاشت

مکانک تحمدی أو تستریحی

و المراد بوجه الرب تعالی هو الجهه المنسوبه الیه تعالی من العمل و نحوه و هی الجهه التی علیها یظهر و یستقر العمل عنده تعالی أعنی المثوبه التی له عنده الباقیه ببقائه و قد قال تعالی:

وَ اللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوٰابِ (آل عمران/١٩٥)،و قال: وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ بٰاقٍ (النحل/ ٩۶)،و قال: کُلُّ شَیْءٍ هٰالِکٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ (القصص/٨٨).

و قوله: وَ أَقامُوا الصَّلاهَ أی جعلوها قائمه غیر ساقطه بالإخلال بأجزائها و شرائطها أو بالاستهانه بأمرها،و عطف الصلاه و ما بعدها علی الصبر من عطف الخاص علی

العام اعتناء بشأنه و تعظيما لأمره.كما قيل.

و قوله: وَ أَنْفَقُوا مِمّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً المراد به مطلق الإنفاق أعم من الواجب و غيره،و الآيه مكيه لم ينزل وجوب الزكاه عند نزولها بعد،و تقييد الإنفاق بقوله:

«سِرًّا وَ عَلانِيَةً» للدلاله على استيفائهم حقه فإن من الإنفاق ما يحسن فيه الإسرار و منه ما يحسن فيه الإعلان فعلى من آمن بما أنزله اللّه بالحق أن يستوفى من كل حقه فيسر بالإنفاق إذا كان فى إعلانه مظنه الرياء أو السمعه أو إهانه أو إذهاب ماء الوجه،و يعلن فيه فيما كان فى إعلانه تشويق الناس على البر و المعروف و دفع التهمه و نحو ذلك.

و قوله: وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ الدرء الدفع و المعنى إذا صادفوا سيئه جاءوا بحسنه تزيد عليها أو تعادلها فيدفعون بها السيئه،و هذا أعم من أن يكون ذلك فى سيئه صدرت من أنفسهم فدفعوها بحسنه جاءوا بها فإن الحسنات يذهبن السيئات أو دفعوها بتوبه الى ربهم فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له أو فى سيئه أتى بها غيرهم بالنسبه اليهم كمن ظلمهم فدفعوه بالعفو أو بالإحسان اليه أو من جفاهم فقابلوه بحسن الخلق و البشر كما إذا خاطبهم الجاهلون فقالوا:سلاما أو أتى بمنكر فنهوا عنه أو ترك معروف فأمروا بها.

فذلك كله من درء السيئه بالحسنه و لا دليل من جانب اللفظ يدل على التخصيص ببعض هذه الوجوه البته.

و قد اختلف التعبير فى هذه الصفات المذكوره لاولى الألباب«الذين يوفون،و لا ينقضون، و يصلون،و يخشون،و يخافون،و صبروا،و أقاموا،و أنفقوا،و يدرءون»فأتى فى بعضها-و هى سته-بلفظ المضارع،و فى بعضها-و هى ثلاثه-بلفظ الماضى.

و قد نقل عن بعضهم فى وجه ذلك أن التعبير فى قوله: «وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمّا رَزَقْناهُمْ» الخ؛بلفظ الماضى و فيما تقدم بلفظ المضارع على سبيل التفنن فى الفصاحه لأن هذه الأفعال وقعت صله للموصول يعنى «وَ الَّذِينَ» و الموصول وصلته

فی معنی اسم الشرط مع الجمله الشرطیه،و الماضی و المضارع یستویان معنی فی الجمله الشرطیه نحو إن ضربت ضربت و إن تضرب أضرب فکذا فیما بمعناه.

و لذا قال النحویون:إذا وقع الماضی صله أو صفه لنکره عامه احتمل أن یراد به المضی و أن یراد به الاستقبال فمن الأول «الَّذِینَ قٰالَ لَهُمُ النّٰاسُ» و من الثانی «إِلاَّ الَّذِینَ تٰابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَیْهِمْ» .

و فیه أن إلغاء خصوصیه زمان الفعل من المضی و الاستقبال فی الشرط و ما فی معناه لا یستوجب إلغاء لوازم الأزمنه کالتحقق فی الماضی و الجریان و الاستمرار و نحوهما فی المضارع فإن فی الماضی مثلا عنایه بالتحقق و إن کان ملغی الزمان فصحه السؤال عن نکته اختلاف التعبیر فی محله بعد.

و یستفاد من کلام بعض آخر فی وجهه أن المراد بالأوصاف المتقدمه أعنی الوفاء بالعهد و الصله و الخشیه و الخوف الاستصحاب و الاستمرار لکن الصبر لما کان مما یتوقف علی تحققه التلبس بتلک الأوصاف اعتنی بشأنه فعبر بلفظ الماضی الدال علی التحقق و کذا فی الصلاه و الإنفاق اعتناء بشأنهما.

و فیه أن بعض الصفات السابقه لا یقصر فی الأهمیه عن الصبر و الصلاه و الإنفاق کالوفاء بعهد اللّه الذی أرید به الإیمان باللّه بإجابه دعوه الفطره فلو کان الاعتناء بالشأن هو الوجه کان من الواجب أن یعبر عنه بلفظ الماضی کغیره من الصبر و الصلاه و الإنفاق.

و الذی أحسب-و اللّه أعلم-أن مجموع قوله تعالی: «وَ الَّذِینَ صَبَرُوا ابْتِغٰاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰةَ وَ أَنْفَقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَ عَلاٰنِیَةً وَ یَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّیِّئَةَ» مسوق لبیان معنی واحد و هو الإتیان بالعمل الصالح أعنی إتیان الواجبات و ترک المحرمات و تدارک ما یقع فیه من الخلل استثناء بالحسنه فالعمل الصالح هو المقصود بالاصاله و درء السیئه بالحسنه الذی هو تدارک الخلل الواقع فی العمل مقصود بالتبع کالمتمم للنقیصه.

ص :۳۸۷

فلو جرى الكلام على السياق السابق و قيل«و الذين يصبرون ابتغاء وجه ربهم و يقامون الصلاه و ينفقون مما رزقناهم سرا و علانيه و يدرءون بالحسنه السيئه»فاتت هذه العنايه و بطل ما ذكر من حديث الأصاله و التبعيه لكن قيل «وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ» فاخذ جميع الصبر المستقر أمرا واحدا مستمرا ليدل على وقوع كل الصبر منهم ثم قيل «وَ يَدْرَؤُنَ» الخ؛ ليدل على دوام مراقبتهم بالنسبه اليه لتدارك ما وقع فيه من الخلل،و كذا فى الصلاه و الإنفاق فافهمه.

و هذه العنايه بوجه نظيره العنايه فى قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَهُ» الآيه؛حيث يدل على تفرع تنزل الملائكه على تحقق قولهم: «رَبُّنَا اللّهُ» و استقامتهم دون الاستمرار عليه.

و قوله: أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدّارِ أى عاقبتها المحموده فإنها هى العاقبه حقيقه لأن الشىء لا ينتهى بحسب ما جبله اللّه عليه إلاّ الى عاقبه تناسبه و تكون فيها سعادته،و أما العاقبه المذمومه السيئه ففيها بطلان عاقبه الشىء لخلل واقع فيه،و إنما تسمى عاقبه بنحو من التوسع،و لذلك أطلق فى الآيه عقبى الدار و أريدت بها العاقبه المحموده و قوبلت فيما يقابلها من الآيات بقوله: «وَ لَهُمْ سُوءُ الدّارِ» ،و من هنا يظهر أن المراد بالدار هذه الدار الدنيا أى حياه الدار فالعاقبه عاقبتها.

قوله تعالى: جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيّاتِهِمْ العدن الاستقرار يقال:عدن بمكان كذا إذا استقر فيه و منه المعدن لمستقر الجواهر الأرضيه و جنات عدن أى جنات نوع من الاستقرار فيه خلود و سلام من كل جهه.

و جنات عدن«الخ»؛بدل أو عطف بيان من قوله: «عُقْبَى الدّارِ» أى عاقبه هذه الدار المحموده هى جنات العدن و الخلود فليست هذه الحياه الدنيا بحسب ما طبعها اللّه عليه إلاّ حياه واحده متصله أولها عناء و بلاء و آخرها رخاء نعيم و سلام،و هذا الوعد هو الذى يحكى وفاءه

تعالی به حکایه عن أهل الجنه بقوله: وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی صَدَقَنٰا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّهِ حَیْثُ نَشٰاءُ (الزمر۷۴/).

و الآیه-کما سمعت-تحاذی قوله: «یَصِلُونَ مٰا أَمَرَ اللّٰهُ بِهِ أَنْ یُوصَلَ» و بیان لعاقبه هذا الحق الذی أخذوه و عملوا به و بشری لهم أنهم سیصاحبون الصالحین من أرحامهم و أهلیهم من الآباء و الامهات و الذراری و الاخوان و الاخوات و غیرهم و یشمل الجمیع قوله: «آبٰائِهِمْ وَ أَزْوٰاجِهِمْ وَ ذُرِّیّٰاتِهِمْ» لأن الامهات أزواج الآباء و الاخوان و الاخوات و الاعمام و الاخوال و أولادهم ذریات الآباء،و الآباء من الداخلین فمعهم أزواجهم و ذریاتهم ففی الآیه ایجاز لطیف.

قوله تعالی: وَ الْمَلاٰئِکَهُ یَدْخُلُونَ عَلَیْهِمْ مِنْ کُلِّ بٰابٍ سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ بِمٰا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَی الدّٰارِ و هذا عقبی أعمالهم الصالحه التی داموا علیها فی کل باب من أبواب الحیاه بالصبر علی الطاعه و عن المعصیه و عند المصیبه مع الخشیه و الخوف.

و قوله: «سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ بِمٰا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَی الدّٰارِ» قول الملائکه و قد خاطبوهم بالأمن و السلام الخالد و عقبی محموده لا یعتریها ذم و سوء أبدا.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ یَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِیثٰاقِهِ الی آخر الآیه؛بیان حال غیر المؤمنین بطریق المقابله و قد قوبل بقوله: «وَ یُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ» بقیه ما ذکر فی الآیات السابقه بعد الوفاء بعهد اللّه و الصله،من الأعمال الصالحه و فیه إیماء الی أن الأعمال الصالحه هی التی تضمن صلاح الأرض و عماره الدار علی نحو یؤدی الی سعاده النوع الإنسانی و رشد المجتمع البشری،و قد تقدم بیانه فی دلیل النبوه العامه.

و قد بین تعالی جزاء عملهم و عاقبه أمرهم بقوله: «أُولٰئِکَ لَهُمُ اللَّعْنَهُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدّٰارِ» و اللعن الابعاد من الرحمه و الطرد من کل کرامه،و لیس ذلک إلاّ لانکبابهم علی الباطل و رفضهم الحق النازل من اللّه،و لیس للباطل إلاّ البوار.

قوله تعالی: اَللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ الی آخر الآیه؛بیان أن ما أوتی الفریقان من العاقبه المحموده و الجنه الخالده و من اللعنه و سوء الدار هو من الرزق الذی یرزقه اللّه من یشاء و کیف یشاء من غیر حجر علیه أو إلزام.

و قد بین أن فعله تعالی یستمر علی وفق ما جعله من نظام الحق و الباطل فالاعتقاد الحق و العمل به ینتهی الی الارتزاق بالجنه و السلام و الباطل من الاعتقاد و العمل به ینتهی الی اللعنه و سوء الدار و نکد العیش.

و قوله: وَ فَرِحُوا بِالْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ مَا الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا فِي الْآخِرَةِ إِلاّٰ مَتٰاعٌ یرید به-علی ما یفیده السیاق-أن الرزق هو رزق الاخری لکنهم لمیلهم الی ظاهر الحیاه الدنیا و زینتها رکنوا إلیها و فرحوا بها،و قد أخطئوا فإنها حیاه غیر مقصوده بنفسها و لا خالده فی بقائها بل مقصوده لغیرها الذی هو الحیاه الآخره فهی بالنسبه الی الآخره متاع یتمتع به فی غیره و لغیره غیر مطلوب لنفسه فالحیاه الدنیا بالقیاس الی الحیاه الآخره إنما تکون من الحق إذا أخذت مقدمه لها یکتسب بها رزقها و أما إذا أخذت مطلوبه بالاستقلال فلیست إلاّ من الباطل الذی یذهب جفاء و لا ینتفع به فی شیء،قال تعالی: وَ مٰا هٰذِهِ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا إِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوٰانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ (العنکبوت۶۴/).

[سوره الرعد (۱۳): الآیات ۲۷ الی ۳۵]

اشاره

وَ يَقُولُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اَللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنٰابَ (۲۷) اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اَللّٰهِ أَلاٰ بِذِكْرِ اَللّٰهِ تَطْمَئِنُّ اَلْقُلُوبُ (۲۸) اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ طُوبىٰ لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ (۲۹) كَذٰلِكَ أَرْسَلْنٰاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهٰا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ اَلَّذِي أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتٰابِ (۳۰) وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ اَلْجِبٰالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ اَلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ اَلْمَوْتىٰ بَلْ لِلّٰهِ اَلْأَمْرُ جَمِيعاً أَ فَلَمْ يَيْأَسِ اَلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشٰاءُ اَللّٰهُ لَهَدَى اَلنّٰاسَ جَمِيعاً وَ لاٰ يَزٰالُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمٰا صَنَعُوا قٰارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دٰارِهِمْ حَتّٰى يَأْتِيَ وَعْدُ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُخْلِفُ اَلْمِيعٰادَ (۳۱) وَ لَقَدِ اُسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كٰانَ عِقٰابِ (۳۲) أَ فَمَنْ هُوَ قٰائِمٌ عَلىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُ فِي اَلْأَرْضِ أَمْ بِظٰاهِرٍ مِنَ اَلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ اَلسَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ (۳۳) لَهُمْ عَذٰابٌ فِي اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ لَعَذٰابُ اَلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَ مٰا لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ وٰاقٍ (۳۴) مَثَلُ اَلْجَنَّةِ اَلَّتِي وُعِدَ اَلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ أُكُلُهٰا دٰائِمٌ وَ ظِلُّهٰا تِلْكَ عُقْبَى اَلَّذِينَ اِتَّقَوْا وَ عُقْبَى اَلْكٰافِرِينَ اَلنّٰارُ (۳۵)

بیان:

قوله تعالی: وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنٰابَ عود الی قول الکفار «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» و إنما ارادوا به أنه لو أنزل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم آیه من ربه لاهتدوا به و استجابوا له و هم لا یعدون القرآن النازل الیه آیه.

و الدلیل علی إرادتهم هذا المعنی قوله بعده: «قُلْ إِنَّ اللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ» الخ؛و قوله بعد:

«وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبٰالُ -الی قوله- بَلْ لِلّٰهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً» و قوله بعد: «وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ» الی آخر الآیه.

فأجاب تعالی عن قولهم بقوله آمرا نبیه أن یلقیه الیهم: «قُلْ إِنَّ اللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنٰابَ» فأفاد أن الأمر لیس الی الآیه حتی یهتدوا بنزولها و یضلوا بعدم نزولها بل أمر الإضلال و الهدایه الی اللّه سبحانه یضل من یشاء و یهدی من یشاء.

و لما لم یؤمن أن یتوهموا منه أن الأمر یدور مدار مشیه جزافیه غیر منتظمه أشار الی دفعه بتبدیل قولنا:و یهدی الیه من یشاء من قوله: «وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنٰابَ» فبین أن الأمر الی مشیه اللّه تعالی جاریه علی سنه دائمه و نظام متقن مستمر و ذلک أنه تعالی یشاء هدایه من أناب و رجع الیه و یضل من أعرض و لم ینب فمن تلبس بصفه الإنابه و الرجوع الی الحق و لم یتقید بأغلال الأهواء هداه اللّه بهذه الدعوه الحقه و من کان دون ذلک ضل عن الطریق و إن کان مستقیما و لم تنفعه الآیات و إن کانت معجزه و ما تغن الآیات و النذر عن قوم لا یؤمنون.

و من هنا یظهر أن قوله: «إِنَّ اللّٰهَ يُضِلُّ» الخ؛علی تقدیر:إن اللّه یضل بمشیته من لم ینب الیه و یهدی الیه بمشیته من أناب الیه.

و یظهر أیضا أن ضمیر «إِلَيْهِ» فی «يَهْدِي إِلَيْهِ» راجع الیه تعالی و أن ما ذکره بعضهم أنه

راجع الی القرآن.و آخرون أنه راجع الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم غیر وجیه.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِکْرِ اللّٰهِ أَلاٰ بِذِکْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ الاطمئنان السکون و الاستقرار و الاطمئنان الی الشیء السکون الیه.

و ظاهر السیاق أن صدر الآیه بیان لقوله فی ذیل الآیه السابقه: «مَنْ أَنٰابَ» فالإیمان و اطمئنان القلب بذکر اللّه هو الإنابه،و ذلک من العبد تهیؤ و استعداد یستعقب عطیه الهدایه الإلهیه کما أن الفسق و الزیغ فی باب الضلال تهیؤ و استعداد یستعقب الإضلال من اللّه کما قال:

وَ مٰا یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِینَ (البقره/۲۶)؛و قال: فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللّٰهُ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الْفٰاسِقِینَ (الصف/۵).

و لیس الإیمان باللّه تعالی مثلا مجرد إدراک أنه حق فإن مجرد الإدراک ربما یجامع الاستکبار و الجحود کما قال تعالی: وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَیْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ (النمل/۱۴)مع أن الإیمان لا یجامع الجحود فلیس الإیمان بشیء مجرد إدراک أنه حق مثلا بل مطاوعه و قبول خاصه من النفس بالنسبه الی ما أدرکته یوجب تسلیمها له و لما یقتضیه من الآثار و آیته مطاوعه سائر القوی و الجوارح و قبولها له کما طاوعته النفس و قبلته فتری المعتاد ببعض الأعمال المذمومه ربما یدرک وجه القبح أو المساءه فیه غیر أنه لا یکف عنه لأن نفسه لا تؤمن به و لا تستسلم له و ربما طاوعته و سلمت له بعد ما أدرکته و کفت عنه عند ذلک بلا مهل و هو الإیمان.

و هذا هو الذی یظهر من قوله تعالی: فَمَنْ یُرِدِ اللّٰهُ أَنْ یَهْدِیَهُ یَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ وَ مَنْ یُرِدْ أَنْ یُضِلَّهُ یَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَیِّقاً حَرَجاً کَأَنَّمٰا یَصَّعَّدُ فِی السَّمٰاءِ (الأنعام/۱۲۵)فالهدایه من اللّه سبحانه تستدعی من قلب العبد أو صدره و بالآخره من نفسه أمرا نسبته الیه نسبه القبول و المطاوعه الی الأمر المقبول المطاوع،و قد عبر عنه فی آیه الأنعام بشرح الصدر و توسعته،و فی الآیه المبحوث عنها بالإیمان و اطمئنان القلب و هو أن یری الإنسان نفسه فی أمن من قبوله و مطاوعته و یسکن قلبه الیه و یستقر هو فی قلبه من غیر أن یضطرب منه أو

ينقلع عنه.

و من ذلك يظهر أن قوله: «وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللّهِ» عطف تفسيرى على قوله: «آمَنُوا» فالإيمان باللّه يلازم اطمئنان القلب بذكر اللّه تعالى.

و لا ينافى ذلك ما فى قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ (الأنفال/٢)فإن الوجل المذكور فيه حاله قلبيه متقدمه على الاطمئنان المذكور فى الآيه المبحوث عنها كما يرشد اليه قوله تعالى: اَللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتٰاباً مُتَشٰابِهاً مَثٰانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلىٰ ذِكْرِ اللّٰهِ ذٰلِكَ هُدَى اللّٰهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشٰاءُ (الزمر/٢٣)و ذلك أن النعمه هى النازله من عنده سبحانه و أما النقمه أيا ما كانت فهى بالحقيقه امساك منه عن إفاضه النعمه و إنزال الرحمه و ليست فعلا ثبوتيا صادرا منه تعالى على ما يفيده قوله: مٰا يَفْتَحِ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاٰ مُمْسِكَ لَهٰا وَ مٰا يُمْسِكْ فَلاٰ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ (فاطر/٢).

و إذا كان الخوف و الخشيه انما هو من شر متوقع و لا شر عنده سبحانه فحقيقه الخوف من اللّه هى خوف الإنسان من أعماله السيئه التى توجب إمساك الرحمه و انقطاع الخير المفاض من عنده،و النفس الإنسانيه إذا قرعت بذكر اللّه سبحانه التفتت أولا الى ما أحاطت به من سمات القصور و التقصير فأخذتها القشعريره فى الجلد و الوجل فى القلب ثم التفتت ثانيا الى ربه الذى هو غايه طلبه فطرته فسكنت اليه و اطمأنت بذكره.

و قال فى مجمع البيان:و قد وصف اللّه المؤمن هاهنا بأنه يطمئن قلبه الى ذكر اللّه،و وصفه فى موضع آخر بأنه إذا ذكر اللّه وجل قلبه لأن المراد بالأول أنه يذكر ثوابه و إنعامه و آلاءه التى لا تحصى و أياديه التى لا تجازى فيسكن اليه،و بالثانى أنه يذكر عقابه و انتقامه فيخافه و يوجل قلبه.انتهى،و هذا الوجه أوفق بتفسير من فسر الذكر فى الآيه بالقرآن الكريم و قد سماه اللّه تعالى ذكرا فى مواضع كثيره من كلامه كقوله: وَ هٰذٰا ذِكْرٌ مُبٰارَكٌ (الأنبياء/٥٠)و قوله:

إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ (الحجر۹/)و غير ذلك.

لكن الظاهر أن يكون المراد بالذكر أعم من الذكر اللفظى و أعنى به مطلق انتقال الذهن و الخطور بالبال سواء كان بمشاهده آيه أو العثور على حجه أو استماع كلمه،و من الشاهد عليه قوله بعده: «أَلاٰ بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» فإنه كضرب القاعده يشمل كل ذكر سواء كان لفظيا أو غيره،و سواء كان قرآنا أو غيره.

و قوله: أَلاٰ بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ فيه تنبيه للناس أن يتوجهوا اليه و يريحوا قلوبهم بذكره فإنه لا هم للإنسان فى حياته إلاّ الفوز بالسعاده و النعمه و لا خوف له إلاّ من أن تغتاله الشقوه و النقمه و اللّه سبحانه هو السبب الوحيد الذى بيده زمام الخير و اليه يرجع الأمر كله،و هو القاهر فوق عباده و الفعال لما يريد و هو ولى عباده المؤمنين به اللاجئين اليه فذكره للنفس الأسيره بيد الحوادث الطالبه لركن شديد يضمن له السعاده،المتحيره فى أمرها و هى لا تعلم أين تريد و لا أنى يراد بها؟كوصف الترياق للسليم تنبسط به روحه و تستريح منه نفسه،و الركون اليه و الاعتماد عليه و الاتصال به كتناول ذاك السليم لذلك الترياق و هو يجد من نفسه نشاط الصحه و العافيه آنا بعد آن.

فكل قلب-على ما يفيده الجمع المحلى باللام من العموم-يطمئن بذكر اللّه و يسكن به ما فيه من القلق و الاضطراب نعم إنما ذلك فى القلب الذى يستحق أن يسمى قلبا و هو القلب الباقى على بصيرته و رشده،و أما المنحرف عن أصله الذى لا يبصر و لا يفقه فهو مصروف عن الذكر محروم عن الطمأنينه و السكون قال تعالى: فَإِنَّهٰا لاٰ تَعْمَى الْأَبْصٰارُ وَ لٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج۴۶/)،و قال: لَهُمْ قُلُوبٌ لاٰ يَفْقَهُونَ بِهٰا (الأعراف۱۷۹/) و قال نَسُوا اللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ (التوبه۶۷/).

و فى لفظ الآيه ما يدل على الحصر حيث قدم متعلق الفعل أعنى قوله: «بِذِكْرِ اللّٰهِ» عليه فيفيد أن القلوب لا تطمئن بشىء غير ذكر اللّه سبحانه،و ما قدمناه من الإيضاح ينور هذا

الحصر إذ لا هم لقلب الإنسان و هو نفسه المدركه إلّا نيل سعادته و الأمن من شقائه و هو فی ذلک متعلق بذيل الأسباب،و ما من سبب إلاّ و هو غالب فی جهه و مغلوب من اخرى إلاّ اللّه سبحانه فهو الغالب غير المغلوب الغنى ذو الرحمه فبذكره أى به سبحانه وحده تطمئن القلوب و لا يطمئن القلب الى شیء غيره إلّا غفله عن حقيقه حاله و لو ذکر بها أخذته الرعده و القلق.

و مما قيل فی الآيه الكريمه أعنى قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللّٰهِ» الخ؛أنها استئناف،و قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» مبتدأ خبره قوله فی الآيه التاليه: «طُوبىٰ لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ» و قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ» بدل من المبتدإ و قوله: «أَلاٰ بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» اعتراض بين المبتدإ و خبره،و هو تكلف بعيد من السياق.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ طُوبىٰ لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ طوبى على وزن فعلى بضم الفاء مؤنث أطيب فهی صفه لمحذوف و هو-على ما يستفاد من السياق-الحياه أو المعيشه و ذلک أن النعمه كائنه ما كانت إنما تغتبط و تهنأ إذا طابت للإنسان و لا تطيب إلّا إذا اطمأن القلب اليه و سكن و لم يضطرب و لا يوجد ذلک إلّا لمن آمن باللّه و عمل عملا صالحا فهو الذی يطمئن منه القلب و يطيب له العيش فإنه فی أمن من الشر و الخسران و سلام مما يستقبله و يدركه و قد أوى الى ركن لا ينهدم و استقر فی ولايه اللّه لا يوجه اليه ربه إلّا ما فيه سعادته إن اعطى شيئا فهو خير له و إن منع فهو خير له.

و قد قال فی وصف طيب هذه الحياه: مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (النحل/۹۷)و قال فی صفه من لم يرزق اطمئنان القلب بذكر اللّه: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ أَعْمىٰ (طه/۱۲۴)،و لعل وصف الحياه أو المعيشه فی الآيه التی نحن فيها بزياده الطيب تلميحا الى أنها نعمه لا تخلو من طيب على أی حال إلّا أنها فيمن اطمأن قلبه

بذكر اللّه أكثر طيبا لخلوصها من شوائب المنغصات.

فقوله: طُوبیٰ لَهُمْ فی تقدیر لهم حیاه أو معیشه طوبی،فطوبی مبتدأ و «لَهُمْ» خبره و إنما قدم المبتدأ المنكر علی الظرف لأن الكلام واقع موقع التهنئه و فی مثله یقدم ما به التهنئه استعجالا بذكر ما یسر السامع ذكره نظیر قولهم فی البشاره:بشری لك.

و بالجمله فی الآیه تهنئه الذین آمنوا و عملوا الصالحات-و هم الذین آمنوا و تطمئن قلوبهم بذكر اللّه اطمئنانا مستمرا-بأطیب الحیاه أو العیش و حسن المرجع،و بذلك یظهر اتصالها بما قبلها فإن طیب العیش من آثار اطمئنان القلب كما تقدم.

قوله تعالی: كَذٰلِكَ أَرْسَلْنٰاكَ فِی أُمَّهٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهٰا أُمَمٌ الی آخر الآیه؛ متاب مصدر میمی للتوبه و هی الرجوع،و الإشاره بقوله: «كَذٰلِكَ» الی ما ذكره تعالی من سنته الجاریه من دعوه الامم الی دین التوحید ثم إضلال من یشاء و هدایه من یشاء علی وفق نظام الرجوع الی اللّه و الإیمان به و سكون القلب بذكره و عدم الرجوع الیه.

و المعنی:و أرسلناك فی امه قد خلت من قبلها امم إرسالا یماثل هذه السنه الجاریه و یجری فی أمره علی وفق هذا النظام لتتلو علیهم الذی أوحینا الیك و تبلغهم ما یتضمنه هذا الكتاب و هم یكفرون،بالرحمن و إنما قیل:بالرحمن،دون أن یقال«بنا»علی ما یقتضیه ظاهر السیاق إیماء الی أنهم فی ردهم هذا الوحی الذی یتلوه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم علیهم و هو القرآن و عدم اعتنائهم بأمره حیث یقولون مع نزوله «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ» یكفرون برحمه إلهیه عامه تضمن لهم سعاده دنیاهم و أخراهم لو أخذوه و عملوا به.

ثم أمر تعالی:أن یصرح لهم القول فی التوحید فقال «قُلْ هُوَ رَبِّی لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ عَلَیْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَیْهِ مَتٰابِ» أی هو وحده ربی من غیر شریك كما تقولون و لربوبیته لی وحده أتخذه القائم علی جمیع أموری و بها،و أرجع الیه فی حوائجی و بذلك یظهر أن قوله: «عَلَیْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَیْهِ مَتٰابِ» من آثار الربوبیه المتفرعه علیها فإن الرب هو المالك المدبر فمحصل المعنی هو وكیلی

و اليه أرجع.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلّٰهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً المراد بتسيير الجبال قلعها من اصولها و إذهابها من مكان الى مكان و بتقطيع الأرض شقها و جعلها قطعه قطعه،و بتكليم الموتى إحياؤهم لاستخبارهم عما جرى عليهم بعد الموت ليستدل اعلى حقيه الدار الآخره فإن هذا هو الذى كانوا يقترحونه.

فهذه امور عظيمه خارقه للعاده فرضت آثارا لقرآن فرضه اللّه سبحانه بقوله: «وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً» الخ؛و جزاء لو محذوف لدلاله الكلام عليه فإن الكلام معقب بقوله: «بَلْ لِلّٰهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً» و الآيات-كما عرفت-مسوقه لبيان أن أمر الهدايه ليس براجع الى الآيه التى يقترحونها بقوله:م «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ» بل الأمر الى اللّه يضل من يشاء كما أضلهم و يهدى اليه من أناب.

و على هذا يجرى سياق الآيات كقوله تعالى بعد: بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ ،و قوله: وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوٰاءَهُمْ الآيه؛و قوله: وَ مٰا كٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ الآيه؛الى غير ذلك،و على مثله جرى سياق الآيات السابقه.

فجزاء لو المحذوف هو نحو من قولنا:ما كان لهم أن يهتدوا به إلاّ أن يشاء اللّه و المعنى و لو فرض أن قرآنا من شأنه أنه تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يحيا به الموتى فتكلم ما كان لهم أن يهتدوا به إلاّ أن يشاء اللّه بل الأمر كله للّه ليس شىء منه لغيره حتى يتوهم متوهم أنه لو أنزلت آيه عظيمه هائله مدهشه أمكنها أن تهديهم لا بل الأمر للّه جميعا و الهدايه راجعه الى مشيته.

قوله تعالى: أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشٰاءُ اللّٰهُ لَهَدَى النّٰاسَ

جَمِيعاً تفريع على سابقه.

ذكر بعضهم أن اليأس بمعنى العلم و هى لغه هوازن و قيل لغه حى من النخع و أنشدوا على ذلك قول سحيم بن وثيل الرباحى:

أقول لهم بالشعب إذ يأسروننى

أ لم تيأسوا أنى ابن فارس زهدم

و قول رباح بن عدى:

أ لم ييأس الأقوام أنى أنا ابنه

و إن كنت عن أرض العشيره نائيا

و محصل التفريع على هذا أنه إذا كانت الأسباب لا تملك من هدايتهم شيئا حتى قرآن سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى،و أن الامر للّه جميعا فمن الواجب أن يعلم الذين آمنوا أن اللّه لم يشأ هدايه الذين كفروا و لو يشاء اللّه لهدى الناس جميعا الذين آمنوا و الذين كفروا لكنه لم يهد الذين كفروا فلم يهتدوا و لن يهتدوا.

و ذكر بعضهم أن اليأس بمعناه المعروف و هو القنوط غير أن قوله: «أَ فَلَمْ يَيْأَسِ» مضمن معنى العلم و المراد بيان لزوم علمهم بأن اللّه لم يشأ هدايتهم و لو شاء ذلك لهدى الناس جميعا و لزوم قنوطهم عن اهتدائهم و إيمانهم.

فتقدير الكلام بحسب الحقيقه:أ فلم يعلم الذين آمنوا أن اللّه لم يشأ هدايتهم و لو يشاء لهدى الناس جميعا أو لم ييأسوا من اهتدائهم و ايمانهم؟ثم ضمن اليأس معنى العلم و نسب اليه من متعلق العلم الجمله الشرطيه فقط أعنى قوله: «لَوْ يَشٰاءُ اللّٰهُ لَهَدَى النّٰاسَ جَمِيعاً» إيجازا و إيثارا للاختصار.

و ذكر بعضهم:أن قوله: «أَ فَلَمْ يَيْأَسِ» على ظاهر معناه من غير تضمين و قوله: «أَنْ لَوْ يَشٰاءُ اللّٰهُ» الخ؛متعلق بقوله: «آمَنُوا» بتقدير الباء و متعلق «يَيْأَسِ» محذوف و تقدير الكلام أ فلم ييأس الذين آمنوا بأن لو يشاء اللّه لهدى الناس جميعا من إيمانهم و ذلك أن الذين آمنوا يرون أن الأمر للّه جميعا و يؤمنون بأنه تعالى لو يشاء لهدى الناس جميعا و لو لم يشاء لم يهد فإذ لم

يهد و لم يؤمنوا فليعلموا أنه لم يشأ و ليس فى مقدره سبب من الأسباب أن يهديهم و يوفقهم للإيمان فلييأسوا من إيمانهم.

و هـذه وجوه ثلاثه لعل أعد لها أوسطها و الآيه على أى حال لا تخلو من إشاره الى أن المؤمنين كانوا يودون أن يؤمن الكفار و لعلهم لمودتهم ذلـك لما سـمعوا قول الكفار «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» طمعوا فى إيمانهم و رجوا منهم الاهتـداء إن أنزل اللّه عليهم آيه أخرى غير القرآن فسألوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يجيبهم على ذلـك فأيأسـهم اللّه من إيمانهم فى هـذه الآيات،و فى آيات أخرى من كلامه مكيه و مـدنيه كقوله فى سوره يس و هى مكيه: وَ سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (آيه ١٠)،و قوله فى سوره البقره و هى مدنيه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (آيه ۶).

قوله تعالى: وَ لاٰ يَزٰالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمٰا صَنَعُوا قٰارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دٰارِهِمْ حَتّٰى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُخْلِفُ الْمِيعٰادَ سيـاق الآيات يشـهد أن المراد بقوله: «بِمٰا صَنَعُوا» كفرهم بالرحمن قبال الـدعوه الحقه،و القارعه هى المصـيبه تقرع الإنسان قرعا كأنها تؤذنه بأشـد من نفسـها و فى الآيه تهديـد و وعيد قطعى للذين كفروا بعذاب غير مردود و ذكر علائم و أشـراط له تقرعهم مره بعد مره حتى يأتيهم العذاب الموعود.

و المعنى:و لا يزال هؤلاء الذين كفروا بدعوتك الحقه تصيبهم بما صنعوا من الكفر بالرحمن مصيبه قارعه أو تحل تلك المصيبه القارعه قريبا من دارهم فلا يزالون كذلك حتى يأتى ما وعدهم اللّه من العذاب لأن اللّه لا يخلف ميعاده و لا يبدل قوله.

و التأمل فى كون السوره مكيه على ما يشـهد به مضامين آياتها ثم فى الحوادث الواقعه بعـد البعثه و قبل الهجره و بعدها الى فتح مكه يعطى أن المراد بالذين كفروا هم كفار العرب من أهل مكه و غيرهم الذين ردوا أول الدعوه و بالغوا فى الجحود و العناد و الحوا على الفتنه

و الفساد.

و المراد بالـذين تصـيبهم القـارعه من كـان فى خارج الحرم منهم تصـيبهم قوارع الحروب و شن الغارات،و بالـذين تحل القارعه قريبا من دارهم أهل الحرم من قريش تقع حوادث السوء قريبا من دارهم فتصـيبهم معرتها و تنالهم وحشتها و همها و سائر آثارها السيئه،و المراد بما وعدهم عذاب السيف الذى أخذهم فى غزوه بدر و غيرها.

و اعلم أن هـذا العـذاب الموعود للـذين كفروا فى هـذه الآيات غير العـذاب الموعود المتقـدم فى سوره يونس فى قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ -الى قوله ثانيا- وَ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (يونس۴۷/-۵۴) فإن الـذى فى سوره يونس وعيـد عام للامه،و الـذى فى هـذه الآيات وعيد خاص بالذين كفروا فى أول الدعوه النبـويه من قريش و غيرهم،و قـد تقـدم فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (البقره۶/)فى الجزء الأول من الكتاب أن المراد بقوله:

«الَّذِينَ كَفَرُوا» فى القرآن إذا أطلق إطلاقـا المعانـدون من مشـركى العرب فى أول الـدعوه كمـا أن المراد بالـذين آمنوا إذا اطلق كذلك السابقون الى الإيمان فى أول الدعوه.

قوله تعـالى: أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلّهِ شُرَكاءَ القائم على شـىء هو المهيمن المتسـلط عليه و القائم بشـىء من الأـمر هو الـذى يـدبره نوعا من التـدبير و اللّه سـبحانه هو القائم على كل نفس بما كسـبت أما قيامه عليها فلأنه محيط بذاتها قاهر عليها شاهد لها،و أما قيامه بما كسبت فلأنه يدبر أمر أعمالها فيحولها من مرتبه الحركه و السكون الى أعمال محفوظه عليهـا فى صـحائف الأعمـال ثم يحولها الى المثوبات و العقوبات فى الـدنيا و الآخره من قرب و بعـد و هـدى و ضـلال و نعمه و نقمه و جنه و نار.

و الآـيه متفرعه على مـا تقـدمها أى إذا كـان اللّه سـبحانه يهـدى من يشاء فيجازيه بأحسن الثواب و يضل من يشاء فيجازيه بأشـد العقاب و له الأمر جميعا فهو قائم على كل نفس بما

کسبت و مهیمن مدبر لنظام الأعمال فهل یعدله غیره حتی یشارکه فی ألوهیته؟.

و من ذلک یظهر أن الخبر فی قوله: «أَ فَمَنْ هُوَ قٰائِمٌ» الخ؛محذوف یدل علیه قوله: «وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَکٰاءَ» و من سخیف القول ما نسب الی الضحاک أن المراد بقوله: «أَ فَمَنْ هُوَ قٰائِمٌ عَلیٰ کُلِّ نَفْسٍ بِمٰا کَسَبَتْ» الملائکه لکونهم موکلین علی الاعمال و المعنی أ فیکون الملائکه الموکلون علی الأعمال بأمره شرکاء له سبحانه؟و هو معنی بعید من السیاق غایته.

قوله تعالی: قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمٰا لاٰ یَعْلَمُ فِی الْأَرْضِ أَمْ بِظٰاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ لما ذکر سبحانه قوله: «وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَکٰاءَ» عاد الیهم ببیان یبطل به قولهم ذلک مأخوذ من البیان السابق بوجه.

فأمر نبیه بأن یحاجهم بنوع من الحجاج عجیب فی بابه فقال «قُلْ سَمُّوهُمْ» أی صفوهم فإن صفات الأشیاء هی التی تتعین بها شئونها و آثارها فلو کانت هذه الأصنام شرکاء للّه شفعاء عنده وجب أن یکون لها من الصفات ما یسوی لها الطریق لهذا الشأن کما یقال فیه تعالی إنه حی علیم قدیر خالق مالک مدبر فهو رب کل شیء لکن الأصنام إذا ذکرت فقیل:هبل أو اللات أو العزی لم یوجد لها من الصفات ما یظهر به أنها شریکه للّه شفیعه عنده.

ثم قال أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمٰا لاٰ یَعْلَمُ فِی الْأَرْضِ و أم منقطعه أی بل أ تنبئونه بکذا و المعنی أن اتخاذکم الأصنام شرکاء له إنباء له فی الحقیقه بما لا یعلم فلو کان له شریک فی الأرض لعلم به لأن الشریک فی التدبر یمتنع أن یخفی تأثیره فی التدبیر علی شریکه و اللّه سبحانه یدبر الأمر کله و لا یری لغیره أثرا فی ذلک لا موافقا و لا مخالفا،و الدلیل علی أنه لا یری لنفسه شریکا فی الأمر أنه تعالی هو القائم علی کل نفس بما کسبت،و بعباره أخری أن له الخلق و الأمر و هو علی کل شیء شهید بالبرهان الذی لا سبیل للشک الیه،و الآیه بالجمله کقوله فی موضع آخر: قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللّٰهَ بِمٰا لاٰ یَعْلَمُ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِی الْأَرْضِ (یونس/١٨).

ثم قال أَمْ بِظٰاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ أی بل أ تنبئونه بأن له شرکاء بظاهر من القول من غیر حقیقه و هذا کقوله: إِنْ هِيَ إِلاّٰ أَسْمٰاءٌ سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ (النجم۲۳/).

و عن بعضهم أن المراد بظاهر من القول ظاهر کتاب نازل من اللّه تسمی فیه الأصنام آلهه حقه و حاصل الآیه نفی الدلیل العقلی و السمعی معا علی الوهیتها و کونها شرکاء للّه سبحانه و هو بعید من اللفظ.

و وجه الارتباط بین هذه الحجج الثلاث أنهم فی عبادتهم الأصنام و جعلهم للّه شرکاء مترددون بین محاذیر ثلاثه إما أن یقولوا بشرکتها من غیر حجه إذ لیس لها من الاوصاف ما یعلم به أنها شرکاء للّه،و إما أن یدعوا أن لها أوصافا کذلک هم یعلمونها و لا یعلم بها اللّه سبحانه،و إما أن یکونوا متظاهرین بالقول بشرکتها من غیر حقیقه و هم یغرون اللّه بذلک تعالی عن ذلک علوا کبیرا.

قال الزمخشری فی الکشاف:و هذا الاحتجاج و أسالیبه العجیبه التی ورد علیها مناد علی نفسه بلسان طلق ذلق أنه لیس من کلام البشر لمن عرف و أنصف علی نفسه انتهی کلامه.

قوله تعالی: بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ إضراب عن الحجج المذکوره و لوازمها و المعنی دع هذه الحجج فإنهم لا یجعلون له شرکاء لشیء من هذه الوجوه بل مکر زینه لهم الشیطان و صدهم بذلک عن سبیل اللّه تعالی و ذلک أنهم علی علم بأنه لا حجه علی شرکتها و أن مجرد الدعوی لا ینفعهم لکنهم یریدون بترویج القول بالوهیتها و توجیه قلوب العامه إلیها عرض الدنیا و زینتها،و دعوتک الی سبیل اللّه مانعه دون ذلک فهم فی تصلبهم فی عبادتها و دعوه الناس إلیها و الحث علی الأخذ بها یمکرون بک من وجه و بالناس من وجه آخر و قد زین لهم هذا المکر و هو السبب فی جعلهم إیاها شرکاء لا غیر ذلک من حجه أو غیرها و صدوا بذلک عن السبیل.

فهم زين لهم المكر و صدوا به عن السبيل و الذى زين لهم و صدهم هو الشيطان بإغوائهم، و اضلوا و الذى اضلهم هو اللّه سبحانه بإمساك نعمه الهدى منهم و من يضلل اللّه فما له من هاد.

قوله تعالى: لَهُمْ عَذٰابٌ فِی الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ لَعَذٰابُ الْآخِرَهِ أَشَقُّ وَ مٰا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وٰاقٍ أشق أفعل من المشقه و واق اسم فاعل من الوقايه بمعنى الحفظ.

و فى الآيه إيجاز القول فيما وعد اللّه الذين كفروا من العذاب فى الآيات السابقه،و فى قوله:

«وَ مٰا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وٰاقٍ» نفى الشفاعه و تأثيرها فى حقهم أصلا،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: مَثَلُ الْجَنَّهِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ أُكُلُهٰا دٰائِمٌ وَ ظِلُّهٰا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكٰافِرِينَ النّٰارُ المثل هو الوصف يمثل الشىء.

و فى قوله: «مَثَلُ الْجَنَّهِ» الخ؛بيان ما خص اللّه به المتقين من الوعد الجميل مقابله لما أوعد به الذين كفروا و ليكون تمهيدا لما يختم به القول من الإشاره الى محصل سعى الفريقين فى مسيرهم الى ربهم و رجوعهم اليه،و قد قابل الذين كفروا بالمتقين إشاره الى أن الذين ينالون هذه العاقبه الحسنى هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات دون المؤمنين من غير عمل صالح فإنهم مؤمنون باللّه كافرون بآياته (1).

[سوره الرعد (13): الآيات 36 الى 42]

اشاره

وَ اَلَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ اَلْكِتٰابَ يَفْرَحُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مِنَ اَلْأَحْزٰابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمٰا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اَللّٰهَ وَ لاٰ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَآبِ (36) وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ اِتَّبَعْتَ أَهْوٰاءَهُمْ بَعْدَ مٰا جٰاءَكَ مِنَ اَلْعِلْمِ مٰا لَكَ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ وٰاقٍ (37) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنٰا لَهُمْ أَزْوٰاجاً وَ ذُرِّيَّةً وَ مٰا كٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اَللّٰهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتٰابٌ (38) يَمْحُوا اَللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ اَلْكِتٰابِ (39) وَ إِنْ مٰا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ اَلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ اَلْبَلاٰغُ وَ عَلَيْنَا اَلْحِسٰابُ (40) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا نَأْتِي اَلْأَرْضَ نَنْقُصُهٰا مِنْ أَطْرٰافِهٰا وَ اَللّٰهُ يَحْكُمُ لاٰ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ اَلْحِسٰابِ (41) وَ قَدْ مَكَرَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلّٰهِ اَلْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مٰا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ اَلْكُفّٰارُ لِمَنْ عُقْبَى اَلدّٰارِ (42)

ص: 404

1- 1) .الرعد 27-35:بحث روائى فى اطمئنان القلوب بذكر اللّه،شجره طوبى؛ان طوبى شجره اصلها فى دار على عليه السّلام فى الجنه.

بیان:

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ آتَیْنٰاهُمُ الْکِتٰابَ یَفْرَحُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ الی آخر الآیه؛الظاهر أن المراد بالذین أوتوا الکتاب الیهود و النصاری أو هم و المجوس فإن هذا هو المعهود من إطلاقات القرآن و السوره مکیه و قد أثبت التاریخ أن الیهود ما کانوا یعاندون النبوه العربیه فی أوائل البعثه و قبلها ذاک العناد الذی ساقتهم الیه حوادث ما بعد الهجره و قد دخل جمع منهم فی الإسلام أوائل الهجره و شهدوا علی نبوه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و کونه مبشرا به فی کتبهم کما قال تعالی: وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِی إِسْرٰائِیلَ عَلیٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَکْبَرْتُمْ (الأحقاف/۱۰).

ص :۴۰۵

و أنه كـان من النصـارى يومئـذ قوم على الحق من غير أن يعانـدوا دعوه الإسـلام كقوم من نصارى الحبشه على ما نقل من قصـه هجره الحبشه و جمع من غيرهم،و قد قال تعالى فى أمثالهم: اَلَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (القصـص۵۲/)و قال: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (الأعراف۱۵۹/)و كـذا كانت المجوس ينتظرون الفرج بظهور منـج ينشـر الحق و العدل و كانوا لا يعاندون الحق كما يعانده المشركون.

فالظاهر أن يكونوا هم المعنيّون بالآـيه و خاصه المحقون من النصـارى و هم القـائلون بكون المسـيح بشـرا رسولا كالنجاشـى و أصـحابه،و يؤيـده مـا فى ذيـل الآـيه من قوله: «قُلْ إِنَّمٰا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّٰهَ وَ لاٰ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا» فإنه أنسب أن يخاطب به النصارى.

و قوله: وَ مِنَ الْأَحْزٰابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ اللام للعهـد أى و من أحزاب أهـل الكتـاب من ينكر بعض ما أنزل اليك و هو ما دل منه على التوحيد و نفى التثليث و سائر ما يخالف ما عند أهل الكتاب من المعارف و الأحكام المحرفه.

و قوله: قُلْ إِنَّمٰا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّٰهَ وَ لاٰ أُشْرِكَ بِهِ دليل على أن المراد من البعض الذى ينكرونه ما يرجع الى التوحيد فى العباده أو الطاعه و قد أمره اللّه أن يخاطبهم بالموافقه عليه بقوله: قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ تَعٰالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوٰاءٍ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمْ أَلاّٰ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّٰهَ وَ لاٰ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لاٰ يَتَّخِذَ بَعْضُنٰا بَعْضاً أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ (آل عمران۶۴/).

ثم تمم الكلام بقوله: إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَآبِ أى مرجعى فكان أول الكلام مفصحا عن بغيته فى نفسه و لغيره،و آخره عن سيرته أى أمرت لأعبد اللّه وحده فى عملى و دعوتى، و على ذلك أسير بين الناس فلا أدعو إلاّ اليه و لا أرجع فى أمر من امورى إلاّ اليه فذيل الآيه فى معنى قوله: قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللّٰهِ عَلىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي وَ سُبْحٰانَ اللّٰهِ وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (يوسف۱۰۸/).

و يمكن أن يكون المراد بقوله: «وَ إِلَيْهِ مَآبِ» المعاد و يفيد حينئذ فائده التعليل أى اليه أدعو

وحده لأن مآبی الیه وحده.

قوله تعالی: وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوٰاءَهُمْ بَعْدَ مٰا جٰاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مٰا لَكَ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ وٰاقٍ الإشاره بقوله: «كَذٰلِكَ» الی الکتاب المذکور فی الآیه السابقه و هو جنس الکتاب النازل علی الأنبیاء الماضین کالتوراه و الإنجیل.

و المراد بالحکم هو القضاء و العزیمه فإن ذلک هو شأن الکتاب النازل من السماء المشتمل علی الشریعه کما قال: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّٰاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقره۲۱۲/)فالکتاب حکم إلهی بوجه و حاکم بین الناس بوجه فهذا هو المراد بالحکم دون الحکمه کما قیل.

و قوله: عَرَبِيًّا صفه لحکم و اشاره الی کون الکتاب بلسان عربی و هو لسانه صلّی اللّه علیه و آله و سلم سنه اللّه التی قد خلت فی عباده،قال تعالی: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ بِلِسٰانِ قَوْمِهِ (إبراهیم۴/)و هذا-کما لا یخفی-من الشاهد علی أن المراد بالمذکورین فی الآیه السابقه الیهود و النصاری،و أن هذه الآیات متعرضه لشأنهم کما کانت الآیات السابقه علیها متعرضه لشأن المشرکین.

و علی هذا فالمراد بقوله: «وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوٰاءَهُمْ» الخ؛النهی عن اتباع أهواء أهل الکتاب،و قد ذکر فی القرآن من ذلک شیء کثیر،و عمده ذلک أنهم کانوا یقترحون علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم آیه غیر القرآن کما کان المشرکون یقترحونها،و کانوا یطمعون أن یتبعهم فیما عندهم من الأحکام لإحالتهم النسخ فی الأحکام،و هذان الأمران و لا سیما أولهما عمده ما تتعرض له هذه الآیات.

و المعنی:و کما أنزلنا علی الذین أوتوا الکتاب کتابهم أنزلنا هذا القرآن علیک بلسانک مشتملا علی حکم أو حاکما بین الناس و لئن اتبعت أهواء أهل الکتاب فتمنیت أن ینزل علیک

آیه غیر القرآن کما یقترحون أو داهنتهم و ملت الی اتباع بعض ما عندهم من الأحکام المنسوخه أو المحرفه أخذناک بالعقوبه و لیس لک ولی یلی أمرک من دون اللّه و لا واق یقیک منه فالخطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و هو المراد به دون الامه کما ذکره بعضهم.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلاً مِنْ قَبْلِکَ وَ جَعَلْنٰا لَهُمْ أَزْوٰاجاً وَ ذُرِّیَّهً وَ مٰا کٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَهٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ لِکُلِّ أَجَلٍ کِتٰابٌ لما نهی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم عن اتباع أهوائهم فیما اقترحوا علیه من إنزال آیه غیر القرآن ذکّره بحقیقه الحال التی تؤیسه من الطمع فی ذلک و یعزم علیه أن یتوکل علی اللّه و یرجع الیه الامور.

و هو أن سنه اللّه الجاریه فی الرسل أن یکونوا بشرا جارین علی السنه المألوفه بین الناس من غیر أن یتعدوها فیملکوا شیئا مما یختص بالغیب کأن یکونوا ذا قوه غیبیه فعاله لما تشاء قدیره علی کل ما أرادت أو أرید منها حتی تأتی بکل آیه شاءت إلاّ أن یأذن اللّه له فلیس للرسول و هو بشر کسائرهم من الأمر شیء بل للّه الأمر جمیعا.

فهو الذی ینزل الآیه إن شاء غیر أنه سبحانه إنما من الآیات إذا اقتضته الحکمه الإلهیه و لیست الأوقات مشترکه متساویه فی الحکم و المصالح و إلاّ لبطلت الحکمه و اختل نظام الخلیقه بل لکل وقت حکمه تناسبه و حکم یناسبه فلکل وقت آیه تخصه.

و هذا هو الذی تشیر الیه الآیه فقوله: «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلاً مِنْ قَبْلِکَ وَ جَعَلْنٰا لَهُمْ أَزْوٰاجاً وَ ذُرِّیَّهً» إشاره الی السنه الجاریه فی الرسل من البشر العادیه،و قوله: «وَ مٰا کٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَهٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ» إشاره الی حرمانهم من القدره الغیبیه المستقله بکل ما أرادت إلاّ أن یمدهم الإذن الإلهی.

و قوله: لِکُلِّ أَجَلٍ أی وقت محدود «کِتٰابٌ» أی حکم مقضی مکتوب یخصه إشاره الی ما یلوّح الیه استثناء الإذن و سنه اللّه الجاریه فیه،و التقدیر فاللّه سبحانه هو الذی ینزل ما شاء و یأذن فیما شاء لکنه لا ینزل و لا یأذن فی کل آیه فی کل وقت فإن لکل وقت کتابا کتبه لا

يجرى فيه إلّا ما فيه.

و مما تقدم يظهر ان ما ذكره بعضهم ان قوله: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتٰابٌ» من باب القلب و أصله:

لكل كتاب أجل أى إن لكل كتاب منزل من عند اللّه وقتا مخصوصا ينزل فيه و يعمل عليه فللتوراه وقت و للإنجيل وقت و للقرآن وقت.وجه لا يعبأ به.

قوله تعالى: يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ محو الشىء هو إذهاب رسمه و أثره يقال:محوت الكتاب إذا أذهبت ما فيه من الخطوط و الرسوم قال تعالى:

وَ يَمْحُ اللّٰهُ الْبٰاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ (الشورى۲۴/)أى يذهب بآثار الباطل كما قال:

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفٰاءً و قال: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنٰا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنٰا آيَةَ النَّهٰارِ مُبْصِرَةً (أسرى۱۲/)أى أذهبنا أثر الإبصار من الليل فالمحو قريب المعنى من النسخ يقال:نسخت الشمس الظل أى ذهبت بأثره و رسمه.

و قد قوبل المحو فى الآيه بالإثبات و هو إقرار الشىء فى مستقره بحيث لا يتحرك و لا يضطرب يقال:أثبت الوتد فى الأرض إذا ركزته فيها بحيث لا يتحرك و لا يخرج من مركزه فالمحو هو إزاله الشىء بعد ثبوته برسمه و يكثر استعماله فى الكتاب.

و وقوع قوله: «يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ» بعد قوله: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتٰابٌ» و اتصاله به من جانب و بقوله: «وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ» من جانب ظاهر فى أن المراد محو الكتب و إثباتها فى الأوقات و الآجال فالكتاب الذى أثبته اللّه فى الأجل الأول إن شاء محاه فى الأجل الثانى و أثبت كتابا آخر فلا يزال يمحى كتاب و يثبت كتاب آخر.

و إذا اعتبرنا ما فى الكتاب من آيه و كل شىء آيه صح أن يقال لا يزال يمحو آيه و يثبت آيه كما يشير اليه قوله: مٰا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهٰا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهٰا أَوْ مِثْلِهٰا (البقره۱۰۶/)، و قوله: وَ إِذٰا بَدَّلْنٰا آيَةً مَكٰانَ آيَةٍ الآيه؛(النحل۱۰۱/).

فقوله: يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ على ما فيه من الإطلاق يفيد فائده التعليل

لقوله: «لِكَلِّ أَجَلٍ كِتٰابٌ» و المعنى أن لكل وقت كتابا يخصه فيختلف فاختلاف الكتب باختلاف الأوقات و الآجال إنما ظهر من ناحيه اختلاف التصرف الإلهى بمشيته لا من جهه اختلافها فى أنفسها و من ذواتها بأن يتعين لكل أجل كتاب فى نفسه لا يتغير عن وجهه بل اللّه سبحانه هو الذى يعين ذلك بتبديل كتاب مكان كتاب و محو كتاب و إثبات آخر.

و قوله: وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ أى أصله فإن الام هى الأصل الذى ينشأ منه الشىء و يرجع اليه،و هو دفع للدخل و إبانه الحقيقه الأمر فإن اختلاف حال الكتاب المكتوب لأجل بالمحو و الإثبات أى تغير الحكم المكتوب و القول المقضى به حينا بعد حين ربما أوهم أن الأمور و القضايا ليس لها عند اللّه سبحانه صوره ثابته و إنما يتبع حكمه العلل و العوامل الموجبه له من خارج كأحكامنا و قضايانا معاشر ذوى الشعور من الخلق أو أن حكمه جزافى لا تعين له فى نفسه و لا مؤثر فى تعينه من خارج كما ربما يتوهم أرباب العقول البسيطه أن الذى له ملك -بكسر اللام-مطلق و سلطنه مطلقه له أن يريد ما يشاء و يفعل ما يريد على حريه مطلقه من رعايه أى قيد و شرط و سلوك أى نظام أولا نظام فى عمله فلا صوره ثابته لشىء من أفعاله و قضاياه عنده،و قد قال تعالى: مٰا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ (ق٢٩/)،و قال: وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ (الرعد٨/)الى غير ذلك من الآيات.

فدفع هذا الدخل بقوله: «وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ» أى أصل جنس الكتاب و الأمر الثابت الذى يرجع اليه هذه الكتب التى تمحى و تثبت بحسب الأوقات و الآجال و لو كان هو نفسه تقبل المحو و الإثبات لكان مثلها لا أصلا لها و لو لم يكن من أصله كان المحو و الإثبات فى أفعاله تعالى إما تابعا لامور خارجه تستوجب ذلك فكان تعالى مقهورا مغلوبا للعوامل و الأسباب الخارجيه مثلنا و اللّه يحكم لا معقب لحكمه.

و إما غير تابع لشىء أصلا و هو الجزاف الذى يختل به نظام الخلقه و التدبير العام الواحد يربط الأشياء بعضها ببعض جلت عنه ساحته،قال تعالى: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ

وَ مٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ مٰا خَلَقْنٰاهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ (الدخان٣٩/).

فالملخص من مضمون الآيه أن للّه سبحانه فى كل وقت و أجل كتابا أى حكما و قضاء و أنه يمحو ما يشاء من هذه الكتب و الأحكام و الأقضيه و يثبت ما يشاء أى يغير القضاء الثابت فى وقت فيضع فى الوقت الثانى مكانه قضاء آخر لكن عنده بالنسبه الى كل وقت قضاء لا يتغير و لا يقبل المحو و الإثبات و هو الأصل الذى يرجع اليه الأقضيه الأخر و تنشأ منه فيمحو و يثبت على حسب ما يقتضيه هو.

و يتبين بالآيه أولا:أن حكم المحو و الاثبات عام لجميع الحوادث التى تداخله الآجال و الأوقات و هو جميع ما فى السماوات و الأرض و ما بينهما،قال تعالى مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى (الأحقاف٣/).

و ذلك لإطلاق قوله: «يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ» و اختصاص المورد بآيات النبوه لا يوجب تخصيص الآيه لأن المورد لا يخصص.

قوله تعالى: وَ إِنْ مٰا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ الْبَلاٰغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسٰابُ «إما»هو إن الشرطيه و ما الزائده للتأكيد و الدليل عليه دخول نون التأكيد فى الفعل بعده.

و فى الآيه إيضاح لما للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من الوظيفه و هو الاشتغال بأمر الإنذار و التبليغ فحسب فلا ينبغى له أن يتبع أهواءهم فى نزول آيه عليه كما اقترحوا حتى أنه لا ينبغى له أن ينتظر نتيجه بلاغه أو حلول ما أوعدهم اللّه من العذاب بهم.

و فى الآيه دلاله على أن الحساب الإلهى يجرى فى الدنيا كما يجرى فى الآخره.

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهٰا مِنْ أَطْرٰافِهٰا الخ؛كلام مسوق للعبره بعد ما قدم اليهم الوعيد بالهلاك،و منه يعلم أن إتيان الأرض و نقصها من أطرافها كنايه عن نقص أهلها بالإماته و الإهلاك فالآيه نظيره قوله: بَلْ مَتَّعْنٰا هٰؤُلاٰءِ

وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰى طٰالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَ فَلاٰ يَرَوْنَ أَنّٰا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهٰا مِنْ أَطْرٰافِهٰا أَ فَهُمُ الْغٰالِبُونَ (الأنبياء۴۴/).

و قول بعضهم إن المراد به أو لم ير أهل مكه أنا نأتى أرضهم فننقصها من أطرافها بفتح القرى واحده بعد واحده للمسلمين فليخافوا أن نفتح بلدتهم و ننتقم منهم يدفعه أن السوره مكيه و تلك الفتوحات إنما كانت تقع بعد الهجره،على أن الآيات بوعيدها ناظره الى هلاكهم بغزوه بدر و غيرها لا الى فتح مكه.

و قوله: وَ اللّٰهُ يَحْكُمُ لاٰ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسٰابِ يريد به أن الغلبه للّه سبحانه فإنه يحكم و ليس قبال حكمه أحد يعقبه ليغلبه بالمنع و الرد و هو سبحانه يحاسب كل عمل بمجرد وقوعه بلا مهله حتى يتصرف فيه غيره بالإخلال فقوله: «وَ اللّٰهُ يَحْكُمُ» الخ؛فى معنى قوله فى ذيل آيه سوره الأنبياء المتقدمه: «أَ فَهُمُ الْغٰالِبُونَ» .

قوله تعالى: وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلّٰهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً الى آخر الآيه؛ أى و قد مكر الذين من قبلهم فلم ينفعهم مكرهم و لم يقدروا على صدنا من أن نأتى الأرض فننقصها من أطرافها فاللّه سبحانه يملك المكر كله و يبطله و يرده الى أهله فليعتبروا.

و قوله: يَعْلَمُ مٰا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ فى مقام التعليل لملكه تعالى كل مكر فإن المكر إنما يتم مع جهل الممكور به و أما إذا علم به فعنده بطلانه.

و قوله: وَ سَيَعْلَمُ الْكُفّٰارُ لِمَنْ عُقْبَى الدّٰارِ قطع للحجاج بدعوى أن مسأله انتهاء الامور الى عواقبها من الامور الضروريه العينيه لا تتخلف عن الوقوع و سيشهدونها شهود عيان فلا حاجه الى الإطاله و الإطناب فى إعلامهم ذلک فسيعلمون (۱).

ص :۴۱۲

۱- ۱) .الرعد ۳۶-۴۲:بحث روائى حول الآيه «يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ» ؛أم الكتاب؛علم اللّه.

[سوره الرعد (۱۳): آیه ۴۳]

اشاره

وَ يَقُولُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ اَلْكِتٰابِ (۴۳)

بيان:

قوله تعالى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا الخ؛بناء الكلام فى السوره على إنكارهم حقيه الكتاب و عدم عدهم إياه آيه إلهيه للرساله و لذا كانوا يقترحون آيه غيره كما حكاه اللّه تعالى فى خلال الآيات مره بعد مره و أجاب عنه بما يرد عليهم قولهم فكأنهم لما يئسوا مما اقترحوا أنكروا أصل الرساله لعدم إذعانهم بما أنزل اللّه من آيه و عدم إجابتهم فيما اقترحوه من آيه فكانوا يقولون: «لَسْتَ مُرْسَلًا» .

فلقّن اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم الحجه عليهم لرسالته بقوله: «قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ» و هو حجه قاطعه و ليس بكلام خطابى و لا إحاله الى ما لا طريق الى حصول العلم به.

فقوله: قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ استشهاد باللّه سبحانه و هو ولى أمر الإرسال و إنما هى شهاده تأديه لا شهاده تحمل فقط فإن أمثال قوله تعالى: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ» من آيات القرآن و كونه آيه معجزه من اللّه ضرورى،و كونه قولا-و كلاما له سبحانه ضرورى و اشتماله على تصديق الرساله بدلاله المطابقه المعتمده على علم ضرورى أيضا ضرورى،و لا نعنى بشهاده التأديه إلاّ ذلك.

و من فسر شهادته تعالى من المفسرين بأنه تعالى قد أظهر على رسالتى من الأدله و الحجج ما فيه غنى عن شهاده شاهد آخر ثم قال:و تسميه ذلك شهاده مع أنه فعل و هى قول من المجاز حيث إنه يغنى غناها بل هو أقوى منها.انتهى.فقد قصد المطلوب من غير طريقه.

ص:۴۱۳

و ذلک أن الأدله و الحجج الداله علی حقیه رسالته صلّی اللّه علیه و آله و سلم إما القرآن و هو الآیه المعجزه الخالده،و إما غیره من الخوارق و المعجزات و آیات السوره-کما تری-لا تجیب الکفار علی ما اقترحوه من هذا القسم الثانی و لا معنی حینئذ للاستشهاد بما لم یجابوا علیه،و أما القرآن فمن البین أن الاستناد الیه من جهه أنه معجزه تصدّق الرساله بدلالتها علیها أی کلام له تعالی یشهد بالرساله،و إذا کان کذلک فما معنی العدول عن کونه کلاما له تعالی یدل علی حقیه الرساله أی شهاده لفظیه منه تعالی علی ذلک بحقیقه معنی الشهاده الی کونه دلیلا فعلیا منه علیها سمی مجازا بالشهاده؟.

علی أن کون فعله تعالی أقوی دلاله علی ذلک من قوله ممنوع.

فقد تحصل أن معنی قوله: «اللّٰهُ شَهِیدٌ بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ» أن ما وقع فی القرآن من تصدیق الرساله شهاده إلهیه بذلک.

و أما جعل الشهاده شهاده تحمل ففیه إفساد المعنی من أصله و أی معنی لإرجاع أمر متنازع فیه الی علم اللّه و اتخاذ ذلک حجه علی الخصم و لا سبیل له الی ما فی علم اللّه فی أمره؟أ هو کما یقول أو فریه یفتریها علی اللّه؟.

و قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتٰابِ أی و کفی بمن عنده علم الکتاب شهیدا بینی و بینکم،و قد ذکر بعضهم أن المراد بالکتاب اللوح المحفوظ و یتعین علی هذا أن یکون المراد بالموصول هو اللّه سبحانه فکأنه قیل:کفی باللّه الذی عنده علم الکتاب شهیدا«الخ».

و فیه أولا أنه خلاف ظاهر العطف،و ثانیا أنه من عطف الذات مع صفته الی نفس الذات و هو قبیح غیر جائز فی الفصیح و لذلک تری الزمخشری لما نقل فی الکشاف هذا القول عن الحسن بقوله:و عن الحسن:«لا و اللّه ما یعنی إلاّ اللّه»قال بعده:و المعنی کفی بالذی یستحق العباده و بالذی لا یعلم علم ما فی اللوح إلاّ هو شهیدا بینی و بینکم.انتهی.فاحتال الی تصحیحه بتبدیل لفظه الجلال«اللّه»من«الذی یستحق العباده»و تبدیل«من»من«الذی»

ليعود المعطوف و المعطوف عليه وصفين فيكون فى معنى عطف أحد وصفى الذات على الآخر و إناطه الحكم بالذات بما له من الوصفين كدخالتهما فيه فافهم ذلك.

لكن من المعلوم أن تبديل لفظ من لفظ يستقيم إفادته لمعنى لا يوجب استقامه ذلك فى اللفظ الأول و إلاّ لبطلت أحكام الألفاظ.

على أن التأمل فيما تقدم فى معنى هذه الشهاده و أن المراد به تصديق القرآن لرساله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم يعطى أن وضع لفظه الجلاله فى هذا الموضع لا للتلميح الى معناه الوصفى بل لإسناده الشهاده الى الذات المقدسه المستجمعه لجميع صفات الكمال لأن شهادته أكبر الشهادات قال سبحانه «قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» .

و ذكر آخرون:أن المراد بالكتاب التوراه و الإنجيل أو خصوص التوراه و المعنى و كفى بعلماء الكتاب شهداء بينى و بينكم لأنهم يعلمون بما بشر اللّه به الأنبياء فىّ و يقرءون نعتى فى الكتاب.

و فيه أن الذى أخذ فى الآيه هو الشهاده دون مجرد العلم،و السوره مكيه و لم يؤمن أحد من علماء أهل الكتاب يومئذ كما قيل و لا شهد للرساله بشىء فلا معنى للاحتجاج بالاستناد الى شهاده لم يقم بها أحد بعد.

و قيل:المراد القوم الذين أسلموا من علماء أهل الكتاب كعبد اللّه بن سلام و تميم الدارى و الجارود و سلمان الفارسى،و قيل هو عبد اللّه بن سلام،و رد بأن السوره مكيه و هؤلاء إنما أسلموا بالمدينه.

و للقائلين بأنه عبد اللّه بن سلام جهد بليغ فى الدفاع عنه فقال بعضهم:إن مكيه السوره لا تنافى كون بعض آياته مدنيه فلم لا يجوز أن تكون هذه الآيه مدنيه مع كون السوره مكيه.

و فيه أولا:أن مجرد الجواز لا يثبت ذلك ما لم يكن هناك نقل صحيح قابل للتعويل عليه.

على أن الجمهور نصوا على أنها مكيه كما نقل عن البحر.

ص:۴۱۵

و ثانیا:أن ذلک إنما هو فی بعض الآیات الموضوعه فی خلال آیات السور النازله و أما فی مثل هذه الآیه التی هی ختام ناظره الی ما افتتحت به السوره فلا إذ لا معنی لإرجاء بعض الکلام المرتبط الأجزاء الی أمد غیر محدود.

و قال بعضهم:إن کون الآیه مکیه لا ینافی أن یکون الکلام إخبارا عما سیشهد به.

و فیه أن ذلک یوجب رداءه الحجه و سقوطها فأی معنی لأن یحتج علی قوم یقولون «لَسْتَ مُرْسَلاً» فیقال:صدّقوا به الیوم لأن بعض علماء أهل الکتاب سوف یشهدون به.

و قال بعضهم:إن هذه الشهاده شهاده تحمّل لا یستلزم إیمان الشهید حین الشهاده فیجوز أن تکون الآیه مکیه و المراد بها عبد اللّه بن سلام أو غیره من علماء الیهود و النصاری و إن لم یؤمنوا حین نزول الآیه.

و فیه أن المعنی حینئذ یعود الی الاحتجاج بعلم علماء أهل الکتاب و إن لم یعترفوا به و لم یؤمنوا،و لو کان کذلک لکان المتعین أن یستشهد بعلم الذین کفروا أنفسهم فإن الحجه کانت قد تمت علیهم بکون القرآن کلام اللّه و لا یکون ذلک إلاّ عن علمهم به فما الموجب للعدول عنهم الی غیرهم و هم مشترکون فی الکفر بالرساله و نفیها.علی أنه تقدم أن الشهاده فی الآیه لیست إلاّ شهاده أداء دون التحمل.

و قال بعضهم:-و هو ابن تیمیه و قد أغرب-إن الآیه مدنیه بالاتفاق.و هو کما تری.

و ذکر بعضهم:أن المراد بالکتاب القرآن الکریم،و المعنی أن من تحمّل هذا الکتاب و تحقق بعلمه و اختص به فإنه یشهد علی أنه من عند اللّه و أنی مرسل به فیعود مختتم السوره الی مفتتحها من قوله: «تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ وَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ الْحَقُّ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یُؤْمِنُونَ» و ینعطف آخرها علی أولها و علی ما فی أواسطها من قوله: «أَ فَمَنْ یَعْلَمُ أَنَّمٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ الْحَقُّ کَمَنْ هُوَ أَعْمیٰ إِنَّمٰا یَتَذَکَّرُ أُولُوا الْأَلْبٰابِ» .

و هذا فی الحقیقه انتصار و تأیید منه تعالی لکتابه قبال ما أزری به و استهانه الذین کفروا

حیث قالوا: «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ» مره بعد مره و: «لَسْتَ مُرْسَلاً» فلم یعبأ بأمره و لم یبالوا به و أجاب اللّه عن قولهم مره بعد مره و لم یتعرض لأمر القرآن و لم یذکر أنه أعظم آیه للرساله و کان من الواجب ذلک فقوله: «قُلْ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتٰابِ» استیفاء لهذا الغرض الواجب الذی لا یتم البیان دونه و هذا من أحسن الشواهد علی ما تقدم أن الآیه کسائر السوره مکیه.

و بهذا یتأید ما ذکره جمع و وردت به الروایات من طرق أئمه أهل البیت علیهم السّلام أن الآیه نزلت فی علی علیه السّلام فلو انطبق قوله: «وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتٰابِ» علی أحد ممن آمن بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم یومئذ لکان هو فقد کان أعلم الامه بکتاب اللّه و تکاثرت الروایات الصحیحه علی ذلک و لو لم یرد فیه إلاّ قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی حدیث (۱)الثقلین المتواتر من طرق الفریقین:«لن یفترقا حتی یردا علیّ الحوض»لکان فیه کفایه.

ص: ۴۱۷

۱- ۱) .و هو الحدیث المعروف الذی رواه الفریقان عن جم غفیر من الصحابه عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم«انی تارک فیکم الثقلین کتاب اللّه و عترتی أهل بیتی لن یفترقا حتی یردا علی الحوض ما ان تمسکتم بهما لن تضلوا بعدی أبدا».الحدیث.

سوره إبراهيم مكيه و هى اثنتان و خمسون آيه

اشاره

[سوره إبراهيم (۱۴): الآيات ۱ الى ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ
الر كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ اَلنّٰاسَ مِنَ اَلظُّلُمٰاتِ إِلَى اَلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلىٰ صِرٰاطِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَمِيدِ (۱) اَللّهِ اَلَّذِى لَهُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى اَلْأَرْضِ وَ وَيْلٌ لِلْكٰافِرِينَ مِنْ عَذٰابٍ شَدِيدٍ (۲) اَلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ اَلْحَيٰاهَ اَلدُّنْيٰا عَلَى اَلْآخِرَهِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اَللّهِ وَ يَبْغُونَهٰا عِوَجاً أُولٰئِكَ فِى ضَلاٰلٍ بَعِيدٍ (۳) وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ بِلِسٰانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اَللّٰهُ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشٰاءُ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۴) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ بِآيٰاتِنٰا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ اَلظُّلُمٰاتِ إِلَى اَلنُّورِ وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيّٰامِ اَللّهِ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ (۵)

ص: ۴۱۸

بیان:

السوره الکریمه تصف القرآن النازل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من حیث إنه آیه رسالته یخرج به الناس من الظلمات إلی النور و یهدیهم إلی صراط اللّه سبحانه الذی هو عزیز حمید أی غالب غیر مغلوب و غنی غیر محتاج إلی الناس و جمیل فی فعله منعم علیهم،و إذا کان المنعم غالبا غنیا حمید الأفعال کان علی المنعم علیهم أن یجیبوا دعوته و یلبوا نداءه حتی یسعدوا بما أفاض علیهم من النعم،و أن یخافوا سخطه و شدید عذابه فإنه قوی غیر محتاج إلی أحد،له أن یستغنی عنهم فیذهب بهم و یأتی بآخرین کما فعل بالذین کفروا بنعمته من الامم الماضین فإن آیات السماوات و الأرض ناطقه بأن النعمه کلها له و هو رب العزه و ولی الحمد لا رب سواه.

و بهذا تختتم السوره إذ یقول عزّ من قائل: هٰذٰا بَلاٰغٌ لِلنّٰاسِ وَ لِیُنْذَرُوا بِهِ وَ لِیَعْلَمُوا أَنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ وَ لِیَذَّکَّرَ أُولُوا الْأَلْبٰابِ .

و لعل ما ذکرنا هو مراد من قال:إن السوره مفتتحه ببیان الغرض من الرساله و الکتاب یشیر إلی قوله تعالی: لِتُخْرِجَ النّٰاسَ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَی النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ .

و السوره مکیه علی ما یدل علیه سیاق آیاتها،و نسب إلی ابن عباس و الحسن و قتاده أنها مکیه إلا آیتین منها نزلتا فی قتلی بدر من المشرکین: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ کُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ الْبَوٰارِ جَهَنَّمَ یَصْلَوْنَهٰا وَ بِئْسَ الْقَرٰارُ و سیأتی أن الآیتین غیر صریحتین و لا ظاهرتین فی ذلک.

قوله تعالی: الر کِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَیْکَ لِتُخْرِجَ النّٰاسَ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَی النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ أی هذا کتاب أنزلناه إلیک،فهو خبر لمبتدإ محذوف علی ما یعطیه السیاق و قیل غیر ذلک.

و قوله: لِتُخْرِجَ النّٰاسَ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَی النُّورِ ظاهر السیاق عموم الناس لا

خصوص قومه صلّى اللّه علیه و آله و سلم و لا خصوص المؤمنین منهم إذ لا دلیل علی التقیید من جهه اللفظ، و کلامه تعالی صریح فی عموم الرساله کقوله: لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراً (الفرقان/١)و قوله:

لِأُنْذِرَکُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ (الأنعام/١٩)،و قوله: قُلْ یا أَیُّهَا النّاسُ إِنِّی رَسُولُ اللّهِ إِلَیْکُمْ جَمِیعاً (الأعراف/١٥٨)،و الآیات الصریحه فی دعوه الیهود و عامّه أهل الکتاب، و عمله صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی دعوتهم و قبول إیمان من آمن منهم کعبد اللّه بن سلام و سلمان و بلال و صهیب و غیرهم تؤید ذلک.

علی أن آخر السوره هذا بَلاغٌ لِلنّاسِ وَ لِیُنْذَرُوا بِهِ الآیه؛و قد قوبل به أولها یؤیّد أن المراد بالناس أعمّ من المؤمنین الذین خرجوا من الظلمات إلی النور بالفعل.

و قد نسب الإخراج من الظلمات إلی النور إلی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لکون أحد الأسباب الظاهریه لذلک و إلیه ینتهی إیمان المؤمنین بدعوته بلا واسطه أو بواسطه،و لا ینافیه قوله: إِنَّکَ لا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لکِنَّ اللّهَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ (القصص/٥٦)،فإن الآیه إنما تنفی أصالته صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی الهدایه و استقلاله فیها من غیر أن تنفی عنه مطلق الهدایه حتی ما یکون علی نحو الوساطه و بإذن من اللّه تعالی،و الدلیل علیه قوله تعالی: وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (الشوری/٥٢)،و لذلک قید سبحانه قوله: «لِتُخْرِجَ» بقوله: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» .

و المراد بالظلمات و النور و الضلال و الهدی،و قد تکرر فی کلامه تعالی اعتبار الهدی نورا و عدّ الضلال ظلمه و جمع الظلمات دون النور،لأن الهدی من الحق و الحق واحد لا تغایر بین أجزائه و مصادیقه و لا کثره بخلاف الضلال فإنه من اتباع الهوی و الأهواء مختلفه متغایر بعضها مع بعض لا وحده بینها و لا اتحاد لأبعاضها و مصادیقها قال تعالی: وَ أَنَّ هذا صِراطِی مُسْتَقِیماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِکُمْ عَنْ سَبِیلِهِ (الأنعام/١٥٣).

و اللام فی قوله: لِتُخْرِجَ النّاسَ الخ؛لام الغرض بناء علی عموم الناس کما هو ظاهر الآیه،و لیس بلام المعاقبه إذ لو کان کذلک لکان الناس کلهم مؤمنین،و المعلوم خلافه.

و أما ما اعترض علیه بعضهم أن التربیه الإلهیه بإخراج الناس من الظلمات إلی النور و إیصالهم إلی السعاده و الکمال مشروطه بالتهیؤ و الاستعداد مع کون الفیض عاما فالمقدار الممکن من هذه العاقبه علی تقدیر عمومه هو هذا المقدار.

ففیه أنه اعتراف بأن کون اللام للعاقبه خلاف ظاهر الآیه،فإن الذی ذکره لا یتمّ إلا بتقیید «النّاسَ» بالمستعدّین،لکن الذی یجب أن یعلم أن هذا الغرض غرض تشریعی معناه أن للحکم غایه مقصوده و هی المصلحه التی یستعقبها،فإن اللّه سبحانه یدعو الناس لیغفر لهم و یهدیهم الی الإیمان و العمل الصالح لیسعدهم بذلک و یدخلهم الجنه،و یرسل الرسل و ینزّل علیهم الکتاب لیخرجوا الناس من الظلمات الی النور بإذن ربهم،و یرید بما یوجّهه الیهم من الأمر و النهی أن یطهّرهم و یذهب عنهم رجز الشیطان،و الآیات الدالّه علی ذلک کثیره لا موجب لإیرادها و کذا الروایات و لعلها تزهو الالوف.

قوله تعالی: إِلیٰ صِرٰاطِ الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ، اَللّٰهِ الَّذِی لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ العزه تقابل الذله،قال الراغب:العزه حاله مانعه للإنسان من أن یغلب من قولهم:أرض عزاز أی صلبه،قال تعالی: أَ یَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّهَ فَإِنَّ الْعِزَّهَ لِلّٰهِ جَمِیعاً و تعزّز اللحم اشتدّ و عزّ کأنه حصل فی عزاز یصعب الوصول إلیه،انتهی موضع الحاجه.

فعزه العزیز هی کونه بحیث یصعب نیله و الوصول إلیه و منه عزیز القوم و هو الذی یقهر و لا یقهر لأنه ذو مقام لا یصل إلیه من قصده دون أن یمنع قبل الوصول إلیه و یقهر،و منه العزیز لما قل وجوده لصعوبه نیله،و منه العزیز بمعنی الشاق لأن الذی یشقّ علی الإنسان یصعب حصوله،قال تعالی: عَزِیزٌ عَلَیْهِ مٰا عَنِتُّمْ (التوبه/۱۲۸)،و منه قوله: وَ عَزَّنِی فِی الْخِطٰابِ (ص/۲۳)،أی غلبنی علی ما فسر به.

و اللّه سبحانه عزیز لأنه الذات الذی لا یقهره شیء من جهه و هو یقهر کل شیء من کل جهه و لذلک انحصرت العزه فیه تعالی فلا توجد عند غیره إلا باکتساب منه و بإذنه قال تعالی:

أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً (النساء۱۳۹/)،و قال: مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً (فاطر ۱۰/).

و الحميد فعيل بمعنى المفعول من الحمد و هو الثناء على الجميل الاختيارى،و إذ كان كل جمال ينتهى إليه سبحانه كان جميع الحمد له كما قال: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ (سوره الحمد۲/)و من غريب القول ما عن الإمام الرازى على ما سننقله:أن الحميد معناه العالم الغنى.

و قوله: إِلىٰ صِرٰاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ بدل من قوله: «إِلَى النُّورِ» يبيّن به ما يوصل إليه الكتاب الذى أنزله على نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بيانا بعد بيان فنبّه أولا بأنه نور يميز الحق من الباطل و الخير من الشر و السعاده من الشقاوه،و ثانيا بأنه طريق واضح يجمع سالكيه فى متنه و ينتهى بهم جميعا إلى اللّه العزيز الحميد.

و الوجه فى ذكر الصفتين الكريمتين:العزيز الحميد أنهما مبدءان لما سيورد فى السوره من الكلام الموجه إليهم فإن عمده الكلام فى السوره هى تذكيرهم أن اللّه أنعم عليهم بربوبيته كل نعمه عظيمه،ثم عزم عليهم من طريق رسله أن يشكروه و لا يكفروه و وعد رسله أنهم إن آمنوا أدخلهم الجنه،و إن كفروا انتقم منهم و أوردهم مورد الشقاء و العذاب،فليخافوا ربهم و ليحذروا مخالفه أمره و كفران نعمته لأن له كل العزه لا نمنع عن حلول سخطه بهم و نزول عذابه عليهم شىء،حميد لا يذم فى إثابته المؤمنين،و لا فى تعذيب الكافرين،كما لا يذم فيما بسط عليهم من نعمه التى لا تحصى.

فجلّ الكلام فى هذه السوره فيما يقتضيه الصفات الثلاث:توحّده تعالى بالربوبيه و عزته و كونه حميدا فى أفعاله فليخف من عزته المطلقه،و ليشكر و ليوثق بما وعد و ليتذكر من آيات ربوبيته.

و أما قوله: اَللّٰهِ الَّذِى لَهُ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى الْأَرْضِ فبيان للعزيز

الحمید،و المراد بما فی السماوات و الأرض کل ما فی الکون فیشمل نفس السماوات و الأرض کما یشمل ما فیهما،فهو تعالی یملک کل شیء من کل جهه بحقیقه معنی الملک.

و فیه إشاره الی الحجه فی کونه تعالی عزیزا حمیدا،فإنه تعالی و إن کان هو الذی یحق الحق بکلماته و هو الذی ینجح کل حجه فی دلالتها،لکنه جاری عباده فی کلامه علی ما فطرهم علیه،و ذلک أنه تعالی لما ملک کل خلق و أمر بحقیقه معنی الملک فهو المالک لکل قهر و غلبه فلا قهر إلا منه و لا غلبه إلا له،فهو تعالی عزیز و له أن یتصرف فی ما یشاء بما یشاء و لا یکون تصرّفه إلا محمودا غیر مذموم لأن التصرف إنما یکون مذموما إذا کان المتصرف لا یملکه إما عقلا أو شرعا أو عرفا،و أی تصرف نسبه الیه تعالی عقل أو شرع أو عرف فإنه یملکه،فهو تعالی حمید محمود الأفعال.

قوله تعالی: وَ وَیْلٌ لِلْکافِرِینَ مِنْ عَذابٍ شَدِیدٍ بیان لما تقتضیه صفه العزه من القهر لمن یردّ دعوته و یکفر بنعمته.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ یَسْتَحِبُّونَ الْحَیاهَ الدُّنْیا عَلَی الْآخِرَهِ وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ وَ یَبْغُونَها عِوَجاً الخ؛قال الراغب فی المفردات:و قوله عزّ و جل: «إِنِ اسْتَحَبُّوا الْکُفْرَ عَلَی الْإِیمانِ» أی إن آثروه علیه،و حقیقه الاستحباب أن یتحرّی الإنسان فی الشیء أن یحبه،و اقتضی تعدیته بعلی معنی الإیثار،و علی هذا قوله تعالی: وَ أَمّا ثَمُودُ فَهَدَیْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمی عَلَی الْهُدی ،انتهی.

و معنی استحباب الدنیا علی الآخره اختیار الدنیا و ترک الآخره رأسا،و یقابله اختیار الآخره علی الدنیا بمعنی أخذ الآخره غایه للسعی و جعل الدنیا مقدّمه لها یتوسل بها إلیها، و أما اختیار الآخره و ترک الدنیا من أصلها فإنه مضاف الی عدم إمکانه بحقیقه معنی الکلمه یوجب اختلال أمر الآخره،و ینجرّ الی ترکها بالآخره،فالحیاه الدنیا حیاه منقطعه و الحیاه الآخره حیاه دائمه یتوسل الی سعادتها من طریق الدنیا بالاکتساب،فمن اختار الآخره و أثبتها

لزمه إثبات الدنيا لمكان مقدّميّتها،و من اختار الدنيا و جعلها غايه لزمه نفى الآخره من أصلها لأنها لو ثبتت ثبتت غايه و إذ لم يجعل غايه انتفت،فليس بين يدى الإنسان إلا خصلتان:

اختيار الآخره على الدنيا بجعل الآخره غايه و إثبات الدنيا معها للمقدّميه،و اختيار الدنيا على الآخره بجعل الدنيا غايه و نفى الآخره من أصلها.

و قوله: وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً مفاده أنهم يكفّون أنفسهم عن الاستنان بسنه اللّه و التدين بدينه أو يصدون و يصرفون الناس عن الإيمان باللّه و اليوم الآخر و التشرّع بشريعته عنادا منهم للحق،و يطلبون سنه اللّه عوجا و منحرفه بالاستنان بغيرها من سنه اجتماعيه أيا ما كانت ثم سجل عليهم الضلال بقوله سبحانه: «ذٰلِكَ هُوَ الضَّلاٰلُ الْبَعِيدُ» .

قوله تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ بِلِسٰانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ إلى آخر الآيه.اللسان هو اللغه،قال تعالى: بِلِسٰانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (الشعراء۱۹۵/).

و الضمير فى «قَوْمِهِ» عائد إلى «رَسُولٍ» و فى «لَهُمْ» إلى «قَوْمِهِ» و المحصّل ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قوم ذلك الرسول ليبين لقومه،و من الخطأ إرجاع ضمير قومه إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ليفيد أن اللّه سبحانه كان يوحى إلى جميع الرسل بالعربيّه لفساد المعنى بذلك لرجوع ضمير «لَهُمْ» إلى «قَوْمِهِ» فيفيد أنّ اللّه أنزل التوراه لموسى مثلا بالعربيه ليبين للعرب كما فى الكشّاف.

و المراد بإرسال الرسول بلسان قومه إرساله بلسان القوم الذين كان يعيش فيهم و يخالطهم و يعاشرهم و ليس المراد به الإرسال بلسان القوم الذين هو منهم نسبا لأنه سبحانه يصرح بمهاجره لوط عليه السّلام من كلده و هم سريانيه اللسان إلى المؤتفكات،و هم عبرانيون و سمّاهم قومه و أرسله إليهم ثم أنجاه و أهله إلا امرأته و هى منهم و أهلكهم قال تعالى: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قٰالَ إِنِّي مُهٰاجِرٌ إِلىٰ رَبِّي (العنكبوت۲۶/)و فى مواضع من كلامه تعالى «قَوْمِ

لُوطٍ» .

و أما من أرسل إلى أزيد من أمّه و هم أولو العزم من الرسل فمن الدليل على أنهم كانوا يدعون أقواما من غير أهل لسانهم ما حكاه اللّه من دعوه إبراهيم عليه السّلام عرب الحجاز إلى الحجّ، و دعوه موسى عليه السّلام فرعون و قومه إلى الإيمان و عموم دعوه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قد اشتمل القرآن على دعوه اليهود و النصارى و غيرهم و قبول إيمان من آمن منهم بالنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و كذا ما يستفاد من عموم دعوه نوح عليه السّلام.و على هذا فالمراد بقوله: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ بِلِسٰانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» -و اللّه أعلم-أن اللّه لم يبين إرسال الرسل و الدعوه الدينيه على أساس معجز خارق للعاده الجاريه و لا فوّض إلى رسله من الأمر شيئا بل أرسلهم باللسان العادى الذى كانوا يكالمون قومهم و يحاورونهم به ليبيّنوا لهم مقاصد الوحى فليس لهم إلا البيان،و أما ما وراء ذلك من الهدايه و الإضلال فإلى اللّه سبحانه لا يشاركه فى ذلك رسول و لا غيره.

فتعود الآيه كالبيان و الإيضاح لقوله تعالى قبل: «كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النّٰاسَ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» و أنّ معنى إخراجك الناس من الظلمات إلى النور أن تبين لهم ما أنزل اللّه لا أزيد من ذلك فيكون فى معنى قوله: وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّٰاسِ مٰا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (النحل/۴۴).

و أما قوله: فَيُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ فإشاره إلى ما أومأنا اليه أن أمر الهدى و الضلال إلى اللّه لا يتحقق شىء منهما إلا عن مشيّه منه تعالى غير أنه سبحانه أخبرنا أنّ هذه المشيّه منه ليست جزافيه غير منتظمه بل لها نظم ثابت فمن اتّبع الحق و لم يعانده هداه اللّه،و من جاحده و اتّبع هواه أضله اللّه فهو إضلال مجازاه غير الإضلال الابتدائى المذموم.

و قد قدم سبحانه الإضلال على الهدايه إذ قال: «فَيُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ» لأن ذلك أحوج إلى البيان بالنظر إلى أن الكلام مبنى على عزته المطلقه فكان من الواجب أن

يبين أن ضـلال من يضلّ عن السبيل كهدى من اهتدى إليها إنما هو بمشـيه منه تعالى و لم يغلب فى إرادته و لم يزاحم فى ملكه حتى لاـ يختِيل الى كـل مغفـل من النـاس أن اللّه يصف نفسه بـالعزه المطلقه و أنه غالب غير مغلوب و قاهر غير مقهور ثم يـدعو الناس فلا يستجيبون دعوته و يأمرهم و ينهاهم فيعصون و لا يطيعون و هل هذا الا غلبه منهم و قهر و هو مغلوب مقهور؟

فكـأنه تعـالى أجاب عن ذلك بأن معنى دعوته أن يرسل رسولا بلسان قومه فيبين لهم ما يسـعدهم مما يشـقيهم،و أمّا ضـلال من ضلّ من الناس كهدى من اهتدى منهم فبمشيّه من اللّه و إذنه،و حاشاه أن يقهر فى سلطانه أو يتصرّف فى ملكه أحد بغير إذنه.

فضـلال من ضلّ منهم دليل عزته فضـلا أن يكون ناقضا لها كما أن هدى من اهتدى كذلك، و لذلك ذيّل الكلام بقوله: «وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فهو سبحانه عزيز لا يغلبه و لا يضرّه ضلال من ضل منهم،و لا ينفعه هدى من اهتدى حكيم لا يشاء من شاء جزافا و عبثا بل عن نظام متقن دائمى.

قوله تعـالى: وَ لَقَـدْ أَرْسَـلْنا مُوسـى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَـکَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ إلى آخر الآيه؛إذ كان الكلام فى السوره مبنيا على الإنـذار و التـذكير بعزه اللّه سـبحانه ناسب أن يذكر إرسال موسـى بالآيات لهدايه قومه فإن قصه رسالته من أوضح مصاديق ظهور العزه الإلهيه من بين الرسل،و قـد قال تعالى فيه: وَ لَقَدْ أَرْسَـلْنا مُوسـى بِآياتِنا وَ سُـلْطانٍ مُبِينٍ (المؤمن٢٣/)،و قال حاكيا عنه عليه السّلام: وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللّهِ إِنِّی آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (الدخان١٩/).

فوزان الآـيه أعنى قوله: «وَ لَقَـدْ أَرْسَـلْنا مُوسـى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَـکَ مِنَ الظُّلُمـاتِ إِلَى النُّورِ» ،من قوله: «كِتـابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النّـاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» وزان التنظير بـداعى التأييـد و تطييب النفس كما فى قوله: إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ (النساء١٦٣/).

و قوله: وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيّٰامِ اللّٰهِ لا شك أن المراد بها أيام خاصه،و نسبه أيام خاصه إلى اللّه سبحانه مع كون جميع الأيام و كل الأشياء له تعالى ليست إلا لظهور أمره تعالى فيها ظهورا لا يبقى معه لغيره ظهور،فهى الأزمنه و الظروف التى ظهرت أو سيظهر فيها أمره تعالى و آيات وحدانيته و سلطنته كيوم الموت الذى يظهر فيه سلطان الآخره و تسقط فيه الأسباب الدنيويه عن التأثير،و يوم القيامه الذى لا يملك فيه نفس لنفس شيئا و الأمر يومئذ للّه، و كالأيام التى أهلك اللّه فيها قوم نوح و عاد و ثمود فإن هذه و أمثالها أيام ظهر فيها الغلبه و القهر و الإلهيان و أن العزه للّه جميعا.

و يمكن أن يكون منها أيام ظهرت فيها النعم الإلهيه ظهورا ليس فيه لغيره تعالى صنع كيوم خروج نوح عليه السّلام و أصحابه من السفينه بسلام من اللّه و بركات و يوم إنجاء إبراهيم من النار و غيرهما فإنها أيضا كسوابقها لا نسبه لها فى الحقيقه إلى غيره تعالى فهى أيام اللّه منسوبه إليه كما ينسب الأيام إلى الامم و الأقوام و منه أيام العرب كيوم ذى قار و يوم فجار و يوم بغاث و غير ذلك.

و تخصيص بعضهم الأيام بنعماء اللّه سبحانه بالنظر إلى ما سيأتى من ذكر نعمه تعالى كتخصيص آخرين لها بنقماته تعالى خال عن الوجه بعد ما كان الكلام جاريا فى السوره على ما تقتضيه عزّته تعالى،و من مقتضى صفه عزته الإنعام على العباد و الأخذ الشديد إن كفروا بنعمته.

ثم تمّم الكلام بقوله: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ أى كثير الصبر عند الضرّاء و كثير الشكر على النعماء.

[سوره إبراهيم (۱۴): الآيات ۶ الى ۱۸]

اشاره

وَ إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ اُذْكُرُوا نِعْمَةَ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجٰاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ اَلْعَذٰابِ وَ يُذَبِّحُونَ أَبْنٰاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسٰاءَكُمْ وَ فِي ذٰلِكُمْ بَلاٰءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (۶) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِي لَشَدِيدٌ (۷) وَ قٰالَ مُوسىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اَللّٰهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (۸) أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عٰادٍ وَ ثَمُودَ وَ اَلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاٰ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اَللّٰهُ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوٰاهِهِمْ وَ قٰالُوا إِنّٰا كَفَرْنٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنّٰا لَفِي شَكٍّ مِمّٰا تَدْعُونَنٰا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (۹) قٰالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اَللّٰهِ شَكٌّ فٰاطِرِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قٰالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونٰا عَمّٰا كٰانَ يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا فَأْتُونٰا بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ (۱۰) قٰالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ يَمُنُّ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ مٰا كٰانَ لَنٰا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطٰانٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ عَلَى اَللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُؤْمِنُونَ (۱۱) وَ مٰا لَنٰا أَلاّٰ نَتَوَكَّلَ عَلَى اَللّٰهِ وَ قَدْ هَدٰانٰا سُبُلَنٰا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلىٰ مٰا آذَيْتُمُونٰا وَ عَلَى اَللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُتَوَكِّلُونَ (۱۲) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنٰا فَأَوْحىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ اَلظّٰالِمِينَ (۱۳) وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ اَلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذٰلِكَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامِي وَ خٰافَ وَعِيدِ (۱۴) وَ اِسْتَفْتَحُوا وَ خٰابَ كُلُّ جَبّٰارٍ عَنِيدٍ (۱۵) مِنْ وَرٰائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقىٰ مِنْ مٰاءٍ صَدِيدٍ (۱۶) يَتَجَرَّعُهُ وَ لاٰ يَكٰادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ اَلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكٰانٍ وَ مٰا هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرٰائِهِ عَذٰابٌ غَلِيظٌ (۱۷) مَثَلُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمٰالُهُمْ كَرَمٰادٍ اِشْتَدَّتْ بِهِ اَلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عٰاصِفٍ لاٰ يَقْدِرُونَ مِمّٰا كَسَبُوا عَلىٰ شَيْءٍ ذٰلِكَ هُوَ اَلضَّلاٰلُ اَلْبَعِيدُ (۱۸)

ص :۴۲۸

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذْ قٰالَ مُوسیٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ إلی آخر الآیه؛السوم علی ما ذکره الراغب بمعنی الذهاب فی ابتغاء الشیء فهو لفظ لمعنی یترکب من الذهاب و الابتغاء فکأنه فی الآیه بمعنی إذاقه العذاب،و الاستحیاء استبقاء الحیاه.

و المعنی و اذکر أیها الرسول لزیاده التثبت فی أن اللّه عزیز حمید إذ قال موسی لقومه و هم بنو إسرائیل:اذکروا نعمه اللّه علیکم یوم أنجاکم من آل فرعون و خاصه من القبط و الحال أنهم مستمرون علی إذاقتکم سوء العذاب و یکثرون ذبح الذکور من أولادکم و علی استبقاء حیاه نسائکم للاسترقاق،و فی ذلکم بلاء و محنه من ربکم عظیم.

قوله تعالی: وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ

عَذابِی لَشَدِیدٌ قال فی المجمع:التأذّن الإعلام یقال:آذن و تأذّن و مثله أوعد و توعّد.

انتهی.

و قوله: وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکُمْ الخ؛معطوف علی قوله: «وَ إِذْ قالَ مُوسی لِقَوْمِهِ» و موقع الآیه التالیه «وَ قالَ مُوسی» الخ؛من هذه الآیه کموقع قوله: «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسی» الخ؛من قوله: کِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَیْکَ لِتُخْرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ فافهم ذلک فهو الأنسب بسیاق کلامه تعالی.

و من لطیف کرمه تعالی اللائح من الآیه-کما ذکره بعضهم-اشتمالها علی التصریح بالوعد و التعریض فی الوعید حیث قال: «لَأَزِیدَنَّکُمْ» و قال: «إِنَّ عَذابِی لَشَدِیدٌ» و لم یقل:

لاعذبنکم و ذلک من دأب الکرام فی وعدهم و وعیدهم غالبا.

و الآیه مطلقه لا دلیل علی اختصاص ما فیها من الوعد و الوعید بالدنیا و لا بالآخره، و تأثیر الإیمان و الکفر و التقوی و الفسق فی شئون الحیاه الدنیا و الآخره معا معلوم من القرآن.

و قد استدلّ بالآیه علی وجوب شکر المنعم،و الحق أن الآیه لا تدلّ علی أزید من أن الکافر علی خطر من کفره فإن اللّه سبحانه لم یصرّح بفعلیه العذاب علی کل کفر إذ قال: «وَ لَئِنْ کَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِی لَشَدِیدٌ» و لم یقل:لاعذبنکم.

قوله تعالی: وَ قالَ مُوسی إِنْ تَکْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِیٌّ حَمِیدٌ لما أمر تعال بشکر نعمه بذکر ما تأذن به من الزیاده علی الشکر و العذاب علی الکفر علی ما تقتضیه العزه المطلقه ذکر فی تأییده من کلام موسی علیه السّلام ما یجری مجری التنظیر فقال: «وَ قالَ مُوسی» و الکلام جار علی هذا النمط الی تمام عشر آیات.

و أما أن اللّه غنی و إن کفر من فی الأرض جمیعا فإنه غنی بالذات عن کل شیء فلا ینتفع بشکر و لا یتضرر بکفر،و إنما یعود النفع و الضرر الی الإنسان فیما أتی به،و أما أنه حمید فلأن الحمد هو إظهار الحامد بلسانه ما لفعل المحمود من الجمال و الحسن و فعله تعالی حسن جمیل

من کل جهه فهو جمیل ظاهر الجمال یمتنع خفاؤه و إخفاؤه،فهو تعالی محمود سواء حمده حامد باللسان أو لم یحمد.

علی أن کل شیء یحمده بتمام وجوده حتی الکافر بنعمته کما قال تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (الإسراء۴۴/)،فهو تعالی محمود سواء حمده الناس بألسنتهم أو لم یحمدوه، و له کل الحمد سواء قصد به هو أو قصد به غیره.

قوله تعالی: أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عٰادٍ وَ ثَمُودَ إلی آخر الآیه؛من کلام موسی علیه السّلام یذکّر قومه من أیام اللّه فی الامم الماضین ممن فنیت أشخاصهم و خمدت أنفاسهم و عفت آثارهم و انقطعت أخبارهم فلا یعلمهم بحقیقه حالهم تفصیلا إلا اللّه کقوم نوح و عاد و ثمود و الذین من بعدهم.

و قوله: جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوٰاهِهِمْ الظاهر أن المراد به أن رسلهم جاءوهم بحجج بیّنه تبین الحق و تجلیه من غیر أی إبهام و ریب فمنعوهم أن یتفوّهوا بالحق و سدّوا علیهم طریق التکلم.

فالضمیران فی «أَيْدِيَهُمْ» و «أَفْوٰاهِهِمْ» للرسل،و ردّ أیدیهم فی أفواههم کنایه عن إجبارهم علی أن یسکتوا و یکفّوا عن التکلم بالحق کأنهم أخذوا بأیدی رسلهم و ردّوها فی أفواههم إیذانا بأن من الواجب علیکم أن تکفوا عن الکلام،و یؤیده قوله بعد: «وَ قٰالُوا إِنّٰا كَفَرْنٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنّٰا لَفِي شَكٍّ مِمّٰا تَدْعُونَنٰا إِلَيْهِ مُرِيبٍ» فإن دعوی الشک و الریب قبال الحجه البیّنه و الحق الصریح الذی لا یبقی مجالا للشک لا تتحقق إلا من جاحد مکابر متحکم مجازف لا یستطیع أن یسمع کلمه الحق فیجبر قائلها علی السکوت و الصمت.

و أما قوله: وَ قٰالُوا إِنّٰا كَفَرْنٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنّٰا لَفِي شَكٍّ مِمّٰا تَدْعُونَنٰا إِلَيْهِ مُرِيبٍ فهو نحو بیان لقوله: «فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوٰاهِهِمْ» و الجمله الاولی أعنی قولهم: «إِنّٰا كَفَرْنٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ» إنکار للشریعه الإلهیه التی هی متن الرساله،و الجمله الثانیه أعنی قولهم:

«وَ إِنّٰا لَفِی شَکٍّ» الخ؛إنکار لما جاءوا به من الحجج و البیّنات و إظهار ریب فیما کانوا یدعون الیه و هو توحید الربوبیه.

قوله تعالی: قٰالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِی اللّٰهِ شَکٌّ فٰاطِرِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ یَدْعُوکُمْ لِیَغْفِرَ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ وَ یُؤَخِّرَکُمْ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی
أصل الفطر علی ما ذکره الراغب الشقّ طولا یقال:فطرت الشیء فطرا أی شققته طولا،و أفطر الشیء فطورا و انفطر انفطارا أی قبل الفطر،و استعمل فی القرآن فیما انتسب إلیه تعالی بمعنی الإیجاد بنوع من العنایه کأنه تعالی شق العدم شقا فأظهر من بطنه الأشیاء فهی ظاهره ما أمسک هو تعالی علی شقی العدم موجوده ما کان ممسکا لها و لو ترک الإمساک لانعدمت و زالت کما قال تعالی: إِنَّ اللّٰهَ یُمْسِکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولاٰ وَ لَئِنْ زٰالَتٰا إِنْ أَمْسَکَهُمٰا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ (فاطر/ ۴۱).

و علی هذا فتفسیر الفطر بالخلق الذی هو جمع الأجزاء و الأبعاض کما وقع فی بعض العبارات لیس علی ما ینبغی،و یؤید ذلک أن الفطر لو کان بمعنی الخلق لکان البرهان الذی أشیر إلیه بقوله: «فٰاطِرِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» مسوقا لإثبات وجود الخالق فکان أجنبیا عن المقام لأن الوثنیه لا تنکر وجود خالق للعالم و أنه هو اللّه عزّ اسمه لا غیر،و إنما ینکرون توحید الربوبیه و العباده و هو أن یکون اللّه سبحانه هو الربّ المعبود لا غیر،و البرهان علی کونه تعالی خالقا للسماوات و الأرض لا ینفع فیه شیئا.

و کیف کان فقوله: قٰالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِی اللّٰهِ شَکٌّ الخ؛کلام قوبل به قولهم:

وَ قٰالُوا إِنّٰا کَفَرْنٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنّٰا لَفِی شَکٍّ مِمّٰا تَدْعُونَنٰا إِلَیْهِ مُرِیبٍ و قد عرفت أن قولهم هذا یتضمن إنکارین:إنکارهم للرساله و تشککهم فی توحید الربوبیّه فکلام الرسل المورد جوابا منهم عن قولهم بالمقابله متضمن لجزءین.

فقولهم: أَ فِی اللّٰهِ شَکٌّ فٰاطِرِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ برهان علی توحید

الربوبيه إذ لو سيق لمجرد الإنكار على الكفار من غير إشاره إلى برهان لم يكن حاجه إلى ذكر الوصف «فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» ففى ذكره دلاله على أنه مزيل كل شك و ريب عنه تعالى.

و ذلك أنا نرى فى أول ما نعقل أن لهذا العالم المشهود الذى هو مؤلف من أشياء كثيره كل واحد منها محدود فى نفسه متميز من غيره وجودا،و ليس وجوده و لا وجود شىء من أجزائه من نفسه و قائما بذاته و إلا لم يتغير و لم ينعدم فوجوده و وجود أجزائه و كذا كل ما يرجع إلى الوجود من الصفات و الآثار من غيرها و لغيرها و هذا الغير هو الذى نسمّيه«الله»عز اسمه.

فهو تعالى الذى يوجد العالم و كل جزء من أجزائه و يحده و يميزه من غيره فهو فى نفسه موجود غير محدود و إلا لاحتاج إلى آخر يحدده فهو تعالى واحد لا يقبل الكثره لأن ما لا يحد بحد لا يقبل الكثره.

و هو بوحدته يدبّر كل أمر كما أنه يوجده لأنه هو المالك لوجودها و الكل أمر يرجع إلى وجودها،و لا يشاركه غيره فى شىء لأن شيئا من الموجودات غيره لا يملك لنفسه و لا لغيره فهو تعالى ربّ كل شىء لا ربّ غيره،كما أنه موجد كل شىء لا موجد غيره.

و هذا برهان تام سهل التناول حتى للأفهام البسيطه يناله الإنسان الذى يذعن بفطرته أن للعالم المشهود حقيقه و واقعيه من غير أن يكون وهما مجردا كما يبديه السفسطه و الشك، و يثبت به توحد الالوهيه و الربوبيه،و لذلك تمسك به فى هذا المقام الذى هو مقام خصام الوثنيه.

و قوله: وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى أى لا يعاجلكم بالعقوبه و الهلاك و يؤخركم الى الأجل الذى لا يؤخر و قد سمّاه لكم و لا يبدّل القول لديه،و قد تقدم فى تفسير أول سوره الأنعام أن الأجل أجلان:أجل موقوف معلّق،و أجل مسمى لا يؤخر.

و من الدليل على هذا الذى ذكرناه قول نوح لقومه فى هذا المقام على ما حكاه اللّه سبحانه:

وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللّهِ إِذٰا جٰاءَ لاٰ يُؤَخَّرُ (نوح۴/).

قوله تعالى: قٰالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونٰا عَمّٰا كٰانَ يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا فَأْتُونٰا بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ قد تقدم فى مباحث النبوّه فى الجزء الثانى من الكتاب أن الآيه المعجزه حجه عامه على نبوه النبى لا حجه عاميه و خاصه الوحى و النبوه التى هى نوع اتصال بالغيب أمر خارق للعاده الجاريه بين أفراد الإنسان لا يجدونها من أنفسهم فعلى من يدّعيها الإثبات،و لا طريق الى إثباتها إلا بالإتيان بخارق عاده آخر يدلّ على صحه هذا الاتصال الغيبى لأن حكم الأمثال واحد،و إذا جاز أن تخترق العاده بشىء جاز أن تخترق بما يماثله.

و الرسل عليهم السّلام لما احتجوا على كفار أممهم فى النبوه العامه بقولهم: «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى» عادت الكفار اليهم بطلب الدليل منهم على ما يدّعونه من النبوه لأنفسهم معتذرين فى ذلك بقولهم: «إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا» ،ثم صرّحوا بما يطلبونه من الدليل و هو الآيه المعجزه بقولهم: «فَأْتُونٰا بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ» .

فالمعنى سلّمنا أن من مقتضى العنايه الإلهيه أن يدعونا الى المغفره و الرحمه،لكنّا لا نسلّم لكم أن هذه الدعوه قائمه بكم كما تدّعون فإنكم بشر مثلنا لا تزيدون علينا بشىء،و لو كان مجرد البشريه يوجب ذلك لكنّا وجدناه من أنفسنا و نحن بشر،فإن كنتم صادقين فى دعواكم هذه فأتونا بسلطان مبين أى ببرهان قاطع يتسلط على عقولنا و يضطرّنا الى الإذعان بنبوّتكم و هو آيه معجزه غيبه تخرق العاده كما أن ما تدّعونه خارق مثلها.

و بهذا البيان يظهر أولا أن كلامهم هذا من قبيل منع الدعوى،و قولهم: «إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا» سند المنع،و قولهم: «فَأْتُونٰا بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ» تصريح بطلب الدليل.

و ثانيا أن قولهم: «تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونٰا عَمّٰا كٰانَ يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا» من قبيل الاعتراض الواقع بين المنع و سنده و معناه أنكم لما كنتم بشرا مثلنا لا فضل لكم علينا بشىء فلا وجه لأن نقبل

منكم ما لا نجده من أنفسنا و لا تعهده من أمثالنا،و الذى نعهده من أمثال هذه الامور أنها إنما تظهر عن أغراض و مطامع دنيويه ماديه فليس إلا أنكم تريدون أن تصرفونا عن سنّتنا القوميه و طريقتنا المثلى.

قوله تعالى: قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَمُنُّ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ إلى آخر الآيه جواب الرسل عمّا أوردوه على رسالتهم بأنكم بشر مثلنا فلستم ذوى هويه ملكوتيه حتى تتصلوا بالغيب فإن كنتم صادقين فى دعواكم هذه القدره الغيبيه فأتونا بسلطان مبين.

و محصل الجواب أن كوننا بشرا مثلكم مسلم لكنه يوجب خلاف ما استوجبتموه أما قولكم إن كونكم بشرا مثلنا يوجب أن لا تختصموا بخصيصه لا نجدها من أنفسنا و هى الوحى الرساله فجوابه:أن المماثله فى البشريه لا توجب المماثله فى جميع الكمالات الصوريه و المعنويه الإنسانيه كما أن اعتدال الخلقه و جمال الهيئه و كذا رزانه العقل و إصابه الرأى و الفهم و الذكاء كمالات صوريه و معنويه توجد فى بعض أفراد الإنسان دون بعض،فمن الجائز أن ينعم اللّه بالوحى و الرساله على بعض عباده دون بعض فإنّ اللّه يمن على من يشاء منهم.

و أما قولكم فَأْتُونٰا بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ فإنه مبنى على كون النبى ذا شخصيه ملكوتيه و قدره غيبيه فعاله لما تشاء،و ليس كذلك فما النبى إلا بشر مثلكم يوحى إليه بالرساله و ليس له من الأمر شىء،و ما كان له أن يأتى بآيه من عنده إلا أن يشاء اللّه ذلك و يأذن فيه.

فقوله: إِنْ نَحْنُ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ تسليم من الرسل لقولهم: «إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنٰا» لاستنتاج خلاف ما استنتجوه منه،و قوله: «وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَمُنُّ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ» إشاره إلى مقدمه بانضمامها يستنتج المطلوب،و قوله: «وَ مٰا كٰانَ لَنٰا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطٰانٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّٰهِ» جواب منهم استنتجوه من كونهم بشرا مثلهم.

و تذييل هذا الكلام بقولهم: وَ عَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ للإشاره الى ما

يجرى مجرى حجه ثانيه على إرجاع الأمر كله-و منه أمر الآيه المعجزه-الى اللّه و هى حجه خاصه بالمؤمنين،و ملخصها أن الإيمان باللّه سبحانه يقتضى منهم أن يذعنوا بأن الإتيان بالآيه إنما هو الى اللّه لأن الحول و القوه له خاصه لا يملك غيره من ذلك شيئا إلا بإذنه.

و ذلك لأنه هو اللّه عز شأنه،فهو الذى يبدأ منه و ينتهى اليه و يقوم به كل شىء فهو رب كل شىء المالك لتدبير أمره لا يملك شىء أمرا إلا بإذنه فهو وكيل كل شىء القائم بما يرجع اليه من الأمر،فعلى المؤمن ان يتخذ ربه وكيلا فى جميع ما يرجع اليه حتى فى أعماله التى تنسب اليه لما أن القوه كلها له سبحانه و على الرسول ان يذعن بأن ليس له الإتيان بآيه معجزه إلا بإذن اللّه.

و الآيه ظاهره فى أن الرسل عليهم السّلام لم يدّعوا امتناع إتيانهم بالآيه المعجزه المسماه سلطانا مبينا،و إنما ادّعوا امتناع أن يستقلوا بذلك من غير حاجه فيه إلى إذن اللّه سبحانه،و احتجوا على ذلك أولا،و ثانيا.

قوله تعالى: وَ مٰا لَنٰا أَلاّٰ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّٰهِ وَ قَدْ هَدٰانٰا سُبُلَنٰا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلىٰ مٰا آذَيْتُمُونٰا وَ عَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ما استفهاميه و الاستفهام للإنكار، و قوله: «وَ قَدْ هَدٰانٰا سُبُلَنٰا» حال من الضمير فى «لَنٰا» و سبل الأنبياء و الرسل الشرائع التى كانوا يدعون إليها،قال تعالى: قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللّٰهِ عَلىٰ بَصِيرَةٍ (يوسف١٠٨/) و المعنى ما الذى نملكه من العذر فى أن لا نتوكل على اللّه و الحال أنه تعالى هدانا سبلنا و لم يكن لنا صنع فى هذه النعمه و السعاده التى من بها علينا فإذا كان سبحانه فعل بنا هذا الفعل الذى هو كل الخير،فمن الواجب أن نتوكل عليه فى سائر الامور.

و هذا فى الحقيقه حجه ثانيه على وجوب التوكل عليه و إلقاء الزمام إليه سلك فيها من طريق الآثار الداله على وجوب التوكل عليه كما أن الحجه السابقه سلك فيها من النظر فى نفس المؤثر،و تقرير الحجه أن هدايته تعالى إيانا إلى سبلنا دليل على وجوب التوكل عليه لأنه لا يخون عباده و لا يريد بهم إلا الخير و مع وجود الدليل على التوكل لا معنى لوجود دليل على

عدم التوكل يكون عذرا لنا فيه فلا سبيل لنا إلى عدم التوكل عليه تعالى.

فقوله تعالى: وَ عَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ يجرى مجرى اللمّ،و قوله: «وَ مٰا لَنٰا أَلاّٰ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّٰهِ وَ قَدْ هَدٰانٰا سُبُلَنٰا» مجرى الإنّ فتدبر فى هذا البيان العذب و الاحتجاج السهل الممتنع الذى قدمه القرآن الكريم إلى متدبريه فى أوجز لفظ.

و قوله: وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلىٰ مٰا آذَيْتُمُونٰا من تفريع الصبر على ما بيّن من وجوب التوكل عليه أى إذا كان من الواجب أن نتوكل عليه و نحن مؤمنون به و قد هدانا سبلنا فلنصبرن على إيذائكم لنا فى سبيل الدعوه إليه متوكلين عليه حتى يحكم بما يريد و يفعل ما يشاء من غير أن نأوى فى ذلك إلى ما عندنا من ظاهر الحول و القوه.

و قوله: وَ عَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ كلام مبنى على الترقى أى كل من تلبّس بالتوكل فعليه أن يتوكل على اللّه سواء كان مؤمنا أو غير مؤمن إذ لا دليل غيره غير أن المتوكل بحقيقه التوكل لا يكون إلا مؤمنا فإنه مذعن أن الأمر كله للّه فلا يسعه إلا أن يطيعه فيما يأمر و ينتهى عما ينهى و يرضى بما يرضى به و يسخط عما سخط عنه و هذا هو الإيمان.

قوله تعالى: وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنٰا هذا تهديد منهم بعد ما عجزوا فى مناظرتهم و خسروا فى محاجتهم،و الخطاب فى قولهم: «لَنُخْرِجَنَّكُمْ» الخ؛للرسل و الذين آمنوا معهم فما كانوا ليرضوا أن يعود الرسل فى ملتهم و يبقى أتباعهم على دين التوحيد.على أن اللّه سبحانه صرّح بذلك فى قصص بعضهم كقوله فى شعيب: قٰالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يٰا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنٰا (الأعراف/۸۸).

و قوله: أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنٰا «عاد»من الأفعال الناقصه بمعنى الصيروره و هى الحيلوله من حال إلى حال سواء كان عليها سابقا أولا و من الدليل عليه-كما قيل-قوله: «فِي مِلَّتِنٰا» و لو كان بمعنى الرجوع إلى ما كان لتعيّن أن يقال:إلى ملتنا.

و من لطيف الصناعه فى الآيه دخول لام القسم و نون التأكيد على طرفى الترديد «لنخرجنكم أو لتعودن»مع أن أو للاستدراك و تفيد معنى الاستثناء و لا معنى لأن يقال:إلا أن تعودوا و اللّه فى ملتنا،إلا أن عودهم لما كان بإجبار من الكفار كان فى معنى الإعاده و عاد قوله:

«لَتَعُودُنَّ» طرف الترديد و صح دخول اللام و النون و آل المعنى إلى قولنا:و اللّه لنخرجنكم من أرضنا أو نعيدنكم فى ملتنا.

قوله تعالى: فَأَوْحىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظّٰالِمِينَ، وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ إلى آخر الآيه؛ضمير الجميع الأول و الثانى للرسل و الثالث للذين كفروا بدلاله السياق،و التعبير عنهم بالظالمين للإشاره إلى سببيه ظلمهم للإهلاك فإن تعليق الحكم بالوصف مشعر بالعليّه كما أن قوله: «ذٰلِكَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامِي وَ خٰافَ وَعِيدِ» مشعر بعليّه الخوف للإسكان.

و قوله: مَقٰامِي مصدر ميمى أريد به قيامه تعالى على الأمر كله أو اسم مكان أريد به مرتبه قيمومته تعالى للأمر كله،و المراد من وعيده تعالى ما أوعد به المخالفين عن أمره من العذاب.

فالمراد بالخوف من مقامه تعالى تقواه بما أنه اللّه القائم بأمر عباده و المراد بالخوف من وعيده تقواه بما أنه اللّه الذى حذّر عباده من مخالفه أمره بلسان أنبيائه و رسله فيعود على أى حال إلى التقوى و ينطبق على قول موسى لقومه: اِسْتَعِينُوا بِاللّٰهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُهٰا مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ الْعٰاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (الأعراف/١٢٨)كما أشار إليه فى الكشاف.

و المعنى فأوحى رب الرسل إليهم-و قد أخذت صفه الربوبيه الخاصه بهم لمكان توكلهم الجالب للرحمه و العنايه-و أقسم لنهلكن هؤلاء المهددين لكم بظلمهم و لنسكننكم هذه الأرض التى هددوكم بالإخراج منها و نورثكم إياها لصفه مخافتكم منى و من وعيدى و كذلك نفعل فنورث الأرض عبادنا المتقين.

قوله تعالی: وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خٰابَ كُلُّ جَبّٰارٍ عَنِيدٍ الاستفتاح طلب الفتح و النصر.و الخيبه انقطاع الرجاء و الخسران و الهلاك،و العنيد هو اللجوج و منه المعاند.

و الضمير فی وَ اسْتَفْتَحُوا للرسل أی طلبوا النصر من اللّه لما انقطعت بهم الأسباب من كل جانب و بلغ بهم ظلم الظالمين و تكذيب المعاندين كقول نوح فيما حكاه اللّه: أَنِّی مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (القمر/۱۰)،و يمكن رجوع الضمير إلی الرسل و الكفار جميعا فإن الكفار أيضا كانوا يصرون علی أن يأتيهم الرسل بما يقضی بينهم كقولهم: مَتیٰ هٰذَا الْفَتْحُ (الم السجده/۲۸) مَتیٰ هٰذَا الْوَعْدُ (يس/۴۸)،و علی هذا التقدير يكون المعنی:

و استفتح الرسل و الكفار جميعا،و كانت الخيبه للجبارين و هو عذاب الاستئصال.

قوله تعالی: مِنْ وَرٰائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقیٰ مِنْ مٰاءٍ صَدِيدٍ إلی آخر الآيتين؛ الصديد القيح السائل من الجرح،و هو بيان للماء الذی يسقونه فی جهنم.و التجرع تناول المشروب جرعه جرعه علی الاستمرار،و الإساغه إجراء الشراب فی الحلق يقال:ساغ الشراب و أسغته أنا كذا فی المجمع و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمٰالُهُمْ كَرَمٰادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِی يَوْمٍ عٰاصِفٍ إلی آخر الآيه،يوم عاصف شديد الريح تمثيل لأعمال الكفار من حيث تترتب نتائجها عليها و بيان أنها حبط باطله لا أثر لها من جهه السعاده فهو كقوله تعالی:

وَ قَدِمْنٰا إِلیٰ مٰا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنٰاهُ هَبٰاءً مَنْثُوراً (الفرقان/۲۳)فأعمالهم كذرات من الرماد اشتدت به الريح فی يوم شديد الريح فنثرته و لم يبق منه شيئا هذا مثلهم من جهه أعمالهم.

و من هنا يظهر أن لا حاجه إلی تقدير شیء فی الكلام و إرجاعه إلی مثل قولنا:مثل أعمال الذين كفروا الخ؛و الظاهر أن الآيه ليست من تمام كلام موسی بل هی كالنتيجه المحصله من

کلامه المنقول (۱).

[سوره إبراهيم (۱۴): الآيات ۱۹ الی ۳۴]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّٰهَ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۹) وَ مٰا ذٰلِكَ عَلَى اَللّٰهِ بِعَزِيزٍ (۲۰) وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِيعاً فَقٰالَ اَلضُّعَفٰاءُ لِلَّذِينَ اِسْتَكْبَرُوا إِنّٰا كُنّٰا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنّٰا مِنْ عَذٰابِ اَللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ قٰالُوا لَوْ هَدٰانَا اَللّٰهُ لَهَدَيْنٰاكُمْ سَوٰاءٌ عَلَيْنٰا أَ جَزِعْنٰا أَمْ صَبَرْنٰا مٰا لَنٰا مِنْ مَحِيصٍ (۲۱) وَ قٰالَ اَلشَّيْطٰانُ لَمّٰا قُضِيَ اَلْأَمْرُ إِنَّ اَللّٰهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ اَلْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مٰا كٰانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إِلاّٰ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاٰ تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ مٰا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمٰا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ اَلظّٰالِمِينَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۲۲) وَ أُدْخِلَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهٰا سَلاٰمٌ (۲۳) أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهٰا ثٰابِتٌ وَ فَرْعُهٰا فِي اَلسَّمٰاءِ (۲۴) تُؤْتِي أُكُلَهٰا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهٰا وَ يَضْرِبُ اَللّٰهُ اَلْأَمْثٰالَ لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۲۵) وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اُجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ اَلْأَرْضِ مٰا لَهٰا مِنْ قَرٰارٍ (۲۶) يُثَبِّتُ اَللّٰهُ اَلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ اَلثّٰابِتِ فِي اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ فِي اَلْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اَللّٰهُ اَلظّٰالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اَللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ (۲۷) أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ اَلْبَوٰارِ (۲۸) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهٰا وَ بِئْسَ اَلْقَرٰارُ (۲۹) وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ أَنْدٰاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى اَلنّٰارِ (۳۰) قُلْ لِعِبٰادِيَ اَلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ يُنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَ عَلاٰنِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاٰ بَيْعٌ فِيهِ وَ لاٰ خِلاٰلٌ (۳۱) اَللّٰهُ اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ اَلثَّمَرٰاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اَلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي اَلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اَلْأَنْهٰارَ (۳۲) وَ سَخَّرَ لَكُمُ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ دٰائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهٰارَ (۳۳) وَ آتٰاكُمْ مِنْ كُلِّ مٰا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا إِنَّ اَلْإِنْسٰانَ لَظَلُومٌ كَفّٰارٌ (۳۴)

۱- ۱) .ابراهیم ۶-۱۸:بحث روائی فی الشکر و زیاده النعمه.

بیان:

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ المراد بالرؤیه هو العلم القاطع،فإنه لصالح لأن یتعلّق بکیفیه خلق السماوات و الأرض دون الرؤیه البصریه.

ثم الفعل الحق و یقابله الباطل هو الذی یکون لفاعله فیه غایه مطلوبه یسلک إلیه بذاته فمن المشهود أن کل واحد من الأنواع من أول تکونه متوجه إلی غایه مؤجله لا-بغیه له دون أن یصل إلیها ثم البعض منها غایه للبعض ینتفع به فی طریق کینونته و یصلح به فی حدوثه و بقائه کالعناصر الارضیه التی ینتفع بها النبات،و النبات الذی ینتفع به الحیوان و هکذا قال تعالی:

وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ مٰا خَلَقْنٰاهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (الدخان۳۹/).و قال: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا بٰاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا (ص۲۷/).

فلا-تزال الخلقه تقع مرحله بعد مرحله و تنال غایه بعد غایه حتی تتوقف فی غایه لا-غایه بعدها،و ذلک رجوعها إلی اللّه سبحانه،قال تعالی: وَ أَنَّ إِلىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهىٰ (النجم/ ۴۲).

و بالجمله الفعل إنما یکون فعلا حقا إذا کان له أمر یقصده الفاعل بفعله و غایه یسلک بالفعل إلیها،و أما إذا کان فعلا لا یقصد به إلا-نفسه من غیر أن یکون هناک غرض مطلوب فهو الفعل الباطل،و إذا کان الفعل الباطل ذا نظام و ترتیب فهو الذی یسمی لعبا کما یلعب الصبیان بإتیان حرکات منظمه مرتبه لا-غایه لهم وراءها و لا أن لهم همّا إلا إیجاد ما تخیلوه من صوره الفعل لشوق نفسانی منهم إلی ذلک.

ص: ۴۴۲

و فعله تعالی ملازم للحق مصاحب له فخلق السماوات و الارض یخلف عالما باقیا بعد زواله،و لو لم یکن کذلک کان باطلا لا أثر له و لا خلف یخلفه،و کان العالم المشهود بما فیه من النظام البدیع لعبا منه سبحانه اتخذه لحاجه منه إلیه کالتنفس من کرب و سأمه و التفرج من همّ أو التخلص من وحشه وحده و نحو ذلک و هو سبحانه العزیز الحمید لا تمسّه حاجه و لا یذله فقر و فاقه.

و بما مرّ یظهر أن الباء فی قوله: «بِالْحَقِّ» للمصاحبه و أن قول بعضهم:أن الباء للسببیّه أو الآله و أن المعنی کیف خلقها بقوله الحق أو للغرض الحق لیس علی ما ینبغی.

قوله تعالی: إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ، وَ مٰا ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ بِعَزِیزٍ أی بشاق صعب،و الخطاب لعامه البشر بجعل النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم مثالا لهم یمثلون به لان الخطاب متوجه إلیه فی قوله قبل و بعد: «أَ لَمْ تَرَ» «وَ مٰا ذٰلِکَ» .

قوله تعالی: وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِیعاً الی آخر الآیه؛البروز هو الخروج الی البراز بفتح الباء و هو الفضاء،یقال:برز الیه إذا خرج الیه بحث لا یحجبه عنه حاجب،و منه المبارزه و البراز کخروج المقاتل من الصف الی کفؤه من العدو.

و التبع بفتحتین جمع تابع کخدم و خادم،و قیل:اسم جمع،و قیل:مصدر جیء به للمبالغه، و الإغناء الإفاده و ضمّن معنی الدفع و لذا عدّی بعن کما قیل،و الجزع و الصبر متقابلان، و المحیص اسم مکان من حاص یحیص حیصا و حیوصا إذا زال عن المکروه کما فی المجمع فالمحیص هو المکان الذی یزول الیه الإنسان عن المکروه و الشده.

و قوله: وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِیعاً أی ظهروا له تعالی ظهورا لا یحجبهم عنه حاجب و هذا بالنسبه الی أنفسهم حیث کانوا یتوهمون فی الدنیا أن ربهم فی غیبه عنهم و هم غائبون عنه،فإذا کان یوم القیامه زال کل ستر متوهم و شاهدوا أن لا حاجب هناک یحجبهم عنه،و أما هو تعالی فلا ساتر یستر عنه فی دنیا و لا آخره،قال تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَخْفیٰ عَلَیْهِ شَیْءٌ فِی

الْأَرْضِ وَ لاٰ فِی السَّمٰاءِ (آل عمران/۵).

و یمکن أن تکون الجمله کنایه عن خلوصهم لحساب الأعمال و تعلق المشیئه الإلهیه بانقطاع الأعمال و إنجاز الجزاء الموعود کما قال: سَنَفْرُغُ لَکُمْ أَیُّهَ الثَّقَلاٰنِ (الرحمن/ ۳۱).

و قوله: فَقٰالَ الضُّعَفٰاءُ لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا -إلی قوله- مِنْ شَیْءٍ تخاصم بین الکفار یوم القیامه-علی ما یعطیه السیاق-فالضعفاء هم المقلدون المطیعون لأولیائهم من الکفار،و المستکبرون هم أولیاؤهم المتبوعون أولو الطّول و القوه المستنکفون عن الإیمان باللّه و آیاته.

و المعنی فقال الضعفاء المقلدون للذین استکبروا منهم إنا کنا فی الدنیا لکم تابعین مطیعین من غیر أن نسألکم حجه علی ما تأمروننا به فهل أنتم مفیدون لنا الیوم تدفعون عنا شیئا من عذاب اللّه الذی قضی علینا.

و علی هذا فلفظه «مِنْ» فی قوله: «مِنْ عَذٰابِ اللّٰهِ» للبیان،و فی قوله: «مِنْ شَیْءٍ» زائده للتأکید کما فی قولنا:ما جاءنی من أحد،و النفی و الاستفهام متقاربان حکما و لا دلیل علی امتناع تقدم البیان علی المبین و خاصه مع اتصالهما و عدم الفصل بینهما.

و قوله: قٰالُوا لَوْ هَدٰانَا اللّٰهُ لَهَدَیْنٰاکُمْ ظاهر السیاق أن المراد بالهدایه هنا الهدایه الی طریق التخلص من العذاب و یمکن أن یکون المراد بها الهدایه الی الدین الحق فی الدنیا، و المآل واحد لما بین الدنیا و الآخره من التطابق،و لا یبرز فی الاخری إلا ما کان کامنا فی الاولی،قال تعالی حکایه عن أهل الجنه: وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی هَدٰانٰا لِهٰذٰا وَ مٰا کُنّٰا لِنَهْتَدِیَ لَوْ لاٰ أَنْ هَدٰانَا اللّٰهُ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُ رَبِّنٰا بِالْحَقِّ (الأعراف/۴۳)،مزجوا الهدایتین بعضا ببعض کما هو ظاهر.

و قوله: سَوٰاءٌ عَلَیْنٰا أَ جَزِعْنٰا أَمْ صَبَرْنٰا مٰا لَنٰا مِنْ مَحِیصٍ سواء و الاستواء

و التساوی واحد،و سواء خبر لمبتدإ محذوف و الجمله الاستفهامیه بیان لذلک،و قوله: «مٰا لَنٰا مِنْ مَحِیصٍ» بیان آخر للتساوی،و المعنی الأمران متساویان علینا و بالنسبه الینا و هما الجزع و الصبر لا مهرب لنا عن العذاب اللازم.

قوله تعالی: وَ قٰالَ الشَّیْطٰانُ لَمّٰا قُضِیَ الْأَمْرُ الی آخر الآیه فی المجمع الإصراخ الإغاثه بإجابه الصارخ و یقال:استصرخنی فلان فأصرخته أی استغاث بی فأغثته.انتهی.

و هذا کلام جامع یلقیه الشیطان یوم القیامه الی الظالمین یبیّن فیه موقعه منهم و یتبّئ أهل الجمع منهم بوجه الحق فی الرابطه التی کانت بینه و بینهم فی الدنیا و قد وعد اللّه سبحانه أنه سینبئهم یوم القیامه بما کانوا فیه یختلفون،و أن الحق سیظهر یوم القیامه عن قبل کل من کان له من قبله خفاء أو التباس،فالملائکه یتبرّءون من شرکهم و الجن و القرناء من الشیاطین یطردونهم،و الأصنام و الآلهه التی اتخذوها أربابا من دون اللّه یکفرون بشرکهم،و کبراؤهم و أئمه الضلال لا یستجیبون لهم،و المجرمون أنفسهم یعترفون بضلالهم و جرمهم،کل ذلک واقعه فی آیات کثیره غیر خفیّه علی المتتبّع المتدبر فیها.

و الشیطان و إن کان بمعنی الشریر و ربما أطلق فی کلامه تعالی علی کل شریر من الجن و الإنس کقوله: وَ کَذٰلِکَ جَعَلْنٰا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا شَیٰاطِینَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ (الأنعام/۱۱۲)، لکن المراد به فی الآیه الشیطان الذی هو مصدر کل غوایه و ضلال فی بنی آدم و هو إبلیس فإن ظاهر السیاق أنه یخاطب بکلامه هذا عامه الظالمین من أهل الجمع و یعترف أنه کان یدعوهم الی الشرک،و قد نصّ القرآن علی أن الذی له هذا الشأن هو إبلیس و قد ادّعی هو ذلک و لم یردّ اللّه ذلک علیه کما فی قوله: قٰالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ إِلاّٰ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ -إلی أن قال- لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِینَ (ص/۸۵).

و أما ذریته و قبیله الذین یذکرهم القرآن بقوله: إِنَّهُ یَرٰاکُمْ هُوَ وَ قَبِیلُهُ مِنْ حَیْثُ لاٰ تَرَوْنَهُمْ إِنّٰا جَعَلْنَا الشَّیٰاطِینَ أَوْلِیٰاءَ لِلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ (الأعراف/۲۷)،و قوله: أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّیَّتَهُ

أَوْلِیاءَ (الکهف/۵۰)فولایه الواحد منهم إما لبعض الناس دون بعض أو فی بعض الأعمال دون بعض،و إما ولایه علی نحو العونیه فهو العون،و الأصل الذی ینتهی الیه أمر الإضلال و الإغواء هو إبلیس.

فهذا القائل: إِنَّ اللّهَ وَعَدَکُمْ وَعْدَ الْحَقِّ الخ؛هو إبلیس یرید بکلامه ردّ اللوم علی فعل المعاصی الیهم و التبرّی من شرکهم فقوله: «إِنَّ اللّهَ وَعَدَکُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُکُمْ فَأَخْلَفْتُکُمْ» أی وعدکم اللّه وعدا حققه الوقوع و صدّقته المشاهده من البعث و الجمع و الحساب و فصل القضاء و الجنه و النار،و وعدتکم أنا أن لا بعث و لا حساب و لا جنه و لا نار و لم أف بما وعدت حیث ظهر خلاف ما وعدت.کذا ذکره المفسرون.

و علی هذا فالموعود جمیع ما یرجع الی المعاد إثباتا و نفیا أثبته اللّه سبحانه و نفاه إبلیس، و إخلاف الوعد کنایه عن ظهور الکذب و عدم الوقوع من إطلاق الملزوم و إراده اللازم.

و من الممکن-بل هو الوجه-أن یشمل الوعد ما یترتب علی الإیمان و الشرک فی الدنیا و الآخره جمیعا لأنهما متطابقتان فقد وعد اللّه أهل الإیمان حیاه طیبه و عیشه سعیده،و أهل الشرک المعرضین عن ذکره معیشه ضنکا و تحرّجا فی صدورهم و عذابا فی قلوبهم فی الدنیا، و وعد الجمیع بعثا و حسابا و جنه و نارا فی الآخره.

و وعد إبلیس أولیاءه بالأهواء اللذیذه و الآمال الطویله و أنساهم الموت و صرفهم عن البعث و الحساب و خوّفهم الفقر و الذلّه و ملامه الناس،و کان مفتاحه فی جمیع ذلک إغفالهم عن مقام ربهم و تزیین ما بین أیدیهم من الأسباب مستقله بالتأثیر خالقه لآثارها و تصویر نفوسهم لهم فی صوره الاستقلال مهیمنه علی سائر الأسباب تدبرها کیف شاءت فتغریهم علی الاعتماد بأنفسهم دون اللّه و تسخیر الأسباب فی سبیل الآمال و الأمانی.

و بالجمله وعدهم اللّه فیما یرجع الی الدنیا و الآخره بما و فی لهم فیه،و دعاهم إبلیس من طریق الإغفال و التزیین الی الأوهام و الأمانی و هی بین ما لا یناله الإنسان قطعا و ما إذا ناله

وجده غير ما كان يظنه،فيتركه الى ما يظنه كما يريد هذا فى الدنيا و أما الآخره فينسيه شئونها كما تقدّم.

و قوله: وَ مٰا كٰانَ لِی عَلَیْکُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إِلاّٰ أَنْ دَعَوْتُکُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِی السلطان-كما ذكره الراغب-هو السلاطه و هو التمكن من القهر،و تسمى الحجه أيضا سلطانا لما فيها من التمكن من قهر العقول على ما لها من النتائج،و كثيرا ما يطلق و يراد به ذو السلطان كالملك و غيره.

و الظاهر أن المراد ما هو أعم من السلطه الصوريه و المعنويه فالمعنى و ما كان فى الدنيا لى عليكم من تسلط لا من جهه أشخاصكم و أعيانكم فاجبركم على معصيه اللّه بسلب اختياركم و تحميل إرادتى عليكم،و لا من جهه عقولكم فاقيم لكم الحجه على الشرك كيفما شئت فتضطر عقولكم لقبوله و تطيعها نفوسكم فيما تأمرها به.

و الظاهر أيضا أن يكون الاستثناء فى قوله: «إِلاّٰ أَنْ دَعَوْتُکُمْ» منقطعا و المعنى لكن دعوتكم من غير أى سلطان فاستجبتم لى،و دعوته الناس إلى الشرك و المعصيه و إن كانت باذن اللّه لكنهما لم تكن تسليطا فإن الدعوه إلى فعل ليست تسلطا من الداعى على فعل المدعو و إن كان نوع تسلط على نفس الدعوه،و من الدليل عليه قوله تعالى فيما يأذن له: وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِکَ -إلى أن قال- وَ عِدْهُمْ وَ مٰا یَعِدُهُمُ الشَّیْطٰانُ إِلاّٰ غُرُوراً إِنَّ عِبٰادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطٰانٌ وَ کَفیٰ بِرَبِّکَ وَکِیلاً (الإسراء/۶۵).

و قوله: مٰا أَنَا بِمُصْرِخِکُمْ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِیَّ أى ما أنا بمغيثكم و منجيكم و ما أنتم بمغيثى و منجىّ فلا أنا شافع لكم و لا أنتم شافعون لى اليوم.

و قوله: إِنِّی کَفَرْتُ بِمٰا أَشْرَکْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ أى انى تبرأت من اشراككم إياى فى الدنيا،و المراد بالاشراك فى الطاعه دون الاشراك فى العباده كما يظهر من قوله تعالى خطابا لأهل الجمع: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَیْکُمْ یٰا بَنِی آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّیْطٰانَ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ وَ أَنِ

اعْبُدُونِی (یس/۶۱).

و قوله: إِنَّ الظّالِمِینَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ من تمام کلام إبلیس علی ما یعطیه السیاق یسجّل علیهم العذاب الألیم لأنهم ظالمون ظلما لا یرجع إلا الی أنفسهم.

و ظاهر السیاق أن قوله: ما أَنَا بِمُصْرِخِکُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِیَّ کنایه عن انتفاء الرابطه بینه و بین تابعیه کما یشیر تعالی الیه فی مواضع اخری بمثل قوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَیْنَکُمْ وَ ضَلَّ عَنْکُمْ ما کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام/۹۴)،و قوله: فَزَیَّلْنا بَیْنَهُمْ وَ قالَ شُرَکاؤُهُمْ ما کُنْتُمْ إِیّانا تَعْبُدُونَ (یونس/۲۸).

و فی الآیه دلاله واضحه علی أن للانسان سلطانا علی عمله هو الذی یوجب ارتباط الجزاء به و یسلبه عن غیره،و هو الذی یعید اللائمه الیه لا الی غیره،و أما کونه مستقلا بهذا السلطان فلا دلاله فیها علی ذلک البته،و قد تکلمنا فی ذلک فی الجزء الأول من الکتاب فی ذیل قوله:

وَ ما یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِینَ (البقره/۲۶).

قوله تعالی: وَ أُدْخِلَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ جَنّاتٍ الخ؛بیان ما ینتهی الیه حال السعداء من المؤمنین،و فی قوله: «تَحِیَّتُهُمْ فِیها سَلامٌ» مقابله حالهم من انعکاس السلام و التحیه المبارکه من بعضهم الی بعض مع حال غیرهم المذکورین فی الآیتین السابقتین من الخصام و تجبیه بعضهم بعضا بالکفر و التبرّی و الإیاس.

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ کَیْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً کَلِمَةً طَیِّبَةً کَشَجَرَةٍ طَیِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِی السَّماءِ تُؤْتِی أُکُلَها کُلَّ حِینٍ بِإِذْنِ رَبِّها ذکروا أن «کَلِمَةً» بدل اشتمال من «مَثَلاً» و «کَشَجَرَةٍ» صفه بعد صفه لقوله: «کَلِمَةً» أو خبر مبتدأ محذوف و التقدیر هی کشجره،و قیل:إن «کَلِمَةً» مفعول أول متأخر لضرب و «مَثَلاً» مفعوله الثانی قدّم لدفع محذور الفصل بین «کَلِمَةً» و صفتها و هی «کَشَجَرَةٍ» و التقدیر ضرب اللّه کلمه طیبه کشجره طیبه الخ...مثلا.

و قیل «ضَرَبَ» متعدّ لواحد و «کَلِمَهً» منصوب بفعل مقدّر کجعل و اتخذ و التقدیر ضرب اللّه مثلا جعل کلمه طیبه کشجره طیبه الخ؛و أظن أن هذا أحسن الوجوه لو وجّه بکون «کَلِمَهً طَیِّبَهً» الخ؛عطف بیان لقوله: «ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً» من بیان الجمله للجمله،و یتعیّن حینئذ نصب «کَلِمَهً» بمقدّر هو جعل أو اتخذ لأن المدلول أنه مثّل الکلمه بالشجره و شبّهها بها و هو معنی قولنا:اتخذ کلمه طیبه کشجره الخ.

و قوله: أَصْلُها ثابِتٌ أی مرتکز فی الأرض ضارب بعروقه فیها،و قوله:

وَ فَرْعُها فِی السَّماءِ أی ما یتفرع علی ذلک الأصل من أغصانها فی جهه العلو فکل ما علا و أظلّ سماء،

و قوله: تُؤْتِی أُکُلَها کُلَّ حِینٍ بِإِذْنِ رَبِّها أی تثمر ثمرها المأکول کل زمان بإذن اللّه،و هذا نهایه ما تفیده شجره من البرکات.

و الذی یعطیه التدبر فی الآیات أن المراد بالکلمه الطیبه التی شبّهت بشجره طیبه من صفتها کذا و کذا هو الاعتقاد الحق الثابت فإنه تعالی یقول بعد و هو کالنتیجه المأخوذه من التمثیل «یُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّابِتِ فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا وَ فِی الْآخِرَهِ» الآیه و القول هی الکلمه و لا کل کلمه بما هی لفظ بل بما هی معتمده علی اعتقاد و عزم یستقیم علیه الإنسان و لا یزیغ عنه عملا.

ثم ختم اللّه سبحانه الآیه بقوله: «وَ یَضْرِبُ اللّهُ الْأَمْثالَ لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ» لیتذکر به المتذکر أن لا محیص لمرید السعاده عن التحقق بکلمه التوحید و الاستقامه علیها.

قوله تعالی: وَ مَثَلُ کَلِمَهٍ خَبِیثَهٍ کَشَجَرَهٍ خَبِیثَهٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ الاجتثاث الاقتلاع،یقال:جثه و اجتثته أی قلعته و اقتلعته،و الجث بالضم ما ارتفع من الأرض کالأکمه،و جثه الشیء شخصه الناتیء.کذا فی المفردات.

و الکلمه الخبیثه ما یقابل الکلمه الطیبه و لذا اختلفوا فیها فقال کل قوم فیها ما یقابل ما قاله فی الکلمه الطیبه و کذا اختلفوا فی المراد بالشجره الخبیثه فقیل:هی الحنظله،و قیل:

الکشوث و هو نبت یلتفّ علی الشوک و الشجر لا أصل له فی الأرض و لا ورق علیه،و قیل:

شجره الثوم،و قیل:شجره الشوک،و قیل:الطحلب،و قیل:الکمأه،و قیل:کل شجره لا تطیب لها ثمره.

و قد عرفت حال هذه الاختلافات فی الآیه السابقه،و عرفت أیضا ما یعطیه التدبر فی معنی الکلمه الطیبه و ما مثلت به و یجری ما یقابله فی الکلمه الخبیثه و ما مثلت به حرفا بحرف فإنما هی کلمه الشرک مثلت بشجره خبیثه مفروضه اقتلعت من فوق الأرض لیس لها أصل ثابت و ما لها من قرار،و إذ کانت خبیثه فلا أثر لها إلا الضرّ و الشرّ.

قوله تعالی: یُثَبِّتُ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّٰابِتِ إلی آخر الآیه؛الظاهر أن «بِالْقَوْلِ» متعلق بقوله: «یُثَبِّتُ» لا بقوله: «آمَنُوا» ،و الباء للآله أو السببیه لا للتعدیه،و أن قوله: «فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ فِی الْآخِرَهِ» متعلق أیضا بقوله: «یُثَبِّتُ» لا بقوله: «الثّٰابِتِ» .

فیعود المعنی إلی أن الذین آمنوا إذا ثبتوا علی إیمانهم و استقاموا ثبتهم اللّه علیه فی الدنیا و الآخره،و لو لا تثبیته تعالی لهم لم ینفعهم الثبات من أنفسهم شیئا و لم یستفیدوا شیئا من فوائده فإلیه تعالی یرجع الأمر کله،فقوله تعالی: «یُثَبِّتُ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّٰابِتِ» ،و فی باب الهدایه یوازن قوله: فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ (الصف۵/)،فی باب الإضلال.

غیر أن بین البابین فرقا و هو أن الهدی یبتدئ من اللّه سبحانه و یترتب علیه اهتداء العبد، و الضلال یبتدئ من العبد بسوء اختیاره فیجازیه اللّه بالضلال علی الضلال،کما قال: وَ مٰا یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِینَ (البقره۲۶/)و قد تکاثرت الآیات القرآنیه أن الهدایه من اللّه سبحانه لیس لغیره فیها صنع.

و توضیح المقام أن اللّه سبحانه خلق الإنسان علی فطره سلیمه رکز فیها معرفه ربوبیّته و ألهمها فجورها و تقواها،و هذه هدایه فطریه أولیّه ثم أیدها بالدعوه الدینیه التی قام بها أنبیاؤه و رسله.

ثم إن الإنسان لو جرى على سلامه فطرته و اشتقاق إلى المعرفه و العمل الصالح هداه اللّه فاهتدى العبد للإيمان عن هدايته تعالى،و أما جريه على سلامه الفطره فلو سمّى اهتداء فإنما هو اهتداء متفرّع على السلامه الفطريه لو سمّيت هدايه.

و لو انحرف الإنسان عن صراط الفطره بسوء اختياره و جهل مقام ربه و أخلد إلى الأرض و اتّبع الهوى و عاند الحق فهو ضلال منه غير مسبوق بإضلال من اللّه-و حاشاه سبحانه- لكنه يستعقب إضلاله عن الطريق مجازاه و تثبيته على ما هو عليه بقطع الرحمه منه و سلب التوفيق عنه و هذا إضلال مسبوق بضلاله من نفسه بسوء اختياره و إزاغه له عن زيغ منه.

و قوله: وَ يَفْعَلُ اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ أى يجرى تثبيت هؤلاء و إضلال اولئک على ما تقتضيه مشيّته لا مانع له و لا دافع فلا حائل بين مشيته و فعله.

و يظهر من ذلک أن اللّه تعالى قد شاء تثبيت هؤلاء و إضلال اولئک و هو فاعلهما لا محاله فمن القضاء المحتوم سعاده المؤمن و شقاء الكافر و قد وردت به الروايه.

و وقوع لفظ الجلاله فى قوله: «وَ يُضِلُّ اللّٰهُ» و قوله: «وَ يَفْعَلُ اللّٰهُ» من وقوع الظاهر موقع المضمر و يدلّ على فخامه الأمر و مهابه الموقف كما قيل.

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ الْبَوٰارِ قال فى المجمع:الإحلال وضع الشىء فى محل إما بمجاوره إن كان من قبيل الأجسام أو بمداخله إن كان من قبيل الأعراض،و البوار الهلاک يقال:بار الشىء يبور بورا إذا هلک و رجل بور أى هالک و قوم بور أيضا.انتهى.

و قال الراغب:البوار فرط الكساد و لما كان فرط الكساد يؤدى الى الفساد كما قيل:كسد حتى فسد،عبّر بالبوار عن الهلاک يقال:بار الشىء يبور بورا و بؤرا قال عزّ و جل: تِجٰارَةً لَنْ تَبُورَ انتهى.

و الآيه تذكر حال أئمه الكفر و رؤساء الضلال فى ظلمهم و كفرانهم نعمه اللّه سبحانه التى

أحاطت بهم من كل جهه بدل أن يشكروها و يؤمنوا بربهم،و قد ذكر قبل كيفيه خلقه تعالى السماوات و الأرض على غنى منه و هى نعمه،ثم ذكر كلمه الحق التى يدعو إليها و ما لها من الآثار الثابته الطيبه و هى نعمه.

و الآيه مطلقه لا دليل على تقييدها بكفار مكه أو كفار قريش و إن كان الخطاب فيها للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و كان فى ذيلها مثل قوله: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النّارِ» لظهور أن ذلك لا يوجب تقييدا فى الآيه مع إطلاق مضمونها و شمولها للطواغيت من الامم و ما صنعوا بأقوامهم.

فقوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللّهِ كُفْراً يذكر حال أئمه الكفر و رؤساء الضلال من الامم السابقه و من هذه الامه و الدليل على اختصاصه بهم قوله: «وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ» المشعر بكونهم نافذى الكلمه مطاعين فى قومهم فهم الأئمه و الرؤساء.

و المراد بتبديلهم نعمه اللّه كفرا تبديلهم شكر نعمته الواجب عليهم كفرا ففى الجمله مضاف محذوف و التقدير:بدّلوا شكر نعمه اللّه كفرا،و يمكن أن يراد تبديل نفس النعمه كفرا بنوع من التجوّز،و نظير الآيه فى هذه العنايه قوله تعالى: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (الواقعه٨٢/).

و ذكر إحلالهم قومهم دار البوار يستلزم إحلال أنفسهم فيها لأنهم أئمه الضلال ضلّوا ثم أضلّوا و التبعه تبعه الضلال،و نظير الآيه فى هذا المعنى قوله فى فرعون: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَهِ فَأَوْرَدَهُمُ النّارَ (هود٩٨/).

و المعنى أ لم تنظر الى الأئمه و الرؤساء من الامم السابقه و من أمتك الذين بدّلوا شكر نعمه اللّه كفرا و اتبعتهم قومهم فحلّوا و أحلّوا قومهم دار الهلاك و هو الشقاء و النار.

قوله تعالى: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ بيان لدار البوار،و احتمال بعضهم أن يكون «جَهَنَّمَ» منصوبا بالاشتغال،و التقدير يصلون جهنم يصلونها و الجمله مستأنفه خال عن الوجه لأن النصب مرجوح و لا نكته تستوجب الاستئناف.

و من هنا يظهر فساد قول من قال إن الآيات مـدنيه،و المراد بالذين كفروا هم عظماء مكه و صـناديد قريش الذين جمعوا الجموع على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و حاربوه ببدر فقتلوا و أحلّوا قومهم دار البوار.

و ذلـك أنـك عرفت من معنى الآـيه أنهـا مطلقه و لاـ موجب لتخصيصـها بقتلى بـدر من الكفار أصـلا،بل الآيه تشـمل كل إمام ضلالـل أحـلّ قومه دار البوار ممن تقـدّم و تـأخر،و المراد بإحلالـل دار البوار إقرارهم فى شـقاء النار و إن لـم يقتلوا و لا ماتوا و لا دخلوا النار بعد.

على أن ظاهر الآيه التاليه «وَ جَعَلُوا لِلّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النّارِ» أن ضمير الجمع راجع الى الذين كفروا المـذكورين فى هـذه الآـيه و لازمه كون خطاب قل تمتعوا خطابا للباقين منهم و هم الـذين أسـلموا يوم الفتـح و هو إيعاد بشقاء قطعى منجّز من غير استثناء.

قوله تعالى: وَ جَعَلُوا لِلّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النّارِ الأنداد جمع ندّ و هو المثل و هم الآلهه الذين اتخذوهم آلهه من دون اللّه من الملائكه و الجن و الإنس.

و إنما جعلوها أندادا مع اعترافهم بأنهم مخلوقون للّه سبحانه من جهه أنهم سمّوهم آلهه و أربابا و نسبوا اليهم تدبير أمر العالم ثم عبـدوهم خوفـا و طمعـا مع أن الأمر و الخلق كله للّه و قـد اعترفت بـذلك فطرتهم و أيّـد اللّه ذلك بما ألهمه أنبياءه و رسـله من الآيات و الحجج الدالّه على وحدانيته.

فهم كـانوا على بصـيره من أمر التوحيـد لم يتخـذوا الأنـداد عن غفله أو خطأ بـل عمـدوا الى ذلـك ابتغاء عرض الحياه الـدنيا و ليسـتعبدوا النـاس و يسـتدرّوهم بإضـلالهم عن سبيل اللّه، و لـذلك علّل اتخاذهم الأنـداد بقوله: «لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ» ثم أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يوعدهم بالنار التى إليها مرجعهم لا مرجع لهم سواها،فقال: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النّارِ» .

و کـان من طبع الکلام أن یقال لهم:اتخـذوا الأنـداد أو أضـلّوا عن سبیل اللّه فإن مصـیرکم الی النار،لکن بـدّل من قوله: «تَمَتَّعُوا» لیصرّح بغرضکم الفاسد الذی کانوا یخفونه لیکون أبلغ فی فضاحتهم.

قوله تعالی: قُلْ لِعِبٰادِیَ الَّذِینَ آمَنُوا یُقِیمُوا الصَّلاٰهَ وَ یُنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَ عَلاٰنِیَهً مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لاٰ بَیْعٌ فِیهِ وَ لاٰ خِلاٰلٌ لما توعّدهم علی لسان رسوله بعذاب یوم القیامه لإضـلالهم الناس عن سبیل اللّه،أمره أن یأمر عباده الذین آمنوا بالتزام سبیله من قبل أن یأتی یوم القیامه فلا یسعهم تـدارک ما فات منهم من السعاده بشـیء من الأسـباب الدائره بینهم لذلک و هی ترجع الی أحد شیئین:إمـا المعارضه بإعطاء شـیء و أخـذ ما یعادله و هو البیع بالمعنی الأعمّ،و إما الخلّه و المحبه،و لا أثر من هـذه الأسـباب فی یوم محض للحساب و الجزاء فإن ذلک شأن یوم القیامه لا شأن له دون ذلک.

و من هنـا یظهر أن قوله: یُقِیمُوا الصَّلاٰهَ وَ یُنْفِقُوا بیـان لسبیـل اللّه و قـد اکتفی بهـذین الرکنین اللـذین بهمـا یلحق سـائر الوظائف الشرعیه مما یصلح حیاه الإنسان الدنیویه فیما بینه و بین ربه و ما بینه و بین سائر أفراد نوعه.

و قـوله: یُقِیمُوا الصَّلاٰهَ وَ یُنْفِقُوا الـخ؛مجزومـان لوقوعهمـا فی جـواب الأـمر و مقـول القـول محـذوف لـدلاله الفعلیـن علیـه،و التقدیر:قل:أقیموا الصلاه و أنفقوا«الخ»یقیموا الصلاه و ینفقوا«الخ».

قوله تعالی: اَللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ الـخ؛لما ذکر سـبحانه جعلهم للّه أندادا لإضـلال الناس عن سبیل اللّه و أوعد علیه أورد فی هذه الآیه إلی تمام ثلاث آیات الحجه علی اختصاص الربوبیه بنفسه تعالی و تقدس من طریق اختصاص التدبیر العام به من نظم الخلقه و إنزال الماء و إخراج الرزق و تسخیر البحار-الفلک-و الأنهار و الشمس و القمر و اللیل و النهار.

و أشار فى آخر الآيات إلى أنها و ما لا تحصى من غيرها نعمه منه تعالى للإنسان لأن البيان فى هذه السوره-كما تقدمت الاشاره إليه-يجرى فى ضوء الاسمين:العزيز الحميد.

فقوله: اَللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ الخ؛فى معنى قولنا:فهو الربّ وحده دون الذين جعلتموهم أندادا له.

و قوله: وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجَ بِهِ الخ؛المراد بالسماء جهه العلو و هو معناها اللغوى،و الماء النازل منها هو المطر النازل منها فإليه ينتهى الماء فى الأرض الذى تعيش به ذوات الحياه من النبات و الحيوان.

قوله تعالى: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِیَ فِی الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهٰارَ تسخير الفلك للناس هو جعلها بحيث تنفعهم فى مقاصدهم و هى العبور بأنفسهم و أحمالهم و غير ذلك من غير أن ترسب فى الماء أو تمتنع عن الحركه.

و أما قول بعضهم:تسخيرها لهم هو إقدارهم على صنعتها و استعمالها بإلهامهم طريق ذلك بعيد،فإن الظاهر من تسخير شىء للانسان هو التصرف فيه بجعله موافقا لما يقصده من منافع نفسه دون التصرف فى الانسان نفسه بإلهام و نحوه.

و كان من طبع الكلام أن يقال:و سخر لكم البحر لتجرى فيه الفلك بأمره و سخر لكم الأنهار غير أنه عكس،و قيل:و سخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره لكون الفلك من أوضح النعم البحريه و إن لم تنحصر فيها نعمه و لعل ذلك هو السبب فى العكس،لأن المقام مقام عدّ النعمه و النعمه فى الفلك أوضح و إن كانت فى البحر أعظم.

و إسناد جريها فى البحر إلى أمره تعالى مع كونه مستندا إلى الأسباب الطبيعيه العامله كالريح و البخار و سائر الأسباب،لكونه تعالى هو السبب المحيط الذى إليه ينتهى كل سبب.

و قوله: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهٰارَ و هى المياه الجاريه فى مختلف أقطار الأرض و تسخيرها هو تدليلها بحيث ينتفع بها الإنسان بالشرب و الغسل و إزاله الأوساخ و غير ذلك

و یعیش بها الحیوان و النبات المسخّران له.

قوله تعالی: وَ سَخَّرَ لَکُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَیْنِ وَ سَخَّرَ لَکُمُ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ قال الراغب:الدأب إدامه السیر دأب فی السیر دأبا،قال تعالی: «وَ سَخَّرَ لَکُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَیْنِ» و الدأب العاده المستمره دائما علی حاله،قال تعالی: «کَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» أی کعادتهم التی یستمرون علیها.انتهی،و معنی الآیه واضح.

قوله تعالی: وَ آتاکُمْ مِنْ کُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ کَفّارٌ السؤال هو الطلب و یفارقه أن السؤال إنما یکون ممن یعقل و الطلب أعمّ و إنما تنبّه الإنسان للسؤال من جهه الحاجه الداعیه الیه فأظهر له أن یرفع ما حلّت به من حاجه و کانت الوسیله العادیه الیه هی اللفظ فتوسل به الیه و ربما توسل الیه بإشاره أو کتابه و سمی سؤالا حقیقه من غیر تجوّز.

فبالجمله معنی الآیه أن اللّه تعالی أعطی النوع الإنسانی ما سأله فما من حاجه من حوائجه إلا رفع کلها أو بعضها حسب ما تقتضیه حکمته البالغه.

و قوله: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَهَ اللّهِ لا تُحْصُوها قال الراغب:الإحصاء:التحصیل بالعدد یقال:أحصیت کذا و ذلک من لفظ الحصا و استعمال ذلک فیه من حیث إنهم کانوا یعتمدونه بالعدّ کاعتمادنا فیه علی الأصابع.انتهی.

و فی الجمله إشاره إلی خروج النعم عن طوق الإحصاء و لازمه کون حوائج الإنسان التی رفعها اللّه بنعمه غیر مقدور للانسان إحصاؤها.

و کیف یمکن إحصاء نعمه تعالی و عالم الوجود بجمیع أجزائه و ما یلحق بها من الأوصاف و الأحوال مرتبطه منتظمه نافع بعضها فی بعض متوقف بعضها علی بعض،فالجمیع نعمه بالنسبه الی الجمیع و هذا أمر لا یحیط به إحصاء.

و لعل ذلک هو السر فی إفراد النعمه فی قوله: «نِعْمَهَ اللّهِ» فإن الحق أن لیس هناک إلا النعمه

فلا حاجه الی تفخیمها بالجمع لیدلّ علی الکثره،و المراد بالنعمه جنس المنعم فیفید ما یفیده الجمع.

و قوله: إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَظَلُومٌ کَفّٰارٌ أی کثیر الکفران یظلم نفسه فلا یشکر نعمه اللّه و یکفر بها فیؤدّیه ذلک الی البوار و الخسران،أو کثیر الظلم لنعم اللّه لا یشکرها و یکفر بها، الجمله استئناف بیانی یؤکد بها ما یستفاد من البیان السابق،فإن الواقف علی ما مرّ بیانه من حال نعمه تعالی و ما آتی الإنسان من کل ما سأله منها لا یرتاب فی أن الإنسان و هو غافل عنها طبعا ظالم لنفسه کافر بنعمه ربه (۱).

[سوره إبراهیم (۱۴): الآیات ۳۵ الی ۴۱]

اشاره

وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا اَلْبَلَدَ آمِناً وَ اُجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ اَلْأَصْنٰامَ (۳۵) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ کَثِیراً مِنَ اَلنّٰاسِ فَمَنْ تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنِّی وَ مَنْ عَصٰانِی فَإِنَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳۶) رَبَّنٰا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوٰادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ اَلْمُحَرَّمِ رَبَّنٰا لِیُقِیمُوا اَلصَّلاٰهَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَهً مِنَ اَلنّٰاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ اُرْزُقْهُمْ مِنَ اَلثَّمَرٰاتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ (۳۷) رَبَّنٰا إِنَّکَ تَعْلَمُ مٰا نُخْفِی وَ مٰا نُعْلِنُ وَ مٰا یَخْفیٰ عَلَی اَللّٰهِ مِنْ شَیْءٍ فِی اَلْأَرْضِ وَ لاٰ فِی اَلسَّمٰاءِ (۳۸) اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِی وَهَبَ لِی عَلَی اَلْکِبَرِ إِسْمٰاعِیلَ وَ إِسْحٰاقَ إِنَّ رَبِّی لَسَمِیعُ اَلدُّعٰاءِ (۳۹) رَبِّ اجْعَلْنِی مُقِیمَ اَلصَّلاٰهِ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی رَبَّنٰا وَ تَقَبَّلْ دُعٰاءِ (۴۰) رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَ لِوٰالِدَیَّ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ یَوْمَ یَقُومُ اَلْحِسٰابُ (۴۱)

ص: ۴۵۷

۱- ۱) .ابراهیم ۱۹-۳۴:بحث روائی فی کلمه طیبه و شجره طیبه و کلمه خبیثه و شجره خبیثه.

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً أی و اذکر إذ قال إبراهيم و الإشاره إلی مکه شرّفها اللّه تعالی.

و قد حکی اللّه سبحانه نظير هذا الدعاء علی اختصار فيه عن إبراهيم عليه السّلام فی موضع آخر بقوله: وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذٰا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرٰاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قٰالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلىٰ عَذٰابِ النّٰارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (البقره/ ۱۲۶).

و من الممکن أن يستفاد من اختلاف المحکيين فی التعبير أعنی قوله: «اجْعَلْ هٰذٰا بَلَداً آمِناً» و قوله: «اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً» أنهما دعاء ان دعا عليه السّلام بهما فی زمانين مختلفين،و أنه بعد ما أسکن إسماعيل و أمه أرض مکه و رجع إلی أرض فلسطين ثم عاد اليهما وجد من إقبال جرهم إلی مجاورتهما مکانا ما سرّ بذلک فدعا عند ذلک مشيرا إلی مکانهم «رَبِّ اجْعَلْ هٰذٰا بَلَداً آمِناً» فسأل ربه أن يجعل المکان بلدا و لم يکن به و أن يرزق أهله المؤمنين من الثمرات،ثم لما عاد اليهم بعد ذلک بزمان وجد المکان بلدا فسأل ربه أن يجعل البلد آمنا.

و مما يؤيّد کونهما دعاءين ما فيهما من الاختلاف من غير هذه الجهه ففی آيه البقره الدعاء لأهل البلد بالرزق من الثمرات و فی الآيات المبحوث عنها الدعاء بذلک لذريته خاصه مع امور اخری دعا بها لهم.

و علی هذا يکون هذا الدعاء المحکی عن إبراهيم عليه السّلام فی هذه الآيات آخر ما أورده اللّه تعالی فی کتابه من کلام إبراهيم عليه السّلام و دعائه،و قد دعا به بعد ما أسکن إسماعيل و أمه بها

و جاورتهما قبیله جرهم و بنی البیت الحرام و بنیت بلده مکه بأیدی القاطنین هناک کما تدل علیه فقرات الآیات.

و علی تقدیر أن یکون المحکیات دعاء واحدا یکون قوله: «رَبِّ اجْعَلْ» الخ؛تقدیره:ربّ اجعل هذا البلد بلدا آمنا و قد حذف فی إحدی الآیتین المشار الیه و فی الاخری الموصوف اختصارا.

و المراد بالأمن الذی سأله علیه السّلام الأمن التشریعی دون التکوینی-کما تقدم فی تفسیر آیه البقره-فهو یسأل ربه أن یشرع لأرض مکه حکم الحرمه و الأمن،و هو-علی خلاف ما ربما یتوهم-من أعظم النعم التی أنعم اللّه بها علی عباده فإنا لو تأملنا هذا الحکم الإلهی الذی شرعه إبراهیم علیه السّلام بإذن ربه أعنی حکم الحرمه و الأمن و أمعنا فیما یعتقده الناس من تقدیس هذا البیت العتیق و ما أحاط به من حرم اللّه الآمن و قد رکز ذلک فی نفوسهم منذ أربعه آلاف سنه حتی الیوم وجدنا ما لا یحصی من الخیرات و البرکات الدینیه و الدنیویه عائده إلی أهلها و إلی سائر أهل الحق ممن یحن إلیهم و یتعلق قلبه بهم،و قد ضبط التاریخ من ذلک شیئا کثیرا و ما لم یضبط أکثر فجعله تعالی مکه بلدا آمنا من النعم العظیمه التی أنعم اللّه بها علی عباده.

قوله تعالی: وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ کَثِیراً مِنَ النّاسِ -إلی قوله- غَفُورٌ رَحِیمٌ یقال:جنبه و أجنبه أی أبعده،و سؤاله علیه السّلام أن یجنبه اللّه و یعبده و بنیه من عباده الأصنام لواذ و التجاء إلیه تعالی من الإضلال الذی نسبه إلیهن فی قوله: «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ» الخ.

و من المعلوم أن هذا الإبعاد و الإجناب منه تعالی کیفما کان و أیا ما کان تصرف ما و تأثیر منه تعالی فی عبده بنحو،غیر أنه لیس بنحو یؤدی إلی الإلجاء و الاضطرار و لا ینجر إلی القهر و الإجبار بسلب صفه الاختیار منه إذ لا مزیه لمثل هذا الابتعاد حتی یسأل ذلک مثل إبراهیم خلیل اللّه.

فرجع بالحقيقه إلی ما تقدم فی قوله تعالی: یُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّابِتِ الآیه؛ أن کل خیر من فعل أو ترک فإنه منسوب الیه تعالی أولا،ثم إلی العبد ثانیا بخلاف الشر من فعل أو ترک فإنه منسوب إلی العبد ابتداء و لو نسب إلیه تعالی فإنما ینسب إذا کان علی سبیل المجازاه،و قد أوضحنا ذلک.

فالاجتناب من عباده الأصنام إنما یتحقق عن إجناب من اللّه رحمه منه لعبده و عنایه، و لیس فی الحقیقه إلا أمرا تلبّس و اتصف به العبد غیر أنه إنما بملکه بتملیک اللّه سبحانه فهو المالک له بذاته و العبد یملکه بأمر منه و إذن کما أن العبد إنما یهتدی عن هدایه من اللّه،و لیس هناک إلا هدی واحد لکنه مملوک للّه سبحانه لذاته و العبد إنما یملکه بتملیک منه سبحانه، و أبسط کلمه فی هذا المعنی ما وقع فی أخبار آل العصمه أن اللّه یوفق عبده لفعل الخیر و ترک الشر هذا.

فتلخّص أن المراد بقوله علیه السّلام: «وَ اجْنُبْنِی» سؤال ما للّه سبحانه من الصنع فی ترک العبد عباده الأصنام،و بعباره أخری هو یسأل ربه أن یحفظه و بنیه من عباده الأصنام و یهدیهم إلی الحق إن هم عرضوا أنفسهم لذلک و أن یفیض علیهم إن استفاضوا لا أن یحفظهم منها سواء عرضوا لذلک أنفسهم أو لم یعرضوا و أن یفیض علیهم سواء استفاضوا أو امتنعوا فهذا معنی دعائه علیه السّلام.

و منه یعلم أن نتیجه الدعاء لبعض المدعوین لهم و إن کان بلفظ یستوعب الجمیع،و هذا البعض هم المستعدون لذلک دون المعاندین و المستکبرین منهم و سنزیده بیانا.

ثم هو علیه السّلام یدعو بهذا الدعاء لنفسه و بنیه «وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ» و بنوه جمیع من جاء من نسله بعده و هم بنو إسماعیل و بنو إسحاق فإن الابن کما یطلق علی الولد من غیر واسطه کذلک یطلق علی غیره،و یصدق ذلک القرآن الکریم قال تعالی: مِلَّهَ أَبِیکُمْ إِبْراهِیمَ (الحج/۷۸)و قد تکرر إطلاق بنی إسرائیل علی الیهود فی نیف و أربعین موضعا من کلامه

تعالی.

فهو علیه السّلام یسأل البعد عن عباده الأصنام لنفسه و لجمیع من بعده من بنیه بالمعنی الذی تقدم،اللهم إلا أن یقال:إن قرائن الحال و المقال تدل علی اختصاص الدعاه بآل إسماعیل القاطنین بالحجاز فلا یعم بنی إسحاق.

ثم عقب علیه السّلام دعاءه «وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ»

بقوله: «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ کَثِیراً مِنَ النّاسِ» و هو فی مقام التعلیل لدعائه،و قد أعاد النداء «رَبِّ» إثاره للرحمه الإلهیه،أی إنی إنما أسألک أن تبعدنی و بنی عن عبادتهن لأنهن أضللن کثیرا من الناس و نسبه الاضلال إلی الأصنام لمکان الربط الذی بین الضلال و بینهن و إن لم یکن ارتباطا شعوریا و لیس من اللازم فی نسبه أی فعل أو أثر إلی شیء أن یقوم به قیاما شعوریا و هو ظاهر.

ثم قوله علیه السّلام: فَمَنْ تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنِّی وَ مَنْ عَصانِی فَإِنَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ تفریع علی ما تقدم من کلامه أی إذا کان کثیر من الناس أضلتهم الأصنام بعبادتهن و استعذت بک و عرضت نفسی و بنیّ علیک أن تجنبنا من عبادتهن افترقنا نحن و الناس طائفتین:الضالون عن طریق توحیدک و العارضون لأنفسهم علی حفظک و إجنابک فمن تبعنی الخ.

و قد عبّر علیه السّلام فی تفریعه بقوله: فَمَنْ تَبِعَنِی و الاتّباع إنما یکون فی طریق-و قد لوّح إلی الطریق أیضا بقوله: «أَضْلَلْنَ» لأن الضلال إنما یکون عن الطریق-فمراده باتباعه التدین بدینه و السیر بسیرته لا مجرد الاعتقاد بوحدانیته تعالی بل سلوک طریقته المبنیه علی توحید اللّه سبحانه لیکون فی ذلک عرض النفس علی رحمته تعالی و إجنابه من عباده الأصنام.

و من الدلیل علی کون المراد بالاتباع هو سلوک سبیله قوله فی ما یعادله من کلامه: «وَ مَنْ عَصانِی» فإنه نسب العصیان إلی نفسه و لم یقل:و من کفر بک أو عصاک أو فسق عن الحق و نحو ذلک کما لم یقل:فمن آمن بک أو أطاعک أو اتقاک و ما أشبهه.

فمراده باتباعه سلوک طریقه و التدین بجمیع ما أتی به من الاعتقاد و العمل و بعصیانه ترک سیرته و ما أتی به من الشریعه اعتقادا و عملا.کأنه علیه السّلام یقول:من تبعنی و عمل بشریعتی و سار بسیرتی فانه ملحق بی و من أبنائی تنزیلا أسألک أن تجنبنی و إیاه أن نعبد الأصنام،و من عصانی بترک طریقتی کلها أو بعضها سواء کان من بنی أو غیرهم فلا ألحقه بنفسی و لا أسألک إجنابه و إبعاده بل أخلّی بینه و بین مغفرتک و رحمتک (۱).

قوله تعالی: رَبَّنٰا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوٰادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ -إلی آخر الآیه- مِنْ ذُرِّیَّتِی فی تأویل مفعول أَسْکَنْتُ أو سادّ مسدّه و «مِنْ» فیه للتبعیض و مراده علیه السّلام ببعض ذریته ابنه اسماعیل و من سیولد له من الأولاد دون إسماعیل وحده بدلیل قوله بعد: «رَبَّنٰا لِیُقِیمُوا الصَّلاٰهَ» .

و المراد بغیر ذی زرع غیر المزروع و هو آکد و أبلغ لأنه یدل-کما قیل-علی عدم صلاحیته لأن یزرع لکونه أرضا حجریه رملیه خالیه عن المواد الصالحه للزرع و هذا کقوله:«قرآنا غیر ذی عوج».

و نسبه البیت إلی اللّه سبحانه لأنه مبنی لغرض لا یصلح إلا له تعالی و هو عبادته،و کونه محرّما هو ما جعل اللّه له من الحرمه تشریعا،و الظرف أعنی قوله: «عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ» متعلق بقوله: «أَسْکَنْتُ» .

و هذه الجمله من دعائه علیه السّلام أعنی قوله: رَبَّنٰا إِنِّی أَسْکَنْتُ -إلی قوله- اَلْمُحَرَّمِ من الشاهد علی ما قدّمناه من أنه علیه السّلام إنما دعا بهذا الدعاء فی أواخر عمره بعد ما بنی الکعبه و بنی الناس بلده مکه و عمروها،کما أن من الشاهد علیه أیضا قوله: «اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی وَهَبَ لِی عَلَی الْکِبَرِ إِسْمٰاعِیلَ وَ إِسْحٰاقَ» .

۱- ۱) .ابراهیم ۳۵-۴۱:بحث فی قول ابراهیم علیه السّلام «وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنٰامَ» ؛الشرک الخفی.

و بـذلك ينـدفع ما ربما يستشـكل فيقال:كيف سـماه بيتا و قال:أسـكنت من ذريتى عنده و لم يبنه بعد؟كأن السائل يقدّر أنه إنما دعا به يوم أتى بإسماعيل و أمه إلى أرض مكه و كانت أرضا قفراء لا أنيس بها و لا نبت.

و لا حاجه إلى دفعه بأنه كان يعلم بما علمه اللّه أنه سـيبنى هناك بيتا للّه أو بأن البيت كان قبل ذلك و إنما خرّبه بعض الطوائف أو رفعه اللّه إلى السـماء فى الطوفان و ليت شـعرى إذا اندفع بهما هذا الإشكال فكيف يندفع بهما ما يتوجه من الإشكال على هذا التقدير إلى ظاهر قوله:ربّ اجعل هذا البلد آمنا و ظاهر قوله: «وَهَبَ لِی عَلَی الْکِبَرِ إِسْمَاعِیلَ وَ إِسْحَاقَ» .

و قوله: رَبَّنَا لِیُقِیمُوا الصَّلاَهَ بيان لغرضه من إسـكانهم هناك،و هو بانضـمام ما تقـدم من قوله: «بِوَادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ» و ما يعقّبه من قوله: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَهً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ» يفيـد أنه عليه السّـلام إنما اختار واديا غير ذى زرع أعزل من أمتعه الحياه من ماء عـذب و نبات ذى خضـره و شـجر ذى بهجه و هواء معتدل خاليا من السـكنه ليتمحضوا فى عباده اللّه من غير أن يشغلهم شواغل الدنيا.

و قوله: فَاجْعَلْ أَفْئِدَهً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ الـخ؛من الهوىّ بمعنى السـقوط أى تحنّ و تميل اليهم بالمساكنه معهم أو بالحج إلى البيت فيأنسوا بهم،و ارزقهم من الثمرات،بالنقل اليهم تجاره لعلهم يشكرون.

قوله تعـالى: رَبَّنَا إِنَّکَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِی وَ مَا نُعْلِنُ إلى آخر الآيه معناه ظاهر، و قوله: «وَ مَا یَخْفیٰ عَلَی اللّٰهِ مِنْ شَیْءٍ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ فِی السَّمَاءِ» من تمـام كلام إبراهيم عليه السّـلام أو من كلامه تعالى،و على الأول ففى قوله: «عَلَی اللّٰهِ» التفات وجهه الإشاره إلى عله الحكم كأنه قيل:إنك تعلم ما نخفى و ما نعلن لأنك اللّه الذى ما يخفى عليه شـىء فى الأرض و لا فى السـماء،و لا يبعد أن يستفاد من هذا التعليل أن المراد بالسماء ما هو خفى علينا غائب عن حسّنا و الأرض خلافه فافهم ذلك.

ص :۴۶۳

قوله تعالى: اَلْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِی وَهَبَ لِی عَلَی الْکِبَرِ إِسْمٰاعِیلَ وَ إِسْحٰاقَ إِنَّ رَبِّی لَسَمِیعُ الدُّعٰاءِ کالجمله المعترضه بین فقرات دعائه دعاه إلی إیراده تـذکّره فی ضـمن ما أورده من الأدعیه عظیم نعمه اللّه علیه إذ وهب له ولـدین صالحین مثلهما بعـد ما انقطع عنه الأسـباب العادیه المؤدیه إلی ظهور النسل،و أنه إنما وهبهما له باسـتجابه دعائه للولـد فحمـد اللّه علی ما وهبهما و أثنی علیه علی استجابه دعائه فی ذلک.

قوله تعالی: رَبِّ اجْعَلْنِی مُقِیمَ الصَّلاٰهِ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی رَبَّنٰا وَ تَقَبَّلْ دُعٰاءِ الکلام فی اسـتناد إقامته الصـلاه إلی اللّه سـبحانه نظیر الکلام فی اسـتناد إجنابه أن یعبد الأصنام فإن لإقامه الصلاه نسبه الیه تعالی بالإذن و المشیه کما أن لها نسبه إلی العبد بالتصدی و العمل و قد مرّ الکلام فیه.

و هذه الفقره ثانی دعاء یشترک فیه هو علیه السّلام و ذریته و یعقّب فی الحقیقه قوله أولا:

«وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنٰامَ» کما یلحق به دعاؤه الثالث المشترک فیه «رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَ لِوٰالِدَیَّ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ» .

و قـد أفرد نفسه فی جمیع الفقرات الثلاث عن غیره إذ قـال: وَ اجْنُبْنِی رَبِّ اجْعَلْنِی مُقِیمَ الصَّلاٰهِ اِغْفِرْ لِی لأن مطلوبه لحوق ذریته به کما قال فی موضع آخر: وَ اجْعَلْ لِی لِسٰانَ صِدْقٍ فِی الْآخِرِینَ (الشـعراء۸۴/)و فی موضع آخر کمـا حکاه اللّه بقوله: وَ إِذِ ابْتَلیٰ إِبْرٰاهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِمٰاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قٰالَ إِنِّی جٰاعِلُکَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً قٰالَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی (البقره۱۲۴/).

و أمـا قوله فی الفقره الاـولی: «وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ» و هاهنـا «اجْعَلْنِی مُقِیمَ الصَّلاٰهِ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی» فقـد تقـدم أن المراد ببنیه بعضـهم لا جمیعهم فتتطابق الفقرتان.

و من تطابق الفقرتین أنه أکد دعاءه فی هذه الفقره بقوله: «رَبَّنٰا وَ تَقَبَّلْ دُعٰاءِ» فإن سؤال تقبل الدعاء إلحاح و إصرار و تأکید کما أن التعلیل فی الفقره الاولی،بقوله: «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ

ص :۴۶۴

كَثِيراً مِنَ النّاسِ» تأكيد فى الحقيقه لما فيها من الدعاء،بقوله: «وَ اجْنُبْنِى» الخ.

قوله تعالى: رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَ لِوٰالِدَىَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسٰابُ ختم عليه السّلام دعاءه-و هو آخر ما ذكر من دعائه فى القرآن الكريم كما تقدم-بطلب المغفره للمؤمنين يوم القيامه،و يشبه آخر ما دعا به نوح عليه السّلام مما ذكر فى القرآن: رَبِّ اغْفِرْ لِى وَ لِوٰالِدَىَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ (نوح/٢٨).

و فى الآيه دليل على أنه عليه السّلام لم يكن ولد آزر المشرك لصلبه فإنه عليه السّلام-كما ترى-يستغفر لوالديه و هو على الكبر و فى آخر عهده«و قد تبرأ من آزر فى أوائل عهده بعد ما استغفر له عن موعده وعده إياه قال تعالى: قٰالَ سَلاٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى (مريم/٤٧)،و قال:

وَ اغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُ كٰانَ مِنَ الضّٰالِّينَ (الشعراء/٨٦)،و قال: وَ مٰا كٰانَ اسْتِغْفٰارُ إِبْرٰاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاّٰ عَنْ مَوْعِدَهٍ وَعَدَهٰا إِيّٰاهُ فَلَمّٰا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ (التوبه/١١۴)و قد تقدم تفصيل القول فى قصصه عليه السّلام فى سوره الأنعام فى الجزء السابع من الكتاب.

و من لطيف ما فى دعائه عليه السّلام اختلاف النداء المكرر الذى فيه بلفظ «رَبِّ» و «رَبَّنَا» و العنايه فيما أضيف إلى نفسه بما يختص بنفسه من السبقه و الإمامه،و فيما أضيف إلى نفسه و غيره إلى المشتركات.

[سوره إبراهيم (١۴): الآيات ۴٢ الى ۵٢]

اشاره

وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ اَللّٰهَ غٰافِلاً عَمّٰا يَعْمَلُ اَلظّٰالِمُونَ إِنَّمٰا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ اَلْأَبْصٰارُ (۴٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُؤُسِهِمْ لاٰ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَوٰاءٌ (۴٣) وَ أَنْذِرِ اَلنّٰاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ اَلْعَذٰابُ فَيَقُولُ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنٰا أَخِّرْنٰا إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ اَلرُّسُلَ أَ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مٰا لَكُمْ مِنْ زَوٰالٍ (۴۴) وَ سَكَنْتُمْ فِى مَسٰاكِنِ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنٰا بِهِمْ وَ ضَرَبْنٰا لَكُمُ اَلْأَمْثٰالَ (۴۵) وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اَللّٰهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كٰانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ اَلْجِبٰالُ (۴۶) فَلاٰ تَحْسَبَنَّ اَللّٰهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اَللّٰهَ عَزِيزٌ ذُو اِنْتِقٰامٍ (۴٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ اَلْأَرْضُ غَيْرَ اَلْأَرْضِ وَ اَلسَّمٰاوٰاتُ وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ اَلْوٰاحِدِ اَلْقَهّٰارِ (۴٨) وَ تَرَى اَلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِى اَلْأَصْفٰادِ (۴٩) سَرٰابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرٰانٍ وَ تَغْشىٰ وُجُوهَهُمُ اَلنّٰارُ (۵٠) لِيَجْزِىَ اَللّٰهُ كُلَّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ إِنَّ اَللّٰهَ سَرِيعُ اَلْحِسٰابِ (۵١) هٰذٰا بَلاٰغٌ لِلنّٰاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا اَلْأَلْبٰابِ (۵٢)

بيان:

قوله تعالى: وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ اللّٰهَ غٰافِلاً عَمّٰا يَعْمَلُ الظّٰالِمُونَ الى آخر الآيتين؛

ص :۴۶۶

يقال:شخص بصره أى سكن بحيث لا يطرف جفنه،و يقال:بعير مهطع إذا صوّب عنقه أى رفعه و هطع و أهطع بمعنى،و يقال:أقنع رأسه إذا رفعه،و قوله:لا يرتد اليهم طرفهم أى لا يقدرون على أن يطرفوا من هول ما يشاهدونه،و قوله:و أفئدتهم هواء أى قلوبهم خاليه عن التعقل و التدبير لشده الموقف أو أنها زائله.

و المعنى:و لا تحسبنّ اللّه و لا تظنّنه غافلا عما يعمل هؤلاء الظالمون بما تشاهد من تمتعهم و إترافهم فى العيش و إفسادهم فى الأرض إما يمهلهم اللّه و يؤخر عقابهم الى يوم يسكن فيه أبصارهم فلا تطرف و الحال أنهم مادّون لأعناقهم رافعون لرءوسهم لا يقدرون على ردّ طرفهم و قلوبهم مدهوشه خاليه عن كل تحيّل و تدبير من شده هول يوم القيامه و فى الآيه إنذار للظالمين و تعزيه لغيرهم.

قوله تعالى: وَ أَنْذِرِ النّٰاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذٰابُ الى آخر الآيه؛فى الآيه إنذار بعد إنذار و بين الإنذار فرق من جهتين:

إحداهما:أن الإنذار فى الآيتين السابقتين إنذار بما أعدّ اللّه من أهوال يوم القيامه و أليم العذاب فيه،و أما الذى فى هذه الآيه و ما يتلوها فهو إنذار بعذاب الاستئصال فى الدنيا و من الدليل عليه قوله: «فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنٰا أَخِّرْنٰا إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ» الخ.

و الثانيه:أن الإنذار الأول إنذار بعذاب قطعى لا صارف له عن أمه ظالمه و لا فرد ظالم من أمه و أما الإنذار الثانى فهو إنذار بعذاب غير مصروف عن أمه ظالمه و أما الفرد فربما صرف عنه،و لذلك ترى أنه تعالى يقول أولا «وَ أَنْذِرِ النّٰاسَ» ثم يقول «فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا» الخ؛و لم يقل:فيقولون أى الناس لأن عذاب الاستئصال لا يصيب المؤمنين قال تعالى: ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنٰا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنٰا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (يونس/١٠٣)و إنما يصيب الامه الظالمه بحلول أجلهم و هو طائفه من ظالمى الامه لا جميع أفرادها.

و بالجمله فقوله: وَ أَنْذِرِ النّٰاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذٰابُ إنذار للناس بعذاب

الاستئصال الـذی یقطع دابر الظالمین منهم،و قـد تقـدم فی تفسـیر سوره یونس و غیره أن ذلک مکتوب علی الامم قضاء بینهم و بین رسولهم حتی هذه الامه المحمدیه و قد تکرر هذا الوعید منه تعالی فی عده مواضع من کلامه.

و هـذا هو الیوم الـذی یطهّر اللّه الأرض فیه من قـذاره الشـرک و الظلم و لا یعبـد علیها یومئذ إلا اللّه سـبحانه فإن الدعوه عامه و الا ـمه هم أهـل الأرض فإذا محی اللّه عنهم الشـرک لم یبق منهم إلا المؤمنون و یکون الـدین کله للّه،قال تعالی: وَ لَقَـدْ کَتَبْنا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّکْرِ أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصّالِحُونَ .

و قوله: فَیَقُولُ الَّذِینَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلی أَجَـلٍ قَرِیبٍ نُجِبْ دَعْوَتَـکَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُـلَ المراد به الظـالمون من النـاس و هم الـذین یأخذهم العذاب المستأصل و لا یتخطاهم،و مرادهم بقولهم: «أَخِّرْنا إِلی أَجَلٍ قَرِیبٍ» الاستمهال بمده قصیره تضاف الی عمرهم فی الدنیا حتی یتدارکوا فیه ما فوّتوه بظلمهم و الدلیل علیه قولهم: «نُجِبْ دَعْوَتَکَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ» .

و التعبیر بالرسل بلفظ الجمع فی قولهم: «وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ» مع أن الآیه تصف حال ظالمی هـذه الامه ظاهرا و کان مقتضـی ذلک أن یقال:و نتبع الرسول إنما هو للـدلاله علی أن الملاک فی نزول هـذا العـذاب القضاء بین الرساله و بین منکریها من غیر اختصاص ذلک برسول دون رسول کما یفیده قوله: وَ لِکُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (یونس۴۷/).

و قوله: أَ وَ لَمْ تَکُونُوا أَقْسَـمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَکُمْ مِنْ زَوالٍ الإقسام تعلیق الحکم فی الکلام بأمر شریف من جهه شرافته لیدلّ به علی صـدقه إذ لو کـذب المتکلم و قد أقسم فی کلامه لأذهب بذلک شـرف المقسم به کقولنا:و اللّه إن کذا لکذا و لعمری إن الأمر علی کذا،و یعدّ القسم أقوی أسباب التأکید.و لا یبعد أن یکون الإقسام فی الآیه کنایه عن إیراد

الکلام فی صوره جازمه غیر قابله للتردید.

و الکلام علی تقدیر القول،و المعنی یقال لهم توبیخا و تبکیتا:أ لم تکونوا أقسمتم من قبل نزول العذاب ما لکم من زوال و أنکم بما عندکم من القوه و السطوه و وسائل الدفاع أمه خالده مسیطره علی الحوادث فما لکم تستمهلون الی أجل قریب.

قوله تعالی: وَ سَکَنْتُمْ فِی مَسٰاکِنِ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ الی آخر الآیه؛ معطوف علی محل قوله: «أَقْسَمْتُمْ» فی الآیه السابقه،و المعنی:أ و لم تکونوا سکنتم فی مساکن الذین ظلموا أنفسهم من الامم السابقه،و ظهر لکم أن هذه الدعوه حقه و یتعقبها لو ردّت عذاب مستأصل،من جهتین:جهه المشاهده حیث تبیّن لکم کیف فعلنا باولئک الظالمین الذین سکنتم فی مساکنهم؟وجهه البیان حیث ضربنا لکم الأمثال و أنذرناکم عذابا مستأصلا یتعقبه إنکار الحق و ردّ الدعوه النبویه و یقطع دابر الظالمین.

قوله تعالی: وَ قَدْ مَکَرُوا مَکْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللّٰهِ مَکْرُهُمْ وَ إِنْ کٰانَ مَکْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبٰالُ حال من الضمیر فی «فَعَلْنٰا» فی الآیه السابقه أو من الضمیر فی «بِهِمْ» فیها أو من الضمیرین جمیعا علی ما قیل،و ضمائر الجمع راجعه الی «الَّذِینَ ظَلَمُوا» .

و المراد بکون مکرهم عند اللّه إحاطته تعالی به بعلمه و قدرته،و من المعلوم أن المکر إنما یکون مکرا إذا لم یحط به الممکور به و جهله،و أما إذا کان الممکور به عالما بما هیأه الماکر من المکر و قادرا علی دفعه لغی المکر أو عاد مکرا علی نفس الماکر کما قال تعالی: وَ مٰا یَمْکُرُونَ إِلاّٰ بِأَنْفُسِهِمْ وَ مٰا یَشْعُرُونَ (الأنعام/١٢٣).

و قوله: وَ إِنْ کٰانَ مَکْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبٰالُ إن وصلیّه-علی ما قیل-و اللام فی«لتزول»متعلق بمقدّر یدلّ علیه لفظ المکر کقولنا:یقتضی أو یوجب و ما أشبه ذلک، و التقدیر:اللّه محیط بمکرهم عالم به قادر علی دفعه إن کان مکرهم دون هذه الشده و إن کان علی هذه الشده.

ص :۴۶۹

و المعنى تبيّن لكم كيف فعلنا بهم و الحال أنهم مكروا ما فى وسعهم من المكر و اللّه محيط بمكرهم و إن كان مكرهم عظيما موجبا لزوال الجبال.

و ربما قيل:إن «إِنْ» نافيه و اللام هى الداخله على المنفى بالجبال الآيات و المعجزات كنايه و المعنى و ما كان مكرهم لتبطل به آيات اللّه و معجزاته التى هى كالجبال الراسيات التى لا تزول عن مكانها،و أيّد هذا المعنى بقراءه ابن مسعود«و ما كان مكرهم»و هو معنى بعيد.

و قرئ أيضا «لِتَزُولَ» بفتح اللام الاولى و ضم اللام الثانيه،و على هذا تكون «إِنْ» مخففه من المشدده و المعنى و التحقيق أن مكرهم كان من العظمه بحيث تزول منه الجبال.

قوله تعالى: فَلاٰ تَحْسَبَنَّ اللّٰهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقٰامٍ تفريع على ما تقدم أن ترك مؤاخذه الظالمين بعملهم إنما هو لتأخيرهم الى يوم القيامه أى إذا كان الأمر كذلك فلا تحسبنّ اللّٰه مخلفا لما وعد رسله من نصرهم و مؤاخذه المتخلفين عن دعوتهم،و كيف يخلف وعده و هو عزيز ذو انتقام شديد و لازم عزته المطلقه أن لا يخلف وعده فإن إخلاف الوعد إما لكون الواعد غير قادر على إنجاز ما وعده أو لتغير من الرأى بعروض حال ثانيه تقهره على خلاف ما بعثته اليه الحال الاولى التى أوجبت عليه الوعد و اللّه سبحانه عزيز على الإطلاق لا يتصف بعجز و لا تقهره حال و لا شىء آخر و هو الواحد القهار.

و لازم اتصافه بالانتقام أن ينتقم للحق ممن استكبر عنه و استعلى عليه و ينتصف للمظلوم من الظالم.

و ذو انتقام من أسمائه تعالى الحسنى التى سمى اللّه تعالى بها نفسه فى مواضع من كلامه و قارنه فى جميعها باسمه العزيز،قال تعالى: وَ اللّٰهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقٰامٍ (آل عمران/۴)، (المائده/۹۵)،و قال: أَ لَيْسَ اللّٰهُ بِعَزِيزٍ ذِی انْتِقٰامٍ (الزمر/۳۷)،و قال فى الآيه المبحوث

عنها: إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ من ذلک یظهر أن «ذُو انتِقَامٍ» من فروع اسم«العزیز» (۱).

قوله تعالی: یَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَیْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمٰاوٰاتُ وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ الظرف متعلق بقوله: «ذُو انتِقَامٍ» و تخصیص انتقامه تعالی بیوم القیامه مع عمومه لجمیع الأوقات و الظروف إنما هو لکون الیوم أعلی مظاهر الانتقام الإلهی کما أن تخصیص بروزهم للّه بذلک الیوم کذلک،و علی هذا النسق جلّ الأوصاف المذکوره فی کلامه تعالی لیوم القیامه کقوله: اَلْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ (الانفطار/۱۹)،و قوله: مٰا لَکُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ (المؤمن/۳۳)،الی غیر ذلک و قد تقدمت الإشاره الیه کرارا.

و الظاهر أن اللام فی الأرض للعهد فی الموضعین معا و کذا فی السماوات و السماوات معطوفه علی الأرض الاولی و المعنی تبدّل هذه الأرض غیر هذه الأرض و تبدل هذه السماوات غیر هذه السماوات.

و قوله: وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ معنی بروزهم و ظهورهم للّه یومئذ-مع کون الأشیاء بارزه غیر خفیّه علیه دائما-سقوط جمیع العلل و الأسباب التی کانت تحجبهم عنه تعالی ما داموا فی الدنیا فلا یبقی یومئذ-علی ما یشاهدون-شیء من الأسباب یملکهم و یتولی أمرهم و یستقلّ بالتأثیر فیهم إلا اللّه سبحانه کما یدلّ علیه آیات کثیره فهم لا یلتفتون الی جانب و لا یتوجهون الی جهه فی ظاهرهم و باطنهم و حاضرهم و الماضی الغائب من أحوالهم و أعمالهم إلا وجدوه سبحانه شاهدا مهیمنا علیه محیطا به.

و الدلیل علی هذا الذی ذکرناه توصیفه تعالی بالواحد القهّار المشعر بنوع من الغلبه فبروزهم للّه یومئذ إنما هو ناشئ عن کونه تعالی هو الواحد الذی یقوم به وجود کل شیء و یقهر کل من دونه من مؤثر فلا یحول بینهم و بینه حائل فهم بارزون له بروزا مطلقا.

۱- ۱) .ابراهیم ۴۲-۵۲:کلام فی معنی الانتقام و نسبته الیه تعالی.

قوله تعالى: وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَ تَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ المقرّنين من التقرين و هو جمع الشىء الى نظيره و الأصفاد جمع الصفد و هو الغلّ الذى يجمع اليد الى العنق أو هو مطلق السلسله يقرن بين المقيّدين،و السرابيل جمع السربال و هو القميص و القطران شىء أسود منتن يطلى به الإبل فإنهم يطلون فيصير كالقميص عليهم،و الغشاوه بالفتح الستر و التغطيه يقال:غشى يغشى غشاوه أى ستره و غطّاه،و معنى الآيتين واضح.

قوله تعالى: لِيَجْزِيَ اللّٰهُ كُلَّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ إِنَّ اللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسٰابِ معنى الآيه واضح،و هى بظاهرها تدلّ على أن الذى تجزى به كل نفس هو عين ما كسبته من حسنه أو سيئه و إن تبدّلت صورته،فهى من الآيات الدالّه على أن الذى يلحق بهم يوم القيامه هو نتيجه أعمالهم.

فالآيه تفسّر أولا معنى الجزاء فى يوم الجزاء،و ثانيا معنى انتقامه تعالى يومئذ و أنه ليس من قبيل عقوبه المجرم العاصى تشفيّا منه بل إلحاق ما يستدعيه عمل المجرم به و إن شئت فقل إيصال ما اكتسبه المجرم بعينه اليه.

و فى تعليل هذا الجزاء و هو فى يوم القيامه بقوله: «إِنَّ اللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسٰابِ» إيماء الى أن الجزاء واقع من غير فصل و مهل إلا أن ظرف ظهوره هو ذلك اليوم لا غير،أو أن الحكم بالجزاء و كتابته واقع عند العمل و تحققه يوم القيامه و مآل الوجهين واحد فى الحقيقه.

قوله تعالى: هٰذٰا بَلاٰغٌ لِلنّٰاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبٰابِ البلاغ بمعنى التبليغ على ما ذكره الراغب أو بمعنى الكفايه على ما ذكره غيره.

و الآيه خاتمه السوره فالأنسب أن تكون الإشاره بهذا الى ما أورد فى السوره من البيان لا الى مجموع القرآن كما ذكره بعضهم و لا الى ما ذكر من قوله تعالى: «وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ اللّٰهَ غٰافِلاً عَمّٰا

يَعْمَلُ الظّالِمُونَ» الى آخر السوره؛كما ذكره آخرون.

و قوله: وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ الخ؛اللام فيه للغايه و هو معطوف على محذوف إنما حذف لفخامه أمره و عظم شأنه لا يحيط به أفهام الناس لاشتماله من الأسرار الإلهيه على ما لا يطيقونه،و إنما تسع عقولهم ما ذكر من غاياته و هو الإنذار و العلم بوحدانيته تعالى و التذكّر، فهم ينذرون بما ذكر فيها من مؤاخذته تعالى الظالمين عاجلا و آجلا،و تتمّ عليهم الحجه بما ذكر فيها من آيات التوحيد،و يتذكّر المؤمنون منهم خاصه بما فيها من المعارف الإلهيه.

و بهذا يتطابق مختتم السوره و مفتتحها أعنى قوله فى أول السوره: «كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النّٰاسَ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلىٰ صِرٰاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» فقد تقدم أن مدلول الآيه أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالدعوه و التبليغ الى صراط اللّه بما أنه تعالى ربهم العزيز الحميد ليخرج الناس من الظلمات الى النور بإذنه فإنهم إن استجابوا الدعوه و آمنوا خرجوا بذلك من ظلمات الكفر الى نور الإيمان بالفعل و إن لم يستجيبوا أنذروا و وقفوا على التوحيد الحق و خرجوا من الجهل الى العلم و هو نوع خروج من الظلمه الى النور و إن كان وبالا عليهم و خسارا ففى الدعوه-على أى حال-و إنذار للناس و إعلامهم أنما هو إله واحد و تذكر لاولى الألباب منهم خاصه و هم المؤمنون (۱).

۱- ۱) .ابراهيم ۴۲-۵۲:بحث روائى فى يوم القيامه و تبديل الارض بغير الارض،و الجنّه و نعيمها.

سوره الحجر مکیه و هی تسع و تسعون آیه

اشاره

[سوره الحجر (۱۵): الآیات ۱ الی ۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;الر تِلْکَ آیٰاتُ اَلْکِتٰابِ وَ قُرْآنٍ مُبِینٍ (۱) رُبَمٰا یَوَدُّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ کٰانُوا مُسْلِمِینَ (۲) ذَرْهُمْ یَأْکُلُوا وَ یَتَمَتَّعُوا وَ یُلْهِهِمُ اَلْأَمَلُ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ (۳) وَ مٰا أَهْلَکْنٰا مِنْ قَرْیَهٍ إِلاّٰ وَ لَهٰا کِتٰابٌ مَعْلُومٌ (۴) مٰا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّهٍ أَجَلَهٰا وَ مٰا یَسْتَأْخِرُونَ (۵) وَ قٰالُوا یٰا أَیُّهَا اَلَّذِی نُزِّلَ عَلَیْهِ اَلذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ (۶) لَوْ مٰا تَأْتِینٰا بِالْمَلاٰئِکَهِ إِنْ کُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِینَ (۷) مٰا نُنَزِّلُ اَلْمَلاٰئِکَهَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ مٰا کٰانُوا إِذاً مُنْظَرِینَ (۸) إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا اَلذِّکْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ (۹)

ص :۴۷۴

بیان:

تشتمل السوره علی الکلام حول استهزاء الکفار بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و رمیه بالجنون و رمی القرآن الکریم بأنه من أهذار المجانین ففیها تعزیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و أمره بالصبر و الثبات و الصفح عنهم و تطییب لنفسه الشریفه و إنذار و تبشیر.

و هی مکیه علی ما تشهد به آیاتها،و نقل فی المجمع عن الحسن استثناء قوله: وَ لَقَدْ آتَیْنٰاکَ سَبْعاً مِنَ الْمَثٰانِی الآیه؛و قوله: کَمٰا أَنْزَلْنٰا عَلَی الْمُقْتَسِمِینَ اَلَّذِینَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِینَ و سیأتی ما فیه.

و تشتمل السوره علی قوله تعالی: فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ الخ؛و الآیه تقبل الانطباق علی ما ضبطه التاریخ أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم اکتتم فی أول البعثه ثلاث سنین أو أربعا أو خمسا لا یعلن دعوته لاشتداد الأمر علیه فکان لا یدعو إلا آحادا ممن یرجو منهم الایمان یدعوهم خفیه و یسرّ الیهم الدعوه حتی أذن له ربه فی ذلک و أمره أن یعلن دعوته.

و تؤیده الروایات المأثوره من طرق الشیعه و أهل السنه أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان یکتتم فی أول بعثته سنین لا یظهر فیها دعوته لعامه الناس حتی أنزل اللّه تعالی علیه: فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ إِنّٰا کَفَیْنٰاکَ الْمُسْتَهْزِئِینَ فخرج الی الناس و أظهر الدعوه،و علیه فالسوره مکیه نازله فی أول الدعوه العلنیه.

و من غرر الآیات القرآنیه المشتمله علی حقائق جمه فی السوره قوله تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ الآیه؛و قوله: إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ.

قوله تعالی: الر تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ وَ قُرْآنٍ مُبِینٍ الإشاره الی الآیات الکریمه القرآنیه فالمراد بالکتاب القرآن،و تنکیر القرآن للدلاله علی عظم شأنه و فخامه أمره کما أن التعبیر بتلک و هی للإشاره الی البعید لذلک.

و المعنى هذه الآيات العاليه منزله الرفيعه درجه التى نتنزلها اليک آيات الکتاب الإلهى و آيات قرآن عظيم الشأن فاصل بين الحق و الباطل على خلاف ما يرميها به الکفار بما يرمونک بالجنّه مستهزءين بکلام اللّه.

و من الممکن أن يراد بالکتاب اللوح المحفوظ فان القرآن منه و فيه،قال تعالى: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِيمٌ فِى کِتابٍ مَکْنُونٍ (الواقعه۷۸/)،و قال: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (البروج۲۲/)فيکون قوله: تِلْکَ آياتُ الْکِتابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ کالملخص من قوله: وَ الْکِتابِ الْمُبِينِ إِنّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِى أُمِّ الْکِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَکِيمٌ (الزخرف۴/).

قوله تعالى: رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ کَفَرُوا لَوْ کانُوا مُسْلِمِينَ توطئه لما سيتعرض له من قولهم للنبى: يا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ يشير به الى أنهم سيندمون على ما هم عليه من الکفر و يتمنون الإسلام للّه و الإيمان بکتابه يوم لا سبيل لهم الى تحصيل ذلک.

فقوله: رُبَما يَوَدُّ المراد به وداده التمنى لا مطلق الوداده و الحب،و الدليل على ذلک قوله فى بيان هذا المودّه: لَوْ کانُوا مُسْلِمِينَ فإن لفظى «لَوْ» و «کانُوا» تدلان على أن ودادتهم وداده تمنّ و أنهم يتمنون الاسلام بالنسبه الى ماضى حالهم مما فاتهم و لن يعود اليهم فليس إلا الاسلام ما داموا فى الدنيا.

فالآيه تدلّ على أن الذين کفروا سيندمون على کفرهم و يتمنون أن لو کانوا مسلمين بعد انطواء بساط الحياه الدنيا.

قوله تعالى: ذَرْهُمْ يَأْکُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ الإلهاء الصرف و الاشتغال يقال:ألهاه کذا عن کذا أى شغله عنه و أنساه ذکره.

و قوله: ذَرْهُمْ يَأْکُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ أمر برفع اليد عنهم و ترکهم و ما هم فيه من الباطل،و هو کنايه عن النهى عن الجدال معهم و الاحتجاج عليهم لإثبات

هـذه الحقيقه و هى أنهم سوف يـودّون الاسـلام و يتمنونه و لاـ سبيـل لهم الى تحصـيله و تـدارك مـا فـات منه،و قوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» فى موضع التعليـل للأـمر أى ذرهم و لا تجادلهم و لا تحاجّهم فلا حاجه الى ذلك لأنهم سوف يعلمون ذلك فإن الحق ظاهر لا محاله.

و فى الآيه تعريض لهم أنهم لا غايه لهم فى حياتهم إلا الأكل و التمتع بلـذات الماده و التلهّى بالآمال و الأمانى فلا منطق لهم إلا منطق الأنعام و الحيوان العجم فمن الحرىّ أن يتركوا و ما هم فيه،و لا يلقى اليهم الحجج الحقه المبنيه على أساس العقل السليم و المنطق الإنسانى.

قوله تعـالى: وَ مٰا أَهْلَكْنٰا مِنْ قَرْيَهٍ إِلاّٰ وَ لَهٰا كِتٰابٌ مَعْلُومٌ الى آخر الآيتين؛ تثبيت و توكيـد لقوله فى الآيه السابقه: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» على مـا يعطيه السـياق و المعنى دعهم فـإنهم لاـ يسـلمون فى هـذه الحياه الـدنيا و إنما يودّون الإسـلام بعـد حلول أجلهم و نزول الهلاك بهم،و الناس ليسوا بـذوى خيره فى ذلك بل لكل أمه كتاب معلوم عند اللّه مكتوب فيه أجلهم لا يقدرون أن يسـتقدموه و لا يستأخروه ساعه.

و فى الآيتين دلاله على أن الامه من الإنسان لها كتاب كما أن للفرد منه كتابا،قال تعالى:

وَ كُلَّ إِنسٰانٍ أَلْزَمْنٰاهُ طٰائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ كِتٰاباً يَلْقٰاهُ مَنْشُوراً (الإسراء/ ١٣).

قوله تعالى: وَ قٰالُوا يٰا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ كلام خارج مخرج الاستهزاء،و لذلك خاطبوه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لا باسمه بل بوصف نزول الذكر عليه كما كان يدّعيه،و جاءوا بالفعل المجهول للدلاله على أن منزله غير معلوم عندهم و لا اعتماد و لا وثوق لهم بما يـدّعيه هو أن اللّه تعالى هو الـذى أنزله،و توصـيفه بالـذى نزّل عليه الـذكر و كذا تسـميه النازل عليه ذكرا كل ذلك من الاستهزاء كما أن قولهم: «إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» رمى و تكذيب.

قوله تعالى: لَوْ مٰا تَأْتِينٰا بِالْمَلاٰئِكَهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ لو ما مثل هلاّ

للتحضیض أی هلاّ تأتینا بالملائکه إن کنت صادقا فی دعوی النبوّه لیشهدوا علی صدق دعواک و ینذروا معک،فهو قریب المعنی من قولهم علی ما حکاه اللّه: لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَلَکٌ فَیَکُونَ مَعَهُ نَذِیراً (الفرقان/٧).

و وجه اقتراحهم علی الأنبیاء أن یأتوا بالملائکه و یظهروهم لهم اعتقادهم أن البشریه کینونه مادیه مغموره فی قذاره الشهوه و الغضب لا نسبه بینها و بین العالم السماوی الذی هو محض النورانیه و الطهاره فمن ادّعی نوعا من الاتصال بذاک العالم الروحانی فعلیه أن یأتی ببعض أهله من الملائکه الکرام لیصدّقوه فی دعواه و یعینوه فی دعوته.

علی أن الملائکه عند الوثنیین آلهه دون اللّه سبحانه فدعوتهم الی التوحید معناه أن هؤلاء الآلهه فی معزل من الشفاعه و العباده بأمر من اللّه سبحانه و هو إله الآلهه و لا دلیل علی ذلک کاعترافهم به فلینزلوا و لیعترفوا و یصدّقوا،النبوه.

قوله تعالی: مٰا نُنَزِّلُ الْمَلاٰئِکَهَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ مٰا کٰانُوا إِذاً مُنْظَرِینَ جواب عما اقترحوا علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یاتیهم بالملائکه حتی یصدقوه و محصّل الجواب أن السنه الإلهیه جاریه علی ستر ملائکته عنهم تحت أستار الغیب فلو أنزلهم و أظهرهم لهم عن اقتراحهم ذلک کان ذلک آیه سماویه خارقه للعاده نازله عن اقتراحهم،و من شأن الآیه المعجزه النازله عن اقتراح الناس ان یعقبها عذاب الاستئصال و الهلاک القطعی إن لم یؤمنوا بها،و هؤلاء الکفار المعاندون لیسوا بمؤمنین فهو الهلاک.

و بالجمله لو أنزل اللّه الملائکه و الحال هذا الحال-هم یقترحون آیه فاصله تظهر الحق و تمیط الباطل-لأنزلهم بالحق الفاصل الممیز و ما کانوا إذا منظرین بل یهلکون و یقطع دابرهم، هذا محصّل ما ذکره بعضهم.

و یمکن أن یقرّر معنی الآیه باستمداد من التدبّر فی آیات أخر أن ظرف الحیاه المادیه أعنی هذه النشأه الدنیویه ظرف یختلط فیه الحق و الباطل من غیر ان یتمحّض الحق فی الظهور

بجمیع خواصه و آثاره کما یشیر الیه قوله تعالی: کَذٰلِکَ یَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَ الْبٰاطِلَ (الرعد/۱۷)،و قد تقدم تفصیل القول فی ذلک فما یظهر فیه شیء من الحق إلا و هو یحتمل شیئا من اللبس و الشک کما یصدقه استقراء الموارد التی صادفناها مدی أعمارنا،و من الشاهد علیه قوله تعالی: وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ مَلَکاً لَجَعَلْنٰاهُ رَجُلاً وَ لَلَبَسْنٰا عَلَیْهِمْ مٰا یَلْبِسُونَ (الأنعام/ ۹)،و الظرف ظرف الامتحان و الاختیار و لا اختیار إلا مع إمکان التباس الحق بالباطل و اختلاط الخیر و الشر بنحو حتی یقف الإنسان علی ملتقی الطریقین و منشعب النجدین فیستدلّ علی الخیر و الشر بآثارهما و أماراتهما ثم یختار ما یستحقه من السعاده و الشقاوه.

قوله تعالی: إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ صدر الآیه مسوق سوق الحصر،و ظاهر السیاق أن الحصر ناظر الی ما ذکر من ردهم القرآن بأنه من أهذار الجنون و أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم مجنون لا عبره بما صنع و لا حجر و من اقتراحهم أن یأتیهم بالملائکه لیصدقوه فی دعوته و أن القرآن کتاب سماوی حق.

و المعنی-علی هذا و اللّه أعلم-أن هذا الذکر لم تأت به أنت من عندک حتی یعجزوک و یبطلوه بعنادهم و شده بطشهم و تتکلف لحفظه ثم لا تقدر،و لیس نازلا من عند الملائکه حتی یفتقر الی نزولهم و تصدیقهم إیاه بل نحن أنزلنا هذا الذکر إنزالا تدریجیا و إنا له لحافظون بما له من صفه الذکر بما لنا من العنایه الکامله به.

فهو ذکر حی خالد مصون من أن یموت و ینسی من أصله،مصون من الزیاده علیه بما یبطل به کونه ذکرا،مصون من النقص کذلک،مصون من التغییر فی صورته و سیاقه بحیث یتغیر به صفه کونه ذکرا للّه مبیّنا لحقائق معارفه.

فالآیه تدل علی کون کتاب اللّه محفوظا من التحریف بجمیع أقسامه من جهه کونه ذکرا للّه

ص: ۴۷۹

سبحانه فهو ذکر حی خالد (۱).

[سوره الحجر (۱۵): الآیات ۱۰ الی ۱۵]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِکَ فِی شِیَعِ اَلْأَوَّلِینَ (۱۰) وَ مٰا یَأْتِیهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۱۱) کَذٰلِکَ نَسْلُکُهُ فِی قُلُوبِ اَلْمُجْرِمِینَ (۱۲) لاٰ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّهُ اَلْأَوَّلِینَ (۱۳) وَ لَوْ فَتَحْنٰا عَلَیْهِمْ بٰاباً مِنَ اَلسَّمٰاءِ فَظَلُّوا فِیهِ یَعْرُجُونَ (۱۴) لَقٰالُوا إِنَّمٰا سُکِّرَتْ أَبْصٰارُنٰا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (۱۵)

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِکَ فِی شِیَعِ اَلْأَوَّلِینَ الی آخر الآیتین؛الشیع جمع شیعه و هی الفرقه المتفقه علی سنّه أو مذهب یتّبعونه،قال تعالی: مِنَ الَّذِینَ فَرَّقُوا دِینَهُمْ وَ کٰانُوا شِیَعاً کُلُّ حِزْبٍ بِمٰا لَدَیْهِمْ فَرِحُونَ (الروم/۳۲).

و قوله: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا أی رسلا و قد حذف للاستغناء عنه فإن العنایه بأصل تحقق الإرسال من قبل من غیر نظر الی من أرسل بل بیان أن البشر الأولین کالآخرین جرت عادتهم علی أن لا یحترموا الرساله الإلهیه و یستهزءوا بمن أتی بها و یمضوا علی إجرامهم لتکون فی ذلک تعزیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فلا یضیق صدره بما قابلوه به من الإنکار و الاستهزاء کما سیعود الیه فی آخر السوره بقوله: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّکَ یَضِیقُ صَدْرُکَ بِمٰا یَقُولُونَ الخ؛الآیه ۹۷ من السوره.

۱- ۱) .الحجر ۱-۹:کلام فی ان القرآن مصون عن التحریف فی فصول.

و المعنی:طب نفسا فنحن نزّلنا الذکر علیک و نحن نحفظه و لا یضیقنّ صدرک بما یقولون فهو دأب المجرمین من الامم الانسانیه أقسم لقد أرسلنا من قبلک فی فرق الأولین و شیعهم و حالهم هذه الحال ما یأتیهم من رسول إلا کانوا به یستهزءون.

قوله تعالی: کَذٰلِکَ نَسْلُکُهُ فِی قُلُوبِ الْمُجْرِمِینَ الی آخر الآیتین؛السلوک:

النفاذ و الإنفاذ یقال:سلک الطریق أی نفذ فیه و سلک الخیط فی الإبره أی أنفذه فیها و أدخله و ذکروا أن سلک و أسلک بمعنی.

و الضمیران فی نَسْلُکُهُ و بِهِ للذکر المتقدم ذکره و هو القرآن الکریم و المعنی أن حال رسالتک و دعوتک بالذکر المنزل الیک تشبه حال الرساله من قبلک فکما أرسلنا من قبلک فقابلوها بالرد و الاستهزاء کذلک ندخل هذا الذکر و ننفذه فی قلوب هؤلاء المجرمین،و نبّأ به:

أنهم لا یؤمنون بالذکر و قد مضت طریقه الأولین و سنتهم فی أنهم یستهزءون بالحق و لا یتّبعونه فالآیتان قریبتا المعنی من قوله: فَمٰا کٰانُوا لِیُؤْمِنُوا بِمٰا کَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ .

قوله تعالی: وَ لَوْ فَتَحْنٰا عَلَیْهِمْ بٰاباً مِنَ السَّمٰاءِ فَظَلُّوا فِیهِ یَعْرُجُونَ، لَقٰالُوا إِنَّمٰا سُکِّرَتْ أَبْصٰارُنٰا الخ؛العروج فی السماء الصعود إلیها و التسکیر الغشاوه.

و المراد بفتح باب من السماء علیهم إیجاد طریق یتیسّر لهم به الدخول فی العالم العلوی الذی هو مأوی الملائکه و لیس کما یظنّ سقفا جرمانیا له باب ذو مصراعین یفتح و یغلق،و قد قال تعالی: فَفَتَحْنٰا أَبْوٰابَ السَّمٰاءِ بِمٰاءٍ مُنْهَمِرٍ (القمر/۱۱).

فالمعنی:و لو فتحنا علیهم بابا من السماء و یسّرنا لهم الدخول فی عالمها فداموا یعرجون فیه عروجا بعد عروج حتی یتکرر لهم مشاهده ما فیه من أسرار الغیب و ملکوت الأشیاء لقالوا إنما غشیت أبصارنا فشاهدت امورا لا حقیقه لها بل نحن قوم مسحورون.

[سوره الحجر (۱۵): الآیات ۱۶ الی ۲۵]

اشاره

وَ لَقَدْ جَعَلْنٰا فِی اَلسَّمٰاءِ بُرُوجاً وَ زَیَّنّٰاهٰا لِلنّٰاظِرِینَ (۱۶) وَ حَفِظْنٰاهٰا مِنْ کُلِّ شَیْطٰانٍ رَجِیمٍ (۱۷) إِلاّٰ مَنِ اِسْتَرَقَ اَلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ مُبِینٌ (۱۸) وَ اَلْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَیْنٰا فِیهٰا رَوٰاسِیَ وَ أَنْبَتْنٰا فِیهٰا مِنْ کُلِّ شَیْءٍ مَوْزُونٍ (۱۹) وَ جَعَلْنٰا لَکُمْ فِیهٰا مَعٰایِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرٰازِقِینَ (۲۰) وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (۲۱) وَ أَرْسَلْنَا اَلرِّیٰاحَ لَوٰاقِحَ فَأَنْزَلْنٰا مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَسْقَیْنٰاکُمُوهُ وَ مٰا أَنْتُمْ لَهُ بِخٰازِنِینَ (۲۲) وَ إِنّٰا لَنَحْنُ نُحْیِی وَ نُمِیتُ وَ نَحْنُ اَلْوٰارِثُونَ (۲۳) وَ لَقَدْ عَلِمْنَا اَلْمُسْتَقْدِمِینَ مِنْکُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا اَلْمُسْتَأْخِرِینَ (۲۴) وَ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ یَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَکِیمٌ عَلِیمٌ (۲۵)

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِی السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَیَّنّاها لِلنّاظِرِینَ الی آخر الآیات الثلاث،البروج جمع برج و هو القصر سمّیت بها منازل الشمس و القمر من السماء بحسب الحسّ تشبیها لها بالقصور التی ینزلها الملوک.

و الضمیر فی قوله: وَ زَیَّنّاها للسماء کما فی قوله: وَ حَفِظْناها و تزیینها للناظرین هو ما نشاهده فی جوّها من البهجه و الجمال الذی یولّه الألباب بنجومها الزاهره و کواکبها اللامعه علی اختلاف أقدارها و تنوّع لمعاتها و قد کرّر سبحانه ذکر هذا التزیین الکاشف عن مزید عنایته به کقوله: وَ زَیَّنَّا السَّماءَ الدُّنْیا بِمَصابِیحَ وَ حِفْظاً (حم السجده/

ص :۴۸۲

۱۲)،و قوله: إِنّٰا زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِزِينَةٍ الْكَوٰاكِبِ وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ مٰارِدٍ، لاٰ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلىٰ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جٰانِبٍ دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ وٰاصِبٌ إِلاّٰ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ ثٰاقِبٌ (الصافات/۱۰).

و استرق السمع أخذ الخبر المسموع فى خفيه كمن يصغى خفيه الى حديث قوم يسرونه فيما بينهم،و استراق السمع من الشياطين هو محاولتهم أن يطّلعوا على بعض ما يحدّث به الملائكه فيما بينهم كما يدل عليه ما تقدم آنفا من آيات سوره الصافات.

و الشهاب هو الشعله الخارجه من النار و يطلق على ما يشاهد فى الجو من أجرام مضيئه كأن الواحد منها كوكب ينقضّ دفعه من جانب الى آخر فيسير سيرا سريعا ثم لا يلبث دون أن ينطفئ.

فظاهر معنى الآيات:و لقد جعلنا فى السماء-و هى جهه العلو-بروجا و قصورا هى منازل الشمس و القمر و زيناها أى السماء للناظرين بزينه النجوم و الكواكب و حفظناها أى السماء من كل شيطان رجيم أن ينفذ فيها فيطّلع على ما تحتويه من الملكوت إلا من استراق السمع من الشياطين بالاقتراب منه ليسمع ما يحدّث به الملائكه من أحاديث الغيب المتعلقه بمستقبل الحوادث و غيرها فإنه يتبعه شهاب مبين.

و سنتكلم إن شاء اللّه فى الشهب و معنى رمى الشياطين فيما سيأتى من تفسير سوره الصافات.

قوله تعالى: وَ الْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَيْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ مدّ الارض بسطها طولا و عرضا و بذلك صلحت للزرع و السكنى و لو اغشيت جبالا شاهقه مضرّسه لفقدت كمال حياه الحيوان عليها.

و الرواسى صفه محذوفه الموصوف و التقدير و ألقينا فيها جبالا رواسى و هو جمع راسيه بمعنى الثابته إشاره الى ما وقع فى غير هذا الموضع أنها تمنع الأرض من الميدان كما قال: وَ أَلْقىٰ

فِی الْأَرْضِ رَوٰاسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکَمْ (النحل/١۵).

و الموزون من الوزن و هو تقـدیر الأجسام من جهه ثقلها ثم عمم لکل تقدیر لکل ما یمکن أن یتقدر بوجه کتقدیر الطول بالشبر و الـذراع و نحو ذلک و تقدیر الحجم و تقدیر الحراره و النور و القدره و غیرها،و فی کلامه تعالی: وَ نَضَعُ الْمَوٰازِینَ الْقِسْطَ لِیَوْمِ الْقِیٰامَهِ (الأنبیاء/۴٧)،و هو توزین الأعمال و لا یتصف بثقل و خفه من نوع ما للأجسام الارضیه منهما.

و ربما یکنّی به عن کون الشـیء بحیث لا یزید و لا ینقص عما یقتضـیه الطبع أو الحکمه کما یقال:کلامه موزون و قامته موزونه و أفعاله موزونه أی مستحسنه متناسبه الأجزاء لا تزید و لا تنقص مما یقتضیه الطبع أو الحکمه.

و بالنظر الی اختلاف اعتباراته المـذکوره ذکر بعضـهم أن المراد به إخراج کل ما یوزن من المعـدنیات کالذهب و الفضه و سائر الفلزّات،و قال بعضهم:إنه إنبات النباتات علی ما لکل نوع منها من النظام البدیع الموزون،و قیل:إنه خلق کل أمر مقدّر معلوم.

و الذی یجب التنبه له التعبیر بقوله: «مِنْ کُلِّ شَیْءٍ مَوْزُونٍ» دون أن یقال:من کل نبات موزون فهو یشـمل غیر النبات مما یظهر و ینمو فی الأرض کما أنه یشمل النبات لمکان قوله:

«وَ أَنْبَتْنٰا» دون أن یقـال:أخرجنـا أو خلقنا و قـد جیء بمن و ظاهرها التبعیض فالمراد-و اللّه أعلم-إنبات کل أمر موزون ذی ثقل مـادی یمکن ان یزیـد و ینقص من الأجسـام النبـاتیه و الأرضـیه،و لا مانع علی هـذا من أخـذ الموزون بکل من معنییه الحقیقی و الکنائی.

و المعنی:و الأرض بسـطناها و طرحنا فیها جبالا ثابته لتسکّنها من المید و أنبتنا فیها من کل شیء موزون-ثقیل واقع تحت الجاذبه أو متناسب-مقدارا تقتضیه الحکمه.

قوله تعـالی: وَ جَعَلْنٰا لَکُمْ فِیهٰا مَعٰایِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرٰازِقِینَ المعایش جمع معیشه و هی ما به یعیش الحیوان و یـدیم حیاته من المأکول و المشروب و غیرهما و یأتی مصدرا

كالعيش و المعاش.

و قوله: وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرٰازِقِينَ معطوف على الضمير المجرور فى «لَكُمْ» على ما ذهب اليه من النحاه الكوفيون و يونس و الأخفش من جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعاده الجارّ،و أما على قول غيرهم فربما يعطف على معايش و التقدير و جعلنا لكم من لستم له برازقين كالعبيد و الحيوان الأهلى،و ربما جعل «مَنْ» مبتدأ محذوف الخبر و التقدير:

و من لستم له برازقين جعلنا له فيها معايش و هذا كله تكلف ظاهر.

و كيف كان،المراد بمن العبيد و الدواب-على ما قيل-أتى بلفظه من و هى لاولى العقل تغليبا هذا،و ليس من البعيد أن يكون المراد به كل ما عدا الإنسان من الحيوان و النبات و غيرهما فإنها تسأل الرزق كما يسأله العقلاء و من دأبه سبحانه فى كلامه أن يطلق الألفاظ المختصه بالعقلاء على غيرهم إذا أضيف إليها شيء من الآثار المختصه بهم كقوله تعالى فى الأصنام: فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كٰانُوا يَنْطِقُونَ (الأنبياء/۶۳)،و قوله: فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي (الشعراء/۷۷)،الى غير ذلك من الآيات المتعرضه لحال الأصنام التى كانوا يعبدونها و لا يستقيم للمعبود إلا أن يكون عاقلا و كذا قوله: فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيٰا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قٰالَتٰا أَتَيْنٰا طٰائِعِينَ (حم السجده/۱۱)،و غير ذلك.

و المعنى:و جعلنا لكم معشر البشر فى الأرض أشياء تعيشون بها مما تدام به الحياه و لغيركم من أرباب الحياه مثل ذلك.

قوله تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ الخزائن جمع خزانه و هى مكان خزن المال و حفظه و ادّخاره،و القدر بفتحتين أو فتح فسكون مبلغ الشيء و كميته المتعينه (۱).

ص :۴۸۵

۱- ۱) .الحجر ۱۶-۲۵:بحث فى معنى قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ» ؛الشیء؛الخزائن.

و الـذی یعطیه التدبر فی الآیه و ما یناظرها من الآیات الکریمه أنها من غرر کلامه تعالی تبیّن ما هو أدق مسلکا و أبعد غورا مما فسّروها به و هو ظهور الأشیاء بالقدر و الأصل الذی لها قبل إحاطته بها و اشتماله علیها.

و ذلک أن ظاهر قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ» علی ما به من العموم بسبب وقوعه فی سیاق النفی مع تأکیده بمن،کل ما یصدق علیه أنه شیء من دون أن یخرج منه إلا ما یخرجه نفس السیاق و هو ما تدل علیه لفظه«نا»و«عند»و«خزائن»و ما عدی ذلک مما یری و لا یری مشمول للعام.

فشخص زید مثلا ـ و هو فرد إنسانی و نوع من الإنسان أیضا الموجود فی الخارج بأفراده من الشیء و الآیه تثبت لـذلک خزائن عند اللّه سبحانه فلننظر ما معنی کون زید مثلا له خزائن عند اللّه؟

و الذی یسهّل الأمر فیه أنه تعالی یعدّ هذا الشیء المذکور نازلا من عنده و النزول یستدعی علوا و سفلا و رفعه و خفضه و سماء و أرضا مثلا و لم ینزل زید المخلوق مثلا من مکان عال الی آخر سافل بشهاده العیان فلیس المراد بإنزاله إلا خلقه لکنه ذو صفه یصدق علیه النزول بسببها،و نظیر الآیه قوله تعالی: وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعٰامِ ثَمٰانِیَهَ أَزْوٰاجٍ (الزمر/ ۶)،و قوله: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِیدَ (الحدید/۲۵).

ثم قوله: وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ یقرن النزول و هو الخلقه بالقدر قرنا لازما غیر جائز الانفکاک لمکان الحصر،و الباء إما للسببیه أو الآله أو المصاحبه و المآل واحد فکینونه زید و ظهوره بالوجود إنما هو بماله من القدر المعلوم فوجوده محدود لا محاله،کیف؟ و هو تعالی بقول: إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطٌ (حم السجده/۵۴)،و لو لم یکن محدودا لم یکن محاطا له تعالی فمن المحال أن یحاط بما لا حدّ له و لا نهایه.

و هذا القدر هو الذی بسببه یتعین الشیء و یتمیز من غیره ففی زید مثلا شیء به یتمیز من

عمرو و غیره من أفراد الانسان و یتمیز من الفرس و البقر و الأرض و السماء و یجوز لنا به أن نقول:لیس هو بعمرو و لا بالفرس و البقر و الأرض و السماء و لو لا هذا الحد لکان هو هی و ارتفع التمیز.

و کذلک ما عنده من القوی و الآثار و الأعمال محدوده مقدّره فلیس إبصاره مثلا إبصارا مطلقا فی کل حال و فی کل زمان و فی کل مکان و لکل شیء و بکل عضو مثلا بل إبصار فی حال و زمان و مکان خاص و لشیء خاص و بعضو خاص و علی شرائط خاصه،و لو کان إبصارا مطلقا لأحاط بکل إبصار خاص و کان الجمیع له و نظیره الکلام فی سائر ما یعود الیه من خصائص وجوده و توابعه فافهم ذلک.

و من هنا یظهر أن القدر خصوصیه وجود الشیء و کیفیه خلقته کما یستفاد أیضا من قوله تعالی: اَلَّذِی خَلَقَ فَسَوّٰی وَ الَّذِی قَدَّرَ فَهَدیٰ (الأعلی/٣)،و قوله: اَلَّذِی أَعْطیٰ کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدیٰ (طه/٥٠)فإن الآیه الاولی رتبت الهدایه و هی الدلاله علی مقاصد الوجود علی خلق الشیء و تسویته و تقدیره،و الآیه الثانیه رتبتها علی إعطائه ما یختصّ به من الخلق،و لازم ذلک-علی ما یعطیه سیاق الآیتین-کون قدر الشیء خصوصیه خلقه غیر الخارجه عنه.

ثم إنه تعالی وصف قدر کل شیء بأنه معلوم إذ قال: «وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» و یفید بحسب سیاق الکلام أن هذا القدر معلوم له حینما یتنزل الشیء و لما یتمّ نزوله و یظهر وجوده فهو معلوم القدر معینه قبل إیجاده،و الیه یئول معنی قدر: وَ کُلُّ شَیْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ (الرعد/ ٨)،فإن ظاهر الآیه أن کل شیء بماله من المقدار حاضر عنده معلوم له فقوله هناک: «عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ» فی معنی قوله هاهنا: «بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» و نظیر ذلک قوله فی موضع آخر: قَدْ جَعَلَ اللّٰهُ لِکُلِّ شَیْءٍ قَدْراً (الطلاق/٣)،أی قدرا لا یتجاوزه معینا غیر مبهم معلوما غیر مجهول و بالجمله للقدر تقدم علی الشیء بحسب العلم و المشیه و إن کان مقارنا له غیر منفک عنه فی

وجوده.

ثم إنه تعالى أثبت بقوله: «عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ» الخ؛للشیء عنده قبل نزوله الی هذه النشأه و استقراره فیها خزائن،و جعل القدر متأخرا عنها ملازما لنزوله فالشیء و هو فی هذه الخزائن غیر مقدّر بقدر و لا محدود بحد و هو مع ذلک هو.

و قد جمع فی تعریف هذه الخزائن بین کونها فوق القدر الذی یلحق الشیء و بین کونها خزائن فوق الواحده و الاثنتین،و من المعلوم أن العدد لا یلحق إلا الشیء المحدود و أن هذه الخزائن لو لم تکن محدوده متمیزه بعضها من بعض کانت واحده البته.

و من هنا یتبین أن هذه الخزائن بعضها فوق بعض و کل ما هو عال منها غیر محدود بحد ما هو دان غیر مقدّر بقدره و مجموعها غیر محدود بالحدّ الذی یلحق الشیء و هو فی هذه النشأه، و لا یبعد أن یکون التعبیر بالتنزیل الدال علی نوع من التدریج فی قوله: «وَ مٰا نُنَزِّلُهُ» إشاره الی کونه یطوی فی نزوله مرحله بعد مرحله و کلما ورد مرحله طرأه من القدر أمر جدید لم یکن قبل حتی إذا وقع فی الأخیره أحاط به القدر من کل جانب قال تعالی: هَلْ أَتیٰ عَلَی الْإِنْسٰانِ حِینٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ یَکُنْ شَیْئاً مَذْکُوراً (الدهر/۱)،فقد کان الإنسان و لکنه لم یکن شیئا مذکورا.

و هذه الخزائن جمیعا فوق عالمنا المشهود لأنه تعالی وصفها بأنها عنده و قد أخبرنا بقوله:

«مٰا عِنْدَکُمْ یَنْفَدُ وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ بٰاقٍ» أن ما عنده ثابت لا یزول و لا یتغیر عما هو علیه فهذه الخزائن کائنه ما کانت أمور ثابته غیر زائله و لا متغیره،و الأشیاء فی هذه النشأه المادیّه المحسوسه متغیّره فانیه لا ثابته و لا باقیه فهذه الخزائن الإلهیه فوق عالمنا المشهود.

هذا ما یعطیه التدبر فی الآیه الکریمه و هو و إن کان لا یخلو من دقه و غموض یعضل علی بادئ الفهم لکنک لو أمعنت فی التدبر و بذلت فی ذلک بعض جهدک استنار لک و وجدته من واضحات کلامه إن شاء اللّه تعالی و علی من لم یتیسر له قبوله أن یعتمد الوجه الثالث المتقدم

ص :۴۸۸

فهو أحسن الوجوه الثلاثه المتقدمه و اللّه ولى الهدايه و سنرجع الى بحث القدر فى كلام مستقل يختص به إن شاء اللّه فى موضع يناسبه.

قوله تعالى: وَ أَرْسَلْنَا الرِّيٰاحَ لَوٰاقِحَ فَأَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَسْقَيْنٰاكُمُوهُ وَ مٰا أَنْتُمْ لَهُ بِخٰازِنِينَ اللواقح جمع لاقحه من اللقح بالفتح فالسكون يقال:لقح النخل لقحا أى وضع اللقاح-بفتح اللام-و هو طلع الذكور من النخل على الإناث لتحمل بالتمر، و قد ثبت بالأبحاث الحديثه فى علم النبات أن حكم الزوجيه جار فى عامه النبات و أن فيه ذكوريّه و أنوثيه و أن الرياح فى مهبها تحمل الذرات من نطفه الذكور فتلقح بها الإناث،و هو قوله تعالى: «وَ أَرْسَلْنَا الرِّيٰاحَ لَوٰاقِحَ» .

و قوله: فَأَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَسْقَيْنٰاكُمُوهُ إشاره الى المطر النازل من السحاب و قد تسلم الأبحاث العلميه الحديثه أن الماء الموجود فى الكره الأرضيه من الأمطار النازله عليها من السماء على خلاف ما كانت تعتقده القدماء أنه كره ناقصه محيطه بكره الأرض إحاطه ناقصه و هو عنصر من العناصر الأربعه.

و هذه الآيه التى تثبت بشطرها الأول «وَ أَرْسَلْنَا الرِّيٰاحَ لَوٰاقِحَ» مسأله الزوجيه و اللقاح فى النبات،و بشطرها الثانى «فَأَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَسْقَيْنٰاكُمُوهُ» أن المياه الموجوده المدّخره فى الأرض تنتهى الى الأمطار،و قوله تعالى السابق: وَ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ الظاهر فى أن للوزن دخلا خاصا فى الإنبات و الإنماء من نقود العلم التى سبق إليها القرآن الكريم الأبحاث العلميه و هى تتلو المعجزه أو هى هى.

قوله تعالى: وَ إِنّٰا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوٰارِثُونَ الكلام مسوق للحصر يريد بيان رجوع كل التدبير اليه،و قد كان ما عدّه من النعم كالسماء ببروجها و الأرض برواسيها،و إنبات كل شىء موزون و جعل المعايش و إرسال اللواقح و إنزال الماء من السماء إنما يتم نظاما مبنيا على الحكمه و العلم إذا انضم اليه الحياه و الموت و الحشر،و كان

مما ربما یظن أن بعض الحیاه و الموت لیس الیه تعالی و لذا أکّد الکلام و أتی بالحصر دفعا لذلک.

ثم جاء بقوله: وَ نَحْنُ الْوارِثُونَ أی الباقون بعد إماتتکم المتصرفون فیما خوّلناکموه من أمتعه الحیاه کأنه تعالی یقول الینا تدبیر أمرکم و نحن محیطون بکم نحییکم بعد ما لم تکونوا فنحن قبلکم،و نمیتکم و نرثکم فنحن بعدکم.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِینَ مِنْکُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِینَ لما کانت الآیات السابقه التی تعدّ النعم الإلهیه و تصف التدبیر مسوقه لبیان وحدانیته تعالی فی ربوبیته،و کان لا ینفع الخلق و النظم من غیر انضمام علمه تعالی و خاصه بمن یحییه و یمیته عقّبها بهذه الآیه الداله علی علمه بمن استقدم منهم بالوجود و من استأخر أی المتقدمین من الناس و المتأخرین علی ما یفیده السیاق.

و قیل:المراد بالمستقدمین المستقدمون فی الخیر،و قیل:المستقدمون فی صفوف الحرب، و قیل:المستقدمون الی الصف الأول فی صلاه الجماعه و المستأخرون خلافهم،و هی أقوال ردیه.

قوله تعالی: وَ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ یَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَکِیمٌ عَلِیمٌ الکلام مسوق للحصر أی هو یحشرهم لا غیر فهو الرب.

و أورد علیه أنه فی مثل ذلک من الحصر یکون الفعل مسلّم الثبوت و النزاع إنما هو فی الفاعل،و هاهنا لیس کذلک فإن الخصم لا یسلّم الحشر من أصله هذا.

و قد ذهب علی هذا المعترض أن الآیه حوّلت الخطاب السابق للناس عنهم الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم التفاتا فقیل «وَ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ یَحْشُرُهُمْ» و لم یقبل:إن ربکم هو یحشرکم، و النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم مسلّم للحشر.

و بذلک یظهر نکته الالتفات فی الآیه فی مورده تعالی من التکلم مع الغیر الی الغیبه،و فی

مورد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من الغیبه الی الخطاب،و فی مورد الناس بالعکس.

و قد ختمت الآیه بقوله: إِنَّهُ حَکِیمٌ عَلِیمٌ لأن الحشر یتوقف علی الحکمه المقتضیه لحساب الأعمال و مجازاه المحسن بإحسانه و المسیء بإساءته،و علی العلم حتی لا یغادر منهم أحد.

[سوره الحجر (۱۵): الآیات ۲۶ الی ۴۸]

اشاره

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۲۶) وَ اَلْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ اَلسَّمُوم (۲۷) وَ إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَهِ إِنِّی خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۲۸) فَإِذا سَوَّیْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ ساجِدِینَ (۲۹) فَسَجَدَ اَلْمَلائِکَهُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (۳۰) إِلاّ إِبْلِیسَ أَبی أَنْ یَکُونَ مَعَ اَلسّاجِدِینَ (۳۱) قالَ یا إِبْلِیسُ ما لَکَ أَلاّ تَکُونَ مَعَ اَلسّاجِدِینَ (۳۲) قالَ لَمْ أَکُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۳۳) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّکَ رَجِیمٌ (۳۴) وَ إِنَّ عَلَیْکَ اَللَّعْنَهَ إِلی یَوْمِ اَلدِّینِ (۳۵) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ (۳۶) قالَ فَإِنَّکَ مِنَ اَلْمُنْظَرِینَ (۳۷) إِلی یَوْمِ اَلْوَقْتِ اَلْمَعْلُوم (۳۸) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَیْتَنِی لَأُزَیِّنَنَّ لَهُمْ فِی اَلْأَرْضِ وَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ (۳۹) إِلاّ عِبادَکَ مِنْهُمُ اَلْمُخْلَصِینَ (۴۰) قالَ هذا صِراطٌ عَلَیَّ مُسْتَقِیمٌ (۴۱) إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ إِلاّ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ اَلْغاوِینَ (۴۲) وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِینَ (۴۳) لَها سَبْعَهُ أَبْوابٍ لِکُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (۴۴) إِنَّ اَلْمُتَّقِینَ فِی جَنّاتٍ وَ عُیُونٍ (۴۵) اُدْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِینَ (۴۶) وَ نَزَعْنا ما فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلی سُرُرٍ مُتَقابِلِینَ (۴۷) لا یَمَسُّهُمْ فِیها نَصَبٌ وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِینَ (۴۸)

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قال الراغب فی المفردات:أصل الصلصال تردّد الصوت من الشیء الیابس و منه قیل:صلّ المسمار و سمّی الطین الجاف صلصالا،قال تعالی: «مِنْ صَلْصالٍ کَالْفَخّارِ» «مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» و الصلصله بقیه ماء سمیت بذلک لحکایه صوت تحرّکه فی المزاده و قیل:الصلصال المنتن من الطین من قولهم:صلّ اللحم.

ص: ۴۹۲

و قال:و الحمأ و الحمأه طین أسود منتن،و قال:و قوله:من حماء مسنون قیل:متغیر و قوله:لم یتسنّه معناه لم یتغیر و الهاء للاستراحه.انتهی.

و قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ الخ؛المراد به بدء خلقه الإنسان بدلیل قوله:

وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِینٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَهٍ مِنْ ماءٍ مَهِینٍ (الم السجده۸/)، فهو إخبار عن خلقه النوع و ظهوره فی الأرض فإن خلق أول من خلق منهم و منه خلق الباقی خلق الجمیع.

قال فی مجمع البیان:و أصل آدم کان من تراب و ذلک قوله: «خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ» ثم جعل التراب طینا و ذلک قوله: «وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ» ثم ترک ذلک الطین حتی تغیّر و استرخی و ذلک قوله: «مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» ثم ترک حتی جفّ و ذلک قوله: «مِنْ صَلْصالٍ» فهذه الأقوال لا تناقض فیها إذ هی أخبار عن حالاته المختلفه.انتهی.

قوله تعالی: وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ قال الراغب:السموم الریح الحاره تؤثر تأثیر السمّ.انتهی.و أصل الجن الستر و هو معنی سار فی جمیع ما اشتق منه کالجن و المجنه و الجنه و الجنین و الجنان بالفتح و جن علیه اللیل و غیر ذلک.

و الجنّ طائفه من الموجودات مستوره بالطبع عن حواسنا ذات شعور و إراده تکرر فی القرآن الکریم ذکرهم و نسب الیهم أعمال عجیبه و حرکات سریعه کما فی قصص سلیمان علیه السّلام و هم مکلفون و یعیشون و یموتون و یحشرون تدل علی ذلک کله آیات کثیره متفرقه فی کلامه تعالی.

و أما الجانّ فهل هو الجن بعینه أو هو أبو الجن کما أن آدم علیه السّلام أبو البشر کما عن ابن عباس أو هو إبلیس نفسه کما عن الحسن أو الجان نسل إبلیس من الجن أو هو نوع من الجن کما ذکره الراغب؟أقوال مختلفه لا دلیل علی أکثرها.

و الذی یهدی الیه التدبر فی کلامه تعالی أنه قابل فی هاتین الآیتین الإنسان بالجان فجعلهما

نوعين اثنين لا يخلوان عن نوع من الارتباط فى خلقتهما،و نظير ذلك قوله: خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخّارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (الرحمن/۱۵).

و لا يخلو سياق ما نحن فيه من الآيات من دلاله على أن إبليس كان جانّا و إلا لغى قوله:

«وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ» الخ؛و قد قال تعالى فى موضع آخر من كلامه فى إبليس: كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (الكهف/۵۰)،فأفاد أن هذا الجانّ المذكور هو الجن نفسه أو هو نوع من أنواع الجنّ ثم ترك سبحانه فى سائر كلامه ذكر الجانّ من أصله و لم يذكر إلا الجن حتى فى موارد يعمّ الكلام فيها إبليس و قبيله كقوله تعالى: شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ (الأنعام/ ۱۱۲)،و قوله: وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ (حم السجده/۲۵)،و قوله: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ -الى أن قال- يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا (الرحمن/۳۳).

و ظاهر هذه الآيات من جهه المقابله الواقعه فيها بين الإنسان و الجان تاره و بين الإنس و الجن أخرى أن الجنّ و الجان واحد و إن اختلف التعبير.

و ظاهر المقابله بين قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ» الخ؛و قوله: «وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ» الخ؛أن خلق الجان من نار السموم المراد به الخلق الابتدائى و بدء ظهر و النوع كخلق الإنسان من صلصال؛و هل كان استمرار الخلقه فى أفراد الجان المستتبع لبقاء النوع على سنه الخلق الأول من نار السموم بخلاف الإنسان حيث بدئ خلقه من تراب ثم استمر بالنطفه؟كلامه سبحانه خال عن بيانه ظاهرا غير ما فى بعض كلامه من نسبه الذريه الى إبليس كما قال:

أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي (الكهف/۵۰)،و نسبه الموت اليهم كما فى قوله:

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ (حم السجده/۲۵)،و المألوف من نوع فيه ذريه و موت هو التناسل و الكلام بعد فى هذا التناسل هل هو بسفاد كسفاد نوع من الحيوان أو بغير ذلك؟

و قوله: خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ مقطوع الإضافه أی من قبل خلق الانسان و القرینه هی المقابله بین الخلقین.

وعد مبدأ خلق الجان فی الآیه هو نار السموم لا ینافی ما فی سوره الرحمن من عده مارجا من نار أی لهیبا مختلطا بدخان فإن الآیتین تلخصان أن مبدأ خلقه ریح سموم اشتعلت فکانت مارج نار.

فمعنی الآیتین:أقسم لقد بدأنا خلق النوع الانسانی من طین قد جفّ بعد أن کان سائلا متغیرا منتنا،و نوع الجان بدأنا خلقه من ریح حارّه حاده اشتعلت فصارت نارا.

قوله تعالی: وَ إِذْ قٰالَ رَبُّکَ لِلْمَلاٰئِکَهِ إِنِّی خٰالِقٌ بَشَراً الی آخر الآیه؛قال فی المفردات:البشره ظاهر الجلد و الأدمه باطنه کذا قال عامه الادباء-الی أن قال-و عبر عن الانسان بالبشر اعتبارا بظهور جلده من الشعر بخلاف الحیوانات التی علیها الصوف أو الشعر أو الوبر،و استوی فی لفظ البشر الواحد و الجمع و ثنی فقال تعالی: أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَیْنِ و خص فی القرآن فی کل موضع اعتبر من الانسان جثته و ظاهره بلفظ البشر نحو «وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ مِنَ الْمٰاءِ بَشَراً» انتهی موضع الحاجه.

و قوله: وَ إِذْ قٰالَ رَبُّکَ لِلْمَلاٰئِکَهِ إِنِّی خٰالِقٌ بَشَراً بإضمار فعل و التقدیر:و اذکر إذ قال ربک،و فی الکلام التفات من التکلم مع الغیر الی الغیبه و کأن العنایه فیه مثل العنایه التی مرّت فی قوله: وَ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ یَحْشُرُهُمْ فإن هذه الآیات أیضا تکشف عن نبأ ینتهی الی الحشر و السعاده و الشقاوه الخالدتین.

علی أن التکلم مع الغیر فی السابق «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا» من قبیل تکلم العظماء عنهم و عن خدمهم و أعوانهم تعظیما أی بأخذه تعالی ملائکته الکرام معه فی الأمر و هذه العنایه مما لا یستقیم فی مثل المقام الذی یخاطب فیه الملائکه فی إخبارهم بإرادته خلق آدم علیه السّلام و أمرهم بالسجود له إذا سوّاه و نفخ فیه من روحه فافهم ذلک و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالی: فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ التسویه جعل الشیء مستویا قیّما علی أمره بحیث یکون کل جزء منه علی ما ینبغی أن یکون علیه فتسویه الإنسان أن یکون کل عضو من أعضائه فی موضع الذی ینبغی أن یکون فیه و علی الحال التی ینبغی أن یکون علیها.

و لا یبعد أن یستفاد من قوله:«إنی خالق-فإذا سوّیته»أن خلق بدن الإنسان الأول کان علی سبیل التدریج الزمانی فکان أولا الخلق و هو جمع الأجزاء ثم التسویه و هو تنظیم الأجزاء و وضع کل جزء فی موضعه الذی یلیق به و علی الحال التی تلیق به ثم النفخ،و لا ینافیه ما فی قوله تعالی: خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ قٰالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران/۵۹)،فإن قوله: «ثُمَّ قٰالَ لَهُ» الخ؛ناظر الی کینونه الروح و هو النفس الانسانیه دون البدن کما عبّر عنه فی موضع آخر بعد بیان خلق البدن بالتدریج بقوله: ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ (المؤمنون/ ۱۴).

و قوله: وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي النفخ إدخال الهواء فی داخل الأجسام بفم أو غیره و یکنّی به عن إلقاء أثر أو أمر غیر محسوس فی شیء،و یعنی به فی الآیه إیجاده تعالی الروح الانسانی بما له من الرابطه و التعلق بالبدن،و لیس بداخل فیه دخول الهواء فی الجسم المنفوخ فیه کما یشیر الیه قوله سبحانه: ثُمَّ جَعَلْنٰاهُ نُطْفَةً فِي قَرٰارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظٰاماً فَكَسَوْنَا الْعِظٰامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ (المؤمنون/۱۴)،و قوله تعالی: قُلْ يَتَوَفّٰاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده/ ۱۱).

فالآیه الاولی-کما تری-تبین أن الروح الانسانی هو البدن منشأ خلقا آخر و البدن علی حاله من غیر أن یزاد فیه شیء،و الآیه الثانیه تبین أن الروح عند الموت مأخوذ من البدن و البدن علی حاله من غیر أن ینقص منه شیء.

ص :۴۹۶

فالروح أمر موجود فی نفسه له نوع اتحاد بالبـدن بتعلقه به و له اسـتقلال عن البـدن إذا انقطع تعلقه به و فارقه و قد تقدم بعض ما يتعلق من الكلام بهـذا المقـام فی تفسير قوله تعالی: وَ لاٰ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِی سَبِيلِ اللّٰهِ أَمْوٰاتٌ (البقره۱۵۴/)فی الجزء الأول من الكتاب.

و نرجو أن نستوفی هذا البحث فی ذيل قوله: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی» الآيه ۸۵ من سوره الإسراء إن شاء اللّه.

و إضـافه الروح اليـه تعـالی فی قـوله: «مِنْ رُوحِی» للتكرمـه و التشـريف من الإضـافه اللامـيه المفيـده للملـک،و قـوله: «فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ» أی اسـجدوا،و لا يبعـد أن يفهم منه أن خرّوا علی الأرض ساجـدين له فيفيـد التأكيـد فی الخضوع من الملائكه لهـذا المخلوق الجديد كما قيل.

و معنی الآيه فإذا عـدّلت تركيبه و أتممت صـنع بـدنه و أوجـدت الروح الكريم المنسوب إلیّ الذی أربط بينه و بين بدنه فقعوا و خرّوا علی الأرض ساجدين له.

قوله تعالی: فَسَجَدَ الْمَلاٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلاّٰ إِبْلِيسَ أَبیٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السّٰاجِدِينَ لفظه أجمعون تأكيـد بعـد تأكيد لتشديده،و المراد أن الملائكه سـجدوا له بحيث لم يبق منهم أحد و قد اسـتثنی من ذلک إبليس و لم يكن منهم لقوله تعالی: كٰانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (الكهف۵۰/)،و أمـا قول من قـال:إن طائفه من الملائكه كانوا يسـمعون الجن و كان إبليس منهم أو أن الجن بمعنی الستر فيعم الملائكه و غيرهم فمما لا يصـغی اليه،و قد تقدم فی تفسير سوره الأعراف كلام فی معنی شمول الأمر بالسجود لإبليس مع عدم كونه من الملائكه،و معنی الآيتين ظاهر.

قوله تعالی: قٰالَ يٰا إِبْلِيسُ مٰا لَکَ أَلاّٰ تَكُونَ مَعَ السّٰاجِدِينَ «مٰا لَکَ» مبتدأ و خبر أی ما الذی هو كائن لک؟و قوله: «أَلاّٰ تَكُونَ» من قبيل نزع الخافض و التقدير فی أن لا تكون مع الساجدين و هم الملائكه،و محصّل المعنی:ما بالک لم تسجد؟

قوله تعالی: قٰالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصٰالٍ مِنْ حَمَإٍ

مَسْنُونٍ فى التعبير بقوله: «لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ» دون أن يقول:لا أسجد أو لست أسجد دلاله على أن الإباء عن السجده مقتضى ذاته و كـان هو المترقب منه لو اطّلع على جوهره فتفيد الآيه بالكنايه ما يفيده قوله فى موضع آخر: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (ص۷۶/)بالتصريح.

و قد تقدم كلام فى معنى السجود لآدم و أمر الملائكه و إبليس بذلك و ائتمارهم و تمرده عنه، نافع فى هذا الباب فى تفسير سورتى البقره و الأعراف من هذا الكتاب.

قول تعالى فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَهَ إِلىٰ يَوْمِ الدِّينِ الرجيم فعيل بمعنى المفعول من الرجم و هو الطرد و شاع استعماله فى الطرد بالحجاره و الحصاه، و اللعن هو الطرد و الإبعاد من الرحمه.

و من هنا يظهر أن قوله: وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَهَ الخ؛بمنزله البيان لقوله: «فَإِنَّكَ رَجِيمٌ» فإن الرجم كان سببا لخروجه من بين الملائكه من السماء أو من المنزله الإلهيه و بالجمله من مقام القرب و هو مستوى الرحمه الخاصه الإلهيه فينطبق على الابعاد من الرحمه و هو اللعن.

و قد نسب سبحانه هذه اللعنه المجعوله على إبليس فى موضع آخر الى نفسه فقال: وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلىٰ يَوْمِ الدِّينِ (ص۵۸/)،و قيّدها فى الآيتين جميعا بقوله: «إِلىٰ يَوْمِ الدِّينِ» .

أما جعل مطلق اللعنه عليه فى قوله: «عَلَيْكَ اللَّعْنَهَ» فلأن اللعن يلحق المعصيه و ما من معصيه إلا و لإبليس فيه صنع بالإغواء و الوسوسه فهو الأصل الذى يرجع اليه كل معصيه و ما يلحقها من لعن حتى فى عين ما يعود الى أشخاص العصاه من اللعن و الوبال،و تذكّر فى ذلك ما تقدم فى ذيل قوله تعالى: لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ (الأنفال۳۷/)فى الجزء التاسع من الكتاب.

على أنه لعنه اللّه أول فاتح فتح باب معصيه اللّه و عصاه فى أمره فاليه يعود وبال هذا الطريق بسالكيه ما سلكوا فيه.

و أما جعل لعنته خاصه علیه فی قوله:«علیه لعنتی»فلأن الإبعاد من الرحمه بالحقیقه إنما یؤثر أثره إذا کان منه تعالی إذ لا یملک أحد من رحمته إعطاء و منعا إلا بإذنه فالیه یعود حقیقه الإعطاء و المنع.

علی أن اللعن من غیره تعالی بالحقیقه دعاء علیه بالإبعاد من الرحمه و أما نفس الإبعاد الذی هو نتیجه الدعاء فهو من صنعه القائم به تعالی و حقیقته المبالغه فی منع الرحمه.

و قال فی المجمع:و قال بعض المحققین:إنما قال سبحانه هنا: «وَ إِنَّ عَلَیْکَ اللَّعْنَهَ» بالألف و اللام،و قال فی سوره ص: لَعْنَتِی بالإضافه لأن هناک یقول «لِمٰا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ» مضافا، فقال: «وَ إِنَّ عَلَیْکَ لَعْنَتِی» علی المطابقه،و قال هنا: «مٰا لَکَ أَلاّٰ تَکُونَ مَعَ السّٰاجِدِینَ» و ساق الآیه علی اللام فی قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ» و قوله: «وَ الْجَانَّ» فأتی باللام أیضا فی قوله:

«وَ إِنَّ عَلَیْکَ اللَّعْنَهَ» انتهی و قال أیضا فی الآیه بیان أنه لا یؤمن قط.

و أما تقیید اللعنه بقوله: إِلیٰ یَوْمِ الدِّینِ فلأن اللعنه هی عنوان الإثم و الوبال العائد الی النفس من المعصیه و المعصیه محدوده بیوم القیامه فالیوم عمل و لا جزاء و غدا جزاء و لا عمل،و إن شئت فقل:هذه الدار دار کتابه الأعمال و حفظها و یوم القیامه دار الحساب و الجزاء.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ الانظار هو الامهال و قد صدّر کلامه بقوله: «رَبِّ» و هو یخاصمه و قد عصاه و استکبر علیه تعالی لأنه فی مقام الدعاء لا مفر له من دعوته تعالی بما یثیر به الرحمه الإلهیه المطلقه و هو الالتجاء الیه بربوبیته له لیستجیب له و هو مغضوب علیه.

و قد صدّر مسألته بفاء التفریع فی قوله: «فَأَنْظِرْنِی» و ذکر فیه بعثه عامه البشر من غیر أن یخص بالذکر آدم أباهم الذی ابتلی بالرجم و اللعن من أجل الإباء عن السجود له و ذلک کله مبنی علی ما تقدم فی تفسیر آیات القصه فی سوره الأعراف أن المأمور به کان هو السجود

لعامه البشر و كان آدم علیه السّلام كالقبله المنصوبه للسجود یمثل به النوع الانسانی.

و توضیحه أنه قد تقدم فی قوله تعالی: وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاكُمْ ثُمَّ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِیسَ (الأعراف۱۱/)أنهم إنما أمروا بالسجده لنوع الانسان لا لشخص آدم علیه السّلام و لم یكن هذه السجده تشریفا اجتماعیا من غیر غایه حقیقیه بل كانت خضوعا بحسب الخلقه فهم بحسب ما أرید من خلقتهم خاضعون للإنسان بحسب ما أرید من كمال خلقته،أی إنهم مسخرون لأجله عاملون فی سبیل سعاده حیاته أی إن للانسان منزله من القرب و مرحله من كمال السعاده تفوق ما للملائكه من ذلک.

فسجودهم جمیعا له دلیل أنهم جمیعا مسخرون فی سبیل كماله من السعاده عاملون لأجل فوزه و فلاحه كملائكه الحیاه و ملائكه الموت و ملائكه الأرزاق و ملائكه الوحی و المعقبات و الحفظه و الكتبه و غیرهم ممن تذكرهم متفرقات الآیات القرآنیه فالملائكه أسباب إلهیه و أعوان للانسان فی سبیل سعادته و كماله.

و من هنا یظهر للمتدبر الفطن أن إباء إبلیس عن السجده استنكاف منه عن الخضوع لنوع الانسان و العمل فی سبیل سعادته و إعانته علی كماله المطلوب علی خلاف ما ظهر من الملائكه فهو بإبائه عن السجده خرج من جمع الملائكه كما یفیده قوله تعالی: «مٰا لَکَ أَلاّٰ تَكُونَ مَعَ السّٰاجِدِینَ» و أظهر الخصومه لنوع الانسان و البراءه منهم ما حیوا و عاشوا أو خالدا مؤبدا.

و یؤیده جعله تعالی اللعنه المطلقه علیه من یوم أبی الی یوم الدین و هو مده مكث النوع الانسانی فی هذه الدنیا فجعلها علیه كذلک و لما یدّع إبلیس أنه سیغویهم و لم یقل بعد «لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ» مشعر بأن إباءه عن السجده نوع خصومه و عداوه منه لهذا النوع آخذا من آدم الی آخر من سیولد و یعیش من ذریته.

فكأنه علیه اللعنه فهم من قوله تعالی: «وَ إِنَّ عَلَیْکَ اللَّعْنَهَ إِلیٰ یَوْمِ الدِّینِ» أنّ له شأنا مع

النوع الانسانى الى يوم القيامه و أن لشقائهم و فساد أعمالهم ارتباطا به من حيث امتنع عن السجود و لذلك سأل النظره الى يوم يبعثون مفرّعا ذلك على اللعنه المجعوله عليه فقال: «رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ» و لم يقل:ربّ أنظرنى الى يوم يبعثون و لم يقل:أنظرنى الى يوم يموت آدم أو أنظرنى ما دام حيا يعيش بل ذكر آدم و بنيه جميعا و طلب النظره الى يوم يبعثون مفرعا ذلك على اللعنه الى يوم الدين فلما أجيب الى ما سأل أبدى ما فى كمون ذاته و قال:لاغوينهم أجمعين.

قوله تعالى: قٰالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِینَ، إِلیٰ یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ جواب منه سبحانه لإبليس و فيه إجابه و ردّ أما الإجابه فبالنسبه الى أصل الإنظار الذى سأله و أما الردّ فبالنسبه الى القيد و هو أن يكون الإنظار الى يوم يبعثون فإن من الواضح اللائح بالنظر الى سياق الآيتين أن يوم الوقت المعلوم غير يوم يبعثون فلم يسمح له بإنظاره الى يوم يبعثون بل الى يوم هو غيره و لا محاله هو قبل يوم البعث.

و ظاهر يوم الوقت المعلوم أنه وقت تعيّن فى العلم الإلهى نظير قوله: وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/٢١)،و قوله: أُولٰئِکَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (الصافات/٤١)فهو معلوم عند اللّه قطعا و أما أنه معلوم لإبليس أو مجهول عنده فغير معلوم من اللفظ،و قول بعضهم:أنه سبحانه أبهم اليوم و لم يبيّن فهو معلوم للّه غير معلوم لإبليس لأن فى بيانه إغراء بالمعصيه كلام خال عن الدليل فإبهام اللفظ بالنسبه الينا غير إبهام ما ألقى الى إبليس من القول بالنسبه اليه على أن إغراء إبليس بالمعصيه و هو الأصل لكل معصيه مفروضه لا يخلو عن إشكال فافهمه.

على أن قول إبليس ثانيا «لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ» شاهد على أنه سيبقى الى آخر ما يعيش الإنسان فى الدنيا ممن يمكنه إغواؤه فقد كان فهم من قوله تعالى: «إِلیٰ یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» أنه آخر عمر البشر العائشين فى الأرض الجائز له إغواؤهم.

و نسب الی ابن عباس و مال الیه الجمهور أن الیوم هو آخر أیام التکلیف و هو النفخه الاولی یوم یموت الخلائق و کأنه مبنی علی أن إبلیس باق ما بقی التکلیف و أمکنت المخالفه و المعصیه،و هو مده عمر الإنسان فی الدنیا،و ینتهی ذلک الی النفخه الاولی التی بها یموت الخلائق فهو یوم الوقت المعلوم الذی أنظره اللّه الیه،و بینه و بین النفخه الثانیه التی فیها یبعثون أربعمائه سنه أو اربعون سنه علی اختلاف الروایات،و هی ما به التفاوت بین ما سأله إبلیس و بین ما أجاب الیه اللّه سبحانه.

و هذا وجه حسن لو لا ـ ما فیه من قولهم:إن إبلیس باق ما بقی التکلیف و أمکنت المخالفه و المعصیه فإنها مقدمه لا بیّنه و لا مبیّنه و ذلک أن تعویل القوم فی ذلک علی أن المستفاد من الآیات و الأخبار کون کل کفر و فسوق موجود فی النوع الإنسانی مستندا الی إغواء إبلیس و وسوسته کما یدلّ علیه أمثال قوله تعالی: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَیْکُمْ یا بَنِی آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّیْطانَ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ (یس ۶۰/)و قوله: وَ قالَ الشَّیْطانُ لَمّا قُضِیَ الْأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَکُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُکُمْ فَأَخْلَفْتُکُمْ الخ؛الی غیر ذلک من الآیات.و مقتضاها أن یدوم وجود إبلیس ما دام التکلیف باقیا،و التکلیف باق ما بقی الإنسان و هو المطلوب.

و فیه أن کون المعصیه الإنسانیه مستنده بالجمله الی إغواء إبلیس مستفاده من الآیات و الروایات لا غبار علیه لکنه إنما یقتضی بقاء إبلیس ما دامت المعصیه و الغوایه باقیه لا بقاءه ما دام التکلیف باقیا،و لا دلیل علی الملازمه بین المعصیه و التکلیف وجودا.

بل الحجه قائمه من العقل و النقل علی أن غایه الانسان النوعیه و هی السعاده ستعمّ النوع و یتخلص المجتمع الانسانی الی الخیر و الصلاح و لا یعبد علی الأرض یومئذ إلا اللّه سبحانه، و ینطوی وقتئذ بساط الکفر و الفسوق،و یصفو العیش و یرتفع أمراض القلوب و وساوس الصدور،و قد تقدم تفصیل ذلک فی مباحث النبوه فی الجزء الثانی و فی قصص نوح فی الجزء العاشر من الکتاب.قال تعالی: ظَهَرَ الْفَسادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما کَسَبَتْ أَیْدِی النّاسِ لِیُذِیقَهُمْ

بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (الروم۴۱/)،و قال: وَ لَقَدْ کَتَبْنا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّکْرِ أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصّالِحُونَ (الأنبیاء۱۰۵/).

و من ذلک یظهر أن الذی استندوا الیه من الحجّه إنما یدل علی کون یوم الوقت المعلوم الذی جعله اللّه غایه إنظار إبلیس هو یوم یصلح اللّه سبحانه المجتمع الإنسانی فینقطع دابر الفساد و لا یعبد یومئذ إلا اللّه لا یوم یموت الخلائق بالنفخه الاولی.

قوله تعالی: قالَ رَبِّ بِما أَغْوَیْتَنِی لَأُزَیِّنَنَّ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ، إِلاّ عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ الباء فی قوله: «بِما أَغْوَیْتَنِی» للسببیّه و«ما» مصدریه أی أتسبب بإغوائک إیّای الی التزیین لهم و ألقی الیهم ما استقر فیّ من الغوایه کما قالوا یوم القیامه علی ما حکی اللّه: أَغْوَیْناهُمْ کَما غَوَیْنا (القصص۶۳/).

و قول بعضهم:إن الباء للقسم أی أقسم بإغوائک لازیننّ؛من أردإ القول فلم یعهد فی کتاب و لا سنّه أن یقسم بمثل الإغواء و الإضلال و لیس فیه شیء مفهوم من التعظیم اللازم فی القسم.

و قد نسب لعنه اللّه فی قوله: بِما أَغْوَیْتَنِی الی اللّه سبحانه أنه أغواه و لم یردّه اللّه سبحانه الیه و لا أجاب عنه و لیس مراده به غوایته إذ عصی أمر السجده و لم یسجد لآدم علیه السّلام و الدلیل علی ذلک أن لا رابطه بین معصیته فی نفسه و بین معصیه الانسان لربه حتی یکون معصیته سبب معصیتهم و یتسبب هو بها الی إغوائهم.

و إنما یرید به ما یفیده قوله تعالی: «وَ إِنَّ عَلَیْکَ اللَّعْنَهَ إِلی یَوْمِ الدِّینِ» من استقرار اللعنه المطلقه فیه و هی الابعاد من الرحمه و الإضلال عن طریق السعاده و هی إغواء له إثر الغوایه التی أبداها من نفسه و أتی بها من عنده فیکون من إضلاله تعالی مجازاه لا إضلالا ابتدائیا و هو جائز غیر ممتنع علیه تعالی،و لذلک لم یرده کما قال تعالی: یُضِلُّ بِهِ کَثِیراً وَ یَهْدِی بِهِ کَثِیراً وَ ما یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِینَ (البقره۲۶/)،و قد بیّنا ذلک فی ذیل الآیه و مواضع اخری من هذا

ص:۵۰۳

الکتاب.

و عند هذا یستقیم معنی السببیّه أعنی إغواؤه الناس بسبب الإغواء الذی مسّه و استقر فیه فإن البعد من الرحمه و البون من السعاده لما کان لازما لنفسه بلزوم اللعنه الإلهیه له کان کلما اقترب من قلب إنسان بالوسوسه و التسویل أو استولی علی نفس من النفوس و هو بعید من الرحمه و السعاده أوجب ذلک بعد من اقترب منه أو تسلط علیه،و هو إغواؤه بإلقاء أثر الغوایه التی عنده الیه و هو ظاهر.

و قوله: لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أی لازیننّ لهم الباطل أو لازیننّ لهم المعاصی علی ما قیل و المعنی الأول أجمع و المفعول محذوف علی أی حال،و الظاهر أن المفعول معرض عنه و الفعل مستعمل استعمال اللازم،و الغرض بیان أصل التزیین کنایه عن الغرور یقال:زیّن له کذا و کذا أی حمله علیه غرورا،و ضمیر«هم»لآدم و ذریته علی ما یدلّ علیه السیاق، و المراد بالتزیین لهم فی الأرض غرورهم فی هذه الحیاه الأرضیه و هی الحیاه الدنیا و هو السبب القریب للإغواء فیکون عطف قوله: «وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» علیه من عطف المسبب علی السبب المترتب علیه.

و الآیه تشعر بل تدل علی ما قدمناه فی تفسیر آیات جنه آدم فی الجزء الأول من الکتاب أن معصیه آدم بالأکل من الشجره المنهیّه عن وسوسه إبلیس لم تکن معصیه لأمر مولوی بل مخالفه لأمر إرشادی لا یوجب نقضا فی عصمته فإنه یعرف الأرض فی الآیه ظرفا لتزیینه و إغوائه فما کان غروره لآدم و زوجته فی الجنه إلا لیخرجهما منها و ینزلهما الی الأرض فیتناسلا فیها فیغویهما و بنیهما عن الحق و یضلهم عن الصراط قال تعالی: يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا (الأعراف/۲۷).

و قوله: إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ استثنی من عموم الإغواء طائفه خاصه من البشر و هم المخلصون-بفتح اللام علی القراءه المشهوره-و السیاق یشهد أنهم الذین

ص :۵۰۴

اخلصوا للّه و ما أخلصهم إلا اللّه سبحانه،و قد قدمنا فی الکلام علی الإخلاص فی تفسیر سوره یوسف أن المخلصین هم الذین أخلصهم اللّه لنفسه بعد ما أخلصوا أنفسهم للّه فلیس لغیره سبحانه فیهم شرکه و لا فی قلوبهم محلّ فلا یشتغلون بغیره تعالی فما ألقاه الیهم الشیطان من حبائله و تزییناته عاد ذکرا للّه مقرّبا الیه.

و من هنا یترجح أن الاستثناء إنما هو الإغواء فقط لا منه و من التزیین بمعنی أنه لعنه اللّه یزین للکل لکن لا یغوی إلا غیر المخلصین.

و یستفاد من استثناء العباد أولا ثم تفسیره بالمخلصین أن حق العبودیه إنما هو بأن یخلص اللّه العبد لنفسه أی أن لا یملکه إلا هو و یرجع الی أن لا یری الإنسان لنفسه ملکا و أنه لا یملک نفسه و لا شیئا من صفات نفسه و آثارها و أعمالها و أن الملک-بکسر المیم و ضمها-للّه وحده.

قوله تعالی: قٰالَ هٰذٰا صِرٰاطٌ عَلَیَّ مُسْتَقِیمٌ ظاهر الکلام علی ما یعطیه السیاق أنه کنایه علی أن الأمر الیه تعالی لا غنی فیه عنه بوجه کما أن کون طریق السفینه علی البحر یقضی علی راکبیها بأن لا مفرّ لهم مما یستدعیه العبور علی الماء من العدّه و الوسیله و کذا کون طریق القافله علی الجبل یحوجهم الی ما یتهیّأ به لعبور قلله الشاهقه و مسالکه الصعبه فکونه صراطا علیه تعالی بالاستقامه هو أنه أمر متوقف من کل جهه الی حکمه و قضائه تعالی فإنه اللّه الذی منه یبدأ کل شیء و الیه ینتهی فلا یتحقق أمر إلا و هو ربه القیّوم علیه.

و ظاهر السیاق أیضا أن الإشاره بقوله: «هٰذٰا صِرٰاطٌ» الخ؛الی قول إبلیس «لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ إِلاّٰ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ» لما أظهر بقوله هذا أنه سینتقم منهم و یبسط سلطته بالتزیین و الإغواء علیهم جمیعا فلا یخلص منهم إلا القلیل کأنه یشیر الی أنه سیستقلّ بما عزم علیه و یعلو بإرادته علی اللّه سبحانه فیما أراد من خلقهم و استخلافهم و استعبادهم کما حکاه اللّه تعالی من قوله فی موضع آخر من قوله: وَ لاٰ تَجِدُ أَکْثَرَهُمْ شٰاکِرِینَ (الأعراف/١٧).

فمعنی الآیه أن ما ذکرت من أنک ستغویهم أجمعین و استثنیت منهم من استثنیت و أظهرت نسبته الی قوّتک و مشیئتک زاعما فیه أنک مستقل به،أمر لا یملکه إلا أنا و لا یحکم فیه غیری و لا یصدر إلا عن قضائی فإن أغویت فبإذنی أغویت و إن منعت فبمشیئتی منعت فلیس الیک من الأمر شیء و لا من الملک إلا ما ملّکتک و لا من القدره إلا ما أقدرتک،و الذی أقضیه لک من السلطان أن عبادی لیس لک علیهم سلطان إلا من اتّبعک،الخ.

قوله تعالی: إِنَّ عِبٰادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلاّٰ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغٰاوِینَ هذا هو القضاء الذی أشار سبحانه الیه فی الآیه السابقه فی أمر الإغواء و ذکر أنه له وحده لیس لغیره فیه صنع و لا نصیب.

و محصّله أن آدم و بنیه کلهم عباده لا کما قاله إبلیس حیث قصر عباده علی المخلصین منهم إذ قال: «إِلاّٰ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ» و لم یجعل سبحانه له علیهم-أی علی العباد-سلطانا حتی یستقل بأمرهم فیغویهم،و إنما جعل له السلطان علی طائفه منهم و هم الذین اتبعوه من الغاوین و ولّوه أمرهم و ألقوا الیه زمام تدبیرهم فهؤلاء هم الذین له علیهم سلطان.

فإذا أمعنت فی الآیه وجدتها تردّ علی إبلیس قوله: «لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ إِلاّٰ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ» من ثلاث جهات أصلیه:

إحداها:أنه حصر عباده فی المخلصین منهم و نفی عنهم سلطان نفسه و عمّم سلطانه علی الباقین و اللّه سبحانه عمّم عباده علی الجمیع و قصر سلطان إبلیس علی طائفه منهم و هم الذین اتبعوه من الغاوین و نفی سلطانه علی الباقین.

و الثانیه:أنه لعنه اللّه ادّعی لنفسه الاستقلال فی إغوائهم کما یظهر من قوله: «لَأُغْوِیَنَّهُمْ» فی سیاق المخاصمه و التقریع بالانتقام و اللّه سبحانه یردّ علیه بأنه منه مزعمه باطله و إنما هو عن قضاء من اللّه و سلطان بتسلیطه و إنما ملّکه إغواء من اتبعه و کان غاویا فی نفسه و بسوء اختیاره.

فلم يأت إبليس بشىء من نفسه و لم يفسد أمرا على ربه لا- فى إغوائه أهل الغوايه فإنه بقضاء من اللّه سبحانه أن يستقر لأهل الغوايه غيّهم بسببه-و قد اعترف لعنه اللّه بذلك بعض الاعتراف بقوله: «رَبِّ بِمٰا أَغْوَيْتَنِی» -و لا فى استثنائه المخلصين فإنه أيضا بقضاء من اللّه نافذ فلا حكم إلا للّه.

و هذا الذى تفيده الآيه الكريمه أعنى تسليط إبليس على إغواء الغاوين الذين هم فى أنفسهم غاوون و تخليص المخلصين و هم مخلصون فى أنفسهم من كيده كل ذلك بقضاء من اللّه، مبنى على أصل عظيم يفيده التوحيد القرآنى المفاد بأمثال قوله تعالى: إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ (يوسف۶۷/)،و قوله: وَ هُوَ اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِی الْأُولىٰ وَ الْآخِرَهِ وَ لَهُ الْحُكْمُ (القصص۷۰/)،و قوله: اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ (آل عمران۶۰/)،و قوله: وَ يُحِقُّ اللّٰهُ الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ (يونس۸۲/)،و غير ذلك من الآيات الدالّه على أن كل حكم إيجابى أو سلبى فهو مملوك للّه نافذ بقضائه.

قوله تعالى: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ الظاهر أن «مَوْعِدٌ» اسم مكان و المراد بكون جهنم موعدهم كونه محل إنجاز ما وعدهم اللّه من العذاب.

و هذا منه سبحانه تأكيد لثبوت قدرته و رجوع الأمر كله اليه كأنه تعالى يقول له ما ذكرته من السلطان على الغاوين ليس لك من نفسك و لم تعجزنا بل نحن سلّطناك عليهم لاتباعهم لك على أنّا سنجازيهم بعذاب جهنم.

و لكون الكلام مسوقا لبيان حالهم اقتصر على ذكر جزائهم و لم يذكر معهم إبليس و لا جزاءه بخلاف قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص۸۵/)و قوله:

فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزٰاؤُكُمْ جَزٰاءً مَوْفُوراً (الإسراء۶۳/)،لأن المقام غير المقام.

قوله تعالى: لَهٰا سَبْعَهُ أَبْوٰابٍ لِكُلِّ بٰابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ لم يبين سبحانه فى شىء من صريح كلامه ما هو المراد بهذه الأبواب أ هى كأبواب الحيطان مداخل تهدى

الجميع الى عرصه واحده أم هى طبقات و دركات تختلف فى نوع العذاب و شدته؟و كثيرا ما يسمى فى الامور المختلفه الأنواع كل نوع بابا كما يقال:أبواب الخير و أبواب الشر و أبواب الرحمه،قال تعالى: فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ (الأنعام/۴۴)،و ربما سمى أسباب الشيء و طرق الوصول اليه أبوابا كأبواب الرزق لأنواع المكاسب و المعاملات.

و ليس من البعيد أن يستفاد المعنى الثانى من متفرقات آيات النار كقوله تعالى: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتّٰى إِذٰا جٰاؤُهٰا فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا -الى أن قال- قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا (الزمر/۷۲)،و قوله: إِنَّ الْمُنٰافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّٰارِ (النساء/۱۴۵)،الى غير ذلك من الآيات.

و يؤيّده قوله: لِكُلِّ بٰابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ فإن ظاهره أن نفس الجزء مقسوم موزع على الباب،و هذا إنما يلائم الباب بمعنى الطبقه دون الباب بمعنى المدخل و أما تفسير بعضهم الجزء المقسوم بالفريق المعين المفروز من غيره فوهنه ظاهر.

و على هذا فكون جهنم لها سبعه أبواب هو كون العذاب المعدّ فيها متنوعا الى سبعه أنواع ثم انقسام كل نوع أقساما حسب انقسام الجزء الداخل الماكث فيه،و ذلك يستدعى انقسام المعاصى الموجبه للدخول فيها سبعه أقسام،و كذا انقسام الطرق المؤديه و الأسباب الداعيه الى تلك المعاصى ذاك الانقسام،و بذلك يتأيّد ما ورد من الروايات فى هذه المعانى كما سيوافيك إن شاء اللّه.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ، اُدْخُلُوهٰا بِسَلاٰمٍ آمِنِينَ أى إنهم مستقرون فى جنّات و عيون يقال لهم:ادخلوها بسلام لا يوصف و لا يكتنه نعته فى حال كونكم آمنين من كل شرّ و ضرّ.

لما ذكر سبحانه قضاءه فيمن اتّبع إبليس من الغاوين ذكر ما قضى به فى حق المتقين من الجنه،و قد ورد تفسير التقوى فى كلامه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالورع عن محارم اللّه،و قد تكرر فى كلامه

تعالی بشراهم بالجنه فیکون المتقون أعم من المخلصین.

فالحق أن الآیه إنما تشمل الذین استقرت فیهم ملکه التقوی و هو الورع عن محارم اللّه فاولئک هم المقضی علیهم بالسعاده و الجنه قضاء لازما،نعم المستفاد من الکتاب و السنه أن أهل التوحید و هم من حضر الموقف بشهاده أن لا إله إلا اللّه لا یخلدون فی النار و یدخلون الجنه لا محاله،و هذا غیر دلاله آیه المتقین علی ذلک.

قوله تعالی: وَ نَزَعْنٰا مٰا فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوٰاناً عَلیٰ سُرُرٍ مُتَقٰابِلِینَ الی آخر الآیتین.الغل الحقد،و قیل هو ما فی الصدر من حقد و حسد مما یبعث الإنسان الی إضرار الغیر،و السرر جمع سریر و النصب هو التعب و العی الوارد من خارج.

یصف تعالی فی الآیتین حال المتقین فی سعادتهم بدخول الجنه،اختص بالذکر هذه الامور من بین نعم الجنه علی کثرتها فإن العنایه باقتضاء من المقام متعلقه ببیان أنهم فی سلام و أمن مما ابتلی به الغاوون من بطلان السعاده و ذهاب السیاده و الکرامه فذکر أنهم فی أمن من قبل أنفسهم لأن اللّه نزع ما فی صدورهم من غل فلا یهم الواحد منهم بصاحبه سوء بل هم إخوان علی سرر متقابلین و لتقابلهم معنی سیأتی فی البحث الروائی إن شاء اللّه تعالی،و أنهم فی أمن من ناحیه الأسباب و العوامل الخارجه فلا یمسهم نصب أصلا،و أنهم فی أمن و سلام من ناحیه ربهم فما هم من الجنه بمخرجین أبدا فلهم السعاده و الکرامه من کل جهه،و لا یغشاهم و لا یمسهم شقاء و وهن من جهه أصلا لا من ناحیه أنفسهم و لا من ناحیه سائر ما خلق اللّه و لا من ناحیه ربهم (۱)(۲).

ص: ۵۰۹

۱- ۱) .الحجر ۲۶-۴۸:کلام فی الاقضیه التی صدرت عن مصدر العزه فی بدء خلق الانسان.

۲- ۲) .الحجر ۲۶-۴۸:بحث روائی فی:الروح التی نفخ اللّه فی آدم؛لم اضاف اللّه الروح الی نفسه؟؛زمان موت ابلیس؛ ابواب جهنم.

[سوره الحجر (۱۵): الآيات ۴۹ الى ۸۴]

اشاره

نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۴۹) وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (۵۰) وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (۵۱) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (۵۲) قالُوا لا تَوْجَلْ إِنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (۵۳) قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (۵۴) قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (۵۵) قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضّالُّونَ (۵۶) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۵۷) قالُوا إِنّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۵۸) إِلاّ آلَ لُوطٍ إِنّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۹) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (۶۰) فَلَمّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (۶۱) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (۶۲) قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (۶۳) وَ أَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَ إِنّا لَصادِقُونَ (۶۴) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (۶۵) وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (۶۶) وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (۶۷) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (۶۸) وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ لا تُخْزُونِ (۶۹) قالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (۷۰) قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (۷۱) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (۷۲) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (۷۳) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (۷۴) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (۷۵) وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (۷۶) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (۷۷) وَ إِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (۷۸) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ (۷۹) وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (۸۰) وَ آتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (۸۱) وَ كانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (۸۲) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (۸۳) فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۸۴)

ص: ۵۱۰

بیان:

قوله تعالی: نَبِّئْ عِبٰادِی أَنِّی أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِیمُ، وَ أَنَّ عَذٰابِی هُوَ الْعَذٰابُ الْأَلِیمُ المراد بقوله: «عِبٰادِی» علی ما یفیده سیاق الآیات مطلق العباد و لا یعبأ بما ذکره بعضهم:أن المراد بهم المتقون السابق ذکرهم أو المخلصون.

و تأکید الجملتین بالاسمیه و إنّ و ضمیر الفصل و اللام فی الخبر یدل علی أن الصفات المذکوره فیها أعنی المغفره و الرحمه و ألم العذاب بالغه فی معناها النهایه بحیث لا تقدّر بقدر و لا یقاس بها غیرها،فما من مغفره أو رحمه إلا و یمکن أن یفرض لها مانع یمنع من إرسالها أو مقدّر یقدّرها و یحدّها،لکنه سبحانه یحکم لا معقّب لحکمه و لا مانع یقاومه فلا یمنع عن إنجاز مغفرته و رحمته شیء و لا یحدّهما أمر إلا أن یشاء ذلک هو جلّ و عزّ،فلیس لأحد ان ییأس من مغفرته أو یقنط من روحه و رحمته استنادا الی مانع یمنع أو رادع یردع إلا ان یخافه تعالی نفسه کما قال:

لاٰ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَهِ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِیعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ وَ أَنِیبُوا إِلیٰ رَبِّکُمْ (الزمر۵۴/).

و لیس لأحد أن یحقّر عذابه أو یؤمّل عجزه أو یأمن مکره و اللّه غالب علی أمره و لا یأمن مکر اللّه إلا القوم الخاسرون.

قوله تعالی: وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَیْفِ إِبْرٰاهِیمَ الضیف معروف و یطلق علی المفرد و الجمع و ربما یجمع علی أضیاف و ضیوف و ضیفان لکن الأفصح-کما قیل-أن لا یثنّی و لا یجمع لکونه مصدرا فی الأصل.

و المراد بالضیف الملائکه المکرمون الذین أرسلوا لبشاره إبراهیم بالولد و لهلاک قوم لوط سمّاهم ضیفا لأنهم دخلوا علیه فی صوره الضیف.

قوله تعالی: إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقٰالُوا سَلاٰماً قٰالَ إِنّٰا مِنْکُمْ وَجِلُونَ، قٰالُوا لاٰ

تَوْجَلْ إِنّٰا نُبَشِّرُکَ بِغُلاٰمٍ عَلِیمٍ ضمیر الجمع فی«دخلوا و قالوا»فی الموضعین للملائکه فقولهم: «سَلاٰماً» تحیه و تقدیره نسلم علیک سلاما و قول إبراهیم علیه السّلام «إِنّٰا مِنْکُمْ وَجِلُونَ» أی خائفون و الوجل:الخوف.

و إنما قال لهم إبراهیم ذلک بعد ما استقر بهم المجلس و قدّم الیهم عجلا حنیذا فلم یأکلوا منه فلما رأی أیدیهم لا تصل الیه نکرهم و أوجس منهم خیفه کما فی سوره هود فالقصه مذکوره علی نحو التلخیص.

و قولهم: لاٰ تَوْجَلْ تسکین لوجله و تأمین له و تطییب لنفسه بأنهم رسل ربه و قد دخلوا علیه لیبشّروه بغلام علیم أی بولد یکون غلاما و علیما،و لعل المراد کونه علیما بتعلیم اللّه و وحیه فیقرب من قوله فی موضع آخر: وَ بَشَّرْنٰاهُ بِإِسْحٰاقَ نَبِیًّا (الصافات۱۱۲/).

قوله تعالی: قٰالَ أَ بَشَّرْتُمُونِی عَلیٰ أَنْ مَسَّنِیَ الْکِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ تلقی إبراهیم علیه السّلام البشری و هو شیخ کبیر هرم لا عقب له من زوجه و قد أیأسته العاده الجاریه عن الولد و ابن کان یجلّ أن یقنط من رحمه اللّه و نفوذ قدرته،و لذا تعجب من قولهم و استفهمهم کیف یبشّرونه بالولد و حاله هذه الحال؟و زوجه عجوز عقیم کما وقع فی موضع آخر من کلامه تعالی.

فقوله: قٰالَ أَ بَشَّرْتُمُونِی عَلیٰ أَنْ مَسَّنِیَ الْکِبَرُ الکبر کنایه عن الشیخوخه و مسّه هو نیله منه ما نال بإفناء شبابه و إذهاب قواه،و المعنی إنی لأتعجب من بشارتکم إیای و الحال أنی شیخ هرم فنی شبابی و فقدت قوی بدنی،و العاده تستدعی أن لا یولد لمن هذا شأنه ولد.

و قوله: فَبِمَ تُبَشِّرُونَ تفریع علی قوله: «مَسَّنِیَ الْکِبَرُ» و هو استفهام عمّا بشّروه به کأنه یشکّ فی کون بشارتهم بشری بالولد مع تصریحهم بذلک لا استبعاد ذلک فیسأل ما هو الذی تبشّرون به؟فإن الذی یدل علیه ظاهر کلامکم أمر عجیب،و هذا شائع فی الکلام یقول

الرجل إذا أخبر بما يستعبده أو لا يصدقه:ما تقول؟و ما تريد؟و ما ذا تصنع؟.

قوله تعالى: قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ -الى قوله- إِلَّا الضَّالُّونَ الباء فى «بِالْحَقِّ» للمصاحبه أى إن بشارتنا ملازمه للحق غير منفكه منه فلا تدفعها بالاستبعاد فتكون من القانطين من رحمه اللّه،و هذا جواب للملائكه و قد قابلهم إبراهيم عليه السّلام على نحو التكنيه فقال:

«وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَهِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ» و الاستفهام إنكارى أى إن القنوط من رحمه اللّه مما يختص بالضالين و لست أنا بضال فليس سؤالى سؤال قانط مستبعد.

قوله تعالى: قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ الخطب الأمر الجليل الشأن العظيم،و فى خطابهم بالمرسلين دلاله على أنهم ذكروا له ذلك قبلا،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: قالُوا إِنّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ -الى قوله- لَمِنَ الْغابِرِينَ قال فى المفردات:الغابر الماكث بعد مضىّ من هو معه قال تعالى: «إِلاّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ» يعنى فيمن طال أعمارهم،و قيل:فيمن بقى و لم يسر مع لوط،و قيل:فيمن بقى بعد فى العذاب، و فى آخر «إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ» و فى آخر «قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ» -الى أن قال- و الغبار ما يبقى من التراب المثار و جعل على بناء الدخان و العثار و نحوهما من البقايا.انتهى و لعله من هنا ما ربما يسمى الماضى و المستقبل معا غابرا أما الماضى فبعنايه أنه بقى فيما مضى و لم يتعد الى الزمان الحاضر و أما المستقبل فبعنايه أنه باق لم يفن بعد كالماضى.

و الآيات جواب الملائكه لسؤال إبراهيم «قالُوا إِنّا أُرْسِلْنا» من عند اللّه سبحانه «إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ» نكروهم و لم يسموهم صونا للسان عن التصريح باسمهم تنفرا منه و مستقبل الكلام يعينهم ثم استثنوا و قالوا: «إِلاّ آلَ لُوطٍ» و هم لوط و خاصته و ظهر به أن القوم قومه «إِنّا لَمُنَجُّوهُمْ» أى مخلصوهم من العذاب «أَجْمَعِينَ» و ظاهر السياق كون الاستثناء منقطعا.

ثم استثنوا امرأه لوط من آله للدلاله على أن النجاه لا تشملها و أن العذاب سيأخذها و يهلكها فقالوا: «إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ» أى الباقين من القوم بعد خروج آل لوط

من قريتهم.

و قد تقدم تفصيل القول فى ضيف إبراهيم عليه السّلام فى سوره هود فى الجزء العاشر من الكتاب و عقدنا هناک بحثا مستقلا فيه.

قوله تعالى: فَلَمّٰا جٰاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ، قٰالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ إنما قال لهم لوط عليه السّلام ذلک لکونهم ظاهرين بصور غلمان مرد حسان و كان يشقه ما يراه منهم و شأن قومه شأنهم من الفحشاء كما تقدم فى سوره هود،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: قٰالُوا بَلْ جِئْنٰاكَ بِمٰا كٰانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ، وَ أَتَيْنٰاكَ بِالْحَقِّ وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ الامتراء من المريه و هو الشكّ،و المراد بما كانوا فيه يمترون العذاب الذى كان ينذرهم به لوط و هم يشكون فيه،و المراد بإتيانهم بالحق إتيانهم بقضاء حق فى أمر القوم لا معدل عنه كما وقع فى موضع آخر من قولهم: وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذٰابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (هود/ ٧۶)،و قيل:المراد«و أتيناک بالعذاب الذى لا شک فيه»و ما ذكرناه هو الوجه.

و فى آيات القصه تقديم و تأخير لا بمعنى اختلال ترتيبها بحسب النزول عند التأليف بوضع ما هو مؤخر فى موضع المقدم و بالعكس بل بمعنى ذكره تعالى بعض أجزاء القصه فى غير محله الذى يقتضيه الترتيب الطبعى و تعيّنه له سنّه الاقتصاص لنكته توجب ذلک.

و ترتيب القصه بحسب أجزائها على ما ذكرها اللّه سبحانه فى سوره هود و غيرها و الاعتبار يساعد ذلک مقتضاه أن يكون قوله: «فَلَمّٰا جٰاءَ آلَ لُوطٍ» الى تمام آيتين قبل سائر الآيات.ثم قوله: «وَ جٰاءَ أَهْلُ الْمَدِينَهِ» الى تمام ستّ آيات.ثم قوله: «قٰالُوا بَلْ جِئْنٰاكَ» الى تمام أربع آيات.ثم قوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَهُ مُشْرِقِينَ» الى آخر الآيات.

و حقيقه هذا التقديم و التأخير أن للقصه فصولا أربعه و قد أخذ الفصل الثالث منها فوضع بين الأول و الثانى أعنى أن قوله: «وَ جٰاءَ أَهْلُ الْمَدِينَهِ» الى آخره أخّر فى الذكر ليتصل آخره و هو قوله: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» بأول الفصل الأخير «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَهُ

مُشْرِقِينَ» و ذلک لیتمثل به الغرض فی الاستشهاد بالقصه و ینجلی أوضح الانجلاء و هو نزول عذاب هائل کعذابهم فی حال سکره منهم و أمن منه لا یخطر ببالهم شیء من ذلک و ذلک أبلغ فی الدهشه و أوقع فی الحسره یزید فی العذاب ألما علی ألم.

و نظیر هذا فی التلویح بهذه النکته ما فی آخر قصه أصحاب الحجر الآتیه من اتصال قوله:

«وَ کانُوا یَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُیُوتاً آمِنِینَ» بقوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّیْحَهُ مُصْبِحِینَ» کل ذلک لیجلّی معنی قوله تعالی فی صدر المقال: «وَ أَنَّ عَذابِی هُوَ الْعَذابُ الْأَلِیمُ» فافهم ذلک.

قوله تعالی: فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّیْلِ الی آخر الآیه؛الإسراء هو السیر باللیل،فقوله: «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّیْلِ» یؤکده و قطع اللیل شطر مقطوع منه،و المراد باتباعه أدبارهم هو أن یسیر وراءهم فلا یترک أحدا یتخلّف عن السیر و یحملهم علی السیر الحثیث کما یشعر به قوله: «وَ لا یَلْتَفِتْ مِنْکُمْ أَحَدٌ» .

و المعنی:و إذ جئناک بعذاب غیر مردود و أمر من اللّه ماض یجب علیک أن تستر بأهلک لیلا و تأخذ أنت وراءهم لئلا یتخلفوا عن السیر و لا یساهلوا فیه و لا یلتفت أحد منکم الی ورائه و امضوا حیث تؤمرون،و فیه دلاله علی أنه کانت أمامهم هدایه إلهیه تهدیهم و قائد یقودهم.

قوله تعالی: وَ قَضَیْنا إِلَیْهِ ذٰلِکَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هٰؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِینَ القضاء مضمّن معنی الوحی و لذا عدّی بإلی-کما قیل-و المراد بالأمر أمر العذاب کما یفسره قوله: «أَنَّ دابِرَ هٰؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِینَ» و الإشاره الیه بلفظه «ذٰلِکَ» للدلاله علی عظم خطره و هول أمره.

و المعنی:و قضینا أمرنا العظیم فی عذابهم موحیا ذلک الی لوط و هو أن دابر هؤلاء و أثرهم الذی من شأنه أن یبقی بعدهم من نسل و بناء و عمل مقطوع حال کونهم مصبحین أو التقدیر أوحینا الیه قاضیا،الخ.

ص :۵۱۶

قوله تعالی: وَ جٰاءَ أَهْلُ الْمَدِینَهِ یَسْتَبْشِرُونَ -الی قوله- إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِینَ یدلّ نسبه المجیء الی أهل المدینه علی کونهم جماعه عظیمه یصحّ عدّهم أهل المدینه لکثرتهم.

فالمعنی «وَ جٰاءَ» الی لوط «أَهْلُ الْمَدِینَهِ» جمع کثیر منهم یریدون أضیافه و هم «یَسْتَبْشِرُونَ» لولعهم بالفحشاء و خاصه بالداخلین فی بلادهم من خارج فاستقبلهم لوط مدافعا عن أضیافه «قٰالَ إِنَّ هٰؤُلاٰءِ ضَیْفِی فَلاٰ تَفْضَحُونِ» بالعمل الشنیع بهم «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ قٰالُوا» المهاجمون من أهل المدینه:أ لم نقطع عذرک فی إیوائهم «أَ وَ لَمْ نَنْهَکَ عَنِ الْعٰالَمِینَ» أن تؤویهم و تشفع فیهم و تدافع عنهم فلما یئس لوط علیه السّلام منهم عرض علیهم بناته أن ینصرفوا عن أضیافه بنکاحهن-کما تقدم بیانه فی سوره هود- «قٰالَ هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِی إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِینَ» .

قوله تعالی: لَعَمْرُکَ إِنَّهُمْ لَفِی سَكْرَتِهِمْ یَعْمَهُونَ -الی قوله- مِنْ سِجِّیلٍ قال فی المفردات:العماره ضدّ الخراب.قال:و العمر اسم لمده عماره البدن بالحیاه فهو دون البقاء فإذا قیل:طال عمره فمعناه عماره بدنه بروحه،و إذا قیل:بقاؤه فلیس یقتضی ذلک فإن البقاء ضد الفناء،و لفضل البقاء علی العمر وصف اللّه به و قلّما وصف بالعمر قال:و العمر -بالضم-و العمر-بالفتح-واحد لکن خصّ القسم بالعمر-بالفتح-دون العمر-بالضم- نحو «لَعَمْرُکَ إِنَّهُمْ لَفِی سَكْرَتِهِمْ» ،انتهی.

و الخطاب فی لَعَمْرُکَ للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فهو قسم ببقائه و قول بعضهم:إنه خطاب من الملائکه للوط علیه السّلام و قسم بعمره لا دلیل علیه من سیاق الآیات.

و العمه هو التردد علی حیره و السجّیل حجاره العذاب و قد تقدم تفصیل القول فی معناه فی تفسیر سوره هود.

و المعنی أقسم بحیاتک و بقائک یا محمد إنهم لفی سکرتهم و هی غفلتهم بانغمارهم فی

الفحشاء و المنكر يترددون متحيرين «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ» و هى الصوت الهائل «مُشْرِقِينَ» أى حال كونهم داخلين فى إشراق الصبح فجعلنا عالى بلادهم سافلها و فوقها تحتها و أمطرنا و أنزلنا من السماء عليهم حجاره من سجّيل.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ -الى قوله- لِلْمُؤْمِنِينَ الآيه العلامه و المراد بالآيات أولا العلامات الدالّه على وقوع الحادثه من بقايا الآثار و بالآيه ثانيا العلامه الدالّه للمؤمنين على حقّيه الإنذار و الدعوه الإلهيه،و التوسّم التفرّس و الانتقال من سيماء الأشياء على حقيقه حالها.

و المعنى:أن فى ذلك أى فيما جرى من الأمر على قوم لوط و فى بلادهم لعلامات من بقايا الآثار للمتفرّسين و إن تلك العلامات لبسبيل للعابرين مقيم لم تعف و لم تنمح بالكليه بعد،إن فى ذلك لآيه للمؤمنين تدلّ على حقّيه الإنذار و الدعوه و قد تبيّن بذلك وجه إيراد الآيات جمعا و مفردا فى الموضعين.

قوله تعالى: وَ إِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ -الى- فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ الأيكه واحده الأيك و هو الشجر الملتف بعضه ببعض فقد كانوا-كما قيل-فى غيضه أى بقعه كثيفه الأشجار.

و هؤلاء-كما ذكروا-هم قوم شعيب عليه السّلام أو طائفه من قومه كانوا يسكنون الغيضه، و يؤيده قوله تعالى ذيلا: «وَ إِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ» أى مكانا قوم لوط و أصحاب الأيكه لفى طريق واضح فإن الذى على طريق المدينه الى الشام هى بلاد قوم لوط و قوم شعيب الخربه أهلكهم اللّه بكفرهم و تكذيبهم لدعوه شعيب عليه السّلام و قد تقدمت قصتهم فى سوره هود.و قوله:

«فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» الضمير لأصحاب الأيكه و قيل:لهم و لقوم لوط.و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ -الى قوله- مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح،و الحجر اسم بلده كانوا يسكنونها و عدّهم

مکذبین لجمیع المرسلین و هم إنما کذبوا صالحا المرسل الیهم إنما هو لکون دعوه الرسل دعوه واحده،و المکذّب لواحد منهم مکذّب للجمیع.

و قوله: وَ آتَیْنٰاهُمْ آیٰاتِنٰا فَکٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِینَ إن کان المراد بالآیات المعجزات و الخوارق-کما هو الظاهر-فالمراد بها الناقه و شربها و ما ظهر لهم بعد عقرها الی أن أهلکوا،و قد تقدمت القصه فی سوره هود،و إن کان المراد بها المعارف الإلهیه التی بلّغها صالح علیه السّلام و نشرها فیهم أو المجموع من المعارف الحقّه و الآیه المعجزه فالأمر واضح.

و قوله: وَ کٰانُوا یَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبٰالِ بُیُوتاً آمِنِینَ أی کانوا یسکنون الغیران و الکهوف المنحوته من الحجاره آمنین من الحوادث الأرضیه و السماویه بزعمهم.

و قوله: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّیْحَهُ مُصْبِحِینَ أی صیحه العذاب التی کان فیها هلاکهم، و قد تقدّمت الإشاره الی مناسبه اجتماع الأمن مع الصیحه فی الآیتین لقوله فی صدر الآیات:

«وَ أَنَّ عَذٰابِی هُوَ الْعَذٰابُ الْأَلِیمُ» .

و قوله: فَمٰا أَغْنیٰ عَنْهُمْ مٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ أی من الأعمال لتأمین سعادتهم فی الحیاه.

[سوره الحجر (١۵): الآیات ٨۵ الی ٩٩]

اشاره

وَ مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ اَلسّٰاعَهَ لَآتِیَهٌ فَاصْفَحِ اَلصَّفْحَ اَلْجَمِیلَ (٨۵) إِنَّ رَبَّکَ هُوَ اَلْخَلاّٰقُ اَلْعَلِیمُ (٨۶) وَ لَقَدْ آتَیْنٰاکَ سَبْعاً مِنَ اَلْمَثٰانِی وَ اَلْقُرْآنَ اَلْعَظِیمَ (٨٧) لاٰ تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلیٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْهُمْ وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ وَ اِخْفِضْ جَنٰاحَکَ لِلْمُؤْمِنِینَ (٨٨) وَ قُلْ إِنِّی أَنَا اَلنَّذِیرُ اَلْمُبِینُ (٨٩) کَمٰا أَنْزَلْنٰا عَلَی اَلْمُقْتَسِمِینَ (٩٠) اَلَّذِینَ جَعَلُوا اَلْقُرْآنَ عِضِینَ (٩١) فَوَ رَبِّکَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ (٩٢) عَمّٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ اَلْمُشْرِکِینَ (٩۴) إِنّٰا کَفَیْنٰاکَ اَلْمُسْتَهْزِئِینَ (٩۵) اَلَّذِینَ یَجْعَلُونَ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ (٩۶) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّکَ یَضِیقُ صَدْرُکَ بِمٰا یَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ کُنْ مِنَ اَلسّٰاجِدِینَ (٩٨) وَ اُعْبُدْ رَبَّکَ حَتّٰی یَأْتِیَکَ اَلْیَقِینُ (٩٩)

بیان:

قوله تعـالی: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السّٰاعَةَ لَآتِيَةٌ الباء فی قوله: «بِالْحَقِّ» للمصاحبه أی إن خلقها جميعا لا ينفک عن الحق و يلازمه فللخلق غايه سـيرجع إليها قال تعالی: إِنَّ إِلىٰ رَبِّكَ الرُّجْعىٰ (العلق۸/)،و لو لا ذلک لکان لعبا باطلا قال تعالی: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ مٰا خَلَقْنٰاهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ (الدخان۳۹/)،و قال: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا بٰاطِلاً (ص۲۷/)،و من الـدليل علی کون المراد بالحق ما يقابل اللعب الباطل تذييل الکلام بقوله: «وَ إِنَّ السّٰاعَةَ لَآتِيَةٌ» و هو ظاهر.

قوله تعالی: فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ، إِنَّ رَبَّکَ هُوَ الْخَلاّقُ الْعَلِيمُ قال فی المفردات:صفح الشیء عرضه و جانبه کصفحه الوجه و صفحه السیف و صفحه الحجر و الصفح ترک التثریب و هو أبلغ من العفو و لذلک قال: «فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتّی يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ» و قد يعفو الإنسان و لا يصفح قال تعالی: فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ أَ فَنَضْرِبُ عَنْکُمُ الذِّکْرَ صَفْحاً .

و صفحت عنه أوليته صفحه جميله معرضا عن ذنبه،أو لقيت صفحته متجافيا عنه أو تجاوزت الصفحه التی أثبت فيها ذنبه من الکتاب الی غيرها من قولک تصفحت الکتاب، و قوله: «إِنَّ السّاعَهَ لَآتِيَهٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ» فأمر له عليه السلام أن يخفف کفر من کفر کما قال:

«وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَکُ فِي ضَيْقٍ مِمّا يَمْکُرُونَ» و المصافحه الإفضاء بصفحه اليد.انتهی.

و سيأتی ما فی الروايه من تفسير علی عليه السّلام الصفح بالعفو من غير عتاب.

و قوله: فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ تفريع علی سابقه أی إذا کانت الخلقه بالحق و هناک يوم فيه يحاسبون و يجازون لا ريب فيه فلا تشغل نفسک بما تری منهم من التکذيب و الاستهزاء و اعف عنهم من غير أن تقع فيهم بعتاب أو مناقشه و جدال فإن ربک الذی خلقک و خلقهم هو عليم بحالک و حالهم و وراءهم يوم لا يفوتونه.

و من هنا يظهر أن قوله: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ الْخَلاّقُ الْعَلِيمُ تعليل لقوله: «فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ» .

و هذه الآيات الحافّه لقوله: «فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ» تسليه للنبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم و تطييب لنفسه ليأخذ قوله: «فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ» موقعه فقد عرفت فی أول السوره أن الغرض الأصيل منها هو الأمر بإعلان الدعوه و عرفت أيضا بالتدبّر فی الآيات السابقه أنها مسروده ليتخلص بها الی تسليته صلّی اللّه عليه و آله و سلم عما لقی من قومه من الإيذاء و الإهانه و الاستهزاء و يتخلص من ذلک الی الأمر المطلوب.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ السبع المثانی هی سوره الحمد علی ما فسّر فی عدّه من الروایات المأثوره عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و أئمه أهل البیت علیهم السّلام فلا یصغی الی ما ذکره بعضهم:أنها السبع الطوال،و ما ذکره بعض آخر أنها الحوامیم السبع،و ما قیل:إنها سبع صحف من الصحف النازله علی الأنبیاء،فلا دلیل علی شیء منها من لفظ الکتاب و لا من جهه السنّه.

و قد کثر اختلافهم فی قوله: مِنَ الْمَثَانِي من جهه کون مِنَ للتبعیض او للتبیین و فی کیفیه اشتقاق لفظه المثانی و وجه تسمیتها بالمثانی.

و الذی ینبغی أن یقال-و اللّه أعلم-إن «مِنَ» للتبعیض فإنه سبحانه سمّی جمیع آیات کتابه مثانی إذ قال: كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ (الزمر/ ٢٣)و آیات سوره الحمد من جملتها فهی بعض المثانی لا کلها.

و الظاهر أن المثانی جمع مثنیه اسم مفعول من الثنی بمعنی اللوی و العطف و الإعاده قال تعالی: يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ (هود٥/)،و سمیت الآیات القرآنیه مثانی لأن بعضها یوضح حال البعض و یلوی و ینعطف علیه کما یشعر به قوله: «كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ» حیث جمع بین کون الکتاب متشابها یشبه بعض آیاته بعضا و بین کون آیاته مثانی،و فی کلام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی صفه القرآن«یصدّق بعضه بعضا»و عن علی علیه السّلام فیه«ینطق بعضه ببعض و یشهد بعضه علی بعض»او هی جمع مثنی بمعنی التکریر و الإعاده کنایه عن بیان بعض الآیات ببعض.

و فی قوله: سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ من تعظیم أمر الفاتحه و القرآن ما لا یخفی أما القرآن فلتوصیفه من ساحه العظمه و الکبریاء بالعظیم،و أما الفاتحه فلمکان التعبیر عنه بالنکره غیر الموصوفه «سَبْعاً» و فیه من الدلاله علی عظمه قدرها و جلاله شأنها ما لا یخفی و قد قوبل بها القرآن العظیم و هی بعضه.

و الآیه-کما تبیّن-فی مقام الامتنان و هی مع ذلک لوقوعها فی سیاق الدعوه الی الصفح

و الإعراض تفید أن فی هذه الموهبه العظمی المتضـمنه لحقائق المعارف الإلهیه الهادیه الی کل کمال و سعاده بإذن اللّه عدّه أن تحملک علی الصفح الجمیل و الاشتغال بربک و التوغل فی طاعته.

قوله تعالی: لاٰ تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلیٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْهُمْ -الی قوله- اَلْمُبِینُ الآیتان؛فی مقام بیان الصـفح الجمیل الذی تقدم الأمر به،و لذلک جیء بالکلام فی صوره الاستئناف.

و المـذکور فیهما أربعه دساتیر:منفیان و مثبتان فقوله: لاٰ تَمُـدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلیٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْهُمْ مدّ العینین الی ما متّعوا به من زهره الحیـاه الـدنیا کنـایه عن التعـدی عن قصـر النظر علی مـا آتاه اللّه من نعمه،و المراد بالأزواج الأزواج من الرجال و النساء أو الأصـناف من النـاس کالوثنیین و الیهود و النصاری و المجوس،و المعنی لا تتجاوز عن النظر عما أنعمناک به من النعم الظاهره و الباطنه الی ما متّعنا به أزواجا قلیله أو أصنافا من الکفار.

و ربما أخذ بعضهم قوله: لاٰ تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ کنایه عن إطاله النظر و إدامته،و أنت تعلم أن الغرض علی أی حال النهی عن الرغبه و المیل و التعلق القلبی بما فی أیـدیهم من أمتعه الحیاه کالمال و الشوکه و الصـیت و الذی یکنّی به عن ذلک هو النهی عن أصـل النظر الیه لا عن إطالته و إدامته،و یشهد به ما سننقله من آیه الکهف.

و قوله: وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ أی من جهه تمادیهم فی التکذیب و الاستهزاء و إصرارهم علی أن لا یؤمنوا بک.

و قوله: وَ اخْفِضْ جَنٰاحَکَ لِلْمُؤْمِنِینَ قالوا:هو کنایه عن التواضع و لین الجانب،و الأصل فیه أن الطائر إذا أراد أن یضم الیه أفراخه بسط جناحه علیها ثم خفضه لها، هذا.

و قوله: وَ قُلْ إِنِّی أَنَا النَّذِیرُ الْمُبِینُ أی لا دعوی لی إلاّ أنی نذیر أنذرکم بعذاب

اللّه سبحانه مبين أبين لكم ما تحتاجونه الى بيانه،و ليس لى وراء ذلك من الأمر شىء.

فهذه الامور الأربعه أعنى ترك الرغبه بما فى أيديهم من متاع الحياه الدنيا و ترك الحزن عليهم إذا كفروا و استهزءوا،و خفض الجناح للمؤمنين و إظهار أنه نذير مبين هو الصفح الجميل الذى يليق بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و لو أسقط منها واحد لاختل الأمر.

قوله تعالى: كَمٰا أَنْزَلْنٰا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ، اَلَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ قال فى المجمع:عضين جمع عضه و أصله عضوه فنقصت الواو و لذلك جمعت عضين بالنون كما قيل:عزوه و عزون و الأصل عزوه،و التعضيه:التفريق مأخوذ من الأعضاء يقال:عضّيت الشىء أى فرّقته و بعّضته قال رؤبه:و ليس دين اللّه بالمعضّى،انتهى موضع الحاجه.

و قوله: كَمٰا أَنْزَلْنٰا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ لا يخلو السياق من دلاله على أنه متعلق بمقدّر يلوّح اليه قوله: «وَ قُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ» أى بعذاب منزل ينزل عليكم كما أنزلنا على المقتسمين،و المراد بالمقتسمين هم الذين يصفهم قوله بعد: «الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ» و هم على ما وردت به الروايه قوم من كفار قريش جزّءوا القرآن أجزاء فقالوا:سحر،و قالوا:

أساطير الأولين،و قالوا:مفترى،و تفرقوا فى مداخل طرق مكه أيام الموسم يصدون الناس الواردين عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم كما سيأتى فى البحث الروائى إن شاء اللّه.

فالظاهر أن الآيتين تذكران قوما نهضوا فى أوائل البعثه على إطفاء نور القرآن و بعّضوه أبعاضا ليصدوا عن سبيل اللّه فأنزل اللّه عليهم العذاب و أهلكهم،و هم الذين ذكروا فى الآيتين

ثم يذكر اللّه مآل أمرهم بقوله: «فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمّٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ» .

قوله تعالى: فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ قال فى المجمع:

الصدع و الفرق و الفصل نظائر،و صدع بالحق إذا تكلم به جهارا،انتهى.

و الآيه تفريع على ما تقدم،و من حقها أن تتفرع لأنها الغرض فى الحقيقه من السوره أى إذا كان الأمر على ما ذكر و أمرت بالصفح الجميل و كنت نذيرا بعذابنا كما أنزلنا على المقتسمين

فأظهر كلمه الحق و أعلن الدعوه.

و بذلك يظهر أن قوله: «إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» فى مقام التعليل لقوله: «فَاصْدَعْ» الخ؛كما يشعر الكلام أو يدل على أن هؤلاء المستهزئين هم المقتسمون المذكورون قبل،و معنى الآيه إذا كان الأمر كما ذكرناه و كنت نذيرا بعذابنا كما أنزلناه على المقتسمين «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» و أعلن الدعوه و أظهر الحق «وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا» أى لأننا «كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» بإنزال العذاب عليهم و هم «الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» .

قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ رجع ثانيا الى حزنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و ضيق صدره من استهزائهم لمزيد العنايه بتسليته و تطييب نفسه و تقويه روحه، و قد أكثر سبحانه فى كلامه و خاصه فى السور المكيه من ذلك لشده الأمر عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ وصّاه سبحانه بالتسبيح و التحميد و السجده و العباده أو إدامه العبوديه مفرّعا ذلك على ضيق صدره بما يقولون ففى ذلك استعانه على الغمّ و المصيبه،و قد أمره فى الآيات السابقه بالصفح و الصبر،و يستفاد الأمر بالصبر أيضا من قوله: «وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» فإن ظاهره الأمر بالصبر على العبوديه حتى حين،و بذلك يصير الكلام قريب المضمون من قوله تعالى لدفع الشدائد و المقاومه على مرّ الحوادث: اِسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاٰةِ (البقره۱۵۳/).

و بذلك يتأيد أن المراد بالساجدين المصلون و أنه أمر بالصلاه و قد سميت سجودا تسميه لها باسم أفضل أجزائها و يكون المراد بالتسبيح و التحميد اللفظى منهما كقول سبحان اللّه و الحمد للّه أو ما فى معناهما نعم لو كان المراد بالصلاه فى آيه البقره التوجه الى اللّه سبحانه أمكن أن يكون المراد بالتسبيح و التحميد-أو بهما و بالسجود-المعنى اللغوى و هو تنزيه تعالى عما يقولون و الثناء عليه بما أنعم به عليه من النعم و التذلل له تذلل العبوديه.

و أما قوله: وَ اعْبُدْ رَبَّکَ حَتّٰی یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ فإن کان المراد به الأمر بالعباده کان کالمفسر للآیه السابقه و إن کان المراد الأخذ بالعبودیه-کما هو ظاهر السیاق،و خاصه سیاق الآیات السابقه الآمره بالصفح و الإعراض و لازمهما الصبر کان بقرینه تقییده بقوله:

«حَتّٰی یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ» أمرا بانتهاج منهج التسلیم و الطاعه و القیام بلوازم العبودیّه.

و علی هذا فالمراد بإتیان الیقین حلول الأجل و نزول الموت الذی یتبدّل به الغیب من الشهاده و یعود به الخبر عیانا،و یؤید ذلک تفریع ما تقدم من قوله: «فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِیلَ» علی قوله: «وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السّٰاعَهَ لَآتِیَهٌ» فإنه بالحقیقه أمر بالعفو و الصبر علی ما یقولون لأن لهم یوما ینتقم اللّه منهم و یجازیهم بأعمالهم فیکون معنی الآیه دم علی العبودیّه و اصبر علی الطاعه و عن المعصیه و علی مرّ ما یقولون حتی یدرکک الموت و ینزل علیک عالم الیقین فتشاهد ما یفعل اللّه بهم ربک.

و فی التعبیر بمثل قوله: حَتّٰی یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ إشعار أیضا بذلک فإن العنایه فیه بأن الیقین طالب له و سیدرکه فلیعبد ربه حتی یدرکه و یصل الیه،و هذا هو عالم الآخره الذی هو عالم الیقین العام بما وراء الحجاب دون الاعتقاد الیقینی الذی ربما یحصل بالنظر أو بالعباده (۱).

ص :۵۲۶

۱- ۱) .الحجر ۸۵-۹۹:بحث فلسفی فی کیفیه وجود التکلیف و دوامه.

سوره النحل مکیه و هی مائه و ثمان و عشرون آیه

اشاره

[سوره النحل (۱۶): الآیات ۱ الی ۲۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;أَتیٰ أَمْرُ اَللّٰهِ فَلاٰ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (۱) يُنَزِّلُ اَلْمَلاٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلیٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاتَّقُونِ (۲) خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعٰالیٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (۳) خَلَقَ اَلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (۴) وَ اَلْأَنْعٰامَ خَلَقَهٰا لَكُمْ فِيهٰا دِفْءٌ وَ مَنٰافِعُ وَ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ (۵) وَ لَكُمْ فِيهٰا جَمٰالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ (۶) وَ تَحْمِلُ أَثْقٰالَكُمْ إِلیٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بٰالِغِيهِ إِلاّٰ بِشِقِّ اَلْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (۷) وَ اَلْخَيْلَ وَ اَلْبِغٰالَ وَ اَلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهٰا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (۸) وَ عَلَى اَللّٰهِ قَصْدُ اَلسَّبِيلِ وَ مِنْهٰا جٰائِرٌ وَ لَوْ شٰاءَ لَهَدٰاكُمْ أَجْمَعِينَ (۹) هُوَ اَلَّذِی أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرٰابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (۱۰) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ اَلزَّرْعَ وَ اَلزَّيْتُونَ وَ اَلنَّخِيلَ وَ اَلْأَعْنٰابَ وَ مِنْ كُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۱۱) وَ سَخَّرَ لَكُمُ اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهٰارَ وَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ وَ اَلنُّجُومُ مُسَخَّرٰاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۱۲) وَ مٰا ذَرَأَ لَكُمْ فِی اَلْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهُ إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (۱۳) وَ هُوَ اَلَّذِی سَخَّرَ اَلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهٰا وَ تَرَى اَلْفُلْكَ مَوٰاخِرَ فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۴) وَ أَلْقیٰ فِی اَلْأَرْضِ رَوٰاسِیَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهٰاراً وَ سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵) وَ عَلاٰمٰاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (۱۶) أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاٰ يَخْلُقُ أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ (۱۷) وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اَللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا إِنَّ اَللّٰهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۸) وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ (۱۹) وَ اَلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ لاٰ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (۲۰) أَمْوٰاتٌ غَيْرُ أَحْيٰاءٍ وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ (۲۱)

بیان:

الغالب علی الظنّ-إذا تدبّرنا السوره-أن صدر السوره مما نزلت فی أواخر عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بمکه قبیل الهجره،و هی أربعون آیه یذکر اللّه سبحانه فی شطر منهما أنواع نعمه السماویه و الأرضیه مما تقوم به حیاه الإنسان و ینتفع به فی معاشه نظاما متقنا و تدبیرا متصلا یدلّ علی وحدانیته تعالی فی ربوبیته.

و یحتجّ فی شطر آخر علی بطلان مزاعم المشرکین و خیبه مساعیهم و أنه سیجازیهم کما جازی أمثالهم من الامم الماضیه و سیفصل القضاء بینهم یوم القیامه.

و

قد افتتح سبحانه هذه الآیات بقوله: «أَتیٰ أَمْرُ اللّٰهِ فَلاٰ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یُشْرِکُونَ» مفرّعا آیات الاحتجاج علی ما فیه من التنزیه و التسبیح و من ذلک یعلم أن عمده الغرض فی صدر السوره الإنباء بإشراف الأمر الإلهی و دنوّه منهم و قرب نزوله علیهم،و فیه إبعاد للمشرکین فقد کانوا یستعجلون النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم-استهزاء به-لما کانوا یسمعون کلام اللّه سبحانه یذکر کثیرا نزول أمره تعالی و ینذرهم به و فیه مثل قوله للمؤمنین: فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتّٰی یَأْتِیَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ و لیس إلاّ أمره تعالی بظهور الحق علی الباطل و التوحید علی الشرک و الإیمان علی الکفر،هذا ما یعطیه التدبر فی صدر السوره.

و أما ذیلها و هی ثمان و ثمانون آیه من قوله: وَ الَّذِینَ هٰاجَرُوا فِی اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا الی آخر السوره علی ما بینها من الاتصال و الارتباط فسیاق الآیات فیه یشبه أن تکون مما نزلت فی أوائل عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالمدینه بعید الهجره-فصدر السوره و ذیلها متقاربا

النزول و ذلک لما فيها من آيات لا تنطبق مضامينها إلاّ على بعض الحوادث الواقعه بعيد الهجره كقوله تعالى: وَ الَّذِينَ هٰاجَرُوا فِي اللّٰهِ الآيه؛و قوله: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ الآيه النازله على قول فى سلمان الفارسى و قد آمن بالمدينه،و قوله: مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِهِ إِلاّٰ مَنْ أُكْرِهَ الآيه النازله فى عمار-كما سيأتى-و كذا الآيات النازله فى اليهود و الآيات النازله فى الأحكام كل ذلک يفيد الظن بكون الآيات مدنيه.

و مع ذلک فاختلاف النزول لائح من بعضها كقوله: وَ الَّذِينَ هٰاجَرُوا الخ(الآيه ۴۱)، و قوله: وَ إِذٰا بَدَّلْنٰا آيَةً مَكٰانَ آيَةٍ (الآيه ۱۰۱)الى تمام آيتين أو خمس آيات،و قوله: مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِهِ (الآيه ۱۰۶)و عده آيات تتلوها.

و الإنصاف-بعد ذلک كله-أن قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هٰاجَرُوا (الآيه ۴۱)الى تمام آيتين؛و قوله: مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِهِ (الآيه ۱۰۶)و بضع آيات بعدها،و قوله:

وَ إِنْ عٰاقَبْتُمْ فَعٰاقِبُوا (الآيه ۱۲۶)و آيتان بعدها مدنيه لشهاده سياقها بذلک،و الباقى أشبه بالمكيه منها بالمدنيه.و هذا و إن لم يوافق شيئا من المأثور لكن السياق يشهد به و هو أولى بالاتّباع.و قد مرّ فى تفسير آيه ۱۱۸ من سوره الأنعام احتمال أن تكون نازله بعد سوره النحل و هى مكيه.و الغرض الذى هو كالجامع لآيات ذيل السوره أن فيها أمرا بالصبر و وعدا حسنا على الصبر فى ذات اللّه.

و غرض السوره الإخبار بإشراف أمر اللّه و هو ظهور الدين الحق عليهم،و يوضح تعالى ذلک ببيان أن اللّه هو الإله المعبود لا غير لقيام تدبير العالم به،كما أن الخلقه قائمه به و لانتهاء جميع النعم اليه،و انتفاء ذلک عن غيره،فالواجب أن يعبد اللّه و لا يعبد غيره،و بيان أن الدين الحق للّه فيجب أن يؤخذ به و لا يشرّع دونه دين و رد ما أبداه المشركون من الشبهه على النبوه و التشريع و بيان أمور من الدين الإلهى.

هذا هو الذى يرومه معظم آيات السوره و تنعطف الى بيانه مره بعد مره و فى ضمنها آيات

تتعرض لأمر الهجره و ما يناسب ذلك مما يحوم حولها.

قوله تعالى: أَتىٰ أَمْرُ اللّٰهِ فَلاٰ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ ظاهر السياق أن الخطاب للمشركين لأن الآيات التاليه مسوقه احتجاجا عليهم،الى قوله فى الآيه الثانيه و العشرين: إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ و وجه الكلام فيها الى المشركين،و هى جميعا كالمتفرعه على قوله فى ذيل هذه الآيه: «سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ» و مقتضاه أن يكون الأمر الذى أخبر بإتيانه أمرا يطهّر ساحه الربوبيه من شركهم بحسم مادته،و لم تقع فى كلامه حكايه استعجال من المؤمنين فى أمر،بل المذكور استعجال المشركين بما كان يذكر فى كلامه تعالى من أمر الساعه و أمر الفتح و أمر نزول العذاب،كما يشير اليه قوله: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُهُ بَيٰاتاً أَوْ نَهٰاراً مٰا ذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ -الى قوله- وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَ رَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (يونس٥٣/)الى غير ذلك من الآيات.

و على هذا فالمراد بالأمر ما وعد اللّه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الذين آمنوا و أوعد المشركين مره بعد مره فى كلامه أنه سينصر المؤمنين و يخزى الكافرين و يعذبهم و يظهر دينه بأمر من عنده كما قال: فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ (البقره١٠٩/).و اليه يعود أيضا ضمير «فَلاٰ تَسْتَعْجِلُوهُ» على ما يفيده السياق أو يكون المراد بإتيان الأمر إشرافه على التحقق و قربه من الظهور،و هذا شائع فى الكلام قال لمن ينتظر ورود الأمير:هذا الأمير جاء و قد دنا مجيئه و لم يجىء بعد.

و على هذا أيضا يكون قوله: «سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ» من قبيل الالتفات من الخطاب الى الغيبه إشاره الى أنهم ينبغى أن يعرض عن مخاطبتهم و مشافهتهم لانحطاط أفهامهم لشركهم و لم يستعجلوا نزول الأمر إلاّ لشركهم استهزاء و سخريه.

قوله تعالى: يُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ الى آخر الآيه؛الناس على اختلافهم الشديد قديما و حديثا فى حقيقه الروح لا يختلفون فى

أنهم يفهمون منه معنى واحدا و هو ما به الحياه التى هى ملاک الشعور و الاراده فهذا المعنى هو المراد فى الآيه الکريمه.

و أما حقيقته إجمالا فالذى يفيده مثل قوله تعالى: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلاٰئِکَهُ صَفًّا (النبأ/۳۸)،و قوله: تَعْرُجُ الْمَلاٰئِکَهُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ (المعارج/۴)و غيرهما أنه موجود مستقل ذو حياه و علم و قدره و ليس من قبيل الصفات و الأحوال القائمه بالأشياء کما ربما يتوهم،و قد أفاد بقوله: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی» أنه من سنخ أمره،و عرف أيضا أمره بمثل قوله: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ کُنْ فَيَکُونُ فَسُبْحٰانَ الَّذِی بِيَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ (يس/۸۳)،فدل على أنه کلمه الإيجاد التى يوجد سبحانه بها الأشياء أى الوجود الذى يفيضه عليها لکن لا من کل جهه بل من جهه استناد اليه تعالى بلا ماده و لا زمان و لا مکان کما يفيده قوله: وَ مٰا أَمْرُنٰا إِلاّٰ وٰاحِدَهٌ کَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (القمر/۵۰)فإن هذا التعبير إنما يورد فيما لا تدريج فيه أى لا ماده و لا حرکه له،و لکن هذا الإجمال عندک حتى يرد عليک تفصيله فيما سيأتى إن شاء اللّه فى تفسير سوره الإسراء.

فتحصّل أن الروح کلمه الحياه التى يلقيها اللّه سبحانه الى الأشياء فيحييها بمشيئته،و لذلک سمّاه وحيا و عدّ إلقاءه و إنزاله على نبيّه إيحاء فى قوله: وَ کَذٰلِکَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا (الشورى/۵۲)،فإن الوحى هو الکلام الخفى و التفهيم بطريق الإشاره و الإيماء فيکون إلقاء کلمته تعالى-کلمه الحياه-الى قلب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم وحيا للروح اليه،فافهم ذلک.

فقوله تعالى: «يُنَزِّلُ الْمَلاٰئِکَهَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ» الباء للمصاحبه او للسببيه و لا کثير تفاوت بينهما فى المآل کما هو ظاهر عند المتأمل فإن تنزيل الملائکه بمصاحبه الروح إنما هو لإلقائه فى روع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ليفيض عليه المعارف الإلهيه و کذا تنزيلهم بسبب الروح لأن کلمته تعالى أعنى کلمه الحياه تحکم فى الملائکه و تحييهم کما تحکم فى الإنسان و تحييه،و ضمير «يُنَزِّلُ» له تعالى و الجمله استئناف تفيد تعليل قوله فى الآيه السابقه: «سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا

يُشْرِكُونَ».

و المعنى:أن اللّه منزّه و متعال عن شركهم او عن الشريك الذى يدعونه له و لتنزّهه و تعاليه عن الشريك ينزّل سبحانه الملائكه بمصاحبه الروح الذى هو من سنخ أمره و كلمته فى الإيجاد -او بسببه-على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلاّ أنا فاتقون.

و قوله: عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ أى إن بعث الرسل و تنزل الملائكه بالروح من أمره عليهم متوقف على مجرد المشيه الإلهيه من غير أن يقهره تعالى فى ذلك قاهر غيره فيجبره على الفعل او يمنعه من الفعل كما فى سائر أفعاله تعالى فإنه تعالى يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

و قوله: أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاتَّقُونِ بيان لقوله: «يُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَةَ بِالرُّوحِ» لكونه فى معنى الوحى أو بيان للروح بناء على كونه بمعنى الوحى،و الإنذار هو إخبار فيه تخويف،كما أن التبشير هو إخبار فيه سرور على ما ذكره الراغب او إعلام بالمحذور كما ذكره غيره،و التقدير على الأول أخبروهم مخوّفين بوحدانيتى فى الالوهيه و وجوب تقواى،و على الثانى أعلموهم ذلك،على أن يكون «أَنَّهُ» مفعولا ثانيا لا منصوبا بنزع الخافض.

و قد علم بذلك أن قوله: «فَاتَّقُونِ» متفرع على قوله: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا» و الجملتان جميعا مفعول ثان او فى موضعه لقوله: «أَنْذِرُوا» و يوضح ذلك أن لا إله و هو الذى يبتدئ منه و ينتهى اليه كل شىء او المعبود بالحق من لوازم صفه ألوهيته أن يتقيه الإنسان لتوقّف كل خير و سعاده اليه،فلو فرض أنه واحد لا شريك له فى ألوهيته كان لازمه أن يتقى وحده لأن التقوى و هو إصلاح مقام العمل فرع لما فى مقام الاعتقاد و النظر،فعباده الآلهه الكثيرين و الخضوع لهم لا يجامع الاعتقاد بإله واحد لا شريك له الذى هو القيوم على كل شىء و بيده زمام كل أمر،و لذا لم يؤمر نبى أن يدعو الى توحيد من غير عمل او الى عمل من غير توحيد،

ص :۵۳۳

قال تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ نُوحِی إِلَيْهِ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاعْبُدُونِ (الأنبياء۲۵/).

فالـذی أمر الرسل بالإنـذار به فی الآيه هو مجموع قوله: «أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاتَّقُونِ» و هو تمام الـدين لاندراج الاعتقادات الحقه فی التوحيد و الأحكام العمليه جميعا فی التقوی،و لا يعبأ بما ذكره بعضـهم ان قوله: «فَاتَّقُونِ» للمستعجلين من الكفار المذكورين فی الآيه الاولی او لخصوص كفار قريش من غير أن يكون داخلا فيما أمر به الرسل من الإنذار.

قوله تعالى: خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ تقدم معنی خلق السـماوات و الأرض بالحق،و لازم خلقها بالحق أن لاـ يكون للباطل فيها أثر، و لـذلک عقّبه بتنزيهه عن الشـركاء الـذين يـدعونهم ليشـفعوا لهم عنـد اللّه و يهـدوهم الی الخير و يقوهم الشر فإنهم من الباطل الذی لا أثر له.

و فی الآـيه و الآيات التاليه لها احتجاج علی وحـدانيته تعالی فی الالوهيه و الربوبيه من جهتی الخلق و التـدبير جميعا فإن الخلق و الإيجاد آيه الالوهيه و كون الخلق بعضـها نعمه بالنسـبه الی بعض آيه الربوبيه لأن الشـیء لا يكون نعمه بالنسـبه الی آخر إلّا عن ارتباط بينهما و اتصال من أحـدهما بالآخر يؤدی الی نظام جامع بينهما و تـدبير واحد يجمعهما،و وحده التدبير آيه وحده المدبر فكون ما فی السماوات و الأرض من مخلوق نعما للإنسان يدلّ علی أن اللّه سبحانه وحده ربه و رب كل شیء.

قوله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ المراد به الخلق الجاری فی النوع الإنسانی و هو جعل نسـله من النطفه فلا يشمل آدم و عيسی عليهما السّلام.

و الخصـيم صـفه مشبهه من الخصومه و هی الجدال،و الآيه و إن أمكن أن تحمل علی الامتنان حيث إن من عظيم المنّ أن يبدّل اللّه سـبحانه بقـدرته التـامه قطره من ماء مهين إنسانا كامل الخلقه منطقيا متكلما ينبئ عن كل ما جلّ و دقّ ببيانه البليغ لكن كثره الآيات التی توبّخ

الإنسان و تقرّعه على وقاحته فى خصامه فى ربه كقوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ، وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (يس۷۸/)ترجّح أن يكون المراد بذيل الآيه بيان وقاحه الإنسان.

و يؤيد ذلك أيضا بعض التأيد ما فى ذيل الآيه السابقه من تنزيهه تعالى من شركهم.

قوله تعالى: وَ الْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَ مَنافِعُ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ الأنعام جمع نعم و هى الإبل و البقر و الغنم سمّيت بذلك لنعمه مسّها بخلاف الحافر الذى يصلب كذا فى المجمع،و فى المفردات:الدفء خلاف البرد.انتهى.و كأن المراد بالدفء ما يحصل من جلودها و أوصافها و أوبارها من الحراره للاتّقاء من البرد،او المراد بالدفء ما يدفأ به.

و المراد بالمنافع سائر ما يستفاد منها لغير الدفء من أصوافها و أوبارها و جلودها و ألبانها و شحومها و غير ذلك،و قوله: «لَكُمْ» يمكن أن يكون متعلقا بقوله: «خَلَقَها» و يكون قوله:

«فِيها دِفْءٌ وَ مَنافِعُ» حالا من ضمير «خَلَقَها» و يمكن أن يكون «لَكُمْ» ظرفا مستقرا متعلقا بالجمله الثانيه أى فى الأنعام دفء كائنا لكم.

قوله تعالى: وَ لَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ الجمال الزينه و حسن المنظر،قال فى المجمع:الإراحه ردّ الماشيه بالعشيّ من مراعيها الى منازلها و المكان الذى تراح فيه مراح،و السروح خروج الماشيه الى المرعى بالغداه،يقال:سرحت الماشيه سرحا و سروحا و سرحها أهلها.انتهى.

يقول تعالى:و لكم فى الأنعام منظر حسن حين تردّونها بالعشيّ الى منازلها و حين تخرجونها بالغداه الى مراعيها.

قوله تعالى: وَ تَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلاّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ الأثقال جمع ثقل و هو المتاع الذى يثقل حمله،و المراد بقوله:

«بِشِقِّ الْأَنْفُسِ» مشقه تتحمّلها الأنفس فى قطع المسافات البعيده و المسالك الصعبه.

و المراد أن الأنعام كالإبل و بعض البقر تحمل أمتعتكم الثقيله الى بلـد ليس يتيسـر لكم بلوغها إلاّ بمشـقه تتحمّلها أنفسـكم فرفع عنكم المشاق بخلقها و تسخيرها لكم إن ربكم رؤف رحيم.

قوله تعـالى: وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ معطوف على الأنعام فيما مرّ أى و الخيل و البغال و الحمير خلقها لكم لتركبوها، و زينه أى إن فى خلقها ارتباطا بمنافعكم و ذلك أنكم تركبونها و تتخـذونها زينه و جمالا، و قوله: «وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ» أى يخلق مـا لا علم لكم به من الحيوان و غيره،و سـخّرها لكم لتنتفعوا بهـا،و الـدليل على ما قـدّرناه هو السياق.

قوله تعالى: وَ عَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْها جائِرٌ وَ لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ القصد-على ما ذكره الراغب و غيره-اسـتقامه الطريق و هو كونه قيّمـا على سـالكيه يوصـلهم الى الغـايه،و الظاهر أن المصـدر بمعنى الفاعل و الإضافه من إضافه الصـفه الى موصوفها و المراد السبيـل القاصـد بـدليل مقـابلته بقوله: «وَ مِنْها جائِرٌ» أى و من السبيل ما هو جائر أى مائل عن الغايه يورد سالكيه غيرها و يضلهم عنها.

و المراد بكون قصـد السبيل على اللّه وجوب جعل سبيل قاصد عليه تعالى يسـلكه عباده فيوردهم مورد السـعاده و الفلاح و إذ لا حاكم غيره يحكم عليه فهو الـذى أوجب على نفسه أن يجعل لهم طريقا هـذا نعته ثم يهديهم اليه أما الجعل فهو ما جهز اللّه كل موجود و منها الإنسان من القوى و الأدوات بما لو استعملها كما نظمت أدّته الى سعادته و كماله المطلوب قال تعالى:

اَلَّذِى أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (طه٥٠/)،و قـال فى الإنسـان خاصه: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلـدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ (الروم٣٠/) (١).

ص :۵۳۶

١- ١) .النحل ١-٢١:بحث فى السبيل القاصد،تشاجر الاشاعره و المعتزله فى الآيه «وَ عَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» .

قوله تعالى: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً لَکُمْ مِنْهُ شَرٰابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِیهِ تُسِیمُونَ شروع فی نوع آخر من النعم و هی النعم النباتیه التی یقتات بها الإنسان و غیره و ما سخّر له لتدبیر أمرها کاللیل و النهار و الشمس و القمر و ما یحذو حذوها،و لذلک غیّر السیاق فقال: هُوَ الَّذِی الخ؛و لم یقل:و أنزل من السماء.

و قوله: تُسِیمُونَ من الإسامه و هی رعی المواشی و منه السائمه للماشیه الراعیه و «مِنَ» الاولی تبعیضیه و الثانیه نشویه و الشجر من النبات ما له ساق و ورق و ربما توسع فاطلق علی ذی الساق و غیره جمیعا،و منه الشجر المذکور فی الآیه لمکان قوله: «فِیهِ تُسِیمُونَ» و الباقی واضح.

قوله تعالی: یُنْبِتُ لَکُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّیْتُونَ وَ النَّخِیلَ وَ الْأَعْنٰابَ وَ مِنْ کُلِّ الثَّمَرٰاتِ الخ؛الزیتون شجر معروف و یطلق علی ثمره أیضا یقال:إنه اسم جنس جمعی واحده زیتونه،و کذا النخیل،و یطلق علی الواحد و الجمع،و الأعناب جمع عنبه و هی ثمره شجره الکرم و یطلق علی نفس الشجره کما فی الآیه،و السیاق یفید أن قوله: «وَ مِنْ کُلِّ الثَّمَرٰاتِ» تقدیره و من کل الثمرات أنبت أشجارها.و لعل التصریح بأسماء هذه الثمرات الثلاث بخصوصها و عطف الباقی علیها لکونها مما یقتات بها غالبا.

و لما کان فی هذا التدبیر العام الوسیع الذی یجمع شمل الإنسان و الحیوان فی الارتزاق به حجه علی وحدانیته تعالی فی الربوبیه ختم الآیه بقوله: «إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ» .

قوله تعالی: وَ سَخَّرَ لَکُمُ اللَّیْلَ وَ النَّهٰارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ الی آخر الآیه قد تکرّر الکلام فی معنی تسخیر اللیل و النهار و الشمس و القمر و النجوم،و لکون کل من المذکورات و کذا مجموع اللیل و النهار و مجموع الشمس و القمر و النجوم ذا خواصّ و آثار فی نفسه من شأنه أن یستقل بإثبات وحدانیته فی ربوبیته تعالی ختم الآیه بقوله: «إِنَّ فِی ذٰلِکَ

لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» فجمع الآيات فى هذه الآيه بخلاف الآيتين السابقه و اللاحقه.

قوله تعالى: وَ مٰا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ الـذرء الخلق،و اختلاف ألوان ما ذرأه فى الأرض غير ما مرّ كما يختلف ألوان المعادن و سائر المركّبات العنصريه التى ينتفع بها الانسان فى معاشه و لا يبعد أن يكون اختلاف الألوان كنايه عن الاختلاف النوعى بينها فتقرب الآيه مضمونا من قوله تعالى:

وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجٰاوِرٰاتٌ وَ جَنّٰاتٌ مِنْ أَعْنٰابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوٰانٌ وَ غَيْرُ صِنْوٰانٍ يُسْقىٰ بِمٰاءٍ وٰاحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهٰا عَلىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ (الرعد۴/)،و قد تقدم تقريب الاستدلال به.

و اختلاف الألوان فيما ذرأ فى الأرض كإنبات الشجر و الثمر أمر واحد يستدلّ به على وحدانيته فى الربوبيه و لذا قال: «إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً» و لم قل:لآيات.

و هذه حجج ثلاث نسب الاولى الى الـذين يتفكّرون،و الثانيه الى الذين يعقلون،و الثالثه الى الذين يتذكرون،و ذلك أن الحجه الاولى مؤلفه من مقدمات ساذجه يكفى فى إنتاجها مطلق التفكر،و الثانيه مؤلفه من مقدمات علميه لا يتيسر فهمها إلّا لمن غار فى أوضاع الأجرام العلويه و السفليه و عقل آثار حركاتها و انتقالاتها،و الثالثه مؤلفه من مقدمات كليه فلسفيه إنما ينالها الإنسان يتذكّر ما للوجود من الأحكام العامه الكليه كاحتياج هذه النشأه المتغيره الى الماده و كون الماده العامه واحده متشابهه الأمر،و وجوب انتهاء هذه الاختلافات الحقيقيه الى أمر آخر وراء الماده الواحده المتشابهه.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهٰا الخ؛و هذا فصل آخر من النعم الإلهيه و هو نعم البحر و الجبال و الأنهار و السبل و العلامات و كأن ما تقدمه من الفصل مشتملا على نعم البرّ و السهل من الأشجار و الأثمار و نحوها،و لذلك قال: وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ و لم يقل:و سخّر،الخ.

و الطری فعیل من الطراوه و هو الغضّ الجدید من الشیء علی ما ذکره فی المفردات،و المخر شقّ الماء عن یمین و شمال،یقال:مخرت السفینه تمخر مخرا فهی ماخره و مخر الأرض أیضا شقها للزراعه،علی ما فی المجمع و المراد بأکل اللحم الطری من البحر هو أکل لحوم الحیتان المصطاده منه،و باستخراج حلیه تلبسونها ما یستخرج منه بالغوص من أمثال اللؤلؤ و المرجان التی تتحلی و تتزیّن بها النساء.

و قوله: وَ تَرَی الْفُلْکَ مَوٰاخِرَ فِیهِ أی تشاهد السفائن تشق ماءه عن الیمین و الشمال،و لعل قوله: «وَ تَرَی» من الخطابات العامه التی لا یقصد بها مخاطب خاص و کثیرا ما یستعمل کذلک و معناه یراه کل راء و یشاهده کل من له أن یشاهد فلیس من قبیل الالتفات من خطاب الجمع السابق الی خطاب الواحد.

و قوله: وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ أی و لتطلبوا بعض رزقه فی رکوب البحر و إرسال السفائن فیه،و الجمله معطوفه علی محذوف و التقدیر و تری الفلک مواخر فیه لتنالوا بذلک کذا و کذا و لتبتغوا من فضله،و هو کثیر النظیر فی کلامه تعالی.

و قوله: وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ أی و من الغایات فی تسخیر البحر و إجراء الفلک فیه شکرکم له المرجوّ منکم إذ هو من زیادته تعالی فی النعمه فقد أغناکم بما أنعم علیکم فی البر عن أن تتصرفوا فی البحر بالغوص و إجراء السفن و غیر ذلک لکنه تعالی زادکم بتسخیر البحر لکم نعمه لعلکم تشکرونه علی هذا الزائد فإن الإنسان قلیلا ما یتنبّه فی الضروریات أنها نعمه موهوبه من لدنه سبحانه و لو شاء لقطعها و أما الزوائد النافعه فهی أقرب من هذا التنبه و الانتقال.

قوله تعالی: وَ أَلْقیٰ فِی الْأَرْضِ رَوٰاسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ وَ أَنْهٰاراً وَ سُبُلاً لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ قال فی المجمع:المید المیل یمینا و شمالا و هو الاضطراب ماد یمید میدا.

انتهی.

ص :۵۳۹

و قوله: أَنْ تَمِيدَ بِكَمْ أى كراهه أن تميد بكم أو أن لا تميد بكم و المراد أنه طرح على الارض جبالا ثوابت لئلا تضطرب و تميل يمينا و شمالا فيختلّ بذلك نظام معاشكم.

و قوله: وَ أَنْهاراً أى و جعل فيها أنهارا تجرى بمائها و تسوقه الى مزارعكم و بساتينكم و تسقيكم و ما عندكم من الحيوان الأهلى.

و قوله: وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ معطوف على قوله: وَ أَنْهاراً أى و جعل سبلا لغايه الاهتداء المرجو منكم،و السبل منها ما هى طبيعيه و هى المسافات الواقعه بين بقعتين من الأرض الواصله إحداهما بالاخرى من غير أن يقطع ما بينهما بحاجب او مانع كالسهل بين الجبلين،و منها ما هى صناعيه و هى التى تتكون بعبور المارّه و آثار الأقدام او يعملها الإنسان.

و الظاهر من السياق عموم السبل لكلا القسمين،و لا ضير فى نسبه ما جعله الإنسان الى جعله تعالى كما نسب الأنهار و العلامات الى جعله تعالى و أكثرها من صنع الإنسان و كما نسب ما عمله الإنسان من الأصنام و غيرها الى خلقه تعالى فى قوله: وَ اللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَ مٰا تَعْمَلُونَ (الصافات٩۶/).

و ذلك أنها كائنه ما كانت من آثار مجعولاته تعالى و جعل الشىء ذى الأثر جعل لأثره بوجه و إن لم يكن جعلا مستقيما من غير واسطه.

قوله تعالى: وَ عَلاٰمٰاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ العلامات جمع علامه و هى ما يعلم به الشىء،و هو معطوف على قوله: «أَنْهاراً» أى و جعل علامات تستدلون بها على الأشياء الغائبه عن الحس و هى كل آيه و أماره طبيعيه أو وضعيه تدل على مدلولها و منها الشواخص و النصب و اللغات و الإشارات و الخطوط و غيرها.

ثم ذكر سبحانه الاهتداء بالنجوم فقال: وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ و لعلّ الالتفات فيه من الخطاب الى الغيبه للتحرّز عن تكرار «تَهْتَدُونَ» بصيغه الخطاب فى آخر الآيتين.

و الآیه السابقه «وَ عَلَی اللّهِ قَصْدُ السَّبِیلِ وَ مِنْهٰا جٰائِرٌ وَ لَوْ شٰاءَ لَهَدٰاکُمْ أَجْمَعِینَ» المتضمنه لمسأله الهدایه المعنویه التی هی کالمعترضه بین الآیات العادّه للنعم الصوریه و إن کان الأنسب ظاهرا أن یوضع بعد هذه الآیه أعنی قوله: «وَ بِالنَّجْمِ هُمْ یَهْتَدُونَ» المتعرضه هی و ما قبلها للهدایه الصوریّه غیر أن ذلک لم یکن خالیا من اللبس و إیهام التناقض بخلاف موقعها الذی هی واقعه فیه و إن کانت کالمعترضه کما هو ظاهر.

قوله تعالی: أَ فَمَنْ یَخْلُقُ کَمَنْ لاٰ یَخْلُقُ -الی قوله- إِلٰهُکُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ الآیات تقریر إجمالی للحجه المذکوره تفصیلا فی ضمن الآیات الستّ عشره الماضیه و استنتاج للتوحید و هی حجه واحده أقیمت لتوحید الربوبیّه،و ملخصها أن اللّه سبحانه خالق کل شیء فهو الذی أنعم بهذه النعم التی لا یحیط بها الإحصاء التی ینتظم بها نظام الکون،و هو تعالی عالم بسرّها و علنها فهو الذی یملک الکل و یدبر الأمر فهو ربها،و لیس شیء مما یدعونه علی شیء من هذه الصفات فلیست أربابا فالإله واحد لا غیر و هو اللّه عز اسمه.

و إنما سیقت آیات الخلقه لتثبیت أمر النعمه إذ من البین أنه إذا کان اللّه سبحانه خالقا لکل شیء موجودا له کانت آثار وجودات الأشیاء و هی النعم التی یتنعم بها له سبحانه کما أن وجوداتها له ملکا طلقا لا یقبل بطلانا و لا نقلا و لا تبدیلا فهو سبحانه المنعم بها حقیقه لا غیره من شیء حتی الذی نفس النعمه من آثار وجوده فإنه و ما له من أثر هو للّه وحده.

و لذلک ضمّ الی حدیث الخلق و الإنعام قوله تعالی: «وَ اللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ» لأن مجرد استناد الخلق و الإنعام الی شیء لا یستلزم ربوبیته و لا یستوجب عبادته لو لا انضمام العلم الیهما لیتم بذلک أنه مدبر یهدی کل شیء الی کماله المطلوب له و سعادته المکتوبه فی صحیفه عمله،و من المعلوم أنّ العباده إنما تستقیم عباده إذا کان المعبود موسوما بسمه العلم عالما بعباده من یعبده شاهدا لخضوعه.

فمجموع ما تتضمنه الآيات من حديث الخلق و النعمه و العلم مقدمات لحجه واحده أقيمت على توحيد الربوبيه الذى ينكره الوثنيه كما عرفت.

فقوله: أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاٰ يَخْلُقُ أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ قياس ما له سبحانه من النعت الى ما لغيره منه و نفى للمساواه،و الاستفهام للإنكار،و المراد بمن لا يخلق آلهتهم الذين يدعونهم من دون اللّه.

و بيانه-كما ظهر مما تقدم-أن اللّه سبحانه يخلق الأشياء و يستمر فى خلقها فلا يستوى هو و من لا يخلق شيئا فإنه تعالى لخلقه الأشياء يملك وجوداتها و آثار وجوداتها التى هى الأنظمه الخاصه بها و النظام العام الجارى عليها.

و قوله: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا الخ؛إشاره الى كثره النعم الإلهيه كثره خارجه عن حيطه الإحصاء،و بالحقيقه ما من شىء إلاّ و هو نعمه إذا قيس الى النظام الكلى و إن كان ربما وجد بينها ما ليس بنعمه إذا قيس الى بعض آخر.

و قد علل سبحانه ذلك بقوله: إِنَّ اللّٰهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ و هو من ألطف التعليل و أود فأفاد سبحانه أن خروج النعمه عن حد الاحصاء إنما هو من بركات اتصافه تعالى بصفتى المغفره و الرحمه فإنه بمغفرته-و المغفره هى الستر-يستر ما فى الأشياء من وبال النقص و شوهه القصور،و برحمته-و الرحمه إتمام النقص و رفع الحاجه-يظهر فيها الخير و الكمال و يحلّيها بالجمال فببسط المغفره و الرحمه على الأشياء يكون كل شىء نافعا فى غيره خيرا مطلوبا عنده فيصير نعمه بالنسبه اليه فالأشياء بعضها نعمه لبعض فللنعمه الإلهيه من السعه و العرض ما لمغفرته و رحمته من ذلك:فإن تعدّوا نعمه اللّه لا تحصوها،فافهم ذلك.

و الآيه من الموارد التى استعملت فيها المغفره فى غير الذنب و المعصيه للأمر المولوى كما هو المعروف عند المتشرعه.

ص :۵۴۲

و قوله: وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ إشاره الى الركن الثالث من أركان الربوبيه و هو العلم فإن الإله لو كان غير متصف بالعلم استوت العباده و اللاعباده بالنسبه اليه فكانت عبادته لغوا لا أثر لها.

و قوله: وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لاٰ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ إشاره الى فقدان الركن الأول من أركان الربوبيه فى آلهتهم الذين يدعون من دون اللّه و يتفرع عليه الركن الثانى و هو إيتاء النعمه،فليس الذين يدعونهم آلهه و أربابا و اللّه الرب.

و قوله: أَمْوٰاتٌ غَيْرُ أَحْيٰاءٍ وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ إشاره الى فقدان الركن الثالث من أركان الربوبيه فى أصنامهم و هو العلم بما يسرّون و ما يعلنون و قد بالغ فى نفى ذلك فنفى أصل الحياه المستلزم لنفى مطلق العلم فضلا عن نوعه الكامل الذى هو العلم بما يسرّون و ما يعلنون فقال: «أَمْوٰاتٌ غَيْرُ أَحْيٰاءٍ» فأثبت الموت أولا و هو لا يجامع الشعور ثم أكده بنفى الحياه ثانيا.

و خصّ من وجوه جهلهم عدم شعورهم متى يبعث عبّادهم من الناس فقال: «وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ» أى ما يدرى الأصنام أيّان يبعث عبّادهم فإن العباده هى التى يجزى بها الإنسان يوم البعث فمن الواجب فى الإله المعبود أن يعلم متى يوم البعث حتى يجزى عبّاده فيه عن عبادتهم،و هؤلاء لا يدرون شيئا من ذلك.

و قوله: إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ بيان لنتيجه الحجه التى أقيمت فى الآيات السابقه أى إذا كان اللّه سبحانه هو الواجد لما تتوقف عليه الالوهيه و هى المعبوديه بالحق،و غيره تعالى ممن يدعون من دونه غير واجد لشىء مما تتوقف عليه و هو الخلق و الإنعام و العلم فإلهكم الذى يحق له أن يعبد واحد و لازم معناه أنه اللّه عزّ اسمه (۱).

ص :۵۴۳

۱- ۱) .النحل ۱-۲۱:بحث روائى فى:أمر اللّه.

[سوره النحل (۱۶): الآیات ۲۲ الی ۴۰]

اشاره

إِلٰهُکُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَالَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ قُلُوبُهُمْ مُنْکِرَهٌ وَ هُمْ مُسْتَکْبِرُونَ (۲۲) لاٰ جَرَمَ أَنَّ اَللّٰهَ یَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاٰ یُحِبُّ اَلْمُسْتَکْبِرِینَ (۲۳) وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمْ مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ قٰالُوا أَسٰاطِیرُ اَلْأَوَّلِینَ (۲۴) لِیَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ کٰامِلَهً یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ وَ مِنْ أَوْزٰارِ اَلَّذِینَ یُضِلُّونَهُمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ أَلاٰ سٰاءَ مٰا یَزِرُونَ (۲۵) قَدْ مَکَرَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَی اَللّٰهُ بُنْیٰانَهُمْ مِنَ اَلْقَوٰاعِدِ فَخَرَّ عَلَیْهِمُ اَلسَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتٰاهُمُ اَلْعَذٰابُ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَشْعُرُونَ (۲۶) ثُمَّ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ یُخْزِیهِمْ وَ یَقُولُ أَیْنَ شُرَکٰائِیَ اَلَّذِینَ کُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِیهِمْ قٰالَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ إِنَّ اَلْخِزْیَ اَلْیَوْمَ وَ اَلسُّوءَ عَلَی اَلْکٰافِرِینَ (۲۷) اَلَّذِینَ تَتَوَفّٰاهُمُ اَلْمَلاٰئِکَهُ ظٰالِمِی أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا اَلسَّلَمَ مٰا کُنّٰا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلیٰ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِیمٌ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) فَادْخُلُوا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِینَ فِیهٰا فَلَبِئْسَ مَثْوَی اَلْمُتَکَبِّرِینَ (۲۹) وَ قِیلَ لِلَّذِینَ اِتَّقَوْا مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ قٰالُوا خَیْراً لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا فِی هٰذِهِ اَلدُّنْیٰا حَسَنَهٌ وَ لَدٰارُ اَلْآخِرَهِ خَیْرٌ وَ لَنِعْمَ دٰارُ اَلْمُتَّقِینَ (۳۰) جَنّٰاتُ عَدْنٍ یَدْخُلُونَهٰا تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ لَهُمْ فِیهٰا مٰا یَشٰاؤُنَ کَذٰلِکَ یَجْزِی اَللّٰهُ اَلْمُتَّقِینَ (۳۱) اَلَّذِینَ تَتَوَفّٰاهُمُ اَلْمَلاٰئِکَهُ طَیِّبِینَ یَقُولُونَ سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ اُدْخُلُوا اَلْجَنَّهَ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۲) هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاّٰ أَنْ تَأْتِیَهُمُ اَلْمَلاٰئِکَهُ أَوْ یَأْتِیَ أَمْرُ رَبِّکَ کَذٰلِکَ فَعَلَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مٰا ظَلَمَهُمُ اَللّٰهُ وَ لٰکِنْ کٰانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۳۳) فَأَصٰابَهُمْ سَیِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۳۴) وَ قٰالَ اَلَّذِینَ أَشْرَکُوا لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ نَحْنُ وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ کَذٰلِکَ فَعَلَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَی اَلرُّسُلِ إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِینُ (۳۵) وَ لَقَدْ بَعَثْنٰا فِی کُلِّ أُمَّهٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ وَ اِجْتَنِبُوا اَلطّٰاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَی اَللّٰهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَیْهِ اَلضَّلاٰلَهُ فَسِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ اَلْمُکَذِّبِینَ (۳۶) إِنْ تَحْرِصْ عَلیٰ هُدٰاهُمْ فَإِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَهْدِی مَنْ یُضِلُّ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِینَ (۳۷) وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ لاٰ یَبْعَثُ اَللّٰهُ مَنْ یَمُوتُ بَلیٰ وَعْداً عَلَیْهِ حَقًّا وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ (۳۸) لِیُبَیِّنَ لَهُمُ اَلَّذِی یَخْتَلِفُونَ فِیهِ وَ لِیَعْلَمَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّهُمْ کٰانُوا کٰاذِبِینَ (۳۹) إِنَّمٰا قَوْلُنٰا لِشَیْءٍ إِذٰا أَرَدْنٰاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۴۰)

ص: ۵۴۴

بیان:

قوله تعالی: إِلٰهُکُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَالَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ قُلُوبُهُمْ مُنْکِرَهٌ وَ هُمْ مُسْتَکْبِرُونَ قد تقدم الکلام فی قوله: «إِلٰهُکُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ» و أنه نتیجه الحجّه التی أقیمت فی الآیات السابقه.

و قوله: فَالَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ الخ؛تفریع علیه،و افتتاح لفصل جدید من الکلام حول أعمال الکفّار من أقوالهم و أعمالهم الناشئه عن عدم إیمانهم باللّه سبحانه و إنما ذکر عدم إیمانهم بالآخره و لم یذکر عدم إیمانهم باللّه وحده لأن الذی أقیمت علیه الحجه هو التوحید الکامل و هو وجوب الاعتقاد بإله علیم قدیر خلق کل شیء و أتمّ النعمه لا لغوا باطلا بل لحق لیرجعوا الیه فیحاسبهم علی ما عملوا و یجازیهم بما اکتسبوا مما عهده الیهم من الأمر و النهی بواسطه الرسل.

فالتوحید المندوب الیه فی الآیات الماضیه هو القول بوحدانیّته تعالی و الإیمان بما أتی به رسل اللّه و الإیمان بیوم الحساب و الجزاء،و لذلک وصفهم الکفار بعدم الإیمان بالآخره لأن الإیمان بها یستلزم الإیمان بالوحدانیّه و الرساله.

و قوله: قُلُوبُهُمْ مُنْکِرَهٌ أی للحق و قوله: «وَ هُمْ مُسْتَکْبِرُونَ» أی عن الحق، و الاستکبار-علی ما ذکروه-طلب الترفع بترک الإذعان للحق.

ص :۵۴۶

و المعنی:إلهکم واحد علی ما تدل علیه الآیات الواضحه فی دلالتها،و إذا کان الأمر علی هذا الوضوح و الجلاء لا یستتر بستر و لا یرتاب فیه فهم فالذین لا یؤمنون بالآخره قلوبهم منکره للحق جاحده له عنادا و هم مستکبرون عن الانقیاد للحق من غیر حجه و لا برهان.

قوله تعالی: لاٰ جَرَمَ أَنَّ اللّٰهَ یَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاٰ یُحِبُّ الْمُسْتَکْبِرِینَ «لاٰ جَرَمَ» کلمه مرکبه باقیه علی حاله واحده یفید معنی التحقیق علی ما ذکره الخلیل و سیبویه و الیه یرجع ما ذکره غیرهما و إن اختلفوا فی أصل ترکبه قال الخلیل:

و هو کلمه تحقیق و لا یکون إلاّ جوابا یقال:فعلوا کذا فیقول السامع:لا جرم یندمون.

و المعنی من المحقق-أو حق-أن اللّه یعلم ما یسرّون و ما یعلنون،و هو کنایه و تهدید بالجزاء السیئ أی إنّه یعلم ما یخفونه من أعمالهم و ما یظهرونه فسیجزیهم بما عملوا و یؤاخذهم علی ما أنکروا و استکبروا إنه لا یحب المستکبرین.

قوله تعالی: وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمْ مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ قٰالُوا أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ قال الراغب فی المفردات:السطر و السطر-بفتح السکون أو بفتحتین-السطر من الکتابه و من الشجر المغروس و من القوم الوقوف-الی أن قال-و جمع السطر أسطر و سطور و أسطار.

قال:و أما قوله: أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ فقد قال المبرّد:هی جمع اسطوره نحو أرجوحه و أثفیه و أثافی و أحدوثه و أحادیث،و قوله تعالی: وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمْ مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ قٰالُوا أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ أی شیء کتبوه کذبا و مینا فیما زعموا نحو قوله تعالی: «أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ اکْتَتَبَهٰا فَهِیَ تُمْلیٰ عَلَیْهِ بُکْرَهً وَ أَصِیلاً» انتهی و قال غیره:أساطیر جمع أسطار و أسطار جمع سطر فهو جمع الجمع.

و قوله: وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمْ مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ یمکن أن یکون القائل بعض المؤمنین و إنما قاله اختبارا لحالهم و استفهاما لما یرونه فی الدعوه النبویه،و یمکن أن یکون من المشرکین و إنما قاله لهم لیقلدهم فیما یرونه،و عبر عن القرآن بمثل قوله: مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ لنوع من

التهكم و الاستهزاء،و يمكن أن يكون شاكا متحيرا باحثا،و الآيه التاليه و كذا قوله فيما سيأتى:

«وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ» يؤيد أحد الوجهين الأخيرين.

و قوله: قٰالُوا أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى الـذى يسأل عنه أكاذيب خرافيه كتبها الأولون و أثبتوها و تركوها لمن خلفهم،و لازم هـذا القول دعوى أنه ليس نازلا من عند اللّه سبحانه.

قـوله تعـالى: لِيَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ كٰامِلَةً يَوْمَ الْقِيٰامَةِ الى آخر الآيه؛قـال فى المفردات:الوزر-بفتحتين-الملجأ الـذى يلتجأ اليه من الجبل،قال تعالى: «كَلاّٰ لاٰ وَزَرَ إِلىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ» و الوزر-بالكسر فالسكون-الثقل تشبيها بوزر الجبل،و يعبّر بذلك عن الإثم كما يعبّر عنه بالثقل،قال تعالى: «لِيَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ كٰامِلَةً» الآيه؛كقوله:

«وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقٰالَهُمْ وَ أَثْقٰالاً مَعَ أَثْقٰالِهِمْ» .

قـال:و حمل وزر الغير بالحقيقه هو على نحو ما أشار اليه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بقوله:«من سنّ سنه حسنه كان له أجرها و أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجره شىء،و من سنّ سنّه سيئه كان له وزرها و وزر من عمل بها»أى مثل وزر من عمل بها،و قوله: وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ أى لا تحمل وزره من حيث يتعرّى المحمول عنه،انتهى.

و الـذى ذكره من الحـديث النبوى مروى من طرق الخاصه و العامه جميعا و يصدّقه من الكتاب العزيز مثل قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمٰانٍ أَلْحَقْنٰا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مٰا أَلَتْنٰاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمٰا كَسَبَ رَهِينٌ (الطور۲۱/)،و قوله: وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ (يس۱۲/)و الآيات فى هذا المعنى كثيره.

و أما قوله فى تفسير قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم:«كان له وزرها و وزر من عمل بها»أى مثل وزر من عمل بها فكلام ظاهرى لا بأس بأن يوجه به الآيه و الروايه لرفع التناقض بينهما و بين مثل قوله تعالى: لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ (الأنعام۱۶۴/)،و قوله: لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ

أَعْمالَهُمْ (هود١١١/)،إذ لو حمل الآمر وزر السيئه و عذّب بعذابها دون الفاعل ناقض ذلك الآيه الاولى،و لو قسّم بينهما و حمل كل منهما بعض الوزر و عذّب ببعض العذاب ناقض الآيه الثانيه،و أما لو حمل السانّ و الآمر مثل ما للعامل الفاعل لم يناقض شيئا.

و فى تقييد قوله: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ بقوله: كامِلَةً دفع لتوهم التقسيم و التبعيض بأن يحملوا بعضا من أوزار أنفسهم و بعضا من أوزار الذين يضلونهم فيعود الجميع أوزارا كامله بل يحملون أوزار أنفسهم كامله ثم من أوزار الذين يضلونهم.

و قوله: وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ من تبعيضيه لأنهم لا يحملون جميع أوزارهم بل أوزارهم التى ترتبت على إضلالهم خاصه بشهاده السياق فالتبعيض إنما هو لتمييز الأوزار المترتبه على الإضلال من غيرها لا للدلاله على تبعيض كل وزر من أوزار الإضلال و حمل بعضه على هذا و بعضه على ذاك و لا تقسيم مجموع أوزار الإضلال و حمل قسم منه على هذا و قسم منه على ذاك مع تعريته عن القسم الآخر فإن أمثال قوله تعالى: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزال٨/)تنافى ذلك فافهم.

و تقييده سبحانه قوله: يُضِلُّونَهُمْ بقوله: بِغَيْرِ عِلْمٍ للدلاله على أن الذين أضلهم هؤلاء المشركون الذين قالوا:أساطير الأولين إنما ضلوا باتباعهم لهم تقليدا و بغير علم فالقائلون أئمه الضلال و هؤلاء الضلّال أتباعهم و مقلّدوهم ثم ختم سبحانه الآيه بذمهم و تقبيح أمرهم جميعا فقال: «أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ» .

قوله تعالى: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ الخ؛إتيانه تعالى بنيانهم من القواعد هو حضور أمره تعالى عنده بعد ما لم يكن حاضرا،و هذا شائع فى الكلام و خرور السقف سقوطه على الأرض و انهدامه.

و الظاهر-كما يشعر به السياق-أن قوله: فَأَتَى اللّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ كنايه عن إبطال كيدهم و إفساد مكرهم من حيث لا

يتوقعون كمن يتقى أمامه و يراقبه فيأتيه العدو من خلفه فاللّه سبحانه يأتى بنيان مكرهم من ناحيه قواعده و هم مراقبون سقفه مما يأتيه من فوق فينهدم عليهم السقف لا بهادم يهدمه من فوقه بل بانهدام القواعد.

و على هذا فقوله: وَ أَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ عطف تفسيرى يفسّر قوله: «فَأَتَى اللّهُ بُنْيانَهُمْ» الخ؛و المراد بالعذاب العذاب الدنيوى.

و فى الآيه تهديد للمشركين الذين كانوا يمكرون باللّه و رسوله بتذكيرهم ما فعل اللّه بالماكرين من قبلهم من مستكبرى الامم الماضيه حيث ردّ مكرهم الى أنفسهم فكانوا هم الممكورين.

قوله تعالى: ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَهِ يُخْزِيهِمْ وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ الإخزاء من الخزى و هو على ما ذكره الراغب الذل الذى يستحيى منه، و المشاقّه من الشقّ و هو قطع بعض الشىء و فصله منه فهى المخاصمه و المعاداه و الاختلاف ممن من شأنه أن يأتلف و يتفق فمشاقه المشركين فى شركائهم هو اختلافهم مع أهل التوحيد و هم أمه واحده فطرهم اللّه جميعا على التوحيد و دين الحق و مخاصمتهم لهم و انفصالهم عنهم.

و المعنى:أن اللّه سبحانه سيخزيهم يوم القيامه و يضرب عليهم الذله و الهوان بقوله:أين شركائى الذين كنتم تشاقون أهل الحق فيهم و تخاصمونهم و توجدون الاختلاف فى دين اللّه.

قوله تعالى: قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ الخزى ذله الموقف و السوء العذاب على ما يفيده السياق.

و هؤلاء الذين وصفهم اللّه بأنهم اوتوا العلم و أخبر أنهم يتكلمون بكذا هم الذين رزقوا العلم باللّه و انكشفت لهم حقيقه التوحيد فإن ذلك هو الذى يعطيه السياق من جهه المقابله بينهم مع وصفهم بالعلم و بين المشركين الذين ينكشف لهم يومئذ أنهم ما كانوا يعبدون إلّا

أسماء سموها و سرابا توهموه.

على أن اللّه سبحانه يخبر عنهم أنهم يتكلمون يومئذ و يقولون كذا و قد قال فى وصف اليوم:

لاٰ يَتَكَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً (النبأ/٣٨)و القول لا يكون صوابا بحق المعنى إلاّ مع كون قائله مصونا من خطأه و لغوه و باطله،و لا يكون مصونا فى قوله إلاّ إذا كان مصونا فى فعله و فى علمه فهؤلاء قوم لا يرون إلاّ الحق و لا يفعلون إلاّ الحق و لا ينطقون إلاّ بالحق.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ تَتَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ ظٰالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ الى آخر الآيه؛الظاهر أنه تفسير للكافرين الواقع فى آخر الآيه السابقه كما أن قوله الآتى:

اَلَّذِينَ تَتَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ طَيِّبِينَ الخ؛تفسير للمتقين الواقع فى آخر الآيه التى قبله،و لا يستلزم كونه بيانا للكافرين كونه من تمام قول الذين اوتوا العلم حتى يختل نظم الكلام بقولهم:

«إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ» الخ؛ثم بيانهم بقولهم: اَلَّذِينَ تَتَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ الخ؛دون أن يقولوا:الذين توفاهم الملائكه كما لا يخفى.

و قوله: فَأَلْقَوُا السَّلَمَ أى الاستسلام و هو الخضوع و الانقياد،و ضمير الجمع للكافرين و المعنى الكافرون هم الذين تتوفاهم الملائكه و يقبضون أرواحهم و الحال أنهم ظالمون لأنفسهم بكفرهم باللّه فألقوا السلم و قدموا الخضوع و الانقياد مظهرين بذلك أنهم ما كانوا يعملون من سوء،فيرد عليهم قولهم و يكذبون و يقال لهم:بلى قد فعلتم و عملتم إن اللّه عليم بما كنتم تعملون قبل ورودكم هذا المورد و هو الموت.

قوله تعالى: فَادْخُلُوا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ الخطاب للمجموع كما كان قوله: «إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكٰافِرِينَ» و كذا قوله: «الَّذِينَ تَتَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ» الخ؛ناظرا الى جماعه الكافرين دون كلّ واحد واحد منهم.

ص :551

و علی هذا یعود معناه الی مثل قولنا:لیدخل کل واحد منکم بابا من جهنم یناسب عمله و موقفه من الکفر لا أن یدخل کل واحد منهم جمیع الأبواب او أکثر من واحـد منها،و قد تقدم الکلام فی معنی أبواب جهنم فی تفسـیر قوله تعالی: لَهٰا سَـبْعَهُ أَبْوٰابٍ لِکُلِّ بٰابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (الحجر۴۴/).

و المتکبرون هم المستکبرون بحسب المصداق و إن کانت العنایه اللفظیه مختلفه فیهما کالمسلم و المستسلم فالمستکبر هو الذی یطلب الکبر لنفسه بإخراجه من القوه الی الفعل و إظهاره لغیره،و المتکبر هو الذی یقبله لنفسه و یأخذه صفه.

قوله تعالی: وَ قِیلَ لِلَّذِینَ اتَّقَوْا مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ قٰالُوا خَیْراً الی آخر الآیه؛ أخذ المسـئول عنهم هم الذین اتقوا أی الذین شأنهم فی الدنیا أنهم تلبّسوا بالتقوی و هم المتصـفون به المسـتمرون بدلیل إعاده ذکرهم بعد لفظ المتقین مرتین فیکون المسئول عنهم من هـذه الطـائفه خیـارهم الکـاملین فی الإیمـان کمـا کـان المسـئول عنهـم فی الطـائفه الاـخری شـرارهم الکـاملین فی الکفر و هم المستکبرو ن.

و قوله: قٰالُوا خَیْراً أی أنزل خیرا لأنه أنزل قرآنا یتضـمن معارف و شـرائع فی أخذها و العمل بها خیر الدنیا و الآخره و فی قولهم: «خَیْراً» اعتراف بکون القرآن نازلاـ من عنـده تعالی مضافا الی وصـفهم له بالخیریه و فی ذلک إظهار منهم المخالفه للمسـتکبرین حیث أجـابوا بقولهم:أسـاطیر الأـولین أی هو أسـاطیر و لو قـال المتقون:خیر بـالرفع لم یکن فیه اعتراف بـالنزول کمـا أنه لو قـال المستکبرون:أساطیر الأولین بالنصب کان فیه اعتراف بالنزول.کذا قیل.

و قوله: لِلَّذِینَ أَحْسَـنُوا فِی هٰذِهِ الدُّنْیٰا حَسَـنَهٌ وَ لَدٰارُ الْآخِرَهِ خَیْرٌ ظاهر السـیاق أنه بیان لقولهم: «خَیْراً» و هل هو تتمه قولهم أو بیان منه تعالی؟ظاهر قوله: «وَ لَنِعْمَ دٰارُ الْمُتَّقِینَ جَنّٰاتُ عَدْنٍ» الی آخر الآیه؛أنه کلام منه تعالی یبین به وجه الخیریه فیما أنزله الیهم

فإنه أشبه بكلام الرب تعالى منه بكلام المربوب و خاصه المتقين الذين لا يجترءون على أمثال هذه الاقتراحات.

و المراد بالحسنه الحسنه المثوبه الحسنه و ذلک لأنهم بالإحسان الذى هو العمل بما يتضمنه الكتاب يرزقون مجتمعا صالحا يحكم فيه العدل و الإحسان و عيشه طيبه مبنيه على الرشد و السعاده ينالون ذلک جزاء دنيويا لإحسانهم لقوله: «لَهُمْ فِى الدُّنْيا» و لدار الحياه الآخره خير جزاء لأن فيها بقاء بلا فناء و نعمه من غير نقمه و سعاده ليس معها شقاء.

و معنى الآيه:و قيل للمتقين من المؤمنين ما ذا أنزل ربكم من الكتاب و ما شأنه؟قالوا أنزل خيرا،و كونه خيرا هو أن للذين أحسنوا-أى عملوا بما فيه فوضع الإحسان موضع الأخذ و العمل بما فى الكتاب إيماء الى أن الذى يأمر به الكتاب أعمال حسنه-فى هذه الدنيا مثوبه حسنه و لدار الآخره خير لهم جزاء.

ثم مدح دارهم ليكون تأكيدا للقول فقال: «وَ لَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ» ثم بيّن دار المتقين بقوله:

«جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِى اللّهُ الْمُتَّقِينَ» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَهُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّهَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بيان للمتقين كما كان قوله: «الَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَهُ ظالِمِى أَنْفُسِهِمْ» الخ؛بيانا للمستكبرين.

و الطيب تعرّى الشىء مما يختلط به فيكدّره و يذهب بخلوصه و محوضته يقال:طاب لى العيش أى خلص و تعرّى مما يكدّره و ينغصه و القول الطيب ما كان عاريا من اللغو و الشتم و الخشونه و سائر ما يوجب فيه غضاضه،و الفرق بين الطيب و الطهاره أن الطهاره كون الشىء على طبعه الأصلى بحيث يخلو عما يوجب التنفر عنه و الطيب كونه على أصله من غير أن يختلط به ما يكدره و يفسد أمره سواء تنفّر عنه أم لا و لذلک قوبل الطيب بالخبيث المشتمل على

الخبث الزائد،قال تعالی: اَلْخَبِیثٰاتُ لِلْخَبِیثِینَ وَ الْخَبِیثُونَ لِلْخَبِیثٰاتِ وَ الطَّیِّبٰاتُ لِلطَّیِّبِینَ وَ الطَّیِّبُونَ لِلطَّیِّبٰاتِ (النور۲۶/)،و قال: وَ الْبَلَدُ الطَّیِّبُ یَخْرُجُ نَبٰاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِی خَبُثَ لاٰ یَخْرُجُ إِلاّٰ نَکِداً (الأعراف۵۸/).

و علی هذا فالمراد بکون المتقین طیبین فی حال توفیهم خلوصهم من خبث الظلم فی مقابل المستکبرین الذین وصفهم بالظلم حال التوفی فی قوله السابق: «الَّذِینَ تَتَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِکَةُ ظٰالِمِی أَنْفُسِهِمْ» و یکون معنی الآیه أن المتقین هم الذین تتوفاهم الملائکه متعرّین عن خبث الظلم-الشرک و المعاصی-یقولون لهم سلام علیکم-و هو تأمین قولی لهم-ادخلوا الجنه بما کنتم تعملون-و هو هدایه لهم إلیها-.

قوله تعالی: هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاّٰ أَنْ تَأْتِیَهُمُ الْمَلاٰئِکَةُ أَوْ یَأْتِیَ أَمْرُ رَبِّکَ کَذٰلِکَ فَعَلَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ الخ؛رجوع الی حدیث المستکبرین من المشرکین و ذکر بعض أحوالهم و أقوالهم و قیاسهم ممن سبقهم من طغاه الامم الماضین و ما آل الیه أمرهم.

و قوله: هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاّٰ أَنْ تَأْتِیَهُمُ الْمَلاٰئِکَةُ أَوْ یَأْتِیَ أَمْرُ رَبِّکَ سیاق الآیه و خاصه ما فی الآیه التالیه من حدیث العذاب ظاهر فی أنها مسوقه للتهدید فالمراد بإتیان الملائکه نزولهم لعذاب الاستئصال و ینطبق علی مثل قوله: مٰا نُنَزِّلُ الْمَلاٰئِکَةَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ مٰا کٰانُوا إِذاً مُنْظَرِینَ (الحجر۸/)،و المراد بإتیان أمر الرب تعالی قیام الساعه و فصل القضاء و الانتقام الإلهی منهم.

و أما کون المراد بإتیان الأمر ما تقدم فی أول السوره من قوله: «أَتیٰ أَمْرُ اللّٰهِ» و قد قرّبنا هناک أن المراد به مجیء النصر و ظهور الاسلام علی الشرک فلا یلائم اللحن الشدید الذی فی الآیه تلک الملائمه،و أیضا سیأتی فی ذیل الآیات ذکر إنکارهم للبعث و إصرارهم علی نفیه و الرد علیهم،و هو یؤید کون المراد بإتیان الأمر قیام الساعه.

و قد أضاف الرب الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فقال: أَمْرُ رَبِّکَ و لم یقل:أمر اللّه أو أمر ربهم لیدل

به على أن فيه انتصارا له صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قضاء له عليهم.

و قوله: كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ تأكيد للتهديد و تأييد بالنظير أى فعل الذين من قبلهم مثل فعلهم من الجحود و الاستهزاء مما فيه بحسب الطبع انتظار عذاب اللّه «فَأَصٰابَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا» الخ.

و قوله: وَ مٰا ظَلَمَهُمُ اللّٰهُ وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ معترضه يبيّن بها أن الذى نزل بهم من العذاب لهم يستوجبه إلاّ الظلم،غير أن هذا الظلم كان هو ظلمهم أنفسهم لا ظلما منه تعالى و تقدّس،و لم يعذبهم اللّه سبحانه عن ظلم وقع منهم مره أو مرتين بل أمهلهم إذ ظلموا حتى استمروا فى ظلمهم و أصروا عليه-كما يدل عليه قوله: كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ - فعند ذلك أنزل عليهم العذاب،ففى قوله: «وَ مٰا ظَلَمَهُمُ اللّٰهُ» الخ؛إثبات الاستمرار على الظلم عليهم و نفى أصل الظلم عن اللّه سبحانه.

قوله تعالى: فَأَصٰابَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ حاق بهم أى حلّ بهم،و قيل:معناه نزل بهم و أصابهم،و الذى كانوا به يستهزءون هو العذاب الذى كانت رسلهم ينذرونهم به و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَ قٰالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ الخ؛الذى تورده الآيه شبهه على النبوه من الوثنيين المنكرين لها،و لذلك عرّفهم بنعتهم الصريح حيث قال: «وَ قٰالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا» و لم يكتف بالضمير و لم يقل:و قالوا كما فى الآيات السابقه ليعلم أن الشبهه لهم بعينهم.

و قوله: لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا جمله شرطيه حذف فيها مفعول «شٰاءَ» لدلاله الجزاء عليه،و التقدير لو شاء اللّه أن لا نعبد من دونه شيئا ما عبدنا،الخ.

و قوله: مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ لفظه من الاولى بيانيه و الثانيه زائده

لتأكيد الاستغراق فى النفى،و المعنى ما عبدنا شيئا دونه،و نظير ذلك قوله: «وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» .

و قوله: نَحْنُ وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا بيان لضمير التكلم فى «عَبَدْنٰا» للدلاله على أنهم يتكلمون عنهم و عن آبائهم جميعا لأنهم كانوا يقتدون فى عباده الأصنام بآبائهم،و قد تكرّر فى القرآن حكايه مثل قولهم: إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلىٰ أُمَّةٍ وَ إِنّٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ مُقْتَدُونَ (الزخرف۲۳/).

و قوله: وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ عطف على قوله: «عَبَدْنٰا» الخ؛أى و لو شاء اللّه أن لا نحرّم من دونه من شىء أو نحلّ ما حرّمناه ما حرّمنا،الخ؛و المراد البحيره و السائبه و غيرهما مما حرّموه.

ثم إن قولهم: لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ الخ؛ظاهر من جهه تعليق نفى العباده على نفس مشيته تعالى فى أنهم أرادوا بالمشيه إرادته التكوينيه التى لا تتخلف عن المراد البته و لو أرادوا غيرها لقالوا:لو شاء اللّه كذا لأطعناه و استجبنا دعوته أو ما يفيد هذا المعنى.

فكأنهم يقولون:لو كانت الرساله حقه و كان ما جاء به الرسل من النهى عن عباده الأصنام و الأوثان و النهى عن تحريم البحيره و السائبه و الوصيله و غيرها نواهى للّه سبحانه كان اللّه سبحانه شاء أن لا نعبد شيئا غيره و أن لا نحرم من دونه شيئا،و لو شاء اللّه سبحانه أن لا نعبد غيره و لا نحرم شيئا لم نعبد و لم نحرم لاستحاله تخلف مراده عن إرادته لكنا نعبد غيره و نحرم أشياء فليس يشاء شيئا من ذلك فلا نهى و لا أمر منه تعالى و لا شريعه و لا رساله من قبله.

قوله تعالى: كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ ،خطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأمره أن يبلغ رسالته بلاغا مبينا و لا يعتنى بما لفّقوه من

الحجه فإنها داحضه و الحجه تامه عليهم بالبلاغ و فيه إشاره إجماليه الى دحض حجتهم.

فقوله: كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى على هذا الطريق الذى سلكه هؤلاء سلك الذين من قبلهم فعبدوا غير اللّه و حرّموا ما لم يحرّمه اللّه ثم إذا جاءتهم رسلهم ينهونهم عن ذلك قالوا:لو شاء اللّه ما عبدنا من دونه من شىء نحن و لا آباؤنا و لا حرّمنا من دونه من شىء فالجمله كقوله تعالى: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللّٰهِ فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ (الأنفال٥٢/).

و قوله: فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ اى بلّغهم الرساله بلاغا مبينا تتم به الحجه عليهم فإنما وظيفه الرسل البلاغ المبين و ليس من وظيفتهم أن يلجئوا الناس الى ما يدعونهم اليه و ينهونهم عنه و لا أن يحملوا معهم إراده اللّه الموجبه التى لا تتخلف عن المراد و لا أمره الذى إذا أراد شيئا قال له كن فيكون حتى يحوّلوا بذلك الكفر الى الإيمان و يضطرّوا العاصى على الإطاعه.

فإنما الرسول بشر مثلهم و الرساله التى بعث بها إنذار و تبشير و هى مجموعه قوانين اجتماعيه أوحاها اليه اللّه فيها صلاح الناس فى دنياهم و آخرتهم صورتها صوره الأوامر و النواهى المولويه و حقيقتها الإنذار و التبشير،قال تعالى: قُلْ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ (الأنعام٥٠/)،فهذا ما أمر به نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يبلّغهم و قد أمر به نوحا و من بعده من الرسل عليهم السّلام أن يبلّغوه أممهم كما فى سوره هود و غيرها.

و قال أيضا مخاطبا نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمٰا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَمَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صٰالِحاً وَ لاٰ يُشْرِكْ بِعِبٰادَهِ رَبِّهِ أَحَداً (الكهف/ ١١٠).

فهذا هو الذى يشير اليه على سبيل الإجمال بقوله: كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ فإن ظاهره كما أشرنا اليه سابقا أن هذه حجه

دائره بينهم قـديما و حـديثا،و على هـذا ليس من شـأن الرسول إجبـار النـاس و إلجـاؤهم على الإيمـان و الطـاعه بل البلاغ المبين بالإنـذار و التبشـير و حجتهم لاـ تـدفع ذلـك فبلّغ ما أرسـلت به بلاغا مبينا و لا تطمع فى هـدايه من ضلّ منهم،و سـتفصّل الآيتان التاليتان ما أجملته هذه الآيه و توضحانها.

قوله تعالى: وَ لَقَـدْ بَعَثْنا فِى كُلِّ أُمَّهٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُـدُوا اللّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَـدَى اللّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَهُ الخ؛الطاغوت فى الأصل مصدر كالطغيان و هو تجاوز الحدّ بغير حق،و اسم المصدر منه الطغوى،قال الراغب:الطاغوت عباره عن كـل متعـدّ و كـل معبود من دون اللّه،و يسـتعمل فى الواحـد و الجمع، قال تعالى: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّاغُوتِ وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطّاغُوتَ أَوْلِياؤُهُمُ الطّاغُوتُ .انتهى.

و قوله: وَ لَقَـدْ بَعَثْنا فِى كُلِّ أُمَّهٍ رَسُولاً إشاره الى أن بعث الرسول أمر لا يختص به امه دون امه بل هو سـنّه إلهيه جاريه فى جميع الناس بما أنهم فى حاجه اليه و هو يـدركهم أينما كانوا كما أشار الى عمومه فى الآيه السابقه إجمالا بقوله: «كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» .

و قـوله: أَنِ اعْبُـدُوا اللّهَ وَ اجْتَنِبُـوا الطّـاغُوتَ بيـان لبعث الرسـول على مـا يعطيه السـياق أن مـا كـانت حقيقه بعث الرسـول إلاـ أن يدعوهم الى عباده اللّه و اجتناب الطاغوت لأن الأمر و كذا النهى من البشر و خاصه إذا كان رسولا ليس إلاّ دعوه عاديه لا إلجاء و اضطرارا تكوينيا،و لا أن للرسول أن يدّعى ذلک حتى يرد عليه أنه لو شاء اللّه ما عبدنا من دونه من شىء و إذ لم يشأ فلا معنى للرساله.

و قوله: فَمِنْهُمْ مَنْ هَـدَى اللّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاـلَهُ أى كـانت كـل من هـذه الامم مثل هـذه الامه منقسـمه الى طائفتين فبعضهم هو من هداه اللّه الى ما دعاهم اليه الرسول من عباده اللّه و اجتناب الطاغوت.

و ذلک أن الهدایه من اللّه سبحانه لا یشارکه فیها غیره و لا تنسب الی أحد دونه إلاّ بالتبع کما قال: إِنَّکَ لاٰ تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ (القصص۵۶/)و سنشیر الیه فی الآیه التالیه: إِنْ تَحْرِصْ عَلیٰ هُدٰاهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی مَنْ یُضِلُّ و الآیات فی حصر الهدایه فیه تعالی کثیره،و لا یستلزم ذلک کونها أمرا اضطراریا لا صنع فیه للعبد أصلا فإنها اختیاریه بالمقدمه کما یشیر الیه قوله: وَ الَّذِینَ جٰاهَدُوا فِینٰا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَ إِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِینَ (العنکبوت۶۹/)یفید أن للهدایه الإلهیه طریقا میسّرا للانسان و هو الإحسان فی العمل و أن اللّه لمع المحسنین لا یدعهم یضلّون.

و بعض هذه الامم-الطائفه الثانیه منهم-هو من حقّت علیه الضلاله أی ثبتت و لزمت، و هذه الضلاله هی التی من قبل العبد بسوء اختیاره و لیست بالتی تتبعها مجازاه من اللّه فإن اللّه یصفها بقوله:حقت ثم یضیفها فی الآیه التالیه الی نفسه إذ یقول: فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی مَنْ یُضِلُّ فقد کانت هناک ضلاله ثم حقت و ثبتت بإثبات اللّه مجازاه فصارت هی التی من قبل اللّه سبحانه مجازاه،فتبصّر.

و لم ینسب اللّه سبحانه فی کلامه الی نفسه إضلالا إلاّ ما کان مسبوقا لظلم من العبد أو فسق أو کفر و تکذیب أو نظائرها کقوله: وَ اللّٰهُ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ (الجمعه۵/)و عدم الهدایه هو الإضلال،و قوله: وَ یُضِلُّ اللّٰهُ الظّٰالِمِینَ وَ یَفْعَلُ اللّٰهُ مٰا یَشٰاءُ (إبراهیم۲۷/)، و قوله: وَ مٰا یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِینَ (البقره۲۶/)،و قوله: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ یَکُنِ اللّٰهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَ لاٰ لِیَهْدِیَهُمْ طَرِیقاً إِلاّٰ طَرِیقَ جَهَنَّمَ (النساء۱۶۸/)،و قوله: فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ (الصف۵/)،الی غیر ذلک من الآیات.

و لم یقل سبحانه:فمنهم من هدی اللّه و منهم من أضلّه مع کون ضلالهم ضلال مجازاه لا مانع من إضافته الیه تعالی دفعا لإیهام نسبه أصل الضلال الیه بل ذکر أولا من هداه ثم قابله بمن کان من حقه أن یضل-و هو الذی اختار الضلاله علی الهدی أی اختار أن لا یهتدی-فلم

يهده اللّه و حقّ له ذلک.

و قوله: فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ظاهر السياق أن الخطاب للذين أشركوا القائلين «لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» و الالتفات الى خطابهم لكونه أشد تأثيرا فلى تثبيت القول و إتمام الحجه.

و الكلام متفرع على ما بيّن جوابا لحجتهم إجمالا و تفصيلا و محصّل المعنى أن الرساله و الدعوه النبويه ليست من الإراده التكوينيه الملجئه الى ترک عباده الأصنام و تحريم ما لم يحرّمه اللّه حتى يستدلوا بعدم وجود الإلجاء على عدم وجود الرساله و كذب مدّعيها بل هى دعوه عاديه بعث اللّه سبحانه بها رسلا يدعونكم الى عباده اللّه و اجتناب الطاغوت و حقيقته الإنذار و التبشير،و من الدليل على ذلک آثار الامم الماضيه الظالمه التى تحكى عن نزول العذاب عليهم فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبه المكذبين حتى يتبين لكم أن الدعوه النبويه التى هى إنذار حق و أن الرساله ليست كما تزعمون.

قوله تعالى: إِنْ تَحْرِصْ عَلىٰ هُدٰاهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ لما بيّن أن الامم الماضين انقسموا طائفتين و كانت إحدى الطائفتين هم الذين حقّت عليهم الضلاله و كانت هؤلاء الذين أشركوا و قالوا ما قالوا كالذين من قبلهم منهم بيّن فى هذه الآيه أن ثبوت الضلاله فى حقهم إنما هو ثبوت لا زوال معه و تحتم لا يقبل التغيير فإنه لا هادى بالحقيقه إلاّ اللّه فإن جاز هداهم كان اللّه هو هاديهم لكنه لا يهديهم فإنه يضلهم و لا يجتمع الهدى و الضلال معا،و ليس هناک ناصر ينصرهم على اللّه فيقهره على هداهم فليؤيس منهم.

ففى الآيه تعزيه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و إرشاد له أن لا يحرص فى هداهم،و إعلام له أن القضاء قد مضى فى حقهم و ما يبدّل القول لديه و ما هو بظلام للعبيد.

فقوله: إِنْ تَحْرِصْ عَلىٰ هُدٰاهُمْ الخ؛فى تقدير إن تحرص على هداهم لم ينفعهم

حرصک شیئا فلیسوا ممن یمکن له الاهتداء فإن اللّه هو الذی یهدی من اهتدی،و هو لا یهدیهم فإنه یضلهم و لا یناقض تعالی فعل نفسه،و لیس لهم ناصرون ینصرونهم علیه.

و فی هذه الآیات الثلاث مشاجرات طویله بین المجبّره و المفوّضه و کل یفسرها بما یقتضیه مذهبه حتی قال الامام الرازی:إن المشرکین أرادوا بقولهم:لو شاء اللّه ما عبدنا من دونه من شیء،الخ؛أنه لما کان الکل من التوحید و الشرک و الهدی و الضلال من اللّه کانت بعثه الأنبیاء عبثا فنقول:هذا اعتراض علی اللّه و جار مجری طلب العله فی أحکامه و أفعاله تعالی و ذلک باطل فلا یقال له:لم فعلت هذا و لم لم تفعل ذلک؟

قال:فثبت أن اللّه تعالی إنما ذمّ هؤلاء القائلین لأنهم اعتقدوا أن کون الأمر کذلک یمنع عن جواز بعثه الرسل لا لأنهم کذبوا فی قولهم ذلک.انتهی ملخصا.

و فی قوله: وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِینَ دلاله علی أن لغیرهم ناصرین کثیرین و ذلک أن السیاق یدل علی أنه لیس لهم ناصر أصلا لا واحد و لا کثیر فنفی الناصرین بصیغه الجمع یکشف عن عنایه زائده بذلک أی أن هناک ناصرین لکنهم لیسوا لهم بل لغیرهم و لیس إلاّ من یهتدی بهدی اللّه،و نظیر الآیه ما حکاه اللّه سبحانه عن المجرمین یوم القیامه: فَمٰا لَنٰا مِنْ شٰافِعِینَ (الشعراء۱۰۰/).

و هؤلاء الناصرون هم الملائکه الکرام و سائر أسباب التوفیق و الهدایه و اللّه سبحانه من ورائهم محیط،قال تعالی: إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ الَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهٰادُ (المؤمن۵۱/).

قوله تعالی: وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ لاٰ یَبْعَثُ اللّٰهُ مَنْ یَمُوتُ بَلیٰ الی آخر الآیه؛قال فی المفردات:الجهد و الجهد-بفتح الجیم و ضمها-الطاقه،و المشقه أبلغ من الجهد بالفتح،قال:و قال تعالی: «وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ» أی حلفوا و اجتهدوا فی الحلف أن یأتوا به علی أبلغ ما فی وسعهم.انتهی.

و قال فى المجمع فى معنى قوله: وَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ أى بلغوا فى القسم كل مبلغ.انتهى.

و قولهم: لا يَبْعَثُ اللّهُ مَنْ يَمُوتُ إنكار للحشر،و الجمله كنايه عن أن الموت فناء فلا يتعلق به بعده خلق جديد،و هذا لا ينافى قول كلهم أو جلهم بالتناسخ فإنه قول بتعلق النفس بعد مفارقتها البدن ببدن آخر إنسانى أو غير إنسانى و عيشها فى الدنيا،و هو قولهم بالتولد بعد التولد.

و قوله: بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا أى ليس الأمر كما يقولون بل يبعث اللّه من يموت وعده وعدا ثابتا عليه حقا أى إن اللّه سبحانه أوجبه على نفسه بالوعد الذى وعد عباده، و أثبته إثباتا فلا يتخلف و لا يتغير.

و قوله: وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ أى لا يعلمون أنه من الوعد الذى لا يخلف و القضاء الذى لا يتغير لإعراضهم عن الآيات الداله عليه الكاشفه عن وعده و هى خلق السماوات و الأرض و اختلاف الناس بالظلم و الطغيان و العدل و الإحسان و التكليف النازل فى الشرائع الإلهيه.

قوله تعالى: لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ اللام للغايه و الغرض أى يبعث اللّه من يموت ليبين لهم،الخ؛و الغايتان فى الحقيقه غايه واحده فإن الثانيه من متفرعات الاولى و لوازمها فإن الكافرين إنما يعلمون أنهم كانوا كاذبين فى نفى المعاد من جهه تبين الاختلاف الذى ظهر بينهم و بين الرسل بسبب إثبات المعاد و نفيه و ظهور المعاد لهم عيانا.

و تبين ما اختلف فيه الناس من شئون يوم القيامه،و قد تكرر فى كلامه هذا التعبير و ما فى معناه تكرارا صحّ معه جعل تبيين الاختلاف معرّفا لهذا اليوم الذى ثقل فى السماوات و الأرض،و على ذلک يتفرع ما قصه اللّه سبحانه فى كلامه من تفاصيل ما يجرى فيه من المرور

على الصراط و تطاير الكتب و وزن الأعمال و السؤال و الحساب و فصل القضاء.

قوله تعالى: إِنَّمٰا قَوْلُنٰا لِشَيْءٍ إِذٰا أَرَدْنٰاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ هو نظير قوله فى موضع آخر: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس/٨٢)،و منه يعلم أنه تعالى يسمّى أمره قولا-كما يسمى أمره و قوله من حيث قوته و إحكامه و خروجه عن الإبهام و كونه مرادا حكما و قضاء،قال تعالى: وَ مٰا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ (يوسف/٦٧)،و قال: وَ قَضَيْنٰا إِلَيْهِ ذٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دٰابِرَ هٰؤُلاٰءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (الحجر/٦٦)،و قال: وَ إِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (البقره/١١٧)،و كما يسمى قوله الخاص كلمه،قال تعالى: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (الصافات/١٧٢)،و قال: إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللّٰهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ قٰالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران/٥٩)،ثم قال فى عيسى عليه السّلام: وَ كَلِمَتُهُ أَلْقٰاهٰا إِلىٰ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ (النساء/١٧١).

[سوره النحل (١٦): الآيات ٤١ الى ٦٤]

اشاره

وَ اَلَّذِينَ هٰاجَرُوا فِي اَللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي اَلدُّنْيٰا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ اَلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ اَلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنٰاتِ وَ اَلزُّبُرِ وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ اَلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّٰاسِ مٰا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَ فَأَمِنَ اَلَّذِينَ مَكَرُوا اَلسَّيِّئٰاتِ أَنْ يَخْسِفَ اَللّٰهُ بِهِمُ اَلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ اَلْعَذٰابُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمٰا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلىٰ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلاٰلُهُ عَنِ اَلْيَمِينِ وَ اَلشَّمٰائِلِ سُجَّداً لِلّٰهِ وَ هُمْ دٰاخِرُونَ (٤٨) وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ مِنْ دٰابَّةٍ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ وَ هُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخٰافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ (٥٠) وَ قٰالَ اَللّٰهُ لاٰ تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اِثْنَيْنِ إِنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَإِيّٰايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَ لَهُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لَهُ اَلدِّينُ وٰاصِباً أَ فَغَيْرَ اَللّٰهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَ مٰا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اَللّٰهِ ثُمَّ إِذٰا مَسَّكُمُ اَلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذٰا كَشَفَ اَلضُّرَّ عَنْكُمْ إِذٰا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمٰا آتَيْنٰاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَ يَجْعَلُونَ لِمٰا لاٰ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ تَاللّٰهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ اَلْبَنٰاتِ سُبْحٰانَهُ وَ لَهُمْ مٰا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوٰارىٰ مِنَ اَلْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مٰا بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي اَلتُّرٰابِ أَلاٰ سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ اَلسَّوْءِ وَ لِلّٰهِ اَلْمَثَلُ اَلْأَعْلىٰ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (٦٠) وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ اَللّٰهُ اَلنّٰاسَ بِظُلْمِهِمْ مٰا تَرَكَ عَلَيْهٰا مِنْ دَابَّةٍ وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ مٰا يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ اَلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ اَلْحُسْنىٰ لاٰ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ اَلنّٰارَ وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢) تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا إِلىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ اَلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اَلْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ اَلْكِتٰابَ إِلاّٰ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ اَلَّذِي اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)

بيان:

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَهِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ وعد جميل للمهاجرين،و قد كانت من المؤمنين هجرتان عن مكه:إحداهما الى حبشه عدّه من المؤمنين بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بإذن من اللّه و رسوله إليها و لبثوا فيها حينا فى أمن و راحه من أذى مشركى مكه و عذابهم

ص :۵۶۵

و فتنتهم.

و الثانيه هجرتهم من مكه الى المدينه بعد مهاجره النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و الظاهر أن المراد بالهجره فى الآيه هى الهجره الثانيه فسياق الآيتين أكثر ملاءمه لها من الاولى و هو ظاهر.

و قوله: فِي اللّٰهِ متعلق بهاجروا،و المراد بكون المهاجره فى اللّه أن يكون طلب مرضاته محيطا بهم فى مهاجرتهم لا يخرجون منه الى غرض آخر كما يقال:سافر فى طلب العلم و خرج فى طلب المعيشه أى لا غايه له إلاّ طلب العلم و لا بغيه له إلاّ طلب المعيشه،و السياق يعطى أن قوله: «مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا» أيضا مقيّد بذلك معنى،و التقدير:و الذين هاجروا فى اللّه من بعد ما ظلموا فيه،و إنما حذف اختصارا و إنما اكتفى به قيدا للمهاجره لأنها محل الابتلاء فتخصيصه بإيضاح الحال أولى.

و قوله: لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيٰا حَسَنَةً قيل:أى بلده حسنه بدلا مما تركوه من وطنهم كمكه و حواليها بدليل قوله: «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ» فإنه من بوّأت له مكانا أى سوّيت و أقررته فيه.

و قيل:أى حاله حسنه من الفتح و الظفر و نحو ذلك فيكون قوله: لَنُبَوِّئَنَّهُمْ الخ؛من الاستعاره بالكنايه.

و الوجهان متحدان مآلا فإنهم إنما كانوا يهاجرون ليعقدوا مجتمعا إسلاميا طيبا لا يبعد فيه إلاّ اللّه،و لا يحكم فيه إلاّ العدل و الإحسان أو ليدخلوا فى مجتمع هذا شأنه فلو رجوا فى مهاجرهم غايه حسنه أو وعدوا بغايه حسنه كان ذلك هذا المجتمع الصالح،و لو حمدوا البلده التى يهاجرون إليها لكان حمدهم للمجتمع الاسلامى المستقر فيها لا لمائها أو هوائها فالغايه الحسنه التى يعدهم اللّه فى الدنيا هى هذا المجتمع سواء اريد بالحسنه البلده أو الغايه.

و قوله: وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ تتميم للوعد و إشاره الى أن أجر الآخره أفضل من هذا الأجر الدنيوى لو كانوا يعلمون ما أعدّ اللّه لهم فيها من النعم فإن

فيها سعاده من غير شقاء و خلودا من غير فناء و لذّه غير مشوبه بألم و جوار رب العالمين.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ لا يبعد أن يستفاد من سياق الآيتين أن جمله العنايه فيهما الى وعد المهاجرين فى اللّه وعدا حسنا فى الدنيا و الآخره من غير نظر الى الإخبار بتحقق المهاجره قبل حال الخطاب فيكون الكلام فى معنى الاشتراط:من يهاجر فى اللّه فله كذا و كذا،و تكون العنايه فى قوله: «الَّذِينَ صَبَرُوا» الخ؛بتوصيف المهاجرين بالصبر و التوكل من غير نظر الى ما تحقق منهم من ذلك أيام توقفهم فى أوطانهم بين المشركين قبال أذاهم و فتنتهم.

و العنايه بالتوصيف إنما هى لكون كلتا الصفتين دخيلتين فى الغايه الحسنه التى وعدوا بها إذ لو لم يصبروا على مرّ الجهاد و أظهروا الجزع عند هجوم العظائم و لم يتأيدوا بالتوكل على اللّه و اعتمدوا على أنفسهم الضعيفه أحيط بهم و لم يتهيأ لهم المستقر و فرّقهم العدو المصر على عداوته بددا و تلاشى المجتمع الصالح الذى أقاموه فى مهاجرهم هذا فى الدنيا،و أما أمر الآخره ففساده بفساد المجتمع أو تلاشيه أوضح.

و لو كان المراد وعد المهاجرين الذين تحقق منهم الهجره قبل نزول الآيه تطيبا لنفوسهم و تسليه لهم عما أخرجوا من ديارهم و أموالهم و قاسوا الفتن و المحن كان قوله: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» مدحا لهم بما ظهر منهم ايام إقامتهم بمكه و غيرها من الصبر فى اللّه على أذى المشركين و التوكل على اللّه فيما عزموا عليه من الاسلام للّه.

قوله تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ رجوع ثان الى بيان كيفيه إرسال الرسل و إنزال الكتب حتى يتضح للمشركين أنه لم تكن الدعوه الدينيه إلاّ دعوه عاديه من رجال يوحى اليهم من البشر يندبون الى ما فيه صلاح الناس فى دنياهم و عقباهم.

و أنه لم يدّع أحد من الرسل و لا ادّعى فى كتاب من كتب الشرائع أن الدعوه الدينيه ظهور

للقدره الغيبيه القاهره لكل شيء و الاراده التكوينيه لهدم النظام الجارى و نقض سنّه الاختيار و إبطالها حتى يقول القائل منهم «لَوْ شاءَ اللّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» الخ.

و على هذا فقوله سبحانه: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مسوق لحصر الرساله على البشر العادى من رجال يوحى اليهم قبال ما ادعاه المشركون أنها لو كانت لكانت نقضا لنظام الطبيعه و إبطالا للاختيار و الاستطاعه.

و الحق أن الآيه وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّ رِجالاً إنما هى فى مقام بيان أن الرسل كانوا رجالا من البشر العادى من غير عنايه بكونهم أول ما بعثوا للرساله أفرادا بالغين مبلغ الرجال فالغرض أن نوحا و إبراهيم و موسى و عيسى و يحيى عليهم السّلام-و هم رسل-كانوا رجالا يوحى اليهم و لم يكونوا أشخاصا مجهزين بقدره قاهره غيبيه و إراده إلهيه تكوينيه.

و يقرب من الآيه قوله تعالى فى موضع آخر: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ ما كانُوا خالِدِينَ (الأنبياء٨/).

و قوله: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ الظاهر أنه خطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لقومه،و قد كان الخطاب فى سابق الكلام للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم خاصه و المعنى موجّه الى الجميع فهو تعميم الخطاب للجميع ليتخذ كل من المخاطبين سبيله فمن كان لا يعلم ذلك كبعض المشركين راجع أهل الذكر و اسألهم و من كان يعلم ذلك كالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المؤمنين به كان فى غنى عن الرجوع و السؤال.

و الذكر حفظ معنى الشيء أو استحضاره،و يقال لما به يحفظ أو يستحضر قال الراغب فى المفردات:الذكر تاره يقال و يراد به هيئه للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفه و هو كالحفظ إلاّ أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه و الذكر يقال اعتبارا باستحضاره، و تاره يقال لحضور الشيء فى القلب أو القول و لذلك قيل:الذكر ذكران:ذكر بالقلب،و ذكر

باللسان،و كل واحد منهما ضربان:ذكر عن نسيان و ذكر لا عن نسيان بل عن إدامه الحفظ، انتهى موضع الحاجه.

و الظاهر أن الأصل فيه ما هو للقلب و إنما يسمى اللفظ ذكرا اعتبارا بإفادته المعنى و إلقائه إياه فى الذهن،و على هذا المعنى جرى استعماله فى القرآن غير أن مورده فيه ذكر اللّه تعالى فالذكر إذا أطلق فيه و لم يتقيد بشىء هو ذكره.

و بهذه العنايه أيضا سمّى القرآن وحى النبوه و الكتب المنزله على الأنبياء ذكرا،و الآيات فى ذلك كثيره لا حاجه الى إيرادها فى هذا الموضع.و قد سمى اللّه سبحانه فى الآيه التاليه القرآن ذكرا.

فالقرآن الكريم ذكر كما أن كتاب نوح و صحف إبراهيم و توراه موسى و زبور داود و إنجيل عيسى عليهم السّلام-و هى الكتب السماويه المذكوره فى القرآن-كلها ذكر،و أهلها المتعاطون لها المؤمنون بها أهل الذكر.

و لما كان أهل الشىء و خاصته أعرف بحاله و أبصر بأخباره كان على من يريد التبصر فى أمره أن يرجع الى أهله،و أهل الكتب السماويه القائمون على دراستها و تعلمها و العمل بشرائعها هم أهل الخبره بها و العالمون بأخبار الأنبياء الجائين بها فعلى من أراد الاطلاع على شىء من أمرهم أن يراجعهم و يسألهم.

لكن المشركين المخاطبين بمثل قوله: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ لما كانوا لا يسلمون للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم النبوه و لا يصدقونه فى دعواه و يستهزءون بالقرآن ذى الذكر كما يذكره تعالى فى قوله: وَ قٰالُوا يٰا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (الحجر/۶)،لم ينطبق قوله:

«فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ» بحسب المورد إلاّ على أهل التوراه،و خاصه من حيث كونهم أعداء للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم رادين لنبوته و كانت نفوس المشركين طيبه بهم لذلك،و قد قالوا فى المشركين:

هٰؤُلاٰءِ أَهْدىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (النساء/۵۱).

قوله تعالی: بِالْبَيِّنٰاتِ وَ الزُّبُرِ متعلق بمقدّر یدلّ علیه ما فی الآیه السابقه من قوله:

«وَ مٰا أَرْسَلْنٰا» أی أرسلناهم بالبیّنات و الزبر و هی الآیات الواضحه الدالّه علی رسالتهم و الکتب المنزّله علیهم.

و ذلک أن العنایه فی الآیه السابقه إنما هی ببیان کون الرسل بشرا علی العاده فحسب فکأنه لما ذکر ذلک اختلج فی ذهن السامع أنهم بما ذا أرسلوا؟فاجیب عنه فقیل:بالبینات و الزبر أما البینات فلإثبات رسالتهم و أما الزبر فلحفظ تعلیماتهم.

و قیل:و هو متعلق بقوله: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا أی و ما أرسلنا بالبینات و الزبر إلاّ رجالا نوحی الیهم.و فیه أنه لا بأس به فی نفسه لکنه مفوّت لما تقدّم من النکته.

قوله تعالی: وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّٰاسِ مٰا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ لا شک أن تنزیل الکتاب علی الناس و إنزال الذکر علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم واحد بمعنی أن تنزیله علی الناس هو إنزاله الیه لیأخذوا به و یوردوه مورد العمل کما قال تعالی: يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ قَدْ جٰاءَكُمْ بُرْهٰانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (النساء/۱۷۴)،و قال: لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ كِتٰاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (الأنبیاء/۱۰).

فیکون محصّل المعنی أن القصد بنزول هذا الذکر الی عامه البشر و أنک و الناس فی ذلک سواء،و إنما اخترناک لتوجیه الخطاب و إلقاء القول لا لنحمّلک قدره غیبیه و إراده تکوینیه إلهیه فنجعلک مسیطرا علیهم و علی کل شیء بل لأمرین:

أحدهما:أن تبین للناس ما نزّل تدریجا الیهم لأن المعارف الإلهیه لا ینالها الناس بلا واسطه فلا بد من بعث واحد منهم للتبیین و التعلیم،و هذا هو غرض الرساله ینزل الیه الوحی فیحمله ثم یؤمر بتبلیغه و تعلیمه و تبیینه.

و الثانی:رجاء أن یتفکروا فیک فیتبصّروا أن ما جئت به حق من عند اللّه فإن الأوضاع المحیطه بک و الحوادث و الأحوال الوارده علیک فی مدی حیاتک من الیتم و خمود الذکر

و الحرمان من التعلم و الكتابه و فقدان مربّ صالح و الفقر و الاحتباس بين قوم جهله أخسّاء صفر الأيدى من مزايا المدنيه و فضائل الإنسانيه كانت جميعا أسبابا قاطعه أن لا تذوق من عين الكمال قطره،و لا تقبض من عرى السعاده على مسكه،لكن اللّه سبحانه أنزل اليک ذكرا تتحدّى به على الجن و الإنس مهيمنا على سائر الكتب السماويه تبيانا لكل شىء و هدى و رحمه و برهانا و نورا مبينا.

فالتفكر فيک نعم الدليل الهادى الى أن ليس لک فيما جئت به صنع و لا لک من الأمر شىء و أن اللّه أنزله بعلمه و أيّدک لذلک بقدرته من غير أن يداخله من الأسباب العاديه شىء.

هذا ما تفيده الآيه الكريمه نظرا الى سياقها و سياق ما قبلها و محصّله أن قوله: «لِتُبَيِّنَ» الخ؛ غايه للإنزال لا لنفسه بل من حيث تعلّقه بشخص النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و أن متعلق «يَتَفَكَّرُونَ» المحذوف هو نحو قولنا:فيک لا قولنا:فى الذكر.

و فى الآيه دلاله على حجيّه قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى بيان الآيات القرآنيه،و أمّا ما ذكره بعضهم أن ذلک فى غير النص و الظاهر من المتشابهات أو فيما يرجع الى أسرار كلام اللّه و ما فيه من التأويل فمما لا ينبغى أن يصغى اليه.

هذا فى نفس بيانه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و يلحق به بيان أهل بيته لحديث الثقلين المتواتر و غيره و أما سائر الامه من الصحابه أو التابعين أو العلماء فلا حجيه لبيانهم لعدم شمول الآيه و عدم نص معتمد عليه يعطى حجيه بيانهم على الإطلاق.

و أما قوله تعالى: «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ» فقد تقدم أنه إرشاد الى حكم العقلاء بوجوب رجوع الجاهل الى العالم من غير اختصاص الحكم بطائفه دون طائفه.

هذا كله فى نفس بيانهم المتلقى بالمشافهه،و أما الخبر الحاكى له فما كان منه بيانا متواترا أو محفوفا بقرينه قطعيه و ما يلحق به فهو حجه لكونه بيانهم،و أما ما كان مخالفا للكتاب أو غير مخالف لكنه ليس بمتواتر و لا محفوفا بالقرينه فلا حجيّه فيه لعدم كونه بيانا فى الأول و عدم

إحراز البيانيه فى الثانى و للتفصيل محل آخر.

قوله تعـالى: أَ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللّٰهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَشْعُرُونَ هـذه الآيه و الآيتان بعدها إنذار و تهديد للمشـركين و هم الذين يعبدون غير اللّه سـبحانه و يشـرعون لأنفسهم سننا يستنون بها فى الحياه فما يعملون من الأعمال مستقلين فيها بأنفسهم معرضين عن شرائع اللّه النازله من طريق النبوه استنادا الى حجج داحضه اخلقوها لأنفسهم كلها سيئـات و مـا يتقلبون فيها مـدى حياتهم من حركه أو سـكون و أخـذ أو رد و فعل أو ترک و هم على ما هم عليه من اسـتكبار و غرور،كلها ذنوب يقترفونها مكرا باللّه ربهم و برسله الداعين الى الأخذ بدين اللّه و لزوم سبيله.

فقوله: اَلسَّيِّئاتِ مفعول مَكَرُوا بتضـمينه بمعنى عملوا أى عملوا السـيئات ماكرين؛و ما احتمله بعضهم من كون السيئات وصفا سادّا مسدّ المفعول المطلق و التقدير:

يمكرون المكرات السيئات بعيد من السياق.

و بالجمله الكلام لتهديـد المشـركين و إنـذارهم بالعـذاب الإلهى و يدخل فيهم مشـركوا مكه، و الكلام متفرع على ما تقدم كما يدل عليه قوله: «أَ فَأَمِنَ» بفاء التفريع.

و المعنى-و اللّه أعلم-فـإذا دلّت الآيـات البينات على أن اللّه هو ربهم لا شـريک له فى ربوبيته و أن الرساله ليست بأمر محال بل هى دعوه الى ما فيه صلاح معاشهم و معادهم و خير دنياهم و أخراهم من رجال هم أمثالهم يبعثهم اللّه و يوحى اليهم بما تشتمل عليه الـدعوه، فهؤلاء الـذين يعرضون عن ذلک و يمكرون باللّه و رسـله بالتشبّث بهـذه الحجـج الواهيه لتسويه الطريق الى ترک ديـن اللّـه و تشـريع مـا يوافـق أهـواءهم و يعملـون السـيئات هـل أمنـوا أن يخسـف اللّـه بهم الأـرض أو يـأتيهم العـذاب و هم لا يشعرون،أى يفاجئهم من غير أن يتنبهوا بتوجيه اليهم قبل نزوله.

قوله تعالی: أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِی تَقَلُّبِهِمْ فَمٰا هُمْ بِمُعْجِزِينَ الفاعل هو اللّه سبحانه و قد کثرت فی القرآن نسبه الأخذ الیه،و قیل:الضمیر للعذاب،و التقلّب هو التحول من حال الی حال و المراد به تحوّل المشرکین فی مقاصدهم و أعمالهم السیئه و انتقالهم من نعمه الی نعمه اخری من نعم الحیاه الدنیا،قال تعالی: لاٰ يَغُرَّنَّکَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ کَفَرُوا فِی الْبِلاٰدِ مَتٰاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهٰادُ (آل عمران۱۹۷/).

فالمراد بأخذهم فی تقلبهم أن یأخذهم فی عین ما یتقلبون فیه من السیئات مکرا باللّه و رسله بالعذاب أو المعنی یعذبهم بنفس ما یتقلبون فیه فیعود النعمه نقمه،و هذا أنسب بالنظر الی قوله: «فَمٰا هُمْ بِمُعْجِزِينَ» .

و قوله: فَمٰا هُمْ بِمُعْجِزِينَ فی مقام التعلیل لأخذهم فی تقلبهم و مکرهم السیئات أی لأنهم لیسوا بمعجزین للّه فیما أراد بالتغلب علیه أو بالفرار من حکمه،و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلیٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّکُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ التخوف تمکن الخوف من النفس و استقراره فیها فالأخذ علی تخوف هو العذاب مبنیا علی المخافه بأن یشعروا بالعذاب فیتقوه و یحذروه بما استطاعوا من توبه و ندامه و نحوهما فیکون الأخذ علی تخوف مقابلا لإتیان العذاب من حیث لا یشعرون.

و قوله: فَإِنَّ رَبَّکُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ فی مقام التعلیل أی یأخذهم علی تخوف و یتنزّل فی عذابهم الی هذا النوع من العذاب الذی هو أهون الأنواع المعدوده لأنه رؤف رحیم،و فی التعبیر بقوله: «رَبَّکُمْ» إشاره الی ذلک،و کونه فی مقام التعلیل بالنسبه الی الوجهین الأولین ظاهر،و أما بالنسبه الی الثالث فلأن الأخذ بالنقص لا یخلو من مهله و فرصه یتنبه فیها من تنبه فیأخذ بالحذر بتوبه أو غیرها.

و الکلام فی تعداد أنواع العذاب المذکوره لیس مسوقا للحصر کما نبّه به بعضهم بل إحصاء لأنواع منه.

قوله تعالی: أَ وَ لَمْ یَرَوْا إِلیٰ مٰا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَیْءٍ یَتَفَیَّؤُا ظِلاٰلُهُ عَنِ الْیَمِینِ وَ الشَّمٰائِلِ سُجَّداً لِلّٰهِ وَ هُمْ دٰاخِرُونَ المراد بالرؤیه الرؤیه البصریه و النظر الحسی الی الأشیاء الجسمانیه لأن المطلوب إلفات النظر الی الأجسام فوات الأظلال.

و التفیؤ من الفیء و هو الظل راجعا،و لذا قیل:إن الظل هو ما فی أول النهار الی زوال الشمس و الفیء هو ما یکون بعد زوال الشمس الی آخر النهار،و الظاهر أن الظل أعمّ من الفیء کما تقدم و تؤیده الآیه.فالتفیّؤ رجوع الظل بعد زواله.

و الشمائل جمع شمأل و هو خلاف الیمین،و جمعه باعتبار أخذ کل سمت مفروض خلف الشیء و عن یساره جهه شمال علی حده فهی شمائل تقابل الیمین کما أن عدّ کل شیء ذا أظلال بهذه العنایه أخذا للظل بالنسبه الی کل جهه من الیمین و الشمائل ظلاـ غیره بالنسبه الی جهه اخری لاـ لأن الشیء المذکور جمع بحسب المعنی و إن کان مفردا بحسب اللفظ.و الدخور هو الخضوع و الصغار.

فمعنی الآیه-و اللّه أعلم- «أَ وَ لَمْ یَرَوْا» هؤلاء المشرکون المنکرون لتوحید الربوبیه و لدعوه النبوه أو لم ینظروا «إِلیٰ مٰا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَیْءٍ» من هذه الأجسام القائمه علی بسیط الأرض من جبل أو بناء أو شجر أو أی جسم منتصب «یَتَفَیَّؤُا» و یرجع و یدور ظِلاٰلُهُ عَنِ الْیَمِینِ وَ الشَّمٰائِلِ سُجَّداً لِلّٰهِ واقعه علی الأرض تذللا و تعبّدا له سبحانه «وَ هُمْ دٰاخِرُونَ» خاضعون صاغرون.

و قد تقدم الکلام فی معنی سجده الظلال ذیل قوله تعالی: وَ ظِلاٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ (الرعد۱۵/)،فی الجزء الحادی عشر من الکتاب.

قوله تعالی: وَ لِلّٰهِ یَسْجُدُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ مِنْ دٰابَّهٍ وَ الْمَلاٰئِکَهُ الی آخر الآیتین؛ذکرت الآیه السابقه سجود الظلال و هو معنی مشهود فیها یمثل معنی السجود للّه،و تذکر هذه الآیه سجود ما فی السماوات و الأرض من دابه-و الدابه ما

يدبّ و يتحرك بالانتقال من مكان الى مكان-بحقيقه السجود التى هى نهايه التذلل و التواضع قبال العظمه و الكبرياء فإن صوره السجده التى هى خرور الإنسان و وقوعه على وجهه على الأرض إنما تعدّ عباده إذا أريد بها تمثيل هذا المعنى فحقيقه السجده هى التذلل المذكور.

و يدخل فى عموم الدابه الإنسان و كذا الجن لأنه سبحانه يصفهم فى كلامه بما يفيد أن لهم دبيبا كما لسائر الدواب من الإنسان و الحيوان،و لم يدخل سبحانه الملائكه فى عموم الدابه و أفردهم بالذكر،و فى ذلك من التلويح الى ما نسب اليهم فى كلامه تعالى من النزول و الصعود و الذهاب و المجىء مما ظاهره النقله و الحركه المكانيه ليس من نوع ما للدواب من الدبيب و الانتقال المكانى ما لا يخفى.

فقوله تعالى: وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ مِنْ دٰابَّةٍ أى له يخضع و ينقاد خضوعا و انقيادا ذاتيا هى حقيقه السجود فمن حقه تعالى أن يعبد و يسجد له.

و فى الآيه دلاله على أن فى غير الأرض من السماوات شيئا من الدواب يسكنها و يعيش فيها.

و قوله: وَ الْمَلاٰئِكَةُ وَ هُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ الاستكبار و التكبر من الإنسان أن يعدّ نفسه كبيرا و يضعه موضع الكبر و ليس به و لذلك يعدّ فى الرذائل لكن التكبر ربما يطلق على ما للّه سبحانه من الكبرياء بالحق و هو الكبير المتعال فهو تعالى كبير متكبر و ليس يقال:مستكبر و لعل ذلك كذلك اعتبارا باللفظ فإن الاستكبار بحسب أصل هيئته طلب الكبر و لازمه أن لا يكون ذلك حاصلا للطالب من نفسه و إنما يطلب الكبر و العلوّ على غيره دعوى فكان مذموما،و أما التكبر فهو الظهور بالكبرياء سواء كانت له فى نفسه كما للّه سبحانه و هو التكبر الحق أو لم يكن له إلاّ دعوى و غرورا كما فى غيره.

فتبين بذلك أن الاستكبار مذموم دائما أما استكبار المخلوق على مخلوق آخر فلأن الفقر

و الحاجه قد استوعبهما جميعا و شیء منهما لا يملک لنفسه نفعا و لا ضرا و لا لغيره فاستكبار أحدهما على الآخر خروج منه عن حدّه و تجاوز عن طوره و ظلم و طغيان.

و أما قوله: وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ فإشاره الى عدم استكبارهم فی مقام الفعل و قد تقدم أنه إذا لم يستكبر عليه تعالى فی ذات لم يستكبر عليه فی فعل فهم لا يعصون اللّه سبحانه فی أمر بل يفعلون ما يؤمرون،و فی إتيان قوله: «يُؤْمَرُونَ» مبنيا للمجهول من التعظيم و التفخيم لمقامه سبحانه ما لا يخفى.

فتبين أن الملائكه نوع من خلق اللّه تعالى لا تأخذهم غفله عن مقام ربهم و لا يطرأ عليهم ذهول و لا سهو و لا نسيان عن ذلک و لا يشغلهم عنه شاغل،و هم لا يريدون إلاّ ما يريده اللّه سبحانه.

و إنما خص سبحانه الملائكه من بين الساجدين المذكورين فی الآيه بذكر شأنهم و تعريف أوصافهم و تفصيل عبوديتهم لأن أكثر آلهه الوثنيين من الملائكه كإله السماء و إله الأرض و إله الرزق و إله الجمال و غيرهم،و للدلاله على أنهم-بالرغم من زعم الوثنيين-أمعن خلق اللّه تعالى فی عبوديته و عبادته.

قوله تعالى: وَ قٰالَ اللّٰهُ لاٰ تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَإِيّٰایَ فَارْهَبُونِ الرهبه الخوف و تقابل الرغبه كما ان الخوف يقابل به الرجاء.

و الكلام معطوف على قوله: وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ و قيل:معطوف على قوله: «وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الذِّكْرَ» و قيل:على قوله: «مٰا خَلَقَ اللّٰهُ» على طريقه قوله:(علفتها تبنا و ماء باردا)ای سقيتها ماء باردا،و التقدير فی الآيه أو لم يروا الى ما خلق اللّه من شیء و أ لم يسمعوا الى ما قال اللّه: «لاٰ تَتَّخِذُوا» الخ؟و الأول هو الوجه.

و قوله: لاٰ تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ اريد به-و اللّه اعلم-النهی عن التعدّی عن الإله الواحد باتخاذ غيره معه فيشمل الاثنين و ما فوقه من العدد،و يؤيده تأكيده بقوله: إِنَّمٰا

هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ و اِثْنَيْنِ و إِلٰهَيْنِ كما أن وٰاحِدٌ صفه إِلٰهٌ جیء بهما للإیضاح و التبیین.

و الظاهر أن الأمر بالرهبه کنایه عن الأمر بالعباده و إنما اختصت الرهبه بالذکر لیوافق ما تقدم فی حدیث سجده الکل التی هی الأصل فی تشریع العباده من خوف الملائکه،و علی هذا فالظاهر أن المراد بالرهبه ما هی رهبه إجلال و مهابه لا ما هی رهبه مؤاخذه و عذاب،فافهم ذلک.

قوله تعالی: وَ لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَهُ الدِّینُ وٰاصِباً أَ فَغَیْرَ اللّٰهِ تَتَّقُونَ قال فی المفردات:الوصب السقم اللازم و قد وصب فلان فهو وصب و أوصبه کذا فهو یتوصب نحو یتوجع،قال تعالی: «وَ لَهُمْ عَذٰابٌ وٰاصِبٌ» «وَ لَهُ الدِّینُ وٰاصِباً» فتوعّد لمن اتخذ إلهین و تنبیه أن جزاء من فعل ذلک عذاب لازم شدید.

و یکون الدین هاهنا الطاعه،و معنی الواصب الدائم أی حق الإنسان أن یطیعه دائما فی جمیع أحواله کما وصف به الملائکه حیث قال: «لاٰ یَعْصُونَ اللّٰهَ مٰا أَمَرَهُمْ وَ یَفْعَلُونَ مٰا یُؤْمَرُونَ» و یقال:وصب و صوبا دام،و وصب الدین وجب،و مفازه واصبه بعیده لا غایه لها.انتهی.

و الآیه و ما بعدها تحتج علی وحدانیته تعالی فی الالوهیه بمعنی المعبودیه بالحق و أن الدین له وحده لیس لأحد أن یشرّع من ذلک شیئا و لا أن یطاع فیما شرّع فالآیه و ما بعدها فی مقام التعلیل لقوله: «وَ قٰالَ اللّٰهُ لاٰ تَتَّخِذُوا إِلٰهَیْنِ اثْنَیْنِ» الی آخر الآیه؛و احتجاج علی مضمونها و عود بعد عود الی ما تقدم بیانه من التوحید و النبوه الذین ینکرهما المشرکون.

فقوله: وَ لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ احتجاج علی توحده تعالی فی الربوبیه فإن ما فی السماوات و الأرض من شیء فهو مملوک له بحقیقه معنی الملک إذ ما فی العالم المشهود من شیء فهو بما له من الصفات و الأفعال،قائم به تعالی موجود بإیجاده و ظاهر بإظهاره لا یسعه أن ینقطع منه و لا لحظه فالأشیاء قائمه به قیام الملک بمالکه مملوکه له ملکا

حقیقیا لا یقبل تغییرا و لا انتقالا کما هو خاصه الملک الحقیقی کملک الإنسان لسمعه و بصره مثلا.

و إذا کان کـذلک کان هو تعالی المدبر لأمر العالم إذ لا معنی لکون العالم مملوکا له بهذا الملک ثم یسـتقل غیره بتدبیر أمره و التصـرف فیه و ینعزل هو تعـالی عما خلقه و ملکه،و إذا کان هو المـدبر لأمره کان هو الرب له إذ الرب هو المالک المـدبر،و إذا کان هو الرب کان هو الذی یجب أن یتقی و یخضع له بالعباده.

و قوله: وَ لَهُ الـدِّینُ وٰاصِـباً أی دائمـا لازمـا،و ذلـک أنه لما کان تعالی هو الرب الـذی یملک الأشـیاء و یـدبر أمرها و من واجب التـدبیر أن یسـتن العالم الإنسانی بسـنّه یبلغ به الجری علیها غایته و یهـدیه الی سـعادته-و هـذه السـنّه و الطریقه هی التی یسـمیها القرآن دینا-کان من الواجب أن یکون تعالی هو القائم علی وضع هذه السنّه و تشریع هذه الطریقه فهو تعالی المالک للدین کما قال: «وَ لَهُ الدِّینُ وٰاصِباً» و علیه أن یشرّع ما یصلح به التدبیر کما قال فیما مرّ:

«وَ عَلَی اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِیلِ» الآیه.

و قوله: أَ فَغَیْرَ اللّٰهِ تَتَّقُونَ اسـتفهام إنکـاری-متفرع علی الجملتین جمیعا-علی الظاهر،و المعنی:و إذا کان کـذلک فهل غیره تعالی تتقون و تعبدون؟و لیس یملک شیئا و لا یدبر أمرا حتی یعبد،و لیس من حقه أن یشرّع دینا فیطاع فیما وضعه و شرّعه.

قوله تعالی: وَ مٰا بِکُمْ مِنْ نِعْمَهٍ فَمِنَ اللّٰهِ ثُمَّ إِذٰا مَسَّکُمُ الضُّرُّ فَإِلَیْهِ تَجْئَرُونَ بیان آخر لوحدانیته تعالی فی الربوبیه یفرّع سـبحانه علیه ذمّهم و توبیخهم علی شـرکهم بـاللّه و علی تشریعهم امورا من عنـد أنفسـهم من غیر إذن منه و رضـی و یجری الکلام فی هـذا المجری الی تمام بعض آیات.

و المراد بالضـر سوء الحال من جهه فقدان النعمه التی تصـلح بها الحال،و الجؤار بضم الجیم صوت الوحوش استعیر لرفع الصوت بالدعاء و التضرع و الاستغاثه تشبیها له به.

و قوله: وَ مٰا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ الكلام مسوق للعموم و ليس مجرد دعوى غير مستدل فقد بيّن ذلك فى الآيات السابقه.على أن السامعين يسلّمون ذلك و يقولون به و يدلّ عليه جؤارهم و استغاثتهم اليه عند مسيس الضر بفقدان نعمه من النعم.

فالمعنى:أن جميع النعم التى عندكم من إنعامه تعالى عليكم و أنتم تعلمون ذلك ثم إذا حلّ بكم شىء من الضر و سوء حال يسير رفعتم أصواتكم بالتضرع و جأرتم اليه لا الى غيره و لو كان لغيره صنيعه عندكم لتوجّهتم اليه فهو سبحانه منعم النعمه و كاشف الضر فما بالكم لا تخصّونه بالعباده و لا تطيعونه.

قوله تعالى: ثُمَّ إِذٰا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذٰا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ شروع فى ذمّهم و توبيخهم و ينتهى الى إيعادهم و حق لهم ذلك لأن الذى يستدعيه كشف الضر عن استغاثتهم و رجوعهم الفطرى الى ربهم أن يوحدوه بالربوبيه بعد ما انكشفت لهم الحقيقه باندفاع البليّه و نزول الرحمه لكن فريقا منهم تفاجئهم الشقوه فيعودون الى التعلق بالأسباب فينتبه عندئذ الراقد من رذائل ملكاتهم فيثير لهم الأهواء و يشركون بربهم غيره،و منه الأسباب التى يتعلقون بها،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: لِيَكْفُرُوا بِمٰا آتَيْنٰاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ اللام للغايه أى إنهم إنما يشركون بربهم ليكفروا بما أعطيناهم من النعمه بكشف الضر عنهم و لا يشكروه.

و جعل الكفر بالنعمه غايه للشرك إنما هو بدعوى أنهم لا غايه لهم فى مسير حياتهم إلاّ الكفر بنعمه اللّه و عدم شكره على ما أولى فإن اشتغالهم بالحس و الماده أورثهم فى قلوبهم ملكه التعلق بالأسباب الظاهره و إسناد النعم الإلهيه إليها و ضربهم إياها حجابا ثخينا على عرفان الفطره فأنساهم ذلك توحيد ربهم فى ربوبيته فصاروا يذكرون عند كل نعمه أسبابها الظاهره دون اللّه،و يتعلقون بها و يخشون انقطاعها و يخضعون لها دون اللّه فكأنهم بل إنهم لا غايه لهم إلاّ كفر نعمه اللّه و عدم شكرها.

ص :۵۷۹

فالكفر باللّه سبحانه هو غايتهم العامه فى كل شأن أبدوه و كل عمل أتوا به فإذا أشركوا بربهم بعد كشف الضرّ بالخضوع لسائر الأسباب فإنما أشركوا ليكفروا بما آتاهم من النعمه.

و لما كان كفرانهم هذا-و هو كفر دائم يصرّون عليه و استكبار على اللّه،و قد قال تعالى:

لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِي لَشَدِيدٌ (إبراهيم٧/)أثار ذكر ذلك الغضب الإلهى فعدل عن خطاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هم على نعت الغيبه الى خطابهم و إيعادهم من غير توسيط فقال: «فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» .

و لم يذكر ما يتمتعون به ليفيد بالإطلاق أن كل ما تمتعوا به سيؤاخذون عليه و لا ينفعهم شيء منه،و لم يذكر ما يعلمونه-و هو لا محاله أمر يسوؤهم-ليكونوا على جهل منه حتى يحل بهم مفاجأه و يبدو لهم من اللّه ما لم يكونوا يحتسبون و فيه تشديد للإيعاد.

قوله تعالى: وَ يَجْعَلُونَ لِمٰا لاٰ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ تَاللّٰهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ذكروا أنه معطوف على سائر جناياتهم التى دلّت عليها الآيات السابقه و التقدير أنهم يفعلون ما قصصناه من جناياتهم و يجعلون لما لا يعلمون نصيبا، و الظاهر أن«ما»فى «لِمٰا لاٰ يَعْلَمُونَ» موصوله و المراد به آلهتهم و ضمير الجمع يعود الى المشركين و مفعول «لاٰ يَعْلَمُونَ» محذوف و المعنى و يجعل المشركون لآلهتهم التى لا يعلمون من حالها أنها تضر و تنفع نصيبا مما رزقناهم.

و المراد من هذا الجعل ما ذكره سبحانه فى سوره الأنعام بقوله: وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّٰا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعٰامِ نَصِيباً فَقٰالُوا هٰذٰا لِلّٰهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هٰذٰا لِشُرَكٰائِنٰا فَمٰا كٰانَ لِشُرَكٰائِهِمْ فَلاٰ يَصِلُ إِلَى اللّٰهِ وَ مٰا كٰانَ لِلّٰهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلىٰ شُرَكٰائِهِمْ سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ (الأنعام١٣۶/)،هذا ما ذكروه و لا يخلو عن تكلف.

و يمكن أن يكون معطوفا على ما مرّ من قوله: «يُشْرِكُونَ» و التقدير إذا فريق منكم بربهم يشركون و يجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم،و المراد بما لا يعلمون الأسباب الظاهره

التی ینسبون إلیها الآثار علی سبیل الاستقلال و هم جاهلون بحقیقه حالها و لا علم لهم جازما أنها تضر و تنفع مع ما یرون من تخلفها عن التأثیر أحیانا.

و إنما نسب الیهم أنهم یجعلون لها نصیبا من رزقهم مع أنهم یسندون الرزق إلیها بالاستقلال من غیر أن یذکروا اللّه معها و مقتضاه نفی التأثیر عنه تعالی رأسا لا إشراکه معها لأن لهم علما فطریا بأن اللّه سبحانه له تأثیر فی الأمر و قد ذکر عنهم آنفا أنهم یجأرون الیه عند مس الضر و إذا اعتبر اعترافهم هذا مع إسنادهم التأثیر الی الأسباب أنتج ذلک أن الأسباب عندهم شرکاء للّه فی الرزق و لها نصیب فیه ثم أوعدهم بقوله: «تَاللّٰهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا کُنْتُمْ تَفْتَرُونَ» .

قوله تعالی: وَ یَجْعَلُونَ لِلّٰهِ الْبَنٰاتِ سُبْحٰانَهُ وَ لَهُمْ مٰا یَشْتَهُونَ عتاب آخر لهم فی حکم حکموا به جهلا من غیر علم فاحترموا لأنفسهم و أساءوا الأدب مجترئین علی اللّه سبحانه حیث اختاروا لأنفسهم البنین و کرهوا البنات لکنهم نسبوها الی اللّه سبحانه.

فقوله: وَ یَجْعَلُونَ لِلّٰهِ الْبَنٰاتِ سُبْحٰانَهُ هو أخذهم الآلهه دون اللّه أو بعض الآلهه إناثا،و قولهم:إنهن بنات اللّه،و قد قیل:إن خزاعه و کنانه کانوا یقولون:إن الملائکه بنات اللّه.

و کانت الوثنیه البرهمیه و البوذیه و الصابئه یثبتون آلهه کثیره من الملائکه و الجن إناثا و هنّ بنات اللّه،و فی القرآن الکریم: وَ جَعَلُوا الْمَلاٰئِکَهَ الَّذِینَ هُمْ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً (الزخرف/۱۹)،و قال تعالی: وَ جَعَلُوا بَیْنَهُ وَ بَیْنَ الْجِنَّهِ نَسَباً (الصافات/۱۵۸).

و قوله: وَ لَهُمْ مٰا یَشْتَهُونَ ظاهر السیاق أنه معطوف علی «لِلّٰهِ الْبَنٰاتِ» و التقدیر و یجعلون لهم ما یشتهون،أی یثبتون للّه سبحانه البنات باعتقاد أن الملائکه بناته و یثبتون لأنفسهم ما یشتهون و هم البنون بقتل البنات و وأدها و المحصّل أنهم یرضون للّه بما لا یرضون به لأنفسهم.

ص :۵۸۱

قوله تعالى: وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ اسوداد الوجه كنايه عن الغضب،و الكظيم هو الذى يتجرع الغيظ،و الجمله حاليه أى ينسبون الى ربهم البنات و الحال أنهم إذا بشّر أحدهم بالانثى فقيل:ولدت لك بنت اسود وجهه من الغيظ و هو يتجرع غيظه.

قوله تعالى: يَتَوٰارىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مٰا بُشِّرَ بِهِ الى آخر الآيه؛التوارى الاستخفاء و التخفى و هو مأخوذ من الوراء،و الهون الذله و الخزى،و الدس الإخفاء.

و المعنى:يستخفى هذا المبشر بالبنت من القوم من سوء ما بشر به على عقيدته و يتفكر فى أمره:أ يمسك ما بشر به و هى البنت على ذله من إمساكه و حفظه أم يخفيه فى التراب كما كان ذلك عادتهم فى المواليد من البنات كما قيل:إن أحدهم كان يحفر حفيره صغيره فإذا كان المولود انثى جعلها فى الحفيره و حثا عليها التراب حتى تموت تحته،و كانوا يفعلون ذلك مخافه الفقر عليهن فيطمع غير الأكفاء فيهن.

و أول ما بدا لهم ذلك أن بنى تميم غزوا كسرى فهزمهم و سبى نساءهم و ذراريهم فأدخلهن دار الملك و اتخذ البنات جوارى و سرايا ثم اصطلحوا بعد برهه و استردّوا السبايا فخيّرن فى الرجوع الى أهلهن فامتنعت عدّه من البنات فأغضب ذلك رجال بنى تميم فعزموا لا تولد لهم أنثى إلاّ و أدوها و دفنوها حيّه ثم تبعهم فى ذلك بعض من دونهم فشاع بينهم وأد البنات.

و قوله: أَلاٰ سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ هو حكمهم أن له البنات و لهم البنون لا لهوان البنات و كرامه البنين فى نفس الأمر بل معنى هذا الحكم عندهم أن يكون للّه ما يكرهون و لهم ما يحبون،و قيل:المراد بالحكم حكمهم بوجوب وأد البنات و كون إمساكهن هونا،و أول الوجهين أوفق و أنسب للآيه التاليه.

قوله تعالى: لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلّٰهِ الْمَثَلُ الْأَعْلىٰ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ المثل هو الصفه و منه سمّى المثل السائر مثلا لأنه صفه تسير فى

الألسن و تجری فی کل موضع تناسبه و تشابهه.

و السوء-بالفتح و السکون-مصدر ساء یسوء کما أن السوء بالضم اسمه و إضافه المثل الی السوء تفید التنویع فإن الأشیاء إنما توصف إما من جهه حسنها و إما من جهه سوئها و قبحها فالمثل مثلان:مثل الحسن و مثل السوء.

و الحسن و القبح ربما کانا من جهه الخلقه لا صنع للإنسان و لا مدخل لاختیاره فیهما کحسن الوجه و دمامه الخلقه،و رما لحقا من جهه الأعمال الاختیاریه کحسن العدل و قبح الظلم،و إنما یحمد و یذمّ العقل ما کان من القسم الثانی دون القسم الأول فیدور الحمد و الذم بحسب الحقیقه مدار العمل بما تستحسنه و تأمر به الفطره الإنسانیه من الأعمال التی توصله الی ما فیه سعاده حیاته و ترک العمل بها و هو الذی یتضمنه الدین الحق من أحکام الفطره.

و من المعلوم أن الطبع الإنسانی لا رادع له عن اقتراف العمل السیئ إلاّ ألیم المؤاخذه و شدید العقاب و إذعانه بإیقاعه و إنجازه،و أما الذم فإنه یتبدل مدحا إذا شاع الفعل و خرج بذلک عن کونه منکرا غیر معروف.

و قوله: وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ مسوق لإفاده الحصر و تعلیل ما تقدمه أی و هو الذی له کل العزه فلا تعتریه ذله أصلا لأن کل ذله فهو فقد عزه ما و لیس یفقد عزه ما،و له کل الحکمه فلا یعرضه جهاله لأنها فقد حکمه ما لیس یفقد شیئا من الحکمه.

و إذ لا سبیل لذله و لا جهاله الیه فلا یتصف بشیء من صفات النقص،و لا ینعت بشیء من نعت الذمّ و أمثال السوء،لکن الکافر ذلیل فی ذاته جهول فی نفسه فتلحقه و تلازمه صفات النقص و یتصف بصفات الذم و أمثال السوء فللذین لا یؤمنون بالآخره مثل السوء.

و المؤمن و إن کان ذلیلا فی ذاته جهولا فی نفسه کالکافر إلاّ أنه لدخوله فی ولایه اللّه أعزه ربه بعزته و أظهره علی الجهاله بتأییده بروح منه،قال تعالی: وَ اللّٰهُ وَلِیُّ الْمُؤْمِنِینَ (آل عمران/۶۸)،و قال: وَ لِلّٰهِ الْعِزَّهُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ (المنافقون/۸)،و قال:

أُولٰئِکَ کَتَبَ فِی قُلُوبِهِمُ الْإِیمٰانَ وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ (المجادله۲۲/).

قوله تعالی: وَ لَوْ یُؤٰاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِظُلْمِهِمْ مٰا تَرَکَ عَلَیْهٰا مِنْ دَابَّهٍ الی آخر الآیه؛ضمیر «عَلَیْهٰا» عائد الی الأرض لدلاله «النّٰاسَ» علیها.

و لا یبعد أن یدعی أن السیاق یدل علی کون المراد بالدابه الإنسان فقط من جهه کونه یدب و یتحرک،و المعنی و لو أخذ اللّه الناس بظلمهم مستمرا علی المؤاخذه ما ترک علی الأرض من إنسان یدب و یتحرک،أما جل الناس فإنهم یهلکون بظلمهم و أما الأشذ الأندر و هم الأنبیاء و الأئمه المعصومون من الظلم فهم لا یوجدون الهلاک آبائهم و امهاتهم من قبل.

و القوم أخذوا الدابه فی الآیه بإطلاق معناها و هو کل ما یدب علی الأرض من إنسان و حیوان فعاد معنی الآیه الی أنه لو یؤاخذهم بظلمهم لأهلک البشر و کل حیوان علی الأرض فتوجه الیه:أن هذا هو الإنسان یهلک بظلمه فما بال سائر الحیوان یهلک و لا ظلم له أن یهلک بظلم من الإنسان؟

و أوجه ما أجیب به عنه قول بعضهم بإصلاح منا:إن اللّه تعالی لو أخذهم بظلمهم بکفر أو معصیه لهلک عامه الناس بظلمهم إلاّ المعصومین منهم و أما المعصومون علی شذوذهم و قله عددهم فإنهم لا یوجدون لهلاک آبائهم و امهاتهم من قبل،و إذا هلک الناس و بطل النسل هلکت الدواب من سائر الحیوان لأنها مخلوقه لمنافع العباد و مصالحهم کما یشعر به قوله تعالی:

خَلَقَ لَکُمْ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً (البقره۲۹/).

و قوله: وَ لٰکِنْ یُؤَخِّرُهُمْ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ یَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَهً وَ لاٰ یَسْتَقْدِمُونَ استدراک عن مقدر یدل علیه الجمله الشرطیه فی صدر الآیه و التقدیر:فلا یعاجل فی مؤاخذتهم و لکن یؤخرهم الی أجل مسمی و الأجل المسمی بالنسبه الی الفرد من الإنسان موته المحتوم،و بالنسبه الی الامه یوم انقراضها و بالنسبه الی عامه البشر نفخ الصور و قیام الساعه،و لکل منها ذکر فی کلامه تعالی قال: وَ مِنْکُمْ مَنْ یُتَوَفّٰی مِنْ قَبْلُ

وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى (المؤمن۶۷/)،و قال: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ (الأعراف۳۴/)،و قال: وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (الشورى۱۴/).

قوله تعالى: وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ مٰا يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنىٰ الى آخر الآيه؛عود الى نسبه المشركين اليه تعالى البنات و اختيارهم لأنفسهم البنين و هم يكرهون البنات و يحبون البنين و يستحسنونهم.

فقوله: وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ مٰا يَكْرَهُونَ يعنى البنات و قوله: «وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ» أى تخبر ألسنتهم الخبر الكاذب و هو «أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنىٰ» أى العاقبه الحسنى من الحياه و هى أن يخلفهم البنون،و قيل:المراد بالحسنى الجنه على تقدير صحه البعث و صدق الأنبياء فيما يخبرون به كما حكاه عنهم فى قوله: وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ رَحْمَةً مِنّٰا مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذٰا لِي وَ مٰا أَظُنُّ السّٰاعَةَ قٰائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنىٰ (حم السجده/ ۵۰)،و هذا الوجه لا بأس به لو لا ذيل الآيه بما سيجىء من معناه.

و قوله: لاٰ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النّٰارَ وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ أى المقدمون الى عذاب النار يقال فرط و أفرط أى تقدم و الإفراط و الإسراف فى التقدم كما أن التفريط التقصير فيه، و الفرط بفتحتين هو الذى يسبق السّياره لتهيئه المسكن و الماء،و يقال:أفرطه أى قدّمه.

و لما كان قولهم كذبا و افتراء إن للّه ما يكرهون و لهم الحسنى فى معنى دعوى أنهم سبقوا ربهم الى الحسنى و تركوا له ما يكرهون أو عدهم بحقيقه هذا الزعم جزاء لكذبهم و هو أن لهم النار و أنهم مقدمون إليها حقا و ذلك قوله: «لاٰ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النّٰارَ» الخ.

قوله تعالى: تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا إِلىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ ظاهر السياق أن المراد باليوم يوم نزول الآيه و المراد بكون الشيطان وليا لهم يومئذ اتفاقهم على الضلال فى زمان الوحى و المراد

بالعذاب الموعود عذاب يوم القيامه كما هو ظاهر غالب الآيات التی توعد بالعذاب.

و المعنی:تاللّه لقد أرسلنا رسلنا الی امم من قبلک کالیهود و النصاری و المجوس ممن لم ینقرضوا کعاد و ثمود فزین لهم الشیطان أعمالهم فاتبعوه و أعرضوا عن رسلنا فهو ولیهم الیوم و هو متفقون علی الضلال و لهم یوم القیامه عذاب ألیم.

قوله تعالی: وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلَیْکَ الْکِتٰابَ إِلاّٰ لِتُبَیِّنَ لَهُمُ الَّذِی اخْتَلَفُوا فِیهِ الخ؛ضمیر لهم للمشرکین و المراد بالذی اختلفوا فیه هو الحق من اعتقاد و عمل فیکون المراد بالتبین الإیضاح و الکشف لإتمام الحجه،و الدلیل علی هذا الذی ذکرنا تفریق أمر المؤمنین منهم و إفرادهم بالذکر فی قوله: «وَ هُدیً وَ رَحْمَهً لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ» .

و المعنی:هذا حال الناس فی الاختلاف فی المعارف الحقه و الأحکام الإلهیه و ما أنزلنا علیک الکتاب إلاّ لتکشف لهؤلاء المختلفین الحق الذی اختلف فیه فیتم لهم الحجه،و لیکون هدی و رحمه لقوم یؤمنون یهدیهم اللّه به الی الحق و یرحمهم بالإیمان به و العمل.

[سوره النحل (۱۶): الآیات ۶۵ الی ۷۷]

اشاره

وَ اَللّٰهُ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَحْیٰا بِهِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَسْمَعُونَ (۶۵) وَ إِنَّ لَکُمْ فِی اَلْأَنْعٰامِ لَعِبْرَهً نُسْقِیکُمْ مِمّٰا فِی بُطُونِهِ مِنْ بَیْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خٰالِصاً سٰائِغاً لِلشّٰارِبِینَ (۶۶) وَ مِنْ ثَمَرٰاتِ اَلنَّخِیلِ وَ اَلْأَعْنٰابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَکَراً وَ رِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۶۷) وَ أَوْحیٰ رَبُّکَ إِلَی اَلنَّحْلِ أَنِ اِتَّخِذِی مِنَ اَلْجِبٰالِ بُیُوتاً وَ مِنَ اَلشَّجَرِ وَ مِمّٰا یَعْرِشُونَ (۶۸) ثُمَّ کُلِی مِنْ کُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ فَاسْلُکِی سُبُلَ رَبِّکِ ذُلُلاً یَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهٰا شَرٰابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوٰانُهُ فِیهِ شِفٰاءٌ لِلنّٰاسِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۶۹) وَ اَللّٰهُ خَلَقَکُمْ ثُمَّ یَتَوَفّٰاکُمْ وَ مِنْکُمْ مَنْ یُرَدُّ إِلیٰ أَرْذَلِ اَلْعُمُرِ لِکَیْ لاٰ یَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَیْئاً إِنَّ اَللّٰهَ عَلِیمٌ قَدِیرٌ (۷۰) وَ اَللّٰهُ فَضَّلَ بَعْضَکُمْ عَلیٰ بَعْضٍ فِی اَلرِّزْقِ فَمَا اَلَّذِینَ فُضِّلُوا بِرَادِّی رِزْقِهِمْ عَلیٰ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُهُمْ فَهُمْ فِیهِ سَوٰاءٌ أَ فَبِنِعْمَهِ اَللّٰهِ یَجْحَدُونَ (۷۱) وَ اَللّٰهُ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْوٰاجاً وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ أَزْوٰاجِکُمْ بَنِینَ وَ حَفَدَهً وَ رَزَقَکُمْ مِنَ اَلطَّیِّبٰاتِ أَ فَبِالْبٰاطِلِ یُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اَللّٰهِ هُمْ یَکْفُرُونَ (۷۲) وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ یَمْلِکُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ شَیْئاً وَ لاٰ یَسْتَطِیعُونَ (۷۳) فَلاٰ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ اَلْأَمْثٰالَ إِنَّ اَللّٰهَ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (۷۴) ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوکاً لاٰ یَقْدِرُ عَلیٰ شَیْءٍ وَ مَنْ رَزَقْنٰاهُ مِنّٰا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ یُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْراً هَلْ یَسْتَوُونَ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ (۷۵) وَ ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً رَجُلَیْنِ أَحَدُهُمٰا أَبْکَمُ لاٰ یَقْدِرُ عَلیٰ شَیْءٍ وَ هُوَ کَلٌّ عَلیٰ مَوْلاٰهُ أَیْنَمٰا یُوَجِّهْهُ لاٰ یَأْتِ بِخَیْرٍ هَلْ یَسْتَوِی هُوَ وَ مَنْ یَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۷۶) وَ لِلّٰهِ غَیْبُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا أَمْرُ اَلسّٰاعَهِ إِلاّٰ کَلَمْحِ اَلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اَللّٰهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۷۷)

بيان:

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا الخ؛يريد إنبات الأرض بعد ما انقطعت عنه بحلول الشتاء بماء السماء الذى او المطر فتأخذ أصول النباتات و بذورها فى النمو بعد سكونها،و هى حياه من سنخ الحياه الحيوانيه و إن كانت أضعف منها،و قد اتضح بالأبحاث الحديثه أن للنبات من جراثيم الحياه ما للحيوان و إن اختلفتا صوره و أثرا.

و قوله: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ المراد بالسمع قبول ما من شأنه أن يقبل من القول فإن العاقل الطالب للحق إذا سمع ما يتوقع فيه الحق أصغى و استمع اليه ليعيه و يحفظه،قال تعالى: اَلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدٰاهُمُ اللّٰهُ وَ أُولٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبٰابِ (الزمر/١٨).

فإذا ذكّر من فيه قريحه قبول الحق حديث إنزال اللّه المطر و إحيائه الأرض بعد موتها كان له فى ذلك آيه للبعث و أن الذى أحياها لمحى الموتى.

قوله تعالى: وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعٰامِ لَعِبْرَةً الخ؛الفرث هو الثفل الذى ينزل الى الكرش و الإمعاء فإذا دفع فهو سرجين و ليس فرثا،و السائغ اسم فاعل من السوغ يقال:

ساغ الطعام و الشراب إذا جرى فى الحلق بسهوله.

و قوله: وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعٰامِ لَعِبْرَةً أى لكم فى الإبل و البقر و الغنم لأمرا أمكنكم أن تعتبروا به و تتّعظوا ثم بيّن ذلك الأمر بقوله: «نُسْقِيكُمْ مِمّٰا فِي بُطُونِهِ» الخ؛أى بطون

ما ذكر من الأنعام أخذ الكثير شيئا واحدا.

و قوله: مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ الفرث فى الكرش و ألبان الأنعام مكانها مؤخر البطن بين الرجلين،و الدم مجراها الشرايين و الأورده و هى محيطه بهما جميعا فأخذ اللبن شيئا هو بين الفرث و الدم كأنه باعتبار مجاورته لكل منهما و اجتماع الجميع فى داخل الحيوان و هذا كما يقال:

اخترت زيدا من بين القوم و دعوته و أخرجته من بينهم إذا اجتمع معهم فى مكان واحد و جاورهم فيه و إن كان جالسا فى حاشيه القوم لا وسطهم،و المراد بذلك أنى ميّزته من بينهم و قد كان غير متميز.

و المعنى:نسقيكم مما فى بطونه لبنا خارجا من بين فرث و دم خالصا غير مختلط و لا مشوب بهما و لا مستصحب لشىء من طعمهما و رائحتهما سائغا للشاربين فذلك عبره لمن اعتبر و ذريعه الى العلم بكمال القدره و نفوذ الإراده،و أن الذى خلّص اللبن من بين فرث و دم لقادر على أن يبعث الإنسان و يحييه بعد ما صار عظاما رميما و ضلّت فى الأرض أجزاؤه.

قوله تعالى: وَ مِنْ ثَمَرٰاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنٰابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً الى آخر الآيه؛قال فى المفردات:السكر-بضم السين-حاله تعرض بين المرء و عقله-الى أن قال-و السكر-بفتحتين-ما يكون منه السكر،قال تعالى: «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً» انتهى.

و قال فى المجمع:السكر فى اللغه على أربعه أوجه:الأول ما أسكر من الشراب،و الثانى ما طعم من الطعام،قال الشاعر:«جعلت عيب الأكرمين سكرا»أى جعلت ذمّهم طعما لك، و الثالث السكون و منه ليله ساكره أى ساكنه،قال الشاعر:«و ليست بطلق و لا ساكره» و يقال:سكرت الريح سكنت،قال:«و جعلت عين الحرور تسكر»،و الرابع المصدر من قولك:سكر سكرا و منه التسكير التحيير فى قوله: «سُكِّرَتْ أَبْصٰارُنٰا» انتهى.و الظاهر أن الأصل فى معناه هو زوال العقل باستعمال ما يوجب ذلك،و سائر ما ذكره من المعانى مأخوذه

منه بنوع من الاستعاره و التوسّع.

و قوله: وَ مِنْ ثَمَرٰاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنٰابِ إما جمله اسميّه معطوفه على قوله:

«وَ اللّٰهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً» كقوله فى الآيه السابقه: «وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعٰامِ لَعِبْرَةً» ،و التقدير:

و من ثمرات النخيل و الأعناب-أو [(۱)](#)شىء-تتخذون منه،الخ؛قالوا:و العرب ربما يضمر ما الموصوله كثيرا،و منه قوله تعالى: وَ إِذٰا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً (الدهر/ ۲۰)،و التقدير رأيت ما ثمّ،أو التقدير و من ثمرات النخيل و الأعناب شىء تتخذونه منه،بناء على عدم جواز حذف الموصول و إبقاء الصله على ما ذهب اليه البصريون من النحاه.

و إمّا جمله فعليه معطوفه على قوله: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ» كما فى الآيه التاليه «وَ أَوْحىٰ رَبُّكَ» و التقدير خلق لكم أو آتاكم من ثمرات النخيل و الأعناب،و قوله: «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ» الخ؛بدل منه أو استئناف كأن قائلا يقول:ما ذا نستفيد منه فقيل:تتخذون منه سكرا و رزقا حسنا، و إفراد ضمير «مِنْهُ» بتأويل المذكور كقوله: «مِمّٰا فِي بُطُونِهِ» فى الآيه السابقه.

و قوله: تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً أى تتخذون مما ذكر من ثمرات النخيل و الأعناب ما هو مسكر كالخمر بأنواعها و رزقا حسنا كالتمر و الزبيب و الدبس و غير ذلك مما يقتات به.

ثم ختم سبحانه الآيه بقوله: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ حثا على التعقل و الإمعان فى أمر النبات و ثمراته.

قوله تعالى: وَ أَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبٰالِ بُيُوتاً الى آخر الآيتين،الوحى-كما قال الراغب-الإشاره السريعه و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز أو بصوت مجرّد عن التركيب أو بإشاره و نحوها،و المحصّل من موارد استعماله أنه إلقاء

۱- ۱) .الترديد مبنى على المذهبين فى حذف الموصوف كما سيأتى.

المعنى بنحو يخفى على غير من قصد إفهامه فالإلهام بإلقاء المعنى فى فهم الحيوان من طريق الغريزه من الوحى و كذا ورود المعنى فى النفس من طريق الرؤيا أو من طريق الوسوسه أو بالإشاره كل ذلك من الوحى،و قد استعمل فى كلامه تعالى فى كل من هذه المعانى كقوله:

«وَ أَوْحىٰ رَبُّکَ إِلَى النَّحْلِ» الآيه،و قوله: وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ أُمِّ مُوسىٰ (القصص/٧)، و قوله: إِنَّ الشَّيٰاطِينَ لَيُوحُونَ إِلىٰ أَوْلِيٰائِهِمْ (الأنعام/١٢١)،و قوله: فَأَوْحىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (مريم/١١)،و من الوحى التكليم الإلهى لأنبيائه و رسله،قال تعالى:

وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ وَحْياً (الشورى/٥١)،و قد قرّر الأدب الدينى فى الإسلام أن لا يطلق الوحى على غير ما عند الأنبياء و الرسل من التكليم الإلهى.

قال فى المجمع:و الذلل جمع الذلول،يقال:دابه ذلول بيّن الذل و رجل ذلول بيّن الذل و الذله.انتهى.

و قوله: وَ أَوْحىٰ رَبُّکَ إِلَى النَّحْلِ أى ألهمه من طريق غريزته التى أودعها فى بنيته،و أمر النحل و هو زنبور العسل فى حياته الاجتماعيه و سيرته و صنعته لعجيب،و لعل بداعه أمره هو الموجب لصرف الخطاب عنهم الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم إذ قال: «وَ أَوْحىٰ رَبُّکَ» .

و قوله: أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبٰالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمّٰا يَعْرِشُونَ هذا من مضمون الوحى الذى أوحى اليه،و الظاهر أن المراد بما يعرشون هو ما يبنون لبيوت العسل.

و قوله: ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰاتِ الأمر بأن تأكل من كل الثمرات مع أنها تنزل غالبا على الأزهار إنما هو لأنها إنما تأكل من مواد الثمرات أول ما تتكوّن فى بطون الأزهار و لما تكبر و تنضج.

و قوله: فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً تفريعه على الأمر بالأكل يؤيّد أن المراد به رجوعها الى بيوتها لتودع فيها ما هيأته من العسل المأخوذ من الثمرات و إضافه السبل الى الرب للدلاله على أن الجميع بإلهام إلهى.

و قوله: يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ الخ؛استئناف بعد ذكر جمله ما أمرت به يبين فيه ما يترتب على مجاهدتها فى امتثال أمر اللّه سبحانه ذللا و هو أنه يخرج من بطونها أى بطون النحل «شَرَابٌ» و هو العسل «مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ» بالبياض و الصفره و الحمره الناصعه و ما يميل الى السواد فِيهِ شِفَاءٌ لِلنّاسِ من غالب الأمراض.

و تفصيل القول فى حياه النحله هذه الحشره الفطنه التى بنت حياتها على مدنيه عجيبه فاضله لا تكاد تحصى غرائبها و لا يحاط بدقائقها ثم الذى تهيئه ببالغ مجاهدتها و ما يشتمل عليه من الخواص خارج عن وسع هذا الكتاب فليراجع فى ذلك مظان تحقيقه.

ثم ختم الآيه بقوله: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ و قد اختلف التعبير بذلك فى هذه الآيات فخصّ الآيه فى إحياء الأرض بعد موتها بقوم يسمعون،و فى ثمرات النخيل و الأعناب بقوم يعقلون،و فى أمر النحل بقوم يتفكرون.

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفّاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاٰ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً الخ؛الأرذل اسم تفضيل من الرذاله و هى الرداءه،و الرذل الدون و الردىء،و المراد بأرذل العمر بقرينه قوله: لِكَيْ لاٰ يَعْلَمَ الخ؛سن الشيخوخه و الهرم التى فيها انحطاط قوى الشعور و الإدراك،و هى تختلف باختلاف الأمزجه و تبتدئ على الأغلب من الخمس و السبعين.

و المعنى:و اللّه خلقكم معشر الناس ثم يتوفاكم فى متوسط و منكم من يردّ الى سن الهرم فينتهى الى أن لا يعلم بعد علم شيئا لضعف القوى،و هذه آيه أن حياتكم و موتكم و كذا شعوركم و علمكم ليست بأيديكم و إلاّ اخترتم البقاء على الوفاه و العلم على عدمه بل ذلك على ما له من عجيب النظام منته الى علمه و قدرته تعالى،و لهذا علمه بقوله: «إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ» .

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ الى آخر الآيه؛

فضّل بعض الناس على بعض فی ارزق و هو ما تبقی به الحیاه ربما کان من جهه الکمیه کالغنی المفضل بالمال الکثیر علی الفقیر،و ربما کان من جهه الکیفیه کأن یستقل بالتصرف فیه بعضهم و یتولی أمر الآخرین مثل ما یستقل المولی الحر بملک ما فی یده و التصرف فیه بخلاف عبده الذی لیس له أن یتصرف فی شیء إلاّ بإذنه و کذا الأولاد الصغار بالنسبه الی ولیهم و الأنعام و المواشی بالنسبه الی مالکها.

و قوله: فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلىٰ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ قرینه علی أن المراد هو القسم الثانی من التفضیل و هو أن بعضهم فضّل بالحریه و الاستقلال بملک ما رزق و لیس یختار أن یردّ ما رزق باستقلاله و حریته الی ما یملکه و یملک رزقه،و لا أن یبذل له ما أوتیه من نعمه حتی یتساویا و یتشارکا فیبطل ملکه و یذهب سودده.

فهذه نعمه لیسوا بمغمضین عنها و لا برادّین لها علی غیرهم،و لیست إلاّ من اللّه سبحانه فإن أمر المولویه و الرقّیه و إن کان من الشئون الاجتماعیه التی ظهرت عن آراء الناس و السنن الاجتماعیه الجاریه فی مجتمعاتهم لکن له اصول طبیعیه تکوینیه هی التی بعثت آراءهم علی اعتباره کسائر الامور الاجتماعیه العامه.

و المعنی-و اللّه أعلم-و اللّه فرّق بینکم بأن فضّل بعضکم علی بعض فی الرزق فبعضکم حرّ مستقل فی التصرف فیه،و بعضکم عبد تبع له لا یتصرف إلاّ عن إذن فلیس الذین فضّلوا برادّی رزقهم الذی رزقوه علی سبیل الحریه و الاستقلال علی ما ملکت أیمانهم حتی یکون هؤلاء المفضلون و المفضل علیهم فی الرزق سواء فلیسوا سواء بل هی نعمه تختص بالمفضلین أ فبنعمه اللّه یجحدون؟

قوله تعالی: وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً الی آخر الآیه؛قال فی المفردات:قال اللّه تعالی: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً جمع حافد و هو المتحرک المسرع بالخدمه أقارب

كانوا أو أجانب.قال المفسرون:هم الأسباط و نحوهم و ذلك أن خدمتهم أصدق-الى أن قال-قال الأصمعى:أصل الحفد مداركه الخطو.انتهى.

و فى المجمع:و أصل الحفد الإسراع فى العمل-الى أن قال-و منه قيل للأعوان حفده لإسراعهم فى الطاعه.انتهى.و المراد بالحفده فى الآيه الأعوان الخدم من البنين لمكان قوله:

«وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ» و لذا فسر بعضهم قوله: «بَنِينَ وَ حَفَدَةً» بصغار الأولاد و كبارهم،و بعضهم بالبنين و الأسباط و هم بنو البنين.

و المعنى:و اللّه جعل لكم من أنفسكم أزواجا تألفونها و تأنسون بها،و جعل لكم من أزواجكم بالإيلاد بنين و حفده و أعوانا تستعينون بخدمتهم على حوائجكم و تدفعون بهم عن أنفسكم المكاره و رزقكم من الطيبات و هى ما تستطيبونه من أمتعه الحياه و تنالونه بلا علاج و عمل كالماء و الثمرات أو بعلاج و عمل كالأطعمه و الملابس و نحوها،و «مِنْ» فى «مِنَ الطَّيِّبٰاتِ» للتبعيض و هو ظاهر.

ثم وبخهم بقوله: أَ فَبِالْبٰاطِلِ و هى الأصنام و الأوثان و من ذلك القول بالبنات للّه، و الأحكام التى يشرعها لهم أئمتهم أئمه الضلال «يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللّٰهِ هُمْ يَكْفُرُونَ» و النعمه هى جعل الازواج من أنفسهم و جعل البنين و الحفده من أزواجهم فإن ذلك من أعظم النعم و أجلاها لكونه أساسا تكوينيا يبتنى عليه المجتمع البشرى،و يظهر به فيهم حكم التعاون و التعاضد بين الأفراد،و ينتظم به لهم أمر تشريك الأعمال و المساعى فيتيسر لهم الظفر بسعادتهم فى الدنيا و الآخره.

و لو أن الإنسان قطع هذا الرابط التكوينى الذى أنعم اللّه به عليه و هجر هذا السبب الجميل،و إن توسّل بأى وسيله غيره لتلاشى جمعه و تشتت شمله و فى ذلك هلاك الإنسانيه.

قوله تعالى: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئاً وَ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ عطف على موضع الجمله السابقه و المعنى يكفرون

بنعمه اللّه و يعبدون من دون اللّه ما لا يملک،الخ.

و قد ذكروا أن رِزْقاً مصدر و شَيْئاً مفعوله و المعنى لا يملک لهم أن يرزق شيئا، و قيل:الرزق بمعنى المرزوق و شَيْئاً بدل منه،و قيل:إن شَيْئاً مفعول مطلق و التقدير:لا يملک شيئا من الملک.و خير الوجوه أوسطها.

و فى الآيه رجوع الى التخلص لبيان الغرض من تعداد النعم و هو التوحيد و إثبات النبوه بمعنى التشريع و المعاد يجرى ذلک الى تمام أربع آيات ينهى فى اولاها عن ضربهم الأمثال للّه سبحانه،و يضرب فى الثانيه مثل تبين به وحدانيته تعالى فى ربوبيّته،و فى الثالثه مثل يتبين به أمر النبوّه و التشريع،و يتعرض فى الرابعه لأمر المعاد.

قوله تعالى: فَلاٰ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ الْأَمْثٰالَ إِنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ الظاهر السابق الى الذهن أن المراد بضرب الأمثال التوصيف المصطلح عليه بالاستعاره التمثيليه و هى إجراء الأوصاف عليه تعالى بضرب من التشبيه كقولهم:إن له بنات كالإنسان، و إن الملائكه بناته،و إن بينه و بين الجنه نسبا و صهرا،و إنه كيف يحيى العظام و هى رميم الى غير ذلک،و هذا هو المعنى المعهود من هذه الكلمه فى كلامه تعالى،و قد تقدم فى خلال الآيات السابقه قوله: «لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلّٰهِ الْمَثَلُ الْأَعْلىٰ» .

فالمعنى:إذا كان الأمر على ما ذكر فلا تصفوه سبحانه بما تشبّهونه بغيره و تقيسونه الى خلقه لأن اللّه يعلم و أنتم لا تعلمون حقائق الامور و كنهه تعالى.

قوله تعالى: ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ الى آخر الآيه؛ما فى الآيه من المثل المضروب يفرض عبدا مملوكا لا يقدر على شىء،و آخر رزق من اللّه رزقا حسنا ينفق منه سرا و جهرا ثم يسأل هل يستويان؟و اعتبار التقابل بين المفروضين يعطى أن كلا من الطرفين مقيد بخلاف ما فى الآخر من الوصف مع تبيين الأوصاف بعضها لبعض.

فالعبد المفروض مملوک غیر مالک لا لنفسه و لا لشیء من متاع الحیاه و هو غیر قادر علی التصرف فی شیء من المال،و الذی فرض قباله حر یملک نفسه و قد رزقه اللّه رزقا حسنا و هو ینفق منه سرا و جهرا و علی قدره منه علی التصرف بجمیع أقسامه.

و قوله: هَلْ یَسْتَوُونَ سؤال عن تساویهما،و من البدیهی أن الجواب هو نفی التساوی و یثبت به أن اللّه سبحانه و هو المالک لکل شیء المنعم بجمیع النعم لا یساوی شیئا من خلقه و هم لا یملکون لا أنفسهم و لا غیرهم و لا یقدرون علی شیء من التصرف فمن الباطل قولهم:إن مع اللّه آلهه غیره و هم من خلقه.

و التعبیر بقوله: یَسْتَوُونَ دون أن یقال:یستویان للدلاله علی أن المراد من ذلک الجنس من غیر أن یختص بمولی و عبد معینین کما قیل.

و قوله: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ أی له عزّ اسمه جنس الحمد و حقیقته و هو الثناء علی الجمیل الاختیاری لأن جمیل النعمه من عنده و لا یحمد إلاّ الجمیل فله تعالی کل الحمد کما أن له جنسه فافهم ذلک.

و قوله: بَلْ أَکْثَرُهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ أی أکثر المشرکین لا یعلمون أن النعمه کلها للّه لا یملک غیره شیئا و لا یقدر علی شیء بل یثبتون لأولیائهم شیئا من الملک و القدره علی سبیل التفویض فیعبدونهم طمعا و خوفا،هذا حال أکثرهم و أما أقلهم من الخواص فانهم علی علم من الحق لکنهم یحیدون عنه بغیا و عنادا.

قوله تعالی: وَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً رَجُلَیْنِ أَحَدُهُمٰا أَبْکَمُ الی آخر الآیه؛قال فی المجمع:الأبکم الذی یولد أخرس لا یفهم و لا یفهّم،و قیل:الأبکم الذی لا یقدر أن یتکلم و الکلّ الثقل یقال:کلّ عن الأمر یکلّ کلا إذا ثقل علیه فلم ینبعث فیه.

و کلّت السکین کلولا إذا غلظت شفرتها،و کلّ لسانه إذا لم ینبعث فی القول لغلظه و ذهاب حدّه فالأصل فیه الغلظ المانع من النفوذ،و التوجیه:الإرسال فی وجه من الطریق،یقال:

وجّهته الى موضع كذا فتوجّه اليه.انتهى.

فقوله: وَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ مقايسه أخرى بين رجلين مفروضين متقابلين فى أوصافهما المذكوره.

و قوله: أَحَدُهُمٰا أَبْكَمُ لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ أى محروم من أن يفهم الكلام و يفهم غيره بالكلام لكونه أبكم لا يسمع و لا ينطق فهو فاقد لجميع الفعليات و المزايا التى يكتسبها الإنسان من طريق السمع الذى هو أوسع الحواس نطاقا،به يتمكن الإنسان من العلم بأخبار من مضى و ما غاب عن البصر من الحوادث و ما فى ضمائر الناس و يعلّم العلوم و الصناعات، و به يتمكن من إلقاء ما يدركه من المعانى الجليله و الدقيقه الى غيره،و لا يقوى الأبكم على درك شىء منها إلاّ النزر اليسير مما يساعد عليه البصر بإعانه من الإشاره.

فقوله: لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ مخصص عمومه بالأبكم أى لا يقدر على شىء مما يقدر عليه غير الأبكم و هو جمله ما يحرمه الأبكم من تلقّى المعلومات و إلقائها.

و قوله: وَ هُوَ كَلٌّ عَلىٰ مَوْلاٰهُ أى ثقل و عيال على من يلى و يدبر أمره فهو لا يستطيع أن يدبر أمر نفسه،و قوله: «أَيْنَمٰا يُوَجِّهْهُ لاٰ يَأْتِ بِخَيْرٍ» أى الى أى جهه أرسله مولاه لحاجه من حوائج نفسه أو حوائج مولاه لم يقدر على رفعها فهو لا يستطيع أن ينفع غيره كما لا ينفعه نفسه،فهذا أعنى قوله: «أَحَدُهُمٰا أَبْكَمُ لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ» الخ؛مثل أحد الرجلين،و لم يذكر سبحانه مثل الآخر لحصول العلم به من قوله: «هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ» الخ؛ و فيه إيجاز لطيف.

و قوله: هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ فيه إشاره الى وصف الرجل المفروض و سؤال عن استوائهما إذا قويس بينهما و عدمه.

أما الوصف فقد ذكر له منه آخر ما يمكن أن يتلبس به غير الأبكم من الخير و الكمال الذى يحلى نفسه و يعدو الى غيره و هو العدل الذى هو التزام الحد الوسط فى الأعمال و اجتناب

ص :۵۹۷

الإفراط و التفريط فإن الأمر بالعدل إذا جرى على حقيقته كان لازمه أن يتمكن الصلاح من نفس الانسان ثم ينبسط على أعماله فيلتزم الاعتدال فى الامور ثم يحب انبساطه على أعمال غيره من الناس فيأمرهم بالعدل و هو-كما عرفت-مطلق التجنب عن الإفراط و التفريط أى العمل الصالح أعم من العدل فى الرعيه.

ثم وصفه بقوله: وَ هُوَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ و هو السبيل الواضح الذى يهدى سالكيه الى غايتهم من غير عوج،و الانسان الذى هو فى مسير حياته على صراط مستقيم يجرى فى أعماله على الفطره الانسانيه من غير أن يناقض بعض أعماله بعضا أو يتخلف عن شىء مما يراه حقا،و بالجمله لا تخلف و لا اختلاف فى أعماله.

قوله تعالى: وَ لِلّٰهِ غَيْبُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا أَمْرُ السّٰاعَهِ إِلاّٰ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الغيب يقابل الشهاده فى إطلاقات القرآن الكريم و قد تكرر فيه «عٰالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَهِ» و قد تقدم مرارا أنهما أمران إضافيان فالأمر الواحد غيب و غائب بالنسبه الى شىء و شهاده و مشهود بالنسبه الى آخر.

و إذ كان من الأشياء ما هو ذو وجوه يظهر ببعض منها لغيره و يخفى ببعض أعنى أنه متضمن غيبا و شهاده كانت إضافه الغيب و الشهاده الى الشىء تاره بمعنى اللام فيكون مثلا غيب السماوات و الأرض ما هو غائب عنهما خارج من حدودهما،و يلحق بهذا الباب الإضافه لنوع من الاختصاص،كما فى قوله: فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً (الجن۲۶/).

و تاره بمعنى«من»أو ما يقرب منه فيكون المراد بغيب السماوات و الأرض الغيب الذى يشتملان عليه نوعا من الاشتمال قبال ما يشتملان عليه من الشهاده و بعباره اخرى ما يغيب عن الأفهام من أمرهما قبال ما يظهر منهما.

و الساعه هى من غيب السماوات و الأرض بهذا المعنى الثانى.

فقوله: وَ مٰا أَمْرُ السّٰاعَهِ إِلاّٰ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ أى بالنسبه اليه و إلاّ

فقد استعظم سبحانه أمرها بما يهون عنده كل أمر خطير و وصفها بأوصاف لا يعادلها فيها غيرها،قال تعالى: ثَقُلَتْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (الأعراف١٨٧/).

و تشبيه أمرها بلمح البصر إنما هو من جهه أن اللمحه و هى مدّ البصر و إرساله للرؤيه أخف الأعمال عند الإنسان و أقصرها زمانا فهو تشبيه بحسب فهم السامع و لذلك عقّبه بقوله:

«أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» فإن مثل هذا السياق يفهم منه الإضراب فكأنه تعالى يقول:إن أمرها فى خفه المؤنه و الهوان و السهوله بالنسبه الينا يشبه لمح أحدكم ببصره،و إنما أشبّهه به رعايه لحالكم و تقريبا الى فهمكم و إلاّ فالأمر أقرب من ذلك،كما قال فيها: وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ (الأنعام/ ٧٣)،فأمر الساعه بالنسبه الى قدرته و مشيّته تعالى كأمر أيسر الخلق و أهونه.

و علّل تعالى ذلك بقوله: إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فقدرته على كل شيء توجب أن تكون الأشياء بالنسبه اليه سواء.

و إياك أن تتوهم أن عموم القدره لا يستوجب ارتفاع الاختلاف من بين الأشياء من حيث النسبه،فقله الاسباب المتوسطه بين الفاعل و فعله و الشرائط و الموانع و كثرتها لهما تأثير فى ذلك لا محاله،فالإنسان مثلا قادر على التنفس و حمل ما يطيقه من الاثقال و ليسا سواء بالنسبه اليه و على هذا القياس.

[سوره النحل (١۶): الآيات ٧٨ الى ٨٩]

اشاره

وَ اَللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهٰاتِكُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ اَلسَّمْعَ وَ اَلْأَبْصٰارَ وَ اَلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى اَلطَّيْرِ مُسَخَّرٰاتٍ فِي جَوِّ اَلسَّمٰاءِ مٰا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اَللّٰهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَ اَللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ اَلْأَنْعٰامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهٰا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقٰامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوٰافِهٰا وَ أَوْبٰارِهٰا وَ أَشْعٰارِهٰا أَثٰاثاً وَ مَتٰاعاً إِلىٰ حِينٍ (٨٠) وَ اَللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمّٰا خَلَقَ ظِلاٰلاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ اَلْجِبٰالِ أَكْنٰاناً وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمُ اَلْحَرَّ وَ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اَللّٰهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهٰا وَ أَكْثَرُهُمُ اَلْكٰافِرُونَ (٨٣) وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاٰ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨۴) وَ إِذٰا رَأَى اَلَّذِينَ ظَلَمُوا اَلْعَذٰابَ فَلاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ (٨۵) وَ إِذٰا رَأَى اَلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكٰاءَهُمْ قٰالُوا رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ شُرَكٰاؤُنَا اَلَّذِينَ كُنّٰا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ اَلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكٰاذِبُونَ (٨۶) وَ أَلْقَوْا إِلَى اَللّٰهِ يَوْمَئِذٍ اَلسَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ زِدْنٰاهُمْ عَذٰاباً فَوْقَ اَلْعَذٰابِ بِمٰا كٰانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنٰا بِكَ شَهِيداً عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ وَ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ اَلْكِتٰابَ تِبْيٰاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

بيان:

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهٰاتِكُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ شَيْئاً الى آخر الآيه.الامهات جمع أم و الهاء زائده نظير إهراق و أصله أراق و قد تأتى أمّات،و قيل:الامهات فى الانسان و الامات فى غيره من الحيوان،و الأفئده جمع قله للفؤاد و هو القلب و اللب،و لم يبن له جمع كثره.

و قوله: أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهٰاتِكُمْ إشاره الى التولّد و «لاٰ تَعْلَمُونَ شَيْئاً» حال من ضمير الخطاب أى أخرجكم من أرحامهن بالتولد و الحال أن نفوسكم خاليه من هذه المعلومات التى أحرزتموها من طريق الحس و الخيال و العقل بعد ذلك.

و الآيه تؤيد ما ذهب اليه علماء النفس أن لوح النفس خاليه عن المعلومات أول تكوّنها ثم تنتقش فيها شيئا فشيئا-كما قيل-و هذا فى غير علم النفس بذاتها فلا يطلق عليه عرفا«يعلم شيئا»و الدليل عليه قوله تعالى فى خلال الآيات السابقه فيمن يردّ الى أرذل العمر: «لِكَيْ لاٰ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً» فإن من الضرورى أنه فى تلك الحال عالم بنفسه.

و احتج بعضهم بعموم الآيه على أن العلم الحضورى يعنى به علم الإنسان بنفسه كسائر العلوم الحصوليه مفقود فى بادئ الحال حادث بعد ذلك ثم ناقش فى أدله كون علم النفس بذاتها حضوريا مناقشات عجيبه.

و فيه أن العموم منصرف الى العلم الحصولى و يشهد بذلك الآيه المتقدمه.

و قوله: وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصٰارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إشاره الى مبادى العلم الذى أنعم بها على الإنسان فمبدأ التصوّر هو الحس،و العمده فيه السمع و البصر و إن كان هناك غيرهما من اللمس و الذوق و الشم،و مبدأ الفكر هو الفؤاد.

قوله تعالى: أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ الخ؛قال فى المجمع:الجو الهواء البعيد من الأرض.انتهى.يقول:أ لم ينظروا الى الطير حال كونها مسخرات للّه سبحانه فى جو السماء و الهواء البعيد من الأرض،ثم استأنف فقال مشيرا الى ما هو نتيجه هذا النظر: «مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ» .

و إثبات الإمساك للّه سبحانه و نفيه عن غيره مع وجود أسباب طبيعيه هناك مؤثره فى ذلك و كلامه تعالى يصدّق ناموس العلّيه و المعلوليه إنما هو من جهه أن توقف الطير فى الجو من دون أن تسقط كيفما كان و إلى أى سبب استند هو و سببه و الرابطه التى بينهما جميعا مستنده الى صنعه تعالى فهو الذى يفيض الوجود عليه و على سببه و على الرابطه التى بينهما فهو السبب المفيض لوجوده حقيقه و إن كان سببه الطبيعى القريب معه يتوقف هو عليه.

و معنى توقفه فى وجوده على سببه ليس أن سببه يفيد وجوده بعد ما استفاد وجود نفسه منه تعالى بل إن هذا المسبب يتوقف فى أخذه الوجود منه تعالى الى أخذ سببه الوجود منه تعالى قبل ذلك،و قد تقدم بعض الكلام فى توضيح ذلك من قريب.

و هذا معنى توحيد القرآن،و الدليل عليه من جهه لفظه أمثال قوله: أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ (الأعراف/۵۴)،و قوله: أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (البقره/۱۶۵)،و قوله: اَللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الزمر/۶۲)،و قوله: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (النحل/۷۷).

و الدليل على ما قدمناه فى معنى النفى و الإثبات فى الآيه قوله تعالى: «مُسَخَّرَاتٍ» فإن التسخير إنما يتحقق بقهر أحد السببين الآخر فى فعله على ما يريده السبب القاهر ففى لفظه دلاله على أن للمقهور نوعا من السببيه.

و ليس طيران الطائر فى جو السماء بالحقيقه بأعجب من سكون الإنسان فى الأرض فالجميع ينتهى الى صنعه تعالى على حد سواء لكن ألفه الإنسان لبعض الامور و كثره عهده به توجب خمود قريحه البحث عنه فإذا صادف ما يخالف ما ألفه و كثر عهده به كالمستثنى من

الکلیه انتبه لـذلک و انتزعت القریحه للبحث عنه و الإنسان یری الأجسام الأرضـیه الثقیله معتمـده علی الأرض مجـذوبه إلیها فإذا وجـد الطیر مثلاـ تنقض کلیه هـذا الحکم بطیرانهـا تعجب منه و انبسـط للبحث عنه و الحصول علی علته،و للحق نصـیب من هـذا البحث و هذا هو أحد الأسباب فی أخذ هذا النوع من الامور فی القرآن مواد للاحتجاج.

و قوله: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ أی فی کونها مسـخرات فی جو السـماء فإن للطیر و هو فی الجو دفیفا و صـفیفا و بسـطا لأجنحتها و قبضا و سکونا و انتقالا و صعودا و نزولا و هی جمیعا آیات لقوم یؤمنون کما ذکره اللّه.

قوله تعالی: وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ بُیُوتِکُمْ سَکَناً الی آخر الآیه؛فی المفردات:

البیت مأوی الإنسان باللیل لأنه یقال:بات أقام باللیل کما یقال:ظل بالنهار.ثم قد یقال:

للمسکن بیت من غیر اعتبار اللیل فیه،و جمعه أبیات و بیوت لکن البیوت بالمسکن أخص و الأبیات بالشعر،قال:و یقع ذلک علی المتخذ من حجر و مدر و صوف و وبر.انتهی موضع الحاجه.

و السـکن ما یسـکن الیه،و الظعن الارتحال و هو خلاف الإقامه،و الصوف للضأن و الوبر للإبل کالشعر للانسان و یسمی ما للمعز شعرا کالإنسـان،و الأثـاث متـاع البیت الکثیر و لاـ یقـال للواحـد منه أثـاث،قـال فی المجمع:و لاـ واحـد للأثـاث کما أنه لا واحد للمتاع.انتهی.

و المتاع أعم من الأثاث فإنه مطلق ما یتمتع به و لا یختص بما فی البیت.

و قوله: وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ بُیُوتِکُمْ سَکَناً أی جعل لکم بعض بیوتکم سکنا تسکنون الیه،و من البیوت ما لا یسکن الیه کالمتخذ لادخـار الأـموال و اختزان الأـمتعه و غیر ذلک و قوله: «وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعٰامِ بُیُوتاً» الـخ؛أی من جلودها بعـد الـدبغ و هی الأنطـاع و الأـدم «بُیُوتاً» و هی القباب و الخیام «تَسْتَخِفُّونَهٰا» أی تعـدونها خفیفه من جهه الحمل «یَوْمَ ظَعْنِکُمْ» و ارتحالکم «وَ یَوْمَ إِقٰامَتِکُمْ» من غیر سفر و ظعن.

و قوله: وَ مِنْ أَصْوٰافِهٰا وَ أَوْبٰارِهٰا وَ أَشْعٰارِهٰا الـخ؛معطوف على موضع «مِنْ جُلُودِ» أى و جعل لكم «مِنْ أَصْوٰافِهٰا» و هى للضأن و «أَوْبٰارِهٰا» و هى للابل «وَ أَشْعٰارِهٰا» و هى للمعز «أَثٰاثاً» تستعملونه فى بيوتكم «وَ مَتٰاعاً» تتمتعون به «إِلىٰ حِينٍ» محدود،قيل:

و فيه إشاره الى أنها فانيه داثره فلا ينبغى للعاقل أن يختارها على نعيم الآخره.

قوله تعـالى: وَ اللّٰهُ جَعَـلَ لَكُمْ مِمّٰا خَلَقَ ظِلاٰلاً الى آخر الآيه؛الظرفان أعنى قوله: «لَكُمْ» و «مِمّٰا خَلَقَ» متعلقان بجعل و تعليق الظلال بمـا خلق لكونهـا أمرا عـدميا محققـا بتبع غيره و هى مع ذلـك من النعم العظيمه التى أنعم اللّه بهـا على الإنسان و سائر الحيوان و النبات فما الانتفاع بالظل للانسان و غيره بأقل من الانتفاع بالنور و لو لا الظل و هو ظل الليل و ظل الأبنيه و الأشجار و الكهوف و غيرها لما عاش على وجه الأرض عائش.

و قوله: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبٰالِ أَكْنٰاناً الكن ما يستتر به الشىء حتى أن القميص كن للابسه،و أكنان الجبال هى الكهوف و الثقب الموجوده فيها.

و قوله: وَ جَعَـلَ لَكُمْ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ أى قميصـا يحفظكم من الحر،قال فى المجمع:و لم يقل:و تقيكم البرد لأن ما وقى الحر وقى البرد،و إنما خص الحر بـذلك مع أن وقايتها للبرد أكثر لأن الذين خوطبوا بذلك أهل حر فى بلادهم فحاجتهم الى ما يقى الحر أكثر،عن عطاء.

قال:على أن العرب يكتفى بذكر أحد الشيئين عن الآخر للعلم به قال الشاعر:

و ما أدرى إذا يممت أرضا

أريد الخير أيهما يلينى

فكنى عن الشر و لم يذكره لأنه مدلول عليه،ذكره الفراء انتهى.

و لعـل بعض الوجه فى ذكره الحر و الاكتفاء به أن البشـر الأولى يسـكنون المناطق الحاره من الأرض فكان شـده الحر أمسّ بهم من شده البرد و تنبههم لاتخاذ السراويل إنما هو للاتقاء مما كان الابتلاء به أقرب اليهم و هو الحر و اللّه أعلم.

و قوله: وَ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ الظاهر أن المراد به درع الحديد و نحوه.

و قوله: كَذٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ امتنان عليهم بإتمام النعم التى ذكرها،و كانت الغايه المرجوه من ذلك إسلامهم للّه عن معرفتها فإن المترقب المتوقع ممن يعرف النعم و إتمامها عليه أن يسلم لإراده منعمه و لا يقابله بالاستكبار لأن منعما هذا شأنه لا يريد به سوء.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ قال فى المجمع:البلاغ الاسم و التبليغ المصدر مثل الكلام و التكليم،انتهى.

لما فرغ عن ذكر ما أريد ذكره من النعم و الاحتجاج بها ختمها بما مدلوها العتاب و اللوم و الوعيد على الكفر و يتضمن ذكر وحدانيته تعالى فى الربوبيه و المعاد و النبوه،و بدأ ذلك ببيان وظيفه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى رسالته و هو البلاغ فقال: «فَإِنْ تَوَلَّوْا» أى يتفرع على هذا البيان الذى ليس فيه إلا دعوتهم الى ما فيه صلاح معاشهم و معادهم من غير أن يتبعه إجبار أو إكراه أنهم إن تولوا و أعرضوا عن الإصغاء اليه و الاهتداء به «فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ» و التبليغ الواضح الذى لا إبهام فيه و لا ستر عليه لأنك رسول و ما على الرسول إلا ذلك.

و فى الآيه تسليه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و بيان وظيفه له.

قوله تعالى: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّٰهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهٰا وَ أَكْثَرُهُمُ الْكٰافِرُونَ المعرفه و الإنكار متقابلان كالعلم و الجهل و هذا هو الدليل على أن المراد بالإنكار و هو عدم المعرفه لازم معناه و هو الإنكار فى مقام العمل و هو عدم الإيمان باللّه و رسوله و اليوم الآخر أو الجحود لسانا مع معرفتها قلبا،لكن قوله: «وَ أَكْثَرُهُمُ الْكٰافِرُونَ» يخص الجحود بأكثرهم كما سيجىء فيبقى للإنكار المعنى الأول.

و قوله: وَ أَكْثَرُهُمُ الْكٰافِرُونَ دخول اللام على «الْكٰافِرُونَ» يدل على الكمال أى إنهم كافرون بالنعم الإلهيه أو بما تدل عليه من التوحيد و غيره جميعا لكن أكثرهم كاملون فى

كفرهم و ذلك بالجحود عنادا و الإصرار عليه و الصدّ عن سبيل اللّه.

و المعنى:يعرفون نعمه اللّه بعنوان أنها نعمه منه و مقتضاه أن يؤمنوا به و برسوله و اليوم الآخر و يسلموا فى العمل إذا وردوا مورد العمل عملوا بما هو من آثار الإنكار دون المعرفه، و أكثرهم لا يكتفون بمجرد الإنكار العملى بل يزيدون عليه بكمال الكفر و العناد مع الحق و الجحود و الإصرار عليه.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاٰ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ قال فى المجمع:قال الزجّاج:و العتب الموجده يقال:عتب عليه يعتب إذا وجد عليه فإذا فاوضه ما عتب عليه قالوا:عاتبه،و إذا رجع الى مسرّته قيل:أعتب،و الاسم العتبى و هو رجوع المعتوب عليه الى ما يرضى العتاب،و استعتبه طلب منه أن يعتب.انتهى.

و قوله: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً يفيد السياق أن المراد بهذا اليوم القيامه،و بهؤلاء الشهداء الذين يبعث كل واحد منهم من أمه،شهداء الأعمال الذين تحمّلوا حقائق أعمال أمتهم فى الدنيا و هم يستشهد بهم و يشهدون عليهم يوم القيامه،و قد تقدم بعض الكلام فى معنى هذه الشهاده فى تفسير قوله: لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (البقره/۱۴۳)فى الجزء الأول من الكتاب.

و لا دلاله فى لفظ الآيه على أن المراد بشهيد الامه نبيّها،و لا أن المراد بالامه أمه الرسول فمن الجائز أن يكون غير النبى من أمته كالإمام شهيدا كما يدلّ عليه آيه البقره السابقه و قوله تعالى: وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدٰاءِ (الزمر/۶۹)،و على هذا فالمراد بكل أمه أمه الشهيد المبعوث و أهل زمانه.

و قوله: ثُمَّ لاٰ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ذكر بعث شهداء الامم دليل على أنهم يشهدون على أممهم بما عملوا فى الدنيا،و قرينه على أن المراد من نفى الإذن للكافرين أنهم لا يؤذن لهم فى الكلام و هو الاعتذار لا محاله،و نفى الإذن فى الكلام إنما هو تمهيد

لأداء الشهود شهادتهم كما تلوّح اليه آيات أخر كقوله: اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلىٰ أَفْوٰاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنٰا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ (يس۶۵/)،و قوله: هٰذٰا يَوْمُ لاٰ يَنْطِقُونَ وَ لاٰ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (المرسلات۳۶/).

على أن سياق قوله: «ثُمَّ لاٰ يُؤْذَنُ» الخ؛يفيد أن المراد بهذا الذى ذكر نفى ما يتقى به الشر يومئذ من الحيل و بيان أنه لا سبيل الى تدارك ما فات منهم و إصلاح ما فسد من أعمالهم فى الدنيا يومئذ و هو أحد أمرين:الاعتذار أو استئناف العمل،أما الثانى فيتكفله قوله: «وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» و لا يبقى للأول و هو الاعتذار بالكلام إلا قوله: «ثُمَّ لاٰ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» .

قوله تعالى: وَ إِذٰا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذٰابَ فَلاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ كانت الآيه السابقه بالحقيقه مسوقه لبيان الفرق بين يوم الجزاء الذى هو يوم القيامه و بين سائر ظروف الجزاء فى الدنيا بأن جزاء يوم القيامه لا يرتفع و لا يتغير باعتذار و لا باستعتاب،و هذه الآيه بيان فرق عذاب اليوم مع العذابات الدنيويه التى تتعلق بالظالمين فى الدنيا فإنها تقبل بوجه التخفيف أو الإنظار بتأخير ما و عذاب يوم القيامه لا يقبل تخفيفا و لا إنظارا.

فقوله: وَ إِذٰا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذٰابَ ذكر الظلم فى الصله دون الكفر و نحوه للدلاله على سبب الحكم و ملاكه،و المراد برؤيه العذاب إشرافه عليهم و إشرافهم عليه بعد فصل القضاء كما يفيده السياق،و المراد بالعذاب عذاب يوم القيامه و هو عذاب النار.

و المعنى-و اللّه أعلم-و إذا قضى الأمر بعذابهم و أشرفوا على العذاب بمشاهده النار فلا مخلص لهم عنه بتخفيف أو بإنظار و إمهال.

قوله تعالى: وَ إِذٰا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكٰاءَهُمْ الى آخر الآيه؛مضىّ فى حديث يوم البعث،و قوله: «وَ إِذٰا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا» و هم فى عرف القرآن عبده الأصنام

و الأوثان قرينه على أن المراد بقوله: «شُرَكٰاءَهُمْ» الذين أشركوهم باللّه زعما منهم أنهم شركاء للّه و افتراء و يدل أيضا عليه ذيل الآيه و الآيه التاليه.

فتسميتهم شركاءهم و هم يسمونهم شركاء اللّه للدلاله بها على أن ليس لهم من الشركه إلا الشركه بجعلهم بحسب وهمهم فليس لإشراكهم شركاءهم من الحقيقه إلا أنها لا حقيقه لها.

و قوله: قٰالُوا رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ شُرَكٰاؤُنَا الَّذِينَ كُنّٰا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ معناه ظاهر و هو تعريف منهم إياهم لربهم،و لا حاجه الى البحث عن غرض المشركين فى تعريفهم فإن اليوم يوم أحاط بهم الشقاء و العذاب من كل جانب،و الانسان فى مثل ذلک يلوى الى كل ما يخطر بباله من طرق السعى فى خلاص نفسه و تنفيس كربه.

و قوله: فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكٰاذِبُونَ قال فى المجمع:تقول:ألقيت الشىء إذا طرحته،و اللقى الشىء الملقى،و ألقيت اليه مقاله إذا قلتها له،و تلقّاها إذا قبلها، انتهى.

و المعنى:أن شركاءهم ردّوا اليهم و كذّبوهم،و قد عبّر سبحانه فى موضع آخر عن هذا التكذيب بالكفر كقوله: وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ (فاطر۱۴/)و قوله حكايه عن مخاطبه الشيطان لهم يوم القيامه: إِنِّى كَفَرْتُ بِمٰا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (إبراهيم۲۲/).

قوله تعالى: وَ أَلْقَوْا إِلَى اللّٰهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ السلم الإسلام و الاستسلام،و كأن فى التعبير بإلقاء السلم إشاره الى انضمام شىء من الخضوع و المقهوريه بالقهر الإلهى الى سلمهم.

و ضمير «أَلْقَوْا» عائد الى الذين أشركوا بقرينه قوله بعد: «وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ» فالمراد أن المشركين يسلّمون يوم القيامه للّه و قد كانوا يدعون الى الاسلام فى الدنيا و هم يستكبرون.

ص :۶۰۸

و الآیه المبحوث عنها أعنی قوله: وَ أَلْقَوْا إِلَی اللّٰهِ یَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا کٰانُوا یَفْتَرُونَ صدرها یشیر الی إسلامهم و ذیلها الی کون ذاک الإسلام اضطراریا لا ینفعهم لأنهم کانوا یرون للّه ألوهیه و لشرکائهم ألوهیه فاختاروا تسلیم شرکائهم و عبادتهم علی التسلیم للّه ثم لما ظهر لهم الحق یوم القیامه و کذبهم شرکائهم بطل ما زعموه و ضل عنهم ما افتروه فلم یبق للتسلیم إلا اللّه سبحانه فسلموا له مضطرین و انقادوا له کارهین.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ زِدْنٰاهُمْ عَذٰاباً فَوْقَ الْعَذٰابِ بِمٰا کٰانُوا یُفْسِدُونَ استئناف متعرض لحال أئمه الکفر بالخصوص بعد ما أشار الی حال عامه الظالمین و المشرکین فی الآیات السابقه.

و السامع إذا سمع ما شرحه اللّه من حالهم یوم القیامه فی هذه الآیات و أنهم معذبون جمیعا من غیر أن یخفف عنهم أو ینظروا فیه،و قد سمع منه أن منهم طائفه هم أشد کفرا و أشقی من غیرهم إذ یقول «وَ أَکْثَرُهُمُ الْکٰافِرُونَ» خطر بباله طبعا أنهم هل یساوون غیرهم فی العذاب الموعود و هم یزیدون علیهم فی السبب و هو الکفر.

فاستؤنف الکلام جوابا عن ذلک فقیل «الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ» بالعناد و اللجاج فاکتملوا فی الکفر و اقتدی بهم غیرهم «زِدْنٰاهُمْ عَذٰاباً» و هو الذی للصد و هم یختصون به «فَوْقَ الْعَذٰابِ» و هو الذی بإزاء مطلق الظلم و الکفر و یشارکون فیه عامه إخوانهم،و کأن اللام فی العذاب للعهد الذکری یشار بها الی ما ذکر فی قوله: «وَ إِذٰا رَأَی الَّذِینَ ظَلَمُوا الْعَذٰابَ» الخ؛ «بِمٰا کٰانُوا یُفْسِدُونَ» تعلیل لزیاده العذاب.

قوله تعالی: وَ یَوْمَ نَبْعَثُ فِی کُلِّ أُمَّهٍ شَهِیداً عَلَیْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنٰا بِکَ شَهِیداً عَلیٰ هٰؤُلاٰءِ الخ؛صدر الآیه تکرار ما تقدم قبل بضع آیات من قوله: «وَ یَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ کُلِّ أُمَّهٍ شَهِیداً» غیر أنه کان هناک توطئه و تمهیدا لحدیث عدم الإذن لهم فی الکلام یومئذ،و هو هاهنا توطئه و تمهید لذکر شهادته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لهؤلاء یومئذ و هو فی الموضعین مقصود

لغيره لا لنفسه.

و كيف كـان فقوله: «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَـهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِـهِمْ» يـدل على بعث واحـد فى كل أمه للشـهاده على أعمال غيره و هو غير البعث بمعنى الإحياء للحساب بل بعث بعد البعث،و إنما جعل من أنفسـهم ليكون أتم للحجه و أقطع للمعذره كما يفيـده السـياق و ذكره المفسـرون حتى أنهم ذكروا شـهاده لوط على قومه و لم يكن منهم نسـبا و وجهوه بـأنه كان تأهل فيهم و سكن معهم فهو معدود منهم.

و قوله: وَ جِئْنٰا بِكَ شَـهِيداً عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ يفيـد أنه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم شـهيد على هؤلاء، و اسـتظهروا أن المراد بهؤلاء هم أمته،و أيضـا إنهم قـاطبه من بعث اليه من لـدن عصـره الى يوم القيامه ممن حضـره و من غاب و من عاصـره و من جاء بعـده من الناس.

و آيات الشهاده من معضلات آيات القيامه على ما فى جميع آيات القيامه من الإعضال و صعوبه المنال،و قد تقدم فى ذيل قوله: لِتَكُونُوا شُـهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (البقره١۴٣/)فى الجزء الأول من الكتاب نبذه من الكلام فى معنى هذه الشهاده (١).

و قوله: وَ نَزَّلْنٰا عَلَيْـكَ الْكِتٰابَ تِبْيٰانـاً لِكُـلِّ شَـيْءٍ وَ هُـدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْـرىٰ لِلْمُسْـلِمِينَ ذكروا أنه استئناف يصف القرآن بكرائم صفاته فصـفته العامه أنه تبيان لكل شـيء و التبيان و البيان واحـد-كما قيل-و إذ كان كتاب هدايه لعامه الناس و ذلك شأنه كان الظـاهر أن المراد بكـل شـيء كـل مـا يرجع الى أمر الهـدايه ممـا يحتـاج اليه النـاس فى اهتـدائهم من المعارف الحقيقيه المتعلقه بالمبدإ و المعاد و الأخلاق الفاضله و الشرائع الإلهيه و القصص و المواعظ فهو تبيان لذلك كله.

١- ١) .النحل ٧٨-٨٩:بحث فى الحج التى تقام يوم القيامه على الانسان؛الشهاده القائمه يوم القيامه.

[سوره النحل (۱۶): الآیات ۹۰ الی ۱۰۵]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ اَلْإِحْسٰانِ وَ إِيتٰاءِ ذِي اَلْقُرْبىٰ وَ يَنْهىٰ عَنِ اَلْفَحْشٰاءِ وَ اَلْمُنْكَرِ وَ اَلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۹۰) وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اَللّٰهِ إِذٰا عٰاهَدْتُمْ وَ لاٰ تَنْقُضُوا اَلْأَيْمٰانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهٰا وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اَللّٰهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اَللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا تَفْعَلُونَ (۹۱) وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهٰا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكٰاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمٰانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمٰا يَبْلُوكُمُ اَللّٰهُ بِهِ وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ مٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۹۲) وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۳) وَ لاٰ تَتَّخِذُوا أَيْمٰانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهٰا وَ تَذُوقُوا اَلسُّوءَ بِمٰا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ لَكُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۹۴) وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اَللّٰهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمٰا عِنْدَ اَللّٰهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۹۵) مٰا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مٰا عِنْدَ اَللّٰهِ بٰاقٍ وَ لَنَجْزِيَنَّ اَلَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۹۶) مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۹۷) فَإِذٰا قَرَأْتَ اَلْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ اَلشَّيْطٰانِ اَلرَّجِيمِ (۹۸) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰانٌ عَلَى اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۹۹) إِنَّمٰا سُلْطٰانُهُ عَلَى اَلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ اَلَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (۱۰۰) وَ إِذٰا بَدَّلْنٰا آيَةً مَكٰانَ آيَةٍ وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا يُنَزِّلُ قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۱۰۱) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ اَلْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (۱۰۲) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسٰانُ اَلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هٰذٰا لِسٰانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (۱۰۳) إِنَّ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ لاٰ يَهْدِيهِمُ اَللّٰهُ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۱۰۴) إِنَّمٰا يَفْتَرِي اَلْكَذِبَ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْكٰاذِبُونَ (۱۰۵)

ص: ۶۱۱

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِی الْقُرْبىٰ ابتدأ سبحانه بهذه الأحكام الثلاثه التی هی بالترتيب أهم ما يقوم به صلب المجتمع الإنسانی لما أن

ص :٦١٢

صلاح المجتمع العام أهم ما يبتغيه الاسلام فى تعاليمه المصلحه فإن أهم الأشياء عند الانسان فى نظر الطبيعه و إن كان هو نفسه الفرديه،لكن سعاده الشخص مبنيه على صلاح الظرف الاجتماعى الذى يعيش هو فيه،و ما أصعب أن يفلح فرد فى مجتمع فاسد أحاط به الشقاء من كل جانب.

و لذلك اهتم فى إصلاح المجتمع اهتماما لا يعادله فيه غيره و بذل الجهد البالغ فى جعل الدساتير و التعاليم الدينيه حتى العبادات من الصلاه و الحج و الصوم اجتماعيه ما أمكن فيها ذلك،كل ذلك ليستصلح الإنسان فى نفسه و من جهه ظرف حياته.

فقوله: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ أمر بالعدل و يقابله الظلم،قال فى المفردات:العداله و المعادله لفظ يقتضى معنى المساواه،و يستعمل باعتبار المضايقه،و العدل-بفتح العين- و العدل-بكسرها-يتقاربان لكن العدل-بفتح العين-يستعمل فيما يدرك بالبصيره كالأحكام،و على ذلك قوله تعالى: «أَوْ عَدْلُ ذٰلِكَ صِيٰاماً» و العدل-بكسر العين-و العديل فيما يدرك بالحاسه كالموزونات و المعدودات و المكيلات،فالعدل هو التقسيط على سواء.

قال:و العدل ضربان:مطلق يقتضى العقل حسنه،و لا يكون فى شىء من الأزمنه منسوخا و لا يوصف بالاعتداء بوجه نحو الإحسان الى من أحسن اليك و كفّ الأذى عمن كفّ أذاه عنك،و عدل يعرف كونه عدلا بالشرع و يمكن أن يكون منسوخا فى بعض الأزمنه كالقصاص و اروش الجنايات و أصل مال المرتدّ،و لذلك قال: «فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ» ،و قال: «وَ جَزٰاءُ سَيِّئَهٍ سَيِّئَهٌ مِثْلُهٰا» فسمّى اعتداء و سيّئه.

و هذا النحو هو المعنى بقوله: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسٰانِ فإن العدل هو المساواه فى المكافاه إن خيرا فخير و إن شرا فشر،و الإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه و الشر بأقل منه،انتهى موضع الحاجه.

و قوله: وَ الْإِحْسٰانِ الكلام فيه من حيث اقتضاء السياق كسابقه فالمراد به

الإحسان الی الغیر دون الإحسان بمعنی إتیان الفعل حسنا،و هو إیصال خیر أو نفع الی غیر لا علی سبیل المجازاه و المقابله کأن یقابل الخیر بأکثر منه و یقابل الشر بأقل منه-کما تقدم- و یوصل الخیر الی غیر متبرعا به ابتداء.

و الإحسان علی ما فیه من إصلاح حال من أذلته المسکنه و الفاقه أو اضطرته النوازل،و ما فیه من نشر الرحمه و إیجاد المحبه یعود محمود أثره الی نفس المحسن بدوران الثروه فی المجتمع و جلب الأمن و السلامه بالتحبیب.

و قوله: «وَ إِیتٰاءِ ذِی الْقُرْبیٰ» أی إعطاء المال لذوی القرابه و هو من أفراد الإحسان خص بالذکر لیدل علی مزید العنایه بإصلاح هذا المجتمع الصغیر الذی هو السبب بالحقیقه لانعقاد المجتمع المدنی الکبیر کما أن مجتمع الازدواج الذی هو أصغر بالنسبه الی مجتمع القرابه سبب مقدم مکون له فالمجتمعات المدنیه العظیمه إنما ابتدأت من مجتمع بیتی عقده الازدواج ثم بسطه التوالد و التناسل و وسعه حتی صار قبیله و عشیره و لم یزل یتزاید و یتکاثر حتی عادت امه عظیمه فالمراد بذی القربی الجنس دون الفرد و هو عام لکل قرابه کما ذکروه.

و فی التفسیر المأثور عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام أن المراد بذی القربی الإمام من قربه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و المراد بالإیتاء إعطاء الخمس الذی فرضه اللّه سبحانه فی قوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی الْقُرْبیٰ وَ الْیَتٰامیٰ وَ الْمَسٰاکِینِ الآیه(الأنفال/ ۴۱)و قد تقدم تفسیرها.

و لعل التعبیر بالإفراد حیث قیل ذِی الْقُرْبیٰ و لم یقل:ذوی القربی أو اولی القربی کما فی قوله: وَ إِذٰا حَضَرَ الْقِسْمَهَ أُولُوا الْقُرْبیٰ وَ الْیَتٰامیٰ وَ الْمَسٰاکِینُ (النساء/۸)،و قوله:

وَ آتَی الْمٰالَ عَلیٰ حُبِّهِ ذَوِی الْقُرْبیٰ وَ الْیَتٰامیٰ وَ الْمَسٰاکِینَ (البقره/۱۷۷)یؤید ذلک.

و احتمال إراده الجنس من ذی القربی یبعده ما وقع فی سیاق آیه الخمس من ذکر الیتامی و المساکین معه بصیغه الجمع مع عدم ظهور نکته یختص بها ذوی القربی أو الیتامی و المساکین

ص :۶۱۴

تقضی الفرق.

علی أن الآیه لا قرینه واضحه فیها علی کون المراد بالإیتاء هو الإحسان ثم بالإحسان مطلق الإحسان.و اللّه أعلم.

قوله تعالی: وَ یَنْهیٰ عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَ الْمُنْکَرِ وَ الْبَغْیِ یَعِظُکُمْ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ قال فی المفردات:الفحش و الفحشاء و الفاحشه ما عظم قبحه من الأفعال و الأقوال.انتهی و لعل الأصل فی معناه الخروج عن الحد فیما لا ینبغی یقال:غبن فاحش أی خارج عن حد التحمل و الصبر و السکوت.

و المنکر ما لا یعرفه الناس فی مجتمعهم من الأعمال التی تکون متروکه عندهم لقبحها أو إثمها کالمواقعه أو کشف العوره فی مشهد من الناس فی المجتمعات الإسلامیه.

و البغی الأصل فی معناه الطلب و کثر استعماله فی طلب حق التغیر بالتعدی علیه فیفید معنی الاستعلاء و الاستکبار علی الغیر ظلما و عتوا،و ربما کان بمعنی الزنا و المراد به فی الآیه هو التعدی علی الغیر ظلما.

قوله تعالی: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللّٰهِ إِذٰا عٰاهَدْتُمْ وَ لاٰ تَنْقُضُوا الْأَیْمٰانَ بَعْدَ تَوْکِیدِهٰا الخ؛قال فی المفردات:العهد حفظ الشیء و مراعاته حالا بعد حال،و سمی الموثق الذی یلزم مراعاته عهدا.قال:و عهد فلان الی فلان یعهد أی ألقی الیه العهد و أوصاه بحفظه، انتهی.

و ظاهر إضافه العهد الی اللّه تعالی فی قوله: «وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللّٰهِ» أن المراد به هو العهد الذی یعاهد فیه اللّه علی کذا دون مطلق العهد و یأتی نظیر الکلام فی نقض الیمین.

و قوله: «وَ لاٰ تَنْقُضُوا الْأَیْمٰانَ بَعْدَ تَوْکِیدِهٰا» نقض الیمین نکثه و مخالفه مقتضاه و المراد بالیمین هو الیمین بالحلف باللّه سبحانه کأن ما عدا ذلک لیس بیمین و الدلیل علیه قوله بعد: «وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللّٰهَ عَلَیْکُمْ کَفِیلاً» .

ص :۶۱۵

و المراد بتوكيـدها إحكامهـا بالقصـد و العزم و كونهـا لأـمر راجـح بخلاـف قـولهم:لاـ و اللّه و بلى و اللّه و غيره مـن لغو الأيمان،فالتوكيـد فى هـذه الآيه يفيـد ما يفيـده التعقيـد فى قوله تعالى: لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ (المائده‌٨٩/).

و نقض اليمين بحسب الاعتبـار أشـنع من نقض العهـد و إن كان منهيا عنهما جميعا على أن العنايه بالحلف فى الشـرع الاسـلامى أكثر كما فى باب القضاء.

و بهـذا يظهر معنى قوله تعالى: وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللّٰهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً فإن الحالف إذا قال:و اللّه لأفعلن كـذا أو لأتركن كـذا فقـد علّق ما حلف عليه نوعا من التعليق على اللّه سـبحانه و جعله كفيلا عنه فى الوفاء بما عقـد عليه اليمين،فإن نكث و لم يف كان لكفيله أن يؤديه الى الجزاء و العقوبه،ففى نكث اليمين إهـانه و إرزاء بسـاحه العزه و الكرامه مضافا الى ما فى نقض اليمين و العهـد معا من الانقطاع و الانفصال عنه سبحانه بعد توكيد الاتصال.

فقوله: «وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللّٰهَ» الخ؛حال من ضـمير الجمع فى قوله: «وَ لاٰ تَنْقُضُوا» و قوله: «وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَفْعَلُونَ» فى معنى تأكيد النهى بأن العمل مبغوض و هو به عليم.

قوله تعـالى: وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهٰا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكٰاثاً الى آخر الآيه؛النقض و يقابله الإبرام إفساد ما أحكم من حبل أو غزل بالفتل فنقض الشـىء المبرم كحل الشـىء المعقود،و النكث النقض،قال فى المجمع:و كل شىء نقض بعد الفتل فهو أنكاث حبلاـ كان أو غزلا،و الـدخل بفتحتين فى الاصل كل ما دخل الشـىء و ليس منه،و يكنى به عن الـدغل و الخـدعه و الخيانه،كما قيل:و أربى أفعل من الربا و هو الزياده.

و قوله: وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهٰا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكٰاثاً فى معنى التفسـير لقوله فى الآـيه السابقه: «وَ لاٰ تَنْقُضُوا الْأَيْمٰانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهٰا» و هو تمثيل بمرأه تغزل الغزل بقوه ثم تعود فتنقض ما أتبعت نفسـها فيه و غزلته من بعد قوه و تجعله أنكاثا لا فتل فيه و لا إبرام.

و نقل عن الكلبىّ أنها امرأه حمقاء من قريش كانت تغزل مع جواريها الى انتصاف النهار ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن و لا يزال ذلك دابها،و اسمها ريطه بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مره،و كانت تسمى خرقاء مكه.

و قوله: تَتَّخِذُونَ أَيْمٰانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبىٰ مِنْ أُمَّةٍ أى تتخذون أيمانكم وسيله للغدر و الخدعه و الخيانه تطيّبون بها نفوس الناس ثم تخونون و تخدعونهم بنقضها،و إنما يفعلون ذلك لتكون امه-و هم الحالفون-أربى و أزيد سهما من زخارف الدنيا من أمه-و هم المحلوف لهم-.

فالمراد بالدخل وسيلته من تسميه السبب باسم المسبب و «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ» مفعول له بتقدير اللام،و الكلام نوع بيان لنقض اليمين أو لكونهم كالتى نقضت غزلها من بعد قوه أنكاثا، و محصّل المعنى أنكم كمثلها إذ تتخذون أيمانكم دخلا بينكم فتؤكدونها و تعقدونها ثم تخونون و تخدعون بنقضها و نكثها و اللّه ينهاكم عنه.

و ذكر بعضهم أن قوله: «تَتَّخِذُونَ أَيْمٰانَكُمْ» الخ؛جمله استفهاميه محذوفه الأداه و الاستفهام للإنكار.

و قوله: إِنَّمٰا يَبْلُوكُمُ اللّٰهُ بِهِ الخ؛أى إن ذلك امتحان إلهى يمتحنكم به و أقسم ليبيّنن لكم يوم القيامه ما كنتم فيه تختلفون فتعلمون عند ذلك ما حقيقه ما أنتم عليه اليوم من التكالب على الدنيا و سلوك سبيل الباطل لإماطه الحق و دحضه و يتبين لكم يومئذ من هو الضالّ و من هو المهتدى.

قوله تعالى: وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ الخ؛لما انجرّ الكلام الى ذكر اختلافهم عقّب ذلك ببيان أن اختلافهم ليس بناقض للغرض الإلهى فى خلقهم و لا أنهم معجزون له سبحانه و لو شاء لجعلهم أمه واحده لا اختلاف بينهم و لكن اللّه سبحانه جعلهم مختلفين بالهدايه و الإضلال فهدى قوما

و أضلّ آخرين.

و ذلک أنه تعالی وضع سعاده الانسان و شقاءه علی أساس الاختیار و عرّفهم الطاعه المفضیه الی غایه السعاده و المعصیه المؤدّیه الی غایه الشقاء فمن سلک مسلک المعصیه و اجتاز للضلال جازاه اللّه ذلک،و من رکب سبیل الطاعه و اختار الهدی جازاه اللّه ذلک و سیسألهم جمیعا عما عملوا و اختاروا.

و أن قوله: وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لدفع ما یسبق الی الوهم أن استناد الضلال و الهدی الیه سبحانه یبطل تأثیر اختیارهم فی ذلک و تبطل بذلک الرساله و تلغو الدعوه فاجیب بأن السؤال باق علی حاله لما أن اختیارکم لا یبطل بذلک بل اللّه سبحانه یمدّ لکم من الضلال و الهدی ما أنتم تختارونه بالرکون الی معصیته أو بالإقبال الی طاعته.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَتَّخِذُوا أَیْمٰانَکُمْ دَخَلاً بَیْنَکُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهٰا الی آخر الآیه؛قال فی المفردات:الصدود و الصدّ قد یکون انصرافا عن الشیء و امتناعا نحو «یَصُدُّونَ عَنْکَ صُدُوداً» و قد یکون صرفا و منعا نحو «وَ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِیلِ» .انتهی.

و الآیه نهی عن اتخاذ الأیمان دخلا بعد النهی عن أصل نقض الأیمان لأن لخصوص اتخاذها دخلا مفسده مستقله هی ملاک النهی غیر المفسده التی لأصل نقض الأیمان و قد أشار الی مفسده أصل النقض بقوله: «وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللّٰهَ عَلَیْکُمْ کَفِیلاً» الخ؛و یشیر فی هذه الآیه الی مفسده اتخاذها دخلا بقوله: «فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهٰا وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِمٰا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ وَ لَکُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ».

و قوله: وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِمٰا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ وَ لَکُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ معطوف علی قوله: «فَتَزِلَّ قَدَمٌ» الخ،و بیان نتیجته کما أنه بیان نتیجه و عاقبه لقوله: «تَتَّخِذُوا أَیْمٰانَکُمْ دَخَلاً» و بذلک یظهر أن قوله: «بِمٰا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ» بمنزله التفسیر لقوله:

«فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهٰا».

و المراد بالصدود عن سبيل اللّه الإعراض و الامتناع عن السنه الفطريه التى فطر اللّه الناس عليها و دعت الدعوه النبويه إليها من التزام الصدق و الاستقامه و رعايه العهود و المواثيق و الأيمان و التجنب عن الدغل و الخدعه و الخيانه و الكذب و الزور و الغرور.

و المراد بذوق السوء العذاب،و قوله: «وَ لَكُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ» حال عن فاعل «تَذُوقُوا» و يمكن أن يكون المراد بذوق السوء ما ينالهم من آثار الضلاله السيئه فى الدنيا،و قوله: «وَ لَكُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ» إخبارا عما يحل بهم فى الآخره،هذا ما يستفاد من ظاهر الآيه الكريمه.

فالمعنى:و لا تتخذوا أيمانكم وسيله دخل بينكم حتى يؤديكم ذلك الى الزوال عما ثبتم عليه و نقض ما أبرمتموه،و فيه إعراض عن سبيل اللّه الذى هو التزام الفطره و التحرز عن الغدر و الخدعه و الخيانه و الدغل و بالجمله الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها،و يؤديكم ذلك الى أن تذوقوا السوء و الشقاء فى حياتكم الدنيا و لكم عذاب عظيم فى الاخرى.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللّٰهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمٰا عِنْدَ اللّٰهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ قال فى المفردات:كل ما يحصل عوضا عن شيء فهو ثمنه،انتهى.

و الظاهر أن الآيه نهى عن نقض العهد بعد ما تقدم الأمر بالوفاء به اعتناء بشأنه كما جرى مثل ذلك فى نقض الأيمان،و الآيه مطلقه،و المراد بعهد اللّه العهد الذى عوهد به اللّه مطلقا، و المراد بالاشتراء به ثمنا قليلا بقرينه ذيل الآيه أن يبدّل العهد من شيء من حطام الدنيا فينقض لنيله فسمى المبدل منه ثمنا لأنه عوض كما تقدم،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: مٰا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ بٰاقٍ فى مقام التعليل لقوله فى الآيه السابقه:«ما عند الله هو خير لكم»و قد وجّهه بأن الذى عندكم أى فى الحياه الدنيا التى هى حياه ماديه قائمه على أساس التبدل و التحول منعوته بنعت الحركه و التغير زائل نافد،و ما عند اللّه سبحانه مما يعد المتقين منكم باق لا يزول و لا يفنى و الباقى خير من النافد بصريح

حکم العقل.

و اعلم أن قوله: مٰا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ بٰاقٍ على ما فى لفظه من الإطلاق قاعده كليه غير منقوضه باستثناء،تحتها جزئيات كثيره من المعارف الحقيقيه.

قوله تعالى: وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ لما كان الوفاء بالعهد مستلزما للصبر على مرّ مخالفه هوى النفس فى نقضه و الاسترسال فيما تشتهيه،صرف الكلام عن ذكر أجر خصوص الموفين بالعهد الى ذكر أجر مطلق الصابرين فى جنب اللّه.

فقوله: وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ وعد مؤكد على مطلق الصبر سواء كان صبرا على الطاعه أو على المعصيه أو عند المصيبه غير أنه يجب أن يكون صبرا فى جنب اللّه و لوجه اللّه فإن السياق لا يساعد على غيره.

و قوله: بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ الباء للمقابله كما فى قولنا:بعت هذا بهذا، و ليس المراد بأحسن ما كانوا يعملون الأحسن من أعمالهم فى مقابل الحسن منها بأن يميز اللّه سبحانه بين أعمالهم الحسنه فيقسّمها الى حسن و أحسن ثم يجزيهم بأحسنها و يلغى الحسن كما ذكره بعضهم فإن المقام لا يؤيّده،و آيات الجزاء تنفيه و الرحمه الواسعه الإلهيه تأباه.

و ليس المراد به الواجبات و المستحبّات من أعمالهم قبال المباحات التى أتوا بها فإنها لا تخلو من حسن كما ذكره آخرون.

فإن الكلام ظاهر فى أن المراد بيان الأجر على الأعمال المأتى بها فى ظرف الصبر مما يرتبط به ارتباطا،و واضح أن المباحات التى يأتى بها الصابر فى اللّه لا ارتباط لها بصبره فلا وجه لاعتبارها بين الأعمال ثم اختيار الأحسن من بينها.

على أنه لا مطمع لعبد فى أن يثيبه اللّه على ما أتى به من المباحات حتى يبين له أن الثواب فى مقابل ما أتى به من الواجبات و المستحبات التى هى أحسن مما أتى به من المباحات فيكون

ذکر الحسن مستدرکا زائدا.

و من هنا يظهر أن ليس المراد به النوافل بناء على عدم الإلزام فيها فتكون أحسن ما عمل فإن كون الواجب مشتملا من المصلحه الموجبه للحسن على أزيد من النقل معلوم من الخطابات التشريعيه بحيث لا يرتاب فيه.

بل المراد بـذلك أن العمل الذى يأتون به و له فى نوعه ما هو حسن و ما هو أحسن فاللّه سـبحانه يجزيه من الأجر على ما أتى به ما هو أجر الفرد الأحسن من نوعه فالصـلاه التى يصـلّيها الصابر فى اللّه يجزيه اللّه سبحانه لها أجر الفرد الأحسن من الصلاه و إن كانت ما صلاّها غير أحسن و بالحقيقه يستدعى الصبر أن لا يناقش فى العمل و لا يحاسب ما هو عليه من الخصوصيات المقتضيه لخسّته و رداءته كما يفيده قوله تعالى: إِنَّمٰا يُوَفَّى الصّٰابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ .

قوله تعـالى: مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰاةً طَيِّبَةً الى آخر الآيه؛وعـد جميل للمؤمنين إن عملوا عملا صالحا و بشـرى للإناث أن اللّه لا يفرّق بينهن و بين الذكور فى قبول إيمانهن و لا أثر عملهن الصالح الذى هو الإحياء بحياه طيبه و الأـجر بـأحسن العمـل على الرغم مما بنى عليه أكثر الوثنيه و أهل الكتاب من اليهود و النصارى من حرمان المرأه من كل مزيّه دينيه أو جلّها و حطّ مرتبتها من مرتبه الرجل و وضعها وضعا لا يقبل الرفع البته.

فقوله: مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ حكم كلى من قبيل ضـرب القاعـده لمن عمل صالحا أى من كان و قد قيّده بكونه مؤمنا و هو فى معنى الاشتراط فإن العمل ممن ليس مؤمنا حابط لا يترتب عليه أثر،كما قال تعالى: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمٰانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ (المائده۵/)،و قال: وَ حَبِطَ مٰا صَنَعُوا فِيهٰا وَ بٰاطِلٌ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (هود۱۶/).

و قوله: فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰاةً طَيِّبَةً الإحياء إلقاء الحياه فى الشىء و إفاضتها عليه فالجمله بلفظها داله على أن اللّه سبحانه يكرم المؤمن الذى يعمل صالحا بحياه جديده غير ما يشاركه سائر الناس من الحياه العامه،و ليس المراد به تغيير صفه الحياه فيه و تبديل الخبيثه من الطيبه مع بقاء أصل الحياه على ما كانت عليه،و لو كان كذلك لقيل:فلنطيّبنّ حياته.

فالآيه نظيره قوله: أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ (الأنعام/١٢٢)،و تفيد ما يفيده من تكوين حياه ابتدائيه جديده.

قوله تعالى: فَإِذٰا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطٰانِ الرَّجِيمِ الاستعاذه طلب المعاذ،و المعنى:إذا قرأت القرآن فاطلب منه تعالى ما دمت تقرؤه أن يعيذك من الشيطان الرجيم أن يغويك،فالاستعاذه المأمور بها حال نفس القارئ ما دام يقرأ و قد أمر أن يوجدها لنفسه ما دام يقرأ،و أما قول القارئ:أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم أو ما يشابهه من اللفظ فهو سبب لإيجاد معنى الاستعاذه فى النفس و ليس بنفسها إلا بنوع من المجاز، و قد قال سبحانه:استعذ باللّه،و لم يقل:قل أعوذ باللّه.

قوله تعالى: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فى مقام التعليل للأمر الوارد فى الآيه السابقه أى استعذ باللّه حين القراءه ليعيذك منه لأنه ليس له سلطان على من آمن باللّه و توكل عليه.

قوله تعالى: إِنَّمٰا سُلْطٰانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ضمائر الإفراد الثلاثه للشيطان أى ينحصر سلطان الشيطان فى الذين يتخذونه وليّا لهم يدبّر امورهم كما يريد،و هم يطيعونه،و فى الذين يشركون به إذا يتخذونه وليا من دون اللّه و ربّما مطاعا غيره فإن الطاعه عباده كما يشير اليه قوله: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِي (يس/۶۱).

قوله تعالى: وَ إِذٰا بَدَّلْنٰا آيَةً مَكٰانَ آيَةٍ وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا يُنَزِّلُ قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ

مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ إشاره الی النسخ و حکمته،و جواب عما اتهموه صلّی اللّه علیه و آله و سلم به من الافتراء علی اللّه،و الظاهر من سیاق الآیات أن القائلین هم المشرکون و إن کانت الیهود هم المتصلبین فی نفی النسخ و من المحتمل أن تکون الکلمه مما تلقّفه المشرکون من الیهود فکثیرا ما کانوا یراجعونهم فی أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

و قوله: وَ إِذٰا بَدَّلْنٰا آیَهً مَکٰانَ آیَهٍ قال فی المفردات:الإبدال و التبدیل و التبدّل و الاستبدال جعل شیء مکان آخر،و هو أعم من العوض فإن العوض هو أن یصیر لک الثانی بإعطاء الأول،و التبدیل قد یقال للتغیر مطلقا و إن لم یأت ببدله قال تعالی: فَبَدَّلَ الَّذِینَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَیْرَ الَّذِی قِیلَ لَهُمْ -الی أن قال-و قال تعالی: فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مٰا سَمِعَهُ و إِذٰا بَدَّلْنٰا آیَهً مَکٰانَ آیَهٍ و بَدَّلْنٰاهُمْ بِجَنَّتَیْهِمْ جَنَّتَیْنِ ثُمَّ بَدَّلْنٰا مَکٰانَ السَّیِّئَهِ الْحَسَنَهَ انتهی موضوع الحاجه.

فالتبدیل بمعنی التغییر یخالف التبدیل بمعناه المعروف فی أن مفعوله الأول هو المأخوذ و المطلوب بخلافه بالمعنی المعروف فمعنی قوله: «وَ إِذٰا بَدَّلْنٰا آیَهً مَکٰانَ آیَهٍ» معناه وضعنا الآیه الثانیه مکان الاولی بالتغییر فکانت الثانیه المبدله هی الباقیه المطلوبه.

و قوله: وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا یُنَزِّلُ کنایه عن أن الحق لم یتعد مورده و أن الذی أنزله هو الحقیق بأن ینزل فإن اللّه أعلم به منهم،و الجمله حالیه.

و قوله: قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ مُفْتَرٍ القول للمشرکین یخاطبون النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و یتهمونه بأنه یفتری علی اللّه الکذب فإن تبدیل قول مکان قول،و الثبات علی رأی ثم العدول عنه مما یتنزه عنه ساحه رب العزه.

و قد بالغوا فی قولهم إذ لم یقولوا:افتریت فی هذا التبدیل و النسخ بل قالوا: «إِنَّمٰا أَنْتَ مُفْتَرٍ» فقصروه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی الافتراء،و أتوا بالجمله الاسمیه و سموه مفتریا،و قد بنوا ذلک علی أن ما جاء به النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من سنخ واحد و هو یسند الجمیع الی ربه و یقول:إنما أنا نذیر فإذا کان مفتریا فی

واحد کان مفتریا فی الجمیع فلیس إلا مفتریا.

و قوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ» أی أکثر هؤلاء المشرکین الـذین یتهمونک بقوله: «إِنَّمٰا أَنْتَ مُفْتَرٍ» لا یعلمون حقیقه هذا التبدیل و الحکمه المـؤدیه الیه علی مـا سـینکشف فی الجـواب أن الأحکـام الإلـهیه تـابعه لمصالـح العبـاد و من المصالـح مـا یتغیر بتغیر الأوضاع و الأحوال و الأزمنه فمن الواجب أن یتغیر الحکم بتغیر مصـلحته فینسخ الحکم الذی ارتفعت مصلحته الموجبه له بحکم آخر حدثت مصلحته.

فـأکثر هؤلاـء غـافلون عن هـذا الأـمر و أمـا الأقل منهم فهم واقفون علی حقیقه الأمر و لو إجمالا غیر أنهم مسـتکبرون علی الحق معاندون له و إنما یلقون القول إلقاء من غیر رعایه جانب الحق.

قوله تعالی: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ قد تقدمت فی أول السوره إشاره الی معنی الروح، و القدس الطهاره و النزاهه و الظاهر أن الإضافه للاختصاص أی روح طاهره عن قذارات الماده نزیهه عن الخطأ و الغلـط و الضـلال،و هو المسـمی فی موضع آخر من کلامه تعـالی بـالروح الأـمین،و فی موضع آخر بجبریـل من الملائکه قال تعالی: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ (الشعراء۱۹۴/)،و قال: مَنْ كٰانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ (البقره۹۷/).

فقوله: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ أمر بالجواب و الأسـبق الی الذهن أن یکون الضمیر راجعا الی القرآن من جهه کونه ناسخا أی الآیه الناسخه،و یمکن أن یکون راجعا الی مطلق القرآن،و فی التعبیر بالتنزیل دون الإنزال إشاره الی التدریج.

و کـان من طبع الکلام أن یقال:من ربی لکن عـدل عنه الی قوله: «مِنْ رَبِّكَ» للـدلاله علی کمال العنایه و الرحمه فی حقه صـلّی اللّه علیه و آله و سلم کأنه لا یرضی بانقطاع خطابه فیغتنم الفرصه لتکلیمه أینما

أمكن،و ليدل على أن المراد بالقول المأمور به إخبارهم بذلك لا مجرد التلفظ بهذه الألفاظ فافهم.

و قوله: لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا التثبيت تحكيم الثبات و تأكيده بإلقاء الثبات بعد الثبات عليهم كأنهم بأصل إيمانهم باللّه و رسوله و اليوم الآخر ثبتوا على الحق و بتجدد الحكم حسب تجدد المصلحه يؤتون ثباتا على ثبات من غير أن يضعف ثباتهم الأول بالمضى على أعمال لا تطابق مصلحه الوقت فإن من الواضح أن من أمر بسلوك سبيل لمصلحه غايه فأخذ بسلوكه عن إيمان بالآمر الهادى فقطع قطعه منه على حسب ما يأمره به رعايه لمصلحه الغايه بسرعه أو بطء أو فى ليل أو نهار ثم تغير نحو المصلحه فلو لم يغير الآمر الهادى نحو السلوك و استمر على أمره السابق لضعف إيمان السالك و انسلب أركانه لكن لو أمر بنحو جديد من السلوك يوافق المصلحه و يضمن السعاده زاد إيمانه ثباتا على ثبات.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ افتراء آخر منهم على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو قولهم: «إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» و هو كما يلوّح اليه سياق اعتراضهم و ما ورد فى الجواب عنه أنه كان هناك رجل أعجمى غير فصيح فى منطقه عنده شىء من معارف الأديان و أحاديث النبوه ربما لاقاه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فاتهموه بأنه يأخذ ما يدّعيه وحيا منه و الرجل هو الذى يعلمه و هو الذى حكاه اللّه تعالى من قولهم: «إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» و فى القول إيجاز،و تقديره:إنما يعلمه بشر و ينسب ما تعلمه منه الى اللّه افتراء عليه،و هو ظاهر.

و من المعلوم أن الجواب عنه بمجرّد أن لسان الرجل أعجمى و القرآن عربى مبين لا يحسم ماده الشبهه من أصلها لجواز أن يلقى اليه المطالب بلسانه الأعجمى ثم يسبكها هو صلّى اللّه عليه و آله و سلم ببلاغه منطقه فى قالب العربيه الفصيحه بل هذا هو الأسبق الى الذهن من قولهم: «إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» حيث عبّروا عن ذلك بالتعليم دون التلقين و الإملاء،و التعليم أقرب الى المعانى منه الى

الألفاظ.

و بـذلك يظهر أن قوله: «لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ -الى قوله- مُبِينٌ» ليس وحده جوابا عن شبهتهم بل ما يتلوه من الكلام الى تمام آيتين من تمام الجواب.

و ملخص الجواب مأخوذ من جميع الآيات الثلاث أن ما اتهمتموه به أن بشرا يعلمه ثم هو ينسبه الى اللّه افتراء إن أردتم أنه يعلمه القرآن بلفظه بالتلقين عليه و أن القرآن كلامه لا كلام اللّه فجوابه أن هذا الرجل لسانه أعجمى و هذا القرآن عربى مبين.

و إن أردتم أن الرجل يعلمه معانى القرآن-و اللفظ لا محاله للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم-و هو ينسبه الى اللّه افتراء عليه فالجواب عنه أن الذى يتضمنه القرآن معارف حقّه لا يرتاب ذو لبّ فيها و تضطرّ العقول الى قبولها قد هدى اللّه النبى إليها فهو مؤمن بآيات اللّه إذ لو لم يكن مؤمنا لم يهده اللّه و اللّه لا يهدى من لا يؤمن بآياته و إذ كان مؤمنا بآيات اللّه فهو لا يفترى على اللّه الكذب فإنه لاـ يفترى عليه إلا من لا يؤمن بآياته،فليس هذا القرآن بمفترى،و لا مأخوذا من بشر و منسوبا الى اللّه سبحانه كذبا.

فقوله: «لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» جواب عن أول شقّى الشبهه و هو أن يكون القرآن بلفظه مأخوذا من بشر على نحو التلقين،و المعنى:أن لسان الرجل الذى يلحدون أى يميلون اليه و ينوونه بقولهم: «إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» أعجمى أى غير فصيح بيّن و هذا القرآن المتلو عليكم لسان عربى مبين و كيف يتصوّر صدور بيان عربى بليغ من رجل أعجمى اللسان؟

و قوله: إِنَّ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ الى آخر الآيتين؛جواب عن ثانى شقّى الشبهه و هو أن يتعلم منه المعانى ثم ينسبها الى اللّه افتراء.

و المعنى:أن الذين لا يؤمنون بآيات اللّه و يكفرون بها لا يهديهم اللّه اليه و الى معارفه الحقه الظاهره و لهم عذاب أليم،و النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم مؤمن بآيات اللّه لأنه مهدى بهدايه اللّه،و إنما يفترى

الکذب و ینسبه الی اللّه الذین لا یؤمنون بآیات اللّه و أولئک هم الکاذبون المستمرون علی الکذب،و أما مثل النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم المؤمن بآیات اللّه فإنه لا یفتری الکذب و لا یکذب فالآیتان کنایتان عن أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم مهدی بهدایه اللّه مؤمن بآیاته و مثله لا یفتری و لا یکذب (۱).

[سوره النحل (۱۶): الآیات ۱۰۶ الی ۱۱۱]

اشاره

مَنْ کَفَرَ بِاللّهِ مِنْ بَعْدِ إِیمانِهِ إِلاّ مَنْ أُکْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِیمانِ وَ لکِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْکُفْرِ صَدْراً فَعَلَیْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اَللّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ (۱۰۶) ذلِکَ بِأَنَّهُمُ اِسْتَحَبُّوا اَلْحَیاهَ اَلدُّنْیا عَلَی اَلْآخِرَهِ وَ أَنَّ اَللّهَ لا یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلْکافِرِینَ (۱۰۷) أُولئِکَ اَلَّذِینَ طَبَعَ اَللّهُ عَلی قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ وَ أُولئِکَ هُمُ اَلْغافِلُونَ (۱۰۸) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِی اَلْآخِرَهِ هُمُ اَلْخاسِرُونَ (۱۰۹) ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۱۰) یَوْمَ تَأْتِی کُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَ تُوَفّی کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (۱۱۱)

ص: ۶۲۷

۱- ۱) .النحل ۹۰-۱۰۵:بحث روائی حول الآیه «إِنَّ اللّهَ یَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ» ؛الحیاه الطیبه.

بیان:

قوله تعالی: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ الاطمئنان السكون و الاستقرار،و الشرح البسط،قال فی المفردات:أصل الشرح بسط اللحم و نحوه،يقال:

شرحت اللحم و شرّحته،و منه شرح الصدر أی بسطه بنور إلهی و سكينه من جهه اللّه و روح منه،قال تعالی: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ و شرح المشكل من الكلام بسطه و إظهار ما يخفی من معانيه.انتهی.

و قوله: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ شرط جوابه قوله: «فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ» و عطف عليه قوله: «وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» و ضمير الجمع فی الجزاء عائد الی اسم الشرط «مَنْ» لكونه بحسب المعنی كليا ذا أفراد.

و قوله: إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ استثناء من عموم الشرط و المراد بالإكراه الإجبار علی كلمه الكفر و التظاهر به فإن القلب لا يقبل الإكراه و المراد أستثنی من أكره علی الكفر بعد الإيمان فكفر فی الظاهر و قلبه مطمئن بالإيمان.

و قوله: «وَ لٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً» أی بسط صدره للكفر فقبله قبول رضی و وعاه، و الجمله استدراك من الاستثناء فيعود الی معنی المستثنی منه فإن المعنی ما أريد بقولی «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ» من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان و لكن أريد به من شرح بالكفر صدرا، و فی مجموع الاستثناء و الاستدراك بيان كامل للشرط،و هذه هی النكته لاعتراض الاستثناء بين الشرط و الجزاء و عدم تأخيره الی أن تتم الشرطيّه.

قوله تعالی: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ بيان لسبب حلول غضب اللّه بهم و ثبوت العذاب العظيم عليهم

و هو أنهم اختاروا الحياه الدنيا و هی الحياه الماديه التی لا غايه لها إلا التمتع الحيوانی و الاشتغال بمشتهيات النفس علی الآخره التی هی حياه دائمه مؤبده فی جوار رب العالمين و هی غايه الحياه الإنسانيه.

و بعباره اخری هؤلاء لم يريدوا إلا الدنيا و انقطعوا عن الآخره و كفروا بها و اللّه لا يهدی القوم الكافرين و إذ لم يهدهم اللّه ضلوا عن طريق السعاده و الجنه و الرضوان فوقعوا فی غضب من اللّه و عذاب عظيم.

قوله تعالی: أُولٰئِکَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّٰهُ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصٰارِهِمْ وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْغٰافِلُونَ إشاره الی أن اختيار الحياه الدنيا علی الآخره و الحرمان من هدايه اللّه سبحانه هو الوصف الذی يوصف به الذين طبع اللّه علی قلوبهم و سمعهم و أبصارهم و الذين يسمّون غافلين.

فإنهم باختيارهم الحياه الدنيا غايه لأنفسهم و حرمانهم من الاهتداء الی الاخری انقطعوا عن الآخره و تعلقوا بالدنيا و جعلوها غايه لأنفسهم فوقف حسهم و عقلهم فيها دون أن يتعدياها الی ما وراءها و هو الآخره فليسوا يبصرون ما يعتبرون به و لا يسمعون عظه يتعظون بها و لا يعقلون حجه يهتدون بها الی الآخره.

قوله تعالی: لاٰ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِی الْآخِرَهِ هُمُ الْخٰاسِرُونَ لأنهم ضيعوا رأس مالهم فی الدنيا فبقوا لا زاد لهم يعيشون به فی اخراهم،و قد وقع فی نظير المقام من سوره هود:

لاٰ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِی الْآخِرَهِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (هود/۲۲)،و لعل وجه التشديد هناک أنه تعالی أضاف الی صفاتهم هناک أنهم صدوا عن سبيل اللّه فراجع.

قوله تعالی: ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِينَ هٰاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا فُتِنُوا ثُمَّ جٰاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ الفتنه فی الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم استعمل فی مطلق البلاء و التعذيب،و قد كانت قريش و مشركوا مكه يفتنون

المؤمنين ليردوهم عن دينهم و يعذبونهم بأنواع العذاب حتى ربما كانوا يموتون تحت العذاب كما فتنوا عمارا و أباه و أمه فقتل أبواه و ارتد عمار ظاهرا فتفصى منهم بالتقيه،و فى ذلك نزلت الآيات السابقه كما سيأتى إن شاء اللّه فى البحث الروائى.

فقوله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هٰاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا فُتِنُوا وعد جميل للمهاجرين من بعد ما فتنوا بالمغفره و الرحمه يوم القيامه قبال ما أوعد غيرهم بالخسران التام يومئذ و قد قيّد ذلك بالجهاد و الصبر بعد المهاجره.

و قوله: «إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» بمنزله تلخيص صدر الكلام-لطوله-ليلحق به ذيله،و يفيد فائده التأكيد كقولنا:زيد فى الدار زيد فى الدار كذا و كذا،و يفيد أن لما ذكر من قيود الكلام دخلا فى الحكم فاللّه سبحانه لا يرضى عنهم إلا أن يهاجروا و لا عن هجرتهم إلا أن يجاهدوا بعدها و يصبروا.

قوله تعالى: يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجٰادِلُ عَنْ نَفْسِهٰا وَ تُوَفّٰى كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ إتيان النفس يوم القيامه كنايه عن حضورها عند الملك الديّان،كما قال: فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (الصافات/۱۲۷)،و الضمير فى قوله: «عَنْ نَفْسِهٰا» للنفس و لا ضير فى إضافه النفس الى ضمير النفس فإن النفس ربما يراد بها الشخص الإنسانى كقوله: مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ (المائده/۲۲)،و ربما يراد بها التأكيد و يتحدد معناها بما تقدمها من المؤكد سواء كان إنسانا أو غيره،كما يقال:الإنسان نفسه و الفرس نفسه و الحجر نفسه و السواد نفسه،و يقال:نفس الإنسان و نفس الفرس و نفس الحجر و نفس السواد، و قوله: «عَنْ نَفْسِهٰا» المراد فيه بالمضاف المعنى الثانى و بالمضاف اليه المعنى الأول،و قد دفع التعبير بالضمير بشاعه تكرار اللفظ بالإضافه،و فى هذا المقدار كفايه عن الأبحاث الطويله التى أوردها المفسرون.

و قوله: يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجٰادِلُ عَنْ نَفْسِهٰا الظرف متعلق بقوله فى الآيه

السابقه: «لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» و مجادله النفس عن نفسها دفاعها عن نفسها و قد نسيت كل شيء وراء نفسها على خلاف ما كانت عليه فى الدنيا من التعلق بكل شيء دون نفسها بنسيانها و ليس ذلك إلا لظهور حقيقه الأمر عليها و هى أن الإنسان لا سبيل له الى ما وراء نفسه، و ليس له فى الحقيقه إلا أن يشتغل بنفسه.

فاليوم تأتى النفس و تحضر للحساب و هى تجادل و تصر على الدفاع عن نفسها بما تقدر عليه من الأعذار.

و قوله: وَ تُوَفّى كُلُّ نَفْسٍ مّا عَمِلَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ التوفيه إعطاء الحق تاما من غير تنقيص،و قد علّق التوفيه على نفس العمل إذ قيل «مّا عَمِلَتْ» فافيد أن الذى أعطيته نفس العمل من غير أن يتصرف فيه بتغيير أو تعويض،و فيه كمال العدل حيث لم يضف الى ما استحقته شيء و لا نقص منه و لذلك عقّبه بقوله: «وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» (۱).

[سوره النحل (۱۶): الآيات ۱۱۲ الى ۱۲۸]

اشاره

وَ ضَرَبَ اَللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اَللّهِ فَأَذاقَهَا اَللّهُ لِباسَ اَلْجُوعِ وَ اَلْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (۱۱۲) وَ لَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ اَلْعَذابُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (۱۱۳) فَكُلُوا مِمّا رَزَقَكُمُ اَللّهُ حَلالاً طَيِّباً وَ اُشْكُرُوا نِعْمَتَ اَللّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ (۱۱۴) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ اَلْمَيْتَةَ وَ اَلدَّمَ وَ لَحْمَ اَلْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اَللّهِ بِهِ فَمَنِ اُضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ اَللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۵) وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ اَلْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اَللّهِ اَلْكَذِبَ إِنَّ اَلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اَللّهِ اَلْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (۱۱۶) مَتاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۱۷) وَ عَلَى اَلَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۱۱۸) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا اَلسُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۹) إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (۱۲۰) شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اِجْتَباهُ وَ هَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۲۱) وَ آتَيْناهُ فِي اَلدُّنْيا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي اَلْآخِرَةِ لَمِنَ اَلصّالِحِينَ (۱۲۲) ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اِتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (۱۲۳) إِنَّما جُعِلَ اَلسَّبْتُ عَلَى اَلَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۲۴) اُدْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ اَلْمَوْعِظَةِ اَلْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۱۲۵) وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّابِرِينَ (۱۲۶) وَ اِصْبِرْ وَ ما صَبْرُكَ إِلاّ بِاللّهِ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ (۱۲۷) إِنَّ اَللّهَ مَعَ اَلَّذِينَ اِتَّقَوْا وَ اَلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (۱۲۸)

۱- ۱) .النحل ۱۰۶-۱۱۱:بحث روائى فى امر رسول اللّه المسلمين بالهجره؛التقيه؛ايذاء المشركين بلالا؛اخذ المشركين عمار بن ياسر؛تقيه عمار بن ياسر.

بيان:

وَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً قَرْيَةً كٰانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهٰا رِزْقُهٰا رَغَداً الى آخر الآيه؛الرغد من العيش هو الواسع الطيّب.

هـذا مثل ضـربه اللّه تعالى فوصف فيه قريه آتاها ما تحتاج اليه من نعم الحياه،و أتمّ ذلك كله بنبى بعثه اليهم يدعوهم الى ما فيه صلاـح دنيـاهم و أخراهم فكفروا بـأنعمه و كـذّبوا رسوله فبـدّل اللّه نعمته نقمه و عـذّبهم بما ظلموا بتكـذيب رسوله،و فى المثل تحذير عن كفران نعمه اللّه بعد إذ بذلت و الكفر بآياته بعد إذ أنزل.

و فيه توطئه و تمهيـد لمـا سـيذكره من محللاـت الأكـل و محرّمـاته و ينهى عن تشـريع الحلاـل و الحرام بغير إذن اللّه كل ذلك بالاستفاده من سياق الآيات فإن كل سابقه منها تسوق النظر الى اللاحقه.

و قوله: فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّٰهِ فَأَذٰاقَهَا اللّٰهُ لِبٰاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ التعبير بأنعم اللّه و هو جمع قله للإشاره بها الى الأصناف المذكوره و هى ثلاثه:الأمن و الاطمئنان و إتيان الرزق،و الإذاقه استعاره للايصال اليسير فإذاقه الجوع و الخوف مشعر بأن الذى

یوصلهما قادر علی تضعیف ذلک و تکثیره بما لا یقدر بقدر کیف لا؟و هو اللّه الذی له القدره کلها.

ثم إضافه اللباس الی الجوع و الخوف و فیها دلاله علی الشمول و الإحاطه کما یشمل اللباس البدن،و یحیط به،تشعر بأن هذا المقدار الیسیر من الجوع و الخوف الذی أذاقهم شملهم کما یشمل اللباس بدن الإنسان و هو سبحانه قادر علی أن یزید علی ذلک فهو المتناهی فی قهره و غلبته و هم المتناهون فی ذلتهم و هوانهم.

ثم ختم الآیه بقوله: «بِمٰا کٰانُوا یَصْنَعُونَ» للدلاله علی أنه سنه المجازاه فی الشکر و الکفر قائمه علی ساق.

و المعنی:ضرب اللّه مثلا مثل قریه کان أهلها آمنین من کل شر و سوء یهددهم فی نفوسهم و أعراضهم و أموالهم ساکنین غیر مضطرین یأتیهم رزقهم طیبا واسعا من کل مکان من غیر أن یضطروا الی السفر و الاغتراب فکفر أهلها بهذه النعم الإلهیه و لم یشکروه سبحانه فأنالهم اللّه شیئا یسیرا من نقمته-بسلب هذه النعم-و هو الجوع و الخوف اللذان عماهم و شملاهم قبال ما استمروا علیه بکفران الأنعم جزاء لکفرانهم.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَکَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذٰابُ وَ هُمْ ظٰالِمُونَ و هذا هو النعمه المعنویه التی أضافها الی نعمه المادیه المذکوره،و کان فیها صلاح معاشهم و معادهم و تحذیر لهم من الکفران بأنعم اللّه و شرح ما فیه من الشؤم و الشقاء لکنهم کذبوا رسولهم الذی هو منهم یعرفونه و یدرون أنه إنما یدعوهم لأمر إلهی و یهدیهم الی سبیل الرشاد و سعاده الجد فظلموا ذلک فأخذهم العذاب بظلمهم.

و بهذا التقریر یظهر ما فی القیود المأخوذه فی الآیه من النکات.

قوله تعالی: فَکُلُوا مِمّٰا رَزَقَکُمُ اللّٰهُ حَلاٰلاً طَیِّباً الی آخر الآیه،تفریع علی ما تحصل من المثل نتیجه،و التقدیر إذا کان الحال هذا الحال و کان فی کفران هذا الرزق الرغد

عذاب و فى تكذيب الدعوه عذاب فكلوا مما رزقكم اللّه حال كونه حلالا طيبا أى لستم بممنوعين منه و أنتم تستطيبونه فكلوا منه و اشكروا نعمه اللّه إن كنتم إياه تعبدون.

قوله تعالى: إِنَّمٰا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَهَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مٰا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ تقدم الكلام فى معنى الآيه فى تفسير سوره البقره الآيه ۱۷۳ و سوره المائده الآيه ۳ و سوره الأنعام الآيه ۱۴۵.

و الآيه بمعناها على اختلاف ما فى لفظها واقعه فى أربعه مواضع من القرآن:فى سورتى الأنعام و النحل و هما مكيتان من أوائل ما نزلت بمكه و أواخرها،و فى سورتى البقره و المائده و هما من أوائل ما نزلت بالمدينه و أواخرها،و هى تدلّ على حصر محرّمات الأكل فى الأربع المذكوره:الميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهلّ لغير اللّه به كما نبّه عليه بعضهم.

لكن بالرجوع الى السنّه يظهر أن هذه هى المحرّمات الأصليه التى عنى بها فى الكتاب و ما سوى هذه الأربع من المحرّمات مما حرّمه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأمر من ربه و قد قال تعالى: مٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (الحشر/۷)،و قد تقدم بعض الروايات الدالّه على هذا المعنى.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَقُولُوا لِمٰا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هٰذٰا حَلاٰلٌ وَ هٰذٰا حَرٰامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ الخ؛«ما»فى قوله: «لِمٰا تَصِفُ» مصدريه و الكذب مفعول «تَصِفُ» أى لا تقولوا هذا حلال و هذا حرام بسبب وصف ألسنتكم لغايه افتراء الكذب على اللّه.

ثم قال سبحانه فى مقام تعليل النهى: «إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ لاٰ يُفْلِحُونَ» ثم بيّن حرمانهم من الفلاح بقوله: «مَتٰاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ» .

قوله تعالى: وَ عَلَى الَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا مٰا قَصَصْنٰا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ الخ؛

ص :۶۳۵

المراد بقوله: «مٰا قَصَصْنٰا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ» -كما قيل-ما قصّه تعالى على نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى سوره الأنعام-و قد نزلت قبل سوره النحل بلا إشكال-بقوله: وَ عَلَى الَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ الى آخر الآيه؛(الأنعام/١۴۶).

و الآيه فى مقام دفع الدخل و فيها عطف على مسأله النسخ المذكوره سابقا كأن قائلا يقول:

فإذا كانت محرّمات الأكل منحصره فى الأربع المذكوره:الميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير اللّه به،و كان ما وراءها حلالا فما هذه الأشياء المحرّمه على بنى إسرائيل من قبل؟هل هذا إلاّ ظلم بهم؟

فأجاب عنه بأنا حرّمنا عليهم ذلك و ما ظلمناهم فى تحريمه و لكنهم كانوا يظلمون أنفسهم فنحرّم عليهم بعض الأشياء أى إنه كان محللا لهم مأذونا فيه لكنهم ظلموا أنفسهم و عصوا ربهم فجزيناهم بتحريمه عقوبه كما قال سبحانه فى موضع آخر: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَيْهِمْ طَيِّبٰاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ الآيه؛و لو أنهم بعد ذلك كله رجعوا الى ربهم و تابوا عن معاصيهم تاب اللّه عليهم و رفع الحظر عنهم و أذن لهم فيما منعم عنه إنه لغفور رحيم.

قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهٰالَةٍ ثُمَّ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ الجهاله و الجهل واحد و هو فى الأصل ما يقابل العلم لكن الجهاله كثيرا ما تستعمل بمعنى عدم الانكشاف التام للواقع و إن لم يخل المحلّ عن علم ما مصحح للتكليف كحال ما يقترف المحرمات و هو يعلم بحرمتها لكن الأهواء النفسانيه تغلبه و تحمله على المعصيه و لا تدعه يتفكر فى حقيقه هذه المخالفه و المعصيه فله علم بما ارتكب و لذلك يؤاخذ و يعاقب على ما فعل و هو مع ذلك جاهل بحقيقه الأمر و لو تبصّر تمام التبصر لم يرتكب.

و المراد بالجهاله فى الآيه هذا المعنى إذ لو كان المراد هو الأول و كان ما ذكر من عمل السوء مجهولا من حيث حكمه أو من حيث موضوعه لم يكن العمل معصيه حتى يحتاج الى التوبه

فالمغفره و الرحمه.

و قوله فی ذیل الآیه: «إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهٰا» تلخیص لتفصیل قوله فی صدرها: «إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ» الخ؛و فائدته حفظ فهم السامع عن التشوش و الضلال و إبراز العنایه ببعدیه المغفره و الرحمه بالنسبه الی التوبه نظیر ما مرّ من قوله: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ هٰاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا فُتِنُوا ثُمَّ جٰاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِیمٌ» .

قوله تعالی: إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ کٰانَ أُمَّةً قٰانِتاً لِلّٰهِ حَنِیفاً وَ لَمْ یَکُ مِنَ الْمُشْرِکِینَ الآیه؛و ما یتلوها علی اتصالها بما تقدم من حصر محرمات الأکل فی الأربع و تحلیل ما وراءها، و هذه الآیه الی تمام أربع آیات بمنزله التفصیل لما تقدمها کأنه قیل:هذا حال مله موسی التی حرّمنا فیها علی بنی إسرائیل بعض ما أحلّ لهم من الطیبات،و أما هذه المله التی أنزلناها الیک فإنما هی المله التی تحقق بها إبراهیم فاجتباه اللّٰه و هداه الی صراط مستقیم و أصلح بها دنیاه و آخرته،و هی مله معتدله جاریه علی الفطره تحلل الطیبات و تحرّم الخبائث یجلب العمل بها من الخیر ما جلبه لإبراهیم علیه السّلام منه.

فقوله: إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ کٰانَ أُمَّةً قال فی المفردات:و قوله: «إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ کٰانَ أُمَّةً قٰانِتاً لِلّٰهِ» أی قائما مقام جماعه فی عباده اللّٰه نحو قولهم:فلان فی نفسه قبیله،انتهی؟و هو قریب مما نقل عن ابن عباس،و قیل:معناه الإمام المقتدی به،و قیل:إنه کان أمه منحصره فی واحد مده من الزمان لم یکن علی الأرض موحّد یوحّد اللّٰه غیره.

و قوله: قٰانِتاً لِلّٰهِ حَنِیفاً وَ لَمْ یَکُ مِنَ الْمُشْرِکِینَ القنوت:الإطاعه و العباده أو دوامها،و الحنف:المیل من الطرفین الی حاقّ الوسط و هو الاعتدال.

قوله تعالی: شٰاکِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبٰاهُ وَ هَدٰاهُ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ الاجتباء من الجبایه و هو الجمع و اجتباء اللّٰه الإنسان هو إخلاصه لنفسه و جمعه من التفرّق فی المذاهب المختلفه.و فی تعقیب قوله: «شٰاکِراً لِأَنْعُمِهِ» بقوله: «اجْتَبٰاهُ» الخ؛مفصولا إشعار بالعلّیه

و ذلک یؤید ما تقدم فی سوره الأعراف فی تفسیر قوله: وَ لاٰ تَجِدُ أَکْثَرَهُمْ شٰاکِرِینَ (الأعراف/١٧)،أن حقیقه الشکر هو الإخلاص فی العبودیه.

قوله تعالی: وَ آتَیْنٰاهُ فِی الدُّنْیٰا حَسَنَهً وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَهِ لَمِنَ الصّٰالِحِینَ الحسنه هی المعیشه الحسنه فقد کان علیه السّلام ذا مال کثیر و مروّه عظیمه.

و قد بسطنا الکلام فی معنی الاجتباء فی تفسیر سوره یوسف عند الآیه ۶،و فی معنی الهدایه و الصراط المستقیم فی تفسیر الفاتحه عند قوله: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِیمَ (الآیه ۶)،و فی معنی قوله: وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَهِ لَمِنَ الصّٰالِحِینَ (البقره/١٣٠)،فراجع.

و فی توصیفه تعالی إبراهیم علیه السّلام بما وصفه من الصفات إشاره الی أنها من مواهب هذا الدین الحنیف،فإن انتحل به الإنسان ساقه الی ما ساق الیه إبراهیم علیه السّلام.

قوله تعالی: ثُمَّ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّهَ إِبْرٰاهِیمَ حَنِیفاً وَ مٰا کٰانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ تکرار اتّصافه بالحنف و نفی الشرک لمزید العنایه به.

قوله تعالی: إِنَّمٰا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَی الَّذِینَ اخْتَلَفُوا فِیهِ الی آخر الآیه؛قال فی المفردات:أصل السبت القطع و منه سبت السیر قطعه و سبت شعره حلقه،و أنفه اصطلمه، و قیل:سمّی یوم السبت لأن اللّه تعالی ابتدأ بخلق السماوات و الأرض یوم الأحد فخلقها فی سته أیام کما ذکره فقطع عمله یوم السبت فسمّی بذلک.

و سبت فلان صار فی السبت،و قوله: «یَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً» قیل:یوم قطعهم للعمل «وَ یَوْمَ لاٰ یَسْبِتُونَ» قیل:معناه لا یقطعون العمل و قیل:یوم لا یکونون فی السبت و کلاهما إشاره الی حاله واحده،و قوله: «إِنَّمٰا جُعِلَ السَّبْتُ» أی ترک العمل فیه «وَ جَعَلْنٰا نَوْمَکُمْ سُبٰاتاً» أی قطعا للعمل و ذلک إشاره الی ما قال فی صفه اللیل: «لِتَسْکُنُوا فِیهِ» انتهی.

فالمراد بالسبت علی ما ذکره نفس الیوم لکن معنی جعله جعل ترک العمل فیه و تشریعه، و یمکن أن یکون المراد به المعنی المصدری دون الیوم المجعول فیه ذلک کما هو ظاهر قوله:

تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لاٰ يَسْبِتُونَ لاٰ تَأْتِيهِمْ (الأعراف/١۶٣).

و كيف كان فقد كان من طبع الكلام أن يقال:إنما جعل السبت للذين،حتى يفيد نوعا من الاختصاص و الملك و أن اللّه شرّع لهم فى كل أسبوع أن يقطعوا العمل يوما يفرغون فيه لعباده ربهم و هو يوم السبت كما جعل للمسلمين فى كل اسبوع يوما يجتمعون فيه للعباده و الصلاه و هو يوم الجمعه.

فقوله: إِنَّمٰا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ بتعديه جعل بعلى دون اللام من قبيل قولهم:لى عليك دين و هذا عليك لا لك فتفيد معنى التكليف و التشديد و الابتلاء أى إنما جعل للتشديد عليهم و ابتلائهم و امتحانهم فقد كان هذا الجعل عليهم لا لهم كما انجر أمرهم فيه الى لعن طائفه منهم و مسخ آخرين و قد أشير الى ذلك فى سوره البقره الآيه ۶۵ و سوره النساء الآيه ۴٧.

و الأنسب على هذا أن يكون المراد بقوله: «اخْتَلَفُوا فِيهِ» أى فى السبت اختلافهم فيه بعد التشريع فإنهم تفرقوا فيه فرقا ممن قبله و ممن رده و ممن احتال للعمل فيه على ما اشير الى قصصهم فى سور البقره و النساء و الأعراف لا اختلافهم فيه قبل التشريع بأن يعرض عليهم أن يسبتوا فى كل اسبوع يوما للعباده ثم يجعل ذلك اليوم هو الجمعه فيختلفوا فيه فيجعل عليهم يوم السبت كما وقع فى بعض الروايات.

و المعنى إنما جعل يوم السبت أو قطع العمل للعباده يوما فى كل اسبوع تشديدا و ابتلاء و فتنه و كلفه على اليهود الذين اختلفوا فيه بعد تشريعه بين من قبله و من ردّه و من احتال فيه للعمل مع التظاهر بقبوله و إن ربك ليحكم بينهم يوم القيامه فيما كانوا فيه يختلفون.

و بالبناء على هذا يكون وزان الآيه وزان قوله السابق: «وَ عَلَى الَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا» الخ؛ فى أنها فى معنى الجواب عن سؤال مقدر عطفا على ما مر من حديث النسخ،و التقدير و أما جعل السبت لليهود فإنما جعل لا لهم بل عليهم ليبتليهم اللّه و يفتنهم به و يشدد عليهم كما قد

تکرر نظائره فیهم لکونهم عاتین معتدین مستکبرین و بالجمله الآیه ناظره الی الاعتراض بتشریع بعض الأحکام غیر الفطریه علی الیهود و نسخه فی هذه الشریعه.

و إنما لم یضم الی قوله سابقا: «وَ عَلَی الَّذِینَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا» الخ؛لکون مسأله السبت مغایره لسنخ مسأله تحلیل الطیبات و استثناء محرمات الأکل،و قد عرفت أن الکلام علی اتصاله من قوله: «وَ عَلَی الَّذِینَ هٰادُوا» الی قوله: «وَ مٰا کٰانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ» سبع آیات تامه ثم اتصلت بها هذه الآیه و هی ثامنتها الملحقه بها.

و من هنا یظهر الجواب عما اعترض به أن توسیط جعل السبت بین حکایه أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم باتباع مله إبراهیم علیه السّلام و بین أمره علیه السّلام بالدعوه إلیها و بعباره اخری وقوع قوله: «إِنَّمٰا جُعِلَ السَّبْتُ» الخ؛بین قوله: «ثُمَّ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ» الخ؛و قوله: «ادْعُ إِلیٰ سَبِیلِ رَبِّکَ» الخ؛کالفصل بین الشجر و لحائه.

و محصل الجواب أن قوله: «ثُمَّ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّهَ إِبْرٰاهِیمَ» الآیه؛من تمام السیاق السابق،و قوله: «إِنَّمٰا جُعِلَ السَّبْتُ» الآیه،متصل بما تقدمه کما عرفت،و أما قوله: «ادْعُ إِلیٰ سَبِیلِ رَبِّکَ» الآیه؛فهو استئناف و أمر بالدعوه الی سبیل اللّه بفنون الخطاب لا الی مله إبراهیم حتی یتصل بالآیه السابقه نوع اتصال و إن کان سبیل اللّه هو مله إبراهیم بعینها لکن للفظ حکم و للمعنی بحسب المآل حکم آخر،فافهم.

قوله تعالی: اُدْعُ إِلیٰ سَبِیلِ رَبِّکَ بِالْحِکْمَهِ وَ الْمَوْعِظَهِ الْحَسَنَهِ وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ الی آخر الآیه لا شک فی أنه یستفاد من الآیه أن هذه الثلاثه:الحکمه و الموعظه و المجادله من طرق التکلیم و المفاوضه فقد أمر بالدعوه بأحد هذه الامور فهی من أنحاء الدعوه و طرقها و إن کان الجدال لا یعد دعوه بمعناها الأخص.

و قد فسرت الحکمه-کما فی المفردات-بإصابه الحق بالعلم و العقل،و الموعظه-کما عن الخلیل-بأنه التذکیر بالخیر فیما یرق له القلب،و الجدال-کما فی المفردات-بالمفاوضه علی

سبیل المنازعه و المغالبه.

و التأمل فی هذه المعانی یعطی أن المراد بالحکمه-و اللّه أعلم-الحجه التی تنتج الحق الذی لا مریه فیه و لا وهن و لا إبهام و الموعظه هو البیان الذی تلین به النفس و یرق له القلب،لما فیه من صلاح حال السامع من الغبر و العبر و جمیل الثناء و محمود الأثر و نحو ذلک.

و الجدال هو الحجه التی تستعمل لفتل الخصم عما یصرّ علیه و ینازع فیه من غیر أن یرید به ظهور الحق بالمؤاخذه علیه من طریق ما یتسلمه هو و الناس أو یتسلمه هو وحده فی قوله أو حجته.

فینطبق ما ذکره تعالی من الحکمه و الموعظه و الجدال بالترتیب علی ما اصطلحوا علیه فی فن المیزان بالبرهان و الخطابه و الجدل.

غیر أنه سبحانه قیّد الموعظه بالحسنه و الجدال بالتی هی أحسن،ففیه دلاله علی أن من الموعظه ما لیست بحسنه و من الجدال ما هو أحسن و ما لیس بأحسن و لا حسن،و اللّه تعالی یأمر من الموعظه بالموعظه الحسنه و من الجدال بأحسنه.

ثم إن فی قوله: «بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أخذا بالترتیب من حیث الأفراد فالحکمه مأذون فیها بجمیع أفرادها،و الموعظه منقسمه الی حسنه و غیر حسنه و المأذون فیها منهما هی الموعظه الحسنه،و المجادله منقسمه الی حسنه و غیر حسنه ثم الحسنه الی التی هی أحسن و غیرها و المأذون فیها منها التی هی أحسن،و الآیه ساکته عن توزیع هذه الطرق بحسب المدعوّین بالدعوه فالملاک فی استعمالها من حیث المورد حسن الأثر و حصول المطلوب و هو ظهور الحق.

قوله تعالی: وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ قال فی المفردات:العقوبه و العقاب و المعاقبه تختص بالعذاب،انتهی.و الأصل فی معناه العقب و هو مؤخر الرّجل و عقیب الشیء و عاقبه الأمر ما یلیه من ورائه أو آخره،

و التعقیب الإتیان بشیء عقیب شیء و معاقبتک غیرک أن تأتی بما یسوؤه عقیب إتیانه بما یسوؤک فینطبق علی المجازاه و المکافأه بالعذاب.

فقوله: وَ إِنْ عٰاقَبْتُمْ فَعٰاقِبُوا بِمِثْلِ مٰا عُوقِبْتُمْ بِهِ الخطاب فیه للمسلمین-علی ما یفیده السیاق-و لازمه أن یکون المراد بالمعاقبه مجازاه المشرکین و الکفار،و بقوله:

«عُوقِبْتُمْ بِهِ» عقاب الکفار إیاهم و مجازاتهم لهم بما آمنوا باللّه و رفضوا آلهتهم.

و المعنی:و إن أردتم مجازاه الکفار و عذابهم فجازوهم علی ما فعلوا بکم بمثل ما عذبوکم به مجازاه لکم علی إیمانکم و جهادکم فی اللّه.

و قوله: وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَیْرٌ لِلصّٰابِرِینَ أی صبرتم علی مرّ ما عوقبتم به و لم تعاقبوا و لم تکافئوا لهو خیر لکم بما أنکم صابرون لما فیه من إیثار رضی اللّه و ثوابه فیما أصابکم من المحنه و المصیبه علی رضی أنفسکم بالتشفی بالانتقام فیکون العمل خالصا لوجهه الکریم، و لما فی الصبح و العفو من إعمال الفتوّه و لها آثارها الجمیله.

قوله تعالی: وَ اصْبِرْ وَ مٰا صَبْرُکَ إِلاّٰ بِاللّٰهِ الی آخر الآیه أمر للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالصبر و بشری له أن اللّه قوّاه علی الصبر علی مرّ ما یلقاه فی سبیله فإنه تعالی یذکر أن صبره إنما هو بحول و قوه من ربه ثم یأمره بالصبر و لازم الأمر قدره المأمور علی المأمور به ففی قوله: «وَ مٰا صَبْرُکَ إِلاّٰ بِاللّٰهِ» إشاره الی أن اللّه قوّاک علی ما أمرک به.

و قوله: وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ أی علی الکافرین لکفرهم،و قد تقدم تفسیر هذا المعنی سابقا فی السوره و غیرها.

و قوله: «وَ لاٰ تَکُ فِی ضَیْقٍ مِمّٰا یَمْکُرُونَ» الظاهر أن المراد النهی عن التحرج من مکرهم فی الحال أو علی سبیل الاستمرار دون مجرد الاستقبال.

قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ الَّذِینَ هُمْ مُحْسِنُونَ أی إن التقوی و الإحسان کل منهما سبب مستقل فی موهبه النصره الالهیه و إبطال مکر أعداء الدین و دفع

كيدهم فالآيه تعليل لقوله: «وَ لاٰ تَکُ فِی ضَیْقٍ مِمّٰا یَمْکُرُونَ» و وعد بالنصر.

و هـذه الآيات الثلاث أشبه مضـمونا بالآيات المدنيه منها بالمكيه و قد وردت روايات من طرق الفريقين أنها نزلت فى منصـرف النبى صلّى اللّه عليه و آله و سـلم عن أحد و سيأتى فى البحث الروائى و إن كان من الممكن توجيه اتصالها بما قبلها بوجه كما تصدى له بعضهم.

و ممـا يجب أن يتنبه له أن الآيه التى قبل الثلاثه أجمع لغرض السوره من هـذه الثلاث،و أن لآيات السوره مع الإغماض عن قوله: «وَ الَّذِینَ هٰاجَرُوا» الآـيه،و قوله: «مَنْ کَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِیمٰانِهِ» الى تمام بضع آيات،و قوله: «وَ إِنْ عٰاقَبْتُمْ» الى آخر السوره،سـياقا واحدا متصلا.

ص :۶۴۳

سوره الإسراء مکیه و هی مائه و إحدی عشره آیه

اشاره

[سوره الإسراء (١٧): آیه ١]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;سُبْحانَ اَلَّذِی أَسْریٰ بِعَبْدِهِ لَیْلاً مِنَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرامِ إِلَی اَلْمَسْجِدِ اَلْأَقْصَی اَلَّذِی بارَکْنا حَوْلَهُ لِنُرِیَهُ مِنْ آیاتِنا إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْبَصِیرُ (١)

بیان:

اشاره

السوره تتعرض لأمر توحیده تعالی عن الشریک مطلقا و مع ذلک یغلب فیها جانب التسبیح علی جانب التحمید کما بدئت به فقیل «سُبْحانَ الَّذِی أَسْریٰ بِعَبْدِهِ» الآیه؛و کرر ذلک فیها مره بعد مره کقوله: «سُبْحانَهُ وَ تَعالیٰ عَمّا یَقُولُونَ» الآیه ۴٣ و قوله: «قُلْ سُبْحانَ رَبِّی» الآیه ٩٣،و قوله: «وَ یَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا» الآیه ١٠٨ حتی ان الآیه الخاتمه للسوره:

«وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِی لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی الْمُلْکِ وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ وَلِیٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ کَبِّرْهُ تَکْبِیراً» تحمد اللّه علی تنزهه عن الشریک و الولی و اتخاذ الولد.

ص: ۶۴۴

و السوره مکیه لشهاده مضامین آیاتها بذلک،و عن بعضهم کما فی روح المعانی استثناء آیتین منها و هما «وَ إِنْ کٰادُوا لَیَفْتِنُونَکَ» الآیه؛و قوله: «وَ إِنْ کٰادُوا لَیَسْتَفِزُّونَکَ» الآیه؛و عن بعضهم إلاّ اربع آیات و هی الآیتان المذکورتان و قوله: «وَ إِذْ قُلْنٰا لَکَ إِنَّ رَبَّکَ أَحٰاطَ بِالنّٰاسِ» الآیه،و قوله: «وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِی مُدْخَلَ صِدْقٍ» الآیه.

و عن الحسن أنها مکیه إلاّ خمس آیات منها و هی قوله: «وَ لاٰ تَقْتُلُوا النَّفْسَ» الآیه؛ «أُولٰئِکَ الَّذِینَ یَدْعُونَ» «أَقِمِ الصَّلاٰهَ» «وَ آتِ ذَا الْقُرْبیٰ» الآیه.

و عن مقاتل:مکیه إلاّ خمس «وَ إِنْ کٰادُوا لَیَفْتِنُونَکَ» الآیه «وَ إِنْ کٰادُوا لَیَسْتَفِزُّونَکَ» الآیه؛ «وَ إِذْ قُلْنٰا لَکَ» الآیه؛ «وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِی» الآیه؛ «إِنَّ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ» الآیه.

و عن قتاده و المعدل عن ابن عباس مکیه إلاّ ثمانی آیات و هی قوله: «وَ إِنْ کٰادُوا لَیَفْتِنُونَکَ» الآیه؛الی قوله: «وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِی مُدْخَلَ صِدْقٍ» الآیه.

و لا دلاله فی مضامین الآیات علی کونها مدنیه،و لا الأحکام المذکوره فیها مما یختص نزولا بالمدینه و قد نزلت نظائرها فی السور المکیه کالأنعام و الأعراف.

و قد افتتحت السوره فیما ترومه من التسبیح بالإشاره الی معراج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فذکر إسراؤه صلّی اللّه علیه و آله و سلم من المسجد الحرام الی المسجد الأقصی و هو بیت المقدس و الهیکل الذی بناه داود و سلیمان علیهما السّلام و قدسه اللّه لبنی إسرائیل.

ثم سبق الکلام بالمناسبه الی ما قدره اللّه لمجتمع بنی إسرائیل من الرقی و الانحطاط و العزه و الذله فکلما أطاعوا رفعهم اللّه و کلما عصوا خفضهم اللّه،و قد أنزل علیهم الکتاب و أمرهم بالتوحید و نفی الشریک.

ثم عطف فیها الکلام علی حال هذه الأمه و ما أنزل علیهم من الکتاب بما یشاکل حال بنی إسرائیل و أنهم إن أطاعوا أثیبوا و إن عصوا عوقبوا فإنما هی الأعمال یعامل الإنسان بما عمل منها،و علی ذلک جرت السنه الإلهیه فی الامم الماضین.

ثم ذکرت فیها حقائق جمه من المعارف الراجعه الی المبدأ و المعاد و الشرائع العامه من الأوامر و النواهی و غیر ذلک.

و من غرر الآیات فیها قوله تعالی: «قُلِ ادْعُوا اللّٰهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَیًّا مٰا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنیٰ» الآیه ۱۱۰ من السوره،و قوله: «کُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هٰؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّکَ وَ مٰا کٰانَ عَطٰاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً» الآیه ۲۰ منها،و قوله: «وَ إِنْ مِنْ قَرْیَهٍ إِلاّٰ نَحْنُ مُهْلِکُوهٰا» الآیه ۵۸ منها و غیر ذلک.

قوله تعالی: سُبْحٰانَ الَّذِی أَسْریٰ بِعَبْدِهِ لَیْلاً الی آخر الآیه؛سبحان اسم مصدر للتسبیح بمعنی التنزیه و یستعمل مضافا و هو مفعول مطلق قائم مقام فعله فتقدیر «سبحان الله»سبحت اللّه تسبیحا أی نزهته عن کل ما لا یلیق بساحه قدسه و کثیرا ما یستعمل للتعجب لکن سیاق الآیات إنما یلائم التنزیه لکونه الغرض من البیان و إن أصر بعضهم علی کونه للتعجب.

و الإسراء و السری السیر باللیل یقال:سری و أسری أی سار لیلا و سری و أسری به أی سار به لیلا،و السیر یختص بالنهار أو یعمه و اللیل.

و قوله: «لَیْلاً» مفعول فیه و یفید من الفائده أن هذا الإسراء تم له باللیل فکان الرواح و المجیء فی لیله واحده قبل أن یطلع فجرها.

و قوله: إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی هو بیت المقدس بقرینه قوله: اَلَّذِی بٰارَکْنٰا حَوْلَهُ .و القصی البعد و قد سمی المسجد الاقصی لکونه أبعد مسجد بالنسبه الی مکان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و من معه من المخاطبین و هو مکه التی فیها المسجد الحرام.

و قوله: لِنُرِیَهُ مِنْ آیٰاتِنٰا بیان غایه الإسراء و هی إراءه بعض الآیات الإلهیه -لمکان من-و فی السیاق دلاله علی عظمه هذه الآیات التی أراها اللّه سبحانه کما صرح به فی موضع آخر من کلامه یذکر فیه حدیث المعراج بقوله: لَقَدْ رَأیٰ مِنْ آیٰاتِ رَبِّهِ الْکُبْریٰ

(النجم۱۸/).

و قوله: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ تعليل لإسرائه به لإراءه آياته أى إنه سميع لاقوال عباده بصير بأفعالهم و قد سمع من مقال عبده و رأى من حاله ما استدعى أن يكرمه هذا الإكرام فيسرى به ليلا و يريه من آياته الكبرى.

و فى الآيه التفات من الغيبه الى التكلم مع الغير فى قوله: «بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا» ثم رجوع الى الغيبه السابقه و الوجه فيه الإشاره الى أن الإسراء و ما ترتب عليه من إراءه الآيات إنما صدر عن ساحه العظمه و الكبرياء و موطن العزه و الجبروت فعملت فيه السلطنه العظمى و تجلى اللّه له بآياته الكبرى،و لو قيل:ليريه من آياته أو غير ذلك لفاتت النكته.

و المعنى:لينزه تنزيها من أسرى بعظمته و كبريائه و بالغ قدرته و سلطانه بعبده محمد فى جوف ليله واحده من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى و هو بيت المقدس الذى بارك حوله ليريه بعظمته و كبريائه آياته الكبرى،و إنما فعل به ذلك لانه سميع بصير علم بما سمع من مقاله و رأى من حاله أنه خليق أن يكرم هذه التكرمه.

بحث روائى:

فى تفسير القمى عن أبيه عن ابن أبى عمير عن هشام بن سالم عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال:

جاء جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل بالبراق الى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فأخذ واحد باللجام و واحد بالركاب و سوى الآخر عليه ثيابه فتضعضعت البراق فلطمها جبرائيل ثم قال لها:اسكنى يا براق فما ركبك نبى قبله و لا يركبك بعده مثله.

قال:فرفّت به و رفعته ارتفاعا ليس بالكثير و معه جبرئيل يريه الآيات من السماء و الأرض.قال:فبينا أنا فى مسيرى إذ نادى مناد عن يمينى:يا محمد فلم أجبه و لم التفت اليه ثم نادى مناد عن يسارى:يا محمد فلم أجبه و لم التفت اليه ثم استقبلتنى امرأه كاشفه عن

ذراعيها عليها من كل زينه الدنيا فقالت:يا محمد انظرنى حتى اكلمك فلم التفت إليها ثم سرت فسمعت صوتا أفزعنى فجاوزت فنزل بى جبرئيل فقال:صل فصليت فقال:تدرى أين صلت؟قلت:لا،فقال:صليت بطور سيناء حيث كلم اللّه موسى تكليما ثم ركبت فمضينا ما شاء اللّه ثم قال لى:انزل فصل فنزلت و صليت فقال لى:تدرى أين صليت؟فقلت:لا، قال:صليت فى بيت لحم،و بيت لحم بناحيه بيت المقدس المقدس حيث ولد عيسى بن مريم.

ثم ركبت فمضينا حتى انتهينا الى بيت المقدس فربطت البراق بالحلقه التى كانت الأنبياء تربط بها فدخلت المسجد و معى جبرئيل الى جنبى فوجدنا ابراهيم و موسى و عيسى فيمن شاء اللّه من أنبياء اللّه عليهم السّلام فقد جمعوا إلى و أقيمت الصلاه و لا أشك إلاّ و جبرئيل سيتقدمنا فلما استووا أخذ جبرئيل بعضدى فقدمنى و أممتهم و لا فخر.

ثم أتانى الخازن بثلاثه أوانى إناء فيه لبن و إناء فيه ماء و إناء فيه خمر،و سمعت قائلا يقول:

إن أخذ الماء غرق و غرقت امته،و إن أخذ الخمر غوى و غويت امته و إن أخذ اللبن هدى و هديت امته قال:فأخذت اللبن و شربت منه فقال لى جبرئيل:هديت و هديت امتك.

ثم قال لى:ما ذا رأيت فى مسيرك؟فقلت:نادانى مناد عن يمينى فقال:أو أجبته فقلت:لا-و لم ألتفت اليه فقال:داعى اليهود لو أجبته لتهودت امتك من بعدك ثم قال ما ذا رأيت؟فقلت نادانى مناد عن يسارى فقال لى:أو أجبته؟فقلت:لا و لم التفت اليه فقال:ذاك داعى النصارى و لو أجبته لتنصرت امتك من بعدك.ثم قال:ما ذا استقبلك؟فقلت:لقيت امرأه كاشفه عن ذراعيها عليها من كل زينه الدنيا فقالت:يا محمد انظرنى حتى أكلمك.فقال:

أو كلمتها؟فقلت:لم اكلمها و لم التفت إليها فقال:تلك الدنيا و لو كلمتها لاختارت امتك الدنيا على الآخره.

ثم سمعت صوتا أفزعنى،فقال لى جبرئيل:أ تسمع يا محمد؟قلت:نعم قال:هذه صخره

قذفتها عن شفير جهنم منذ سبعين عاما فهذا حين استقرت قالوا:فما ضحك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم حتى قبض.

قال:فصعد جبرئيل و صعدت معه الى السماء الدنيا و عليها ملك يقال له:اسماعيل و هو صاحب الخطفه التى قال اللّه عزّ و جل: «إِلاّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ ثٰاقِبٌ» و تحته سبعون الف ملك تحت كل ملك سبعون الف ملك.

فقال:يا جبرئيل!من هذا الذى معك؟فقال:محمد رسول اللّه قال:و قد بعث؟قال:نعم ففتح الباب فسلمت عليه و سلم على و استغفرت له و استغفر لى و قال:مرحبا بالأخ الصالح و النبى الصالح،و تلقتنى الملائكه حتى دخلت السماء الدنيا فما لقينى ملك إلاّ ضاحكا مستبشرا حتى لقينى ملك من الملائكه لم أر أعظم خلقا منه كريه المنظر ظاهر الغضب فقال لى مثل ما قالوا من الدعاء إلاّ أنه لم يضحك و لم أر فيه من الاستبشار ما رأيت من ضحك الملائكه فقلت:

من هذا يا جبرئيل فإنى قد فزعت منه؟فقال:يجوز أن يفزع منه فكلنا نفزع منه إن هذا مالك خازن النار لم يضحك قط،و لم يزل منذ أن ولاه اللّه جهنم يزداد كل يوم غضبا و غيظا على أعداء اللّه و أهل معصيته فينتقم اللّه به منهم،و لو ضحك الى أحد قبلك أو كان ضاحكا الى أحد بعدك لضحك اليك فسلمت عليه فرد السلام على و بشرنى بالجنه.

فقلت لجبرئيل و جبرئيل بالمكان الذى وصفه اللّه «مُطٰاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» :أ لا تأمره أن يرينى النار؟فقال له جبرئيل:يا مالك أر محمدا النار فكشف عنها غطاءها و فتح بابا منها فخرج منها لهب ساطع فى السماء و فارت و ارتفعت حتى ظننت ليتناولنى مما رأيت فقلت:يا جبرئيل!قل له فليرد عليها غطاءها فأمره فقال لها:ارجعى فرجعت الى مكانها الذى خرجت منه.

ثم مضيت فرأيت رجلا آدما جسيما فقلت:من هذا يا جبرئيل؟فقال:هذا أبوك آدم فإذا هو يعرض عليه ذريته فيقول:روح طيبه و ريح طيبه من جسد طيب ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

سوره المطففين على رأس سبع عشره آيه «كَلّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِی عِلِّيِّينَ وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ كِتابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» الى آخرها؛قال:فسلمت على أبى آدم و سلم على و استغفرت له و استغفر لى،و قال:مرحبا بالابن الصالح و النبى الصالح البعوث فى الزمن الصالح.

قال:ثم مررت بملك من الملائكه جالس على مجلس و اذا جميع الدنيا بين ركبتيه و إذا بيده لوح من نور ينظر فيه مكتوب فيه كتاب ينظر فيه لا يتلفت يمينا و لا شمالا،مقبلا عليه كهيئه الحزين فقلت:من هذا يا جبرئيل؟قال:هذا ملك الموت دائب فى قبض الأرواح فقلت:يا جبرئيل أدننى منه حتى اكلمه فأدنانى منه فسلمت عليه،و قال له جبرئيل:هذا محمد نبى الرحمه الذى أرسله اللّه الى العباد فرحب بى و حيانى بالسلام و قال:أبشر يا محمد فإنى أرى الخير كله فى امتك فقلت:الحمد للّه المنان ذى النعم على عباده ذلك من فضل ربى و رحمته على فقال جبرئيل:هو أشد الملائكه عملا فقلت:أكل من مات أو هو ميت فيما بعد هذا تقبض روحه؟فقال:نعم.قلت:و تراهم حيث كانوا و تشهدهم بنفسك؟فقال:نعم.فقال ملك الموت:ما الدنيا كلها عندى فيما سخره اللّه لى و مكننى عليها إلاّ كالدرهم فى كف الرجل يقلبه كيف يشاء،و ما من دار إلاّ و أنا أتصفحه كل يوم خمس مرات،و أقول اذا بكى أهل الميت على ميتهم:لا تبكوا عليه فإن لى فيكم عوده و عوده حتى لا يبقى منكم أحد فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:كفى بالموت طامه يا جبرئيل فقال جبرئيل:إن ما بعد الموت أطم و أطم من الموت.

قال:ثم مضيت فإذا أنا بقوم بين أيديهم موائد من لحم طيب و لحم خبيث يأكلون اللحم الخبيث و يدعون الطيب فقلت:من هؤلاء يا جبرئيل؟فقال:هؤلاء الذين يأكلون الحرام و يدعون الحلال و هم من امتك يا محمد.

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:ثم رأيت ملكا من الملائكه جعل اللّه أمره عجيبا نصف جسده

الناس و النصف الآخر ثلج فلا النار تذيب الثلج و لا الثلج تطفئ النار و هو ينادى بصوت رفيع و يقول:سبحان الذى كف حر هذه النار فلا تذيب الثلج و كف برد هذا الثلج فلا يطفئ حر هذه النار اللهم يا مؤلف بين الثلج و النار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين فقلت:من هذا يا جبرئيل؟فقال:هذا ملك وكله اللّه بأكناف السماء و اطراف الأرضين و هو انصح ملائكه اللّه لأهل الأرض من عباده المؤمنين يدعو لهم بما تسمع منذ خلق.

و رأيت ملكين يناديان فى السماء احدهما يقول:اللهم اعط كل منفق خلفا و الآخر يقول:

اللهم اعط كل ممسك تلفا.

ثم مضيت فإذا أنا بأقوام لهم مشافر كمشافر الإبل يقرض اللحم من جنوبهم و يلقى فى افواههم فقلت:من هؤلاء يا جبرئيل؟فقال:هؤلاء الهمازون اللمازون.

ثم مضيت فإذا انا بأقوام ترضخ رءوسهم بالصخر فقلت:من هؤلاء يا جبرئيل؟فقال:

هؤلاء الذين ينامون عن صلاه العشاء.

ثم مضيت فإذا أنا بأقوام تقذف النار فى أفواههم و تخرج من ادبارهم فقلت:من هؤلاء يا جبرئيل؟قال:هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا و سيصلون سعيرا.

ثم مضيت فاذا انا باقوام يريد احدهم ان يقوم فلا يدر من عظم بطنه فقلت:من هؤلاء يا جبرئيل؟قال:هؤلاء الذين ياكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس.و إذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على الناس غدوا و عشيا يقولون ربنا متى تقوم الساعه؟.

قال:ثم مضيت فاذا أنا بنسوان معلقات بثديهن فقلت:من هؤلاء يا جبرئيل؟فقال:

هؤلاء اللواتى يورثن أموال أزواجهن أولاد غيرهم.ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:اشتد غضب اللّه على امرأه أدخلت على قوم فى نسبهم من ليس منهم فاطلع على عوراتهم و أكل خزائنهم.

ثم قـال:مررنـا بملائكه من ملائكه اللّه عزّ و جـل خلقهم اللّه كيـف شـاء و وضـع وجـوههم كيـف شـاء،ليس شـیء من أطباق أجسـادهم إلاّ و هو يسـبح اللّه و يحمـده من كل ناحيه باصوات مختلفه اصوات مرتفعه بالتحميـد و البكاء من خشـيه اللّه فسألت جبرئيـل عنهم فقـال:كمـا ترى خلقوا إن الملك منهم الى جنب صاحبه ما كلمهم كلمه قط و لا رفعوا رءوسـهم الى ما فوقها و لا خفضوهـا الى مـا تحتهـا خوفـا من اللّه و خشوعـا فسـلمت عليهم فردوا على ايماء برءوسـهم لا ينظرون إلى من الخشوع فقال لهم جبرئيل:هذا محمد نبى الرحمه أرسله اللّه الى العباد رسولا و نبيا.و هو خاتم النبيين و سيدهم أ فلا تكلمون؟قال:فلما سمعوا ذلك من جبرئيل أقبلوا على بالسلام و أكرمونى و بشرونى بالخير لى و لامتى.

قال:ثم صـعدنا الى السـماء الثانيه فاذا فيها رجلان متشابهان فقلت:من هذان يا جبرئيل؟ فقال لى:ابنا الخاله يحيى و عيسـى عليهما السّلام فسـلمت عليهمـا و سـلما على و اسـتغفرت لهمـا و اسـتغفرا لى و قالا:مرحبـا بالأخ الصالـح و النبى الصالـح و إذا فيها من الملائكه و عليهم الخشوع قد وضع اللّه وجوههم كيف شاء ليس منهم ملك الا يسبح اللّه بحمده بأصوات مختلفه.

ثم صـعدنا الى السماء الثالثه فاذا فيها رجل فضل حسنه على سائر الخلق كفضل القمر ليله البدر على سائر النجوم فقلت:من هذا يا جبرئيل؟فقال:هذا أخوك يوسف فسـلمت عليه و سلم على و استغفرت له و استغفر لى،و قال:مرحبا بالنبى الصالح و الأخ الصالح و المبعوث فى الزمن الصالـح،و إذا فيها ملائكه عليهم من الخشوع مثل ما وصـفت فى السـماء الاولى و الثانيه، و قال لهم جبرئيل فى أمرى ما قال للآخرين و صنعوا فى مثل ما صنع الآخرون.

ثم صـعدنا الى السـماء الرابعه و إذا فيها رجل فقلت:من هذا يا جبرئيل؟فقال:هذا إدريس رفعه اللّه مكانا عليا فسـلمت عليه و سلم على و استغفرت له و استغفر لى،و إذا فيها من الملائكه الخشوع مثل ما فى السموات التى عبرناها فبشرونى بالخير لى و لامتى،ثم رأيت ملكا جالسا على سرير تحت يديه سبعون الف ملك تحت كل ملك سبعون الف ملك فوقع فى نفس رسول

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنه هو فصاح به جبرئيل فقال:قم فهو قائم الى يوم القيامه.

ثم صعدنا الى السماء الخامسه فاذا فيها رجل كهل عظيم العين لم أر كهلا أعظم منه حوله ثله من امته فأعجبنى كثرتهم فقلت:من هذا يا جبرئيل؟فقال:هذا المحبب فى قومه هارون بن عمران فسلمت عليه و سلم على و استغفرت له و استغفر لى و إذا فيها من الملائكه الخشوع مثل ما فى السماوات.

ثم صعدنا الى السماء السادسه و إذا فيها رجل آدم طويل كأنه من شنوه و لو أن له قميصين لنفذ شعره فيهما و سمعته يقول:يزعم بنو إسرائيل أنى أكرم ولد آدم على اللّه و هذا رجل أكرم على اللّه منى فقلت:من هذا يا جبرئيل؟فقال:هذا أخوك موسى بن عمران فسلمت عليه و سلم على و استغفرت له و استغفر لى،و إذا فيها من الملائكه الخشوع مثل ما فى السماوات.

قال:ثم صعدنا الى السماء السابعه فما مررت بملك من الملائكه إلّا قالوا:يا محمد احتجم و امر امتك بالحجامه،و إذا فيها رجل أشمط الرأس و اللحيه جالس على كرسى فقلت:يا جبرئيل من هذا الذى فى السماء السابعه على باب البيت المعمور فى جوار اللّه؟فقال:هذا يا محمد أبوك إبراهيم و هذا محلك و محل من اتقى من امتك ثم قرء رسول اللّه: «إِنَّ أَوْلَى النّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» فسلمت عليه و سلم على و قال:مرحبا بالنبى الصالح و الابن الصالح و المبعوث فى الزمن الصالح و اذا فيها من الملائكه الخشوع مثل ما فى السموات فبشرونى بالخير لى و لامتى.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:و رأيت فى السماء السابعه بحارا من نور تتلألأ تلألؤها يخطف بالأبصار،و فيها بحار من ظلمه و بحار من ثلج ترعد فكلما فزعت و رأيت هولا سألت جبرئيل فقال:ابشر يا محمد و اشكر كرامه ربك و اشكر اللّه بما صنع اليك قال:فثبتنى اللّه بقوته و عونه حتى كثر قولى لجبرئيل و تعجبى.

فقال جبرئيل:يا محمد تعظم ما ترى؟إنما هذا خلق من خلق ربك فكيف بالخالق الذى

خلق مـا ترى و مـا لا ترى أعظم من هـذا من خلق ربک إن بين اللّه و بين خلقه سـبعين ألف حجاب و أقرب الخلق الى اللّه أنا و إسرافيل و بيننا و بينه أربعه حجب حجاب من نور و حجاب من الظلمه و حجاب من الغمامه و حجاب من الماء.

قـال:و رأيت من العجـائب التى خلق اللّه و سـخر على ما أراده ديکا رجلاه فى تخوم الأرضـين السابعه و رأسه عنـد العرش و هو ملک من ملائکه اللّه تعالى خلقه اللّه کما أراد رجلاه فى تخوم الأرضين السابعه ثم أقبل مصعدا حتى خرج فى الهواء الى السماء السـابعه و انتهى فيها مصـعدا حتى انتهى قرنه الى قرب العرش و هو يقول:سـبحان ربى حيثما کنت لا تـدرى أين ربک من عظم شأنه،و له جناحان فى منکبه إذا نشـرهما جاوزا المشـرق و المغرب فاذا کان فى السحر نشر جناحيه و خفق بهما و صرخ بالتسبيح يقول:سـبحان اللّه الملـک القـدوس،سـبحان اللّه الکبير المتعال لا إله إلاّ اللّه الحى القيوم و إذا قال ذلک سـبحت ديوک الأرض کلها و خفقت باجنحتها و أخـذت بالصـراخ فاذا سـکت ذلک الديک فى السـماء سـکت ديوک الأرض کلها، و لذلک الديک زغب أخضر و ريش أبيض کاشد بياض ما رأيته قط،و له زغب أخضر أيضا تحت ريشه الابيض کأشد خضره ما رايتها قط.

قـال:ثم مضـيت مع جبرئيـل فـدخلت البيت المعمور فصـليت فيه رکعتين و معى انـاس من اصـحابى عليهم ثياب جـدد و آخرين عليهم خلقان فدخل أصحاب الجدد و جلس أصحاب الخلقان.

ثم خرجت فانقاد لى نهران نهر يسـمى الکوثر و نهر يسـمى الرحمه فشـربت من الکوثر و اغتسلت من الرحمه ثم انقادا لى جميعا حتى دخلت الجنه و إذا على حافتيهـا بيوتى و بيوت أهلى و إذا ترابهـا کالمسـک،و اذا جـاريه تنغمس فى أنهار الجنه فقلت:لمن أنت يا جاريه؟ فقالت:لزيد بن حارثه فبشرته بها حين أصبحت،و اذا بطيرها کالبخت،و اذا رمانها مثل الدلى العظام،و اذا شجره لو ارسل طائر فى اصلها ما دارها سبعمائه سنه،و ليس فى الجنه منزل

الا و فیه غصن منها فقلت:ما هذه یا جبرئیل؟فقال:هذه شجره طوبی قال اللّه: «طُوبیٰ لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ» .

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:فلما دخلت الجنه رجعت الی نفسی فسألت جبرئیل عن تلک البحار و هولها و أعاجیبها فقال:هی سرادقات الحجب التی احتجب اللّه تبارک و تعالی بها و لو لا تلک الحجب لهتک نور العرش کل شیء فیه.

و انتهیت الی سدره المنتهی فاذا الورقه منها تظل امه من الامم فکنت منها کما قال اللّه تعالی: «قٰابَ قَوْسَیْنِ أَوْ أَدْنیٰ» فنادانی «آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَیْهِ مِنْ رَبِّهِ» فقلت أنا مجیبا عنی و عن امتی: «وَ الْمُؤْمِنُونَ کُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لاٰ نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا غُفْرٰانَکَ رَبَّنٰا وَ إِلَیْکَ الْمَصِیرُ» فقال اللّه: «لاٰ یُکَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا،لَهٰا مٰا کَسَبَتْ وَ عَلَیْهٰا مَا اکْتَسَبَتْ» فقلت: «رَبَّنٰا لاٰ تُؤٰاخِذْنٰا إِنْ نَسِینٰا أَوْ أَخْطَأْنٰا» فقال اللّه:لا اؤاخذک،فقلت «رَبَّنٰا وَ لاٰ تَحْمِلْ عَلَیْنٰا إِصْراً کَمٰا حَمَلْتَهُ عَلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِنٰا» فقال اللّه:احملک فقلت: «رَبَّنٰا وَ لاٰ تُحَمِّلْنٰا مٰا لاٰ طٰاقَهَ لَنٰا بِهِ وَ اعْفُ عَنّٰا وَ اغْفِرْ لَنٰا وَ ارْحَمْنٰا أَنْتَ مَوْلاٰنٰا فَانْصُرْنٰا عَلَی الْقَوْمِ الْکٰافِرِینَ» فقال اللّه تبارک و تعالی:قد اعطیتک ذلک لک و لامتک،فقال الصادق علیه السّلام:ما وفد الی اللّه تعالی احد اکرم من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم حین سأل لامته هذه الخصال.

فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:یا رب أعطیت أنبیاءک فضائل فاعطنی فقال اللّه:قد أعطیتک فیما اعطیتک کلمتین من تحت عرشی:لا حول و لا قوه الا باللّه،و لا منجی منک الا الیک.

قال:و علمتنی الملائکه قولا اقوله اذا اصبحت و أمسیت:اللهم ان ظلمی اصبح مستجیرا بعفوک،و ذنبی اصبح مستجیرا بمغفرتک و ذلی اصبح مستجیرا بعزتک،و فقری اصبح مستجیرا بغناک و وجهی الفانی اصبح مستجیرا بوجهک الباقی الذی لا یفنی،و اقول ذلک اذا امسیت.

ثم سمعت الأذان فإذا ملك يؤذن لم ير فی السماء قبل تلک الليله فقال:اللّه أكبر اللّه أكبر فقال اللّه:صدق عبدی أنا أكبر من كل شیء فقال:«أشهد أن لا إله إلاّ اللّه أشهد أن لا إله إلاّ اللّه» فقال اللّه:صدق عبدی أنا اللّه لا إله إلاّ أنا و لا إله غيری فقال:«أشهد أن محمدا رسول اللّه أشهد أن محمدا رسول اللّه»فقال اللّه:صدق عبدی إن محمدا عبدی و رسولی انا بعثته و انتجبته فقال:«حی على الصلاه حی على الصلاه»فقال:صدق عبدی دعا الی فريضتی فمن مشی إليها راغبا فيها محتسبا كانت له كفاره لما مضی من ذنوبه فقال:«حی على الفلاح حی على الفلاح»فقال اللّه:هی الصلاح و النجاح و الفلاح.ثم أممت الملائكه فی السماء كما أممت الأنبياء فی بيت المقدس.

قال:ثم غشيتنی ضبابه فخررت ساجدا فنادانی ربی أنی قد فرضت على كل نبی كان قبلک خمسين صلاه و فرضتها عليک و على امتک فقم بها انت فی امتک قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم:

فانحدرت حتی مررت على ابراهيم فلم يسألنی عن شیء حتی انتهيت الی موسی فقال:ما صنعت يا محمد؟فقلت:قال ربی:فرضت على كل نبی كان قبلک خمسين صلاه و فرضتها عليک و على امتک.فقال موسی:يا محمد ان امتک آخر الأمم و أضعفها و إن ربک لا يزيده شیء و إن امتک لا تستطيع أن تقوم بها فارجع الی ربک فاسأله التخفيف لامتک.

فرجعت الی ربی حتی انتهيت الی سدره المنتهی فخررت ساجدا ثم قلت:فرضت علی و علی امتی خمسين صلاه و لا أطيق ذلک و لا-امتی فخفف عنی فوضع عنی عشرا فرجعت الی موسی فأخبرته فقال:ارجع لا-تطيق فرجعت الی ربی فوضع عنی عشرا فرجعت الی موسی فأخبرته فقال:ارجع و فی كل رجعه أرجع اليه أخر ساجدا حتی رجع الی عشر صلوات فرجعت الی موسی و اخبرته فقال:لا تطيق فرجعت الی ربی فوضع عنی خمسا فرجعت الی موسی و اخبرته فقال:لا تطيق فقلت:قد استحيت من ربی و لكن اصبر عليها فنادانی مناد:

كما صبرت عليها فهذه الخمس بخمسين كل صلاه بعشر،و من هم من امتک بحسنه يعملها

ص:656

فعملها کتبت له عشرا و إن لم یعمل کتبت له واحده،و من هم من امتک بسیئه فعملها کتبت علیه واحده و إن لم یعملها لم أکتب علیه.

فقال الصادق علیه السّلام:جزی اللّه موسی عن هذه الامه خیرا فهذا تفسیر قول اللّه: «سُبْحانَ الَّذِی أَسْریٰ بِعَبْدِهِ لَیْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی الَّذِی بارَکْنا حَوْلَهُ لِنُرِیَهُ مِنْ آیاتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ» .

اقول:و قد ورد ما یقرب مما قصته هذه الروایه فی روایات کثیره جدا من طرق الشیعه و أهل السنه،و قوله فی الروایه:«رجلا آدما»یقال:رجل آدم أی أسمر اللون،و الطامه هی الأمر الشدید الذی یغلب ما سواه،و لذلک سمیت القیامه بالطامه،و الأکتاف جمع کتف و المراد الأطراف و النواحی،و قوله:«فوقع فی نفس رسول اللّه أنه هو»أی أنه الملک الذی یدبر أمر العالم و ینتهی الیه کل أمر.

و قوله:شنوه بالشین و النون و الواو و ربما یهمز قبیله کانوا معروفین بطول القامه،و قوله:

«أشمط الرأس و اللحیه»الشمط بیاض الشعر یخالطه سواد،و الزغب أول ما یبدو من الشعر و الریض و صغارهما،و البخت الإبل الخراسانی و الدلی بضم الدال و کسر اللام و تشدید الیاء جمع دلو علی فعول،و الصبابه بفتح الصاد لمهمله و الباء الموحده الشوق و الهوی الرقیق و بالمعجمه مضمومه الغیم الرقیق.

و فی أمالی الصدوق عن أبیه عن علی عن أبیه عن ابن أبی عمیر عن أبان بن عثمان عن أبی عبد اللّه جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال:لمّا أسری برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی بیت المقدس حمله جبرئیل علی البراق فأتیا بیت المقدس و عرض علیه محاریب الأنبیاء و صلّی بها و ردّه فمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی رجوعه بعیر لقریش و اذا لهم ماء فی آنیه و قد أضلّوا بعیرا لهم و کانوا یطلبونه فشرب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم من ذلک الماء و أهرق باقیه.

فلمّا أصبح رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم قال لقریش:إنّ اللّه جلّ جلاله قد اسری بی الی بیت المقدس

و أرانى آثار الأنبياء و منازلهم،و إنى مررت بعير لقريش فى موضع كذا و كذا و قد أضلّوا بعيرا لهم فشربت من مائهم و أهرقت باقى ذلك فقال أبو جهل:قد أمكنتكم الفرصه منه فاسألوه كم الأساطين فيها و القناديل؟فقال:يا محمّد إن هاهنا من قد دخل بيت المقدس فصف لنا كم أساطينه و قناديله و محاريبه؟فجاء جبرئيل فعلق صوره بيت المقدس تجاه وجهه فجعل يخبرهم بما يسألونه عنه فلما أخبرهم،قالوا:حتى يجىء العير و نسألهم عما قلت،فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:تصديق ذلك أن العير يطلع عليكم مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق.

فلما كان من الغد أقبلوا ينظرون الى العقبه و يقولون هذه الشمس تطلع الساعه فبينما هم كذلك إذ طلعت عليهم العير حين طلع القرص يقدمها جمل أورق فاخبروهم عما قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فقالوا:لقد كان هذا:ضل جمل لنا فى موضع كذا و كذا،و وضعنا ماء فأصبحنا و قد أهريق الماء فلم يزدهم ذلك إلاّ عتوّا.

أقول:و فى معناها روايات اخرى من طريق الفريقين.

و فيه بإسناده عن عبد اللّه بن عباس قال:إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لما أسرى به الى السماء انتهى به جبرئيل الى نهر يقال له النور و هو قوله عزّ و جل: «جَعَلَ الظُّلُمٰاتِ وَ النُّورَ» فلما انتهى به الى ذلك قال له جبرئيل:يا محمد اعبر على بركه اللّه فقد نوّر اللّه لك بصرك و مر لك أمامك فإن هذا نهر لم يعبره أحد لا ملك مقرب و لا نبى مرسل غير أن لى فى يوم اغتماسه فيه ثم أخرج منه فأنفض أجنحتى فليس من قطره تقطر من أجنحتى إلا خلق اللّه تبارك و تعالى منها ملكا مقربا له عشرون ألف وجه و أربعون ألف لسان كل لسان يلفظ بلغه لا يفقهها اللسان الآخر.

فعبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم حتى انتهى الى الحجب و الحجب خمس مائه حجاب من الحجاب الى الحجاب مسيره خمسمائه عام ثم قال:تقدم يا محمد فقال له:يا جبرئيل و لم لا تكون معنى؟ قال:ليس لى أن أجوز هذا المكان فتقدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم ما شاء اللّه أن يتقدم حتى سمع ما قال الرب تبارك و تعالى:أنا المحمود و أنت محمد شققت اسمك من اسمى فمن وصلك وصلته و من

قطعک بتکته انزل الی عبادی فأخبرهم بکرامتی إیاک و أنی لم أبعث نبیا إلا جعلت له وزیرا و إنک رسولی و إن علیا وزیرک.

و فی المناقب عن ابن عباس فی خبر:و سمع یعنی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم صوتا«آمنا برب العالمین»قال یعنی جبرئیل:هؤلاء سحره فرعون،و سمع لبیک اللهم لبیک قال:هؤلاء الحجاج،و سمع التکبیر قال:هؤلاء الغزاه،و سمع التسبیح قال:هؤلاء الأنبیاء.

فلما بلغ الی سدره المنتهی و انتهی الی الحجب،قال جبرئیل:تقدم یا رسول اللّه لیس لی أن أجوز هذا المکان و لو دنوت أنمله لاحترقت.

و فی الاحتجاج عن ابن عباس قال:قال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فیما احتج علی الیهود:حملت علی جناح جبرئیل حتی انتهیت الی السماء السابعه فجاوزت سدره المنتهی عندها جنه المأوی حتی تعلقت بساق العرش فنودیت من ساق العرش:إنی أنا اللّه لا إله إلاّ أنا السلام للمؤمن المهیمن العزیز الجبار المتکبر الرءوف الرحیم فرأیته بقلبی و ما رأیته بعینی.الخبر.

و فی الکافی بإسناده عن أبی الربیع قال:حججنا مع أبی جعفر علیه السّلام فی السنه التی کان حج فیها هشام بن عبد الملک و کان معه نافع مولی عمر بن الخطاب فنظر نافع الی أبی جعفر علیه السّلام فی رکن البیت و قد اجتمع الیه الناس فقال نافع:یا أمیر المؤمنین من هذا الذی قد تداک علیه الناس؟فقال:هذا نبی أهل الکوفه هذا محمد بن علی فقال:اشهد لآتینه فلأسألنه من مسائل لا یجیبنی فیها إلاّ نبی أو وصی أو ابن نبی.قال:فاذهب الیه و اسأله لعلک تخجله.

فجاء نافع حتی اتّکأ علی الناس ثم أشرف علی أبی جعفر علیه السّلام و قال:یا محمد ابن علی إنی قرأت التوراه و الإنجیل و الزبور و الفرقان و قد عرفت حلالها و حرامها،و قد جئت أسألک عن مسائل لا یجیب فیها إلاّ نبی أو وصی نبی أو ابن نبی.قال:فرفع أبو جعفر علیه السّلام رأسه و قال:سل عما بدا لک.

فقال:أخبرنی کم بین عیسی و بین محمد من سنه؟قال:أخبرک بقولی أو بقولک قال:

أخبرنی بالقولین جمیعا قال:أما فی قولی فخمسمائه سنه،و أما فی قولک فستمائه سنه،قال:

فأخبرنی عن قول اللّه عزّ و جل: وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَهً یُعْبَدُونَ من الذی سأله محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم و کان بینه و بین عیسی علیه السّلام خمسمائه سنه؟.

قال:فتلا أبو جعفر علیه السّلام هذه الآیه: سُبْحٰانَ الَّذِی أَسْریٰ بِعَبْدِهِ لَیْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی الَّذِی بٰارَکْنٰا حَوْلَهُ لِنُرِیَهُ مِنْ آیٰاتِنٰا فکان من الآیات التی أراها اللّه تبارک و تعالی محمدا صلّی اللّه علیه و آله و سلم حیث أسری به الی البیت المقدس أن حشر اللّه الأولین و الآخرین من النبیین و المرسلین ثم أمر جبرئیل فأذّن شفعا و أقام شفعا،و قال فی أذانه حی علی خیر العمل ثم تقدم محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم فصلی بالقوم.

فلما انصرف قال لهم:علی ما تشهدون؟ما کنتم تعبدون؟قالوا:نشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شریک له و أنک رسول اللّه اخذ علی ذلک عهودنا و مواثیقنا.فقال:نافع:صدقت یا أبا جعفر.

و فی العلل باسناده عن ثابت بن دینار قال:سألت زین العابدین علی بن الحسین علیه السّلام عن اللّه جل جلاله هل یوصف بمکان؟فقال:تعالی اللّه عن ذلک.قلت:فلم أسری بنبیه محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی السماء؟قال:لیریه ملکوت السماوات و ما فیها من عجائب صنعه و بدائع خلقه.

قلت:فقول اللّه عزّ و جل: ثُمَّ دَنٰا فَتَدَلّٰی فَکٰانَ قٰابَ قَوْسَیْنِ أَوْ أَدْنیٰ قال:ذاک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم دنا من حجب النور فرأی ملکوت السماوات ثم تدلی فنظر من تحت الی ملکوت الأرض حتی ظن أنه فی القرب من الأرض کقاب قوسین أو أدنی.

و فی تفسیر القمی باسناده عن إسماعیل الجعفی قال:کنت فی المسجد الحرام قاعدا و أبو جعفر علیه السّلام فی ناحیه فرفع رأسه فنظر الی السماء مره و الی الکعبه مره ثم قال: «سُبْحٰانَ الَّذِی أَسْریٰ بِعَبْدِهِ لَیْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی» و کرر ذلک ثلاث مرات ثم

التفت إلی فقال:أی شیء یقولون أهل العراق فی هذه الآیه یا عراقی؟قلت:یقولون اسری به من المسجد الحرام الی البیت المقدس.فقال:لیس هو کما یقولون و لکنه اسری به من هذه الی هذه و أشار بیده الی السماء و قال:ما بینهما حرم.

قال:فلما انتهی به الی سدره المنتهی تخلف عنه جبرئیل فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:یا جبرئیل أ فی مثل هذا الموضع تخذلنی؟فقال:تقدم أمامک فو اللّه لقد بلغت مبلغا لم یبلغه خلق من خلق اللّه قبلک فرأیت ربی و حال بینی و بینه السبحه قلت:و ما السبحه جعلت فداک؟فأومأ بوجهه الی الأرض و أومأ بیده الی السماء و هو یقول:جلال ربی جلال ربی،ثلاث مرات.قال:یا محمد قلت:لبیک یا رب قال:فیم اختصم الملأ الأعلی؟قلت سبحانک لا علم لی إلا ما علمتنی.

قال:فوضع یده بین ثدیی فوجدت بردها بین کتفی.قال:فلم یسألنی عما مضی و لا عما بقی الا علمته فقال:یا محمد فیم اختصم الملأ الأعلی؟قال:قلت:فی الدرجات و الکفارات و الحسنات فقال:یا محمد انه قد انقضت نبوتک و انقطع أکلک فمن وصیک؟فقلت:یا رب انی قد بلوت خلقک فلم أر فیهم من خلقک أحد أطوع لی من علی فقال:و لی یا محمد فقلت:

یا رب انی قد بلوت خلقک فلم أر من خلقک أحدا أشد حبا لی من علی بن أبی طالب قال:و لی یا محمد فبشره بأنه آیه الهدی و امام أولیائی و نور لمن أطاعنی و الکلمه الباقیه التی ألزمتها المتقین من أحبه أحبنی و من أبغضه أبغضنی معما أنی أخصه بما لم أخص به أحدا فقلت:یا رب أخی و صاحبی و وزیری و وارثی فقال:انه أمر قد سبق انه مبتلی به معما أنی قد نحلته و نحلته و نحلته و نحلته أربعه أشیاء عقدها بیده و لا یفصح بما عقدها.

أقول:قوله علیه السّلام:«و لکنه أسری به من هذه الی هذه»أی من الکعبه الی البیت المعمور،و لیس المراد به نفی الإسراء الی بیت المقدس و لا تفسیر المسجد الأقصی فی الآیه بالبیت المعمور بل المراد نفی أن ینتهی الإسراء الی بیت المقدس و لا یتجاوزه فقد استفاضت الروایات

بتفسير المسجد الأقصى ببيت المقدس.

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم:«فرأيت ربى»أى شاهدته بعين قلبى كما تقدم فى بعض الروايات السابقه و يؤيده تفسير الرؤيه بذلك فى روايات أخر.

و قوله:«و حالت بينى و بينه السبحه»أى بلغت من القرب و الزلفى مبلغا لم يبق بينى و بينه إلا جلاله،و قوله:فوضع يده بين ثديى،الخ؛كنايه عن الرحمه الإلهيه،و محصله نزول العلم من لدنه تعالى على قلبه بحيث يزيل كل ريب و شك.

و فى الدر المنثور أخرج ابن أبى شيبه و مسلم و ابن مردويه من طريق ثابت عن أنس أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال:أتيت بالبراق و هو دابه أبيض طويل فوق الحمار و دون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقه التى يربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين.

ثم خرجت فجاءنى جبريل بإناء من خمر و إناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل:

اخترت الفطره،ثم عرج بنا الى سماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل:من أنت؟قال:جبريل قيل:و من معك؟قال:محمد،قيل:و قد بعث اليه؟قال:قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بى و دعا لى بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الثانيه فاستفتح جبريل فقيل:من أنت؟قال:جبريل قيل:و من معك؟قال:محمد،قيل:و قد بعث اليه؟قال:قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخاله عيسى بن مريم و يحيى بن زكريا فرحبا بى و دعوا لى بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الثالثه فاستفتح جبريل فقيل:من أنت؟قال:جبريل قيل:و من معك؟قال:محمد،قيل:و قد بعث اليه؟قال:قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف و إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى و دعا لى بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الرابعه فاستفتح جبريل.قيل:من هذا؟قال:جبريل قيل:و من

معک؟قال:محمد،قیل:و قد بعث الیه،قال:قد بعث الیه ففتح لنا فاذا أنا بإدریس فرحب بی و دعا لی بخیر.

ثم عرج بنا الی السماء الخامسه فاستفتح جبریل.قیل:من هذا؟قال:جبریل قیل:و من معک؟قال:محمد،قیل:و قد بعث الیه؟قال:قد بعث الیه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بی و دعا لی بخیر.

ثم عرج بنا الی السماء السادسه فاستفتح جبریل.قیل:من هذا؟قال:جبریل قیل:و من معک؟قال:محمد،قیل:و قد بعث الیه؟قال:قد بعث الیه ففتح لنا فإذا أنا بموسی فرحب بی و دعا لی بخیر.

ثم عرج بنا الی السماء السابعه فاستفتح جبریل.قیل:من هذا؟قال:جبریل قیل:و من معک؟قال:محمد،قیل:و قد بعث الیه؟قال:قد بعث الیه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهیم مسند ظهره الی البیت المعمور و إذا یدخله کل یوم سبعون ألف ملک لا یعودون الیه.

ثم ذهب بی الی سدره المنتهی فإذا ورقها فیها کآذان الفیله و اذا ثمرها کالقلال فلما غشیها من أمر اللّه ما غشی تغیرت فما أحد من خلق اللّه یستطیع أن ینعتها من حسنها فأوحی إلیّ ما أوحی و فرض علیّ خمسین صلاه فی کل یوم و لیله فنزلت حتی انتهیت الی موسی فقال:ما فرض ربّک علی امتک؟قلت:خمسین صلاه قال:ارجع الی ربّک فأسأله التخفیف فإن امتک لا تطیق ذلک فانی قد بلوت بنی اسرائیل و خبرتهم.

فرجعت الی ربی فقلت:یا رب خفف عن امتی فحط عنی خمسا فرجعت الی موسی فقلت:

حط عنی خمسا فقال:إن امتک لا یطیقون ذلک فارجع الی ربک فأسأله التخفیف قال:فلم أزل أرجع بین ربی و موسی حتی قال:یا محمد إنهن خمس صلوات لکل یوم و لیله لکل صلاه عشر فتلک خمسون صلاه،و من هم بحسنه فلم یعملها کتبت له حسنه فإن عملها کتبت له عشرا، و من هم بسیئه فلم یعملها لم یکتب شیئا فإن عملها کتبت سیئه واحده فنزلت حتی انتهیت الی

موسی فأخبرته فقال:ارجع الی ربک فاسأله التخفیف فقلت:قد رجعت الی ربی حتی استحیت منه.

أقول:و قـد روی الخبر عن أنس بطرق مختلفه منهـا مـا عن البخاری و مسـلم و ابن جریر و ابن مردویه من طریق شـریک بن عبد اللّه بن أبی نمر عن أنس قال:لیله أسـری برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سـلم من مسجد الکعبه جاءه ثلاثه نفر قبل أن یوحی الیه و هو نائم فی المسـجد الحرام فقال أولهم:أیهم هو؟فقال أوسـطهم:هو خیرهم فقال أحـدهم خـذوا خیرهم فکانت تلک اللیله فلم یرهـم حتی أتوه لیله اخری فیمـا یری قلبه و تنـام عیناه و لا ینام قلبه و کـذلک الأنبیاء تنام أعینهم و لا ینام قلوبهم فلم یکلموه حتی احتملوه فوضـعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبریل فشق جبریل ما بین نحره الی لبته حتی فرغ من صدره و جوفه فغسـله من مـاء زمزم بیـده حتی أنقی جوفه ثم أتی بطست من ذهب محشوا إیمانا و حکمه فحشا به صـدره و لغادیـده یعنی عروق حلقه ثم أطبقه ثم عرج به الی سماء الدنیا ثم ساق الحدیث نحوا مما تقدم.

و الـذی وقع فیه من شق بطن النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم و غسـله و إنقـائه ثم حشوه إیمانا و حکمه حال مثالیه شاهـدها و لیس بالأمر المادی کما ربما یزعم،و یشـهد به حشوه إیمانا و حکمه و أخبار المعراج مملوءه من المشاهـدات المثالثه و التمثلات الروحیه،و قد ورد هذا المعنی فی عده من أخبار المعراج المرویه من طرق القوم و لا ضیر فیه کما لا یخفی.

و ظـاهر الروایه أن معراجه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم کـان قبـل البعثه و أنه کـان فی المنـام أمـا کونه قبـل البعثه فیـدفعه معظم الروایات الوارده فی الإسراء و هی أکثر من أن تحصی و قد اتفق علی ذلک علماء هذا الشأن.

علی أن الحدیث نفسه یدفع کون الإسـراء قبل البعثه و قد اشـتمل علی فرض الصـلوات و کونها أولا خمسـین ثم سؤال التخفیف بإشاره من موسـی علیه السّـلام و لا معنی للفرض قبل النبوه فمن الحری أن یحمل صدر الحدیث علی أن الملائکه أتوه أولا قبل أن یوحی الیه ثم ترکوه ثم جاءوه

ليله اخرى بعد بعثته و قد ورد فى بعض رواياتنا أن الذين كانوا نائمين معه فى المسجد ليله أسرى به هم حمزه بن عبد المطلب و جعفر و على ابنا أبى طالب.

و أما ما وقع فيه من كون ذلك فى المنام فيمكن-على بعد-أن يكون ناظرا الى ما ذكر فيه من حديث الشق و الغسل لكن الأظهر أن المراد به وقوع الإسراء بجملته فى المنام كما يدل عليه ما يأتى من الروايات.

و فى الدر المنثور أيضا أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عن معاويه بن أبى سفيان أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال:كانت رؤيا من اللّه صادقه.

اقول:و ظاهر الآيه الكريمه: سُبْحانَ الَّذِي أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ -الى قوله- لِنُرِيَهُ مِنْ آيٰاتِنٰا يرده،و كذا آيات صدر سوره النجم و فيها مثل قوله: مٰا زٰاغَ الْبَصَرُ وَ مٰا طَغىٰ لَقَدْ رَأىٰ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِ الْكُبْرىٰ على أن الآيات فى سياق الامتنان و فيها ثناء على اللّه سبحانه بذكر بديع رحمته و عجيب قدرته،و من الضرورى أن ذلك لا يتم برؤيا يراها النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الرؤيا يراها الصالح و الطالح و ربما يرى الفاسق الفاجر ما هو ابدع مما يراه المؤمن المتقى و الرؤيا لا تعد عند عامه الناس إلاّ نوعا من التخيل لا يستدل به على شيء من القدره و السلطنه بل غايه ما فيها أن يتفاءل بها فيرجى خيرها أو يتطير بها فيتخاف شرها.

و فيه أخرج ابن اسحاق و ابن جرير عن عائشه قالت:ما فقدت جسد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لكن اللّه أسرى بروحه.

اقول:و يرد عليه ما ورد على سابقه على أنه يكفى فى سقوط الروايه اتفاق كلمه الرواه و أرباب السير على أن الإسراء كان قبل الهجره بزمان و أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بنى بعائشه فى المدينه بعد الهجره بزمان لم يختلف فى ذلك اثنان و الآيه أيضا صريحه فى إسرائه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من المسجد الحرام.

و فيه أخرج الترمذى و حسّنه و الطبرانىّ و ابن مردويه عن ابن مسعود:قال:قال رسول

اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:لقیت ابراهیم لیله اسری بی فقال:یا محمد اقرأ امتک منی السلام و أخبرهم أن الجنه طیبه التربه عذبه الماء و أنها قیعان و أن غراسها سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلاّ اللّه و اللّه أکبر لا حول و لا قوه إلاّ باللّه.

و فیه أخرج الطبرانیّ عن عائشه قالت:قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:لمّا اسری بی الی السماء ادخلت الجنه فوقعت علی شجره من أشجار الجنه لم أر فی الجنه أحسن منها و لا أبیض ورقا و لا أطیب ثمره فتناولت ثمره من ثمرها فأکلتها فصارت نطفه فی صلبی فلما هبطت الی الأرض واقعت خدیجه فحملت بفاطمه فإذا أنا اشتقت الی ریح الجنه شممت ریح فاطمه.

و فی تفسیر القمیّ عن أبیه عن ابن محبوب عن ابن رئاب عن أبی عبیده عن الصادق علیه السّلام قال:کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم یکثر تقبیل فاطمه فأنکرت ذلک عائشه فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:یا عائشه إنی لمّا اسری بی الی السماء دخلت الجنه فأدنانی جبرئیل من شجره طوبی و ناولنی من ثمارها فأکلته فحول اللّه ذلک ماء فی ظهری فلما هبطت الی الأرض واقعت خدیجه فحملت بفاطمه فما قبلتها قط إلاّ وجدت رائحه شجره طوبی منها.

و فی الدر المنثور أخرج الطبرانی فی الأوسط عن ابن عمر أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لما اسری به الی السماء اوحی الیه بالأذان فنزل به فعلمه جبریل.

و فیه أخرج ابن مردویه عن علی أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم علم الأذان لیله اسری به و فرضت علیه الصلاه.

و فی العلل بإسناده عن إسحاق بن عمار قال:سألت أبا الحسن موسی بن جعفر علیه السّلام کیف صارت الصلاه رکعه و سجدتین؟و کیف إذا صارت سجدتین لم تکن رکعتین؟فقال:إذا سألت عن شیء ففرغ قلبک لتفهم.إن أول صلاه صلاها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم إنما صلاها فی السماء بین یدی اللّه تبارک و تعالی قدام عرشه جل جلاله.

و ذلک أنه لما اسری به و صار عند عرشه تبارک و تعالی قال:یا محمد ادن من صاد

فاغتسل مساجدک و طهرها و صل لربک فدنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی حیث أمره اللّه تبارک و تعالی فتوضأ فأسبغ وضوءه ثم استقبل الجبار تبارک و تعالی قائما فأمره بافتتاح الصلاه ففعل.

فقال:یا محمد اقرأبسم اللّه الرحمن الرحیم الحمد للّه رب العالمین الی آخرها ففعل ذلک ثم أمره أن یقرأ نسبه ربه تبارک و تعالی بسم اللّه الرحمن الرحیم قل هو اللّه أحد اللّه الصمد ثم أمسک عنه القول فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:قل هو اللّه أحد اللّه الصمد فقال:قل:لم یلد و لم یولد و لم یکن له کفوا أحد فأمسک عنه القول فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:کذلک اللّه ربی کذلک اللّه ربی.

فلما قال ذلک قال:ارکع یا محمد لربک فرکع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فقال له و هو راکع:قل سبحان ربی العظیم و بحمده ففعل ذلک ثلاثا،ثم قال:ارفع رأسک یا محمد ففعل ذلک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فقام منتصبا بین یدی اللّه فقال:اسجد یا محمد لربک فخر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ساجدا فقال:قل سبحان ربی الأعلی و بحمده ففعل ذلک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ثلاثا فقال:استو جالسا یا محمد ففعل فلما استوی جالسا ذکر جلال ربه جل جلاله فخر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ساجدا من تلقاء نفسه لا لأمر أمره ربه عزّ و جل فسبح أیضا ثلاثا فقال:انتصب قائما ففعل فلم یری ما کان رأی من عظمه ربه جل جلاله.

فقال له:اقرأ یا محمد و افعل کما فعلت فی الرکعه الاولی ففعل ذلک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ثم سجد سجده واحده فلما رفع رأسه ذکر جلال ربه تبارک و تعالی فخر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ساجدا من تلقاء نفسه لا لأمر أمره ربه عزّ و جل فسبح أیضا ثم قال له:ارفع رأسک ثبتک اللّه و اشهد أن لا إله إلاّ و أن محمدا رسول اللّه و أن الساعه آتیه لا ریب فیها و أن اللّه یبعث من فی القبور اللهم صل علی محمد و آل محمد کما صلیت و بارکت و ترحمت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنک حمید مجید اللهم تقبل شفاعته فی امته و ارفع درجته ففعل.

فقال:یا محمد و استقبل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ربه تبارک و تعالی وجهه مطرقا فقال:السلام

علیک فأجابه الجبار جل جلاله فقال:و علیک السّلام یا محمد بنعمتی قویتک علی طاعتی و بعصمتی اتخذتک نبیا و حبیبا.

ثم قال أبو الحسن علیه السّلام:و إنما کانت الصلاه التی امر بها رکعتین و سجدتین و هو صلّی اللّه علیه و آله و سلم إنما سجد سجدتین فی کل رکعه کما أخبرتک من تذکره لعظمه ربه تبارک و تعالی فجعله اللّه عزّ و جل فرضا.

قلت:جعلت فداک و اما صاد الذی امر أن یغتسل منه؟فقال:عین تنفجر من رکن من أرکان العرش یقال له:ماء الحیاه و هو ما قال اللّه عزّ و جل: ص وَ الْقُرْآنِ ذِی الذِّکْرِ إنما أمره أن یتوضأ و یقرأ و یصلی.

أقول:و فی معناها روایات أخر.

و فی الکافی بإسناده عن علی بن أبی حمزه قال:سأل أبو بصیر أبا عبد اللّه علیه السّلام و أنا حاضر فقال:جعلت فداک کم عرج برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم؟فقال:مرتین فأوقفه جبرئیل موقفا فقال له:

مکانک یا محمد فلقد وقفت موقفا ما وقفه ملک قط و لا نبی إن ربک یصلی فقال:یا جبرئیل و کیف یصلی؟فقال:یقول:سبوح قدوس أنا رب الملائکه و الروح سبقت رحمتی غضبی فقال:اللهم عفوک عفوک.

قال:و کان کما قال اللّه:قاب قوسین أو أدنی فقال له أبو بصیر:جعلت فداک و ما قاب قوسین أو أدنی؟قال:ما بین سیتها الی رأسها فقال:بینهما حجاب یتلألأ-و لا-أعلمه إلاّ-و قد قال:من زبرجد فنظر فی مثل سم الإبره الی ما شاء اللّه من نور العظمه.الحدیث.

أقول:و آیات صدر سوره النجم تؤید ما فی الروایه من وقوع المعراج مرتین ثم الاعتبار یساعد علی ما فی الروایه من صلاته تعالی فإن الأصل فی معنی الصلاه المیل و الانعطاف،و هو من اللّه سبحانه الرحمه و من العبد الدعاء کما قیل،و اشتمال ما أخبر به جبرئیل من صلاته تعالی علی قوله:«سبقت رحمتی غضبی»یؤید ما ذکرناه و لذلک أیضا أوقفه جبرئیل فی الموقف

الذی أوقفه و ذكر له أنه موطأ ما وطئه أحد قبله و ذلک أن لازم ما وصفه بهذا الوصف أن یکون الموقف هو الحد الفاصل بین الخلق و الخالق و آخر ما ینتهی الیه الانسان من الکمال فهو الحد الذی یظهر فیه الرحمه الإلهیه و تفاض علی ما دونه و لهذا اوقف صلّی اللّه علیه و آله و سلم لمشاهدته.

و فی المجمع-و هو ملخص من الروایات-أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم قال:أتانی جبرائیل و أنا بمکه فقال:قم یا محمد فقمت معه و خرجت الی الباب فإذا جبرئیل و معه میکائیل و إسرافیل فأتی جبرائیل بالبراق و کان فوق الحمال و دون البغل خده کخد الإنسان و ذنبه کذب البقر و عرفه کعرف الفرس و قوائمه کقوائم الإبل علیه رحل من الجنه و له جناحان من فخذیه خطوه منتهی طرفه فقال:ارکب فرکبت و مضیت حتی انتهیت الی بیت المقدس.

ثم ساق الحدیث الی أن قال:فلما انتهیت الی بیت المقدس إذا ملائکه نزلت من السماء بالبشاره و الکرامه من عند رب العزه و صلیت فی بیت المقدس،و فی بعضها-بشر لی إبراهیم- فی رهط من الأنبیاء ثم وصف موسی و عیسی ثم أخذ جبرائیل بیدی إلی الصخره فأقعدنی علیها فإذا معراج الی السماء لم أر مثلها حسنا و جمالا.

فصعدت الی السماء الدنیا و رأیت عجائبها و ملکوتها و ملائکتها یسلمون علی ثم صعد بی جبرائیل الی السماء الثانیه فرأیت فیها عیسی بن مریم و یحیی بن زکریا.ثم صعد بی الی السماء الثالثه فرأیت فیها یوسف.ثم صعد بی الی السماء الرابعه فرأیت فیها ادریس.ثم صعد بی الی السماء الخامسه فرأیت فیها هارون ثم صعد بی الی السماء السادسه فإذا فیها خلق کثیر یموج بعضهم فی بعض و فیها الکروبیون ثم صعد بی الی السماء السابعه فأبصرت فیها خلقا و ملائکه -و فی حدیث أبی هریره رأیت فی المساء السادسه موسی،و رأیت فی السماء السبعه ابراهیم.

قال:ثم جاوزناها متصاعدین الی أعلی علیین-و وصف ذلک الی أن قال-ثم کلمنی ربی و کلمته،و رأیت الجنه و النار،و رأیت العرش و سدره المنتهی ثم رجعت الی مکه فلما أصبحت حدثت به الناس فکذبنی أبو جهل و المشرکون و قال مطعم بن عدی:أ تزعم أنک سرت

مسیره شهرین فی ساعه؟أشهد أنک کاذب.

قالوا:ثم قالت قریش:أخبرنا عما رأیت فقال:مررت بعیر بنی فلان و قد أضلوا بعیرا لهم و هم فی طلبه و فی رحلهم قعب (۱)مملوء من ماء فشربت الماء ثم غطیته فاسألوهم هل وجدوا الماء فی القدح؟قالوا:هذه آیه واحده.

قال:و مررت بعیر بنی فلان فنفرت بکره فلان فانکسرت یدها فاسألوهم عن ذلک فقالوا:هذه آیه اخری قالوا:فأخبرنا عن عیرنا قال:مررت بها بالتنعیم و بین لهم أحمالها و هیآتها و قال:یقدمها جمل أورق علیه فزارتان محیطتان و تطلع علیکم عند طلوع الشمس قالوا:هذه آیه اخری.

ثم خرجوا یشتدون نحو التیه و هم یقولون:لقد قضی محمد بیننا و بینه قضاء بینا،و جلسوا ینتظرون متی تطلع الشمس فیکذبوه؟فقال قائل:و اللّه إن الشمس قد طلعت،و قال آخر:

و اللّه هذه الإبل قد طلعت یقدمها بعیر أورق فبهتوا و لم یؤمنوا.

و فی تفسیر العیاشی عن هشام بن الحکم عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال:إن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم صلی العشاء الآخره و صلی الفجر فی اللیله التی اسری به بمکه.

أقول:و فی بعض الأخبار أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم صلی المغرب بالمسجد الحرام ثم اسری به و لا منافاه بین الروایتین و کذا لا منافاه بین کونه صلی المغرب او العشاء الآخره و الفجر بمکه و بین کون الصلوات الخمس فرضت علیه فی السماء لیله الإسراء فإن فرض أصل الصلاه کان قبل ذلک، و أما أنها کم رکعه کانت فغیر معلوم غیر أن الآثار تدل علی أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان یقیم الصلاه منذ بعثه اللّه نبیا و فی سوره العلق: أَ رَأَیْتَ الَّذِی یَنْهیٰ عَبْداً إِذٰا صَلّٰی و قد روی أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان یصلی بعلی و خدیجه علیهما السّلام بالمسجد الحرام قبل أن یعلن دعوته بمده.

۱- ۱) .القعب:القدح الضخم الغلیظ.

و فی الکافی عن العامری عن أبی جعفر علیه السّلام قال:لما عرج برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم نزل بالصلاه عشر رکعات رکعتین رکعتین فلما ولد الحسن و الحسین علیهما السّلام زاد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم سبع رکعات شکرا للّه فأجاز اللّه له ذلک و ترک الفجر لم یزد فیها لأنه یحضرها ملائکه اللیل و ملائکه النهار فلما أمره اللّه بالتقصیر فی السفر وضع عن امته ست رکعات و ترک المغرب لم ینقص منه شیئا، و إنما یجب السهو فیما زاد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فمن شک فی أصل الفرض فی الرکعتین الأولیین استقبل صلاته.

و روی الصدوق فی الفقیه باسناده عن سعید بن المسیب أنه سأل علی بن الحسین علیه السّلام فقال:متی فرضت الصلاه علی المسلمین علی ما هی الیوم علیه؟فقال:بالمدینه حین ظهرت الدعوه و قوی الإسلام و کتب اللّه علی المسلمین الجهاد زاد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی الصلاه سبع رکعات فی الظهر رکعتین و فی العصر رکعتین و فی المغرب رکعه و فی العشاء الآخره رکعتین، و أقر الفجر علی ما فرضت بمکه.الحدیث.

و فی الدر المنثور أخرج أحمد و النسائی و البزار و الطبرانی و ابن مردویه و البیهقی فی الدلائل بسند صحیح عن ابن عباس قال:قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:لما اسری بی مرت بی رائحه طیبه فقلت:یا جبریل ما هذه الرائحه الطیبه؟قال:ماشطه بیت فرعون و أولادها کانت تمشطها فسقط المشط من یدها فقالت:بسم اللّه فقالت ابنه فرعون:أبی؟قال:بلی ربی و ربک و رب أبیک قالت:أو لک رب غیر أبی؟قال:نعم قالت:فأخبر بذلک أبی؟قال:نعم.

فأخبرته فدعاها فقال:أ لک رب غیری؟قالت:نعم ربی و ربک اللّه الذی فی السماء فأمر ببقره من نحاس فأحمیت ثم أمر بها لتلقی فیها و أولادها.قالت:إن لی الیک حاجه قال:و ما هی؟قال:تجمع عظامی و عظام ولدی فتدفنه جمیعا.قال:ذلک لک لما لک علینا من حق فألقوا واحدا واحدا حتی بلغ رضیعا فیهم قال:نعی یا أمه و لا تقاعسی فإنک علی الحق فألقیت هی و ولدها.

قال ابن عباس:و تكلم أربعه و هم صغار:هذا و شاهد يوسف و صاحب جريح و عيسى بن مريم.

اقول:و روى من وجه آخر عن ابن عباس عن ابى بن كعب عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و فيه أخبر ابن مردويه عن أنس أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال:ليله اسرى بى مررت بناس يقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت عادت كما كانت فقلت:من هؤلاء يا جبريل؟ قال:هؤلاء خطباء امتك الذين يقولون ما لا يفعلون.

اقول:و هذا النوع من التمثلات البرزخيه التى تصور الأعمال بنتائجها و العذابات المعده لها كثيره الورود فى أخبار الإسراء و قد تقدم شطر منها فى ضمن الروايات.

و اعلم أن ما أوردناه من أخبار الإسراء نبذه يسيره منها و هى كثيره بالغه حد التواتر رواها جم غفير من الصحابه كأنس بن مالك و شداد بن الأوس و على بن أبى طالب عليه السّلام و أبو سعيد الخدرى و أبو هريره و عبد اللّه بن مسعود و عمر بن الخطاب و عبد اللّه بن عمر و عبد اللّه بن عباس و ابى بن كعب و سمره بن جندب و بريده و صهيب ابن سنان و حذيفه بن اليمان و سهل بن سعد و أبو أيوب الأنصارى و جابر بن عبد اللّه و أبو الحمراء و أبو الدرداء و عروه و ام هانى و ام سلمه و عائشه و أسماء بنت أبى بكر كلهم عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و روتها جماعه كثيره من رواه الشيعه عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام.

و قد اتفقت أقوال من يعتى بقوله من علماء الإسلام على أن الإسراء كان بمكه قبل الهجره كما يستفاد من قوله تعالى: سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ الآيه؛ و يدل عليه ما اشتملت عليه كثير من الروايات من إخباره صلّى اللّه عليه و آله و سلم قريشا بذلك صبيحه ليلته و انكارهم ذلك عليه و اخباره اياهم بأساطين المسجد الاقصى و ما لقيه فى الطريق من العير و غير ذلك.

ثم اختلفوا فى السنه التى اسرى به صلّى اللّه عليه و آله و سلم فيها فقيل:فى السنه الثانيه من البعثه كما عن ابن

عباس،و قیل فی السنه الثالثه منها کما فی الخرائج عن علی علیه السّلام.و قیل فی السنه الخامسه او السادسه،و قیل بعد البعثه بعشر سنین و ثلاثه أشهر،و قیل:فی السنه الثانیه عشره منها، و قیل:قبل الهجره بسنه و خمسه أشهر،و قیل:قبلها بسنه و ثلاثه اشهر،و قیل:قبلها بسته أشهر.

و لا یهمنا الغور فی البحث عن ذلک و لا عن الشهر و الیوم الذی وقع فیه الإسراء و لا مستند یصح التعویل علیه لکن ینبغی أن یتنبه أن من الروایات المأثوره عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام ما یصرح بوقوع الإسراء مرتین،و هو المستفاد من آیات سوره النجم حیث یقول سبحانه: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَهً أُخْریٰ الآیات؛علی ما سیوافیک ان شاء اللّه من تفسیره.

و علی هذا فمن الجائز أن یکون ما وصفه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی بعض الروایات من عجیب ما شاهده راجعا الی ما شاهده فی الاسراء الأول و بعض ما وصفه فی بعض آخر راجعا الی الإسراء الثانی،و بعضه مما شاهده فی الإسراءین معا.

ثم اختلفوا فی المکان الذی اسری به صلّی اللّه علیه و آله و سلم منه فقیل:اسری به من شعب أبی طالب و قیل:اسری به من بیت ام هانی و فی بعض الروایات دلاله علی ذلک و قد اولو قوله تعالی:

أَسْریٰ بِعَبْدِهِ لَیْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ الی أن المراد بالمسجد الحرام الحرم کله مجازا فیشمل مکه،و قیل:اسری به من نفس المسجد الحرام لظهور الآیه الکریمه فیه و لا دلیل علی التأویل.

و من الجائز بالنظر الی ما نبهنا به من کون الإسراء مرتین أن یکون أحد الاسراءین من المسجد الحرام و الآخر من بیت ام هانی،و أما کونه من الشعب فما ذکر فیما ذکر فیه من الروایات أن أبا طالب کان یطلبه طول لیلته و انه اجتمع هو و بنو هاشم فی المسجد الحرام ثم سل سیفه و هدد قریشا إن لم یحصل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم ثم نزوله من السماء و مجیئه الیهم و إخباره قریشا بما رأی کل دلک لا یلائم ما کان هو صلّی اللّه علیه و آله و سلم و بنو هاشم جمیعا علیه من الشده و البلیه أیام کانوا فی

الشعب.

و على أی حال فالاسراء الذی تعطیه الآیه: سُبْحانَ الَّذِی أَسْری بِعَبْدِهِ لَیْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی و هو الاسراء الذی کان الی بیت المقدس کان مبدؤه المسجد الحرام لکمال ظهور الآیه و لا موجب للتأویل.

ثم اختلفوا فی کیفیه الإسراء فقیل:کان اسراؤه علیه السّلام بروحه و جسده من المسجد الحرام الی بیت المقدس ثم منه الی السماوات و علیه الاکثر و قیل:کان بروحه و جسده من مکه الی بیت المقدس ثم بروحه من بیت المقدس الی السماوات و علیه جمع،و قیل:کان بروحه علیه السّلام و هو رؤیا صادقه أراها اللّه نبیه و نسب الی بعضهم.

قال فی المناقب:اختلف الناس فی المعراج فالخوارج ینکرونه،و قال الجهمیه:عرج بروحه دون جسمه علی طریق الرؤیا،و قالت الإمامیه و الزیدیه و المعتزله:بل عرج بروحه و بجسمه الی بیت المقدس لقوله تعالی: إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی و قال آخرون:بل عرج بروحه و بجسمه الی السماوات روی ذلک عن ابن عباس و ابن مسعود و جابر و حذیفه و انس و عائشه ام هانی.

و نحن لا ننکر ذلک إذا قامت الدلاله،و قد جعل اللّه معراج موسی الی الطور: وَ ما کُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ و لإبراهیم الی السماء الدنیا: وَ کَذلِکَ نُرِی إِبْراهِیمَ و لعیسی الی الرابعه:

بَلْ رَفَعَهُ اللّهُ إِلَیْهِ و لإدریس الی الجنه: وَ رَفَعْناهُ مَکاناً عَلِیًّا و لمحمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم: فَکانَ قابَ قَوْسَیْنِ و ذلک لعلو همته.انتهی.

و الذی ینبغی أن یقال ان اصل الاسراء مما لا سبیل الی انکاره فقد نص علیه القرآن و تواترت علیه الاخبار عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و الأئمه من اهل بیته علیهم السّلام.

و اما کیفیه الإسراء فظاهر الآیه و الروایات بما یحتف بها من القرائن ظهورا لا یقبل الدفع أنه اسری به من المسجد الحرام الی المسجد الاقصی بروحه و جسده جمیعا،و اما العروج الی

السماوات فظاهر آيات سوره النجم كما سيأتى ان شاء اللّه فى تفسيرها و صريح الروايه على كثرها البالغه وقوعه،و لا سبيل الى إنكاره من اصله غير انه من الجائز ان يقال بكونه بروحه لكن لا على النحو الذى يراه القائلون به من كون ذلك من قبيل الأحلام و من نوع ما يراه النائم من الرؤى،و لو كان كذلك لم يكن لما يدل عليه الآيات بسياقها من اظهار المقدره و الكرامه معنى،و لا لذاك الإنكار الشديد الذى اظهرته قريش عند ما قص عليه السّلام لهم القصه وجه،و لا لما اخبرهم به من حوادث الطريق مفهوم معقول.

بل ذلك-إن كان-بعروجه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بروحه الشريفه الى ما وراء هذا العالم المادى مما يسكنه الملائكه المكرمون و ينتهى اليه الأعمال و يصدر منه الأقدار و رأى عند ذلك من آيات ربه الكبرى و تمثلت له حقائق الأشياء و نتائج الأعمال و شاهد ارواح الأنبياء العظام و فاوضهم و لقى الملائكه الكرام و سامرهم،و رأى من الآيات الإلهيه ما لا يوصف إلا بالأمثال كالعرش و الحجب و السرادقات.

و القوم لذهابهم الى أصاله الوجود المادى و قصر الوجود غير المادى فيه تعالى لما وجدوا الكتاب و السنه يصفان امورا غير محسوسه بتمثيلها فى خواص الأجسام المحسوسه كالملائكه الكرام و العرش و الكرسى و اللوح و القلم و الحجب و السرادقات حملوا ذلك على كونها أجساما ماديه لا يتعلق بها الحس و لا يجرى فيها احكام الماده،و حملوا ايضا ما ورد من التمثيلات فى مقامات الصالحين و معارج القرب و بواطن صور المعاصى و نتائج الأعمال و ما يناظر ذلك الى نوع من التشبيه و الاستعاره فوقعوا فى ورطه السفسطه بتغليط الحس و اثبات الروابط الجزافيه بين الأعمال و نتائجها و غير ذلك من المحاذير.

و لذلك ايضا لما نفى النافون منهم كون عروجه صلّى اللّه عليه و آله و سلم الى السماوات بجسمه المادى اضطروا الى القول بكونه فى المنام و هو عندهم خاصه ماديه للروح المادى و اضطروا لذلك الى تأويل الآيات و الروايات بما لا تلائمه و لا واحده منها.

ص :٦٧٥

بحث آخر:

قال فی مجمع البیان:فأما الموضع الذی أسری الیه این کان؟فان الاسراء الی بیت المقدس،و قد نص به القرآن و لا یدفعه مسلم،و ما قاله بعضهم:ان ذلک کان فی النوم فظاهر البطلان اذ لا معجز یکون فیه و لا برهان.

و قد وردت روایات کثیره فی قصه المعراج فی عروج نبینا صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی السماء و رواها کثیر من الصحابه مثل ابن عباس و ابن مسعود و انس و جابر بن عبد اللّه و حذیفه و عائشه و ام هانی و غیرهم عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و زاد بعضهم و نقص بعض و تنقسم جملتها الی اربعه اوجه.

أحدهما:ما یقطع علی صحتها لتواتر الأخبار به و إحاطه العلم بصحته.

و ثانیها:ما ورد فی ذلک مما یجوزه العقول و لا یأباه الاصول فنحن نجوزه ثم نقطع علی أن ذلک کان فی یقظته دون منامه.

و ثالثها:ما یکون ظاهره مخالفا لبعض الاصول إلاّ انه یمکن تأویلها علی وجه یوافق المعقول فالأولی تأویله علی وجه یوافق الحق و الدلیل.

و رابعها:ما لا یصح ظاهره و لا یمکن تأویله إلاّ علی التعسف البعید فالأولی أن لا نقبله.

فأما الأول المقطوع به فهو انه أسری به علی الجمله،و أما الثانی فمنه ما روی انه طاف فی السماوات و رأی الانبیاء و العرش و سدره المنتهی و الجنه و النار و نحو ذلک.و أما الثالث فنحو ما روی انه رأی قوما فی الجنه یتنعمون فیها و قوما فی النار یعذبون فیها فیحمل علی انه رأی صفتهم او أسمائهم،و ما الرابع فنحو ما روی انه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کلم اللّه جهره و رآه و قعد معه علی سریره و نحو ذلک مما یوجب ظاهره التشبیه،و اللّه سبحانه متقدس عن ذلک،و کذلک ما روی انه شق بطنه و غسله لأنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان طاهرا مطهرا من کل سوء و عیب و کیف یطهر القلب و ما فیه من الاعتقاد بالماء.انتهی.

و ما ذکره من التقسیم فی محله غیر ان غالب ما اورده من الامثله للأقسام منظور فیه فما

ذکره من الطواف و رؤیه الانبیاء و نحو ذلک تمثلات برزخیه او روحیه و کذا ما ذکره من حدیث شق البطن و الغسل تمثل برزخی لا ضیر فیه و أحادیث الأسراء مملوءه من ذکر هذا النوع من التمثل کتمثل الدنیا فی هیئه مرأه علیها من کل زینه الدنیا،و تمثل دعوه الیهودیه و النصرانیه و ما شاهده من انواع النعیم و العذاب لأهل الجنه و النار و غیر ذلک.

و مما یؤید هذا الذی ذکرناه ما فی ألسنه هذه الاخبار من الاختلاف فی بیان حقیقه واحده کما فی بعضها من صعوده صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی السماء بالبراق و فی آخر علی جناح جبریل و فی آخر بمعراج منصوب علی صخره بیت المقدس الی السماء الی غیر ذلک مما یعثر علیه الباحث المتدبر فی خلال هذه الروایات.

فهذه و أمثالها ترشد الی ان هذه البیانات موضوعه علی التمثیل او التمثل الروحی،و وقوع هذه التمثیلات فی ظواهر الکتاب و السنه مما لا سبیل الی انکاره البته.

[سوره الإسراء (۱۷): الآیات ۲ الی ۸]

اشاره

وَ آتَیْنا مُوسَی اَلْکِتابَ وَ جَعَلْناهُ هُدیً لِبَنِی إِسْرائِیلَ أَلاّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِی وَکِیلاً (۲) ذُرِّیَّهَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ کانَ عَبْداً شَکُوراً (۳) وَ قَضَیْنا إِلی بَنِی إِسْرائِیلَ فِی اَلْکِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِی اَلْأَرْضِ مَرَّتَیْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا کَبِیراً (۴) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَیْکُمْ عِباداً لَنا أُولِی بَأْسٍ شَدِیدٍ فَجاسُوا خِلالَ اَلدِّیارِ وَ کانَ وَعْداً مَفْعُولاً (۵) ثُمَّ رَدَدْنا لَکُمُ اَلْکَرَّهَ عَلَیْهِمْ وَ أَمْدَدْناکُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِینَ وَ جَعَلْناکُمْ أَکْثَرَ نَفِیراً (۶) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِکُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ اَلْآخِرَهِ لِیَسُوؤُا وُجُوهَکُمْ وَ لِیَدْخُلُوا اَلْمَسْجِدَ کَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ لِیُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِیراً (۷) عَسی رَبُّکُمْ أَنْ یَرْحَمَکُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْکافِرِینَ حَصِیراً (۸)

ص: ۶۷۷

بيان:

قوله تعالى: وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً الكتاب كثيرا ما يطلق فى كلامه تعالى على مجموع الشرائع المكتوبه على الناس القاضيه بينهم فيما اختلفوا فيه من الاعتقاد و العمل ففيه دلاله على اشتماله على الوظائف الاعتقاديه و العمليه التى عليهم ان يأخذوها و يتلبسوا بها،و لعله لذلك قيل: «وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ» و لم يقل التوراه ليدل به على اشتماله على شرائع مفترضه عليهم.

و بذلك يظهر ان قوله: «وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ» بمنزله التفسير لإيتائه الكتاب.

و كونه هدى اى هاديا لهم هو بيانه لهم شرائع ربهم التى لو أخذوها و عملوا بها لاهتدوا الى الحق و نالوا سعاده الدارين.

و قوله: أَلاّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً ان:فيه للتفسير و مدخولها محصل ما يشتمل عليه الكتاب الذى جعل هدى لهم فيئول المعنى الى أن محصل ما كان الكتاب يبينه لهم و يهديهم اليه هو نهيه إياهم ان يشركوا باللّه شيئا و يتخذوا من دونه وكيلا فقوله: «أَلاّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً» تفسيرا لقوله: «وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ» إن كان ضمير «أَلاّ تَتَّخِذُوا»

عائدا اليهم كما هو الظاهر،و تفسير لجميع ما تقدمه إن احتمل رجوعه الى موسى و بنى إسرائيل جميعا.

قوله تعالى: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كٰانَ عَبْداً شَكُوراً تطلق الذريه على الأولاد بعنايه كونهم صغارا ملحقين بآبائهم،و هى-على ما يهدى اليه السياق-منصوبه على الاختصاص و يفيد الاختصاص عنايه خاصه من المتكلم به فى حكمه فهو بمنزله التعليل كقوله تعالى: إِنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ (الأحزاب/٣٣)أى ليفعل بكم ذلك لأنكم أهل بيت النبوه.

فقوله: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ يفيد فائده التعليل بالنسبه الى ما تقدمه كما أن قوله: «إِنَّهُ كٰانَ عَبْداً شَكُوراً» يفيد فائده التعليل بالنسبه اليه.

فيتلخص معنى الآيتين فى مثل قولنا:انا جزينا نوحا بما كان عبدا شكورا لنا أنا ابقينا دعوته و اجرينا سنته و طريقته فى ذريه من حملناهم معهم فى السفينه و من ذلك انا انزلنا على موسى الكتاب و جعلناه هدى لبنى اسرائيل.

و يظهر من قوله فى الآيه: «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ» و من قوله: «وَ جَعَلْنٰا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبٰاقِينَ» ان الناس ذريه نوح عليه السّلام من جهه الابن و البنت معا،و لو كانت الذريه منتهيه الى ابنائه فقط و كان المراد بقوله: «مَنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ» ابناؤه فقط كان الأحسن بل المتعين ان يقال:ذريه نوح و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَ قَضَيْنٰا إِلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ فِي الْكِتٰابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً» قال الراغب فى المفردات:القضاء فصل الأمر قولا كان ذلك أو فعلا،و كل واحد منهما على وجهين:الهى و بشرى فمن القول الإلهى قوله: وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِيّٰاهُ اى امر بذلك،و قال: وَ قَضَيْنٰا إِلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ فِي الْكِتٰابِ فهذا قضاء بالاعلام و الفصل فى الحكم اى اعلمناهم و اوحينا اليهم وحيا جزما و على هذا: وَ قَضَيْنٰا إِلَيْهِ

ذٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دٰابِرَ هٰؤُلاٰءِ مَقْطُوعٌ .

و من الفعل الإلهی قوله: وَ اللّٰهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ و قوله: فَقَضٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ فِي يَوْمَيْنِ اشاره الی ایجاده الابداعی و الفراغ منه نحو:

بَدِيعُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

قال:و من القول البشری نحو قضی الحاکم بکذا فان حکم الحاکم یکون بالقول،و من الفعل البشری: فَإِذٰا قَضَيْتُمْ مَنٰاسِكَكُمْ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ انتهی موضع الحاجه.

و العلو هو الارتفاع و هو فی الآیه کنایه عن الطغیان بالظلم و التعدی و یشهد بذلک عطفه علی الإفساد عطف التفسیر،و فی هذا المعنی قوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاٰ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهٰا شِيَعاً .

و معنی الآیه و أخبرنا و أعلمنا بنی اسرائیل إخبارا قاطعا فی الکتاب و هو التوراه:اقسم و احق هذا القول انکم شعب اسرائیل ستفسدون فی الارض و هی ارض فلسطین و ما یتبعها مرتین مره بعد مره و تعلون علوا کبیرا و تطغون طغیانا عظیما.

قوله تعالی: فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ أُولاٰهُمٰا بَعَثْنٰا عَلَيْكُمْ عِبٰاداً لَنٰا الخ؛قال الراغب:

البؤس و البأس و البأساء الشده و المکروه الا ان البؤس فی الفقر و الحرب اکثر و البأس و البأساء فی النکایه نحو و اللّه اشد بأسا و اشد تنکیلا.انتهی موضع الحاجه.

و فی المجمع:الجوس التخلل فی الدیار یقال:ترکت فلان یجوس بنی فلان و یجوسهم و یدوسهم ای یطؤهم،قال ابو عبید:کل موضع خالطته و وطأته فقد حسته و جسته قال:

و قیل:الجوس طلب الشیء باستقصاء.انتهی.

و قوله: فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ أُولاٰهُمٰا تفریع علی قوله: «لَتُفْسِدُنَّ» الخ؛و ضمیر التثنیه راجع الی المرتین و هما الإفسادتان فالمراد بها الإفساده الاولی،و المراد بوعد اولاهما ما

وعدهم اللّه من النكال و النقمه على افسادهم فالوعد بمعنى الموعود،و مجىء الوعد كنايه عن وقت انجازه،و يدل ذلك على انه وعدهم على افسادهم مرتين وعدين و لم يذكر انجازا فكأنه قيل:لتفسدن فى الأرض مرتين و نحن نعدكم الانتقام على كل منهما فإذا جاء وعد المره الاولى، الخ؛كل ذلك معونه السياق.

و قوله: بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ اى انهضناهم و ارسلناهم اليكم ليذلوكم و ينتقموا منكم،و الدليل على كون البعث الانتقام و الإذلال قوله: أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ الخ.

و قوله: وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولاً تأكيد لكون القضاء حتما لازما و المعنى فإذا جاء وقت الوعد الذى وعدناه على المره الاولى من افسادكم مرتين بعثنا و انهضنا عليكم من الناس عبادا لنا اولى بأس و شده شديده فدخلوا بالقهر و الغلبه ارضكم و توسطوا فى دياركم فأذلوكم و أذهبوا استقلالكم و علوكم و سؤددكم و كان وعدا مفعولا لا محيص عنه.

قوله تعالى: ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً قال فى المجمع:الكره معناه الرجعه و الدوله،و النفير العدد من الرجال قال الزجاج:و يجوز أن يكون جمع نفر كما قيل:العبيد و الضئين و المعيز و الكليب، و نفر الانسان و نفره و نفيره و نافرته رهطه الذين ينصرونه و ينفرون معه انتهى.

و معنى الآيه ظاهر،و ظاهرها أن بنى اسرائيل ستعود الدوله لهم على أعدائهم بعد وعد المره الأولى فيغلبونهم و يقهرونهم و يتخلصون من استعبادهم و استرقاقهم و أن هذه الدوله سترجع اليهم تدريجا فى برهه معتد بها من الزمان كما هو لازم امدادهم بأموال و بنين و جعلهم اكثر نفيرا.

و فى قوله فى الآيه التاليه: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها اشعار بل دلاله بمعونه السياق ان هذه الواقعه و هى رد الكره لبنى اسرائيل على اعدائهم انما

كانت لرجوعهم الى الإحسان بعد ما ذاقوا وبال اساءتهم قبل ذلك كما ان إنجاز وعد الآخره انما كان لرجوعهم ثانيا الى الإساءه بعد رجوعهم هذا الى الإحسان.

قوله تعالى: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهٰا اللام فى «لِأَنْفُسِكُمْ» و «فَلَهٰا» للاختصاص اى ان كلا من احسانكم و إساءتكم يختص بأنفسكم دون ان يلحق غيركم،و هى سنه اللّه الجاريه ان العمل يعود اثره و تبعته الى صاحبه ان خيرا و ان شرا فهو كقوله: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مٰا كَسَبْتُمْ (البقره١۴١/).

فالمقام مقام بيان ان اثر العمل لصاحبه خيرا كان او شرا،و ليس مقام بيان ان الإحسان ينفع صاحبه و الإساءه تضر حتى يقال:و إن اسأتم فعليها كما قيل: لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهٰا مَا اكْتَسَبَتْ (البقره٢٨۶/).

قوله تعالى: فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمٰا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا مٰا عَلَوْا تَتْبِيراً التتبير الإهلاك من التبار بمعنى الهلاك و الدمار.

و قوله: لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ من المساءه يقال:ساء زيد فلانا اذا احزنه و هو على ما قيل متعلق بفعل مقدر محذوف للإيجاز،و اللام للغايه و التقدير بعثناهم ليسوؤا وجوهكم بظهور الحزن و الكأبه فيها و بدو آثار الذله و المسكنه و صغار الاستعبار عليها بما يرتكبونه فيكم من القتل الذريع و السبى و النهب.

و قوله: وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمٰا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ المراد بالمسجد هو المسجد الأقصى-بيت المقدس-و لا يعبأ بما ذكره بعضهم ان المراد به جميع الأرض المقدسه مجازا،و فى الكلام دلاله أولا انهم فى وعد المره الاولى ايضا دخلوا المسجد عنوه و إنما لم يذكر قبلا للإيجاز،و ثانيا ان دخولهم المسجد انما كان للهتك و التخريب،و ثالثا يشعر الكلام بأن هؤلاء المهاجمين المبعوثين لمجازاه بنى اسرائيل و الانتقام منهم هم الذين بعثوا

عليهم اولا.

و قوله: وَ لِيُتَبِّرُوا مٰا عَلَوْا تَتْبِيراً اى ليهلكوا الذى غلبوا عليه إهلاكا فيقتلوا النفوس و يحرقوا الاموال و يهدموا الابنيه و يخربوا البلاد،و احتمل ان يكون ما مصدريه بحذف مضاف و تقدير الكلام:و ليتبروا مده علوهم تتبيرا،و المعنى الاول اقرب الى الفهم و أوفق بالسياق.

و المقايسه بين الوعدين اعنى قوله: «بَعَثْنٰا عَلَيْكُمْ عِبٰاداً لَنٰا» الخ؛و قوله: «لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ» الخ؛يعطى ان الثانى كان اشد على بنى اسرائيل و امر و قد كادوا ان يفنوا و يبيدوا فيه عن آخرهم و كفى فى ذلك قوله تعالى: «وَ لِيُتَبِّرُوا مٰا عَلَوْا تَتْبِيراً» .

و المعنى فإذا جاء وعد المره الآخره و هى الثانيه من الإفسادتين بعثناهم ليسوؤا وجوهكم بظهور الحزن و الكأبه و بدو الذله و المسكنه و ليدخلوا المسجد الاقصى كما دخلوه اول مره و ليهلكوا الذى غلبوا عليه و يفنوا الذى مروا عليه اهلاكا و افناء.

قوله تعالى: عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنٰا وَ جَعَلْنٰا جَهَنَّمَ لِلْكٰافِرِينَ حَصِيراً الحصير من الحصر و هو-على ما ذكروه- التضييق و الحبس قال تعالى: وَ احْصُرُوهُمْ (التوبه5/)اى ضيقوا عليهم.

و قوله: عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ اى بعد البعث الثانى على ما يفيده السياق و هو ترج للرحمه على تقدير ان يتوبوا و يرجعوا الى الطاعه و الإحسان بدليل قوله: وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ اى و ان تعودوا الى الافساد و العلو،بعد ما رجعتم عنه و رحمكم ربكم نعد الى العقوبه و النكال،و جعلنا جهنم للكافرين حصيرا و مكانا حابسا لا يستطيعون منه خروجا.

و فى قوله: عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ التفات من التكلم مع الغير الى الغيبه و كأن الوجه فيه الاشاره الى ان الأصل الذى يقتضيه ربوبيته تعالى ان يرحم عباده ان جروا على

ص :683

ما یقتضیه خلقتهم و یرشد الیه فطرتهم الا ان ینحرفوا عن خط الخلقه و یخرجوا عن صراط الفطره،و الایماء الی هذه النکته یوجب ذکر وصف الرب فاحتاج السیاق ان یتغیر عن التکلم مع الغیر الی الغیبه ثم لما استوفیت النکته بقوله: «عَسیٰ رَبُّکُمْ أَنْ یَرْحَمَکُمْ» عاد الکلام الی ما کان علیه (۱).

[سوره الإسراء (۱۷): الآیات ۹ الی ۲۲]

اشاره

إِنَّ هٰذَا اَلْقُرْآنَ یَهْدِی لِلَّتِی هِیَ أَقْوَمُ وَ یُبَشِّرُ اَلْمُؤْمِنِینَ اَلَّذِینَ یَعْمَلُونَ اَلصّٰالِحٰاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً کَبِیراً (۹) وَ أَنَّ اَلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰاباً أَلِیماً (۱۰) وَ یَدْعُ اَلْإِنْسٰانُ بِالشَّرِّ دُعٰاءَهُ بِالْخَیْرِ وَ کٰانَ اَلْإِنْسٰانُ عَجُولاً (۱۱) وَ جَعَلْنَا اَللَّیْلَ وَ اَلنَّهٰارَ آیَتَیْنِ فَمَحَوْنٰا آیَهَ اَللَّیْلِ وَ جَعَلْنٰا آیَهَ اَلنَّهٰارِ مُبْصِرَهً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّکُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اَلسِّنِینَ وَ اَلْحِسٰابَ وَ کُلَّ شَیْءٍ فَصَّلْنٰاهُ تَفْصِیلاً (۱۲) وَ کُلَّ إِنسٰانٍ أَلْزَمْنٰاهُ طٰائِرَهُ فِی عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ کِتٰاباً یَلْقٰاهُ مَنْشُوراً (۱۳) اِقْرَأْ کِتٰابَکَ کَفیٰ بِنَفْسِکَ اَلْیَوْمَ عَلَیْکَ حَسِیباً (۱۴) مَنِ اِهْتَدیٰ فَإِنَّمٰا یَهْتَدِی لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا یَضِلُّ عَلَیْهٰا وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَهٌ وِزْرَ أُخْریٰ وَ مٰا کُنّٰا مُعَذِّبِینَ حَتّٰی نَبْعَثَ رَسُولاً (۱۵) وَ إِذٰا أَرَدْنٰا أَنْ نُهْلِکَ قَرْیَهً أَمَرْنٰا مُتْرَفِیهٰا فَفَسَقُوا فِیهٰا فَحَقَّ عَلَیْهَا اَلْقَوْلُ فَدَمَّرْنٰاهٰا تَدْمِیراً (۱۶) وَ کَمْ أَهْلَکْنٰا مِنَ اَلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ کَفیٰ بِرَبِّکَ بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِیراً بَصِیراً (۱۷) مَنْ کٰانَ یُرِیدُ اَلْعٰاجِلَهَ عَجَّلْنٰا لَهُ فِیهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِیدُ ثُمَّ جَعَلْنٰا لَهُ جَهَنَّمَ یَصْلاٰهٰا مَذْمُوماً مَدْحُوراً (۱۸) وَ مَنْ أَرٰادَ اَلْآخِرَهَ وَ سَعیٰ لَهٰا سَعْیَهٰا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِکَ کٰانَ سَعْیُهُمْ مَشْکُوراً (۱۹) کُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هٰؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّکَ وَ مٰا کٰانَ عَطٰاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً (۲۰) اُنْظُرْ کَیْفَ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَهُ أَکْبَرُ دَرَجٰاتٍ وَ أَکْبَرُ تَفْضِیلاً (۲۱) لاٰ تَجْعَلْ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (۲۲)

۱- ۱) .الإسراء ۲-۸:بحث روائی فی سیره نوح علیه السّلام؛فساد بنی اسرائیل و علوهم.

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ أی للمله التی هی أقوم کما قال تعالی: قُلْ إِنَّنِي هَدٰانِي رَبِّي إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفاً (الأنعام/ ۱۶۱).

و الأقوم أفعل تفضيل و الاصل فی الباب القيام ضد القعود الذی أو أحد أحوال الانسان و اوضاعه،و هو أعدل حالاته يتسلط به علی ما يريده من العمل بخلاف القعود و الاستلقاء

و الانبطاح و نحوها ثم کنی به عن حسن تصدیه للامور إذا قوی علیها من غیر عجز و عی و أحسن ادارتها للغایه یقال:قام بأمر کذا اذا تولاه و قام علی امر کذا ای راقبه و حفظه و راعی حاله بما یناسبه.

و قد وصف اللّه سبحانه هذه المله الحنیفیه بالقیام کما قال: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَیْها لا تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ (الروم۳۰/)،و قال:

فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ الْقَیِّمِ (الروم۴۳/).

و ذلک لکون هذا الدین مهیمنا علی ما فیه خیر دنیاهم و آخرتهم قیما علی اصلاح حالهم فی معاشهم و معادهم،و لیس الا لکونه موافقا لما تقتضیه الفطره الإنسانیه و الخلقه التی سواه اللّه سبحانه علیها و جهزه بحسبها بما یهدیه الی غایته التی اریدت له،و سعادته التی هیئت لأجله.

قوله تعالی: وَ یُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِینَ الَّذِینَ یَعْمَلُونَ الصّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً کَبِیراً الصالحات صفه محذوف موصوفها اختصارا و التقدیر و عملوا الأعمال الصالحات.

و فی الآیه جعل حق للمؤمنین الذین آمنوا و عملوا الصالحات علی اللّه سبحانه کما یؤیده تسمیه ذلک أجرا و یؤیده أیضا قوله فی موضع آخر: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَیْرُ مَمْنُونٍ (حم السجده۸/)و لا محذور فی ان یکون لهم علی اللّه حق اذا کان سبحانه هو الجاعل له،و نظیره قوله: ثُمَّ نُنَجِّی رُسُلَنا وَ الَّذِینَ آمَنُوا کَذلِکَ حَقًّا عَلَیْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِینَ (یونس۱۰۳/).

و العنایه فی الآیه ببیان الوعد المنجز کما ان الآیه التالیه تعنی ببیان الوعید المنجز و هو العذاب لمن یکفر بالآخره،و أما من آمن و لم یعمل الصالحات فلیس ممن له علی اللّه أجر منجز و حق ثابت بل أمره مراعی بتوبه أو شفاعه حتی یلحق بذلک معشر الصالحین من المؤمنین قال تعالی: وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَ آخَرَ سَیِّئاً عَسَی اللّهُ أَنْ یَتُوبَ

عَلَيْهِمْ (التوبه١٠٢/)و قال: وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمّٰا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمّٰا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ (التوبه١٠٦/).

نعم لهم ثبات على الحق بإيمانهم كما قال تعالى: وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ (يونس٢/)و قال: يُثَبِّتُ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّٰابِتِ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ فِي الْآخِرَةِ (إبراهيم٢٧/).

قوله تعالى: وَ أَنَّ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً الإعتاد الإعداد و التهيئه من العتاد بالفتح و هو على ما ذكره الراغب ادّخار الشيء قبل الحاجه اليه كالإعداد.

و ظاهر السياق أنه عطف على قوله فى الآيه السابقه: «أَنَّ لَهُمْ» الخ؛فيكون التقدير و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن الذين لا يؤمنون،الخ؛و كون ذلك بشاره للمؤمنين من حيث إنه انتقام إلهى من أعدائهم فى الدين.

و إنما خص بالذكر من أوصاف هؤلاء عدم ايمانهم بالآخره مع جواز أن يكفروا بغيرها كالتوحيد و النبوه لأن الكلام مسوق لبيان الأثر الذى يعقبه الدين القيم،و لا موقع للدين و لا فائده له مع انكار المعاد و ان اعترف بوحدانيه الرب تعالى و غيرها من المعارف،و لذلك عد سبحانه نسيان يوم الحساب أصلا لكل ضلال فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا نَسُوا يَوْمَ الْحِسٰابِ (ص٢٦/).

قوله تعالى: وَ يَدْعُ الْإِنْسٰانُ بِالشَّرِّ دُعٰاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كٰانَ الْإِنْسٰانُ عَجُولاً المراد بالدعاء على ما يستفاد من السياق مطلق الطلب سواء كان بلفظ الدعاء كقوله:اللهم ارزقنى مالا و ولدا و غير ذلك أو من غير دعاء لفظى بل بطلب و سعى فإن ذلك كله دعاء و سؤال من اللّه سواء اعتقد به الانسان و تنبه له أم لا إذ لا معطى و لا مانع فى الحقيقه إلا اللّه سبحانه،قال تعالى: يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (الرحمن٢٩/)و قال: وَ آتٰاكُمْ

مِنْ كُلِّ مٰا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهيم/۳۴)فالدعاء مطلق الطلب و الباء فی قوله: «بِالشَّرِّ» و «بِالْخَيْرِ» للصله و المراد أن الانسان يدعو الشر و يسأله دعاء كدعائه الخير و سؤاله و طلبه.

و على هذا فالمراد بكون الإنسان عجولا أنه لا يأخذ بالأناه إذا أراد شيئا حتى يتروى و يتفكر فی جهات صلاحه و فاسده حتى يتبين له وجه الخير فيما يريده من الأمر فيطلبه و يسعى اليه بل يستعجل فی طلبه بمجرد ما ذكره و تعلق به هواه فربما كان شرا فتضرر به و ربما كان خيرا فانتفع به.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنٰا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنٰا آيَةَ النَّهٰارِ مُبْصِرَةً الى آخر الآيه؛قال فی المجمع:مبصره أی مضيئه منيره نيره قال أبو عمرو:

أراد يبصر بها كما يقال:ليل نائم و سر كاتم،و قال الكسائی:العرب تقول:أبصر النهار إذا أضاء.انتهى موضع الحاجه.

الليل و النهار هما النور و الظلمه المتعاقبان على الأرض من جهه مواجهه الشمس بالطلوع و زوالها بالغروب و هما كسائر ما فی الكون من أعيان الأشياء و أحوالها آيتان للّه سبحانه تدلان بذاتهما على توحده بالربوبيه.

و قوله: لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ متفرع على قوله: «وَ جَعَلْنٰا آيَةَ النَّهٰارِ مُبْصِرَةً» أی جعلناها مضيئه لتطلبوا فيه رزقا من ربكم فإن الرزق فضله و عطاؤه تعالى.

و قوله: وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسٰابَ أی لتعلموا بمحو الليل و إبصار النهار عدد السنين بجعل عدد من الأيام واحدا يعقد عليه،و تعلموا بذلك حساب الأوقات و الآجال،و ظاهر السياق أن علم السنين و الحساب متفرع على جعل النهار مبصرا نظير تفرع ما تقدمه من ابتغاء الرزق على ذلك و ذلك أنا إنما نتنبه للاعدام و الفقدانات من ناحيه الوجودات لا بالعكس و الظلمه فقدان النور و لو لا النور لم ننتقل لا الى نور و لا الى ظلمه،

و نحن و إن كنا نستمد فى الحساب بالليل و النهار معا و نميز كلا منهما بالآخر ظهرا لكن ما هو الوجودى منهما أعنى النهار هو الذى يتعلق به إحساسنا أولا ثم نتنبه لما هو العدمى منها أعنى الليل بنوع من القياس،و كذلك الحال فى كل وجودى و عدمى مقيس اليه.

قوله تعالى: وَ كُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِی عُنُقِهِ قال فى المجمع:الطائر هنا عمل الإنسان شبه بالطائر الذى يسنح و يتبرك به و الطائر الذى يبرح فيتشاءم به،و السانح الذى يجعل ميامنه الى مياسرک،و البارح الذى يجعل مياسره الى ميامنک،و الأصل فى هذا أنه إذ كان سانحا أمكن الرامى و إذا كان بارحا لم يمكنه قال أبو زيد:كل ما يجرى من طائر أو ظبى أو غيره فهو عندهم طائر.انتهى.

و فى الكشاف:أنهم كانوا يتفألون بالطير و يسمونه زجرا فإذا سافروا و مر بهم طير زجروه فإن مر بهم سانحا بأن مر من جهه اليسار الى اليمين تيمنوا و إن مر بارحا بأن مر من جهه اليمين الى الشمال تشأموا و لذا سمى تطيرا.انتهى.

و قال فى المفردات:تطير فلان و أطير أصله التفاؤل بالطير ثم يستعمل فى كل ما يتفاءل به و يتشاءم «قَالُوا إِنَّا تَطَیَّرْنَا بِكُمْ» و لذلك قيل:لا طير إلاّ طيرك و قال: «إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا» أى يتشاءموا به «أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللّهِ» أى شؤمهم ما قد أعد اللّه لهم بسوء أعماله،و على ذلك قوله: «قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَکَ» «قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللّهِ» «قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ» «وَ كُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِی عُنُقِهِ» أى عمله الذى طار عنه من خير و شر و يقال:

تطايروا إذا أسرعوا و يقال إذا تفرقوا.انتهى.

و بالجمله سياق ما قبل الآيه و ما بعدها و خاصه قوله: «مَنِ اهْتَدَیٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِی لِنَفْسِهِ» الخ؛يعطى أن المراد بالطائر ما يستدل به على الميمنه و المشأمه و يكشف عن حسن العاقبه و سوئها فلكل إنسان شىء يرتبط بعاقبه حاله يعلم به كيفيتها من خير أو شر.

و إلزام الطائر جعله لازما له لا يفارقه،و إنما جعل الإلزام فى العنق لأنه العضو الذى لا

یمکن أن یفارقه الإنسان أو یفارقه هو الإنسان بخلاف الأطراف کالید و الرجل،و هو العضو الذی یوصل الرأس بالصدر فیشاهد ما یعلق علیه من قلاده أو طوق أو غل أول ما یواجه الإنسان.

فالمراد بقوله: «وَ کُلَّ إِنسٰانٍ أَلْزَمْنٰاهُ طٰائِرَهُ فِی عُنُقِهِ» أن الذی یستعقب لکل إنسان سعادته أو شقاءه هو معه لا یفارقه بقضاء من اللّه سبحانه فهو الذی ألزمه إیاه،و هذا هو العمل الذی یعمله الإنسان لقوله تعالی: وَ أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسٰانِ إِلاّٰ مٰا سَعیٰ وَ أَنَّ سَعْیَهُ سَوْفَ یُریٰ ثُمَّ یُجْزٰاهُ الْجَزٰاءَ الْأَوْفیٰ (النجم/۴۱).

فالطائر الذی ألزمه اللّه الإنسان فی عنقه هو عمله،و معنی إلزامه إیاه أن اللّه قضی أن یقوم کل عمل بعامله و یعود الیه خیره و شره و نفعه و ضره من غیر أن یفارقه الی غیره،و قد استفید من قوله تعالی: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِینَ... إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی جَنّٰاتٍ وَ عُیُونٍ الآیات (الحجر/۴۵)أن من القضاء المحتوم أن حسن العاقبه للایمان و التقوی و سوء العاقبه للکفر و المعصیه.

و لازم ذلک أن یکون مع کل إنسان من عمله ما یعین له حاله فی عاقبه أمره معیه لازمه لا یترکه و تعیینا قطعیا لا یخطئ و لا یغلط لما قضی به أن کل عمل فهو لصاحبه لیس له إلاّ هو و أن مصیر الطاعه الی الجنه و مصیر المعصیه الی النار.

و بما تقدم یظهر أن الآیه إنما تثبت لزوم السعاده و الشقاء للانسان من جهه أعماله الحسنه و السیئه المکتسبه من طریق الاختیار من دون أن یبطل تأثیر العمل فی السعاده و الشقاء بإثبات قضاء أزلی یحتم للانسان سعاده أو شقاء سواء عمل أم لم یعمل و سواء أطاع أم عصی کما توهمه بعضهم.

قوله تعالی: وَ نُخْرِجُ لَهُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ کِتٰاباً یَلْقٰاهُ مَنْشُوراً یوضح حال هذا الکتاب قوله بعده: «اقْرَأْ کِتٰابَکَ کَفیٰ بِنَفْسِکَ الْیَوْمَ عَلَیْکَ حَسِیباً» حیث یدل أولا علی أن

الكتاب الذی یخرج له هو کتابه نفسه لا یتعلق بغیره،و ثانیا أن الکتاب متضمن لحقائق أعماله التی عملها فی الدنیا من غیر أن یفقد منها شیئا کما فی قوله: یَقُولُونَ یٰا وَیْلَتَنٰا مٰا لِهٰذَا الْکِتٰابِ لاٰ یُغٰادِرُ صَغِیرَةً وَ لاٰ کَبِیرَةً إِلاّٰ أَحْصٰاهٰا (الکهف۴۹/)،و ثالثا أن الأعمال التی أحصاها بادیه فیها بحقائقها من سعاده أو شقاء ظاهره بنتائجها من خیر أو شر ظهورا لا یستتر بستر و لا یقطع بعذر،قال تعالی: لَقَدْ کُنْتَ فِی غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَکَشَفْنٰا عَنْکَ غِطٰاءَکَ فَبَصَرُکَ الْیَوْمَ حَدِیدٌ (ق۲۲/).

و بالجمله فی قوله: وَ نُخْرِجُ لَهُ إشاره الی أن کتاب الأعمال بحقائقها مستور عن إدراک الإنسان محجوب وراء حجاب الغفله و إنما یخرجه اللّه سبحانه للانسان یوم القیامه فیطلعه علی تفاصیله،و هو المعنی بقوله: «یَلْقٰاهُ مَنْشُوراً».

قوله تعالی: اِقْرَأْ کِتٰابَکَ کَفیٰ بِنَفْسِکَ الْیَوْمَ عَلَیْکَ حَسِیباً أی یقال له:اقرأ کتابک،الخ.

و قوله: کَفیٰ بِنَفْسِکَ الباء فیه زائده للتأکید و أصله کفت نفسک و إنما لم یؤنث الفعل لأن الفاعل مؤنث مجازی یجوز معه التذکیر و التأنیث،و ربما قیل:إنه اسم فعل بمعنی اکتف و الباء غیر زائده،و ربما وجه بغیر ذلک.

و فی الآیه دلاله علی أن حجه للکتاب قاطعه بحیث لا یرتاب فیها قارئه و لو کان هو المجرم نفسه و کیف لا؟و فیه معاینه نفس العمل و به الجزاء،قال تعالی: لاٰ تَعْتَذِرُوا الْیَوْمَ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التحریم۷/).

و الحال أن العمل سواء کان خیرا أو شرا لازم لصاحبه لا یفارقه و هو أیضا محفوظ علیه فی کتاب سیخرج له یوم القیامه و ینشر بین یدیه و یحاسب علیه،و إذا کان کذلک کان من الواجب علی الإنسان أن لا یبادر الی اقتحام کل ما یهواه و یشتهیه و لا یستعجل ارتکابه بل یتوقف فی الامور و یتروی حتی یمیز بینها و یفرق خیرها من شرها فیأخذ بالخیر و یتحرز الشر.

قوله تعالی: مَنِ اهْتَدیٰ فَإِنَّما يَهْتَدِی لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْریٰ قال فی المفردات:الوزر الثقل تشبيها بوزر الجبل،و يعبر بذلک عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل قال تعالی: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً الآيه؛كقوله:

وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ قال:و قوله: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْریٰ أی لا تحمل وزره من حيث يتعری المحمول عنه.انتهی.

و الآيه فی موضع النتيجه لقوله: «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ» الخ؛و الجمله الثالثه «وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْریٰ» تأكيد للجمله الثانيه «وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها».

و المعنی إذا كان العمل خيرا كان أو شرا يلزم صاحبه و لا يفارقه و هو محفوظ علی صاحبه سيشاهده عند الحساب فمن اهتدی فإنما يهتدی لنفسه و ينتفع به نفسه من غير أن يتبع غيره.

و من ضل عن السبيل فإنما يضل علی نفسه و يتضرر به نفسه من دون أن يفارقه فيلحق غيره، و لا تتحمل نفس حامله حمل نفسه اخری لا كما ربما يخيل لاتباع الضلال أنهم إن ضلوا فوبال ضلالهم علی أئمتهم الذين أضلوهم و كما يتوهم المقلدون لآبائهم و أسلافهم أن آثامهم و أوزارهم لآبائهم و أسلافهم لا لهم.

نعم لأئمه الضلال مثل أوزار متبعيهم،و لمن سن سنه سيئه أوزار من عمل بها و لمن قال:

اتبعونا لنحمل خطاياكم آثام خطاياهم لكن ذلک كله وزر الإمامه و جعل السنه و تحمل الخطايا لا عين ما للعامل من الوزر بحيث يفارق عامله و يلحق المتبوع بل إن كان عينه فمعناه أن يعذب بعمل واحد اثنان.

قوله تعالی: وَ ما كُنّا مُعَذِّبِينَ حَتّی نَبْعَثَ رَسُولاً ظاهر السياق الجاری فی الآيه و ما يتلوها من الآيات بل هی و الآيات السابقه أن يكون المراد بالتعذيب التعذيب الدنيوی بعقوبه الاستئصال،و يؤيده خصوص سياق النفی «وَ ما كُنّا مُعَذِّبِينَ» حيث لم يقل:

و لسنا معذبين و لا نعذب و لن نعذب بل قال: «وَ ما كُنّا مُعَذِّبِينَ» الدال علی استمرار النفی فی

الماضی الظاهر فی انه کانت السنه الإلهیه فی الامم الخالیه الهالکه جاریه علی أن لا یعذبهم إلا بعد أن یبعث الیهم رسولا ینذرهم بعذاب اللّه.

قوله تعالی: وَ إِذٰا أَرَدْنٰا أَنْ نُهْلِکَ قَرْیَهً أَمَرْنٰا مُتْرَفِیهٰا فَفَسَقُوا فِیهٰا فَحَقَّ عَلَیْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنٰاهٰا تَدْمِیراً قال الراغب:الترفه التوسع فی النعمه یقال:أترف فلان فهو مترف-الی أن قال فی قوله:أمرنا مترفیها-هم الموصوفون بقوله سبحانه: فَأَمَّا الْإِنْسٰانُ إِذٰا مَا ابْتَلاٰهُ رَبُّهُ فَأَکْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ انتهی.و قال فی المجمع:الترفه النعمه،قال ابن عرفه:المترف المتروک یصنع ما یشاء و لا یمنع منه،و قال:التدمیر الإهلاک و الدمار الهلاک.

انتهی.

و قوله: وَ إِذٰا أَرَدْنٰا أَنْ نُهْلِکَ قَرْیَهً أی إذا دنا وقت هلاکهم من قبیل قولهم:إذا أراد العلیل أن یموت کان کذا،و إذا أرادت السماء أنی مطر کان کذا،أی إذا دنا وقت موته و إذا دنا وقت إمطارها فإن من المعلوم أنه لا یرید الموت بحقیقه معنی الإراده و أنها لا ترید الإمطار کذلک،و فی القرآن: فَوَجَدٰا فِیهٰا جِدٰاراً یُرِیدُ أَنْ یَنْقَضَّ الآیه.

و یمکن أن یراد به الإراده الفعلیه و حقیقتها توافق الأسباب المقتضیه للشیء و تعاضدها علی وقوعه،و هو قریب من المعنی الأول و حقیقته تحقق ما لهلاکهم من الأسباب و هو کفران النعمه و الطغیان بالمعصیه کما قال سبحانه: لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ وَ لَئِنْ کَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِی لَشَدِیدٌ (إبراهیم/۷)،و قال: اَلَّذِینَ طَغَوْا فِی الْبِلاٰدِ فَأَکْثَرُوا فِیهَا الْفَسٰادَ فَصَبَّ عَلَیْهِمْ رَبُّکَ سَوْطَ عَذٰابٍ إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصٰادِ (الفجر/۱۴).

و قوله: أَمَرْنٰا مُتْرَفِیهٰا فَفَسَقُوا فِیهٰا من المعلوم من کلامه تعالی أنه لا یأمر بالمعصیه أمرا تشریعیا فهو القائل: قُلْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَأْمُرُ بِالْفَحْشٰاءِ (الأعراف/۲۸)و أما الأمر التکوینی فعدم تعلقه بالمعصیه من حیث إنها معصیه أوضح لجعله الفعل ضروریا یبطل معه تعلقه باختیار الإنسان و لا معصیه مع عدم الاختیار قال تعالی: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً

ص :۶۹۳

أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس٨٢/).

فمتعلق الأـمر فی قوله: «أَمَرْنٰا» إن كان هو الطاعه كان الأمر بحقيقه معناه و هو الأمر التشـريعی و كان هو الأمر الـذی توجه اليهم بلسان الرسول الـذی يبلغهم أمر ربهم و ينـذرهم بعذابه لو خالفوا و هو الشأن الذی يختص بالرسول كما تقدمت الاشاره اليه فإذا خالفوا و فسقوا عن أمر ربهم حق عليهم القول و هو أنهم معذبون إن خالفوا فاهلكوا و دمروا تدميرا.

و إن كـان متعلق الأـمر هو الفسق و المعصـيه كـان الأـمر مرادا به الاكثـار من إفـاضه النعم عليهم و توفيرهـا علی سبيـل الاملاء و الاستدراج و تقريبهم بذلک من الفسق حتی يفسقوا فيحق عليهم القول و ينزل عليهم العذاب.

و هـذان وجهـان فی معنی قوله: «أَمَرْنٰا مُتْرَفِيهٰا فَفَسَقُوا فِيهٰا» يجوز توجيهه بكل منها لكن يبعـد أول الوجهين أولا أن قولنا:أمرته ففعـل و أمرته ففسق ظـاهره تعلق الأمر بعين ما فرع عليه،و ثانيا عـدم ظهور وجه لتعلق الأمر بالمترفين مع كون الفسق لجميع أهل القريه و إلا لم يهلكوا.

و قرئ«آمرنـا»بالمـد و نسب الی علی عليه السّـلام و الی عـاصم و ابن كثير و نافع و غيرهـم و هو من الإيمان بمعنی إكثار المال و النسـل أو بمعنی تكليف إنشـاء فعـل،و قرئ أيضـا«أمرنـا»بتشديـد الميم من التـأمير بمعنی توليه الإمـاره و نسب ذلـک الی علی و الحسن و الباقر عليهم السّلام و الی ابن عباس و زيد بن علی و غيرهـم.

قـوله تعـالی: وَ كَـمْ أَهْلَكْنٰا مِـنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْـدِ نُـوحٍ وَ كَفیٰ بِرَبِّکَ بِـذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَـبِيراً بَصِـيراً قـال فی المفردات:القرن القـوم المقترنون فی زمن واحـد و جمعه قرون قال: وَ لَقَـدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنَ الْقُرُونِ انتهی و معنی الآيه ظاهر،و فيها تثبيت ما ذكر فی الآيه السابقه من سنه اللّه الجاريه فی إهلاک القری بالاشاره الی القرون الماضيه الهالكه.

و الآیه لا تخلو من إشعار بأن سنه الاهلاک إنما شرعت فی القرون الانسانیه بعد نوح علیه السّلام و هو کذلک،و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی: کٰانَ النّٰاسُ أُمَّهً وٰاحِدَهً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِیِّینَ (البقره۲۱۳/)فی الجزء الثانی من الکتاب أن المجتمع الانسانی قبل زمن نوح علیه السّلام کانوا علی سذاجه الفطره ثم اختلفوا بعد ذلک.

قوله تعالی: مَنْ کٰانَ یُرِیدُ الْعٰاجِلَهَ عَجَّلْنٰا لَهُ فِیهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِیدُ ثُمَّ جَعَلْنٰا لَهُ جَهَنَّمَ یَصْلاٰهٰا مَذْمُوماً مَدْحُوراً العاجله صفه محذوفه الموصوف و لعل موصوفها الحیاه بقرینه مقابلتها الآخره فی الآیه التالیه و هی الحیاه الآخره،و قیل:المراد النعم العاجله و قیل:الأعراج الدنیویه العاجله.

و فی المفردات:أصل الصلی لا یقاد النار.قال:و قال الخلیل:صلی الکافر النار قاسی حرها یَصْلَوْنَهٰا فَبِئْسَ الْمَصِیرُ و قیل:صلی النار دخل فیها،و أصلاها غیره قال: فَسَوْفَ نُصْلِیهِ نٰاراً انتهی.و فی المجمع:الدحر الابعاد و المدحور المبعد المطرود یقال:اللهم ادحر عنا الشیطان أی أبعده انتهی.

لما ذکر سبحانه سنته فی التعذیب الدنیوی إثر دعوه الرساله و أنه یهدی الامم الانسانیه الی الایمان و العمل الصالح حتی إذا فسدوا و أفسدوا بعث الیهم رسولا فإذا طغوا و فسقوا عذبهم عذاب الاستئصال،عاد الی بیان سنته فی التعذیب الأخروی و الإثابه فیها فی هذه الآیه و الآیتین بعدها یذکر فی آیه ملاک عذاب الآخره،و فی آیه ملاک ثوابها،و فی آیه محصل القول و الأصل الکلی فی ذلک.

فقوله: مَنْ کٰانَ یُرِیدُ الْعٰاجِلَهَ أی الذی یرید الحیاه العاجله و هی الحیاه الدنیا، و إراده الحیاه الدنیا إنما هی طلب ما فیها من المتاع الذی تلتذ به النفس و تعلق به القلب، و التعلق بالعاجله و طلبها إنما یعد طلبا لها إذا کان مقصوده بالاستقلال لا لأجل التوسل بها الی سعاده الاخری و إلا کانت إراده للآخره فإن الآخره لا یسلک إلیها إلا من طریق الدنیا فلا

يكون الانسان مريـدا للـدنيا إلا إذا أعرض عن الآخره و نسـيها فتمحضت إرادته فى الـدنيا، و يدل عليه أيضا خصوص التعبير فى الآيه «مَنْ كٰانَ يُرِيدُ» حيث يدل على استمرار الاراده.

و هـذا هو الذى لا يرى لنفسه إلاّ هذه الحياه الماديه الدنيويه و ينكر الحياه الآخره،و يلغو بذلك القول بالنبوه و التوحيد إذا لا أثر للايمـان باللّه و رسله و التـدين لو لا الاعتقاد بالمعاد،قال تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِكْرِنٰا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيٰاةَ الـدُّنْيٰا ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ (النجم/٣٠).

و قوله: عَجَّلْنٰا لَهُ فِيهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِيـدُ أى أسرعنا فى إعطائه ما يريـده فى الـدنيا لكن لا بإعطائه ما يريـده بل بإعطائه ما نريـده بالأمر الينا لا اليه و الأثر لارادتنا لا لإرادته،و لا بإعطاء ما نعطيه لكل من يريد بل لمن نريد فليس يحكم فينا إراده الأشـخاص بل إرادتنا هى التى تحكم فيهم.

و إرادته سبحانه الفعليه لشىء هو اجتماع الأسباب على كينونته و تحقّق العله التامه لظهوره فالآيه تدل على أن الانسان و هو يريد الـدنيا يرزق منهـا على حسب ما يسـمح له الأسـباب و العوامل التى أجراها اللّه فى الكون و قـدر لها من الآثار فهو ينال شـيئا مما يريده و يسأله بلسان تكوينه لكن ليس له إلا ما يهدى اليه الأسباب و اللّه من ورائهم محيط.

قوله تعالى: وَ مَنْ أَرٰادَ الْآخِرَةَ وَ سَعىٰ لَهٰا سَعْيَهٰا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ كٰانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً قال الراغب:السعى المشى السريع و هو دون العدو،و يستعمل للجد فى الأمر خيرا كان أو شرا،انتهى موضع الحاجه.

و قوله: وَ مَنْ أَرٰادَ الْآخِرَةَ أى الحياه الآخره نظير ما تقدم من قوله: «مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْعٰاجِلَةَ» و الكلام فى قول من قال:يعنى من أراد بعمله الآخره نظير الكلام فى مثله فى الآيه السابقه.

و قوله: وَ سَعىٰ لَهٰا سَعْيَهٰا اللام للاختصاص و كذا إضافه السعى الى ضمير

الآخره،و المعنى و سعى وجد للآخره السعى الذى يختص بها،و يستفاد منه أن سعيه لها يجب أن يكون سعيا يليق بها و يحق لها كأن يكون يبذل كمال الجهد فى حسن العمل و أخذه من عقل قطعى أو حجه شرعيه.

و قوله: وَ هُوَ مُؤْمِنٌ أى مؤمن باللّه و يستلزم ذلك توحيده و الإذعان بالنبوه و المعاد فإن من لا يعترف بإحدى الخصال الثلاث لا يعده اللّه سبحانه فى كلامه مؤمنا به و قد تكاثرت الآيات فيه.

على أن نفس التقييد بقوله: وَ هُوَ مُؤْمِنٌ يكفى فى التقييد المذكور فان من أراد الآخره و سعى لها سعيها فهو مؤمن باللّه و بنشأه وراء هذه النشأه الدنيويه قطعا فلولا أن التقييد بالإيمان لإفاده وجوب كون الإيمان صحيحا و من صحته أن يصاحب التوحيد و الإذعان بالنبوه لم يكن للتقييد وجه فمجرد التقييد بالإيمان يكفى مئونه الاستعانه بآيات أخر.

و قوله: فَأُولٰئِكَ كٰانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً أى يشكره اللّه بحسن قبوله و الثناء على ساعيه،و شكره تعالى على عمل العبد تفضل منه على تفضل فإن أصل إثابته العبد على عمل عمله تفضل لأن من وظيفه العبد أن يعبد مولاه من غير وجوب الجزاء عليه فالإثابه تفضل، و الثناء عليه بعد الإثابه تفضل على تفضل و اللّه ذو الفضل العظيم.

و فى الآيتين دلاله على ان الأسباب الاخرويه و هى الأعمال لا تتخلف عن غاياتها بخلاف الأسباب الدنيويه فإنه سبحانه يقول فيمن عمل للآخره فَأُولٰئِكَ كٰانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً و يقول فيمن عمل للدنيا عَجَّلْنٰا لَهُ فِيهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِيدُ .

قوله تعالى: كُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هَؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّكَ وَ مٰا كٰانَ عَطٰاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً قال فى المفردات:أصل المد الجر و منه المده للوقت الممتد و مده الجرح و مد النهر و مده نهر آخر و مددت عينى الى كذا قال تعالى: وَ لاٰ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ الآيه؛و مددته فى غيه...

ص :۶۹۷

و أمـددت الجيش بمـدد الإنسان بطعام قال:و أكثر ما جاء الإمـداد فى المحبوب و المـد فى المكروه نحو: وَ أَمْدَدْنٰاهُمْ بِفٰاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمّٰا يَشْتَهُونَ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذٰابِ مَدًّا و نمدهم فى طغيانهم وَ إِخْوٰانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ انتهى بتلخيص منا.

فإمـداد الشـىء و مـده أن يضاف اليه من نوعه مثلا ما يمتد به بقاؤه و يدوم به وجوده و لو لا ذلك لانقطع كالعين من الماء التى تستمد من المنبع و يضاف إليها منه الماء حينا بعد حين و يمتد بذلك جريانها.

و قوله: هٰؤُلاٰءِ وَ هٰؤُلاٰءِ أى هؤلاء المعجل لهم و هؤلاء المشـكور سـعيهم بما أن لكل منهما نعته الخاص به،و يئول المعنى الى أن كلاـ من الفريقين تحت التربيه الإلـهيه يفيض عليهم من عطائه من غير فرق غير أن أحـدهما يسـتعمل النعمه الإلهيه لابتغاء الآخره فيشكر اللّه سعيه، و الآخر يستعملها لابتغاء العاجله و ينسى الآخره فلا يبقى له فيها إلا الشقاء و الخيبه.

و قوله: مِنْ عَطٰاءِ رَبِّكَ فـإن جميع مـا يسـتفيدون منه فى أعمـالهم كما تقـدم لا صـنع لهم و لا لغيرهم من المخلوقين فيه بل اللّه سبحانه هو الموجد لها و مالكها فهى من عطائه.

و قوله: وَ مٰا كٰانَ عَطٰاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً أى ممنوعا-و الحظر المنع-فأهل الـدنيا و أهل الآخره مسـتمدون من عطائه منعمون بنعمته ممنونون بمنته.

و فى الآيه دلاله على أن العطاء الإلهى مطلق غير محدد بحد لمكان إطلاق العطاء و نفى الحظر فى الآيه فما يوجد من التحديد و التقدير و المنع باختلاف الموارد فإنما هو من ناحيه المسـتفيض و خصوص اسـتعداده للاستفاضه أو فقدانه من رأس لا من ناحيه المفيض.

قوله تعـالى: اُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجٰاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلاً اشـاره الى تفـاوت الـدرجات بتفاوت المسـاعى حتى لاـ يتوهم أن قليل العمل و كثيره على حـد سواء و يسـير السـعى و السـعى البالغ لا فرق بينهما فإن تسويه القليل و الكثير و الجيد و الردى فى الشكر و القبول رد فى الحقيقه لما يزيد به الأفضل على غيره.

ص :۶۹۸

و قوله: أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ أی بعض الناس علی بعض فی الدنيا،و القرينه علی هذا التقييد قوله بعد: «وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ» و التفضيل فی الدنيا هو ما يزيد به بعض أهلها علی بعض من أعراضها و أمتعتها كالمال و الجاه و الولد و القوه و الصيت و الرئاسه و السؤدد و القبول عند الناس.

و قوله: وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجٰاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلاً أی هی أكبر من الدنيا فی الدرجات و التفضيل فلا يتوهمن متوهم أن أهل الآخره فی عيشه سواء و لا أن التفاوت بين معايشهم كتفاوت أهل الدنيا فی دنياهم بل الدار أوسع من الدنيا بما لا يقاس و ذلك أن سبب التفضيل فی الدنيا هی اختلاف الأسباب الكونيه و هی محدوده و الدار دار التزاحم و سبب التفضيل و اختلاف الدرجات فی الآخره هو اختلاف النفوس فی الإيمان و الإخلاص و هی من أحوال القلوب،و اختلاف أحوالها أوسع من اختلاف أحوال الأجسام بما لا يقال قال تعالی:

إِنْ تُبْدُوا مٰا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحٰاسِبْكُمْ بِهِ اللّٰهُ (البقره۲۸۴/) يَوْمَ لاٰ يَنْفَعُ مٰالٌ وَ لاٰ بَنُونَ إِلاّٰ مَنْ أَتَى اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (الشعراء۸۹/).

ففی الآيه أمره صلّی اللّه عليه و آله و سلم أن ينظر الی ما بين أهل الدنيا من التفاضل و الاعتبار ليجعل ذلك ذريعه الی فهم ما بين أهل الآخره من تفاوت الدرجات و التفاضل فی المقامات فإن اختلاف الأحوال فی الدنيا يؤدی الی اختلاف الادراكات الباطنه و النيات و الأعمال التی يتيسر للانسان أن يأتی بها و اختلاف ذلك يؤدی الی اختلاف الدرجات فی الآخره.

قوله تعالی: لاٰ تَجْعَلْ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً قال فی المفردات:الخذلان ترك من يظن به أن ينصر نصرته انتهی.

و الآيه بمنزله النتيجه للآيات السابقه التی ذكرت سنه اللّه فی عباده و ختمت فی أن من أراد منهم العاجله انتهی به ذلك الی أن يصلی جهنم مذموما مدحورا،و من أراد منهم الآخره شكر اللّه سعيه الجميل،و المعنی لا تشرك باللّه سبحانه حتی يؤديك ذلك الی ان تقعد و تحتبس عن

السیر الی درجات القرب و انت مذموم لا ینصرک اللّه و لا ناصر دونه و قیل:القعود کنایه عن المذله و العجز (۱)(۲).

[سوره الإسراء (۱۷): الآیات ۲۳ الی ۳۹]

اشاره

وَ قَضیٰ رَبُّکَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِیّاهُ وَ بِالْوالِدَیْنِ إِحْساناً إِمّا یَبْلُغَنَّ عِنْدَکَ اَلْکِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ کِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلاً کَرِیماً (۲۳) وَ اِخْفِضْ لَهُما جَناحَ اَلذُّلِّ مِنَ اَلرَّحْمَهِ وَ قُلْ رَبِّ اِرْحَمْهُما کَما رَبَّیانِی صَغِیراً (۲۴) رَبُّکُمْ أَعْلَمُ بِما فِی نُفُوسِکُمْ إِنْ تَکُونُوا صالِحِینَ فَإِنَّهُ کانَ لِلْأَوّابِینَ غَفُوراً (۲۵) وَ آتِ ذَا اَلْقُرْبیٰ حَقَّهُ وَ اَلْمِسْکِینَ وَ اِبْنَ اَلسَّبِیلِ وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِیراً (۲۶) إِنَّ اَلْمُبَذِّرِینَ کانُوا إِخْوانَ اَلشَّیاطِینِ وَ کانَ اَلشَّیْطانُ لِرَبِّهِ کَفُوراً (۲۷) وَ إِمّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ اِبْتِغاءَ رَحْمَهٍ مِنْ رَبِّکَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَیْسُوراً (۲۸) وَ لا تَجْعَلْ یَدَکَ مَغْلُولَهً إِلیٰ عُنُقِکَ وَ لا تَبْسُطْها کُلَّ اَلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (۲۹) إِنَّ رَبَّکَ یَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ وَ یَقْدِرُ إِنَّهُ کانَ بِعِبادِهِ خَبِیراً بَصِیراً (۳۰) وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَکُمْ خَشْیَهَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِیّاکُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ کانَ خِطْأً کَبِیراً (۳۱) وَ لا تَقْرَبُوا اَلزِّنیٰ إِنَّهُ کانَ فاحِشَهً وَ ساءَ سَبِیلاً (۳۲) وَ لا تَقْتُلُوا اَلنَّفْسَ اَلَّتِی حَرَّمَ اَللّهُ إِلاّ بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِیِّهِ سُلْطاناً فَلا یُسْرِفْ فِی اَلْقَتْلِ إِنَّهُ کانَ مَنْصُوراً (۳۳) وَ لا تَقْرَبُوا مالَ اَلْیَتِیمِ إِلاّ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ حَتّیٰ یَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ اَلْعَهْدَ کانَ مَسْؤُلاً (۳۴) وَ أَوْفُوا اَلْکَیْلَ إِذا کِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ اَلْمُسْتَقِیمِ ذٰلِکَ خَیْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلاً (۳۵) وَ لا تَقْفُ ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ اَلسَّمْعَ وَ اَلْبَصَرَ وَ اَلْفُؤادَ کُلُّ أُولٰئِکَ کانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (۳۶) وَ لا تَمْشِ فِی اَلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ اَلْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ اَلْجِبالَ طُولاً (۳۷) کُلُّ ذٰلِکَ کانَ سَیِّئُهُ عِنْدَ رَبِّکَ مَکْرُوهاً (۳۸) ذٰلِکَ مِمّا أَوْحیٰ إِلَیْکَ رَبُّکَ مِنَ اَلْحِکْمَهِ وَ لا تَجْعَلْ مَعَ اَللّهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتُلْقیٰ فِی جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (۳۹)

۱- ۱) .الاسراء ۹-۲۲:بحث روائی فی القرآن.

۲- ۲) .الاسراء ۹-۲۲:کلام فی القضاء فی فصول(فی تحصیل معناه و تحدیده؛نظره فلسفیه فی معنی القضاء)بحث فلسفی فی وجود الواجب تعالی.

بیان:

قوله تعالى: وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِيّٰاهُ «أَلاّٰ تَعْبُدُوا» الخ؛نفى و استثناء و«أن»مصدريه و يجوز ان يكون نهيا استثناء و أن مصدريه أو مفسره،و على أى حال ينحل مجموع المستثنى و المستثنى منه الى جملتين كقولنا:تعبدونه و لا تعبدون غيره و ترجع الجملتان بوجه آخر الى حكم واحد و هو الحكم بعبادته عن اخلاص.

و القول سواء كان منحلا الى جملتين أو عائدا الى جمله واحده متعلق القضاء و هو القضاء التشريعى المتعلق بالاحكام و القضايا التشريعيه،و يفيد معنى الفصل و الحكم القاطع المولوى،و هو كما يتعلق بالأمر يتعلق بالنهى و كما يبرم الأحكام المثبته يبرم الأحكام المنفيه، و لو كان بلفظ الأمر فقيل:و أمر ربك ان لا تعبدوا الا اياه،لم يصح الا بنوع من التأويل و التجوز.

و الأمر باخلاص العباده للّه سبحانه أعظم الأوامر الدينيه و الاخلاص بالعباده أوجب الواجبات كما أن معصيته و هو الشرك باللّه سبحانه أكبر الكبائر الموبقه،قال تعالى: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ (النساء۴۸/).

و اليه يعود جميع المعاصى بحسب التحليل اذ لو لا طاعه غير اللّه من شياطين الجن و الإنس و هوى النفس و الجهل لم يقدم الانسان على معصيه ربه فيما أمره به أو نهاه عنه و الطاعه عباده قال تعالى: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ (يس ۶۰/)،و قال:

أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ (الجاثيه۲۳/)،حتى أن الكافر المنكر للصانع مشرك بالقائه زمام تدبير العالم الى الماده او الطبيعه او الدهر او غير ذلك و هو مقر بسذاجه فطرته بالصانع

تعالى.

و لعظم أمر هذا الحكم قدمه على سائر ما عد من الأحكام الخطيره شأنا كعقوق الوالدين و منع الحقوق الماليه و التبذير و قتل الأولاد و الزنا و قتل النفس المحترمه و أكل مال اليتيم و نقض العهد و التطفيف فى الوزن و اتباع غير العلم و الكبير ثم ختمها بالنهى ثانيا عن الشرك.

قوله تعالى: وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً عطف على سابقه أى و قضى ربك بأن تحسنوا بالوالدين إحسانا او ان أحسنوا بالوالدين احسانا و الإحسان فى الفعل يقابل الإساءه و هذا بعد التوحيد للّه من أوجب الواجبات كما أن عقوقهما أكبر الكبائر بعد الشرك باللّه،و لذلك ذكره بعد حكم التوحيد و قدمه على سائر الأحكام المذكوره المعدوده و كذلك فعل فى عده مواضع من كلامه.

قوله تعالى: إِمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً «إِمّا» مركب من«إن»الشرطيه و«ما»الزائده و هى المصححه لدخول نون التأكيد على فعل الشرط،و الكبر هو الكبر فى السن و أف كلمه تفيد الضجر و الانزجار،و النهر هو الزجر بالصياح و رفع الصوت و الاغلاظ فى القول.

فالآيه تدل على وجوب إكرامهما و رعايه الأدب التام فى معاشرتهما و محاورتهما فى جميع الأوقات و خاصه فى وقت يشتد حاجتهما الى ذلك و هو وقت بلوغ الكبر من احدهما او كليهما عند الولد و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَهِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً خفض الجناح كنايه عن المبالغه فى التواضع و الخضوع قولا و فعلا مأخوذ من خفض فرخ الطائر جناحه ليستعطف أمه لتغذيته،و لذا قيده بالذل فهو دأب أفراخ الطيور إذا أرادت الغذاء من امهاتها،فالمعنى واجههما فى معاشرتك و محاورتك مواجهه يلوح منها تواضعك و خضوعك لهما و تذللك قبالهما رحمه بهما.

ص :٧٠٣

هذا ان كان الذل بمعنى المسكنه و ان كان بمعنى المطاوعه فهو مأخوذ من خفض الطائر جناحه ليجمع تحته افراخه رحمه بها و حفظا لها.

و قوله: وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمٰا كَمٰا رَبَّيٰانِي صَغِيراً، أى اذكر تربيتهما لك صغيرا فادع اللّه سبحانه أن يرحمهما كما رحماك و ربياك صغيرا.

قال فى المجمع:و فى هذا دلاله على أن دعاء الولد لوالده الميت مسموع و إلا لم يكن للامر به معنى.انتهى.و الذى يدل عليه كون هذا الدعاء فى مظنه الإجابه و هو أدب دينى ينتفع به الولد و ان فرض عدم انتفاع والديه به على أن وجه تخصيص استجابه الدعاء بالوالد الميت غير ظاهر و الآيه مطلقه.

قوله تعالى: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمٰا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صٰالِحِينَ فَإِنَّهُ كٰانَ لِلْأَوّٰابِينَ غَفُوراً السياق يعطى أن تكون الآيه متعلقه بما تقدمها من إيجاب إحسان الوالدين و تحريم عقوقهما،و على هذا فهى متعرضه لما إذا بدرت من الولد بادره فى حق الوالدين من قول أو فعل يتأذيان به،و إنما لم يصرح به للإشاره الى أن ذلك مما لا ينبغى أن يذكر كما لا ينبغى أن يقع.

فقوله: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمٰا فِي نُفُوسِكُمْ أى أعلم منكم به،و هو تمهيد لما يتلوه من قوله: إِنْ تَكُونُوا صٰالِحِينَ فيفيد تحقيق معنى الصلاح أى إن تكونوا صالحين و علم اللّه من نفوسكم ذلك فإنه كان،الخ؛و قوله: فَإِنَّهُ كٰانَ لِلْأَوّٰابِينَ غَفُوراً أى للراجعين اليه عند كل معصيه و هو من وضع البيان العام موضع الخاص.

و المعنى:إن تكونوا صالحين و علم اللّه من نفوسكم و رجعتم و تبتم اليه فى بادره ظهرت منكم على والديكم غفر اللّه لكم ذلك إنه كان للأوابين غفورا.

قوله تعالى: وَ آتِ ذَا الْقُرْبىٰ حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ تقدم الكلام فيه فى نظائره،و بالآيه أن إيتاء ذى القربى و المسكين و ابن السبيل مما شرع قبل الهجره لأنها آيه

مکیه من سوره مکیه.

قوله تعالی: وَ لاٰ تُبَذِّرْ تَبْذِیراً إِنَّ الْمُبَذِّرِینَ کٰانُوا إِخْوٰانَ الشَّیٰاطِینِ وَ کٰانَ الشَّیْطٰانُ لِرَبِّهِ کَفُوراً قال فی المجمع:التبذیر التفریق بالإسراف،و أصله أن یفرق کما یفرق البذر إلا أنه یختص بما یکون علی سبیل الإفساد،و ما کان علی وجه الإصلاح لا یسمی تبذیرا و إن کثر.انتهی.

و قوله: إِنَّ الْمُبَذِّرِینَ کٰانُوا إِخْوٰانَ الشَّیٰاطِینِ تعلیل للنهی عن التبذیر، و المعنی لا تبذر إنک إن تبذر کنت من المبذرین و المبذرون إخوان الشیاطین،و کأن وجه المواخاه بینهم أن الواحد منهم یصیر ملازما لشیطانه و بالعکس کالأخوین الذین هما شقیقان متلازمان فی أصلهما الواحد کما یشیر الیه قوله تعالی: وَ قَیَّضْنٰا لَهُمْ قُرَنٰاءَ (حم السجده/ ۲۵)،و قوله: اُحْشُرُوا الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ أَزْوٰاجَهُمْ (الصافات۲۲/)أی قرناءهم:و قوله:

وَ إِخْوٰانُهُمْ یَمُدُّونَهُمْ فِی الغَیِّ ثُمَّ لاٰ یُقْصِرُونَ (الأعراف۲۰۲/).

و من هنا یظهر أن تفسیر من فسر الآیه بأنهم قرناء الشیاطین أحسن من قول من قال:

المعنی أنهم أتباع الشیاطین سالکون سبیلهم.

و أما قوله: «وَ کٰانَ الشَّیْطٰانُ لِرَبِّهِ کَفُوراً» فالمراد بالشیطان فیه هو ابلیس الذی أو أبو الشیاطین و هم ذریته و قبیله و اللام حینئذ للعهد الذهنی و یمکن أن یکون السلام للجنس و المراد به جنس الشیطان و علی أی حال کونه کفورا لربه من جهه کفرانه بنعم اللّه حیث أنه یصرف ما آتاه من قوه و قدره و استطاعه فی سبیل إغواء الناس و حملهم علی المعصیه و دعوتهم الی الخطیئه و کفران النعمه.

و قد ظهرت مما تقدم النکته فی جمع الشیطان أولا و إفراده ثانیا فإن الاعتبار أولا بأن کل مبذر أخو شیطانه الخاص فالجمیع إخوان للشیاطین و الاعتبار ثانیا بإبلیس الذی هو أبو الشیاطین أو بجنس الشیطان.

قوله تعالی: وَ إِمّٰا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغٰاءَ رَحْمَهٍ مِنْ رَبِّکَ تَرْجُوهٰا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً أصله إن تعرض عنهم و«ما»زائده للتأكيد و النون للتأكيد.

و السياق يشهد بأن الكلام فی إنفاق الأموال فالمراد بقوله: «وَ إِمّٰا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ» الإعراض عمن سأله شيئا من المال ينفقه له و يسد به خلته؛و ليس المراد به كل إعراض كيف اتفق بل الإعراض عند ما ليس عنده شیء من المال يبذله له و ليس بآيس من وجدانه بدليل قوله: اِبْتِغٰاءَ رَحْمَهٍ مِنْ رَبِّکَ تَرْجُوهٰا أی كنت تعرض عنهم لا لكونك مليئا بالمال شحيحا به؛و لا لأنك فاقد له آيس من حصوله بل لأنك فاقد له مبتغ و طالب لرحمه من ربك ترجوها يعنی الرزق.

و قوله: فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً أی سهلا لينا أی لا تغلظ فی القول و لا تجف فی الرد كما قال تعالی: وَ أَمَّا السّٰائِلَ فَلاٰ تَنْهَرْ (الضحی١٠/)بل رده بقول سهل لين.

قال فی الكشاف:و قوله: «ابْتِغٰاءَ رَحْمَهٍ مِنْ رَبِّکَ» إما أن يتعلق بجواب الشرط مقدما عليه أی فقل لهم قولا سهلا لينا وعدهم وعدا جميلا رحمه لهم و تطييبا لقلوبهم ابتغاء رحمه من ربك ای ابتغ رحمه اللّه التی ترجوها برحمتك عليهم،و إما أن يتعلق بالشرط أی و إن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك-فسمی الرزق رحمه-فردهم ردا جميلا فوضع الابتغاء موضع الفقد لأن فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبب الابتغاء و الابتغاء مسببا عنه فوضع المسبب موضع السبب.انتهی.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَجْعَلْ يَدَکَ مَغْلُولَهً إِلىٰ عُنُقِکَ وَ لاٰ تَبْسُطْهٰا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً جعل اليد مغلوله الی العنق كنايه عن الإمساك كمن لا يعطی و لا يهب شيئا لبخله و شح نفسه،و بسط اليد كل البسط كنايه عن إنفاق الإنسان كل ما فی وجده بحيث لا يبقی شيئا كمن يبسط يده كل البسط بحيث لا يستقر عليها شیء ففی الكلام نهی بالغ عن التفريط و الإفراط فی الإنفاق.

ص :٧٠۶

و قوله: فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً متفرع على قوله: «وَ لاٰ تَبْسُطْهٰا» الخ،و الحسر هو الانقطاع أو العرى أى و لا تبسط يدك كل البسط حتى يتعقب ذلك أن تقعد ملوما لنفسك و غيرك منقطعا عن واجبات المعاش أو عريانا لا تقدر على أن تظهر للناس و تعاشرهم و تراودهم.

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كٰانَ بِعِبٰادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ظاهر السياق أن الآيه فى مقام التعليل لما تقدم فى الآيه السابقه من النهى عن الإفراط و التفريط فى إنفاق المال و بذله.

و المعنى:أن هذا دأب ربك و سنته الجاريه يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر لمن يشاء فلا يبسطه كل البسط و لا يمسك عنه كل الإمساك رعايه لمصلحه العباد إنه كان بعباده خبيرا بصيرا و ينبغى لك أن تتخلق بخلق اللّه و تتخذ طريق الاعتدال و تتجنب الافراط و التفريط.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَوْلاٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيّٰاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كٰانَ خِطْأً كَبِيراً الاملاق الفاقه و الفقر،و قال فى المفردات:الخطأ العدول عن الجهه و ذلك أضرب:أحدها أن تريد غير ما تحسن ارادته و فعله،و هذا هو الخطأ التام المأخوذ به الانسان يقال:خطئ يخطأ و خطأه،قال تعالى: إِنَّ قَتْلَهُمْ كٰانَ خِطْأً كَبِيراً و قال: وَ إِنْ كُنّٰا لَخٰاطِئِينَ و الثانى أن يريد ما يحسن فعله و لكن يقع منه خلاف ما يريد فيقال:أخطأ اخطاء فهو مخطئ و هذا قد أصاب فى الاراده و أخطأ فى الفعل،و هذا المعنى بقوله: وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، و الثالث أن يريد ما لا يحسن فعله و يتفق منه خلافه فهذا مخطئ فى الإراده مصيب فى الفعل فهو مذموم بقصده غير محمود على فعله.

و جمله الأمر أن من أراد شيئا فاتفق منه غيره يقال:أخطأ،و ان وقع منه كما أراده يقال:

أصاب،و قد يقال لمن فعل فعلا لا يحسن أو أراد اراده لا يجمل:انه أخطأ،و لذا يقال:أصاب الخطأ و أخطأ الصواب و أصاب الصواب و أخطأ الخطأ و هذه اللفظه مشتركه كما ترى متردده

بین معان یجب لمن یتحری الحقائق أو یتأملها.انتهی بتلخیص.

و فی الآیه نهی شدید عن قتل الأولاد خوفا من الفقر و الحاجه و قوله: «نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِیّاکُمْ» تعلیل للنهی و تمهید لقوله بعد: «إِنَّ قَتْلَهُمْ کانَ خِطْأً کَبِیراً» .

و المعنی و لا تقتلوا أولادکم خوفا من أن تبتلوا بالفقر و الحاجه فیؤدیهم ذلک الی ذل السؤال أو ازدواج بناتکم من غیر الأکفاء أو غیر ذلک مما یذهب بکرامتکم فإنکم لستم ترزقونهم حتی تفقدوا الرزق عند فقرکم و اعسارکم بل نحن نرزقهم و ایاکم ان قتلهم کان خطأ کبیرا.

و أما الآیه التی نحن فیها و أترابها فإنها تنهی عن قتل الأولاد خشیه إملاق،و لا موجب لحمل الأولاد علی البنات مع کونه أعم،و لا حمل الهون علی خوف الفقر مع کونهما متغایرین فالحق أن الآیه تکشف عن سنه سیئه اخری غیر وأد البنات دفعا للهون و هی قتل الأولاد من ذکر و انثی خوفا من الفقر و الفاقه و الآیات تنهی عنه.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَقْرَبُوا الزِّنیٰ إِنَّهُ کٰانَ فٰاحِشَهً وَ سٰاءَ سَبِیلاً نهی عن الزنا و قد بالغ فی تحریمه حیث نهاهم عن أن یقربوه،و علله بقوله: «إِنَّهُ کٰانَ فٰاحِشَهً» فأفاد أن الفحش صفه لازمه له لا یفارقه،و قوله: «وَ سٰاءَ سَبِیلاً» فأفاد أنه سبیل سیئ یؤدی الی فساد المجتمع فی جمیع شئونه حتی ینحل عقده و یختل نظامه و فیه هلاک الإنسانیه و قد بالغ سبحانه فی وعید من أتی به حیث قال فی صفات المؤمنین: وَ لاٰ یَزْنُونَ وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ یَلْقَ أَثٰاماً یُضٰاعَفْ لَهُ الْعَذٰابُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ وَ یَخْلُدْ فِیهِ مُهٰاناً إِلاّٰ مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلاً صٰالِحاً (الفرقان/۷۰) (۱).

قوله تعالی: وَ لاٰ تَقْرَبُوا مٰالَ الْیَتِیمِ إِلاّٰ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ حَتّٰی یَبْلُغَ

۱- ۱) .الاسراء ۲۳-۳۹:کلام فی حرمه الزنا و هو بحث قرآنی اجتماعی.

أَشُدَّهُ نهی عن أکل مال الیتیم و هو من الکبائر التی أوعد اللّه علیها النار قال تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یَأْکُلُونَ أَمْوالَ الْیَتامی ظُلْماً إِنَّما یَأْکُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَیَصْلَوْنَ سَعِیراً (النساء/ ١٠).

و فی النهی عن الاقتراب مبالغه لإفاده اشتداد الحرمه.

و قوله: بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ أی بالطریقه التی هی أحسن و فیه مصلحه إنماء ماله، و قوله: «حَتّی یَبْلُغَ أَشُدَّهُ» هو أوان البلوغ و الرشد و عند ذلک یرتفع عنه الیتیم فالتحدید بهذه الجمله لکون النهی عن القرب فی معنی الأمر بالصیانه و الحفظ کأنه قیل:احتفظوا علی ماله حتی یبلغ أشده فتردوه الیه،و بعباره أخری الکلام فی معنی قولنا:لا تقربوا مال الیتیم ما دام یتیما،و قد تقدم بعض ما یناسب المقام فی سوره الأنعام آیه ١۵٢.

قوله تعالی: وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ کانَ مَسْؤُلاً أی مسئول عنه و هو من الحذف و الإیصال السائغ فی الکلام،و قیل:المراد السؤال عن نفس العهد فان من الجائز أن تتمثل الأعمال یوم القیامه فتشهد للانسان أو علیه و تشفع له أو تخاصمه.

قوله تعالی: وَ أَوْفُوا الْکَیْلَ إِذا کِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِیمِ ذلِکَ خَیْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلاً القسطاس بکسر القاف و ضمها هو المیزان قیل:رومی معرب و قیل:

عربی،و قیل مرکب فی الأصل من القسط و هو العدل و طاس و هو کفه المیزان و القسطاس المستقیم هو المیزان العادل لا یخسر فی وزنه.

و قوله: ذلِکَ خَیْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلاً الخیر هو الذی یجب أن یختاره الإنسان إذا تردد الأمر بینه و بین غیره،و التأویل هو الحقیقه التی ینتهی إلیها الأمر،و کون إیفاء الکیل و الوزن بالقسطاس المستقیم خیرا لما فیه من الاتقاء من استراق أموال الناس و اختلاسها من حیث لا یشعرون و جلب وثوقهم.

و کونهما أحسن تأویلا لما فیهما من رعایه الرشد و الاستقامه فی تقدیر الناس معیشتهم فان

معایشـهم تقوم فی التمتع بأمتعه الحیاه علی أصـلین اکتساب الأمتعه الصالحه للتمتع و المبادله علی الزائـد علی قـدر حاجتهم فهم یقـدرون معیشـتهم علی قـدر مـا یسـعهم أن یبـذلوه من المـال عینـا أو قیمه،و علی قـدر ما یحتاجون الیه من الأمتعه المشتراه فإذا خسروا بالتطفیف و نقص الکیل و الوزن فقد اختلت علیهم الحیاه من الجهتین جمیعا،و ارتفع الأمن العام من بینهم.

و أما إذا أقیم الوزن بالقسط فقـد أطل علیم الرشـد و اسـتقامت أوضاعهم الاقتصادیه بإصابه الصواب فیما قدروا علیه معیشـتهم و اجتلب وثوقهم الی أهل السوق و استقر بینهم الأمن العام.

قوله تعـالی: وَ لاـ تَقْفُ مٰا لَیسَ لَـکَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَـرَ وَ الْفُؤٰادَ کُلُّ أُولٰئِکَ کٰانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً القراءه المشـهوره «لاٰ تَقْفُ» بسکون القاف و ضم الفاء من قفا یقفو قفوا اذا اتبعه و منه قافیه الشعر لکونها فی آخر المصراع تابعه لما تقدمها،و قرئ «لاٰ تَقْفُ» بضم القاف و سـکون الفاء من قاف بمعنی قفا،و لـذلک نقل عن بعض أهل اللغه أن قاف مقلوب قفا مثل جبـذ مقلوب جذب،و منه القیافه بمعنی اتباع أثر الأقدام.

و الآـیه تنهی عن اتباع ما لا علم به،و هی لاطلاقها تشـمل الاتباع اعتقادا و عملا، و تتحصل فی مثل قولنا:لا تعتقـد ما لا علم لک به و لا تقل ما لا علم لک به و لا تفعل ما لا علم لک به لأن فی ذلک کله اتباعا.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبٰالَ طُولاً المرح شده الفرح بالباطل-کما قیل-و لعل التقییـد بالباطـل للـدلاله علی خروجه عن حـد الاعتـدال فإن الفرح الحق هو ما یکون ابتهاجا بنعمه من نعم اللّه شـکرا له و هو لا یتعـدی حـد الاعتدال،و اما اذا فرح و اشـتد منه ذلک حتی خف عقله و ظهر آثاره فی افعاله و اقواله و قیامه و قعوده و خاصه فی مشیه فهو من الباطل.

و قوله: وَ لاٰ تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً نهی عن استعظام الانسان نفسه بأکثر

مما هو علیه لمثل البطر و الأشر و الکبر و الخیلاء،و انما ذکر المشی فی الأرض مرحا لظهور ذلک فیه.

و قوله: إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبٰالَ طُولاً کنایه عن ان فعالک هـذا و انت ترید به اظهار القدره و القوه و العظمه انما هو و هم تتوهمه فـإن هنـاک مـا هو أقوی منـک لاـ یخترق بقـدمیک و هی الأـرض و مـا هو أطول منک و هی الجبال فاعترف بذلک أنک وضیع مهین فلا شیء مما یبتغیه الإنسان و یتنافس فیه فی هذه النشأه من ملک و عزه و سلطنه و قدره و سؤدد و مال و غیرهـا إلاـ امور وهمیه لاـ حقیقه لهـا وراء الإدراک الإنسانی سـخر اللّه النفوس للتصـدیق بها و الاعتماد فی العمل علیها لتعمیر النشأه و تمام الکلمه،و لو لا هـذه الأوهام لم یعش الإنسان فی الدنیا و لا تمت کلمته تعالی: وَ لَکُمْ فِی الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلیٰ حِینٍ (البقره۳۶/).

قوله تعالی: کُلُّ ذٰلِکَ کٰانَ سَیِّئُهُ عِنْدَ رَبِّکَ مَکْرُوهاً الإشاره بذلک الی ما تقدم من الواجبات و المحرمات-کما قیل-و الضـمیر فی «سَیِّئُهُ» یرجع الی ذلـک،و المعنی کل ما تقـدم کان سـیئه-و هو ما نهی عنه و کان معصـیه من بین المـذکورات-عنـد ربک مکروها لا یریده اللّه تعالی.

و فی غیر القراءه المعروفه«سیئه»بفتح الهمزه و التاء فی آخرها و هی علی هذه القراءه خبر کان و المعنی واضح.

قوله تعالی: ذٰلِکَ مِمّٰا أَوْحیٰ إِلَیْکَ رَبُّکَ مِنَ الْحِکْمَهِ ذلک إشاره الی ما تقـدم من تفصـیل التکالیف و فی الآیه إطلاق الحکمه علی الأحکام الفرعیه و یمکن أن یکون لما تشتمل علیه من المصالح المستفاده إجمالا من سابق الکلام.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَجْعَلْ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتُلْقیٰ فِی جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً کرر سـبحانه النهی عن الشـرک و قد نهی عنه سابقا اعتناء بشأن التوحید و تفخیما

لأمره،و هو كالوصله يتصل به لاحق الكلام بسابقه،و معنى الآيه ظاهر (1).

[سوره الإسراء (17): الآيات 40 الى 55]

اشاره

أَ فَأَصْفٰاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اِتَّخَذَ مِنَ اَلْمَلاٰئِكَهِ إِنٰاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (۴٠) وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰا فِي هٰذَا اَلْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَ مٰا يَزِيدُهُمْ إِلاّٰ نُفُوراً (۴١) قُلْ لَوْ كٰانَ مَعَهُ آلِهَهٌ كَمٰا يَقُولُونَ إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلىٰ ذِي اَلْعَرْشِ سَبِيلاً (۴٢) سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (۴٣) تُسَبِّحُ لَهُ اَلسَّمٰاوٰاتُ اَلسَّبْعُ وَ اَلْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كٰانَ حَلِيماً غَفُوراً (۴۴) وَ إِذٰا قَرَأْتَ اَلْقُرْآنَ جَعَلْنٰا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ حِجٰاباً مَسْتُوراً (۴۵) وَ جَعَلْنٰا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّهً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذٰانِهِمْ وَقْراً وَ إِذٰا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي اَلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلىٰ أَدْبٰارِهِمْ نُفُوراً (۴۶) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوىٰ إِذْ يَقُولُ اَلظّٰالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّٰ رَجُلاً مَسْحُوراً (۴٧) اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ اَلْأَمْثٰالَ فَضَلُّوا فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (۴٨) وَ قٰالُوا أَ إِذٰا كُنّٰا عِظٰاماً وَ رُفٰاتاً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (۴٩) قُلْ كُونُوا حِجٰارَهً أَوْ حَدِيداً (۵٠) أَوْ خَلْقاً مِمّٰا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنٰا قُلِ اَلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هُوَ قُلْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (۵١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّٰ قَلِيلاً (۵٢) وَ قُلْ لِعِبٰادِي يَقُولُوا اَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ اَلشَّيْطٰانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ اَلشَّيْطٰانَ كٰانَ لِلْإِنْسٰانِ عَدُوًّا مُبِيناً (۵٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (۵۴) وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لَقَدْ فَضَّلْنٰا بَعْضَ اَلنَّبِيِّينَ عَلىٰ بَعْضٍ وَ آتَيْنٰا دٰاوُدَ زَبُوراً (۵۵)

١- ١) .الاسراء ٢٣-٣٩:بحث روائى فى مشيئه اللّه و ارادته؛الاحسان بالوالدين؛الاوابين؛الانفاق،حرمه الزنا؛ القصاص.

بیان:

قوله تعالی: أَ فَأَصْفٰاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلاٰئِكَةِ إِنٰاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً الإصفاء الإخلاص قال فی المجمع:تقول:أصفیت فلانا بالشیء آثرته به.انتهی.

خطاب لمن یقول منهم:ان الملائکه بنات اللّه أو بعضهم بنات اللّه و الاستفهام للانکار، و لعله بدل البنات من الاناث لکونهم یعدون الانوثه من صفات الخسه.

ص: ۷۱۳

و المعنى اذا كان سبحانه ربكم لا رب غيره و هو الذى يتولى أمر كل شىء فهل تقولون انه آثركم بكرامه لم يتكرم به هو نفسه و هو انه خصكم بالبنين و لم يتخذ لنفسه من الود الا الاناث و هم الملائكه الكرام الذين تزعمون انهم اناث انكم لتقولون قولا عظيما من حيث استتباعه التبعه السيئه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِی هٰذَا الْقُرْآنِ لِیَذَّکَّرُوا وَ ما یَزِیدُهُمْ إِلاّ نُفُوراً قال فى المفردات:الصرف رد الشىء من حاله الى حاله او ابداله بغيره.قال:و التصريف كالصرف الا فى التكثير،و اكثر ما يقال فى صرف الشىء من حاله الى حاله و من امر الى امر، و تصريف الرياح هو صرفها من حال الى حال قال تعالى: وَ صَرَّفْنَا الْآیاتِ وَ صَرَّفْنا فِیهِ مِنَ الْوَعِیدِ و منه تصريف الكلام و تصريف الدراهم.انتهى.

و قال:النفر الانزعاج من الشىء و الى الشىء كالفزع الى الشىء و عن الشىء يقال:نفر عن الشىء نفورا قال تعالى: ما زادَهُمْ إِلاّ نُفُوراً وَ ما یَزِیدُهُمْ إِلاّ نُفُوراً انتهى.

فقوله: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِی هٰذَا الْقُرْآنِ لِیَذَّکَّرُوا معناه بشهاده السياق:و اقسم لقد رددنا الكلام معهم فى امر التوحيد و نفى الشريک من وجه الى وجه و حولناه من لحن الى لحن فى هذا القرآن فأوردناه بمختلف العبارات و بيناه بأقسام البيانات ليتذكروا و يتبين لهم الحق.

و قوله: وَ ما یَزِیدُهُمْ إِلاّ نُفُوراً اى ما يزيدهم التصريف الا انزعاجا كلما استؤنف جىء ببيان جديد ورثهم نفره جديده.

قوله تعالى: قُلْ لَوْ کانَ مَعَهُ آلِهَهٌ کَما یَقُولُونَ إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلیٰ ذِی الْعَرْشِ سَبِیلاً أعرض عن مخاطبتهم فصرف الخطاب الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأمره أن يكلمهم فى أمر التوحيد و نفى الشريک.و الذى يقولون به أن هناک آلهه دون اللّه يتولون جهات التدبير فى العالم على اختلاف مراتبهم و الواحد منهم رب لما يدبره كإله السماء و إله الأرض و إله الحرب و إله

قریش.

و إذ کانوا شرکاء من جهه التدبیر لکل واحد منهم الملک علی حسب ربوبیته و الملک من توابع الخلق الذی یختص به سبحانه حتی علی معتقدهم (۱)کان الملک مما یقبل فی نفسه أن یقوم به غیره تعالی و حب الملک و السلطنه ضروری لکل موجود کانوا بالضروره طالبین أن ینازعوه فی ملکه و ینتزعوه من یده حتی ینفرد الواحد منهم بالملک و السلطنه،و یتعین بالعزه و الهیمنه تعالی اللّه عن ذلک.

فملخص الحجه أنه لو کان معه آلهه کما یقولون و کان یمکن أن ینال غیره تعالی شیئا من ملکه الذی هو من لزوم ذاته الفیاضه لکل شیء و حب الملک و السلطنه مغروز فی کل موجود بالضروره لطلب اولئک الآلهه أن ینالوا ملکه فیعزلوه عن عرشه و یزدادوا ملکا علی ملک لحبهم ذلک ضروره لکن لا سبیل لأحد الیه تعالی عن ذلک.

فقوله: «إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلیٰ ذِی الْعَرْشِ سَبِیلاً» أی طلبوا سبیلا الیه لیغلبوه علی ماله من الملک،و التعبیر عنه تعالی بذی العرش و هو من الصفات الخاصه بالملک للدلاله علی أن ابتغاءهم السبیل الیه انما هو لکونه ذا العرش و هو ابتغاء سبیل الی عرشه لیستقروا علیه.

و من هنا یظهر أن قول بعضهم ان الحجه فی الآیه هی فی معنی الحجه التی فی قوله تعالی:

لَوْ کٰانَ فِیهِمٰا آلِهَهٌ إِلاَّ اللّٰهُ لَفَسَدَتٰا الآیه(الأنبیاء۲۲/)فی غیر محله.

قوله تعالی: سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یَقُولُونَ عُلُوًّا کَبِیراً التعالی هو العلو البالغ و لهذا وصف المفعول المطلق أعنی «عُلُوًّا» بقوله: «کَبِیراً» فالکلام فی معنی تعالی تعالیا:

و الآیه تنزیه له تعالی عما یقولونه من ثبوت الآلهه و کون ملکه و ربوبیته مما یمکن أن یناله

۱ – ۱) .کما نقل انهم کانوا یقولون فی التلبیه:لبیک لا شریک لک الا شریکا هو لک تملکه و ما ملک و الکتب المقدسه البرهمنیه و البوذیه مملوءه ان الملک کله للّه سبحانه.

غیره.

قوله تعالی: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰاوٰاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ الخ؛الآیه و ما قبلها و ان کانت واقعه موقع التعظیم کقوله: وَ قٰالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ لکنها تفید بوجه فی الحجه المتقدمه فإنها بمنزله المقدمه المتممه لقوله: «لَوْ كٰانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمٰا يَقُولُونَ» الخ؛فإن الحجه بالحقیقه قیاس استثنائی و الذی بمنزله الاستثناء هو ما فی الآیه من تسبیح الأشیاء له سبحانه کأنه قیل:لو کان معه آلهه لکان ملکه فی معرض المنازعه و المهاجمه لکن الملک من السماوات و الأرض و من فیهن ینزهه عن ذلک و یشهد أن لا شریک له فی الملک فإنها لم تبتدأ الا منه و لا تنتهی الا الیه و لا تقوم الا به و لا تخضع سجدا الا له فلا یتلبس بالملک و لا یصلح له الا هو فلا رب غیره.

و التسبیح تنزیه قولی کلامی و حقیقه الکلام الکشف عما فی الضمیر بنوع من الإشاره الیه و الدلاله علیه غیر أن الإنسان لما لم یجد الی اراده کل ما یرید الإشاره الیه من طریق التکوین طریقا التجأ الی استعمال الألفاظ و هی الأصوات الموضوعه للمعانی،و دل بها علی ما فی ضمیره،و جرت علی ذلک سنه التفهیم و التفهم،و ربما استعان علی بعض مقاصده بالإشاره بیده أو رأسه أو غیرهما،و ربما استعان علی ذلک بکتابه أو نصب علامه.

و بالجمله فالذی یکشف به عن معنی مقصود قول و کلام و قیام الشیء بهذا الکشف قول منه و تکلیم و ان لم یکن بصوت مقروع و لفظ موضوع،و من الدلیل علیه ما ینسبه القرآن الیه تعالی من الکلام و القول و الأمر و نحو ذلک مما فیه معنی الکشف عن المقاصد و لیس من قبیل القول و الکلام المعهود عندنا معشر المتلسنین باللغات و قد سماه اللّه سبحانه قولا و کلاما.

و عند هذه الموجودات المشهوده من السماء و الأرض و من فیهما ما یکشف کشفا صریحا عن وحدانیه ربها فی ربوبیته و ینزهه تعالی عن کل نقص و شین فهی تسبح اللّه سبحانه.

و ذلک أنها لیست لها فی أنفسها إلّا محض الحاجه و صرف الفاقه الیه فی ذاتها و صفاتها و أحوالها.و الحاجه أقوی کاشف عما الیه الحاجه لا یستقل المحتاج دونه و لا ینفک عنه فکل من هذه الموجودات یکشف بحاجته فی وجوده و نقصه فی ذاته عن موجده الغنی فی وجوده التام الکامل فی ذاته و بارتباطه بسائر الموجودات التی یستعین بها علی تکمیل وجوده و رفع نقائصه فی ذاته أن موجده هو ربه المتصرف فی کل شیء المدبر لأمره.

ثم النظام العام الجاری فی الأشیاء الجامع لشتاتها الرابط بینها یکشف عن وحده موجدها، و أنه الذی الیه بوحدته یرجع الأشیاء و به بوحدته ترتفع الحوائج و النقائص فلا یخلو من دونه من الحاجه،و لا یتعری ما سواه من النقیصه و هو الرب لا رب غیره و الغنی الذی لا فقر عنده و الکمال الذی لا نقص فیه.

فکل واحد من هذه الموجدات یکشف بحاجته و نقصه عن تنزه ربه عن الحاجه و براءته من النقص حتی أن الجاهل المثبت لربه شرکاء من دونه أو الناسب الیه شیئا من النقص و الشین تعالی و تقدس یثبت بذلک تنزهه من الشریک و ینسب بذلک الیه البراءه من النقص فإن المعنی تصور فی ضمیر هذا الإنسان و اللفظ الذی یلفظه لسانه و جمیع ما استخدمه فی تأدیه هذا المقصود کل ذلک مور موجوده تکشف بحاجتها الوجودیه عن رب واحد لا شریک له و لا نقص فیه.

فمثل هذا الإنسان الجاحد فی کون جحوده اعترافا مثل ما لو ادعی إنسان أن لا إنسان متکلما فی الدنیا و شهد علی ذلک قولا فإن شهادته أقوی حجه علی خلاف ما ادعاه و شهد علیه و کلما تکررت الشهاده علی هذا النمط و کثر الشهود تأکدت الحجه من طریق الشهاده علی خلافها.

فإن قلت:مجرد الکشف عن التنزه لا یسمی تسبیحا حتی یقارن القصد و القصد مما یتوقف علی الحیاه و أغلب هذه الموجودات عادمه للحیاه کالأرض و السماء و أنواع الجمادات فلا

مخلص من حمل التسبيح على المجاز فتسبيحها دلالتها بحسب وجودها على تنزه ربها.

قلت:كلامه تعالى مشعر بأن العلم سار فى الموجودات مع سريان الخلقه فلكل منها حظ من العلم على مقدار حظه من الوجود،و ليس لازم ذلك أن يتساوى الجميع من حيث العلم أو يتحد من حيث جنسه و نوعه أو يكون عند كل ما عند الإنسان من ذلك أو أن يفقه الإنسان بما عندها من العلم قال تعالى حكايه عن أعضاء الإنسان: قَالُوا أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (حم السجده٢١/)و قال: فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (حم السجده١١/)و الآيات فى هذا المعنى كثيره،و سيوافيك كلام مستقل فى ذلك إن شاء اللّه تعالى.

و إذا كان كذلك فما من موجود مخلوق إلا و هو يشعر بنفسه بعض الشعور و هو يريد بوجوده إظهار نفسه المحتاجه الناقصه التى يحيط بها غنى ربه و كماله لا رب غيره فهو يسبح ربه و ينزهه عن الشريك و عن كل نقص ينسب اليه.

و بذلك يظهر أن لا وجه لحمل التسبيح فى الآيه على مطلق الدلاله مجازا فالمجاز لا يصار اليه إلا مع امتناع الحمل على الحقيقه،و نظيره قول بعضهم:إن تسبيح بعض هذه الموجودات قالى حقيقى كتسبيح الملائكه و المؤمنين من الإنسان و تسبيح بعضها حالى مجازى كدلاله الجمادات بوجودها عليه تعالى و لفظ التسبيح مستعمل فى الآيه على سبيل عموم المجاز،و قد عرفت ضعفه آنفا.

و الحق أن التسبيح فى الجميع حقيقى قالى غير أن كونه قاليا لا يستلزم أن يكون بألفاظ موضوعه و أصوات مقروعه كما تقدمت الإشاره اليه و قد تقدم فى آخر الجزء الثانى من الكتاب كلام فى الكلام نافع فى المقام.

فقوله تعالى: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ يثبت لها تسبيحا حقيقيا و هو تكلمها بوجودها و ما له من الارتباط بسائر الموجودات الكائنه و بيانها

تنزه ربها عما ينسب اليه المشركون من الشركاء و جهات النقص.

و قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ تعميم التسبيح لكل شيء و قد كانت الجمله السابقه عدت السماوات و الأرض و من فيهن،و تزيد عليها بذكر الحمد مع التسبيح فتفيد أن كل شيء كما يسبحه تعالى كذلك يحمده بالثناء عليه بجميل صفاته و أفعاله.

و ذلك أنه كما أن عند كل من هذه الأشياء شيئا من الحاجه و النقص عائدا الى نفسه كذلك عنده من جميل صنعه و نعمته تعالى شيء راجع اليه تعالى موهوب من لدنه،و كما أن إظهار هذه الأشياء لنفسها فى الوجود إظهار لحاجتها و نقصها كشف عن تنزه ربها عن الحاجه و النقص،و هو تسبيحها كذلك إبرازها لنفسها إبراز لما عندها من جميل فعل ربها الذى وراءها جميل صفاته تعالى فهو حمدها فليس الحمد إلاّ الثناء على الجميل الاختيارى فهى تحمد ربها كما تسبحه و هو قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ».

و بلفظ آخر اذا لوحظ الأشياء من جهه كشفها عما عند ربها بإبرازها ما عندها من الحاجه و النقص مع ما لها من الشعور بذلك كان ذلك تسبيحا منها،و إذا لوحظت من جهه كشفها ما لربها باظهارها ما عندها من نعمه الوجود و سائر جهات الكمال فهو حمد منها لربها و اذا لوحظ كشفها ما عند اللّه سبحانه من صفه جمال أو جلال مع قطع النظر عن علمها و شعورها بما تكشف عنه كان ذلك دلاله منها عليه تعالى و هى آياته.

و هذا نعم الشاهد على أن المراد بالتسبيح فى الآيه ليس مجرد دلالتها عليه تعالى بنفى الشريك و جهات النقص فإن الخطاب فى قوله: وَ لٰكِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إما للمشركين و إما للناس أعم من المؤمن و المشرك و هم على أى حال يفقهون دلاله الأشياء على صانعها مع أن الآيه تنفى عنهم الفقه.

و لا يصغى الى قول من قال:إن الخطاب للمشركين و هم لعدم تدبرهم فيها و قله انتفاعهم بها كان فهمهم بمنزله العدم،و لا الى دعوى من يدعى أنهم لعدم فهمهم بعض المراد من

التسبيح جعلوا ممن لا يفقه الجميع تغليبا.

و ذلک لأن تنزيل الفهم منزله العدم او جعل البعض کالجميع لا يلائم مقام الاحتجاج و هو سبحانه يخاطبهم فی سابق الآيه بالحجه علی التنزيه علی أن هذا النوع من المسامحه بالتغليب و نحوه لا يحتمله کلامه تعالی.

و أما ما وقع فی قوله بعد هذه الآيه: وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ الی آخر الآيات؛من نفی الفقه عن المشرکين فليس يؤيد ما ذکروه فإن الآيات تنفی عنهم فقه القرآن و هو غير نفی فقه دلاله الأشياء علی تنزهه تعالی إذ بها تتم الحجه عليهم.

فالحق أن التسبيح الذی تثبته الآيه لکل شیء هو التسبيح بمعناه الحقيقی و قد تکرر فی کلامه تعالی إثباته للسماوات و الأرض و من فيهن و ما فيهن و فيها موارد لا تحتمل إلا الحقيقه کقوله تعالی: وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ (الانبياء٧٩/)،و قوله: إِنّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ (ص١٨/)،و يقرب منه قوله: يا جِبالُ أَوِّبِی مَعَهُ وَ الطَّيْرَ (سبأ١٠/)،فلا معنی لحملها علی التسبيح بلسان الحال.

و قد استفاضت الروايات من طرق الشيعه و أهل السنه أن للأشياء تسبيحا و منها روايات تسبيح الحصی فی کف رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم و سيوافيک بعضها فی البحث الروائی الآتی إن شاء اللّه تعالی.

و قوله: إِنَّهُ کانَ حَلِيماً غَفُوراً أی يمهل فلا يعاجل بالعقوبه و يغفر من تاب و رجع اليه،و فی الوصفين دلاله علی تنزهه تعالی عن کل نقص فإن لازم الحلم أن لا يخاف الفوت،و لازم المغفره أن لا يتضرر بالمغفره و لا بإفاضه الرحمه فملکه و ربوبيته لا يقبل نقصا و لا زوالا.

و قد قيل فی وجه هذا التذييل أنه إشاره الی أن الإنسان فی قصوره عن فهم هذا التسبيح الذی لا يزال کل شیء مشتغلا به حتی نفسه بجميع أرکان وجوده بأبلغ بيان،مخطئ من حقه

أن يؤاخذ به لكن اللّه سبحانه بحلمه مغفرته لا يعاجله و يعفو عن ذلک إن شاء.

و هو وجه حسن و لازمه أن يكون الإنسان فی وسعه أن يفقه هـذا التسبيح من نفسه و من غيره،و لعلنا نوفق لبيانه إن شاء اللّه فی موضع يليق به.

قوله تعالی: وَ إِذٰا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنٰا بَيْنَکَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجٰاباً مَسْتُوراً ظاهر توصيف الحجاب بالمستور أنه حجاب مستور عن الحواس علی خلاف الحجابات المتداوله بين الناس المعموله لستر شیء عن شیء فهو حجاب معنوی مضروب بين النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم بما أنه قار للقرآن حامل له و بين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخره يحجبه عنهم فلا يستطيعون أن يفقهوا حقيقه ما عنده من معارف القرآن و يؤمنوا به و لا أن يذعنوا بأنه رسول من اللّه جاءهم بالحق،و لذلک تولوا عنه إذا ذكر اللّه وحده و بالغوا فی إنكاره المعاد و رموه بأنه رجل مسحور،و الآيات التاليه تؤيد هذا المعنی.

و إنما وصف المشركين بقوله: اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لأن إنكار الآخره يلغو معه الإيمان باللّه وحده و بالرساله فالكفر بالمعاد يستلزم الفر بجميع اصول الدين،و ليكون تمهيدا لما سيذكر من إنكارهم البعث.

و المعنی:إذا قرأت القرآن و تلوته عليهم جعلنا بينک و بين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخره-و فی توصيفهم بذلک ذم لهم-حجابا معنويا محجوبا عن فهمهم فلا يسعهم أن يسمعوا ذكره تعالی وحده،و لا أن يعرفوک بالرساله الحقه،و لا أن يؤمنوا بالمعاد و يفقهوا حقيقته.

قوله تعالی: وَ جَعَلْنٰا عَلیٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِی آذٰانِهِمْ وَقْراً وَ إِذٰا ذَكَرْتَ رَبَّکَ فِی الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلیٰ أَدْبٰارِهِمْ نُفُوراً الاكنه جمع كن بالكسر و هو علی ما ذكره الراغب ما يحفظ فيه الشیء و يستر به عن غيره،و الوقر الثقل فی السمع،و فی المجمع:النفور جمع نافر،و هذا الجمع قياس فی كل فاعل اشتق من فعل مصدره علی فعول مثل

ركوع و سجود و شهود.انتهى.

و قوله: وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً الخ؛كالبيان للحجاب المذكور سابقا أى أغشينا قلوبهم بأغشيه و حجب حذار أن يفقهوا القرآن و جعلنا فى آذانهم وقرا و ثقلا أن يسمعوه فهم لا يسمعون القرآن سمع قبول و لا يفقهونه فقه إيمان و تصديق كل ذلك مجازاه لهم بما كفروا و فسقوا.

و قوله: «وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ» أى على نعت التوحيد و نفى الشريك ولوا على أدبارهم نافرين و أعرضوا عنه مستدبرين.

قوله تعالى: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ الى آخر الآيه؛ النجوى مصدر و لذا يوصف به الواحد و المثنى و المجموع و المذكر و المؤنث و هو لا يتغير فى لفظه.

و الآيه بمنزله الحجه على ما ذكر فى الآيه السابقه أنه جعل على قلوبهم أكنه أن يفقهوه و فى آذانهم وقرا فقوله: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ» الخ؛ناظر الى جعل الوقر و قوله: «وَ إِذْ هُمْ نَجْوى» الخ؛ناظر الى جعل الأكنه.

يقول تعالى:نحن أعلم بآذانهم التى يستمعون بها اليك و بقلوبهم التى ينظرون بها فى أمرك -و كيف لا؟و هو تعالى خالقها و مدبر أمرها فإخباره أنه جعل على قلوبهم أكنه و فى آذانهم وقرا أصدق و أحق بالقبول-فنحن أعلم بما يستمعون به و هو آذانهم فى وقت يستمعون اليک، و نحن أعلم أى بقلوبهم إذ هم نجوى إذ يناجى بعضهم بعضا متحرزين عن الإجهار و رفع الصوت و هم يرون الرأى إذ يقول الظالمون أى يقول القائلون منهم و هم ظالمون فى قولهم:إن تتبعون إلا رجلا مسحورا،و هذا تصديق أنهم لم يفقهوا الحق.

و فى الآيه إشعار بل دلاله على أنهم كانوا لا يأتونه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لاستماع القرآن علنا حذرا من اللائمه و إنما يأتونه متسترين مستخفين حتى إذا رأى بعضهم بعضا على هذا الحال تلاوموا

بالنجوی خوفا أن یحس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و المؤمنون بموقفهم فقال بعضهم لبعض:إن تتبعون إلا رجلا مسحورا،و بهذا یتأید ما ورد فی أسباب النزول بهذا المعنی،و سنورده إن شاء اللّه فی البحث الروائی الآتی.

قوله تعالی: أُنْظُرْ کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا یَسْتَطِیعُونَ سَبِیلاً المثل بمعنی الوصف،و ضرب الأمثال التوصیف بالصفات و معنی الآیه ظاهر،و هی تفید أنهم لا مطمع فی إیمانهم کما قال تعالی: وَ سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا یُؤْمِنُونَ (یس/١٠).

قوله تعالی: وَ قالُوا أَ إِذا کُنّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِیداً قال فی المجمع:الرفات ما تکسر و بلی من کل شیء،و یکثر بناء فعال فی کل ما یحطم و یرضض یقال:حطام و دقاق و تراب و قال المبرد:کل شیء مدقوق مبالغ فی دقه حتی انسحق فهو رفات.انتهی.

فی الآیه مضی فی بیان عدم فقههم بمعارف القرآن حیث استبعدوا البعث و هو من أهم ما یثبته القرآن و أوضح ما قامت علیه الحجج من طریق الوحی و العقل حتی وصفه اللّه فی مواضع من کلامه بأنه«لا ریب فیه»و لیس لهم حجه علی نفیه غیر أنهم استبعدوه استبعادا.

و من أعظم ما یزین فی قلوبهم هذا الاستبعاد زعمهم أن الموت فناء للانسان و من المستبعد أن یتکون الشیء من عدم بحت کما قالوا:أ إذا کنا عظاما و رفاتا بفساد أبداننا عن الموت حتی إذا لم یبق منها إلا العظام ثم رمت العظام و صارت رفاتا أ إنا لفی خلق جدید نعود أناسی کما کنا؟ذلک رجع بعید و لذلک رده سبحانه الیهم بتذکیرهم القدره المطلقه و الخلق الأول کما سیأتی.

قوله تعالی: قُلْ کُونُوا حِجارَهً أَوْ حَدِیداً أَوْ خَلْقاً مِمّا یَکْبُرُ فِی صُدُورِکُمْ جواب عن استبعادهم،و قد عبروا فی کلامهم بقوله: «أَ إِذا کُنّا» فأمر سبحانه

نبیه صلّى اللّه علیه و آله و سلم أن یأمرهم أمر تسخیر أن یکونوا حجاره أو حدیدا،الخ؛مما تبدیله الى الإنسان أبعد و أصعب عندهم من تبدیل العظام لرفات الیه.

فیکون إشاره الى أن القدره المطلقه الإلهیه لا یشقها شیء ترید تجدید خلقه سواء أ کان عظاما و رفاتا أو حجاره أو حدیدا أو غیر ذلک.

و المعنى:قل لهم لیکونوا شیئا أشد من العظام و الرفات حجاره أو حدیدا أو مخلوقا آخر من الأشیاء التی تکبر فی صدورهم و یبالغون فی استبعاد أن یخلق منه الإنسان-فلیکونوا ما شاءوا فإن اللّه سیعید الیهم خلقهم الأول و یبعثهم.

قوله تعالى: فَسَیَقُولُونَ مَنْ یُعِیدُنٰا قُلِ الَّذِی فَطَرَکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ أی فإذا أجبت عن استبعادهم بأنهم مبعوثون أیاما کانوا و الى أی حال و صفه تحولوا سیسألونک و یقولون من یعیدنا الى ما کنا علیه من الخلقه الإنسانیه؟فاذکر لهم اللّه سبحانه و ذکرهم من وصفه بما لا یبقى معه لاستبعادهم محل و هو فطره إیاهم أول مره و لم یکونوا شیئا و قل:یعیدکم الذی خلقکم اول مره.

ففی تبدیل لفظ الجلاله من قوله:«الذی خلقکم أول مره»إثبات الإمکان و رفع الاستبعاد باراءه المثل.

قوله تعالى: فَسَیُنْغِضُونَ إِلَیْکَ رُؤُسَهُمْ وَ یَقُولُونَ مَتیٰ هُوَ قُلْ عَسیٰ أَنْ یَکُونَ قَرِیباً قال الراغب:الإنغاض تحریک الرأس نحو الغیر کالمتعجب منه.انتهى.

و المعنى:إذا قرعتم بالحجه و ذکرتهم بقدره اللّه على کل شیء و فطره إیاهم أول مره وجدتهم یحرکون الیک رءوسهم تحریک المستهزئ المستخف بک المستهین له و یقولون متى هو؟قل عسى أن یکون قریبا فإنه لا سبیل الى العلم به و هو من الغیب الذی لا یعلمه إلا اللّه لکن وصف الیوم معلوم باعلامه تعالى و لذا وصفه لهم واضعا الصفه مکان الوقت فقال:یوم یدعوکم فتستجیبون بحمده،الآیه.

قوله تعالى: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ قَلِيلاً «يَوْمَ» منصوب بفعل مضمر أی تبعثون يوم كذا و كذا و الدعوه هی أمره تعالى لهم أن يقوموا ليوم الجزاء و استجابتهم هی قبولهم الدعوه الإلهيه،و قوله: «بِحَمْدِهِ» حال من فاعل تستجيبون و التقدير تستجيبون متلبسين بحمده أی حامدين له تعدون البعث و الإعاده منه فعلا جميلا يحمد فاعله و يثنى عليه لأن الحقائق تنكشف لكم اليوم فيتبين لكم أن من الواجب فی الحكمه الإلهيه أن يبعث الناس للجزاء و ان تكون بعد الاولى اخرى.

و قوله: وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ قَلِيلاً أی تزعمون يوم البعث أنكم لم تلبثوا فی القبور بعد الموت الا زمانا قليلا و ترون أن اليوم كان قريبا منكم جدا.

و قد صدقهم اللّه فی هذه المزعمه و ان خطأهم فيما ضربوا له من المده قال تعالى: قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (المؤمنون/١١۴)،و قال: وَ يَوْمَ تَقُومُ السّاعَهُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَهٍ كَذٰلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِی كِتابِ اللّهِ إِلىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهٰذا يَوْمُ الْبَعْثِ (الروم/۵۶)الى غير ذلك من الآيات.

و فی التعرض لقوله: «وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ قَلِيلاً» تعريض لهم فی استبطائهم اليوم و استهزائهم به،و تأييد لما مر من رجاء قربه فی قوله: قُلْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً أی و انكم ستعدونه قريبا،و كذا فی قوله: «فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ» تعريض لهم فی استهزائهم به و تعجبهم منه أی و انكم ستحمدونه يوم البعث و انتم اليوم تستبعدونه و تستهزءون بأمره.

قوله تعالى: وَ قُلْ لِعِبادِی يَقُولُوا الَّتِی هِیَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ الخ؛يلوح من السياق أن المراد بعبادی هم المؤمنون فالإضافه للتشريف،و قوله:

«قُلْ لِعِبادِی يَقُولُوا» الخ؛أی مرهم أن يقولوا فهو أمر و جواب أمر مجزوم،و قوله: «الَّتِی هِیَ أَحْسَنُ» أی الكلمه التی هی أحسن،و هو اشتمالها على الأدب الجميل و تعريها عن الخشونه و الشتم و سوء الأمر.

قوله تعالی: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً قد تقدم أن الآیه و ما بعدها تتمه السیاق السابق،و علی ذلک فصدر الآیه من تمام کلام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم الذی أمر بإلقائه علی المؤمنین بقوله: «قُلْ لِعِبٰادِي يَقُولُوا» الخ؛و ذیل الآیه خطاب للنبی خاصه فلا التفات فی الکلام.

و یمکن أن یکون الخطاب فی صدر الآیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و المؤمنین جمیعا بتغلیب جانب خطابه علی غیبتهم،و هذا أنسب بسیاق الآیه السابقه و تلاحق الکلام،و الکلام للّه جمیعا.

و کیف کان فقوله: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ» فی مقام تعلیل الأمر السابق ثانیا،و یفید أنه یجب علی المؤمنین أن یتحرزوا من اغلاظ القول علی غیرهم و القضاء بما اللّه أعلم به من سعاده أو شقاء کأن یقولوا:فلان سعید بمتابعه النبی و فلان شقی و فلان من أهل الجنه و فلان من أهل النار و علیهم أن یرجعوا الأمر و یفوضوه الی ربهم فربکم -و الخطاب للنبی و غیره-أعلم بکم و هو یقضی فیکم علی ما علم من استحقاق الرحمه أو العذاب إن یشأ یرحمکم و لا یشاء ذلک الا مع الایمان و العمل الصالح علی ما بینه فی کلامه أو ان یشأ یعذبکم و لا یشاء ذلک الا مع الکفر و الفسوق،و ما جعلناک أیها النبی علیهم وکیلا مفوضا الیه أمرهم حتی تختار لمن تشاء ما تشاء فتعطی هذا و تحرم ذاک.

و من ذلک یظهر أن التردید فی قوله: «إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ» باعتبار المشیه المختلفه باختلاف الموارد بالإیمان و الکفر و العمل الصالح و الطالح و أن قوله: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً» لردع المؤمنین عن أن یعتمدوا فی نجاتهم علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و الانتساب الی قبول دینه نظیر قوله: لَيْسَ بِأَمٰانِيِّكُمْ وَ لاٰ أَمٰانِيِّ أَهْلِ الْكِتٰابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ (النساء/ ١٢٣)و قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هٰادُوا وَ النَّصٰارىٰ وَ الصّٰابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (البقره/٦٢)و آیات اخری فی هذا المعنی.

ص :٧٢۶

قوله تعالی: وَ رَبُّکَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَقَدْ فَضَّلْنٰا بَعْضَ النَّبِیِّینَ عَلیٰ بَعْضٍ وَ آتَیْنٰا دٰاوُدَ زَبُوراً صدر الآیه توسعه فی معنی التعلیل السابق کأنه قیل:و کیف لا یکون أعلم بکم و هو أعلم بکم و هو أعلم بمن فی السماوات و الأرض و أنتم منهم.

و قوله: وَ لَقَدْ فَضَّلْنٰا بَعْضَ النَّبِیِّینَ عَلیٰ بَعْضٍ کأنه تمهید لقوله: «وَ آتَیْنٰا دٰاوُدَ زَبُوراً» و الجمله تذکر فضل داود علیه السّلام بکتابه الذی هو زبور و فیه أحسن الکلمات فی تسبیحه و حمده تعالی،و فیه تحریض للمؤمنین أن یرغبوا فی احسن القول و یتأدبوا بالأدب الجمیل فی المحاوره و الکلام (۱).

[سوره الإسراء (۱۷): الآیات ۵۶ الی ۶۵]

اشاره

قُلِ اُدْعُوا اَلَّذِینَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاٰ یَمْلِکُونَ کَشْفَ اَلضُّرِّ عَنْکُمْ وَ لاٰ تَحْوِیلاً (۵۶) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ یَدْعُونَ یَبْتَغُونَ إِلیٰ رَبِّهِمُ اَلْوَسِیلَهَ أَیُّهُمْ أَقْرَبُ وَ یَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ یَخٰافُونَ عَذٰابَهُ إِنَّ عَذٰابَ رَبِّکَ کٰانَ مَحْذُوراً (۵۷) وَ إِنْ مِنْ قَرْیَهٍ إِلاّٰ نَحْنُ مُهْلِکُوهٰا قَبْلَ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ أَوْ مُعَذِّبُوهٰا عَذٰاباً شَدِیداً کٰانَ ذٰلِکَ فِی اَلْکِتٰابِ مَسْطُوراً (۵۸) وَ مٰا مَنَعَنٰا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآیٰاتِ إِلاّٰ أَنْ کَذَّبَ بِهَا اَلْأَوَّلُونَ وَ آتَیْنٰا ثَمُودَ اَلنّٰاقَهَ مُبْصِرَهً فَظَلَمُوا بِهٰا وَ مٰا نُرْسِلُ بِالْآیٰاتِ إِلاّٰ تَخْوِیفاً (۵۹) وَ إِذْ قُلْنٰا لَکَ إِنَّ رَبَّکَ أَحٰاطَ بِالنّٰاسِ وَ مٰا جَعَلْنَا اَلرُّؤْیَا اَلَّتِی أَرَیْنٰاکَ إِلاّٰ فِتْنَهً لِلنّٰاسِ وَ اَلشَّجَرَهَ اَلْمَلْعُونَهَ فِی اَلْقُرْآنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمٰا یَزِیدُهُمْ إِلاّٰ طُغْیٰاناً کَبِیراً (۶۰) وَ إِذْ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِکَهِ اُسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِیسَ قٰالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِیناً (۶۱) قٰالَ أَ رَأَیْتَکَ هٰذَا اَلَّذِی کَرَّمْتَ عَلَیَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلیٰ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ لَأَحْتَنِکَنَّ ذُرِّیَّتَهُ إِلاّٰ قَلِیلاً (۶۲) قٰالَ اِذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزٰاؤُکُمْ جَزٰاءً مَوْفُوراً (۶۳) وَ اِسْتَفْزِزْ مَنِ اِسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِکَ وَ أَجْلِبْ عَلَیْهِمْ بِخَیْلِکَ وَ رَجِلِکَ وَ شٰارِکْهُمْ فِی اَلْأَمْوٰالِ وَ اَلْأَوْلاٰدِ وَ عِدْهُمْ وَ مٰا یَعِدُهُمُ اَلشَّیْطٰانُ إِلاّٰ غُرُوراً (۶۴) إِنَّ عِبٰادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطٰانٌ وَ کَفیٰ بِرَبِّکَ وَکِیلاً (۶۵)

۱- ۱) .الاسراء ۴۰-۵۵:بحث روائی فی تسبیح الاشیاء للّه تعالی؛ذکر اللّه.

بیان:

قوله تعـالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاٰ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لاٰ تَحْوِيلاً الزعم بتثليث الزاى مطلق الاعتقاد ثم غلب استعماله فى الاعتقاد الباطل،و لذا نقل عن ابن عباس أن ما كان فى القرآن من الزعم فهو كذب.

و الـدعاء و النـداء واحـد غير أن النـداء إنمـا هو فيما إذا كان معه صوت و الـدعاء ربما يطلق على ما كان باشاره أو غيرها،و ذكر بعضهم فى الفرق بينهما أن النداء قد يقال إذا قيل:يا أو أيا أو

نحوهما من غير أن يضم اليه الاسم،و الدعاء لا يكاد يقال إلّا إذا كان معه الاسم نحو يا فلان.

انتهى.

و الآيه تحتج على نفى الوهيه آلهتهم من دون اللّه بأن الرب المستحق للعباده يجب أن يكون قادرا على إيصال النفع و دفع الضر إذ هو لازم ربوبيه الرب على أن المشركين مسلمون لذلک و إنما اتخذوا الآلهه و عبدوهم طمعا فى نفعهم و خوفا من ضررهم لكن الذين يدعونهم من دون اللّه لا يستطيعون ذلک فليسوا بآلهه،و الشاهد على ذلک أن يدعوهم هؤلاء الدين يعبدونهم لكشف ضر مسهم أو تحويله عنهم الى غيرهم فإنهم لا يملكون كشفا و لا تحويلا.

و كيف يملكون من عند أنفسهم كشف ضر أو تحويله و يستقلون بقضاء حاجه و رفع فاقه و هم فى أنفسهم مخلوقون للّه يبتغون اليه الوسيله يرجون رحمته و يخافون عذاب باعتراف من المشركين.

قوله تعالى: أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ الى آخر الآيه؛ «أُولٰئِكَ» مبتدأ و «الَّذِينَ» صفه له و «يَدْعُونَ» صلته و ضميره عائد الى المشركين،و «يَبْتَغُونَ» خبر «أُولٰئِكَ» و ضمير و سائر ضمائر الجمع الى آخر الآيه راجعه الى «أُولٰئِكَ» و قوله: «أَيُّهُمْ أَقْرَبُ» بيان لابتغاء الوسيله لكون الابتغاء فحصا و سؤالا فى المعنى هذا ما يعطيه السياق.

و الوسيله على ما فسروه هى التوصل و التقرب،و ربما استعملت بمعنى ما به التوصل و التقرب و لعله هو الأنسب بالسياق بالنظر الى تعقيبه بقوله: «أَيُّهُمْ أَقْرَبُ» .

و المعنى-و اللّه أعلم-اولئك الذين يدعوهم المشركون من الملائكه و الجن و الإنس يطلبون ما يتقربون به الى ربهم يستعلمون أيهم أقرب؟حتى يسلكوا سبيله و يقتدوا بأعماله ليتقربوا اليه تعالى كتقربه و يرجون رحمته من كل ما يستمدون به فى وجودهم و يخافون

عذاب فیطیعونه و لا یعصونه ان عذاب ربک کان محذورا یجب التحرز منه.

قوله تعالی: وَ إِنْ مِنْ قَرْیَهٍ إِلاّ نَحْنُ مُهْلِکُوها قَبْلَ یَوْمِ الْقِیامَهِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِیداً کانَ ذلِکَ فِی الْکِتابِ مَسْطُوراً ذکروا أن المراد بالعذاب الشدید عذاب الاستئصال فیبقی للإهلاک المقابل له الإماته بحتف أنف فالمعنی ما من قریه إلا نحن نمیت أهلها قبل یوم القیامه أو نعذبهم عذاب الاستئصال قبل یوم القیامه إذ لا قریه بعد طی بساط الدنیا بقیام الساعه و قد قال تعالی: وَ إِنّا لَجاعِلُونَ ما عَلَیْها صَعِیداً جُرُزاً (الکهف/٨) و لذا قال بعضهم:إن الإهلاک للقری الصالحه و التعذیب للقری الطالحه.

و قوله: کانَ ذلِکَ فِی الْکِتابِ مَسْطُوراً أی اهلاک القری او تعذیبها عذابا شدیدا کان فی الکتاب مسطورا و قضاء محتوما،و بذلک یظهر أن المراد بالکتاب اللوح المحفوظ الذی یذکر القرآن أن الله کتب فیه کل شیء کقوله: وَ کُلَّ شَیْءٍ أَحْصَیْناهُ فِی إِمامٍ مُبِینٍ (یس/١٢)،و قوله: وَ ما یَعْزُبُ عَنْ رَبِّکَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّهٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا فِی السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِکَ وَ لا أَکْبَرَ إِلاّ فِی کِتابٍ مُبِینٍ (یونس/٦١).

فالحق ان الکتاب المبین هو متن (١)الأعیان بما فیه من الحوادث من جهه ضروره ترتب المعلولات علی عللها،و هو القضاء الذی لا یرد و لا یبدل لا من جهه امکان الماده و قوتها، و التعبیر عنه بالکتاب و اللوح لتقریب الأفهام الی حقیقه المعنی بالتمثیل،و سنستوفی الکلام فی هذا البحث ان شاء الله فی موضع یناسبه.

قوله تعالی: وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآیاتِ إِلاّ أَنْ کَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ الی آخر الآیه؛قد تقدم وجه اتصال الآیه بما قبلها و محصله ان الآیه السابقه افادت ان الناس -و آخر و هم کأولیهم-مستحقون بما فیهم من غریزه الفساد و الفسق لحلول الهلاک و سائر

١- ١) .بما لها من الثبوت فی مرتبه عللها لا فی مرتبه انفسها«منه».

انواع العذاب الشديد،و قد قضى اللّه على القرى ان تهلك او تعذب عذابا شديدا و هذا هو الذى منعنا ان نرسل بالآيات التى يقترحونها فإن السابقين منهم اقترحوها فأرسلناها اليهم فكذبوا بها فأهلكناهم،و هؤلاء اللاحقون فى خلق سابقيهم فلو ارسلنا بالآيات حسب اقتراحهم لكذبوا بها فحل الهلاك بهم لا محاله كما حل بسابقيهم،و ما يريد اللّه سبحانه ان يعاجلهم بالعقوبه.

و قوله: إِلاّٰ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ التعبير عن الأمم الهالكه بالأولين المضايف للآخرين فيه ايماء الى ان هؤلاء آخر اولئك الأولين فهم فى الحقيقه امه واحده لآخرها من الخلق و الغريزه ما لأولها،و لذيلها من الحكم ما لصدرها و لذلك كانوا يقولون مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِي آبٰائِنَا الْأَوَّلِينَ (المؤمنون۲۴/)و يكررون ذكر هذه الكلمه.

و كيف كان فمعنى الآيه انا لم نرسل الآيات التى يقترحونها-و المقترحون هم قريش-لأنا لو ارسلناها لم يؤمنوا و كذبوا بها فيستحقوا عذاب الاستئصال كما انا ارسلناها الى الأولين بعد اقتراحهم اياها فكذبوا بها فأهلكناهم لكنا قضينا على هذه الامه أن لا نعذبهم الا بعد مهله و نظره كما يظهر من مواضع من كلامه تعالى.

و قوله: وَ آتَيْنٰا ثَمُودَ النّٰاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهٰا ثمود هم قوم صالح و لقد آتاهم الناقه آيه،و المبصره الظاهره البينه على حد ما فى قوله تعالى: وَ جَعَلْنٰا آيَةَ النَّهٰارِ مُبْصِرَةً (الإسراء۱۲/)،و هى صفه الناقه او صفه لمحذوف و التقدير آيه مبصره و المعنى و آتينا قوم ثمود الناقه حالكونها ظاهره بينه او حالكونها آيه ظاهره بينه فظلموا أنفسهم بسببها او ظلموا مكذبين بها.

و قوله: وَ مٰا نُرْسِلُ بِالْآيٰاتِ إِلاّٰ تَخْوِيفاً اى ان الحكمه فى الإرسال بالآيات التخويف و الإنذار فإن كانت من الآيات التى تستتبع عذاب الاستئصال ففيها تخويف بالهلاك فى الدنيا و عذاب فى الآخره،و إن كانت من غيرها ففيها تخويف و إنذار بعقوبه العقبى.

و ليس من البعيد ان يكون المراد بالتخويف إيجاد الخوف و الوحشه بارسال ما دون عذاب الاستئصال على حد ما فى قوله تعالى: أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (النحل/۴۷)فيرجع محصل معنى الآيه انا لا نرسل بالآيات المقترحه لأنا لا نريد ان نعذبهم بعذاب الاستئصال و إنما نرسل ما نرسل من الآيات تخويفا ليحذروا بمشاهدتها عما هو اشد منها و افظع و نسب الوجه الى بعضهم.

قوله تعالى: وَ إِذْ قُلْنٰا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحٰاطَ بِالنّٰاسِ وَ مٰا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنٰاكَ إِلاّٰ فِتْنَةً لِلنّٰاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمٰا يَزِيدُهُمْ إِلاّٰ طُغْيٰاناً كَبِيراً فقرات الآيه و هى اربع واضحه المعانى لكنها بحسب ما بينها من الاتصال و ارتباط بعضها ببعض لا تخلد من إجمال و السبب الأصلى فى ذلك الفقرتين الوسطيين الثانيه و الثالثه.

فلم يبين سبحانه ما هذه الرؤيا التى أراها نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لم يقع فى سائر كلامه ما يصلح لأن يفسر به هذه الرؤيا،و الذى ذكره من رؤياه فى مثل قوله: إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّٰهُ فِي مَنٰامِكَ قَلِيلاً وَ لَوْ أَرٰاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ (الأنفال/۴۳)و قوله: لَقَدْ صَدَقَ اللّٰهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيٰا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ (الفتح/۲۷)من الحوادث الواقعه بعد الهجره و هذه الآيه مكيه نازله قبل الهجره.

فالذى يهدى اليه الإمعان فى البحث أن المراد بالشجره الملعونه قوم من المنافقين المتظاهرين بالإسلام يتعرفون بين المسلمين إما بالنسل و إما بالعقيده و المسلك هم فتنه للناس،و لا ينبغى أن يرتاب فى أن فى سياق الآيه تلويحا بالارتباط بين الفقرتين أعنى قوله:

«وَ مٰا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنٰاكَ إِلاّٰ فِتْنَةً لِلنّٰاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ» و خاصه بعد الإمعان فى تقدم قوله: «وَ إِذْ قُلْنٰا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحٰاطَ بِالنّٰاسِ» و تذييل الفقرات جميعا بقوله: «وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمٰا يَزِيدُهُمْ إِلاّٰ طُغْيٰاناً كَبِيراً» فإن ارتباط الفقرات بعضها ببعض ظاهر فى أن الآيه بصدد الإشاره

الی أمر واحد هو سبحانه محیط به و لا ینفع فیه عظه و تخویف إلا زیاده فی الطغیان.

و یستفاد من ذلک أن الشأن هو أن اللّه سبحانه أری نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی الرؤیا هذه الشجره الملعونه و بعض أعمالهم فی الإسلام ثم بین لرسوله أن ذلک فتنه.

فقوله: وَ إِذْ قُلْنٰا لَکَ إِنَّ رَبَّکَ أَحٰاطَ بِالنّٰاسِ مقتضی السیاق أن المراد بالإحاطه الإحاطه العلمیه،و الظرف متعلق بمحذوف و التقدیر و اذکر اذ قلنا لک کذا و کذا و المعنی و اذکر للتثبت فیما ذکرنا لک فی هذه الآیات أن شیمه الناس الاستمرار فی الفساد و الفسوق و اقتداء أخلافهم بأسلافهم فی الإعراض عن ذکر اللّه و عدم الاعتناء بآیات اللّه، وقتا قلنا لک ان ربک أحاط بالناس علما و علم أن هذه السنه ستجری بینهم کما کانت تجری.

و قوله: وَ مٰا جَعَلْنَا الرُّؤْیَا الَّتِی أَرَیْنٰاکَ إِلاّٰ فِتْنَهً لِلنّٰاسِ وَ الشَّجَرَهَ الْمَلْعُونَهَ فِی الْقُرْآنِ محصل معناه علی ما تقدم أنه لم نجعل الشجره الملعونه فی القرآن التی تعرفها بتعریفنا،و ما أریناک فی المنام من أمرهم الا فتنه للناس و امتحانا و بلاء نمتحنهم و نبلوهم به و قد أحطنا بهم.

و قوله: وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمٰا یَزِیدُهُمْ إِلاّٰ طُغْیٰاناً کَبِیراً ضمیرا الجمع للناس ظاهرا و المراد بالتخویف اما التخویف بالموعظه و البیان أو بالآیات المخوفه التی هی دون الآیات المهلکه المبیده،و المعنی و نخوف الناس فما یزیدهم التخویف الا طغیانا و لا أی طغیان کان بل طغیانا کبیرا أی انهم لا یخافون من تخویفنا حتی ینتهوا عما هم علیه بل یجیبوننا بالطغیان الکبیر فهم یبالغون فی طغیانهم و یفرطون فی عنادهم مع الحق.

و سیاق الآیه سیاق التسلیه فاللّه سبحانه یعزی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فیها بأن الذی أراه من الأمر، و عرفه من الفتن،و قد جرت سنته تعالی علی امتحان عباده بالمحن و الفتن،و قد اعترف بذلک غیر واحد من المفسرین.

و یؤید جمیع ما تقدم ما ورد من طرق أهل السنه و اتفقت علیه أحادیث أئمه أهل

البیت علیهم السّلام أن المراد بالرؤیا فی الآیه هی رؤیا رآها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی بنی امیه و الشجره شجرتهم و سیوافیک الروایات فی البحث الروائی الآتی ان شاء اللّه تعالی (۱).

قوله تعالی: وَ إِذْ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِکَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِیسَ قٰالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِیناً قال فی المجمع:قال الزجاج:طینا منصوب علی الحال بمعنی أنک أنشأته فی حال کونه من طین،و یجوز أن یکون تقدیره من طین فحذف«من»فوصل الفعل،و مثله قوله: أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاٰدَکُمْ أی لأولادکم و قیل:إنه منصوب علی التمیز.

انتهی.

فالمعنی:و اذکر اذ قال ربک للملائکه اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابلیس،فکأنه قیل:فما ذا صنع؟او فما ذا قال؟اذ لم یسجد؟فقیل:انه انکر الأمر بالسجده و قال أ أسجد-و الاستفهام للانکار-لمن خلقته من طین و قد خلقتنی من نار و هی اشرف من الطین.

قوله تعالی: قٰالَ أَ رَأَیْتَکَ هٰذَا الَّذِی کَرَّمْتَ عَلَیَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ لَأَحْتَنِکَنَّ ذُرِّیَّتَهُ إِلاّٰ قَلِیلاً الکاف فی «أَ رَأَیْتَکَ» زائده لا محل لها من الإعراب و انما تفید معنی الخطاب کما فی أسماء الإشاره،و المراد بقوله: «هٰذَا الَّذِی کَرَّمْتَ عَلَیَّ» آدم علیه السّلام و تکریمه علی ابلیس تفضیله علیه بأمره بالسجده و رجمه حیث أبی.

و من هنا یظهر أنه فهم التفضیل من أمر السجده کما أنه اجترأ علی اراده اغواء ذریته مما جری فی محاورته تعالی الملائکه من قولهم: أَ تَجْعَلُ فِیهٰا مَنْ یُفْسِدُ فِیهٰا وَ یَسْفِکُ الدِّمٰاءَ (البقره۳۰/)،و قد تقدم تفسیر الآیه ما ینفع هاهنا.

و الاحتناک-علی ما فی المجمع-الاقتطاع من الأصل،یقال:احتنک فلان ما عند فلان من مال أو علم اذا استقصاه فأخذه کله،و احتنک الجراد المزرع اذا أکله کله،و قیل:انه من قولهم:

۱- ۱) .الاسراء ۵۶-۶۵:بحث فی الرؤیا التی اراها اللّه نبیه.

حنک الدابه بحبلها اذا جعل فی حنکها الأسفل حبلا یقودها به،و الظاهر أن المعنی الأخیر هو الأصل فی الباب،و الاحتناک الإلجام.

و المعنی:قال ابلیس بعد ما عصی و أخذه الغضب الإلهی رب أ رأیت هذا الذی فضلته بأمری بسجدته و رجمی بمعصیته اقسم لئن اخرتنی الی یوم القیامه و هو مده مکث بنی آدم فی الأرض لألجمن ذریته الا قلیلا منهم و هم المخلصون.

قوله تعالی: قٰالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزٰاؤُکُمْ جَزٰاءً مَوْفُوراً قیل:الأمر بالذهاب لیس علی حقیقته و إنما هو کنایه عن تخلیته و نفسه کما تقول لمن یخالفک:افعل ما ترید،و قیل:الأمر علی حقیقته و هو تعبیر آخر لقوله فی موضع آخر:

فَاخْرُجْ مِنْهٰا فَإِنَّکَ رَجِیمٌ و الموفور المکمل فالجزاء الموفور الجزاء الذی یوفی کله و لا یدخر منه شیء،و معنی الآیه واضح.

قوله تعالی: وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِکَ وَ أَجْلِبْ عَلَیْهِمْ بِخَیْلِکَ وَ رَجِلِکَ الی آخر الآیه؛الاستفزاز الازعاج و الاستنهاض بخفه و إسراع،و الإجلاب کما فی المجمع السوق بجلبه من السائق و الجلبه شده الصوت،و فی المفردات:أصل الجلب سوق الشیء یقال:جلبت جلبا قال الشاعر:«و قد یجلب الشیء البعید الجواب»و أجلبت علیه صحت علیه بقهر،قال اللّه عزّ و جل: «وَ أَجْلِبْ عَلَیْهِمْ بِخَیْلِکَ وَ رَجِلِکَ» انتهی.

و الخیل-علی ما قیل-الأفراس حقیقه و لا واحد له من لفظه و یطلق علی الفرسان مجازا، و الرجل بالفتح فالکسر هو الراجل کحذر و حاذر و کمل و کامل و هو خلاف الراکب،و ظاهر مقابلته بالخیل أن یکون المراد به الرجاله و هم غیر الفرسان من الجیش.

فقوله: وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِکَ أی استنهض للمعصیه من استطعت أن تستنهضه من ذریه آدم-و هم الذین یتولونه منهم و یتبعونه کما ذکره فی سوره الحجر-بصوتک،و کأن الاستفزاز بالصوت کنایه عن استخفافهم بالوسوسه الباطله من غیر

حقیقه،و تمثیل بما یساق الغنم و غیره بالنعیق و الزجر و هو صوت لا معنی له.

و قوله: وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ أی و صح علیهم لسوقهم الی معصیه اللّه بأعوانک و جیوشک فرسانهم و رجالتهم و کأنه اشاره الی أن قبیله و أعوانه منهم من یعمل ما یعمل بسرعه کما هو شأن الفرسان فی معرکه الحرب و منهم من یستعمل فی غیر موارد الحملات السریعه کالرجاله،فالخیل و الرجل کنایه عن المسرعین فی العمل و المبطئین فیه و فیه تمثیل نحو عملهم.

و قوله: «وَ شارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ» الشرکه إنما یتصور فی الملک و الاختصاص و لازمه کون الشریک سهیما لشریکه فی الانتفاع الذی هو الغرض من اتخاذ المال و الولد فإن المال عین خارجی منفصل من الإنسان و کذا الولد شخص إنسانی مستقل عن ولدیه،و لو لا غرض الانتفاع لم یعتبر الإنسان مالیه لمال و لا اختصاصا بولد.

و قوله: وَ عِدْهُمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاّ غُرُوراً أی ما یعدهم إلا وعدا غارا بإظهار الخطأ فی صوره الصواب و الباطل علی هیئه الحق فالغرور مصدر بمعنی اسم الفاعل للمبالغه.

قوله تعالی: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَ كَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً المراد بعبادی أعم من المخلصین الذین استثناهم إبلیس بقوله: «إِلاّ قَلِيلاً» بل غیر الغاوین من أتباع إبلیس کما قال فی موضع آخر: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (الحجر۴۲/)و الإضافه للتشریف.

و قوله: وَ كَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً أی قائما علی نفوسهم و أعمالهم حافظا لمنافعهم متولیا لامورهم فإن الوکیل هو الکافل لأمور الغیر القائم مقامه فی تدبیرها و إداره رحاها،و ذلک یظهر أن المراد به وکالته الخاصه لغیر الغاوین من عباده کما هو فی سوره الحجر.

و قد تقدمت أبحاث مختلفه حول قصه سجده آدم نافعه فی هذا المقام فی مواضع متفرقه من

کلامه تعالی کسوره البقره و سوره الأعراف و سوره الحجر (۱).

[سوره الإسراء (۱۷): الآیات ۶۶ الی ۷۲]

اشاره

رَبُّکُمُ اَلَّذِی یُزْجِی لَکُمُ اَلْفُلْکَ فِی اَلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ کٰانَ بِکُمْ رَحِیماً (۶۶) وَ إِذٰا مَسَّکُمُ اَلضُّرُّ فِی اَلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاّٰ إِیّٰاهُ فَلَمّٰا نَجّٰاکُمْ إِلَی اَلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ کٰانَ اَلْإِنْسٰانُ کَفُوراً (۶۷) أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ یَخْسِفَ بِکُمْ جٰانِبَ اَلْبَرِّ أَوْ یُرْسِلَ عَلَیْکُمْ حٰاصِباً ثُمَّ لاٰ تَجِدُوا لَکُمْ وَکِیلاً (۶۸) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ یُعِیدَکُمْ فِیهِ تٰارَهً أُخْریٰ فَیُرْسِلَ عَلَیْکُمْ قٰاصِفاً مِنَ اَلرِّیحِ فَیُغْرِقَکُمْ بِمٰا کَفَرْتُمْ ثُمَّ لاٰ تَجِدُوا لَکُمْ عَلَیْنٰا بِهِ تَبِیعاً (۶۹) وَ لَقَدْ کَرَّمْنٰا بَنِی آدَمَ وَ حَمَلْنٰاهُمْ فِی اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ اَلطَّیِّبٰاتِ وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلیٰ کَثِیرٍ مِمَّنْ خَلَقْنٰا تَفْضِیلاً (۷۰) یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُنٰاسٍ بِإِمٰامِهِمْ فَمَنْ أُوتِیَ کِتٰابَهُ بِیَمِینِهِ فَأُولٰئِکَ یَقْرَؤُنَ کِتٰابَهُمْ وَ لاٰ یُظْلَمُونَ فَتِیلاً (۷۱) وَ مَنْ کٰانَ فِی هٰذِهِ أَعْمیٰ فَهُوَ فِی اَلْآخِرَهِ أَعْمیٰ وَ أَضَلُّ سَبِیلاً (۷۲)

ص: ۷۳۷

۱- ۱) .الاسراء ۵۶-۶۵:بحث روائی فی:اهلاک القری؛الرؤیا التی اراها اللّه نبیه؛الشجره الملعونه فی القرآن؛شرک الشیطان.

بيان:

قوله تعالی: رَبُّكُمُ الَّذِی یُزْجِی لَكُمُ الْفُلْكَ فِی الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِیماً الازجاء علی ما فی مجمع البیان سوق الشیء حالا بعد حال فالمراد به إجراء السفن فی البحر بإرسال الریاح و نحوه و جعل الماء رطبا مائعا یقبل الجری و الخرق، و الفلك جمع الفلكه و هی السفینه.

و ابتغاء الفضل طلب الرزق فإن الجواد إنما یجود غالبا بما زاد علی مقدار حاجه نفسه و فضل الشیء ما زاد و بقی منه و من ابتدائیه،و ربما قیل:إنها للتبعیض،و ذیل الآیه تعلیل للحكم بالرحمه،و المعنی ظاهر.و الآیه تمهید لتالیها.

قوله تعالی: وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِی الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاّ إِیّاهُ الی آخر الآیه؛الضر الشده،و مس الضر فی البحر هو خوف الغرق بالاشراف علیه بعصف الریاح و تقاذف الأمواج و نحو ذلك.

و قوله: ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاّ إِیّاهُ المراد بالضلال-علی ما ذكروا-الذهاب عن الخواطر دون الخروج عن الطریق و قیل:هو بمعنی الضیاع من قولهم:ضل عن فلان كذا أی ضاع عنه و یعود علی أی حال الی معنی النسیان.

و المراد بالدعاء دعاء المسأله دون دعاء العباده فیعم قوله: «مَنْ تَدْعُونَ» الإله الحق و الآلهه الباطله التی یدعوها المشركون،و الاستثناء متصل،و المعنی و إذا اشتد علیكم الأمر فی البحر بالإشراف علی الغرق نسیتم كل إله تدعونه و تسألونه حوائجكم إلا اللّه.

و الظاهر أن المراد بالضلال معناه المعروف و هو خلاف الهدی و الكلام مبنی علی تمثیل لطیف كأن الإنسان إذا مسه الضر فی البحر و وقع فی قلبه أن یدعو لكشف ضره قصده آلهته الذین كان یدعوهم و یستمر فی دعائهم قبل ذلك و أخذوا یسعون نحوه و یتسابقون فی قطع

الطریق الی ذکره لیذکرهم و یدعوهم و یستغیث بهم لکنهم جمیعا یضلون الطریق و لا ینتهون الی ذکره فینساهم و اللّه سبحانه مشهود لقلبه حاضر فی ذکره یذکره الإنسان عند ذلک فیدعوه و قد کان معرضا عنه فیجیبه و ینجیه الی البر.

و بذلک یظهر أن المراد بالضلال معناه المعروف،و بمن تدعون آلهتهم من دون اللّه فحسب و أن الاستثناء منقطع و الوجه فی جعل الاستثناء منقطعا أن الذی یبتنی علیه الکلام من معنی التشبیه لا یناسب ساحه قدسه تعالی لتنزهه من السعی و الوقوع فی الطریق و قطعه و نحو ذلک.

مضافا الی أن قوله: فَلَمّا نَجّاکُمْ إِلَی الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ظاهر فی أن المراد بالدعوه دعاء المسأله و أنهم فی البر أی فی حالهم العادی غیر حال الضر معرضون عنه تعالی لا یدعونه فقوله: «مَنْ تَدْعُونَ» الظاهر فی استمرار الدعوه المراد به آلهتهم الذین کانوا یدعونهم فاستثناؤه تعالی استثناء منقطع.

و قوله: «فَلَمّا نَجّاکُمْ إِلَی الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ» أی فلما نجاکم من الغرق و کشف عنکم الضر رادا لکم الی البر اعرضتم عنه او عن دعائه و فیه دلاله علی أنه تعالی غیر مغفول عنه للإنسان فی حال و أن فطرته تهدیه الی دعائه فی الضراء و السراء و الشده و الرخاء جمیعا فإن الإعراض إنما یتحقق عن أمر ثابت موجود فقوله:إن الإنسان یدعوه فی الضر و یعرض عنه بعد کشفه فی معنی أنه مهدی الیه بالفطره دائما.

و قوله: وَ کانَ الْإِنْسانُ کَفُوراً أی إن الکفران من دأب الإنسان من حیث ان له الطبیعه الإنسانیه فإنه یتعلق بالأسباب الظاهریه فینسی مسبب الأسباب فلا یشکره تعالی و هو یتقلب فی نعمه الظاهره و الباطنه.

قوله تعالی: أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ یَخْسِفَ بِکُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ یُرْسِلَ عَلَیْکُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَکُمْ وَکِیلاً خسوف القمر استتار قرصه بالظلمه و الظل و خسف اللّه به

الأرض ای ستره فیها،و الحاصب-کما فی المجمع-الریح التی ترمی بالحصباء و الحصا الصغار و قیل:الحاصل الریح المهلکه فی البر و القاصف الریح المهلکه فی البحر.

و الاستفهام للتوبیخ یوبخهم اللّه تعالی علی إعراضهم عن دعائه فی البر فإنهم لا مؤمن لهم من مهلکات الحوادث فی البر کما لا مؤمن لهم حال مس الضر فی البحر إذ لا علم لهم بما سیحدث لهم و علیهم فمن الجائز أن یخسف اللّه بهم جانب البر أو یرسل علیهم ریحا حاصبا فیهلکهم بذلک ثم لا یجدوا لأنفسهم وکیلا یدفع عنهم الشده و البلاء و یعید إلیهم الأمن و السلام.

قوله تعالی: أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ یُعِیدَکُمْ فِیهِ تٰارَهً أُخْریٰ الی آخر الآیه؛القصف الکسر بشده و قاصف الریح هی التی تکسر السفن و الأبنیه،و قیل:القاصف الریح المهلکه فی البحر و التبیع هو التابع یتبع الشیء،و ضمیر «فِیهِ» للبحر و ضمیر «بِهِ» للغرق أو للارسال أولهما معا باعتبار ما وقع و لکل قائل،و الآیه من تمام التوبیخ.

و المعنی أم هل أمنتم بنجاتکم الی البر أن یعیدکم اللّه فی البحر تاره اخری فیرسل علیکم ریحا کاسره للسفن أو مهلکه فیغرقکم بسبب کفرکم ثم لا تجدوا بسبب الإغراق أحدا یتبع اللّه لکم علیه فیسأله لم فعل هذا بکم؟و یؤاخذه علی ما فعل.

و فی قوله: ثُمَّ لاٰ تَجِدُوا لَکُمْ عَلَیْنٰا بِهِ تَبِیعاً التفات من الغیبه الی التکلم بالغیر و کأن النکته فیه الظهور علی الخصم بالعظمه و الکبریاء.و هو المناسب فی المقام،و لیکون مع ذلک توطئه لما فی الآیات التالیه من سیاق التکلم بالغیر.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ کَرَّمْنٰا بَنِی آدَمَ وَ حَمَلْنٰاهُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ الطَّیِّبٰاتِ وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلیٰ کَثِیرٍ مِمَّنْ خَلَقْنٰا تَفْضِیلاً الآیه مسوقه للامتنان مشوبا بالعتاب کأنه تعالی لما ذکر وفور نعمه و تواتر فضله و رحمته علی الانسان،و حمله فی البحر ابتغاء فضله و رزقه،و رفاه حاله فی البر ثم نسیانه لربه و اعراضه عن دعائه إذا نجاه

و کشف ضره کفرانا مع أنه متقلب دائما بین نعمه التی لا تحصی نبه علی جمله تکریمه و تفضیله لیعلم بذلک مزید عنایته بالإنسان و کفران الإنسان لنعمه علی کثرتها و بلوغها.

و قوله: وَ حَمَلْنٰاهُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ أی حملناهم علی السفن و الدواب و غیر ذلک یرکبونها الی مقاصدهم و ابتغاء فضل ربهم و رزقه،و هذا أحد مظاهر تکریمهم.

و قوله: وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ الطَّیِّبٰاتِ أی من الأشیاء التی یستطیبونها من أقسام النعم من الفواکه و الثمار و سائر ما یتنعمون به و یستلذونه مما یصدق علیه الرزق،و هذا أیضا أحد مظاهر التکریم فمثل الانسان فی هذا التکریم الإلهی مثل من یدعی الی الضیافه و هی تکریم ثم یرسل إلیه مرکوب یرکبه للحضور لها و هو تکریم ثم یقدم علیه أنواع الأغذیه و الأطعمه اللذیذه و هو تکریم.

و بذلک یظهر أن عطف قوله: «وَ حَمَلْنٰاهُمْ» الخ؛و قوله: «وَ رَزَقْنٰاهُمْ» الخ؛علی التکریم من قبیل عطف المصادیق المترتبه علی العنوان الکلی المنتزع منها.

و قوله: وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلیٰ کَثِیرٍ مِمَّنْ خَلَقْنٰا تَفْضِیلاً لا یبعد أن یکون المراد بمن خلقناهم أنواع الحیوان ذوات الشعور و الجن الذی یثبته القرآن فإن اللّه سبحانه یعد أنواع الحیوان امما أرضیه کالامه الإنسانیه و یجریها مجری اولی العقل کما قال: وَ مٰا مِنْ دَابَّهٍ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ طٰائِرٍ یَطِیرُ بِجَنٰاحَیْهِ إِلاّٰ أُمَمٌ أَمْثٰالُکُمْ مٰا فَرَّطْنٰا فِی الْکِتٰابِ مِنْ شَیْءٍ ثُمَّ إِلیٰ رَبِّهِمْ یُحْشَرُونَ .

و هذا هو الأنسب بمعنی الآیه و قد عرفت أن الغرض منها بیان ما کرم اللّه به بنی آدم و فضلهم علی سائر الموجودات الکونیه و هی-فیما نعلم-الحیوان و الجن و أما الملائکه فلیسوا من الموجودات الکونیه الواقعه تحت تأثیر النظام المادی الحاکم فی عالم الماده.

فالمعنی:و فضلنا بنی آدم علی کثیر مما خلقنا و هم الحیوان و الجن و أما غیر الکثیر و هم الملائکه فهم خارجون عن محل الکلام لأنهم موجودات نوریه غیر کونیه و لا داخله فی مجری

النظام الکونی،و الآیه إنما تتکلم فی الإنسان من جهه أنه أحد الموجودات الکونیه و قد انعم علیه بنعم نفسیه و إضافیه (۱).

قوله تعالی: یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ الیوم یوم القیامه و الظرف متعلق بمقدر أی اذکر یوم کذا،و الإمام المقتدی و قد سمی اللّه سبحانه بهذا الاسم أفرادا من البشر یهدون الناس بأمر اللّه کما فی قوله: قالَ إِنِّی جاعِلُکَ لِلنّاسِ إِماماً (البقره۱۲۴/)و قوله:

وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّهً یَهْدُونَ بِأَمْرِنا (الأنبیاء۷۳/)و أفرادا آخرین یقتدی بهم فی الضلال کما فی قوله: فَقاتِلُوا أَئِمَّهَ الْکُفْرِ (التوبه۱۲/).

و سمی به أیضا التوراه کما فی قوله: وَ مِنْ قَبْلِهِ کِتابُ مُوسی إِماماً وَ رَحْمَهً (هود۱۷/)، و ربما استفید منه أن الکتب السماویه المشتمله علی الشریعه ککتاب نوح و إبراهیم و عیسی و محمد علیه السّلام جمیعا أئمه.

و سمی به أیضا اللوح المحفوظ کما هو ظاهر قوله تعالی: وَ کُلَّ شَیْءٍ أَحْصَیْناهُ فِی إِمامٍ مُبِینٍ (یس۶۲/).

و لما کان ظاهر الآیه أن لکل طائفه من الناس إماما غیر ما لغیرها فإنه المستفاد من إضافه الإمام الی الضمیر الراجع الی کل اناس لم یصلح أن یکون المراد بالإمام فی الآیه اللوح لکونه واحدا لا اختصاص له باناس دون أناس.

و أیضا ظاهر الآیه أن هذه الدعوه تعم الناس جمیعا من الأولین و الآخرین و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی: کانَ النّاسُ أُمَّهً واحِدَهً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتابَ (البقره۲۱۳/)أن أول الکتب السماویه المشتمله علی الشریعه هو کتاب نوح علیه السّلام و لا کتاب قبله فی هذا الشأن،و بذلک یظهر عدم صلاحیه کون الإمام فی الآیه مرادا به الکتاب

۱- ۱) .الاسراء ۶۶-۷۲:بحث فی تکریم بنی آدم و تفضیله؛کلام فی الفضل بین الانسان و الملک.

و إلا خرج من قبل نوح من شمول الدعوه فی الآیه.

فالمتعین أن یکون المراد بإمام کل اناس من یأتمون به فی سبیلی الحق و الباطل کما تقدم أن القرآن یسمیهما إمامین أو إمام الحق خاصه و هو الذی یجتبیه اللّه سبحانه فی کل زمان لهدایه أهله بأمره نبیا کان کابراهیم و محمد علیهما الصلاه و السلام أو غیر نبی،و قد تقدم تفصیل الکلام فیه فی تفسیر قوله: وَ إِذِ ابْتَلیٰ إِبْرٰاهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِمٰاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قٰالَ إِنِّی جٰاعِلُکَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً قٰالَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی قٰالَ لاٰ یَنٰالُ عَهْدِی الظّٰالِمِینَ (البقره/۱۲۴).

لکن المستفاد من مثل قوله فی فرعون و هو من أئمه الضلال: یَقْدُمُ قَوْمَهُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ (هود/۹۸)و قوله: لِیَمِیزَ اللّٰهُ الْخَبِیثَ مِنَ الطَّیِّبِ وَ یَجْعَلَ الْخَبِیثَ بَعْضَهُ عَلیٰ بَعْضٍ فَیَرْکُمَهُ جَمِیعاً فَیَجْعَلَهُ فِی جَهَنَّمَ (الأنفال/۳۷)و غیرهما من الآیات و هی،کثیره أن أهل الضلال لا یفارقون أولیاءهم المتبوعین یوم القیامه،و لازم ذلک أن یصاحبوهم فی الدعوه و الإحضار.

علی أن قوله: «بِإِمٰامِهِمْ» مطلق لم یقید بالإمام الحق الذی جعله اللّه إماما هادیا بأمره، و قد سمی مقتدی الضلال إماما کما سمی مقتدی الهدی إماما و سیاق ذیل الآیه و الآیه الثانیه أیضا مشعر بأن الإمام المدعو به هو الذی اتخذه الناس إماما و اقتدارا به فی الدنیا لا من اجتباه اللّه للإمامه و نصبه للهدایه بأمره سواء اتبعه الناس أو رفضوه.

فالظاهر أن المراد بإمام کل أناس فی الآیه من ائتموا به سواء کان إمام حق أو إمام باطل، و لیس کما یظن أنهم ینادون بأسماء أئمتهم فیقال:یا أمه إبراهیم و یا أمه محمد و یا آل فرعون و یا آل فلان فإنه لا یلائمه ما فی الآیه من التفریع أعنی قوله: فَمَنْ أُوتِیَ کِتٰابَهُ بِیَمِینِهِ وَ مَنْ کٰانَ فِی هٰذِهِ أَعْمیٰ الخ؛إذ لا تفرع بین الدعوه بالإمام بهذا المعنی و بین إعطاء الکتاب بالیمین أو العمی.

بل المراد بالدعوه-علی ما یعطیه سیاق الذیل-هو الإحضار فهم محضرون بإمامهم ثم

یأخذ من اقتدی بامام حق کتابه بیمینه و یظهر عمی من عمی عن معرفه الإمام الحق فی الدنیا و اتباعه،هذا ما یعطیه التدبر فی الآیه.

قوله تعالی: فَمَنْ أُوتِیَ کِتٰابَهُ بِیَمِینِهِ فَأُولٰئِکَ یَقْرَؤُنَ کِتٰابَهُمْ وَ لاٰ یُظْلَمُونَ فَتِیلاً الفتیل هو المفتول الذی فی شق النواه،و قیل:الفتیل هو الذی فی بطن النواه و النقیر فی ظهرها و القطمیر شق النواه.

و تفریع التفصیل علی دعوتهم بامامهم دلیل علی أن ائتمامهم هو الموجب لانقسامهم الی قسمین و تفرقهم فریقین:من اوتی کتابه بیمینه و من کان أعمی و أضل سبیلا فالإمام إمامان:

امام هدی و إمام ضلال،و هذا هو الذی قدمناه أن تفریع التفصیل یشهد بکون المراد بالإمام أعم من إمام الهدی.

و یشهد به أیضا تبدیل إیتاء الکتاب بالشمال أو من وراء الظهر کما وقع فی غیر هذا الموضع من قوله: وَ مَنْ کٰانَ فِی هٰذِهِ أَعْمیٰ فَهُوَ فِی الْآخِرَهِ أَعْمیٰ الخ.

و المعنی-باعانه من السیاق-فیتفرقون حینئذ فریقین فالذین أعطوا صحیفه أعمالهم بأیمانهم فاولئک یقرءون کتابهم فرحین مستبشرین مسرورین بالسعاده و لا یظلمون مقدار فتیل بل یوفون اجورهم تامه کامله.

قوله تعالی: وَ مَنْ کٰانَ فِی هٰذِهِ أَعْمیٰ فَهُوَ فِی الْآخِرَهِ أَعْمیٰ وَ أَضَلُّ سَبِیلاً المقابله بین قولیه: «فِی هٰذِهِ» و «فِی الْآخِرَهِ» دلیل علی أن الإشاره بهذه الی الدنیا کما أن کون الآیه مسوقه لبیان التطابق بین الحیاه الدنیا و الآخره دلیل علی أن المراد بعمی الآخره عمی البصیره کما أن المراد بعمی الدنیا ذلک قال تعالی: فَإِنَّهٰا لاٰ تَعْمَی الْأَبْصٰارُ وَ لٰکِنْ تَعْمَی الْقُلُوبُ الَّتِی فِی الصُّدُورِ و یؤید ذلک أیضا تعقیب عمی الآخره بقوله: «وَ أَضَلُّ سَبِیلاً» .

[سوره الإسراء (١٧): الآيات ٧٣ الی ٨١]

اشاره

وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ اَلَّذِی أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِیَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَ إِذاً لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧۴) إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ اَلْحَياةِ وَ ضِعْفَ اَلْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً (٧۵) وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ اَلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَ إِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاّ قَلِيلاً (٧۶) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً (٧٧) أَقِمِ اَلصَّلاةَ لِدُلُوكِ اَلشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اَللَّيْلِ وَ قُرْآنَ اَلْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ اَلْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (٧٨) وَ مِنَ اَللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (٧٩) وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِی مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِی مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اِجْعَلْ لِی مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً (٨٠) وَ قُلْ جاءَ اَلْحَقُّ وَ زَهَقَ اَلْباطِلُ إِنَّ اَلْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (٨١)

ص: ٧۴۵

بیان:

قوله تعالی: وَ إِنْ کٰادُوا لَیَفْتِنُونَکَ عَنِ الَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ لِتَفْتَرِیَ عَلَیْنٰا غَیْرَهُ وَ إِذاً لاَتَّخَذُوکَ خَلِیلاً إن مخففه بدلیل اللام فی «لَیَفْتِنُونَکَ» و الفتنه الازلال و الصرف،و الخیل من الخله بمعنی الصداقه و ربما قیل:هو من الخله بمعنی الحاجه و هو بعید.

و ظاهر السیاق أن المراد بالذی أوحینا إلیک القرآن بما یشتمل علیه من التوحید و نفی الشریک و السیره الصالحه و هذا یؤید ما ورد فی بعض أسباب النزول أن المشرکین سألوا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یکف عن ذکر آلهتهم بسوء و یبعد عن نفسه عبیدهم المؤمنین به و السقاط حتی یجالسوه و یسمعوا منه فنزلت الآیات.

و المعنی:و إن المشرکین اقتربوا أن یزلوک و یصرفوک عما أوحینا إلیک لتتخذ من السیره و العمل ما یخالفه فیکون فی ذلک افتراء علینا لانتسابه بعملک إلینا و إذا لاتخذوک صدیقا.

قوله تعالی: وَ لَوْ لاٰ أَنْ ثَبَّتْنٰاکَ لَقَدْ کِدْتَ تَرْکَنُ إِلَیْهِمْ شَیْئاً قَلِیلاً التثبیت-کما یفیده السیاق-هو العصمه الإلهیه و جعل جواب لو لا-قوله: «لَقَدْ کِدْتَ تَرْکَنُ» دون نفس الرکون و الرکون هو المیل أو أدنی المیل کما قیل دلیل علی أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم لم یرکن و لم یکد،و یؤکده إضافه الرکون إلیهم دون إجابتهم الی ما سألوه.

و المعنی:و لو لا-أن ثبتناک بعصمتنا دنوت من أن تمیل إلیهم قلیلا-لکنا ثبتناک فلم تدن من أدنی المیل إلیهم فضلا من أن تجیبهم الی ما سألوا فهو صلّی اللّه علیه و آله و سلم لم یجبهم الی ما سألوا و لا مال إلیهم شیئا قلیلا و لا کاد أن یمیل.

قوله تعالی: إِذاً لَأَذَقْنٰاکَ ضِعْفَ الْحَیٰاهِ وَ ضِعْفَ الْمَمٰاتِ ثُمَّ لاٰ تَجِدُ لَکَ عَلَیْنٰا نَصِیراً سیاق الآیه سیاق توعد فالمراد بضعف الحیاه و الممات المضاعف من عذاب الحیاه و الممات،و المعنی لو قارنت أن تمیل إلیهم بعض المیل لأذقناک الضعف من العذاب الذی

نعذب به المجرمين فی حیاتهم و الضعف مما نعذبهم به فی مماتهم أی ضعف عذاب الدنیا و الآخره.

و نقل فی المجمع عن أبان بن تغلب أن المراد بالضعف العذاب المضاعف ألمه و المعنی لأذقناک عذاب الدنیا و عذاب الآخره،و أنشد قول الشاعر:

لمقتل مالک إذ بان منی

أبیت اللیل فی ضعف ألیم

أی فی عذاب ألیم.

و ما فی ذیل الآیه من قوله: «ثُمَّ لاٰ تَجِدُ لَکَ عَلَیْنٰا نَصِیراً» تشدید فی الإیعاد أی إن العذاب واقع حینئذ لا مخلص منه.

قوله تعالی: وَ إِنْ کٰادُوا لَیَسْتَفِزُّونَکَ مِنَ الْأَرْضِ لِیُخْرِجُوکَ مِنْهٰا وَ إِذاً لاٰ یَلْبَثُونَ خِلاٰفَکَ إِلاّٰ قَلِیلاً الاستفزاز الإزعاج و التحریک بخفه و سهوله،و اللام فی «الْأَرْضِ» للعهد و المراد بها مکه،و الخلاف بمعنی بعد،و المراد بالقلیل الیسیر من الزمان.

و المعنی و إن المشرکین قاربوا أن یزعجوک من أرض مکه لإخراجک منها و لو کان منهم و خرجت منها لم یمکثوا بعدک فیها إلا قلیلا فهم هالکون لا محاله.

قوله تعالی: سُنَّهَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنٰا قَبْلَکَ مِنْ رُسُلِنٰا وَ لاٰ تَجِدُ لِسُنَّتِنٰا تَحْوِیلاً التحویل نقل الشیء من حال الی حال،و قوله: «سُنَّهَ» أی کسنه من قد أرسلنا و هو متعلق بقوله: «لاٰ یَلْبَثُونَ» أی لا یلبثون بعدک إلا قلیلا کسنه من قد أرسلنا قبلک من رسلنا.

و هذه السنه و هی إهلاک المشرکین لذین أخرجوا رسولهم من بلادهم و طردوه من بینهم سنه للّه سبحانه،و إنما نسبها الی رسله لأنها مسنونه لأجلهم بدلیل قوله بعد:«و لن تجد لسنتنا تحویلا»و قد قال تعالی: وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّکُمْ مِنْ أَرْضِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِی مِلَّتِنٰا فَأَوْحیٰ إِلَیْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِکَنَّ الظّٰالِمِینَ (إبراهیم۱۳/).

و المعنی:و إذا نهلکهم لنستنا التی سنناها لأجل من قد أرسلنا قبلک من رسلنا و أجریناها و لست تجد لسنتنا تحویلا و تبدیلا.

قوله تعالی: أَقِمِ الصَّلاٰةَ لِدُلُوکِ الشَّمْسِ إِلیٰ غَسَقِ اللَّیْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ کٰانَ مَشْهُوداً قال فی مجمع البیان:الدلوک الزوال،و قال المبرد:دلوک الشمس من لدن زوالها الی غروبها،و قیل:هو الغروب و أصله من الدلک فسمی الزوال دلوکا لأن الناظر إلیها یدلک عینیه لشده شعاعها،و سمی الغروب دلوکا لأن الناظر یدلک عینیه لیثبتها.انتهی.

و قال فیه:غسق اللیل ظهور ظلامه یقال:غسقت القرحه إذا انفجرت فظهر ما فیها.

انتهی،و فی المفردات:غسق اللیل شده ظلمته.انتهی.

و قد اختلف المفسرون فی تفسیر صدر الآیه و المروی عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام من طرق الشیعه تفسیر دلوک الشمس بزوالها و غسق اللیل بمنتصفه،و سیجیء الإشاره الی الروایات فی البحث الروائی الآتی إن شاء اللّه.

و علیه فالآیه تشمل من الوقت ما بین زوال الشمس و منتصف اللیل،و الواقع فی هذا المقدار من الوقت من الفرائض الیومیه أربع صلاه الظهر و العصر و المغرب و العشاء الآخره.

و بانضمام صلاه الصبح المدلول علیها بقوله: «وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ» الخ؛إلیها تتم الصلوات الخمس الیومیه.

و قوله: «وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ» معطوف علی الصلاه أی و أقم قرآن الفجر و المراد به صلاه الصبح لما تشتمل علیه من القراءه و قد اتفقت الروایات علی ان صلاه الصبح هی المراد بقرآن الفجر.

و کذا اتفقت الروایات من طرق الفریقین علی تفسیر قوله ذیلا: «إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ کٰانَ مَشْهُوداً» بأنه یشهده ملائکه اللیل و ملائکه النهار،و سنشیر الی بعض هذه الروایات عن

قریب إن شاء اللّه.

قوله تعالی: وَ مِنَ اللَّیْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نٰافِلَهً لَکَ عَسیٰ أَنْ یَبْعَثَکَ رَبُّکَ مَقٰاماً مَحْمُوداً التهجد من الهجود و هو النوم فی الأصل و معنی التهجد التیقظ و السهر بعد النوم علی ما ذکره غیر واحد منهم،و الضمیر فی «بِهِ» للقرآن أو للبعض المفهوم من قوله: «وَ مِنَ اللَّیْلِ» و النافله من النفل و هو الزیاده،و ربما قیل:إن قوله: «وَ مِنَ اللَّیْلِ» من قبیل الاغراء نظیر قولنا:علیک باللیل،و الفاء فی قوله: «فَتَهَجَّدْ بِهِ» نظیر قوله: فَإِیّٰایَ فَارْهَبُونِ (النحل/۵۱).

و المعنی:و اسهر بعض اللیل بعد نومتک بالقرآن-و هو الصلاه-حالکونها صلاه زائده لک علی الفریضه.

و قوله: عَسیٰ أَنْ یَبْعَثَکَ رَبُّکَ مَقٰاماً مَحْمُوداً من الممکن أن یکون المقام مصدرا میمیا و هو البعث فیکون مفعولا مطلقا من غیر لفظه،و المعنی عسی أن یبعثک ربک بعثا محمودا،و من الممکن أن یکون اسم مکان و البعث بمعنی الاقامه أو مضمنا معنی الاعطاء و نحوه،و المعنی عسی أن یقیم ربک فی مقام محمود أو یبعثک معطیا لک مقاما محمودا أو یعطیک باعثا مقاما محمودا.

و قد وصف سبحانه مقامه بأنه محمود و أطلق القول من غیر تقیید و هو یفید أنه مقام یحمده الکل و لا یثنی علیه الکل إلا إذا استحسنه الکل و انتفع به الجمیع و لذا فسروا المقام المحمود بأنه المقام الذی یحمده علیه جمیع الخلائق و هو مقام الشفاعه الکبری له صلّی اللّه علیه و آله و سلم یوم القیامه و قد اتفقت علی هذا التفسیر الروایات من طرق الفریقین عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و أئمه أهل البیت علیهم السّلام.

قوله تعالی: وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِی مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِی مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِی مِنْ لَدُنْکَ سُلْطٰاناً نَصِیراً المدخل بضم المیم و فتح الخاء مصدر میمی

بمعنی الادخال و نظیره المخرج بمعنی الاخراج،و العنایه فی إضافه الادخال و الاخراج الی الصدق أن یکون الدخول و الخروج فی کل أمر منعوتا بالصدق جاریا علی الحقیقه من غیر أن یخالف ظاهره باطنه أو یضاد بعض أجزائه بعضا کأن یدعو الانسان بلسانه الی اللّه و هو یرید بقلبه أن یسود الناس أو یخلص فی بعض دعوته للّه و یشرک فی بعضها غیره.

و بالجمله هو أن یری الصدق فی کل مدخل منه و مخرج و یستوعب وجوده فیقول ما یفعل و یفعل ما یقول و لا یقول و لا یفعل إلا ما یراه و یعتقد به،و هذا مقام الصدیقین.و یرجع المعنی الی نحو قولنا:اللهم تول أمری کما تتولی أمر الصدیقین.

و قوله: «وَ اجْعَلْ لِی مِنْ لَدُنْکَ سُلْطاناً نَصِیراً» ای سلطنه بنصرتی علی ما أهم به من الامور و أشتغل به من الأعمال فلا أغلب فی دعوتی بحجه باطله،و لا أفتتن بفتنه أو مکر یمکرنی به أعداؤک و لا أضل بنزغ شیطان و وسوسته.

و الآیه-کما تری-مطلقه تأمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یسأل ربه أن یتولی أمره فی کل مدخل و مخرج بالصدق و یجعل له سلطانا من عنده ینصره فلا یزیغ فی حق و لا یظهر بباطل فلا وجه لما ذکره بعض المفسرین أن المراد بالدخول و الخروج دخول المدینه بالهجره و الخروج منها الی مکه للفتح أو أن المراد بهما دخول القبر بالموت و الخروج منه بالبعث.

نعم لما کانت الآیه بعد قوله: «وَ إِنْ کادُوا لَیَفْتِنُونَکَ» و «وَ إِنْ کادُوا لَیَسْتَفِزُّونَکَ» و فی سیاقهما،لوحت الی أمره صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یلتجئ الی ربه فی کل أمر یهم به أو یشتغل به من امور الدعوه،و فی الدخول و الخروج فی کل مکان یسکنه أو یدخله او یخرج منه و هو ظاهر.

قوله تعالی: وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ کانَ زَهُوقاً قال فی المجمع:الزهوق هو الهلاک و البطلان یقال:زهقت نفسه اذا خرجت فکأنها قد خرجت الی الهلاک.انتهی و المعنی ظاهر.

و فی الآیه أمره صلّی اللّه علیه و آله و سلم بإعلام ظهور الحق و هو لوقوع الآیه فی سیاق ما مر من قوله: «وَ إِنْ

كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ» الى آخر الآيات؛أمر بإيئاس المشركين من نفسه و تنبيههم أن يوقنوا أن لا مطمع لهم فيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و فى الآيه دلاله على أن الباطل لا دوام له كما قال تعالى فى موضع آخر: وَ مَثَلُ كَلِمَهٍ خَبِيثَهٍ كَشَجَرَهٍ خَبِيثَهٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (إبراهيم/۲۶) (۱).

[سوره الإسراء (۱۷): الآيات ۸۲ الى ۱۰۰]

اشاره

وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَهٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظّالِمِينَ إِلاّ خَساراً (۸۲) وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً (۸۳) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً (۸۴) وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً (۸۵) وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً (۸۶) إِلاّ رَحْمَهً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (۸۷) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (۸۸) وَ لَقَدْ صَرَّفْنا لِلنّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكْثَرُ النّاسِ إِلاّ كُفُوراً (۸۹) وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (۹۰) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّهٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (۹۱) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَ الْمَلائِكَهِ قَبِيلاً (۹۲) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاّ بَشَراً رَسُولاً (۹۳) وَ ما مَنَعَ النّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلاّ أَنْ قالُوا أَ بَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَسُولاً (۹۴) قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَهٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً (۹۵) قُلْ كَفى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (۹۶) وَ مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً (۹۷) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا وَ قالُوا أَ إِذا كُنّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (۹۸) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظّالِمُونَ إِلاّ كُفُوراً (۹۹) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَهِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَهَ الْإِنْفاقِ وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (۱۰۰)

۱- ۱) .الاسراء ۷۳-۸۱:بحث روائى فى:الخمس؛الشفاعه.

بیان:

قوله تعالی: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ لاٰ یَزِیدُ الظّٰالِمِینَ إِلاّٰ خَسٰاراً من بیانیه تبین الموصول أعنی قوله: «مٰا هُوَ شِفٰاءٌ» الخ؛أی و ننزل ما هو شفاء و رحمه و هو القرآن.

وعد القرآن شفاء و الشفاء انما یکون عن مرض دلیل علی أن للقلوب أحوالا نسبه القرآن إلیها نسبه الدواء الشافی الی المرض،و هو المستفاد من کلامه سبحانه حیث ذکر أن الدین الحق فطری للانسان فکما أن للبنیه الانسانیه التی سویت علی الخلقه الأصلیه قبل أن یلحق بها أحوال منافیه و آثار مغایره للتسویه الأولیه استقامه طبیعیه تجری علیها فی أطوار الحیاه کذلک لها بحسب الخلقه الأصلیه عقائد حقه فی المبدإ و المعاد و ما یتفرع علیهما من اصول المعارف،و أخلاق فاضله زاکیه تلائمها و یترتب علیها من الأحوال و الأعمال ما یناسبها.

فللانسان صحه و استقامه روحیه معنویه کما أن له صحه و استقامه جسمیه صوریه،و له

أمراض و أدواء روحيه باختلال أمر الصحه الروحيه كما أن له أمراضا و أدواء جسميه باختلال أمر الصحه الجسميه و لكل داء دواء و لكل مرض شفاء.

و قد ذكر اللّه سبحانه فى اناس من المؤمنين أن فى قلوبهم مرضا و هو غير الكفر و النفاق الصريحين كما يدل عليه قوله: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَهِ لَنُغْرِيَنَّکَ بِهِمْ (الأحزاب/۶۰)و قوله: وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللّهُ بِهذا مَثَلاً (المدثر/۳۱).

و ليس هذا المسمى مرضا الا ما يختل به ثبات القلب و استقامه النفس من أنواع الشك و الريب الموجبه لاضطراب الباطن و تزلزل السر و الميل الى الباطل و اتباع الهوى مما يجامع ايمان عامه المؤمنين من أهل أدنى مراتب الايمان و مما هو معدود نقصا و شركا بالاضافه الى مراتب الايمان العاليه،و قد قال تعالى: وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف/۱۰۶)و قال: فَلا وَ رَبِّکَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوکَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (النساء/۶۵).

و القرآن الكريم يزيل بحججه القاطعه و براهينه الساطعه أنواع الشكوک و الشبهات المعترضه فى طريق العقائد الحقه و المعارف الحقيقيه و يدفع بمواعظه الشافيه و ما فيه من القصص و العبر و الأمثال و الوعد و الوعيد و الانذار و التبشير و الأحكام و الشرائع عاهات الأفئده و آفاتها فالقرآن شفاء للمؤمنين.

و اما كونه رحمه للمؤمنين-و الرحمه افاضه ما يتم به النقص و يرتفع به الحاجه-فلأن القرآن ينور القلوب بنور العلم و اليقين بعد ما يزيل عنها ظلمات الجهل و العمى و الشك و الريب،و يحليها بالملكات الفاضله و الحالات الشريفه الزاكيه بعد ما يغسل عنها أوساخ الهيئات الرديه و الصفات الخسيسه.

فهو بما انه شفاء يزيل عنها انواع الأمراض و الأدواء،و بما انه رحمه يعيد إليها ما افتقدته

من الصحه و الاستقامه الأصليه الفطريه فهو بكونه شفاء يطهر المحل من الموانع المضاده للسعاده و يهيئها لقبولها،و بكونه رحمه يلبسه لباس السعاده و ينعم عليه بنعمه الاستقامه.

فالقرآن شفاء و رحمه للقلوب المريضه كما انه هدى و رحمه للنفوس غير الآمنه من الضلال،و بذلك يظهر النكته فى ترتب الرحمه على الشفاء فى قوله: مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فهو كقوله: هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (يوسف١١١/)و قوله: وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً (النساء٩۶/).

فمعنى قوله: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» و ننزل اليك امرا يشفى امراض القلوب و يزيلها و يعيد إليها حاله الصحه و الاستقامه فتتمتع من نعمه السعاده و الكرامه.

و قوله: وَ لاٰ يَزِيدُ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ خَسٰاراً السياق دال على ان المراد به بيان ما للقرآن من الأثر فى غير المؤمنين قبال ما له من الاثر الجميل فى المؤمنين فالمراد بالظالمين غير المؤمنين و هم الكفار دون المشركين خاصه كما يظهر من بعض المفسرين و انما علق الحكم بالوصف اعنى الظلم ليشعر بالتعليل اى ان القرآن انما يزيدهم خسارا لمكان ظلمهم بالكفر.

و الخسار هو النقص فى رأس المال فللكفار رأس مال بحسب الأصل و هو الدين الفطرى تلهم به نفوسهم الساذجه ثم إنهم بكفرهم باللّه و آياته خسروا فيه و نقصوا.ثم إن كفرهم بالقرآن و إعراضهم عنه بظلمهم يزيدهم خسارا على خسار و نقصا على نقص إن كانت عندهم بقيه من موهبه الفطره،و الى هذه النكته يشير سياق النفى و الاستثناء حيث قيل: «وَ لاٰ يَزِيدُ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ خَسٰاراً» و لم يقل:و يزد الظالم خسارا.

و به يظهر أن محصل معنى الآيه أن القرآن يزيد المؤمنين صحه و استقامه على صحتهم و استقامتهم بالإيمان و سعاده على سعادتهم و إن زاد الكافرين شيئا فإنما يزيدهم نقصا

ص: ٧۵۵

و خسارا.

قوله تعالی: وَ إِذٰا أَنْعَمْنٰا عَلَی الْإِنْسٰانِ أَعْرَضَ وَ نَأیٰ بِجٰانِبِهِ وَ إِذٰا مَسَّهُ الشَّرُّ کٰانَ یَؤُساً قال فی المفردات:العرض خلاف الطول و أصله أن یقال فی الأجسام ثم یستعمل فی غیرها-الی أن قال-و أعرض أظهر عرضه أی ناحیته فاذا قیل:أعرض لی کذا أی بدا عرضه فأمکن تناوله،و إذا قیل:أعرض عنی فمعناه و لی مبدئا عرضه.انتهی موضع الحاجه.

و النأی البعد و نأی بجانبه أی اتخذ لنفسه جهه بعیده منا،و مجموع قوله: «أَعْرَضَ وَ نَأیٰ بِجٰانِبِهِ» یمثل حال الإنسان فی تباعده و انقطاعه من ربه عند ما ینعم علیه.کمن یحول وجهه عن صاحبه و یتخذ لنفسه موقفا بعیدا منه،و ربما ذکر بعض المفسرین أن قوله: «نَأیٰ بِجٰانِبِهِ» کنایه عن الاستکبار و الاستعلاء.

و قوله: وَ إِذٰا مَسَّهُ الشَّرُّ کٰانَ یَؤُساً أی و إذا أصابه الشر إصابه خفیفه کالمس کان آیسا منقطع الرجال عن الخیر و هو النعمه،و لم ینسب الشر إلیه تعالی کما نسب النعمه تنزیها له تعالی من أن یسند إلیه الشر،و لأن وجود الشر أمر نسبی لا نفسی فما یتحقق من الشر فی العالم کالموت و المرض و الفقر و النقص و غیر ذلک انما هو شر بالنسبه الی مورده،و أما بالنسبه الی غیره و خاصه النظام العام الجاری فی الکون فهو من الخیر الذی لا مناص عنه فی التدبیر الکلی فما کان من الخیر فهو مما تعلقت به بعینه العنایه الإلهیه و هو مراد بالذات،و ما کان من الشر فهو مما تعلقت به العنایه لغیره و هو مقضی بالعرض.

فالمعنی إنا إذا أنعمنا علی الإنسان هذا الموجود الواقع فی مجری الأسباب اشتغل بظواهر الأسباب و اخلد إلیها فنسینا فلم یذکرنا و لم یشکرنا،و إذا ناله شیء یسیر من الشر فسلب منه الخیر و زالت عنه أسبابه و رأی ذلک کان شدید الیأس من الخیر لکونه متعلقا بأسبابه

و هو یری بطلان أسبابه و لا یری لربه فی ذلک صنعا (۱).

قوله تعالی: قُلْ کُلٌّ یَعْمَلُ عَلیٰ شٰاکِلَتِهِ فَرَبُّکُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدیٰ سَبِیلاً المشاکله-علی ما فی المفردات-من الشکل و هو تقیید الدابه،و یسمی ما یقید به شکالا بکسر الشین،و الشاکله هی السجیه سمی بها لتقییدها الإنسان أن یجری علی ما یناسبها و تقتضیه.

و فی المجمع:الشاکله الطریقه و المذهب یقال:هذا طریق ذو شواکل أی ینشعب منه طرق جماعه و انتهی.و کأن تسمیتها بها لما فیها من تقیید العابرین و المنتحلین بالتزامها و عدم التخلف عنها و قیل:الشاکله من الشکل بفتح الشیخ بمعنی المثل و قیل:إنها من الشکل بکسر الشین بمعنی الهیئه.

و کیف کان فالآیه الکریمه ترتب عمل الإنسان علی شاکلته بمعنی أن العمل یناسبها و یوافقها،فهی بالنسبه الی العمل کالروح الساریه فی البدن الذی یمثل بأعضائه و أعماله هیآت الروح المعنویه و قد تحقق بالتجارب و البحث العلمی أن بین الملکات و الأحوال النفسانیه و بین الأعمال رابطه خاصه فلیس یتساوی عمل الشجاع الباسل و الجبان إذا حضرا موقفا هائلا،و لا عمل الجواد الکریم و البخیل اللئیم فی مواد الانفاق و هکذا،و أن بین الصفات النفسانیه و نوع ترکیب البنیه الإنسانیه رابطه خاصه فمن الأمزجه ما یسرع الیه الغضب و حب الانتقام بالطبع و منها ما تغلی و تفور فیه شهوه الطعام أو النکاح أو غیر ذلک بحیث تتوق نفسه بأدنی سبب یدعوه و یحرکه،و منها غیر ذلک فیتخلف انعقاد الملکات بحسب ما یناسب المورد سرعه و بطءا (۲)(۳).

۱- ۱) .الاسراء ۸۲-۱۰۰:بحث فلسفی فی الشرور.

۲- ۲) .الاسراء ۸۲-۱۰۰:بحث فی:شاکله الانسان؛الارتباط بین الاعمال و الملکات و بین الذوات.

۳- ۳) .الاسراء ۸۲-۱۰۰:بحث فلسفی فی سنخیه وجودیه و رابطه ذاتیه بین الفعل و فاعله.

قوله تعالی: وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی وَ مٰا أُوتِیتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّٰ قَلِیلاً الروح علی ما یعرف فی اللغه هو مبدأ الحیاه الذی به یقوی الحیوان علی الإحساس و الحرکه الإرادیه و لفظه یذکر و یؤنث،و ربما یتجوز فیطلق علی الامور التی یظهر بها آثار حسنه مطلوبه کما یعد العلم حیاه للنفوس قال تعالی: أَ وَ مَنْ کٰانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْنٰاهُ (الأنعام/۱۲۲)أی بالهدایه الی الإیمان و علی هذا المعنی حمل جماعه مثل قوله: یُنَزِّلُ الْمَلاٰئِکَهَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ (النحل/۲)أی بالوحی و قوله: وَ کَذٰلِکَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا (الشوری/۵۲)أی القرآن الذی هو وحی فذکروا أنه تعالی سمی الوحی أو القرآن روحا لأن به حیاه النفوس المیته کما أن الروح المعروف به حیاه الأجساد المیته (۱).

قوله تعالی: وَ لَئِنْ شِئْنٰا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ ثُمَّ لاٰ تَجِدُ لَکَ بِهِ عَلَیْنٰا وَکِیلاً الکلام متصل بما قبله فإن الآیه السابقه و إن کانت متعرضه لأمر مطلق الروح و هو ذو مراتب مختلفه إلا أن الذی ینطبق علیه منه بحسب سیاق الآیات السابقه المسوقه فی أمر القرآن هو الروح السماوی النازل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم الملقی الیه القرآن.

فالمعنی-و اللّه أعلم-الروح النازل علیک الملقی بالقرآن الیک من أمرنا غیر خارج من قدرتنا،و أقسم لئن شئنا لنذهبن بهذا الروح الذی هو کلمتنا الملقاه إلیک ثم لا تجد أحدا یکون وکیلا به لک علینا یدافع عنک و یطالبنا به و یجبرنا علی رد ما أذهبنا به.

قوله تعالی: إِلاّٰ رَحْمَهً مِنْ رَبِّکَ إِنَّ فَضْلَهُ کٰانَ عَلَیْکَ کَبِیراً استثناء من محذوف یدل علیه السیاق،و التقدیر فما اختصصت بما اختصصت به و لا اعطیت ما اعطیت من نزول الروح و ملازمته إیاک إلا رحمه من ربک،ثم علله بقوله: «إِنَّ فَضْلَهُ کٰانَ عَلَیْکَ کَبِیراً» و هو وارد مورد الامتنان.

ص: ۷۵۸

۱- ۱) .الاسراء ۸۲-۱۰۰:بحث فی الروح.

قوله تعالی: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلیٰ أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لاٰ یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کٰانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً الظهر هو المعین مأخوذ من الظهر کالرئیس من الرأس،و قوله: «بِمِثْلِهِ» من وضع الظاهر موضع المضمر و ضمیره عائد الی القرآن.

و فی الآیه تحد ظاهر،و هی ظاهره فی أن التحدی بجمیع ما للقرآن من صفات الکمال الراجعه الی لفظه و معناه لا بفصاحته و بلاغته وحدها فإن انضمام غیر أهل اللسان الیهم لا ینفع فی معارضه البلاغه شیئا و قد اعتنت الآیه باجتماع الثقلین و إعانه بعضهم لبعض.

علی أن الآیه ظاهره فی دوام التحدی و قد انقرضت العرب العرباء أعلام الفصاحه و البلاغه الیوم فلا أثر منهم،و القرآن باق علی إعجازه متحد بنفسه کما کان.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰا لِلنّٰاسِ فِی هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ فَأَبیٰ أَکْثَرُ النّٰاسِ إِلاّٰ کُفُوراً تصریف الأمثال ردها و تکرارها و تحویلها من بیان الی بیان و من اسلوب الی اسلوب،و المثل هو وصف المقصود بما یمثله و یقربه من ذهن السامع،و «مِنْ» فی قوله: «مِنْ کُلِّ مَثَلٍ» لابتداء الغایه،و المراد من کل مثل یوضح لهم سبیل الحق و یمهد لهم طریق الإیمان و الشکر بقرینه قوله: «فَأَبیٰ أَکْثَرُ النّٰاسِ إِلاّٰ کُفُوراً» و الکلام مسوق للتوبیخ و الملامه.

و فی قوله: «أَکْثَرُ النّٰاسِ» وضع الظاهر موضع المضمر و الأصل أکثرهم و لعل الوجه فیه الإشاره الی أن ذلک مقتضی کونهم ناسا کما مر فی قوله: وَ کٰانَ الْإِنْسٰانُ کَفُوراً (الإسراء/ ۶۷).

و المعنی:و اقسم لقد کررنا للناس فی هذا القرآن من کل مثل یوضح لهم الحق و یدعوهم الی الإیمان بنا و الشکر لنعمنا فأبی اکثر الناس إلا ان یکفروا و لا یشکروا.

قوله تعالی: وَ قٰالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّٰی تَفْجُرَ لَنٰا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً -الی

قوله- كِتٰاباً نَقْرَؤُهُ الفجر الفتح و الشق و كذلك التفجير إلا انه يفيد المبالغه و التكثير، و الينبوع العين التى لا ينضب ماؤها،و خلال الشىء وسطه و اثناؤه،و الكسف جمع كسفه كقطع جمع قطعه وزنا و معنى،و القبيل هو المقابله كالعشير و المعاشر،و الزخرف الذهب، و الرقى الصعود و الارتقاء.

و الآيات تحكى الآيات المعجزه التى اقترحتها قريش على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و علقوا ايمانهم به عليها مستهينه بالقرآن الذى هو معجزه خالده.

و المعنى «وَ قٰالُوا» اى قالت قريش: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ» يا محمد «حَتّٰى تَفْجُرَ» و تشق «لَنٰا مِنَ الْأَرْضِ» ارض مكه لقله مائها «يَنْبُوعاً» عينا لا ينضب ماؤها «أَوْ تَكُونَ» بالإعجاز لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهٰارَ اى تشقها او تجريها «خِلاٰلَهٰا» اى وسط تلك الجنه و اثناءها «تَفْجِيراً» «أَوْ تُسْقِطَ السَّمٰاءَ كَمٰا زَعَمْتَ» اى مماثلا لما زعمت يشيرون (1)به الى قوله تعالى: أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمٰاءِ (سبأ/٩) «عَلَيْنٰا كِسَفاً» و قطعا «أَوْ تَأْتِيَ بِاللّٰهِ وَ الْمَلاٰئِكَةِ قَبِيلاً» مقابلا نعاينهم و نشاهدهم «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ» و ذهب «أَوْ تَرْقىٰ» و تصعد «فِي السَّمٰاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ» و صعودك «حَتّٰى تُنَزِّلَ عَلَيْنٰا» منها «كِتٰاباً نَقْرَؤُهُ» و نتلوه.

قوله تعالى: قُلْ سُبْحٰانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاّٰ بَشَراً رَسُولاً فيه امره صلّى اللّه عليه و آله و سلم ان يجيب عما اقترحوه عليه و ينبههم على جهلهم و مكابرتهم فيما لا يخفى على ذى نظر فإنهم سألوه امورا عظاما لا يقوى على اكثرها إلا القدره الغيبيه الإلهيه و فيها ما هو مستحيل بالذات كالإتيان باللّه و الملائكه قبيلا،و لم يرضوا بهذا المقدار و لم يقنعوا به دون ان جعلوه هو المسئول المتصدى لذلك المجيب لما سألوه فلم يقولوا لن نؤمن لك حتى تسأل ربك ان يفعل كذا و كذا بل

١- ١) .فالآيه لا تخلو من دلاله على تقدم سوره سبأ على هذه السوره نزولا.

قالوا: «لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّٰی تَفْجُرَ» الخ؛ «أَوْ تَکُونَ لَکَ» الخ؛ «أَوْ تُسْقِطَ السَّمٰاءَ» الخ؛ «أَوْ تَأْتِیَ بِاللّٰهِ» الخ؛ «أَوْ یَکُونَ لَکَ» الخ؛ «أَوْ تَرْقیٰ فِی السَّمٰاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتّٰی تُنَزِّلَ عَلَیْنٰا کِتٰاباً نَقْرَؤُهُ» .

قوله تعالی: وَ مٰا مَنَعَ النّٰاسَ أَنْ یُؤْمِنُوا إِذْ جٰاءَهُمُ الْهُدیٰ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا أَ بَعَثَ اللّٰهُ بَشَراً رَسُولاً الاستفهام فی قوله: «أَ بَعَثَ اللّٰهُ بَشَراً رَسُولاً» للانکار،و جمله «قٰالُوا أَ بَعَثَ اللّٰهُ» الخ؛حکایه حالهم بحسب الاعتقاد و ان لم یتکلموا بهذه الکلمه بعینها.

و انکار النبوه و الرساله من اثبات الإله من عقائد الوثنیه،و هذه قرینه علی أن المراد بالناس الوثنیون،و المراد بالإیمان الذی منعوه هو الإیمان بالرسول.

فمعنی الآیه و ما منع الوثنیین-و کانت قریش و عامه العرب یومئذ منهم-أن یؤمنوا بالرساله-أو برسالتک-إلا إنکارهم لرساله البشر،و لذلک کانوا یردون علی رسلهم دعوتهم -کما حکاه اللّه-بمثل قولهم: لَوْ شٰاءَ رَبُّنٰا لَأَنْزَلَ مَلاٰئِکَهً فَإِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ کٰافِرُونَ (حم السجده۱۴/).

قوله تعالی: قُلْ لَوْ کٰانَ فِی الْأَرْضِ مَلاٰئِکَهٌ یَمْشُونَ مُطْمَئِنِّینَ لَنَزَّلْنٰا عَلَیْهِمْ مِنَ السَّمٰاءِ مَلَکاً رَسُولاً أمر سبحانه رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یرد علیهم قولهم و إنکارهم لرساله البشر و نزول الوحی بأن العنایه الإلهیه قد تعلقت بهدایه أهل الأرض و لا یکون ذلک إلا بوحی سماوی لا من عند أنفسهم فالبشر القاطنون فی الأرض لا غنی لهم عن وحی سماوی بنزول ملک رسول إلیهم و یختص بذلک نبیهم.

و هذه خاصه الحیاه الأرضیه و العیشه المادیه المفتقره الی هدایه إلهیه لا سبیل إلیها إلا بنزول الوحی من السماء حتی لو أن طائفه من الملائکه سکنوا الأرض و أخذوا یعیشون عیشه أرضیه مادیه لنزلنا علیهم من السماء ملکا رسولا کما نزل علی البشر ملکا رسولا.

و العنایه فی الآیه الکریمه-کما تری-متعلقه بجهتین إحداهما کون الحیاه أرضیه مادیه،

ص :۷۶۱

و الاخری کون الهدایه الواجبه بالعنایه الإلهیه بوحی نازل من السماء برساله ملک من الملائکه.

و الأـمر علی ذلـک،فهاتـان الجهتـان أعنی کون حیاه النوع أرضـیه مادیه و وجوب هـدایتهم بواسـطه سـماویه و ملک علوی هما المقدمتان الأصلیتان فی البرهان علی وجود الرساله و لزومها (۱).

و الآـیه بمـا تعطی من معنی الرساله یؤیـد ما ورد عن أئمه أهل البیت علیهم السّـلام فی الفرق بین الرسول و النبی أن الرسول هو الـذی یری الملـک و یسـمع منه،و النبی یری المنام و لا یعاین،و قـد أوردنا بعض هـذه الأخبار فی خلال أبحاث النبوه فی الجزء الثانی من الکتاب.

و من ألطف التعبیر فی الآیه و أوجزه تعبیره عن الحیاه الأرضـیه بقوله: «فِی الْأَرْضِ مَلاٰئِکَهٌ یَمْشُونَ مُطْمَئِنِّینَ» فإن الانتقال المکانی علی الأرض مع الوقوع تحت الجاذبه الأرضیه من أوضح خواص الحیاه المادیه الأرضیه.

قوله تعـالی: قُـلْ کَفیٰ بِـاللّٰهِ شَـهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ إِنَّهُ کٰانَ بِعِبٰادِهِ خَبِیراً بَصِـیراً لما احتـج علیهم بما احتـج و بین لهم ما بین فی أمر معجزه رسـالته و هی القرآن الـذی تحـدی به و هم علی عنـادهم و جحودهم و عنتهم لاـ یعتنون به و یقترحون علیه بأمور جزافیه اخری و لاـ یحترمون لحق و لاـ ینقطعون عن باطـل أمر أن یرجع الأـمر الی شـهاده اللّٰه فهو شـهید بما وقع منه و منهم فقـد بلغ ما ارسل به و دعا و احتج و أعذر و قد سمعوا و تمت علیهم الحجه و استکبروا و عتوا فالکلام فی معنی اعلام قطع المحاجه و ترک المخاصمه و رد الأمر الی مالک الامر فلیقض ما هو قاض.

۱- ۱) .الاسراء ۸۲-۱۰۰:بحث فی وجوب کون الرسول من جنس المرسل الیهم و من انفسهم کالانسان و الملک للملک.

و هـذه الآيه و الآيتان قبلها مسجعه بقوله: «رَسُولاً» و هو المورد الوحيد فى القرآن الذى اتفقت فيه ثلاث آيات متواليه فى سجع واحد على ما نذكر.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيٰاءَ مِنْ دُونِهِ الخ؛هو-على ما يشعر به السياق-من تتمه الخطاب الأخير للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بقوله:

«قُلْ كَفىٰ بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ» فهو كنايه عن أنه تمت عليهم الحجه و حقت عليهم الضلاله فلا مطمع فى هدايتهم.

و محصل المعنى:خاطبهم باعلام قطع المحاجه فإن الهدايه للّه لا يشاركه فيها أحد فمن هداه فهو المهتدى لا غير و من أضله و لم يهده فلن تجد يا محمد له أولياء من دونه يهدونه و اللّه لا يهدى هؤلاء فانقطع عنهم و لا تكلف نفسك فى دعوتهم رجاء أن يؤمنوا.

قوله: وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ الى آخر الآيتين؛العمى و البكم و الصم جمع أعمى و أبكم و أصم،و خبوّ النار و خبوها سكون لهبها،و السعير لهب النار،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ قٰادِرٌ عَلىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ الى آخر الآيه؛الكفور الجحود،احتجاج منه تعالى على البعث بعد الموت فقد كان قولهم: أَ إِذٰا كُنّٰا عِظٰاماً وَ رُفٰاتاً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً استبعادا مبنيا على إحاله أن يعود هذا البدن الدنيوى بعد تلاشيه و صيرورته عظاما و رفاتا الى ما كان عليه بخلق جديد فاحتج عليهم بأن خلق البدن أولا يثبت القدره عليه و على مثله الذى هو الخلق الجديد للبعث فحكم الأمثال واحد.

و قوله: وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاٰ رَيْبَ فِيهِ الظاهر أن المراد بالأجل هو زمان الموت فإن الأجل إما مجموع مده الحياه الدنيا و هى محدوده بالموت و إما آخر زمان الحياه و يقارنه الموت و كيف كان فالتذكير بالموت الذى لا ريب فيه ليعتبروا به و يكفوا عن الجرأه على اللّه

و تکذیب آیاته فهو قادر علی بعثهم و الانتقام منهم بما صنعوا.

فقوله: «وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاٰ رَیْبَ فِیهِ» ناظر الی قوله فی صدر الآیه السابقه: ذٰلِکَ جَزٰاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ کَفَرُوا بِآیٰاتِنٰا فهو نظیر قوله: وَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَعْلَمُونَ -الی أن قال- أَ وَ لَمْ یَنْظُرُوا فِی مَلَکُوتِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ -الی أن قال- وَ أَنْ عَسیٰ أَنْ یَکُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَیِّ حَدِیثٍ بَعْدَهُ یُؤْمِنُونَ (الأعراف/۱۸۵).

قوله تعالی: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِکُونَ خَزٰائِنَ رَحْمَهِ رَبِّی إِذاً لَأَمْسَکْتُمْ خَشْیَهَ الْإِنْفٰاقِ وَ کٰانَ الْإِنْسٰانُ قَتُوراً فسر القتول بالبخیل المبالغ فی الامساک و قال فی المجمع:

القتر التضییق و القتور فعول منه للمبالغه،و یقال:قتر یقتر و تقتر و أقتر و قتّر إذا قدّر فی النفقه.انتهی.

و هذا توبیخ لهم علی منعهم رساله البشر المنقول عنهم سابقا بقوله: وَ مٰا مَنَعَ النّٰاسَ أَنْ یُؤْمِنُوا إِذْ جٰاءَهُمُ الْهُدیٰ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا أَ بَعَثَ اللّٰهُ بَشَراً رَسُولاً و معنی الآیه ظاهر (۱).

[سوره الإسراء (۱۷): الآیات ۱۰۱ الی ۱۱۱]

اشاره

وَ لَقَدْ آتَیْنٰا مُوسیٰ تِسْعَ آیٰاتٍ بَیِّنٰاتٍ فَسْئَلْ بَنِی إِسْرٰائِیلَ إِذْ جٰاءَهُمْ فَقٰالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّی لَأَظُنُّکَ یٰا مُوسیٰ مَسْحُوراً (۱۰۱) قٰالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا أَنْزَلَ هٰؤُلاٰءِ إِلاّٰ رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ بَصٰائِرَ وَ إِنِّی لَأَظُنُّکَ یٰا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (۱۰۲) فَأَرٰادَ أَنْ یَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ اَلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنٰاهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِیعاً (۱۰۳) وَ قُلْنٰا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِی إِسْرٰائِیلَ اُسْکُنُوا اَلْأَرْضَ فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ اَلْآخِرَهِ جِئْنٰا بِکُمْ لَفِیفاً (۱۰۴) وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنٰاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ إِلاّٰ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً (۱۰۵) وَ قُرْآناً فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی اَلنّٰاسِ عَلیٰ مُکْثٍ وَ نَزَّلْنٰاهُ تَنْزِیلاً (۱۰۶) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاٰ تُؤْمِنُوا إِنَّ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذٰا یُتْلیٰ عَلَیْهِمْ یَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ سُجَّداً (۱۰۷) وَ یَقُولُونَ سُبْحٰانَ رَبِّنٰا إِنْ کٰانَ وَعْدُ رَبِّنٰا لَمَفْعُولاً (۱۰۸) وَ یَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ یَبْکُونَ وَ یَزِیدُهُمْ خُشُوعاً (۱۰۹) قُلِ اُدْعُوا اَللّٰهَ أَوِ اُدْعُوا اَلرَّحْمٰنَ أَیًّا مٰا تَدْعُوا فَلَهُ اَلْأَسْمٰاءُ اَلْحُسْنیٰ وَ لاٰ تَجْهَرْ بِصَلاٰتِکَ وَ لاٰ تُخٰافِتْ بِهٰا وَ اِبْتَغِ بَیْنَ ذٰلِکَ سَبِیلاً (۱۱۰) وَ قُلِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِی لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی اَلْمُلْکِ وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ وَلِیٌّ مِنَ اَلذُّلِّ وَ کَبِّرْهُ تَکْبِیراً (۱۱۱)

۱- ۱) .الإسراء ۸۲-۱۰۰:بحث روائی فی الروح.

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسیٰ تِسْعَ آیاتٍ بَیِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِی إِسْرائِیلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّی لَأَظُنُّکَ یا مُوسیٰ مَسْحُوراً الذی اوتی موسی علیه السّلام من الآیات علی ما یقصه القرآن أکثر من تسع غیر أن الآیات التی أتی بها لدعوه فرعون فیما یذکره القرآن تسع و هی:العصا و الید و الطوفان و الجراد و القمل و الضفدع و الدم و السنون و نقص من الثمرات فالظاهر أنها هی المراده بالآیات التسع المذکوره فی الآیه و خاصه مع ما فیها من محکی قول موسی لفرعون: لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هٰؤُلاءِ إِلاّ رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ و أما غیر هذه الآیات کالبحر و الحجر و إحیاء المقتول بالبقره و إحیاء من أخذته

الصاعقه من قومه و نتق الجبل فوقهم و غير ذلک فهی خارجه عن هذه التسع المذکوره فی الآیه.

و لا ینافی ذلک کون الآیات إنما ظهرت تدریجا فإن هذه المحاوره مستخرج من مجموع ما تخاصم به موسی و فرعون طول دعوته.

و لعل مخالفه التوراه لظاهر القرآن فی الآیات التسع هی الموجبه لترک تفصیل الآیات التسع فی الآیه لیستقیم الأمر بالسؤال من الیهود لأنهم مع صریح المخالفه لم یکونوا لیصدقوا القرآن بل کانوا یبادرون الی التکذیب قبل التصدیق.

قوله تعالی: إِنِّی لَأَظُنُّکَ یا مُوسی مَسْحُوراً أی سحرت فاختل عقلک و هذا فی معنی قوله المنقول فی موضع آخر: إِنَّ رَسُولَکُمُ الَّذِی أُرْسِلَ إِلَیْکُمْ لَمَجْنُونٌ (الشعراء ۲۷/)و قیل:المراد بالمسحور الساحر نظیر المیمون و المشؤم بمعنی الیامن و الشائم و أصله استعمال وزن الفاعل فی النسبه و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالی: قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاّ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ وَ إِنِّی لَأَظُنُّکَ یا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً المثبور الهالک و هو من الثبور بمعنی الهلاک، و المعنی قال موسی مخاطبا لفرعون:لقد علمت یا فرعون ما أنزل هؤلاء الآیات البینات إلا رب السموات و الأرض أنزلها بصائر یتبصر بها لیتمیز الحق من الباطل و إنی لأظنک یا فرعون هالکا بالأخره لعنادک و جحودک.

و إنما أخذ الظن دون الیقین لأن الحکم للّه و لیوافق ما فی کلام فرعون: «إِنِّی لَأَظُنُّکَ یا مُوسی» الخ؛و من الظن ما یستعمل فی مورد الیقین.

قوله تعالی: فَأَرادَ أَنْ یَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِیعاً الاستفزاز الازعاج و الإخراج بعنف،و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالی: وَ قُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِی إِسْرائِیلَ اسْکُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ

الْآخِرَهِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً المراد بالأرض التی أمروا أن یسکنوها هی الأرض المقدسه التی کتبها اللّه لهم بشهاده قوله: اُدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَهَ الَّتِی کَتَبَ اللّٰهُ لَکُمْ (المائده۲۱/)، و غیر ذلک کما أن المراد بالأرض فی الآیه السابقه مطلق الأرض أو أرض مصر بشهاده السیاق.

و قوله: فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ الْآخِرَهِ أی وعد الکره الآخره أو الحیاه الآخره و المراد به علی ما ذکره المفسرون یوم القیامه،و قوله: «جِئْنٰا بِکُمْ لَفِیفاً» أی مجموعا ملفوفا بعضکم ببعض.

و المعنی:و قلنا من بعد فرعون لبنی إسرائیل اسکنوا الأرض المقدسه-و کان فرعون یرید أن یستفزهم من الأرض-فاذا کان یوم القیامه جئنا بکم ملتفین مجتمعین للحساب و فصل القضاء.

و لیس ببعید أن یکون المراد بوعد الآخره ما ذکره اللّه سبحانه فی أول السوره فیما قضی الی بنی إسرائیل بقوله: فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ الْآخِرَهِ لِیَسُوؤُا وُجُوهَکُمْ وَ لِیَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ کَمٰا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ لِیُتَبِّرُوا مٰا عَلَوْا تَتْبِیراً .

قوله تعالی: وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنٰاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ إِلاّٰ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً لما فرغ من التنظیر رجع الی ما کان علیه من بیان حال القرآن و ذکر أوصافه فذکر أنه أنزله انزالا مصاحبا للحق و قد نزل هو من عنده نزولا مصاحبا للحق فهو مصون من الباطل من جهه من أنزله فلیس من لغو القول و هذره و لا داخله شیء یمکن أن یفسده یوما و لا شارکه فیه أحد حتی ینسخه فی قوت من الأوقات و لیس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم الا رسولا منه تعالی یبشر به و ینذر و لیس له أن یتصرف فیه بزیاده أو نقیصه أو یترکه کلا أو بعضا باقتراح من الناس أو هوی من نفسه أو یعرض عنه فیسأل اللّه آیه أخری فیها هواه أو هوی الناس أو یداهنهم فیه أو یسامحهم فی شیء من معارف و أحکامه کل ذلک لأنه حق صادر عن مصدر

حق،و ما ذا بعد الحق الا الضلال.

فقوله: وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ الخ؛متمم للکلام السابق،و محصله أن القرآن آیه حقه لیس لأحد أن یتصرف فیه شیئا من التصرف و النبی و غیر فی ذلک سواء.

قوله تعالی: وَ قُرْآناً فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النّٰاسِ عَلیٰ مُکْثٍ وَ نَزَّلْنٰاهُ تَنْزِیلاً معطوف علی ما قبله أی أنزلناه بالحق و فرقناه قرآنا،قال فی المجمع:معنی فرقناه فصلناه و نزلناه آیه آیه و سوره سوره و یدل علیه قوله: «عَلیٰ مُکْثٍ» و المکث-بضم المیم-و المکث -بفتحها-لغتان.انتهی.

فاللفظ بحسب نفسه یعم نزول المعارف القرآنیه التی هی عند اللّه فی قالب الألفاظ و العبارات التی لا تتلقی الا بالتدریج و لا تتعاطی الا بالمکث و التؤده لیسهل علی الناس تعقله و حفظه علی حد قوله: إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتٰابِ لَدَیْنٰا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ (الزخرف۴/).

قوله تعالی: قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاٰ تُؤْمِنُوا الی آخر الآیات الثلاث،و المراد بالذین اوتوا العلم من قبله هم الذین تحققوا بالعلم باللّه و آیاته من قبل نزول القرآن سواء کانوا من الیهود او النصاری أو غیرهم فلا موجب للتخصیص اللهم الا ان یقال:ان السیاق یفید کون هؤلاء من اهل الحق و الدین غیر المنسوخ یومئذ هو دین المسیح علیه السّلام فهم أهل الحق من علماء النصرانیه الذین لم یزیغوا و لم یبدلوا.

و علی أی حال المراد من کونهم اوتوا العلم من قبله أنهم استعدوا لفهم کلمه الحق و قبولها لتجهزهم بالعلم بحقیقه معناه و ایراثه ایاهم وصف الخشوع فیزیدهم القرآن المتلو علیهم خشوعا.

و قوله: یَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ سُجَّداً الأذقان جمع ذقن و هو مجمع اللحیین من الوجه، و الخرور للأذقان السوق علی الأرض علی أذقانهم للسجده کما یبینه قوله: «سُجَّداً» و انما

اعتبرت الأذقان لأن الذقن أقرب أجزاء الوجه من الأرض عند الخرور عليها للسجده،و ربما قيل:المراد بالأذقان الوجوه اطلاقا للجزء على الكل مجازا.

و قوله: وَ يَقُولُونَ سُبْحٰانَ رَبِّنٰا إِنْ كٰانَ وَعْدُ رَبِّنٰا لَمَفْعُولاً اى ينزهونه تعالى عن كل نقص و عن خلف الوعد خاصه و يعطى سياق الآيات السابقه أن المراد بالوعد وعده سبحانه بالبعث و هذا فى قبال اصرار المشركين على نفى البعث و انكار المعاد كما تكرر فى الآيات السابقه.

و قوله: وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ يَبْكُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعاً تكرار الخرور للأذقان و اضافته الى البكاء لإفاده معنى الخضوع و هو التذلل الذى يكون بالبدن كما أن الجمله الثانيه لإفاده معنى الخشوع و هو التذلل الذى يكون بالقلب فمحصل الآيه أنهم يخضعون و يخشعون.

قوله تعالى: قُلِ ادْعُوا اللّٰهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّا مٰا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ لفظه أو للتسويه و الإباحه فالمراد بقوله: «اللّٰهَ» و «الرَّحْمٰنَ» الاسمان الدالان على المسمى دون المسمى،و المعنى ادعوا باسم اللّه أو باسم الرحمن فالدعاء دعاؤه.

و قوله: «أَيًّا مٰا تَدْعُوا» شرط و «مٰا» صله للتأكيد نظير قوله: فَبِمٰا رَحْمَةٍ مِنَ اللّٰهِ (آل عمران/١٥٩).و قوله: عَمّٰا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نٰادِمِينَ (المؤمنون/٤٠)و «أَيًّا» شرطيه و هى مفعول «تَدْعُوا» .

و قوله: فَلَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ جواب الشرط،و هو من وضع السبب موضع المسبب و المعنى أى اسم من الاسمين تدعوه فهو اسم أحسن له لأن الأسماء الحسنى كلها له فالاسماء الداله على المسميات منها حسنه تدل على ما فيه حسن و منها قبيحه بخلافها و لا سبيل للقبيح اليه تعالى،و الأسماء الحسنه منها ما هو أحسن لا شوب نقص و قبح فيه كالغنى الذى لا فقر معه و الحياه التى لا موت معها و العزه التى لا ذله دونها و منها ما هو حسن يغلب عليه الحسن من غير محوضه و للّه سبحانه الأسماء الحسنى،و هى كل اسم هو أحسن الاسماء فى

معناه كما يدل عليه قول أئمه الدين:ان اللّه تعالى غنى لا كالاغنياء،حى لا كالاحياء،عزيز لا كالأعزه،عليم لا كالعلماء و هكذا أى له من كل كمال صرفه و محضه الذى لا يشوبه خلافه.

و الضمير فى قوله: «أَيًّا مّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى» عائد الى الذات المتعاليه من كل اسم و رسم،و ليس براجع الى شىء من الاسمين:اللّه و الرحمن لأن المراد بهما-كما تقدم-الاسمان دون الذات المتعاليه التى هى مسماه بهما و لا معنى لأن يقال:أيا من الاسمين تدعوا فان ذلک الاسم جميع الأسماء الحسنى أو باقى الاسماء الحسنى بل المعنى أيا من اسمائه تدعوا فلا مانع منه لانها جميعا أسماؤه لانها اسماء حسنى و له الأسماء الحسنى فهى طرق دعوته و دعوتها دعوته فإنها اسماؤه و الاسم مرآه المسمى و عنوانه فافهم ذلک.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَجْهَرْ بِصَلاٰتِکَ وَ لاٰ تُخٰافِتْ بِهٰا وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذٰلِکَ سَبِيلاً الجهر و الإخفات وصفان متضائفان،يتصف بهما الأصوات،و ربما يعتبر بينهما خصله ثالثه هى بالنسبه الى الجهر إخفات و بالنسبه الى الإخفات جهر فيكون الجهر هو المبالغه فى رفع الصوت،و الإخفات هو المبالغه فى خفضه و ما بينهما هو الاعتدال فيكون معنى الآيه لا تبالغ فى صلاتک فى الجهر و لا فى الإخفات بل اسلك فيما بينهما سبيلا و هو الاعتدال و تسميته سبيلا لأنه سنه يستن بها هو و من يقتدى به من امته المؤمنين به.

هذا لو كان المراد بالصلاه فى قوله: «بِصَلاٰتِکَ» للاستغراق و المراد به كل صلاه صلاه، و أما لو اريد المجموع و لعله الأظهر كان المعنى لا تجهر فى صلواتک كلها و لا تخافت فيها كلها بل اتخذ سبيلا وسطا تجهر فى بعض و تخافت فى بعض،و هذا المعنى أنسب بالنظر الى ما ثبت فى السنه من الجهر فى بعض الفرائض اليوميه كالصبح و المغرب و العشاء و الإخفات فى غيرها.

و لعل هذا الوجه أوفق بالنظر الى اتصال ذيل الآيه بصدرها فالجهر بالصلاه يناسب كونه تعالى عليا متعاليا و الإخفات يناسب كونه قريبا أقرب من حبل الوريد فاتخاذ الخصلتين

جميعا فی الصلوات أداء لحق أسمائه جميعا.

قوله تعالی: وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِی لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی الْمُلْکِ وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ وَلِیٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ کَبِّرْهُ تَکْبِیراً معطوف علی قوله فی الآیه السابقه: «قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ» و یرجع محصل الکلام الی أن قل إن ما تدعونها من الأسماء و تزعمون أنها آلهه معبودون غیره إنما هی أسماؤه و هی مملوکه له لا تملک أنفسها و لا شیئا لأنفسها فدعاؤها دعاؤه فهو المعبود علی کل حال.

و ختم سبحانه الآیه بقوله: «وَ کَبِّرْهُ تَکْبِیراً» و قد اطلق إطلاقا بعد التوصیف و التنزیه فهو تکبیره من کل وصف،و لذا فسر«الله أکبر»بأنه أکبر من أن یوصف علی ما ورد عن الصادق علیه السّلام،و لو کان المعنی أنه أکبر من کل شیء لم یخل من إشراک الأشیاء به تعالی فی معنی الکبر و هو أعز ساحه أن یشارکه شیء فی أمر.

و من لطیف الصنعه فی السوره افتتاح أول آیه منها بالتسبیح و اختتام آخر آیه منها بالتکبیر مع افتتاحها بالتحمید (۱)(۲).

ص: ۷۷۱

۱- ۱) .الاسراء ۱۰۱-۱۱۱:بحث روائی فی اسماء اللّه الحسنی.
۲- ۲) .الاسراء ۱۰۱-۱۱۱:بحث روائی و قرآنی حول قوله تعالی: «وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النّاسِ عَلی مُکْثٍ».

الجزء الرابع

اشاره

ص :١

سوره الکهف مکیه و هی مائه و عشر آیات

اشاره

[سوره الكهف (١٨): الآيات ١ الى ٨]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِي أَنْزَلَ عَلىٰ عَبْدِهِ اَلْكِتٰابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (١) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ اَلْمُؤْمِنِينَ اَلَّذِينَ يَعْمَلُونَ اَلصّٰالِحٰاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (٢) مٰاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً (٣) وَ يُنْذِرَ اَلَّذِينَ قٰالُوا اِتَّخَذَ اَللّٰهُ وَلَداً (۴) مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لاٰ لِآبٰائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوٰاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاّٰ كَذِباً (۵) فَلَعَلَّكَ بٰاخِعٌ نَفْسَكَ عَلىٰ آثٰارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا اَلْحَدِيثِ أَسَفاً (۶) إِنّٰا جَعَلْنٰا مٰا عَلَى اَلْأَرْضِ زِينَةً لَهٰا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَ إِنّٰا لَجٰاعِلُونَ مٰا عَلَيْهٰا صَعِيداً جُرُزاً (٨)

ص: ٧

بیان:

السوره تتضمن الدعوه الی الاعتقاد الحق و العمل الصالح بالإنذار و التبشیر کما یلوح الیه ما افتتحت به من الآیتین و ما اختتمت به من قوله تعالی: فَمَنْ کٰانَ یَرْجُوا لِقٰاءَ رَبِّهِ فَلْیَعْمَلْ عَمَلاً صٰالِحاً وَ لاٰ یُشْرِکْ بِعِبٰادَهِ رَبِّهِ أَحَداً .

و فیها مع ذلک عنایه بالغه بنفی الولد کما یدل علی ذلک تخصیص إنذار القائلین بالولد بالذکر ثانیا بعد ذکر مطلق الإنذار أولا أعنی وقوع قوله: «وَ یُنْذِرَ الَّذِینَ قٰالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً» بعد قوله: «لِیُنْذِرَ بَأْساً شَدِیداً مِنْ لَدُنْهُ» .

فوجه الکلام فیها الی الوثنیین القائلین ببنوه الملائکه و الجن و المصلحین من البشر و النصاری القائلین ببنوه المسیح علیه السّلام و لعل الیهود یشارکونهم فیه حیث یذکر القرآن عنهم أنهم قالوا:عزیر ابن اللّه.

و غیر بعید أن یقال إن الغرض من نزول السوره ذکر القصص الثلاث العجیبه التی لم تذکر فی القرآن الکریم إلا فی هذه السوره و هی قصه أصحاب الکهف و قصه موسی و فتاه فی مسیرهما الی مجمع البحرین و قصه ذی القرنین ثم استفید منها ما استفرغ فی السوره من الکلام فی نفی الشریک و الحث علی تقوی اللّه سبحانه.

و السوره مکیه علی ما یستفاد من سیاق آیاتها و قد استثنی منها قوله: «وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ» الآیه؛و سیجیء ما فیه من الکلام.

قوله تعالی: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی أَنْزَلَ عَلیٰ عَبْدِهِ الْکِتٰابَ وَ لَمْ یَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَیِّماً العوج بفتح العین و کسرها الانحراف،قال فی المجمع:العوج بالفتح فیما یری

ص :٨

كالقناه و الخشبه و بالكسر فيما لا يرى شخصا قائما كالدين و الكلام.انتهى.

و لعل المراد بما يرى و ما لا يرى ما يسهل رؤيته و ما يشكل كما ذكره الراغب فى المفردات بقوله:العوج-بالفتح-يقال فيما يدرك بالبصر سهلا كالخشب المنتصب و نحوه و العوج -بالكسر-يقال فيما يدرك بالفكر و البصيره كما يكون فى أرض بسيط يعرف تفاوته بالبصيره و كالدين و المعاش انتهى.فلا يرد عليه ما فى قوله تعالى: لاٰ تَرىٰ فِيهٰا عِوَجاً -بكسر العين- وَ لاٰ أَمْتاً (طه١٠٧/)فافهم.

و قوله: وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً الضمير للكتاب و الجمله حال عن الكتاب و قوله:

«قَيِّماً» حال بعد حال على ما يفيده السياق فإنه تعالى فى مقام حمد نفسه من جهه تنزيله كتابا موصوفا بأنه لا عوج له و أنه قيم على مصالح المجتمع البشرى فالعنايه متعلقه بالوصفين موزعه بينهما على السواء و هو مفاد كونهما حالين من الكتاب.

و وقوع «عِوَجاً» و هو نكره فى سياق النفى يفيد العموم فالقرآن مستقيم فى جميع جهاته فصيح فى لفظه،بليغ فى معناه،مصيب فى هدايته،حى فى حججه و براهينه،ناصح فى أمره و نهيه،صادق فيما يقصه من قصصه و أخباره،اصل فيما يقضى به،محفوظ من مخالطه الشياطين،لا اختلاف فيه،و لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه.

و القيم هو الذى يقوم بمصلحه الشىء و تدبير أمره كقيم الدار و هو القائم بمصالحها و يرجع اليه فى امورها،و الكتاب إنما يكون قيما بما يشتمل عليه من المعانى،و الذى يتضمنه القرآن هو الاعتقاد الحق و العمل الصالح كما قال تعالى: يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (الأحقاف٣٠/)،و هذا هو الدين و قد وصف تعالى دينه فى مواضع من كتابه بأنه قيم قال:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ (الروم۴٣/)و على هذا فتوصيف الكتاب بالقيم لما يتضمنه من الدين القيم على مصالح العالم الإنسانى فى دنياهم و اخراهم.

قوله تعالى: لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

الصّالِحاتِ الآيه؛أى لينذر الكافرين عذابا شديدا صادرا من عند اللّه كذا قيل و الظاهر بقرينه تقييد المؤمنين المبشرين بقوله: «الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحاتِ» أن التقدير لينذر الذين لا يعملون الصالحات أعم ممن لا يؤمن أصلا أو يؤمن و يفسق فى عمله.

و الجمله على أى حال بيان لتنزيله الكتاب على عبده مستقيما قيما إذ لو لا استقامته فى نفسه و قيمومته على غيره لم يستقيم إنذار و لا تبشير و هو ظاهر.

و المراد بالأجر الحسن الجنه بقرينه قوله فى الآيه التاليه: «ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً و هم عامه الوثنيين القائلين بأن الملائكه أبناء أو بنات له و ربما قالوا بذلك فى الجن و المصلحين من البشر و النصارى القائلين بأن المسيح ابن اللّه و قد نسب القرآن إلى اليهود أنهم قالوا:عزير ابن اللّه.

و ذكر إنذارهم خاصه ثانيا بعد ذكره على وجه العموم أولا بقوله: «لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ» لمزيد الاهتمام بشأنهم.

قوله تعالى: ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ كانت عامتهم يريدون بقولهم:اتخذ اللّه ولدا حقيقه التوليد كما يدل عليه قوله تعالى: أَنّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ (الأنعام۱۰۱/).

و قد رد سبحانه قولهم عليهم أولا بأنه قول منهم جهلا بغير علم و ثانيا بقوله فى آخر الآيه: «إِنْ يَقُولُونَ إِلاّ كَذِباً» .

و كان قوله: «ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ» شاملا لهم جميعا من آباء و أبناء لكنهم لما كانوا يحيلون العلم به الى آبائهم قائلين إن هذه مله آبائنا و هم أعلم منا و ليس لنا إلا أن نتبعهم و نقتدى بهم فرق تعالى بينهم و بين آبائهم فنفى العلم عنهم أولا و عن آبائهم الذين كانوا يركنون اليهم ثانيا ليكون إبطالا لقولهم و لحجتهم جميعا.

و قوله: «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ» ذم لهم و إعظام لقولهم:اتخذ اللّه ولدا لما فيه من

عظیم الاجتراء علی اللّه سبحانه بنسبه الشریک و التجسم و الترکب و الحاجه الی المعین و الخلیفه الیه،تعالی عن ذلک علوا کبیرا.

قوله تعالی: فَلَعَلَّکَ بٰاخِعٌ نَفْسَکَ عَلیٰ آثٰارِهِمْ إِنْ لَمْ یُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِیثِ أَسَفاً البخوع و البخع القتل و الإهلاک و الآثار علائم أقدام الماره علی الأرض،و الأسف شده الحزن و المراد بهذا الحدیث القرآن.

و الآیه و اللتان بعدها فی مقام تعزیه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و تسلیته و تطییب نفسه و الفاء لتفریع الکلام علی کفرهم و جحدهم بآیات اللّه المفهوم من الآیات السابقه و المعنی یرجی منک أن تهلک نفسک بعد إعراضهم عن القرآن و انصرافهم عنک من شده الحزن،و قد دل علی إعراضهم و تولیهم بقوله:علی آثارهم و هو من الاستعاره.

قوله تعالی: إِنّٰا جَعَلْنٰا مٰا عَلَی الْأَرْضِ زِینَهً لَهٰا لِنَبْلُوَهُمْ أَیُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً الی آخر الآیتین.الزینه الأمر الجمیل الذی ینضم الی الشیء فیفیده جمالا یرغب الیه لأجله و الصعید ظهر الأرض و الجرز علی ما فی المجمع-الأرض التی لا تنبت کأنها تأکل النبت أکلا.

و قوله: مٰا عَلَیْهٰا من قبیل وضع الظاهر موضع المضمر و کان من طبع الکلام أن یقال:«و إنا لجاعلوه ،و لعل النکته مزید العنایه بوصف کونه علی الأرض.

[سوره الکهف (۱۸): الآیات ۹ الی ۲۶]

اشاره

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحٰابَ اَلْکَهْفِ وَ اَلرَّقِیمِ کٰانُوا مِنْ آیٰاتِنٰا عَجَباً (۹) إِذْ أَوَی اَلْفِتْیَهُ إِلَی اَلْکَهْفِ فَقٰالُوا رَبَّنٰا آتِنٰا مِنْ لَدُنْکَ رَحْمَهً وَ هَیِّئْ لَنٰا مِنْ أَمْرِنٰا رَشَداً (۱۰) فَضَرَبْنٰا عَلَی آذٰانِهِمْ فِی اَلْکَهْفِ سِنِینَ عَدَداً (۱۱) ثُمَّ بَعَثْنٰاهُمْ لِنَعْلَمَ أَیُّ اَلْحِزْبَیْنِ أَحْصیٰ لِمٰا لَبِثُوا أَمَداً (۱۲) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَیْکَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْیَهٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنٰاهُمْ هُدیً (۱۳) وَ رَبَطْنٰا عَلیٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قٰامُوا فَقٰالُوا رَبُّنٰا رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلٰهاً لَقَدْ قُلْنٰا إِذاً شَطَطاً (۱۴) هٰؤُلاٰءِ قَوْمُنَا اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَهً لَوْ لاٰ یَأْتُونَ عَلَیْهِمْ بِسُلْطٰانٍ بَیِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَریٰ عَلَی اَللّٰهِ کَذِباً (۱۵) وَ إِذِ اِعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ مٰا یَعْبُدُونَ إِلاَّ اَللّٰهَ فَأْوُوا إِلَی اَلْکَهْفِ یَنْشُرْ لَکُمْ رَبُّکُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ یُهَیِّئْ لَکُمْ مِنْ أَمْرِکُمْ مِرْفَقاً (۱۶)وَ تَرَی اَلشَّمْسَ إِذٰا طَلَعَتْ تَزٰاوَرُ عَنْ کَهْفِهِمْ ذٰاتَ اَلْیَمِینِ وَ إِذٰا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذٰاتَ اَلشِّمٰالِ وَ هُمْ فِی فَجْوَهٍ مِنْهُ ذٰلِکَ مِنْ آیٰاتِ اَللّٰهِ مَنْ یَهْدِ اَللّٰهُ فَهُوَ اَلْمُهْتَدِ وَ مَنْ یُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِیًّا مُرْشِداً (۱۷) وَ تَحْسَبُهُمْ أَیْقٰاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذٰاتَ اَلْیَمِینِ وَ ذٰاتَ اَلشِّمٰالِ وَ کَلْبُهُمْ بٰاسِطٌ ذِرٰاعَیْهِ بِالْوَصِیدِ لَوِ اِطَّلَعْتَ عَلَیْهِمْ لَوَلَّیْتَ مِنْهُمْ فِرٰاراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (۱۸) وَ کَذٰلِکَ بَعَثْنٰاهُمْ لِیَتَسٰاءَلُوا بَیْنَهُمْ قٰالَ قٰائِلٌ مِنْهُمْ کَمْ لَبِثْتُمْ قٰالُوا لَبِثْنٰا یَوْماً أَوْ بَعْضَ یَوْمٍ قٰالُوا رَبُّکُمْ أَعْلَمُ بِمٰا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَکُمْ بِوَرِقِکُمْ هٰذِهِ إِلَی اَلْمَدِینَهِ فَلْیَنْظُرْ أَیُّهٰا أَزْکیٰ طَعٰاماً فَلْیَأْتِکُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لْیَتَلَطَّفْ وَ لاٰ یُشْعِرَنَّ بِکُمْ أَحَداً (۱۹) إِنَّهُمْ إِنْ یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ یَرْجُمُوکُمْ أَوْ یُعِیدُوکُمْ فِی مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (۲۰) وَ کَذٰلِکَ أَعْثَرْنٰا عَلَیْهِمْ لِیَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ وَ أَنَّ اَلسّٰاعَهَ لاٰ رَیْبَ فِیهٰا إِذْ یَتَنٰازَعُونَ بَیْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقٰالُوا اِبْنُوا عَلَیْهِمْ بُنْیٰاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قٰالَ اَلَّذِینَ غَلَبُوا عَلیٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَیْهِمْ مَسْجِداً (۲۱) سَیَقُولُونَ ثَلاٰثَهٌ رٰابِعُهُمْ کَلْبُهُمْ وَ یَقُولُونَ خَمْسَهٌ سٰادِسُهُمْ کَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَیْبِ وَ یَقُولُونَ سَبْعَهٌ وَ ثٰامِنُهُمْ کَلْبُهُمْ قُلْ

رَبِّی أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا یَعْلَمُهُمْ إِلاّ قَلِیلٌ فَلاٰ تُمٰارِ فِیهِمْ إِلاّ مِرٰاءً ظٰاهِراً وَ لاٰ تَسْتَفْتِ فِیهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (٢٢) وَ لاٰ تَقُولَنَّ لِشَیْءٍ إِنِّی فٰاعِلٌ ذٰلِکَ غَداً (٢٣) إِلاّ أَنْ یَشٰاءَ اَللّٰهُ وَ اُذْکُرْ رَبَّکَ إِذٰا نَسِیتَ وَ قُلْ عَسیٰ أَنْ یَهْدِیَنِ رَبِّی لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذٰا رَشَداً (٢۴) وَ لَبِثُوا فِی کَهْفِهِمْ ثَلاٰثَ مِائَةٍ سِنِینَ وَ اِزْدَادُوا تِسْعاً (٢۵) قُلِ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا لَبِثُوا لَهُ غَیْبُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ مٰا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لاٰ یُشْرِکُ فِی حُکْمِهِ أَحَداً (٢۶)

بیان:

قوله تعالی: أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْکَهْفِ وَ الرَّقِیمِ کانُوا مِنْ آیاتِنا عَجَباً الحسبان هو الظن،و الکهف هو المغاره فی الجبل إلا أنه أوسع منها فإذا صغر سمی غارا،و الرقیم من الرقم و هو الکتابه و الخط فهو فی الأصل فعیل بمعنی المفعول کالجریح و القتیل بمعنی المجروح و المقتول،و العجب مصدر بمعنی التعجب ارید به معنی الوصف مبالغه.

و ظاهر سیاق القصه أن أصحاب الکهف و الرقیم جماعه بأعینهم و القصه قصتهم جمیعا فهم المسمون أصحاب الکهف و أصحاب الرقیم أما تسمیتهم أصحاب الکهف فلدخولهم الکهف و وقوع ما جری علیهم فیه.

و أما تسمیتهم أصحاب الرقیم فقد قیل:إن قصتهم کانت منقوشه فی لوح منصوب هناک أو محفوظ فی خزانه الملوک فبذلک سموا أصحاب الرقیم،و قیل:إن الرقیم اسم الجبل الذی فیه الکهف،او الوادی الذی فیه الجبل او البلد الذی خرجوا منه الی الکهف او الکلب الذی کان معهم أقوال خمسه،و سیأتی فی الکلام علی قصتهم ما یؤید القول الأول.

قوله تعالی: إِذْ أَوَی الْفِتْیَهُ إِلَی الْکَهْفِ الی آخر الآیه؛الاوی الرجوع و لا کل رجوع بل رجوع الإنسان أو الحیوان الی محل یستقر فیه أو لیستقر فیه و الفتیه جمع سماعی لفتی و الفتی الشاب و لا تخلو الکلمه من شائبه مدح.

و التهیئه الإعداد قال البیضاوی:و أصل التهیئه إحداث هیئه الشیء.انتهی و الرشد بفتحتین أو الضم فالسکون الاهتداء الی المطلوب،قال الراغب:الرشد و الرشد خلاف الغی یستعمل استعمال الهدایه.انتهی.

و قوله: فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْکَ رَحْمَهً تفریع لدعائهم علی أویهم کأنهم

اضطروا لفقد القوه و انقطاع الحيله الى المبادره الى المسأله،و يؤيده قولهم: «مِنْ لَدُنْكَ» فلولا أن المذاهب أعيتهم و الاسباب تقطعت بهم و اليأس أحاط بهم ما قيدوا الرحمه المسئوله أن تكون من لدنه تعالى بل قالوا:آتنا رحمه كقول غيرهم رَبَّنٰا آتِنٰا فِي الدُّنْيٰا حَسَنَةً (البقره ٢٠١) رَبَّنٰا وَ آتِنٰا مٰا وَعَدْتَنٰا عَلىٰ رُسُلِكَ (آل عمران/١٩۴)فالمراد بالرحمه المسئوله التأييد الإلهى إذ لا مؤيد غيره.

و يمكن أن يكون المراد بالرحمه المسئوله من لدنه بعض المواهب و النعم المختصه به تعالى كالهدايه التى يصرح فى مواضع من كلامه بأنها منه خاصه،و يشعر به التقييد بقوله:

«مِنْ لَدُنْكَ» ،و يؤيده ورود نظيره فى دعاء الراسخين فى العلم المنقول فى قوله: رَبَّنٰا لاٰ تُزِغْ قُلُوبَنٰا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنٰا وَ هَبْ لَنٰا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً (آل عمران/٨)فما سألوا إلا الهدايه.

و قوله: وَ هَيِّئْ لَنٰا مِنْ أَمْرِنٰا رَشَداً المراد من أمرهم الشأن الذى يخصهم و هم عليه و قد هربوا من قوم يتتبعون المؤمنين و يسفكون دماءهم و يكرهونهم على عباده غير اللّه، و التجئوا الى كهف و هم لا يدرون ما ذا سيجرى عليهم؟و لا يهتدون أى سبيل للنجاه يسلكون؟و من هنا يظهر أن المراد بالرشد الاهتداء الى ما فيه نجاتهم.

فالجمله أعنى قوله: «وَ هَيِّئْ لَنٰا مِنْ أَمْرِنٰا رَشَداً» على أول الاحتمالين السابقين فى معنى الرحمه عطف تفسير على قوله: «آتِنٰا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً» و على ثانيهما مسأله بعد مسأله.

قوله تعالى: فَضَرَبْنٰا عَلَى آذٰانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً قال فى الكشاف:

أى ضربنا عليها حجابا من أن تسمع يعنى أنمناهم إنامه ثقيله لا تنبهم فيها الاصوات كما ترى المستثقل فى نومه يصاح به فلا يسمع و لا يستنبه فحذف المفعول الذى هو الحجاب كما يقال:بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبه.انتهى.

و قال فى المجمع:و معنى ضربنا على آذانهم سلطنا عليهم النوم،و هو من الكلام البالغ فى

الفصاحه يقال:ضربه اللّه بالفالج إذا ابتلاه اللّه به،قال قطرب:هو كقول العرب:ضرب الأمير على يد فلان إذا منعه من التصرف،قال الأسود بن يعفر و قد كان ضريرا:

و من الحوادث لا أبا لك أننى

ضربت على الارض بالأسداد

و قال:هذا من فصيح لغات القرآن التى لا يمكن أن يترجم بمعنى يوافق اللفظ انتهى،و ما ذكره من المعنى أبلغ مما ذكره الزمخشرى.

و هنا معنى ثالث و إن لم يذكروه:و هو أن يكون إشاره الى ما تصنعه النساء عند إنامه الصبى غالبا من الضرب على اذنه بدق الاكف او الانامل عليها دقا نعيما لتتجمع حاسته عليه فيأخذه النوم بذلك فالجمله كنايه عن إنامتهم سنين معدوده بشفقه و حنان كما تفعل الام المرضع بطفلها الرضيع.

و قوله: «سِنِينَ عَدَداً» ظرف للضرب،و العدد مصدر كالعد بمعنى المعدود فالمعنى سنين معدوده،و قيل بحذف المضاف و التقدير ذوات عدد.

و قد قال فى الكشاف:إن توصيف السنين بالعدد يحتمل أن يراد به التكثير أو التقليل لأن الكثير قليل عنده كقوله:لم يلبثوا إلا ساعه من نهار،و قال الزجاج:ان الشىء إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج أن يعد و إذا كثر احتاج الى أن يعد.انتهى ملخصا.

و ربما كانت العنايه فى التوصيف بالعدد هى أن الشىء إذا بلغ فى الكثره عسر عده فلم يعد عاده و كان التوصيف بالعدد أماره كونه قليلا يقبل العد بسهوله،قال تعالى: وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرٰاهِمَ مَعْدُودَةٍ (يوسف/۲۰)اى قليله.

و كون الغرض من التوصيف بالعدد هو التقليل هو الملائم للسياق على ما مر فإن الكلام مسرود لنفى كون قصتهم عجبا و إنما يناسبه تقليل سنى لبثهم لا تكثيرها و معنى الآيه ظاهر و قد دل فيها على كونهم نائمين فى الكهف طول المده لا ميتين.

قوله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنٰاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصىٰ لِمٰا لَبِثُوا أَمَداً المراد

بالبعث هو الایقاظ دون الاحیاء بقرینه الآیه السابقه،قال الراغب:الحزب جماعه فیها غلظ.

انتهی.

و قال:الأمد و الأبد یتقاربان لکن الأبد عباره عن مده الزمان التی لیس لها حد محدود و لا یتقید لا یقال:أبد کذا،و الأمد مده لها حد مجهول إذا اطلق،و قد ینحصر نحو أن یقال:أمد کذا کما یقال:زمان کذا.و الفرق بین الأمد و الزمان أن الأمد یقال باعتبار الغایه و الزمان عام فی المبدإ و الغایه،و لذلک قال بعضهم:المدی و الأمد یتقاربان.انتهی.

و المراد بالعلم،العلم الفعلی و هو ظهور الشیء و حضوره بوجوده الخاص عند اللّه،و قد کثر ورود العلم بهذا المعنی فی القرآن کقوله: لِیَعْلَمَ اللّٰهُ مَنْ یَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَیْبِ (الحدید٢۵/)،و قوله: لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ (الجن٢٨/)و الیه یرجع قول بعضهم فی تفسیره:أن المعنی لیظهر معلومنا علی ما علمناه.

و قوله: «لِنَعْلَمَ أَیُّ الْحِزْبَیْنِ أَحْصیٰ» الخ؛تعلیل للبعث و اللام للغایه و المراد بالحزبین الطائفتان من أصحاب الکهف حین سأل بعضهم بعضا بعد البعث:قائلا کم لبثتم قالوا لبثنا یوما أو بعض یوم قالوا ربکم أعلم بما لبثتم علی ما یفیده قوله تعالی فی الآیات التالیه:

«وَ کَذٰلِکَ بَعَثْنٰاهُمْ لِیَتَسٰاءَلُوا بَیْنَهُمْ» الخ.

و قوله: أَحْصیٰ لِمٰا لَبِثُوا أَمَداً فعل ماض من الإحصاء،و «أَمَداً» مفعوله و الظاهر أن «لِمٰا لَبِثُوا» قید لقوله: «أَمَداً» و ما مصدریه أی أیّ الحزبین عد أمد لبثهم و قیل:

أحصی اسم تفضیل من الاحصاء بحذف الزوائد کقولهم:هو أحصی للمال و أفلس من ابن المذلق (١)و أمدا منصوب بفعل یدل علیه «أَحْصیٰ» و لا یخلو من تکلف،و قیل غیر ذلک.

و معنی الآیات الثلاث أعنی قوله: «إِذْ أَوَی الْفِتْیَهُ» الی قوله: «أَمَداً» إذ رجع الشبان الی

١- ١) .مثل.

الکهف فسألوا عند ذلک ربهم قائلین:ربنا هب لنا من لدنک ما ننجو به مما یهددنا بالتخییر بین عباده غیرک و بین القتل و أعد لنا من أمرنا هدی نهتدی به الی النجاه فأنمناهم فی الکهف سنین معدوده ثم أیقظناهم لیتبین أی الحزبین عد أمدا للبثهم.

قوله تعالی: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَیْکَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ الی آخر الآیه؛شروع فی ذکر ما یهم من خصوصیات قصتهم تفصیلا،و قوله: «إِنَّهُمْ فِتْیَهٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ» أی آمنوا إیمانا مرضیا لربهم و لو لا ذلک لم ینسبه الیهم قطعا.

و قوله: «وَ زِدْنٰاهُمْ هُدیً» الهدی بعد أصل الإیمان ملازم لارتقاء درجه الإیمان الذی فیه اهتداء الإنسان الی کل ما ینتهی الی رضوان اللّه قال تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ یُؤْتِکُمْ کِفْلَیْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ یَجْعَلْ لَکُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ (الحدید۲۸/).

قوله تعالی: وَ رَبَطْنٰا عَلیٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قٰامُوا فَقٰالُوا الی آخر الآیات الثلاث؛ الربط هو الشد،و الربط علی القلوب کنایه عن سلب القلق و الاضطراب عنها،و الشطط الخروج عن الحد و التجاوز عن الحق،و السلطان الحجه و البرهان.

و قوله: لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلٰهاً بعد قوله: «رَبُّنٰا رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» -و هو جحد و إنکار-فیه إشعار و تلویح الی أنه کان هناک تکلیف إجباری بعباده الأوثان و دعاء غیر اللّه.

و قوله: إِذْ قٰامُوا فَقٰالُوا الخ؛یشیر الی أنهم فی بادئ قولهم کانوا فی مجلس یصدر عنه الأمر بعباده الأوثان و الإجبار علیها و النهی عن عباده اللّه و السیاسه المنتحلیه بالقتل و العذاب کمجلس الملک أو ملأه أو ملأ عام کذلک فقاموا و أعلنوا مخالفتهم و خرجوا و اعتزلوا القوم و هم فی خطر عظیم یهددهم و یهجم علیهم من کل جانب کما یدل علیه قولهم: وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ مٰا یَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ فَأْوُوا إِلَی الْکَهْفِ .

و هذا یؤید ما وردت به الروایه-و سیجیء الخبر-أن سته منهم کانوا من خواص الملک

يستشيرهم فى اموره فقاموا من مجلسه و أعلنوا التوحيد و نفى الشريك عنه تعالى.

قوله تعالى: وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ مٰا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّٰهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ الى آخر الآيه؛الاعتزال و التعزل التنحى عن أمر،و النشر البسط،و المرفق بكسر الميم و فتح الفاء و بالعكس و بفتحهما المعامله بلطف.

هذا هو الشطر الثانى من محاورتهم جرت بينهم بعد خروجهم من بين الناس و اعتزالهم إياهم و ما يعبدون من دون اللّه و تنحيهم عن الجميع يشير به بعضهم عليهم أن يدخلوا الكهف و يتستروا فيه من أعداء الدين.

و قد تفرسوا بهدى الهى أنهم لو فعلوا ذلك عاملهم اللّه من لطفه و رحمته بما فيه نجاتهم من تحكم القوم و ظلمهم و الدليل على ذلك قولهم بالجزم: فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ الخ؛و لم يقولوا:عسى أن ينشر أو لعل.

و و هذا اللذان تفرسوا بهما من نشر الرحمه و تهيئه المرفق هما اللذان سألوهما بعد دخول لكهف إذ قالوا-كما حكى اللّه- رَبَّنٰا آتِنٰا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنٰا مِنْ أَمْرِنٰا رَشَداً .

و الاستثناء فى قوله: «وَ مٰا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّٰهَ» استثناء منقطع فإن الوثنيين لم يكونوا يعبدون اللّه مع سائر آلهتهم حتى يفيد الاستثناء إخراج بعض ما دخل أولا فى المستثنى منه فيكون متصلا فقول بعضهم:إنهم كانوا يعبدون اللّه و يعبدون الأصنام كسائر المشركين.و كذا قول بعض آخر:يجوز إنه كان فيهم من يعبد اللّه مع عباده الأصنام فيكون الاستثناء متصلا فى غير محله،اذ لم يعهد من الوثنيين عباده اللّه سبحانه مع عباده الأصنام،و فلسفتهم لا تجيز ذلك، و قد أشرنا الى حجتهم فى ذلك آنفا.

قوله تعالى: وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذٰا طَلَعَتْ تَزٰاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذٰاتَ الْيَمِينِ وَ إِذٰا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذٰاتَ الشِّمٰالِ الى آخر الآيتين؛التزاور هو التمايل مأخوذ من الزور بمعنى الميل و القرض القطع،و الفجوه المتسع من الأرض و ساحه الدار و المراد بذات اليمين

و ذات الشمال الجهه التى تلى اليمين أو الشمال أو الجهه ذات اسم اليمين أو الشمال و هما جهتا اليمين و الشمال.

و هاتـان الآيتان تمثلان الكهف و مستقرهم منه و منظرهم و ما يتقلب عليهم من الحال أيام لبثهم فيه و هم رقود و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بما أنه سامع لا بما أنه هو،و هـذا شائع فى الكلام، و الخطاب على هـذا النمط يعم كل سامع من غير أن يختص بمخاطب خاص.

فقـوله: «وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذٰا طَلَعَتْ تَزٰاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذٰاتَ الْيَمِينِ وَ إِذٰا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذٰاتَ الشِّمٰالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ» يصـف موقع الكهف و موقعهم فيه و هم نائمون و أما إنامتهم فيه بعـد الاوىّ اليه و مـده لبثهم فيه فقـد اكتفى فى ذلك بما أشير اليه فى الآيات السابقه من إنامتهم و لبثهم و ما سيأتى من قوله: «وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ» الخ؛إثارا للإيجاز.

و المعنى:و ترى أنـت و كـل راء يفرض اطلاعه عليهـم و هم فى الكهـف يرى الشـمس إذا طلعت تـتزاور و تتمايـل عن كهفهم جانب اليمين فيقع نورها عليه،و إذا غربت تقطع جانب الشمال فيقع شعاعها عليه و هم فى متسع من الكهف لا تناله الشمس.

و قوله: وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقٰاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ الأيقـاظ جمع يقـظ و يقظـان و الرقود جمع راقـد و هو النائم،و فى الكلام تلويـح الى أنهم كانوا مفتوحى الأعين حال نومهم كالأيقاظ.

و قوله: وَ نُقَلِّبُهُمْ ذٰاتَ الْيَمِينِ وَ ذٰاتَ الشِّمٰالِ أى و نقلبهم جهه اليمين و جهه الشـمال،و المراد نقلبهم تاره من اليمين الى الشمال و تاره من الشمال الى اليمين لئلا تأكلهم الأرض، و لا تبلى ثيابهم،و لا تبطل قواهم البدنيه بالركود و الخمود طول المكث.

و قوله: وَ كَلْبُهُمْ بٰاسِطٌ ذِرٰاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ الوصـيد فناء البيت و قيل:عتبه الـدار و المعنى كانوا على ما وصف من الحال و الحال أن كلبهم مفترش بـذراعيه باسـط لهمـا بفنـاء الكهف و فيه إخبـار بأنهم كان لهم كلب يلازمهم و كان ماكثا معهم طول مكثهم فى الكهف.

و قوله: لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرٰاراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً بيان

أنهم و حالهم هذا الحال كان لهم منظر موحش هائل لو أشرف عليهم الإنسان فر منهم خوفا من خطرهم تبعدا من المكروه المتوقع من ناحيتهم و ملأ قلبه الروع و الفزع رعبا و سرى الى جميع الجوارح فملأ الجميع رعبا،و الكلام فى الخطاب الذى فى قوله: «لَوَلَّيْتَ» و قوله:

«وَ لَمُلِئْتَ» كالكلام فى الخطاب الذى فى قوله: «وَ تَرَى الشَّمْسَ» .

قوله تعالى: وَ كَذٰلِكَ بَعَثْنٰاهُمْ لِيَتَسٰاءَلُوا بَيْنَهُمْ الى آخر الآيتين التساؤل سؤال بعض القوم بعضا،و الورق بالفتح فالكسر:الدراهم،و قيل هو الفضه مضروبه كانت أو غيرها،و قوله:إن يظهروا عليكم أى إن يطلعوا عليكم أو إن يظفروا بكم.

و الإشاره بقوله: «وَ كَذٰلِكَ بَعَثْنٰاهُمْ» الى إنامتهم بالصوره التى مثلتها الآيات السابقه أى كما أنمناهم فى الكهف دهرا طويلا على هذا الوضع العجيب المدهش الذى كان آيه من آياتنا كذلك بعثناهم و أيقظناهم ليتساءلوا بينهم.

و قوله: قٰالَ قٰائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ دليل على أن السائل عن لبثهم كان واحدا منهم خاطب الباقين و سألهم عن مده لبثهم فى الكهف نائمين و كأن السائل استشعر طولا فى لبثهم مما وجده من لوثه النوم الثقيل بعد التيقظ فقال:كم لبثتم؟

و قوله: «قٰالُوا لَبِثْنٰا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» ترددوا فى جوابهم بين اليوم و بعض اليوم و كأنهم بنوا الجواب على ما شاهدوا من تغير محل وقوع الشمس كأن أخذوا فى النوم أوائل النهار و انتبهوا فى أواسطه أو أواخره ثم شكوا فى مرور الليل عليهم فيكون مكثهم يوما و عدم مروره فيكون بعض يوم فأجابوا بالترديد بين يوم و بعض يوم و هو على أى حال جواب واحد.

و قوله تعالى: «قٰالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمٰا لَبِثْتُمْ أى قال بعض آخر منهم ردا على القائلين: «لَبِثْنٰا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» : «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمٰا لَبِثْتُمْ» و لو لم يكن ردا لقالوا ربنا أعلم بما لبثنا.

و بذلك يظهر أن إحاله العلم الى اللّه تعالى فى قولهم: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ» ليس لمجرد مراعاه

حسن الأدب كما قيل بل لبيان حقيقه من حقائق معارف التوحيد و هی أن العلم بحقيقه معنی الكلمه ليس إلا اللّه سبحانه فإن الإنسان محجوب عما وراء نفسه لا يملك بإذن اللّه إلا نفسه و لا يحيط إلا بها و إنما يحصل له من العلم بما هو خارج عن نفسه ما دلت عليه الأمارات الخارجيه و بمقدار ما ينكشف بها و أما الإحاطه بعين الأشياء و نفس الحوادث و هو العلم حقيقه فإنما هو للّه سبحانه المحيط بكل شیء الشهيد علی كل شیء و الآيات الداله علی هذه الحقيقه لا تحصی.

و الظاهر أن القائلين منهم: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمٰا لَبِثْتُمْ» غير القائلين: «لَبِثْنٰا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» فإن السياق سياق المحاوره و المجاوبه كما قيل و لازمه كون المتكلمين ثانيا غير المتكلمين أولا و لو كانوا هم الأولين بأعيانهم لكان من حق الكلام أن يقال:ثم قالوا ربنا أعلم بما لبثنا بدل قوله: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ» الخ.

و من هنا يستفاد أن القوم كانوا سبعه أو أزيد إذ قد وقع فی حكايه محاورتهم «قٰالَ» مره و «قٰالُوا» مرتين و أقل الجمع ثلاثه فقد كانوا لا يقل عددهم من سبعه.

و قوله تعالی: فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هٰذِهِ إِلَی الْمَدِينَهِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهٰا أَزْكیٰ طَعٰاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ من تتمه المحاوره و فيه أمر أو عرض لهم أن يرسلوا رسولا منهم الی المدينه ليشتری لهم طعاما يتغذون به و الضمير فی «أَيُّهٰا» راجع الی المدينه و المراد بها أهلها من الكسبه استخداما.

و زكاء الطعام كونه طيبا و قيل:كونه حلالا و قيل:كونه طاهرا و وروده بصيغه أفعل التفضيل «أَزْكیٰ طَعٰاماً» لا يخلو من إشعار بالمعنی الأول.

و الضمير فی «مِنْهُ» للطعام المفهوم من الكلام و قيل:للأزكی طعاما و«من»للابتداء أو التبعيض أی ليأتكم من ذلك الطعام الأزكی برزق ترتزقون به،و قيل:الضمير للورق و«من»للبدايه و هو بعيد لإحواجه الی تقدير ضمير آخر يرجع الی الجمله السابقه و كونه

ضمیر التذکیر و قد اشیر الی الورق بلفظ التأنیث من قبل.

و قوله تعالی: وَ لْیَتَلَطَّفْ وَ لاٰ یُشْعِرَنَّ بِکُمْ أَحَداً التلطف إعمال اللطف و الرفق و إظهاره فقوله: «وَ لاٰ یُشْعِرَنَّ بِکُمْ أَحَداً» عطف تفسیری له و المراد علی ما یعطیه السیاق:

لیتکلف اللطف مع أهل المدینه فی ذهابه و مجیئه و معاملته لهم کیلا یقع خصومه أو منازعه لتؤدی الی معرفتهم بحالکم و إشعارهم بکم،و قیل المعنی لیتکلف اللطف فی المعامله و إطلاق الکلام یدفعه.

و قوله تعالی: إِنَّهُمْ إِنْ یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ یَرْجُمُوکُمْ أَوْ یُعِیدُوکُمْ فِی مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً تعلیل للأمر بالتلطف و بیان لمصلحته.

ظهر علی الشیء بمعنی اطلع علیه و علم به و بمعنی ظفر به و قد فسرت الآیه بکل من المعنیین و الکلمه علی ما ذکره الرغب مأخوذه من الظهر بمعنی الجارحه مقابل البطن فکان هو الأصل ثم استعیر للأرض فقیل:ظهر الأرض مقابل بطنها ثم اخذ منه الظهور بمعنی الانکشاف مقابل البطون للملازمه بین الکون علی وجه الأرض و بین الرؤیه و الاطلاع و کذا بینه و بین الظفر و کذا بینه و بین الغلبه عاده فقیل:ظهر علیه أی اطلع علیه و علم بمکانه أو ظفر به أو غلبه ثم اتسعوا فی الاشتقاق فقالوا:أظهر و ظاهر و تظاهر و استظهر الی غیر ذلک.

و ظاهر السیاق أن یکون «یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ» بمعنی یطلعوا علیکم و یعلموا بمکانکم فانه أجمع المعانی لأن القوم کانوا ذوی أید و قوه و قد هربوا و استخفوا منهم فلو اطلعوا علیهم ظفروا بهم و غلبوهم علی ما أرادوا.

و قوله: یَرْجُمُوکُمْ أی یقتلوکم بالحجاره و هو شر القتل و یتضمن معنی النفره و الطرد،و فی اختیار الرجم علی غیره من أصناف القتل إشعار بأن أهل المدینه عامه کانوا یعادونهم لدینهم فلو ظهروا علیهم بادروا الیهم و تشارکوا فی قتلهم و القتل الذی هذا شأنه یکون بالرجم عاده.

و قوله: أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ الظاهر أن الإعاده مضمن معنى الإدخال و لذا عدى بفى دون الى.

و كان لازم دخولهم فى ملتهم عاده و قد تجاهروا برفضها و سموها شططا من القول و افتراء على اللّه بالكذب-أن لا يقنع القوم بمجرد اعترافهم بحقيه الملة صوره دون أن يثقوا بصدقهم فى الاعتراف و يراقبوهم فى أعمالهم فيشاركوا الناس فى عباده الأوثان و الإتيان بجميع الوظائف الدينيه التى لهم و الحرمان عن العمل بشىء من شرائع الدين الإلهى و التفوه بكلمه الحق.

و هذا كله لا بأس به على من اضطر على الإقامه فى بلاد الكفر و الانحصار بين أهله كالأسير المستضعف بحكم العقل و النقل و قد قال تعالى: إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ (النحل/١٠٦)و قال تعالى: إِلاّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً (آل عمران/٢٨)فله أن يؤمن بقلبه و ينكره بلسانه و أما من كان بنجوه منهم و هو حر فى اعتقاده و عمله ثم ألقى بنفسه فى مهلكه الضلال و تسبّب الى الانحصار فى مجتمع الكفر فلم يستطع التفوه بكلمه الحق و حرم التلبس بالوظائف الدينيه الإنسانيه فقد حرم على نفسه السعاده و لن يفلح أبدا قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً (النساء/ ٩٧).

و بهذا يظهر وجه ترتب قول: «وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً» على قوله: «أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ» و يندفع ما قيل:إن إظهار الكفر بالاكراه مع إبطان الإيمان معفو عنه فى جميع الأزمان فكيف رتب على العود فى ملتهم عدم الفلاح أبدا مع أن الظاهر من حالهم الكره هذا فانهم لو عرضوا بأنفسهم عليهم أو دلوهم بوجه على مكانهم فأعادوهم فى ملتهم و لو على كره كان ذلك منهم تسببا اختياريا الى ذلك و لم يعذروا البته.

و قوله تعالی: «بِوَرِقِكُمْ هٰذِهِ» علی ما فیه من الإضافه و الإشاره المعنیه لشخص الورق مشعر بعنایه خاصه بذکرها فإن سیاق استدعاء أن یبعثوا أحدا لاشتراء طعام لهم لا یستوجب بالطبع ذکر الورق التی یشتری بها الطعام و الإشاره إلیها بشخصها و لعلها إنما ذکرت فی الآیه مع خصوصیه الاشاره لأنها کانت هی السبب لظهور أمرهم و انکشاف حالهم لأنها حین أخرجها رسومها لیدفعها ثمنا للطعام کانت من مسکوکات عهد مرت علیها ثلاثه قرون و لیس فی آیات القصه ما یشعر بسبب ظهور أمرهم و انکشاف حالهم إلا هذه اللفظه.

قوله تعالی: وَ كَذٰلِكَ أَعْثَرْنٰا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السّٰاعَةَ لاٰ رَيْبَ فِيهٰا إِذْ يَتَنٰازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ قال فی المفردات:عثر الرجل یعثر عثرا و عثورا إذا سقط و یتجوز به فیمن یطلع علی أمر من غیر طلبه قال تعالی:فإن عثر علی أنهما استحقا إثما.یقال:عثرت علی کذا قال: «وَ كَذٰلِكَ أَعْثَرْنٰا عَلَيْهِمْ» أی وقفناهم علیهم من غیر أن طلبوا.انتهی.

و قوله: إِذْ يَتَنٰازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ظرف لقوله: «أَعْثَرْنٰا» أو لقوله: «لِيَعْلَمُوا» و التنازع التخاصم قبل:أصل التنازع التجاذب و یعبر به عن التخاصم و هو باعتبار اصل معناه یتعدی بنفسه،و باعتبار التخاصم بیتعدی بفی کقوله تعالی: فَإِنْ تَنٰازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ انتهی.

و المراد بتنازع الناس بینهم أمرهم تنازعهم فی أمر البعث و إنما اضیف الیهم إشعارا باهتمامهم و اعتنائهم بشأنه فهذه حال الآیه من جهه مفرداتها بشهاده بعضها علی بعض.

و المعنی علی ما مر:و کما أنمناهم ثم بعثناهم لکذا و کذا أطلعنا الناس علیهم فی زمان یتنازعون أی الناس بینهم فی أمر البعث لیعلموا أن وعد اللّه بالبعث حق أن الساعه لا ریب فیها.

أو المعنی أعثرنا علیهم لیعلم الناس مقارنا لزمان یتنازعون فیه بینهم فی أمر البعث أن

وعد اللّه بالبعث حق.

و أما دلاله بعثهم عن النوم على أن البعث يوم القيامه حق فانما هو من جهه أن انتزاع أرواحهم عن أجسادهم ذاك الدهر الطويل و تعطيل شعورهم و ركود حواسهم عن أعمالها و سقوط آثار القوى البدنيه كالنشو و النماء و نبات الشعر و الظفر و تغير الشكل و ظهور الشيب و غير ذلك و سلامه ظاهر أبدانهم و ثيابهم عن الدثور و البلى ثم رجوعهم الى حالهم يوم دخلوا الكهف بعينها يماثل انتزاع الارواح عن الاجساد بالموت ثم رجوعها الى ما كانت عليها،و هما معا من خوارق العاده لا يدفعهما إلا الاستبعاد من غير دليل.

و قد حدث هذا الأمر فى زمان ظهر التنازع بين طائفتين من الناس موحد يرى مفارقه الارواح الاجساد عند الموت ثم رجوعها إليها فى البعث و مشرك (۱)يرى مغايره الروح البدن و مفارقتها له عند الموت لكنه لا يرى البعث و ربما رأى التناسخ.

فحدوث مثل هذه الحادثه فى مثل تلك الحال لا يدع ريبا لاولئك الناس أنها آيه إلهيه قصد بها إزاله الشك عن قلوبهم فى أمر البعث بالدلاله بالمماثل على المماثل و رفع الاستبعاد بالوقوع.

و يقوى هذا الحدس منهم و يشتد بموتهم بعيد الانبعاث فلم يعيشوا بعده إلا سويعات لم تسع أزيد من اطلاع الناس على حالهم و اجتماعهم عليهم و استخبارهم عن قصتهم و إخبارهم بها.

و من هنا يظهر وجه آخر لقوله تعالى: «إِذْ يَتَنٰازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ» و هو رجوع الضميرين الأولين الى الناس و الثالث الى أصحاب الكهف و كون «إِذْ» ظرفا لقوله:

«لِيَعْلَمُوا» و يؤيده قوله بعده: «رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ» على ما سيجىء.

ص: ۲۶

۱- ۱) .و هذا مذهب عامه الوثنيين فهم لا يرون بطلان الإنسان بالموت و انما يرون نفى البعث و اثبات التناسخ.

و الاعتراض على هـذا الوجه أولا:بأنه يستدعى كون التنازع بعد الإعثار و ليس كذلك، و ثانيا:بأن التنازع كان قبل العلم و ارتفع به فكيف يكون وقته وقته،مـدفوع بـأن التنـازع على هـذا الوجه فى الآيه هو تنازع الناس فى أمر أصـحاب الكهف و قـد كان بعد الإعثار و مقارنا للعلم زمانا،و الذى كان قبل الاعثار و قبل العلم هو تنازعهم فى أمر البعث و ليس بمراد على هذا الوجه.

و قوله تعـالى: فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ القـائلون هم المشـركون من القوم بـدليل قوله بعـده: «قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ» و المراد ببنـاء البنيـان عليهم على مـا قيل أن يضـرب عليهم ما يجعلون به وراءه و يسترون عن الناس فلا يطلع عليهم مطلع منهم كما يقال:بنى عليه جدارا إذا حوطه و جعله وراءه.

و فى قـوله: رَبُّهُـمْ أَعْلَـمُ بِهِـمْ إشـاره الى وقـوع خلاـف بيـن النـاس المجتمعيـن عليهـم أمرهـم،فـإنه كلاـم آيس من العلم بهم و استكشاف حقيقه أمرهم يلوح منه أن القوم لم تنازعوا فى شىء مما يرجع اليهم فتبصر فيه بعضهم و لم يسكن الآخرون الى شىء و لم يرتضوا رأى مخالفيهم فقالوا:ابنوا لهم بنيانا ربهم أعلم بهم.

فمعنى الجمله أعنى قوله: «رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ» يتفاوت بالنظر الى الوجهين المتقدمين فى قوله:

«إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ» إذ للجمله على أى حـال نوع تفرع على تنـازع بينهم كمـا عرفت آنفـا فإن كان التنازع المـدلول عليه بقـوله: «إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ» هـو التنـازع فى أمر البعث بالإقرار و الإنكـار لكـون ضـمير «أَمْرَهُمْ» للنـاس كـان المعنى انهم تنازعوا فى أمر البعث فأعثرناهم عليهم ليعلموا أن وعد اللّه حق و أن الساعه لا ريب فيها لكن المشركين لم ينتهوا بما ظهرت لهم من الآيه فقالوا:ابنوا على أصحاب الكهف بنيانا و اتركوهم على حالهم ينقطع عنهم الناس فلم يظهر لنا من أمرهم شىء و لم نظفر فيهم على يقين ربهم أعلم بهم،و قال الموحدون:أمرهم ظاهر و آيتهم بينه و لنتخذن عليهم مسجدا يعبد فيه اللّه و يبقى ببقائه

ذکرهم.

و ان کان التنازع هو التنازع فی أصحاب الکهف و ضمیر «أَمْرَهُمْ» راجعا الیهم کان المعنی أنا أعثرنا الناس علیهم بعد بعثهم عن نومتهم لیعلم الناس أن وعد اللّه حق و أن الساعه لا ریب فیها عند ما توفاهم اللّه بعد اعثار الناس علیهم و حصول الغرض و هم أی الناس یتنازعون بینهم فی أمرهم أی أمر أصحاب الکهف کأنهم اختلفوا:أ نیام القوم أم أموات؟ و هل من الواجب أن یدفنوا و یقبروا أو یترکوا علی هیئتهم فی فجوه الکهف فقال المشرکون:

ابنوا علیهم بنیانا و اترکوهم علی حالهم ربهم أعلم بهم أ نیام أم أموات؟قال الموحدون:

«لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً» .

لکن السیاق یؤید المعنی الاول لأن ظاهره کون قول الموحدین: «لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً» ردا منهم لقول المشرکین:«ابنوا لهم بنیانا»الخ؛و القولان من الطائفتین انما یتنافیان علی المعنی الاول،و کذا قولهم: «رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ» و خاصه حیث قالوا: «رَبُّهُمْ» و لم یقولوا:

ربنا أنسب بالمعنی الاول.

و قوله: قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً هؤلاء القائلون هم الموحدون و من الشاهد علیه التعبیر عما اتخذوه بالمسجد دون المعبد فإن المسجد فی عرف القرآن هو المحل المتخذ لذکر اللّه و السجود له قال تعالی: وَ مَسٰاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّٰهِ (الحج/۴۰).

و قد جاء الکلام بالفصل من غیر عطف لکونه بمنزله جواب عن سؤال مقدر کأن قائلا یقول فما ذا قال غیر المشرکین؟فقیل:قال الذین غلبوا،الخ؛و أما المراد بغلبتهم علی أمرهم فإن کان المراد بأمرهم هو الامر المذکور فی قوله: «إِذْ يَتَنٰازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ» و الضمیر للناس فالمراد بالغلبه غلبه الموحدین بنجاحهم بالآیه التی قامت علی حقیه البعث،و ان کان الضمیر للفتیه فالغلبه من حیث التصدی لامرهم و الغالبون هم الموحدون و قیل:الملک

و أعوانه،و قيل:أولياؤهم من أقاربهم و هو أسخف الاقوال.

و ان كـان المراد بـأمرهم غير الأمر السابق و الضـمير للناس فالغلبه أخـذ زمام امور المجتمع بالملك و ولايه الامور،و الغالبون هم الموحـدون أو الملك و أعـوانه و ان كـان الضـمير عائـدا الى الموصول فالغـالبون هم الولاـه و المراد بغلبتهم على امورهم أنهم غالبون على ما أرادوه من الامور قادرون هذا،و أحسن الوجوه أولها.

قوله تعـالى: سَيَقُولُونَ ثَلاٰثَةٌ رٰابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ -الى قوله- وَ ثٰامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ يـذكر تعالى اختلاف الناس فى عـدد اصحاب الكهف و اقوالهم فيه،و هى على ما ذكره تعالى -و قوله الحق-ثلاثه مترتبه متصاعده احدها انهم ثلاثه رابعهم كلبهم و الثانى انهم خمسه و سادسهم كلبهم و قد عقبه بقوله: «رَجْماً بِالْغَيْبِ» اى قولا بغير علم.

و هـذا التوصـيف راجع الى القولين جميعـا:و لو اختص بالثـانى فقـط كـان من حق الكلام أن يقـدم القول الثانى و يؤخر الأول و يذكر مع الثالث الذى لم يذكر معه ما يدل على عدم ارتضائه.

و القول الثالث أنهم سـبعه و ثامنهم كلبهم،و قد ذكره اللّه سـبحانه و لم يعقبه بشـىء يدل على تزييفه،و لا يخلو ذلك من اشـعار بأن القول الحق،و قـد تقدم فى الكلام على محاورتهم المحكيه بقوله تعالى: «قٰالَ قٰائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قٰالُوا لَبِثْنٰا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قٰالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمٰا لَبِثْتُمْ» أنه مشعر بل دال على أن عددهم لم يكن بأقل من سبعه.

و من لطيف صـنع الآـيه فى عـد الأـقوال نظمها العـدد من ثلاثه الى ثمانيه نظما متواليا ففيها ثلاثه رابعها خمسه سادسـها سبعه و ثامنها.

و أمـا قـوله: «رَجْماً بِالْغَيْبِ» تمييز يصـف القولين بأنهمـا من القول بغير علم و الرجم هو الرمى بالحجاره و كـأن المراد بـالغيب الغائب و هو القول الذى معناه غائب عن العلم لا يدرى قائله أ هو صدق أم كذب؟فشـبه الذى يلقى كلاما ما هذا شأنه بمن يريد الرجم بالحجاره فيرمى ما

لا یدری أحجر هو یصیب غرضه أم لا؟و لعله المراد بقول بعضهم:رجما بالغیب أی قذفا بالظن لأن المظنون غائب عن الظان لا علم له به.

و قد قال تعالی: «ثَلاٰثَةٌ رٰابِعُهُمْ کَلْبُهُمْ» و قال: «خَمْسَةٌ سٰادِسُهُمْ کَلْبُهُمْ» فلم یأت بواو ثم قال: «سَبْعَةٌ وَ ثٰامِنُهُمْ کَلْبُهُمْ» فأتی بواو قال فی الکشاف:و ثلاثه خبر مبتدإ محذوف أی هم ثلاثه،و کذلک خمسه و سبعه،رابعهم کلبهم جمله من مبتدإ و خبر واقعه صفه لثلاثه،و کذلک سادسهم کلبهم و ثامنهم کلبهم.

قوله تعالی: قُلْ رَبِّی أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مٰا یَعْلَمُهُمْ إِلاّٰ قَلِیلٌ الی آخر الآیه؛أمر للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یقضی فی عدتهم حق القضاء و هو أن اللّه أعلم بها و قد لوح فی کلامه السابق الی القول و هذا نظیر ما حکی عن الفتیه فی محاورتهم و ارتضاء اذ قال قائل منهم کم لبثتم؟قالوا:

لبثنا یوما أو بعض یوم.قالوا:ربکم أعلم بما لبثتم.

و مع ذلک ففی الکلام دلاله علی أن بعض المخاطبین بخطاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم «رَبِّی أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ» الخ؛کان علی علم من ذلک فإن قوله: «مٰا یَعْلَمُهُمْ» و لم یقل:لا یعلمهم یفید نفی الحال فالاستثناء منه بقوله: «إِلاّٰ قَلِیلٌ» یفید الإثبات فی الحال و اللائح منه علی الذهن أنهم من أهل الکتاب.

و بالجمله مفاد الکلام أن الاقوال الثلاثه کانت محققه فی عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و علی هذا فقوله:

«سَیَقُولُونَ ثَلاٰثَةٌ» الخ؛المفید للاستقبال،و کذا قوله: «وَ یَقُولُونَ خَمْسَةٌ» الخ؛و قوله:

«وَ یَقُولُونَ سَبْعَةٌ» الخ؛ان کانا معطوفین علی مدخول السین فی «سَیَقُولُونَ» تفید الاستقبال القریب بالنسبه الی زمن نزول الآیات أو زمن وقوع الحادثه فافهم ذلک.

و قوله تعالی: فَلاٰ تُمٰارِ فِیهِمْ إِلاّٰ مِرٰاءً ظٰاهِراً قال الراغب:المریه التردد فی الامر و هو أخص من الشک،قال:و الامتراء و المماراه المحاجه فیما فیه مریه قال:و أصله من مریت الناقه اذا مسحت ضرعها للحلب.انتهی.فتسمیه الجدال مماراه لما فیه من اصرار

المماری بالبحث لیفرغ خصمه کل ما عنده من الکلام فینتهی عنه.

و المراد بکون المراء ظاهرا أن لا یتعمق فیه بالاقتصار علی ما قصه القرآن من غیر تجهیل لهم و لا رد کما قیل،و قیل:المراء الظاهر ما یذهب بحجه الخصم یقال:ظهر اذا ذهب،قال الشاعر:

و تلک شکاه ظاهر عنک عارها

و المعنی:و اذا کان ربک أعلم و قد أنبأک نبأهم فلا تحاجهم فی الفتیه الا محاجه ظاهره غیر متعمق فیها-أو محاجه ذاهبه لحجتهم-و لا تطلب الفتیا فی الفتیه من أحد منهم فربک حسبک.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَقُولَنَّ لِشَیْءٍ إِنِّی فٰاعِلٌ ذٰلِکَ غَداً إِلاّٰ أَنْ یَشٰاءَ اللّٰهُ الآیه الکریمه سواء کان الخطاب فیها للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم خاصه أو له و لغیره متعرضه للأمر الذی یراه الانسان فعلا لنفسه و یخبر بوقوعه منه فی مستقبل الزمان.

و الذی یراه القرآن فی تعلیمه الإلهی ان ما فی الوجود من شیء ذاتا کان او فعلا و اثرا فإنما هو مملوک للّه وحده له ان یفعل فیه ما یشاء و یحکم فیه ما یریده لا معقب لحکمه،و لیس لغیره ان یملک شیئا الا ما ملکه اللّه تعالی منه و اقدره علیه و هو المالک لما ملکه و القدر علی ما علیه اقدره و الآیات القرآنیه الداله علی هذه الحقیقه کثیره جدا لا حاجه الی ایرادها.

فما فی الکون من شیء له فعل أو اثر-و هذه هی التی نسمیها فواعل و اسبابا و عللا فعاله- غیر مستقل فی سببیته و لا مستغن عنه تعالی فی فعله و تأثیره لا یفعل و لا یؤثر الا ما شاء اللّه ان یفعله و یؤثره ای اقدره علیه و لم یسلب عنه القدره علیه باراده خلافه.

و بتعبیر آخر کل سبب من الأسباب الکونیه لیس سببا من تلقاء نفسه و باقتضاء من ذاته بل باقداره تعالی علی الفعل و التأثیر و عدم ارادته خلافه،و إن شئت فقل:بتسهیله تعالی له سبیل الوصول الیه،و ان شئت فقل باذنه تعالی فالاذن هو الاقدار و رفع المانع و قد تکاثرت

الآيات الداله على ان كل عمل من كل عامل موقوف على اذنه تعالى قال تعالى: مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللّهِ (الحشر٥/)و قال: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ (التغابن١١/)و قال: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ (الأعراف٥٨/)و قال: وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ (آل عمران١۴۵/)و قال:

وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ (يونس١٠٠/)و قال: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ (النساء۶۴/)الى غير ذلك من الآيات الكثيره.

فعلى الانسان العارف بمقام ربه المسلم له ان لا يرى نفسه سببا مستقلا لفعله مستغنيا فيه عن غيره بل مالكا له بتمليك اللّه قادرا عليه باقداره و أن القوه للّه جميعا و اذا عزم على فعل ان يعزم متوكلا على اللّه قال تعالى: فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ و إذا وعد بشىء و أخبر عما سيفعله أن يقيده باذن اللّه أو بعدم مشيته خلافه.

و هذا المعنى هو الذى يسبق الى الذهن المسبوق بهذا الحقيقه القرآنيه اذا قرع بابه قوله تعالى: وَ لاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللّهُ و خاصه بعد ما تقدم فى آيات القصه من بيان توحده تعالى فى الوهيته و ربوبيته و ما تقدم قبل آيات القصه من كون ما على الأرض زينه لها سيجعله اللّه صعيدا جرزا.و من جمله ما على الأرض افعال الانسان التى هى زينه جالبه للانسان يمتحن بها و هو يراها مملوكه لنفسه.

و ذلك ان قوله: «وَ لاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً» نهى عن نسبته فعله الى نفسه،و لا بأس بهذه النسبه قطعا فانه سبحانه كثيرا ما ينسب فى كلامه الافعال الى نبيه و الى غيره من الناس و ربما يأمره ان ينسب افعالا الى نفسه قال تعالى: فَقُلْ لِى عَمَلِى وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ (يونس۴١/)،و قال: لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ (الشورى١۵/).

فأصل نسبه الفعل الى فاعله مما لا ينكره القرآن الكريم و إنما ينكر دعوى الاستقلال فى الفعل و الاستغناء عن مشيته و اذنه تعالى فهو الذى يصلحه الاستثناء أعنى

يَشٰاءَ اللّٰهُ» .

و من هنا يظهر أن الكلام على تقدير باء الملابسه و هو استثناء مفرغ عن جميع الأحوال أو جميع الأزمان،و تقديره:و لا تقولن لشیء-ای لأجل شیء تعزم علیه-انی فاعل ذلک غدا فی حال من الأحوال أو زمان من الأزمنه الا فی حال او فی زمان یلابس قولک المشیه بأن تقول:

انی فاعل ذلک غدا ان شاء اللّه أن أفعله أو الا ان یشاء اللّه ان لا افعله،و المعنی علی أی حال:ان أذن اللّه فی فعله.

قوله تعالی: وَ اذْکُرْ رَبَّکَ إِذٰا نَسِیتَ وَ قُلْ عَسیٰ أَنْ یَهْدِیَنِ رَبِّی لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذٰا رَشَداً اتصال الآیه و اشتراکها مع ما قبلها فی سیاق التکلیف یقضی أن یکون المراد من النسیان نسیان الاستثناء،و علیه یکون المراد من ذکر ربه ذکره بمقامه الذی کان الالتفات الیه هو الموجب للاستثناء و هو أنه القائم علی کل نفس بما کسبت الذی ملکه الفعل و أقدره علیه و هو المالک لما ملکه و القادر علی ما علیه أقدره.

و المعنی:إذا نسیت الاستثناء ثم ذکرت أنک نسیته فاذکر ربک متی کان ذلک بما لو کنت ذاکرا لذکرته به و هو تسلیم الملک و القدره الیه و تقیید الأفعال بإذنه و مشیته.

و إذ کان الأمر بالذکر مطلقا لم یتعین فی لفظ خاص فالمندوب الیه هو ذکره تعالی بشأنه الخاص سواء کان بلفظ الاستثناء بأن یلحقه بالکلام،إن ذکره و لما یتم الکلام أو یعید الکلام و یستثنی أو یضمر الکلام ثم یستثنی إن کان فصل قصیر أو طویل کما ورد فی بعض (۱)الروایات أنه لما نزلت الآیات قال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم:ان شاء اللّه أو کان الذکر باستغفار و نحوه.

و قوله: وَ قُلْ عَسیٰ أَنْ یَهْدِیَنِ رَبِّی لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذٰا رَشَداً حدیث الاتصال و الاشتراک فی سیاق التکلیف بین جمل الآیه یقضی هنا أیضا أن تکون الإشاره بقوله: «هٰذٰا»

۱- ۱) .رواه السیوطی فی الدر المنثور عن ابن المنذر عن مجاهد.

الی الذکر بعد النسیان،و المعنی و ارج أن یهدیک ربک الی أمر هو أقرب رشدا من النسیان ثم الذکر و هو الذکر الدائم من غیر نسیان فیکون من قبیل الآیات الداعیه له صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی دوام الذکر کقوله تعالی: وَ اذْکُرْ رَبَّکَ فِی نَفْسِکَ تَضَرُّعاً وَ خِیفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَکُنْ مِنَ الْغافِلِینَ (الأعراف/۲۰۵)و ذکر الشیء کما نسی ثم ذکر و التحفظ علیه کره بعد کره من أسباب دوام ذکره.

قوله تعالی: وَ لَبِثُوا فِی کَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِینَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً بیان لمده لبثهم فی الکهف علی حال النوم فإن هذا اللبث هو متعلق العنایه فی آیات القصه و قد اشیر الی إجمال مده اللبث بقوله فی أول الآیات: «فَضَرَبْنا عَلَی آذانِهِمْ فِی الْکَهْفِ سِنِینَ عَدَداً» .

و قوله: «سِنِینَ» لیس بممیز للعد و إلا لقیل:ثلاثمائه سنه بل هو بدل من ثلاثمائه کما قالوا، و فی الکلام مضاهاه لقوله فیما أجمل فی صدر الآیات: «سِنِینَ عَدَداً» .

و لعل النکته فی تبدیل«سنه»من «سِنِینَ» استکثار مده اللبث،و علی هذا فقوله:

«وَ ازْدَادُوا تِسْعاً» لا یخلو من معنی الإضراب کأنه قیل:و لبثوا فی کهفهم ثلاثمائه سنه هذه السنین المتمادیه و الدهر الطویل بل ازدادوا تسعا،و لا ینافی هذا ما تقدم فی قوله: «سِنِینَ عَدَداً» أن هذا الاستقلال عدد السنین و استحقاره لأن المقامین مختلفان بحسب الغرض فإن الغرض هناک کان متعلقا بنفی العجب من آیه الکهف بقیاسها الی آیه جعل ما علی الأرض زینه لها بالأنسب به استحقار المده،و الغرض هاهنا بیان کون اللبث آیه من آیاته و حجه علی منکری البعث و الأنسب به استکثار المده،و المده بالنسبتین تحتمل الوصفین فهی بالنسبه الیه تعالی شیء هین و بالنسبه الینا دهر طویل.

و إضافه تسع سنین الی ثلاثمائه سنه مده اللبث تعطی أنهم لبثوا فی کهفهم ثلاثمائه سنه شمسیه فإن التفاوت فی ثلاثمائه سنه إذا أخذت تاره شمسیه و اخری قمریه بالغ هذا المقدار تقریبا و لا ینبغی الارتیاب فی أن المراد بالسنین فی الآیه السنون القمریه لأن السنه فی عرف

القرآن هى القمريه المؤلفه من الشهور الهلاليه و هى المعبره فى الشريعه الإسلاميه.

قوله تعالى: قُلِ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الى آخر الآيه؛مضى فى حديث أصحاب الكهف بالإشاره الى خلاف الناس فى ذلك و أن ما قصه اللّه تعالى من قصتهم هو الحق الذى لا ريب فيه.

فقوله: «قُلِ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا لَبِثُوا» مشعر بأن مده لبثهم المذكوره فى الآيه السابقه لم تكن مسلمه عند الناس فأمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يحتج فى ذلك بعلم اللّه و أنه أعلم بهم من غيره.

و قوله: لَهُ غَيْبُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ تعليل لكونه تعالى أعلم بما لبثوا،و اللام للاختصاص الملكى و المراد أنه تعالى وحده يملك ما فى السماوات و الارض من غيب غير مشهود فلا يفوته شىء و ان فات السماوات و الأرض،و إذ كان مالكا للغيب بحقيقه معنى الملك و له كمال البصر و السمع فهو أعلم بلبثهم الذى هو من الغيب.

و على هذا فقوله: «أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ» -و هما من صيغ التعجب معناهما كمال بصره و سمعه- لتتميم التعليل كأنه قيل:و كيف لا يكون أعلم بلبثهم و هو يملكهم على كونهم من الغيب و قد رأى حالهم و سمع مقالهم.

و قوله: مٰا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ الخ؛المراد بالجمله الاولى منه نفى ولايه غير اللّه لهم مستقلا بالولايه دون اللّه،و بالثانيه نفى ولايه غيره بمشاركته إياه فيها أى ليس لهم ولى غير اللّه لا مستقلا بالولايه و لا غير مستقل.

و الضمير فى قوله: «لَهُمْ» لاصحاب الكهف أو لجميع ما فى السماوات و الأرض المفهوم من الجمله السابقه بتغليب جانب اولى العقل أو لمن فى السماوات و الأرض و الوجوه الثلاثه مترتبه جوده و أجودها أولها.

[سوره الكهف (١٨): الآيات ٢٧ الى ٣١]

اشاره

وَ اُتْلُ مٰا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتٰابِ رَبِّكَ لاٰ مُبَدِّلَ لِكَلِمٰاتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٧) وَ اِصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ اَلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاهِ وَ اَلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لاٰ تَعْدُ عَيْنٰاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَهَ اَلْحَيٰاهِ اَلدُّنْيٰا وَ لاٰ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنٰا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنٰا وَ اِتَّبَعَ هَوٰاهُ وَ كٰانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨) وَ قُلِ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شٰاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شٰاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلظّٰالِمِينَ نٰاراً أَحٰاطَ بِهِمْ سُرٰادِقُهٰا وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغٰاثُوا بِمٰاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي اَلْوُجُوهَ بِئْسَ اَلشَّرٰابُ وَ سٰاءَتْ مُرْتَفَقاً (٢٩) إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ إِنّٰا لاٰ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُولٰئِكَ لَهُمْ جَنّٰاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ اَلْأَنْهٰارُ يُحَلَّوْنَ فِيهٰا مِنْ أَسٰاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ يَلْبَسُونَ ثِيٰاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهٰا عَلَى اَلْأَرٰائِكِ نِعْمَ اَلثَّوٰابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (٣١)

بيان:

قوله تعالى: وَ اتْلُ مٰا أُوحِيَ إِلَيْكَ الی آخر الآیه؛فی المجمع:لحد الیه و التحد أی مال انتهی فالملتحد اسم مکان من الالتحاد بمعنی المیل و المراد بکتاب ربک القرآن أو اللوح

ص :۳۶

المحفوظ،و كأن الثانى أنسب بقوله: «لاٰ مُبَدِّلَ لِكَلِمٰاتِهِ» .

قوله تعالى: وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ الى آخر الآيه؛قال الراغب:الصبر الإمساك فى ضيق يقال:صبرت الدابه حبستها بلا علف،و صبرت فلانا خلفته خلفه لا خروج له منها،و الصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل و الشرف أو عما يقتضيان حبسها عنه.انتهى مورد الحاجه.

و وجه الشيء ما يواجهك و يستقبلك به،و الأصل فى معناه الوجه بمعنى الجارحه،و وجهه تعالى أسماؤه الحسنى و صفاته العليا التى بها يتوجه اليه المتوجهون و يدعوه الداعون و يعبده العابدون قال تعالى: وَ لِلّٰهِ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِهٰا (الأعراف/١٨٠)،و أما الذات المتعاليه فلا سبيل إليها،و إنما يقصده القاصدون و يريده المريدون لأنه إله رب على عظيم ذو رحمه و رضوان الى غير ذلك من اسمائه و صفاته.

و المراد بدعائهم ربهم بالغداه و العشى الاستمرار على الدعاء و الجرى عليه دائما لأن الدوام يتحقق بتكرر غداه بعد عشى و عشى بعد غداه على الحس فالكلام جار على الكنايه.و قيل:

المراد بدعاء الغداه و العشى صلاه طرفى النهار و قيل:الفرائض اليوميه و هو كما ترى.

و قوله تعالى: وَ لاٰ تَعْدُ عَيْنٰاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا اصل معنى العدو كما صرح به الراغب التجاوز و هو المعنى السارى فى جميع مشتقاته و موارد استعمالاته قال فى القاموس:يقال:عدا الأمر و عنه جاوزه و تركه انتهى فمعنى «لاٰ تَعْدُ عَيْنٰاكَ عَنْهُمْ» لا تجاوزهم و لا تتركهم عيناك و الحال انك تريد زينه الحياه الدنيا.

و قوله تعالى: وَ لاٰ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنٰا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنٰا المراد باغفال قلبه تسليط الغفله عليه و إنسائه ذكر اللّه سبحانه على سبيل المجازاه حيث انهم عاندوا الحق فأضلهم اللّه باغفالهم عن ذكره فإن كلامه تعالى فى قوم هذه حالهم نظير ما سيأتى فى ذيل الآيات من قوله: «إِنّٰا جَعَلْنٰا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذٰانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا

إِذاً أَبَداً» .

و قوله تعالى: وَ اتَّبَعَ هَوٰاهُ وَ كٰانَ أَمْرُهُ فُرُطاً قال فى المجمع:الفرط التجاوز للحق و الخروج عنه من قولهم:افرط إفراطا إذا اسرف انتهى،و اتباع الهوى و الإفراط من آثار غفله القلب،و لذلك كان عطف الجملتين على قوله: «أَغْفَلْنٰا» بمنزله عطف التفسير.

قوله تعالى: وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شٰاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شٰاءَ فَلْيَكْفُرْ عطف على ما عطف عليه قوله: «وَ اتْلُ مٰا أُوحِيَ إِلَيْكَ» و قوله: «وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ» فالسياق سياق تعداد وظائف النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم قبال كفرهم بما انزل اليه و إصرارهم عليه و المعنى لاـ تأسف عليهم و اتل ما اوحى اليك و اصبر نفسك مع هؤلاء المؤمنين من الفقراء،و قل للكفار:الحق من ربكم و لا تزد على ذلك فمن شاء منهم أن يؤمن فليؤمن و من شاء منهم ان يكفر فليكفر فليس ينفعنا إيمانهم و لا يضرنا كفرهم بل ما فى ذلك من نفع او ضرر و ثواب او تبعه عذاب عائد اليهم انفسهم فليختاروا ما شاءوا فقد اعتدنا للظالمين كذا و كذا و للصالحين من المؤمنين كذا.

قوله تعالى: إِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلظّٰالِمِينَ نٰاراً الى آخر الآيه؛قال فى المجمع:السرادق الفسطاط المحيط بما فيه،و يقال:السرادق ثوب يدار حول الفسطاط،و قال:المهل خثاره الزيت،و قيل:هو النحاس الذائب،و قال:المرتفق المتكأ من المرفق يقال:ارتفق إذا اتكأ على مرفقه انتهى و الشيء النضج يقال:شوى يشوى شيا إذا نضج.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ إِنّٰا لاٰ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً بيان لجزاء المؤمنين على إيمانهم و عملهم الصالح و إنما قال: «إِنّٰا لاٰ نُضِيعُ» الخ؛و لم يقل:و اعتدنا لهؤلاء كذا و كذا ليكون دالا على العنايه بهم و الشكر لهم.

و قوله: «إِنّٰا لاٰ نُضِيعُ» الخ؛فى موضع خبر إن،و هو فى الحقيقه من وضع السبب موضع المسبب و التقدير إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات سنوفيهم أجرهم فإنهم محسنون إنا لا

نضیع أجر من أحسن عملا.

و إذ عد فی الآیه العقاب أثرا للظلم ثم عد الثواب فی مقابله أجرا للایمان و العمل الصالح استفدنا منه أن لا ثواب للایمان المجرد من صالح العمل بل ربما أشعرت الآیه بأنه من الظلم.

قوله تعالی: أُولٰئِکَ لَهُمْ جَنّٰاتُ عَدْنٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهٰارُ الی آخر الآیه؛العدن هو الإقامه و جنات عدن جنات إقامه،و الأساور قیل:جمع أسوره و هی جمع سوار بکسر السین و هی حلیه المعصم،و ذکر الراغب أنه فارسی معرب و أصله دستواره، و السندس ما رق من الدیباج،و الاستبرق ما غلظ منه،و الارائک جمع أریکه و هی السریر، و معنی الآیه ظاهر.

[سوره الکهف (۱۸): الآیات ۳۲ الی ۴۶]

اشاره

وَ اِضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَیْنِ جَعَلْنٰا لِأَحَدِهِمٰا جَنَّتَیْنِ مِنْ أَعْنٰابٍ وَ حَفَفْنٰاهُمٰا بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنٰا بَیْنَهُمٰا زَرْعاً (۳۲) کِلْتَا اَلْجَنَّتَیْنِ آتَتْ أُکُلَهٰا وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَیْئاً وَ فَجَّرْنٰا خِلاٰلَهُمٰا نَهَراً (۳۳) وَ کٰانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقٰالَ لِصٰاحِبِهِ وَ هُوَ یُحٰاوِرُهُ أَنَا أَکْثَرُ مِنْکَ مٰالاً وَ أَعَزُّ نَفَراً (۳۴) وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ قٰالَ مٰا أَظُنُّ أَنْ تَبِیدَ هٰذِهِ أَبَداً (۳۵) وَ مٰا أَظُنُّ اَلسّٰاعَهَ قٰائِمَهً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلیٰ رَبِّی لَأَجِدَنَّ خَیْراً مِنْهٰا مُنْقَلَباً (۳۶) قٰالَ لَهُ صٰاحِبُهُ وَ هُوَ یُحٰاوِرُهُ أَ کَفَرْتَ بِالَّذِی خَلَقَکَ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٍ ثُمَّ سَوّٰاکَ رَجُلاً (۳۷) لٰکِنَّا هُوَ اَللّٰهُ رَبِّی وَ لاٰ أُشْرِکُ بِرَبِّی أَحَداً (۳۸) وَ لَوْ لاٰ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَکَ قُلْتَ مٰا شٰاءَ اَللّٰهُ لاٰ قُوَّهَ إِلاّٰ بِاللّٰهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْکَ مٰالاً وَ وَلَداً (۳۹) فَعَسیٰ رَبِّی أَنْ یُؤْتِیَنِ خَیْراً مِنْ جَنَّتِکَ وَ یُرْسِلَ عَلَیْهٰا حُسْبٰاناً مِنَ اَلسَّمٰاءِ فَتُصْبِحَ صَعِیداً زَلَقاً (۴۰) أَوْ یُصْبِحَ مٰاؤُهٰا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِیعَ لَهُ طَلَباً (۴۱) وَ أُحِیطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ یُقَلِّبُ کَفَّیْهِ عَلیٰ مٰا أَنْفَقَ فِیهٰا وَ هِیَ خٰاوِیَهٌ عَلیٰ عُرُوشِهٰا وَ یَقُولُ یٰا لَیْتَنِی لَمْ أُشْرِکْ بِرَبِّی أَحَداً (۴۲) وَ لَمْ تَکُنْ لَهُ فِئَهٌ یَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ مٰا کٰانَ مُنْتَصِراً (۴۳) هُنٰالِکَ اَلْوَلاٰیَهُ لِلّٰهِ اَلْحَقِّ هُوَ خَیْرٌ ثَوٰاباً وَ خَیْرٌ عُقْباً (۴۴) وَ اِضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا کَمٰاءٍ أَنْزَلْنٰاهُ مِنَ اَلسَّمٰاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبٰاتُ اَلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِیماً تَذْرُوهُ اَلرِّیٰاحُ وَ کٰانَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ مُقْتَدِراً (۴۵) اَلْمٰالُ وَ اَلْبَنُونَ زِینَهُ اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ اَلْبٰاقِیٰاتُ اَلصّٰالِحٰاتُ خَیْرٌ عِنْدَ رَبِّکَ ثَوٰاباً وَ خَیْرٌ أَمَلاً (۴۶)

ص: ۳۹

بيان:

قوله تعالى: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ الخ؛أى و اضرب لهؤلاء المتولهين بزينه الحياه الدنيا المعرضين عن ذكر اللّه مثلا

ص: ۴۰

ليتبين لهم أنهم لم يتعلقوا فى ذلك إلا بسراب وهمى لا واقع له.

و قوله: جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنٰابٍ أى من كروم فالثمره كثيرا ما يطلق على شجرتها و قوله: «وَ حَفَفْنٰاهُمٰا بِنَخْلٍ» أى جعلنا النخل محيطه بهما حافه من حولهما و قوله: «وَ جَعَلْنٰا بَيْنَهُمٰا زَرْعاً» أى بين الجنبين و وسطهما،و بذلك تواصلت العماره و تمت و اجتمعت له الأقوات و الفواكه.

قوله تعالى: كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهٰا الآيه؛الاكل بضمتين المأكول،و المراد بإيتائهما الأكل إثمار أشجارهما من الأعناب و النخيل.

و قوله: وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً الظلم النقص،و الضمير للاكل أى و لم تنقص من أكله شيئا بل أثمرت ما فى وسعها من ذلك،و قوله: «وَ فَجَّرْنٰا خِلاٰلَهُمٰا نَهَراً» أى شققنا وسطهما نهرا من الماء يسقيهما و يرفع حاجتهما الى الشرب بأقرب وسيله من غير كلفه.

قوله تعالى: وَ كٰانَ لَهُ ثَمَرٌ الضمير للرجل و الثمر أنواع المال كما فى الصحاح و عن القاموس،و قيل:الضمير للنخل و الثمر ثمره،و قيل:المراد كان للرجل ثمر ملكه من غير جنته.

و أول الوجوه اوجهها ثم الثانى و يمكن ان يكون المراد من إيتاء الجنتين اكلها من غير ظلم بلوغ أشجارهما فى الرشد مبلغ الإثمار و أوانه،و من قوله: «وَ كٰانَ لَهُ ثَمَرٌ» وجود الثمر على اشجارهما بالفعل كما فى الصيف و هو وجه خال عن التكلف.

قوله تعالى: فَقٰالَ لِصٰاحِبِهِ وَ هُوَ يُحٰاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مٰالاً وَ أَعَزُّ نَفَراً المحاوره المخاطبه و المراجعه فى الكلام،و النفر الأشخاص يلازمون الإنسان نوع ملازمه سموا نفرا لأنهم ينفرون معه و لذلك فسره بعضهم بالخدم و الولد،و آخرون بالرهط و العشيره، و الأول اوفق بما سيحكيه اللّه من قول صاحبه له: «إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مٰالاً وَ وَلَداً» حيث بدل النفر من الولد،و المعنى فقال الذى جعلنا له الجنتين لصاحبه و الحال انه يحاوره:انا اكثر منك مالا و اعز نفرا أى ولدا و خدما.

و هـذا الـذى قاله لصاحبه يحكى عن مزعمه خاصه عنده منحرفه عن الحق فإنه نظر الى نفسه و هو مطلق التصـرف فيما خوله اللّه من مال و ولـد لا يزاحم فيما يريده فى ذلك فاعتقد انه مالكه و هذا حق لكنه نسـى ان اللّه سـبحانه هو الذى ملكه و هو المالك لمـا ملكه و الـذى سـخره اللّه له و سـلطه عليه من زينه الحيـاه الـدنيا التى هى فتنه و بلاء يمتحن بها الإنسان ليميز اللّه الخبيث من الطيب بل اجتـذبت الزينه نفسه إليها فحسب انه منقطع عن ربه مسـتقل بنفسه فيما يملكه، و ان التأثير كله عنـد الأسـباب الظاهريه التى سخرت له.

فنسـى اللّه سبحانه و ركن الى الأسـباب و هذا هو الشـرك ثم التفت الى نفسه فرأى أنه يتصـرف فى الأسـباب مهيمنا عليها فظن ذلك كرامه لنفسه و أخذه الكبر فاستكبر على صاحبه.

قوله تعـالى: وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ قٰالَ الى آخر الآيتين؛الضـمائر الأربع راجعه الى الرجل،و الراد بالجنه جنسـها و لـذا لم تثن،و قيل:لأن الدخول لا يتحقق فى الجنتين معا فى وقت واحد،و إنما يكون فى و الواحده بعد الواحده.

و قـال فى الكشـاف:فـإن قلت:فلم أفرد الجنه بعـد التثنيه؟قلت:معنـاه و دخل ما هو جنته ما له جنه غيرها يعنى أنه لا نصـيب له فى الجنه التى وعد المؤمنون فما ملكه فى الدنيا هو جنته لا غير،و لم يقصد الجنتين و لا واحده منهما.انتهى و هو وجه لطيف.

و قوله: وَ هُوَ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ و إنما كان ظالما لأنه تكبر على صاحبه إذ قال: «أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مٰالاً» الخ؛و هو يكشف عن إعجابه بنفسه و شركه باللّه بنسيانه و الركون الى الأسباب الظاهريه،و كل ذلك من الرذائل المهلكه.

و قوله: قٰالَ مٰا أَظُنُّ أَنْ تَبِيـدَ هٰذِهِ أَبَـداً البيد و البيدوده الهلاك و الفناء و الإشاره بهذه الى الجنه،و فصل الجمله لكونها فى معنى جواب سؤال مقدر كأنه لما قيل:و دخل جنته قيل:فما فعل؟فقيل:قال:ما أظن أن تبيد،الخ.

و قـد عبر عن بقاء جنته بقوله: «مٰا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ» الخ؛و نفى الظن بأمر كنايه عن كونه فرضا و تقديرا لا يلتفت اليه حتى يظن به و يمـال اليه فمعنى مـا أظن أن تبيـد هـذه أن بقـاءه و دوامه ممـا تطمئن اليه النفس و لا تـتردد فيه حتى تتفكر فى بيـده و تظن أنه سيفنى.

و قوله: وَ مٰا أَظُنُّ السّٰاعَةَ قٰائِمَةً هو مبنى على ما مر من التأييد فى قوله: «مٰا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَداً» فإنه يورث اسـتبعاد تغير الوضـع الحاضـر بقيـام السـاعه،و كل ما حكاه اللّه سبحانه من حجـج المشـركين على نفى المعاد مبنى على الاسـتبعاد كقولهم: مَنْ يُحْيِ الْعِظٰامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (يس٧٨/)،و قولهم: أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِي الْأَرْضِ أَ إِنّٰا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (الم السجده١٠/).

و قـوله: وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهٰا مُنْقَلَبـاً مبنى على مـا تقـدم من دعـوى كرامه النفس و اسـتحقاق الخير،و يورث ذلك فى الإنسان رجاء كاذبا بكل خير و سعاده من غير عمل يستدعيه يقول:من المستبعد أن تقوم الساعه و لئن قامت و رددت الى ربى لأجدن بكرامه نفسى-و لا يقول:يؤتينى ربى-خيرا من هذه الجنه منقلبا أنقلب اليه.

و قـد خـدعت هذا القائل نفسه فيما ادعت من الكرامه حتى أقسم على ما قال كما يدل عليه لام القسم فى قوله: «وَ لَئِنْ رُدِدْتُ» و لام التأكيد و نونها فى قوله: «لَأَجِدَنَّ» و قال: «رُدِدْتُ» و لم يقل:ردنى ربى اليه،و قال: «لَأَجِدَنَّ» و لم يقل:آتانى اللّه.

و الآيتان كقوله تعالى: وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ رَحْمَةً مِنّٰا مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذٰا لِي وَ مٰا أَظُنُّ السّٰاعَةَ قٰائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنىٰ (حم السجده٥٠/).

قوله تعالى: قٰالَ لَهُ صٰاحِبُهُ وَ هُوَ يُحٰاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوّٰاكَ رَجُلاً الآيه و ما بعـدها الى تمام أربع آيات رد من صاحب الرجل يرد به قوله: «أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مٰالاً وَ أَعَزُّ نَفَراً» ثم قوله إذ دخل جنته: «مٰا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَداً» و قد حلل الكلام من حيث غرض المتكلم الى جهتين:إحداهما استعلاؤه على اللّه

سبحانه بدعوى استقلاله فى نفسه و فيما يملكه من مال و نفر و استثناؤه بما عنده من القدره و القوه،و الثانيه استعلاؤه على صاحبه و استهانته به بالقله و الذله ثم رد كلا من الدعويين بما يحسم مادتها و يقطعها من اصلها فقوله: «أَ كَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ -الى قوله- إِلاّ بِاللّهِ» ورد لاولى الدعويين،و قوله: «إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ -الى قوله- طَلَباً» رد للثانيه.

فقوله: «قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ» فى إعاده جمله «وَ هُوَ يُحاوِرُهُ» إشاره الى أنه لم ينقلب عما كان عليه من سكينه الإيمان و وقاره باستماع ما استمعه من الرجل بل جرى على محاورته حافظا آدابه و من أبده إرفاقه به فى الكلام و عدم خشونته بذكر ما يعد دعاء عليه يسوؤه عاده فلم يذكر ولده بسوء كما ذكر جنته بل اكتفى فيه بما يرمز اليه ما ذكره فى جنته من إمكان صيرورتها صعيدا زلقا و غور مائها.

و قوله: «أَ كَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ» الخ؛الاستفهام للانكار ينكر عليه ما اشتمل عليه كلامه من الشرك باللّه سبحانه بدعوى الاستقلال لنفسه و للأسباب و المسببات كما تقدمت الإشاره اليه و من فروع شركه استبعاده قيام الساعه و تردده فيه.

و أما ما ذكره فى الكشاف أنه جعله كافرا باللّه جاحدا لأنعمه لشكه فى البعث كما يكون المكذب بالرسول كافرا فغير سديد كيف؟و هو يذكر فى استدراكه نفى الشرك عن نفسه،و لو كان كما قال لذكر فيه الإيمان بالمعاد.

قوله تعالى: لكِنَّا هُوَ اللّهُ رَبِّى وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَداً القراءه المشهوره «لكن»بفتح النون المشدده من غير الف فى الوصل و اثباتها وقفا.و اصله على ما ذكروه«لكن أنا»حذفت الهمزه بعد نقل فتحتها الى النون و أدغمت النون فى النون فالوصل بنون مشدده مفتوحه من غير الف و الوقف بالألف كما فى«أنا»ضمير التكلم.

قوله تعالى: وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللّهُ لا قُوَّهَ إِلاّ بِاللّهِ من تتمه قول المؤمن لصاحبه الكافر،و هو تحضيض و توبيخ لصاحبه إذ قال لما دخل جنته:

«مٰا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَداً» و كان عليه أن يبدله من قوله: «مٰا شٰاءَ اللّٰهُ لاٰ قُوَّةَ إِلاّٰ بِاللّٰهِ» فينسب الأمر كله الى مشيه اللّه و يقصر القوه فيه تعالى مبنيا على ما بينه له أن كل نعمه بمشيه اللّه و لا قوه إلا به.

و قوله: مٰا شٰاءَ اللّٰهُ إما على تقدير:الأمر ما شاءه اللّه،أو على تقدير:ما شاءه اللّه كائن،و ما على التقديرين موصوله و يمكن أن تكون شرطيه و التقدير ما شاءه اللّه كان، و الأوفق بسياق الكلام هو أول التقادير لأن الغرض بيان رجوع الامور الى مشيه اللّه تعالى قبال من يدعى الاستقلال و الاستغناء.

و قوله: لاٰ قُوَّةَ إِلاّٰ بِاللّٰهِ يفيد قيام القوه باللّه و حصر كل قوه فيه بمعنى أن ما ظهر فى مخلوقاته تعالى من القوه القائمه بها فهو بعينه قائم به من غير أن ينقطع ما أعطاه منه فيستقل به الخلق قال تعالى: أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً (البقره/١۶۵).

و قد تم بذلك الجواب عما قاله الكافر لصاحبه و ما قاله عند ما دخل جنته.

قوله تعالى: إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مٰالاً وَ وَلَداً الى آخر الآيتين؛قال فى الجمع:

أصل الحسبان السهام التى ترمى لتجرى فى طلق واحد و كان ذلك من رمى الأساوره،و أصل الباب الحساب،و إنما يقال لما يرمى به:حسبان لأنه يكثر كثره الحساب.قال:و الزلق الأرض الملساء المستويه لا نبات فيها و لا شىء و أصل الزلق ما تزلق عنه الأقدام فلا تثبت عليه.انتهى.

و قد تقدم أن الصعيد هو سطح الأرض مستويا لا نبات عليه،و المراد بصيروره الماء غورا صيرورته غائرا ذاهبا فى باطن الارض.

و معنى الآيه ان ترنى أنا أقل منك مالا و ولدا فلا بأس و الأمر فى ذلك الى ربى فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك و يرسل أى على جنتك مرامى من عذابه السماوى كبرد أو ريح سموم أو صاعقه أو نحو ذلك فتصبح أرضا خاليه ملساء لا شجر عليها و لا زرع،أو يصبح ماؤها غائرا

فلن تستطيع أن تطلبه لإمعانه فى الغور.

قوله تعالى: وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ الى آخر الآيه؛الإحاطه بالشىء كنايه عن هلاكه،و هى مأخوذه من احاطه العدو و استدارته به من جميع جوانبه بحيث ينقطع عن كل معين و ناصر و هو الهلاك،قال تعالى: وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ (يونس۲۲/).

و قوله: «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ» كنايه عن الندامه فإن النادم كثيرا ما يقلب كفيه ظهر البطن، و قوله: «وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوشِها» كنايه عن كمال الخراب كما قيل فإن البيوت الخربه المنهدمه تسقط أولا عروشها و هى سقوفها على الأرض ثم تسقط جدرانها على عروشها الساقطه و الخوى السقوط و قيل:الأصل فى معناه الخلو.

و قوله: «وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً» أى يا ليتنى لم أتعلق بما تعلقت به و لم أركن و لم أطمئن الى هذه الأسباب التى كنت أحسب أن لها استقلالا فى التأثير و كنت أرجع الأمر كله الى ربى فقد ضل سعيى و هلكت نفسى.

و المعنى:و أهلكت أنواع ماله أو فسد ثمر جنته فأصبح نادما على المال الذى أنفق و الجنه خربه و يقول يا ليتنى لم اشرك بربى أحدا و لم أسكن الى ما سكنت اليه و اغتررت به من نفسى و سائر الأسباب التى لم تنفعنى شيئا.

قوله تعالى: وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَ ما كانَ مُنْتَصِراً الفئه الجماعه،و المنتصر الممتنع.

و كما كانت الآيات الخمس الاولى أعنى قوله: «قالَ لَهُ صاحِبُهُ -الى قوله- طَلَباً» بيانا قوليا لخطأ الرجل فى كفره و شركه كذلك هاتان الآيتان أعنى قوله: «وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ -الى قوله- وَ ما كانَ مُنْتَصِراً» بيان فعلى له أما تعلقه بدوام الدنيا و استمرار زينتها فى قوله: «ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَداً» فقد جلى له الخطأ فيه حين احيط بثمره فأصبحت جنته خاويه على

عروشها،و أما سكونه الى الأسباب و ركونه إليها و قد قال لصاحبه: «أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَ أَعَزُّ نَفَراً» فبين خطاؤه فيه بقوله تعالى: «وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ» و أما دعوى استقلاله بنفسه و تبجحه بها فقد أشير الى جهه بطلانها بقوله تعالى: «وَ مَا كَانَ مُنْتَصِراً» .

قوله تعالى: هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلّٰهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ عُقْباً القراءه المشهوره «الْوَلاَيَةُ» بفتح الواو و قرئ بكسرها و المعنى واحد،و ذكر بعضهم أنها بفتح الواو بمعنى البصره و بكسرها بمعنى السلطان،و لم يثبت و كذا «الْحَقِّ» بالجر،و الثواب مطلق التبعه و الأجر و غلب فى الأجر الحسن الجميل،و العقب بالضم فالسكون و بضمتين:العاقبه.

ذكر المفسرون أن الإشاره بقوله: «هُنَالِكَ» الى معنى قوله: «أُحِيطَ بِثَمَرِهِ» أى فى ذلك الموضع أو فى ذلك الوقت و هو موضع الإهلاك و وقته الولايه للّه،و أن الولايه بمعنى النصره أى إن اللّه سبحانه هو الناصر للانسان حين يحيط به البلاء و ينقطع عن كافه الأسباب لا ناصر غيره.

و هذا معنى حق فى نفسه لكنه لا يناسب الغرض المسوق له الآيات و هو بيان أن الأمر كله للّه سبحانه و هو الخالق لكل شىء المدبر لكل أمر،و ليس لغيره إلا سراب الوهم و تزيين الحياه لغرض الابتلاء و الامتحان،و لو كان كما ذكروه لكان الأنسب توصيفه تعالى فى قوله: «لِلّٰهِ الْحَقِّ» بالقوه و العزه و القدره و الغلبه و نحوها لا بمثل الحق الذى يقابل الباطل،و أيضا لم يكن لقوله: «هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ عُقْباً» وجه ظاهر و موقع جميل.

و الحق و اللّه أعلم أن الولايه بمعنى مالكيه التدبير و هو المعنى السارى فى جميع اشتقاقاتها كما مر فى الكلام على قوله تعالى: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ (المائده/۵۵)أى عند إحاطه الهلاك و سقوط الأسباب عن التأثير و تبين عجز الإنسان الذى كان يرى لنفسه الاستقلال و الاستغناء ولايه أمر الإنسان و كل شىء و ملك تدبيره للّه لأنه إله حق له التدبير و التأثير بحسب واقع الأمر و غيره من الأسباب الظاهريه المدعوه شركاء له فى التدبير و التأثير باطل

فی نفسه لا- یملک شیئا من الأثر إلا ما أذن اللّه له و ملکه إیاه،و لیس له من الاستقلال إلا اسمه بحسب ما توهمه الإنسان فهو باطل فی نفسه حق باللّه سبحانه و اللّه هو الحق بذاته المستقل الغنی فی نفسه.

قوله تعالی: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَیاةِ الدُّنْیا کَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ الخ؛هذا هو المثل الثانی ضرب لتمثیل الحیاه الدنیا بما یقارنها من الزینه السریعه الزوال.

و الهشیم فعیل بمعنی مفعول من الهشم،و هو علی ما قال الراغب کسر الشیء الرخو کالنبات،و ذرا یذروا ذروا أی فرق،و قیل:أی جاء به و ذهب،و قوله: «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ» و لم یقل:اختلط بنبات الأرض إشاره الی غلبته فی تکوین النبات علی سائر أجزائه،و لم یذکر مع ماء السماء غیره من میاه العیون و الأنهار لأن مبدأ الجمیع ماء المطر، و قوله: «فَأَصْبَحَ هَشِیماً» أصبح فیه-کما قیل-بمعنی صار فلا یفید تقیید الخبر بالصباح.

و المعنی:و اضرب لهؤلاء المتولهین بزینه الدنیا المعرضین عن ذکر ربهم مثل الحیاه الدنیا کماء انزلناه من السماء و هو المطر فاختلط به نبات الأرض فرف نضاره و بهجه و ظهر بأجمل حلیه فصار بعد ذلک هشیما مکسرا متقطعا تعبث به الریاح تفرقه و تجیء به و تذهب و کان اللّه علی کل شیء مقتدرا.

قوله تعالی: اَلْمالُ وَ الْبَنُونَ زِینَهُ الْحَیاةِ الدُّنْیا الی آخر الآیه؛الآیه بمنزله النتیجه للمثل السابق و هی أن المال و البنین و إن تعلقت بها القلوب و تاقت إلیها النفوس تتوقع منها الانتفاع و تحف بها الآمال لکنها زینه سریعه الزوال غاره لا یسعها أن تثیبه و تنفعه فی کل ما أراده منها و لا أن تصدقه فی جمیع ما یأمله و یتمناه بل و لا فی أکثره ففی الآیه-کما تری- انعطاف الی بدء الکلام أعنی قوله: «إِنّا جَعَلْنا ما عَلَی الْأَرْضِ زِینَةً لَها» الآیتین.

و قوله وَ الْباقِیاتُ الصّالِحاتُ خَیْرٌ عِنْدَ رَبِّکَ ثَواباً وَ خَیْرٌ أَمَلاً- المراد بالباقیات الصالحات الأعمال الصالحه فإن أعمال الانسان محفوظه له عند اللّه بنص القرآن

فهی باقیه و إذا کانت صالحه فهی باقیات صالحات،و هی عند اللّه خیر ثوابا لأن اللّه یجازی الانسان الجائی بها خیر الجزاء،و خیر أملا-لأن ما یؤمل بها من رحمه اللّه و کرامته میسور للانسان فهی أصدق أملا من زینات الدنیا و زخارفها التی لا تفی للانسان فی أکثر ما تعد، و الآمال المتعلقه بها کاذبه علی الأغلب و ما صدق منها غار خدوع.

و قد ورد من طرق الشیعه و أهل السنه عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و من طرق الشیعه عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام عده من الروایات:أن الباقیات الصالحات التسبیحات الأربع:سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه و اللّه أکبر،و فی أخری انها الصلاه و فی اخری موده اهل البیت و هی جمیعا من قبل الجری و الانطباق علی المصداق.

[سوره الکهف (۱۸): الآیات ۴۷ الی ۵۹]

اشاره

وَ یَوْمَ نُسَیِّرُ اَلْجِبٰالَ وَ تَرَی اَلْأَرْضَ بٰارِزَهً وَ حَشَرْنٰاهُمْ فَلَمْ نُغٰادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (۴۷) وَ عُرِضُوا عَلیٰ رَبِّکَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونٰا کَمٰا خَلَقْنٰاکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَکُمْ مَوْعِداً (۴۸) وَ وُضِعَ اَلْکِتٰابُ فَتَرَی اَلْمُجْرِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمّٰا فِیهِ وَ یَقُولُونَ یٰا وَیْلَتَنٰا مٰا لِهٰذَا اَلْکِتٰابِ لاٰ یُغٰادِرُ صَغِیرَهً وَ لاٰ کَبِیرَهً إِلاّٰ أَحْصٰاهٰا وَ وَجَدُوا مٰا عَمِلُوا حٰاضِراً وَ لاٰ یَظْلِمُ رَبُّکَ أَحَداً (۴۹) وَ إِذْ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِکَهِ اُسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِیسَ کٰانَ مِنَ اَلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّیَّتَهُ أَوْلِیٰاءَ مِنْ دُونِی وَ هُمْ لَکُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظّٰالِمِینَ بَدَلاً (۵۰) مٰا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لاٰ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ مٰا کُنْتُ مُتَّخِذَ اَلْمُضِلِّینَ عَضُداً (۵۱) وَ یَوْمَ یَقُولُ نٰادُوا شُرَکٰائِیَ اَلَّذِینَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ یَسْتَجِیبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنٰا بَیْنَهُمْ مَوْبِقاً (۵۲) وَ رَأَی اَلْمُجْرِمُونَ اَلنّٰارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوٰاقِعُوهٰا وَ لَمْ یَجِدُوا عَنْهٰا مَصْرِفاً (۵۳) وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰا فِی هٰذَا اَلْقُرْآنِ لِلنّٰاسِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ وَ کٰانَ اَلْإِنْسٰانُ أَکْثَرَ شَیْءٍ جَدَلاً (۵۴) وَ مٰا مَنَعَ اَلنّٰاسَ أَنْ یُؤْمِنُوا إِذْ جٰاءَهُمُ اَلْهُدیٰ وَ یَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاّٰ أَنْ تَأْتِیَهُمْ سُنَّهُ اَلْأَوَّلِینَ أَوْ یَأْتِیَهُمُ اَلْعَذٰابُ قُبُلاً (۵۵) وَ مٰا نُرْسِلُ اَلْمُرْسَلِینَ إِلاّٰ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ وَ یُجٰادِلُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا بِالْبٰاطِلِ لِیُدْحِضُوا بِهِ اَلْحَقَّ وَ اِتَّخَذُوا آیٰاتِی وَ مٰا أُنْذِرُوا هُزُواً (۵۶) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُکِّرَ بِآیٰاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهٰا وَ نَسِیَ مٰا قَدَّمَتْ یَدٰاهُ إِنّٰا جَعَلْنٰا عَلیٰ قُلُوبِهِمْ أَکِنَّهً أَنْ یَفْقَهُوهُ وَ فِی آذٰانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَی اَلْهُدیٰ فَلَنْ یَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (۵۷) وَ رَبُّکَ اَلْغَفُورُ ذُو اَلرَّحْمَهِ لَوْ یُؤٰاخِذُهُمْ بِمٰا کَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ اَلْعَذٰابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ یَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (۵۸) وَ تِلْکَ اَلْقُریٰ أَهْلَکْنٰاهُمْ لَمّٰا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنٰا لِمَهْلِکِهِمْ مَوْعِداً (۵۹)

بیان:

قوله تعالی: وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَ حَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً الظرف متعلق بمقدر و التقدير«و اذكر يوم نسير»و تسيير الجبال بزوالها عن مستقرها و قد عبر سبحانه عنه بتعبيرات مختلفه كقوله: وَ كَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً (المزمل/۱۴)،و قوله: وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (القارعه/۵)،و قوله:

فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (الواقعه/۶)،و قوله: وَ سُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً (النبأ/ ۲۰).

و المستفاد من السياق أن بروز الأرض مترتب على تسيير الجبال فإذا زالت الجبال و التلال ترى الارض بارزه لا تغيب ناحيه منها عن اخرى بحائل حاجز و لا يستتر صقع منها عن صقع بساتر،و ربما احتمل أن تشير الى ما فى قوله: وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (الزمر/۶۹).

و قوله: «وَ حَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً» أى لم نترك منهم أحدا فالحشر عام للجميع.

قوله تعالى: وَ عُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ الخ؛السياق يشهد على أن ضمير الجمع فى قوله: «عُرِضُوا» و كذا ضمير الجمع فى الآيه السابقه للمشركين و هم الذين اطمأنوا الى أنفسهم و الأسباب الظاهريه التى ترتبط بها حياتهم،و تعلقوا بزينه الحياه كالمتعلق بأمر دائم باق فكان ذلك انقطاعا منهم عن ربهم، و إنكارا للرجوع اليه،و عدم مبالاه بما يأتون به من الأعمال أرضى اللّه أم أسخطه.

فقوله: وَ عُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا اشاره أولا-الى أنهم ملجئون الى الرجوع الى ربهم و لقائه فيعرضون عليه عرضا من غير أن يختاروه لأنفسهم،و ثانيا أن لا كرامه لهم فى هذا اللقاء،و يشعر به قوله: «عَلَى رَبِّكَ» و لو أكرموا لقيل:ربهم كما قال: جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ

رَبِّهِمْ جَنّاتُ عَدْنٍ (البينه‌/۸)و قال: إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ (هود/۲۹)،أو قيل:عرضوا علينا جريا على سياق التكلم السابق،و ثالثا أن أنواع التفاضل و الكرامات الدنيويه التى اختلقتها لهم الأوهام الدنيويه من نسب و مال و جاه قد طاحت عنهم فصفوا صفا واحدا لا تميز فيه لعال من دان و لا لغنى من فقير و لا لمولى من عبد،و إنما الميز اليوم بالعمل و عند ذلك بتبين لهم أنهم أخطئوا الصواب فى حياتهم الدنيا و ضلوا السبيل فيخاطبون بمثل قوله: «لَقَدْ جِئْتُمُونا» الخ.

و قوله: لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ مقول القول و التقدير و قال لهم أو قلنا لهم:لقد جئتمونا،الخ؛و فى هذا بيان خطئهم و ضلالهم فى الدنيا إذ تعلقوا بزينتها و زخرفها فشغلهم ذلك عن سلوك سبيل اللّه و الأخذ بدينه.

و قوله: بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً فى معنى قوله: أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (المؤمنون/۱۱۵)،و الجمله إن كانت إضرابا عن الجمله السابقه على ظاهر السياق فالتقدير ما فى معنى قولنا:شغلتكم زينه الدنيا و تعلقكم بأنفسكم و بظاهر الأسباب عن عبادتنا و سلوك سبيلنا بل ظننتم أن لن نجعل لكم موعدا تلقوننا فيه فتحاسبوا و بتعبير آخر:إن اشتغالكم بالدنيا و تعلقكم بزينتها و إن كان سببا فى الاعراض عن ذكرنا و اقتراف الخطيئات لكن كان هناك سبب هو أقدم منه و هو الأصل و هو أنكم ظننتم أن لن نجعل لكم موعدا فنسيان المعاد هو الأصل فى ترك الطريق و فساد العمل قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (ص/ ۲۶).

و من الجائز ان يكون قوله:«بل ظننتم أن لن نجعل لكم موعدا»اضرابا عن اعتذار لهم مقدر بالجهل و نحوه و اللّه اعلم.

قوله تعالى: وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ

يا وَيْلَتَنا الى آخر الآيه؛وضع الكتاب نصبه ليحكم عليه،و مشفقين من الشفقه و اصلها الرقه،قال الراغب فى المفردات:الاشفاق عنايه مختلطه بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه و يخاف ما يلحقه قال تعالى: وَ هُمْ مِنَ السّاعَهِ مُشْفِقُونَ فإذا عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر،و اذا عدى بفى فمعنى العنايه فيه اظهر،قال تعالى: إِنّا كُنّا قَبْلُ فِى أَهْلِنا مُشْفِقِينَ مُشْفِقُونَ مِنْها انتهى.

و الويل الهلاك،و نداؤه عند المصيبه-كما قيل-كنايه عن كون المصيبه أشد من الهلاك فيستغاث بالهلاك لينجى من المصيبه كما ربما يتمنى الموت عند المصيبه قال تعالى: يا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هٰذا (مريم٢٣/).

و قوله: وَ وُضِعَ الْكِتابُ ظاهر السياق أنه كتاب واحد يوضع لحساب أعمال الجميع و لا ينافى ذلك وضع كتاب خاص بكل انسان و الآيات القرآنيه داله عليه أن لكل انسان كتابا و لكل امه كتابا و للكل كتابا قال تعالى: وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَهِ كِتاباً الآيه؛(الإسراء١٣/)و قد تقدم الكلام فيها،و قال: كُلُّ أُمَّهٍ تُدْعىٰ إِلىٰ كِتابِهَا (الجاثيه٢٨/)و قال: هٰذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ (الجاثيه/ ٢٩)،و سيجىء الكلام فى الآيتين ان شاء اللّه تعالى.

و قوله: فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّا فِيهِ تفريع الجمله على وضع الكتاب و ذكر إشفاقهم مما فيه دليل على كونه كتاب الأعمال أو كتابا فيه الأعمال،و ذكرهم بوصف الاجرام للاشاره الى عله الحكم و أن إشفاقهم مما فيه لكونهم مجرمين فالحكم يعم كل مجرم و إن لم يكن مشركا.

و قوله: وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهٰذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَهً وَ لا كَبِيرَهً إِلاّ أَحْصاها الصغيره و الكبيره و صفان قامتا مقام موصوفهما و هو الخطيئه أو المعصيه أو الهنه و نحوها.

ص :٥٣

و قوله: وَ وَجَدُوا مٰا عَمِلُوا حٰاضِراً ظاهر السياق كون الجمله تأسيسا لا عطف تفسير لقوله: «لاٰ يُغٰادِرُ صَغِيرَةً وَ لاٰ كَبِيرَةً» الخ؛و عليه فالحاضر عندهم نفس الأعمال بصورها المناسبه لها لا كتابتها كما هو ظاهر أمثال قوله: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التحريم/٧)،و يؤيده قوله بعده: «وَ لاٰ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً» فإن انتفاء الظلم بناء على تجسم الأعمال أوضح لأن ما يجزون به إنما هو عملهم يرد اليهم و يلحق بهم لا صنع فى ذلک لأحد فافهم ذلک.

قوله تعالى: وَ إِذْ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِيسَ كٰانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ تذكير ثان لهم بما جرى بينه تعالى و بين ابليس حين أمر الملائكه بالسجود لأبيهم آدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن فتمرد عن أمر ربه.

أى و اذكر هذه الواقعه حتى يظهر لهم أن ابليس-و هو من الجن-و ذريته عدو لهم لا يريدون لهم الخير فلا ينبغى لهم أن يفتتنوا بما يزينه لهم هو و ذريته من ملاذ الدنيا و شهواتها و الاعراض عن ذكر اللّه و لا أن يطيعوهم فيما يدعونهم اليه من الباطل.

و قوله: أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيٰاءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ تفريع على محصل الواقعه و الاستفهام للانكار أى و يتفرع على الواقعه أن لا تتخذوه و ذريته أولياء و الحال انهم اعداء لكم معشر البشر،و على هذا فالمراد بالولايه ولايه الطاعه حيث يطيعونه و ذريته فيما يدعونهم فقد اتخذوهم مطاعين من دون اللّه،و هكذا فسرها المفسرون.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بالولايه ولايه الملك و التدبير و هو الربوبيه.

قوله تعالى: مٰا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لاٰ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ مٰا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ظاهر السياق كون ضميرى الجمع لا بليس و ذريته و المراد بالإشهاد الإحضار و الإعلام عيانا كما أن الشهود هو المعاينه حضورا،و العضد ما بين المرفق و الكتف من الانسان و يستعار للمعين كاليد و هو المراد هاهنا.

و قـد اشـتملت الآيه فی نفی ولايه التدبير عن إبليس و ذريته علی حجتين إحداهما:أن ولايه تدبير امور شـیء من الأشـياء تتوقف علی الإحـاطه العلميه-بتمـام معنی الكلمه-بتلك الامور من الجهه التی تـدبر فيها و بما لـذلك الشـیء و تلك الامور من الروابط الـداخليه و الخارجيه بما يبتدئ منه و ما يقارنه و ما ينتهی اليه و الارتباط الوجودی سار بين أجزاء الكون؛و هؤلاء و هم إبليس و ذريته لم يشـهدهم اللّه سـبحانه خلق السـماوات و الأرض و لا خلق أنفسـهم فلا كانوا شاهـدين إذ قال للسـماوات و الأرض:كن فكـانت و لاـ إذ قـال لهم:كونوا فكانوا فهم جاهلون بحقيقه السـماوات و الأرض و ما فی أوعيه وجوداتها من اسـرار الخلقه حتی بحقيقه صـنع أنفسـهم فكيف يسـعهم أن يلوا تدبير أمرها أو تدبير امر شـطر منها فيكونوا آلهه و أربابا من دون اللّه و هم جاهلون بحقيقه خلقتها و خلقه أنفسهم.

و أمـا أنهـم لـم يشـهدوا خلقهـا فلأـن كلاـ منهـم شـیء محـدود لاـ سبيـل له الی مـا وراء نفسه فغيره فی غيب منه مضـروب عليه الحجاب،و هذا بين و قد أنبأ اللّه سـبحانه عنه فی مواضع من كلامه؛ و كذا كل منهم مسـتور عنه شأن الاسباب التی تسبق وجوده و اللواحق التی ستلحق وجوده.

و هذه حجه برهانيه غير جدليه عند من أجاد النظر و أمعن فی التدبر حتی لا يختلط عنده هذه الالعوبه الكاذبه التی نسـميها تدبيرا بالتـدبير الكونی الـذی لا يلحقه خطأ و لا ضـلال، و كـذا الظنون و المزاعم الواهيه التی نتداولها و نركن إليها بالعلم العيانی الذی هو حقيقه العلم و كذا العلم بالامور الغائبه عنا بالظفر علی أماراتها الأغلبيه بالعلم بالغيب الذی يتبدل به الغيب شهاده.

و الثانيه أن كل نوع من أنواع المخلوقات متوجه بفطرته نحو كماله المختص بنوعه و هـذا ضـروری عنـد من تتبعها و أمعن النظر فی حالهـا فالهـدايه الالـهيه عـامه للجميع كمـا قـال: اَلَّذِی أَعْطیٰ كُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدیٰ (طه ۵۰/)و الشـياطين أشرار مفسدون مضلون فتصديهم تدبير شیء من السماوات و الأرض أو الإنسان-و لن يكون إلا بإذن من اللّه سبحانه-مؤد الی

نفضه السنه الالهيه من الهدايه العامه أی توسله تعالی الی الاصلاح بما ليس شأنه إلا الافساد و الی الهدايه بما خاصته الاضلال و هو محال.

و هذا معنی قوله سبحانه: «وَ مٰا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً» الظاهر فی أن سنته تعالی أن لا يتخذ المضلين عضدا فافهم.

و فی قوله: مٰا أَشْهَدْتُهُمْ و قوله: وَ مٰا كُنْتُ و لم يقل:و ما شهدوا و ما كانوا دلاله علی أنه سبحانه هو القاهر المهيمن عليهم علی كل حال،و القائلون بإشراك الشياطين أو الملائكه أو غيرهم باللّه فی أمر التدبير لم يقولوا باستقلالهم فی ذلک بل بأن أمر التدبير مملوک لهم بتمليک من اللّه تعالی مفوض اليهم بتفويض منه و أنهم أرباب و آلهه و اللّه رب الأرباب و إله الآلهه.

و ما تقدم من معنی الآيه مبنی علی حمل الاشهاد علی معناه الحقيقی و إرجاع الضميرين فی «مٰا أَشْهَدْتُهُمْ» و «أَنْفُسِهِمْ» الی إبليس و ذريته كما هو الظاهر المتبادر من السياق.

قوله تعالی: وَ يَوْمَ يَقُولُ نٰادُوا شُرَكٰائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ الی آخر الآيه؛هذا تذكير ثالث يذكر فيه ظهور بطلان الرابطه بين المشركين و بين شركائهم يوم القيامه و يتأكد بذلک أنهم ليسوا علی شیء مما يدعيه لهم المشركون.

فقوله: وَ يَوْمَ يَقُولُ الخ؛الضمير له تعالی بشهاده السياق،و المعنی و اذكر لهم يوم يقول اللّه لهم نادوا شركائی الذين زعمتم أنهم لی شركاء فدعوهم فلم يستجيبوا لهم و بان أنهم ليسوا لی شركاء و لو كانوا لاستجابوا.

و قوله: وَ جَعَلْنٰا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً الموبق بكسر الباء اسم مكان من وبق وبوقا بمعنی هلک،و المعنی جعلنا بين المشركين و شركائهم محل هلاک و قد فسر القوم هذا الموبق و المهلک بالنار أو بمحل من النار يهلک فيه الفريقان المشركون و شركاءهم لكن التدبر فی كلامه تعالی لا يساعد عليه فإن الآيه قد اطلقت الشركاء و فيهم-و لعلهم الأكثر-الملائكه

و بعض الأنبیاء و الأولیاء،و أرجع الیهم ضمیر اولی العقل مره بعد مره،و لا دلیل علی اختصاصهم بمرده الجن و الإنس،و کون جعل الموبق بینهم دلیلا علی الاختصاص أول الکلام.

فلعل المراد من جعل موبق بینهم إبطال الرابطه و رفعها من بینهم و قد کانوا یرون فی الدنیا أن بینهم و بین شرکائهم رابطه الربوبیه و المربوبیه أو السببیه و المسببیه فکنی عن ذلک بجعل موبق بینهم یهلک فیه الرابطه و العلقه من غیر أن یهلک الطرفان،و یومی الی ذلک بلطیف الإشاره تعبیره عن دعوتهم أولا بالنداء حیث قال: «نٰادُوا شُرَکٰائِیَ» و النداء إنما یکون فی البعید فهو دلیل علی بعد ما بینهما.

و الی مثل هذا المعنی یشیر قوله تعالی فی موضع آخر من کلامه: وَ مٰا نَریٰ مَعَکُمْ شُفَعٰاءَکُمُ الَّذِینَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِیکُمْ شُرَکٰاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَیْنَکُمْ وَ ضَلَّ عَنْکُمْ مٰا کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام۹۴/)،و قوله تعالی: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِینَ أَشْرَکُوا مَکٰانَکُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَکٰاؤُکُمْ فَزَیَّلْنٰا بَیْنَهُمْ وَ قٰالَ شُرَکٰاؤُهُمْ مٰا کُنْتُمْ إِیّٰانٰا تَعْبُدُونَ (یونس۲۸/).

قوله تعالی: وَ رَأَی الْمُجْرِمُونَ النّٰارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوٰاقِعُوهٰا وَ لَمْ یَجِدُوا عَنْهٰا مَصْرِفاً فی أخذ المجرمین مکان المشرکین دلاله علی أن الحکم عام لجمیع أهل الإجرام، و المراد بالظن هو العلم-علی ما قیل-و یشهد به قوله: «وَ لَمْ یَجِدُوا عَنْهٰا مَصْرِفاً» .

و المراد بمواقعه النار الوقوع فیها-علی ما قیل و لا یبعد أن یکون المراد حصول الوقوع من الجانبین فهم واقعون فی النار بدخولهم فیها و النار واقعه فیهم باشتعالهم بها.و قوله: «وَ لَمْ یَجِدُوا عَنْهٰا مَصْرِفاً» المصرف بکسر الراء اسم مکان من الصرف أی لم یجدوا محلا ینصرفون الیه و یعدلون عن النار و لا مناص.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰا فِی هٰذَا الْقُرْآنِ لِلنّٰاسِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ وَ کٰانَ الْإِنْسٰانُ أَکْثَرَ شَیْءٍ جَدَلاً قد مر الکلام فی نظیر صدر الآیه فی سوره أسری آیه ۸۹

ص :۵۷

و الجدل الكلام على سبيل المنازعه و المشاجره و الآيه الى تمام ست آيات مسوقه للتهديد بالعذاب بعد التذكيرات السابقه.

قوله تعالى: وَ مٰا مَنَعَ النّٰاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جٰاءَهُمُ الْهُدىٰ وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ و «يَسْتَغْفِرُوا» عطف على قوله: «يُؤْمِنُوا» أى و ما منعهم من الإيمان و الاستغفار حين مجىء الهدى.

و قوله: إِلاّٰ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أى إلا طلب أن تأتيهم السنه الجاريه فى الامم الأولين و هى عذاب الاستئصال،و قوله: «أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذٰابُ قُبُلاً» عطف على سابقه أى أو طلب أن يأتيهم العذاب مقابله و عيانا و لا ينفعهم الإيمان حينئذ لأنه إيمان بعد مشاهده البأس الإلهى قال تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمٰانُهُمْ لَمّٰا رَأَوْا بَأْسَنٰا سُنَّتَ اللّٰهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبٰادِهِ (المؤمن/٨٥).

فمحصل المعنى أن الناس لا يطلبون إيمانا ينفعهم و الذى يريدونه أن يأخذهم عذاب الاستئصال على سنه الأولين فيهلكوا و لا يؤمنوا أو يقابلهم العذاب عيانا فيؤمنوا اضطرارا فلا ينفعهم الإيمان.

و هذا المنع و الاقتضاء فى الآيه أمر ادعائى يراد به أنهم معرضون عن الحق لسوء سريرتهم فلا جدوى للإطناب الذى وقع فى التفاسير فى صحه ما مر من التوجيه و التقدير إشكالا و دفعا.

قوله تعالى: وَ مٰا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاّٰ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ الخ؛تعزيه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن لا يضيق صدره من إنكار المنكرين و إعراضهم عن ذكر اللّه فما كانت وظيفه المرسلين إلا التبشير و الإنذار و ليس عليهم وراء ذلك من بأس ففيه انعطاف الى مثل ما مر فى قوله فى أول السوره: فَلَعَلَّكَ بٰاخِعٌ نَفْسَكَ عَلىٰ آثٰارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً و فى الآيه أيضا نوع تهديد للكفار المستهزئين.

ص :58

و الدحض الهلاک و الإدحاض الإهلاک و الإبطال،و الهزوء:الاستهزاء و المصدر بمعنی اسم المفعول و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالی: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُکِّرَ بِآیاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَ نَسِیَ ما قَدَّمَتْ یَداهُ إعظام و تکبیر لظلم و الظلم یعظم و یکبر بحسب متعلقه،و إذا کان هو اللّه سبحانه بآیاته فهو أکبر من کل ظلم.

و المراد بنسیان ما قدمت یداه عدم مبالاته بما یأتیه من الاعراض عن الحق و الاستهزاء به و هو یعلم أنه حق،و قوله: إِنّا جَعَلْنا عَلی قُلُوبِهِمْ أَکِنَّهً أَنْ یَفْقَهُوهُ وَ فِی آذانِهِمْ وَقْراً کأنه تعلیل لإعراضهم عن آیات اللّه أوله و لنسیانهم ما قدمت أیدیهم،و قد تقدم الکلام فی معنی جعل الأکنه علی قلوبهم و الوقر فی آذانهم فی الکتاب مرارا.

و قوله: وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَی الْهُدیٰ فَلَنْ یَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً إیئاس من إیمانهم بعد ما ضرب اللّه الحجاب علی قلوبهم و آذانهم فلا یسعهم بعد ذلک أن یهتدوا بأنفسهم بتعقل الحق و لا أن یسترشدوا بهدایه غیرهم بالسمع و الاتباع،و الدلیل علی هذا المعنی قوله: «وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَی الْهُدیٰ فَلَنْ یَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً» حیث دل علی تأیید النفی و قیده بقوله: «إِذاً» و هو جزاء و جواب.

قوله تعالی: وَ رَبُّکَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَهِ الی آخر الآیه؛الآیات-کما سمعت- مسروده لتهدیدهم بالعذاب و هم فاسدون فی أعمالهم فسادا لا یرجی منهم صلاح و هذا مقتض لنزول العذاب و أن یکون معجلا لا یمهلهم إذ لا أثر لبقائهم إلا الفساد لکن اللّه سبحانه لم یجعل لهم العذاب و إن قضی به قضاء حتم بل أخره الی أجل مسمی عینه بعلمه.

فقوله: «وَ رَبُّکَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَهِ» صدرت به الآیه المتضمنه لصریح القضاء فی تهدیدهم لیعدل به بواسطه اشتماله علی الوصفین:الغفور ذی الرحمه ما یقتضی العذاب المعجل فیقضی و یمضی أصل العذاب أداء لحق مقتضیه و هو عملهم،و یؤخر وقوعه لأن اللّه

غفور ذو رحمه.

فالجمله أعنى قوله: «الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَهِ» مع قوله: «لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ» بمنزله متخاصمين متنازعين يحضران عند القاضى،و قوله: «بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً» أى ملجأ ليجئون منه اليه بمنزله الحكم الصادر عنه بما فيه إرضاء الجانبين و مراعاه الحقين فاعطى وصف الانتقام الإلهى باستدعاء مما كسبوا أصل العذاب،و اعطيت صفه المغفره و الرحمه أن يؤجل العذاب و لا يعجل؛و عند ذلک أخذت المغفره الالهيه تمحو أثر العمل الذى هو استعجال العذاب،و الرحمه تفيض عليهم حياه معجله.

و محصل المعنى:لو يؤاخذهم ربک لعجل لهم العذاب لکن لم يعجل لأنه الغفور ذو الرحمه بل حتم عليهم العذاب بجعله لهم موعدا لا ملجأ لهم ليجئون منه اليه.فقوله: «بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ» الخ؛کلمه قضاء و ليس بحکايه محضه و إلا قيل:بل جعل لهم موعدا،الخ؛فافهم ذلک.

و الغفور صيغه مبالغه تدل على کثره المغفره،و ذو الرحمه-و لامه للجنس-صفه تدل على شمول الرحمه لکل شىء فهى أشمل معنى من الرحمن و الرحيم الدالين على الکثره أو الثبوت و الاستمرار فالغفور بمنزله الخادم لذى الرحمه فإنه يصلح المورد لذى الرحمه بإمحاء ما عليه من وصمه الموانع فإذا صلح شمله ذو الرحمه،فللغفور السعى و کثره العمل و لذى الرحمه الانبساط و الشمول على ما لا مانع عنده،و لهذه النکته جىء فى المغفره بالغفور و هو صيغه مبالغه و فى الرحمه بذى الرحمه الحاوى لجنس الرحمه فأفهم ذلک ودع عنک ما أطنبوا فيه من الکلام فى الاسمين.

قوله تعالى: وَ تِلْکَ الْقُرى أَهْلَکْناهُمْ لَمّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنا لِمَهْلِکِهِمْ مَوْعِداً المراد بالقرى أهلها مجازا بدليل الضمائر الراجعه إليها،و المهلک بکسر اللام اسم زمان.

و معنى الآيه ظاهر و هى مسوقه لبيان أن تأخير مهلکهم و تأجيله ليس ببدع منا بل السنه

الالهیه فی الامم الماضین الذین أهلکهم اللّه لما ظلموا کانت جاریه علی ذلک فکان اللّه یهلکهم و یجعل لمهلکهم موعدا.

[سوره الکهف (۱۸): الآیات ۶۰ الی ۸۲]

اشاره

وَ إِذْ قٰالَ مُوسیٰ لِفَتٰاهُ لاٰ أَبْرَحُ حَتّٰی أَبْلُغَ مَجْمَعَ اَلْبَحْرَیْنِ أَوْ أَمْضِیَ حُقُباً (۶۰) فَلَمّٰا بَلَغٰا مَجْمَعَ بَیْنِهِمٰا نَسِیٰا حُوتَهُمٰا فَاتَّخَذَ سَبِیلَهُ فِی اَلْبَحْرِ سَرَباً (۶۱) فَلَمّٰا جٰاوَزٰا قٰالَ لِفَتٰاهُ آتِنٰا غَدٰاءَنٰا لَقَدْ لَقِینٰا مِنْ سَفَرِنٰا هٰذٰا نَصَباً (۶۲) قٰالَ أَ رَأَیْتَ إِذْ أَوَیْنٰا إِلَی اَلصَّخْرَهِ فَإِنِّی نَسِیتُ اَلْحُوتَ وَ مٰا أَنْسٰانِیهُ إِلاَّ اَلشَّیْطٰانُ أَنْ أَذْکُرَهُ وَ اِتَّخَذَ سَبِیلَهُ فِی اَلْبَحْرِ عَجَباً (۶۳) قٰالَ ذٰلِکَ مٰا کُنّٰا نَبْغِ فَارْتَدّٰا عَلیٰ آثٰارِهِمٰا قَصَصاً (۶۴) فَوَجَدٰا عَبْداً مِنْ عِبٰادِنٰا آتَیْنٰاهُ رَحْمَهً مِنْ عِنْدِنٰا وَ عَلَّمْنٰاهُ مِنْ لَدُنّٰا عِلْماً (۶۵) قٰالَ لَهُ مُوسیٰ هَلْ أَتَّبِعُکَ عَلیٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّٰا عُلِّمْتَ رُشْداً (۶۶) قٰالَ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْراً (۶۷) وَ کَیْفَ تَصْبِرُ عَلیٰ مٰا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (۶۸) قٰالَ سَتَجِدُنِی إِنْ شٰاءَ اَللّٰهُ صٰابِراً وَ لاٰ أَعْصِی لَکَ أَمْراً (۶۹) قٰالَ فَإِنِ اِتَّبَعْتَنِی فَلاٰ تَسْئَلْنِی عَنْ شَیْءٍ حَتّٰی أُحْدِثَ لَکَ مِنْهُ ذِکْراً (۷۰) فَانْطَلَقٰا حَتّٰی إِذٰا رَکِبٰا فِی اَلسَّفِینَهِ خَرَقَهٰا قٰالَ أَ خَرَقْتَهٰا لِتُغْرِقَ أَهْلَهٰا لَقَدْ جِئْتَ شَیْئاً إِمْراً (۷۱) قٰالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْراً (۷۲) قٰالَ لاٰ تُؤٰاخِذْنِی بِمٰا نَسِیتُ وَ لاٰ تُرْهِقْنِی مِنْ أَمْرِی عُسْراً (۷۳) فَانْطَلَقٰا حَتّٰی إِذٰا لَقِیٰا غُلاٰماً فَقَتَلَهُ قٰالَ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَکِیَّهً بِغَیْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَیْئاً نُکْراً (۷۴) قٰالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَکَ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْراً (۷۵) قٰالَ إِنْ سَأَلْتُکَ عَنْ شَیْءٍ بَعْدَهٰا فَلاٰ تُصٰاحِبْنِی قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّی عُذْراً (۷۶) فَانْطَلَقٰا حَتّٰی إِذٰا أَتَیٰا أَهْلَ قَرْیَهٍ اِسْتَطْعَمٰا أَهْلَهٰا فَأَبَوْا أَنْ یُضَیِّفُوهُمٰا فَوَجَدٰا فِیهٰا جِدٰاراً یُرِیدُ أَنْ یَنْقَضَّ فَأَقٰامَهُ قٰالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَیْهِ أَجْراً (۷۷) قٰالَ هٰذٰا فِرٰاقُ بَیْنِی وَ بَیْنِکَ سَأُنَبِّئُکَ بِتَأْوِیلِ مٰا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَیْهِ صَبْراً (۷۸) أَمَّا اَلسَّفِینَهُ فَکٰانَتْ لِمَسٰاکِینَ یَعْمَلُونَ فِی اَلْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِیبَهٰا وَ کٰانَ وَرٰاءَهُمْ مَلِکٌ یَأْخُذُ کُلَّ سَفِینَهٍ غَصْباً (۷۹) وَ أَمَّا اَلْغُلاٰمُ فَکٰانَ أَبَوٰاهُ مُؤْمِنَیْنِ فَخَشِینٰا أَنْ یُرْهِقَهُمٰا طُغْیٰاناً وَ کُفْراً (۸۰) فَأَرَدْنٰا أَنْ یُبْدِلَهُمٰا رَبُّهُمٰا خَیْراً مِنْهُ زَکٰاهً وَ أَقْرَبَ رُحْماً (۸۱) وَ أَمَّا اَلْجِدٰارُ فَکٰانَ لِغُلاٰمَیْنِ یَتِیمَیْنِ فِی اَلْمَدِینَهِ وَ کٰانَ تَحْتَهُ کَنْزٌ لَهُمٰا وَ کٰانَ أَبُوهُمٰا صٰالِحاً فَأَرٰادَ رَبُّکَ أَنْ یَبْلُغٰا أَشُدَّهُمٰا وَ یَسْتَخْرِجٰا کَنزَهُمٰا رَحْمَهً مِنْ رَبِّکَ وَ مٰا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِی ذٰلِکَ تَأْوِیلُ مٰا لَمْ تَسْطِعْ عَلَیْهِ صَبْراً (۸۲)

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِفَتٰاهُ لاٰ أَبْرَحُ حَتّٰى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً الظرف متعلق بقدر،و الجمله معطوفه علی ما عطف علیه التذکیرات الثلاثه المذکوره سابقا،و قوله: «لاٰ أَبْرَحُ» بمعنی لا أزال و هو من الأفعال الناقصه حذف خبره إیجازا لدلاله قوله: «حَتّٰى أَبْلُغَ» علیه و التقدیر لا أبرح أمشی أو أسیر،و مجمع البحرین قیل:هو الذی ینتهی الیه بحر الروم من الجانب الشرقی و بحر الفرس من الجانب (۱)الغربی، و الحقب الدهر و الزمان و تنکیره یدل علی وصف محذوف و التقدیر حقبا طویلا.

و المعنی-و اللّه أعلم-و اذکر إذ قال موسی لفتاه:لا أزال أسیر حتی أبلغ مجمع البحرین أو أمضی دهرا طویلا.

قوله تعالی: فَلَمّٰا بَلَغٰا مَجْمَعَ بَيْنِهِمٰا نَسِيٰا حُوتَهُمٰا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ

ص: ۶۳

۱- ۱) .فجمع البحرین علی هذا ما بینهما سمی مجمعا بنوع من التوسع.

سَرَباً الظاهر أن قوله: «مَجْمَعَ بَيْنِهِمٰا» من إضافه الصفه الى الموصوف و أصله بين البحرين الوصف بأنه مجمعهما.

و قوله: «نَسِيٰا حُوتَهُمٰا» الآيتان التاليتان تدلان على أنه كان حوتا مملوحا أو مشويا حملاه ليرتزقا به فى المسير و لم يكن حيا و إنما حى هناك و اتخذ سبيله فى البحر و رآه الفتى و هو حى يغوص فى البحر و نسى أن يذكر ذلك لموسى و نسى موسى أنه يسأله عنه أين هو؟و على هذا فمعنى «نَسِيٰا حُوتَهُمٰا» بنسبه النسيان اليهما معا:نسيا حال حوتهما فموسى نسى كونه فى المكتل فلم يتفقده و الفتى نسيه إذ بلم يخبر موسى بعجيب ما رأى من أمره.هذا ما ذكروه.

و قوله: «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً» السرب المسلك و المذهب و السرب و النفق الطريق المحفور فى الأرض لا نفاذ فيه كأنه شبه السبيل الذى اتخذه الحوت داخل الماء بالسرب الذى يسلكه السالك فيغيب فيه.

قوله تعالى: فَلَمّٰا جٰاوَزٰا قٰالَ لِفَتٰاهُ آتِنٰا غَدٰاءَنٰا لَقَدْ لَقِينٰا مِنْ سَفَرِنٰا هٰذٰا نَصَباً قال فى المجمع:النصب و الوصب و التعب نظائر،و هو الوهن الذى يكون عن كد انتهى،و المراد بالغداء ما يتغدى به و فيه دلاله على أن ذلك كان فى النهار.

و المعنى:و لما جاوزا مجمع البحرين أمر موسى فتاه أن يأتى بالغداء و هو الحوت الذى حملاه ليتغديا به و لقد لقيا من سفرهما تعبا.

قوله تعالى: قٰالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنٰا إِلَى الصَّخْرَةِ الى آخر الآيه؛يريد حال بلوغهم مجمع البحرين و مكثهم هناك فقد كانت الصخره هناك و الدليل عليه قوله: «وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ» الخ؛و قد ذكر فى ما مر أنه كان بمجمع البحرين،يقول لموسى:لا غداء عندنا نتغدى به فإن غداءنا و هو الحوت حى و دخل البحر و ذهب حينما بلغنا مجمع البحرين و أينا الى الصخره التى كانت هناك و إنى نسيت أن اخبرك بذلك.

فقوله: «أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنٰا إِلَى الصَّخْرَةِ» يذكره حال اويهما الى الصخره و نزولهما عندها

ليستريحا قليلا،و قوله: «فَإِنِّی نَسِیتُ الْحُوتَ» أی نسیت حال الحوت التی شاهدتها منه فلم أذكرها لک،و الدلیل علی هذا-كما قیل-قوله: «وَ مٰا أَنْسٰانِیهُ إِلاَّ الشَّیْطٰانُ أَنْ أَذْكُرَهُ» فان «أَنْ أَذْكُرَهُ» بدل من ضمیر «أَنْسٰانِیهُ» و التقدیر«و ما أنسانی ذكر الحوت لک إلا الشیطان»فهو لم ینس نفس الحوت و إنما نسی أن یذكر حاله التی شاهد منه لموسی.

و لا ضیر فی نسبه الفتی نسیانه الی تصرف من الشیطان بناء علی أنه كان یوشع بن نون النبی و الأنبیاء فی عصمه إلهیه من الشیطان لأنهم معصومون مما یرجع الی المعصیه و أما مطلق إیذاء الشیطان فیما لا یرجع الی معصیه فلا دلیل یمنعه قال تعالی: وَ اذْكُرْ عَبْدَنٰا أَیُّوبَ إِذْ نٰادیٰ رَبَّهُ أَنِّی مَسَّنِیَ الشَّیْطٰانُ بِنُصْبٍ وَ عَذٰابٍ (ص/۴۱).

و قوله: وَ اتَّخَذَ سَبِیلَهُ فِی الْبَحْرِ عَجَباً أی اتخاذا عجبا،فعجبا وصف قام مقام موصوفه علی المفعولیه المطلقه،و قیل:إن قوله: «وَ اتَّخَذَ سَبِیلَهُ فِی الْبَحْرِ» قول الفتی و قوله:

«عَجَباً» من قول موسی،و السیاق یدفعه.

و اعلم أن ما تقدم من الاحتمال فی قوله: «نَسِیٰا حُوتَهُمٰا» الخ؛جار هاهنا و اللّه أعلم.

قوله تعالی: قٰالَ ذٰلِكَ مٰا كُنّٰا نَبْغِ فَارْتَدّٰا عَلیٰ آثٰارِهِمٰا قَصَصاً البغی الطلب،و الارتداد العود علی بدء،و المراد بالآثار آثار أقدامهما،و القصص اتباع الأثر و المعنی قال موسی:ذلک الذی وقع من أمر الحوت هو الذی كنا نطلبه فرجعا علی آثارهما یقصانها قصصا و یتبعانها اتباعا.

و قوله: «ذٰلِكَ مٰا كُنّٰا نَبْغِ فَارْتَدّٰا» یكشف عن أن موسی كان مأمورا من طریق الوحی ان یلقی العالم فی مجمع البحرین و كان علامه المحل الذی یجده و یلقاه فیه ما وقع من أمر الحوت إما خصوص قضیه حیاته و ذهابه فی البحر أو بنحو الابهام و العموم كفقد الحوت أو حیاته أو عود المیت حیا و نحو ذلک،و لذلک لما سمع موسی من فتاه ما سمع من أمر الحوت قال ما قال، و رجعا الی المكان الذی فارقاه فوجدا عبدا،الخ.

ص :۶۵

قوله تعالی: فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا الخ.كل نعمه فإنها رحمه منه تعالی لخلقه لكن منها ما تتوسط فيه الأسباب الكونيه و تعمل فيه كالنعم الظاهريه بأنواعها،و منها ما لا يتوسط فيه شیء منها كالنعم الباطنيه من النبوه و الولايه بشعبها و مقاماتها،و تقييد الرحمه بقوله: «مِنْ عِنْدِنا» الظاهر فی أنها من موهبته لا صنع لغيره فيها يعطی أنها من القسم الثانی أعنی النعم الباطنيه ثم اختصاص الولايه بحقيقتها به تعالی كما قال: فَاللّٰهُ هُوَ الْوَلِيُّ (الشوری٩/)،و كون النبوه مما للملائكه الكرام فيه عمل كالوحی و نحوه يؤيد أن يكون المراد بقوله: «رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا» حيث جیء بنون العظمه و لم يقل:من عندی هو النبوه دون الولايه،و بهذا يتأيد تفسير من فسر الكلمه بالنبوه و اللّٰه أعلم.

و أما قوله: وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً فهو أيضا كالرحمه التی من عنده علم لا صنع فيه للأسباب العاديه كالحس و الفكر حتی يحصل من طريق الاكتساب و الدليل علی ذلك قوله: «مِنْ لَدُنّا» فهو علم وهبی غير اكتسابی يختص به أولياءه و آخر الآيات يدل علی أنه كان علما بتأويل الحوادث.

قوله تعالی: قالَ لَهُ مُوسیٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلیٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رُشْداً الرشد خلاف الغی و هو إصابه الصواب،و هو فی الآيه مفعول له أو مفعول به،و المعنی قال له موسی:هل اتبعك اتباعا مبنيا علی هذا الأساس و هو أن تعلمنی مما علمت لأرشد به أو تعلمنی مما علمت أمرا ذا رشد.

قوله تعالی: قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً نفی مؤكد لصبره عليه السّلام علی شیء مما يشاهده منه فی طريق التعليم و الدليل عليه تأكيد الكلام بإن،و إيراد الصبر نكره فی سياق النفی الدال علی إراده العموم،و نفی الصبر بنفی الاستطاعه التی هی القدره فهو آكد من أن يقال:لن تصبر،و إيراد النفی بلن و لم يقل:لا تصبر و للفعل توقف علی القدره فهو نفی الفعل بنفی أحد أسبابه ثم نفی الصبر بنفی سبب القدره عليه و هو إحاطه الخبر و العلم بحقيقه الواقعه

و تأويلها حتى يعلم أنها يجب أن تجرى على ما جرت عليه.

قوله تعالى: وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلىٰ مٰا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً الخبر العلم و هو تمييز و المعنى لا يحيط به خبرك.

قوله تعالى: قٰالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ صٰابِراً وَ لاٰ أَعْصِي لَكَ أَمْراً وعده الصبر لكن قيده بالمشيه فلم يكذب إذ لم يصبر،و قوله: «وَ لاٰ أَعْصِي» الخ؛عطف على «صٰابِراً» لما فيه من معنى الفعل فعدم المعصيه الذى وعده أيضا مقيد بالمشيه و لم يخلف الوعد إذ لم ينتهى بنهيه عن السؤال.

قوله تعالى: قٰالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاٰ تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتّٰى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً الظاهر أن «مِنْهُ» متعلق بقوله: «ذِكْراً» و إحداث الذكر من الشىء الابتداء به من غير سابقه و المعنى فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء تشاهده من أمرى تشق عليك مشاهدته حتى أبتدئ أنا بذكر منه،و فيه إشاره الى أنه سيشاهد منه امورا تشق عليه مشاهدتها و هو سيبينها له لكن لا ينبغى لموسى أن يبتدئه بالسؤال و الاستخبار بل ينبغى أن يصبر حتى يبتدئه هو بالإخبار.

قوله تعالى: فَانْطَلَقٰا حَتّٰى إِذٰا رَكِبٰا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهٰا قٰالَ أَ خَرَقْتَهٰا لِتُغْرِقَ أَهْلَهٰا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً الإمر بكسر الهمزه الداهيه العظيمه،و قوله: «فَانْطَلَقٰا» تفريع على ما تقدمه،و المنطلقان هما موسى و الخضر و هو ظاهر فى أن موسى لم يصحب فتاه فى سيره مع الخضر،و اللام فى قوله: «لِتُغْرِقَ أَهْلَهٰا» للغايه فإن الغرق و إن كان عاقبه للخرق و لم يقصده الخضر البته لكن العاقبه الضروريه ربما تؤخذ غايه مقصوده ادعاه لوضوحها كما يقال:أ تفعل كذا لتهلك نفسك؟و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: قٰالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً إنكار لسؤال موسى و تذكير لما قاله من قبل: «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ» الخ.

قوله تعالی: قٰالَ لاٰ تُؤٰاخِذْنِی بِمٰا نَسِیتُ وَ لاٰ تُرْهِقْنِی مِنْ أَمْرِی عُسْراً الرهق الغشیان بالقهر و الارهاق التکلیف،و المعنی لا تؤاخذنی بنسیانی الوعد و غفلتی عنه و لا تکلفنی عسرا من أمری،و ربما یفسر النسیان بمعنی الترک،و الأول أظهر،و الکلام اعتذار علی أی حال.

قوله تعالی: فَانْطَلَقٰا حَتّٰی إِذٰا لَقِیٰا غُلاٰماً فَقَتَلَهُ قٰالَ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَکِیَّةً بِغَیْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَیْئاً نُکْراً فی الکلام بعض الحذف للایجاز و التقدیر:فخرجا من السفینه و انطلقا.

و فی قوله: «حَتّٰی إِذٰا لَقِیٰا غُلاٰماً فَقَتَلَهُ قٰالَ» الخ؛ «فَقَتَلَهُ» معطوف علی الشرط بفاء التفریع و «قٰالَ» جزاء «إِذٰا» علی ما هو ظاهر الکلام:و بذلک یظهر أن العمده فی الکلام ذکر اعتراض موسی لا ذکر القتل،و نظیرته الآیه اللاحقه «فَانْطَلَقٰا حَتّٰی إِذٰا أَتَیٰا أَهْلَ قَرْیَةٍ -الی قوله- قٰالَ لَوْ شِئْتَ» الخ؛بخلاف الآیه السابقه: «فَانْطَلَقٰا حَتّٰی إِذٰا رَکِبٰا فِی السَّفِینَةِ خَرَقَهٰا قٰالَ» فإن جزاء «إِذٰا» فیها «خَرَقَهٰا» و قوله: «قٰالَ» کلام مفصول مستأنف.

و قوله: «أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَکِیَّةً» الزکیه الطاهره،و المراد طهارتها من الذنوب لعدم البلوغ کما یشعر به قوله: «غُلاٰماً» و الاستفهام للانکار،و القائل موسی.

و قوله: «بِغَیْرِ نَفْسٍ» أی بغیر قتل منها لنفس قتلا مجوزا لقتلها قصاصا و قودا فإن غیر البالغ لا یتحقق منه القتل الموجب للقصاص،و ربما استفید من قوله: «بِغَیْرِ نَفْسٍ» أنه کان شابا بالغا،و لا دلاله فی إطلاق الغلام علیه علی عدم بلوغه لأن الغلام یطلق علی البالغ و غیره فالمعنی أ قتلت بغیر قصاص نفس بریئه من الذنوب المستوجبه للقتل؟إذ لم یظهر لهما من الغلام شیء یستوجبه.

و قوله: لَقَدْ جِئْتَ شَیْئاً نُکْراً أی منکرا یستنکره الطبع و لا یعرفه المجتمع و قد عد خرق السفینه إمرا أی داهیه یستعقب مصائب لم یقع شیء منها بعد و قتل النفس نکرا أو منکرا

و هو أفظع و أفجع عند الناس من الخرق الذى يستوجب عاده هلاک النفوس لکن لا بالمباشره فعلا.

قوله تعالى: قٰالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَکَ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْراً معناه ظاهر و زياده «لَکَ» نوع تقريع له أنه لم يصغ الى وصيته و إيماء الى كونه كأنه لم يسمع قوله له أول مره: «إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْراً» أو سمعه و حسب أنه لا يعنيه بل يقصد به غيره كأنه يقول:

إنما عنيت بقوله:إنک لن تستطيع،الخ؛إياک دون غيرک.

قوله تعالى: قٰالَ إِنْ سَأَلْتُکَ عَنْ شَیْءٍ بَعْدَهٰا فَلاٰ تُصٰاحِبْنِی قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّی عُذْراً الضمير فى «بَعْدَهٰا» راجع الى هذه المره أو المسأله اى ان سألتک بعد هذه المره او هذه المسأله فلا تصاحبنى اى يجوز لک ان لا تصاحبنى.

و قوله: «قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّی عُذْراً» اى بلغت عذرا و وجدته كائنا ذلک من لدنى اذ بلغ عذرک النهايه من عندى.

قوله تعالى: فَانْطَلَقٰا حَتّٰى إِذٰا أَتَیٰا أَهْلَ قَرْیَهٍ اسْتَطْعَمٰا أَهْلَهٰا الى آخر الآيه؛ الكلام فى قوله: «فَانْطَلَقٰا» «فَأَبَوْا» «فَوَجَدٰا» «فَأَقٰامَهُ» كالكلام فى قوله فى الآيه السابقه:

«فَانْطَلَقٰا»

«فَقَتَلَهُ» .

و قوله: «اسْتَطْعَمٰا أَهْلَهٰا» صفه لقريه و لم يقل«استطعماهم»لرداءه قولنا:قريه استطعماهم بخلاف مثل قولنا:أتى قريه على إراده أتى أهل قريه لأن للقريه نصيبا من الاتيان فيجوز وضعها موضع أهلها مجازا بخلاف الاستطعام لأنه لأهلها خاصه،و على هذا فليس قوله: «أَهْلَهٰا» من وضع الظاهر موضع المضمر.

و لم يقل:حتى إذ أتيا قريه استطعما أهلها لأن القريه كانت تتمحض حينئذ فى معناها الحقيقى و الغرض العمده-كما عرفت-متعلق بالجزاء أعنى قوله: «قٰالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَیْهِ أَجْراً» و فيه ذكر أخذ الأجر و هو إنما يكون من أهلها لا منها فقوله: «أَتَیٰا أَهْلَ قَرْیَهٍ» دليل

ص:٦٩

على أن إقامه الجدار كانت بحضور من أهل القريه و هو الذى أغنى أن يقال:لو شئت لتخذت عليه منهم أو من أهلها أجرا،فافهم ذلك.

و المراد بالاستطعام طلب الطعام بالإضافه و لذا قال: «فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمٰا» و قوله:

«فَوَجَدٰا فِيهٰا جِدٰاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ» الانقضاض السقوط،و إراده الانقضاض مجاز عن الاشراف على السوق و الانهدام،و قوله: «فَأَقٰامَهُ» أى أثبته الخضر باصلاح شأنه و لم يذكر سبحانه كيف أقامه؟بنحو خرق العاده أم ببناء أو ضرب دعامه؟غير أن قول موسى «لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» مشعر بأن كان بعمل غير خارق فإن المعهود من أخذ الأجر،ما كان على العاديات.

و قوله: قٰالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ (۱)عَلَيْهِ أَجْراً تخذ و أخذ بمعنى واحد،و ضمير «عَلَيْهِ» للاقامه المفهومه من «فَأَقٰامَهُ» و هو مصدر جائز الوجهين،و السياق يشهد أنهما كانا جائعين فذكره موسى أخذ الاجره على عمله إذ لو كان أخذ أجرا أمكنهما أن يشتريا به شيئا من الطعام يسدان به جوعهما.

قوله تعالى: قٰالَ هٰذٰا فِرٰاقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مٰا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً الإشاره بهذا الى قول موسى أى هذا القول سبب فراق بينى و بينک أو الى الوقت أى هذا الوقت وقت فراق بينى و بينک كما قيل،و يمكن أن تكون الاشاره الى نفس الفراق،و المعنى هذا الفراق قد حضر كأنه كان أمرا غائبا فحضر عند قول موسى «لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ» الخ؛و قوله: «بَيْنِي وَ بَيْنِكَ» و لم يقل بيننا للتأكيد،و إنما قال الخضر هذا القول بعد الاعتراض الثالث لأن موسى كان قبل ذلك يعتذر اليه كما فى الأول أو يستمهله كما فى الثانى، و أما الفراق بعد الاعتراض الثالث فقد أعذره موسى فيه إذ قال بعد الاعتراض الثانى: «إِنْ

۱- ۱) .قرئ بالتشديد من«اتخذ»و بالتخفيف من«تخذ».

سَأَلْتُکَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلاٰ تُصٰاحِبْنِی» الخ؛و الباقی ظاهر.

قول تعالى أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَسٰاكِينَ الخ؛شروع فی تفصیل ما وعد إجمالا بقوله: «سَأُنَبِّئُکَ» الخ؛و قوله: «أَنْ أَعِيبَهٰا» أی أجعلها معيبه و هذه قرينه على أن المراد بلك سفينه كل سفينه غير معيبه.

و قوله: وَ كٰانَ وَرٰاءَهُمْ مَلِكٌ وراء بمعنی الخلف و هو الظرف المقابل للظرف الآخر الـذی یواجهه الانسان و یسـمی قـدام و أمام لكن ربما يطلق على الظرف الذی یغفل عنه الانسان و فیه من یریده بسوء أو مکروه و إن کان قدامه أو فیه ما یعرض عنه الانسان أو فیه ما یشغل الانسان بنفسه عن غیره کأن الانسان ولی وجهه الی جهه تخالف جهته قال تعالی:

فَمَنِ ابْتَغىٰ وَرٰاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْعٰادُونَ (المؤمنون۷/)،و قـال: وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ (الشوری۵۱/)،و قال: وَ اللّٰهُ مِنْ وَرٰائِهِمْ (البروج۲۰/).

و محصـل المعنی:أن السـفينه كانت لعـده من المساکین یعملون بها فی البحر و یتعیشون به و کان هناک ملک جبار أمر بغصـب السفن فأردت بخرقها أن أحدث فیها عیبا فلا یطمع فیها الجبار و یدعها لهم.

قوله تعـالى: وَ أَمَّا الْغُلاٰمُ فَكٰانَ أَبَوٰاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينٰا أَنْ يُرْهِقَهُمٰا طُغْيٰاناً وَ كُفْراً الأظهر من سـیاق الآیه و ما سـیأتی من قوله: «وَ مٰا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِی» أن یکون المراد بالخشیه التحـذر عن رأفه و رحمه مجازا لا معناه الحقیقی الذی هو التأثر القلبی الخاص المنفی عنه تعـالی و عن أنبیائه کما قال: وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ (الأحزاب۳۹/)،و أن یکون المراد بقوله: «أَنْ يُرْهِقَهُمٰا طُغْيٰاناً وَ كُفْراً» أن یغشـیهما ذلـک أی یحمل والـدیه علی الطغیان و الکفر بالاغواء و التأثیر الروحی لمکان حبهما الشدیـد له لکن قوله فی الآیه التالیه:

«وَ أَقْرَبَ رُحْماً» لا تخلو من تأیید لکون «طُغْيٰاناً وَ كُفْراً» تمیزین عن الارهاق أی وصفین

للغلام دون أبويه.

قوله تعالى: فَأَرَدْنٰا أَنْ يُبْدِلَهُمٰا رَبُّهُمٰا خَيْراً مِنْهُ زَكٰاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً المراد بكونه خيرا منه زكاه كونه خيرا منه صلاحا و ايمانا بقرينه مقابلته الطغيان و الكفر فى الآيه السابقه،و أصل الزكاه فيما قيل الطهاره،و المراد بكونه أقرب منه رحما كونه أوصل للرحم و القرابه فلا يرهقهما،و أما تفسيره بكونه أكثر رحمه بهما فلا يناسبه قوله:«أقرب منه» تلك المناسبه،و هذا-كما عرفت-يؤيد كون المراد من قوله: «يُرْهِقَهُمٰا طُغْيٰاناً وَ كُفْراً» فى الآيه السابقه إرهاقه اياهما بطغيانه و كفره لا تكليفه إياهما الطغيان و الكفر و إغشاؤهما ذلك.

و الآيه-على أى حال-تلوح الى أن إيمان أبويه كان ذا قدر عند اللّه و يستدعى ولدا مؤمنا صالحا يصل رحمهما و قد كان المقضى فى الغلام خلاف ذلك فأمر اللّه الخضر بقتله ليبدلهما خيرا منه زكاه و أقرب رحما.

قوله تعالى: وَ أَمَّا الْجِدٰارُ فَكٰانَ لِغُلاٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كٰانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمٰا وَ كٰانَ أَبُوهُمٰا صٰالِحاً لا يبعد أن يستظهر من السياق أن المدينه المذكوره فى هذه الآيه غير القريه التى وجدا فيها الجدار فأقامه،اذ لو كانت هى هى لم يكن كثير حاجه الى ذكر كون الغلامين اليتيمين فيها فكأن العنايه متعلقه بالاشاره الى أنهما و من يتولى أمرهما غير حاضرين فى القريه.

و ذكر يتم الغلامين و وجود كنز لهما تحت الجدار و لو انقض لظهر و ضاع و كون أبيهما صالحا كل ذلك توطئه و تمهيد لقوله: «فَأَرٰادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغٰا أَشُدَّهُمٰا وَ يَسْتَخْرِجٰا كَنزَهُمٰا» و قوله:

«رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» تعليل للاراده.

و فى الآيه دلاله على أن صلاح الإنسان ربما ورث أولاده أثرا جميلا و أعقب فيهم السعاده و الخير فهذه الآيه فى جانب الخير نظيره قوله تعالى: وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعٰافاً خٰافُوا عَلَيْهِمْ (النساء/٩).

و قوله: وَ مٰا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِی کنایه عن أنه إنما فعل ما فعل عن أمر غیره و هو اللّه سبحانه لا عن أمر أمرته به نفسه.

و قوله: ذٰلِکَ تَأْوِیلُ مٰا لَمْ تَسْطِعْ عَلَیْهِ صَبْراً أی ما لم تستطع علیه صبرا من اسطاع یسطیع بمعنی استطاع یستطیع و قد تقدم فی أول تفسیر سوره آل عمران أن التأویل فی عرف القرآن هی الحقیقه التی یتضمنها الشیء و یؤول إلیها و یبتنی علیها کتأویل الرؤیا و هو تعبیرها،و تأویل الحکم و هو ملاکه و تأویل الفعل و هو مصلحته و غایته الحقیقیه،و تأویل الواقعه و هو علتها الواقعیه و هکذا.

فقوله: «ذٰلِکَ تَأْوِیلُ مٰا لَمْ تَسْطِعْ» الخ؛إشاره منه الی أن الذی ذکره للوقائع الثلاث و أعماله فیها هو السبب الحقیقی لها لا ما حسبه موسی من العناوین المترائیه من أعماله کالتسبب الی هلاک الناس فی خرق السفینه و القتل من غیر سبب موجب فی قتل الغلام و سوء تدبیر المعاش فی إقامه الجدار (۱)(۲).

[سوره الکهف (۱۸): الآیات ۸۳ الی ۱۰۲]

اشاره

وَ یَسْئَلُونَکَ عَنْ ذِی اَلْقَرْنَیْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَیْکُمْ مِنْهُ ذِکْراً (۸۳) إِنّٰا مَکَّنّٰا لَهُ فِی اَلْأَرْضِ وَ آتَیْنٰاهُ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ سَبَباً (۸۴) فَأَتْبَعَ سَبَباً (۸۵) حَتّٰی إِذٰا بَلَغَ مَغْرِبَ اَلشَّمْسِ وَجَدَهٰا تَغْرُبُ فِی عَیْنٍ حَمِئَهٍ وَ وَجَدَ عِنْدَهٰا قَوْماً قُلْنٰا یٰا ذَا اَلْقَرْنَیْنِ إِمّٰا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمّٰا أَنْ تَتَّخِذَ فِیهِمْ حُسْناً (۸۶) قٰالَ أَمّٰا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ یُرَدُّ إِلیٰ رَبِّهِ فَیُعَذِّبُهُ عَذٰاباً نُکْراً (۸۷) وَ أَمّٰا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَلَهُ جَزٰاءً اَلْحُسْنیٰ وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنٰا یُسْراً (۸۸) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (۸۹) حَتّٰی إِذٰا بَلَغَ مَطْلِعَ اَلشَّمْسِ وَجَدَهٰا تَطْلُعُ عَلیٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهٰا سِتْراً (۹۰) کَذٰلِکَ وَ قَدْ أَحَطْنٰا بِمٰا لَدَیْهِ خُبْراً (۹۱) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (۹۲) حَتّٰی إِذٰا بَلَغَ بَیْنَ اَلسَّدَّیْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمٰا قَوْماً لاٰ یَکٰادُونَ یَفْقَهُونَ قَوْلاً (۹۳) قٰالُوا یٰا ذَا اَلْقَرْنَیْنِ إِنَّ یَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِی اَلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَکَ خَرْجاً عَلیٰ أَنْ تَجْعَلَ بَیْنَنٰا وَ بَیْنَهُمْ سَدًّا (۹۴) قٰالَ مٰا مَکَّنِّی فِیهِ رَبِّی خَیْرٌ فَأَعِینُونِی بِقُوَّهٍ أَجْعَلْ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ رَدْماً (۹۵) آتُونِی زُبَرَ اَلْحَدِیدِ حَتّٰی إِذٰا سٰاویٰ بَیْنَ اَلصَّدَفَیْنِ قٰالَ انْفُخُوا حَتّٰی إِذٰا جَعَلَهُ نٰاراً قٰالَ آتُونِی أُفْرِغْ عَلَیْهِ قِطْراً (۹۶) فَمَا اسْطٰاعُوا أَنْ یَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطٰاعُوا لَهُ نَقْباً (۹۷) قٰالَ هٰذٰا رَحْمَهٌ مِنْ رَبِّی فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ رَبِّی جَعَلَهُ دَکّٰاءَ وَ کٰانَ وَعْدُ رَبِّی حَقًّا (۹۸) وَ تَرَکْنٰا بَعْضَهُمْ یَوْمَئِذٍ یَمُوجُ فِی بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِی اَلصُّورِ فَجَمَعْنٰاهُمْ جَمْعاً (۹۹) وَ عَرَضْنٰا جَهَنَّمَ یَوْمَئِذٍ لِلْکٰافِرِینَ عَرْضاً (۱۰۰) اَلَّذِینَ کٰانَتْ أَعْیُنُهُمْ فِی غِطٰاءٍ عَنْ ذِکْرِی وَ کٰانُوا لاٰ یَسْتَطِیعُونَ سَمْعاً (۱۰۱) أَ فَحَسِبَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا أَنْ یَتَّخِذُوا عِبٰادِی مِنْ دُونِی أَوْلِیٰاءَ إِنّٰا أَعْتَدْنٰا جَهَنَّمَ لِلْکٰافِرِینَ نُزُلاً (۱۰۲)

۱- ۱) .الکهف ۶۰-۸۲:بحث تاریخی فی فصلین(قصه موسی و الخضر فی القرآن،قصه الخضر).

۲- ۲) .الکهف ۶۰-۸۲:بحث روائی حول قصه موسی و الخضر.

بيان:

قوله تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً أی یسألونک عن شأن ذی القرنین.و الدلیل علی ذلک جوابه عن السؤال بذکر شأنه لا تعریف شخصه حتی اکتفی بلقبه فلم یتعد منه الی ذکر اسمه.

و الذکر إما مصدر بمعنی المفعول و المعنی قل سأتلو علیکم منه أی من ذی القرنین شیئا مذکورا،و إما المراد بالذکر القرآن-و قد سماه اللّه فی مواضع من کلامه بالذکر و المعنی قل سأتلو علیکم منه أی من ذی القرنین أو من اللّه قرآنا و هو ما یتلو هذه الآیه من قوله: «إِنّٰا مَکَّنّٰا لَهُ» الی آخر القصه؛و المعنی الثانی أظهر.

قوله تعالی: إِنّٰا مَکَّنّٰا لَهُ فِی الْأَرْضِ وَ آتَیْنٰاهُ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ سَبَباً التمکین الإقدار یقال:مکنته و مکنت له أی أقدرته فالتمکن فی الأرض القدره علی التصرف فیه

بالملک کیفما شاء و أراد.و ربما یقال:إنه مصدر مصوغ من المکان بتوهم أصاله المیم فالتمکین إعطاء الاستقرار و الثبات بحیث لا یزیله عن مکانه أی مانع مزاحم.

و السبب الوصله و الوسیله فمعنی إیتائه سببا من کل شیء للّه أن یؤتی من کل شیء یتوصل به الی المقاصد الهامه الحیویه ما یستعمله و یستفید منه کالعقل و العلم و الدین و قوه الجسم و کثره المال و الجند وسعه الملک و حسن التدبیر و غیر ذلک و هذا امتنان منه تعالی علی ذی القرنین و إعظام لأمر بأبلغ بیان،و ما حکاه تعالی من سیرته و فعله و قوله المملوءه حکمه و قدره یشهد بذلک.

قوله تعالی: فَأَتْبَعَ سَبَباً الاتباع اللحوق أی لحق سببا و اتخذ وصله وسیله یسیر بها نحو مغرب الشمس.

قوله تعالی: حَتّٰی إِذٰا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهٰا تَغْرُبُ فِی عَیْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَهٰا قَوْماً تدل «حَتّٰی» علی فعل مقدر و تقدیره«فسار حتی إذا بلغ» و المراد بمغرب الشمس آخر المعموره یومئذ من جانب الغرب بدلیل قوله: «وَ وَجَدَ عِنْدَهٰا قَوْماً» .

و ذکروا أن المراد بالعین الحمئه العین ذات الحمأه و هی الطین الأسود،و أن المراد بالعین البحر فربما تطلق علیه،و أن المراد بوجدان الشمس تغرب فی عین حمئه أنه وقف علی ساحل بحر لا مطمع فی وجود بر وراءه فرأی الشمس کأنها تغرب فی البحر لمکان انطباق الافق علیه قیل:و ینطبق هذه العین الحمئه علی المحیط الغربی و فیه الجزائر الخالدات التی کانت مبدأ سابقا ثم غرقت.

و قرئ«فی عین حامیه»أی حاره،و ینطبق علی النقاط القریبه من خط الاستواء من المحیط الغربی المجاوره لإفریقیه و لعل ذا القرنین فی رحلته الغربیه بلغ سواحل إفریقیه.

قوله تعالی: قُلْنٰا یٰا ذَا الْقَرْنَیْنِ إِمّٰا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمّٰا أَنْ تَتَّخِذَ فِیهِمْ حُسْناً

القول المنسوب اليه تعالى فى القرآن يستعمل فى الوحى النبوى و فى الابلاغ بواسطه الوحى كقوله تعالى: وَ قُلْنٰا يٰا آدَمُ اسْكُنْ (البقره/۳۵)و قوله: وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ (البقره/۵۸)،و يستعمل فى الالهام الذى ليس من النبوه كقوله: وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ (القصص/۷).

و به يظهر أن قوله: «قُلْنٰا يٰا ذَا الْقَرْنَيْنِ» الخ؛لا يدل على كونه نبيا يوحى اليه لكون قوله تعالى أعم من الوحى المختص بالنبوه و لا يخلو قوله: «ثُمَّ يُرَدُّ إِلىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ» الخ؛حيث أورد فى سياق الغيبه بالنسبه اليه تعالى من إشعار بأن مكالمته كانت بتوسط نبى كان معه فملكه نظير ملك طالوت فى بنى إسرائيل بإشاره من نبيهم و هدايته.

و قوله: «إِمّٰا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمّٰا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً» أى إما أن تعذب هؤلاء القوم و إما أن تتخذ فيهم أمرا ذا حسن،فحسنا مصدر بمعنى الفاعل قائم مقام موصوفه أو هو وصف للمبالغه،و قد قيل:إن فى مقابله العذاب باتخاذ الحسن إيماء الى ترجيحه و الكلام ترديد خبرى بداعى الاباحه فهو إنشاء فى صوره الإخبار،و المعنى لك أن تعذبهم و لك أن تعفو عنهم كما قيل،لكن الظاهر أنه استخبار عما سيفعله بهم من سياسه أو عفو،و هو الأوفق بسياق الجواب المشتمل على التفصيل بالتعذيب و الإحسان «أَمّٰا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ» الخ؛إذ لو كان قوله: «إِمّٰا أَنْ تُعَذِّبَ» الخ؛حكما تخييريا لكان قوله: «أَمّٰا مَنْ ظَلَمَ» الخ؛تقريرا له و إيذانا بالقبول و لا كثير فائده فيه.

و محصل المعنى:استخبرناه ما ذا تريد أن تفعل بهم من العذاب و الإحسان و قد غلبتهم و استوليت عليهم؟فقال:نعذب الظالم منهم ثم يرد الى ربه فيعذبه العذاب النكر،و نحسن الى المؤمن الصالح و نكلفه بما فيه يسر.

و لم يذكر المفعول فى قوله: «إِمّٰا أَنْ تُعَذِّبَ» بخلاف قوله: «إِمّٰا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً» لأن جميعهم لم يكونوا ظالمين،و ليس من الجائز تعميم العذاب لقوم هذا شأنهم بخلاف تعميم

ص :۷۷

الإحسان لقوم فيهم الصالح و الطالح.

قوله تعالى: أَمّٰا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذٰاباً نُكْراً النكر و المنكر غير المعهود أى يعذبه عذابا لا عهد له به،و لا يحتسبه و يترقبه.

و قد فسر الظلم بالإشراك.و التعذيب بالقتل فمعنى «أَمّٰا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ» أما من أشرك و لم يرجع عن شركه فسوف نقتله،و كأنه مأخوذ من مقابله «مَنْ ظَلَمَ» بقوله: «مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً» لكن الظاهر من المقابله أن يكون المراد بالظالم أعم ممن أشرك و لم يؤمن باللّه أو آمن و لم يشرك لكنه لم يعمل صالحا بل أفسد فى الأرض،و لو لا تقييد مقابله بالإيمان لكان ظاهر الظلم هو الافساد من غير نظر الى الشرك لأن المعهود من سيره الملوك إذا عدلوا أن يطهروا أرضهم من فساد المفسدين،و كذا لا دليل على تخصيص التعذيب بالقتل.

قوله تعالى: وَ أَمّٰا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَلَهُ جَزٰاءً الْحُسْنىٰ الخ؛ «صٰالِحاً» وصف اقيم مقام موصوفه و كذا الحسنى،و «جَزٰاءً» حال أو تمييز أو مفعول مطلق و التقدير:و أما من آمن و عمل عملا صالحا فله المثوبه الحسنى حال لكونه مجزيا أو من حيث الجزاء أو نجزيه جزاء.

و قوله: وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنٰا يُسْراً اليسر بمعنى الميسور وصف اقيم مقام موصوفه و الظاهر أن المراد بالأمر الأمر التكليفى و تقدير الكلام:و سنقول له قولا ميسورا من أمرنا أى نكلفه بما يتيسر له و لا يشق عليه.

قوله تعالى: ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتّٰى إِذٰا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ الخ؛أى ثم هيأ سببا للسير فسار نحو المشرق حتى إذا بلغ الصحراء من الجانب الشرقى فوجد الشمس تطلع على قوم بدويين لم نجعل لهم من دونها سترا.

و المراد بالستر ما يستتر به من الشمس،و هو البناء و اللباس أو خصوص البناء أى كانوا يعيشون على الصعيد من غير أن يكون لهم بيوت يأوون إليها و يستترون بها من الشمس

و عراه لا ـ لباس عليهم،و إسناد ذلك الى اللّه سبحانه فى قوله: «لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ» الخ؛إشاره الى أنهم لم يتنبهوا بعد لذلك و لم يتعلموا بناء البيوت و اتخاذ الخيام و نسج الأثواب و خياطتها.

قوله تعالى: كَذٰلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنٰا بِمٰا لَدَيْهِ خُبْراً الظاهر أن قوله: «كَذٰلِكَ» إشاره الى وصفهم المذكور فى الكلام،و تشبيه الشىء بنفسه مبنيا على دعوى المغايره يفيد نوعا من التأكيد،و قد قيل فى المشار اليه بذلك وجوه أخر بعيده عن الفهم.

و قوله: «وَ قَدْ أَحَطْنٰا بِمٰا لَدَيْهِ خُبْراً» الضمير لذى القرنين،و الجمله حاليه و المعنى أنه اتخذ وسيله السير و بلغ مطلع الشمس و وجد قوما كذا و كذا فى حال أحاط فيها علمنا و خبرنا بما عنده من عده و عده و ما يجريه أو يجرى عليه،و الظاهر أن إحاطه علمه تعالى بما عنده كنايه عن كون ما اختاره و أتى به بهدايه من اللّه و أمر،فما كان يرد و لا يصدر إلا عن هدايه يهتدى بها و أمر يأتمره كما أشار الى مثل هذا المعنى عند ذكر مسيره الى المغرب بقوله: «قُلْنٰا يٰا ذَا الْقَرْنَيْنِ» الخ.

فالآيه أعنى قوله: «وَ قَدْ أَحَطْنٰا» الخ؛فى معناها الكنائى نظيره قوله: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنٰا وَ وَحْيِنٰا (هود۳۷/)،و قوله: أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ (النساء۱۶۶/)،و قوله: وَ أَحٰاطَ بِمٰا لَدَيْهِمْ (الجن۲۸/).

قوله تعالى: ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتّٰى إِذٰا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ الى آخر الآيه؛السد الجبل و كل حاجز يسد طريق العبور و كأن المراد بهما الجبلان،و قوله: «وَجَدَ مِنْ دُونِهِمٰا قَوْماً» أى قريبا منهما،و قوله: «لاٰ يَكٰادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً» كنايه عن بساطتهم و سذاجه فهمهم،و ربما قيل:كنايه عن غرابه لغتهم و بعدها عن اللغات المعروفه عندهم،و لا يخلو عن بعد.

قوله تعالى: قٰالُوا يٰا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ الخ؛الظاهر أن القائلين هم القوم الذين وجدهم من دون الجبلين،و يأجوج و مأجوج جيلان من الناس

ص :۷۹

كانوا يأتونهم من وراء الجبلين فيغيرون عليهم و يعمونهم قتلا و سبيا و نهبا و الدليل عليه السياق بما فيه من ضمائر اولى العقل و عمل السد بين الجبلين و غير ذلك.

و قوله: «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً» الخرج ما يخرج من المال ليصرف فى شىء من الحوائج عرضوا عليه أن يعطوه مالا على أن يجعل بينهم و بين يأجوج و مأجوج سدا يمنع من تجاوزهم و تعديهم عليهم.

قوله تعالى: قٰالَ مٰا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً أصل «مَكَّنِّى» مكننى ثم ادغمت إحدى النونين فى الاخرى،و الردم السد و قيل السد القوى،و على هذا فالتعبير بالردم فى الجواب و قد سألوه سدا إجابه و وعد بما هو فوق ما استدعوه و أملوه.

و قوله: «قٰالَ مٰا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ» استغناء من ذى القرنين عن خرجهم الذى عرضوه عليه على أن يجعل لهم سدا يقول:ما مكننى فيه و أقرنى عليه ربى من السعه و القدره خير من المال الذى تعدوننى به فلا حاجه لى اليه.

و قوله: «فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ» الخ؛القوه ما يتقوى به على الشىء و الجمله تفريع على ما يتحصل من عرضهم و هو طلبهم منه أن يجعل لهم سدا،و محصل المعنى أما الخرج فلا حاجه لى اليه، و أما السد فإن أردتموه فأعينونى بما أتقوى به على بنائه كالرجال و ما يستعمل فى بنائه-و قد ذكر منها زبر الحديد و القطر و النفخ بالمنافخ-أجعل لكم سدا قويا.

قوله تعالى: آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ الى آخر الآيه؛الزبر بالضم فالفتح جمع زبره كغرف و غرفه و هى القطعه،و ساوى بمعنى سوى على ما قيل و قرئ «سوى» و الصدفين تثنيه الصدف و هو أحد جانبى الجبل ذكر بعضهم أنه لا يقال إلا إذا كان هناك جبل آخر يوازيه بجانبه فهو من الأسماء المتضايفه كالزوج و الضعف و غيرهما و القطر النحاس أو الصفر المذاب و إفراغه صبه على الثقب و الخلل و الفرج.

و قوله: «آتُونِی زُبَرَ الْحَدِیدِ» أی أعطونی إیاها لأستعملها فی السد و هی من القوه التی استعانهم فیها،و لعله خصها بالذکر و لم یذکر الحجاره و غیرها من لوازم البناء لأنها الرکن فی استحکام بناء السد فجمله «آتُونِی زُبَرَ الْحَدِیدِ» بدل البعض من الکل من جمله «فَأَعِینُونِی بِقُوَّهٍ» او الکلام بتقدیر قال،و هو کثیر فی القرآن.

و قوله: حَتّٰی إِذٰا سٰاویٰ بَیْنَ الصَّدَفَیْنِ قٰالَ انْفُخُوا فی الکلام إیجاز بالحذف و التقدیر فاعانوه بقوه و آتوه ما طلبه منهم فبنی لهم السد و رفعه حتی إذا سوی بین الصدفین قال:انفخوا.

و قوله: «قٰالَ انْفُخُوا» الظاهر أنه من الإعراض عن متعلق الفعل للدلاله علی نفس الفعل و المراد نصب المنافخ علی السد لإحماء ما وضع فیه من الحدید و إفراغ القطر علی خلله و فرجه.

و قوله: «حَتّٰی إِذٰا جَعَلَهُ نٰاراً قٰالَ» الخ؛فی الکلام حذف و إیجاز،و التقدیر فنفخ حتی إذا جعله أی المنفوخ فیه أو الحدید نارا أی کالنار فی هیئته و حرارته فهو من الاستعاره.

و قوله: قٰالَ آتُونِی أُفْرِغْ عَلَیْهِ قِطْراً أی آتونی قطرا افرغه و أصبه علیه لیسد بذلک خلله و یصیر السد به مصمتا لا ینفذ فیه نافذ.

قوله تعالی: فَمَا اسْطٰاعُوا أَنْ یَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطٰاعُوا لَهُ نَقْباً اسطاع و استطاع واحد،و الظهور العلو و الاستعلاء،و النقب الثقب،قال الراغب فی المفردات:النقب فی الحائط و الجلد کالثقب فی الخشب انتهی و ضمائر الجمع لیأجوج و مأجوج.و فی الکلام حذف و ایجاز،و التقدیر فبنی السد فما استطاع یأجوج و مأجوج أن یعلوه لارتفاعه و ما استطاعوا ان ینقبوه لاستحکامه.

قوله تعالی: قٰالَ هٰذٰا رَحْمَهٌ مِنْ رَبِّی فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ رَبِّی جَعَلَهُ دَکّٰاءَ وَ کٰانَ وَعْدُ رَبِّی حَقًّا الدکاء الدک و هو أشد الدق مصدر بمعنی اسم المفعول،و قیل:

المراد الناقه الدكاء و هی التی لا سنام لها و هو علی هذا من الاستعاره و المراد به خراب السد كما قالوا.

و قوله: «قَالَ هٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّی» أی قال ذو القرنین-بعد ما بنی السد-:هذا أی السد رحمه من ربی أی نعمه و وقایه یدفع به شر یأجوج و مأجوج عن امم من الناس.

و قوله: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّی جَعَلَهُ دَكّاءَ» فی الكلام حذف و إیجاز و التقدیر و تبقی هذه الرحمه الی مجیء وعد ربی فإذا جاء وعد ربی جعله مدكوكا و سوی به الأرض.

و المراد بالوعد إما وعد منه تعالی خاص بالسد أنه سیندك عند اقتراب الساعه فیكون هذا ملحمه أخبر بها ذو القرنین،و إما وعده تعالی العام بقیام الساعه الذی یدك الجبال و یخرب الدنیا،و قد أكد القول بجمله «وَ كٰانَ وَعْدُ رَبِّی حَقًّا» .

قوله تعالی: وَ تَرَكْنٰا بَعْضَهُمْ یَوْمَئِذٍ یَمُوجُ فِی بَعْضٍ الخ؛ظاهر السیاق أن ضمیر الجمع للناس و یؤیده رجوع ضمیر «فَجَمَعْنٰاهُمْ» الی الناس قطعا لأن حكم الجمع عام.

و فی قوله: «بَعْضَهُمْ یَوْمَئِذٍ یَمُوجُ فِی بَعْضٍ» استعاره،و المراد أنهم یضطربون یومئذ من شده الهول اضطراب البحر باندفاع بعضه الی بعض فیرتفع من بینهم النظم و یحكم فیهم الهرج و المرج و یعرض عنهم ربهم فلا یشملهم برحمته،و لا یصلح شأنهم بعنایته.

و الآیه من كلام اللّه سبحانه و لیست من تمام كلام ذی القرنین و الدلیل علیه تغییر السیاق من الغیبه الی التكلم مع الغیر الذی هو سیاق كلامه «إِنّٰا مَكَّنّٰا لَهُ» «قُلْنٰا یٰا ذَا الْقَرْنَیْنِ» ،و لو كان من تمام كلام ذی القرنین لقیل:و ترك بعضهم علی حذاء قوله: «جَعَلَهُ دَكّٰاءَ» .

و قوله: وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ الخ؛هی النفخه الثانیه التی فیها الإحیاء بدلیل قوله:

«فَجَمَعْنٰاهُمْ جَمْعاً وَ عَرَضْنٰا جَهَنَّمَ یَوْمَئِذٍ لِلْكٰافِرِینَ عَرْضاً» .

قوله تعالی: اَلَّذِینَ كٰانَتْ أَعْیُنُهُمْ فِی غِطٰاءٍ عَنْ ذِكْرِی وَ كٰانُوا لاٰ

يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً تفسير للكافرين و هؤلاء هم الذين ضرب اللّه بينهم و بين ذكره سدا حاجزا-و بهذه المناسبه تعرض لحالهم بعد ذكر سد يأجوج و مأجوج-فجعل اعينهم فی غطاء عن ذكره و أخذ استطاعه السمع عن آذانهم فانقطع الطريق بينهم و بين الحق و هو ذكر اللّه.

فإن الحق إنما ينال إما من طريق البصر بالنظر الی آيات اللّه سبحانه و الاهتداء الی ما تدل عليه و تهدی اليه،و إما من طريق السمع باستماع الحكمه و الموعظه و القصص و العبر،و لا بصر لهؤلاء و لا سمع.

قوله تعالی: أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبٰادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيٰاءَ الخ؛الاستفهام للانكار قال فی المجمع:معناه أ فحسب الذين جحدوا توحيد اللّه أن يتخذوا من دونی أربابا ينصرونهم و يدفعون عقابی عنهم قال:و يدل علی هذا المحذوف قوله: «إِنّٰا أَعْتَدْنٰا جَهَنَّمَ لِلْكٰافِرِينَ نُزُلاً» انتهی.

و قوله: إِنّٰا أَعْتَدْنٰا جَهَنَّمَ لِلْكٰافِرِينَ نُزُلاً أی شيئا يتمتعون به عند أول نزولهم الدار الآخره شبه الدار الآخره بالدار ينزلها الضيف و جهنم بالنزل الذی يكرم به الضيف النزيل لدی أول وروده،و يزيد هذا التشبيه لطفا و جمالا ما سيأتی بعد آيتين أنهم لا يقام لهم وزن يوم القيامه فكأنهم لا يلبثون دون ان يدخلوا النار،و فی الآيه من التهكم ما لا يخفی،و كأنما قوبل به ما سيحكی من تهكمهم فی الدنيا بقوله: «وَ اتَّخَذُوا آيٰاتِي وَ رُسُلِي هُزُواً» (۱)(۲).

ص :۸۳

۱- ۱) .الكهف ۸۳-۱۰۲:بحث روائی حول ذی القرنين.

۲- ۲) .الكهف ۸۳-۱۰۲:كلام حول قصه ذی القرنين و هو بحث قرآنی و تاريخی فی فصول(قصه ذی القرنين فی القرآن؛ ذكری ذی القرنين و السد و يأجوج و مأجوج؛من هو ذو القرنين و اين سدّه؛بناء السد؛ياجوج و مأجوج).

[سوره الكهف (۱۸): الآيات ۱۰۳ الى ۱۰۸]

اشاره

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمٰالاً (۱۰۳) اَلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى اَلْحَيٰاهِ اَلدُّنْيٰا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (۱۰۴) أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقٰائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فَلاٰ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ وَزْناً (۱۰۵) ذٰلِكَ جَزٰاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمٰا كَفَرُوا وَ اِتَّخَذُوا آيٰاتِى وَ رُسُلِى هُزُواً (۱۰۶) إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ كٰانَتْ لَهُمْ جَنّٰاتُ اَلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (۱۰۷) خٰالِدِينَ فِيهٰا لاٰ يَبْغُونَ عَنْهٰا حِوَلاً (۱۰۸)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمٰالاً- ظاهر السياق أن الخطاب للمشركين و هو مسوق سوق الكنايه و هم المعنيون بالتوصيف و سيقترب من التصريح فى قوله: «أُولٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقٰائِهِ» فالمنكرون للنبوه و المعاد هم المشركون.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً إنباء بالأخسرين أعمالا و هم الذين عرض فى الآيه السابقه على المشركين أن ينبئهم بهم و يعرفهم إياهم فعرفهم بأنهم الذين ضل سعيهم فى الحياه الدنيا، و ضلال السعى خسران ثم عقبه بقوله: «وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» و بذلك تم كونهم

أخسرين.

قوله تعالى: أُولٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقَائِهِ تعريف ثان و تفسير بعد تفسير للأخسرين أعمالا،و المراد بالآيات-على ما يقتضيه إطلاق الكلمه-آياته تعالى فى الآفاق و الأنفس و ما يأتى به الأنبياء و الرسل من المعجزات لتأييد رسالتهم فالكفر بالآيات كفر بالنبوه،على أن النبى نفسه من الآيات،و المراد بلقاء اللّه الرجوع اليه و هو المعاد.

فآل تعريف الأخسرين أعمالا الى أنهم المنكرون للنبوه و المعاد و هذا من خواص الوثنيين.

قوله تعالى: فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَهِ وَزْناً وجه حبط أعمالهم أنهم لا يعملون عملا لوجه اللّه و لا يريدون ثواب الدار الآخره و سعاده حياتهم و لا أن الباعث لهم على العمل ذكر يوم الحساب و قد مر كلام فى الحبط فى مباحث الأعمال فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

و قوله: «فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَهِ وَزْناً» تفريع على حبط أعمالهم الوزن يوم القيامه بثقل الحسنات على ما يدل عليه قوله تعالى: وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ (الأعراف/۹)،و إذ لا حسنه للحبط فلا ثقل فلا وزن.

قوله تعالى: ذٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ رُسُلِي هُزُواً الإشاره الى ما أورده من وصفهم،و اسم الإشاره خبر لمبتدإ محذوف و التقدير:الأمر ذلك أى حالهم ما وصفناه و هو تأكيد و قوله: «جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ» كلام مستأنف ينبئ عن عاقبه أمرهم.و قوله: «بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ رُسُلِي هُزُواً» فى معنى بما كفروا و ازدادوا كفرا استهزاء آياتى و سلى.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ

الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ـ الفردوس يذكر و يؤنث قيل:هى البستان بالروميه،و قيل:الكرم بالنبطيه و أصله فرداسا،و قيل:جنه الأعناب بالسريانيه،و قيل الجنه بالحبشيه،و قيل:

عربيه و هى الجنه الملتفه بالأشجار و الغالب عليه الكرم.

و قد استفاد بعضهم من عده جنات الفردوس نزلا و قد عد سابقا جهنم للكافرين نزلا أن وراء الجنه و النار من الثواب و العقاب ما لم يوصف بوصف و ربما أيده أمثال قوله تعالى: لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا وَ لَدَيْنٰا مَزِيدٌ (ق۳۵/)و قوله: فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّهِ أَعْيُنٍ (الم السجده۱۷/)،و قوله: وَ بَدٰا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مٰا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ .

قوله تعالى: خٰالِدِينَ فِيهٰا لاٰ يَبْغُونَ عَنْهٰا حِوَلاً البغى الطلب،و الحول التحول،و الباقى ظاهر.

[سوره الكهف (۱۸): آيه ۱۰۹]

اشاره

قُلْ لَوْ كٰانَ اَلْبَحْرُ مِدٰاداً لِكَلِمٰاتِ رَبِّى لَنَفِدَ اَلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمٰاتُ رَبِّى وَ لَوْ جِئْنٰا بِمِثْلِهِ مَدَداً (۱۰۹)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ لَوْ كٰانَ الْبَحْرُ مِدٰاداً لِكَلِمٰاتِ رَبِّى الى آخر الآيه،الكلمه تطلق على الجمله كما تطلق على المفرد و منه قوله تعالى: قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ تَعٰالَوْا إِلىٰ كَلِمَهٍ سَوٰاءٍ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمْ أَلاّٰ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّٰهَ الآيه(آل عمران۶۴/)،و قد استعملت كثيرا فى القرآن الكريم فيما قاله اللّٰه و حكم به كقوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنىٰ عَلىٰ بَنِى إِسْرٰائِيلَ بِمٰا صَبَرُوا (الأعراف۱۳۷/)،و قوله: كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَهُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (يونس۳۳/)،و قوله: وَ لَوْ لاٰ كَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (يونس/ ۱۹)الى غير ذلك من الآيات الكثيره جدا.

و من المعلوم انه تعالی لا یتکلم بشق الفم و إنما قوله فعله و ما یفیضه من وجود کما قال:

إِنَّمٰا قَوْلُنٰا لِشَیْءٍ إِذٰا أَرَدْنٰاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (النحل/۴۰)و إنما تسمی کلمه لکونها آیه داله علیه تعالی و من هنا سمی المسیح کلمه فی قوله: إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اللّٰهِ وَ کَلِمَتُهُ (النساء/۱۷۱).

و من هنا یظهر أنه ما من عین یوجد أو واقعه تقع إلا-و هی من حیث کونها آیه داله علیه کلمه منه إلا-أنها خصت فی عرف القرآن بما دلالته ظاهره لا خفاء فیها و لا بطلان و لا تغییر کما قال: وَ الْحَقَّ أَقُولُ (ص/۸۴)،و قال: مٰا یُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَیَّ (ق/۲۹)،و ذلک کالمسیح علیه السّلام و موارد القضاء المحتوم.

و قوله: وَ لَوْ جِئْنٰا بِمِثْلِهِ مَدَداً أی و لو أمددنا ببحر آخر لنفد أیضا قبل أن تنفد کلمات ربی.

[سوره الکهف (۱۸): آیه ۱۱۰]

اشاره

قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُوحیٰ إِلَیَّ أَنَّمٰا إِلٰهُکُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَمَنْ کٰانَ یَرْجُوا لِقٰاءَ رَبِّهِ فَلْیَعْمَلْ عَمَلاً صٰالِحاً وَ لاٰ یُشْرِکْ بِعِبٰادَهِ رَبِّهِ أَحَداً (۱۱۰)

بیان:

قوله تعالی: قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُوحیٰ إِلَیَّ أَنَّمٰا إِلٰهُکُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ القصر الأول قصره صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی البشریه المماثله لبشریه الناس لا یزید علیهم بشیء و لا یدعبه لنفسه قبال ما کانوا یزعمون أنه إذا ادعی النبوه فقد ادعی کینونه إلهیه و قدره غیبیه و لذا کانوا یقترحون علیه بما لا یعلمه إلا اللّه و لا یقدر علیه إلا اللّه لکنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم نفی ذلک کله بأمر اللّه عن

نفسه و لم يثبت لنفسه إلا أنه يوحى اليه.

و القصر الثانى قصر الإله الذى هو إلههم فى إله واحد و هو التوحيد الناطق بأن إله الكل إله واحد.

و قوله: فَمَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ الخ؛مشتمل على إجمال الدعوه الدينيه و هو العمل الصالح لوجه اللّه وحده لا شريك له و قد فرعه على رجاء لقاء الرب تعالى و هو الرجوع اليه إذ لو لا الحساب و الجزاء لم يكن للأخذ بالدين و التلبس بالاعتقاد و العمل موجب يدعو اليه كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا نَسُوا يَوْمَ الْحِسٰابِ (ص٢۶/).

و قد رتب على الاعتقاد بالمعاد العمل الصالح و عدم الإشراک بعباده الرب لأن الاعتقاد بالوحدانيه مع الاشراک فى العمل متناقضان لا يجتمعان فالإله تعالى لو کان واحدا فهو واحد فى جميع صفاته و منها المعبوديه لا شريک له فيها.

و قد رتب الأخذ بالدين على رجاء المعاد دون القطع به لأن احتماله کاف فى وجوب التحذر منه لوجوب دفع الضرر المحتمل،و ربما قيل:إن المراد باللقاء لقاء الکرامه و هو مرجو لا مقطوع به.

و قد فرع رجاء لقاء اللّه على قوله: «أَنَّمٰا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ» لأن رجوع العباد الى اللّه سبحانه من تمام معنى الالوهيه فله تعالى کل کمال مطلوب و کل وصف جميل و منها فعل الحق و الحکم بالعدل و هما يقتضيان رجوع عباده اليه و القضاء بينهم قال تعالى: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا بٰاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّٰارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّٰارِ (ص٢٨/).

سوره مریم مکیه و هی ثمان و تسعون آیه

اشاره

[سوره مریم (۱۹): الآیات ۱ الی ۱۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;کهیعص (۱) ذِکْرُ رَحْمَتِ رَبِّکَ عَبْدَهُ زَکَرِیّٰا (۲) إِذْ نٰادیٰ رَبَّهُ نِدٰاءً خَفِیًّا (۳) قٰالَ رَبِّ إِنِّی وَهَنَ اَلْعَظْمُ مِنِّی وَ اِشْتَعَلَ اَلرَّأْسُ شَیْباً وَ لَمْ أَکُنْ بِدُعٰائِکَ رَبِّ شَقِیًّا (۴) وَ إِنِّی خِفْتُ اَلْمَوٰالِیَ مِنْ وَرٰائِی وَ کٰانَتِ اِمْرَأَتِی عٰاقِراً فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا (۵) یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ وَ اِجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیًّا (۶) یٰا زَکَرِیّٰا إِنّٰا نُبَشِّرُکَ بِغُلاٰمٍ اِسْمُهُ یَحْییٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا (۷) قٰالَ رَبِّ أَنّٰی یَکُونُ لِی غُلاٰمٌ وَ کٰانَتِ اِمْرَأَتِی عٰاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ اَلْکِبَرِ عِتِیًّا (۸) قٰالَ کَذٰلِکَ قٰالَ رَبُّکَ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُکَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَکُ شَیْئاً (۹) قٰالَ رَبِّ اِجْعَلْ لِی آیَةً قٰالَ آیَتُکَ أَلاّٰ تُکَلِّمَ اَلنّٰاسَ ثَلاٰثَ لَیٰالٍ سَوِیًّا (۱۰) فَخَرَجَ عَلیٰ قَوْمِهِ مِنَ اَلْمِحْرٰابِ فَأَوْحیٰ إِلَیْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُکْرَةً وَ عَشِیًّا (۱۱) یٰا یَحْییٰ خُذِ اَلْکِتٰابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَیْنٰاهُ اَلْحُکْمَ صَبِیًّا (۱۲) وَ حَنٰاناً مِنْ لَدُنّٰا وَ زَکٰاةً وَ کٰانَ تَقِیًّا (۱۳) وَ بَرًّا بِوٰالِدَیْهِ وَ لَمْ یَکُنْ جَبّٰاراً عَصِیًّا (۱۴) وَ سَلاٰمٌ عَلَیْهِ یَوْمَ وُلِدَ وَ یَوْمَ یَمُوتُ وَ یَوْمَ یُبْعَثُ حَیًّا (۱۵)

ص: ۸۹

بیان:

غرض السوره علی ما ینبئ عنه قوله تعالی فی آخرها: «فَإِنَّمٰا یَسَّرْنٰاهُ بِلِسٰانِکَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِینَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا» الخ؛هو التبشیر و الإنـذار غیر أنه سـاق الکلاـم فی ذلـک سوقـا بـدیعا فأشـار أولاـ الی قصه زکریا و یحیی و قصه مریم و عیسـی و قصه إبراهیم و إسـحاق و یعقوب و قصه موسـی و هارون و قصه إسـماعیل و قصه إدریس و ما خصّهم به من نعمه الولایه کالنبوه و الصـدق و الإخلاـص ثم ذکر أن هؤلاـء الـذین أنعم علیهم کـان المعروف من حالهم الخضوع و الخشوع لربهم لکن أخلافهم أعرضوا عن ذلک و أهملوا أمر التوجه الی ربهم و اتبعوا الشهوات فسوف یلقون غیا و یضل عنهم الرشد إلا أن یتوب منهم تائب و یرجع الی ربه فإنه

ص :۹۰

يلحق بأهل النعمه.

ثم ذكر نبذه من هفوات أهل الغى و تحكماتهم كنفى المعاد،و قولهم:اتخذ اللّه ولدا،و عبادتهم الأصنام،و ما يلحقهم بذلك من النكال و العذاب.

فالبيان فى السوره أشبه شىء ببيان المدعى بإيراد أمثلته كأنه قيل:إن فلانا و فلانا و فلانا الذين كانوا أهل الرشد و الموهبه كانت طريقتهم الانقلاع عن شهوات النفس و التوجه الى ربهم و سبيلهم الخضوع و الخشوع إذا ذكّروا بآيات ربهم فهذا طريق الإنسان الى الرشد و النعمه لكن أخلافهم تركوا هذا الطريق بالإعراض عن صالح العمل،و الإقبال على مذموم الشهوه و لا يؤديهم ذلك إلا الى الغى خلاف الرشد،و لا يقرّهم إلا على باطل القول كنفى الرجوع الى اللّه و إثبات الشركاء للّه و سدّ طريق الدعوه و لا يهديهم إلا الى النكال و العذاب.

فالسوره كما ترى تفتح بذكر أمثله ثم تعقّبها باستخراج المعنى الكلى المطلوب بيانه و ذلك قوله: «أُولٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ» الآيات،فالسوره تقسّم الناس الى ثلاث طوائف:الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين و أهل الإجتباء و الهدى.و أهل الغى،و الذين تابوا و آمنوا و عملوا صالحا و هم ملحقون بأهل النعمه و الرشد ثم تذكر ثواب التائبين المسترشدين و عذاب الغاوين و هم قرناء الشياطين و أولياؤهم.

و السوره مكيه بلا ريب تدل على ذلك مضامين آياتها و قد نقل على ذلك اتفاق المفسرين.

قوله تعالى: كهيعص قد تقدم فى تفسير أول سوره الأعراف أن السور القرآنيه المصدّره بالحروف المقطعه لا تخلو من ارتباط بين مضامينها و بين تلك الحروف الحروف المشتركه تكشف عن مضامين مشتركه.

و يؤيد ذلك ما نجده من المناسبه و المجانسه بين هذه السوره و سوره ص فى سرد قصص الأنبياء،و سيوافيك بحث جامع إن شاء اللّه فى روابط مقطّعات الحروف و مضامين السور التى

صدرت بها،و كذا ما بين السور المشتركه فى بعض هذه الحروف كهذه السوره و سوره يس و قد اشتركتا فى الياء،و هذه السوره و سوره الشورى و قد اشتركتا فى العين.

قوله تعالى: ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيّا ظاهر لسياق أن الذكر خبر لمبتدإ محذوف و المصدر بمعنى المفعول،و المآل بحسب التقدير:هذا خبر رحمه ربك المذكور،و المراد بالرحمه استجابته سبحانه دعاء زكريا على التفصيل الذى قصّه بدليل قوله تلوا: «إِذْ نادىٰ رَبَّهُ» .

قوله تعالى: إِذْ نادىٰ رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا الظرف متعلق بقوله: «رَحْمَهِ رَبِّكَ» و النداء و المناداه الجهر بالدعوه خلاف المناجاه،و لا ينافيه توصيفه بالخفاء لإمكان الجهر بالدعوه فى خلاء من الناس لا يسمعون معه الدعوه،و يشعر بذلك قوله الآتى: «فَخَرَجَ عَلىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ» .

قوله تعالى: قٰالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى الى آخر الآيه؛تمهيد لما سيسأله و هو قوله: «فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا» .

و قد قدم قوله: «رَبِّ» للاسترحام فى مفتتح الدعاء،و التأكيد بأن للدلاله على تحققه بالحاجه،و الوهن هو الضعف و نقصان القوه و قد نسبه الى العظم لأنه الدعامه التى يعتمد عليها البدن فى حركته و سكونه،و لم يقل:العظام منى و لا عظمى للدلاله على الجنس و ليأتى بالتفصيل بعد الإجمال.

و قوله: وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً الاشتعال انتشار شواظ النار و لهيبها فى الشىء المحترق قال فى المجمع:و قوله: «وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً» من أحسن الاستعارات و المعنى اشتعل الشيب فى الرأس و انتشر،كما ينتشر شعار النار،و كأن المراد بالشعار الشواظ و اللهيب.

و قوله: وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعٰائِكَ رَبِّ شَقِيًّا الشقاوه خلاف السعاده،و كأن المراد بها

الحرمان من الخير و هو لازم الشقاوه أو هو هی،و قوله: «بِدُعٰائِکَ» متعلق بالشقی و الباء فیه للسببیه أو بمعنی فی و المعنی و کنت سعیدا بسبب دعائی إیاک کلما دعوتک استجبت لی من غیر أن تشقینی و تحرمنی،أو لم أکن محروما خائبا فی دعائی إیاک عودتنی الإجابه إذا دعوتک و التقبّل إذا سألتک،و الدعاء علی أی حال مصدر مضاف الی المفعول.

و فی تکرار قوله: «رَبِّ» و وضعه متخللا بین اسم کان و خبره فی قوله: «وَ لَمْ أَکُنْ بِدُعٰائِکَ رَبِّ شَقِیًّا» من البلاغه ما لا یقدّر بقدر،و نظیره قوله: «وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیًّا» .

قوله تعالی: وَ إِنِّی خِفْتُ الْمَوٰالِیَ مِنْ وَرٰائِی وَ کٰانَتِ امْرَأَتِی عٰاقِراً تتمه التمهید الذی قدمه لدعائه،و المراد بالموالی العمومه و بنو العم،و قیل:الکلاله و قیل:العصبه، و قیل:بنو العم فحسب،و قیل:الورثه،و کیف کان فهم غیر الأولاد من صلب و المراد خفت فعل الموالی من ورائی أی بعد موتی و کان علیه السّلام یخاف أن یموت بلا عقب من نسله فیرثوه،و هو کنایه عن خوفه أن یموت بلا عقب.

و قوله: «وَ کٰانَتِ امْرَأَتِی عٰاقِراً» العاقر المرأه التی لا تلد یقال:امرأه عاقر لا تلد و رجل عاقر لا یولد له ولد.و فی التعبیر بقوله: «وَ کٰانَتِ امْرَأَتِی» دلاله علی أن امرأته علی کونها عاقرا جازت حین الدعاء سن الولاده.

و ظاهر عدم تکرار إن فی قوله: «وَ کٰانَتِ امْرَأَتِی» الخ؛أن الجمله حالیه و مجموع الکلام أعنی قوله: «وَ إِنِّی خِفْتُ -الی قوله- عٰاقِراً» فصل واحد أرید به أن کون امرأتی عاقرا اقتضی أن أخاف الموالی من ورائی و بعد وفاتی،فمجموع ما مهّده للدعاء یئول الی فصلین أحدهما أن اللّه سبحانه عوّده الاستجابه مدی عمره حتی شاخ و هرم و الآخر أنه خاف الموالی بعد موته من جهه عقر امرأته،و یمکن تصویر الکلام فصولا ثلاثه بأخذ کل من شیخوخته و عقر امرأته فصلا مستقلا.

قوله تعالی: فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ

رَبِّ رَضِيًّا هذا هو الدعاء،و قد قيّد الموهبه الإلهيه التی سألها بقوله: «مِنْ لَدُنْکَ» لکونه آیسا من الأسباب العادیه التی کانت عنده و هی نفسه و قد صار شیخا هرما ساقط القوی.

و امرأته و قد شاخت و کانت قبل ذلک عاقرا.

و ولی الإنسان من یلی أمره،و ولی المیت هو الذی یقوم بأمره و یخلفه فیما ترک،و آل الرجل خاصته الذین یئول الیه أمرهم کولده و أقاربه و أصحابه و قیل:أصله أهل،و المراد بیعقوب علی ما قیل یعقوب بن إسحاق بن إبراهیم علیهم السّلام،و قیل هو یعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان أبی مریم و کانت امرأه زکریا أخت مریم و علی هذا یکون معنی قوله: «یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ» یرثنی و یرث امرأته و هی بعض آل یعقوب،و الأشبه حینئذ أن تکون «مِنْ» فی قوله: «مِنْ آلِ یَعْقُوبَ» للتبعیض و إن صح کونها ابتدائیه أیضا.

و قوله: «وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیًّا» الرضی بمعنی المرضی،و إطلاق الرضا یقتضی شموله للعلم و العمل جمیعا فالمراد به المرضی فی اعتقاده و عمله أی اجعله رب محلی بالعلم النافع و العمل الصالح (۱).

قوله تعالی: یٰا زَکَرِیّٰا إِنّٰا نُبَشِّرُکَ بِغُلاٰمٍ اسْمُهُ یَحْییٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا فی الکلام حذف إیجازا،و التقدیر«فاستجبنا له و نادیناه یا زکریا إنا نبشرک»الخ؛ و قد ورد فی سوره الأنبیاء فی القصه فَاسْتَجَبْنٰا لَهُ وَ وَهَبْنٰا لَهُ یَحْییٰ (الأنبیاء۹۰/)،و فی سوره آل عمران فَنٰادَتْهُ الْمَلاٰئِکَهُ وَ هُوَ قٰائِمٌ یُصَلِّی فِی الْمِحْرٰابِ أَنَّ اللّٰهَ یُبَشِّرُکَ بِیَحْییٰ (آل عمران۳۹/).

و تشهد آیه آل عمران علی أن قوله: «یٰا زَکَرِیّٰا إِنّٰا نُبَشِّرُکَ» الخ؛کان وحیا بتوسّط الملائکه فهو قوله تعالی أدّته الملائکه الی زکریا،و ذلک فی قوله ثانیا: «قٰالَ کَذٰلِکَ قٰالَ رَبُّکَ هُوَ

۱- ۱) .مریم ۱-۱۵:بحث حول دعا و زکریا من اللّه فی طلب الذریه.

عَلَيَّ هَيِّنٌ» الخ؛أظهر.

و فی الآیه دلاله علی أن اللّه سبحانه هو الذی سمّاه یحیی،و هو قوله: «اسْمُهُ یَحْییٰ» و أنه لم یسمّ بهذا الاسم قبله أحد،و هو قوله: «لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا» أی شریکا فی الاسم.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ أَنّٰی یَکُونُ لِی غُلاٰمٌ وَ کٰانَتِ امْرَأَتِی عٰاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْکِبَرِ عِتِیًّا قال الراغب:الغلام الطارّ الشارب (۱)یقال:غلام بیّن الغلومه و الغلومیه،قال تعالی: «أَنّٰی یَکُونُ لِی غُلاٰمٌ» .قال:و اغتلم الغلام:إذا بلغ حدّ الغلمه.انتهی.

و قال فی المجمع:العتیّ و العسیّ بمعنی یقال:عتا یعتو عتوّا و عتیّا و عسا یعسو عسوّا و عسیّا فهو عات و عاس إذا غیّره طول الزمان الی حال الیبس و الجفاف.انتهی.و بلوغ العتیّ کنایه عن بطلان شهوه النکاح و انقطاع سبیل الإیلاد.

و استفهامه علیه السّلام عن کون الغلام مع عقر امرأته و بلوغه العتیّ مع کره الأمرین فی ضمن دعائه إذ قال: «رَبِّ إِنِّی وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّی» الخ؛مبنی علی استعجاب البشری و استفسار خصوصیاتها دون الاستبعاد و الإنکار فإن من بشّر بما لا یتوقعه لتوفر الموانع و فقدان الأسباب تضطرب نفسه بادئ ما یسمعها فیأخذ فی السؤال عن خصوصیات ما بشّر به لیطمئن قلبه و یسکن اضطراب نفسه و هو مع ذلک علی یقین من صدق ما بشّر به فإن الخطورات النفسانیه ربما لا تنقطع مع وجود العلم و الإیمان و قد تقدم نظیره فی تفسیر قوله تعالی: وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِیمُ رَبِّ أَرِنِی کَیْفَ تُحْیِ الْمَوْتیٰ قٰالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قٰالَ بَلیٰ وَ لٰکِنْ لِیَطْمَئِنَّ قَلْبِی (البقره۲۶۰/).

قوله تعالی: قٰالَ کَذٰلِکَ قٰالَ رَبُّکَ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُکَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَکُ شَیْئاً جواب عما استفهمه و استفسره لتطیب به نفسه،و یسکن جأشه،و ضمیر قال

ص :۹۵

۱- ۱) .غلام طر شاربه من باب نصر و ضرب:أی طلع.

راجع الیه تعالی،و قوله: «كَذٰلِكَ» مقول القول و هو خبر مبتدإ محذوف و التقدير«هو كذلك» أی الأمر واقع علی ما أخبرناك به فی البشری لا ریب فیه.

و قوله: «قٰالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» مقول ثان لقال الأول،و هو بمنزله التعلیل لقوله:

«كَذٰلِكَ» یرتفع به أی استعجاب فلا یتخلف عن إرادته مراد و إنما أمره إذا أراد شیئا أن یقول له کن،فخلق غلام من رجل بالغ فی الکبر و امرأه عاقر هیّن سهل علیه.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قٰالَ آيَتُكَ أَلاّٰ تُكَلِّمَ النّٰاسَ ثَلاٰثَ لَيٰالٍ سَوِيًّا قد تقدم فی القصه من سوره آل عمران أن إلقاء البشری الی زکریا کان بتوسط الملائکه «فَنٰادَتْهُ الْمَلاٰئِكَةُ وَ هُوَ قٰائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرٰابِ أَنَّ اللّٰهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيىٰ» ،و هو علیه السّلام إنما سأل الآیه لیتمیز به الحق من الباطل فتدله علی أن ما سمعه من النداء وحی ملکی لا إلقاء شیطانی و لذلک أجیب بآیه إلهیه لا سبیل للشیطان إلیها و هو أن لا ینطلق لسانه ثلاثه أیام إلا بذکر اللّه سبحانه فإن الأنبیاء معصومون بعصمه إلهیه لیس للشیطان أن یتصرف فی نفوسهم.

فقوله: «قٰالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً» سؤال لآیه ممیزه،و قوله: «قٰالَ آيَتُكَ أَلاّٰ تُكَلِّمَ النّٰاسَ ثَلاٰثَ لَيٰالٍ سَوِيًّا» إجابه ما سأل،و هو أن یعتقل لسانه ثلاثه أیام من غیر ذکر اللّه و هو سویّ أی صحیح سلیم من غیر مرض و آفه.

فالمراد بعدم تکلیم الناس عدم القدره علی تکلیمهم،من قبیل إطلاق اللازم و إراده الملزوم کنایه،و المراد بثلاث لیال ثلاث لیال بأیامها و هو شائع فی الاستعمال فکان علیه السّلام یذکر اللّه فنون الذکر و لا یقدر علی تکلیم الناس إلا رمزا و إشاره،و الدلیل علی ذلک کله قوله تعالی فی القصه من سوره آل عمران: قٰالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قٰالَ آيَتُكَ أَلاّٰ تُكَلِّمَ النّٰاسَ ثَلاٰثَةَ أَيّٰامٍ إِلاّٰ رَمْزاً وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكٰارِ (آل عمران/۴۱).

قوله تعالی: فَخَرَجَ عَلىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرٰابِ فَأَوْحىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا قال فی المجمع:و سمی المحراب محرابا لأن المتوجه الیه فی صلاته کالمحارب

الشیطان علی صلاته،و الأصل فیه مجلس الأشراف الذی یحارب دونه ذبا عن أهله.و قال:

الإیحاء إلقاء المعنی الی النفس فی خفیه بسرعه،و أصله من قولهم:الوحی الوحی أی الإسراع الإسراع.انتهی و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالی: یٰا یَحْییٰ خُذِ الْکِتٰابَ بِقُوَّهٍ قد تکرر فی کلامه تعالی ذکر أخذ الکتاب بقوه و الأمر به کقوله: فَخُذْهٰا بِقُوَّهٍ وَ أْمُرْ قَوْمَکَ یَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهٰا (الأعراف/ ۱۴۵)،و قوله: خُذُوا مٰا آتَیْنٰاکُمْ بِقُوَّهٍ وَ اذْکُرُوا مٰا فِیهِ (البقره/۶۳)،و قوله: خُذُوا مٰا آتَیْنٰاکُمْ بِقُوَّهٍ وَ اسْمَعُوا (البقره/۹۳)الی غیر ذلک من الآیات،و السابق الی الذهن من سیاقها أن المراد من أخذ الکتاب بقوه التحقق بما فیه من المعارف و العمل بما فیه من الأحکام بالعنایه و الاهتمام.

قوله تعالی: وَ آتَیْنٰاهُ الْحُکْمَ صَبِیًّا وَ حَنٰاناً مِنْ لَدُنّٰا وَ زَکٰاهً فسّر الحکم بالفهم و بالعقل و بالحکمه و بمعرفه آداب الخدمه و بالفراسه الصادقه و بالنبوه،لکن المستفاد من مثل قوله تعالی: وَ لَقَدْ آتَیْنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ الْکِتٰابَ وَ الْحُکْمَ وَ النُّبُوَّهَ (الجاثیه/۱۶)، و قوله: أُولٰئِکَ الَّذِینَ آتَیْنٰاهُمُ الْکِتٰابَ وَ الْحُکْمَ وَ النُّبُوَّهَ (الأنعام/۸۹)،و غیرهما من الآیات أن الحکم غیر النبوه،فتفسیر الحکم بالنبوه لیس علی ما ینبغی،و کذا تفسیره بمعرفه آداب الخدمه أو بالفراسه الصادقه أو بالعقل إذ لا دلیل من جهه اللفظ و لا من جهه المعنی علی شیء من ذلک.

نعم ربما یستأنس من مثل قوله: یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیٰاتِکَ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتٰابَ وَ الْحِکْمَهَ وَ یُزَکِّیهِمْ (البقره/۱۲۹)،و قوله: یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیٰاتِهِ وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتٰابَ وَ الْحِکْمَهَ (الجمعه/ ۲)،-و الحکمه بناء نوع من الحکم-أن المراد بالحکم العلم بالمعارف الحقه الإلهیه و انکشاف ما هو تحت أستار الغیب بالنسبه الی الأنظار العادیه و لعله الیه مرجع تفسیر الحکم بالفهم.و علی هذا یکون المعنی إنا أعطیناک العلم بالمعارف الحقیقیه و هو صبی لم یبلغ

الحلم بعد.

و قوله: «وَ حَنٰاناً مِنْ لَدُنّٰا» معطوف على الحكم أى و أعطيناه حنانا من لدنّا و الحنان:

العطف و الإشفاق،قال الراغب:و لكون الإشفاق لا ينفكّ من الرحمه عبّر عن الرحمه بالحنان

فى قوله تعالى: «وَ حَنٰاناً مِنْ لَدُنّٰا» و منه قيل:الجنّان المنّان و حنانيك إشفاقا بعد إشفاق.

و فسّر الحنان فى الآيه بالرحمه و لعل المراد بها النبوه أو الولايه كقول نوح عليه السّلام وَ آتٰانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ (هود/٢٨)،و قول صالح: وَ آتٰانِى مِنْهُ رَحْمَةً (هود/٦٣).

و فسّر بالمحبه و لعل المراد بها محبه الناس له على حد قوله: وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى (طه/٣٩)،أى كان لا يراه أحد إلا أحبّه.

و فسّر بتعطّفه على الناس و رحمته و رقّته عليهم فكان رءوفا بهم ناصحا لهم يهديهم الى اللّه و يأمرهم بالتوبه و لذا سمّى فى العهد الجديد بيوحنّا المعمّد.

و فسّر بحنان اللّه عليه كان إذا نادى ربه لبّاه اللّه سبحانه على ما فى الخبر فيدلّ على أنه كان للّه سبحانه حنان خاص به على ما يفيده تنكير الكلمه.

و الذى يعطيه السياق و خاصه بالنظر الى تقييد الحنان بقوله: «مِنْ لَدُنّٰا» -و الكلمه إنما تستعمل فيما لا مجرى فيه للأسباب الطبيعيه العاديه أو لا نظر فيه إليها-أن المراد به نوع عطف و انجذاب خاص إلهى بينه و بين ربه غير مألوف و بذلك يسقط التفسير الثانى و الثالث ثم تعقبه بقوله: «زَكٰاةً» و الأصل فى معناه النمو الصالح،و هو لا يلائم المعنى الأول كثير ملاءمه فالمراد به إما حنان من اللّه سبحانه اليه بتولى أمره و العنايه بشأنه و هو ينمو عليه،و إما حنان و انجذاب منه الى ربه فكان ينمو عليه،و النموّ نمو الروح.

قوله تعالى: وَ كٰانَ تَقِيًّا وَ بَرًّا بِوٰالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبّٰاراً عَصِيًّا التقى صفه مشبّهه من التقوى مثال واوى و هو الورع عن محارم اللّه و التجنب عن اقتراف المناهى المؤدّى الى عذاب اللّه،و البر بفتح الباء صفه مشبهه من البر بكسر الباء و هو الإحسان،و الجبار قال

فی المجمع:الـذی لاـ یری لأحـد علیه حقـا و فیه جبریه و جـبروت،و الجبـار من النخـل مـا فـات الیـد.انتهی.فیئول معنـاه الی أنه المسـتکبر المسـتعلی الذی یحمّل الناس ما أراد و لا یتحمل عنهم،و یؤیده تعقیبه بالعصـیّ فإنه صفه مشبهه من العصیان و الأصل فی معناه الامتناع.

قوله تعالی: وَ سَـلاٰمٌ عَلَیْهِ یَوْمَ وُلِدَ وَ یَوْمَ یَمُوتُ وَ یَوْمَ یُبْعَثُ حَیًّا السـلام قریب المعنی من الأمن،و الذی یظهر من موارد استعمالها فی الفرق بینهمـا أن الأمن خلوّ المحل مما یکرهه الإنسان و یخاف منه و السـلام کون المحل بحیث کل ما یلقاه الإنسان فیه فهو یلائمه من غیر أن یکرهه و یخاف منه.

و تنکیر السـلام لإفاده التفخیم أی سـلام فخیم علیه مما یکرهه فی هـذه الأیام الثلاثه التی کل واحـد منها مفتتح عالم من العوالم التی یدخلها الإنسان و یعیش فیها فسـلام علیه یوم ولد فلا یمسه مکروه فی الدنیا یزاحم سعادته،و سلام علیه یوم یموت،فسیعیش فی البرزخ عیشه نعیمه،و سلام علیه یوم یبعث حیّا فیحیی فیها بحقیقه الحیاه و لا نصب و لا تعب.

و اختلاف التعبیر فی قوله: «وُلِدَ» «یَمُوتُ» «یُبْعَثُ» لتمثیل أن التسلیم فی حال حیاته علیه السّلام (۱)(۲)(۳).

[سوره مریم (۱۹): الآیات ۱۶ الی ۴۰]

اشاره

وَ اُذْکُرْ فِی اَلْکِتٰابِ مَرْیَمَ إِذِ اِنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهٰا مَکٰاناً شَرْقِیًّا (۱۶) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجٰاباً فَأَرْسَلْنٰا إِلَیْهٰا رُوحَنٰا فَتَمَثَّلَ لَهٰا بَشَراً سَوِیًّا (۱۷) قٰالَتْ إِنِّی أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْکَ إِنْ کُنْتَ تَقِیًّا (۱۸) قٰالَ إِنَّمٰا أَنَا رَسُولُ رَبِّکِ لِأَهَبَ لَکِ غُلاٰماً زَکِیًّا (۱۹) قٰالَتْ أَنّٰی یَکُونُ لِی غُلاٰمٌ وَ لَمْ یَمْسَسْنِی بَشَرٌ وَ لَمْ أَکُ بَغِیًّا (۲۰) قٰالَ کَذٰلِکِ قٰالَ رَبُّکِ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آیَهً لِلنّٰاسِ وَ رَحْمَهً مِنّٰا وَ کٰانَ أَمْراً مَقْضِیًّا (۲۱) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَکٰاناً قَصِیًّا (۲۲) فَأَجٰاءَهَا اَلْمَخٰاضُ إِلیٰ جِذْعِ اَلنَّخْلَهِ قٰالَتْ یٰا لَیْتَنِی مِتُّ قَبْلَ هٰذٰا وَ کُنْتُ نَسْیاً مَنْسِیًّا (۲۳) فَنٰادٰاهٰا مِنْ تَحْتِهٰا أَلاّٰ تَحْزَنِی قَدْ جَعَلَ رَبُّکِ تَحْتَکِ سَرِیًّا (۲۴) وَ هُزِّی إِلَیْکِ بِجِذْعِ اَلنَّخْلَهِ تُسٰاقِطْ عَلَیْکِ رُطَباً جَنِیًّا (۲۵) فَکُلِی وَ اِشْرَبِی وَ قَرِّی عَیْناً فَإِمّٰا تَرَیِنَّ مِنَ اَلْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِی إِنِّی نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُکَلِّمَ اَلْیَوْمَ إِنْسِیًّا (۲۶) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهٰا تَحْمِلُهُ قٰالُوا یٰا مَرْیَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَیْئاً فَرِیًّا (۲۷) یٰا أُخْتَ هٰارُونَ مٰا کٰانَ أَبُوکِ اِمْرَأَ سَوْءٍ وَ مٰا کٰانَتْ أُمُّکِ بَغِیًّا (۲۸) فَأَشٰارَتْ إِلَیْهِ قٰالُوا کَیْفَ نُکَلِّمُ مَنْ کٰانَ فِی اَلْمَهْدِ صَبِیًّا (۲۹) قٰالَ إِنِّی عَبْدُ اَللّٰهِ آتٰانِیَ اَلْکِتٰابَ وَ جَعَلَنِی نَبِیًّا (۳۰) وَ جَعَلَنِی مُبٰارَکاً أَیْنَ مٰا کُنْتُ وَ أَوْصٰانِی بِالصَّلاٰهِ وَ اَلزَّکٰاهِ مٰا دُمْتُ حَیًّا (۳۱) وَ بَرًّا بِوٰالِدَتِی وَ لَمْ یَجْعَلْنِی جَبّٰاراً شَقِیًّا (۳۲) وَ اَلسَّلاٰمُ عَلَیَّ یَوْمَ وُلِدْتُ وَ یَوْمَ أَمُوتُ وَ یَوْمَ أُبْعَثُ حَیًّا (۳۳) ذٰلِکَ عِیسَی اِبْنُ مَرْیَمَ قَوْلَ اَلْحَقِّ اَلَّذِی فِیهِ یَمْتَرُونَ (۳۴) مٰا کٰانَ لِلّٰهِ أَنْ یَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحٰانَهُ إِذٰا قَضیٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۳۵) وَ إِنَّ اَللّٰهَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِیمٌ (۳۶) فَاخْتَلَفَ اَلْأَحْزٰابُ مِنْ بَیْنِهِمْ فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۳۷) أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ یَوْمَ یَأْتُونَنٰا لٰکِنِ اَلظّٰالِمُونَ اَلْیَوْمَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ (۳۸) وَ أَنْذِرْهُمْ یَوْمَ اَلْحَسْرَهِ إِذْ قُضِیَ اَلْأَمْرُ وَ هُمْ فِی غَفْلَهٍ وَ هُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (۳۹) إِنّٰا نَحْنُ نَرِثُ اَلْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَیْهٰا وَ إِلَیْنٰا یُرْجَعُونَ (۴۰)

۱- ۱) .مریم ۱-۱۵:بحث روائی حول الحروف المقطعه(کهیعص)،دعاء زکریا علیه السّلام،قصه یحیی علیه السّلام.

۲- ۲) .مریم ۱-۱۵:قصه زکریا فی القرآن(وصفه،تاریخ حیاته).

۳- ۳) .مریم ۱-۱۵:قصه یحیی علیه السّلام فی القرآن(الثناء علیه،تاریخ حیاته،قصه زکریا و یحیی فی الانجیل).

بیان:

قوله تعالی: وَ اذْکُرْ فِی الْکِتٰابِ مَرْیَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهٰا مَکٰاناً شَرْقِیًّا المراد بالکتاب القرآن أو السوره فهی جزء من الکتاب و جزء الکتاب کتاب و الاحتمالان من حیث المآل واحد فلا کثیر جدوی فی اصرار بعضهم علی تقدیم الاحتمال الثانی و تعیینه.

و النبذ-علی ما ذکره الراغب-طرح الشیء الحقیر لا یعبأ به یقال نبذه إذا طرحه مستحقرا له غیر معتن به،و الانتباذ الاعتزال من الناس و الانفراد.

و مریم هی ابنه عمران أمّ المسیح علیهما السّلام،و المراد بمریم نبأ مریم و قوله:«إذا»ظرف له،

ص:101

و قوله: «انْتَبَذَتْ» الى آخر القصه تفضيل المظروف الذى هو نبأ مريم،و المعنى و اذكر يا محمد فى هذا الكتاب نبأ مريم حين اعتزلت من أهلها فى مكان شرقى،و كأنه شرقى المسجد.

قوله تعالى: فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا الحجاب ما يحجب الشىء للّه و يستره عن غيره،و كأنها اتخذت الحجاب من دون أهلها لتنقطع عنهم و تعتكف للعباده كما يشير اليه قوله: كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً (آل عمران/٣٧)و قد مر الكلام فى تفسير الآيه.

و أما قوله: إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَهُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَهٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ -الى أن قال- قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذٰلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران/٤٧).

و إضافه الروح اليه تعالى للتشريف مع إشعار بالتعظيم،و قد تقدم كلام فى معنى الروح فى تفسير قوله تعالى: يَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ الآيه(الإسراء/٨٥) (١).

قوله تعالى: قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ابتدرت الى تكليمه لما أدهشها حضوره عندها و هى تحسب أنه بشر هجم عليها لأمر يسوؤها و استعاذت بالرحمن استدرارا للرحمه العامه الإلهيه التى هى غايه آمال المنقطعين اليه من أهل القنوت.

و اشتراطها بقولها: «إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا» من قبيل الاشتراط بوصف يدّعيه المخاطب لنفسه أو هو محقق فيه ليفيد إطلاق الحكم المشروط و عليّه الوصف للحكم،و التقوى وصف جميع يشق على الإنسان أن ينفيه عن نفسه و يعترف بفقده فيئول المعنى الى مثل قولنا:إنى أعوذ و أعتصم بالرحمن منك إن كنت تقيا و من الواجب أن تكون تقيا فليردعك تقواك عن أن تتعرض بى و تقصدنى بسوء.

١- ١) .مريم ١٦-٤٠:كلام فى معنى التمثل.

فالآیه من قبیل خطاب المؤمنین بمثل قوله تعالی: وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (المائده۵۷/)،و قوله: وَ عَلَی اللّهِ فَتَوَکَّلُوا إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (المائده۲۳/).

قوله تعالی: قٰالَ إِنَّمٰا أَنَا رَسُولُ رَبِّکِ لِأَهَبَ لَکِ غُلاٰماً زَکِیًّا جواب الروح لمریم و قد صدّر الکلام بالقصر لیفید أنه لیس ببشر کما حسبته فیزول بذلک روعها ثم یطیّب نفسها بالبشری،و الزکی هو النامی نموا صالحا و النابت نباتا حسنا.

و من لطیف التوافق فی هذه القصص المورده فی السوره أنه تعالی ذکّر زکریا و أنه وهب له یحیی،و ذکر مریم و أنه وهب لها عیسی،و ذکر إبراهیم و أنه وهب له إسحاق و یعقوب،و ذکر موسی و أنه وهب له هارون علیه السّلام.

قوله تعالی: قٰالَتْ أَنّٰی یَکُونُ لِی غُلاٰمٌ وَ لَمْ یَمْسَسْنِی بَشَرٌ وَ لَمْ أَکُ بَغِیًّا مسّ البشر بقرینه مقابلته للبغی و هو الزنا کنایه عن النکاح و هو فی نفسه أعم و لذا اکتفی فی القصه من سوره آل عمران بقوله: «وَ لَمْ یَمْسَسْنِی بَشَرٌ» و الاستفهام للتعجب أی کیف یکون لی ولد و لم یخالطنی قبل هذا الحین رجل لا من طریق الحلال بالنکاح و لا من طریق الحرام بالزنا.

و السیاق یشهد أنها فهمت من قوله: «لِأَهَبَ لَکِ غُلاٰماً» الخ؛أنه سیهبه حالا و لذا قالت:

«وَ لَمْ یَمْسَسْنِی بَشَرٌ وَ لَمْ أَکُ بَغِیًّا» فنفت النکاح و الزنا فی الماضی.

قوله تعالی: قٰالَ کَذٰلِکِ قٰالَ رَبُّکِ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ الخ؛أی قال الروح:الأمر کذلک أی کما وصفته لک ثم قال: «قٰالَ رَبُّکِ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ» ،و قد تقدم فی قصه زکریا و یحیی علیهما السّلام توضیح ما للجملتین.

و قوله:«و لیکون آیه للناس و رحمه منا»ذکر بعض ما هو الغرض من خلق المسیح علی هذا النهج الخارق،و هو معطوف علی مقدّر أی خلقناه بنفخ الروح من غیر أب لکذا و کذا و لنجعله آیه للناس بخلقته و رحمه منا برسالته و الآیات الجاریه علی یده و حذف بعض

الغرض و عطف بعضه المذكور عليه كثير فى القرآن كقوله تعالى: وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام۷۵/)،و فى هذه الصنعه إيهام أن الأغراض الإلهيه أعظم من أن يحيط بها فهم أو يفى بتمامها لفظ.

و قوله: وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا إشاره الى تحتم القضاء فى أمر هذا الغلام الزكى فلا يردّ بإباء أو دعاء.

قوله تعالى: فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا القصى البعيد أى حملت بالولد فانفردت و اعتزلت به مكانا بعيدا من أهله.

قول تعالى فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَهِ الى آخر الآيه؛الإجاءه إفعال من جاء يقال:أجاءه و جاء به بمعنى و هو فى الآيه كنايه عن الدفع و الإلجاء،و المخاض و الطلق وجع الولاده،و جذع النخله ساقها،و النسى بفتح النون و كسرها كالوتر و الوتر هو الشىء الحقير الذى من شأنه أن ينسى،و المعنى-أنها لما اعتزلت من قومها فى مكان بعيد منهم-دفعها و ألجأها الطلق الى جذع نخله كان هناك لوضع حملها-و التعبير بجذع النخله دون النخله مشعر بكونها يابسه غى مخضرّه-و قالت استحياء من الناس:يا ليتنى مت قبل هذا و كنت نسيا و شيئا لا يعبأ به منسيا لا يذكر فلم يقع فيه الناس كما سيقع الناس فىّ.

قوله تعالى: فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلاّ تَحْزَنِی الى آخر الآيتين؛ظاهر السياق أن ضمير الفاعل فى «فَناداها» لعيسى عليه السّلام لا لروح السابق الذكر،و يؤيده تقييده بقوله: «مِنْ تَحْتِها» فإن هذا القيد أنسب لحال المولود مع والدته حين الوضع منه لحال الملك المنادى مع من يناديه،و يؤيده أيضا احتفافه بالضمائر الراجعه الى عيسى عليه السّلام.

و قوله: «أَلاّ تَحْزَنِی» تسليه لها لما أصابها من الحزن و الغمّ الشديد فإنه لا مصيبه هى أمرّ و أشقّ على المرأه الزاهده المتنسّكه و خاصه إذا كانت عذراء بتولا من أن تتهم فى عرضها و خاصه إذا كانت من بيت معروف بالعفّه و النزاهه فى حاضر حاله و سابق عهده و خاصه إذا

كانت تهمه لا سبيل لها الى الدفاع عن نفسها و كانت الحجّه للخصم عليها،و لذا أشار أن لا تتكلم مع أحد و تكفّل هو الدفاع عنها و تلك حجه لا يدفعها دافع.

و قوله: قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا السرىّ جدول الماء،و السرىّ هو الشريف الرفيع،و المعنى الأول هو الأنسب للسياق،و هو القرينه عليه قوله بعد: «فَكُلِي وَ اشْرَبِي» كما لا يخفى.

و قوله: وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا الهز هو التحريك الشديد،و نقل عن الفرّاء أن العرب تقول:هزّه و هزّ به،و المساقطه هى الإسقاط، و ضمير «تُسَاقِطْ» للنخله،و نسبه الهز الى الجذع و المساقطه الى النخله لا تخلو من إشعار بأن النخله كانت يابسه و إنما اخضرّت و أورقت و أثمرت رطبا جنيّا لساعتها،و الرطب هو نضيج البسر،و الجنىّ هو المجنى و ذكر فى القاموس-على ما نقل-أن الجنى إنما يقال لما جنى من ساعته.

قوله تعالى: فَكُلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِّي عَيْناً قرار العين كنايه عن المسرّه يقال:أقرّ اللّه عليك أى سرّك،و المعنى:فكلى من الرطب الجنى الذى تسقط و اشربى من السرىّ الذى تحتك و كونى على مسرّه من غير أن تحزنى،و التمتع بالأكل و الشرب من أمارات السرور و الابتهاج فإن المصاب فى شغل من التمتع بلذيذ الطعام و مريء الشراب و مصيبته شاغله، و المعنى:فكلى من الرطب الجنىّ و أشربى من السرىّ و كونى على مسرّه-مما حباك اللّه به-من غير أن تحزنى،و أما ما تخافين من تهمه الناس و مساءلتهم فالزمى السكوت و لا تكلمى أحدا فأنا أكفيكهم.

قوله تعالى: فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا المراد بالصوم صوم الصمت كما يدلّ عليه التفريع الذى فى قوله:

«فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا» و كذا يستفاد من السياق أنه كان أمرا مسنونا فى ذلك الوقت و لذاك

أرسل عذرا إرسال المسلم،و الإنسى منسوب الى الإنس مقابل الجن و المراد به الفرد من الإنسان.

و قوله: فَإِمّٰا تَرَيِنَّ ما زائده و الأصل إن ترى بشرا فقولى،الخ؛و المعنى:إن ترى بشرا و كلّمك أو سألك عن شأن الولد فقولى،الخ؛و المراد بالقول التفهيم بالإشاره فربما يسمى التفهيم بالإشاره قولا،و عن الفرّاء أن العرب تسمّى كل ما وصل الى الإنسان كلاما بأى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فإذا أكّد لم يكن إلا حقيقه الكلام.

و ليس ببعيد أن يستفاد من قوله: «فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً» بمعونه السياق أنه أمرها أن تنوى الصوم لوقتها و تنذره للّه على نفسها فلا يكون إخبارا بما لا حقيقه له.

و قوله: «فَإِمّٰا تَرَيِنَّ» الخ،على أى حال متفرع على قوله: «وَ قَرِّي عَيْناً» و المراد لا تكلمى بشرا و لا تجيبى أحدا سألك عن شأنى بل ردى الأمر الى فأنا أكفيك جواب سؤالهم و أدافع خصامهم.

قوله تعالى: فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهٰا تَحْمِلُهُ قٰالُوا يٰا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا الضميران فى «بِهِ» و «تَحْمِلُهُ» لعيسى،و الاستفهام إنكارى حملهم عليه ما شاهدوه من عجيب أمرها مع ما لها من سابقه الزهد و الاحتجاب و كانت ابنه عمران و من آل هارون القديس،و الفرى هو العظيم البديع و قيل:هو من الافتراء بمعنى الكذب كنايه عن القبيح المنكر و الآيه التاليه تؤيّد المعنى الأول،و معنى الآيه واضح.

قوله تعالى: يٰا أُخْتَ هٰارُونَ مٰا كٰانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ مٰا كٰانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ذكر فى المجمع أن فى المراد من هارون أربعه أقوال:أحدها:أنه كان رجلا صالحا من بنى إسرائيل ينسب اليه كل صالح،و على هذا فالمراد بالاخوه الشباهه و معنى «يٰا أُخْتَ هٰارُونَ» يا شبيهه هارون،و الثانى:أنه كان أخاها لأبيها لا من امها،و الثالث:أن المراد به هارون أخو موسى الكليم و على هذا فالمراد بالاخوه الانتساب كما يقال:أخو تميم،و الرابع:أنه كان رجلا

معروفا بالعهر و الفساد انتهى ملخّصا و البغى الزانيه،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: فَأَشٰارَتْ إِلَيْهِ قٰالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كٰانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا إشارتها إليها إرجاع لهم اليه حتى يجيبهم و يكشف لهم عن حقيقه الأمر،و هو جرى منها على ما أمرها به حينما ولد بقوله: «فَإِمّٰا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا» على ما تقدم البحث عنه.

و المهد السرير الذى يهيأ للصببى فيوضع فيه و ينوّم عليه،و قيل:المراد بالمهد فى الآيه حجر أمه،و قيل المرباه أى المرجحه،و قيل المكان الذى استقر عليه كل ذلك لأنها لم تكن هيأت له مهدا،و الحق أن الآيه ظاهره فى ذلك و لا دليل على أنها لم تكن هيأت وقتئذ له مهدا فلعل الناس هجموا عليها و كلموها بعد ما رجعت الى بيتها و استقرت فيه و هيأت له مهدا أو مرجحه و تسمى أيضا مهدا.

قوله تعالى: قٰالَ إِنِّي عَبْدُ اللّٰهِ آتٰانِيَ الْكِتٰابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا شروع منه عليه السّلام فى الجواب و لم يتعرض لمشكله الولاده التى كانوا يكرّون بها على مريم عليها السّلام لأن نطقه على صباه و هو آيه معجزه و ما أخبر به من الحقيقه لا يدع ريبا لمرتاب فى أمره على أنه سلّم فى آخر كلامه على نفسه فشهد بذلك على نزاهته و أمته من كل قذاره و خباثه و من نزاهته طهاره مولده.

و قد بدأ بقوله: «إِنِّي عَبْدُ اللّٰهِ» اعترافا بالعبوديه للّه ليبطل به غلوّ الغالين و تتمّ الحجه عليهم،كما ختمه بمثل ذلك إذ يقول «وَ إِنَّ اللّٰهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» .

و فى قوله: «آتٰانِيَ الْكِتٰابَ» إخبار بإعطاء الكتاب و الظاهر أنه الإنجيل و فى قوله:

«وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا» إعلام بنبوّته،و قد تقدم فى مباحث النبوه فى الجزء الثانى من الكتاب الفرق بين النبوه و الرساله،فقد كان يومئذ نبيا فحسب ثم اختاره اللّه للرساله،و ظاهر الكلام أنه كان أوتى الكتاب و النبوه لا أن ذلك إخبار بما سيقع.

قوله تعالی: وَ جَعَلَنِی مُبارَکاً أَیْنَ ما کُنْتُ وَ أَوْصانِی بِالصَّلاهِ وَ الزَّکاهِ ما دُمْتُ حَیًّا کونه علیه السّلام مبارکا أینما کان هو کونه محلا لکل برکه و البرکه نماء الخیر کان نفّاعا للناس یعلمهم العلم النافع و یدعوهم الی العمل الصالح و یربّیهم تربیه زاکیه و یبرئ الأکمه و الأبرص و یصلح القوی و یعین الضعیف.

و قوله: «وَ أَوْصانِی بِالصَّلاهِ وَ الزَّکاهِ» الخ؛إشاره الی تشریع الصلاه و الزکاه فی شریعته، و الصلاه هی التوجّه العبادی الخاص الی اللّه سبحانه و الزکاه الإنفاق المالی و هذا هو الذی استقرّ علیه عرف القرآن کلما ذکر الصلاه و الزکاه و قارن بینهما و ذلک فی نیّف و عشرین موضعا فلا یعتدّ بقول من قال:إن المراد بالزکاه تزکیه النفس و تطهیرها دون الإنفاق المالی.

قوله تعالی: وَ بَرًّا بِوالِدَتِی وَ لَمْ یَجْعَلْنِی جَبّاراً شَقِیًّا أی جعلنی حنینا رءوفا بالناس و من ذلک أنی برّ بوالدتی و لست جبارا شقیا بالنسبه الی سائر الناس،و الجبار هو الذی یحمّل الناس و لا یتحمّل منهم،و نقل عن ابن عطاء أن الجبار الذی لا ینصح و الشقی الذی لا ینتصح.

قوله تعالی: وَ السَّلامُ عَلَیَّ یَوْمَ وُلِدْتُ وَ یَوْمَ أَمُوتُ وَ یَوْمَ أُبْعَثُ حَیًّا تسلیم منه علی نفسه فی المواطن الثلاثه الکلیّه التی تستقبله فی کونه و وجوده،و قد تقدم توضیحه فی آخر قصه یحیی المتقدمه.

نعم بین التسلیمتین فرق،فالسلام فی قصه یحیی نکره یدلّ علی النوع،و فی هذه القصه محلّی بلام الجنس یفید بإطلاقه الاستغراق،و فرق آخر و هو أن المسلّم علی یحیی هو اللّه سبحانه و علی عیسی هو نفسه.

قوله تعالی: ذٰلِکَ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِی فِیهِ یَمْتَرُونَ الظاهر أن هذه الآیه و التی تلیها معترضتان،و الآیه الثالثه «وَ إِنَّ اللّٰهَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ» من تمام قول عیسی علیه السّلام.

ص:١٠٨

و قوله: «ذٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» الإشاره فيه الى مجموع ما قصّ من أمره و شرح من وصفه أى ذلك الذى ذكرنا كيفيه ولادته و ما وصفه هو للناس من عبوديته و إيتائه الكتاب و جعله نبيا هو عيسى بن مريم.

و قوله: «قَوْلَ الْحَقِّ» منصوب بمقدّر أى أقول قول الحق،و قوله: «الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ» أى يشكّون أو يتنازعون،وصف لعيسى،و المعنى:ذلك عيسى بن مريم الذى يشكون أو يتنازعون فيه.

قوله تعالى: مٰا كٰانَ لِلّٰهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحٰانَهُ إِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ نفى و إبطال لما قالت به النصارى من بنوّه المسيح،و قوله: «إِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ» حجه اقيمت على ذلك،و قد عبر بلفظ القضاء للدلاله على ملاك الاستحاله.

و ذلك أن الولد إنما يراد للاستعانه به فى الحوائج،و اللّه سبحانه غنى عن ذلك لا تتخلف مراد عن إرادته إذ قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون.

و أيضا الولد هو أجزاء من وجود الوالد يعزلها ثم يربيها بالتدريج حتى يصير فردا مثله، و اللّه سبحانه غنى عن التوسل فى فعله الى التدريج و لا مثل له بل ما أراده كان كما أراده من غير مهله و تدريج من غير أن يماثله،و قد تقدم نظير هذا المعنى فى تفسير قوله: وَ قٰالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ الآيه(البقره/۱۱۶)فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: وَ إِنَّ اللّٰهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ معطوف على قوله: «إِنِّي عَبْدُ اللّٰهِ» و هو من قول عيسى عليه السّلام،و من الدليل عليه وقوع الآيه بعينها فى المحكيّ من دعوته قومه فى قصته من سوره آل عمران،و نظيره فى سوره الزخرف حيث قال:

إِنَّ اللّٰهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزٰابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذٰابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (الزخرف/۶۵).

قوله تعالى: فَاخْتَلَفَ الْأَحْزٰابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ الأحزاب جمع حزب و هو الجمع المنقطع فى رأيه عن غيره فاختلاف الأحزاب هو قول كل منهم فيه عليه السّلام خلاف ما يقوله الآخرون،و إنما قال: «مِنْ بَيْنِهِمْ» لأن فيهم من ثبت على الحق،و ربما قيل «مِنْ» زائده و الأصل اختلف الأحزاب بينهم،و هو كما ترى.

قوله تعالى: أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنٰا لٰكِنِ الظّٰالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ أى ما أسمعهم و أبصرهم بالحق يوم يأتوننا و يرجعون الينا و هو يوم القيامه فيتبين لهم وجه الحق فيما اختلفوا فيه كما حكى اعترافهم به فى قوله: رَبَّنٰا أَبْصَرْنٰا وَ سَمِعْنٰا فَارْجِعْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً إِنّٰا مُوقِنُونَ (الم السجده۱۲/).

و أما الاستدراک الذى فى قوله: «لٰكِنِ الظّٰالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ» فهو لدفع توهم أنهم إذا سمعوا و أبصروا يوم القيامه و انكشف لهم الحق سيهتدون فيسعدون بحصول المعرفه و اليقين فاستدرک أنهم لا ينتفعون بذلک و لا يهتدون بل الظالمون اليوم فى ضلال مبين لظلمهم.

و ذلک أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل فلا يواجهون اليوم إلا ما قدموه من العمل و أثره و ما اكتسبوه فى أمسهم ليومهم و أما أن يستأنفوا يوم القيامه عملا يتوقعون جزاءه غدا فليس لليوم غد،و بعباره أخرى هؤلاء رسخت فيهم ملكه الضلال فى الدنيا و انقطعوا عن موطن الاختيار بحلول الموت فليس لهم إلا أن يعيشوا مضطرين على ما هيئوا لأنفسهم من الضلال لا معدل عنه فلا ينفعهم انكشاف الحق و ظهور الحقيقه.

قوله تعالى: وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ ظاهر السياق أن قوله: «إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ» بيان لقوله: «يَوْمَ الْحَسْرَةِ» ففيه إشاره الى أن الحسره إنما تأتيهم من ناحيه قضاء الأمر و القضاء إنما يوجب الحسره إذا كان بحيث

يفوت به عن المقضى عليه ما فيه قره عينه و أمنيه نفسه و مخّ سعادته الذى كان يقدّر حصوله لنفسه و لا يرى طيبا للعيش دونه لتعلق قلبه به و تولهه فيه،و معلوم أن الإنسان لا يرضى لفوت ما هذا شأنه و إن احتمل فى سبيل حفظه أى مكروه إلا أن يصرفه عنه الغفله فيفرّط فى جنبه و لذلك عقّب الكلام بقوله: «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ» .

فالمعنى-و اللّه أعلم-و خوّفهم يوما يقضى فيه الأمر فيتحتم عليهم الهلاك الدائم فينقطعون عن سعادتهم الخالده التى فيها قرّه أعينهم فيتحسرون عليها حسره لا تقدّر بقدر إذ غفلوا فى الدنيا فلم يسلكوا الصراط الذى يهديهم و يوصلهم إليها بالاستقامه و هو الإيمان باللّه وحده و تنزيهه عن الولد و الشريك.

و فيما قدّمناه كفايه عن تفاريق الوجوه التى أوردوها فى تفسير الآيه و اللّه الهادى.

قوله تعالى: إِنّٰا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهٰا وَ إِلَيْنٰا يُرْجَعُونَ قال الراغب فى المفردات:الوراثه و الإرث انتقال قنيه اليك عن غيرك من غير عقد و لا ما يجرى العقد و سمّى بذلك لمنتقل عن الميت-الى أن قال-و يقال:ورثت مالا عن زيد و ورثت زيدا.

انتهى.

و الآيه-كأنها-تثبيت و نوع تقريب لقوله فى الآيه السابقه: «قُضِيَ الْأَمْرُ» فالمعنى و هذا القضاء سهل يسير علينا فإنا نرث الأرض و إياهم و الينا يرجعون و وراثه الأرض أنهم يتركونها بالموت فيبقى للّه تعالى و وراثه من عليها أنهم يموتون فيبقى ما بأيديهم للّه سبحانه، و على هذا فالجملتان «نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهٰا» فى معنى جمله واحده«نرث عنهم الأرض».

و يمكن أن نحمل الآيه على معنى أدق من ذلك و هو أن يراد أن اللّه سبحانه هو الباقى بعد فناء كل شىء فهو الباقى بعد فناء الأرض يملك عنها ما كانت تملكه من الوجود و آثار الوجود و هو الباقى بعد فناء الإنسان يملك ما كان يملكه كما قصر الملك لنفسه فى قوله: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ

لِلّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ (المؤمن١۶/)،و قوله: وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ وَ يَأْتِينا فَرْداً (مريم٨۴/).

و يرجع معنى هذه الوراثه الى رجوع الكل و حشرهم اليه تعالى فيكون قوله: «وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ» عطف تفسير و بمنزله التعليل للجمله الثانيه أو لمجموع الجملتين بتغليب أولى العقل على غيرهم او لبروز كل شيء يومئذ أحياء عقلاء.

و هذا الوجه أسلم من شبهه التكرار اللازم للوجه الأول فإن الكلام عليه نظير أن يقال:

ورثت مال زيد و زيدا.

و اختتام الكلام على قصه عيسى عليه السّلام بهذه الآيه لا يخلو عن مناسبه فإن وراثته تعالى من الحجج على نفى الولد فإن الولد إنما يراد ليكون وارثا لوالده فالذى يرث كل شيء في غنى عن الولد (١).

[سوره مريم (١٩): الآيات ۴١ الى ۵٠]

اشاره

وَ اُذْكُرْ فِي اَلْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (۴١) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (۴٢) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ اَلْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (۴٣) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ اَلشَّيْطانَ إِنَّ اَلشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (۴۴) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ اَلرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (۴۵) قالَ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اُهْجُرْنِي مَلِيًّا (۴۶) قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (۴٧) وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلاّ أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (۴٨) فَلَمَّا اِعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلاًّ جَعَلْنا نَبِيًّا (۴٩) وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (۵٠)

ص: ١١٢

١- ١) .مريم ١۶-۴٠:بحث روائى حول قصه مريم و ولاده عيسى عليه السّلام؛الجنه و النار.

بيان:

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا الظاهر أن الصدّيق اسم مبالغه من الصدق فهو الذى يبالغ فى الصدق فيقول ما يفعل و يفعل ما يقول لا مناقضه بين قوله و فعله،و كذلك كان إبراهيم عليه السّلام قال بالتوحيد فى عالم وثنى و هو وحده فحاجّ أباه و قومه و قاوم ملكك بابل و كسر الآلهه و ثبت على ما قال حتى ألقى فى النار ثم اعتزلهم و ما يعبدون كما وعد أباه أول يوم فوهب اللّه له إسحاق و يعقوب الى آخر ما عدّه تعالى من مواهبه.

و النبى على وزن فعيل مأخوذ من النبأ سمّى به النبى لأنه عنده نبأ الغيب بوحى من اللّه، و قيل:هو مأخوذ من النبوه بمعنى الرفعه سمى به لرفعه قدره.

قوله تعالى: إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ظرف لإبراهيم حيث إن المراد بذكره و ذكر نبائه و قصته كما تقدم نظيره فى

ص :١١٣

قوله: «وَ اذْكُرْ فِی الْكِتٰابِ مَرْيَمَ» و أما قول من قال بكونه ظرفا لقوله: «صِدِّيقاً» أو قوله:

«نَبِيًّا» فهو تكلف يستبشعه الطبع السليم.

و قد نبّه إبراهيم أباه فيما ألقى اليه من الخطاب أولا ان طريقه الذى يسلكه بعباده الأصنام لغو باطل،و ثانيا أن له من العلم ما ليس عنده فليتبعه ليهديه الى طريق الحق لأنه على خطر من ولايه الشيطان.

فقوله: «يٰا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مٰا لاٰ يَسْمَعُ وَ لاٰ يُبْصِرُ» الخ؛إنكار توبيخى لعبادته الأصنام و قد عدل من ذكر الأصنام الى ذكر أوصافها «مٰا لاٰ يَسْمَعُ» الخ؛ليشير الى الدليل فى ضمن إلقاء المدلول و يعطى الحجه فى طىّ المدعى و هو أن عباده الأصنام لغو باطل من وجهين:أحدهما أن العباده إظهار الخضوع و تمثيل التذلّل من العابد للمعبود فلا يستقيم إلا مع علم المعبود بذلك،و الأصنام جمادات مصوّره فاقده للشعور لا تسمع و لا تبصر فعبادتها لغو لا أثر لها، و هذا هو الذى أشار اليه بقوله: «لاٰ يَسْمَعُ وَ لاٰ يُبْصِرُ» .

و ثانيهما:أن العباده و الدعاء و رفع الحاجه الى شىء إنما ذلك ليجلب للعابد نفعا أو يدفع عنه ضررا فيتوقف و لا محاله على قدره فى المعبود على ذلك،و الأصنام لا قدره لها على شىء فلا تغنى عن عابدها شيئا بجلب نفع او دفع ضرر فعبادتها لغو لا أثر لها،و هذا هو الذى أشار اليه بقوله: «وَ لاٰ يُغْنِی عَنْكَ شَيْئاً» .

و قد تقدم فى تفسير سوره الأنعام أن هذا الذى كان يخاطبه إبراهيم عليه السّلام بقوله: «يٰا أَبَتِ» لم يكن والده و إنما كان عمه أو جده لامه أو زوج أمه بعد وفاه والده فراجع.

و المعروف من مذهب النحاه فى لفظ «يٰا أَبَتِ» أن التاء عوض من ياء المتكلم و مثله«يا أمّت»و يختص التعويض بالنداء فلا يقال مثلا قال أبت و قالت أمت.

قوله تعالى: يٰا أَبَتِ إِنِّی قَدْ جٰاءَنِی مِنَ الْعِلْمِ مٰا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِی أَهْدِكَ صِرٰاطاً سَوِيًّا لما بيّن له بطلان عبادته للأصنام و لغويتها و كان لازم معناه أنه سالك طريق

غیر سوی عن جهل نبّهه أن له علما بهـذا الشأن لیس عنـده و علیه أن یتّبعه حتی یهـدیه الی صـراط -و هو الطریق الـذی لا یضـل سـالکه لوضوحه -سوی هو فی غفله من أمره،و لـذا نکّره إذ قال: «أَهْدِکَ صِرٰاطاً سَوِیًّا» و لم یقل:أهـدک الصـراط السوی کأنه یقول:إذ کنت تسـلک صـراطا و لا محاله من سلوکه فلا تسـلک هذا الصـراط غیر السوی بجهاله بل اتبعنی أهدک صراطا سویا فإنی لذو علم بهذا الشأن.

و فی قوله: «قَدْ جٰاءَنِی مِنَ الْعِلْمِ» دلیـل علی أنه أوتی بـالحق قبل دعوته و محاجته هـذه و فیه تصـدیق ما قـدمناه فی قصـته علیه السّلام من سوره الأنعام أنه أوتی العلم باللّه و مشاهده ملکوت السماوات و الارض قبل أن یلقی أباه و قومه و یحاجهم.

و المراد بالهـدایه فی قوله: «أَهْدِکَ صِرٰاطاً سَوِیًّا» الهـدایه بمعنی إراءه الطریق دون الإیصـال الی المطلوب فـإنه شأن الإمام و لم یجعل إماما بعد،و قد فصلنا القول فی هذا المعنی فی تفسیر قوله تعالی: قٰالَ إِنِّی جٰاعِلُکَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً (البقره/۱۳۴).

قوله تعـالی: یٰا أَبَتِ لاٰ تَعْبُدِ الشَّیْطٰانَ إِنَّ الشَّیْطٰانَ کٰانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِیًّا الی آخر الآیتین؛الوثنیون یرون وجود الجن -و إبلیس من الجن -و یعبدون أصـنامهم کما یعبدون أصـنام الملائکه و القدیسـین من البشـر،غیر أنه لیس المراد بالنهی النهی عن العباده بهذا المعنی إذ لا موجب لتخصـیص الجن من بین معبودیهم بـالنهی عن عبـادتهم بـل المراد بالعبـاده الطاعه کما فی قوله تعالی: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَیْکُمْ یٰا بَنِی آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّیْطٰانَ الآیه (یس/۶۰)،فالنهی عن عباده الشـیطان نهی عن طاعته فیما یأمر به و مما یأمر به عباده غیر اللّه.

لمـا دعاه الی اتباعه لیهـدیه الی صـراط سوی أراد أن یحرضه علی الاتباع بقلعه عما هو علیه فنبهه علی أن عباده الاصـنام لیسـت مجرد لغو لا یضـر و لا ینفع بل هی فی معرض أن تورد صاحبها مورد الهلاک و تدخله تحت ولایه الشیطان التی لا مطمع بعدها فی صلاح و فلاح و لا

رجاء لسلامه و سعاده.

و ذلک أن عبادتها-و المستحق للعباده هو اللّه سبحانه لکونه رحمانا تنتهی الیه کل رحمه- و التقرب إلیها إنما هی من الشیطان و تسویله،و الشیطان عصی للرحمن لا یأمر بشیء فیه رضاه و إنما یوسوس بما فیه معصیته المؤدیه الی عذابه و سخطه و العکوف علی معصیته و خاصه فی أخص حقوقه و هی عبادته وحده،فیه مخافه أن ینقطع عن العاصی رحمته و هی الهدایه الی السعاده و ینزل علیه عذاب الخذلان فلا یتولی اللّه أمره فیکون الشیطان هو مولاه و هو ولی الشیطان و هو الهلاک.

فمعنی الآیتین-و اللّه أعلم-یا أبت لا تطع الشیطان فیما یأمرک به من عباده الأصنام لأن الشیطان عصی مقیم علی معصیه اللّه الذی هو مصدر کل رحمه و نعمه فهو لا یأمر إلا بما فیه معصیته و الحرمان عن رحمته،و إنما أنهاک عن معصیته فی طاعه الشیطان لأنی أخاف یا أبت أن یأخذک شیء من عذاب خذلانه و ینقطع عنک رحمته فلا یبقی لتولّی أمرک إلا الشیطان فتکون ولیا للشیطان و الشیطان مولاک.

قوله تعالی: قٰالَ أَ رٰاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِی یٰا إِبْرٰاهِیمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّکَ وَ اهْجُرْنِی مَلِیًّا الرغبه عن الشیء نقیض الرغبه فیه کما فی المجمع،و الانتهاء:الکفّ عن الفعل بعد النهی،و الرجم:الرمی بالحجاره،و المعروف من معناه القتل برمی الحجاره،و الهجر هو الترک و المفارقه،و الملیّ:الدهر الطویل.

و فی الآیه تهدید لإبراهیم بأخزی القتل و أذلّه و هو الرجم الذی یقتل به المطرودون،و فیها طرد آزر لإبراهیم عن نفسه.

قوله تعالی: قٰالَ سَلاٰمٌ عَلَیْکَ سَأَسْتَغْفِرُ لَکَ رَبِّی إِنَّهُ کٰانَ بِی حَفِیًّا الحفیّ علی ما ذکره الراغب:البرّ اللطیف و هو الذی یتتبع دقائق الحوائج فیحسن و یرفعها واحدا بعد واحد،یقال:حفا یحفو حفی و حفوه،و إحفاء السؤال و الإحفاء فیه:الإلحاح

و الإمعان فيه.

قابل إبراهيم عليه السّلام أباه فيما أساء اليه و هدّده و فيه سلب الأمن عنه من قبله بالسلام الذى فيه إحسان و إعطاء أمن،و وعده أن يستغفر له ربه و أن يعتزلهم و ما يدعون من دون اللّه كما أمره أن يهجره مليّا.

أما السلام فهو من دأب الكرام قابل به جهاله أبيه إذ هدّده بالرجم و طرده لكلمه حق قالها،قال تعالى: وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (الفرقان۷۲/)،و قال: وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (الفرقان۶۳/)،و أما ما قيل:إنه كان سلام توديع و تحيه مفارقه و هجره امتثالا لقوله: «اهْجُرْنِى مَلِيًّا» ففيه أنه اعتزله و قومه بعد مده غير قصيره.

و أما استغفاره لأبيه و هو مشرك فظاهر قوله: «يا أَبَتِ إِنِّى أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا» أنه عليه السّلام لم يكن وقتئذ قاطعا بكونه من أولياء الشيطان أى مطبوعا على قلبه بالشرك جاحدا معاندا للحق عدوا للّه سبحانه و لو كان قاطعا لم يعبّر بمثل قوله: «إِنِّى أَخافُ» بل كان يحتمل أن يكون جاهلا مستضعفا لو ظهر له الحق اتّبعه،و من الممكن أن تشمل الرحمه الإلهيه لأمثال هؤلاء قال تعالى: إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُولئِكَ عَسَى اللّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُوراً (النساء۹۹/)،فاستعطفه عليه السّلام بوعد الاستغفار و لم يحتم له المغفره بل أظهر الرجاء بدليل قوله: «إِنَّهُ كانَ بِى حَفِيًّا» و قوله تعالى: إِلاّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللّهِ مِنْ شَيْءٍ (الممتحنه۴/).

و يؤيد ما ذكر قوله تعالى: ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِى قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ، وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيّاهُ فَلَمّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوّاهٌ حَلِيمٌ (التوبه/)،فتبرّيه بعد تبيّن عداوته دليل على أنه كان قبل ذلك عند الموعده يرجو أن يكون غير

عدوّ للّه مع كونه مشركا،و ليس ذلك إلا الجاهل غير المعاند.

و يؤيد هذا النظر قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ -الى أن قال- لا يَنْهاكُمُ اللّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ الخ(الممتحنه٨/).

قوله تعالى: وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّى عَسى أَلاّ أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّى شَقِيًّا وعد باعتزالهم و الابتعاد منهم و من أصنامهم ليخلو بربه و يخلص الدعاء له رجاء أن لا يكون بسبب دعائه شقيا و إنما أخذ بالرجاء لأن هذه الأسباب من الدعاء و التوجه الى اللّه و نحوه ليست بأسباب موجبه عليه تعالى شيئا بل الإثابه و الإسعاد و نحوه بمجرد التفضل منه تعالى.على أن الامور بخواتمها لا يعلم الغيب إلا اللّه فعلى المؤمن أن يسير بين الخوف و الرجاء.

قوله تعالى: فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلاًّ جَعَلْنا نَبِيًّا الى آخر الآيتين.لعل الاقتصار على ذكر إسحاق لتعلّق الغرض بذكر توالى النبوه فى الشجره الإسرائيليه و لذلك عقّب إسحاق بذكر يعقوب فإن فى نسله جما غفيرا من الأنبياء،و يؤيد ذلك أيضا قوله: «وَ كُلاًّ جَعَلْنا نَبِيًّا» .

و قوله: وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا» من الممكن أن يكون المراد به الإمامه كما وقع فى قوله:

وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا (الأنبياء٧٣/)،أو التأييد بروح القدس كما يشير اليه قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ الآيه(الأنبياء٧٣/)على ما سيجىء من معناه أو مطلق الولايه الإلهيه.

و قوله: وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا اللسان-على ما ذكروا-هو الذكر بين الناس بالمدح أو الذم و إذا أضيف الى الصدق فهو الثناء الجميل الذى لا كذب فيه،و العلى هو الرفيع و المعنى و جعلنا لهم ثاء جميلا صادقا رفيع القدر.

[سوره مريم (۱۹): الآيات ۵۱ الى ۵۷]

اشاره

وَ اُذْكُرْ فِي اَلْكِتٰابِ مُوسىٰ إِنَّهُ كٰانَ مُخْلَصاً وَ كٰانَ رَسُولاً نَبِيًّا (۵۱) وَ نٰادَيْنٰاهُ مِنْ جٰانِبِ اَلطُّورِ اَلْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنٰاهُ نَجِيًّا (۵۲) وَ وَهَبْنٰا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنٰا أَخٰاهُ هٰارُونَ نَبِيًّا (۵۳) وَ اُذْكُرْ فِي اَلْكِتٰابِ إِسْمٰاعِيلَ إِنَّهُ كٰانَ صٰادِقَ اَلْوَعْدِ وَ كٰانَ رَسُولاً نَبِيًّا (۵۴) وَ كٰانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاٰةِ وَ اَلزَّكٰاةِ وَ كٰانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (۵۵) وَ اُذْكُرْ فِي اَلْكِتٰابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كٰانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (۵۶) وَ رَفَعْنٰاهُ مَكٰاناً عَلِيًّا (۵۷)

بيان:

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتٰابِ مُوسىٰ إِنَّهُ كٰانَ مُخْلَصاً وَ كٰانَ رَسُولاً نَبِيًّا قد تقدم معنى المخلص بفتح اللام و أنه الذى أخلصه اللّه لنفسه فلا نصيب لغيره تعالى فيه لا فى نفسه و لا فى عمله،و هو أعلى مقامات العبوديه.و تقدم أيضا الفرق بين الرسول و النبى.

قوله تعالى: وَ نٰادَيْنٰاهُ مِنْ جٰانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنٰاهُ نَجِيًّا الأيمن:صفه لجانب أى الجانب الأيمن من الطور،و فى المجمع:النجىّ بمعنى المناجى كالجليس و الضجيع.

و ظاهر أن تقريبه عليه السّلام كان تقريبا معنويا و إن كانت هذه الموهبه الإلهيه فى مكان و هو الطور ففيه كان التكليم،و مثاله من الحس أن ينادى السيد العزيز عبده الذليل فيقرّبه من

مجلسه حتى يجعله نجيّا يناجيه ففيه نيل ما لا سبيل لغيره اليه.

قوله تعالى: وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا إشاره الى إجابه ما دعا به موسى عند ما أوحى اليه لأول مره فى الطور إذ قال: وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي اُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (طه٣٢/).

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ الى آخر الآيتين؛اختلفوا فى «إِسْماعِيلَ» هذا فقال الجمهور هو إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن، و إنما ذكر وحده و لم يذكر مع إسحاق و يعقوب اعتناء بشأنه،و قيل:هو غيره،و هو إسماعيل بن حزقيل من أنبياء بنى إسرائيل،و لو كان هو ابن إبراهيم لذكر مع إسحاق و يعقوب.

و يضعّف ما وجه به قول الجمهور:إنه استقلّ بالذكر اعتناء بشأنه،أنه لو كان كذلك لكان الأنسب ذكره بعد إبراهيم و قبل موسى عليهم السّلام لا بعد موسى.

قوله تعالى: وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا المراد بأهله خاصته من عترته و عشيرته و قومه كما هو ظاهر اللفظ،و قيل:المراد بأهله أمته و هو قول بلا دليل.

و المراد بكونه عند ربه مرضيّا كون نفسه مرضيّه دون عمله كما ربما فسّره به بعضهم فإن إطلاق اللفظ لا يلائم تقييد الرضا بالعمل.

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا الى آخر الآيتين؛قالوا:إن إدريس النبى كان اسمه أخنوخ و هو من أجداد نوح عليهما السّلام على ما ذكر فى سفر التكوين من التوراه،و إنما اشتهر بإدريس لكثره اشتغاله بالدرس.

و قوله: وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا من الممكن أن يستفاد من سياق القصص المسروده فى السوره و هى تعدّ مواهب النبوّه و الولايه و هى مقامات إلهيه معنويه أن المراد بالمكان العليّ الذى رفع اليه درجه من درجات القرب إذ لا مزيّه فى الارتفاع المادى و الصعود الى أقاصى

الجو البعیده أینما کان (۱)(۲).

[سوره مریم (۱۹): الآیات ۵۸ الی ۶۳]

اشاره

أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ أَنْعَمَ اَللّٰهُ عَلَیْهِمْ مِنَ اَلنَّبِیِّینَ مِنْ ذُرِّیَّهِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّیَّهِ إِبْرٰاهِیمَ وَ إِسْرٰائِیلَ وَ مِمَّنْ هَدَیْنٰا وَ اِجْتَبَیْنٰا إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِمْ آیٰاتُ اَلرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُکِیًّا (۵۸) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضٰاعُوا اَلصَّلاٰهَ وَ اِتَّبَعُوا اَلشَّهَوٰاتِ فَسَوْفَ یَلْقَوْنَ غَیًّا (۵۹) إِلاّٰ مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَأُولٰئِکَ یَدْخُلُونَ اَلْجَنَّهَ وَ لاٰ یُظْلَمُونَ شَیْئاً (۶۰) جَنّٰاتِ عَدْنٍ اَلَّتِی وَعَدَ اَلرَّحْمٰنُ عِبٰادَهُ بِالْغَیْبِ إِنَّهُ کٰانَ وَعْدُهُ مَأْتِیًّا (۶۱) لاٰ یَسْمَعُونَ فِیهٰا لَغْواً إِلاّٰ سَلاٰماً وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِیهٰا بُکْرَهً وَ عَشِیًّا (۶۲) تِلْکَ اَلْجَنَّهُ اَلَّتِی نُورِثُ مِنْ عِبٰادِنٰا مَنْ کٰانَ تَقِیًّا (۶۳)

ص: ۱۲۱

۱- ۱) .مریم ۵۱-۵۷:قصه اسماعیل صادق الوعد.

۲- ۲) .مریم ۵۱-۵۷:قصه ادریس النبی علیه السّلام.

بیان:

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ الخ؛الإشاره بقوله:

«أُولَئِكَ» الى المذكورين قبل الآيه فى السوره و هم زكريا و يحيى و مريم و عيسى و إبراهيم و إسحاق و يعقوب و موسى و هارون و إسماعيل و إدريس عليهم السّلام.

و قوله: «مِنَ النَّبِيِّينَ» من فيه للتبعيض و عديله قوله الآتى: «وَ مِمَّنْ هَدَيْنَا وَ اجْتَبَيْنَا» على ما سيأتى توضيحه.و قد جوّز المفسرون كون «مِنَ» بيانيه و أنت خبير بأن ذلك لا يلائم كون «أُولَئِكَ» مشير الى المذكورين من قبل،لأن النبيّين أعم،اللهم إلا أن يكون إشاره اليهم بما هم أمثله لأهل السعاده و يكون المعنى أولئك المذكورون و أمثالهم الذين أنعم اللّه عليهم هم النبيون و من هدينا و اجتبينا.

و قوله: مِنْ ذُرِّيَّهِ آدَمَ فى معنى الصفه للنبيين و من فيه للتبعيض أى من النبيين الذين هم بعض ذريه آدم،و ليس بيانا للنبيين لاختلال المعنى بذلك.

و قوله: وَ مِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ معطوف على قوله: «مِنْ ذُرِّيَّهِ آدَمَ» و المراد بهم المحمولون فى سفينه نوح عليه السّلام و ذريتهم و قد بارك اللّه عليهم،و هم من ذريه نوح لقوله تعالى:

وَ جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (الصافات/٧٧).

و قوله: وَ مِنْ ذُرِّيَّهِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْرَائِيلَ معطوف كسابقه على قوله: «مِنَ النَّبِيِّينَ» .

و قد قسم اللّه تعالى الذين أنعم عليهم من النبيين على هذه الطوائف الأربع أعنى ذريه آدم و من حمله مع نوح و ذريه إبراهيم و ذريه إسرائيل و قد كان ذكر كل سابق يغنى عن ذكر لاحقه لكون ذريّه إسرائيل من ذريه إبراهيم و الجميع ممن حمل مع نوح و الجميع من ذريه آدم عليهم السّلام.

و قوله: وَ مِمَّنْ هَدَيْنَا وَ اجْتَبَيْنَا معطوف على قوله: «مِنَ النَّبِيِّينَ» و هؤلاء غير

النبيين من الذين أنعم اللّه عليهم فإن هذه النعمه غير خاصه بالنبيين و لا منحصره فيهم بدليل قوله تعالى: وَ مَنْ يُطِعِ اللّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدٰاءِ وَ الصّٰالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً (النساء۶۹/)و قد ذكر اللّه سبحانه بين من قص قصته مريم عليها السّلام معتنيا بها إذ قال: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتٰابِ مَرْيَمَ» و ليست من النبيين فالمراد بقوله: «وَ مِمَّنْ هَدَيْنٰا وَ اجْتَبَيْنٰا» غير النبيين من الصدّيقين و الشهداء و الصالحين لا محاله،و كانت مريم من الصدّيقين لقوله تعالى: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ (المائده۷۵/).

و قوله: إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا السجد جمع ساجد و البكى على فعول جمع باكى و الجمله خبر للذين فى صدر الآيه و يحتمل أن يكون الخرور سجدا و بكيا كنايه عن كمال الخضوع و الخشوع فإن السجده ممثل لكمال الخضوع و البكاء لكمال الخشوع و الأنسب على هذا أن يكون المراد بالآيات و تلاوتها ذكر مطلق ما يحكى شأنا من شئونه تعالى.

و أما قول القائل إن المراد بتلاوه الآيات قراءه الكتب السماويه مطلقا أو خصوص ما يشتمل على عذاب الكفار و المجرمين،أو أن المراد بالسجود الصلاه أو سجده التلاوه أو أن المراد بالبكاء البكاء عند استماع الآيات أو تلاوتها فكما ترى.

فمعنى الآيه-و اللّه أعلم-أولئك المنعم عليهم الذين بعضهم من النبيين من ذريه آدم و ممن حملنا مع نوح و من ذريه إبراهيم و إسرائيل و بعضهم من أهل الهدايه و الاجتباء خاضعون للرحمن خاشعون إذا ذكر عندهم و تليت آياته عليهم.

و لم يقل:كانوا إذا تتلى عليهم،الخ؛لأن العنايه فى المقام متعلقه ببيان حال النوع من غير نظر الى ماضى الزمان و مستقبله بل بتقسيمه الى سلف صالح و خلف طالح و ثالث تاب و آمن و عمل صالحا و هو ظاهر.

ص:۱۲۳

قوله تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضٰاعُوا الصَّلاٰةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَوٰاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا قالوا:الخلف بسكون اللام البدل السيّئ و يفتح اللام ضده و ربما يعكس على ندره،و ضياع الشىء فساده أو افتقاده بسبب ما كان ينبغى أن يتسلط عليه يقال:أضاع المال اذا أفسده بسوء تدبيره أو أخرجه من يده بصرفه فيما لا ينبغى صرفه فيه، و الغى خلاف الرشد و هو إصابه الواقع و هو قريب المعنى من الضلال خلاف الهدى و هو ركوب الطريق الموصل الى الغايه المقصوده.

فقوله: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ الخ؛أى قام مقام اولئك الذين أنعم اللّه عليهم و كانت طريقتهم الخضوع و الخشوع للّه تعالى بالتوجه اليه بالعباده قوم سوء أضاعوا ما أخذوا منهم من الصلاه و التوجه العبادى الى اللّه سبحانه بالتهاون فيه و الإعراض عنه،و اتبعوا الشهوات الصارفه لهم عن المجاهده فى اللّه و التوجه اليه.

و قوله: «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» أى جزاء غيهم على ما قيل فهو كقوله: «وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثٰاماً» .

و من الممكن أن يكون المراد به نفس الغى بفرض الغى غايه للطريق التى يسلكونها و هى طريق إضاعه الصلاه و اتباع الشهوات فإذ كانوا يسلكون طريقا غايتها الغى فسيلقونه إذا قطعوها إما بانكشاف غيهم لهم يوم القيامه حيث ينكشف لهم الحقائق أو برسوخ الغى فى قلوبهم و صيرورتهم من أولياء الشيطان كما قال: إِنَّ عِبٰادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلاّٰ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغٰاوِينَ (الحجر۴۲/)،و كيف كان فهو استعاره بالكنايه لطيفه.

قوله تعالى: إِلاّٰ مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لاٰ يُظْلَمُونَ شَيْئاً استثناء من الآيه السابقه فهؤلاء الراجعون الى اللّه سبحانه ملحقون باولئك الذين أنعم اللّه عليهم و هم معهم لا منهم كما قال تعالى: وَ مَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدٰاءِ وَ الصّٰالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولٰئِكَ

رَفِيقاً (النساء۶۹/).

و قوله: «فَأُولٰئِکَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» من وضع المسبب موضع السبب و الأصل فاولئک يوفّون أجرهم،و الدليل على ذلک قوله بعده: «وَ لاٰ يُظْلَمُونَ شَيْئاً» فإنه من لوازم توفيه الأجر لا من لوازم دخول الجنه.

قوله تعالى: جَنّٰاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمٰنُ عِبٰادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كٰانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا العدن الإقامه ففى تسميتها به إشاره الى خلودها لداخليها،و الوعد بالغيب هو الوعد بما ليس تحت إدراک الموعود له،و کون الوعد مأتيا عدم تخلّفه،قال فى المجمع:و المفعول هنا بمعنى الفاعل لأن ما أتيته فقد أتاک و ما أتاک فقد أتيته يقال:أتيت خمسين سنه و أتت علىّ خمسون سنه،و قيل:إن الموعود الجنه و الجنه يأتيها المؤمنون انتهى.

قوله تعالى: لاٰ يَسْمَعُونَ فِيهٰا لَغْواً إِلاّٰ سَلاٰماً وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهٰا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا عدم سمع اللغو من أخص صفات الجنه و قد ذکره اللّه سبحانه و امتنّ به فى مواضع من کلامه و سنفصل القول فيه إن شاء اللّه فى موضع يناسبه،و استثناء السلام منه استثناء منفصل،و السلام قريب المعنى من الأمن-و قد تقدم الفرق بينهما-فقولک:أنت منى فى أمن معناه لا منى ما يسوؤک،و قولک:سلام منى عليک معناه کل ما تلقاه منى لا يسؤک.و إنما يسمعون السلام من الملائکه و من رفقائهم فى الجنه،قال تعالى حکايه عن الملائکه:

سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ (الزمر۷۳/)،و قال: فَسَلاٰمٌ لَكَ مِنْ أَصْحٰابِ الْيَمِينِ (الواقعه/ ۹۱).

و قوله: «وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهٰا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» الظاهر أن إتيان الرزق بکره و عشيا کنايه عن تواليه من غير انقطاع.

قوله تعالى: تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبٰادِنٰا مَنْ كٰانَ تَقِيًّا الإرث و الوراثه هو أن ينتقل مال أو ما يشبهه من شخص الى آخر بعد ترک الأول له بموت أو جلاء أو

نحوهما،و إذ كانت الجنه فی معرض العطاء لكل إنسان بحسب الوعد الإلهی المشروط بالإيمان و العمل الصالح فاختصاص المتقين بها بعد حرمان غيرهم عنها بإضاعه الصلاه و اتباع الشهوات وراثه المتقين،و نظير هذه العنايه ما فی قوله تعالی: أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِیَ الصّالِحُونَ (الأنبياء/١٠۵)،و قوله: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِی صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّهِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (الزمر/٧۴)،و الآيه-كما تری-جمعت بين الإيراث و الأجر.

[سوره مريم (١٩): الآيات ۶۴ الی ۶۵]

اشاره

وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلاّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (۶۴) رَبُّ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَ اِصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (۶۵)

بيان:

قوله تعالی: وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلاّ بِأَمْرِ رَبِّكَ الی آخر الآيه؛التنزل هو النزول علی مهل و تؤده فإن تنزل مطاوع نزّل يقال:نزله فتنزل و النفی و الاستثناء يفيدان الحصر فلا يتنزل الملائكه إلا بأمر من اللّه كما قال: لا يَعْصُونَ اللّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (التحريم/ ۶٠).

و قوله: لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ يقال:كذا قدّامه و أمامه و بين يديه و المعنی واحد غير أن قولنا:بين يديه إنما يطلق فيما كان بقرب منه و هو مشرف عليه له فيه نوع من التصرف و التسلط فظاهر قوله: «ما بَيْنَ أَيْدِينا» أن المراد به ما نشرف عليه مما

هو مكشوف علينا مشهود لنا:و ظاهر قوله: «وَ مٰا خَلْفَنٰا» بالمقابله ما هو غائب عنا مستور علينا.

و على هذا فلو أريد بقوله: «مٰا بَيْنَ أَيْدِينٰا وَ مٰا خَلْفَنٰا وَ مٰا بَيْنَ ذٰلِكَ» المكان شمل بعض المكان الذى أمامهم و المكان الذى هم فيه و جميع المكان الذى خلفهم و لم يشمل كل مكان، و كذا لو أريد به الزمان شمل الماضى كله و الحال و المستقبل القريب فقط و سياق قوله: «لَهُ مٰا بَيْنَ أَيْدِينٰا وَ مٰا خَلْفَنٰا وَ مٰا بَيْنَ ذٰلِكَ» ،ينادى بالإحاطه و لا يلائم التبعيض.

فالوجه حمل «مٰا بَيْنَ أَيْدِينٰا» على الأعمال و الآثار المتفرعه على وجودهم التى هم قائمون بها متسلطون عليها،و حمل «مٰا خَلْفَنٰا» على ما هو من أسباب وجودهم مما تقدّمهم و تحقق قبلهم،و حمل «مٰا بَيْنَ ذٰلِكَ» على وجودهم أنفسهم و هو من أبدع التعبير و ألطفه و بذلک تتم الإحاطه الإلهيه بهم من كل جهه لرجوع المعنى الى أن اللّه تعالى هو المالك لوجودنا و ما يتعلق به وجودنا من قبل و من بعد.

قوله تعالى: رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبٰادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا صدر الآيه أعنى قوله: «رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا» تعليل لقوله فى الآيه السابقه: «لَهُ مٰا بَيْنَ أَيْدِينٰا وَ مٰا خَلْفَنٰا» الى آخر الآيه؛أى كيف لا يملك ما بين أيدينا و ما خلفنا و ما بين ذلک و كيف يكون نسيا و هو تعالى ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما؟و رب الشىء هو مالكه،المدبر لأمره،فملكه و عدم نسيانه مقتضى ربوبيّته.

و قوله: «فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبٰادَتِهِ» تفريع على صدر الآيه و المعنى إذا كنا لا نتنزل إلا بأمر ربک و قد نزلنا عليك هذا الكلام المتضمن للدعوه الى عبادته فالكلام كلامه و الدعوه دعوته فاعبده وحده و اصطبر لعبادته فليس هناک من يسمّى ربا غير ربک حتى لا تصطبر على عباده ربک و تنتقل الى عباده ذلك الغير الذى يسمّى ربا فتكتفى بعبادته عن عباده ربک أو تشرک به و ربما قيل:إن الجمله تفريع على قوله: «رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» أو على قوله:

«وَ مٰا كٰانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» أی لم ينسك ربك فاعبده،الخ؛و الوجهان كما ترى.

[سوره مريم (١٩): الآيات ۶۶ الى ٧٢]

اشاره

وَ يَقُولُ اَلْإِنْسٰانُ أَ إِذٰا مٰا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (۶۶) أَ وَ لاٰ يَذْكُرُ اَلْإِنْسٰانُ أَنّٰا خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً (۶٧) فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ اَلشَّيٰاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (۶٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى اَلرَّحْمٰنِ عِتِيًّا (۶٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلىٰ بِهٰا صِلِيًّا (٧٠) وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاّٰ وٰارِدُهٰا كٰانَ عَلىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي اَلَّذِينَ اِتَّقَوْا وَ نَذَرُ اَلظّٰالِمِينَ فِيهٰا جِثِيًّا (٧٢)

بيان:

قوله تعالى: وَ يَقُولُ الْإِنْسٰانُ أَ إِذٰا مٰا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا إنكار للبعث فی صوره الاستبعاد،و هو قول الكفار من الوثنيين و من يلحق بهم من منكرى الصانع بل مما يميل اليه طبع الانسان قبل الرجوع الى الدليل،قيل:و لذلك نسب القول الى الانسان حينما كان مقتضى طبع الكلام أن يقال:و يقول الكافر،أو:و يقول الذين كفروا،الخ؛و فيه أنه لا يلائم قوله الآتى: «فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّيٰاطِينَ -الى قوله- صِلِيًّا» .

و ليس ببعيد أن يكون المراد بالانسان القائل ذلك هو الكافر المنكر للبعث و إنما عبّر بالانسان لكونه لا يترقب منه ذلك و قد جهّزه اللّه تعالى بالإدراك العقلى و هو يذكر أن اللّه خلقه من قبل و لم يك شيئا،فليس من البعيد أن يعيده ثانيا فاستبعاده مستبعد منه،و لذا كرّر

لفظ الانسان حيث أخذ فى الجواب قائلا- «أَ وَ لاٰ يَذْكُرُ الْإِنْسٰانُ أَنّٰا خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً» أى إنه إنسان لا ينبغى له أن يستبعد وقوع ما شاهد وقوع مثله و هو غير ناسيه.

و لعل التعبير بالمضارع فى قوله: «وَ يَقُولُ الْإِنْسٰانُ» للإشاره الى استمرار هذا الاستبعاد بين المنكرين للمعاد و المرتابين فيه.

قوله تعالى: أَ وَ لاٰ يَذْكُرُ الْإِنْسٰانُ أَنّٰا خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً الاستفهام للتعجيب و الاستبعاد و معنى الآيه ظاهر و قد أخذ فيها برفع الاستبعاد بذكر وقوع المثل ليثبت به الإمكان،فالآيه نظيره قوله تعالى فى موضع آخر: وَ ضَرَبَ لَنٰا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قٰالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظٰامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّةٍ -الى أن قال- أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِقٰادِرٍ عَلىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ (يس/۸۱).

قوله تعالى: فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّيٰاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا الجثىّ فى أصله على فعول جمع جاثى و هو البارك على ركبتيه،و نسب الى ابن عباس أنه جمع جثوه و هو المجتمع من التراب و الحجاره،و المراد أنهم يحضرون زمرا و جماعات متراكما بعضهم على بعض،و هذا المعنى أنسب للسياق.

و ضمير الجمع فى «لَنَحْشُرَنَّهُمْ» و «لَنُحْضِرَنَّهُمْ» للكفار،و الآيه الى تمام ثلاث آيات متعرضه لحالهم يوم القيامه و هو ظاهر و ربما قيل:إن الضميرين للناس أعمّ من المؤمن و الكافر كما أن ضمير الخطاب فى قوله الآتى: «وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاّٰ وٰارِدُهٰا» كذلك و فيه أن لحن الآيات الثلاث و هو لحن السخط و العذاب يأبى ذلك.

و المراد بقوله: «لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّيٰاطِينَ» جمعهم خارج القبور مع أوليائهم من الشياطين لأنهم لعدم إيمانهم غاوون كما قال: «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» و الشياطين أولياؤهم قال تعالى:

إِنَّ عِبٰادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلاّٰ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغٰاوِينَ (الحجر/۴۲)،و قال: إِنّٰا جَعَلْنَا الشَّيٰاطِينَ أَوْلِيٰاءَ لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ (الأعراف/۲۷)،أو المراد حشرهم مع قرنائهم

من الشياطين كما قال: وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، حَتّٰى إِذٰا جٰاءَنٰا قٰالَ يٰا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ، وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ (الزخرف۳۹/).

و المعنى:فاقسم بربك لنجمعنهم-يوم القيامه-و أولياءهم أو قرنائهم من الشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم لإذاقه العذاب و هم باركون على ركبهم من الذله أو وهم جماعات و زمره زمره.

و فى قوله: «فَوَ رَبِّكَ» التفات من التكلم مع الغير الى لغيبه و لعل النكته فيه ما تقدم فى قوله: «بِأَمْرِ رَبِّكَ» و نظيره قوله الآتى: «كٰانَ عَلىٰ رَبِّكَ حَتْماً» .

قوله تعالى: ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمٰنِ عِتِيًّا النزع هو الاستخراج،و الشيعه الجماعه المتعاونون على أمر أو التابعون لعقيده و العتى على فعول مصدر بمعنى التمرّد فى العصيان و الظاهر أن قوله: «أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمٰنِ عِتِيًّا» جمله استفهاميه وضع موضع مفعول لننزعن للدلاله على العنايه بالتعيين و التمييز فهو نظير قوله:

أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ (الإسراء۵۷/).

و المعنى:ثم لنستخرجن من كل جماعه متشكله أشدهم تمردا على الرحمن و هم الرؤساء و أئمه الضلال،و قيل المعنى لنستخرجن الأشد ثم الأشد حتى يحاط بهم.

و فى قوله: «عَلَى الرَّحْمٰنِ» التفات و النكته تلويح أن تمردهم عظيم كونه تمردا على من شملت رحمته كل شىء و هم لم يلقوا منه إلا الرحمه و التمرد على من هذا شأنه عظيم.

قوله تعالى: ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلىٰ بِهٰا صِلِيًّا الصلى فى الأصل على فعول مصدر يقال:صلى النار يصلاها صليا و صليّا إذا قاسى حرّها فالمعنى ثم أقسم لنحن أعلم بمن أولى بالنار مقاساه لحرها أى إن الأمر فى دركات عذابهم و مراتب استحقاقهم لا يشتبه علينا.

قوله تعالی: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاّ وٰارِدُهٰا كٰانَ عَلىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا الخطاب للناس عامه مؤمنیهم و كافریهم بدلیل قوله فی الآیه التالیه: «ثُمَّ نُنَجِّی الَّذِینَ اتَّقَوْا» و الضمیر فی «وٰارِدُهٰا» للنار،و ربما قیل:إن الخطاب للكفار المذكورین فی الآیات الثلاث الماضیه و فی الكلام التفات من الغیبه الی الحضور و فیه أن سیاق الآیه التالیه یأبی ذلك.

و الورود خلاف الصدور و هو قصد الماء علی ما یظهر من كتب اللغه قال الراغب فی المفردات:الورود أصله قصد الماء ثم یستعمل فی غیره یقال:وردت الماء أرده،ورودا فأنا وارد و الماء مورود،و قد أوردت الإبل الماء قال تعالی: «وَ لَمّٰا وَرَدَ مٰاءَ مَدْیَنَ» و الورد الماء المرشح للورود،و الورد خلاف الصدر،و الورد یوم الحمّی إذا وردت،و استعمل فی النار علی سبیل الفظاعه قال تعالی: «فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ» «وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ» «إِلىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً» «أَنْتُمْ لَهٰا وٰارِدُونَ» «مٰا وَرَدُوهٰا» و الوارد الذی یتقدم القوم فیسقی لهم قال تعالی: «فَأَرْسَلُوا وٰارِدَهُمْ» أی ساقیهم من الماء المورود انتهی موضع الحاجه.

و الی ذلك استند من قال من المفسرین أن الناس إنما یحضرون النار و یشرفون علیها من غیر أن یدخلوها و استدلوا علیه بقوله تعالی: وَ لَمّٰا وَرَدَ مٰاءَ مَدْیَنَ وَجَدَ عَلَیْهِ أُمَّةً مِنَ النّٰاسِ یَسْقُونَ (القصص۲۳/)،و قوله: فَأَرْسَلُوا وٰارِدَهُمْ فَأَدْلىٰ دَلْوَهُ (یوسف۱۹/)،و قوله:

إِنَّ الَّذِینَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنىٰ أُولٰئِكَ عَنْهٰا مُبْعَدُونَ لاٰ یَسْمَعُونَ حَسِیسَهٰا (الأنبیاء/ ۱۰۲).

و فیه أن استعماله فی مثل قوله: «وَ لَمّٰا وَرَدَ مٰاءَ مَدْیَنَ» و قوله: «فَأَرْسَلُوا وٰارِدَهُمْ» فی الحضور بعلاقه الإشراف لا ینافی استعماله فی الدخول علی نحو الحقیقه كما ادّعی فی آیات أخری،و أما قوله: «أُولٰئِكَ عَنْهٰا مُبْعَدُونَ لاٰ یَسْمَعُونَ حَسِیسَهٰا» فمن الجائز أن یكون الإبعاد بعد الدخول كما سیظهر من قوله: «ثُمَّ نُنَجِّی الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظّٰالِمِینَ فِیهٰا» ،و أن یحجب اللّه بینهم و بین أن یسمعوا حسیسها إكراما لهم كما حجب بین إبراهیم و بین حراره النار،إذ قال

للنار:کونی بردا و سلاما علی إبراهیم.

و قال آخرون و لعلهم أکثر المفسرین بدلاله الآیه علی دخولهم النار استنادا الی مثل قوله تعالی: إِنَّکُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهٰا وٰارِدُونَ لَوْ کٰانَ هٰؤُلاٰءِ آلِهَهً مٰا وَرَدُوهٰا (الأنبیاء۹۹/)،و قوله فی فرعون: یَقْدُمُ قَوْمَهُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ (هود۹۸/)،و یدل علیه قوله فی الآیه التالیه: «ثُمَّ نُنَجِّی الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظّٰالِمِینَ فِیهٰا جِثِیًّا» أی نترکهم بارکین علی رکبهم و إنما یقال:نذر و نترک فیما إذا کان داخلا مستقرا فی المحل قبل الترک ثم أبقی علی ما هو علیه و لعده من الروایات الوارده فی تفسیر الآیه.

و هؤلاء بین من یقول بدخول عامه الناس فیها و من یقول بدخول غیر المتقین مدّعیا أن قوله:«منکم»بمعنی منهم علی حد قوله: وَ سَقٰاهُمْ رَبُّهُمْ شَرٰاباً طَهُوراً، إِنَّ هٰذٰا کٰانَ لَکُمْ جَزٰاءً (الدهر۲۲/)،هذا و لکن لا یلائمه سیاق قوله: «ثُمَّ نُنَجِّی الَّذِینَ اتَّقَوْا» الآیه.

و فیه أن کون الورود فی مثل قوله: «لَوْ کٰانَ هٰؤُلاٰءِ آلِهَهً مٰا وَرَدُوهٰا» بمعنی الدخول ممنوع بل الأنسب کونه بمعنی الحضور و الإشراف فإنه أبلغ کما هو ظاهر و کذا فی قوله: «فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ» فإن شأن فرعون و هو من أئمه الضلال هو أن یهدی قومه الی النار و أما إدخالهم فیها فلیس الیه.

و أما قوله: ثُمَّ نُنَجِّی الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظّٰالِمِینَ فِیهٰا فالآیه دالّه علی کونهم داخلین فیها بدلیل قوله: «نَذَرُ» لکن دلالتها علی کونهم داخلین غیر کون قوله: «وٰارِدُهٰا» مستعملا فی معنی الدخول،و کذا تنجیه المتقین لا تستلزم کونهم داخلین فیها فإن النتیجه کما تصدق مع إنقاذ من دخل المهلکه تصدق مع إبعاد من أشرف علی الهلاک و حضر المهلکه من ذلک.

و أما الروایات فإنما وردت فی شرح الواقعه لا فی تشخیص ما استعمل فیه لفظ «وٰارِدُهٰا» فی الآیه فالاستدلال بها علی کون الورود بمعنی الدخول ساقط.

فإن قلت:لم لا يجوز أن يكون المراد شأنيه الدخول و المعنى:ما من أحد منكم إلا من شأنه أن يدخل النار و إنما ينجو من ينجو بإنجاء اللّه على حد قوله: وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مٰا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً (النور/۲۱).

قلت:معناه كون الورود مقتضى طبع الانسان من جهه أن ما يناله من خير و سعاده فمن اللّه و لا يبقى له من نفسه إلا الشر و الشقاء لكن ينافيه ما فى ذيل الآيه من قوله: «كٰانَ عَلىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا» فإنه صريح فى أن هذا الورود بإيراد من اللّه و بقضائه المحتوم لا باقتضاء من طبع الأشياء.

و الحق أن الورود لا يدل على أزيد من الحضور و الإشراف عن قصد-على ما يستفاد من كتب اللغه-فقوله: «وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاّٰ وٰارِدُهٰا» إنما يدل على القصد و الحضور و الإشراف،و لا ينافى دلاله قوله فى الآيه التاليه: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظّٰالِمِينَ فِيهٰا جِثِيًّا» على دخولهم جميعا أو دخول الظالمين خاصه فيها بعد ما وردوها.

و قوله: «كٰانَ عَلىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا» ضمير كان للورود او للجمله السابقه باعتبار أنه حكم،و الحتم و الجزم و القطع بمعنى واحد أى هذا الورود او الحكم كان واجبا عليه تعالى مقضيا فى حقه و إنما قضى ذلك نفسه على نفسه إذ لا حاكم يحكم عليه.

قوله تعالى: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظّٰالِمِينَ فِيهٰا جِثِيًّا قد تقدم الإشاره الى أن قوله: «وَ نَذَرُ الظّٰالِمِينَ فِيهٰا» يدل على كون الظالمين داخلين فيها ثم يتركون على ما كانوا عليه،و أما تنجيه الذين اتقوا فلا تدل بلفظها على كونهم داخلين إذ التنجيه ربما تحققت بدونه اللهم إلا أن يستظهر ذلك من ورود اللفظين مقترنين فى سياق واحد.

و فى التعبير بلفظ الظالمين إشاره الى عليه الوصف للحكم.

و معنى الآيتين:ما من أحد منكم-متّق او ظالم-إلا و هو سيرد النار كان هذا الإيراد واجبا مقضيا على ربك ثم ننجى الذين اتقوا منها و نترك الظالمين فيها لظلمهم باركين على

رکبهم (۱)(۲).

[سوره مریم (۱۹): الآیات ۷۳ الی ۸۰]

اشاره

وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِمْ آیٰاتُنٰا بَیِّنٰاتٍ قٰالَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لِلَّذِینَ آمَنُوا أَیُّ اَلْفَرِیقَیْنِ خَیْرٌ مَقٰاماً وَ أَحْسَنُ نَدِیًّا (۷۳) وَ کَمْ أَهْلَکْنٰا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثٰاثاً وَ رِءْیاً (۷۴) قُلْ مَنْ کٰانَ فِی اَلضَّلاٰلَهِ فَلْیَمْدُدْ لَهُ اَلرَّحْمٰنُ مَدًّا حَتّٰی إِذٰا رَأَوْا مٰا یُوعَدُونَ إِمَّا اَلْعَذٰابَ وَ إِمَّا اَلسّٰاعَهَ فَسَیَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَکٰاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً (۷۵) وَ یَزِیدُ اَللّٰهُ اَلَّذِینَ اِهْتَدَوْا هُدیً وَ اَلْبٰاقِیٰاتُ اَلصّٰالِحٰاتُ خَیْرٌ عِنْدَ رَبِّکَ ثَوٰاباً وَ خَیْرٌ مَرَدًّا (۷۶) أَ فَرَأَیْتَ اَلَّذِی کَفَرَ بِآیٰاتِنٰا وَ قٰالَ لَأُوتَیَنَّ مٰالاً وَ وَلَداً (۷۷) أَطَّلَعَ اَلْغَیْبَ أَمِ اِتَّخَذَ عِنْدَ اَلرَّحْمٰنِ عَهْداً (۷۸) کَلاّٰ سَنَکْتُبُ مٰا یَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ اَلْعَذٰابِ مَدًّا (۷۹) وَ نَرِثُهُ مٰا یَقُولُ وَ یَأْتِینٰا فَرْداً (۸۰)

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِمْ آیٰاتُنٰا الی آخر الآیه؛المقام اسم مکان من القیام

۱- ۱) .مریم ۶۶-۷۲:بحث روائی حول معنی ورود الناس فی جهنم.

۲- ۲) .مریم ۶۶-۷۲:کلام فی معنی وجوب الفعل و جوازه و عدم جوازه علی اللّه سبحانه.

فهو المسكن،و النديّ هو المجلس و قيل خصوص مجلس المشاوره،و معنى «قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا» أنهم خاطبوهم فاللام للتبليغ كما قيل،و قيل:تفيد معنى التعليل أى قالوا لأجل الذين آمنوا أى لأجل إغوائهم و صرفهم عن الإيمان،و الأول أنسب للسياق كما أن الأنسب للسياق أن يكون ضمير عليهم راجعا الى الناس أعمّ من الكفار و المؤمنين دون الكفار فقط حتى يكون قوله: «قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر.

و قوله: أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا أى للاستفهام و الفريقان هما الكفار و المؤمنون،و كان مرادهم أن الكفار هم خير مقاما و أحسن نديّا من المؤمنين الذين كان الغالب عليهم العبيد و الفقراء لكنهم أوردوه فى صوره السؤال و كنّوا عن الفريقين لدعوى أن المؤمنين عالمون بذلك يجيبون بذلك لو سئلوا من غير تردد و ارتياب.

و المعنى:و إذا تتلى على الناس-و هم الفريقان الكفار و المؤمنون-آياتنا و هى ظاهرات فى حجتها واضحات فى دلالتها لا تدع ريبا لمرتاب،قال فريق منهم و هم الذين كفروا للفريق الآخر و هم الذين آمنوا:أىّ هذين الفريقين خير من جهه المسكن و أحسن من حيث المجلس -و لا محاله هم الكفار-يريدون أن لازم ذلك أن يكونوا هم سعداء فى طريقتهم و ملّتهم إذ لا سعاده وراء التمتع بأمتعه الحياه الدنيا فالحق ما هم عليه.

قوله تعالى: وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً القرن:

الناس المقترنون فى زمن واحد،و الأثاث:متاع البيت،قيل:لا يطلق إلا على الكثير و لا واحد له من لفظه،و الرئى بالكسر فالسكون:ما رئى من المناظر،نقل فى مجمع البيان عن بعضهم:أنه اسم لما ظهر و ليس بالمصدر و إنما المصدر الرأى و الرؤيه يدلّ على ذلك قوله:

«يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ» فالرأى:الفعل،و الرئى:المرئى كالطحن و الطّحن و السّقى و الرّمى و الرّمى.انتهى.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَهِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا الى آخر

الآیه؛لفظه کان فی قوله: «مَنْ کٰانَ فِی الضَّلاٰلَهِ» تدلّ علی استمرارهم فی الضلاله لا مجرد تحقق ضلاله ما،و بذلک یتمّ التهدید بمجازاتهم بالإمداد و الاستدراج الذی هو إضلال بعد الضلال.

و قوله: «فَلْیَمْدُدْ» صیغه أمر غائب و یئول معناه الی أن من الواجب علی الرحمن أن یمدّه مدّا،فإن أمر المتکلم مخاطبه أن یأمره بشیء معناه إیجاب المتکلم ذلک علی نفسه.

و المد و الإمداد واحد لکن ذکر الراغب فی المفردات أن أکثر ما جاء الإمداد فی المحبوب و المدّ فی المکروه و المراد أن من استقرت علیه الضلاله و استمر هو علیها-و المراد به الکفار کنایه-فقد أوجب اللّه علی نفسه أن یمده بما منه ضلالته کالزخارف الدنیویّه فی مورد الکلام فینصرف بذلک عن الحق حتی یأتیه أمر اللّه من عذاب أو ساعه بالمفاجأه و المباهته فیظهر له الحق عند ذلک و لن ینتفع به.

فقوله: حَتّٰی إِذٰا رَأَوْا مٰا یُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذٰابَ وَ إِمَّا السّٰاعَهَ فَسَیَعْلَمُونَ الخ؛دلیل علی أن هذا المد خذلان فی صوره إکرام و المراد به أن ینصرف عن الحق و اتباعه بالاشتغال بزهره الحیاه الدنیا الغارّه فلا یظهر له الحق إلا فی وقت لا ینتفع به و هو وقت نزول البأس أو قیام الساعه.

کما قال تعالی: فَلَمْ یَکُ یَنْفَعُهُمْ إِیمٰانُهُمْ لَمّٰا رَأَوْا بَأْسَنٰا سُنَّتَ اللّٰهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ فِی عِبٰادِهِ (المؤمن/۸۵)،و قال: یَوْمَ یَأْتِی بَعْضُ آیٰاتِ رَبِّکَ لاٰ یَنْفَعُ نَفْساً إِیمٰانُهٰا لَمْ تَکُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ کَسَبَتْ فِی إِیمٰانِهٰا خَیْراً (الأنعام/۱۵۸).

و فی إرجاع ضمیر الجمع فی قوله: «رَأَوْا مٰا یُوعَدُونَ» الی «مَنْ» رعایه جانب معناه کما أن فی إرجاع ضمیر الافراد فی قوله: «فَلْیَمْدُدْ لَهُ» الیه رعایه جانب لفظه.

و قوله: «فَسَیَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَکٰاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً» قوبل به قولهم السابق: «أَیُّ الْفَرِیقَیْنِ خَیْرٌ مَقٰاماً وَ أَحْسَنُ نَدِیًّا» أما مکانهم حین یرون العذاب-و الظاهر أن المراد به

عـذاب الـدنيا-فحيث يحل بهم عذاب اللّه و قد كان مكان صـناديد قريش المتلو عليهم الآيات حين نزول العذاب،قليب بدر التى ألقيت فيهـا أجسادهم و أما مكانهم يوم يرون الساعه فالنار الخالـده التى هى دار البوار،و أما ضـعف جنـدهم فلأنه لا عاصم لهم اليوم من اللّه و يعود كل ما هيئوه لأنفسهم من عده و عده سدى لا أثر له.

قوله تعـالى: وَ يَزِيـدُ اللّٰهُ الَّذِينَ اهْتَـدَوْا هُـدىً الى آخر الآـيه،الباقيـات الصالحات الأعمال الصالحه التى تبقى محفوظه عنـد اللّه و تستعقب جميل الشكر و عظيم الأجر و قد وعد اللّه بذلك فى مواضع من كلامه.

و الثواب جزاء العمـل قـال فى المفردات:أصـل الثوب رجوع الشـىء الى حـالته الاـولى الـتى كـان عليهـا أو الى الحـاله المقـدره المقصوده بـالفكره-الى أن قال-و الثواب ما يرجع الى الانسان من جزاء أعماله فيسـمّى الجزاء ثوابا تصورا أنه هو-الى أن قال-و الثواب يقال فى الخير و الشرّ لكن الأكثر المتعارف فى الخير.انتهى و المردّ اسم مكان من الردّ و المراد به الجنه.

و فى قوله: «عِنْدَ رَبِّكَ» إشاره الى أن الحكم بخيريّه ما للمؤمنين من ثواب و مرد حكم إلهى لا يخطئ و لا يغلط البته.

قوله تعـالى: أَ فَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيٰاتِنٰا وَ قٰالَ لَأُوتَيَنَّ مٰالاً وَ وَلَـداً كما أنّ سـياق الآيات الا تربع السابقه يعطى أن الحجه الفاسـده المـذكوره قول بعض المشـركين ممن تلى عليه القرآن فقـال ما قال دحضا لكلمه الحق و اسـتغواء و اسـتخفافا للمؤمنين كـذلك سياق هذه الآيات الأربع و قد افتتحت بكلمه التعجيب و اشتملت بقول يشبه القول السابق و اختتمت بما يناسبه من الجواب يعطى أن بعض الناس ممن آمن بالنبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم أو كان فى معرض ذلك بعد ما سـمع قول الكفار مال اليهم و لحق بهم قائلاـ لأـوتينّ مالاـ و ولـدا يعنى فى الـدنيا باتبـاع ملّه الشـرك كـأن فى الإيمـان بـاللّه شؤما و فى اتخاذ الآلهه ميمنه.فردّه اللّه سبحانه بقوله:

«أَطَّلَعَ الْغَيْبَ» الخ.

قوله تعالى: أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً ردّ سبحانه عليه قوله:«لأوتين مالا و ولدا بكفرى»بأنه رجم بالغيب لا طريق له الى العلم فليس بمطّلع على الغيب حتى يعلم بأنه سيؤتى بكفره ما يأمله و لا بمتخذ عهدا عند اللّه حتى يطمئن اليه فى ذلك، و قد جيء بالنفى فى صوره الاستفهام الإنكارى.

قوله تعالى: كَلاّٰ سَنَكْتُبُ مٰا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذٰابِ مَدًّا كلا كلمه ردع و زجر و ذيل الآيه على أنه سبحانه يردّ بها ما يتضمنه قول هذا القائل من ترتب إيتاء المال و الولد على الكفر بآيات اللّه و محصّله أن الذى يترتب على قوله هذا ليس هو إيتاء المال و الولد فإن لذلك أسبابا أخر بل هو مدّ العذاب على كفره و رجمه فهو يطلب بما يقول فى الحقيقه عذابا ممدودا يتلو بعضه بعضا لأنه هو تبعه قوله لا إيتاء المال و الولد و سنكتب قوله و نرتب عليه أثره الذى هو مدّ العذاب فالآيه نظيره قوله: فَلْيَدْعُ نٰادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبٰانِيَهَ (العلق١٨/).

قوله تعالى: وَ نَرِثُهُ مٰا يَقُولُ وَ يَأْتِينٰا فَرْداً المراد بوراثه ما يقول أنه سيموت و يفنى و يترك قوله:لأوتين بكفرى مالا و ولدا،و قد كان خطيئه لازمه له لزوم المال للانسان محفوظه عند اللّه كأنه مال ورثه بعده ففى الكلام استعاره لطيفه.

و قوله: «وَ يَأْتِينٰا فَرْداً» أى وحده و ليس معه شيء مما كان ينتصر به و يركن اليه بحسب و همه فمحصّل الآيه أنه سيأتينا وحده و ليس معه إلا قوله الذى حفظناه عليه فنحاسبه على ما قال و نمدّ له من العذاب مدا.

[سوره مريم (١٩): الآيات ٨١ الى ٩٦]

اشاره

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاّٰ سَيَكْفُرُونَ بِعِبٰادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَ لَمْ تَرَ أَنّٰا أَرْسَلْنَا الشَّيٰاطِينَ عَلَى الْكٰافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلاٰ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمٰا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨۴) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْداً (٨۵) وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً (٨۶) لاٰ يَمْلِكُونَ الشَّفٰاعَةَ إِلاّٰ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً (٨٧) وَ قٰالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (٨٩) تَكٰادُ السَّمٰاوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبٰالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً (٩١) وَ مٰا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ إِلاّٰ آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصٰاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا (٩۴) وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ فَرْداً (٩۵) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا (٩۶)

بيان:

قوله تعالى: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا هؤلاء الآلهه هم

ص :١٣٩

الملائكه و الجنّ و القدّيسون من الإنس و جبابره الملوک فإن أکثرهم کانوا یرون الملک قداسه سماویه.

و معنی کونهم لهم عزا کونهم شفعاء لهم یقرّبونهم الی اللّه بالشفاعه فینالون بذلک العزه فی الدنیا ینجرّ الیهم الخیر و لا یمسهم الشر،و من فسّر کونهم لهم عزا بشفاعتهم لهم فی الآخره خفی علیه أن المشرکین لا یقولون بالبعث.

قوله تعالی: کَلاّ سَیَکْفُرُونَ بِعِبٰادَتِهِمْ وَ یَکُونُونَ عَلَیْهِمْ ضِدًّا الضد بحسب اللغه المنافی الذی لا یجتمع مع الشیء،و عن الأخفش أن الضد یطلق علی الواحد و الجمع کالرسول و العدو و أنکر ذلک بعضهم و وجّه إطلاق الضد فی الآیه و هو مفرد علی الآلهه و هی جمع بأنها لما کانت متفقه فی عداوه هؤلاء و الکفر بعبادتهم کانت فی حکم الواحد و صحّ بذلک إطلاق المفرد علیها.

و ظاهر السیاق أن ضمیری «سَیَکْفُرُونَ» و «یَکُونُونَ» للآلهه و ضمیری «بِعِبٰادَتِهِمْ» و «عَلَیْهِمْ» للمشرکین المتخذین للآلهه و المعنی:سیکفر الآلهه بعباده هؤلاء المشرکین و یکون الآلهه حال کونهم علی المشرکین لا لهم،ضدا لهم یعادونهم و لو کانوا لهم عزا لثبتوا علی ذلک دائما و قد وقع ذلک فی قوله تعالی: وَ إِذٰا رَأَی الَّذِینَ أَشْرَکُوا شُرَکٰاءَهُمْ قٰالُوا رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ شُرَکٰاؤُنَا الَّذِینَ کُنّٰا نَدْعُوا مِنْ دُونِکَ فَأَلْقَوْا إِلَیْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّکُمْ لَکٰاذِبُونَ (النحل/۸۶).

و أوضح منه قوله: وَ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مٰا یَمْلِکُونَ مِنْ قِطْمِیرٍ، إِنْ تَدْعُوهُمْ لاٰ یَسْمَعُوا دُعٰاءَکُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجٰابُوا لَکُمْ وَ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ یَکْفُرُونَ بِشِرْکِکُمْ (فاطر/۱۴).

و المراد بکفر الآلهه یوم القیامه بعادتهم و کونهم علیهم ضدا هو ظهور حقیقه الأمر یومئذ فإن شأن یوم القیامه ظهور الحقائق فیه لأهل الجمع لا حدوثها و لو لم تکن الآلهه کافرین بعبادتهم فی الدنیا و لا علیهم ضدا بل بدا لهم ذلک یوم القیامه لم تتم حجه الآیه فافهم ذلک، و علی هذا المعنی یترتب قوله: «أَ لَمْ تَرَ» علی قوله: «کَلاّ سَیَکْفُرُونَ بِعِبٰادَتِهِمْ» الخ.

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ أَنّٰا أَرْسَلْنَا الشَّيٰاطِينَ عَلَى الْكٰافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا الأز و الهز بمعنی واحد و هو التحریک بشده و إزعاج و المراد تهییج الشیاطین إیاهم الی الشر و الفساد و تحریضهم علی اتباع الباطل و إضلالهم بالتزلزل عن الثبات و الاستقامه علی الحق.

و لا ضیر فی نسبه إرسال الشیاطین الیه تعالی بعد ما کان علی طریق المجازاه فإنهم کفروا بالحق فجازاهم اللّه بزیاده الکفر و الضلال و یشهد بذلک قوله: «عَلَى الْكٰافِرِينَ» و لو کان إضلالا ابتدائیا لقیل «عَلَيْهِمْ» من غیر أن یوضع الظاهر موضع المضمر.

و الآیه و هی مصدره بقوله: «أَ لَمْ تَرَ» المفید معنی الاستشهاد مسوقه لتأیید ما ذکر فی الآیه السابقه من کون آلهتهم علیهم ضدا،فإن تهییج الشیاطین إیاهم للشر و الفساد و اتباع الباطل معاداه و ضدیه و الشیاطین و هم من الجنّ من جمله آلهتهم و لو لم یکن هؤلاء الآلهه علیهم ضدا ما دعوهم الی ما فیه هلاکهم و شقاؤهم.

فالآیه بمنزله أن یقال:هؤلاء الآلهه الذین یحسبونهم لأنفسهم عزا هم علیهم ضد و تصدیق ذلک أن الشیاطین و هم من آلهتهم یحرکونهم بإزعاج نحو ما فیه شقاؤهم و لیسوا مع ذلک مطلقی العنان بل إنما هو بإذن من اللّه یسمی إرسالا و علی هذا فالآیه متصله بسابقتها و هو ظاهر.

و جعل صاحب روح المعانی هذه الآیه مترتبه علی مجموع الآیات من قوله: «وَ يَقُولُ الْإِنْسٰانُ أَ إِذٰا مٰا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا» الی قوله: «وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» و متصله به و أطنب فی بیان کیفیه الاتصال بما لا یجدی نفعا و أفسد بذلک سیاق الآیات و اتصال ما بعد هذه الآیه بما قبلها.

قوله تعالی: فَلاٰ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمٰا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا العد هو الاحصاء و العد یفنی المعدود و ینفده و بهذه العنایه قصد به إنفاد أعمارهم و الانتهاء الی آخر أنفاسهم کأن أنفاسهم الممده لأعمارهم مذخوره بعددها عند اللّه فینفدها بإرسالها واحدا بعد آخر حتی تنتهی و هو

اليوم الموعود عليهم.

قوله تعالى: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْداً الوفد هم القوم الواردون لزياره أو استنجاز حاجه أو نحو ذلك و لا يسمّون وفدا إلا إذا كانوا ركبانا و هو جمع واحده وافد.

و ربما استفيد من مقابله قوله فى هذه الآيه: «إِلَى الرَّحْمٰنِ» قوله فى الآيه التاليه: «إِلىٰ جَهَنَّمَ» أن المراد بحشرهم الى الرحمن حشرهم الى الجنه و إنما سمّى حشرا الى الرحمن لأن الجنه مقام قربه تعالى فالحشر إليها حشر اليه.و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً فسّر الورد بالعطاش و كأنه مأخوذ من ورود الماء أى قصده ليشرب و لا يكون ذلك إلا عن عطش فجعل بذلك الورد كنايه عن العطاش،و فى تعليق السوق الى جهنم بوصف الإجرام إشعار بالعليه و نظيره تعليق الحشر الى الرحمن فى الآيه السابقه بوصف التقوى.و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: لاٰ يَمْلِكُونَ الشَّفٰاعَةَ إِلاّٰ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً و هذا جواب ثان عن اتخاذهم الآلهه للشفاعه و هو أن ليس كل من يهوى الانسان شفاعته فاتخذه إلها ليشفع له يكون شفيعا بل إنما يملك الشفاعه بعهده من اللّه و لا عهد إلا لآحاد من مقرّبى حضرته،قال تعالى: وَ لاٰ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفٰاعَةَ إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف/۸۶).

قوله تعالى: وَ قٰالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً من قول الوثنيين و بعض خاصتهم،و إن قال ببنوّه الآلهه أو بعضهم للّه سبحانه تشريفا أو تجليلا لكن عامتهم و بعض خاصتهم-فى مقام التعليم-قال بذلك تحقيقا بمعنى الاشتقاق من حقيقه اللاهوت و اشتمال الولد على جوهره والده،و هذا هو المراد بالآيه و الدليل عليه التعبير بالولد دون الابن،و كذا ما فى قوله: «إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» الى تمام ثلاث آيات من الاحتجاج على نفيه.

ص :۱۴۲

قوله تعالی: لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا الی تمام ثلاث آیات،الإد بکسر الهمزه:الشیء المنکر الفظیع،و التفطّر الانشقاق،و الخرور السقوط،و الهدّ الهدم.

و الآیات فی مقام إعظام الذنب و إکبار تبعته بتمثیله بالمحسوس یقول:لقد أتیتم بقولکم هذا أمرا منکرا فظیعا تکاد السماوات یتفطرن و ینشققن منه و تنشقّ الأرض و تسقط الجبال علی السهل سقوط انهدام أن دعوا للرحمن ولدا.

قوله تعالی: وَ مٰا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ إِلاّٰ آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً الی تمام أربع آیات.المراد بإتیان کل منهم عبدا له توجّه الکل الیه و مثوله بین یدیه فی صفه المملوکیه المحضه فکل منهم مملوک له لا یملک لنفسه نفعا و لا ضرّا و لا موتا و لا حیاه و لا نشورا و ذلک أمر بالفعل ملازم له ما دام موجودا،و لذا لم یقیّد الإتیان فی الآیه بالقیامه بخلاف ما فی الآیه الرابعه.

و المراد بإحصائهم و عدّهم تثبیت العبودیه لهم فإن العبید إنما لهم أرزاقهم و تتبین وظائفهم و الامور التی یستعملون فیها بعد الإحصاء و عدّهم و ثبتهم فی دیوان العبید و به تسجل علیهم العبودیه.

و المراد بإتیانه له یوم القیامه فردا إتیانه یومئذ صفر الکفر لا یملک شیئا مما کان یملکه بحسب ظاهر النظر فی الدنیا و کان یقال:إن له حولا و قوه و مالا و ولدا و أنصارا و وسائل و أسبابا الی غیر ذلک فیظهر یومئذ إذ تتقطع بهم الأسباب أنه فرد لیس معه شیء یملکه و أنه کان عبدا بحقیقه معنی العبودیه لم یملک قط و لن یملک أبدا فشأن یوم القیامه ظهور الحقائق فیه.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا الود و الموده المحبه و فی الآیه وعد جمیل منه تعالی أنه سیجعل للذین آمنوا و عملوا الصالحات موده فی القلوب و لم یقیده بما بینهم أنفسهم و لا بغیرهم و لا بدنیا و لا بآخره أو جنه

فلا موجب لتقیید بعضهم ذلک بالجنه و آخرین بقلوب الناس فی الدنیا الی غیر ذلک.

و قد ورد فی أسباب النزول من طرق الشیعه و أهل السنه أن الآیه نزلت فی علی علیه السّلام،و فی بعضها ما ورد من طرق أهل السنه أنها نزلت فی مهاجری الحبشه و فی بعضها غیر ذلک و سیجیء فی البحث الروائی الآتی.

و علی أی حال فعموم لفظ الآیه فی محله،و الظاهر أن الآیه متصله بقوله السابق:

«سَیَکْفُرُونَ بِعِبٰادَتِهِمْ وَ یَکُونُونَ عَلَیْهِمْ ضِدًّا»

(۱)

.

[سوره مریم (۱۹): الآیات ۹۷ الی ۹۸]

اشاره

فَإِنَّمٰا یَسَّرْنٰاهُ بِلِسٰانِکَ لِتُبَشِّرَ بِهِ اَلْمُتَّقِینَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (۹۷) وَ کَمْ أَهْلَکْنٰا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِکْزاً (۹۸)

بیان:

قوله تعالی: فَإِنَّمٰا یَسَّرْنٰاهُ بِلِسٰانِکَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِینَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا التیسیر و هو التسهیل ینبئ عن حال سابقه ما کان یسهل معها تلاوته و لا فهمه و قد أنبأ سبحانه عن مثل هذه الحاله لکتابه فی قوله: وَ الْکِتٰابِ الْمُبِینِ إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتٰابِ لَدَیْنٰا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ (الزخرف/۴)،فأخبر أنه لو أبقاه علی ما کان علیه عنده-و هو الآن کذلک-من غیر أن یجعله عربیا مقروّا لم یرج أن یعقله الناس و کان کما کان علیا حکیما أی آبیا متعصیا أن یرقی الیه أفهامهم و ینفذ فیه عقولهم.

ص: ۱۴۴

۱- ۱) .مریم ۸۱-۹۶:بحث روائی فی المشرکین و آلهتهم؛حشر المتقین الی الرحمن وفدا،معنی الود الذی جعل اللّه للمؤمنین.

و من هنا يتأيـد أن معنى تيسـيره بلسانه تنزيله على اللسان العربى الـذى كان هو لسانه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم فتنبئ الآيه أنه تعالى يسّره بلسانه ليتيسر له التبشير و الإنذار.

و قوله: «وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا» المراد قومه صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و اللّدّ جمع ألدّ من اللدد و هو الخصومه.

قوله تعالى: وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً الإحساس هو الإدراك بالحس،و الركز هو الصوت،قيل:و الأصل فى معناه الحس،و حصّل المعنى أنهم و إن كانوا خصـماء مجادلين لكنهم غير معجزى اللّه بخصامهم فكم أهلكنا قبلهم من قرن فبادوا فلا يحس منهم أحد و لا يسمع لهم صوت.

سوره طه مکیه و هی مائه و خمس و ثلاثون آیه

اشاره

[سوره طه (۲۰): الآیات ۱ الی ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;طه (۱) مٰا أَنْزَلْنٰا عَلَیْکَ اَلْقُرْآنَ لِتَشْقیٰ (۲) إِلاّٰ تَذْکِرَهً لِمَنْ یَخْشیٰ (۳) تَنْزِیلاً مِمَّنْ خَلَقَ اَلْأَرْضَ وَ اَلسَّمٰاوٰاتِ اَلْعُلیٰ (۴) اَلرَّحْمٰنُ عَلَی اَلْعَرْشِ اِسْتَویٰ (۵) لَهُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا وَ مٰا تَحْتَ اَلثَّریٰ (۶) وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ یَعْلَمُ اَلسِّرَّ وَ أَخْفیٰ (۷) اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَهُ اَلْأَسْمٰاءُ اَلْحُسْنیٰ (۸)

بیان:

غرض السوره التذکره من طریق الإنذار تغلب فیها آیات الإنذار و التخویف علی آیات التبشیر غلبه واضحه،فقد اشتملت علی قصص تختتم بهلاک الطاغین و المکذبین لآیات اللّه و تضمنت حججا بیّنه تلزم العقول علی توحیده تعالی و الإجابه لدعوه الحق و تنتهی الی بیان ما سیستقبل الإنسان من أهوال الساعه و مواقف القیامه و سوء حال المجرمین و خسران الظالمین.

و قد افتتحت الآیات-علی ما یلوح من السیاق-بما فیه نوع تسلیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن لا یتعب نفسه الشریفه فی حمل الناس علی دعوته التی یتضمنها القرآن فلم ینزل لیتکلف به بل هو تنزیل إلهی یذکّر الناس باللّه و آیاته رجاء أن تستیقظ غریزه خشیتهم فیتذکروا فیؤمنوا به و یتّقوا فلیس علیه إلا التبلیغ فحسب فإن خشوا و تذکّروا و إلا غشیتهم غاشیه عذاب الاستئصال أو ردّوا الی ربهم فأدرکهم وبال ظلمهم و فسقهم و وفیت لهم أعمالهم من غیر أن یکونوا معجزین للّه سبحانه بطغیانهم و تکذیبهم.

و سیاق آیات السوره تعطی أن تکون مکیه و فی بعض الآثار أن قوله: فَاصْبِرْ عَلیٰ مٰا یَقُولُونَ (الآیه ۱۳۰ مدنیه)و فی بعضها الآخر أن قوله: لاٰ تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلیٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْهُمْ (الآیه ۱۳۱ مدنیه)،و لا دلیل علی شیء من ذلک من ناحیه اللفظ.

و من غرر الآیات فی السوره قوله تعالی: «اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنیٰ» .

قوله تعالی: طه مٰا أَنْزَلْنٰا عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لِتَشْقیٰ طه حرفان من الحروف المقطعه افتتحت بهما السوره کسائر الحروف المقطعه التی افتتحت بهما سورها نحو الم الر و نظائرهما و قد نقل عن جماعه من المفسرین فی معنی الحرفین أمور ینبغی أن یجلّ البحث التفسیری عن إیرادها و الغور فی أمثالها،و سنلوّح إلیها فی البحث الروائی الآتی إن شاء اللّه تعالی.

و الشقاوه خلاف السعاده قال الراغب:و الشقاوه كالسعاده من حيث الإضافه فكما أن السعاده فی الأصل ضربان:سعاده أخرويه و سعاده دنيويه ثم السعاده الدنيويه ثلاثه أضرب:سعاده نفسيه و بدنيه و خارجيه كذلک الشقاوه على هذه الأضرب-الی أن قال-قال بعضهم:قد يوضع الشقاء موضع التعب نحو شقيت فی كذا،و كل شقاوه تعب،و ليس كل تعب شقاوه،فالتعب أعم من الشقاوه.انتهی،فالمعنی ما أنزلنا القرآن لتتعب نفسک فی سبيل تبليغه بالتكلف فی حمل الناس عليه.

قوله تعالی: إِلاّٰ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشىٰ تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّمٰاوٰاتِ الْعُلىٰ التذكره هی إيجاد الذكر فيمن نسی الشیء و إذ كان الإنسان ينال حقائق الدين الكليه بفطرته كوجوده تعالی و توحيده فی وجوب وجوده و ألوهيته و ربوبيته و النبوه و المعاد و غير ذلک كانت أمورا مودعه فی الفطره غير أن إخلاد الإنسان الی الأرض و إقباله الی الدنيا و اشتغاله بما يهواه من زخارفها اشتغالا لا يدع فی قلبه فراغا أنساه ما أودع فی فطرته و كان إلقاء هذه الحقائق إلفاتا لنفسه إليها و تذكره له بها بعد نسيانها.

و الاستثناء فی قوله: «إِلاّٰ تَذْكِرَةً» استثناء منقطع-على ما قالوا-و المعنی ما أنزلنا عليک القرآن لتتعب به نفسک و لكن ليكون مذكرا يتذكر به من من شأنه أن يخشی فيؤمن باللّه و يتّقی.

فالسياق على رسله يستدعی كون «تَذْكِرَةً» مصدرا بمعنی الفاعل و مفعولا له لقوله: «مٰا أَنْزَلْنٰا» كما يستدعی كون قوله: تَنْزِيلاً» بمعنی اسم المفعول حالا من ضمير «تَذْكِرَةً» الراجع الی القرآن،و المعنی ما أنزلنا عليک القرآن لتتعب به نفسک و لكن لتذكّر الخاشعين بكلام إلهی منزّل من عنده.

و قوله: تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّمٰاوٰاتِ الْعُلىٰ العلى جمع عليا مؤنث أعلى كفضلی و فضل،و اختيار خلق الأرض و السماوات صله للموصول و بيانا لإبهام المنزّل

لمناسبته معنى التنزيل الذى لا يتم إلا بعلو و سفل يكونان مبدأ و منتهى لهذا التسيير،و قد خصصا بالذكر دون ما بينهما إذ لا غرض يتعلق بما بينهما و إنما الغرض بيان مبدأ التنزيل و منتهاه بخلاف قوله: «لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا» إذ الغرض بيان شمول الملك للجميع.

قوله تعالى: اَلرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ استئناف يذكر فيه مسأله توحيد الربوبيه التى هى مخ الغرض من الدعوه و التذكره و ذلك فى أربع آيات «الرَّحْمٰنُ -الى قوله- لَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ» .

و قد تقدم فى قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِی اللَّیْلَ النَّهٰارَ (الأعراف/۵۴)،أن الاستواء على العرش كنايه عن الاحتواء على الملك و الأخذ بزمام تدبير الامور و هو فيه تعالى-على ما يناسب ساحه كبريائه و قدسه-ظهور سلطنته على الكون و استقرار ملكه على الأشياء بتدبير امورها و إصلاح شئونها.

فاستواؤه على العرش يستلزم إحاطه ملكه بكل شىء و انبساط تدبيره على الأشياء سماويّها و أرضيّها جليلها و دقيقها خطيرها و يسيرها،فهو تعالى رب كل شىء المتوحد بالربوبيه إذ لا نعنى بالرب إلا المالك للشىء المدبر لأمره،و لذلك عقّب حديث الاستواء على العرش بحديث ملكه لكل شىء و علمه بكل شىء و ذلك فى معنى التعليل و الاحتجاج على الاستواء المذكور.

و معلوم أن «الرَّحْمٰنُ» و هو مبالغه من الرحمه التى هى الإفاضه بالإيجاد و التدبير و هو يفيد الكثره أنسب بالنسبه الى الاستواء من سائر الأسماء و الصفات و لذلك اختص من بينها بالذكر.

و قد أشبعنا الكلام فى معنى العرش فى ذيل الآيه ۵۴ من سوره الأعراف فى الجزء الثامن من الكتاب،و سيأتى بعض ما يختص بالمقام فى البحث الروائى التالى إن شاء اللّه تعالى.

ص:۱۴۹

قوله تعالى: لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا وَ مٰا تَحْتَ الثَّرىٰ الثرى على ما قيل:هو التراب الرطب أو مطلق التراب،فالمراد بما تحت الثرى ما فى جوف الأرض دون التراب و يبقى حينئذ لما فى الأرض ما على بسيطها من أجزائها و ما يعيش فيها مما نعلمه و نحسّ به كالانسان و أصناف الحيوان و النبات و ما لا نعلمه و لا نحسّ به.

و إذا عمّ الملك ما فى السماوات و الأرض و من ذلك أجزاؤهما عمّ نفس السماوات و الأرض فليس الشىء إلا نفس أجزائه.

و قد بيّن فى هذه الآيه أحد ركنى الربوبيه و هو الملك،فإن معنى الربوبيه كما تقدم آنفا هو الملك و التدبير.

قوله تعالى: وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفىٰ الجهر بالقول:رفع الصوت به،و الإسرار خلافه،قال تعالى: وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ (الملك/١٣)، و السرّ هو الحديث المكتوم فى النفس،و قوله: «وَ أَخْفىٰ» أفعل التفضيل من الخفاء على ما يعطيه سياق الترقّى فى الآيه و لا يصغى الى قول من قال:إن «أَخْفىٰ» فعل ماض فاعله ضمير راجع اليه تعالى،و المعنى:إنه يعلم السر و أخفى علمه.هذا.و فى تنكير «أَخْفىٰ» تأكيد للخفاء.

و ذكر الجهر بالقول فى الآيه أولا ثم إثبات العلم بما هو أدق منه و هو السر و الترقى الى أخفى يدلّ على أن المراد إثبات العلم بالجميع،و المعنى:و إن تجهر بقولك و أعلنت ما تريده-و كأن المراد بالقول ما فى الضمير من حيث إن ظهوره إنما هو بالقول غالبا-أو أسررته فى نفسك و كتمته أو كان أخفى من ذلك بأن كان خفيا حتى عليك نفسك فإن اللّه يعلمه.

فالأصل ترديد القول بين المجهور به و السر و أخفى و إثبات العلم بالجميع ثم وضع إثبات العلم بالسر و أخفى موضع الترديد الثانى و الجواب إيجازا.فدلّ على الجواب فى شقّى الترديد معا و على معنى الأولويه بأوجز بيان كأنه قيل:و إن تسأل عن علمه بما تجهر به من قولك فهو

يعلمه و كيف لا يعلمه؟و هو يعلم السر و أخفى منه فهو فى الكلام من لطيف الصنعه.

قوله تعالى: اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ بمنزله النتيجه لما تقدم من الآيات و لذلك كان الأنسب أن يكون اسم الجلاله خبرا لمبتدإ محذوف و التقدير هذا المذكور فى الآيات السابقه هو اللّه لا إله إلا هو...الخ؛و إن كان الأقرب بالنظر الى استقلال الآيه و جامعيتها فى مضمونها أن يكون اسم الجلاله مبتدأ و قوله: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» خبره،و قوله:

«لَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ» خبرا بعد خبر.

و كيف كان فقوله: «اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» يمكن أن يعلل بما ثبت فى الآيات السابقه من توحده تعالى بالربوبيه المطلقه و يمكن أن يعلل بقوله بعده: «لَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ» .

أما الأول فلأن معنى الإله فى كلمه التهليل إما المعبود و إما المعبود بالحق فمعنى الكلام اللّه لا معبود حق غيره أو لا معبود بالحق موجود غيره و المعبوديه من شئون الربوبيه و لواحقها فإن العباده نوع تمثيل و ترسيم للعبوديه و المملوكيه و إظهار للحاجه اليه فمن الواجب أن يكون المعبود مالكا لعابده مدبرا أمره أى ربا له و إذ كان تعالى رب كل شىء لا رب سواه فهو المعبود لا معبود سواه.

و أما الثانى فلأن العباده لأحد ثلاث خصال إما رجاء لما عند المعبود من الخير فيعبد طمعا فى الخير الذى عنده لينال بذلك،و إما خوفا مما فى الإعراض عنه و عدم الاعتناء بأمره من الشر و إما لأنه أهل للعباده و الخضوع.

و اللّه سبحانه هو المالك لكل خير لا يملك شىء شيئا من الخير إلا ما ملّكه هو إياه و هو المالك مع ذلك لما ملّكه و القادر على أقدره و هو المنعم المفضل المحيى الشافى الرازق الغفور الرحيم الغنى العزيز و له كل اسم فيه معنى الخير فهو سبحانه المستحق للعباده رجاء لما عنده من الخير دون غيره.

و اللّه سبحانه هو العزيز القاهر الذى لا يقوم لقهره شىء و هو المنتقم ذو البطش شديد

العقاب لا شرّ لأحد عند أحد إلا بإذنه فهو المستحق لأن يعبد خوفا من غضبه لو لم يخضع لعظمته و كبريائه.

و اللّه سبحانه هو الأهل للعباده وحده لأن أهليه الشیء لأن يخضع له لنفسه ليس إلا لكمال فالكمال وحده هو الذی يخضع عنده النقص الملازم للخضوع و هو إما جمال تنجذب اليه النفس انجذابا أو جلال يخرّ عنده اللبّ و يذهب دونه القلب و له سبحانه كل الجمال و ما من جمال إلا و هو آيه لجماله،و له سبحانه كل الجلال و كل ما دونه آيته.فاللّه سبحانه لا إله إلا هو و لا معبود سواه لأنه له الأسماء الحسنی.

و معنی ذلک أن كل اسم هو أحسن الأسماء التی هی نظائره له تعالی،توضيح ذلک أن توصيف الاسم بالحسن يدل علی أن المراد به ما يسمی فی اصطلاح الصرف صفه كاسم الفاعل و الصفه المشبهه دون الاسم بمعنی علم الذات لأن الاعلام إنما شأنها الإشاره الی الذوات و الاتصاف بالحسن أو القبح من شأن الصفات باشتمالها علی المعانی كالعادل و الظالم و العالم و الجاهل،فالمراد بالأسماء الحسنی الألفاظ الدالّه علی المعانی الوصفيه الجميله البالغه فی الجمال كالحی و العليم و القدير،و كثيرا ما يطلق التسميه علی التوصيف،قال تعالی:«قل سمّوهن»أی صفوهن.

و يدلّ علی ذلک أيضا قوله تعالی: وَ لِلّٰهِ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنیٰ فَادْعُوهُ بِهٰا وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِی أَسْمٰائِهِ (الأعراف/۱۸۰)،أی يميليون من الحق الی الباطل فيطلقون عليه من الأسماء ما لا يليق بساحه قدسه.

فالمراد بالأسماء الحسنی ما دلّ علی معان و صفيه كالإله و الحیّ و العليم و القدير دون اسم الجلاله الذی هو علم الذات،ثم الأسماء تنقسم الی قبيحه كالظالم و الجائر و الجاهل،و الی حسنه كالعادل و العالم،و الأسماء الحسنه تنقسم الی ما فيه كمال ما و إن كان غير خال عن شوب النقص و الإمكان نحو صبيح المنظر و معتدل القامه و جعد الشعر و ما فيه الكمال من غير

شوب کالحیّ و العلیم و القدیر بتجرید معانیها عن شوب الماده و الترکیب و هی أحسن الأسماء لبراءتها عن النقص و العیب و هی التی تلیق أن تجری علیه تعالی و یتصف بها.

و لا یختص ذلک منها باسم دون اسم بل کل اسم أحسن فله تعالی لمکان الجمع المحلی باللام المفید للاستغراق فی قوله تعالی: «لَهُ اَلْأَسْمٰاءُ اَلْحُسْنیٰ» و تقدیم الخبر یفید الحصر فجمیعها له وحده.

و معنی کونها له تعالی أنه تعالی یملکها لذاته و الذی یوجد منها فی غیره فهو بتملیک منه تعالی علی حسب ما یرید کما یدلّ علیه سوق الآیات الآتیه سوق الحصر کقوله: «هُوَ اَلْحَیُّ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ (المؤمن/۶۵)،و قوله: وَ هُوَ اَلْعَلِیمُ اَلْقَدِیرُ (الروم/۵۴)،و قوله: هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْبَصِیرُ (المؤمن/۵۶)،و قوله: أَنَّ اَلْقُوَّهَ لِلّٰهِ جَمِیعاً (البقره/۱۶۵)،و قوله:

فَإِنَّ اَلْعِزَّهَ لِلّٰهِ جَمِیعاً (النساء/۱۳۹)،و قوله: وَ لاٰ یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ (البقره/۲۵۵)،الی غیر ذلک.

و لا محذور فی تعمیم ملکه بالنسبه الی جمیع أسمائه و صفاته حتی ما کان منها عین ذاته کالحیّ و العلیم و القدیر و کالحیاه و العلم و القدره فإن الشیء ربما ینسب الی نفسه بالملک کما فی قوله تعالی: رَبِّ إِنِّی لاٰ أَمْلِکُ إِلاّٰ نَفْسِی (المائده/۲۵) (۱).

[سوره طه (۲۰): الآیات ۹ الی ۴۸]

اشاره

وَ هَلْ أَتٰاکَ حَدِیثُ مُوسیٰ (۹) إِذْ رَأیٰ نٰاراً فَقٰالَ لِأَهْلِهِ اُمْکُثُوا إِنِّی آنَسْتُ نٰاراً لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْهٰا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَی اَلنّٰارِ هُدیً (۱۰) فَلَمّٰا أَتٰاهٰا نُودِیَ یٰا مُوسیٰ (۱۱) إِنِّی أَنَا رَبُّکَ فَاخْلَعْ نَعْلَیْکَ إِنَّکَ بِالْوٰادِ اَلْمُقَدَّسِ طُویً (۱۲) وَ أَنَا اِخْتَرْتُکَ فَاسْتَمِعْ لِمٰا یُوحیٰ (۱۳) إِنَّنِی أَنَا اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاعْبُدْنِی وَ أَقِمِ اَلصَّلاٰهَ لِذِکْرِی (۱۴) إِنَّ اَلسّٰاعَهَ آتِیَهٌ أَکٰادُ أُخْفِیهٰا لِتُجْزیٰ کُلُّ نَفْسٍ بِمٰا تَسْعیٰ (۱۵) فَلاٰ یَصُدَّنَّکَ عَنْهٰا مَنْ لاٰ یُؤْمِنُ بِهٰا وَ اِتَّبَعَ هَوٰاهُ فَتَرْدیٰ (۱۶) وَ مٰا تِلْکَ بِیَمِینِکَ یٰا مُوسیٰ (۱۷) قٰالَ هِیَ عَصٰایَ أَتَوَکَّؤُا عَلَیْهٰا وَ أَهُشُّ بِهٰا عَلیٰ غَنَمِی وَ لِیَ فِیهٰا مَآرِبُ أُخْریٰ (۱۸) قٰالَ أَلْقِهٰا یٰا مُوسیٰ (۱۹) فَأَلْقٰاهٰا فَإِذٰا هِیَ حَیَّهٌ تَسْعیٰ (۲۰) قٰالَ خُذْهٰا وَ لاٰ تَخَفْ سَنُعِیدُهٰا سِیرَتَهَا اَلْأُولیٰ (۲۱) وَ اُضْمُمْ یَدَکَ إِلیٰ جَنٰاحِکَ تَخْرُجْ بَیْضٰاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ آیَهً أُخْریٰ (۲۲) لِنُرِیَکَ مِنْ آیٰاتِنَا اَلْکُبْریٰ (۲۳) اِذْهَبْ إِلیٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغیٰ (۲۴) قٰالَ رَبِّ اِشْرَحْ لِی صَدْرِی (۲۵) وَ یَسِّرْ لِی أَمْرِی (۲۶) وَ اُحْلُلْ عُقْدَهً مِنْ لِسٰانِی (۲۷) یَفْقَهُوا قَوْلِی (۲۸) وَ اِجْعَلْ لِی وَزِیراً مِنْ أَهْلِی (۲۹) هٰارُونَ أَخِی (۳۰) اُشْدُدْ بِهِ أَزْرِی (۳۱) وَ أَشْرِکْهُ فِی أَمْرِی (۳۲) کَیْ نُسَبِّحَکَ کَثِیراً (۳۳) وَ نَذْکُرَکَ کَثِیراً (۳۴) إِنَّکَ کُنْتَ بِنٰا بَصِیراً (۳۵) قٰالَ قَدْ أُوتِیتَ سُؤْلَکَ یٰا مُوسیٰ (۳۶) وَ لَقَدْ مَنَنّٰا عَلَیْکَ مَرَّهً أُخْریٰ (۳۷) إِذْ أَوْحَیْنٰا إِلیٰ أُمِّکَ مٰا یُوحیٰ (۳۸) أَنِ اِقْذِفِیهِ فِی اَلتّٰابُوتِ فَاقْذِفِیهِ فِی اَلْیَمِّ فَلْیُلْقِهِ اَلْیَمُّ بِالسّٰاحِلِ یَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِی وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَیْتُ عَلَیْکَ مَحَبَّهً مِنِّی وَ لِتُصْنَعَ عَلیٰ عَیْنِی (۳۹) إِذْ تَمْشِی أُخْتُکَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّکُمْ عَلیٰ مَنْ یَکْفُلُهُ فَرَجَعْنٰاکَ إِلیٰ أُمِّکَ کَیْ تَقَرَّ عَیْنُهٰا وَ لاٰ تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّیْنٰاکَ مِنَ اَلْغَمِّ وَ فَتَنّٰاکَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِینَ فِی أَهْلِ مَدْیَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلیٰ قَدَرٍ یٰا مُوسیٰ (۴۰) وَ اِصْطَنَعْتُکَ لِنَفْسِی (۴۱) اِذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوکَ بِآیٰاتِی وَ لاٰ تَنِیٰا فِی ذِکْرِی (۴۲) اِذْهَبٰا إِلیٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغیٰ (۴۳) فَقُولاٰ لَهُ قَوْلاً لَیِّناً لَعَلَّهُ یَتَذَکَّرُ أَوْ یَخْشیٰ (۴۴) قٰالاٰ رَبَّنٰا إِنَّنٰا نَخٰافُ أَنْ یَفْرُطَ عَلَیْنٰا أَوْ أَنْ یَطْغیٰ (۴۵) قٰالَ لاٰ تَخٰافٰا إِنَّنِی مَعَکُمٰا أَسْمَعُ وَ أَریٰ (۴۶) فَأْتِیٰاهُ فَقُولاٰ إِنّٰا رَسُولاٰ رَبِّکَ فَأَرْسِلْ مَعَنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ وَ لاٰ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنٰاکَ بِآیَهٍ مِنْ رَبِّکَ وَ اَلسَّلاٰمُ عَلیٰ مَنِ اِتَّبَعَ اَلْهُدیٰ

(۴۷) إِنّٰا قَدْ أُوحِیَ إِلَیْنٰا أَنَّ اَلْعَذٰابَ عَلیٰ مَنْ کَذَّبَ وَ تَوَلّٰی (۴۸)

---

۱ - ۱) .طه ۱-۸:بحث روائی حول:حروف المقطعه(طه)؛معنی الآیه «الرَّحْمٰنُ عَلَی الْعَرْشِ اسْتَویٰ» ؛العرش و الکرسی؛تفسیر القرآن.

بیان:

قوله تعالی: وَ هَلْ أَتٰاکَ حَدِیثُ مُوسیٰ الاستفهام للتقریر و الحدیث،القصه.

قوله تعالی: إِذْ رَأیٰ ناراً فَقٰالَ لِأَهْلِهِ امْکُثُوا إِنِّی آنَسْتُ ناراً الی آخر الآیه؛ المکث اللبث،و الإیناس إبصار الشیء أو وجدانه و هو من الانس خلاف النفور و لذا قیل:إنه إبصار شیء یونس به فیکون أبصارا قویا،و القبس بفتحتین هو الشعله المقتبسه علی رأس عود و نحوه و الهدی مصدر بمعنی اسم الفاعل أو مضاف الیه لمضاف مقدر أی ذا هدایه،و المراد -علی أی حال-من قام به الهدایه.

و سیاق الآیه و ما یتلوها یشهد أن کان فی منصرفه من مدین الی مصر و معه أهله و هم بالقرب من وادی طوی فی طور سیناء فی لیله شاتیه مظلمه و قد ضلوا الطریق إذ رأی نارا فرأی أن یذهب إلیها فإن وجد عندها أحدا سأله الطریق و إلا أخذ قبسا من النار لیضرموا به

ص :۱۵۶

نارا فيصطلوا بها.

و فى قوله: «فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا» إشعار بل دلاله على أنه كان مع أهله غيره كما أن فى قوله:

«إِنِّى آنَسْتُ ناراً» مع ما يشتمل عليه من التأكيد و التعبير بالإيناس دلاله على أنه إنما رآها هو وحده و ما كان يراها غيره من أهله و يؤيد ذلك قوله أيضا أولا: «إِذْ رَأى ناراً» ،و كذا قوله:

«لَعَلِّى آتِيكُمْ» الخ؛يدل على أن فى الكلام حذفا و التقدير امكثوا لأذهب إليها لعلّى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هاديا نهتدى بهداه.

قوله تعالى: فَلَمّا أَتاها نُودِىَ يا مُوسى إِنِّى أَنَا رَبُّکَ -الى قوله- طُوىً طوى اسم لواد بطور و هو الذى سمّاه اللّه سبحانه بالوادى المقدس،و هذه التسميه و التوصيف هى الدليل على أن أمره بخلع النعلين إنما هو لاحترام الوادى أن لا يداس بالنعل ثم تفريع خلع النعلين مع ذلك على قوله: «إِنِّى أَنَا رَبُّکَ» يدلّ على أن تقديس الوادى إنما هو لكونه حظيره لقرب و موطن الحضور و المناجاه فيؤول معنى الآيه الى مثل قولنا نودى يا موسى ها أنا ذا ربك و أنت بمحضر منى و قد تقدّس الوادى بذلك فالتزم شرط الأدب و اخلع نعليك.

و على هذا النحو يقدّس ما يقدّس من الأمكنه و الأزمنه كالكعبه المشرّفه و المسجد الحرام و سائر المساجد و المشاهد المحترمه فى الإسلام و الأعياد و الأيام المتبركه فإنما ذلك قدس و شرف اكتسبته بالانتساب الى واقعه شريفه وقعت فيها أو نسک و عباده مقدّسه شرّعت فيها و إلا فلا تفاضل بين أجزاء المكان و لا بين أجزاء الزمان.

و لما سمع موسى عليه السّلام قوله تعالى: «يا مُوسى إِنِّى أَنَا رَبُّکَ» فهم من ذلك فهم يقين أن الذى يكلمه هو ربه و الكلام كلامه و ذلک أنه كان وحيا منه تعالى و قد صرّح تعالى بقوله: وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّهُ إِلاّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ (الشورى/۵۱)،أن لا واسطه بينه تعالى و بين من يكلمه من حجاب أو رسول إذا كان تكليم وحى و إذ لم يكن هناك أى واسطه مفروضه لم يجد الموحى اليه مكلما لنفسه و لا

توهّمه إلاـ اللّه و لم يجـد الكلاـم إلاـ كلاـمه و لو احتمـل أن يكون المتكلم غيره أو الكلاـم كلام غيره لم يكن تكليما ليس بين الإنسان و بين ربه غيره.

و هـذا حال النبى و الرسول فى أول ما يوحى اليه بالنبوه و الرساله لم يختلجه شك و لا اعترضه ريب فى أن الـذى يوحى اليه هو اللّه سبحانه من غير أن يحتاج الى إعمال نظر أو التماس دليل أو إقامه حجه و لو افتقر الى شىء من ذلك كان اكتسابا بواسطه القوه النظريه لا تلقّيا من الغيب من غير توسّط واسطه.

فإن قلت:قوله تعالى فى القصه فى موضع آخر من كلامه: «وَ نٰادَيْنٰاهُ مِنْ جٰانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنٰاهُ نَجِيًّا» .

و قوله فى موضع آخر:«من جانب الطور الأيمن من الشجره»يثبت الحجاب فى تكليمه عليه السّلام.

قلت:نعم لكن ثبوت الحجاب أو الرسول فى مقام التكليم لا ينافى تحقق التكليم بالوحى فإن الوحى كسائر أفعاله تعالى لا يخلو من واسطه و إنما يدور الأمر مدار التفات المخاطب الذى يتلقى الكلام فإن التفت الى الواسطه التى تحمل الكلام و احتجب بها عنه تعالى كان الكلاـم رساله أرسل اليه بملك مثلا و وحيا من الملك،و إن التفت اليه تعالى كان وحيا منه و إن كان هناك واسطه لا يلتفت إليها،و من الشاهد على ما ذكرنا قوله فى الآيه التاليه خطابا لموسى:

«فَاسْتَمِعْ لِمٰا يُوحىٰ» فسمّاه وحيا،و قد أثبت فى سائر كلامه فيه الحجاب.

و بالجمله قوله: إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ الخ؛تنبيه لموسى على أن الموقف موقف الحضور و مقام المشافهه و قد خلى به و خصّه من نفسه بمزيد العنايه،و لذا قيل:إنى أنا ربك،و لم يقل:أنا اللّه أو أنا رب العالمين،و لذا أيضا لم يلزم من قوله ثانيا: «إِنِّي أَنَا اللّٰهُ» تكرار، لأن الأول تخليه للمقام من الأغيار لإلقاء الوحى،و الثانى من الوحى.

و فى قوله: نُودِيَ حيث طوى ذكر الفاعل و لم يقل:ناديناه أو ناداه اللّه من اللطف ما

لا يقدّر بقدر،و فيه تلويح أن ظهور هذه الآيه لموسى كان على سبيل المفاجأه.

قوله تعالى: وَ أَنَا اخْتَرْتُکَ فَاسْتَمِعْ لِمٰا يُوحىٰ الاختيار مأخوذ من الخير، و حقيقته أن يتردد أمر الفعل مثلا بين أفعال يجب أن يرجّح واحدا منها ليفعله فيميز ما هو خيرها ثم يبنى على كونه خيرا من غيره فيفعله،فبناؤه على كونه خيرا من غيره هو اختيار فالاختيار دائما لغايه هو غرض الفاعل من فعله.

فاختياره تعالى لموسى إنما هو لغايه إلهيه و هى إعطاء النبوّه و الرساله و يشهد بذلک قوله على سبيل التفريع على الاختيار: «فَاسْتَمِعْ لِمٰا يُوحىٰ» فقد تعلقت المشيه الإلهيه ببعث إنسان يتحمل النبوّه و الرساله و كان موسى فى علمه تعالى خيرا من غيره و أصلح لهذا الغرض فاختاره عليه السّلام.

و قوله: «وَ أَنَا اخْتَرْتُکَ» على ما يعطيه السياق من قبيل إصدار الأمر بنبوّته و رسالته فهو إنشاء لا إخبار،و لو كان إخبارا لقيل:و قد اخترتک لكنه إنشاء الاختيار للنبوه و الرساله بنفس هذه الكلمه ثم لما تحقق الاختيار بإنشائه فرع عليه الأمر بالاستماع للوحى المتضمن لنبوته و رسالته فقال: «فَاسْتَمِعْ لِمٰا يُوحىٰ» و الاستماع لما يوحى الإصغاء اليه.

قوله تعالى: إِنَّنِي أَنَا اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاٰةَ لِذِكْرِي هذا هو الوحى الذى أمر عليه السّلام بالاستماع له فى إحدى عشره آيه تشتمل على النبوّه و الرساله معا أما النبوه ففى هذه الآيه و الآيتين بعده،و أما الرساله فتأخذ من قوله: «وَ مٰا تِلْكَ بِيَمِينِکَ يٰا مُوسىٰ» و تنتهى فى قوله: «اذْهَبْ إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغىٰ» و قد نصّ تعالى أنه كان رسولا نبيّا معا فى قوله: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتٰابِ مُوسىٰ إِنَّهُ كٰانَ مُخْلَصاً وَ كٰانَ رَسُولاً نَبِيًّا (مريم/٥١).

و قوله: لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاعْبُدْنِي كلمه التوحيد مرتبه على قوله: «إِنَّنِي أَنَا اللّٰهُ» لفظا لترتبها عليه حقيقه فإنه إذا كان هو الذى منه يبدأ كل شىء و به يقوم و اليه يرجع فلا ينبغى أن يخضع خضوع العباده إلا له فهو الإله المعبود بالحق لا إله غيره و لذا فرّع على ذلک الأمر

بعبادته حيث قال: «فَاعْبُدْنِی» .

و قوله: «وَ أَقِمِ الصَّلاٰةَ لِذِکْرِی» خص الصلاه بالذکر-و هو من باب ذکر الخاص بعد العام اعتناء بشأنه-لأن الصلاه أفضل عمل یمثل به الخضوع العبودی و یتحقق بها ذکر اللّه سبحانه تحقق الروح بقالبه.

و علی هذا المعنی فقوله: «لِذِکْرِی» من إضافه المصدر الی مفعوله و اللام للتعلیل و هو متعلق بأقم محصله أنه:حقق ذکرک لی بالصلاه،کما یقال:کل لتشبع و اشرب لتروی و هذا هو المعنی السابق الی الذهن من مثل هذا السیاق.

قوله تعالی: إِنَّ السّٰاعَةَ آتِیَةٌ أَکٰادُ أُخْفِیهٰا لِتُجْزیٰ کُلُّ نَفْسٍ بِمٰا تَسْعیٰ تعلیل لقوله فی الآیه السابقه: «فَاعْبُدْنِی» و لا یناقض ذلک کون «فَاعْبُدْنِی» متفرّعا علی کلمه التوحید المذکوره قبله لأن وجوب عبادته تعالی و إن کان بحسب نفسه متفرّعا علی توحّده لکنه لا یؤثر أثرا لو لا ثبوت یوم یجزی فیه الإنسان بما عمله و یتمیز فیه المحسن من المسیء و المطیع من العاصی فیکون التشریع لغوا و الأمر و النهی سدی لا أثر لهما،و لذلک کانت مقضیه قضاء حتما و تکرّر فی کلامه تعالی نفی الریب عنها.

و قوله: أَکٰادُ أُخْفِیهٰا ظاهر إطلاق الإخفاء أن المراد یقرب أن أخفیها و أکتمها فلا أخبر عنها أصلا حتی یکون وقوعها أبلغ فی المباغته و أشد فی المفاجأه و لا تأتی إلا فجأه کما قال تعالی: لاٰ تَأْتِیکُمْ إِلاّٰ بَغْتَةً (الأعراف/۱۸۷)،أو یقرب أن لا أخبر بها حتی یتمیز المخلصون من غیرهم فإن أکثر الناس إنما یعبدونه تعالی رجاء فی ثوابه أو خوفا من عقابه جزاء للطاعه و المعصیه،و أصدق العمل ما کان لوجه اللّه لا طمعا فی جنه أو خوفا من نار و لو أخفی و کتم یوم الجزاء تمیّز عند ذلک من یأتی بحقیقه العباده من غیره.

و قوله: «لِتُجْزیٰ کُلُّ نَفْسٍ بِمٰا تَسْعیٰ» متعلق بقوله: «آتِیَةٌ» و المعنی واضح.

قوله تعالی: فَلاٰ یَصُدَّنَّکَ عَنْهٰا مَنْ لاٰ یُؤْمِنُ بِهٰا وَ اتَّبَعَ هَوٰاهُ فَتَرْدیٰ الصدّ

الصرف،و الردی الهلاک،و الضمیران فی «عَنْهٰا» و «بِهٰا» للساعه،و معنی الصدّ عن الساعه الصرف عن ذکرها بما لها من الشأن و هو أنها یوم تجزی فیه کل نفس بما تسعی،و کذا معنی عدم الإیمان بها هو الکفر بها بما لها من الشأن.

و قوله: وَ اتَّبَعَ هَوٰاهُ کعطف التفسیر بالنسبه الی قوله: «مَنْ لاٰ یُؤْمِنُ بِهٰا» أی إن عدم الإیمان بها مصداق اتباع الهوی و إذ کان مع ذلک صالحا للتعلیل أفاد الکلام علیّه الهوی لعدم الإیمان بها،و استفید من ذلک بالالتزام أن الإیمان بالساعه هو الحق المخالف للهوی و المنجی من الردی.

فمحصّل معنی الآیه أنه إذا کانت الساعه آتیه و الجزاء واقعا فلا یصرفنّک عن الإیمان بها و ذکرها بما لها من الشأن الذین اتبعوا أهواءهم فصاروا یکفرون بها و یعرضون عن عباده ربهم فلا یصرفنّک عنها حتی تنصرف فتهلک.

و لعل الإتیان فی قوله: «وَ اتَّبَعَ هَوٰاهُ» بصیغه الماضی مع کون المعطوف علیه بصیغه المضارع للتلویح الی علیّه اتباع الهوی لعدم الإیمان.

قوله تعالی: وَ مٰا تِلْکَ بِیَمِینِکَ یٰا مُوسیٰ شروع فی وحی الرساله و قد تمّ وحی النبوه فی الآیات الثلاث الماضیه و الاستفهام للتقریر،سئل علیه السّلام عما فی یده الیمنی و کانت عصاه، لیسمّیها و یذکر أوصافها فیتبین أنها جماد لا حیاه له حتی یأخذ تبدیلها حیّه تسعی مکانه فی نفسه علیه السّلام.

و الظاهر أن المشار الیه بقوله: «تِلْکَ» العوده أو الخشبه،و لو لا ذلک لکان من حق الکلام أن یقال:و ما ذلک بجعل المشار الیه هو الشیء لمکان التجاهل بکونها عصا و إلا لم یستقم الاستفهام کما فی قوله: فَلَمّٰا رَأَی الشَّمْسَ بٰازِغَهً قٰالَ هٰذٰا رَبِّی هٰذٰا أَکْبَرُ (الأنعام/۷۸).

قوله تعالی: قٰالَ هِیَ عَصٰایَ أَتَوَکَّؤُا عَلَیْهٰا وَ أَهُشُّ بِهٰا عَلیٰ غَنَمِی وَ لِیَ فِیهٰا مَآرِبُ أُخْریٰ العصا معروفه و هی من المؤنثات السماعیه،و التوکی و الاتکاء علی

العصـا الاعتماد عليها،و الهش هو خبط ورق الشـجره و ضـربه بالعصا لتساقط على الغنم فيأكله،و المآرب جمع مأربه مثلثه الراء و هى الحاجه،و المراد بكون مآربه فيها تعلق حوائجه بها من حيث إنها وسيله رفعها.و معنى الآيه ظاهر.

و إطنـابه عليه السّـلام بالاطـاله فى ذكر أوصـاف العصـا و خواصـها قبـل:لأـن المقـام و هو مقـام المناجاه و المسارّه مع المحبوب يقتضـى ذلـك لأـن مكـالمه المحبوب لذيـذه و لـذا ذكر أولا أنه عصاه ليرتب عليه منافعها العامه و هـذه هى النكته فى ذكر أنها عصاه.

و قـد قـدمنا فى ذيـل الآـيه السـابقه وجهـا آخر لهـذا الاسـتفهام و جوابه و ليس الكلام عليه من باب الاطناب و خاصه بالنظر الى جمعه سائر منافعها فى قوله: «وَ لِيَ فِيهٰا مَآرِبُ أُخْرىٰ» .

قوله تعالى: قٰالَ أَلْقِهٰا يٰا مُوسىٰ -الى قوله- سِيرَتَهَا الْأُولىٰ السيره الحاله و الطريقه و هى فى الأصل بناء نوع من السير كجلسه لنوع من الجلوس.

أمر سبحانه موسى أن يلقى عصاه عن يمينه و هو قوله: «قٰالَ أَلْقِهٰا يٰا مُوسىٰ» فلما ألقى العصا صارت حيه تتحرك بجد و جلاده و ذلك أمر غير مترقب من جماد لا حياه له و هو قوله:

«فَأَلْقٰاهٰا فَإِذٰا هِيَ حَيَّهٌ تَسْعىٰ» و قد عبر تعالى عن سعيها فى موضع آخر من كلامه بقوله:

رَآهٰا تَهْتَزُّ كَأَنَّهٰا جَانٌّ (القصص۳۱/)،و عبر عن الحيه أيضا فى موضع آخر بقوله:

فَأَلْقىٰ عَصٰاهُ فَإِذٰا هِيَ ثُعْبٰانٌ مُبِينٌ (الأعراف۱۰۷/)،(الشعراء۳۲/)و الثعبان:الحيه العظيمه.

و قوله: قٰالَ خُذْهٰا وَ لاٰ تَخَفْ سَنُعِيدُهٰا سِيرَتَهَا أى حالتها «الْأُولىٰ» و هى أنها عصا فيه دلاله على خوفه عليه السّلام مما شاهده من حيه ساعيه و قـد قصه تعـالى فى موضع آخر إذ قال: فَلَمّٰا رَآهٰا تَهْتَزُّ كَأَنَّهٰا جَانٌّ وَلّٰى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يٰا مُوسىٰ أَقْبِلْ وَ لاٰ تَخَفْ (القصص۳۱/)،و الخوف و هو الأخـذ بمقـدمات التحرز عن الشـر غير الخشـيه التى هى تأثر القلب و اضـطرابه فإن الخشـيه رذيله تنافى فضيله الشجاعه بخلاف الخوف الأنبياء عليهم السّلام

ص :۱۶۲

يجوز عليهم الخوف دون الخشيه كما قال اللّه تعالى: اَلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاٰتِ اللّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ (الأحزاب۳۹/).

قوله تعالى: وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلىٰ جَنٰاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضٰاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرىٰ الضم الجمع،و الجناح جناح الطائر و اليد و العضد و الابط و لعل المراد به المعنى الأخير ليئول الى قوله فى موضع آخر: «أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ» و السوء كل رداءه و قبح قيل:

كنى به فى الآيه عن البرص و المعنى أجمع يدك تحت ابطك أى أدخلها فى جيبك تخرج بيضاء من غير برص أو حاله سيئه أخرى.

و قوله: آيَةً أُخْرىٰ حال من ضمير تخرج و فيه اشاره الى أن صيروره العصا حيه آيه أولى و اليد البيضاء آيه أخرى و قال تعالى فى ذلك: فَذٰانِكَ بُرْهٰانٰانِ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ (القصص۳۲/).

قوله تعالى: لِنُرِيَكَ مِنْ آيٰاتِنَا الْكُبْرىٰ اللام للتعليل و الجمله متعلقه بمقدر كأنه قيل:أجرينا ما أجرينا على يدك لنريك بعض آياتنا الكبرى.

قوله تعالى: اِذْهَبْ إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغىٰ هذا هو أمر الرساله و كانت الآيات السابقه «وَ مٰا تِلْكَ بِيَمِينِكَ» الخ؛مقدمه له.

قوله تعالى: قٰالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي -الى قوله- إِنَّكَ كُنْتَ بِنٰا بَصِيراً الآيات-و هى إحدى عشره آيه-متن ما سأله موسى عليه السّلام ربه حين سجل عليه حكم الرساله و هى بظاهرها مربوطه بأمر رسالته لأنه أحوج ما يكون إليها فى تبليغ الرساله الى فرعون و ملائه و إنجاء بنى إسرائيل و إداره أمورهم لا فى أمر النبوه.

و قوله: وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسٰانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي سؤال له آخر يرجع الى عقده فى لسانه و التنكير فى «عُقْدَةً» للدلاله على النوعيه فله وصف مقدّر و هو الذى يلوح من قوله:

«يَفْقَهُوا قَوْلِي» أى عقده تمنع من فقه قولى.

ص :۱۶۳

و قوله: وَ اجْعَلْ لِی وَزِیراً مِنْ أَهْلِی هٰارُونَ أَخِی سؤال له آخر و هو رابع الأسئله و آخرها،و الوزیر فعیل من الوزر بالکسر فالسکون بمعنی الحمل الثقیل سمی الوزیر وزیرا لأنه یحمل ثقل حمل الملک،و قیل:من الوزر بفتحتین بمعنی الجبل الذی یلتجأ الیه سمّی به لأن الملک یلتجئ الیه فی آرائه و أحکامه.

و بالجمله هو یسأل ربه أن یجعل له وزیرا من أهله و یتبیّنه أنه هارون أخی و إنما یسأل ذلک لأن الأمر کثیر الجوانب متباعده الأطراف لا یسع موسی أن یقوم به وحده بل یحتاج الی وزیر یشارکه فی ذلک فیقوم ببعض الأمر فیخفف عنه فیما یقوم به هذا الوزیر و یکون مؤیدا لموسی فیما یقوم به موسی و هذا معنی قوله-و هو بمنزله التفسیر لجعله وزیرا-: «اشْدُدْ بِهِ أَزْرِی وَ أَشْرِکْهُ فِی أَمْرِی» .

فمعنی قوله: «وَ أَشْرِکْهُ فِی أَمْرِی» سؤال الإشراک فی أمر کان یخصه و هو تبلیغ ما بلغه من ربه بادی مره فهو الذی یخصه و لا یشارکه فیه أحد سواه و لا له أن یستنیب فیه غیره و أما تبلیغ الدین أو شیء من أجزائه بعد بلوغ بتوسط النبی فلیس مما یختص بالنبی بل هو وظیفه کل من آمن به ممن یعلم شیئا من الدین و علی العالم أن یبلغ الجاهل و علی الشاهد أن یبلغ الغائب و لا معنی لسؤال إشراک أخیه معه فی أمر لا یخصه بل یعمّه و أخاه و کل من آمن به من الإرشاد و التعلیم و البیان و التبلیغ فتبین أن معنی إشراکه فی أمره أن یقوم بتبلیغ بعض ما یوحی الیه من ربه عنه و سائر ما یختص به من عند اللّه کافتراض الطاعه و حجیه الکلمه.

و أما الإشراک فی النبوه خاصه بمعنی تلقّی الوحی من اللّه سبحانه فلم یکن موسی یخاف علی نفسه التفرّد فی ذلک حتی یسأل الشریک و إنما کان یخاف التفرّد فی التبلیغ و إداره الامور فی إنجاء بنی إسرائیل و ما یلحق بذلک،و قد نقل ذلک عن موسی نفسه فی قوله: وَ أَخِی هٰارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّی لِسٰاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِی رِدْءاً یُصَدِّقُنِی (القصص۳۴/).

علی أنه صحّ من طرق الفریقین أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم دعا بهذا الدعاء بألفاظه فی حق علی علیه السّلام

و لم یکن نبیا.

و قوله: کَیْ نُسَبِّحَکَ کَثِیراً ظاهر السیاق و قد ذکر فی الغایه تسبیحهما معا و ذکرهما معا أن الجمله غایه لجعل هارون وزیرا له إذ لا تعلّق لتسبیحهما معا و ذکرهما معا بمضامین الأدعیه السابقه و هی شرح صدره و تیسیر أمره و حلّ عقده من لسانه و یترتب علی ذلک أن المراد بالتسبیح و الذکر تنزیههما معا للّه سبحانه و ذکرهما له بین الناس علنا لا فی حال خلوتهما أو فی قلبیهما سرا إذ لا تعلّق لذلک أیضا بجعله وزیرا بل المراد أن یسبّحاه و یذکراه معا بین الناس فی مجامعهم و نوادیهم و أی مجلس منهم حلا فیه و حضرا فتکثر الدعوه الی الإیمان باللّه و رفض الشرکاء.

و بذلک یرجع ذیل السیاق الی صدره کأنه یقول:إن الأمر خطیر و قد غرّ هذا الطاغیه و ملأه و أمته عزهم و سلطانهم و نشب الشرک و الوثنیه بأعراقه فی قلوبهم و أنساهم ذکر اللّه من أصله و قد امتلئت أعین بنی إسرائیل بما یشاهدونه من عزّه فرعون و شوکه ملئه و اندهشت قلوبهم من سطوه آل فرعون و ارتاعت نفوسهم من سلطتهم فنسوه اللّه و لا یذکرون إلا الطاغیه،فهذا الأمر أمر الرساله و الدعوه فی نجاحه و مضیّه فی حاجه شدیده الی تنزیهک بنفی الشریک کثیرا و الی ذکرک بالربوبیه و الالوهیه بینهم کثیرا لیتبصّروا فیؤمنوا و هذا أمر لا أقوی علیه وحدی فاجعل هارون وزیرا لی و أیّدنی به و أشرکه فی أمری کی نسبّحک کثیرا و نذکرک کثیرا لعل السعی ینجع و الدعوه تنفع.

و قوله: إِنَّکَ کُنْتَ بِنا بَصِیراً هو بظاهره تعلیل کالحجه علی قوله: «کَیْ نُسَبِّحَکَ کَثِیراً» الخ؛أی إنک کنت بصیرا بی و بأخی منذ خلقتنا و عرّفتنا نفک و تعلم أنّا لم نزل نعبدک بالتسبیح و الذکر ساعیین مجدّین فی ذلک فإن جعلته وزیرا لی و أیّدتنی به و أشرکته فی أمری تمّ أمر الدعوه و سبّحناک کثیرا و ذکرناک کثیرا،و المراد بقوله: «بِنا» علی هذا هو و أخوه.و یمکن أن یکون المراد بالضمیر فی «بِنا» أهله،و المعنی:إنک کنت بصیرا بنا أهل البیت أنّا أهل

تسبیح و ذکر فإن جعلت هارون أخی،و هو من أهلی،وزیرا لی سبّحناک کثیرا و ذکرناک کثیرا،و هذا الوجه أحسن من سابقه لأنه یفی ببیان النکته فی ذکر الأهل فی قوله السابق:

«وَ اجْعَلْ لِی وَزِیراً مِنْ أَهْلِی هٰارُونَ أَخِی» أیضا فافهم ذلک.

قوله تعالی: قٰالَ قَدْ أُوتِیتَ سُؤْلَکَ یٰا مُوسیٰ إجابه لأدعیته جمیعا و هو إنشاء نظیر ما مرّ من قوله: «وَ أَنَا اخْتَرْتُکَ فَاسْتَمِعْ لِمٰا یُوحیٰ» .

قوله تعالی: وَ لَقَدْ مَنَنّٰا عَلَیْکَ مَرَّةً أُخْریٰ -الی قوله- کَیْ تَقَرَّ عَیْنُهٰا وَ لاٰ تَحْزَنَ یذکّره تعالی بمنّ آخر له علیه قبل أن یختاره للنبوه و الرساله و یؤتی سؤله و هو منه علیه حینما تولد فقد کان بعض الکهنه أخبر فرعون أن سیولد فی بنی إسرائیل مولود یکون بیده زوال ملکه فأمر فرعون بقتل کل مولود یولد فیهم فکانوا یقتلون الموالید الذکور حتی إذا ولد موسی أوحی اللّه الی أمه أن لا تخاف و ترضعه فإذا خافت علیه من عمال فرعون و جلاوزته تقذفه فی تابوت فتقذفه فی النیل فیلقیه الیم الی الساحل حیال قصر فرعون فیأخذه فیتخذه ابنا له و کان لا عقب له و لا یقتله ثم إن اللّه سیرده إلیها.

ففعلت کما أوحی إلیها فلما جری التابوت بجریان النیل أرسل بنتا لها و هی أخت موسی أن تجس أخباره فکانت تطوف حول قصر فرعون حتی وجدت نفرا یطلبون بأمر فرعون مرضعا ترضع موسی فدلتهم أخت موسی علی أمها فاستر ضعوها له فأخذت ولدها و قرّت به عینها و صدق اللّه وعده و قد عظم منّه علی موسی.

فقوله: وَ لَقَدْ مَنَنّٰا عَلَیْکَ مَرَّةً أُخْریٰ امتنان بما صنعه به أول عمره و قد تغیر السیاق من التکلم وحده الی التکلم بالغیر لأن المقام مقام إظهار العظمه و هو ینبئ عن ظهور قدرته التامه بتخییب سعی فرعون الطاغیه و إبطال کیده لإخماد نور اللّه و ردّ مکره الیه و تربیه عدوه فی حجره،أما موقف نداء موسی و تکلیمه إذ قال: «یٰا مُوسیٰ إِنِّی أَنَا رَبُّکَ» الخ؛فسیاق التکلم وحده أنسب له.

و قوله: إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أَمِّکَ ما يُوحى المراد به الالهام و هو نوع من القـذف فى القلب فى يقظه أو نوم،و الوحى فى كلامه تعالى لا ينحصر فى وحى النبوّه كما قال تعالى:

وَ أَوْحى رَبُّکَ إِلَى النَّحْلِ (النحل۶۸/)،و أما وحى النبوه فالنساء لا يتنبأن و لا يوحى اليهن بـذلك قال تعالى: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ إِلاّ رِجالاً نُوحِی إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى (يوسف۱۰۹/)

و قوله: «أَنِ اقْذِفِيهِ فِی التّابُوتِ» الى آخر الآيه؛هو مضـمون ما أوحى الى ام موسـى و «أَنِ» للتفسير،و قيل:مصدريه متعلق باوحى و التقدير أوحى بأن اقذفيه،و قيل:

مصدريه و الجمله بدل من «ما يُوحى» .

و التابوت الصـندوق و ما يشـبهه و القـذف الوضع و الإلقاء و كأن القـذف الأول فى الآيه بالمعنى الأول و القذف الثانى بالمعنى الثـانى و يمكن أن يكونـا معـا بـالمعنى الثـانى بعنـايه أن وضع الطفل فى التابوت و إلقاءه فى اليم إلقاء و طرح له من غير أن يعبأ بحاله،و اليم البحر:و قيل:

البحر العذب،و الساحل شاطئ البحر و جانبه من البر،و الصنع و الصنيعه الإحسان.

و قوله: فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ أمر عبّر به إشاره الى تحقق وقوعه و مفاده أنّا أمرنا اليم بـذلك أمرا تكوينيا فهو وقع حتما مقضـيا،و كـذا قوله: «يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِی» الخ؛و هو جزاء مترتب على هذا الأمر.

و معنى الآيتين إذ أوحينـا و ألهمنـا امك بما يوحى ويلهم و هو أن ضـعيه-أو ألقيه-فى التابوت و هو الصـندوق فألقيه فى اليم و البحر و هو النيل فمن المقضى من عندنا أن يلقيه البحر بالساحل و الشاطئ يأخذه عدو لى و عدو له و هو فرعون لأنه كان يعادى اللّه بدعوى الالوهيه و يعادى موسى بقتله الأطفال و كان طفلا هذا ما أوحيناه الى امك.

و قوله: وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْکَ مَحَبَّةً مِنِّی وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِی ظاهر السـياق أن هـذا الفصل الى قوله: «وَ لا تَحْزَنَ» فصل ثان تال للفصـل السابق متمم له و المجموع بيان للمن المشار اليه بقوله: «وَ لَقَدْ مَنَنّا عَلَيْکَ مَرَّةً أُخْرى»

فالفصل الأول يقص الوحى الى أمه بقـذفه فى التابوت ثم فى البحر لينتهى الى فرعون فيأخـذه عـدو اللّه و عـدوه و الفصل الثانى يقص إلقـاء المحبه عليه لينصـرف فرعون عن قتله و يحسن اليه حتى ينتهى الأـمر الى رجوعه الى أمه و اسـتقراره فى حجرها لتقرّ عينها و لا تحزن و قد وعدها اللّه ذلك كما قال فى سوره القصص: فَرَدَدْنٰاهُ إِلىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهٰا وَ لاٰ تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ (القصص/١٣)،و لازم هذا المعنى كون الجمله أعنى «وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ» الخ؛معطوفا على قوله: «أَوْحَيْنٰا إِلىٰ أُمِّكَ» .

و معنى إلقـاء محبه منه عليه كونه بحيث يحبه كـل من يراه كـأن المحبه الإلـهيه اسـتقرت عليه فلاـ يقع عليه نظر نـاظر إلاـ تعلقت المحبه بقلبه و جذبته الى موسى،ففى الكلام استعاره تخييليه و فى نكير المحبه إشاره الى فخامتها و غرابه أمرها.

و اللام فى قوله: «وَ لِتُصْنَعَ عَلىٰ عَيْنِي» للغرض،و الجمله معطوفه على مقدّر و التقدير ألقيت عليك محبه منى لامور كذا و كذا و ليحسن اليـك على عينى أى بمرأى منى فإنى معك أراقب حالك و لا أغفل عنك لمزيـد عنايتى بك و شـفقتى عليك.و ربما قيل:إن المراد بقوله:

«وَ لِتُصْنَعَ عَلىٰ عَيْنِي» الإحسان اليه بإرجاعه الى أمه و جعل تربيته فى حجرها.

و كيف كان فهذا اللسان و هو لسان كمال العنايه و الشفقه يناسب سياق التكلم وحده و لذا عدل اليه من لسان التكلم بالغير.

و

قوله: إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنٰاكَ إِلىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهٰا وَ لاٰ تَحْزَنَ الظرف-على ما يعطيه السياق-متعلق بقوله:

«لِتُصْنَعَ» و المعنى:و ألقيت عليك محبه منى يحبك كل من يراك لكـذا و كـذا و ليحسن اليك بمرأى منى و تحت مراقبتى فى وقت تمشـى اختك لتجوس خبرك و ترى ما يصنع بك فتجد عمال فرعون يطلبون مرضعا ترضعك فتقول لهم-و الاستقبال فى الفعل لحكايه الحال الماضيه- عارضه عليهم:هل أدلّكم على من يكفله بالحضانه و الإرضاع فرددناك الى امك كى تسرّ و لا

تحزن.

و قوله: فَرَجَعْنٰاکَ بصیغه المتکلم مع الغیر رجوع الی السیاق السابق و هو التکلم بالغیر و لیس بالتفات.

قوله تعالی: وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّیْنٰاکَ مِنَ الْغَمِّ الی آخر الآیه،إشاره الی منّ أو منن اخری ملحقه بالمنّین السابقین و هو قصه قتله علیه السّلام القبطی و ائتمار الملأ أن یقتلوه و فراره من مصر و تزوّجه هناک ببنت شعیب النبی و بقائه عنده بین أهل مدین عشر سنین أجیرا یرعی غنم شعیب،و القصه مفصّله مذکوره فی سوره القصص.

فقوله: وَ قَتَلْتَ نَفْساً هو قتله القبطی بمصر،و قوله: «فَنَجَّیْنٰاکَ مِنَ الْغَمِّ» و هو ما کان یخافه أن یقتله الملأ من آل فرعون فأخرجه اللّه الی أرض مدین فلما أحضره شعیب و ورد علیه و قصّ علیه القصص قال:لا تخف نجوت من القوم الظالمین.

و قوله: وَ فَتَنّٰاکَ فُتُوناً أی ابتلیناک و اختبرناک ابتلاء و اختبارا،قال الراغب فی المفردات:أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته،و استعمل فی إدخال الإنسان النار،قال: «یَوْمَ هُمْ عَلَی النّٰارِ یُفْتَنُونَ» «ذُوقُوا فِتْنَتَکُمْ» أی عذابکم،قال:و تاره یسمّون ما یحصل عنه العذاب فتنه فیستعمل فیه نحو قوله: «أَلاٰ فِی الْفِتْنَهِ سَقَطُوا» و تاره فی الاختبار،نحو «وَ فَتَنّٰاکَ فُتُوناً» و جعلت الفتنه کالبلاء فی أنهما تستعملان فیما یدفع الیه الإنسان من شده و رخاء و هما فی الشده أظهر معنی و أکثر استعمالا و قد قال فیهما: «وَ نَبْلُوکُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَیْرِ فِتْنَهً» انتهی موضع الحاجه من کلامه.

و قوله: فَلَبِثْتَ سِنِینَ فِی أَهْلِ مَدْیَنَ متفرّع علی الفتنه.و قوله: «ثُمَّ جِئْتَ عَلیٰ قَدَرٍ یٰا مُوسیٰ» لا یبعد أن یستفاد من السیاق أن المراد بالقدر هو المقدر و هو ما حصّله من العلم و العمل عن الابتلاءات الوارده علیه فی نجاته من الغمّ بالخروج من مصر و لبثه فی أهل مدین.

ص:١۶٩

و على هـذا فمجموع قوله: وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنٰاكَ -الى قوله- يٰا مُوسىٰ من واحـد و هو أنه ابتلى ابتلاء بعـد ابتلاء حتى جاء على قدر و هو ما اكتسبه من فعليه الكمال.

قوله تعالى: وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي الاصطناع افتعال من الصنع بمعنى الإحسان -على ما ذكروا-يقال:صنعه أى أحسن اليه و اصطنعه أى حقق إحسـانه اليه و ثبته فيه،و نقـل عن القفال أن معنى الاصـطناع أنه يقال:اصـطنع فلان فلانا إذا أحسن اليه حتى يضاف اليه فيقال:هذا صنيع فلان و خريجه.انتهى.

و على هذا يؤول معنى اصطناعه إياه الى اخلاصه تعالى إياه لنفسه و يظهر موقع قوله:

«لِنَفْسِي» أتم ظهور و أما على المعنى الأول فالأنسب بالنظر الى السياق أن يكون الاصطناع مضمنا معنى الاخلاص،و المعنى على أى حـال و جعلتـك خالصـا لنفسـى فيما عنـدك من النعم فالجميع منى و إحسانى و لا يشاركنى فيك غيرى فأنت لى مخلصا و ينطبق ذلك على قوله:

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتٰابِ مُوسىٰ إِنَّهُ كٰانَ مُخْلَصاً (مريم۵۱/).

قوله تعـالى: اِذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيٰاتِي وَ لاٰ تَنِيٰا فِي ذِكْرِي تجديـد للأـمر السـابق خطابا لموسـى وحـده فى قوله: «اذْهَبْ إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغىٰ» بتغيير مـا فيه بإلحـاق أخى موسـى به لتغيّر مـا فى المقـام بإيتـاء سؤال موسـى أن يشـرك هـارون فى أمره فوجّه الخطاب ثانيا اليهما معا.

و أمرهما أن يذهبا بآياته و لم يؤت وقتئذ إلا آيتين وعد جميل بأنه مؤيد بغيرهما و سيؤتاه حين لزومه،و أما القول بأن المراد هما الآيتان و الجمع ربما يطلق على الاثنين،أو أن كلا من الآيتين ينحل الى آيات كثيره مما لا ينبغى الركون اليه.

و قوله: وَ لاٰ تَنِيٰا فِي ذِكْرِي نهى عن الونى و هو الفتور،و الأـنسب للسـياق السابق أن يكون المراد بالـذكر الـدعوه الى الايمان به تعالى وحده لا ذكره بمعنى التوجه اليه قلبا أو لسانا كما قيل.

قوله تعالى: اِذْهَبٰا إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغىٰ فَقُولاٰ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشىٰ جمعهما فى الامر ثانيا فخاطب موسى و هارون معا و كذلك فى النهى الذى قبله فى قوله: «وَ لاٰ تَنِيٰا» و قد مهّد لذلك بإلحاق هارون بموسى فى قوله: «اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ» و ليس ببعيد أن يكون نقلا لمشافهه اخرى و تخاطب وقع بينه تعالى و بين رسوليه مجتمعين أو متفرّقين بعد ذاك الوقف و يؤيده سياق قوله بعد: «قٰالاٰ رَبَّنٰا إِنَّنٰا نَخٰافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنٰا» الخ.

و المراد بقوله: فَقُولاٰ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً المنع من أن يكلماه بخشونه و عنف و هو من أوجب آداب الدعوه.

و قوله: لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشىٰ رجاء لتذكره أو خشيته و هو قائم بمقام المحاوره لا به تعالى العالم بما سيكون،و التذكر مطاوعه التذكير فيكون قبولا و التزاما لما تقتضيه حجه المذكّر و إيمانه به و الخشيه من مقدمات القبول و الإيمان فمآل المعنى لعله يؤمن أو يقرب من ذلك فيجيبكم الى بعض ما تسألانه.

قوله تعالى: قٰالاٰ رَبَّنٰا إِنَّنٰا نَخٰافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنٰا أَوْ أَنْ يَطْغىٰ الفرط التقدم و المراد به بقرينه مقابلته الطغيان أن يعجّل بالعقوبه و لا يصبر الى إتمام الدعوه و إظهار الآيه المعجزه،و المراد بأن يطغى أن يتجاوز حدّه فى ظلمه فيقابل الدعوه بتشديد عذاب بنى إسرائيل و الاجتراء على ساحه القدس بما كان لا يجترئ عليه قبل الدعوه و نسبه الخوف اليهما لا بأس بها كما تقدم الكلام فيها فى تفسير قوله تعالى: «قٰالَ خُذْهٰا وَ لاٰ تَخَفْ» .

قوله تعالى: قٰالَ لاٰ تَخٰافٰا إِنَّنِي مَعَكُمٰا أَسْمَعُ وَ أَرىٰ أى لا تخافا من فرطه و طغيانه إننى حاضر معكما أسمع ما يقال و أرى ما يفعل فأنصركما و لا أخذلكما فهو تأمين بوعد النصره،فقوله: «لاٰ تَخٰافٰا» تأمين،و قوله: «إِنَّنِي مَعَكُمٰا أَسْمَعُ وَ أَرىٰ» تعليل للتأمين بالحضور و السمع و الرؤيه،و هو الدليل على أن الجمله كنايه عن المراقبه و النصره و إلا فنفس الحضور و العلم يعمّ جميع الأشياء و الأحوال.

قوله تعالى: فَأْتِياهُ فَقُولاٰ إِنّٰا رَسُولاٰ رَبِّكَ الى آخر الآيه؛جدّد أمرهما بالذهاب الى فرعون بعد تأمينهما و وعدهما بالحفظ و النصر و بيّن تمام ما يكلفان به من الرساله و هو أن يدعوا فرعون الى الإيمان و الى رفع اليد عن تعذيب بنى إسرائيل و إرسالهما معهما فكلما تحوّل حال فى المحاوره جدّد الأمر حسب ما يناسبه و هو قوله أولا لموسى: «اذْهَبْ إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغىٰ» ،ثم قوله ثانيا لما ذكر أسئلته و أجيب إليها: «اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ» «اذْهَبٰا إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغىٰ» ،ثم قوله لما ذكرا خوفهما و أجيبا بالأمن: «فَأْتِيٰاهُ فَقُولاٰ» الخ؛و فيه تفصيل ما عليهما أن يقولا له.

فقوله: «فَأْتِيٰاهُ فَقُولاٰ إِنّٰا رَسُولاٰ رَبِّكَ» تبليغ أنهما رسولا اللّه،و فى قوله بعد: «وَ السَّلاٰمُ عَلىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدىٰ» الخ؛دعوته الى بقيه أجزاء الإيمان.

و قوله: فَأَرْسِلْ مَعَنٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ وَ لاٰ تُعَذِّبْهُمْ تكليف فرعى متوجه الى فرعون.

و قوله: قَدْ جِئْنٰاكَ بِآيَهٍ مِنْ رَبِّكَ استناد الى حجه تثبت رسالتهما و فى تنكير الآيه سكوت عن العدد و إشاره الى فخامه أمرها و كبر شأنها و وضوح دلالتها.

و قوله: وَ السَّلاٰمُ عَلىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدىٰ كالتحيه للوداع يشار به الى تمام الرساله و يبين به خلاصه ما تتضمنه الدعوه الدينيه و هو أن السلامه منبسط على من اتبع الهدى و السعاده لمن اهتدى فلا يصادف فى مسير حياته مكروها يكرهه لا فى دنيا و لا فى عقبى.

و قوله: إِنّٰا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنٰا أَنَّ الْعَذٰابَ عَلىٰ مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلّٰى فى مقام التعليل لسابقه أى إنما نسلّم على المهتدين فحسب لأن اللّه سبحانه أوحى الينا أن العذاب و هو خلاف السلام على من كذّب بآيات اللّه-أو بالدعوه الحقه التى هى الهدى-و تولى

و أعرض عنها (۱).

[سوره طه (۲۰): الآیات ۴۹ الی ۷۹]

اشاره

قٰالَ فَمَنْ رَبُّکُمٰا یٰا مُوسیٰ (۴۹) قٰالَ رَبُّنَا اَلَّذِی أَعْطیٰ کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدیٰ (۵۰) قٰالَ فَمٰا بٰالُ اَلْقُرُونِ اَلْأُولیٰ (۵۱) قٰالَ عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّی فِی کِتٰابٍ لاٰ یَضِلُّ رَبِّی وَ لاٰ یَنْسیٰ (۵۲) اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اَلْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَکَ لَکُمْ فِیهٰا سُبُلاً وَ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْ نَبٰاتٍ شَتّٰی (۵۳) کُلُوا وَ اِرْعَوْا أَنْعٰامَکُمْ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِأُولِی اَلنُّهیٰ (۵۴) مِنْهٰا خَلَقْنٰاکُمْ وَ فِیهٰا نُعِیدُکُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُکُمْ تٰارَةً أُخْریٰ (۵۵) وَ لَقَدْ أَرَیْنٰاهُ آیٰاتِنٰا کُلَّهٰا فَکَذَّبَ وَ أَبیٰ (۵۶) قٰالَ أَ جِئْتَنٰا لِتُخْرِجَنٰا مِنْ أَرْضِنٰا بِسِحْرِکَ یٰا مُوسیٰ (۵۷) فَلَنَأْتِیَنَّکَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَیْنَنٰا وَ بَیْنَکَ مَوْعِداً لاٰ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لاٰ أَنْتَ مَکٰاناً سُویً (۵۸) قٰالَ مَوْعِدُکُمْ یَوْمُ اَلزِّینَةِ وَ أَنْ یُحْشَرَ اَلنّٰاسُ ضُحًی (۵۹) فَتَوَلّٰی فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ کَیْدَهُ ثُمَّ أَتیٰ (۶۰) قٰالَ لَهُمْ مُوسیٰ وَیْلَکُمْ لاٰ تَفْتَرُوا عَلَی اَللّٰهِ کَذِباً فَیُسْحِتَکُمْ بِعَذٰابٍ وَ قَدْ خٰابَ مَنِ اِفْتَریٰ (۶۱) فَتَنٰازَعُوا أَمْرَهُمْ بَیْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا اَلنَّجْویٰ (۶۲) قٰالُوا إِنْ هٰذٰانِ لَسٰاحِرٰانِ یُرِیدٰانِ أَنْ یُخْرِجٰاکُمْ مِنْ أَرْضِکُمْ بِسِحْرِهِمٰا وَ یَذْهَبٰا بِطَرِیقَتِکُمُ اَلْمُثْلیٰ (۶۳) فَأَجْمِعُوا کَیْدَکُمْ ثُمَّ اِئْتُوا صَفًّا وَ قَدْ أَفْلَحَ اَلْیَوْمَ مَنِ اِسْتَعْلیٰ (۶۴) قٰالُوا یٰا مُوسیٰ إِمّٰا أَنْ تُلْقِیَ وَ إِمّٰا أَنْ نَکُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقیٰ (۶۵) قٰالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذٰا حِبٰالُهُمْ وَ عِصِیُّهُمْ یُخَیَّلُ إِلَیْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهٰا تَسْعیٰ (۶۶) فَأَوْجَسَ فِی نَفْسِهِ خِیفَةً مُوسیٰ (۶۷) قُلْنٰا لاٰ تَخَفْ إِنَّکَ أَنْتَ اَلْأَعْلیٰ (۶۸) وَ أَلْقِ مٰا فِی یَمِینِکَ تَلْقَفْ مٰا صَنَعُوا إِنَّمٰا صَنَعُوا کَیْدُ سٰاحِرٍ وَ لاٰ یُفْلِحُ اَلسّٰاحِرُ حَیْثُ أَتیٰ (۶۹) فَأُلْقِیَ اَلسَّحَرَةُ سُجَّداً قٰالُوا آمَنّٰا بِرَبِّ هٰارُونَ وَ مُوسیٰ (۷۰) قٰالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَکُمْ إِنَّهُ لَکَبِیرُکُمُ اَلَّذِی عَلَّمَکُمُ اَلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَیْدِیَکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ مِنْ خِلاٰفٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّکُمْ فِی جُذُوعِ اَلنَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَیُّنٰا أَشَدُّ عَذٰاباً وَ أَبْقیٰ (۷۱) قٰالُوا لَنْ نُؤْثِرَکَ عَلیٰ مٰا جٰاءَنٰا مِنَ اَلْبَیِّنٰاتِ وَ اَلَّذِی فَطَرَنٰا فَاقْضِ مٰا أَنْتَ قٰاضٍ إِنَّمٰا تَقْضِی هٰذِهِ اَلْحَیٰاةَ اَلدُّنْیٰا (۷۲) إِنّٰا آمَنّٰا بِرَبِّنٰا لِیَغْفِرَ لَنٰا خَطٰایٰانٰا وَ مٰا أَکْرَهْتَنٰا عَلَیْهِ مِنَ اَلسِّحْرِ وَ اَللّٰهُ خَیْرٌ وَ أَبْقیٰ (۷۳) إِنَّهُ مَنْ یَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاٰ یَمُوتُ فِیهٰا وَ لاٰ یَحْییٰ (۷۴) وَ مَنْ یَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ اَلصّٰالِحٰاتِ فَأُولٰئِکَ لَهُمُ اَلدَّرَجٰاتُ اَلْعُلیٰ (۷۵) جَنّٰاتُ عَدْنٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا وَ ذٰلِکَ جَزٰاءُ مَنْ تَزَکّٰی (۷۶) وَ لَقَدْ أَوْحَیْنٰا إِلیٰ مُوسیٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبٰادِی فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِیقاً فِی اَلْبَحْرِ یَبَساً لاٰ تَخٰافُ دَرَکاً وَ لاٰ تَخْشیٰ (۷۷) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِیَهُمْ مِنَ اَلْیَمِّ مٰا غَشِیَهُمْ (۷۸) وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مٰا هَدیٰ (۷۹)

۱- ۱) .طه ۹-۴۸:بحث روائی حول قصه موسی و بعثته؛منزله علی علیه السّلام من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

بيان:

قوله تعالی: قٰالَ فَمَنْ رَبُّكُمٰا يٰا مُوسىٰ حکایه لمحاوره موسی و فرعون و قد علم مما نقله تعالی من أمره تعالی لهما أن یذهبا الی فرعون و یدعواه الی التوحید و یکلماه فی إرسال بنی إسرائیل معهما،ما قالا له فهو محذوف و ما نقل من کلام فرعون جوابا دالّ علیه.

فقول فرعون «فَمَنْ رَبُّكُمٰا» لیس إنکارا لوجود خالق الکل و لا إنکار أن یکون له إله کما یظهر من قوله: وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ (الأعراف/١٢٧)،و إنما هو طلب منه للمعرفه بحال من اتخذاه إلها و ربا من هو غیره؟و هذا معنی ما تقدم أن فرعون یتغافل فی قوله هذا عن دعوتهما الی اللّه سبحانه و هما فی أول الدعوه فهو یقدر و لو کتقدیر المتجاهل أن موسی و أخاه یدعوانه الی بعض الآلهه التی یتخذ فیهما بینهم ربا من دون اللّه فیسأل عنه،و قد کان من دأب الوثنیین

ص :١٧۵

التفنن فی اتخاذ الآلهه یتخذ کل منهم من یهواه إلها و ربما بدل إلها من إله فتلک طریقتهم و سیأتی قول الملإ «وَ یَذْهَبٰا بِطَرِیقَتِکُمُ الْمُثْلیٰ» نعم،ربما تفوه عامتهم ببعض ما لا یوافق اصولهم کنسبه الخلق و التدبیر الی نفس الأصنام دون أربابها.

قوله تعالی: قٰالَ رَبُّنَا الَّذِی أَعْطیٰ کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدیٰ سیاق الآیه -و هی واقعه فی جواب سؤال فرعون «فَمَنْ رَبُّکُمٰا یٰا مُوسیٰ» -یعطی أن «خَلْقَهُ» بمعنی اسم المصدر و الضمیر للشیء فالمراد الوجود الخاص بالشیء.

و الهدایه إراءه الشیء الطریق الموصل الی مطلوبه أو إیصاله الی مطلوبه و یعود المعنیان فی الحقیقه الی معنی واحد و هو نوع من إیصال الشیء الی مطلوبه إما بإیصاله الیه نفسه أو الی طریقه الموصل الیه.و قد اطلق الهدایه من حیث المهدی و المهدی الیه،و لم یسبق فی الکلام إلا الشیء الذی اعطی خلقه فالظاهر أن المراد هدایه کل شیء-المذکور قبلا-الی مطلوبه و مطلوبه هو الغایه التی یرتبط بها وجوده و ینتهی إلیها و المطلوب هو مطلوبه من جهه خلقه الذی اعطیه و معنی هدایته له إلیها تسییره نحوها کل ذلک بمناسبه البعض للبعض.

فیؤول المعنی الی إلقائه الرابطه بین کل شیء بما جهز به فی وجوده من القوی و الآلات و بین آثره التی تنتهی به الی غایه وجوده فالجنین من الإنسان مثلا و هو نطفه مصوره بصوره مجهز فی نفسه بقوی و أعضاء تناسب من الأفعال و الآثار ما ینتهی به الی الإنسان الکامل فی نفسه و بدنه فقد اعطیت النطفه الإنسانیه بما لها من الاستعداد خلقها الذی یخصها و هو الوجود الخاص بالإنسان ثم هدیت و سیّرت بما جهزت به من القوی و الأعضاء نحو مطلوبها و هو غایه الوجود الإنسانی و الکمال الأخیر الذی یختص به هذا النوع.

قوله تعالی: قٰالَ فَمٰا بٰالُ الْقُرُونِ الْأُولیٰ قیل:البال فی الأصل بمعنی الفکر و منه قولهم:خطر ببالی کذا،ثم استعمل بمعنی الحال،و لا یثنّی و لا یجمع،و قولهم:بالات، شاذ.

ص:۱۷۶

فقوله: فَمٰا بٰالُ الْقُرُونِ الْأُولىٰ أی ما حال الامم و الأجیال الإنسانیه الماضیه التی ماتوا و فنوا لا خبر عنهم و لا أثر کیف یجزون بأعمالهم و لا عامل فی الوجود و لا عمل و لیسوا الیوم إلا أحادیث و أساطیر؟فالآیه نظیره ما نقل عن المشرکین فی قوله: وَ قٰالُوا أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِی الْأَرْضِ أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ (الم السجده۱۰/)،و ظاهر الکلام أنه مبنی علی الاستبعاد من جهه انتفاء العلم بهم بأعمالهم للموت و الفوت کما یشهد به جواب موسی علیه السّلام.

قوله تعالی: قٰالَ عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّی فِی کِتٰابٍ لاٰ یَضِلُّ رَبِّی وَ لاٰ یَنْسیٰ أجاب علیه السّلام عن سؤاله بإثبات علمه تعالی المطلق بتفاصیل تلک القرون الخالیه فقال:

«عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّی» فأطلق العلم بها فلا یفوته شیء من أشخاصهم و أعمالهم و جعلها عند اللّه فلا تغیب عنه و لا تفوته،و قد قال تعالی: «وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ بٰاقٍ» ثم قیّد ذلک بقوله: «فِی کِتٰابٍ» -و کأنه حال من العلم-لیؤکد به أنه مثبت محفوظ من غیر أن یتغیر عن حاله و قد نکّر الکتاب لیدلّ به علی فخامه أمره من جهه سعه إحاطته و دقّتها فلا یغادر صغیره و لا کبیره إلا أحصاها.

فیؤول معنی الکلام الی أن جزاء القرون الاولی إنما یشکل لو جهل و لم یعلم بها لکنها معلومه لربی محفوظه عنده فی کتاب لا یتطرق الیه خطأ و لا تغییر و لا غیبه و زوال.

و قوله: «لاٰ یَضِلُّ رَبِّی وَ لاٰ یَنْسیٰ» نفی للجهل الابتدائی و الجهل بعد العلم علی ما نقل عن بعضهم و لکن الظاهر أن الجمله مسوقه لنفی الجهل بعد العلم بقسمیه فإن الضلال هو قصد الغایه بسلوک سبیل لا یؤدی إلیها بل الی غیرها فیکون الضلال فی العلم هو أخذ الشیء مکان غیره و إنما یتحقق ذلک بتغیر المعلوم من حیث هو معلوم عما کان علیه فی العلم أولا،و النسیان خروج الشیء من العلم بعد دخوله فیه فهما معا من الجهل بعد العلم،و نفیه هو المناسب لإثبات العلم أولا فیفید مجموع الآیه أنه عالم بالقرون الاولی و لا سبیل الیه للجهل بعد العلم فیجازیهم علی ما علم.

قوله تعالى: اَلَّذِی جَعَلَ لَکَمُ الْأَرْضَ مَهْداً -الی قوله- لَآیاتٍ لِأَولِی النُّهیٰ قد عرفت أن لسؤاله «فَمٰا بٰالُ الْقُرُونِ الْأولیٰ؟» ارتباطا بما وصف اللّه به من الهدیه العامه التی منها هدایه الإنسان الی سعادته فی الحیاه و هو الحیاه الخالده الاخرویه و کذا الجواب عنه بقوله: «عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّی» الخ؛مرتبط فقوله: «الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ مَهْداً» مضی فی الحدیث عن الهدایه العامه و ذکر شواهد بارزه فی ذلک.

و الباء فی «بِهِ» للسببیه و فیه تصدیق السببیه و المسببیه بین الامور الکونیه،و المراد بکونه النبات أزواجا کونها أنواعا و أصنافا متقاربه کما فسّره القوم أو حقیقه الازدواج بین الذکور و الإناث من النبات و هی من الحقائق التی نبّه علیها الکتاب العزیز.

و قوله: فَأَخْرَجْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْ نَبٰاتٍ شَتّٰی فیه التفات من الغیبه الی التکلم بالغیر،قیل:و الوجه فیه ما فی هذا الصنع العجیب و إبداع الصور المتشتته و الأزواج المختلفه علی ما فیها من تنوّع الحیاه من ماء واحد،من العظمه و الصنع العظیم لا یصدر إلا من العظیم و العظماء یتکلمون عنهم و عن غیرهم من أعوانهم و قد ورد الالتفات فی معنی إخراج النبات بالماء فی مواضع من کلامه تعالی کقوله: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ ثَمَرٰاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهٰا (فاطر/۲۷)،و قوله: وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَنْبَتْنٰا بِهِ حَدٰائِقَ ذٰاتَ بَهْجَهٍ (النمل/۶۰)،و قوله: وَ هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ نَبٰاتَ کُلِّ شَیْءٍ (الأنعام/۹۹).

و قوله: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِأُولِی النُّهیٰ النهی جمع نهیه بالضم فالسکون:

و هو العقل سمّی به لنهیه عن اتباع الهوی.

قوله تعالی: مِنْهٰا خَلَقْنٰاکُمْ وَ فِیهٰا نُعِیدُکُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُکُمْ تٰارَهً أُخْریٰ الضمیر للأرض و الآیه تصف ابتداء خلق الإنسان من الأرض ثم إعادته فیها و صیرورته جزء منها ثم إخراجه منها للرجوع الی اللّه ففیها الدوره الکامله من هدایه الإنسان.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَرَيْنٰاهُ آيٰاتِنٰا كُلَّهٰا فَكَذَّبَ وَ أَبیٰ الظاهر أن المراد بالآيات العصا و اليد و سائر الآيات التی أراها موسی فرعون أيام دعوته قبل الغرق كما مرّ فی قوله:

«اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيٰاتِی» فالمراد جميع الآيات التی أريها و إن لم يؤت بها جميعا فی أول الدعوه كما أن المراد بقوله: «فَكَذَّبَ وَ أَبیٰ» مطلق تكذيبه و إبائه لا ما أتی به منهما فی أول الدعوه.

قوله تعالی: قٰالَ أَ جِئْتَنٰا لِتُخْرِجَنٰا مِنْ أَرْضِنٰا بِسِحْرِكَ يٰا مُوسیٰ الضمير لفرعون و قد اتهم موسی أولا بالسحر لئلا يلزمه الاعتراف بصدق ما جاء به من الآيات المعجزه و حقيّه دعوته،و ثانيا بأنه يريد إخراج القبط من أرضهم و هی أرض مصر،و هی تهمه سياسيه يريد بها صرف الناس عنه و إثاره أفكارهم عليه بأنه عدو يريد أن يطردهم من بيئتهم و وطنهم بمكيدته و لا حياه لمن لا بيئه له.

قوله تعالی: فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً لاٰ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لاٰ أَنْتَ مَكٰاناً سُویً الظاهر كما يشهد به الآيه التاليه أن الموعد اسم زمان و إخلاف الوعد عدم العمل بمقتضاه،و مكان سوی بضم السين أی واقع فی المنتصف من المسافه أو مستوی الأطراف من غير ارتفاع و انخفاض،قال فی المفردات:و مكان سوی و سواء وسط،و يقال:سواء و سوی و سوی-بضم السين و كسرها-أی يستوی طرفاه، و يستعمل ذلك وصفا و ظرفا،و أصل ذلك مصدر.انتهی.

و المعنی:فاقسم لنأتينك بسحر يماثل سحرك لقطع حجّتك و إبطال إرادتك فاجعل بيننا و بينك زمان وعد لا نخلفه فی مكان بيننا أو فی مكان مستوی الأطراف أو اجعل بيننا و بينك مكانا كذلك.

قوله تعالی: قٰالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَهِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النّٰاسُ ضُحًی الضمير لموسی و قد جعل الموعد يوم الزينه،و يظهر من السياق أنه كان يوما لهم يجری بينهم مجری

العیـد،و یظهر من لفظه أنهم کـانوا یتزیّنون فیه و یزیّنون الأـسواق،و حشـر النـاس-علی مـا ذکره الراغب-إخراجهم عن مقرهم و إزعاجهم عنه الی الحرب و نحوها،و الضحی وقت انبساط الشمس من النهار.

و قوله: وَ أَنْ یُحْشَرَ النّٰاسُ ضُحًی معطوف علی الزینه أو علی یوم بتقدیر الیوم أو الوقت و نحوه و المعنی قال موسی موعدکم یوم الزینه و یوم حشر النـاس فی الضـحی،و لیس من لبعیـد أن یکون مفعولاـ معه و المعنی موعـدکم یوم الزینه مع حشـر النـاس فی الضحی و یرجع لی الاشتراط.و إنما اشترط ذلک لیکون ما یأتی به و یأتون به علی أعین الناس فی ساعه بصره.

قـوله تعـالی: فَتَـوَلّٰی فِرْعَـوْنُ فَجَمَـعَ کَیْـدَهُ ثُمَّ أَتیٰ ظـاهر السـیاق أن المراد بتولی فرعون انصـرافه عن مجلس المواعـده للتهیؤ لما واعـد،و المراد بجمع کیـده جمع ما یکاد به من السـحره و سائر ما یتوسل به الی تعمیه الناس و التلبیس علیهم و یمکن أن یکون المراد بجمع کیـده جمع ذوی کیـده بحـذف المضـاف و المراد بهم السـحره و سـائر عماله و أعوانه و قوله: «ثُمَّ أَتیٰ» أی ثم أتی الوعد و حضره.

قوله تعالی: قٰالَ لَهُمْ مُوسـیٰ وَیْلَکُمْ لاٰ تَفْتَرُوا عَلَی اللّٰهِ کَذِباً فَیُسْـحِتَکُمْ بِعَذٰابٍ وَ قَدْ خٰابَ مَنِ افْتَریٰ الویل کلمه عذاب و تهدید،و الأصل فیه معنی العذاب و معنی ویلکم عذّبکم اللّه عذابا،و السـحت بفتح السین استیصال الشعر بالحلق و الإسحات الاستئصال و الإهلاک.

و قوله: قٰالَ لَهُمْ مُوسـیٰ وَیْلَکُمْ لاٰ تَفْتَرُوا عَلَی اللّٰهِ کَـذِباً ضـمائر الجمع غیبه و خطابا لفرعون و کیـده و هم السـحره و سائر أعوانه علی موسـی علیه السّـلام و قد مرّ ذکرهم فی الآیه السابقه،و أما رجوعها الی السحره فقط فلم یسبق لهم ذکر و لا دل علیهم دلیل من جهه اللفظ.

و قوله: فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ تفريع على النهى أى لا تشركوا باللّه حتى يستأصلكم و يهلككم بعذاب بسبب شرككم،و تنكير العذاب للدلاله على شدته و عظمته.

قوله: وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى الخيبه اليأس من بلوغ النتيجه المأموله و قد وضعت الجمله فى الكلام وضع الأصل الكلى الذى يتمسك به و هو كذلك فإن الافتراء من الكذب و سببيته سببيه كاذبه و الأسباب الكاذبه لا تهتدى الى مسببات حقه و آثار صادقه فنتائجها غير صالحه للبقاء و لا هى تسوق الى سعاده فليس فى عاقبتها إلا الشؤم و الخسران فالآيه أشمل معنى من قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (يونس۶۹/).

لإثباتها الخيبه فى مطلق الافتراء بخلاف الآيه الثانيه و قد تقدم كلام فى أن الكذب لا يفلح فى ذيل قوله: وَ جاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ (يوسف۱۸/)فى الجزء الحادى عشر من الكتاب.

قوله تعالى: فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوى -الى قوله- مَنِ اسْتَعْلى التنازع قريب المعنى من الاختلاف،من النزع بمعنى جذب الشىء من مقرّه لينقلع نه و التنازع يتعدى بنفسه كما فى الآيه و بفى كقوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ (النساء۵۹/).

و النجوى الكلام الذى يسار به،و أصله مصدر بمعنى المناجاه و هى المسارّه فى الكلام، و المثلى مؤنث أمثل كفضلى و أفضل و هو الأقرب الأشبه و الطريقه المثلى السنه التى هى أقرب من الحق أو من امنيتهم و هى سنه الوثنيه التى كانت مصر اليوم تدار بها و هى عباده الآلهه و فى مقدمتها فرعون إله القبط،و الإجماع-على ما ذكره الراغب-جمع الشىء عن فكر و تروّ، و الصف جعل الأشياء على خط مستو كالإنسان و الاشجار و نحو ذلك و يستعمل مصدرا و اسم مصدر و قوله: «ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا» يحتمل أن يكون مصدرا،و أن يكون بمعنى صافين أى ائتوه فاتحاد و اتفاق من دون أن تختلفوا و تتفرقوا فتضعفوا و كونوا كيد واحده عليه.

و قوله: وَ أَسَرُّوا النَّجْوىٰ إشاره الى مسارّتهم فى أمر موسى و اجتهادهم فى رفع الاختلاف الناشىء من استماعهم وعظ موسى عليه السّلام،و قوله: «قٰالُوا إِنْ هٰذٰانِ لَسٰاحِرٰانِ يُرِيدٰانِ» الخ؛بيان النجوى الذى أسرّوه فيما بينهم و قد مرّ توضيح معناه.

و قوله: إِنْ هٰذٰانِ لَسٰاحِرٰانِ القراءه المعروفه «إِنْ» بكسر الهمزه و سكون النون و هى«إن»المشبهه بالفعل خففت فالغيت عن العمل بنصب الاسم و رفع الخبر.

قوله تعالى: قٰالُوا يٰا مُوسىٰ إِمّٰا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمّٰا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقىٰ الى آخر الآيه التاليه،الحبال جمع حبل و العصىّ جمع عصا،و قد كان السحره استعملوها ليصوّروا بها فى أعين الناس حيّات و ثعابين أمثال ما كان يظهر من عصا موسى عليه السّلام.

و قوله: فَإِذٰا حِبٰالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهٰا تَسْعىٰ فيه حذف،و التقدير:فألقوا و إذا حبالهم و عصيّهم،الخ؛و إنما حذف لتأكيد المفاجأه كأنه عليه السّلام لما قال لهم:بل ألقوا،لم يلبث دون أن شاهد ما شاهد من غير أن يتوسط هناك إلقاؤهم الحبال و العصىّ.

و الذى خيّل الى موسى خيّل الى غيره من الناظرين من الناس كما ذكره فى موضع آخر سَحَرُوا أَعْيُنَ النّٰاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ (الأعراف/۱۱۶)،غير أنه ذكر هاهنا موسى من بينهم و كأن ذلك ليكون تمهيدا لما فى الآيه التاليه.

قوله تعالى: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسىٰ قال الراغب فى المفردات:

الوجس الصوت الخفى،و التوجّس التسمّع،و الإيجاس وجود ذلك فى النفس،قال:

«فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً» فالوجس هو حاله تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الواجس الخاطر.انتهى.

فإيجاس الخيفه فى النفس إحساسها فيها و لا يكون إلا خفيفا خفيّا لا يظهر أثره فى ظاهر البشره و يتبع وجوده فى النفس ظهور خاطر سوء فيها من غير إذعان بما يوجبه من تحذّر

و تحرّز و إلا لظهر أثره فی ظاهر البشره و عمل الإنسان قطعا،و الی ذلک یومئ تنکیر الخیفه کأنه قیل:أحسّ فی نفسه نوعا من الخوف لا یعبأ به،و من العجیب قول بعضهم:إن التنکیر للتفخیم و کان الخوف عظیما و هو خطأ و لو کان کذلک لظهر أثره فی ظاهر بشرته و لم یکن لتقیید الخیفه بکونها فی نفسه وجه.

فظهر أن الخیفه التی أوجسها فی نفسه کانت إحساسا آنیا لها نظیره الخاطر الذی عقبها فقد خطرت بقلبه عظمه سحرهم و أنه بحسب التخیّل مماثل أو قریب من آیته فأوجس الخیفه من هذا الخطور و هو کنفس الخطور لا أثر له.

قوله تعالی: قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّکَ أَنْتَ الْأَعْلی -الی قوله- حَیْثُ أَتی نهی بداعی التقویه و التأیید و قد علله بقوله: «إِنَّکَ أَنْتَ الْأَعْلی» فالمعنی:إنک فوقهم من کل جهه و إذا کان کذلک لم یضرک شیء من کیدهم و سحرهم فلا موجب لأن تخاف.

و قوله: وَ أَلْقِ ما فِی یَمِینِکَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا الخ؛أمر بإلقاء العصا لتکون حیه و تلقف ما صنعوا بالسحر و التعبیر عن العصا بما فی یمینک من ألطف التعبیر و أعمقه فإن فیه إشاره الی أن لیس للشیء من الحقیقه إلا ما أراد اللّه فإن أراد لما فی الیمین أن یکون عصا کان عصا و إن أراد أن یکون حیه کان حیه فما له من نفسه شیء ثم التعبیر عن حیاتهم و ثعابینهم بقوله: «ما صَنَعُوا» یشیر الی أن المغالبه واقعه بین تلک القدره المطلقه التی تتبعها الأشیاء فی أسامیها و حقائقها و بین هذا الصنع البشری الذی لا یعدو أن یکون کیدا باطلا و کلمه اللّه هی العلیا و اللّه غالب علی أمره فلا ینبغی له أن یخاف.

و فی هذه الجمله أعنی قوله: «وَ أَلْقِ ما فِی یَمِینِکَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا» بیان لکونه علیه السّلام أعلی بحسب ظاهر الحسّ کما أن فی ذیله بیانا لکونه أعلی بحسب الحقیقه إذ لا حقیقه للباطل فمن کان علی الحق فلا ینبغی له أن یخاف الباطل علی حقه.

و قوله: «إِنَّما صَنَعُوا کَیْدُ ساحِرٍ وَ لا یُفْلِحُ السّاحِرُ حَیْثُ أَتی» تعلیل بحسب اللفظ لقوله:

«تَلْقَفْ مٰا صَنَعُوا» و «مٰا» مصدريه أو موصوله و بيان بحسب الحقيقه لكونه عليه السّلام أعلى لأن ما معهم كيد ساحر لا حقيقه له و ما معه آيه معجزه ذات حقيقه و الحق يعلو و لا يعلى عليه.

و قوله: وَ لاٰ يُفْلِحُ السّٰاحِرُ حَيْثُ أَتىٰ بمنزله الكبرى لقوله: «إِنَّمٰا صَنَعُوا كَيْدُ سٰاحِرٍ» فإن الذى يناله الساحر بسحره خيال من الناظرين باطل لا حقيقه له و لا فلاح و لا سعاده حقيقيه يظفر بها فى أمر موهوم لا واقع له.

فقوله: وَ لاٰ يُفْلِحُ السّٰاحِرُ حَيْثُ أَتىٰ نظير قوله: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ (الأنعام١۴۴/)، وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ (المائده١٠٨/)،و غيرهما و الجميع من فروع إِنَّ الْبٰاطِلَ كٰانَ زَهُوقاً (الإسراء٨١/)، وَ يَمْحُ اللّٰهُ الْبٰاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ (الشورى٢۴/)،فلا يزال الباطل يزيد أمورا و يشبّهها بالحق و لا يزال الحق يمحوه و يلقف ما أظهره لوهم الناظرين سريعا أو بطيئا فمثل عصا موسى و سحر السحره يجرى فى كل باطل يبدو و حق يلقفه و يزهقه،و قد تقدّم فى تفسير قوله: أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهٰا (الرعد١٧/)،كلام نافع فى المقام.

قوله تعالى: فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قٰالُوا آمَنّٰا بِرَبِّ هٰارُونَ وَ مُوسىٰ فى الكلام حذف و إيجاز و التقدير فألقى ما فى يمينه فتلقف ما صنعوا فالقى السحره و فى التعبير بقوله: «فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ» بالبناء للمفعول دون أن يقال:فسجد السحره إشاره الى إذلال القدره الإلهيه لهم و غشيان الحق بظهوره إياهم بحيث لم يجدوا بدّا دون أن يخروا على الأرض سجّدا كأنهم لا إراده لهم فى ذلك و إنما ألقاهم ملق غيرهم دون أن يعرفوه من هو؟.

و قولهم: آمَنّٰا بِرَبِّ هٰارُونَ وَ مُوسىٰ شهاده منهم بالإيمان و إنما أضافوه تعالى الى موسى و هارون ليكون فيه الشهاده على ربوبيته تعالى و رساله موسى و هارون معا و فصل قوله: «قٰالُوا» الخ؛من غير عطف لكونه كالجواب لسؤال مقدّر كأنه قيل:فما قالوا فقيل:

قالوا،الخ.

قوله تعالی: قٰالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَکَمْ الی آخر الآیه؛الکبیر الرئیس و قطع الأیدی و الأرجل من خلاف أن یقطع الید الیمنی و الرجل الیسری و التصلیب تکثیر الصلب و تشدیده کالتقطیع الذی هو تکثیر القطع و تشدیده و الجذوع جمع جذع و هو ساقه النخل.

و قوله: «آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَکُمْ» تهدید من فرعون للسحره حیث آمنوا و الجمله استفهامیه محذوفه الأداه و الاستفهام للإنکار أو خبریه مسوقه لتقریر الجرم،و قوله: «إِنَّهُ لَکَبِیرُکُمُ الَّذِی عَلَّمَکُمُ السِّحْرَ» رمی لهم بتوطئه سیاسیه علی المجتمع القبطی فی أرض مصر کأنهم تواطئوا مع رئیسهم أن یتنبأ موسی فیدعو أهل مصر الی اللّه و یأتی فی ذلک بسحر فیستنصروا بالسحره حتی إذا حضروه و اجتمعوا علی مغالبته تخاذلوا و انهزموا عنه و آمنوا و اتبعتهم العامه فذهبت طریقتهم المثلی من بینهم و أخرج من لم یؤمن منهم قال تعالی فی موضع آخر: إِنَّ هٰذٰا لَمَکْرٌ مَکَرْتُمُوهُ فِی الْمَدِینَهِ لِتُخْرِجُوا مِنْهٰا أَهْلَهٰا (الأعراف/۱۲۳)،و إنما رماهم بهذا القول تهییجا للعامه علیهم کما رمی موسی علیه السّلام بمثله فی أول یوم.

و قوله: فَلَأُقَطِّعَنَّ أَیْدِیَکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ مِنْ خِلاٰفٍ الی آخر الآیه،إیعاد لهم و تهدید بالعذاب الشدید و لم یذکر تعالی فی کلامه أنجز فیهم ذلک أم لا؟

قوله تعالی: قٰالُوا لَنْ نُؤْثِرَکَ عَلیٰ مٰا جٰاءَنٰا مِنَ الْبَیِّنٰاتِ وَ الَّذِی فَطَرَنٰا فَاقْضِ مٰا أَنْتَ قٰاضٍ إِنَّمٰا تَقْضِی هٰذِهِ الْحَیٰاهَ الدُّنْیٰا کلام بلیغ فی منطوقه بالغ فی مفهومه بعید فی معناه رفیع فی منزلته یغلی و یفور علما و حکمه،فهؤلاء قوم کانوا قبل ساعه و قد ملأت هیبه فرعون و أبهته قلوبهم و أذلّت زینات الدنیا و زخارفها التی عنده-و لیست إلا أکاذیب خیال و أباطیل و هم-نفوسهم یسمّونه ربا أعلی و یقولون حینما ألقوا حبالهم و عصیهم «بِعِزَّهِ فِرْعَوْنَ إِنّٰا لَنَحْنُ الْغٰالِبُونَ» فما لبثوا دون أن ظهرت لهم آیات الحق فبهرت أبصارهم فطاحت عند ذلک ما کانوا یرون لفرعون من عزه و سلطان و لما عنده من زینه الدنیا

و زخرفها من قدر و منزله و غشيت قلوبهم فأزالت منها رذيله الجبن و الملق و اتّباع الهوى و التولّه الى سراب زينه الحياه الدنيا و مكّنت فيها التعلق بالحق و الدخول تحت ولايه اللّه و الاعتزاز بعزته فلا يريدون إلا ما أراده اللّه و لا يرجون إلا اللّه و لا يخافون إلا اللّه عزّ اسمه.

و فى قولهم: «مٰا جٰاءَنٰا مِنَ الْبَيِّنٰاتِ» تلويح الى أنهم عدّوا ما شاهدوه من أمر العصا آيات عديده كصيرورتها ثعبانا و تلقّفها الحبال و العصى و رجوعها ثانيا الى حالتها الاولى،و يمكن أن يكون «مِنَ» للتبعيض فيفيد أنهم شاهدوا آيه واحده و آمنوا بأن للّه آيات اخرى كثيره و لا يخلو من بعد.

قوله تعالى: إِنّٰا آمَنّٰا بِرَبِّنٰا لِيَغْفِرَ لَنٰا خَطٰايٰانٰا وَ مٰا أَكْرَهْتَنٰا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللّٰهُ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ الخطايا جمع خطيئه و هى قريبه معنى من السيئه،و قوله: «وَ مٰا أَكْرَهْتَنٰا عَلَيْهِ» معطوف على «خَطٰايٰانٰا» و «مِنَ السِّحْرِ» بيان له و المعنى و ليغفر لنا السحر الذى أكرهتنا عليه و فيه دلاله على أنهم أكرهوا عليه إما حين حشروا الى فرعون من خلال ديارهم و إما حين تنازعوا أمرهم بينهم و أسروا النجوى فحملوا على المقابله و المغالبه.

و أول الآيه تعليل لقولهم: «لَنْ نُؤْثِرَكَ» الخ؛أى إنما اخترنا اللّه الذى فطرنا عليك و آمنا به ليغفر لنا خطايانا و السحر الذى أكرهتنا عليه،و ذيل الآيه «وَ اللّٰهُ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ» من تمام البيان و بمنزله التعليل لصدرها كأنه قيل:و إنما آثرنا غفرانه على إحسانك لأنه خير و أبقى،أى خير من كل خير و أبقى من كل باق-لمكان الإطلاق-فلا يؤثر عليه شىء و فى هذا الذليل نوع مقابله لما فى ذيل كلام فرعون «وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنٰا أَشَدُّ عَذٰاباً وَ أَبْقىٰ» .

و قد عبروا عنه تعالى أولا بالذى فطرنا،و ثانيا بربنا،و ثالثا باللّه،أما الأول فلأن كونه تعالى فاطرا لنا اى مخرجا لنا عن كتم العدم الى الوجود و يتبعه انتهاء كل خير حقيقى اليه و ان ليس عند غيره إذا قوبل به إلا سراب البطلان،منشأ كل ترجيح و المقام مقام الترجيح بينه تعالى و بين فرعون.

و اما الثانى فلأن فيه إخبارا عن الإيمان به و أمسّ صفاته تعالى بالإيمان و العبوديه صفه ربوبيته المتضمنه لمعنى الملك و التدبير.

و أما الثالث فلأن ملاك خيريه الشىء لكمال و عنده تعالى جميع صفات الكمال القاضيه بخيريته المطلقه فناسب التعبير بالعلم الدال على الذات المستجمعه لجميع صفات الكمال، و على هذا فالكلام فى المقامات الثلاثه على بساطته ظاهرا مشتمل على الحجه على المدعى و المعنى بالحقيقه:لن نؤثرك على الذى فطرنا لأنه فطرنا،و إنا آمنا بربنا لأنه ربنا،و اللّه خير لأنه اللّه عز اسمه.

قوله تعالى: إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاٰ يَمُوتُ فِيهٰا وَ لاٰ يَحْيىٰ تعليل لجعل غفران الخطايا غايه للإيمان باللّه اى لأن من لم يغفر خطاياه كان مجرما و من يأت ربه مجرما،الخ.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصّٰالِحٰاتِ فَأُولٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجٰاتُ الْعُلىٰ الى آخر الآيه التاليه؛الدرجه-على ما ذكره الراغب- هى المنزله لكن يعتبر فيها الصعود كدرجات السلم و تقابلها الدركه فهى المنزله حدورا و لذا يقال:درجات الجنه و دركات النار،و التزكى هو التنمى بالماء الصالح و المراد به أن يعيش الإنسان باعتقاد حق و عمل صالح.

و الآيتان تصفان ما يستتبعه الإيمان و العمل الصالح كما كانت الآيه السابقه تصف ما يستتبعه الإجرام الحاصل بكفر أو معصيه و الآيات الثلاث الواصفه لتبعه الإجرام و الإيمان ناظره الى وعيد فرعون و وعده لهم فقد أوعدهم فرعون على إيمانهم لموسى بالقطع و الصلب و ادعى أنه أشد العذاب و أبقاه فقابلوه بأن للمجرم عند ربه جهنم لا يموت فيها و لا يحيى لا يموت فيها حتى ينجو من مقاساه ألم عذابها لكن منتهى عذاب الدنيا الموت و فيه نجاه المجرم المعذب،و لا يحيى فيها إذ ليس فيها شىء مما تطيب به الحياه و لا خير مرجوّا فيها حتى يقاسى

العذاب فی انتظاره.

و وعدهم قبل ذلک المنزله بجعلهم من مقرّبیه و الأجر کما حکی اللّه تعالی قٰالُوا إِنَّ لَنٰا لَأَجْراً إِنْ کُنّٰا نَحْنُ الْغٰالِبِینَ قٰالَ نَعَمْ وَ إِنَّکُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِینَ (الأعراف/۱۱۴)،فقابلوا ذلک بأن من یأته مؤمنا قد عمل الصالحات فاولئک-و فی الإشاره البعیده تفخیم شأنهم-لهم الدرجات العلی-و هذا یقابل وعد فرعون لهم بالتقریب-جنات عدن تجری من تحتها الأنهار خالدین فیها،ذلک جزاء من تزکی-بالإیمان و العمل الصالح و هذا یقابل وعده لهم بالأجر.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَوْحَیْنٰا إِلیٰ مُوسیٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبٰادِی فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِیقاً فِی الْبَحْرِ یَبَساً -الی قوله- وَ مٰا هَدیٰ .الإسراء السیر باللیل و المراد بعبادی بنو إسرائیل و قوله: «فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِیقاً فِی الْبَحْرِ یَبَساً» قیل المراد الضرب بالعصا کما یدل علیه کلامه تعالی فی غیر هذا الموضع و إن «طَرِیقاً» مفعول به لا ضرب علی الاتساع و هو مجاز عقلی و الأصل اضرب البحر لیکون لهم طریقا.انتهی.و یمکن أن یکون المراد بالضرب البناء و الإقامه من باب ضربت الخیمه و ضربت القاعده.

و الیبس-علی ما ذکره الراغب-المکان الذی کان فیه ماء ثم ذهب،و الدرک بفتحتین تبعه الشیء،و فی نسبه الغشیان الی ما الموصوله المبهمه و جعله صله لها أیضا من تمثیل هول الموقف ما لا یخفی،قیل:و فی قوله: «وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مٰا هَدیٰ» تکذیب لقول فرعون لقومه فیما خاطبهم وَ مٰا أَهْدِیکُمْ إِلاّٰ سَبِیلَ الرَّشٰادِ (المؤمن/۲۹)،و علی هذا فقوله: «وَ مٰا هَدیٰ» لیس تأکیدا و تکرارا لمعنی قوله: «وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ» .

[سوره طه (۲۰): الآیات ۸۰ الی ۹۸]

اشاره

یٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ قَدْ أَنْجَیْنٰاکُمْ مِنْ عَدُوِّکُمْ وَ وٰاعَدْنٰاکُمْ جٰانِبَ اَلطُّورِ اَلْأَیْمَنَ وَ نَزَّلْنٰا عَلَیْکُمُ اَلْمَنَّ وَ اَلسَّلْویٰ (۸۰) کُلُوا مِنْ طَیِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاکُمْ وَ لاٰ تَطْغَوْا فِیهِ فَیَحِلَّ عَلَیْکُمْ غَضَبِی وَ مَنْ یَحْلِلْ عَلَیْهِ غَضَبِی فَقَدْ هَویٰ (۸۱) وَ إِنِّی لَغَفّٰارٌ لِمَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً ثُمَّ اِهْتَدیٰ (۸۲) وَ مٰا أَعْجَلَکَ عَنْ قَوْمِکَ یٰا مُوسیٰ (۸۳) قٰالَ هُمْ أُولاٰءِ عَلیٰ أَثَرِی وَ عَجِلْتُ إِلَیْکَ رَبِّ لِتَرْضیٰ (۸۴) قٰالَ فَإِنّٰا قَدْ فَتَنّٰا قَوْمَکَ مِنْ بَعْدِکَ وَ أَضَلَّهُمُ اَلسّٰامِرِیُّ (۸۵) فَرَجَعَ مُوسیٰ إِلیٰ قَوْمِهِ غَضْبٰانَ أَسِفاً قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ لَمْ یَعِدْکُمْ رَبُّکُمْ وَعْداً حَسَناً أَ فَطٰالَ عَلَیْکُمُ اَلْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ یَحِلَّ عَلَیْکُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّکُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِی (۸۶) قٰالُوا مٰا أَخْلَفْنٰا مَوْعِدَکَ بِمَلْکِنٰا وَ لٰکِنّٰا حُمِّلْنٰا أَوْزٰاراً مِنْ زِینَهِ اَلْقَوْمِ فَقَذَفْنٰاهٰا فَکَذٰلِکَ أَلْقَی اَلسّٰامِرِیُّ (۸۷) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوٰارٌ فَقٰالُوا هٰذٰا إِلٰهُکُمْ وَ إِلٰهُ مُوسیٰ فَنَسِیَ (۸۸) أَ فَلاٰ یَرَوْنَ أَلاّٰ یَرْجِعُ إِلَیْهِمْ قَوْلاً وَ لاٰ یَمْلِکُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً (۸۹) وَ لَقَدْ قٰالَ لَهُمْ هٰارُونُ مِنْ قَبْلُ یٰا قَوْمِ إِنَّمٰا فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّکُمُ اَلرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونِی وَ أَطِیعُوا أَمْرِی (۹۰) قٰالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَیْهِ عٰاکِفِینَ حَتّٰی یَرْجِعَ إِلَیْنٰا مُوسیٰ (۹۱) قٰالَ یٰا هٰارُونُ مٰا مَنَعَکَ إِذْ رَأَیْتَهُمْ ضَلُّوا (۹۲) أَلاّٰ تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَیْتَ أَمْرِی (۹۳) قٰالَ یَا بْنَ أُمَّ لاٰ تَأْخُذْ بِلِحْیَتِی وَ لاٰ بِرَأْسِی إِنِّی خَشِیتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَیْنَ بَنِی إِسْرٰائِیلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِی (۹۴) قٰالَ فَمٰا خَطْبُکَ یٰا سٰامِرِیُّ (۹۵) قٰالَ بَصُرْتُ بِمٰا لَمْ یَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَهً مِنْ أَثَرِ اَلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهٰا وَ کَذٰلِکَ سَوَّلَتْ لِی نَفْسِی (۹۶) قٰالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَکَ فِی اَلْحَیٰاهِ أَنْ تَقُولَ لاٰ مِسٰاسَ وَ إِنَّ لَکَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَ اُنْظُرْ إِلیٰ إِلٰهِکَ اَلَّذِی ظَلْتَ عَلَیْهِ عٰاکِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِی اَلْیَمِّ نَسْفاً (۹۷) إِنَّمٰا إِلٰهُکُمُ اَللّٰهُ اَلَّذِی لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَسِعَ کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً (۹۸)

بیان:

قوله تعالی: یَا بَنِی إِسْرَائِیلَ قَدْ أَنْجَیْنَاکُمْ مِنْ عَدُوِّکُمْ الی آخر الآیه؛کأن الکلام بتقدیر القول أی قلنا یا بنی إسرائیل و قوله: «قَدْ أَنْجَیْنَاکُمْ مِنْ عَدُوِّکُمْ» المراد به فرعون أغرقه اللّه و أنجی بنی إسرائیل منه بعد طول المحنه.

و قوله: وَ وَاعَدْنَاکُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَیْمَنَ بنصب أیمن علی أنه صفه جانب و لعل المراد بهذه المواعده مواعده موسی أربعین لیله لإنزال التوراه و قد مرت القصه فی سوره البقره و غیرها و کذا قصه إنزال المنّ و السلوی.

و قوله: کُلُوا مِنْ طَیِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاکُمْ إباحه فی صوره الأمر و إضافه الطیبات الی «مَا رَزَقْنَاکُمْ» من إضافه الصفه الی الموصوف إذ لا معنی لأن ینسب الرزق الی نفسه ثم یقسّمه الی طیّب و غیره کما یؤیده قوله فی آخر: وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّیِّبَاتِ (الجاثیه/۱۶).

ص: ۱۹۰

قوله: وَ لاٰ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكَمْ غَضَبِى ضمير فيه راجع الى الأكل المتعلق بالطيبات و ذلك بكفران النعمه و عدم أداء شكره كما قالوا: يٰا مُوسىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلىٰ طَعٰامٍ وٰاحِدٍ فَادْعُ لَنٰا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنٰا مِمّٰا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهٰا وَ قِثّٰائِهٰا وَ فُومِهٰا وَ عَدَسِهٰا وَ بَصَلِهٰا (البقره۶۱/).

و قوله: «فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى» أى يجب غضبى و يلزم من حلّ الدين يحلّ من باب ضرب إذا وجب أداؤه،و الغضب من صفاته تعالى الفعليه مصداقه إرادته تعالى إصابه المكروه للعبد بتهيئه الأسباب لذلک عن معصيه عصاها.

و قوله: وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوىٰ أى سقط من الهوىّ بمعنى السقوط و فسّر بالهلاک.

قوله تعالى: وَ إِنِّى لَغَفّٰارٌ لِمَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً ثُمَّ اهْتَدىٰ وعد بالرحمه المؤكده عقيب الوعيد الشديد و لذا وصف نفسه بكثره المغفره فقال: «وَ إِنِّى لَغَفّٰارٌ» و لم يقل:و أنا غافر أو سأغفر.

و التوبه و هى الرجوع كما تكون عن المعصيه الى الطاعه تكون من الشرک الى التوحيد، و الإيمان أيضا كما يكون باللّه كذلک يكون بآيات اللّه من أنبيائه و رسله و كل حكم جاءوا به من عند اللّه تعالى،و قد كثر استعمال الإيمان فى القرآن فى كل من المعنيين كما كثر استعمال التوبه فى كل من المعنيين المذكورين و بنو إسرائيل كما تلبّسوا بمعاصى فسقوا بها كذلک تلبّسوا بالشرک كعباده العجل و على هذا فلا موجب لصرف الكلام عن ظاهر إطلاقه فى التوبه عن الشرک و المعصيه جميعا و الإيمان باللّه و آياته كذلک إطلاقه بالنسبه الى التائبين و المؤمنين من بنى إسرائيل و غيرهم و إن كان بنو إسرائيل مورد الخطاب فإن الصفات الإلهيه كالمغفره لا تختص بقوم دون قوم.

فمعنى الآيه-و اللّه أعلم-و إنى لكثير المغفره لكل انسان تاب و آمن سواء تاب عن شرک أو

عن معصیه و سواء آمن بی أو بآیاتی من رسلی،أو ما جاءوا به من أحکامی بأن ینـدم علی ما فعل و یعمل عملا صالحا بتبـدیل المخـالفه و التمرد فیمـا عصـی فیه بالطاعه فیه و هو المحقق لأصل معنی الرجوع من شـیء و قـد مرّ تفصـیل القول فیه فی تفسـیر قوله: إِنَّمَا التَّوْبَهُ عَلَی اللّهِ (النساء/۱۷)،فی الجزء الرابع من الکتاب.

و أما قوله: ثُمَّ اهْتَدیٰ فالاهتداء یقابل الضلال کما یشهد به قوله تعالی: مَنِ اهْتَدیٰ فَإِنَّمٰا یَهْتَدِی لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا یَضِلُّ عَلَیْهٰا (الإسراء/۱۵)،و قوله: لاٰ یَضُـرُّکُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَـدَیْتُمْ (المائده/۱۰۵)،فهـل المراد أن لاـ یضـلّ فی نفس ما تاب فیه بأن یعود الی المعصـیه ثانیـا فیفیـد أن التوبه عن ذنب إنمـا تنفع بالنسـبه الی مـا اقترفه قبـل التوبه و لا تکفی عنه لو عاد الیه ثانیا أو المراد أن لا یضلّ فی غیره فیفید أن المغفره إنما تنفعه بالنسـبه الی المعصـیه التی تاب عنها و بعباره أخری إنما تنفعه نفعا تاما إذا لم یضل فی غیره من الأعمال،أو المراد ما یعمّ المعنیین؟.

فقوله: وَ إِنِّی لَغَفّٰارٌ لِمَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً ینطبق علی آیه النساء و یبقی فیه شـرط زائـد یقیـد حکم المغفره و هو مدلول قوله: «ثُمَّ اهْتَـدیٰ» و هو الاهتـداء الی الطریق و یظهر أن المغفره إنمـا یسـمح بهـا للمؤمن العامـل بالصالحات إذا قصـد ذلک من طریقه و دخل علیه من بابه.

و لا نجد فی کلامه تعالی ما یقید الإیمان باللّه و العمل الصالح فی تأثیره و قبوله عند اللّه إلا الإیمان بالرسول بمعنی التسـلیم له و طاعته فی خطیر الامور و یسـیرها و أخذ الدین عنه و سـلوک الطریق التی یخطها و اتباعه من غیر استبداد و ابتداع یئول الی اتباع خطوات الشـیطان و بـالجمله ولاـیته علی المؤمنین فی دینهم و دنیاهم فقـد شـرع اللّه تعالی ولایته و فرض طاعته و أوجب الأخذ عنه و التأسّی به فی آیات کثیره جدا لا حاجه الی إیرادها و لا مجال لاستقصائها فالنبی أولی بالمؤمنین من أنفسهم.

ص: ۱۹۲

و كان جل بنى إسرائيل على إيمانهم باللّه سبحانه و تصديقهم رساله موسى و هارون متوقفين فى ولايتهما أو كالمتوقف كما هو صريح عامه قصصهم فى كتاب اللّه و لعل هذا هو الوجه فى وقوع الآيه-و إنى لغفار لمن تاب و آمن و عمل صالحا ثم اهتدى بعد نهيهم عن الطغيان و تخويفهم من غضب اللّه.

فقد تبيّن أن المراد بالاهتداء فى الآيه على ما يهدى اليه سائر الآيات هو الإيمان بالرسول باتباع فى أمر الدين و الدنيا و بعباره اخرى هو الاهتداء الى ولايته.

قوله تعالى: وَ مٰا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يٰا مُوسىٰ -الى قوله- لِتَرْضىٰ حكايه مكالمه وقعت بينه تعالى و بين موسى عليه السّلام فى ميعاد الطور الذى نزلت عليه فيه التوراه كما قصّ فى سوره الاعراف تفصيلا.

و ظاهر السياق أنه سؤال عن السبب الذى أوجب لموسى أن يستعجل عن قومه فيحضر ميعاد الطور قبلهم كأنه كان المترقب أن يحضروا الطور جميعا فتقدّم عليهم موسى فى الحضور و خلّفهم فقيل له «وَ مٰا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يٰا مُوسىٰ» فقال: «هُمْ أُولاٰءِ عَلىٰ أَثَرِي» أى إنهم لسائرون على أثرى و سيلحقون بى عن قريب «وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضىٰ» أى و السبب فى عجلى هو أن احصّل رضاك يا رب.

و الظاهر أن المراد بالقوم و قد ذكر أنهم على أثره هم السبعون رجلا الذين اختارهم لميقات ربه،فإن ظاهر تخليفه هارون على قومه بعده و سائر جهات القصه و قوله: «أَ فَطٰالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ» أنه لم يكن من القصد أن يحضر بنو إسرائيل كلهم الطور.

قوله تعالى: قٰالَ فَإِنّٰا قَدْ فَتَنّٰا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السّٰامِرِيُّ الفتنه الامتحان و الاختبار و نسبه الإضلال الى السامرى-و هو الذى سبك العجل و أخرجه لهم فعبدوه و ضلّوا-لأنه أحد أسبابه العامله فيه.

و الفاء فى قوله: «فَإِنّٰا قَدْ فَتَنّٰا قَوْمَكَ» للتعليل يعلل به ما يفهم من سابق الكلام فإن المفهوم

من قول موسى «هُمْ أُولاٰءِ عَلىٰ أَثَرِي» أن قومه على حسن حال لم يحدث فيهم ما يوجب قلقا فكأنه قيل:لا تكن واثقا على ما خلّفتهم فيه فإنا قد فتنّاهم فضلّوا.

و قوله: «قَوْمَكَ» من وضع الظاهر موضع المضمر و لعل المراد غير المراد به فى الآيه السابقه أن يكون ما هاهنا عامه القوم و ما هناك السبعون رجلا الذين اختارهم موسى للميقات.

قوله تعالى: فَرَجَعَ مُوسىٰ إِلىٰ قَوْمِهِ غَضْبٰانَ أَسِفاً -الى قوله- فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي الغضبان صفه مشبهه من الغضب،و كذا الاسف من الاسف بفتحتين و هو الحزن و شده الغضب،و الموعد الوعد،و إلا فهم موعده هو تركهم ما وعدوه من حسن الخلافه بعده حتى يرجع اليهم،و يؤيده قوله فى موضع آخر: «بِئْسَمٰا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي» .

و المعنى:فرجع موسى الى قومه و الحال أنه غضبان شديد الغضب-أو حزين-و أخذ يلومهم على ما فعلوا،قال يا قوم أ لم يعدكم ربكم وعدا حسنا-و هو أن ينزل عليهم التوراه فيها حكم اللّه و فى الأخذ بها سعاده دنياهم و أخراهم-أو وعده تعالى أن ينجيهم من عدوّهم و يمكّنهم فى الأرض و يخصّهم بنعمه العظام «أَ فَطٰالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ» و هو مده مفارقه موسى إياهم حتى يكونوا آيسين من رجوعه فيختل النظم بينهم «أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ» فطغوتم بالكفر به بعد الإيمان و عبدتم العجل «فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي» و تركتم ما وعدتمونى من حسن الخلافه بعدى.

قوله تعالى: قٰالُوا مٰا أَخْلَفْنٰا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنٰا الى آخر الآيه الملك بالفتح فالسكون مصدر ملك يملك و كأن المراد بقولهم: «مٰا أَخْلَفْنٰا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنٰا» ما خالفناك و نحن نملك من أمرنا شيئا-كما قيل-و من الممكن أن يكون المراد أنّا لم نصرف فى صوغ العجل شيئا من أموالنا حتى نكون قاصدين لهذا الأمر متعمدين فيه و لكن كنا حاملين لأثقال من حليّ القوم فطرحناها فأخذها السامرى و ألقاها فى النار فأخرج العجل.

و الأوزار جمع وزر و هو الثقل،و الزينه الحلى كالعقد و القرط و السوار و القذف و الإلقاء و النبذ متقاربه معناها الطرح و الرمى.

و معنى قوله: «وَ لٰكِنّا حُمِّلْنا أَوْزاراً» الخ؛لكن كانت معنا أثقال من زينه القوم و لعل المراد به قوم فرعون-فطرحناها فكذلك ألقى السامرى-ألقى ما طرحناها فى النار أو ألقى ما عنده كما القينا ما عندنا مما حملنا-فأخرج العجل.

قوله تعالى: فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوٰارٌ فَقٰالُوا هٰذٰا إِلٰهُكُمْ وَ إِلٰهُ مُوسىٰ فَنَسِيَ فى لفظ الإخراج دلاله على أن كيفيه صنع العجل كانت خفيه على الناس فى غير مرأى منهم حتى فاجأهم بإظهاره و إراءته،و الجسد هو الجثه التى لا روح فيه فلا يطلق الجسد على ذى الروح البته،و فيه دليل على أن العجل لم يكن له روح و لا فيه شىء من الحياه،و الخوار بضمّ الخاء صوت العجل.

و ربما أخذ قوله: «فَكَذٰلِكَ أَلْقَى السّٰامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ» الخ؛كلاما مستقلا إما من كلام اللّه سبحانه باختتام كلام القوم فى قولهم: «فَقَذَفْنٰاهٰا» و إما من كلام القوم و على هذا فضمير «قالوا»لبعض القوم و ضمير «فَأَخْرَجَ لَهُمْ» لبعض آخر كما هو ظاهر.

و ضمير«نسى»قيل:لموسى و المعنى قالوا هذا إلهكم و إله موسى فنسى موسى إلهه هذا و هو هنا و ذهب يطلبه فى الطور و قيل:الضمير للسامرى و المراد به نسيانه تعالى بعد ذكره و الإيمان به أى نسى السامرى ربه فأتى بما أتى و أضلّ القوم.

و ظاهر قوله: «فَقٰالُوا هٰذٰا إِلٰهُكُمْ وَ إِلٰهُ مُوسىٰ» حيث نسب القول الى الجمع أنه كان مع السامرى فى هذا الأمر من يساعده.

قوله تعالى: أَ فَلاٰ يَرَوْنَ أَلاّٰ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَ لاٰ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً توبيخ لهم حيث عبدوه و هم يرون أنه لا يرجع قولا بأن يستجيب لمن يدعوه،و لا يملك لهم ضرا فيدفعه عنهم و لا نفعا بأن يجلبه و يوصله اليهم،و من ضروريات عقولهم أن الرب يجب

أن يستجيب لمن دعاه لدفع ضرّ أو لجلب نفع و أن يملك الضر و النفع لمربوبه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ قٰالَ لَهُمْ هٰارُونُ مِنْ قَبْلُ يٰا قَوْمِ إِنَّمٰا فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي تأكيد لتوبيخهم و زياده تقرير لجرمهم،و المعنى:

أنهم مضافا الى عدم تذكّرهم به ضروره عقولهم و عدم انتهائهم عن عباده العجل الى البصر و العقل لم يعتنوا بما قرعهم من طريق السمع أيضا،فلقد قال لهم نبيّهم هارون إنه فتنه فتنوا به و إن ربهم الرحمن عزّ اسمه و إن من الواجب عليهم أن يتبعوه و يطيعوا أمره.

فردّوه على هارون قائلين:لن نبرح و لن نزال عليه عاكفين أى ملازمين لعبادته حتى يرجع الينا موسى فنرى ما ذا يقول فيه و ما ذا يأمرنا به.

قوله تعالى: قٰالَ يٰا هٰارُونُ مٰا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاّٰ تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي رجع عليه السّلام بعد تكليم القوم فى أمر العجل الى تكليم أخيه هارون إذ هو أحد المسئولين الثلاثه فى هذه المحنه استخلفه و أوصاه حين كان يوادعه قائلا «اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لاٰ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» .

و كأن قوله: «مَنَعَكَ» مضمّن معنى دعاك،أى ما دعاك الى أن لا تتبعن مانعا لك عن الاتباع أو ما منعك داعيا لك الى عدم اتباعى فهو نظير قوله: قٰالَ مٰا مَنَعَكَ أَلاّٰ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ (الأعراف/١٢).

و المعنى:قال موسى معاتبا لهارون:ما منعك عن اتباع طريقتى و هو منعهم عن الضلال و الشده فى جنب اللّه أ فعصيت أمرى أن تتبعنى و لا تتبع سبيل المفسدين؟

قوله تعالى: قٰالَ يَا بْنَ أُمَّ لاٰ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لاٰ بِرَأْسِي الخ؛ «يَا بْنَ أُمَّ» أصله يا بن أمى و هى كلمه استرحام و استرآف قالها لإسكات غضب موسى،و يظهر من قوله:

«لاٰ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لاٰ بِرَأْسِي» أنه أخذ بلحيته و رأسه غضبا ليضربه كما أخبر به فى موضع آخر وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ (الأعراف/١٥٠).

و قوله: إِنِّی خَشِیتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَیْنَ بَنِی إِسْرائِیلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِی تعلیل لمحذوف یدلّ علیه اللفظ و محصّله لو کنت مانعتهم عن عباده العجل و قاومتهم بالغه ما بلغت لم یطعنی إلا بعض القوم و أدّی ذلک الی تفرّقهم فرقتین:مؤمن مطیع،و مشرک عاص، و کان فی ذلک إفساد حال القوم بتبدیل اتحادهم و اتفاقهم الظاهر تفرّقا و اختلافا و ربما انجرّ الی قتال و قد کنت أمرتنی بالإصلاح إذ قلت لی «أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِیلَ الْمُفْسِدِینَ» فخشیت أن تقول حین رجعت و شاهدت ما فیه القوم من التفرق و التحزب:فرّقت بین بنی إسرائیل و لم ترقب قولی.هذا ما اعتذر به هارون و قد عذره موسی و دعا له و لنفسه کما فی سوره الأعراف بقوله: رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی وَ أَدْخِلْنا فِی رَحْمَتِکَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرّاحِمِینَ (الأعراف١۵١/).

قوله تعالی: قالَ فَما خَطْبُکَ یا سامِرِیُّ رجوع منه علیه السّلام بعد الفراغ من تکلیم أخیه الی تکلیم السامری و هو أحد المسئولین الثلاثه و هو الذی أضلّ القوم.

و الخطب:الأمر الخطیر الذی یهمّک،یقول:ما هذا الأمر العظیم الذی جئت به؟

قوله تعالی: قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ یَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَ کَذلِکَ سَوَّلَتْ لِی نَفْسِی قال الراغب فی المفردات:البصر یقال للجارحه الناظره نحو قوله: «کَلَمْحِ الْبَصَرِ» «وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ» و للقوه التی فیها،و یقال لقوه القلب المدرکه بصیره و بصر نحو قوله: «فَکَشَفْنا عَنْکَ غِطاءَکَ فَبَصَرُکَ الْیَوْمَ حَدِیدٌ» و قال: «ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغی» و جمع البصر أبصارهم و جمع البصیره بصائر،قال تعالی: «فَما أَغْنی عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ» و لا یکاد یقال للجارحه:بصیره،و یقال من الأول:أبصرت، و من الثانی:أبصرته و بصرت به،و قلما یقال فی الحاسه بصرت إذا لم تضامّه رؤیه القلب.

انتهی.

و قوله: «فَقَبَضْتُ قَبْضَةً» قیل:إن القبضه مصدر بمعنی اسم المفعول و أورد علیه أن المصدر إذا استعمل کذلک لم تلحق به التاء،یقال:هذه حله نسج الیمن،و لا یقال:نسجه

اليمن،فالمتعين حمله فى الآيه على أنه مفعول مطلق.و ردّ بأن الممنوع لحوق التاء الداله على التحديد و المره لا على مجرد التأنيث كما هنا،و فيه أن كون التاء هنا للتأنيث لا دليل عليه فهو مصادره.

و قوله: «مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ» الاثر شكل قدم المارّه على الطريق بعد المرور،و الأصل فى معناه ما بقى من الشىء بعده بوجه بحيث يدلّ عليه كالبناء أثر البانى و المصنوع أثر الصانع و العلم أثر العالم و هكذا،و من هذا القبيل أثر الأقدام على الأرض من المارّه.

و الرسول هو الذى يحمل رساله و قد أطلق فى القرآن على الرسول البشرى الذى يحمل رساله اللّه تعالى الى الناس و أطلق بهذه اللفظه على جبريل ملك الوحى،قال تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (التكوير/١٩)،و كذا أطلق لجمع من الملائكه الرسول كقوله: بَلىٰ وَ رُسُلُنٰا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (الزخرف/٨٠)،و قال أيضا فى الملائكه: جٰاعِلِ الْمَلاٰئِكَهِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَهٍ (فاطر/١).

و الآيه تتضمن جواب السامرى عما سأله موسى عليه السّلام بقوله: «فَمٰا خَطْبُكَ يٰا سٰامِرِيُّ» و هو سؤال عن حقيقه ذاك الأمر العظيم الذى أتى به و ما حمله على ذلك،و السياق يشهد على أن قوله: «وَ كَذٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي» جوابه عن السبب الذى دعاه اليه و حمله عليه و أن تسويل نفسه هو الباعث له الى فعل ما فعل و أما بيان حقيقه ما صنع فهو الذى يشير اليه بقوله:

«بَصُرْتُ بِمٰا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَهً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ» و لا نجد فى كلامه فى هذه القصه و لا فيما يرتبط بها فى الجمله ما يوضح المراد منه و لذا اختلفوا فى تفسيره.

ففسره الجمهور وفاقا لبعض الروايات الوارده فى القصه أن السامرى رأى جبريل و قد نزل على موسى للوحى أو رآه و قد نزل راكبا على فرس من الجنه قدام فرعون و جنوده حين دخلوا البحر فاغرقوا فأخذ قبضه من تراب أثر قدمه أو أثر حافر فرسه و من خاصه هذا التراب أنه لا يلقى على شىء إلا حلت فيه الحياه و دخلت فيه الروح فحفظ التراب حتى إذا

صنع العجل ألقى فيه من التراب فحيّ و تحرك و خار.

قوله تعالى: قٰالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَکَ فِی الْحَیٰاةِ أَنْ تَقُولَ لاٰ مِسٰاسَ وَ إِنَّ لَکَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ هذه مجازاه له من موسى عليه السّلام بعد ثبوت الجرم.

فقوله: «قٰالَ فَاذْهَبْ» قضاء بطرده عن المجتمع بحيث لا يخالط القوم و لا يمسّ أحدا و لا يمسّه أحد بأخذ او عطاء او إيواء او صحبه او تكليم و غير ذلك من مظاهر الاجتماع الإنسانى و هو من أشق أنواع العذاب،و قوله: «فَإِنَّ لَکَ فِی الْحَیٰاةِ أَنْ تَقُولَ لاٰ مِسٰاسَ» -محصله أنه تقرّر و حقّ عليك أن تعيش فردا ما دمت حيا-كنايه عن تحسّره المداوم من الوحده و الوحشه.

و قوله: وَ إِنَّ لَکَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ ظاهره أنه إخبار عن هلاكه فى وقت عيّنه اللّه و قضاه قضاء محتوما و يحتمل الدعاء عليه،و قيل:المراد به عذاب الآخره.

قوله تعالى: «وَ انْظُرْ إِلیٰ إِلٰهِکَ الَّذِی ظَلْتَ عَلَیْهِ عٰاکِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِی الْیَمِّ نَسْفاً» قال فى المجمع:يقال:نسف فلان الطعام إذا ذراه بالمنسف ليطير عنه قشوره.انتهى.

و قوله: وَ انْظُرْ إِلیٰ إِلٰهِکَ الَّذِی ظَلْتَ عَلَیْهِ عٰاکِفاً أى ظللت و دمت عليه عاكفا لازما،و فيه دلاله على أنه كان اتخذه إلها له يعبده.

و قوله: «لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِی الْیَمِّ نَسْفاً» أى أقسم لنحرقنّه بالنار ثم لنذرينّه فى البحر ذروا،و قد استدلّ بحديث إحراقه على أنه كان حيوانا ذا لحم و دم و لو كان ذهبا لم يكن لإحراقه معنى،و هذا يؤيد تفسير الجمهور السابق أنه صار حيوانا ذا روح بإلقاء التراب المأخوذ من أثر جبريل عليه.لكن الحق أنه إما يدلّ عليه أنه لم يكن ذهبا خالصا لا غير.

قوله تعالى: إِنَّمٰا إِلٰهُکُمُ اللّٰهُ الَّذِی لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَسِعَ کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً الظاهر أنه من تمام كلام موسى عليه السّلام يخاطب به السامرى و بنى إسرائيل و قد قرّر بكلامه هذا توحّده تعالى فى ألوهيته فلا يشاركه فيها غيره من عجل او أى شريك مفروض،و هو بسياقه من لطيف الاستدلال فقد استدلّ فيه بأنه تعالى هو اللّه على أنه لا إله إلا هو و بذلك على أنه لا

غیره إلههم (1).

[سوره طه (۲۰): الآیات ۹۹ الی ۱۱۴]

اشاره

کَذٰلِکَ نَقُصُّ عَلَیْکَ مِنْ أَنْبٰاءِ مٰا قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَیْنٰاکَ مِنْ لَدُنّٰا ذِکْراً (۹۹) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ یَحْمِلُ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ وِزْراً (۱۰۰) خٰالِدِینَ فِیهِ وَ سٰاءَ لَهُمْ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ حِمْلاً (۱۰۱) یَوْمَ یُنْفَخُ فِی اَلصُّورِ وَ نَحْشُرُ اَلْمُجْرِمِینَ یَوْمَئِذٍ زُرْقاً (۱۰۲) یَتَخٰافَتُونَ بَیْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّٰ عَشْراً (۱۰۳) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا یَقُولُونَ إِذْ یَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِیقَهً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّٰ یَوْماً (۱۰۴) وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ اَلْجِبٰالِ فَقُلْ یَنْسِفُهٰا رَبِّی نَسْفاً (۱۰۵) فَیَذَرُهٰا قٰاعاً صَفْصَفاً (۱۰۶) لاٰ تَریٰ فِیهٰا عِوَجاً وَ لاٰ أَمْتاً (۱۰۷) یَوْمَئِذٍ یَتَّبِعُونَ اَلدّٰاعِیَ لاٰ عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ اَلْأَصْوٰاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلاٰ تَسْمَعُ إِلاّٰ هَمْساً (۱۰۸) یَوْمَئِذٍ لاٰ تَنْفَعُ اَلشَّفٰاعَهُ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ اَلرَّحْمٰنُ وَ رَضِیَ لَهُ قَوْلاً (۱۰۹) یَعْلَمُ مٰا بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ لاٰ یُحِیطُونَ بِهِ عِلْماً (۱۱۰) وَ عَنَتِ اَلْوُجُوهُ لِلْحَیِّ اَلْقَیُّومِ وَ قَدْ خٰابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (۱۱۱) وَ مَنْ یَعْمَلْ مِنَ اَلصّٰالِحٰاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلاٰ یَخٰافُ ظُلْماً وَ لاٰ هَضْماً (۱۱۲) وَ کَذٰلِکَ أَنْزَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا وَ صَرَّفْنٰا فِیهِ مِنَ اَلْوَعِیدِ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ أَوْ یُحْدِثُ لَهُمْ ذِکْراً (۱۱۳) فَتَعٰالَی اَللّٰهُ اَلْمَلِکُ اَلْحَقُّ وَ لاٰ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ یُقْضیٰ إِلَیْکَ وَحْیُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِی عِلْماً (۱۱۴)

ص: ۲۰۰

۱- ۱) .طه ۹-۴۸:بحث روائی فی:معنی غضب اللّه؛الاهتداء،قصه موسی و السامری و بنی اسرائیل.

بيان:

قوله تعالى: كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبٰاءِ مٰا قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْنٰاكَ مِنْ لَدُنّٰا ذِكْراً الظاهر أن الإشاره الى خصوصيه قصه موسى و المراد بما قد سبق الامور و الحوادث الماضيه و الامم الخاليه أى على هذا النحو قصصنا قصه موسى و على شاكلته نقصّ عليك من أخبار ما قد مضى من الحوادث و الامم.

و قوله: وَ قَدْ آتَيْنٰاكَ مِنْ لَدُنّٰا ذِكْراً المراد به القرآن الكريم أو ما يشتمل عليه من المعارف المتنوعه التى يذكّر بها اللّه سبحانه من حقائق و قصص و عبر و أخلاق و شرائع و غير ذلك.

قوله تعالى: مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ وِزْراً ضمير «عَنْهُ» للذكر و الوزر الثقل و الإثم و الظاهر بقرينه الحمل إراده المعنى الأول و تنكيره للدلاله على عظم خطره،و المعنى:من أعرض عن الذكر فإنه يحمل يوم القيامه ثقلا-عظيم الخطر و مرّ الأثر،شبّه الإثم من حيث قيامه بالإنسان بالثقل الذى يحمله الإنسان و هو شاق عليه

فاستعير له اسمه.

قوله تعالى: خالِدِينَ فِيهِ وَ ساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ حِمْلاً المراد من خلودهم فى الوزر خلودهم فى جزائه و هو العذاب بنحو الكنايه و التعبير فى «خالِدِينَ» بالجمع باعتبار معنى قوله: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ» كما أن التعبير فى «أَعْرَضَ» و «فَإِنَّهُ يَحْمِلُ» فاعتبار لفظه، فالآيه كقوله: وَ مَنْ يَعْصِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (الجن۲۳/).

و مع الغضّ عن الجهات اللفظيه فقوله: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَهِ وِزْراً خالِدِينَ فِيهِ» من أوضح الآيات دلاله على أن الإنسان إنما يعذب بعمله و يخلد فيه و هو تجسّم الأعمال.

و قوله: «وَ ساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ حِمْلاً» ساء من أفعال الذمّ كبئس،و المعنى:و بئس الحمل حملهم يوم القيامه،و الحمل بكسر الحاء و فتحها واحد،غير أن ما بالكسر هو المحمول فى الظاهر كالمحمول على الظهر و ما بالفتح هو المحمول فى الباطن كالولد فى البطن.

قوله تعالى: يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً «يَوْمَ يُنْفَخُ» الخ؛بدل من يوم القيامه فى الآيه السابقه،و نفخ فى الصور كنايه عن الإحضار و الدعوه و لذا أتبعه فيما سيأتى بقوله: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ (الآيه۱۰۸/)من السوره.

و الزرق جمع أزرق من الزرقه و هى اللون الخاص،و عن الفرّاء أن المراد بكونهم زرقا كونهم عميا لأن العين إذا ذهب نورها أزرق ناظرها و هو معنى حسن و يؤيده قوله تعالى:

وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً (الإسراء۹۷/).

قوله تعالى: يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ عَشْراً -الى قوله- إِلاّ يَوْماً التخافت تكليم القوم بعضهم بعضا بخفض الصوت و ذلك من أهل المحشر لهول المطّلع،و قوله:

«إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ عَشْراً» بيان لكلامهم الذى تخافتون فيه،و معنى الجمله على ما يعطيه السياق:

يقولون ما لبثتم فى الدنيا قبل الحشر إلا عشره أيام،يستقلون لبثهم فيها بقياسه الى ما يلوح

لهم من حكم الخلود و الأبديه.

و قوله: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّٰ يَوْماً» أى لنا إحاطه علميه بجميع ما يقولون فى تقرير لبثهم إذ يقول أمثلهم طريقه أى الأقرب منهم الى الصدق إن لبثتم فى الأرض إلا يوما و إنما كان قائل هذا القول أمثل القوم طريقه و أقربها الى الصدق لأن اللبث المحدود الأرضى لا مقدار له إذا قيس من اللبث الأبدى الخالد،و عدّه يوما و هو أقل من العشره أقرب الى الواقع من عده عشره،و القول مع ذلك نسبى غير حقيقى و حقيقه القول فيه ما حكاه سبحانه فى قوله: وَ قٰالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمٰانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتٰابِ اللّٰهِ إِلىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهٰذٰا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (الروم/۵۶)،و سيجىء استيفاء البحث فى معنى هذا اللبث فى تفسير الآيه إن شاء اللّه تعالى.

قوله تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبٰالِ -الى قوله- وَ لاٰ أَمْتاً تدل الآيه على أنهم سألوه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن حال الجبال يوم القيامه فاجيب عنه بالآيات.

و قوله: فَقُلْ يَنْسِفُهٰا رَبِّي نَسْفاً أى يذرؤها و يثيرها فلا يبقى منها فى مستقرها شىء،و قوله: فَيَذَرُهٰا قٰاعاً صَفْصَفاً القاع الأرض المستويه و الصفصف الأرض المستويه الملساء،و المعنى فيتركها أرضا مستويه ملساء لا شىء عليها،و كأن الضمير للأرض باعتبار أنها كانت جبالا،و قوله: «لاٰ تَرىٰ فِيهٰا عِوَجاً وَ لاٰ أَمْتاً» قيل:العوج ما انخفض من الأرض و الأمت ما ارتفع منها،و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المراد كل من له أن يرى و المعنى لا يرى راء فيها منخفضا كالأوديه و لا مرتفعا كالروابى و التلال.

قوله تعالى: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدّٰاعِيَ لاٰ عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْوٰاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلاٰ تَسْمَعُ إِلاّٰ هَمْساً نفى العوج إن كان متعلقا بالاتباع-بأن يكون «لاٰ عِوَجَ لَهُ» حالا عن ضمير الجمع و عامله يتبعون-فمعناه أن ليس لهم إذا دعوا إلا الاتباع محضا من غير أى توقف أو استنكاف أو تثبط أو مساهله فيه لأن ذلك كله فرع القدره و الاستطاعه أو

توهم الإنسان ذلک لنفسه و هم يعاينون اليوم أن الملک و القدره للّه سبحانه لا شريک له قال تعالى: لِمَنِ الْمُلْکُ الْيَوْمَ لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ (المؤمن١٦/)،و قال: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذٰابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً (البقره١٦۵/).

و إن كان متعلقا بالداعى كان معناه أن الداعى لا يدع أحدا إلا دعاه من غير أن يهمل أحدا بسهو أو نسيان أو مساهله فى الدعوه.

لكن تعقيب الجمله بقوله: «وَ خَشَعَتِ الْأَصْوٰاتُ لِلرَّحْمٰنِ» الخ؛يناسب المعنى الأول فإن ارتفاع الأصوات عند الدعوه و الاحضار إنما يكون للتمرد و الاستكبار عن الطاعه و الاتباع.

و قوله: وَ خَشَعَتِ الْأَصْوٰاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلاٰ تَسْمَعُ إِلاّٰ هَمْساً قال الراغب:

الهمس الصوت الخفى و همش الاقدام أخفى ما يكون من صوتها قال تعالى: «فَلاٰ تَسْمَعُ إِلاّٰ هَمْساً» .انتهى.و الخطاب فى قوله: «فَلاٰ تَسْمَعُ» للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المراد كل سامع يسمع و المعنى و انخعضت الأصوات لاستغراقهم فى المذله و المسكنه للّه فلا يسمع السامع إلا صوتا خفيا.

قوله تعالى: يَوْمَئِذٍ لاٰ تَنْفَعُ الشَّفٰاعَةُ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلاً نفى نفع الشفاعه كنايه عن أن القضاء بالعدل و الحكم الفصل على حسب الوعد و الوعيد الإلهيين جار نافذ يومئذ من غير أن يسقط جرم مجرم أو يغمض عن معصيه عاص لمانع يمنع منه فمعنى نفع الشفاعه تأثيرها.

و قوله: إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلاً الاستثناء يدل على أن العنايه فى الكلام متعلقه بنفى الشفعاء لا بتأثير الشفاعه فى المشفوع لهم،و المراد الإذن فى الكلام للشفاعه كما يبيّنه قوله بعده: «وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلاً» فإن التكلم يومئذ منوط بإذنه تعالى،قال:

يَوْمَ يَأْتِ لاٰ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ (هود١٠۵/)،و قال: لاٰ يَتَكَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً (النبأ٣٨/).و قد مر القول فى معنى الإذن فى التكلم فى تفسير سوره هود فى الجزء العاشر من الكتاب.

و أما كون القول مرضيا فمعناه أن لا يخالطه ما يسخط اللّه من خطأ أو خطيئه قضاء لحق الإطلاق و لا يكون ذلک إلا ممن أخلص اللّه سريرته من الخطأ فى الاعتقاد و الخطيئه فى العمل و طهّر نفسه من رجس الشرک و الجهل فى الدنيا أو من الحقه بهم فإن البلاء و الابتلاء اليوم مع السرائر قال تعالى: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ» و للبحث ذيل طويل سيمرّ بک بعضه إن شاء اللّه تعالى.

قوله تعالى: يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً إن كان ضمائر الجمع فى الآيه راجعه الى «مَنْ أَذِنَ لَهُ» باعتبار معناه كان المراد أن مرضى قولهم لا يخفى على اللّه فإن علمه محيط بهم و هم لا يحيطون به علما فليس فى وسعهم أن يغرّوه بقول مزوّق غير مرضى.

و إن كانت راجعه الى المجرمين فالآيه تصف علمه تعالى بهم فى موقف الجزاء و هو ما بين أيديهم و قبل أن يحضروا الموقف فى الدنيا حيا أو ميتا و هو ما خلفهم فهم محاطون لعلمه و لا يحيطون به علما فيجزيهم بما فعلوا و قد عنت وجوههم للحى القيّوم فلا يستطيعون ردا لحكمه و عند ذلک خيبتهم.و هذا الاحتمال أنس لسياق الآيات.

قوله تعالى: وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ العنوه هى الذله قبال قهر القاهر و هى شأن كل شىء دون اللّه سبحانه يوم القيامه بظهور السلطنه الإلهيه كما قال: لِمَنِ الْمُلْکُ الْيَوْمَ لِلّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ (المؤمن/١۶)،فلا يملک شىء شيئا بحقيقه معنى الكلمه و هو الذله و المسكنه على الإطلاق و إما نسبت العنوه الى الوجوه لأنها أول ما تبدوا تظهر فى الوجوه، و لازم هذه العنوه أن لا يمنع حكمه و لا نفوذه فيهم مانع و لا يحول بينه و بين ما أراد بهم حائل.

و اختير من أسمائه الحى القيوم لأن مورد الكلام الأموات أحيوا ثانيا و قد تقطعت عنهم الأسباب اليوم و المناسب لهذا الظرف من صفاته حياته المطلقه و قيامه بكل أمر.

قوله تعالى: وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ وَ هُوَ

مُؤْمِنٌ فَلاٰ يَخٰافُ ظُلْماً وَ لاٰ هَضْماً بيان لجزائهم أما قوله: «وَ قَدْ خٰابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً» فالمراد بهم المجرمون غير المؤمنين فلهم الخيبه بسوء الجزاء لا كل من حمل ظلما ما أى ظلم كان من مؤمن أو كافر فإن المؤمن لا يخيب يومئذ بالشفاعه.

و لو كـان المراد العموم و أن كـل من حمل ظلما ما فهو خائب فالمراد بالخيبه الخيبه من السعاده التى يضادها ذلك دون الخيبه من السعاده مطلقا.

و أما قوله: «وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّٰالِحٰاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ» الـخ؛فهو بيان اسـتطرادى لحال المؤمنين الصـلحاء جىء به لاستيفاء الأقسام و تتميم القول فى الفريقين الصـلحاء و الجرمين، و قـد قيـد العمل الصالـح بالإيمان لأن الكفر يحبط العمل الصالح بمقتضـى آيات الحبط،و الهضم هو النقص،و معنى الآيه ظاهر.

قـوله تعـالى: وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰاهُ قُرْآنـاً عَرَبِيًّا وَ صَرَّفْنٰا فِيهِ مِنَ الْوَعِيـدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُـونَ أَوْ يُحْـدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ظـاهر سـياقها أن الإشـاره بكذلك الى خصوصـيات بيان الآيات،و «قُرْآناً عَرَبِيًّا» حال من الضـمير فى «أَنْزَلْنٰاهُ» ،و التصريف هو التحويل من حال الى حال،و المعنى و على ذلك النحو من البيان المعجز أنزلنا الكتاب و الحال أنه قرآن مقروّ عربى و أتينا فيه ببعض ما أوعـدناهم فى صوره بعد صوره.

و قوله: لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْـدِثُ لَهُمْ ذِكْراً قد أورد فيما تقدم من قوله:«لعله يذّكر أو يخشـى»الذكر مقابلا للخشـيه و يسـتأنس منه أن المراد بالاتقاء هاهنا هو التحرّز من المعاداه و اللجاج الذى هو لازم الخشـيه باحتمال الضـرر دون الاتقاء المترتب على الإيمان بإتيان الطاعات و اجتناب المعاصـى،و يكون المراد بإحـداث الـذكر لهم حصول التـذكر فيهم و تتم المقابله بين الـذكر و التقوى من غير تكلف.

و المعنى-و اللّه أعلم-لعلهم يتحرزون المعاداه مع الحق لحصول الخشـيه فى قلوبهم باحتمال الخطر لاحتمال كونه حقا أو يحدث لهم ذكرا للحق فيعتقدوا به.

قوله تعالى: فَتَعَالَى اللّهُ الْمَلِکُ الْحَقُّ تسبیح و تنزیه له عن کل ما لا یلیق بساحه قدسه،و هو یقبل التفرّع على إنزال القرآن و تصریف الوعید فیه لهدایه الناس و التفرع علیه و على ما ذکر قبله من حدیث الحشر و الجزاء و هذا هو الأنسب نظرا الى انسلاک الجمیع فی سلک واحد و هو أنه تعالى ملک یتصرف فی ملکه بهدایه الناس الى ما فیه صلاح أمرهم ثم إحضارهم و جزائهم على ما عملوا من خیر أو شر.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ یُقْضىٰ إِلَیْکَ وَحْیُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِی عِلْماً السیاق یشهد بأن فی الکلام تعرّضا لتلقّی النبی صلّى اللّه علیه و آله و سلم وحی القرآن،فضمیر «وَحْیُهُ» للقرآن،و قوله: «وَ لاٰ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ» نهی عن العجل بقراءته،و معنى قوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ یُقْضىٰ إِلَیْکَ وَحْیُهُ» من قبل أن یتمّ وحیه من ملک الوحی.

فیفید أن النبی صلّى اللّه علیه و آله و سلم کان إذا جاءه الوحی بالقرآن یعجّل بقراءه ما یوحى الیه قبل أن یتمّ الوحی فنهی عن أن یعجل فی قراءته قبل انقضاء الوحی و تمامه فیکون الآیه فی معنى قوله تعالى فی موضع آخر: لاٰ تُحَرِّکْ بِهِ لِسٰانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَیْنٰا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ فَإِذٰا قَرَأْنٰاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (القیامه/۱۸).

و یؤید هذا المعنى قوله بعد: «وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِی عِلْماً» فإن سیاق قوله:لا تعجل به و قل رب زدنی،یفید أن المراد هو الاستبدال أی بدّل الاستعجال فی قراءه ما لم ینزل بعد،طلبک زیاده العلم و یؤول المعنى الى أنک تعجل بقراءه ما لم ینزل بعد لأن عندک علما به فی الجمله لکن لا تکتف به و اطلب من اللّه علما جدیدا بالصبر و استماع بقیه الوحی.

و هذه الآیه مما یؤید ما ورد من الروایات أن للقرآن نزولا دفعه واحده غیر نزوله نجوما على النبی صلّى اللّه علیه و آله و سلم فلولا علم ما منه بالقرآن قبل ذلک لم یکن لعجله بقراءه ما لم ینزل منه بعد معنى.

[سوره طه (۲۰): الآيات ۱۱۵ الی ۱۲۶]

اشاره

وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (۱۱۵) وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ أَبى (۱۱۶) فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّهِ فَتَشْقى (۱۱۷) إِنَّ لَكَ أَلاّ تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى (۱۱۸) وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى (۱۱۹) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَهِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى (۱۲۰) فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّهِ وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (۱۲۱) ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى (۱۲۲) قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى (۱۲۳) وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَهً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَهِ أَعْمى (۱۲۴) قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً (۱۲۵) قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (۱۲۶)

بيان:

قوله تعالى: وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً المراد بالعهد الوصيه و بهذا المعنى يطلق على الفرامين و الدساتير العهود،و النسيان معروف و ربما يكنى به عن الترك لأنه لازمه إذ الشيء إذا نسى ترك،و العزم القصد الجازم الى الشيء قال تعالى: فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ (آل عمران١٥٩/)،و ربما أطلق على الصبر و لعله لكون الصبر أمرا شاقا على النفوس فيحتاج الى قصد أرسخ و أثبت فسمى الصبر باسم لازمه قال تعالى: «إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» .

فالمعنى و أقسم لقد وصينا آدم من قبل فترك الوصيه و لم نجد له قصدا جازما الى حفظها أو صبرا عليها و العهد المذكور-على ما يظهر من قصته عليه السّلام فى موضع من كلامه تعالى-هو النهى عن أكل الشجره،بمثل قوله: لاٰ تَقْرَبٰا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ (الأعراف١٩/).

قوله تعالى: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلاٰئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِيسَ أَبىٰ معطوف على مقدر و التقدير اذكر عهدنا اليه و اذكر وقتا أمرنا الملائكه بالسجود له فسجدوا إلا إبليس حتى يظهر أنه نسى و لم يعزم على حفظ الوصيه،و قوله: «أَبىٰ» جواب سؤال مقدر تقديره ما ذا فعل إبليس؟فقيل:أبى.

قوله تعالى: فَقُلْنا يٰا آدَمُ إِنَّ هٰذٰا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلاٰ يُخْرِجَنَّكُمٰا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقىٰ تفريع على إباء إبليس عن السجده أى فلما أبى قلنا إرشاد لآدم الى ما فيه صلاح أمره و نصحا:إن هذا الآبى عن السجده-إبليس-عدو لك و لزوجك الخ.

و قوله: «فَلاٰ يُخْرِجَنَّكُمٰا مِنَ الْجَنَّةِ» توجيه نهى إبليس عن إخراجهما من الجنه الى آدم كنايه عن نهيه عن طاعته أو عن الغفله عن كيده و الاستهانه بمكره أى لا تطعه أو لا تغفل عن و تسويله حتى يتسلط عليكما و يقوى على إخراجكما من الجنه و إشقائكما.

و قوله: فَتَشْقىٰ تفريع على خروجهما من الجنه و المراد بالشقاء التعب أى فتتعب إن خرجتما من الجنه و عشتما فى غيرها و هو الارض عيشه أرضيه لتهاجم الحوائج و سعيک فى رفعها کالحاجه الى الطعام و الشراب و اللباس و المسکن و غيرها.

و الدليل على أن المراد بالشقاء التعب الآيتان التاليتان المشيرتان الى تفسيره«إن لک أن لا تجوع فيها و لا تعرى و أنک لا تظمؤا فيها و لا تضحى».

و هو أيضا دليل على أن النهى إرشادى ليس فى مخالفته إلا الوقوع فى المفسده المترتبه على نفس الفعل و هو تعب السعى فى رفع حوائج الحياه و اکتساب ما يعاش به و ليس بمولوى تکون نفس مخالفته مفسده يقع فيها العبد و تستتبع مؤاخذه أخرويه.على أنک عرفت أنه عهد قبل تشريع أصل الدين الواقع عند الأمر بالخروج من الجنه و الهبوط الى الأرض.

و أما إفراد قوله: «فَتَشْقىٰ» و لم يقل فتشقيا بصيغه التثنيه فلأن العهد إنما نزل على آدم عليه السّلام و کان التکليم متوجها اليه،و لذلک جىء بصيغه الإفراد فى جميع ما يرجع اليه کقوله: «فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» «فَتَشْقىٰ» «أن لا تجوع فيها و لا تعرى» «لاٰ تَظْمَؤُا فِيهٰا وَ لاٰ تَضْحىٰ» «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ» الخ؛ «فَعَصىٰ» الخ؛ «ثُمَّ اجْتَبٰاهُ رَبُّهُ فَتٰابَ عَلَيْهِ» نعم جىء بلفظ التثنيه فيما لا غنى عنه کقوله: «عَدُوٌّ لَکَ وَ لِزَوْجِکَ فَلاٰ يُخْرِجَنَّکُمٰا» «فَأَکَلاٰ مِنْهٰا فَبَدَتْ لَهُمٰا» «وَ طَفِقٰا يَخْصِفٰانِ عَلَيْهِمٰا» «قٰالَ اهْبِطٰا مِنْهٰا جَمِيعاً بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» فتدبر فيه.

قوله تعالى: إِنَّ لَکَ أَلاّٰ تَجُوعَ فِيهٰا وَ لاٰ تَعْرىٰ وَ أَنَّکَ لاٰ تَظْمَؤُا فِيهٰا وَ لاٰ تَضْحىٰ يقال:ضحى يضحى کسعى يسعى ضحوا و ضحيا إذا أصابته الشمس أو برز لها و کأن المراد بعدم الضحو أن ليس هناک أثر من حراره الشمس حتى تمس الحاجه الى الاکتنان فى مسکن يقى من الحرّ و البرد.

قوله تعالى: فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطٰانُ قٰالَ يٰا آدَمُ هَلْ أَدُلُّکَ عَلىٰ شَجَرَهِ الْخُلْدِ وَ مُلْکٍ لاٰ يَبْلىٰ الشيطان هو الشرير لقّب به إبليس لشرارته،و المراد بشجره

الخلد الشجره المنهيه و البلى صيروره الشىء خلقا خلاف الجديد.

و المراد بشجره الخلد شجره يعطى أكلها خلود الحياه،و المراد بملك لا يبقى سلطنه لا تتأثر عن مرور الدهور و اصطكاك المزاحمات و الموانع فيؤول المعنى الى نحو قولنا هل أدلك على شجره ترزق بأكل ثمرتها حياه خالده و ملكا دائما فليس قوله: «لاٰ يَبْلىٰ» تكرارا لإفاده التأكيد كما قيل.

و الدليل على ما ذكره ما فى سوره الأعراف فى هذا المعنى من قوله: مٰا نَهٰاكُمٰا رَبُّكُمٰا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَهِ إِلاّٰ أَنْ تَكُونٰا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونٰا مِنَ الْخٰالِدِينَ (الأعراف/٢٠)و لا منافاه بين جمع خلود الحياه و دوام الملك هاهنا بواو الجمع و بين الترديد بينهما فى سوره الأعراف لإمكان أن يكون الترديد هناك لمنع الخلو لا لمنع الجمع،أو يكون الجمع هاهنا باعتبار الاتصاف بهما جميعا و الترديد هناك باعتبار تعلق النهى كأنه يقيل:إن فى هذه الشجره صفتين و إنما نهاكما ربكما عنها إما لهذه أو لهذه،أو إنما نهاكما ربكما عنها أن لا تخلدا فى الجنه مع ملك خالد أو أن لا تخلدا بناء على أن الملك الخالد يستلزم حياه خالده فافهم ذلك و كيف كان فلا منافاه بين الترديد فى آيه و الجمع فى أخرى.

قوله تعالى: فَأَكَلاٰ مِنْهٰا فَبَدَتْ لَهُمٰا سَوْآتُهُمٰا وَ طَفِقٰا يَخْصِفٰانِ عَلَيْهِمٰا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّهِ تقدم تفسيره فى سوره الأعراف.

قوله تعالى: وَ عَصىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ الغى خلاف الرشد الذى هو بمعنى إصابه الواقع و هو غير الضلال الذى هو الخروج من الطريق،و الهدى يقابلهما و يكون بمعنى الإرشاد إذا قابل الغى كما فى الآيه التاليه و بمعنى إراءه الطريق،أو الإيصال الى المطلوب بتركيب الطريق إذا قابل الضلال فليس من المرضى تفسير الغى فى الآيه بمعنى الضلال.

و معنى آدم ربه-كما أشرنا اليه آنفا و قد تقدم تفصيله-إنما هى معصيه أمر إرشادى لا مولوى و الأنبياء عليهم السّلام معصومون من المعصيه و المخالفه فى أمر يرجع الى الدين الذى يوحى

اليهم من جهه تلقيه فلا يخطئون،و من جهه حفظه فلا ينسون و لا يحرّفون،و من جهه إلقائه الى الناس و تبليغه لهم قولا فلا يقولون إلا الحق الذى أوحى اليهم و فعلا فلا يخالف فعلهم قولهم و لا يقترفون معصيه صغيره و لا كبيره لأن فى لفعل تبليغا كالقول،و أما المعصيه بمعنى مخالفه الأمر الإرشادى الذى لا داعى فيه إلا إحراز المأمور خيرا أو منفعه من خيرات حياته و منافعها بانتخاب الطريق الأصلح كما يأمر و ينهى المشير الناصح نصحا فإطاعته و معصيته خارجتان من مجرى أدله العصمه و هو ظاهر.

قوله تعالى: ثُمَّ اجْتَبٰاهُ رَبُّهُ فَتٰابَ عَلَيْهِ وَ هَدىٰ الإجتباء-كما تقدم مرارا- بمعنى الجمع على طريق الاصطفاء ففيه جمعه تعالى عبده لنفسه لا يشاركه فيه أحد و جعله من المخلصين بفتح اللام،و على هذا المعنى يتفرع عليه قوله: «فَتٰابَ عَلَيْهِ وَ هَدىٰ» ،كأنه كان ذا أجزاء متفرقه متشتته فجمعها من هنا و هناك الى مكان واحد ثم تاب عليه و رجع اليه و هداه و سلك به الى نفسه.

و إنما فسّرنا قوله: «هَدىٰ» و هو مطلق بهدايته الى نفسه بقرينه الاجتباء،و لا ينافى مع ذلك إطلاق الهدايه لأن الهدايه اليه تعالى أصل كل هدايه و محتدها،نعم يجب تقييد الهدايه بما يكون فى أمر الدين من اعتقاد حق و عمل صالح،و الدليل عليه تفريع الهدايه فى الآيه على الاجتباء،فافهم ذلک.

قوله تعالى: قٰالَ اهْبِطٰا مِنْهٰا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ تقديم تفسير مثله فى سورتى البقره و الأعراف.

و فى قوله: «قٰالَ اهْبِطٰا» التفات من التكلم مع الغير الى الغيبه و الإفراد و لعلّ الوجه فيه اشتمال الآيه على القضاء و الحكم و هو مما يختص به تعالى قال: وَ اللّٰهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ (المؤمن۲۰/)،و قال: إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ (يوسف۶۷/).

قوله تعالى: فَإِمّٰا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدٰاىَ فَلاٰ يَضِلُّ وَ لاٰ

يَشْقىٰ فى الآيه قضاء منه تعالى متفرع على الهبوط و لذا عطف بفاء التفريع،و أصل قوله:

«فَإِمّٰا يَأْتِيَنَّكُمْ» فإن يأتكم زيد عليه ما و نون التأكيد للإشاره الى وقوع الشرط كأنه قيل:إن يأتكم منى هدى-و هو لا محاله آت-فمن اتبع،الخ.

و فى قوله: «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدٰايَ» نسبه الاتباع الى الهدى على طريق الاستعاره بالكنايه، و أصله:من اتبع الهادى الذى يهدى بهداى.

و قوله: «فَلاٰ يَضِلُّ وَ لاٰ يَشْقىٰ» أى لا يضلّ فى طريقه و لا يشقى فى غايته التى هى عاقبه أمره،و إطلاق الضلال و الشقاء يقضى بنفى الضلال و الشقاء عنه فى الدنيا و الآخره جميعا و هو كذلك فإن الهدى الإلهى هو الدين الفطرى الذى دعا اليه بلسان أنبيائه،و دين الفطره هو مجموع الاعتقادات و الأعمال التى تدعو إليها فطره الإنسان و خلقته بحسب ما جهّز به من الجهازات،و من المعلوم أن سعاده كل شىء هو ما تستدعيه خلقته بما لها من التجهيز لا سعاده له وراءه،قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِي فَطَرَ النّٰاسَ عَلَيْهٰا لاٰ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (الروم/٣٠).

قوله تعالى: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ أَعْمىٰ قال الراغب:العيش الحياه المختصه بالحيوان و هو أخص من الحياه لأن الحياه يقال فى الحيوان و فى البارى تعالى و فى الملك و يشتق منه المعيشه لما يتعيّش منه،قال تعالى: «نَحْنُ قَسَمْنٰا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا» «مَعِيشَةً ضَنْكاً» انتهى،و الضنك هو الضيق من كل شىء و يستوى فيه المذكر و المؤنث،يقال:مكان ضنك و معيشه ضنك و هو فى الأصل مصدر ضنك يضنك من باب شرف يشرف أى ضاق.

و قوله: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي يقابل قوله فى الآيه السابقه: «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدٰايَ» و كان مقتضى المقابله أن يقال:«و من لم يتبع هداى»و إنما عدل عنه الى ذكر الإعراض عن الذكر ليشير به الى عله الحكم لأن نسيانه تعالى و الإعراض عن ذكره هو السبب لضنك

العیش و العمی یوم القیامه،و لیکون توطئه و تمهیدا لما سیذکر من نسیانه تعالی یوم القیامه من نسیه فی الدنیا.

و المراد بـذکره تعالی إما المعنی المصـدری فقوله: «ذِکْرِی» من إضافه المصـدر الی مفعوله أو القرآن أو مطلق الکتب السـماویه کما یؤیده قوله الآتی: «أَتَتْکَ آیاتُنا فَنَسِیتَها» أو الدعوه الحقه و تسمیتها ذکرا لأن لازم اتباعها و الأخذ بها ذکره تعالی.

و قوله: فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَهً ضَنْکاً أی ضـیقه و ذلک أن من نسـی ربه و انقطع عن ذکره لم یبق له إلا أن یتعلق بالـدنیا و جعلها مطلوبه الوحید الذی یسعی له و یهتم بإصلاح معیشته و التوسع فیها و التمتع منها،و المعیشه التی أوتیها لا تسعه سواء کانت قلیله أو کثیره لأـنه کلما حصل منها و اقتناها لم یرض نفسه بها و انتزعت الی تحصـیل ما هو أزیـد و أوسع من غیر أن یقف منها علی حـد فهو دائما فی ضـیق صـدر و حنق مما وجـد متعلق القلب بما وراءه مع ما یهجم علیه من الهم و الغم و الحزن و القلب و الاضـطراب و الخوف بنزول النوازل و عروض العوارض من موت و مرض و عاهه و حسد حاسد و کید کائد و خیبه سعی و فراق حبیب.

و لو أنه عرف مقـام ربه ذاکرا غیر نـاس أیقن أن له حیـاه عنـد ربه لاـ یخالطها موت و ملکا لا یعتریه زوال و عزه لا یشوبها ذله و فرحا و سـرورا و رفعه و کرامه لا تقـدّر بقـدر و لا تنتهی الی أمـد و أن الـدنیا دار مجاز و ما حیاتها فی الآخره إلا متاع فلو عرف ذلک قنعت نفسه بما قد عرف له من الدنیا و وسعه ما أوتیه من المعیشه من غیر ضیق و ضنک.

و قیـل:المراد بالمعیشه الضـنک عـذاب القبر و شـقاء الحیاه البرزخیه بناء علی أن کثیرا من المعرضـین عن ذکر اللّه ربما نالوا من المعیشه أوسعها و ألقت الیهم أمور الدنیا بأزمّتها فهم فی عیشه وسیعه سعیده.

و فیه أنه مبنی علی مقایسه معیشه الغنی من معیشه الفقیر بالنظر الی نفس المعیشتین و الإمکانات التی فیهما و لا یتعلق نظر القرآن بهما من هذه الجهه البته،و إنما تبحث الآیات فیهما

بمقایسه المعیشه المضافه الی المؤمن و هو مسلح بذكر اللّه و الإیمان به من المعیشه المضافه الی الكافر الناسی لربه المتعلق النفس بالحیاه الدنیا الأعزل من الإیمان و لا ریب أن للمؤمن حیاه حره سعیده یسعه ما أكرمه ربه به من معیشه و إن كانت بالعفاف و الكفاف أو دون ذلک، و لیس للمعرض عن ذكر ربه إلا عدم الرضا بما وجد و التعلق بما وراءه.

نعم عذاب القبر من مصادیق المعیشه الضنک بناء علی كون قوله: «فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَهً ضَنْكاً» متعرضا لبیان حالهم فی الدنیا و قوله: «وَ نَحْشُرُهُ یَوْمَ الْقِیامَهِ أَعْمیٰ» لبیان حالهم فی الآخره و البرزخ من أذناب الدنیا.

و قوله: «وَ نَحْشُرُهُ یَوْمَ الْقِیامَهِ أَعْمیٰ» أی بحیث لا یهتدی الی ما فیه سعادته و هو الجنه و الدلیل علی ذلک ما یأتی فی الآیتین التالیتین.

قوله تعالی: قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِی أَعْمیٰ وَ قَدْ كُنْتُ بَصِیراً یسبق الی الذهن أن عمی یوم القیامه یتعلق ببصر الحس فإن الذی یسأل عنه هو ذهاب البصر الذی كان له فی الدنیا و هو بصر الحس دون بصر القلب الذی هو البصیره،فیشكل علیه ظاهر ما دلّ علی أن المجرمین یبصرون یوم القیامه أهوال الیوم و آیات العظمه و القهر كقوله تعالی: إِذِ الْمُجْرِمُونَ نٰاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنٰا أَبْصَرْنٰا وَ سَمِعْنٰا (الم السجده۱۲/)،و قوله: اِقْرَأْ كِتٰابَکَ (الإسراء۱۴/)،و لذلک ذكر بعضهم أنهم یحشرون أولا مبصرین ثم یعمون،و بعضهم أنهم یحشرون مبصرین ثم عمیا ثم مبصرین.

و هذا قیاس أمور الآخره و أحوالها بما لها من نظیر فی الدنیا و هو قیاس مع الفارق فإن من الظاهر المسلّم من الكتاب و السنه أن النظام الحاكم فی الآخره غیر النظام الحاكم فی الدنیا الذی نألفه من الطبیعه و كون البصیر مبصرا لكل مبصر و الأعمی غیر مدرک لكل ما من شأنه أن یری كما هو المشهود فی النظام الدنیوی لا دلیل علی عمومه للنظام الاخروی فمن الجائز أن یتبعض الأمر هناک فیكون المجرم أعمی لا یبصر ما فیه سعاده حیاته و فلاحه و فوزه

بـالكرامه و هو يشاهـد مـا يتم به الحجه عليه و ما يفزعه من أهوال القيامه و ما يشـتد به العـذاب عليه من النار و غيرها،قال تعالى: إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين١۵/).

قوله تعالى: قٰالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيٰاتُنٰا فَنَسِيتَهٰا وَ كَذٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسىٰ الآيه جواب سؤال السائل:رب لم حشـرتنى أعمى و قد كنت بصيرا؟و الإشاره فى قوله: «كَذٰلِكَ أَتَتْكَ» الى حشره أعمى المذكور فى السؤال،و فى قوله: «وَ كَذٰلِكَ الْيَوْمَ» الى معنى قوله:

«أَتَتْكَ آيٰاتُنٰا فَنَسِيتَهٰا» و لمعنى قال:كما حشـرناك أعمى أتتك آياتنا فنسـيتها و كما أتتك آياتنا فنسـيتها ننساك اليوم أى إن حشـرك اليوم أعمى و تركك لا تبصـر شـيئا مثل تركك آياتنا فى الـدنيا كما يترك الشـىء المنسـى و عـدم اهتدائك بها مثل تركنا لك اليوم و عـدم هدايتك بجعلك بصـيرا تهتدى الى النجاه،و بعباره أخرى إنما جازيناك فى هذا اليوم بمثل ما فعلت فى الدنيا كما قال تعالى: وَ جَزٰاءُ سَيِّئَهٍ سَيِّئَهٌ مِثْلُهٰا (الشورى۴٠/).

و قد سـمّى اللّه سبحانه معصيه المجرمين و هم المعرضون عن ذكره التاركون لهداه نسيانا لآياته،و مجازاتهم بالإعماء يوم القيامه نسيانا منه لهم و انعطف بذلك آخر الكلام الى أوله و هو معصيه آدم التى سماها نسيانا لعهده إذ قال: «وَ لَقَدْ عَهِدْنٰا إِلىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ» فكأن قصه جنه آدم بما لها من الخصوصيات كانت مثالا من قبل يمثل به ما سيجرى على بنيه من بعده الى يوم القيامه فيمثل بنهيه عن اقتراب الشـجره الـدعوه الـدينيه و لهـدى الإلهى بعـده،و بمعصـيته التى كانت نسـيانا للعهد معاصـى بنيه التى هى نسـيان لـذكره تعالى و آياته المـذكّره،و إنما الفرق أن ابتلاء آدم كان قبل تشـريع الشـرائع فكان النهى المتوجه اليه إرشاديا و ما ابتلى به من المخالفه من قبيل ترك الاولى بخلاف الأمر فى بنيه (١).

ص: ٢١۶

١- ١) .طه ١١۵-١٢۶:بحث روائى حول قصه آدم عليه السّلام،بدء خلق الانسان،من يحشره اللّه يوم القيامه اعمى.

[سوره طه (۲۰): الآیات ۱۲۷ الی ۱۳۵]

اشاره

وَ کَذٰلِکَ نَجْزِی مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ یُؤْمِنْ بِآیَاتِ رَبِّهِ وَ لَعَذَابُ اَلْآخِرَهِ أَشَدُّ وَ أَبْقیٰ (۱۲۷) أَ فَلَمْ یَهْدِ لَهُمْ کَمْ أَهْلَکْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ اَلْقُرُونِ یَمْشُونَ فِی مَسَاکِنِهِمْ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَاتٍ لِأُولِی اَلنُّهیٰ (۱۲۸) وَ لَوْ لاٰ کَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَکَانَ لِزَاماً وَ أَجَلٌ مُسَمًّی (۱۲۹) فَاصْبِرْ عَلیٰ مَا یَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ قَبْلَ طُلُوعِ اَلشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِهَا وَ مِنْ آنَاءِ اَللَّیْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرَافَ اَلنَّهَارِ لَعَلَّکَ تَرْضیٰ (۱۳۰) وَ لاٰ تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلیٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَهَ اَلْحَیَاهِ اَلدُّنْیَا لِنَفْتِنَهُمْ فِیهِ وَ رِزْقُ رَبِّکَ خَیْرٌ وَ أَبْقیٰ (۱۳۱) وَ أْمُرْ أَهْلَکَ بِالصَّلاٰهِ وَ اِصْطَبِرْ عَلَیْهَا لاٰ نَسْئَلُکَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُکَ وَ اَلْعَاقِبَهُ لِلتَّقْویٰ (۱۳۲) وَ قَالُوا لَوْ لاٰ یَأْتِینَا بِآیَهٍ مِنْ رَبِّهِ أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَیِّنَهُ مَا فِی اَلصُّحُفِ اَلْأُولیٰ (۱۳۳) وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَکْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لاٰ أَرْسَلْتَ إِلَیْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آیَاتِکَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزیٰ (۱۳۴) قُلْ کُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ اَلصِّرَاطِ اَلسَّوِیِّ وَ مَنِ اِهْتَدیٰ (۱۳۵)

بیان:

قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ نَجْزِی مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ یُؤْمِنْ بِآیٰاتِ رَبِّهِ وَ لَعَذٰابُ الْآخِرَهِ أَشَدُّ وَ أَبْقیٰ الإسراف التجاوز عن الحد و الظاهر أن الواو فی قوله: «وَ کَذٰلِکَ» للاستیناف،و الإشاره الی ما تقدم من مؤاخذه من أعرض عن ذکر اللّه و نسی آیات ربه فإنه تجاوز منه عن حد العبودیه و کفر آبیات ربه فجزاؤه جزاء من نسی آیات ربه و ترکها بعد ما عهد الیه معرضا عن ذکره.

و قوله: «وَ لَعَذٰابُ الْآخِرَهِ أَشَدُّ وَ أَبْقیٰ» أی من عذاب الدنیا و ذلک لکونه محیطا بباطن الإنسان کظاهره و لکونه دائما لا یزول.

قوله تعالی: أَ فَلَمْ یَهْدِ لَهُمْ کَمْ أَهْلَکْنٰا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ یَمْشُونَ فِی مَسٰاکِنِهِمْ الخ؛الظاهر أن «یَهْدِ» مضمّن معنی یبیّن،و المعنی أ فلم یبیّن لهم طریق الاعتبار و الإیمان بالآیات کثره إهلاکنا القرون التی کانوا قبلهم و هم یمشون فی مساکنهم کما کانت تمر أهل مکه فی أسفارهم بمساکن عاد بأحقاف الیمن و مساکن ثمود و أصحاب الأیکه بالشام و مساکن قوم لوط بفلسطین «إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِأُولِی النُّهیٰ» أی أرباب العقول.

قوله تعالی: وَ لَوْ لاٰ کَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَکٰانَ لِزٰاماً وَ أَجَلٌ مُسَمًّی مقتضی السیاق السابق أن یکون «لِزٰاماً» بمعنی الملازمه و هما مصدرا لازم یلازم،و المراد بالمصدر معنی اسم الفاعل و علی هذا فاسم کان هو الضمیر الراجع الی الهلاک المذکور فی الآیه السابقه،و أن قوله: «وَ أَجَلٌ مُسَمًّی» معطوف علی «کَلِمَهٌ سَبَقَتْ» و التقدیر و لو لا کلمه سبقت من ربک و أجل مسمّی لکان الهلاک ملازما لهم إذ أسرفوا و لم یؤمنوا بآیات ربهم.

و قوله: وَ لَوْ لاٰ کَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ تکررت هذه الکلمه منه سبحانه فی حق بنی إسرائیل و غیرهم فی مواضع من کلامه کقوله: وَ لَوْ لاٰ کَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِیَ

بَيْنَهُمْ (يونس۱۹/)(هود۱۱۰/)(حم السجده۴۵/)،و قد عيّاها بالأجل المسمّى فى قوله: وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (الشورى۱۴/)،و قد تقدم فى تفسير سورتى يونس و هود أن المراد بها الكلمه التى قضى بها عند إهباط آدم الى الأرض بمثل قوله: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلىٰ حِينٍ (الأعراف۲۴/).

فالناس آمنون من الهلاك و عذاب الاستئصال على إسرافهم و كفرهم ما بين استقرارهم فى الارض و أجلهم المسمى إلا أن يجيئهم رسول فيقضى بينهم،قال تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (يونس۴۷/)و اليه يرجع عذاب الاستئصال عن الآيات المقترحه إذا لم يؤمن بها بعد ما جاءت و هذه الامه حالهم حال سائر الامم فى الأمن من عذاب الاستئصال بوعد سابق من اللّه،و أما القضاء بينهم و بين النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فقد أخّره اللّه الى أمد كما تقدم استفادته من قوله: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ الآيه من سوره يونس.

و قوله: وَ أَجَلٌ مُسَمًّى قد تقدم فى تفسير أول سوره الأنعام أن الأجل المسمى هو الأجل المعين بالتسميه الذى لا يتخطا و لا يتخلف كما قال تعالى: مٰا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهٰا وَ مٰا يَسْتَأْخِرُونَ (الحجر۵/)،و ذكر بعضهم أن المراد بالأجل المسمى يوم القيامه،و قال آخرون:إن الأجل المسمى هو الكلمه التى سبقت من اللّه فيكون عطف الأجل على الكلمه من عطف التفسير،و لا معوّل على القولين لعدم الدليل.

فمحصل معنى الآيه أنه لو لا أن الكلمه التى سبقت من ربك-و فى إضافه الرب الى ضمير الخطاب إعزاز و تأييد للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم-تقضى بتأخير عذبهم و الأجل المسمى يعيّن وقته فى ظرف التأخير لكان الهلاك ملازما لهم بمجرد الإسراف و الكفر.

و من هنا يظهر أن مجموع الكلمه التى سبقت و الأجل المسمى سبب واحد تام لتأخير العذاب عنهم لا أن كل واحد منهما سبب مستقل فى ذلك كما اختاره كثير منهم.

قوله تعالى: فَاصْبِرْ عَلىٰ مٰا يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِهٰا الخ؛يأمره بالصبر على ما يقولون و يفرّعه على ما تقدم كأنه قيل:إذا كان من قضاء اللّه أن يؤخر عذابهم و لا يعاجلهم بالانتقام على ما يقولون فلا يبقى لك إلا أن تصبر راضيا على ما قضاه اللّه من الأمر و تنزهه عما يقولون من كلمه الشرك و يواجهونك به من السوء،و تحمده على ما تواجهه من آثار قضائه فليس إلا الجميل فاصبر على ما يقولون و سبّح بحمد ربك لعلك ترضى.

و قوله: «وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» أى نزهه متلبسا بحمده و الثناء عليه فإن هذه الحوادث التى يشقّ تحملها و الصبر عليها لها نسبه الى فواعلها و ليست إلا سيئه يجب تنزيهه تعالى عنها و لها نسبه بالإذن اليه تعالى و هى بهذه النسبه جميله لا يترتب عليها إلا مصالح عامه يصلح بها النظام الكونى ينبغى أن يحمد اللّه و يثنى عليه بها.

و قوله: «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِهٰا» ظرفان متعلقان بقوله: «وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» .

و قوله: وَ مِنْ آنٰاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ الجمله نظيره قوله: وَ إِيّٰايَ فَارْهَبُونِ (البقره۴۰/)،و الآناء على أفعال جمع إنى أو إنو بكسر الهمزه بمعنى الوقت و «مِنْ» للتبعيض و الجار و المجرور متعلق بقوله: «فَسَبِّحْ» دال على ظرف فى معناه متعلق بالفعل و التقدير و بعض آناء الليل سبح فيها.

و قوله: وَ أَطْرٰافَ النَّهٰارِ منصوب بنزع الخافض على ما ذكروا معطوف على قوله:

«وَ مِنْ آنٰاءِ» و التقدير و سبح فى أطراف النهار،و هل المراد بأطراف النهار ما قبل طلوع الشمس و ما قبل غروبها،أو غير ذلك؟اختلفت فيه كلمات المفسرين و سنشير اليه.

و قوله: لَعَلَّكَ تَرْضىٰ السياق السابق و قد ذكر فيه إعراضهم عن ذكر ربهم و نسيانهم آياته و إسرافهم فى أمرهم و عدم إيمانهم ثم ذكر تأخير الانتقام منهم و أمره بالصبر و التسبيح و التحميد يقضى أن يكون المراد بالرضا الرضا بقضاء اللّه و قدره،و المعنى:فاصبر

و سبّح بحمد ربك ليحصل لك الرضا بما قضى اللّه سبحانه فيعود الى مثل معنى قوله:

«وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاٰةِ» .

و الوجه فيه أن تكرار ذكره تعالى بتنزيه فعله عن النقص و الشين و ذكره بالثناء الجميل و المداومه على ذلك يوجب أنس النفس به و زيادته و زياده الانس بجمال فعله و نزاهته توجب رسوخه فيها و ظهوره فى نظرها و زوال الخطورات المشوّشه للإدراك و الفكر،و النفس مجبوله على الرضا بما تحبه و لا تحب غير الجميل المنزّه عن القبح و الشين فإدامه ذكره بالتسبيح و التحميد تورث الرضا بقضائه.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ الخ؛مد العين مد نظرها و إطالته ففيه مجاز عقلى ثم مد النظر و إطالته الى شيء كنايه عن التعلق به و حبه،و المراد بالأزواج-كما قيل-الأصناف من الكفار أو الأزواج من النساء و الرجال منهم و يرجع الى البيوتات و تنكير الأزواج للتقليل و إظهار أنهم لا يعبأ بهم.

و قوله: «زَهْرَةَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا» بمنزل التفسير لقوله: «مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ» و هو منصوب بفعل مقدّر و التقدير نعنى به-أو جعلنا لهم-زهره الحياه الدنيا و هى زينتها و بهجتها،و الفتنه الامتحان و الاختبار،و قيل:المراد بها العذاب لأن كثره الأموال و الأولاد نوع عذاب من اللّه كما قال:

وَ لاٰ تُعْجِبْكَ أَمْوٰالُهُمْ وَ أَوْلاٰدُهُمْ إِنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهٰا فِي الدُّنْيٰا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كٰافِرُونَ (التوبه/۸۵).

و قوله: وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ المراد به بقرينه مقابلته لما متّعوا به من زهره الحياه الدنيا هو رزق الآخره و هو خير و أبقى.

و المعنى:لا تطل النظر الى زينه الحياه الدنيا و بهجتها التى متعنا بها أصنافا أو أزواجا معدوده منهم لنمتحنهم فيما متعنا به،و الذى سيرزقك ربك فى الآخره خير و أبقى.

قوله تعالی: وَ أْمُرْ أَهْلَکَ بِالصَّلاٰهِ وَ اصْطَبِرْ عَلَیْهٰا لاٰ نَسْئَلُکَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُکَ وَ الْعٰاقِبَهُ لِلتَّقْویٰ الآیه ذات سیاق یلتئم بسیاق سائر آیات السوره فهی مکیه کسائرها علی أنّا لم نظفر بمن یستثنیها و یعدّها مدنیه،و علی هذا فالمراد بقوله: «أَهْلَکَ» بحسب انطباقه علی وقت النزول خدیجه زوج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و علی علیه السّلام و کان من أهله و فی بیته أو هما و بعض بنات النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

و قوله: «لاٰ نَسْئَلُکَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُکَ» ظاهر المقابله بین الجملتین أن المراد سؤال تعالی الرزق لنفسه و هو کنایه عن أنّا فی غنی منک و أنت المحتاج المفتقر الینا فیکون فی معنی قوله:

وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِیَعْبُدُونِ، مٰا أُرِیدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مٰا أُرِیدُ أَنْ یُطْعِمُونِ، إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الرَّزّٰاقُ ذُو الْقُوَّهِ الْمَتِینُ (الذاریات۵۶/-۵۸)،و أیضا هو من جهه تذییله بقوله:

«وَ الْعٰاقِبَهُ لِلتَّقْویٰ» فی معنی قوله: لَنْ یَنٰالَ اللّٰهَ لُحُومُهٰا وَ لاٰ دِمٰاؤُهٰا وَ لٰکِنْ یَنٰالُهُ التَّقْویٰ مِنْکُمْ (الحج۳۷/)،بتفسیرهم سؤال الرزق بسؤال الرزق للخلق أو لنفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لیس بسدید.

قوله تعالی: وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ یَأْتِینٰا بِآیَهٍ مِنْ رَبِّهِ أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَیِّنَهُ مٰا فِی الصُّحُفِ الْأُولیٰ حکایه قول مشرکی مکه و إنما قالوا هذا تعریضا للقرآن أنه لیس بآیه دالّه علی النبوه فلیأتنا بآیه کل أرسل الأولون و البیّنه الشاهد المبین أو البیّن و قیل هو البیان.

و کیف کان فقولهم: «لَوْ لاٰ یَأْتِینٰا بِآیَهٍ مِنْ رَبِّهِ» تحضیض بداعی إهانه القرآن و تعجیز النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم باقتراح آیه معجزه اخری،و قوله: «أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَیِّنَهُ» الخ؛جواب عنه و معناه علی الوجه الأول من معنیی البینه:أ و لم تأتهم بینه و شاهد یشهد علی ما فی الصحف الاولی-و هی التوراه و الإنجیل و سائر الکتب السماویه-من حقائق المعارف و الشرائع و یبیّنها و هو القرآن و قد أتی به رجل لا عهد له بمعلم یعلمه و لا ملقن یلقنه ذلک.

و علی الوجه الثانی:أ و لم یأتهم بیان ما فی الصحف الاولی من أخبار الامم الماضین الذین

اقترحوا على أنبيائهم الآيات المعجزه فأتوا بها و كان إتيانها سببا لهلاكهم و استئصالهم لما لم يؤمنوا بها بعد إذ جاءتهم فلم لا ينتهون عن اقتراح آيه بعد القرآن؟و لكل من المعنيين نظير فى كلامه تعالى.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنّٰا أَهْلَكْنٰاهُمْ بِعَذٰابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقٰالُوا رَبَّنٰا لَوْ لاٰ أَرْسَلْتَ إِلَيْنٰا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيٰاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزىٰ الظاهر أن ضمير «مِنْ قَبْلِهِ» للبينه-فى الآيه السابقه-باعتبار أنها القرآن،و المعنى لا و لو أنّا أهلكناهم لإسرافهم و كفرهم بعذاب من قبل أن تأتيهم البينه لم تتم عليهم الحجه و لكانت الحجه لهم علينا و لقالوا ربنا لو لا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك و هى التى تدلّ عليها البينه من قبل أن نذلّ بعذاب الاستئصال و نخزى.

و قيل الضمير للرسول المعلوم من مضمون الآيه السابقه بشهاده قولهم: «لَوْ لاٰ أَرْسَلْتَ إِلَيْنٰا رَسُولاً» و هو قريب من جهه اللفظ و المعنى الأول من جهه المعنى و يؤيده قوله: «فَنَتَّبِعَ آيٰاتِكَ» و لم يقل:فنتبع رسولك.

قوله تعالى: قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحٰابُ الصِّرٰاطِ السَّوِيِّ وَ مَنِ اهْتَدىٰ التربّص الانتظار،و الصراط السوى الطريق المستقيم،و قوله:

«كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ» أى كل منا و منكم متربص منتظر فنحن ننتظر ما وعده اللّه لنا فيكم و فى تقدم دينه و تمام نوره و أنتم تنتظرون بنا الدوائر لتبطلوا الدعوه الحقه و كل منا و منكم يسلك سبيلا الى مطلوبه فتربصوا و انتظروا و فيه تهديد فستعلمون أى طائفه منا و منكم أصحاب الطريق المستقيم الذى يوصله الى مطلوبه و من الذين اهتدوا الى المطلوب و فيه ملحمه و إخبار بالفتح.

سوره الأنبياء مكيه و هى مائه و اثنتا عشره آيه

اشاره

[سوره الأنبياء (٢١): الآيات ١ الى ١٥]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;اِقْتَرَبَ لِلنّٰاسِ حِسٰابُهُمْ وَ هُمْ فِى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اِسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاٰهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسَرُّوا اَلنَّجْوَى اَلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هٰذٰا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَ فَتَأْتُونَ اَلسِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قٰالَ رَبِّى يَعْلَمُ اَلْقَوْلَ فِى اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (۴) بَلْ قٰالُوا أَضْغٰاثُ أَحْلاٰمٍ بَلِ اِفْتَرٰاهُ بَلْ هُوَ شٰاعِرٌ فَلْيَأْتِنٰا بِآيَةٍ كَمٰا أُرْسِلَ اَلْأَوَّلُونَ (۵) مٰا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنٰاهٰا أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ (۶) وَ مٰا أَرْسَلْنٰا قَبْلَكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِى إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ اَلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (٧) وَ مٰا جَعَلْنٰاهُمْ جَسَداً لاٰ يَأْكُلُونَ اَلطَّعٰامَ وَ مٰا كٰانُوا خٰالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنٰاهُمُ اَلْوَعْدَ فَأَنْجَيْنٰاهُمْ وَ مَنْ نَشٰاءُ وَ أَهْلَكْنَا اَلْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ كِتٰاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (١٠) وَ كَمْ قَصَمْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ كٰانَتْ ظٰالِمَةً وَ أَنْشَأْنٰا بَعْدَهٰا قَوْماً آخَرِينَ (١١) فَلَمّٰا أَحَسُّوا بَأْسَنٰا إِذٰا هُمْ مِنْهٰا يَرْكُضُونَ (١٢) لاٰ تَرْكُضُوا وَ اِرْجِعُوا إِلىٰ مٰا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَسٰاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (١٣) قٰالُوا يٰا وَيْلَنٰا إِنّٰا كُنّٰا ظٰالِمِينَ (١۴) فَمٰا زٰالَتْ تِلْكَ دَعْوٰاهُمْ حَتّٰى جَعَلْنٰاهُمْ حَصِيداً خٰامِدِينَ (١۵)

ص: ٢٢۴

بیان:

غرض السوره الکلام حول النبوه بانیا ذلک علی التوحید و المعاد فتفتتح بذکر اقتراب الحساب و غفله الناس عن ذلک و إعراضهم عن الدعوه الحقه التی تتضمن الوحی السماوی فهی ملاک حساب یوم الحساب و تنتقل من هناک الی موضوع النبوه و استهزاء الناب بنبوه النبی صلی اللّه علیه و آله و سلم و رمیهم إیاه بأنه بشر ساحر بل ما أتی به أضغاث أحلام بل مفتر بل شاعر!فترد ذلک بذکر أوصاف الأنبیاء الماضین الکلیه إجمالا و أن النبی لا یفقد شیئا مما وجدوه و لا ما جاء به یغایر شیئا مما جاءوا به.

ص :۲۲۵

ثم تـذكر قصـص جماعه من الأنبياء تأييـدا لما تقـدم من الإجمال و هم موسـى و هارون و إبراهيم و إسـحاق و يعقوب و لوط و نوح و داود و سليمان و أيوب و إسماعيل و إدريس و ذو الكفل و ذو النون و زكريا و يحيى و عيسى.

ثم تتخلص الى ذكر يوم الحسـاب و ما يلقاه المجرمون و المتقون فيه،و أن العاقبه للمتقين و أن الأرض يرثها عباده الصالحون ثم تـذكر أن إعراضـهم عن النبوه إنما هو لإعراضـهم عن التوحيد فتقيم الحجه على ذلك كما تقيمها على النبوه و الغلبه فى السوره للوعيد على الوعد و للإنذار على التبشير.و السوره مكيه بلا خلاف فيها و سياق آياتها يشهد بذلك.

قوله تعالى: اِقْتَرَبَ لِلنّٰاسِ حِسٰابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ الاقتراب افتعال من القرب و اقترب و قرب بمعنى واحـد غير أن اقترب أبلغ لزياده بنائه و يـدل على مزيد عنايه بالقرب،و يتعدى القرب و الاقتراب بمن و إلى يقال:قرب أو اقترب زيد من عمرو أو إلى عمرو و الأول يـدل على أخـذ نسـبه القرب من عمرو و الثانى على أخـذها من زيـد لأن الأصل فى معنى من ابتداء الغايه كما أن الأصل فى معنى الى انتهاؤها.

و من هنـا يظهر أن اللام فى «لِلنّٰاسِ» بمعنى إلى لا ـ بمعنى«من»لأن المناسب للمقام أخـذ نسـبه الاقتراب من جانب الحساب لأنه الذى يطلب الناس بالاقتراب منهم و الناس فى غفله معرضون.

و المراد بالحساب-و هو محاسبه اللّه سبحانه أعمالهم يوم القيامه-نفس الحساب لا زمانه بنحو التجوز أو بتقدير الزمان و إن أصرّ بعضـهم عليه و وجّهه بعض آخر بـأن الزمـان هو الأصل فى القرب و البعـد و إنما ينسب القرب و البعـد إلى الحوادث الواقعه فيه بتوسطه.

و ذلك لأن الغرض فى المقام متعلق بتذكره نفس الحساب لتعلقه بأعمال الناس إذ كانوا مسئولين عن أعمالهم فكان من الواجب فى الحكمه أن ينزل عليهم ذكر من ربهم ينبههم على ما فيه مسئوليتهم،و من الواجب عليهم أن يستمعوا له مجدين غير لاعبين و لا لاهيه قلوبهم نعم

لو كان الكلام مسوقا لبيان أهوال الساعه و ما أعدّ من العذاب للمجرمين كان الأنسب التعبير بيوم الحساب أو تقدير الزمان و نحو ذلك.

و المراد بالناس الجنس و هو المجتمع البشرى الذى كان أكثرهم مشركين يومئذ لا ـ المشركون خاصه و إن كان ما ذكر من أوصافهم كالغفله و الإعراض و الاستهزاء و غيرها أوصاف المشركين فليس ذلك من نسبه حكم البعض الى الكل مجازا بل من نسبه حكم المجتمع الى نفسه حقيقه ثم استثناء البعض الذى لا يتصف بالحكم كما يلوّح اليه أمثال قوله:

«وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» و قوله: «فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَ مَنْ نَشَاءُ» على ما هو دأب القرآن فى خطاباته الاجتماعيه من نسبه الحكم الى المجتمع ثم استثناء الأفراد غير المتصفه به.

و بالجمله فرق بين أخذ المجتمع موضوعا للحكم و استثناء أفراد منه غير متصفه به و بين أخذ أكثر الأفراد موضوع الحكم ثم نسبه حكمه الى الكل مجازا و ما نحن فيه من القبيل الأول دون الثانى.

و قوله: وَ هُمْ فِى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ذلك أنهم تعلقوا بالدنيا و اشتغلوا بالتمتع فامتلأت قلوبهم من حبها فلم يبق فيها فراغ يقع فيها ذكر الحساب وقوعا تتأثر به حتى أنهم لو ذكّروا لم يذكروا و هو الغفله فإن الشىء كما يكون مغفولا عنه لعدم تصوّره من أصله قد يكون مغفولا عنه لعدم تصوره كما هو حقه بحيث تتأثر النفس به.

قوله تعالى: مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ الآيه بمنزله التعليل لقوله: «وَ هُمْ فِى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ» إذ لو لم يكونوا فى غفله معرضين لم يلعبوا و لم يتلهّوا عند استماع الذكر الذى لا ينبههم إلا على ما يهمهم التنبيه له و يجب عليهم التهيؤ له،و لذلك جىء بالفصل من غير عطف.

و المراد بالذكر ما يذكر به اللّه سبحانه من وحى إلهى كالكتب السماويه و منها القرآن الكريم، و المراد بإتيانه لهم نزوله على النبى و إسماعه و تبليغه،و محدث بمعنى جديد و هو معنى إضافى و هو

وصف ذكر فالقرآن مثلا ـ ذكر جديد أتاهم بعد الإنجيل و الإنجيل كان ذكرا جديدا أتاهم بعد التوراه و كذلك بعض سور القرآن و آياته ذكر جديد أتاهم بعد بعض.

و قوله: إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ استثناء مفرّغ عن جميع أحوالهم و «اسْتَمَعُوهُ» حال و «هُمْ يَلْعَبُونَ» «لاٰهِيَةً قُلُوبُهُمْ» حالان من ضمير الجمع فى «اسْتَمَعُوهُ» فهما حالان متداخلتان.

و اللعب فعل منتظم الأجزاء لا غايه له إلا الخيال كلعب الأطفال و اللهو اشتغالك عما يهمك يقال:ألها كذا أى شغله عما يهمه و لذلك تسمى آلات الطرب آلات اللهو و ملاهى، و اللهو من صفه القلب و لذلك قال: «لاٰهِيَةً قُلُوبُهُمْ» فنسبه الى قلوبهم.

و معنى الآيه:و ما يأتيهم-بالنزول و البلوغ-ذكر جديد من ربهم فى حال من الأحوال إ:

و الحال أنهم لاعبون لاهيه قلوبهم فاستمعوه فيها أى إن إحداث الذكر و تجديده لا يؤثر فيهم و لا أثرا قليلا و لا يمنعهم عن الاشتغال بلعب الدنيا عما وراءها و هذا كنايه عن أن الذكر لا يؤثر فيهم فى حال لا أن جديده لا يؤثر و قديمه يؤثر و هو ظاهر.

و استدل بظاهر الآيه على كون القرآن محدثا غير قديم،و أولها الأشاعره بأن توصيف الذكر بالمحدث من جهه نزوله و هو لا ينافى قدمه فى نفسه و ظاهر الآيه عليهم و للكلام تتمه نوردها فى بحث مستقل (۱).

قوله تعالى: وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هٰذٰا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ الإسرار يقابل الإعلان فإسرار القول يفيد وحده معنى النجوى فإضافته الى النجوى تفيد المبالغه.

و ضمير الفاعل فى «أَسَرُّوا النَّجْوَى» راجع الى الناس غير أنه لما لم يكن الفعل فعلا لجميعهم و لا لأكثرهم فإن فيهم المستضعف و من لا شغل له به و إن كان منسوبا الى الكل من

۱- ۱) .الانبياء ۱-۱۵:كلام فى معنى حدوث الكلام و قدمه فى فصول.

جهه ما فی مجتمعهم من الغفله و الإعراض أوضح النسبه بقوله: «الَّذِينَ ظَلَمُوا» فهو عطف بیان دل به علی أن النجوی إنما کان من الذین ظلموا منهم خاصه.

و قوله: «هَلْ هٰذا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» هو الذی تناجوا به، و قد کانوا یصرحون بتکذیب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و یعلنون بأنه بشر و أن القرآن سحر من غیر أن یخفوا شیئا من ذلک لکنهم إنما أسرّوا فی نجواهم إذ کان ذلک منهم شوری یستشیر بعضهم فیه بعضا ما ذا یقابلون به النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و یجیبون عما یسألهم من الإیمان باللّه و برسالته؟فما کان یسعهم إلا کتمان ما یذکر فیما بینهم و إن کانوا أعلنوا به بعد الاتفاق علی رد الدعوه.

و قد اشتمل نجواهم علی قولین قطعوا علیهما أوردوهما بطریق الاستفهام الإنکاری و هما قوله: «هَلْ هٰذا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» و قد اتخذوه حجه لإبطال نبوّته و هو أنه کما تشاهدونه-و قد أتوا باسم الإشاره دون الضمیر فقالوا:هل هذا؟و لم یقولوا:هل هو؟للدلاله علی العلم به بالمشاهده-بشر مثلکم لا یفارقکم فی شیء یختص به فلو کان ما یدّعیه من الاتصال بالغیب و الارتباط باللاهوت حقا لکان عندکم مثله لأنکم بشر مثله،فإذ لیس عندکم من ذلک نبأ فهو مثلکم لا خبر عنده فلیس بنبی کما یدّعی.

و قولهم: «أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» و هو تفرع بفاء التفریع علی نفی النبوه بإثبات البشریه فیرجع المعنی الی أنه لما لم یکن نبیا متصلا بالغیب فالذی أتاکم به مدّعیا أنه آیه النبوه لیس بآیه معجزه من اللّه بل سحر تعجزون عن مثله،و لا ینبغی لذی بصر سلیم أن یذعن بالسحر و یؤمن بالساحر.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أی إنه تعالی محیط علما بکل قول سرا أو جهرا و فی أی مکان و هو السمیع لأقوالکم العلیم بأفعالکم فالأمر الیه و لیس لی من الأمر شیء.

و الآیه حکایه قول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لهم لما أسرّوا النجوی و قطعوا علی تکذیب نبوته و رمی

آیته و هو کتابه بالسحر و فیها إرجاع الأمر و إحالته الی اللّه سبحانه کما فی غالب الموارد التی اقترحوا علیه فیها الآیه و کذلک سائر الأنبیاء کقوله: قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّهِ وَ إِنَّمٰا أَنَا نَذِیرٌ مُبِینٌ (الملک۲۶/)،و قوله: قٰالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّهِ وَ أُبَلِّغُکُمْ مٰا أُرْسِلْتُ بِهِ (الأحقاف/ ۲۳)،و قوله: قُلْ إِنَّمَا الْآیٰاتُ عِنْدَ اللّهِ وَ إِنَّمٰا أَنَا نَذِیرٌ مُبِینٌ (العنکبوت۵۰/).

قوله تعالی: بَلْ قٰالُوا أَضْغٰاثُ أَحْلاٰمٍ بَلِ افْتَرٰاهُ بَلْ هُوَ شٰاعِرٌ فَلْیَأْتِنٰا بِآیَهٍ کَمٰا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ تدرّج منهم فی الرمی و التکذیب،فقولهم:أضغاث أحلام أی تخالیط من رؤی غیر منظمه رآها فحسبها نبوه و کتابا فأمره أهون من السحر،و قولهم: «بَلِ افْتَرٰاهُ» ترقّ من سابقه فإن کونه أضغاث أحلام کان لازمه التباس الأمر و اشتباهه علیه لکن الافتراء یستلزم التعمد،و قولهم: «بَلْ هُوَ شٰاعِرٌ» ترقّ من سابقه من جهه أخری فإن المفتری إنما یقول عن تروّ و تدبر فیه لکن الشاعر إنما یلفظ ما یتخیله و یروم ما یزینه له إحساسه من غیر ترو و تدبر فربما مدح القبیح علی قبحه و ربما ذم الجمیل علی جماله،و ربما أنکر الضروری و ربما أصر علی الباطل المحض،و ربما صدق الکذب أو کذّب الصدق.

و قولهم: «فَلْیَأْتِنٰا بِآیَهٍ کَمٰا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ» الکلام متفرع علی ما تقدمه و المراد بالأولین الأنبیاء الماضون أی إذا کان هذا الذی أتی به و هو یعدّه آیه و هو القرآن أضغاث أحلام أو افتراء أو شعر فلیس یتم بذلک دعواه النبوه و لا یقنعنا ذلک فلیأتنا بآیه کما أتی الأولون من الآیات مثل الناقه و العصا و الید البیضاء.

و فی قوله: «کَمٰا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ» و کان الظاهر من السیاق أن یقال:کما أتی بها الأولون إشاره الی أن الآیه من لوازم الإرسال فلو کان رسولا فلیقتد بالأولین فیما احتجوا به علی رسالتهم.

قوله تعالی: مٰا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْیَهٍ أَهْلَکْنٰاهٰا أَ فَهُمْ یُؤْمِنُونَ رد و تکذیب لما یشتمل علیه قولهم: «فَلْیَأْتِنٰا بِآیَهٍ کَمٰا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ» من الوعد الضمنی بالإیمان لو أتی

بشیء مما اقترحوه من آیات الأولین.

و محصل المعنی علی ما یعطیه السیاق أنهم کاذبون فی وعدهم و لو أنزلنا شیئا مما اقترحوه من آیات الأولین لم یؤمنوا بها و کان فیها هلاکهم فإن الأولین من أهل القری اقترحوها فأنزلناها فلم یؤمنوا بها فأهلکناهم،و طباع هؤلاء طباع أولیهم فی الإسراف و الاستکبار فلیسوا بمؤمنین فالآیه بوجه مثل قوله: فَمَا کَانُوا لِیُؤْمِنُوا بِمَا کَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ (یونس/ ۷۴).

قوله تعالی: وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَکَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِی إِلَیْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّکْرِ إِنْ کُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ جواب عما احتجوا به علی نفی نبوته صلّی اللّه علیه و آله و سلم بقولهم: «هَلْ هٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُکُمْ» بأن الماضین من الأنبیاء لم یکونوا إلا رجالا من البشر فالبشریه لا تنافی النبوه.

و توصیف «رِجَالاً» بقوله: «نُوحِی إِلَیْهِمْ» للإشاره الی الفرق بین الأنبیاء و غیرهم و محصله أن الفرق الوحید بین النبی و غیره هو أنّا نوحی الی الأنبیاء دون غیرهم و الوحی موهبه و من خاص لا یجب أن یعم کل بشر فیکون إذا تحقق تحقق فی الجمیع و إذا لم یوجد فی واحد لم یوجد فی الجمیع حتی تحکموا بعدم وجدانه عندکم علی عدم وجوده عند النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و ذلک کسائر الصفات الخاصه التی لا توجد إلا فی الواحد بعد الواحد من البشیر ما لا سبیل الی إنکارها.

و قوله: «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّکْرِ إِنْ کُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ» تأیید و تحکیم لقوله: «وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَکَ إِلاَّ رِجَالاً» أی إن کنتم تعلمون به فهو و إن لم تعلموا فارجعوا ای أهل الذکر و اسألوهم هل کانت الأنبیاء الأولون إلا رجالا من البشر؟.

و المراد بالذکر الکتاب السماوی و بأهل الذکر أهل الکتاب فإنهم کانوا یشایعون المشرکین فی عداوه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و کان المشرکون یعظمونهم و ربما شاوروهم فی أمره و سألوهم عن مسائل یمتحنونه بها و هم القائلون للمشرکین علی المسلمین هٰؤُلاٰءِ أَهْدیٰ مِنَ الَّذِینَ آمَنُوا

سَبِيلاً (النساء۵۱/)،و الخطاب فى قوله: «فَسْئَلُوا» الخ؛للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و كل من يقرع سمعه هذا الخطاب عالما كان أو جاهلا و ذلك لتأييد القول و هو شائع فى الكلام.

قوله تعالى: وَ مٰا جَعَلْنٰاهُمْ جَسَداً لاٰ يَأْكُلُونَ الطَّعٰامَ وَ مٰا كٰانُوا خٰالِدِينَ -الى قوله- اَلْمُسْرِفِينَ أى هم رجال من البشر و ما سلبنا عنهم خواص البشريه بأن نجعلهم جسدا خاليا من روح الحياه لا يأكل و لا يشرب و لا عصمناهم من الموت فيكونوا خالدين بل هم بشر ممن خلق يأكلون الطعام و هو خاصه ضروريه و يموتون و هو مثل الأكل.

قوله تعالى: ثُمَّ صَدَقْنٰاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنٰاهُمْ وَ مَنْ نَشٰاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ عطف على قوله المتقدم: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰا قَبْلَكَ إِلاّٰ رِجٰالاً» و فيه بيان عاقبه إرسالهم و ما انتهى اليه أمر المسرفين من أممهم المقترحين عليهم الآيات،و فيه أيضا توضيح ما أشير اليه من هلاكهم فى قوله: «مِنْ قَرْيَهٍ أَهْلَكْنٰاهٰا» و تهديد للمشركين.

و المراد بالوعد فى قوله: «ثُمَّ صَدَقْنٰاهُمُ الْوَعْدَ» ما وعدهم من النصره لدينهم و إعلاء كلمتهم كلمه الحق كما فى قوله: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنٰا لَهُمُ الْغٰالِبُونَ (الصافات۱۷۳/)،الى غير ذلك من الآيات.

و قوله: «فَأَنْجَيْنٰاهُمْ وَ مَنْ نَشٰاءُ» أى الرسل و المؤمنين و قد وعدهم النجاه كما تدلّ عليه قوله: حَقًّا عَلَيْنٰا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (يونس۱۰۳/)،و المسرفون هم المشركون المتعدّون طور العبوديه،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ كِتٰاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ امتنان منه تعالى بإنزال القرآن على هذه الامه،فالمراد بذكرهم الذكر المختص بهم اللائق بحالهم و هو آخر ما تسعه حوصله الإنسان من المعارف الحقيقيه العاليه و أقوم ما يمكن أن يجرى فى المجتمع البشرى من الشريعه الحنيفيه و الخطاب لجميع الامه.

قوله تعالى: وَ كَمْ قَصَمْنٰا مِنْ قَرْيَهٍ كٰانَتْ ظٰالِمَهً الى آخر الآيات الخمس،

القصم فى الأصل الكسر،يقال:قصم ظهره أى كسره،و يكنى به عن الهلاك،و الإنشاء الإيجاد،و الإحساس الإدراك من طريق الحس،و البأس العذاب،و الركض العدو بشده الوطء،و الإتراف التوسعه فى النعمه،و الحصيد المقطوع و منه حصاد الزرع،و الخمود السكون و السكوت.

و المعنى «وَ كَمْ قَصَمْنا» و أهلكنا «مِنْ قَرْيَهٍ» أى أهلها «كانَتْ ظالِمَهً» لنفسها بالإسراف و الكفر «وَ أَنْشَأْنا» و أوجدنا «قَوْماً آخَرِينَ فَلَمّا أَحَسُّوا» و وجدوا بالحس أى أهل القريه الظالمه «بَأْسَنا» و عذابنا «إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ» و يعدون هاربين كالمنهزمين فيقال لهم توبيخا و تقريعا: «لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ» من النعم «وَ مَساكِنِكُمْ» و الى مساكنكم «لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ» أى لعل المساكين و أرباب الحوائج يهجمون عليكم بالسؤال فتستكبروا عليهم و تختالوا أو تحتجبوا عنهم و هذا كنايه عن اعتزازهم و استعلائهم و عدّ المتبوعين أنفسهم أربابا للتابعين من دون اللّه.

«قالُوا» تندّما «يا وَيْلَنا إِنّا كُنّا ظالِمِينَ فَما زالَتْ تِلْكَ» و هى كلمتهم يا ويلنا المشتمله على الاعتراف بربوبيته تعالى و ظلم أنفسهم «دَعْواهُمْ حَتّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً» محصودا مقطوعا «خامِدِينَ» ساكنين ساكتين كما تخمد النار لا يسمع لهم صوت و لا يذكر لهم صيت.

[سوره الأنبياء (٢١): الآيات ١۶ الى ٣٣]

اشاره

وَ ما خَلَقْنَا اَلسَّماءَ وَ اَلْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (١۶) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنّا إِنْ كُنّا فاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى اَلْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَ لَكُمُ اَلْوَيْلُ مِمّا تَصِفُونَ (١٨) وَ لَهُ مَنْ فِي اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمِ اِتَّخَذُوا آلِهَهً مِنَ اَلْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَهٌ إِلاَّ اَللّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اَللّهِ رَبِّ اَلْعَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْئَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) أَمِ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَهً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ اَلْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢۴) وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢۵) وَ قالُوا اِتَّخَذَ اَلرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (٢۶) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ اِرْتَضى وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي اَلظّالِمِينَ (٢٩) أَ وَ لَمْ يَرَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ اَلْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَ جَعَلْنا فِي اَلْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَ جَعَلْنَا اَلسَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (٣٢) وَ هُوَ اَلَّذِي خَلَقَ اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهارَ وَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

بیان:

قوله تعالی: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ لَوْ أَرَدْنٰا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْنٰاهُ مِنْ لَدُنّٰا إِنْ كُنّٰا فٰاعِلِينَ الآيتان توجهان نزول العـذاب على القرى الظـالمه التی ذكر اللّه سـبحانه قصـمها،و همـا بعينهما-على ما يعطيه السـياق السابق- حجه برهانيه على ثبوت المعاد ثم فی ضوئه النبوه و هی الغرض الأصيل من سرد الكلام فی السوره.

فمحصل ما تقدم-أن هناك معادا سيحاسب فيه أعمال الناس فمن الواجب أن يميزوا بين الخير و الشر و صالح الأعمال و طالحها بهـدايه إلهيه و هی الـدعوه الحلقه المعتمـده على النبوه و لو لاـ ذلك لكانت الخلقه عبثا و كان اللّه سـبحانه لاعبا لاهيا بها تعالى عن ذلك.

فمقـام الآـيتين-كمـا ترى-مقام الاحتجاج على حقيّه المعاد لتثبت بها حقيه دعوه النبوه لأن دعوه النبوه-على هـذا-من مقتضـيات المعاد من غير عكس.

و حجه الآـيتين-كمـا ترى-تعتمـد على معنى اللعب و اللهو و اللعب هو الفعـل المنتظم الـذی له غايه خياليه غير واقعيه كملاعب الصبيان التی لا أثر لها إلا مفاهيم خياليه من تقـدم و تأخر و ربح و خساره و نفع و ضـرر كلها بحسب الفرض و التوهم و إذ كان اللعب بما تنجذب النفس

ص: ۲۳۵

اليه يصرفها عن الأعمال الواقعيه فهو من مصاديق اللهو هذا.

فلو كـان خلق العـالم المشـهود لا لغايه يتوجه إليها و يقصـد لأجلها و كان اللّه سـبحانه لا يزال يوجـد و يعـدم و يحيى و يميت و يعمّر و يخرب لاـ لغـايه تترتب على هـذه الأفعـال و لاـ لغرض يعمل لأجله ما يعمل بل إنما يفعلها لأجل نفسـها و يريـد أن يراها واحدا بعد واحد فيشـتغل بها دفعا لضـجر أو ملل أو كسل أو فرارا من الوحده أو انطلاقا من الخلوه كحالنا نحن إذا اشـتغلنا بعمل نلعب به و نتلهى لندفع به نقصا طرأ علينا و عارضه سوء لا نستطيبها لأنفسنا من ملال أو كلال أو كسل أو فشل و نحو ذلك.

فاللعب بنظر آخر لهو،و لذلك نراه سـبحانه عبّر فى الآيه الاولى باللعب «وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ» ثم بدّله- فى الآيه الثانيه التى هى فى مقام التعليل لها-لهوا فوضع اللهو مكان اللعب لتتم الحجه.

و تلهّيه تعالى بشـىء من خلقه محال لأن اللهو لا يتمّ لهوا إلا برفع حاجه من حوائج اللاهى و دفع نقيصه من نقائصه نفسه فهو من الأسـباب المؤثره،و لا معنى لتأثير خلقه تعالى فيه و احتياجه الى ما هو محتاج من كل جهه اليه فلو فرض تلهّيه تعالى بلهو لم يجز أن يكون أمرا خارجا من نفسه،و خلقه فعله،و فعله خارج من نفسه،بل وجب أن يكون بأمر غير خارج من ذاته.

و بهذا يتم البرهان على أن اللّه ما خلق السماء و الارض و ما بينهما لعبا و لهوا و ما أبدعها عبثا و لغير غايه و غرض،

و هو قوله: «لَوْ أَرَدْنٰا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْنٰاهُ مِنْ لَدُنّٰا» .

و أما اللهو بأمر غير خارج عن ذاته فهو و إن كان محالا فى نفسه لاسـتلزامه حاجه فى ذاته الى ما يشـغله و يصـرفه عما يجـده فى نفسه فيكون ذاته مركبه من حـاجه حقيقيه متقرره فيهـا و أمر رافع لتلـك الحـاجه،و لاـ سبيـل للنقص و الحاجه الى ذاته المتعاليه لكن البرهان لا يتوقف عليه لأنه فى مقام بيان أن لا لعب و لا لهو فى فعله تعالى و هو خلقه،و أما أنه لا لعب و لا لهو فى

ذاته تعالی فهو خارج عن غرض المقام و إنما أشیر الی نفی هذا الاحتمال بالتعبیر بلفظه «لَوْ» الدالّه علی الامتناع ثم أکده بقوله: «إِنْ کُنّا فاعِلِینَ» فافهم ذلک.

و بهذا البیان یظهر أن قوله: «لَوْ أَرَدْنا» الخ؛فی مقام التعلیل للنفی فی قوله: «وَ ما خَلَقْنَا» الخ؛و أن قوله: «مِنْ لَدُنّا» معناه من نفسنا،و فی مرحله الذات دون مرحله الخلق الذی هو فعلنا الخارج من ذاتنا،و أن قوله: «إِنْ کُنّا فاعِلِینَ» إشاره استقلالیه الی ما یدلّ علیه لفظه «لَوْ» فی ضمن الجمله فیکون نوعا من التأکید.

و بهذا البیان یتم البرهان علی المعاد ثم النبوه و یتصل الکلام بالسیاق المتقدم و محصله أن للناس رجوعا الی اللّه و حسابا علی أعمالهم لیجازوا علیها ثوابا و عقابا فمن الواجب أن یکون هناک نبوه و دعوه لیدلّوا بها الی ما یجازون علیه من الاعتقاد و العمل فالمعاد هو الغرض من الخلقه الموجب للنبوه و لو لم یکن معاد لم یکن للخلقه غرض و غایه فکانت الخلقه لعبا و لهوا منه تعالی و هو غیر جائز،و لو جاز علیه اتخاذ اللهو لوجب أن یکون بأمر غیر خارج من نفسه لا-بالخلق الذی هو فعل من ذاته لأن من المحال أن یؤثر غیره فیه و یحتاج الی غیره بوجه و إذ لم یکن الخلق لعبا فهناک غایه و هو المعاد و یستلزم ذلک النبوه و من لوازمه أیضا نکال بعض الظالمین إذا ما طغوا و أسرفوا و توقف علیه إحیاء الحق کما یشیر الیه قوله بعد: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَی الْباطِلِ فَیَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ» .

و قوله: «إِنْ کُنّا فاعِلِینَ» الظاهر أن «أَنْ» شرطیه کما تقدمت الإشاره الیه،و علی هذا فجزاؤه محذوف یدلّ علیه قوله: «لاَتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنّا» ،و قال بعضهم:إن «أَنْ» نافیه و الجمله نتیجه البیان السابق،و عن بعضهم أنّ إن النافیه لا تفارق غالبا اللام الفارقه،و قد ظهر مما تقدم من معنی الآیه أن کون إن شرطیه أبلغ بحسب المقام من کونها نافیه.

قوله تعالی: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَی الْباطِلِ فَیَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَ لَکُمُ الْوَیْلُ مِمّا تَصِفُونَ القذف الرمی البعید،و الدمغ-علی ما فی مجمع البیان-شجّ الرأس

ص: ۲۳۷

حتى يبلغ الدماغ،يقال:دمغه يدمغه إذا أصاب دماغه،و زهوق النفس تلفها و هلاكها،يقال:

زهق الشیء یزهق أی هلک.

و الحق و الباطل مفهومان متقابلان،فالحق هو الثابت العین،و الباطل ما لیس له عین ثابته لکنه یتشبّه بالحق تشبّها فیظن أنه هو حتی إذا تعارضا بقی الحق و زهق الباطل کالماء الذی هو حقیقه من الحقائق،و السراب الذی لیس بالماء حقیقه لکنه یتشبّه به فی نظر الناظر فیحسبه الظمآن ماء حتی إذا جاءه لم یجده شیئا.

و المعنی:ما خلقنا العالم لعب أو لم نرد اتخاذ اللهو بل سنّتنا أن نرمی بالحق علی الباطل رمیا بعیدا فیهلکه فیفاجئه الذهاب و التلف،فإن کان الباطل حجه أو عقیده فحجه الحق تبطلها، و إن کان عملا ـ و سنّه کما فی القری المسرفه الظالمه فالعذاب المستأصل یستأصله و یبطله،و إن کان غیر ذلک فغیر ذلک.

و قوله: «وَ لَکُمُ الْوَیْلُ مِمّٰا تَصِفُونَ» وعید للناس المنکرین للمعاد و النبوه علی ما تقدم من توضیح مقتضی السیاق.

و یظهر من الآیه حقیقه الرجوع الی اللّه تعالی و هو أنه تعالی لا یزال یقذف بالحق علی الباطل فیحق الحق و یخلّصه من الباطل الذی یشوبه أو یستره حتی لا ـ یبقی إلا ـ الحق المحض و هو اللّه الحق عزّ اسمه قال: وَ یَعْلَمُونَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِینُ (النور/۲۵)،فیسقط یومئذ ما کان یظن للأسباب من استقلال التأثیر و یزعم لغیره من القوه و الملک و الأمر کما قال: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَیْنَکُمْ وَ ضَلَّ عَنْکُمْ مٰا کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام/۹۴)،و قال: أَنَّ الْقُوَّهَ لِلّٰهِ جَمِیعاً (البقره/۱۶۵)،و قال: لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ (المؤمن/۱۶)،و قال: وَ الْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ (الانفطار/۱۹)،و الآیات المشیره الی هذا المعنی کثیره.

قوله تعالی: وَ لَهُ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ دفع لأحد الاحتمالات المنافیه للمعاد فی الجمله و هو أن لا یتسلط سبحانه علی بعض أو کل الناس فینحو من لا یملکه من

الرجوع اليه و الحساب و الجزاء فاجيب بأن ملكه تعالى عام شامل لجميع من فى السماوات و الأرض فله أن يتصرف فيها أى تصرف أراد.

و من المعلوم أن هذا الملك حقيقى من لوازم الإيجاد بمعنى قيام الشىء بسببه الموجد له بحيث لا يعصيه فى أى تصرّف تصرّف فيه،و الإيجاد يختص باللّه سبحانه لا يشاركه فيه غيره حتى عند الوثنيين المثبتين لآلهه اخرى للتدبير و العباده فكل من فى السماوات و الأرض مملوک للّه لا مالک غيره.

قوله تعالى: وَ مَنْ عِنْدَهُ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ لاٰ يَسْتَحْسِرُونَ الى آخر الآيه التاليه،قال فى مجمع البيان:الاستحسار الانقطاع عن الإعياء يقال:بعير حسير أى معى،و أصله من قولهم:حسر عن ذراعيه،فالمعنى أنه كشف قوته بإعياء.انتهى.

و المراد بقوله: «وَ مَنْ عِنْدَهُ» المخصوصون بموهبه القرب و الحضور و ربما انطبق على الملائكه المقرّبين،و قوله: «يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ لاٰ يَفْتُرُونَ» بمنزله التفسير لقوله: «وَ لاٰ يَسْتَحْسِرُونَ» أى لا يأخذهم عىّ و كلال بل يسبحون الليل و النهار من غير فتور،و التسبيح بالليل و النهار كنايه عن دوام التسبيح من غير انقطاع.

يصف تعالى حال المقرّبين من عباده و المكرمين من ملائكته أنه مستغرقون فى عبوديته مكبون على عبادته لا يشغلهم عن ذلک شاغل و لا يصرفهم صارف،و كأن الكلام مسوق لبيان خصوصيه مالكيته و سلطنته المذكوره فى صدر الآيه.

قوله تعالى: أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ الإنشار إحياء الموتى فالمراد به المعاد،و فى الآيه دفع احتمال آخر ينافى المعاد و الحساب المذكور سابقا و هو الرجوع الى اللّه بأن يقال:إن هناک آلهه أخرى دون اللّه يبعثون الأموات و يحاسبونهم و ليس للّه سبحانه من أمر المعاد شىء حتى نخافه و نضطر الى إجابه رسله و اتباعهم فى دعوتهم بل نعبدهم و لا جناح.

و تقییـد قوله: «أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً» بقوله: «مِنَ الْأَرْضِ» قیـل:لیشـیر به الی أنهم إذا کـانوا من الأـرض کان حکمهم حکم عامه أهل الأرض من الموت ثم البعث فمن الذی یمیتهم ثم یبعثهم؟.

و یمکن أن یکون المراد اتخاذ آلهه من جنس الأـرض کالأصـنام المتخـذه من الحجاره و الخشب و الفلزات فیکون فیه نوع من التهکم و التحقیر و یؤول المعنی الی أن الملائکه الـذین هم الآلهه عنـدهم إذا کانوا من عباده تعالی و عبّاده و انقطع هؤلاء عنهم و یئسوا من ألوهیتهم لیلتجئوا الیهم فی أمر المعـاد فهـل یتخـذون أصـنامهم و تماثیلهم آلهه من دون اللّه مکان أرباب الأصـنام و التماثیل.

قوله تعـالی: لَوْ کـانَ فِیهِما آلِهَهٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَـدَتا فَسُـبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا یَصِـفُونَ قـد تقـدم فی تفسـیر سوره هود و تکررت الإشاره الیه بعـده أن النزاع بین الوثنیین و الموحـدین لیس فی وحده الإله و کثرته بمعنی الواجب الوجود الموجود لذاته الموجد لغیره فهـذا مما لا نزاع فی أنه واحـد لا شـریک له،و إنما النزاع فی الإله بمعنی الرب المعبود و الوثنیون علی أن تدبیر العالم علی طبقات أجزائه مفوضه الی موجودات شـریفه مقربین عند اللّه ینبغی أن یعبدوا حتی یشفعوا لعبادهم عند اللّه و یقربوهم الیه زلفی کرب السـماء و رب الأرض و رب الإنسان و هکذا و هم آلهه من دونهم و اللّه سبحانه إله الآلهه و خالق الکل کما یحکیه عنهم قوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَیَقُولُنَّ اللّهُ (الزخرف/۸۷)و قوله: وَ لَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِیزُ الْعَلِیمُ (الزخرف/۹).

و الآیه الکریمه إنما تنفی الإلهیه من دون اللّه فی السـماء و الأرض بهـذا المعنی لا بمعنی الصانع الموجـد الذی لا قائل بتعدده،و المراد بکون الإله فی السـماء و الأرض تعلّق ألوهیته بالسماء و الأرض لأسکناه فیهما فهو کقوله تعالی: هُوَ الَّذِی فِی السَّماءِ إِلهٌ وَ فِی الْأَرْضِ إِلهٌ (الزخرف/۸۴).

و تقریر حجه الآیه أنه لو فرض للعالم آلهه فوق الواحد لکانوا مختلفین ذاتا متبائنین حقیقه و تباین حقائقهم یقضی بتباین تدبیرهم فیتفاسد التدبیرات و تفسد السماء و الأرض لکن النظام الجاری نظام واحد متلائم الأجزاء فی غایاتها فلیس للعالم آلهه فوق الواحد و هو المطلوب.

قوله تعالی: فَسُبْحانَ اللّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا یَصِفُونَ تنزیه له تعالی عن وصفهم و هو أن معه آلهه هم ینشرون أو أن هناک آلهه من دونه یملکون التدبیر فی ملکه فالعرش کنایه عن الملک،و قوله: «عَمّا یَصِفُونَ» «ما»فیه مصدریه و المعنی:عن وصفهم.

و للکلام تتمه ستوافیک.

قوله تعالی: لا یُسْئَلُ عَمّا یَفْعَلُ وَ هُمْ یُسْئَلُونَ الضمیر فی «لا یُسْئَلُ» له تعالی بلا إشکال،و الضمیر فی «وَ هُمْ یُسْئَلُونَ» للآلهه الذین یدعونهم أو للآلهه و الناس جمیعا أو للناس فقط،و أحسن الوجوه أولها لأن ذلک هو المناسب للسیاق و الکلام فی الآلهه الذین یدعونهم من دونه،فهم المسئولون و اللّه سبحانه لا یسأل عن فعله.

و السؤال عن الفعل هو قولنا لفاعله:لم فعلت کذا؟و هو سؤال عن جهه المصلحه فی الفعل فإن الفعل المقارن للمصلحه لا مؤاخذه علیه عند العقلاء،و اللّه سبحانه لما کان حکیما علی الإطلاق کما وصف به نفسه فی مواضع من کلامه،و الحکیم هو الذی لا یفعل فعلا إلا لمصلحه مرجحه لا جرم لم یکن معنی للسؤال عن فعله بخلاف غیره فإن من الممکن فی حقهم أن یفعلوا الحق و الباطل و أن یقارن فعلهم المصلحه و المفسده فجاز فی حقهم السؤال حتی یؤاخذوا بالذم العقلی أو العقاب المولوی إن لم یقارن الفعل المصلحه.

هذا ما ذکره جماعه من المفسرین فی توجیه الآیه و هو معنی صحیح فی الجمله لکن یبقی علیه أمران:

الأمر الأول:أن الآیه مطلقه لا دلیل فیها من جهه اللفظ علی کون المراد فیها هو هذا المعنی

فإن كون المعنى صحيحا فى نفسه لا يستلزم كونه هو المراد من الآيه.

و لذلك وجه بعضهم عدم السؤال بأنه مبنى على كون أفعال اللّه لا تعلل بالأغراض لأن الغرض ما يبعث الفاعل الى الفعل ليستكمل به و ينتفع و إذ كان تعالى أجل من أن يحتاج الى ما هو خارج عن ذاته و يستكمل بالانتفاع من غيره فلا يقال له:لم فعلت كذا سؤالا عن الغرض الذى دعاه الى الفعل.

و إن رد بأن الفاعل التام الفاعليه إنما يصدر عنه الفعل لذاته فذاته هى غايته و غرضه فى فعله من غير حاجه الى غرض خارج عن ذاته كالإنسان البخيل الذى يكثر الإنفاق ليحصل ملكه الجود حتى إذا حصلت الملكه صدر عنها الإنفاق لذاتها لا لتحصيل ما هو حاصل فنفسها غايه لها فى فعلها.

و لذلك أيضا وجه بعض آخر عدم السؤال فى الآيه بأن عظمته تعالى و كبرياءه و عزته و بهاءه تقهر كل شىء من أن يسأله عن فعله أو يعترض له فى شىء من شئون إرادته فغيره تعالى أذل و أحقر من أن يجترئ عليه بسؤال أو مؤاخذه على فعل لكن له سبحانه أن يسأل كل فاعل عن فعله و يؤاخذ كل من حقت عليه المؤاخذه هذا.

و إن كان مردودا بأن عدم السؤال من جهه أن ليس هناك من يتمكن من سؤاله اتقاء من قهره و سخطه كالملوك الجبارين و الطغاه المتفرعنين غير كون الفعل بحيث لا يتسم بسمه النقص و الفتور و لا يعتريه عيب و قصور،و الذى يدل عليه عامه كلامه تعالى أن فعله من القبيل الثانى دون الأول كقوله: اَلَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ (الم السجده/۷)،و قوله:

لَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنیٰ (الحشر/۲۴)،و قوله: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَظْلِمُ النّٰاسَ شَیْئاً (یونس/ ۴۴)،الى غير ذلك من الآيات.

و بالجمله قولهم:إنه تعالى إنما لا يسأل عن فعله لكونه حكيما على الإطلاق يؤول الى أن عدم السؤال عن فعله ليس لذات فعله بما هو فعله بل لأمر خارج عن ذات الفعل و هو كون

فاعله حکیما لا یفعل إلا ما فیه مصلحه مرجحه،و قوله:لا یسأل عما یفعل و هم یسألون لا دلاله فی لفظه علی التقیید بالحکمه فکان علیهم أن یقیموا علیه دلیلا.

و لو جاز الخروج فی تعلیل عدم السؤال فی الآیه لفظها لکان أقرب منه التمسک بقوله-و هو متصل بالآیه-: «فَسُبْحانَ اللّٰهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّٰا یَصِفُونَ» فإن الآیه تثبت له الملک المطلق و الملک متبع فی إرادته مطاع فی أمره لأنه ملک-أی لذاته-لا لأن فعله أو قوله موافق لمصلحه مرجحه و إلا لم یکن فرق بینه و بین أدنی رعیته و کانت المصلحه هی المتبعه و لم تکن طاعته مفترضه فی بعض الأحیان،و کذلک المولی متبع و مطاع لعبده فیما له من المولویه من جهه أنه مولی لیس للعبد أن یسأله فیما یریده منه و یأمره به عن وجه الحکمه و المصلحه فالملک علی ما له من السعه مبدأ لجواز التصرفات و سلطنه علیها لذاته.

فاللّه سبحانه ملک و مالک للکل و الکل مملوکون له محضا فله أن یفعل ما یشاء و یحکم ما یرید و لیس لغیره ذلک،و له أن یسألهم عما یفعلون و لیس لغیره أن یسألوه عما یفعل نعم هو سبحانه أخبرنا أنه حکیم لا یفعل إلا ما فیه مصلحه و لا یرید إلا ذلک فلیس لنا أن نسیء به الظن فیما ینسب الیه من الفعل بعد هذا العلم الإجمالی بحکمته المطلقه فضلا عن سؤاله عما یفعل،و من ألطف الآیات دلاله علی هذا الذی ذکرنا قوله حکایه عن عیسی بن مریم: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبٰادُکَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (المائده/١١٨)حیث یوجه عذابهم بأنهم مملوکون له و یوجه مغفرتهم بکونه حکیما.

و من هنا یظهر أن الحکمه بوجه ما أعم من قوله: «لاٰ یُسْئَلُ عَمّٰا یَفْعَلُ» بخلاف الملک فالملک أقرب الی توجیه الآیه منها کما أشرنا الیه.

الأمر الثانی:أن الآیه علی ما وجّهوها به خفیّه الاتصال بالسیاق السابق و غایه ما قیل فی اتصالها بما قبلها ما فی مجمع البیان:أنه تعالی لما بیّن التوحید عطف علیه بیان العدل،و أنت خبیر بأن مآله الاستطراد و لا موجب له.

و نظیره ما نقل عن أبی مسلم أنها تتصل بقوله فی أول السوره: «اقْتَرَبَ لِلنّاسِ حِسابُهُمْ» و الحساب هو السؤال عما أنعم اللّه علیهم به،و هل قابلوا نعمه بالشکر أم قابلوها بالکفر؟و فیه أن للآیات التالیه لهذه الآیه اتصالا واضحا بما قبلها فلا معنی لاتصالها وحدها بأول السوره.

علی أن قوله علی تقدیر تسلیمه یوجه اتصال ذیل الآیه و الصدر باق علی ما کان.

و أنت خبیر أن توجیه الآیه بالملک دون الحکمه کما قدمناه یکشف عن اتصال الآیه بما قبلها من قوله: «فَسُبْحانَ اللّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا یَصِفُونَ» فالعرش-کما تقدم-کنایه عن الملک فتتصل الآیتان و یکون قوله: «لا یُسْئَلُ عَمّا یَفْعَلُ وَ هُمْ یُسْئَلُونَ» بالحقیقه برهانا علی ملکه تعالی کما أن ملکه و عدم مسئولیته برهان علی ربوبیته،و برهانا علی مملوکیتهم کما أن مملوکیتهم و مسئولیتهم برهان علی عدم ربوبیتهم فإن الفاعل الذی لیس بمسئول عن فعله بوجه هو الذی یملک الفعل مطلقا لا محاله،و الفاعل الذی هو مسئول عن فعله هو الذی لا یملک الفعل إلا إذا کان ذا مصلحه و المصلحه هی التی تملکه و ترفع المؤاخذه عنه،و رب العالم أو جزء من أجزائه هو الذی یملک تدبیره باستقلال من ذاته أی لذاته لا بإعطاء من غیره فاللّه سبحانه هو رب العرش و غیره مربوبون له (1).

قوله تعالی: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ نُوحِی إِلَیْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُدُونِ تثبیت لما قیل فی الآیه السابقه إن الذکر یذکر توحیده و وجوب عبادته و لا یخلو من تأیید ما للمعنی الثانی من معنیی الذکر.

و قوله: «نُوحِی إِلَیْهِ» مفید للاستمرار،و قوله: «فَاعْبُدُونِ» خطاب للرسل و من معهم من أممهم و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُکْرَمُونَ ظاهر

1- 1) .الانبیاء 16-33:بحث فی حکمته تعالی و معنی کون فعله مقارنا للمصلحه و هو بحث فلسفی و قرآنی.

السیاق یشهد أنه حکایه قول الوثنیین إن الملائکه أولاده سبحانه فالمراد بالعباد المکرمین الملائکه،و قد نزّه اللّه نفسه عن ذلک بقوله: «سُبْحانَهُ» ثم ذکر حقیقه حالهم بالإضراب.

و إذ کان قوله بعد: «لاٰ یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ» الخ؛بیان کمال عبودیتهم من حیث الآثار و صفائها من جهه الخواص و التبعات و قد ذکر قبلا کونهم عبادا کان ظاهر ذلک أن المراد بإکرامهم إکرامهم بالعبودیه لا بغیرها فیؤول المعنی الی أنهم عباد بحقیقه معنی العبودیه و من الدلیل علیه صدور آثارها الکامله عنهم.

فالمراد بکونهم عبادا-و جمیع أرباب الشعور عباد اللّه-إکرامهم فی أنفسهم بالعبودیه فلا یشاهدون من أنفسهم إلا أنهم عباد،و المراد بکونهم مکرمین إکرامه تعالی لهم بإفاضه العبودیه الکامله علیهم،و هذا نظیر کون البعد مخلصا-بکسر اللام-لربه و مقابلته تعالی ذلک بجعله مخلصا-بفتح اللام-لنفسه،و إنما الفرق بین کرامه الملائکه و البشر أنها فی البشر اکتسابی بخلاف ما فی الملائکه،و أما إکرامه تعالی فهو موهبی فی القبیلین جمیعا فافهم ذلک.

قوله تعالی: لاٰ یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ لا یسبق فلان فلانا بالقول أی لا یقول شیئا قبل أن یقوله فقوله تبع،و ربما یکنّی به عن الإراده و المشیّه أی إرادته تبع إرادته،و قوله: «وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ» الظرف متعلق بیعملون قدّم علیه لإفاده الحصر أی یعملون بأمره لا بغیر أمره،و لیس المراد لا یعملون بأمر غیره ففعلهم تابع لأمره أی لإرادته کما أن قولهم تابع لقوله فهم تابعون لربهم قولا و فعلا.

و بعباره أخری إرادتهم و عملهم تابعان لإرادته-نظرا الی کون القول کنایه عن الإراده- فلا یریدون إلا ما أراد و لا یعملون إلا ما أراد و هو کمال العبودیه فإن لازم عبودیه العبد أن یکون إرادته و عمله مملوکین لمولاه.

هذا ما یفیده ظاهر الآیه علی أن یکون المراد بالأمر ما یقابل النهی،و تفید الآیه أن الملائکه لا یعرفون النهی إذ النهی فرع جواز الإتیان بالفعل المنهی عنه و هم لا یفعلون إلا عن

أمر.

و يمكن أن يستفاد من قوله تعالى: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحٰانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس۸۳/)،و قوله: وَ مٰا أَمْرُنٰا إِلاّٰ وٰاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (القمر۵۰/)،حقيقه معنى أمره تعالى و قد تقدم فى بعض المباحث السابقه كلام فى ذلك و سيجىء استيفاء البحث فى كلام خاص بالملائكه فيما يعطيه القرآن فى حقيقه الملك.

قوله تعالى: يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ لاٰ يَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ارْتَضىٰ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ فسّروا «مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ» بما قدّموا من أعمالهم و ما اخّروا،و المعنى:يعلم ما عملوا و ما هم عاملون.

فقوله: «يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ» استئناف فى مقام التعليل لما تقدّمه من قوله: «لاٰ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» كأنه قيل:إنما لم يقدموا على قول أو عمل بغير أمره تعالى لأنّه يعلم ما قدّموا من قول و عمل و ما أخّروا فلا يزالون يراقبون أحوالهم حيث إنهم يعلمون ذلك.

و هو معنى جيد فى نفسه لكنه إنما يصلح لتعليل عدم إقدامهم على المعصيه لا لتعليل قصر عملهم على مورد الأمر و هو المطلوب،على أن لفظ الآيه لا دلاله فيه على أنهم يعلمون ذلك و لو لا ذلك لم يتمّ البيان.

و قوله: وَ لاٰ يَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ارْتَضىٰ تعرّض لشفاعتهم لغيرهم و هو الذى تعلق به الوثنيون فى عبادتهم الملائكه كما ينبئ عنه قولهم: «هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اللّٰهِ» «مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللّٰهِ زُلْفىٰ» فردّ تعالى عليهم بأن الملائكه إنما يشفعون لمن ارتضاه اللّه و المراد به ارتضاء دينه لقوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ (النساء۴۸/)،فالإيمان باللّه من غير شرك هو الارتضاء،و الوثنيون مشركون،و من عجيب أمرهم أنهم يشركون بنفس الملائكه الذين لا يشفعون إلا لغير المشركين من

الموحدين.

و قوله: وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ هی الخشیه من سخطه و عذابه مع الأمن منه بسبب عدم المعصیه و ذلک لأن جعله تعالی إیاهم فی أمن من العذاب بما أفاض علیهم من العصمه لا یحدد قدرته تعالی و لا ینتزع الملک من یده،فهو یملک بعد الأمن عین ما کان یملکه قبله،و هو علی کل شیء قدیر،و بذلک یستقیم معنی الآیه التالیه.

قوله تعالی: وَ مَنْ یَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّی إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذٰلِکَ نَجْزِیهِ جَهَنَّمَ کَذٰلِکَ نَجْزِی الظّٰالِمِینَ أی من قال کذا کان ظالما و نجزیه جهنم لأنها جزاء الظالم،و الآیه قضیه شرطیه و الشرطیه لا تقتضی تحقق الشرط.

قوله تعالی: أَ وَ لَمْ یَرَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ کٰانَتٰا رَتْقاً فَفَتَقْنٰاهُمٰا وَ جَعَلْنٰا مِنَ الْمٰاءِ کُلَّ شَیْءٍ حَیٍّ أَ فَلاٰ یُؤْمِنُونَ المراد بالرؤیه العلم الفکری و إنما عبّر بالرؤیه لظهوره من حیث إنه نتیجه التفکیر فی أمر محسوس.

و الرتق و الفتق معنیان متقابلان،قال الراغب فی المفردات:الرتق الضمّ و الالتحام خلقه کان أم صنعه،قال تعالی: کٰانَتٰا رَتْقاً فَفَتَقْنٰاهُمٰا» و قال:الفتن الفصل بین المتصلین و هو ضد الرتق.انتهی.و ضمیر التثنیه فی «کٰانَتٰا رَتْقاً فَفَتَقْنٰاهُمٰا» للسماوات و الأرض بعدّ السماوات طائفه و الأرض طائفه فهما طائفتان اثنتان،و مجیء الخبر أعنی رتقا مفردا لکونه مصدرا و إن کان بمعنی المفعول و المعنی کانت هاتان الطائفتان منضمتین متصلتین ففصلناهما.

و هذه الآیه و الآیات الثلاث التالیه لها برهان علی توحیده تعالی فی ربوبیته للعالم کله أوردها بمناسبه ما انجرّ الکلام الی توحیده و نفی ما اتخذوها آلهه من دون اللّه و عدوا الملائکه و هم من الآلهه عندهم أولادا له،بانین فی ذلک علی أن الخلقه و الإیجاد للّه و الربوبیه و التدبیر للآلهه.فأورد سبحانه فی هذه الآیات أشیاء من الخلیقه خلقتها ممزوجه بتدبیر أمرها فتبین بذلک أن التدبیر لا ینفک عن الخلقه فمن الضروری أن یکون الذی خلقها هو الذی یدبر أمرها

و ذلـک کالسـماوات و الأـرض و کـل ذی حیـاه و الجبال و الفجاج و اللیل و النهار و الشـمس و القمر فی خلقها و أحوالها التی ذکرها سبحانه.

فقوله: «أَ وَ لَمْ یَرَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ کٰانَتٰا رَتْقاً فَفَتَقْنٰاهُمٰا» المراد بالـذین کفروا-بمقتضـی السـیاق-هم الوثنیون حیث یفرقون بین الخلق و التـدبیر بنسبه الخلق الی اللّه سـبحانه و التـدبیر الی الآـلهه من دونه و قـد بیّن خطـأهم فی هـذه التفرقه بعطف نظرهم الی مـا لاـ یرتـاب فیه من فتق السـماوات و الأرض بعـد رتقهما فإن فی ذلک خلقا غیر منفکّ عن التـدبیر، فکیف یمکن قیام خلقهما بواحد و قیام تدبیرهما بآخرین.

و

قوله تعـالی: وَ جَعَلْنٰا فِی الْأَرْضِ رَوٰاسِیَ أَنْ تَمِیـدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنٰا فِیهٰا فِجٰاجاً سُـبُلاً لَعَلَّهُمْ یَهْتَـدُونَ قال فی المجمع:الرواسـی الجبال رست ترسو رسوا إذا ثبتت بثقلهـا فهی راسـیه کمـا ترسو السـفینه إذا وقفت متمکنه فی وقوفها،و المیـد الاضـطراب بالـذهاب فی الجهات،و الفج الطریق الواسع بین الجبلین.انتهی.

و المعنی:و جعلنـا فی الأرض جبالا ثابت لئلا تمیل و تضـطرب الأرض بهم و جعلنا فی تلک الجبال طرقا واسـعه هی سـبل لعلهم یهتدون منها الی مقاصدهم و مواطنهم.

و فیه دلاله علی أن للجبال ارتباطا خاصا بالزلازل و لولاها لاضطربت الأرض بقشرها.

قوله تعالی: وَ جَعَلْنَا السَّمٰاءَ سَـقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آیٰاتِهٰا مُعْرِضُونَ کأن المراد بکون السـماء محفوظه حفظها من الشـیاطین کما قـال: وَ حَفِظْنٰاهٰا مِنْ کُلِّ شَـیْطٰانٍ رَجِیمٍ (الحجر/١٧)،و المراد بآیـات السـماء الحوادث المختلفه السـماویه التی تـدل علی وحـده التدبیر و استناده الی موجدها الواحد.

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ اللَّیْلَ وَ النَّهٰارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ کُلٌّ فِی فَلَکٍ یَسْبَحُونَ الآیه ظاهره فی إثبات الفلک لکل من اللیل و هو الظل المخروطی الملازم لوجه

الأرض المخالف لمسامته الشمس،و النهار و هو خلاف الليل،و للشمس و القمر فالمراد بالفلک مدار کل منها.

و المراد مع ذلک بیان الأوضاع و الأحوال الحادثه بالنسبه الی الأرض و فی جوها و إن کانت حال الأجرام الأخر علی خلاف ذلک فلا لیل و لا نهار یقابله للشمس و سائر الثوابت،التی هی نیّره بالذات و للقمر و سائر السیّارات الکاسبه للنور من اللیل و النهار غیر ما لنا.

و قوله: «یَسْبَحُونَ» من السبح بمعنی الجری فی الماء بخرقه قیل:و إنما قال:یسبحون لأنه أضاف إلیها فعل العقلاء کما قال: وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَیْتُهُمْ لِی سٰاجِدِینَ (یوسف۴/) (۱).

[سوره الأنبیاء (۲۱): الآیات ۳۴ الی ۴۷]

اشاره

وَ مٰا جَعَلْنٰا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِکَ اَلْخُلْدَ أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ اَلْخٰالِدُونَ (۳۴) کُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَهُ اَلْمَوْتِ وَ نَبْلُوکُمْ بِالشَّرِّ وَ اَلْخَیْرِ فِتْنَهً وَ إِلَیْنٰا تُرْجَعُونَ (۳۵) وَ إِذٰا رَآکَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ یَتَّخِذُونَکَ إِلاّٰ هُزُواً أَ هٰذَا اَلَّذِی یَذْکُرُ آلِهَتَکُمْ وَ هُمْ بِذِکْرِ اَلرَّحْمٰنِ هُمْ کٰافِرُونَ (۳۶) خُلِقَ اَلْإِنْسٰانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِیکُمْ آیٰاتِی فَلاٰ تَسْتَعْجِلُونِ (۳۷) وَ یَقُولُونَ مَتیٰ هٰذَا اَلْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۳۸) لَوْ یَعْلَمُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا حِینَ لاٰ یَکُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ اَلنّٰارَ وَ لاٰ عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لاٰ هُمْ یُنْصَرُونَ (۳۹) بَلْ تَأْتِیهِمْ بَغْتَهً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاٰ یَسْتَطِیعُونَ رَدَّهٰا وَ لاٰ هُمْ یُنْظَرُونَ (۴۰) وَ لَقَدِ اُسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِکَ فَحٰاقَ بِالَّذِینَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۴۱) قُلْ مَنْ یَکْلَؤُکُمْ بِاللَّیْلِ وَ اَلنَّهٰارِ مِنَ اَلرَّحْمٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِکْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (۴۲) أَمْ لَهُمْ آلِهَهٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنٰا لاٰ یَسْتَطِیعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لاٰ هُمْ مِنّٰا یُصْحَبُونَ (۴۳) بَلْ مَتَّعْنٰا هٰؤُلاٰءِ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰی طٰالَ عَلَیْهِمُ اَلْعُمُرُ أَ فَلاٰ یَرَوْنَ أَنّٰا نَأْتِی اَلْأَرْضَ نَنْقُصُهٰا مِنْ أَطْرٰافِهٰا أَ فَهُمُ اَلْغٰالِبُونَ (۴۴) قُلْ إِنَّمٰا أُنْذِرُکُمْ بِالْوَحْیِ وَ لاٰ یَسْمَعُ اَلصُّمُّ اَلدُّعٰاءَ إِذٰا مٰا یُنْذَرُونَ (۴۵) وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَهٌ مِنْ عَذٰابِ رَبِّکَ لَیَقُولُنَّ یٰا وَیْلَنٰا إِنّٰا کُنّٰا ظٰالِمِینَ (۴۶) وَ نَضَعُ اَلْمَوٰازِینَ اَلْقِسْطَ لِیَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ فَلاٰ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَیْئاً وَ إِنْ کٰانَ مِثْقٰالَ حَبَّهٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَیْنٰا بِهٰا وَ کَفیٰ بِنٰا حٰاسِبِینَ (۴۷)

۱- ۱) .الانبیاء ۱۶-۳۳:بحث روائی فی الحق و الباطل،وصف الملائکه،معنی قوله تعالی «لاٰ یُسْئَلُ عَمّٰا یَفْعَلُ» .

بيان:

قوله تعالى: وَ مٰا جَعَلْنٰا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخٰالِدُونَ يلوح من الآيه أنهم كانوا يسلّون أنفسهم بأن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم سيموت فيتخلصون من دعوته و تنجو آلهتهم من طعنه كما حكى ذلك عنهم فى قولهم: نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (الطور/ ٣٠)،فأجاب عنه بأنا لم نجعل لبشر من قبلك الخلد حتى يتوقع ذلك لك بل إنك ميت و إنهم

ص :٢٥٠

میتون،و لا ینفعهم موتک شیئا فلا أنهم یقبضون علی الخلود بموتک،فالجمیع میتون،و لا أن حیاتهم القصیره المؤجله تخلو من الفتنه و الامتحان الإلهی فلا یخلو منه إنسان فی حیاته الدنیا،و لا أنهم خارجون بالآخره من سلطاننا بل الینا یرجعون فنحاسبهم و نجزیهم بما عملوا.

و قوله: «أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخٰالِدُونَ» و لم یقل:فهم خالدون و الاستفهام للإنکار یفید نفی قصر القلب کأنه قیل:إن قولهم:نتربص به ریب المنون کلام من یری لنفسه خلودا أنت مزاحمه فیه فلو مت لذهب بالخلود و قبض علیه و عاش عیشه خالده طیبه ناعمه و لیس کذلک بل نفس ذائقه الموت،و الحیاه الدنیا مبنیه علی الفتنه و الامتحان،و لا معنی للفتنه الدائمه و الامتحان الخالد بل یجب أن یرجعوا الی ربهم فیجازیهم علی ما امتحنهم و میّزهم.

قوله تعالی: کُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوکُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَیْرِ فِتْنَةً وَ إِلَیْنٰا تُرْجَعُونَ لفظ النفس-علی ما یعطیه التأمل فی موارد استعماله-أصل معناه هو معنی ما أضیف الیه فنفس الشیء معناه الشیء و نفس الإنسان معناه هو الإنسان و نفس الحجر معناه هو الحجر فلو قطع عن الإضافه لم یکن له معنی محصل،و علی هذا المعنی یستعمل لتأکید اللفظی کقولنا:جاءنی زید نفسه أو لإفاده معناه کقولنا:جاءنی نفس زید.

و بهذا المعنی یطلق علی کل شیء حتی علیه تعالی کما قال: کَتَبَ عَلیٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ (الأنعام/۱۲)،و قال: وَ یُحَذِّرُکُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ (آل عمران/۲۸)،و قال: تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِکَ (المائده/۱۱۶).

ثم شاع استعمال لفظها فی شخص الإنسان خاصه و هو الموجود المرکب من روح و بدن فصار ذا معنی فی نفسه و إن قطع عن الإضافه قال تعالی: هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا أی من شخص إنسانی واحد،و قال: مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَیْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِی الْأَرْضِ فَکَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِیعاً وَ مَنْ أَحْیٰاهٰا فَکَأَنَّمٰا أَحْیَا النّٰاسَ جَمِیعاً (المائده/۳۲)،

أی من قتـل إنسانـا و من أحيـا إنسانا،و قـد اجتمع المعنيان فی قوله: كُلُّ نَفْسٍ تُجٰادِلُ عَنْ نَفْسِهٰا فالنفس الاولی بالمعنی الثانی و الثانيه بالمعنی الأول.

ثم استعملوها فی الروح الإنسانی لما أن الحياه و العلم و القدره التی بها قوام الإنسان قائمه بها و منه قوله تعالی: أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ الْهُونِ (الأنعام٩٣/).

و لم يطرد هـذان الإطلاقـان أعنی الثانی و الثالث فی غير الإنسان كالنبات و سائر الحيوان إلا بحسب الاصـطلاح العلمی فلا يقال للواحـد من النبات و الحيوان عرفا نفس و لا للمبـدإ المدبر لجسـمه نفس نعم ربما سـمّيت الدم نفسا لأن الحياه توقفا عليها و منه النفس السائله.

و كـذا لاـ يطلق النفس فی اللغه بأحـد الإطلاـقين الثانی و الثالث علی الملک و الجن و إن كان معتقـدهم أن لهما حياه،و لم يرد اسـتعمال النفس فيهمـا فی القرآن أيضـا و إن نطقت الآيـات بـأن للجن تكليفا كالإنسان و موتا و حشـرا قال: وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ (الذاريات٥٦/)،و قـال: فِی أُمَمٍ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ (الأحقاف/ ١٨)،و قال: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يٰا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ (الأنعام/ ١٢٨)،هذا ما يتحصل من معنی النفس بحسب عرف اللغه.

و أمـا الموت فهو فقـد الحيـاه و آثارهـا من الشـعور و الإـراده عمـا من شـأنه أن يتصف بها قال تعالی: وَ كُنْتُمْ أَمْوٰاتاً فَأَحْيٰاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ (البقره٢٨/)،و قال فی الأصـنام: أَمْوٰاتٌ غَيْرُ أَحْيٰاءٍ (النحل٢١/)،و أما أنه مفارقه النفس للبـدن بانقطاع تعلقها التدبيری كما يعرّفه الأبحـاث العقليه أو أنه الانتقـال من دار الی دار كما فی الحـديث النبوی فهو معنی كشف عنه العقل أو النقل غير ما اسـتقر عليه الاسـتعمال و من المعلوم أن الموت بالمعنی الـذی ذكر إنما يتصف به الإنسان المركّب من الروح و البـدن باعتبار بـدنه فهو الـذی يتصف بفقـدان الحيـاه بعـد وجـدانه و أمـا الروح فلم يرد فی كلاـمه تعالی ما ينطق باتصافه بالموت كما لم يرد ذلک فی الملک، و أما قوله: كُلُّ شَیْءٍ هٰالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ (القصص٨٨/)،و قوله: وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَصَعِقَ

مَنْ فِی السَّماٰوٰاتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ (الزمر۶۸/)فسیجیء إن شاء اللّه أن الهلاک و الصعق غیر الموت و إن انطبقا علیه أحیانا.

فقد تبین مما قدمناه أولا-أن المراد بالنفس فی قوله: «کُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ الْمَوْتِ» الإنسان -و هو الاستعمال الثانی من استعمالاتها الثلاث-دون الروح الإنسانی إذ لم یعهد نسبه الموت الی الروح فی کلامه تعالی حتی تحمل علیه.

و ثانیا:أن الآیه إنما تعم الإنسان لا-غیر کالملک و الجن و سائر الحیوان و إن کان بعضها مما یتصف بالموت کالجن و الحیوان،و من القرینه علی اختصاص الآیه بالإنسان قوله قبله: وَ مٰا جَعَلْنٰا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِکَ الْخُلْدَ و قوله بعده: وَ نَبْلُوکُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَیْرِ فِتْنَةً علی ما سنوضحه.

قوله تعالی: وَ إِذٰا رَآکَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ یَتَّخِذُونَکَ إِلاّٰ هُزُواً أَ هٰذَا الَّذِی یَذْکُرُ آلِهَتَکُمْ وَ هُمْ بِذِکْرِ الرَّحْمٰنِ هُمْ کٰافِرُونَ إن نافیه و المراد بقوله: «إِنْ یَتَّخِذُونَکَ إِلاّٰ هُزُواً» قصر معاملتهم معه علی اتخاذهم إیاه هزؤا أی لم یتخذوک إلا هزؤا یستهزئ به.

و قوله: «أَ هٰذَا الَّذِی یَذْکُرُ آلِهَتَکُمْ -و التقدیر یقولون أو قائلین:أ هذا الذی،الخ؛حکایه کلمه استهزائهم،و الاستهزاء فی الإشاره الیه بالوصف،و مرادهم ذکره آلتهم بسوء و لم یصرحوا به أدبا مع آلهتهم و هو نظیر قوله: قٰالُوا سَمِعْنٰا فَتًی یَذْکُرُهُمْ یُقٰالُ لَهُ إِبْرٰاهِیمُ الآیه ۶۰ من السوره.

و قوله: «وَ هُمْ بِذِکْرِ الرَّحْمٰنِ هُمْ کٰافِرُونَ» فی موضع الحال من ضمیر «إِنْ یَتَّخِذُونَکَ» أو من فاعل یقولون المقدر و هو أقرب و محصله أنهم یأنفون لآلهتهم علیک إذ تقول فیها إنها لا تنفع و لا تضر-و هو کلمه حق-فلا یواجهونک إلا بالهزء و الإهانه و لا یأنفون للّه إذ یکفر بذکره و الکافرون هم أنفسهم.

و المراد بـذكر الرحمن ذكره تعالى بأنه مفيض كـل رحمه و منعم كل نعمه و لازمه كونه تعالى هو الرب الـذى تجب عبادته،و قيل:المراد بالذكر القرآن.

و المعنى:و إذ رآک الذين كفروا و هم المشركون ما يتخذونک و لا يعاملون معک إلا بالهزء و السخريه قائلين بعضهم لبعض أ هـذا الـذى يـذكر آلهتكم أى بسوء فيأنفون لآلهتهم حيث تـذكرها و الحال أنهم بـذكر الرحمن كافرون و لا يعـدونه جرما و لا يأنفون له.

قوله تعالى: خُلِقَ الْإِنْسٰانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيٰاتِى فَلاٰ تَسْتَعْجِلُونِ كان المشركون على كفرهم بالـدعوه النبويه يستهزءون بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم كلما رأوه،و هو زياده فى الكفر و العتو،و الاستهزاء بشىء إنما يكون بالبناء على كونه هزلا غير جد فيقابل الهزل بالهزل لكنه تعالى أخـذ استهزاءهم هـذا أخـذ جـد غير هزل فكان الاستهزاء بعـد الكفر تعرضا للعذاب الإلهى بعد تعرض و هو الاستعجال بالعـذاب فإنهم لا يقنعون بما جاءتهم من الآيات و هم فى عافيه و يطلبون آيات تجازيهم بما صنعوا،و لذلک عد سبحانه استهزاءهم بعد الكفر استعجالا برؤيه الآيات و هى الآيات الملازمه للعذاب و أخبرهم أنه سيريهم إياها.

فقوله: خُلِقَ الْإِنْسٰانُ مِنْ عَجَلٍ كنايه عن بلوغ الانسان فى العجل كأنه خلق من عجل و لا يعرف سواه نظير ما يقال:فلان خير كله أو شر كله و خلق من خير أو من شر و هو أبلغ من قولنا،ما أعجله و ما أشد استعجاله،و الكلام وارد مورد التعجيب.و فيه استهانه بأمرهم و أنه لا يعجل بعذابهم لأنهم لا يفوتونه.

و قوله: سَأُرِيكُمْ آيٰاتِى فَلاٰ تَسْتَعْجِلُونِ الآيه الآتيه تشهد بأن المراد بإراده الآيات تعـذيبهم بنار جهنم و هى قوله: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ الخ.

قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ القائلون هم الـذين كفروا و المخاطبون هم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المؤمنون و كان مقتضى الظاهر أن يقولوا؟إن كنتم من الصادقين لكنهم عدلوا الى ما ترى ليضيفوا الى تعجيز النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بمطالبته ما لا يقدر عليه

إضلال المؤمنين به و إغراءهم عليه،و الوعد هو ما اشتملت عليه الآيه السابقه و تفسره الآيه اللاحقه.

قوله تعالى: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاٰ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النّٰارَ وَ لاٰ عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ «لَوْ» للتمنى و «حِينَ» مفعول يعلم على ما قيل، و قوله: «لاٰ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النّٰارَ وَ لاٰ عَنْ ظُهُورِهِمْ» أى لا يدفعونها حيث تأخذهم من قدامهم و من خلفهم و فيه إشاره الى إحاطتها بهم.

و قوله: «وَ لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ» معطوف على ما تقدمه لرجوع معناه الى الترديد بالمقابله و المعنى لا يدفعون النار باستقلال من أنفسهم و لا بنصر من ينصرهم على دفعه.

و الآيه فى موضع الجواب لسؤالهم عن الموعد،و المعنى ليت الذين كفروا يعلمون الوقت الذى لا يدفعون النار عن وجوههم و لا عن ظهورهم لا باستقلال من أنفسهم و لا هم ينصرون فى دفعها.

قوله تعالى: بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهٰا وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ الذى يقتضيه السياق أن فاعل تأتيهم ضمير راجع الى النار دون الساعه كما ذهب اليه بعضهم،و الجمله إضراب عن قوله فى الآيه السابقه: «لاٰ يَكُفُّونَ» الخ؛لا عن مقدر قبله تقديره لا تأتيهم الآيات بحسب اقتراحهم بل تأتيهم بغته،و لا عن قوله: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بدعوى أنه فى معنى النفى و التقدير لا يعلمون ذلك بل تأتيهم بغته فإن هذه كلها وجوه يأبى عنها السياق.

و معنى إتيان النار بغته أنها تفاجئهم حيث لا يدرون من أين تأتيهم و تحيط بهم فإن ذلك لازم ما وصفه اللّه من أمرها بقوله: نٰارُ اللّٰهِ الْمُوقَدَةُ اَلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَهِ (الهمزه۷/)، و قوله: اَلنّٰارَ الَّتِى وَقُودُهَا النّٰاسُ (البقره۲۴/)،و قوله: إِنَّكُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (الآيه ۹۸ من السوره)،و النار التى هذا شأنه تأخذ باطن الإنسان كظاهره

على حد سواء لا كنار الدنيا حتى تتوجه من جهه الى جهه و تأخذ الظاهر قبل الباطن و الخارج قبل الداخل حتى تمهلهم بقطع مسافه أو بتدرج فى عمل أو مفارقه فى جهه فيحتال لدفعها بتجاف أو تجنب أو إبداء حائل أو الالتجاء الى ركن بل هى معهم كما أن أنفسهم معهم لا تستطاع ردا إذ لا اختلاف جهه و لا تقبل مهله إذ لا مسافه بينها و بينهم فلا تسمح لهم فى نزولها عليهم إلا البهت و الحيره.

فمعنى الآيه-و اللّه أعلم-لا يدفعون النار عن وجوههم و ظهورهم بل تأتيهم من حيث لا يشعرون بها و لا يدرون فتكون مباغته لهم فلا يستطيعون ردها و لا يمهلون فى إتيانها.

قوله تعالى: وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحٰاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ قال فى المجمع:الفرق بين السخريه و الهزء أن فى السخريه معنى طلب الذله لأن التسخير التذليل فأما الهزء فيقتضى طلب صغر القدر بما يظهر فى القول.انتهى و الحيق الحلول،و المراد بما كانوا به يستهزءون،العذاب و فى الآيه تسليه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و تخويف و تهديد للذين كفروا.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ مِنَ الرَّحْمٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ الكلاءه الحفظ و المعنى أسألهم من الذى يحفظهم من الرحمن إن أراد أن يعذبهم ثم أضرب عن تأثير الموعظه و الإنذار فيهم فقال: «بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ» أى القرآن «مُعْرِضُونَ» فلا يعتنون به و لا يريدون أن يصغوا اليه إذا تلوته عليهم و قيل المراد بالذكر مطلق المواعظ و الحجج.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنٰا لاٰ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لاٰ هُمْ مِنّٰا يُصْحَبُونَ أم منقطعه و الاستفهام للإنكار،و كل من «تَمْنَعُهُمْ» و «مِنْ دُونِنٰا» صفه آلهه،و المعنى بل أسألهم ألهم آلهه من دوننا تمنعهم منا.

و قوله: «لاٰ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ» الخ؛تعليل للنفى المستفاد من الاستفهام الإنكارى

و لذا جیء بالفصل و التقدیر لیس لهم آلهه کذلک لأنهم لا یستطیعون نصر أنفسهم بأن ینصر بعضهم بعضا و لا هم منا یجارون و یحفظون فکیف ینصرون عبادهم من المشرکین أو یجیرونهم،و ذکر بعضهم أن ضمائر الجمع راجعه الی المشرکین و السیاق یأباه.

قوله تعالی: بَلْ مَتَّعْنا هٰؤُلاٰءِ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰی طٰالَ عَلَیْهِمُ الْعُمُرُ الی آخر الآیه؛هو إضراب عن مضمون الآیه السابقه کما کان قوله: «بَلْ هُمْ عَنْ ذِکْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ» إضرابا عما تقدمه و المضامین-کما تری-متقاربه.

و قوله: «حَتّٰی طٰالَ عَلَیْهِمُ الْعُمُرُ» غایه لدوام التمتع المدلول علیه بالجمله السابقه و التقدیر بل متعنا هؤلاء المشرکین و آباءهم و دام لهم التمتع حتی طالب علیهم العمر فاغتروا بذلک و نسوا ذکر اللّه و أعرضوا عن عبادته،و کذلک کان مجتمع قریش فإنهم کانوا بعد أبیهم إسماعیل قاطنین فی حرم آمن متمتعین بأنواع النعم التی تحمل الیهم حتی تسلطوا علی مکه و أخرجوا جرهما منها فنسوا ما هم علیه من دین أبیهم إبراهیم و عبدوا الأصنام.

و قوله: أَ فَلاٰ یَرَوْنَ أَنّٰا نَأْتِی الْأَرْضَ نَنْقُصُهٰا مِنْ أَطْرٰافِهٰا الأنسب للسیاق أن یکون المراد من نقص الأرض من أطرافها هو انقراض بعض الامم التی تسکنها فإن لکل أمه أجلا ما تسبق من أمه أجلها و ما یستأخرون-و قد تقدمت الإشاره الی أن المراد بطول العمر علیهم طول عمر مجتمعهم.

و المعنی:أ فلا یرون أن الأرض تنقص منها أمه بعد أمه بالانقراض بأمر اللّه فما ذا یمنعه أن یهلکهم أفهم الغالبون إن أرادهم اللّه سبحانه بضر أو هلاک و انقراض.

قوله تعالی: قُلْ إِنَّمٰا أُنْذِرُکُمْ بِالْوَحْیِ وَ لاٰ یَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعٰاءَ إِذٰا مٰا یُنْذَرُونَ أی إن الذی أنذرکم به وحی إلهی لا ریب فیه و إنما لا یؤثر فیکم أثره و هو الهدایه لأن فیکم صما لا تسمعون الإنذار فالنقص فی ناحیتکم لا فیه.

قوله تعالی: وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَهٌ مِنْ عَذٰابِ رَبِّکَ لَیَقُولُنَّ یٰا وَیْلَنٰا إِنّٰا کُنّٰا

ظَالِمِينَ النفحه الوقعه من العذاب،و المراد أن الإنذار بآيات الذكر لا ينفعهم بل هؤلاء يحتاجون الى نفحه من العذاب حتى يضطروا فيؤمنوا و يعترفوا بظلمهم.

قوله تعالى: وَ نَضَعُ الْمَوٰازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيٰامَهِ فَلاٰ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً القسط العدل و هو عطف بيان للموازين أو صفه للموازين بتقدير مضاف و التقدير الموازين ذوات القسط،و قد تقدم الكلام فى معنى الميزان المنصوب يوم القيامه فى تفسير سوره الأعراف.

و قوله: وَ إِنْ كٰانَ مِثْقٰالَ حَبَّهٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنٰا بِهٰا الضمير فى «وَ إِنْ كٰانَ» للعمل الموزون المدلول عليه بذكر الموازين أى و إن كان العمل الموزون مقدار حبه من خردل فى ثقله أتينا بها و كفى بنا حاسبين و حبه الخردل يضرب بها المثل فى دقتها و صغرها و حقارتها،و فيه إشاره الى أن الوزن من الحساب.

[سوره الأنبياء (٢١): الآيات ۴٨ الى ٧٧]

اشاره

وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسىٰ وَ هٰارُونَ اَلْفُرْقٰانَ وَ ضِيٰاءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (۴٨) اَلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ اَلسّٰاعَهِ مُشْفِقُونَ (۴٩) وَ هٰذٰا ذِكْرٌ مُبٰارَكٌ أَنْزَلْنٰاهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۵٠) وَ لَقَدْ آتَيْنٰا إِبْرٰاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنّٰا بِهِ عٰالِمِينَ (۵١) إِذْ قٰالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مٰا هٰذِهِ اَلتَّمٰاثِيلُ اَلَّتِي أَنْتُمْ لَهٰا عٰاكِفُونَ (۵٢) قٰالُوا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا لَهٰا عٰابِدِينَ (۵٣) قٰالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۵۴) قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اَللاّٰعِبِينَ (۵۵) قٰالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ اَلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلىٰ ذٰلِكُمْ مِنَ اَلشّٰاهِدِينَ (۵۶) وَ تَاللّٰهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنٰامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (۵٧) فَجَعَلَهُمْ جُذٰاذاً إِلاّٰ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (۵٨) قٰالُوا مَنْ فَعَلَ هٰذٰا بِآلِهَتِنٰا إِنَّهُ لَمِنَ اَلظّٰالِمِينَ (۵٩) قٰالُوا سَمِعْنٰا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقٰالُ لَهُ إِبْرٰاهِيمُ (۶٠) قٰالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلىٰ أَعْيُنِ اَلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (۶١) قٰالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هٰذٰا بِآلِهَتِنٰا يٰا إِبْرٰاهِيمُ (۶٢) قٰالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذٰا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كٰانُوا يَنْطِقُونَ (۶٣) فَرَجَعُوا إِلىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقٰالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ اَلظّٰالِمُونَ (۶۴) ثُمَّ نُكِسُوا عَلىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا هٰؤُلاٰءِ يَنْطِقُونَ (۶۵) قٰالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لاٰ يَضُرُّكُمْ (۶۶) أُفٍّ لَكُمْ وَ لِمٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (۶٧) قٰالُوا حَرِّقُوهُ وَ اُنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ (۶٨) قُلْنٰا يٰا نٰارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاٰماً عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ (۶٩) وَ أَرٰادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنٰاهُمُ اَلْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَ نَجَّيْنٰاهُ وَ لُوطاً إِلَى اَلْأَرْضِ اَلَّتِي بٰارَكْنٰا فِيهٰا لِلْعٰالَمِينَ (٧١) وَ وَهَبْنٰا لَهُ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ نٰافِلَهً وَ كُلاًّ جَعَلْنٰا صٰالِحِينَ (٧٢) وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّهً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا وَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْهِمْ فِعْلَ اَلْخَيْرٰاتِ وَ إِقٰامَ اَلصَّلاٰهِ وَ إِيتٰاءَ اَلزَّكٰاهِ وَ كٰانُوا لَنٰا عٰابِدِينَ (٧٣) وَ لُوطاً آتَيْنٰاهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ نَجَّيْنٰاهُ مِنَ اَلْقَرْيَهِ اَلَّتِي كٰانَتْ تَعْمَلُ اَلْخَبٰائِثَ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فٰاسِقِينَ (٧۴) وَ أَدْخَلْنٰاهُ فِي رَحْمَتِنٰا إِنَّهُ مِنَ اَلصّٰالِحِينَ (٧۵) وَ نُوحاً إِذْ نٰادىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنٰا لَهُ فَنَجَّيْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ اَلْكَرْبِ اَلْعَظِيمِ (٧۶) وَ نَصَرْنٰاهُ مِنَ اَلْقَوْمِ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنٰاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسی وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِیاءً وَ ذِکْراً لِلْمُتَّقِینَ رجوع بوجه الی تفصیل ما أجمل فی قوله سابقا: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَکَ إِلاّ رِجالاً نُوحِی إِلَیْهِمْ الآیه؛بذکر ما أوتی النبیون من المعارف و الشرائع و أیدوا بإهلاک أعدائهم بالقضاء بالقسط.

و الآیه التالیه تشهد أن المراد بالفرقان و الضیاء و الذکر التوراه آتاها اللّه موسی و أخاه هارون شریکه فی النبوه.

و الفرقان مصدر کالفرق لکنه أبلغ من الفرق،و ذکر الراغب أنه علی ما قیل اسم لا مصدر و تسمیه التوراه الفرقان لکونها فارقه أو لکونها یفرق بها بین الحق و الباطل فی الاعتقاد و العمل،و الآیه نظیره قوله: وَ إِذْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ وَ الْفُرْقانَ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (البقره/ ۵۳)و تسمیتها ضیاء لکونها مضیئه لمسیرهم الی السعاده و الفلاح فی الدنیا و الآخره، و تسمیتها ذکرا لاشتمالها علی ما یذکر به اللّه من الحکم و المواعظ و العبر.

و لعل کون الفرقان أحد أسماء التوراه هو الموجب لإتیانه باللام بخلاف ضیاء و ذکر،

ص :۲۶۰

و بوجه آخر هی فرقان للجمیع لکنها ضیاء و ذکر للمتقین خاصه لا ینتفع بها غیرهم و لذا جیء بالضیاء و الذکر منکرین لیتقیدا بقوله: «لِلْمُتَّقِینَ» بخلاف الفرقان و قد سمیت التوراه نورا و ذکرا فی قوله تعالی: فِیهٰا هُدیً وَ نُورٌ (المائده۴۴/)و قوله: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّکْرِ (الآیه ۷ من السوره).

قوله تعالی: وَ هٰذٰا ذِکْرٌ مُبٰارَکٌ أَنْزَلْنٰاهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْکِرُونَ الإشاره بهذا الی القرآن و إنما سمی ذکرا مبارکا لأنه ثابت دائم کثیر البرکات ینتفع به المؤمن و الکافر فی المجتمع البشری و تتنعم به الدنیا سواء عرفته أو أنکرته أقرت بحقه أو جحدته.

یدل علی ذلک تحلیل ما نشاهد الیوم من آثار الرشد و الصلاح فی المجتمع العام البشری و الرجوع بها القهقری الی عصر نزول القرآن فما قبله فهو الذکر المبارک الذی یسترشد بمعناه و ان جهل الجاهلون لفظه،و أنکر الجاحدون حقه و کفروا بعظیم نعمته،و أعانهم علی ذلک المسلمون بإهمالهم فی أمره،و قال الرسول یا رب إن قومی اتخذوا هذا القرآن مهجورا.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ آتَیْنٰا إِبْرٰاهِیمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ کُنّٰا بِهِ عٰالِمِینَ انعطاف الی ما قبل موسی و هارون و نزول التوراه کما یفیده قوله: «مِنْ قَبْلُ» و المراد أن إیتاء التوراه لموسی و هارون لم یکن بدعا من أمرنا بل أقسم لقد آتینا قبل ذلک إبراهیم رشده.

و الرشد خلاف الغی و هو إصابه الواقع،و هو فی إبراهیم علیه السّلام اهتداؤه الفطری التام الی التوحید و سائر المعارف الحقه،و إضافه الرشد الی الضمیر الراجع الی إبراهیم تفید الاختصاص و تعطی معنی اللیاقه،و یؤید ذلک قوله بعده: «وَ کُنّٰا بِهِ عٰالِمِینَ» و هو کنایه عن العلم بخصوصیه حاله و مبلغ استعداده.

و المعنی:و أقسم لقد أعطینا إبراهیم ما یستعد له و یلیق من الرشد و إصابه الواقع و کنا عالمین بمبلغ استعداده و لیاقته،و الذی آتاه اللّه سبحانه-کما تقدم-هو ما أدرکه بصفاء فطرته و نور بصیرته من حقیقه التوحید و سائر المعارف الحقه من غیر تعلیم معلم أو تذکیر مذکر أو

تلقین ملقن.

قوله تعالی: إِذْ قٰالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مٰا هٰذِهِ التَّمٰاثِيلُ الَّتِی أَنْتُمْ لَهٰا عٰاكِفُونَ التمثال الشیء المصور و الجمع تماثیل،و العکوف الإقبال علی الشیء و ملازمته علی سبیل التعظیم له کذا ذکره الراغب فیهما.

یرید علیه السّلام بهذه التماثیل الأصنام التی کانوا نصبوها للعباده و تقریب القرابین و کان سؤاله عن حقیقتها لیعرف ما شأنها و قد کان أول وروده فی المجتمع و قد ورد فی مجتمع دینی یعبدون التماثیل و الأصنام،و السؤال مع ذلک مجموع سؤالین اثنین و سؤاله أباه عن الأصنام کان قبل سؤاله قومه علی ما أشیر الیه فی سوره الأنعام و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالی: قٰالُوا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا لَهٰا عٰابِدِينَ هو جواب القوم و لما کان سؤاله علیه السّلام عن حقیقه الأصنام راجعا بالحقیقه الی سؤال السبب لعبادتهم ایاها تمسکوا فی التعلیل بذیل السنه القومیه فذکروا أن ذلک من سنه آبائهم و جدودهم یعبدونها.

قوله تعالی: قٰالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ فِی ضَلاٰلٍ مُبِينٍ و وجه کونهم فی ضلال مبین ما سیورده فی محاجه القوم بعد کسر الأصنام من قوله: «أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لاٰ يَضُرُّكُمْ» .

قوله تعالی: قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاّٰعِبِينَ سؤال تعجب و استبعاد و هو شأن المقلد التابع من غیر بصیره إذا صادف إنکارا لما هو فیه استبعد و لم یکد یذعن بأنه مما یمکن أن ینکره منکر و لذا سألوه أ جئتنا بالحق أم أنت من اللاعبین و المراد بالحق-علی ما یعطیه السیاق-الجد أی أ تقول ما تقوله جدا أم تلعب به؟

قوله تعالی: قٰالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِی فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلىٰ ذٰلِكُمْ مِنَ الشّٰاهِدِينَ هو علیه السّلام-کما تری-یحکم بأن ربهم هو رب السماوات و أن هذا الرب هو الذی فطر السماوات و الأرض و هو اللّه سبحانه،و فی ذلک مقابله تامه لمذهبهم فی

الربوبيه و الالوهيه فإنهم يرون أن لهم إلها أو آلهه غير ما للسماوات و الأرض من الإله أو الآلهه،و هم جميعا غير اللّه سبحانه و لا يرونه تعالى إلها لهم و لا لشىء من السماوات و الأرض بل يعتقدون أنه إله الآلهه و رب الأرباب و فاطر الكل.

فقوله: بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِی فَطَرَهُنَّ رد لمذهبهم فى الالوهيه بجميع جهاته و إثبات أن لا إله إلا اللّه و هو«التوحيد».

ثم كشف عليه السّلام بقوله: «وَ أَنَا عَلىٰ ذٰلِكُمْ مِنَ الشّٰاهِدِينَ» عن أنه معترف مقر بما قاله ملتزم بلوازمه و آثاره شاهد عليه شهاده إقرار و التزام فإن العلم بالشىء غير الالتزام به و ربما تفارقا كما قال تعالى: وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ (النمل/۱۴).

و بهذا التشهد يتم الجواب عن سؤالهم أ هو مجد فيما يقول أم لاعب؟و الجواب لا بل أعلم بذلك و أتدين به.

هذا ما يعطيه السياق فى معنى الآيه،و لهم فى تفسيرها أقاويل أخر،و كذا فى معانى آيات القصه السابقه و اللاحقه وجوه أخر أضربنا عنها لعدم جدوى فى التعرض لها فلا سياق الآيات يساعد عليها و لا مذاهب الوثنيه توافقها.

قوله تعالى: وَ تَاللّٰهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنٰامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ معطوف على قوله: «بَلْ رَبُّكُمْ» الخ؛أى قال لأكيدن أصنامكم،الخ؛و الكيد التدبير الخفى على الشىء بما يسوؤه،و فى قوله: «بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ» دلاله على أنهم كانوا يخرجون من البلد أو من بيت الأصنام أحيانا لعيد كان لهم أو نحوه فيبقى الجو خاليا.

قوله تعالى: فَجَعَلَهُمْ جُذٰاذاً إِلاّٰ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قال الراغب:

الجذ كسر الشىء و تفتيته و يقال لحجاره الذهب المكسوره و لفتات الذهب جذاذا و منه قوله تعالى: «فَجَعَلَهُمْ جُذٰاذاً» انتهى فالمعنى فجعل الأصنام قطعا مكسوره إلا صنما كبيرا من بينهم.

و قوله: لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ظاهر السياق أن هذا الترجى لبيان ما كان يمثله فعله أى كان فعله هذا حيث كسر الجميع إلا واحدا كبيرا لهم فعل من يريد بذلك أن يرى القوم ما وقع على أصنامهم من الجذ و يجدوا كبيرهم سالما بينهم فيرجعوا اليه و يتهموه فى أمرهم كمن يقتل قوما و يترك واحدا منهم ليتهم فى أمرهم.

و على هذا فالضمير فى قوله: «إِلَيْهِ» راجع الى «كَبِيراً لَهُمْ» و يؤيد هذا المعنى أيضا قول إبراهيم الآتى «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذٰا» فى جواب قولهم: «أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هٰذٰا بِآلِهَتِنٰا» .

قوله تعالى: قٰالُوا مَنْ فَعَلَ هٰذٰا بِآلِهَتِنٰا إِنَّهُ لَمِنَ الظّٰالِمِينَ استفهام بداعى التأسف و تحقيق الأمر للحصول على الفاعل المرتكب للظلم و يؤيد ذلك قوله تلوا: قٰالُوا سَمِعْنٰا فَتًى يَذْكُرُهُمْ الخ؛فقول بعضهم:إن«من موصوله»ليس بسديد.

و قوله: إِنَّهُ لَمِنَ الظّٰالِمِينَ قضاء منهم بكونه ظالما يجب أن يساس على ظلمه إذ قد ظلم الآلهه بالتعدى الى حقهم و هو التعظيم و ظلم الناس بالتعدى الى حقهم و هو احترام آلهتهم و تقديس مقدساتهم و ظلم نفسه بالتعدى الى ما ليس له بحق و ارتكاب ما لم يكن له أن يرتكبه.

قوله تعالى: قٰالُوا سَمِعْنٰا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقٰالُ لَهُ إِبْرٰاهِيمُ المراد بالذكر-على ما يستفاد من المقام-الذكر بالسوء أى سمعنا فتى يذكر الآلهه بالسوء فإن يكن فهو الذى فعل هذا بهم إذ لا يتجرأ لارتكاب مثل هذا الجرم إلا مثل ذاك المتجرى.

و قوله: يُقٰالُ لَهُ إِبْرٰاهِيمُ برفع إبراهيم و هو خبر لمبتدإ محذوف و التقدير هو إبراهيم كذا ذكره الزمخشرى.

قوله تعالى: قٰالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلىٰ أَعْيُنِ النّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ المراد بإتيانه على أعين الناس إحضاره فى مجمع من الناس و مرآهم و هو حيث كسرت الأصنام كما يظهر من قول إبراهيم عليه السّلام «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذٰا» بالإشاره الى كبير الأصنام.

و كأن المراد بشـهادتهم أن يشـهدوا عليه بأن كان يذكرهم بالسوء فيكون ذلك ذريعه الى أخذ الإقرار منه بالجذ و الكسر،و أما ما قيل:أن المراد شهادتهم عقاب إبراهيم على ما فعل فبعيد.

قوله تعـالى: قَالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ الاستفهام-كما قيل- للتقرير بالفاعل فإن أصل الفعل مفروغ عنه معلوم الوقوع،و فى قولهم: «بِآلِهَتِنَا» تلويح الى أنهم ما كانوا يعدونه من عبده الأصنام.

قوله تعالى: قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ما أخبر عليه السّلام به بقوله: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا» دعوى بداعي إلزام الخصم و فرض و تقـدير قصـد به إبطال ألوهيتها كما سيصـرح به فى قوله: «أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لاَ يَضُرُّكُمْ» الـخ؛ و ليس بخبر جـدى البته،و هـذا كثير الورود فى المخاصـمات و المنـاظرات فـالمعنى قـال:بـل شاهـد الحـال و هو صيروره الجميع جذاذا و بقاء كبيرهم سالما يشهد أن قد فعله كبيرهم هذا و هو تمهيد لقوله: «فَسْئَلُوهُمْ» الخ.

و قوله: فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ أمر بأن يسألوا الأصنام عن حقيقه الحال و أن الذى فعل بهم هذا من هو؟فيخبروهم به إن كانوا ينطقون فقوله: «إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» شرط جزاؤه محذوف يدل عليه قوله: «فَسْئَلُوهُمْ» .

فتحصل أن الآيه على ظاهرها من غير تكلف إضـمار أو تقديم و تأخير أو محذور تعقيد، و أن صدرها المتضـمن لدعوى اسـتناد الفعل الى كبيرهم إلزام للخصم و توطئه و تمهيـد لـذيلها و هو أمرهم بسؤال الأصـنام إن نطقوا لينتهى الى اعتراف القوم بأنهم لا ينطقون.

قوله تعـالى: فَرَجَعُوا إِلىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظّٰالِمُونَ تفريع على قوله: «فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» فإنهم لما سـمعوا منه ذلـك و هم يرون أن الأصـنام جمادات لا شعور لها و لا نطق تمت عنـد ذلك عليهم الحجه فقضـى كل منهم على نفسه أنه هو الظالم دون

ابراهيم فقوله: «فَرَجَعُوا إِلىٰ أَنْفُسِهِمْ» استعاره بالکنايه عن تنبههم و تفکرهم فی أنفسهم، و قوله: «فَقٰالُوا إِنَّکُمْ أَنْتُمُ الظّٰالِمُونَ» أی قال کل نفسه مخاطبا لها:إنک أنت الظالم حيث تعبد جمادا لا ينطق.

قوله تعالی: ثُمَّ نُکِسُوا عَلىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا هٰؤُلاٰءِ يَنْطِقُونَ قال الراغب:النکس قلب الشیء علی رأسه و منه نکس الولد إذا خرج رجله قبل رأسه قال تعالی: «ثُمَّ نُکِسُوا عَلىٰ رُؤُسِهِمْ» .انتهی فقوله: «ثُمَّ نُکِسُوا عَلىٰ رُؤُسِهِمْ» کنايه أو استعاره بالکنايه عن قلبهم الباطل علی مکان الحق الذی ظهر لهم و الحق علی مکان الباطل کأن الحق علا فی قلوبهم الباطل فنکسوا علی رءوسهم فرفعوا الباطل و هو کون إبراهيم ظالما علی الحق و هو کونهم هم الظالمين فخصموا إبراهيم بقوله: «لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا هٰؤُلاٰءِ يَنْطِقُونَ» .

و معنی قولهم: «لَقَدْ عَلِمْتَ» الخ؛أن دفاعک عن نفسک برمی کبير الأصنام بالفعل و هو الجذ و تعليق ذلک باستنطاق الآلهه مع العلم بأنهم لا ينطقون دليل علی أنک أنت الفاعل الظالم فالجمله کنايه عن ثبوت الجرم و قضاء علی إبراهيم.

قوله تعالی: قٰالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُکُمْ شَيْئاً وَ لاٰ يَضُرُّکُمْ -الی قوله- أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ لما تفوهوا بقولهم: «مٰا هٰؤُلاٰءِ يَنْطِقُونَ» و سمعه إبراهيم لم يشتغل بالدفاع فلم يکن قاصدا لذلک من أول بل استفاد من کلامهم لدعوته الحقه فخصمهم بلازم قولهم و أتمّ الحجه عليهم فی کونهم أصنامهم غير مستحقه للعباده أی غير آلهه.

فما حصل تفريع قوله: «أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُکُمْ شَيْئاً وَ لاٰ يَضُرُّکُمْ» أن لازم کونهم لا ينطقون أن لا يعلموا شيئا و لا يقدروا علی شیء،و لازم ذلک أن لا ينفعوکم شيئا و لا يضروکم،و لازم ذلک أن يکون عبادتهم لغوا إذ العباده إما لرجاء خير أو لخوف شرّ و ليس عندهم شیء من ذلک فليسوا بآلهه.

و قوله: أُفٍّ لَکُمْ وَ لِمٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ تزجر و تبرّ منهم و من آلهتهم بعد

إبطال ألوهيتها،و هـذا كشـهادته على وحـدانيته تعالى بعـد إثباتها فى قوله فيما مر: وَ أَنَا عَلىٰ ذٰلِكُمْ مِنَ الشّٰاهِدِينَ ،و قوله: «أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ» توبيخ لهم.

قوله تعالى: قٰالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ هو عليه السّلام و إن أبطل بكلامه السابق ألوهيه الأصنام و كان لازمه الضمنىّ أن لا يكون كسرهم ظلما و جرما لكنه لوّح بكلامه الى أن رميه كبير الأصنام بالفعل و أمرهم أن يسألوا الآلهه عن ذلک لم يكن لـدفع الجرم عن نفسه بل كان تمهيـدا لإبطال ألوهيه الإلهيه و بهـذا المقـدار من السـكوت و عـدم الرد قضوا عليه بثبوت الجرم و أن جزاءه أن يحرق بالنار.

و لذلک قالوا:حرقوه و انصروا آلهتكم بتعظيم أمرهم و مجازاه من أهان بهم و قولهم: «إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ» تهييج و إغراء.

قوله تعـالى: قُلْنٰا يٰا نٰارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاٰماً عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ خطاب تكوينى للنار تبـدلت به خاصه حرارتها و إحراقها و إفنائها بردا و سلامـا بالنسـبه الى إبراهيم عليه السّلام على طريق خرق العـاده،و بـذلک يظهر أن لا سبيـل لنا الى الوقوف على حقيقه الأمر فيه تفصيلا إذ الأبحاث العقليه عن الحوادث الكونيه إنما تجرى فيما لنا علم بروابط العليه و المعلوليه فيه من العاديات المتكرره،و أما الخوارق التى نجهـل الروابـط فيهـا فلا مجرى لهـا فيهـا.نعم نعلم إجمالا أن لهمم النفوس دخلا فيها و قـد تكلمنا فى ذلک فى مباحث الإعجاز فى الجزء الأول من الكتاب.

و الفصل فى قوله: «قُلْنٰا» الخ؛لكونه فى معنى جواب سؤال مقدر و تقدير الكلام بما فيه من الحذف إيجازا نحو من قولنا:فأضرموا نـارا و ألقوه فيهـا فكـأنه قيل:فما ذا كان بعـده فقيل:قلنا يا نور كونى بردا و سـلاما على إبراهيم،و على هـذا النحو الفصل فى كل «قٰالَ» و «قٰالُوا» فى الآيات السابقه من القصه.

قوله تعالى: وَ أَرٰادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنٰاهُمُ الْأَخْسَرِينَ أى احتالوا عليه ليطفئوا

نوره و يبطلوا حجته فجعلناهم الأخسرين حيث خسروا ببطلان كيدهم و عدم تأثيره و زادوا خساره حيث أظهره اللّه عليهم بالحفظ و الإنجاء.

قوله تعالى: وَ نَجَّيْنٰاهُ وَ لُوطاً إِلَى اَلْأَرْضِ اَلَّتِي بٰارَكْنٰا فِيهٰا لِلْعٰالَمِينَ الأرض المذكوره هى أرض الشام التى هاجر إليها إبراهيم،و لوط أول من آمن به و هاجر معه كما قال تعالى: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قٰالَ إِنِّي مُهٰاجِرٌ إِلىٰ رَبِّي (العنكبوت/٢۶).

قوله تعالى: وَ وَهَبْنٰا لَهُ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ نٰافِلَةً النافله العطيه و قد تكرر البحث عن مضمون الآيتين.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا الى آخر الآيه؛الظاهر-كما يشير اليه ما يدل من (١)الآيات على جعل الإمامه فى عقب إبراهيم عليه السّلام-رجوع الضمير فى «جَعَلْنٰاهُمْ» الى إبراهيم و إسحاق و يعقوب.

و ظاهر قوله: أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا أن الهدايه بالأمر يجرى مجرى المفسر لمعنى الإمامه،و قد تقدم الكلام فى معنى هدايه الإمام بأمر اللّه فى الكلام على قوله تعالى: إِنِّي جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً (البقره/١٢۴)فى الجزء الأول من الكتاب.

و الذى يخص المقام أن هذه الهدايه المجعوله من شئون الإمامه ليست هى بمعنى إراءه الطريق لأن اللّه سبحانه جعل إبراهيم عليه السّلام إماما بعد ما جعله نبيا-كما أوضحناه فى تفسير قوله: إِنِّي جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً فيما تقدم-و لا تنفك النبوه عن الهدايه بمعنى إراءه الطريق فلا يبقى للإمامه إلا الهدايه بمعنى الإيصال الى المطلوب و هى نوع تصرف تكوينى فى النفوس بتسييرها فى سير الكمال و نقلها من موقف معنوى الى موقف آخر.

و إذ كانت تصرفا تكوينيا و عملا باطنيا فالمراد الذى تكون به الهدايه ليس هو الأمر

١- ١) .كقوله تعالى: «وَ جَعَلَهٰا كَلِمَةً بٰاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» (الزخرف/٢٨)و غيره.

التشریعی الاعتباری بل ما یفسره فی قوله: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ فَسُبْحٰانَ الَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ (یس۸۳/)فهو الفیوضات المعنویه و المقامات الباطنیه التی یهتدی إلیها المؤمنون بأعمالهم الصالحه و یتلبسون بها رحمه من ربهم.

و إذ کان الإمام یهدی بالأمر-و الباء للسببیه أو الآله-فهو متلبس به أولا و منه ینتشر فی الناس علی اختلاف مقاماتهم فالإمام هو الرابط بین الناس و بین ربهم فی إعطاء الفیوضات الباطنیه و أخذها کما أن النبی رابط بین الناس و بین ربهم فی أخذ الفیوضات الظاهریه و هی الشرائع الإلهیه تنزل بالوحی علی النبی و تنتشر منه و بتوسطه الی الناس و فیهم،و الإمام دلیل هاد للنفوس الی مقاماتها کما أن النبی دلیل یهدی الناس الی الاعتقادات الحقه و الأعمال الصالحه،و ربما تجتمع النبوه و الإمامه کما فی إبراهیم و ابنیه.

و قوله: وَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرٰاتِ وَ إِقٰامَ الصَّلاٰهِ وَ إِیتٰاءَ الزَّکٰاهِ إضافه المصدر الی معموله تفید تحقق معناه فی الخارج فإن أرید أن لا یفید الکلام ذلک جیء بالقطع عن الإضافه أو بأن و أنّ الدالتین علی تأویل المصدر نص علی ذلک الجرجانی فی دلائل الإعجاز فقولنا:یعجبنی إحسانک و فعلک الخیر،و قوله تعالی: مٰا کٰانَ اللّٰهُ لِیُضِیعَ إِیمٰانَکُمْ (البقره۴۳/)أ یدلّ علی الوقوع قبلا،و قولنا:یعجبنی أن تحسن و أن تفعل الخیر و قوله تعالی:

أَنْ تَصُومُوا خَیْرٌ لَکُمْ (البقره۱۸۴/)لا یدل علی تحقق قبلی،و لذا کان المألوف فی آیات الدعوه و آیات التشریع و الإتیان بأن و الفعل دون المصدر المضاف کقوله: أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّٰهَ (الرعد۳۶/)،و أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِیّٰاهُ (یوسف۴۰/) وَ أَنْ أَقِیمُوا الصَّلاٰهَ (الأنعام۷۲/).

و علی هذا فقوله: «وَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرٰاتِ» الخ؛یدل علی تحقق الفعل أی أن الوحی تعلق بالفعل الصادر عنهم أی أن الفعل کان یصدر عنهم بوحی مقارن له و دلاله إلهیه باطنیه هو غیر الوحی المشرّع الذی یشرّع الفعل أولا و یترتب علیه إتیان الفعل علی ما

شرّع.

و يؤيد هذا الذى ذكره قوله بعد: «وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» فإنه يدل بظاهره على أنهم كانوا قبل ذلك عابدين للّه ثم أيدوا بالوحى و عبادتهم للّه إنما كانت بأعمال شرّعها لهم الوحى المشرع قبلا- فهذا الوحى المتعلق بفعل الخيرات وحى تسديد ليس وحى تشريع.

فالمحصل أنهم كانوا مؤيدين بروح القدس و الظهاره مسددين بقوه ربانيه تدعوهم الى فعل الخيرات و إقام الصلاه و إيتاء الزكاه و هى الإنفاق المالى الخاص بشريعتهم.

قوله تعالى: وَ لُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً الى آخر الآيتين.الحكم بمعنى فصل الخصومات أو بمعنى الحكمه و القريه التى كانت تعمل الخبائث سدوم التى نزل بها لوط فى مهاجرته مع إبراهيم عليهما السّلام،و المراد بالخبائث الأعمال الخبيثه،و المراد بالرحمه الولايه أو النبوه و لكل وجه،و قد تقدمت قصه لوط عليه السّلام فى تفسير سوره هود من الكتاب.

قوله تعالى: وَ نُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ الى آخر الآيتين،أى و اذكر نوحا إذ نادى ربه قبل إبراهيم و من ذكر معه فاستجبنا له،و نداؤه ما حكاه سبحانه من قوله:

رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ و المراد بأهله خاصته إلا امرأته و ابنه الغريق،و الكرب الغم الشديد،و قوله: «وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ» كأن النصر مضمن معنى الإنجاء و نحوه و لذا عدى بمن، و الباقى ظاهر.

و قد تقدمت قصه نوح عليه السّلام فى تفسير سوره هود من الكتاب (۱).

[سوره الأنبياء (۲۱): الآيات ۷۸ الى ۹۱]

اشاره

وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي اَلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ اَلْقَوْمِ وَ كُنّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (۷۸) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَ كُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ اَلْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ اَلطَّيْرَ وَ كُنّا فاعِلِينَ (۷۹) وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (۸۰) وَ لِسُلَيْمانَ اَلرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى اَلْأَرْضِ اَلَّتِي بارَكْنا فِيها وَ كُنّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ (۸۱) وَ مِنَ اَلشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَ كُنّا لَهُمْ حافِظِينَ (۸۲) وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ اَلضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ اَلرّاحِمِينَ (۸۳) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ ذِكْرى لِلْعابِدِينَ (۸۴) وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا اَلْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ اَلصّابِرِينَ (۸۵) وَ أَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ اَلصّالِحِينَ (۸۶) وَ ذَا اَلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي اَلظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ اَلظّالِمِينَ (۸۷) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ اَلْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي اَلْمُؤْمِنِينَ (۸۸) وَ زَكَرِيّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ اَلْوارِثِينَ (۸۹) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي اَلْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ (۹۰) وَ اَلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَ جَعَلْناها وَ اِبْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (۹۱)

۱- ۱) .الانبياء ۴۸-۷۷:بحث روائی فی قصه ابراهیم علیه السّلام و قومه.

بیان:

قوله تعالی: وَ دٰاوُدَ وَ سُلَيْمٰانَ إِذْ يَحْكُمٰانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ -الی قوله- حُكْماً وَ عِلْماً الحرث الزرع و الحرث أیضا الکرم،و النفش رعی الماشیه باللیل،و فی المجمع:النفش بفتح الفاء و سکونها أن تنتشر الإبل و الغنم باللیل فترعی بلا راع.انتهی.

و قوله: وَ دٰاوُدَ وَ سُلَيْمٰانَ إِذْ يَحْكُمٰانِ فِي الْحَرْثِ السیاق یعطی أنها واقعه واحده بعینها رفع حکمها الی داود لکونه هو الملک الحاکم فی بنی إسرائیل و قد جعله اللّه خلیفه فی الأرض کما قال: يٰا دٰاوُدُ إِنّٰا جَعَلْنٰاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّٰاسِ بِالْحَقِّ (ص/ ۲۶)،فإن کان سلیمان یداخل فی حکم الواقعه فمن إذن منه و لحکمه ما و لعلها إظهار أهلیته للخلافه بعد داود.

و من المعلوم أن لا معنی لحکم حاکمین فی واقعه واحد شخصیه مع استقلال کل واحد منهما فی الحکم و نفوذه،و من هنا یظهر أن المراد بقوله: «إِذْ يَحْكُمٰانِ» إذ یتناظران أو یتشاوران فی الحکم لا إصدار الحکم النافذ،و یؤیده کمال التأیید التعبیر بقوله: «إِذْ يَحْكُمٰانِ» علی نحو حکایه الحال الماضیه کأنهما أخذا فی الحکم أخذا تدریجیا لم یتم بعد و لن یتم إلا حکما واحدا

نافذا و كان الظاهر أن يقال:إذ حكما.

و يؤيده أيضا قوله: «وَ كُنّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ» فإن الظاهر أن ضمير «لِحُكْمِهِمْ» للأنبياء و قد تكرر فى كلامه تعالى أنه آتاهم الحكم لا ـ كما قيل:إن الضمير لداود و سليمان و المحكوم لهم إذ لا وجه يوجه به نسبه الحكم الى المحكوم لهم أصلا،فكان الحكم حكما واحدا هو حكم الأنبياء و الظاهر أنه ضمان صاحب الغنم للمال الذى أتلفته غنمه.

فكان الحكم حكما واحدا اختلفا فى كيفيه إجرائه عملا إذ لو كان الاختلاف فى أصل الحكم لكان فرض صدور حكمين منهما بأحد وجهين إما بكون كلا الحكمين حكما واقعيا للّه ناسخا أحدهما-و هو حكم سليمان-الآخر و هو حكم داود لقوله تعالى: «فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ» و إما بكون الحكمين معا عن اجتهاد منهما بمعنى الرأى الظنى مع الجهل بالحكم الواقعى و قد صدق تعالى اجتهاد سليمان فكان هو حكمه.

أما الأول و هو كون حكم سليمان ناسخا لحكم داود فلا ـ ينبغى الارتياب فى أن ظاهر جمل الآيه لا يساعد عليه إذ الناسخ و المنسوخ متباينان و لو كان حكماهما من قبيل النسخ و متباينين لقيل:و كنا لحكمهما أو لحكميهما ليدل على التعدد و التباين و لم يقل: «وَ كُنّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ» المشعر بوحده الحكم و كونه تعالى شاهدا له الظاهر فى صونهم عن الخطاء،و لو كان داود حكم فى لواقعه بحكم منسوخ لكان على الخطاء،و لا يناسبه أيضا قوله: «وَ كُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً» و هو مشعر بالتأييد ظاهر فى المدح.

و أما الثانى و هو كون الحكمين عن اجتهاد منهما مع الجهل بحكم اللّه الواقعى فهو أبعد من سابقه لأنه تعالى يقول «فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ» و هو العلم بحكم اللّه الواقعى و كيف ينطبق على الرأى الظنى بما أنه رأى ظنى.ثم يقول:و كلا ـ آتينا حكما و علما فيصدق بذلك أن الذى حكم به داود أيضا كان حكما علميا لا ظنيا و لو لم يشمل قوله: «وَ كُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً» حكم داود فى الواقعه لم يكن وجه لإيراد الجمله فى المورد.

على أنـك سـمعت أن قوله: «وَ كُنّٰا لِحُكْمِهِمْ شٰاهِدِينَ» لا يخلو من إشعار بل دلاله على أن الحكم كان واحدا و مصونا عن الخطاء.فلا يبقى إلا أن يكون حكمهما واحدا فى نفسه مختلفا من حيث كيفيه الإجراء و كان حكم سليمان أوفق و أرفق.

و قد وردت فى روايات الشيعه و أهل السنه ما إجماله أن داود حكم لصاحب الحرث برقاب الغنم و سليمان حكم له بمنافعها فى تلك السنه من ضرع و صوف و نتاج.

و لعل الحكم كان هو ضـمان ما أفسدته الغنم من الحرث على صاحبها و كان ذلك مساويا لقيمه رقاب الغنم فحكم داود لذلك برقابها لصاحب الحرث،و حكم سليمان بما هو أرفق منه و هو أن يستوفى ما أتلفت من ماله من منافعها فى تلك السنه و المنافع المستوفاه من الغنم كل سنه تعدل قيمتها قيمه الرقبه عاده.

فقوله: وَ دٰاوُدَ وَ سُلَيْمٰانَ أى و اذكر داود و سليمان «إِذْ» حين يحكمان فى الحرث «إِذْ» حين «نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ» أى تفرقت فيه ليلا و أفسدته «وَ كُنّٰا لِحُكْمِهِمْ» أى لحكم الأنبياء،و قيل:الضمير راجع الى داود و سليمان و المحكوم له،و قد عرفت ما فيه،و قيل:

الضـمير لـداود و سليمان لأن الاثنين جمع و هو كمـا ترى «شٰاهِدِينَ» حاضرين نرى و نسمع و نوقفهم على وجه الصواب فيه «فَفَهَّمْنٰاهٰا» أى الحكومه و القضيه «سُلَيْمٰانَ وَ كُلاًّ» من داود و سليمان «آتيناه حكما و علما» و ربما قيل:إن تقدير صدر الآيه«و لقد آتينا داود و سليمان علما»إذ يحكمان،الخ.

قوله تعالى: وَ سَخَّرْنٰا مَعَ دٰاوُدَ الْجِبٰالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنّٰا فٰاعِلِينَ التسخير هو تذليل الشىء بحيث يكون عمله على ما هو عليه فى سبيل مقاصد المسخر -بكسر الخاء-و هذا غير الإجبار و الإكراه و القسر فإن الفاعل فيها خارج عن مقتضى اختياره أو طبقه بخلاف الفاعل المسخر-بفتح الخاء-فإنه جار على مقتضى طبعه و اختياره كما أن إحراق الإنسان الحطب بالنار فعل تسخيرى من النار و ليست بمقسوره و كذا فعل

الأجير لمؤجره فعل تسخيرى من الأجير و ليس بمجبر و لا مكره.

و من هنا يظهر أن معنى تسخير الجبال و الطير مع داود يسبحن معه أن لهما تسبيحا فى نفسهما و تسخيرهما أن يسبحن مع داود بمواطاه تسبيحه فقوله:«يسبحن معه»بيان لقوله:

«وَ سَخَّرْنٰا مَعَ دٰاوُدَ» و قوله: «وَ الطَّيْرَ» معطوف على الجبال.

و قوله: وَ كُنّٰا فٰاعِلِينَ أى كانت أمثال هذه المواهب و العنايات من سنتنا و ليس ما أنعمنا به عليهما ببدع منا.

قوله تعالى: وَ عَلَّمْنٰاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شٰاكِرُونَ قال فى المجمع:اللبوس اسم للسلاح كله عند العرب-الى أن قال-و قيل:هو الدرع انتهى.و فى المفردات:و قوله تعالى: «صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ» يعنى به الدرع.

و البأس شده القتال و كأن المراد به فى الآيه شده وقع السلاح و ضمير «وَ عَلَّمْنٰاهُ» لداود كما قال فى موضع آخر: وَ أَلَنّٰا لَهُ الْحَدِيدَ و المعنى و علمنا داود صنعه درعكم-أى علمناه كيف يصنع لكم الدرع لتحرزكم و تمنعكم شده وقع السلاح و قوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ شٰاكِرُونَ» تقرير على الشكر.

قوله تعالى: وَ لِسُلَيْمٰانَ الرِّيحَ عٰاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ الخ؛عطف على قوله:

«لِدٰاوُدَ»أى و سخرنا لسليمان الريح عاصفه أى شديده الهبوب تجرى الريح بأمره الى الأرض التى باركنا فيها و هى أرض الشام التى كان يأوى إليها سليمان و كنا عالمين بكل شىء.

و ذكر تسخير الريح عاصفه مع أن الريح كانت مسخره له فى حالتى شدتها و رخائها كما قال: رُخٰاءً حَيْثُ أَصٰابَ (ص/۳۶)لأن تسخير الريح عاصفه أعجب و أدل على القدره.

قوله تعالى: وَ مِنَ الشَّيٰاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذٰلِكَ وَ كُنّٰا لَهُمْ حٰافِظِينَ كان الغوص لاستخراج أمتعه البحر من اللئالى و غيرها،و المراد

بالعمل الذى دون ذلك ما ذكره بقوله: يَعْمَلُونَ لَهُ مٰا يَشٰاءُ مِنْ مَحٰارِيبَ وَ تَمٰاثِيلَ وَ جِفٰانٍ كَالْجَوٰابِ وَ قُدُورٍ رٰاسِيٰاتٍ (سبأ/١٣)،و المراد بحفظ الشياطين حفظهم فى خدمته و منعهم من أن يهربوا أو يمتنعوا أو يفسدوا عليه الأمر،و المعنى ظاهر و ستجىء قصتا داود و سليمان عليهما السّلام فى سوره سبأ إن شاء اللّه تعالى.

قوله تعالى: وَ أَيُّوبَ إِذْ نٰادىٰ رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرّٰاحِمِينَ الضر بالضم خصوص ما يمس النفس من الضرر كالمرض و الهزال و نحوهما و بالفتح أعم.

و قد شملته عليه السّلام البليه فذهب ماله و مات أولاده و ابتلى فى بدنه بمرض شديد مده مديده ثم دعا اللّه و شكى اليه حاله فاستجاب اللّه له و نجاه من مرضه و أعاد عليه ماله و ولده و مثلهم معهم

و هو قوله فى الآيه التاليه: «فَاسْتَجَبْنٰا لَهُ فَكَشَفْنٰا مٰا بِهِ مِنْ ضُرٍّ» أى نجيناه من مضره و شفيناه «وَ آتَيْنٰاهُ أَهْلَهُ» أى من مات من أولاده «وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنٰا وَ ذِكْرىٰ لِلْعٰابِدِينَ» ليتذكروا و يعلموا أن اللّه يبتلى أولياءه امتحانا منه لهم ثم يؤتيهم أجرهم و لا يضيع أجر المحسنين.

و ستجىء قصه أيوب عليه السّلام فى سوره ص إن شاء اللّه تعالى.

قوله تعالى: وَ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ الخ؛أما إدريس عليه السّلام فقد تقدمت قصته فى سوره مريم،و أما إسماعيل فستجىء قصته فى سوره الصافات،و تأتى قصه ذى الكفل فى سوره ص إن شاء اللّه تعالى.

قوله تعالى: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغٰاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ الخ؛النون الحوت و ذو النون هو يونس النبى ابن متى صاحب الحوت الذى بعث الى أهل نينوى فدعاهم فلم يؤمنوا فسأل اللّه أن يعذبهم فلما أشرف عليهم العذاب تابوا و آمنوا فكشفه اللّه عنهم ففارقهم يونس فابتلاه اللّه أن ابتلعه حوت فناداه تعالى فى بطنه فكشف عنه و أرسله ثانيا الى

قومه.

و قوله: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ أی و اذكر ذا النون إذ ذهب مغاضبا أی لقومه حيث لم يؤمنوا به فظن أن لن نقدر عليه أی لن نضيق عليه من قدر عليه رزقه أی ضاق كما قيل.

و يمكن أن يكون قوله: «إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» واردا مورد التمثيل أی كان ذهابه هذا و مفارقه قومه ذهاب من كان مغاضبا لمولاه و هو يظن أن مولاه لن يقدر عليه و هو يفوته بالابتعاد منه فلا يقوى على سياسته و أما كونه عليه السّلام مغاضبا لربه حقيقه و ظنه أن اللّه لا يقدر عليه جدا فمما يجل ساحه الأنبياء الكرام عن ذلك قطعا و هم معصومون بعصمه اللّه.

و قوله: فَنادى فِي الظُّلُماتِ الخ؛فيه إيجاز بالحذف و الكلام متفرع عليه و التقدير فابتلاه اللّه بالحوت فالتقمه فی بطنه ربه،و الظاهر أن المراد بالظلمات كما قيل-ظلمه البحر و ظلمه بطن الحوت و ظلمه الليل.

و قوله: أَنْ لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ تبر منه عليه السّلام مما كان يمثله ذهابه لوجهه و مفارقته قومه من غير أن يؤمر فان ذهابه ذلك كان يمثل-و إن لم يكن قاصدا ذلك متعمدا فيه-أن هناك مرجعا يمكن أن يرجع اليه غير ربه فتبرأ من ذلك بقوله: «لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ» و كان يمثل أن من الجائز أن يعترض على فعله فيغاضب منه و أن من الممكن أن يفوته تعالى فائت فيخرج من حيطه قدرته فتبرأ من ذلك بتنزيهه بقوله:سبحانك.

و قوله: إِنِّی كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ اعتراف بالظلم من حيث إنه أتى بعمل كان يمثل الظلم و إن لم يكن ظلما فی نفسه و لا هو عليه السّلام قصد به الظلم و المعصيه غير أن ذلك كان تأديبا منه تعالى و تربيه لنبيه ليطأ بساط القرب بقدم مبرأه فی مشيتها من تمثيل الظلم فضلا عن نفس الظلم.

قوله تعالى: فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِی الْمُؤْمِنِينَ

هو علیه السّلام و إن لم یصرح بشیء من الطلب و الدعاء،و إنما أتی بالتوحید و التنزیه و اعترف بالظلم لکنه أظهر بذلک حاله و أبدی موقفه من ربه و فیه سؤال النجاه و العافیه فاستجاب اللّه له.

و نجاه من الغم و هو الکرب الذی نزل به.

و قوله: وَ کَذٰلِکَ نُنْجِی الْمُؤْمِنِینَ وعد بالإنجاء لمن ابتلی من المؤمنین بغمّ ثم نادی ربه بمثل ما نادی به یونس علیه السّلام و ستجیء قصته علیه السّلام فی سوره الصافات إن شاء اللّه.

قوله تعالی: وَ زَکَرِیّٰا إِذْ نٰادیٰ رَبَّهُ رَبِّ لاٰ تَذَرْنِی فَرْداً وَ أَنْتَ خَیْرُ الْوٰارِثِینَ معطوف علی ما عطف علیه ما قبله أی و اذکر زکریا حین نادی ربه یسأل ولدا و قوله: «رَبِّ لاٰ تَذَرْنِی فَرْداً» بیان لندائه،و المراد بترکه فردا أن یترک و لا ولد له یرثه.

و قوله: وَ أَنْتَ خَیْرُ الْوٰارِثِینَ ثناء و تحمید له تعالی بحسب لفظه و نوع تنزیه له بحسب المقام إذ لما قال: «لاٰ تَذَرْنِی فَرْداً» و هو کنایه عن طلب الوارث و اللّه سبحانه هو الذی یرث کل شیء نزهه تعالی عن مشارکه غیره له فی معنی الوراثه و رفعه عن مساواه غیره فقال: «وَ أَنْتَ خَیْرُ الْوٰارِثِینَ» .

قوله تعالی: فَاسْتَجَبْنٰا لَهُ وَ وَهَبْنٰا لَهُ یَحْییٰ وَ أَصْلَحْنٰا لَهُ زَوْجَهُ الخ؛ظاهر الکلام أن المراد بإصلاح زوجه أی زوج زکریا له جعلها شابه ولودا بعد ما کانت عاقرا کما یصرح به فی دعائه وَ کٰانَتِ امْرَأَتِی عٰاقِراً (مریم/۸).

و قوله: إِنَّهُمْ کٰانُوا یُسٰارِعُونَ فِی الْخَیْرٰاتِ وَ یَدْعُونَنٰا رَغَباً وَ رَهَباً وَ کٰانُوا لَنٰا خٰاشِعِینَ ظاهر السیاق أن ضمیر الجمع لبیت زکریا،و کأنه تعلیل لمقدر معلوم من سابق الکلام و التقدیر نحو من قولنا:انعمنا علیهم لأنهم کانوا یسارعون فی الخیرات.

و الرغب و الرهب مصدران کالرغبه و الرهبه بمعنی الطمع و الخوف و هما تمییزان إن کانا باقیین علی معناهما المصدری و حالان إن کانا بمعنی الفاعل،و الخشوع هو تأثر القلب من مشاهده العظمه و الکبریاء.

و المعنی:أنعمنا علیهم لأنهم کانوا یسارعون فی الخیرات من الأعمال و یدعوننا رغبه فی رحمتنا أو ثوابنا رهبه من غضبنا أو عقابنا أو یدعوننا راغبین راهبین و کانوا لنا خاشعین بقلوبهم.

و قد تقدمت قصه زکریا و یحیی علیهما السّلام فی أوائل سوره مریم.

قوله تعالی: وَ الَّتِی أَحْصَنَتْ فَرْجَهٰا فَنَفَخْنٰا فِیهٰا مِنْ رُوحِنٰا وَ جَعَلْنٰاهٰا وَ ابْنَهٰا آیَهً لِلْعٰالَمِینَ المراد بالتی أحصنت فرجها مریم ابنه عمران و فیه مدح لها بالعفه و الصیانه و ردّ لما اتهمها به الیهود.

و قوله: فَنَفَخْنٰا فِیهٰا مِنْ رُوحِنٰا الضمیر لمریم و النفخ فیها من الروح کنایه عن عدم استناد ولاده عیسی علیه السّلام الی العاده الجاریه فی کینونه الولد من تصور النطفه أولا ثم نفخه الروح فیها فإذا لم یکن هناک نطفه مصوره لم یبق إلا نفخ الروح فیها و هی الکلمه الإلهیه کما قال: إِنَّ مَثَلَ عِیسیٰ عِنْدَ اللّٰهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ قٰالَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (آل عمران/ ۵۹)أی مثلهما واحد فی استغناء خلقهما عن النطفه.

و قوله: وَ جَعَلْنٰاهٰا وَ ابْنَهٰا آیَهً لِلْعٰالَمِینَ أفرد الآیه فعدهما أعنی مریم و عیسی علیهما السّلام معا آیه واحده للعالمین لأن الآیه هی الولاده کذلک و هی قائمه بهما معا و مریم أسبق قدما فی إقامه هذه الآیه و لذا قال تعالی: «وَ جَعَلْنٰاهٰا وَ ابْنَهٰا آیَهً» و لم یقل:و جعلنا ابنها و إیاها آیه.و کفی لها فخرا أن یدخل ذکرها فی ذکر الأنبیاء علیهم السّلام فی کلامه تعالی و لیست منهم (۱).

[سوره الأنبیاء (۲۱): الآیات ۹۲ الی ۱۱۲]

اشاره

إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّهً وٰاحِدَهً وَ أَنَا رَبُّکُمْ فَاعْبُدُونِ (۹۲) وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَیْنَهُمْ کُلٌّ إِلَیْنٰا رٰاجِعُونَ (۹۳) فَمَنْ یَعْمَلْ مِنَ اَلصّٰالِحٰاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلاٰ کُفْرٰانَ لِسَعْیِهِ وَ إِنّٰا لَهُ کٰاتِبُونَ (۹۴) وَ حَرٰامٌ عَلیٰ قَرْیَهٍ أَهْلَکْنٰاهٰا أَنَّهُمْ لاٰ یَرْجِعُونَ (۹۵) حَتّٰی إِذٰا فُتِحَتْ یَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ کُلِّ حَدَبٍ یَنْسِلُونَ (۹۶) وَ اِقْتَرَبَ اَلْوَعْدُ اَلْحَقُّ فَإِذٰا هِیَ شٰاخِصَهٌ أَبْصٰارُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا یٰا وَیْلَنٰا قَدْ کُنّٰا فِی غَفْلَهٍ مِنْ هٰذٰا بَلْ کُنّٰا ظٰالِمِینَ (۹۷) إِنَّکُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهٰا وٰارِدُونَ (۹۸) لَوْ کٰانَ هٰؤُلاٰءِ آلِهَهً مٰا وَرَدُوهٰا وَ کُلٌّ فِیهٰا خٰالِدُونَ (۹۹) لَهُمْ فِیهٰا زَفِیرٌ وَ هُمْ فِیهٰا لاٰ یَسْمَعُونَ (۱۰۰) إِنَّ اَلَّذِینَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّٰا اَلْحُسْنیٰ أُولٰئِکَ عَنْهٰا مُبْعَدُونَ (۱۰۱) لاٰ یَسْمَعُونَ حَسِیسَهٰا وَ هُمْ فِی مَا اِشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خٰالِدُونَ (۱۰۲) لاٰ یَحْزُنُهُمُ اَلْفَزَعُ اَلْأَکْبَرُ وَ تَتَلَقّٰاهُمُ اَلْمَلاٰئِکَهُ هٰذٰا یَوْمُکُمُ اَلَّذِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۱۰۳) یَوْمَ نَطْوِی اَلسَّمٰاءَ کَطَیِّ اَلسِّجِلِّ لِلْکُتُبِ کَمٰا بَدَأْنٰا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِیدُهُ وَعْداً عَلَیْنٰا إِنّٰا کُنّٰا فٰاعِلِینَ (۱۰۴) وَ لَقَدْ کَتَبْنٰا فِی اَلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ اَلذِّکْرِ أَنَّ اَلْأَرْضَ یَرِثُهٰا عِبٰادِیَ اَلصّٰالِحُونَ (۱۰۵) إِنَّ فِی هٰذٰا لَبَلاٰغاً لِقَوْمٍ عٰابِدِینَ (۱۰۶) وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ إِلاّٰ رَحْمَهً لِلْعٰالَمِینَ (۱۰۷) قُلْ إِنَّمٰا یُوحیٰ إِلَیَّ أَنَّمٰا إِلٰهُکُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۰۸) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُکُمْ عَلیٰ سَوٰاءٍ وَ إِنْ أَدْرِی أَ قَرِیبٌ أَمْ بَعِیدٌ مٰا تُوعَدُونَ (۱۰۹) إِنَّهُ یَعْلَمُ اَلْجَهْرَ مِنَ اَلْقَوْلِ وَ یَعْلَمُ مٰا تَکْتُمُونَ (۱۱۰) وَ إِنْ أَدْرِی لَعَلَّهُ فِتْنَهٌ لَکُمْ وَ مَتٰاعٌ إِلیٰ حِینٍ (۱۱۱) قٰالَ رَبِّ اُحْکُمْ بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا اَلرَّحْمٰنُ اَلْمُسْتَعٰانُ عَلیٰ مٰا تَصِفُونَ (۱۱۲)

۱- ۱) .الانبیاء ۷۸-۹۱:بحث روائی فی قصه داود و سلیمان و ذا النون.

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ الامه جماعه يجمعها مقصد واحد،و الخطاب فی الآیه علی ما یشهد به سیاق الآیات-خطاب عام یشمل جمیع الأفراد المکلفین من الإنسان،و المراد بالامه النوع الانسانی الذی هو نوع واحد، و تأنیث الإشاره فی قوله: «هٰذِهِ أُمَّتُکُمْ» لتأنیث الخبر.

و المعنی:أن هذا النوع الإنسانی أمتکم معشر البشر و هی أمه واحده و أنا-للّه الواحد عز اسمه-ربکم إذ ملکتکم و دبرت أمرکم فاعبدونی لا غیر.

و فی قوله: أُمَّةً وٰاحِدَةً إشاره الی حجه الخطاب بالعباده للّه سبحانه فإن النوع الإنسانی لما کان نوعا واحدا و أمه واحده ذات مقصد واحد و هو سعاده الحیاه الإنسانیه لم

ص :٢٨١

یکن له إلا رب واحد إذ الربوبیه و الالوهیه لیست من المناصب التشریفیه الوضعیه حتی یختار الإنسان منها لنفسه ما یشاء و کم یشاء و کیف یشاء بل هی مبدئیه تکوینیه لتدبیر أمره، و الانسان حقیقه نوعیه واحده،و النظام الجاری فی تدبیر أمره نظام واحد متصل مرتبط بعضی أجزائه ببعض،و نظام التدبیر الواحد لا یقوم به إلا مدبر واحد فلا معنی لأن یختلف الإنسان فی أمر الربوبیه فیتخذ بعضهم ربا غیر ما یتخذه الآخر أو یسلک قوم فی عبادته غیر ما یسلکه الآخرون فالإنسان نوع واحد یجب أن یتخذ ربا واحد هو رب بحقیقه الربوبیه.

و هو اللّه عز اسمه.

قوله تعالی: وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَیْنَهُمْ کُلٌّ إِلَیْنٰا رٰاجِعُونَ التقطع علی ما قال فی مجمع البیان بمعنی التقطیع و هو التفریق،و قیل:هو بمعناه المتبادر و هو التفرق و هو الاختلاف و «أَمْرَهُمْ» منصوب بنزع الخافض،و التقدیر فتقطعوا فی أمرهم و قیل «تَقَطَّعُوا» مضمن معنی الجعل و لذا عدی الی المفعول بنفسه.

و کیف کان فقوله: «فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَیْنَهُمْ» استعاره بالکنایه و المراد به أنهم جعلوا هذا الأمر الواحد و هو دین التوحید المندوب الیه من طریق النبوه و هو أمر وحدانی قطعا متقطعه وزعوه فیما بینهم أخذ کل منهم شیئا منه و ترک شیئا کالوثنیین و الیهود و النصاری و المجوس و الصابئین علی اختلاف طوائفهم و هذا نوع تقریع للناس و ذم لاختلافهم فی الدین و ترکهم الأمر الإلهی أن یعبدوه وحده.

و قوله: کُلٌّ إِلَیْنٰا رٰاجِعُونَ فیه بیان أن اختلافهم فی أمر الدین لا یترک سدی لا أثر له بل هؤلاء راجعون الی اللّه جمیعا و هم مجزیون حسب ما اختلفوا کما یلوح الیه التفصیل المذکور فی قوله بعد: «فَمَنْ یَعْمَلْ مِنَ الصّٰالِحٰاتِ» الخ.

و الفصل فی جمله «کُلٌّ إِلَیْنٰا رٰاجِعُونَ» لکونها فی معنی الجواب عن سؤال مقدر کأنه قیل:فإلی م ینتهی اختلافهم فی أمر الدین؟و ما ذا ینتج؟فقیل:کل الینا راجعون فنجازیهم کما

علموا.

قوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنّا لَهُ كاتِبُونَ تفصيل لحال المختلفين بحسب الجزاء الاخروى و سيأتى ما فى معنى تفصيل جزائهم فى الدنيا من قوله: «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ» .

فقوله: فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ أى من يعمل منهم شيئا من الأعمال الصالحات و قد قيد عمل بعض الصالحات بالإيمان إذ قال: «وَ هُوَ مُؤْمِنٌ» فلا أثر للعمل الصالح بغير إيمان.

و المراد بالإيمان-على ما يظهر من السياق و خاصه قوله فى الآيه الماضيه: «وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» -الإيمان باللّه قطعا غير أن الإيمان باللّه لا يفارق الإيمان بأنبيائه من دون استثناء لقوله: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ -الى قوله- أُولٰئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا (النساء/١٥١).

و قوله: فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ أى لا ستر على ما عمله من الصالحات و الكفران يقابل الشكر و لذا عبر عن هذا المعنى فى موضع آخر بقوله: وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (الدهر/ ٢٢).

و قوله: وَ إِنّا لَهُ كاتِبُونَ أى مثبتون فى صحائف الأعمال إثباتا لا ينسى معه فالمراد بقوله: «فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنّا لَهُ كاتِبُونَ» أن عمله الصالح لا ينسى و لا يكفر.

و الآيه من الآيات الداله على أن قبول العمل الصالح مشروط بالإيمان كما تؤيده آيات حبط الأعمال مع الكفر،و تدل أيضا على أن المؤمن العامل لبعض الصالحات من أهل النجاه.

قوله تعالى: وَ حَرامٌ عَلىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ الذى يستبق من

الآیه الی الذهن بمعونه من سیاق التفصیل أن یکون المراد أن أهل القریه التی أهلکناها لا یرجعون ثانیا الی الدنیا لیحصلوا علی ما فقدوه من نعمه الحیاه و یتدارکوا ما فوتوه من الصالحات و هو واقع محل أحد طرفی التفصیل الذی تضمن طرفه الآخر قوله: «فَمَنْ یَعْمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ» الخ؛فیکون الطرف الآخر من طرفی التفصیل أن من لم یکن مؤمنا قد عمل من الصالحات فلیس له عمل مکتوب و سعی مشکور و إنما هو خائب خاسر ضل سعیه فی الدنیا و لا سبیل له الی حیاه ثانیه فی الدنیا یتدارک فیها ما فاته.

غیر أنه تعالی وضع المجتمع موضع الفرد إذ قال: «وَ حَرامٌ عَلی قَرْیَهٍ أَهْلَکْناها» و لم یقل:

و حرام علی من أهلکناه لأن فساد الفرد یسری بالطبع الی المجتمع و ینتهی الی طغیانهم فیحق علیهم کلمه العذاب فیهلکون کما قال: وَ إِنْ مِنْ قَرْیَهٍ إِلاّ نَحْنُ مُهْلِکُوها قَبْلَ یَوْمِ الْقِیامَهِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِیداً (الإسراء۵۸/).

و یمکن-علی بعد-أن یکون المراد بالإهلاک الإهلاک بالذنوب بمعنی بطلان استعداد السعاده و الهدی کما فی قوله: وَ إِنْ یُهْلِکُونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما یَشْعُرُونَ (الأنعام۲۶/) فتکون الآیه فی معنی قوله: فَإِنَّ اللّهَ لا یَهْدِی مَنْ یُضِلُّ (النحل۳۷/)،و المعنی و حرام علی قوم أهلکناهم بذنوبهم و قضینا علیهم الضلال أن یرجعوا الی التوبه و حال الاستقامه.

و معنی الآیه و القریه التی لم تعمل من الصالحات و هی مؤمنه و انجز أمرها الی الإهلاک ممتنع علیهم أن یرجعوا فیتدارکوا ما فاتهم من السعی المشکور و العمل المکتوب المقبول.

و أما قوله: أَنَّهُمْ لا یَرْجِعُونَ و کان الظاهر أن یقال:أنهم یرجعون فالحق أنه مجاز عقلی وضع فیه نتیجه تعلق الفعل بشیء-أعنی ما یؤول الیه حال المتعلق بعد تعلقه به- موضع نفس المتعلق فنتیجه تعلق الحرمه برجوعهم عدم الرجوع فوضعت هذه النتیجه موضع نفس الرجوع الذی هو متعلق الحرمه و فی هذا الصنع إفاده نفوذ الفعل کأن الرجوع یصیر بمجرد تعلق الحرمه عدم رجوع من غیر تخلل فصل.

ص :۲۸۴

قوله تعالى: حَتّٰى إِذٰا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ الحدب بفتحتين الارتفاع من الأرض بين الانخفاض،و النسول الخروج بإسراع و منه نسلان الذئب،و السياق يقتضى أن يكون قوله: «حَتّٰى إِذٰا فُتِحَتْ» الخ؛غايه للتفصيل المذكور فى قوله: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّٰالِحٰاتِ» الى آخر الآيتين؛و أن يكون ضمير الجمع راجعا الى يأجوج و مأجوج.

و المعنى:لا يزال الأمر يجرى هذا المجرى نكتب الأعمال الصالحه للمؤمنين و نشكر سعيهم و نهلك القرى الظالمه و نحرم رجوعهم بعد الهلاك الى الزمان الذى يفتح فيه يأجوج و مأجوج أى سدهم أو طريقهم المسدود و هم أى يأجوج و مأجوج يخرجون الى سائر الناس من ارتفاعات الأرض مسرعين نحوهم و هو من أشراط الساعه و أمارات القيامه كما يشير اليه بقوله: فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكّٰاءَ وَ كٰانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا وَ تَرَكْنٰا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنٰاهُمْ جَمْعاً (الكهف٩٩/)و قد استوفينا الكلام فى معنى يأجوج و مأجوج و السد المضروب دونهم فى تفسير سوره الكهف.

قوله تعالى: وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذٰا هِيَ شٰاخِصَةٌ أَبْصٰارُ الَّذِينَ كَفَرُوا الخ؛المراد بالوعد الحق الساعه،و شخوص البصر نظره بحيث لا تطرف أجفانه،و كذا ذكره الراغب و هو لازم كمال اهتمام الناظر بما ينظر اليه بحيث لا يشتغل بغيره و يكون غالبا من الشر الذى يظهر للإنسان بغته.

و قوله: يٰا وَيْلَنٰا قَدْ كُنّٰا فِى غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا حكايه قول الكفار إذا شاهدوا الساعه بغته فدعوا لأنفسهم بالويل مدعين أنهم غفلوا عما يشاهدونه كأنهم أغفلوا إغفالا ثم أضربوا عن ذلك بالاعتراف بأن الغفله لم تنشأ إلا عن ظلمهم بالاشتغال بما ينسى الآخره و يغفل عنها من أمور الدنيا فقالوا: «بَلْ كُنّٰا ظٰالِمِينَ» .

قوله تعالى: إِنَّكُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهٰا

وارِدُونَ الحصب الوقود،و قيل:الحطب،و قيل:أصله ما يرمى فى النار فيكون أعم.

و المراد بقوله: وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ و لم يقل:و من تعبدون-مع تعبيره تعالى عن الأصنام فى أغلب كلامه بألفاظ تختص بأولى العقل كما فى قوله بعد: «مٰا وَرَدُوهٰا» - الأصنام و التماثيل التى كانوا يعبدونها دون المعبودين من الأنبياء و الصلحاء و الملائكه كما قيل و يدل على ذلك قوله بعد: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنىٰ» الخ.

و الظاهر أن هذه الآيات من خطابات يوم القيامه للكفار و فيها القضاء بدخولهم فى النار و خلودهم فيها لا أنها إخبار فى الدنيا بما سيجرى عليهم فى الآخره و استدلال على بطلان عباده الأصنام و اتخاذهم آلهه من دون اللّه.

و قوله: أَنْتُمْ لَهٰا وارِدُونَ اللام لتأكيد التعدى أو بمعنى الى،و ظاهر السياق أن الخطاب شامل للكفار و الآلهه جميعا أى أنتم و آلهتكم تردون جهنم أو تردون إليها.

قوله تعالى: لَوْ كٰانَ هٰؤُلاٰءِ آلِهَةً مٰا وَرَدُوهٰا وَ كُلٌّ فِيهٰا خٰالِدُونَ تفريع و إظهار لحقيقه حال الآلهه التى كانوا يعبدونها لتكون لهم شفعاء،و قوله: «وَ كُلٌّ فِيهٰا خٰالِدُونَ» أى كل منكم و من الآلهه.

قوله تعالى: لَهُمْ فِيهٰا زَفِيرٌ وَ هُمْ فِيهٰا لاٰ يَسْمَعُونَ الزفير هو الصوت برد النفس الى داخل و لذا فسر بصوت الحمار،و كونهم لا يسمعون جزاء عدم سمعهم فى الدنيا كلمه الحق كما أنهم لا يبصرون جزاء لإعراضهم عن النظر فى آيات اللّه فى الدنيا.

و فى الآيه عدول عن خطاب الكفار الى خطاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم إعراضا عن خطابهم ليبين سوء حالهم لغيرهم،و عليه فضمائر الجمع للكفار خاصه لا لهم و للآلهه معا.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنىٰ أُولٰئِكَ عَنْهٰا مُبْعَدُونَ الحسنى مؤنث أحسن و هى وصف قائم مقام موصوفه و التقدير العده أو الموعده الحسنى بالنجاه أو بالجنه و الموعده بكل منهما وارد فى كلامه تعالى قال: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ

الظّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (مریم۷۲/)،و قال: وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنّاتٍ (التوبه/ ۷۲).

قوله تعالى: لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها -الى قوله- تُوعَدُونَ الحسيس الصوت الذى يحس به،و الفزع الأكبر الخوف الأعظم و قد أخبر سبحانه عن وقوعه فى نفخ الصور حيث قال: وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ (النمل۸۷/).

و قوله: وَ تَتَلَقّاهُمُ الْمَلائِكَةُ» أى بالبشرى و هى قولهم: «هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» .

قوله تعالى: يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ الى آخر الآيه؛قال فى المفردات:و السجل قيل:حجر كان يكتب فيه ثم سمى كل ما يكتب فيه سجلا قال تعالى: «كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ» أى كطيه لما كتب فيه حفظا له،انتهى.

و هذا أوضح معنى قيل فى معنى هذه الكلمه و أبسطه.

و على هذا فقوله: لِلْكُتُبِ مفعول طى كما أن السجل فاعله و المراد أن السجل و هو الصحيفه المكتوب فيها الكتاب إذا طوى انطوى بطيه الكتاب و هو الألفاظ أو المعانى التى لها نوع تحقق و ثبوت فى السجل بتوسط الخطوط و النقوش فغاب الكتاب بذلك و لم يظهر منه عين و لا أثر كذلك السماء تنطوى بالقدره الإلهيه كما قال: وَ السَّماواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ (الزمر/ ۶۷)فتغيب عن غيره و لا يظهر منها عين و لا أثر غير أنها لا تغيب عن عالم الغيب و إن غاب عن غيره كما لا يغيب الكتاب عن السجل و إن غاب عن غيره.

فطى السماء على هذا رجوعها الى خزائن الغيب بعد ما نزلت منها و قدرت كما قال تعالى:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر۲۱/)و قال مطلقا:

وَ إِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ (آل عمران۲۸/)و قال: إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى (العلق۸/).

و لعله بالنظر الى هذا المعنى قيل:إن قوله «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» ناظر الى رجوع كل

شیء الی حاله التی کان علیه حین ابتدئ خلقه و هی أنه لم یکن شیئا مذکورا کما قال تعالی:

وَ قَدْ خَلَقْتُکَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَکُ شَیْئاً (مریم۹/)،و قال: هَلْ أَتیٰ عَلَی الْإِنْسانِ حِینٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ یَکُنْ شَیْئاً مَذْکُوراً (الدهر۱/).

و قوله: وَعْداً عَلَیْنا إِنّا کُنّا فاعِلِینَ أی وعدناه وعد الزمنا ذلک و وجب علینا الوفاء به و إنا کنا فاعلین لما وعدنا و سنتنا ذلک.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ کَتَبْنا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّکْرِ أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصّالِحُونَ الظاهر أن المراد بالزبور کتاب داود علیه السّلام و قد سمی بهذا الاسم فی قوله:

وَ آتَیْنا داوُدَ زَبُوراً (النساء۱۶۳/)،(الإسراء۵۵/)،و قیل:المراد به القرآن،و قیل:

مطلق الکتب المنزّله علی الأنبیاء أو علی الأنبیاء بعد موسی و لا دلیل علی شیء من ذلک.

و المراد بالذکر قیل:هو التوراه و قد سمّاها اللّه به فی موضعین من هذه السوره و هما قوله:

فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّکْرِ إِنْ کُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (الآیه ۷)و قوله: وَ ذِکْراً لِلْمُتَّقِینَ (الآیه ۴۸)، و قیل:هو القرآن و قد سمّاه اللّه ذکرا فی مواضع من کلامه و کون الزبور بعد الذکر علی هذا القول بعدیه رتبیه لا زمانیه و قیل:هو اللوح المحفوظ و هو کما تری.

و قوله: أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصّالِحُونَ الوراثه و الإرث علی ما ذکره الراغب انتقال قنیه الیک من غیر معامله.

و المراد من وراثه الأرض انتقال التسلط علی منافعها الیهم و استقرار برکات الحیاه بها فیهم،و هذه البرکات إما دنیویه راجعه الی الحیاه الدنیا کالتمتع الصالح بأمتعتها و زیناتها فیکون مؤدی الآیه أن الأرض ستتطهر من الشرک و المعصیه و یسکنها مجتمع بشری صالح یعبدون اللّه و لا یشرکون به شیئا کما یشیر الیه قوله تعالی: وَعَدَ اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ -الی قوله- یَعْبُدُونَنِی لاٰ یُشْرِکُونَ بِی شَیْئاً (النور۵۵/).

ص:۲۸۸

و إما أخرويه و هى مقامات القرب التى اكتسبوها فى حياتهم الدنيا فإنها من بركات الحياه الأرضيه و هى نعيم الآخره كما يشير اليه قوله تعالى حكايه عن أهل الجنه: وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی صَدَقَنٰا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّهِ حَيْثُ نَشٰاءُ (الزمر/۷۴)،و قوله: أُولٰئِکَ هُمُ الْوٰارِثُونَ اَلَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ (المؤمنون/۱۱).

قوله تعالى: إِنَّ فِی هٰذٰا لَبَلاٰغاً لِقَوْمٍ عٰابِدِينَ البلاغ هو الكفايه،و أيضا ما به بلوغ البغيه،و أيضا نفس البلوغ،و معنى الآيه مستقيم على كل من المعانى الثلاثه،و الإشاره بهذا الى ما بيّن فى السوره من المعارف.

و المعنى:أن فيما بيناه فى السوره-أن الرب واحد لا رب غيره يجب أن يعبد من طريق النبوه و يستعد بذلک ليوم الحساب،و أن جزاء المؤمنين كذا و كذا و جزاء الكافرين كيت و كيت-كفايه لقوم عابدين إن أخذوه و عملوا به كفاهم و بلغوا بذلک بغيتهم.

قوله تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ إِلاّٰ رَحْمَهً لِلْعٰالَمِينَ أى أنک رحمه مرسله الى الجماعات البشريه كلهم-و الدليل عليه الجمع المحلى اللام-و ذلک مقتضى عموم الرساله.

و هو صلّى اللّه عليه و آله و سلم رحمه لأهل الدنيا من جهه إتيانه بدين فى الأخذ به سعاده أهل الدنيا فى دنياهم و أخراهم.

و هو صلّى اللّه عليه و آله و سلم رحمه لأهل الدنيا من حيث الآثار الحسنه التى سرت من قيامه بالدعوه الحقه فى مجتمعاتهم مما يظهر ظهورا بالغا بقياس الحياه العامه البشريه اليوم الى ما قبل بعثته صلّى اللّه عليه و آله و سلم و تطبيق إحدى الحياتين على الاخرى.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمٰا يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمٰا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أى إن الذى يوحى الى من الدين ليس إلا التوحيد و ما يتفرع عليه و ينحل اليه سواء كان عقيده أو حكما و الدليل على هذا الذى ذكرنا ورود الحصر و ظهوره فى الحصر الحقيقى.

قوله تعالی: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلىٰ سَوٰاءٍ الإیذان-کما قیل-إفعال من الإذن و هو العلم بالإجازه فی شیء و ترخیصه ثم تجوز به عن مطلق العلم و اشتق منه الأفعال و کثیرا ما یتضمن معنی التحذیر و الإنذار.

و قوله: عَلىٰ سَوٰاءٍ الظاهر أنه حال من مفعول «آذَنْتُكُمْ» و المعنی فإن أعرضوا عن دعوتک و تولوا عن الإسلام للّه بالتوحید فقل:أعلمتکم أنکم علی خطرها لکونکم مساوین فی الإعلام أو فی الخطر،و قیل:أعلمتکم بالحرب و هو بعید فی سوره مکیه.

قوله تعالی: وَ إِنْ أَدْرِی أَ قَرِیبٌ أَمْ بَعِیدٌ مٰا تُوعَدُونَ إِنَّهُ یَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ یَعْلَمُ مٰا تَكْتُمُونَ تتمه قول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم المأمور به.

و المراد بقوله: «مٰا تُوعَدُونَ» ما یشیر الیه قوله: «آذَنْتُكُمْ عَلىٰ سَوٰاءٍ» من العذاب المهدد به أمر صلّی اللّه علیه و آله و سلم أولا أن یعلمهم الخطر إن تولوا عن الإسلام،و ثانیا أن ینفی عن نفسه العلم بقرب وقوعه و بعده و یعلله بقصر العلم بالجهر من قولهم-و هو طعنهم فی الإسلام و استهزاؤهم علنا-و ما یکتمون من ذلک،فی اللّه سبحانه فهو العالم بحقیقه الأمر.

و منه یعلم أن منشأ توجه العذاب الیهم هو ما کانوا یطعنون به فی الإسلام فی الظاهر و ما یبطنون من المکر کأنه قیل:إنهم یستحقون العذاب بإظهارهم القول فی هذه الدعوه الإلهیه و إضمارهم المکر علیه فهددهم به لکن لما کنت لا تحیط بظاهر قولهم و باطن مکرهم و لا تقف علی مقدار اقتضاء جرمهم العذاب من جهه قرب الأجل و بعده فأنف العلم بخصوصیه قربه و بعده عن نفسک و ارجع العلم بذلک الی اللّه سبحانه وحده.

و قد علم بذلک أن المراد بالجهر من القول ما أظهره المشرکون من القول فی الإسلام طعنا و استهزاء،و بما کانوا یکتمون ما أبطنوه علیه من المکر و الخدعه.

قوله تعالی: وَ إِنْ أَدْرِی لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتٰاعٌ إِلىٰ حِینٍ من تتمه قول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم المأمور به و ضمیر «لَعَلَّهُ» علی ما قیل کنایه عن غیر مذکور و لعله راجع الی

الإیـذان المأمور به،و المعنی و ما أدری لعل هـذا الإیـذان الـذی أمرت به أی مراده تعالی من أمره لی بإعلام الخطر امتحان لکم لیظهر به ما فی باطنکم فی أمر الدعوه فهو یرید به أن یمتحنکم و یمتعکم الی حین و أجل استدراجا و إمهالا.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ احْکُمْ بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا الرَّحْمٰنُ الْمُسْتَعٰانُ عَلیٰ مٰا تَصِفُونَ الضـمیر فی «قٰالَ» للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و الآـیه حکایه قول النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم عن دعوتهم الی الحق و ردهم له و تولیهم عنه فکأنه صـلّی اللّه علیه و آله و سلم لمـا دعـاهم و بلغ الیهم مـا أمر بتبلیغه فأنکروا و شـددوا فیه أعرض عنهم الی ربه منیبا الیه و قال: «رَبِّ احْکُمْ بِالْحَقِّ» و تقیید الحکم بالحق توضیحی لا احترازی فإن حکمه تعالی لا یکون إلا حقا فکأنه قیل:رب احکم بحکمک الحق و المراد ظهور الحق لمن کان و علی من کان.

ثم التفت صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم الیهم و قال: «وَ رَبُّنَا الرَّحْمٰنُ الْمُسْتَعٰانُ عَلیٰ مٰا تَصِفُونَ» و کأنه یشـیر به الی سبب إعراضه عنهم و رجـوعه الی اللّه سـبحانه و سؤاله أن یحکم بـالحق فهو سـبحانه ربه و ربهم جمیعـا فله أن یحکم بین مربوبیه،و هو کـثیر الرحمه لاـ یخیب سائله المنیب الیه،و هو الـذی یحکم لا معقب لحکمه و هو الـذی یحق الحق و یبطل الباطل بکلماته فهو صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم فی کلمته «رَبِّ احْکُمْ بِالْحَقِّ» راجع الذی هو ربه و ربهم و سأله برحمته أن یحکم بالحق و استعان به علی ما یصفونه من الباطل و هو نعتهم دینهم بما لیس فیه و طعنهم فی الدین الحق بما هو بریء من ذلک (۱).

۱- ۱) .الانبیاء ۹۲-۱۱۲:بحث روائی فی المشرکین و ما یعبدون من دون اللّه.

سوره الحج مدنیه و هی ثمان و سبعون آیه

اشاره

[سوره الحج (۲۲): الآیات ۱ الی ۲]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt,یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ اِتَّقُوا رَبَّکُمْ إِنَّ زَلْزَلَهَ اَلسّٰاعَهِ شَیْءٌ عَظِیمٌ (۱) یَوْمَ تَرَوْنَهٰا تَذْهَلُ کُلُّ مُرْضِعَهٍ عَمّٰا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ کُلُّ ذٰاتِ حَمْلٍ حَمْلَهٰا وَ تَرَی اَلنّٰاسَ سُکٰاریٰ وَ مٰا هُمْ بِسُکٰاریٰ وَ لٰکِنَّ عَذٰابَ اَللّٰهِ شَدِیدٌ (۲)

بیان:

السوره تخاطب المشرکین بأصول الدین إنذارا و تخویفا کما کانوا یخاطبون فی السور النازله قبل الهجره فی سیاق یشهد بأن لهم بعد شوکه و قوه،و تخاطب المؤمنین بمثل الصلاه و مسائل الحج و عمل الخیر و الإذن فی القتال و الجهاد فی سیاق یشهد بأن لهم مجتمعا حدیث العهد بالانعقاد قائما علی ساق لا یخلو من عده و عده و شوکه.

و یتعین بذلک أن السوره مدنیه نزلت بالمدینه ما بین هجره النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و غزوه بدر

ص :۲۹۲

و غرضـها بيان أصول الدين بيانا تفصيليا ينتفع بها المشرك و الموحد و فروعها بيانا اجماليا ينتفع بها الموحدون من المؤمنين إذ لم يكن تفاصيل الأحكام الفرعيه مشرعه يومئذ إلا مثل الصلاه و الحج كما فى السوره.

و لكون دعوه المشـركين الى الاصول من طريق الإنذار و كذا ندب المؤمنين الى إجمال الفروع بلسان الأمر بالتقوى بسط الكلام فى وصف يوم القيامه و افتتح السوره بالزلزله التى هى من أشراطها و بها خراب الأرض و اندكاك الجبال.

قوله تعـالى: يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السّٰاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ الزلزله و الزلزال شـده الحركه على الحال الهائله و كأنه مأخوذ بالاشـتقاق الكبير من زل بمعنى زلق فكرر للمبالغه و الإشاره الى تكرر الزله،و هو شائع فى نظائره مثل ذب و ذبذب و دم و دمدم و كب و كبكب و دك و دكدك و رف و رفرف و غيرها.

الخطاب يشمل الناس جميعا من مؤمن و كافر و ذكر و أنثى و حاضر و غائب و موجود بالفعل و من سيوجد منهم،و ذلك بجعل بعضهم من الحاضرين وصله الى خطاب الكل لاتحاد الجميع بالنوع.

و هو أمر النـاس أن يتقوا ربهم فيتقيه الكـافر بالإيمـان و المؤمن بـالتجنب عن مخـالفه أوامره و نواهيه فى الفروع،و قـد علل الأمر بعظم زلزله الساعه فهو دعوه من طريق الإنذار.

و إضافه الزلزله الى الساعه لكونها من أشـراطها و أماراتها،و قيل:المراد بزلزله الساعه شـدتها و هولها،و لا يخلو من بعـد من جهه اللفظ.

قوله تعالى: يَوْمَ تَرَوْنَهٰا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّٰا أَرْضَعَتْ الذهول الذهاب عن الشىء مع دهشه،و الحمل بالفتح الثقل المحمول فى الباطن كالولد فى البطن و بالكسر الثقل المحمول فى الظاهر كحمل بعير قاله الراغب.و قال فى مجمع البيان:الحمل بفتح الحاء ما كان فى بطن أو على رأس شجره،و الحمل بكسر الحاء ما كان على ظهر أو على رأس.

قال فی الکشاف:إن قیل:لم قیل «مُرْضِعَهٍ» دون مرضع؟قلت:المرضعه التی هی فی حال الإرضاع ملقمه ثدیها الصبی،و المرضع التی شأنها أن ترضع و إن لم تباشر الإرضاع فی حال وصفها به فقیل:مرضعه لیدل علی أن ذلک الهول إذا فوجئت به هذه و قد ألقمت الرضیع ثدیها نزعته عن فیه لما یلحقها من الدهشه.

و قال:فإن قلت:لم قیل أولا:ترون ثم قیل:تری علی الافراد؟قلت:لأن الرؤیه أولا علقت بالزلزله فجعل الناس جمیعا رائین لها،و هی معلقه أخیرا بکون الناس علی حال السکر فلا بد أن یجعل کل واحد منهم رائیا لسائرهم.انتهی.

و قوله: وَ تَرَی النّاسَ سُکاریٰ وَ ما هُمْ بِسُکاریٰ نفی السکر بعد إثباته للدلاله علی أن سکرهم و هو ذهاب العقول و سقوطها فی مهبط الدهشه و البهت لیس معلولا للخمر بل شده عذاب اللّه هی التی اوقعتها فیما وقعت و قد قال تعالی: إِنَّ أَخْذَهُ أَلِیمٌ شَدِیدٌ (هود۱۰۲/).

و ظاهر الآیه أن هذه الزلزله قبل النفخه الاولی التی یخبر تعالی عنها بقوله: وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّماوٰاتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ إِلاّ مَنْ شاءَ اللّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِیهِ أُخْریٰ فَإِذا هُمْ قِیامٌ یَنْظُرُونَ (الزمر۶۸/)و ذلک لأن الآیه تفرض الناس فی حال عادیه تفاجئهم فیها زلزله الساعه فتنقلب حالهم من مشاهدتها الی ما وصف،و هذا قبل النفخه التی تموت بها الأحیاء قطعا.

[سوره الحج (۲۲): الآیات ۳ الی ۱۶]

اشاره

وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ یَتَّبِعُ کُلَّ شَیْطانٍ مَرِیدٍ (۳) کُتِبَ عَلَیْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاّهُ فَأَنَّهُ یُضِلُّهُ وَ یَهْدِیهِ إِلیٰ عَذابِ السَّعِیرِ (۴) یا أَیُّهَا النّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْناکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَهٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَهٍ مُخَلَّقَهٍ وَ غَیْرِ مُخَلَّقَهٍ لِنُبَیِّنَ لَکُمْ وَ نُقِرُّ فِی الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی ثُمَّ نُخْرِجُکُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّکُمْ وَ مِنْکُمْ مَنْ یُتَوَفّی وَ مِنْکُمْ مَنْ یُرَدُّ إِلیٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِکَیْلا یَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَیْئاً وَ تَرَی الْأَرْضَ هامِدَهً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَیْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ کُلِّ زَوْجٍ بَهِیجٍ (۵) ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ یُحْیِ الْمَوْتیٰ وَ أَنَّهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۶) وَ أَنَّ السّاعَهَ آتِیَهٌ لا رَیْبَ فِیها وَ أَنَّ اللّهَ یَبْعَثُ مَنْ فِی الْقُبُورِ (۷) وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدیً وَ لا کِتابٍ مُنِیرٍ (۸) ثانِیَ عِطْفِهِ لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ لَهُ فِی الدُّنْیا خِزْیٌ وَ نُذِیقُهُ یَوْمَ الْقِیامَهِ عَذابَ الْحَرِیقِ (۹) ذٰلِکَ بِما قَدَّمَتْ یَداکَ وَ أَنَّ اللّهَ لَیْسَ بِظَلاّمٍ لِلْعَبِیدِ (۱۰) وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یَعْبُدُ اللّهَ عَلیٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَیْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَهٌ انْقَلَبَ عَلیٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْیا وَ الْآخِرَهَ ذٰلِکَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِینُ (۱۱) یَدْعُوا مِنْ دُونِ اللّهِ ما لا یَضُرُّهُ وَ ما لا یَنْفَعُهُ ذٰلِکَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِیدُ (۱۲) یَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلیٰ وَ لَبِئْسَ الْعَشِیرُ (۱۳) إِنَّ اللّهَ یُدْخِلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللّهَ یَفْعَلُ ما یُرِیدُ (۱۴) مَنْ کانَ یَظُنُّ أَنْ لَنْ یَنْصُرَهُ اللّهُ فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَهِ فَلْیَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَی السَّماءِ ثُمَّ لْیَقْطَعْ فَلْیَنْظُرْ هَلْ یُذْهِبَنَّ کَیْدُهُ ما یَغِیظُ (۱۵) وَ کَذٰلِکَ أَنْزَلْناهُ آیاتٍ بَیِّناتٍ وَ أَنَّ اللّهَ یَهْدِی مَنْ یُرِیدُ (۱۶)

بیان:

قوله تعالی: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ یَتَّبِعُ کُلَّ شَیْطانٍ مَرِیدٍ المرید الخبیث و قیل:المتجرد و المعری من الخیر،و المجادله فی اللّه بغیر علم التکلم فیما یرجع الیه تعالی من صفاته و أفعاله بکلام مبنی علی الجهل بالاصرار علیه.

و قوله: وَ یَتَّبِعُ کُلَّ شَیْطانٍ مَرِیدٍ بیان لمسلکه فی الاعتقاد و العمل بعد بیان مسلکه فی القول کأنه قیل:إنه یقول فی اللّه بغیر علم و یصر علی جهله،و یعتقد بکل باطل و یعمل به و إذ کان الشیطان هو الذی یهدی الإنسان الی الباطل و الإنسان إنما یمیل الیه بإغوائه فهو یتبع فی کل ما یعتقده و یعمل به الشیطان فقد وضع اتباع الشیطان فی الآیه موضع الاعتقاد

ص: ۲۹۶

و العمل للدلاله على الكيفيه و ليبين فى الآيه التاليه أنه ضال عن طريق الجنه سالك الى عذاب السعير.

و قد قال تعالى: وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ و لم يقل:و يتبع الشيطان المريد و هو إبليس للدلاله على تلبسه بفنون الضلال و أنواعه فإن أبواب الباطل مختلفه و على كل باب شيطانا من قبيل إبليس و ذريته و هناك شياطين من الإنس يدعون الى الضلال فيقلدهم أولياؤهم الغاوون و يتبعونهم و إن كان كل تسويل و وسوسه منتهيا الى إبليس لعنه اللّه.

و الكلمه أعنى قوله: «وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ» مع ذلك كنايه عن عدم انتهائه فى اتباع الباطل الى حد يقف عليه لبطلان استعداده للحق و كون قلبه مطبوعا عليه فهو فى معنى قوله: وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً (الأعراف/ ۱۴۶).

قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلىٰ عَذابِ السَّعِيرِ التولى أخذه وليا متبعا،و قوله: «فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ» الخ؛مبتدأ محذوف الخبر،و المعنى و يتبع كل شيطان مريد من صفته أنه كتب عليه أن من اتخذه وليا و اتبعه فإضلاله له و هدايته إياه الى عذاب السعير ثابت لازم.

و المراد بكتابته عليه القضاء الإلهى فى حقه بإضلاله متبعيه أولا و إدخاله إياهم النار ثانيا، و هذان القضاءان هما اللذان أشار اليهما فى قوله: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر/۴۳)و قد تقدم الكلام فى توضيح ذلك فى الجزء الثانى عشر من الكتاب.

قوله تعالى: يا أَيُّهَا النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ -الى قوله- شَيْئاً المراد بالبعث إحياء الموتى و الرجوع الى اللّه سبحانه و هو ظاهر، و العلقه القطعه من الدم الجامد،و المضغه القطعه من اللحم المضوغه و الخلقه على ما قيل

-تامه الخلقه و غیر المخلقه غیر تامتها و ینطبق علی تصویر الجنین الملازم لنفخ الروح فیه، و علیه ینطبق القول بأن المراد بالتخلیق التصویر.

و قوله: لِنُبَیِّنَ لَکُمْ ظاهر السیاق أن المراد لنبین لکم أن البعث ممکن و نزیل الریب عنکم فإن مشاهده الانتقال من التراب المیت إلی النطفه ثم إلی العلقه ثم إلی المضغه ثم الی الإنسان الحی لا تدع ریبا فی إمکان تلبس المیت بالحیاه و لذلک وضع قوله: «لِنُبَیِّنَ لَکُمْ» فی هذا الموضع و لم یؤخر إلی آخر الآیه.

و قوله: وَ نُقِرُّ فِی الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی أی و نقر فیها ما نشاء من الأجنه و لا نسقطه الی تمام مده الحمل ثم نخرجکم طفلا،قال فی المجمع:أی نخرجکم من بطون أمهاتکم و أنتم أطفال،و الطفل الصغیر من الناس،و إنما وحد و المراد به الجمع لأنه مصدر کقولهم:رجل عدل و رجال عدل،و قیل:أراد ثم نخرج کل واحد منکم طفلا.انتهی، و المراد ببلوغ الأشد حال اشتداد الأعضاء و القوی.

و قوله: وَ مِنْکُمْ مَنْ یُتَوَفّی وَ مِنْکُمْ مَنْ یُرَدُّ إِلی أَرْذَلِ الْعُمُرِ المقابله بین الجملتین تدل علی تقید الاولی بما یمیزها من الثانیه و التقدیر و منکم من یتوفی من قبل أن یرد الی أرذل العمر،و المراد بأرذل العمر أحقره و أهونه و ینطبق علی حال الهرم فإنه أرذل الحیاه إذا قیس الی ما قبله.

و قوله: لِکَیْلا یَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَیْئاً أی شیئا یعتد به أرباب الحیاه و یبنون علیه حیاتهم،و اللام للغایه أی ینتهی أمره الی ضعف القوی و المشاعر بحیث لا یبقی له من العلم الذی هو أنفس محصول للحیاه شیء یعتد به لها.

قوله تعالی: وَ تَرَی الْأَرْضَ هامِدَهً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَیْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ کُلِّ زَوْجٍ بَهِیجٍ قال الراغب:یقال:همدت النار طفئت،و منه أرض هامده لا نبات فیها،و نبات هامد یابس،قال تعالی: «وَ تَرَی الْأَرْضَ هامِدَهً» انتهی و یقرب

منه تفسيرها بالأرض الهالكه.

و قال أيضا:الهز التحريك الشديد يقال:هززت الرمح فاهتز و اهتز النبات إذا تحرك لنضارته،و قال أيضا:ربا إذا زاد و علا،قال تعالى: «فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ» أى زادت زياده المتربى.انتهى بتلخيص ما.

و قوله: وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ أى و أنبتت الأرض من كل صنف من النبات متصف بالبهجه و هى حسن اللون و ظهور السرور فيه،أو المراد بالزوج ما يقابل الفرد فإن كلامه يثبت للنبات ازدواجا كما يثبت له حياه،و قد وافقته العلوم التجريبيه اليوم.

و المحصل أن للأرض فى إنباتها و إنمائها له شأنا يماثل شأن الرحم فى إنباته الحيوى للتراب الصائر نطفه ثم علقه ثم مضغه الى أن يصير إنسانا حيا.

قوله تعالى: ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتىٰ وَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ذلك إشاره الى ما ذكر فى الآيه السابقه من خلق الإنسان و النبات و تدبير أمرهما حدوثا و بقاء خلقا و تدبيرا واقعيين لا ريب فيهما.

و الذى يعطيه السياق أن المراد بالحق نفس الحق-أعنى أنه ليس وصفا قائما مقام موصوف محذوف هو الخبر-فهو تعالى نفس الحق الذى تحقق كل شىء حق و يجرى فى الأشياء النظام الحق فكونه تعالى حقا يتحقق به كل شىء حق هو السبب لهذه الموجودات الحقه و النظامات الحقه الجاريه فيها،و هى جميعا تكشف عن كونه تعالى هو الحق.

و قوله: وَ أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتىٰ معطوف على ما قبله أى المذكور فى الآيه السابقه من صيروره التراب الميت بالانتقال الى حال إنسانا حيا و كذا صيروره الأرض الميته بنزول الماء نباتا و استمرار هذا الأمر بسبب أن اللّه يحيى الموتى و يستمر منه ذلك.

و قوله: وَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ معطوف على سابقه كسابقه و المراد أن ما ذكرناه بسبب أن اللّه على كل شىء قدير و ذلك أن إيجاد الإنسان و النبات و تدبير أمرهما فى الحدوث

و البقـاء مرتبط بما فی الکون من وجود أو نظام جار فی الوجود و کما أن إیجادهما و تـدبیر أمرهما لا یتم إلا مع القـدره علیهما کـذلک القـدره علیهما لا تتم إلا مع القـدره علی کل شـیء فخلقهما و تدبیر أمرهما بسـبب عموم القدره و إن شـئت فقل:ذلک یکشف عن عموم القدره.

قوله تعالی: وَ أَنَّ السّٰاعَهَ آتِیَهٌ لاٰ رَیْبَ فِیهٰا وَ أَنَّ اللّٰهَ یَبْعَثُ مَنْ فِی الْقُبُورِ الجملتان معطوفتان علی«أن»فی قوله: «ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ» .

و أما الوجه فی اختصاص هـذه النتائج الخمس المذکوره فی الآیتین بالذکر مع أن بیان السابقه ینتج نتائج أخری مهمه فی أبواب التوحید کربوبیته تعالی و نفی شرکاء العباده کونه تعالی علیما و منعما و جوادا و غیر ذلک.

فالـذی یعطیه السـیاق-و المقام مقام إثبات البعث-و عرض هـذه الآیات علی سائر الآیات المثبته للبعث أن الآیه تؤم إثبات البعث من طریق إثبـات کونه تعـالی حقا علی الإطلاق فإن الحق المحض لا یصـدر عنه إلا الفعل الحق دون الباطل،و لو لم یکن هناک نشـأه أخری یعیش فیهـا الإنسـان بماله من سـعاده أو شـقاء و اقتصـر فی الخلقه علی الإیجاد ثم الإعـدام ثم الإیجاد ثم الإعـدام و هکـذا کـان لعبـا باطلاـ فکونه تعالی حقا لا یفعل إلا الحق یسـتلزم نشأه البعث اسـتلزاما بینا فإن هـذه الحیاه الـدنیا تنقطع بالموت فبعدها حیاه أخری باقیه لا محاله.

فالآـیه أعنی قوله: «فَإِنّٰا خَلَقْنٰاکُمْ مِنْ تُرٰابٍ -الی قوله- ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ» فی مجری قوله: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا لاٰعِبِینَ مٰا خَلَقْنٰاهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ (الدخان/ ۳۹)،و قوله: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا بٰاطِلاً ذٰلِکَ ظَنُّ الَّذِینَ کَفَرُوا (ص/ ۲۷)و غیرهمـا من الآیـات المتعرضه لإثبـات المعاد،و إنما الفرق أنها تثبته من طریق حقیه فعله تعالی و الآیه المبحوث عنها تثبته من طریق حقیته تعالی فی نفسه المستلزمه لحقیه فعلیه.

ثم لما کان من الممکن أن یتوهم استحاله إحیاء الموتی فلا ینفع البرهان حینئذ دفعه بقوله:

«وَ أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتىٰ» فإحياؤه تعالى الموتى بجعل التراب الميت إنسانا حيا و جعل الأرض الميته نباتا حيا واقع مستمر مشهود فلا ريب فى إمكانه و هذه الجمله أيضا فى مجرى قوله تعالى:

قٰالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظٰامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّةٍ (يس۷۹/)و سائر الآيات المثبته لإمكان البعث و الإحياء ثانيا من طريق ثبوت مثله أولا.

ثم لما أمكن أن يتوهم أن جواز الإحياء الثانى لا يستلزم الوقوع بتعلق القدره به استبعادا له و استصعابا دفعه بقوله: «وَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فإن القدره لما كانت غير متناهيه كانت نسبتها الى الإحياء الأول و الثانى و ما كان سهلا فى نفسه أو صعبا على حد سواء فلا يخالطها عجز و لا يطرأ عليها عى و تعب.

و هذه الجمله أيضا فى مجرى قوله تعالى: أَ فَعَيِينٰا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ (ق۱۵/)و قوله: إِنَّ الَّذِي أَحْيٰاهٰا لَمُحْيِ الْمَوْتىٰ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (حم السجده۳۹/)،و سائر الآيات المثبته للبعث بعموم القدره و عدم تناهيها.

فهذه أعنى ما فى قوله تعالى: «ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ» الى آخر الآيه؛نتائج ثلاث مستخرجه من الآيه السابقه عليها مسوقه جميعا لغرض واحد و هو ذكر ما يثبت به البعث و هو الذى تتضمنه الآيه الأخيره «وَ أَنَّ السّٰاعَةَ آتِيَةٌ لاٰ رَيْبَ فِيهٰا وَ أَنَّ اللّٰهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» .

و لم تتضمن الآيه إلا بعث الاموات و الظرف الذى يبعثون فيه فأما الظرف و هو الساعه فذكره فى قوله: «وَ أَنَّ السّٰاعَةَ آتِيَةٌ لاٰ رَيْبَ فِيهٰا» و لم ينسب إتيانها الى نفسه بأن يقال مثلا:

و أن اللّه يأتى بالساعه أو ما فى معناه و لعل الوجه فى ذلك اعتبار كونها لا تأتى إلا بغته لا يتعلق به علم قط كما قال: «لاٰ تَأْتِيكُمْ إِلاّٰ بَغْتَةً» .

و قال: قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ اللّٰهِ» (الأعراف۱۸۷/)و قال: إِنَّ السّٰاعَةَ آتِيَةٌ أَكٰادُ أُخْفِيهٰا (طه۱۵/)فكان عدم نسبتها الى فاعل كعدم ذكر وقتها و كتمان مرساها مبالغه فى إخفائها و تأييدا لكونها مباغته مفاجئه،و قد كثر ذكرها فى كلامه و لم يذكر فى شىء منه لها

فاعل بل كان التعبير مثل «آتِيَةٌ» «تَأْتِيهِمْ» «قائِمَةٌ» «تَقُومَ» و نحو ذلك.

و أما المظروف و هو إحياء الموتى من الإنسان فهو المذكور فى قوله: «وَ أَنَّ اللّٰهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» .

قوله تعالى: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يُجٰادِلُ فِي اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لاٰ هُدىً وَ لاٰ كِتٰابٍ مُنِيرٍ صنف آخر من الناس المعرضين عن الحق،قال فى كشف الكشاف على ما نقل:إن الأظهر فى النظم و الأوفق للمقام أن هذه الآيه فى المقلدين بفتح اللام و الآيه السابقه «وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يُجٰادِلُ -الى قوله- مَرِيدٍ» فى المقلدين بكسر اللام انتهى محصلا.

و هو كذلك بدليل قوله هنا ذيلا: «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ» و قوله هناك: «وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطٰانٍ مَرِيدٍ» و الإضلال من شأن المقلد بفتح اللام و الاتباع من شان المقلد بكسر اللام.

قوله تعالى: ثٰانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ الى آخر الآيه؛الثنى الكسر و العطف بكسر العين الجانب،و ثنى العطف كنايه عن الإعراض كأن المعرض يكسر أحد جانبيه على الآخر.

و قوله: لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ متعلق بقوله: «يُجٰادِلُ» و اللام للتعليل أى يجادل فى اللّٰه بجهل منه مظهر للإعراض و الاستكبار ليتوصل بذلك الى إضلال الناس و هؤلاء هم الرؤساء المتبوعون من المشركين.

و قوله: لَهُ فِي الدُّنْيٰا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ عَذٰابَ الْحَرِيقِ تهديد بالخزى-و هو الهوان و الذله و الفضيحه-فى الدنيا،و الى ذلك آل أمر صناديق قريش و أكابر مشركى مكه،و إبعاد بالعذاب فى الآخره.

قوله تعالى: ذٰلِكَ بِمٰا قَدَّمَتْ يَدٰاكَ وَ أَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ إشاره الى ما تقدم فى الآيه السابقه من الإيعاد بالخزى و العذاب،و الباء فى «بِمٰا قَدَّمَتْ» للمقابله كقولنا:

بعت هذا بهذا أو للسببيه أى إن الذى تشاهده من الخزى و العذاب جزاء ما قدمت يداك أو

بسبب ما قدمت يداك من المجادله فى اللّه بغير علم و لا هدى و لا كتاب معرضا مستكبرا لإضلال الناس و فى الكلام التفات من الغيبه الى الخطاب لتسجيل اللوم و العتاب.

و قوله: وَ أَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ معطوف على «بِمٰا قَدَّمَتْ» أى ذلک لأن اللّه لا يظلم عباده بل يعامل كلا منهم بما يستحقه بعمله و يعطيه ما يسأله بلسان حاله.

قوله تعالى: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّٰهَ عَلىٰ حَرْفٍ الى آخر الآيه؛الحرف و الطرف و الجانب بمعنى،و الاطمئنان:الاستقرار و السكون،و الفتنه-كما قيل-المحنه و الانقلاب الرجوع.

و هذا صنف آخر من الناس غير المؤمنين الصالحين و هو الذى يبعد اللّه سبحانه بانيا عبادته على جانب واحد دون كل جانب و على تقدير لا على كل تقدير و هو جانب الخير و لازمه استخدام الدين للدنيا فإن أصابته خير استقر بسبب ذلک الخير على عباده اللّه و اطمأن إليها،و إن أصابته فتنه و محنه انقلب و رجع على وجهه من غير أن يلتفت يمينا و شمالا و ارتد عن دينه تشؤما من الدين أو رجاء أن ينجو بذلک من المحنه و المهلكه و كان ذلک دأبهم فى عبادتهم الأصنام فكانوا يعبدونها لينالوا بذلک الخير أو ينجو من الشر بشفاعتهم فى الدنيا و أما الآخره فما كانوا يقولون بها فهذا المذبذب المنقلب على وجهه خسر الدنيا بوقوعه فى المحنه و المهلكه،و خسر الآخره بانقلابه عن الدين على وجهه و ارتداده و كفره ذلک هو الخسران المبين.

هذا ما يعطيه التدبر فى معنى الآيه،و عليه فقوله: «يَعْبُدُ اللّٰهَ عَلىٰ حَرْفٍ» من قبيل الاستعاره بالكنايه،و قوله: «فَإِنْ أَصٰابَهُ خَيْرٌ» الخ؛تفسير لقوله: «يَعْبُدُ اللّٰهَ عَلىٰ حَرْفٍ» و تفصيل له،و قوله: «خَسِرَ الدُّنْيٰا» أى بإصابه الفتنه،و قوله: «وَ الْآخِرَةَ» أى بانقلابه على وجهه.

قوله تعالى: يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُ وَ مٰا لاٰ يَنْفَعُهُ ذٰلِکَ هُوَ

الضَّلاٰلُ الْبَعِيدُ المدعو هو الصنم فإنه لفقده الشعور و الإراده لا يتوجه منه الى عابده نفع أو ضرر و الذى يصيب عابده من ضرر و خسران فإنما يصيبه من ناحيه العباده التى هى فعل له منسوب اليه.

قوله تعالى: يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلىٰ وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ المولى الولى الناصر،و العشير الصاحب المعاشر.

ذكروا فى تركيب جمل الآيه أن «يَدْعُوا» بمعنى يقول،و قوله: «لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ» الخ؛مقول القول،و «لَمَنْ» مبتدأ دخلت عليه لام الابتداء و هو موصول صلته «ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ» .و قوله: «لَبِئْسَ الْمَوْلىٰ وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ» جواب قسم محذوف و هو قائم مقام الخبر دال عليه.

و المعنى:يقول هذا الذى يعبد الأصنام يوم القيامه واصفا لصنمه الذى اتخذه مولى و عشيرا،الصنم الذى ضره أقرب من نفعه مولى سوء و عشير سوء أقسم لبئس المولى و لبئس العشير.

و إنما يعد ضره أقرب من نفعه لما يشاهد يوم القيامه ما تستتبعه عبادته له من العذاب الخالد و الهلاك المؤبد.

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ الخ؛لما ذكر الأصناف الثلاثه من الكفار و هم الأئمه المتبوعون المجادلون فى اللّه بغير علم و المقلده التابعون لكل شيطان مريد المجادلون كأئمتهم و المذبذبون العابدون للّه على حرف،و وصفهم بالضلال و الخسران قابلهم بهذا الصنف من الناس و هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات و وصفهم بكريم المثوى و حسن المنقلب و أن اللّه يريد بهم ذلك.

و ذكر هؤلاء الأصناف كالتوطئه لما سيذكر من القضاء بينهم و بيان حالهم تفصيلا.

ص:٣٠۴

قوله تعالی: مَنْ کٰانَ یَظُنُّ أَنْ لَنْ یَنْصُرَهُ اللّٰهُ فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ فَلْیَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَی السَّمٰاءِ ثُمَّ لْیَقْطَعْ فَلْیَنْظُرْ هَلْ یُذْهِبَنَّ کَیْدُهُ مٰا یَغِیظُ
قال فی المجمع:

السبب کل ما یتوصل به الی الشیء و منه قیل للحبل سبب و للطریق سبب و للباب سبب انتهی و المراد بالسبب فی الآیه الحبل،و القطع معروف و من معانیه الاختناق یقال:قطع أی اختنق و کأنه مأخوذ من قطع النفس.

قالوا:إن الضمیر فی «لَنْ یَنْصُرَهُ اللّٰهُ» للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و ذلک أن مشرکی مکه کانوا یظنون أن الذی جاء به النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من الدین أحدوثه کاذبه لا تبتنی علی أصل عریق فلا یرتفع ذکره،و لا ینتشر دینه،و لیس له عند اللّه منزله حتی إذا هاجر صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی المدینه فنصره اللّه سبحانه فبسط دینه و رفع ذکره غاظهم ذلک غیظا شدیدا فقرعهم اللّه سبحانه بهذه الآیه و أشار بها الی أن اللّه ناصره و لن یذهب غیظهم و لو خنقوا أنفسهم فلن یؤثر کیدهم أثرا.

و المعنی:من کان یظن من المشرکین أن لن ینصر اللّه تعالی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی الدنیا برفع الذکر و بسط الدین و فی الآخره بالمغفره و الرحمه له و للمؤمنین به ثم غاظه ما یشاهد الیوم من نصر اللّه له فلیمدد بحبل الی السماء-کأن یربط طرف الحبل علی جذع عال و نحوه-ثم لیختنق به فلینظر هل یذهبن کیده و حیلته هذا ما یغیظ أی غیظه.

و هذا معنی حسن یؤیده سیاق الآیات السابقه و ما استفدناه سابقا من نزول السوره بعد الهجره بقلیل و مشرکوا مکه بعد علی قدرتهم و شوکتهم.

قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ أَنْزَلْنٰاهُ آیٰاتٍ بَیِّنٰاتٍ وَ أَنَّ اللّٰهَ یَهْدِی مَنْ یُرِیدُ قد تقدم مرارا أن هذا من تشبیه الکلی بفرده بدعوی البینونه للدلاله علی أن ما فی الفرد من الحکم جار فی باقی أفراده کمن یشیر الی زید و عمرو و هما یتکلمان و یمشیان علی قدمیهما و یقول کذلک یکون الإنسان أی حکم التکلم و المشی علی القدمین جار فی جمیع الأفراد فمعنی

قوله: «وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰاهُ آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ» أنزلنا القرآن و هو آيات واضحه الدلالات كما فی الآيات السابقه من هذه السوره.

و قوله: وَ أَنَّ اللّٰهَ يَهْدِی مَنْ يُرِيدُ خبر لمبتدإ محذوف أی و الأمر أن اللّه يهدی من يريد و أما من لم يرد أن يهديه فلا هادی له فمجرد كون الآيات بينات لا يكفی فی هدايه من سمعها أو تأمل فيها ما لم يرد اللّه هدايته.

و قيل:الجمله معطوفه على ضمير «أَنْزَلْنٰاهُ» و التقدير و كذلك أنزلنا أن اللّه يهدی من يريد،و الوجه الأول أوضح اتصالا بأول الآيه و هو ظاهر (۱).

[سوره الحج (۲۲): الآيات ۱۷ الی ۲۴]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ اَلَّذِينَ هٰادُوا وَ اَلصّٰابِئِينَ وَ اَلنَّصٰارىٰ وَ اَلْمَجُوسَ وَ اَلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اَللّٰهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ إِنَّ اَللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۱۷) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّٰهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی اَلْأَرْضِ وَ اَلشَّمْسُ وَ اَلْقَمَرُ وَ اَلنُّجُومُ وَ اَلْجِبٰالُ وَ اَلشَّجَرُ وَ اَلدَّوَابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ اَلنّٰاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ اَلْعَذٰابُ وَ مَنْ يُهِنِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اَللّٰهَ يَفْعَلُ مٰا يَشٰاءُ (۱۸) هٰذٰانِ خَصْمٰانِ اِخْتَصَمُوا فِی رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيٰابٌ مِنْ نٰارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ اَلْحَمِيمُ (۱۹) يُصْهَرُ بِهِ مٰا فِی بُطُونِهِمْ وَ اَلْجُلُودُ (۲۰) وَ لَهُمْ مَقٰامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (۲۱) كُلَّمٰا أَرٰادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهٰا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهٰا وَ ذُوقُوا عَذٰابَ اَلْحَرِيقِ (۲۲) إِنَّ اَللّٰهَ يُدْخِلُ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ يُحَلَّوْنَ فِيهٰا مِنْ أَسٰاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِبٰاسُهُمْ فِيهٰا حَرِيرٌ (۲۳) وَ هُدُوا إِلَى اَلطَّيِّبِ مِنَ اَلْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلىٰ صِرٰاطِ اَلْحَمِيدِ (۲۴)

۱- ۱) .الحج ۳-۱۶:بحث روائی فی خلق الانسان.

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هٰادُوا وَ الصّٰابِئِینَ وَ النَّصٰاریٰ وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا إِنَّ اللّٰهَ یَفْصِلُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ الخ؛المراد بالذین آمنوا بقرینه المقابله هم الذین آمنوا بمحمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم و کتابهم القرآن.

و الذین هادوا هم المؤمنین بموسی و من قبله من الرسل الواقفون فیه و کتابهم التوراه و قد أحرقها بخت نصر ملک بابل حینما استوی علیهم فی أوساط القرن السابع قبل المسیح فافتقدوها برهه ثم جدد کتابتها لهم عزراء الکاهن فی أوائل القرن السادس قبل المسیح حینما فتح کوروش ملک إیران بابل و تخلص بنو إسرائیل من الإساره و رجعوا الی الأرض المقدسه.

و الصابئون لیس المراد بهم عبده الکواکب من الوثنیه بدلیل ما فی الآیه من المقابله بینهم و بین الذین أشرکوا بل هم-علی ما قیل-قوم متوسطون بین الیهودیه و المجوسیه و لهم کتاب ینسبونه الی یحیی بن زکریا النبی و یسمی الواحد منهم الیوم عند العامه«صبی»و قد تقدم لهم ذکر فی ذیل قوله: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هٰادُوا وَ النَّصٰاریٰ وَ الصّٰابِئِینَ (البقره۶۲/).

ص:۳۰۷

و النصارى هم المؤمنون بالمسيح عيسى بن مريم عليه السّلام و من قبله من الأنبياء و كتبهم المقدسه الأناجيل الأربعه لوقا و مرقس و متى و يوحنا و كتب العهد القديم على ما اعتبرته و قدسته الكنيسه لكن القرآن يذكر أن كتابهم الإنجيل النازل على عيسى عليه السّلام.

و المجوس المعروف أنهم المؤمنون بزرتشت و كتابهم المقدس«أوستا»غير أن تاريخ حياته و زمان ظهوره مبهم جدا كالمنقطع خبره و قد افتقدوا الكتاب باستيلاء اسكندر على إيران ثم جددت كتابته فى زمن ملوك ساسان فأشكل بذلك الحصول على حاق مذهبهم؛و المسلم أنهم يثبتون لتدبير العالم مبدأين مبدأ الخير و مبدأ الشر-يزدان و أهريمن أو النور و الظلمه- و يقدسون الملائكه و يتقربون اليهم من غير أن يتخذوا لهم أصناما كالوثنيه،و يقدسون البسائط العنصريه و خاصه النار و كانت لهم بيوت نيران بايران و الصين و الهند و غيرها و ينهون الجميع الى«اهورا مزدا»موجد الكل.

و الذين أشركوا هم الوثنيه عبده الأصنام،و أصول مذاهبهم ثلاثه:الوثنيه الصابئه، و البرهمانيه،و البوذيه،و قد كان هناك أقوام آخرون يعبدون من الأصنام ما شاءوا كما شاءوا من غير أن يبنوه على أصل منظم كعرب الحجاز و طوائف فى أطراف المعموره و قد تقدم تفصيل القول فيهم فى الجزء العاشر من الكتاب.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ المراد به فصل القضاء فيما اختلف فيه أصحاب هذه المذاهب و اختصموا فينفصل المحق منهم و يتميز من المبطل انفصالا و تميزا لا يستره ساتر و لا يحجبه حاجب.

و تكرار إن فى الآيه للتأكيد دعا الى ذلك الفصل بين «إِنَّ» فى صدر الآيه و بين خبرها و نظيره ما فى قوله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هٰاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا فُتِنُوا ثُمَّ جٰاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (النحل/١١٠)،و قوله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهٰالَهٍ ثُمَّ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (النحل/١١٩).

و قوله: إِنَّ اللّهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ تعليل للفصل أنه فصل بالحق.

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبٰالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ الى آخر الآيه؛الظاهر أن الخطاب لكل من يرى و لا يصلح لأن يخاطب،و المراد بالرؤيه العلم،و يمكن أن يختص بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و يكون المراد بالرؤيه القلبيه كما قال فيه: مٰا كَذَبَ الْفُؤٰادُ مٰا رَأىٰ أَ فَتُمٰارُونَهُ عَلىٰ مٰا يَرىٰ (النجم١٢/).

و تعميم السجده لمثل الشمس و القمر و النجوم و الجبال من غير أولى العقل دليل على أن المراد بها السجده لتكوينيه و هى التذلل و الصغار قبال عزته و كبريائه تعالى و تحت قهره و سلطنته،و لازمه أن يكون «مَنْ فِي الْأَرْضِ» شاملا لنوع الإنسان من مؤمن و كافر إذ لا استثناء فى السجده التكوينيه و التذلل الوجودى.

و عدم ذكر نفس السماوات و الأرض فى جمله الساجدين مع شمول الحكم لهما فى الواقع يعطى أن معنى الكلام:أن المخلوقات العلويه و السفليه من ذى عقل و غير ذى عقل ساجده للّه متذلله فى وجودها تجاه عزته و كبريائه،و لا تزال تسجد له تعالى سجودا تكوينيا اضطراريا.

و قوله: وَ كَثِيرٌ مِنَ النّٰاسِ عطف على «مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ» الخ؛أى و يسجد له كثير من الناس،و إسناد السجود الى كثير من الناس بعد شموله فى الجمله السابقه لجميعهم دليل على أن المراد بهذا السجود نوع آخر من السجود غير السابق و إن كانا مشتركين فى أصل معنى التذلل،و هذا النوع هو السجود التشريعى الاختيارى بالخرور على الأرض تمثيلا للسجود و التذلل التكوينى الاضطرارى و إظهارا لمعنى العبوديه.

و قوله: وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذٰابُ المقابله بينه و بين سابقه يعطى أن معناه و كثير منهم يأبى عن السجود،و قد وضع موضعه ما هو أثره اللازم المترتب عليه و هو ثبوت العذاب على من استكبر على اللّه و أبى أن يخضع له تعالى،و إنما وضع ثبوت العذاب موضع الإباء عن

السجده للدلاله على أنه هو عملهم يرد اليهم،و ليكون تمهيدا لقوله تلوا «وَ مَنْ يُهِنِ اللّهُ فَمٰا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ» الدال على أن ثبوت العذاب لهم إثر إبائهم عن السجود هوان و خزى يتصل بهم ليس بعده كرامه و خير.

فإباؤهم عن السجود يستتبع بمشيه اللّه تعالى ثبوت العذاب لهم و هو إهانه ليس بعده إكرام أبدا إذ الخير كله بيد اللّه كما قال: بِيَدِكَ الْخَيْرُ (آل عمران/۲۶)فإذا منعه أحدا لم يكن هناك من يعطيه غيره.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مٰا يَشٰاءُ كنايه عن عموم القدره و تعليل لما تقدمه من حديث إثباته العذاب للمستكبرين عن السجود له و إهانتهم إهانه لا إكرام بعده.

فالمعنى-و اللّه أعلم-أن اللّه يميز يوم القيامه بين المختلفين فإنك تعلم أن الموجودات العلويه و السفليه يخضعون و يتذللون له تكوينا لكن الناس بين من يظهر فى مقام العبوديه الخضوع و التذلل له و بين من يستكبر عن ذلك و هؤلاء هم الذين حق عليهم العذاب و أهانهم اللّه إهانه لا إكرام بعده و هو قادر على ما يشاء فعال لما يريد.و من هنا يظهر أن للآيه اتصالا بما قبلها.

قوله تعالى: هٰذٰانِ خَصْمٰانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيٰابٌ مِنْ نٰارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ الإشاره بقوله: «هٰذٰانِ» الى القبيلين الذين دل عليهما قوله سابقا: «إِنَّ اللّٰهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ» و قوله بعده:«و كثير من الناس و كثير حق عليهم العذاب».

و يعلم من حضر المختلفين على كثره أديانهم و مذاهبهم فى خصمين اثنين أنهم جميعا منقسمون الى محق و مبطل إذ لو لا الحق و الباطل لم ينحصر الملل و النحل على تشتتها فى اثنين البته،و المحق و المبطل هما المؤمن بالحق و الكافر به فهذه الطوائف على تشتت أقوالهم ينحصرون فى خصمين اثنين و على انحصارهم فى خصمين اثنين لهم أقوال مختلفه فوق

اثنين فما أحسن تعبيره بقوله: «خَصْمٰانِ اخْتَصَمُوا» حيث لم يقل:خصوم اختصموا و لم يقل:

خصمان اختصما.

و قد جعل اختصامهم فى ربهم أى أنهم اختلفوا فى وصف ربوبيته تعالى فإلى وصف الربوبيه يرجع اختلافات المذاهب بالغه ما بلغت فهم بين من يصف ربه بما يستحقه من الأسماء و الصفات و ما يليق به من الأفعال فيؤمن بما وصف و هو الحق و يعمل على ما يقتضيه وصفه و هو العمل الصالح فهو المؤمن العامل بالصالحات،و من لا يصفه بما يستحقه من الأسماء و الصفات كمن يثبت له شريكا أو ولدا فينفى وحدانيته أو يسند الصنع و الإيجاد الى الطبيعه أو الدهر أو ينكر النبوه أو رساله بعض الرسل أو ضروريا من ضروريات الدين الحق فيكفر بالحق و يستره و هو الكافر فالمؤمن بربه و الكافر بالمعنى الذى ذكرهما الخصمان.

ثم شرع فى جزاء الخصمين و بين عاقبه أمر كل منهما بعد فصل القضاء و قدم الذين كفروا فقال: «فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيٰابٌ مِنْ نٰارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ» أى الماء الحار المغلى.

قوله تعالى: يُصْهَرُ بِهِ مٰا فِى بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ الصهر الإذابه أى يذوب و ينضج بذاك الحميم ما فى بطونهم من الأمعاء و الجلود.

قوله تعالى: وَ لَهُمْ مَقٰامِعُ مِنْ حَدِيدٍ المقامع جمع مقمعه و هى المدقه و العمود.

قوله تعالى: كُلَّمٰا أَرٰادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهٰا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهٰا وَ ذُوقُوا عَذٰابَ الْحَرِيقِ ضمير «مِنْهٰا» للنار و «مِنْ غَمٍّ» بيان له أو من بمعنى السببيه و الحريق بمعنى المحرق كالأليم بمعنى المؤلم.

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا الى آخر الآيه؛الأساور على ما قيل -جمع أسوره و هى جمع سوار و هو على ما ذكره الراغب معاب«دستواره»و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلىٰ صِرٰاطِ الْحَمِيدِ

ص :۳۱۱

الطيب من القول ما لا خباثه فيه و خبيث القول باطله على أقسامه،و قد جمع القول الطيب كله قوله تعالى إخبارا عنهم: دَعْوٰاهُمْ فِيهٰا سُبْحٰانَكَ اللّٰهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهٰا سَلاٰمٌ وَ آخِرُ دَعْوٰاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ (يونس ١٠/)فهدايتهم الى الطيب من القول تيسيره لهم،و هدايتهم الى صراط الحميد و الحميد من أسمائه تعالى أن لا يصدر عنهم إلا محمود الفعل كما لا يصدر عنهم إلا طيب القول.

و بين هذه الآيه و قوله: «كُلَّمٰا أَرٰادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهٰا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهٰا وَ ذُوقُوا عَذٰابَ الْحَرِيقِ» مقابله ظاهره (١).

[سوره الحج (٢٢): الآيات ٢۵ الى ٣٧]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ اَلَّذِي جَعَلْنٰاهُ لِلنّٰاسِ سَوٰاءً اَلْعٰاكِفُ فِيهِ وَ اَلْبٰادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحٰادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذٰابٍ أَلِيمٍ (٢۵) وَ إِذْ بَوَّأْنٰا لِإِبْرٰاهِيمَ مَكٰانَ اَلْبَيْتِ أَنْ لاٰ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطّٰائِفِينَ وَ اَلْقٰائِمِينَ وَ اَلرُّكَّعِ اَلسُّجُودِ (٢۶) وَ أَذِّنْ فِي اَلنّٰاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجٰالاً وَ عَلىٰ كُلِّ ضٰامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنٰافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اِسْمَ اَللّٰهِ فِي أَيّٰامٍ مَعْلُومٰاتٍ عَلىٰ مٰا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ اَلْأَنْعٰامِ فَكُلُوا مِنْهٰا وَ أَطْعِمُوا اَلْبٰائِسَ اَلْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ اَلْعَتِيقِ (٢٩) ذٰلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُمٰاتِ اَللّٰهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ اَلْأَنْعٰامُ إِلاّٰ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا اَلرِّجْسَ مِنَ اَلْأَوْثٰانِ وَ اِجْتَنِبُوا قَوْلَ اَلزُّورِ (٣٠) حُنَفٰاءَ لِلّٰهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَكَأَنَّمٰا خَرَّ مِنَ اَلسَّمٰاءِ فَتَخْطَفُهُ اَلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ اَلرِّيحُ فِي مَكٰانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذٰلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعٰائِرَ اَللّٰهِ فَإِنَّهٰا مِنْ تَقْوَى اَلْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهٰا مَنٰافِعُ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهٰا إِلَى اَلْبَيْتِ اَلْعَتِيقِ (٣٣) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنٰا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اِسْمَ اَللّٰهِ عَلىٰ مٰا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ اَلْأَنْعٰامِ فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ اَلْمُخْبِتِينَ (٣۴) اَلَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ اَللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ اَلصّٰابِرِينَ عَلىٰ مٰا أَصٰابَهُمْ وَ اَلْمُقِيمِي اَلصَّلاٰةِ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣۵) وَ اَلْبُدْنَ جَعَلْنٰاهٰا لَكُمْ مِنْ شَعٰائِرِ اَللّٰهِ لَكُمْ فِيهٰا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اِسْمَ اَللّٰهِ عَلَيْهٰا صَوٰافَّ فَإِذٰا وَجَبَتْ جُنُوبُهٰا فَكُلُوا مِنْهٰا وَ أَطْعِمُوا اَلْقٰانِعَ وَ اَلْمُعْتَرَّ كَذٰلِكَ سَخَّرْنٰاهٰا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣۶) لَنْ يَنٰالَ اَللّٰهَ لُحُومُهٰا وَ لاٰ دِمٰاؤُهٰا وَ لٰكِنْ يَنٰالُهُ اَلتَّقْوىٰ مِنْكُمْ كَذٰلِكَ سَخَّرَهٰا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اَللّٰهَ عَلىٰ مٰا هَدٰاكُمْ وَ بَشِّرِ اَلْمُحْسِنِينَ (٣٧)

١- ١) .الحج ١٧-٢۴:بحث روائى فى المجوس،مشيئه اللّه تعالى.

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِی جَعَلْناهُ لِلنّاسِ الخ؛الصد المنع،و «سَواءً» مصدر بمعنی الفاعل،و العکوف فی المکان الإقامه فیه،و البادی من البدو و هو الظهور،و المراد به-کما قیل-الطارئ أی الذی یقصده من خارج فیدخله،و الإلحاد المیل الی خلاف الاستقامه و أصله إلحاد حافر الدابه.

و المراد بالذین کفروا مشرکوا مکه الذین کفروا بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی أول البعثه قبل الهجره و کانوا یمنعون الناس عن الإسلام و هو سبیل اللّه و المؤمنین عن دخول المسجد الحرام لطواف الکعبه و إقامه الصلاه و سائر المناسک فقوله: «یَصُدُّونَ» للاستمرار و لا ضیر فی عطفه علی الفعل الماضی فی قوله: «الَّذِینَ کَفَرُوا» و المعنی الذین کفروا قبل و یستمرون علی منع الناس عن سبیل اللّه و المؤمنین عن المسجد الحرام.

و بذلک یظهر أن قوله: «وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» عطف علی «سَبِیلِ اللّهِ» و المراد بصدهم منعهم المؤمنین عن أداء العبادات و المناسک فیه و کان من لوازمه منع القاصدین للبیت من خارج مکه من دخولها.

و به یتبین أن المراد بقوله: «الَّذِی جَعَلْناهُ لِلنّاسِ» -و هو وصف المسجد الحرام-جعله لعباده الناس لا تملیک رقبته لهم فالناس یملکون أن یبعدوا اللّه فیه لیس لأحد أن یمنع أحدا من ذلک ففیه إشاره الی أن منعهم و صدهم عن المسجد الحرام تعد منهم الی حق الناس و إلحاد بظلم کما أن إضافه السبیل الی اللّه تعد منهم الی حق اللّه تعالی.

و یؤید ذلک أیضا تعقیبه بقوله: «سَواءً الْعاکِفُ فِیهِ وَ الْبادِ» أی المقیم فیه و الخارج منه مساویان فی أن لهما حق العباده فیه للّه،و المراد بالإقامه فیه و فی الخارج منه إما الإقامه بمکه

و فی الخارج منها علی طریق المجاز العقلی أو ملازمه المسجد للعباده و الطرو علیه لها.

و قوله: وَ مَنْ یُرِدْ فِیهِ بِإِلْحٰادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذٰابٍ أَلِیمٍ بیان لجزاء من ظلم الناس فی هذا الحق المشروع لهم فی المسجد و لازمه تحریم صد الناس عن دخوله للعباده فیه و مفعول «یُرِدْ» محذوف للدلاله علی العموم،و الباء فی «بِإِلْحٰادٍ» للملابسه و فی «بِظُلْمٍ» للسببیه و الجمله تدل علی خبر قوله: «إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا» فی صدر الآیه.

و المعنی الذین کفروا و لا یزالون یمنعون الناس عن سبیل اللّه و هو دین الإسلام و یمنعون المؤمنین عن المسجد الحرام الذی جعلناه معبدا للناس یستوی فیه العاکف فیه و البادی نذیقهم من عذاب ألیم لأنهم یریدون الناس فیه بالحاد بظلم و من یرد الناس فیه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب ألیم.

قوله تعالی: وَ إِذْ بَوَّأْنٰا لِإِبْرٰاهِیمَ مَکٰانَ الْبَیْتِ أَنْ لاٰ تُشْرِکْ بِی شَیْئاً وَ طَهِّرْ بَیْتِیَ لِلطّٰائِفِینَ وَ الْقٰائِمِینَ وَ الرُّکَّعِ السُّجُودِ بوء له مکانا کذا أی جعله مباءه و مرجعا له یرجع الیه و یقصده،و المکان ما یستقر علیه الشیء فمکان البیت القطعه من الأرض التی بنی فیها،و المراد بالقائمین علی ما یعطیه السیاق هم الناصبون أنفسهم للعباده و الصلاه.و الرکع جمع راکع کسجّد جمع ساجد و السجود جمع ساجد کالرکوع جمع راکع.

و قوله: وَ إِذْ بَوَّأْنٰا لِإِبْرٰاهِیمَ مَکٰانَ الْبَیْتِ الظرف فیه متعلق بمقدر أی و اذکر وقت کذا و فیه تذکیر لقصه جعل البیت معبدا للناس لیتضح به أن صد المؤمنین عن المسجد الحرام لیس إلا إلحادا بظلم.

و تبوئته تعالی مکان البیت لإبراهیم هی جعل مکانه مباءه و مرجعا لعباده لا لأن یتخذه بیت سکنی یسکن فیه،و یلوح الیه قوله بعد:«ظهر بیتی»بإضافه البیت الی نفسه،و لا ریب أن هذا الجعل کان وحیا لإبراهیم فقوله: «بَوَّأْنٰا لِإِبْرٰاهِیمَ مَکٰانَ الْبَیْتِ» فی معنی قولنا:أوحینا الی إبراهیم أن اتخذ هذا المکان مباءه و مرجعا لعبادتی و إن شئت فقل:أوحینا الیه أن اقصد

هذا المكان لعبادتی،و بعباره أخری أن اعبدنی فی هذا المکان.

و بـذلک یتضح أنّ «أَنْ» فی قوله: «أَنْ لاٰ تُشْرِکْ بِی شَیْئاً» مفسره تفسر الوحی السابق باعتباره أنه قول من غیر حاجه الی تقدیر أوحینا أو قلنا و نحوه.

و یتضح أیضا أن قوله: «أَنْ لاٰ تُشْرِکْ بِی شَیْئاً» لیس المراد به-و هو واقع فی هـذا السیاق- النهی عن الشرک مطلقا و إن کان منهیا عنه مطلقا بل المنهی عنه فیه هو الشرک فی العباده التی یأتی بها حینما یقصد البیت للعباده و بعباره واضحه الشرک فیما یأتی به من أعمال الحج کالتلبیه للأوثان و الإهلال لها و نحوهما.

و کـذا قوله: وَ طَهِّرْ بَیْتِیَ لِلطّٰائِفِینَ وَ الْقٰائِمِینَ وَ الرُّکَّعِ السُّجُودِ و التطهیر إزاله الأقـذار و الأدناس عن الشیء لیعود الی ما یقتضیه طبعه الأولی،و قد أضاف البیت الی نفسه إذ قال: «بَیْتِیَ» أی بیتا یختص بعبادتی،و تطهیر المعبد بما أنه معبد تنزیهه من الأعمال الدنسه و الأرجاس التی تفسد العباده و لیست إلا الشرک و مظاهره.

فتطهیر بیته إما تنزیهه من الأرجاس المعنویه خاصه بأن یشرع إبراهیم علیه السّلام للناس و یعلمهم طریقا من العباده لا یـداخلها قـذاره شرک و لا یدنسها دنسه کما امر لنفسه بـذلک،و إما إزاله مطلق النجاسات عن البیت أعم من الصوریه و المعنویه لکن الـذی یمس سیاق الآیه منها هو الرجس المعنوی فمحصل تطهیر المعبد عن الأرجاس المعنویه و تنزیهه عنها للعبّاد الـذین یقصدونه بالعباده وضع عباده فیه خالصه لوجه اللّه لا یشوبها شائب شرک یعبدون اللّه سبحانه بها و لا یشرکون به شیئا.

فالمعنی بناء علی ما یهدی الیه السیاق و اذکر إذ أوحینا الی إبراهیم أن اعبدنی فی بیتی هـذا بأخذه مباءه و مرجعا لعبادتی و لا تشرک بی شیئا فی عبادتی و سن لعبادی القاصدین بیتی من الطائفین و القائمین و الرکع السجود عباده فی بیتی خالصه من الشرک.

قوله تعالی: وَ أَذِّنْ فِی النّٰاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجٰالاً وَ عَلیٰ کُلِّ ضٰامِرٍ

يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ التأذين:الإعلام برفع الصوت و لذا فسّر بالنداء،و الحج القصد سمى به العمل الخاص الذى شرعه أولا إبراهيم عليه السّلام و جرت عليه شريعه محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم لما فيه من قصد البيت الحرام،و رجال جمع راجل خلاف الراكب،و الضامر المهزول الذى أضمره السير،و الفج العميق-على ما قيل-الطريق البعيد.

و قوله: وَ أَذِّنْ فِي النّاسِ بِالْحَجِّ أى ناد الناس بقصد البيت أو بعمل الحج و الجمله معطوفه على قوله: «لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً» و المخاطب به إبراهيم و ما قيل:إن المخاطب نبينا محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم بعيد من السياق.

و قوله: يَأْتُوكَ رِجالاً الخ؛جواب الأمر أى أذن فيهم و إن تؤذن فيهم يأتوك راجلين و على كل بعير مهزول يأتين من كل طريق بعيد،و لفظه «كُلِّ» تفيد فى أمثال هذه الموارد معنى الكثره دون الاستغراق.

قوله تعالى: لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللّهِ فِي أَيّامٍ مَعْلُوماتٍ الخ؛اللام للتعليل أو الغايه و الجار و المجرور متعلق بقوله: «يَأْتُوكَ» و المعنى يأتوك لشهاده منافع لهم أو يأتوك فيشهدوا منافع لهم و قد أطلقت المنافع لهم و لم تتقيد بالدنيويه أو الاخرويه.

و قوله: وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللّهِ فِي أَيّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ قال الراغب:و البهيمه ما لا نطق له و ذلك لما فى صوته من الإبهام لكن خصّ فى التعارف بما عدا السباع و الطير فقال تعالى: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ» .انتهى.

و قال:و النعم مختص بالإبل و جمعه أنعام و تسميته بذلك لكون الإبل عندهم أعظم نعمه، لكن الأنعام تقال للإبل و البقر و الغنم،و لا يقال لها:أنعام حتى تكون فى جملتها الإبل.انتهى.

فالمراد ببهيمه الأنعام الأنواع الثلاثه:الإبل و البقر و الغنم من معز أو ضأن و الإضافه بيانيه.

و الجمله أعنی قوله: «وَ یَذْکُرُوا» الخ؛معطوف علی قوله: «لِیَشْهَدُوا» أی و لیذکروا اسم اللّه فی أیام معلومات أی فی أیام التشریق علی ما فسرها أئمه أهل البیت علیهم السّلام و هی یوم الأضحی عاشر ذی الحجه و ثلاثه أیام بعده.

و ظاهر قوله: «عَلیٰ مٰا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَهِ الْأَنْعٰامِ» أنه متعلق بقوله: «یَذْکُرُوا» و قوله: «مِنْ بَهِیمَهِ الْأَنْعٰامِ» بیان للموصول و المراد ذکرهم اسم اللّه علی البهیمه-الاضحیه-عند ذبحها أو نحرها علی خلاف ما کان المشرکون یهلونها لأصنامهم.

و قوله: «فَکُلُوا مِنْهٰا وَ أَطْعِمُوا الْبٰائِسَ الْفَقِیرَ» البائس من البؤس و هو شده الضر و الحاجه،و الذی اشتمل علیه الکلام حکم ترخیصی إلزامی.

قوله تعالی: ثُمَّ لْیَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْیُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْیَطَّوَّفُوا بِالْبَیْتِ الْعَتِیقِ التفث شعث البدن،و قضاء التفث إزاله ما طرأ بالإحرام من الشعث بتقلیم الأظفار و أخذ الشعر و نحو ذلک و هو کنایه عن الخروج من الإحرام.

و المراد بقوله: «وَ لْیُوفُوا نُذُورَهُمْ» إتمام ما لزمهم بنذر أو نحوه،و بقوله: «وَ لْیَطَّوَّفُوا بِالْبَیْتِ الْعَتِیقِ» طواف النساء علی ما تفسیر أئمه أهل البیت علیهم السّلام فإن الخروج من الإحرام یحلل له کل ما حرم به إلا النساء فتحلّ بطواف النساء و هو آخر العمل.

و البیت العتیق هو الکعبه المشرّفه سمّیت به لقدمه فإنه أول بیت بنی لعباده اللّه کما قال تعالی: إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنّٰاسِ لَلَّذِی بِبَکَّهَ مُبٰارَکاً وَ هُدیً لِلْعٰالَمِینَ (آل عمران/۹۶)، و قد مضی علی هذا البیت الیوم زهاء أربعه آلاف سنه و هو معمور و کان له یوم نزول الآیات أکثر من ألفین و خمسمائه سنه.

قوله تعالی: ذٰلِکَ وَ مَنْ یُعَظِّمْ حُرُمٰاتِ اللّٰهِ فَهُوَ خَیْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ الی آخر الآیه؛الحرمه مما لا یجوز انتهاکه و وجب رعایته،و الأوثان جمع وثن و هو الصنم،و الزور المیل عن الحق و لذا یسمی الکذب و قول الباطل زورا.

و قوله: ذٰلِكَ أی الأمر ذلک أی الـذی شـرعناه لإبراهیم علیه السّلام و من بعده من نسک الحج هو ذلک الذی ذکرناه و أشـرنا الیه من الإحرام و الطواف و الصلاه و التضحیه بالإخلاص للّه و التجنب عن الشرک.

و قوله: وَ مَنْ یُعَظِّمْ حُرُمٰاتِ اللّٰهِ فَهُوَ خَیْرٌ لَهُ نـدب الی تعظیم حرمات اللّه و هی الامور التی نهی عنها و ضـرب دونها حـدودا منع عن تعدّیها و اقتراف ما وراءها و تعظیمها الکف عن التجاوز إلیها.

و الذی یعطیه السیاق أن هذه الجمله توطئه و تمهید لما بعدها من قوله: «وَ أُحِلَّتْ لَکُمُ الْأَنْعٰامُ إِلاّٰ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ» فإن انضمام هذه الجملـه الی الجمله قبلهـا یفیـد أن الأنعـام-علی کونهـا ممـا رزقهم اللّه و قـد أحلّهـا لهم-فیهـا حرمه إلهیه و هی الـتی یـدلّ علیها الاستثناء-إلا ما یتلی علیکم-.

و المراد بقوله: «مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ» اسـتمرار التلاوه،فإن محرّمات الأکل نزلت فی سوره الأنعام و هی مکیه و فی سوره النحل و هی نازله فی آخر عهـده صلّی اللّه علیه و آله و سلم بمکه و أول عهده بالمدینه، و فی سوره البقره و قد نزلت فی أوائل الهجره بعد مضی سته أشهر منها-علی ما روی-و لا موجب لجعل «یُتْلیٰ» للاستقبال و أخذه إشاره الی آیه سوره المائده کما فعلوه.

و الآیـات المتضـمنه لمحرّمـات الأکـل و إن تضـمنت منهـا عـده امور کـالمیته و الـدم و لحم الخنزیر و ما أهلّ به لغیر اللّه إلا أن العنـایه فی الآـیه بشـهاده سـیاق مـا قبلها و ما بعـدها بخصوص ما أهلّ به لغیر اللّه فإن المشـرکین کانوا یتقرّبون فی حجهم-و هو السنّه الوحیده الباقیه بینهم من مله إبراهیم-بالأصنام المنصوبه علی الکعبه و علی الصفا و علی المروه و بمنی و یهلّون بضحایاهم لها فالتجنب منها و من الإهلال بذکر أسمائها هو الغرض المعنی به من الآیه و إن کان أکل المیته و الدم و لحم الخنزیر أیضا من جمله حرمات اللّه.

و یؤید ذلک أیضا تعقیب الکلام بقوله: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثٰانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ

الزُّورِ» فإن اجتناب الأوثان و اجتناب قول الزور و إن كانا من تعظيم حرمات اللّه و لـذلك تفرع «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ» على ما تقـدمه من قوله: «وَ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللّٰهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ» لكن تخصـيص هاتين الحرمتين من بين جميع الحرمات فى سـياق آيات الحج بالذكر ليس إلا لكونهما مبتلى بهما فى الحج يومئذ و إصـرار المشـركين على التقرب من الأصنام هناك و إهلال الضحايا باسمها.

و بـذلك يظهر أن قوله: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثٰانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ» نهى عام عن التقرب الى الأصـنام و قول الباطل أورد لغرض التقرب الى الأصـنام فى عمل الحج كما كانت عاده المشـركين جاريه عليه،و عن التسـميه باسم الأصـنام على الذبائح من الضحايا،و على ذلك يبتنى التفريع بالفاء.

و فى تعليق حكم الاجتنـاب أولاـ بـالرجس ثم بيـانه بقوله: «مِنَ الْأَوْثٰانِ» إشـعار بالعلّيه كأنه قيل:اجتنبوا الأوثان لأنها رجس،و فى تعليقه بنفس الأوثـان دون عبادتهـا أو التقرب أو التـوجه إليهـا أو مسّـها و نحـو ذلـك-مع أن الاجتنـاب إنمـا يتعلق على الحقيقه بالأعمال دون الأعيان-مبالغه ظاهره.

و قـد تبين بما مرّ أن «مَنْ» فى قوله: «مِنَ الْأَوْثٰانِ» بيانيه،و ذكر بعضـهم أنها ابتدائيه، و المعنى:اجتنبوا الرجس الكائن من الأوثان و هو عبادتها،و ذكر آخرون أنها تبعيضـيه، و المعنى:اجتنبوا الرجس الذى هو بعض جهات الأوثان و هو عبادتها،و فى الوجهين من التكلف و إخراج معنى الكلام عن استقامته ما لا يخفى.

قوله تعالى: حُنَفٰاءَ لِلّٰهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَكَأَنَّمٰا خَرَّ مِنَ السَّمٰاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ الخ؛الحنفاء جمع حنيف و هو المائل من الأـطراف الى حاق الوسط.و كونهم حنفاء للّه ميلهم عن الأغيار و هى الآلهه من دون اللّه اليه فيتحـد مع قوله غير مشـركين به معنى.

و همـا أعنى قوله: «حُنَفٰاءَ لِلّهِ» و قوله: «غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ» حالاـن عن فاعـل «فَاجْتَنِبُوا» أى اجتنبوا التقرب من الأوثان و الإهلال لها حال كونكم مائلين اليه ممن سواه غير مشـركين به فى حجكم فقد كان المشركون يلبّون فى الحج بقولهم:لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه و ما ملك.

و قوله: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَكَأَنَّمٰا خَرَّ مِنَ السَّمٰاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أى تأخذه بسرعه،شبّه المشـرك فى شركه و سقوطه به من أعلى درجات الإنسانيه الى هاويه الضلال فيصيده الشيطان،بمن سقط من السماء فتأخذه الطير.

و قوله: أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكٰانٍ سَحِيقٍ أى بعيد فى الغايه و هو معطوف على «فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ» تشبيه آخر من جهه البعد.

قوله تعالى: ذٰلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعٰائِرَ اللّهِ فَإِنَّهٰا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ «ذٰلِكَ» خبر لمبتدإ محذوف أى الأمر ذلك الذى قلنا،و الشعائر جمع شعيره و هى العلامه،و شعائر اللّه الأعلام التى نصبها اللّه تعالى لطاعته كما قال: إِنَّ الصَّفٰا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعٰائِرِ اللّهِ ،و قال: «وَ الْبُدْنَ جَعَلْنٰاهٰا لَكُمْ مِنْ شَعٰائِرِ اللّهِ» الآيه.

و المراد بها البدن التى تساق هديا و تشعر أى يشق سنامها من الجانب الأيمن ليعلم أنها هدى على ما فى تفسير أئمه البيت عليهم السّلام و يؤيده ظاهر قوله تلوا: «لَكُمْ فِيهٰا مَنٰافِعُ» الخ؛ و قوله: «وَ الْبُدْنَ جَعَلْنٰاهٰا» الآيه،و قيل:المراد بها جميع الأعلام المنصوبه للطاعه،و السياق لا يلائمه.

و قوله: فَإِنَّهٰا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ أى تعظيم الشعائر الإلهيه من التقوى،فالضمير لتعظيم الشعائر المفهوم من الكلام ثم كأنه حذف المضاف و أقيم المضاف اليه مقامه فارجع اليه الضمير.

و إضافه التقوى الى القلوب للإشاره الى أن حقيقه التقوى و هى التحرّز و التجنب عن

سخطه تعـالی و التورّع عن محـارمه أمر معنوی یرجع الی القلوب و هی النفوس و لیست هی جسـد الأعمـال التی هی حرکات و سکنات فإنها مشترکه بین الطاعه و المعصیه کالمسّ فی النکاح و الزنا،و إزهاق الروح فی القتل قصاصا أو ظلما و الصلاه المأتی بها قربه أو ریاء و غیر ذلک،و لا هی العناوین المنتزعه من الأفعال کالإحسان و الطاعه و نحوها.

قوله تعالی: لَکُمْ فِیهٰا مَنٰافِعُ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَـمًّی ثُمَّ مَحِلُّهٰا إِلَی الْبَیْتِ الْعَتِیقِ المحل بکسر الحاء اسم زمان بمعنی وقت حلول الأجل،و ضمیر «فِیهٰا» للشـعائر، و المعنی علی تقـدیم کون المراد بالشـعائر بـدن الهـدی أن لکم فی هـذه الشـعائر-و هی البدن- منافع من رکوب ظهرهـا و شـر ألبانهـا عنـد الحـاجه الی أجل مسـمی هو وقت نحرها ثم محلّها أی وقت حلول أجلها للنحر منته الی البیت العتیق أو بانتهائها الیه،و الجمله فی معنی قوله:

«هَدْیاً بٰالِغَ الْکَعْبَهِ» هذا علی تفسیر أئمه أهل البیت علیهم السّلام.

و أمـا علی القول بکون المراد بالشـعائر مناسـک الحـج فقیـل:المراد بالمنـافع التجاره الی أجل مسـمی ثم محل هـذه المناسک و منتهاها الی البیت العتیق لأن آخر ما یأتی به من الأعمال الطواف بالبیت.

قوله تعالی: وَ لِکُلِّ أُمَّهٍ جَعَلْنٰا مَنْسَکاً لِیَذْکُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلیٰ مٰا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَهِ الْأَنْعٰامِ الی آخر الآیه؛المنسک مصدر میمی و اسم زمان و مکان،و ظاهر قوله:

«لِیَذْکُرُوا اسْمَ اللّٰهِ» الخ؛أنه مصدر میمی بمعنی العباده و هی العباده التی فیها ذبح و تقریب قربان.

و المعنی:و لکـل أمه-من الامـم السـالفه المؤمنه-جعلنا عباده من تقریب القرابین لیـذکروا اسم اللّه علی بهیمه الأنعام التی رزقهم اللّه أی لستم معشر أتباع إبراهیم أول أمه شرعت لهم التضحیه و تقریب القربان فقد شرعنا لمن قبلکم ذلک.

و قوله: فَإِلٰهُکُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا أی إذ کان اللّه سبحانه هو الذی شرع لکم

و للامم قبلكم هذا الحكم فإلهكم و إله من قبلكم إله واحد فأسلموا و استسلموا له بإخلاص عملكم له و لا تتقربوا فى قرابينكم الى غيره فالفاء فى «فَإِلٰهُكُمْ» لتفريع السبب على المسبب و فى قوله: «فَلَهُ أَسْلِمُوا» لتفريع المسبب على السبب.

و قوله: وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ فيه تلويح الى أن من أسلم للّه فى حجه مخلصا فهو من المخبتين،و قد فسره بقوله: «الَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصّٰابِرِينَ عَلىٰ مٰا أَصٰابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلاٰةِ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ» و انطباق الصفات المعدوده فى الآيه و هى الوجل و الصبر و إقامه الصلاه و الإنفاق،على من حج البيت مسلما لربه معلوم.

قوله تعالى: وَ الْبُدْنَ جَعَلْنٰاهٰا لَكُمْ مِنْ شَعٰائِرِ اللّٰهِ لَكُمْ فِيهٰا خَيْرٌ الى آخر الآيه؛البدن بالضم فالسكون جمع بدنه بفتحتين و هى السمينه الضخمه من الإبل،و السياق أنها من الشعائر باعتبار جعلها هديا.

و قوله: فَاذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلَيْهٰا صَوٰافَّ الصواف جمع صافه و معنى كونها صافه أن تكون قائمه قد صفت يداها و رجلاها و جمعت و قد ربطت يداها.

و قوله: فَإِذٰا وَجَبَتْ جُنُوبُهٰا فَكُلُوا مِنْهٰا وَ أَطْعِمُوا الْقٰانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ الوجوب السقوط يقال:وجبت الشمس أى سقطت و غابت،و الجنوب جمع جنب،و المراد بوجوب جنوبها سقوطها على الأرض على جنوبها و هو كنايه عن موتها،و الأمر فى قوله: «فَكُلُوا مِنْهٰا» للاباحه و ارتفاع الحظر،و القانع هو الفقير الذى يقنع بما أعطيه سواء سأل أم لا،و المعتر هو الذى أتاك و قصدك من الفقراء،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: لَنْ يَنٰالَ اللّٰهَ لُحُومُهٰا وَ لاٰ دِمٰاؤُهٰا وَ لٰكِنْ يَنٰالُهُ التَّقْوىٰ مِنْكُمْ الى آخر الآيه؛بمنزله دفع الدخل كأن متوهما بسيط الفهم يتوهم أن للّه سبحانه نفعا فى هذه الضحايا و لحومها و دمائها فاجيب ان اللّه سبحانه لن يناله شىء من لحومها و دمائها لتنزهه عن الجسميه و عن كل حاجه و إنما يناله التقوى نيلا معنويا فيقرب المتصفين به منه تعالى.

أو يتوهم أن اللّه سبحانه لما كان منزها عن الجسميه و عن كل نقص و حاجه و لا ينتفع بلحم أو دم فما معنى التضحيه بهذه الضحايا فاجيب بتقرير الكلام و أن الأمر كذلك لكن هذه التضحيه يصحبها صفه معنويه لمن يتقرب بها و هذه الصفه المعنويه من شأنها أن تنال اللّه سبحانه بمعنى أن تصعد اليه تعالى و تقرب صاحبها منه تقريبا لا يبقى معه بينه و بينه حجاب يحجبه عنه.

و قوله: كَذٰلِكَ سَخَّرَهٰا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللّٰهَ عَلىٰ مٰا هَدٰاكُمْ الظاهر أن المراد بالتكبير ذكره تعالى بالكبرياء و العظمه،فالهدايه هى هدايته الى طاعته و عبوديته و المعنى كذلك سخرها لكم ليكون تسخيرها وصله الى هدايتكم الى طاعته و التقرب اليه بتضحيتها فتذكروه بالكبرياء و العظمه على هذه الهدايه.

و قوله: وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ أى الذين يأتون بالأعمال الحسنه أو بالإحسان و هو الانفاق فى سبيل اللّه (1).

[سوره الحج (۲۲): الآيات ۳۸ الى ۵۷]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ يُدٰافِعُ عَنِ اَلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ خَوّٰانٍ كَفُورٍ (۳۸) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقٰاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اَللّٰهَ عَلىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (۳۹) اَلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيٰارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاّٰ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اَللّٰهُ وَ لَوْ لاٰ دَفْعُ اَللّٰهِ اَلنّٰاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوٰامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَوٰاتٌ وَ مَسٰاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اِسْمُ اَللّٰهِ كَثِيراً وَ لَيَنْصُرَنَّ اَللّٰهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اَللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (۴۰) اَلَّذِينَ إِنْ مَكَّنّٰاهُمْ فِي اَلْأَرْضِ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰةَ وَ آتَوُا اَلزَّكٰاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ اَلْمُنْكَرِ وَ لِلّٰهِ عٰاقِبَةُ اَلْأُمُورِ (۴۱) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عٰادٌ وَ ثَمُودُ (۴۲) وَ قَوْمُ إِبْرٰاهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ (۴۳) وَ أَصْحٰابُ مَدْيَنَ وَ كُذِّبَ مُوسىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكٰافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كٰانَ نَكِيرِ (۴۴) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنٰاهٰا وَ هِيَ ظٰالِمَةٌ فَهِيَ خٰاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوشِهٰا وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ (۴۵) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي اَلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهٰا أَوْ آذٰانٌ يَسْمَعُونَ بِهٰا فَإِنَّهٰا لاٰ تَعْمَى اَلْأَبْصٰارُ وَ لٰكِنْ تَعْمَى اَلْقُلُوبُ اَلَّتِي فِي اَلصُّدُورِ (۴۶) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذٰابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اَللّٰهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّٰا تَعُدُّونَ (۴۷) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهٰا وَ هِيَ ظٰالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهٰا وَ إِلَيَّ اَلْمَصِيرُ (۴۸) قُلْ يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ إِنَّمٰا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۴۹) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۵۰) وَ اَلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيٰاتِنٰا مُعٰاجِزِينَ أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلْجَحِيمِ (۵۱) وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لاٰ نَبِيٍّ إِلاّٰ إِذٰا تَمَنّٰى أَلْقَى اَلشَّيْطٰانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اَللّٰهُ مٰا يُلْقِي اَلشَّيْطٰانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اَللّٰهُ آيٰاتِهِ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۵۲) لِيَجْعَلَ مٰا يُلْقِي اَلشَّيْطٰانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ اَلْقٰاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اَلظّٰالِمِينَ لَفِي شِقٰاقٍ بَعِيدٍ (۵۳) وَ لِيَعْلَمَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ أَنَّهُ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اَللّٰهَ لَهٰادِ اَلَّذِينَ آمَنُوا إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۴) وَ لاٰ يَزٰالُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتّٰى تَأْتِيَهُمُ اَلسّٰاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذٰابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (۵۵) اَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ فِي جَنّٰاتِ اَلنَّعِيمِ (۵۶) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا فَأُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ (۵۷)

۱- ۱) .الحج ۲۵-۳۷:بحث روائى حول الحج و الكعبه.

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ اللّهَ یُدافِعُ عَنِ الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ اللّهَ لا یُحِبُّ کُلَّ خَوّانٍ کَفُورٍ المدافعه مبالغه فی الدفع،و الخوّان اسم مبالغه من الخیانه و کذا الکفور من الکفران و المراد بالذین آمنوا المؤمنون من الامه و إن انطبق بحسب المورد علی المؤمنین فی ذلک الوقت لأن الآیات تشرع القتال و لا یختص حکمه بطائفه دون طائفه،و المورد لا یکون

مخصصا.

و المراد بكل خوّان كفور المشركون،و إنما كانوا مكثرين فی الخيانه و الكفران لأن اللّه حملهم أمانه الدين الحق و جعلها وديعه عند فطرتهم لينالوا بحفظه و رعايته سعاده الدارين و عرفهم إياه من طريق الرساله فخانوه بالجحد و الإنكار و غمرهم بنعمه الظاهره و الباطنه فكفروا بها و لم يشكروه بالعبوديه.

و فی الآيه تمهيد لما فی الآيه التاليه من الإذن فی القتال و فذكر تمهيدا أن اللّه يدافع عن الذين آمنوا و إنما يدفع عنهم المشركين لأن يحب هؤلاء و لا يحب أولئك لخيانتهم و كفرهم فهو إنما يحب هؤلاء لأمانتهم و شكرهم فهو إنما يدافع عن دينه الذی عند المؤمنين.

فهو تعالی مولاهم و وليهم الذی يدفع عنهم أعداءه كما قال: ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكٰافِرِينَ لاٰ مَوْلىٰ لَهُمْ (سوره محمد/١١).

قوله تعالی: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقٰاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ظاهر السياق أن المراد بقوله: «أُذِنَ» إنشاء الإذن دون الاخبار عن إذن سابق و إنما هو إذن فی القتال كما يدل عليه قوله: «لِلَّذِينَ يُقٰاتَلُونَ» الخ؛و لذا بدّل قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» من قوله: «الَّذِينَ يُقٰاتِلُونَ» ليدل علی المأذون فيه.

و القراءه الدائره «يقاتلون» بفتح التاء مبنيا للمفعول أی الذين يقاتلهم المشركون لأنهم الذين أرادوا القتال و بدؤهم به،و الباء فی «بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا» للسببيه و فيه تعليل الإذن فی القتال أی أذن لهم فيه بسبب أنهم ظلموا،و أما ما هو الظلم فتفسيره قوله: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيٰارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ» الخ.

و فی عدم التصريح بفاعل «أُذِنَ» تعظيم و تكبير و نظيره ما فی قوله: «وَ إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ» من ذكر القدره علی النصر دون فعليته فإن فيه إشاره الی أنه مما لا يهتم به لأنه هين علی من هو علی كل شیء قدير.

و المعنی أذن-من جانب اللّه-للذین یقاتلهم المشرکون و هم المؤمنون بسبب أنهم ظلموا -من جانب المشرکین-و إن اللّه علی نصرهم لقدیر،و هو کنایه عن النصر.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ أُخْرِجُوا مِنْ دِیارِهِمْ بِغَیْرِ حَقٍّ إِلاّ أَنْ یَقُولُوا رَبُّنَا اللّهُ الی آخر الآیه؛بیان جهه کونهم مظلومین و هو أنهم أخرجوا من دیارهم و قد أخرجهم المشرکون من دیارهم بمکه بغیر حق یجوز لهم إخراجهم.

و لم یخرجوهم بحمل و تسفیر بل آذوهم و بالغوا فی إیذائهم و شدّوا بالتعذیب و التفتین حتی اضطروهم الی الهجره من مکه و التغرب عن الوطن و ترک الدیار و الأموال فقوم الی الحبشه و آخرون الی المدینه بعد هجره النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم،فإخراجهم إیاهم إلجاؤهم الی الخروج.

و قوله: إِلاّ أَنْ یَقُولُوا رَبُّنَا اللّهُ استثناء منقطع معناه و لکن أخرجوا بسبب أن یقولوا ربنا اللّه،و فیه إشاره الی أن المشرکین انحرفوا فی فهمهم و ألحدوا عن الحق الی حیث جعلوا قول القائل ربنا اللّه و هو کلمه الحق یبیح لهم أن یخرجوه من داره.

و قوله: وَ لَوْ لا دَفْعُ اللّهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِیَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ یُذْکَرُ فِیهَا اسْمُ اللّهِ کَثِیراً الصوامع جمع صومعه و هی بناء فی أعلاه حده کان یتخذ فی الجبال و البراری و یسکنه الزهاد و المعتزلون من الناس للعباده، و البیع جمع بیعه بکسر الباء معبد الیهود و النصاری،و الصلوات جمع صلاه و هی مصلی الیهود سمی بها تسمیه للمحل باسم الحال کما أرید بها المسجد فی قوله تعالی: لا تَقْرَبُوا الصَّلاهَ وَ أَنْتُمْ سُکاری -الی قوله- وَ لا جُنُباً إِلاّ عابِرِی سَبِیلٍ .

و قوله: وَ لَیَنْصُرَنَّ اللّهُ مَنْ یَنْصُرُهُ إِنَّ اللّهَ لَقَوِیٌّ عَزِیزٌ قسم مع تاکید بالغ علی نصره تعالی من ینصره بالقتال ذبا عن الدین الالهی و لقد صدق اللّه وعده فنصر المسلمین فی حروبهم و مغازیهم فأیدهم علی أعدائه و رفع ذکره ما کانوا ینصرونه.

و المعنی أقسم لینصرن اللّه من ینصره بالدفاع عن دینه إن اللّه لقوی لا یضعفه أحد و لا

يمنعه شیء عما أراد عزيز منيع الجانب لا يتعدى إلى ساحه عزته و لا يعادله شیء فی سلطنته و ملكه.

و من يظهر من الآيه أنه كان فی الشرائع السابقه حكم دفاعی فی الجمه و ان لم يبين كيفيته.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ إِنْ مَكَّنّٰاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقٰامُوا الصَّلاٰةَ وَ آتَوُا الزَّكٰاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ الخ؛توصيف آخر للذين آمنوا المذكورين فی أول الآيات،و هو توصيف المجموع من حيث هو مجموع من غير نظر الى الأشخاص و المراد من تمكينهم فی الأرض إقدارهم على اختيار ما يريدونه من نحو الحياه من غير مانع يمنعهم أو مزاحم يزاحمهم.

يقول تعالى:إن من صفتهم أنهم إن تمكنوا فی الأرض و أعطوا الحريه فی اختيار ما يستحبونه من نحو الحياه عقدوا مجتمعا صالحا تقام فيه الصلاه و تؤتى فيه الزكاه و يؤمر فيه بالمعروف و ينهى فيه عن المنكر،و تخصيص الصلاه من بين الجهات العباديه و الزكاه من بين الجهات الماليه بالذكر لكون كل منهما عمده فی بابها.

و إذ كان الوصف للذين آمنوا المذكورين فی صدر الآيات و المراد به عقد مجتمع صالح و حكم الجهاد غير خاص بطائفه خاصه فالمراد بهم عامه المؤمنين يومئذ بل عامه المسلمين الى يوم القيامه و الخصيصه خصيصتهم بالطبع فمن طبع المسلم بما هو مسلم الصلاح و إن كان ربما غشيته الغواشی.

و ليس المراد بهم خصوص المهاجرين بأعيانهم سواء كانت الآيات مكيه أو مدنيه و إن كان المذكور من جهه المظلوميه هو إخراجهم من ديارهم و ذلك لمنافاته عموم الموصوف المذكور فی صدر الآيات و عموم حكم الجهاد لهم و لغيرهم قطعا.

على أن المجتمع الصالح الذی عقد لأول مره فی المدينه ثم انبسط فشمل عامه جزيره العرب فی عهد النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو أفضل مجتمع متكون فی تاريخ الاسلام تقام فيه الصلاه و تؤتى فيه

الزکاه و تؤمر فیه بالمعروف و تنهی فیه عن المنکر مشمول للآیه قطعا و کان السبب الأول ثم العامل الغالب فیه الأنصار دون المهاجرین.

و لم یتفق فی تاریخ الاسلام للمهاجرین،خاصه أن یعقدوا وحدهم مجتمعا من غیر شرکه من الأنصار فیقیموا الحق و یمیطوا الباطل فیه اللهمّ إلا أن یقال:إن المراد بهم أشخاص الخلفاء الراشدین أو خصوص علیّ علیه السّلام علی الخلاف بین أهل السنه و الشیعه،و فی ذلک إفساد معنی جمیع الآیات.

علی أن التاریخ یضبط من أعمال الصدر الأول و خاصه المهاجرین منهم أمورا لا یسعنا أن نسمیها إحیاء للحق و إماته للباطل سواء قلنا بکونهم مجتهدین معذورین أم لا فلیس المراد توصیف أشخاصهم بل المجموع من حیث هو مجموع.

و قوله: وَ لِلّٰهِ عٰاقِبَهُ الْأُمُورِ تأکید لما تقدم من الوعد بالنصر و إظهار المؤمنین علی أعداء الدین الظالمین لهم.

قوله تعالی: وَ إِنْ یُکَذِّبُوکَ فَقَدْ کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ -الی قوله- فَکَیْفَ کٰانَ نَکِیرِ فیه تعزیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن تکذیب قومه له لیس ببدع فقد کذّبت أمم قبلهم لأنبیائهم.و إنذار و تخویف للمکذبین بالإشاره الی ما انتهی الیه تکذیب من قبلهم من الامم و هو الهلاک بعذاب من اللّه تعالی.

و قد عدّ من تلک الامم قوم نوح و عادا و هم قوم هود و ثمود و هم قوم صالح و قوم إبراهیم و قوم لوط و أصحاب مدین و هم قوم شعیب،و ذکر تکذیب موسی.قیل:و لم یقل:و قوم موسی لأن قومه بنو إسرائیل و کانوا آمنوا به،و إنما کذّبه فرعون و قومه.

و قوله: فَأَمْلَیْتُ لِلْکٰافِرِینَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَکَیْفَ کٰانَ نَکِیرِ الإملاء الإمهال و تأخیر الأجل،و النکیر الإنکار،و المعنی فأمهلت الکافرین-الذین کذّبوا رسلهم من هذه الامم-ثم أخذتهم و هو کنایه عن العقاب فکیف کان إنکاری لهم فی تکذیبهم و کفرهم؟و هو

كنايه عن بلوغ الإنكار و شده الأخذ.

قوله تعالى: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَهٍ أَهْلَكْنٰاهٰا وَ هِيَ ظٰالِمَهٌ فَهِيَ خٰاوِيَهٌ عَلىٰ عُرُوشِهٰا وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَهٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ قريه خاويه على عروشها أى ساقطه جدرانها على سقوفها فهى خربه،و البئر المعطّله الخاليه من الواردين و المستقين و شاد القصر أى جصّصه و الشيد بالكسر الجصّ.

و قوله: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَهٍ أَهْلَكْنٰاهٰا ظاهر السياق أنه بيان لقوله فى الآيه السابقه: «فَكَيْفَ كٰانَ نَكِيرِ» و قوله: «وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَهٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ» عطف على قريه.

و المعنى:فكم من قريه أهلكنا أهلها حال كونهم ظالمين فهى خربه ساقطه جدرانها على سقوفها،و كم من بئر معطّله باد النازلون عليها فلا وارد لها و لا مستقى منها،و كم من قصر مجصّص هلك سكانها لا يرى لهم أشباح و لا يسمع منهم حسيس،و أصحاب الآبار أهل البدو و أصحاب القصور أهل الحضر.

قوله تعالى: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهٰا أَوْ آذٰانٌ يَسْمَعُونَ بِهٰا الخ؛حثّ و تحضيض على الاعتبار بهذه القرى الهالكه و الآثار المعطّله و القصور المشيده التى تركتها تلك الامم البائده بالسير فى الأرض فإن السير فيها ربما بعث الإنسان الى أن يتفكر فى نفسه فى سبب هلاكهم و يستحضر الحجج فى ذلك فيتذكر أن الذى وقع بهم إنما وقع لشركهم باللّه و إعراضهم عن آياته و استكبارهم على الحق بتكذيب الرسل فيكون له قلب يعقل به و يردعه عن الشرك و الكفر هذا إن وسعه أن يستقل بالتفكير.

و إن لم يسعه ذلك بعثه الاعتبار الى أن يصغى الى قول المشفق الناصح الذى لا يريد به إلا الخير و عظه الواعظ الذى يميز له ما ينفعه مما يضره و لا عظه ككتاب اللّه و لا ناصح كرسوله فيكون له أذن يسمع بها ما يهتدى به الى سعادته.

قوله تعالى: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذٰابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ

رَبِّکَ کَأَلْفِ سَنَهٍ مِمّٰا تَعُدُّونَ کان القوم یکذبون النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم إذا أخبرهم أن اللّه سبحانه وعده أن یعذبهم إن لم یؤمنوا به فکانوا یستعجلونه العذاب استهزاء به و تعجیزا له قائلین:متی هذا الوعد؟فردّ اللّه علیهم بقوله: «وَ لَنْ یُخْلِفَ اللّٰهُ وَعْدَهُ» فإن کان المراد بالعذاب عذاب مشرکی مکه فالذی وعدهم من العذاب هو ما ذاقوه یوم بدر و إن کان المراد به ما یقضی به بین النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و بین أمته بعذاب موعود لم ینزل بعد و قد أخبر اللّه عنه فی قوله:

وَ لِکُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِیَ بَیْنَهُمْ (یونس۴۷/)الی آخر الآیات.

و قوله: وَ إِنَّ یَوْماً عِنْدَ رَبِّکَ کَأَلْفِ سَنَهٍ مِمّٰا تَعُدُّونَ حکم بتساوی الیوم الواحد و الألف سنه عند اللّه سبحانه فلا یستقلّ هذا و لا یستکثر ذلک حتی یتأثر من قصر الیوم الواحد و طول الألف سنه فلیس یخاف الفوت حتی یعجل لهم العذاب بل هو حلیم ذو أناه یمهلهم حتی یستکملوا درکات شقائهم ثم یأخذهم فیما قدّر لهم من أجل فإذا جاء أجلهم لا یستأخرون ساعه و لا یستقدمون،و لذا عقّب الکلام بقوله فی الآیه التالیه: «وَ کَأَیِّنْ مِنْ قَرْیَهٍ أَمْلَیْتُ لَهٰا وَ هِیَ ظٰالِمَهٌ ثُمَّ أَخَذْتُهٰا وَ إِلَیَّ الْمَصِیرُ» .

و قوله «وَ إِنَّ یَوْماً عِنْدَ رَبِّکَ کَأَلْفِ سَنَهٍ» رد لاستعجالهم بالعذاب بأن اللّه یستوی عنده قلیل الزمان و کثیره،کما أن قوله: «وَ لَنْ یُخْلِفَ اللّٰهُ وَعْدَهُ» تسلیه و تأیید للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و ردّ لتکذیبهم له فیما أخبرهم به من وعد اللّه و تعجیزهم له و استهزائهم به.

قوله تعالی: وَ کَأَیِّنْ مِنْ قَرْیَهٍ أَمْلَیْتُ لَهٰا وَ هِیَ ظٰالِمَهٌ ثُمَّ أَخَذْتُهٰا وَ إِلَیَّ الْمَصِیرُ الآیه-کما مر-متممه لقوله: «وَ إِنَّ یَوْماً عِنْدَ رَبِّکَ کَأَلْفِ سَنَهٍ» بمنزله الشاهد علی صدق المدّعی،و المعنی:قلیل الزمان و کثیره عند ربک سواء و قد أملی لکثیر من القری الظالمه و أمهلها ثم أخذها بعد مهل.

و قوله: وَ إِلَیَّ الْمَصِیرُ بیان لوجه عدم تعجیله العذاب لأن لما کان مصیر کل شیء الیه فلا یخاف الفوت حتی یأخذ الظالمین بعجل.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ -الى قوله- أَصْحابُ الْجَحِيمِ أمر بإعلام الرساله بالإنذار و بيان ما للإيمان به و العمل الصالح من الأجر الجميل و هو المغفره بالإيمان و الرزق الكريم و هو الجنه بما فيها من النعيم،بالعمل الصالح،و ما للكفر و الجحود من التبعه السيئه و هى صحابه الجحيم من غير مفارقه.

و قوله: سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ السعى الإسراع فى المشى و هو كنايه عن بذل الجهد فى أمر آيات اللّه لإبطالها و إطفاء نورها بمعاجزه اللّه،و التعبير بلفظ المتكلم مع الغير رجوع فى الحقيقه الى السابق بعد إيفاء الالتفات فى الآيه السابقه أعنى قوله: «أَمْلَيْتُ لَهَا» الخ.

قوله تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لاَ نَبِيٍّ إِلاّ إِذَا تَمَنّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ الخ؛التمنى تقدير الإنسان وجود ما يحبه سواء كان ممكنا أو ممتنعا كتمنى الفقير أن يكون غنيا و من لا ولد له أن يكون ذا ولد،و تمنى الإنسان أن يكون له بقاء لا فناء معه و أن يكون له جناحان يطير بهما،و يسمى صورته الخياليه التى يلتذّ بها أمنيّه، و الأصل فى معناه المنى بالفتح فالسكون بمعنى التقدير،و قيل:ربما جاء بمعنى القراءه و التلاوه يقال:تمنيت الكتاب أى قرأته.و الإلقاء فى الامنيه المداخله فيها بما يخرجها عن صرافتها و يفسد أمرها.

و معنى الآيه على أول المعنيين و هو كون التمنى هو تمنى القلب:و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبى إلا إذا تمنى و قدّر بعض ما يتمناه من توافق الأسباب على تقدّم دينه و إقبال الناس عليه و إيمانهم به ألقى الشيطان فى أمنيّته و داخل فيها بوسوسه الناس و تهييج الظالمين و إغراء المفسدين فأفسد الأمر على ذلك الرسول أو النبى و أبطل سعيه فينسخ اللّه و يزيل ما يلقى الشيطان ثم يحكم اللّه آياته بإنجاح سعى الرسول أو النبى و إظهار الحق و اللّه عليم حكيم.

و المعنى:على ثانى المعنيين و هو كون التمنى بمعنى القراءه و التلاوه:و ما أرسلنا من قبلك من

رسول و لا نبى إلا إذا تلا و قرء آيات اللّه ألقى الشيطان شبها مضله على الناس بالوسوسه ليجادلوه بها و يفسدوا على المؤمنين إيمانهم فيبطل اللّه ما يلقيه الشيطان من الشبه و يذهب به بتوفيق النبى لردّه أو بإنزال ما يرده.

و فى الآيه دلاله واضحه على اختلاف معنى النبوه و الرساله لا بنحو العموم و الخصوص مطلقا كما اشتهر بينهم أن الرسول هو من بعث و أمر بالتبليغ و النبى من بعث سواء أمر بالتبليغ أم لا،إذ لو كان كذلك لكان من الواجب أن يراد بقوله فى الآيه: «وَ لاٰ نَبِيٍّ» غير الرسول أعنى من لم يؤمر بالتبليغ،و ينافيه قوله: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰا» .

و قد قدّمنا فى مباحث النبوه فى الجزء الثانى من الكتاب ما يدل من روايات أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن الرسول هو من ينزل عليه الملك بالوحى فيراه و يكلمه و النبى هو من يرى المنام و يوحى اليه فيه،و قد استفدنا مضمون هذه الروايات من قوله تعالى: قُلْ لَوْ كٰانَ فِي الْأَرْضِ مَلاٰئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنٰا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمٰاءِ مَلَكاً رَسُولاً (الإسراء/۹۵)فى الجزء الثالث عشر من الكتاب.

و فى قوله: فَيَنْسَخُ اللّٰهُ مٰا يُلْقِي الشَّيْطٰانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللّٰهُ آيٰاتِهِ التفات من التكلم بالغير الى الغيبه،و الوجه فيه العنايه بذكر لفظ الجلاله و إسناد النسخ و الإحكام الى من لا يقوم له شىء،و لذلك بعينه أعاد لفظ الجلاله ثانيا مع أنه من وضع الظاهر موضع المضمر و منه أيضا إعاده لفظ الشيطان ثانيا دون ضميره ليشار الى أن الملقى هو الشيطان الذى لا يعبأ به و بكيده فى قباله تعالى،و كان الظاهر أن يقال:فينسخ ما يلقيه ثم يحكم آياته.

قوله تعالى: لِيَجْعَلَ مٰا يُلْقِي الشَّيْطٰانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقٰاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ الخ؛مرض القلب عدم استقامه حاله فى التعقل بأن لا يذعن بما من شأنه أن يذعن به من الحق و هو الشك و الارتياب،و قساوه القلب صلابته و غلظه مأخوذ من الحجر القاسى أى الصلب.و صلابته بطلان عواطفه الرقيقه المعينه فى إدراك المعانى الحقه

كـالخشوع و الرحمه و التواضع و المحبه فـالقلب المريض سـريع التصور للحق بطيء الاذعـان به، و القلب القسـى بطيئهمـا معـا،و كلاهما سريع القبول للوساوس الشيطانيه.

و الإلقاءات الشيطانيه التى تفسد الامور على الحق و أهله و تبطل مساعى الرسول و الأنبياء دون أن تؤثر أثرها و إن كانت مستنده الى الشـيطان نفسه لكنهـا كسـائر الآثـار لمـا كانت واقعه فى ملكه تعالى،و لا يقع أثر من مؤثر أو فعل من فاعل إلا بإذنه،و لا يقع شيء بإذنه إلا استند اليه استنادا ما بمقدار الإذن،و لا يستند اليه إلا ما فيه خير لا يخلو من مصلحه و غايه.

لـذا ذكر سـبحانه فى هـذه الآـيه أن لهـذه الإلقـاءات الشـيطانيه مصـلحه و هى أنهـا محنه يمتحن بهـا النـاس عامه و الامتحان من النواميس الإلهيه العامه الجاريه فى العالم الإنسانى و يتوقف عليه تلبّس السعيد بسعادته و الشقى بشقائه،و فتنه يفتتن بها الذين فى قلوبهم مرض و القاسـيه قلوبهم خاصه فإن تلبّس الأشـقياء بكمال شقائهم من التربيه الإلهيه المقصوده فى نظام الخلقه،قال تعالى: كُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هَؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّكَ وَ مٰا كٰانَ عَطٰاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (الإسراء٢٠/).

و هـذا معنى قوله: «لِيَجْعَـلَ مٰا يُلْقِى الشَّيْطٰانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقٰاسِـيَةِ قُلُوبُهُمْ» فاللام فى «لِيَجْعَـلَ» للتعليل يعلل بها إلقاء الشـيطان فى أمنيه الرسول و النبى أى يفعل الشـيطان كـذا ليفعل اللّه كـذا و معناه أنه مسـخر للّه كـذا و معناه أنه مسـخر للّه سبحانه لغرض امتحان العباد و فتنه أهل الشك و الجحود و غرورهم.

و قـد تبين أن المراد بالفتنه الابتلاء و الامتحان الـذى ينتـج الغرور و الضـلال و بالذين فى قلوبهم مرض أهل الشك من الكفار و بالقاسيه قلوبهم أهل الجحود و العناد.

و قـوله: وَ إِنَّ الظّٰالِمِينَ لَفِى شِقٰاقٍ بَعِيـدٍ الشـقاق و المشـاقه المبـاينه و المخـالفه و توصـيفه بالبعـد توصـيف له بحـال موصوفه،و المعنى:و إن الظالمين-و هم أهل الجحود على ما

يعطيه السياق أوهم و أهل الشك جميعا-لفى مباينه و مخالفه بعيد صاحبها من الحق و أهله.

قوله تعالى: وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ الخ؛المتبادر من السياق أنه عطف على قوله: «لِيَجْعَلَ» و تعليل لقوله: «فَيَنْسَخُ اللّٰهُ مٰا يُلْقِي الشَّيْطٰانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللّٰهُ آيٰاتِهِ» و الضمير فى «أَنَّهُ» على هذا لما يتمناه الرسول و النبى المفهوم من قوله: «إِذٰا تَمَنّٰى» الخ؛و لا دليل على إرجاعه الى القرآن.

و المعنى:فينسخ اللّه ما يلقيه الشيطان ثم يحكم آياته ليعلم الذين أوتوا العلم بسبب ذاك النسخ و الإحكام أن ما تمناه الرسول أو النبى هو الحق من ربك لبطلان ما يلقيه الشيطان فيؤمنوا به فتخبت أى تلين و تخشع له قلوبهم.

و يمكن أن يكون قوله: «وَ لِيَعْلَمَ» معطوفا على محذوف و مجموع المعطوف و المعطوف عليه تعليلا لما بيّنه فى الآيه السابقه من جعله تعالى هذا الإلقاء فتنه للذين فى قلوبهم مرض و القاسيه قلوبهم.

و المعنى:إنما بيّنا هذه الحقيقه لغايه كذا و كذا و ليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك، الخ؛على حد قوله: وَ تِلْكَ الْأَيّٰامُ نُدٰاوِلُهٰا بَيْنَ النّٰاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا (آل عمران/ ۱۴۰)،و هو كثير الورود فى القرآن.

و قوله: وَ إِنَّ اللّٰهَ لَهٰادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ فى مقام التعليل لكون علم الذين أوتوا العلم غايه مترتبه على فعله تعالى فيفيد أنه تعالى إنما فعل ما فعل ليعلموا أن الأمر حق لأنه هاد يريد أن يهديهم فيهديهم بهذا التعليم الى صراط مستقيم.

قوله تعالى: وَ لاٰ يَزٰالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتّٰى تَأْتِيَهُمُ الخ؛الآيه -كما ترى-تخبر عن حرمان هؤلاء الذين كفروا من الإيمان مدى حياتهم فليس المراد بهم مطلق الكفار لقبول بعضهم الإيمان بعد الكفر فالمراد به عده من صناديد قريش الذين لم

يوفقوا للإيمان ما عاشوا كما فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (البقره/۶).

و عقم اليوم كونه بحيث لا يخلف يوما بعده و هو يوم الهلاک أو يوم القيامه،و المراد به فى الآيه على ما يعطيه سياق الآيه الثالثه يوم القيامه.

و المعنى و يستمر الذين كفروا فى شک من القرآن حتى يأتيهم يوم القيامه أو يأتيهم عذاب يوم القيامه و هو يوم يأتى بغته لا يمهلهم حتى يحتالوا له بشىء و لا يخلف بعده يوما حتى يقضى فيه ما فات قبله.

و إنما ردد بين يوم القيامه و بين عذابه لأنهم يعترفون عند مشاهده كل منهما بالحق و يطيح عنهم الريب و المريه قال تعالى: قٰالُوا يٰا وَيْلَنٰا مَنْ بَعَثَنٰا مِنْ مَرْقَدِنٰا هٰذٰا مٰا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (يس/۵۲)،و قال: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ أَ لَيْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ قٰالُوا بَلىٰ وَ رَبِّنٰا (الأحقاف/۳۴).

و قد ظهر بما تقدم أن تقييد اليوم تاره بكونه بغته و تاره بالعقم للدلاله على كونه بحيث لا ينفع معها حيله و لا يقع بعدها تدارک لما فات قبله.

قوله تعالى: اَلْمُلْکُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ -الى قوله- عَذٰابٌ مُهِينٌ قد تقدّم مرارا أن المراد بكون الملک يومئذ للّه،ظهور كون الملک له تعالى لأن الملک له دائما و كذا ما ورد من نظائره من أوصاف يوم القيامه فى القرآن ككون الأمر يومئذ للّه و كون القوه يومئذ للّه و هكذا.

و لسنا نعنى به أن المراد بالملک مثلا فى الآيه ظهور الملک مجازا بل نعنى به أن الملک قسمان ملک حقيقى و ملک مجازى صورى،و للأشياء ملک مجازى صورى ملكها اللّه ذلک و له تعالى مع ذلک الملک الحق بحقيقه معناه حتى إذا كان يوم القيامه ارتفع كل ملک صورى عن الشىء المتلبّس به و لم يبق من الملک إلا حقيقته و هو للّه وحده فمن خاصه يوم القيامه أن الملک يومئذ

للّه و على هذا القياس.

و قوله: يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أى و لا حاكم غيره لأن الحكم من فروع الملك فإذا لم يكن يومئذ لأحد نصيب فى الملك لم يكن له نصيب فى الحكم.

و قوله: فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فِي جَنّاتِ النَّعِيمِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا -و هؤلاء المعاندون المستكبرون- فَأُولٰئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ بيان لحكمه تعالى (1).

[سوره الحج (٢٢): الآيات ۵٨ الى ۶۶]

اشاره

وَ اَلَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اَللّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اَللّهُ رِزْقاً حَسَناً وَ إِنَّ اَللّهَ لَهُوَ خَيْرُ اَلرّازِقِينَ (۵٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَ إِنَّ اَللّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (۵٩) ذٰلِكَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اَللّهُ إِنَّ اَللّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (۶٠) ذٰلِكَ بِأَنَّ اَللّهَ يُولِجُ اَللَّيْلَ فِي اَلنَّهارِ وَ يُولِجُ اَلنَّهارَ فِي اَللَّيْلِ وَ أَنَّ اَللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۶١) ذٰلِكَ بِأَنَّ اَللّهَ هُوَ اَلْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ اَلْباطِلُ وَ أَنَّ اَللّهَ هُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْكَبِيرُ (۶٢) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّهَ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ اَلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اَللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (۶٣) لَهُ ما فِي اَلسَّماواتِ وَ ما فِي اَلْأَرْضِ وَ إِنَّ اَللّهَ لَهُوَ اَلْغَنِيُّ اَلْحَمِيدُ (۶۴) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي اَلْأَرْضِ وَ اَلْفُلْكَ تَجْرِي فِي اَلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ يُمْسِكُ اَلسَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى اَلْأَرْضِ إِلاّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اَللّهَ بِالنّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (۶۵) وَ هُوَ اَلَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ اَلْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (۶۶)

١- ١) .الحج ٣٨-۵٧:بحث روائى فى ايذاء المشركين المسلمين؛اذن القتال للمسلمين؛النبى و الرسول.

بیان:

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ هٰاجَرُوا فِی سَبِیلِ اللّٰهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مٰاتُوا لَیَرْزُقَنَّهُمُ اللّٰهُ رِزْقاً حَسَناً لما ذکر إخراج المهاجرین من دیارهم ظلما عقّبه بذکر ما یثیبهم به علی مهاجرتهم و محنتهم فی سبیل اللّٰه و هو وعد حسن برزق حسن.

و قد قیّد الهجره بکونها فی سبیل اللّٰه لأن المثوبه إنما تترتب علی صالح العمل،و إنما یکون العمل صالحا عند اللّٰه بخلوص النیه فیه و کونه فی سبیله لا فی سبیل غیره من مال أو جاه أو غیرهما من المقاصد الدنیویه،و بمثل ذلک یتقید قوله: «ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مٰاتُوا» أی قتلوا فی سبیل اللّٰه أو ماتوا و قد تغرّبوا فی سبیل اللّٰه.

و قوله: وَ إِنَّ اللّٰهَ لَهُوَ خَیْرُ الرّٰازِقِینَ ختم للآیه یعلل به ما ذکر فیها من الرزق الحسن و هو النعمه الاخرویه إذ موطنها بعد القتل و الموت،و فی الآیه إطلاق الرزق علی نعم الجنه کما فی قوله: أَحْیٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ (آل عمران/۱۶۹).

قوله تعالی: لَیُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً یَرْضَوْنَهُ وَ إِنَّ اللّٰهَ لَعَلِیمٌ حَلِیمٌ المدخل بضم

ص: ۳۳۹

المیم و فتح الخاء اسم مکان من الإدخال،و احتمال کونه مصدرا میمیا لا یناسب السیاق تلک المناسبه.

و توصیف هذا المدخل و هو الجنه بقوله: «یَرْضَوْنَهُ» و الرضا مطلق،دلیل علی اشتمالها علی أقصی ما یریده الإنسان کما قال: لَهُمْ فِیها ما یَشاؤُنَ (الفرقان/۱۶).

و قوله: «لَیُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً یَرْضَوْنَهُ» بیان لقوله: «لَیَرْزُقَنَّهُمُ اللّهُ رِزْقاً حَسَناً» و إدخالهم إیاه مدخلا یرضونه و لا یکرهونه علی الرغم من إخراج المشرکین إیاهم إخراجا یکرهونه و لا یرضونه و لذا علله بقوله: «وَ إِنَّ اللّهَ لَعَلِیمٌ حَلِیمٌ» أی علیم بما یرضیهم فیعدّه لهم إعدادا حلیم فلا یعاجل العقوبه لأعدائهم الظالمین لهم.

قوله تعالی: ذٰلِکَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِیَ عَلَیْهِ لَیَنْصُرَنَّهُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ذلک خبر لمبتدإ محذوف أی الأمر ذلک الذی أخبرناک به و ذکرناه لک،و العقاب مؤاخذه الإنسان بما یکرهه بإزاء فعله ما لا یرتضیه المعاقب و إنما سمی عقابا لأنه یأتی عقیب الفعل.

و العقاب بمثل العقاب کنایه عن المعامله بالمثل و لما یکن هذه المعامله بالمثل حسنا إلا فیما کان العقاب الأول من غیر حق قیّده بکونه بغیا فعطف قوله: «بُغِیَ عَلَیْهِ» بثم علیه.

و قوله: لَیَنْصُرَنَّهُ اللّهُ ظاهر السیاق-و المقام مقام الإذن فی الجهاد-أن المراد بالنصر هو إظهار المظلومین علی الظالمین الباغین و تأییدهم علیهم فی القتال لکن یمکن أن یستظهر من مثل قوله: وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِیِّهِ سُلْطاناً فَلا یُسْرِفْ فِی الْقَتْلِ إِنَّهُ کانَ مَنْصُوراً (الإسراء/۳۳)أن المراد بالنصر هو تشریع حکم للمظلوم یتدارک به ما وقع علیه من وصمه الظلم و البغی فإن فی إذنه أن یعامل الظالم الباغی علیه بمثل ما فعل بسطا لیده علی من بسط علیه الید.

و بهذا یتضح معنی تعلیل النصر بقوله: «إِنَّ اللّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ» فإن الإذن و الإباحه فی موارد

الاضطرار و الحرج و ما شابه ذلک من مقتضیات صفتی العفو و المغفره کما تقدم مرارا فی أمثال قوله تعالی: فَمَنِ اضْطُرَّ فِی مَخْمَصَهٍ غَیْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (المائده/٣) و قد أوضحنا ذلک فی المجازاه و العفو فی آخر الجزء السادس من الکتاب.

و المعنی-علی هذا-و من عامل من عاقبه بغیا علیه بمثل ما عاقب نصره اللّه بإذنه فیه و لم یمنعه عن المعامله بالمثل لأن اللّه عفوّ غفور یمحو ما تستوجبه هذه المعامله و الانتقام من السماءه و التبعه کأن العقاب و إیصال المکروه الی الناس مبغوض فی نظام الحیاه غیر أن اللّه سبحانه یمحو ما فیه من المبغوضیه و یستر علی أثره السیئ إذا کان عقابا من مظلوم لظالمه الباغی علیه بمثل ما بغی علیه،فیجیز له ذلک و لا یمنعه بالتحریم و الحظر.

قوله تعالی: ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ یُولِجُ اللَّیْلَ فِی النَّهٰارِ وَ یُولِجُ النَّهٰارَ فِی اللَّیْلِ وَ أَنَّ اللّٰهَ سَمِیعٌ بَصِیرٌ إیلاج کل من اللیل و النهار فی الآخر حلوله محل الآخر کورود ضوء الصباح علی ظلمه اللیل کشیء یلج فی شیء ثم اتساعه و إشغال النهار من الفضاء ما أشغله اللیل،و ورود ظلمه المساء علی نور النهار کشیء یلج فی شیء ثم اتساعها و شمول اللیل.

و المشار الیه بذلک-بناء علی ما تقدم من معنی النصر-ظهور المظلوم بعقابه علی الظالم الباغی علیه،و المعنی أن ذلک النصر بسبب أن من سنّه اللّه أن یظهر أحد المضادّین و المتزاحمین علی الآخر کما یولج اللیل فی النهار و یولج النهار فی اللیل و إن اللّه سمیع لأقوالهم بصیر بأعمالهم فینصر المظلوم و هو مهضوم الحق بعینه و ما یسأله بلسان حاله فی سمعه.

قوله تعالی: ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مٰا یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبٰاطِلُ وَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْعَلِیُّ الْکَبِیرُ الإشاره بذلک الی النصر أو الیه و الی ما ذکر من سببه.

و الحصران فی قوله: «بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ» و قوله: «وَ أَنَّ مٰا یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبٰاطِلُ» إما بمعنی أنه تعالی حق لا یشوبه باطل و أن ما یدعون من دونه و هی الأصنام باطل لا یشوبه حق

فهو قادر على أن يتصرف فى تكوين الأشياء و أن يحكم لها و عليها بما شاء.

و إما بمعنى أنه تعالى حق بحقيقه معنى الكلمه مستقلا بذلك لا حق غيره إلا ما حققه هو، و أن ما يدعون من دونه و هى الأصنام بل كان ما يركن اليه و يدعى للحاجه من دون اللّه هو الباطل لا غيره إذ مصداق غيره هو اللّه سبحانه فافهم ذلك،و إنما كان باطلا إذ كان لا حقيه له باستقلاله.

و المعنى-على أى تقدير-أن ذلك التصرف فى التكوين و التشريع من اللّه سبحانه بسبب أنه تعالى حق يتحقق بمشيّته كل حق غيره،و أن آلهتهم من دون اللّه و كل ما يركن اليه ظالم باغ من دونه باطل لا يقدر على شىء.

و قوله: وَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ علوّه تعالى بحيث يعلو و لا يعلى عليه و كبره بحيث لا يصغر لشىء بالهوان و المذله من فروع كونه حقا أى ثابتا لا يعرضه زوال و موجودا لا يمسّه عدم.

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللّٰهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ استشهاد على عموم القدره المشاره إليها آنفا بإنزال الماء من السماء -و المراد بها جهه العلو-و صيروره الأرض بذلك مخضرّه.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ تعليل لجعل الأرض مخضرّه بإنزال الماء من السماء فتكون نتيجه هذا التعليل و ذاك الاستشهاد كأنه قيل:إن اللّه ينزل كذا فيكون كذا لأنه لطيف خبير و هو يشهد بعموم قدرته.

قوله تعالى: لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللّٰهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ظاهره أنه خبر بعد خبر لأن فهو تتمه التعليل فى الآيه السابقه كأنه قيل:إن اللّه لطيف خبير مالك لما فى السماوات و ما فى الأرض يتصرّف فى ملكه كما يشاء بلطف و خبره، و يمكن أن يكون استئنافا يفيد تعليلا باستقلاله.

و قوله: وَ إِنَّ اللّٰهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ یفید عدم حاجته الی شیء من تصرفاته بما هو غنیّ علی الإطلاق و هو مع ذلک جمیله نافعه یحمد علیها بما هو حمید علی الإطلاق فمفاد الاسمین معا أنه تعالی لا یفعل إلا ما هو نافع لکن لا یعود نفعه الیه بل الی الخلق أنفسهم.

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ سَخَّرَ لَکُمْ مٰا فِی الْأَرْضِ الخ؛استشهاد آخر علی عموم القدره،و المقابله بین تسخیر ما فی الأرض و تسخیر الفلک فی البحر یؤید أن المراد بالأرض البر مقابل البحر،و علی هذا فتعقیب الجملتین بقوله: «وَ یُمْسِکُ السَّمٰاءَ» الخ؛یعطی أن محصّل المراد أن اللّه سخّر لکم ما فی السماء و الأرض برّها و بحرها.

و المراد بالسماء جهه العلو و ما فیها فاللّه یمسکها أن تقع علی الأرض إلا بإذنه مما یسقط من الأحجار السماویه و الصواعق و نحوها.

و قد ختم الآیه بصفتی الرأفه و الرحمه تتمیما للنعمه و امتنانا علی الناس.

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی أَحْیٰاکُمْ ثُمَّ یُمِیتُکُمْ ثُمَّ یُحْیِیکُمْ إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَکَفُورٌ سیاق الماضی فی «أَحْیٰاکُمْ» یدل علی أن المراد به الحیاه الدنیا و أهمیه المعاد بالذکر تستدعی أن یکون المراد من قوله: «ثُمَّ یُحْیِیکُمْ» الحیاه الآخره یوم البعث دون الحیاه البرزخیه.

و هذه الحیاه ثم الموت ثم الحیاه من النعم الإلهیه العظمی ختم بها الامتنان و لذا عقبها بقوله:

«إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَکَفُورٌ» .

[سوره الحج (٢٢): الآیات ۶٧ الی ٧٨]

اشاره

لِکُلِّ أُمَّهٍ جَعَلْنٰا مَنْسَکاً هُمْ نٰاسِکُوهُ فَلاٰ یُنٰازِعُنَّکَ فِی اَلْأَمْرِ وَ اُدْعُ إِلیٰ رَبِّکَ إِنَّکَ لَعَلیٰ هُدیً مُسْتَقِیمٍ (۶٧) وَ إِنْ جٰادَلُوکَ فَقُلِ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا تَعْمَلُونَ (۶٨) اَللّٰهُ یَحْکُمُ بَیْنَکُمْ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ فِیمٰا کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ (۶٩) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اَللّٰهَ یَعْلَمُ مٰا فِی اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ إِنَّ ذٰلِکَ فِی کِتٰابٍ إِنَّ ذٰلِکَ عَلَی اَللّٰهِ یَسِیرٌ (٧٠) وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰاناً وَ مٰا لَیْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ مٰا لِلظّٰالِمِینَ مِنْ نَصِیرٍ (٧١) وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِمْ آیٰاتُنٰا بَیِّنٰاتٍ تَعْرِفُ فِی وُجُوهِ اَلَّذِینَ کَفَرُوا اَلْمُنْکَرَ یَکٰادُونَ یَسْطُونَ بِالَّذِینَ یَتْلُونَ عَلَیْهِمْ آیٰاتِنٰا قُلْ أَ فَأُنَبِّئُکُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِکُمُ اَلنّٰارُ وَعَدَهَا اَللّٰهُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ بِئْسَ اَلْمَصِیرُ (٧٢) یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ اَلَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ لَنْ یَخْلُقُوا ذُبٰاباً وَ لَوِ اِجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ یَسْلُبْهُمُ اَلذُّبٰابُ شَیْئاً لاٰ یَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ اَلطّٰالِبُ وَ اَلْمَطْلُوبُ (٧٣) مٰا قَدَرُوا اَللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اَللّٰهَ لَقَوِیٌّ عَزِیزٌ (٧۴) اَللّٰهُ یَصْطَفِی مِنَ اَلْمَلاٰئِکَهِ رُسُلاً وَ مِنَ اَلنّٰاسِ إِنَّ اَللّٰهَ سَمِیعٌ بَصِیرٌ (٧۵) یَعْلَمُ مٰا بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ إِلَی اَللّٰهِ تُرْجَعُ اَلْأُمُورُ (٧۶) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اِرْکَعُوا وَ اُسْجُدُوا وَ اُعْبُدُوا رَبَّکُمْ وَ اِفْعَلُوا اَلْخَیْرَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَ جٰاهِدُوا فِی اَللّٰهِ حَقَّ جِهٰادِهِ هُوَ اِجْتَبٰاکُمْ وَ مٰا جَعَلَ عَلَیْکُمْ فِی اَلدِّینِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّهَ أَبِیکُمْ إِبْرٰاهِیمَ هُوَ سَمّٰاکُمُ اَلْمُسْلِمِینَ مِنْ قَبْلُ وَ فِی هٰذٰا لِیَکُونَ اَلرَّسُولُ شَهِیداً عَلَیْکُمْ وَ تَکُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَی اَلنّٰاسِ فَأَقِیمُوا اَلصَّلاٰهَ وَ آتُوا اَلزَّکٰاهَ وَ اِعْتَصِمُوا بِاللّٰهِ هُوَ مَوْلاٰکُمْ فَنِعْمَ اَلْمَوْلیٰ وَ نِعْمَ اَلنَّصِیرُ (٧٨)

بيان:

قوله تعالی: لِکُلِّ أُمَّهٍ جَعَلْنا مَنْسَکاً هُمْ ناسِکُوهُ فَلا یُنازِعُنَّکَ فِی الْأَمْرِ الی آخر الآیه؛المنسک مصدر میمیّ بمعنی النسک و هو العباده و یجیده قوله: «هُمْ ناسِکُوهُ» أی یعبدون تلک العباده،و لیس اسم مکان کما احتمله بعضهم.

و المراد بکل أمه هی الامه بعد الامه من الامم الماضین حتی تنتهی الی هذه الامه دون الامم المختلفه الموجوده فی زمانه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کالعرب و العجم و الروم لوحده الشریعه و عموم النبوه.

و قوله: فَلا یُنازِعُنَّکَ فِی الْأَمْرِ نهی للکافرین بدعوه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم منازعته فی المناسک التی أتی بها و هم و إن کانوا لا یؤمنون بدعوته و لا یرون لما أتی به من الأوامر و النواهی وقعا یسلّمون له و لا أثر لنهی من لا یسلّم للناهی طاعه و لا مولویه لکن هذا النهی لما کان معتمدا علی الحجه لم یصر لغوا لا أثر له و هی صدر الآیه.

فکأن الکفار من أهل الکتاب أو المشرکین لما رأوا من عبادات الإسلام ما لا عهد لهم به فی الشرائع السابقه کشریعه الیهود مثلا نازعوه فی ذلک من أین جئت به و لا عهد به فی الشرائع السابقه و لو کان من شرائع النبوه لعرفه المؤمنین من أمم الأنبیاء الماضین؟فأجاب اللّه سبحانه عن منازعتهم بما فی الآیه.

و معناها ان كلا من الامم كان لهم منسك هم ناسكوه و عباده يعبدونها و لا يتعدّاهم الى غيرهم لما أن اللّه سبحانه بدّل منسك السابقين مما هو أحسن منه فى حق اللاحقين لتقدمهم فى الرقىّ الفكرى و استعدادهم فى اللاحق لما هو أكمل و أفضل من السابق فالمناسك السابقه منسوخه فى حق اللاحقين فلا معنى لمنازعه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فيما جاء به من المنسك المغاير لمناسك الامم الماضين.

و لما كان نهيهم عن منازعته صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى معنى أمره بطيب النفس من قبل نزاعهم و نهيه عن الاعتناء به عطف عليه قوله: «وَ ادْعُ إِلىٰ رَبِّكَ» كأنه قيل:طب نفسا و لا تعبأ بمنازعتهم و اشتغل بما أمرت به و هو الدعوه الى ربك.

و علّل ذلك بقوله: «إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدىً مُسْتَقِيمٍ» و توصيف الهدى بالاستقامه و هى وصف الصراط الذى اليه الهدايه من المجاز العقلى.

قوله تعالى: وَ إِنْ جٰادَلُوكَ فَقُلِ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا تَعْمَلُونَ سياق الآيه السابقه يؤيد أن المراد بهذا الجدال المجادله و المراء فى أمر اختلاف منسكه صلّى اللّه عليه و آله و سلم مع الشرائع السابقه بعد الاحتجاج عليه بنسخ الشرائع،و قد أمر صلّى اللّه عليه و آله و سلم بإرجاعهم الى حكم اللّه من غير أن يشتغل بالمجادله معهم بمثل ما يجادلون.

و قوله: فَقُلِ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا تَعْمَلُونَ توطئه و تمهيد الى إرجاعهم الى حكم اللّه أى اللّه أعلم بعملكم و يحكم حكم من يعلم بحقيقه الحال،و إنما يحكم بينكم يوم القيامه فيما كنتم فيه تختلفون و تخالفون الحق و أهله-و الاختلاف و التخالف بمعنى كالاستباق و التسابق-.

قوله تعالى: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا فِي السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذٰلِكَ فِي كِتٰابٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ تعليل لعلمه تعالى بما يعملون أى إن ما يعملون بعض ما فى السماء و الأرض و هو يعلم جميع ما فيهما فهو يعلم بعلمهم.

و قوله: «إِنَّ ذٰلِكَ فِي كِتٰابٍ» تأكيد لما تقدمه أى إن ما علمه من شىء مثبت فى كتاب فلا

يزول و لا ينسى و لا يسهو فهو محفوظ على ما هو عليه حين يحكم بينهم،و قوله: «إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ» أى ثبت ما يعلمه فى كتاب محفوظ هين عليه.

قوله تعالى: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰاناً وَ مٰا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ الخ؛الباء فى «بِهِ» بمعنى مع،و السلطان البرهان و الحجه و المعنى و يعبد المشركون من دون اللّٰه شيئا-و هو ما اتخذوه شريكا له تعالى-لم ينزل اللّٰه معه حجه حتى يأخذوها و يحتجوا بها و لا أن لهم به علما.

و قوله: وَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ قيل:هو تهديد للمشركين و المراد أنه ليس لهم ناصر ينصرهم فيمنعهم من العذاب.

و الظاهر-على ما يعطيه السياق-أنه فى محل الاحتجاج على أن ليس لهم برهان على شركائهم و لا علم،بأن لو كان لهم حجه أو علم لكان لهم نصير ينصرهم إذ البرهان نصير لمن يحتج به و العلم نصير لكنهم ظالمون و ما للظالمين من نصير فليس لهم برهان و لا علم،و هذا من ألطف الاحتجاجات القرآنيه.

قوله تعالى: وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكٰادُونَ يَسْطُونَ الخ؛المنكر مصدر ميمى بمعنى الإنكار،و المراد بمعرفه الإنكار فى وجوههم معرفه أثر الإنكار و الكراهه،و «يَسْطُونَ» من السطوه و هى على ما فى مجمع البيان:إظهار الحال الهائله للإخافه يقال:سطا عليه يسطو سطوه و سطا به و الإنسان مسطو عليه،و السطوه و البطشه بمعنى.انتهى.

و المعنى:و إذا تتلى عليهم آيتنا و الحال أنها واضحات الدلاله تعرف و تشهد فى وجوه الذين كفروا أثر الإنكار يقربون من أن يبطشوا على الذين يتلون و يقرءون عليهم آياتنا لما يأخذهم من الغيظ.

و قوله: قُلْ أَ فَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكُمُ تفريع على إنكارهم و تحرزهم من استماع

القرآن أی قل:أ فأخبرکم بما هو شر من هذا الذی تعدونه شر أ تحترزون منه و تتقون أن تسمعوه أ فأخبرکم به لتتقوه إن کنتم تتقون.

و قوله: اَلنّٰارُ وَعَدَهَا اللّٰهُ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ بیان للشر أی ذلکم الذی هو شر من هذا هی النار،و قوله: «وَعَدَهَا اللّٰهُ» الخ؛بیان لکونه شرا.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ الی آخر الآیه؛خطاب للناس جمیعا و العنایه بالمشرکین منهم.

و قوله: ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ المثل هو الوصف الذی یمثل الشیء فی حاله سواء کان وصفا محققا واقعا أو مقدرا متخیلا کالأمثال التی تشتمل علی محاورات الحیوانات و الجمادات و مشافهاتها،و ضرب المثل نصبه لیتفکّر فیه کضرب الخیمه لیسکن فیها.

و هذا المثل هو قوله: «إِنَّ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لَنْ یَخْلُقُوا ذُبٰاباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ یَسْلُبْهُمُ الذُّبٰابُ شَیْئاً لاٰ یَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ» و المعنی أنه لو فرض أن آلهتهم شاءوا أن یخلقوا ذبابا و هو أضعف الحیوانات عندهم لم یقدروا علیه أبدا و إن یسلبهم الذباب شیئا مما علیهم لا یستنقذوه بالانتزاع منه.

فهذا الوصف یمثل حال آلهتهم من دون اللّه فی قدرتهم علی الإیجاد و علی تدبیر الأمر حیث لا یقدرون علی خلق ذباب و علی تدبیر أهون الامور و هو استرداد ما أخذه الذباب منهم و أضرهم بذلک و کیف یستحق الدعوه و العباده من کان هذا شأنه؟.

و قوله: «ضَعُفَ الطّٰالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ» مقتضی المقام أن یکون المراد بالطالب الآلهه و هی الأصنام المدعوّه فإن المفروض أنهم یطلبون خلق الذباب فلا یقدرون و استنقاذ ما سلبه إیاهم فلا یقدرون،و المطلوب الذباب حیث یطلب لیخلق و یطلب لیستنقذ منه.

و فی هذه الجمله بیان غایه ضعفهم فإنهم أضعف من أضعف ما یستضعفه الناس من

الحيوانات التی فيها شیء من الشعور و القدره.

قوله تعالی: مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ قدر الشیء هندسته و تعيين كميته و يكنّی عن منزله الشیء تقتضيها أوصافه و نعوته يقال:قدر الشیء حق قدره أی نزّله المنزله التی يستحقها و عامله بما يليق به.

و قدره تعالی حق القدر أن يلتزم بما يقتضه صفاته العليا و يعامل كما يستحقه بأن يتخذ ربا لا رب غيره و يعبد وحده لا معبود سواه لكن المشركين ما قدروه حتی قدره إذ لم يتخذوه ربا و لم يعبدوه بل اتخذوا الأصنام أربابا من دونه و عبدوها دونه و هم يرون أنها لا تقدر علی خلق ذباب و يمكن أن يستذلها ذباب فهی من الضعف و الذله فی نهايتهما،و اللّٰه سبحانه هو القوی العزيز الذی اليه ينتهی الخلق و الأمر و هو القائم بالإيجاد و التدبير.

فقوله: مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إشاره الی عدم التزامهم بربوبيته تعالی و إعراضهم عن عبادته ثم اتخاذهم الأصنام أربابا من دونه يعبدونها خوفا و طمعا دونه تعالی.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ تعليل للنفی السابق و قد أطلق القوه و العزه فأفاد أنه قوی لا يعرضه ضعف و عزيز لا تعتريه ذله كما قال: أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً (البقره۱۶۵/)، و قال: فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً (النساء۱۳۹/)،و إنما خصّ الاسمين بالذكر لمقابلتهما ما فی المثل المضروب من صفه آلهتهم و هو الضعف و الذله فهؤلاء استهانوا أمر ربهم إذ عدلوا بينه تعالی و هو القوی الذی يخلق ما يشاء و العزيز الذی لا يغلبه شیء و لا يستذله من سواه و بين الأصنام و الآلهه الذين يضعفون من خلق ذباب و يستذلهم ذباب ثم لم يرضوا بذلك حتی قدّموهم عليه تعالی فاتخذوهم أربابا يعبدونهم دونه تعالی.

قوله تعالی: اَللّٰهُ يَصْطَفِی مِنَ الْمَلاٰئِكَةِ رُسُلاً وَ مِنَ النّٰاسِ إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ الاصطفاء أخذ صفوه الشیء و خالصته،قال الراغب:الاصطفاء تناول صفو الشیء

كما أن الاختيار تناول خيره و الإجتباء تناول جبايته.انتهى.

فاصطفاه اللّه تعالى من الملائكه رسلا و من الناس اختياره من بينهم من يصفو لذلک و يصلح.

و هذه الآيه و التى بعدها تبينان وجوب جعل الرساله و صفتها و صفه الرسل و هى العصمه،و للكلام فيها بعض الاتصال بقوله السابق: «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ» لإنبائه عن الرساله.

تبيّن الآيه أولا أن للّه رسلا من الملائكه و من الناس،و ثانيا أن هذه الرساله ليست كيفما اتفقت و ممن اتفق بل هى بالاصطفاء و تعيين من هو صالح لذلک.

و قوله: «إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» تعليل لأصل الإرسال فإن الناس أعنى النوع الإنسانى يحتاج حاجه فطريه الى أن يهديهم اللّه سبحانه نحو سعادتهم و كمالهم المطلوب من خلقهم كسائر الأنواع الكونيه فالحاجه نحو الهدايه عامه،و ظهور الحاجه فيهم و إن شئت فقل:إظهارهم الحاجه من أنفسهم سؤال منهم و استدعاء لما ترتفع به حاجتهم و اللّه سبحانه سميع بصير يرى ببصره ما هم عليه من الحاجه الفطريه الى الهدايه و يسمع بسمعه سؤالهم ذلک.

فمقتضى سمعه و بصره تعالى أن يرسل اليهم رسولا-و يهديهم به الى سعادتهم التى خلقوا لنيلها و التلبس بها فما كل الناس بصالحين للاتصال بعالم القدس و فيهم الخبيث و الطيب و الطالح و الصالح،و الرسول رسولان رسول ملكى يأخذ الوحى منه تعالى و يؤديه الى الرسول الإنسانى و رسول إنسانى يأخذ الوحى من الرسول الملكى و يلقيه الى الناس و بالجمله قوله: «إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» يتضمن الحجه على لزوم أصل الإرسال،و أما معنى الاصطفاء و الحجه على لزومه فهو ما يشير اليه قوله: «يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ» .

قوله تعالى: يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

ظاهر السیاق أن ضمیر الجمع فی الموضعین للرسل من الملائکه و الناس،و یشهد وقوع هذا التعبیر فیهم فی غیر هذا لموضع کقوله تعالی حکایه عن ملائکه الوحی: وَ مٰا نَتَنَزَّلُ إِلاّٰ بِأَمْرِ رَبِّکَ لَهُ مٰا بَیْنَ أَیْدِینٰا وَ مٰا خَلْفَنٰا الآیه(مریم۶۴/)،و قوله: فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ وَ أَحٰاطَ بِمٰا لَدَیْهِمْ (الجن۲۸/).

و الآیه-کما تری-تنادی بأن ذکر علمه بما بین أیدیهم و ما خلفهم للدلاله علی أنه تعالی مراقب للطریق الذی یسلکه الوحی فیما بینه و بین الناس حافظ له أن یختل فی نفسه بنسیان أو تغییر أو یفسد بشیء من مکائد الشیاطین و تسویلاتهم کل ذلک لأن حمله الوحی من الرسل بعینه و بمشهد منه یعلم ما بین أیدیهم و ما خلفهم و هو بالمرصاد.

و من هنا یظهر أن المراد بما بین أیدیهم هو ما بینهم و بین من یؤدون الیه فما بین أیدی الرسول الملکی هو ما بینه و بین الرسول الإنسانی و ما بین یدی الرسول الإنسانی هو ما بینه و بین الناس،و المراد بما خلفهم هو ما بینهم و بین اللّه سبحانه و الجمیع سائرون من جانب اللّه الی الناس.

فالوحی فی مأمن إلهی منذ یصدر من ساحه العظمه و الکبریاء الی أن یبلغ الناس و لازمه أنّ الرسل معصومون فی تلقی الوحی و معصومون فی حفظه و معصومون فی إبلاغه للناس.

و قوله: وَ إِلَی اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فی مقام التعلیل لعلمه بما بین أیدیهم و ما خلفهم أی کیف یخفی علیه شیء من ذلک؟و الیه یرجع جمیع الامور و إذ لیس هذا الرجوع رجوعا زمانیا حتی یجوز معه خفاء حاله قبل الرجوع و إنما هو مملوکیه ذاته له تعالی فلا استقلال له منه و لا خفاء فیه له فافهم ذلک.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا ارْکَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّکُمْ وَ افْعَلُوا الْخَیْرَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ الأمر بالرکوع و السجود أمر بالصلاه و مقتضی المقابله أن یکون

المراد بقـوله: «وَ اعْبُدُوا رَبَّكَمْ» الأمر بسائر العبادات المشرّعه فى الـدين كالحـج و الصـوم و يبقى لقوله: «وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ» سائر الأحكام و القوانين المشرعه فإن فى إقامتها و العمل بها خير المجتمع و سعاده الأفراد و حياتهم كما قال: اِسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ (الأنفال/۲۴).

و فى الآيه أمر بإجمال الشرائع الإسلاميه من عبادات و غيرها.

قوله تعالى: وَ جاهِدُوا فِي اللّهِ حَقَّ جِهادِهِ الى آخر الآيه؛الجهاد بـذل الجهد و استفراغ الوسع فى مدافعه العدو،و يطلق فى الأكثر على المدافعه بالقتال لكن ربما يتوسع فى معنى العدو حتى يشـمل كل ما يتوقع منه الشر كالشيطان الذى يضل الإنسان و النفس الأماره بالسوء و غير ذلک فيطلق اللفظ على مخالفه النفس فى هواها و الاجتناب عن طاعه الشيطان فى وسوسته،و قد سمى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم مخالفه النفس جهادا أكبر.

و الظاهر أن المراد بالجهاد فى الآيه هو المعنى الأعم و خاصه بالنظر الى تقييـده بقوله: «فِي اللّهِ» و هو كل ما يرجع اليه تعالى،و يؤيده أيضا قوله: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا (العنكبوت/۶۹).

و على ذلک فمعنى كون الجهاد فيه حق جهاده أن يكون متمحضا فى معنى الجهاد و يكون خالصا لوجهه الكريم لا يشاركه فيه غيره نظير تقوى اللّه حق تقواه فى قوله: اِتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقاتِهِ (آل عمران/۱۲۴).

و قوله: هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الـدِّينِ مِنْ حَرَجٍ امتنان منه تعالى على المؤمنين بأنهم ما كانوا لينالوا سعاده الـدين من عنـد أنفسـهم و بحولهم غير أن اللّه منّ عليهم إذ وفقهم فاجتباهم و جمعهم للـدين،و رفع عنهم كل حرج فى الـدين امتنانا سواء كان حرجا فى أصل الحكم أو حرجا طارئا عليه اتفاقا فهى شريعه سهله سمحه مله أبيهم إبراهيم الحنيف الذى أسلم لربه.

و إنما سمی إبراهیم أبا المسلمین لأنه علیه السّلام أول من أسلم للّه کما قال تعالی: إِذْ قٰالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قٰالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعٰالَمِینَ (البقره/١٣١)،و قال حاکیا عنه علیه السّلام: فَمَنْ تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنِّی (إبراهیم/٣۶)فنسب اتباعه الی نفسه،و قال أیضا: وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنٰامَ (إبراهیم/٣۵)،و مراده ببنیه المسلمون دون المشرکون قطعا و قال: إِنَّ أَوْلَی النّٰاسِ بِإِبْرٰاهِیمَ لَلَّذِینَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِیُّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا (آل عمران/۶٨).

و قوله: هُوَ سَمّٰاکُمُ الْمُسْلِمِینَ مِنْ قَبْلُ وَ فِی هٰذٰا امتنان ثان منه تعالی علی المؤمنین بعد الامتنان بقوله: «هُوَ اجْتَبٰاکُمْ» فالضمیر له تعالی و قوله: «مِنْ قَبْلُ» أی من قبل نزول القرآن و قوله: «وَ فِی هٰذٰا» أی و فی هذا الکتاب و فی امتنانه علیهم بذکر أنه سماهم المسلمین دلاله علی قبوله تعالی إسلامهم.

و قوله: لِیَکُونَ الرَّسُولُ شَهِیداً عَلَیْکُمْ وَ تَکُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَی النّٰاسِ المراد به شهاده الأعمال و قد تقدم الکلام فی معنی الآیه فی سوره البقره الآیه ١۴٣ و غیرها و فی الآیه تعلیل ما تقدم من حدیث الاجتباء و نفی الحرج و تسمیتهم مسلمین.

و قوله: فَأَقِیمُوا الصَّلاٰهَ وَ آتُوا الزَّکٰاهَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللّٰهِ تفریع علی جمیع ما تقدم مما امتن به علیهم أی فعلی هذا یجب علیکم أن تقیموا الصلاه و تؤتوا الزکاه-و هو إشاره الی العمل بالأحکام العبادیه و المالیه-و تعتصموا باللّه فی جمیع الأحوال فتأتمروا بکل ما أمر به و تنتهوا عن جمیع ما نهی عنه و لا تنقطعوا عنه فی حال لأنه مولاکم و لیس للعبد أن ینقطع عن مولاه فی حال و لا للإنسان الضعیف أن ینقطع عن ناصره-بوجه علی الاحتمالین فی معنی المولی-.

فقوله: هُوَ مَوْلاٰکُمْ فی مقام التعلیل لما قبله من الحکم،و قوله: «فَنِعْمَ الْمَوْلیٰ وَ نِعْمَ النَّصِیرُ» کلمه مدح له تعالی و تطییب لنفوس المؤمنین و تقویه لقلوبهم بأن مولاهم و نصیرهم هو اللّه الذی لا مولی غیره و لا نصیر سواه.

و اعلم أن الذى أوردناه من معنى الاجتباء و كذا الإسلام و غيره فى الآيه هو الذى ذكره جل المفسرين بالبناء على ظاهر الخطاب بيا أيها الذين آمنوا فى صدر الكلام و شموله عامه المؤمنين و جميع الامه.

و قد بيّنا غير مره أن الاجتباء بحقيقه معناه يساوق جعل العبد مخلصا-بفتح اللام- مخصوصا باللّه لا نصيب لغيره تعالى فيه،و هذه صفه لا توجد إلا فى آحاد معدودين من الامه دون الجميع قطعا،و كذا الكلام فى معنى الإسلام و الاعتصام،و المعنى بحقيقته مراد فى الكلام قطعا.

و على هذا فنسبه الاجتباء و الإسلام و الشهاده الى جميع الامه توسع من جهه اشتمالهم على من يتصف بهذه الصفات بحقيقتها نظير قوله فى بنى إسرائيل: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً (المائده۲۰/)،و قوله فيهم: وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلَى اَلْعٰالَمِينَ (الجاثيه۱۶/)و نظائره كثيره فى القرآن.

ص :۳۵۴

سوره المؤمنون مکيه و هی مائه و ثمانی عشره آيه

اشاره

[سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١ الی ١١]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;قَدْ أَفْلَحَ اَلْمُؤْمِنُونَ (١) اَلَّذِينَ هُمْ فِی صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ (٢) وَ اَلَّذِينَ هُمْ عَنِ اَللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَ اَلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاهِ فاعِلُونَ (۴) وَ اَلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (۵) إِلاّ عَلی أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (۶) فَمَنِ اِبْتَغی وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ اَلْعادُونَ (٧) وَ اَلَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ (٨) وَ اَلَّذِينَ هُمْ عَلی صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ (٩) أُولئِكَ هُمُ اَلْوارِثُونَ (١٠) اَلَّذِينَ يَرِثُونَ اَلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١١)

ص: ٣۵۵

بيان:

فى السوره دعوه الى الإيمان باللّه و اليوم الآخر و تميز المؤمنين من الكفار بذكر ما لهؤلاء من جميل صفات العبوديه و ما لاولئك من رذائل الأخلاق و سفاسف الأعمال،و تعقيب ذلك بالتبشير و الإنذار،و قد تضمّن الإنذار ذكر عذاب الآخره و ما غشى الامم المكذبين للدعوه الحقه من عذاب الاستئصال فى مسير الدعوه آخذا من زمن نوح الى زمن المسيح عيسى بن مريم عليهما السّلام.

و السوره مكيه،و سياق آياتها يشهد بذلك.

قوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ قال الراغب:الفلح-بالفتح فالسكون-الشقّ، و قيل:الحديد بالحديد يفلح أى يشقّ،و الفلاح الظفر و إدراك بغيه و ذلك ضربان:دنيوى و أخروى،فالدنيوى الظفر بالسعادات التى تطيب بها الحياه الدنيا و هو البقاء و الغنى و العز، و الاخروى أربعه أشياء:بقاء بلا فناء،و غنى بلا فقر،و عزّ بلا ذلّ،و علم بلا جهل،و لذلك قيل:لا عيش إلا عيش الآخره.انتهى ملخصا.فتسميه الظفر بالسعاده فلاحا بعنايه أن فيه شقا للمانع و كشفا عن وجه المطلوب.

و الإيمان هو الإذعان و التصديق بشىء بالالتزام بلوازمه،فالإيمان باللّه فى عرف القرآن التصديق بوحدانيته و رسله و اليوم الآخر و بما جاءت به رسله مع الاتّباع فى الجمله،و لذا نجد القرآن كلما ذكر المؤمنين بوصف جميل أو أجر جزيل شفّع الإيمان بالعمل الصالح كقوله: مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰاةً طَيِّبَةً (النحل/٩٧)،و قوله:

اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ طُوبىٰ لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ (الرعد/٢٩)،الى غير ذلك من الآيات و هى كثيره جدا.

و ليس مجرد الاعتقاد بشىء إيمانا به حتى مع عدم الالتزام بلوازمه و آثره فإن الإيمان علم

بالشیء مع السکون و الاطمئنان الیه و لا ینفکّ السکون الی الشیء من الالتزام بلوازمه لکن العلم ربما ینفکّ من السکون و الالتزام ککثیر من المعتادین بالأعمال الشنیعه أو المضرّه فإنهم یعترفون بشناعه عملهم أو ضرره لکنهم لا یترکونها معتذرین بالاعتیاد و قد قال تعالی:

وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ (النمل/۱۴).

و الإیمان و إن جاز أن یجتمع مع العصیان عن بعض لوازمه فی الجمله لصارف من الصوارف النفسانیه یصرف عنه لکنه لا یتخلف عن لوازمه بالجمله.

قوله تعالی: اَلَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ الخشوع تأثر خاص من المقهور قبال القاهر بحیث ینقطع عن غیره بالتوجه الیه و الظاهر أنه من صفات القلب ثم ینسب الی الجوارح أو غیرها بنوع من العنایه کقوله صلّی اللّه علیه و آله و سلم-علی ما روی- فیمن یعبث بلحیته فی الصلاه:أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه،و قوله تعالی: وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ (طه/۱۰۸).

و الخشوع بهذا المعنی جامع لجمیع المعانی التی فسّر بها الخشوع فی الآیه،کقول بعضهم:

هو الخوف و سکون الجوارح،و قول آخرین:غضّ البصر و خفض الجناح،أو تنکیس الرأس،أو عدم الالتفات یمینا و شمالا،أو إعظام المقام و جمع الاهتمام،أو التذلّل الی غیر ذلک.

و هذه الآیه الی تمام ثمانی آیات تذکر من أوصاف المؤمنین ما یلازم کون وصف الإیمان حیّا فعّالا یترتب علیه آثاره المطلوبه منه لیترتب علیه الغرض المطلوب منه و هو الفلاح فإن الصلاه توجه ممن لیس له إلا الفقر و الذلّه الی ساحه العظمه و الکبریاء و منبع العزه و البهاء و لازمه أن یتأثر الإنسان الشاعر بالمقام فیستغرق فی الذلّه و الهوان و ینتزع قلبه عن کل ما یلهوه و یشغله عما یهمّه و یواجهه،فلو کان إیمانه إیمانا صادقا جعل همّه حین التوجه الی ربه همّا واحدا و شغله الاشتغال به عن الالتفات الی غیره فما ذا یفعل الفقیر المحض إذا لقی غنی لا یقدّر بقدر؟و الذلیل إذا واجه عزه مطلقه لا یشوبها ذلّه و هوان؟

و هذا معنی قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی حدیث الحارثه بن النعمان المروی فی الکافی و غیره:إن لکل حق حقیقه و لکل صواب نوارا.الحدیث (۱).

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ اللغو من الفعل هو ما لا فائده فیه و یختلف باختلاف الامور التی تعود علیها الفائده فربّ فعل هو لغو بالنسبه الی أمر و هو بعینه مفید مجد بالنسبه الی أمر آخر.

فاللغو من الأفعال فی نظر الدین الأعمال المباحه التی لا ینتفع بها فی الآخره أو فی الدنیا بحیث ینتهی أیضا الی الآخره کالأکل و الشرب بداعی شهوه التغذی اللذین یتفرع علیهما التقوّی علی طاعه اللّه و عبادته،فإذا کان الفعل لا ینتفع به فی آخر و لا فی دنیا تنتهی بنحو الی آخره فهو اللغو و بنظر أدق هو ما عدا الواجبات و المستحبات من الأفعال.

و لم یصف سبحانه المؤمنین بترک اللغو مطلقا فإن الانسان فی معرف العثره و مزله الخطیئه و قد عفا عن السیئات إذا اجتنبت الکبائر کما قال: إِنْ تَجْتَنِبُوا کَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئٰاتِکُمْ وَ نُدْخِلْکُمْ مُدْخَلاً کَرِیماً (النساء۳۱/).

بل وصفهم بالإعراض عن اللغو دون مطلق ترکه و الإعراض یقتضی أمرا بالفعل یدعو الی الاشتغال به فیترکه الانسان صارفا وجهه عنه الی غیره لعدم اعتداده به و اعتنائه بشأنه، و لازمه ترفّع النفس عن الأعمال الخسیسه و اعتلاؤها عن الاشتغال بما ینافی الشرف و الکرامه و تعلّقها بعظام الامور و جلائل المقاصد.

و من حق الإیمان أن یدعو الی ذلک فإن فیه تعلّقا بساحه العظمه و الکبریاء و منبع العزه و المجد و البهاء و المتصف به لا یهتمّ إلا بحیاه سعیده أبدیه خالده فلا یشتغل إلا بما یستعظمه الحق و لا یستعظم ما یهتمّ به سفله الناس و جهلتهم،و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما،و إذا

۱- ۱) .المؤمنون ۱-۱۱:کلام فی معنی تأثیر الایمان.

مرّوا باللغو مرّوا كراما.

و من هنا يظهر أن وصفهم بالإعراض عن اللغو كنايه عن علوّ همّتهم و كرامه نفوسهم.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ ذكر الزكاه مع الصلاه قرينه على كون المراد بها الإنفاق المالى دون الزكاه بمعنى تطهير النفس بإزاله رذائل الأخلاق عنها و لعل المراد بالزكاه المعنى المصدرى و هو تطهير المال بالإنفاق من دون المقدار المخرج من المال فإن السوره مكيه و تشريع الزكاه المعهوده فى الإسلام إنما كان بالمدينه ثم صار لفظ الزكاه علما بالغلبه للمقدار المعين المخرج من المال.

و بهذا يستصحّ تعلّق «لِلزَّكاةِ» بقوله: «فاعِلُونَ» و المعنى:الذين هم فاعلون للإنفاق المالى،و أما لو كان المراد بالزكاه نفس المال المخرج لم يصحّ تعلقه به إذ المال المخرج ليس فعلا متعلقا بفاعل،و لذا قدّر بعض من حمل الزكاه على هذا المعنى لفظ التأديه فكان التقدير عنده و الذين هم لتأديه الزكاه فاعلون،و لذا أيضا فسّر بعضهم الزكاه بتطهير النفس عن الأخلاق الرذيله فرارا من تعلق «لِلزَّكاةِ» بقوله: «فاعِلُونَ» .

و فى التعبير بقوله: «لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ» دون أن يقول:للزكاه مؤدّون أو ما يؤدى معناه دلاله على عنايتهم بها كقول القائل:إنى شارب لمن أمره بشرب الماء فإذا أراد أن يفيد عنايته به قال:إنى فاعل.

و من حق الإيمان باللّه أن يدعو الى هذا الإنفاق المالى فإن الانسان لا ينال كمال سعادته إلا فى مجتمع سعيد ينال فيه كل ذى حق حقه و لا سعاده لمجتمع إلا مع تقارب الطبقات فى التمتع من مزايا الحياه و أمتعه العيش،و الإنفاق المالى على الفقراء و المساكين من أقوى ما يدرك به هذه البغيه.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ الى آخر الآيات الثلاث؛الفروج جمع فرج و هو-على ما قيل-ما يسوء ذكره من الرجال و النساء،و حفظ الفروج كنايه عن

الاجتناب عن المواقعه سواء كانت زنا أو لواطا أو بإتيان البهائم و غير ذلك.

و قوله: إِلاّٰ عَلىٰ أَزْوٰاجِهِمْ أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ استثناء من حفظ الفروج،و الأزواج الحلائل من النساء،و ما ملكت أيمانهم الجوارى المملوكه فإنهم غير ملومين فى مسّ الأزواج الحلائل و الجوارى المملوكه.

و قوله: فَمَنِ ابْتَغىٰ وَرٰاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْعٰادُونَ تفريع على ما تقدم من الاستثناء و المستثنى منه أى إذا كان مقتضى الإيمان حفظ الفروج مطلقا إلا عن طائفتين من النساء هما الأزواج و ما ملكت أيمانهم،فمن طلب وراء ذلك أى مسّ غير الطائفتين فاولئك هم المتجاوزون عن الحد الذى حدّه اللّه تعالى لهم.

و قد تقدم كلام ما فيما يستعقبه الزنا من فساد النوع فى ذيل قوله: وَ لاٰ تَقْرَبُوا الزِّنىٰ إِنَّهُ كٰانَ فٰاحِشَةً وَ سٰاءَ سَبِيلاً (الإسراء۳۲/)فى الجزء الثالث عشر من الكتاب.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمٰانٰاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رٰاعُونَ الأمانه مصدر فى الأصل و ربما أريد به ما ائتمن عليه من مال و نحوه،و هو المراد فى الآيه،و لعل جمعه للدلاله على أقسام الأمانات الدائره بين الناس،و ربما قيل بعموم الأمانات لكل تكليف إلهى اؤتمن عليه الانسان و ما اؤتمن عليه من أعضائه و جوارحه و قواه أن يستعملها فيما فيه رضى اللّه و ما ائتمنه عليه الناس من الأموال و غيرها،و لا يخلو من بعد بالنظر الى ظاهر اللفظ و إن كان صحيحا من جهه تحليل المعنى و تعميمه.

و العهد بحسب عرف الشرع ما التزم به بصيغه العهد شقيق النذر و اليمين،و يمكن أن يراد به مطلق التكليف المتوجه الى المؤمن فإن اللّه سبحانه سمّى إيمان المؤمن به عهدا و ميثاقا منه على ما توجه اليه من تكاليفه تعالى بقوله: أَ وَ كُلَّمٰا عٰاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ (البقره/ ۱۰۰)،و قوله: وَ لَقَدْ كٰانُوا عٰاهَدُوا اللّٰهَ مِنْ قَبْلُ لاٰ يُوَلُّونَ الْأَدْبٰارَ (الأحزاب۱۵/)،و لعل إراده هذا المعنى هو السبب فى إفراد العهد لأن جميع التكاليف يجمعها عهد واحد بإيمان واحد.

و الرعایه الحفظ،و قد قیل:إن أصل الرعی حفظ الحیوان إما بغذائه الحافظ لحیاته أو بذبّ العدو عنه ثم استعمل فی الحفظ مطلقا.انتهی.و لعل العکس أقرب الی الاعتبار.

و بالجمله الآیه تصف المؤمنین بحفظ الأمانات من أن تخان و العهد من أن ینقض،و من حق الإیمان أن یدعو الی ذلک فإن فی إیمانه معنی السکون و الاستقرار و الاطمئنان فإذا آمن أحد فی أمانه أودعها عنده أو عهد عاهده و قطع علی ذلک استقرّ علیه و لم یتزلزل بخیانه أو نقض.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ هُمْ عَلیٰ صَلَوٰاتِهِمْ یُحٰافِظُونَ جمع الصلاه و تعلیق المحافظه علیه دلیل علی أن المراد المحافظه علی العدد فهم یحافظون علی أن لا یفوتهم شیء من الصلوات المفروضه و یراقبونها دائما و من حق إیمانهم أن یدعوهم الی ذلک.

و لذلک جمعت الصلاه هاهنا و أفردت فی قوله: «فِی صَلاٰتِهِمْ خٰاشِعُونَ» لأن الخشوع فی جنس الصلاه علی حدّ سواء فلا موجب لجمعها.

قوله تعالی: أُولٰئِکَ هُمُ الْوٰارِثُونَ اَلَّذِینَ یَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ الفردوس أعلی الجنان،و قد تقدم معناها و شیء من وصفها فی ذیل قوله تعالی:

کٰانَتْ لَهُمْ جَنّٰاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (الکهف۱۰۷/).

و قوله: اَلَّذِینَ یَرِثُونَ الخ؛بیان لقوله: «الْوٰارِثُونَ» و وراثتهم الفردوس هو بقاؤها لهم بعد ما کانت فی معرض أن یشارکهم فیها غیرهم أو یملکها دونهم لکنهم زالوا عنها فانتقلت الیهم،و قد ورد فی الروایات أن لکل إنسان منزلا فی الجنه و منزلا فی النار فإذا مات و دخل النار ورث أهل الجنه منزله،و ستوافیک إن شاء اللّه فی بحث روائی (۱)(۲).

۱- ۱) .المؤمنون ۱-۱۱:بحث روائی فی الخشوع فی الصلاه؛نکاح المتعه.

۲- ۲) .المؤمنون ۱-۱۱.

[سوره المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۲ الى ۲۲]

اشاره

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلْإِنْسانَ مِنْ سُلالَهٍ مِنْ طِينٍ (۱۲) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَهً فِی قَرارٍ مَكِينٍ (۱۳) ثُمَّ خَلَقْنَا اَلنُّطْفَهَ عَلَقَهً فَخَلَقْنَا اَلْعَلَقَهَ مُضْغَهً فَخَلَقْنَا اَلْمُضْغَهَ عِظاماً فَكَسَوْنَا اَلْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اَللّهُ أَحْسَنُ اَلْخالِقِينَ (۱۴) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ (۱۵) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ اَلْقِيامَهِ تُبْعَثُونَ (۱۶) وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَ ما كُنّا عَنِ اَلْخَلْقِ غافِلِينَ (۱۷) وَ أَنْزَلْنا مِنَ اَلسَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنّاهُ فِی اَلْأَرْضِ وَ إِنّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ (۱۸) فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَهٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (۱۹) وَ شَجَرَهً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (۲۰) وَ إِنَّ لَكُمْ فِی اَلْأَنْعامِ لَعِبْرَهً نُسْقِيكُمْ مِمّا فِی بُطُونِها وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَهٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (۲۱) وَ عَلَيْها وَ عَلَى اَلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (۲۲)

ص: ۳۶۲

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَهٍ مِنْ طِینٍ قال فی المجمع:السلاله اسم لما یسلّ من الشیء کالکساحه اسم لما یکسح انتهی.و ظاهر السیاق أن المراد بالإنسان هو النوع فیشمل آدم و من دونه و یکون المراد بالخلق الخلق الابتدائی الذی خلق به آدم من الطین ثم جعل النسل من النطفه،و تکون الآیه و ما بعدها فی معنی قوله: وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِینٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَهٍ مِنْ ماءٍ مَهِینٍ (الم السجده/۸).

و یؤید قوله بعد: «ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَهً» إذ لو کان المراد بالإنسان ابن آدم فحسب و کان المراد بخلقه من طین انتهاء النطفه الی الطین لکان الظاهر أن یقال:ثم خلقناه نطفه کما قیل:ثم خلقنا النطفه علقه فخلقنا العلقه مضغه،الخ.

و بذلک یظهر أن قول بعضهم:إن المراد بالإنسان جنس بنی آدم،و کذا القول بأن المراد به آدم علیه السّلام غیر سدید.

و أصل الخلق-کما قیل-التقدیر یقال:خلقت الثوب إذا قسته لتقطع منه شیئا من اللباس فالمعنی و لقد قدرنا الإنسان أولا من سلاله من أجزاء الأرض المخلوطه بالماء.

قوله تعالی: ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَهً فِی قَرارٍ مَکِینٍ النطفه القلیل من الماء و ربما یطلق علی مطلق الماء،و القرار مصدر أرید به المقر مبالغه و المراد به الرحم التی تستقر فیها النطفه، و المکین المتمکن وصفت به الرحم لتمکنها فی حفظ النطفه من الضیعه و الفساد أو لکون النطفه مستقره متمکنه فیها.

و لمعنی ثم جعلنا الإنسان نطفه فی مستقر متمکن هی الرحم کما خلقناه أولا من سلاله من طین أی بدلنا طریق خلقه من هذا الی ذاک.

قوله تعالی: ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَهَ عَلَقَهً -الی قوله- فَکَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً

تقدم بیان مفردات الآیه فی الآیه ۵ من سوره الحج فی الجزء السابق من الکتاب و فی قوله:

«فَکَسَوْنَا الْعِظٰامَ لَحْماً» استعاره بالکنایه لطیفه.

قوله تعالی: ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ الإنشاء-کما ذکره الراغب-إیجاد الشیء و تربیته کما أن النشء و النشأه إحداثه و تربیته کما یقال للشاب الحدیث السن ناشئ.

و قد غیر السیاق من الخلق الی الإنشاء فقال: «ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ» دون أن یقال:ثم خلقناه،الخ؛للدلاله علی حدوث أمر حدیث ما کان یتضمنه و لا یقارنه ما تقدمه من ماده فإن العلقه مثلا و إن خالفت النطفه فی أوصافها و خواصها من لون و طعم و غیر ذلک إلا أن فی النطفه مکان کل من هذه الأوصاف و الخواص ما یجانسه و إن لم یماثله کالبیاض مکان الحمره و هما جمیعا لون بخلاف ما أنشأه اللّه أخیرا و هو الإنسان الذی له حیاه و علم و قدره فإن ما له من جوهر الذات و هو الذی نحکی عنه بأنا لم یسبق من سنخه فی المراحل السابقه أعنی النطفه و العلقه و المضغه و العظام المکسوه لحما شیء،و لا سبق فیها شیء یناظر ما له من الخواص و الأوصاف کالحیاه و القدره و العلم فهو منشأ حادث مسبوق بالعدم.

و الضمیر فی «أَنْشَأْنٰاهُ» -علی ما یعطیه السیاق-للإنسان المخلوق عظاما مکسوه باللحم فهو الذی أنشئ و أحدث خلقا آخر أی بدّل و هو ماده میته جاهله عاجزه موجودا ذا حیاه و علم و قدره،فقد کان ماده لها صفاتها و خواصها ثم برز و هو یغایر سابقته فی الذات و الصفات و الخواص،فهو تلک الماده السابقه فإنها التی صارت إنسانا،و لیس بها إذ لا یشارکها فی ذات و لا صفات،و إنما له نوع اتحاد معها و تعلّق بها یستعملها فی سبیل مقاصدها استعمال ذی الآله للآله کالکاتب للقلم.

و هذا هو الذی یستفاد من مثل قوله: وَ قٰالُوا أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِی الْأَرْضِ أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ بَلْ هُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ کٰافِرُونَ قُلْ یَتَوَفّٰاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ (الم السجده/ ۱۱)،فالمتوفی و المأخوذ عند الموت هو الإنسان،و المتلاشی الضال فی الأرض هو البدن

و لیس به.

و قد اختلف العطف فی مفردات الآیه بالفاء و ثم،و قد قیل فی وجهه أن ما عطف بثم له بینونه کامله مع ما عطف علیه کما فی قوله: «ثُمَّ جَعَلْنٰاهُ نُطْفَةً» «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً» ، «ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ» ،و ما لم یکن بتلک البینونه و البعد عطف بالفاء کقوله: «فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظٰاماً فَکَسَوْنَا الْعِظٰامَ لَحْماً» .

قوله تعالی: فَتَبٰارَکَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخٰالِقِینَ قال الراغب:أصل البرک-بالفتح فالسکون-صدر البعیر.قال:و برک البعیر ألقی رکبه و اعتبر منه معنی اللزوم.قال:و سمی محبس الماء برکه-بالکسر فالسکون-و البرکه ثبوت الخیر الإلهی فی الشیء قال تعالی:

لَفَتَحْنٰا عَلَیْهِمْ بَرَکٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ و سمی بذلک لثبوت الخیر فیه ثبوت الماء فی البرکه،و المبارک ما فیه ذلک الخیر.

قال:و لما کان الخیر الإلهی یصدر من حیث لا یحس و علی وجه لا یحصی و لا یحصر قیل لکل ما یشاهد منه زیاده غیر محسوسه هو مبارک و فیه برکه.انتهی.

فالتبارک منه تعالی اختصاصه بالخیر الکثیر الذی یجود به و یفیضه علی خلقه و قد تقدم أن الخلق فی أصله بمعنی التقدیر فهذا الخیر الکثیر کله فی تقدیر و هو إیجاد الأشیاء و ترکیب أجزائها بحیث تتناسب فیما بین أنفسها و تناسب ما وراءها و من ذلک ینتشر الخیر للکثیر.

و وصفه تعالی بأحسن الخالقین یدل علی عدم اختصاص الخلق به و هو کذلک لما تقدم أن معناه التقدیر و قیاس الشیء من الشیء لا یختص به تعالی،و فی کلامه تعالی من الخلق المنسوب الی غیره قوله: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّینِ کَهَیْئَةِ الطَّیْرِ (المائده/۱۱۰)،و قوله:

وَ تَخْلُقُونَ إِفْکاً (العنکبوت/۱۷).

قوله تعالی: ثُمَّ إِنَّکُمْ بَعْدَ ذٰلِکَ لَمَیِّتُونَ بیان لتمام التدبیر الإلهی و أن الموت من المراحل التی من الواجب أن یقطعها الإنسان فی مسیر التقدیر،و أنه حق کما تقدم فی قوله

تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً (الأنبياء٣٥/).

قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ تُبْعَثُونَ و هـذا تمام التـدبير و هو أعنى البعث آخر مرحله فى مسـير الإنسان إذا حل بها لزمها و لا يزال قاطنا بها.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنٰا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرٰائِقَ وَ مٰا كُنّٰا عَنِ الْخَلْقِ غٰافِلِينَ المراد بالطرائق السبع بقرينه قوله: «فَوْقَكُمْ» السماوات السبع و قد سـماها طرائق –جمع طريقه–و هى السبيل المطروقه لأنها ممر الامر النازل من عنده تعالى الى الأرض،قال تعالى: يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ (الطلاق١٢/)،و قـال: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمٰاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ (الم السـجده٥/).و السـبل التى تسـلكها الأعمال فى صعودها الى اللّه و الملائكه فى هبوطهم و عروجهم كما قال: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ (فاطر/ ١٠)،و قال: وَ مٰا نَتَنَزَّلُ إِلاّٰ بِأَمْرِ رَبِّكَ (مريم٦۴/).

قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنّٰاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنّٰا عَلىٰ ذَهٰابٍ بِهِ لَقٰادِرُونَ المراد بالسـماء جهه العلو فإن ما علاك و أظلّك فهو سماء،و المراد بالماء النازل منها ماء المطر.

و فى قوله: «بِقَدَرٍ» دلاله على أن الذى نزل إنما نزل على حسب ما يقتضيه التدبير التام الإلهى الذى يقدّره بقدر لا يزيد قطره على ما قدّر و لا ينقص،و فى تلميح أيضا الى قوله:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر٢١/).

و المعنى:و أنزلنـا من جهه العلو مـاء بقـدر و هو مـاء المطر فأسـكناه فى الأـرض و هو الـذخائر المـدّخره من المـاء فى الجبـال و السـهول تتفجر عنه العيون و الأنهار و تكشف عنه الآبار،و إنا لقادرون على أن نـذهب بهـذا الماء الـذى أسكناه فى الأرض نوعا من الذهاب لا تهتدون الى علمه.

قوله تعالى: فَأَنْشَأْنٰا لَكُمْ بِهِ جَنّٰاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنٰابٍ الى آخر الآيه؛

إنشاء الجنات إحداثها و تربيتها،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنٰاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ معطوف على «جَنّٰاتٍ» أى و أنشأنا لكم به شجره فى طور سيناء،و المراد بها شجره الزيتون التى تكثر فى طور سيناء،و قوله: «تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ» أى تثمر ثمره فيها الدهن و هو الزيت فهى تنبت بالدهن،و قوله: «وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ» أى و تنبت بصبغ للآكلين،و الصبغ بالكسر فالسكون الإدام الذى يؤتدم به،و إنما خصّ شجره الزيتون بالذكر لعجيب أمرها، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعٰامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمّٰا فِي بُطُونِهٰا الخ؛العبره الدلاله يستدلّ بها على أنه تعالى مدبّر لأمر خلقه حنين بهم رؤف رحيم،و المراد بسقيه تعالى مما فى بطونها أنه رزقهم من ألبانها،و المراد بالمنافع الكثيره ما ينتفعون من صوفها و شعرها و وبرها و جلودها و غير ذلك،و منها يأكلون.

قوله تعالى: وَ عَلَيْهٰا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ضمير «عَلَيْهٰا» للأنعام و الحمل على الأنعام هو الحمل على الإبل،و هو حمل فى البر يقابله الحمل فى البحر و هو الحمل على الفلك،فالآيه فى معنى قوله: وَ حَمَلْنٰاهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ (الإسراء/٧٠)،و الفلك جمع فلكه و هى السفينه.

[سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٣ الى ٥۴]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ فَقٰالَ يٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَ فَلاٰ تَتَّقُونَ (٢٣) فَقٰالَ اَلْمَلَأُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مٰا هٰذٰا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَأَنْزَلَ مَلاٰئِكَةً مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِي آبٰائِنَا اَلْأَوَّلِينَ (٢۴) إِنْ هُوَ إِلاّٰ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتّٰى حِينٍ (٢۵) قٰالَ رَبِّ اُنْصُرْنِي بِمٰا كَذَّبُونِ (٢۶) فَأَوْحَيْنٰا إِلَيْهِ أَنِ اِصْنَعِ اَلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنٰا وَ وَحْيِنٰا فَإِذٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا وَ فٰارَ اَلتَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهٰا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اِثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلاّٰ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ اَلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِي فِي اَلَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اِسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى اَلْفُلْكِ فَقُلِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِي نَجّٰانٰا مِنَ اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ (٢٨) وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبٰارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ اَلْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ وَ إِنْ كُنّٰا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنْشَأْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنٰا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَ فَلاٰ تَتَّقُونَ (٣٢) وَ قٰالَ اَلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقٰاءِ اَلْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْنٰاهُمْ فِي اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا مٰا هٰذٰا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمّٰا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمّٰا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخٰاسِرُونَ (٣۴) أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذٰا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣۵) هَيْهٰاتَ هَيْهٰاتَ لِمٰا تُوعَدُونَ (٣۶) إِنْ هِيَ إِلاّٰ حَيٰاتُنَا اَلدُّنْيٰا نَمُوتُ وَ نَحْيٰا وَ مٰا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاّٰ رَجُلٌ اِفْتَرىٰ عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً وَ مٰا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قٰالَ رَبِّ اُنْصُرْنِي بِمٰا كَذَّبُونِ (٣٩) قٰالَ عَمّٰا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نٰادِمِينَ (۴٠) فَأَخَذَتْهُمُ اَلصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنٰاهُمْ غُثٰاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ (۴١) ثُمَّ أَنْشَأْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (۴٢) مٰا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهٰا وَ مٰا يَسْتَأْخِرُونَ (۴٣) ثُمَّ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا تَتْرٰا كُلَّ مٰا جٰاءَ أُمَّةً رَسُولُهٰا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنٰا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَحٰادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۴۴) ثُمَّ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ وَ أَخٰاهُ هٰارُونَ بِآيٰاتِنٰا وَ سُلْطٰانٍ مُبِينٍ (۴۵) إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كٰانُوا قَوْماً عٰالِينَ (۴۶) فَقٰالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنٰا وَ قَوْمُهُمٰا لَنٰا عٰابِدُونَ (۴٧) فَكَذَّبُوهُمٰا فَكٰانُوا مِنَ اَلْمُهْلَكِينَ (۴٨) وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى اَلْكِتٰابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۴٩) وَ جَعَلْنَا اِبْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْنٰاهُمٰا إِلىٰ رَبْوَةٍ ذٰاتِ قَرٰارٍ وَ مَعِينٍ

(۵۰) يَا أَيُّهَا اَلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ اَلطَّيِّبَاتِ وَ اِعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (۵۱) وَ إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (۵۲) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (۵۳) فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتّٰى حِينٍ (۵۴)

ص :۳۶۷

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلی قَوْمِهِ فَقالَ یا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ ما لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ قد تقدم فی قصص نوح علیه السّلام من سوره هود أنه أول أولی العزم من الرسل أصحاب الکتب و الشرائع المبعوثین الی عامه البشر و الناهضین للتوحید و نفی الشرک،فالمراد بقومه أمته و أهل عصره عامه.

و قوله: «اعْبُدُوا اللّهَ ما لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرُهُ» دعوه الی عباده اللّه و رفض عباده الآلهه من دونه فإن الوثنیین إنما یعبدون غیره من الملائکه و الجنّ و القدّیسین بدعوی ألوهیتهم أی کونهم معبودین من دونه.

فقوله علیه السّلام لقومه الوثنیین: «اعْبُدُوا اللّهَ» فی معنی أن یقال:اعبدوا اللّه وحده کما ورد فی سوره هود «أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ» ،و قوله: «ما لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرُهُ» فی معنی أن یقال:مالکم من معبود سواه لأنه لا رب غیره یدبر أمرکم حتی تعبدوه رجاء لرحمته أو خوفا من سخطه، و قوله بالتفریع علی ذلک: «أَ فَلا تَتَّقُونَ» أی إذا لم یکن لکم رب یدبر أمورکم دونه أ فلا تتقون عذابه حیث لا تعبدونه و تکفرون به؟

قوله تعالی: فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُکُمْ -الی قوله- حَتّی حِینٍ ملأ القوم أشرافهم،و وصفهم بقوله: «الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ» وصف

توضیحی لا احترازی إذ لم یؤمن به من ملأ قومه أحد بدلیل قولهم علی ما حکاه اللّه: وَ مٰا نَرٰاکَ اتَّبَعَکَ إِلاَّ الَّذِینَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِیَ الرَّأْیِ (هود/۲۷).

و السیاق یدل علی أن الملأ کانوا یخاطبون بمضمون الآیتین عامه الناس لصرف وجوههم عنه و إغرائهم علیه و تحریضهم علی إیذائه و إسکاته،و ما حکاه تعالی من أقاویلهم فی الآیتین وجوه أربعه أو خمسه من فریه أو مغالطه لفّقوها و احتجوا بها علی بطلان دعوته.

الأول قولهم: «مٰا هٰذٰا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُرِیدُ أَنْ یَتَفَضَّلَ عَلَیْکُمْ» و محصّله أنه بشر مثلکم فلو کان صادقا فیما یدّعیه من الوحی الإلهی و الاتصال بالغیب کان نظیر ما یدعیه متحققا فیکم إذ لا تنقصون منه فی شیء من البشریه و لوازمها،و لم یتحقق فهو کاذب و کیف یمکن أن یکون کمال فی وسع البشر أن یناله ثم لا یناله إلا واحد منهم فقط ثم یدعیه من غیر شاهد یشهد علیه؟فلم یبق إلا أنه یرید بهذه الدعوه أن یتفضل علیکم و یترأس فیکم و یؤیده أن یدعوکم الی اتباعه و طاعته و هذه الحجه تنحل فی الحقیقه الی حجتین مختلقتین.

و الثانی قولهم: «وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَأَنْزَلَ مَلاٰئِکَهً» و حصّله أن اللّه سبحانه لو شاء أن یدعونا بدعوه غیبیه لاختار لذلک الملائکه الذین هم المقربون عنده و الشفعاء الروابط بیننا و بینه فأرسلهم الینا لا بشرا ممن لا نسبه بینه و بینه.علی أن فی نزولهم و اعترافهم بوجوب العباده له تعالی وحده و عدم جواز اتخاذهم أربابا و آلهه معبودین آیه بیّنه علی صحه الدعوه و صدقها.

و التعبیر عن إرسال الملائکه بإنزالهم إنما هو لکون إرسالهم یتحقق بالإنزال و التعبیر بلفظ الجمع دون الإفراد لعله لکون المراد بهم الآلهه المتخذه منهم و هم کثیرون.

و الثالث قولهم: «وَ مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِی آبٰائِنَا الْأَوَّلِینَ» و محصله أنه لو کانت دعوته حقه لاتفق لها نظیر فیما سلف من تاریخ الإنسانیه،و آباؤنا کانوا أفضل منا و أعقل و لم یتفق لهم و فی أعصارهم ما یناظر هذه الدعوه فلیست إلا بدعه و أحدوثه کاذبه.

و الرابع قولهم: «إِنْ هُوَ إِلاّـ رَجُلٌ بِهِ جِنَّهٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتّی حِینٍ» ،الجنه إما مصـدر أی به جنون أو مفرد الجن أی حل به من الجن من یتکلم علی لسانه لأنه یـدعی ما لا یقبله العقل السـلیم و یقول ما لا یقوله إلا مصاب فی عقله فتربصوا و انتظروا به الی حین ما لعله یفیق من حاله جنونه أو یموت فنستریح منه.

و هـذه حجج مختلقه ألقاها ملأ قومه الی عامتهم أو ذکر کلا منها بعضـهم و هی و إن کانت حججا جدلیه مدخوله لکنهم کانوا ینتفعون بها حینما یلقونها الی الناس فیصرفون وجوههم عنه و یغرونهم علیه و یمدون فی ضلالهم.

قوله تعالی: قَالَ رَبِّ انْصُرْنِی بِمَا کَذَّبُونِ سؤال منه للنصر و الباء فی قوله: «بِمَا کَذَّبُونِ» للبدلیه و المعنی انصرنی بدل تکذیبهم لی أو للآله و علیه فالمعنی انصرنی بالـذی کذبونی فیه و هو العذاب فإنهم قالوا: فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّادِقِینَ (هود/۳۲)، و یؤیده قول نوح رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکَافِرِینَ دَیّاراً (نوح/۲۶)،و فصل الآیه لکونها فی معنی جواب السؤال.

قوله تعالی: فَأَوْحَیْنَا إِلَیْهِ أَنِ اصْـنَعِ الْفُلْکَ بِأَعْیُنِنَا وَ وَحْیِنَا الی آخر الآیه؛ متفرع علی سؤال النصـر،و معنی صنع الفلک بأعینه صنعه بمرأی منه و هو کنایه عن کونه تحت مراقبته تعالی و محافظته،و معی کون الصنع بوحیه کونه بتعلیمه الغیبی حالا بعد حال.

و قوله: فَـإِذَا جَـاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُّورُ المراد بالأمر-کما قیل-حکمه الفصل بینه و بین قومه و قضاؤه فیهم بالغرق،و السـیاق یشـهد علی کون فوران التنّور بالمـاء أمـاره نزول العـذاب علیهم و هو أعنی فوران المـاء من التنور و هو محـل النار من عجیب الأمر فی نفسه.

و قـوله: فَاسْـلُکْ فِیهَـا مِنْ کُـلٍّ زَوْجَیْنِ اثْنَیْنِ القراءه الـدائره «من کـل» بـالتنوین و القطع عن الإضـافه،و التقـدیر من کـل نوع من الحیوان،و السلوک فیها الإدخال فی الفلک و الظاهر أن «مِنْ» لابتداء الغایه و المعنی فأدخل فی الفلک زوجین اثنین:ذکر و أنثی من

کل نوع من الحیوان.

و قوله: وَ أَهْلَکَ إِلاّ مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ معطوف علی قوله: «زَوْجَیْنِ» و ما قیل:إن عطف «أَهْلَکَ» علی «زَوْجَیْنِ» یفسد المعنی المراد لرجوع التقدیر حینئذ الی قولنا:و اسلک فیها من کل نوع أهلک فالأولی تقدیر«أسلک»ثانیا قبل «أَهْلَکَ» و عطفه علی «فَاسْلُکْ» یدفعه أن «مِنْ کُلٍّ» فی موضع الحال من «زَوْجَیْنِ» فهو متأخر عنه رتبه کما قدمنا تقدیره فلا یعود ثانیا علی المعطوف.

و المراد بالأهل خاصته،و الظاهر أنهم أهل بیته المؤمنون به فقد ذکرهم فی سوره هود مع الأهل و لم یذکر هاهنا إلا الأهل فقط.

و المراد بمن سبق علیه القول منهم امرأته الکافره علی ما فهم نوح علیه السّلام و هی و ابنه الذی أبی رکوب السفینه و غرق حینما أوی الی جبل فی الحقیقه،و سبق القول هو القضاء المحتوم بالغرق.

و قوله: وَ لا تُخاطِبْنِی فِی الَّذِینَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ النهی عن مخاطبته تعالی کنایه عن النهی الشدید عن الشفاعه لهم،بدلیل تعلیق المخاطبه بالذین ظلموا و تعلیل النهی بقوله: «إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» فکأنه قیل:أنهاک عن أصل تکلیمی فیهم فضلا أن تشفع لهم فقد شملهم غضبی شمولا لا یدفعه دافع.

قوله تعالی: فَإِذَا اسْتَوَیْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَکَ عَلَی الْفُلْکِ فَقُلِ الی آخر الآیتین؛علمه أن یحمد اللّه بعد الاستواء علی الفلک علی تنجیته تعالی من القوم الظالمین و هذا بیان بعد بیان لکونهم هالکین مغرقین حتما،و أن یسأله أن ینجیه من الطوفان و ینزله علی الأرض إنزالا مبارکا ذا خیر کثیر ثابت فإنه خیر المنزلین.

و فی أمره علیه السّلام أن یحمده و یصفه بالجمیل دلیل علی أنه من عباده المخلصین فإنه تعالی منزّه عما یصفه غیرهم کما قال: سُبْحانَ اللّهِ عَمّا یَصِفُونَ إِلاّ عِبادَ اللّهِ الْمُخْلَصِینَ (الصافات/

ص :۳۷۳

.(۱۶۰

قوله تعالی: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ وَ إِنْ کُنّٰا لَمُبْتَلِینَ خطاب فی آخر القصه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و بیان أن هذه الدعوه مع ما جری معها کانت ابتلاء أی امتحانا و اختبارا إلیها.

قوله تعالی: ثُمَّ أَنْشَأْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِینَ الی آخر الآیه الثانیه؛القرن أهل عصر واحد،و قوله: «أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ» تفسیر لإرسال الرسول من قبیل تفسیر الفعل بنتیجته کقوله تعالی: تَتَنَزَّلُ عَلَیْهِمُ الْمَلاٰئِکَهُ أَلاّٰ تَخٰافُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا (حم السجده/ ۳۰).

قوله تعالی: وَ قٰالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِلِقٰاءِ الْآخِرَهِ وَ أَتْرَفْنٰاهُمْ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا هؤلاء أشرافهم المتوغلون فی الدنیا المخلدون الی الأرض یغرون بقولهم هذا عامتهم علی رسولهم.

و قد وصفهم اللّه بصفات ثلاث و هی:الکفر باللّه بعباده غیره،و التکذیب بلقاء الآخره -أی بلقاء الحیاه الآخره بقرینه مقابلتها لقوله: «فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا -،و لکفرهم بالمبدإ و المعاد انقطعوا عما وراء الدنیا فانکبّوا علیها ثم لما أترفوا فی الحیاه الدنیا و تمکنوا من زخارفها و زیناتها الملذّه اجتذبتهم الدنیا الی نفسها فاتّبعوا الهوی و نسوا کل حق و حقیقه،و لذلک تفوّهوا تاره بنفی التوحید و الرساله و تاره بإنکار المعاد و تاره ردّوا الدعوه بإضرارها دنیاهم و حریتهم فی اتباع هواهم.

و اعلم أن فی قوله فی صدر الآیات: «وَ قٰالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِلِقٰاءِ الْآخِرَهِ وَ أَتْرَفْنٰاهُمْ» قدّم قوله: «مِنْ قَوْمِهِ» علی «الَّذِینَ کَفَرُوا» بخلاف ما فی القصه السابقه من قوله:

«فَقٰالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ» لأنهم لو وقع بعد «الَّذِینَ کَفَرُوا» اختلّ به ترتیب الجمل المتوالیه «کَفَرُوا» «وَ کَذَّبُوا» «وَ أَتْرَفْنٰاهُمْ» و لو وقع بعد الجمیع طال الفصل.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ انْصُرْنِی بِمٰا کَذَّبُونِ تقدم تفسیره فی القصه السابقه.

ص :۳۷۴

قوله تعالی: قٰالَ عَمّٰا قَلِیلٍ لَیُصْبِحُنَّ نٰادِمِینَ استجابه لدعوه الرسول و صیرورتهم نادمین کنایه عن حلول عذاب الاستئصال بهم،و قوله: «عَمّٰا قَلِیلٍ» عن بمعنی بعد و«ما»لتأکید القله و لضمیر الجمع للقوم،و الکلام مؤکد بلام القسم و نون التأکید، و المعنی:أقسم لتأخذنهم الندامه بعد قلیل من الزمان بمشاهده حلول العذاب.

قوله تعالی: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّیْحَهُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنٰاهُمْ غُثٰاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظّٰالِمِینَ الباء فی «بِالْحَقِّ» للمصاحبه و هو متعلق بقوله: «فَأَخَذَتْهُمُ» أی أخذتهم الصیحه أخذا مصاحبا للحق،أو للسببیه،و الحق وصف أقیم مقام موصوفه المحذوف و التقدیر فأخذتهم الصیحه بسبب الأمر الحق أو القضاء الحق کما قال: فَإِذٰا جٰاءَ أَمْرُ اللّٰهِ قُضِیَ بِالْحَقِّ (المؤمن۷۸/).

و الغثاء بضم الغین و ربما شدّدت الثاء:ما یحمله السیل من یابس النبات و الورق و العیدان البالیه،و قوله: «فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظّٰالِمِینَ» إبعاد و لعن لهم أو دعاء علیهم.

و المعنی:فأنجزنا للرسول ما وعدنا من عذابهم فأخذتهم الصیحه السماویه و هی العذاب فأهلکناهم و جعلناهم کغثاء السیل فلیبعد القوم الظالمون بعدا.

و لم یصرّح باسم هؤلاء القوم الذین أنشأهم بعد قوم نوح ثم أهلکهم و لا باسم رسولهم، و لیس من البعید أن یکونوا هم ثمود قوم صالح علیه السّلام فقد ذکر اللّه سبحانه فی قصتهم فی مواضع من کلامه أنهم کانوا بعد قوم نوح و قد أهلکوا بالصیحه.

قوله تعالی: ثُمَّ أَنْشَأْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِینَ مٰا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّهٍ أَجَلَهٰا وَ مٰا یَسْتَأْخِرُونَ تقدم توضیح مضمون الآیتین کرارا.

قوله تعالی: ثُمَّ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا تَتْرٰا کُلَّ مٰا جٰاءَ أُمَّهً رَسُولُهٰا کَذَّبُوهُ الی آخر الآیه؛یقال:جاءوا تتری أی فرادی یتبع بعضهم بعضا،و منه التواتر و هو تتابع الشیء و ترا و فرادی،و عن الأصمعی:واترت الخبر أتبعت بعضه بعضا و بین الخبرین هنیهه انتهی.

و الکلام من تتمه قوله: «ثُمَّ أَنْشَأْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً» و «ثُمَّ» للتراخی بحسب الذکر دون الزمان،و القصه إجمال منتزع من قصص الرسل و أممهم بین أمه نوح و الامه الناشئه بعدها و بین أمه موسی.

یقول تعالی:ثم أنشأنا بعد تلک الامه الهالکه بالصیحه بعد أمه نوح قرونا و أمما آخرین و أرسلنا الیهم رسلنا متتابعین یتبع بعضهم بعضا کلما جاء أمه رسولها المبعوث منها إلیها کذبوه فأتبعنا بعضهم أی بعض هذه الامم بعضا أی بالعذاب و جعلناهم أحادیث أی صیرناهم قصصا و أخبارا بعد ما کانوا أعیانا ذوات آثار فلیبعد قوم لا یؤمنون.

و الآیات تدل علی أنه کان من سنه اللّه إنشاء قرن بعد قرن و هدایتهم الی الحق بإرسال رسول بعد رسول و هی سنه الابتلاء و الامتحان،و من سنه القرون تکذیب الرسول بعد الرسول ثم من سنه اللّه ثانیا-و هی سنه المجازاه-تعذیب المکذبین و اتباع بعضهم بعضا.

و قوله: وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَحٰادِیثَ أبلغ کلمه تفصح عن القهر الإلهی الذی یغشی أعداء الحق و المکذبین لدعوته حیث یمحو العین و یعفو الأثر و لا یبقی إلا الخبر.

قوله تعالی: ثُمَّ أَرْسَلْنٰا مُوسیٰ وَ أَخٰاهُ هٰارُونَ بِآیٰاتِنٰا وَ سُلْطٰانٍ مُبِینٍ الآیات هی العصا و الید البیضاء و سائر الآیات التی أراها موسی فرعون و قومه،و السلطان المبین الحجه الواضحه،و تفسیر بعضهم السلطان بالعصا غیر سدید.

قوله تعالی: إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَاسْتَکْبَرُوا وَ کٰانُوا قَوْماً عٰالِینَ قیل:إنما ذکر ملأ فرعون و اکتفی بهم عن ذکر قومه لأنهم الأشراف المتبوعون و سائر القوم أتباع یتبعونهم.

و المراد بکونهم عالین أنهم کانوا یعلون علی غیرهم فیستعبدونهم کما علوا علی بنی إسرائیل و استعبدوهم فالعلوّ فی الأرض کنایه عن التطاول علی أهلها و قهرهم علی الطاعه.

قوله تعالی: فَقٰالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَیْنِ مِثْلِنٰا وَ قَوْمُهُمٰا لَنٰا عٰابِدُونَ المراد

بکونهما بشرين مثلهم نفی أن يکون لهما فضل عليهم،و يکون قومهما عابدين فضلهم عليهما کما فضلوا علی قومهما فإذا کان الفضل لهم عليهما کان من الواجب أن يعبداهم کما عبدهم قومهما لا أن يؤمنوا بهما کما قال فرعون لموسی: لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهاً غَيْرِی لَأَجْعَلَنَّکَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ثم ختم تعالی القصه بذکر هلاکهم فقال: «فَکَذَّبُوهُمٰا فَکٰانُوا مِنَ الْمُهْلَکِينَ» ثم قال: «وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَی الْکِتٰابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» و المراد بهم بنو إسرائيل لأن التوراه إنما نزلت بعد هلاک فرعون و ملائه.

قوله تعالی: وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْنٰاهُمٰا إِلیٰ رَبْوَةٍ ذٰاتِ قَرٰارٍ وَ مَعِينٍ تقدم أن الآيه هی ولاده عيسی عليه السّلام الخارقه للعاده و إذ کانت أمرا قائما به و بامه معا عدّا جميعا آيه واحده.

و الإيواء من الاویّ و أصله الرجوع ثم استعمل فی رجوع الإنسان الی مسکنه و مقره، و آواه الی مکان کذا أی جعله مسکنا له و الربوه المکان المرتفع المستوی الواسع،و المعين الماء الجاری.

و المعنی:و جعلنا عيسی بن مريم و أمه مريم آيه دالّه علی ربوبيتنا و أسکنّاهما فی مکان مرتفع مستو وسيع فيه قرار و ماء جار.

قوله تعالی: يٰا أَيُّهَا الرُّسُلُ کُلُوا مِنَ الطَّيِّبٰاتِ وَ اعْمَلُوا صٰالِحاً إِنِّی بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ خطاب لعامه الرسل بأکل الطيبات و کأن المراد بالأکل منها الارتزاق بها بالتصرف فيها سواء کان بأکل أو غيره و هو استعمال شائع.

و السياق يشهد بأن فی قوله: «کُلُوا مِنَ الطَّيِّبٰاتِ» امتنانا منه تعالی عليهم،ففی قوله عقيبه: «وَ اعْمَلُوا صٰالِحاً» أمر بمقابله المنّه بصالح العمل و هو شکر للنعمه و فی تعليله بقوله:

«إِنِّی بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» تحذير لهم من مخالفه أمره و بعث الی ملازمه التقوی.

قوله تعالی: وَ إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّکُمْ فَاتَّقُونِ تقدم تفسير

نظیره الآیه فی سوره الأنبیاء.

قوله تعالی: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فی المجمع أن التقطع و التقطیع بمعنی واحد،و الزبر بضمتین جمع زبور و هو الکتاب،و الکلام متفرع علی ما تقدمه،و المعنی أن اللّه أرسل الیهم رسله تتری و الجمیع أمه واحده لهم رب واحد دعاهم الی تقواه لکنهم لم یأتمروا بأمره و قطّعوا أمرهم بینهم قطعا و جعلوه کتبا اختص بکل کتاب حزب و کل حزب بما لدیهم فرحون.

و فی قراءه ابن عامر «زُبُراً» بفتح الباء و هو جمع زبره و هی الفرقه،و المعنی و تفرقوا فی أمرهم جماعات و أحزابا کل حزب بما لدیهم فرحون،و هی أرجح.

قوله تعالی: فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ قال فی المفردات:الغمره معظم الماء الساتره لمقرها و جعل مثلا للجهاله التی یغمر صاحبها،انتهی.و فی الآیه تهدید بالعذاب، و قد تقدمت إشاره الی أن من سنته تعالی المجازاه بالعذاب بعد تکذیب الرساله،و فی تنکیر «حِينٍ» إشاره الی إتیان العذاب الموعود بغته.

[سوره المؤمنون (۲۳): الآیات ۵۵ الی ۷۷]

اشاره

أَ يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَ بَنِينَ (۵۵) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي اَلْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ (۵۶) إِنَّ اَلَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (۵۷) وَ اَلَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (۵۸) وَ اَلَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ (۵۹) وَ اَلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (۶۰) أُولٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي اَلْخَيْرَاتِ وَ هُمْ لَهَا سَابِقُونَ (۶۱) وَ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَ لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (۶۲) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هٰذَا وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (۶۳) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (۶۴) لاَ تَجْأَرُوا اَلْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لاَ تُنْصَرُونَ (۶۵) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (۶۶) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ (۶۷) أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا اَلْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ اَلْأَوَّلِينَ (۶۸) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۶۹) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (۷۰) وَ لَوِ اِتَّبَعَ اَلْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ اَلسَّمَاوَاتُ وَ اَلْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (۷۱) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ اَلرَّازِقِينَ (۷۲) وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۷۳) وَ إِنَّ اَلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ اَلصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (۷۴) وَ لَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۷۵) وَ لَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اِسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ (۷۶) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (۷۷)

بیان:

قوله تعالی: أَ یَحْسَبُونَ أَنَّمٰا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مٰالٍ وَ بَنِینَ نُسٰارِعُ لَهُمْ فِی الْخَیْرٰاتِ بَلْ لاٰ یَشْعُرُونَ «نُمِدُّهُمْ» -بضمّ النون-من الإمداد و المد و الإمداد بمعنی واحد و هو تتمیم نقص الشیء و حفظه من أن ینقطع أو ینفد،قال الراغب:و أکثر ما یستعمل الإمداد فی المحبوب و المد فی المکروه،فقوله: «نُمِدُّهُمْ» من الإمداد المستعمل فی المکروه و المسارعه لهم فی الخیرات إفاضه الخیرات بسرعه لکرامتهم علیه فیکون الخیرات علی ظنهم هی المال و البنون سورع لهم فیها.

و المعنی:أ یظن هؤلاء أن ما نعطیهم فی مده المهله من مال و بنین خیرات نسارع لهم فیها لرضانا عنهم أو حبنا لأعمالهم أو کرامتهم علینا؟

لا،بل لا یشعرون أی إن الأمر علی خلاف ما یظنون و هم فی جهل بحقیقه الأمر و هو أن ذلک إملاء منا و استدراج و إنما نمدّهم فی طغیانهم یعمهون کما قال تعالی: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَعْلَمُونَ وَ أُمْلِی لَهُمْ إِنَّ کَیْدِی مَتِینٌ (الأعراف/١٨٣).

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ هُمْ مِنْ خَشْیَهِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ الی آخر الآیات

الخمس؛يبين تعالى فى هذه الآيات الخمس بمعونه ما تقدم أن الذى يظن هؤلاء الكفار أن المال و البنين خيرات نسارع لهم فيها خطأ منهم فليست هى من الخيرات فى شىء بل استدراج و إملاء و إنما الخيرات التى يسارع فيها هى ما عند المؤمنين باللّه و رسله و اليوم الآخر الصالحين فى أعمالهم.

فأفصح تعالى عن وصفهم فقال: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ» ،قال الراغب:

الإشفاق عنايه مختلطه بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه و يخاف ما يلحقه،قال تعالى:

وَ هُمْ مِنَ السّاعَةِ مُشْفِقُونَ فإذا عدّى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر،و إذا عدّى بفى فمعنى العنايه فيه أظهر،قال: «إِنّا كُنّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ» «مُشْفِقُونَ مِنْها» انتهى.

و الآيه تصفهم بأنهم اتخذوا اللّه سبحانه ربا يملكهم و يدبّر أمرهم،و لازم ذلك أن يكون النجاه و الهلاك دائرين مدار رضاه و سخطه يخشونه فى أمر يحبونه و هو نجاتهم و سعادتهم فهم مشفقون من خشيته و هذا هو الذى يبعثهم الى الإيمان بآياته و عبادته،و قد ظهر بما مرّ من المعنى أن الجمع فى الآيه بين الخشيه و الإشفاق ليس تكرارا مستدركا.

ثم قال: وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ و هى كل ما يدل عليه تعالى بوجه و من ذلك رسله الحاملون لرسالته و ما أيدوا به من كتاب و غيره و ما جاءوا به من شريعه لأن إشفاقهم من خشيه اللّه يبعثهم الى تحصيل رضاه و يحملهم على إجابته الى ما يدعوهم اليه و ائتمارهم لما يأمرهم به من طريق الوحى و الرساله.

ثم قال: وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ و الإيمان بآياته هو الذى دعاهم الى نفى الشركاء فى العباده فإن الإيمان بها إيمان بالشريعه التى شرعت عبادته تعالى و الحجج التى دلت على توحده فى ربوبيته و ألوهيته.

على أن جميع الرسل و الأنبياء عليهم السّلام إنما جاءوا من قبله و إرسال الرسل لهدايه الناس الى الحق الذى فيه سعادتهم من شئون الربوبيه،و لو كان له شريك لأرسل رسولا،و من لطيف

كلام عليّ عليه أفضل السلام قوله:لو كان لربک شريک لأتتک رسله.

ثم قال: وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مٰا آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلىٰ رَبِّهِمْ رٰاجِعُونَ الوجل الخوف،و قوله: «يُؤْتُونَ مٰا آتَوْا» أی يعطون ما أعطوا من المال بالإنفاق فی سبيل اللّه و قيل:المراد بإيتاء ما آتوا إتيانهم بکل عمل صالح،و قوله: «وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ» حال من فاعل «يُؤْتُونَ» .

و المعنی و الذين ينفقون ما أنفقوا أو يأتون بالأعمال الصالحه و الحال أن قلوبهم خائفه من أنهم سيرجعون الی ربهم أی إن الباعث لهم علی الإنفاق فی سبيل اللّه أو علی صالح العمل ذكرهم رجوعهم المحتوم الی ربهم علی علی وجل منه.

و فی الآيه دلاله علی إيمانهم باليوم الآخر و إتيانهم بصالح العمل و عند ذلک تعينت صفاتهم أنهم الذين يؤمنون باللّه وحده لا شريک له و برسله و باليوم الآخر و يعملون الصالحات.

ثم قال: أُولٰئِکَ يُسٰارِعُونَ فِی الْخَيْرٰاتِ وَ هُمْ لَهٰا سٰابِقُونَ الظاهر أن اللام فی «لَهٰا» بمعنی«الی»و «لَهٰا» متعلق بسابقون،و المعنی اولئک الذين وصفناهم هم يسارعون فی الخيرات من الأعمال و هم سابقون إليها أی يتسابقون فيها لأن ذلک لازم كون كل منهم مريدا للسبق إليها.

فقد بيّن فی الآيات أن الخيرات هی الأعمال الصالحه المبتنيه علی الاعتقاد الحق الذی عند هؤلاء المؤمنين و هم يسارعون فيها و ليست الخيرات ما عند اولئک الكفار و هم يعدّونها بحسبانهم مسارعه من اللّه سبحانه لهم فی الخيرات.

قوله تعالی: وَ لاٰ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا وَ لَدَيْنٰا كِتٰابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ الذی يعطيه السياق أن فی الآيه ترغيبا و تحضيضا علی ما ذكره من صفات المؤمنين و دفعا لما ربما ينصرف الناس بتوهمه عن التلبس بكرامتها من وجهين أحدهما أن التلبّس بها أمر سهل فی وسع النفوس و ليس بذاک الصعب الشاق الذی يستوعره المترفون،

و الثانی أن اللّه لا یضیع عملهم الصالح و لا ینسی أجرهم الجزیل.

فقوله: وَ لاٰ نُکَلِّفُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا نفی للتکلیف الحرجی الخارج عن وسع النفوس أما فی الاعتقاد فإنه تعالی نصب حججا ظاهره و آیات باهره تدل علی ما یرید الإیمان به من حقائق المعارف و جهز الإنسان بما من شأنه أن یدرکها و یصدق بها و هو العقل ثم راعی حال العقول فی اختلافها من جهه قوه الإدراک و ضعفه فأراد من کل ما یناسب مقدار تحمله و طوقه فلم یرد من العامه ما یرده من الخاصه و لم یسأل الأبرار عما سأل عنه المقربین و لا ساق المستضعفین بما ساقه به المخلصین.

و أما فی العمل فإنما ندب الإنسان منه الی ما فیه خیره فی حیاته الفردیه و الاجتماعیه الدنیویه و سعادته فی حیاته الاخرویه،و من المعلوم أن خیر کل نوع من الأنواع و منها الإنسان إنما یکون فیما یتم به حیاته و ینتفع به فی عیشته و هو مجهز بما یقوی علی إتیانه و عمله، و ما هذا شأنه لا یکون حرجیا خارجا عن الوسع و الطاقه.

فلا تکلیف حرجیا فی دین اللّه بمعنی الحکم الحرجی فی تشریعه مبنیا علی مصلحه حرجیه،و بذلک امتن اللّه سبحانه علی عباده،و طیّب نفوسهم و رغّبهم الی من وصفه من حال المؤمنین.

و الآیه وَ لاٰ نُکَلِّفُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا تدل علی ذلک و زیاده فإنها تدل علی نفی التکلیف المبنی علی الحرج فی أصل تشریعه کتشریع الرهبانیه و التقرب بذبح الأولاد مثلا، و نفی التکلیف الذی هو فی نفسه غیر حرجی لکن اتفق أن صار بعض مصادیقه حرجیا لخصوصیه فی المورد کالقیام فی الصلاه للمریض الذی لا یستطیعه فالجمیع منفی بالآیه و إن کان الامتنان و الترغیب المذکوران یتمان بنفی القسم الأول.

و الدلیل علیه فی الآیه تعلق نفی التکلیف بقوله: «نَفْساً» و هو نکره فی سیاق النفی یفید العموم،و علیه فأی نفس مفروضه فی أی حادثه لا تکلف إلا وسعها و لا یتعلق بها حکم

حرجی سواء کان حرجیا من أصله أو صار حرجیا فی خصوص المورد.

و قد ظهر أن فی الآیه إمضاء لدرجات الاعتقاد بحسب مراتب العقول و رفعا للحرج سواء کان فی أصل الحکم أو طارئا علیه.

و قوله: وَ لَدَیْنا کِتابٌ یَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ ترغیب لهم بتطییب نفوسهم بأن عملهم لا یضیع و أجرهم لا یتخلف و المراد بنطق الکتاب إعرابه عما أثبت فیه إعرابا لا لبس فیه و ذلک لأن أعمالهم مثبته فی کتاب لا ینطق إلا بما هو حق فهو مصون عن الزیاده و النقیصه و التحریف،و الحساب مبنی علی ما أثبت فیه کما یشیر الیه قوله: «یَنْطِقُ» و الجزاء مبنی علی ما یستنتج من الحساب کما یشیر الیه قوله: «وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ» فهم فی أمن من الظلم بنسیان أجرهم أو بترک إعطائه أو بنقصه أو تغییره کما أنهم فی أمن من أن لا یحفظ أعمالهم أو تنسی بعد الحفظ أو تتغیر بوجه من وجوه التغیر.

قوله تعالی: بَلْ قُلُوبُهُمْ فِی غَمْرَهٍ مِنْ هٰذٰا وَ لَهُمْ أَعْمٰالٌ مِنْ دُونِ ذٰلِکَ هُمْ لَهٰا عٰامِلُونَ المناسب لسیاق الآیات أن یکون «هٰذٰا» إشاره الی ما و صفته الآیات السابقه من حال المؤمنین و مسارعتهم فی الخیرات،و یمکن أن یکون إشاره الی القرآن کما یؤیده قوله بعد: «قَدْ کٰانَتْ آیٰاتِی تُتْلیٰ عَلَیْکُمْ» و الغمره الغفله الشدیده أو الجهل الشدید الذی غمرهم،و قوله: «وَ لَهُمْ أَعْمٰالٌ مِنْ دُونِ ذٰلِکَ» الخ؛أی من غیر ما وصفناه من حال المؤمنین و هو کنایه عن أن لهم شاغلا یشغلهم عن هذه الخیرات و الأعمال الصالحه و هو الأعمال الردیئه الخبیثه التی هم لها عاملون.

و المعنی:بل الکفار فی غفله شدیده أو جهل شدید عن هذا الذی وصفنا به المؤمنین و لهم أعمال ردیئه خبیثه من دون ذلک هم لها عاملون فی شاغلتهم و مانعتهم.

قوله تعالی: حَتّٰی إِذٰا أَخَذْنٰا مُتْرَفِیهِمْ بِالْعَذٰابِ إِذٰا هُمْ یَجْأَرُونَ الجؤار -بضم الجیم-صوت الوحش کالظباء و نحوها عند الفزع کنّی به عن رفعهم الصوت

بالاستغاثه و التضرّع،و قيل:المراد به ضجّتهم و جزعهم و الآيات التاليه تؤيد المعنى الأول.

و إنما جعل مترفيهم متعلق العذاب لأن الكلام فيمن ذكره قبلا بقوله: «أَ يَحْسَبُونَ أَنَّمٰا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مٰالٍ وَ بَنِينَ» و هم الرؤساء المتنعمون منهم و غيرهم تابعون لهم.

قوله تعالى: لاٰ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنّٰا لاٰ تُنْصَرُونَ العدول عن سياق الغيبه الى الخطاب لتشديد التوبيخ و التقريع و لقطع طمعهم فى النجاه بسبب الاستغاثه و أى رجاء و أمل لهم فيها فإن إخبار الوسائط أنهم لا ينصرون لدعاء أو شفاعه لا يقطع طمعهم فى النصر كما يقطعه إخبار من اليه النصر نفسه.

قوله تعالى: قَدْ كٰانَتْ آيٰاتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ -الى قوله- تَهْجُرُونَ النكوص:

الرجوع القهقرى،و السامر من السمر و هو التحديث بالليل،قيل:السامر كالحاضر يطلق على المفرد و الجمع،و قرئ«سمّرا»-بضمّ السين و تشديد الميم-جمع سامر و هو أرجح، و قرئ أيضا«سمّارا»-بالضم و التشديد-،و الهجر:الهذيان.

و الفصل فى قوله: «قَدْ كٰانَتْ آيٰاتِي» الخ؛لكونه فى مقام التعليل،و المعنى:إنكم منا لا تنصرون لأنه قد كانت آياتى تتلى و تقرا عليكم فكنتم تعرضون عنها و ترجعون الى أعقابكم القهقرى مستكبرين بنكوصكم تحدّثون فى أمره فى الليل تهجرون و تهذون،و قيل:ضمير «بِهِ» عائد الى البيت أو الحرم و هو كما ترى.

قوله تعالى: أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جٰاءَهُمْ مٰا لَمْ يَأْتِ آبٰاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ شروع فى قطع أعذارهم فى الإعراض عن القرآن النازل لهدايتهم و عدم استجابتهم للدعوه الحقه التى قام بها النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

فقوله: أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ الاستفهام فيه للإنكار و اللام فى «الْقَوْلَ» للعهد و المراد به القرآن المتلو عليهم،و الكلام متفرع على ما تقدمه من كونهم فى غفله منه و شغل يشغلهم عنه،و المعنى:هل إذا كانوا على تلك الحال لم يدبّروا هذا القول المتلو عليهم حتى يعلموا أنه

حق من عند اللّه فيؤمنوا به.

و قوله: «أَمْ جٰاءَهُمْ مٰا لَمْ يَأْتِ آبٰاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ» «أَمْ» فيه و فيما بعده منقطعه فى معنى الإضراب،و المعنى:بل أجاءهم شىء لم يأت آباءهم الأولين فيكون بدعا ينكر و يحترز منه.

و كون الشىء بدعا محدثا لا يعرفه السابقون و إن لم يستلزم كونه باطلا غير حق على نحو الكليه لكن الرساله الإلهيه لما كانت لغرض الهدايه لو صحّت وجبت فى حق الجميع فلو لم يأت الأولين كان ذلك حجه قاطعه على بطلانها.

قوله تعالى: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ المراد بمعرفه الرسول معرفته بنسبه و حسبه و بالجمله بسجاياه الروحيه و ملكاته النفسيه من اكتسابيه و موروثه حتى يتبين به أنه صادق فيما يقول مؤمن بما يدعو اليه مؤيد من عند اللّه و قد عرفوا من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم سوابق حاله قبل البعثه،و قد كان يتيما فاقدا للأبوين لم يقرأ و لم يكتب و لم يأخذ أدبا من مؤدب و لا تربيه من مربّ ثم لم يجدوا عنده ما يستقبحه عقل أو يستنكره طبع أو يستهجنه رأى و لا طمعا فى ملك أو حرصا على مال أو ولعا بجاه،و هو على ما هو سنين من عمره فإذا هو ينادى للفلاح و السعاده و يندب الى حقائق معارف تبهر العقول و يدعو الى شريعه تحيّر الألباب و يتلو كتابا.

فهم قد عرفوا رسولهم صلّى اللّه عليه و آله و سلم بنعوته الخاصه المعجزه لغيره،و لو لم يكونوا يعرفونه لكان لهم عذرا فى إعراضهم عن دينه و استنكافهم عن الإيمان به لأن معنى عدم معرفته كذلك وجدانه على غير بعض هذه النعوت أو عدم إحرازه فيه،و من المعلوم أن إلقاء الزمام الى من هذا شأنه مما لا يجوزه العقل.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جٰاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ و هذا عذر آخر لهم تشبّثوا به إذ قالوا: يٰا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (الحجر/۶)ذكره و رده بلازم قوله: «بَلْ جٰاءَ بِالْحَقِّ» .

فمدلول قوله: بَلْ جٰاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ إضراب عن جمله محذوفه و التقدير إنهم كاذبون فی قولهم: «بِهِ جِنَّةٌ» و اعتذارهم عن عدم إيمانهم به بذلك بل إنما كرهوا الإيمان به لأنه جاء بالحق و أكثرهم للحق كارهون.

و لازمه رد قولهم بحجه يلوّح إليها هذا الاضراب،و هی أن قولهم: «بِهِ جِنَّةٌ» لو كان حقا كان كلامه مختلّ النظم غير مستقيم المعنی مدخولا فيه كما هو مدخول فی عقله،غير رام الی مرمی صحيح،لكن كلامه ليس كذلك فلا يدعو إلا الی حق،و لا يأتی إلا بحق،و أين ذلك من كلام مجنون لا يدری ما يريد و لا يشعر بما يقول.

و إنما نسب الكراهه الی أكثرهم لأن فيهم مستضعفين لا يعبأ بهم أرادوا أو كرهوا.

قوله تعالی: وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوٰاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنٰاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ لما ذكر أن أكثرهم للحق كارهون و إنما يكرهون الحق لمخالفته هواهم فهم يريدون من الحق أی الدعوه الحقه أن يتبع أهواءهم و هذا مما لا يكون البته.

إذ لو اتبع الحق أهواءهم فتركوا و ما يهوونه من الاعتقاد و العمل فعبدوا الأصنام و اتخذوا الأرباب و نفوا الرساله و المعاد و اقترفوا ما أرادوه من الفحشاء و المنكر و الفساد جاز أن يتّبعهم الحق فی غير ذلك من الخليقه و النظام الذی يجری فيها بالحق إذ ليس بين الحق و الحق فرق فاعطی كل منهم ما يشتهيه من جريان النظام و فيه فساد السماوات و الأرض و من فيهن و اختلال النظام و انتفاض القوانين الكليه الجاريه فی الكون فمن البيّن أن الهوی لا يقف علی حد و لا يستقر علی قرار.

قوله تعالی: أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرٰاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرّٰازِقِينَ قال فی مجمع البيان:أصل الخراج و الخرج واحد و هو الغله التی يخرج علی سبيل الوظيفه انتهی.

ص :۳۸۷

و هذا رابع الأعذار التی ذکرت فی هذه الآیات وردت و وبخوا علیها و قد ذکره اللّه بقوله:

«أَمْ تَسْـأَلُهُمْ خَرْجاً» أی مالا یـدفعونه الیک علی سبیل الرسم و الـوظیفه ثم ذکر غنی النـبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بقوله: «فَخَراجُ رَبِّکَ خَیْرٌ وَ هُوَ خَیْرُ الرّازِقِینَ» أی إن اللّه هو رازقک و لا حاجه لک الی خرجهم،و قد تکرر الأمر بإعلامهم ذلک فی الآیات قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً (الأنعام/۹۰)(الشوری/۲۳).

و قد تمت بما ذکر فی الآیه أربعه من الأعذار المردوده الیهم و هی مختلفه فأولها «أَ فَلَمْ یَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ» راجع الی القرآن و الثانی «أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ یَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِینَ» الی الـدین الـذی الیه الدعوه،و الثالث «أَمْ یَقُولُونَ بِهِ جِنَّهٌ» الی نفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و الرابع «أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً» الی سیرته.

قوله تعالی: وَ إِنَّکَ لَتَـدْعُوهُمْ إِلی صِـراطٍ مُسْـتَقِیمٍ وَ إِنَّ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ عَنِ الصِّراطِ لَناکِبُونَ النکب و النکوب العـدول عن الطریق و المیل عن الشیء.

قد تقدم فی تفسیر سوره الفاتحه أن الصراط المستقیم هو الطریق الواضح الذی لا یختلف و لا یتخلف فی حکمه و هو إیصاله سالکیه الی الغایه المقصوده،و هذه صفه الحق فإن الحق واحد لا یختلف أجزاؤه بالتناقض و التدافع و لا یتخلف فی مطلوبه الذی یهدی الیه فالحق صراط مستقیم،و إذ ذکر أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم یهدی الی الحق کان لازمه هذا الذی ذکره أنه یهدی الی صراط مستقیم.

ثم إن الذین کفروا لما کانوا کارهین للحق کما ذکره فهم عادلون عن الصراط أی الصراط المستقیم مائلون الی غیره.

و إنما أورد من أوصافهم عدم إیمانهم بالآخره و اقتصر علیه لأن دین الحق مبنی علی أساس أن للإنسان حیاه خالده لا تبطل بالموت و له فیها سعاده یجب أن تقتنی بالاعتقاد الحق

و العمل الصالح و شقاوه يجب أن تجتنب،و هؤلاء لنفيهم الحياه الآخره يعدلون عن الحق و الصراط المستقيم.

و بتقرير آخر:دين الحق مجموع تكاليف اعتقاديه و عمليه و التكليف لا يتم إلا بحساب و جزاء،و قد عين لذلك يوم القيامه،و إذ لا يؤمن هؤلاء بالآخره لغى الدين عندهم فلا يرون من الحياه إلا الحياه الدنيا الماديه و لا يبقى من السعاده عندهم إلا نيل اللذائذ الماديه و هو التمتع بالبطن فما دونه،و لازم ذلك أن يكون المتبع عندهم الهوى وافق الحق أو خالفه.

فمحصل الآيتين أنهم ليسوا بمؤمنين بك لأنك تدعو الى صراط مستقيم و هم لا همّ لهم إلا العدول و الميل عنه.

قوله تعالى: وَ لَوْ رَحِمْنٰاهُمْ وَ كَشَفْنٰا مٰا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ -الى قوله- وَ مٰا يَتَضَرَّعُونَ اللجاج التمادى و العناد فى تعاطى الفعل المزجور عنه،و العمه التردد فى الأمر من التحير،ذكرهما الراغب،و فى المجمع:الاستكانه الخضوع و هو استفعل من الكون،و المعنى ما طلبوا الكون على صفه الخضوع.انتهى.

و قوله: وَ لَوْ رَحِمْنٰاهُمْ بيان و تأييد لنكوبهم عن الصراط بأنا لو رحمناهم و كشفنا ما بهم من ضر لم يرجعوا بمقابله ذلك الشرك أصروا على تمردهم عن الحق و تمادوا يترددون فى طغيانهم فلا ينفعهم رحمه بكشف الضر كما لا ينفعهم تخويف بعذاب و نقمه فإنا قد أخذناهم بالعذاب فما خضعوا لربهم و ما يتضرعون اليه فهؤلاء لا ينفعهم و لا يركبهم صراط الحق لا رحمه بكشف الضر و لا نقمه و تخويف بالأخذ بالعذاب.

و المراد بالعذاب العذاب الخفيف الذى لا ينقطع به الإنسان عن عامه الأسباب بقرينه ما فى الآيه التاليه فلا يرد أن الرجوع الى اللّه تعالى عند الاضطرار و الانقطاع عن الأسباب من غريزيات الإنسان كما تكرر ذكره فى القرآن الكريم فكيف يمكن أن يأخذهم العذاب ثم لا يستكينوا و لا يتضرعوا؟

و قوله فی الآیه الاولی: «مٰا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ» و فی الثانیه «وَ لَقَدْ أَخَذْنٰاهُمْ بِالْعَذٰابِ» یدل علی أن الکلام ناظر الی عذاب قد وقع و لما یرتفع حین نزول الآیات،و من المحتمل أنه الجدب الذی ابتلی به أهل مکه و قد ورد ذکر منه فی الروایات.

قوله تعالی: حَتّٰی إِذٰا فَتَحْنٰا عَلَیْهِمْ بٰاباً ذٰا عَذٰابٍ شَدِیدٍ إِذٰا هُمْ فِیهِ مُبْلِسُونَ أی هم علی حالهم هذه لا ینفع فیهم رحمه و لا عذاب حتی إذا فتحنا علیهم بابا ذا عذاب شدید و هو الموت بما یستتبعه من عذاب الآخره-علی ما یعطیه سیاق الآیات و خاصه الآیات الآتیه-فیفاجئوهم الإبلاس و الیأس من کل خیر.

و قد ختم هذا الفصل من الکلام أعنی قوله: «أَ فَلَمْ یَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ» الخ؛بنظیر ما ختم به الفصل السابق أعنی قوله: «أَ یَحْسَبُونَ أَنَّمٰا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مٰالٍ وَ بَنِینَ» الی آخر الآیات؛و هو ذکر عذاب الآخره،و سیعود الیه ثانیا.

[سوره المؤمنون (٢٣): الآیات ٧٨ الی ٩٨]

اشاره

وَ هُوَ اَلَّذِی أَنْشَأَ لَکُمُ اَلسَّمْعَ وَ اَلْأَبْصٰارَ وَ اَلْأَفْئِدَهَ قَلِیلاً مٰا تَشْکُرُونَ (٧٨) وَ هُوَ اَلَّذِی ذَرَأَکُمْ فِی اَلْأَرْضِ وَ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَ هُوَ اَلَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ وَ لَهُ اِخْتِلاٰفُ اَللَّیْلِ وَ اَلنَّهٰارِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قٰالُوا مِثْلَ مٰا قٰالَ اَلْأَوَّلُونَ (٨١) قٰالُوا أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنٰا نَحْنُ وَ آبٰاؤُنٰا هٰذٰا مِنْ قَبْلُ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِیرُ اَلْأَوَّلِینَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ اَلْأَرْضُ وَ مَنْ فِیهٰا إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨۴) سَیَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ (٨۵) قُلْ مَنْ رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ اَلسَّبْعِ وَ رَبُّ اَلْعَرْشِ اَلْعَظِیمِ (٨۶) سَیَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَ فَلاٰ تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ وَ هُوَ یُجِیرُ وَ لاٰ یُجٰارُ عَلَیْهِ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَیَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنّٰی تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَیْنٰاهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَکٰاذِبُونَ (٩٠) مَا اِتَّخَذَ اَللّٰهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مٰا کٰانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذاً لَذَهَبَ کُلُّ إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ وَ لَعَلاٰ بَعْضُهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ سُبْحٰانَ اَللّٰهِ عَمّٰا یَصِفُونَ (٩١) عٰالِمِ اَلْغَیْبِ وَ اَلشَّهٰادَهِ فَتَعٰالیٰ عَمّٰا یُشْرِکُونَ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِمّٰا تُرِیَنِّی مٰا یُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلاٰ تَجْعَلْنِی فِی اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِینَ (٩۴) وَ إِنّٰا عَلیٰ أَنْ نُرِیَکَ مٰا نَعِدُهُمْ لَقٰادِرُونَ (٩۵) اِدْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ اَلسَّیِّئَهَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا یَصِفُونَ (٩۶) وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِکَ مِنْ هَمَزٰاتِ اَلشَّیٰاطِینِ (٩٧) وَ أَعُوذُ بِکَ رَبِّ أَنْ یَحْضُرُونِ (٩٨)

بيان:

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَهَ قَلِیلًا ما تَشْکُرُونَ افتتح سبحانه من نعمه التی أنعمها علیهم بذکر إنشاء السمع و البصر و هما نعمتان خصّ بهما جنس الحیوان خلقتا فیه إنشاء و إبداعا لا ـ عن مثال سابق إذ لا توجدان فی الأنواع البسیطه التی قبل الحیوان کالنبات و الجماد و العناصر.

و بحصول هذین الحسّین یقف الوجود المجهز بهما موقفا جدیدا و یتسع مجال فعالیته بالنسبه الی ما هو محروم منهما اتساعا لا یتقدر بقدر فیدرک خیره و شره و نافعه و ضارّه و یعطی معهما الحرکه الإرادیه الی ما یریده و عما یکرهه،و یستقر فی عالم حدیث طری فیه مجالی الجمال و اللذه و العزه و الغلبه و لمحبه مما لا خبر عنه فیما قبله.

و إنما اقتصر من الحواس بالسمع و البصر-قیل-لأن الاستدلال یتوقف علیهما و یتمّ بهما.

ثم ذکر سبحانه الفؤاد و المراد به المبدأ الذی یعقل من الإنسان و هو نعمه خاصه بالإنسان من بین سائر الحیوان و مرحله حصول الفؤاد مرحله وجودیه جدیده هی أرفع درجه و أعلی منزله و أوسع مجالا من عالم الحیوان الذی هو عالم الحواس فیتسع به أولا شعاع عمل الحواس مما کان علیه فی عامه الحیوان بما لا یتقدر بقدر فإذا الإنسان یدرک بهما ما غاب و ما حضر و ما مضی و ما غبر من أخبار الأشیاء و آثارها و أوصافها بعلاج و غیر علاج.

ثم یرقی بفؤاده أی بتعقله الی ما فوق المحسوسات و الجزئیات فیتعقل الکلیات فیحصل القوانین الکلیه،و یغور متفکرا فی العلوم النظریه و المعارف الحقیقیه،و ینفذ بسلطان التدبر فی أقطار السماوات و الأرض.

ففی ذلک کله من عجیب التدبیر الإلهی بإنشاء السمع و الأبصار و الأفئده ما لا یسع الإنسان أن یستوفی شکره.

و قوله: «قَلِيلاً مٰا تَشْكُرُونَ» فيه بعض العتاب و معناه تشكرون شكرا قليلا فقوله:

«قَلِيلاً» وصف للمفعول المطلق قائم مقامه.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ قال الراغب:

الذرأ إظهار اللّه تعالى ما أبداه يقال:ذرأ اللّه الخلق أى أوجد أشخاصهم.و قال:الحشر إخراج الجماعه عن مقرهم و إزعاجهم عنه الى الحرب و نحوها.انتهى.

فالمعنى:أنه لما جعلكم ذوى حس و عقل أظهر وجودكم فى الأرض متعلقين بها ثم يجمعكم و يرجعكم الى لقائه.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلاٰفُ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ معنى الآيه ظاهر،و قوله: «وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ» مترتب بحسب المعنى على الجمله التى قبله أى لما جعلكم ذوى علم و أظهر وجودكم فى الأرض الى حين حتى تحشروا اليه لزمت ذلك سنه الإحياء و الإماته إذ العلم متوقف على الحياه و الحشر متوقف على الموت.

و قوله: وَ لَهُ اخْتِلاٰفُ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ مترتب على ما قبله فإن الحياه ثم الموت لا تتم إلا بمرور الزمان و ورود الليل بعد النهار و النهار بعد الليل حتى ينقضى العمر و يحل الأجل المكتوب،هذا لو أريد باختلاف الليل و النهار و ورود الواحد منهما بعد الواحد،و لو أريد به اختلافهما فى الطول و القصر كانت فيه إشاره الى إيجاد فصول السنه الأربعه المتفرعه على طول الليل و النهار و قصرهما و بذلك يتم أمر أرزاق الحيوان و تدبير معاشها كما قال: وَ قَدَّرَ فِيهٰا أَقْوٰاتَهٰا فِي أَرْبَعَةِ أَيّٰامٍ سَوٰاءً لِلسّٰائِلِينَ (حم السجده/١٠).

قوله تعالى: بَلْ قٰالُوا مِثْلَ مٰا قٰالَ الْأَوَّلُونَ إضراب عن نفى سابق يدلّ عليه الاستفهام المتقدم أى لم يعقلوا بل قالوا كذا و كذا.

و فى تشبيه قولهم بقول الأولين إشاره الى أن تقليد الآباء منعهم عن اتباع الحق و أوقعهم فيما

لا ـ یبقی معه للـدین جـدوی و هو نفی المعـاد،و الإخلاـص الی الأـرض و الانغمـار فی المادیات سـنه جاریه فیهم فی آخراهم و أولیهم.

قوله تعالی: قٰالُوا أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ بیان لقوله:

«قٰالُوا» فی الآیه السابقه و الکلام مبنی علی الاستبعاد.

قوله تعـالی: لَقَـدْ وُعِـدْنٰا نَحْنُ وَ آبٰاؤُنٰا هٰـذٰا مِنْ قَبْلُ إِنْ هٰـذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ الأساطیر الأباطیل و الأحادیث الخرافیه و هی جمع أسـطوره کأکاذیب جمع أکـذوبه و أعاجیب جمع أعجوبه و إطلاق الأساطیر و هو جمع علی البعث و هو مفرد بعنایه أنه مجموع عدات کل واحد منهما أسطوره کالإحیاء و الجمع و الحشر و الحساب و الجنه و النار و غیرها،و الإشاره بهذا الی حدیث البعث و قوله: «مِنْ قَبْلُ» متعلق بقوله: «وُعِدْنٰا» علی ما یعطیه سیاق الجمله.

و المعنی:أن وعد البعث وعد قدیم لیس بحدیث نقسم لقد وعدناه من قبل نحن و آباؤنا لیس البعث الموعود إلا أحادیث خرافیه وضعها و نظمها الأناسی الأولون فی صوره إحیاء الأموات و حساب الأعمال و الجنه و النار و الثواب و العقاب.

قوله تعالی: قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِیهٰا إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لما ذکر استبعادهم للبعث ثم إنکارهم له شـرع فی الاحتجاج علی إمکانه من طریـق الملـک و الربوبیه و السـلطنه، و وجه الکلاـم الی الوثنیین المنکرین للبعث و هم معـترفون به تعـالی بمعنی أنه الموجد للعالم و رب الأرباب و الآلهه المعبودون دونه من خلقه،و لذا أخذ وجوده تعالی مسلّما فی ضمن الحجه.

فقوله: «قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِیهٰا» أمر للنبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم أن یسألهم عن مالک الأرض و من فیها من أولی العقل من هو؟و معلوم أن السؤال إنما هو عن الملک الحقیقی الذی هو قیام وجود شـیء بشـیء بحیث لا یسـتقل الشـیء المملوک عن مالکه بأی وجه فرض دون الملک الاعتباری

الذی وضعناه معاشر المجتمعین لمصلحه الاجتماع و هو یقبل الصحه و الفساد و یقع موردا للبیع و الشری،و ذلک لأن الکلام مسوق لإثبات صحه جمیع التصرفات التکوینیه و ملاکها الملک التکوینی الحقیقی دون التشریعی الاعتباری.

قوله تعالی: سَیَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ إخبار عن جوابهم و هو أن الأرض و من فیها مملوکه للّه،و لا مناص لهم عن الاعتراف بکونها للّه سبحانه فإن هذا النوع من الملک لا یقوم إلا بالعله الموجده لمعلولها حیث یقوم وجود المعلول بها قیاما لا یستقلّ عنها بوجه من الوجوه،و العله الموجده للأرض و من فیها هو اللّه سبحانه وحده لا شریک له حتی باعتراف الوثنیین.

و قوله: أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ أمر بعد تسجیل الجواب أن یوبخهم علی عدم تذکرهم بالحجه الداله علی إمکان البعث،و المعنی قل لهم فإذا کان اللّه سبحانه مالک الأرض و من فیها لم لا تتذکرون أن له-لمکان مالکیته-أن یتصرف فی أهلها بالإحیاء بعد الإماته.

قوله تعالی: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیمِ أمره ثانیا أن یسألهم عن رب السماوات السبع و رب العرش العظیم من هو؟

و المراد بالعرش هو المقام الذی یجتمع فیه ازمّه الامور و یصدر عنه کل تدبیر،و تکرار لفظ الرب فی قوله: «وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیمِ» للإشاره إلی أهمیه أمره و رفعه محله کما وصفه اللّه بالعظمه،و قد تقدم البحث عنه فی تفسیر سوره الأعراف فی الجزء الثامن من الکتاب.

ذکروا أن قولنا:لمن السماوات السبع و قولنا:من رب السماوات السبع بمعنی واحد کما یقال:

لمن الدار و من رب الدار فقوله تعالی: «مَنْ رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ السَّبْعِ؟» سؤال عن مالکها،و لذا حکی الجواب عنهم بقوله: «سَیَقُولُونَ لِلّٰهِ» علی المعنی و لو أنه أجیب عنه فقیل«الله»کما فی القراءه الاخری کان جوابا علی اللفظ.

فمعنی الآیه-و اللّه أعلم-قل:من رب السماوات السبع التی منها تنزل أقدار الامور

و أقضيتها و رب العرش العظيم الذى منه يصدر الأحكام لعامه ما فى العالم من الملائكه فمن دونهم؟فإنهم و ما يملكونهم باعتقادهم مملوكه للّه و هو الذى ملّكهم ما ملكوه.

قوله تعالى: سَيَقُولُونَ لِلّهِ قُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ حكايه لجوابهم بالاعتراف بأن السماوات السبع و العرش العظيم للّه سبحانه.

و المعنى:سيجيبوك بأنها للّه قل لهم تبكيتا و توبيخا:فإذا كان السماوات السبع منها ينزل الأمر و العرش العظيم منه يصدر الأمر للّه سبحانه فلم لا تتقون سخطه إذ تنكرون البعث و تعدونه من أساطير الأولين و تسخرون من أنبيائه الذين و عدوكم به؟فإن له تعالى أن يصدر الأمر ببعث الأموات و إنشاء النشأه الآخره للانسان و ينزل الأمر به من السماء.

و من لطيف تعبير الآيه التعبير بقوله: «لِلّهِ» فإن الحجه تتم بالملك و إن لم يعترفوا بالربوبيه.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الملكوت هو الملك بمعنى السلطنه و الحكم،و يفيد مبالغه فى معناه و الفرق بين الملك بالفتح و الكسر و بين المالك أن المالك هو الذى يملك المال و الملك يملك المالك و ماله، فله ملك فى طول ملك و له التصرف بالحكم فى المال و مالكه.

و قد فسر تعالى ملكوته بقوله: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس/۸۳)،فملكوت كل شيء هو كونه عن أمره تعالى بكلمه كن و بعباره اخرى وجوده عن إيجاده تعالى.

فكون ملكوت كل شيء بيده كنايه استعاريه عن اختصاص إيجاد كل ما يصدق عليه الشيء به تعالى كما قال: اَللّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الزمر/۶۲)،فملكه تعالى محيط بكل شيء و نفوذ أمره و مضى حكمه ثابت على كل شيء.

و لما كان من الممكن أن يتوهم أن عموم الملك و نفوذ الأمر لا ينافى إخلال بعض ما أوجده

من الأسباب و العلل بأمره فيفعل ببعض خلقه ما لا يريده أو يمنعه عما يريده تمم قوله: «بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ» بقوله: «وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لاٰ يُجٰارُ عَلَيْهِ» و هو فى الحقيقه توضيح لاختصاص الملك بأنه بتمام معنى الكلمه فليس لشىء شىء من الملك فى عرض ملكه و لو بالمنع و الإخلال و الاعتراض فله الملك و له الحكم.

و قوله: وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لاٰ يُجٰارُ عَلَيْهِ من الجوار،و هو فى أصله قرب المسكن ثم جعلوا للجوار حقا و هو حمايه الجار لجاره عمن يقصده بسوء لكرامه الجار على الجار بقرب الدار و اشتق منه الأفعال يقال:استجاره فأجاره أى سأله الحمايه فحماه أى منع عنه من يقصده بسوء.

و هذا جار فى جميع أفعاله تعالى فما من شىء يخصه اللّه بعطيه حدوثا أو بقاء إلا و هو يحفظه على ما يريد و بمقدار ما يريد من غير أن يمنعه مانع إذ منع المانع-لو فرض-إنما هو بإذن منه و مشيه فليس منعا له تعالى بل منعا منه و تحديدا لفعل منه بفعل آخر،و ما من سبب من الأسباب يفعل فعلا إلا و له تعالى أن يتصرف فيه بما لا يريده لأنه تعالى هو الذى ملكه الفعل بمشيته فله أن يمنعه منه أو من بعضه.

فالمراد بقوله: «وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لاٰ يُجٰارُ عَلَيْهِ» أنه يمنع السوء عمن قصده و لا يمنعه شىء إذا أراد شيئا بسوء عما أراد.

و معنى الآيه قل لهؤلاء المنكرين للبعث:من الذى يختص به إيجاد كل شىء بما له من الخواص و الآثار و هو يحمى من استجار به و لا يحمى عنه شىء إذا أراد شيئا بسوء؟إن كنتم تعلمون.

قوله تعالى: سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنّٰى تُسْحَرُونَ قيل:إن المراد بالسحر أن يخيل الشىء للانسان على خلاف ما هو عليه فهو من الاستعاره أو الكنايه.

و المعنى:سيجيبونك أن الملكوت للّه قل لهم تبكيتا و توبيخا:فإلى متى يخيل لكم الحق

باطلا- فإذا كان الملك المطلق للّه سبحانه فله أن يوجد النشأه الآخره و يعيد الأموات للحساب و الجزاء بأمر يأمره و هو قوله:«كن».

و اعلم أن الاحتجاجات الثلاثه كما تثبت إمكان البعث كذلك تثبت توحده تعالى فى الربوبيه فإن الملك الحقيقى لا يتخلف عن جواز التصرفات،و المالك المتصرف هو الربّ.

قوله تعالى: بَلْ أَتَيْنٰاهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ إضراب عن النفى المفهوم من الحجج التى أقيمت فى الآيات السابقه،و المعنى فإذا كانت الحجج المبنيه تدل على البعث و هم معترفون بصحتها فليس ما وعدهم رسلنا باطلا بل جئناهم بلسان الرسل بالحق و إنهم لكاذبون فى دعواهم كذبهم و نفيهم للبعث.

قوله تعالى: مَا اتَّخَذَ اللّٰهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مٰا كٰانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ وَ لَعَلاٰ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ الخ؛القول بالولد كان شائعا بين الوثنيين يعدّون الملائكه أو بعضهم و بعض الجن و بعض القديسين من البشر أولادا للّه سبحانه و تبعهم النصارى فى قولهم:المسيح ابن اللّه،و هذا النوع من الولاده و البنوّه مبنى على اشتمال الابن على شىء من حقيقه اللاهوت و جوهره و انفصاله منه بنوع من الاشتقاق فيكون المسمى بالابن إلها مولودا من إله.

و أما البنوّه الادّعائيه بالتبنى و هو أخذ ولد الغير ابنا لتشريف أو لغرض آخر فلا يوجب اشتمال الابن على شىء من حقيقه الأب كقول اليهود نحن أبناء اللّه و أحباؤه،و ليس الولد بهذا المعنى مرادا لأن الكلام مسوق لنفى تعدّد الآلهه،و لا يستلزم هذا النوع من البنوه ألوهيه و إن كان التسمى و التسميه بها ممنوعا.

فالمراد باتخاذ الولد إيجاد شىء بنحو التبعّض و الاشتقاق يكون مشتملا بنحو على شىء من حقيقه الموجد لا تسميه شىء موجودا بنا و ولدا لغرض من الأغراض كما ذكره بعضهم.

و الولد-كما عرفت-أخصّ مصداقا عندهم من الإله فإن بعض آلهتهم ليس بولد عندهم

فقوله: مَا اتَّخَذَ اللّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مٰا كٰانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ ترقّ من نفى الأخص الى نفى الأعمّ و لفظه «مِنْ» فى الجملتين زائده للتأكيد.

و قوله: إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ حجه على نفى التعدد ببيان محذوره إذ لا يتصور تعدد الآلهه إلا ببينونتها بوجه من الوجوه بحيث لا تتحد فى معنى ألوهيتها و ربوبيتها، و معنى ربوبيه الإله فى شطر من الكون و نوع من أنواعه تفويض التدبير فيه اليه بحيث يستقل فى أمره من غير أن يحتاج فيه الى شىء غير نفسه حتى الى من فوّض اليه الأمر،و من البيّن أيضا أن المتباينين لا يترشح منهما إلا أمران متباينان.

و لازم ذلك أن يستقل كل من الآلهه بما يرجع اليه من نوع التدبير و تنقطع رابطه الاتحاد و الاتصال بين أنواع التدابير الجاريه فى العالم كالنظام الجارى فى العالم الإنسانى عن الأنظمه الجاريه فى أنواع الحيوان و النبات و البر و البحر و السهل و الجبل و الأرض و السماء و غيرها و كل منها عن كل منها،و فيه فساد السماوات و الأرض و ما فيهنّ،و وحده النظام الكونى و التئام أجزائه و اتصال التدبير الجارى فيه يكذّبه.

و هذا هو المراد بقوله: «إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ» أى انفصل بعض الآلهه عن بعض بما يترشح منه من التدبير.

و قوله: وَ لَعَلاٰ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ محذور آخر لازم لتعدد الآلهه تتألف منه حجه اخرى على النفى،بيانه أن التدابير الجاريه فى الكون مختلفه منها التدابير العرضيه كالتدبيرين الجاريين فى البر و البحر و التدبيرين الجاريين فى الماء و النار،و منها التدابير الطوليه التى تنقسم الى تدبير عام كلى حاكم و تدبير خاص جزئى محكوم كتدبير العالم الأرضى و تدبير النبات الذى فيه،و كتدبير العالم السماوى و تدبير كوكب من الكواكب التى فى السماء،و كتدبير العالم المادى برمّته و تدبير نوع من الأنواع الماديه.

فبعض التدبير و هو التدبير العام الكلى يعلو بعضا بمعنى أنه بحيث لو انقطع عنه ما دونه

بطل ما دونه لتقوّمه بما فوقه،كما أنه لو لم يكن هناك عالم أرضـى أو التـدبير الذى يجرى فيه بالعموم لم يكن عالم إنسانى و لا التدبير الذى يجرى فيه بالخصوص.

و لازم ذلک أن يکون الإله الـذى يرجع اليه نوع عال من التـدبير عاليا بالنسـبه الى الإله الـذى فوّض اليه من التدبير ما هو دونه و أخصّ منه و أخسّ و استعلاء الإله على الإله محال.

لا لأن الاسـتعلاء المذکور يسـتلزم کون الإله مغلوبا لغيره أو ناقصا فى قدرته محتاجا فى تمامه الى غيره أو محدودا و المحدوديه تفضـى الى الترکيب،و کل ذلک من لوازم الإمکان المنافى لوجوب وجود الإله فيلزم الخلف-کما قرّره المفسـرون-فإن الوثنيين لا يرون لآلهتهم من دون اللّه وجوب الوجود بل هى عندهم موجودات ممکنه عاليه فوّض اليهم تدبير أمر ما دونها،و هى مربوبيه للّه سبحانه و أرباب لما دونها و اللّه سبحانه رب الأرباب و إله الآلهه و هو الواجب الوجود بالذات وحده.

بل اسـتحاله الاسـتعلاء إنما هو لاسـتلزامه بطلان استقلال المستعلى عليه فى تدبيره و تأثيره إذ لا يجامع توقف التدبير على الغير و الحاجه اليه الاسـتقلال فيکون السافل منها مسـتمدا فى تأثيره محتاجا فيه الى العالى فيکون سـببا من الأسـباب التى يتوسل بها الى تدبير ما دونه لا إلها مستقلا بالتأثير دونه فيکون ما فرض إلها غير إله بل سببا يدبّر به الأمر هذا خلف.

قوله تعالى: عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَهِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِکُونَ صـفه لاسم الجلاله فى قوله: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ» و تأخيرها للدلاله على علمه بتنزهه عن وصفهم إياه بالشرکه-على ما يعطيه السياق-فيکون فى معنى قوله: قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى السَّمَاوَاتِ وَ لاَ فِى الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِکُونَ (يونس/١٨).

و يرجع فى الحقيقه الى الاحتجاج على نفى الشـرکاء بشهادته تعالى أنه لا يعلم لنفسه شريکا کما أن قوله: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ (آل عمران/١٨)احتجاج بالشهاده على

نفی أصل الوجود.

و قیل:إنه برهان آخر راجع الی إثبات العلوّ و لزوم الجهل الـذی هو نقص و ضـد العلوّ لأن المتعـددین لا سبیل لهما الی أن یعلم کل واحد حقیقه الآخر کعلم ذلک الآخر بنفسه بالضروره و هو نوع جهل و قصور.انتهی.

و فیه أن ذلـک کسائر ما قرروه من البراهین ینفی تعـدّد الإله الواجب الوجود بالـذات، و الوثنیون لا یلتزمون فی آلهتهم من دون اللّه بذلک.علی أن بعض مقدمات ما قرر من الدلیل ممنوع.

و قوله: فَتَعٰالَی عَمّٰا یُشْرِکُونَ تفریع علی جمیع ما تقدم من الحجج علی نفی الشرکاء.

قوله تعـالی: قُلْ رَبِّ إِمّٰا تُرِیَنِّی مٰا یُوعَدُونَ رَبِّ فَلاٰ تَجْعَلْنِی فِی الْقَوْمِ الظّٰالِمِینَ لما فرغ من نقل ما تفوّهوا به من الشـرک باللّه و إنکار البعث و الاسـتهزاء بالرسل و أقام الحجـج علی إثبات حقّیتها رجع الی ما تقـدم من تهدیـدهم بالعـذاب فأمر نبیه صـلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یسأله أن ینجیه من العذاب الذی أوعدهم به إن أراه ذلک العذاب.

فقوله: قُلْ رَبِّ إِمّٰا تُرِیَنِّی مٰا یُوعَدُونَ أمر بالدعاء و الاسـتغاثه،و تکرار «رَبِّ» لتأکید التضـرع و ما فی قوله: «إِمّٰا تُرِیَنِّی» زائده و هی المصـححه لدخول نون التأکید علی الشرط و أصله:إن ترنی.و فی قوله: «مٰا یُوعَدُونَ» دلاله علی أن بعض ما تقدم فی السوره من الإیعاد بالعذاب إیعاد بعذاب دنیوی.

و ما فی قوله: «رَبِّ فَلاٰ تَجْعَلْنِی فِی الْقَوْمِ الظّٰالِمِینَ» من الکون فیهم کنایه عن شمول عذابهم له.

قوله تعالی: وَ إِنّٰا عَلیٰ أَنْ نُرِیَکَ مٰا نَعِدُهُمْ لَقٰادِرُونَ تطییب لنفس النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم بقـدره ربه علی أن یکشـف عنه بإراءته ما یعـدهم من العـذاب،و لعل المراد به ما عذبهم اللّه به یوم بدر و قد أراه اللّه ذلک و أراه المؤمنین و شـفی به غلیل صدورهم.

قوله تعالى: اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ اَلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَصِفُونَ أى ادفع السيئه التى تتوجه اليک منهم بالحسنه و اختر للدفع من الحسنات أحسنها،و هو دفع السيئه بالحسنه التى هى أحسن مثل أنه لو أساءوا اليک بالإيذاء أحسن اليهم بغايه ما استطعت من الإحسان ثم ببعض الإحسان فى الجمله و لو لم يسعک ذلک فبالصفح عنهم.

و قوله: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَصِفُونَ» نوع تسليه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن لا يسوأنّه ما يلقاه و لا يحزنه ما يشاهد من تجرّيهم على ربهم فإنه أعلم بما يصفون.

قوله تعالى: وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزٰاتِ اَلشَّيٰاطِينِ وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ،قال فى مجمع البيان:الهمزه شده الدفع،و منه الهمزه للحرف الذى يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد و دفع،و همزه الشيطان دفعه بالإغواء الى المعاصى انتهى.و فى تفسير القمى عنه عليه السّلام:أنه ما يقع فى قلبک من وسوسه الشياطين.

و فى الآيتين أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يستعيذ بربه من إغواء الشياطين و من أن يحضروه،و فيه إيهام الى أن ما ابتلى به المشركون من الشرك و التكذيب من همزات الشياطين و إحاطتهم بهم بالحضور.

[سوره المؤمنون (۲۳): الآيات ۹۹ الى ۱۱۸]

اشاره

حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَهُمُ اَلْمَوْتُ قٰالَ رَبِّ اِرْجِعُونِ (۹۹) لَعَلِّي أَعْمَلُ صٰالِحاً فِيمٰا تَرَكْتُ كَلاّٰ إِنَّهٰا كَلِمَةٌ هُوَ قٰائِلُهٰا وَ مِنْ وَرٰائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۱۰۰) فَإِذٰا نُفِخَ فِي اَلصُّورِ فَلاٰ أَنْسٰابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لاٰ يَتَسٰاءَلُونَ (۱۰۱) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۱۰۲) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ اَلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ (۱۰۳) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ اَلنّٰارُ وَ هُمْ فِيهٰا كٰالِحُونَ (۱۰۴) أَ لَمْ تَكُنْ آيٰاتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهٰا تُكَذِّبُونَ (۱۰۵) قٰالُوا رَبَّنٰا غَلَبَتْ عَلَيْنٰا شِقْوَتُنٰا وَ كُنّٰا قَوْماً ضٰالِّينَ (۱۰۶) رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا مِنْهٰا فَإِنْ عُدْنٰا فَإِنّٰا ظٰالِمُونَ (۱۰۷) قٰالَ اِخْسَؤُا فِيهٰا وَ لاٰ تُكَلِّمُونِ (۱۰۸) إِنَّهُ كٰانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبٰادِي يَقُولُونَ رَبَّنٰا آمَنّٰا فَاغْفِرْ لَنٰا وَ اِرْحَمْنٰا وَ أَنْتَ خَيْرُ اَلرّٰاحِمِينَ (۱۰۹) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتّٰى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (۱۱۰) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ اَلْيَوْمَ بِمٰا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ اَلْفٰائِزُونَ (۱۱۱) قٰالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي اَلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (۱۱۲) قٰالُوا لَبِثْنٰا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ اَلْعٰادِّينَ (۱۱۳) قٰالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّٰ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۱۴) أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّمٰا خَلَقْنٰاكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنٰا لاٰ تُرْجَعُونَ (۱۱۵) فَتَعٰالَى اَللّٰهُ اَلْمَلِكُ اَلْحَقُّ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ رَبُّ اَلْعَرْشِ اَلْكَرِيمِ (۱۱۶) وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ لاٰ بُرْهٰانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمٰا حِسٰابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ اَلْكٰافِرُونَ (۱۱۷) وَ قُلْ رَبِّ اِغْفِرْ وَ اِرْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ اَلرّٰاحِمِينَ (۱۱۸)

بیان:

قوله تعالی: حَتّی إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ «حَتّی» متعلق بما تقدم من وصفهم له تعالی بما هو منزّه منه و شرکهم به،و الآیات المتخلله اعتراض فی الکلام أی لا یزالون یشرکون به و یصفونه بما هو منزّه منه و هم مغترّون بما نمدهم به من مال و بنین حتی إذا جاء أحدهم الموت.

و قوله: قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ الظاهر أن الخطاب للملائکه المتصدّین لقبض روحه و «رَبِّ» استغاثه معترضه بحذف حرف النداء و المعنی قال-و هو یستغیث بربه-ارجعون.

قوله تعالی: لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ کَلاّ إِنَّها کَلِمَهٌ هُوَ قائِلُها «لعل»للترجّی و هو رجاء تعلقوا به بمعاینه العذاب المشرف علیهم کما ربما ذکروا الرجوع بوعد العمل الصالح کقولهم: فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً (السجده/۱۲)،و ربما ذکروه بلفظ التمنی کقولهم: یا لَیْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُکَذِّبَ بِآیاتِ رَبِّنا (الأنعام/۲۷).

و قوله: أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ أی أعمل عملا صالحا فیما ترکت من المال بإنفاقه فی البرّ و الإحسان و کل ما فیه رضی اللّه سبحانه.

و قوله: کَلاّ إِنَّها کَلِمَهٌ هُوَ قائِلُها أی لا یرجع الی الدنیا إن هذه الکلمه «ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ» کلمه هو قائلها أی لا أثر لها إلا أنها کلمه هو قائلها، فهو کنایه عن عدم إجابه مسألته.

قوله تعالی: وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ البرزخ هو الحاجز بین الشیئین کما فی قوله: بَیْنَهُما بَرْزَخٌ لا یَبْغِیانِ (الرحمن/۲۰)،و المراد بکونه وراءهم کونه أمامهم محیطا بهم و سمّی وراءهم بعنایه أنه یطلبهم کما أن مستقبل الزمان أمام الإنسان و یقال:

وراءک یوم کذا بعنایه أن الزمان یطلب الإنسان لیمرّ علیه و هذا معنی قول بعضهم:إن فی

«وراء»معنى الإحاطه،قال تعالى: وَ كٰانَ وَرٰاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (الكهف/ ۷۹).

و المراد بهذا البرزخ عالم القبر و هو عالم المثال الذى يعيش فيه الإنسان بعد موته الى قيام الساعه على ما يعطيه السياق و تدل عليه آيات أخر و تكاثرت فيه الروايات من طرق الشيعه عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و أئمه أهل البيت عليهم السّلام و كذا من طرق أهل السنه،و قد تقدم البحث عنه فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: فَإِذٰا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاٰ أَنْسٰابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لاٰ يَتَسٰاءَلُونَ المراد به النفخه الثانيه التى تحيا فيها الأموات دون النفخه الاولى التى تموت فيها الأحياء كما قاله بعضهم لكون ما يترتب عليها من انتفاء الأنساب و التساؤل و ثقل الميزان و خفته الى غير ذلک من آثار النفخه الثانيه.

و قوله: فَلاٰ أَنْسٰابَ بَيْنَهُمْ نفى لآثار الأنساب بنفى أصلها فإن الذى يستوجب حفظ الأنساب و اعتبارها هى الحوائج الدنيويه التى تدعو الإنسان الى الحياه الاجتماعيه التى تبتنى على تكون البيت،و المجتمع المنزلى يستعقب التعارف و التعاطف و أقسام التعاون و التعاضد و سائر الأسباب التى تدوم بها العيشه الدنيويه و يوم القيامه ظرف جزاء الأعمال و سقوط الأسباب التى منها الأعمال فلا موطن فيه للأسباب الدنيويه التى منها الأنساب بلوازمها و خواصها و آثارها.

و قوله: وَ لاٰ يَتَسٰاءَلُونَ ذكر لأظهر آثار الأنساب،و هو التساؤل بين المنتسبين بسؤال بعضهم عن حال بعض،للاعانه و الاستعانه فى الحوائج لجلب المنافع و دفع المضارّ.

و لا ينافى الآيه ما وقع فى مواضع أخر من قوله تعالى: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَسٰاءَلُونَ (الصافات/۲۷)،فإن حكايه تساؤل أهل الجنه بعد دخولها و تساؤل أهل النار بعد دخولها و هذه الآيه تنفى التساؤل فى ظرف الحساب و القضاء.

قوله تعالی: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِینُهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الی آخر الآیتین؛ الموازین جمع المیزان أو جمع الموزون و هو العمل الذی یوزن یومئذ،و قد تقدم الکلام فی معنی المیزان و ثقله و خفته فی تفسیر سوره الأعراف.

قوله تعالی: تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النّٰارُ وَ هُمْ فِیهٰا کٰالِحُونَ قال فی المجمع:اللفح و النفح بمعنی إلا أن اللفح أشد تأثیرا و أعظم من النفح،و هو ضرب من السموم للوجه و النفح ضرب الریح الوجه،و الکلوح تقلص الشفتین عن الأسنان حتی تبدوا الأسنان.انتهی.

و المعنی:یصیب وجوههم لهب النار حتی تتقلص شفاههم و تنکشف عن أسنانهم کالرءوس المشویه.

قوله تعالی: أَ لَمْ تَکُنْ آیٰاتِی تُتْلیٰ عَلَیْکُمْ الخ؛أی یقال لهم:أ لم تکن آیاتی تتلی علیکم فکنتم بها تکذبون.

قوله تعالی: قٰالُوا رَبَّنٰا غَلَبَتْ عَلَیْنٰا شِقْوَتُنٰا وَ کُنّٰا قَوْماً ضٰالِّینَ الشقوه و الشقاوه و الشقاء خلاف السعاده،و سعاده الشیء ما یختص به من الخیر،و شقاوته فقد ذلک و إن شئت فقل:ما یختص به من الشر.

و قوله: «غَلَبَتْ عَلَیْنٰا شِقْوَتُنٰا» أی قهرنا و استولت علینا شقوتنا،و فی إضافه الشقوه الی أنفسهم تلویح الی أن لهم صنعا فی شقوتهم من جهه اکتسابهم ذلک بسوء اختیارهم،و الدلیل علیه قولهم بعد: «رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا مِنْهٰا فَإِنْ عُدْنٰا فَإِنّٰا ظٰالِمُونَ» إذ هو وعد منهم بالحسنات و لو لم یکن لها ارتباط باکتسابهم الاختیاری لم یکن للوعد معنی لکون حالهم بعد الخروج مساویه لما قبل الخروج.

و قد عدوا أنفسهم مغلوبه للشقوه فقد أخذوها ساذجه فی ذواتها صالحه للحقوق السعاده و الشقاوه غیر أن الشقوه غلبت فأشغلت المحل و کانت الشقوه شقوه أنفسهم أی شقوه لازمه لسوء اختیارهم و سیئات أعمالهم لأنهم فرضوا أنفسهم خالیه عن السعاده و الشقوه لذاتها

فانتساب الشقوه الى أنفسهم و ارتباطها بها إنما هى من جهه سوء اختيارهم و سيئات أعمالهم.

و بالجمله هو اعتراف منهم بتمام الحجه و لحوق الشقوه على ما يشهد به وقوع الآيه بعد قوله: «أَ لَمْ تَكُنْ آيَاتِی تُتْلَی عَلَيْكُمْ» الخ.

ثم عقّبوا قولهم: «غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا» بقولهم: «وَ كُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ» تأكيدا لاعترافهم، و إنما اعترفوا بالذنب ليتوسلوا به الى التخلص من العذاب و الرجوع الى الدنيا لكسب السعاده فقد شاهدوا فى الدنيا أن اعتراف العاصى المتمرد بذنبه و ظلمه توبه منه مطهّره له تنجيه من تبعه الذنب و هم يعلمون أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل و التوبه و الاعتراف بالذنب من الأعمال لكن ذلك من قبيل ظهور الملكات كما أنهم يكذبون يومئذ و ينكرون أشياء مع ظهور الحق و معاينته لاستقرار ملكه الكذب و الإنكار فى نفوسهم،قال تعالى:

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ (المجادله۱۸/).و قال: ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً (المؤمن/ ۷۴).

قوله تعالى: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ سؤال منهم للرجوع الى الدنيا على ما تدل عليه آيات أخر فهو من قبيل طلب المسبّب بطلب سببه،و مرادهم أن يعملوا صالحا بعد ما تابوا بالاعتراف المذكور فيكونوا بذلك ممن تاب و عمل صالحا.

قوله تعالى: قَالَ اخْسَؤُا فِيهَا وَ لاَ تُكَلِّمُونِ قال الراغب:خسأت الكلب فخسأ أى زجرته مستهينا به فانزجر و ذلك إذا قلت له:اخسأ انتهى.ففى الكلام استعاره بالكنايه،و المراد زجرهم بالتباعد و قطع الكلام.

قوله تعالى: إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ هؤلاء هم المؤمنون فى الدنيا و كان إيمانهم توبه و رجوعا الى اللّه كما سماه اللّه فى كلامه توبه،و كان سؤالهم شمول الرحمه-و هى الرحمه الخاصه

بالمؤمنين البته-سؤالا منهم أن يوفقهم للسعاده فيعملوا صالحا فيدخلوا الجنه،و قد توسلوا اليه باسمه خير الراحمين.

فكان ما قاله المؤمنون فى الدنيا معناه التوبه و سؤال الفوز بالسعاده و ذلك عين ما قاله هؤلاء مما معناه التوبه و سؤال الفوز بالسعاده و إنما الفرق بينهما من حيث الموقف.

قوله تعالى: فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتّٰى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ضمائر الخطاب للكافر و ضمائر الغيبه للمؤمنين،و السياق يشهد أن المراد من «ذِكْرِي» قول المؤمنين «رَبَّنٰا آمَنّٰا فَاغْفِرْ لَنٰا وَ ارْحَمْنٰا» الخ؛و هو معنى قول الكفار فى النار.

و قوله: حَتّٰى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي أى أنسى اشتغالكم سخريه المؤمنين و الضحك منهم ذكرى،ففى نسبه الإنساء الى المؤمنين دون سخريتهم إشاره الى أنه لم يكن للمؤمنين عندهم شأن من الشئون إلا أن يتخذوهم سخريا.

قوله تعالى: إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمٰا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفٰائِزُونَ المراد باليوم يوم الجزاء،و متعلق الصبر معلوم من السياق محذوف للإيجاز أى صبروا على ذكرى مع سخريتكم منهم لأجله،و قوله: «أَنَّهُمْ هُمُ الْفٰائِزُونَ» مسوق للحصر أى هم الفائزون دونكم.

و هذه الآيات الأربع «قٰالَ اخْسَؤُا -الى قوله- هُمُ الْفٰائِزُونَ» إيئاس قطعى للكفار من الفوز بسبب ما تعلقوا به من الاعتراف بالذنب و سؤال الرجوع الى الدنيا و محصّلها أن اقنطوا مما تطلبونه بهذا القول و هو الاعتراف و السؤال فإنه عمل إنما كان ينفع فى دار العمل و هى الدنيا،و قد كان المؤمنون من عبادى يتخذونه وسيله الى الفوز و كنتم تسخرون و تضحكون منهم حتى تركتموه و بدّلتموه من سخريتهم حتى إذا كان اليوم و هو يوم الجزاء لا يوم عمل فازوا بجزاء ما عملوا يوم العمل و بقيتم صفر الأكف تريدون أن تتوسلوا بالعمل اليوم و هو يوم الجزاء دون العمل.

قوله تعالى: قٰالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ مما يسأل اللّه الناس عنه

یوم القیامه مـده لبثهم فی الأرض و قد ذکر فی مواضع من کلامه و المراد به السؤال عن مده لبثهم فی القبور کما یدل علیه قوله تعـالی: وَ یَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَهُ یُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مٰا لَبِثُوا غَیْرَ سٰاعَهٍ (الروم۵۵/)،و قوله: کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَ مٰا یُوعَـدُونَ لَمْ یَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَهً مِنْ نَهٰارٍ (الأحقاف۳۵/)و غیرها من الآیات،فلا محل لقول بعضـهم:إن المراد به المکث فی الـدنیا، و احتمال بعضـهم أنه مجموع اللبث فی الدنیا و البرزخ.

قوله تعالی: قٰالُوا لَبِثْنٰا یَوْماً أَوْ بَعْضَ یَوْمٍ فَسْـئَلِ الْعٰادِّینَ ظاهر السـیاق أن المراد بالیوم هو الواحد من أیام الدنیا و قد اسـتقلوا اللبث فی الأرض حینما قایسوه بالبقاء الابدی الذی یلوح لهم یوم القیامه و یعاینونه.

و یؤیده ما وقع فی موضع آخر من تقدیرهم ذلک بالساعه،و فی موضع آخر بعشیه أو ضحاها.

و قوله: «فَسْئَلِ الْعٰادِّینَ» أی نحن لا نحسن إحصاءها فاسأل الذین یعدّونه و فسر بالملائکه العادین للأیام و لیس ببعید.

قوله تعالی: قٰالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّٰ قَلِیلاً لَوْ أَنَّکُمْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ القائل هو اللّه سبحانه،و فی الکلام تصدیق لهم فی استقلالهم المکث فی القبور و فیه توطئه لما یلحق به من قوله: «لَوْ أَنَّکُمْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» بما فیه من التمنی.

و المعنی:قال اللّه:الأمر کما قلتم فما مکثتم إلا قلیلا فلیتکم کنتم تعلمون فی الـدنیا أنکم لا تلبثون فی قبورکم إلا قلیلا ثم تبعثون حتی لا تنکروا البعث و لم تبتلوا بهذا العذاب الخالد، و التمنی فی کلامه تعالی کالترجی راجع الی المخاطب أو المقام.

و جعل بعضـهم «لَوْ» فی الآیه شـرطیه و الجمله شـرطا محذوف الجزاء و تکلف فی تصحیح الکلام بما لا یرتضیه الذوق السلیم و هو بعید عن السیاق کما هو ظاهر و أبعد منه جعل «لَوْ» وصلیه مع أن «لَوْ» الوصلیه لا تجیء بغیر واو العطف.

ص :۴۰۹

قوله تعالی: أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّمٰا خَلَقْنٰاکُمْ عَبَثاً -الی قوله- رَبُّ الْعَرْشِ الْکَرِیمِ بعد ما بین ما سیستقبلهم من أحوال الموت ثم اللبث فی البرزخ ثم البعث بما فیه من الحساب و الجزاء وبخهم علی حسبانهم أنهم لا یبعثون فإن فیه جرأه علی اللّه بنسبه البعث الیه ثم أشار الی برهان العبث.

فقوله: أَ فَحَسِبْتُمْ الخ؛معناه فإذا کان الأمر علی ما أخبرناکم من تحسرکم عند معاینه الموت ثم البعث فی القبور ثم البعث فالحساب و الجزاء فهل تظنون إنما خلقناکم عبثا تحیون و تموتون من غیر غایه باقیه فی خلقکم و أنکم الینا لا ترجعون؟

و قوله: فَتَعٰالَی اللّٰهُ الْمَلِکُ الْحَقُّ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْکَرِیمِ إشاره الی برهان یثبت البعث و یدفع قولهم بالنفی،فی صوره التنزیه،فإنه تعالی وصف نفسه فی کلمه التنزیه بالأوصاف الأربعه:أنه ملک و أن حق و أنه لا إله إلا هو و أنه رب العرش الکریم.

فله أن یحکم بما شاء من بدء و عود و حیاه و موت و رزق نافذا حکمه ماضیا أمره لملکه، و ما یصدر عنه من حکم فإنه لا یکون إلا حقا فإنه حق و لا یصدر عن الحق بما هو حق إلا حق دون أن یکون عبثا باطلا ثم لما أمکن أن یتصور أن معه مصدر حکم آخر یحکم بما یبطل به حکمه وصفه بأنه لا إله-أی لا معبود-إلا هو،و الإله معبود لربوبیته فإذا لا إله غیره فهو رب العرش الکریم-عرش العالم-الذی هو مجتمع أزمه الامور و منه یصدر الأحکام و الأوامر الجاریه فیه.

فتلخص أنه هو الذی یصدر عنه کل حکم و یوجد منه کل شیء و لا یحکم إلا بحق و لا یفعل إلا حقا فللأشیاء رجوع الیه و بقاء به و إلا لکانت عبثا باطله و لا عبث فی الخلق و لا باطل فی الصنع.

و الدلیل علی اتصافه بالأوصاف الأربعه کونه تعالی هو اللّه الموجود لذاته الموجد لغیره.

قوله تعالی: وَ مَنْ یَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ لاٰ بُرْهٰانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمٰا حِسٰابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ الْکٰافِرُونَ ،المراد من دعاء إله آخر مع اللّه دعاؤه مع وجوده تعالی لا دعاؤه تعالی و دعاء إله آخر معا فإن المشرکین جلّهم أو کلهم لا یدعون اللّه تعالی و إنما یدعون ما أثبتوه من الشرکاء،و یمکن أن یکون المراد بالدعاء الإثبات فإن إثبات إله آخر لا ینفک عن دعائه.

و قوله: لاٰ بُرْهٰانَ لَهُ بِهِ قید توضیحی لإله آخر إذ لا إله آخر یکون به برهان بل البرهان قائم علی نفی الإله الآخر مطلقا.

و قوله: فَإِنَّمٰا حِسٰابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ کلمه تهدید و فیه قصر حسابه بکونه عند ربه لا یداخله أحد فیما اقتضاه حسابه من جزاء-و هو النار کما صرّحت به الآیات السابقه-فإنه یصیبه لا محاله،و مرجعه الی نفی الشفعاء و الإیاس من أسباب النجاه و تمّمه بقوله: «إِنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ الْکٰافِرُونَ» .

قوله تعالی: وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَیْرُ الرّٰاحِمِینَ خاتمه السوره و قد أمر فیها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یقول ما حکاه عن عباده المؤمنین أنهم یقولونه فی الدنیا و أن جزاء ذلک هو الفوز یوم القیامه إِنَّهُ کٰانَ فَرِیقٌ مِنْ عِبٰادِی یَقُولُونَ الخ؛الآیتان ۱۰۹ و ۱۱۱ من السوره.

و بذلک یختتم الکلام بما افتتح به فی أول السوره «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» و قد تقدم الکلام فی معنی الآیه (۱).

ص :۴۱۱

۱- ۱) .المؤمنون ۹۹-۱۱۸:بحث روائی فی:الحیاه البرزخیه اهل الجنه و النار.

سوره النور مدنیه و هی أربع و ستون آیه

اشاره

[سوره النور (۲۴): الآیات ۱ الی ۱۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;سُورَهٌ أَنْزَلْنٰاهٰا وَ فَرَضْنٰاهٰا وَ أَنْزَلْنٰا فِیهٰا آیٰاتٍ بَیِّنٰاتٍ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ (۱) اَلزّٰانِیَهُ وَ اَلزّٰانِی فَاجْلِدُوا کُلَّ وٰاحِدٍ مِنْهُمٰا مِائَهَ جَلْدَهٍ وَ لاٰ تَأْخُذْکُمْ بِهِمٰا رَأْفَهٌ فِی دِینِ اَللّٰهِ إِنْ کُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ لْیَشْهَدْ عَذٰابَهُمٰا طٰائِفَهٌ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۲) اَلزّٰانِی لاٰ یَنْکِحُ إِلاّٰ زٰانِیَهً أَوْ مُشْرِکَهً وَ اَلزّٰانِیَهُ لاٰ یَنْکِحُهٰا إِلاّٰ زٰانٍ أَوْ مُشْرِکٌ وَ حُرِّمَ ذٰلِکَ عَلَی اَلْمُؤْمِنِینَ (۳) وَ اَلَّذِینَ یَرْمُونَ اَلْمُحْصَنٰاتِ ثُمَّ لَمْ یَأْتُوا بِأَرْبَعَهِ شُهَدٰاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمٰانِینَ جَلْدَهً وَ لاٰ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهٰادَهً أَبَداً وَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْفٰاسِقُونَ (۴) إِلاَّ اَلَّذِینَ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۵) وَ اَلَّذِینَ یَرْمُونَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ لَمْ یَکُنْ لَهُمْ شُهَدٰاءُ إِلاّٰ أَنْفُسُهُمْ فَشَهٰادَهُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهٰادٰاتٍ بِاللّٰهِ إِنَّهُ لَمِنَ اَلصّٰادِقِینَ (۶) وَ اَلْخٰامِسَهُ أَنَّ لَعْنَتَ اَللّٰهِ عَلَیْهِ إِنْ کٰانَ مِنَ اَلْکٰاذِبِینَ (۷) وَ یَدْرَؤُا عَنْهَا اَلْعَذٰابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهٰادٰاتٍ بِاللّٰهِ إِنَّهُ لَمِنَ اَلْکٰاذِبِینَ (۸) وَ اَلْخٰامِسَهَ أَنَّ غَضَبَ اَللّٰهِ عَلَیْهٰا إِنْ کٰانَ مِنَ اَلصّٰادِقِینَ (۹) وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اَللّٰهَ تَوّٰابٌ حَکِیمٌ (۱۰)

ص: ۴۱۲

بیان:

غرض السوره ما ینبئ عنه مفتتحها «سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها وَ أَنْزَلْنا فِیها آیاتٍ بَیِّناتٍ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ» فهی تذکره نبذه من الأحکام المروضه المشرّعه ثم جمله من المعارف الإلهیه تناسبها و یتذکر بها المؤمنون.

و هی سوره مدنیه بلا خلاف و سیاق آیاتها یشهد بذلک و من غرر الآیات فیها آیه النور.

قوله تعالی: سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها وَ أَنْزَلْنا فِیها آیاتٍ بَیِّناتٍ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ السوره طائفه من الکلام یجمعها غرض واحد سیقت لأجله و لذا اعتبرت تاره نفس الآیات بما لها من المعانی فقیل «فَرَضْناها» ،و تاره ظرفا لبعض الآیات ظرفیه المجموع للبعض فقیل «أَنْزَلْنا فِیها آیاتٍ بَیِّناتٍ» و هی مما وضعه القرآن و سمّی به طائفه خاصه من آیاته و تکرر استعمالها فی کلامه تعالی،و کأنه مأخوذ من سور البلد و هو الحائط الذی یحیط به سمّیت به سوره القرآن لإحاطتها بما فیها من الآیات أو بالغرض الذی سیقت له.

و قال الراغب:الفرض قطع الشیء الصلب و التأثیر فیه کفرض الحدید و فرض الزند و القوس.قال:و الفرض کالإیجاب لکن الإیجاب یقال اعتبارا بوقوعه و ثباته،و الفرض بقطع الحکم فیه،قال تعالی: «سُورَهٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها» أی أوجبنا العمل بها علیک.قال:و کل موضع ورد«فرض اللّه علیه»ففی الإیجاب الذی أدخل اللّه فیه،و ما ورد «فَرَضَ اللّٰهُ لَهُ» فهو فی أن لا یحظره علی نفسه نحو «مٰا کٰانَ عَلَی النَّبِیِّ مِنْ حَرَجٍ فِیمٰا فَرَضَ اللّٰهُ لَهُ» .انتهی.

فقوله: سُورَهٌ أَنْزَلْنٰاهٰا وَ فَرَضْنٰاهٰا أی هذه سوره أنزلناها و أوجبنا العمل بما فیها من الأحکام فالعمل بالحکم الإیجابی هو الإتیان به و بالحکم التحریمی الانتهاء عنه.

و قوله: «وَ أَنْزَلْنٰا فِیهٰا آیٰاتٍ بَیِّنٰاتٍ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ» المراد بها-بشهاده السیاق-آیه النور و ما یتلوها من الآیات المبینه لحقیقه الإیمان و الکفر و التوحید و الشرک المذکّره لهذه المعارف الإلهیه.

قوله تعالی: اَلزّٰانِیَهُ وَ الزّٰانِی فَاجْلِدُوا کُلَّ وٰاحِدٍ مِنْهُمٰا مِائَهَ جَلْدَهٍ الآیه، الزنا المواقعه من غیر عقد أو شبهه عقد أو ملک یمین،و الجلد هو الضرب بالسوط و الرأفه الحنن و التعطف و قیل:هی رحمه فی توجّع،و الطائفه فی الأصل هی الجماعه کانوا یطوفون بالارتحال من مکان الی مکان قیل:و ربما تطلق علی الاثنین و علی الواحد.

و قوله: اَلزّٰانِیَهُ وَ الزّٰانِی الخ؛أی المرأه و الرجل اللذان تحقق منهما الزنا فاضربوا کل واحد منهما مائه سوط،و هو حدّ الزنا بنص الآیه غیر أنها مخصصه بصور:منها أن یکونا محصنین ذوی زوج أو یکون أحدهما محصنا فالرجم و منها أن یکونا غیر حرّین أو أحدهما رقا فنصف الحد.

قیل:و قدمت الزانیه فی الذکر علی الزانی لأن الزنا منهن أشنع و لکون الشهوه فیهن أقوی و أکثر،و الخطاب فی الأمر بالجلد متوجه الی عامه المسلمین فیقوم بمن قام بأمرهم من ذوی الولایه من النبی و الإمامه و من ینوب منابه.

و قوله: وَ لاٰ تَأْخُذْكُمْ بِهِمٰا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّٰهِ الخ؛النهى عن الرأفه النهى عن المسبب بالنهى عن سببه إذ الرأفه بمن يستحق نوعا من العذاب توجب التساهل فى إذاقته ما يستحقه من العذاب بالتخفيف فيه و ربما أدّى الى تركه،و لذا قيّده بقوله: «فِي دِينِ اللّٰهِ» أى حال كون الرأفه أى المساهله من جهتها فى دين اللّه و شريعته.

و قيل:المراد بدين اللّه حكم كما فى قوله تعالى: مٰا كٰانَ لِيَأْخُذَ أَخٰاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ (يوسف۷۶/)أى فى حكمه أى لا تأخذكم بهما رأفه فى إنفاذ حكم اللّه و إقامه حدّه.

و قوله: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أى إن كنتم كذا و كذا فلا تأخذكم بهما رأفه و لا تساهلوا فى أمرهما و فيه تأكيد للنهى.

و قوله: وَ لْيَشْهَدْ عَذٰابَهُمٰا طٰائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أى و ليحضر و لينظر الى ذلك جماعه منهم ليعتبروا بذلك فلا يقتربوا الفاحشه.

قوله تعالى: اَلزّٰانِي لاٰ يَنْكِحُ إِلاّٰ زٰانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزّٰانِيَةُ لاٰ يَنْكِحُهٰا إِلاّٰ زٰانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ظاهر الآيه و خاصه بالنظر الى سياق ذيلها المرتبط بصدرها أن الذى تشمل عليه حكم تشريعى تحريمى و إن كان صدرها واردا فى صوره الخبر فإن المراد النهى تأكيدا للطلب و هو شائع.

و المحصّل من معناها بتفسير من السنه من طرق أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن الزانى إذا اشتهر منه الزنا و أقيم عليه الحد و لم تتبيّن منه التوبه يحرم عليه نكاح غير الزانيه و المشركه،و الزانيه إذا اشتهر منها الزنا و أقيم عليه الحد و لم تتبين منه التوبه يحرم أن ينكحها إلا زان أو مشرك.

فالآيه محكمه باقيه على إحكامها من غير نسخ و لا تأويل،و تقييدها بإقامه الحد و تبيّن التوبه مما يمكن أن يستفاد من السياق فإن وقوع الحكم بتحريم النكاح بعد الأمر بإقامه الحد يلوّح الى أن المراد به الزانى و الزانيه المجلودان،و كذا إطلاق الزانى و الزانيه على من ابتلى بذلك ثم تاب توبه نصوحا و تبيّن منه ذلك،بعيد من دأب القرآن و أدبه.

ص:۴۱۵

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ یَرْمُونَ الْمُحْصَنٰاتِ ثُمَّ لَمْ یَأْتُوا بِأَرْبَعَهِ شُهَدٰاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمٰانِینَ جَلْدَهً الخ؛الرمی معروف ثم استعیر لنسبه أمر غیر مرضی الی الإنسان کالزنا و السرقه و هو القذف،و السیاق یشهد أن المراد به نسبه الزنا الی المرأه المحصنه العفیفه،و المراد بالإتیان بأربعه شهداء و هم شهود الزنا إقامه الشهاده لإثبات ما قذف به، و قد أمر للّه تعالی بإقامه الحدّ علیهم إن لم یقیموا الشهاده،و حکم بفسقهم و عدم قبول شهاداتهم أبدا.

و المعنی:و الذین یقذفون المحصنات من النساء بالزنا ثم لم یقیموا أربعه من الشهود علی صدقهم فی قذفهم فاجلدوهم ثمانین جلده علی قذفهم و هم فاسقون لا تقبلوا شهادتهم علی شیء أبدا.

و الآیه کما تری مطلقه تشمل من القاذف الذکر و الانثی و الحر و العبد،و بذلک تفسرها روایات أئمه أهل البیت علیهم السّلام.

قوله تعالی: إِلاَّ الَّذِینَ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ الاستثناء راجع الی الجمله الأخیره و هی قوله: «وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ» لکنها لما کانت تفید معنی التعلیل بالنسبه الی قوله: «وَ لاٰ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهٰادَهً أَبَداً» -علی ما یعطیه السیاق-کان لازم ما تفیده من ارتفاع الحکم بالفسق ارتفاع الحکم بعدم قبول الشهاده أبدا، و لازم ذلک رجوع الاستثناء بحسب المعنی الی الجملتین معا.

و المعنی:إلا الذین تابوا من بعد ذلک و أصلحوا أعمالهم فإن اللّه غفور رحیم یغفر ذنبهم و یرحمهم فیرتفع عنهم الحکم بالفسق و الحکم بعدم قبول شهادتهم أبدا.

و ذکر بعضهم:أن الاستثناء راجع الی الجمله الأخیره فحسب فلو تاب القاذف و أصلح بعد إقامه الحد علیه غفر له ذنبه لکن لا تقبل شهادته أبدا خلافا لمن قال برجوع الاستثناء الی الجملتین معا.

و الظاهر أن خلافهم هذا مبنى على المسأله الاصوليه المعنونه بأن الاستثناء الواقع بعد الجمل المتعدده هل يتعلق بالجميع أو بالجمله الأخيره و الحق فى المسأله أن الاستثناء فى نفسه صالح للأمرين جميعا و تعين أحدهما منوط بما تقتضيه قرائن الكلام،و الذى يعطيه السياق فى الآيه التى نحن فيها تعلق الاستثناء بالجمله الأخيره غير أن إفادتها للتعليل تستلزم تقيّد الجمله السابقه أيضا بمعناه كالأخيره على ما تقدم.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدٰاءُ إِلاّٰ أَنْفُسُهُمْ -الى قوله- مِنَ الْكٰاذِبِينَ أى لم يكن لهم شهداء يشهدون ما شهدوا فيتحملوا الشهاده ثم يؤدوها إلا أنفسهم،و قوله: «فَشَهٰادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهٰادٰاتٍ بِاللّٰهِ» أى شهاده أحدهم يعنى القاذف و هو واحد أربع شهادات متعلقه باللّه إنه لمن الصادقين فيما يخبر به من القذف.

و معنى الآيتين:و الذين يقذفون أزواجهم و لم يكن لهم أربعه من الشهداء يشهدون ما شهدوا-و من طبع الأمر ذلك على تقدير صدقهم إذ لو ذهبوا يطلبون الشهداء ليحضروهم على الواقعه فيشهدوهم عليها فات الغرض بتفرّقهما-فالشهاده التى يجب على أحدهم أن يقيمها هى أن يشهد أربع شهادات أى يقول مره بعد مره«أشهد اللّه على صدقى فيما أقذفه به» أربع مرات و خامستها أن يشهد و يقول:لعنه اللّه علىّ إن كنت من الكاذبين.

قوله تعالى: وَ يَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذٰابَ أَنْ تَشْهَدَ الى آخر الآيتين؛الدرء الدفع و المراد بالعذاب حد الزنا،و المعنى أن المرأه إن شهدت خمس شهادات بإزاء شهادات الرجل دفع ذلك عنه حد الزنا،و شهاداتها أن تشهد أربع مرات تقول فيها:أشهد باللّه إنه لمن الكاذبين ثم تشهد خامسه فتقول:لعنه اللّه علىّ إن كان من الصادقين،و هذا هو اللعان الذى ينفصل به الزوجان.

قوله تعالى: وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللّٰهَ تَوّٰابٌ حَكِيمٌ جواب لو لا محذوف يدل عليه ما أخذ فى شرطه من القيود إذ معناه لو لا فضل اللّه و رحمته

ص :۴۱۷

و توبته و حكمته لحلّ بكم ما دفعته عنكم هـذه الصـفات و الأفعال فالتقـدير على ما يعطيه ما فى الشـرط من القيود لو لا ما أنعم اللّه عليكـم مـن نعمـه الـدين و تـوبته لمـذنبيكم و تشريعه الشـرائع لنظم أمـور حيـاتكم لزمتكم الشـقوه،و أهلكتكم المعصيه و الخطيئه،و اختلّ نظام حياتكم بالجهاله.و اللّه أعلم (۱).

[سوره النور (۲۴): الآيات ۱۱ الى ۲۶]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ جٰاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاٰ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اِكْتَسَبَ مِنَ اَلْإِثْمِ وَ اَلَّذِى تَوَلّٰى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۱۱) لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ اَلْمُؤْمِنُونَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قٰالُوا هٰذٰا إِفْكٌ مُبِينٌ (۱۲) لَوْ لاٰ جٰاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَهِ شُهَدٰاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدٰاءِ فَأُولٰئِكَ عِنْدَ اَللّٰهِ هُمُ اَلْكٰاذِبُونَ (۱۳) وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِى اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَهِ لَمَسَّكُمْ فِيمٰا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۱۴) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوٰاهِكُمْ مٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اَللّٰهِ عَظِيمٌ (۱۵) وَ لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مٰا يَكُونُ لَنٰا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذٰا سُبْحٰانَكَ هٰذٰا بُهْتٰانٌ عَظِيمٌ (۱۶) يَعِظُكُمُ اَللّٰهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷) وَ يُبَيِّنُ اَللّٰهُ لَكُمُ اَلْآيٰاتِ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۸) إِنَّ اَلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ اَلْفٰاحِشَهُ فِى اَلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ فِى اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَهِ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (۱۹) وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اَللّٰهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۲۰) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُوٰاتِ اَلشَّيْطٰانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُوٰاتِ اَلشَّيْطٰانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشٰاءِ وَ اَلْمُنْكَرِ وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مٰا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ يُزَكِّى مَنْ يَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۱) وَ لاٰ يَأْتَلِ أُولُوا اَلْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ اَلسَّعَهِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى اَلْقُرْبىٰ وَ اَلْمَسٰاكِينَ وَ اَلْمُهٰاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لاٰ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اَللّٰهُ لَكُمْ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۲) إِنَّ اَلَّذِينَ يَرْمُونَ اَلْمُحْصَنٰاتِ اَلْغٰافِلاٰتِ اَلْمُؤْمِنٰاتِ لُعِنُوا فِى اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَهِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۲۳) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۲۴) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اَللّٰهُ دِينَهُمُ اَلْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْحَقُّ اَلْمُبِينُ (۲۵) اَلْخَبِيثٰاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ اَلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثٰاتِ وَ اَلطَّيِّبٰاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ اَلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبٰاتِ أُولٰئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمّٰا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۲۶)

۱- ۱) .النور ۱-۱۰:بحث روائى فى اقامه الحدود؛حرمه الزنا؛حرمه الزنا و القذف.

بیان:

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ الخ؛الإفک على ما ذکره الراغب الکذب مطلقا و الأصل فی معاه أنه کل مصروف عن وجهه الذی یحق أن یکون علیه کالاعتقاد المصروف عن الحق الى الباطل-و الفعل المصروف عن الجمیل الى القبیح، و القول المصروف عن الصدق الى الکذب،و قد استعمل فی کلامه تعالى فی جمیع هذه المعانی.

و ذکر أیضا أن العصبه جماعه متعصبه متعاضده،و قیل:إنها عشره الى أربعین.

و الخطاب فی الآیه و ما یتلوها من الآیات لعامه المؤمنین ممن ظاهره الإیمان أعم من المؤمن بحقیقه الإیمان و المنافق و من فی قلبه مرض،و أما قول بعضهم:إن المخاطب بالخطابات الأربعه الأول أو الثانی و الثالث و الرابع النبی صلّى اللّه علیه و آله و سلم و المقذوفه و المقذوف ففیه تفکیک بین الخطابات الواقعه فی الآیات العشر الاول و هی نیف و عشرین خطابا أکثرها لعامه المؤمنین بلا ریب.

و أسوأ حالا منه قول بعض آخر إن الخطابات الأربعه أو الثلاثه المذکوره لمن ساءه ذلک من المؤمنین فإنه مضافا الى استلزامه التفکیک بین الخطابات المتوالیه مجازفه ظاهره.

و المعنى:إن الذین أتوا بهذا الکذب-و اللام فی الإفک للعهد-جماعه معدوده منکم مرتبط بعضهم ببعض،و فی ذلک إشاره الى أن هناک تواطئوا منهم على إذاعه هذا الخبر لیطعنوا به فی نزاهه بیت النبی صلّى اللّه علیه و آله و سلم و یفضحوه بین الناس.

و هذا هو فائده الخبر فی قوله: «إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ» لا تسلیه النبی صلّى اللّه علیه و آله و سلم

أو تسلیته و تسلیه من ساءه هذا الإفک کما ذکره بعضهم فإن السیاق لا یساعد علیه.

و قوله: لاٰ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَکُمْ بَلْ هُوَ خَیْرٌ لَکُمْ مقتضی کون الخطاب لعامه المؤمنین أن یکون المراد بنفی کونه شرا لهم و إثبات کونه خیرا أن المجتمع الصالح من سعادته أن یتمیز فیه أهل الزیغ و الفساد لیکونوا علی بصیره من أمرهم و ینهضوا لإصلاح ما فسد من أعضائهم،و خاصه فی مجتمع دینی متصل بالوحی ینزل علیهم الوحی عند وقوع أمثال هذه الوقائع فیعظهم و یذکّرهم بما هم فی غفله منه أو مساهله حتی یحتاطوا لیدینهم و یتفطنوا لما یهمّهم.

قوله تعالی: لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَیْراً وَ قٰالُوا هٰذٰا إِفْکٌ مُبِینٌ توبیخ لهم إذ لم یردّوا الحدیث حینما سمعوه و لم یظنوا بمن رمی به خیرا.

و قوله: «ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بِأَنْفُسِهِمْ» من وضع الظاهر موضع المضمر،و الأصل «ظننتم بأنفسکم»و الوجه فی تبدیل الضمیر وصفا الدلاله علی عله الحکم فإن صفه الإیمان رادعه بالطبع تردع و المتلبس بها عن الفحشاء و المنکر فی القول و الفعل فعلی المتلبس بها ان یظن علی المتلبسین بها خیرا،و أن یجتنب القول فیهم بغیر علم فإنهم جمیعا کنفس واحده فی التلبّس بالإیمان و لوازمه و آثاره.

فالمعنی:و لو لا إذ سمعتهم الإفک ظننتم بمن رمی به خیرا فإنکم جمیعا مؤمنون بعضکم من بعض و المرمیّ به من أنفسکم و علی المؤمن أن یظن بالمؤمن خیرا و لا یصفه بما لا علم له به.

و قوله: وَ قٰالُوا هٰذٰا إِفْکٌ مُبِینٌ أی قال المؤمنون و المؤمنات و هم السامعون-أی قلتم-هذا إفک مبین لأن الخبر الذی لا علم لمخبره به و الدعوی التی لا بیّنه لمدّعیها علیها محکوم شرعا بالکذب سواء کان بحسب الواقع صدقا أو کذبا،و الدلیل علیه قوله فی الآیه التالیه: «فَإِذْ لَمْ یَأْتُوا بِالشُّهَدٰاءِ فَأُولٰئِکَ عِنْدَ اللّٰهِ هُمُ الْکٰاذِبُونَ» .

قوله تعالى: لَوْ لاٰ جٰاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَهِ شُهَدٰاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدٰاءِ فَأُولٰئِکَ عِنْدَ اللّٰهِ هُمُ الْکٰاذِبُونَ أی لو کانوا صادقین فیما یقولون و یرمون لأقاموا علیه الشهاده و هی فی الزنا بأربعه شهداء فإذ لم یأتوا بالشهداء فهم محکومون شرعا بالکذب لأن الدعوی من غیر بیّنه کذب و إفک.

قوله تعالى: وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ لَمَسَّكُمْ فِيمٰا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذٰابٌ عَظِيمٌ إفاضه القوم فی الحدیث خوضهم فیه.

و قوله: وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ الخ؛عطف علی قوله: «لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ» الخ؛و فیه کرّه ثانیه علی المؤمنین،و فی تقیید الفضل و الرحمه بقوله: «فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ» دلاله علی کون العذاب المذکور ذیلا هو عذاب الدنیا و الآخره.

و المعنی:و لو لا فضل اللّٰه علیکم و رحمته فی الدنیا و الآخره لوصل الیکم بسبب ما خضتم فیه من الإفک عذاب عظیم فی الدنیا و الآخره.

قوله تعالى: إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوٰاهِكُمْ مٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ الخ؛الظرف متعلق بقوله: «أَفَضْتُمْ» و تلقّی الإنسان القول أخذه القول الذی ألقاه الیه غیره،و تقیید التلقی بالألسنه للدلاله علی أنه کان مجرد انتقال القول من لسان الی لسان من غیر تثبت و تدبّر فیه.

و علی هذا فقوله: وَ تَقُولُونَ بِأَفْوٰاهِكُمْ مٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ من قبیل عطف التفسیر،و تقییده أیضا بقوله: «بِأَفْوٰاهِكُمْ» للإشاره الی أن القول لم یکن عن تثبت و تبیّن قلبیّ و لم یکن له موطن إلا الأفواه لا یتعداها.

و المعنی:أفضتم و خضتم فیه إذ تأخذونه و تنقلونه لسانا عن لسان و تتلفظون بما لا علم لکم به.

و قوله: وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللّٰهِ عَظِيمٌ أی تظنون التلقی بألسنتکم

و القول بأفواهكم من غير علم سهلا و هو عند اللّه عظيم لأنه بهتان و افتراء،على أن الأمر مرتبط بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و شيوع إفكك هذا شأنه بين الناس يفضحه عندهم و يفسد أمر الدعوه الدينيه.

قوله تعالى: وَ لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مٰا يَكُونُ لَنٰا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذٰا سُبْحٰانَكَ هٰذٰا بُهْتٰانٌ عَظِيمٌ عطف بعد عطف على قوله: «لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ» الخ؛و فيه كرّه ثالثه على المؤمنين بالتوبيخ،و قوله: «سُبْحٰانَكَ» اعتراض بالتنزيه للّه سبحانه و هو من أدب القرآن أن ينزّه اللّه بالتسبيح عند تنزيه كل منزّه.

و البهتان الافتراء سمى به لأنه يبهت الإنسان المفترى عليه و كونه بهتانا عظيما لأنه افتراء فى عرض و خاصه إذ كان متعلقا بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و إنما كان بهتانا لكونه إخبارا من غير علم و دعوى من غير بيّنه كما تقدم فى قوله: «فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدٰاءِ فَأُولٰئِكَ عِنْدَ اللّٰهِ هُمُ الْكٰاذِبُونَ» و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: يَعِظُكُمُ اللّٰهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً الى آخر الآيتين؛موعظه بالنهى عن العود لمثله،و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفٰاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا الى آخر الآيه؛إن كانت الآيه نازله فى جمله آيات الإفك و متصله بما تقدمها و موردها الرمى بالزنا بغير بيّنه كان مضمونها تهديد الرامين المفيضين فى الإفك لكونه فاحشه و إشاعته فى المؤمنين حبا منهم لشيوع الفاحشه.

فالمراد بالفاحشه مطلق الفحشاء كالزنا و القذف و غير ذلك،و حب شيوعها و منها القذف فى المؤمنين يستوجب عذابا أليما لمحبيه فى الدنيا و الآخره.

و على هذا فلا موجب لحمل العذاب فى الدنيا على الحد إذ حب شيوع الفحشاء ليس مما يوجب الحد،نعم لو كان اللام فى «الْفٰاحِشَةُ» للعهد و المراد بها القذف و كان حب الشيوع

كنايه عن قصد الشيوع بالإفاضه و التلقى بالألسن و النقل أمكن حمل العذاب على الحد لكن السياق لا يساعد عليه.

على أن الرمى بمجرد تحققه مره موجب للحد و لا موجب لتقييده بقصد الشيوع و لا نكته تستدعى ذلك.

و قوله: وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ تأكيد و إعظام لما فيه من سخط اللّٰه و غضبه و إن جهله الناس.

قوله تعالى: وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ تكرارا للامتنان و معناه ظاهر.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُوٰاتِ الشَّيْطٰانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُوٰاتِ الشَّيْطٰانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشٰاءِ وَ الْمُنْكَرِ تقدم تفسير الآيه فى الآيه ۲۰۸ من سوره البقره فى الجزء الثانى من الكتاب.

قوله تعالى: وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مٰا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً الى آخر الآيه؛رجوع بعد رجوع الى الامتنان بالفضل و الرحمه،لا يخلو هذا الاهتمام من تأييد لكون الإفك متعلقا بالنبى صلّى اللّٰه عليه و آله و سلم و ليس إلا لكرامته على اللّٰه سبحانه.

و قد صرح فى هذه المره الثالثه بجواب لو لا و هو قوله: «مٰا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً» و هذا مما يدل عليه العقل فإن مفيض الخير و السعاده هو اللّٰه سبحانه،و التعليم القرآنى أيضا يعطيه كما قال تعالى: بِيَدِكَ الْخَيْرُ (آل عمران/۲۶)،و قال: مٰا أَصٰابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ (النساء/۷۹).

و قوله: وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يُزَكِّي مَنْ يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ اضراب عما تقدمه فهو تعالى يزكى من يشاء فالأمر الى مشيئته،و لا يشاء إلا تزكيه من استعد لها و سأله بلسان استعداده ذلك،و اليه يشير قوله: «وَ اللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» أى سميع لسؤال من سأله التزكيه عليم بحال من استعد لها.

قوله تعالی: وَ لاٰ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَهِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِی الْقُرْبیٰ وَ الْمَسٰاكِينَ وَ الْمُهٰاجِرِينَ فِی سَبِيلِ اللّٰهِ الخ؛الايتلاء التقصير و الترک و الحلف، و کل من المعانی الثلاثه لا يخلو من مناسبه،و المعنی لا يقصر أولو الفضل منکم و السعه يعنی الأغنياء فی إيتاء اولی القرابه و المساکين و المهاجرين فی سبيل اللّه من مالهم أو لا يترک إيتاءهم أو لا يحلف أن لا يؤتيهم-و ليعفوا عنهم و ليصفحوا-ثم حرضهم بقوله: «أَ لاٰ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَكُمْ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .

و فی الآيه-علی تقدير نزولها فی جمله الآيات و اتصالها بها-دلاله علی أن بعض المؤمنين عزم علی أن يقطع ما کان يؤتيه بعض أهل الإفک فنهاه اللّه عن ذلک و حثه علی إدامه الإيتاء کما سيجیء.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنٰاتِ الْغٰافِلاٰتِ الْمُؤْمِنٰاتِ لُعِنُوا فِی الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ أخذ الصفات الثلاث الإحصان و الغفله و الإيمان للدلاله علی عظم المعصيه فإن کلا من الإحصان بمعنی العفه و الغفله و الإيمان سبب تام فی کون الرمی ظلما و الرامی ظالما و المرميه مظلومه فإذا اجتمعت کان الظلم أعظم ثم أعظم،و جزاؤه اللعن فی الدنيا و الآخره و العذاب العظيم،و الآيه عامه و إن کان سبب نزولها لو نزلت فی جمله آيات الإفک خاصا.

قوله تعالی: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ الظرف متعلق بقوله فی الآيه السابقه: «وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ» .

و المراد بقوله: بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ کما يقتضيه إطلاقه مطلق الأعمال السيئه-کما قيل-لا خصوص الرمی بأن تشهد ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم علی رميهم فالمراد بالشهاده شهاده الأعضاء علی السّيئات و المعاصی بحسب ما يناسبها فما کان منها من قبيل الأقوال کالقذف و الکذب و الغيبه و نحوها شهدت عليه الألسنه،و ما کان منها من قبيل الأفعال

كالسرقه و المشى للنميمه و السعايه و غيرهما شهدت عليه بقيه الأعضاء،و إذ كان معظم المعاصى من الأفعال للأيدى و الأرجل اختصتا بالذكر.

قوله تعالى: يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللّٰهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ المراد بالدين الجزاء كما فى قوله: مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (الحمد۴/)،و توفيه الشىء بذله تاما كاملا،و المعنى:يوم القيامه يؤتيهم اللّٰه جزاءهم الحق إيتاء تاما كاملا و يعلمون أن اللّٰه هو الحق المبين.

هذا بالنظر الى اتصال الآيه بما قبلها و وقوعها فى سياق ما تقدمها،و أما بالنظر الى استقلالها فى نفسها فمن الممكن ان يراد بالدين ما يرادف المله و هو سنه الحياه،و هو معنى عال يرجع الى ظهور الحقائق يوم القيامه للانسان،و يكون أكثر مناسبه لقوله: «وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» .

و الآيه من غرر الآيات القرآنيه تفسر معنى معرفه اللّٰه فإن قوله: «وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» ينبئ أنه تعالى هو الحق لا ستره عليه بوجه من الوجوه و لا على تقدير من التقادير فهو من أبده البديهيات التى لا يتعلق بها جهل لكن البديهى ربما يغفل عنه فالعلم به تعالى هو ارتفاع الغفله عنه الذى ربما يعبر عنه بالعلم،و هذا هو الذى يبدو لهم يوم القيامه فيعلمون أن اللّٰه هو الحق المبين.

و الى مثله يشير قوله تعالى: لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَهٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق۲۲/).

قوله تعالى: اَلْخَبِيثٰاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثٰاتِ وَ الطَّيِّبٰاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبٰاتِ الخ؛ذيل الآيه «أُولٰئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمّٰا يَقُولُونَ» دليل على أن المراد بالخبيثات و الخبيثين و الطيبات و الطيبين نساء و رجال متلبسون بالخباثه و الطيب فالآيه من تمام آيات الإفك متصله بها مشاركه لها فى سياقها،و هى عامه لا مخصص لها من جهه

اللفظ البته.

فالمراد بالطيب الذی یوجب کونهم مبرّئین مما یقولون علی ما تدلّ علیه الآیات السابقه هو المعنی الذی یقتضیه تلبّسهم بالإیمان و الإحصان فالمؤمنون و المؤمنات مع الإحصان طیبون و طیبات یختص کل من الفریقین بصاحبه،و هم بحکم الإیمان و الإحصان مصونون مبرّءون شرعا من الرمی بغیر بیّنه،محکومون من جهه إیمانهم بأن لهم مغفره کما قال تعالی:

وَ آمِنُوا بِهِ یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ (الأحقاف۳۱/)و لهم رزق کریم،و هو الحیاه الطیبه فی الدنیا و الأجر الحسن فی الآخره کما قال: مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حَیٰاهً طَیِّبَهً وَ لَنَجْزِیَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (النحل۹۷/).

و المراد بالخبث فی الخبیثین و الخبیثات و هم غیر المؤمنین هو الحال المستقذره التی یوجبها لهم تلبّسهم بالکفر و قد خصّت خبیثاتهم بخبیثهم و خبیثوهم بخبیثاتهم بمقتضی المجانسه و المسانخه و لیسوا بمبرّءین عن التلبّس بالفحشاء-نعم هذا لیس حکما بالتلبّس- (۱).

[سوره النور (۲۴): الآیات ۲۷ الی ۳۴]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَدْخُلُوا بُیُوتاً غَیْرَ بُیُوتِکُمْ حَتّٰی تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلیٰ أَهْلِهٰا ذٰلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ (۲۷) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِیهٰا أَحَداً فَلاٰ تَدْخُلُوهٰا حَتّٰی یُؤْذَنَ لَکُمْ وَ إِنْ قِیلَ لَکُمُ اِرْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْکیٰ لَکُمْ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِیمٌ (۲۸) لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُیُوتاً غَیْرَ مَسْکُونَهٍ فِیهٰا مَتٰاعٌ لَکُمْ وَ اَللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَ مٰا تَکْتُمُونَ (۲۹) قُلْ لِلْمُؤْمِنِینَ یَغُضُّوا مِنْ أَبْصٰارِهِمْ وَ یَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذٰلِکَ أَزْکیٰ لَهُمْ إِنَّ اَللّٰهَ خَبِیرٌ بِمٰا یَصْنَعُونَ (۳۰) وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنٰاتِ یَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصٰارِهِنَّ وَ یَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لاٰ یُبْدِینَ زِینَتَهُنَّ إِلاّٰ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ لْیَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلیٰ جُیُوبِهِنَّ وَ لاٰ یُبْدِینَ زِینَتَهُنَّ إِلاّٰ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبٰائِهِنَّ أَوْ آبٰاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنٰائِهِنَّ أَوْ أَبْنٰاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوٰانِهِنَّ أَوْ بَنِی إِخْوٰانِهِنَّ أَوْ بَنِی أَخَوٰاتِهِنَّ أَوْ نِسٰائِهِنَّ أَوْ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُهُنَّ أَوِ اَلتّٰابِعِینَ غَیْرِ أُولِی اَلْإِرْبَهِ مِنَ اَلرِّجٰالِ أَوِ اَلطِّفْلِ اَلَّذِینَ لَمْ یَظْهَرُوا عَلیٰ عَوْرٰاتِ اَلنِّسٰاءِ وَ لاٰ یَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِیُعْلَمَ مٰا یُخْفِینَ مِنْ زِینَتِهِنَّ وَ تُوبُوا إِلَی اَللّٰهِ جَمِیعاً أَیُّهَا اَلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۳۱) وَ أَنْکِحُوا اَلْأَیٰامیٰ مِنْکُمْ وَ اَلصّٰالِحِینَ مِنْ عِبٰادِکُمْ وَ إِمٰائِکُمْ إِنْ یَکُونُوا فُقَرٰاءَ یُغْنِهِمُ اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اَللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِیمٌ (۳۲) وَ لْیَسْتَعْفِفِ اَلَّذِینَ لاٰ یَجِدُونَ نِکٰاحاً حَتّٰی یُغْنِیَهُمُ اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اَلَّذِینَ یَبْتَغُونَ اَلْکِتٰابَ مِمّٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُکُمْ فَکٰاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِیهِمْ خَیْراً وَ آتُوهُمْ مِنْ مٰالِ اَللّٰهِ اَلَّذِی آتٰاکُمْ وَ لاٰ تُکْرِهُوا فَتَیٰاتِکُمْ عَلَی اَلْبِغٰاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ مَنْ یُکْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اَللّٰهَ مِنْ بَعْدِ إِکْرٰاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳۳) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکُمْ آیٰاتٍ مُبَیِّنٰاتٍ وَ مَثَلاً مِنَ اَلَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِکُمْ وَ مَوْعِظَهً لِلْمُتَّقِینَ (۳۴)

۱- ۱) .النور ۱۱-۲۶:بحث روائی فی قضیه الافک؛النهی عن اشاعه الفاحشه.

بیان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا الخ؛الانس بالشىء و اليه الالفه و سكون القلب اليه، و الاستيناس طلب ذلك بفعل يؤدّى اليه كالاستيناس لدخول بيت بذكر اللّه و التنحنح و نحو ذلك ليتنبّه صاحب البيت أن هناك من يريد الدخول عليه فيستعدّ لذلك فربما كان فى حال لا يحب أن يراه عليها أحد أو يطّلع عليها مطّلع.

و منه يظهر أن مصلحه هذا الحكم هو الستر على عورات الناس و التحفظ على كرامه الإيمان فإذا استأنس الداخل عند إراده الدخول على بيت غير بيته فأخبر باستيناسه صاحب البيت بدخوله ثم دخل فسلّم عليه فقد أعانه على ستر عورته،و أعطاه الأمن من نفسه.

قوله تعالى: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ الخ؛ أى إن علمتم بعدم وجود أحد فيها-و هو الذى يملك الإذن-فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم من قبل من يملك الإذن،و ليس المراد به أن يتطلع على البيت و ينظر فيه فإن لم ير فيه أحدا كفّ عن الدخول فإن السياق يشهد على أن المنع فى الحقيقه عن النظر و الاطّلاع على عورات الناس.

و هـذه الآيه تبين حكم دخول بيت الغير و ليس فيه من يملك الإذن،و الآيه السابقه تبين حكم الـدخول و فيه من يملك الإذن و لاـ يمنع،و أمـا دخوله و فيه من يملـك الإـذن و يمنع و لاـ يـأذن فيه فيبين حكمه قوله تعـالى: «وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكىٰ لَكُمْ وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» .

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْـكُونَةٍ فِيهٰا مَتٰاعٌ لَكُمْ الخ؛ظاهر السياق كون قوله: «فِيهٰا مَتٰاعٌ لَكُمْ» صفه بعد صفه لقوله: «بُيُوتاً» لا جمله مستأنفه معلّله لقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ» ،و الظاهر أن المتاع بمعنى الاستمتاع.

ففيه تجويز الـدخول فى بيوت معـدّه لأـنواع الاستمتاع و هى غير مسكونه بالطبع كالخانات و الحمامات و الأرحيه و نحوها فإن كونها موضوعه للاستمتاع إذن عام فى دخولها.

قوله تعـالى: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصٰارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذٰلِكَ أَزْكىٰ لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمٰا يَصْـنَعُونَ الغضّ إطباق الجفن على الجفن،و الأبصـار جمـع بصـر و هو العضو النـاظر،و من هنـا يظهر أن «مِنْ» فى «مِنْ أَبْصٰـارِهِمْ» لابتـداء الغـايه لاـ مزيـده و لا للجنس و لا للتبعيض كما قال بكل قائل،و المعنى يأتوا بالغض آخذا من أبصارهم.

فقوله: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصٰارِهِمْ لما كان «يَغُضُّوا» مترتبا على قوله:

«قُـلْ» ترتّب جـواب الشـرط عليه دلّ ذلـك على كـون القـول بمعنى الأـمر و المعنى مرهم يغضّـوا من أبصـارهم و التقـدير مرهم بـالغض إنـك إن تأمرهم به يغضوا،و الآيه أمر بغض الأبصار و إن شـئت فقل:نهى عن النظر الى ما لا يحل النظر اليه من الأجنبى الأجنبيه لمكان الإطلاق.

و قـوله: وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ أى و مرهم يحفظـوا فروجهم،و الفرجه و الفرج الشق بين الشـيئين،و كنّى به عن السوأه،و على ذلك جرى استعمال القرآن الملىء فى أدبا و خلقا ثم كثر استعماله فيها حتى صار كالنص كما ذكره الراغب.

و المقابله بین قوله: «یَغُضُّوا مِنْ أَبْصٰارِهِمْ» و «یَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» یعطی أن المراد بحفظ الفروج سترها عن النظر لا حفظها عن الزنا و اللواطه کما قیل،و قد ورد فی الروایه عن الصادق علیه السّلام أن کل آیه فی القرآن فی حفظ الفروج فهی من الزنا إلا هذه الآیه فهی من النظر.

و علی هذا یمکن أن تتقید أولی الجملتین بثانیتهما و یکون مدلول الآیه هو النهی عن النظر الی الفروج و الأمر بسترها.

ثم أشار الی وجه المصلحه فی الحکم و حثتهم علی المراقبه فی جنبه بقوله: «ذٰلِکَ أَزْکیٰ لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ خَبِیرٌ بِمٰا یَصْنَعُونَ» .

قوله تعالی: وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنٰاتِ یَغْضُضْنَ الخ؛الکلام فی قوله: «وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنٰاتِ یَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصٰارِهِنَّ وَ یَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ» نظیر ما مر فی قوله: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِینَ یَغُضُّوا مِنْ أَبْصٰارِهِمْ وَ یَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» فلا یجوز لهن النظر الی ما لا یجوز النظر الیه و یجب علیهن ستر العوره عن الأجنبی و الاجنبیه.

و أما قوله: وَ لاٰ یُبْدِینَ زِینَتَهُنَّ إِلاّٰ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا فالإبداء الإظهار،و المراد بزینتهن مواضع الزینه لأن نفس ما یتزین به کالقرط و السوار لا یحرم إبداؤها فالمراد بإبداء الزینه إبداء مواضعها من البدن.

و قد استثنی اللّه سبحانه منها ما ظهر،و قد وردت الروایه أن المراد بما ظهر منها الوجه و الکفان و القدمان کما سیجیء إن شاء اللّه.

و قوله: وَ لْیَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلیٰ جُیُوبِهِنَّ الخمر بضمتین جمع خمار و هو ما تغطی به المرأه رأسها و ینسدل علی صدرها،و الجیوب جمع جیب بالفتح فالسکون و هو معروف و المراد بالجیوب الصدور،و المعنی و لیلقین بأطراف مقانعهن علی صدورهن لیسترنها بها.

ص:۴۳۱

و قوله: وَ لاٰ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّٰ لِبُعُولَتِهِنَّ -الى قوله- أَوْ بَنِي أَخَوٰاتِهِنَّ البعوله هم أزواجهن،و الطوائف السبع الآخر محارمهن من جهه النسب و السبب،و أجداد البعوله حكمهم حكم آبائهم و أبناء أبناء البعوله حكمهم حكم الأبناء.

و قوله: أَوْ نِسٰائِهِنَّ فى الاضافه إشاره الى أن المراد بهن المؤمنات من النساء فلا يجوز لهن التجرد لغيرهن من النساء و قد وردت به الروايات عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام.

و قوله: أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُنَّ إطلاقه يشمل العبيد و الإماء،و قد وردت به الروايه كما سيأتى إن شاء اللّه،و هذا من موارد استعمال «مٰا» فى اولى العقل.

و قوله: أَوِ التّٰابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَهِ مِنَ الرِّجٰالِ الإربه هى الحاجه،و المراد به الشهوه التى تحوج الى الازدواج،و «مِنَ الرِّجٰالِ» بيان للتابعين،و المراد بهم كما تفسره الروايات البله المولى عليهم من الرجال و لا شهوه لهم.

و قوله: أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلىٰ عَوْرٰاتِ النِّسٰاءِ أى جماعه الأطفال-و اللام للاستغراق-الذين لم يقووا و لم يظهروا-من الظهور بمعنى الغلبه-على امور يسوء التصريح بها من النساء،و هو-كم قيل-كنايه عن البلوغ.

و قوله: وَ لاٰ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مٰا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ذلك بتصوت أسباب الزينه كالخلخال و العقد و القرط و السوار.

و قوله: وَ تُوبُوا إِلَى اللّٰهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ المراد بالتوبه-على ما يعطيه السياق-الرجوع اليه تعالى بامتثال أوامره و الانتهاء عن نواهيه و بالجمله اتّباع سبيله.

قوله تعالى: وَ أَنْكِحُوا الْأَيٰامىٰ مِنْكُمْ وَ الصّٰالِحِينَ مِنْ عِبٰادِكُمْ وَ إِمٰائِكُمْ الإنكاح التزويج،و الأيامى جمع أيم بفتح الهمزه و كسر الياء المشدده و هو الذكر الذى لا انثى معه و الانثى التى لا ذكر معها و قد يقال فى المرأه أيمه،و المراد بالصالحين الصالحون للتزويج لا

الصالحون فی الأعمال.

و قوله: إِنْ يَكُونُوا فُقَرٰاءَ يُغْنِهِمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وعـد جميل بالغنى وسعه الرزق و قـد أكـده بقوله: «وَ اللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ» و الرزق يتبع صلاحيه المرزوق بمشيه من اللّه سبحانه، و سيوافيك إن شاء اللّه فى تفسير قوله تعالى: فَوَ رَبِّ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مٰا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (الذاريات۲۳/)كلام فى معنى سعه الرزق.

قوله تعـالى: وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاٰ يَجِدُونَ نِكٰاحاً حَتّٰى يُغْنِيَهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ الاستعفاف و التعفف قريبا المعنى،و المراد بعـدم وجدان النكاح عدم القدره على المهر و النفقه،و معنى الآيه الأمر بالتعفف لمن لا يقدر على النكاح و التحرز عن الوقوع فى الزنا حتى يغنيه اللّه من فضله.

قوله تعـالى: وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتٰابَ مِمّٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ فَكٰاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً الـخ؛المراد بالكتـاب المكـاتبه،و ابتغاء المكـاتبه أن يسـأل العبـد مولاـه أن يكاتبه على إيتائه المولى ما لا على أنى يعتقه،و فى الآيه أمر للموالى بإجابتهم إن علموا فيهم خيرا و هو كنايه عن إحراز صلاحيتهم لذلك.

و قوله: وَ آتُوهُمْ مِنْ مٰالِ اللّٰهِ الَّذِی آتٰاكُمْ إشاره الى إيتائهم مال المكاتبه من الزكاه المفروضه فسـهم من سـهام الزكاه لهم،كما قال تعالى: وَ فِی الرِّقٰابِ (التوبه۶۰/)أو إسقاط شیء من مال المكاتبه.

و فى هذه الآيه و الآيات السابقه مباحث فقهيه جمه ينبغى أن يراجع فيها كتب الفقه.

قوله تعـالى: وَ لاٰ تُكْرِهُوا فَتَيٰاتِكُمْ عَلَى الْبِغٰاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً الفتيـات الإمـاء و الولائـد،و البغـاء الزنـا و هو مفـاعله من البغى،و التحصن و التعفف و الازدواج و ابتغاء عرض الحياه الدنيا طلب المال،و المعنى ظاهر.

و إنما اشترط النهى عن الإكراه بإراده التحصن لأن الإكراه لا يتحقق فيمن لا يريد

التحصن،ثم وعدهن المغفره على تقدير الإكراه بقوله: «وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ» و معناه ظاهر.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ مَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ المثل الصفه،و من الممكن أن يكون قوله: «وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا» الخ؛ حالا من فاعل قوله: «تُوبُوا» فى الآيه السابقه أو استينافا و المعنى و أقسم لقد أنزلنا اليكم آيات تبين لكم من معارف الدين ما تفلحون به،و صفه من السابقين أخيارهم و أشرارهم يتميز بها لكما ينبغى أن تأخذوا به مما ينبغى لكم أن يجتنبوا،و موعظه للمتقين منكم (۱).

[سوره النور (۲۴): الآيات ۳۵ الى ۴۶]

اشاره

اَللّهُ نُورُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاهٍ فِيها مِصْباحٌ اَلْمِصْباحُ فِي زُجاجَهٍ اَلزُّجاجَهُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَهٍ مُبارَكَهٍ زَيْتُونَهٍ لا شَرْقِيَّهٍ وَ لا غَرْبِيَّهٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اَللّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَضْرِبُ اَللّهُ اَلْأَمْثالَ لِلنّاسِ وَ اَللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۳۵) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اَللّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اِسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ اَلْآصالِ (۳۶) رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَهٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اَللّهِ وَ إِقامِ اَلصَّلاهِ وَ إِيتاءِ اَلزَّكاهِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ اَلْقُلُوبُ وَ اَلْأَبْصارُ (۳۷) لِيَجْزِيَهُمُ اَللّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اَللّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (۳۸) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَهٍ يَحْسَبُهُ اَلظَّمْآنُ ماءً حَتّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اَللّهَ عِنْدَهُ فَوَفّاهُ حِسابَهُ وَ اَللّهُ سَرِيعُ اَلْحِسابِ (۳۹) أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اَللّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (۴۰) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَلطَّيْرُ صَافّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اَللّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (۴۱) وَ لِلّهِ مُلْكُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ إِلَى اَللّهِ اَلْمَصِيرُ (۴۲) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى اَلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَ يُنَزِّلُ مِنَ اَلسَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ (۴۳) يُقَلِّبُ اَللّهُ اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَهً لِأُولِي اَلْأَبْصارِ (۴۴) وَ اَللّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّهٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اَللّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اَللّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۵) لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ اَللّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴۶)

۱- ۱) .النور ۲۷-۳۴:بحث روائى حول الاستيناس؛غض البصر؛حد الحجاب.

بیان:

قوله تعالی: اَللّٰهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الی آخر الآیه؛المشکاه علی ما ذکره الراغب و غیره:کوّه غیر نافذه و هی ما یتخذ فی جدار البیت من الکوّ لوضع بعض الأثاث کالمصباح و غیره علیه و هو غیر الفانوس.

و الدریّ:من الکواکب العظیم الکثیر النور،و هو معدود فی السماء،و الإیقاد:الإشعال، و الزیت:الدهن المتخذ من الزیتون.

و قوله: اَللّٰهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ النور معروف و هو الذی یظهر به الأجسام الکثیفه لأبصارنا فالأشیاء ظاهره به و هو ظاهر مکشوف لنا بنفس ذاته فهو الظاهر بذاته المظهر لغیره من المحسوسات للبصر.هذا أول ما وضع علیه لفظ النور ثم عمّم لکل ما ینکشف به شیء من المحسوسات علی نحو الاستعاره أو الحقیقه الثانیه فعدّ کل من الحواس نورا أو ذا نور یظهر به محسوساته کالسمع و الشم و الذوق و اللمس.ثم عمّم لغیر المحسوس فعدّ العقل نوارا یظهر به المعقولات کل ذلک بتحلیل معنی النور المبصر الی الظاهر بذاته المظهر لغیره.

و إذ کان وجود الشیء هو الذی یظهر به نفسه لغیره من الأشیاء کان مصداقا تاما للنور،ثم لما کانت الأشیاء الممکنه الوجود إنما هی موجوده بإیجاد اللّه تعالی کان هو المصداق الأتم للنور فهناک وجود و نور یتصف به الأشیاء و هو وجودها و نورها المستعار المأخوذ منه تعالی و وجود و نور قائم بذاته یوجد و یستنیر به الأشیاء.

فهو سبحانه نور يظهر به السماوات و الأرض،و هذا هو المراد بقوله: «اللّهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» حيث أضيف النور الى السماوات و الأرض ثم حمل على اسم الجلاله،و على هذا ينبغى أن يحمل قول من قال:إن المعنى اللّه منوّر السماوات و الأرض،و عمده الغرض منه أن ليس المراد بالنور النور المستعار القائم بها و هو الوجود الذى يحمل عليها تعالى اللّه عن ذلک و تقدس.

و من ذلک يستفاد أنه تعالى غير مجهول لشىء من الاشياء إذ ظهور كل شىء لنفسه أو لغيره إنما هو عن إظهاره تعالى فهو الظاهر بذاته له قبله،و الى هذه الحقيقه يشير قوله تعالى بعد آيتين: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافّٰاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاٰتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ» إذ لا معنى للتسبيح و العلم به و بالصلاه مع الجهل بمن يصلّون له و يسبّحون فهو نظير قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الإسراء/ ۴۴)،و سيوافيک البحث عنه إن شاء اللّه.

فقد تحصّل أن المراد بالنور فى قوله: «اللّهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» نوره تعالى من حيث يشرق منه النور العام الذى يستنير به كل شىء و هو مساو لوجود كل شىء و ظهوره فى نفسه و لغيره و هى الرحمه العامه.

و قوله: مَثَلُ نُورِهِ يصف تعالى نوره،و إضافه النور الى الضمير الراجع اليه تعالى -و ظاهره الإضافه اللاميه-دليل على أن المراد ليس هو وصف النور الذى هو اللّه بل النور المستعار الذى يفيضه،و ليس هو النور العام المستعار الذى يظهر به كل شىء و هو الوجود الذى يستفيضه منه الأشياء و تتصف به،و الدليل عليه قوله بعد تتميم المثل: «يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشٰاءُ» إذ لو كان هو النور العم لم يختص به شىء دون شىء بل هو نوره الخاص بالمؤمنين بحقيقه الإيمان على ما يفيده الكلام.

و قد نسب تعالى فى سائر كلامه الى نفسه نورا كما فى قوله: يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللّهِ

بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ اللّٰهُ مُتِمُّ نُورِهِ (الصف٨/)،و قوله: أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمٰاتِ لَيْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا (الأنعام١٢٢/)و قوله: يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ (الحديد٢٨/)،و قوله: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ (الزمر٢٢/)،و هذا هو النور الذى يجعله اللّه لعباده المؤمنين يستضيئون به فى طريقهم الى ربهم و هو نور الإيمان و المعرفه.

و ليس المراد به القرآن كما قاله بعضهم فإن الآيه تصف حال عامه المؤمنين قبل نزول القرآن و بعده.على أن هذا النور وصف لهم يتصفون به كما يشير اليه قوله: لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ (الحديد١٩/)و قوله: يَقُولُونَ رَبَّنٰا أَتْمِمْ لَنٰا نُورَنٰا (التحريم٨/)،و القرآن ليس وصفا لهم و إن لوحظ باعتبار ما يكشف عنه من المعارف رجع الى ما قلناه.

و قوله: كَمِشْكٰاةٍ فِيهٰا مِصْبٰاحٌ الْمِصْبٰاحُ فِي زُجٰاجَةٍ المشبه به مجموع ما ذكر من قوله: «كَمِشْكٰاةٍ فِيهٰا مِصْبٰاحٌ الْمِصْبٰاحُ» الخ؛لا مجرد المشكاه و إلا فسد المعنى،و هذا كثير فى تمثيلات القرآن.

و قوله: اَلزُّجٰاجَةُ كَأَنَّهٰا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ تشبيه الزجاجه بالكوكب الدرّى من جهه ازدياد لمعان نور المصباح و شروقه بتركيب الزجاجه على المصباح فتزيد الشعله بذلك سكونا من غير اضطراب بتموج الأهويه و ضرب الرياح فهى كالكوكب الدرى فى تلألؤ نورها و ثبات شروقها.

و قوله: يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبٰارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاٰ شَرْقِيَّةٍ وَ لاٰ غَرْبِيَّةٍ يَكٰادُ زَيْتُهٰا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نٰارٌ خبر بعد خبر للمصباح أى المصباح يشتعل آخذا اشتعاله من شجره مباركه زيتونه أى إنه يشتعل من دهن زيت مأخوذ منها،و المراد بكون الشجره لا شرقيه و لا غربيه أنها ليست نابته فى الجانب الشرقى و لا فى الجانب الغربى حتى تقع الشمس عليها فى أحد طرفى النهار و يفيئ الظل عليها فى الطرف الآخر فلا تنضج ثمرتها فلا يصفو

الدهن المأخوذ منها فلا تجود الإضاءه بل هى ضاحيه تأخذ من الشمس حظها طول النهار فيجود دهنها لكمال نضج ثمرتها.

و الدليل على هذا المعنى قوله: «يَكٰادُ زَيْتُهٰا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نٰارٌ» فإن ظاهر السياق أن المراد به صفاء الدهن و كمال استعداده للاشتعال و أن ذلك متفرع على الوصفين:لا شرقيه و لا غربيه.

و قوله: نُورٌ عَلىٰ نُورٍ خبر لمبتدإ محذوف و هو ضمير راجع الى نور الزجاجه المفهوم من السياق،و المعنى نور الزجاجه المذكور نور عظيم على نور كذلك أى فى كمال التلمع.

و المراد من كون النور على النور قيل:هو تضاعف النور لا تعدّده فليس المراد به أنه نور معين أو غير معين فوق نور آخر مثله،و لا أنه مجموع نورين اثنين فقط بل أنه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه و هذا التعبير شائع فى الكلام.

و هذا معنى لا يخلو من جوده و إن كان إراده التعدّد أيضا لا تخلو من لطف و دقه فإن للنور الشارق من المصباح نسبه اليه بالأصاله و الحقيقه و نسبه الى الزجاجه التى عليه بالاستعاره و المجاز،و يتغاير النور بتغاير النسبتين و يتعدّد بتعدّدهما و إن لم يكن بحسب الحقيقه إلا للمصباح و الزجاجه صفر الكف منه فللزجاجه بالنظر الى تعدّد النسب نور غير نور المصباح و هو قائم به و مستمد منه.

و هذا الاعتبار جار بعينه فى الممثل له فإن نور الإيمان و المعرفه نور مستعار مشرق على قلوب المؤمنين مقتبس من نوره تعالى قائم به مستمد منه.

فقد تحصل أن الممثل له هو نور اللّه المشرق على قلوب المؤمنين و المثل هو المشبّه به النور المشرق من زجاجه على مصباح موقد من زيت جيّد صاف و هو موضوع فى مشكاه فإن نور المصباح المشرق من الزجاجه و المشكاه تجمعه و تعكسه على المستنيرين به يشرق عليهم فى

نهایه القوه و الجوده.

فأخذ المشکاه للدلاله علی اجتماع النور فی بطن المشکاه و انعکاسه الی جو البیت،و اعتبار کون الدهن من شجره زیتونه لا شرقیه و لا غربیه للدلاله علی صفاء الدهن و جودته المؤثر فی صفاء النور المشرق عن اشتعاله و جوده الضیاء علی ما یدل علیه کون زیته یکاد یضیء و لو لم تمسسه نار،و اعتبار کون النور علی النور للدلاله علی تضاعف النور أو کون الزجاجه مستمده من نور المصباح فی إنارتها.

و قوله: یَهْدِی اللّٰهُ لِنُورِهِ مَنْ یَشٰاءُ استئناف یعلل به اختصاص المؤمنین بنور الإیمان و المعرفه و حرمان غیرهم،فمن المعلوم من السیاق أن المراد بقوله: «مَنْ یَشٰاءُ» القوم الذین ذکرهم بقوله بعد: «رِجٰالٌ لاٰ تُلْهِیهِمْ تِجٰارَهٌ وَ لاٰ بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللّٰهِ» الخ؛فالمراد بمن یشاء المؤمنون بوصف کمال إیمانهم.

و المعنی:أن اللّه إنما هدی المتلبسین بکمال الإیمان الی نوره دون المتلبسین بالکفر-الذین سیذکرهم بعد-لمجرّد مشیّته،و لیس المعنی أن اللّه یهدی بعض الأفراد الی نوره دون بعض بمشیته ذلک یحتاج فی تتمیمه الی القول بأنه إنما یشاء الهدایه إذا استعد المحل الی الهدایه بحسن السریره و السیره،و ذلک مما یختص به أهل الإیمان دون أهل الکفر فافهمه.

و الدلیل علی ذلک ما سیأتی من قوله: «وَ لِلّٰهِ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» الی آخر الآیات؛ بالبیان الآتی إن شاء اللّه.

و قوله: وَ یَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثٰالَ لِلنّٰاسِ وَ اللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ إشاره الی أن المثل المضروب تحته طور من العلم،و إنما اختیر المثل لکونه أسهل الطرق لتبیین الحقائق و الدقائق و یشترک فیه العالم و العامی فیأخذ منه کل ما قسم له،قال تعالی: وَ تِلْکَ الْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ وَ مٰا یَعْقِلُهٰا إِلاَّ الْعٰالِمُونَ (العنکبوت/۴۳).

قوله تعالی: فِی بُیُوتٍ أَذِنَ اللّٰهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ یُذْکَرَ فِیهَا اسْمُهُ الإذن فی الشیء

هو إعلام ارتفاع المانع عن فعله،و المراد بالرفع رفع القدر و المنزله و هو التعظيم،و إذ كانت العظمه و العلوّ للّه تعالى لا يشاركه فى ذلك غيره إلا أن ينتسب اليه،و بمقدار ما ينتسب اليه فالإذن منه تعالى فى أن ترفع هذه البيوت إنما هو لانتساب ما منها اليه.

و بذلك يظهر أن السبب لرفعها هو ما عطف عليه من ذكر اسمه فيها،و السياق يدل على الاستمرار أو التهيؤ له فيعود المعنى الى مثل قولنا«أن يذكر فيها اسم فيرتفع قدرها بذلك».

و قوله: فِي بُيُوتٍ متعلق بقوله فى الآيه السابقه: «كَمِشْكاةٍ» أو قوله: «يَهْدِي اللّٰهُ» الخ؛و المآل واحد،و من المتيقن من هذه البيوت المساجد فإنها معده لذكر اسمه فيها ممحضه لذلك،و قد قال تعالى: وَ مَسٰاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّٰهِ كَثِيراً (الحج/۴۰).

قوله تعالى: يُسَبِّحُ لَهُ فِيهٰا بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ الى آخر الآيه؛تسبيحه تعالى تنزيهه عن كل ما لا يليق بساحه قدسه،و الغدو جمع غداه و هو الصبح و الآصال جمع أصيل و هو العصر،و الإلهاء صرف الإنسان عما يعنيه و يهمه،و التجاره على ما قاله الراغب:

التصرف فى رأس المال طلبا للربح.قال:و ليس فى كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ.

و البيع على ما قال:إعطاء المثمن أخذ الثمن،و قلب الشىء على ما ذكره صرف الشىء من وجه الى وجه،و التقليب مبالغه فيه و التقلب قبوله فتقلب القلوب و الأبصار تحوّل منها من وجه من الإدراك الى وجه آخر.

و قوله: يُسَبِّحُ لَهُ فِيهٰا بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ صفه لبيوت أو استئناف لبيان قوله:

«وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ» ،و كون التسبيح بالغدو و الآصال كنايه عن استمرارهم فيه لا أن التسبيح مقصور فى الوقتين لا يسبّح له فى غيرهما.

و الاكتفاء بالتسبيح من غير ذكر التحميد معه لأنه تعالى معلوم بجميع صفاته الكماليه لا ستره عليه إذ المفروض أنه نور و النور هو الظاهر بذاته المظهر لغيره و إنما يحتاج خلوص

المعرفه الى نفى النقائص عنه و تنزيهه عما لا يليق به فإذا تمّ التسبيح لم يبق معه غيره و تمّت المعرفه ثم إذا تمت المعرفه وقع الثناء و الحمد و بالجمله التوصيف بصفات الكمال موقعه بعد حصول المعرفه كما قال تعالى: سُبْحانَ اللّهِ عَمّا يَصِفُونَ إِلاّ عِبادَ اللّهِ الْمُخْلَصِينَ (الصافات/ ١۶٠)،فنزّهه عما يصفونه به إلا ما وصفه به من أخلصهم لنفسه من عباده،و قد تقدم فى تفسير سوره الحمد كلام فى معنى حمده تعالى.

و بيان آخر حمده تعالى و هو ثناؤه بصفه الكمال مساوق لحصول نور المعرفه و تسبيحه و هو التنزيه بنفى ما لا يليق به عنه مقدّمه لحصوله،و الآيه فى مقام بيان خصالهم التى تستدعى هدايتهم الى نوره فلا جرم اقتصر فيها بذكر ما هى المقدمه و هو التسبيح،فافهم ذلك.

و قوله: رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ التجاره إذا قوبلت بالبيع كان المفهوم منها بحسب العرف الاستمرار فى الاكتساب بالبيع و الشراء و البيع هو العمل الاكتسابى الدفعى فالفرق بينهما هو الفرق بين الدفعه و الاستمرار فمعنى نفى البيع بعد نفى التجاره مع كونه منفيا بنفيها الدلاله على أنهم لا يلهون عن ربهم فى مكاسبهم دائما و لا فى وقت من الأوقات، و بعباره اخرى لا تنسيهم ربهم تجاره مستمره و لا بيع ما من البيوع التى يوقعونها مده تجارتهم.

و قيل:الوجه فى نفى البيع بعد نفى إلهاء التجاره أن الربح فى البيع ناجز بالفعل بخلاف التجاره التى هى الحرفه،فعدم إلهاء التجاره لا يستلزم عدم إلهاء البيع الرابح بالفعل،و لذلك نفى البيع ثانيا بعد نفى إلهاء التجاره و لذلك كرّرت لفظه «لا» لتذكير النفى و تأكيده،و هو وجه حسن.

و قوله: عَنْ ذِكْرِ اللّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ الإقام هو الإقامه بحذف التاء تخفيفا.

ص :۴۴٢

و المراد بإقامه الصلاه و إيتاء الزكاه الإتيان بجميع الأعمال الصالحه التى كلّف اللّه تعالى عباده بإتيانها فى حياتهم الدنيا،و إقامه الصلاه ممثله لإتيان ما للعبد من وظائف العبوديه مع اللّه سبحانه،و إيتاء الزكاه ممثل لوظائفه مع الخلق و ذلك لكون كل منها ركنا فى بابه.

و المقابله بين ذكر اللّه و بين إقام الصلاه و إيتاء الزكاه و هما-و خاصه الصلاه-من ذكر اللّه يعطى أن يكون المراد بذكر اللّه الذكر القلبى الذى يقابل النسيان و الغفله و هو ذكر علمى كما أن أمثال الصلاه و الزكاه ذكر عملى.

فالمقابله المذكوره تعطى أن المراد بقوله: «عَنْ ذِكْرِ اللّهِ وَ إِقامِ الصَّلاهِ وَ إِيتاءِ الزَّكاهِ» أنهم لا يشتغلون بشىء عن ذكرهم المستمر بقلوبهم لربهم و ذكرهم الموقت بأعمالهم من الصلاه و الزكاه،و عند ذلك يظهر حسن التقابل بين التجاره و البيع و بين ذكر اللّه و إقام الصلاه،الخ، لرجوع المعنى الى أنهم لا يلهيهم مله مستمر و لا موقت عن الذكر المستمر و الموقت،فافهم ذلك.

و قوله: يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ هذا هو يوم القيامه، و المراد بالقلوب و الأبصار ما يعمّ قلوب المؤمنين و الكافرين و أبصارهم لكون القلوب و الأبصار جمعا محلّى باللام و هو يفيد العموم.

و أما تقلّب القلوب و الأبصار فالآيات الواصفه لشأن يوم القيامه تدل على أنه بظهور حقيقه الأمر و انكشاف الغطاء كما قال تعالى: فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق/٢٢)،و قال: وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (الزمر/٤٧)،الى غير ذلك من الآيات.

فتنصرف القلوب و الأبصار يومئذ عن المشاهده و الرؤيه الدنيويه الشاغله عن اللّه الساتره للحق و الحقيقه الى سنخ آخر من المشاهده و الرؤيه و هو الرؤيه بنور الايمان و المعرفه فيتبصر المؤمن بنور ربه و هو نور الإيمان و المعرفه فينظر الى كرامه اللّه،و يعمى الكافر و لا يجد

إلا ما يسوؤه قال تعالى: وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها (الزمر۶۹/)و قال:

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ (الحديد۱۲/)، و قال: وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى (الإسراء۷۲/)،و قال: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (القيامه۲۳/)و قال: كَلاّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين۱۵/).

و قد تبين بما مر:

أولا:وجه اختصاص هذه الصفه أعنى تقلب القلوب و الأبصار من بين أوصاف يوم القيامه بالذكر و ذلك أن الكلام مسوق لبيان ما يتوسل به الى هدايته تعالى الى نوره و هو نور الإيمان و المعرفه الذى يستضاء به يوم القيامه و يبصّر به.

و ثانيا:أن المراد بالقلوب و الأبصار النفوس و بصائرها.

و ثالثا:أن توصيف اليوم بقوله: «تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ» لبيان سبب الخوف فهم إنما يخافون اليوم لما فيه من تقلب القلوب و الأبصار،و إنما يخافون هذا التقلب لما فى أحد شقيه من الحرمان من نور اللّه و النظر الى كرامته و هو الشقاء الدائم و العذاب الخالد و فى الحقيقه يخافون أنفسهم.

قوله تعالى: لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ الظاهر أن لام «لِيَجْزِيَهُمُ» للغايه،و الذى ذكره اللّه فى خلال الكلام هو أعمالهم الصالحه و الأجر الجميل على كل صالح مما ينص عليه كلامه تعالى فقوله:إنه يجزيهم أحسن ما عملوا معناه أنه يجزيهم بإزاء عملهم فى كل باب جزاء أحسن عمل فى ذلك الباب،و مرجع ذلك الى أنه تعالى يزكى أعمالهم فلا يناقش فيها بالمؤاخذه فى جهات توجب نقصها و انحطاط قدرها فيعد الحسن منها أحسن.

و يؤيد هذا المعنى قوله فى ذيل الآيه: «وَ اللّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ» فإن ظاهره عدم

المداقه فی حساب الحسنات بالإغماض عن جهات نقصها فیلحق الحسن بالأحسن.

و قوله: وَ یَزِیدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ الفضل العطاء،و هذا نص فی أنه تعالی یعطیهم من فضله ما لیس بإزاء أعمالهم الصالحه،و أوضح منه قوله تعالی فی موضع آخر: لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ فِیهٰا وَ لَدَیْنٰا مَزِیدٌ (ق/۳۵)،حیث إن ظاهره أن هذا المزید الموعود أمر وراء ما تتعلق به مشیتهم.

و قد دل کلامه سبحانه أن أجرهم أن لهم ما یشاءون قال تعالی: أُولٰئِکَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِکَ جَزٰاءُ الْمُحْسِنِینَ (الزمر/۳۴)،و قال: أَمْ جَنَّهُ الْخُلْدِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ کٰانَتْ لَهُمْ جَزٰاءً وَ مَصِیراً لَهُمْ فِیهٰا مٰا یَشٰاؤُنَ خٰالِدِینَ (الفرقان/۱۶)،و قال: لَهُمْ فِیهٰا مٰا یَشٰاؤُنَ کَذٰلِکَ یَجْزِی اللّٰهُ الْمُتَّقِینَ (النحل/۳۱).

فهذا المزید الذی هو وراء جزاء الأعمال أمر أعلی و أعظم من أن تتعلق به مشیه الإنسان أو یوصل الیه سعیه،و هذا أعجب ما یعده القرآن المؤمنین و یبشّرهم به فأجد التدبر فیه.

و قوله: وَ اللّٰهُ یَرْزُقُ مَنْ یَشٰاءُ بِغَیْرِ حِسٰابٍ استئناف مآله تعلیل الجملتین السابقتین بالمشیه نظیر قوله فیما تقدم: «یَهْدِی اللّٰهُ لِنُورِهِ مَنْ یَشٰاءُ» علی ما مر بیانه.

و محصله أنهم عملوا صالحا و کان لهم من الأجر ما یعادل عملهم کما هو ظاهر قوله:

وَ تُوَفّٰی کُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ (النحل/۱۱)،و ما فی معناه من الآیات لکنه تعالی یجزیهم بکل عمل من أعمالهم جزاء أحسن عمل یؤتی به فی بابه من غیر أن یداق فی الحساب فهذه موهبه ثم یرزقهم أمرا هو أعلی و أرفع من أن تتعلق به مشیتهم و هذه أیضا موهبه و رزق بغیر حساب،و الرزق من اللّه موهبه محضه من غیر أن یملک المرزوقون منه شیئا أو یستحقوه علیه تعالی فله تعالی أن یخص منه ما یشاء لمن یشاء.

غیر أنه تعالی وعدهم الرزق و أقسم علی إنجازه فی قوله: فَوَ رَبِّ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ (الذاریات/۲۳)،فملکهم الاستحقاق لأصله و هو الذی یجزیهم به علی قدر أعمالهم

و أما الزائد علیه فلم یملکهم ذلک فله أن یختص به من یشاء فلا یعلل ذلک إلا بمشیه،و للکلام تتمه ستوافیک إن شاء اللّه فی بحث مستقل.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَعْمٰالُهُمْ کَسَرٰابٍ بِقِیعَهٍ یَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مٰاءً الی آخر الآیه؛السراب هو ما یلمع فی المفازه کالماء و لا حقیقه له،و القیع و القاع هو المستوی من الأرض و مفرداهما القیعه و القاعه کالتینه و التمره،و الظمآن هو العطشان.

لما ذکر سبحانه المؤمنین و وصفهم بأنهم ذاکرون له فی بیوت معظمه لا تلهیهم عنه تجاره و لا بیع،و أن اللّه الذی هو نور السماوات و الأرض یهدیهم الی نوره فیمکرهم بنور معرفته قابل ذلک بذکر الذین کفروا فوصف أعمالهم تاره بأنها لا حقیقه لها کسراب بقیعه فلا غایه لها تنتهی إلیها،و تاره بأنها کظلمات بعضها فوق بعض لا نور معها و هی حاجز عن النور،و هذه الآیه هی التی تتضمن الوصف الأول.

فقوله: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَعْمٰالُهُمْ کَسَرٰابٍ بِقِیعَهٍ یَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مٰاءً حَتّٰی إِذٰا جٰاءَهُ لَمْ یَجِدْهُ شَیْئاً شبّه أعمالهم-و هی التی یأتون بها من قرابین و أذکار و غیرهما من عباداتهم یتقربون بها الی آلهتهم-بسراب بقیعه یحسبه الإنسان ماء و لا حقیقه له یترتب علیها ما یترتب علی الماء من رفع العطش و غیر ذلک.

و إنما قیل:یحسبه الظمآن ماء مع أن السراب یتراءی ماء لکل راء لأن المطلوب بیان سیره الیه و لا یسیره الیه إلا الظمآن یدفعه الیه ما به من ظماء،و لذلک رتب علیه قوله: «حَتّٰی إِذٰا جٰاءَهُ لَمْ یَجِدْهُ شَیْئاً» کأنه قیل:کسراب بقیعه یتخیله الظمآن ماء فیسیر الیه و یقبل نحوه لیرتوی و یرفع عطشه به،و لا یزال یسیر حتی إذا جاءه لم یجده شیئا.

و التعبیر بقوله: «جٰاءَهُ» دون أن یقال:بلغه أو وصل الیه أو انتهی الیه و نحوها للإیماء إلی أن هناک من یرید مجیئه و ینتظره انتظارا و هو اللّه سبحانه،و لذلک أردفه بقوله: «وَ وَجَدَ اللّٰهَ عِنْدَهُ فَوَفّٰاهُ حِسٰابَهُ» فأفاد أن هؤلاء یریدون بأعمالهم الظفر بأمر تبعثهم نحوه فطرتهم

و جبلتهم و هو السعاده التی یریدها کل إنسان بفطرته و جبلته لکن أعمالهم لا توصلهم الیه، و لا أن الآلهه یبتغون بأعمالهم جزاء حسنا منهم لهم حقیقه بل الذی ینتهی الیه أعمالهم و یحیط هو بها و یجزیهم هو اللّه سبحانه فیوفیهم حسابهم،و توفیه الحساب کنایه عن الجزاء بما یستوجبه حساب الأعمال و إیصال ما یستحقه صاحب الأعمال.

ففی الآیه تشبیه أعمالهم بالسراب،و تشبیههم بالظمآن یرید الماء و عنده عذب الماء لکنه یعرض و لا یصغی الی مولاه الذی ینصحه و یدعوه الی شربه بل یحسب السراب ماء فیسیر الیه و یقبل نحوه،و تشبیه مصیرهم الی اللّه سبحانه بحلول الآجال و عند ذلک تمام الأعمال بالظمآن السائر الی السراب إذا جاءه و عنده مولاه الذی کان ینصحه و یدعوه الی شرب الماء.

فهؤلاء قوم ألهوا عن ذکر ربهم و الأعمال الصالحه الهادیه الی نوره و فیه سعادتهم و حسبوا أن سعادتهم عند غیره من الآلهه الذین یدعونهم،و الأعمال المقربه الیهم و فیها سعادتهم فأکبوا علی تلک الأعمال السرابیه و استوفوا ما یمکنهم أن یأتوا بها مده أعمارهم حتی حلت آجالهم و شارفوا الدار الآخره فلم یجدوا شیئا مما یؤملونه من أعمالهم و لا أثرا من ألوهیه آلهتهم فوفاهم اللّه حسابهم و اللّه سریع الحساب.

و قوله: وَ اللّٰهُ سَرِیعُ الْحِسٰابِ إنما هو لإحاطه علمه بالقلیل و الکثیر و الحقیر و الخطیر و الدقیق و الجلیل و المتقدم و المتأخر علی حد سواء.

قوله تعالی: أَوْ کَظُلُمٰاتٍ فِی بَحْرٍ لُجِّیٍّ یَغْشٰاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحٰابٌ تشبیه ثان لأعمالهم یظهر به أنها حجب متراکمه علی قلوبهم تحجبهم عن نور المعرفه،و قد تکرر فی کلامه تعالی أنهم فی الظلمات کقوله: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَوْلِیٰاؤُهُمُ الطّٰاغُوتُ یُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَی الظُّلُمٰاتِ (البقره/۲۵۷)، کَمَنْ مَثَلُهُ فِی الظُّلُمٰاتِ لَیْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا (الأنعام/۱۲۲)،و قوله: کَلاّٰ بَلْ رٰانَ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ مٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ

كَلاّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين۱۵/).

و قوله: «أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ» معطوف على «كَسَرابٍ» فى الآيه السابقه،و البحر اللجّى هو البحر المتردّد أمواجه منسوب الى لجّه البحر و هى تردّد أمواجه،و المعنى:أعمالهم كظلمات كائنه فى بحر لجيّ.

و قوله: «يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ» صفه البحر جىء بها لتقرير الظلمات المفروضه فيه فصفته أنه يغشاه و يحيط به موج كائن من فوقه موج آخر كائن من فوقه سحاب يحجبنه جميعا من الاستضاءه بأضواء الشمس و القمر و النجوم.

و قوله: ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ تقرير لبيان أن المراد بالظلمات المفروضه الظلمات المتراكمه بعضها على بعض دون المتفرقه،و قد أكد ذلك بقوله: «إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها» فإن أقرب ما يشاهده الإنسان منه هو نفسه و هو أقدر على رؤيه يده منه على سائر أعضائه لأنه يقرّبها تجاه باصرته كيفما أراد فإذا أخرج يده و لم يكد يراها كانت الظلمه بالغه.

فهؤلاء و هم سائرون الى اللّه و صائرون اليه من جهه أعمالهم كراكب بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب فى ظلمات متراكمه كأشد ما يكون و لا نور هناك يستضىء به فيهتدى الى ساحل النجاه.

و قوله: وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ نفى للنور عنهم بأن اللّه لم يجعله لهم،كيف لا؟و جاعل النور هو اللّه الذى هو نور كل شىء،فإذا لم يجعل لشىء نورا لم يكن له نور إذ لا جاعل غيره تعالى.

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافّاتٍ الى آخر الآيه؛لما ذكر سبحانه أنه نور تستنير به السماوات و الأرض و أنه يختص بمزيد نوره المؤمنين من عباده و الذين كفروا لا نصيب لهم من ذلك شرع يحتج على ذلك بما فى

ص :۴۴۸

هذه الآیه و الآیات الأربع التالیه لها.

فكونه تعالی نور السماوات و الأرض یدلّ علیه أن ما فی السماوات و الأرض موجود بوجود لیس من عنده و لا من عند شیء مما فیهما لكونه مثله فی الفاقه،فوجود ما فیهما من موجود من اللّه الذی ینتهی الیه الحاجات.

فوجود كل شیء مما فیهما كما یظهر به نفس الوجود یدل علی من یظهره بما أفاض علیه من الوجود فهو نور یستنیر به الشیء و یدل علی منوّره بما أشرق علیه من النور و أن هناك نورا یستنیر به كل شیء فكل شیء مما فیهما یدل علی أن وراءه شیئا منزّها من الظلمه التی غشیته،و الفاقه التی لزمته،و النقص الذی لا ینفك عنه،و هذا هو تسبیح ما فی السماوات و الأرض له سبحانه،و لازمه نفی الاستقلال عن كل من سواه و سلب أی إله و رب یدبر الأمر دونه تعالی.

و الی ذلك یشیر قوله: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ یُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّیْرُ صَافّٰاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاٰتَهُ وَ تَسْبِیحَهُ» و به یحتج تعالی علی كونه نور السماوات و الأرض لأن النور هو ما یظهر به الشیء المستنیر ثم یدل بظهوره علی مظهره،و هو تعالی یظهر و یوجد بإظهاره و إیجاده الأشیاء ثم یدل علی ظهوره و وجوده.

و تزید الآیه بالإشاره الی لطائف یكمل بها البیان:

منها:اختصاصها من فی السماوات و الأرض و الطیر صافات و هم العقلاء و بعض ذوات الروح بالذكر مع عموم التسبیح لغیرهم لقوله: «وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» .

و لعلّ ذلك من باب اختیار أمور من أعاجیب الخلقه للذكر فإن ظهور الموجود العاقل الذی یدل علیه لفظ«من السماوات و الأرض»من عجیب أمر الخلقه الذی یدهش لبّ ذی اللب،كما أن صفیف الطیر الصافّات فی الجو من أعجب ما یری من أعمال الحیوان ذی الشعور و أبدعه.

و يظهر من بعضهم أن المراد بقوله: «مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ» الخ؛جميع الأشياء و إنما عبّر بلفظ أولى العقل لكون التسبيح المنسوب إليها من شئون أولى العقل أو للتنبيه على قوه تلك الدلاله و وضوح تلك الإشاره تنزيلا للسان الحال منزله المقال.

و فيه أنه لا يلائم إسناد العلم إليها فى قوله بعد: «كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاٰتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ» .

و منها:تصدير الكلام بقوله: «أَ لَمْ تَرَ» و فيه دلاله على ظهور تسبيحهم و وضوح دلالتهم على التنزيه بحيث لا يرتاب فيه ذو ريب فكثيرا ما يعبّر عن العلم الجازم بالرؤيه كما فى قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ (إبراهيم١٩/)،و الخطاب فيه عام لكل ذى عقل و إن كان خاصا بحسب اللفظ.

و من الممكن أن يكون خطابا خاصا بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قد كان أراه اللّه تسبيح من فى السماوات و الأرض و الطير صافّات فيما أراه من ملكوت السماوات و الأرض و ليس ببدع منه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قد أرى الناس تسبيح الحصاه فى كفه كما وردت به الأخبار المعتبره.

و منها:أن الآيه تعمّم العلم لكل ما ذكر فى السماوات و الأرض و الطير،و قد تقدم بعض البحث عنه فى تفسير قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الإسراء۴۴/)،و ستجىء تتمه الكلام فيه فى تفسيره سوره حم السجده إن شاء اللّه.

و قول بعضهم:إن الضمير فى قوله: «قَدْ عَلِمَ» راجع اليه تعالى،يدفعه عدم ملائمته للسياق و خاصه لقوله بعده: «وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَفْعَلُونَ» و نظيره قول آخرين:إن إسناد العلم الى مجموع ما تقدم من المجاز بتنزيل غير العالم منزله العالم لقوه دلالته على تسبيحه و تنزيهه.

و منها:تخصيصها التسبيح بالذكر مع أن الأشياء تشير الى صفات كماله تعالى و هو التحميد كما تسبّحه على ما يدل عليه البرهان و يؤيده قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» و لعل الوجه فيه كون الآيات مسوقه للتوحيد و نفى الشركاء و ذلك بالتنزيه أمسّ فإن من يدعو من

دون اللّه إلهـا آخر أو يركن إلى غيره نوعـا من الركون إنمـا يكفر بإثبـات خصوصـيه وجود ذلـك الشـىء للإله تعالى فنفيه إنما يتأتى بالتنزيه دون التحميد فافهمه.

و أما قوله: كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاٰتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ فصلاته دعاؤه و الدعاء توجيه من الداعى للمدعو إلى حاجته ففيه دلاله على حاجه عند الداعى المدعو فى غنى عنها فهو أقرب إلى الدلاله على التنزيه منه على الثناء و التحميد.

و منهـا:أن الآيه تنسب التسبيح و العلـم بـه إلى مـن فى السـماوات و الأرض فيعمّ المـؤمن و الكـافر،و يظهر بـذلك أن هنـاك نورين:نور عام يعم الأشياء و المؤمن و الكافر فيه سواء،و إلى ذلك تشير آيات كآيه الذر وَ أَشْهَدَهُمْ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قٰالُوا بَلىٰ شَهِدْنٰا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيٰامَهِ إِنّٰا كُنّٰا عَنْ هٰذٰا غٰافِلِينَ (الأعراف۱۷۲/)،و قوله: فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق۲۲/)إلى غير ذلك،و نور خاص و هو الذى تذكره الآيات و يختص بأوليائه من المؤمنين.

فـالنور الـذى ينوّر تعـالى به خلقه كالرحمه التى يرحمهم بها قسـمان:عام و خاص و قـد قال تعالى: وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (الأعراف۱۵۶/)،و قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ (الجاثيه۳۰/)،و قد جمع بينهما فى قوله: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً (الحـديد۲۸/)، و مـا ذكر فيه من النور هو النور على نور بحذاء الثانى من كفلى الرحمه.

و قوله: وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَفْعَلُونَ و من فعلهم تسبيحهم له سبحانه،و هـذا التسبيـح و إن كـان فى بعض المراحل هو نفس وجودهم لكن صدق اسم التسبيح يجوز أن يعدّ فعلا لهم بهذه العنايه.

و فى ذكر علمه تعـالى بمـا يفعلـون عقيب ذكر تسـبيحهم ترغيب للمؤمنين و شـكر لهم بـأن ربهم يعلم ذلـك و سـيجزيهم جزاء حسنا،و إيذان بتمام الحجه على الكافرين،فإن من مراتب

علمه تعالى كتب الأعمال و الكتاب المبين التى تثبت فيها أعمالهم فيثبت فيها تسبيحهم بوجودهم ثم إنكارهم بألسنتهم.

قوله تعالى: وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللّٰهِ الْمَصِيرُ سياق الآيه و قد وقعت بين قوله: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ يُسَبِّحُ لَهُ» الخ؛و هو احتجاج على شمول نوره العام لكل شىء،و بين قوله: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ يُزْجِي» الخ؛و ما يتعقبه و هو احتجاج على اختصاص النور الخاص،يعطى أنها كالمتوسط بين القبيلين أعنى بين الأمرين يحتج بها على كليهما،فملكه تعالى لكل شىء و كونه مصيرا لها هو دليل على تعميمه نوره لعام و تخصيصه نوره الخاص يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

فقوله: «وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» يخص الملك و يقصره فيه تعالى فله أن يفعل ما يشاء و يحكم بما يريد لا يسأل عما يفعل و هم يسألون،و لازم قصر الملك فيه كونه هو المصير لكل شىء،و إذ كان لا مليك إلا هو و اليه مرجع كل شىء و مصيره فله أن يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

و من هنا يظهر أن المراد-و اللّٰه أعلم-بقوله: «وَ إِلَى اللّٰهِ الْمَصِيرُ» مرجعيته تعالى فى الامور دون المعاد نظير قوله: أَلاٰ إِلَى اللّٰهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (الشورى/۵۳).

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ يُزْجِي سَحٰاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكٰاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاٰلِهِ إلى آخر الآيه؛الإزجاء هو الدفع،و الركام المتراكم بعضه على بعض،و الودق هو المطر،و الخلال جمع الخلل و هو الفرجه بين الشيئين.

و الخطاب للنبى صلّى اللّٰه عليه و آله و سلم بعنوان أنه سامع فيشمل كل سامع،و المعنى:أ لم تر أنت و كل من يرى أن اللّٰه يدفع بالرياح سحابا متفرقا ثم يؤلف بينه ثم يجعله متراكما بعضه على بعض فترى المطر يخرج من خلله و فرجه فينزل على الأرض.

و قوله: وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمٰاءِ مِنْ جِبٰالٍ فِيهٰا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشٰاءُ

وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشٰاءُ يَكٰادُ سَنٰا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصٰارِ السماء جهه العلو،و قوله:

«مِنْ جِبٰالٍ فِيهٰا» بيان للسماء،و الجبال جمع جبل و هو معروف،و قوله: «مِنْ بَرَدٍ» بيان للجبال،و البرد قطعات الجمد النازل من السماء،و كونه جبالا فيها كنايه عن كثرته و تراكمه، و السنا بالقصر الضوء.

و الكلام معطوف على قوله: «يُزْجِى» ،و المعنى:أ لم تر أن اللّه ينزل من السماء من البرد المتراكم فيها كالجبال فيصيب به من يشاء فيفسد المزارع و البساتين و ربما قتل النفوس و المواشى و يصرفه عمن يشاء فلا يتضررون به يقرب ضوء برقه من أن يذهب بالأبصار.

و الآيه-على ما يعطيه السياق-مسوقه لتعليل ما تقدم من اختصاصه المؤمنين بنوره، و المعنى:أن الأمر فى ذلك الى مشيّته تعالى كما ترى أنه إذا شاء نزّل من السماء مطرا فيه منافع الناس لنفوسهم و مواشيهم و مزرعهم و بساتينهم،و إذا شاء نزّل بردا فيصيب به من يشاء و يصرفه عمن يشاء.

قوله تعالى: يُقَلِّبُ اللّٰهُ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصٰارِ بيان آخر لرجوع الأمر الى مشيّته تعالى فقط.و تقليب الليل و النهار تصريفهما بتبديل أحدها من الآخر،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مٰاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلىٰ بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلىٰ رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلىٰ أَرْبَعٍ بيان آخر لرجوع الأمر الى مشيّته تعالى محضا حيث يخلق كل دابه من ماء ثم تختلف حالهم فى المشى فمنهم من يمشى على بطنه كالحيّات و الديدان،و منهم من يمشى على رجلين كالأناسى و الطيور و منهم من يمشى على أربع كالبهائم و السباع،و اقتصر سبحانه على هذه الأنواع الثلاثه-و فيهم غير ذلک-إيجازا لحصول الغرض بهذا المقدار.

و قوله: يَخْلُقُ اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ تعليل لما تقدم من اختلاف الدواب،مع وحده الماده

التی خلقت منها یبین أن الأمر الی مشیه اللّه محضا فله أن یعمم فیضا من فیوضه علی جمیع خلقه کالنور العام و الرحمه العامه،و له أن یختص بفیض من فیوضه بعضا من خلقه دون بعض کالنور الخاص و الرحمه الخاصه.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ تعلیل لقوله: «یَخْلُقُ اللّٰهُ مٰا یَشٰاءُ» فإن إطلاق القدره علی کل شیء یستوجب أن لا یتوقف شیء من الأشیاء فی کینونته علی أمر وراء مشیته و إلا کانت قدرته علیه مشروطه بحصول ذلک الأمر و هذا خلف.و هذا باب من التوحید دقیق سیتضح بعض الاتضاح إن شاء اللّه بما فی البحث الآتی (۱).

قوله تعالی: لَقَدْ أَنْزَلْنٰا آیٰاتٍ مُبَیِّنٰاتٍ وَ اللّٰهُ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ یرید آیه النور و ما یتلوها المبینه لصفه نوره تعالی و الصراط المستقیم سبیله التی لا سبیل للغضب و الضلال الی من اهتدی إلیها کما قال: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِیمَ صِرٰاطَ الَّذِینَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِمْ غَیْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ وَ لاَ الضّٰالِّینَ (الحمد/۷)،و قد تقدم الکلام فیه فی تفسیره سوره الحمد.

و تذییل الآیه بقوله: «وَ اللّٰهُ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ» هو الموجب لعدم تقیید قوله: «لَقَدْ أَنْزَلْنٰا آیٰاتٍ مُبَیِّنٰاتٍ» بلفظه الیکم بخلاف قوله قبل آیات: «لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکُمْ آیٰاتٍ مُبَیِّنٰاتٍ وَ مَثَلاً مِنَ الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِکُمْ وَ مَوْعِظَهً لِلْمُتَّقِینَ» .

إذ لو قیل:لقد أنزلنا الیکم آیات مبینات و اللّه یهدی.تبادر إلی الذهن أن البیان اللفظی هدایه الی الصراط المستقیم و أن المخاطبین عامه مهدیّون إلی الصراط المستقیم و فیهم المنافق و الذین فی قلوبهم مرض و اللّه العالم (۲).

ص: ۴۵۴

۱- ۱) .النور ۳۵-۴۶:بحث فلسفی فی الارتباط الوجودی بین کل شیء و بین علله الممکنه.

۲- ۲) .النور ۳۵-۴۶:بحث روائی حول قوله تعالی: «اللّٰهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ»؛ معنی النور.

[سوره النور (۲۴): الآیات ۴۷ الی ۵۷]

اشاره

وَ یَقُولُونَ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنٰا ثُمَّ یَتَوَلّٰی فَرِیقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ وَ مٰا أُولٰئِکَ بِالْمُؤْمِنِینَ (۴۷) وَ إِذٰا دُعُوا إِلَی اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ لِیَحْکُمَ بَیْنَهُمْ إِذٰا فَرِیقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (۴۸) وَ إِنْ یَکُنْ لَهُمُ اَلْحَقُّ یَأْتُوا إِلَیْهِ مُذْعِنِینَ (۴۹) أَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ اِرْتٰابُوا أَمْ یَخٰافُونَ أَنْ یَحِیفَ اَللّٰهُ عَلَیْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولٰئِکَ هُمُ اَلظّٰالِمُونَ (۵۰) إِنَّمٰا کٰانَ قَوْلَ اَلْمُؤْمِنِینَ إِذٰا دُعُوا إِلَی اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ لِیَحْکُمَ بَیْنَهُمْ أَنْ یَقُولُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا وَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۵۱) وَ مَنْ یُطِعِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ یَخْشَ اَللّٰهَ وَ یَتَّقْهِ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلْفٰائِزُونَ (۵۲) وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَیَخْرُجُنَّ قُلْ لاٰ تُقْسِمُوا طٰاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اَللّٰهَ خَبِیرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (۵۳) قُلْ أَطِیعُوا اَللّٰهَ وَ أَطِیعُوا اَلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَیْهِ مٰا حُمِّلَ وَ عَلَیْکُمْ مٰا حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تُطِیعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مٰا عَلَی اَلرَّسُولِ إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِینُ (۵۴) وَعَدَ اَللّٰهُ اَلَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی اَلْأَرْضِ کَمَا اِسْتَخْلَفَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ اَلَّذِی اِرْتَضیٰ لَهُمْ وَ لَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً یَعْبُدُونَنِی لاٰ یُشْرِکُونَ بِی شَیْئاً وَ مَنْ کَفَرَ بَعْدَ ذٰلِکَ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلْفٰاسِقُونَ (۵۵) وَ أَقِیمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ آتُوا اَلزَّکٰاةَ وَ أَطِیعُوا اَلرَّسُولَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۵۶) لاٰ تَحْسَبَنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مُعْجِزِینَ فِی اَلْأَرْضِ وَ مَأْوٰاهُمُ اَلنّٰارُ وَ لَبِئْسَ اَلْمَصِیرُ (۵۷)

ص: ۴۵۵

بیان:

قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ آمَنّا بِاللّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ الخ؛بيان حال بعض المنافقين حيث أظهروا الإيمـان و الطاعه أولا ثم تولوا ثانيا فالإيمان باللّه هو العقـد على توحيـده و ما شـرع من الـدين،و الإيمان بالرسول هو العقـد على كونه رسولاـ مبعوثا من عنـد ربه أمره أمره و نهيه نهيه و حكمه حكمه من غير أن يكون له من الأمر شـىء،و طاعه اللّه هى تطبيق العمل بما شرعه،و طاعه الرسول الائتمار و الانتهاء عند أمره و نهيه و قبول ما حكم به و قضى عليه.

فالإيمان باللّه و طاعته موردهما نفس الدين و التشرّع به،و الإيمان بالرسول و طاعته موردهما ما أخبر به الرسول من الدين بما أنه يخبر به و ما حكم به و قضى عليه فى المنازعات و الانقياد له فى ذلك كله.

فبين الإيمـانين و الطاعتين فرق ما من حيث سـعه المورد و ضـيقه،و يشـير الى ذلك ما فى العباره من نوع من التفصـيل حيث قيل «آمَنّا بِاللّهِ وَ بِالرَّسُولِ» فاشير إلى تعدّد الإيمان

ص :۴۵۶

و الطاعه و لم يقل:آمنا باللّه و الرسول بحذف الباء،و الإيمانان مع ذلك متلازمان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر،قال تعالى: وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّهِ وَ رُسُلِهِ (النساء/١۵٠).

فقوله: وَ يَقُولُونَ آمَنّا بِاللّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا أى عقدنا القلوب على دين اللّه و تشرّعنا به و على أن الرسول لا يخبر إلا بالحق و لا يحكم إلا بالحق.

و قوله: ثُمَّ يَتَوَلّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أى ثم يعرض طائفه من هؤلاء القائلين «آمَنّا بِاللّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا» عن مقتضى قولهم من بعد ما قالوا ذلك.

و قوله: وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ أى ليس أولئك القائلون بالمؤمنون،و المشار اليه باسم الإشاره القائلون جميعا لا خصوص الفريق المتولّين على ما يعطيه السياق لأن الكلام مسوق لذمّ الجميع.

قوله تعالى: وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ يشهد سياق الآيه أن الآيات إنما نزلت فى بعض من المنافقين دعوا الى حكم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى منازعه وقعت بينه و بين غيره فأبى الرجوع الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و فى ذلك نزلت الآيات.

و النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم إنما كان يحكم بينهم بحكم اللّه على ما أراه اللّه كما قال تعالى: إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللّهُ (النساء/١٠۵).فللحكم نسبه اليه بالمباشره و نسبه الى اللّه سبحانه من حيث كان الحكم فى ضوء شريعته و بنصبه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم للحكم و القضاء.

و بذلك يظهر أن المراد بالدعوه الى اللّه ليحكم بينهم هى الدعوه الى المتابعه لما يقتضيه شرعه تعالى فى مورد النزاع،و بالدعوه إلى رسوله ليحكم بينهم هى الدعوه إلى متابعه ما يقضى عليه بالمباشره،و أن الظاهر أن ضمير «لِيَحْكُمَ» للرسول،و إنما أفرد الفاعل و لم يثنّ إشاره إلى أن حكم الرسول حكمه تعالى.

و الآيه بالنسبه إلى الآيه السابقه كالخاص بالنسبه إلى العام فهى تقصّ إعراضا معينا منهم و الإعراض المذكور فى الآيه السابقه منهم إعراض مطلق.

قوله تعالى: وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ الإذعان الانقياد، و ظاهر السياق و خاصه قوله: «يَأْتُوا إِلَيْهِ» أن المراد بالحق حكم الرسول بدعوى أنه حتى لا ينفك عنه،و المعنى و إن يكن الحق الذى هو حكم الرسول لهم لا عليهم يأتوا إلى حكمه منقادين فليسوا بمعرضين عنه إلا لكونه عليهم لا لهم،و لازم ذلك أنهم يتّبعون الهوى و لا يريدون اتّباع الحق.

قوله تعالى: أَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ یَخافُونَ أَنْ یَحِیفَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ وَ رَسُولُهُ الى آخر الآيه؛الحيف الجور.

و ظاهر سياق الآيات أن المراد بمرض القلوب ضعف الإيمان كما فى قوله تعالى: فَلاٰ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَیَطْمَعَ الَّذِی فِی قَلْبِهِ مَرَضٌ (الأحزاب/۳۲)،و قوله: لَئِنْ لَمْ یَنْتَهِ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِی الْمَدِینَهِ لَنُغْرِیَنَّکَ بِهِمْ (الأحزاب/۶۰)، و غير ذلك من الآيات.

و أما كون المراد بمرض القلوب النفاق كما فسّر به فيدفعه قوله فى صدر الآيات: «وَ مٰا أُولٰئِکَ بِالْمُؤْمِنِینَ» فإنه حكم بنفاقهم،و لا معنى مع إثبات النفاق للاستفهام عن النفاق ثم الإضراب عنه بقوله: «بَلْ أُولٰئِکَ هُمُ الظّٰالِمُونَ» .

و قوله: أَمِ ارْتٰابُوا ظاهر إطلاق الارتياب و هو الشكّ أن يكون المراد هو شكهم فى دينهم بعد الإيمان دون الشك فى صلاحيه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم للحكم أو عدله و نحوه ذلك لكونها بحسب الطبع محتاجه الى بيان بنصب قرينه.

و قوله: أَمْ یَخٰافُونَ أَنْ یَحِیفَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ وَ رَسُولُهُ أى أم يعرضون عن ذلك لأنهم يخافون أن يجور اللّه عليهم و رسوله لكون الشريعه الإلهيه التى يتبعها حكم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم

مبنّيه على الجور و إماته الحقوق الحقه،أو لكون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم لا يراعى الحق فى قضائه.

و قوله: بَلْ أُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ إضراب عن الترديد السابق بشقوقه الثلاثه و ذلك أن سبب إعراضهم لو كان مرض قلوبهم أو ارتيابهم لم يأتوا اليه مذعنين على تقدير كون الحق لهم بل كانوا يعرضون كان الحق لهم أو عليهم،و أما الخوف من أن يحيف اللّه عليهم و رسوله فلا موجب له فاللّه برىء من الحيف و رسوله فليس إعراضهم عن إجابه الدعوه إلى حكم اللّه و رسوله إلا لكونهم حق عليهم أنهم ظالمون.

و الظاهر أن المراد بالظلم التعدى عن طور الإيمان مع الإقرار به قولا كما قال آنفا: «وَ مٰا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» أو خصوص التعدى الى الحقوق غير الماليه،و لو كان المراد مطلق الظلم لم يصح الإضراب عن الشقوق الثلاثه السابقه اليه لأنها من مطلق الظلم و يدل عليه أيضا الآيه التاليه.

قوله تعالى: إِنَّمٰا كٰانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذٰا دُعُوا إِلَى اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا الى آخر الآيه؛سياق قوله:«إنما قول المؤمنين»و قد أخذ فيه «كٰانَ» و وصف الإيمان فى «الْمُؤْمِنِينَ» يدل على أن ذلك من مقتضيات طبيعه الإيمان فإن مقتضى الإيمان باللّه و رسوله و عقد القلب على اتباع ما حكم به اللّه و رسوله التلبيه للدعوه الى حكم اللّه و رسوله دون الرد.

و على هذا فالمراد بقوله: «إِذٰا دُعُوا إِلَى اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» دعوه بعض الناس ممن ينازعهم كدعوه بعض المتنازعين المتخاصمين الآخر الى التحاكم الى اللّه و رسوله ليحكم بينهم،و يدل عليه تصدير الجمله بلفظه «إِذٰا» و لو كان المراد به دعوه اللّه و رسوله بمعنى إيجاب رجوع المؤمنين فى منازعاتهم الى حكم اللّه و رسوله كان ذلك حكما مؤبدا لا حاجه فيه الى التقييد بالزمان.

و قد ختمت الآيه بقوله: «وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» و فيه قصر الفلاح فيهم لا قصرهم فى

الفلاح.

قوله تعالی: وَ مَنْ یُطِعِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ یَخْشَ اللّٰهَ وَ یَتَّقْهِ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْفٰائِزُونَ ورود الآیه فی سیاق الآیات السابقه و انضمامها الی سابقتها یعطی أنها فی مقام التعلیل-کالکبری الکلیه-للآیه السابقه حیث حکمت بفلاح من أجاب الدعوه الی حکم اللّه و رسوله بالسمع و الطاعه بقید الإیمان کأنه قیل:إنما أفلح من أجاب الی حکم اللّه و رسوله و هو مؤمن لأنه مطیع للّه و لرسوله و هو مؤمن حقا فی باطنه خشیه اللّه و فی ظاهره تقواه و من یطع اللّه و رسوله فیما قضی علیه و یخش اللّه و یتقه فاولئک هم الفائزون،و الفوز هو الفلاح.

و تشمل الآیه الداعی الی حکم اللّه و رسوله من المتنازعین کما یشمل المدعو منهما إذا أجاب بالسمع و الطاعه ففیها زیاده علی تعلیل حکم الآیه السابقه تعمیم الوعد الحسن للداعی و المدعو جمیعا.

قوله تعالی: وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَیَخْرُجُنَّ قُلْ لاٰ تُقْسِمُوا طٰاعَهٌ مَعْرُوفَهٌ الی آخر الآیه؛الجهد الطاقه،و التقدیر فی قوله: «أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ» أقسموا باللّه مبلغ جهدهم فی أیمانهم و المراد أقسموا بأغلظ أیمانهم.

و الظاهر أن المراد بقوله: «لَیَخْرُجُنَّ» الخروج الی الجهاد علی ما وقع فی عده من الآیات کقوله: وَ لَوْ أَرٰادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّهً وَ لٰکِنْ کَرِهَ اللّٰهُ انْبِعٰاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِیلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقٰاعِدِینَ لَوْ خَرَجُوا فِیکُمْ مٰا زٰادُوکُمْ إِلاّٰ خَبٰالاً (التوبه/۴۷).

و قوله: قُلْ لاٰ تُقْسِمُوا نهی عن الإقسام،و قوله: «طٰاعَهٌ مَعْرُوفَهٌ» خبر لمبتدإ محذوف هو الضمیر الراجع الی الخروج و بالجمله فی مقام التعلیل للنهی عن الإقسام و لذا جیء بالفصل،و قوله: «إِنَّ اللّٰهَ خَبِیرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ» من تمام التعلیل.

و معنی الآیه:و أقسموا باللّه بأغلظ أیمانهم لئن أمرتهم بالخروج الی الجهاد لیخرجن قل لهم:لا تقسموا فالخروج الی الجهاد طاعه معروفه من الدین-و هو واجب لا حاجه الی إیجابه

ص: ۴۶۰

بیمین مغلظ-و إن تکونوا تقسمون لأجل أن ترضوا اللّه و رسوله بذلک فاللّه خبیر بما تعملون لا یغرّه إغلاظکم فی الأیمان.

قوله تعالی: قُلْ أَطِیعُوا اللّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَیْهِ مٰا حُمِّلَ وَ عَلَیْکُمْ مٰا حُمِّلْتُمْ الی آخر الآیه؛أمر بطاعه اللّه فیما أنزل من الدین،و أمر بطاعه الرسول فیما یأتیهم به من ربهم و یأمرهم به فی أمر دینهم و دنیاهم،و تصدیر الکلام بقوله: «قُلْ» إشاره الی أن الطاعه جمیعا للّه،و قد أکده بقوله: «وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ» دون أن یقول:و أطیعونی لأن طاعه الرسول بما هو طاعه الرسول طاعه المرسل،و بذلک تتمّ الحجه.

و لذلک عقّب الکلام:

أولا بقوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَیْهِ مٰا حُمِّلَ وَ عَلَیْکُمْ مٰا حُمِّلْتُمْ أی فإن تتولوا و تعرضوا عن طاعه الرسول لم یضرّ ذلک الرسول فإنما علیه ما حمّل من التکلیف و لا یمسّکم منه شیء و علیکم ما حمّلتم من التکلیف و لا یمسّه منه شیء فإن الطاعه جمیعا للّه سبحانه.

و ثانیا بقوله: وَ إِنْ تُطِیعُوهُ تَهْتَدُوا أی و إن کان لکل منکم و منه ما حمّل لکن إن تطیعوا الرسول تهتدوا لأن ما یجیء به الیکم و ما یأمرکم به من اللّه و بأمره،و الطاعه للّه و فیه الهدایه.

و ثالثا بقوله: وَ مٰا عَلَی الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ الْمُبِینُ و هو بمنزله التعلیل لما تقدّمه أی إن ما حمّله الرسول من التکلیف هو التبلیغ فحسب فلا بأس علیه إن خالفتم ما بلّغ، و إذ کان رسولا لم یحتمل إلا التبلیغ فطاعته طاعه من أرسله و فی طاعه من أرسله و هو اللّه سبحانه اهتداؤکم.

قوله تعالی: وَعَدَ اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ الی آخر الآیه.

ظاهر وقوع الآیه موقعها أنها نزلت فی ذیل الآیات السابقه من السوره و هی مدنیه و لم تنزل بمکه قبل الهجره علی ما یؤیده سیاقها و خاصه ذیلها.

فالآیه-علی هذا-وعد جمیل للذین آمنوا و عملوا الصالحات أن اللّه تعالی سیجعل لهم مجتمعا صالحا یخص بهم فیستخلفهم فی الأرض و یمکّن لهم دینهم و یبدلهم من بعد خوفهم أمنا لا یخافون کید منافق و لا صدّ کافر یعبدونه لا یشرکون به شیئا.

فقوله: وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ من فیه تبعیضیّه لا بیانیه و الخطاب لعامه المسلمین و فیهم المنافق و المؤمن و فی المؤمنین منهم من یعمل الصالحات و من لا یعمل الصالحات،و الوعد خاص بالذین آمنوا منهم و عملوا الصالحات محضا.

و قوله: لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ إن کان المراد بالاستخلاف إعطاء الخلافه الإلهیه کما ورد فی آدم و داود و سلیمان علیهم السّلام،قال تعالی:

إِنِّی جٰاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَهً (البقره/۳۰)،و قال: یٰا دٰاوُدُ إِنّٰا جَعَلْنٰاکَ خَلِیفَهً فِی الْأَرْضِ (ص/۲۶)،و قال: وَ وَرِثَ سُلَیْمٰانُ دٰاوُدَ (النمل/۱۶)،فالمراد بالذین من قبلهم خلفاء اللّه من أنبیائه و أولیائه و لا یخلو من بعد کما سیأتی.

و إن کان المراد به إیراث الأرض و تسلیط قوم علیها بعد قوم کما قال: إِنَّ الْأَرْضَ لِلّٰهِ یُورِثُهٰا مَنْ یَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ الْعٰاقِبَهُ لِلْمُتَّقِینَ (الأعراف/۱۲۸)،و قال: أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُهٰا عِبٰادِیَ الصّٰالِحُونَ (الأنبیاء/۱۰۵)،فالمراد بالذین من قبلهم المؤمنون من أمم الأنبیاء الماضین الذین أهلک اللّه الکافرین و الفاسقین منهم و نجّی الخلّص من مؤمنیهم کقوم نوح و هود و صالح و شعیب کما أخبر عن جمعهم فی قوله تعالی: وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّکُمْ مِنْ أَرْضِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِی مِلَّتِنٰا فَأَوْحیٰ إِلَیْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِکَنَّ الظّٰالِمِینَ وَ لَنُسْکِنَنَّکُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذٰلِکَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامِی وَ خٰافَ وَعِیدِ (إبراهیم/۱۴)،فهؤلاء الذین أخلصوا للّه

فنجّاهم فعقدوا مجتمعا صالحا و عاشوا فيه حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم.

و قوله: وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضىٰ لَهُمْ تمكين الشىء إقراره فى مكان و هو كنايه عن ثبات الشىء من غير زوال و اضطراب و تزلزل بحيث يؤثر أثره من غير مانع و لا حاجز فتمكن الدين هو كونه معمولا به فى المجتمع من غير كفر به و استهانه بأمره، و مأخوذا باصول معارفه من غير اختلاف و تخاصم و قد حكم اللّه سبحانه فى مواضع من كلامه أن الاختلاف فى الدين بغى المختلفين كقوله: وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ (البقره٢١٣/).

و المراد بدينهم الذى ارتضى لهم دين الإسلام،و أضاف الدين اليهم تشريفا لهم و لكونه من مقتضى فطرتهم.

و قوله: وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً هو كقوله: «وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ» عطف على قوله: «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ» و أصل المعنى:و ليبدلن خوفهم أمنا فنسبه التبديل اليهم إما على المجاز العقلى أو على حذف مضاف يدل عليه قوله: «مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ» و التقدير و ليبدلن خوفهم،أو كون «أَمْناً» بمعنى:آمين.

و المراد بالخوف على أى حال،ما كان يقاسيه المؤمنون فى صدر الإسلام من الكفار و المنافقين.

و قوله: يَعْبُدُونَنِي لاٰ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً الأوفق بالسياق أن يكون حالا من ضمير «وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ» أى و ليبدلن خوفهم أمنا فى حال يعبدوننى لا يشركون بى شيئا.

و قوله: وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ ظاهر السياق كون «ذٰلِكَ» إشاره الى الموعود و الأنسب على ذلك كون «كَفَرَ» من الكفران مقابل الشكر، و المعنى:و من كفر و لم يشكر اللّه بعد تحقق هذا الوعد بالكفر أو النفاق أو سائر المعاصى الموبقه فاولئك هم الفاسقون الكاملون فى الفسق و هو الخروج عن زى العبوديه.

ص :۴۶۳

و الذی یعطیه سیاق الآیه الکریمه علی ما تقدم من البحث بالتحرّز عن المسامحات التی ربما یرتکبها المفسرون فی تفسیر الآیات هو أن الوعد لبعض الامه لا لجمیعها و لا لأشخاص خاصه منهم و هم الذین آمنوا منهم و عملوا الصالحات فالآیه نص فی ذلک،و لا قرینه من لفظ او عقل یدلّ علی کونهم هم الصحابه أو النبی و أئمه أهل البیت علیهم الصلاه و السلام،و لا علی أن المراد بالذین آمنوا منکم و عملوا الصالحات جمیع الامه و إنما صرف الوعد الی طائفه خاصه منهم تشریفا لهم أو لمزید العنایه بهم فهذا کله تحکّم من غیر وجه.

و المراد باستخلافهم فی الأرض کما استخلف الذین من قبلهم عقد مجتمع مؤمن صالح منهم یرثون الأرض کما ورثها الذین من قبلهم من الامم الماضین أولی القوه و الشوکه،و هذا الاستخلاف قائم بمجتمعهم الصالح من دون أن یختص به أشخاص منهم کما کان کذلک فی الذین من قبلهم،و أما إراده الخلافه الإلهیه بمعنی الولایه علی المجتمع کما کان لداود و سلیمان و یوسف علیهم السّلام و هی السلطنه الإلهیه فمن المستبعد أن یعبّر عن أنبیائه الکرم بلفظ «الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ» و قد وقعت هذه اللفظه أو ما بمعناها فی أکثر من خمسین موضعا من کلامه تعالی و لم یقصد و لا فی واحد منها الأنبیاء الماضون مع کثره ورود ذکرهم فی القرآن،نعم ذکرهم اللّه بلفظ «رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ» أو «رُسُلٌ مِنْ قَبْلِی» أو نحوهما بالإضافه الی الضمیر الراجع الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

و المراد بتمکین دینهم الذی ارتضی لهم کما مرّ ثبات الدین علی ساقه بحیث لا یزلزله اختلافهم فی أصوله،و لا مساهلتهم فی إجراء أحکامه،و العمل بفروعه و خلوص المجتمع من وصمه النفاق فیه.

و المراد من تبدیل خوفهم أمنا انبساط الأمن و السلام علی مجتمعهم بحیث لا یخافون عدوّا فی داخل مجتمعهم أو خارجه متجاهرا أو مستخفیا علی دینهم أو دنیاهم.

قوله تعالی: وَ أَقِیمُوا الصَّلاٰهَ وَ آتُوا الزَّکٰاهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّکُمْ

تُرْحَمُونَ مناسبه مضمون الآيه لما سيقت لبيانه الآيات السابقه تعطى أنها من تمامها.

فقوله: «وَ أَقِيمُوا الصَّلاٰةَ وَ آتُوا الزَّكٰاةَ» أمر فى الحقيقه بطاعته تعالى فيما شرعه لعباده، و تخصيص الصلاه و الزكاه بالذكر لكونهما ركنين فى التكاليف الراجعه الى اللّه تعالى و الى الخلق،و قوله: «وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ» إنفاذ لولايته صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى القضاء و الحكومه.

و قوله: لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ تعليل للأمر بما فى المأمور به من المصلحه،و المعنى-على ما يعطيه السياق-:أطيعوا اللّه و أطيعوا الرسول فإن فى هاتين الطاعتين رجاء أن تشملكم الرحمه الإلهيه فينجز لكم وعده أو يعجل لكم إنجازه فإن ارتفاع النفاق من بين المسلمين و عموم الصلاح و الاتفاق على كلمه الحق مفتاح انعقاد مجتمع صالح يدرّ عليهم بكل خير.

قوله تعالى: لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَأْوٰاهُمُ النّٰارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ من تمام الآيات السابقه،و فيها تأكيد ما مرّ من وعد الاستخلاف فى الأرض و تمكين الدين و تبديل الخوف أمنا.

يخاطب تعالى نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بعد الوعد-بخطاب مؤكد-أن لا يظن أن الكفار معجزون للّه فى الأرض فيمنعونه بما عندهم من القوه و الشوكه من أن ينجز وعده،و هذا فى الحقيقه بشرى خاصه بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بما أكرم به أمته و أن أعداءه سينهزمون و يغلبون و لذلك خصّه بالخطاب على طريق الالتفات.

و لكون النهى المذكور فى معنى أن الكفار سينتهون عن معارضه الدين و أهله عطف عليه قوله: «وَ مَأْوٰاهُمُ النّٰارُ» الخ؛كأنه قيل:هم مقهورون فى الدنيا و مسكنهم النار فى الآخره و بئس المصير (1).

ص: ۴۶۵

۱- ۱) .النور ۴۷-۵۷:بحث روائى فى امير المؤمنين على عليه السّلام و الشيعه.

[سوره النور (۲۴): الآیات ۵۸ الی ۶۴]

اشاره

یَا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لِیَسْتَأْذِنْکُمُ اَلَّذِینَ مَلَکَتْ أَیْمَانُکُمْ وَ اَلَّذِینَ لَمْ یَبْلُغُوا اَلْحُلُمَ مِنْکُمْ ثَلاٰثَ مَرّٰاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاٰةِ اَلْفَجْرِ وَ حِینَ تَضَعُونَ ثِیٰابَکُمْ مِنَ اَلظَّهِیرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلاٰةِ اَلْعِشٰاءِ ثَلاٰثُ عَوْرٰاتٍ لَکُمْ لَیْسَ عَلَیْکُمْ وَ لاٰ عَلَیْهِمْ جُنٰاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوّٰافُونَ عَلَیْکُمْ بَعْضُکُمْ عَلیٰ بَعْضٍ کَذٰلِکَ یُبَیِّنُ اَللّٰهُ لَکُمُ اَلْآیٰاتِ وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۵۸) وَ إِذٰا بَلَغَ اَلْأَطْفٰالُ مِنْکُمُ اَلْحُلُمَ فَلْیَسْتَأْذِنُوا کَمَا اِسْتَأْذَنَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کَذٰلِکَ یُبَیِّنُ اَللّٰهُ لَکُمْ آیٰاتِهِ وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۵۹) وَ اَلْقَوٰاعِدُ مِنَ اَلنِّسٰاءِ اَللاّٰتِی لاٰ یَرْجُونَ نِکٰاحاً فَلَیْسَ عَلَیْهِنَّ جُنٰاحٌ أَنْ یَضَعْنَ ثِیٰابَهُنَّ غَیْرَ مُتَبَرِّجٰاتٍ بِزِینَةٍ وَ أَنْ یَسْتَعْفِفْنَ خَیْرٌ لَهُنَّ وَ اَللّٰهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۶۰) لَیْسَ عَلَی اَلْأَعْمیٰ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَی اَلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَی اَلْمَرِیضِ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ أَنْ تَأْکُلُوا مِنْ بُیُوتِکُمْ أَوْ بُیُوتِ آبٰائِکُمْ أَوْ بُیُوتِ أُمَّهٰاتِکُمْ أَوْ بُیُوتِ إِخْوٰانِکُمْ أَوْ بُیُوتِ أَخَوٰاتِکُمْ أَوْ بُیُوتِ أَعْمٰامِکُمْ أَوْ بُیُوتِ عَمّٰاتِکُمْ أَوْ بُیُوتِ أَخْوٰالِکُمْ أَوْ بُیُوتِ خٰالاٰتِکُمْ أَوْ مٰا مَلَکْتُمْ مَفٰاتِحَهُ أَوْ صَدِیقِکُمْ لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَأْکُلُوا جَمِیعاً أَوْ أَشْتٰاتاً فَإِذٰا دَخَلْتُمْ بُیُوتاً فَسَلِّمُوا عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ تَحِیَّةً مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ مُبٰارَکَةً طَیِّبَةً کَذٰلِکَ یُبَیِّنُ اَللّٰهُ لَکُمُ اَلْآیٰاتِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (۶۱) إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ اَلَّذِینَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذٰا کٰانُوا مَعَهُ عَلیٰ أَمْرٍ جٰامِعٍ لَمْ یَذْهَبُوا حَتّٰی یَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ اَلَّذِینَ یَسْتَأْذِنُونَکَ أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اِسْتَأْذَنُوکَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَ اِسْتَغْفِرْ لَهُمُ اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۶۲) لاٰ تَجْعَلُوا دُعٰاءَ اَلرَّسُولِ بَیْنَکُمْ کَدُعٰاءِ بَعْضِکُمْ بَعْضاً قَدْ یَعْلَمُ اَللّٰهُ اَلَّذِینَ یَتَسَلَّلُونَ مِنْکُمْ لِوٰاذاً فَلْیَحْذَرِ اَلَّذِینَ یُخٰالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِیبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ یُصِیبَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۶۳) أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ قَدْ یَعْلَمُ مٰا أَنْتُمْ عَلَیْهِ وَ یَوْمَ یُرْجَعُونَ إِلَیْهِ فَیُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُوا وَ اَللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۶۴)

ص: ۴۶۶

بیان:

قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لِیَسْتَأْذِنْکُمُ الَّذِینَ مَلَکَتْ أَیْمانُکُمْ الی آخر الآیه؛وضع الثیاب خلعها و هو کنایه عن کونهم علی حال ربما لا یحبون أن یراهم علیها الأجنبی.و الظهیره وقت الظهر،و العوره السوأه سمیت بها لما یلحق الإنسان من انکشافها من العار و کأن المراد بها فی الآیه ما ینبغی ستره.

فقوله: «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا» الخ؛تعقیب لقوله: «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا» الخ؛ القاضی بتوقف دخول البیت علی الإذن و هو کالاستثناء من عمومه فی العبید و الأطفال بأنه

ص: ۴۶۷

یکفیهم الاستیذان ثلاث مرات فی الیوم.

و قوله: «لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ» أی مروهم أن یستأذنوکم للدخول،و ظاهر الذین ملکت أیمانکم العبید دون الإماء و إن کان اللفظ لا یأبی عن العموم بعنایه التغلیب،و به وردت الروایه کما سیجیء.

و قوله: وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ یعنی الممیّزین من الأطفال قبل البلوغ، و الدلیل علی تقیّدهم بالتمییز قوله بعد: «ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ» .

و قوله: «ثَلاثَ مَرّاتٍ» أی کل یوم بدلیل تفصیله بقوله: «مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ -أی وقت الظهر- وَ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ» و قد أشار الی وجه الحکم بقوله: «ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ» أی الأوقات الثلاثه ثلاث عورات لکم لا ینبغی بالطبع أن یطّلع علیکم فیها غیرکم.

و قوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ» أی لا مانع لکم من أن لا تأمروهم بالاستیذان و لا لهم من أن لا یستأذنوکم فی غیر هذه الأوقات،و قد أشار الی جهه نفی الجناح بقوله: «طَوّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ» أی هم کثیر الطوف علیکم بعضکم یطوف علی بعض للخدمه فالاستیذان کلما دخل حرج عاده فلیکتفوا فیه بالعورات الثلاث.

ثم قال: «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الْآياتِ» أی أحکام دینه التی هی آیات دالّه علیه «وَ اللّهُ عَلِيمٌ» یعلم أحوالکم و ما تستدعیه من الحکم «حَكِيمٌ» یراعی مصالحکم فی أحکامه.

قوله تعالی: وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا الخ؛بیان أن حکم الاستیذان ثلاث مرات فی الأطفال مغیّا بالبلوغ فإذا بلغ الأطفال منکم الحلم بأن بلغوا فلیستأذنوا کما استأذن الذین من قبلهم و هو البالغون من الرجال و النساء الأحرار «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آياتِهِ وَ اللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» .

قوله تعالی: وَ الْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاّتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً الی آخر الآیه؛

القواعـد جمع قاعـده و هى المرأه التى قعـدت عن النكـاح فلا ترجوه لعـدم الرغبه فى مباشـرتها لكبرها،فقوله: «اللاّتِی لا یَرْجُونَ نِکاحاً» وصف توضيحى،و قيل:هى التى يئست من الحيض،و الوصف احترازى.

و فى المجمع:التبرّج إظهار المرأه من محاسنها ما يجب عليها ستره،و أصله الظهور و منه البرج البناء العالى لظهوره.

و الآـيه فى معنى الاسـتثناء من عموم حكم الحجـاب،و المعنى:و الكبـائر المسـنّه من النسـاء فلاـ بـأس عليهن أن لاـ يحتجبن حال كونهن غير متبرّجات بزينه.

و قوله: وَ أَنْ یَسْتَعْفِفْنَ خَیْرٌ لَهُنَّ كنـايه عن الاحتجـاب أى الاحتجاب خير لهن من وضع الثياب،و قوله: «وَ اللّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ» تعليل لما شرع بالاسمين أى هو تعالى سميع يسمع ما يسألنه بفطرتهن عليم يعلم ما يحتجن اليه من الأحكام.

قوله تعالى: لَیْسَ عَلَی الْأَعْمی حَرَجٌ وَ لا عَلَی الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَی الْمَرِیضِ حَرَجٌ وَ لا عَلی أَنْفُسِکُمْ أَنْ تَأْکُلُوا مِنْ بُیُوتِکُمْ -الى قوله- أَوْ صَدِیقِکُمْ ظـاهر الآـيه أن فيها جعل حق للمؤمنين أن يأكلوا من بيوت قراباتهم أو التى ائتمنوا عليها أو بيوت أصـدقائهم فهم مأذونون فى أن يأكلوا منها بمقدار حاجتهم من غير إسراف و إفساد.

فقـوله: لَیْسَ عَلَی الْأَعْمی حَرَجٌ -الى قـوله- وَ لاـ عَلی أَنْفُسِکُمْ فى عطـف «عَلی أَنْفُسِکُمْ» على مـا تقـدمه دلاـله على أن عدّ المذكورين ليس لاختصاص الحق بهم بل لكونهم أرباب عاهات يشكل عليهم أن يكتسبوا الرزق بعمل أنفسهم أحيانا و إلا فلا فرق بين الأعمى و الأعرج و المريض و غيرهم فى ذلک.

و قوله: مِنْ بُیُوتِکُمْ أَوْ بُیُوتِ آبائِکُمْ الـخ،فى عـدّ «بُیُوتِکُمْ» مع بيوت الأقرباء و غيرهم إشاره الى نفى الفرق فى هـذا الدين المبنى على كون المؤمنين بعضهم أولياء بعض بين

بیوتهم أنفسهم و بیوت أقربائهم و ما ملکوا مفاتحه و بیوت أصدقائهم.

علی أن «بُیُوتِکُمْ» یشمل بیت الابن و الزوج کما وردت به الروایه،و قوله: «أَوْ مٰا مَلَکْتُمْ مَفٰاتِحَهُ» المفاتح جمع مفتح و هو المخزن،و المعنی:أو البیت الذی ملکتم أی تسلّطتم علی مخازنه التی فیها الرزق کما یکون الرجل قیّما علی بیت أو وکیلا أو سلّم الیه مفتاحه.

و قوله: أَوْ صَدِیقِکُمْ معطوف علی ما تقدمه بتقدیر بیت علی ما یعلم من سیاقه، و التقدیر أو بیت صدیقکم.

قوله تعالی: لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَأْکُلُوا جَمِیعاً أَوْ أَشْتٰاتاً الأشتات جمع شت و هو مصدر بمعنی التفرّق استعمل بمعنی المتفرق مبالغه ثم جمع أو صفه بمعنی المتفرق کالحق،و المعنی:لا إثم علیکم أن تأکلوا مجتمعین و بعضکم مع بعض أو متفرقین،و الآیه عامه و إن کان نزولها لسبب خاص کما روی.

و للمفسرین فی هذا الفصل من الآیه و فی الفصل الذی قبلها اختلافات شدیده رأینا الصفح عن إیرادها و الغور فی البحث عنها أولی،و ما أوردناه من المعنی فی الفصلین هو الذی یعطیه سیاقهما.

قوله تعالی: فَإِذٰا دَخَلْتُمْ بُیُوتاً فَسَلِّمُوا عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ تَحِیَّهً مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُبٰارَکَهً طَیِّبَهً الخ؛لما تقدم ذکر البیوت فرّع علیه ذکر أدب الدخول فیها فقال: «فَإِذٰا دَخَلْتُمْ بُیُوتاً» .

فقوله: فَسَلِّمُوا عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ المراد فسلّموا علی من کان فیها من أهلها و قد بدّل من قوله: «عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ» للدلاله علی أن بعضهم من بعض فإن الجمیع إنسان و قد خلقهم اللّه من ذکر و أنثی علی أنهم مؤمنون و الإیمان یجمعهم و یوحّدهم أقوی من الرحم و أی شیء آخر.

و لیس ببعید أن یکون المراد بقوله: «فَسَلِّمُوا عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ» أن یسلّم الداخل علی أهل

البيت و يردّوا السلام عليه.

و قوله: تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُبٰارَكَةً طَيِّبَةً أى حال كون السلام تحيه من عند اللّه شرّعها اللّه و أنزل حكمها ليحيّى بها المسلمون و هو مبارك ذو خير كثير باق و طيّب يلائم النفس فإن حقيقه هذه التحيه بسط الأمن و السلامه على المسلّم عليه و هو أطيب أمر يشترك فيه المجتمعان.

ثم ختم سبحانه الآيه بقوله: «كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الْآيٰاتِ» و قد مرّ تفسيره «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أى تعلموا معالم دينكم فتعملوا بها كما قيل.

قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذٰا كٰانُوا مَعَهُ عَلىٰ أَمْرٍ جٰامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتّٰى يَسْتَأْذِنُوهُ ذكر قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ» بيانا للمؤمنين على ظهور معناه للدلاله على اتصافهم بحقيقه لمعنى أى إنما المؤمنون الذين آمنوا باللّه و رسوله بحقيقه الإيمان و أيقنوا بتوحّده تعالى و اطمأنّت نفوسهم و تعلّقت قلوبهم برسوله.

و لذلك عقّبه بقوله: «وَ إِذٰا كٰانُوا مَعَهُ عَلىٰ أَمْرٍ جٰامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتّٰى يَسْتَأْذِنُوهُ» و الأمر الجامع هو الذى يجمع الناس للتدبّر فى أطرافه و التشاور و العزم عليه كالحرب و نحوها.

و المعنى:و إذا كانوا مع الرسول بالاجتماع عنده على أمر من الامور العامه لم يذهبوا و لم ينصرفوا من عند الرسول حتى يستأذنوه للذهاب.

و لذلك أيضا عقّبه بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ» و هو بمنزله عكس صدر الآيه للدلاله على الملازمه و عدم الانفكاك.

و قوله: فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ تخيير منه تعالى لرسوله فى أن يأذن لمن شاء و لا يأذن لمن لم يشأ.

و قوله: وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أمر له بالاستغفار لهم تطييبا

لنفوسهم و رحمه بهم.

قوله تعالى: لاٰ تَجْعَلُوا دُعٰاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعٰاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً الى آخر الآيه،دعاء الرسول هو دعوته الناس الى أمر من الامور كدعوتهم الى الإيمان و العمل الصالح،و دعوتهم ليشاورهم فى أمر جامع،و دعوتهم الى الصلاه جامعه،أو مرهم بشىء فى أمر دنياهم او أخراهم فكل ذلك دعاء و دعوه منه صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و يشهد بهذا المعنى قوله ذيلا: «قَدْ يَعْلَمُ اللّٰهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوٰاذاً» و ما يتلوه من تهديد مخالفى أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلم كما لا يخفى.و هو أنسب لسياق الآيه السابقه فإنها تمدح الذين يلبّون دعوته و يحضرون عنده و لا يفارقونه حتى يستأذنوه و هذه تذمّ و تهدّد الذين يدعوهم فيتسللون عنه لو اذا غير مهتمّين بدعائه و لا معتنين.

و قوله: قَدْ يَعْلَمُ اللّٰهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوٰاذاً التسلل:الخروج من البين برفق و احتيال من سلّ السيف من غمده،و اللواذ:الملاوذه و هو أن يلوذ الإنسان و يلتجئ الى غيره فيستتر به،و المعنى:أن اللّه يعلم منكم الذين يخرجون من بين الناس و الحال أنهم يلوذون بغيرهم و يسترون به فينصرفون فلا يهتمّون بدعاء الرسول و لا يعتنون به.

و قوله: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخٰالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ ظاهر سياق الآيه بما تقدم من المعنى أن ضمير «عَنْ أَمْرِهِ» للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو دعاؤه،ففى الآيه تحذير لمخالفى أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و دعوته من أن تصيبهم فتنه و هى البليّه أو يصيبهم عذاب أليم.

قوله تعالى: أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مٰا أَنْتُمْ عَلَيْهِ اختتام للسوره ناظر الى قوله فى مفتتحها: «سُورَةٌ أَنْزَلْنٰاهٰا وَ فَرَضْنٰاهٰا وَ أَنْزَلْنٰا فِيهٰا آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ» فما فى مختتمها كالتعليل لما فى مفتتحها.

فقوله: أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ بيان لعموم الملك و أن كل شىء

مملوک للّه سبحانه قائم به فهی معلومه له بجمیع خصوصیات وجودها فیعلم ما تحتاج الیه، و الناس من جمله ما یعلم بحقیقه حاله و ما یحتاج الیه فالذی یشرّعه لهم من الدین مما یحتاجون الیه فی حیاتهم کما أن ما یرزقهم من المعیشه مما یحتاجون الیه فی بقائهم.

فقوله: قَدْ یَعْلَمُ مٰا أَنْتُمْ عَلَیْهِ -أی من حقیقه الحال المنبئه عن الحاجه-بمنزله النتیجه المترتبه علی الحجه أی ملکه لکم و لکل شیء یستلزم علمه بحالکم و بما تحتاجون الیه من شرائع الدین فیشرّعه لکم و یفرضه علیکم.

و قوله: وَ یَوْمَ یُرْجَعُونَ إِلَیْهِ فَیُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُوا وَ اللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ معطوف علی قوله: «مٰا أَنْتُمْ عَلَیْهِ» أی و یعلم یوما یرجعون الیه و هو یوم القیامه فیخبرهم بحقیقه ما عملوا و اللّه بکل شیء علیم.

و فی هذا الذیل حث علی الطاعه و الانقیاد لما شرّعه و فرضه من الأحکام و العمل به من جهه أنه سیخبرهم بحقیقه ما عملوا به کما أن فی الصدر حثا علی القبول من جهه أن اللّه إنما شرّعها لعلمه بحاجتهم إلیها و أنها التی ترفع بها حاجتهم (1).

۱- ۱) .النور ۵۸-۶۴:بحث روائی فی الاستیذان.

سوره الفرقان مکیه و هی سبع و سبعون آیه

اشاره

[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۱ الی ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمlt;br/gt;تَبٰارَكَ اَلَّذِی نَزَّلَ اَلْفُرْقٰانَ عَلىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعٰالَمِينَ نَذِيراً (۱) اَلَّذِی لَهُ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِی اَلْمُلْكِ وَ خَلَقَ كُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (۲) وَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاٰ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لاٰ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً وَ لاٰ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لاٰ حَيٰاةً وَ لاٰ نُشُوراً (۳)

بیان:

غرض السوره بیان أن دعوه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم دعوه حقه عن رساله من جانب اللّه تعالی و کتاب نازل من عنده و فیها عنایه بالغه بدفع ما أورده الکفار علی کون النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم رسولا من جانب اللّه و کون کتابه نازلا من عنده و رجوع الیه کره بعد کره.

ص :۴۷۴

و قـد اسـتتبع ذلـك شـيئا من الاحتجـاج على التوحيـد و نفى الشـريك و ذكر بعض أوصـاف يوم القيـامه و ذكر نبـذه من نعوت المؤمنين الجميله،و الكلام فيها جار على سياق الإنذار و التخويف دون التبشير.

و السوره مكيه على ما يشـهد به سياق عامه آياتها نعم ربما استثنى منها ثلاث آيات و هى قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ لاٰ يَدْعُونَ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ -الى قوله- غَفُوراً رَحِيماً» .

و لعل الوجه فيه اشـتمالها على تشـريع حرمه الزنا لكنّك قـد عرفت فيما أوردناه من أخبار آيه الخمر من سوره المائده أن الزنا و الخمر كانا معروفين بالتحريم فى الإسلام من أول ظهور الدعوه الإسلاميه.

قوله تعـالى: تَبٰارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقٰانَ عَلىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعٰالَمِينَ نَـذِيراً البركه بفتحتين ثبوت الخير فى الشـىء كثبوت الماء فى البركه بالكسـر فالسـكون مـأخوذ من برك البعير إذا ألقى صـدره على الأـرض و اسـتقرّ عليهـا،و منه التبارك بمعنى ثبوت الخير الكثير و فى صيغته دلاله على المبالغه على ما قيل،و هو كالمختص به تعالى لم يطلق على غيره إلا على سبيل الندره.

و الفرقان هو الفرق سـمّى به القرآن لنزول آياته متفرقه أو لتمييزه الحق من الباطل و يؤيـد هـذا المعنى إطلاق الفرقان فى كلامه تعـالى على التوراه أيضـا مع نزولهـا دفعه،قـال الراغب فى المفردات:و الفرقـان أبلغ من الفرق لأنه يسـتعمل فى الفرق بين الحق و الباطل،و تقديره كتقدير رجل قنعان يقنع به فى الحكم،و هو اسم لا مصدر فيما قيل،و الفرق يستعمل فيه و فى غيره.

انتهى.

و العالمون جمع عالم و معناه الخلق قال فى الصـحاح:العالم الخلق و الجمع العوالم،و العالمون أصناف الخلق انتهى.و اللفظه و إن كانت شامله لجميع الخلق من الجماد و النبات و الحيوان و الإنسان و الجن و الملك لكن سياق الآيه-و قد جعل فيها الإنذار غايه لتنزيل القرآن-يدل

على كون المراد بها المكلفين من الخلق و هو الثقلان:الإنس و الجن فيما نعلم.

و بذلك يظهر عدم استقامه ما ذكره بعضهم أن الآيه تدل على عموم رسالته صلّى اللّه عليه و آله و سلم لجميع ما سوى اللّه فإن فيه غفله عن وجه التعبير عن الرساله بالإنذار و نظير الآيه قوله تعالى:

وَ اصْطَفٰاكِ عَلىٰ نِسٰاءِ الْعٰالَمِينَ (آل عمران۴۲/)و قوله: وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلَى الْعٰالَمِينَ (الجاثيه۱۶/).

و النذير بمعنى المنذر على ما قيل،و الإنذار قريب المعنى من التخويف.

فقوله تعالى: «تَبٰارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقٰانَ عَلىٰ عَبْدِهِ» أى ثبت و تحقق خير كثير فيمن نزّل الفرقان على عبده محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و ثبوت الخير الكثير العائد الى الخلق فيه تعالى كنايه عن فيضانه منه على خلقه حيث نزّل على عبده كتابا فارقا بين الحق و الباطل منقذا للعالمين من الضلال سائقا لهم الى الهدى.

و الجمع فى الآيه بين نزول القرآن من عنده تعالى و كون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم رسولا منه نذيرا للعالمين مع تسميه القرآن فرقانا بين الحق و الباطل و توصيف النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بكونه عبدا له نذيرا للعالمين المشعر بكونه مملوكا مأمورا لا يملك من نفسه شيئا كل ذلك تمهيد لما سيحكى-عن المشركين من طعنهم فى القرآن بأنه افتراء على اللّه اختلقه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و أعانه على ذلك قوم آخرون،و من طعنهم فى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأنه يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق و سائر ما تفوّهوا به-و ما يدفع به مطاعنهم.

فالمحصّل أنه كتاب يفرّق بحجته الباهره بين الحق و الباطل فلا يكون إلا حقا إذ الباطل لا يفرّق بين الحق و الباطل و إنما يشبّه الباطل بالحق ليلبس على الناس،و أن الذى جاء به عبد مطيع للّه ينذر به العالمين و يدعوهم الى الحق فلا يكون إلا على الحق و لو كان مبطلا لم يدع الى الحق بل حاد عنه و انحرف على أن اللّه سبحانه يشهد فى كلامه المعجز بصدق رسالته و أن الذى جاء به من الكتاب منزل من عنده.

و قوله تعالى: لِيَكُونَ لِلْعٰالَمِينَ نَذِيراً اللام للتعليل و تدل على أن غايه تنزيل الفرقان على عبده أن يكون منذرا لجميع العالمين من الإنس و الجن،و الجمع المحلّى باللام يفيد الاستغراق،و لا يخلو الإتيان بصيغه الجمع المحلى باللام من إشاره الى أن للجميع إلها واحدا لا كما يذهب اليه الوثنيون حيث يتخذ كل قوم إلها غير ما يتخذه الآخرون.

و الاكتفاء بذكر الإنذار دون التبشير لأن الكلام فى السوره مسوق سوق الإنذار و التخويف.

قوله تعالى: اَلَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الى آخر الآيه؛الملك بكسر الميم و فتحها قيام شىء بشىء بحيث يتصرف فيه كيف شاء سواء كان قيام رقبته به كقيام رقبه المال بمالكه بحيث كان له أنواع التصرف فيه أو قيامه به باستيلائه عليه بالتصرف بالأمر و النهى و أنواع الحكم كاستيلاء الملك على الناس من رعيته و ما فى أيديهم،و يطلق على القسم الثانى الملك بضم الميم.

فالملك بكسر الميم أعم من الملك بضمها كما قال الراغب الملك-بفتح الميم و كسر اللام- هو المتصرف بالأمر و النهى فى الجمهور،و ذلك يختص بسياسه الناطقين،و لهذا يقال:ملك الناس و لا يقال:ملك الأشياء-الى أن قال-فالملك بالضم-ضبط الشىء المتصرف فيه بالحكم،و الملك-بالكسر-كالجنس للملك فكل ملك-بالضم-ملك بالكسر-و ليس كل ملك-بالكسر- ملكا-بالضم-انتهى.

و ربما يخص الملك بالكسر بما يتعلق بالرقبه،و الملك بالضم بغيره.

فقوله تعالى: اَلَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ و اللام للاختصاص-يفيد أن السماوات و الأرض مملوكه له غير مستقله بنفسها فى جهه من جهاتها و لا مستغنيه عن التصرف فيها بالحكم و أن الحكم فيها و إداره رحاها يختص به تعالى فهو الملك المتصرف بالحكم فيها على الإطلاق.

و بذلک یظهر ترتب قوله: «وَ لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً» علی ما تقدمه فإن الملک علی الإطلاق لا یدع حاجه الی اتخاذ الولد إذ اتخاذ الولد لأحد أمرین إما لکون الشخص لا یقوی علی إداره رحی جمیع أموره و لا یملک تدبیرها جمیعا فیتخذ الولد لیستعین به علی بعض حوائجه و اللّه سبحانه یملک کل شیء و یقوی علی ما أراد،و إما لکون الشخص محدود البقاء لا یملک ما یملک إلا فی أمد محدود فیتخذ الولد لیخلفه فیقوم علی أموره بعده و اللّه سبحانه یملک کل شیء سرمدا و لا یعتریه فناء و زوال فلا حاجه له الی اتخاذ الولد البته و فیه رد علی المشرکین و النصاری.

و کذا قوله تعالی بعده: «وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی الْمُلْکِ» فان الحاجه الی الشریک إنما هی فیما إذا لم یستوعب الملک الامور کلها و ملکه تعالی عام لجمیع الأشیاء محیط بجمیع جهاتها لا یشذ منه شاذ،و فیه رد علی المشرکین.

و قوله تعالی: وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِیراً بیان لرجوع تدبیر عامه الامور الیه تعالی وحده بالخلق و التقدیر فهو رب العالمین لا رب سواه.

قوله تعالی: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاٰ یَخْلُقُونَ شَیْئاً وَ هُمْ یُخْلَقُونَ الخ؛ لمّا نعت نفسه بأنه خالق کل شیء و مقدّره و أن له ملک السماوات و الأرض و هکذا کان یجب أن یکون الإله المعبود،أشار الی ضلاله المشرکین حیث عبدوا أصناما لیست بخالقه شیئا بل هی مخلوقه مصنوعه لهم و لا مالکه شیئا لأنفسهم و لا لغیرهم.

و ضمیر «وَ اتَّخَذُوا» للمشرکین علی ما یفیده السیاق و إن لم یسبق لهم ذکر و مثل هذا التعبیر یفید التحقیر و الاستهانه.

و قوله: مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاٰ یَخْلُقُونَ شَیْئاً وَ هُمْ یُخْلَقُونَ یرید به أصنامهم التی صنعوها بأیدیهم بنحت او نحوه،و توصیفها بالآلهه مع تعقیبها بمثل قوله: «لاٰ یَخْلُقُونَ شَیْئاً وَ هُمْ یُخْلَقُونَ» إشاره الی أن لیس لها من الالوهیه إلا اسم سمّوها به من غیر أن تتحقق من

حقیقتها بشیء کما قال تعالی: إِنْ هِیَ إِلاّ أَسْمٰاءٌ سَمَّیْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُکُمْ (النجم۲۳/).

و وضع النکره فی قوله: «لاٰ یَخْلُقُونَ شَیْئاً» فی سیاق النفی مبالغه فی تقریعهم حیث أعرضوا عن اللّه سبحانه و هو خالق کل شیء و تعلقوا بأصنام لا یخلقون و لا شیئا من الأشیاء بل هم أردأ حالا من ذلک حیث إنهم مصنوعون لعبّادهم مخلوقون لأوهامهم،و نظیر الکلام جار فی قوله: «ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً» و قوله: «مَوْتاً وَ لاٰ حَیٰاهً وَ لاٰ نُشُوراً» .

و قوله: وَ لاٰ یَمْلِکُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً نفی للملک عنهم و هو ضروری فی الإله إذ کان عبّادهم إنما یعبدونهم لیدفعوا عنهم الضر و یجلبوا إلیهم النفع و إذ کانوا لا یملکون ضرا و لا نفعا حتی لأنفسهم لم تکن عبادتهم إلا خبلا و ضلالا.

و بذلک یظهر أن فی وقوع «لِأَنْفُسِهِمْ» فی السیاق زیاده تقریع و الکلام فی معنی الترقی أی لا یملکون لأنفسهم ضرا حتی یدفعوه و لا نفعا حتی یجلبوه فکیف لغیرهم؟و قد قدّم الضر علی النفع لکون دفع الضرر أهم من جلب النفع.

و قوله: وَ لاٰ یَمْلِکُونَ مَوْتاً وَ لاٰ حَیٰاهً وَ لاٰ نُشُوراً أی لا یملکون موتا حتی یدفعوه عن عبّادهم او عمن شاءوا و لا حیاه حتی یسلبوها عمن شاءوا او یفیضوها علی من شاءوا و لا نشورا حتی یبعثوا الناس فیجازوهم علی أعمالهم،و ملک هذه الامور من لوازم الالوهیه.

[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۴ الی ۲۰]

اشاره

وَ قٰالَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّ إِفْکٌ اِفْتَرٰاهُ وَ أَعٰانَهُ عَلَیْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جٰاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً (۴) وَ قٰالُوا أَسٰاطِیرُ اَلْأَوَّلِینَ اِکْتَتَبَهٰا فَهِیَ تُمْلیٰ عَلَیْهِ بُکْرَهً وَ أَصِیلاً (۵) قُلْ أَنْزَلَهُ اَلَّذِی یَعْلَمُ اَلسِّرَّ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ إِنَّهُ کٰانَ غَفُوراً رَحِیماً (۶) وَ قٰالُوا مٰا لِهٰذَا اَلرَّسُولِ یَأْکُلُ اَلطَّعٰامَ وَ یَمْشِی فِی اَلْأَسْوٰاقِ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَلَکٌ فَیَکُونَ مَعَهُ نَذِیراً (۷) أَوْ یُلْقیٰ إِلَیْهِ کَنْزٌ أَوْ تَکُونُ لَهُ جَنَّهٌ یَأْکُلُ مِنْهٰا وَ قٰالَ اَلظّٰالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ رَجُلاً مَسْحُوراً (۸) اُنْظُرْ کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ اَلْأَمْثٰالَ فَضَلُّوا فَلاٰ یَسْتَطِیعُونَ سَبِیلاً (۹) تَبٰارَکَ اَلَّذِی إِنْ شٰاءَ جَعَلَ لَکَ خَیْراً مِنْ ذٰلِکَ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ وَ یَجْعَلْ لَکَ قُصُوراً (۱۰) بَلْ کَذَّبُوا بِالسّٰاعَهِ وَ أَعْتَدْنٰا لِمَنْ کَذَّبَ بِالسّٰاعَهِ سَعِیراً (۱۱) إِذٰا رَأَتْهُمْ مِنْ مَکٰانٍ بَعِیدٍ سَمِعُوا لَهٰا تَغَیُّظاً وَ زَفِیراً (۱۲) وَ إِذٰا أُلْقُوا مِنْهٰا مَکٰاناً ضَیِّقاً مُقَرَّنِینَ دَعَوْا هُنٰالِکَ ثُبُوراً (۱۳) لاٰ تَدْعُوا اَلْیَوْمَ ثُبُوراً وٰاحِداً وَ اُدْعُوا ثُبُوراً کَثِیراً (۱۴) قُلْ أَ ذٰلِکَ خَیْرٌ أَمْ جَنَّهُ اَلْخُلْدِ اَلَّتِی وُعِدَ اَلْمُتَّقُونَ کٰانَتْ لَهُمْ جَزٰاءً وَ مَصِیراً (۱۵) لَهُمْ فِیهٰا مٰا یَشٰاؤُنَ خٰالِدِینَ کٰانَ عَلیٰ رَبِّکَ وَعْداً مَسْؤُلاً (۱۶) وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ وَ مٰا یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ فَیَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبٰادِی هٰؤُلاٰءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا اَلسَّبِیلَ (۱۷) قٰالُوا سُبْحٰانَکَ مٰا کٰانَ یَنْبَغِی لَنٰا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِکَ مِنْ أَوْلِیٰاءَ وَ لٰکِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰی نَسُوا اَلذِّکْرَ وَ کٰانُوا قَوْماً بُوراً (۱۸) فَقَدْ کَذَّبُوکُمْ بِمٰا تَقُولُونَ فَمٰا تَسْتَطِیعُونَ صَرْفاً وَ لاٰ نَصْراً وَ مَنْ یَظْلِمْ مِنْکُمْ نُذِقْهُ عَذٰاباً کَبِیراً (۱۹) وَ مٰا أَرْسَلْنٰا قَبْلَکَ مِنَ اَلْمُرْسَلِینَ إِلاّ إِنَّهُمْ لَیَأْکُلُونَ اَلطَّعٰامَ وَ یَمْشُونَ فِی اَلْأَسْوٰاقِ وَ جَعَلْنٰا بَعْضَکُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَهً أَ تَصْبِرُونَ وَ کٰانَ رَبُّکَ بَصِیراً (۲۰)

بيان:

قوله تعالی: وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذٰا إِلاّٰ إِفْكٌ اِفْتَرٰاهُ وَ أَعٰانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ الخ؛فی التعبیر بمثل قوله: «وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا» من غیر أن یقال:و قالوا:مع تقدم ذکر الکفار فی قوله: «وَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً» تلویح الی أن القائلین بهذا القول هم کفار العرب دون مطلق المشرکین.

و المشار الیه بقولهم: «إِنْ هٰذٰا» القرآن الکریم،و إنما اکتفوا بالإشاره دون أن یذکروه باسمه أو بشیء من أوصافه ازدراء به و حطا لقدره.

و الإفک هو الکلام المصروف عن وجهه،و مرادهم بکونه إفکا افتراء کونه کذبا اختلقه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و نسبه الی اللّه سبحانه.

و السیاق لا یخلو من إیماء الی أن المراد بالقوم الآخرین بعض أهل الکتاب و قد ورد فی بعض الآثار أن القوم الآخرین هم عداس مولی حویطب بن عبد العزّی و یسار مولی العلاء بن الحضرمی و جبر مولی عامر کانوا من أهل الکتاب یقرءون التوراه أسلموا و کان

النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم یتعهدهم فقیل ما قیل.

و قوله: فَقَدْ جٰاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً قال فی مجمع البیان:إن جاء و أتی ربما کانا بمعنی فعل فیتعدیان مثله فعنی الآیه فقد فعلوا ظلما و کذبا،و قیل:إن ظلما منصوب بنزع الخافض و التقدیر فقد جاءوا بظلم،و قیل:حال و التقدیر فقد جاءوا ظالمین و هو سخیف.

و فیه أیضا:و متی قیل:کیف اکتفی بهذا القدر من جوابهم؟قلنا:لما تقدم التحدی و عجزهم عن الإتیان بمثله اکتفی هاهنا بالتنبیه علی ذلک.انتهی و الظاهر أن الجواب عن قولهم: «إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ إِفْکٌ افْتَرٰاهُ» الخ؛و قولهم: «أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ اکْتَتَبَهٰا» الخ؛جمیعا هو قوله تعالی: «قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِی یَعْلَمُ السِّرَّ» الخ؛علی ما سنبین و الجمله أعنی قوله: «فَقَدْ جٰاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً» رد مطلق لقولهم و هو فی معنی المنع مع السند و سنده الآیات المشتمله علی التحدی.

و بالجمله معنی الآیه:و قال الذین کفروا من العرب لیس هذا القرآن إلا کلاما مصروفا عن وجهه-حیث إنه کلام محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم و قد نسبه الی اللّه-افتری به علی اللّه و أعانه علی هذا الکلام قوم آخرون و هم بعض أهل الکتاب فقد فعل هؤلاء الذین کفروا بقولهم هذا ظلما و کذبا.

قوله تعالی: وَ قٰالُوا أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ اکْتَتَبَهٰا فَهِیَ تُمْلیٰ عَلَیْهِ بُکْرَةً وَ أَصِیلاً الأساطیر جمع أسطوره بمعنی الخبر المکتوب و یغلب استعماله فی الأخبار الخرافیه و الاکتتاب هو الکتابه و نسبته الیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم مع کونه امیا لا یکتب إنما هی بنوع من التجوز ککونه مکتوبا باستدعاء منه کما یقول الأمیر کتبت الی فلان کذا و کذا و إنما کتبه کاتبه بأمره، و الدلیل علی ذلک قوله بعد: «فَهِیَ تُمْلیٰ عَلَیْهِ بُکْرَةً وَ أَصِیلاً» إذ لو کان هو الکاتب لم یکن معنی للاملاء،و قیل:الاکتتاب بمعنی الاستکتاب.

و الإملاء إلقاء الکلام الی المخاطب بلفظه لیحفظه و یعیه أو الی الکاتب لیکتبه و المراد به فی

الآیه هو المعنی الأول لی ما یعطیه سیاق «اکْتَتَبَهٰا فَهِیَ تُمْلیٰ عَلَیْهِ» إذ ظاهره تحقق الاکتتاب دفعه و الإملاء تدریجا علی نحو الاستمرار فهی مکتوبه مجموعه عنده تقرأ علیه وقتا بعد وقت و هو یعیها فیقرأ علی الناس ما وعاه و حفظه.

و البکره و الأصیل الغداه و العشی،و هو کنایه عن الوقت بعد الوقت،و قیل المراد أول النهار قبل خروج الناس من منازلهم و آخر النهار بعد دخولهم فی منازلهم و هو کنایه عن أنها تملی علیه خفیه.

قوله تعالی: قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِی یَعْلَمُ السِّرَّ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ کٰانَ غَفُوراً رَحِیماً أمر للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم برد قولهم و تکذیبهم فیما رموا به القرآن أنه إفک مفتری و أنه أساطیر الأولین اکتتبها فهی تملی علیه وقتا بعد وقت.

و توصیفه تعالی بأنه یعلم السر أی خفیّات الامور و بواطنها فی السماوات و الأرض للإیذان بأن هذا الکتاب الذی أنزله منطو علی أسرار مطویه عن عقول البشر،و فیه تعریض بمجازاتهم علی جنایاتهم التی منها رمیهم القرآن بأنه إفک مفتری و أنه من الأساطیر و هو مما یعلمه تعالی.

و قوله: إِنَّهُ کٰانَ غَفُوراً رَحِیماً تعلیل لما هو المشاهد من إمهالهم و تأخیر عقوبتهم علی جنایاتهم و تکذیبهم للحق و جرأتهم علی اللّه سبحانه.

و المعنی:قل إن القرآن لیس إفکا مفتری و لا من الأساطیر کما یقولون بل کتاب منزل من عند اللّه سبحانه ضمّنه أسرار خفیه لا تصل الی کنهها عقولکم و لا تحیط بها أحلامکم، و رمیکم إیاه بالإفک و الأساطیر و تکذیبکم لحقائقه جنایه عظیمه تستحقون بها العقوبه غیر أن اللّه سبحانه أمهلکم و أخّر عقوبه جنایتکم لأنه متصف بالمغفره و الرحمه و ذلک یستتبع تأخیر العذاب،هذا ملخص ما ذکروه فی معنی الآیه.

و فیه أن السیاق لا یساعد علیه فإن محصّل معنی الآیه علی ما فسّروه یرجع الی رد دعوی

ص :۴۸۳

الکفار کون القرآن إفکا مفتری و من الأساطیر بدعوی أنه منزل من عند اللّه منطو علی أسرار خفیه لا سبیل لهم الی الوقوف علیها لا مساغ فی مقام المخاصمه لرد الدعوی بدعوی أخری مثلها او هی أخفی منها.

علی أن التعلیل بقوله: «إِنَّهُ کانَ غَفُوراً رَحِیماً» إنما یناسب انتفاء العقوبه من أصلها دون الإمهال و التأخیر و إنما المناسب للإمهال و التأخیر من الأسماء هو مثل الحلیم و العلیم و الحکیم دون الغفور الرحیم.

و الأوفق لمقام المخاصمه و الدفاع بإبانه الحق و التعلیل بالمغفره و الرحمه أن یکون قوله:

«إِنَّهُ کانَ غَفُوراً رَحِیماً» تعلیلا لإنزال الکتاب و قد ذکر قبل ذلک أنه أنزله علی عبده لیکون للعالمین نذیرا و هذه هی النبوه،و یکون حینئذ وصفه تعالی بعلم السر فی السماوات و الأرض للإیماء الی أن فی سرهم ما یستدعی شمول المغفره و الرحمه الإلهیتین لحالهم و هو طلبهم بفطرتهم و جبلّتهم للسعاده و العاقبه الحسنی التی لیست حقیقتها إلا السعاده الإنسانیه بشمول المغفره و الرحمه و إن أخطأ کثیر منهم فی تطبیقها علی التمتع بالحیاه الدنیا و زینتها الدائره فیکون حجه برهانیه علی حقّیه الدعوه النبویه المشتمله علیها القرآن،و بطلان دعوی کونه إفکا من أساطیر الأولین.

و تقریر الحجه أن اللّه سبحانه یعلم السر فی السماوات و الأرض و هو یعلم أن فی سرکم المستقر فی سرائرکم المجبوله علیه فطرتکم حبا للسعاده و طلبا و انتزاعا للعاقبه الحسنی و حقیقتها فوز الدنیا و الآخره،و کان سبحانه غفورا رحیما و مقتضی ذلک أن یجیبکم الی ما تسألونه فی سرکم و بلسان فطرتکم فیهدیکم الی سبیله التی تضمن لکم السعاده.

و هذا کتاب ینطق علیکم بسبیله فلیس إفکا مفتری علی اللّه و لا من قبیل الأساطیر بل هو کتاب یتضمن ما تسألونه بفطرتکم و تستدعونه فی سرّکم فإن استجبتم لداعیه شملتکم المغفره و الرحمه و إن تولیتم حرمتم ذلک فهو کتاب منزل من عند اللّه و لو لم یکن نازلا من عنده

كما يخبر عنه لم يهد الى حقيقه السعاده و لم يدع الى محض الحق و لاختلفت بياناته فدعاكم تاره الى ما فيه خيركم و نفعكم و هو الذى يجلب اليكم المغفره و الرحمه،و تاره الى ما هو شرّ لكم و ضارّ و هو الذى يثير عليكم السخط الإلهى و يستوجب لكم العقوبه.

قوله تعالى: وَ قٰالُوا مٰا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعٰامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوٰاقِ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهٰا هذه حكايه ما طعنوا به فى الرسول بعد ما حكى طعنهم فى القرآن بقوله:

«وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ إِفْكٌ افْتَرٰاهُ» الخ.

و تعبيرهم عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بقولهم: «لِهٰذَا الرَّسُولِ» مع تكذيبهم برسالته مبنى على التهكم و الاستهزاء.

و قولهم: مٰا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعٰامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوٰاقِ استفهام للتعجيب و الوجه فيه أن الوثنيين يرون أن البشر لا يسوغ له الاتصال بالغيب و هو متعلق الوجود بالماده منغمر فى ظلماتها،و متلوّث بقذاراتها،و لذا يتوسلون فى التوجه الى اللاهوت بالملائكه فيعبدونهم ليشفعوا لهم عند اللّه و يقرّبوهم من اللّه زلفى فالملائكه هم المقرّبون عند اللّه المتصلون بالغيب المتعيّنون للرساله لو كانت هناك رساله،و ليس للبشر شىء من ذلك.

قوله تعالى: وَ قٰالَ الظّٰالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّٰ رَجُلاً مَسْحُوراً المراد بالظالمين هم المقترحون السابقو الذكر-كما قيل-فهو من وضع الظاهر موضع المضمر و وصفهم بالظلم للدلاله على بلوغهم فى الظلم و الاجتراء على اللّه و رسوله.

و قولهم: إِنْ تَتَّبِعُونَ الخ؛خطاب منهم للمؤمنين تعييرا لهم و إغواء عن طريق الحق، و مرادهم بالرجل المسحور النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم يريدون أنه مسحور سحره بعض السحره فصار يخيّل اليه أنه رسول يأتيه ملك الوحى بالرساله و الكتاب.

قوله تعالى: اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثٰالَ فَضَلُّوا فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ

سَبِيلاً الأمثال الأشباه و ربما قيل:إن المثل هنا بمعنى الوصف على حدّ قوله تعالى: مَثَلُ الْجَنَّهِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهٰا أَنْهٰارٌ مِنْ مٰاءٍ غَيْرِ آسِنٍ (سوره محمد١۵/)،و المحصّل:انظر كيف وصفوك فضلّوا فيك ضلالا لا يرجى معه اهتداؤهم الى الحق كقولهم إنه يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق فلا يصلح للرساله لأن الرسول يجب أن يكون شخصا غيبيا لا تعلّق له بالماده و لا أقل من عدم احتياجه الى الأسباب العاديه فى تحصيل المعاش،و كقولهم:إنه رجل مسحور.

و قوله: فَضَلُّوا فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً أى تفرّع على هذه الأمثال التى ضربوها لك أنهم ضلوا ضلالا لا يستطيعون معه أن يردوا سبيل الحق و لا يرجى لهم معه الاهتداء فإن من أخطأ الطريق ربما أخطأها بانحراف يسير يرجى معه ركوبها ثانيا،و ربما استدبرها فصار كلما أمعن فى مسيره زاد منها بعدا،و من سمى كتاب اللّه بالأساطير و وصف رسوله بالمسحور و لم يزل يزيد تعنتا و لجاجا و استهزاء بالحق كيف يرجى اهتداؤه و حاله هذه؟

قوله تعالى: تَبٰارَكَ الَّذِي إِنْ شٰاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذٰلِكَ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً الإشاره فى قوله: «مِنْ ذٰلِكَ» الى ما اقترحوه من قولهم: «أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّهٌ يَأْكُلُ مِنْهٰا» أو الى مجموع ما ذكروه من الكنز و الجنه.

و القصور جمع قصر و هو البيت المشيد العالى،و تنكير «قُصُوراً» للدلاله على التعظيم و التفخيم.

و الآيه بمنزله الجواب عن طعنهم بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و اقتراحهم أن ينزل اليه ملك أو يلقى اليه كنز أو يكون له جنه غير أن فيها التفاتا من التكلم الى الغيبه فلم يقل:قل إن شاء ربى جعل لى كذا و كذا بل عدل الى قوله: «تَبٰارَكَ الَّذِي إِنْ شٰاءَ جَعَلَ لَكَ» الخ.

و فيه تلويح الى أنهم لا يستحقون جوابا و لا يصلحون لأن يخاطبوا لأنهم على علم بفساد ما اقترحوا به عليه فالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم لم يذكر لهم إلا أنه بشر مثلهم يوحى اليه،و لم يدّع أن له قدر

غیبیه و سلطنه إلهیه علی کل ما یرید أو یراد منه،کما قال تعالی بعد ما حکی بعض اقتراحاتهم فی سوره الإسراء: قُلْ سُبْحٰانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلاّٰ بَشَراً رَسُولاً (الإسراء۹۳/).

فأعرض سبحانه عن مخاطبتهم و عن الجواب عما اقترحوه،و انما ذکر لنبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن ربه الذی اتخذه رسولا و أنزل علیه الفرقان لیکون للعالمین نذیرا قادر علی أعظم ما یقترحونه فإن شاء جعل له خیرا من ذلک جنات تجری من تحتها الأنهار،و یجعل له قصورا لا یبلغ وصفها واصف و ذلک خیر من أن یکون له جنه یأکل منها أو یلقی الیه کنز لیصرفه فی حوائجه.

و بهذا المقدار یتحصل جوابهم فیما اقترحوه من الکنز و الجنه،و أما نزول الملک الیه لیشارکه فی الانذار و یعینه علی التبلیغ فلم یذکر جواب عنه لظهور بطلانه،و قد أجاب تعالی عنه فی مواضع من کلامه بأجوبه مختلفه کقوله: وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ مَلَکاً لَجَعَلْنٰاهُ رَجُلاً وَ لَلَبَسْنٰا عَلَیْهِمْ مٰا یَلْبِسُونَ (الأنعام۹/)،و قوله: قُلْ لَوْ کٰانَ فِی الْأَرْضِ مَلاٰئِکَهٌ یَمْشُونَ مُطْمَئِنِّینَ لَنَزَّلْنٰا عَلَیْهِمْ مِنَ السَّمٰاءِ مَلَکاً رَسُولاً (الإسراء۹۵/)،و قوله: مٰا نُنَزِّلُ الْمَلاٰئِکَهَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ مٰا کٰانُوا إِذاً مُنْظَرِینَ (الحجر۸/)،و قد تقدم تقریر حجه کل من الآیات فی ضمن تفسیرها.

و من هنا یظهر أن المراد بجعل الجنات و القصور له صلّی اللّه علیه و آله و سلم جعله فی الدنیا علی ما یقتضیه مقام المخاصمه و رد قولهم فإن المحصل من السیاق أنهم یقترحون علیک کیت و کیت و هم یریدون تعجیزک و تبکیتک و إن ربک قادر علی أعظم من ذلک فإن شاء جعل لک خیرا من ذلک جنات تجری من تحتها الأنهار،الخ؛و هی لا محاله فی الدنیا و إلا لم ینقطع به الخصام.

قوله تعالی: بَلْ کَذَّبُوا بِالسّٰاعَهِ وَ أَعْتَدْنٰا لِمَنْ کَذَّبَ بِالسّٰاعَهِ سَعِیراً ، اضراب عن طعنهم فیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و اعتراضهم علیه بأکل الطعام و المشی فی الأسواق بما یتضمن معنی التکذیب أی ما کذبوک و ردّوا نبوتک لأنک تأکل الطعام و تمشی فی الأسواق فإنما هو کلام منهم صوری بل السبب الأصلی فی إنکارهم نبوّتک و طعنهم فیک أنهم کذّبوا بالساعه و أنکروا

المعاد،و من المعلوم أن لا وقع للنبوه مع إنكار الساعه و لا معنى للدين و الشريعه لو لا المحاسبه و المجازاه.

فالإشاره الى السبب الأصلى بعد ذكر الاعتراض و الاقتراح و الجواب هاهنا نظير ما وقع فى سوره الإسراء بعد ذكر الاقتراحات ثم الجواب من ذكر السبب الاصلى فى قوله: «قُلْ سُبْحانَ رَبِّی هَلْ كُنْتُ إِلاّ بَشَراً رَسُولاً وَ ما مَنَعَ النّاسَ أَنْ یُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدی إِلاّ أَنْ قالُوا أَ بَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَسُولاً» .

و قوله تعالى: وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسّاعَهِ سَعِیراً وضع الموصول و الصله مكان الضمير الراجع للدلاله على أن الجزاء بالسعير ثابت فى حق كل من كذّب بالساعه هم و غيرهم فيه سواء،و على أن سبب إعتاد السعير عليه فيهم تكذيبهم بالساعه.

و وضع الساعه ثانيا موضع ضميرها ليكون أنصّ و أصرح فهو المناسب لمقام التهديد، و السعير النار المشتعله الملتهبه.

قوله تعالى: إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِیدٍ سَمِعُوا لَها تَغَیُّظاً وَ زَفِیراً فى المفردات:الغيظ أشد غضب-الى أن قال-و التغيظ هو إظهار الغيظ،و قد يكون ذلک مع صوت مسموع كما قال: «سَمِعُوا لَها تَغَیُّظاً وَ زَفِیراً» انتهى،و فيه أيضا:الزفير تردد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه،انتهى.

و الآيه تمثل حال النار بالنسبه اليهم اذا برزوا لها يوم الجزاء أنها تشتد إذا ظهروا لها كالأسد يزأر إذا رأى فريسته.

قوله تعالى: وَ إِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَیِّقاً مُقَرَّنِینَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً «مَكاناً» منصوب بتقدير فى،و الثبور الويل و الهلاک.

و التقرين التصفيد بالأغلال و السلاسل و قيل:هو جعلهم مع قرناء الشياطين و هو بعيد من اللفظ.و المعنى و إذا ألقوا يوم الجزاء فى مكان ضيق من النار و هم مصفدون بالاغلال دعوا

هنالك ثبورا لا يوصف و هو قولهم:وا ثبوراه.

قوله تعالى: لاٰ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وٰاحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً الاستغاثه بالويل و الثبور نوع احتيال للتخلص من الشده و إذ كان اليوم يوم الجزاء فحسب لا ينفع فيه عمل و لا يجدى فيه سبب البته لم ينفعهم الدعاء بالثبور أصلا و لذا قال تعالى: «لاٰ تَدْعُوا الْيَوْمَ» الخ؛فهو كنايه عن أن الثبور لا ينفعكم اليوم سواء استقللتم منه أو استكثرتم.فهو فى معنى قوله تعالى: اِصْلَوْهٰا فَاصْبِرُوا أَوْ لاٰ تَصْبِرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْكُمْ (الطور/١۶)،و قوله حكايه عنهم: سَوٰاءٌ عَلَيْنٰا أَ جَزِعْنٰا أَمْ صَبَرْنٰا مٰا لَنٰا مِنْ مَحِيصٍ (إبراهيم/٢١).

قوله تعالى: قُلْ أَ ذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ -الى قوله- مَسْؤُلاً الإشاره الى السعير بما له من الوصف،أمر نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يسألهم أيهما أرجح السعير أم جنه الخلد؟و السؤال سؤال فى أمر بديهى لا يتوقف فى جوابه عاقل و هو دائر فى المناظره و المخاصمه يردد الخصم بين أمرين أحدهما بديهى الصحه و الآخر بديهى البطلان فيكلف ان يختار أحدهما فإن اختار الحق فقد اعترف بما كان ينكره،و إن اختار الباطل افتضح.

و قوله: أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ اضافه الجنه الى الخلد و هو الدوام للدلاله على كونها فى نفسها خالده لا تفنى كما أن قوله بعد: «خٰالِدِينَ» للدلاله على ان أهلها خالدين فيها لا سبيل للفناء اليهم.

قوله: وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تقديره وعدها المتقون لان وعد يتعدى لمفعولين و المتقون مفعول ثان ناب مناب الفاعل.

و قوله: كٰانَتْ لَهُمْ جَزٰاءً وَ مَصِيراً أى جزاء لتقواهم و منقلبا ينقلبون اليه بما هم متقون كما قال تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ -الى أن قال- وَ مٰا هُمْ مِنْهٰا بِمُخْرَجِينَ (الحجر/۴٨)،و هو من الأقضيه التى قضاها يوم خلق آدم و أمر الملائكه و إبليس بالسجود

له،و يتعين به جزاء المتقين و مصيرهم كما تقدم فى تفسير سوره الحجر.

و قوله: «لَهُمْ فِيهٰا مٰا يَشٰاؤُنَ خٰالِدِينَ» أى انهم يملكون فيها بتمليك من اللّه لهم كل ما تتعلق به مشيتهم،و لا تتعلق مشيتهم إلا بما يحبونه و يشتهونه على خلاف أهل النار كما قال تعالى فيهم: وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مٰا يَشْتَهُونَ (سبأ/۵۴)،و لا يحبون و لا يشتهون إلاـ ما من شأنه أن يتعلق به الحب واقعا و هو الـذى يحبه اللّه لهم و هو ما يستحقونه من الخير و السعاده مما يستكملون به و لا يستضرّون به لا هم و لا غيرهم فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مٰا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ الى آخر الآيه؛ضمائر الجمع الأربعه عائده الى الكفار،و المراد بما يعبدون الملائكه و المعبودون من البشر و الاصنام ان كان «مٰا» أعم من غير اولى العقل،و الا فالاصنام فقط.

و المشار اليهم المعنيون بقوله: «عِبٰادِى هٰؤُلاٰءِ» الكفار و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: قٰالُوا سُبْحٰانَكَ مٰا كٰانَ يَنْبَغِى لَنٰا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيٰاءَ الخ؛جواب المعبودين عن قوله: «أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبٰادِى هٰؤُلاٰءِ» الخ؛و قد بدءوا بالتسبيح على ما هو من أدب العبوديه فى موارد يذكر فيها شرك أهل الشرك او ما يوهم ذلك بوجه.

و قوله: مٰا كٰانَ يَنْبَغِى لَنٰا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيٰاءَ أى ما صحّ و ما استقام لنا أن نتجاوزك الى غيرك فنتخذ من دونك من أولياء و هم الـذين عبدونا و اتخذونا أولياء من دونك،و قوله: «وَ لٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كٰانُوا قَوْماً بُوراً» البور جمع بائر و هو الهالك و قيل:الفاسد.

لما نفى المعبودون المسئولون عن سبب ضلال عبّادهم نسبه الإضلال الى أنفسهم أخذوا فى نسبته الى الكفار أنفسهم مع بيان السبب الـذى أضلّهم و هو أنهم كانوا قوما هالكين او فاسدين و قد متعتهم و آباءهم من أمتعه الحياه الـدنيا و نعمها حتى طال عليهم التمتيع امتحانا

و ابتلاء فتمتعوا منها و اشتغلوا بها حتى نسوا الذكر الذى جاءت به الرسل فعدلوا عن التوحيد الى الشرك.

فكونهم قوما هالكين او فاسدين بسبب انكبابهم على الدنيا و انهماكهم فى الشهوات هو السبب فى استغراقهم فى التمتع و انصراف هممهم الى الاشتغال بالأسباب و هو السبب لنسيانهم الذكر و العدول عن التوحيد الى الشرك.

قوله تعالى: فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَ لاَ نَصْراً الى آخر الآيه؛كلام له تعالى يلقيه الى المشركين بعد براءه المعبودين منهم،و أما كلام المعبودين فقد تمّ فى قوله: «وَ كَانُوا قَوْماً بُوراً» .

و المعنى:فقد كذبكم المعبودون بما تقولون فى حقهم إنهم آلهه من دون اللّه يصرفون عن عبدتهم السوء و ينصرونهم،و إذ كذبوكم و نفوا عن أنفسهم الالوهيه و الولايه فلا تستطيعون أنتم أيها العبده أن تصرفوا عن أنفسكم العذاب بسبب عبادتهم،و لا تستطيعون نصرا لأنفسكم بسببهم.

و الترديد بين الصرف و النصر كأنه باعتبار استقلال المعبودين فى دفع العذاب عنهم و هو الصرف.و عدم استقلالهم بأن يكونوا جزء السبب و هو النصر.

و قرأ غير عاصم من طريق حفص «يستطيعون» بالياء المثّناه من تحت و هى قراءه حسنه ملائمه لمقتضى السياق،و المعنى:فقد كذّبكم المعبودون بما تقولون إنهم آلهه يصرفون عنكم السوء أو ينصرونكم و يتفرّع على ذلك أنهم لا يستطيعون لكم صرفا و لا نصرا.

و قوله: وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً المراد بالظلم مطلق الظلم و المعصيه و إن كان مورد الآيات السابقه خصوص الظلم الذى هو الشرك،فقوله: «وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ» الخ؛من قبيل وضع القانون العام موضع الحكم الخاص،و لو كان المراد به الحكم الخاص بهم لكان من حق الكلام أن يقال:«و نذيقكم بما ظلمتم عذابا كثيرا»لأنهم كلهم ظالمون ظلم

الشرك.

و النكته فيه الإشاره الى أن الحكم الإلهى نافذ جار لا مانع منه و لا معقّب له كأنه قيل:و إن كذّبكم المعبودون و ما استطاعوا صرفا و لا نصرا فالحكم العالم الإلهى «مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً» على نفوذه و جريانه لا مانع منه و لا معقّب له فأنتم ذائقون العذاب البته.

قوله تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاّٰ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعٰامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْوٰاقِ الى آخر الآيه؛أجاب تعالى عن قولهم: «مٰا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعٰامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوٰاقِ» الخ؛أولا بقوله: «تَبٰارَكَ الَّذِي إِنْ شٰاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذٰلِكَ» الخ؛مع ما يلحقه من قوله: «بَلْ كَذَّبُوا بِالسّٰاعَهِ» الخ؛و هذا جواب ثان محصّله أن هذا الرسول ليس بأول رسول أرسل الى الناس بل أرسل اللّه قبله جما غفيرا من المرسلين و قد كانوا على العاده البشريه الجاريه بين الناس يأكلون الطعام و يمشون فى الأسواق و لم يخلق لهم جنه يأكلون منها و لا ألقى إليهم كنز و لا أنزل معهم ملك،و هذا الرسول إنما هو كأحدهم و لم يأت بأمر بدع حتى يتوقع منه ما لا يتوقع من غيره.

فالآيه فى معنى قوله: قُلْ مٰا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ مٰا أَدْرِي مٰا يُفْعَلُ بِي وَ لاٰ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ (الأحقاف٩/)،و قريبه المعنى من قوله: قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ (الكهف١١٠/).

و قوله تعالى: وَ جَعَلْنٰا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَهً أَ تَصْبِرُونَ متمم للجواب السابق بمنزله التعليل لكون الرسل كسائر الناس فى الخواص البشريه من غير أن تتميز حياتهم أو دعوتهم بخواص سماويه تورث القطع بكونهم حاملين للرساله الإلهيه كإنزال ملك عليهم أو إلقاء كنز اليهم او خلق جنه لهم فكأنه قيل:و السبب فى كون الرسل جارين فى حياتهم على ما يجرى عليه الناس أنا جعلنا بعض الناس لبعض فتنه يمتحنون بها فالرسل فتنه لسائر الناس يمتحنون بهم فيتميز بهم أهل الريب من أهل الإيمان و المتبعون للأهواء الذين لا يصبرون على

مرّ الحق من طلاب الحق الصابرين فی طاعه اللّه و سلوک سبیله.

و قوله تعالی: وَ کٰانَ رَبُّکَ بَصِیراً أی عالما بالصواب فی الامور فیضع کل أمر فی الموضع المناسب له و یجری بذلک أتمّ النظم فهدف النظام الإنسانی کمال کل فرد بقطعه طریق السعاده أو الشقاوه علی حسب ما یستعد له و یستحقه و لازمه بسط نظام الامتحان بینهم و لازمه ارتفاع التمایز بین الرسل و غیرهم.

[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۲۱ الی ۳۱]

اشاره

وَ قٰالَ اَلَّذِینَ لاٰ یَرْجُونَ لِقٰاءَنٰا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْنَا اَلْمَلاٰئِکَهُ أَوْ نَریٰ رَبَّنٰا لَقَدِ اِسْتَکْبَرُوا فِی أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا کَبِیراً (۲۱) یَوْمَ یَرَوْنَ اَلْمَلاٰئِکَهَ لاٰ بُشْریٰ یَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِینَ وَ یَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (۲۲) وَ قَدِمْنٰا إِلیٰ مٰا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنٰاهُ هَبٰاءً مَنْثُوراً (۲۳) أَصْحٰابُ اَلْجَنَّهِ یَوْمَئِذٍ خَیْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِیلاً (۲۴) وَ یَوْمَ تَشَقَّقُ اَلسَّمٰاءُ بِالْغَمٰامِ وَ نُزِّلَ اَلْمَلاٰئِکَهُ تَنْزِیلاً (۲۵) اَلْمُلْکُ یَوْمَئِذٍ اَلْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَ کٰانَ یَوْماً عَلَی اَلْکٰافِرِینَ عَسِیراً (۲۶) وَ یَوْمَ یَعَضُّ اَلظّٰالِمُ عَلیٰ یَدَیْهِ یَقُولُ یٰا لَیْتَنِی اِتَّخَذْتُ مَعَ اَلرَّسُولِ سَبِیلاً (۲۷) یٰا وَیْلَتیٰ لَیْتَنِی لَمْ أَتَّخِذْ فُلاٰناً خَلِیلاً (۲۸) لَقَدْ أَضَلَّنِی عَنِ اَلذِّکْرِ بَعْدَ إِذْ جٰاءَنِی وَ کٰانَ اَلشَّیْطٰانُ لِلْإِنْسٰانِ خَذُولاً (۲۹) وَ قٰالَ اَلرَّسُولُ یٰا رَبِّ إِنَّ قَوْمِی اِتَّخَذُوا هٰذَا اَلْقُرْآنَ مَهْجُوراً (۳۰) وَ کَذٰلِکَ جَعَلْنٰا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا مِنَ اَلْمُجْرِمِینَ وَ کَفیٰ بِرَبِّکَ هٰادِیاً وَ نَصِیراً (۳۱)

ص: ۴۹۳

بیان:

قوله تعالی: وَ قٰالَ الَّذِینَ لاٰ یَرْجُونَ لِقٰاءَنٰا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْنَا الْمَلاٰئِکَهُ أَوْ نَریٰ رَبَّنٰا لَقَدِ اسْتَکْبَرُوا فِی أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا کَبِیراً قال فی مجمع البیان:

الرجاء ترقّب الخیر الذی یقوی فی النفس وقوعه و مثله اطمع و الأمل،و اللقاء المصیر الی الشیء من غیر حائل،و العتوّ الخروج الی أفحش الظلم.انتهی.

و المراد باللقاء الرجوع الی اللّه یوم القیامه سمّی به لبروزهم الیه تعالی بحیث لا یبقی فی البین حائل جهل أو غفله لظهور العظمه الإلهیه کما قال تعالی: «وَ یَعْلَمُونَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِینُ» .

فالمراد بعدم رجائهم اللقاء إنکارهم للمعاد و تکذیبهم بالساعه و لم یعبّر عنه بتکذیب الساعه و نحوه کما عبّر فی الآیات السابقه لمکان ذکرهم مشاهده الملائکه و رؤیه الرب تعالی و تقدس ففیه إشاره الی أنهم إنما قالوا ما قالوا و طلبوا إنزال الملائکه أو رؤیه الرب لیأسهم و زعمهم استحاله ذلک فقد ألزموا بما هو مستحیل علی زعمهم.

فقولهم: لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْنَا الْمَلاٰئِکَهُ أَوْ نَریٰ رَبَّنٰا اعتراض منهم علی رساله الرسول أوردوه فی صوره التحضیض کقولهم فی موضع آخر: لَوْ مٰا تَأْتِینٰا بِالْمَلاٰئِکَهِ إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِینَ (الحجر/۷)،و تقریر الحجه کما تقدمت الإشاره الیه أنه لو کانت الرساله

-و هی نزول الملائکه بالوحی أو تکلیمه تعالی البشر بالمشافهه-مما یتیسر للبشر نیله و نحن بشر أمثال هذا المدعی للرساله فما بالنا لا ینزل علینا الملائکه و لا نری ربنا؟فهلا أنزل علینا الملائکه أو نری ربنا.

و یؤید ما ذکرناه من التقریر إطلاق إنزال الملائکه و رؤیه الرب من غیر أن یقولوا:لو لا أنزل علینا الملائکه فیصدقوک أو نری ربنا فیصدقک.علی أنهم ذکروا فی اعتراضهم السابق نزول الملک لیکون معه نذیرا و فیه تصدیقه.

و فی التعبیر عنه تعالی بلفظ ربنا نوع تهکم منهم فإن المشرکین ما کانوا یرونه تعالی ربا لهم بل کان عندهم أن أربابهم ما کانوا یعبدونهم و اللّه رب الأرباب فکأنهم قالوا للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم:

إنک تری أن اللّه ربک و قد حنّ الیک فخصک بالمشافهه و التکلیم،و أنه ربنا،فلیحن الینا و لیشافهنا بالرؤیه کما فعل بک.

علی أنهم إنما عدلوا عن عباده أرباب الأصنام و هم الملائکه و روحانیات الکواکب و نحوهم الی عباده الأصنام و التماثیل لتکون محسوسه غیر غائبه عن المشاهده عند العباده و التقرب بالقرابین.

و قوله تعالی: لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً أی أقسم لقد طلبوا الکبر لأنفسهم بغیر حق و طغوا طغیانا عظیما.

قوله تعالی: يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاٰئِكَةَ لاٰ بُشْرىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً فی المفردات:الحجر الممنوع منه بتحریمه قال تعالی: «وَ قٰالُوا هٰذِهِ أَنْعٰامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ» «وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً» کان الرجل إذا لقی من یخاف یقول ذلک فذکر تعالی أن الکفار إذا رأوا الملائکه قالوا ذلک ظنا أن ذلک ینفعهم.انتهی.

و عن الخلیل کان الرجل یری الرجل الذی یخاف منه القتل فی الجاهلیه فی الأشهر الحرم فیقول:حجرا محجورا أی حرام علیک التعرض لی فی هذا الشهر فلا یبدؤه بشر و عن أبی

عبیده:هی عوذه للعرب یقولها من یخاف آخر فی الحرم أو فی شهر حرام إذا لقیه و بینهما تره.

فقوله: يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاٰئِكَةَ لاٰ بُشْرىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ یوم-علی ما قیل- ظرف لقوله: «لاٰ بُشْرىٰ» و قوله: «يَوْمَئِذٍ» تأکید له،و المراد بقوله: «لاٰ بُشْرىٰ» نفی للجنس،و المراد بالمجرمین کل متصف بالإجرام غیر أن مورد الکلام إجرام الشرک و المجرمون هم الذین لا یرجون اللقاء،و قد تقدم ذکرهم و المعنی:یوم یری هؤلاء الذین لا یرجون لقاءنا الملائکه لا بشری-علی طریق نفی الجنس-یومئذ للمجرمین و هم منهم.

و قوله: وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً فاعل یقولون هم المشرکون أی یقول المشرکون یومئذ للملائکه و هم قاصدوهم بالعذاب:حجرا محجورا أی لنکن فی معاذ منکم، و قیل:ضمیر الجمیع للملائکه،و المعنی:و یقول الملائکه للمشرکین حراما محرما علیکم سماع البشری،أو حراما محرما علیکم أن تدخلوا الجنه أو حراما محرما علیکم أن تتعوذوا من العذاب الی شیء فلا معاذ لکم هذا،و المعنی:الأول أقرب الی السیاق.

و الآیه فی موضع الجواب عن قولهم:«لو لا أنزل الینا الملائکه»و قد أعرضت عن جواب قولهم: «أَوْ نَرىٰ رَبَّنٰا» فإن الرؤیه التی کانوا یقصدونها بقولهم هی الرؤیه البصریه التی تستلزم التجسم و المادیه تعالی عن ذلک،و أما الرؤیه بعین الیقین و هی الرؤیه القلبیه فلم یکونوا ممن یفقه ذلک و علی تقدیره ما کانوا یقصدونه.

قوله تعالی: وَ قَدِمْنٰا إِلىٰ مٰا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنٰاهُ هَبٰاءً مَنْثُوراً قال الراغب فی المفردات:العمل کل فعل یکون من الحیوان بقصد فهو أخص من الفعل لأن الفعل قد ینسب الی الحیوانات التی یقع منها فعل بغیر قصد و قد ینسب الی الجمادات،و العمل قلما ینسب الی ذلک،و لم یستعمل العمل فی الحیوانات إلا فی قولهم:البقر العوامل.انتهی.

و قال:الهباء دقائق التراب و ما انبثّ فی الهواء فلا یبدو إلا فی أثناء ضوء الشمس فی الکوّه.

انتهی.و النثر التفریق.

ص :۴۹۶

و المعنی:و أقبلنا الی کل عمل عملوه-و العمل هو الذی یعیش به الإنسان بعد الموت- ففرّقناه تفریقا لا ینتفعون به کالهباء المنثور،و الکلام مبنی علی التمثیل مثّل به استیلاء القهر الإلهی علی جمیع أعمالهم التی عملوها لسعاده الحیاه و إبطالها بحیث لا یؤثر فی سعاده حیاتهم المؤبده شیئا بتشبیهه بسلطان غلب عدوه فحلّ داره بعد ما ظهر علیه فخرّب الدار و هدم الآثار و أحرق المتاع و الأثاث فأفنی منه کل عین و أثر.

و لا منافاه بین ما تدل علیه الآیه من حبط الأعمال یومئذ و بین ما تدل علیه آیات أخر أن أعمالهم أحبطت حینما عملوها فی الدنیا بکفرهم و إجرامهم فإن معنی الإحباط بعد الموت ظهور الحبط لهم بعد ما کان خفیا فی الدنیا علیهم و قد تقدم کلام مشبع فی معنی الحبط فی الجزء الثانی من الکتاب فراجع.

قوله تعالی: أَصْحابُ الْجَنَّهِ یَوْمَئِذٍ خَیْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِیلاً المراد بأصحاب الجنه المتقون فقد تقدم قوله قبل آیات: «قُلْ أَ ذلِکَ خَیْرٌ أَمْ جَنَّهُ الْخُلْدِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ» ،و المستقر و المقیل اسما مکان من الاستقرار و معناه ظاهر و من القیلوله و هی الاستراحه فی منتصف النهار سواء کان معها نوم أم لا-علی ما قیل-و الجنه لا نوم فیه.

و کلمتا «خَیْرٌ» و «أَحْسَنُ» منسلخان عن معنی التفضیل کما فی قوله تعالی: وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ (الروم/۲۷)،و قوله: ما عِنْدَ اللّهِ خَیْرٌ مِنَ اللَّهْوِ (الجمعه/۱۱)کذا قیل،و لیس یبعد أن یقال:إن «افْعَلْ» أو ما هو فی معناه کخیر بناء علی ما رجّحنا أنه صفه مشبهه تدل علی التفضیل بمادته لا بهیئته فی مثل هذه الموارد غیر منسلخ عن معنی التفضیل و العنایه فی ذلک أنهم لما اختاروا الشرک و الإجرام و استحسنوا ذلک و لازمه النار فی الآخره فقد أثبتوا لها خیریه و حسنا فقوبلوا بأن الجنه و ما فیها خیر و أحسن حتی علی لازم قولهم فعلیهم أن یختاروها علی النار و أن یختاروا الإیمان علی الکفر علی أی حال،و قیل:إن التفضیل مبنی علی التهکم.

ص: ۴۹۷

قوله تعالی: وَ یَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمٰاءُ بِالْغَمٰامِ وَ نُزِّلَ الْمَلاٰئِکَهُ تَنْزِیلاً الظاهر أن الظرف منصوب بفعل مقدّر،و المعنی و اذکر یوم کذا و کذا فإنهم یرون الملائکه فیه أیضا و هذا الیوم هو یوم القیامه بدلیل قوله بعد: «الْمُلْکُ یَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ» ،و قیل فی متعلق الظرف وجوه أخر لا فائده فی نقلها.

و «تَشَقَّقُ» أصله تتشقق من باب التفعل من الشق بمعنی الخرم و التشقق التفتح،و الغمام السحاب سمی به لستره ضوء الشمس مأخوذ من الغم بمعنی الستر.

و الباء فی قوله: «تَشَقَّقُ السَّمٰاءُ بِالْغَمٰامِ» إما للملابسه و المعنی تتفتح السماء متلبسه بالغمام أی متغیمه،و إما بمعنی عن و المعنی تتفتح عن الغمام أی من قبل الغمام أو تشققه.

و کیف کان فظاهر الآیه أن السماء تنشق یوم القیامه بما علیها من الغمام الساتر لها و نزّل منها الملائکه الذین هم سکانها فیشاهدونهم فالآیه قریبه المعنی من قوله فی موضع آخر:

وَ انْشَقَّتِ السَّمٰاءُ فَهِیَ یَوْمَئِذٍ وٰاهِیَهٌ وَ الْمَلَکُ عَلیٰ أَرْجٰائِهٰا (الحاقه١٧/).

و لیس من البعید أن یکون الکلام کنایه عن انکشاف غمه الجهل و بروز عالم السماء و هو من الغیب و بروز سکانها و هم الملائکه و نزولهم الی العالم الأرضی موطن الإنسان.

و التعبیر عن الواقعه بالتشقق دون التفتح و ما یماثله للتهویل،و کذا التنوین فی قوله:

«تَنْزِیلاً» للدلاله علی التفخیم.

قوله تعالی: اَلْمُلْکُ یَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَ کٰانَ یَوْماً عَلَی الْکٰافِرِینَ عَسِیراً أی الملک المطلق یومئذ حق ثابت للرحمن و ذلک لبطلان الأسباب و زوال ما بینها و بین مسبباتها من الروابط المتنوعه،و قد تقدم غیر مره أن المراد بذلک فی یوم القیامه هو ظهور أن الملک و الحکم للّه و الأمر الیه وحده،و أن لا استقلال فی شیء من الأسباب علی خلاف ما کان یتراءی من ظاهر حالها فی نشأه الدنیا قبل قیام الساعه و رجوع کل شیء الیه تعالی.

ص :۴۹۸

و قوله: وَ كٰانَ يَوْماً عَلَى الْكٰافِرِينَ عَسِيراً الوجه فيه ركونهم الى ظواهر الأسباب و إخلادهم الى الحياه الأرضيه البائده الدائره و انقطاعهم عن السبب الحقيقى الذى هو مالك الملك بالحقيقه و عن حياتهم الباقيه المؤبده فيصبحون اليوم و لا ملاذ لهم و لا معاذ.

فعلى هذا يكون الملك مبتدأ و الحق خبره عرّف لإفاده الحصر،و يومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدإ،و فائده التقييد الدلاله على ظهور حقيقه الامر يومئذ فإن حقيقه الملك للّه سبحانه دائما،و إنما يختلف يوم القيامه مع غيره بزوال الملك الصورى عن الاشياء فيه و ثبوته لها فى غيره.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظّٰالِمُ عَلىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يٰا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً قال الراغب فى المفردات:العض أزم بالاسنان،قال تعالى: «عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنٰامِلَ» و «يَوْمَ يَعَضُّ الظّٰالِمُ» و ذلك عباره عن الندم لما جرى به عاده الناس أن يفعلوه عند ذلك.انتهى.و لذلك يتمنى عنده ما فات من واجب العمل كما حكى اللّه تعالى عنهم قولهم:«يا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا».

و الظاهر أن المراد بالظالم جنسه و هو كل من لم يهتد بهدى الرسول،و كذا المراد بالرسول جنسه و إن انطبق الظالم بحسب المورد على ظالمى هذه الامه و الرسول على محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و المعنى:و اذكر يوم يندم الظالم ندما شديدا قائلا من فرط ندمه يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ما الى الهدى أى سبيل كانت.

قوله تعالى: يٰا وَيْلَتىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاٰناً خَلِيلاً تتمه تمنى الظالم النادم على ظلمه،و فلان كنايه عن العلم المذكر و فلانه عن العلم المؤنث،قال الراغب:فلان و فلانه كنايتان عن الإنسان،و الفلان و الفلانه-باللام-كنايتان عن الحيوانات.انتهى.

و المعنى:يا ويلتى-يا هلاكى-ليتنى لم اتخذ فلانا-و هو من اتخذه صديقا يشاوره و يسمع منه و يقلده-خليلا.

و من لطيف التعبير قوله فى الآيه السابقه: «يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ» الخ؛و فى هذه الآيه «يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ» الخ؛فإن فى ذلك تدرّجا لطيفا فى النداء و الاستغاثه فحذف المنادى فى الآيه السابقه يلوح الى أنه يريد أى منج ينجيه مما هو فيه من الشقاء و ذكر الويل بعد ذلك-فى هذه الآيه يدل على أنه بان له أن لا يخلصه من العذاب شىء قط إلا الهلاك و الفناء،و لذلك نادى الويل.

قوله تعالى: لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً تعليل للتمنى السابق،و المراد بالذكر مطلق ما جاءت به الرسل أو خصوص الكتب السماويه و ينطبق بحسب المورد على القرآن.

و قوله: وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً من كلامه تعالى و يمكن أن يكون تتمه الكلام الظالم ذكره تأسفا و تحسرا.

و الخذلان بضم الخاء ترك من يظن به أن ينصر نصرته،و خذلانه أنه يعد الإنسان أن ينصره على كل مكروه إن تمسك بالأسباب و نسى ربه فلما تقطعت الأسباب بظهور القهر الإلهى يوم الموت جزئيا و يوم القيامه كليا خذله و سلمه الى الشقاء،قال تعالى: كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ (الحشر/۱۶)،و قال فيما يحكى عن الشيطان يوم القيامه: مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (إبراهيم/۲۲).

و فى هذه الآيات الثلاث إشعار بل دلاله على أن السبب العمده فى ضلال أهل الضلال ولايه أهل الأهواء و أولياء الشيطان،و المشاهده يؤيد ذلك.

قوله تعالى: وَ قَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً المراد بالرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم بقرينه ذكر القرآن،و عبر عنه بالرسول تسجيلا لرسالته و إرغاما لاولئك القادحين فى رسالته و كتابه و الهجر بالفتح فالسكون الترك.

و ظاهر السیاق أن قوله: «وَ قٰالَ الرَّسُولُ» الخ؛معطوف علی «یَعَضُّ الظّٰالِمُ» و القول مما یقوله الرسول یوم القیامه لربه علی طریق البث و الشکوی،و علی هذا فالتعبیر بالماضی بعنایه تحقق الوقوع،و المراد بالقوم عامه العرب بل عامه الامه باعتبار کفرتهم و عصاتهم.

و أما کونه استئنافا أو عطفا علی قوله: «وَ قٰالَ الَّذِینَ لاٰ یَرْجُونَ لِقٰاءَنٰا» و کون ما وقع بینهما اعتراضا فبعید من السیاق،و علیه فلفظه قال علی ظاهر معناها و المراد بالقوم هم القادحون فی رسالته الطاعنون فی کتابه.

و نظیره فی الضعف قول بعضهم:إن المهجور من الهجر بمعنی:الهذیان.و هو ظاهر.

قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ جَعَلْنٰا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِینَ وَ کَفیٰ بِرَبِّکَ هٰادِیاً وَ نَصِیراً أی کما جعلنا هؤلاء المجرمین عدوا لک کذلک جعلنا لکل نبی عدوا منهم أی هذه من سنتنا الجاریه فی الأنبیاء و اممهم فلا یسوءنک ما تلقی من عداوتهم و لا یشقن علیک ذلک،ففیه تسلیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

و معنی:جعل العدو من المجرمین أن اللّه جازاهم علی معاصیهم بالختم علی قلوبهم فعاندوا الحق و أبغضوا الداعی الیه و هو النبی فلعداوتهم نسبه الیه تعالی المجازاه.

و قوله: وَ کَفیٰ بِرَبِّکَ هٰادِیاً وَ نَصِیراً معناه-علی ما یعطیه السیاق-لا یهولنک أمر عنادهم و عداوتهم و لا تخافنهم علی اهتداء الناس و نفوذ دینک فیهم و بینهم فحسبک ربک کفی به هادیا یهدی من استحق من الناس الهدایه و استعد له و إن کفر هؤلاء و عتوا فلیس اهتداء الناس منوطا باهتدائهم و کفی به نصیرا ینصرک و ینصر دینک الذی بعثک به و إن هجره هؤلاء و لم ینصروک و لا دینک فالجمله مسوقه لإظهار الاستغناء عنهم.

فظهر أن صدر الآیه مسوق لتسلی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و ذیله للاستغناء عن المجرمین من قومه، و فی قوله: «وَ کَفیٰ بِرَبِّکَ» حیث أخذ بصفه الربوبیه:مضافه الی ضمیر الخطاب و لم یقل:و کفی

باللّه تأیید له (۱).

[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۳۲ الی ۴۰]

اشاره

وَ قٰالَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَیْهِ اَلْقُرْآنُ جُمْلَهً وٰاحِدَهً کَذٰلِکَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَکَ وَ رَتَّلْنٰاهُ تَرْتِیلاً (۳۲) وَ لاٰ یَأْتُونَکَ بِمَثَلٍ إِلاّٰ جِئْنٰاکَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِیراً (۳۳) اَلَّذِینَ یُحْشَرُونَ عَلیٰ وُجُوهِهِمْ إِلیٰ جَهَنَّمَ أُوْلٰئِکَ شَرٌّ مَکٰاناً وَ أَضَلُّ سَبِیلاً (۳۴) وَ لَقَدْ آتَیْنٰا مُوسَی اَلْکِتٰابَ وَ جَعَلْنٰا مَعَهُ أَخٰاهُ هٰارُونَ وَزِیراً (۳۵) فَقُلْنَا اِذْهَبٰا إِلَی اَلْقَوْمِ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا فَدَمَّرْنٰاهُمْ تَدْمِیراً (۳۶) وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمّٰا کَذَّبُوا اَلرُّسُلَ أَغْرَقْنٰاهُمْ وَ جَعَلْنٰاهُمْ لِلنّٰاسِ آیَهً وَ أَعْتَدْنٰا لِلظّٰالِمِینَ عَذٰاباً أَلِیماً (۳۷) وَ عٰاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحٰابَ اَلرَّسِّ وَ قُرُوناً بَیْنَ ذٰلِکَ کَثِیراً (۳۸) وَ کُلاًّ ضَرَبْنٰا لَهُ اَلْأَمْثٰالَ وَ کُلاًّ تَبَّرْنٰا تَتْبِیراً (۳۹) وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَی اَلْقَرْیَهِ اَلَّتِی أُمْطِرَتْ مَطَرَ اَلسَّوْءِ أَ فَلَمْ یَکُونُوا یَرَوْنَهٰا بَلْ کٰانُوا لاٰ یَرْجُونَ نُشُوراً (۴۰)

بیان:

قوله تعالی: وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَیْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَهً وٰاحِدَهً

ص: ۵۰۲

۱- ۱) .الفرقان ۲۱-۳۱:بحث روائی قبض روح المؤمن و الکافر؛الحیاه البرزخیه؛حبط اعمال الکافرین.

المراد بهم مشركو العرب الرادّون لدعوه القرآن كما فى قدحهم السابق المحكى بقوله: «وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّ إِفْكٌ افْتَرٰاهُ» الخ.

و قوله: لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وٰاحِدَةً قد تقدم أن الإنزال و التنزيل إنما يفترقان فى أن الإنزال يفيد الدفعه و التنزيل يفيد التدريج لكن ذكر بعضهم أنّ التنزيل فى هذه الآيه منسلخ عن معنى التدريج لأدائه الى التدافع إذ يكون المعنى على تقدير إراده التدريج:

لو لا ـ فرّق القرآن جمله واحده و التفريق ينافى الجمليه بل المعنى هلاّ ـ أنزل القرآن عليه دفعه غير مفرق كما أنزل التوراه و الإنجيل و الزبور.

قوله تعالى: كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَكَ وَ رَتَّلْنٰاهُ تَرْتِيلاً وَ لاٰ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاّٰ جِئْنٰاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً الثبات ضدّ الزوال،و الإثبات و التثبيت بمعنى واحد و الفرق بينهما بالدفعه و التدريج،و الفؤاد القلب و المراد به كما مر غير مره الأمر المدرك من الإنسان و هو نفسه،و الترتيل-كما قالوا-الترسيل و الإتيان بالشىء عقيب الشىء،و التفسير -كما قال الراغب-المبالغه فى إظهار المعنى المعقول كما أن الفسر بالفتح فالسكون إظهار المعنى المعقول.

و ظاهر السياق أن قوله: «كَذٰلِكَ» متعلق بفعل مقدر يعلله قوله: «لِنُثَبِّتَ» و يعطف عليه قوله: «وَ رَتَّلْنٰاهُ» و التقدير نزلناه أى القرآن كذلك أى نجوما متفرقه لا جمله واحده لنثبت به فؤادك،و قول بعضهم:إن «كَذٰلِكَ» من تمام قول الذين كفروا سخيف جدا.

فقوله: كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَكَ بيان تام لسبب تنزيل القرآن نجوما متفرقه و بيان ذلك أن تعليم علم من العلوم و خاصه ما كان مرتبطا بالعمل بإلقاء المعلّم مسائله واحده بعد واحده الى المتعلّم حتى تتم فصوله و أبوابه إنما يفيد حصولا ما لصور مسائله عند المتعلّم و كونها مذخوره بوجه ما عنده يراجعها عند مسيس الحاجه إليها،و أما استقرارها فى النفس بحيث تنمو النفس عليها و تترتب عليها آثارها المطلوبه منها فيحتاج الى مسيس الحاجه

و الإشراف على العمل و حضور وقته.

ففرق بيّن بين أن يلقى الطبيب المعلم مثلا مسأله طيبه الى متعلم الطب إلقاء فحسب و بين أن يلقيها اليه و عنده مريض مبتلى بما يبحث عنه من الداء و هو يعالجه فيطابق بين ما يقول و ما يفعل.

و من هنا يظهر أن إلقاء أى نظره علميه عند مسيس الحاجه و حضور وقت العمل الى من يراد تعليمه و تربيته أثبت فى النفس و أوقع فى القلب و أشد استقرارا و أكمل رسوخا فى الذهن و خاصه فى المعارف التى تهدى إليها الفطره فإن الفطره إنما تستعد للقبول و تتهيأ للإذعان إذا أحست بالحاجه.

فتبين بما تقدم أن قوله: «كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَكَ -الى قوله- وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً» جواب عن قولهم: «لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وٰاحِدَةً» بوجهين:

أحدهما:بيان السبب الراجع الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو تثبيت فؤاده بالتنزيل التدريجى.

و ثانيهما:بيان السبب الراجع الى الناس و هو بيان الحق فيما يوردون على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من المثل و الوصف الباطل،و التفسير بأحسن الوجوه فيما يوردون عليه من الحق المغيّر عن وجهه المحرّف عن موضعه.

و يلحق بهذا الجواب قوله تلوا: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ إِلىٰ جَهَنَّمَ أُوْلٰئِكَ شَرٌّ مَكٰاناً وَ أَضَلُّ سَبِيلاً» فهو كالمنعم للجواب على ما سيجىء بيانه.

و تبين أيضا أن الآيات الثلاث مسوقه جميعا لغرض واحد و هو الجواب عما أوردوه من القدح فى القرآن هذا،و المفسرون فرّقوا بين مضامين الآيات الثلاث فجعلوا قوله: «كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَكَ» جوابا عن قولهم: «لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وٰاحِدَةً» ،و قوله: «وَ رَتَّلْنٰاهُ تَرْتِيلاً» خبرا عن ترسيله فى النزول او فى القراءه على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من غير ارتباط بما تقدمه.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ إِلىٰ جَهَنَّمَ أُوْلٰئِكَ شَرٌّ مَكٰاناً

وَ أَضَلُّ سَبِيلاً اتصال الآيه بما قبلها من الآيات على ما لها من السياق يعطى أن هؤلاء القادحين فى القرآن استنتجوا من قدحهم ما لا يليق بمقام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فذكروه واصفين له بسوء المكانه و ضلال السبيل فلم يذكره اللّه تعالى فى ضمن ما حكى من قولهم فى القرآن صونا لمقام النبوه أن يذكر بسوء،و إنما أشار الى ذلك فى ما أورد فى هذه الآيه من الردّ عليهم بطريق التكنيه.

فقوله: اَلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ إِلىٰ جَهَنَّمَ كنايه عن الذين كفروا القادحين فى القرآن الواصفين للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بما وصفوا،و الكنايه أبلغ من التصريح.

فالمراد أن هؤلاء القادحين فى القرآن الواصفين لك هم شر مكانا و أضل سبيلا لا أنت فالكلام مبنى على قصر القلب،و لفظتا «شَرٌّ» و «أَضَلُّ» منسلختان عن معنى التفضيل أو مفيدتان على التهكم و نحوه.

و قد كنى عنهم بالمحشورين على وجوههم الى جهنم و هو وصف من أضله اللّه من المتعنتين المنكرين للمعاد كما قال تعالى: وَ مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيٰاءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمٰا خَبَتْ زِدْنٰاهُمْ سَعِيراً ذٰلِكَ جَزٰاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيٰاتِنٰا الخ(الإسراء/۹۸).

ففى هذه التكنيه مضافا الى كونها أبلغ،تهديد لهم بشر المكان و أليم العذاب و أيضا هى فى معنى الاحتجاج على ضلالهم إذ لا ضلال أضل من أن يسير الإنسان على وجهه و هو لا يشعر بما فى قدامه،و هذا الضلال الذى حشرهم على وجوههم الى جهنم ممثل للضلال الذى كان لهم فى الدنيا فكأنه قيل:إن هؤلاء هم الضالون فإنهم محشورون على وجوههم،و لا يبتلى بذلك إلا من كان ضالا فى الدنيا.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى الْكِتٰابَ وَ جَعَلْنٰا مَعَهُ أَخٰاهُ هٰارُونَ وَزِيراً استشهاد على رساله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و نزول الكتاب عليه قبال تكذيب الكفار به و بكتابه برساله

ص :۵۰۵

موسی و إیتائه الکتاب و إشراک هارون فی أمره للتخلص الی ذکر تعذیب آل فرعون و إهلاکهم،و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالی: فَقُلْنَا اذْهَبٰا إِلَی الْقَوْمِ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا فَدَمَّرْنٰاهُمْ تَدْمِیراً قال فی مجمع البیان:التدمیر الإهلاک لأمر عجیب،و منه التنکیل یقال:دمّر علی فلان إذا هجم علیه بالمکروه.انتهی.

و المراد بالآیات آیات الآفاق و الأنفس الداله علی التوحید التی کذّبوا بها،و ذکر أبو السعود فی تفسیره أن الآیات هی المعجزات التسع المفصّلات الظاهره علی یدی موسی علیه السّلام و لم یوصف القوم لهما عند إرسالهما الیهم بهذا الوصف ضروره تأخر تکذیب الآیات عن إظهار المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الأمر به بل إنما وصفوا بذلک عند الحکایه لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم بیانا لعله استحقاقهم لما یحکی بعده من التدمیر أی فذهبا إلیهم فأریاهم آیاتنا کلها فکذّبوها تکذیبا مستمرا فدمرناهم.انتهی.و هو حسن لو تعین حمل الآیات علی آیات موسی علیه السّلام.

و وجه اتصال الآیتین بما قبلهما هو تهدید القادحین فی کتاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و رسالته بتنظیر الأمر بأمر موسی حیث آتاه اللّه الکتاب و أرسله مع أخیه الی قوم فرعون فکذّبوه فدمرهم تدمیرا.

و لهذه النکته قدّم ذکر إیتاء الکتاب علی إرسالهما الی القوم و تدمیرهم مع أن التوراه إنما نزلت بعد غرق فرعون و جنوده فلم یکن الغرض من القصه إلا الإشاره الی إیتاء الکتاب و الرساله لموسی و تدمیر القوم بالتکذیب.

قوله تعالی: وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمّٰا کَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنٰاهُمْ وَ جَعَلْنٰاهُمْ لِلنّٰاسِ آیَهً وَ أَعْتَدْنٰا لِلظّٰالِمِینَ عَذٰاباً أَلِیماً الظاهر أن قوله: «قَوْمَ نُوحٍ» منصوب بفعل مقدّر یدل علیه قوله: «أَغْرَقْنٰاهُمْ» .

و المراد بتكذيبهم الرسل تكذيبهم نوحا فإن تكذيب الواحد من رسل اللّه تكذيب للجميع لاتفاقهم على كلمه الحق.على أن هؤلاء الامم كانوا أقواما و ثنيين و هم ينكرون النبوه و يكذّبون الرساله من رأس.

و قوله: وَ جَعَلْنٰاهُمْ لِلنّٰاسِ آيَةً أى لمن بقى بعدهم من ذراريهم،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: وَ عٰاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحٰابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَيْنَ ذٰلِكَ كَثِيراً قال فى مجمع البيان:الرس البئر التى لم تطو ذكروا أنهم كانوا قوما بعد ثمود نازلين على بئر أرسل اللّه اليهم رسولا فكذّبوا به فأهلكهم اللّه،و قيل هو اسم نهر كانوا على شاطئه و فى روايات الشيعه ما يؤيد ذلك.

و قوله: وَ عٰاداً الخ؛معطوف على «قَوْمَ نُوحٍ» و التقدير:و دمرنا أو و أهلكنا عادا و ثمود و أصحاب الرس،الخ.

و قوله: وَ قُرُوناً بَيْنَ ذٰلِكَ كَثِيراً القرن أهل عصر واحد و ربما يطلق على نفس العصر و الإشاره بذلك الى من مر ذكرهم من الأقوام أولهم قوم نوح و آخرهم أصحاب الرس او قوم فرعون،و المعنى و دمرنا او و أهلكنا عادا و هم قوم هود،و ثمود و هم قوم صالح، و أصحاب الرسّ،و قرونا كثيرا متخللين بين هؤلاء الذين ذكرناهم و هم قوم نوح فمن بعدهم.

قوله تعالى: وَ كُلاًّ ضَرَبْنٰا لَهُ الْأَمْثٰالَ وَ كُلاًّ تَبَّرْنٰا تَتْبِيراً كلا منصوب بفعل يدل عليه قوله: «ضَرَبْنٰا لَهُ الْأَمْثٰالَ» فإن ضرب الأمثال فى معنى التذكير و الموعظه و الإنذار، و التتبير التفتيت،و معنى الآيه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهٰا بَلْ كٰانُوا لاٰ يَرْجُونَ نُشُوراً هذه القريه هى قريه قوم لوط أمطر اللّه عليهم حجاره من سجيل و قد مر تفصيل قصصهم فى السور السابقه.

و قوله: «أَ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهٰا» استفهام توبيخى فإن القريه كانت على طريق أهل الحجاز

الی الشام.

و قوله: بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً أی لا یخافون معادا أو کانوا آیسین من المعاد،و هذا کقوله تعالی فیما تقدم: «بَلْ كَذَّبُوا بِالسّاعَةِ» و المراد به أن المنشأ الأصیل لتکذیبهم بالکتاب و الرساله و عدم اتعاظهم بهذه المواعظ الشافیه و عدم اعتبارهم بما یعتبر به المعتبرون أنهم منکرون للمعاد فلا ینجح فیهم دعوه و لا تقع فی قلوبهم حکمه و لا موعظه (۱).

[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۴۱ الی ۶۲]

اشاره

وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاّ هُزُواً أَ هذَا اَلَّذِي بَعَثَ اَللّهُ رَسُولاً (۴۱) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ اَلْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (۴۲) أَ رَأَيْتَ مَنِ اِتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (۴۳) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (۴۴) أَ لَمْ تَرَ إِلىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ اَلظِّلَّ وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا اَلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (۴۵) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (۴۶) وَ هُوَ اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اَللَّيْلَ لِباساً وَ اَلنَّوْمَ سُباتاً وَ جَعَلَ اَلنَّهارَ نُشُوراً (۴۷) وَ هُوَ اَلَّذِي أَرْسَلَ اَلرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنا مِنَ اَلسَّماءِ ماءً طَهُوراً (۴۸) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَ نُسْقِيَهُ مِمّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَ أَناسِيَّ كَثِيراً (۴۹) وَ لَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبىٰ أَكْثَرُ اَلنّاسِ إِلاّ كُفُوراً (۵۰) وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (۵۱) فَلا تُطِعِ اَلْكافِرِينَ وَ جاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً (۵۲) وَ هُوَ اَلَّذِي مَرَجَ اَلْبَحْرَيْنِ هٰذا عَذْبٌ فُراتٌ وَ هٰذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً (۵۳) وَ هُوَ اَلَّذِي خَلَقَ مِنَ اَلْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً وَ كانَ رَبُّكَ قَدِيراً (۵۴) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَ لا يَضُرُّهُمْ وَ كانَ اَلْكافِرُ عَلىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً (۵۵) وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاّ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۵۶) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (۵۷) وَ تَوَكَّلْ عَلَى اَلْحَيِّ اَلَّذِي لا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً (۵۸) اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ اِسْتَوىٰ عَلَى اَلْعَرْشِ اَلرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (۵۹) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اُسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قالُوا وَ مَا اَلرَّحْمٰنُ أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَ زادَهُمْ نُفُوراً (۶۰) تَبارَكَ اَلَّذِي جَعَلَ فِي اَلسَّماءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً (۶۱) وَ هُوَ اَلَّذِي جَعَلَ اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (۶۲)

۱- ۱) .الفرقان ۳۲-۴۰:بحث روائی حول قصه أصحاب الرسّ.

بيان:

قوله تعالى: وَ إِذٰا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاّٰ هُزُواً أَ هٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللّٰهُ رَسُولاً ضمير الجمع للذين كفروا السابق ذكرهم،و الهزؤ الاستهزاء و السخريه فالمصدر بمعنى المفعول،و المعنى:و إذا رآك الذين كفروا لا يتخذونك إلا مهزوّا به.

و قوله: أَ هٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللّٰهُ رَسُولاً بيان لاستهزائهم أي يقولون كذا استهزاء بك.

قوله تعالى: إِنْ كٰادَ لَيُضِلُّنٰا عَنْ آلِهَتِنٰا لَوْ لاٰ أَنْ صَبَرْنٰا عَلَيْهٰا الخ؛ «إِنْ» مخففه من الثقيله،و الإضلال كأنه مضمن معنى الصرف و لذا عدّى بعن،و جواب لو لا محذوف يدل عليه ما تقدمه،و المعنى أنه قرب أن يصرفنا عن آلهتنا مضلا لنا لو لا أن صبرنا على آلهتنا أي على عبادتها لصرفنا عنها.

و قوله: «وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذٰابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً» توعد و تهديد منه تعالى لهم و تنبيه أنهم على غفله مما سيستقبلهم من معاينه العذاب و اليقين بالضلال و الغى.

قوله تعالى: أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً الهوى

میل النفس إلی الشهوه من غیر تعدیله بالعقل،و المراد باتخاذ الهوی إلها طاعته و اتباعه من دون اللّه و قد أکثر اللّه سبحانه فی کلامه ذم اتباع الهوی و عدّ طاعه الشیء عباده له فی قوله:

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِی (یس/۶۱).

و قوله: أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً استفهام إنکاری أی لست أنت وکیلا علیه قائما علی نفسه و باموره حتی تهدیه الی سبیل الرشد فلیس فی مقدرتک ذلک و قد أضله اللّه و قطع عنه أسباب الهدایه و فی معناه قوله: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (القصص/۵۶)، و قوله: وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (فاطر/۲۲)،و الآیه کالإجمال للتفصیل الذی فی قوله: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللّهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللّهِ (الجاثیه/۲۳).

و یظهر مما تقدم من المعنی أن قوله: «اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ» علی نظمه الطبیعی أی إن «اتَّخَذَ» فعل متعدّ الی مفعولین و «إِلٰهَهُ» مفعوله الأول و «هَواهُ» مفعول ثان له فهذا هو الذی یلائم السیاق و ذلک أن الکلام حول شرک المشرکین و عدولهم عن عباده اللّه إلی عباده الأصنام، و إعراضهم عن طاعه الحق التی هی طاعه اللّه إلی طاعه الهوی الذی یزین لهم الشرک، و هؤلاء یسلّمون أن لهم إلها مطاعا و قد أصابوا فی ذلک،لکنهم یرون أن هذا المطاع هو الهوی فیتخذونه مطاعا بدلا من أن یتّخذوا الحق مطاعا فقد وضعوا الهوی موضع الحق لا أنهم وضعوا المطاع موضع غیره فافهم.

قوله تعالی: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً أم منقطعه،و الحسبان بمعنی الظن و ضمائر الجمع راجعه إلی الموصول فی الآیه السابقه باعتبار المعنی.و الترديد بين السمع و العقل من جهه أن وسیله الإنسان إلی سعاده الحیاه أحد أمرین إما أن یستقلّ بالتعقل فیعقل الحق فیتبعه أو یرجع إلی قول من یعقله

و ينصحه فيتبعه ان لم يستقل بالتعقل فالطريق الى الرشد سمع أو عقل فالآيه فى معنى قوله:

وَ قالُوا لَوْ كُنّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنّا فِی أَصْحابِ السَّعِیرِ (الملک١٠/).

و المعنى:بل أ تظن أن أكثرهم لهم استعداد استماع الحق ليتبعه أو استعداد عقل الحق ليتبعه فترجو اهتداءهم فتبالغ فى دعوتهم.

و قوله: إِنْ هُمْ إِلاّ كَالْأَنْعامِ بيان للجمله السابقه فإنه فى معنى:أن أكثرهم لا يسمعون و لا يعقلون فتنبّه أنهم ليسوا إلا كالأنعام و البهائم فى أنها لا تعقل و لا تسمع إلا اللفظ دون المعنى.

و قوله: بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً أى من الأنعام و ذلك أنّ الأنعام لا تقتحم على ما يضرها و هؤلاء يرجحون ما يضرهم على ما ينفعهم،و أيضا الأنعام إن ضلت عن سبيل الحق فإنها لم تجهز فى خلقتها بما يهديها اليه و هؤلاء مجهزون و قد ضلوا.

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً هاتان الآيتان و ما بعدهما إلى تمام تسع آيات فى معنى التنظير لما تضمنته الآيتان السابقتان بل الآيات الأربع السابقه من أن اللّه سبحانه جعل رساله الرسول لهدايه الناس إلى سبيل الرشد و إنقاذهم من الضلال فيهتدى بها بعضهم ممن شاء اللّه و أما غيرهم ممن اتخذ إلهه هواه فصار لا يسمع و لا يعقل فليس فى وسع أحد أن يهديهم من بعد اللّه.

فهى تبين أن ليس هذا ببدع من اللّه سبحانه ففى عجائب صنعه و بيّنات آيات نظائر لذلك ففعله متشابه و هو على صراط مستقيم،و ذلك كمدّ الظل و جعل الشمس دليلا عليه تنسخه، و كجعل الليل لباسا و النوم سباتا و النهار نشورا،و كجعل الرياح بشرا و إنزال المطر و إحياء الأرض الميته و إرواء الأنعام و الأناسى به.

ثم ما مثل المؤمن و الكافر فى اهتداء هذا و ضلال ذاك-و هم جميعا عباد اللّه يعيشون فى

أرض واحده-إلا- كمثل الماءين العذب الفرات و الملح الاجاج مرجهما اللّه تعالى لكن جعل بينهما برزخا و حجرا محجورا،و كالماء خلق اللّه سبحانه منه بشرا ثم جعله نسبا و صهرا فاختلف بذلک المواليد و کان ربک قديرا.

هذا ما يهدى اليه التدبر فى مضامين الآيات و خصوصيات نظمها،و به يظهر وجه اتصالها بما تقدمها،و أما ما ذكروه من أن لآيات مسوقه لبيان بعض أدله التوحيد إثر بيان جهاله المعرضين عنها و ضلالهم فالسياق لا يساعد عليه و سنزيد ذلک إيضاحا.

فقوله: أَ لَمْ تَرَ إِلىٰ رَبِّکَ کَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شٰاءَ لَجَعَلَهُ سٰاکِناً تنظير-كما تقدمت الإشاره اليه-لشمول الجهل و الضلال للناس و رفعه تعالى ذلک بالرساله و الدعوه الحقه كما يشاء و لازم ذلک أن يكون المراد بمد الظل ما يعرض الظل الحادث بعد الزوال من التمدد شيئا فشيئا من المغرب إلى المشرق حسب اقتراب الشمس من الافق حتى إذا غربت كانت فيه نهايه الامتداء و هو الليل،و هو فى جميع أحواله متحرک و لو شاء اللّه لجعله ساكنا.

و قوله: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً» و الدليل هى الشمس من حيث دلالتها بنورها على أن هناک ظلا و بانبساطه شيئا فشيئا على تمدّد الظل شيئا فشيئا و لولاها لم يتنبه لوجود الظل فإن السبب العام لتمييز الإنسان بعض المعانى من بعض تحوّل الأحوال المختلفه عليه من فقدان و وجدان فإذا فقد شيئا كان يجده تنبّه لوجوده و اذا وجد ما كان يفقده تنبّه لعدمه،و أما الأمر الثابت الذى لا تتحول عليه الحال فليس الى تصوّره بالتنبه سبيل.

و قوله: ثُمَّ قَبَضْنٰاهُ إِلَيْنٰا قَبْضاً يَسِيراً أى أزلنا الظل بإشراق الشمس و ارتفاعها شيئا فشيئا حتى ينسخ بالكليه،و فى التعبير عن الإزاله و النسخ بالقبض،و كونه اليه، و توصيفه باليسير دلاله على كمال القدره الإلهيه و أنها لا يشق عليها فعل،و أن فقدان الأشياء بعد وجودها ليس بالانعدام و البطلان بل بالرجوع اليه تعالى.

و فى قوله: ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنٰاهُ إِلَيْنٰا رجوع الى السياق

السابق،و فی ذلک مع ذلک من إظهار العظمه و الدلاله علی الکبریاء ما لا یخفی.

و الکلام فی قوله الآتی: «وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اللَّیْلَ» الخ؛و قوله: «وَ هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّیٰاحَ» و قوله: «وَ هُوَ الَّذِی مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ» ،و قوله: «وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ مِنَ الْمٰاءِ بَشَراً» ، کالکلام فی قوله: «أَ لَمْ تَرَ إِلیٰ رَبِّکَ» و الکلام فی قوله «وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً» الخ؛و قوله:

«وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰاهُ بَیْنَهُمْ» ،و قوله: «وَ لَوْ شِئْنٰا لَبَعَثْنٰا» ،کالکلام فی قوله: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ» .

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اللَّیْلَ لِبٰاساً وَ النَّوْمَ سُبٰاتاً وَ جَعَلَ النَّهٰارَ نُشُوراً کون اللیل لباسا إنما هو ستره الإنسان بغشیان الظلمه کما یستر اللباس لابسه.

و قوله: وَ النَّوْمَ سُبٰاتاً أی قطعا للعمل،و قوله: «وَ جَعَلَ النَّهٰارَ نُشُوراً» أی جعل فیه الانتشار و طلب الرزق علی ما ذکره الراغب فی معنی اللفظتین.

و حال ستره تعالی الناس بلباس اللیل و قطعهم به عن العمل و الحرکه ثم نشرهم للعمل و السعی بإظهار النهار و بسط النور کحال مد الظل ثم جعل الشمس علیه دلیلا و قبض الظل بها الیه.

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّیٰاحَ بُشْراً بَیْنَ یَدَیْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً طَهُوراً البشر بالضم فالسکون مخفف بشر بضمتین جمع بشور بمعنی مبشر أی هو الذی أرسل الریاح مبشرات بین یدی رحمته و هی المطر.

و قوله: وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً طَهُوراً أی من جهه العلو و هی جو الأرض ماء طهورا أی بالغا فی طهارته فهو طاهر فی نفسه مطهّر لغیره یزیل الأوساخ و یذهب بالأرجاس و الأحداث-فالطهور علی ما قیل صیغه مبالغه-.

قوله تعالی: لِنُحْیِیَ بِهِ بَلْدَةً مَیْتاً وَ نُسْقِیَهُ مِمّٰا خَلَقْنٰا أَنْعٰاماً وَ أَنٰاسِیَّ کَثِیراً ،البلده معروفه قیل:و أرید بها المکان کما فی قوله: وَ الْبَلَدُ الطَّیِّبُ یَخْرُجُ نَبٰاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ (الأعراف/۵۸)،و لذا اتصف بالمیت و هو مذکر و المکان المیت ما لا نبات فیه و إحیاؤه

إنباته،و الأناسی جمع إنسان،و معنی الآیه ظاهر.

و حال شمول الموت للأرض و الحاجه الی الشرب و الری للأنعام و الأناسی ثم إنزاله تعالی من السماء ماء طهورا لیحیی به بلده میتا و یسقیه أنعاما و أناسی کثیرا من خلقه کحال مد الظل ثم الدلاله علیه بالشمس و نسخه بها کما تقدم.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰاهُ بَیْنَهُمْ لِیَذَّکَّرُوا فَأَبیٰ أَکْثَرُ النّٰاسِ إِلاّٰ کُفُوراً ظاهر اتصال الآیه بما قبلها أن ضمیر «صَرَّفْنٰاهُ» للماء و تصریفه بینهم صرفه عن قوم الی غیرهم تاره و عن غیرهم الیهم أخری فلا یدوم فی نزوله علی قوم فیهلکوا و لا ینقطع عن قوم دائما فیهلکوا بل یدور بینهم حتی ینال کل نصیبه بحسب المصلحه،و قیل:المراد بالتصریف التحویل من مکان الی مکان.

و قوله: لِیَذَّکَّرُوا فَأَبیٰ أَکْثَرُ النّٰاسِ إِلاّٰ کُفُوراً تعلیل للتصریف أی و أقسم لقد صرّفنا الماء بتقسیمه بینهم لیتذکّروا فیشکروا فأبی و امتنع أکثر الناس إلا کفران النعمه.

قوله تعالی: وَ لَوْ شِئْنٰا لَبَعَثْنٰا فِی کُلِّ قَرْیَهٍ نَذِیراً أی لو أردنا أن نبعث فی کل قریه نذیرا ینذرهم و رسولا یبلغهم رسالاتنا لبعثنا و لکن بعثناک الی القری کلها نذیرا و رسولا لعظیم منزلتک عندنا.هکذا فسرت الآیه و لا تخلو الآیه التالیه من تأیید لذلک،و هذا المعنی لما وجهنا به اتصال الآیات أنسب.

أو أن المراد أنّا قادرون علی أن نبعث فی کل قریه رسولا و إنما اخترناک لمصلحه فی اختیارک.

قوله تعالی: فَلاٰ تُطِعِ الْکٰافِرِینَ وَ جٰاهِدْهُمْ بِهِ جِهٰاداً کَبِیراً متفرع علی معنی الآیه السابقه،و ضمیر «بِهِ» للقرآن بشهاده سیاق الآیات،و المجاهده و الجهاد بذل الجهد و الطاقه فی مدافعه العدو و إذ کان بالقرآن فالمراد تلاوته علیهم و بیان حقائقه لهم و إتمام حججه علیهم.

فمحصل مضمون الآیه أنه إذا کان مثل الرساله الإلهیه فی رفع حجاب الجهل و الغفله المضروب علی قلوب الناس بإظهار الحق لهم و إتمام الحجه علیهم مثل الشمس فی الدلاله علی الظل الممدود و نسخه بأمر اللّه،و مثل النهار بالنسبه الی اللیل و سبته،و مثل المطر بالنسبه الی الأرض المیته و الأنعام و الأناسیّ الظامئه،و قد بعثناک لتکون نذیرا لأهل القری فلا تطع الکافرین لأن طاعتهم تبطل هذا الناموس العام المضروب للهدایه.و ابذل مبلغ جهدک و وسعک فی تبلیغ رسالتک و إتمام حجتک بالقرآن المشتمل علی الدعوه الحقه و جاهدهم به مجاهده کبیره.

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ هٰذٰا عَذْبٌ فُرٰاتٌ وَ هٰذٰا مِلْحٌ أُجٰاجٌ وَ جَعَلَ بَیْنَهُمٰا بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً المرج الخلط و منه أمر مریج أی مختلط، و العذب من الماء ما طاب طعمه،و الفرات منه ما کثر عذوبته،و الملح هو الماء المتغیر طعمه.

و الاجاج شدید الملوحه،و البرزخ هو الحد الحاجز بین شیئین،و حجرا محجورا أی حراما محرما أن یختلط أحد الماءین بالآخر.

و قوله: وَ جَعَلَ بَیْنَهُمٰا الخ؛قرینه علی أن المراد بمرج البحرین إرسال الماءین متقارنین لا الخلط بمعنی ضرب الأجزاء بعضها ببعض.

و الکلام معطوف علی ما عطف علیه قوله: «وَ هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّیٰاحَ» الخ؛و فیه تنظیر لامر الرساله من حیث تأدیتها الی تمییز المؤمن من الکافر مع کون الفریقین یعیشان علی أرض واحده مختلطین و هما مع ذلک غیر متمازجین کما تقدمت الإشاره الیه فی أول الآیات التسع.

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ مِنَ الْمٰاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً وَ کٰانَ رَبُّکَ قَدِیراً الصهر علی ما نقل عن الخلیل الختن و أهل بیت المرأه فالنسب هو التحرّم من جهه الرجل و الصهر هو التحرم من جهه المرأه-کما قیل-و یؤیده المقابله بین النسب

و الصهر.

و المعنى:و هو الذى خلق من النطفه-و هى ماء واحد-بشرا فقسّمه قسمين ذا نسب و ذا صهر يعنى الرجل و المرأه و هذا تنظير آخر يفيد ما تفيده الآيه السابقه أن للّه سبحانه أن يحفظ الكثره فى عين الوحده و التفرق فى عين الاتحاد و هكذا يحفظ اختلاف النفوس و الآراء بالإيمان و الكفر مع اتحاد المجتمع البشرى بما بعث اللّه الرسل لكشف حجاب الضلال الذى من شأنه غشيانه لو لا الدعوه الحقه.

و قوله: وَ كٰانَ رَبُّکَ قَدِيراً فى إضافه الرب الى ضمير الخطاب من النكته نظير ما تقدم فى قوله: «أَ لَمْ تَرَ إِلىٰ رَبِّکَ» .

قوله تعالى: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُهُمْ وَ لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ كٰانَ الْكٰافِرُ عَلىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً معطوف على قوله: «وَ إِذٰا رَأَوْکَ إِنْ يَتَّخِذُونَکَ إِلاّٰ هُزُواً» .

و الظهير بمعنى المظاهر على ما قيل و المظاهره المعاونه.

و المعنى:و يعبدون-هؤلاء الكفار المشركون-من دون اللّه ما لا ينفعهم بإيصال الخير على تقدير العباده و لا يضرهم بإيصال الشر على تقدير ترک العباده و كان الكافر معاونا للشيطان على ربه.

و كون هؤلاء المعبودين و هم الأصنام ظاهرا لا ينفعون و لا يضرون لا ينافى كون عبادتهم مضره فلا يستلزم نفى الضرر عنهم أنفسهم حيث لا يقدرون على شىء نفى الضرر عن عبادتهم المضره المؤديه للإنسان الى شقاء لازم و عذاب دائم.

قوله تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ إِلاّٰ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً أى لم نجعل فى رسالتک إلا التبشير و الإنذار و ليس لک وراء ذلک من الأمر شىء فلا عليک إن كانوا معاندين لربهم مظاهرين لعدوه عليه فليسوا بمعجزين للّه و ما يمكرون إلا بأنفسهم،هذا هو الذى يعطيه السياق.

و عليه فقوله: وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ إِلاّٰ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً هذا الفصل من الكلام نظير

قوله:«أ فأنت تكون عليهم وكيلا»فى الفصل السابق.

و منه يظهر أن أخذ بعضهم الآيه تسليه منه تعالى لنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم حيث قال و المراد ما أرسلناك إلا مبشّرا للمؤمنين و نذيرا للكافرين فلا تحزن على عدم إيمانهم.غير سديد.

قوله تعالى: قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ضمير «عَلَيْهِ» للقرآن بما أن تلاوته عليهم تبلغ للرساله كما قال تعالى: إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شٰاءَ اتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (المزمل۱۹/)(الدهر۲۹/)،و قال: قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ (ص۸۷/).

و قوله: إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً استثناء منقطع فى معنى المتصل فإنه فى معنى إلا أن يتخذ الى ربه سبيلا من شاء ذلك على حد قوله تعالى: يَوْمَ لاٰ يَنْفَعُ مٰالٌ وَ لاٰ بَنُونَ إِلاّٰ مَنْ أَتَى اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (الشعراء۸۹/)،أى إلا أن يأتى اللّه بقلب سليم من أتاه به.

ففيه وضع الفاعل و هو من اتخذ السبيل موضع فعله و هو اتخاذ السبيل شكرا له ففى الكلام عدّ اتخاذهم سبيلا الى اللّه سبحانه باستجابه الدعوه أجرا لنفسه ففيه تلويح الى نهايه استغنائه عن أجر مالى أو جاهى منهم،و أنه لا يريد منهم وراء استجابتهم للدعوه و اتباعهم للحق شيئا آخر من مال أو جاه او أى أجر مفروض فليطيبوا نفسا و لا يتهموه فى نصيحته.

و قد علّق اتخاذ السبيل على مشيتهم للدلاله على حريتهم الكامله عن قبله صلى اللّه عليه و آله فلا إكراه و لا إجبار إذ لا وظيفه له عن قبل ربه وراء التبشير و الإنذار و لليس عليهم بوكيل بل الامر الى اللّه يحكم فيهم ما يشاء.

فقوله: قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ أَنْ يَتَّخِذَ الخ؛بعد ما سجل لنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن ليس له إلا الرساله بالتبشير و الإنذار يأمره أن يبلغهم أن لا بغيه له فى دعوتهم إلا أن يستجيبوا له و يتخذوا الى ربهم سبيلا من غير غرض زائد من الاجر أيا ما

كان،و أن لهم الخيره فى أمرهم من غير أى إجبار و إكراه فهم و الدعوه إن شاءوا فليؤمنوا و إن شاءوا فليكفروا.

هـذا ما يرجع اليه صلّى اللّه عليه و آله و سـلم و هو تبليغ الرساله فحسب من غير طمع فى أجر و لا تحميل عليهم بإكراه أو انتقام منهم بنكـال،و أمـا مـا وراء ذلـك فهو للّه فليرجعه اليه و ليتوكـل عليه كمـا أشار اليه فى الآيه التاليه «وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِی لاٰ يَمُوتُ» .

قوله تعالى: وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِی لاٰ يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِيراً لما سـجل على نبيه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم أن ليس له من أمرهم شـىء إلا الرساله و أمره أن يبلغهم أن لا بغيه له فى دعوتهم إلا الاستجابه لها و أنهم على خيره من أمرهم إن شاءوا آمنوا و إن شاءوا كفروا تمم ذلك بأمره صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم أن يتخـذه تعالى وكيلا فى أمرهم فهو تعالى عليهم و على كل شىء وكيل و بذنوب عباده خبير.

فقوله: وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِی لاٰ يَمُوتُ أى اتخـذه وكيلا فى أمرهم يحكم فيهم ما يشاء و يفعل بهم ما يريد فإنه الوكيل عليهم و على كل شـىء و قـد عـدل عن تعليق التوكل باللّه الى تعليقه بالحى الـذى لا يموت ليفيـد التعليل فإن الحى الـذى لا يموت لا يفوته فائت فهو المتعين لأن يكون وكيلا.

و قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ أى نزهه عن العجز و الجهل و كل ما لا يليق بساحه قـدسه مقارنا ذلك للثناء عليه بالجميل فإن أمهلهم و اسـتدرجهم بنعمه فليس عن عجز فعل بهم ذلك و لا عن جهل بذنوبهم و إن أخذهم بذنوبهم فبحكمه اقتضته و باستحقاق منهم استدعى ذلك فسبحانه و بحمده.

و قوله: وَ كَفىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِيراً مسوق للدلاله على توحيده فى فعله و صـفته فهو الوكيل المتصرف فى أمور عباده وحده و هو خبير بذنوبهم و حاكم فيهم وحده من غير حاجه الى من يعينه فى علمه أو فى حكمه.

ص: ۵۱۹

و من هنـا يظهر أن الآيه التاليه «الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ» متممه لقوله: «وَ تَوَكَّلْ عَلَی الْحَيِّ الَّذِی لاٰ يَمُوتُ» الـخ؛لاشـتمالها علی توحيده فی ملكه و تصرفه كما يشتمل قوله:

«وَ كَفیٰ بِهِ» الخ؛علی علمه و خبرته و بالحياه و الملك و العلم معا يتم معنی الوكاله و سنشير اليه.

قوله تعالی: اَلَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِی سِتَّهِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اسْتَویٰ عَلَی الْعَرْشِ الرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ظاهر السياق أن الموصـول صـفه لقـوله فی الآـيه السـابقه: «الْحَيِّ الَّذِی لاٰ يَمُوتُ» و بهـذه الآـيه يتم البيـان فی قوله: «وَ تَوَكَّلْ عَلَی الْحَيِّ الَّذِی لاٰ يَمُوتُ» فـإن الوكـاله كمـا تتوقف علی حيـاه الوكيـل تتوقف علی العلم،و قـد ذكره فی قوله: «وَ كَفیٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِيراً» و تتوقف علی السـلطنه علی الحكم و التصـرف و هو الـذی تتضـمنه هـذه الآـيه بمـا فيهـا من حـديث خلق السـماوات و الاـرض و الاستواء علی العرش.

و قد تقدم تفسـير صدر الآيه فی مواضع من السور السابقه،و أما قوله: «الرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً» فالذی يعطيه السـياق و يهدی اليه النظم أن يكون الرحمن خبرا لمبتـدإ محـذوف و التقـدير هو الرحمن،و قوله: «فَسْئَلْ» متفرّعـا و الفاء للتفريع،و الباء فی قوله: «بِهِ» للتعديه مع تضمين السؤال معنی الاعتناء.و قوله: «خَبِيراً» حال من الضمير.

و المعنی:هو الرحمن-الذی اسـتوی علی عرش الملك و الذی برحمته و إفاضـته يقوم الخلق و الأمر و منه يبتدی كل شیء و اليه يرجع-فاسأله عن حقيقه الحال يخبرك بها فإنه خبير.

فقوله: فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً كنايه عن أن الذی أخبر به حقيقه الأمر التی لا معدل عنها و هذا كما يقول من سئل عن أمر:سلنی أجبك إن كذا و كذا و من هذا الباب قولهم:علی الخبير سقطت.

و لهم فی قوله: اَلرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً أقوال أخری كثيره:فقيل:إن الرحمن

مرفوع على القطع للمدح،و قيل:مبتدأ خبره قوله: «فَسْئَلْ بِهِ» ،و قيل:خبر مبتدؤه «الَّذِی» فی صدر الآیه،و قیل:بدل من الضمیر المستکن فی «اسْتَوی» .

قوله تعالی: وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قالُوا وَ مَا الرَّحْمٰنُ أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَ زادَهُمْ نُفُوراً هذا فصل آخر من معاملتهم السوء مع الرسول و دعوته الحقه یذکر فیه استکبارهم عن السجود للّه سبحانه إذا دعوا الیه و نفورهم منه و للآیه اتصال خاص بما قبلها من حیث ذکر الرحمن فیها و قد وصف فی الآیه السابقه بما وصف و لعل اللام فیه للعهد.

فقوله: وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ الضمیر للکفار،و القائل هو النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بدلیل قوله بعد: «أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا» و لم یذکر اسمه لیتوجه استکبارهم الی اللّه سبحانه وحده.

و قوله: قالُوا وَ مَا الرَّحْمٰنُ سؤال منهم عن هویته و مائیته مبالغه منهم فی التجاهل به استکبارا منهم علی اللّه و لو لا ذلک لقالوا:و من الرحمن،و هذا کقول فرعون لموسی لما دعاه الی رب العالمین وَ ما رَبُّ الْعالَمِینَ (الشعراء۲۳/)،و قول إبراهیم لقومه ما هٰذِهِ التَّماثِیلُ الَّتِی أَنْتُمْ لَها عاکِفُونَ (الأنبیاء۵۲/)،و مراد السائل فی مثل هذا السؤال أنه لا معرفه له من المسئول عنه بشیء أزید من اسمه کقول هود لقومه أَ تُجادِلُونَنِی فِی أَسْماءٍ سَمَّیْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُکُمْ (الأعراف۷۱/).

و قوله حکایه عنهم: «أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا» فی تکرار التعبیر عنه تعالی بما إصرار علی الاستکبار،و التعبیر عن طلبه عنهم السجده بالأمر لا یخلو من تهکم و استهزاء.

و قوله: وَ زادَهُمْ نُفُوراً معطوف علی جواب إذا و المعنی:و إذا قیل لهم اسجدوا استکبروا و زادهم ذلک نفورا ففاعل(زادهم)ضمیر راجع الی القول المفهوم من سابق الکلام.

ص :۵۲۱

قوله تعالى: تَبٰارَكَ الَّذِی جَعَلَ فِی السَّمٰاءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيهٰا سِرٰاجاً وَ قَمَراً مُنِيراً الظاهر أن المراد بالبروج منازل الشمس و القمر من السماء او الكواكب التى عليها كما تقدم فى قوله: وَ لَقَدْ جَعَلْنٰا فِی السَّمٰاءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنّٰاهٰا لِلنّٰاظِرِينَ وَ حَفِظْنٰاهٰا مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ رَجِيمٍ (الحجر/١٧)،و إنما خصّت بالذكر فى الآيه للإشاره الى الحفظ و الرجم المذكورين.

و الذى يعطيه التدبر أن قوله: «تَبٰارَكَ الَّذِی جَعَلَ فِی السَّمٰاءِ بُرُوجاً» الخ؛مسوق سوق التعزز و الاستغناء،و أنهم غير معجزين باستكبارهم على اللّه و استهزائهم بالرسول بل هؤلاء ممنوعون عن الاقتراب من حضره قربه و الصعود الى سماء جواره و المعارف الإلهيه مضيئه مع ذلك لأهله و عباده بما نوّرها اللّه سبحانه بنور هدايته و هو نور الرساله.

و على هذا فقد أثنى اللّه سبحانه على نفسه بذكر تباركه بجعل البروج المحفوظه الراجمه للشياطين بالشهب فى السماء المحسوسه و جعل الشمس المضيئه و القمر المنير فيها لإضاءه العالم المحسوس،و أشار بذلك الى ما يناظره فى الحقيقه من إضاءه العالم الإنسانى بنور الهدايه من الرساله ليتبصر به عباده،كما يذكر حالهم بعد هذه الآيات و دفع أولياء الشياطين عن الصعود اليه بما هيّأ لدفعهم من بروج محفوظه راجمه.

هذا ما يعطيه السياق و على هذا النمط من البيان سيقت هذه الآيات و التى قبلها كما تقدمت الإشاره اليه فى تفسير قوله: «أَ لَمْ تَرَ إِلىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ» فليس ما ذكرناه من التأويل بمعنى صرف الآيات عن ظاهرها.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرٰادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرٰادَ شُكُوراً الخلفه هى الشىء يسدّ مسدّ شىء آخر و بالعكس و كأنه بناء نوع أريد به معنى الوصف فكون الليل و النهار خلفه أن كلا منهما يخلف الآخر،و تقييد الخلفه بقوله: «لِمَنْ أَرٰادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرٰادَ شُكُوراً» للدلاله على نيابه كل منهما عن الآخر فى التذكر و الشكر.

و المقابله بين التـذكر و الشـكر يعطى أن المراد بالتـذكر الرجوع الى ما يعرفه الإنسان بفطرته من الحجج الداله على توحيد ربه و مـا يليق به تعـالى من الصـفات و الأسـماء و غـايته الإيمـان بـاللّه، و بالشـكور القول او الفعل الـذى ينبئ عن الثناء عليه بجميل ما أنعم،و ينطبق على عبادته و ما يلحق بها من صالح العمل.

و على هـذا فالآـيه اعتزاز او امتنـان بجعله تعـالى الليـل و النهـار بحيث يخلف كل صاحبه فمن فاته الإيمان به فى هـذه البرهه من الزمان تداركه فى البرهه الاخرى منه،و من لم يوفّق لعباده او لأى عمل صالح فى شىء منهما أتى به فى الآخر.

هذا ما تفيده الآيه و لها مع ذلك ارتباط بقوله فى الآيه السابقه: «وَ جَعَلَ فِيهٰا سِرٰاجاً وَ قَمَراً مُنِيراً» ففيه إشاره الى أن اللّه سبحانه و إن دفع أولـئك المسـتكبرين عن الصـعود الى سـاحه قربه لكنه لم يمنع عبـاده عن التقرب اليه و الاسـتضاءه بنوره فجعـل نهارا ذا شمس طالعه و ليلا ذا قمر منير و هما ذوا خلفه من فاته ذكر أو شكر فى أحدهما أتى به فى الآخر.

[سوره الفرقان (۲۵): الآيات ۶۳ الى ۷۷]

اشاره

وَ عِبٰادُ اَلرَّحْمٰنِ اَلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى اَلْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ اَلْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰماً (۶۳) وَ اَلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِيٰاماً (۶۴) وَ اَلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اِصْرِفْ عَنّٰا عَذٰابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذٰابَهٰا كٰانَ غَرٰاماً (۶۵) إِنَّهٰا سٰاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقٰاماً (۶۶) وَ اَلَّذِينَ إِذٰا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كٰانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوٰاماً (۶۷) وَ اَلَّذِينَ لاٰ يَدْعُونَ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ وَ لاٰ يَقْتُلُونَ اَلنَّفْسَ اَلَّتِي حَرَّمَ اَللّٰهُ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ لاٰ يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثٰاماً (۶۸) يُضٰاعَفْ لَهُ اَلْعَذٰابُ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهٰاناً (۶۹) إِلاّٰ مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلاً صٰالِحاً فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ اَللّٰهُ سَيِّئٰاتِهِمْ حَسَنٰاتٍ وَ كٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً (۷۰) وَ مَنْ تٰابَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اَللّٰهِ مَتٰاباً (۷۱) وَ اَلَّذِينَ لاٰ يَشْهَدُونَ اَلزُّورَ وَ إِذٰا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرٰاماً (۷۲) وَ اَلَّذِينَ إِذٰا ذُكِّرُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهٰا صُمًّا وَ عُمْيٰاناً (۷۳) وَ اَلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنٰا هَبْ لَنٰا مِنْ أَزْوٰاجِنٰا وَ ذُرِّيّٰاتِنٰا قُرَّهَ أَعْيُنٍ وَ اِجْعَلْنٰا لِلْمُتَّقِينَ إِمٰاماً (۷۴) أُوْلٰئِكَ يُجْزَوْنَ اَلْغُرْفَهَ بِمٰا صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيهٰا تَحِيَّهً وَ سَلاٰماً (۷۵) خٰالِدِينَ فِيهٰا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقٰاماً (۷۶) قُلْ مٰا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لاٰ دُعٰاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزٰاماً (۷۷)

بیان:

قوله تعالی: وَ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِینَ یَمْشُونَ عَلَی الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ الْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰماً لما ذکر فی الآیه السابقه استکبارهم علی اللّه سبحانه

ص: ۵۲۴

و إهانتهم بالاسم الكريم:الرحمن،قابله فی هذه الآیه بذكر ما یقابل ذلک للمؤمنین و سماهم عبادا و أضافهم الی نفسه متسمیا باسم الرحمن الذی كان یحید عنه الكفار و ینفرون.

و قد وصفتهم الآیه بوصفین من صفاتهم:

أحدهما:ما اشتمل علیه قوله: «الَّذِینَ یَمْشُونَ عَلَی الْأَرْضِ هَوْناً» و الهون علی ما ذكره الراغب التذلل،و الأشبه حینئذ أن یكون المشی علی الأرض كنایه عن عیشتهم بمخالطه الناس و معاشرتهم فهم فی أنفسهم متذللون لربهم و متواضعون للناس لما أنهم عباد اللّه غیر مستكبرین علی اللّه و لا مستعلین علی غیرهم بغیر حق،و أما التذلل لأعداء اللّه ابتغاء ما عندهم من العزه الوهمیه فحاشاهم و إن كان الهون بمعنی الرفق و اللین فالمراد أنهم یمشون من غیر تكبر و تبختر.

و ثانیهما:ما اشتمل علیه قوله: «وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ الْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰماً» أی إذ خاطبهم الجاهلون خطابا ناشئا عن جهلهم مما یكرهون أن یخاطبوا به أو یثقل علیهم كما یستفاد من تعلق الفعل بالوصف أجابوهم بما هو سالم من القول و قالوا لهم قولا سلاما خالیا عن اللغو و الإثم،قال تعالی: لاٰ یَسْمَعُونَ فِیهٰا لَغْواً وَ لاٰ تَأْثِیماً إِلاّٰ قِیلاً سَلاٰماً سَلاٰماً (الواقعه/۲۶)، و یرجع الی عدم مقابلتهم الجهل بالجهل.

و هذه-كما قیل-صفه نهارهم إذا انتشروا فی الناس و أما صفه لیلهم فهی التی تصفها الآیه التالیه.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ یَبِیتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِیٰاماً البیتوته إدراک اللیل سواء نام أم لا،و «لِرَبِّهِمْ» متعلق بقوله: «سُجَّداً» و السجد و القیام جمعا ساجد و قائم،و المراد عبادتهم له تعالی بالخرور علی الأرض و القیام علی السوق،و من مصادیقه الصلاه.

و المعنی:و هم الذین یدركون اللیل حال كونهم ساجدین فیه لربهم و قائمین یتراوحون سجودا و قیاما،و یمكن أن یراد به التهجد بنوافل اللیل.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنّٰا عَذٰابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذٰابَهٰا کٰانَ غَرٰاماً الغرام ما ینوب الانسان من شده أو مصیبه فیلزمه و لا یفارقه و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: إِنَّهٰا سٰاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقٰاماً الضمیر لجهنم و المستقر و المقام اسما مکان من الاستقرار و الإقامه،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ إِذٰا أَنْفَقُوا لَمْ یُسْرِفُوا وَ لَمْ یَقْتُرُوا وَ کٰانَ بَیْنَ ذٰلِکَ قَوٰاماً ،الإنفاق بذل المال و صرفه فی رفع حوائج نفسه أو غیره،و الإسراف الخروج عن الحد و لا یکون إلا فی جانب الزیاده،و هو فی الإنفاق التعدی عما ینبغی الوقوف علیه فی بذل المال،و القتر بالفتح فالسکون التقلیل فی الإنفاق و هو بإزاء الاسراف علی ما ذکره الراغب، و القتر و الاقتار و التقتیر بمعنی.

و القوم بالفتح الواسط العدل،و بالکسر ما یقوم به الشیء و قوله: «بَیْنَ ذٰلِکَ» متعلق بالقوام،و المعنی:و کان إنفاقهم وسطا عدلا بین ما ذکر من الاسراف و القتر فقوله: «وَ کٰانَ بَیْنَ ذٰلِکَ قَوٰاماً» تنصیص علی ما یستفاد من قوله: «إِذٰا أَنْفَقُوا لَمْ یُسْرِفُوا وَ لَمْ یَقْتُرُوا» ،فصدر الآیه ینفی طرفی الافراط و التفریط فی الانفاق،و ذیلها یثبت الوسط.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ لاٰ یَدْعُونَ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ الی آخر الآیه؛هذا هو الشرک و أصول الوثنیه لا تجیز دعاءه تعالی و عبادته أصلا لا وحده و لا مع آلهتهم و إنما توجب دعاء آلهتهم و عبادتهم لیقرّبوهم الی اللّه زلفی و یشفعوا لهم عنده.

فالمراد بدعائهم مع اللّه إلها آخر إما التلویح الی أنه تعالی إله مدعو بالفطره علی کل حال فدعاء غیره دعاء لإله آخر معه و إن لم یذکر اللّه.

أو أنه تعالی ثابت فی نفسه سواء دعی غیره أم لا فالمراد بدعاء غیره دعاء إله آخر مع وجوده و بعباره أخری تعدّیه الی غیره.

أو إشاره الی ما کان یفعله جهله مشرکی العرب فإنهم کانوا یرون أن دعاء آلهتهم إنما

ينفعهم فى البر و أما البحر فإنه للّه لا يشاركه فيه أحد فالمراد دعاؤه تعالى فى ورد كما عند شدائد البحر من طوفان و نحوه و دعاء غيره مع فى مورد و هو البر،و أحسن الوجوه أوسطها.

و قوله: وَ لاٰ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللّٰهُ إِلاّٰ بِالْحَقِّ أی لا یقتلون النفس الإنسانیه التی حرّم اللّه قتلها فی حال من الأحوال إلا حال تلبّس القتل بالحق کقتلها قصاصا و حدّا.

و قوله تعالی: وَ لاٰ یَزْنُونَ أی لا یطئون الفرج الحرام و قد کان شائعا بین العرب فی الجاهلیه،و کان الإسلام معروفا بتحریم الزنا و الخمر من أول ما ظهرت دعوته.

و قوله: وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ یَلْقَ أَثٰاماً الإشاره بذلک الی ما تقدم ذکره و هو الشرک و قتل النفس المحترمه بغیر حق و الزنا،و الأثام الإثم و هو وبال الخطیئه و هو الجزاء بالعذاب الذی سیلقاه یوم القیامه المذکور فی الآیه التالیه.

قوله تعالی: یُضٰاعَفْ لَهُ الْعَذٰابُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ وَ یَخْلُدْ فِیهِ مُهٰاناً بیان للقاء الأثام،و قوله: «وَ یَخْلُدْ فِیهِ مُهٰاناً» أی یخلد فی العذاب قد وقعت علیه الإهانه.

و الخلود فی العذاب فی الشرک لا ریب فیه،و أما الخلود فیه عند قتل النفس المحترمه و الزنا و هما من الکبائر و قد صرّح القرآن بذلک فیهما و کذا فی أکل الربا فیمکن أن یحمل علی اقتضاء طبع المعصیه ذلک کما ربما استفید من ظاهر قوله: «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِکَ لِمَنْ یَشٰاءُ» .

أو یحمل الخلود علی المکث الطویل أعمّ من المنقطع و المؤبّد أو یحمل قوله: «وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ» علی فعل جمیع الثلاثه لأن الآیات فی الحقیقه تنزّه المؤمنین عما کان الکفار مبتلین به و هو الجمیع دون البعض.

قوله تعالی: إِلاّٰ مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلاً صٰالِحاً فَأُوْلٰئِکَ یُبَدِّلُ اللّٰهُ سَیِّئٰاتِهِمْ حَسَنٰاتٍ وَ کٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِیماً استثناء من لقی الأثام و الخلود فیه،

و قـد أخـذ فی المسـتثنی التوبه و الإیمان و إتیان العمل الصالـح،أما التوبه و هی الرجوع عن المعصـیه و أقل مراتبها النـدم فلو لم یتحقق لم ینتزع العبد عن المعصیه و لم یزل مقیما علیها،و أما إتیان العمل الصالح فهو مما تستقر به التوبه و به تکون نصوحا.

و أما أخـذ الإیمان فیدلّ علی أن الاسـتثناء إنما هو من الشـرک فتختص الآیه بمن أشـرک و قتل و زنا او بمن أشـرک سواء أتی معه بشـیء من القتـل المـذکور و الزنا و لم یأت،و أما من أتی بشـیء من القتل و الزنا من غیر شـرک فالمتکفل لبیان حکم توبته الآیه التالیه.

و قوله: فَأُوْلٰئِکَ یُبَدِّلُ اللّٰهُ سَیِّئٰاتِهِمْ حَسَنٰاتٍ تفریع علی التوبه و الإیمـان و العمل الصالـح یصف ما یترتب علی ذلک من جمیل الأثر و هو أن اللّه یبدّل سیئاتهم حسنات.

و الـذی یفیـد ظاهر قوله: «یُبَدِّلُ اللّٰهُ سَیِّئٰاتِهِمْ حَسَنٰاتٍ» و قد ذیّله بقوله: «وَ کٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِیماً» أن کل سـیئه منهم نفسا تتبدّل حسـنه،و لیست السـیئه هی متن الفعـل الصـادر من فـاعله و هو حرکات خاصه مشترکه بین السـیئه و الحسـنه کعمل المواقعه مثلا المشترک بین الزنا و النکاح،و الأکل المشترک بین أکل المال غصـبا و بإذن من مالکه بل صفه الفعل من حیث موافقته لأمر اللّه و مخالفته له مثلا من حیث إنه یتأثر به الإنسان و یحفظ علیه دون الفعل الـذی هو مجموع حرکات متصـرّمه متقضـیه فانیه و کذا عنوان القائم به الفانی بفنائه.

و هذه الآثار السیئه التی یتبعها العقاب أعنی السیئات لازمه للانسان حتی یؤخذ بها یوم تبلی السرائر.

و لو لا شوب من الشـقوه و المساءه فی الـذات لم یصـدر عنها عمل سـیئ إذ الذات السـعیده الطاهره من کل وجه لا یصدر عنها سیئه قذره فالأعمال السیئه إنما تلحق ذاتا شقیّه خبیثه بذاتها او ذاتا فیها شوب من شقاء و خباثه.

و لازم ذلک إذا تطهرت بالتوبه و طابت بالإیمان و العمل الصالـح فتبـدلت ذاتا سـعیده ما فیها شوب من قـذاره الشـقاء أن تتبدل آثارها اللازمه التی کانت سیئات قبل ذلک فتناسب الآثار

ص :۵۲۸

للذات بمغفره من اللّه و رحمه و كان اللّه غفورا رحيما.

و الى مثل هذا يمكن أن تكون الإشاره بقوله: «فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ اللّٰهُ سَيِّئٰاتِهِمْ حَسَنٰاتٍ وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً» .

قوله تعالى: وَ مَنْ تٰابَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللّٰهِ مَتٰاباً المتاب مصدر ميمى للتوبه،و سياق الآيه يعطى أنها مسوقه لرفع استغراب تبدّل السيئات حسنات بتعظيم أمر التوبه و أنها رجوع خاص الى اللّه سبحانه فلا بدع فى أن يبدّل السيئات حسنات و هو اللّه يفعل ما يشاء.

و فى الآيه مع ذلك شمول للتوبه من جميع المعاصى سواء قارنت الشرك أم فارقته،و الآيه السابقه-كما تقدمت الإشاره اليه-كانت خفيه الدلاله على حال المعاصى إذا تجردت من الشرك.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ لاٰ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذٰا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرٰاماً قال فى مجمع البيان:أصل الزور تمويه الباطل بما يوهم أنه حق.انتهى.فيشمل الكذب و كل لهو باطل كالغناء و الفحش و الخناء بوجه،و قال أيضا:يقال:تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه و أكرم نفسه منه انتهى.

فقوله: وَ الَّذِينَ لاٰ يَشْهَدُونَ الزُّورَ إن كان المراد بالزور الكذب فهو قائم مقام المفعول المطلق و التقدير لا يشهدون شهاده الزور،و إن كان المراد اللهو الباطل كالغناء و نحوه كان مفعولا به و المعنى لا يحضرون مجالس الباطل،و ذيل الآيه يناسب ثانى المعنيين.

و قوله: وَ إِذٰا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرٰاماً اللغو ما لا يعتد به من الأفعال و الأقوال لعدم اشتماله على غرض عقلائى و يعم-كما قيل-جميع المعاصى،و المراد بالمرور باللغو المرور بأهل اللغو و هم مشتغلون به.

و المعنى:و إذا مروا بأهل اللغو و هم يلغون مروا معرضين عنهم منزهين أنفسهم عن

الدخول فیهم و الاختلاط بهم و مجالستهم.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ إِذٰا ذُکِّرُوا بِآیٰاتِ رَبِّهِمْ لَمْ یَخِرُّوا عَلَیْهٰا صُمًّا وَ عُمْیٰاناً الخرور علی الأرض السقوط علیها و کأنها فی الآیه کنایه عن لزوم الشیء و الانکباب علیه.

و المعنی:و الذین إذا ذکروا بآیات ربهم من حکمه أو موعظه حسنه من قرآن أو وحی لم یسقطوا علیه و هم صم لا یسمعون و عمیان لا یبصرون بل تفکروا فیها و تعقلوها فأخذوا بها من بصیره فآمنوا بحکمتها و اتعظوا بموعظتها و کانوا علی بصیره من أمرهم و بینه من ربهم.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنٰا هَبْ لَنٰا مِنْ أَزْوٰاجِنٰا وَ ذُرِّیّٰاتِنٰا قُرَّهَ أَعْیُنٍ وَ اجْعَلْنٰا لِلْمُتَّقِینَ إِمٰاماً قال الراغب فی المفردات:قرت عینه تقرّ سرّت قال تعالی:

«کَیْ تَقَرَّ عَیْنُهٰا» و قیل لمن یسر به قره عین قال:«قره عین لی و لک»و قوله تعالی: «هَبْ لَنٰا مِنْ أَزْوٰاجِنٰا وَ ذُرِّیّٰاتِنٰا قُرَّهَ أَعْیُنٍ» قیل:أصله من القر أی البرد فقرت عینه قیل:معناه بردت فصحّت،و قیل:بل لأن للسرور دمعه بارده قاره و للحزن دمعه حاره و لذلک یقال فیمن یدعی علیه:أسخن اللّه عینه،و قیل:هو من القرار و المعنی أعطاه اللّه ما یسکن به عینه فلا تطمح الی غیره انتهی.

و مرادهم بکون أزواجهم و ذریاتهم قره أعین لهم أن یسروهم بطاعه اللّه و التجنب عن معصیته فلا حاجه لهم فی غیر ذلک و لا إربه و هم أهل حق لا یتبعون الهوی.

و قوله: وَ اجْعَلْنٰا لِلْمُتَّقِینَ إِمٰاماً أی متسابقین الی الخیرات سابقین الی رحمتک فیتبعنا غیرنا من المتقین کما قال تعالی: فَاسْتَبِقُوا الْخَیْرٰاتِ (البقره/۱۴۸)،و قال:

سٰابِقُوا إِلیٰ مَغْفِرَهٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ جَنَّهٍ (الحدید/۲۱)،و قال: وَ السّٰابِقُونَ السّٰابِقُونَ أُولٰئِکَ الْمُقَرَّبُونَ (الواقعه/۱۱).و کأن المراد أن یکونوا صفا واحدا متقدما علی غیرهم من المتقین و لذا جیء بالإمام بلفظ الإفراد.

قوله تعالى: أُوْلٰئِکَ یُجْزَوْنَ الْغُرْفَهَ بِمٰا صَبَرُوا وَ یُلَقَّوْنَ فِیهٰا تَحِیَّهً وَ سَلاٰماً خٰالِدِینَ فِیهٰا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقٰاماً الغرفه-کما قیل-البناء فوق البناء فهو الدرجه العالیه من البیت،و هی کنایه عن الدرجه العالیه فی الجنه،و المراد بالصبر الصبر علی طاعه اللّه و عن معصیته فهذان القسمان من الصبر هما المذکوران فی الآیات السابقه لکن لا ینفک ذلک عن الصبر عند النوائب و الشدائد.

و المعنی:أولئک الموصوفون بما وصفوا یجزون الدرجه الرفیعه من الجنه یلقون فیها أی یتلقاهم الملائکه بالتحیه و هو ما یقدم للإنسان مما یسره و بالسلام و هو کل ما لیس فیه ما یخافه و یحذره،و فی تنکیر التحیه و السلام دلاله علی التفخیم و التعظیم،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: قُلْ مٰا یَعْبَؤُا بِکُمْ رَبِّی لَوْ لاٰ دُعٰاؤُکُمْ فَقَدْ کَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ یَکُونُ لِزٰاماً قال فی المفردات:ما عبأت به أی لم أبال به،و أصله من العبء أی الثقل کأنه قال:ما أری له وزنا و قدرا،قال تعالی: «قُلْ مٰا یَعْبَؤُا بِکُمْ رَبِّی لَوْ لاٰ دُعٰاؤُکُمْ» و قیل:عبأت الطیب کأنه قیل:ما یبقیکم لو لا دعاؤکم.انتهی.

و المعنی:قل لا قدر و لا منزله لکم عند ربی فوجودکم و عدمکم عنده سواء لأنکم کذّبتم فلا خیر یرجی فیکم فسوق یکون هذا التکذیب ملازما لکم أشد الملازمه،إلا أن اللّه یدعوکم لیتمّ الحجه علیکم أو یدعوکم لعلکم ترجعون عن تکذیبکم.و هذا معنی حسن.

و الآیه خاتمه السوره و تنعطف الی غرض السوره و محصّل القول فیه و هو الکلام علی اعتراض المشرکین علی الرسول و علی القرآن النازل علیه و تکذیبهما.

سوره الشعراء مکیه و هی مائتان و سبع و عشرون آیه

اشاره

[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۱ الی ۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;طسم (۱) تِلْکَ آیٰاتُ اَلْکِتٰابِ اَلْمُبِینِ (۲) لَعَلَّکَ بٰاخِعٌ نَفْسَکَ أَلاّٰ یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ (۳) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَیْهِمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ آیَهً فَظَلَّتْ أَعْنٰاقُهُمْ لَهٰا خٰاضِعِینَ (۴) وَ مٰا یَأْتِیهِمْ مِنْ ذِکْرٍ مِنَ اَلرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلاّٰ کٰانُوا عَنْهُ مُعْرِضِینَ (۵) فَقَدْ کَذَّبُوا فَسَیَأْتِیهِمْ أَنْبٰؤُا مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۶) أَ وَ لَمْ یَرَوْا إِلَی اَلْأَرْضِ کَمْ أَنْبَتْنٰا فِیهٰا مِنْ کُلِّ زَوْجٍ کَرِیمٍ (۷) إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً وَ مٰا کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ (۸) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ اَلْعَزِیزُ اَلرَّحِیمُ (۹)

ص: ۵۳۲

بیان:

غرض السوره تسلیه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم قبال ما کذّبه قومه و کذّبوا بکتابه النازل علیه من ربه -علی ما یلوّح الیه صدر السوره:تلک آیات الکتاب المبین-و قد رموه تاره بأنه مجنون و أخری بأنه شاعر،و فیها تهدیدهم مشفّعا ذلک بإیراد قصص جمع من الأنبیاء و هم موسی و إبراهیم و نوح و هود و صالح و لوط و شعیب علیهم السّلام و ما انتهت الیه عاقبه تکذیبهم لتتسلی به نفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و لا یحزن بتکذیب أکثر قومه و لیعتبر المکذبون.

و السوره من عتائق السور المکیه و أوائلها نزولا و قد اشتملت علی قوله تعالی: وَ أَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ .و ربما أمکن أن یستفاد من وقوع هذه الآیه فی هذه السوره و وقع قوله:

فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ فی سوره الحجر و قیاس مضمونیها کل مع الاخری أن هذه السوره أقدم نزولا من سوره الحجر و ظاهر سیاق آیات السوره أنها جمیعا مکیه و استثنی بعضهم الآیات الخمس التی فی آخرها،و بعض آخر قوله: أَ وَ لَمْ یَکُنْ لَهُمْ آیَهً أَنْ یَعْلَمَهُ عُلَمٰاءُ بَنِی إِسْرٰائِیلَ و سیجیء الکلام فیهما.

قوله تعالی: طسم تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ الْمُبِینِ الإشاره بتلک الی آیات الکتاب مما سینزل بنزول السوره و ما نزل قبل،و تخصیصها بالإشاره البعیده للدلاله علی علوّ قدرها و رفعه مکانتها،و المبین من أبان بمعنی ظهر و انجلی.

و المعنی:تلک الآیات العالیه قدرا الرفیعه مکانا آیات الکتاب الظاهر الجلی کونه من عند اللّه سبحانه بما فیه من سمه الإعجاز و إن کذّب به هؤلاء المشرکون المعاندون و رموه تاره بأنه من إلقاء شیاطین الجن و أخری بأنه من الشعر.

قوله تعالی: لَعَلَّکَ بٰاخِعٌ نَفْسَکَ أَلاّٰ یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ البخوع هو إهلاک النفس عن وجد،و قوله: «أَلاّٰ یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ» تعلیل للبخوع،و المعنی:یرجی منک أن تهلک نفسک

بسبب عدم إيمانهم بآيات هذا الكتاب النازل عليك.

و الكلام مسوق سوق الإنكار و الغرض منه تسليه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمٰاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنٰاقُهُمْ لَهٰا خٰاضِعِينَ متعلق المشيّه محذوف لدلاله الجزاء عليه،و قوله: «فَظَلَّتْ» الخ؛ظلّ فعل ناقص اسمه «أَعْنٰاقُهُمْ» و خبره «خٰاضِعِينَ» و نسب الخضوع الى أعناقهم و هو وصفهم أنفسهم لأن الخضوع أول ما يظهر فى عنق الإنسان حين يطأطئ رأسه تخضعا فهو من المجاز العقلى.

و المعنى:إن نشأ أن ننزّل عليهم آيه تخضعهم و تلجئهم الى القبول و تضطرهم الى الإيمان ننزل عليهم آيه كذلك فظلوا خاضعين لها خضوعا بيّنا بانحناء أعناقهم.

قوله تعالى: وَ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلاّٰ كٰانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ بيان لاستمرارهم على تكذيب آيات اللّه و تمكن الإعراض عن ذكر اللّه فى نفوسهم بحيث كلما تجدد عليهم ذكر من الرحمن و دعوا اليه دفعه بالإعراض.

فالغرض بيان استمرارهم على الإعراض عن كل ذكر أتاهم لا أنهم يعرضون عن محدث الذكر و يقبلون الى قديمه و فى ذكر صفه الرحمن إشاره الى أن الذكر الذى يأتيهم إنما ينشأ عن صفه الرحمه العامه التى بها صلاح دنياهم و أخراهم.

و قد تقدم فى تفسير أول سوره الأنبياء كلام فى معنى الذكر المحدث فراجع.

قوله تعالى: فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبٰؤُا مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ تفريع على ما تقدم من استمرار إعراضهم،و قوله: «فَسَيَأْتِيهِمْ» الخ؛تفريع على التفريع و الأنبياء جمع نبأ و هو الخبر الخطير،و المعنى لما استمر منهم الإعراض عن كل ذكر يأتيهم تحقق منهم و ثبت عليهم أنهم كذبوا،و إذ تحقق منهم التكذيب فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون من آيات اللّه،و تلك الأنباء العقوبات العاجله و الآجله التى ستحيق بهم.

قوله تعالی: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ الاستفهام للإنكار التوبیخی و الجمله معطوف علی مقدر یدل علیه المقام و التقدیر أصروا و استمروا علی الإعراض و کذبوا بالآیات و لم ینظروا الی هذه الأزواج الکریمه من النباتات التی أنبتناها فی الأرض.

فالرؤیه فی قوله: أَ وَ لَمْ يَرَوْا مضمنه معنی النظر و لذا عدیت بإلی،و الظاهر أن المراد بالزوج الکریم.و هو الحسن علی ما قیل:النوع من النبات و قد خلق اللّه سبحانه أنواعه أزواجا،و قیل:المراد بالزوج الکریم الذی أنبته اللّه یعم الحیوان و خاصه الانسان بدلیل قوله:

«وَ اللّٰهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبٰاتاً» .

قوله تعالی: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ الاشاره بذلک الی ما ذکر فی الآیه السابقه من إنبات کل زوج کریم حیث أن فیه إیجادا لکل زوج منه و تتمیم نقائص کل من الزوجین بالآخر و سوقهما الی الغایه المقصوده من وجودهما و فیه هدایه کل الی سعادته الأخیره و من کانت هذه سنته فکیف یهمل أمر الانسان و لا یهدیه الی سعادته و لا یدعوه إلی ما فیه خیر دنیاه و آخرته.هذا ما تدل علیه آیه النبات.

و قوله: وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أی لم یکن المترقب من حال أکثرهم بما عندهم من ملکه الاعراض و بطلان الاستعداد أن یؤمنوا فظاهر الآیه نظیر ظاهر قوله: فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ (یونس۷۴/).و تعلیل الکفر و الفسوق برسوخ الملکات الرذیله و استحکام الفساد فی السریره من قبل فی کلامه تعالی أکثر من أن تحصی.

و من هنا یظهر أن قول بعضهم:إن المراد ما کان فی علم اللّه أن لا یؤمنوا غیر سدید لأنه مضافا الی کونه خلاف المتبادر من الجمله،مما لا دلیل علی أنه المراد من اللفظ بل الدلیل علی خلافه لسبق الدلاله علی أن ملکه الاعراض راسخه لم تزل فی نفوسهم.

و عن سیبویه أن «كٰانَ» فی قوله: «وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» صله زائده و المعنی:و ما

أكثرهم مؤمنين.و فيه أنه معنى صحيح فى نفسه لكن المقام بما تقدم من المعنى أوفق.

قوله تعالى: وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ فهو تعالى لكونه عزيزا غير مغلوب يأخذ المعرضين عن ذكره المكذبين لآياته المستهزئين بها و يجازيهم بالعقوبات العاجله و الآجله،و لكونه رحيما ينزّل عليهم الذكر ليهديهم و يغفر للمؤمنين به و يمهل الكافرين (۱).

[سوره الشعراء (۲۶): الآيات ۱۰ الى ۶۸]

اشاره

وَ إِذْ نٰادىٰ رَبُّکَ مُوسىٰ أَنِ اِئْتِ اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِينَ (۱۰) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لاٰ يَتَّقُونَ (۱۱) قٰالَ رَبِّ إِنِّي أَخٰافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (۱۲) وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لاٰ يَنْطَلِقُ لِسٰانِي فَأَرْسِلْ إِلىٰ هٰارُونَ (۱۳) وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخٰافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (۱۴) قٰالَ كَلاّٰ فَاذْهَبٰا بِآيٰاتِنٰا إِنّٰا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (۱۵) فَأْتِيٰا فِرْعَوْنَ فَقُولاٰ إِنّٰا رَسُولُ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۱۶) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ (۱۷) قٰالَ أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينٰا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينٰا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (۱۸) وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ اَلَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ اَلْكٰافِرِينَ (۱۹) قٰالَ فَعَلْتُهٰا إِذاً وَ أَنَا مِنَ اَلضّٰالِّينَ (۲۰) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمّٰا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَ جَعَلَنِي مِنَ اَلْمُرْسَلِينَ (۲۱) وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهٰا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ (۲۲) قٰالَ فِرْعَوْنُ وَ مٰا رَبُّ اَلْعٰالَمِينَ (۲۳) قٰالَ رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۲۴) قٰالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لاٰ تَسْتَمِعُونَ (۲۵) قٰالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبٰائِكُمُ اَلْأَوَّلِينَ (۲۶) قٰالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ اَلَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (۲۷) قٰالَ رَبُّ اَلْمَشْرِقِ وَ اَلْمَغْرِبِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۲۸) قٰالَ لَئِنِ اِتَّخَذْتَ إِلٰهَاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ اَلْمَسْجُونِينَ (۲۹) قٰالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (۳۰) قٰالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِينَ (۳۱) فَأَلْقىٰ عَصٰاهُ فَإِذٰا هِيَ ثُعْبٰانٌ مُبِينٌ (۳۲) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذٰا هِيَ بَيْضٰاءُ لِلنّٰاظِرِينَ (۳۳) قٰالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ عَلِيمٌ (۳۴) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمٰا ذٰا تَأْمُرُونَ (۳۵) قٰالُوا أَرْجِهْ وَ أَخٰاهُ وَ اِبْعَثْ فِي اَلْمَدٰائِنِ حٰاشِرِينَ (۳۶) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحّٰارٍ عَلِيمٍ (۳۷) فَجُمِعَ اَلسَّحَرَةُ لِمِيقٰاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (۳۸) وَ قِيلَ لِلنّٰاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (۳۹) لَعَلَّنٰا نَتَّبِعُ اَلسَّحَرَةَ إِنْ كٰانُوا هُمُ اَلْغٰالِبِينَ (۴۰) فَلَمّٰا جٰاءَ اَلسَّحَرَةُ قٰالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنٰا لَأَجْراً إِنْ كُنّٰا نَحْنُ اَلْغٰالِبِينَ (۴۱) قٰالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ اَلْمُقَرَّبِينَ (۴۲) قٰالَ لَهُمْ مُوسىٰ أَلْقُوا مٰا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۴۳) فَأَلْقَوْا حِبٰالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قٰالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنّٰا لَنَحْنُ اَلْغٰالِبُونَ (۴۴) فَأَلْقىٰ مُوسىٰ عَصٰاهُ فَإِذٰا هِيَ تَلْقَفُ مٰا يَأْفِكُونَ (۴۵) فَأُلْقِيَ اَلسَّحَرَةُ سٰاجِدِينَ (۴۶) قٰالُوا آمَنّٰا بِرَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۴۷) رَبِّ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ (۴۸) قٰالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ اَلَّذِي عَلَّمَكُمُ اَلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاٰفٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۴۹) قٰالُوا لاٰ ضَيْرَ إِنّٰا إِلىٰ رَبِّنٰا مُنْقَلِبُونَ (۵۰) إِنّٰا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنٰا رَبُّنٰا خَطٰايٰانٰا أَنْ كُنّٰا أَوَّلَ اَلْمُؤْمِنِينَ (۵۱) وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ مُوسىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبٰادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (۵۲) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي اَلْمَدٰائِنِ حٰاشِرِينَ (۵۳) إِنَّ هٰؤُلاٰءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (۵۴) وَ إِنَّهُمْ لَنٰا لَغٰائِظُونَ (۵۵) وَ إِنّٰا لَجَمِيعٌ حٰاذِرُونَ (۵۶) فَأَخْرَجْنٰاهُمْ مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ (۵۷) وَ كُنُوزٍ وَ مَقٰامٍ كَرِيمٍ (۵۸) كَذٰلِكَ وَ أَوْرَثْنٰاهٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ (۵۹) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (۶۰) فَلَمّٰا تَرٰاءَا اَلْجَمْعٰانِ قٰالَ أَصْحٰابُ مُوسىٰ إِنّٰا لَمُدْرَكُونَ (۶۱) قٰالَ كَلاّٰ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (۶۲) فَأَوْحَيْنٰا إِلىٰ مُوسىٰ أَنِ اِضْرِبْ بِعَصٰاكَ اَلْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكٰانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ اَلْعَظِيمِ (۶۳) وَ أَزْلَفْنٰا ثَمَّ اَلْآخَرِينَ (۶۴) وَ أَنْجَيْنٰا مُوسىٰ وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (۶۵) ثُمَّ أَغْرَقْنَا اَلْآخَرِينَ (۶۶) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۶۷) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (۶۸)

1- 1) .الشعراء ١-٩:بحث عقلى متعلق بالعلم فى علم اللّه الازلى.

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذْ نٰادیٰ رَبُّکَ مُوسیٰ -الی قوله- أَ لاٰ یَتَّقُونَ أی و اذکر وقتا نادی فیه ربک موسی و بعثه بالرساله الی قوم فرعون لإنجاء بنی إسرائیل علی ما فصّله فی سوره طه و غیرها.

و قوله: أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ نوع تفسیر للنداء،و توصیفهم أولا بالظالمین ثم

ص :۵۳۹

بیانه ثانیا بقوم فرعون للإشاره الی حکمه الإرسال و هی ظلمهم بالشرک و تعذیب بنی إسرائیل کما فی سوره طه من قوله: اِذْهَبٰا إِلیٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغیٰ -الی أن قال- فَأْتِیٰاهُ فَقُولاٰ إِنّٰا رَسُولاٰ رَبِّکَ فَأَرْسِلْ مَعَنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ وَ لاٰ تُعَذِّبْهُمْ (طه۴۷/).

و قوله: أَ لاٰ یَتَّقُونَ بصیغه الغیبه،و هو توبیخ غیابی منه تعالی لهم و إیراده فی مقام عقد الرساله لموسی علیه السّلام فی معنی قولنا:قل لهم إن ربی یوبخکم علی ترک التقوی و یقول:أ لا تتقون.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ إِنِّی أَخٰافُ أَنْ یُکَذِّبُونِ -الی قوله- فَأَرْسِلْ إِلیٰ هٰارُونَ ،قال فی مجمع البیان:الخوف انزعاج النفس بتوقع الضرع و نقیضه الأمن و هو سکون النفس الی خلوص النفع،انتهی.و أکثر ما یطلق الخوف علی إحساس الشر بحیث یؤدی الی الاتقاء عملا و إن لم تضطرب النفس،و الخشیه علی تأثر النفس من توقع الشر بحیث یورث الاضطراب و القلق،و لذا نفی اللّه الخشیه من غیره عن أنبیائه و ربما أثبت الخوف فقال: وَ لاٰ یَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ (الأحزاب۳۹/)،و قال: وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِیٰانَةً (الأنفال۵۸/).

و قوله: قٰالَ رَبِّ إِنِّی أَخٰافُ أَنْ یُکَذِّبُونِ أی ینسبنی قوم فرعون الی الکذب، و قوله: «وَ یَضِیقُ صَدْرِی وَ لاٰ یَنْطَلِقُ لِسٰانِی» الفعلان مرفوعان و هما معطوفان علی قوله:

«أَخٰافُ» فالذی اعتلّ به أمور ثلاثه:خوف التکذیب و ضیق الصدر و عدم انطلاق اللسان، و فی قراءه یعقوب و غیره یضیق و ینطلق بالنصب عطفا علی «یکذبون» و هو أوفق بطبع المعنی،و علی فالعله واحده و هی خوف التکذیب الذی یترتب علیه ضیق الصدر و عدم انطلاق اللسان.و یطابق ما سیجیء من آیه القصص من ذکر عله واحده هی خوف التکذیب.

و قوله: فَأَرْسِلْ إِلیٰ هٰارُونَ أی أرسل ملک الوحی الی هارون لیکون معینا لی

على تبليغ الرساله يقال لمن نزلت به نائبه أو أشكل عليه أمر:أرسل الى فلان أى استمد منه و اتخذه عونا لك.

فالجمله أعنى قوله: فَأَرْسِلْ إِلىٰ هٰارُونَ متفرعه على قوله: «إِنِّی أَخٰافُ» الخ؛ و ذكر خوف التكذيب مع ما معه من ضيق الصدر و عدم انطلاق اللسان توطئه و تقدمه لذكرها و سؤال موهبه الرساله لهارون.

و إنما اعتلّ بما اعتل به و سأل الرساله لأخيه ليكن شريكا له فى أمره،معينا مصدّقا له فى التبليغ لا فرارا عن تحمل أعباء الرساله،و استعفاء منها،قال فى روح المعانى:و من الدليل على أن المعنى على ذلك لا أنه تعلل وقوع «فَأَرْسِلْ» بين الأوائل و بين الرابعه أعنى قوله: «وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ» الخ؛فآذن بتعلقه بها و لو كان تعللا لاخّر،انتهى.

و هو حسن و أوضح منه قوله تعالى فى سوره القصص فى القصه: قٰالَ رَبِّ إِنِّی قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخٰافُ أَنْ يَقْتُلُونِ، وَ أَخِی هٰارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّی لِسٰاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِی رِدْءاً يُصَدِّقُنِی إِنِّی أَخٰافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (القصص۳۴/).

قوله تعالى: وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخٰافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قال الراغب فى المفردات:

الذنب فى الأصل الأخذ بذنب الشىء يقال:ذنبته أصبت ذنبه،و يستعمل فى كل فعل يستوخم عقباه اعتبارا لما يحصل من عاقبته.انتهى.

و فى الآيه إشاره الى قصه قتله عليه السّلام،و كونه ذنبا لهم عليه إنما هو بالبناء على اعتقادهم أو الاعتبار بمعناه اللغوى المذكور آنفا،و أما كونه ذنبا بمعنى معصيه اللّه تعالى فلا دليل عليه و سيوافيك فيه كلام عند تفسير سوره القصص إن شاء اللّه تعالى.

قوله تعالى: قٰالَ كَلاّٰ فَاذْهَبٰا بِآيٰاتِنٰا إِنّٰا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ كلا للردع و هو متعلق بما ذكره من خوف القتل،ففيه تأمين له و تطييب لنفسه أنهم لا يصلون اليه،و أما سؤاله الإرسال الى هارون فلم يذكر ما أجيب به عنه،غير أن قوله: «فَاذْهَبٰا بِآيٰاتِنٰا» دليل على

إجابه مسئوله.

و قوله: فَاذْهَبا بِآياتِنا متفرع على الردع فيفيد أن اذهبا اليه بآياتنا و لا تخافا،و قد علّل ذلك بقوله: «إِنّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ» و المراد بضمير الجمع موسى و هارون و القوم الذين أرسلا اليهم،و لا يعبأ بقول من قال:إن المراد به موسى و هارون بناء على كون أقلّ الجمع اثنين فإنه مع فساده فى أصله لا تساعد عليه ضمائر التثنيه قبله و بعده كما قيل.

و الاستماع هو الإصغاء الى الكلام و الحديث و هو كنايه عن الحضور و كمال العنايه بما يجرى بينهما و بين فرعون و قومه عند تبليغ الرساله كما قال فى القصه من سوره طه: لا تَخافا إِنَّنِی مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى (طه۴۶/).

و محصل المعنى:كلا لا يقدرون على قتلك فاذهبا اليهم بآياتنا و لا تخافا إنا حاضرون عندكم شاهدون عليكم معتنون بما يجرى بينكم.

قوله تعالى: فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِی إِسْرائِيلَ بيان لقوله فى الآيه السابقه: «فَاذْهَبا بِآياتِنا» .

و قوله: فَقُولا إِنّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ تفريع على إتيان فرعون،و التعبير بالرسول بلفظ المفرد إما باعتبار كون رسالتهما واحده و هى قولهما: «أَنْ أَرْسِلْ» الخ؛أو باعتبار أن الرسول مصدر فى الأصل فالأصل أن يستوى فيه الواحد و الجمع،و التقدير إنا ذوا رسول رب العالمين أى ذوا رسالته كما قيل.

و قوله: أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِی إِسْرائِيلَ تفسير للرساله المفهومه من السياق و المراد بإرسالهم إطلاقهم لكن لما كان المطلوب أن يعودوا الى الأرض المقدسه التى كتب اللّه لهم و هى أرض آبائهم إبراهيم و إسحاق و يعقوب عليهم السّلام سمّى إطلاقهم ليعودوا إليها إرسالا منه لهم إليها.

قوله تعالى: قالَ أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ

الاستفهام للإنكار التوبيخى،و «نُرَبِّکَ» من التربيه،و الوليد الصبى.

لما أقبل فرعون على موسى و هارون و سمع كلامهما عرف موسى و خصه بالخطاب قائلا أ لم نربک،الخ؛و مراده الاعتراض عليه أولا من جهه دعواه الرساله يقول:أنت الذى ربيناك و أنت وليد و لبثت فينا من عمرك سنين عديده نعرفك باسمك و نعتك و لم ننس شيئا من أحوالك فمن أين لك هذه الرساله و أنت من نعرفك و لا نجهل أصلك؟

قوله تعالى: وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَکَ الَّتِی فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْکافِرِینَ الفعله بفتح الفاء بناء مره من الفعل،و توصيف الفعله بقوله: «الَّتِی فَعَلْتَ» للدلاله على عظم خطره و كثره شناعته و فظاعته نظير ما فى قوله: فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (طه۷۸/)،و مراده بهذه الفعله قتله عليه السّلام القبطى.

و قوله: وَ أَنْتَ مِنَ الْکافِرِینَ ظاهر السياق على ما سيأتى الإشاره اليه أن مراده بالكفر كفران النعمه و أن قتله القبطى و إفساده فى أرضه كفران لنعمته عليه بالخصوص بما له عنده من الصنيعه حيث كف عن قتله كسائر المواليد من بنى إسرائيل و رباه فى بيته بل لأنه من بنى إسرائيل و هو يراهم عبيدا لنفسه و يرى نفسه ربا منعما عليهم فقتل الواحد منهم رجلا من قومه و إفساده فى الأرض خروج من طور العبوديه و كفر بنعمته.

فمحصل اعتراضه المشار اليه فى الآيتين أنك الذى ربيناك صبيا صغيرا و لبثت فينا من عمرك سنين،و أفسدت فى الأرض بقتل النفس فكفرت بنعمتى و أنت من عبيدى الإسرائيليين فمن أين جاءتک هذه الرساله؟و كيف تكون رسولا و أنت هذا الذى نعرفك؟.

قوله تعالى: قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْکُمْ لَمّا خِفْتُکُمْ فَوَهَبَ لِی رَبِّی حُکْماً وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُرْسَلِینَ وَ تِلْکَ نِعْمَهٌ تَمُنُّها عَلَیَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِی إِسْرائِیلَ ضمير «فَعَلْتُها» راجع الى الفعله،و الظاهر أن «إِذاً» مقطوع عن الجواب و الجزاء و يفيد معنى حينئذ كما قيل،و عبده تعبيدا و أعبده إعبادا إذا اتخذه عبدا

لنفسه.

و الآیات الثلاث جواب موسی علیه السّلام عما اعترض به فرعون،و التطبیق بین جوابه علیه السّلام و ما اعترض به فرعون یعطی أنه علیه السّلام حلل کلام فرعون الی القدح فی دعواه للرساله من ثلاثه أوجه:أحدها استغراب رسالته و استبعادها و هو الذی یعلم حاله و قد أشار الیه بقوله:«أ لم نربک فینا ولیدا و لبثت فینا من عمرک سنین»و الثانی استقباح فعلته و رمیه بالإفساد و الجرم بقوله: «وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَکَ الَّتِی فَعَلْتَ» و الثالث المن علیه بأنه من عبیده و یستفاد ذلک من قوله:

«وَ أَنْتَ مِنَ الْکافِرِینَ» و قد اقتضی طبع ما یذکره فی الجواب أن یغیر الترتیب فی الجواب فیجیب أولا عن اعتراضه الثانی ثم عن الأول ثم عن الثالث.

فقوله: فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضّالِّینَ جواب عن اعتراضه بقتل القبطی و قد استعظمه حیث لم یصرّح باسمه بل کنّی عنه بالفعله التی فعلت صونا للأسماع أن تقرع باسمه فتتألم.

و التدبر فی متن الجواب و مقابلته الاعتراض یعطی أن قوله: «فَفَرَرْتُ مِنْکُمْ لَمّا خِفْتُکُمْ فَوَهَبَ لِی رَبِّی حُکْماً» من تمام الجواب عن القتل فیتقابل الحکم و الضلال و یتضح حینئذ أن المراد بالضلال الجهل المقابل للحکم و الحکم إصابه النظر فی حقیقه الأمر و إتقان الرأی فی تطبیق العمل علیه فیرجع معناه الی القضاء الحق فی حسن الفعل و قبحه و تطبیق العمل علیه،و هذا هو الذی کان یؤتاه الأنبیاء،قال تعالی: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ لِیُطاعَ بِإِذْنِ اللّهِ» .

فالمراد أنی فعلتها حینئذ و الحال أنی فی ضلال من الجهل بجهه المصلحه فی و الحق الذی یجب أن یتبع هناک فأقدمت علی الدفاع عمن استنصرنی و لم أعلم أنه یؤدی الی قتل الرجل و یؤدی ذلک الی عاقبه و خیمه تحوجنی الی خروجی من مصر و فراری الی مدین و التغرّب عن الوطن سنین.

و قوله: فَفَرَرْتُ مِنْکُمْ لَمّا خِفْتُکُمْ فَوَهَبَ لِی رَبِّی حُکْماً متفرع علی قصه

القتل،و السبب فی خوفه و فراره ما أخبر اللّه به فی سوره القصص بقوله: وَ جٰاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَی الْمَدِینَهِ یَسْعیٰ قٰالَ یٰا مُوسیٰ إِنَّ الْمَلَأَ یَأْتَمِرُونَ بِکَ لِیَقْتُلُوکَ فَاخْرُجْ إِنِّی لَکَ مِنَ النّٰاصِحِینَ فَخَرَجَ مِنْهٰا خٰائِفاً یَتَرَقَّبُ (القصص۲۱/).

و أما الحکم فالمراد به-کما استظهرناه-إصابه النظر فی حقیقه الأمر و إتقان الرأی فی العمل به.

و قوله: وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُرْسَلِینَ جواب عن الاعتراض الأول و هو استغراب رسالته و استبعادها و هم یعرفونه،و قد شاهدوا أحواله حینما کانوا یربّونه فیهم ولیدا و لبث فیهم من عمره سنین،و تقریره أن استغرابهم و استبعادهم رسالته استنادا الی سابق معرفتهم بحاله إنما یستقیم لو کانت الرساله أمرا اکتسابیا یمکن أن یحدس به أو یتوقع حصول مقدماته الاختیاریه،و لیس الأمر کذلک بل هی أمر وهبی لا تأثیر للأسباب العادیه فیها و قد جعله اللّه من المرسلین کما وهب له الحکم بغیر اکتساب هذا ما یعطیه التدبر فی السیاق.

و قوله: وَ تِلْکَ نِعْمَهٌ تَمُنُّهٰا عَلَیَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِی إِسْرٰائِیلَ جواب عن منّه علیه و تقریعه بأنه من عبیده و قد کفر نعمته و تقریر الجواب أنّ هذا الذی تعدّه نعمه و تقرّ عنی بکفرانها سلطه ظلم و تغلّب إذ عبّدت بنی إسرائیل و التعبید ظلما و تغلّبا لیس من النعمه فی شیء.

فالجمله استفهامیه مسوقه للإنکار و «أَنْ عَبَّدْتَ بَنِی إِسْرٰائِیلَ» بیان لما أشیر الیه بقوله:

«تِلْکَ» و المحصّل أن الذی تشیر الیه بقولک «وَ أَنْتَ مِنَ الْکٰافِرِینَ» من أن لک علیّ نعمه کفرتها إذ کنت ولیّ نعمتی و سائر بنی إسرائیل-أو إذ کنت ولیّ نعمتنا معشر بنی إسرائیل-لیس بحق إذ کونک ولیا منعما لیس إلا استنادا الی التعبید،و التعبید ظلم و الولایه المستنده الیه أیضا ظلم و حاشا أن یکون الظالم ولیا منعما له علی من عبّده نعمه و إلا کان التعبید نعمه و لیس نعمه،ففی قوله: «أَنْ عَبَّدْتَ بَنِی إِسْرٰائِیلَ» وضع السبب موضع المسبب.

قوله تعالی: قٰالَ فِرْعَوْنُ وَ مٰا رَبُّ الْعٰالَمِینَ -الی قوله- مِنَ الْمَسْجُونِینَ لمّا کلم فرعون موسی علیه السّلام فی معنی رسالته قادحا فیها فتلقی الجواب بما کان فیه إفحامه أخذ یکلمه فی خصوص مرسله و قد أخبره أن الذی أرسله هو رب العالمین فراجعه فیه و استوضحه بقوله: «وَ مٰا رَبُّ الْعٰالَمِینَ؟» الی تمام سبع آیات.

و اتضاح المراد منها یتوقف علی تذکر أصول مذاهب الوثنیه فی أمر الربوبیه و قد تقدمت الإشاره إلیها فی خلال الأبحاث السابقه من هذا الکتاب کرارا.

فقوله: «قٰالَ فِرْعَوْنُ وَ مٰا رَبُّ الْعٰالَمِینَ» سؤال منه عن حقیقه رب العالمین بیانه أن فرعون کان وثنیا یعبد الأصنام و هو مع ذلک یدّعی الالوهیه،أما عبادته الأصنام فلقوله تعالی:

وَ یَذَرَکَ وَ آلِهَتَکَ (الأعراف/۱۲۷)،و أما دعواه الالوهیه فللآیه المذکوره و لقوله تعالی:

فَقٰالَ أَنَا رَبُّکُمُ الْأَعْلیٰ (النازعات/۲۴).

و لا منافاه عند الوثنیه بین کون الشیء إلها ربا و بین کونه مربوبا لرب آخر لأن الربوبیه هو الاستقلال فی تدبیر شیء من العالم و هو لا ینافی الإمکان و المربوبیه لشیء آخر و کل رب عندهم مربوب لآخر إلا اللّه سبحانه فهو رب الأرباب لا رب فوقه و إله الآلهه لا إله له.

و کان الملک عند الوثنیه ظهورا من اللاهوت فی بعض النفوس البشریه بالسلطه و نفوذ الحکم فکان یعبد الملوک کما یعبد أرباب الأصنام و کذلک رؤساء البیوت فی بیوتهم،و کان فرعون و ثنیا یعبد الآلهه و هو ملک القبط یعبده قومه کسائر الآلهه.

فلما سمع من موسی و هارون قولهما: «إِنّٰا رَسُولُ رَبِّ الْعٰالَمِینَ» تعجّب منه إذ لم یعقل له معنی محصلا إذ لو أرید به الواجب و هو اللّه سبحانه فهو عنده رب عالم الأرباب دون جمیع العالمین و لو أرید به بعض الممکنات الشریفه من الآلهه کبعض الملائکه و غیرهم فهو أیضا عنده رب عالم من عوالم الخلقه دون جمیع العالمین فما معنی رب العالمین.

و لذلک قال: «وَ مٰا رَبُّ الْعٰالَمِینَ» فسأل عن حقیقه الموصوف بهذه الصفه بما هو موصوف

بهذه الصفه و لم يسأل عن حقيقه اللّه سبحانه فإن لو ثنيته كان معتقدا بوجوده مذعنا له و هو يرى كسائر الوثنيين أنه لا سبيل الى إدراك حقيقته كيف؟و هو أساس مذهبهم الذى يبنون عليه عباده سائر الآلهه و الأرباب كما سمعت.

و قوله: قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ جواب موسى عليه السّلام عن سؤاله «وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» و هو خبر لمبتدإ محذوف،و محصل المعنى على ما يعطيه المطابقه بين السؤال و الجواب:هو رب السماوات و الأرض و ما بينهما التى تدل بوجود التدبير فيها و كونه تدبيرا واحدا متصلا مرتبطا على أن لها مدبّرا-ربا-واحدا على ما يراه الموقنون السالكون سبيل اليقين من البرهان و الوجدان.

و بتعبير آخر مرادى بالعالمين السماوات و الأرض و ما بينهما التى تدل بالتدبير الواحد الذى فيها على أن لها ربا مدبرا واحدا،و مرادى برب العالمين ذلك الرب الواحد الذى تدل عليه و هذه دلاله يقينيه يجدها أهل اليقين الذين يتعاطون البرهان و الوجدان.

و قوله: قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لاَ تَسْتَمِعُونَ أى أ لا تصغون الى ما يقول موسى؟ و الاستفهام للتعجيب يريد أن يصغوا اليه فيتعجبوا من قوله حيث يدّعى رساله رب العالمين و إذا سئل ما رب العالمين؟أعاد الكلمه ثانيا و لم يزد على ما بدأ به شيئا.

و هذا تمويه منه عليهم يريد به الستر على الحق الذى لاح من كلام موسى عليه السّلام فإنه إنما قال:

إن جميع العالمين تدلّ بوحده التدبير الذى يشاهده أهل اليقين فيها على أن لها ربا مدبرا واحدا هو الذى تسألنى عنه،و هو يفسر كلامه أنه يقول:أنا رسول رب العالمين،فإذا سألته ما رب العالمين؟يجيبنى بأنه رب لعالمين.

و قوله: قَالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ جواب موسى عليه السّلام ثانيا فإنه لما رأى تمويه فرعون على من حوله و قد كان أجاب عن سؤاله «وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» بتفسير العالمين من العالم الكبير كالسماوات و الأرض و ما بينهما عدل ثانيا الى ما يكون أصرح فى المقصود فذكر

ربوبيته تعالى لعالمى الإنسانيه فإن العالم الجماعه من الناس أو الأشياء فعالمو الإنسان هو الجماعات من الحاضرين و الماضين و لذلك قال: «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبٰائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» .

و كان محصّل تمويه فرعون أن موسى لم يجبه بشىء إذ كرّر اللفظ فأجابه موسى ثانيا بالتصريح على أن رب العالمين هو رب عالمى الإنسانيه من الحاضرين و الماضين و بذلك تنقطع حيلته.

و قوله: قٰالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قول فرعون ثانيا و قد سمى موسى رسولا تهكما و استهزاء و إضافه الى من حوله ترفعا من أن يكون رسولا اليه،و قد رماه بالجنون مستندا الى قوله عليه السلام: «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبٰائِكُمُ» الخ.

و قوله: قٰالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لاٰ تَسْتَمِعُونَ أى أ لا تصغون إلى ما يقول موسى؟ و الاستفهام للتعجيب يريد أن يصغوا اليه فيتعجبوا من قوله حيث يدّعى رساله رب العالمين و إذا سئل ما رب العالمين؟أعاد الكلمه ثانيا و لم يزد على ما بدأ به شيئا.

و هذا تمويه منه عليهم يريد به الستر على الحق الذى لاح من كلام موسى عليه السّلام فإنه إنما قال إن جميع العالمين تدلّ بوحده التدبير الذى يشاهده أهل اليقين عليها على أن لها ربا مدبرا واحدا هو الذى تسألنى عنه،و هو يفسر كلامه أنه يقول أنا رسول رب العالمين،فإذا سألته ما رب العالمين؟يجيبنى بأنه رب العالمين.

و قوله قٰالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبٰائِكُمُ الْأَوَّلِينَ جواب موسى عليه السّلام ثانيا فإنه لما رأى تمويه فرعون على من حوله و قد كان أجاب عن سؤاله «وَ مٰا رَبُّ الْعٰالَمِينَ» بتفسير العالمين من العالم الكبير كالسماوات و الأرض و ما بينهما عدل ثانيا إلى ما يكون أصرح فى المقصود فذكر ربوبيته تعالى لعالمى الإنسانيه فإن العالم الجماعه من الناس أو الأشياء فعالمو الإنسان هو الجماعات من الحاضرين و الماضين و لذلك قال: «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبٰائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» .

و كان محصّل تمويه فرعون أن موسى لم يجبه بشىء إذ كرّر اللفظ فأجابه موسى ثانيا

بالتصریح علی أنه رب العالمین هو رب عالمی الإنسانیه من الحاضرین و الماضین و بذلک تنقطع حیلته.

و قوله: قٰالَ إِنَّ رَسُولَکُمُ الَّذِی أُرْسِلَ إِلَیْکُمْ لَمَجْنُونٌ قول فرعون ثانیا و قد سمی موسی رسولا تهکما و استهزاء و أضافه إلی من حوله ترفعا من أن یکون رسولا الیه،و قد رماه بالجنون مستندا إلی قوله علیه السّلام: «رَبُّکُمْ وَ رَبُّ آبٰائِکُمُ» الخ.

کأنه یقول:إنه لمجنون لما فی کلامه من الاختلال الکاشف عن الاختلال فی تعقله یدّعی رساله رب العالمین فأسأله ما رب العالمین؟فیکرر اللفظ تقریبا أولا ثم یفسره بأنه ربکم و رب آبائکم الأولین.

و قوله: قٰالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا إِنْ کُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ظاهر السیاق أن المراد بالمشرق جهه شروق الشمس و سائر الأجرام النیّره السماویه و طلوعها و بالمغرب الجهه التی تغرب فیها بحسب الحس،و بما بینهما ما بین الجهتین فیشمل العالم المشهود و یساوی السماوات و الأرض و ما بینهما.

فیکون إعاده لمعنی الجواب الأول بتقریر آخر و هو مشتمل علی ما اشتمل علیه من نکته اتصال التدبیر و اتحاده فإن للشروق ارتباطا بالغروب و المشرق و المغرب یتحققان طرفین لوسط بینهما،کما أن للسماء أرضا و لهما أمر بینهما و هذا النوع من الاتحاد لا یقبل إلا تدبیرا متصلا واحدا،و کما أن کل أمه حاضره لها ارتباط وجودی بالامم الماضیه ارتباط الأخلاف بالأسلاف فالنوع واحد و التدبیر واحد فالمدبر واحد.

و قد بدّل قوله فی الجواب الأول: «إِنْ کُنْتُمْ مُوقِنِینَ» من قوله هاهنا: «إِنْ کُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» تعریضا له حیث قال لمن حوله: «أَ لاٰ تَسْتَمِعُونَ» استهزاء به و إهانه له،ثم رماه ثانیا بالجنون و اختلال الکلام فأشار علیه السّلام بقوله: «إِنْ کُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» الی أنهم هم المحرومون من نعمه التعقل و التفقه و لو کانوا یعقلون لفهموا أن جوابه الأول لیس بتکرار غیر مفید و لکفاهم حجه علی

توحید الرب و أن القائم بتدبیر جمیع العالمین من السماوات و الأرض و ما بینهما مدبّر واحد لا مدبّر سواه و لا رب غیره.

و قد تبین بما ذکر أن الآیه أعنی قوله: «رَبُّ الْمَشْرِقِ» الخ؛تقریر آخر لقوله فی الجواب الأول: «رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمَا» و أنه برهان علی وحده المدبر من طریق وحده التدبیر و فی ذلک تعریف لرب العالمین بأنه المدبّر الواحد الذی یدل علیه التدبیر و الواحد فی جمیع العالمین،نعم البیان الذی یشیر الیه هذه الآیه أوضح لاشتماله علی معنی الشروق و الغروب و کونهما من التدبیر ظاهر.

و قوله: قٰالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهَاً غَیْرِی لَأَجْعَلَنَّکَ مِنَ الْمَسْجُونِینَ تهدید منه لموسی علیه السّلام لو دام علی ما یقول به من ربوبیه رب العالمین مدّعیا أنه رسول منه و هذا دأب الجاهل المعاند إذا انقطع عن الحجه أخذ فی التهدید و تشبّث بالوعید.

و اتخاذ إله غیره کنایه عن القول بربوبیه رب العالمین الذی یدعو الیه موسی و إنما لم یذکره صونا للسانه عن التفوّه باسمه،و لم یعبأ بسائر الآلهه التی کانوا یعبدونها استکبارا و علوّا، و کأن السجن کان جزاء المعرضین عنه المنکرین لالوهیته.

قوله تعالی: قٰالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُکَ بِشَیْءٍ مُبِینٍ القائل هو موسی علیه السّلام و المراد بشیء مبین شیء یبین و یظهر صحه دعواه و هو آیه الرساله التی تدل علی صحه دعوی الرساله من مدّعیه فإن الآیه المعجزه إنما تدل علی صدق الرسول فی دعواه الرساله و أما المعارف الإلهیه التی یدعو إلیها کالتوحید و المعاد و ما یتعلق بهما فالسبیل الی إثباته الحجه البرهانیه و علی ذلک کانت تجری سیره الأنبیاء فی دعوتهم و قد تقدم کلام فیه فی الجزء الأول من الکتاب.

و المعنی:قال موسی:أ تجعلنی من المسجونین و لو أتیتک بشیء و یوضح صدقی فیما ادّعیت من الرساله.

قوله تعالی: قٰالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِینَ القائل فرعون و قد فرّع أمره

بإتيانه على استفهام موسى المشعر بأنه يدعى أن عنده شيئا مبينا و لذا قيّد الأمر بالإتيان بقوله: «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ» أى إن كنت صادقا فى أن عندك شيئا كذلك.

قوله تعالى: فَأَلْقىٰ عَصٰاهُ فَإِذٰا هِيَ ثُعْبٰانٌ مُبِينٌ وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذٰا هِيَ بَيْضٰاءُ لِلنّٰاظِرِينَ هاتان الآيتان اللتان أوتيهما موسى ليله الطور،و الثعبان:الحيه العظيمه و كونه مبينا ظهور واقعيته بحيث لا يرتاب فيه،و المراد بنزع يده نزعه من جيبه بعد وضعها فيه كما فى سورتى:النمل الآيه ١٢ و القصص الآيه ٣٢.

قوله تعالى: قٰالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمٰا ذٰا تَأْمُرُونَ القائل فرعون و قد قال لموسى: «فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ» رجاء أن يأتى بأمر فيه موضع معارضه و مناقشه فلما أتى بما لا مغمض فيه لم يجد بدا دون أن يبهته بأنه ساحر عليم.

و لذا أتبع رميه بالسحر بقوله: «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ» إغراء لهم عليه و حثا لهم على أن يتفقوا معه على دفعه بأى وسيله ممكنه.

و قوله: فَمٰا ذٰا تَأْمُرُونَ لعل المراد بالأمر الإشاره عليه لما أن المشير يشير على من يستشيره بلفظ الأمر فالمعنى إذا كان الشأن هذا فما ذا تشيرون علىّ أن أعامله به حتى أعمل به و ذلك أنه كان يرى نفسه ربهم الأعلى و يراهم عبيده و لا يناسب ذلك حمل الأمر على معناه المتعارف.

قوله تعالى: قٰالُوا أَرْجِهْ وَ أَخٰاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدٰائِنِ حٰاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحّٰارٍ عَلِيمٍ القائلون هم الملأ حوله و هم أشراف قومه،و قوله: «أرجه» بسكون الهاء على القراءه الدائره و هو أمر من الإرجاء بمعنى التأخير أى أخر موسى و أخاه و أمهلهما و لا تعجل اليهما بسياسه أو سجن و نحوه حتى تعارض سحرهما بسحر مثله.

و قرئ «أرجه» بكسر الهاء و«أرجئه»بالهمزه و ضم الهاء و هما أفصح من القراءه

الدائره،و المعنى واحد على أى حال.

و قوله: وَ ابْعَثْ فِى الْمَدائِنِ حاشِرِينَ المدائن جمع مدينه و هى البلده و الحاشر من الحشر و هو إخراج الى مكان بإزعاج أى ابعث فى البلاد عده من شرطائک و جنودک يحشرون کل سحّار عليم فيها و يأتوک بهم لتعارضهما بسحرهم.

و التعبير بالسحارون الساحر للإشاره الى أن هناک من هو أعلم منه بفنون السحر و أکثر عملا.

قوله تعالى: فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ،هو يوم الزينه الذى اتفق موسى و فرعون على جعله ميقاتا للمعارضه کما فى سوره طه ففى الکلام إيجاز و تلخيص.

قوله تعالى: وَ قِيلَ لِلنّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ الاستفهام لحث الناس و ترغيبهم على الاجتماع.

قال فى الکشاف ما حاصله أن المراد باتباع السحره اتباعهم فى دينهم-و کانوا متظاهرين بعباده فرعون کما يظهر من سياق الآيات التاليه-و ليس مرادهم بذلک إلا أن لا يتبعوا موسى لا اتباع السحره،و إنما ساقوا کلامهم مساق الکنايه ليحملوا به السحره على الاهتمام و الجد فى المغالبه.

قوله تعالى: فَلَمّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنّا نَحْنُ الْغالِبِينَ الاستفهام فى معنى الطلب،و قد قالوا: «إِنْ كُنّا» و لم يقولوا،إذا کنا نحن الغالبين ليفيد القطع بالغلبه کما يفيد قولهم بعد: «بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ» بل ألقوه فى صوره الشک لکون أدعى لفرعون الى جعل الأجر.

و قد أثّر ذلک أثره حيث جعل لهم أجرا و زاد عليه الوعد بجعلهم من المقرّبين.

قوله تعالى: قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا -الى قوله- تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ الحبال جمع حبل،و العصى جمع عصى،و اللقف الابتلاع بسرعه،و ما يأفکون من الإفک بمعنى صرف

الشیء عن وجهه سمّی السحر إفکا لأن فیه صرف الشیء عن صورته الواقعیه الی صوره خیالیه،و معنی الآیات ظاهر.

قوله تعالی: فَأُلْقِیَ السَّحَرَهُ سٰاجِدِینَ قٰالُوا آمَنّٰا بِرَبِّ الْعٰالَمِینَ یرید أن السحره لما رأوا ما رأوا من الآیات الباهره بهرهم و أدهشهم ذلک فلم یتمالکوا أنفسهم دون أن خرّوا علی الأرض ساجدین للّه سبحانه فاستعیر الإلقاء لخرورهم علی الأرض للدلاله علی عدم تمالک أنفسهم کأنهم قد طرحوا علی الأرض طرحا.

و قوله: قٰالُوا آمَنّٰا بِرَبِّ الْعٰالَمِینَ فیه إیمان باللّه سبحانه إیمان توحید لما تقدّم أن الاعتراف بکونه تعالی رب العالمین لا یتم إلا مع التوحید و نفی الآلهه من دونه.

و قوله: رَبِّ مُوسیٰ وَ هٰارُونَ فیه إشاره الی الإیمان بالرساله مضافا الی التوحید.

قوله تعالی: قٰالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَکُمْ إِنَّهُ لَکَبِیرُکُمُ الَّذِی عَلَّمَکُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ الی آخر الآیه:القائل فرعون،و المراد بقوله: «آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَکُمْ» آمنتم من دون إذن منی کما فی قوله تعالی: «لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ کَلِمٰاتُ رَبِّی» و لیس مفاده أن الإذن کان ممکنا أو متوقعا منه کما قیل.

و قوله: إِنَّهُ لَکَبِیرُکُمُ الَّذِی عَلَّمَکُمُ السِّحْرَ بهتان آخر یبهت به موسی علیه السّلام لیصرف به قلوب قومه و خاصه ملأهم عنه.

و قوله: «فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» تهدید لهم فی سیاق الإبهام للدلاله علی أنه فی غنی عن ذکره و أما هم فسوف یعلمونه.

و قوله: لَأُقَطِّعَنَّ أَیْدِیَکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ مِنْ خِلاٰفٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّکُمْ أَجْمَعِینَ القطع من خلاف أن تقطع الید الیمنی مع الرجل الیسری أو بالعکس و التصلیب جعل المجرم علی الصلیب،و قد تقدم نظیر الآیه فی سورتی الأعراف و طه.

قوله تعالی: قٰالُوا لاٰ ضَیْرَ إِنّٰا إِلیٰ رَبِّنٰا مُنْقَلِبُونَ الضیر هو الضرر،و قوله: «إِنّٰا

إِلىٰ رَبِّنٰا مُنْقَلِبُونَ» تعليل لقولهم:لا ضير أى إنا لا نستضر بهذا العذاب الذى توعدنا به لأنا نصبر و نرجع بذلك الى ربنا و ما أكرمه من رجوع!.

قوله تعالى: إِنّٰا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنٰا رَبُّنٰا خَطٰايٰانٰا أَنْ كُنّٰا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ تعليل لما يستفاد من كلامهم السابق أنهم لا يخافون الموت و القتل بل يشتاقون الى لقاء ربهم يقولون:لا نخاف من عذابك شيئا لأنا نرجع به الى ربنا و لا نخاف الرجوع لأنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا بسبب كوننا أول المؤمنين بموسى و هارون رسولى ربنا.

و فتح الباب فى كل خير له أثر من الخير لا يرتاب فيه العقل السليم فلو أن اللّه سبحانه أكرم مؤمنا لإيمانه و الرحمه لم تطفر مغفرته و رحمته أول الفاتحين لهذا الباب و الواردين هذا المورد.

قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ مُوسىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبٰادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ شروع فى سرد الشطر الثانى من القصه و هو وصف عذاب آل فرعون بسبب ردهم دعوه موسى و هارون عليه السّلام،و قد كان الشطر الأول رساله موسى و هارون اليهم و دعوتهم الى التوحيد، و الإسراء و السرى السير بالليل،و المراد بعبادى بنو إسرائيل و فى هذا التعبير نوع إكرام لهم.

و قوله: إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ تعليل للأمر أى سر بهم ليلا ليتبعكم آل فرعون و فيه دلاله على أن للّه فى اتباعهم أمرا و أنّ فيه فرج بنى إسرائيل و قد صرّح بذلك فى قوله: فَأَسْرِ بِعِبٰادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (الدخان/۲۴).

قوله تعالى: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدٰائِنِ حٰاشِرِينَ -الى قوله- ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ قصه غرق آل فرعون و إنجاء بنى إسرائيل فى أربع عشره آيه و قد أوجز فى الكلام بحذف بعض فصول القصه لظهوره من سياقها كخروج موسى و بنى إسرائيل ليلا من مصر لدلاله قوله: «أَنْ أَسْرِ بِعِبٰادِي» عليه و على هذا القياس.

فقال تعالى: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ أى فأسرى موسى بعبادى فلما علم فرعون بذلك

أرسل «فِي الْمَدٰائِنِ» التى تحت سلطانه رجالا «حٰاشِرِينَ» يحشرون الناس و يجمعون الجموع قائلين للناس «إِنَّ هٰؤُلاٰءِ» بنى إسرائيل «لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ» و الشرذمه من كل شیء بقيته القليله فتوصيفها بالقله تأكيد «وَ إِنَّهُمْ لَنٰا لَغٰائِظُونَ» يأتون من الأعمال ما يغيظوننا به «وَ إِنّٰا لَجَمِيعٌ» مجموع متفق فيما نعزم عليه «حٰاذِرُونَ» نحذر العدو أن يغتالنا أو يمكر بنا و إن كان ضعيفا قليلا،و المطلوب بقولهم هذا و هو لا محاله بلاغ من فرعون حثّ الناس عليهم.

فَأَخْرَجْنٰاهُمْ مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ وَ كُنُوزٍ وَ مَقٰامٍ كَرِيمٍ فيه قصورهم المشيده و بيوتهم الرفيعه،و لما كان خروجهم عن مكر إلهى بسبب داعيه الاستعلاء و الاستكبار التى فيهم نسب الى نفسه أنه أخرجهم «كَذٰلِكَ» أى الأمر كذلك «وَ أَوْرَثْنٰاهٰا» أى تلك الجنات و العيون و الكنوز و المقام الكريم «بَنِي إِسْرٰائِيلَ» حيث أهلكنا فرعون و جنوده و أبقينا بنى إسرائيل بعدهم فكانوا هم الوارثين.

فَأَتْبَعُوهُمْ أى لحقوا ببنى إسرائيل «مُشْرِقِينَ» أى داخلين فى وقت شروق الشمس و طلوعها «فَلَمّٰا تَرٰاءَا الْجَمْعٰانِ» أى دنا بعضهم من بعض فرأى كل من الجمعين جمع فرعون و جمع موسى الآخر، «قٰالَ أَصْحٰابُ مُوسىٰ» من بنى إسرائيل خائفين فزعين «إِنّٰا لَمُدْرَكُونَ» سيدركنا جنود فرعون.

«قال موسى كلاّ»لن يدركونا «إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ» و المراد بهذه المعيه معيه الحفظ و النصره و هى التى وعدها له ربه أول ما بعثه و أخاه الى فرعون «إِنَّنِي مَعَكُمٰا» و أما معيه الإيجاد و التدبير فاللّه سبحانه مع موسى و فرعون على نسبه سواء،و قوله: «سَيَهْدِينِ» أى سيدلنى على طريق لا يدركنى فرعون معها.

فَأَوْحَيْنٰا إِلىٰ مُوسىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصٰاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ و الانفلاق انشقاق الشیء و بينونه بعضه من بعض «فَكٰانَ كُلُّ فِرْقٍ» أى قطعه منفصله من الماء «كَالطَّوْدِ» و هو القطعه من الجبل «الْعَظِيمِ» فدخلها موسى و من معه من بنى إسرائيل.

«وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ» أی و قربنا هناک «الْآخَرِينَ» و هم فرعون و جنوده «وَ أَنْجَيْنا مُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ» بحفظ البحر علی حاله و هیئته حتی قطعوه و خرجوا منه، «ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ» بإطباق البحر علیهم و هم فی فلقه.

قوله تعالی: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَةً وَ مٰا کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ ظاهر السیاق-و یؤیده سیاق القصص الآتیه-أن المشار الیه مجموع ما ذکر فی قصه موسی من بعثه و دعوته فرعون و قومه و إنجاء بنی إسرائیل و غرق فرعون و جنوده،ففی ذلک کله آیه تدل علی توحّده تعالی بالربوبیه و صدق الرساله لمن تدبر فیها.

و قوله: وَ مٰا کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ أی و ما کان أکثر هؤلاء الذین ذکرنا قصتهم مؤمنین مع ظهور ما دل علیه من الآیه و علی هذا فقوله بعد کل من القصص الموردة فی السوره:

«وَ مٰا کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ» بمنزله أخذ النتیجه و تطبیق الشاهد علی المستشهد له کأنه یقال بعد إیراد کل واحده من القصص:هذه قصتهم المتضمنه لآیاته تعالی و ما کان أکثرهم مؤمنین کما لم یؤمن أکثر قومک فلا تحزن علیهم فهذا دأب کل من الامم التی بعثنا الیهم رسولا فدعاهم الی توحید الربوبیه.

[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۶۹ الی ۱۰۴]

اشاره

وَ اُتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ إِبْرٰاهِیمَ (۶۹) إِذْ قٰالَ لِأَبِیهِ وَ قَوْمِهِ مٰا تَعْبُدُونَ (۷۰) قٰالُوا نَعْبُدُ أَصْنٰاماً فَنَظَلُّ لَهٰا عٰاکِفِینَ (۷۱) قٰالَ هَلْ یَسْمَعُونَکُمْ إِذْ تَدْعُونَ (۷۲) أَوْ یَنْفَعُونَکُمْ أَوْ یَضُرُّونَ (۷۳) قٰالُوا بَلْ وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا کَذٰلِکَ یَفْعَلُونَ (۷۴) قٰالَ أَ فَرَأَیْتُمْ مٰا کُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۷۵) أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُکُمُ اَلْأَقْدَمُونَ (۷۶) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِی إِلاّٰ رَبَّ اَلْعٰالَمِینَ (۷۷) اَلَّذِی خَلَقَنِی فَهُوَ یَهْدِینِ (۷۸) وَ اَلَّذِی هُوَ یُطْعِمُنِی وَ یَسْقِینِ (۷۹) وَ إِذٰا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ (۸۰) وَ اَلَّذِی یُمِیتُنِی ثُمَّ یُحْیِینِ (۸۱) وَ اَلَّذِی أَطْمَعُ أَنْ یَغْفِرَ لِی خَطِیئَتِی یَوْمَ اَلدِّینِ (۸۲) رَبِّ هَبْ لِی حُکْماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصّٰالِحِینَ (۸۳) وَ اِجْعَلْ لِی لِسٰانَ صِدْقٍ فِی اَلْآخِرِینَ (۸۴) وَ اِجْعَلْنِی مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ اَلنَّعِیمِ (۸۵) وَ اِغْفِرْ لِأَبِی إِنَّهُ کٰانَ مِنَ اَلضّٰالِّینَ (۸۶) وَ لاٰ تُخْزِنِی یَوْمَ یُبْعَثُونَ (۸۷) یَوْمَ لاٰ یَنْفَعُ مٰالٌ وَ لاٰ بَنُونَ (۸۸) إِلاّٰ مَنْ أَتَی اَللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ (۸۹) وَ أُزْلِفَتِ اَلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِینَ (۹۰) وَ بُرِّزَتِ اَلْجَحِیمُ لِلْغٰاوِینَ (۹۱) وَ قِیلَ لَهُمْ أَیْنَ مٰا کُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۹۲) مِنْ دُونِ اَللّٰهِ هَلْ یَنْصُرُونَکُمْ أَوْ یَنْتَصِرُونَ (۹۳) فَکُبْکِبُوا فِیهٰا هُمْ وَ اَلْغٰاوُونَ (۹۴) وَ جُنُودُ إِبْلِیسَ أَجْمَعُونَ (۹۵) قٰالُوا وَ هُمْ فِیهٰا یَخْتَصِمُونَ (۹۶) تَاللّٰهِ إِنْ کُنّٰا لَفِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ (۹۷) إِذْ نُسَوِّیکُمْ بِرَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۹۸) وَ مٰا أَضَلَّنٰا إِلاَّ اَلْمُجْرِمُونَ (۹۹) فَمٰا لَنٰا مِنْ شٰافِعِینَ (۱۰۰) وَ لاٰ صَدِیقٍ حَمِیمٍ (۱۰۱) فَلَوْ أَنَّ لَنٰا کَرَّةً فَنَکُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۰۲) إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَةً وَ مٰا کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۰۳) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ اَلْعَزِیزُ اَلرَّحِیمُ (۱۰۴)

بیان:

قوله تعالی: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرٰاهِيمَ غیّر السیاق عما کان علیه أول القصه «وَ إِذْ نٰادیٰ رَبُّکَ مُوسیٰ» الخ؛لمکان قوله: «عَلَيْهِمْ» فإن المطلوب تلاوته علی مشرکی العرب و عمدتهم قریش و إبراهیم هذا أبوهم و قد قام لنشر التوحید و إقامه الدین الحق و لم یکن بینهم یومئذ من یقول:لا إله إلا اللّه،فنصر اللّه و نصره حتی ثبتت کلمه التوحید فی الأرض المقدسه و فی الحجاز.

فلم یکن ذلک کله إلا-عن دعوه من الفطره و بعث من اللّه سبحانه ففی ذلک آیه للّه فلیعتبروا به و لیتبرّءوا به من دین الوثنیه کما تبرّأ منه و من أبیه و قومه المنتحلین به أبوهم إبراهیم علیه السّلام.

ص :۵۵۸

قوله تعالى: إِذْ قٰالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مٰا تَعْبُدُونَ مخاصمته و مناظرته عليه السّلام مع أبيه غير مخاصمته مع قومه و احتجاجه عليهم كما حكاه اللّه تعالى فى سوره الأنعام و غيرها لكن البناء هاهنا على الإيجاز و الاختصار و لذا جمع بين المحاجتين و سبكهما محاجه واحده أورد فيها ما هو القدر المشترك بينهما.

و قوله: مٰا تَعْبُدُونَ سؤال عن الحقيقه بوضع نفسه موضع من لا يعرف شيئا من حقيقتها و سائر شئونها و هذا من طرق المناظره سبيل من يريد أن يبين الخصم حقيقه مدّعاه و سائر شئونه حتى يأخذه بما سمع من اعترافه.

على أن هذه المحاجه كانت من إبراهيم أول ما خرج من كهفه و دخل فى مجتمع أبيه و قومه و لم يكن شهد شيئا من ذلك قبل اليوم فحاجّهم عن فطره ساذجه طاهره كما تقدم تفصيل القول فى تفسير سوره الأنعام.

قوله تعالى: قٰالُوا نَعْبُدُ أَصْنٰاماً فَنَظَلُّ لَهٰا عٰاكِفِينَ ظلّ بمعنى دام،و العكوف على الشىء ملازمته و الإقامه عنده،و اللام فى «لَهٰا» للتعليل أى ندوم عاكفين عليها لأجلها و هو تفريع على عباده الأصنام.

و بالجمله فجوابهم عن سؤال إبراهيم «مٰا تَعْبُدُونَ» بقولهم: «نَعْبُدُ أَصْنٰاماً» إبانه أن هذه الأجسام المعبوده ممثلات مقصوده لغيرها لا لنفسها،و قد أخذ إبراهيم قولهم: «نَعْبُدُ» و خاصمهم به فإن استقلال الأصنام بالمعبوديه لا يجامع كونها أصناما ممثله للغير فإذ كانت مقصوده بالعباده فمن الواجب أن يشتمل على ما هو الغرض المقصود منها من جلب نفع أو دفع ضر بالتوجه العبادى و الدعاء و المسأله و الأصنام بمعزل من أن تعلم بمسأله أو تجيب مضطرا بإيصال نفع أو صرف ضر و لذلك سألهم إبراهيم بقوله: «هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ» الخ.

قوله تعالى: قٰالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ اعترض عليه السّلام عليهم فى عبادتهم الأصنام من جهتين:

إحداهما:أن العباده تمثيل لذله العابد و حاجته الى المعبود فلا يخلو من دعاء من العابد للمعبود،و الدعاء يتوقف على علم المعبود بذلك و سمعه ما يدعوه به،و الأصنام أجسام جماديه لا سمع لها فلا معنى لعبادتها.

و الثانيه:أن الناس إنما يعبدون الإله إما طمعا فى خيره و نفعه و إما اتّقاء من شرّه و ضرّه و الأصنام جمادات لا قدره لها على إيصال نفع أو دفع ضرر.

فكل من الآيتين يتضمن جهه من جهتى الاعتراض،و قد أوردهما فى صوره الاستفهام ليضطرهم على الاعتراف.

قوله تعالى: قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ كان مقتضى المقام أن يجيبوا عن سؤاله عليه السّلام بالنفى لكنه لما كان ينتج خلاف ما هم عليه من الانتحال بالوثنيه أضربوا عنه الى التشبث بذيل التقليد فذكروا أنهم لا مستند لهم فى عبادتها إلا تقليد الآباء محضا.

و قوله: وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ أى فعلنا كما كانوا يفعلون و عبدناهم كما كانوا يعبدون،و لم يعدل عن قوله: «كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ» الى مثل قولنا:يعبدونها ليكون أصرح فى التقليد كأنهم لا يفهمون من هذه العبادات إلا أنها أفعال كأفعال آبائهم من غير أن يفقهوا منها شيئا أزيد من أشكالها و صورها.

قوله تعالى: قَالَ أَ فَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاّٰ رَبَّ الْعٰالَمِينَ لما انتهت محاجته مع أبيه و قومه الى أن لا حجه لهم فى عبادتهم الأصنام إلا تقليد آباءهم محضا تبرأ عليه السّلام من آلهتهم و من أنفسهم و آبائهم بقوله:

«أَ فَرَأَيْتُمْ» الخ.

فقوله: أَ فَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ تفريع على ما ظهر مما تقدم من عدم الدليل على عباده الأصنام إلا التقليد بل بطلانها من أصلها أى فإذا كانت

باطله لا حجه لکم علیها إلا تقلید آبائکم فهذه الأصنام التی رأیتموها أی هذه بأعیانها التی تعبدونها أنتم و آباؤکم الأقدمون فإنها عدو لی لأن عبادتها ضاره لدینی مهلکه لنفسی فلیست إلا عدوا لی.

و ذکر آبائهم الأقدمین للدلاله علی أنه لا یأخذ بالتقلید کما أخذوا و أن لا وقع عنده علیه السّلام لتقدم العهد،و لا أثر للسبق الزمانی فی إبطال حق أو إحقاق باطل،و إرجاع ضمیر أولی العقل الی الأصنام لمکان نسبه العباده إلیها و هی تستلزم الشعور و العقل،و هو کثیر الوقوع فی القرآن.

و قوله: إِلاّٰ رَبَّ الْعٰالَمِینَ استثناء منقطع من قوله: «فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِی» أی لکن رب العالمین لیس کذلک.

قوله تعالی: اَلَّذِی خَلَقَنِی فَهُوَ یَهْدِینِ -الی قوله- یَوْمَ الدِّینِ لما استثنی رب العالمین جل اسمه وصفه بأوصاف تتم بها الحجه علی أنه تعالی لیس عدوا له بل رب رحیم ذو عنایه بحاله منعم علیه بکل خیر دافع عنه کل شر فقال: «الَّذِی خَلَقَنِی» الخ؛و أما قول القائل:إن قوله: «الَّذِی خَلَقَنِی» الخ؛استیناف من الکلام لا یعبأ به.

فقوله: اَلَّذِی خَلَقَنِی فَهُوَ یَهْدِینِ بدأ بالخلق لأن المطلوب بیان استناد تدبیر أمره الیه تعالی بطریق إعطاء الحکم بالدلیل،و البرهان علی قیام التدبیر به تعالی قیام الخلق و الإیجاد به لوضوح أن الخلق و التدبیر لا ینفکان فی هذه الموجودات الجسمانیه التدریجیه الوجود التی تستکمل الوجود علی التدریج فلیس من المعقول أن یقوم الخلق بشیء و التدبیر بشیء و إذ کان الخلق و الإیجاد للّه سبحانه فالتدبیر له أیضا.

و لهذا عطف الهدایه علی الخلق بفاء التفریع،فدل علی أنه تعالی هو الهادی لأنه هو الخالق.

و ظاهر قوله: فَهُوَ یَهْدِینِ -و هو مطلق-أن المراد به مطلق الهدایه الی المنافع

دنیویه کانت أو أخرویه و التعبیر بلفظ المضارع لإفاده الاستمرار فالمعنی أنه الذی خلقنی و لا یزال یهدینی الی ما فیه سعاده حیاتی منذ خلقنی و لن یزال کذلک.فیکون الآیه فی معنی ما حکاه اللّه عن موسی إذ قال لفرعون: رَبُّنَا الَّذِی أَعْطیٰ کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدیٰ (طه/ ۵۰)،أی هداه الی منافعه و هی الهدایه العامه.

و هذا هو الذی أشیر الیه فی أول السوره بقوله: «أَ وَ لَمْ یَرَوْا إِلَی الْأَرْضِ کَمْ أَنْبَتْنٰا فِیهٰا مِنْ کُلِّ زَوْجٍ کَرِیمٍ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً» و قد مر تقریر الحجه فیه.

و علی هذا فما سیأتی فی قوله: «وَ الَّذِی هُوَ یُطْعِمُنِی» الخ؛من الصفات المعدوده من قبیل ذکر الخاص بعد العام فإنها جمیعا من مصادیق الهدایه العامه بعضها هدایه الی منافع دنیویه و بعضها هدایه الی ما یرجع الی الآخره.

و لو کان المراد بالهدایه الهدایه الخاصه الدینیه فالصفات المعدوده علی رسلها و ذکر الهدایه بعد الخلقه،و تقدیمها علی سائر النعم و المواهب لکونها أفضل النعم بعد الوجود.

و قوله: وَ الَّذِی هُوَ یُطْعِمُنِی وَ یَسْقِینِ وَ إِذٰا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ هو کالکنایه عن جمله النعم المادیه التی یرزقه اللّه ایاها لتتمیم النواقص و رفع الحوائج الدنیویه، و قد خصّ بالذکر منها ما هو أهمها و هو الإطعام و السقی و الشفاء إذا مرض.

و من هنا یظهر أن قوله: «وَ إِذٰا مَرِضْتُ» توطئه و تمهید لذکر الشفاء،فالکلام فی معنی یطعمنی و یسقینی و یشفین،و لذا نسب المرض الی نفسه لئلا یختل المراد بذکر ما هو سلب النعمه بین النعم،و أما قول القائل:إنه إنما نسب المرض الی نفسه مع کونه من اللّه للتأدب فلیس بذاک.

و إنما أعاد الموصول فقال: «الَّذِی هُوَ یُطْعِمُنِی» الخ؛و لم یعطف الصفات علی ما فی قوله:

«الذی خلقنی فهو یهدین»للدلاله علی أن کلا من الصفات المذکوره فی هذه الجمله المترتبه کان فی إثبات کونه تعالی هو الرب المدبّر لأمره و القائم علی نفسه المجیب لدعوته.

و قوله: وَ الَّذِی یُمِیتُنِی ثُمَّ یُحْیِینِ یرید الموت المقضی لکل نفس المدلول علیه بقوله: کُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ الْمَوْتِ (الأنبیاء۳۵/)،و لیس بانعدام و فناء بل انتقال من دار الی دار من جمله التدبیر العام الجاری،و المراد بالإحیاء إفاضه الحیاه بعد الموت.

و قوله: وَ الَّذِی أَطْمَعُ أَنْ یَغْفِرَ لِی خَطِیئَتِی یَوْمَ الدِّینِ أی یوم الجزاء و هو یوم القیامه،و لم یقطع بالمغفره کما قطع فی الامور المذکوره قبلها لأن المغفره لیست بالاستحقاق بل هی فضل من اللّه فلیس یستحق أحد علی اللّه سبحانه شیئا لکنه سبحانه قضی علی نفسه الهدایه و الرزق و الإماته و الإحیاء لکل ذی نفس و لم یقض المغفره لکل ذی خطیئه فقال:

فَوَ رَبِّ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ (الذاریات۲۳/)،و قال: کُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ الْمَوْتِ (الأنبیاء۳۵/)،و قال: إِلَیْهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً وَعْدَ اللّٰهِ حَقًّا (یونس۴/)،و قال فی المغفره:

إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِکَ لِمَنْ یَشٰاءُ (النساء۴۸/).

و نسبه الخطیئه الی نفسه و هو علیه السّلام نبی معصوم من المعصیه دلیل علی أن المراد بالخطیئه غیر المعصیه بمعنی مخالفه الأمر المولوی فإن للخطیئه و الذنب مراتب تتقدر حسب حال البعد فی عبودیته کما قیل:حسنات الأبرار سیئات المقرّبین،و قد قال تعالی لنبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ» .

فالخطیئه من مثل إبراهیم علیه السّلام اشتغاله عن ذکر اللّه محضا بما تقتضیه ضروریات الحیاه کالنوم و الأکل و الشرب و نحوها و إن کانت بنظر آخر طاعه منه علیه السّلام کیف؟و قد نص تعالی علی کونه علیه السّلام مخلصا للّه لا یشارکه تعالی فیه شیء إذ قال:«إنا أخلصناهم بالخالصه ذکری الدار»(ص۴۶/)،و قد قدمنا کلاما له تعلق بهذا المقام فی آخر الجزء السادس و فی قصص إبراهیم فی الجزء السابع من الکتاب.

قوله تعالی: رَبِّ هَبْ لِی حُکْماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصّٰالِحِینَ لما ذکر علیه السّلام نعم ربه المستمره المتوالیه المتراکمه علیه منذ خلق الی ما لا نهایه له من أمد البقاء و صوّر بذلک شمول

اللطف و الحنان الإلهى أخذته جاذبه الرحمه الملتئمه بالفقر العبودى فدعته الى إظهار الحاجه و بثّ المسأله فالتفت من الغيبه الى الخطاب فسأل ما سأل.

فقوله: رَبِّ أضاف الرب الى نفسه بعد ما كان يصفه بما أنه رب العالمين إثاره للرحمه الإلهيه و تهييجا للعنايه الربانيه لاستجابه دعائه و مسألته.

و قوله: هَبْ لِي حُكْماً يريد بالحكم ما تقدم فى قول موسى عليه السّلام فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً الآيه ۲۱ من السوره و هو-كما تقدم-إصابه النظر و الرأى فى المعارف الاعتقاديه و العمليه الكليه و تطبيق العمل عليها كما يشير اليه قوله تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاعْبُدُونِ (الأنبياء/۲۵)،و هو وحى المعارف الاعتقاديه و العمليه التى يجمعها التوحيد و التقوى،و قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرٰاتِ وَ إِقٰامَ الصَّلاٰهِ وَ إِيتٰاءَ الزَّكٰاهِ وَ كٰانُوا لَنٰا عٰابِدِينَ (الأنبياء/۷۳)،و هو وحى التسديد و الهدايه الى الصلاح فى مقام العمل،و تنكير الحكم لتفخيم أمره.

و قوله: وَ أَلْحِقْنِي بِالصّٰالِحِينَ الصلاح-على ما ذكره الراغب-يقابل الفساد الذى هو تغير الشىء عن مقتضى طبعه الأصلى فصلاحه كونه على مقتضى الطبع الأصلى فيترتب عليه من الخير و النفع ما من شأنه أن يترتب عليه من غير أن يفسد فيحرم من آثاره الحسنه.

و إذ كان «بِالصّٰالِحِينَ» غير مقيد بالعمل و نحوه فالمراد به الصالحون ذاتا لا عملا فحسب و إن كان صلاح الذات لا ينفك عنه صلاح العمل،قال تعالى: اَلْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبٰاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ (الأعراف/۵۸).

فصلاح الذات كونها تامه الاستعداد لقبول الرحمه الإلهيه و إفاضه كل خير و سعاده من شأنها أن تتلبس به من يغر أن يقارنها ما يفسدها من اعتقاد باطل أو عمل سيئ و بذلك يتبين أن الصلاح الذاتى من لوازم موهبه الحكم بالمعنى الذى تقدم و إن كان الحكم أخص

موردا من الصلاح و هو ظاهر.

فمسألته الإلحاق بالصالحين من لوازم مسأله موهبه الحكم و فروعها المترتبه عليها فيعود معنى قوله: «رَبِّ هَبْ لِی حُكْماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصّالِحِینَ» الى مثل قولنا:رب هب لى حكما و تمّم أثره فیّ و هو الصلاح الذاتى.

و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَهِ لَمِنَ الصّالِحِینَ (البقره۱۳۰/)فى الجزء الأول من الكتاب كلام له تعلّق بهذا المقام.

قوله تعالى: وَ اجْعَلْ لِی لِسانَ صِدْقٍ فِی الْآخِرِینَ إضافه اللسان الى الصدق لاميه تفيد اختصاصه بالصدق بحيث لا يتكلم إلا به،و ظاهر جعل هذا اللسان له أن يكون مختصا به كلسانه لا يتكلم إلا بما فى ضميره مما يتكلم هو به فيئول المعنى الى مسأله أن يبعث اللّه فى الآخرين من يقوم بدعوته و يدعو الناس الى ملّته و هى دين التوحيد.

فتكون الآيه فى معنى قوله فى سوره الصافات بعد ذكر إبراهيم عليه السّلام: وَ تَرَكْنا عَلَیْهِ فِی الْآخِرِینَ (الصافات۱۰۸/)،و قد ذكر هذه الجمله بعد ذكر عده من الأنبياء غيره كنوح و موسى و هارون و إلياس،و كذا قال تعالى فى سوره مريم بعد ذكر زكريا و يحيى و عيسى و إبراهيم و موسى و هارون: وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِیًّا (مريم۵۰/)فالمراد على أى حال إبقاء دعوتهم بعدهم بعدهم ببعث رسل أمثالهم.

قوله تعالى: وَ اجْعَلْنِی مِنْ وَرَثَهِ جَنَّهِ النَّعِیمِ تقدم معنى وراثه الجنه فى تفسير قوله تعالى: أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ (المؤمنون۱۰/).

قوله تعالى: وَ اغْفِرْ لِأَبِی إِنَّهُ كانَ مِنَ الضّالِّینَ استغفار لأبيه حسب ما وعده فى قوله: سَلامٌ عَلَیْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّی (مريم۴۷/)،و ليس ببعيد أن يستفاد من قوله تعالى: وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِیمَ لِأَبِیهِ إِلاّ عَنْ مَوْعِدَهٍ وَعَدَها إِیّاهُ فَلَمّا تَبَیَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ (التوبه۱۱۴/)،أنه دعا لأبيه بهذا الدعاء و هو حىّ بعد،و على هذا فمعنى قوله:

«إِنَّهُ کٰانَ مِنَ الضّٰالِّینَ» أنه کان قبل الدعاء بزمان من أهل الضلال.

قوله تعالی: وَ لاٰ تُخْزِنِی یَوْمَ یُبْعَثُونَ یَوْمَ لاٰ یَنْفَعُ مٰالٌ وَ لاٰ بَنُونَ إِلاّٰ مَنْ أَتَی اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ الخزی عدم النصر ممن یؤمّل منه النصر،و الضمیر فی «یُبْعَثُونَ» للناس و لا یضرّه عدم سبق الذکر لکونه معلوما من خارج.

و یعلم من سؤاله عدم الإخزاء یوم القیامه أن الإنسان فی حاجه الی النصر الإلهی یومئذ فهذه البنیه الضعیفه لا تقوم دون الأهوال التی تواجهها یوم القیامه إلا بنصر و تأیید منه تعالی.

و قوله: یَوْمَ لاٰ یَنْفَعُ مٰالٌ وَ لاٰ بَنُونَ الظرف بدل من قوله: «یَوْمَ یُبْعَثُونَ» و به یندفع قول من قال:إن قول إبراهیم قد انقطع فی «یُبْعَثُونَ» و الآیه الی تمام خمسه عشر آیه من کلام اللّه تعالی.

و قوله: إِلاّٰ مَنْ أَتَی اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ قال الراغب:السلم و السلامه التعرّی من الآفات الظاهره و الباطنه.انتهی.و السیاق یعطی أنه علیه السّلام فی مقام ذکر معنی جامع یتمیز به الیوم من غیره و قد سأل ربه أولا أن ینصره و لا یخزیه یوم لا ینفعه ما کان ینفعه فی الدنیا من المال و البنین،و مقتضی هذه التوطئه أن یکون المطلوب بقوله: «إِلاّٰ مَنْ أَتَی اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ» بیان ما هو النافع یومئذ و قد ذکر فیه الإتیان بالقلب السلیم.

فالاستثناء منقطع،و المعنی:لکن من أتی اللّه بقلب سلیم فإنه ینتفع به،و المحصّل أن مدار السعاده یومئذ علی سلامه القلب سواء کان صاحبه ذا مال و بنین فی الدنیا أو لم یکن.

قوله تعالی: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّهُ لِلْمُتَّقِینَ وَ بُرِّزَتِ الْجَحِیمُ لِلْغٰاوِینَ الازلاف التقریب و التبریز الاظهار،و فی المقابله بین المتقین و الغاوین و اختیار هذین الوصفین لهاتین الطائفتین إشاره الی ما قضی به اللّه سبحانه یوم رجم إبلیس عند إبائه أن یسجد لآدم کما ذکر فی سوره الحجر إِنَّ عِبٰادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلاّٰ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغٰاوِینَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ

لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ -الى أن قال- إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ (الحجر۴۵/).

قوله تعالى: وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ أى هل يدفعون الشقاء و العذاب عنكم او عن أنفسكم،و المحصل أنه يتبين لهم أنهم ضلوا فى عبادتهم غير اللّه.

قوله تعالى: فَكُبْكِبُوا فِيهٰا هُمْ وَ الْغٰاوُونَ وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ يقال:كبه فانكب أى ألقاه على وجهه و كبكبه أى ألقاه على وجهه مره بعد اخرى فهو يفيد تكرار الكب كدب و دبدب و ذب و ذبذب و زال و زلزل و دك و دكدك.

و ضمير الجمع فى قوله: «فَكُبْكِبُوا فِيهٰا هُمْ» للأصنام كما يدل عليه قوله: إِنَّكُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (الأنبياء۹۸/)و هؤلاء إحدى الطوائف الثلاث التى تذكر الآيه أنها تكبكب فى جهنم يوم القيامه،و الطائفه الثانيه الغاوون المقضى عليهم ذلك كما فى آيه الحجر المنقوله آنفا،و الطائفه الثالثه جنود إبليس و هم قرناء الشياطين الذين يذكر القرآن أنهم لا يفارقون أهل الغوايه حتى يدخلوا النار،قال تعالى: وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطٰاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ -الى أن قال- وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ (الزخرف۳۹/).

قوله تعالى: قٰالُوا وَ هُمْ فِيهٰا يَخْتَصِمُونَ -الى قوله- إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ الظاهر أن القائلين هم الغاوون،و الاختصام واقع بينهم يخاصمون أنفسهم و الشياطين على ما ذكره اللّه سبحانه فى مواضع من كلامه.

و قوله: تَاللّٰهِ إِنْ كُنّٰا لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ اعتراف منهم بالضلال،و الخطاب فى قوله: «إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعٰالَمِينَ» للآلهه من الأصنام و هم معهم فى النار،أو لهم و للشياطين أو لهما و للمتبوعين و الرؤساء من الغاوين و خير الوجوه أولها.

و قوله: وَ مٰا أَضَلَّنٰا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ الظاهر أن كلا من القائلين يريد بالمجرمين

غیره من إمام ضلال اقتدی به فی الدنیا وداع دعاه الی الشرک فاتبعه و آباء مشرکین قلدهم فیه و خلیل تشبه به،و المجرمون علی ما یستفاد من آیات القیامه هم الذین ثبت فیهم الإجرام و قضی علیهم بدخول النار قال تعالی: وَ امْتٰازُوا الْیَوْمَ أَیُّهَا الْمُجْرِمُونَ (یس/۵۶).

قوله تعالی: فَمٰا لَنٰا مِنْ شٰافِعِینَ وَ لاٰ صَدِیقٍ حَمِیمٍ الحمیم علی ما ذکره الراغب القریب المشفق.

و هذا الکلام تحسّر منهم علی حرمانهم من شفاعه الشافعین و إغاثه الأصدقاء و فی التعبیر بقوله: «فَمٰا لَنٰا مِنْ شٰافِعِینَ» إشاره الی وجود شافعین هناک یشفعون بعض المذنبین،و لو لا ذلک لکان من حق الکلام أن یقال:فما لنا من شافع إذ لا نکته تقتضی الجمع،و قد روی أنهم یقولون ذلک لما یرون الملائکه و الأنبیاء و المؤمنین یشفعون.

قوله تعالی: فَلَوْ أَنَّ لَنٰا کَرَّهً فَنَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ تمن منهم أن یرجعوا الی الدنیا فیکونوا من المؤمنین حتی ینالوا ما ناله المؤمنون من السعاده.

قوله تعالی: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً الی آخر الآیتین؛أی فی قصه إبراهیم علیه السّلام و لزومه عن فطرته الساذجه دین التوحید و توجیه وجهه نحو رب العالمین و تبرّیه من الأصنام و احتجاجه علی الوثنیین و عبده الأصنام آیه لمن تدبّر فیها علی أن فی سائر قصصه من محنه و ابتلاءاته التی لم تذکر هاهنا کإلقائه فی النار و نزول الضیف من الملائکه علیه و قصه إسکانه إسماعیل و أمه بوادی مکه و بناء الکعبه و ذبح إسماعیل آیات لاولی الألباب.

و قوله: وَ مٰا کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ أی و ما کان أکثر قوم إبراهیم مؤمنین و الباقی ظاهر مما تقدم.

[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۱۰۵ الی ۱۲۲]

اشاره

کَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ اَلْمُرْسَلِینَ (۱۰۵) إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ (۱۰۶) إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ (۱۰۷) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِیعُونِ (۱۰۸) وَ مٰا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلاّٰ عَلیٰ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۱۰۹) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِیعُونِ (۱۱۰) قٰالُوا أَ نُؤْمِنُ لَکَ وَ اِتَّبَعَکَ اَلْأَرْذَلُونَ (۱۱۱) قٰالَ وَ مٰا عِلْمِی بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۱۱۲) إِنْ حِسٰابُهُمْ إِلاّٰ عَلیٰ رَبِّی لَوْ تَشْعُرُونَ (۱۱۳) وَ مٰا أَنَا بِطٰارِدِ اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۱۴) إِنْ أَنَا إِلاّٰ نَذِیرٌ مُبِینٌ (۱۱۵) قٰالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ یٰا نُوحُ لَتَکُونَنَّ مِنَ اَلْمَرْجُومِینَ (۱۱۶) قٰالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِی کَذَّبُونِ (۱۱۷) فَافْتَحْ بَیْنِی وَ بَیْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِی وَ مَنْ مَعِیَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۱۸) فَأَنْجَیْنٰاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِی اَلْفُلْکِ اَلْمَشْحُونِ (۱۱۹) ثُمَّ أَغْرَقْنٰا بَعْدُ اَلْبٰاقِینَ (۱۲۰) إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً وَ مٰا کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۲۱) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ اَلْعَزِیزُ اَلرَّحِیمُ (۱۲۲)

بیان:

قوله تعالی: کَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِینَ قال فی المفردات:القوم جماعه الرجال

ص :۵۶۹

فى الأصل دون النساء،و لذلك قال: «لاٰ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ» الآيه؛قال الشاعر:أقوم آل حصن أم نساء،و فى عامّه القرآن أريدوا به و النساء جميعا.انتهى.

و لفظ القوم قيل:مذكر و تأنيث الفعل المسند اليه بتأويل الجماعه و قيل:مؤنث و قال فى المصباح:يذكر و يؤنث.

و عد القوم مكذبين للمرسلين مع أنهم لم يكذبوا إلا واحدا منهم و هو نوح عليه السّلام إنما هو من جهه أن دعوتهم واحده و كلمتهم متفقه على التوحيد فيكون المكذب للواحد منهم مكذبا للجميع و لذا عد اللّه سبحانه الإيمان ببعض رسله دون بعض كفرا بالجميع قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً أُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ حَقًّا (النساء/۱۵۱).

قوله تعالى: إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ المراد بالأخ النسيب كقولهم:

اخو تميم و اخو كليب و الاستفهام للتوبيخ.

قوله تعالى: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ اى رسول من اللّه سبحانه أمين على ما حملته من الرساله لا أبلغكم إلا ما أمرنى ربى و اراده منكم،و لذا فرع عليه قوله: «فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ» فأمرهم بطاعته لأن طاعته طاعه اللّه.

قوله تعالى: وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ الْعٰالَمِينَ مسوق لنفى الطمع الدنيوى بنفى سؤال الأجر فيثبت بذلك انه ناصح لهم فيما يدعوهم اليه لا يخونهم و لا يغشهم فعليهم ان يطيعوه فيما يأمرهم،و لذا فرّع عليه ثانيا قوله:

«فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ» .

و العدول فى قوله: «إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ الْعٰالَمِينَ» عن اسم الجلاله الى «رَبِّ الْعٰالَمِينَ» للدلاله على صريح التوحيد فإنهم كانوا يرون انه تعالى إله عالم الآلهه و كانوا يرون لكل عالم إلها آخر يعبدونه من دون اللّه فإثباته تعالى ربا للعالمين جميعا تصريح بتوحيد العباده و نفى

الآلهه من دون اللّه مطلقا.

قوله تعالى: فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ قد تقدم وجه تكرار الآيه فهو يفيد ان كلا من الأمانه و عدم سؤال الأجر سبب مستقل فى إيجاب طاعته عليهم.

قوله تعالى: قٰالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ الأرذلون جمع أرذل على الصحه و هو اسم تفضيل من الرذاله و الرذاله الخسه و الدناءه،و مرادهم بكون متبعيه أراذل انهم ذوو أعمال رذيله و مشاغل خسيسه و لذا أجاب عليه السّلام عنه بمثل قوله: «وَ مٰا عِلْمِي بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ» .

و الظاهر انهم كانوا يرون الشرف و الكرامه فى الأموال و الجموع من البنين و الاتباع كما يستفاد من دعاء نوح عليه السّلام إذ يقول رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مٰالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاّٰ خَسٰاراً (نوح۲۱/).فمرادهم بالأرذلين من يعدّهم الأشراف و المترفون سفله يتجنبون معاشرتهم من العبيد و الفقراء و أرباب الحرف الدنيه.

قوله تعالى: قٰالَ وَ مٰا عِلْمِي بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ الضمير لنوح عليه السّلام،و «مٰا» استفهاميه و قيل:نافيه و عليه فالخبر محذوف لدلاله السياق عليه،و المراد على اى حال نفى علمه بأعمالهم قبل إيمانهم به لمكان قوله: «كٰانُوا يَعْمَلُونَ» .

قوله تعالى: إِنْ حِسٰابُهُمْ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ المراد بقوله: «رَبِّي» رب العالمين فإنه الذى كان يختص نوح بالدعوه اليه من بينهم،و قوله: «لَوْ تَشْعُرُونَ» مقطوع عن العمل أى لو كان لكم شعور،و قيل:المعنى لو تشعرون بشيء لعلمتم ذلك و هو كما ترى.

و المعنى:بالنظر الى الحصر الذى فى صدر الآيه انه لا علم لى بسابق أعمالهم و ليس على حسابهم حتى أتجسس و أبحث عن أعمالهم و إنما حسابهم على ربى «لَوْ تَشْعُرُونَ» فيجازيهم حسب أعمالهم.

قوله تعالى: وَ مٰا أَنَا بِطٰارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ ،الآيه الثانيه

بمنزله التعليل للاولى و المجموع متمّم للبيان السابق و المعنى:لا شأن لى إلا الإنذار و الدعوه فلست أطرد من أقبل علىّ و آمن بى و لست أتفحّص عن سابق أعمالهم لا حاسبهم عليها فحسابهم على ربى و هو رب العالمين لا علىّ.

قوله تعالى: قٰالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يٰا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ المراد بالانتهاء ترك الدعوه،و الرجم هو الرمى بالحجاره،و قيل:المراد به الشتم و هو بعيد،و هذا مما قالوه فى آخر العهد من دعوتهم يهددونه عليه السّلام بقول جازم كما يشهد به ما فى الكلام من وجوه التأكيد.

قوله تعالى: قٰالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً الخ؛هذا استفتاح منه عليه السّلام و قد قدّم له قوله: «رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ» على سبيل التوطئه أى تحقق منهم التكذيب المطلق الذى لا مطمع فى تصديقهم بعده كما يستفاد من دعائه عليهم إذ يقول رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰافِرِينَ دَيّٰاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبٰادَكَ وَ لاٰ يَلِدُوا إِلاّٰ فٰاجِراً كَفّٰاراً (نوح/٢٧).

و قوله: فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً كنايه عن القضاء بينه و بين قومه كما قال تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (يونس/٤٧).

و أصله من الاستعاره بالكنايه كأنه و أتباعه و الكفار من قومه اختلطوا و اجتمعوا من غير تميّز فسأل ربه أن يفتح بينهم بإيجاد فسحه بينه و بين قومه يبتعد بذلك أحد القبيلين من الآخر و ذلك كنايه عن نزول العذاب و ليس يهلك إلا القوم الفاسقين و الدليل عليه قوله بعد: «وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» .

و قيل:الفتح بمعنى الحكم و القضاء من الفتاحه بمعنى الحكومه.

قوله تعالى: فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ أى المملوء منهم و من

كل زوجين اثنين كما ذكره فى سوره هود.

قوله تعالى: ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ أى أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً -الى قوله- اَلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ تقدم الكلام فى معنى الآيتين.

[سوره الشعراء (٢۶): الآيات ١٢٣ الى ١۴٠]

اشاره

كَذَّبَتْ عادٌ اَلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ (١٢۴) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢۵) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ (١٢۶) وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (١٢٧) أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَ تَتَّخِذُونَ مَصٰانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَ إِذٰا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبّٰارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ (١٣١) وَ اِتَّقُوا اَلَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمٰا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعٰامٍ وَ بَنِينَ (١٣٣) وَ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ (١٣۴) إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣۵) قٰالُوا سَوٰاءٌ عَلَيْنٰا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ اَلْوٰاعِظِينَ (١٣۶) إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ خُلُقُ اَلْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَ مٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنٰاهُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (١۴٠)

ص: ۵٧٣

بيان:

قوله تعالى: كَذَّبَتْ عٰادٌ الْمُرْسَلِينَ قوم عاد من العرب العاربه الاولى كانوا يسكنون الأحقاف من جزيره العرب لهم مدنيه راقيه و أراض خصبه و ديار معموره فكذبوا الرسل و كفروا بأنعم اللّه و طغوا فأهلكهم اللّه بالريح العقيم و خرّب ديارهم و عفا آثارهم.

و عاد فيما يقال اسم أبيهم فتسميتهم بعاد من قبيل تسميه القوم باسم أبيهم كما يقال تميم و بكر و تغلب و يراد بنو تميم و بنو بكر و بنو تغلب.

و قد تقدم فى نظير الآيه من قصه نوح وجه عد القوم مكذّبين للمرسلين و لم يكذبوا ظاهرا إلا واحدا منهم.

قوله تعالى: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ -الى قوله- رَبِّ الْعٰالَمِينَ تقدم الكلام فيها فى نظائرها من قصه نوح عليه السّلام.

قوله تعالى: أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ الريع هو المرتفع من الأرض و الآيه العلامه،و العبث الفعل الذى لا غايه له،و كأنهم كانوا يبنون على قلل الجبال و كل مرتفع من الأرض ابنيه كالأعلام يتنزهون فيها و يفاخرون بها من غير ضروره تدعوه الى ذلك بل لهوا و اتباعا للهوى فوبخهم عليه.

و قد ذكر للآيه معان أخر لا دليل عليها من جهه اللفظ و لا ملاءمه للسياق اضربنا عنها.

قوله تعالى وَ تَتَّخِذُونَ مَصٰانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ،المصانع على ما قيل:الحصون المنيعه و القصور المشيده و الأبنيه العاليه واحدها مصنع.

و قوله: «لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ» فى مقام التعليل لما قبله أى تتخذون هذه المصانع بسبب أنكم ترجون الخلود و لو لا رجاء الخلود ما عملتم مثل هذه الأعمال التى من طبعها أن تدوم دهرا طويلا لا يفى به أطول الأعمار الإنسانيه،و قيل فى معنى الآيه و مفرداتها وجوه أخرى أغمضنا عنها.

قوله تعالى: وَ إِذٰا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبّٰارِينَ قال فى المجمع:البطش العسف قتلا غيره بعظيم سلطانه.و هو فى صفه اللّه سبحانه

ص :۵۷۵

أى اتقوا اللّه يمدّكم بنعمه لأنه يمدّكم بها فيجب عليكم أن تشكروه بوضع نعمه فى موضعها من غير إتراف و استكبار فإن كفران النعمه يستعقب السخط و العذاب قال تعالى: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِى لَشَدِيدٌ (إبراهيم٧/).

و قد ذكر النعم إجمالا بقوله أولا: «أَمَدَّكُمْ بِمٰا تَعْلَمُونَ» ثم فصّلها بقوله ثانيا:«أمدكم بأموال و بنين و جنات و عيون».

و فى قوله: أَمَدَّكُمْ بِمٰا تَعْلَمُونَ نكته أخرى هى أنكم تعلمون أن هذه النعم من إمداده تعالى و صنعه لا يشاركه فى إيجادها و الإمداد بها غيره فهو الذى يجب لكم أن تتقوه بالشكر و العباده دون الأوثان و الأصنام فالكلام متضمن للحجه.

قوله تعالى: إِنِّى أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ تعليل للأمر بالتقوى أى إنى آمركم بالتقوى شكرا لأنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إن تكفروا و لم تشكروا، و الظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم القيامه و إن جوّز بعضهم أن يكون المراد به يوم عذاب الاستئصال.

قوله تعالى: قٰالُوا سَوٰاءٌ عَلَيْنٰا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوٰاعِظِينَ نفى لأثر كلامه و إيئاس له من إيمانهم بالكليه.

قيل:الكلام لا يخلو من مبالغه فقد كان مقتضى الترديد أن يقال:أ وعظت أم لم تعظ ففى العدول عنه الى قوله: «أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوٰاعِظِينَ» النافى لأصل كونه واعظا ما لا يخفى من المبالغه.

قوله تعالى: إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ الخلق بضم الخاء و اللام أو سكونها قال الراغب:الخلق و الخلق-أى بفتح الخاء و ضمها-فى الأصل واحد كالشّرب و الشرب و الصّرم و الصرم لكن خصّ الخلق-بفتح الخاء-بالهيئات و الأشكال و الصور المدركه بالبصر،و خصّ الخلق-بضم الخاء-بالقوى و السجايا المدركه بالبصيره،قال تعالى: «إِنَّكَ

لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» و قرئ «إِنْ هٰذٰا إِلاّ خُلْقُ الْأَوَّلِينَ» انتهى.

و الإشاره بهذا الى ما جاء به هود و قد سموه وعظا و المعنى:ليس ما تلبّست به من الدعوه الى التوحيد و الموعظه إلا عاده البشر الأولين الماضين من أهل الأساطير و الخرافات،و هذا كقولهم:إن هذا إلا أساطير الأولين.

و يمكن أن تكون الإشاره بهذا الى ما هم فيه من الشرك و عباده الآلهه من دون اللّه اقتداء بآبائهم الأولين كقولهم: «وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ» .

و احتمل بعضهم أن يكون المراد ما خلقنا هذا إلا خلق الأولين نحيا كما حيوا و نموت كما ماتوا و لا بعث و لا حساب و لا عذاب.و هو بعيد من السياق.

قوله تعالى: وَ مٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ إنكار للمعاد بناء على كون المراد باليوم العظيم فى كلام هود عليه السّلام يوم القيامه.

قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنٰاهُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً -الى قوله- اَلرَّحِيمُ معناه ظاهر مما تقدم.

[سوره الشعراء (٢۶): الآيات ١۴١ الى ١۵٩]

اشاره

كَذَّبَتْ ثَمُودُ اَلْمُرْسَلِينَ (١۴١) إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صٰالِحٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ (١۴٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١۴٣) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ (١۴۴) وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (١۴۵) أَ تُتْرَكُونَ فِي مٰا هٰاهُنٰا آمِنِينَ (١۴۶) فِي جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ (١۴٧) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهٰا هَضِيمٌ (١۴٨) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ اَلْجِبٰالِ بُيُوتاً فٰارِهِينَ (١۴٩) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ (١۵٠) وَ لاٰ تُطِيعُوا أَمْرَ اَلْمُسْرِفِينَ (١۵١) اَلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي اَلْأَرْضِ وَ لاٰ يُصْلِحُونَ (١۵٢) قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ مِنَ اَلْمُسَحَّرِينَ (١۵٣) مٰا أَنْتَ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِينَ (١۵۴) قٰالَ هٰذِهِ نٰاقَةٌ لَهٰا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١۵۵) وَ لاٰ تَمَسُّوهٰا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذٰابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١۵۶) فَعَقَرُوهٰا فَأَصْبَحُوا نٰادِمِينَ (١۵٧) فَأَخَذَهُمُ اَلْعَذٰابُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١۵٨) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (١۵٩)

بيان:

قوله تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ -الی قوله- رَبِّ الْعالَمِينَ قد اتضح معناها مما تقدم.

قوله تعالى: أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ الظاهر أن الاستفهام للانكار و «ما» موصوله و المراد بها النعم التی یفصلها بعد قوله: «فِي جَنّاتٍ وَ عُيُونٍ» الخ؛و «هاهُنا» إشاره الی المكان الحاضر القريب و هو أرض ثمود و «آمِنِينَ» حال من نائب فاعل «تُتْرَكُونَ» .

و المعنى:لا تتركون فی هذه النعم التی أحاطت بكم فی أرضكم هذه و أنتم مطلقو العنان لا

ص :578

تسألون عما تفعلون آمنون من أى مؤاخذه إلهيه.

قوله تعالى: فِي جَنّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ بيان تفصيلى لقوله: «فِي مٰا هٰاهُنٰا» ،و قد خص النخل بالذكر مع دخوله فى الجنات لاهتمامهم به،و الطلع فى النخل كالنور فى سائر الأشجار و الهضيم-على ما قيل-المتداخل المنضم بعضه الى بعض.

قوله تعالى: وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ قال الراغب:الفره-بالفتح فالكسر صفه مشبهه-الأشر،و قوله تعالى: «وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبٰالِ بُيُوتاً فٰارِهِينَ» أى حاذقين و قيل:معناه أشرين.انتهى ملخصا،و على ما اختاره تكون الآيه من بيان النعمه، و على المعنى الآخر تكون مسوقه لإنكار أشرهم و بطرهم.و الآيه على أى حال فى حيز الاستفهام.

قوله تعالى: فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ تفريع على ما تقدم من الإنكار الذى فى معنى المنفى.

قوله تعالى: وَ لاٰ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ اَلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لاٰ يُصْلِحُونَ الظاهر أن المراد بالأمر ما يقابل النهى بقرينه النهى عن طاعته و إن جوّز بعضهم كون الأمر بمعنى الشأن و عليه يكون المراد بطاعه أمرهم تقليد العامه و اتباعهم لهم فى أعمالهم و سلوكهم السبيل التى يستحبون لهم سلوكها.

و المراد بالمسرفين على أى حال أشراف القوم و عظماؤهم المتبوعون و الخطاب للعامه التابعين لهم و أما الساده الأشراف فقد كانوا مأيوسا من إيمانهم و اتباعهم للحق.

و يمكن أن يكون الخطاب للجميع من جهه أن الأشراف منهم أيضا كانوا يقلدون آباءهم و يطيعون أمرهم كما قالوا لصالح عليه السّلام: أَ تَنْهٰانٰا أَنْ نَعْبُدَ مٰا يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا (هود۶۲/)،فقد كانوا جميعا يطيعون أمر المسرفين فنهوا عنه.

قوله تعالى: قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ أى ممن سحر مره بعد مره حتى

غلب على عقله،و قيل:إن السحر أعلى البطن و المسحّر من له جوف فيكون كنايه عن أنك بشر مثلنا تأكل و تشرب فيكون قوله بعده: «وَ مٰا أَنْتَ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا» تأكيدا له،و قيل:

المسحّر من له سحر أى رئه كأن مرادهم أنك متنفس بشر مثلنا.

قوله تعالى: مٰا أَنْتَ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا -الى قوله- عَذٰابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ الشرب بكسر الشين النصيب من الماء،و الباقى ظاهر و قد تقدمت تفصيل القصه فى سوره هود.

قوله تعالى: فَعَقَرُوهٰا فَأَصْبَحُوا نٰادِمِينَ نسبه العقر الى الجميع-و لم يعقرها إلا واحد منهم-لرضاهم بفعله،و فى نهج البلاغه:أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى و السخط و إنما عقر ناقه ثمود رجل واحد فعمّهم اللّه بالعذاب لما عمّوه بالرضا فقال سبحانه: «فَعَقَرُوهٰا فَأَصْبَحُوا نٰادِمِينَ» .

و قوله: فَأَصْبَحُوا نٰادِمِينَ لعل ندمهم إنما كان عند مشاهدتهم ظهور آثار العذاب و إن قالوا له بعد العقر تعجيزا و استهزاء: يٰا صٰالِحُ ائْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف/٧٧).

قوله تعالى: فَأَخَذَهُمُ الْعَذٰابُ -الى قوله- اَلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ اللام للعهد أى أخذهم العذاب الموعود فإن صالحا وعدهم نزول العذاب بعد ثلاثه أيام كما فى سوره هود، و الباقى ظاهر.

[سوره الشعراء (٢۶): الآيات ١۶٠ الى ١٧۵]

اشاره

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ اَلْمُرْسَلِينَ (١۶٠) إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ (١۶١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١۶٢) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ (١۶٣) وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (١۶۴) أَ تَأْتُونَ اَلذُّكْرٰانَ مِنَ اَلْعٰالَمِينَ (١۶۵) وَ تَذَرُونَ مٰا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عٰادُونَ (١۶۶) قٰالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يٰا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ اَلْمُخْرَجِينَ (١۶٧) قٰالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ اَلْقٰالِينَ (١۶٨) رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمّٰا يَعْمَلُونَ (١۶٩) فَنَجَّيْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاّٰ عَجُوزاً فِي اَلْغٰابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا اَلْآخَرِينَ (١٧٢) وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسٰاءَ مَطَرُ اَلْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧۴) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (١٧۵)

بیان:

قوله تعالی: کَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِینَ -الی قوله- رَبِّ الْعٰالَمِینَ ،تقدم تفسیره.

قوله تعالی: أَ تَأْتُونَ الذُّکْرٰانَ مِنَ الْعٰالَمِینَ الاستفهام للانکار و التوبیخ و الذکران جمع ذکر مقابل الانثی و إتیانهم کنایه عن اللواط و قد کان شاع فیما بینهم،و العالمین جمع عالم و هو الجماعه من الناس.

ص :۵۸۱

و قوله: مِنَ الْعَالَمِينَ يمكن ان يكون متصلا بضمير الفاعل فى«تأتون»و المراد أ تأتون أنتم من بين العالمين هذا العمل الشنيع؟فيكون فى معنى قوله فى موضع آخر: مٰا سَبَقَكُمْ بِهٰا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعٰالَمِينَ (الأعراف ٨٠/)،(العنكبوت٢٨/).

و يمكن ان يكون متصلا بقوله: «الذُّكْرٰانَ» و المعنى على هذا أ تنكحون من بين العالمين -على كثرتهم و اشتمالهم على النساء- الرجال فقط؟.

قوله تعالى: وَ تَذَرُونَ مٰا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ الخ؛ «تَذَرُونَ» بمعنى تتركون و لا ماضى له من مادته.

و المتأمل فى خلق الإنسان و انقسام أفراده الى صنفى الذكر و الانثى و ما جهز به كل من الصنفين من الأعضاء و الأدوات و ما يختص به من الخلقه لا يرتاب فى ان غرض الصنع و الإيجاد من هذا التصوير المختلف و إلقاء غريزه الشهوه فى القبيلين و تفريق أمرهما بالفعل و الانفعال أن يجمع بينهما بالنكاح ليتوسل بذلك الى التناسل الحافظ لبقاء النوع حتى حين.

فالرجل من الإنسان بما هو رجل مخلوق للمرأه منه لا لرجل مثله و المرأه من الإنسان بما هى امرأه مخلوقه للرجل منه لا لامرأه مثلها و ما يختص به الرجل فى خلقته للمرأه و ما تختص به المرأه فى خلقتها للرجل و هذه هى الزوجيه الطبيعيه التى عقدها الصنع و الإيجاد بين الرجل و المرأه من الإنسان فجعلهما زوجين.

ثم الأغراض و الغايات الاجتماعيه أو الدينيه سنّت بين الناس سنه النكاح الاجتماعى الاعتبارى الذى فيه نوع من الاختصاص بين الزوجين و قسم من التحديد للزوجيه الطبيعيه المذكوره فالفطره الإنسانيه و الخلقه الخاصه تهديه الى ازدواج الرجال بالنساء دون الرجال و ازدواج النساء بالرجال دون النساء،و أن الازدواج مبنى على أصل التوالد و التناسل دون الاشتراك فى مطلق الحياه.

و من هنا یظهر أن الأقرب ان یکون المراد بقوله: «مٰا خَلَقَ لَکَمْ رَبُّکَمْ» العضو المباح للرجال من النساء بالازدواج و اللام للملک الطبیعی،و ان من فی قوله: «مِنْ أَزْوٰاجِکُمْ» للتبعیض و الزوجیه هی الزوجیه الطبیعیه و إن أمکن ان یراد بها الزوجیه الاجتماعیه الاعتباریه بوجه.

و أما تجویز بعضهم ان یراد بلفظه«ما»النساء و یکون قوله: «مِنْ أَزْوٰاجِکُمْ» بیانا له فبعید.

و قوله: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عٰادُونَ ای متجاوزون خارجون عن الحد الذی خطته لکم الفطره و الخلقه فهو فی معنی قوله: أَ إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِیلَ (العنکبوت/ ۲۹).

و قد ظهر فی جمیع ما مر أن کلامه علیه السّلام مبنی علی حجه برهانیه أشیر إلیها.

قوله تعالی: قٰالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ یٰا لُوطُ لَتَکُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِینَ أی المبعدین المنفیین من قریتنا کما نقل عنهم فی موضع آخر «أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْیَتِکُمْ» .

قوله تعالی: قٰالَ إِنِّی لِعَمَلِکُمْ مِنَ الْقٰالِینَ المراد بعملهم-علی ما یعطیه السیاق-إتیان الذکر ان و ترک الاناث.و القالی المبغض،و مقابله تهدیدهم بالنفی بمثل هذا الکلام من غیر تعرّض للجواب عن تهدیدهم یفید من المعنی أنی لا أخاف الخروج من قریتکم و لا أکترث به بل مبغض لعملکم راغب فی النجاه من وباله النازل بکم لا محاله،و لذا أتبعه بقوله: «رَبِّ نَجِّنِی وَ أَهْلِی مِمّٰا یَعْمَلُونَ» .

قوله تعالی: رَبِّ نَجِّنِی وَ أَهْلِی مِمّٰا یَعْمَلُونَ ای من أصل عملهم الذی یأتون به بمرأی و مسمع منه فهو منزجر منه او من وبال عملهم و العذاب الذی سیتبعه لا محاله.

و إنما لم یذکر إلا نفسه و أهله إذ لم یکن آمن به من أهل القریه أحد،قال تعالی فی ذلک: فَمٰا وَجَدْنٰا فِیهٰا غَیْرَ بَیْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِینَ (الذاریات۳۶/).

قوله تعالى: فَنَجَّيْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ -الى قوله- اَلْآخَرِينَ الغابر كما قيل الباقى بعد ذهاب من كان معه،و التدمير الإهلاك،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهِمْ مَطَراً الخ؛و هو السجّيل كما قال تعالى: وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهِمْ حِجٰارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (الحجر/٧۴).

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً -الى قوله- اَلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ تقدم تفسيره.

[سوره الشعراء (٢۶): الآيات ١٧۶ الى ١٩١]

اشاره

كَذَّبَ أَصْحٰابُ اَلْأَيْكَهِ اَلْمُرْسَلِينَ (١٧۶) إِذْ قٰالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ (١٧٩) وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا اَلْكَيْلَ وَ لاٰ تَكُونُوا مِنَ اَلْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَ زِنُوا بِالْقِسْطٰاسِ اَلْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَ لاٰ تَبْخَسُوا اَلنّٰاسَ أَشْيٰاءَهُمْ وَ لاٰ تَعْثَوْا فِي اَلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَ اِتَّقُوا اَلَّذِي خَلَقَكُمْ وَ اَلْجِبِلَّةَ اَلْأَوَّلِينَ (١٨۴) قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ مِنَ اَلْمُسَحَّرِينَ (١٨۵) وَ مٰا أَنْتَ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ اَلْكٰاذِبِينَ (١٨۶) فَأَسْقِطْ عَلَيْنٰا كِسَفاً مِنَ اَلسَّمٰاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِينَ (١٨٧) قٰالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمٰا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذٰابُ يَوْمِ اَلظُّلَّةِ إِنَّهُ كٰانَ عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (١٩١)

ص: ۵٨۴

بيان:

قوله تعالى: كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَهِ الْمُرْسَلِينَ -الى قوله- رَبِّ الْعالَمِينَ الأيكه الغيضه الملتف شجرها.قيل:إنها كانت غيضه بقرب مدين يسكنها طائفه و كانوا ممن بعث اليهم شعيب عليه السّلام،و كان أجنبيا منهم و لذلك قيل «إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ» و لم يقل:أخوهم شعيب بخلاف هود و صالح فقد كانا نسيبين الى قومهما و كذا لوط فقد كان نسيبا الى قومه بالمصاهره و لذا عبّر عنهم بقوله: «أَخُوهُمْ هُودٌ» «أَخُوهُمْ صالِحٌ» «أَخُوهُمْ لُوطٌ» .

و قد تقدم تفسير باقى الآيات.

قوله تعالى: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ .الكيل ما يقدّر به المتاع من جهه حجمه و إيفاؤه أن لا ينقص الحجم،و القسطاس الميزان الذى يقدّر به من جهه وزنه و استقامته أن يزن بالعدل،و الآيتان تأمران بالعدل فى الأخذ و الإعطاء بالكيل و الوزن.

قوله تعالى: وَ لا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ البخس النقص فى الوزن و التقدير كما أن الإخسار النقص فى رأس المال.

و ظاهر السياق أن قوله: «وَ لا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ» أى سلعهم و أمتعتهم قيد متمم لقوله: «وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ» كما أن قوله: «وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ» قيد متمم لقوله:

«أَوْفُوا الْكَيْلَ» و قوله: «وَ لاٰ تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ» تأکید للنهیین جمیعا أعنی قوله:

«لاٰ تُخْسِرُوا» و قوله: «لاٰ تَبْخَسُوا» و بیان لتبعه التطفیف السیئه المشومه.

و قوله: وَ لاٰ تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ العثیّ و العیث الإفساد،فقوله:

«مُفْسِدِینَ» حال مؤکد و قد تقدم فی قصه شعیب من سوره هود و فی قوله: وَ زِنُوا بِالْقِسْطٰاسِ الْمُسْتَقِیمِ ذٰلِکَ خَیْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلاً (الآیه ۳۵ من سوره الإسراء)کلام فی کیفیه إفساد التطفیف المجتمع الإنسانی،فراجع.

قوله تعالی: وَ اتَّقُوا الَّذِی خَلَقَکُمْ وَ الْجِبِلَّهَ الْأَوَّلِینَ قال فی المجمع:الجبلّه الخلیقه التی طبع علیها الشیء.انتهی.فالمراد بالجبلّه ذوو الجبلّه أی اتقوا اللّه الذی خلقکم و آباءکم الأولین الذین فطرهم و قرّر فی جبلّتهم تقبیح الفساد و الاعتراف بشؤمه.

و لعل هذه الذی أشرنا الیه من المعنی هو الموجب لتخصیص الجبلّه بالذکر،و فی الآیه علی أی حال دعوه الی توحید العباده فإنهم لم یکونوا یتقون الخالق الذی هو رب العالمین.

قوله تعالی: قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِینَ -الی قوله- وَ إِنْ نَظُنُّکَ لَمِنَ الْکٰاذِبِینَ تقدم تفسیر الصدر،و «إِنْ» فی قوله: «إِنْ نَظُنُّکَ» مخففه من الثقیله.

قوله تعالی: فَأَسْقِطْ عَلَیْنٰا کِسَفاً مِنَ السَّمٰاءِ الخ؛الکسف بالکسر فالفتح -علی ما قیل-جمع کسفه و هی القطعه،و الأمر مبنی علی التعجیز و الاستهزاء.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّی أَعْلَمُ بِمٰا تَعْمَلُونَ جواب شعیب عن قولهم و اقتراحهم منه إتیان العذاب،و هو کنایه عن أنه لیس له من الأمر شیء و إنما الأمر الی اللّه لأنه أعلم بما یعملون و أن عملهم هل یستوجب عذابا؟و ما هو العذاب الذی یستوجبه إذا استوجب؟فهو کقول هود لقومه إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ وَ أُبَلِّغُکُمْ مٰا أُرْسِلْتُ بِهِ (الأحقاف/۲۳).

قوله تعالی: فَکَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذٰابُ یَوْمِ الظُّلَّهِ الخ؛یوم الظلّه یوم عذّب فیه قوم شعیب بظلّه من الغمام،و قد تقدم تفصیل قصتهم فی سوره هود.

قوله تعالی: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَةً -الی قوله- اَلْعَزِیزُ الرَّحِیمُ تقدم تفسیره.

[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۱۹۲ الی ۲۲۷]

اشاره

وَ إِنَّهُ لَتَنْزِیلُ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۱۹۲) نَزَلَ بِهِ اَلرُّوحُ اَلْأَمِینُ (۱۹۳) عَلیٰ قَلْبِکَ لِتَکُونَ مِنَ اَلْمُنْذِرِینَ (۱۹۴) بِلِسٰانٍ عَرَبِیٍّ مُبِینٍ (۱۹۵) وَ إِنَّهُ لَفِی زُبُرِ اَلْأَوَّلِینَ (۱۹۶) أَ وَ لَمْ یَکُنْ لَهُمْ آیَةً أَنْ یَعْلَمَهُ عُلَمٰاءُ بَنِی إِسْرٰائِیلَ (۱۹۷) وَ لَوْ نَزَّلْنٰاهُ عَلیٰ بَعْضِ اَلْأَعْجَمِینَ (۱۹۸) فَقَرَأَهُ عَلَیْهِمْ مٰا کٰانُوا بِهِ مُؤْمِنِینَ (۱۹۹) کَذٰلِکَ سَلَکْنٰاهُ فِی قُلُوبِ اَلْمُجْرِمِینَ (۲۰۰) لاٰ یُؤْمِنُونَ بِهِ حَتّٰی یَرَوُا اَلْعَذٰابَ اَلْأَلِیمَ (۲۰۱) فَیَأْتِیَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاٰ یَشْعُرُونَ (۲۰۲) فَیَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (۲۰۳) أَ فَبِعَذٰابِنٰا یَسْتَعْجِلُونَ (۲۰۴) أَ فَرَأَیْتَ إِنْ مَتَّعْنٰاهُمْ سِنِینَ (۲۰۵) ثُمَّ جٰاءَهُمْ مٰا کٰانُوا یُوعَدُونَ (۲۰۶) مٰا أَغْنیٰ عَنْهُمْ مٰا کٰانُوا یُمَتَّعُونَ (۲۰۷) وَ مٰا أَهْلَکْنٰا مِنْ قَرْیَةٍ إِلاّٰ لَهٰا مُنْذِرُونَ (۲۰۸) ذِکْریٰ وَ مٰا کُنّٰا ظٰالِمِینَ (۲۰۹) وَ مٰا تَنَزَّلَتْ بِهِ اَلشَّیٰاطِینُ (۲۱۰) وَ مٰا یَنْبَغِی لَهُمْ وَ مٰا یَسْتَطِیعُونَ (۲۱۱) إِنَّهُمْ عَنِ اَلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (۲۱۲) فَلاٰ تَدْعُ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَکُونَ مِنَ اَلْمُعَذَّبِینَ (۲۱۳) وَ أَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ اَلْأَقْرَبِینَ (۲۱۴) وَ اِخْفِضْ جَنٰاحَکَ لِمَنِ اِتَّبَعَکَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۲۱۵) فَإِنْ عَصَوْکَ فَقُلْ إِنِّی بَرِیءٌ مِمّٰا تَعْمَلُونَ (۲۱۶) وَ تَوَکَّلْ عَلَی اَلْعَزِیزِ الرَّحِیم (۲۱۷) اَلَّذِی یَرٰاکَ حِینَ تَقُومُ (۲۱۸) وَ تَقَلُّبَکَ فِی اَلسّٰاجِدِینَ (۲۱۹) إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۲۲۰) هَلْ أُنَبِّئُکُمْ عَلیٰ مَنْ تَنَزَّلُ اَلشَّیٰاطِینُ (۲۲۱) تَنَزَّلُ عَلیٰ کُلِّ أَفّٰاکٍ أَثِیم (۲۲۲) یُلْقُونَ اَلسَّمْعَ وَ أَکْثَرُهُمْ کٰاذِبُونَ (۲۲۳) وَ اَلشُّعَرٰاءُ یَتَّبِعُهُمُ اَلْغٰاوُونَ (۲۲۴) أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِی کُلِّ وٰادٍ یَهِیمُونَ (۲۲۵) وَ أَنَّهُمْ یَقُولُونَ مٰا لاٰ یَفْعَلُونَ (۲۲۶) إِلاَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ ذَکَرُوا اَللّٰهَ کَثِیراً وَ اِنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا وَ سَیَعْلَمُ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا أَیَّ مُنْقَلَبٍ یَنْقَلِبُونَ (۲۲۷)

بیان:

قوله تعالی: وَ إِنَّهُ لَتَنْزِیلُ رَبِّ الْعالَمِینَ الضمیر للقرآن،و فیه رجوع الی ما فی صدر السوره من قوله: «تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ الْمُبِینِ» و تعقیب لحدیث کفرهم به کما فی قوله بعد ذلک: «وَ ما یَأْتِیهِمْ مِنْ ذِکْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلاّ کانُوا عَنْهُ مُعْرِضِینَ، فَقَدْ کَذَّبُوا» الآیه.

و التنزیل و الإنزال بمعنی واحد،غیر أن الغالب علی باب الإفعال الدفعه و علی باب التفعیل التدریج،و أصل النزول فی الأجسام انتقال الجسم من مکان عال الی ما هو دونه و فی غیر الأجسام بما یناسبه.

و تنزیله تعالی إخراجه الشیء من عنده الی موطن الخلق و التقدیر و قد سمی نفسه بالعلی العظیم و الکبیر المتعال و رفیع الدرجات و القاهر فوق عباده فیکون خروج الشیء بإیجاده من عنده الی عالم الخلق و التقدیر-و إن شئت فقل:إخراجه من عالم الغیب الی عالم الشهاده- تنزیلا منه تعالی له.

و قد استعمل الإنزال و التنزیل فی کلامه تعالی فی أشیاء بهذه العنایه کقوله تعالی: یا بَنِی آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَیْکُمْ لِباساً یُوارِی سَوْآتِکُمْ (الأعراف۲۶/)،و قوله: وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِیَهَ أَزْواجٍ (الزمر۶/)،و قوله: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِیدَ فِیهِ بَأْسٌ شَدِیدٌ (الحدید/ ۲۵)،و قوله: ما یَوَدُّ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ وَ لاَ الْمُشْرِکِینَ أَنْ یُنَزَّلَ عَلَیْکُمْ مِنْ خَیْرٍ مِنْ رَبِّکُمْ (البقره۱۰۵/)،و قد أطلق القول فی قوله: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر۲۱/).

و من الآیات الداله علی اعتبار هذا المعنی فی خصوص القرآن فی قوله: إِنّا جَعَلْناهُ قُرْآناً

عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتٰابِ لَدَیْنٰا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ (الزخرف/۴).

و قد أضیف التنزیل الی رب العالمین للدلاله علی توحید الرب تعالی لما تکرّر مرارا أن المشرکین إنما کانوا یعترفون به تعالی بما أنه رب الأرباب و لا یرون أنه رب العالمین.

قوله تعالی: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ عَلیٰ قَلْبِکَ لِتَکُونَ مِنَ الْمُنْذِرِینَ بِلِسٰانٍ عَرَبِیٍّ مُبِینٍ المراد بالروح الأمین هو جبریل ملک الوحی بدلیل قوله: مَنْ کٰانَ عَدُوًّا لِجِبْرِیلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلیٰ قَلْبِکَ بِإِذْنِ اللّٰهِ (البقره/۹۷)،و قد سماه فی موضع آخر بروح القدس قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ بِالْحَقِّ (النحل/۱۰۲)،و قد تقدم فی تفسیر سورتی النحل و الإسراء ما یتعلق بمعنی الروح من الکلام.

و قد وصف الروح بالأمین للدلاله علی أنه مأمون فی رسالته منه تعالی الی نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم لا یغیر شیئا من کلامه تعالی بتبدیل أو تحریف بعمد أو سهو او نسیان کما أن توصیفه فی آیه أخری بالقدس یشیر الی ذلک.

و قوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ الباء للتعدیه أی نزله الروح الأمین،و أما قول من قال:إن الباء للمصاحبه و المعنی نزل معه الروح فلا یلتفت الیه لأن العنایه فی المقام بنزول القرآن لا بنزول الروح مع القرآن.

و الضمیر فی «نَزَلَ بِهِ» للقرآن بما أنه کلام مؤلف من ألفاظ لها معانیها الحقه فإن ألفاظ القرآن نازله من عنده تعالی کما أن معانیها نازله من عنده علی ما هو ظاهر قوله: فَإِذٰا قَرَأْنٰاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (القیامه/۱۸)،و قوله: تِلْکَ آیٰاتُ اللّٰهِ نَتْلُوهٰا عَلَیْکَ بِالْحَقِّ (آل عمران/ ۱۰۸)،(الجاثیه/۶)،الی غیر ذلک.

و المراد بالقلب المنسوب الیه الإدراک و الشعور فی کلامه تعالی هو النفس الإنسانیه التی لها الإدراک و إلیها تنتهی أنواع الشعور و الإراده دون اللحم الصنوبری المعلق عن یسار الصدر الذی هو أحد الأعضاء الرئیسه کما یستفاد من مواضع فی کلامه تعالی،کقوله: وَ بَلَغَتِ

الْقُلُوبُ الْحَنٰاجِرَ (الأحزاب/١٠)،أی الأرواح،و قوله: فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ (البقره/٢٨٣)، أی نفسه إذ لا معنی لنسبه الإثم الی العضو الخاص.

و لعل الوجه فی قوله: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ عَلیٰ قَلْبِکَ» دون أن یقول:علیک هو الإشاره الی کیفیه تلقیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم القرآن النازل علیه،و أن الذی کان یتلقاه من الروح هو نفسه الشریفه من غیر مشارکه الحواس الظاهره التی هی الأدوات المستعمله فی إدراک الامور الجزئیه.

فکان صلّی اللّه علیه و آله و سلم یری و یسمع حینما کان یوحی الیه من غیر أن یستعمل حاستی البصر و السمع کما روی أنه کان یأخذه شبه إغماء یسمی برجاء الوحی.

فکان صلّی اللّه علیه و آله و سلم یری الشخص و یسمع الصوت مثل ما نری الشخص و نسمع الصوت غیر أنه ما کان یستخدم حاستی بصره و سمعه المادیتین فی ذلک کما نستخدمها.

و لو کان رؤیته و سمعه بالبصر و السمع المادیین لکان ما یجده مشترکا بینه و بین غیره فکان سائر الناس یرون ما یراه و یسمعون ما یسمعه،و النقل القطعی یکذب ذلک فکثیرا ما کان یأخذه برجاء الوحی و هو بین الناس فیوحی الیه و من حوله لا یشعرون بشیء و لا یشاهدون شخصا یکلمه و لا کلاما یلقی الیه.

و القول بأن من الجائز أن یصرف اللّه تعالی حواسّ غیره صلّی اللّه علیه و آله و سلم من الناس عن بعض ما کانت تناله حواسه و هی الامور الغیبیه المستوره عنا.

هدم لبنیان التصدیق العلمی إذ لو جاز مثل هذا الخطأ العظیم علی الحواس و هی مفتاح العلوم الضروریه و التصدیقات البدیهیه و غیرها لم یبق وثوق علی شیء من العلوم و التصدیقات.

علی أن هذا الکلام مبنی علی أصاله الحس و أن لا وجود إلا لمحسوس و هو من أفحش الخطأ و قد تقدم فی تفسیر سوره مریم کلام فی معنی تمثل الملک نافع فی المقام.

و للبحث تتمه لعل اللّه سبحانه یوفقنا لاستیفائها بإیراد کلام جامع فی الملک و آخر فی

الوحی.

و قوله: لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ أی من الداعين الى اللّه سبحانه بالتخويف من عذابه و هو المراد بالإنذار فی عرف القرآن دون النبی او الرسول بالخصوص،قال تعالى فی مؤمنی الجن: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (الأحقاف٢٩/)،و قال فی المتفقهين من المؤمنين:

لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ (التوبه١٢٢/).

و إنما ذكر إنذاره صلّى اللّه عليه و آله و سلم غايه لإنزال القرآن دون نبوته أو رسالته لأن سياق آيات السوره سياق التخويف و التهديد.

و قوله: بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ أی ظاهر فی عربيته او مبين للمقاصد تمام البيان و الجار و المجرور متعلق بنزل ای أنزله بلسان عربی مبين.

و جوز بعضهم ان يكون متعلقا بقوله:«منذرين»و المعنى أنزله على قلبك لتدخل فی زمره الأنبياء من العرب و قد ذكر منهم فی القرآن هود و صالح و إسماعيل و شعيب عليهم السّلام و أول الوجهين أحسنهما.

قوله تعالى: وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ الضمير للقرآن أو نزوله على النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الزبر جمع زبور و هو الكتاب و المعنى و إن خبر القرآن او خبر نزوله عليك فی كتب الماضين من الأنبياء.

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ ضمير «أَنْ يَعْلَمَهُ» لخبر القرآن او خبر نزوله على النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلم ای أ و لم يكن علم علماء بنی إسرائيل بخبر القرآن او نزوله عليك على سبيل البشاره فی كتب الأنبياء الماضين آيه للمشركين على صحه نبوتک و كانت اليهود تبشر بذلک و تستفتح على العرب به كما مر فی قوله تعالى: وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا (البقره٨٩/).

و قد أسلم عده من علماء اليهود فی عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و اعترفوا بأنه مبشر به فی کتبهم، و السوره من أوائل السور المکیه النازله قبل الهجره و لم تبلغ عداوه الیهود للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم مبلغها بعد الهجره و کان من المرجو أن ینطقوا ببعض ما عندهم من الحق و لو بوجه کلی.

قوله تعالی: وَ لَوْ نَزَّلْنٰاهُ عَلیٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِینَ فَقَرَأَهُ عَلَیْهِمْ مٰا کٰانُوا بِهِ مُؤْمِنِینَ قال فی المفردات:العجمه خلاف الإبانه و الاعجام الابهام-الی أن قال-و العجم خلاف العرب و العجمی منسوب الیهم،و الأعجم من فی لسانه عجمه عربیا کان أو غیر عربی اعتبارا بقله فهمهم عن العجم،و منه قیل للبهیمه عجماء و الأعجمی منسوب الیه قوله تعالی:

«وَ لَوْ نَزَّلْنٰاهُ عَلیٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِینَ» علی حذف الیاءات انتهی.

و مقتضی ما ذکره-کما تری-ان أصل الأعجمین الأعجمیین ثم حذفت یاء النسبه و به صرح بعض آخر،و ذکر بعضهم ان الوجه ان أعجم مؤنثه عجماء و أفعل فعلاء لا یجمع جمع السلامه لکن الکوفیین من النحاه یجوزون ذلک و ظاهر اللفظ یؤید قولهم فلا موجب للقول بالحذف.

و کیف کان فظاهر السیاق اتصال الآیتین بقوله: «بِلِسٰانٍ عَرَبِیٍّ مُبِینٍ» ،فتکونان فی مقام التعلیل له و یکون المعنی:نزّلناه علیک بلسان عربی ظاهر العربیه واضح الدلاله لیؤمنوا به و لا یتعللوا بعدم فهمهم مقاصده و لو نزّلناه علی بعض الأعجمین بلسان أعجمی ما کانوا به مؤمنین و ردّوه بعدم فهم مقاصده.

فیکون المراد بنزوله علی بعض الأعجمین نزوله أعجمیا و بلسانه،و الآیتان و التی بعدهما فی معنی قوله تعالی: وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً أَعْجَمِیًّا لَقٰالُوا لَوْ لاٰ فُصِّلَتْ آیٰاتُهُ ءَ أَعْجَمِیٌّ وَ عَرَبِیٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِینَ آمَنُوا هُدیً وَ شِفٰاءٌ وَ الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ فِی آذٰانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَیْهِمْ عَمًی (حم السجده/۴۴).

قوله تعالی: کَذٰلِکَ سَلَکْنٰاهُ فِی قُلُوبِ الْمُجْرِمِینَ الإشاره بقوله: «کَذٰلِکَ»

ص :۵۹۳

الى الحال التى عليها القرآن عند المشركين و قد ذكرت فى الآيات السابقه و هى أنهم معرضون عنه لا يؤمنون به و إن كان تنزيلا من رب العالمين و كان عربيا مبينا غير أعجمى و كان مذكورا فى زبر الأولين يعلمه علماء بنى إسرائيل.

و السلوك الإدخال فى الطريق و الإمرار،و المراد بالمجرمين هم الكفار و المشركون و ذكرهم بوصف الإجرام للإشاره الى عله الحكم و هو سلوكه فى قلوبهم على هذه الحال المبغوضه و المنفوره و أن ذلك مجازاه إلهيه جازاهم بها عن إجرامهم و ليعمّ الحكم بعموم العله.

و المعنى على هذه الحال-و هى أن يكون بحيث يعرض عنه و لا يؤمن به-ندخل القرآن فى قلوب هؤلاء المشركين و نمرّه فى نفوسهم جزاء لإجرامهم و كذلك كل مجرم.

قوله تعالى: لاٰ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتّٰى يَرَوُا الْعَذٰابَ الْأَلِيمَ -الى قوله- مُنْظَرُونَ تفسير و بيان لقوله: «كَذٰلِكَ نَسْلُكُهُ» الخ؛هذا على الوجه الأول و الثالث من الوجوه المذكوره فى الآيه السابقه و أما على الوجه الثانى فهو استئناف غير مرتبط بما قبله.

و قوله: حَتّٰى يَرَوُا الْعَذٰابَ الْأَلِيمَ أى حتى يشاهدوا العذاب الأليم فيلجئهم الى الإيمان الاضطرارى الذى لا ينفعهم،و الظاهر أن المراد بالعذاب الأليم ما يشاهدونه عند الموت و احتمل بعضهم ان يكون المراد به ما أصابهم يوم بدر من القتل،لكن عموم الحكم فى الآيه السابقه لمشركى مكه و غيرهم لا يلائم ذلك.

و قوله: فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ كالتفسير لقوله: «حَتّٰى يَرَوُا الْعَذٰابَ الْأَلِيمَ» إذ لو لم يأتهم بغته و علموا به قبل موعده لاستعدوا له و آمنوا باختيار منهم غير ملجئين اليه.

و قوله: فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ كلمه تحسّر منهم.

قوله تعالى: أَ فَبِعَذٰابِنٰا يَسْتَعْجِلُونَ توبيخ و تهديد.

قوله تعالى: أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنٰاهُمْ سِنِينَ -الى قوله- يُمَتَّعُونَ متصل بقوله:

«فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ» و محصل المعنى أن تمنى الإمهال و الإنظار تمنى أمر لا ينفعهم لو وقع على ما يتمنونه و لم يغن عنهم شيئا لو أجيبوا الى ما سألوه فإن تمتيعهم أمدا محدودا طال أو قصر لا يرفع العذاب الخالد الذى قضى فى حقهم.

و هو قوله: أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنٰاهُمْ سِنِينَ معدوده ستنقضى «ثُمَّ جٰاءَهُمْ مٰا كٰانُوا يُوعَدُونَ» من العذاب بعد انقضاء سنى الإنظار و الإمهال «مٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يُمَتَّعُونَ» أى تمتيعهم أمدا محدودا.

قوله تعالى: وَ مٰا أَهْلَكْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاّٰ لَهٰا مُنْذِرُونَ الخ؛الأقرب ان يكون قوله: «لَهٰا مُنْذِرُونَ» حالا من «قَرْيَةٍ» و قوله: «ذِكْرىٰ» حالا من ضمير الجمع فى «مُنْذِرُونَ» أو مفعولا مطلقا عامله «مُنْذِرُونَ» لكونه فى معنى مذكرون و المعنى ظاهر،و قيل غير ذلك مما لا جدوى فى ذكره و إطاله البحث عنه.

و قوله: وَ مٰا كُنّٰا ظٰالِمِينَ ورود النفى على الكون دون ان يقال:و ما ظلمناهم و نحو ذلك يفيد نفى الشأنيه اى و ما كان من شأننا و لا المترقب منا ان نظلمهم.

و الجمله فى مقام التعليل للحصر السابق و المعنى:ما أهلكنا من قريه إلا فى حال لها منذرون مذكرون تتم بهم الحجه عليهم لأنا لو أهلكناهم فى غير هذه الحال لكنا ظالمين لهم و ليس من شأننا أن نظلم أحدا فالآيه فى معنى قوله تعالى: وَ مٰا كُنّٰا مُعَذِّبِينَ حَتّٰى نَبْعَثَ رَسُولاً (الإسراء/١٥) (١).

قوله تعالى: وَ مٰا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيٰاطِينُ -الى قوله- لَمَعْزُولُونَ شروع فى الجواب عن قول المشركين:إنّ لمحمد جنا يأتيه بهذا الكلام،و قولهم:إنه شاعر،و قدّم الجواب

ص: ۵۹۵

١- ١) .الشعراء ١٩٢-٢٢٧:كلام فى معنى نفى الظلم عنه تعالى.

عن الأول و قد وجّه الكلام أولا الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فبيّن له أن القرآن ليس من تنزيل الشياطين و طيّب بذلك نفسه ثم وجّه القول الى القوم فبيّنه لهم بما فى وسعهم أن يفقهوه.

فقوله: وَ مٰا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيٰاطِينُ أى ما نزّلته و الآيه متصله بقوله: «وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعٰالَمِينَ» و وجّه الكلام كما سمعت الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بدليل قوله تلوا: «فَلاٰ تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ» الى آخر الخطابات المختصه به صلّى اللّه عليه و آله و سلم المتفرعه على قوله: «وَ مٰا تَنَزَّلَتْ بِهِ» الخ؛على ما سيجىء بيانه.

و إنما وجّه الكلام الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم دون القوم لأنه معلّل بما لا يقبلونه بكفرهم أعنى قوله:

«إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ» و الشيطان الشرير و جمعه الشياطين و المراد بهم أشرار الجن.

و قوله: وَ مٰا يَنْبَغِي لَهُمْ أى للشياطين.قال فى مجمع البيان:و معنى قول العرب:

ينبغى لك أن تفعل كذا أنه يطلب منك فعله فى مقتضى العقل من البغيه التى هى الطلب.انتهى.

و الوجه فى أنه لا ينبغى لهم أن يتنزّلوا به أنهم خلق شرير لا همّ لهم إلا الشر و الفساد و الأخذ بالباطل و تصويره فى صوره الحق ليضلوا به عن سبيل اللّه،و القرآن كلام حق لا سبيل للباطل اليه فلا يناسب جبلتهم الشيطانيه أن يلقوه الى أحد.

و قوله: وَ مٰا يَسْتَطِيعُونَ أى و ما يقدرون على التنزّل به لأنه كلام سماوى تتلقاه الملائكه من رب العزه فينزّلونه بأمره فى حفظ و حراسه منه تعالى كما قال: فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ وَ أَحٰاطَ بِمٰا لَدَيْهِمْ (الجن/ ۲۸)،و الى ذلك يشير قوله: «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ» الخ.

و قوله: إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ أى إن الشياطين عن سمع الأخبار السماويه و الاطلاع على ما يجرى فى الملأ الأعلى معزولون حيث يقذفون بالشهب الثاقبه لو تسمعوا كما ذكره اللّه فى مواضع من كلامه.

قوله تعالى: فَلاٰ تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ خطاب

للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ينهاه عن الشرك باللّه متفرع على قوله: «وَ مٰا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيٰاطِينُ» الخ؛أى إذا كان هذا القرآن تنزيلا من رب العالمين و لم تنزّل به الشياطين و هو ينهى عن الشرك و يوعد عليه العذاب فلا تشرك باللّه فينالك العذاب الموعود عليه و تدخل فى زمره المعذّبين.

و كونه صلّى اللّه عليه و آله و سلم معصوما بعصمه إلهيه يستحيل معها صدور المعصيه منه لا ينافى نهيه عن الشرك فإن العصمه لا توجب بطلان تعلّق الأمر و النهى بالمعصوم و ارتفاع التكليف عنه بما أنه بشر مختار فى الفعل و الترك متصور فى حقه الطاعه و المعصيه بالنظر الى نفسه،و قد تكاثرت الآيات فى تكليف الأنبياء عليهم السّلام فى القرآن الكريم كقوله فى الأنبياء عليهم السّلام: وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام/٨٨)،و قوله فى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم: لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ (الزمر/٦٥)،و الآيتان فى معنى النهى.

قوله تعالى: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ فى مجمع البيان:عشيره الرجل قرابته سموا بذلك لأنه يعاشرهم و هم يعاشرونه انتهى.و خص عشريته و قرابته الأقربين بالذكر بعد نهى نفسه عن الشرك و إنذاره تنبيها على أنه لا استثناء فى الدعوه الدينيه و لا مداهنه و لا مساهله كما هو معهود فى السنن الملوكيه فلا فرق فى تعلق الإنذار بين النبى و امته،و لا بين الأقارب و الأجانب،فالجميع عبيد و اللّه مولاهم.

قوله تعالى: وَ اخْفِضْ جَنٰاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اى اشتغل بالمؤمنين بك و اجمعهم و ضمهم اليك بالرأفه و الرحمه كما يجمع الطير أفراخه اليه بخفض جناحه لها،و هذا من الاستعاره بالكنايه تقدم نظيره فى قوله: وَ اخْفِضْ جَنٰاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (الحجر/٨٨).

و المراد بالاتباع الطاعه بقرينه قوله فى الآيه التاليه: «فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمّٰا تَعْمَلُونَ» فملخص معنى الآيتين:إن آمنوا بك و اتبعوك فاجمعهم اليك بالرأفه و اشتغل بهم بالتربيه و إن عصوك فتبرّأ من عملهم.

قوله تعالی: وَ تَوَکَّلْ عَلَی الْعَزِیزِ الرَّحِیمِ أی لیس لک من أمر طاعتهم و معصیتهم شیء وراء ما کلفناک فکل ما وراء ذلک الی اللّه سبحانه فإنه لعزته سیعذب العاصین و برحمته سینجی المؤمنین المتبعین.

و فی اختصاص اسمی العزیز و الرحیم إلفات للذهن الی ما تقدم من القصص ختمت واحده بعد واحده بالاسمین الکریمین.

فهو فی معنی أن یقال:توکل فی أمر المتبعین و العاصین جمیعا الی اللّه فهو العزیز الرحیم الذی فعل بقوم نوح و هود و صالح و إبراهیم و لوط و شعیب و قوم فرعون ما فعل مما قصصناه فسنته أخذ العاصین و إنجاء المؤمنین.

قوله تعالی: اَلَّذِی یَرٰاکَ حِینَ تَقُومُ وَ تَقَلُّبَکَ فِی السّٰاجِدِینَ ظاهر الآیتین -علی ما یسبق إلی الذهن-أن المراد بالساجدین الساجدون فی الصلاه فیکون المعنی:

الذی یراک و أنت بعینه فی حالتی قیامک و سجودک متقلبا فی الساجدین و أنت تصلی مع المؤمنین.

و فی معنی الآیه روایات من طرق الشیعه و أهل السنه سنتعرض لها فی البحث الروائی الآتی إن شاء اللّه.

قوله تعالی: إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ تعلیل لقوله: «وَ تَوَکَّلْ عَلَی الْعَزِیزِ الرَّحِیمِ» و فی الآیات-علی ما تقدم من معناها-تسلیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و بشری للمؤمنین بالنجاه و إیعاد للکفار بالعذاب.

قوله تعالی: هَلْ أُنَبِّئُکُمْ عَلیٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّیٰاطِینُ -الی قوله- کٰاذِبُونَ ، تعریف لمن تتنزل علیه الشیاطین بما یخصه من الصفه لیعلم أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لیس منهم و لا أن القرآن من إلقاء الشیاطین،و الخطاب متوجه الی المشرکین.

فقوله: هَلْ أُنَبِّئُکُمْ عَلیٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّیٰاطِینُ فی معنی هل أعرفکم الذین

تتنزل عليهم شياطين الجن بالأخبار؟

و قوله: تَنَزَّلُ عَلىٰ كُلِّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ قال فى مجمع البيان:الأفاك الكذاب و أصل الإفك القلب و الأفاك الكثير القلب للخبر عن جهه الصدق الى جهه الكذب،و الأثيم الفاعل للقبيح يقال:أثم يأثم إثما إذا ارتكب القبيح و تأثم إذا ترك الإثم انتهى.

و ذلك أن الشياطين لا شأن لهم إلا إظهار الباطل فى صوره الحق و تزيين القبيح فى زى الحسن فلا يتنزلون إلا على أفاك أثيم.

و قوله: يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كٰاذِبُونَ الظاهر أن ضميرى الجمع فى «يُلْقُونَ» و «أَكْثَرُهُمْ» معا للشياطين،و السمع مصدر بمعنى المسموع و المراد به ما سمعه الشياطين من أخبار السماء و لو ناقصا فإنهم ممنوعون من الاستماع مرميون بالشهب فما استرقوه لا يكون إلا ناقصا غير تام و لا كامل و لذا يتسرب اليه الكذب كثيرا.

و قوله: وَ أَكْثَرُهُمْ كٰاذِبُونَ أى أكثر الشياطين كاذبون لا يخبرون بصدق أصلا و هذا هو الكثره بحسب الأفراد و يمكن أن يكون المراد الكثره من حيث التنزل أى أكثر المتنزلين منهم كاذبون أى أكثر أخبارهم كاذبه.

و محصل حجه الآيات الثلاث أن الشياطين لابتناء جبلّتهم على الشر لا يتنزلون إلا على كل كذاب فاجر و أكثرهم كاذبون فى أخبارهم،و النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ليس بأفّاك أثيم و لا ما يوحى اليه من الكلام كذبا مختلقا فليس ممن تتنزل عليه الشياطين و لا الذى يتنزل عليه شيطانا،و لا القرآن النازل عليه من إلقاء الشياطين.

قوله تعالى: وَ الشُّعَرٰاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغٰاوُونَ -الى قوله- لاٰ يَفْعَلُونَ جواب عن رمى المشركين للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأنه شاعر،نبّه عليه بعد الجواب عن قولهم إن له شيطانا يوحى اليه القرآن.

و هذان أعنى قولهم:إن من الجن من يأتيه،و قولهم:إنه شاعر،مما كانوا يكررونه فى

ألسنتهم بمكه قبل الهجره يدفعون به الدعوه الحقه،و هذا مما يؤيد نزول هذه الآيات بمكه خلافا لما قيل إنها نزلت بالمدينه.

على أن الآيات مشتمله على ختام السوره أعنى قوله: «وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ» و لا معنى لبقاء سوره هى من أقدم السور المكيه سنين على نعت النقص ثم تمامها بالمدينه،و لا دلاله فى الاستثناء على أن المستثنين هم شعراء المؤمنين بعد الهجره.

و كيف كان فالغىّ خلاف الرشد الذى هو إصابه الواقع فالرشيد هو الذى لا يهتم إلا بما هو حق واقع،و الغوىّ هو السالك سبيل الباطل و المخطئ طريق الحق،و الغوايه مما يختص به صناعه الشعر المبنيه على التخييل و تصوير غير الواقع فى صوره الواقع و لذلك لا يهتم به إلا الغوىّ المشعوف بالتزيينات الخياليه و التصويرات الوهميه الملهيه عن الحق الصارفه عن الرشد،و لا يتبع الشعراء الذين يبتنى صناعتهم على الغىّ و الغوايه إلا الغاوون و ذلك قوله تعالى: «وَ الشُّعَرٰاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغٰاوُونَ» .

و قوله: أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وٰادٍ يَهِيمُونَ وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مٰا لاٰ يَفْعَلُونَ يقال:هام يهيم هيمانا إذا ذهب على وجهه و المراد بهيمانهم فى كل واد استرسالهم فى القول من غير أن يقفوا على حد فربما مدحوا الباطل المذموم كما يمدح الحق المحمود و ربما هجوا الجميل كما يهجى القبيح الدميم و ربما دعوا الى الباطل و صرفوا عن الحق و فى ذلك انحراف عن سبيل الفطره الانسانيه المبنيه على الرشد الداعيه الى الحق،و كذا قولهم ما لا يفعلون من العدول عن صراط الفطره.

و ملخص حجه الآيات الثلاث أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم ليس بشاعر لأن الشعراء يتبعهم الغاوون لابتناء صناعتهم على الغوايه و خلاف الرشد لكن الذين يتبعونه إنما يتبعونه ابتغاء للرشد و إصابه الواقع و طلبا للحق لابتناء ما عنده من الكلام المشتمل على الدعوه على الحق و الرشد دون الباطل و الغىّ.

قوله تعالی: إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ ذَکَرُوا اللّٰهَ کَثِیراً الخ؛ استثناء من الشعراء المذمومین،و المستثنون هم شعراء المؤمنین فإن الإیمان و صالحات الأعمال تردع الانسان بالطبع عن ترک الحق و اتباع الباطل ثم الذکر الکثیر للّه سبحانه یجعل الانسان علی ذکر منه تعالی مقبلا الی الحق الذی یرتضیه مدبرا عن الباطل الذی لا یحب الاشتغال به فلا یعرض لهؤلاء ما کان یعرض لاولئک.

و بهذا البیان یظهر وجه تقیید المستثنی بالإیمان و عمل الصالحات ثم عطف قوله: «وَ ذَکَرُوا اللّٰهَ کَثِیراً» علی ذلک.

و قوله: وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا الانتصار الانتقام،قیل:المراد به ردّ الشعراء من المؤمنین علی المشرکین أشعارهم التی هجوا بها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أو طعنوا فیها فی الدین و قدحوا فی الاسلام و المسلمین،و هو حسن یؤیده المقام.

و قوله: وَ سَیَعْلَمُ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَیَّ مُنْقَلَبٍ یَنْقَلِبُونَ المنقلب اسم مکان أو مصدر میمی،و المعنی:و سیعلم الذین ظلموا-و هم المشرکون علی ما یعطیه السیاق-الی أی مرجع و منصرف یرجعون و ینصرفون و هو النار أو ینقلبون أی انقلاب.

و فیه تهدید للمشرکین و رجوع مختتم السوره الی مفتتحها و قد وقع فی أولها قوله: «فَقَدْ کَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ فَسَوْفَ یَأْتِیهِمْ أَنْبٰاءُ مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ» (1).

۱- ۱) .الشعراء ۱۹۲-۲۲۷:بحث روائی حول رؤیا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم،قوله تعالی: «وَ أَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ» .

سوره النمل مکیه و هی ثلاث و تسعون آیه

اشاره

[سوره النمل (۲۷): الآیات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gtطس تِلْکَ آیٰاتُ اَلْقُرْآنِ وَ کِتٰابٍ مُبِینٍ (۱) هُدیً وَ بُشْریٰ لِلْمُؤْمِنِینَ (۲) اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ اَلصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ اَلزَّکٰاهَ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ یُوقِنُونَ (۳) إِنَّ اَلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ زَیَّنّٰا لَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ فَهُمْ یَعْمَهُونَ (۴) أُوْلٰئِکَ اَلَّذِینَ لَهُمْ سُوءُ اَلْعَذٰابِ وَ هُمْ فِی اَلْآخِرَهِ هُمُ اَلْأَخْسَرُونَ (۵) وَ إِنَّکَ لَتُلَقَّی اَلْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ عَلِیمٍ (۶)

بیان:

غرض السوره-علی ما تدلّ علیه آیات صدرها و الآیات الخمس الخاتمه لها-التبشیر

ص :۶۰۲

و الإنذار و قد استشهد لذلک بطرف من قصص موسی و داود و سلیمان و صالح و لوط علیهم السّلام ثم عقبها ببیان نبذه من أصول المعارف کوحدانیته تعالی فی الربوبیه و المعاد و غیر ذلک.

قوله تعالی: تِلْکَ آیٰاتُ الْقُرْآنِ وَ کِتٰابٍ مُبِینٍ الإشاره بتلک-کما مر فی أول سوره الشعراء-الی آیات السوره مما ستنزل بعد و ما نزلت قبل،و التعبیر باللفظ الخاص بالبعید للدلاله علی رفعه قدرها و بعد منالها.

و القرآن اسم الکتاب باعتبار کونه مقروا،و المبین من الإبانه بمعنی الإظهار،و تنکیر «قرآن»للتفخیم أی تلک الآیات الرفیعه القدر التی ننزلها آیات الکتاب و آیات کتاب مقروّ عظیم الشأن مبین لمقاصده من غیر إبهام و لا تعقید.

قال فی مجمع البیان:وصفه بالصفتین یعنی الکتاب و القرآن لیفید أنه مما یظهر بالقراءه و یظهر بالکتابه و هو بمنزله الناطق بما فیه من الأمرین جمیعا،و وصفه بأنه مبین تشبیه له بالناطق بکذا.انتهی.

قوله تعالی: هُدیً وَ بُشْریٰ لِلْمُؤْمِنِینَ المصدران أعنی «هُدیً وَ بُشْریٰ» بمعنی اسم الفاعل أو المراد بهما المعنی المصدری للمبالغه.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ الخ؛المراد إتیان الأعمال الصالحه و إنما اقتصر علی الصلاه و الزکاه لکون کل منهما رکنا فی بابه فالصلاه فیما یرجع الی اللّه تعالی و الزکاه فیما یرجع الی الناس و بنظر آخر الصلاه فی الأعمال البدنیه و الزکاه فی الأعمال المالیه.

و قوله: وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ یُوقِنُونَ وصف آخر للمؤمنین معطوف علی ما قبله جیء به للاشاره الی أن هذه الأعمال الصالحه إنما تقع موقعها و تصیب غرضها مع الإیقان بالآخره فإن العمل یحبط مع تکذیب الآخره،قال تعالی: وَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ لِقٰاءِ الْآخِرَهِ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ (الأعراف/۱۴۷).

ص :۶۰۳

و تکرار الضمیر فی قوله: «وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ» الخ؛للدلاله علی أن هذا الإیقان من شأنهم و هم أهله المترقب منهم ذلک.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ زَیَّنّٰا لَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ فَهُمْ یَعْمَهُونَ العمه التحیر فی الأمر و معنی تزیین العمل جعله بحیث ینجذب الیه الإنسان و الذین لاٰ یؤمنون بالآخره لما أنکروها و هی غایه مسیرهم بقوا فی الدنیا و هی سبیل لا غایه فتعلقوا بأعمالهم فیها و کانوا متحیرین فی الطریق لا غایه لهم یقصدونها.

قوله تعالی: أُوْلٰئِکَ الَّذِینَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذٰابِ الخ؛إیعاد بمطلق العذاب من دنیوی و أخروی بدلیل ما فی قوله: «وَ هُمْ فِی الْآخِرَهِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ» و لعل وجه کونهم أخسر الناس أن سائر العصاه لهم صحائف أعمال مثبته فیها سیئاتهم و حسناتهم یجازون بها و أما هؤلاء فسیئاتهم محفوظه علیهم یجازون بها و حسناتهم حابطه.

قوله تعالی: وَ إِنَّکَ لَتُلَقَّی الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ عَلِیمٍ التلقیه قریبه المعنی من التلقین،و تنکیر «حَکِیمٍ عَلِیمٍ» للتعظیم،و التصریح بکون هذا القرآن من عنده تعالی لیکون ذلک حجه علی الرساله و تأییدا لما تقدم من المعارف و لصحه ما سیذکره من قصص الأنبیاء علیهم السّلام.

و تخصیص الاسمین الکریمین للدلاله علی نزوله من ینبوع الحکمه فلا ینقضه ناقض و لا یوهنه موهن،و منبع العلم فلا یکذب فی خبره و لا یخطئ فی قضائه.

[سوره النمل (۲۷): الآیات ۷ الی ۱۴]

اشاره

إِذْ قٰالَ مُوسیٰ لِأَهْلِهِ إِنِّی آنَسْتُ نٰاراً سَآتِیکُمْ مِنْهٰا بِخَبَرٍ أَوْ آتِیکُمْ بِشِهٰابٍ قَبَسٍ لَعَلَّکُمْ تَصْطَلُونَ (۷) فَلَمّٰا جٰاءَهٰا نُودِیَ أَنْ بُورِکَ مَنْ فِی النّٰارِ وَ مَنْ حَوْلَهٰا وَ سُبْحٰانَ اللّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِینَ (۸) یٰا مُوسیٰ إِنَّهُ أَنَا اللّٰهُ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۹) وَ أَلْقِ عَصٰاکَ فَلَمّٰا رَآهٰا تَهْتَزُّ کَأَنَّهٰا جَانٌّ وَلّٰی مُدْبِراً وَ لَمْ یُعَقِّبْ یٰا مُوسیٰ لاٰ تَخَفْ إِنِّی لاٰ یَخٰافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ (۱۰) إِلاّٰ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّی غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۱) وَ أَدْخِلْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضٰاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ فِی تِسْعِ آیٰاتٍ إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ کٰانُوا قَوْماً فٰاسِقِینَ (۱۲) فَلَمّٰا جٰاءَتْهُمْ آیٰاتُنٰا مُبْصِرَهً قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ مُبِینٌ (۱۳) وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَیْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ الْمُفْسِدِینَ (۱۴)

بیان:

قوله تعالی: إِذْ قٰالَ مُوسیٰ لِأَهْلِهِ الخ؛المراد بأهله امرأته و هی بنت شعیب علی ما ذکره اللّه تعالی فی سوره القصص قال فی المجمع:إن خطابها بقوله: «آتِیکُمْ» بصیغه الجمع لإقامتها مقام الجماعه فی الانس بها فی الأمکنه الموحشه.انتهی و من المحتمل أنه کان معها غیرها من خادم أو مکار أو غیرهما.

و فی المجمع:الإیناس الإبصار،و قیل:آنست أی أحسست بالشیء من جهه یؤنس بها و ما آنست به فقد أحسست به مع سکون نفسک الیه.انتهی و الشهاب علی ما فی المجمع نور کالعمود من النار و کل نور یمتدّ کالعمود یسمی شهابا و المراد الشعله من النار،و فی المفردات:

الشهاب الشعله الساطعه من النار الموقده و من العارض فی الجو و فی المفردات أیضا:القبس

ص :۶۰۵

المتناول من الشعله،و الاصطلاء بالنار الاستدفاء بها.

قوله تعالی: فَلَمّٰا جٰاءَهٰا نُودِيَ أَنْ بُورِکَ مَنْ فِي النّٰارِ وَ مَنْ حَوْلَهٰا وَ سُبْحٰانَ اللّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ أی فلما أتی النار و حضر عندها نودی أن بورک،الخ.

و المراد بالمبارکه إعطاء الخیر الکثیر یقال:بارکه و بارک علیه و بارک فیه أی ألبسه الخیر الکثیر و حباه به،و قد وقع فی سوره طه فی هذا الموضع من القصه قوله: فَلَمّٰا أَتٰاهٰا نُودِيَ يٰا مُوسىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّکَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْکَ إِنَّکَ بِالْوٰادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً وَ أَنَا اخْتَرْتُکَ فَاسْتَمِعْ لِمٰا يُوحىٰ (طه۱۳/).و یستأنس منه أن المراد بمن حول النار موسی أو هو ممن حول النار،و مبارکته اختیاره بعد تقدیسه.

و أما المراد بمن فی النار فقد قیل:إن معناه من ظهر سلطانه و قدرته فی النار فإن التکلیم کان من الشجره-علی ما فی سوره القصص-و قد أحاطت بها النار،و علی هذا فالمعنی:تبارک من تجلّی لک بکلامه من النار و بارک فیک،و یکون قوله: «وَ سُبْحٰانَ اللّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ» تنزیها له سبحانه من أن یکون جسما أو جسمانیا یحیط به المکان أو یجاوره الحدثان لا لتعجیب موسی کما قیل.

قوله تعالی: يٰا مُوسىٰ إِنَّهُ أَنَا اللّٰهُ الْعَزِيزُ الْحَکِيمُ تعرّف منه تعالی لموسی علیه السّلام لیعلم أن الذی یشافهه بالکلام ربه تعالی فهذه الآیه فی هذه السوره تحاذی قوله من سوره طه: «نُودِيَ يٰا مُوسىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّکَ فَاخْلَعْ» الخ؛فارجع الی سوره طه و تدبّر فی الآیات.

قوله تعالی: وَ أَلْقِ عَصٰاکَ فَلَمّٰا رَآهٰا تَهْتَزُّ کَأَنَّهٰا جَانٌّ وَلّٰى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ الخ؛الاهتزاز التحرک الشدید،و الجان الحیه الصغیره السریعه الحرکه،و الإدبار خلاف الإقبال،و التعقیب الکرّ بعد الفر من عقّب المقاتل إذا کرّ بعد فراره.

قوله تعالی: يٰا مُوسىٰ لاٰ تَخَفْ إِنِّي لاٰ يَخٰافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ حکایه

نفس الخطاب الصادر هناک و هو فی معنی قال اللّه یا موسی لا تخف،الخ.

و قوله: لاٰ تَخَفْ نهی مطلق یؤمنه عن کل ما یسوء مما یخاف منه ما دام فی حضره القرب و المشافهه سواء کان المخوف منه عصا أو غیرها و لذا علّل النهی بقوله: «إِنِّی لاٰ یَخٰافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ» فإن تقیید النفی بقوله: «لَدَیَّ» یفید أن مقام القرب و الحضور یلازم الأمن و لا یجامع مکروها یخاف منه،و یؤیده تبدیل هذه الجمله فی القصه من سوره القصص من قوله:

«إِنَّکَ مِنَ الْآمِنِینَ» فیتحصّل المعنی:لا تخف من شیء إنک مرسل و المرسلون-و هم لدیّ فی مقام القرب-فی مقام الأمن و لا خوف مع الأمن.

و أما فرار موسی علیه السّلام من العصا و قد تصوّرت بتلک الصوره الهائله و هی تهتزّ کأنها جان فقد کان جریا منه علی ما جبل اللّه الطبیعه الإنسانیه علیه إذا فاجأه من المخاطر ما لا سبیل له الی دفعه عن نفسه إلا الفرار و قد کان أعزل لا سلاح معه إلا عصاه و هی التی یخافها علی نفسه و لم یرد علیه من جانبه تعالی أمر سابق أن یلزم مکانه أو نهی عن الفرار مما یخافه علی نفسه إلا قوله تعالی: «وَ أَلْقِ عَصٰاکَ» و قد امتثله،و لیس الفرار من المخاطر العظیمه التی لا دافع لها إلا الفرار،من الجبن المذموم حتی یذمّ علیه.

و أما أن الأنبیاء و المرسلین لا یخافون شیئا و هم عند ربهم-علی ما یدل علیه قوله: «إِنِّی لاٰ یَخٰافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ» -فهم لا یملکون هذه الکرامه من عند أنفسهم بل إنما ذلک بتعلیم من اللّه و تأدیب و إذ کان موقف لیله الطور أول موقف من موسی قرّبه اللّه الیه فیه و خصّه بالتکلیم و حباه بالرساله و الکرامه فقوله: «لاٰ تَخَفْ إِنَّکَ مِنَ الْآمِنِینَ» و قوله: «لاٰ تَخَفْ إِنِّی لاٰ یَخٰافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ» تعلیم و تأدیب إلهی له علیه السّلام.

فتبین بذلک أن قوله: «لاٰ تَخَفْ إِنِّی لاٰ یَخٰافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ» تأدیب و تربیه إلهیه لموسی علیه السّلام و لیس من التوبیخ و التأنیب فی شیء.

قوله تعالی: إِلاّٰ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّی غَفُورٌ رَحِیمٌ

الـذی ینبغی أن یقـال-و اللّه أعلم-أن الآـیه السـابقه لمـا أخبرت عن أن المرسـلین آمنون لاـ یخافون فهم منه أن غیرهم من أهل الظلـم غیر آمنین لهم أن یخـافوا اسـتدرک فی هـذه الآـیه حـال أهـل التـوبه من جمله أهـل الظلم فـبیّن أنهم لتـوبتهم و تبـدیلهم ظلمهم-و هو السوء-حسنا بعد سوء مغفور لهم مرحومون فلا یخافون أیضا.

فالاسـتثناء من المرسلین و هو اسـتثناء منقطع و المراد بـالظلم مطلق المعصـیه و بالحسن بعـد السوء التوبه بعـد المعصـیه أو العمل الصالح بعد السیئ،و المعنی:لکن من ظلم باقتراف المعصـیه ثم بدّل ذلک حسنا بعد سوء و توبه بعد معصیه أو عملا صالحا بعد سیئ فإنی غفور رحیم أغفر ظلمه و أرحمه فلا یخافن من بعد ذلک شیئا.

قوله تعالی: وَ أَدْخِلْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضٰاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ الخ؛ فسّـر السوء بالبرص و قد تقدم،و قوله: «فِی تِسْعِ آیٰاتٍ إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ» یمکن أن یستظهر من السیاق أولا أن «فِی تِسْعِ» حال من الآیتین جمیعا،و المعنی:آتیتک هاتین الآیتین-و العصا و الید-حال کونهما فی تسع آیات.

و ثانیـا:أن الآـیتین مـن جملـه الآیـات التسع،و قـد تقـدم فی تفسـیر قـوله تعـالی: وَ لَقَـدْ آتَیْنٰا مُوسـیٰ تِسْعَ آیٰاتٍ بَیِّنٰاتٍ (الإسراء/۱۰۱)،کلام فی تفصیل الآیات التسع،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: فَلَمّٰا جٰاءَتْهُمْ آیٰاتُنٰا مُبْصِـرَهً قٰالُوا هٰذٰا سِـحْرٌ مُبِینٌ المبصره بمعنی الواضحه الجلیه،و فی قولهم: «هٰذٰا سِحْرٌ مُبِینٌ» إزراء و إهانه بالآیات حیث أهملوا الدلاله علی خصوصیات الآیات حتی العدد فلم یعبأ بها إلا بمقدار أنها أمر ما.

قوله تعـالی: وَ جَحَـدُوا بِهٰا وَ اسْتَیْقَنَتْهٰا أَنْفُسُـهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا الـخ؛قال الراغب:الجحـد نفی ما فی القلب إثباته و إثبات ما فی القلب نفیه.انتهی.و الاستیقان و الإیقان بمعنی.

[سوره النمل (۲۷): الآيات ۱۵ الى ۴۴]

اشاره

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً وَ قالاَ اَلْحَمْدُ لِلّهِ اَلَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ اَلْمُؤْمِنِينَ (۱۵) وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَ قالَ يا أَيُّهَا اَلنّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ اَلطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ اَلْفَضْلُ اَلْمُبِينُ (۱۶) وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ وَ اَلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۷) حَتّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ اَلنَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا اَلنَّمْلُ اُدْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۸) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ اَلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ اَلصّالِحِينَ (۱۹) وَ تَفَقَّدَ اَلطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى اَلْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ اَلْغائِبِينَ (۲۰) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۲۱) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (۲۲) إِنِّي وَجَدْتُ اِمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ (۲۳) وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اَللّهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ اَلشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ اَلسَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (۲۴) أَلاّ يَسْجُدُوا لِلّهِ اَلَّذِي يُخْرِجُ اَلْخَبْءَ فِي اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ (۲۵) اَللّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ رَبُّ اَلْعَرْشِ اَلْعَظِيمِ (۲۶) قالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ اَلْكاذِبِينَ (۲۷) اِذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (۲۸) قالَتْ يا أَيُّهَا اَلْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (۲۹) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِيمِ (۳۰) أَلاّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ (۳۱) قالَتْ يا أَيُّهَا اَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتّى تَشْهَدُونِ (۳۲) قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ اَلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (۳۳) قالَتْ إِنَّ اَلْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (۳۴) وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ اَلْمُرْسَلُونَ (۳۵) فَلَمّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اَللّهُ خَيْرٌ مِمّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (۳۶) اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ (۳۷) قالَ يا أَيُّهَا اَلْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (۳۸) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ اَلْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (۳۹) قالَ اَلَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ اَلْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (۴۰) قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ اَلَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (۴۱) فَلَمّا جاءَتْ قِيلَ أَ هكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتِينَا اَلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنّا مُسْلِمِينَ (۴۲) وَ صَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اَللّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (۴۳) قِيلَ لَهَا اُدْخُلِي اَلصَّرْحَ فَلَمّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلّهِ رَبِّ اَلْعالَمِينَ (۴۴)

بيان:

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً الخ؛فى تنكير العلم إشاره الى تفخيم أمره،و مما أشير فيه الى علم داود من كلامه تعالى قوله: وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ (ص/٢٠).و مما أشير فيه الى علم سليمان قوله: فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً (الأنبياء/٧٩)،و ذيل الآيه يشملهما جميعا.

و قوله: وَ قالاَ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ المراد بالتفضيل إما التفضيل بالعلم على ما ربما يؤديه سياق الآيه،و إما التفضيل بمطلق ما خصّهما اللّه به من المواهب كتسخير الجبال و الطير لداود و تليين الحديد له و إيتائه الملك، و تسخير الجن و الوحش و الطير و كذا الريح لسليمان و تعليمه منطق الطير و إيتائه الملك على ما يستدعيه إطلاق التفضيل.

و الآيه أعنى قوله: «وَ قالاَ الْحَمْدُ لِلّهِ» الخ؛على أى حال بمنزله حكايه اعترافهما على التفضيل الإلهى فيكون كالشاهد على المدّعى الذى تشير اليه بشاره صدر السوره أن اللّه سبحانه سيخصّ المؤمنين بما تقرّ به عيونهم و مثلها ما سيأتى من اعترافات سليمان فى مواضع من كلامه.

قوله تعالى: وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ الخ؛أى ورثه مالكه و ملكه،و أما قول بعضهم:المراد به وراثه النبوه و العلم ففيه أن النبوه لا تقبل الوراثه لعدم قبولها الانتقال، و العلم و إن قبل الانتقال بنوع من العنايه غير أنه إنما يصحّ فى العلم الفكرى الاكتسابى و العلم الذى يختص به الأنبياء و الرسل كرامه من اللّه لهم و هبىّ ليس مما يكتسب بالفكر فغير النبى يرث العلم من النبى لكن النبى لا يرث علمه من نبى آخر و لا من غير نبى.

و قوله: وَ قٰالَ يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ عُلِّمْنٰا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ظاهر السياق أنه عليه السّلام يباهى عن نفسه و أبيه و هو منه عليه السّلام تحديث بنعمه اللّه كما قال تعالى: وَ أَمّٰا بِنِعْمَهِ رَبِّکَ فَحَدِّثْ (الضحى/١١)،و أما إصرار بعض المفسرين على أن الضمير فى قوله: «عُلِّمْنٰا» و «أُوتِينٰا» لنفسه لا له و لأبيه على ما هو عاده الملوك و العظماء فى الإخبار عن أنفسهم-فإنهم يخبرون عنهم و عن خدمهم و أعوانهم رعايه لسياسه الملك-فالسياق السابق لا يساعد عليه كل المساعده.

و قوله: وَ أُوتِينٰا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أى أعطينا من كل شىء،و «كُلِّ شَيْءٍ» و إن كان شاملا لجميع ما يفرض موجودا-لأن مفهوم شىء من أعمّ المفاهيم و قد دخل عليه كلمه الاستغراق-لكن لما كان المقام مقام التحديث بالنعمه و لا كل نعمه بل النعم التى يمكن أن يؤتاها الانسان فيتنعم بها تقيد به معنى كل شىء و كان معنى الجمله:و أعطانا اللّه من كل نعمه يمكن أن يعطاها الانسان فيتنعم بها مقدارا معتدا به كالعلم و النبوه و الملك و الحكم و سائر النعم المعنويه و الماديه.

و قوله: هٰذٰا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ شكر و تأكيد للتحديث بالنعمه من غير عجب و لا كبر و اختيال لاسناده الجميع الى اللّه بقوله: «عُلِّمْنٰا» و «أُوتِينٰا» ،و احتمل بعضهم أن تكون الجمله من كلام اللّه سبحانه لا من كلام سليمان و السياق يأباه.

قوله تعالى: وَ حُشِرَ لِسُلَيْمٰانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ الحشر هو جمع الناس و إخراجهم لأمر بإزعاج و الوزع المنع و قيل الحبس، و المعنى كما قيل:و جمع لسليمان جنوده من الجن و الانس و الطير فهم يمنعون من التفرّق و اختلاط كل جمع بآخر برد أولهم الى آخرهم و حبس كل فى مكانه.

و يستفاد من الآيه أنه كان له جنود من الجن و الطير يسيرون معه كجنوده من الإنس.

و كلمه الحشر و وصف المحشورين بأنهم جنود،و سياق الآيات التاليه كل ذلك دليل على

أن جنوده كانوا طوائف خاصه من الجن و الإنس و الطير سواء كانت «مِنَ» فى الآيه للتبعيض او للبيان.

قوله تعالى: حَتّٰى إِذٰا أَتَوْا عَلىٰ وٰادِ النَّمْلِ الآيه؛ «حَتّٰى» غايه لما يفهم من الآيه السابقه،و ضمير الجمع لسليمان و جنوده،و تعديه الإتيان بعلى قيل:لكون الإتيان من فوق،و وادى النمل واد بالشام على ما قيل،و قيل:فى أرض الطائف،و قيل:فى أقصى اليمن، و الحطم الكسر.

و المعنى:فلما سار سليمان و جنوده حتى أتوا على وادى النمل قالت نمله مخاطبه لسائر النمل:

يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يكسرنّكم سليمان و جنوده أى لا يطأنكم بأقدامهم و هم لا يشعرون.و فيه دليل على أنهم كانوا يسيرون على الأرض.

قوله تعالى: فَتَبَسَّمَ ضٰاحِكاً مِنْ قَوْلِهٰا الى آخر الآيه؛قيل:التبسّم دون الضحك،و على هذا فالمراد بالضحك هو الإشراف عليه مجازا.

و لا منافاه بين قوله عليه السّلام: «عُلِّمْنٰا مَنْطِقَ الطَّيْرِ» و بين فهمه كلام النمله إذ لم ينف فهمه كلام سائر الحيوان او كلام بعضها كالنمله.

و قد تسلّم جمع منهم دلاله قوله: «عُلِّمْنٰا مَنْطِقَ الطَّيْرِ» على نفى ما عداه فتكلفوا فى توجيه فهمه عليه السّلام قول النمله تاره بأنه كانت قضيه فى واقعه،و أخرى بتقدير أنها كانت نمله ذات جناحين و هى من الطير،و ثالثه بأن كلامها كان من معجزات سليمان عليه السّلام،و رابعه بأنه عليه السّلام لم يسمع منها صوتا قط و إنما فهم ما فى نفس النمله إلهاما من اللّه تعالى هذا.

و ما تقدم من معنى منطق الحيوان يزاح به هذه الأوهام.على أن سياق الآيات وحده كاف فى دفعها.

و قوله: وَ قٰالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلىٰ وٰالِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ الإيزاع الإلهام.تبسّم عليه السّلام مبتهجا مسرورا بما أنعم

اللّه علیه حتی أوقفه هـذا الموقف و هی النبوّه و العلم بمنطق الحیوان و الملـک و الجنود من الجنّ و الإنـس و الطیر فسأل اللّه أن یلهمه شکر نعمته و أن یعمل بما فیه رضاه سبحانه.

و قـد جعل الشـکر للنعمه التی أنعم اللّه تعالی بها علی نفسه مختصه به،و للنعمه التی أنعم بها علی والـدیه فإن الإنعام علی والدیه إنعام علیه بوجه لکونه منهما و قـد أنعم اللّه تعالی علی أبیه داود بالنبوه و الملک و الحکمه و فصل الخطاب و غیرها و أنعم علی أمه حیث زوّجها من داود النبی و رزقها سلیمان النبی و جعلها من أهل بیت النبوه.

و فی کلامه هـذا دلیـل علی أن والـدته من أهـل الصـراط المسـتقیم الـذین أنعـم اللّـه علیهم (۱)و هم احـدی الطوائف الأربع المذکورین فی قوله تعالی: اَلَّذِینَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ مِنَ النَّبِیِّینَ وَ الصِّدِّیقِینَ وَ الشُّهَدٰاءِ وَ الصّٰالِحِینَ (النساء۶۹/).

و قوله: وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ عطف علی قوله: «أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ» و مسأله هذه«أوزعنی أن أعمل»الخ؛أمر أرفع قدرا و أعلی منزله من سؤال التوفیق للعمل الصالح فإن التوفیق یعمل فی الأسـباب الخارجیه بترتیبها بحیث توافق سعاده الإنسان و الإیزاع الذی سأله دعوه باطنیه فی الإنسان الی السعاده،و علی هـذا فلیس من البعید أن یکون المراد به الوحی الذی أکرم اللّه به إبراهیم و آله فیما یخبر عنه بقوله: وَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرٰاتِ الآیه(الأنبیاء۷۳/)،و هو التأیید بروح القدس علی ما مر فی تفسیر الآیه.

و قوله: وَ أَدْخِلْنِی بِرَحْمَتِکَ فِی عِبٰادِکَ الصّٰالِحِینَ أی اجعلنی منهم،و هذا الصـلاح لما لم یتقید بالعمل کان هو صـلاح الذات و هو صلاح النفس فی جوهرها الذی یستعد به لقبول أی کرامه إلهیه.

۱- ۱) .و فیه تبرئه ساحتهـا عمـا فی التوراه الـدائره ففی التوراه أنهـا کانت امرأه اوریا فجر بها داود ثم کاد فی قتل اوریا فقتل فی بعض الحروب فأدخلها فی أزواجه فولدت له سلیمان.

و من المعلوم أن صلاح الذات أرفع قدرا من صلاح العمل ففی قوله: «وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ وَ أَدْخِلْنِی بِرَحْمَتِکَ فِی عِبٰادِکَ الصّٰالِحِینَ» تدرّج فی المسأله من الأدنی الی الأعلی و قد کان صلاح العمل منسوبا الی صنعه و اختیاره بوجه دون صلاح الذات و لذا سأل صلاح الذات من ربه و لم یسأل نفس صلاح العمل بل أن یوزعه أن یعمل.

و فی تبدیله سؤال صلاح الذات من سؤال أن یدخله فی عباده الصالحین إیذان بسؤاله ما خصهم اللّه به من المواهب و أغزرها العبودیه و قد وصفه اللّه بها فی قوله: نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ (ص/۳۰).

قوله تعالی: وَ تَفَقَّدَ الطَّیْرَ فَقٰالَ مٰا لِیَ لاٰ أَرَی الْهُدْهُدَ أَمْ کٰانَ مِنَ الْغٰائِبِینَ قال الراغب:التفقد التعهد لکن حقیقه التفقد تعرف فقدان الشیء و التعهد تعرف العهد المتقدم قال تعالی: «وَ تَفَقَّدَ الطَّیْرَ» .انتهی.

استفهم أولاً متعجبا من حال نفسه إذ لاٰ یری الهدهد بین الطیر کأنه لم یکن من المظنون فی حقه أن یغیب عن موکبه و یستنکف عن امتثال أمره ثم أضرب عن ذلک بالاستفهام عن غیبته.

و المعنی:ما بالی لا أری الهدهد بین الطیور الملازمه لموکبی بل أ کان من الغائبین.

قوله تعالی: لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذٰاباً شَدِیداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَیَأْتِیَنِّی بِسُلْطٰانٍ مُبِینٍ اللامات للقسم و السلطان المبین البرهان الواضح،یقضی علیه السّلام علی الهدهد أحد ثلاث خصال:

العذاب الشدید و الذبح و فیهما شقاؤه،و الإتیان بحجه واضحه و فیه خلاصه و نجاته.

قوله تعالی: فَمَکَثَ غَیْرَ بَعِیدٍ فَقٰالَ أَحَطْتُ بِمٰا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُکَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ یَقِینٍ ضمیر «فَمَکَثَ» لسلیمان و یحتمل أن یکون للهدهد و یؤید الأول سابق السیاق و الثانی لاحقه،و المراد بالإحاطه العلم الکامل،و قوله: «وَ جِئْتُکَ» الخ؛بمنزله عطف التفسیر لقوله: «أَحَطْتُ» الخ؛و سبأ بلده بالیمن کانت عاصمته یومئذ و النبأ الخبر الذی له

أهميه،و اليقين ما لا شك فيه.

و المعنى:فمكث سليمان-أو فمكث الهدهد-زمانا غير بعيد-ثم حضر فسأله سليمان عن غيبته و عاتبه-فاقل أحطت من العلم بما لم تحط به و جئتك من سبإ بخبر مهم لا شك فيه.

قوله تعالى: إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ الضمير فى «تَمْلِكُهُمْ» لأهل سبإ و ما يتبعها و قوله: «وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» وصف لسعه ملكها و عظمته و هو القرينه على أن المراد بكل شيء فى الآيه كل شيء هو من لوازم الملك العظيم من حزم و عزم و سطوه و مملكه عريضه و كنوز و جنود مجنده و رعيّه مطيعه، و خصّ بالذكر من بينها عرشها العظيم.

قوله تعالى: وَجَدْتُهَا وَ قَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ الخ؛أى إنهم من عبده الشمس من الوثنيين.

و قوله: وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ بمنزله عطف التفسير لما سبقه و هو مع ذلك توطئه لقوله بعد: «فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ» لأن تزيين الشيطان لهم أعمالهم التى هى سجدتهم و سائر تقرّباتهم هو الذى صرفهم و منعهم عن سبيل اللّه و هى عبادته وحده.

و فى إطلاق السبيل من غير إضافتها اليه تعالى إشاره الى أنها السبيل المتعينه للسبيليه بنفسها للانسان بالنظر الى فطرته بل لكل شيء بالنظر الى الخلقه العامه.

و قوله: فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ تفريع على صدّهم عن السبيل إذ لا سبيل مع الصدّ عن السبيل فلا اهتداء،فافهمه.

قوله تعالى: أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ القراءه الدائره «ألا» -بتشديد اللام-مؤلف من«أن و لا»و هو عطف بيان من «أَعْمَالَهُمْ» ،و المعنى:زيّن لهم الشيطان أن لا يسجدوا للّه،و قيل:

بتقدير لام التعليل،و المعنى:زيّن لهم الشيطان ضلالتهم لئلا يسجدوا للّه.

و الخبء على ما فى مجمع البيان المخبوء و هو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه و هو مصدر وصف به يقال:خبأته أخبئه خبأ و ما يوجده اللّه تعالى فيخرجه من العدم الى الوجود يكون بهذه المنزله.انتهى.

ففى قوله: يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ استعاره كأن الأشياء مخبوءه مستوره تحت أطباق العدم فيخرجها اللّه تعالى الى الوجود واحدا بعد آخر فيكون تسميه الإيجاد بعد العدم إخراجا للخبء قريبا من تسميته بالفطره و توصيفه تعالى بأنه فاطر السماوات و الأرض و الفطر هو الشق كأنه يشقّ العدم فيخرج الأشياء.

و يمكن حمل الجمله على الحقيقه من غير استعاره لكنه مفتقر الى بيان موضعه غير هذا الموضع.و قيل:المراد بالخبء الغيب و إخراجه العلم به و هو كما ترى.

و قوله: وَ يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ بالتاء على الخطاب أى يعلم سرّكم و علانيتكم،و قرأ الأكثرون بالياء على الغيبه و هو أرجح.

و ملخص الحجه:انهم إنما يسجدون للشمس دون اللّه تعظيما لها على ما أودع اللّه سبحانه فى طباعها من الآثار الحسنه و التدبير العام للعالم الأرضى و غيره،و اللّه الذى أخرج جميع الأشياء من العدم الى الوجود و من الغيب الى الشهاده فترتب على ذلك نظام التدبير من أصله -و من جملتها الشمس و تدبيرها-أولى بالتعظيم و أحق ان يسجد له،مع أنه لا معنى لعباده ما لا شعور له بها و لا شعور للشمس بسجدتهم و اللّه سبحانه يعلم ما يخفون و ما يعلنون فاللّه سبحانه هو المتعين للسجده و التعظيم لا غير.

و بهذا البيان تبين وجه اتصال قوله تلوا: «اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» الخ.

قوله تعالى: اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ من تمام كلام الهدهد و هو بمنزله التصريح بنتيجه البيان الضمنى السابق و إظهار الحق قبال باطلهم و لذا أتى أولا بالتهليل الدالّ على توحيد العباده ثم ضمّ اليه قوله: «رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» الدال على انتهاء تدبير الأمر

اليه فإن العرش الملكى هو المقام الذى تجتمع عنده ازمه الامور و تصدر منه الأحكام الجاريه فى الملك.

و فى قوله: رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ مناسبه محاذاه اخرى مع قوله فى وصف ملكه سبأ: «وَ لَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ» و لعل قول الهدهد هذا الذى دعا-او هو من جمله ما دعا- سليمان عليه السّلام ان يأمر ان يأتوا بعرشها اليه ليخضع لعظمه ربه كل عظمه.

قوله تعالى: قَالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ الضمير لسليمان عليه السّلام.أحال القضاء فى أمر الهدهد الى المستقبل فلم يصدقه فى قوله لعدم بيّنه عليه بعد و لم يكذبه لعدم الدليل على كذبه بل وعده ان يجرّب و يتأمل.

قوله تعالى: اِذْهَبْ بِكِتَابِى هٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَا ذَا يَرْجِعُونَ حكايه قول سليمان خطابا للهدهد كأنه قيل:فكتب سليمان كتابا ثم قال للهدهد:

اذهب بكتابى هذا إليهم أى الى ملكه سبأ و ملأها فألقه إليهم ثم تولّ عنهم أى تنحّ عنهم وقع فى مكان تراهم فانظر ما ذا يرجعون أى ما ذا يرد بعضهم من الجواب على بعض إذا تكلموا فيه.

و قوله: فَأَلْقِهْ بسكون الهاء وصلا و وقفا فى جميع القراءات و هى هاء السكت،و مما قيل فى الآيه:أن قوله: «ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ» الخ؛من قبيل التقديم و التأخير و الأصل فانظر ما ذا يرجعون ثم تولّ عنهم:و هو كما ترى.

قوله تعالى: قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ فى الكلام حذف و إيجاز و التقدير فأخذ الهدهد الكتاب و حمله الى ملكه سبأ حتى إذا أتاها ألقاه إليها فأخذتها و لما قرأتها قالت لملئها و أشراف قومها:يا أيها الملأ،الخ.

فقوله: قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ حكايه ذكرها لملئها

أمر الكتاب و كيفيه وصوله إليها و مضمونه،و قد عظّمته إذ وصفته بالكرم.

و قوله: وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ظاهره أنه تعليل لكون الكتاب كريما أى و السبب فيه أنه من سليمان و لم يكد يخفى عليها جبروت سليمان و ما أوتيه من الملك العظيم و الشوكه العجيبه كما اعترفت بذلك فى قولها على ما حكاه اللّه بعد:«و أوتينا العلم من قبله و كنا مسلمين».

و إنه بسم اللّه الرحمن الرحيم:أى الكتاب باسمه تعالى فهو كريم لذلك و الوثنيون جميعا قائلون باللّه سبحانه يرونه رب الأرباب و إن لم يعبدوه،و عبده الشمس منهم و هم من شعب الصابئين يعظّمونه و يعظّمون صفاته و إن كانوا يفسّرون الصفات بنفى النقائص و الأعدام فيفسرون العلم و القدره و الحياه و الرحمه مثلا بانتفاء الجهل و العجز و الموت و القسوه فكون الكتاب باسم اللّه الرحمن الرحيم يستدعى كونه كريما،كما أن كونه من سليمان العظيم يستدعى كونه كريما،و على هذا فالكتاب أى مضمونه هو قوله: «أَلاّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ» و أن مفسّره.

قوله تعالى: أَلاّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ أن مفسره تفسر مضمون كتاب سليمان كما تقدمت الإشاره اليه.

و المراد بعلوهم عليه استكبارهم عليه،و بقوله: «وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ» إسلامهم بمعنى الانقياد على ما يؤيده قوله: «أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى» دون الإسلام بالمعنى المصطلح و هو الإيمان باللّه سبحانه و إن كان إتيانهم منقادين له يستلزم إيمانهم باللّه على ما يستفاد من سياق قول الهدهد و سياق الآيات الآتيه،و لو كان المراد بالإيمان المعنى المصطلح كان المناسب له أن يقال:أن لا تعلوا على اللّه.

و كون سليمان عليه السّلام نبيا شأنه الدعوه الى الإسلام لا ينافى ذلك فإنه كان ملكا رسولا و كانت دعوته الى الانقياد المطلق تستلزم ذلك كما تقدم و قد انتهت الى إسلامها للّه كما حكى اللّه تعالى

عنها «وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» .

قوله تعالى: قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتّى تَشْهَدُونِ الإفتاء إظهار الفتوى و هى الرأى،و قطع الأمر القضاء به و العزم عليه و الشهاده الحضور و هذا استشاره منها لهم تقول:أشيروا على فى هذا الأمر الذى واجهته -و هو الذى يشير اليه كتاب سليمان-و إنما أستشيركم فيه لأنى لم أكن حتى اليوم استبد برأيى فى الامور بل أقضى و أعزم عن إشاره و حضور منكم.

قوله تعالى: قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ القوه ما يتقوى به على المطلوب و هى هاهنا الجند الذى يتقوى به على دفع العدو و قتاله،و البأس الشده فى العمل و المراد به النجده و الشجاعه.

و الآيه تتضمن جواب الملإ لها يسمعونها أولا ما يطيب له نفسها و يسكن به قلقها ثم يرجعون إليها الأمر يقولون:طيبى نفسا و لا تحزنى فإن لنا من القوه و الشده ما لا نهاب به عدوا و إن كان هو سليمان ثم الأمر اليك مرى بما شئت فنحن مطيعوك.

قوله تعالى: قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ إفساد القرى تخريبها و إحراقها و هدم أبنيتها،و إذلال أعزه أهلها هو بالقتل و الأسر و السبى و الإجلاء و التحكم.

كان رأيها على ما يستفاد من هاتين الآيتين-زياده التبصر فى أمر سليمان عليه السّلام بأن ترسل اليه من يختبر حاله و يشاهد مظاهر نبوته و ملكه فيخبر الملكه بما رأى حتى تصمم هى العزم على أحد الأمرين:الحرب أو السلم و كان الظاهر من كلام الملإ حيث بدءوا فى الكلام معها بقولهم نحن اولو قوه و اولو بأس شديد،أنهم يميلون الى القتال لذلك أخذت أولا تذم الحرب ثم نصت على ما هو رأيها فقالت: «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها» الخ؛اى إن الحرب لا تنتهى إلا الى غلبه أحد المتحاربين و فيها فساد القرى و ذله أعزتها فليس من الحزم و الإقدام

علیها مع قوه العدو و شوکته مهما کانت الی السلم و الصلح سبیل إلا لضروره و رأیی الذی أراه ان أرسل الیهم بهدیه ثم انظر بما ذا یرجع المرسلون من الخبر و عند ذلک أقطع بأحد الأمرین الحرب او السلم.

فقوله: إِنَّ الْمُلُوکَ إِذا دَخَلُوا الخ؛توطئه لقوله بعد: «وَ إِنِّی مُرْسِلَهٌ إِلَیْهِمْ بِهَدِیَّهٍ فَناظِرَهٌ» الخ.

و قوله: وَ جَعَلُوا أَعِزَّهَ أَهْلِها أَذِلَّهً أبلغ و آکد من قولنا مثلا:استذلوا أعزتها لأنه مع الدلاله علی تحقق الذله یدل علی تلبسهم بصفه الذله.

و قوله: وَ کَذلِکَ یَفْعَلُونَ مسوق للدلاله علی الاستمرار بعد دلاله قوله:

«أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّهَ أَهْلِها أَذِلَّهً» علی اصل الوقوع،و قیل:إن الجمله من کلام اللّه سبحانه لا من تمام کلام ملکه سبأ،و لیس بسدید إذ لا اقتضاء فی المقام لمثل هذا التصدیق.

قوله تعالی: وَ إِنِّی مُرْسِلَهٌ إِلَیْهِمْ بِهَدِیَّهٍ فَناظِرَهٌ بِمَ یَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ای مرسله الی سلیمان و هذا نوع من التجبر و الاعتزاز الملوکی تصون لسانها عن اسمه و تنسب الأمر الیه و الی من معه جمیعا و ایضا تشیر به الی انه یفعل ما یفعل بأیدی اعضاده و جنوده و إمداد رعیته.

و قوله: فَناظِرَهٌ بِمَ یَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ای حتی اعمل عند ذلک بما تقتضیه الحال و هذا-کما تقدم-هو رأی ملکه سبأ،و یعلم من قوله: «الْمُرْسَلُونَ» أن الحامل للهدیه کان جمعا من قومها کما یستفاد من قول سلیمان بعد «ارْجِعْ إِلَیْهِمْ» انه کان للقوم المرسلین رئیس یرأسهم.

قوله تعالی: فَلَمّا جاءَ سُلَیْمانَ قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِیَ اللّهُ خَیْرٌ مِمّا آتاکُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِیَّتِکُمْ تَفْرَحُونَ ضمیر جاء للمال الذی أهدی الیه او للرسول الذی جاء بالهدیه.

و الاستفهام فی قوله: «أَ تُمِدُّونَنِ بِمٰالٍ» للتوبیخ و الخطاب للرسول و المرسل بتغلیب الحاضر علی الغائب،و توبیخ القوم من غیر تعیین الملکه من بینهم نظیر قولها فیما تقدم: «وَ إِنِّی مُرْسِلَةٌ إِلَیْهِمْ بِهَدِیَّةٍ» کما أشرنا الیه.

و جوّز ان یکون الخطاب للمرسلین و کانوا جماعه و هو خطأ فإن الإمداد لم یکن من المرسلین بل ممن أرسلهم فلا معنی لتوجیه التوبیخ الیهم خاصه،و تنکیر المال للتحقیر، و المراد بما آتانی اللّه الملک و النبوه.

و المعنی:أ تمدّوننی بمال حقیر لا قدره له عندی فی جنب ما آتانی اللّه فما آتانی اللّه من النبوه و الملک و الثروه خیر مما آتاکم.

و قوله: بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِیَّتِکُمْ تَفْرَحُونَ إضراب عن التوبیخ بإمداده بالمال الی التوبیخ بفرحهم بهدیتهم أی إن إمدادکم إیای بمال لا قدر له عندی فی جنب ما آتانی اللّه قبیح و فرحکم بهدیتکم لاستعظامکم لها و إعجابکم بها أقبح.

قوله تعالی: اِرْجِعْ إِلَیْهِمْ فَلَنَأْتِیَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاٰ قِبَلَ لَهُمْ بِهٰا وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهٰا أَذِلَّةً وَ هُمْ صٰاغِرُونَ الخطاب لرئیس المرسلین،و ضمائر الجمع راجعه الی ملکه سبأ و قومها،و القبل الطاقه،و ضمیر «بِهٰا» لسبأ،و قوله: «وَ هُمْ صٰاغِرُونَ» تأکید لما قبله،و اللام فی «فَلَنَأْتِیَنَّهُمْ» و «لَنُخْرِجَنَّهُمْ» للقسم.

لما کان ظاهر تبدیلهم امتثال أمره-و هو قوله:«أتونی مسلمین»-من إرسال الهدیه هو الاستنکاف عن الاسلام قدّر بحسب المقام انهم غیر مسلمین له فهددهم بإرسال جنود لا قبل لهم بها و لذلک فرّع إتیانهم بالجنود علی رجوع الرسول من غیر أن یشترطه بعدم إتیانهم مسلمین فقال: «ارْجِعْ إِلَیْهِمْ فَلَنَأْتِیَنَّهُمْ» الخ؛و لم یقل:ارجع فإن لم یأتونی مسلمین فلنأتینهم، الخ؛و إن کان مرجع المعنی الیه فإن إرسال الجنود و إخراجهم من سبأ علی حال الذله کان مشروطا به علی أی حال.

ص:۶۲۳

و السیاق یشهد أنه علیه السّلام ردّ الیهم هدیتهم و لم یقبلها منهم.

قوله تعالی: قَالَ یَا أَیُّهَا الْمَلَؤُا أَیُّکُمْ یَأْتِینِی بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ یَأْتُونِی مُسْلِمِینَ کلام تکلم به بعد رد الهدیه و إرجاع الرسل،و فیه إخباره انهم سیأتونه مسلمین و إنما أراد الإتیان بعرشها قبل حضورها و قومها عنده لیکون دلاله ظاهره علی بلوغ قدرته الموهوبه من ربه و معجزه باهره لنبوته حتی یسلموا للّه کما یسلمون له و یستفاد ذلک من الآیات التالیه.

قوله تعالی: قَالَ عِفْرِیتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِیکَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِکَ وَ إِنِّی عَلَیْهِ لَقَوِیٌّ أَمِینٌ العفریت-علی ما قیل-المارد الخبیث،و قوله: «آتِیکَ بِهِ» اسم فاعل او فعل مضارع من الإتیان،و الأول أنسب للسیاق لدلالته علی التلبّس بالفعل و کونه أنسب لعطف قوله: «وَ إِنِّی عَلَیْهِ» الخ؛و هو جمله اسمیه علیه.کذا قیل.

و قوله: وَ إِنِّی عَلَیْهِ لَقَوِیٌّ أَمِینٌ الضمیر للإتیان أی أنا للإتیان بعرشها لقوی لا یثقل علیّ حمله و لا یجهدنی نقله،أمین لا أخونک فی هذا الأمر.

قوله تعالی: قَالَ الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتَابِ أَنَا آتِیکَ مقابلته لمن قبله دلیل علی انه کان من الإنس،و قد وردت الروایات عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام انه کان آصف بن برخیا وزیر سلیمان و وصیّه،و قیل:هو الخضر،و قیل:رجل کان عنده اسم اللّه الأعظم الذی إذا سئل به أجاب،و قیل:جبریل،و قیل:هو سلیمان نفسه،و هی وجوه لا دلیل علی شیء منها.

و أیا ما کان و أی من کان ففصل الکلام مما قبله من غیر أن یعطف علیه للاعتناء بشأن هذا العالم الذی أتی بعرشها الیه فی أقل من طرفه العین،و قد اعتنی بشأن عمله أیضا إذ نکّر فقیل:

علم من الکتاب أی علم لا یحتمل اللفظ وصفه.

و المراد بالکتاب الذی هو مبدأ هذا العلم العجیب إما جنس الکتب السماویه او اللوح

المحفوظ،و العلم الـذى أخذه هذا العالم منه كان علما يسهّل له الوصول الى هذه البغيه و قد ذكر المفسرون أنه كان يعلم اسم اللّه الأعظم الـذى إذا سئل به أجاب،و ربما ذكر بعضهم أن ذلك الاسم هو الحى القيّوم،و قيل:ذو الجلال و الإكرام،و قيل:اللّه الرحمن،و قيل:هو بالعبرانيه آهيا شراهيا،و قيل:إنه دعا بقوله:يا إلهنا و إله كل شىء إلها واحدا لا إله إلا أنت ايتنى بعرشها.الى غير ذلك مما قيل.

و قوله: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ الطرف-على ما قيل-اللحظ و النظر و ارتداد الطرف وصول المنظور اليه الى النفس و علم الإنسان به،فالمراد أنا آتيك به فى أقل من الفاصله الزمانيه بين النظر الى الشىء و العلم به.

و الخطاب فى قوله: «أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» لسليمان عليه السّلام فهو الذى يريد الإتيان به اليه و هو الذى يراد الإتيان به اليه.

قوله تعالى: فَلَمّٰا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قٰالَ هٰذٰا مِنْ فَضْلِ رَبِّي الى آخر الآيه؛ أى لما رأى سليمان العرش مستقرا عنده قال هذا،أى حضور العرش و استقراره عندى فى أقل من طرفه العين من فضل ربى من غير استحقاق منى ليبلونى أى يمتحننى أ أشكر نعمته أم أكفر و من شكر فإنما يشكر لنفسه أى يعود نفعه اليه لا الى ربى و من كفر فلم يشكر فإن ربى غنى كريم-و فى ذيل الكلام تأكيد لما فى صدره من حديث الفضل-.

قوله تعالى: قٰالَ نَكِّرُوا لَهٰا عَرْشَهٰا نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاٰ يَهْتَدُونَ ،قال فى المفردات:تنكير الشىء من حيث المعنى جعله بحيث لا يعرف،قال تعالى: «قٰالَ نَكِّرُوا لَهٰا عَرْشَهٰا» و تعريفه جعله بحيث يعرف.انتهى.

و السياق يدل على أن سليمان عليه السّلام إنما قاله حينما قصدته ملكه سبأ و ملأها لما دخلوا عليه، و إنما أراد بذلك اختبار عقلها كما أنه أراد بأصل الإتيان به إظهار آيه باهره من آيات نبوته لها، و لذا امر بتنكير العرش ثم رتّب عليه قوله: «نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي» الخ؛و المعنى ظاهر.

قوله تعالی: فَلَمّا جاءَتْ قِيلَ أَ هٰكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنّا مُسْلِمِينَ أی فلما جاءت الملكه سليمان عليه السّلام قيل له من جانب سليمان «أَ هٰكَذا عَرْشُكِ» و هو كلمه اختبار.

و لم يقل:أ هذا عرشک بل زيد فی التنكير فقيل:أ هكذا عرشک؟فاستفهم عن مشابهه عرشها لهذا العرش المشار اليه فی هيئته و صفاته،و فی نفس هذه الجمله نوع من التنكير.

و قوله: قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ المراد به أنه هو و إنما عبّرت بلفظ التشبيه تحرزا من الطيش و المبادره الی التصديق من غير تثبت،و يكنی عن الاعتقادات الابتدائيه التی لم يتثبت عليها غالبا بالتشبيه.

و قوله: وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنّا مُسْلِمِينَ ضمير «قَبْلِها» لهذه الآيه أی الإتيان بالعرش او لهذه الحاله ای رؤيتها له بعد ما جاءت،و ظاهر السياق أنها تتمه كلام الملكه فهی لما رأت العرش و سئلت عن امره احست أن ذلک منهم تلويح الی ما آتی اللّه سليمان من القدره الخارقه للعاده فأجابت بقولها: «وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها» الخ؛أی لا حاجه الی هذا التلويح و التذكير فقد علمنا بقدرته قبل هذه الآيه او هذه الحاله و كنا مسلمين لسليمان طائعين له.

قوله تعالی: وَ صَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ الصد:المنع و الصرف،و متعلق الصد الإسلام للّه و هو الذی ستشهد به حين تؤمر بدخول الصرح فتقول:أسلمت مع سليمان للّه رب العالمين،و أما قولها فی الآيه السابقه: «وَ كُنّا مُسْلِمِينَ» فهو إسلامها و انقيادها لسليمان عليه السّلام.

هذا ما يعطيه سياق الآيات و للقوم وجوه أخر فی معنی الآيه أضربنا عنها.

و قوله: إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ فی مقام التعليل للصد،و المعنی:و منعها عن الإسلام للّه ما كانت تعبد من دون اللّه و هی الشمس علی ما تقدم فی نبأ الهدهد و السبب فيه أنها

كانت من قوم كافرين فاتبعتهم فى كفرهم.

قوله تعالى: قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ الى آخر الآيه؛الصرح هو القصر و كل بناء مشرف و الصرح الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف،و اللجه المعظم من الماء و الممرد اسم مفعول من التمريد و هو التمليس،و القوارير الزجاج.

و قوله: قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ إلى آخر الآيه؛الصرح هو القصر و كل بناء مشرف و الصرح الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف،و اللجه المعظم من الماء و الممرد اسم مفعول من التمريد و هو التمليس،و القوارير الزجاج.

و قوله: قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ كأن القائل بعض خدم سليمان مع حضور من سليمان ممن كان يهديها الى الدخول عليه على ما هو الدأب فى وفود الملوك و العظماء على أمثالهم.

و قوله: فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا اى لما رأت الصرح ظنت انه لجه لما كان عليه الزجاج من الصفاء كالماء و كشفت عن ساقيها بجمع ثيابها لئلا تبتل بالماء أذيالها.

و قوله: قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ القائل هو سليمان نبهها انه ليس بلجه بل صرح مملس من زجاج فلما رأت ما رأت من عظمه ملك سليمان و قد كانت رأت سابقا ما رأت من أمر هدهد و رد الهديه و الإتيان بعرشها لم تشك ان ذلك من آيات نبوته من غير ان يؤتى بحزم او تدبير و قالت عند ذلك:رب إنى ظلمت نفسى،الخ.

و قوله: قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ،استغاثت أولا بربها بالاعتراف إذ لم تعبد اللّه من بدء او من حين رأت هذه الآيات ثم شهدت بالإسلام للّه مع سليمان.

و فى قوله: وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّٰهِ التفات بالنسبه اليه تعالى من الخطاب الى

الغیبه و وجهه الانتقال من إجمال الإیمان باللّه إذ قالت:رب إنی ظلمت نفسی الی التوحید الصریح فإنها تشهد ان إسلامها للّه مع سلیمان فهو علی نهج إسلام سلیمان و هو التوحید ثم تؤکد التصریح بتوصیفه تعالی برب العالمین فلا رب غیره تعالی لشیء من العالمین و هو توحید الربوبیه المستلزم لتوحید العباده الذی لا یقول به مشرک (۱).

[سوره النمل (۲۷): الآیات ۴۵ الی ۵۳]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا إِلیٰ ثَمُودَ أَخٰاهُمْ صٰالِحاً أَنِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ فَإِذٰا هُمْ فَرِیقٰانِ یَخْتَصِمُونَ (۴۵) قٰالَ یٰا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّیِّئَهِ قَبْلَ اَلْحَسَنَهِ لَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرُونَ اَللّٰهَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۴۶) قٰالُوا اِطَّیَّرْنٰا بِکَ وَ بِمَنْ مَعَکَ قٰالَ طٰائِرُکُمْ عِنْدَ اَللّٰهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (۴۷) وَ کٰانَ فِی اَلْمَدِینَهِ تِسْعَهُ رَهْطٍ یُفْسِدُونَ فِی اَلْأَرْضِ وَ لاٰ یُصْلِحُونَ (۴۸) قٰالُوا تَقٰاسَمُوا بِاللّٰهِ لَنُبَیِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِیِّهِ مٰا شَهِدْنٰا مَهْلِکَ أَهْلِهِ وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ (۴۹) وَ مَکَرُوا مَکْراً وَ مَکَرْنٰا مَکْراً وَ هُمْ لاٰ یَشْعُرُونَ (۵۰) فَانْظُرْ کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ مَکْرِهِمْ أَنّٰا دَمَّرْنٰاهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِینَ (۵۱) فَتِلْکَ بُیُوتُهُمْ خٰاوِیَهً بِمٰا ظَلَمُوا إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۵۲) وَ أَنْجَیْنَا اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ (۵۳)

ص :۶۲۸

۱- ۱) .النمل ۱۵-۴۴:کلام فی قصه سلیمان علیه السّلام(ما ورد من قصصه فی القرآن،الثناء علیه فی القرآن،ذکره علیه السّلام فی العهد العتیق،الروایات الوارده فی قصصه علیه السّلام.

بيان:

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً -الى قوله- يَخْتَصِمُونَ الاختصام و التخاصم التنازع و توصيف التثنيه بالجمع أعنى قوله: «فَرِيقانِ» بقوله:

«يَخْتَصِمُونَ» لكون المراد بالفريقين الامه و«إذا»فجائيه.

و المعنى:أقسم لقد أرسلنا الى قوم ثمود أخاهم و نسيبهم صالحا و كان المرجو ان يجتمعوا على الإيمان لكن فاجأهم أن تفرقوا فريقين مؤمن و كافر يختصمون و يتنازعون فى الحق كل يقول:الحق معى،و لعل المراد باختصامهم ما حكاه اللّه عنهم فى موضع آخر بقوله: قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا بِالَّذِى آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (الأعراف/ ۷۶).

و من هنا يظهر ان أحد الفريقين جمع من المستضعفين آمنوا به و الآخر المستكبرون و باقى المستضعفين ممن اتبعوا كبارهم.

قوله تعالى: قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ الخ؛ الاستعجال بالسيئه قبل الحسنه المبادره الى سؤال العذاب قبل الرحمه التى سببها الإيمان و الاستغفار.

و به يظهر أن صالحا عليه السّلام إنما وبخهم بقوله هذا بعد ما عقروا الناقه و قالوا له:يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين فيكون قوله: «لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» تحضيضا الى

الإیمان و التوبه لعل اللّه یرحمهم فیرفع عنهم ما وعدهم من العذاب وعدا غیر مکذوب.

قوله تعالی: قَالُوا اطَّیَّرْنَا بِکَ وَ بِمَنْ مَعَکَ قَالَ طَائِرُکُمْ عِنْدَ اللَّهِ الخ؛التطیّر هو التشأم،و کانوا یتشأمون کثیرا بالطیر و لذا سموا التشأم تطیرا و نصیب الإنسان من الشر طائرا کما قیل.

فقولهم خطابا لصالح: «اطَّیَّرْنَا بِکَ وَ بِمَنْ مَعَکَ» ای تشأمنا بک و بمن معک ممن آمن بک و لزمک لما ان قیامک بالدعوه و إیمانهم بک قارن ما ابتلینا به من المحن و البلایا فلسنا نؤمن بک.

و قوله خطابا للقوم: طَائِرُکُمْ عِنْدَ اللَّهِ ای نصیبکم من الشر و هو الذی تستوجبه أعمالکم من العذاب عند اللّه سبحانه.

و لذا أضرب عن قوله: «طَائِرُکُمْ عِنْدَ اللَّهِ» بقوله: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ» أی تختبرون بالخیر و الشر لیمتاز مؤمنکم من کافرکم و مطیعکم من عاصیکم.

و معنی الآیه:قال القوم:تطیرنا بک یا صالح و بمن معک فلن نؤمن و لن نستغفر قال صالح:

طائرکم الذی فیه نصیبکم من الشر عند اللّه و هو کتاب أعمالکم و لست أنا و من معی ذوی أثر فیکم حتی نسوق الیکم هذه الابتلاءات بل أنتم قوم تختبرون و تمتحنون بهذه الامور لیمتاز مؤمنکم من کافرکم و مطیعکم من عاصیکم.

قوله تعالی: وَ کَانَ فِی الْمَدِینَهِ تِسْعَهُ رَهْطٍ الخ؛قال الراغب:الرهط العصابه دون العشره و قیل الی الأربعین انتهی،و قیل:الفرق بین الرهط و النفر ان الرهط من الثلاثه او السبعه الی العشره و النفر من الثلاثه الی التسعه انتهی.

قیل:المراد بالرهط الأشخاص و لذا وقع تمییزا للتسعه لکونه فی معنی الجمع فقد کان المتقاسمون تسعه رجال.

قوله تعالی: قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَیِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِیِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِکَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ التقاسم المشارکه فی القسم،و التبییت القصد بالسوء لیلا،

و أهل الرجل من يجمعه و إياهم بيت او نسب او دين،و لعل المراد بأهله زوجه و ولده بقرينه قوله بعد:«ثم نقول لوليه ما شهدنا»،و قوله: «وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ» معطوف على قوله: «مٰا شَهِدْنٰا» فيكون من مقول القول.

و المعنى:قال الرهط المفسدون و قد تقاسموا باللّه:لنقتلنه و أهله بالليل ثم نقول لوليه إذا عقبنا و طلب الثار:ما شهدنا هلاك أهله و إنا لصادقون فى هذا القول،و نفى مشاهده مهلكك أهله نفى لمشاهده مهلكك نفسه بالملازمه او الأولويه،على ما قيل.

قوله تعالى: وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنٰا مَكْراً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ أما مكرهم فهو النواطى على تبييته و أهله و التقاسم بشهاده السياق السابق و أما مكره تعالى فهو تقديره هلاكهم جميعا بشهاده السياق اللاحق.

قوله تعالى: فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنّٰا دَمَّرْنٰاهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ التدمير الاهلاك،و ضمائر الجمع للرهط،و كون عاقبه مكرهم هو إهلاكهم و قومهم من جهه أن مكرهم استدعى المكر الالهى على سبيل المجازاه،و استوجب ذلك إهلاكهم و قومهم.

قوله تعالى: فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خٰاوِيَةً بِمٰا ظَلَمُوا الخ؛الخاويه الخاليه من الخواء بمعنى الخلاء،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ فيه تبشير للمؤمنين بالانجاء، و قد أردفه بقوله: «وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ» إذ التقوى كالمجن للايمان و قد قال تعالى: وَ الْعٰاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (الأعراف/١٢٨)،و قال: وَ الْعٰاقِبَةُ لِلتَّقْوىٰ (طه/١٣٢).

[سوره النمل (٢٧): الآيات ۵۴ الى ۵٨]

اشاره

وَ لُوطاً إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ اَلْفٰاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۵۴) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ اَلرِّجٰالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ اَلنِّسٰاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۵۵) فَمٰا كٰانَ جَوٰابَ قَوْمِهِ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنٰاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۵۶) فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ اِمْرَأَتَهُ قَدَّرْنٰاهٰا مِنَ اَلْغٰابِرِينَ (۵٧) وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسٰاءَ مَطَرُ اَلْمُنْذَرِينَ (۵٨)

بیان:

قوله تعالی: وَ لُوطاً إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفٰاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ معطوف علی موضع «أَرْسَلْنٰا» فی القصه السابقه بفعل مضمر و التقدیر و لقد أرسلنا لوطا.کذا قیل،و یمکن ان یکون معطوفا علی أصل القصه بتقدیر اذکر و الفاحشه هی الخصله البالغه فی الشناعه و المراد بها اللواط.

و قوله: وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ای و أنتم فی حال یری بعضکم بعضا و ینظر بعضکم الی بعض حین الفحشاء فهو علی حد قوله فی موضع آخر: وَ تَأْتُونَ فِی نٰادِیکُمُ الْمُنْکَرَ (العنکبوت۲۹/)،و قیل:المراد ابصار القلب و محصله العلم بالشناعه و هو بعید.

قوله تعالی: أَ إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسٰاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ الاستفهام للإنکار،و دخول أداتی التأکید-إن و اللام-علی الجمله الاستفهامیه للدلاله علی ان مضمون الجمله من الاستبعاد بحیث لا یصدقه أحد و الجمله علی ای حال فی محل التفسیر للفحشاء.

و قوله: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ أی مستمرون علی الجهل لا فائده فی توبیخکم و الإنکار علیکم فلستم بمرتدعین،و وضع «تَجْهَلُونَ» بصیغه الخطاب موضع«یجهلون»من

ص :۶۳۲

وضع المسبب موضع السبب كأن قيل«بل أنتم قوم يجهلون فأنتم تجهلون».

قوله تعالى: فَمٰا كٰانَ جَوٰابَ قَوْمِهِ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنٰاسٌ يَتَطَهَّرُونَ اى يتنزهون عن هذا العمل و هو وارد مورد الاستهزاء.

قوله تعالى: فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنٰاهٰا مِنَ الْغٰابِرِينَ المراد بأهله أهل بيته لقوله تعالى: فَمٰا وَجَدْنٰا فِيهٰا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (الذاريات٣۶/)،و قوله:

«قَدَّرْنٰاهٰا مِنَ الْغٰابِرِينَ» اى جعلناها من الباقين فى العذاب.

قوله تعالى: وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسٰاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ المراد بالمطر الحجاره من سجّيل لقوله تعالى: وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهِمْ حِجٰارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (الحجر٧۴/)، فقوله: «مَطَراً» يدل بتنكيره على النوعيه اى أنزلنا عليهم مطرا له نبأ عظيم.

[سوره النمل (٢٧): الآيات ۵٩ الى ٨١]

اشاره

قُلِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَ سَلاٰمٌ عَلىٰ عِبٰادِهِ اَلَّذِينَ اِصْطَفىٰ آللّٰهُ خَيْرٌ أَمّٰا يُشْرِكُونَ (۵٩) أَمَّنْ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَنْبَتْنٰا بِهِ حَدٰائِقَ ذٰاتَ بَهْجَةٍ مٰا كٰانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهٰا أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّٰهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (۶٠) أَمَّنْ جَعَلَ اَلْأَرْضَ قَرٰاراً وَ جَعَلَ خِلاٰلَهٰا أَنْهٰاراً وَ جَعَلَ لَهٰا رَوٰاسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ اَلْبَحْرَيْنِ حٰاجِزاً أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۶١) أَمَّنْ يُجِيبُ اَلْمُضْطَرَّ إِذٰا دَعٰاهُ وَ يَكْشِفُ اَلسُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفٰاءَ اَلْأَرْضِ أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّٰهِ قَلِيلاً مٰا تَذَكَّرُونَ (۶٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمٰاتِ اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ اَلرِّيٰاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّٰهِ تَعٰالَى اَللّٰهُ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (۶٣) أَمَّنْ يَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّٰهِ قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۶۴) قُلْ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ اَلْغَيْبَ إِلاَّ اَللّٰهُ وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ (۶۵) بَلِ اِدّٰارَكَ عِلْمُهُمْ فِي اَلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهٰا بَلْ هُمْ مِنْهٰا عَمُونَ (۶۶) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذٰا كُنّٰا تُرٰاباً وَ آبٰاؤُنٰا أَ إِنّٰا لَمُخْرَجُونَ (۶٧) لَقَدْ وُعِدْنٰا هٰذٰا نَحْنُ وَ آبٰاؤُنٰا مِنْ قَبْلُ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِيرُ اَلْأَوَّلِينَ (۶٨) قُلْ سِيرُوا فِي اَلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلْمُجْرِمِينَ (۶٩) وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمّٰا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا اَلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ اَلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى اَلنّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مٰا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مٰا يُعْلِنُونَ (٧۴) وَ مٰا مِنْ غٰائِبَةٍ فِي اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ (٧۵) إِنَّ هٰذَا اَلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ أَكْثَرَ اَلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧۶) وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اَللّٰهِ إِنَّكَ عَلَى اَلْحَقِّ اَلْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ اَلْمَوْتىٰ وَ لاٰ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ اَلدُّعٰاءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَ مٰا أَنْتَ بِهٰادِي اَلْعُمْيِ عَنْ ضَلاٰلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاّٰ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)

بيان:

قوله تعالى: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلاٰمٌ عَلىٰ عِبٰادِهِ الَّذِينَ اصْطَفىٰ آللّٰهُ خَيْرٌ أَمّٰا يُشْرِكُونَ لما قص من قصص الأنبياء و أممهم ما قص و فيها بيان سنته الجاريه فى الامم الماضين و ما فعل بالمؤمنين منهم من الاصطفاء و مزيد الإحسان كما فى الأنبياء منهم و ما فعل بالكافرين من العذاب و التدمير-و لم يفعل إلا الخير الجميل و لا جرت سنته إلا على الحكمه البالغه-انتقل منها الى أمر نبيه بأن يحمده و يثنى عليه و ان يسلم على المصطفين من عباده و قرر انه تعالى هو المتعين للعباده.

فهو انتقال من القصص الى التحميد و التسليم و التوحيد و ليس باستنتاج و إن كان فى حكمه و إلا قيل:فقل الحمد للّه،الخ؛او فاللّه خير،الخ.

فقوله: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» أمر بتحميده و فيه إرجاع كل حمد اليه تعالى لما تقرر بالآيات السابقه ان مرجع كل خلق و تدبير اليه و هو المفيض كل خير بحكمته و الفاعل لكل جميل

ص: ۶۳۵

بقدرته.

و قوله: وَ سَلامٌ عَلىٰ عِبٰادِهِ الَّذِينَ اصْطَفىٰ معطوف على ما قبله من مقول القول و فى التسليم لاولئك العباد المصطفين نفى كل ما فى نفس المسلم من جهات التمانع و التضاد لما عندهم من الهدايه الإلهيه و آثارها الجميله-على ما يقتضيه معنى السلام-ففى الأمر بالسلام أمر ضمنى التهيؤ لقبول ما عندهم من الهدى و آثاره فهو بوجه فى معنى قوله تعالى:

أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّٰهُ فَبِهُدٰاهُمُ اقْتَدِهْ (الأنعام/۹۰)،فافهمه.

و قوله: آللّٰهُ خَيْرٌ أَمّٰا يُشْرِكُونَ من تمام الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الاستفهام للتقرير و محصل المراد انه إذا كان الثناء كله للّه و هو المصطفى لعباده المصطفين فهو خير من آلهتهم الذين يعبدونهم و لا خلق و لا تدبير لهم يحمدون عليه و لا خير بأيديهم يفيضونه على عبادهم.

قوله تعالى: أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً الى آخر الآيه؛الحدائق جمع حديقه و هى البستان المحدود المحوّط بالحيطان و ذات بهجه صفه حدائق،قال فى مجمع البيان:ذات بهجه أى ذات منظر حسن يبتهج به من رآه و لم يقل:ذوات بهجه لأنه أراد تأنيث الجماعه و لو أراد تأنيث الأعيان لقال:ذوات.انتهى.

و أم فى الآيه منقطعه تفيد معنى الاضطراب،و «مِنَ» مبتدأ خبره محذوف و كذا الشق الآخر من الترديد و الاستفهام للتقرير و حملهم على الإقرار بالحق و التقدير على ما يدل عليه السياق بل أمن خلق السماوات و الأرض،الخ؛خير أم ما يشركون.و الأمر على هذا القياس فى الآيات الأربع التاليه.

و معنى الآيه:بل أمن خلق السماوات و الأرض و أنزل لكم اى لنفعكم من السماء و هى جهه العلو ماء و هو المطر فأنبتنا به اى بذلك الماء بساتين ذات بهجه و نضاره ما كان لكم اى لا-تملكون و ليس فى قدرتكم ان تنبتوا شجرها أ إله آخر مع اللّه سبحانه-و هو إنكار و توبيخ.

قوله تعالى: أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرٰاراً الى آخر الآيه؛القرار مصدر بمعنى اسم الفاعل أى القارّ المستقر،و الخلال جمع خلل بفتحتين و هو الفرجه بين الشيئين،و الرواسى جمع راسيه و هى الثابته و المراد بها الجبال الثابتات،و الحاجز هو المانع المتخلل بين الشيئين.

و المعنى:بل أمّن جعل الأرض مستقره لا تميد بكم و جعل فى فرجها التى فى جوفها أنهارا و جعل لها جبالا ثابته و جعل بين البحرين مانعا من اختلاطهما و امتزاجهما هو خير أم ما يشركون؟و الكلام فى قوله: «أَ إِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ» كالكلام فى نظيره من الآيه السابقه.

قوله تعالى: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذٰا دَعٰاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفٰاءَ الْأَرْضِ أَ إِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ قَلِيلاً مٰا تَذَكَّرُونَ المراد بإجابه المضطر إذا دعاه استجابه دعاء الداعين و قضاء حوائجهم و إنما أخذ وصف الاضطرار ليتحقق بذلك من الداعى حقيقه الدعاء و المسأله إذا ما لم يقع الإنسان فى مضيقه الاضطرار و كان فى مندوحه من المطلوب لم يتمحض منه الطلب و هو ظاهر.

ثم قيّده بقوله: «إِذٰا دَعٰاهُ» للدلاله على أن المدعو يجب أن يكون هو اللّه سبحانه و إنما يكون ذلك عند ما ينقطع الداعى عن عامه الأسباب الظاهريه و يتعلق قلبه بربه وحده و أما من تعلق قلبه بالأسباب الظاهريه فقط او بالمجموع من ربه و منها فليس يدعو ربه و إنما يدعو غيره.

فإذا صدق فى الدعاء و كان مدعوّه ربه وحده فإنه تعالى يجيبه و يكشف السوء الذى اضطره الى المسأله كما قال تعالى: اُدْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ (المؤمن/۶۰)،فلم يشترط للاستجابه إلا أن يكون هناك دعاء حقيقه و أن يكون ذلك الدعاء متعلقا به وحده،و قال أيضا: وَ إِذٰا سَأَلَکَ عِبٰادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَهَ الدّٰاعِ إِذٰا دَعٰانِ (البقره/۱۸۶)، و قد فصّلنا القول فى معنى الدعاء فى الجزء الثانى من الكتاب فى ذيل الآيه.

و بالجمله فمورد قوله: «فَيَكْشِفُ مٰا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شٰاءَ» لما كان مما يمكن ان يكون الطلب فيه حقيقيا او غير حقيقى كان من اللازم تقييد الكشف و الإجابه فيه بالمشيّه فيكشف اللّه عنهم إن شاء و ذلك فى مورد حقيقه الطلب و الإيمان و لا يكشف إن لم يشأ و هذا غير مورد آيه المضطر و سائر آيات إجابه الدعوه الذى يتضمن حقيقه الدعاء من اللّه سبحانه وحده.

و قوله: وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفٰاءَ الْأَرْضِ الذى يعطيه السياق أن يكون المراد بالخلافه الخلافه الأرضيه التى جعلها اللّه للانسان يتصرف بها فى الأرض و ما فيها من الخليقه كيف يشاء كما قال تعالى: وَ إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَهِ إِنِّى جٰاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَهً (البقره۳۰/).

و ذلك أن تصرفاته التى يتصرف بها فى الأرض و ما فيها بخلافته امور مرتبطه بحياته متعلقه بمعاشه فالسوء الذى يوقعه موقع الاضطرار و يسأل اللّه كشفه لا محاله شيء من الأشياء التى تمنعه التصرف او بعض التصرف فيها و تغلق عليه باب الحياه و البقاء و ما يتعلق بذلك او بعض أبوابها ففى كشف السوء عنه تتميم لخلافته.

و قوله: قَلِيلاً مٰا تَذَكَّرُونَ خطاب توبيخى للكفار،و قرئ «يذكرون» بالياء للغيبه و هو أرجح لموافقته ما فى ذيل سائر الآيات الخمس كقوله: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ» «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ» و غيرها،فإن الخطاب فيها جميعا للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بطريق الالتفات كما مر بيانه.

قوله تعالى: أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمٰاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّيٰاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ الخ؛و المراد بظلمات البر و البحر ظلمات الليالى فى البر و البحر ففيه مجاز عقلى،و المراد بإرسال الرياح بشرا إرسالها مبشرات بالمطر قبيل نزوله،و الرحمه المطر،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰاءِ

وَ الْأَرْضِ الـخ؛بـدء الخلق إيجاده ابتـداء لأول مره و إعادته إرجاعه اليه بالبعث و تبكيت المشـركين بالبدء و الإعاده مع إنكارهم البعث كما سيذكره بقوله: «وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛ بناء على ثبوت المعاد بالأدله القاطعه فى كلامه فاخذ كالمسلّم ثم استدرك إنكارهم له أو شكهم فيه فى الآيات التاليه.

و قوله: وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إشاره الى ما وقع من تـدبيره لأمرهم بين البـدء و العود و هو رزقهم بأسـباب سـماويه كالأمطار و أسبابها و الأرضيه كعامه ما يتغذى به الإنسان من الأرضيات.

و قوله: قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ لمـا ذكر سـبحانه فصولا مشـتمله على عامه الخلق و التـدبير مع الإشاره الى ارتباط التـدبير بعضه ببعض و ارتباط الجميع الى الخلق و عاد الخلق و التـدبير بذلك أمرا واحدا منتسـبا اليه قائما به تعالى و ثبت بذلك انه تعالى هو رب كل شىء وحده لا شريك له و كان لازم ذلك إبطال ألوهيه الآلهه التى يدعونها من دون اللّه.

و ذلـك ان الالـوهيه و هى اسـتحقاق العبـاده تتبع الربوبيه التى هى تـدبر عن ملـك فالعبـاده على ما يتـداولونها إما لتكون شـكرا للنعمه او اتقاء للنقمه و على أى حال ترتبط بالتدبير الذى هو من شئون الربوبيه.

و كان إبطال ألوهيه الآلهه من دون اللّه هو الغرض من الفصول المورده فى هـذه الآيات كما يـدل على ذلك قوله بعد إيراد كل واحد من الفصول: «أَ إِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ» .

أمر نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سـلم بقوله: «قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ» أن يطـالبهم بالبرهـان على ما يـدّعونه من ألوهيه آلهتهم ليظهر بانقطاعهم أنهم مجازفون فى دعواهم إذ لو اسـتدلوا على ألوهيتها بشـىء كان من الواجب أن ينسـبوا إليها شيئا من تدبير العالم و الحال أن جميع الخلق و التدبير له تعالى وحده.

قوله تعالی: قُلْ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللّٰهُ وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ لما أمره صلّی اللّه علیه و آله و سلم بعد إبطال ألوهیه آلهتهم بانتساب الخلق و التدبیر الیه تعالی وحده أن یطالبهم بالبرهان علی ما یدعونه أمره ثانیا أن یواجههم ببرهان آخر علی بطلان الوهیه آلهتهم و هو عدم علمهم بالغیب و عدم شعورهم بالساعه و أنهم أیّان یبعثون مع أنه لا یعلم أحد ممن فی السماوات و الارض-و منهم آلهتهم الذین هم الملائکه و الجن و قدیسو البشر-الغیب و ما یشعرون أیان یبعثون،و لو کانوا آلهه لهم تدبیر أمر الخلق-و من التدبیر الجزاء یوم البعث-لعلموا بالساعه.

قوله تعالی: بَلِ ادّٰارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهٰا بَلْ هُمْ مِنْهٰا عَمُونَ ادّارک فی الأصل تدارک و التدارک تتابع أجزاء الشیء بعضها بعد بعض حتی تنقطع و لا یبقی منها شیء،و معنی تدارک علمهم فی الآخره أنهم صرفوا ما عندهم من العلم فی غیرها حتی نفد علمهم فلم یبق منه شیء یدرکون به أمر الآخره علی حد قوله تعالی:

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِكْرِنٰا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (النجم/ ۳۰)و «عَمُونَ» جمع عمی.

لما انتهی احتجاجه تعالی الی ذکر عدم شعور أحد غیره تعالی بوقت البعث و تبکیت المشرکین بذلک رجع الی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و ذکّره انهم فی معزل عن الخطاب بذلک إذ لا خبر لهم عن شیء من امور الآخره فضلا عن وقت قیام الساعه و ذلک انهم صرفوا ما عندهم من العلم من جهات الحیاه الدنیا فهم فی جهل مطلق بالنسبه الی امور الآخره بل هم فی شک من الآخره یرتابون فی أمرها کما یظهر من احتجاجاتهم علی نفیها المبنیه علی الاستبعاد بل هم منها عمون و اللّه أعمی قلوبهم عن التصدیق بها و الاعتقاد بوجودها.

قوله تعالی: وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذٰا كُنّٰا تُرٰاباً وَ آبٰاؤُنٰا أَ إِنّٰا لَمُخْرَجُونَ -الی قوله- اَلْأَوَّلِينَ حکایه حجه منهم لنفی البعث مبنیه علی الاستبعاد أی کیف یمکن أن

نخرج من الأرض بشرا تامّين كما نحن اليوم و قد متنا و كنا ترابا نحن و آباؤنا كذلك؟

و قوله: لَقَدْ وُعِدْنا هٰذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ حجه أخرى منهم مبنيه على الاستبعاد أى لقد وعدنا هذا و هو البعث بعد الموت نحن و آباؤنا وعدوه قبل أن يعدنا هذا النبى و الذين وعدوا قبلا هم الأنبياء الماضون فهو وعد قديم لم نزل نوعد به و لو كان خبرا صادقا و وعدا حقا لوقع الى هذا اليوم و إذ لم يقع فهو من الخرافات التى اختلقها الأولون و كانوا مولعين باختلاق الأوهام و الخرافات و الإصغاء بها.

قوله تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ إنذار و تخويف لهم على إنكارهم وعد الأنبياء بالبعث بأمرهم أن يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبه المجرمين المكذبين للأنبياء المنذرين لهم بالبعث فإن فى النظر الى عاقبه أمرهم على ما تدل عليه مساكنهم الخربه و ديارهم الخاليه كفايه للمعتبرين من أولى الأبصار،و فى التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين فى ترك الجرائم.كذا قيل.

و يمكن أن تقرر الآيه حجه تدل على المعاد و تقريبها أن انتهاء عاقبه أمر المجرمين الى عذاب الاستئصال دليل على أن الإجرام و الظلم من شأنه أن يؤاخذ عليه و أن العمل إحسانا كان او إجراما محفوظ على عامله سيحاسب عليه و إذ لم تقع عامه هذا الحساب و الجزاء -و خاصه على الأعمال الصالحه-فى الدنيا فذلك لا محاله فى نشأه اخرى و هى الدار الآخره.

فتكون الآيه فى معنى قوله تعالى: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّارِ (ص/۲۸)،و يؤيد هذا التقرير قوله: «عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ» و لو كان المراد تهديد مكذبى الرسل و تخويفهم كان الأنسب أن يقال:عاقبه المكذبين،كما تقدمت الإشاره اليه.

قوله تعالى: وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ أى لا

یحزنک إصرارهم علی الکفر و الجحود و لا یضق صدرک من مکرهم لإبطال دعوتک و صدّهم الناس عن سبیل اللّه فإنهم بعین اللّه و لیسوا بمعجزیه و سیجزیهم بأعمالهم.

فالآیه مسوقه لتطییب نفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و قوله: «وَ لاٰ تَکُنْ فِی ضَیْقٍ» الخ؛معطوف علی ما قبله عطف التفسیر.

قوله تعالی: وَ یَقُولُونَ مَتیٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ الظاهر أن المراد بالوعد الوعد بعذاب المجازاه أعم من الدنیا و الآخره،و السیاق یؤید ذلک و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: قُلْ عَسیٰ أَنْ یَکُونَ رَدِفَ لَکُمْ بَعْضُ الَّذِی تَسْتَعْجِلُونَ قالوا:إن اللام فی «رَدِفَ لَکُمْ» مزیده للتأکید،کالباء فی قوله: وَ لاٰ تُلْقُوا بِأَیْدِیکُمْ إِلَی التَّهْلُکَهِ (البقره/۱۹۸)،و المعنی تبعکم و لحق بکم،و قیل:إن ردف مضمن معنی فعل یعدی باللام.

و المراد ببعض الذی یستعجلونه هو عذاب الدنیا قبل عذاب الآخره فإنهم کانوا یستعجلون إنجاز ما وعدهم اللّه من الحکم الفصل،و هو ملازم لعذابهم،و عذابهم فی الدنیا بعض العذاب الذی یستعجلونه باستنجاز الوعد،و لعل مراد الآیه به عذاب یوم بدر کما قیل.

قالوا:إن«عسی و لعل»من اللّه تعالی واجب لأن حقیقه الترجی مبنیه علی الجهل و لا یجوز علیه تعالی ذلک فمعنی قوله: «عَسیٰ أَنْ یَکُونَ رَدِفَ لَکُمْ» سیردفکم و یأتیکم العذاب محققا.

و معنی الآیه:قل لهؤلاء السائلین عن وقت الوعد:أرجو ان یکون تبعکم بعض الوعد الذی تستعجلونه و هو عذاب الدنیا الذی یقربکم من عذاب الآخره و یؤدیکم الیه،و فی التعبیر بقوله: «رَدِفَ لَکُمْ» إیماء الی قربه.

قوله تعالی: وَ إِنَّ رَبَّکَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النّٰاسِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَشْکُرُونَ معنی الآیه فی نفسها ظاهر و وقوعها فی سیاق التهدید و التخویف یفید ان

تأخیره تعالی العذاب عنهم مع استحقاقهم ذلک إنما هو فضل منه علیهم یجب علیهم شکره علیه لکنهم لا یشکرونه و یسألون تعجیله.

قوله تعالی: وَ إِنَّ رَبَّکَ لَیَعْلَمُ مٰا تُکِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مٰا یُعْلِنُونَ أی إن تأخیر العذاب لیس عن جهل منه تعالی بحالهم و ما یستحقونه بالکفر و الجحود فإنه یعلم ما تستره و تخفیه صدورهم و ما یظهرونه.

ثم أکد ذلک بأن کل غائبه-و هی ما من شأنه ان یغیب و یخفی فی أی جهه من جهات العالم کان-مکتوب محفوظ عنده تعالی و هو قوله: «وَ مٰا مِنْ غٰائِبَهٍ فِی السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ مُبِینٍ» .

قوله تعالی: إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ یَقُصُّ عَلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ -الی قوله- اَلْعَزِیزُ الْعَلِیمُ تطییب لنفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و تمهید لما سیذکره من حقیه دعوته و تقویه لإیمان المؤمنین به،و بهذا الوجه یتصل بقوله قبلا: «وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ» الخ؛المشعر بحقیه دعوته.

فقوله: إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ یَقُصُّ عَلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ أَکْثَرَ الَّذِی هُمْ فِیهِ یَخْتَلِفُونَ یشیر الی ما یقصه القرآن من قصص الأنبیاء و یبین الحق فیما اختلفوا فیه من أمرهم و منه أمر المسیح علیه السّلام و یبین الحق فیما اختلفوا فیه من المعارف و الأحکام.

و قوله: وَ إِنَّهُ لَهُدیً وَ رَحْمَهٌ لِلْمُؤْمِنِینَ یشیر الی أنه یهدی المؤمنین بما قصّه علی بنی إسرائیل الی الحق و أنه رحمه لهم تطمئن بهم قلوبهم و یثبت الإیمان بذلک فی نفوسهم.

و قوله: إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ بِحُکْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْعَلِیمُ إشاره الی أن القضاء بینهم الی اللّه فهو ربه العزیز الذی لا یغلب فی أمره العلیم لا یجهل و لا یخطئ فی حکمه فهو القاضی بینهم بحکمه فلترض نفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بربه العزیز العلیم قاضیا حکما و لترجع الأمر الیه کما ینبغی أن تفعل مثل ذلک فی حق المشرکین و لا تحزن علیهم و لا تکون فی ضیق مما

یمکرون.

قوله تعالی: فَتَوَکَّلْ عَلَی اللّٰهِ إِنَّکَ عَلَی الْحَقِّ الْمُبِینِ تفریع علی مجموع ما أمر به قبال کفر المشرکین و اختلاف بنی إسرائیل أی إن أمرهم جمیعا الی اللّه لا الیک فاتخذه وکیلا فهو کافیک و لا تخافنّ شیئا إنک فی أمن من الحق.

قوله تعالی: إِنَّکَ لاٰ تُسْمِعُ الْمَوْتیٰ -الی قوله- فَهُمْ مُسْلِمُونَ تعلیل الأمر بالتوکل أی إنما أمرناک بالتوکل علی اللّه فی أمر إیمانهم و کفرهم لأنهم موتی و لیس فی وسعک أن تسمع الموتی دعوتک و إنهم صمّ لا یسمعون و عمی ضالون لا تقدر علی إسماع الصم إذا ولّوا مدبرین-و لعله قیّد عدم إسماع الصم بقوله: «إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِینَ» لأنهم لو لم یکونوا مدبرین لأمکن تفهیمهم بنوع من الاشاره-و لا علی هدایه العمی عن ضلالتهم،و إنما الذی تقدر علیه هو أن تسمع من یؤمن بآیاتنا الداله علینا و تهدیهم فإنهم لإذعانهم بتلک الحجج الحقه مسلمون لنا مصدّقون بما تدلّ علیه (1).

[سوره النمل (۲۷): الآیات ۸۲ الی ۹۳]

اشاره

وَ إِذٰا وَقَعَ اَلْقَوْلُ عَلَیْهِمْ أَخْرَجْنٰا لَهُمْ دَابَّهً مِنَ اَلْأَرْضِ تُکَلِّمُهُمْ أَنَّ اَلنّٰاسَ کٰانُوا بِآیٰاتِنٰا لاٰ یُوقِنُونَ (۸۲) وَ یَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ کُلِّ أُمَّهٍ فَوْجاً مِمَّنْ یُکَذِّبُ بِآیٰاتِنٰا فَهُمْ یُوزَعُونَ (۸۳) حَتّٰی إِذٰا جٰاؤُ قٰالَ أَ کَذَّبْتُمْ بِآیٰاتِی وَ لَمْ تُحِیطُوا بِهٰا عِلْماً أَمّٰا ذٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸۴) وَ وَقَعَ اَلْقَوْلُ عَلَیْهِمْ بِمٰا ظَلَمُوا فَهُمْ لاٰ یَنْطِقُونَ (۸۵) أَ لَمْ یَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنَا اَللَّیْلَ لِیَسْکُنُوا فِیهِ وَ اَلنَّهٰارَ مُبْصِراً إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۸۶) وَ یَوْمَ یُنْفَخُ فِی اَلصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی اَلْأَرْضِ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اَللّٰهُ وَ کُلٌّ أَتَوْهُ دٰاخِرِینَ (۸۷) وَ تَرَی اَلْجِبٰالَ تَحْسَبُهٰا جٰامِدَهً وَ هِیَ تَمُرُّ مَرَّ اَلسَّحٰابِ صُنْعَ اَللّٰهِ اَلَّذِی أَتْقَنَ کُلَّ شَیْءٍ إِنَّهُ خَبِیرٌ بِمٰا تَفْعَلُونَ (۸۸) مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَیْرٌ مِنْهٰا وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ یَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (۸۹) وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّیِّئَهِ فَکُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِی اَلنّٰارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۰) إِنَّمٰا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ اَلْبَلْدَهِ اَلَّذِی حَرَّمَهٰا وَ لَهُ کُلُّ شَیْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ مِنَ اَلْمُسْلِمِینَ (۹۱) وَ أَنْ أَتْلُوَا اَلْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدیٰ فَإِنَّمٰا یَهْتَدِی لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمٰا أَنَا مِنَ اَلْمُنْذِرِینَ (۹۲) وَ قُلِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ سَیُرِیکُمْ آیٰاتِهِ فَتَعْرِفُونَهٰا وَ مٰا رَبُّکَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ (۹۳)

۱- ۱) .النمل ۵۹-۸۱:بحث روائی حول قوله تعالی: «أَمَّنْ یُجِیبُ الْمُضْطَرَّ إِذٰا دَعٰاهُ» ؛خلافه الانسان؛اطاعه اللّه.

بيان:

قوله تعالى: وَ إِذٰا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنٰا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النّٰاسَ كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا لاٰ يُوقِنُونَ مقتضى السياق-بما أن الآيه متصله بما قبلها من

ص: ۶۴۵

الآيات الباحثه عن أمر المشركين المعاصرين للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم او خصوص أهل مكه من قريش و قد كانوا أشدّ الناس عداوه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و دعوته-أن ضمائر «عَلَيْهِمْ» و «لَهُمْ» و «تُكَلِّمُهُمْ» للمشركين المحدّث عنهم لكن لا لخصوصهم بل بما أنهم ناس معنيّون بالدعوه فالمراد بالحقيقه عامه الناس من هذه الامه من حيث وحدتهم فيلحق بأولهم من الحكم ما يلحق بآخرهم و هذا النوع من العنايه كثير الورود فى كلامه تعالى.

و المراد بوقوع عليهم تحقق مصداق القول فيهم و تعيّنهم لصدقه عليهم كما فى الآيه التاليه «وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمٰا ظَلَمُوا» أى حقّ عليهم العذاب،فالجمله فى معنى«حق عليهم القول»و قد كثر وروده فى كلامه تعالى،و الفرق بين التعبيرين أن العنايه فى «وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ» بتعيّنهم مصداقا للقول و فى«حق عليهم القول»باستقرار القول و ثبوته فيهم بحيث لا يزول.

و أما ما هو هذا القول الواقع عليهم فالذى يصلح من كلامه تعالى لأن يفسر به قوله:

سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (حم السجده۵۳/)فإن المراد بهذه الآيات التى سيريهم غير الآيات السماويه و الأرضيه التى هى بمرآهم و مسمعهم دائما قطعا بل بعض آيات خارقه للعاده تخضع لها و تضطر للإيمان بها أنفسهم فى حين لا يوقنون بشىء من آيات السماء و الأرض التى هى تجاه أعينهم و تحت مشاهدتهم.

و بهذا يظهر أن قوله: «أَنَّ النّٰاسَ كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا لاٰ يُوقِنُونَ» تعليل لوقوع القول عليهم و التقدير لأن الناس،و قوله: «كٰانُوا» لإفاده استقرار عدم الإيقان فيهم و المراد بالآيات الآيات المشهوده من السماء و الأرض غير الآيات الخارقه،و قرئ «إن» بكسر الهمزه و هى أرجح من قراءه الفتح فيؤيد ما ذكرناه و تكون الجمله بلفظها تعليلا من دون تقدير اللام.

و قوله: أَخْرَجْنٰا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ بيان لآيه خارقه من الآيات الموعوده فى قوله: «سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» و فى كونه

وصفا لأمر خارق للعاده دلاله على أن المراد بالإخراج من الأرض إما الإحياء و البعث بعد الموت و إما أمر يقرب منه،و أما كونها دابه تكلمهم فالدابه ما يدبّ فى الأرض من ذوات الحيات إنسانا كان او حيوانا غيره فإن كان إنسانا كان تكليمه الناس على العاده و إن كان حيوانا أعجم كان تكليمه كخروجه من الأرض خرقا للعاده.

و لا نجد فى كلامه تعالى ما يصلح لتفسير هذه الآيه و أن هذه الدابه التى سيخرجها لهم من الأرض فتكلمهم ما هى؟و ما صفتها؟و كيف تخرج؟و ما ذا تتكلم به؟بل سياق الآيه نعم الدليل على أن القصد الى الإبهام فهو كلام مرموز فيه.

و محصل المعنى:أنه إذا آل أمر الناس-و سوف يئول-الى أن كانوا لا يوقنون بآياتنا المشهوده لهم و بطل استعدادهم للإيمان بنا بالتعقل و الاعتبار آن وقت أن نريهم ما وعدنا إراءته لهم من الآيات الخارقه للعاده المبيّنه لهم الحق بحيث يضطرون الى الاعتراف بالحق فأخرجنا لهم دابه من الأرض تكلمهم.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ الفرج-كما ذكره الراغب-الجماعه الماره المسرعه،و الإيزاع إيقاف القوم و حبسهم بحيث يرد أولهم على آخرهم.

و قوله: وَ يَوْمَ نَحْشُرُ منصوب على الظرفيه لمقدر و التقدير و اذكر يوم نحشر و المراد بالحشر هو الجمع بعد الموت لأن المحشورين فوج من كل امه و لا اجتماع لجميع الامم فى زمان واحد و هم أحياء،و «مِنْ» فى قوله: «مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ» للتبعيض،و فى قوله: «مِمَّنْ يُكَذِّبُ» للتبيين أو للتبعيض.

و المراد بالآيات فى قوله: «يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا» مطلق الآيات الداله على المبدإ و المعاد و منها الأنبياء و الأئمه و الكتب السماويه دون الساعه و ما يقع فيها و عند قيامها و دون الآيات القرآنيه فقط لأن الحشر ليس مقصورا على الامه الإسلاميه بل أفواج من امم شتى.

ص :۶۴۷

و ظاهر الآیه أن هذا الحشر فی غیر یوم القیامه لأنه حشر للبعض من کل امه لا لجمیعهم و قد قال تعالی فی صفه الحشر یوم القیامه: وَ حَشَرْنٰاهُمْ فَلَمْ نُغٰادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (الکهف/ ۴۷).

و فیه أنه لو کان المراد الحشر الی العذاب لزم ذکر هذه الغایه دفعا للابهام کما فی قوله تعالی:

وَ یَوْمَ یُحْشَرُ أَعْدٰاءُ اللّٰهِ إِلَی النّٰارِ فَهُمْ یُوزَعُونَ حَتّٰی إِذٰا مٰا جٰاؤُهٰا (حم السجده۲۰/)،مع أنه لم یذکر فیما بعد هذه الآیه إلا العتاب و الحکم الفصل دون العذاب و الآیه کما تری مطلقه لم یشر فیها الی شیء یلوح الی هذا الحشر الخاص المذکور و یزیدها إطلاقا قوله بعدها: «حَتّٰی إِذٰا جٰاؤُ» فلم یقل:حتی اذا جاءوا العذاب أو النار أو غیرها.

قوله تعالی: حَتّٰی إِذٰا جٰاؤُ قٰالَ أَ کَذَّبْتُمْ بِآیٰاتِی وَ لَمْ تُحِیطُوا بِهٰا عِلْماً أَمّٰا ذٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ المراد بالمجیء-بإعانه من السیاق-هو الحضور فی موطن الخطاب المدلول علیه بقوله: «قٰالَ أَ کَذَّبْتُمْ» الخ؛و المراد بالآیات-کما تقدم فی الآیه السابقه-مطلق الآیات الداله علی الحق،و قوله: «وَ لَمْ تُحِیطُوا بِهٰا عِلْماً» جمله حالیه أی کذبتم بها حال کونکم لا علم لکم بها لإعراضکم عنها فکیف کذبتم بما لا تعلمون أی رمیتموها بالکذب و عدم الدلاله من غیر علم،و قوله:«أم ما ذا کنتم تعملون»أی غیر التکذیب.

و المعنی:حتی إذا حضروا فی موطن الخطاب قال اللّه سبحانه لهم:أ کذّبتم بآیاتی حال کونکم لم تحیطوا بها علما أم أی شیء کنتم تعملون غیر التکذیب،و فی ذلک عتابهم بأنهم لم یشتغلوا بشیء غیر تکذیبهم بآیات اللّه من غیر أن یشغلهم عنه شاغل معذّر.

قوله تعالی: وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَیْهِمْ بِمٰا ظَلَمُوا فَهُمْ لاٰ یَنْطِقُونَ الباء فی «بِمٰا ظَلَمُوا» للسببیه و«ما»مصدریه أی وقع القول علیهم بسبب کونهم ظالمین،و قوله: «فَهُمْ لاٰ یَنْطِقُونَ» تفریع علی وقوع القول علیهم.

و بذلک یتأید أن المراد بالقول الذی یقع علیهم قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ

الظّالِمِينَ (الأنعام/۱۴۴)،و المعنى:و لكونهم ظالمين فى تكذيبهم بالآيات لم يهتدوا الى ما يعتذرون به فانقطعوا عن الكلام فهم لا ينطقون.

قوله تعالى: أَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهٰارَ مُبْصِراً إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لما وصف فى الآيات السابقه أن كثيرا من الناس فى صمم و عمى من استماع كلمه الحق و النظر فى آيات اللّه و الاعتبار بهما،ثم ذكر دابه الأرض و أنه سيخرجها آيه خارقه للعاده تكلمهم،ثم ذكر أنه سيحشر فوجا من كل أمه من المكذبين فيعاتبهم فتتم عليهم الحجه بقولهم بغير علم بالآيات لإعراضهم عنها وبّخهم فى هذه الآيه و لامهم على تكذيبها بالآيات مع الجهل أنهم كانوا يرون الليل الذى يسكنون فيه بالطبع و أن هناك نهارا مبصرا يظهر لهم بها آيات السماء و الأرض فلم لم يتبصّروا؟.

و قوله: إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى فى جعل الليل سكنا يسكنون فيه و النهار مبصرا يبصرون فيه آيات السماء و الأرض آيات لقوم فيهم خاصه الإذعان و التصديق للحق اللائح لهم.

و المراد بالآيات العلامات و الجهات الدّاله فيهما على التوحيد و ما يتبعه من حقائق المعارف،و من جمله ذلك دلالتهما على أن الإنسان عليه أن يسكن فيما من شأنه أن يسكن فيه، و هو الليل الذى يضرب بحجاب ظلمته على الأبصار،و يتحرك فيما من شأنه أن يتحرك فيه و هو النهار المبصر الذى يظهر به الأشياء التى تتضمن منافع الحياه للأبصار.

فعلى الإنسان أن يسكت عما حجبته عنه ظلمه الجهل و لا يقول بغير علم و لا يكذب بما لا يحيط به علما و أن يقول و يؤمن بما تجلّيه له بيّنات الآيات التى هى كالنهر المبصره.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اللّٰهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ دٰاخِرِينَ النفخ فى الصور كنايه عن إعلام الجماعه الكثيرين كالعسكر بما يجب عليهم أن يعملوا به جمعا كالحضور و الارتحال و غير ذلك،

و الفزع كما قال الراغب انقباض و نفار يعترى الانسان من الشىء المخيف و هو من جنس الجزع،و الدخور الذله و الصغار.

و الظاهر أن المراد بقوله: «وَ كُلٌّ أَتَوْهُ دٰاخِرِينَ» رجوع جميع من فى السماوات و الأرض حتى المستثنين من حكم الفزع و حضورهم عنده تعالى،و أما قوله: فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ (الصافات/١٢٧)،فالظاهر أن المراد نفى إحضارهم فى الجمع للحساب و السؤال لا نفى بعضهم و رجوعهم الى اللّه و حضورهم عنده فآيات القيامه ناصه على عموم البعث لجميع الخلائق بحيث لا يشذّ منهم شاذ.

و نسبه الدخور و الذله الى أوليائه تعالى لا تنافى ما لهم من العزه عند اللّه فإن عزه العبد عند اللّه ذلته عنده و غناه باللّه فقره اليه نعم ذله أعدائه بما يرون لأنفسهم من العزه الكاذبه ذله هوان.

قوله تعالى: وَ تَرَى الْجِبٰالَ تَحْسَبُهٰا جٰامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحٰابِ صُنْعَ اللّٰهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَفْعَلُونَ الآيه بما أنها واقعه فى سياق آيات القيامه محفوفه بها تصف بعض ما يقع يومئذ من الآيات و هو سير الجبال و قد قال تعالى فى هذا المعنى أيضا: وَ سُيِّرَتِ الْجِبٰالُ فَكٰانَتْ سَرٰاباً (النبأ/٢٠)،الى غير ذلك.

فقوله: وَ تَرَى الْجِبٰالَ الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المراد به تمثيل الواقعه،كما فى قوله:

وَ تَرَى النّٰاسَ سُكٰارىٰ (الحج/٢)،أى هذا حالها المشهوده فى هذا اليوم تشاهدها لو كنت مشاهدا،و قوله: «تَحْسَبُهٰا جٰامِدَةً» أى تظنها الآن و لم تقم القيامه بعد جامده غير متحركه، و الجمله معترضه أو حاليه.

و قوله: وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحٰابِ حال من الجبال و عاملها «تَرَى» أى تراها إذا نفخ فى الصور حال كونها تسير سير السحاب فى السماء.

و قوله: صُنْعَ اللّٰهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ مفعول مطلق لمقدّر أى صنعه صنعا و فى

الجمله تلويح الى أن هذا الصنع و الفعل منه تعالى تخريب للدنيا و هدم للعالم،لكنه فى الحقيقه تكميل لها و إتقان لنظامها لما يترتب عليه من إنهاء كل شىء الى غايته و إيصاله الى وجهته التى هو مولّيها من سعاده أو شقاوه لأن ذلك صنع اللّه الذى أتقن كل شىء فهو سبحانه لا يسلب الإتقان عما أتقنه و لا يسلّط الفساد على ما أصلحه فى تخريب الدنيا تعمير الآخره.

و قوله: إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَفْعَلُونَ قيل:إنه تعليل لكون ما ذكر من النفخ فى الصور و ما بعده صنعا محكما له تعالى فإن علمه بظواهر أفعال المكلفين و بواطنها مما يستدعى إظهارها و بيان كيفياتها على ما هى عليه من الحسن و السوء و ترتيب آثارها من الثواب و العقاب عليها بعد البعث و الحشر و تسيير الجبال.

و أنت ترى ما فيه من التكلف و أن السياق بعد ذلك كله لا يقبله.

و قيل:إن قوله: «إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَفْعَلُونَ» استئناف فى حكم الجواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل:فما ذا يكون بعد هذه القوارع؟فقيل:إن اللّه خبير بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم و فصّل بقوله: «مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا» الى آخر الآيتين.

و هاهنا وجه آخر مستفاد من الإمعان فى سياق الآيات السابقه فإن اللّه سبحانه أمر فيها نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يتوكل عليه و يرجع أمر المشركين و بنى إسرائيل اليه فإنه إنما يستطيع هدايه المؤمنين بآياته المستسلمين للحق و أما المشركون فى جحودهم و بنو إسرائيل فى اختلافهم فإنهم موتى لا يسمعون و صمّ عمى لا يسمعون و لا يهتدون الى الحق بالنظر فى آيات السماء و الأرض و الاعتبار بها باختيار منهم.

ثم ذكر ما سيواجههم به-و حالهم هذه الحال لا يؤثر فيهم الآيات-و أنه سيخرج لهم دابه من الأرض تكلمهم و هى آيه خارقه تضطرهم الى قبول الحق و أنه يحشر من كل أمه فوجا من المكذبين فيتم عليهم الحجه،و بالآخره هو خبير بأفعالهم سيجزى من جاء بحسنه او سيئه بعمله يوم ينفخ فى الصور ففزعوا و أتوه داخرين.

و بالتأمل فی هـذا السـیاق یظهر أن الأنسب کون «یَوْمَ یُنْفَخُ» ظرفا لقوله: «إنه خبیر بما یفعلون» و قراءه «یفعلون» بیان الغیبه أرجح من القراءه المتداوله علی الخطاب.

و المعنی:و إنه تعالی خبیر بما یفعله أهل السـماوات و الأرض یوم ینفخ فی الصور و یأتونه داخرین یجزی من جاء بالحسـنه بخیر منهـا و من جاء بالسـیئه بکبّ وجوههم فی النار کلّ مجزی بعمله،و علی هـذا تکون الآیه فی معنی قوله تعالی: أَ فَلا یَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِی الْقُبُورِ وَ حُصِّلَ ما فِی الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ یَوْمَئِذٍ لَخَبِیرٌ (العادیات۱۱/)،و قوله: یَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا یَخْفی عَلَی اللّهِ مِنْهُمْ شَیْءٌ (المؤمن۱۶/)،و یکون قوله: «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَهِ» الخ،تفصیلا لقوله:

«إِنَّهُ خَبِیرٌ بِما تَفْعَلُونَ» من حیث لازم الخبره و هو الجزاء بمـا فعـل و عمـل کمـا أشـار الیه ذیلا بقوله: «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» و الالتفات من الغیبه الی الخطاب فی قوله: «هَلْ تُجْزَوْنَ» الخ؛لتشدید التقریع و التأنیب.

و فی الآیه أعنی قوله: «وَ تَرَی الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَهً وَ هِیَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ» الخ؛قولان آخران:

أحـدهما:حملهـا علی الحرکه الجوهریه و أن الأشـیاء کالجبـال تتحرک بجوهرها الی غایه وجودها و هی حشـرها و رجوعها الی اللّه سبحانه.

و هـذا المعنی أنسب بالنظر الی ما فی قوله: «تَحْسَبُها جامِدَهً» من التلویح الی أنها الیوم متحرکه و لما تقم القیامه،و أما جعل یوم القیامه ظرفا لحسبان الجمود و للمرور کالسحاب جمیعا فمما لا یلتفت الیه.

و ثانیهما:حملها علی حرکه الأرض الانتقالیه و هو بالنظر الی الآیه فی نفسـها معنی جیـد إلا أنه أولا:یوجب انقطاع الآیه عما قبلها و ما بعدها من آیات القیامه و ثانیا:ینقطع بذلک اتصال قوله:«إنه خبیر بما یفعلون»بما قبله.

قوله تعالی: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَیْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ یَوْمَئِذٍ

آمِنُونَ هذه الآيه و ما بعدها-كما تقدمت الإشاره اليه-تفصيل لقوله:«إنه خبير بما يفعلون»من حيث أثره الذى هو الجزاء،و المراد بقوله: «مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا» أن له جزاء هو خير مما جاء به من الحسنه و ذلك لأن العمل أيا ما كان مقدمه للجزاء مقصود لأجله و الغرض و الغايه على أى حال أفضل من المقدمه.

و قوله: وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ظاهر السياق أن هذا الفزع هو الفزع بعد نفخ الصور الثانى دون الأول فيكون فى معنى قوله: لاٰ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقّٰاهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ هٰذٰا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (الأنبياء/١٠٣).

قوله تعالى: وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النّٰارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يقال:كبه على وجهه فانكبّ أى ألقاه على وجهه فوقع عليه فنسبه الكب الى وجوههم من المجاز العقلى و الأصل فكبّوا على وجوههم.

و قوله: هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ الاستفهام للانكار،و المعنى:ليس جزاؤكم هذا إلا نفس العمل الذى عملتموه ظهر لكم فلزمكم فلا ظلم فى الجزاء و لا جور فى الحكم.

و الآيتان فى مقام بيان ما فى طبع الحسنه و السيئه من الجزاء ففيهما حكم من جاء بالحسنه فقط و من أحاطت به الخطيئه و استغرقته السيئه و أما من حمل حسنه و سيئه فيعلم بذلك حكمه إجمالا و أما التفصيل ففى غير هذا الموضع.

قوله تعالى: إِنَّمٰا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهٰا وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ الآيات الثلاث-من هنا الى آخر السوره-ختام السوره يبين فيها أن هذه الدعوه الحقه تبشير و إنذار فيه إتمام للحجه من غير أن يرجع اليه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من أمرهم شىء و إنما الأمر الى اللّه و سيريهم آياته فيعرفونها ليس بغافل عن أعمالهم.

و فى قوله: إِنَّمٰا أُمِرْتُ الخ؛تكلم عن لسان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فهو فى معنى:قل إنما أمرت

أن أعبد رب هذه البلده،و المشار إليها بهذه الإشاره مكه المشرّفه،و فى الكلام تشريفها من وجهين:إضافه الرب إليها،و توصيفها بالحرمه حيث قال:رب هـذه البلـده الـذى حرّمها.و فيه تعريض لهم حيث كفروا بهذه النعمه نعمه حرمه بلدتهم و لم يشركوا اللّه بعبادته بل عدلوا الى عباده الأصنام.

و قوله: وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ اشاره الى سعه ملكه تعالى دفعا لما يمكن أن يتوهم أنه إنما يملك مكه التى هو ربها فيكون حاله حال سائر الأصنام يملك الواحد منها على عقيدتهم جزءا من أجزاء العالم كالسماء و الأرض و بلده كذا و قوم كذا و أسره كذا،فيكون تعالى معبودا كأحد الآلهه واقعا فى صفهم و فى عرضهم.

و قوله: وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى من الذين أسلموا له فيما أراد و لا يريد إلا ما يهدى اليه الخلقه و يهتف به الفطره و هو الدين الحنيف الفطرى الذى هو مله إبراهيم.

قوله تعالى: وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدىٰ فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمٰا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ معطوف على قوله: «أَنْ أَعْبُدَ» أى أمرت أن أقرأ القرآن و المراد تلاوته عليهم بدليل تفريع قوله: «فَمَنِ اهْتَدىٰ» الخ؛عليه.

و قوله: «فَمَنِ اهْتَدىٰ فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ» أى فمن اهتدى بهذا القرآن فالذى ينتفع به هو نفسه و لا يعود نفعه إلىّ.

و قوله: وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمٰا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ أى و من لم يهتد به بالإعراض عن ذكر ربه و هو الضلال فعليه ضلاله و وبال كفره لا علىّ لأنى لست إلا منذرا مأمورا بذلك و لست عليه وكيلا و اللّه هو الوكيل عليه.

فالعدول عن مثل قولنا:و من ضل فإنما أنا من المنذرين و هو الذى كان يقتضيه الظاهر الى قوله: «فَقُلْ إِنَّمٰا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ» لتذكيره صلّى اللّه عليه و آله و سلم بما تقدم من العهد اليه أنه ليس إلا منذرا

و ليس اليه من أمرهم شیء فعليه أن يتوكل على ربه و يرجع أمرهم اليه كما قال: «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ إِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ الْمَوْتىٰ» الخ؛فكأنه قيل:و من ضل فقل له قد سمعت أن ربى لم يجعل علىّ إلا الإنذار فلست بمسئول عن ضلال من ضل.

قوله تعالى: وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ سَيُرِيكُمْ آيٰاتِهِ فَتَعْرِفُونَهٰا وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ معطوف على قوله: «فَقُلْ إِنَّمٰا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ» و فيه انعطاف الى ما ذكره بعد أمر نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالتوكل عليه فى أمرهم من أنه سيجعل للمشركين عاقبه سوء و يقضى بين بنى إسرائيل فيما اختلفوا فيه و يريهم من آياته ما يضطرون الى تصديقه ثم يجزيهم بأعمالهم.

و محصّل المعنى:و قل الثناء الجميل للّه تعالى فيما يجريه فى ملكه حيث دعى الناس الى ما فيه خيرهم و سعادتهم و هدى الذين آمنوا بآياته و أسلموا له و أما المكذبون فأمات قلوبهم و أصمّ آذانهم و أعمى أبصارهم فضلوا و كذّبوا بآياته.

و قوله: سَيُرِيكُمْ آيٰاتِهِ فَتَعْرِفُونَهٰا إشاره الى ما تقدم من قوله: «وَ إِذٰا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنٰا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ» و ما بعده،و ظهور قوله: «آيٰاتِهِ» فى العموم دليل على شموله لجميع الآيات التى تضطرهم الى قبول الحق مما يظهر لهم قبل قيام الساعه و بعده.

و قوله: وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو بمنزله التعليل لما تقدمه أى إن أعمالكم معاشر العباد بعين ربك فلا يفوته شیء مما تقتضيه الحكمه قبال أعمالكم من الدعوه و الهدايه و الإضلال و إراءه الآيات ثم جزاء المحسنين منكم و المسيئين يوم القيامه.

و قرئ «عما يعملون» بيان الغيبه و لعلها أرجح و مفادها تهديد المكذبين و فى قوله:

«رَبُّكَ» بإضافه الرب الى الكاف تطييب لنفس النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و تقويه لجانبه.

ص :۶۵۵

سوره القصص مکیه و هی ثمان و ثمانون آیه

اشاره

[سوره القصص (۲۸): الآیات ۱ الی ۱۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;طسم (۱) تِلْکَ آیاتُ اَلْکِتابِ اَلْمُبِینِ (۲) نَتْلُوا عَلَیْکَ مِنْ نَبَإِ مُوسی وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۳) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِی اَلْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِیَعاً یَسْتَضْعِفُ طائِفَهً مِنْهُمْ یُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ یَسْتَحْیِی نِساءَهُمْ إِنَّهُ کانَ مِنَ اَلْمُفْسِدِینَ (۴) وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی اَلَّذِینَ اُسْتُضْعِفُوا فِی اَلْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّهً وَ نَجْعَلَهُمُ اَلْوارِثِینَ (۵) وَ نُمَکِّنَ لَهُمْ فِی اَلْأَرْضِ وَ نُرِیَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما کانُوا یَحْذَرُونَ (۶) وَ أَوْحَیْنا إِلی أُمِّ مُوسی أَنْ أَرْضِعِیهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَیْهِ فَأَلْقِیهِ فِی اَلْیَمِّ وَ لا تَخافِی وَ لا تَحْزَنِی إِنّا رَادُّوهُ إِلَیْکِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ اَلْمُرْسَلِینَ (۷) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِیَکُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما کانُوا خاطِئِینَ (۸) وَ قالَتِ اِمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَیْنٍ لِی وَ لَکَ لا تَقْتُلُوهُ عَسی أَنْ یَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ (۹) وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسی فارِغاً إِنْ کادَتْ لَتُبْدِی بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلی قَلْبِها لِتَکُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۰) وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّیهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ (۱۱) وَ حَرَّمْنا عَلَیْهِ اَلْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّکُمْ عَلی أَهْلِ بَیْتٍ یَکْفُلُونَهُ لَکُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ (۱۲) فَرَدَدْناهُ إِلی أُمِّهِ کَیْ تَقَرَّ عَیْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اَللّهِ حَقٌّ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ (۱۳) وَ لَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اِسْتَوی آتَیْناهُ حُکْماً وَ عِلْماً وَ کَذلِکَ نَجْزِی اَلْمُحْسِنِینَ (۱۴)

ص: ۶۵۶

بيان:

غرض السوره الوعد الجميل للمؤمنين و هم بمكه قبل الهجره شرذمه قليلون يستضعفهم

ص :۶۵۷

فراعنه قریش و طغاتها و الیوم یوم شده و عسره و فتنه بأن اللّه سیمنّ علیهم و یجعلهم أئمه و یجعلهم الوارثین و یمكّن لهم و یری طغاه قومهم منهم ما كانوا یحذرون یقص تعالی للمؤمنین من قصه موسی و فرعون أنه خلق موسی فی حین كان فرعون فی أوج قدرته یستضعف بنی إسرائیل یذبّح أبناءهم و یستحیی نساءهم فربّاه فی حجر عدو،حتی إذا استوی و بلغ أشده نجّاه و أخرجه من بینهم الی مدین ثم ردّه الیهم رسولا ـ منه بسلطان مبین حتی إذا أغرق فرعون و جنوده أجمعین و جعل بنی إسرائیل هم الوارثین و أنزل التوراه علی موسی هدی و بصائر للمؤمنین.

و علی هذا المجری یجری حال المؤمنین و فیه وعد لهم بالملك و العزه و السلطان و وعد للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم برده الی معاد.

و انتقل من القصه الی بیان أن من الواجب فی حكمه اللّه أن ینزّل كتابا من عنده للدعوه الحقه ثم ذكر طعنهم فی دعوه القرآن بقولهم:لو لا ـ أوتی مثل ما أوتی موسی و الجواب عنه، و تعللهم عن الإیمان بقولهم:إن نتّبع الهدی معك نتخطف من أرضنا و الجواب عنه و فیه التمثل بقصه قارون و خسفه.

و السوره مكیه كما یشهد بذلك سیاق آیاتها،و ما أوردناه من الآیات فصل من قصه موسی و فرعون من یوم ولد موسی الی بلوغه أشده.

قوله تعالی: طسم تِلْكَ آیاتُ الْكِتابِ الْمُبِینِ تقدم الكلام فیه فی نظائره.

قوله تعالی: نَتْلُوا عَلَیْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسی وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ «مِنْ» للتبعیض و «بِالْحَقِّ» متعلق بقوله: «نَتْلُوا» أی نتلو تلاوه متلبسه بالحق فهو من عندنا و بوحی منا من غیر أن یداخل من إلقائه الشیاطین،و یمكن أن یكون متعلقا بنبأ أی حال كون النبأ الذی نتلوه علیك متلبسا بالحق لا مریه فیه.

و قوله: لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ اللام فیه للتعلیل و هو متعلق بقوله: «نَتْلُوا» أی نتلو علیك

من نبأهما لأجل قوم يؤمنون بآياتنا.

و محصّل المعنى:نتلو عليك بعض نبأ موسى و فرعون تلاوه بالحق لأجل أن يتدبر فيه هؤلاء الذين يؤمنون بآياتنا ممن اتبعوك و هم طائفه أذلّاء مستضعفون فى أيدى فراعنه قريش و طغاه قومهم فيتحققوا أن اللّه الذى آمنوا به و برسوله و تحمّلوا كل أذى فى سبيله هو اللّه الذى أنشأ موسى عليه السّلام لإحياء الحق و إنجاء بنى إسرائيل و إعزازهم بعد ذلتهم هاتيك الذله يذبّح أبناءهم و يستحيى نساءهم و قد علا فرعون و أنشب فيهم مخالب قهره و أحاط بهم بجوره.

أنشأه و الجو ذلك الجو المظلم الذى لا مطمع فيه فرباه فى حجر عدوه ثم أخرجه من مصر ثم أعاده اليهم بسلطان فأنجا به بنى إسرائيل و أفنى بيده فرعون و جنوده و جعلهم أحاديث و أحلاما.

فهو اللّه جل شأنه يقص على نبيه قصتهم و يرمز له و لهم بقوله: «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أنه سيفعل بهؤلاء مثل ما فعل باولئك و يمن على هؤلاء المستضعفين و يجعلهم أئمه و يجعلهم الوارثين حذو ما صنع ببنى إسرائيل.

قوله تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاٰ فِى الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهٰا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طٰائِفَهً مِنْهُمْ الخ؛العلو فى الأرض كنايه عن التجبر و الاستكبار،و الشيع جمع شيعه و هى الفرقه،قال فى المجمع:الشيع:الفرق و كل فرقه شيعه و سموا بذلك لأن بعضهم يتابع بعضا.

انتهى.و كأن المراد بجعل أهل الأرض-و كأنهم أهل مصر و اللام للعهد-فرقا إلقاء الاختلاف بينهم لئلا يتفق كلمتهم فيثوروا عليه و يقلبوا عليه الامور على ما هو من دأب الملوك فى بسط القدره و تقويه السلطه،و استحياء النساء إبقاء حياتهن.

و محصل المعنى:أن فرعون علا فى الأرض و تفوق فيها ببسط السلطه على الناس و إنفاذ القدره فيهم و جعل أهلها شيعا و فرقا مختلفه لا تجتمع كلمتهم على شىء و بذلك ضعّف عامه

ص :۶۵۹

قوتهم على المقاومه دون قوته و الامتناع من نفوذ إرادته.

قوله تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ -الى قوله- يَحْذَرُونَ الأصل فى معنى المن-على ما يستفاد من كلام الراغب-الثقل و منه تسميه ما يوزن به منا،و المنّه النعمه الثقيله و منّ عليه منا أى أثقله بالنعمه.قال:و يقال ذلك على وجهين أحدهما بالفعل كقوله: «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا» أى نعطيهم من النعمه ما يثقلهم و الثانى بالقول كقوله: «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا» و هو مستقبح إلاّ عند كفران النعمه.

انتهى ملخصا.

و تمكينهم فى الأرض إعطاؤهم فيها مكانا يملكونه و يستقرون فيه،و عن الخليل أن المكان مفعل من الكون و لكثرته فى الكلام أجرى مجرى فعال.فقيل:تمكن و تمسكن نحو تمنزل انتهى.

و قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ الخ؛الأنسب أن يكون حالا من «طائِفَةً» و التقدير يستضعف طائفه منهم و نحن نريد أن نمن على الذين استضعفوا،الخ؛و قيل:معطوف على قوله: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاٰ فِي الْأَرْضِ» و الأول أظهر،و «نُرِيدُ» على أى حال لحكايه الحال الماضيه.

و قوله: وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً عطف تفسير على قوله: «نَمُنَّ» و كذا ما بعده من الجمل المتعاقبه.

و المعنى:أن الظرف كان ظرف علو فرعون،و تفريقه بين الناس و استضعافه لبنى إسرائيل استضعافا يبيدهم و يفنيهم و الحال أنّا نريد أن ننعم على هؤلاء الذين استضعفوا من كل وجه نعمه تثقلهم و ذلک بأن نجعلهم أئمه يقتدى بهم فيكونوا متبوعين بعد ما كانوا تابعين،و نجعلهم الوارثين لها بعد ما كانت بيد غيرهم و نمكن لهم فى الأرض بأن نجعل لهم مكانا يستقرون فيه و يملكونه بعد ما لم يكن لهم من المكان إلاّ ما أراد غيرهم أن يبوأهم فيه و يقرهم عليه،و نرى

فرعون و هو ملك مصر و هامان و هو وزيره و جنودهما منهم أى من هؤلاء الذين استضعفوا ما كانوا يحذرون و هو أن يظهروا عليهم فيذهبوا بملكهم و مالهم و سنتهم كما قالوا فى موسى و أخيه لما أرسلا اليهم: يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (طه۶۳/).

قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ الى آخر الآيه؛الإيحاء هو التكليم الخفى و يستعمل فى القرآن فى تكليمه تعالى بعض خلقه بنحو الإلهام و الإلقاء فى القلب كما فى قوله: بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها (الزلزال۵/)، و قوله: وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ (النحل۶۸/)،و قوله فى أم موسى: «وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى» الآيه؛أو بنحو آخر كما فى الأنبياء و الرسل،و فى غيره تعالى كما فى قوله: إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ (الأنعام۱۲۱/)،و الإلقاء الطرح،و اليم البحر و النهر الكبير.

و قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى فى الكلام إيجاز بالحذف و التقدير و حبلت أم موسى به-و الحال هذه الحال من الشده و الحده-و وضعته و أوحينا إليها،الخ.

و المعنى:و قلنا بنوع من الإلهام لام موسى لما وضعته:أرضعيه ما دمت لا تخافين عليه من قبل فرعون فإذا خفت عليه-أن يطّلع عليه آل فرعون فيأخذوه و يقتلوه-فألقيه فى البحر و هو النيل على ما وردت به الروايه و لا تخافى عليه القتل و لا تحزنى لفقده و مفارقته إياك إنا رادوه اليك بعد ذلك و جاعلوه من المرسلين فيكون رسولا الى آل فرعون و بنى إسرائيل.

فقوله: إِنّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ تعليل للنهى فى قوله: «وَ لا تَحْزَنِی» كما يشهد به أيضا قوله بعد: «فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ» و الفرق بين الخوف و الحزن بحسب المورد أن الخوف إنما يكون فى مكروه محتمل الوقوع و الحزن فى مكروه قطعى الوقوف.

قوله تعالى: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ

وَ هٰامٰانَ وَ جُنُودَهُمٰا كٰانُوا خٰاطِئِينَ الالتقاط إصابه الشیء و أخذه من غیر طلب، و منه اللقطه و اللام فی قوله: «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً» للعاقبه-علی ما قیل-و الحزن بفتحتین و الحزن بالضم فالسکون بمعنی واحد کالسقم و السقم،و المراد بالحزن سبب الحزن فإطلاق الحزن علیه مبالغه فی سببیته لحزنهم.

و الخاطئین اسم فاعل من خطئ یخطأ خطأ کعلم یعلم علما کما أن المخطئ اسم فاعل من أخطأ یخطئ إخطاء،و الفرق بین الخاطئ و المخطئ علی ما ذکره الراغب أن الخاطئ یطلق علی من أراد فعلا-لا-یحسنه ففعله قال تعالی: «إِنَّ قَتْلَهُمْ كٰانَ خِطْأً كَبِيراً» ،و قال: «وَ إِنْ كُنّٰا لَخٰاطِئِينَ» ،و المخطئ یستعمل فیمن أراد فعلا یحسنه فوقع منه غیره و اسم مصدره الخطأ بفتحتین،قال تعالی: وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً (النساء/۹۲)،و المعنی الجامع هو العدول عن الجهه.انتهی ملخصا.

فقوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ جُنُودَهُمٰا كٰانُوا خٰاطِئِينَ أی فیما کانوا یفعلونه فی أبناء بنی إسرائیل و موسی تحذرا من انهدام ملکهم و ذهاب سلطانهم بیدهم إراده لتغییر المقادیر عن مجاریها فقتلوا الجم الغفیر من الأبناء و لا شأن لهم فی ذلک و ترکوا موسی حیث التقطوه و ربوه فی حجورهم و کان هو الذی بیده انقراض دولتهم و زوال ملکهم.

و المعنی:فأصابه آل فرعون و أخذوه من الیم و کان غایه ذلک أن یکون لهم عدوا و سبب حزن إن فرعون و هامان و جنودهما کانوا خاطئین فی قتل الأبناء و ترک موسی:أرادوا أن یقضوا علی من سیقضی علیهم فعادوا یجتهدون فی حفظه و یجدّون فی تربیته.

قوله تعالی: وَ قٰالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لاٰ تَقْتُلُوهُ عَسیٰ أَنْ يَنْفَعَنٰا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ شفاعه من امرأه فرعون و قد کانت عنده حینما جاءوا الیه بموسی-و هو طفل ملتقط من الیم-تخاطب فرعون بقوله: «قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ» أی هو قرّه عین لنا «لاٰ تَقْتُلُوهُ» و إنما خاطب بالجمع لأن شرکاء القتل کانوا کثیرین من سبب

و مباشر و آمر و مأمور.

و إنما قالت ما قالت لأن اللّه سبحانه ألقى محبه منه فى قلبها فعادت لا تملك نفسها دون أن تدفع عنه القتل و تضمه إليها،قال تعالى فيما يمن به على موسى عليه السّلام: وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِتُصْنَعَ عَلىٰ عَيْنِي (طه٣٩/).

و قوله: عَسىٰ أَنْ يَنْفَعَنٰا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً قالته لما رأت فى وجهه من آثار الجلال و سيماء الجذبه الإلهيه،و فى قولها: «أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» دلاله على أنهما كانا فاقدين للابن.

و قوله: وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ جمله حاليه أى قالت ما قالت و شفعت له و صرفت عنه القتل و القوم لا يشعرون ما ذا يفعلون و ما هى حقيقه الحال و ما عاقبته؟

قوله تعالى: وَ أَصْبَحَ فُؤٰادُ أُمِّ مُوسىٰ فٰارِغاً إِنْ كٰادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لاٰ أَنْ رَبَطْنٰا عَلىٰ قَلْبِهٰا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الإبداء بالشىء إظهاره،و الربط على الشىء شدّه و هو كنايه عن التثبيت.

و المراد بفراغ فؤاد أم موسى فراغه و خلوّه من الخوف و الحزن و كان لازم ذلك أن لا يتوارد عليه خواطر مشوّشه و أوهام متضاربه يضطرب بها القلب فيأخذها الجزع فتبدى ما كان عليها أن تخفيه من أمر ولدها.

و ذلك أن ظاهر السياق أن سبب عدم إبدائها له فراغ قلبها و سبب فراغ قلبها الربط على قلبها و سبب الربط هو قوله تعالى لها فيما أوحى إليها: «لاٰ تَخٰافِي وَ لاٰ تَحْزَنِي إِنّٰا رٰادُّوهُ إِلَيْكِ» الخ.

و قوله: إِنْ كٰادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لاٰ الخ؛ «إِنْ» مخففه من الثقيله أى إنها قربت من أن تظهر الأمر و تفشى السر لو لا أن ثبّتنا قلبها بالربط عليه،و قوله: «لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» أى الواثقين باللّه فى حفظه فتصبر و لا تجزع عليه فلا يبدو أمره.

و المجموع أعنى قوله: «إِنْ كٰادَتْ لَتُبْدِي بِهِ» الى آخر الآيه؛فى مقام البيان لقوله: «وَ أَصْبَحَ

فُؤٰادُ أَمِّ مُوسىٰ فٰارِغاً» و محصل معنى الآيه و صار قلب أم موسى بسبب وحينا خاليا من الخوف و الحزن المؤدّيين الى إظهار الأمر،لو لا أن ثبّتنا قلبها بسبب الوحى لتكون واثقه بحفظ اللّه له لقربت من أن تظهر أمره لهم بالجزع عليه.

قوله تعالى: وَ قٰالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ قال فى المجمع:القص اتباع الأثر و منه القصص فى الحديث لأنه يتبع فيه الثانى الأول.و قال:و معنى بصرت به عن جنب أبصرته عن جنابه أى عن بعد.انتهى.

و المعنى:و قالت أم موسى لاخته:اتّبعى أثر موسى حتى ترين الى م يئول أمره فرأته عن بعد و قد أخذه خدم فرعون و هم لا يشعرون بأنها تقصّه و تراقبه.

قوله تعالى: وَ حَرَّمْنٰا عَلَيْهِ الْمَرٰاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقٰالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نٰاصِحُونَ التحريم فى الآيه تكوينى لا تشريعى و معناه جعله بحيث لا يقبل ثدى مرضع و يمتنع من ارتضاعها.

و قوله: مِنْ قَبْلُ أى من قبل حضورها هناك و مجيئها اليهم و المراضع جمع مرضعه كما قيل.

و قوله: فَقٰالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نٰاصِحُونَ تفريع على ما تقدّمه غير أن السياق يدلّ على أن هناك حذفا كأنه قيل:و حرّمنا عليه المراضع غير أمه من قبل أن تجىء اخته فكلما أتوا له بمرضع لترضعه لم يقبل ثديها فلما جاءت اخته و رأت الحال قالت عند ذلك لآل فرعون:هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لنفعكم و هم له ناصحون؟

قوله تعالى: فَرَدَدْنٰاهُ إِلىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهٰا وَ لاٰ تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ تفريع على ما تقدمه مع تقدير ما يدل عليه السياق، و المحصل أنها قالت:هل أدلّكم على أهل بيت كذا فأنعموا لها بالقبول فدلّتهم على أمه فسلّموه

إليها فرددناه الى أمه بنظم هذه الأسباب.

و قوله: كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهٰا وَ لاٰ تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ الخ؛تعليل للرد و المراد بالعلم هو اليقين بالمشاهده فإنها كانت تعلم من قبل أن وعد اللّه حق و كانت مؤمنه و إنما أريد بالرد أن توقن بالمشاهده أن وعد اللّه حق.

و المراد بوعد اللّه مطلق الوعد الالهى بدليل لوقه«و لكن أكثر الناس لا يعلمون»أى لا يوقنون بذلك و يرتابون فى مواعده تعالى و لا تطمئن إليها نفوسهم،و محصله أن توقع بمشاهده حقيه هذا الذى وعدها اللّه به أن مطلق وعده تعالى حق.

قوله تعالى: وَ لَمّٰا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوىٰ آتَيْنٰاهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ بلوغ الأشد أن يعمر الانسان ما تشتد عند ذلك قواه و يكون فى الغالب فى الثمان عشره،و الاستواء الاعتدال و الاستقرار فالاستواء فى الحياه استقرار الانسان فى أمر حياته و يختلف فى الأفراد و هو على الأغلب بعد بلوغ الأشد،و قد تقدم الكلام فى معنى الحكم و العلم و إيتائهما و معنى الاحسان فى مواضع من الكتاب (۱).

[سوره القصص (۲۸): الآيات ۱۵ الى ۲۱]

اشاره

وَ دَخَلَ اَلْمَدِينَهَ عَلىٰ حِينِ غَفْلَهٍ مِنْ أَهْلِهٰا فَوَجَدَ فِيهٰا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاٰنِ هٰذٰا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هٰذٰا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغٰاثَهُ اَلَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى اَلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسىٰ فَقَضىٰ عَلَيْهِ قٰالَ هٰذٰا مِنْ عَمَلِ اَلشَّيْطٰانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (۱۵) قٰالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِيمُ (۱۶) قٰالَ رَبِّ بِمٰا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (۱۷) فَأَصْبَحَ فِي اَلْمَدِينَهِ خٰائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا اَلَّذِي اِسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قٰالَ لَهُ مُوسىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (۱۸) فَلَمّٰا أَنْ أَرٰادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمٰا قٰالَ يٰا مُوسىٰ أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمٰا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاّٰ أَنْ تَكُونَ جَبّٰاراً فِي اَلْأَرْضِ وَ مٰا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ اَلْمُصْلِحِينَ (۱۹) وَ جٰاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى اَلْمَدِينَهِ يَسْعىٰ قٰالَ يٰا مُوسىٰ إِنَّ اَلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ اَلنّٰاصِحِينَ (۲۰) فَخَرَجَ مِنْهٰا خٰائِفاً يَتَرَقَّبُ قٰالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ (۲۱)

۱- ۱) .القصص ۱-۱۴:بحث روائى فى:الذين استضعفوا فى الارض؛ولاده موسى عليه السّلام.

بیان:

قوله تعالی: وَ دَخَلَ الْمَدِینَهَ عَلیٰ حِینِ غَفْلَهٍ مِنْ أَهْلِهٰا الخ؛لا ریب أن المدینه التی دخلها علی حین غفله من أهلها هی مصر،و أنه کان یعیش عند فرعون،و یستفاد من ذلک أن القصر الملکی الذی کان یسکنه فرعون کان خارج المدینه و أنه خرج منه و دخل المدینه علی حین غفله من أهلها،و یؤید ما ذکرنا ما سیأتی من قوله: وَ جٰاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِینَهِ رَجُلٌ یَسْعیٰ علی ما سیجیء من الاستظهار.

و حین الغفله من أهل المدینه هو حین یدخل الناس بیوتهم فتتعطل الأسواق و تخلو الشوارع و الأزقه من الماره کالظهیره و أواسط اللیل.

ص :۶۶۶

و قوله: فَوَجَدَ فِيهٰا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاٰنِ أى يتنازعان و يتضاربان،و قوله: «هٰذٰا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هٰذٰا مِنْ عَدُوِّهِ» حكايه حال تمثل به الواقعه،و معناه:أن أحدهما كان إسرائيليا من متّبعيه فى دينه-فإن بنى إسرائيل كانوا ينتسبون يومئذ الى آبائهم إبراهيم و إسحاق و يعقوب عليهم السّلام فى دينهم و إن كان لم يبق لهم منه إلاّ الاسم و كانوا يتظاهرون بعباده فرعون- و الآخر قبطيا عدوا له لأن القبط كانوا أعداء بنى إسرائيل،و من الشاهد أيضا على كون هذا الرجل قبطيا قوله فى موضع آخر يخاطب ربه: وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخٰافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (الشعراء۱۴/).

و قوله: فَاسْتَغٰاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ الاستغاثه:

الاستنثار من الغوث بمعنى النصره أى طلب الإسرائيلى من موسى أن ينصره على عدوه القبطى.

و قوله: فَوَكَزَهُ مُوسىٰ فَقَضىٰ عَلَيْهِ ضميرا«وكزه»و «عَلَيْهِ» للذى من عدوه و الوكز-على ما ذكره الراغب و غيره-الطعن و الدفع و الضرب بجمع الكف،و القضاء هو الحكم و القضاء عليه كنايه عن الفراغ من أمره بموته،و المعنى:فدفعه أو ضربه موسى بالوكز فمات،و كان قتل خطأ و لو لا ذلك لكان من حق الكلام أن يعبّر بالقتل.

و قوله: قٰالَ هٰذٰا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطٰانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ الإشاره بهذا الى ما وقع بينهما من الاقتتال حتى أدى الى موت القبطى و قد نسبه نوع نسبه الى عمل الشيطان إذ قال: «هٰذٰا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطٰانِ» و «مِنْ» ابتدائيه تفيد معنى الجنس أو نشوئيه،و المعنى:هذا الذى وقع من المعاداه و الاقتتال من جنس العمل المنسوب الى الشيطان أو ناش من عمل الشيطان فإنه هو الذى أوقع العداوه و البغضاء بينهما و أغرى على الاقتتال حتى أدى ذلك الى مداخله موسى و قتل القبطى بيده فأوقعه ذلك فى خطر عظيم و قد كان يعلم أن الواقعه لا تبقى خفيّه مكتومه و أن القبط سيثورون عليه و أشرافهم و ملؤهم و على رأسهم فرعون

سینتقمون منه و من کل من تسبب الی ذلک أشد الانتقام.

فعند ذلک تنبه علیه السّلام أنه أخطأ فیما فعله من الوکز الذی أورده مورد الهلکه و لا ینسب الوقوع فی الخطأ الی اللّه سبحانه لأنه لا یهدی إلّا الی الحق و الصواب فقضی أن ذلک منسوب الی الشیطان.

و فعله ذاک و إن لم یکن معصیه منه لوقوعه خطأ و کون دفاعه عن الإسرائیلی دفعا لکافر ظالم،لکن الشیطان کما یوقع بوسوسته الإنسان فی الإثم و المعصیه کذلک یوقعه فی أی مخالفه للصواب یقع بها فی الکلفه و المشقه کما أوقع آدم و زوجه فیما أوقع من أکل الشجره المنهیّه فأدی ذلک الی خروجهما من الجنه.

فقوله: هٰذٰا مِنْ عَمَلِ الشَّیْطٰانِ انزجار منه عما وقع من الاقتتال المؤدی الی قتل القبطی و وقوعه فی عظیم الخطر و ندم منه علی ذلک،و قوله: «إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِینٌ» إشاره منه الی ان فعله کان من الضلال المنسوب الی الشیطان و إن لم یکن من المعصیه التی فیها إثم و مؤاخذه بل خطأ محضا لا ینسب الی اللّه بل الی الشیطان الذی هو عدو مضل مبین،فکان ذلک منه نوعا من سوء التدبیر و ضلال السعی یسوقه الی عاقبه و خیمه و لذا لما اعترض علیه فرعون بقوله: «وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَکَ الَّتِی فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْکٰافِرِینَ» أجابه بقوله: فَعَلْتُهٰا إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضّٰالِّینَ (الشعراء۲۰/).

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ اعتراف منه عند ربه بظلمه نفسه حیث أوردها مورد الخطر و ألقاها فی التهلکه، و منه یظهر أن المراد بالمغفره المسئولیه فی قوله: «فَاغْفِرْ لِی» هو إلغاء تبعه فعله و إنجاؤه من الغم و تخلیصه من شر فرعون و ملأه،کما یظهر من قوله تعالی: وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّیْنٰاکَ مِنَ الْغَمِّ (طه۴۰/).

و هذا الاعتراف بالظلم و سؤال المغفره نظیر ما وقع من آدم و زوجه المحکی فی قوله تعالی:

قالاَ رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (الأعراف/ ٢٣).

قوله تعالى: قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ قيل:

الباء فى قوله: «بِما أَنْعَمْتَ» للسببيه و المعنى رب بسبب ما أنعمت على،لك على أن لا أكون معينا للمجرمين فيكون عهدا منه للّه تعالى و قيل:الباء للقسم و الجواب محذوف و المعنى:أقسم بما أنعمت على لأتوبن أو لأمتنعن فلن أكون ظهيرا للمجرمين،و قيل:القسم استعطافى و هو القسم الواقع فى الإنشاء كقولك باللّه زرنى،و المعنى أقسمك أن تعطف على و تعصمنى فلن أكون ظهيرا للمجرمين.

و الوجه الأول هو الأوجه لأن المراد بقوله: «بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ» -على ما ذكروه-إما إنعامه تعالى عليه إذ حفظه و خلصه من قتل فرعون و ردّه الى أمه،و إما إنعامه عليه إذ قبل توبته من قتل القبطى و غفر له بناء على أنه علم مغفرته تعالى بإلهام أو رؤيا أو نحوهما و كيف كان فهو إقسام بغيره تعالى،و المعنى أقسم بحفظك إياى أو أقسم بمغفرتك لى،و لم يعهد فى كلامه تعالى حكايه قسم من غيره بغيره بهذا النحو.

و قوله: فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ قيل:المراد بالمجرم من أوقع غيره فى الجرم أو من أدّت إعانته الى جرم كالإسرائيلى الذى خاصمه القبطى فأوقعت إعانته موسى فى جرم القتل فيكون فى لفظ المجرمين مجاز فى النسبه من حيث تسميه السلب الموقع فى الجرم مجرما.

و قيل:المراد بالمجرمين فرعون و قومه و المعنى:أقسم بإنعامك على لأتوبن فلن أكون معينا لفرعون و قومه بصحبتهم و ملازمتهم و تكثير سوادهم كما كنت أفعله الى هذا اليوم.

و رد هذا الوجه الثانى بأنه لا يناسب المقام.

و الحق أن قوله: «رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ» عهد من موسى عليه السّلام أن

لا یعین مجرما علی إجرامه شکرا للّه تعالی علی ما أنعم علیه،و المراد بالنعمه و قد أطلقت إطلاقا الولایه الإلهیه علی ما یشهد به قوله تعالی: فَأُولٰئِکَ مَعَ الَّذِینَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ مِنَ النَّبِیِّینَ وَ الصِّدِّیقِینَ وَ الشُّهَدٰاءِ وَ الصّٰالِحِینَ (النساء/۶۹).

و هؤلاء أهل الصراط المستقیم مأمونون من الضلال و الغضب لقوله تعالی: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِیمَ صِرٰاطَ الَّذِینَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِمْ غَیْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ وَ لاَ الضّٰالِّینَ (الفاتحه/۷)،و ترتب الامتناع عن إعانه المجرمین علی الإنعام بهذا المعنی ظاهر لا ستره علیه.

و من هنا یظهر أن المراد بالمجرمین أمثال فرعون و قومه دون أمثال الإسرائیلی الذی أعانه فلم یکن فی إعانته جرم و لا کان وکز القبطی جرما حتی یتوب علیه السّلام منه کیف؟و هو علیه السّلام من أهل الصراط المستقیم الذین لا یضلون بمعصیته،و قد نص تعالی علی کونه من المخلصین الذین لا سبیل للشیطان الیهم بالإغواء حیث قال: إِنَّهُ کٰانَ مُخْلَصاً وَ کٰانَ رَسُولاً نَبِیًّا (مریم/ ۵۱).

و قد نص تعالی أیضا آنفا بأنه آتاه حکما و علما و أنه من المحسنین و من المتقین من أمره أن لا تستخفه عصبیه قومیه أو غضب من غیر ما ینبغی أو إعانه و نصره لمجرم فی إجرامه.

و قد کرر «قٰالَ» ثلاثا حیث قیل: قٰالَ هٰذٰا مِنْ عَمَلِ الشَّیْطٰانِ قٰالَ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی قٰالَ رَبِّ بِمٰا أَنْعَمْتَ عَلَیَّ و ذلک لاختلاف السیاق فی الجمل الثلاث فالجمله الاولی قضاء منه و حکم،و الجمله الثانیه استغفار و دعاء،و الجمله الثالثه عهد و التزام.

قوله تعالی: فَأَصْبَحَ فِی الْمَدِینَهِ خٰائِفاً یَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِی اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ یَسْتَصْرِخُهُ قٰالَ لَهُ مُوسیٰ إِنَّکَ لَغَوِیٌّ مُبِینٌ تقیید«أصبح»بقوله: «فِی الْمَدِینَهِ» دلیل علی أنه بقی فی المدینه و لم یرجع الی قصر فرعون،و الاستصراخ الاستغاثه برفع الصوت من الصراخ بمعنی الصیاح،و الغوایه إخطاء الصواب خلاف الرشد.

ص:۶۷۰

و المعنی:فأصبح موسی فی المدینه-و لم یرجع الی بلاط فرعون-و الحال أنه خائف من فرعون ینتظر الشر ففاجأه أن الإسرائیلی الذی استنصره علی القبطی بالأمس یستغیث به رافعا صوته علی قبطی آخر قال موسی للإسرائیلی توبیخا و تأنیبا:إنک لغویّ مبین لا تسلک سبیل الرشد و الصواب لأنه کان یخاصم و یقتتل قوما لیس فی مخاصمتهم و المقاومه علیهم إلاّ الشر کل الشر.

قوله تعالی: فَلَمّٰا أَنْ أَرٰادَ أَنْ یَبْطِشَ بِالَّذِی هُوَ عَدُوٌّ لَهُمٰا قٰالَ یٰا مُوسیٰ أَ تُرِیدُ أَنْ تَقْتُلَنِی کَمٰا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ الی آخر الآیه؛ذکر جل المفسرین أن ضمیر «قٰالَ» للاسرائیلی الذی کان یستصرخه و ذلک أنه ظن أن موسی إنما یرید أن یبطش به لما سمعه یعاتبه قبل بقوله: «إِنَّکَ لَغَوِیٌّ مُبِینٌ» فهاله ما رأی من إرادته البطش فقال: «یٰا مُوسیٰ أَ تُرِیدُ أَنْ تَقْتُلَنِی کَمٰا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ» الخ؛فعلم القبطی عند ذلک أن موسی هو الذی قتل القبطی بالأمس فرجع الی فرعون فأخبره الخبر فائتمروا بموسی و عزموا علی قتله.

و ما ذکروه فی محله لشهاده السیاق بذلک فلا یعبأ بما قیل:إن القائل هو القبطی دون الاسرائیلی،هذا و معنی باقی الآیه ظاهر.و فی قوله: «أَنْ یَبْطِشَ بِالَّذِی هُوَ عَدُوٌّ لَهُمٰا» تعریض للتوراه الحاضره حیث تذکر أن المتقاتلین هذین کانا جمیعا إسرائیلیین،و فیه أیضا تأیید أن القائل «یٰا مُوسیٰ أَ تُرِیدُ» الخ؛الاسرائیلی دون القبطی لأن سیاقه سیاق اللوم و الشکوی.

قوله تعالی: وَ جٰاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَی الْمَدِینَهِ یَسْعیٰ قٰالَ یٰا مُوسیٰ إِنَّ الْمَلَأَ یَأْتَمِرُونَ بِکَ لِیَقْتُلُوکَ الخ؛الائتمار المشاوره،و النصیحه خلاف الخیانه.

و الظاهر کون قوله: «مِنْ أَقْصَی الْمَدِینَهِ» قید لقوله: «جٰاءَ» فسیاق القصه یعطی أن الائتمار کان عند فرعون و بأمر منه،و أن هذا الرجل جاء من هناک و قد کان قصر فرعون فی أقصی المدینه و خارجها فأخبر موسی بما قصدوه من قتله و أشار علیه بالخروج من

المدینه.

و هذا الاستئناس من الکلام یؤید ما تقدم أن قصر فرعون الذی کان یسکنه کان خارج المدینه،و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالی: فَخَرَجَ مِنْهٰا خٰائِفاً یَتَرَقَّبُ قٰالَ رَبِّ نَجِّنِی مِنَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِینَ فیه تأیید أنه ما کان یری قتله القبطی خطأ جرما لنفسه (۱).

[سوره القصص (۲۸): الآیات ۲۲ الی ۲۸]

اشاره

وَ لَمّٰا تَوَجَّهَ تِلْقٰاءَ مَدْیَنَ قٰالَ عَسیٰ رَبِّی أَنْ یَهْدِیَنِی سَوٰاءَ اَلسَّبِیلِ (۲۲) وَ لَمّٰا وَرَدَ مٰاءَ مَدْیَنَ وَجَدَ عَلَیْهِ أُمَّهً مِنَ اَلنّٰاسِ یَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ اِمْرَأَتَیْنِ تَذُودٰانِ قٰالَ مٰا خَطْبُکُمٰا قٰالَتٰا لاٰ نَسْقِی حَتّٰی یُصْدِرَ اَلرِّعٰاءُ وَ أَبُونٰا شَیْخٌ کَبِیرٌ (۲۳) فَسَقیٰ لَهُمٰا ثُمَّ تَوَلّٰی إِلَی اَلظِّلِّ فَقٰالَ رَبِّ إِنِّی لِمٰا أَنْزَلْتَ إِلَیَّ مِنْ خَیْرٍ فَقِیرٌ (۲۴) فَجٰاءَتْهُ إِحْدٰاهُمٰا تَمْشِی عَلَی اِسْتِحْیٰاءٍ قٰالَتْ إِنَّ أَبِی یَدْعُوکَ لِیَجْزِیَکَ أَجْرَ مٰا سَقَیْتَ لَنٰا فَلَمّٰا جٰاءَهُ وَ قَصَّ عَلَیْهِ اَلْقَصَصَ قٰالَ لاٰ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِینَ (۲۵) قٰالَتْ إِحْدٰاهُمٰا یٰا أَبَتِ اِسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَیْرَ مَنِ اِسْتَأْجَرْتَ اَلْقَوِیُّ اَلْأَمِینُ (۲۶) قٰالَ إِنِّی أُرِیدُ أَنْ أُنْکِحَکَ إِحْدَی اِبْنَتَیَّ هٰاتَیْنِ عَلیٰ أَنْ تَأْجُرَنِی ثَمٰانِیَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِکَ وَ مٰا أُرِیدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَیْکَ سَتَجِدُنِی إِنْ شٰاءَ اَللّٰهُ مِنَ اَلصّٰالِحِینَ (۲۷) قٰالَ ذٰلِکَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ أَیَّمَا اَلْأَجَلَیْنِ قَضَیْتُ فَلاٰ عُدْوٰانَ عَلَیَّ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ مٰا نَقُولُ وَکِیلٌ (۲۸)

۱- ۱) .القصص ۱۵-۲۱:بحث روائی فی موسی و قتله القبطی.

بيان:

قوله تعالى: وَ لَمّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِى سَواءَ السَّبِيلِ قال فى المجمع:تلقاء الشیء حذاؤه،و يقال:فعل ذلک من تلقاء نفسه أی من حذاء داعی نفسه.و قال:سواء السبيل وسط الطريق انتهى.

و مدين-على ما فى مراصد الاطلاع-مدينه قوم شعيب و هى تجاه تبوک على بحر القلزم بينهما ست مراحل و هى أكبر من تبوک و بها البئر التى استقى منها موسى لغنم شعيب عليهما السّلام انتهى،و يقال:إنه كان بينهما و بين مصر مسيره ثمان و كانت خارجه من سلطان فرعون و لذا توجه إليها.

و المعنى:و لما صرف وجهه بعد الخروج من مصر حذاء مدين قال:أرجو من ربى أن يهدينى وسط الطريق فلا أضل بالعدول عنه و الخروج منه الى غيره.

و السياق-كما ترى-يعطى أنه عليه السّلام كان قاصدا لمدين و هو لا يعرف الطريق الموصله إليها فترجى أن يهديه ربه.

قوله تعالى: وَ لَمّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّهً مِنَ النّاسِ يَسْقُونَ الخ؛ الذود الحبس و المنع،و المراد بقوله: «تَذُودانِ» أنهما يحسبان أغنامهما من أن ترد الماء أو تختلط

بأغنام القوم كما أن المراد بقوله: «يَسْقُونَ» سقيهم أغنامهم و مواشيهم،و الرعاء جمع الراعى و هو الذى يرعى الغنم.

و المعنى:و لما ورد موسى ماء مدين وجد على الماء جماعه من الناس يسقون أغنامهم و وجد بالقرب منهم مما يليه امرأتين تحبسان أغنامها و تمنعانها أن ترد المورد قال موسى مستفسرا عنهما-حيث وجدهما تذودان الغنم و ليس على غنمهما رجل-:ما شأنكما؟قالتا:

لا نسقى غنمنا أى عادتنا ذلك حتى يصدر الراعون و يخرجوا أغنامهم و أبونا شيخ كبير-لا يقدر أن يتصدى بنفسه أمر السقى- و لذا تصدينا الأمر.

قوله تعالى: فَسَقىٰ لَهُمٰا ثُمَّ تَوَلّٰى إِلَى الظِّلِّ فَقٰالَ رَبِّ إِنِّي لِمٰا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فهم عليه السّلام من كلامهما أن تأخرهما فى السقى نوع تعفف و تحجب منهما و تعد من الناس عليهما فبادر الى ذلك و سقى لهما.

و قوله: «ثُمَّ تَوَلّٰى إِلَى الظِّلِّ فَقٰالَ رَبِّ إِنِّي لِمٰا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» أى انصرف الى الظل ليستريح فيه و الحر شديد و قال ما قال،و قد حمل الأكثرون قوله: «رَبِّ إِنِّي لِمٰا أَنْزَلْتَ» الخ؛ على سؤال طعام يسدّ به الجوع،و عليه فالأولى أن يكون المراد بقوله: «لِمٰا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ» القوه البدنيه التى كان يعمل بها الأعمال الصالحه التى فيها رضى اللّه كالدفاع عن الإسرائيلى و الهرب من فرعون بقصد مدين و سقى غنم شعيب و اللام فى «لِمٰا أَنْزَلْتَ» بمعنى الى و إظهار الفقر الى هذه القوه التى أنزلها اللّه اليه من عنده بالإفاضه كنايه عن إظهار الفقر الى شىء من الطعام تستبقى به هذه القوه النازله الموهوبه.

قوله تعالى: فَجٰاءَتْهُ إِحْدٰاهُمٰا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيٰاءٍ الى آخر الآيه؛ضمير إحداهما للمرأتين،و تنكير الاستحياء للتفخيم و المراد بكون مشيها على استحياء ظهور التعفف من مشيتها،و قوله: «لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مٰا سَقَيْتَ لَنٰا» ما مصدريه أى ليعطيك جزاء سقيك لنا،و قوله: «فَلَمّٰا جٰاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قٰالَ لاٰ تَخَفْ» الخ؛يلوّح الى ان شعيبا

استفسره حاله فقص علیه قصته فطیّب نفسه بأنه نجی منهم إذ لا سلطان لهم علی مدین.

و عند ذلک تمت استجابته تعالی لموسی علیه السّلام أدعیته الثلاثه فقد کان سأل اللّه تعالی عند خروجه من مصر أن ینجیه من القوم الظالمین فأخبره شعیب علیه السّلام بالنجاه و ترجّی أن یهدیه سواء السبیل و هو فی معنی الدعاء فورد مدین،و سأله الرزق فدعاه شعیب لیجزیه أجر ما سقی و زاد تعالی فکفا رزق عشر سنین و وهب له زوجا یسکن إلیها.

قوله تعالی: قٰالَتْ إِحْدٰاهُمٰا یٰا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَیْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِیُّ الْأَمِینُ إطلاق الاستیجار یفید أن المراد استخدامه لمطلق حوائجه التی تستدعی من یقوم مقامه و إن کانت العهده باقتضاء المقام رعی الغنم.

و قوله: إِنَّ خَیْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الخ؛فی مقام التعلیل لقوله: «اسْتَأْجِرْهُ» و هو من وضع السبب موضع المسبب التقدیر استأجره لأنه قوی أمین و خیر من استأجرت هو القوی الأمین.

و فی حکمها بأنه قوی أمین دلاله علی أنها شاهدت من نحو عمله فی سقی الأغنام ما استدلت به علی قوته و کذا من ظهور عفته فی تکلیمهما و سقی أغنامهما ثم فی صحبته لها عند ما انطلق الی شعیب حتی أتاه ما استدلت به علی أمانته.

و من هنا یظهر أن هذه القائله «یٰا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ» الخ؛هی التی جاءته و أخبرته بدعوه أبیها له کما وردت به روایات أئمه أهل البیت علیهم السّلام و ذهب الیه جمع من المفسرین.

قوله تعالی: قٰالَ إِنِّی أُرِیدُ أَنْ أُنْکِحَکَ إِحْدَی ابْنَتَیَّ هٰاتَیْنِ عَلیٰ أَنْ تَأْجُرَنِی ثَمٰانِیَ حِجَجٍ الخ؛عرض من شعیب لموسی علیه السّلام أن یأجره نفسه ثمانی سنین أو عشرا قبال تزویجه إحدی ابنتیه و لیس بعقد قاطع و من الدلیل عدم تعیّن المعقوده فی کلامه علیه السّلام.

فقوله: إِحْدَی ابْنَتَیَّ هٰاتَیْنِ دلیل علی حضورهما إذ ذاک،و قوله: «عَلیٰ أَنْ

تَأْجُرَنِی ثَمانِیَ حِجَجٍ» أی علی أن تأجرنی نفسک أی تکون أجیرا لی ثمانی حجج،و الحجج جمع حجه و المراد بها للسنه بعنایه أن کل سنه فیها حجه لبیت الحرام،و به یظهر أن حج البیت -و هو من شریعه إبراهیم علیه السّلام-کان معمولا به عندهم.

و قوله: فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِکَ أی فإن أتممته عشر سنین فهو من عندک و باختیار منک من غیر أن تکون ملزما من عندی.

و قوله: وَ ما أُرِیدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَیْکَ إخبار عن نحو ما یریده منه من الخدمه و أنه عمل غیر موصوف بالمشقه و أنه مخدوم صالح.

و قوله: سَتَجِدُنِی إِنْ شاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّالِحِینَ أی إنی من الصالحین و ستجدنی منهم إن شاء اللّه فالاستثناء متعلق بوجدان موسی إیاه منهم لا بکونه فی نفسه منهم.

قوله تعالی: قالَ ذٰلِکَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ أَیَّمَا الْأَجَلَیْنِ قَضَیْتُ فَلاٰ عُدْوٰانَ عَلَیَّ وَ اللّٰهُ عَلیٰ ما نَقُولُ وَکِیلٌ الضمیر لموسی علیه السّلام.

و قوله: ذٰلِکَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ أی ذلک الذی ذکرته و قررته من المشارطه و المعاهده و عرضته علیّ ثابت بیننا لیس لی و لا لک أن نخالف ما شارطناه،و قوله: «أَیَّمَا الْأَجَلَیْنِ قَضَیْتُ فَلاٰ عُدْوٰانَ عَلَیَّ» بیان للأجل المردد المضروب فی کلام شعیب علیه السّلام و هو قوله: «ثَمانِیَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِکَ» أی لی أن أختار أی الأجلین شئت فإن اخترت الثمانی سنین فلیس لک أن تعدو علیّ و تلزمنی بالزیاده و إن اخترت الزیاده و خدمتک عشرا فلیس لک أن تعدو علیّ بالمنع من الزیاده.

و قوله: وَ اللّٰهُ عَلیٰ ما نَقُولُ وَکِیلٌ توکیل له تعالی فیما یشارطان یتضمن إشهاده تعالی علی ما یقولان و إرجاع الحکم و القضاء بینهما الیه لو اختلفا،و لذا اختار التوکیل علی الإشهاد لأن الشهاده و القضاء کلیهما الیه تعالی،و هذا کقول یعقوب علیه السّلام حین أخذ الموثق من بنیه أن یردوا الیه ابنه فیما یحکیه اللّه فَلَمّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللّٰهُ عَلیٰ ما نَقُولُ وَکِیلٌ

(یوسف ۶۶/) (۱).

[سوره القصص (۲۸): الآیات ۲۹ الی ۴۲]

اشاره

فَلَمّا قَضی مُوسَی اَلْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ اَلطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ اُمْکُثُوا إِنِّی آنَسْتُ ناراً لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَهٍ مِنَ اَلنّارِ لَعَلَّکُمْ تَصْطَلُونَ (۲۹) فَلَمّا أَتاها نُودِیَ مِنْ شاطِئِ اَلْوادِ اَلْأَیْمَنِ فِی اَلْبُقْعَهِ اَلْمُبارَکَهِ مِنَ اَلشَّجَرَهِ أَنْ یا مُوسی إِنِّی أَنَا اَللّهُ رَبُّ اَلْعالَمِینَ (۳۰) وَ أَنْ أَلْقِ عَصاکَ فَلَمّا رَآها تَهْتَزُّ کَأَنَّها جَانٌّ وَلّی مُدْبِراً وَ لَمْ یُعَقِّبْ یا مُوسی أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّکَ مِنَ اَلْآمِنِینَ (۳۱) اُسْلُکْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ وَ اُضْمُمْ إِلَیْکَ جَناحَکَ مِنَ اَلرَّهْبِ فَذانِکَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّکَ إِلی فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ (۳۲) قالَ رَبِّ إِنِّی قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ یَقْتُلُونِ (۳۳) وَ أَخِی هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّی لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِی رِدْءاً یُصَدِّقُنِی إِنِّی أَخافُ أَنْ یُکَذِّبُونِ (۳۴) قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَکَ بِأَخِیکَ وَ نَجْعَلُ لَکُما سُلْطاناً فَلا یَصِلُونَ إِلَیْکُما بِآیاتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اِتَّبَعَکُمَا اَلْغالِبُونَ (۳۵) فَلَمّا جاءَهُمْ مُوسی بِآیاتِنا بَیِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاّ سِحْرٌ مُفْتَریً وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِی آبائِنَا اَلْأَوَّلِینَ (۳۶) وَ قالَ مُوسی رَبِّی أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدی مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَکُونُ لَهُ عاقِبَهُ اَلدّارِ إِنَّهُ لا یُفْلِحُ اَلظّالِمُونَ (۳۷) وَ قالَ فِرْعَوْنُ یا أَیُّهَا اَلْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرِی فَأَوْقِدْ لِی یا هامانُ عَلَی اَلطِّینِ فَاجْعَلْ لِی صَرْحاً لَعَلِّی أَطَّلِعُ إِلی إِلهِ مُوسی وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ مِنَ اَلْکاذِبِینَ (۳۸) وَ اِسْتَکْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِی اَلْأَرْضِ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَیْنا لا یُرْجَعُونَ (۳۹) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِی اَلْیَمِّ فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَهُ اَلظّالِمِینَ (۴۰) وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّهً یَدْعُونَ إِلَی اَلنّارِ وَ یَوْمَ اَلْقِیامَهِ لا یُنْصَرُونَ (۴۱) وَ أَتْبَعْناهُمْ فِی هذِهِ اَلدُّنْیا لَعْنَهً وَ یَوْمَ اَلْقِیامَهِ هُمْ مِنَ اَلْمَقْبُوحِینَ (۴۲)

ص: ۶۷۷

۱- ۱) .القصص ۲۲-۲۸:بحث روائی فی خروج موسی من مصر و وروده مدین و ذهابه الی شعیب.

بيان:

قوله تعالى: فَلَمّا قَضىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً الخ؛المراد بقضائه الأجل إتمامه مده خدمته لشعيب عليه السّلام و المروی أنه قضی أطول الأجلین،و الإیناس الإبصار و الرؤیه،و الجذوه من النار القاطعه منها،و الاصطلاء الاستدفاء.

ص: ۶۷۸

و السیاق یشهد أن الأمر کان اللیل و کانت لیله شدیده البرد و قد ضلّوا الطریق فرأی من جانب الطور و قد أشرفوا علیه نارا فأمر أهله أن یمکثوا لیذهب الی ما آنسه لعله یجد هناک من یخبره بالطریق أو یأخذ قطعه من النار فیصطلوا بها،و قد وقع فی القصه من سوره طه موضع قوله: «لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْهٰا بِخَبَرٍ» الخ؛قوله: لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْهٰا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَی النّٰارِ هُدیً (طه۱۰/)،و هو أدلّ علی کونهم ضلوا الطریق.

و کذا فی قوله خطابا لأهله: «امْکُثُوا» الخ؛شهاده علی أنه کان معها من یصحّ معه خطاب (۱)الجمع.

قوله تعالی: فَلَمّٰا أَتٰاهٰا نُودِیَ مِنْ شٰاطِئِ الْوٰادِ الْأَیْمَنِ فِی الْبُقْعَهِ الْمُبٰارَکَهِ مِنَ الشَّجَرَهِ الخ؛قال فی المفردات:شاطئ الوادی جانبه،و قال:أصل الوادی الموضع الذی یسیل منه الماء و منه سمی المنفرج بین الجبلین وادیا و جمعه أودیه انتهی و البقعه القطعه من الأرض علی غیر هیئه التی الی جنبها.

و المراد بالأیمن الجانب الأیمن مقابل الأیسر و هو صفه الشاطئ و لا یعبأ بما قاله بعضهم:

إن الأیمن من الیمین مقابل الأشأم من الشؤم.

و البقعه المبارکه قطعه خاصه من الشاطئ الأیمن فی الوادی کانت فیه الشجره التی نودی منها،و مبارکتها لتشرفها بالتقریب و التکلیم الإلهی و قد أمر بخلع نعلیه فیها لتقدسها کما قال تعالی فی القصه من سوره طه: فَاخْلَعْ نَعْلَیْکَ إِنَّکَ بِالْوٰادِ الْمُقَدَّسِ طُویً (طه۱۲/).

و لا ریب فی دلاله الآیه علی أن الشجره کانت مبدأ للنداء و التکلیم بوجه غیر أن الکلام و هو کلام اللّه سبحانه لم یکن قائما بها کقیام الکلام بالمتکلم منا فلم تکن إلاّ حجابا احتجب سبحانه به فکلمه من ورائه بما یلیق بساحه قدسه من معنی الاحتجاب و هو علی کل شیء

۱- ۱) .و فی التوراه الحاضره أنه حمل معه الی مصر امرأته و بنیه(سفر الخروج الاصحاح الرابع آیه ۲۰).

محيط،قال تعالى: وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مٰا يَشٰاءُ (الشورى/٥١).

و قوله: أَنْ يٰا مُوسىٰ إِنِّي أَنَا اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمِينَ أن فيه تفسيريه،و فيه إنباء عن الذات المتعاليه المسماه باسم الجلاله الموصوفه بوحدانيه الربوبيه النافيه لمطلق الشرك إذ كونه ربا للعالمين جميعا-و الرب هو المالك المدبر لملكه الذى يستحق العباده من مملوكيه-لا يدع شيئا من العالمين يكون مربوبا لغيره حتى يكون هناك رب غيره و إله معبود سواه.

ففى الآيه إجمال ما فصله فى سوره طه فى هذا الفصل من النداء من الإشاره الى الاصول الثلاثه أعنى التوحيد و النبوه و المعاد إذ قال: إِنَّنِي أَنَا اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاٰةَ لِذِكْرِي إِنَّ السّٰاعَةَ آتِيَةٌ الآيات؛(طه/١٤-١٦).

قوله تعالى: وَ أَنْ أَلْقِ عَصٰاكَ فَلَمّٰا رَآهٰا تَهْتَزُّ كَأَنَّهٰا جَانٌّ وَلّٰى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ تقدم تفسيره فى سوره النمل.

قوله تعالى: يٰا مُوسىٰ أَقْبِلْ وَ لاٰ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ بتقدير القول أى قيل له:أقبل و لا تخف إنك من الآمنين،و فى هذا الخطاب تأمين له،و به يظهر معنى قوله فى هذا الموضع من القصه فى سوره النمل: يٰا مُوسىٰ لاٰ تَخَفْ إِنِّي لاٰ يَخٰافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (النمل/ ١٠)و أنه تأمين معناه إنك مرسل و المرسلون آمنون لدى و ليس من العتاب و التوبيخ فى شيء.

قوله تعالى: اُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضٰاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ المراد بسلوك يده فى جيبه إدخاله فيه،و المراد بالسوء-على ما قيل-البرص.

و الظاهر أن فی هذا التقیید تعریضا لما فی التوراه الحاضره فی هذا (۱)الموضع من القصه:ثم قال له الرب أیضا:ادخل یدک فی عبک فأدخل یده فی عبه ثم أخرجها و إذا یده برصاء مثل الثلج.

قوله تعالی: وَ اضْمُمْ إِلَیْکَ جَنٰاحَکَ مِنَ الرَّهْبِ الی آخر الآیه؛الرهب بالفتح فالسکون و بفتحتین و بالضم فالسکون الخوف،و الجناح قیل:المراد به الید و قیل:العضد.

قیل:المراد بضم الجناح الیه من الرهب أن یجمع یدیه علی صدره إذا عرضه الخوف عند مشاهده انقلاب العصا حیه لیذهب ما فی قلبه من الخوف.

و قیل:إنه لما ألقی العصا و صارت حیه بسط یدیه کالمتقی و هما جناحاه فقیل له:اضمم الیک جناحک أی لا تبسط یدیک خوف الحیه فإنک آمن من ضررها.

و الوجهان-کما تری-مبنیان علی کون الجمله أعنی قوله: «وَ اضْمُمْ» الخ؛من تتمه قوله:

«أَقْبِلْ وَ لاٰ تَخَفْ إِنَّکَ مِنَ الْآمِنِینَ» و هذا لا یلائم تخلل قوله: «اسْلُکْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ» الخ؛بین الجملتین بالفصل من غیر عطف.

و قیل:الجمله کنایه عن الأمر بالعزم علی ما أراده اللّه سبحانه منه و الحثّ علی الجد فی أمر الرساله لئلا یمنعه ما یغشاه من الخوف فی بعض الأحوال.

و لا یبعد أن یکون المراد بالجمله الأمر بأن یأخذ لنفسه سیماء الخاشع المتواضع فإن من دأب المتکبر المعجب بنفسه أن یفرّج بین عضدیه و جنبیه کالمتمطی فی مشیته فیکون فی معنی ما أمر اللّه به النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من التواضع للمؤمنین بقوله: وَ اخْفِضْ جَنٰاحَکَ لِلْمُؤْمِنِینَ (الحجر/۸۸)علی بعض المعانی.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ إِنِّی قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخٰافُ أَنْ یَقْتُلُونِ إشاره الی

۱- ۱) .سفر الخروج الاصحاح الرابع آیه ۶.

قتله القبطى بالوكز و كان يخاف أن يقتلوه قصاصا.

قوله تعالى: وَ أَخِي هٰارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسٰاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخٰافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ قال فى المجمع:يقال:فلان ردء لفلان إذا كان ينصره و يشد ظهره.انتهى.

و قوله: إِنِّي أَخٰافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ تعليل لسؤاله إرسال هارون معه،و السياق يدل على أنه كان يخاف أن يكذبوه فيغضب و لا يستطيع بيان حجته للكنه كانت فى لسانه لا أنه سأل إرساله لئلا يكذبوه فإن من يكذبه لا يبالى أن يكذب هارون معه و من الدليل على ذلك ما وقع فى سوره الشعراء فى هذا الموضع من القصه من قوله: قٰالَ رَبِّ إِنِّي أَخٰافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لاٰ يَنْطَلِقُ لِسٰانِي فَأَرْسِلْ إِلىٰ هٰارُونَ (الشعراء۱۳/).

فمحصّل المعنى:أن أخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معينا لى يبيّن صدقى فى دعواى إذا خاصمونى إنى أخاف أن يكذبونى فلا أستطيع بيان صدق دعواى.

قوله تعالى: قٰالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمٰا سُلْطٰاناً فَلاٰ يَصِلُونَ إِلَيْكُمٰا بِآيٰاتِنٰا أَنْتُمٰا وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰالِبُونَ شدّ عضده بأخيه كنايه عن تقويته به، و عدم الوصول اليهما كنايه عن عدم التسلط عليهما بالقتل و نحوه كأن الطائفتين يتسابقان و إحداهما متقدمه دائما و الاخرى لا تدركهم بالوصول اليهم فضلا أن يسبقوهم.

و المعنى:قال:سنقوّيك و نعينك بأخيك هارون و نجعل لكما سلطه و غلبه عليهم فلا يتسلطون عليكما بسبب آياتنا التى نظهركما بها.ثم قال: «أَنْتُمٰا وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰالِبُونَ» و هو بيان لقوله: «وَ نَجْعَلُ لَكُمٰا سُلْطٰاناً» الخ؛يوضح أن هذا السلطان يشملهما و من اتبعهما من الناس.

قوله تعالى: فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ مُوسىٰ بِآيٰاتِنٰا بَيِّنٰاتٍ قٰالُوا مٰا هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُفْتَرىً الخ؛أى سحر موصوف بأنه مفترى و المفترى اسم مفعول بمعنى المختلق أو مصدر

میمیّ وصف به السحر مبالغه.

و الإشاره فی قوله: «مٰا هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُفْتَریً» الی ما جاء به من الآیات أی لیس ما جاء به من الخوارق إلاّ سحرا مختلقا افتعله فنسبه الی اللّه کذبا.

و الإشاره فی قوله: «وَ مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِی آبٰائِنَا الْأَوَّلِینَ» الی ما جاء به من الدعوه و أقام علیها حجه الآیات،و أما احتمال أن یراد بها الإشاره الی الآیات فلا یلائمه تکرار اسم الإشاره علی أنهم کانوا یدّعون أنهم سیأتون بمثلها کما حکی اللّه عن فرعون فی قوله: فَلَنَأْتِیَنَّکَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ (طه۵۸/)،علی أن عدم معهودیه السحر و عدم مسبوقیته بالمثل لا ینفعهم شیئا حتی یدّعوه.

فالمعنی:أن ما جاء به موسی دین مبتدع لم ینقل عن آبائنا الأولین أنهم اتخذوه فی وقت من الأوقات،و یناسبه ما حکی فی الآیه التالیه من قول موسی «رَبِّی أَعْلَمُ بِمَنْ جٰاءَ بِالْهُدیٰ» الخ.

قوله تعالی: وَ قٰالَ مُوسیٰ رَبِّی أَعْلَمُ بِمَنْ جٰاءَ بِالْهُدیٰ مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَکُونُ لَهُ عٰاقِبَهُ الدّٰارِ الخ؛مقتضی السیاق کونه جوابا من موسی عن قولهم: «وَ مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِی آبٰائِنَا الْأَوَّلِینَ» فی رد دعوی موسی،و هو جواب مبنی علی التحدی کأنه یقول:إن ربی -و هو رب العالمین له الخلق و الأمر-هو أعلم منکم بمن جاء بالهدی و من تکون له عاقبه الدار و هو الذی أرسلنی رسولا جائیا بالهدی-و هو دین التوحید-و وعدنی أن من أخذ بدینی فله عاقبه الدار،و الحجه علی ذلک الآیات البینات التی آتانیها من عنده.

فقوله: رَبِّی أَعْلَمُ بِمَنْ جٰاءَ بِالْهُدیٰ مِنْ عِنْدِهِ یرید به نفسه و المراد بالهدی الدعوه الدینیه التی جاء بها.

و قوله: وَ مَنْ تَکُونُ لَهُ عٰاقِبَهُ الدّٰارِ المراد بعاقبه الدار إما الجنه التی هی الدار الآخره التی یسکنها السعداء کما قال تعالی حکایه عنهم: وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّهِ

حَيْثُ نَشٰاءُ (الزمر۷۴/)،و إما عاقبه الدار الدنيا كما فى قوله: قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّٰهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُهٰا مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ الْعٰاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (الأعراف/ ۱۲۸)،و إما الأعم الشامل للدنيا و الآخره،و الثالث أحسن الوجوه ثم الثانى كما يؤيده تعليله بقوله: «إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ الظّٰالِمُونَ» .

و فى قوله: إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ الظّٰالِمُونَ تعريض لفرعون و قومه و فيه نفى أن تكون لهم عاقبه الدار فإنهم بنوا سنه الحياه على الظلم و فيه انحراف عن العداله الاجتماعيه التى تهدى إليها فطره الإنسان الموافقه للنظام الكونى.

قوله تعالى: وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ يٰا أَيُّهَا الْمَلَأُ مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي الى آخر الآيه؛فيه تعريض لموسى بما جاء به من الدعوه الحقه المؤيده بالآيات المعجزه يريد أنه لم يتبين له حقيه ما يدعو اليه موسى و لا كون ما أتى به من الخوارق آيات معجزه من عند اللّٰه و أنه ما علم لهم من إله غيره.

فقوله: مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي سوق للكلام فى صوره الإنصاف ليقع فى قلوب الملأ موقع القبول كما هو ظاهر قوله المحكى فى موضع آخر: مٰا أُرِيكُمْ إِلاّٰ مٰا أَرىٰ وَ مٰا أَهْدِيكُمْ إِلاّٰ سَبِيلَ الرَّشٰادِ (المؤمن۲۹/).

فمحصل المعنى:أنه ظهر للملإ أنه لم يتضح له من دعوه موسى و آياته أن هناك إلها هو رب العالمين و لا حصل له علم بأن هناك إلها غيره ثم أمر هامان أن يبنى له صرحا لعله يطّلع الى إله موسى.

و قوله: فَأَوْقِدْ لِي يٰا هٰامٰانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً المراد بالإيقاد على الطين تأجيج النار عليه لصنعه الآجر المستعمل فى الأبنيه،و الصرح البناء العالى المكشوف من صرح الشىء إذا ظهر ففى الجمله أمر باتخاذ الآجر و بناء قصر عال منه.

و قوله: لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ نسب الإله الى موسى بعنايه أنه هو الذى

يـدعو اليه،و الكلام من وضع النتيجه موضع المقـدمه و التقدير:اجعل لى صـرحا أصـعد الى أعلى درجاته فأنظر الى السـماء لعلى أطّلع الى إله موسـى كـأنه كـان يرى أنه تعـالى جسم سـاكن فى بعض طبقـات الجو أو الأفلاـك فكـان يرجو إذا نظر من أعلى الصرح أن يطّلع اليه أو كان هذا القول من قبيل التعميه على الناس و إضلالهم.

و يمكن أن يكون المراد أن يبنى له رصدا يترصد الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على بعثه رسول أو حقيّه ما يصـفه موسى عليه السّـلام،و يؤيد هذا قوله على ما حكى فى موضع آخر: يٰا هٰامٰانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ اَلْأَسْبٰابَ أَسْبٰابَ اَلسَّمٰاوٰاتِ فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كٰاذِباً (المؤمن٣٧/).

و قوله: وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ اَلْكٰاذِبِينَ ترقّ منه من الجهل الذى يدل عليه قوله: «مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي» الى الظن بعدم الوجود و قـد كان كاذبا فى قوله هـذا و لا يقوله إلاّ تمويها و تعميه على الناس و قد خاطبه موسـى بقوله: لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا أَنْزَلَ هٰؤُلاٰءِ إِلاّٰ رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ (الإسراء١٠٢/).

و ذكر بعضـهم أن قوله: «مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي» من قبيـل نفى المعلوم بنفى العلم فيمـا لو كان لبان فيكون نظير قوله: قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اَللّٰهَ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي اَلْأَرْضِ (يونس/ ١٨)،و أنت خبير بأنه لا يلائم ذيل الآيه.

قوله تعالى: وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي اَلْأَرْضِ بِغَيْرِ اَلْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنٰا لاٰ يُرْجَعُونَ أى كانت حالهم حال من يترجح عنده عدم الرجوع و ذلك أنهم كانوا موقنين فى أنفسهم كما قال تعالى: «وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» .

قوله تعالى: فَأَخَذْنٰاهُ وَ جُنُودَهُ الـخ؛النبذ الطرح،و اليم البحر و الباقى ظاهر.و فى الآيه من الاسـتهانه بأمرهم و تهويل العذاب الواقع بهم ما لا يخفى.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى اَلنّٰارِ وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ لاٰ يُنْصَرُونَ

الدعوه الی النار هی الدعوه الی ما یستوجب النار من الکفر و المعاصی لکونها هی التی تتصور لهم یوم القیامه نارا یعذّبون فیها أو المراد بالنار ما یستوجبها مجازا من باب إطلاق المسبب و إراده سببه.

و معنی جعلهم أئمه یدعون الی النار،تصییرهم سابقین فی الضلال یقتدی بهم اللاحقون و لا ضیر فیه لکونه بعنوان المجازاه علی سبقهم فی الکفر و الجحود و لیس من الإضلال الابتدائی فی الشیء.

و قوله: «وَ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ لاٰ یُنْصَرُونَ» أی لا تنالهم شفاعه من ناصر.

قوله تعالی: وَ أَتْبَعْنٰاهُمْ فِی هٰذِهِ الدُّنْیٰا لَعْنَهً وَ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِینَ بیان للازم ما وصفهم به فی الآیه السابقه فهم لکونهم أئمه یقتدی بهم من خلفهم فی الکفر و المعاصی و لا یزال یتبعهم ضلال الکفر و المعاصی من مقتدیهم و متّبعیهم و علیهم من الأوزار مثل ما للمتبعین فیتبعهم لعن مستمر باستمرار الکفر و المعاصی بعدهم.

فالآیه فی معنی قوله: وَ لَیَحْمِلُنَّ أَثْقٰالَهُمْ وَ أَثْقٰالاً مَعَ أَثْقٰالِهِمْ (العنکبوت/۱۳)و قوله:

وَ نَکْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ (یس/۱۲)،و تنکیر العنه للدلاله علی تفخیمها و استمرارها.

و کذا لما لم ینلهم یوم القیامه نصر ناصر کانوا بحیث یتنفر و یشمئز عنهم النفوس و یفر منهم الناس و لا یدنو منهم أحد و هو معنی القبح و قد وصف اللّه تعالی من قبح منظرهم شیئا کثیرا فی کلامه (۱)(۲).

۱- ۱) .القصص ۲۹-۴۲:بحث روائی فی قصه و خروجه من مدین الی مصر و بعثته بالرساله.

۲- ۲) .القصص ۲۹-۴۲:کلام حول قصص موسی و هارون علیهما السّلام فی فصول(منزله موسی عند اللّه و موقفه العبودی؛قصص موسی علیه السّلام فی القرآن،منزله هارون علیه السّلام عند اللّه و موقفه العبودی؛قصه موسی علیه السّلام فی التوراه الحاضره).

[سوره القصص (۲۸): الآيات ۴۳ الى ۵۶]

اشاره

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى اَلْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا اَلْقُرُونَ اَلْأُولى بَصائِرَ لِلنّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۴۳) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ اَلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى اَلْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ اَلشّاهِدِينَ (۴۴) وَ لكِنّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ اَلْعُمُرُ وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ لكِنّا كُنّا مُرْسِلِينَ (۴۵) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ اَلطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۴۶) وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ (۴۷) فَلَمّا جاءَهُمُ اَلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (۴۸) قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اَللّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۹) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اِتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اَللّهِ إِنَّ اَللّهَ لا يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلظّالِمِينَ (۵۰) وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ اَلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۵۱) اَلَّذِينَ آتَيْناهُمُ اَلْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (۵۲) وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنّا بِهِ إِنَّهُ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنّا كُنّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (۵۳) أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ اَلسَّيِّئَةَ وَ مِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۵۴) وَ إِذا سَمِعُوا اَللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي اَلْجاهِلِينَ (۵۵) إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اَللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۵۶)

ص: ۶۸۷

بيان:

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنّاسِ الخ؛اللام للقسم أی اقسم لقد أعطينا موسی الكتاب و هو التوراه بوحيه اليه.

و قوله: مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى أی الأجيال السابقه علی نزول التوراه كقوم نوح و من بعدهم من الامم الهالكه و لعل منهم قوم فرعون،و فی هذا التقييد إشاره الی مسيس الحاجه حينئذ الی نزول الكتاب لاندراس معالم الدين الإلهی بمضیّ الماضين و ليشار فی الكتاب الالهی الی قصصهم و حلول العذاب الإلهی بهم بسبب تكذيبهم لآيات اللّه ليعتبر به المعتبرون و يتذكر به المتذكرون.

ص: ۶۸۸

و قوله: بَصٰائِرَ لِلنّٰاسِ جمع بصيره بمعنى ما يبصر به و كأن المراد بها الحجج البيّنه التى يبصّر بها الحق و يميّز بها بينه و بين الباطل،و هى حال من الكتاب و قيل:مفعول له.

و قوله: وَ هُدىً بمعنى الهادى أو ما يهتدى به و كذا قوله: «وَ رَحْمَةً» بمعنى ما يرحم به و هما حالان من الكتاب كبصائر،و قيل:كل منهما مفعول له.

و المعنى:و أقسم لقد أعطينا موسى الكتاب و هو التوراه من بعد ما أهلكنا الأجيال الاولى فاقتضت الحكمه تجديد الدعوه و الإنذار حال كون الكتاب حججا بيّنه يبصر بها الناس المعارف الحقه و هدى يهتدون به إليها و رحمه يرحمون بسبب العمل بشرائعه و أحكامه لعلهم يتذكرون فيفقهون ما يجب عليهم من الاعتقاد و العمل.

قوله تعالى: وَ مٰا كُنْتَ بِجٰانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنٰا إِلىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَ مٰا كُنْتَ مِنَ الشّٰاهِدِينَ الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و الغربى صفه محذوفه الموصوف و المراد جانب الوادى الغربى أو جانب الجبل الغربى.

و قوله: إِذْ قَضَيْنٰا إِلىٰ مُوسَى الْأَمْرَ كأن القضاء مضمّن معنى العهد،و المراد بعهد الأمر اليه-على ما قيل-إحكام أمر نبوّته بإنزال التوراه اليه و أما العهد اليه بأصل الرساله فيدلّ عليه قوله بعد: «وَ مٰا كُنْتَ بِجٰانِبِ الطُّورِ إِذْ نٰادَيْنٰا» و قوله: «وَ مٰا كُنْتَ مِنَ الشّٰاهِدِينَ» تأكيد لسابقه.

و المعنى:و ما كنت حاضرا و شاهدا حين أنزلنا التوراه على موسى فى الجانب الغربى من الوادى أو الجبل.

قوله تعالى: وَ لٰكِنّٰا أَنْشَأْنٰا قُرُوناً فَتَطٰاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ تطاول العمر تمادى الأمد و الجمله استدراك عن النفى فى قوله: «وَ مٰا كُنْتَ بِجٰانِبِ الْغَرْبِيِّ» ،و المعنى:ما كنت حاضرا هناك شاهدا لما جرى فيه و لكنا أوجدنا أجيالا بعده فتمادى بهم الأمد ثم أنزلنا عليك قصته و خبر نزول الكتاب عليه ففى الكلام إيجاز بالحذف لدلاله المقام عليه.

قوله تعالى: وَ مٰا كُنْتَ ثٰاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيٰاتِنٰا وَ لٰكِنّٰا كُنّٰا مُرْسِلِينَ الثاوى المقيم يقال:ثوى فى المكان إذا أقام فيه،و الضمير فى «عَلَيْهِمْ» لمشركى مكه الذى كان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم يتلو عليهم آيات اللّه التى تقصّ ما جرى على موسى عليه السّلام فى مدين زمن كونه فيه.

و قوله: وَ لٰكِنّٰا كُنّٰا مُرْسِلِينَ استدراك من النفى فى صدر الآيه.

و المعنى:و ما كنت مقيما فى أهل مدين-و هم شعيب و قومه-مشاهدا لما جرى على موسى هناك تتلو على المشركين آياتنا القاصّه لخبره هناك و لكنا كنا مرسلين لك الى قومك موحين بهذه الآيات اليك لتتلوها عليهم.

قوله تعالى: وَ مٰا كُنْتَ بِجٰانِبِ الطُّورِ إِذْ نٰادَيْنٰا وَ لٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ الى آخر الآيه؛الظاهر من مقابله الآيه لقوله السابق: «وَ مٰا كُنْتَ بِجٰانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنٰا» الخ؛ أن المراد بهذا النداء ما كان من الشجره فى الليله التى آنس فيها من جانب الطور نارا.

و قوله: وَ لٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ الخ؛استدراك عن النفى السابق،و الظاهر أن «رَحْمَةً» مفعول له،و الالتفات عن التكلم بالغير الى الغيبه فى قوله: «مِنْ رَبِّكَ» للدلاله على كمال عنايته تعالى به صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و قوله: لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أَتٰاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ الظاهر أن المراد بهذا القوم أهل عصر الدعوه النبويه أو هم و من يقارنهم من آبائهم فإن العرب خلت فيهم رسل منهم كهود و صالح و شعيب و إسماعيل عليهم السّلام.

و المعنى:و ما كنت حاضرا فى جانب الطور إذ نادينا موسى و كلّمناه و اخترناه للرساله حتى تخبر عن هذه القصه إخبار الحاضر المشاهد و لكن لرحمه منا أخبرناك بها لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون.

قوله تعالى: وَ لَوْ لاٰ أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنٰا

الخ؛المراد بما قدّمت أيديهم ما اكتسبوه من السيئات من طريق الاعتقاد و العمل بدليل ذيل الآيه،و المراد بالمصيبه التى تصيبهم أعم من مصيبه الدنيا و الآخره فإن الإعراض عن الحق بالكفر و الفسوق يستتبع المؤاخذه الإلهيه فى الدنيا كما يستتبعها فى الآخره،و قد تقدم بعض الكلام فيه فى ذيل قوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ (الأعراف۹۶/)و غيره.

و قوله: فَيَقُولُوا رَبَّنٰا لَوْ لاٰ أَرْسَلْتَ متفرع على ما تقدمه على تقديم عدم إرسال الرسول و جواب لو لا محذوف لظهوره و التقدير:و لما أرسلنا رسولا.

و محصّل المعنى:أنه لو لا أنه تكون لهم الحجه علينا على تقدير عدم إرسال الرسول و أخذهم بالعذاب بما قدّمت أيديهم من الكفر و الفسوق لما أرسلنا اليهم رسولا لكنهم قولون ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فنتّبع آياتك التى يتلوها علينا و نكون من المؤمنين.

قوله تعالى: فَلَمّٰا جٰاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوا لَوْ لاٰ أُوتِيَ مِثْلَ مٰا أُوتِيَ مُوسىٰ الخ؛أى فأرسلنا اليهم الرسول بالحق و أنزلنا الكتاب فلما جاءهم الحق من عندنا و الظاهر أنه الكتاب النازل على الرسول و هو القرآن النازل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و المراد بقولهم: لَوْ لاٰ أُوتِيَ مِثْلَ مٰا أُوتِيَ مُوسىٰ أى لو لا أوتى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم مثل التوراه التى أوتيها موسى عليه السّلام،و كأنهم يريدون به أن ينزل القرآن جمله واحده كما حكى اللّه تعالى عنهم بقوله: وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وٰاحِدَةً (الفرقان/ ۳۲).

و قد أجاب اللّه عن قولهم بقوله: «أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمٰا أُوتِيَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ قٰالُوا سِحْرٰانِ تَظٰاهَرٰا» يعنون القرآن و التوراه «وَ قٰالُوا إِنّٰا بِكُلٍّ كٰافِرُونَ» .و الفرق بين القولين أن الأول كفر بالكتابين و الثانى كفر بأصل النبوه و لعله الوجه لتكرار «قٰالُوا» فى الكلام.

قوله تعالى: قُلْ فَأْتُوا بِكِتٰابٍ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ هُوَ أَهْدىٰ مِنْهُمٰا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ

صادِقِینَ تفریع علی کون القرآن و التوراه سحرین تظاهرا،و لا یصح هذا التفریع إلاّ إذا کان من الواجب أن یکون بین الناس کتاب من عند اللّه سبحانه یهدیهم و یجب علیهم اتباعه فإذا کانا سحرین باطلین کان الحق غیرهما،و هو کذلک علی ما تبین بقوله: «وَ لَوْ لاٰ أَنْ تُصِیبَهُمْ مُصِیبَهٌ» الخ؛أن للناس علی اللّه أن ینزل علیهم الکتاب و یرسل الیهم الرسول،و لذلک أمر تعالی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یطالبهم بکتاب غیرهما هو أهدی منهما لیتّبعه.

ثم الکتابان لو کانا سحرین تظاهرا کان باطلین مضلّین لا هدی فیهما حتی یکون غیرهما من الکتاب الذی یأتون به أهدی منهما-لاستلزام صیغه التفضیل اشتراک المفضّل و المفضل علیه فی أصل الوصف-لکن المقام لما کان مقام المحاجه ادعی أن الکتابین هادیان لا مزید علیهما فی الهدایه فإن لم یقبل الخصم ذلک فلیأت بکتاب یزید علیهما فی معنی ما یشتملان علیه من بیان الواقع فیکون أهدی منهما.

و القرآن الکریم و إن کان یصرّح بتسرّب التحریف و الخلل فی التوراه الحاضره و ذلک لا یلائم عدّها کتاب هدی بقول مطلق لکن الکلام فی التوراه الواقعیه النازله علی موسی علیه السّلام و هی التی یصدقها القرآن.

علی أن موضوع الکلام هما معا و القرآن یقوّم التوراه الحاضره ببیان ما فیها من الخلل فهما معا هدی لا کتاب أهدی منهما.

قوله تعالی: فَإِنْ لَمْ یَسْتَجِیبُوا لَکَ فَاعْلَمْ أَنَّمٰا یَتَّبِعُونَ أَهْوٰاءَهُمْ الی آخر الآیه؛الاستجابه و الإجابه بمعنی واحد،قال فی الکشاف:هذا الفعل یتعدی الی الدعاء بنفسه و الی الداعی باللام،و یحذف الدعاء إذا عدّی الی الداعی فی الغالب فیقال:استجاب اللّه دعاءه أو استجاب له،و لا یکاد یقال:استجاب له دعاءه.انتهی.

فقوله: فَإِنْ لَمْ یَسْتَجِیبُوا لَکَ تفریع علی قوله: «قُلْ فَأْتُوا بِکِتٰابٍ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ هُوَ أَهْدیٰ مِنْهُمٰا أَتَّبِعْهُ» أی فإن قلت لهم کذا و کلّفتهم بذلک فلم یأتوا بکتاب هو أهدی من القرآن

و التوراه و تعيّن أن لا هدى أتمّ و أكمل من هداهما و هم مع ذلك يرمونها بالسحر و يعرضون عنهما فاعلم انهم ليسوا فى طلب الحق و لا بصدد اتباع ما هو صريح حجّه العقل و إنما يتبعون أهواءهم و يدافعون عن مشتهيات طباعهم بمثل هذه الأباطيل «سِحْرانِ تَظاهَرا» «إِنّا بِكُلٍّ كافِرُونَ» .

و يمكن أن يكون المراد بقوله: «أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ» انهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما و هم غير مؤمنين بهما فاعلم أنهم إنما يبنون سنه الحياه على اتباع الأهواء و لا يعتقدون بأصل النبوّه و أن للّه دينا سماويا نازلا عليهم من طريق الوحى و عليهم ان يتبعوه و يسلكوا مسلك الحياه بهدى ربهم،و ربما أيد هذا المعنى قوله بعد: «وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللّهِ» الخ.

و قوله: وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللّهِ استفهام إنكارى و المراد به استنتاج انهم ضالون،و قوله: «إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ» تعليل لكونهم ضالين باتباع الهوى فإن اتباع الهوى إعراض عن الحق و انحراف عن صراط الرشد و ذلك ظلم و اللّه لا يهدى القوم الظالمين و غير المهتدى هو الضال.

و محصّل الحجه انهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما و ليسوا مؤمنين بهما فهم متبعون للهوى،و متبع الهوى ظالم و الظالم غير مهتد و غير المهتدى ضال فهم ضالون.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ التوصيل تفعيل من الوصل يفيد التكثير كالقطع و التقطيع و القتل و التقتيل،و الضمير لمشركى مكه و المعنى أنزلنا عليهم القرآن موصولا بعضه ببعض:الآيه بعد الآيه،و السوره إثر السوره من وعد و وعيد و معارف و أحكام و قصص و عبر و حكم و مواعظ لعلم يتذكرون.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ الضميران للقرآن و قيل:للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.و الأول أوفق للسياق،و فى الآيه و ما بعدها مدح طائفه من مؤمنى

أهل الكتاب بعد ما تقدم فی الآيات السابقه من ذم المشركين من أهل مكه.

و سياق ذيل الآيات يشهد على أن هؤلاء الممدوحين طائفه خاصه من أهل الكتاب آمنوا به فلا يعبأ بما قيل إن المراد بهم مطلق المؤمنين منهم.

قوله تعالى: وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا الخ؛ضمائر الإفراد للقرآن،و اللام فی «الْحَقُّ» للعهد و المعنى و إذا يقرأ القرآن عليهم قالوا:آمنا به إنه الحق الذی نعهده من ربنا فإنه عرفناه من قبل.

و قوله: إِنّا كُنّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ تعليل لكونه حقا معهودا عندهم أی إنا كنا من قبل نزوله مسلمين له أو مؤمنين للدين الذی يدعو اليه و يسميه إسلاما.

قوله تعالى: أُولٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَهِ السَّيِّئَهَ الخ؛فی الآيه وعد جميل لهم على ما فعلوا و مدح لهم على حسن سلوكهم و مداراتهم مع جهله المشركين و لذا كان الأقرب الى الفهم أن يكون المراد بإيتائهم أجرهم مرتين إيتاؤهم أجر الإيمان بكتابهم و أجر الإيمان بالقرآن و صبرهم على الإيمان بعد الايمان بما فيهما من كلفه مخالفه الهوى.

و قوله: وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَهِ السَّيِّئَهَ الخ؛الدرء الدفع،و المراد بالحسنه و السيئه قيل:الكلام الحسن و الكلام القبيح،و قيل:العمل الحسن و السيئ و هما المعروف و المنكر، و قيل:الخلق الحسن و السيئ و هما الحلم و الجهل،و سياق الآيات أوفق للمعنى الأخير فيرجع المعنى الى أنهم يدفعون أذى الناس عن أنفسهم بالمداراه،و الباقی ظاهر.

قوله تعالى: وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ الخ؛المراد باللغو لغو الكلام بدليل تعلقه بالسمع،و المراد سقط القول الذی لا ينبغی الاشتغال به من هذر أو سبّ و كل ما فيه خشونه،و لذا لما سمعوه أعرضوا عنه و لم يقابلوه بمثله و قالوا:لنا أعمالنا و لكم أعمالكم و هو متاركه،و قوله: «سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ» أی أمان

منا لكم،و هو أيضا متاركه و توديع تكرّما كما قال تعالى: «وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً» .

و قوله: لا نَبْتَغِی الْجاهِلِینَ أی لا نطلبهم بمعاشره و مجالسه،و فيه تأكيد لما تقدمه،و هو حكايه عن لسان حالهم إذ لو تلفظوا به لكان من مقابله السيئ بالسيئ.

قوله تعالى: إِنَّکَ لا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لکِنَّ اللّهَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ المراد بالهدايه الإيصال الى المطلوب و مرجعه الى إفاضه الإيمان على القلب و معلوم أنه من شأنه تعالى لا يشاركه فيه أحد،و ليس المراد بها إراءه الطريق فإنه من وظيفه الرسول لا معنى لنفيه عنه،و المراد بالاهتداء قبول الهدايه.

لما بيّن فی الآيات السابقه حرمان المشركين و هم قوم النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلم من نعمه الهدايه و ضلالهم باتباع الهوى و استكبارهم عن الحق النازل عليهم و إيمان أهل الكتاب به و اعترافهم بالحق ختم القول فی هذا الفصل من الكلام بأن أمر الهدايه الى اللّه لا اليك يهدى هؤلاء و هم من غير قومك الذين تدعوهم و لا يهدى هؤلاء و هم قومك الذين تحب اهتداءهم و هو أعلم بالمهتدين (۱).

[سوره القصص (۲۸): الآيات ۵۷ الى ۷۵]

اشاره

وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ اَلْهُدی مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً یُجْبی إِلَیْهِ ثَمَراتُ کُلِّ شَیْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنّا وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ (۵۷) وَ کَمْ أَهْلَکْنا مِنْ قَرْیَهٍ بَطِرَتْ مَعِیشَتَها فَتِلْکَ مَساکِنُهُمْ لَمْ تُسْکَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاّ قَلِیلاً وَ کُنّا نَحْنُ اَلْوارِثِینَ (۵۸) وَ ما کانَ رَبُّکَ مُهْلِکَ اَلْقُری حَتّی یَبْعَثَ فِی أُمِّها رَسُولاً یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِنا وَ ما کُنّا مُهْلِکِی اَلْقُری إِلاّ وَ أَهْلُها ظالِمُونَ (۵۹) وَ ما أُوتِیتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَمَتاعُ اَلْحَیاهِ اَلدُّنْیا وَ زِینَتُها وَ ما عِنْدَ اَللّهِ خَیْرٌ وَ أَبْقی أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۶۰) أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِیهِ کَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ اَلْحَیاهِ اَلدُّنْیا ثُمَّ هُوَ یَوْمَ اَلْقِیامَهِ مِنَ اَلْمُحْضَرِینَ (۶۱) وَ یَوْمَ یُنادِیهِمْ فَیَقُولُ أَیْنَ شُرَکائِیَ اَلَّذِینَ کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۶۲) قالَ اَلَّذِینَ حَقَّ عَلَیْهِمُ اَلْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ اَلَّذِینَ أَغْوَیْنا أَغْوَیْناهُمْ کَما غَوَیْنا تَبَرَّأْنا إِلَیْکَ ما کانُوا إِیّانا یَعْبُدُونَ (۶۳) وَ قِیلَ اُدْعُوا شُرَکاءَکُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ یَسْتَجِیبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا اَلْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ کانُوا یَهْتَدُونَ (۶۴) وَ یَوْمَ یُنادِیهِمْ فَیَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ اَلْمُرْسَلِینَ (۶۵) فَعَمِیَتْ عَلَیْهِمُ اَلْأَنْباءُ یَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا یَتَساءَلُونَ (۶۶) فَأَمّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسی أَنْ یَکُونَ مِنَ اَلْمُفْلِحِینَ (۶۷) وَ رَبُّکَ یَخْلُقُ ما یَشاءُ وَ یَخْتارُ ما کانَ لَهُمُ اَلْخِیَرَهُ سُبْحانَ اَللّهِ وَ تَعالی عَمّا یُشْرِکُونَ (۶۸) وَ رَبُّکَ یَعْلَمُ ما تُکِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما یُعْلِنُونَ (۶۹) وَ هُوَ اَللّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ لَهُ اَلْحَمْدُ فِی اَلْأُولی وَ اَلْآخِرَهِ وَ لَهُ اَلْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۷۰) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ جَعَلَ اَللّهُ عَلَیْکُمُ اَللَّیْلَ سَرْمَداً إِلی یَوْمِ اَلْقِیامَهِ مَنْ إِلهٌ غَیْرُ اَللّهِ یَأْتِیکُمْ بِضِیاءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ (۷۱) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ جَعَلَ اَللّهُ عَلَیْکُمُ اَلنَّهارَ سَرْمَداً إِلی یَوْمِ اَلْقِیامَهِ مَنْ إِلهٌ غَیْرُ اَللّهِ یَأْتِیکُمْ بِلَیْلٍ تَسْکُنُونَ فِیهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۷۲) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَکُمُ اَللَّیْلَ وَ اَلنَّهارَ لِتَسْکُنُوا فِیهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۷۳) وَ یَوْمَ یُنادِیهِمْ فَیَقُولُ أَیْنَ شُرَکائِیَ اَلَّذِینَ کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۷۴) وَ نَزَعْنا مِنْ کُلِّ أُمَّهٍ شَهِیداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَکُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ اَلْحَقَّ لِلّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ (۷۵)

۱- ۱) .القصص ۴۳-۵۶:بحث روائی فی فضل محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم و امته؛ایمان أبی طالب.

بيان:

قوله تعالى: وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا الى آخر الآيه؛ التخطف الاختلاس بسرعه،و قيل الخطف و التخطف الاستلاب من كل وجه،و كأن تخطفهم من أرضهم استعاره أريد به القتل و السبى و نهب الأموال كأنهم و ما يتعلق بهم من أهل و مال يؤخذون فتخلو منهم أرضهم،و المراد بالأرض أرض مكه و الحرم بدليل قوله بعد: «أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً» و القائل بعض مشركى مكه.

و الجمله مسوقه للاعتذار عن الإيمان بأنهم إن آمنوا تخطّفتهم العرب من أرضهم أرض مكه لأنهم مشركون لا يرضون بإيمانهم و رفض أوثانهم فهو من قبيل إبداء المانع ففيه اعتراف بحقيه أصل الدعوه و أن الكتاب بما يشتمل عليه حق لكن خطر التخطف مانع من قبوله

ص: ۶۹۷

و الإیمان به،و لهذا عبّر بقوله: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدیٰ مَعَکَ» و لم یقل:إن نتبع کتابک أو دینک أو ما یقرب من ذلک.

و قوله: أَ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً قیل:التمکین مضمّن معنی الجعل و المعنی أو لم نجعل لهم حرما آمنا ممکّنین إیاهم،و قیل:حرما منصوبا علی الظرفیه و المعنی:أو لم نمکّن لهم فی حرم،و «آمِناً» صفه «حَرَماً» أی حرما ذا أمن،و عدّ الحرم ذا أمن-و المتلبّس بالأمن أهله-من المجاز فی النسبه،و الجمله معطوفه علی محذوف و التقدیر أو لم نعصمهم و نجعل لهم حرما آمنا ممکّنین إیاهم.

و هذا جواب أول منه تعالی لقولهم: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدیٰ مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنٰا» و محصّله:أنا مکّناهم فی أرض جعلناها حرما ذا أمن تحترمه العرب فلا موجب لخوفهم أن یتخطفوا منها إن آمنوا.

و قوله: یُجْبیٰ إِلَیْهِ ثَمَرٰاتُ کُلِّ شَیْءٍ الجبایه الجمع،و الکل للتکثیر لا للعموم لعدم إراده العموم قطعا،و المعنی:یجمع الی الحرم ثمرات کثیر من الأشیاء،و الجمله صفه لحرما جیء بها لما عسی أن یتوهم انهم یتضررون إن آمنوا بانقطاع المیره.

و قوله: رِزْقاً مِنْ لَدُنّٰا مفعول مطلق أو حال من ثمرات،و قوله: «وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ» استدراک عن جمیع ما تقدم أی إنا نحن حفظناهم فی أمن و رزقناهم من کل الثمرات لکن أکثرهم جاهلون بذلک فیحسبون أن الذی یحفظهم من تخطف العرب هو شرکهم و عبادتهم الأصنام.

قوله تعالی: وَ کَمْ أَهْلَکْنٰا مِنْ قَرْیَهٍ بَطِرَتْ مَعِیشَتَهٰا الی آخر الآیه؛البطر الطغیان عند النعمه،و «مَعِیشَتَهٰا» منصوب بنزع الخافض أی و کم أهلکنا من قریه طغت فی معیشتها.

و قوله: فَتِلْکَ مَسٰاکِنُهُمْ لَمْ تُسْکَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاّٰ قَلِیلاً أی إن مساکنهم

الخربه الخاويه على عروشها مشهوده لكم نصب أعينكم باقيه على خرابها لم تعمر و لم تسكن بعد هلاكهم إلاّ قليلا منها.

و بذلك يظهر أن الأنسب كون «إِلاّٰ قَلِيلاً» استثناء من «مَسٰاكِنُهُمْ» لا من قوله: «مِنْ بَعْدِهِمْ» بأن يكون المعنى لم تسكن من بعدهم إلاّ زمانا قليلا إذ لا يسكنها إلاّ المارّه يوما أو بعض يوم فی الأسفار.

و قوله: وَ كُنّٰا نَحْنُ الْوٰارِثِينَ حيث ملكوها ثم تركوها فلم يخلفهم غيرنا فنحن ورثناهم مساكنهم،و فی الجمله أعنی قوله: «كُنّٰا نَحْنُ الْوٰارِثِينَ» عنايه لطيفه فإنه تعالى هو المالک لكل شیء ملكا حقيقيا مطلقا فهو المالک لمساكنهم و قد ملكها إياهم بتسليطهم عليها ثم نزعها من أيديهم بإهلاكهم و بقيت بعدهم لا مالك لها إلاّ هو فسمی نفسه وارثا لهم بعنايه أنه الباقی بعدهم و هو المالک لما كان بأيديهم كأن ملكهم الاعتباری انتقل اليه و لا انتقال هناك بالحقيقه و إنما ظهر ملكه الحقيقی بزوال ملكهم الاعتباری.

و الآيه جواب ثان منه تعالى لقولهم: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنٰا» و محصله أن مجرد عدم تخطف العرب لكم من أرضكم لا يضمن لكم البقاء و لا يحفظ لكم أرضكم و التنعم فيها كما تشاءون فكم من قريه بالغه فی التنعم ذات أشر و بطر أهلكنا أهلها و بقيت مساكنهم خاليه غير مسكونه لا وارث لها إلاّ اللّه.

قوله تعالى: وَ مٰا كٰانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرىٰ حَتّٰى يَبْعَثَ فِي أُمِّهٰا رَسُولاً أم القرى هی أصلها و كبيرتها التی ترجع إليها و فی الآيه بيان السنه الإلهيه فی عذاب القرى بالاستئصال و هو أن عذاب الاستئصال لا يقع منه تعالى إلاّ بعد إتمام الحجه عليهم بإرسال رسول يتلو عليهم آيات اللّه،و إلاّ بعد كون المعذبين ظالمين بالكفر بآيات اللّه و تكذيب رسوله.

قوله تعالى: وَ مٰا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتٰاعُ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا الخ؛الإيتاء:الإعطاء

و «مِنْ شَيْءٍ» بيان لما لافاده العموم أى كل شىء أوتيتموه،و المتاع ما يتمتع به و الزينه ما ينضم الى الشىء ليفيده جمالا و حسنا،و الحياه الدنيا الحياه المؤجله المقطوعه التى هى أقرب الحياتين منا و تقابلها الحياه الآخره التى هى خالده مؤبده،و المراد بما عند اللّه الحياه الآخره السعيده التى عند اللّه و جواره و لذا عدّ خيرا و أبقى.

و المعنى:أن جميع النعم الدنيويه التى أعطاكم اللّه إياها متاع و زينه زينت بها هذه الحياه الدنيا التى هى أقرب الحياتين منكم و هى بائده فانيه و ما عند اللّه من ثوابه فى الدار الآخره المترتب على اتباع الهدى و الإيمان بآيات اللّه خير و أبقى فينبغى أن تؤثروه على متاع الدنيا و زينتها أ فلا تعقلون.

و الآيه جواب ثالث عن قولهم: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنٰا» محصله لنسلم انكم إن اتبعتم الهدى تخطفكم العرب من أرضكم لكن الذى تفقدونه هو متاع الحياه الدنيا و زينتها الفانيه فما بالكم تؤثرونه على ما عند اللّه من ثواب اتباع الهدى و سعاده الحياه الآخره و هى خير و أبقى.

قوله تعالى: أَ فَمَنْ وَعَدْنٰاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاٰقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنٰاهُ مَتٰاعَ الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ الآيه؛الى تمام سبع آيات إيضاح لمضمون الآيه السابقه-و هو أن إيثار اتباع الهدى أولى من تركه و التمتع بمتاع الحياه الدنيا-ببيان آخر فيه مقايسه حال من اتبع الهدى و ما يلقاه من الوعد الحسن الذى وعده اللّه،من حال من لم يتبعه و اقتصر على التمتع من متاع الحياه الدنيا و سيستقبله يوم القيامه الإحضار و تبرى آلهته منه و عدم استجابتهم لدعوته و مشاهده العذاب و السؤال عن إجابتهم الرسل.

فقوله: أَ فَمَنْ وَعَدْنٰاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاٰقِيهِ الاستفهام إنكارى،و الوعد الحسن هو وعده تعالى بالمغفره و الجنه كما قال تعالى: وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا

الصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (المائده۹/)،و لا يكذب وعده تعالى قال: أَلاّ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ (يونس۵۵/).

و قوله: كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا أى و هو محروم من ذلك الوعد الحسن لاقتصاره على التمتع بمتاعها،و الدليل على هذا التقييد المقابله بين الوعد و التمتيع.

و قوله: ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ أى للعذاب،او للسؤال و المؤاخذه و «ثُمَّ» للترتيب الكلامى و إتيان الجمله اسميه كما فيما يقابلها من قوله: «فَهُوَ لاقِيهِ» للدلاله على التحقق.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ الشركاء هم الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا و كونهم شركاء عندهم لكونهم يعطونهم أو ينسبون اليهم بعض ما هو من شئونه تعالى كالعباده و التدبير،و فى قوله: «يُنادِيهِمْ» إشاره الى بعدهم و خذلانهم يومئذ.

قوله تعالى: قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا آلهتهم الذين يرونهم شركاء للّه سبحانه صنفان صنف منهم عباد للّه مكرمون كالملائكه المقربين و عيسى بن مريم عليه السّلام،و صنف منهم كعتاة الجن و مدعى الالوهيه من الإنس كفرعون و نمرود و غيرهما و قد ألحق اللّه سبحانه بهم كل مطاع فى باطل كإبليس و قرناء الشياطين و أئمه الضلال كما قال: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ -الى أن قال- وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً (يس۶۲/)،و قال: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ (الجاثيه۲۳/)،و قال: اِتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ (التوبه۳۱/).

و الذين يشير اليهم قوله: «قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» هم من الصنف الثانى بدليل ذكرهم إغواءهم و تبريهم من عبادتهم و هؤلاء المشركون و إن كانوا أنفسهم أيضا ممن حق

عليهم القول كما يشير اليه قوله: حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّاسِ أَجْمَعِينَ (الم السجده/۱۳)،و لكن المراد بهم فى الآيه المبحوث عنها المتبوعون منهم الذين ينتهى اليهم الشرك و الضلال.

و إيراد قول هؤلاء الشركاء مع عدم ذكر أن المسئولين أشاروا اليهم لعله للإشاره الى انهم ضلوا عنهم فى هذا الموقف كما فى قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِى قالُوا آذَنّاكَ ما مِنّا مِنْ شَهِيدٍ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ (حم السجده/۴۸).

و قوله: رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا اى هؤلاء-يشيرون الى المشركين-هم الذين أغويناهم و الجمله توطئه للجمله التاليه.

و قوله: أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا اى كانت غوايتهم بإغوائنا لغوايتنا أنفسنا فكما كنا غوينا باختيارنا من غير إلجاء كذلك هم غووا باختيار منهم من غير الجاء،و الدليل على هذا المعنى ما حكاه اللّه عن ابليس يومئذ اذ قال: وَ ما كانَ لِى عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلا تَلُومُونِى وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ (إبراهيم/۲۲)،و قال حاكيا لتساؤل الظالمين و قرنائهم: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنّا لَذائِقُونَ فَأَغْوَيْناكُمْ إِنّا كُنّا غاوِينَ (الصافات/۳۲)،أى ما كان ليصل اليكم منا و نحن غاوون غير الغوايه.

و من هنا يظهر أن لقولهم: «أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا» معنى آخر،و هو أنهم اكتسبوا نظير الوصف الذى كان فينا غير أنّا نتبرأ منهم حيث لم نلجئهم الى الغوايه ما كانوا يعبدوننا بإلجاء.

و قوله: تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ تبرّ منهم مطلقا حيث لم يكن لهم أن يلجئوهم و يسلبوا منهم الاختيار،و قوله: «ما كانُوا إِيّانا يَعْبُدُونَ» أى بإلجاء منا،أو لتبرّأنا من أعمالهم فإن من تبرّأ من عمل لم ينتسب اليه و الى هذا المعنى يئول قوله تعالى فى مواضع من كلامه فى وصف هذا

الموقف: وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (الأنعام۲۴/) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ (حم السجده۴۸/) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكٰانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكٰاؤُكُمْ فَزَيَّلْنٰا بَيْنَهُمْ وَ قٰالَ شُرَكٰاؤُهُمْ مٰا كُنْتُمْ إِيّٰانٰا تَعْبُدُونَ (يونس۲۸/)،الى غير ذلك من الآيات فافهم.

و لكون كل من قوليه«تبرّ أنا اليك» «مٰا كٰانُوا إِيّٰانٰا يَعْبُدُونَ» فى معنى قوله: «أَغْوَيْنٰاهُمْ كَمٰا غَوَيْنٰا» جىء بالفصل من غير عطف.

قوله تعالى: وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكٰاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا الْعَذٰابَ لَوْ أَنَّهُمْ كٰانُوا يَهْتَدُونَ المراد بشركائهم الآلهه التى كانوا شركاء للّه بزعمهم و لذا أضافهم اليهم.و المراد بدعوتهم دعوتهم إياهم لينصروهم و يدفعوا عنهم العذاب و لذا قال: «وَ رَأَوُا الْعَذٰابَ» بعد قوله: «فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ» .

و قوله: لَوْ أَنَّهُمْ كٰانُوا يَهْتَدُونَ قيل:جواب لو محذوف لدلاله الكلام عليه و التقدير لو أنهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب أى اعتقدوا أن العذاب حق،و يمكن أن يكون لو للتمنى أى ليتهم كانوا يهتدون.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ فَيَقُولُ مٰا ذٰا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ معطوف على قوله السابق: «وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ» الخ؛سئلوا أولا:عن شركائهم و أمروا أن يستنصروهم،و ثانيا:عن جوابهم للمرسلين اليهم من عند اللّه.

و المعنى:ما ذا قلتم فى جواب من أرسل اليكم من رسل اللّه فدعوكم الى الايمان و العمل الصالح؟

قوله تعالى: فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبٰاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاٰ يَتَسٰاءَلُونَ العمى استعاره عن جعل الإنسان بحيث لا يهتدى الى خبر،و كان مقتضى الظاهر أن ينسب العمى اليهم لا الى الأنباء لكن عكس الأمر فقيل: «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبٰاءُ» للدلاله على أخذهم من كل جانب

و سدّ جمیع الطرق و تقطّع الأسباب بهم کما قال: وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبٰابُ (البقره/۱۶۶)، فلسقوط الأسباب عن التأثیر یومئذ لا تهتدی الیهم الأخبار و لا یجدون شیئا یعتذرون به للتخلص من العذاب.

و قوله: فَهُمْ لاٰ یَتَسٰاءَلُونَ تفریع علی عمی الأنباء من قبیل تفرّع بعض أفراد العام علیه أی لا یسأل بعضهم بعضا لیعدّوا به عذرا یعتذرون به عن تکذیبهم الرسل و ردّهم الدعوه.

و قد فسّر صدر الآیه و ذیلها بتفاسیر کثیره مختلفه لا جدوی فی التعرض لها فرأینا الصفح عنها أولی.

قوله تعالی: فَأَمّٰا مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَعَسیٰ أَنْ یَکُونَ مِنَ الْمُفْلِحِینَ أی هذه حال من کفر و لم یرجع الی اللّه سبحانه فأما من رجع و آمن و عمل صالحا فمن المرجو أن یکون من المفلحین،و عسی-کما قیل-للتحقیق علی عاده الکرام او للترجّی من قبل التائب،و المعنی:فلیتوقع الفلاح.

قوله تعالی: وَ رَبُّکَ یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ وَ یَخْتٰارُ مٰا کٰانَ لَهُمُ الْخِیَرَهُ سُبْحٰانَ اللّٰهِ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یُشْرِکُونَ الخیره بمعنی التخیّر کالطیره بمعنی التطیّر.

و الآیه جواب رابع عن قولهم: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدیٰ مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنٰا» و الذی یتضمنه حجه قاطعه.

و الظاهر أن قوله: «یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ» إشاره الی اختیاره التکوینی فإن معنی إطلاقه أنه لا تقصر قدرته عن خلق شیء و لا یمنعه عما یشاؤه و بعباره أخری لا یمتنع عن مشیته شیء لا بنفسه و لا بمانع یمنع و هذا هو الاختیار بحقیقه معناه،و قوله: «وَ یَخْتٰارُ» إشاره الی اختیاره التشریعی الاعتباری و یکون عطفه علی قوله: «یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ» من عطف المسبب علی سببه لکون التشریع و الاعتبار متفرعا علی التکوین و الحقیقه.

ص:۷۰۴

و یمکن حمل قوله: «یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ» علی الاختیار التکوینی و قوله: «وَ یَخْتٰارُ» علی الأعم من الحقیقه و الاعتبار لکن الوجه السابق أوجه،و من الدلیل علیه کون المنفی فی قوله الآتی:

مٰا کٰانَ لَهُمُ الْخِیَرَهُ هو الاختیار التشریعی الاعتباری،و الاختیار المثبت فی قوله:

«وَ یَخْتٰارُ» یقابله فالمراد إثبات الاختیار التشریعی الاعتباری.

و هذا هو المراد بقوله: «مٰا کٰانَ لَهُمُ الْخِیَرَهُ» أی لا اختیار لهم إذا اختار اللّه سبحانه لهم شیئا من فعل أو ترک حتی یختاروا لأنفسهم ما یشاءون و إن خالف ما اختاره اللّه و الآیه قریبه المعنی من قوله تعالی: وَ مٰا کٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَهٍ إِذٰا قَضَی اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ یَکُونَ لَهُمُ الْخِیَرَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ (الأحزاب/۳۶)،و للقوم فی تفسیر الآیه أقاویل مختلفه غیر مجدیه أغمضنا عنها من أراد الوقوف علیها فعلیه بالرجوع الی المطوّلات.

و قوله: سُبْحٰانَ اللّٰهِ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یُشْرِکُونَ أی عن شرکهم باختیارهم أصناما آلهه یعبدونها من دون اللّه.

و هاهنا معنی آخر أدق أی تنزه و تعالی عن شرکهم بادعاء أن لهم خیره بالنسبه الی ما یختاره تعالی بقبوله أو رده فإن الخیره فهذا المعنی لا تتم إلاّ بدعوی الاستقلال فی الوجود و الاستغناء عنه تعالی و لا تتم إلاّ مع الاشتراک معه تعالی فی صفه الالوهیه.

و فی قوله: «وَ رَبُّکَ یَخْلُقُ» التفات من التکلم بالغیر الی الغیبه و النکته فیه تأیید النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و تقویته و تطییب نفسه بإضافه صفه الرب الیه فإن معناه إن ما أرسله به من الحکم ماض غیر مردود فلا خیره لهم فی قبوله و رده،و لأنهم لا یقبلون ربوبیته.

و فی قوله: سُبْحٰانَ اللّٰهِ وضع الظاهر موضع المضمر و النکته فیه إرجاع الأمر الی الذات المتعالیه التی هی المبدأ للتنزه و التعالی عن کل ما لا یلیق بساحه قدسه فإنه تعالی یتصف بکل کمال و یتنزه عن کل نقص لأنه هو اللّه عز اسمه.

قوله تعالی: وَ رَبُّکَ یَعْلَمُ مٰا تُکِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مٰا یُعْلِنُونَ الإکنان الإخفاء

و الإعلان الإظهار،و لكون الصدر يعدّ مخزنا للأسرار نسب الإكنان الى الصدور و الإعلان اليهم أنفسهم.

و لعل تعقيب الآيه السابقه بهذه الآيه للإشاره الى أنه تعالى إنما اختار لهم ما اختار لعلمه بما فى ظاهرهم و باطنهم من أوساخ الشرك و المعصيه فطهرهم بذلك بحكمته.

قوله تعالى: وَ هُوَ اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولىٰ وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ظاهر السياق أن الضمير فى صدر الآيه راجع الى «رَبُّكَ» فى الآيه السابقه،و الظاهر على هذا أن اللام فى اسم الجلاله للتلميح الى معنى الوصف،و قوله: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» تأكيد للحصر المستفاد من قوله: «هُوَ اللّٰهُ» كأنه قيل:و هو الإله-المتصف وحده بالالوهيه-لا إله إلاّ هو.

و على ذلك فالآيه كالمتمم لبيان الآيه السابقه كأنه قيل:هو سبحانه مختار له أن يختار عليهم أن يعبدوه وحده،و هو يعلم ظاهرهم و باطنهم فله أن يقضى عليهم أن يعبدوه وحده و هو الإله المستحق للعباده وحده فيجب عليهم أن يعبدوه وحده.

و يكون ما فى ذيل الآيه من قوله: «لَهُ الْحَمْدُ» الخ؛وجوها ثلاثه توجه كونه تعالى معبودا مستحقا للعباده وحده.

أما قوله: لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولىٰ وَ الْآخِرَةِ فلأن كل كمال موجود فى الدنيا و الآخره نعمه نازله منه تعالى يستحق بها جميل الثناء،و كل جميل من هذه النعم الموهوبه مترشحه من كمال ذاتى من صفاته الذاتيه يستحق بها الثناء فله كل الثناء و لا يستقل شيء غيره بشيء من الثناء يثنى عليه به إلاّ و ينتهى اليه و العباده ثناء بقول أو فعل فهو المعبود المستحق للعباده وحده.

و أما قوله: وَ لَهُ الْحُكْمُ فلأنه سبحانه هو المالك على الإطلاق لا يملك غيره إلاّ ما ملّكه إياه و هو الملك لما ملّكه و هو سبحانه مالك فى مرحله التشريع و الاعتبار كما أنه مالك فى

مرحله التكوين و الحقيقه،و من آثار ملكه أن يقضى على عبيده و مملوكيه أن لا يعبدوا إلاّ إياه.

و أما قوله: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فلأن الرجوع للحساب و الجزاء و إذا كان هو المرجع فهو المحاسب المجازى و إذ كان هو المحاسب المجازى وحده فهو الذى يجب أن يعبد وحده و له دين يجب أن يتعبد به وحده.

قوله تعالى: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّٰهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَهِ الى آخر الآيه؛السرمد على فعلل بمعنى الدائم،و قيل:هو من السرد و الميم زائده و معناه المتتابع المطّرد،و تقييده بيوم القيامه إذ لا ليل بعد يوم القيامه.

و قوله: مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيٰاءٍ أى من الإله الذى ينقض حكمه تعالى و يأتيكم بضياء تستضيئون به و تسعون فى طلب المعاش،هذا ما يشهد به السياق،و يجرى نظيره فى قوله الآتى: «مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ» الخ.

و تنكير«ضياء»يؤيد ما ذكر من الوجه،و قد أوردوا وجوها اخرى فى ذلك لا تخلو من تعسف.

و قوله: أَ فَلاٰ تَسْمَعُونَ أى سمع تفهّم و تفكّر حتى تتفكروا فتفهموا أن لا إله غيره تعالى.

قوله تعالى: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّٰهُ عَلَيْكُمُ النَّهٰارَ سَرْمَداً إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَهِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أى تستريحون فيه مما أصابكم من تعب السعى للمعاش.

و قوله: أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ أى إبصار تفهّم و تذكّر و إذ لم يبصروا و لم يسمعوا فهم عمى صمّ،و من اللطيف تذييل الآيتين بقوله: «أَ فَلاٰ تَسْمَعُونَ» «أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ» و لعل آيه النهار خص بالإبصار لمناسبه ضوء النهار الإبصار و بقى السمع لآيه الليل و هو لا يخلو من

مناسبه معه.

قوله تعالى: وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ الآيه؛بمنزله نتيجه الحجه المذكوره فى الآيتين السابقتين سيقت بعد إبطال دعوى الخصم فى صوره الإخبار الابتدائى لثبوته من غير معارض.

و قوله: لِتَسْكُنُوا فِيهِ اللام للتعليل و الضمير الليل،أى جعل لكم الليل لتستريحوا فيه،و قوله: «لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» أى و جعل لكم النهار لتطلبوا من رزقه الذى هو عطيّته فرجوع «لِتَسْكُنُوا» و «لِتَبْتَغُوا» الى الليل و النهار بطريق اللف و النشر المرتب،و قوله:

«وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» راجع اليهما جميعا.

و قوله: «وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ» فى معنى قولنا:جعل لكم ذلك رحمه منه و فيه إشاره الى أن التكوين كالسكون و الابتغاء و التشريع و هو هدايتهم الى الشكر من آثار صفه رحمته تعالى فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ تقدم تفسيره و قد كرّرت الآيه لحاجه مضمون الآيه التاليه إليها.

قوله تعالى: وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ الى آخر الآيه؛إشاره الى ظهور بطلان مزعمتهم لهم يوم القيامه،و المراد بالشهيد شهيد الأعمال-كما تقدمت الإشاره اليه مرارا-و لا ظهور للآيه فى كونه هو النبى المبعوث الى الامه نظرا الى إفراد الشهيد و ذكر الامه إذ الامه هى الجماعه من الناس و لا ظهور و لا نصوصيه له فى الجماعه الذين أرسل اليهم نبى و إن كانت من مصاديقها.

و قوله: فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ أى طالبناهم بالحجه القاطعه على ما زعموا أن للّه شركاء.

ص :٧٠٨

و قوله: فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ أى غاب عنهم زعمهم الباطل أن للّه سبحانه شركاء فعلموا عند ذلك أن الحق فى الالوهيه للّه وحده فالمراد بالضلال الغيبه على طريق الاستعاره.كذا فسروه،ففى الكلام تقديم و تأخير و الأصل فضل عنهم ما كانوا يفترون فعلموا أن الحق للّه.

و على هذا فقوله: «أَنَّ الْحَقَّ لِلّهِ» نظير ما يقال فى القضاء بين المتخاصمين إذا تداعيا فى حق يدعيه كل لنفسه:إن الحق لفلان لا لفلان كأنه تعالى يخاصم المشركين حيث يدّعون أن الالوهيه بمعنى المعبوديه حق لشركائهم فيدّعى تعالى أنه حقه فيطالبهم البرهان على دعواهم فيضلّ عنهم البرهان فيعلمون عندئذ أن هذا الحق للّه فالالوهيه حق ثابت لا ريب فيه فإذا لم يكن حقا لغيره تعالى فهو حق له.

و من الممكن أن يكون «الْحَقَّ» فى قوله: «فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلّهِ» مصدرا فيرجع معنى الجمله الى معنى قوله: وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (النور/٢٥)،فكون الحق للّه هو كونه تعالى حقا إن أريد به الحق فى ذاته أو كونه منتهيا اليه قائما به إن أريد به غيره،كما قال تعالى:

اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ (آل عمران/٦٠)،و لم يقل:الحق مع ربك.

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٧٦ الى ٨٤]

اشاره

إِنَّ قٰارُونَ كٰانَ مِنْ قَوْمِ مُوسىٰ فَبَغىٰ عَلَيْهِمْ وَ آتَيْنٰاهُ مِنَ اَلْكُنُوزِ مٰا إِنَّ مَفٰاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَهِ أُولِي اَلْقُوَّهِ إِذْ قٰالَ لَهُ قَوْمُهُ لاٰ تَفْرَحْ إِنَّ اَللّهَ لاٰ يُحِبُّ اَلْفَرِحِينَ (٧٦) وَ اِبْتَغِ فِيمٰا آتٰاكَ اَللّهُ اَلدّٰارَ اَلْآخِرَهَ وَ لاٰ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ اَلدُّنْيٰا وَ أَحْسِنْ كَمٰا أَحْسَنَ اَللّهُ إِلَيْكَ وَ لاٰ تَبْغِ اَلْفَسٰادَ فِي اَلْأَرْضِ إِنَّ اَللّهَ لاٰ يُحِبُّ اَلْمُفْسِدِينَ (٧٧) قٰالَ إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اَللّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ اَلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّهً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً وَ لاٰ يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ اَلْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قٰالَ اَلَّذِينَ يُرِيدُونَ اَلْحَيٰاهَ اَلدُّنْيٰا يٰا لَيْتَ لَنٰا مِثْلَ مٰا أُوتِيَ قٰارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوٰابُ اَللّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً وَ لاٰ يُلَقّٰاهٰا إِلاَّ اَلصّٰابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنٰا بِهِ وَ بِدٰارِهِ اَلْأَرْضَ فَمٰا كٰانَ لَهُ مِنْ فِئَهٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اَللّهِ وَ مٰا كٰانَ مِنَ اَلْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَ أَصْبَحَ اَلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكٰانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اَللّهَ يَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ يَقْدِرُ لَوْ لاٰ أَنْ مَنَّ اَللّهُ عَلَيْنٰا لَخَسَفَ بِنٰا وَيْكَأَنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ اَلْكٰافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ اَلدّٰارُ اَلْآخِرَهُ نَجْعَلُهٰا لِلَّذِينَ لاٰ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي اَلْأَرْضِ وَ لاٰ فَسٰاداً وَ اَلْعٰاقِبَهُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَهِ فَلاٰ يُجْزَى اَلَّذِينَ عَمِلُوا اَلسَّيِّئٰاتِ إِلاّٰ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ قارُونَ کانَ مِنْ قَوْمِ مُوسی فَبَغی عَلَیْهِمْ وَ آتَیْناهُ مِنَ

ص :۷۱۰

الْكَنُوزِ مٰا إِنَّ مَفٰاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ قال فى المجمع:البغى طلب العتوّ بغير حق.قال:و المفاتح جمع مفتح و المفاتيح جمع مفتاح و معناهما واحد و هو عباره عما يفتح به الأغلاق.قال:و ناء بحمله ينوء نوءا إذا نهض به مع ثقله عليه.انتهى.و قال غيره:ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله و هو الأوفق للآيه.

و قال فى المجمع أيضا:العصبه الجماعه الملتف بعضها ببعض.و قال:و اختلف فى معنى العصبه فقيل:ما بين عشره الى خمسه عشر عن مجاهد،و قيل:ما بين عشره الى أربعين عن قتاده،و قيل:أربعون رجلا عن أبى صالح (۱)،و قيل:ما بين الثلاثه الى العشره عن ابن عباس، و قيل:إنهم الجماعه يتعصب بعضهم لبعض.انتهى.و يزيّف غير القولين الأخيرين قول إخوه يوسف وَ نَحْنُ عُصْبَهٌ (يوسف/۸)،و هم تسعه نفر.

و المعنى:إن قارون كان من بنى إسرائيل فطلب العتوّ عليهم بغير حق و أعطيناه من الكنوز ما إن مفاتيحه لتثقل الجماعه ذوى القوه،و ذكر جمع من المفسرين أن المراد بالمفاتح الخزائن، و ليس بذاك.

قوله تعالى: إِذْ قٰالَ لَهُ قَوْمُهُ لاٰ تَفْرَحْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ فسّر الفرح بالبطر و هو لازم الفرح و السرور المفرط بمتاع الدنيا فإنه لا يخلو من تعلق شديد بالدنيا ينسى الآخره و يورث البطر و الأشر،و لذا قال تعالى: وَ لاٰ تَفْرَحُوا بِمٰا آتٰاكُمْ وَ اللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتٰالٍ فَخُورٍ (الحديد/۲۳).

و لذا أيضا علل النهى بقوله: «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ» .

قوله تعالى: وَ ابْتَغِ فِيمٰا آتٰاكَ اللّٰهُ الدّٰارَ الْآخِرَةَ الى آخر الآيه؛أى و اطلب فيما أعطاك اللّه من مال الدنيا تعمير الدار الآخره بإنفاقه فى سبيل اللّه و وضعه فيما فيه

۱- ۱) .و روى فى الدر المنثور عن أبى صالح سبعين.

مرضاته تعالى.

و قوله: وَ لاٰ تَنْسَ نَصِيبَکَ مِنَ الدُّنْيٰا أى لا تترک ما قسم اللّه لک و رزقک من الدنيا ترک المنسى و اعمل فيه لآخرتک لأن حقيقه نصيب الإنسان من الدنيا هو ما يعمل به لآخرته فهو الذى يبقى له.

و قوله: وَ أَحْسِنْ كَمٰا أَحْسَنَ اللّٰهُ إِلَيْکَ أى أنفقه لغيرک إحسانا كما آتاكه اللّه إحسانا من غير أن تستحقه و تستوجبه،و هذه الجمله من قبيل عطف التفسير لقوله: «وَ لاٰ تَنْسَ نَصِيبَکَ مِنَ الدُّنْيٰا» على أول الوجهين السابقين و متممه له على الوجه الثانى.

و قوله: وَ لاٰ تَبْغِ الْفَسٰادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ أى لا تطلب الفساد فى الأرض بالاستعانه بما آتاک اللّه من مال و ما اكتسبت به من جاه و حشمه إن اللّه لا يحب المفسدين لبناء الخلقه على الصلاح و الإصلاح.

قوله تعالى: قٰالَ إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ عِنْدِي الى آخر الآيه؛لا شک أن قوله:

«إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ عِنْدِي» جواب عن جميع ما قاله المؤمنون من قومه و نصحوه به و كان كلامهم مبنيا على أن ماله من الثروه إنما آتاه اللّه إحساناً اليه و فضلا منه من غير استيجاب و استحقاق فيجب عليه أن يبتغى فيه الدار الآخره و يحسن به الى الناس و لا يفسد فى الأرض بالاستعلاء و الاستكبار و البطر.

فأجاب بنفى كونه إنما أوتيه إحسانا من غير استحقاق و دعوى أنه إنما أوتيه على استحقاق بما عنده من العلم بطرق اقتناء المال و تدبيره و ليس عند غيره ذلک،و إذا كان ذلک باستحقاق فقد استقل بملكه و له أن يفعل فيما اقتناه من المال بما شاء و يستدره فى أنواع التنعم و بسط السلطه و العلو و البلوغ الى الآمال و الأمانى.

و فى قوله: إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ من غير إسناد الإيتاء الى اللّه سبحانه كما فى قول الناصحين له «فِيمٰا آتٰاکَ اللّٰهُ» نوع إعراض عن ذكره تعالى و إزراء بساحه كبريائه.

و قوله: أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً استفهام توبيخى و جواب عن قوله: «إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ عِنْدِی» بأيسر ما يمكن أن يتنبه به لفساد قوله فإنه كان يرى أن الذى اقتنى به المال و هو يبقيه له و يمتعه منه هو علمه الذى عنده و هو يعلم أنه كان فيمن قبله من القرون من هو أشد منه قوه و أكثر جمعا،و كان ما له من القوه و الجمع عن علم عنده على زعمه،و قد أهلكه اللّه بجرمه،فلو كان العلم الذى يغتر و يتبجح به هو السبب الجامع للمال الحافظ له الممتع منه و لم يكن بإيتاء اللّه فضلا و إحسانا لنجاهم من الهلاك و متعهم من أموالهم و دافعوا بقوتهم و انتصروا بجمعهم.

و قوله: وَ لاٰ يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ظاهر السياق أن المراد به بيان السنه الإلهيه فى تعذيب المجرمين و إهلاكهم بذنوبهم فيكون كنايه عن عدم إمهالهم و الإصغاء الى ما لفقوه من المعاذير أو هيئوه من التذلل و الإنابه ليرجو بذلك النجاه كما أن أولى الطول و القوه من البشر إذا أرادوا تعذيب من يتحكمون عليه سألوه عن ذنبه ليقضوا عليه بالجرم ثم العذاب،و ربما صرف المجرم بما لفقه من المعاذير عذابهم عن نفسه لكن اللّه سبحانه لعلمه بحقيقه الحال لا يسأل المجرمين عن ذنوبهم و إنما يقضى عليهم قضاء فيأتيهم عذاب غير مردود.

قوله تعالى: فَخَرَجَ عَلىٰ قَوْمِهِ فِی زِينَتِهِ قٰالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا يٰا لَيْتَ لَنٰا مِثْلَ مٰا أُوتِیَ قٰارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ الحظ هو النصيب من السعاده و البخت.

و قوله: يُرِيدُونَ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا أى يجعلونها الغايه المطلوبه فى مساعيهم ليس لهم وراءها غايه فهم على جهل من الآخره و ما أعد اللّه لعباده فيها من الثواب قال تعالى:

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِكْرِنٰا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (النجم/ ٣٠)و لذلك عدوا ما اوتيه قارون من المال سعاده عظيمه له من دون قيد و شرط.

قوله تعالی: وَ قٰالَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَیْلَکُمْ ثَوٰابُ اللّٰهِ خَیْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً الخ؛الویل الهلاک و یستعمل للدعاء بالهلاک و زجرا عما لا یرتضی،و هو فی المقام زجرا عن التمنی.

و القائلون بهذا القول هم المؤمنون أهل العلم باللّه یخاطبون به أولئک الجهله الذین تمنوا أن یؤتوا مثل ما أوتی قارون و عدّوه سعاده عظیمه علی الإطلاق،و مرادهم أن ثواب اللّه خیر لمن آمن و عمل صالحا مما أوتی قارون فإن کانوا مؤمنین صالحین فلیتمنوه.

و قوله: وَ لاٰ یُلَقّٰاهٰا إِلاَّ الصّٰابِرُونَ التلقیه التفهیم و التلقی التفهم و الأخذ،و الضمیر -علی ما قالوا-للکلمه المفهومه من السیاق،و المعنی:و ما یفهم هذه الکلمه-و هی قولهم:

ثواب اللّه خیر لمن آمن و عمل صالحا-إلاّ الصابرون.

و الصابرون هم المتلبسون بالصبر عند الشدائد و علی الطاعات و عن المعاصی،و وجه کونهم هم المتلقین لهذه الکلمه أو السیره أو الطریقه أن التصدیق بکون ثواب الآخره خیرا من الحظ الدنیوی-و هو لا ینفک عن الإیمان و العمل الصالح الملازمین لترک کثیر من الأهواء و الحرمان عن کثیر من المشتهیات-لا یتحقق إلاّ ممن له صفه الصبر علی مراره مخالفه الطبع و عصیان النفس الأمّاره.

قوله تعالی: فَخَسَفْنٰا بِهِ وَ بِدٰارِهِ الْأَرْضَ الی آخر الآیه؛الضمیران لقارون و الجمله متفرعه علی بغیه.

و قوله: فَمٰا کٰانَ لَهُ مِنْ فِئَهٍ یَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَ مٰا کٰانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِینَ الفئه الجماعه یمیل بعضهم الی بعض،و فی النصر و الانتصار معنی المنع و الامتناع،و محصّل المعنی:فما کان له جماعه یمنعونه العذاب و ما کان من الممتنعین علی خلاف ما کان یظن أن الذی یجلب الیه الخیر و یدفع عنه الشر هو قوّته و جمعه اللذان اکتسبهما بعلمه فلم یقه جمعه و لم تفده قوته من دونه اللّه و بان أن اللّه سبحانه هو الذی آتاه ما آتاه.

فالفاء فی قوله: «فَمَا کٰانَ» لتفریع الجمله علی قوله: «فَخَسَفْنٰا بِهِ» الخ؛أی فظهر بخسفنا به و بداره الأرض بطلان ما کان یدّعیه لنفسه من الاستحقاق و الاستغناء عن اللّه سبحانه و أن الذی یجلب الیه الخیر و یدفع عنه الشر هو قوته و جمعه و قد اکتسبهما بنبوغه العلمی.

قوله تعالی: وَ أَصْبَحَ الَّذِینَ تَمَنَّوْا مَکٰانَهُ بِالْأَمْسِ یَقُولُونَ وَیْکَأَنَّ اللّٰهَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ یَقْدِرُ الخ؛ذکروا أن«وی»کلمه تندّم و ربما تستعمل للتعجب و کلا المعنیین یقبلان الانطباق علی المورد و إن کان التندم أسبق الی الذهن.

و قوله: وَیْکَأَنَّ اللّٰهَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ یَقْدِرُ اعتراف منهم ببطلان ما کان یزعمه قارون و هم یصدّقونه أن القوه و الجمع فی الدنیا بنبوغ الإنسان فی علمه و جوده تدبیره و لا بفضل من اللّه سبحانه بل سعه الرزق و ضیقه بمشیه من اللّه.

و المقام مقام التحقیق دون التشبیه المناسب للشک و التردد لکنهم إنما استعملوا فی کلامهم «وَیْکَأَنَّ» للدلاله علی ابتداء ترددهم فی قول قارون و قد قبلوه و صدّقوه من قبل و هذه صنعه شائعه فی الاستعمال.

و الدلیل علی ذلک قولهم بعده: «لَوْ لاٰ أَنْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَیْنٰا لَخَسَفَ بِنٰا» علی طریق الجزم و التحقیق.

و قوله: وَیْکَأَنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ الْکٰافِرُونَ تندم منهم ثانیا و انتزاع مما کان لازم تمنیهم مکان قارون.

قوله تعالی: تِلْکَ الدّٰارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهٰا لِلَّذِینَ لاٰ یُرِیدُونَ عُلُوًّا فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ فَسٰاداً وَ الْعٰاقِبَةُ لِلْمُتَّقِینَ الآیه؛و ما بعدها بمنزله النتیجه المستخرجه من القصه.

و قوله: تِلْکَ الدّٰارُ الْآخِرَةُ الإشاره إلیها بلفظ البعید للدلاله علی شرفها و بهائها

و علو مكانتها و هو الشاهد على أن المراد بها الدار الآخره السعيده و لذا فسروها بالجنه.

و قوله: نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً أى نخصها بهم و إراده العلو هو الاستعلاء و الاستكبار على عباد اللّه و إراده الفساد فيها ابتغاء معاصى اللّه تعالى فإن اللّه بنى شرائعه التى هى تكاليف للإنسان على مقتضيان فطرته و خلفته و لا تقتضى فطرته إلّا ما يوافق النظام الأحسن الجارى فى الحياه الإنسانيه الأرضيه فكل معصيه تقضى الى فساد فى الأرض بلا واسطه أو بواسطه،قال تعالى: ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النّاسِ (الروم/41).

و من هنا ظهر أن إراده العلو من مصاديق إراده الفساد و إنما أفردت و خصّت بالذكر اعتناء بأمرها،و محصّل المعنى:تلك الدار الآخره السعيده نخصها بالذين لا يريدون فسادا فى الأرض بالعلو على عباد اللّه و لا بأى معصيه اخرى.

و الآيه عامه يخصصها قوله تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (النساء/31).

و قوله: وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ أى العاقبه المحموده الجميله و هى الدار الآخره السعيده أو العاقبه السعيده فى الدنيا و الآخره لكن سياق الآيتين يؤيد الأول.

قوله تعالى: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها أى لأنها تتضاعف له بفضل من اللّه،قال تعالى: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها (الأنعام/160).

قوله تعالى: وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى لا يزيدون على ما عملوا شيئا و فيه كمال العدل،كما أن فى جزاء الحسنه بخير منها كمال الفضل.

و كان مقتضى الظاهر فى قوله: «فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا» الخ؛الإضمار و لعل فى وضع الموصول موضع الضمير إشاره الى أن هذا الجزاء إنما هو لمن أكثر من اقتراف المعصيه

و أحاطت به الخطیئه کما یفیده جمع السیئات،و قوله: «کٰانُوا یَعْمَلُونَ» الدال علی الإصرار و الاستمرار،و أما من جاء بالسیئه و الحسنه فمن المرجو أن یغفر اللّه له کما قال: وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صٰالِحاً وَ آخَرَ سَیِّئاً عَسَی اللّٰهُ أَنْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (التوبه۱۰۲/).

و لیعلم أن الملاک فی الحسنه و السیئه علی الأثر الحاصل منها عند الإنسان و بها تسمی الأعمال حسنه أو سیئه و علیها-لا علی متن العمل الخارجی الذی هو نوع من الحرکه-یثاب الانسان أو یعاقب،قال تعالی: وَ إِنْ تُبْدُوا مٰا فِی أَنْفُسِکُمْ أَوْ تُخْفُوهُ یُحٰاسِبْکُمْ بِهِ اللّٰهُ (البقره۲۸۴/) (۱).

[سوره القصص (۲۸): الآیات ۸۵ الی ۸۸]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ اَلْقُرْآنَ لَرٰادُّکَ إِلیٰ مَعٰادٍ قُلْ رَبِّی أَعْلَمُ مَنْ جٰاءَ بِالْهُدیٰ وَ مَنْ هُوَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ (۸۵) وَ مٰا کُنْتَ تَرْجُوا أَنْ یُلْقیٰ إِلَیْکَ اَلْکِتٰابُ إِلاّٰ رَحْمَهً مِنْ رَبِّکَ فَلاٰ تَکُونَنَّ ظَهِیراً لِلْکٰافِرِینَ (۸۶) وَ لاٰ یَصُدُّنَّکَ عَنْ آیٰاتِ اَللّٰهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَیْکَ وَ اُدْعُ إِلیٰ رَبِّکَ وَ لاٰ تَکُونَنَّ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ (۸۷) وَ لاٰ تَدْعُ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ کُلُّ شَیْءٍ هٰالِکٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ لَهُ اَلْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۸۸)

۱- ۱) .القصص ۷۶-۸۴:بحث روائی حول قصه موسی و قارون.

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لَرٰادُّکَ إِلیٰ مَعٰادٍ الی آخر الآیه؛ الفرض-علی ما ذکره-بمعنی الإیجاب فمعنی «فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ» أی أوجب علیک العمل به أی بما فیه من الأحکام ففیه مجاز فی النسبه.

و أحسن منه قول بعضهم:إن المعنی أوجب علیک تلاوته و تبلیغه و العمل به و ذلک لکونه أوفق لقوله: «لَرٰادُّکَ إِلیٰ مَعٰادٍ» بما سیجیء من معناه.

و قوله: لَرٰادُّکَ إِلیٰ مَعٰادٍ المعاد اسم مکان أو زمان من العود و قد اختلفت کلماتهم فی تفسیر هذا المعاد فقیل:هو مکه فالآیه وعد له أن اللّه سیرده بعد هجرته الی مکه ثانیا، و قیل:هو الموت،و قیل:هو القیامه،و قیل:هو المحشر،و قیل:هو المقام المحمود و هو موقف الشفاعه الکبری،و قیل:هو الجنه،و قیل:هو بیت المقدس،و هو فی الحقیقه وعد بمعراج ثان یعود فیه الی بیت المقدس بعد ما کان دخله فی المعراج الأول:و قیل:هو الأمر المحبوب فیقبل الانطباق علی جل الأقوال السابقه أو کلها.

و الذی یعطیه التدبر فی سیاق آیات السوره هو أن تکون الآیه تصریحا بما کانت القصه المسروده فی أول السوره تلوح الیه ثم الآیات التالیه لما تؤیده.

فمعنی الآیه؛أن الذی فرض علیک القرآن لتقرأه علی الناس و تبلغه و تعملوا به سیردک و یصیرک الی محل تکون هذه الصیروره منک الیه عودا و یکون هو معادا لک کما فرض التوراه علی موسی و رفع به قدره و قدر قومه،و من المعلوم أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان بمکه علی ما فیها من الشده و الفتنه ثم هاجر منها ثم عاد إلیها فاتحا مظفرا و ثبتت قواعد دینه و استحکمت أرکان ملته و کسرت الأصنام و انهدم بنیان الشرک و المؤمنون هم الوارثون للأرض بعد ما کانوا أذلاء معذبین.

ص:٧١٨

و فى تنكير قوله: «مَعٰادٍ» إشاره الى عظمه قدر هذا العود و أنه لا يقاس الى ما قبله من القطون بها و التاريخ يصدقه.

و قوله: قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جٰاءَ بِالْهُدىٰ وَ مَنْ هُوَ فِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ يؤيد ما قدمنا من المعنى فإنه يحاذى قول موسى عليه السّلام-لما كذبوه و رموا آياته البينات بأنها سحر مفترى- «رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جٰاءَ بِالْهُدىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عٰاقِبَةُ الدّٰارِ» فأمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يقول للفراعنه من مشركى قومه لما كذبوه و رموه بالسحر ما قاله موسى لآل فرعون لما كذبوه و رموه بالسحر للتشابه التام بين مبعثيهما و سير دعوتهما كما يظهر من القصه و يظهر ذلك تمام الظهور بالتأمل فى قوله تعالى: إِنّٰا أَرْسَلْنٰا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شٰاهِداً عَلَيْكُمْ كَمٰا أَرْسَلْنٰا إِلىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً (المزمل١٥/).

و لعل الاكتفاء بالشطر الأول من قول موسى عليه السّلام و السكوت عن الشطر الثانى أعنى قوله:

«وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عٰاقِبَةُ الدّٰارِ» لبناء الكلام بحسب سياقه على أن لا يتعدى حد الإشاره و الإيماء كما يستشم من سياق قوله: «لَرٰادُّكَ إِلىٰ مَعٰادٍ» أيضا حيث خص الخطاب بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و نكر معادا.

و كيف كان فالمراد بقوله: «مَنْ جٰاءَ بِالْهُدىٰ» النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم نفسه و بقوله: «وَ مَنْ هُوَ فِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ» المشركون من قومه،و اختلاف سياق الجملتين-حيث قيل فى جانبه صلّى اللّه عليه و آله و سلم «مَنْ جٰاءَ بِالْهُدىٰ» و فى جانبهم «مَنْ هُوَ فِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ» فقوبل بين ضلالهم و بين مجيئه بالهدى لا بين ضلالهم و اهتدائه-لكون تكذيبهم متوجها بالطبع الى ما جاء به لا الى نفسه.

قوله تعالى: وَ مٰا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقىٰ إِلَيْكَ الْكِتٰابُ إِلاّٰ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلاٰ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكٰافِرِينَ صدر الآيه تقرير للوعد الذى فى قوله: «إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرٰادُّكَ إِلىٰ مَعٰادٍ» أى إنه سيردك الى معاد-و ما كنت ترجوه كما ألقى اليك الكتاب و ما كنت ترجوه-.

و قیل:تذکره استینافیه لنعمته تعالی علیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و هذا وجه وجیه و تقریره أنه تعالی لما وعده بالرد الی معاد و فیه ارتفاع ذکره و تقدم دعوته و انبساط دینه خط له السبیل التی یجب علیه سلوکها بجهد و مراقبه فبیّن له أن القاء الکتاب الیه لم یکن علی نهج الحوادث العادیه التی من شأنها أن ترتجی و تترقب بل کانت رحمه خاصه من ربه و قد وعده فی فرضه علیه ما وعده فمن الواجب علیه قبال هذه النعمه و فی تقدم دعوته و بلوغها الغایه التی وعدها أن لا ینصر الکافرین و لا یطیعهم و یدعو الی ربه و لا یکون من المشرکین و لا یدعو معه إلها آخر.

و قوله: إِلاّٰ رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ استثناء منقطع أی لکنه ألقی الیک رحمه من ربک و لیس بإلقاء عادی یرجی مثله.

و قوله: فَلاٰ تَکُونَنَّ ظَهِیراً لِلْکٰافِرِینَ تفریع علی قوله: «إِلاّٰ رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ» أی فإذا کان إلقاؤه الیک رحمه من ربک خصّک بها و هو فوق رجائک فتبرأ من الکافرین و لا تکن معینا و ناصرا لهم.

قوله تعالی: وَ لاٰ یَصُدُّنَّکَ عَنْ آیٰاتِ اللّٰهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَیْکَ الی آخر الآیه؛ نهی له صلّی اللّه علیه و آله و سلم علی الانصراف عن آیات اللّه بلسان نهی الکفار عن الصد و الصرف و وجهه کون انصرافه مسببا لصدهم و هو کقوله لآدم و زوجه: «فَلاٰ یُخْرِجَنَّکُمٰا مِنَ الْجَنَّهِ» أی لا تخرجا منها بإخراجه لکما بالوسوسه.

و الظاهر أن الآیه و ما بعدها فی مقام الشرح لقوله: «فَلاٰ تَکُونَنَّ ظَهِیراً لِلْکٰافِرِینَ» و فائدته تأکید النهی بعدّ موارده واحدا بعد واحد فنهاه أولا عن الانصراف عن القرآن النازل علیه برمیهم کتاب اللّه بأنه سحر أو شعر أو کهانه أو أساطیر الأولین اکتتبها،و أمره ثانیا أن یدعو الی ربه،و نهاه ثالثا أن یکون من المشرکین و فسّره بأن یدعو مع اللّه إلها آخر.

و قد کرّر صفه الرب مضافا الیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم للدلاله علی اختصاصه بالرحمه و النعمه و أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم متفرّد فی عبادته لا یشارکه المشرکون فیها.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ قد تقدم أنه كالتفسير لقوله: «وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .

قوله تعالى: لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ كلمه الإخلاص فى مقام التعليل لقوله قبله: «وَ لاٰ تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ» أى لأنه لا إله غيره و ما بعدها فى مقام التعليل بالنسبه إليها كما سيتضح.

و قوله: كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ الشىء مساو للموجود و يطلق على كل أمر موجود حتى عليه تعالى كما يدل عليه قوله: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهٰادَةً قُلِ اللّٰهُ (الأنعام/ ١٩)،و الهلاك البطلان و الانعدام.

و الوجه و الجهه واحده كالوعد و العده،و وجه الشىء فى العرف العام ما يستقبل به غيره و يرتبط به اليه كما أن وجه الجسم السطح الظاهر منه و وجه الإنسان النصف المقدم من رأسه و وجهه تعالى ما يستقبل به غيره من خلقه و يتوجه اليه خلقه به و هو صفاته الكريمه من حياه و علم و قدره و سمع و بصر و ما ينتهى إليها من صفات الفعل كالخلق و الرزق و الإحياء و الإماته و المغفره و الرحمه و كذا آياته الداله عليه بما هى آياته.

فكل شىء هالك فى نفسه باطل فى ذاته لا حقيقه له إلاّ ما كان عنده مما أفاضه اللّه عليه و أما ما لا ينسب اليه تعالى فليس إلاّ ما اختلقه و هم المتوهم او سرابا صوّره الخيال و ذلك كالأصنام ليس لها من الحقيقه إلاّ أنها حجاره او خشبه او شىء من الفلزات و أما أنها أرباب او آلهه او نافعه او ضاره او غير ذلك فليست إلاّ أسماء سماها عبدتهم و كالإنسان ليس له من الحقيقه إلاّ ما أودعه فيه الخلقه من الروح و الجسم و ما اكتسبه من صفات الكمال و الجميع منسوبه الى اللّه سبحانه و أما ما يضيفه اليه العقل الاجتماعى من قوه و سلطه و رئاسه و وجاهه و ثروه و عزه و أولاد و أعضاد فليس إلاّ سرابا هالكا و امنيه كاذبه و على هذا السبيل سائر الموجودات.

فليس عندها من الحقيقه إلاّ ما أفاض اللّه عليها بفضله و هی آیاته الداله علی صفاته الکریمه من رحمه و رزق و فضل و إحسان و غیر ذلک.

فالحقیقه الثابته فی الواقع التی لیست هالکه باطله من الأشیاء هی صفاته الکریمه و آیاته الداله علیها و الجمیع ثابته بثبوت الذات المقدسه.

هذا علی تقدیر کون المراد بالهالک فی الآیه الهالک بالفعل و علی هذا یکون محصل تعلیل کلمه الإخلاص بقوله: «کُلُّ شَیْءٍ هٰالِکٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ» أن الإله و هو المعبود بالحق إنما یکون إلها معبودا إذا کان أمرا ذا حقیقه واقعیه غیر هالک و لا باطل له تدبیر فی العالم بهذا النعت و کل شیء غیره تعالی هالک باطل فی نفسه إلاّ ما کان وجها له منتسبا الیه فلیس فی الوجود إله غیره سبحانه.

و الوثنیون و إن کانوا یرون وجود آلهتهم منسوبا الیه تعالی و من جهته إلاّ أنهم یجعلونها مستقله فی التدبیر مقطوعه النسبه فی ذلک عنه من دون أن یکون حکمها حکمه،و لذلک یعبدونها من دون اللّه،و لا استقلال لشیء فی شیء عنه تعالی فلا یستحق العباده إلاّ هو.

و هاهنا وجه آخر أدق منه بناء علی أن المراد بالوجه ذات الشیء فقد ذکر بعضهم ذلک من معانی الوجه کما یقال:وجه النهار و وجه الطریق لنفسهما و إن أمکنت المناقشه فیه،و ذکر بعض آخر:أن المراد به الذات الشریفه کما یقال:وجوه الناس أی أشرافهم و هو من المجاز المرسل او الاستعاره و علی کلا التقدیرین فالمراد أن غیره تعالی من الموجودات ممکنه و الممکن و إن کان موجودا بإیجاده تعالی فهو معدوم بالنظر الی حد ذاته هالک فی نفسه و الذی لا سبیل للبطلان و الهلاک الیه هو ذاته الواجبه بذاتها.

و محصل التعلیل علی هذا المعنی:أن الإله المعبود بالحق یجب أن یکون ذاتا بیده شیء من تدبیر العالم،و التدبیر الکونی لا ینفک عن الخلق و الإیجاد فلا معنی لأن یوجد الحوادث شیء و یدبر أمرها شیء آخر-و قد أوضحناه مرارا فی هذا الکتاب-و لا یکون الخلق الموجد إلاّ

واجب الوجود و لا واجب إلّا هو تعالى فلا إله إلّا هو.

و قولهم:إنه تعالى أجلّ من أن يحيط به عقل او وهم فلا يمكن التوجه العبادى اليه فلا بد أن يتوجه بالعباده الى بعض مقرّبى حضرته من الملائكه الكرام و غيرهم ليكونوا شفعاء عنده.

مدفوع بمنع توقف التوجه بالعباده على العلم الإحاطى بل يكفى فيه المعرفه بوجه و هو حاصل بالضروره.

و أما على تقدير كون المراد بالهالك ما يستقبله الهلاك و الفناء بناء على ما قيل:إن اسم الفاعل ظاهر فى الاستقبال فظاهر الآيه أن كل شىء سيستقبله الهلاك بعد وجوده إلّا وجهه.

نعم استقبال الهلاك يختلف باختلاف الأشياء فاستقباله فى الزمانيات انتهاء أمد وجودها و بطلانها بعده و فى غيرها كون وجودها محاطا بالفناء من كل جانب.

و هلاك الأشياء على هذا بطلان وجودها الابتدائى و خلوّ النشأه الاولى عنها بانتقالها الى النشأه الاخرى و رجوعها الى اللّه و استقرارها عنده،و أما البطلان المطلق بعد الوجود فصريح كتاب اللّه ينفيه فالآيات متتابعه فى أن كل شىء مرجعه الى اللّه و أنه المنتهى و اليه الرّجعى و هو الذى يبدئ الخلق ثم يعيده.

فمحصل معنى الآيه-لو أريد بالوجه صفاته الكريمه-أن كل شىء سيخلّى مكانه و يرجع اليه إلّا صفاته الكريمه التى هى مبادئ فيضه فهى تفيض ثم تفيض الى ما لا نهايه له و الإله يجب أن يكون كذلك لا بطلان لذاته و لا انقطاع لصفاته الفيّاضه و ليس شىء غيره تعالى بهذه الصفه فلا إله إلّا هو.

و لو أريد بوجهه الذات المقدسه فالمحصّل أن كل شىء سيستقبله الهلاك و الفناء بالرجوع الى اللّه سبحانه إلّا ذاته الحقه الثابته التى لا سبيل للبطلان إليها-و الصفات على هذا محسوبه من صقع الذات-و الإله يجب أن يكون بحيث لا يتطرق الفناء اليه و ليس شىء غيره بهذه الصفه فلا إله إلّا هو.

قال تعالى: مٰا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ بٰاقٍ (النحل/٩۶)،و قال: وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرٰارِ (آل عمران/١٩٨)،و قال: سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغٰارٌ عِنْدَ اللّٰهِ وَ عَذٰابٌ شَدِيدٌ (الأنعام/١٢۴)،و نظيرتهما خزائن الرحمه كما قال: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ (الحجر/٢١)،و كذا اللوح المحفوظ كما قال: وَ عِنْدَنٰا كِتٰابٌ حَفِيظٌ (ق/۴).

و أما ما ذكروه من العرش فقد تقدم الكلام فيه فى تفسير قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللّٰهُ الآيه(الأعراف/۵۴).

و يمكن أن يراد بالوجه جهته تعالى التى تنسب اليه و هى الناحيه التى يقصد منها و يتوجه اليه بها،و تؤيده كثره استعمال الوجه فى كلامه تعالى بهذا المعنى كقوله: يُرِيدُونَ وَجْهَهُ (الأنعام/۵٢)،و قوله: إِلاَّ ابْتِغٰاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلىٰ (الليل/٢٠)،الى غير ذلك من الآيات الكثيره جدا.

و عليه فتكون عباره عن كل ما ينسب اليه وحده فإن كان الكلام على ظاهر عمومه انطبق على الوجه الأول الذى أوردناه و يكون من مصاديقه أسماؤه و صفاته و أنبياؤه و خلفاؤه و دينه الذى يؤتى منه.

و إن خصّ الوجه بالدين فحسب-كما وقع فى بعض الروايات إن لم يكن من باب التطبيق- كان المراد بالهلاك الفساد و عدم الأثر،و كانت الجمله تعليلا لقوله: «وَ لاٰ تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ» و كان ما قبلها قرينه على أن المراد بالشىء الدين و الأعمال المتعلقه به و كان محصّل المعنى:و لا تتدين بغير دين التوحيد لأن كل دين باطل لا أثر له إلاّ دينه.

و الأنسب على هذا أن يكون الحكم فى ذيل الآيه بمعنى الحكم التشريعى أو الأعم منه و من التكوينى و المعنى:كل دين هالك إلاّ دينه لأن تشريع الدين اليه و اليه ترجعون لا الى مشرّعى

الأدیان الأخر (۱).

و قوله: لَهُ الْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ الحکم هو قضاؤه النافذ فی الأشیاء و علیه یدور التدبیر فی نظام الکون،و أما کونه بمعنی فصل القضاء یوم القیامه فیبعده تقدیم الحکم فی الذکر علی الرجوع الیه الذی هو یوم القیامه فإن فصل القضاء متفرع علیه.

و کلتا الجملتین مسوقتان للتعلیل و کل واحده منهما وحدها حجه تامه علی توحیده تعالی بالالوهیه صالحه للتعلیل کلمه الإخلاص،و قد تقدم إمکان أخذ الحکم علی بعض الوجوه بمعنی الحکم التشریعی.

۱- ۱) .القصص ۸۵-۸۸:نظرات المفسرین فی معنی وجه اللّه.

سوره العنکبوت مکیه و هی تسع و ستون آیه

اشاره

[سوره العنکبوت (۲۹): الآیات ۱ الی ۱۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ
الم (۱) أَ حَسِبَ اَلنّٰاسُ أَنْ یُتْرَکُوا أَنْ یَقُولُوا آمَنّٰا وَ هُمْ لاٰ یُفْتَنُونَ (۲) وَ لَقَدْ فَتَنَّا اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَیَعْلَمَنَّ اَللّٰهُ اَلَّذِینَ صَدَقُوا وَ لَیَعْلَمَنَّ اَلْکٰاذِبِینَ (۳) أَمْ حَسِبَ اَلَّذِینَ یَعْمَلُونَ اَلسَّیِّئٰاتِ أَنْ یَسْبِقُونٰا سٰاءَ مٰا یَحْکُمُونَ (۴) مَنْ کٰانَ یَرْجُوا لِقٰاءَ اَللّٰهِ فَإِنَّ أَجَلَ اَللّٰهِ لَآتٍ وَ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۵) وَ مَنْ جٰاهَدَ فَإِنَّمٰا یُجٰاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اَللّٰهَ لَغَنِیٌّ عَنِ اَلْعٰالَمِینَ (۶) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَنُکَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَیِّئٰاتِهِمْ وَ لَنَجْزِیَنَّهُمْ أَحْسَنَ اَلَّذِی کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۷) وَ وَصَّیْنَا اَلْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَیْهِ حُسْناً وَ إِنْ جٰاهَدٰاکَ لِتُشْرِکَ بِی مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِی اَلصّٰالِحِینَ (۹) وَ مِنَ اَلنّٰاسِ مَنْ یَقُولُ آمَنّٰا بِاللّٰهِ فَإِذٰا أُوذِیَ فِی اَللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَهَ اَلنّٰاسِ کَعَذٰابِ اَللّٰهِ وَ لَئِنْ جٰاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّکَ لَیَقُولُنَّ إِنّٰا کُنّٰا مَعَکُمْ أَ وَ لَیْسَ اَللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِمٰا فِی صُدُورِ اَلْعٰالَمِینَ (۱۰) وَ لَیَعْلَمَنَّ اَللّٰهُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ لَیَعْلَمَنَّ اَلْمُنٰافِقِینَ (۱۱) وَ قٰالَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لِلَّذِینَ آمَنُوا اِتَّبِعُوا سَبِیلَنٰا وَ لْنَحْمِلْ خَطٰایٰاکُمْ وَ مٰا هُمْ بِحٰامِلِینَ مِنْ خَطٰایٰاهُمْ مِنْ شَیْءٍ إِنَّهُمْ لَکٰاذِبُونَ (۱۲) وَ لَیَحْمِلُنَّ أَثْقٰالَهُمْ وَ أَثْقٰالاً مَعَ أَثْقٰالِهِمْ وَ لَیُسْئَلُنَّ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ عَمّٰا کٰانُوا یَفْتَرُونَ (۱۳)

ص: ۷۲۶

بیان:

یلوح من سیاق آیات السوره و خاصه ما فی صدرها من الآیات أن بعضا ممن آمن بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بمکه قبل الهجره رجع عنه خوفا من فتنه کانت تهدّده من قبل المشرکین فإن المشرکین کانوا یدعونهم الی العود الی ملّتهم و یضمنون لهم أن یحملوا خطایاهم إن اتبعوا سبیلهم فإن أبوا فتنوهم و عذّبوهم لیعیدوهم الی ملّتهم.

یشیر الی ذلک قوله تعالی: وَ قٰالَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لِلَّذِینَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِیلَنٰا وَ لْنَحْمِلْ

خَطٰايٰاكُمْ الآيه؛و قوله: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّٰا بِاللّٰهِ فَإِذٰا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّٰاسِ كَعَذٰابِ اللّٰهِ الآيه.

و كأن فى هؤلاء الراجعين عن إيمانهم من كان رجوعه بمجاهده من والديه على أن يرجع و إلحاح منهما عليه فى الارتداد كبعض أبناء المشركين على ما يستشم من قوله تعالى:

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جٰاهَدٰاكَ لِتُشْرِكَ بِي مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا الآيه؛و قد نزلت السوره فى شأن هؤلاء.

فغرض السوره على ما يستفاد من بدئها و ختامها و السياق الجارى فيها أن الذى يريده اللّه سبحانه من الإيمان ليس هو مجرد قولهم:آمنا باللّه بل هو حقيقه الإيمان التى لا تحركها عواصف الفتن و لا تغيّرها غير الزمن و هى إنما تتثبت و تستقر بتوارد الفتن و تراكم المحن،فالناس غير متروكين بمجرد أن يقولوا:آمنا باللّه دون أن يفتنوا و يمتحنوا فيظهر ما فى نفوسهم من حقيقه الإيمان أو وصمه الكفر فليعلمن اللّه الذين صدقوا و يعلم الكاذبين.

فالفتنه و المحنه سنّه إلهيه لا معدل عنها تجرى فى الناس الحاضرين كما جرت فى الامم الماضين كقوم نوح و عاد و ثمود و قوم إبراهيم و لوط و شعيب و موسى فاستقام منهم من استقام و هلك منهم من هلك و ما ظلمهم اللّه و لكن كانوا أنفسهم يظلمون.

فعلى من يقول:آمنت باللّه أن يصبر على إيمانه و يعبد اللّه وحده فإن تعذّر عليه القيام بوظائف الدين فليهاجر الى أرض يستطيع فيها ذلك فأرض اللّه واسعه و لا يخف عسر المعاش فإن الرزق على اللّه و كأيّن من دابه لا تحمل رزقها اللّه يرزقها و إياه.

و أما المشركون الذين يفتنون المؤمنين من غير جرم أجرموه إلاّ أن يقولوا ربنا اللّه فلا يحسبوا أنهم يعجزون اللّه و يسبقونه فأما فتنتهم للمؤمنين و إيذاؤهم و تعذيبهم فإنما هى فتنه لهم و للمؤمنين غير خارجه عن علم اللّه و تقديره،فهى فتنه و هى محفوظه عليهم إن شاء أخذهم بوبالها فى الدنيا و إن شاء أخّرهم الى يوم يرجعون فيه اليه و ما لهم من محيص.

و أما ما لفّقوه من الحجه و ركنوا اليه من باطل القول فهو داحض مردود اليهم و الحجه قائمه تامه عليهم.

فهذا محصّل غرض السوره و مقتضى ذلك كون السوره كلها مكيه،و قول القائل:إنها مدنيه كلها أو معظمها أو بعضها-و سيجىء فى البحث الروائى التالى-غير سديد،فمضامين آيات السوره لا تلائم إلاّ زمن العسره و الشده قبل الهجره.

قوله تعالى: الم، أَ حَسِبَ النّٰاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّٰا وَ هُمْ لاٰ يُفْتَنُونَ الحسبان هو الظن،و جمله «أَنْ يُتْرَكُوا» قائمه مقام مفعوليه،و قوله: «أَنْ يَقُولُوا» بتقدير باء السببيه،و الفتنه الامتحان و ربما تطلق على المصيبه و العذاب،و الأوفق للسياق هو المعنى الأول،و الاستفهام للإنكار.

و لا معنى:أظن الناس أن يتركوا فلا يتعرض لحالهم و لا يمتحنوا بما يظهر به صدقهم أو كذبهم فى دعوى الإيمان بمجرد قولهم:آمنا؟

قوله تعالى: وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكٰاذِبِينَ اللامان للقسم،و قوله: «وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» حال من الناس فى قوله: «أَ حَسِبَ النّٰاسُ» أو من ضمير الجمع فى قوله: «لاٰ يُفْتَنُونَ» و على الأول فالإنكار و التوبيخ متوجه الى ظنهم أنهم لا يفتنون مع جريان السنه الإلهيه على الفتنه و الامتحان و على الثانى الى ظنهم الاختلاف فى فعله تعالى حيث يفتن قوما و لا يفتن آخرين،و لعل الوجه الأول أوفق للسياق.

فالظاهر أن المراد بقوله: «وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أن الفتنه و الامتحان سنه جاريه لنا و قد جرت فى الذين من قبلهم و هى جاريه فيهم و لن تجد لسنه اللّه تبديلا.

و قوله: فَلَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِينَ صَدَقُوا الخ؛تعليل لما قبله،و المراد بعلمه تعالى بالذين صدقوا بالكاذبين ظهور آثار صدقهم و كذبهم فى مقام العمل بسبب الفتنه و الامتحان

الملازم لثبوت الإيمان فى قلوبهم حقيقه و عدم ثبوته فيها حقيقه فإن السعاده التى تترتب على الإيمان المدعو اليه و كذا الثواب إنما تترتب على حقيقه الإيمان الذى له آثار ظاهره من الصبر عند المكاره و الصبر على طاعه اللّه و الصبر على معصيه اللّه لا على دعوى الإيمان المجرده.

و يمكن أن يكون المراد بالعلم علمه تعالى الفعلى الذى هو نفس الأمر الخارجى فإن الامور الخارجيه بنفسها من مراتب علمه تعالى،و أما علمه تعالى الذاتى فلا يتوقف على الامتحان البته.

و المعنى:أحسبوا أن يتركوا و لا يفتنوا بمجرد دعوى الإيمان و إظهاره و الحال أن الفتنه سنتنا و قد جرت فى الذين من قبلهم فمن الواجب أن يتميز الصادقون من الكاذبين بظهور آثار صدق هؤلاء و آثار كذب أولئك الملازم لاستقرار الإيمان فى قلوب هؤلاء و زوال صورته الكاذبه عن قلوب أولئك.

قوله تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ أم منقطعه،و المراد بقوله: «الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ» المشركون الذين كانوا يفتنون المؤمنين و يصدونهم عن سبيل اللّه كما أن المراد بالناس فى قوله: «أَ حَسِبَ النّاسُ» هم الذين قالوا:آمنا و هم فى معرض الرجوع عن الإيمان خوفا من الفتنه و التعذيب.

و المراد بقوله: «أَنْ يَسْبِقُونا» الغلبه و التعجيز بسبب فتنه المؤمنين و صدّهم عن سبيل اللّه-على ما يعطيه السياق.

و قوله: ساءَ ما يَحْكُمُونَ تخطئه لظنهم أنهم يسبقون اللّه بما يمكرون من فتنه و صدّ فإن ذلك بعينه فتنه من اللّه لهم أنفسهم و صدّ لهم عن سبيل السعاده و لا يحيق المكر السيئ إلاّ بأهله.

قوله تعالى: مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ الى تمام ثلاث آيات.لما وبّخ سبحانه الناس على استهانتهم بأمر الإيمان و رجوعهم عنه بأى فتنه و إيذاء من المشركين و وبّخ المشركين على فتنتهم و إيذائهم المؤمنين و صدّهم عن سبيل اللّه إراده لإطفاء نور اللّه و تعجيزا له فيما شاء و خطّأ الفريقين فيما ظنوا.

رجع الى بيان الحق الذى لا معدل عنه و الواجب الذى لا مخلص منه،فبيّن فى هذه الآيات الثلاث أن من يؤمن باللّه لتوقّع الرجوع اليه و لقائه فليعلم أنه آت لا محاله و أن اللّه سميع لأقواله عليم بأحواله و أعماله فليأخذ حذره و ليؤمن حقّ الإيمان الذى لا يصرفه عنه فتنه و لا إيذاء و ليجاهد فى اللّه حق جهاده،و ليعلم أن الذى ينتفع بجهاده هو نفسه و لا حاجه للّه سبحانه الى إيمانه و لا الى غيره من العالمين و ليعلم أنه إن آمن و عمل صالحا فإن اللّه سيكفّر عنه سيئاته و يجزيه بأحسن أعماله،و العلمان الأخيران يؤكدان العلم الأول و يستوجبان لزومه الإيمان و صبره على الفتن و المحن فى جنب اللّه.

فقوله: مَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰاءَ اللّٰهِ رجوع الى بيان حال من يقول:آمنت فإنه إنما يؤمن لو صدق بعض الصدق لتوقعه الرجوع الى اللّه سبحانه يوم القيامه إذ لو لا المعاد لغى الدين من أصله،فالمراد بقوله: «مَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰاءَ اللّٰهِ» من كان يؤمن باللّه أو من كان يقول:

آمنت باللّه،فالجمله من قبيل وضع السبب موضع المسبب.

و المراد بلقاء اللّه وقوف العبد موثقا لا حجاب بينه و بين ربه كما هو الشأن يوم القيامه الذى هو ظرف ظهور الحقائق،قال تعالى: «وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» .

و قوله: فَإِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ لَآتٍ الأجل هو الغايه التى ينتهى إليها زمان الدين و نحوه و قد يطلق على مجموع ذلك الزمان و الغالب فى استعماله هو المعنى الأول.

و «أَجَلَ اللّٰهِ» هو الغايه التى عيّنها اللّه تعالى للقائه،و هو آت لا ريب فيه و قد أكّد القول تأكيدا بالغا،و لازم تحتم إتيان هذا الأجل و هو يوم القيامه أن لا يسامح فى أمره و لا يستهان بأمر الإيمان باللّه حق الإيمان و الصبر عليه عند الفتن و المحن من غير رجوع و ارتداد،و قد زاد

فى تأكيد القول بتذييله بقوله: «وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» إذ هو تعالى لما كان سميعا لأقوالهم عليما بأحوالهم فلا ينبغى أن يقول القائل:آمنت باللّه إلاّ عن ظهر القلب و مع الصبر على كل فتنه و محنه.

و من هنا يظهر أن ذيل الآيه «فَإِنَّ أَجَلَ اللّهِ لَآتٍ» الخ؛من قبيل وضع السبب موضع المسبب كما كان صدرها «مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللّهِ» أيضا كذلك،و الأصل من قال:آمنت باللّه.

فليقله مستقيما صابرا عليه مجاهدا فى ربه.

و قوله: وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ المجاهده و الجهاد مبالغه من الجهد بمعنى بذل الطاقه،و فيه تنبيه لهم أن مجاهدتهم فى اللّه بلزوم الإيمان و الصبر على المكاره دونه ليست مما يعود نفعه الى اللّه سبحانه حتى لا يهمهم و يلغو بالنسبه اليهم أنفسهم بل إنما يعود نفعه اليهم أنفسهم لغناه تعالى على العالمين فعليهم أن يلزموا الإيمان و يصبروا على المكاره دونه.

فقوله: وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ تأكيد لحجه الآيه السابقه،و قوله:

«إِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ» تعليل لما قبله.

و قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِی كانُوا يَعْمَلُونَ بيان لعاقبه إيمانهم حق الإيمان المقارن للجهاد و يتبين به أن نفع إيمانهم يعود اليهم لا الى اللّه سبحانه و أنه عطيّه من اللّه و فضل.

و على هذا فالآيه لا تخلو من دلاله ما على أن الجهاد فى اللّه هو الإيمان و العمل الصالح فإنها فى معنى تبديل قوله فى الآيه السابقه: «وَ مَنْ جاهَدَ» من قوله فى هذه الآيه: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ» .

و تكفير السيئات هو العفو عنها و الأصل فى معنى الكفر هو الستر،و قيل:تكفير السيئات هو تبديل كفرهم السابق إيمانا و معاصيهم السابقه طاعات،و ليس بذاك.

و جزاؤهم بأحسن الذين كانوا يعملون هو رفع درجتهم الى ما يناسب أحسن أعمالهم أو عدم المناقشه فى أعمالهم عند الحساب إذا كانت فيها جهات رداءه و خسّه فيعاملون فى كل واحد من أعمالهم معامله من أتى بأحسن عمل من نوعه فتحتسب صلاتهم أحسن الصلاه و إن اشتملت على بعض جهات الرداءه و هكذا.

قوله تعالى: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جٰاهَدٰاكَ لِتُشْرِكَ بِى مٰا لَيْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا الخ؛التوصيه العهد و هو هاهنا الأمر،و قوله: «حُسْناً» مصدر فى معنى الوصف قائم مقام مفعول مطلق محذوف و التقدير:و وصّينا الإنسان بوالديه توصيه حسنه أو ذات حسن أى أمرناه أن يحسن اليهما و هذا مثل قوله: «وَ قُولُوا لِلنّٰاسِ حُسْناً» أى قولا حسنا أو ذا حسن،و يمكن أن يكون وضع المصدر موضع الوصف للمبالغه نحو زيد عدل،و ربما وجّه بتوجيهات أخر.

و قوله: وَ إِنْ جٰاهَدٰاکَ لِتُشْرِکَ بِی الخ؛تتميم للتوصيه بخطاب شفاهى للانسان بنهيه عن إطاعه والديه إن دعواه الى الشرك و الوجه فى ذلك أن التوصيه فى معنى الأمر فكأنه قيل:و قلنا للانسان أحسن الى والديك و إن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما.

و لم يقل:و أن لا يطيعهما إن جاهداه على أن يشرك الخ؛لما فى الخطاب من الصراحه و ارتفاع الإبهام و لذلك قال أيضا: «لِتُشْرِکَ بِی» بضمير المتكلم وحده فافهمه و يئول معنى الجمله الى أنّا نهيناه عن الشرك طاعه لهما و رفعنا عنه كل إبهام.

و فى قوله: مٰا لَيْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إشاره الى عله النهى عن الطاعه فإن دعوتهما الى الشرك بعباده إله من دون اللّه دعوه الى الجهل و عباده ما ليس له به علم افتراء على اللّه و قد نهى اللّه عن اتّباع غير العلم قال: وَ لاٰ تَقْفُ مٰا لَيْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ (الإسراء/۳۸)،و بهذه المناسبه ذيّلها بقوله: «إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أى ساعلمكم ما معنى أعمالكم

و منها عبادتكم الأصنام و شرككم باللّه سبحانه.

و معنى الآيه؛و عهدنا الى الإنسان فى والديه عهدا حسنا-و أمرناه أن أحسن الى والديک- و إن بذلا جهدهما أن تشرک بى فلا تطعهما لأنه اتباع ما ليس لک به علم.

و فى الآيه-كما تقدمت الإشاره اليه-توبيخ تعريضى لبعض ما كان قد آمن ثم رجع عن إيمانه بمجاهده من والديه.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصّٰالِحِينَ معنى الآيه ظاهر،و فى وقوعها بعد الآيه السابقه و فى سياقها،دلاله على وعد جميل منه تعالى و تطييب نفس لمن ابتلى من المؤمنين بوالدين مشركين يجاهدانه على الشرک فعصاهما و فارقهما،يقول سبحانه:إن جاهداه على الشرک فعصاهما و هجرهما ففاتاه لم يكن بذلک بأس فإنّا سنرزقه خيرا منهما و ندخله بإيمانه و عمله الصالح فى الصالحين و هم العباد المنعّمون فى الجنه،قال تعالى: يٰا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ اِرْجِعِي إِلىٰ رَبِّكِ رٰاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبٰادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي (الفجر/٣٠).

قوله تعالى: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّٰا بِاللّٰهِ فَإِذٰا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّٰاسِ كَعَذٰابِ اللّٰهِ الى آخر الآيه؛لما كان إيمان هؤلاء مقيدا بالعافيه و السلامه مغيّا بالإيذاء و الابتلاء لم يعدّه إيمانا بقول مطلق و لم يقل:و من الناس من يؤمن باللّه بل قال:

«وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّٰا بِاللّٰهِ» فالآيه بوجه نظيره قوله: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّٰهَ عَلىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصٰابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصٰابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلىٰ وَجْهِهِ (الحج/١١).

و قوله: فَإِذٰا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ أى أوذى لأجل الإيمان باللّه بناء على أن فى للسببيه كما قيل و فيه عنايه كلاميه لطيفه بجعله تعالى-أى جعل الإيمان باللّه-ظرفا للإيذاء و لمن يقع عليه الإيذاء ليفيد أن الإيذاء منتسب اليه تعالى انتساب المظروف الى ظرفه و ينطبق على معنى السببيه و الغرضيه و نظيره قوله: يٰا حَسْرَتىٰ عَلىٰ مٰا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللّٰهِ (الزمر/

۵۶)،و قوله: وَ الَّذِینَ جٰاهَدُوا فِینٰا (العنکبوت/۶۹).

و قوله: جَعَلَ فِتْنَةَ النّٰاسِ کَعَذٰابِ اللّٰهِ أی نزل العذاب و الإیذاء الذی یصیبه من الناس فی وجوب التحرز منه منزله عذاب اللّٰه الذی یجب أن یتحرز منه فرجع عن الإیمان الی الشرک خوفا و جزعا من فتنتهم مع أن عذابهم یسیر منقطع الآخر بنجاه أو موت و لا یقاس ذلک بعذاب اللّٰه العظیم المؤبد الذی یستتبع الهلاک الدائم.

و قوله: وَ لَئِنْ جٰاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّکَ لَیَقُولُنَّ إِنّٰا کُنّٰا مَعَکُمْ أی لئن أتاکم من قبله تعالی ما فیه فرج و یسر لکم من بعد ما أنتم فیه من الشده و العسره من قبل أعداء اللّٰه لیقولن هؤلاء إنا کنا معکم فلنا منه نصیب.

و «لَیَقُولُنَّ» بضم اللام صیغه جمع،و الضمیر راجع الی «مِنَ» باعتبار المعنی کما أن ضمائر الإفراد الأخر راجعه إلیها باعتبار اللفظ.

و قوله: أَ وَ لَیْسَ اللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِمٰا فِی صُدُورِ الْعٰالَمِینَ استفهام إنکاری فیه رد دعواهم أنهم مؤمنون بأن اللّٰه أعلم بما فی الصدور و لا تنطوی قلوب هؤلاء علی إیمان.

و المراد بالعالمین الجماعات من الإنسان أو الجماعات المختلفه من أولی العقل إنسانا کان أو غیره کالجن و الملک،و لو کان المراد به جمیع المخلوقات من ذوی الشعور و غیرهم کان المراد بالصدور البواطن و هو بعید.

قوله تعالی: وَ لَیَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ لَیَعْلَمَنَّ الْمُنٰافِقِینَ من تتمه الکلام فی الآیه السابقه و المحصل أن اللّٰه مع ذلک یمیز بین المؤمنین و المنافقین بالفتنه و الامتحان.

و فی الآیه إشاره الی کون هؤلاء منافقین و ذلک لکون إیمانهم مقیدا بعدم الفتنه و هم یظهرونه مطلقا غیر مقید و الفتنه سنه إلهیه جاریه لا معدل عنها.

و أما قوله تعالی: «وَ مَنْ جٰاهَدَ» الخ؛فقد اتضح مما تقدم أن المراد به جهاد النفس دون

مقاتله الکفار فالحق أن لا دلاله فی شیء من الآیات علی کون السوره أو بعضها مدنیه.

قوله تعالی: وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلَّذِینَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِیلَنٰا وَ لْنَحْمِلْ خَطٰایٰاکُمْ وَ مٰا هُمْ بِحٰامِلِینَ مِنْ خَطٰایٰاهُمْ مِنْ شَیْءٍ إِنَّهُمْ لَکٰاذِبُونَ المراد بالذین کفروا مشرکوا مکه الذین أبدوا الکفر أول مره بالدعوه الحقه،و بالذین آمنوا المؤمنون بها أول مره و قولهم لهم: «اتَّبِعُوا سَبِیلَنٰا وَ لْنَحْمِلْ خَطٰایٰاکُمْ» نوع استماله لهم و تطییب لنفوسهم أن لو رجعوا الی الشرک و اتبعوا سبیلهم لم تکن علیهم تبعه علی أی حال:إذ لو لم تکن فی ذلک خطیئه فهو،و إن کانت فهم حاملون لها عنهم،و لذلک لم یقولوا:و لنحمل خطایاکم لو کانت بل أطلقوا القول من غیر تقیید.

فکأنهم قالوا:لنفرض أن اتباعکم لسبیلنا خطیئه فإنا نحملها عنکم و نحمل کل ما یتفرع علیه من الخطایا أو إنا نحمل عنکم خطایاکم عامه و من جملتها هذه الخطیئه.

و قوله: وَ مٰا هُمْ بِحٰامِلِینَ مِنْ خَطٰایٰاهُمْ مِنْ شَیْءٍ رد لقولهم:و لنحمل خطایاکم و هو رد محفوف بحجه إذ لو کان اتباعهم لسبیلهم و رجوعهم عن الإیمان باللّه خطیئه کان خطیئه عند اللّه لا حقه بالراجعین و انتقالها عن عهدتهم الی غیرهم یحتاج الی إذن من اللّه و رضی فهو الذی یؤاخذهم به و یجازیهم و هو سبحانه یصرّح و یقول: «مٰا هُمْ بِحٰامِلِینَ مِنْ خَطٰایٰاهُمْ مِنْ شَیْءٍ» و قد عمّم النفی لکل شیء من خطایاهم.

و قوله: إِنَّهُمْ لَکٰاذِبُونَ تکذیب لهم لما أن قولهم: «وَ لْنَحْمِلْ خَطٰایٰاکُمْ» یشتمل علی دعوی ضمنی أن خطایاهم تنتقل الیهم لو احتملوها و أن اللّه یجیز لهم ذلک.

قوله تعالی: وَ لَیَحْمِلُنَّ أَثْقٰالَهُمْ وَ أَثْقٰالاً مَعَ أَثْقٰالِهِمْ وَ لَیُسْئَلُنَّ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ عَمّٰا کٰانُوا یَفْتَرُونَ من تمام القول السابق فی ردهم و هو فی محل الاستدراک ای إنهم لا یحملون خطایاهم بعینها فهی لازمه لفاعلیها لکنهم حاملون أثقالا و أحمالا من الأوزار مثل أوزار فاعلیها من غیر أن ینقص من فاعلیها فیحملونها مضافا الی أثقال أنفسهم و أحمالها لما أنهم

ضالّون مضلّون.

فالآيه فی معنی قوله تعالی: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَهِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ (النحل/۲۵).

و قوله: «وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَهِ عَمّا كانُوا يَفْتَرُونَ» فشركهم افتراء علی اللّه سبحانه و كذا دعواهم القدره علی إنجاز ما وعدوه و أن اللّه يجيز لهم ذلك (۱).

[سوره العنكبوت (۲۹): الآيات ۱۴ الی ۴۰]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَهٍ إِلاّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (۱۴) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ اَلسَّفِينَهِ وَ جَعَلْناها آيَهً لِلْعالَمِينَ (۱۵) وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اُعْبُدُوا اَللّهَ وَ اِتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۶) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ اَلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اَللّهِ اَلرِّزْقَ وَ اُعْبُدُوهُ وَ اُشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۱۷) وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ ما عَلَى اَلرَّسُولِ إِلاَّ اَلْبَلاغُ اَلْمُبِينُ (۱۸) أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اَللّهُ اَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اَللّهِ يَسِيرٌ (۱۹) قُلْ سِيرُوا فِي اَلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ اَلْخَلْقَ ثُمَّ اَللّهُ يُنْشِئُ اَلنَّشْأَهَ اَلْآخِرَهَ إِنَّ اَللّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۰) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (۲۱) وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي اَلْأَرْضِ وَ لا فِي اَلسَّماءِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اَللّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۲۲) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اَللّهِ وَ لِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۲۳) فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاّ أَنْ قالُوا اُقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اَللّهُ مِنَ اَلنّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۲۴) وَ قالَ إِنَّمَا اِتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اَللّهِ أَوْثاناً مَوَدَّهَ بَيْنِكُمْ فِي اَلْحَياهِ اَلدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ اَلْقِيامَهِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَ مَأْواكُمُ اَلنّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۲۵) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۲۶) وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ اَلنُّبُوَّهَ وَ اَلْكِتابَ وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي اَلدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي اَلْآخِرَهِ لَمِنَ اَلصّالِحِينَ (۲۷) وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ اَلْفاحِشَهَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ اَلْعالَمِينَ (۲۸) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ اَلرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ اَلسَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ اَلْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاّ أَنْ قالُوا اِئْتِنا بِعَذابِ اَللّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّادِقِينَ (۲۹) قالَ رَبِّ اُنْصُرْنِي عَلَى اَلْقَوْمِ اَلْمُفْسِدِينَ (۳۰) وَ لَمّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ اَلْقَرْيَهِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (۳۱) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ اِمْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ اَلْغابِرِينَ (۳۲) وَ لَمّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلاَّ اِمْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ اَلْغابِرِينَ (۳۳) إِنّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ اَلْقَرْيَهِ رِجْزاً مِنَ اَلسَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۳۴) وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَهً بَيِّنَهً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۳۵) وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّهَ وَ اُرْجُوا اَلْيَوْمَ اَلْآخِرَ وَ لا تَعْثَوْا فِي اَلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۳۶) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ اَلرَّجْفَهُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (۳۷) وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ اَلشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ اَلسَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (۳۸) وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي اَلْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ (۳۹) فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ اَلصَّيْحَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ اَلْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اَللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۴۰)

۱- ۱) .العنکبوت ۱-۱۳:بحث روائی حول الآیه «أَ حَسِبَ النّاسُ أَنْ یُتْرَکُوا» الفتنه؛لقاء اللّه.

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلی قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِیهِمْ أَلْفَ سَنَهٍ إِلاّ خَمْسِینَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ ،فی المجمع:الطوفان الماء الکثیر الغامر لأنه یطوف بکثرته فی نواحی الأرض،انتهی.و قیل:هو کل ما یطوف بالشیء علی کثره و شده من السیل و الریح و الظلام و الغالب استعماله فی طوفان الماء.

و التعبیر بألف سنه إلاّ خمسین عاما دون أن یقال:تسعمائه و خمسین سنه للتکثیر و الآیه ظاهره فی أن الألف إلاّ خمسین مده دعوه نوح علیه السّلام ما بین بعثته الی أخذ الطوفان فیغایر ما فی التوراه الحاضره أنها مده عمره علیه السّلام و قد تقدمت الإشاره الی ذلک فی قصصه علیه السّلام فی تفسیر سوره هود،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: فَأَنْجَیْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِینَهِ وَ جَعَلْناها آیَهً لِلْعالَمِینَ أی فانجینا نوحا و أصحاب السفینه الراکبین معه فیها و هم أهله و عده قلیله من المؤمنین به و لم یکونوا ظالمین.

و قوله: وَ جَعَلْناها آیَهً لِلْعالَمِینَ الظاهر أن الضمیر للواقعه أو للنجاه و أما رجوعه الی السفینه فلا یخلو من بعد،و العالمین الجماعات الکثیره المختلفه من الأجیال

اللاحقه بهم.

قوله تعالى: وَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّهَ وَ اتَّقُوهُ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ معطوف على قوله: «نُوحاً» أى و أرسلنا إبراهيم الى قومه.

و قوله لقومه: اُعْبُدُوا اللّهَ وَ اتَّقُوهُ دعوه الى التوحيد و إنذار بقرينه الآيات التاليه فتفيد الجمله فائده الحصر.

على أن الوثنيه لا يعبدون اللّه سبحانه و إنما يعبدون غيره زعما منهم أنه تعالى لا يمكن أن يعبد إلاّ من طريق الأسباب الفعاله في العالم المقربه عنده كالملائكه و الجن و لو عبد لكان معبودا وحده من غير شريك فدعوتهم الى عباده اللّه بقوله: «اعْبُدُوا اللّهَ» تفيد الدعوه اليه وحده و إن لم تقيد بأداه الحصر.

قوله تعالى: إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثٰاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً الى آخر الآيه؛الأوثان جمع وثن بفتحتين و هو الضم،و الإفك الأمر المصروف عن وجهه قولا أو فعلا.

و قوله: «إِنَّمٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثٰاناً» بيان لبطلان عباده الأوثان و يظهر به كون عباده اللّه هى العباده الحقه و بالجمله انحصار العباده الحقه فيه تعالى «أَوْثٰاناً» منكّر للدلاله على وهن أمرها و كون ألوهيتها دعوى مجرّده لا حقيقه وراءها،أى لا تعبدون من دون اللّه إلاّ أوثانا من أمرها كذا و كذا.

و لذا عقّب الجمله بقوله: «وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً» أى و تفتعلون كذبا بتسميتها آلهه و عبادتها بعد ذلك فهناك إله تجب عبادته لكنه هو اللّه الواحد دون الأوثان.

و قوله: إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لاٰ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً تعليل لما ذكر من افتعالهم الكذب بتسميه الأوثان آلهه و عبادتها و محصّله أن هؤلاء الذين تعبدون من دون اللّه و هم الأوثان بما هم تماثيل المقرّبين من الملائكه و الجن إنما تعبدونهم لجلب النفع و هو

أن يرضوا عنكم فيرزقوكم و يدرّوا عليكم الرزق لكنهم ليسوا يملكون لكم رزقا فإن اللّه هو الذى يملك رزقكم الذى هو السبب الممدّ لبقائكم لأنه الذى خلقكم و خلق رزقكم فجعله ممدا لبقائكم و الملك تابع للخلق و الإيجاد.

و لذلك عقّبه بقوله: «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ» أى فاطلبوا الرزق من عند اللّه لأنه هو الذى يملكه فلا تعبدوهم بل اعبدوا اللّه و اشكروا له على ما رزقكم و أنعم عليكم بألوان النعم فمن الواجب شكر المنعم على ما أنعم.

و قوله: إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فى مقام التعليل لقوله: «وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ» و لذا جىء بالفصل من غير عطف،و فى هذا التعليل صرفهم عن عباده الإله ابتغاء للرزق الى عبادته للرجوع و الحساب إذ لو لا المعاد لم يكن لعباده الإله سبب محصّل لأن الرزق و ما يجرى مجراه له أسباب خاصه كونيه غير العبادات و القربات و لا يزيد و لا ينقص بإيمان أو كفر لكن سعاده يوم الحساب تختلف بالإيمان و الكفر و العباده و الشكر و خلافهما فليكن الرجوع الى اللّه هو الباعث الى العباده و الشكر دون ابتغاء الرزق.

قوله تعالى: وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مٰا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ الظاهر أنه من تمام كلام إبراهيم عليه السّلام،و ذكر بعضهم أنه خطاب منه تعالى لمشركى قريش و لا يخلو من بعد.

و معنى الشرط و الجزاء فى صدر الآيه أن التكذيب هو المتوقع منكم لأنه كالسنّه الجاريه فى الامم المشركه و قد كذب من قبلكم و أنتم منهم و فى آخرهم و ليس علىّ بما أنا رسول إلاّ البلاغ المبين.

و يمكن أن يكون المراد أن حالكم فى تكذيبكم كحال الامم من قبلكم لم ينفعهم تكذيبهم شيئا حلّ بهم عذاب اللّه و لم يكونوا بمعجزين فى الأرض و لا فى السماء و لم يكن لهم من دون اللّه من ولى و لا نصير،فكذلكم أنتم،و قوله: «وَ مٰا عَلَى الرَّسُولِ» يناسب الوجهين جميعا.

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ هذه الآيه الى تمام خمس آيات من كلامه تعالى واقعه فى خلال القصه تقيم الحجه على المعاد و ترفع استبعادهم له متعلقه بما تقدم من حيث إن العمده فى تكذيبهم الرسل إنكارهم للمعاد كما يشير اليه قول إبراهيم «إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ» .

فقوله: أَ وَ لَمْ يَرَوْا الخ؛الضمير فيه للمكذبين من جميع الامم من سابق و لاحق و المراد بالرؤيه النظر العلمى دون الرؤيه البصريه،و قوله: «كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» فى موضع المفعول لقوله:«يروا»بعطف «يُعِيدُهُ» على موضع «يُبْدِئُ» خلافا لمن يرى عطفه على «أَ وَ لَمْ يَرَوْا» و الاستفهام للتوبيخ.

و المعنى:أو لم يعلموا كيفيه الإبداء ثم الإعاده أى إنهما من سنخ واحد هو إنشاء ما لم يكن، و قوله: «إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ» الإشاره فيه الى الإعاده بعد الإبداء و فيه رفع الاستبعاد لأنه إنشاء بعد إنشاء و إذ كانت القدره المطلقه تتعلق بالإيجاد فهى جائزه التعلق بالإنشاء بعد الإنشاء و هى فى الحقيقه نقل للخلق من دار الى دار و إنزال للسائرين اليه فى دار القرار.

قوله تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللّهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الآيه الى تمام ثلاث آيات أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يخاطبهم بما يتم به الحجه عليهم فيرشدهم الى السير فى الأرض لينظروا الى كيفيه بدء الخلق و إنشائهم على اختلاف طبائعهم و تفاوت ألوانهم و أشكالهم من غير مثال سابق و حصر أو تحديد فى عدتهم و عدتهم ففيه دلاله على عدم التحديد فى القدره الإلهيه فهو ينشئ النشأه الآخره كما أنشأ النشأه الاولى فالآيه فى معنى قوله: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولىٰ فَلَوْ لاٰ تَذَكَّرُونَ (الواقعه/٦٢).

قوله تعالى: يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشٰاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ من مقول

القول،و الظاهر أنه بيان لقوله: «يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ» و قلب الشيء تحويله عن وجهه أو حاله كجعل أسفله أعلاه و جعل باطنه ظاهره و هذا المعنى الأخير يناسب قوله تعالى: يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ (الطارق/۹).

و فسروا القلب بالرد قال فى المجمع:و القلب هو الرجوع و الرد فمعناه أنكم تردّون الى حال الحياه فى الآخره حيث لا يملك فيه النفع و الضر إلاّ اللّه.انتهى و هذا معنى لطيف يفسر به معنى الرجوع الى اللّه و الرد اليه و هو وقوفهم متوقفا تنقطع فيه عنهم الأسباب و لا يحكم فيه إلاّ اللّه سبحانه فالآيه فى معنى قوله: وَ رُدُّوا إِلَى اللّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (يونس/۳۰).

و محصل المعنى:أن النشأه الآخره هى نشأه يعذب اللّه فيها من يشاء و هم المجرمون و يرحم من يشاء و هم غيرهم و اليه تردّون فلا يحكم فيكم غيره.

قوله تعالى: وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ من مقول القول و توصيف لشأنهم يوم القيامه كما أن الآيه السابقه توصيف لشأنه تعالى يومئذ.

فقوله: وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ أى إنكم لا تقدرون أن تعجزوه تعالى يومئذ بالفوت منه و الخروج من حكمه و سلطانه بالفرار و الخروج من ملكه و النفوذ من أقطار الأرض و السماء،فالآيه تجرى مجرى قوله: يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا (الرحمن/۳۳).

و قوله: وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ أى ليس لكم اليوم ولى من دون اللّه يتولى أمركم فيغنيكم من اللّه و لا نصير ينصركم فيقوى جانبكم و يتمم ناقص قوتكم فيظهركم عليه سبحانه.

فالآيه-كما ترى-تنفى ظهورهم على اللّه و تعجيزهم له بالخروج و الامتناع عن حكمه

بأقسامه فلا هم يستقلون بذلك و هو قوله: «وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» الخ؛و لا غيرهم يستقل بذلك و هو قوله: «وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ» و لا المجموع منهم و من غيرهم يعجزه تعالى و هو قوله: «وَ لاٰ نَصِيرٍ» .

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ اللّٰهِ وَ لِقٰائِهِ أُولٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ خطاب مصروف الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم خارج من مقول القول السابق «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ» الخ؛و المطلوب فيه أن ينبئه صلّى اللّه عليه و آله و سلم صريح الحق فيمن يشقى و يهلك يوم القيامه فإنه أبهم ذلك فى قوله أولا: «يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشٰاءُ» .

و من الدليل عليه الخطاب فى «أُولٰئِكَ» مرتين و لو كان من كلام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم لقيل:

«اولئكم».

و يؤيد ذلك أيضا قوله: «مِنْ رَحْمَتِي» فإن الانتقال من مثل قولنا:اولئك يئسوا من رحمه اللّه أو من رحمته بسياق الغيبه على ما يقتضيه المقام الى قوله: «أُولٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي» يفيد التصديق و الاعتراف مضافا الى أصل الإخبار فيفيد صريح التعيين لأهل العذاب،و يؤيد ذلك أيضا تكرار الاشاره و ما فى السياق من التأكيد.

و كان فى تخصيص النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بهذا الاخبار تقويه لنفسه الشريفه و عزلا لهم عن صلاحيه السمع لمثله و هم لا يؤمنون.

و المراد بآيات اللّه-على ما يفيده إطلاق اللفظ-جميع الأدله الداله على الوحدانيه و النبوه و المعاد من الآيات الكونيه و المعجزات النبويه و منها القرآن فالكفر بآيات اللّه يشمل بعمومه الكفر بالمعاد فذكر الكفر باللقاء و هو المعاد بعد الكفر بالآيات من ذكر الخاص بعد العام و الوجه فيه الاشاره الى أهميه الايمان بالمعاد إذ مع إنكار المعاد يلغو أمر الدين الحق من أصله و هو ظاهر.

و المراد بالرحمه ما يقابل العذاب و يلازم الجنه و قد تكرر فى كلامه تعالى إطلاق الرحمه

علیها بالملازمه کقوله: فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فَیُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِی رَحْمَتِهِ (الجاثیه۳۰/)،و قوله: یُدْخِلُ مَنْ یَشاءُ فِی رَحْمَتِهِ وَ الظّالِمِینَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِیماً (الانسان۳۱/).

و المراد بإسناد الیأس الیهم إما تلبسهم به حقیقه فإنهم لجحدهم الحیاه الآخره آیسون من السعاده المؤبده و الجنه الخالده و إما إنه کنایه عن قضائه تعالی المحتوم أن الجنه لا یدخلها کافر.

و المعنی:و الذین جحدوا آیات اللّه الداله علی الدین الحق و خاصه المعاد اولئک یئسوا من الرحمه و الجنه و اولئک لهم عذاب ألیم.

قوله تعالی: فَما کانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللّهُ مِنَ النّارِ الخ؛تفریع علی قوله فی صدر القصه: وَ إِبْراهِیمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّهَ وَ اتَّقُوهُ .

و ظاهر قوله: قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ أن کلا من طرفی التردید قول طائفه منهم و المراد بالقتل القتل بالسیف و نحوه فهو قولهم أول ما ائتمروا لیجازوه و إن اتفقوا بعد ذلک علی إحراقه کما قال: قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَکُمْ (الأنبیاء۶۸/)،و یمکن أن یکون التردید من الجمیع لترددهم فی أمره أولا ثم اتفاقهم علی إحراقه.

و قوله: فَأَنْجاهُ اللّهُ مِنَ النّارِ فیه حذف و إیجاز و تقدیره ثم اتفقوا علی إحراقه فأضرموا نارا فألقوه فیها فأنجاه اللّه منها،و قد فصّلت القصه فی مواضع من کلامه تعالی.

قوله تعالی: وَ قالَ إِنَّما اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثاناً مَوَدَّهَ بَیْنِکُمْ فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا الی آخر الآیه إذ کان لا حجه عقلیه لهم علی اتخاذ الأوثان لم یبق لهم مما یستنون به إلاّ الاستنان بسنه من یعظمونه و یحترمون جانبه کالآباء للأبناء و الرؤساء المعظمین لأتباعهم و الأصدقاء لأصدقائهم و بالأخره الامه لأفرادها فهذا السبب الرابط هو

عمده ما يحفظ السنن القوميه معمولا بها قائمه على ساقها.

فالاستنان بسنه الوثنيه بالحقيقه من آثار المودات الاجتماعيه يرى العامه ذلك بعضهم من بعض فتبعثه الموده القوميه على تقليده و الاستنان به مثله ثم هذا الاستنان نفسه يحفظ الموده القوميه و يقيم الاتحاد و الاتفاق على ساقه.

هذه حال العامه منهم و أما الخاصه فربما ركنوا فى ذلك الى ما يحسبونه حجه و ما هو بحجه كقولهم:إن اللّه سبحانه أجلّ من أن يحيط به حس أو وهم أو عقل فلا يتعلق به توجهنا العبادى فمن الواجب أن نتقرب الى بعض من له به عنايه كالملائكه و الجن ليقربونا اليه زلفى و يشفعوا لنا عنده.

فقوله: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثاناً مَوَدَّهَ بَيْنِكُمْ فِى الْحَيَاهِ الدُّنْيَا خطاب منه عليه السّلام لعامه قومه فى أمر اتخاذهم الأوثان للموده القوميه ليصلحوا به شأن حياتهم الدنيا الاجتماعيه،و قد أجابوه بذلك حيث سألهم عن شأنهم إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (الأنبياء/۵۳)، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (الشعراء/۷۴).

ثم عقّب عليه السّلام بقوله: «إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ» الخ؛بقوله: «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَهِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً» يبيّن لهم عاقبه اتخاذهم الأوثان للموده و هو باطن هذه الموده المقصوده التى سيظهر يوم تبلى السرائر فإنهم توسلوا الى هذا المتاع القليل بالشرك الذى هو أعظم الظلم و أكبر الكبائر الموبقه و اجتمعوا عليه و توافقوا لكنهم سيبدو لهم حقيقه عملهم و يلحق بهم وباله فيتبرأ بعضهم من بعض و ينكره بعضهم على بعض.

و المراد بكفر بعضهم ببعض كفر آلهتهم بهم و تبرّيهم منهم،كما قال تعالى: سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (مريم/۸۲)،و قال: وَ يَوْمَ الْقِيَامَهِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ

(فاطر/۱۴)،و فی معناه:تبرّی المتبوعین من تابعیهم،کما قال تعالی: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِینَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِینَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ (البقره/۱۶۶)،و المراد بلعن بعضهم بعضا لعن کل بعض صاحبه،قال تعالی: کُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها (الأعراف/ ۳۸).

ثم عقّب ذلک بقوله: «وَ مَأْواکُمُ النّارُ وَ ما لَکُمْ مِنْ ناصِرِینَ» إشاره الی لحوق الوبال و وقوع الجزاء و هو النار التی فیها الهلاک المؤبد و لا ناصر ینصرهم و یدفع عنهم العذاب فهم إنما توسلوا الی الموده لیتناصروا و یتعاونوا و یتعاضدوا فی الحیاه لکنها عادت یوم القیامه معاداه و مضاده و أورثت تبرّیا و خذلانا.

قوله تعالی: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قالَ إِنِّی مُهاجِرٌ إِلیٰ رَبِّی إِنَّهُ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ أی آمن به لوط و الإیمان یتعدی باللام کما یتعدی بالباء و المعنی واحد.

و قوله: وَ قالَ إِنِّی مُهاجِرٌ إِلیٰ رَبِّی قیل الضمیر راجع الی لوط،و قیل:راجع الی إبراهیم و یؤیده قوله تعالی حکایه عن إبراهیم: وَ قالَ إِنِّی ذاهِبٌ إِلیٰ رَبِّی سَیَهْدِینِ (الصافات/۹۹).

و کان المراد بالمهاجره الی اللّه هجره وطنه و خروجه من بین قومه المشرکین الی أرض لا یعترضه فیها المشرکون و لا یمنعونه من عباده ربه فعدّ المهاجره مهاجره الی اللّه من المجاز العقلی.

و قوله: إِنَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ أی عزیز لا یذل من نصره حکیم لا یضیع من حفظه.

قوله تعالی: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِی ذُرِّیَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْکِتابَ معناه ظاهر.

قوله تعالی: وَ آتَیْناهُ أَجْرَهُ فِی الدُّنْیا وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَهِ لَمِنَ الصّالِحِینَ الأجر هو الجزاء الذی یقابل العمل و یعود الی عامله و الفرق بینه و بین الاجره أن الاجره

تختص بالجزاء الدنيوى و الأجر يعم الدنيا و الآخره،و الفرق بينه و بين الجزاء أن الأجر لا يقال إلّا فى الخير و النافع،و الجزاء يعمّ الخير و الشر و النافع و الضار.

و الغالب فى كلامه تعالى استعمال لفظ الأجر فى جزاء العمل العبودى الذى أعدّه اللّه سبحانه لعباده المؤمنين فى الآخره من مقامات القرب و درجات الولايه و منها الجنه،نعم وقع فى قوله تعالى حكايه عن يوسف عليه السّلام: إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (يوسف/۹۰)،و قوله: وَ كَذٰلِكَ مَكَّنّٰا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهٰا حَيْثُ يَشٰاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنٰا مَنْ نَشٰاءُ وَ لاٰ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (يوسف/۵۶)إطلاق الأجر على الجزاء الدنيوى الحسن.

فقوله: وَ آتَيْنٰاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيٰا يمكن أن يكون المراد به إيتاء الأجر الدنيوى الحسن و الأنسب على هذا أن يكون «فِي الدُّنْيٰا» متعلقا بالأجر لا بالإيتاء و ربما تأيّد هذا المعنى بقوله تعالى فيه عليه السّلام فى موضع آخر: وَ آتَيْنٰاهُ فِي الدُّنْيٰا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰالِحِينَ (النحل/۱۲۲)،فإن الظاهر أن المراد بالحسنه الحياه الحسنه أو العيشه الحسنه و إيتاؤها فعليه إعطائها دون تقديرها و كتابتها.

و يمكن أن يكون المراد به تقديم ما أعد لعامه المؤمنين فى الآخره من مقامات القرب فى حقه عليه السّلام و إيتائه ذلك فى الدنيا و قد تقدم إحصاء ما يذكره القرآن الكريم من مقاماته عليه السّلام فى قصصه من تفسير سوره الأنعام.

و قوله: وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰالِحِينَ تقدم الكلام فيه فى تفسير قوله تعالى: وَ لَقَدِ اصْطَفَيْنٰاهُ فِي الدُّنْيٰا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰالِحِينَ (البقره/۱۳۰)فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: وَ لُوطاً إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفٰاحِشَةَ مٰا سَبَقَكُمْ بِهٰا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعٰالَمِينَ أى و أرسلنا لوطا أو و اذكر لوطا إذ قال لقومه،و قوله: «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ

اَلْفٰاحِشَهَ» إخبار بداعی الاستعجاب و الإنکار،و المراد بالفاحشه إتیان الذکران.

و قوله: مٰا سَبَقَکُمْ بِهٰا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعٰالَمِینَ استئناف یوضح معنی الفاحشه و یؤکده،و کأن المراد أن هذا العمل لم یشع فی قوم قبلهم هذا الشیوع أو الجمله حال من فاعل «لَتَأْتُونَ» .

قوله تعالی: أَ إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِیلَ وَ تَأْتُونَ فِی نٰادِیکُمُ الْمُنْکَرَ الی آخر الآیه؛استفهام من أمر من الحری أن لا یصدقه سامع و لا یقبله ذو لب و لذا أکّد بالنون و اللام،و هذا السیاق یشهد أن المراد بإتیان الرجل اللواط و بقطع السبیل إهمال طریق التناسل و إلغاؤها و هی إتیان النساء،فقطع السبیل کنایه عن الإعراض عن النساء و ترک نکاحهن،و بإتیانهم المنکر فی نادیهم-و النادی هو المجلس الذی یجتمعون فیه و لا یسمی نادیا إلاّ إذا کان فیه أهله-الإتیان بالفحشاء أو بمقدّماتها الشنیعه بمرأی من الجماعه.

و قوله: فَمٰا کٰانَ جَوٰابَ قَوْمِهِ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا ائْتِنٰا بِعَذٰابِ اللّٰهِ إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِینَ استهزاء و سخریه منهم،و یظهر من جوابهم أنه کان ینذرهم بعذاب اللّه و قد قال اللّه فی قصته فی موضع آخر: وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنٰا فَتَمٰارَوْا بِالنُّذُرِ (القمر۳۶/).

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ انْصُرْنِی عَلَی الْقَوْمِ الْمُفْسِدِینَ سؤال للفتح و دعاء منه علیهم،و قد عدّهم مفسدین لعملهم الذی یفسد الأرض و یقطع النسل و یهدد الإنسانیه بالفناء.

قوله تعالی: وَ لَمّٰا جٰاءَتْ رُسُلُنٰا إِبْرٰاهِیمَ بِالْبُشْریٰ قٰالُوا إِنّٰا مُهْلِکُوا أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْیَهِ إِنَّ أَهْلَهٰا کٰانُوا ظٰالِمِینَ إجمال قصه هلاک قوم لوط،و قد کان ذلک برسل من الملائکه أرسلهم اللّه أولا الی إبراهیم علیه السّلام فبشّروه و بشّروا امرأته بإسحاق و یعقوب ثم أخبروه بأنهم مرسلون لإهلاک قوم لوط،و القصه مفصّله فی سوره هود و غیرها.

و قوله: قَالُوا إِنّٰا مُهْلِكُوا أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ أى قالوا لإبراهيم،و فى الإتيان بلفظ الإشاره القريبه-هذه القريه-دلاله على قربها من الأرض التى كان إبراهيم عليه السّلام نازلا بها، و هى الأرض المقدسه.

و قوله: إِنَّ أَهْلَهٰا كٰانُوا ظٰالِمِينَ تعليل لإهلاكهم بأنهم ظالمون قد استقرت فيهم رذيله الظلم،و قد كان مقتضى الظاهر أن يقال:إنهم كانوا ظالمين فوضع المظهر موضع المضمر للإشاره الى أن ظلمهم ظلم خاص بهم يستوجب الهلاك و ليس من مطلق الظلم الذى كان الناس مبتلين به يومئذ كأنه قيل:إن أهلها بما أنهم أهلها ظالمون.

قوله تعالى: قٰالَ إِنَّ فِيهٰا لُوطاً قٰالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهٰا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كٰانَتْ مِنَ الْغٰابِرِينَ ظاهر السياق أنه عليه السّلام كان يريد بقوله: «إِنَّ فِيهٰا لُوطاً» أن يصرف العذاب أن فيها لوطا و إهلاك أهلها يشمله فأجابوه بأنهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممن لا يشمله العذاب و هم أهله إلاّ امرأته.

لكنه عليه السّلام لم يكن ليجهل أن اللّه سبحانه لا يعذب لوطا و هو نبى مرسل،و إن شمل العذاب جميع من سواه من أهل قريته و لا أنه يخوّفه و يزعزعه و يفزعه بقهره عليهم بل كان عليه السّلام يريد بقوله: «إِنَّ فِيهٰا لُوطاً» أن يصرف العذاب عن أهل القريه كرامه للوط أن يدفعه عن لوط، فاجيب بأنهم مأمورون بإنجائه و إخراجه من بين أهل القريه و معه أهله إلاّ امرأته كانت من الغابرين.

و الدليل على هذا الذى ذكرنا قوله تعالى فى سوره هود فى هذا الموضع من القصه: فَلَمّٰا ذَهَبَ عَنْ إِبْرٰاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جٰاءَتْهُ الْبُشْرىٰ يُجٰادِلُنٰا فِى قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوّٰاهٌ مُنِيبٌ، يٰا إِبْرٰاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذٰا إِنَّهُ قَدْ جٰاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذٰابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (هود۷۶/)، فالآيات أظهر ما يكون فى أن إبراهيم عليه السّلام كان يدافع عن قوم لوط لا عن لوط نفسه.

فظاهر كلامه عليه السّلام فى الآيه التى نحن فيها الدفاع عن لوط و على ذلك جاراه الرسل فأبقوا

كلامه على ظاهره و أجابوا بأنهم ما كانوا ليجهلوا ذلك فهم أعلم بمن فيها و عالمون بأن فيها لوطا و معه أهله ممن لا ينبغى أن يعذب لكنهم سينجّونه و أهله إلاّ امرأته،لكن الذى أراده إبراهيم عليه السّلام بكلامه دفع العذاب عن أهل القريه فاجيب بأنه من الأمر المحتوم على ما تشير اليه آيات سوره هود.

و للقوم فى قوله: «إِنَّ أَهْلَهٰا كٰانُوا ظٰالِمِينَ» و قوله: «قٰالَ إِنَّ فِيهٰا لُوطاً» مشاجرات طويله أعرضنا عن التعرض لها لعدم الجدوى،و من أراد الوقوف عليها فليراجع المطوّلات.

قوله تعالى: وَ لَمّٰا أَنْ جٰاءَتْ رُسُلُنٰا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضٰاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قٰالُوا لاٰ تَخَفْ وَ لاٰ تَحْزَنْ الى آخر الآيه؛ضمير الجمع فى «سِيءَ بِهِمْ وَ ضٰاقَ بِهِمْ» للرسل و الباء للسببيه أى أخذته المساءه و هى سوء الحال بسببهم و ضاقت طاقته بسببهم لكونهم فى صور شبان حسان مرد يخاف عليهم من القوم ثم قصد القوم إياهم بالسوء و ضعف لوط من أن يدفعهم عنهم و هم ضيف له نازلون بداره.

و قوله: وَ قٰالُوا لاٰ تَخَفْ وَ لاٰ تَحْزَنْ أى لا خطر محتملا يهددك و لا مقطوعا يقع عليك فإن الخوف إنما هو فى المكروه الممكن و الحزن فى المكروه الواقع.

و قوله: إِنّٰا مُنَجُّوکَ وَ أَهْلَکَ إِلاَّ امْرَأَتَکَ کٰانَتْ مِنَ الْغٰابِرِينَ أى الباقين فى العذاب تعليل لنفى الخوف و الحزن.

قوله تعالى: إِنّٰا مُنْزِلُونَ عَلىٰ أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَهِ رِجْزاً مِنَ السَّمٰاءِ بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ بيان لما يشير اليه قوله: «إِنّٰا مُنَجُّوکَ وَ أَهْلَکَ» من العذاب،و الرجز العذاب.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ تَرَكْنٰا مِنْهٰا آيَهً بَيِّنَهً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ضمير التأنيث للقريه و الترك الإبقاء أى أبقينا من القريه علامه واضحه لقوم يعقلون ليعتبروا بها فيتقوا اللّه و هى الآثار الباقيه منها بعد خرابها بنزول العذاب.

و هى اليوم مجهوله المحل لا أثر منها و ربما يقال:إن الماء غمرها بعد و هى بحر لوط،لكن

الآیه ظاهره-کما تری-أنها کانت ظاهره معروفه فی زمن نزول القرآن و أوضح منها قوله تعالی: وَ إِنَّهٰا لَبِسَبِیلٍ مُقِیمٍ (الحجر۷۶/)،و قوله: وَ إِنَّکُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَیْهِمْ مُصْبِحِینَ وَ بِاللَّیْلِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (الصافات۱۳۸/).

قوله تعالی: وَ إِلیٰ مَدْیَنَ أَخٰاهُمْ شُعَیْباً فَقٰالَ یٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ ارْجُوا الْیَوْمَ الْآخِرَ وَ لاٰ تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ یدعوهم الی عباده اللّه و هو التوحید و الی رجاء الیوم الآخر و هو الاعتقاد بالمعاد و أن لا یفسدوا فی الأرض و کانت عمده إفسادهم فیها-علی ما ذکر فی قصتهم فی مواضع أخر-نقص المیزان و المکیال.

قوله تعالی: فَکَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَهُ فَأَصْبَحُوا فِی دٰارِهِمْ جٰاثِمِینَ الرجفه الاضطراب الشدید علی ما ذکره الراغب،و الجثم و الجثوم فی المکان القعود فیه أو البروک علی الأرض و هو کنایه عن الموت و المعنی:فکذبوا شعیبا فأخذهم الاضطراب الشدید أو الزلزله الشدیده فأصبحوا فی دارهم میتین لا حراک بهم.

و قال فی قصتهم فی موضع آخر: وَ أَخَذَتِ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَهُ فَأَصْبَحُوا فِی دِیٰارِهِمْ جٰاثِمِینَ (هود۹۴/).و یستظهر من ذلک أنهم أهلکوا بالصیحه و الرجفه.

قوله تعالی: وَ عٰاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَیَّنَ لَکُمْ مِنْ مَسٰاکِنِهِمْ الی آخر الآیه غیر السیاق تفننا فبدأ بذکر عاد و ثمود و کذا فی الآیه التالیه بدأ بذکر قارون و فرعون و هامان بخلاف قصص الامم المذکورین سابقا حیث بدأ بذکر أنبیائهم کنوح و إبراهیم و لوط و شعیب.

و قوله: «وَ عٰاداً وَ ثَمُودَ» منصوبان بفعل مقدّر تقدیره و اذکر عادا و ثمود.

و قوله: وَ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِیلِ وَ کٰانُوا مُسْتَبْصِرِینَ تزیین الشیطان لهم أعمالهم کنایه استعاریه عن تحبیب أعمالهم السیئه الیهم و تأکید تعلقهم بها و صده إیاهم عن السبیل صرفهم عن سبیل اللّه التی هی سبیل الفطره، و لذا قال بعضهم:إن المراد بکونهم مستبصرین أنهم کانوا قبل ذلک علی الفطره

الساذجه.

لكن الظاهر كما تقدم فى تفسير قوله: كٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ (البقره/۲۱۳)أن عهد الفطره الساذجه كان قبل بعثه نوح عليه السّلام و عاد و ثمود كانوا بعد نوح فكونهم مستبصرين قبل انصدادهم عن السبيل عن كونهم يعيشون على عباده اللّه و دين التوحيد و هو دين الفطره.

قوله تعالى: وَ قٰارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ مُوسىٰ بِالْبَيِّنٰاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ مٰا كٰانُوا سٰابِقِينَ السبق استعاره كنائيه من الغلبه، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: فَكُلاًّ أَخَذْنٰا بِذَنْبِهِ الى آخر الآيه؛أى كل واحده من الامم المذكورين أخذناها بذنبها ثم أخذ فى التفصيل فقال: «فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنٰا عَلَيْهِ حٰاصِباً» و الحاصب الحجاره و قيل:الريح التى ترمى بالحصا و على الأول فهم قوم لوط،و على الثانى قوم عاد «وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ» و هم قوم ثمود و قوم شعيب «وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنٰا بِهِ الْأَرْضَ» و هو قارون «وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنٰا» و هم قوم نوح و فرعون و هامان و قومهما.

ثم عاد سبحانه الى كافه القصص المذكوره و ما انتهى اليه أمر تلك الامم من الأخذ و العذاب فبين ببيان عام أن الذى أوقعهم فيما وقعوا لم يكن بظلم منه سبحانه بل بظلم منهم لأنفسهم فقال: «وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» أى فيجازيهم اللّه على ظلمهم لأن الدار دار الفتنه و الامتحان و هى السنه الالهيه التى لا معدل عنها فمن أهتدى فقد اهتدى لنفسه و من ضلّ فعليها (۱).

ص :۷۵۴

۱- ۱) .العنكبوت ۱۴-۴۰:بحث روائى فى البراءه؛اهلاك قوم لوط.

[سوره العنکبوت (۲۹): الآیات ۴۱ الی ۵۵]

اشاره

مَثَلُ اَلَّذِینَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّهِ أَوْلِیاءَ کَمَثَلِ اَلْعَنْکَبُوتِ اِتَّخَذَتْ بَیْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ اَلْبُیُوتِ لَبَیْتُ اَلْعَنْکَبُوتِ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ (۴۱) إِنَّ اَللّهَ یَعْلَمُ ما یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ وَ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۴۲) وَ تِلْکَ اَلْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ وَ ما یَعْقِلُها إِلاَّ اَلْعالِمُونَ (۴۳) خَلَقَ اَللّهُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَةً لِلْمُؤْمِنِینَ (۴۴) اُتْلُ ما أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنَ اَلْکِتابِ وَ أَقِمِ اَلصَّلاٰةَ إِنَّ اَلصَّلاٰةَ تَنْهیٰ عَنِ اَلْفَحْشاءِ وَ اَلْمُنْکَرِ وَ لَذِکْرُ اَللّهِ أَکْبَرُ وَ اَللّهُ یَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (۴۵) وَ لاٰ تُجادِلُوا أَهْلَ اَلْکِتابِ إِلاّ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ إِلاَّ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنّا بِالَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْنا وَ أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ وَ إِلٰهُنا وَ إِلٰهُکُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۴۶) وَ کَذٰلِکَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ اَلْکِتابَ فَالَّذِینَ آتَیْناهُمُ اَلْکِتابَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هٰؤُلاٰءِ مَنْ یُؤْمِنُ بِهِ وَ ما یَجْحَدُ بِآیاتِنا إِلاَّ اَلْکافِرُونَ (۴۷) وَ ما کُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ کِتابٍ وَ لاٰ تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لاَرْتابَ اَلْمُبْطِلُونَ (۴۸) بَلْ هُوَ آیاتٌ بَیِّناتٌ فِی صُدُورِ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ وَ ما یَجْحَدُ بِآیاتِنا إِلاَّ اَلظّالِمُونَ (۴۹) وَ قالُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا اَلْآیاتُ عِنْدَ اَللّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِیرٌ مُبِینٌ (۵۰) أَ وَ لَمْ یَکْفِهِمْ أَنّا أَنْزَلْنا عَلَیْکَ اَلْکِتابَ یُتْلیٰ عَلَیْهِمْ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَرَحْمَةً وَ ذِکْریٰ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۵۱) قُلْ کَفیٰ بِاللّهِ بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ شَهِیداً یَعْلَمُ ما فِی اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ کَفَرُوا بِاللّهِ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْخاسِرُونَ (۵۲) وَ یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالْعَذابِ وَ لَوْ لاٰ أَجَلٌ مُسَمًّی لَجاءَهُمُ اَلْعَذابُ وَ لَیَأْتِیَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاٰ یَشْعُرُونَ (۵۳) یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکافِرِینَ (۵۴) یَوْمَ یَغْشاهُمُ اَلْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ یَقُولُ ذُوقُوا ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۵)

ص: ۷۵۵

بیان:

قوله تعالی: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً الی آخر الآيه؛العنكبوت معروف و يطلق على الواحد و الجمع و يذكر

ص: ۷۵۶

و یؤنث.

العنایه فی قوله: «مَثَلُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا» الخ؛باتخاذ الأولیاء من دون اللّه و لذا جیء بالموصول و الصله کما أن العنایه فی قوله: «کَمَثَلِ الْعَنْکَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَیْتاً» الی اتخاذها البیت فیئول المعنی أن صفه المشرکین فی اتخاذهم من دون اللّه أولیاء کصفه العنکبوت فی اتخاذها بیتا له نبأ،و هو الوصف الذی یدل علیه تنکیر «بَیْتاً» .

و یکون قوله: وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُیُوتِ لَبَیْتُ الْعَنْکَبُوتِ بیانا لصفه البیت الذی أخذته العنکبوت و لم یقل:إن أوهن البیوت لبیتها کما هو مقتضی الظاهر أخذا للجمله بمنزله المثل السائر الذی لا یتغیر.

و المعنی:أن اتخاذهم من دون اللّه أولیاء و هم آلهتهم الذین یتولونهم و یرکنون الیهم کاتخاذ العنکبوت بیتا هو أوهن البیوت إذ لیس له من آثار البیت إلاّ اسمه لا یدفع حرّا و لا بردا و لا یکنّ شخصا و لا یقی من مکروه کذلک لیس لولایه أولیائهم إلاّ الاسم فقط لا ینفعون و لا یضرّون و لا یملکون موتا و لا حیاه و لا نشورا.

و مورد المثل هو اتخاذ المشرکین آلهه من دون اللّه،فتبدیل الآلهه من الأولیاء لکون السبب الداعی لهم الی اتخاذ الآلهه زعمهم أن لهم ولایه لأمرهم و تدبیرا لشأنهم من جلب الخیر الیهم و دفع الشر عنهم و الشفاعه فی حقهم.

و الآیه-مضافا الی إیفاء هذه النکته-تشمل بإطلاقها کل من اتخذ فی أمر من الامور و شأن من الشئون ولیا من دون اللّه یرکن الیه و یراه مستقلا فی أثره الذی یرجوه منه و إن لم یعدّ من الأصنام إلاّ أن یرجع ولایته الی ولایه اللّه کولایه الرسول و الأئمه و المؤمنین کما قال تعالی:

وَ مٰا یُؤْمِنُ أَکْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِکُونَ (یوسف۱۰۶/).

و قوله: لَوْ کٰانُوا یَعْلَمُونَ أی لو کانوا یعلمون أن مثلهم کمثل العنکبوت ما اتخذوهم أولیاء.کذا قیل.

قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يمكن أن يكون «مٰا» فی «مٰا يَدْعُونَ» موصوله أو نافيه أو استفهاميه أو مصدريه و «مِنْ» فی «مِنْ شَيْءٍ» علی الاحتمال الثانی زائده للتأكيد و علی الباقی للتبيين و أرجح الاحتمالات الأولان و أرجحهما أولهما.

و المعنی:علی الثانی أن اللّه يعلم أنهم ليسوا يدعون من دونه شيئا أی أن الذی يعبدونه من الآلهه لا حقيقه له فيكون كما قال صاحب الكشاف توكيدا للمثل و زياده عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئا.

و المعنی:علی الأول أن اللّه يعلم الشیء الذی يدعون من دونه و لا يجهل ذلك فيكون كنايه عن أن المثل الذی ضربه فی محله،و ليس لأوليائهم من الولايه إلّا اسمها.

و يؤكد هذا المعنی الاسمان الكريمان:العزيز الحكيم فی آخر الآيه فهو تعالی العزيز الذی لا يغلبه شیء فلا يشاركه فی تدبير ملكه أحد كما لا يشاركه فی الخلق و الإيجاد أحد،الحكيم الذی يأتی بالمتقن من الفعل و التدبير فلا يفوّض تدبير خلقه الی أحد،و هذا كالتمهيد لما سيبيّن فی قوله: «خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ» .

قوله تعالی: وَ تِلْكَ الْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ وَ مٰا يَعْقِلُهٰا إِلاَّ الْعٰالِمُونَ يشير الی أن الأمثال المضروبه فی القرآن علی أنها عامه تقرع أسماع عامه الناس،لكن الإشراف علی حقيقه معانيها و لبّ مقاصدها خاصه لأهل العلم ممن يعقل حقائق الامور و لا ينجمد علی ظواهرها.

و الدليل علی هذا المعنی قوله:«و لا يعقلها»دون أن يقول:و ما يؤمن بها أو ما فی معناه.

فالأمثال المضروبه فی كلامه تعالی يختلف الناس فی تلقّيها باختلاف أفهامهم فمن سامع لا حظّ له منها إلّا تلقّی ألفاظها و تصوّر مفاهيمها الساذجه من غير تعمق فيها و سبر لأغوارها، و من سامع يتلقی بسمعه ما يسمعه هؤلاء ثم يغور فی مقاصدها العميقه و يعمل حقائقها

الأنيقه.

و فيه تنبيه على أن تمثيل اتخاذهم أولياء من دون اللّه باتخاذ العنكبوت بيتا هو أوهن البيوت ليس مجرد تمثيل شعرى و دعوى خاليه من البيّنه بل متّك على حجه برهانيه و حقيقه حقه ثابته و هى التى تشير اليه الآيه التاليه.

قوله تعالى: خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ المراد بكون خلق السماوات و الأرض بالحق نفى اللعب فى خلقها،كما قال تعالى:

وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ مٰا خَلَقْنٰاهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (الدخان/٣٩).

فخلق السماوات و الأرض على نظام ثابت لا يتغير و سنه إلهيه جاريه لا تختلف و لا تتخلف،و الخلق و التدبير لا يختلفان حقيقه و لا ينفك أحدهما عن الآخر (١)،و إذ كان الخلق و الصنع ينتهى اليه تعالى انتهاء ضروريا و لا محيص فالتدبير أيضا له و لا محيص و ما من شىء غيره تعالى إلاّ و هو مخلوقه القائم به المملوك له لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا،و من المحال قيامه بشىء من تدبير أمر نفسه أو غيره بحيث يستقل به مستغنيا فى أمره عنه تعالى هذا هو الحق الذى لا لعب فيه و الجد الذى لا هزل فيه.

فلما تولى بعض خلقه أمر بعض لم يكن ذلك منه ولايه حق لكونه لا يملك شيئا بحقيقه معنى الملك بل كان ذلك منه جاريا على اللعب و تفويضه تعالى أمر التدبير اليه لعبا منه تعالى و تقدّس إذ ليس إلاّ فرضا لا حقيقه له و وهما لا واقع له و هو معنى اللعب.

و منه يظهر أن ولايه من يدّعون ولايته ليس لها إلاّ اسم الولايه من غير مسمى كما أن بيت

١- ١) .و ذلك أن موطن التدبير الحوادث الجاريه فى الكون و معناه تعقيب حادث بحادث آخر على نظم و ترتيب يؤدى الى غايات حقه و حقيقته خلق حادث بعد حادث فالتدبير هو الخلق و الايجاد باعتبار قياس الشىء الى آخر مثله و انضمامه اليه فليس وراء الخلق و الايجاد شىء منه.

العنکبوت کذلک.

و قوله: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِلْمُؤْمِنِینَ تخصیص المؤمنین بالذکر مع عموم الآیه لهم و لغیرهم لکون المنتفعین بها هم المؤمنون دون غیرهم.

قوله تعالی: اُتْلُ مٰا أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنَ الْکِتٰابِ وَ أَقِمِ الصَّلاٰهَ إِنَّ الصَّلاٰهَ تَنْهیٰ عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَ الْمُنْکَرِ وَ لَذِکْرُ اللّٰهِ أَکْبَرُ الخ؛لما ذکر إجمال قصص الامم و ما انتهی الیه شرکهم و ارتکابهم الفحشاء و المنکر من الشقاء اللازم و الخسران الدائم انتقل من ذلک - مستأنفا للکلام-الی أمره صلّی اللّه علیه و آله و سلم بتلاوه ما أوحی الیه من الکتاب لکونه خیر رادع عن الشرک و ارتکاب الفحشاء و المنکر بما فیه من الآیات البینات التی تتضمن حججا نیره علی الحق و تشتمل علی القصص و العبر و المواعظ و التبشیر و الإنذار و الوعد و الوعید یرتدع بتلاوه آیاته تالیه و من سمعه.

و شفعه بالأمر بإقامه الصلاه التی هی خیل العمل و علل ذلک بقوله: «إِنَّ الصَّلاٰهَ تَنْهیٰ عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَ الْمُنْکَرِ» و السیاق یشهد أن المراد بهذا النهی ردع طبیعه العمل عن الفحشاء و المنکر بنحو الاقتضاء دون العلیه التامه.

فلطبیعه هذا التوجه العبادی-إذ أتی به العبد و هو یکرره کل یوم خمس مرات و یداوم علیه و خاصه إذا زاول علیه فی مجتمع صالح یؤتی فیه بمثل ما أتی به و یهتم فیه بما اهتم به-أن یردعه عن کل معصیه کبیره یستشنعه الذوق الدینی کقتل النفس عدوانا و أکل مال الیتیم ظلما و الزنا و اللواط،و عن کل ما ینکره الطبع السلیم و الفطره المستقیمه ردعا جامعا بین التلقین و العمل.

و ذلک أنه یلقنه أولا بما فیه من الذکر الإیمان بوحدانیته تعالی و الرساله و جزاء یوم الجزاء و أن یخاطب ربه بإخلاص العباده و الاستعانه به و سؤال الهدایه الی صراطه المستقیم متعوذا من غضبه و من الضلال،و یحمله ثانیا علی أن یتوجه بروحه و بدنه الی ساحه العظمه

و الکبریاء و یذکر ربه بحمده و الثناء علیه و تسبیحه و تکبیره ثم السلام علی نفسه و أترابه و جمیع الصالحین من عباد اللّه.

مضافا الی حمله إیاه علی التطهّر من الحدث و الخبث فی بدنه و الطهاره فی لباسه و التحرّز عن الغصب فی لباسه و مکانه و استقبال بیت ربه فالإنسان لو داوم علی صلاته مده یسیره و استعمل فی إقامتها بعض الصدق أثبت ذلک فی نفسه ملکه الارتداع عن الفحشاء و المنکر البته،و لو أنک وکلت علی نفسک من یربیها تربیه صالحه تصلح بها لهذا الشأن و تتحلی بأدب العبودیه لم یأمرک بأزید مما تأمرک به الصلاه و لا روّضک بأزید مما تروّضک به.

و قد استشکل علی الآیه بأنا کثیرا ما نجد من المصلین من لا یبالی ارتکاب الکبائر و لا یرتدع عن المنکرات فلا تنهاه صلاته عن الفحشاء و المنکر.

فإن الذی یعطیه السیاق أن الأمر بإقامه الصلاه إنما علل بقوله: «إِنَّ الصَّلاٰهَ تَنْهیٰ عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَ الْمُنْکَرِ» لیفید أن الصلاه عمل عبادی یورث إقامته صفه روحیه فی الإنسان تکون رادعه له عن الفحشاء و المنکر فتتنزه النفس عن الفحشاء و المنکر و تتطهر عن قذاره الذنوب و الآثام.

فالمراد به التوسل الی ملکه الارتداع التی هی من آثار طبیعه الصلاه بنحو الاقتضاء لا أنها أثر بعض أفراد طبیعه الصلاه کما فی الواجب الثانی،و لا أنها أثر الاشتغال بالصلاه ما دام مشتغلا بها کما فی الجواب الثالث،و لا أن المراد هو التوسل الی تلقّی نهی الصلاه فحسب من غیر نظر الی الانتهاء عن نهیها کأنه قیل أقم الصلاه لتسمع نهیها کما فی الجواب الرابع،و لا أن المراد أقم الصلاه لینهاک الذکر الذی تشتمل علیه عن الفحشاء و المنکر کما فی الجواب الخامس.

فالحق فی الجواب أن الردع أثر طبیعه الصلاه التی هی توجّه خاص عبادی الی اللّه سبحانه و هو بنحو الاقتضاء دون الاستیجاب و العلیه التامه فربما تخلف عن أثرها لمقارنه بعض الموانع

ص :۷۶۱

التی تضعّف الذکر و تقربه من الغفله و الانصراف عن حاق الذکر فکلما قوی الذکر و کمل الحضور و الخشوع و تمحض الإخلاص زاد أثر الردع عن الفحشاء و المنکر و کلما ضعف ضعف الأثر.

و أنت إذا تأملت حال بعض من تسمّی بالإسلام من الناس و هو تارک الصلاه وجدته یضیع بإضاعه الصلاه فریضه الصوم و الحج و الزکاه و الخمس و عامه الواجبات الدینیه و لا یفرق بین طاهر و نجس و حلال و حرام فیذهب لوجهه لا یلوی علی شیء ثم إذا قست الیه حال من یأتی بأدنی مراتب الصلاه مما یسقط به التکلیف،وجدته مرتدعا عن کثیر مما یقترفه تارک الصلاه غیر مکترث به ثم إذا قست الیه من هو فوقه فی الاهتمام بأمر الصلاه وجدته أکثر ارتداعا منه و علی هذا القیاس.

و قوله: وَ لَذِکْرُ اللّٰهِ أَکْبَرُ قال الراغب فی المفردات:الذکر تاره یقال و یراد به هیئه للنفس بها یمکن للانسان أن یحفظ ما یقتنیه من المعرفه و هو کالحفظ إلاّ أن الحفظ یقال اعتبارا بإحرازه و الذکر یقال اعتبارا باستحضاره.و تاره یقال لحضور الشیء القلب أو القول و لذلک قیل:الذکر ذکران ذکر عن نسیان و ذکر لا عن نسیان بل عن إدامه الحفظ،و کل قول یقال له ذکر.انتهی.

و الظاهر أن الأصل فی معناه هو المعنی الأول و تسمیه اللفظ ذکرا إنما هو لاشتماله علی المعنی القلبی و الذکر القلبی بالنسبه الی اللفظی کالأثر المترتب علی سببه و الغایه المقصوده من الفعل.

و الصلاه تسمی ذکرا لاشتمالها علی الأذکار القولیه من تهلیل و تحمید و تنزیه و هی باعتبار آخر مصداق من مصادیق الذکر لأنها بمجموعها ممثل لعبودیه العبد للّه سبحانه کما قال: إِذٰا نُودِیَ لِلصَّلاٰهِ مِنْ یَوْمِ الْجُمُعَهِ فَاسْعَوْا إِلیٰ ذِکْرِ اللّٰهِ (الجمعه۹/)،و هی باعتبار آخر أمر یترتب علیه الذکر ترتب الغایه علی ذی الغایه یشیر الیه قوله تعالی: وَ أَقِمِ الصَّلاٰهَ

لِذِكْرِى (طه۱۴/).

و الذكى الذى هو غايه مترتبه على الصلاه أعنى الذكر القلبى بمعنى استحضار المذكور فى ظرف الإدراك بعد غيبته نسيانا أو إدامه استحضاره،أفضل عمل يتصور صدوره عن الإنسان و أعلاه كعبا و أعظمه قدرا و أثرا فإنه السعاده الأخيره التى هيّئت للانسان و مفتاح كل خير.

ثم إن الظاهر من سياق قوله: «وَ أَقِمِ الصَّلاٰةَ إِنَّ الصَّلاٰةَ تَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَ الْمُنْكَرِ» أن قوله: «وَ لَذِكْرُ اللّٰهِ أَكْبَرُ» متصل به مبين لأثر آخر للصلاه و هو أكبر مما بيّن قبله،فيقع قوله:

«وَ لَذِكْرُ اللّٰهِ أَكْبَرُ» موقع الاضراب و الترقى و يكون المراد الذكر القلبى الذى يترتب على الصلاه ترتب الغايه على ذى الغايه فكأنه قيل:أقم الصلاه لتردعك عن الفحشاء و المنكر بل الذى تفيده من ذكر اللّه الحاصل بها أكبر من ذلك أى من النهى عن الفحشاء و المنكر لأنه أعظم ما يناله الإنسان من الخير و هو مفتاح كل خير و النهى عن الفحشاء و المنكر بعض الخير.

و من المحتمل أن يراد بالذكر ما تشتمل عليه الصلاه من الذكر أو نفس الصلاه و الجمله أيضا واقعه موقع الإضراب،و المعنى:بل الذى تشتمل عليه الصلاه من ذكر اللّه أو نفس الصلاه التى هى ذكر اللّه أكبر من هذا الأثر الذى هو النهى عن الفحشاء و المنكر لأن النهى أثر من آثارها الحسنه و «لَذِكْرُ اللّٰهِ» هو النهى عن الفحشاء و المنكر.

و قوله: «وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تَصْنَعُونَ» أى ما تفعلونه من خير أو شر فعليكم أن تراقبوه و لا تغفلوا عنه ففيه حثّ و تحريض على المراقبه و خاصه على القول الأول.

قوله تعالى: وَ لاٰ تُجٰادِلُوا أَهْلَ الْكِتٰابِ إِلاّٰ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ لما أمر فى قوله: «اتْلُ مٰا أُوحِىَ إِلَيْكَ» الخ؛بالتبليغ و الدعوه من طريق تلاوه الكتاب عقّبه ببيان كيفيه الدعوه فنهى عن مجادله أهل الكتاب و هم على ما يقتضيه الإطلاق

اليهود و النصارى و يلحق بهم المجوس و الصابئون-إلاّ بالمجادله-التى هى أحسن المجادله.

و المجادله إنما تحسن إذا لم تتضمن إغلاظا و طعنا و إهانه،فمن حسنها أن تقارن رفقا ولينا فى القول لا يتأذى به الخصم و أن يقترب المجادل من خصمه و يدنو منه حتى يتفقا و يتعاضدا لإظهار الحق من غير لجاج و عناد فإذا اجتمع فيها لين الكلام و الاقتراب بوجه زادت حسنا على حسن فكانت أحسن.

و لهذا لما نهى عن مجادلتهم إلاّ بالتى هى أحسن استثنى منه الذين ظلموا منهم،فإن المراد بالظلم بقرينه السياق كون الخصم بحيث لا ينفعه الرفق و اللين و الاقتراب فى المطلوب بل يتلقى حسن الجدال نوع مذله و هوان للمجادل و يعتبره تمويها و احتيالا لصرفه عن معتقده فهؤلاء الظالمون لا ينجح معهم المجادله بالأحسن.

و لهذا أيضا عقّب الكلام ببيان كيفيه الاقتراب معهم و بناء المجادله على كلمه يجتمع فيها الخصمان فيتقاربان معه و يتعاضدان على ظهور الحق فقال: «وَ قُولُوا آمَنّا بِالَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْنا وَ أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُکُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ کَذلِکَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ فَالَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ یُؤْمِنُ بِهِ وَ ما یَجْحَدُ بِآیاتِنا إِلاَّ الْکافِرُونَ أى على تلك الصفه و هى الاسلام للّه و تصديق كتبه و رسله أنزلنا اليك القرآن.

و قيل:المعنى:مثل ما أنزلنا الى موسى و عيسى الكتاب أنزلنا اليك الكتاب و هو القرآن.

فقوله: فَالَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ الخ؛تفريع على نحو نزول الكتاب أى لما كان القرآن نازلا فى الاسلام للّه و تصديق كتبه و رسله فأهل الكتاب يؤمنون به بحسب الطبع لما عندهم من الإيمان باللّه و تصديق كتبه و رسله،و من هؤلاء و هم المشركون من عبده الأوثان من يؤمن به و ما يجحد بآياتنا و لا ينكرها من أهل الكتاب و هؤلاء المشركين إلاّ الكافرون و هم الساترون للحق بالباطل.

و فی قوله: وَ مِنْ هٰؤُلاٰءِ مَنْ یُؤْمِنُ بِهِ نوع استقلال لمن آمن به من المشرکین.

قوله تعالی: وَ مٰا کُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ کِتٰابٍ وَ لاٰ تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لاَرْتٰابَ الْمُبْطِلُونَ التلاوه هی القراءه سواء کانت عن حفظ أو عن کتاب مخطوط، و المراد به فی الآیه الثانی بقرینه المقام،و الخط الکتابه،و المبطلون جمع مبطل و هو الذی یأتی بالباطل من القول،و یقال أیضا للذی یبطل الحق أن یدّعی بطلانه،و الأنسب فی الآیه المعنی الثانی و إن جاز أن یراد المعنی الأول.

و ظاهر التعبیر فی قوله: «وَ مٰا کُنْتَ تَتْلُوا» الخ؛نفی العاده أی لم یکن من عادتک أن تتلو و تخط کما یدل علیه قوله فی موضع آخر: فَقَدْ لَبِثْتُ فِیکُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ (یونس۱۶/).

و تقیید قوله: «وَ لاٰ تَخُطُّهُ» بقوله: «بِیَمِینِکَ» نوع من التمثیل یفید التأکید کقول القائل:

رأیته بعینی و سمعته باذنی.

و المعنی:و ما کان من عادتک قبل نزول القرآن أن تقرأ کتابا و لا کان من عادتک أن تخط کتابا و تکتبه-أی ما کنت تحسن القراءه و الکتابه لکونک أمیا-و لو کان کذلک لارتاب هؤلاء المبطلون الذین یبطلون الحق بدعوی أنه باطل لکن لما لم تحسن القراءه و الکتابه و استمرت علی ذلک و عرفوک علی هذه الحال لمخالطتک لهم و معاشرتک معهم لم یبق محل ریب لهم فی أمر القرآن النازل الیک أنه کلام اللّه تعالی و لیس تلفیقا لفّقته من کتب السابقین و نقلته من أقاصیصهم و غیرهم حتی یرتاب المبطلون و یعتذروا به.

قوله تعالی: بَلْ هُوَ آیٰاتٌ بَیِّنٰاتٌ فِی صُدُورِ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ مٰا یَجْحَدُ بِآیٰاتِنٰا إِلاَّ الظّٰالِمُونَ إضراب عن مقدر یستفاد من الآیه السابقه کأنه لما نفی عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم التلاوه و الخط معا تحصّل من ذلک أن القرآن لیس بکتاب مؤلف مخطوط فأضرب عن هذا المقدر بقوله: «بَلْ هُوَ -أی القرآن- آیٰاتٌ بَیِّنٰاتٌ فِی صُدُورِ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ» .

و قوله: وَ مٰا یَجْحَدُ بِآیٰاتِنٰا إِلاَّ الظّٰالِمُونَ المراد بالظلم بقرینه المقام الظلم

لآيات اللّه بتكذيبها و الاستكبار عن قبولها عنادا و تعنتا.

قوله تعالى: وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ لما ذكر الكتاب و أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يتلوه و يدعوهم اليه به و أن منهم من يؤمن به و منهم من لا يؤمن به و هم الكافرون الظالمون أشار فى هذه الآيه و الآيتين بعدها الى عدم اعتنائهم بالقرآن الذى هو آيه النبوه و اقتراحهم على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يأتيهم بآيات غيره و الجواب عنه.

فقوله: وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ اقتراح منهم أن يأتيهم بآيات غير القرآن تعريضا منهم أنه ليس بآيه و زعما منهم أن النبى يجب أن يكون ذا قوه إلهيه غيبيه يقوى على كل ما يريد،و فى قولهم:لو لا أنزل عليه،دون أن يقولوا:لو لا يأتينا بآيات نوع سخريه كقولهم: يا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ (الحجر/٧).

و قوله: قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللّهِ جواب عن زعمهم ان من يدّعى الرساله يدعى قوه غيبيه يقدر بها على كل من أراد بأن الآيات عند اللّه ينزلها متى ما أراد و كيفما شاء لا يشاركه فى القدره عليها غيره فليس الى النبى شىء إلاّ أن يشاء اللّه ثم زاده بيانا بقصر بشأن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى الإنذار فحسب بقوله: «إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ» .

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ الى آخر الآيه؛توطئه و تمهيد للجواب عن تعريضهم بالقرآن أنه ليس بآيه،و الاستفهام للانكار و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أى يكفيهم آيه هذا الكتاب الذى أنزلناه عليك و هو يتلى عليهم فيسمعونه و يعرفون مكانته من الإعجاز و هو مملوّ رحمه و تذكره للمؤمنين.

قوله تعالى: قُلْ كَفى بِاللّهِ بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً إلقاء جواب الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ليجيبهم به و هو أن اللّه سبحانه شهيد بينى و بينكم فيما نتخاصم فيه و هو أمر الرساله فإنه

سبحانه يشهد فی کلامه الذی أنزله علیّ برسالتی و هو تعالی یعلم ما فی السماوات و الأرض من غیر أن یجهل شیئا و کفی بشهادته لی دلیلا علی دعوای.

و لیس لهم أن یقولوا إنه لیس بکلام اللّه لمکان تحدیه مره بعد مره فی خلال الآیات و منه یعلم أن قوله: «قُلْ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ» لیس دعوی مجرده أو کلاما خطابیا بل هو بیان استدلالی و حجه قاطعه علی ما عرفت.

و قوله: وَ الَّذِینَ آمَنُوا بِالْبٰاطِلِ وَ کَفَرُوا بِاللّٰهِ أُولٰئِکَ هُمُ الْخٰاسِرُونَ قصر الخسران فیهم لعدم إیمانهم باللّه بالکفر بکتابه الذی فیه شهادته علی الرساله و هم بکفرهم باللّه الحق یؤمنون بالباطل و لذلک خسروا فی إیمانهم.

قوله تعالی: وَ یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالْعَذٰابِ وَ لَوْ لاٰ أَجَلٌ مُسَمًّی لَجٰاءَهُمُ الْعَذٰابُ وَ لَیَأْتِیَنَّهُمْ بَغْتَهً وَ هُمْ لاٰ یَشْعُرُونَ إشاره الی قولهم کقول متقدمیهم:ائتنا بعذاب اللّه إن کنت من الصادقین،و قد حکی اللّه عنهم استعجالهم فی قوله: وَ لَئِنْ أَخَّرْنٰا عَنْهُمُ الْعَذٰابَ إِلیٰ أُمَّهٍ مَعْدُودَهٍ لَیَقُولُنَّ مٰا یَحْبِسُهُ (هود/٨).

و المراد بالأجل المسمی هو الذی قضاه لبنی آدم حین أهبط آدم الی الأرض فقال: وَ لَکُمْ فِی الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلیٰ حِینٍ (البقره/٣۶)،و قال: وَ لِکُلِّ أُمَّهٍ أَجَلٌ فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ یَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَهً وَ لاٰ یَسْتَقْدِمُونَ (الأعراف/٣۴).

و هذا العذاب الذی یحول بینه و بینهم الأجل المسمی هو الذی یستحقونه لمطلق أعمالهم السیئه کما قال عزّ من قائل: وَ رَبُّکَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَهِ لَوْ یُؤٰاخِذُهُمْ بِمٰا کَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذٰابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ یَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (الکهف/۵٨)،و لا ینافی ذلک تعجیل العذاب بنزول الآیات المقترحه علی الرسول من غیر إمهال و إنظار،قال تعالی: وَ مٰا مَنَعَنٰا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآیٰاتِ إِلاّٰ أَنْ کَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ (الإسراء/۵٩).

قوله تعالی: یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالْعَذٰابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَهٌ بِالْکٰافِرِینَ یَوْمَ

يَغْشٰاهُمُ الْعَذٰابُ الى آخر الآيه؛تكرار «يَسْتَعْجِلُونَكَ» للدلاله على كمال جهلهم و فساد فهمهم و أن استعجالهم استعجال لأمر مؤجل لا معجل أولا و استعجال لعذاب واقع لا صارف له عنهم لأنهم مجزيون بأعمالهم التى لا تفارقهم ثانيا.

و الغشاوه و الغشايه التغطيه بنحو الإحاطه،و قوله: «يَوْمَ يَغْشٰاهُمُ» ظرف لقوله:

«لَمُحِيطَهٌ» و الباقى ظاهر (1).

[سوره العنكبوت (۲۹): الآيات ۵۶ الى ۶۰]

اشاره

يٰا عِبٰادِيَ اَلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وٰاسِعَهٌ فَإِيّٰايَ فَاعْبُدُونِ (۵۶) كُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَهُ اَلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنٰا تُرْجَعُونَ (۵۷) وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ اَلْجَنَّهِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا نِعْمَ أَجْرُ اَلْعٰامِلِينَ (۵۸) اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۵۹) وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّهٍ لاٰ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اَللّٰهُ يَرْزُقُهٰا وَ إِيّٰاكُمْ وَ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (۶۰)

بيان:

قوله تعالى: يٰا عِبٰادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وٰاسِعَهٌ فَإِيّٰايَ فَاعْبُدُونِ توجيه للخطاب الى المؤمنين الذين وقعوا فى أرض الكفر لا يقدرون على التظاهر بالدين الحق و الاستنان بسنته و يدل على ذلک ذيل الآيه.

و قوله: إِنَّ أَرْضِي وٰاسِعَهٌ الذى يظهر من السياق أن المراد بالأرض هذه الأرض

۱- ۱) .العنكبوت ۴۱-۵۵:بحث روائى فى الصلاه؛احب الاعمال الى اللّه؛الذين اوتوا العلم.

التی نعیش علیها و إضافتها الی ضمیر التکلم للإشاره الی أن جمیع الأرض لا فرق عنده فی أن یعبد فی أی قطعه منها کانت،و وسعه الأرض کنایه عن أنه إن امتنع فی ناحیه من نواحیها أخذ الدین الحق و العمل به فهناک نواح غیرها لا یمتنع فیها ذلک فعبادته تعالی وحده لیست بممتنعه علی أی حال.

و قوله: فَإِیّٰایَ فَاعْبُدُونِ الفاء الاولی للتفریع علی سعه الأرض أی إذا کان کذلک فاعبدونی وحدی و الفاء الثانیه فاء الجزاء للشرط المحذوف المدلول علیه بالکلام و الظاهر أن تقدیم«إیای»لإفاده الحصر فیکون قصر قلب و المعنی:لا تعبدوا غیری بل اعبدونی، و قوله: «فَاعْبُدُونِ» قائم مقام الجزاء.

و محصل المعنی:أن أرضی واسعه إن امتنع علیکم عبادتی فی ناحیه منها تسعکم لعبادتی اخری منها فإذا کان کذلک فاعبدونی وحدی و لا تعبدوا غیری فإن لم یمکنکم عبادتی فی قطعه منها فهاجروا الی غیرها و اعبدونی وحدی فیها.

قوله تعالی: کُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَیْنٰا تُرْجَعُونَ الآیه؛تأکید للأمر السابق فی قوله: «فَإِیّٰایَ فَاعْبُدُونِ» و کالتوطئه لقوله الآتی: «الَّذِینَ صَبَرُوا» الخ.

و قوله: کُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ الْمَوْتِ من الاستعاره بالکنایه و المراد أن کل نفس ستموت لا محاله،و الالتفات فی قوله: «ثُمَّ إِلَیْنٰا تُرْجَعُونَ» من سیاق التکلم وحده الی سیاق التکلم مع الغیر للدلاله علی العظمه.

و محصّل المعنی:أن الحیاه الدنیا لیست إلاّ أیاما قلائل و الموت وراءه ثم الرجوع الینا للحساب فلا یصدنکم زینه الحیاه الدنیا-و هی زینه فانیه-عن التهیؤ للقاء اللّه بالإیمان و العمل ففیه السعاده الباقیه و فی الحرمان منه هلاک مؤبد مخلد.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً الخ؛بیان لأجر الإیمان و العمل الصالح بعد الموت و الرجوع الی اللّه و فیه حثّ و ترغیب

للمؤمنين على الصبر فى اللّه و التوكل على اللّه،و التبوئه الإنزال على وجه الاقامه،و الغرف جمع غرفه و هى فى الدار،العليّه العاليه.

و قد بيّن تعالى أولا ثواب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ثم سماهم عاملين إذ قال: «وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعٰامِلِينَ» ثم فسر العاملين بقوله: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فعاد بذلك الصبر و التوكل سمه خاصه للمؤمنين فدلّ بذلك كله أن المؤمن إنما يرضى عن إيمانه إذا صبر فى اللّه و توكل عليه،فعلى المؤمن أن يصبر فى اللّه على كل أذى و جفوه ما يجد الى العيشه الدينيه سبيلا فإذا تعذرت عليه إقامه مراسم الدين فى أرضه فليخرج و ليهاجر الى أرض غيرها و ليصبر على ما يصيبه من التعب و العناء فى اللّه.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وصف للعالمين،و الصبر أعم من الصبر عند المصيبه و الصبر على الطاعه و الصبر على المعصيه،و إن كان المورد مورد الصبر عند المصيبه فهو المناسب لحال المؤمنين بمكه المأمورين بالهجره.

قوله تعالى: وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّهٍ لاٰ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللّٰهُ يَرْزُقُهٰا وَ إِيّٰاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ كأين للتكثير،و حمل الرزق هو ادخاره كما يفعله الانسان و النمل و الفار و النحل من سائر الحيوان.

و فى الآيه تطييب لنفس المؤمنين و تقويه لقلوبهم أنهم لو هاجروا فى اللّه أتاهم رزقهم أينما كانوا و لا يموتون جوعا فرازقهم رقهم دون أوطانهم،يقول:و كثير من الدواب لا رزق مدخر لها يرزقها اللّه و يرزقكم معاشر الآدميين الذين يدّخرون الأرزاق و هو السميع العليم.

و فى تذييل الآيه بالاسمين الكريمين السميع العليم إشاره الى الحجه على مضمونها و هو أن الانسان و سائر الدواب محتاجون الى الرزق يسألون اللّه ذلك بلسان حاجتهم اليه و اللّه سبحانه سميع للدعاء عليم بحوائج خلقه و مقتضى الاسمين الكريمين أن يرزقهم.

[سوره العنکبوت (۲۹): الآيات ۶۱ الی ۶۹]

اشاره

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ سَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اَللّٰهُ فَأَنّٰى يُؤْفَكُونَ (۶۱) اَللّٰهُ يَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اَللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۶۲) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَحْيٰا بِهِ اَلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهٰا لَيَقُولُنَّ اَللّٰهُ قُلِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ (۶۳) وَ مٰا هٰذِهِ اَلْحَيٰاةُ اَلدُّنْيٰا إِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ اَلدّٰارَ اَلْآخِرَةَ لَهِيَ اَلْحَيَوٰانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ (۶۴) فَإِذٰا رَكِبُوا فِي اَلْفُلْكِ دَعَوُا اَللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ اَلدِّينَ فَلَمّٰا نَجّٰاهُمْ إِلَى اَلْبَرِّ إِذٰا هُمْ يُشْرِكُونَ (۶۵) لِيَكْفُرُوا بِمٰا آتَيْنٰاهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۶۶) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنٰا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ اَلنّٰاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَ فَبِالْبٰاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اَللّٰهِ يَكْفُرُونَ (۶۷) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرىٰ عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكٰافِرِينَ (۶۸) وَ اَلَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَ إِنَّ اَللّٰهَ لَمَعَ اَلْمُحْسِنِينَ (۶۹)

ص: ۷۷۱

بيان:

قوله تعالى: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ فَأَنّٰى يُؤْفَكُونَ .

خلق السماوات و الأرض من الايجاد و تسخير الشمس و القمر-و ذلك بتحويل حالاتهما بالطلوع و الغروب و القرب و البعد من الأرض-من التدبير الذى يفرّع عليه كينونه أرزاق الإنسان و سائر الحيوان و هذا الخلق و التدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر فمن اعترف بأحدهما فليعترف بالآخر.

و إذا كان اللّه هو الخالق و بيده تدبير السماوات و يتبعه تدبير الأرض و كينونه الأرزاق كان هو الذى يجب أن يدعى للرزق و سائر التدبير فمن العجب حينئذ أن يصرف عنه الإنسان الى غيره ممن لا يملك شيئا و هو قوله: «فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ» أى فإذا كان الخلق و تدبير الشمس و القمر اليه تعالى فكيف يصرف هؤلاء الى دعوه غيره من الأصنام و عبادته.

قوله تعالى: اَللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فى الآيه تصريح بما تلوح اليه الآيه السابقه،و القدر التضييق و يقابله البسط و المراد به لازم معناه و هو التوسعه،و وضع الظاهر موضع المضمر فى قوله: «إِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» للدلاله على تعليل الحكم،و المعنى:و هو بكل شيء عليم لأنه اللّه.

و المعنى:اللّه يوسع الرزق على من يشاء من عباده و يضيقه على من يشاء-و لا يشاء إلاّ على طبق المصلحه-لأنه بكل شيء عليم لأنه اللّه الذى هو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال.

قوله تعالى: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهٰا -الى قوله- لاٰ يَعْقِلُونَ المراد بإحياء الأرض بعد موتها إنبات النبات فى

الربیع.

و قوله: قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ أی أحمد اللّه علی تمام الحجه علیهم باعترافهم بأن اللّه هو المدبر لأمر خلقه فلزمهم أن یعبدوه دون غیره من الأصنام و أرباب الأصنام.

و قوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ» أی لا یتدبرون الآیات و لا یحکمون العقول حتی یعرفوا اللّه و یمیزوا الحق من الباطل فهم لا یعقلون حق التعقل.

قوله تعالی: وَ مٰا هٰذِهِ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا إِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوٰانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ اللهو ما یلهیک و یشغلک عما یهمک فالحیاه الدنیا من اللهو لأنها تلهی الإنسان و تشغله بزینتها المزوقه الفانیه عن الحیاه الخالده الباقیه.

و اللعب فعل أو أفعال منتظمه انتظاما خیالیا لغایه خیالیه کملاعب الصبیان و الحیاه الدنیا لعب لأنها فانیه سریعه البطلان کلعب الصبیان یجتمعون علیه و یتولعون به ساعه ثم یتفرقون و سرعان ما یتفرقون.

علی أن عامه المقاصد التی یتنافس فیها المتنافسون و یتکالب علیه الظالمون أمور وهمیه سرابیه کالأموال و الأزواج و البنین و أنواع التقدم و التصدّر و الرئاسه و المولویه و الخدم و الأنصار و غیرها فالإنسان لا یملک شیئا منها إلاّ فی ظرف الوهم و الخیال.

و أما الحیاه الآخره التی یعیش فیها الإنسان بکماله الواقعی الذی اکتسبه بإیمانه و عمله الصالح فهی المهمه التی لا لهو فی الاشتغال بها و الجد الذی لا لعب فیها و لا لغو و لا تأثیم، و البقاء الذی لا فناء معه،و اللذه التی لا ألم عندها،و السعاده التی لا شقاء دونها،فهی الحیاه بحقیقه معنی الکلمه.

و هذا معنی قوله سبحانه: «وَ مٰا هٰذِهِ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا إِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوٰانُ» .

و فی الآیه-کما تری-قصر الحیاه الدنیا فی اللهو و اللعب و الإشاره إلیها بهذه المفیده

للتحقير و قصر الحياه الآخرون فى الحيوان و هى الحياه و تأكيده بأدوات التأكيد كإنّ و اللام و ضمير الفصل و الجمله الاسميه.

و قوله: لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ أى لو كانوا يعلمون لعلموا أن الأمر كما وصفنا.

قوله تعالى: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ تفريع على ما تحصل من الآيات السابقه من شأنهم و هو أنهم يؤفكون و أن كثيرا منهم لا يعقلون أى لما كانوا يؤفكون و يصرفون عن عبادته الى عباده غيره و أكثرهم لا يعقلون و يناقضون أنفسهم بالاعتراف و الجحد فإذا ركبوا،الخ.

و الركوب الاستعلاء بالجلوس على الشىء المتحرك و هو متعدّ بنفسه و تعديته فى الآيه بفى لتضمنه معنى الاستقرار أو ما يشبهه،و المعنى:فإذا ركبوا مستقرين فى الفلك أو استقروا فى الفلك راكبين،و معنى الآيه ظاهر و هى تحكى عنهم تناقضا آخر و كفرانا للنعمه.

قوله تعالى: لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ اللام فى «لِيَكْفُرُوا» و «لِيَتَمَتَّعُوا» لام الأمر و أمر الآمر بما لا يرتضيه تهديد و إنذار كقولك لمن تهدده «افعل ما شئت»،قال تعالى: اِعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (حم السجده۴۰/).

و احتمل كون اللام للغايه،و المعنى:أنهم يأتون بهذه الأعمال لتنتهى بهم الى كفران النعمه التى آتيناهم و الى التمتع،و أول الوجهين أوفق لقوله فى ذيل الآيه: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» ،و يؤيده قوله فى موضع آخر: لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (الروم۳۴/)،و لذا قرأه من قرأ «وَ لِيَتَمَتَّعُوا» بسكون اللام إذ لا يسكن غير لام الأمر.

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ الحرم الآمن هو مكه و ما حولها و قد جعله اللّه مأمنا بدعاء إبراهيم عليه السّلام و التخطف كالخطب استلاب الشىء بسرعه و اختلاسه و قد كانت العرب يومئذ تعيش فى التغاور و التناهب و لا يزالون يغير بعضهم على بعض بالقتل و السبى و النهب لكنهم يحترمون الحرم و لا

يتعرضون لمن أقام بها فيها.

و المعنى:أو لم ينظروا أنا جعلنا حرما آمنا لا يتعرض لمن فيه بقتل أو سبى أو نهب و الحال أن الناس يختلسون من حلوهم خارج الحرم.

و قوله: أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللّهِ يَكْفُرُونَ توبيخ آخر لهم حيث يقابلون هذه النعمه و هى نعمه عظيمه بالكفران لكنهم يؤمنون بالأصنام و هى باطله ليس لها إلاّ الاسم.

قوله تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمّا جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ تهديد لهم بالناس بتوسيمهم بأشد الظلم و أعظمه و هو افتراء الكذب على اللّه بالقول بالآلهه و أن اللّه اتخذهم شركاء لنفسه،و تكذيب الإنسان بالحق لما جاءه و الوصفان جميعا موجودان فيهم فقد عبدوا الأصنام و كذّبوا بالقرآن لما جاءهم فهم كافرون و مثوى الكافرين و محل إقامتهم فى الآخره جهنم.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ الجهد الوسع و الطاقه و المجاهده استفراغ الوسع فى مدافعه العدو و الجهاد ثلاثه أضرب:مجاهده العدو الظاهر،و مجاهده الشيطان،و مجاهده النفس كذا ذكره الراغب.

و قوله: جاهَدُوا فِينا أى استقر جهادهم فينا و هو استعاره كنائيه عن كون جهده مبذولا فيما يتعلق به تعالى من اعتقاده و عمل،فلا ينصرف عن الإيمان به و الائتمار بأوامره و الانتهاء عن نواهيه بصارف يصرفه.

و قوله: لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا أثبت لنفسه سبلا و هى أياما كانت تنتهى اليه تعالى فإنما السبيل سبيل لتأديته الى ذى السبيل و هو غايتها فسبله هى الطرق المقربه منه و الهاديه اليه تعالى،و إذ كانت نفس المجاهده من الهدايه كانت الهدايه الى السبل هدايه على هدايه فتنطبق على مثل قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً (محمد/١٧).

و مما تقدم یظهر أن لا حاجه فی قوله: «فِينٰا» الی تقدیر مضاف کشأن و التقدیر فی شأننا.

و قوله: وَ إِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ قیل:أی معیه النصره و المعونه و تقدم الجهاد المحتاج الیهما قرینه قویه علی إراده ذلک.انتهی.و هو وجه حسن و أحسن منه أن یفسر بمعیه الرحمه و العنایه فیشمل معیه النصره و المعونه و غیرهما من أقسام العنایات التی له سبحانه بالمحسنین من عباده لکمال عنایته بهم و شمول رحمته لهم،و هذه المعیه أخص من معیه الوجود الذی ینبئ عنه قوله تعالی: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ (الحدید۴/).

و قد تقدمت الإشاره الی أن الآیه خاتمه للسوره منعطفه علی فاتحتها.

الجزء الخامس

اشاره

ص :١

سوره الروم مکیه و هی ستون آیه

اشاره

[سوره الروم (۳۰): الآیات ۱ الی ۱۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;الم (۱) غُلِبَتِ اَلرُّومُ (۲) فِی أَدْنَی اَلْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَیَغْلِبُونَ (۳) فِی بِضْعِ سِنِینَ لِلّٰهِ اَلْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ یَوْمَئِذٍ یَفْرَحُ اَلْمُؤْمِنُونَ (۴) بِنَصْرِ اَللّٰهِ یَنْصُرُ مَنْ یَشٰاءُ وَ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلرَّحِیمُ (۵) وَعْدَ اَللّٰهِ لاٰ یُخْلِفُ اَللّٰهُ وَعْدَهُ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ (۶) یَعْلَمُونَ ظٰاهِراً مِنَ اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ هُمْ عَنِ اَلْآخِرَهِ هُمْ غٰافِلُونَ (۷) أَ وَ لَمْ یَتَفَکَّرُوا فِی أَنْفُسِهِمْ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّی وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ اَلنّٰاسِ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ لَکٰافِرُونَ (۸) أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کٰانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّهً وَ أَثٰارُوا اَلْأَرْضَ وَ عَمَرُوهٰا أَکْثَرَ مِمّٰا عَمَرُوهٰا وَ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ فَمٰا کٰانَ اَللّٰهُ لِیَظْلِمَهُمْ وَ لٰکِنْ کٰانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۹) ثُمَّ کٰانَ عٰاقِبَهَ اَلَّذِینَ أَسٰاؤُا اَلسُّوایٰ أَنْ کَذَّبُوا بِآیٰاتِ اَللّٰهِ وَ کٰانُوا بِهٰا یَسْتَهْزِؤُنَ (۱۰) اَللّٰهُ یَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ ثُمَّ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۱۱) وَ یَوْمَ تَقُومُ اَلسّٰاعَهُ یُبْلِسُ اَلْمُجْرِمُونَ (۱۲) وَ لَمْ یَکُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَکٰائِهِمْ شُفَعٰاءُ وَ کٰانُوا بِشُرَکٰائِهِمْ کٰافِرِینَ (۱۳) وَ یَوْمَ تَقُومُ اَلسّٰاعَهُ یَوْمَئِذٍ یَتَفَرَّقُونَ (۱۴) فَأَمَّا اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ فَهُمْ فِی رَوْضَهٍ یُحْبَرُونَ (۱۵) وَ أَمَّا اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ لِقٰاءِ اَلْآخِرَهِ فَأُولٰئِکَ فِی اَلْعَذٰابِ مُحْضَرُونَ (۱۶) فَسُبْحٰانَ اَللّٰهِ حِینَ تُمْسُونَ وَ حِینَ تُصْبِحُونَ (۱۷) وَ لَهُ اَلْحَمْدُ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ عَشِیًّا وَ حِینَ تُظْهِرُونَ (۱۸) یُخْرِجُ اَلْحَیَّ مِنَ اَلْمَیِّتِ وَ یُخْرِجُ اَلْمَیِّتَ مِنَ اَلْحَیِّ وَ یُحْیِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا وَ کَذٰلِکَ تُخْرَجُونَ (۱۹)

ص: ۷

بیان:

تفتتح السوره بوعد من اللّه و هو أن الروم ستغلب الفرس فی بضع سنین بعد انهزامهم أیام نزول السوره عن الفرس ثم تنتقل منه الی ذکر میعاد أکبر و هو الوعد بیوم یرجع الکل فیه الی اللّه و تقیم الحجه علی المعاد ثم تنعطف الی ذکر آیات الربوبیه و تصف صفاته تعالی الخاصه به ثم تختتم السوره بوعد النصر للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تؤکد القول فیه إذ تقول: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَ لاٰ یَسْتَخِفَّنَّکَ الَّذِینَ لاٰ یُوقِنُونَ و قد قیل قبیل ذلک: وَ کٰانَ حَقًّا عَلَیْنٰا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ .

فغرض السوره هو الوعد القطعی منه تعالی بنصره دینه و قد قدّم علیه نصر الروم علی الفرس فی بضع سنین من حین النزول لیستدل بإنجاز هذا الوعد علی إنجاز ذلک الوعد،و کذا یحتج به و من طریق العقل علی أنه سینجز وعده بیوم القیامه لا ریب فیه.

قوله تعالی: غُلِبَتِ الرُّومُ فِی أَدْنَی الْأَرْضِ الروم جیل من الناس علی ساحل البحر الأبیض بالمغرب کانت لهم امبراطوریه وسیعه منبسطه الی الشامات وقعت بینهم و بین الفرس حرب عوان فی بعض نواحی الشام قریبا من الحجاز فغلبت الفرس و انهزمت الروم، و الظاهر أن المراد بالأرض أرض الحجاز و اللام للعهد.

قوله تعالی: وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَیَغْلِبُونَ فِی بِضْعِ سِنِینَ ضمیر الجمع الأول للروم و کذا الثالث و أما الثانی فقد قیل إنه للفرس و المعنی:و الروم من بعد غلبه الفرس سیغلبون،و یمکن أن یکون الغلب من المصدر المبنی للمفعول و الضمیر للروم کالضمیرین قبلها و بعدها فلا تختلف الضمائر و المعنی:و الروم من بعد مغلوبیتهم سیغلبون.و البضع من العدد من ثلاثه الی تسعه.

قوله تعالی: لِلّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ قبل و بعد مبنیان علی الضمّ فهناک مضاف الیه مقدّر و التقدیر للّه الأمر من قبل أن غلبت الروم و من بعد أن غلبت یأمر بما یشاء

فينصر من يشاء و يخذل من يشاء.

و قيل:المعنى للّه الأمر من قبل كونهم غالبين و هو وقت كونهم مغلوبين و من بعد كونهم مغلوبين و هو وقت كونهم غالبين أى وقت كونهم مغلوبين و وقت كونهم غالبين و المعنى الأول أرجح إن لم يكن راجحا متعينا.

قوله تعالى: وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللّٰهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشٰاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الظرف متعلق بيفرح و كذا قوله: «يَنْصُرُ» و المعنى:و يوم إذ يغلب الروم يفرح المؤمنون بنصر اللّه الروم،ثم استأنف و قال: «يَنْصُرُ مَنْ يَشٰاءُ» تقريرا لقوله: «لِلّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ» .

و قوله: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى عزيز يعزّ بنصره من يشاء رحيم يخصّ برحمته من يشاء.

قوله تعالى: وَعْدَ اللّٰهِ لاٰ يُخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ «وَعْدَ اللّٰهِ» مفعول مطلق محذوف العامل و التقدير وعد اللّه وعدا و إخلاف الوعد خلاف إنجازه و قوله: «وَعْدَ اللّٰهِ» تأكيد و تقرير للوعد السابق فى قوله: «سَيَغْلِبُونَ» و «يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ» كما أن قوله: «لاٰ يُخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ» تأكيد و تقرير لقوله: «وَعْدَ اللّٰهِ» .

و قوله: لاٰ يُخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ كقوله: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُخْلِفُ الْمِيعٰادَ (الرعد/٣١) و خلف الوعد و إن لم يكن قبيحا بالذات لأنه ربما يحسن عند الاضطرار لكنه سبحانه لا يضطره ضروره فلا يحسن منه خلف الوعد فى حال.

على أن خلف الوعد يلازم النقص دائما و يستحيل النقص عليه تعالى.

على أنه تعالى أخبر فى كلامه بأنه لا يخلف الميعاد و هو أصدق الصادقين و هو القائل عزّ من قائل: وَ الْحَقَّ أَقُولُ (ص/٨۴).

و قوله: وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ أى هم جهلاء بشئونه تعالى لا يثقون

بوعده و يقيسونه الى أمثالهم ممن يصدق و يكذب و ينجز و يخلف.

قوله تعالى: يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَهِ هُمْ غٰافِلُونَ جمله «يَعْلَمُونَ» على ما ذكره فى الكشاف بدل من قوله: «لاٰ يَعْلَمُونَ» و فى هذا الإبدال من النكته أنه أبدله منه و جعله بحيث يقوم مقامه و يسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل و بين وجود العلم الذى لا يتجاوز الدنيا انتهى.

و قيل:الجمله استثنائيه لبيان موجب جهلهم بأن وعد اللّه حق و أن للّه الأمر من قبل و من بعد و أنه ينصر المؤمنين على الكافرين.انتهى و هذا أظهر.

و تنكير «ظاهِراً» للتحقير و ظاهر الحياه الدنيا ما يقابل باطنها و هو الذى يناله حواسهم الظاهره من زينه الحياه فيرشدهم الى اقتنائها و العكوف عليها و الإخلاد إليها و نسيان ما وراءها من الحياه الآخره و المعارف المتعلقه بها و الغفله عما فيه خيرهم و نفعهم بحقيقه معنى الكلمه.

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مٰا خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى الخ؛المراد من خلق السماوات و الأرض و ما بينهما-و ذلک جمله العالم المشهود-بالحق أنها لم تخلق عبثا لا غايه لها وراءها بأن يوجد و يعدم ثم يوجد ثم يعدم من غير غرض و غايه فهو تعالى إنما خلقها لغايه تترتب عليها.

ثم إن العالم بأجزائها ليس بدائم الوجود غير منقطع الآخر حتى يحتمل كون كل جزء لا حق غايه للجزء السابق و كل آت خلفا لماضيه بل هو بأجزائه فان بائد فهناک غايه مقصوده من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم و هذا المعنى هو المراد بتقييد قوله: «مٰا خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا» بقوله: «وَ أَجَلٍ مُسَمًّى» بعد تقييده بقوله: «إِلاّٰ بِالْحَقِّ» .

فقوله: أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ الاستفهام للتعجيب،و كونهم فى أنفسهم استعاره كنائيه عن فراغ البال و حضور الذهن كأنهم عند اشتغالهم بامور الدنيا و سعيهم للمعيشه و تشوّش البال يغيبون عن أنفسهم فيكونون عند حضور الذهن حاضرين مستقرين فى أنفسهم فيكون تفكّرهم حينئذ مجتمعا غير متفرق فيهديهم الى الحق و يرشدهم الى الواقع.

و قوله: مٰا خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى هو الفكر الـذى يجب عليهم أن يمعنوا فيه النظر فى أنفسـهم و تقريره على ما تقـدم أن اللّه سـبحانه ما خلق هذا العالم كلا و لا بعضا إلاّ خلقا ملابسا للحق أو مصاحبا للحق أى لغايه حقيقيه لاـ عبثـا لا غايه له و لا الى أجل معين فلا يبقى شـىء منها الى ما لا نهايه له بل يفنى و ينقطع و إذا كان كل من أجزائه و المجموع مخلوقا ذا غايه تترتب عليها و ليس شـىء منها دائم الوجود كانت غايته مترتبه عليه بعد انقطاع وجوده و فنائه،و هذا هو الآخره التى ستظهر بعد انقضاء الدنيا و فنائها.

و قوله: وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النّٰاسِ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ لَكٰافِرُونَ مسوق سوق التعجيب كما بـدأت الآيه باسـتفهام التعجيب،و المراد بلقاء اللّه هو الرجوع اليه فى المعاد،و قـد عبّر عنه باللقاء ليزداد كفرهم به عجبا فكيف يمكن أن يبتـدءوا منه ثم لا ينتهوا اليه،و لـذلك أكـده بإن إشاره الى أن الكفر بالمعاد من شأنه فى نفسه أن لا يصدق به.

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الى آخر الآيه؛لما ذكر كفر كثير من الناس بالمعاد و ذلـك أمر يلغو معه الـدين الحق ذكّرهم حال الامم الكافره و ما انتهت اليه من سوء العـذاب لعلهم يعتبرون بها فيرجعوا عماهم عليه من الكفر.و إثاره الأرض قلبها ظهر البطن للحرث و التعمير و نحو ذلك.

و قوله: وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ أى بالكفر و المعاصى.

قوله تعالى: ثُمَّ كٰانَ عٰاقِبَةَ الَّذِينَ أَسٰاؤُا السُّواىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ اللّٰهِ وَ كٰانُوا بِهٰا يَسْتَهْزِؤُنَ بيان لما انتهى اليه أمر أولئك الظالمين و لذا عبّر بثم،و «عٰاقِبَةَ» بالنصب خبر كان و اسـمه «السُّواىٰ» قدّم الخبر عليه لإفاده الحصر و «أَسٰاؤُا» مقطوع عن المتعلق بمعنى عملوا السوء،و السـوأى الخله الـتى يسوء صاحبهـا و المراد بهـا سوء العـذاب و «أَنْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ اللّٰهِ» بحـذف لاـم التعليـل و التقـدير لتكذيبهم بآيات اللّه و استهزائهم بها.

و المعنى:ثم كان سوء العذاب هو الذى انتهى اليه أمر أولئك الذين عملوا السوء لم تكن لهم

عاقبه غيرها لتكذيبهم بآيات اللّه و استهزائهم بها.

قوله تعالى: اَللّٰهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بعد ما ذكر الحجه و تكذيب كثير من الناس لخصّ القول فى نتيجتها و هو أن البدء و العود بيده سبحانه و سيرجع اليه الجميع،و المراد بالخلق المخلوقون،و لذا أرجع اليه ضمير الجمع فى «تُرْجَعُونَ» .

قوله تعالى: وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ذكر حال المجرمين بعد قيام الساعه و هى ساعه الرجوع اليه تعالى للحساب و الجزاء،و الإبلاس اليأس من اللّه و فيه كل الشقاء.

قوله تعالى: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكٰائِهِمْ شُفَعٰاءُ وَ كٰانُوا بِشُرَكٰائِهِمْ كٰافِرِينَ يريد أنهم على يأسهم من الرحمه من ناحيه أعمالهم أنفسهم آيسون من آلهتهم الذين اتخذوهم شركاء للّه فعبدوهم ليشفعوا لهم عند اللّه كما كانوا يقولون فى الدنيا:هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه و كانوا بعباده شركائهم كافرين ساترين.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ -الى قوله- مُحْضَرُونَ قال فى المجمع:الروضه البستان المتناهى منظرا و طيبا.انتهى.و قال فى المفردات:الحبر الأثر المستحسن-الى أن قال-و قوله عزّ و جل: «فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ» أى يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم.انتهى.

و المراد بتفرّق الخلق يومئذ تميّز المؤمنين الصالحين من المجرمين و دخول هؤلاء النار و دخول اولئك الجنه على ما يشير اليه الآيتان التاليتان.

و لزوم هذا التميّز و التفرّق فى الوجود هو الذى أخذه اللّه سبحانه حجه على ثبوت المعاد حيث قال: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئٰاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ سَوٰاءً مَحْيٰاهُمْ وَ مَمٰاتُهُمْ سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ (الجاثيه/٢١).

قوله تعالى: فَسُبْحٰانَ اللّٰهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ لما ذكر أنه يبدأ الخلق ثم يعيدهم

و یرجعهم للقائه فیفرّقهم طائفتین:أهل الجنه و النعمه و أهل النار و العذاب،أما أهل الجنه فهم المؤمنون العاملون للصالحات و أما أهل النار فهم الکفار المکذبون لآیات اللّه و قد ذکر أنهم کانوا فی الدنیا أهل قوه و نعمه لکنهم نسوا الآخره و کذبوا بآیات اللّه و استهزءوا بها حتی انتهی بهم الأمر الی سوء العذاب عذاب الاستئصال جزاء لظلمهم أنفسهم و ما ظلمهم اللّه و لکن کانوا أنفسهم یظلمون.

فتحصّل من ذلک أن فی دار الخلقه تدبیرا إلهیا متقنا صالحا جمیلا-علی أجمل ما یکون و أن للانسان علی توالی الأزمنه و الدهور آثاما و خطیئات من العقیده السیئه فی حق ربه و اتخاذ شرکاء له و إنکار لقائه الی سائر المعاصی.

ذیّل الکلام بتسبیحه کلما تجدد حین بعد و تحمیده علی صنعه و تدبیره فی السماوات و الأرض و هو مجموع العالم المشهود فهو سبحانه منزّه عن هذه الاعتقادات الباطله و الأعمال الردیّه و محمود فی جمیع ما خلقه و دبّره فی السماوات و الأرض.

و من هناک یظهر:

أولا:أن التسبیح و التحمید فی الآیتین إنشاء تنزیه و ثناء منه تعالی لا من غیره حتی یکون المعنی:قولوا سبحان اللّه و قولوا الحمد للّه فقد تکرّر فی کلامه تعالی تسبیحه و تحمیده لنفسه کقوله: سُبْحٰانَ رَبِّکَ رَبِّ الْعِزَّهِ (الصافات/۱۸۰)و قوله: تَبٰارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقٰانَ عَلیٰ عَبْدِهِ (الفرقان/۱).

و ثانیا:أن المراد بالتسبیح و التحمید معناهما المطلق دون الصلوات الیومیه المفروضه کما یقول به أکثر القائلین بکون القول مقدّرا.و المعنی:قولوا سبحان اللّه و قولوا الحمد للّه.

و ثالثا:أن قوله: «وَ لَهُ الْحَمْدُ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» معترضه واقعه بین المعطوف و المعطوف علیه،و قوله: «وَ عَشِیًّا وَ حِینَ تُظْهِرُونَ» معطوفان علی محل «حِینَ تُمْسُونَ» لا-علی قوله: «فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» حتی یختص المساء و الصباح بالتسبیح و السماوات و الأرض و العشی و الظهیره بالتحمید بل الأوقات و ما فیها للتسبیح و الأمکنه و ما فیها للتحمید.

فالسیاق یشیر الی أن ما فی السماوات و الأرض من خلق و أمر هو للّه یستدعی بحسنه حمدا و ثناء للّه سبحانه و أن للانسان علی مر الدهور و تغیّر الأزمنه و الأوقات من الشرک و المعصیه ما یتنزه عنه ساحه قدسه تعالی و تقدس.

نعم هاهنا اعتبار آخر یتداخل فیه التحمید و التسبیح و هو أن الأزمنه و الأوقات علی تغیرها و تصرّمها من جمله ما فی السماوات و الأرض فهی بوجودها یثنی علی اللّه تعالی،ثم کل ما فی السماوات و الأرض بفقرها الیه تعالی و ذلّتها دونه و نقصها بالنسبه الی کماله تعالی تسبحه کما قال: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّ یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (الإسراء/۴۴)،لکن هذا الاعتبار غیر منظور الیه فی الآیتین اللتین نحن فیهما.

قوله تعالی: یُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ وَ یُخْرِجُ الْمَیِّتَ مِنَ الْحَیِّ وَ یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا وَ کَذٰلِکَ تُخْرَجُونَ ظاهر إخراج الحی من المیت و بالعکس خلق ذوی الحیاه من الأرض المیته ثم تبدیل ذوی الحیاه أرضا میته،و قد فسّر بخلق المؤمن من الکافر و خلق الکافر من المؤمن فإنه یعدّ المؤمن حیا و الکافر میتا،قال تعالی: أَ وَ مَنْ کٰانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً (الأنعام/۱۲۲).

و أما إحیاء الأرض بعد موتها فهو انتعاش الأرض و ابتهاجها بالنبات فی الربیع و الصیف بعد خمودها فی الخریف و الشتاء،و قوله: «وَ کَذٰلِکَ تُخْرَجُونَ» أی تبعثون و تخرجون من قبورکم بإحیاء جدید کإحیاء الأرض بعد موتها،و قد تقدم تفسیر نظیر صدر الآیه و ذیلها مرارا (۱).

[سوره الروم (۳۰): الآیات ۲۰ الی ۲۶]

وَ مِنْ آیٰاتِهِ أَنْ خَلَقَکُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ إِذٰا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (۲۰) وَ مِنْ آیٰاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْوٰاجاً لِتَسْکُنُوا إِلَیْهٰا وَ جَعَلَ بَیْنَکُمْ مَوَدَّهً وَ رَحْمَهً إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۲۱) وَ مِنْ آیٰاتِهِ خَلْقُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اِخْتِلاٰفُ أَلْسِنَتِکُمْ وَ أَلْوٰانِکُمْ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِلْعٰالِمِینَ (۲۲) وَ مِنْ آیٰاتِهِ مَنٰامُکُمْ بِاللَّیْلِ وَ اَلنَّهٰارِ وَ اِبْتِغٰاؤُکُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَسْمَعُونَ (۲۳) وَ مِنْ آیٰاتِهِ یُرِیکُمُ اَلْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ یُنَزِّلُ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَیُحْیِی بِهِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۲۴) وَ مِنْ آیٰاتِهِ أَنْ تَقُومَ اَلسَّمٰاءُ وَ اَلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذٰا دَعٰاکُمْ دَعْوَهً مِنَ اَلْأَرْضِ إِذٰا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (۲۵) وَ لَهُ مَنْ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ کُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ (۲۶)

۱- ۱) .الروم ۱-۱۹:بحث روائی حول غلبه الروم و مقامره ابی بکر مع المشرکین.

بيان:

قوله تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ المراد بالخلق من تراب انتهاء خلقه الإنسان الى الأرض فإن مراتب تكوّن الإنسان من مضغه أو علقه أو نطفه أو غيرها مركبات أرضيه تنتهى الى العناصر الأرضيه.

و قوله: ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ إذا فجائيه أى يفاجئكم أنكم اناسى تنتشرون فى الأرض أى يخلقكم من تركيبات أرضيه المترقب منها كينونه أرضيه ميته أخرى

ص: ۱۶

مثلها لکن یفاجئکم دفعه أنه یصیر بشرا ذوی حیاه و شعور عقلی ینتشرون فی الأرض فی سبیل تدمیر أمر الحیاه فقوله: «ثُمَّ إِذٰا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ» فی معنی قوله: ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ (المؤمنون/۱۴).

فخلق الإنسان أی جمع أجزائه من الأرض و تألیفها آیه و کینونه هذا المجموع إنسانا ذا حیاه و شعور عقلی آیه أو آیات أخر تدل علی صانع حی علیم یدبر الأمر و یجری هذا النظام العجیب.

و قد ظهر بهذا المعنی أن «ثُمَّ» للتراخی الرتبی و الجمله معطوفه علی قوله: «خَلَقَکُمْ» لا علی قوله: «أَنْ خَلَقَکُمْ» .

قوله تعالی: وَ مِنْ آیٰاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْوٰاجاً لِتَسْکُنُوا إِلَیْهٰا الی آخر الآیه؛قال الراغب:یقال لکل واحد من القرینین من الذکر و الانثی من الحیوانات المتزاوجه:زوج و لکل قرینین فیها و فی غیرها:زوج،قال تعالی: فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَیْنِ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثیٰ و قال: وَ زَوْجُکَ الْجَنَّهَ و زوجه لغه ردیئه و جمعها زوجات-الی أن قال- و جمع الزوج أزواج.انتهی.

فقوله: أَنْ خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْوٰاجاً لِتَسْکُنُوا إِلَیْهٰا أی خلق لأجلکم -أو لینفعکم-من جنسکم قرائن و ذلک أن کل واحد من الرجل و المرأه مجهز بجهاز التناسل تجهیزا یتم فعله بمقارنه الآخر و یتم بمجموعهما أمر التوالد و التناسل فکل واحد منهما ناقص فی نفسه مفتقر الی الآخر و یحصل من المجموع واحد تام له أن یلد و ینسل،و لهذا النقص و الافتقار یتحرک الواحد منهما الی الآخر حتی إذا اتصل به سکن الیه لأن کل ناقص مشتاق الی کماله و کل مفتقر مائل الی ما یزیل فقره و هذا هو الشبق المودع فی کل من هذین القرینین.

و قوله: وَ جَعَلَ بَیْنَکُمْ مَوَدَّهً وَ رَحْمَهً الموده کأنها الحب الظاهر أثره فی مقام العمل فنسبه الموده الی الحب کنسبه الخضوع الظاهر أثره فی مقام العمل الی الخشوع الذی هو

نوع تأثر نفسانى عن العظمه و الكبرياء.

و الرحمه نوع تأثر نفسانى عن مشاهده حرمان المحروم عن الكمال و حاجته الى رفع نقيصته يدعو الراحم الى إنجائه من الحرمان و رفع نقصه.

و من أجل موارد الموده و الرحمه المجتمع المنزلى فإن الزوجين يتلازمان بالموده و المحبه و هما معا و خاصه الزوجه يرحمان الصغار من الأولاد لما يريان ضعفهم و عجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيويه فيقومان بواجب العمل فى حفظهم و حراستهم و تغذيتهم و كسوتهم و إيوائهم و تربيتهم و لو لا هذه الرحمه لا نقطع النسل و لم يعش النوع قط.

و نظير هذه الموده و الرحمه مشهود فى المجتمع الكبير المدنى بين أفراد المجتمع فالواحد منهم يأنس بغيره بالموده و يرحم المساكين و العجزه و الضعفاء الذين لا يستطيعون القيام بواجبات الحياه.

و المراد بالموده و الرحمه فى الآيه الاوليان على ما يعطيه مناسبه السياق أو الأخيرتان على ما يعطيه إطلاق الآيه.

و قوله: لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ لانهم إذا تفكروا فى الاصول التكوينيه التى يبعث الإنسان الى عقد المجتمع من الذكوره و الانوثه الداعيتين الى الاجتماع المنزلى و الموده و الرحمه الباعثتين على الاجتماع المدنى ثم ما يترتب على هذا الاجتماع من بقاء النوع و استكمال الإنسان فى حياتيه الدنيا و الاخرى عثروا من عجائب الآيات الإلهيه فى تدبير أمر هذا النوع على ما يبهر به عقولهم و تدهش به أحلامهم.

قوله تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ الى آخر الآيه؛الظاهر أن يكون المراد باختلاف الألسن اختلاف اللغات من العربيه و الفارسيه و الاردويه و غيرها و باختلاف الألوان اختلاف الامم فى ألوانهم كالبياض و السواد و الصفره و الحمره.

و یمکن أن یستفاد اختلاف الألسنه من جهه النغم و الأصوات و نحو التکلم و النطق و باختلاف الألوان اختلاف کل فردین من أفراد الانسان بحسب اللون لو دقق فیه النظر علی ما یقول به علماء هذا الشأن.

فالباحثون عن العالم الکبیر یعثرون فی نظام الخلقه علی آیات دقیقه داله علی أن الصنع و الإیجاد مع النظام الجاری فیه لا یقوم إلاّ باللّه و لا ینتهی إلاّ الیه.

قوله تعالی: وَ مِنْ آیٰاتِهِ مَنٰامُکُمْ بِاللَّیْلِ وَ النَّهٰارِ وَ ابْتِغٰاؤُکُمْ مِنْ فَضْلِهِ الی آخر الآیه؛الفضل الزیاده علی مقدار الحاجه و یطلق علی العطیه لأن المعطی إنما یعطی ما فضل من مقدار حاجته،و المراد به فی الآیه الکریمه الرزق فابتغاء الفضل طلب الرزق.

و فی خلق الإنسان ذا قوی فعّاله تبعثه الی طلب الرزق و رفع حوائج الحیاه للبقاء بالحرکه و السعی ثم هدایته الی الاستراحه و السکون لرفع متاعب السعی و تجدید تجهیز القوی و تخصیص اللیل و النهار المتعاقبین للسعی و السکون و التسبیب الی وجود اللیل و النهار بأوضاع سماویه قائمه بالأرض و الشمس لآیات نافعه لمن له سمع واع یعقل ما یسمع فإذا وجده حقا اتبعه.

قوله تعالی: وَ مِنْ آیٰاتِهِ یُرِیکُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ یُنَزِّلُ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَیُحْیِی بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا الظاهر أن الفعل نزّل منزله المصدر و لذلک لم یصدّر بأن المصدریه کما صدّر به قوله: «أَنْ خَلَقَکُمْ» و قوله: «أَنْ خَلَقَ لَکُمْ» و تنزیل الفعل منزله المصدر لغه عربیه جیده و علیه یحمل المثل السائر«و تسمع بالمعیدیّ خیر من أن تراه»و لا ضیر فی حمل کلامه تعالی علیه فهو تعالی یأتی فی مفتتح هذه الآیات بفنون التعبیر کقوله:

«مَنٰامُکُمْ»

«یُرِیکُمُ»

«أَنْ تَقُومَ» .

و قوله: «خَوْفاً وَ طَمَعاً» أی خوفا من الصاعقه و طمعا فی المطر،و قوله: «وَ یُنَزِّلُ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَیُحْیِی بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا» تقدم تفسیره کرارا،و قوله: «إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ» أى إن أهل التعقل يفقهون أن هناك عنايه متعلقه بهذه المصالح فليس مجرد اتفاق و صدفه.

قوله تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ القيام مقابل القعود و لما كان أعدل حالات الانسان حيث يقوى به على عامه أعماله استعير لثبوت الشىء و استقراره على أعدل حالاته كما يستعار لتدبير الأمر،قال تعالى: أَ فَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (الرعد/ ٣٣).

و المراد بقيام السماء و الأرض بأمر من اللّه ثبوتهما على حالهما من حركه و سكون و تغير و ثبات بأمره تعالى و قد عرّف أمره بقوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس٨٢/).

و قوله: ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ «إِذَا» الاولى شرطيه و «إِذَا» الثانيه فجائيه قائمه مقام فاء الجزاء و «مِنَ الْأَرْضِ» متعلق بقوله: «دَعْوَةً» و الجمله معطوفه على محل الجمله الاولى لأن المراد بالجمله أعنى قوله: «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ» الخ؛ البعث و الرجوع الى اللّه و ليس فى عداد الآيات بل الجمله إخبار بأمر احتج عليه سابقا و سيحتج عليه لاحقا.

و أما قول القائل:إن الجمله على تأويل المفرد و هى معطوفه على «أَنْ تَقُومَ» و التقدير و من آياته قيام السماء و الأرض بأمره ثم خروجكم إذا دعاكم دعوه من الأرض.

فلازمه كون البعث معدودا من الآيات و ليس منها على أن البعث أحد الاصول الثلاثه التى يحتج بالآيات عليه،و لا يحتج به على التوحيد مثلا بل لو احتج فبالتوحيد عليه فافهم ذلك.

و قد رتبت الفواصل أعنى قوله: «يَتَفَكَّرُونَ» لِلْعَالِمِينَ «يَسْمَعُونَ» «يَعْقِلُونَ» على هذا

الترتیب لأن الإنسان یتفکر فیصیر عالما ثم إذا سمع شیئا من الحقائق وعاه ثم عقله و اللّه أعلم.

قوله تعالی: وَ لَهُ مَنْ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ کُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ کانت الآیات المذکوره مسوقه لإثبات ربوبیته تعالی و ألوهیته کما تقدمت الإشاره الیه و لما انتهی الکلام الی ذکر البعث و الرجوع الی اللّه عقب ذلک بالبرهان علی إمکانه و الحجه مأخوذه من الخلق و التدبیر المذکورین فی الآیات السابقه.

فقوله: وَ لَهُ مَنْ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ إشاره الی إحاطه ملکه الحقیقی لجمیع من فی السماوات و الارض و هم المحشورون الیه و ذلک لان وجودهم من جمیع الجهات قائم به تعالی قیام فقر و حاجه لا استقلال و لا استغناء لهم عنه بوجه من الوجوه و هذا هو الملک الحقیقی الذی أثره جواز تصرف المالک فی ملکه کیف شاء فله تعالی أن یتصرف فی مملوکیه بنقلهم من النشأه الدنیا الی النشأه الآخره.

و قد أکد ذلک بقوله: «کُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ» و القنوت لزوم الطاعه مع الخضوع-علی ما ذکره الراغب فی المفردات-و المراد بالطاعه مع الخضوع الطاعه التکوینیه-علی ما یعطیه السیاق- دون التشریعیه التی ربما تخلفت.

و ذلک أنهم الملائکه و الجن و الإنس فأما الملائکه فلیس عندهم إلاّ خضوع الطاعه،و أما الجن و الإنس فهم مطیعون منقادون للعلل و الاسباب الکونیه و کلما احتالوا فی الغاء أثر عله من العلل أو سبب من الاسباب الکونیه توسلوا الی عله أخری و سبب آخر کونی ثم علمهم و ارادتهم کاختیارهم جمیعا من الأسباب الکونیه فلا یکون إلاّ ما شاء اللّه أی الذی تمت علله فی الخارج و لا یتحقق مما شاءوا إلاّ ما أذن فیه و شاءه فهو المالک لهم و لا یملکونه.

[سوره الروم (۳۰): الآیات ۲۷ الی ۳۹]

وَ هُوَ اَلَّذِی یَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ وَ لَهُ اَلْمَثَلُ اَلْأَعْلیٰ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۲۷) ضَرَبَ لَکُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِکُمْ هَلْ لَکُمْ مِنْ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُکُمْ مِنْ شُرَکٰاءَ فِی مٰا رَزَقْنٰاکُمْ فَأَنْتُمْ فِیهِ سَوٰاءٌ تَخٰافُونَهُمْ کَخِیفَتِکُمْ أَنْفُسَکُمْ کَذٰلِکَ نُفَصِّلُ اَلْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۲۸) بَلِ اِتَّبَعَ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا أَهْوٰاءَهُمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ فَمَنْ یَهْدِی مَنْ أَضَلَّ اَللّٰهُ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِینَ (۲۹) فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اَللّٰهِ اَلَّتِی فَطَرَ اَلنّٰاسَ عَلَیْهٰا لاٰ تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اَللّٰهِ ذٰلِکَ اَلدِّینُ اَلْقَیِّمُ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ (۳۰) مُنِیبِینَ إِلَیْهِ وَ اِتَّقُوهُ وَ أَقِیمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ لاٰ تَکُونُوا مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ (۳۱) مِنَ اَلَّذِینَ فَرَّقُوا دِینَهُمْ وَ کٰانُوا شِیَعاً کُلُّ حِزْبٍ بِمٰا لَدَیْهِمْ فَرِحُونَ (۳۲) وَ إِذٰا مَسَّ اَلنّٰاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِیبِینَ إِلَیْهِ ثُمَّ إِذٰا أَذٰاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذٰا فَرِیقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ یُشْرِکُونَ (۳۳) لِیَکْفُرُوا بِمٰا آتَیْنٰاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳۴) أَمْ أَنْزَلْنٰا عَلَیْهِمْ سُلْطٰاناً فَهُوَ یَتَکَلَّمُ بِمٰا کٰانُوا بِهِ یُشْرِکُونَ (۳۵) وَ إِذٰا أَذَقْنَا اَلنّٰاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَیْدِیهِمْ إِذٰا هُمْ یَقْنَطُونَ (۳۶) أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اَللّٰهَ یَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ یَقْدِرُ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۳۷) فَآتِ ذَا اَلْقُرْبیٰ حَقَّهُ وَ اَلْمِسْکِینَ وَ اِبْنَ اَلسَّبِیلِ ذٰلِکَ خَیْرٌ لِلَّذِینَ یُرِیدُونَ وَجْهَ اَللّٰهِ وَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۳۸) وَ مٰا آتَیْتُمْ مِنْ رِباً لِیَرْبُوَا فِی أَمْوٰالِ اَلنّٰاسِ فَلاٰ یَرْبُوا عِنْدَ اَللّٰهِ وَ مٰا آتَیْتُمْ مِنْ زَکٰاةٍ تُرِیدُونَ وَجْهَ اَللّٰهِ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُضْعِفُونَ (۳۹)

بیان:

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ الی آخر الآیه؛بدء الخلق إنشاؤه ابتداء من غیر مثال سابق و الإعاده إنشاء بعد إنشاء.

و قوله: وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ الضمیر الأول للإعاده المفهوم من قوله: «یُعِیدُهُ» و الضمیر الثانی راجع الیه تعالی علی ما یتبادر من السیاق (۱).

و الذی ینبغی أن یقال أن الجمله أعنی قوله: «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ» معلل بقوله بعده: «وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلیٰ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ» فهو الحجه المثبته لقوله: «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ» .

و المستفاد من قوله: «وَ لِلّٰهِ الْمَثَلُ الْأَعْلیٰ» الخ؛أن کل وصف کمالی یمثل به شیء فی السماوات و الأرض کالحیاه و القدره و العلم و الملک و الجود و الکرم و العظمه و الکبریاء و غیرها فللّه سبحانه أعلی ذلک الوصف و أرفعها من مرتبه تلک الموجودات المحدوده کما قال: وَ لِلّٰهِ الْأَسْمٰاءُ

۱- ۱) .الروم ۲۷-۳۹:بحث فی معنی قوله: «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ» .

اَلْحُسْنیٰ (الأعراف ١٨٠/).

و ذلک أن کل وصف من أوصاف الکمال اتصف به شیء مما فی السماوات و الأرض فله فی حد نفسه ما یقابله فإنه مما أفاضه اللّه علیه و هو فی نفسه خال عنه فالحیّ منها میت فی ذاته و القادر منها عاجز فی ذاته و لـذلک کان الوصف فیها محـدودا مقیّدا بشـیء دون شـیء و حـال دون حـال،و هکـذا فـالعلم فیهـا مثلاـ لیس مطلقا غیر محـدود بل محـدود مخلوط بالجهل بما وراءه و کذلک الحیاه و القدره و الملک و العظمه و غیرها.

و اللّه سبحانه هو المفیض لهذه الصافات من فضله و الذی له من معنی هذه الصفات مطلق غیر محدود و صرف غیر مخلوط فلا جهل فی مقابل علمه و لا ممات یقابل حیاته و هکذا فله سبحانه من کل صفه یتصف به الموجودات السماویه و الأرضیه-و هی صفات غیر ممحّضه و لا مطلقه-ما هو أعلاها أی مطلقها و محضها.

فکل صفه توجد فیه تعالی و فی غیره من المخلوقات،فالذی فیه أعلاها و أفضلها و الذی فی غیره مفضول بالنسبه الی ما عنده.

و لما کـانت الإعـاده متصـفه بـالهون إذا قیس الی الإنشـاء فیمـا عنـد الخلق فهو عنـده تعـالی أهون أی هون محض غیر مخلوط بصعوبه و مشـقه بخلاـف مـا عنـدنا معاشـر الخلق و لاـ یلزم منه أن یکون فی الإنشـاء صـعوبه و مشـقه علیه تعالی لأن المشـقه و الصـعوبه فی الفعل تتبع قـدره الفاعل بالتعاکس فکلما قلّت القـدره کثرت المشـقه و کلما کثرت قلّت حتی إذا کانت القدره غیر متناهیه انعـدمت المشـقه من رأس،و قدرته تعالی غیر متناهیه فلا یشقّ علیه فعل أصـلا و هو المسـتفاد من قوله: «إِنَّ اللّهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» فإن القدره إذا جاز تعلقها بکل شیء لم تکن إلاّ غیر متناهیه فافهم ذلک.

و قوله: وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلیٰ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ تقدم أنه فی مقام الحجه بالنسبه الی قوله: «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ» و محصـله أن کل صفه کمالیه یتصف به شیء مما فی

السماوات و الأرض من جمال أو جلال فإن للّه سبحانه أعلاها أی مطلقها من غير تقييد و محضها من غير شوب و صرفها من غير خلط.

و قوله: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فی مقام التعليل بالنسبه الی قوله: «وَ لِلّٰهِ الْمَثَلُ الْأَعْلىٰ» الخ؛أی إنه تعالی عزيز واجد لكل ما يفقده غيره ممتنع من أن يمتنع عليه شیء حكيم لا يعرض فعله فتور،و لو لم تكن صفه من صفاته مثلا أعلی مما عند غيره من الممكنات كانت محدوده غير مطلقه و مخلوطه غير صرفه غير خاليه من النقص و القصور فاستذلّه ذاك القصور فلم يكن عزيزا علی الإطلاق و أحدث ذاك النقص فی فعله ثلمه و فتورا فلم يكن حكيما علی الإطلاق.

قوله تعالی: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ مِنْ شُرَكٰاءَ فِی مٰا رَزَقْنٰاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوٰاءٌ تَخٰافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ الخ؛ «مِنْ» فی قوله: «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» لابتداء الغايه أی ضرب لكم مثلا متخذا من أنفسكم منتزعا من الحالات التی لديكم،و قوله: «هَلْ لَكُمْ» شروع فی المثل المضروب و الاستفهام للإنكار،و «مٰا» فی «مِنْ مٰا مَلَكَتْ» للنوع أی من نوع ما ملكت أيمانكم من العبيد و الإماء، و «مِنْ» فی «مِنْ شُرَكٰاءَ» زائده و هو مبتدأ،و قوله: «فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوٰاءٌ» تفريع علی الشركه، و «فَأَنْتُمْ» خطاب شامل للمالكين و المملوكين علی طريق التغليب،و قوله: «تَخٰافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ» أی تخافون المماليك الشركاء أن تستبدّوا فی تصرف المال المشترك من غير إذن منهم و رضی كما تخافون أنفسكم من الشركاء الاحرار.

و هذا مثل ضربه اللّه لبيان بطلان ما يزعمون أن اللّه سبحانه مما خلق شركاء فی الالوهيه و الربوبيه و قد ألقی المثل فی صوره الاستفهام الإنكاری:هل يوجد بين مماليككم من العبيد و الإماء من يكونون شركاء لكم فی الاموال التی رزقناكم-و الحال أنهم مماليك لكم تملكونهم و ما فی أيديهم-بحيث تخافونهم من التصرف فی أموالكم بغير اذن منهم و رضی كما تخافون

الشركاء الاحرار من نوع أنفسكم؟!

لا يكون ذلك أبدا و لا يجوز أن يكون المملوك شريكا لمولاه فی ماله و اذا لم يجز فكيف يجوز أن يكون بعض من خلقه اللّه كالملائكه و الجن و هم عبيده المملوكون شركاء له فيما يملك من مخلوقيه و آلهه و أربابا من دونه؟

ثم تمّم الكلام بقوله: «كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» و فيه تمهيد لما يتلوه من الكلام.

قوله تعالى: بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللّٰهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ إضراب عما يستفاد من ذيل الآيه السابقه و التقدير و هؤلاء المشركون لم يبنوا شركهم على التعقل بل اتبعوا فی ذلک أهواءهم بغير علم.

و كان مقتضى الظاهر أن يقال:بل اتبع الذين أشركوا و إنما بدّله من قوله: «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا» فوصفهم بالظلم ليتعلل به ما سيصفهم بالضلال فی قوله: «فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللّٰهُ» فالظلم يستتبع الإضلال الإلهی،قال تعالى: يُثَبِّتُ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللّٰهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللّٰهُ مَا يَشَاءُ (إبراهيم٢٧/).

فقوله: فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللّٰهُ استفهام إنكاری مدلوله الإياس من نعمه الهدايه للمشركين المتّبعين لأهوائهم مع ظهور الحق لهم لمكان ظلمهم الموجب لإضلالهم و قد تكرّر فی كلامه تعالى «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» .

و قوله: وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ نفی لنجاتهم بنصره الناصرين لهم من غيرهم بعد ما لم ينالوا النجاه من الضلال و تبعاته من عند أنفسهم لإضلال اللّه لهم و نفی الجمع دليل على أن لغيرهم ناصرين كالشفعاء.

و قول القائل إن معنى نفی الناصرين لهم أنه ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو المشهور من مقابله الجمع بالجمع غير مطّرد.

و معنى الآيه:بل اتبع الذين ظلموا بشركهم أهواءهم بغير علم و تعقّل فأضلّهم اللّه بظلمهم

و لا هادى يهديهم و ليس لهم ناصرون ينصرونهم.

قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ الكلام متفرع على ما تحصّل من الآيات السابقه المثبته للمبدإ و المعاد أى إذا ثبت أن الخلق و التدبير للّه وحده لا شريك له و هو سيبعث و يحاسب و لا نجاه لمن أعرض عنه و أقبل على غيره فأقم وجهك للدين و الزمه فإنه الدين الذى تدعو اليه الخلقه الإلهيه.

فقوله: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ المراد بإقامه الوجه للدين الإقبال عليه بالتوجه من غير غفله منه كالمقبل على الشىء بقصر النظر فيه بحيث لا يلتفت عنه يمينا و شمالا و الظاهر أن اللام فى الدين للعهد و المراد به الإسلام.

و قوله: حَنِيفاً حال من فاعل أقم و جوّز أن يكون حالا من الدين أو حالا من الوجه و الأول أظهر و أنسب للسياق،و الحنف ميل القدمين الى الوسط و المراد به الاعتدال.

و قوله: فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها الفطره بناء نوع من الفطر بمعنى الإيجاد و الإبداع و «فِطْرَتَ اللّهِ» منصوب على الإغراء أى الزم الفطره ففيه إشاره الى أن هذا الدين الذى يجب إقامه الوجه له هو الذى يهتف به الخلقه و يهدى اليه الفطره الإلهيه التى لا تبديل لها.

و ذلك أنه ليس الدين إلاّ سنّه الحياه و السبيل التى يجب على الإنسان أن يسلكها حتى يسعد فى حياته فلا غايه للانسان يتبعها إلاّ السعاده و قد هدى كل نوع من أنواع الخليقه الى سعادته التى هى بغيه حياته بفطرته و نوع خلقته و جهّز فى وجوده بما يناسب غايته من التجهيز،قال تعالى: رَبُّنَا الَّذِى أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (طه/٥٠)،و قال: اَلَّذِى خَلَقَ فَسَوّى وَ الَّذِى قَدَّرَ فَهَدى (الأعلى/٣).

فالانسان كسائر الأنواع المخلوقه مفطور بفطره تهديه الى تتميم نواقصه و رفع حوائجه

و تهتف له بما ينفعه و ما يضرّه فی حياته،قال تعالی: وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا (الشمس٨/)،و هو مع ذلک مجهز بما يتم له به ما يجب له أن يقصده من العمل،قال تعالی: ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (عبس٢٠/).

فللانسان فطره خاصه تهديه الی سنه خاصه فی الحياه و سبيل معينه ذات غايه مشخصه ليس له إلاّ أن يسلكها خاصه و هو قوله: «فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِی فَطَرَ النّٰاسَ عَلَيْهٰا» و ليس الانسان العائش فی هذه النشأه إلاّ نوعا واحدا لا يختلف ما ينفعه و ما يضرّه بالنظر الی هذه البنيه المؤلفه من روح و بدن فما للانسان من جهه أنه إنسان إلاّ سعاده واحده و شفاء واحد فمن الضروری حينئذ أن يكون تجاه عمله سنه واحده ثابته يهديه إليها هاد واحد ثابت.

و ليكن ذاک الهادی هو الفطره و نوع الخلقه و لذلک عقّب قوله: «فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِی فَطَرَ النّٰاسَ عَلَيْهٰا» بقوله: «لاٰ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ» .

فلو اختلفت سعاده الانسان باختلاف أفراده لم ينعقد مجتمع واحد صالح يضمن سعاده الأفراد المجتمعين،و لو اختلفت السعاده باختلاف الأقطار التی تعيش فيها الامم المختلفه بمعنی أن يكون الأساس الوحيد للسنه الاجتماعيه أعنی الدين هو ما يقتضيه حكم المنطقه كان الانسان أنواعا مختلفه باختلاف الأقطار،و لو اختلفت السعاده باختلاف الأزمنه بمعنی أن تكون الأعصار و القرون هی الأساس الوحيد للسنه الدينيه اختلفت نوعيه كل قرن و جيل مع من ورثوا من آبائهم أو أخلفوا من أبنائهم و لم يسر الاجتماع الانسانی سير التكامل و لم تكن الانسانيه متوجهه من النقص الی الكمال إذ لا يتحقق النقص و الكمال إلاّ مع أمر مشترک ثابت محفوظ بينهما.

و ليس المراد بهذا إنكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الأمكنه أو الأزمنه بعض التأثير فی انتظام السنه الدينيه فی الجمله بل إثبات أن الأساس للسنه الدينيه هو البنيه الانسانيه التی هی حقيقه واحده ثابته مشتركه بين الأفراد،فللانسانيه سنه واحده ثابته بثبات أساسها

الـذی هو الانسـان و هی التی تـدیر رحی الانسـانیه مع مـا یلحق بهـا من السـنن الجزئیه المختلفه باختلاـف الاـفراد أو الأـمکنه أو الأزمنه.

و هذا هو الذی یشیر الی قوله بعد: «ذٰلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ» و سنزید المقام إیضاحا فی بحث مستقل إن شاء اللّه تعالی (۱).

قوله تعالی: مُنِیبِینَ إِلَیْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِیمُوا الصَّلاٰهَ وَ لاٰ تَکُونُوا مِنَ الْمُشْـرِکِینَ تعمیم للخطاب بعـد تخصـیصه بالنبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم نظیر قوله: یٰا أَیُّهَـا النَّبِیُّ إِذٰا طَلَّقْتُمُ النِّسٰاءَ (الطلاق/۱)،و قوله: فَاسْـتَقِمْ کَمٰـا أُمِرْتَ وَ مَنْ تٰابَ مَعَکَ وَ لاٰ تَطْغَوْا (هود/ ۱۱۲)،فیئول المعنی الی نحو من قولنا:فأقم وجهک للدین حنیفا أنت و من معک منیبین الی اللّه،و الإنابه الرجوع بالتوبه.

و قوله: وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِیمُوا الصَّلاٰهَ التقوی بحسب دلاـله المقـام یشـمل امتثـال أوامره و الانتهـاء عن نواهیه تعـالی فاختصـاص إقامه الصلاه من بین سائر العبادات بالذکر للاعتناء بشأنها فهی عمود الدین.

و قوله: وَ لاٰ تَکُونُوا مِنَ الْمُشْـرِکِینَ القول فی اختصاصه من بین سائر المحرمات بالذکر نظیر القول فی الصلاه فالشرک باللّه أکبر الکبـائر الموبقه،و قـد قـال تعـالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْـرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِـکَ لِمَنْ یَشٰاءُ (النساء/۴۸)،الی غیر ذلـک من الآیات.

قوله تعـالی: مِنَ الَّذِینَ فَرَّقُوا دِینَهُمْ وَ کٰانُوا شِـیَعاً کُـلُّ حِزْبٍ بِمٰـا لَـدَیْهِمْ فَرِحُونَ «مِنَ» للتبیین و «مِنَ الَّذِینَ فَرَّقُوا دِینَهُمْ» الـخ؛بیان للمشـرکین و فیه تعریفهم بأخص صـفاتهم فی دینهم و هو تفرقهم فی دینهم و عودهم شـیعه شـیعه و حزبا حزبا یفرح و یسرّ کل شیعه و حزب بما عندهم من الدین و السبب فی ذلک ما ذکره قبیل هذا بقوله: بَلِ

۱- ۱) .الروم ۲۷-۳۹:بحث حول قوله تعالی: «فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِی فَطَرَ النّٰاسَ عَلَیْهٰا» ؛الفطره.

اِتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوٰاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللّٰهُ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ فبين أنهم بنوا دينهم على أساس الأهواء و أنه لا يهديهم و لا هادى غيره.

قوله تعالى: وَ إِذٰا مَسَّ النّٰاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذٰا أَذٰاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ التعبير بالمس للدلاله على القله و الخفه و تنكير ضر و رحمه أيضا لذلك و المعنى:إذا أصاب الناس شىء من الضر و لو قليلا كمرض ما و فقر ما و شده ما دعوا ربهم و هو اللّه سبحانه حال كونهم راجعين من غيره ثم إذا أذاقهم اللّه من عنده رحمه إذا فريق من هؤلاء الناس بربهم الذى كانوا يدعونه و يعترفون بربوبيته يشركون باتخاذ الأنداد و الشركاء.

أى إنهم كافرون للنعمه طبعا و إن اعترفوا بها عند الضرّ و قد أخذ لذلك فريقا منهم لأن منهم من ليس كذلك.

قوله تعالى: لِيَكْفُرُوا بِمٰا آتَيْنٰاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ تهديد لاولئك المشركين عند إذاقه الرحمه و اللام فى «لِيَكْفُرُوا» للأمر الغائب و قوله: «فَتَمَتَّعُوا» متفرع على سابقه و هو أمر آخر و الأمران جميعا للتهديد،و الالتفات من الأمر الغائب الى الأمر الحاضر لثوران الوجد و السخط من تفريطهم فى جنب اللّه و استهانتهم بأمره فقد بلغ منهم ذلك أن يتضرعوا عند الضر و يكفروا إذا كشف.

قوله تعالى: أَمْ أَنْزَلْنٰا عَلَيْهِمْ سُلْطٰاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمٰا كٰانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ «أَمْ» منقطعه و المراد بالإنزال الإعلام أو التعليم مجازا،و السلطان البرهان،و المراد بالتكلم الدلاله مجازا فالمعنى:بل أعلمناهم برهانا فهو يدل على ما كانوا به يشركون أو بشركهم.

و يمكن أن يراد بالسلطان ذو السلطان و هو الملك فلا مجاز فى الإنزال و التكلم و المعنى:بل أنزلنا عليهم ملكا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون أو بشركهم.

قوله تعالى: وَ إِذٰا أَذَقْنَا النّٰاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذٰا هُمْ يَقْنَطُونَ الإذاقه كالمس تدل على قليل النيل و يسيره،و القنوط اليأس.

و إذا الاولى شرطيه و الثانيه فجائيه،و المقابله بين «إِذٰا» فى إذاقه الرحمه و «إِنْ» فى إصابه السيئه لأن الرحمه كثيره قطعيه و السيئه قليله احتماليه،و نسبه الرحمه اليه تعالى دون السيئه لأن الرحمه وجوديه مفاضه منه تعالى و السيئه عدميه هى عدم الإفاضه و لذا عللها بقوله:

«بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» ،و فى تعليل السيئه بذلك و عدم التعليل فى جانب الرحمه بشىء إشاره الى أن الرحمه تفضل.

و التعبير فى الرحمه بقوله: «فَرِحُوا» و فى السيئه بقوله: «إِذٰا هُمْ يَقْنَطُونَ» للدلاله على حدوث القنوط و لم يكن بمترقب فإن الرحمه و السيئه بيد اللّه و الرحمه واسعه و لهذا عبر بالمضارع الدال على الحال لتمثيل حالهم.

و المراد بالآيه أن الناس لا يعدو نظرهم ظاهر ما يشاهدونه من النعمه و النقمه إذا وجدوا فرحوا بها من غير أن يتبصروا و يعقلوا أن الأمر بيد غيرهم و بمشيه من ربهم إذا لم يشأ لم يكن،و إذا فقدوا قنطوا كأن ليس ذلك بإذن من ربهم و إذا لم يشأ لم يأذن و فتح باب النعمه فهم ظاهريون سطحيون.

و بهذا يتضح أن لا تدافع بين هذه الآيه و بين قوله السابق: وَ إِذٰا مَسَّ النّٰاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ الآيه؛و ذلك أن مدلول هذه الآيه أن أفهامهم سطحيه إذا وجدوا فرحوا و إذا فقدوا قنطوا و مدلول تلك أنهم إذا وجدوا فرحوا و إذا فقدوا دعوا اللّه و هم قانطون من الشىء و أسبابه منيبين راجعين الى اللّه سبحانه فلا تدافع.

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بيان لخطئهم فى المبادره الى الفرح و القنوط عند إذاقه الرحمه و إصابه السيئه فإن الرزق فى سعته و ضيقه تابع لمشيه اللّه فعلى الانسان أن يعلم أن الرحمه التى

ذاقها و السیئه التی أصابته ممکنه الزوال بمشیه اللّه سبحانه و لا موجب للفرح بما لا یؤمن فقده و لا للقنوط مما یرجی زواله.

و أما أنه أمر ظاهر للانسان مقطوع به کأنه یراه فلأن الرزق الذی یناله الانسان أو یکتسبه متوقف الوجود علی ألوف و ألوف من الأسباب و الشرائط لیس الانسان الذی یراه لنفسه إلاّ أحد تلک الأسباب و لا السبب الذی یرکن الیه و یطیب به نفسا إلاّ بعض تلک الأسباب و عامه الأسباب منتهیه الیه سبحانه فهو الذی یعطی و یمنع و هو الذی یبسط و یقدر أی یوسّع و یضیّق،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: فَآتِ ذَا الْقُرْبیٰ حَقَّهُ وَ الْمِسْکِینَ وَ ابْنَ السَّبِیلِ الخ؛ذو القربی صاحب القرابه من الأرحام و المسکین أسوأ حالا من الفقیر و ابن السبیل المسافر ذو الحاجه، و إضافه الحق الی الضمیر تدل علی أن لذی القربی حقا ثابتا،و الخطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فظاهر الآیه بما تحتف به من القرائن أن المراد بها الخمس و التکلیف للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یتبعه غیره ممن کلف بالخمس،و القرابه علی أی حال قرابه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما فی آیه الخمس،هذا کله علی تقدیر کون الآیه مدنیه و أما علی تقدیر کونها مکیه کسائر آیات السوره فالمراد مطلق الإحسان للقرابه و المسکین و ابن السبیل.

و لعموم الآیه معنی عمم ذکره أثره الجمیل فقال: «ذٰلِکَ خَیْرٌ لِلَّذِینَ یُرِیدُونَ وَجْهَ اللّٰهِ وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» .

قوله تعالی: وَ مٰا آتَیْتُمْ مِنْ رِباً لِیَرْبُوَا فِی أَمْوٰالِ النّٰاسِ فَلاٰ یَرْبُوا عِنْدَ اللّٰهِ وَ مٰا آتَیْتُمْ مِنْ زَکٰاهٍ تُرِیدُونَ وَجْهَ اللّٰهِ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ الربا نماء المال، و قوله: «لِیَرْبُوَا» الخ؛یشیر الی وجه التسمیه،فالمراد أن المال الذی تؤتونه الناس لیزید فی أموالهم لا إراده لوجه اللّه-بقرینه ذکر إراده الوجه فی مقابله-فلیس یزید و ینمو عند اللّه أی لا تثابون علیه لعدم قصد الوجه.

ص:۳۲

و قوله: وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ زَكٰاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللّٰهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ المراد بالزكاه مطلق الصدقه أی إعطاء المال لوجه اللّه من غير تبذير،و المضعف ذو الضعف، و المعنی:و ما أعطيتم من المال صدقه تريدون وجه اللّه فاولئک هم الذين يضاعف لهم ما لهم أو ثوابهم.

فالمراد بالربا و الزكاه بقرينه المقابله و ما احتف بهما من الشواهد،الربا الحلال و هو العطيه من غير قربه،و الصدقه و هی إعطاء المال مع قصد القربه.هذا كله علی تقدير كون الآيه مكيه و أما علی تقدير كونها مدنيه فالمراد بالربا الربا المحرم و بالزكاه هی الزكاه المفروضه.

و هذه الآيه و التی قبلها أشبه بالمدنيات منهما بالمكيّات و لا اعتبار بما يدعی من الروايه أو الإجماع المنقول (۱)(۲).

[سوره الروم (۳۰): الآيات ۴۰ الی ۴۷]

اَللّٰهُ اَلَّذِی خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكٰائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (۴۰) ظَهَرَ اَلْفَسٰادُ فِی اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ بِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِی اَلنّٰاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ اَلَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۱) قُلْ سِيرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (۴۲) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ اَلْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِیَ يَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اَللّٰهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (۴۳) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (۴۴) لِيَجْزِیَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لاٰ يُحِبُّ اَلْكٰافِرِينَ (۴۵) وَ مِنْ آيٰاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ اَلرِّيٰاحَ مُبَشِّرٰاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِیَ اَلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۴۶) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلیٰ قَوْمِهِمْ فَجٰاؤُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَانْتَقَمْنٰا مِنَ اَلَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كٰانَ حَقًّا عَلَيْنٰا نَصْرُ اَلْمُؤْمِنِينَ (۴۷)

---

۱ - ۱) .الروم ۲۷-۳۹:بحث روائی فی:التوحيد؛الدين الفطری؛فطره اللّه التی فطر الناس عليها؛عله بكاء الاطفال؛ ذی القربی؛فدک؛حكمه بعض العبادات.

۲- ۲) .الروم ۲۷-۳۹:كلام فی معنی كون الدين فطريا فی فصول.

بیان:

قوله تعالی: اَللّٰهُ الَّذِی خَلَقَکُمْ ثُمَّ رَزَقَکُمْ ثُمَّ یُمِیتُکُمْ ثُمَّ یُحْیِیکُمْ هَلْ مِنْ شُرَکٰائِکُمْ مَنْ یَفْعَلُ مِنْ ذٰلِکُمْ مِنْ شَیْءٍ الخ؛اسم الجلاله مبتدأ و «الَّذِی خَلَقَکُمْ» خبره،و کذا قوله: «مَنْ یَفْعَلُ» الخ؛مبتدأ خبره «مِنْ شُرَکٰائِکُمْ» المقدم علیه و الاستفهام إنکاری و قد ذکر فی ترکیب الآیه احتمالات أخر.

و المعنی:أن اللّٰه سبحانه هو الذی اتصف بکذا و کذا وصفا من أوصاف الالوهیه و الربوبیه فهل من الآلهه الذین تدعون أنهم آلهه من یفعل شیئا من ذلکم یعنی من الخلق و الرزق و الإماته و الإحیاء و إذ لیس منهم من یفعل شیئا من ذلکم فاللّٰه سبحانه هو إلهکم و ربکم لا إله إلاّ هو.

قوله تعالی: ظَهَرَ الْفَسٰادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِی النّٰاسِ لِیُذِیقَهُمْ

ص :۳۴

بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ الآیه؛بظاهر لفظها عامه لا تختص بزمان دون زمان أو بمکان أو بواقعه خاصه،فالمراد بالبرّ و البحر معناهما المعروف و یستوعبان سطح الکره الأرضیه.

و المراد بالفساد الظاهر المصائب و البلایا الظاهره فیهما الشامله لمنطقه من مناطق الأرض من الزلازل و قطع الأمطار و السنین و الأمراض الساریه و الحروب و الغارات و ارتفاع الأمن و بالجمله کل ما یفسد النظام الصالح الجاری فی العالم الأرضی سواء کان مستندا الی اختیار بعض الناس أو غیر مستند الیه.فکل ذلک فساد ظاهر فی البر أو البحر مخل بطیب العیش الانسانی.

و قوله: بِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِی النّٰاسِ أی بسبب أعمالهم التی یعملونها من شرک أو معصیه و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُریٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَیْهِمْ بَرَکٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ الآیه(الأعراف۹۶/)؛و أیضا فی مباحث النبوه من الجزء الثانی من الکتاب أن بین أعمال الناس و الحوادث الکونیه رابطه مستقیمه یتأثر إحداهما من صلاح الاخری و فسادها.

و قوله: لِیُذِیقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا اللام للغایه،أی ظهر ما ظهر لأجل أن یذیقهم اللّه وبال بعض أعمالهم السیئه بل لیذیقهم نفس ما عملوا و قد ظهر فی صوره الوبال و إنما کان بعض ما عملوا لأن اللّه سبحانه برحمته یعفو عن بعض کما قال: وَ مٰا أَصٰابَکُمْ مِنْ مُصِیبَهٍ فَبِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ (الشوری۳۰/).

و الآیه ناظره الی الوبال الدنیوی و إذاقه بعضه لأکله من غیر نظر الی وبال الأعمال الاخروی فما قیل:إن المراد إذاقه الوبال الدنیوی و تأخیر الوبال الاخروی الی یوم القیامه لا دلیل علیه و لعله جعل تقدیر الکلام«لیذیقهم بعض جزاء ما عملوا»مع أن التقدیر«لیذیقهم جزاء بعض ما عملوا»،لأن الذی یحوجنا الی تقدیر المضاف-لو أحوجنا-هو أن الراجع

اليهم ثانيا فى صوره الفساد هو جزاء اعمالهم لا نفس أعمالهم فالذى أذيقوا هو جزاء بعض ما عملوا لا بعض جزاء ما عملوا.

و قوله: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى يذيقهم ما يذيقهم رجاء أن يرجعوا من شركهم و معاصيهم الى التوحيد و الطاعه.

قوله تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ أمر للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يأمرهم أن يسيروا فى الأرض فينظروا الى آثار الذين كانوا من قبل حيث خربت ديارهم و عفت آثارهم و بادوا عن آخرهم و انقطع دابرهم بأنواع من النوائب و البلايا كان أكثرهم مشركين فأذاقهم اللّه بعض ما عملوا ليعتبر به المعتبرون فيرجعوا الى التوحيد،فالآيه فى مقام الاستشهاد لمضمون الآيه السابقه.

قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ تفريع على ما تقدمه أى إذا كان الشرك و الكفر بالحق بهذه المثابه و له وبال سيلحق بالمتلبس به فأقم وجهك للدين القيّم.

و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّهِ متعلق بقوله: «فَأَقِمْ» و المردّ مصدر ميمى بمعنى الرد و هو بمعنى الراد و اليوم الذى لا مردّ له من اللّه يوم القيامه.

و قوله: يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ أصله يتصدعون،و التصدع فى الأصل تفرّق أجزاء الأوانى ثم استعمل فى مطلق التفرق كما قيل،و المراد به-كما قيل-تفرّقهم يومئذ الى الجنه و النار.

قوله تعالى: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ الظاهر أنه تفسير لقوله فى الآيه السابقه: «يَتَفَرَّقُونَ» و قوله: «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» أى وبال كفره بتقدير المضاف أو نفس كفره الذى سينقلب عليه نارا يخلد فيها و هذا أحد الفريقين.

و قوله: وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ مهد الفراش بسطه و إيطاؤه،

و هؤلاء الفريق الآخر الذين آمنوا و عملوا الصالحات،و قد جیء بالجزاء «فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ» جمعا نظرا الی المعنی،کما أنه جیء به مفردا فی الشرطیه السابقه «فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» نظرا الی اللفظ،و اکتفی فی الشرط بذکر العمل الصالح و لم یذکر الإیمان معه لأن العمل إنما یصلح بالإیمان علی أنه مذکور فی الآیه التالیه.

و المعنی:و الذین عملوا عملا صالحا-بعد الإیمان-فلأنفسهم یوطئون ما یعیشون به و یستقرّون علیه.

قوله تعالی: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لاٰ يُحِبُّ الْكٰافِرِينَ قال الراغب:الجزاء الغناء و الکفایه،قال اللّه تعالی: لاٰ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ،و قال: لاٰ يَجْزِي وٰالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لاٰ مَوْلُودٌ هُوَ جٰازٍ عَنْ وٰالِدِهِ شَيْئاً و الجزاء ما فیه الکفایه من المقابله إن خیرا فخیر و إن شرا فشرّ،یقال:جزیته کذا و بکذا.

انتهی.

و قوله: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ اللام للغایه و لا ینافی عدّ ما یؤتیهم جزاء-و فیه معنی المقابله-عدّه من فضله و فیه معنی عدم الاستحقاق و ذلک لأنهم بأعیانهم و ما یصدر عنهم من أعمالهم ملک طلق للّه سبحانه فلا یملکون لأنفسهم شیئا حتی یستحقوا به أجرا،و أین العبودیه من الملک و الاستحقاق فما یؤتونه من الجزاء فضل من غیر استحقاق.

لکنه سبحانه بفضله و رحمته اعتبر لهم ملکا لأعمالهم فی عین أنه یملکهم و یملک أعمالهم فجعل لهم بذلک حقا یستحقونه،و جعل ما ینالونه من الجنه و الزلفی أجرا مقابلا لأعمالهم و هذا الحق المجعول أیضا فضل آخر منه سبحانه.

و منشأ ذلک حبه تعالی لهم لأنهم لما أحبّوا ربهم أقاموا وجوههم للدین القیّم و اتّبعوا الرسول فیما دعا الیه فأحبّهم اللّه کما قال: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ

(آل عمران۳۱/).

و لـذا کانت الآیه تعد ما یؤتیهم اللّه من الثواب جزاء و فیه معنی المقابله و المبادله و تعدّ ذلک من فضـله نظرا الی أن نفس هذه المقابله و المبادله فضل منه سبحانه و منشأه حبه تعالی لهم کما یومئ الیه تذییل الآیه بقوله: «إِنَّهُ لا یُحِبُّ الْکافِرِینَ» .

قـوله تعـالی: وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ یُرْسِلَ الرِّیاحَ مُبَشِّراتٍ وَ لِیُذِیقَکُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِیَ الْفُلْکُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ ،المراد بکون الریاح مبشرات تبشیرها بالمطر حیث تهب قبیل نزوله.

و قوله: وَ لِیُذِیقَکُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ عطف علی موضع مبشرات لما فیه من معنی التعلیل و التقدیر یرسل الریاح لتبشرکم و لیذیقکم من رحمته و المراد بإذاقه الرحمه إصابه أنواع النعم المترتبه علی جریان الریاح کتلقیـح الأشـجار و دفع العفونات و تصـفیه الأجواء و غیر ذلک مما یشمله إطلاق الجمله.

و قوله: وَ لِتَجْرِیَ الْفُلْکُ بِأَمْرِهِ أی لجریان الریاح و هبوبها.و قوله: «وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» أی لتطلبوا من رزقه الذی هو من فضله.

و قوله: وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ غایه معنویه کما أن الغایات المـذکوره من قبل غایات صوریه،و الشـکر هو اسـتعمال النعمه بنحو ینبئ عن إنعـام منعمه أو الثناء اللفظی علیه بـذکر إنعامه،و ینطبق بالأخره علی عبادته و لـذلک جیء بلعلّ المفیـده للرجاء فإن الغایات المعنویه الاعتباریه ربما تخلفت.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ رُسُلاً إِلیٰ قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَیِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِینَ أَجْرَمُوا وَ کانَ حَقًّا عَلَیْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ قـال الراغب:أصـل الجرم-بالفتـح فالسـکون-قطع الثمره عن الشـجر-الی أن قـال-و أجرم صار ذا جرم نحو أثمر و أتمر و ألبن و استعیر ذلک لکل اکتساب مکروه،و لا یکاد یقال فی عامه کلامهم للکیس

المحمود انتهى.

و الآيه كالمعترضه و كأنها مسوقه لبيان أن للمؤمنين حقا على ربهم و هو نصرهم فى الدنيا و الآخره و منه الانتقام من المجرمين،و هذا الحق مجعول من قبله تعالى لهم على نفسه فلا يرد عليه محذور لزوم كونه تعالى مغلوبا فى نفسه مقهورا محكوما لغيره.

و قوله: فَانْتَقَمْنٰا مِنَ اَلَّذِينَ أَجْرَمُوا الفاء فصيحه أى فآمن بعضهم و أجرم آخرون فانتقمنا من المجرمين و كان حقا علينا نصر المؤمنين بإنجائهم من العذاب و إهلاك مخالفيهم،و فى الآيه بعض الاشعار بأن الانتقام من المجرمين لأجل المؤمنين فإنه من النصر.

[سوره الروم (٣٠): الآيات ۴٨ الى ۵٣]

اَللّٰهُ اَلَّذِى يُرْسِلُ اَلرِّيٰاحَ فَتُثِيرُ سَحٰاباً فَيَبْسُطُهُ فِي اَلسَّمٰاءِ كَيْفَ يَشٰاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى اَلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاٰلِهِ فَإِذٰا أَصٰابَ بِهِ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ إِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۴٨) وَ إِنْ كٰانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (۴٩) فَانْظُرْ إِلىٰ آثٰارِ رَحْمَتِ اَللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِ اَلْمَوْتىٰ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۵٠) وَ لَئِنْ أَرْسَلْنٰا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (۵١) فَإِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ اَلْمَوْتىٰ وَ لاٰ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ اَلدُّعٰاءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (۵٢) وَ مٰا أَنْتَ بِهٰادِ اَلْعُمْيِ عَنْ ضَلاٰلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاّٰ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۵٣)

بيان:

قوله تعالى: اَللّٰهُ الَّذِی یُرْسِلُ الرِّیٰاحَ فَتُثِیرُ سَحٰاباً فَیَبْسُطُهُ فِی السَّمٰاءِ کَیْفَ یَشٰاءُ الی آخر الآیه؛الإثاره التحریک و النشر و السحاب الغمام و السماء جهه العلو فکل ما علاک و أظلّک فهو سماء و الکسف بالکسر فالفتح جمع کسفه و هی القطعه و الودق القطر من المطر و الخلال جمع خله و هی الفرجه.

و المعنی:اللّه الذی یرسل الریاح فتحرک و تنشر سحابا و یبسط ذلک السحاب فی جهه العلو من الجو کیف یشاء سبحانه و یجعله قطعات متراکبه متراکمه فتری قطر المطر یخرج من فرجه فإذا أصاب بذلک المطر من یشاء من عباده إذا هم یستبشرون لأنه ماده حیاتهم و حیاه الحیوان و النبات.

قوله تعالی: وَ إِنْ کٰانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ یُنَزَّلَ عَلَیْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِینَ الإبلاس:الیأس و القنوط.

و ضمیر «یُنَزَّلَ» للمطر و کذا ضمیر «مِنْ قَبْلِهِ» علی ما قیل،و علیه یکون «مِنْ قَبْلِهِ» تأکیدا لقوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ یُنَزَّلَ عَلَیْهِمْ» و فائده التأکید-علی ما قیل-الإعلام بسرعه تقلّب قلوب البشر من الیأس الی الاستبشار،و ذلک أن قوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ یُنَزَّلَ عَلَیْهِمْ» یحتمل الفسحه فی الزمان فجاء «مِنْ قَبْلِهِ» للدلاله علی الاتصال و دفع ذلک الاحتمال.

قوله تعالی: فَانْظُرْ إِلیٰ آثٰارِ رَحْمَتِ اللّٰهِ کَیْفَ یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا إِنَّ ذٰلِکَ لَمُحْیِ الْمَوْتیٰ وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ الآثار جمع الأثر و هو ما یبقی بعد الشیء فیدلّ علیه کأثر القدم و أثر البناء و استعیر لکل ما یتفرع علی شیء،و المراد برحمه اللّه المطر النازل من السحاب الذی بسطته الریاح،و آثارها ما یترتب علی نزول المطر من النبات و الأشجار و الأثمار و هی بعینها آثار حیاه الأرض بعد موتها.

و لـذا قال: «فَانْظُرْ إِلىٰ آثٰارِ رَحْمَتِ اللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا» فجعل آثار الرحمه التی هی المطر كيفيه إحياء الأرض بعد موتهـا،فحيـاه الأرض بعـد موتهـا من آثـار الرحمه و النبـات و الأشـجار و الأثمـار من آثار حياتها و هی أيضا من آثار الرحمه و التدبير تدبير إلهی يتفرع على خلقه الرياح و السحاب و المطر.

و قوله: إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتىٰ الإشاره بذلك اليه تعالى بما له من الرحمه التی من آثارها إحياء الأرض بعد موتها،و فی الإشاره البعيده تعظيم،و المراد بالموتى موتى الإنسان أو الإنسان و غيره من ذوی الحياه.

و المراد بقوله: «إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتىٰ» الـدلاله على المماثله بين إحياء الأرض الميته و إحياء الموتى إذ فی كل منهما موت هو سقوط آثار الحياه من شـیء محفوظ و حياه هی تجـدد تلك الآثار بعـد سـقوطها،و قد تحقق الإحياء فی الأرض و النبات و حياه الإنسان و غيره من ذوی الحياه مثلها و حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحـد،فإذا جاز الإحياء فی بعض هذه الأمثال و هو الأرض و النبات فليجز فی البعض الآخر.

و قوله: وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تقرير للإحيـاء المـذكور ببيان آخر و هو عموم القـدره فإن القـدره غير محـدوده و لا متناهيه فيشمل الإحياء بعد الموت و إلاّ لزم تقيّدها و قد فرضت مطلقه غير محدوده.

قوله تعـالى: وَ لَئِنْ أَرْسَلْنٰا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ضـمير «فَرَأَوْهُ» للنبـات المفهوم من السـياق،و قوله: «لَظَلُّوا» جواب للقسم قائم مقام الجزاء، و المعنى:و أقسم لئن أرسـلنا ريحا بارده فضـربت زروعهم و أشجارهم بالصفار و رأوه لظلوا بعده كافرين بنعمه.

ففی الآيه توبيخهم بالتقلب السريع فی النعمه و النقمه،فإذا لاحت لهم النعمه بادروا الى الاستبشار،و إذا أخذ بعض ما أنعم اللّٰه به من فضله لم يلبثوا دون أن يكفروا بالمسلّمات من

النعم.

قوله تعالى: فَإِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ الْمَوْتىٰ -الى قوله- مُسْلِمُونَ تعليل لما يفهم من السياق السابق كأنه قيل:لا تشتغل و لا تحزن بهؤلاء الـذين تتبـدل بهم الأحوال من إبلاس و استبشار و كفر و من عدم الإيمان بآياتنا و عدم تعقّلها فإنهم موتى و صمّ و عمى و أنت لا تقدر على إسماعهم و هدايتهم و إنما تسمع و تهدى من يؤمن بآياتنا أى يعقل هذه الحجج و يصدّقها فهم مسلمون.و قد تقدم تفسير الآيتين فى سوره النمل.

[سوره الروم (٣٠): الآيات ۵۴ الى ۶٠]

اَللّٰهُ اَلَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَ هُوَ اَلْعَلِيمُ اَلْقَدِيرُ (۵۴) وَ يَوْمَ تَقُومُ اَلسّٰاعَةُ يُقْسِمُ اَلْمُجْرِمُونَ مٰا لَبِثُوا غَيْرَ سٰاعَةٍ كَذٰلِكَ كٰانُوا يُؤْفَكُونَ (۵۵) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ وَ اَلْإِيمٰانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتٰابِ اَللّٰهِ إِلىٰ يَوْمِ اَلْبَعْثِ فَهٰذٰا يَوْمُ اَلْبَعْثِ وَ لٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (۵۶) فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يَنْفَعُ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۵۷) وَ لَقَدْ ضَرَبْنٰا لِلنّٰاسِ فِى هٰذَا اَلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُبْطِلُونَ (۵۸) كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اَللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِ اَلَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ (۵۹) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ وَ لاٰ يَسْتَخِفَّنَّكَ اَلَّذِينَ لاٰ يُوقِنُونَ (۶٠)

بيان:

قوله تعالى: اَللّٰهُ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَیْبَةً الخ؛الضعف و القوه متقابلان،و «مِنْ» فی قوله:من ضعف للابتداء أی ابتداء خلقکم من ضعف أی ابتدأکم ضعفاء،و مصداقه علی ما تفیده المقابله أول الطفولیه و إن أمکن صدقه علی النطفه.

و المراد بالقوه بعد الضعف بلوغ الأشدّ و بالضعف بعد القوه الشیخوخه و لذا عطف علیه «شَیْبَةً» عطف تفسیر،و تنکیر «ضَعْفٍ» و «قُوَّةً» للدلاله علی الإبهام و عدم تعین المقدار لاختلاف الأفراد فی ذلک.

و قوله: یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ أی کما شاء الضعف فخلقه ثم القوه بعده فخلقها ثم الضعف بعدها فخلقه و فی ذلک أتمّ الإشاره الی أن تتالی هذه الأحوال من الخلق و إذ کان هذا النقل من حال الی حال فی عین أنه تدبیر خلقا فهو للّه الخالق للأشیاء فلیس لقائل منهم أن یقول:إن ذلک من التدبیر الراجع الی إله الإنسان،مثلا کما یقوله الوثنیه.

ثم تمم الکلام بالعلم و القدره فقال: «وَ هُوَ الْعَلِیمُ الْقَدِیرُ» .

قوله تعالی: وَ یَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ یُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مٰا لَبِثُوا غَیْرَ سٰاعَةٍ کَذٰلِکَ کٰانُوا یُؤْفَکُونَ ،هذه الآیات کالذنابه للآیات السابقه العاده للآیات و الحجج علی وحدانیته تعالی و البعث،و کالتمهید و التوطئه للآیه التی تختتم بها السوره فإنه لما عدّ شیئا من الآیات و الحجج و أشار الی أنهم لیسوا ممن یترقب منهم الإیمان أو یطمع فی إیمانهم أراد أن یبین أنهم فی جهل من الحق یتلقون الحدیث الحق باطلا و الآیات الصریحه الدلاله منعزله عن دلالتها و کذلک یؤفکون و لا عذر لهم یعتذرون به.

و هذا الإفک و التقلب من الحق الی الباطل یدوم علیهم و یلازمهم حتی قیام الساعه

فیظنون أنهم لم یلبثوا فی قبورهم فیما بین الموت و البعث غیر ساعه من نهار فاشتبه علیهم أمر البعث کما اشتبه علیهم کل حق فظنوه باطلا.

فقوله: وَ یَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَهُ یُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مٰا لَبِثُوا غَیْرَ سٰاعَهٍ ،یحکی عنهم اشتباه الأمر علیهم فی أمر الفصل بین الدنیا و یوم البعث حتی ظنّوه ساعه من ساعات الدنیا.

و قوله: کَذٰلِکَ کٰانُوا یُؤْفَکُونَ أی یصرفون من الحق الی الباطل فیدعون الی الحق و یقام علیه الحجج و الآیات فیظنونه باطلا من القول و خرافه من الرأی.

قوله تعالی: وَ قٰالَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِیمٰانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِی کِتٰابِ اللّٰهِ إِلیٰ یَوْمِ الْبَعْثِ فَهٰذٰا یَوْمُ الْبَعْثِ الخ؛ردّ منهم لقوم المجرمین «مٰا لَبِثُوا غَیْرَ سٰاعَهٍ» فإن المجرمین لإخلادهم الی الأرض و توغلهم فی نشأه الدنیا یرون یوم البعث و الفصل بینه و بین الدنیا محکوما بنظام الدنیا فقدروا الفصل بساعه و هو مقدار قلیل من الزمان کأنهم ظنوا أنهم بعد فی الدنیا لأنه مبلغ علمهم.

فرد علیهم أهل العلم و الإیمان أن اللبث مقدر بالفصل بین الدنیا و یوم البعث و هو الفصل الذی یشیر الیه قوله: وَ مِنْ وَرٰائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ (المؤمنون/۱۰۰).

فاستنتجوا منه أن الیوم یوم البعث و لکن المجرمین لما کانوا فی ریب من البعث و لم یکن لهم یقین بغیر الدنیا ظنوا أنهم لم یمر بهم إلاّ ساعه من ساعات الدنیا و هذا معنی قولهم: «لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِی کِتٰابِ اللّٰهِ إِلیٰ یَوْمِ الْبَعْثِ فَهٰذٰا یَوْمُ الْبَعْثِ وَ لٰکِنَّکُمْ کُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ» ،أی کنتم جاهلین مرتابین لا یقین لکم بهذا الیوم و لذلک اشتبه علیکم أمر اللبث.

و من هنا یظهر أن المراد بقوله: «أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِیمٰانَ» ،الیقین و الالتزام بمقتضاه و أن العلم بمعنی الیقین باللّه و بآیاته و الإیمان بمعنی الالتزام بمقتضی الیقین من الموهبه الإلهیه،و من هنا

یظهر أیضا أن المراد بکتاب اللّه الکتب (۱)السماویه أو خصوص القرآن لا غیره و قول بعضهم:

إن فی الآیه تقدیما و تأخیرا و التقدیر و قال الذین أوتوا العلم و الإیمان فی کتاب اللّه لقد لبثتم الی یوم البعث لا یعتد به.

قوله تعالی: فَیَوْمَئِذٍ لاٰ یَنْفَعُ الَّذِینَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لاٰ هُمْ یُسْتَعْتَبُونَ الاستعتاب طلب العتبی،و العتبی إزاله العتاب أی لا ینفعهم المعذره عن ظلمهم و لا یطلب منهم أن یزیلوا العتاب عن أنفسهم.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ ضَرَبْنٰا لِلنّٰاسِ فِی هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ الخ؛إشاره الی کونهم مأفوکین مصروفین عن الحق حیث لا ینفعهم مثل یقرب الحق من قلوبهم لأنها مطبوع علیها،و لذا عقبه بقوله: «وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآیَهٍ لَیَقُولَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُبْطِلُونَ» أی جاءون بالباطل و هذا القول منهم لأنهم مصروفون عن الحق یرون کل حق باطلا،و وضع الموصول و الصله موضع الضمیر للدلاله علی سبب القول.

قوله تعالی: کَذٰلِکَ یَطْبَعُ اللّٰهُ عَلیٰ قُلُوبِ الَّذِینَ لاٰ یَعْلَمُونَ أی یجهلون باللّه و آیاته و منها البعث و هم یصرون علی جهلهم و ارتیابهم.

قوله تعالی: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ لاٰ یَسْتَخِفَّنَّکَ الَّذِینَ لاٰ یُوقِنُونَ ، أی فاصبر علی ما یواجهونک به من قولهم: «إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُبْطِلُونَ» و سائر تهکماتهم،إن وعد اللّه أنه ینصرک حق کما أومأ الیه بقوله: «وَ کٰانَ حَقًّا عَلَیْنٰا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ» ،و لا یستخفنک الذین لا یوقنون بوعد اللّه سبحانه.

ص :۴۵

۱- ۱) .و یمکن أن یکون المراد بکتاب اللّه اللوح المحفوظ فیکون ذلک استدلالا علی قولهم بکتاب اللّه و یکون نظیر ما فی قوله: «هٰذٰا کِتٰابُنٰا یَنْطِقُ عَلَیْکُمْ بِالْحَقِّ» (الجاثیه/۲۹)بناء علی ما سیأتی من معناه«منه».

سوره لقمان مکیه و هی أربع و ثلاثون آیه

اشاره

[سوره لقمان (۳۱): الآیات ۱ الی ۱۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;الم (۱) تِلْکَ آیٰاتُ اَلْکِتٰابِ اَلْحَکِیمِ (۲) هُدیً وَ رَحْمَهً لِلْمُحْسِنِینَ (۳) اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ اَلصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ اَلزَّکٰاهَ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ یُوقِنُونَ (۴) أُولٰئِکَ عَلیٰ هُدیً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۵) وَ مِنَ اَلنّٰاسِ مَنْ یَشْتَرِی لَهْوَ اَلْحَدِیثِ لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ یَتَّخِذَهٰا هُزُواً أُولٰئِکَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِینٌ (۶) وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِ آیٰاتُنٰا وَلّٰی مُسْتَکْبِراً کَأَنْ لَمْ یَسْمَعْهٰا کَأَنَّ فِی أُذُنَیْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذٰابٍ أَلِیمٍ (۷) إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ جَنّٰاتُ اَلنَّعِیمِ (۸) خٰالِدِینَ فِیهٰا وَعْدَ اَللّٰهِ حَقًّا وَ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۹) خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ بِغَیْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا وَ أَلْقیٰ فِی اَلْأَرْضِ رَوٰاسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ وَ بَثَّ فِیهٰا مِنْ کُلِّ دٰابَّهٍ وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَنْبَتْنٰا فِیهٰا مِنْ کُلِّ زَوْجٍ کَرِیمٍ (۱۰) هٰذٰا خَلْقُ اَللّٰهِ فَأَرُونِی مٰا ذٰا خَلَقَ اَلَّذِینَ مِنْ دُونِهِ بَلِ اَلظّٰالِمُونَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ (۱۱)

بیان:

غرض السوره کما یومی الیه فاتحتها و خاتمتها و یشیر الیه سیاق عامه آیاتها الدعوه الی التوحید و الإیقان بالمعاد و الأخذ بکلیات شرائع الدین.

و یلوح من صدر السوره أنها نزلت فی بعض المشرکین حیث کان یصدّ الناس عن استماع القرآن بنشر بعض أحادیث مزوّقه ملهیه کما ورد فیه الأثر فی سبب نزول قوله: «وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِیثِ لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ» الآیه؛و سیوافی حدیثه.فنزلت السوره تبیّن أصول عقائد الدین و کلیات شرائعه الحقه و قصّت شیئا من خبر لقمان الحکیم و مواعظه تجاه أحادیثهم الملهیه.

و السوره مکیه بشهاده سیاق آیاتها.و من غرر الآیات فیها قوله تعالی: «ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مٰا یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبٰاطِلُ» الآیه.

قوله تعالی: تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ الْحَکِیمِ هُدیً وَ رَحْمَهً لِلْمُحْسِنِینَ -الی قوله- یُوقِنُونَ تقدم تفسیر مفردات هذه الآیات فی السور السابقه.

و قد وصف الکتاب بالحکیم إشعارا بأنه لیس من لهو الحدیث من شیء بل کتاب لا انثلام

فيه ليداخله لهو الحديث و باطل القول،و وصفه أيضا بأنه هدى و رحمه للمحسنين تتميما لصفه حكمته فهو يهدى الى الواقع الحق و يوصل اليه لا كاللهو الشاغل للانسان عما يهمه،و هو رحمه لا نقمه صارفه عن النعمه.

و وصف المحسنين بإقامه الصلاه و إيتاء الزكاه اللتين هما العمدتان فى الأعمال و بالإيقان بالآخره و يستلزم التوحيد و الرساله و عامه التقوى،كل ذلك مقابله الكتاب للهو الحديث المصغى اليه لمن يستمع لهو الحديث.

قوله تعالى: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَهٰا هُزُواً الخ؛اللهو ما يشغلك عما يهمّك،و لهو الحديث:الحديث الذى يلهى عن الحق بنفسه كالحكايات الخرافيه و القصص الداعيه الى الفساد و الفجور،أو بما يقارنه كالتغنى بالشعر أو بالملاهى و المزامير و المعازف فكل ذلك يشمله لهو الحديد.

و قوله: لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ مقتضى السياق أن يكون المراد بسبيل اللّه القرآن الكريم بما فيه من المعارف الحقه الاعتقاديه و العلميه و خاصه قصص الأنبياء و أممهم الخاليه فإن لهو الحديث و الأساطير المزوّقه المختلقه تعارض أولا هذه القصص ثم تهدم بنيان سائر المعارف الحقه و توهنها فى أنظار الناس.

و يؤيد ذلك قوله بعد: «وَ يَتَّخِذَهٰا هُزُواً» فإن لهو الحديث بما أنه حديث كما سمعت يعارض أولا الحديث و يتخذه سخريا.

فالمراد بسبيل اللّه القرآن بما فيه من القصص و المعارف و كأن مراد من كان يشترى لهو الحديث أن يضلّ الناس بصرفهم عن القرآن و أن يتخذ القرآن هزوا بأنه حديث مثله و أساطير كأساطيره.

و قوله: بِغَيْرِ عِلْمٍ متعلق بيضلّ و هو فى الحقيقه وصف ضلال الضالين دون إضلال المضلين و إن كانوا أيضا لا علم لهم ثم هددهم بقوله: «أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ» أى مذل

یوهنهم و یذلهم حذاء استکبارهم فی الدنیا.

قوله تعالی: وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِ آیٰاتُنٰا وَلّٰی مُسْتَکْبِراً کَأَنْ لَمْ یَسْمَعْهٰا کَأَنَّ فِی أُذُنَیْهِ وَقْراً الخ؛وصف لذاک الذی یشتری لهو الحدیث لیضل الناس عن القرآن و یهزأ به و الوقر الحمل الثقیل و المراد بکون الوقر علی أذنیه أن یشدّ علیهما ما یمنع من السمع و قیل:هو کنایه عن الصمم.

و المعنی:و إذا تتلی علی هذا المشتری لهو الحدیث آیاتنا أی القرآن ولی و أعرض عنها و هو مستکبر کأن لم یسمعها قط کأنه أصم فبشره بعذاب ألیم.

و قد اعید الی من یشتری ضمیر الأفراد أولا کما فی «یَشْتَرِی» و «لِیُضِلَّ» و «یَتَّخِذَهٰا» باعتبار اللفظ و ضمیر الجمع،ثانیا باعتبار المعنی ثم ضمیر الإفراد باعتبار اللفظ کما فی «عَلَیْهِ» و غیره کذا قیل،و من الممکن أن یکون ضمیر «لَهُمْ» فی الآیه السابقه راجعا الی مجموع المضل و الضالین المدلول علیهم بالسیاق فتکون الضمائر الراجعه الی «مِنَ» مفرده جمیعا.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ جَنّٰاتُ النَّعِیمِ -الی قوله- اَلْعَزِیزُ الْحَکِیمُ رجوع بعد إنذار ذاک المشتری و تهدیده بالعذاب المهین ثم العذاب الألیم الی تبشیر المحسنین و تطییب أنفسهم بجنه النعیم الخالده الموعوده من قبله تعالی و وعده الحق.

و لما کان غرض من اشتری لهو الحدیث أن یلتبس الأمر علی من یضله بغیر علم فیحسب القرآن من الأساطیر الباطله کأساطیره و یهین به و کان لا یعتنی بما تتلی علیه من الآیات مستکبرا و ذلک استهانه باللّه سبحانه أکد أولا ما وعده للمحسنین بقوله: «وَعْدَ اللّٰهِ حَقًّا» ثم وصف ثانیا نفسه بالعزه المطلقه،فلا یطرأ علیه ذله و إهانه و الحکمه المطلقه فلا یداخل کلامه باطل و لا هزل و خرافه.

ص :۴۹

ثم وصفه ثالثا بأنه الذى يدبر أمر السماء و الأرض و النبات و الحيوان و الإنسان لأنه خالقها فله أن يعد هؤلاء بالجنه اولئك بالعذاب و هو قوله: «خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا» الخ.

قوله تعالى: خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا الخ؛تقدم فى تفسير قوله تعالى:

اَللّٰهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰاوٰاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا (الرعد/٢)،أن قوله: «تَرَوْنَهٰا» يحتمل أن يكون قيدا توضيحيا،و المعنى أنكم ترونها و لا أعمده لها،و أن يكون قيدا احترازيا و المعنى خلقها بغير أعمده مرئيه إشعارا بأن هناك أعمده غير مرئيه.

و قوله: وَ أَلْقىٰ فِى الْأَرْضِ رَوٰاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ،أى ألقى فيها جبالا شامخه لئلا تضطرب بكم و فيه إشعار بأن بين الجبال و الزلازل رابطه مستقيمه.

و قوله: وَ بَثَّ فِيهٰا مِنْ كُلِّ دٰابَّهٍ أى نشر فى الأرض من كل حيوان يدب عليها.

و قوله: وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ أى و أنزلنا من جهه العلو ماء و هو المطر و أنبتنا فيها شيئا من كل زوج نباتى شريف فيه منافع و له فوائد،و فيه إشاره الى تزوّج النبات و قد تقدم الكلام فيه فى نظيره.

و الالتفات فيها من الغيبه الى التكلم مع الغير للإشاره الى كمال العنايه بأمره كما قيل.

قوله تعالى: هٰذٰا خَلْقُ اللّٰهِ فَأَرُونِى مٰا ذٰا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظّٰالِمُونَ فِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ ،لما أراهم خلقه و تدبيره تعالى للسماوات و الأرض و ما عليها فأثبت به ربوبيته و الوهيته تعالى كلفهم أن يروه شيئا من خلق آلهتهم إن كانوا آلهه و أربابا فإن لم يقدروا على إراءه شىء ثبت بذلك وحدانيته تعالى فى الوهيته و ربوبيته.

و إنما كلفهم بإراءه شىء من خلق آلهتهم-و هم يعترفون أن الخلق للّه وحده و لا يسندون الى آلهتهم خلقا و إنما ينسبون اليهم التدبير فقط،لأنه نسب الى اللّه خلقا هو بعينه تدبير من غير انفكاك،فلو كان لآلهتهم تدبير فى العالم كان لهم خلق ما يدبرون أمره و إذ ليس لهم خلق

فلیس لهم تدبیر فلا إله إلاّ اللّه و لا رب غیره.

و قد سیقت الآیه خطابا من النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأن نوع هذا الخطاب «فَأَرُونِی مٰا ذٰا خَلَقَ الَّذِینَ مِنْ دُونِهِ» لا یستقیم من غیره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (۱).

[سوره لقمان (۳۱): الآیات ۱۲ الی ۱۹]

وَ لَقَدْ آتَیْنٰا لُقْمٰانَ اَلْحِکْمَهَ أَنِ اُشْکُرْ لِلّٰهِ وَ مَنْ یَشْکُرْ فَإِنَّمٰا یَشْکُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اَللّٰهَ غَنِیٌّ حَمِیدٌ (۱۲) وَ إِذْ قٰالَ لُقْمٰانُ لاِبْنِهِ وَ هُوَ یَعِظُهُ یٰا بُنَیَّ لاٰ تُشْرِکْ بِاللّٰهِ إِنَّ اَلشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِیمٌ (۱۳) وَ وَصَّیْنَا اَلْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَیْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلیٰ وَهْنٍ وَ فِصٰالُهُ فِی عٰامَیْنِ أَنِ اُشْکُرْ لِی وَ لِوٰالِدَیْکَ إِلَیَّ اَلْمَصِیرُ (۱۴) وَ إِنْ جٰاهَدٰاکَ عَلیٰ أَنْ تُشْرِکَ بِی مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا وَ صٰاحِبْهُمٰا فِی اَلدُّنْیٰا مَعْرُوفاً وَ اِتَّبِعْ سَبِیلَ مَنْ أَنٰابَ إِلَیَّ ثُمَّ إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۵) یٰا بُنَیَّ إِنَّهٰا إِنْ تَکُ مِثْقٰالَ حَبَّهٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَکُنْ فِی صَخْرَهٍ أَوْ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ أَوْ فِی اَلْأَرْضِ یَأْتِ بِهَا اَللّٰهُ إِنَّ اَللّٰهَ لَطِیفٌ خَبِیرٌ (۱۶) یٰا بُنَیَّ أَقِمِ اَلصَّلاٰهَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ اِنْهَ عَنِ اَلْمُنْکَرِ وَ اِصْبِرْ عَلیٰ مٰا أَصٰابَکَ إِنَّ ذٰلِکَ مِنْ عَزْمِ اَلْأُمُورِ (۱۷) وَ لاٰ تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنّٰاسِ وَ لاٰ تَمْشِ فِی اَلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ کُلَّ مُخْتٰالٍ فَخُورٍ (۱۸) وَ اِقْصِدْ فِی مَشْیِکَ وَ اُغْضُضْ مِنْ صَوْتِکَ إِنَّ أَنْکَرَ اَلْأَصْوٰاتِ لَصَوْتُ اَلْحَمِیرِ (۱۹)

۱- ۱) .لقمان ۱-۱۱:بحث روائی فی قوله تعالی: «وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ یَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِیثِ» .

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلّٰهِ الخ؛الحکمه علی ما یستفاد من موارد استعمالها هی المعرفه العلمیه النافعه و هی وسط الاعتدال بین الجهل و الجزیره.و قوله: «أَنِ اشْكُرْ لِی» قیل:هو بتقدیر القول أی و قلنا:أن اشکر لی.

و الظاهر أنه تفسیر إیتائه الحکمه من غیر تقدیر القول،و ذلک أن حقیقه الشکر هی وضع النعم فی موضعها الذی ینبغی له بحیث یشیر الی إنعام المنعم،و إیقاعه کما هو حقه یتوقف علی معرفه المنعم و معرفه نعمه بما هی نعمه و کیفیه وضعها موضعه بحیث یحکی عن إنعامه فإیتاؤه الحکمه بعث له الی الشکر فإیتاء الحکمه أمر بالشکر بالملازمه.

و فی قوله: أَنِ اشْكُرْ لِلّٰهِ التفات من التکلم مع الغیر الی الغیبه و ذلک أن التکلم مع الغیر من المتکلم إظهار للعظمه بالتکلم عن قبل نفسه و خدمه و قول أن اشکر لنا علی هذا لا یناسب التوحید فی الشکر و هو ظاهر.

و قوله: «وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمٰا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» استغناء منه تعالی أن نفع الشکر إنما یرجع الی نفس الشاکر و الکفر لا یتضرر به إلاّ نفسه دونه سبحانه و من یشکر فإنما یوقع الشکر لنفع نفسه و لا ینتفع به اللّه سبحانه لغناه المطلق و من کفر فإنما یتضرر به نفسه إن اللّه غنی لا یؤثر فیه الشکر نفعا و لا ضرّا حمید محمود علی ما أنعم سواء شکر أو کفر.

و فی التعبیر عن الشکر بالمضارع الدالّ علی الاستمرار و فی الکفر بالماضی الدال علی المرّه إشعار بأن الشکر إنما ینفع مع الاستمرار لکن الکفر یتضرر بالمرّه منه.

قوله تعالی: وَ إِذْ قٰالَ لُقْمٰانُ لاِبْنِهِ وَ هُوَ یَعِظُهُ یٰا بُنَیَّ لاٰ تُشْرِکْ بِاللّٰهِ إِنَّ الشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِیمٌ عظمه کل عمل بعظمه أثره و عظمه المعصیه بعظمه المعصی فإن مؤاخذه العظیم عظیمه فأعظم المعاصی معصیه اللّه لعظمته و کبریائه فوق کل عظمه و کبریاء بأنه اللّه لا شریک له و أعظم معاصیه معصیته فی أنه اللّه لا شریک له.

و قوله: إِنَّ الشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِیمٌ حیث أطلق عظمته من غیر تقیید بقیاسه الی سائر المعاصی یدل علی أن له من العظمه ما لا یقدّر بقدر.

قوله تعالی: وَ وَصَّیْنَا الْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَیْهِ الی آخر الآیه؛اعتراض واقع بین الکلام المنقول عن لقمان و لیس من کلام لقمان و إنّما اطّرد هاهنا للدلاله علی وجوب شکر الوالدین کوجوب الشکر للّه بل هو من شکره تعالی لانتهائه الی وصیته و أمره تعالی،فشکرهما عباده له تعالی و عبادته شکر.

و قوله: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلیٰ وَهْنٍ وَ فِصٰالُهُ فِی عٰامَیْنِ ذکر بعض ما تحملته أمه من المحنه و الأذی فی حمله و تربیته لیکون داعیا له الی شکرهما و خاصه الام.

و الوهن الضعف و هو حال بمعنی ذات وهن أو مفعول مطلق و التقدیر تهن وهنا علی وهن، و الفصال الفطم و ترک الإرضاع،و معنی کون الفصال فی عامین تحققه بتحقق العامین فیئول الی کون الإرضاع عامین،و إذا ضمّ الی قوله تعالی: وَ حَمْلُهُ وَ فِصٰالُهُ ثَلاٰثُونَ شَهْراً (الأحقاف/ ۴۶)،بقی لأقلّ الحمل سته أشهر،و ستکرر الإشاره الیه فیما سیأتی (۱).

و قوله: أَنِ اشْکُرْ لِی وَ لِوٰالِدَیْکَ إِلَیَّ الْمَصِیرُ تفسیر لقوله: «وَصَّیْنَا» الخ؛فی

۱- ۱) .فی بحث روائی فی ذیل آیه الأحقاف.

أول الآيه أی كانت وصيتنا هو أمرنا بشكرهما كما أمرناه بشكر اللّه،و قوله: «إِلَيَّ الْمَصِيرُ» إنذار و تأكيد للأمر بالشكر.

و القول فی الالتفات الواقع فی الآيه فی قوله: «أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوٰالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ» الخ؛من سياق التكلم مع الغير الی سياق التكلم وحده كالقول فی الالتفات فی قوله السابق: «أَنِ اشْكُرْ لِلّٰهِ» .

قوله تعالی: وَ إِنْ جٰاهَدٰاكَ عَلىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا الی آخر الآيه؛أی إن ألحّا عليك بالمجاهده أن تجعل ما ليس لك علم به أو بحقيقته شريكا لی فلا تطعهما و لا تشرك بی،و المراد بكون الشريك المفروض لا علم به كونه معدوما مجهولا مطلقا لا يتعلق به علم فيئول المعنی:لا تشرك بی ما ليس بشیء،هذا محصّل ما ذكره فی الكشاف و ربما أيده قوله تعالی: أَ تُنَبِّئُونَ اللّٰهَ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ (يونس/۱۸).

و قيل «تُشْرِكَ» بمعنی تكفر و «مٰا» بمعنی الذی،و المعنی:و إن جاهداك أن تكفر بی كفرا لا حجه لك به فلا تطعهما و يؤيده تكرار نفی السلطان علی الشريك فی كلامه تعالی كقوله: مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّٰ أَسْمٰاءً سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ (يوسف/ ۴۰)،الی غير ذلك من الآيات.

و قوله: وَ صٰاحِبْهُمٰا فِي الدُّنْيٰا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنٰابَ إِلَيَّ الجملتان كالتلخيص و التوضيح لما تقدم فی الآيتين من الوصيه بهما و النهی عن إطاعتهما إن جاهدا علی الشرك باللّه.

يقول سبحانه:يجب علی الإنسان أن يصاحبهما فی الامور الدنيويه غير الدين الذی هو سبيل اللّه صحابا معروفا و معاشره متعارفه غير منكره من رعايه حالهما بالرفق و اللين من غير جفاء و خشونه و تحمل المشاق التی تلحقه من جهتهما فليست الدنيا إلاّ أياما معدوده

ص :۵۴

متصرمه،و أما الدين فإن كانا ممن أناب الى اللّه فلتتبع سبيلهما و إلاّ فسبيل غيرهما ممن أناب الى اللّه.

و من هنـا يظهر أن فى قوله: «وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنٰابَ إِلَيَّ» إيجازا لطيفا فهو يفيـد أنهما لو كانا من المنيبين الى اللّه فلتتبع سبيلهما و إلاّ فلا يطاعا و لتتبع سبيل غيرهما ممن أناب الى اللّه.

و قوله: ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى هـذا الذى ذكر، تكليفكم فى الدنيا ثم ترجعون الى يوم القيامه فاظهر لكم حقيقه أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا فأقضى بينكم على حسب ما تقتضيه أعمالكم من خير أو شر.

و بما مرّ يظهر أن قوله: «فِي الدُّنْيٰا» يفيد أولا قصر المصاحبه بالمعروف فى الامور الدنيويه دون الدينيه،و ثانيا:تهوين أمر الصحبه و أنها ليست إلاّ فى أيام قلائل فلا كثير ضير فى تحمل مشاق خدمتهما،و ثالثا المقابله ليوم الرجوع الى اللّه المشار اليه بقوله: «ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ» الخ.

قوله تعالى: يٰا بُنَيَّ إِنَّهٰا إِنْ تَكُ مِثْقٰالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰاوٰاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّٰهُ الـخ؛ذكروا أن الضمير فى «إِنَّهٰا» للخصله من الخير و الشر لدلاله السياق على ذلك و هو أيضا اسم كان و «مِثْقٰالَ حَبَّةٍ» خبره، و المراد بكونها فى صخره اختفاؤها بالاستقرار فى جوف الصخره الصماء أو فى السماوات أو فى الأرض،و المراد بالإتيان بها إحضارها للحساب و الجزاء.

كـان الفصـل السابق من كلامه المنقول راجعا الى التوحيـد و نفى الشـريك و ما فى هـذه الآيه فصل ثان فى المعاد و فيه حساب الأعمـال،و المعنى:يا بنى إن تكن الخصـله التى عملت من خير أو شـر أخف الأشـياء و أدقها كمثقال حبه من خردل فتكن تلك الخصـله الصغيره مستقره فى جوف صخره أو فى أى مكان من السماوات و الأرض يأت بها اللّه للحساب و الجزاء لأن اللّه لطيف ينفذ علمه فى أعماق الأشياء و يصل الى كل خفى خبير يعلم كنه الموجودات.

قوله تعالی: یٰا بُنَیَّ أَقِمِ الصَّلاٰهَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ اصْبِرْ عَلیٰ مٰا أَصٰابَکَ إِنَّ ذٰلِکَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ الآیه؛و ما بعدها من کلامه راجع الی نبذه من الأعمال و الأخلاق الفاضله.

فمن الأعمال الصلاه التی هی عمود الدین و یتلوها الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر و من الأخلاق الصبر علی ما یصیب من مصیبه.

و قوله: إِنَّ ذٰلِکَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ الإشاره الی الصبر و الإشاره البعیده للتعظیم و الترفیع و قول بعضهم:إن الإشاره الی جمیع ما تقدم من الصلاه و الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر و الصبر لیس فی محله لتکرر عدّ الصبر من عزم الامور فی کلامه تعالی کقوله: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذٰلِکَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (الشوری/۴۳)،و قوله: إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذٰلِکَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (آل عمران/۱۸۶).

و العزم-علی ما ذکره الراغب-عقد القلب علی إمضاء الأمر و کون الصبر-و هو حبس النفس فی الأمر-من العزم إنما هو من حیث إن العقد القلبی ما لم ینحل و ینفصم ثبت الإنسان علی الأمر الذی عقد علیه فالصبر لازم الجد فی العقد و المحافظه علیه و هو من قدره النفس و شهامتها.

قوله تعالی: وَ لاٰ تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنّٰاسِ وَ لاٰ تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ کُلَّ مُخْتٰالٍ فَخُورٍ قال الراغب:الصعر میل فی العنق و التصعیر إمالته عن النظر کبرا قال: «وَ لاٰ تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنّٰاسِ» و قال:المرح شده الفرح و التوسع فیه انتهی.

فالمعنی:لا تعرض بوجهک عن الناس تکبرا و لا تمش فی الأرض مشیه من اشتد فرحه إن اللّه لا یحب کل من تأخذه الخیلاء-و هو التکبر بتخیل الفضیله-و یکثر من الفخر.و قال بعضهم إن معنی «لاٰ تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنّٰاسِ» لا تلو عنقک لهم تذللا عند الحاجه و فیه أنه لا یلائمه ذیل الآیه.

قوله تعالى: وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوٰاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ القصد فى الشىء الاعتدال فيه و الغض-على ما ذكره الراغب-النقصان من الطرف و الصوت فغض الصوت النقص و القصر فيه.

و المعنى:و خذ بالاعتدال فى مشيك و بالنقص و القصر فى صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير لمبالغتها فى رفعه (۱)(۲).

[سوره لقمان (۳۱): الآیات ۲۰ الی ۳۴]

أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اَللّٰهَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظٰاهِرَةً وَ بٰاطِنَةً وَ مِنَ اَلنّٰاسِ مَنْ يُجٰادِلُ فِي اَللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لاٰ هُدىً وَ لاٰ كِتٰابٍ مُنِيرٍ (۲۰) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ اِتَّبِعُوا مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ قٰالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا أَ وَ لَوْ كٰانَ اَلشَّيْطٰانُ يَدْعُوهُمْ إِلىٰ عَذٰابِ اَلسَّعِيرِ (۲۱) وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اَللّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اِسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ اَلْوُثْقىٰ وَ إِلَى اَللّٰهِ عٰاقِبَةُ اَلْأُمُورِ (۲۲) وَ مَنْ كَفَرَ فَلاٰ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنٰا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُوا إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۲۳) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلىٰ عَذٰابٍ غَلِيظٍ (۲۴) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اَللّٰهُ قُلِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۲۵) لِلّٰهِ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْغَنِيُّ اَلْحَمِيدُ (۲۶) وَ لَوْ أَنَّ مٰا فِي اَلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاٰمٌ وَ اَلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مٰا نَفِدَتْ كَلِمٰاتُ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۷) مٰا خَلْقُكُمْ وَ لاٰ بَعْثُكُمْ إِلاّٰ كَنَفْسٍ وٰاحِدَةٍ إِنَّ اَللّٰهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۲۸) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّٰهَ يُولِجُ اَللَّيْلَ فِي اَلنَّهٰارِ وَ يُولِجُ اَلنَّهٰارَ فِي اَللَّيْلِ وَ سَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اَللّٰهَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۹) ذٰلِكَ بِأَنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْحَقُّ وَ أَنَّ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ اَلْبٰاطِلُ وَ أَنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْكَبِيرُ (۳۰) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَلْفُلْكَ تَجْرِي فِي اَلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اَللّٰهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيٰاتِهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ (۳۱) وَ إِذٰا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اَللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ اَلدِّينَ فَلَمّٰا نَجّٰاهُمْ إِلَى اَلْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰا إِلاّٰ كُلُّ خَتّٰارٍ كَفُورٍ (۳۲) يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ اِتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اِخْشَوْا يَوْماً لاٰ يَجْزِي وٰالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لاٰ مَوْلُودٌ هُوَ جٰازٍ عَنْ وٰالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ فَلاٰ تَغُرَّنَّكُمُ اَلْحَيٰاةُ اَلدُّنْيٰا وَ لاٰ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ اَلْغَرُورُ (۳۳) إِنَّ اَللّٰهَ عِنْدَهُ عِلْمُ اَلسّٰاعَةِ وَ يُنَزِّلُ اَلْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مٰا فِي اَلْأَرْحٰامِ وَ مٰا تَدْرِي نَفْسٌ مٰا ذٰا تَكْسِبُ غَداً وَ مٰا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۳۴)

ص: ۵۷

۱- ۱) .لقمان ۱۲-۱۹:بحث روائى فى عقوق الوالدين؛حق اللّه و حق الوالدين للانسان؛الصلاه.

۲- ۲) .لقمان ۱۲-۱۹:کلام فى قصه لقمان و نبذ من حکمه فى فصلين.

بیان:

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظٰاهِرَةً وَ بٰاطِنَةً رجوع الی ما قبل قصه لقمان و هو الدلیل علی أن الخطاب للمشرکین و إن کان ذیل الآیه یشعر بعموم الخطاب.

و علیه فصدر الآیه من تتمه کلام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یتصل بقوله: «هٰذٰا خَلْقُ اللّٰهِ فَأَرُونِي مٰا ذٰا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» و لا التفات فی قوله: «أَ لَمْ تَرَوْا» .

و علی تقدیر کونه من کلامه تعالی ففی قوله: «أَ لَمْ تَرَوْا» التفات من سیاق الغیبه الذی فی قوله: «بَلِ الظّٰالِمُونَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ» الی الخطاب،و الالتفات فی مثل هذه الموارد یکون لاشتداد وجد المتکلم و تأکد غیظه من جهل المخاطبین و تمادیهم فی غیّهم بحیث لا ینفعهم دلاله و لا ینجح فیهم إشاره فیواجهون بذکر ما هو بمرأی منهم و مسمع لعلهم یتنبهوا عن نومتهم و ینتزعوا عن غفلتهم.

و قوله: وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظٰاهِرَةً وَ بٰاطِنَةً الإسباغ الإتمام و الإیساع أی أتم و أوسع علیکم نعمه،و النعم جمع نعمه و هو فی الأصل بناء النوع و غلب علیه استعماله فی ما یلائم الإنسان فیستلذّ منه،و المراد بالنعم الظاهره و الباطنه بناء علی کون الخطاب للمشرکین النعم الظاهره للحس کالسمع و البصر و سائر الجوارح و الصحه و العافیه و الطیبات من الرزق و النعم الغائبه عن الحس کالشعور و الإراده و العقل.

و بناء علی عموم الخطاب لجمیع الناس الظاهره من النعم هی ما ظهر للحس کما تقدم و کالدین الذی به ینتظم أمور دنیاهم و آخرتهم و الباطنه منها کما تقدم و کالمقامات المعنویه التی تنال بإخلاص العمل.

و قوله: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يُجٰادِلُ فِي اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لاٰ هُدىً وَ لاٰ كِتٰابٍ مُنِيرٍ رجوع الخطاب الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على ما كان فى السياق السابق،و المجادله المخاصمه النظريه بطريق المغالبه،و المقابله بين العلم و الهدى و الكتاب تلوّح بأن المراد بالعلم ما هو مكتسب من حجه عقليه،و بالهدى ما يفيضه اللّه بالوحى أو الإلهام،و بالكتاب الكتاب السماوى المنتهى اليه تعالى بالوحى النبوى و لذلك وصفه بالمنير فهذه طرق ثلاث من العلم لا رابع لها.

فمعنى قوله:يجادل فى اللّه بغير كذا و كذا أنه يجادل فى وحدانيته تعالى فى الربوبيه و الالوهيه بغير حجه يصح الركون إليها بل عن تقليد.

قوله تعالى: وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ قٰالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا الخ؛ضمائر الجمع راجعه الى «مِنَ» باعتبار المعنى كما أن ضمير الإفراد فى الآيه السابقه راجع اليه باعتبار اللفظ.

و قوله: وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فى التعبير بما أنزل اللّه من غير أن يقال:اتبعوا الكتاب أو القرآن إشاره الى كون الدعوه دعوه ذات حجه لا تحكم فيها لأن نزول الكتاب مؤيد بحجه النبوه فكأنه قيل:و إذا دعوا الى دين التوحيد الذى يدل عليه الكتاب المقطوع بنزوله من عند اللّه سبحانه،و بعباره أخرى إذا ألقى اليهم القول مع الحجه قابلوه بالتحكم من غير حجه فقالوا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا.

و قوله: أَ وَ لَوْ كٰانَ الشَّيْطٰانُ يَدْعُوهُمْ إِلىٰ عَذٰابِ السَّعِيرِ أى أيتبعون آباءهم و لو كان الشيطان يدعوهم بهذا الاتباع الى عذاب السعير؟فالاستفهام للإنكار و لو وصليه معطوفه على محذوف مثلها و التقدير أيتبعونهم لو لم يدعهم الشيطان و لو دعاهم.

و محصل الكلام:أن الاتباع إنما يحسن إذا كانوا على الحق و أما لو كانوا على الباطل و كان اتباعا يدعوهم به الى الشقاء و عذاب السعير و هو كذلك فإنه اتباع فى عباده غير اللّه و لا

معبود غيره.

قوله تعالى: وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَهِ الْوُثْقىٰ وَ إِلَى اللّٰهِ عٰاقِبَهُ الْأُمُورِ استئناف و يحتمل أن يكون حالا من مفعول «يَدْعُوهُمْ» و فى معنى الجمله الحاليه ضمير عائد اليهم،و المعنى:أولو كان الشيطان يدعوهم الى كذا و الحال أن من أسلم وجهه الى اللّه كذا فقد نجا و أفلح و الحال أن عاقبه الامور ترجع الى اللّه فيجب أن يكون هو المعبود.

و إسلام الوجه الى اللّه تسليمه له و هو إقبال الإنسان بكليته عليه بالعباده و إعراضه عمن سواه.و الإحسان الإتيان بالأعمال الصالحه عن إيقان بالآخره كما فسّره به فى أول السوره:

هُدىً وَ رَحْمَهً لِلْمُحْسِنِينَ اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰهَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاهَ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ يُوقِنُونَ و العروه الوثقى المستمسك الذى لا انفصام له.

و المعنى:و من حدّ اللّه و عمل صالحا مع اليقين بالمعاد فهو ناج غير هالك البته فى عاقبه أمره لأنها الى اللّه و هو الذى يعده بالنجاه و الفلاح.

قوله تعالى: وَ مَنْ كَفَرَ فَلاٰ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ -الى قوله- إِلىٰ عَذٰابٍ غَلِيظٍ تسليه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تطييب لنفسه أن لا يغلبه الحزن و هم بالآخره راجعون اليه تعالى فينبئهم بما عملوا أى يظهر لهم حقيقه أعمالهم و تبعاتها و هى النار.

و قوله: نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلىٰ عَذٰابٍ غَلِيظٍ كشف عن حقيقه حالهم ببيان آخر فإن البيان السابق «إِلَيْنٰا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُوا» ربما أوهم أنهم ما داموا متنعمين فى الدنيا خارجون من قدره اللّه ثم إذا ماتوا أو بعثوا دخلوا فيما خرجوا منه فانتقم منهم بالعذاب جىء بهذا البيان للدلاله على أنهم غير خارجين من التدبير قط و إنما يمتعهم فى الدنيا قليلا ثم يضطرهم الى عذاب غليظ فهم مغلوبون مقهورون على كل حال و أمرهم الى اللّه دائما لن يعجزوا اللّه فى حال التنعم و لا غيرها.

قوله تعالى: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ إشاره الى أنهم مفطورون على التوحيد معترفون به من حيث لا يشعرون،فإنهم إن سئلوا عمن خلق السماوات و الأرض اعترفوا بأنه اللّه عزّ اسمه و إذا كان الخالق هو هو فالمدبر لها هو هو لأن التدبير لا ينفك عن الخلق،و إذا كان مدبر الأمر و المنعم الذى يبسط و يقبض و يرجى و يخاف هو فالمعبود هو هو وحده لا شريك له فقد اعترفوا بالوحده من حيث لا يعلمون.

و لذلك أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يحمد اللّه على اعترافهم من حيث لا يشعرون فقال: «قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ» ثم أشار الى أن كون أكثرهم لا يعلمون معنى اعترافهم أن اللّه هو الخالق و ما يستلزمه فقال:

«بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ» نعم قليل منهم يعلمون ذلك و لكنهم لا يطاوعون الحق بل يجحدونه و قد أيقنوا به كما قال تعالى: وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ (النمل١۴/).

قوله تعالى: لِلّٰهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ لما كان اعترافهم بأن الخالق هو اللّه سبحانه إنما يثبت التوحد بالربوبيه و الالوهيه إذا كان التدبير و التصرف اليه تعالى و كان نفس الخلق كافيا فى استلزامه اكتفى به فى تمام الحجه و استحمد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و استجهل القوم لغفلتهم.

ثم احتجّ عليه ثانيا من طريق انحصار الملك الحقيقى فيه تعالى لكونه غنيا محمودا مطلقا و تقريره أنه تعالى مبدأ كل خلق و معطى كل كمال فهو واجد لكل ما يحتاج اليه الأشياء فهو غنى على الإطلاق إذ لو لم يكن غنيا من جهه من الجهات لم يكن مبدأ له معطيا لكماله هذا خلف،و إذا كان غنيا على الإطلاق كان له ما فى السماوات و الأرض فهو المالك لكل شىء على الإطلاق فله أن يتصرف فيها كيف شاء فكل تدبير و تصرف يقع فى العالم فهو له إذ لو كان شىء من التدبير لغيره لا له كان مالكه ذلك الغير دونه و إذا كان التدبير و التصرف له تعالى فهو رب العالمين و الإله الذى يعبد و يشكر إنعامه و إحسانه.

و هذا هو الذى يشير اليه قوله: «لِلّٰهِ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْغَنِيُّ» فقوله: «لِلّٰهِ مٰا فِى» الخ؛حجه على وحدانيته و قوله: «إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْغَنِيُّ» تعليل للملك.

و أما قوله: «الْحَمِيدُ» أى المحمود فى أفعاله فهو مبدأ آخر للحجه و ذلك أن الحمد هو الثناء على الجميل الاختيارى و كل جميل فى العالم فهو له سبحانه فاليه يعود الثناء فيه فهو حميد على الإطلاق و لو كان شىء من هذا التدبير المتقن الجميل من غيره تعالى من غير انتساب اليه لكان الحمد و الثناء لغيره تعالى لا له فلا يكون حميدا على الإطلاق و بالنسبه الى كل شىء و قد فرض أنه حميد على الإطلاق هذا خلف.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ مٰا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاٰمٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مٰا نَفِدَتْ كَلِمٰاتُ اللّٰهِ الخ؛ «مِنْ شَجَرَةٍ» بيان للموصول و الشجره واحد الشجر و تفيد فى المقام-و هى فى سياق «لَوْ» -الاستغراق أى كل شجره فى الأرض، و المراد بالبحر مطلق البحر،و قوله: «يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ» أى يعينه بالانضياف اليه سبعه أمثال و الظاهر أن المراد بالسبعه التكثير دون خصوص هذا العدد و الكلمه هى اللفظ الدال على معنى،و قد أطلق فى كلامه تعالى على الوجود المفاض بأمره تعالى،و قد قال: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس۸۲/)،و قد أطلق على المسيح عليه السّلام الكلمه فى قوله: وَ كَلِمَتُهُ أَلْقٰاهٰا إِلىٰ مَرْيَمَ (النساء۱۷۱/).

فالمعنى:و لو جعل جميع أشجار الأرض أقلاما و أخذ البحر و أضيف اليه سبعه أمثاله و جعل المجموع مدادا فكتب كلمات اللّه- بتبديلها ألفاظا داله عليها-بتلك الأقلام من ذلك المداد لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات اللّه لكونها غير متناهيه.

قوله تعالى: مٰا خَلْقُكُمْ وَ لاٰ بَعْثُكُمْ إِلاّٰ كَنَفْسٍ وٰاحِدَةٍ إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ سوق للكلام الى إمكان الحشر و خاصه من جهه استبعادهم المعاد لكثره عدد الموتى و اختلاطهم بالأرض من غير تميّز بعضهم من بعض.

ص :۶۳

فقال تعالى: مّا خَلْقُكَمْ وَ لاّ بَعْثُكَمْ إِلاّ كَنَفْسٍ واحِدَهٍ فى الإمكان و التأتى فإنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن و لا يعجزه كثره و لا يتفاوت بالنسبه اليه الواحد و الجمع، و ذكر الخلق مع البعث للدلاله على عدم الفرق بين البدء و العود من حيث السهوله و الصعوبه بل لا يتصف فعله بالسهوله و الصعوبه.

و يشهد لما ذكر إضافه الخلق و البعث الى ضمير الجمع المخاطب و المراد به الناس ثم تنظيره بالنفس الواحده،و المعنى:ليس خلقكم معاشر الناس على كثرتكم و لا بعثكم إلاّ كخلق نفس واحده و بعثها فأنتم على كثرتكم و النفس الواحده سواء لأنه لو أشكل عليه بعث الجميع على كثرتهم و البعث لجزاء الأعمال فإنما يشكل من جهه الجهل بمختلف أعمالكم على كثرتها و اختلاط بعضها ببعض لكنه ليس بجهل شيئا منها لأنه سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم و بعباره أخرى عليم بأعمالكم من طريق المشاهده.

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى الخ؛استشهاد لما تقدم فى الآيه السابقه من علمه بالأعمال بأن التدبير الجارى فى نظام الليل و النهار حيث يزيد هذا و ينقص ذاک و بالعكس بحسب الفصول المختلفه و بقاع الأرض المتفرقه فى نظم ثابت جار على اختلافه،و كذا التدبير الجارى فى الشمس و القمر على اختلاف طلوعهما و غروبهما و اختلاف جريانهما و مسيرهما بحسب الحس و كلّ منهما يجرى لأجل مسمى و لا اختلاف و لا تشوّش فى النظام الدقيق الذى لهما فهذا كله مما يمتنع من غير علم و خبره من مدبّرها.

فالمراد بإيلاج الليل فى النهار أخذ الليل فى الطول و إشغاله بعض ساعات النهار من قبل و بإيلاج النهار فى الليل عكس ذلک،و المراد بجريان الشمس و القمر المسخرين الى أجل مسمى انتهاء كل وضع من أوضاعهما الى وقت محدود مقدّر ثم عودهما الى بدء فمن شاهد هذا النظام الدقيق الجارى و أمعن فيه لم يشک فى أن مدبره إنما يدبره عن علم لا يخالطه جهل

و ليس ذلك عن صدفه و اتفاق.

و قوله: وَ أَنَّ اللّٰهَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ عطف على موضع «أَنَّ اللّٰهَ يُولِجُ» و التقدير أ لم تر أن اللّه بما تعملون خبير و ذلك لأن من شاهد نظام الليل و النهار و الشمس و القمر لم يكد يغفل عن كون صانعه عليما بجلائل أعماله و دقائقها،كذا قيل.

و فيه أن استنتاج العلم بالأعمال من العلم بالنظام الجارى فى الليل و النهار و الشمس و القمر و إن صحّ فى نفسه فهو علم حدسى لا مصحح لتسميتها رؤيه و هو ظاهر.

و لعل المراد من مشاهده خبرته تعالى بالأعمال أن الإنسان لو أمعن فى النظام الجارى فى أعمال نفسه بما أنها صادره عن العالم الإنسانى موزّعه من جهه الى الأعمال الصادره عن القوى الظاهره من سمع و بصر و شمّ و ذوق و لمس و الصادره عن القوى الباطنه المدركه أو الفعّاله أو من جهه الى بعض القوى و الأدوات أو كلها و من جهه الى جاذبه و دافعه و من جهه الى سنى العمر من طفوليه و رهاق و شباب و شيب الى غير ذلك.

ثم فى ارتباط بعضها ببعض و استخدام بعضها لبعض و اهتداء النفس الى وضع كلّ فى موضعه الذى يليق به و حركته بهذه القافله من القوى و الأعمال نحو غايتها من الكمال و سعادتها فى المآل و تورّطها فى ورطات عالم الماده و موطن الزينه و الفتنه فمن ناج أو هالك.

فإذا أمعن فى هذا النظام المحيّر للأحلام لم يرتب أنه تقدير قدّره ربه و نظام نظمه صانعه العليم القدير و مشاهده هذا النظام العلمى العجيب مشاهده أنه بما يعملون خبير،و اللّه العالم.

قوله تعالى: ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبٰاطِلُ وَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ لما ذكر سبحانه أن منه بدء كل شىء فيستند اليه فى وجوده و تدبير أمره و أن اليه عود كل شىء من غير فرق بين الواحد و الكثير و أنه ليس الى من يدعون من دونه خلق و لا أمر،جمع الجميع تحت بيان واحد جامع فقال مشيرا الى ما تقدّم: «ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبٰاطِلُ» الخ.

ص :۶۵

توضیحه أن الحق هو الثابت من جهه ثبوته و الباطل یقابل الحق فهو اللاثابت من جهه عدم ثبوته،و قوله: «بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ» بما فیه من ضمیر الفصل و تعریف الخبر باللام یفید القصر أعنی حصر المبتدأ فی الخبر.

فقوله: بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ قصر له تعالی فی الثبوت،أی هو ثابت لا یشوب ثبوته بطلان و بعباره اخری هو ثابت من جمیع الجهات و بعباره ثالثه هو موجود علی کل تقدیر فوجوده مطلق غیر مقید بقید و لا مشروط بشرط فوجوده ضروری و عدمه ممتنع و غیره من الموجودات الممکنه موجود علی تقدیر و هو تقدیر وجود سببه و هو الوجود المقید الذی یوجد بغیره من غیر ضروره فی ذاته.

و إذا کان حقیه الشیء هو ثبوته فهو تعالی حق بذاته و غیره إنما یحق و یتحقق به.

و إذا تأملت هذا المعنی حق تأمله وجدت أولا:أن الأشیاء بأجمعها تستند فی وجودها الیه تعالی و أیضا تستند فی النظام الجاری فیها عامه و فی النظامات الجزئیه الجاریه فی کل نوع من أنواعها و کل فرد من أفرادها الیه تعالی.

و ثانیا:أن الکمالات الوجودیه التی هی صفات الوجود کالعلم و القدره و الحیاه و السمع و البصر و الوحده و الخلق و الملک و الغنی و الحمد و الخبره-مما عدّ فی الآیات السابقه أو لم یعدّ-صفات قائمه به تعالی علی حسب ما یلیق بساحه کبریائه و عز قدسه لأنها صفات وجودیه و الوجود قائم به تعالی فهی إما عین ذاته کالعلم و القدره و إما صفات خارجه عن ذاته منتزعه عن فعله کالخلق و الرزق و الرحمه.

و ثالثا:أن قبول الشریک فی ذاته أو فی تدبیره و کل ما یحمل معنی الفقد و النقص مسلوب عنه تعالی و هذه هی الصفات السلبیه کنفی الشریک و نفی التعدد و نفی الجسم و المکان و الزمان و الجهل و العجز و البطلان و الزوال الی غیرها.

فإن إطلاق وجوده و عدم تقیده بقید ینفی عنه کل معنی عدمی أی إثبات الوجود مطلقا

فإن مرجع نفی النفی الی الإثبات.

و لعل قوله: «وَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» يفيد ثبوت الصفات له بكلتا مرحلتيها بناء على أن اسم «الْعَلِيُّ» يفيد معنى تنزهه عن ما لا يليق بساحته فهو مجمع الصفات السلبيه و الكبير يفيد سعته لكل كمال وجودى فهو مجمع الصفات الثبوتيه.

و أن صدر الآيه برهان على ذيلها و ذيلها برهان على استجماعه تعالى الصفات الثبوتيه و السلبيه جميعا على ما تقدم تقريره فهو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال فهو اللّٰه عز اسمه.

و قوله: وَ أَنَّ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبٰاطِلُ يجرى فيه ما يقابل ما جرى فى قوله:

«ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ» فالذى يدعونه من الآلهه ليس لهم من الحقيقه شىء و لا اليهم من الخلق و التدبير شىء لأن الشريک فى الالوهيه و الربوبيه باطلا لا حقّ فيه و إذ كان باطلا على كل تقدير فلا يستند اليه خلق و لا تدبير مطلقا.

و الحق و العلى و الكبير ثلاثه من الأسماء الحسنى و قد تحقق مما تقدم أن الحق فى معنى الواجب الوجود و أن العلى من الصفات السلبيه و الكبير من الصفات الثبوتيه قريب المعنى من قولنا:المستجمع لصفات الكمال.

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللّٰهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيٰاتِهِ الخ؛الباء فى «بِنِعْمَتِ اللّٰهِ» للسببيه و ذكر النعمه كالتوطئه لآخر الآيه و فيه تلويح الى وجوب شكره على نعمته لأن شكر المنعم واجب.

و المعنى:أ لم تر أن الفلك تجرى و تسير فى البحر بسبب نعمه اللّٰه و هى أسباب جريانها من الريح و رطوبه الماء و غير ذلک.

و احتمل بعضهم أن الباء للتعديه أو المعيه و المراد بالنعمه ما تحمله السفن من الطعام و سائر أمتعه الحياه.

و قد تمم الآيه بقوله: «إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ» و الصبّار الشكور أى كثير الصبر عند الضرّاء و كثير الشكر عند النعماء كنايه عن المؤمن على ما قيل.

قوله تعالى: وَ إِذٰا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الخ؛قال الراغب:الظله سحابه تظل و أكثر ما يقال فيما يستوخم و يكره،قال: «كَأَنَّهُ ظُلَّهٌ» «عَذٰابُ يَوْمِ الظُّلَّهِ» انتهى.

و المعنى:و إذا غشيهم و أحاط بهم فى البحر موج كقطع السحاب انقطعوا الى اللّه و دعوه للنجاه حال كونهم مخلصين له الدين أى و فى ذلك دليل على أن فطرتهم على التوحيد.

و قوله: فَلَمّٰا نَجّٰاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ المقتصد سالك القصد أى الطريق المستقيم و المراد به التوحيد الذى دلّتهم عليه فطرتهم إذ ذلك،و فى التعبير بمن التبعيضيه استقلال عدتهم أى فلما نجّى اللّه سبحانه هؤلاء الداعين بالإخلاص الى البر فقليل منهم المقتصدون.

و قوله: وَ مٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰا إِلاّٰ كُلُّ خَتّٰارٍ كَفُورٍ الختّار مبالغه من الختر و هو شده الغدر و فى السياق دليل على الاستكثار و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ لما ساق الحجج و المواعظ الشافيه الوافيه جمعهم فى خاتمتها فى خطاب عام يدعوهم الى التقوى و ينذرهم بيوم القيامه الذى لا يغنى فيه مغن إلاّ الإيمان و التقوى.

قال الراغب:الجزاء الغنى و الكفايه،و قال:يقال:غررت فلانا أصبت غرته و نلت منه ما أريد و الغره غفله فى اليقظه و الغرار غفله مع غفوه،الى أن قال:فالغرور كل ما يغر الانسان من مال و جاه و شهوه و شيطان و قد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارّين و بالدنيا لما قيل:الدنيا تغر و تضر و تمر انتهى.

فمعنى الآيه «يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ» و هو اللّه سبحانه «وَ اخْشَوْا يَوْماً» و هو يوم القيامه

«لاّ یَجْزِی» لا یفنی «والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لاّ مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ» مغن کاف «عَنْ والِدِهِ» شیئا «إِنَّ وَعْدَ اللّهِ» بالبعث «حَقٌّ» ثابت لا یخلف «فَلاٰ تَغُرَّنَّکُمُ الْحَیاهُ الدُّنْیا» بزینتها الغارّه «وَ لاٰ یَغُرَّنَّکُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ» أی جنس ما یغر الإنسان من شئون الحیاه الدنیا أو خصوص الشیطان.

قوله تعالی: إِنَّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَهِ وَ یُنَزِّلُ الْغَیْثَ وَ یَعْلَمُ ما فِی الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِی نَفْسٌ ما ذا تَکْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِی نَفْسٌ بِأَیِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللّهَ عَلِیمٌ خَبِیرٌ الغیث المطر و معنی جمل الآیه ظاهر.

و قد عدّ سبحانه أمورا ثلاثه مما تعلق به علمه و هی العلم بالساعه و هو مما استأثر اللّه علمه لنفسه لا یعلمه إلاّ هو و ید لعلی القصر قوله: «إِنَّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَهِ» و تنزیل الغیث و علم ما فی الأرحام و یختصان به تعالی إلاّ أن یعلمه غیره.

و عدّ أمرین آخرین یجهل بهما الإنسان و بذلک یجهل کل ما سیجری علیه من الحوادث و هو قوله: «وَ ما تَدْرِی نَفْسٌ ما ذا تَکْسِبُ غَداً» و قوله: «وَ ما تَدْرِی نَفْسٌ بِأَیِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» .

و کأن المراد تذکره أن اللّه یعلم کل ما دقّ و جلّ حتی مثل الساعه التی لا یتیسر علمها للخلق و أنتم تجهلون أهم ما یهمکم من العلم فاللّه یعلم و أنتم لا تعلمون فإیاکم أن تشرکوا به و تتمردوا عن أمره و تعرضوا عن دعوته فتهلکوا بجهلکم (۱).

۱- ۱) .لقمان ۲۰-۳۴:بحث روائی حول قوله تعالی: «وَ أَسْبَغَ عَلَیْکُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَهً وَ باطِنَهً» ؛الشکر؛الحیاه فی الدنیا؛ خمسه لم یطلع اللّه علیها أحدا من خلقه.

سوره السجده مکیه و هی ثلاثون آیه

اشاره

[سوره السجده (۳۲): الآیات ۱ الی ۱۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ
الم (۱) تَنْزِیلُ اَلْکِتٰابِ لاٰ رَیْبَ فِیهِ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۲) أَمْ یَقُولُونَ اِفْتَرٰاهُ بَلْ هُوَ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أَتٰاهُمْ مِنْ نَذِیرٍ مِنْ قَبْلِکَ لَعَلَّهُمْ یَهْتَدُونَ (۳) اَللّٰهُ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ ثُمَّ اِسْتَویٰ عَلَی اَلْعَرْشِ مٰا لَکُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لاٰ شَفِیعٍ أَ فَلاٰ تَتَذَکَّرُونَ (۴) یُدَبِّرُ اَلْأَمْرَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ إِلَی اَلْأَرْضِ ثُمَّ یَعْرُجُ إِلَیْهِ فِی یَوْمٍ کٰانَ مِقْدٰارُهُ أَلْفَ سَنَهٍ مِمّٰا تَعُدُّونَ (۵) ذٰلِکَ عٰالِمُ اَلْغَیْبِ وَ اَلشَّهٰادَهِ اَلْعَزِیزُ اَلرَّحِیمُ (۶) اَلَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ اَلْإِنْسٰانِ مِنْ طِینٍ (۷) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاٰلَهٍ مِنْ مٰاءٍ مَهِینٍ (۸) ثُمَّ سَوّٰاهُ وَ نَفَخَ فِیهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَکُمُ اَلسَّمْعَ وَ اَلْأَبْصٰارَ وَ اَلْأَفْئِدَهَ قَلِیلاً مٰا تَشْکُرُونَ (۹) وَ قٰالُوا أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِی اَلْأَرْضِ أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ بَلْ هُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ کٰافِرُونَ (۱۰) قُلْ یَتَوَفّٰاکُمْ مَلَکُ اَلْمَوْتِ اَلَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ ثُمَّ إِلیٰ رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ (۱۱) وَ لَوْ تَریٰ إِذِ اَلْمُجْرِمُونَ نٰاکِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنٰا أَبْصَرْنٰا وَ سَمِعْنٰا فَارْجِعْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً إِنّٰا مُوقِنُونَ (۱۲) وَ لَوْ شِئْنٰا لَآتَیْنٰا کُلَّ نَفْسٍ هُدٰاهٰا وَ لٰکِنْ حَقَّ اَلْقَوْلُ مِنِّی لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ اَلْجِنَّهِ وَ اَلنّٰاسِ أَجْمَعِینَ (۱۳) فَذُوقُوا بِمٰا نَسِیتُمْ لِقٰاءَ یَوْمِکُمْ هٰذٰا إِنّٰا نَسِینٰاکُمْ وَ ذُوقُوا عَذٰابَ اَلْخُلْدِ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۴)

ص: ۷۰

بيان:

غرض السوره تقرير المبدإ و المعاد و إقامه الحجه عليهما و دفع ما يختلج القلوب فى ذلك مع إشاره الى النبوه و الكتاب ثم بيان ما يتميز به الفريقان المؤمنون بآيات اللّه حقا و الفاسقون الخارجون عن زىّ العبوديه و وعد أولئك بما هو فوق تصوّر المتصورين من الثواب و وعيد هؤلاء بالانتقام الشديد بأليم العذاب المخلّد و أنهم سيذوقون عذابا أدنى دون العذاب الأكبر، و تختتم السوره بتأكيد الوعيد و أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالانتظار كما هم منتظرون.

ص: ٧١

و هی مکیه إلاّ ثلاث آیات نزلت-کما قیل-بالمدینه و هی قوله تعالی: أَ فَمَنْ کٰانَ مُؤْمِناً کَمَنْ کٰانَ فٰاسِقاً الی تمام ثلاث آیات.

و الذی أوردناه من آیاتها یتضمّن الفصل الأول من فصلی غرض السوره الذی أشرنا الیه.

قوله تعالی: تَنْزِیلُ الْکِتٰابِ لاٰ رَیْبَ فِیهِ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِینَ ،أی هذا تنزیل الکتاب،و التنزیل مصدر بمعنی اسم المفعول و إضافته الی الکتاب من إضافه الصفه الی الموصوف،و المعنی:هذا هو الکتاب المنزّل لا ریب فیه.

و قوله: مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِینَ فیه براعه استهلال لما فی غرض السوره أن یتعاطی بیانه من الوحدانیه و المعاد اللذین ینکرهما الوثنیه لما مرّ مرارا أنهم لا یقولون برب العالمین بل یثبتون لکل عالم إلها و لمجموع الآلهه إلها هو اللّه تعالی عما یقولون علوّا کبیرا.

قوله تعالی: أَمْ یَقُولُونَ افْتَرٰاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أَتٰاهُمْ مِنْ نَذِیرٍ مِنْ قَبْلِکَ الخ؛أم منقطعه،و المعنی:بل یقولون افتری القرآن علی اللّه و لیس من عنده فردّه بقوله: «بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ لِتُنْذِرَ» الخ.

و قوله: لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أَتٰاهُمْ مِنْ نَذِیرٍ مِنْ قَبْلِکَ قیل:یعنی قریشا فإنهم لم یأتهم نبی قبله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بخلاف غیرهم من قبائل العرب فإنهم أتاهم بعض الأنبیاء کخالد بن سنان العبسی و حنظله علی ما فی الروایات.

و قوله: لَعَلَّهُمْ یَهْتَدُونَ غایه رجائیه لإرسال الرسول و الترجی قائم بالمقام أو بالمخاطب دون المتکلم کما تقدم فی نظائره.

قوله تعالی: اَللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ -الی قوله- أَ فَلاٰ تَتَذَکَّرُونَ تقدم الکلام فی تفسیر قوله: «خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیّٰامٍ ثُمَّ اسْتَویٰ عَلَی الْعَرْشِ» فی نظائره من الآیات و تقدم أیضا أن الاستواء علی العرش کنایه عن مقام تدبیر الموجودات

بنظام عام إجمالی یحکم علی الجمیع و لذا أتبع العرش فی أغلب ما وقع فیه من الموارد بما فیه معنی التدبیر کقوله: ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ (الأعراف/ ۵۴)و قوله: ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ (یونس/۳)،و قوله: ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ (الحدید/۴)،و قوله: ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعّالٌ لِما يُرِيدُ (البروج/۱۶).

و الوجه فی ذکر الاستواء علی العرش،بعد ذکر خلق السماوات و الأرض إن الکلام فی اختصاص الربوبیه و الالوهیه باللّه وحده و مجرد استناد الخلقه الیه تعالی لا ینفع فی إبطال ما یقول به الوثنیه شیئا فإنهم لا ینکرون استناد الخلقه الیه وحده و إنما یقولون باستناد التدبیر و هو الربوبیه للعالم الی آلهتهم ثم اختصاص الالوهیه و هی المعبودیه بآلهتهم و للّه تعالی من الشأن أنه رب الأرباب و إله الآلهه.

فکان من الواجب عند إقامه الحجه لإبطال قولهم أن یذکر أمر الخلقه ثم یتعقب بأمر التدبیر لمکان تلازمهما و عدم انفکاک أحدهما من الآخر حتی یکون موجد الأشیاء و خالقها هو الذی یربها و یدبر أمرها فیکون ربا وحده و إلها وحده کما أنه موجد خالق وحده.

و لذلک بعینه ذکر أمر التدبیر بعد ذکر الخلقه فی الآیه التی نحن فیها إذ قیل «خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ شَفِيعٍ» فالولایه و الشفاعه کالاستواء علی العرش من شئون التدبیر.

و قوله: ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ شَفِيعٍ الولی هو الذی یملک تدبیر أمر الشیء و من المعلم أن أمورنا و الشئون التی تقوم به حیاتنا قائمه بالوجود محکومه مدبره للنظام العام الحاکم فی الأشیاء عامه و ما یخص بنا من نظام خاص،و النظام أیا ما کان من لوازم خصوصیات خلق الأشیاء و الخلقه کیفما کانت مستنده الیه تعالی فهو تعالی ولیّنا القائم بأمرنا المدبّر لشئوننا و أمورنا،کما هو ولیّ کل شیء کذلک وحده لا شریک له.

و الشـفيع -على ما تقدم فى مباحث الشفاعه فى الجزء الأول من الكتاب -هو الذى ينضم الى سـبب ناقص فيتمم سببيته و تأثيره،و الشـفاعه تتميـم السـبب النـاقص فى تـأثيره و إذا طبقناهـا على الأسـباب و المسـببات الخـارجيه كـانت أجزاء الأسـباب المركبه و شرائطها بعضـها شفيعا لبعض لتتميم حصه من الأثر منسوبه اليه كما أن كلا من السحاب و المطر و الشمس و الظل و غيرها شفيع للنبات.

و إذ كان موجد الأسـباب و أجزائها و الرابط بينها و بين المسـببات هو اللّه سـبحانه فهو الشفيع بالحقيقه الذى يتمّم نقصها و يقيم صلبها فاللّه سبحانه هو الشفيع بالحقيقه لا شفيع غيره.

و ببيان آخر أدق قد تقدم فى البحث عن الأسـماء الحسـنى فى الجزء الثامن من الكتاب أن أسـماءه تعالى الحسـنى وسائط بينه و بين خلقه فى إيصـال الفيض اليهم فهو تعـالى يرزقهم مثلاـ بمـا أنه رازق جواد غنى رحيم و يشـفى المريض بمـا أنه شاف معاف رؤف رحيم و يهلك الظالمين بما أنه شديد البطش ذو انتقام عزيز و هكذا.

فما من شىء من المخلوقات المركبه الوجود إلاّ و يتوسط لوجوده عده من الأسماء الحسنى بعضها فوق بعض و بعضها فى عرض بعض و كـل مـا هو أخص منها يتوسط بين الشـىء و بين الأعم منها كما أن الشافى يتوسط بين المريض و بين الرءوف الرحيم و الرحيم يتوسط بينه و بين القدير و هكذا.

و التوسط المذكور فى الحقيقه تتميم لتأثير السبب فيه و إن شـئت فقل هو تقريب للشـىء من السـبب لفعليه تأثيره و ينتج منه أنه تعالى شفيع ببعض أسمائه عند بعض فهو الشفيع ليس من دونه شفيع فى الحقيقه فافهم.

و قد تبين بما مر أن لا إشـكال فى إطلاق الشـفيع عليه تعالى بمعنى كونه شفيعا بنفسه عند نفسه و حقيقته توسط صفه من صفاته الكريمه بين الشىء و صفه من صفاته كما يستعاذ من

سخطه الی رحمته و من عدله الی فضله،و أما کونه تعالی شفیعا بمعنی شفاعته لشیء عند غیره فهو مما لا یجوز البته.

و قوله: أَ فَلاٰ تَتَذَکَّرُونَ استفهام توبیخی یوبخهم علی استمرارهم علی الإعراض عن أدله العقول حتی یتذکروا أن الملک و التدبیر للّه سبحانه و هو المعبود بالحق لیس لهم دونه ولی و لا شفیع کما یزعمون ذلک لآلهتهم.

قوله تعالی: یُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمٰاءِ إِلَی الْأَرْضِ ثُمَّ یَعْرُجُ إِلَیْهِ فِی یَوْمٍ کٰانَ مِقْدٰارُهُ أَلْفَ سَنَهٍ مِمّٰا تَعُدُّونَ تتمیم لبیان أن تدبیر أمر الموجودات قائم به سبحانه و هذا هو القرینه علی أن المراد بالأمر فی الآیه الشأن دون الأمر المقابل للنهی.

و التدبیر وضع الشیء فی دابر الشیء و الإتیان بالأمر بعد الأمر فیرجع الی إظهار وجود الحوادث واحدا بعد واحد کالسلسله المتصله بین السماء و الارض و قد قال تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر۲۱/)،و قال: إِنّٰا کُلَّ شَیْءٍ خَلَقْنٰاهُ بِقَدَرٍ (القمر۴۹/).

و قوله: ثُمَّ یَعْرُجُ إِلَیْهِ بعد قوله: «یُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمٰاءِ إِلَی الْأَرْضِ» لا یخلو من إشعار بأن «یُدَبِّرُ» مضمن معنی التنزیل و المعنی:یدبر الأمر منزلا أو ینزله مدبرا-من السماء الی الأرض و لعله الأمر الذی یشیر الیه قوله: فَقَضٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ فِی یَوْمَیْنِ وَ أَوْحیٰ فِی کُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا (حم السجده۱۲/).

و فی قوله: یَعْرُجُ إِلَیْهِ إشعار بأن المراد بالسماء مقام القرب الذی تنتهی الیه أزمه الامور دون السماء بمعنی جهه العلو أو ناحیه من نواحی العالم الجسمانی فإن الأمر قد وصف قبل العروج بالنزول فظاهر العروج أنه صعود من الطریق التی نزل منها،و لم یذکر هناک إلاّ علو هو السماء،و سفل هو الأرض و نزول و عروج فالنزول من السماء و العروج الی اللّه یشعر بأن السماء هو مقام الحضور الذی یصدر منه تدبیر الأمر أو أن موطن تدبیر الأمر الأرضی هو

السماء و اللّه المحیط بکل شیء ینزّل التدبیر الأرضی من هذا الموطن،و لعل هذا هو الأقرب الی الفهم بالنظر الی قوله: «وَ أَوْحىٰ فِی کُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا» .

و قوله: فِی یَوْمٍ کٰانَ مِقْدٰارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّٰا تَعُدُّونَ معناه علی أی حال أنه فی ظرف لو طبّق علی ما فی الأرض من زمان الحوادث و مقدار حرکتها انطبق علی ألف سنه مما نعدّه فإن من المسلم أن الزمان الذی یقدّره ما نعدّه من اللیل و النهار و الشهور و السنین لا یتجاوز العالم الأرضی.

و إذ کان المراد بالسماء هو عالم القرب و الحضور و هو مما لا سبیل للزمان الیه کان المراد أنه وعاء لو طبّق علی مقدار حرکه الحوادث فی الأرض کان مقداره ألف سنه مما تعدّون.

و أما أن هذا المقدار هل هو مقدار النزول و اللبث و العروج أو مقدار مجموع النزول و العروج دون اللبث أو مقدار کل واحد من النزول و العروج أو مقدار نفس العروج فقط بناء علی أن «فِی یَوْمٍ» قید لقوله: «یَعْرُجُ إِلَیْهِ» فقط کما وقع فی قوله: تَعْرُجُ الْمَلاٰئِکَةُ وَ الرُّوحُ إِلَیْهِ فِی یَوْمٍ کٰانَ مِقْدٰارُهُ خَمْسِینَ أَلْفَ سَنَةٍ (المعارج/۴).

ثم علی تقدیر کون الظرف قیدا للعروج هل العروج مطلق عروج الحوادث الی اللّه أو العروج یوم القیامه و هو مقدار یوم القیامه،و أما کونه خمسین ألف سنه فهو بالنسبه الی الکافر من حیث الشقه أو أن الألف سنه مقدار مشهد من مشاهد یوم القیامه و هو خمسون موقفا کل موقف مقداره ألف سنه.

ثم المراد بقوله: «مِقْدٰارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ» هل هو التحدید حقیقه أو المراد مجرد التکثیر کما فی قوله: یَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ یُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ (البقره/۹۶)،أی یعمّر عمرا طویلا جدا و إن کان هذا الاحتمال بعیدا من السیاق.

و الآیه-کما تری-تحتمل الاحتمالات جمیعا و لکل منها وجه و الأقرب من بینها الی الذهن کون «فِی یَوْمٍ» قیدا لقوله: «ثُمَّ یَعْرُجُ إِلَیْهِ» و کون المراد بیوم عروج الأمر مشهدا من خمسین

مشهدا من مشاهد یوم القیامه،و اللّه أعلم.

قوله تعالی: ذٰلِکَ عٰالِمُ الْغَیْبِ وَ الشَّهٰادَهِ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ تقدم تفسیر مفردات الآیه،و مناسبه الأسماء الثلاثه الکریمه للمقام ظاهره.

قوله تعالی: اَلَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ قال الراغب:الحسن عباره عن کل مبهج-بصیغه الفاعل-مرغوب فیه و ذلک ثلاث أضرب:مستحسن من جهه العقل و مستحسن من جهه الهوی و مستحسن من جهه الحس.انتهی.و هذا تعریف له من جهه خاصته و انقسامه بانقسام الإدراکات الإنسانیه.

و حقیقته ملاءمه أجزاء الشیء بعضها لبعض و المجموع للغرض و الغایه الخارجه منه فحسن الوجه تلاؤم أجزائه من العین و الحاجب و الأنف و الفم و غیرها،و حسن العدل ملاءمته للغرض من الاجتماع المدنی و هو نیل کل ذی حق حقه،و هکذا.

التدبر فی خلقه الأشیاء و کل منها فی نفسه متلائم الأجزاء بعضها لبعض و المجموع من وجوده مجهز بما یلائم کماله و سعادته تجهیزا لا أتم و لا أکمل منه یعطی أن کلا منها حسن فی نفسه حسنا لا أتم و أکمل منه بالنظر الی نفسه.

و أما ما نری من المساءه و القبح فی الأشیاء فلأحد أمرین:أما لکون الشیء السیئ ذا عنوان عدمی یعود الیه المساءه لا لوجوده فی نفسه کالظلم و الزنا فإن الظلم لیس بسیء قبیح بما أنه فعل من الأفعال بل بما أنه مبطل لحق ثابت و الزنا لیس بسیء قبیح من جهه نفس العمل الخارجی الذی هو مشترک بینه و بین النکاح بل بما أن فیه مخالفه للنهی الشرعی أو للمصلحه الاجتماعیه.

أو بقیاسه الی شیء آخر فیعرضه المساءه و القبح من طریق المقایسه کقیاس الحنظل الی البطیخ و قیاس الشوک الی الورد و قیاس العقرب الی الإنسان فإن المساءه إنما تطرأ هذه الأشیاء من طریق القیاس الی مقابلاتها ثم قیاسها الی طبعنا،و یرجع هذا الوجه من المساءه

الى الوجه الأول بالحقيقه.

و كيف كـان فالشـيء بمـا أنه موجود مخلوق لا يتصف بالمساءه و يـدل عليه الآيه «الَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ» إذا انضمّ الى قوله: اَللّٰهُ خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ (الزمر۶۲/)فينتجان أولا:أن الخلقه تلازم الحسن فكل مخلوق حسن من حيث هو مخلوق.

و ثانيا:ان كل سيئ و قبيح ليس بمخلوق من حيث هو سيئ قبيح كالمعاصـی و السيئات من حيث هی معاص و سيئات و الأشياء السيئه من جهه القياس.

قوله تعالی: وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسٰانِ مِنْ طِينٍ المراد بالإنسان النوع فالمبدو خلقه من طين هو النوع الذی ينتهی أفراده الى من خلق من طين من غير تناسل من أب و أم كآدم و زوجه عليهما السّلام،و الـدليل على ذلك قوله بعـده: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاٰلَهٍ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ فالنسـل الولاده بانفصال المولود عن الوالـدين و المقابله بين بـدء الخلق و بين النسل لا يلائم كون المراد ببـدء الخلق بـدء خلق الإنسان المخلوق من ماء مهين،و لو كان المراد ذلك لكان حق الكلام أن يقال:ثم جعله سلاله من ماء مهين فافهمه.

و قوله: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاٰلَهٍ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ السـلاله كما فی المجمع الصفوه التی تنسل أی تنزع من غيرها و يسمی ماء الرجل سلاله لانسلاله من صلبه،و المهين من الهون و هو الضعف و الحقاره و ثم للتراخی الزمانی.

و المعنی:ثم جعل ولادته بطريق الانفصال من صفوه من ماء ضعيف أو حقير.

قوله تعالی: ثُمَّ سَوّٰاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ التسويه التصوير و تتميم العمل، و فی قوله: «نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» اسـتعاره بالكنايه بتشبيه الروح بـالنفس الـذی يتنفس به ثم نفخه فی قـالب من سوّاه،و إضـافه الروح اليه تعالى إضافه تشـريفيه،و المعنی:ثم صوّر الإنسان المبدو خلقه من الطين و المجعول نسله من سلاله من ماء مهين و نفخ فيه من روح شريف منسوب اليه تعالی.

ص :۷۸

قوله تعالى: وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ امتنان بنعمه الإدراك الحسى و الفكرى فالسمع و البصر للمحسوسات و القلوب للفكريات أعم من الإدراكات الجزئيه الخياليه و الكليه العقليه.

و قوله: قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ أى تشكرون شكرا قليلا،و الجمله اعتراضيه فى محل التوبيخ و قيل:الجمله حاليه،و المعنى:جعل لكم الأبصار و الأفئده و الحال أنكم تشكرون قليلا،و الجمله على أى حال مسوقه للبث و الشكوى و التوبيخ.

قوله تعالى: وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ حجه من منكرى البعث مبنيه على الاستبعاد.و الضلال فى الأرض قيل:هو الضيعه كما يقال:ضلّت النعمه أى ضاعت،و قيل:هو بمعنى الغيبه،و كيف كان فمرادهم به،إنا إذا متنا و انتشرت أجزاء أبداننا فى الأرض و صرنا بحيث لا تميّز لأجزائنا من سائر أجزاء الأرض و لا خبر عنا نقع فى خلق جديد و نخلق ثانيا خلقنا الأول؟

و الاستفهام للإنكار،و الخلق الجديد هو البعث.

و قوله: «بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ» إضراب عن فحوى قولهم: «أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ» كأنه قيل:إنهم لا يجحدون الخلق الجديد لجحدهم قدرتنا عن ذلك أو لسبب آخر بل هم كافرون بالرجوع الينا و لقائنا و لذا جىء فى الجواب عن قولهم بما يدلّ على الرجوع.

قوله تعالى: قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ توفى الشىء أخذه تاما كاملا كتوفى الحق و توفى الدّين من المديون.

و قوله: مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ قيل:أى وكل بإماتتكم و قبض أرواحكم و الآيه مطلقه ظاهره فى أعم من ذلك.

و قد نسب التوفى فى الآيه الى ملك الموت،و فى قوله: اَللّٰهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها (الزمر/۴۲)اليه تعالى،و فى قوله: حَتّٰى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا (الأنعام/

۶۱)،و قوله: اَلَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلاٰئِكَهُ ظٰالِمِى أَنْفُسِهِمْ (النحل/۲۸)،الى الرسل و الملائكه نظرا الى اختلاف مراتب الأسباب فالسبب القريب الملائكه الرسل أعوان ملك الموت و فوقهم ملك الموت الآمر بذلك المجرى لأمر اللّه و اللّه من ورائهم محيط و هو السبب الأعلى و مسبّب الأسباب فذلك بوجه كمثل كتابه الإنسان بالقلم فالقلم كاتب و اليد كاتبه و الإنسان كاتب.

و قوله: ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ هو الرجوع الذى عبر عنه فى الآيه السابقه باللقاء و موطنه البعث المترتب على التوفى و المتراخى عنه،كما يدلّ عليه العطف بثم الداله على التراخى.

و الآيه-على أى تقدير-جواب عن الاحتياج بضلال الموتى فى الأرض على نفى البعث و من المعلوم أن إماته ملك الموت لهم ليس يحسم ماده الإشكال فيبقى قوله: «ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» دعوى خاليه عن الدليل فى مقابل دعواهم المدلله و الكلام الإلهى أنزه ساحه أن يتعاطى هذا النوع من المحاجه.

لكنه تعالى أمر رسوله أن يجيب عن حجتهم المبنيه على الاستبعاد بأن حقيقه الموت ليس بطلانا لكم و ضلالا منكم فى الأرض بل ملك الموت الموكل بكم يأخذكم تامين كاملين من أجسادكم أى ينزع أرواحكم من أبدانكم بمعنى قطع علاقتها من الأبدان و أرواحكم تمام حقيقتكم فأنتم أى ما يعنى بلفظه«كم»محفوظون لا يضل منكم شىء فى الأرض و إنما يضل الأبدان و تتغير من حال الى حال و قد كانت فى معرض التغير من اول كينونتها.ثم إنكم محفوظون حتى ترجعوا الى ربكم بالبعث و رجوع الأرواح الى أجسادها.

و بهذا يندفع حجتهم على نفى المعاد بضلالهم سواء قررت على نحو الاستبعاد أو قررت على أن تلاشى البدن يبطل شخصيه الإنسان فينعدم و لا معنى لإعاده المعدوم فإن حقيقه الإنسان هى نفسه التى يحكى عنها بقول«أنا»و هى غير البدن و البدن تابع لها فى شخصيته

ص :۸۰

و هی لاـ تتلاشی بالموت و لاـ تنعدم بل محفوظه فی قدره اللّه حتی یؤذن فی رجوعها الی ربها للحساب و الجزاء فیبعث علی الشریطه التی ذکر اللّه سبحانه.

و ظهر بما تقدم أولا وجه اتصال قوله: «قُلْ یَتَوَفّٰاکُمْ» الخ؛بقوله: «إِذٰا ضَلَلْنٰا فِی الْأَرْضِ» الخ؛و أنه جواب حاسم للإشکال قاطع للشبهه،و قد أشکل الأمر علی بعض من فسر التوفی بمطلق الإماته من غیر التفات الی نکته التعبیر بلفظ التوفی فتکلف فی توجیه اتصال الآیتین بما لا یرتضیه العقل السلیم.

و ثانیا:أن الآیه من أوضح الآیات القرآنیه الداله علی تجرد النفس بمعنی کونها غیر البدن أو شیء من حالات البدن.

قوله تعالی: وَ لَوْ تَریٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نٰاکِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنٰا أَبْصَرْنٰا وَ سَمِعْنٰا فَارْجِعْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً إِنّٰا مُوقِنُونَ نکس الرأس إطراقه و طأطأته،و المراد بالمجرمین بقرینه ذیل الآیه خصوص المنکرین للمعاد فاللام فیه لا تخلو من معنی العهد أی هؤلاء الذین یجحدون المعاد و یقولون «أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِی الْأَرْضِ» الخ.

و فی التعبیر عن البعث بقوله: «عِنْدَ رَبِّهِمْ» محاذاه لما تقدم من قوله: «بَلْ هُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ کٰافِرُونَ» أی واقفون موقفا من اللقاء لا یسعهم إنکاره،و قولهم: «أَبْصَرْنٰا وَ سَمِعْنٰا» و مسألتهم الرجوع للعمل الصالح لما ینجلی لهم أن النجاه فی الإیمان و العمل الصالح و قد حصل لهم الإیمان الیقینی و بقی العمل الصالح و لذا یعترفون بالیقین و یسألون الرجوع الی الدنیا لیعملوا صالحا فیتم لهم سببا النجاه.

و المعنی:و لو تری إذ هؤلاء الذین یجرمون بإنکار لقاء اللّه مطرقو رءوسهم عند ربهم فی موقف اللقاء من الخزی و الذل و الندم یقولون ربنا أبصرنا بالمشاهده و سمعنا بالطاعه فارجعنا نعمل عملا صالحا إنا موقنون و المحصل أنک تراهم یجحدون اللقاء و لو تراهم إذ أحاط بهم الخزی و الذل فنکسوا رءوسهم و اعترفوا بما ینکرونه الیوم و سألوا العود الی هاهنا

و لن يعودوا.

قوله تعالى: وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها الى آخر الآيه؛أی لو شئنا أن نعطی كل نفس أعم من المؤمنه و الكافره الهدی الذی يختص بها و يناسبها لأعطيناه لها بأن نشاء من طريق اختيار الكافر و إرادته أن يتلبّس بالهدی فيتلبس بها من طريق الاختيار و الإراده كما شئنا فی المؤمن كذلک فتلبس بالهدی باختيار منه و إراده من دون أن ينجر الی الإلجاء و الاضطرار فيبطل التكليف و يلغو الجزاء.

و قوله: وَ لٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّاسِ أَجْمَعِينَ أی و لكن هناک قضاء سابق منی محتوم و هو إملاء جهنم من الجنه و الناس أجمعين و هو قوله لإبليس لما امتنع من سجده آدم و قال: فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاّٰ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص/۸۵)، فقضی أن يدخل متّبعی إبليس العذاب المخلّد.

و لازم ذلک أن لا يهديهم لظلمهم و فسقهم بالخروج عن زی العبوديه كما قال: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِی الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ (التوبه/۸۰)،الی غير ذلک من الآيات.

قوله تعالى: فَذُوقُوا بِمٰا نَسِيتُمْ لِقٰاءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا إِنّٰا نَسِينٰاكُمْ الی آخر الآيه؛ تفريع علی قوله: «وَ لٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی» و النسيان ذهول صوره الشیء عن الذاكره و يكنّی به عن عدم الاعتناء بما يهمّ الشیء و هو المراد فی الآيه.

و المعنی:فإذا كان من القضاء إذاقه العذاب لمتبعی إبليس فذوقوا العذاب بسبب عدم اعتنائكم بلقاء هذا اليوم حتی جحدتموه و لم تعملوا صالحا تثابون به فيه لأنا لم نعتن بما يهمّكم فی هذا اليوم من السعاده و النجاه،و قوله: «وَ ذُوقُوا عَذٰابَ الْخُلْدِ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» تأكيد و توضيح لسابقه أی إن الذوق الذی أمرنا به ذوق عذاب الخلد و نسيانهم لقاء يومهم هذا

ص :۸۲

أعمالهم السيئه (۱)(۲).

[سوره السجده (۳۲): الآيات ۱۵ الی ۳۰]

إِنَّمٰا يُؤْمِنُ بِآيٰاتِنَا اَلَّذِينَ إِذٰا ذُكِّرُوا بِهٰا خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ (۱۵) تَتَجٰافىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ اَلْمَضٰاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ (۱۶) فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۱۷) أَ فَمَنْ كٰانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كٰانَ فٰاسِقاً لاٰ يَسْتَوُونَ (۱۸) أَمَّا اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ فَلَهُمْ جَنّٰاتُ اَلْمَأْوىٰ نُزُلاً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۱۹) وَ أَمَّا اَلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوٰاهُمُ اَلنّٰارُ كُلَّمٰا أَرٰادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهٰا أُعِيدُوا فِيهٰا وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذٰابَ اَلنّٰارِ اَلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۲۰) وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ اَلْعَذٰابِ اَلْأَدْنىٰ دُونَ اَلْعَذٰابِ اَلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۱) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيٰاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهٰا إِنّٰا مِنَ اَلْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (۲۲) وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى اَلْكِتٰابَ فَلاٰ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقٰائِهِ وَ جَعَلْنٰاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرٰائِيلَ (۲۳) وَ جَعَلْنٰا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا لَمّٰا صَبَرُوا وَ كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يُوقِنُونَ (۲۴) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۲۵) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ اَلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسٰاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ أَ فَلاٰ يَسْمَعُونَ (۲۶) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا نَسُوقُ اَلْمٰاءَ إِلَى اَلْأَرْضِ اَلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعٰامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلاٰ يُبْصِرُونَ (۲۷) وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا اَلْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۲۸) قُلْ يَوْمَ اَلْفَتْحِ لاٰ يَنْفَعُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِيمٰانُهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ (۲۹) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ اِنْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (۳۰)

ص: ۸۳

۱- ۱) .السجده ۱-۱۴:بحث روائی فی:سور العزائم،کیفیه قبض روح المؤمن و الظالم.

۲- ۲) .السجده ۱-۱۴:کلام فی کینونه الانسان الاول.

بیان:

قوله تعالى: إِنَّمٰا يُؤْمِنُ بِآيٰاتِنَا الَّذِينَ إِذٰا ذُكِّرُوا بِهٰا خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ لما ذكر شطرا من الكلام فى الكفار الـذين يجحدون لقاءه و يستكبرون فى الدنيا عن الإيمان و العمل الصالح أخذ فى صفه الذين يؤمنون بآيات ربهم و يخضعون للحق لما ذكّروا و وعظوا.

فقوله: إِنَّمٰا يُؤْمِنُ بِآيٰاتِنَا حصر للإيمان بحقيقه معناه فيهم و معناه أن علامه التهيّؤ

للإيمان الحقيقى هو كذا و كذا.

و قوله: اَلَّذِينَ إِذٰا ذُكِّرُوا بِهٰا خَرُّوا سُجَّداً ذكر سبحانه شيئا من أوصافهم و شيئا من أعمالهم،أما ما هو من أوصافهم فتذللهم لمقام الربوبيه و عدم استكبارهم عن الخضوع للّه و تسبيحه و حمده و هو قوله: «إِذٰا ذُكِّرُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ» أى الداله على وحدانيته فى ربوبيته و ألوهيته و ما يلزمها من المعاد و الدعوه النبويه الى الايمان و العمل الصالح «خَرُّوا سُجَّداً» أى سقطوا على الأرض ساجدين للّه تذللا و استكانه «وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» أى نزّهوه مقارنا للثناء الجميل عليه.و السجده و التسبيح و التحميد و إن كانت من الأفعال لكنها مظاهر لصفه التذلل و الخضوع لمقام الربوبيه و الالوهيه،و لذا أردفها بصفه تلازمها فقال:

«وَ هُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ» .

قوله تعالى: تَتَجٰافىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضٰاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ هذا معرّفهم من حيث أعمالهم كما أن ما فى الآيه السابقه كان معرّفهم من حيث أوصافهم.

فقوله: تَتَجٰافىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضٰاجِعِ التجافى التنحّى و الجنوب جمع جنب و هو الشق،و المضاجع جمع مضجع و هو الفراش و موضع النوم،و التجافى عن المضاجع كنايه عن ترك النوم.

و قوله: يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً حال من ضمير جنوبهم و المراد اشتغالهم بدعاء ربهم فى جوف الليل حين تنام العيون و تسكن الانفاس لا-خوفا من سخطه تعالى فقط حتى يغشيهم اليأس من رحمه اللّه و لا طمعا فى ثوابه فقط حتى يأمنوا غضبه و مكره بل يدعونه خوفا و طمعا فيؤثرون فى دعائهم أدب العبوديه على ما يبعثهم اليه الهدى و هذا التجافى و الدعاء ينطبق على النوافل الليليه.

و قوله: وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ عمل آخر لهم و هو الإنفاق للّه و فى سبيله.

قوله تعالى: فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ تفريع لما لهم من الأوصاف و الأعمال يصف ما أعدّ اللّه لهم من الثواب.

و وقوع نفس و هى نكره فى سياق النفى يفيد العموم،و إضافه قرّه الى أعين لا أعينهم تفيد أن فيما أفى لهم قرّه عين كل ذى عين.

و المعنى:فلا تعلم نفس من النفوس-أى هو فوق علمهم و تصوّرهم-ما أخفاه اللّه لهم مما تقرّ به عين كل ذى عين جزاء فى قبال ما كانوا يعملون فى الدنيا.

قوله تعالى: أَ فَمَنْ كٰانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كٰانَ فٰاسِقاً لاٰ يَسْتَوُونَ الإيمان سكون علمى خاص من النفس بالشىء و لازمه الالتزام العملى بما آمن به و الفسق هو الخروج عن الالتزام المذكور من فسقت التمره إذا خرجت عن قشرها و مآل معناه الخروج عن زىّ العبوديه.

و الاستفهام فى الآيه للانكار،و قوله: «لاٰ يَسْتَوُونَ» نفى لاستواء الفريقين تأكيدا لما يفيده الإنكار السابق.

قوله تعالى: أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ فَلَهُمْ جَنّٰاتُ الْمَأْوىٰ نُزُلاً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ المأوى المكان الذى يأوى اليه و يسكن فيه الانسان،و النزل بضمتين كل ما يعدّ للنازل فى بيت من الطعام و الشراب،ثم عمّم كما قيل لكل عطيه،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوٰاهُمُ النّٰارُ الى آخر الآيه؛كون النار مأواهم لازمه خلودهم فيها و لذلك عقّبه بقوله: «كُلَّمٰا أَرٰادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهٰا أُعِيدُوا فِيهٰا» ،و قوله:

«وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذٰابَ النّٰارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ» دليل على أن المراد بالذين فسقوا هم منكروا المعاد و خطابهم و هم فى النار بهذا الخطاب شماته بهم و كثيرا ما كانوا يشمتون فى الدنيا بالمؤمنين لقولهم بالمعاد.

قوله تعالى: وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذٰابِ الْأَدْنىٰ دُونَ الْعَذٰابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ لما كان غايه إذاقتهم العذاب رجوعهم المرجو و الرجوع المرجو هو الرجوع الى اللّه بالتوبه و الإنابه كان المراد بالعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا النازل بهم للتخويف و الإنذار ليتوبوا دون عذاب الاستئصال و دون العذاب الذى بعد الموت و حينئذ المراد بالعذاب الأكبر عذاب يوم القيامه.

و المعنى:أقسم لنذيقنهم من العذاب الأدنى أى الأقرب مثل السنين و الأمراض و القتل و نحو ذلك قبل العذاب الأكبر يوم القيامه لعلهم يرجعون الينا بالتوبه من شركهم و جحودهم.

قوله تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيٰاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهٰا إِنّٰا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ كأنه فى مقام التعليل لما تقدم من عذابهم بالعذاب الأكبر بما أنهم مكذّبون فعلله بأنهم ظالمون أشد الظلم بالإعراض عن الآيات بعد التذكره فيكونون مجرمين و اللّه منتقم منهم.

فقوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ الخ؛تعليل لعذابهم بأنهم ظالمون أشد الظلم ثم قوله: «إِنّٰا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ» ،تعليل لعذاب الظالمين بأنهم مجرمون و العذاب انتقام منهم،و اللّه منتقم من المجرمين.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى الْكِتٰابَ فَلاٰ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقٰائِهِ وَ جَعَلْنٰاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرٰائِيلَ المراد بالكتاب التوراه و المريه الشك و الريب.

و قد اختلفوا فى مرجع الضمير فى قوله: «مِنْ لِقٰائِهِ» و معنى الكلمه فقيل:الضمير لموسى و هو مفعول اللقاء و التقدير فلا تكن فى مريه من لقائك موسى و لقد لقيه ليله المعراج كما وردت به الروايات فإن كانت السوره نازله بعد المعراج فهو تذكره لما قد وقع و إن كانت نازله قبله فهو وعد منه تعالى للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه سيراه.

و من الممكن-و اللّه أعلم-أن يرجع ضمير لقائه اليه تعالى و المراد بلقائه البعث بعنايه أنه

یوم یحضرون لربهم لا حجاب بینه و بینهم کما تقدم،و قد عبر عنه باللقاء قبل عده آیات فی قوله: بَلْ هُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ کٰافِرُونَ ،ثم عبر عنه بما فی معناه فی قوله: «نٰاکِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» .

فیکون المعنی:و لقد آتینا موسی الکتاب کما آتیناک القرآن فلا تکن فی مریه من البعث الذی ینطق به القرآن بالشک فی نفس القرآن و قد أید نزول القرآن علیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بنزول التوراه علی موسی فی مواضع من القرآن،و یؤیده قوله بعد: «وَ جَعَلْنٰاهُ هُدیً لِبَنِی إِسْرٰائِیلَ وَ جَعَلْنٰا مِنْهُمْ أَئِمَّهً یَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا» الخ.

و یمکن أن یکون المراد بلقائه الانقطاع التامّ الیه تعالی عند وحی القرآن أو بعضه کما فی بعض الروایات،فیکون رجوعا الی ما فی صدر السوره من قوله: «تَنْزِیلُ الْکِتٰابِ لاٰ رَیْبَ فِیهِ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِینَ» ،و ذیل الآیه أشد تأییدا لهذا الوجه من سابقه و اللّه أعلم.

و قوله: وَ جَعَلْنٰاهُ هُدیً لِبَنِی إِسْرٰائِیلَ أی هادیا فالمصدر بمعنی اسم الفاعل أو بمعناه المصدری مبالغه.

قوله تعالی: وَ جَعَلْنٰا مِنْهُمْ أَئِمَّهً یَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا لَمّٰا صَبَرُوا وَ کٰانُوا بِآیٰاتِنٰا یُوقِنُونَ أی و جعلنا من بنی إسرائیل أئمه یهدون الناس بأمرنا و إنما نصبناهم أئمه هداه للناس حین صبروا فی الدین و کانوا قبل ذلک موقنین بآیاتنا.

و قد تقدم البحث عن معنی الامامه و هدایه الامام بأمر اللّه فی تفسیر قوله: قٰالَ إِنِّی جٰاعِلُکَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً (البقره/۱۲۴)،و قوله: وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّهً یَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا (الأنبیاء/ ۷۳)،و غیر ذلک من الموارد المناسبه.

و قد تضمنت هاتان الآیتان من الرحمه المنبسطه بالتوراه أنها هدی فی نفسه یهدی من اتبعه الی الحق،و أنها أنشأت فی حجر تربیتها أناسا اجتباهم اللّه للإمامه فصاروا یهدون بأمره فهی مبارکه للعمل بها و مبارکه بعد العمل.

ص :۸۸

قوله تعالی: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ یَفْصِلُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَهِ فِیما کانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ یرید اختلافهم فی الدین و إنما کان ذلک بغیا بینهم کما یذکره فی مواضع من کلامه کقوله: وَ لَقَدْ آتَیْنا بَنِی إِسْرائِیلَ الْکِتابَ -الی أن قال- فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَهِ فِیما کانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (الجاثیه/١٧).

فالمراد بقوله: «یَفْصِلُ بَیْنَهُمْ» القضاء الفاصل بین الحق و الباطل و المحق و المبطل و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: أَ وَ لَمْ یَهْدِ لَهُمْ کَمْ أَهْلَکْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ یَمْشُونَ فِی مَساکِنِهِمْ الخ؛العطف علی محذوف کأنه قیل:أ لم یبین لهم کذا و کذا،أو لم یهد لهم،الخ؛ و الهدایه بمعنی التبیین أو من مضمّن معنی التبیین و لذا عدّی باللام.

و قوله: کَمْ أَهْلَکْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ مشیر الی الفاعل قائم مقامه، و المعنی:أو لم یبین لهم کثره من أهلکنا من القرون و الحال أنهم یمشون فی مساکنهم.

و قوله: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ أَ فَلا یَسْمَعُونَ المراد بالسمع سمع المواعظ المؤدّی الی طاعه الحق و قبوله.

قوله تعالی: أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَی الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْکُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ الخ؛قال فی المجمع:السوق الحث علی السیر من ساقه یسوقه،و قال:الجرز الارض الیابسه التی لیس فیها نبات لانقطاع الأمطار عنها.

انتهی.و الزرع مصدر فی الأصل و المراد به هنا المزروع.

و الآیه تذکر آیه أخری من آیات اللّه سبحانه تدل علی حسن تدبیره للأشیاء و خاصه ذوی الحیاه منها کالأنعام و الإنسان،و المراد بسوق الماء الی الأرض الخالیه من النبات سوق السحب الحامله للأمطار إلیها،ففی نزول ماء المطر منها حیاه الأرض و خروج الزرع و اغتذاء الإنسان و الأنعام التی یسخّرها و یربّیها لمقاصد حیاته.

ص :٨٩

و قوله: أَ فَلاٰ يُبْصِرُونَ تنبيه و توبيخ و تخصيص هـذه الآيه بالإبصار،و الآيه السابقه بالسـمع لما أن العلم بإهلاك الامم الماضـين إنما هو بالاخبار التى تنال من طريق السـمع و أما العلم بسوق الامطار الى الارض الجرز و إخراج الزرع و اغتذاء الانعام و الإنسان فالطريق اليه حاسه البصر.

قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْفَتْحُ -الى قوله- وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ قال الراغب:الفتح إزاله الإغلاق و الإشكال-الى أن قال-و فتح القضيه فتاحا فصل الأمر فيها و أزال الإغلاق عنها،قال: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَ قَوْمِنٰا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفٰاتِحِينَ» .انتهى.

و يمكن أن يكون المراد هو القضاء بين النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بين الامه و يكون ذلك فى آخر الزمان كما تقدمت الإشاره اليه فى تفسير قوله: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ الآيه؛(يونس۴۷/).

و كيف كان فالمراد بالآيتين استعجال المشـركين بالفتـح و الجواب أنه فتح لا ينفع حال الذين كفروا إيمانهم لأنه ظرف لا ينفع نفسا إيمانها و لا أن العذاب يمهلهم و ينظرهم.

قوله تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ أمر بالإعراض عنهم و انتظار الفتـح كما أنهم ينتظرون و إنما كانوا منتظرين موته أو قتله عليه السّلام و بالجمله انقطاع دابر دعوته الحقه فلينتظر هو كما هم ينتظرون حتى يظهر اللّه الحق على الباطل و المحقّ على المبطل.

و من هذا السياق يظهر أن المراد بالفتح الفتح الدنيوى (۱).

۱- ۱) .السجده ۱۵-۳۰:بحث روائى فى:الاسلام؛الصلاه بالليل؛نعم الجنه.

سوره الأحزاب مدنیه و هی ثلاث و سبعون آیه

اشاره

[سوره الأحزاب (۳۳): الآیات ۱ الی ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gtیا أَیُّهَا اَلنَّبِیُّ اِتَّقِ اَللّهَ وَ لا تُطِعِ اَلْکافِرِینَ وَ اَلْمُنافِقِینَ إِنَّ اَللّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً (۱) وَ اِتَّبِعْ ما یُوحی إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ إِنَّ اَللّهَ کانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً (۲) وَ تَوَکَّلْ عَلَی اَللّهِ وَ کَفی بِاللّهِ وَکِیلاً (۳) ما جَعَلَ اَللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَیْنِ فِی جَوْفِهِ وَ ما جَعَلَ أَزْواجَکُمُ اَللاّئِی تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِکُمْ وَ ما جَعَلَ أَدْعِیاءَکُمْ أَبْناءَکُمْ ذلِکُمْ قَوْلُکُمْ بِأَفْواهِکُمْ وَ اَللّهُ یَقُولُ اَلْحَقَّ وَ هُوَ یَهْدِی اَلسَّبِیلَ (۴) اُدْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اَللّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُکُمْ فِی اَلدِّینِ وَ مَوالِیکُمْ وَ لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ فِیما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لکِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُکُمْ وَ کانَ اَللّهُ غَفُوراً رَحِیماً (۵) اَلنَّبِیُّ أَوْلی بِالْمُؤْمِنِینَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَ أُولُوا اَلْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلی بِبَعْضٍ فِی کِتابِ اَللّهِ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ وَ اَلْمُهاجِرِینَ إِلاّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلی أَوْلِیائِکُمْ مَعْرُوفاً کانَ ذلِکَ فِی اَلْکِتابِ مَسْطُوراً (۶) وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ اَلنَّبِیِّینَ مِیثاقَهُمْ وَ مِنْکَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِیمَ وَ مُوسی وَ عِیسَی اِبْنِ مَرْیَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِیثاقاً غَلِیظاً (۷) لِیَسْئَلَ اَلصّادِقِینَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْکافِرِینَ عَذاباً أَلِیماً (۸)

بیان:

تتضـمن السوره تفـاریق من المعـارف و الأحکـام و القصـص و العبر و المواعـظ و فیها قصه غزوه الخنـدق و إشاره الی قصه بنی القریظه من الیهود،و سیاق آیاتها یشهد بأنها مما نزلت بالمدینه.

قوله تعـالی: یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ اتَّقِ اللّٰهَ وَ لاٰ تُطِعِ الْکٰافِرِینَ وَ الْمُنٰافِقِینَ إِنَّ اللّٰهَ کٰانَ عَلِیماً حَکِیماً أمر للنبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بتقوی اللّه و فیه تمهید للنهی الذی بعده «وَ لاٰ تُطِعِ الْکٰافِرِینَ وَ الْمُنٰافِقِینَ» .

و فی سـیاق النهی-و قـد جمع فیه بین الکـافرین و المنـافقین و نهی عن إطـاعتهم-کشف عن أن الکـافرین کـانوا یسألونه أمرا لا یرتضـیه اللّه سـبحانه و کان المنافقون یؤیدونهم فی مسألتهم و یلحّون أمرا کان اللّه سبحانه بعلمه و حکمته قد قضی بخلافه و قد نزل الوحی الإلهی بخلافه،

ص :۹۲

أمرا خطيرا لا- يؤمن مساعده الأسباب على خلافه إلاّ- أن يشاء اللّه فحذّر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن إجابتهم الى ملتمسهم و أمر بمتابعه ما أوحى اللّه اليه و التوكل عليه.

و بهذا يتأيد ما ورد فى أسباب النزول أن عده من صناديد قريش بعد وقعه أحد دخلوا المدينه بأمان من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سألوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يتركهم و آلهتهم فيتركوه و إلهه فنزلت الآيات و لم يجبهم النبى الى ذلك و سيأتى فى البحث الروائى التالى.

و بما تقدم ظهر وجه تذييل الآيه بقوله: «إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ عَلِيماً حَكِيماً» و كذا تعقيب الآيه بالآيتين بعدها.

قوله تعالى: وَ اتَّبِعْ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً الآيه عامه فى حد نفسها لكنها من حيث وقوعها فى سياق النهى تأمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باتباع ما نزل به الوحى فيما يسأله الكافرون و المنافقون و اتباعه إجراؤه عملا بدليل قوله:

«إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً» .

قوله تعالى: وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً الآيه كالآيه السابقه فى أنها عامه فى حد نفسها،لكنها لوقوعها فى سياق النهى السابق تدل على الأمر بالتوكل على اللّه فيما يأمره به الوحى و تشعر بأنه أمر صعب المنال بالنظر الى الأسباب الظاهريه لا يسلم القلب معه من عارضه المخافه و الاضطراب إلاّ المتوكل على اللّه سبحانه فإنه السبب الوحيد الذى لا يغلبه سبب مخالف.

قوله تعالى: مٰا جَعَلَ اللّٰهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ كنايه عن امتناع الجمع بين المتنافيين فى الاعتقاد فإن القلب الواحد أى النفس الواحده لا يسع اعتقادين متنافيين و رأيين متناقضين فإن كان هناك متنافيان فهما لقلبين و ما جعل اللّه لرجل من قلبين فى جوفه فالرجل الواحد لا يسعه أن يعتقد المتنافيين و يصدق بالمتناقضين و قوله: «فِي جَوْفِهِ» يفيد زياده التقرير كقوله: وَ لٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ

(الحج/۴۶).

قوله تعالی: وَ مٰا جَعَلَ أَزْوٰاجَكُمُ اللاّٰئِی تُظٰاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهٰاتِكُمْ كان الرجل فی الجاهلیه یقول لزوجته أنت منی كظهر أمی أو ظهرك علیّ كظهر أمی فیشبّه ظهرها بظهر أمه و كان یسمی ذلک ظهارا و یعد طلاقا لها،و قد ألغاه الإسلام.

فمفاد الآیه أن اللّه لم یجعل أزواجكم اللائی تظاهرون منهن بقول ظهرك علیّ كظهر أمی أمهات لكم و إذ لم یجعل ذلك فلا أثر لهذا القول و الجعل تشریعی.

قوله تعالی: وَ مٰا جَعَلَ أَدْعِیٰاءَكُمْ أَبْنٰاءَكُمْ الأدعیاء جمع دعی و هو المتّخذ ولدا المدعو ابنا و قد كان الدعاء و التبنی دائرا بینهم فی الجاهلیه و كذا بین الامم الراقیه یومئذ كالروم و فارس و كانوا یرتبون علی الدعی أحكام الولد الصلبی من التوارث و حرمه الازدواج و غیرهما و قد ألغاه الإسلام.

فمفاد الآیه أن اللّه لم یجعل الذین تدعونهم لأنفسكم أبناء لكم بحیث یجری فیهم ما یجری فی الأبناء الصلبیّین.

قوله تعالی: ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوٰاهِكُمْ وَ اللّٰهُ یَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ یَهْدِی السَّبِیلَ الإشاره بقوله:«ذلكم»الی ما تقدم من الظهار و الدعاء أو الی الدعاء فقط و هو الأظهر و یؤیده اختصاص الآیه التالیه بحكم الدعاء فحسب.

و قوله: قَوْلُكُمْ بِأَفْوٰاهِكُمْ أی إن نسبه الدعی الی أنفسكم لیس إلاّ قولا تقولونه بأفواهكم لیس له أثر وراء ذلك فهو كنایه عن انتفاء الاثر كما فی قوله: كَلاّٰ إِنَّهٰا كَلِمَةٌ هُوَ قٰائِلُهٰا (المؤمنون/۱۰۰).

و قوله: وَ اللّٰهُ یَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ یَهْدِی السَّبِیلَ معنی كون قوله:هو الحق أنه إن أخبر عن شیء كان الواقع مطابقا لما أخبر به و إن أنشأ حكما ترتب علیه آثاره و طابقته المصلحه الواقعیه.

و معنی هدایته السبیل أنه یحمل من هداه علی سبیل الحق التی فیها الخیر و السعاده و فی الجملتین تلویح الی أن دعوا أقوالکم و خذوا بقوله.

قوله تعالی: اُدْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّهِ الی آخر الآیه؛اللام فی «لِآبائِهِمْ» للاختصاص أی ادعوهم و هم مخصوصون بآبائهم أی انسبوهم الی آبائهم و قوله:

«هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّهِ» ،الضمیر الی المصدر المفهوم من قوله: «ادْعُوهُمْ» نظیر قوله: «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوی» و «أَقْسَطُ» صیغه تفضیل من القسط بمعنی العدل.

و المعنی:انسبوهم الی آبائهم-إذا دعوتموهم-لأن الدعاء لآبائهم أعدل عند اللّه.

و قوله: فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُکُمْ فِی الدِّینِ وَ مَوالِیکُمْ ،المراد بعدم علمهم آباءهم عدم معرفتهم أعیانهم،و الموالی هم الأولیاء،و المعنی:و إن لم تعرفوا آباءهم فلا تنسبوهم الی غیر آبائهم بل ادعوهم بالاخوّه و الولایه الدینیه.

و قوله: وَ لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ فِیما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لکِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُکُمْ أی لا ذنب لکم فی الذی أخطأتم به لسهو أو نسیان فدعوتموهم لغیر آبائهم و لکن الذی تعمّدته قلوبکم ذنب أو و لکن تعمد قلوبکم بذلک فیه الذنب.

و قوله: وَ کانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِیماً راجع الی ما أخطئ به.

قوله تعالی: اَلنَّبِیُّ أَوْلی بِالْمُؤْمِنِینَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ أنفس المؤمنین هم المؤمنون فمعنی کون النبی أولی بهم من أنفسهم أنه أولی بهم منهم:و معنی الأولویه هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بینه و بین ما هو أولی منه فالمحصّل أن ما یراه المؤمن لنفسه من الحفظ و الکلاءه و المحبه و الکرامه و استجابه الدعوه و إنفاذ الإراده فالنبی أولی بذلک من نفسه و لو دار الأمر بین النبی و بین نفسه فی شیء من ذلک کان جانب النبی أرجح من جانب نفسه.

ففیما إذا توجه شیء من المخاطر الی نفس النبی فلیقه المؤمن بنفسه و یفده نفسه و لیکن

النبی أحب الیه من نفسه و أکرم عنده من نفسه و لو دعته نفسه الی شیء و النبی الی خلافه أو أرادت نفسه منه شیئا و أراد النبی خلافه کان المتعین استجابه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و طاعته و تقدیمه علی نفسه.

و کذا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أولی بهم فیما یتعلق بالامور الدنیویه أو الدینیه کل ذلک لمکان الإطلاق فی قوله: «النَّبِیُّ أَوْلیٰ بِالْمُؤْمِنِینَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» .

و قوله: وَ أَزْوٰاجُهُ أُمَّهٰاتُهُمْ جعل تشریعی أی إنهن منهم بمنزله أمهاتهم فی وجوب تعظیمهن و حرمه نکاحهن بعد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما سیأتی التصریح به فی قوله: «وَ لاٰ أَنْ تَنْکِحُوا أَزْوٰاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً» .

فالتنزیل إنما هو فی بعض آثار الاموه لا-فی جمیع الآثار کالتوارث بینهن و بین المؤمنین و النظر فی وجوههن کالامهات و حرمه بناتهن علی المؤمنین لصیرورتهن أخوات لهم و کصیروره آبائهن و أمهاتهن أجدادا و جدات و إخوتهن و أخواتهن أخوالا و خالات للمؤمنین.

قوله تعالی: وَ أُولُوا الْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلیٰ بِبَعْضٍ فِی کِتٰابِ اللّٰهِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُهٰاجِرِینَ الخ؛الأرحام جمع رحم و هی العضو الذی یحمل النطفه حتی تصیر جنینا فیتولد،و إذ کانت القرابه النسبیه لازمه الانتهاء الی رحم واحده عبّر عن القرابه بالرحم فسمی ذوو القرابه أولی الأرحام.

و المراد بکون أولی الأرحام بعضهم أولی ببعض،الأولویه فی التوارث،و قوله: «فِی کِتٰابِ اللّٰهِ» المراد به اللوح المحفوظ أو القرآن أو السوره،و قوله: «مِنَ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُهٰاجِرِینَ» مفضّل علیه و المراد بالمؤمنین غیر المهاجرین منهم،و المعنی:و ذوو القرابه بعضهم أولی ببعض من المهاجرین و سائر المؤمنین الذین کانوا یرثون بالمؤاخاه الدینیه،و هذه الأولویه فی کتاب اللّه و ربما احتمل کون قوله: «مِنَ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُهٰاجِرِینَ» بیانا لقوله: «وَ أُولُوا

الْأَرْحامِ» .

و الآیه ناسخه لما کان فی صدر الاسلام من التوارث بالهجره و الموالاه فی الدین.

و قوله: «إِلّاٰ أَنْ تَفْعَلُوا إِلیٰ أَوْلِیٰائِکُمْ مَعْرُوفاً» الاستثناء منقطع،و المراد بفعل المعروف الی الأولیاء الوصیه لهم بشیء من الترکه،و قد حدّ شرعا بثلث المال فما دونه،و قوله: «کٰانَ ذٰلِکَ فِی الْکِتٰابِ مَسْطُوراً» أی حکم فعل المعروف بالوصیه مسطور فی اللوح المحفوظ أو القرآن أو السوره.

قوله تعالی: وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِنَ النَّبِیِّینَ مِیثٰاقَهُمْ وَ مِنْکَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ وَ أَخَذْنٰا مِنْهُمْ مِیثٰاقاً غَلِیظاً إضافه المیثاق الی ضمیر النبیین دلیل علی أن المراد بالمیثاق میثاق خاص بهم کما أن ذکرهم بوصف النبوه مشعر بذلک فالمیثاق المأخوذ من النبیین میثاق خاص من حیث إنهم نبیّون و هو غیر المیثاق المأخوذ من عامه البشر الذی یشیر الیه فی قوله: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ قٰالُوا بَلیٰ (الأعراف/۱۷۲).

و قد ذکر النبیین بلفظ عام یشمل الجمیع ثم سمّی خمسه منهم بأسمائهم بالعطف علیهم فقال:

«وَ مِنْکَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ» و معنی العطف إخراجهم من بینهم و تخصیصهم بالذکر کأنه قیل:و إذ أخذنا المیثاق منکم أیها الخمسه و من باقی النبیین.

و لم یخصهم بالذکر علی هذا النمط إلاّ لعظمه شأنهم و رفعه مکانهم فإنهم أولو عزم و أصحاب شرائع و کتب و قد عدّهم علی ترتیب زمانهم:نوح ثم إبراهیم ثم موسی ثم عیسی بن مریم علیهم السّلام،لکن قدّم ذکر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو آخرهم زمانا لفضله و شرفه و تقدمه علی الجمیع.

و قوله: وَ أَخَذْنٰا مِنْهُمْ مِیثٰاقاً غَلِیظاً تأکید و تغلیظ للمیثاق نظیر قوله: وَ لَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّیْنٰا هُوداً وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَهٍ مِنّٰا وَ نَجَّیْنٰاهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِیظٍ (هود/۵۸).

قوله تعالى: لِيَسْئَلَ الصّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً اللام فى «لِيَسْئَلَ» للتعليل أو للغايه و هو متعلق بمحذوف يدل عليه قوله: «وَ إِذْ أَخَذْنا» و قوله: «وَ أَعَدَّ» معطوف على ذلك المحذوف،و التقدير فعل ذلك أى أخذ الميثاق ليتمهد له سؤال الصادقين عن صدقهم و أعدّ للكافرين عذابا أليما.

و لم يقل:و ليعدّ للكافرين عذابا،إشاره أن عذابهم ليس من العلل الغائيه لأخذ الميثاق و إنما النقص من ناحيتهم و الخلف من قبلهم.

و أما سؤال الصادقين عن صدقهم فقيل:المراد بالصادقين الأنبياء و سؤالهم عن صدقهم هو سؤالهم يوم القيامه عما جاءت به أممهم و كأنه مأخوذ من قوله تعالى: يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ (المائده۱۰۹/).

و قيل:المراد سؤال الصادقين فى توحيد اللّه و عدله و الشرائع عن صدقهم أى عما كانوا يقولون فيه،و قيل:المراد سؤال الصادقين فى أقوالهم عن صدقهم فى أفعالهم،و قيل:المراد سؤال الصادقين عما قصدوا بصدقهم أ هو وجه اللّه أو غيره؟الى غير ذلك من الوجوه و هى كما ترى.

و التأمل فيما يفيده قوله: «لِيَسْئَلَ الصّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ» يرشد الى خلاف ما ذكروه، ففرق بين قولنا:سألت الغنى عن غناه و سألت العالم عن علمه،و بين قولنا:سألت زيدا عن ماله أو عن علمه،فالمتبادر من الأولين أنى طالبته أن يظهر غناه و أن يظهر علمه،و من الأخيرين أنى طالبته أن يخبرنى هل له مال أو هل له علم؟أو يصف لى ما له من المال أو من العلم.

و على هذا فمعنى سؤال الصادقين عن صدقهم مطالبتهم أن يظهروا ما فى باطنهم من الصدق فى مرتبه القول و الفعل و هو عملهم الصالح فى الدنيا فالمراد بسؤال الصادقين عن صدقهم توجيه التكليف على حسب الميثاق اليهم ليظهر منهم صدقهم المستبطن فى نفوسهم و هذا فى

الدنيا لا فى الآخره فأخذ الميثاق فى نشأه اخرى قبل الدنيا كما يدل عليه آيات الذر وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قٰالُوا بَلىٰ الآيات.

و بالجمله الآيتان من الآيات المنبئه عن عالم الذر المأخوذ فيه الميثاق و تذكر أن أخذ الميثاق من الأنبياء عليهم السّلام و ترتب شأنهم و عملهم فى الدنيا على ذلك فى ضمن ترتب صدق كل صادق على الميثاق المأخوذ منه.

و لمكان هذا التعميم ذكر عاقبه أمر الكافرين مع أنهم ليسوا من قبيل النبيين و الكلام فى الميثاق المأخوذ منهم فكأنه قيل:أخذنا ميثاقا غليظا من النبيين أن تتفق كلمتهم على دين واحد يبلّغونه ليسأل الصادقين و يطالبهم بالتكليف و الهدايه إظهار صدقهم فى الاعتقاد و العمل ففعلوا فقدّر لهم الثواب و أعدّ للكافرين عذابا أليما.

و من هنا يظهر وجه الالتفات من التكلم مع الغير الى الغيبه فى قوله: «لِيَسْئَلَ الصّٰادِقِينَ» الخ؛و ذلك لأن الميثاق على عبادته وحده لا شريك له و إن كان أخذه منه تعالى بواسطه من الملائكه المصحح لقوله: «أَخَذْنٰا» «وَ أَخَذْنٰا» فالمطالب لصدق الصادقين و المعدّ لعذاب الكافرين بالحقيقه هو تعالى وحده ليعبد وحده فتدبر (1).

[سوره الأحزاب (33): الآيات 9 الى 27]

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اُذْكُرُوا نِعْمَةَ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جٰاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهٰا وَ كٰانَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (9) إِذْ جٰاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زٰاغَتِ اَلْأَبْصٰارُ وَ بَلَغَتِ اَلْقُلُوبُ اَلْحَنٰاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللّٰهِ اَلظُّنُونَا (10) هُنٰالِكَ اُبْتُلِيَ اَلْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزٰالاً شَدِيداً (11) وَ إِذْ يَقُولُ اَلْمُنٰافِقُونَ وَ اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مٰا وَعَدَنَا اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ إِلاّٰ غُرُوراً (12) وَ إِذْ قٰالَتْ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ يٰا أَهْلَ يَثْرِبَ لاٰ مُقٰامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ اَلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنٰا عَوْرَةٌ وَ مٰا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاّٰ فِرٰاراً (13) وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطٰارِهٰا ثُمَّ سُئِلُوا اَلْفِتْنَةَ لَآتَوْهٰا وَ مٰا تَلَبَّثُوا بِهٰا إِلاّٰ يَسِيراً (14) وَ لَقَدْ كٰانُوا عٰاهَدُوا اَللّٰهَ مِنْ قَبْلُ لاٰ يُوَلُّونَ اَلْأَدْبٰارَ وَ كٰانَ عَهْدُ اَللّٰهِ مَسْؤُلاً (15) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ اَلْفِرٰارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ اَلْمَوْتِ أَوِ اَلْقَتْلِ وَ إِذاً لاٰ تُمَتَّعُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً (16) قُلْ مَنْ ذَا اَلَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اَللّٰهِ إِنْ أَرٰادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرٰادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لاٰ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً (17) قَدْ يَعْلَمُ اَللّٰهُ اَلْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ اَلْقٰائِلِينَ لِإِخْوٰانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنٰا وَ لاٰ يَأْتُونَ اَلْبَأْسَ إِلاّٰ قَلِيلاً (18) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذٰا جٰاءَ اَلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشىٰ عَلَيْهِ مِنَ اَلْمَوْتِ فَإِذٰا ذَهَبَ اَلْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدٰادٍ أَشِحَّةً عَلَى اَلْخَيْرِ أُولٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اَللّٰهُ أَعْمٰالَهُمْ وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى اَللّٰهِ يَسِيراً (19) يَحْسَبُونَ اَلْأَحْزٰابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ اَلْأَحْزٰابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بٰادُونَ فِي اَلْأَعْرٰابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبٰائِكُمْ وَ لَوْ كٰانُوا فِيكُمْ مٰا قٰاتَلُوا إِلاّٰ قَلِيلاً (20) لَقَدْ كٰانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اَللّٰهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كٰانَ يَرْجُوا اَللّٰهَ وَ اَلْيَوْمَ اَلْآخِرَ وَ ذَكَرَ اَللّٰهَ كَثِيراً (21) وَ لَمّٰا رَأَ اَلْمُؤْمِنُونَ اَلْأَحْزٰابَ قٰالُوا هٰذٰا مٰا وَعَدَنَا اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ مٰا زٰادَهُمْ إِلاّٰ إِيمٰاناً وَ تَسْلِيماً (22) مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ رِجٰالٌ صَدَقُوا مٰا عٰاهَدُوا اَللّٰهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مٰا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23) لِيَجْزِيَ اَللّٰهُ اَلصّٰادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ اَلْمُنٰافِقِينَ إِنْ شٰاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً (24) وَ رَدَّ اَللّٰهُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنٰالُوا خَيْراً وَ كَفَى اَللّٰهُ اَلْمُؤْمِنِينَ اَلْقِتٰالَ وَ كٰانَ اَللّٰهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (25) وَ أَنْزَلَ اَلَّذِينَ ظٰاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ اَلْكِتٰابِ مِنْ صَيٰاصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ اَلرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً (26) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيٰارَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُهٰا وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (27)

---

١ - ١) .الاحزاب ١-٨:بحث روائى حول قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللّٰهَ وَ لاٰ تُطِعِ الْكٰافِرِينَ وَ الْمُنٰافِقِينَ» ؛و قوله تعالى: «النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» .

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ الخ؛تذكير للمؤمنين بما أنعم عليهم أيام الخندق بنصرهم و صرف جنود المشركين عنهم و قد كانوا جنودا مجنده من شعوب و قبائل شتى كغطفان و قريش و الأحابيش و كنانه و يهود بنى قريظه و النضير أحاطوا بهم من فوقهم و من أسفل منهم فسلّط اللّه عليهم الريح و أنزل ملائكه يخذلونهم.

و هو قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ ظرف للنعمه أو لثبوتها «جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ» من طوائف كل واحده منهم جند كغطفان و قريش و غيرهما «فَأَرْسَلْنَا» بيان للنعمه و هو الإرسال المتفرع على مجيئهم «عَلَيْهِمْ رِيحاً» و هى الصبا و كانت بارده فى ليال شاتيه «وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا» و هى الملائكه لخذلان المشركين «وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً» .

قوله تعالى: إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ الخ؛الجاءون من فوقهم و هو الجانب الشرقى للمدينه غطفان و يهود بنى قريظه و بنى النضير و الجاءون من أسفل منهم و هو الجانب الغربى لها قريش و من انضم اليهم من الأحابيش و كنانه فقوله: «إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ» عطف بيان لقوله: «إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ» .

و قوله: «إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» ،عطف بيان آخر لقوله: «إِذْ جَاءَتْكُمْ» الخ؛و زيغ الأبصار ميلها و القلوب هى الأنفس و الحناجر جمع حنجر و هو جوف الحلقوم.

ص: ۱۰۲

و الوصفان أعنى زيغ الأبصار و بلوغ القلوب الحناجر كنايتان عن كمال غشيان الخوف لهم حتى حوّلهم الى حال المختصر الذى يزيغ بصره و تبلغ روحه الحلقوم.

و قوله: وَ تَظُنُّونَ بِاللّٰهِ الظُّنُونَا أى يظن المنافقون و الـذين فى قلوبهم مرض الظنون فبعضـهم يقول:إن الكفار سيغلبون و يستولون على المـدينه،و بعضـهم يقول:إن الإسـلام سينمحق و الـدين سيضـيع،و بعضـهم يقول:إن الجـاهليه ستعود كما كانت،و بعضـهم يقول:إن اللّه غرّهم و رسوله الى غير ذلك من الظنون.

قوله تعـالى: هُنٰالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزٰالاً شَدِيداً هنالـك إشـاره بعيـده الى زمـان أو مكـان و المراد الإشاره الى زمان مجىء الجنود و كان شديـدا عليهم لغايه بعيده،و الابتلاء الامتحان،و الزلزله و الزلزال الاضـطراب،و الشده القوه و تختلفان فى أن الغالب على الشده أن تكون محسوسا بخلاف القوه،قيل:و لذلك يطلق القوى عليه تعالى دون الشديد.

و المعنى فى ذلك الزمان الشديد امتحن المؤمنون و اضطربوا خوفا اضطرابا شديدا.

قوله تعـالى: وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مٰا وَعَدَنَا اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ إِلاّٰ غُرُوراً الـذين فى قلوبهم مرض هم ضـعفاء الإيمان من المؤمنين و هم غير المنافقين الذين يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر،و إنما سمعى المنافقون الرسول لمكان إظهارهم الإسلام.

و الغرور حمـل الإنسان على الشـر بإراءته فى صوره الخير و الاغترار احتماله له.قال الراغب:يقال:غررت فلانا أصـبت غرّته و نلت منه ما أريد،و الغرّه-بكسر الغين-غفله فى اليقظه.انتهى.

و الوعـد الـذى يعـدّونه غرورا من اللّه و رسوله لهم بقرينه المقام هو وعـد الفتـح و ظهور الإسـلام على الدين كله و قد تكرر فى كلامه تعالى كما ورد ان المنافقين قالوا:يعدنا محمّد أن

يفتح مدائن كسرى و قيصر و نحن لا نأمن أن نذهب الى الخلاء.

قوله تعالى: وَ إِذْ قٰالَتْ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ يٰا أَهْلَ يَثْرِبَ لاٰ مُقٰامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا يثرب اسم المدينه قبل الإسلام ثم غلب عليه اسم مدينه الرسول بعد الهجره ثم المدينه، و المقام بضم الميم الإقامه،و قولهم:لا مقام لكم فارجعوا أى لا وجه لإقامتكم هاهنا قبال جنود المشركين فالغلبه لهم لا محاله فارجعوا ثم أتبعه بحكايه ما قاله آخرون فقال عاطفا على قوله:قالت طائفه: «وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ» أى من المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض «النَّبِيَّ» فى الرجوع «يَقُولُونَ» استئذانا «إِنَّ بُيُوتَنٰا عَوْرَةٌ» أى فيها خلل لا يمن صاحبها دخول السارق و زحف العدو «وَ مٰا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ» أى ما يريدون بقولهم هذا «إِلاّٰ فِرٰاراً» .

قوله تعالى: وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطٰارِهٰا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهٰا وَ مٰا تَلَبَّثُوا بِهٰا إِلاّٰ يَسِيراً ضمائر الجمع للمنافقين و المرضى القلوب،و الضمير فى «دُخِلَتْ» للبيوت و معنى دخلت عليهم دخل الجنود البيوت حال كونه دخولا عليهم،و الأقطار جمع قطر و هو الجانب،و المراد بالفتنه بقرينه المقام الرده و الرجعه من الدين و المراد بسؤالها طلبها منهم،و التلبث التأخر.

و المعنى:و لو دخل جنود المشركين بيوتهم من جوانبها و هم فيها ثم طلبوا منهم أن يرتدوا عن الدين لأعطوهم مسئولهم و ما تأخروا بالرده إلاّ يسيرا من الزمان بمقدار الطلب و السؤال أى إنهم يقيمون على الدين ما دام الرخاء فإذا هجمت عليهم الشده و البأس لم يلبثوا دون أن يرجعوا.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ كٰانُوا عٰاهَدُوا اللّٰهَ مِنْ قَبْلُ لاٰ يُوَلُّونَ الْأَدْبٰارَ وَ كٰانَ عَهْدُ اللّٰهِ مَسْؤُلاً اللام لقسم،و قوله: «لاٰ يُوَلُّونَ الْأَدْبٰارَ» أى لا يفرّون عن القتال و هو بيان للعهد و لعل المراد بعهدهم من قبل هو بيعتهم بالإيمان باللّه و رسوله و ما جاء به رسوله و مما جاء

به:الجهاد الذى يحرم الفرار فيه و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرٰارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لاٰ تُمَتَّعُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً إذ لا بد لكل نفس من الموت لأجل مقضى محتوم لا يتأخر عنه ساعه و لا يتقدم عليه فالفرار لا يؤثر فى تأخير الأجل شيئا.

و قوله: وَ إِذاً لاٰ تُمَتَّعُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً أى و إن نفعكم الفرار فمتّعتم بتأخر الأجل فرضا لا يكون ذلك التمتيع إلّا تمتيعا قليلا أو فى زمان قليل لكونه مقطوع الآخر لا محاله.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللّٰهِ إِنْ أَرٰادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرٰادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لاٰ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً كانت الآيه السابقه تنبيها لهم على أن حياه الإنسان مقضى مؤجل لا ينفع معه فرار من الزحف و فى هذه الآيه تنبيه على أن الشر و الخير تابعان لإراده اللّه محضا لا يمنع عن نفوذها سبب من الاسباب و لا يعصم الإنسان منها أحد فالحزم إيكال الأمر الى إرادته تعالى و القرار على أمره بالتوكل عليه.

و لما كانت قلوبهم مرضى أو مشغوله بكفر مستبطن عدل عن أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بتكليمهم الى تكليم نفسه فقال: «وَ لاٰ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً» .

قوله تعالى: قَدْ يَعْلَمُ اللّٰهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ -الى قوله- يَسِيراً التعويق التثبيط و الصرف،و هلم اسم فعل بمعنى أقبل،و لا يثنّى و لا يجمع فى لغه الحجاز،و البأس الشده و الحرب،و أشحّه جمع شحيح بمعنى البخيل،و الذى يغشى عليه هو الذى أخذته الغشوه فغابت حواسه و أخذت عيناه تدوران،و السلق بالفتح فالسكون الضرب و الطعن.

و معنى الآيتين:أن اللّه ليعلم الذين يثبطون منكم الناس و يصرفونهم عن القتال و هم المنافقون و يعلم الذين يقولون من المنافقين لإخوانهم من المنافقين أو ضعفه الإيمان تعالوا و أقبلوا و لا يحضرون الحرب إلّا قليلا بخلاء عليكم بنفوسهم.

فإذا جاء الخوف بظهور مخائل القتال تراهم ينظرون اليك من الخوف نظرا لا إراده لهم فيه و لا استقرار فيه لأعينهم تدور أعينهم كالمغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف ضربوكم و طعنوكم بألسنه حداد قاطعه حال كونهم بخلاء على الخير الذى نلتموه.

أولئك لم يؤمنوا و لم يستقر الإيمان فى قلوبهم و إن أظهروه فى ألسنتهم فأبطل اللّه أعمالهم و أحبطها و كان ذلك على اللّه يسيرا.

قوله تعالى: يَحْسَبُونَ الْأَحْزٰابَ لَمْ يَذْهَبُوا الى آخر الآيه؛أى يظنون من شده الخوف أن الأحزاب-و هم جنود المشركين المتحزبون على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-لم يذهبوا بعد «وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزٰابُ» مره ثانيه بعد ذهابهم و تركهم المدينه «يَوَدُّوا» و يحبوا «أَنَّهُمْ بٰادُونَ» أى خارجون من المدينه الى البدو «فِي الْأَعْرٰابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبٰائِكُمْ» و أخباركم «وَ لَوْ كٰانُوا فِيكُمْ» و لم يخرجوا منها بادين «مٰا قٰاتَلُوا إِلاّٰ قَلِيلاً» أى و لا كثير فائده فى لزومهم إياكم و كونهم معكم فإنهم لن يقاتلوا إلاّ قليلا فلا يعتدّ به.

قوله تعالى: لَقَدْ كٰانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّٰهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كٰانَ يَرْجُوا اللّٰهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللّٰهَ كَثِيراً الاسوه القدوه و هى الاقتداء و الاتّباع،و قوله:

«فِي رَسُولِ اللّٰهِ» أى فى مورد رسول اللّه و الاسوه التى فى مورده هى تأسّيهم به و اتباعهم له و التعبير بقوله: «لَقَدْ كٰانَ لَكُمْ» الدال على الاستقرار و الاستمرار فى الماضى إشاره الى كونه تكليفا ثابتا مستمرا.

و المعنى:و من حكم رساله الرسول و إيمانكم به أن تتأسوا به فى قوله و فعله و أنتم ترون ما يقاسيه فى جنب اللّه و حضوره فى القتال و جهاده فى اللّه حق جهاده.

و قوله: لِمَنْ كٰانَ يَرْجُوا اللّٰهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللّٰهَ كَثِيراً بدل من ضمير الخطاب فى «لَكُمْ» للدلاله على أن التأسى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خصله جميله زاكيه لا يتصف بها كلّ من تسمّى بالإيمان،و إنما يتصف بها جمع ممن تلبّس بحقيقه الإيمان فكان يرجو

اللّه و اليوم الآخر أى تعلق قلبه باللّه فآمن به و تعلق قلبه باليوم الآخر فعمل صالحا و مع ذلك ذكر اللّه كثيرا فكان لا يغفل عن ربه فتأسى بالنبى فى أفعاله و أعماله.

قوله تعالى: وَ لَمّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللّهُ وَ رَسُولُهُ ،وصف لحال المؤمنين لما شاهدوا الأحزاب و نزول جيوشهم حول المدينه فكان ذلك سبب رشدهم و تبصّرهم فى الإيمان و تصديقهم للّه و لرسوله على خلاف ما ظهر من المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض من الارتياب و سيئ القول،و بذلك يظهر أن المراد بالمؤمنين المخلصون لإيمانهم باللّه و رسوله.

و قوله: قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللّهُ وَ رَسُولُهُ الإشاره بهذا الى ما شاهدوه مجردا عن سائر الخصوصيات،كما فى قوله: فَلَمّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّی (الأنعام/ ٢٨).

و الوعد الذى أشاروا اليه قيل:هو ما كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد وعدهم أن الأحزاب سيتظاهرون عليهم فلما شاهدوهم تبين لهم أن ذلك هو الذى وعدهم.

و قوله: وَ صَدَقَ اللّهُ وَ رَسُولُهُ شهاده منهم على صدق الوعد،و قوله: «وَ ما زادَهُمْ إِلاّ إِيماناً وَ تَسْلِيماً» أى إيمانا باللّه و رسوله و تسليما لأمر اللّه بنصره دينه و الجهاد فى سبيله.

قوله تعالى: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ،قال الراغب:النحب النذر المحكوم بوجوبه،يقال:قضى فلان نحبه أى و فى بنذره قال تعالى: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ» ،و يعبّر بذلك عمن مات كقولهم:قضى أجله و استوفى أكله و قضى من الدنيا حاجته.انتهى.

و قوله: صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ أى حققوا صدقهم فيما عاهدوه أن لا يفرّوا إذا لاقوا العدو،و يشهد على أن المراد بالعهد ذلك أن فى الآيه محاذاه لقوله السابق فى

المنافقين و الضعفاء الإيمان: «وَ لَقَدْ كٰانُوا عٰاهَدُوا اللّٰهَ مِنْ قَبْلُ لاٰ يُوَلُّونَ الْأَدْبٰارَ» كما أن فى الآيه السابقه محاذاه لما ذكر سابقا من ارتياب القوم و عدم تسليمهم لأمر اللّه.

و قوله: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ الخ؛أى منهم من قضى أجله يموت أو قتل فى سبيل اللّه و منهم من ينتظر ذلك و ما بدّلوا شيئا مما كانوا عليه من قول أو عهد تبديلا.

قوله تعالى: لِيَجْزِيَ اللّٰهُ الصّٰادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنٰافِقِينَ إِنْ شٰاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً اللام للغايه و ما تتضمنه الآيه غايه لجميع من تقدم ذكرهم من المنافقين و المؤمنين.

فقوله: لِيَجْزِيَ اللّٰهُ الصّٰادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ المراد بالصادقين المؤمنين و قد ذكر صدقهم قبل،و الباء فى «بِصِدْقِهِمْ» للسببيه أى ليجزى المؤمنين الذين صدقوا عهدهم بسبب صدقهم.

و قوله: وَ يُعَذِّبَ الْمُنٰافِقِينَ إِنْ شٰاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أى و ليعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم و ذلك فيما لو لم يتوبوا أو يتوب عليهم إن تابوا إن اللّه كان غفورا رحيما.

و فى الآيه من حيث كونها بيان غايه نكته لطيفه هى أن المعاصى ربما كانت مقدمه للسعاده و المغفره لا بما أنها معاص بل لكونها سائقه للنفس من الظلمه و الشقوه الى حيث تتوحش النفس و تتنبّه فتتوب الى ربها و تنتزع عن معاصيها و ذنوبها فيتوب اللّه عليها فى الغايه.

قوله تعالى: وَ رَدَّ اللّٰهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنٰالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللّٰهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتٰالَ وَ كٰانَ اللّٰهُ قَوِيًّا عَزِيزاً الغيظ الغم و الحنق و المراد بالخير ما كان يعدّه الكفار خيرا و هو الظفر بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين.

و المعنى:و ردّ اللّه الذين كفروا مع غمّهم و حنقهم و الحال أنهم لم ينالوا ما كانوا يتمنونه و كفى اللّه المؤمنين القتال فلم يقاتلوا و كان اللّه قويا على ما يريد عزيزا لا يغلب.

قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظٰاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ مِنْ صَيٰاصِيهِمْ -الى

قوله- قَدِيراً المظاهره المعاونه،و الصياصى جمع صيصيه و هى الحصن الذى يمتنع به و لعل التعبير بالإنزال دون الإخراج لأن المتحصنين يصعدون بروج الحصون و يشرفون منها و من أعالى الجدران على أعدائهم فى خارجها و محاصريهم.

و المعنى «وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظٰاهَرُوهُمْ» أى عاونوا المشركين و هم بنو قريظه «مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ» و هم اليهود «مِنْ صَيٰاصِيهِمْ» و حصونهم «وَ قَذَفَ» و ألقى «فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» و الخوف «فَرِيقاً تَقْتُلُونَ» و هم الرجال «وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً» و هم الذرارى و النساء «وَ أَوْرَثَكُمْ» أى و ملّككم بعدهم «أَرْضَهُمْ وَ دِيٰارَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُهٰا» و هى أرض خيبر أو الأرض التى أفاء اللّه مما لم يوجب عليها بخيل و لا ركاب،و أما تفسيرها بأنها كل أرض ستفتح الى يوم القيامه أو أرض مكه أو أرض الروم و فارس فلا يلائمه سياق الآيتين «وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً» (1).

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٨ الى ٣۵]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوٰاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اَلْحَيٰاةَ اَلدُّنْيٰا وَ زِينَتَهٰا فَتَعٰالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَرٰاحاً جَمِيلاً (٢٨) وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ اَلدّٰارَ اَلْآخِرَةَ فَإِنَّ اَللّٰهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنٰاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (٢٩) يٰا نِسٰاءَ اَلنَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضٰاعَفْ لَهَا اَلْعَذٰابُ ضِعْفَيْنِ وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى اَللّٰهِ يَسِيراً (٣٠) وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صٰالِحاً نُؤْتِهٰا أَجْرَهٰا مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنٰا لَهٰا رِزْقاً كَرِيماً (٣١) يٰا نِسٰاءَ اَلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ اَلنِّسٰاءِ إِنِ اِتَّقَيْتُنَّ فَلاٰ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ اَلَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٣٢) وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لاٰ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ اَلْجٰاهِلِيَّةِ اَلْأُولىٰ وَ أَقِمْنَ اَلصَّلاٰةَ وَ آتِينَ اَلزَّكٰاةَ وَ أَطِعْنَ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّمٰا يُرِيدُ اَللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) وَ اُذْكُرْنَ مٰا يُتْلىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيٰاتِ اَللّٰهِ وَ اَلْحِكْمَةِ إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ لَطِيفاً خَبِيراً (٣۴) إِنَّ اَلْمُسْلِمِينَ وَ اَلْمُسْلِمٰاتِ وَ اَلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ وَ اَلْقٰانِتِينَ وَ اَلْقٰانِتٰاتِ وَ اَلصّٰادِقِينَ وَ اَلصّٰادِقٰاتِ وَ اَلصّٰابِرِينَ وَ اَلصّٰابِرٰاتِ وَ اَلْخٰاشِعِينَ وَ اَلْخٰاشِعٰاتِ وَ اَلْمُتَصَدِّقِينَ وَ اَلْمُتَصَدِّقٰاتِ وَ اَلصّٰائِمِينَ وَ اَلصّٰائِمٰاتِ وَ اَلْحٰافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ اَلْحٰافِظٰاتِ وَ اَلذّٰاكِرِينَ اَللّٰهَ كَثِيراً وَ اَلذّٰاكِرٰاتِ أَعَدَّ اَللّٰهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (٣۵)

---

١ – ١) .الاحزاب ٩-٢٧:بحث روائى فى غزوه الاحزاب؛حفر الخندق؛فضيله سلمان؛براز على عليه السّلام لعمرو بن عبد ود و قتله؛قول رسول اللّه فى ان عمل على عليه السّلام أفضل من عباده امه محمد؛دور نعيم بن مسعود فى غزوه الاحزاب؛ ذهاب الرسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الى حرب بنى قريظه.

بیان:

قوله تعالی: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ الی تمام الآیتین،سیاق الآیتین یلوّح أن أزواج النبی أو بعضهن کانت لا ترتضی ما فی عیشتهن فی بیت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الضیق

ص :۱۱۰

و الضنک فاشتکت الیه ذلک و اقترحت علیه أن یسعدهن فی الحیاه بالتوسعه فیها و إیتائهن من زینتها؟

فأمر اللّه سبحانه نبیه أن یخیّرهن بین أن یفارقنه و لهن ما یردن و بین أن یبقین عنده و لهن ما هن علیه من الوضع الموجود.

و قد ردّد أمرهن بین أن یرد الحیاه الدنیا و زینتها و بین أن یردن اللّه و رسوله و الدار الآخره، و هذا التردید یدل أولا:أن الجمع بین سعه العیش و صفائها بالتمتع من الحیاه و زینتها و زوجیه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و العیشه فی بیته مما لا یجتمعان.

و ثانیا:أن کلا من طرفی التردید مقیّد بما یقابل الآخر،و المراد بإراده الحیاه الدنیا و زینتها جعلها هی الأصل سواء أریدت الآخره أو لم یرد،و المراد بإراده الحیاه الآخره جعلها هی الأصل فی تعلق القلب بها سواء توسعت معها الحیاه الدنیا و نیلت الزینه و صفاء العیش أو لم یکن شیء من ذلک.

ثم الجزاء أعنی نتیجه اختیارهن کلا-من طرفی التردید مختلف فلهنّ علی تقدیر اختیارهن الحیاه الدنیا و زینتها بمفارقه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یطلّقهن و یمتعهن جمعاء من مال الدنیا،و علی تقدیر بقائهن علی زوجیه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و اختیار الآخره علی الحیاه الدنیا و زینتها الأجر العظیم عند اللّه لکن لا مطلقا بل بشرط الإحسان و العمل الصالح.

و یتبین بذلک أن لیس لزوجیه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من حیث هی زوجیه کرامه عند اللّه سبحانه و إنما الکرامه لزوجیته المقارنه للاحسان و التقوی و لذلک لما ذکر ثانیا علوّ منزلتهن قیّده أیضا بالتقوی فقال: «لَسْتُنَّ کَأَحَدٍ مِنَ النِّسٰاءِ إِنِ اتَّقَیْتُنَّ» و هذا کقوله فی النبی و أصحابه: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّٰهِ وَ الَّذِینَ مَعَهُ أَشِدّٰاءُ عَلَی الْکُفّٰارِ رُحَمٰاءُ بَیْنَهُمْ تَرٰاهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً -الی أن قال- وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِیماً» حیث مدحهم عامه بظاهر أعمالهم أولا ثم قیّد وعدهم الأجر العظیم بالإیمان و العمل الصالح.

و بالجمله فإطلاق قوله: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاكُمْ (الحجرات/١٠)على حاله غير منتقض بكرامه أخرى بسبب أو نسب أو غير ذلک.

فقوله: يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوٰاجِكَ أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبلغ الآيتين أزواجه و لازمه أن يطلقهن و يمتعهن إن اخترن الشق الأول و يبقيهن على زوجيته إن اخترن اللّه و رسوله و الدار الآخره.

و قوله: إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا وَ زِينَتَهٰا إراده الحياه الدنيا و زينتها كنايه بقرينه المقابله عن اختيارها و تعلق القلب بتمتعاتها و الإقبال عليها و الإعراض عن الآخره.

و قوله: فَتَعٰالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَرٰاحاً جَمِيلاً قال فى الكشاف:أصل تعال أن يقوله من فى المكان المرتفع لمن فى المكان المستوطأ ثم كثرت حتى استوت فى استعماله الأمكنه،و معنى تعالين أقبلن بإرادتكن و اختياركن لأحد أمرين و لم يرد نهوضهن بأنفسهن كما تقول:أقبل يخاصمنى و ذهب يكلمنى و قام يهددنى.انتهى.

و التمتيع إعطاؤهن عند التطبيق مالا يتمتعن به التسريح هو التطليق و السراح الجميل هو الطلاق من غير خصومه و مشاجره بين الزوجين.

و فى الآيه أبحاث فقهيه أوردها المفسرون و الحق أن ما تتضمنه من الأحكام الشخصيه خاصه بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا دليل من جهه لفظها على شموله لغيره و تفصيل القول فى الفقه.

و قوله: وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدّٰارَ الْآخِرَةَ فقد تقدم أن المقابله بين هذه الجمله و بين قوله: «إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا وَ زِينَتَهٰا» الخ؛تقيد كلا منهما بخلاف الاخرى و عدمها،فمعنى الجمله:و إن كنتن تردن و تخترن طاعه اللّه و رسوله و سعاده الدار الآخره مع الصبر على ضيق العيش و الحرمان من زينه الحياه الدنيا و هى مع ذلک كنايه عن البقاء فى زوجيه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الصبر على ضيق العيش و إلاّ لم صحّ اشتراط الإحسان فى الأجر الموعود و هو ظاهر.

فالمعنى:و إن كنتن تردن و تخترن البقاء على زوجيه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الصبر على ضيق العيش فإن اللّه هيأ لكن أجرا عظيما بشرط أن تكنّ محسنات فى أعمالكنّ مضافا الى ارادتكن اللّه و رسوله و الدار الآخره فإن لم تكنّ محسنات لم يكن لكنّ إلّا خسران الدنيا و الآخره جميعا.

قوله تعالى: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ الخ؛عدل عن مخاطبه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيهن الى مخاطبتهن أنفسهن لتسجيل ما لهن من التكليف و زياده التوكيد،و الآيه و التى بعدها تقرير و توضيح بنحو لما يستفاد من قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً» إثباتا و نفيا.

فقوله: مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ الفاحشه الفعله البالغه فى الشناعه و القبح و هى الكبيره كإيذاء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الافتراء و الغيبه و غير ذلك،و المبيّنه هى الظاهره.

و قوله: يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ أى حال كونه ضعفين و الضعفان المثلان و يؤيد هذا المعنى قوله فى جانب الثواب بعد: «نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ» فلا يعبا بما قيل إن المراد بمضاعفه العذاب ضعفين تعذيبهم بثلاثه أمثاله بتقريب أن مضاعفه العذاب زيادته و إذا زيد على العذاب ضعفاه صار المجموع ثلاثه أمثاله.

و ختم الآيه بقوله: «وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً» للإشاره الى أنه لا مانع من ذلك من كرامه الزوجيه و نحوها إذ لا كرامه إلّا للتقوى و زوجيه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنما تؤثر الأثر الجميل إذا قارن التقوى و أما مع المعصيه فلا تزيد إلّا بعدا و وبالا.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ الخ؛القنوت الخضوع،و قيل:الطاعه و قيل:لزوم الطاعه مع الخضوع،و الإعتاد التهيئه،و الرزق الكريم مصداقه الجنه.

و المعنى:و من يخضع منكن للّه و رسوله أو لزم طاعه اللّه و رسوله مع الخضوع و يعمل عملا صالحا نعطها أجرها مرتين أى ضعفين و هيأنا لها رزقا كريما و هى الجنه.

ص :۱۱۳

و الالتفات من الغيبه الی التکلم بالغیر فی قولها: «نُؤْتِها» و «أَعْتَدْنا» للإیذان بالقرب و الکرامه،خلاف البعد و الخزی المفهوم من قوله: «یُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَیْنِ» .

قوله تعالی: یا نِساءَ النَّبِیِّ لَسْتُنَّ کَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَیْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَیَطْمَعَ الَّذِی فِی قَلْبِهِ مَرَضٌ الخ؛الآیه تنفی مساواتهن لسائر النساء إن اتقین و ترفع منزلتهن علی غیرهن ثم تذکر أشیاء من النهی و الأمر متفرعه علی کونهن لسن کسائر النساء کما یدل علیه قوله:فلا تخضعن بالقول و قرن و لا تبرّجن،الخ؛و هی خصال مشترکه بین نساء النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سائر النساء.

فتصدیر الکلام بقوله: «لَسْتُنَّ کَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَیْتُنَّ» ثم تفریع هذه التکالیف المشترکه علیه،یفید تأکد هذه التکالیف علیهن کأنه قیل:لستن کغیرکن فیجب علیکن أن تبالغن فی امتثال هذه التکالیف و تحتطن فی دین اللّه أکثر من سائر النساء.

و تؤید بل تدل علی تأکد تکالیفهن مضاعفه جزائهن خیرا و شرا کما دلّت علیها الآیه السابقه فإن مضاعفه الجزاء لا تنفک عن تأکد التکلیف.

و قوله: فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَیَطْمَعَ الَّذِی فِی قَلْبِهِ مَرَضٌ بعد ما بیّن علوّ منزلتهن و رفعه قدرهن لمکانهن من النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و شرط فی ذلک التقوی فبیّن أن فضیلتهن بالتقوی لا بالاتصال بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نهاهن عن الخضوع فی القول و هو ترقیق الکلام و تلیینه مع الرجال بحیث یدعو الی الریبه و تثیر الشهوه فیطمع الذی فی قلبه مرض و هو فقدانه قوه الإیمان التی تردعه عن المیل الی الفحشاء.

و قوله: وَ قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً أی کلاما معمولا مستقیما یعرفه الشرع و العرف الإسلامی و هو القول الذی لا یشیر بلحنه الی أزید من مدلوله معرّی عن الإیماء الی فساد و ریبه.

قوله تعالی: وَ قَرْنَ فِی بُیُوتِکُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِیَّهِ الْأُولی -الی

قوله- وَ أَطِعْنَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ «قَرْنَ» من قرّ يقر إذا ثبت و أصله اقررن حذفت إحدى الزاءين أو من قار يقار إذا اجتمع كنايه عن ثباتهن فى بيوتهن و لزومهن لها،و التبرّج الظهور للناس كظهور البروج لناظريها.و الجاهليه الاولى الجاهليه قبل البعثه فالمراد الجاهليه القديمه،و قول بعضهم:إن المراد به زمان ما بين آدم و نوح عليهما السّلام ثمان مائه سنه،و قول آخرين إنها ما بين إدريس و نوح،و قول آخرين زمان داود و سليمان و قول آخرين أنه زمان ولاده إبراهيم،و قول آخرين إنه زمان الفتره بين عيسى عليه السّلام و محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أقوال لا دليل يدل عليها.

و قوله: وَ أَقِمْنَ الصَّلاٰهَ وَ آتِينَ الزَّكٰاهَ وَ أَطِعْنَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ أمر بامتثال الأوامر الدينيه و قد أفرد الصلاه و الزكاه بالذكر من بينها لكونهما ركنين فى العبادات و المعاملات ثم جمع الجميع فى قوله: «وَ أَطِعْنَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ» .

و طاعه اللّه هى امتثال تكاليفه الشرعيه و طاعه رسوله فيما يأمر به و ينهى بالولايه المجعوله له من عند اللّه كما قال: «النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» .

قوله تعالى: إِنَّمٰا يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً كلمه «إِنَّمٰا» تدل على حصر الإراده فى إذهاب الرجس و التطهير و كلمه أهل البيت سواء كان لمجرد الاختصاص أو مدحا أو نداء يدل على اختصاص إذهاب الرجس و التطهير بالمخاطبين بقوله: «عَنْكُمُ» ،ففى الآيه فى الحقيقه قصران قصر الإراده فى إذهاب الرجس و التطهير و قصر إذهاب الرجس و التطهير فى أهل البيت.

و ليس المراد بأهل البيت نساء النبى خاصه لمكان الخطاب الذى فى قوله: «عَنْكُمْ» و لم يقل:عنكن فإما أن يكون الخطاب لهن و لغيرهن كما قيل:إن المراد بأهل البيت أهل البيت الحرام و هم المتقون لقوله تعالى: «إِنْ أَوْلِيٰاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ» أو أهل مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو أهل بيت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هم الذين يصدق عليهم عرفا أهل بيته من أزواجه و أقربائه و هم آل عباس و آل عقيل و آل جعفر و آل على أو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أزواجه،و لعل هذا هو المراد مما نسب

الی عکرمه و عروه إنها فی أزواج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خاصه.

أو یکون الخطاب لغیرهن کما قیل:إنهم أقرباء النبی من آل عباس و آل عقیل و آل جعفر و آل علی.

و علی أی حال فالمراد بإذهاب الرجس و التطهیر مجرد التقوی الدینی بالاجتناب عن النواهی و امتثال الأوامر فیکون المعنی أن اللّه لا ینتفع بتوجیه هذه التکالیف الیکم و إنما یرید إذهاب الرجس عنکم و تطهیرکم علی حد قوله: مٰا یُرِیدُ اللّٰهُ لِیَجْعَلَ عَلَیْکُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لٰکِنْ یُرِیدُ لِیُطَهِّرَکُمْ وَ لِیُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکُمْ (المائده۶/)،و هذا المعنی لا یلائم شیئا من معانی أهل البیت السابقه لمنافاته البینه للاختصاص المفهوم من أهل البیت لعمومه لعامه المسلمین المکلفین بأحکام الدین.

و إن کان المراد بإذهاب الرجس و التطهیر التقوی الشدید البالغ و یکون المعنی:أن هذا التشدید فی التکالیف المتوجهه إلیکنّ أزواج النبی و تضعیف الثواب و العقاب لیس لینتفع اللّه سبحانه به بل لیذهب عنکم الرجس و یطهرکم و یکون من تعمیم الخطاب لهن و لغیرهن بعد تخصیصه بهن،فهذا المعنی لا یلائم کون الخطاب خاصا بغیرهن و هو ظاهر و لا عموم الخطاب لهن و لغیرهن فإن الغیر لا یشارکهن فی تشدید التکلیف و تضعیف الثواب و العقاب.

لا یقال:لم لا یجوز أن یکون الخطاب علی هذا التقدیر متوجها الیهن مع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تکلیفه شدید کتکلیفهن.

لأنه یقال:إنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مؤید بعصمه من اللّه و هی موهبه إلهیه غیر مکتسبه بالعمل فلا معنی لجعل تشدید التکلیف و تضعیف الجزاء بالنسبه الیه مقدمه أو سببا لحصول التقوی الشدید له امتنانا علیه علی ما یعطیه سیاق الآیه و لذلک لم یصرح بکون الخطاب متوجها الیهن مع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقط أحد من المفسرین و إنما احتملناه لتصحیح قول من قال:إن الآیه خاصه بأزواج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

ص:۱۱۶

و إن كـان المراد إذهـاب الرجس و التطهير بـإرادته تعالى ذلك مطلقا لا بتوجيه مطلق التكليف و لا بتوجيه التكليف الشديـد بل إراده مطلقه لإذهاب الرجس و التطهير لأهل البيت خاصه بما هم أهل البيت كان هـذا المعنى منافيا لتقييد كرامتهن بالتقوى سواء كان المراد بالإراده الإراده التشريعيه أو التكوينيه.

و بهذا الذى تقدم يتأيد ما ورد فى أسباب النزول أن الآيه نزلت فى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و على و فاطمه و الحسنين عليهم السّلام خاصه لا يشاركهم فيها غيرهم.

و هى روايات جمّه تزيد على سبعين حديثا يربو ما ورد منها من طرق أهل السنه على ما ورد منها من طرق الشيعه فقد روتها أهل السـنه بطرق كثيره عن أم سلمه و عائشه و أبى سعيد الخدرى و سعد و وائله بن الأسقع و أبى الحمراء و ابن عباس و ثوبان مولى النبى و عبد اللّه بن جعفر و على و الحسن بن على عليهما السّلام فى قريب من أربعين طريقا.

و روتها الشـيعه عن على و السـجاد و الباقر و الصادق و الرضا عليهم السّلام و أم سلمه و أبى ذر و أبى ليلى و أبى الأسود الدؤلى و عمرو بن ميمون الأودى و سعد بن أبى وقاص فى بضع و ثلاثين طريقا.

فـإن قيل:إن الروايات إنما تـدل على شـمول الآيه لعلى و فاطمه و الحسـنين عليهم السّـلام و لا ينافى ذلك شـمولها لأزواج النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما يفيده وقوع الآيه فى سياق خطابهن.

قلنا:إن كثيرا من هـذه الروايات و خاصه ما رويت عن أم سـلمه-و فى بيتها نزلت الآيه- تصـرح باختصاصـها بهم و عدم شـمولها لأزواج النبى و سيجىء الروايات و فيها الصحاح.

فإن قيل:هذا مدفوع بنص الكتاب عن شمولها لهن كوقوع الآيه فى سياق خطابهن.

قلنا:إنما الشأن كل الشأن فى اتصال الآيه بما قبلها من الآيات فهذه الأحاديث على كثرتها البالغه ناصه فى نزول الآيه وجدها،و لم يرد حتى فى روايه واحـده نزول هـذه الآيه فى ضـمن آيات نساء النبى و لا ذكره أحـد حتى القائل باختصاص الآيه بأزواج النبى كما ينسب الى

عکرمه و عروه،فالآیه لم تکن بحسب النزول جزء من آیات نساء النبی و لا متصله بها و إنما وضعت بینها إما بأمر من النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو عند التألیف بعد الرحله،و یؤیده أن آیه «وَ قَرْنَ فِی بُیُوتِکُنَّ» علی انسجامها و اتصالها لو قدّر ارتفاع آیه التطهیر من بین جملها،فموقع آیه التطهیر من آیه «وَ قَرْنَ فِی بُیُوتِکُنَّ» کموقع آیه «الْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا» من آیه محرمات الأکل من سوره المائده،و قد تقدم الکلام فی ذلک فی الجزء الخامس من الکتاب.

و بالبناء علی ما تقدم تصیر لفظه أهل البیت اسما خاصا-فی عرف القرآن-بهؤلاء الخمسه و هم النبی و علی و فاطمه و الحسنان علیهم الصلاه و السلام لا یطلق علی غیرهم،و لو کان من أقربائه الأقربین و إن صحّ بحسب العرف العام إطلاقه علیهم.

و الرّجس-بالکسر فالسکون-صفه من الرجاسه و هی القذاره،و القذاره هیئه فی الشیء توجب التجنب و التنفر منها،و تکون بحسب ظاهر الشیء کرجاسه الخنزیر،قال تعالی:

أَوْ لَحْمَ خِنزِیرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ (الأنعام/۱۴۵)،و بحسب باطنه-و هو الرجاسه و القذاره المعنویه-کالشرک و الکفر و أثر العمل السیئ،قال تعالی: وَ أَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَی رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ کافِرُونَ (التوبه/۱۲۵)،و قال: وَ مَنْ یُرِدْ أَنْ یُضِلَّهُ یَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَیِّقاً حَرَجاً کَأَنَّما یَصَّعَّدُ فِی السَّماءِ کَذلِکَ یَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَی الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ (الأنعام/۱۲۵).

و أیا ما کان فهو إدراک نفسانی و أثر شعوری من تعلق القلب بالاعتقاد الباطل أو العمل السیئ و إذهاب الرجس-و اللام فیه للجنس-إزاله کل هیئه خبیثه فی النفس تخطئ حق الاعتقاد و العمل فتنطبق علی العصمه الإلهیه التی هی صوره علمیه نفسانیه تحفظ الإنسان من باطل الاعتقاد و سیئ العمل.

علی أنک عرفت أن إراده التقوی أو التشدید فی التکالیف لا تلائم اختصاص الخطاب فی الآیه بأهل البیت،و عرفت أیضا أن إراده ذلک لا تناسب مقام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من العصمه.

فمن المتعين حمل إذهاب الرجس فی الآیه علی العصمه و یکون المراد بالتطهیر فی قوله:

«وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً» -و قد أکد بالمصدر-إزاله أثر الرجس بإیراد ما یقابله بعد إذهاب أصله، و من المعلوم أن ما یقابل الاعتقاد الباطل هو الاعتقاد الحق فتطهیرهم هو تجهیزهم بإدراک الحق فی الاعتقاد و العمل،و یکون المراد بالإراده أیضا غیر الإراده التشریعیه لما عرفت أن الإراده التشریعیه التی هی توجیه التکالیف الی المکلف لا تلائم المقام أصلا.

و المعنی:أن اللّه سبحانه تستمر إرادته أن یخصکم بموهبه العصمه بإذهاب الاعتقاد الباطل و أثر العمل السیئ عنکم أهل البیت و إیراد ما یزیل أثر ذلک علیکم و هی العصمه.

قوله تعالی: وَ اذْکُرْنَ مٰا یُتْلیٰ فِی بُیُوتِکُنَّ مِنْ آیٰاتِ اللّٰهِ وَ الْحِکْمَهِ إِنَّ اللّٰهَ کٰانَ لَطِیفاً خَبِیراً ظاهر السیاق أن المراد بالذکر ما یقابل النسیان إذ هو المناسب لسیاق التأکید و التشدید الذی فی الآیات فیکون بمنزله الوصیه بعد الوصیه بامتثال ما وجّه الیهن من التکالیف،و فی قوله: «فِی بُیُوتِکُنَّ» تأکید آخر.

و المعنی:و احفظن ما یتلی فی بیوتکن من آیات اللّه و الحکمه و لیکن منکن فی بال حتی لا تغفلن و لا تتخطین مما خط لکم من المسیر.

و أما قول بعضهم:إن المراد و اشکرن اللّه إذ صیّرکن فی بیوت یتلی فیهن القرآن و السنه فبعید من السیاق و خاصه بالنظر الی قوله فی ذیل الآیه: «إِنَّ اللّٰهَ کٰانَ لَطِیفاً خَبِیراً» .

قوله تعالی: إِنَّ الْمُسْلِمِینَ وَ الْمُسْلِمٰاتِ وَ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ الخ؛ الإسلام لا یفرّق بین الرجال و النساء فی التلبس بکرامه الدین و قد أشار سبحانه الی ذلک إجمالا فی مثل قوله: یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنّٰا خَلَقْنٰاکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثیٰ وَ جَعَلْنٰاکُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاکُمْ (الحجرات/۱۳)،ثم صرّح به فی مثل قوله: أَنِّی لاٰ أُضِیعُ عَمَلَ عٰامِلٍ مِنْکُمْ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ (آل عمران/۱۹۵)،ثم صرح به تفصیلا فی هذه الآیه.

ص:۱۱۹

فقوله: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ المقابله بين الإسلام و الإيمان تفيد مغايرتهما نوعا من المغايره و الذى يستفاد منه نحو مغايرتهما قوله تعالى:

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ -الى أن قال- إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ (الحجرات/١٥)،يفيد أولا أن الإسلام هو تسليم الدين بحسب العمل و ظاهر الجوارح و الإيمان أمر قلبى.و ثانيا:أن الإيمان الذى هو أمر قلبى اعتقاد و إذعان باطنى بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح.

فالإسلام هو التسليم العملى للدين بإتيان عامه التكاليف و المسلمون و المسلمات هم المسلمون لذلك و الإيمان هو عقد القلب على الدين،بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح و المؤمنون و المؤمنات هم الذين عقدوا قلوبهم على الدين بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح فكل مؤمن مسلم و لا عكس.

و قوله: وَ الْقَانِتِينَ وَ الْقَانِتَاتِ القنوت على ما قيل لزوم الطاعه مع الخضوع و قوله: «وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقَاتِ» الصدق مطابقه ما يخبر به الإنسان أو يظهره،للواقع.فهم صادقون فى دعواهم صادقون فى قولهم صادقون فى وعدهم.

و قوله: وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِرَاتِ فهم متلبسون بالصبر عند المصيبه و النائبه بالصبر على الطاعه و بالصبر عن المعصيه،و قوله: «وَ الْخَاشِعِينَ وَ الْخَاشِعَاتِ» الخشوع تذلل باطنى بالقلب كما أن الخضوع تذلل ظاهرى بالجوارح.

و قوله: وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقَاتِ و الصدقه إنفاق المال فى سبيل اللّه و منه الزكاه الواجبه،و قوله: «وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِمَاتِ» بالصوم الواجب و المندوب،و قوله:

«وَ الْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحَافِظَاتِ» أى لفروجهن و ذلك بالتجنب عن غير ما أحل اللّه لهم، و قوله: «وَ الذَّاكِرِينَ اللّٰهَ كَثِيراً وَ الذَّاكِرَاتِ» أى اللّه كثيرا حذف لظهوره و هم الذين يكثرون من

ذکر اللّه بلسانهم و جنانهم و یشمل الصلاه و الحج.

و قوله: «أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِیماً» التنکیر للتعظیم.

بحث روائی:

فی تفسیر القمی فی قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْوٰاجِکَ کان سبب نزولها أنه لما رجع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من غزوه خیبر و أصاب کنز آل أبی الحقیق قلن أزواجه:أعطنا ما أصبت فقال لهن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:قسمته بین المسلمین علی ما أمر اللّه عزّ و جل فغضبن من ذلک، و قلن:لعلک تری أنک إن طلّقتنا أن لا نجد الأکفاء من قومنا یتزوّجونا؟.

فأنف اللّه عزّ و جل لرسوله فأمره أن یعز لهن فاعتزلهن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مشربه أم إبراهیم تسعه و عشرین یوما حتی حضن و طهرن ثم أنزل اللّه عزّ و جل هذه الآیه و هی آیه التخییر فقال: یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْوٰاجِکَ -الی قوله- أَجْراً عَظِیماً فقامت أم سلمه أول من قامت فقالت:قد اخترت اللّه و رسوله فقمن کلهن فعانقنه و قلن مثل ذلک الحدیث.

أقول:و روی ما یقرب من ذلک من طرق أهل السنه و فیها أن أول من اختارت اللّه و رسوله منهن عائشه.

و فی الکافی بإسناده عن داود بن سرحان عن أبی عبد اللّه علیه السّلام أن زینب بنت جحش قالت:

یری رسول اللّه إن خلی سبیلنا أن لا نجد زوجا غیر و قد کان اعتزل نساءه تسعه و عشرین لیله فلما قالت زینب الذی قالت بعث اللّه جبرائیل الی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: «قُلْ لِأَزْوٰاجِکَ» الآیتین کلتیهما فقلن:بل نختار اللّه و رسوله و الدار الآخره.

و فیه بإسناده عن عیص بن القاسم عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال:سألته عن رجل خیّر امرأته فاختارت نفسها بانت؟قال:لا.إنما هذا شیء کان لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خاصه أمر بذلک ففعل، و لو اخترن أنفسهن لطلقهن و هو قول اللّه عزّ و جل: قُلْ لِأَزْوٰاجِکَ إِنْ کُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَیٰاةَ

الدُّنْيٰا وَ زِينَتَهٰا،فَتَعٰالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَرٰاحاً جَمِيلاً .

و فى الجمع روى الواحدى بالإسناد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال:كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جالسا مع حفصه فتشاجرا بينهما فقال لها:هل لك أن أجعل بينى و بينك رجلا؟

قالت:نعم.

فأرسل الى عمر فلما أن دخل عليها قال لها:تكلمى،فقالت:يا رسول اللّه تكلم و لا تقل إلاّ حقا فرفع عمر يده فوجا وجهها ثم رفع يده فوجأ وجهها.

فقال له النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:كف،فقال عمر:يا عدوّه اللّه النبى لا يقول إلاّ حقا و الذى بعثه بالحق،لو لا مجلسه ما رفعت يدى حتى تموتى فقام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فصعد الى غرفه فمكث فيها شهرا لا يقرب شيئا من نسائه يتغدّى و يتعشّى فيها فأنزل اللّه تعالى هذه الآيات.

و فى الخصال عن الصادق عليه السّلام قال:تزوج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بخمس عشره امرأه و دخل بثلاث عشر امرأه منهن،و قبض عن تسع فأما اللتان لم يدخل بهما فعمره و سنا.و أما الثلاث عشره اللاتى دخل بهن فأولهن خديجه بنت خويلد ثم سوده بنت زمعه ثم أم سلمه و اسمها هند بنت أبى أميه ثم أم عبد اللّه عائشه بنت أبى بكر ثم حفصه بنت عمر ثم زينب بنت خزيمه بن الحارث أم المساكين،ثم زينب بنت جحش ثم أم حبيب رمله بنت أبى سفيان ثم ميمونه بنت الحارث ثم زينب بنت عميس ثم جويريه بنت الحارث ثم صفيه بنت حيى بن أخطب و التى وهبت نفسها للنبى خوله بنت حكيم السلمى.

و كان له سرّيتان يقسم لهما مع أزواجه ماريه القبطيه و ريحانه الخندفيه.

و التسع اللاتى قبض عنهن عائشه و حفصه و أم سلمه و زينب بنت جحش و ميمونه بنت الحارث و أم حبيب بنت أبى سفيان و جويريه و سوده و صفيه.و أفضلهن خديجه بنت خويلد ثم أم سلمه ثم ميمونه.

و فى المجمع قوله: يٰا نِسٰاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ الآيتين؛روى محمّد بن أبى عمير عن

ابراهیم بن عبد الحمید عن علی بن عبد اللّه بن الحسین عن أبیه عن علی بن الحسین علیه السّلام أنه قال رجل:إنکم أهل بیت مغفور لکم.قال:فغضب و قال:نحن أحری أن یجری فینا ما أجری اللّه فی أزواج النبی من أن نکون کما تقول إنا نری لمحسننا ضعفین من الأجر و لمسیئنا ضعفین من العذاب.

و فی تفسیر القمی مسندا عن أبی عبد اللّه عن أبیه علیهما السّلام فی هذه الآیه «وَ لاٰ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجٰاهِلِیَّهِ الْأُولیٰ» قال:أی ستکون جاهلیه اخری.

أقول:و هو استفاده لطیفه.

و فی الدر المنثور أخرج الطبرانی عن أم سلمه أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لفاطمه:ائتینی بزوجک و ابنیه فجاءت بهم فألقی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علیهم کساء فدکیا ثم وضع یده علیهم ثم قال:اللهم إن هؤلاء أهل محمّد-و فی لفظ آل محمّد-فاجعل صلواتک و برکاتک علی آل محمّد کما جعلتها علی آل إبراهیم إنک حمید مجید.

قالت ام سلمه:فرفعت الکساء لأدخل معهم فجذبه من یدی و قال:إنک علی خیر.

أقول:و رواه فی غایه المرام عن عبد اللّه بن أحمد بن حنبل عن أبیه بإسناده عن ام سلمه.

و فیه أخرج ابن مردویه عن ام سلمه قالت:نزلت هذه الآیه فی بیتی: إِنَّمٰا یُرِیدُ اللّٰهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً و فی البیت سبعه جبرئیل و میکائیل و علی و فاطمه و الحسن و الحسین و أنا علی باب البیت.قلت:یا رسول اللّه أ لست من أهل البیت؟قال:إنک علی خیر إنک من أزواج النبی.

و فیه أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردویه عن ام سلمه زوج النبی أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان ببیتها علی منامه له علیه کساء خیبری فجاءت فاطمه ببرمه فیها خزیره فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:ادعی زوجک و ابنیک حسنا و حسینا فدعتهم فبینما هم یأکلون إذ نزلت علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إِنَّمٰا یُرِیدُ اللّٰهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ

وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً .

فأخذ النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بفضله إزاره فغشاهم إیاها ثم أخرج یده من الکساء و أومأ بها الی السماء ثم قال:اللهم هؤلاء أهل بیتی و خاصتی فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهیرا،قالها ثلاث مرات.

قالت ام سلمه:فأدخلت رأسی فی الستر فقلت:یا رسول اللّه و أنا معکم؟فقال:إنک الی خیر مرتین.

أقول:و روی الحدیث فی غایه المرام عن عبد اللّه بن أحمد بن حنبل بثلاث طرق عن أم سلمه و کذا عن تفسیر الثعلبی.

و فیه أخرج ابن مردویه و الخطیب عن أبی سعید الخدری قال:کان یوم أم سلمه أم المؤمنین فنزل جبریل الی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهذه الآیه: إِنَّما یُرِیدُ اللّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً قال:فدعا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بحسن و حسین و فاطمه و علی فضمهم الیه و نشر علیهم الثوب،و الحجاب علی أم سلمه مضروب،ثم قال:اللهم هؤلاء أهل بیتی اللهم أذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهیرا،قالت أم سلمه:فأنا معهم یا نبی اللّه؟قال:أنت علی مکانک و إنک علی خیر.

و فیه أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و الطبرانی عن أبی سعید الخدری قال:قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:نزلت هذه الآیه فی خمسه فیّ و فی علی و فاطمه و حسن و حسین: إِنَّما یُرِیدُ اللّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً .

أقول:و رواه أیضا فی غایه المرام عن الثعلبی فی تفسیره.

و فیه أخرج الترمذی و صححه و ابن جریر و ابن المنذر و الحاکم و صححه و ابن مردویه و البیهقی فی سننه من طرق عن أم سلمه قالت:فی بیتی نزلت: إِنَّما یُرِیدُ اللّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ و فی البیت فاطمه و علی و الحسن و الحسین فجللهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم

ص :۱۲۴

بکساء کان علیه ثم قال:هؤلاء أهل بیتی فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهیرا.

و فی غایه المرام عن الحمیدی قال:الرابع و الستون من المتفق علیه من الصحیحین عن البخاری و مسلم من مسند عائشه عن مصعب بن شیبه عن صفیه بنت شیبه عن عائشه قالت:خرج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ذات غداه و علیه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن علی فأدخله ثم جاء الحسین فأدخله معه ثم جاءت فاطمه فأدخلها ثم جاء علی فأدخله ثم قال:

إنما یرید اللّه لیذهب عنکم الرجس أهل البیت و یطهرکم تطهیرا.

أقول:و الحدیث مروی عنها بطرق مختلفه.

و فی الدر المنثور أخرج ابن مردویه عن أبی سعید الخدری قال:لما دخل علی بفاطمه جاء النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أربعین صباحا الی بابها یقول:السلام علیکم أهل البیت و رحمه اللّه و برکاته الصلاه رحمکم اللّه إنما یرید اللّه لیذهب عنکم الرجس أهل البیت و یطهرکم تطهیرا أنا حرب لمن حاربتم أنا سلم لمن سالمتم.

و فیه أخرج ابن مردویه عن ابن عباس قال:شهدنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تسعه أشهر یأتی کل یوم باب علی بن أبی طالب عند وقت کل صلاه فیقول:السلام علیکم و رحمه اللّه و برکاته أهل البیت: إِنَّمٰا یُرِیدُ اللّٰهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً .

أقول:و رواه أیضا عن الطبرانی عن أبی الحمراء و لفظه رأیت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یأتی باب علی و فاطمه سته أشهر فیقول: إِنَّمٰا یُرِیدُ اللّٰهُ الآیه؛و أیضا عن ابن جریر و ابن مردویه عن أبی الحمراء و لفظه حفظت من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ثمانیه أشهر بالمدینه لیس من مره یخرج الی صلاه الغداه إلاّ أتی الی باب علی فوضع یده علی جنبتی الباب ثم قال:الصلاه الصلاه إِنَّمٰا یُرِیدُ اللّٰهُ لِیُذْهِبَ الآیه.

و رواه أیضا عن ابن أبی شیبه و أحمد و الترمذی و حسنه و ابن جریر و ابن المنذر و الطبرانی و الحاکم و صححه و ابن مردویه عن أنس و لفظه أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یمر بباب فاطمه إذا

خرج الی صلاه الفجر و یقول:الصلاه یا أهل البیت الصلاه إنما یرید اللّه لیذهب عنکم الرجس أهل البیت و یطهرکم تطهیرا.

أقول:و الروایات فی هذه المعانی من طرق أهل السنه کثیره و کذا من طرق الشیعه،و من أراد الاطلاع علیها فلیراجع غایه المرام للبحرانی و العبقات.

و فی غایه المرام عن الحموینی بإسناده عن یزید بن حیان قال:دخلنا علی زید بن أرقم فقال:خطبنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال:ألا-إنی ترکت فیکم الثقلین أحدهما کتاب اللّه عزّ و جل من اتبعه کان علی هدی و من ترکه کان علی ضلاله،ثم أهل بیتی أذکرکم اللّه فی أهل بیتی ثلاث مرات.

قلنا:من أهل بیته نساؤه؟قال:لا أهل بیته عصبته الذین حرموا الصدقه بعده آل علی و آل عباس و آل جعفر و آل عقیل.

و فیه أیضا عن مسلم فی صحیحه بإسناده عن یزید بن حیان عن زید بن أرقم قال:قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:إنی تارک فیکم الثقلین أحدهما کتاب اللّه هو حبل اللّه من اتبعه کان علی الهدی و من ترکه کان علی ضلاله،فقلنا:من أهل بیته نساؤه؟قال:لا-أیم اللّه إن المرأه تکون مع الرجل العصر ثم الدهر ثم یطلقها فترجع الی أهلها و قومها.أهل بیته أصله و عصبته الذین حرموا الصدقه بعده.

أقول:فسّر البیت بالنسب کما یطلق عرفا علی هذا المعنی،یقال:بیوتات العرب بمعنی الأنساب،لکن الروایات السابقه عن أم سلمه و غیرها تدفع هذا المعنی و تفسر أهل البیت بعلی و فاطمه و ابنیهما علیهم السّلام.

و فی المجمع قال مقاتل بن حیان:لما رجعت أسماء بنت عمیس من الحبشه مع زوجها جعفر بن أبی طالب دخلت علی نساء رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقالت:هل نزل فینا شیء من القرآن؟ قلن:لا.

فأتت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالت:يا رسول اللّه إن النساء لفى خيبه و خسار،فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

و ممّ ذلك؟قالت:لأنهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال،فأنزل اللّه تعالى هذه الآيه «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمٰاتِ» الخ.

أقول:و فى روايات أخر أن القائله هى أم سلمه.

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٣۶ الى ۴٠]

اشاره

وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَةٍ إِذٰا قَضَى اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ اَلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً مُبِيناً (٣۶) وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اَللّٰهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اِتَّقِ اَللّٰهَ وَ تُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اَللّٰهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى اَلنّٰاسَ وَ اَللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشٰاهُ فَلَمّٰا قَضىٰ زَيْدٌ مِنْهٰا وَطَراً زَوَّجْنٰاكَهٰا لِكَيْ لاٰ يَكُونَ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوٰاجِ أَدْعِيٰائِهِمْ إِذٰا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كٰانَ أَمْرُ اَللّٰهِ مَفْعُولاً (٣٧) مٰا كٰانَ عَلَى اَلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمٰا فَرَضَ اَللّٰهُ لَهُ سُنَّةَ اَللّٰهِ فِي اَلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كٰانَ أَمْرُ اَللّٰهِ قَدَراً مَقْدُوراً (٣٨) اَلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسٰالاٰتِ اَللّٰهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اَللّٰهَ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ حَسِيباً (٣٩) مٰا كٰانَ مُحَمَّدٌ أَبٰا أَحَدٍ مِنْ رِجٰالِكُمْ وَ لٰكِنْ رَسُولَ اَللّٰهِ وَ خٰاتَمَ اَلنَّبِيِّينَ وَ كٰانَ اَللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۴٠)

بیان:

قوله تعالی: وَ مٰا کٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَهٍ إِذٰا قَضَی اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ یَکُونَ لَهُمُ الْخِیَرَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ الخ؛یشهد السیاق علی أن المراد بالقضاء هو القضاء التشریعی دون التکوینی فقضاء اللّه تعالی حکمه التشریعی فی شیء مما یرجع الی أعمال العباد أو تصرفه فی شأن من شئونهم بواسطه رسول من رسله،و قضاء رسوله هو الثانی من القسمین و هو التصرف فی شأن من شئون الناس بالولایه التی جعلها اللّه تعالی له بمثل قوله: اَلنَّبِیُّ أَوْلیٰ بِالْمُؤْمِنِینَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ .

فقضاؤه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قضاء منه بولایته و قضاء من اللّه سبحانه لأنه الجاعل لولایته المنفذ أمره، و یشهد سیاق قوله: «إِذٰا قَضَی اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً» حیث جعل الأمر الواحد متعلقا لقضاء اللّه و رسوله معا،علی أن المراد بالقضاء التصرف فی شئون الناس دون الجعل التشریعی المختص باللّه.

و قوله: وَ مٰا کٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَهٍ أی ما صح و لا یحق لأحد من المؤمنین و المؤمنات أن یثبت لهم الاختیار من أمرهم بحیث یختارون ما شاءوا و قوله: «إِذٰا قَضَی اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً» ظرف لنفی الاختیار.

و ضمیرا الجمع فی قوله: «لَهُمُ الْخِیَرَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ» للمؤمن و المؤمنه المراد بهما جمیع المؤمنین و المؤمنات لوقوعهما فی حیّز النفی و وضع الظاهر موضع المضمر حیث قیل «مِنْ أَمْرِهِمْ» و لم یقل:أن یکون لهم الخیره فیه للدلاله علی منشأ توهّم الخیره و هو انتساب الأمر الیهم.

و المعنی:لیس لأحد من المؤمنین و المؤمنات إذا قضی اللّه و رسوله بالتصرف فی أمر من أمورهم أن یثبت لهم الاختیار من جهته لانتسابه الیهم و کونه أمرا من أمورهم فیختاروا منه

ص :۱۲۸

غیر ما قضی اللّه و رسوله بل علیهم أن یتبعوا إراده اللّه و رسوله.

و الآیه عامه لکنها لوقوعها فی سیاق الآیات التالیه یمکن أن تکون کالتمهید لما سیجیء من قوله: «مٰا کٰانَ مُحَمَّدٌ أَبٰا أَحَدٍ مِنْ رِجٰالِکُمْ» الآیه؛حیث یلوح منه أن بعضهم کان قد اعترض علی تزوج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بزوج زید و تعییره بأنها کانت زوج ابنه المدعو له بالتبنی و سیجیء فی البحث الروائی بعض ما یتعلق بالمقام.

قوله تعالی: وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِی أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَیْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِ أَمْسِکْ عَلَیْکَ زَوْجَکَ وَ اتَّقِ اللّٰهَ الی آخر الآیه المراد بهذا الذی أنعم اللّه علیه و أنعم النبی علیه زید بن حارثه الذی کان عبدا للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ثم حرّره و اتخذه ابنا له و کان تحته زینب بنت جحش بنت عمه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أتی زید النبی فاستشاره فی طلاق زینب فنهاه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الطلاق ثم طلقها زید فتزوجها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و نزلت الآیات.

فقوله: أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَیْهِ أی بالهدایه الی الإیمان و تحبیبه الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قوله:

«وَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِ» أی بالإحسان الیه و تحریره و تخصیصه بنفسک،و قوله: «أَمْسِکْ عَلَیْکَ زَوْجَکَ وَ اتَّقِ اللّٰهَ» کنایه عن الکف عن تطلیقها،و لا یخلو من إشعار بإصرار زید علی تطلیقها.

و قوله: وَ تُخْفِی فِی نَفْسِکَ مَا اللّٰهُ مُبْدِیهِ أی مظهره «وَ تَخْشَی النّٰاسَ وَ اللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشٰاهُ» ذیل الآیات أعنی قوله: اَلَّذِینَ یُبَلِّغُونَ رِسٰالاٰتِ اللّٰهِ وَ یَخْشَوْنَهُ وَ لاٰ یَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ دلیل علی أن خشیته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الناس لم تکن خشیه علی نفسه بل کان خشیه فی اللّه فأخفی فی نفسه ما أخفاه استشعارا منه أنه لو أظهره عابه الناس و طعن فیه بعض من فی قلبه مرض فأثر ذلک أثرا سیئا فی إیمان العامه،و هذا الخوف-کما تری-لیس خوفا مذموما بل خوف فی اللّه هو فی الحقیقه خوف من اللّه سبحانه.

فقوله: وَ تَخْشَی النّٰاسَ وَ اللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشٰاهُ الظاهر فی نوع من العتاب

ردع عن نوع من خشيه اللّه و هی خشیته عن طریق الناس و هدایه الی نوع آخر من خشیته تعالی و أنه کان من الحری أن یخشی اللّه دون الناس و لا یخفی ما فی نفسه ما اللّه مبدیه و هذا نعم الشاهد علی أن اللّه کان قد فرض له أن یتزوج زوج زید الذی کان تبناه لیرتفع بذلک الحرج عن المؤمنین فی التزویج بأزواج الأدعیاء و هو صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یخفیه فی نفسه الی حین مخافه سوء أثره فی الناس فأمنه اللّه ذلک بعتابه علیه نظیر ما تقدم فی قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ -الی قوله- وَ اللّٰهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النّٰاسِ الآیه.

فظاهر العتاب الذی یلوح من قوله: «وَ تَخْشَی النّٰاسَ وَ اللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشٰاهُ» مسوق لانتصاره و تأیید أمره قبال طعن الطاعنین ممن فی قلوبهم مرض نظیر ما تقدم فی قوله: عَفَا اللّٰهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتّٰی یَتَبَیَّنَ لَکَ الَّذِینَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْکٰاذِبِینَ (التوبه۴۳/).

و من الدلیل علی أنه انتصار و تأیید فی صوره العتاب قوله بعد: «فَلَمّٰا قَضیٰ زَیْدٌ مِنْهٰا وَطَراً زَوَّجْنٰاکَهٰا» حیث أخبر عن تزویجه إیاها کأنه أمر خارج عن إراده النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و اختیاره ثم قوله: «وَ کٰانَ أَمْرُ اللّٰهِ مَفْعُولاً» .

فقوله: «فَلَمّٰا قَضیٰ زَیْدٌ مِنْهٰا وَطَراً زَوَّجْنٰاکَهٰا» متفرع علی ما تقدم من قوله: «وَ تُخْفِی فِی نَفْسِکَ مَا اللّٰهُ مُبْدِیهِ» و قضاء الوطر منها کنایه عن الدخول و التمتع،و قوله: «لِکَیْ لاٰ یَکُونَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ حَرَجٌ فِی أَزْوٰاجِ أَدْعِیٰائِهِمْ إِذٰا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً» تعلیل للتزویج و مصلحه للحکم،و قوله: «وَ کٰانَ أَمْرُ اللّٰهِ مَفْعُولاً» مشیر الی تحقق الوقوع و تأکید للحکم.

و من ذلک یظهر أن الذی کان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یخفیه فی نفسه هو ما فرض اللّه له أن یتزوجها لا هواها و حبه الشدید لها و هی بعد مزوجه کما ذکره جمع من المفسرین و اعتذروا عنه بأنها حاله جبلیّه لا یکاد یسلم منها البشر،فإن فیه أولا:منع أن یکون بحیث لا یقوی علیه التربیه الإلهیه،و ثانیا:أنه لا معنی حینئذ للعتاب علی کتمانه و إخفائه فی نفسه فلا مجوّز فی الإسلام لذکر حلائل الناس و التشبب بهن.

ص:۱۳۰

قوله تعالی: مٰا كٰانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمٰا فَرَضَ اللّٰهُ لَهُ الخ؛الفرض هو التعيين و الإسهام يقال:فرض له كذا أی عیّنه له و أسهمه به،و قيل:هو فی المقام بمعنی الإباحه و التجويز،و الحرج الكلفه و الضيق،و المراد بنفی الحرج نفی سببه و هو المنع عما فرض له.

و المعنی:ما كان علی النبی من منع فيما عیّن اللّه له أو أباح اللّه له حتی يكون عليه حرج فی ذلک.

و قوله: سُنَّةَ اللّٰهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ اسم موضوع موضع المصدر فيكون مفعولا مطلقا و التقدير سنّ اللّه ذلک سنّه،و المراد بالذين خلوا من قبل هم الأنبياء و الرسل الماضون بقرينه قوله بعد: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسٰالاٰتِ اللّٰهِ» الخ.

و قوله: وَ كٰانَ أَمْرُ اللّٰهِ قَدَراً مَقْدُوراً أی يقدّر من عنده لكل أحد ما يلائم حاله و يناسبها،و الأنبياء لم يمنعوا مما قدّره اللّه و أباحه لغيرهم حتی يمنع النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم من بعض ما قدّر و أبيح.

قوله تعالی: اَلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسٰالاٰتِ اللّٰهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ الخ؛الموصول بيان للموصول المتقدم أعنی قوله: «الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» .

و الخشيه هی تأثر خاص للقلب عن المكروه و ربما ينسب الی السبب الذی يتوقع منه المكروه،يقال:خشيت أن يفعل بی فلان كذا أو خشيت فلانا أن يفعل بی كذا،و الأنبياء يخشون اللّه و لا يخشون أحدا غيره لأنه لا مؤثر فی الوجود عندهم إلاّ اللّه.

و هذا غير الخوف الذی هو توقع المكروه بحيث يترتب عليه الاتقاء عملا-سواء كان معه تأثر قلبی أو لا-فإنه أمر عملی ربما ينسب الی الأنبياء كقوله تعالی حكايه عن موسی عليه السّلام:

فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمّٰا خِفْتُكُمْ (الشعراء/۲۱)،و قوله فی النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم: وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيٰانَةً (الأنفال/۵۸)،و هذا هو الأصل فی معنی الخوف و الخشيه و ربما استعملا

كالمترادفين.

و مما تقدم يظهر أن الخشيه منفيه عن الأنبياء عليهم السّلام مطلقا و إن كان سياق قوله: «يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ» الخ؛يلوّح الى أن المنفى هو الخشيه فى تبليغ الرساله.على أن جميع أفعال الأنبياء كأقوالهم من باب التبليغ فالخشيه فى أمر التبليغ مستوعبه لجميع أعمالهم.

و قوله: وَ كَفى بِاللّهِ حَسِيباً أى محاسبا يحاسب على الصغيره و الكبيره فيجب أن يخشى و لا يخشى غيره.

قوله تعالى: ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ الخ؛لا شك فى أن الآيه مسوقه لدفع اعتراضهم على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنه تزوج زوج ابنه و محصل الدفع أنه ليس أبا زيد و لا أبا أحد من الرجال الموجودين فى زمن الخطاب حتى يكون تزوجه بزوج أحدهم بعده تزوجا بزوج ابنه فالخطاب فى قوله: «مِنْ رِجالِكُمْ» للناس الموجودين فى زمن نزول الآيه،و المراد بالرجال ما يقابل النساء و الولدان و نفى الابوّه نفى تكوينى لا تشريعى و لا تتضمن الجمله شيئا من التشريع.

و المعنى:ليس محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أبا أحد من هؤلاء الرجال الذين هم رجالكم حتى يكون تزوجه بزوج أحدهم بعده تزوجا منه بزوج ابنه و زيد أحد هؤلاء الرجال فتزوجه بعد تطليقه ليس تزوجا بزوج الابن حقيقه و أما تنبيه زيدا فإنه لا يترتب عليه شيء من آثار الابوه و البنوه و ما جعل أدعياءكم أبناءكم.

و أما القاسم و الطيب و الطاهر (۱)و إبراهيم فإنهم أبناؤه حقيقه لكنهم ماتوا قبل أن يبلغوا فلم يكونوا رجالا حتى ينتقض الآيه و كذا الحسن و الحسين و هما ابنا رسول اللّه فإن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قبض قبل أن يبلغا حدّ الرجال.

۱- ۱) .هذا على ما هو المعروف و قال بعضهم:ان الطيب و الطاهر لقبان للقاسم.

و مما تقدم ظهر أن الآيه لا تقتضی نفی أبوّته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم للقاسم و الطیب و الطاهر و إبراهیم و کذا للحسنین لما عرفت أنها خاصه بالرجال الموجودین فی زمن النزول علی نعت الرجولیه.

و قوله: وَ لٰكِنْ رَسُولَ اللّٰهِ وَ خٰاتَمَ النَّبِيِّينَ الخاتم بفتح التاء ما یختم به کالطابع و القالب بمعنی ما یطبع به و ما یقلب به و المراد بکونه خاتم النبیین أن النبوه اختتمت به صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلا نبی بعده.

و قد عرفت فیما مر معنی الرساله و النبوه و أن الرسول هو الذی یحمل رساله من اللّه الی الناس و النبی هو الذی یحمل نبأ الغیب الذی هو الدین و حقائقه و لازم ذلک أن یرتفع الرساله بارتفاع النبوه فإن الرساله من أنباء الغیب،فإذا انقطعت هذه الأنباء انقطعت الرساله.

و من هنا یظهر أن کونه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خاتم النبیین یستلزم کونه خاتما للرسل.

و فی الآیه إیماء الی أن ارتباطه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تعلقه بکم تعلق الرساله و النبوه و أن ما فعله کان بأمر من اللّه سبحانه.

و قوله: وَ كٰانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً أی ما بینه لکم إنما کان بعلمه (۱).

بحث روائی:

فی الدر المنثور أخرج ابن جریر عن ابن عباس قال:خطب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم زینب بنت جحش لزید بن حارثه فاستنکفت منه و قالت:أنا خیر منه حسبا و کانت امرأه فیها حده فأنزل اللّه «وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَةٍ» الآیه کلها.

أقول:و فی معناها روایات أخر.

و فیه أخرج ابن أبی حاتم عن ابن زید قال:نزلت فی أم کلثوم بنت عقبه بن أبی معیط

۱- ۱) .الاحزاب ۳۶-۴۰:بحث روائی فی تزویج الرسول الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم زینب بنت جحش بأمر اللّه.

و كانت أول امرأه هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فزوجها زيد بن حارثه فسخطت هى و أخوها و قالت:إنما أردنا رسول اللّه فزوجنا عبده فنزلت.

أقول:و الروايتان أشبه بالتطبيق منهما بسبب النزول.

و فى العيون فى باب مجلس الرضا عليه السّلام عند المأمون مع أصحاب الملل فى حديث يجيب فيه عن مسأله على بن الجهم فى عصمه الأنبياء:

قال:و أما محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قول اللّه عزّ و جل: وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللّٰهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النّٰاسَ وَ اللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشٰاهُ فإن اللّه عزّ و جل عرّف نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أسماء أزواجه فى دار الدنيا و أسماء أزواجه فى الآخره و أنهن أمهات المؤمنين و أحد من سمى له زينب بنت جحش و هى يومئذ تحت زيد بن حارثه فأخفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اسمها فى نفسه و لم يبده لكيلا يقول أحد من المنافقين:إنه قال فى امرأه فى بيت رجل:أنها أحد أزواجه من أمهات المؤمنين و خشى قول المنافقين.

قال اللّه عزّ و جل: وَ تَخْشَى النّٰاسَ وَ اللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشٰاهُ يعنى فى نفسك الحديث.

أقول:و روى ما يقرب منه فيه عنه عليه السّلام فى جواب مسأله المأمون عنه فى عصمه الأنبياء.

و فى المجمع فى قوله تعالى: «وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللّٰهُ مُبْدِيهِ» قيل:إن الذى أخفاه فى نفسه هو أن اللّه سبحانه أعلمه أنها ستكون من أزواجه و أن زيدا سيطلقها فلما جاء زيد و قال له:أريد أن أطلق زينب قال له:أمسك عليك زوجك،فقال سبحانه:لم قلت:أمسك عليك زوجك و قد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟و روى ذلك عن على بن الحسين عليه السّلام.

و فى الدر المنثور أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخارى و الترمذى و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن أنس قال:جاء زيد بن حارثه يشكو زينب الى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول:اتق اللّه و امسك عليك زوجك فنزلت: وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللّٰهُ مُبْدِيهِ .

قال أنس:فلو كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كاتما شيئا لكتم هذه الآيه،فتزوجها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

الحديث.

أقول:و الروايات كثيره فی المقام و إن كان كثير منها لا يخلو من شیء و فی الروايات:ما أولم رسول اللّٰه صلّی اللّٰه عليه و آله و سلّم علی امرأه من نسائه ما أولم علی زينب ذبح شاه و أطعم الناس الخبز و اللحم، و فی الروايات أنها كانت تفتخر علی سائر نساء النبی بثلاث أن جدها و جدّ النبی صلّی اللّٰه عليه و آله و سلّم واحد فإنها كانت بنت أميمه بنت عبد المطلب عمه النبی صلّی اللّٰه عليه و آله و سلّم و أن الذی زوّجها منه هو اللّٰه سبحانه و أن السفير جبرئيل.

و فی المجمع فی قوله تعالی: وَ لٰكِنْ رَسُولَ اللّٰهِ وَ خٰاتَمَ النَّبِيِّينَ :و صح الحديث عن جابر بن عبد اللّٰه عن النبی صلّی اللّٰه عليه و آله و سلّم قال:إنما مثلی فی الأنبياء كمثل رجل بنی دارا فأكملها و حسنها إلاّ موضع لبنه،فكان من دخلها و نظر إليها فقال:ما أحسنها إلاّ موضع هذه البنه.قال صلّی اللّٰه عليه و آله و سلّم:

فأنا موضع اللبنه ختم بی الأنبياء،أورده البخاری و مسلم فی صحيحهما.

أقول:و روی هذا المعنی غيرهما كالترمذی و النسائی و أحمد و ابن مردويه عن غير جابر كأبی سعيد و أبی هريره.

و فی الدر المنثور أخرج ابن الأنباری فی المصاحف عن أبی عبد الرحمن السلمیّ قال:كنت أقرئ الحسن و الحسين فمرّ بی علی بن أبی طالب و أنا أقرئهما فقال لی:أقرئهما و خاتم النبيين بفتح التاء.

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ۴١ الی ۴٨]

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اُذْكُرُوا اَللّٰهَ ذِكْراً كَثِيراً (۴١) وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (۴٢) هُوَ اَلَّذِی يُصَلِّی عَلَيْكُمْ وَ مَلاٰئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ اَلظُّلُمٰاتِ إِلَی اَلنُّورِ وَ كٰانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (۴٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاٰمٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (۴۴) يٰا أَيُّهَا اَلنَّبِیُّ إِنّٰا أَرْسَلْنٰاكَ شٰاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۴۵) وَ دٰاعِياً إِلَی اَللّٰهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرٰاجاً مُنِيراً (۴۶) وَ بَشِّرِ اَلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ فَضْلاً كَبِيراً (۴٧) وَ لاٰ تُطِعِ اَلْكٰافِرِينَ وَ اَلْمُنٰافِقِينَ وَ دَعْ أَذٰاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَی اَللّٰهِ وَ كَفیٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً (۴٨)

بیان:

قوله تعالی: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً الذکر ما یقابل النسیان و هو توجیه الإدراک نحو المذکور و أما التلفظ بما یدل علیه من أسمائه و صفاته فهو بعض مصادیق الذکر.

قوله تعالی: وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً التسبیح هو التنزیه و هو مثل الذکر لا یتوقف علی اللفظ و إن کان التلفظ بمثل سبحان اللّه بعض مصادیق التسبیح.

و البکره أول النهار و الأصیل آخره بعد العصر و تقیید التسبیح بالبکره و الأصیل لما فیهما من تحول الأحوال فیناسب تسبیحه و تنزیهه من التغیر و التحول و کل نقص طار،و یمکن أن یکون البکره و الأصیل معا کنایه عن الدوام کاللیل و النهار فی قوله: يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ (حم السجده۳۸/).

قوله تعالی: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلاٰئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ المعنی الجامع للصلاه علی ما یستفاد من موارد استعمالها هو الانعطاف فیختلف باختلاف ما نسب الیه و لذلک قیل:إن الصلاه من اللّه الرحمه و من الملائکه الاستغفار و من

الناس الدعاء لكن الذى نسب من الصلاه الى اللّه سبحانه فى القرآن هو الصلاه بمعنى الرحمه الخاصه بالمؤمنين و هى التى تترتب عليها سعاده العقبى و الفلاح المؤيد و لذلك علّل تصليته عليهم بقوله: «لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ وَ كٰانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً» .

و قد رتب سبحانه فى كلامه على نسيانهم له نسيانه لهم و على ذكرهم له ذكره لهم فقال:

نَسُوا اللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ (التوبه۶۷/)،و قال: فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (البقره۱۵۲/)و تصليته عليهم ذكر منه لهم بالرحمه فإن ذكروه كثيرا و سبّحوه بكره و أصيلا صلى عليهم كثيرا و غشيهم بالنور و أبعدهم من الظلمات.

و من هنا يظهر أن قوله: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ» الخ؛فى مقام التعليل لقوله: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللّٰهَ ذِكْراً كَثِيراً» و تفيد التعليل أنكم إن ذكرتم اللّه كثيرا ذكركم برحمته كثيرا و بالغ فى إخراجكم من الظلمات الى النور و يستفاد منه أن الظلمات إنما هى ظلمات النسيان و الغفله و النور نور الذكر.

و قوله: وَ كٰانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً وضع الظاهر موضع المضمر،أعنى قوله:

«بِالْمُؤْمِنِينَ» و لم يقل:و كان بكم رحيما،ليدل به على سبب الرحمه و هو وصف الإيمان.

قوله تعالى: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاٰمٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ظاهر السياق أن «تَحِيَّتُهُمْ» مصدر مضاف الى المفعول أى إنهم يحيّون-بالبناء للمفعول-يوم يلقون ربهم من عند ربهم و من ملائكته بالسلام أى إنهم يوم اللقاء فى أمن و سلام لا يصيبهم مكروه و لا يمسهم عذاب.

و قوله: وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً أى و هيأ اللّه لهم ثوابا جزيلا.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّٰا أَرْسَلْنٰاكَ شٰاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً شهادته عليه السّلام على الأعمال أن يتحملها فى هذه النشأه و يؤديها يوم القيامه،و قد تقدم فى قوله: لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (البقره۱۱۲/)،و غيره من آيات الشهاده

أنه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم شهید الشهداء.

و کونه مبشرا و نذیرا تبشیره المؤمنین المطیعین للّه و رسوله بثواب اللّه و الجنه و إنذاره الکافرین و العاصین بعذاب اللّه و النار.

قوله تعالی: وَ دٰاعِیاً إِلَی اللّٰهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرٰاجاً مُنِیراً دعوته الی اللّه هی دعوته الناس الی الإیمان باللّه وحده،و لازمه الإیمان بدین اللّه و تقید الدعوه بإذن اللّه یجعلها مساوقه للبعثه.

و کونه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سراجا منیرا هو کونه بحیث یهتدی به الناس الی سعادتهم و ینجون من ظلمات الشقاء و الضلاله فهو من الاستعاره،و قول بعضهم:إن المراد بالسراج المنیر القرآن و التقدیر ذا سراج منیر تکلف من غیر موجب.

قوله تعالی: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ فَضْلاً کَبِیراً ،الفضل من العطاء ما کان من غیر استحقاق ممن یأخذه و قد وصف اللّه عطاءه فقال: مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا (الأنعام/۱۶۰)،و قال: لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ فِیهٰا وَ لَدَیْنٰا مَزِیدٌ (ق/۳۵)، فبین أنه یعطی من الثواب ما لا یقابل العمل و هو الفضل و لا دلیل فی الآیه یدل علی اختصاصه بالآخره.

قوله تعالی: وَ لاٰ تُطِعِ الْکٰافِرِینَ وَ الْمُنٰافِقِینَ وَ دَعْ أَذٰاهُمْ وَ تَوَکَّلْ عَلَی اللّٰهِ الخ؛تقدم معنی طاعه الکافرین و المنافقین فی أول السوره.

و قوله: وَ دَعْ أَذٰاهُمْ أی اترک ما یؤذونک بالإعراض عنه و عدم الاشتغال به و الدلیل علی هذا المعنی قوله: «وَ تَوَکَّلْ عَلَی اللّٰهِ» أی لا تستقلّ بنفسک فی دفع أذاهم بل اجعل اللّه وکیلا فی ذلک و کفی باللّه وکیلا (۱).

ص :۱۳۸

۱- ۱) .الاحزاب ۴۱-۴۸:بحث روائی فی ذکر اللّه الکثیر.

[سوره الأحزاب (۳۳): الآيات ۴۹ الى ۶۲]

يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ اَلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً (۴۹) يَا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اَللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اَللَّهُ عَلَيْكَ وَ بَنَاتِ عَمِّكَ وَ بَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَ بَنَاتِ خَالِكَ وَ بَنَاتِ خَالاَتِكَ اَللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَ اِمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ اَلنَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ اَلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ كَانَ اَللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۰) تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ مَنِ اِبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لاَ يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ اَللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَانَ اَللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (۵۱) لاَ يَحِلُّ لَكَ اَلنِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَ لاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ كَانَ اَللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (۵۲) يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ اَلنَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَ لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي اَلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اَللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ اَلْحَقِّ وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اَللَّهِ وَ لاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اَللَّهِ عَظِيماً (۵۳) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اَللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۵۴) لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَ لاَ أَبْنَائِهِنَّ وَ لاَ إِخْوَانِهِنَّ وَ لاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَ لاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَ لاَ نِسَائِهِنَّ وَ لاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَ اِتَّقِينَ اَللَّهَ إِنَّ اَللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (۵۵) إِنَّ اَللَّهَ وَ مَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى اَلنَّبِيِّ يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً (۵۶) إِنَّ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ اَللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اَللَّهُ فِي اَلدُّنْيَا وَ اَلْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً (۵۷) وَ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ اَلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اِكْتَسَبُوا فَقَدِ اِحْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۵۸) يَا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَ بَنَاتِكَ وَ نِسَاءِ اَلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَ كَانَ اَللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۹) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ اَلْمُنَافِقُونَ وَ اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ اَلْمُرْجِفُونَ فِي اَلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (۶۰) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلاً (۶۱) سُنَّةَ اَللَّهِ فِي اَلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اَللَّهِ تَبْدِيلاً (۶۲)

بیان:

قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا نَکَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَکُمْ عَلَیْهِنَّ مِنْ عِدَّهٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِیلاً المراد بنکاحهن العقد علیهن بالنکاح،و بالمس الدخول،و بالتمتیع إعطاؤهن شیئا من المال یناسب شأنهن و حالهن و التسریح بالجمیل إطلاقهن من غیر خصومه و خشونه.

و المعنی:إذا طلقتم النساء بعد النکاح و قبل الدخول فلا عده لهن للطلاق و یجب تمتیعهن بشیء من المال و السراح الجمیل.

و الآیه مطلقه تشمل ما إذا فرض لهن فریضه المهر و ما إذا لم یفرض فیقیدها قوله: وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِیضَهً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ (البقره/۲۳۷)، و تبقی حجه فیما لم یفرض لهن فریضه.

قوله تعالی: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ اللاّتِی آتَیْتَ أُجُورَهُنَّ

ص :۱۴۱

الی آخر الآیه؛یذکر سبحانه لنبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالإحلال سبعه أصناف من النساء:الصنف الأول ما فی قوله: «أَزْوٰاجَکَ اللاّٰتِی آتَیْتَ أُجُورَهُنَّ» و المراد بالاجور المهور،و الثانی ما فی قوله:

«وَ مٰا مَلَکَتْ یَمِینُکَ مِمّٰا أَفٰاءَ اللّٰهُ عَلَیْکَ» أی من یملکه من الإماء الراجعه الیه من الغنائم و الأنفال،و تقیید ملک الیمین بکونه مما أفاء اللّه علیه کتقیید الأزواج بقوله: «اللاّٰتِی آتَیْتَ أُجُورَهُنَّ» للتوضیح لا للاحتراز.

و الثالث و الرابع ما فی قوله: «وَ بَنٰاتِ عَمِّکَ وَ بَنٰاتِ عَمّٰاتِکَ» قیل:یعنی نساء قریش، و الخامس و السادس ما فی قوله: «وَ بَنٰاتِ خٰالِکَ وَ بَنٰاتِ خٰالاٰتِکَ» قیل:یعنی نساء بنی زهره، و قوله: «اللاّٰتِی هٰاجَرْنَ مَعَکَ» قال فی المجمع:هذا إنما کان قبل تحلیل غیر المهاجرات ثم نسخ شرط الهجره فی التحلیل.

و السابع ما فی قوله: «وَ امْرَأَهً مُؤْمِنَهً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهٰا لِلنَّبِیِّ إِنْ أَرٰادَ النَّبِیُّ أَنْ یَسْتَنْکِحَهٰا» و هی المرأه المسلمه التی بذلت نفسها للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بمعنی أن ترضی أن یتزوج بها من غیر مصداق و مهر فإن اللّه أحلها له إن أراد أن یستنکحها،و قوله: «خٰالِصَهً لَکَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ» إیذان بأن هذا الحکم-أی حلیه المرأه للرجل ببذل النفس-من خصائصه لا یجری فی المؤمنین،و قوله بعده: «قَدْ عَلِمْنٰا مٰا فَرَضْنٰا عَلَیْهِمْ فِی أَزْوٰاجِهِمْ وَ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُهُمْ» تقریر لحکم الاختصاص.

و قوله: لِکَیْلاٰ یَکُونَ عَلَیْکَ حَرَجٌ تعلیل لقوله فی صدر الآیه: «إِنّٰا أَحْلَلْنٰا لَکَ» أو لما فی ذیلها من حکم الاختصاص و الأول أظهر و قد ختمت الآیه بالمغفره و الرحمه.

قوله تعالی: تُرْجِی مَنْ تَشٰاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِی إِلَیْکَ مَنْ تَشٰاءُ الخ؛الإرجاء التأخیر و التبعید،و هو کنایه عن الرد،و الإیواء:الإشکال فی المکان و هو کنایه عن القبول و الضم الیه.

و السیاق یدل علی أن المراد به أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی خیره من قبول من وهبت نفسها له أو

ردّه.

و قوله: وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكَ ،الابتغاء هو الطلب أى و من طلبتها من اللاتى عزلتها و لم تقبلها فلا إثم عليك و لا لوم أى يجوز لک أن تضم اليک من عزلتها و رددتها من النساء اللاتى وهبن أنفسهن لک بعد العزل و الرد.

و يمكن أن يكون إشاره الى أن له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقسم بين نسائه و أن يترک القسم فيؤخر من يشاء منهن و يقدم من يشاء و يعزل بعضهن من القسم فلا يقسم لها أو يبتغيها فيقسم لها بعد العزل و هو أوفق لقوله بعده: «وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكَ ذٰلِكَ أَدْنىٰ -أى أقرب- أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ -أى يسررن- وَ لاٰ يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِمٰا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا فِي قُلُوبِكُمْ» و ذلک لسرور المتقدمه بما قسمت له و رجاء المتأخره أن تتقدم بعد.

و قوله: وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَلِيماً أى يعلم مصالح عباده و لا يعاجل فى العقوبه.

و فى الآيه أقوال مختلفه أخر و الذى أوردناه هو الأوفق لوقوعها فى سياق سابقتها متصله بها و به وردت الأخبار عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام كما سيجىء.

قوله تعالى: لاٰ يَحِلُّ لَكَ النِّسٰاءُ مِنْ بَعْدُ وَ لاٰ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوٰاجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ الخ؛ظاهر الآيه لو فرضت مستقله فى نفسها غير متصله بما قبلها تحريم النساء له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلاّ من خيّرهن فاخترن اللّه و نفى جواز التبدل بهن يؤيد ذلک.

لكن لو فرضت متصله بما قبلها و هو قوله: «إِنّٰا أَحْلَلْنٰا لَكَ» الخ؛كان مدلولها تحريم ما عدا المعدودات و هى الأصناف السته التى تقدمت.

و فى بعض الروايات عن بعض أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن المراد بالآيه محرمات النساء المحدوده فى قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهٰاتُكُمْ وَ بَنٰاتُكُمْ الآيه؛(النساء۲۳/).

فقوله: لاٰ يَحِلُّ لَكَ النِّسٰاءُ مِنْ بَعْدُ أى من بعد اللاتى اخترن اللّه و رسوله و هى التسعه على المعنى الأول أو من بعد من عددناه فى قولنا «إِنّٰا أَحْلَلْنٰا لَكَ» على المعنى الثانى أو

من بعد المحللات و هى المحرمات على المعنى الثالث.

و قوله: أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ أى أن تطلق بعضهن و تزوج مكانها من غيرهن،و قوله: «إِلاّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ» يعنى الإماء و هو استثناء من قوله فى صدر الآيه: «لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ» .

و قوله: وَ كانَ اللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً معناه ظاهر و فيه تحذير عن المخالفه.

قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ -الى قوله- مِنَ الْحَقِّ بيان لأدب الدخول فى بيوت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و قوله: «إِلاّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ» استثناء من النهى،و قوله: «إِلى طَعامٍ» متعلق بالإذن،و قوله: «غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ» أى غير منتظرين لورود إناء الطعام بأن تدخلوا من قبل فتطيلوا المكث فى انتظار الطعام و يبيّنه قوله: «وَ لكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ -أى أكلتم- فَانْتَشِرُوا» ،و قوله: «وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ» عطف على قوله: «غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ» و هو حال بعد حال،أى غير ماكثين فى حال انتظار الإناء قبل الطعام و لا فى حال الاستئناس لحديث بعد الطعام.

و قوله: إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ تعليل للنهى أى لا تمكثوا كذلك لأن مكثكم ذلك كان يتأذى منه النبى فيستحيى منكم أن يسألكم الخروج و قوله: «وَ اللّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ» أى من بيان الحق لكم و هو ذكر تأذيه و التأديب بالأدب اللائق.

قوله تعالى: وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ ،ضمير«هن»لأزواج النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سؤالهن متاعا كنايه عن تكليمهن لحاجه أى إذا مسّت الحاجه الى تكليمكم أزواج النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكلموهن من وراء حجاب،و قوله: «ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ» بيان لمصلحه الحكم.

قوله تعالى: وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللّهِ وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ

مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً الخ؛أی لیس لکم إیذاؤه بمخالفه ما أمرتم فی نسائه و فی غیر ذلک و لیس لکم أن تنکحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلکم أی نکاحکم أزواجه من بعده کان عند اللّه عظیما، و فی الآیه إشعار بأن بعضهم ذکر ما یشیر الی نکاحهم أزواجه بعده و هو کذلک کما سیأتی فی البحث الروائی الآتی.

قوله تعالی: إِنْ تُبْدُوا شَیْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللّهَ کانَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً معناه ظاهر و هو فی الحقیقه تنبیه تهدیدی لمن کان یؤذی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو یذکر نکاح أزواجه من بعده.

قوله تعالی: لاٰ جُنٰاحَ عَلَیْهِنَّ فِی آبٰائِهِنَّ الی آخر الآیه ضمیر «عَلَیْهِنَّ» لنساء النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و الآیه فی معنی الاستثناء من عموم حکم الحجاب و قد استثنی الآباء و الأبناء و الإخوان و أبناء الإخوان و أبناء الأخوات و هؤلاء محارم،قیل:و لم یذکر الأعمام و الأخوال لأنهم من الممکن أن یصفوهن لأبنائهم.

و استثنی أیضا نساءهن و إضافه النساء الی ضمیرهن یلوّح الی أن المراد النساء المؤمنات دون الکوافر کما مرّ فی قوله تعالی: أَوْ نِسٰائِهِنَّ (النور/۳۱)،و استثنی أیضا ما ملکت أیمانهن من العبید و الإماء.

و قوله: وَ اتَّقِینَ اللّهَ إِنَّ اللّهَ کٰانَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ شَهِیداً فیه تأکید الحکم و خاصه من جهه الالتفات من الغیبه الی الخطاب فی «اتَّقِینَ اللّهَ» .

قوله تعالی: إِنَّ اللّهَ وَ مَلاٰئِکَتَهُ یُصَلُّونَ عَلَی النَّبِیِّ یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَیْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِیماً قد تقدم أن أصل الصلاه الانعطاف فصلاته تعالی انعطافه علیه بالرحمه انعطافا مطلقا لم یقید فی الآیه بشیء دون شیء و کذلک صلاه الملائکه علیه انعطاف علیه بالتزکیه و الاستغفار و هی من المؤمنین الدعاء بالرحمه.

و فی ذکر صلاته تعالی و صلاه ملائکته علیه قبل أمر المؤمنین بالصلاه علیه دلاله علی أن

فی صلاه المؤمنین له اتباعا للّه سبحانه و ملائکته و تأکیدا للنهی الآتی.

و قد استفاضت الروایات من طرق الشیعه و أهل السنه أن طریق صلاه المؤمنین أن یسألوا اللّه تعالی أن یصلی علیه و آله.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یُؤْذُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذٰاباً مُهِیناً من المعلوم أن اللّه سبحانه منزه من أن يناله الأذی و کل ما فیه و صمه النقص و الهوان فذکره مع الرسول و تشریکه فی إیذائه تشریف للرسول و إشاره الی أن من قصد رسوله بسوء فقد قصده أیضا بالسوء إذ لیس للرسول بما أنه رسول إلاّ ربه فمن قصده فقد قصد ربه.

و قد أوعدهم باللعن فی الدنیا و الآخره و اللعن هو الإبعاد من الرحمه و الرحمه الخاصه بالمؤمنین هی الهدایه الی الاعتقاد الحق و حقیقه الإیمان،و یتبعه العمل الصالح فالإبعاد من الرحمه فی الدنیا تحریمه علیه جزاء لعمله فیرجع الی طبع القلوب کما قال: لَعَنّٰاهُمْ وَ جَعَلْنٰا قُلُوبَهُمْ قٰاسِیَهً (المائده۱۳/)،و قال: وَ لٰکِنْ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ بِکُفْرِهِمْ فَلاٰ یُؤْمِنُونَ إِلاّٰ قَلِیلاً (النساء۴۶/)،و قال: أُولٰئِکَ الَّذِینَ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمیٰ أَبْصٰارَهُمْ (سوره محمد/ ۲۳).

و أما اللعن فی الآخره فهو الإبعاد من رحمه القرب فیها و قد قال تعالی: کَلاّٰ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ یَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففین۱۵/).

ثم أوعدهم بأنه أعد لهم-أی فی الآخره-عذابا مهینا و وصف العذاب بالمهین لأنهم یقصدون باستکبارهم فی الدنیا إهانه اللّه و رسوله فقوبلوا فی الآخره بعذاب یهینهم.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ یُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ بِغَیْرِ مَا اکْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتٰاناً وَ إِثْماً مُبِیناً تقیید إیذائهم بغیر ما اکتسبوا لأن إیذائهم بما اکتسبوا کما فی القصاص و الحد و التعزیر لا إثم فیه.

و أما إيـذاؤهم بغير ما اكتسـبوا و من دون اسـتحقاق فيعـدّه سـبحانه احتمالا للبهتان و الإثم المبين،و البهتان هو الكذب على الغير يواجهه به،و وجه كون الإيـذاء من غير اكتساب بهتانا أن المؤذى إنما يؤديه لسـبب عنده يعدّه جرما له يقول:لم قال كذا؟لم فعل كذا؟و ليس بجرم فيبهته عند الإيذاء بنسبه الجرم اليه مواجهه و ليس بجرم.

و كونه إثما مبينا لأن الافتراء و البهتان مما يدرك العقل كونه إثما من غير حاجه الى ورود النهى عنهما شرعا.

قوله تعـالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَ بَنَاتِكَ وَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ الـخ؛الجلابيب جمع جلباب و هو ثوب تشتمل به المرأه فيغطى جميع بدنها أو الخمار الذى تغطى به رأسها و وجهها.

و قوله: يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ أى يستترن بها فلا تظهر جيوبهن و صدورهن للناظرين.

و قوله: ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ أى ستر جميع البـدن أقرب الى أن يعرفن أنهن أهـل الستر و الصـلاح فلا يؤذين أى لا يؤذيهن أهل الفسق بالتعرض لهن.

و قيـل:المعنى ذلـك أقرب مـن أن يعرفـن أنهـن مسـلمات حرائر فلا يتعرض لهن بحسـبان أنهن إمـاء أو من غير المسـلمات من الكتابيات أو غيرهن و الأول أقرب.

قوله تعالى: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَهِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ الخ؛الانتهاء عن الشىء الامتناع و الكفّ عنه،و الإرجاف إشاعه الباطل للاغتمام به و إلقاء الاضطراب بسببه،و الإغراء بالفعل التحريض عليه.

و المعنى:أقسم لئن لم يكف المنافقون و الـذين فى قلوبهم مرض عن الإفساد و الذين يشـيعون الأخبار الكاذبه فى المدينه لإلقاء الاضطراب بين المسلمين لنحرضنّك عليهم ثم لا

يجاورونك فى المدينه بسبب نفيهم عنها إلاّ زمانا قليلا و هو ما بين صدور الأمر و فعليه إجرائه.

قوله تعالى: مَلْعُونِينَ أَيْنَمٰا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلاً الثقف إدراك الشىء و الظفر به،و الجمله حال من المنافقين و من عطف عليهم أى حال كونهم ملعونين أينما وجدوا أخذوا و بولغ فى قتلهم فعمّهم القتل.

قوله تعالى: سُنَّةَ اللّٰهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً السنه هى الطريقه المعموله التى تجرى بطبعها غالبا أو دائما.

يقول سبحانه هذا النكال الذى أوعدنا به المنافقين و من يحذو حذوهم من النفى و القتل الذريع هى سنه اللّه التى جرت فى الماضين فكلما بالغ قوم فى الإفساد و إلقاء الاضطراب بين الناس و تمادوا و طغوا فى ذلك أخذناهم كذلك و لم تجد لسنه اللّه تبديلا فتجرى فيكم كما جرت فى الامم من قبلكم (١).

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ۶٣ الى ٧٣]

يَسْئَلُكَ اَلنّٰاسُ عَنِ اَلسّٰاعَهِ قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ اَللّٰهِ وَ مٰا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اَلسّٰاعَهَ تَكُونُ قَرِيباً (۶٣) إِنَّ اَللّٰهَ لَعَنَ اَلْكٰافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (۶۴) خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً لاٰ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً (۶۵) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي اَلنّٰارِ يَقُولُونَ يٰا لَيْتَنٰا أَطَعْنَا اَللّٰهَ وَ أَطَعْنَا اَلرَّسُولاَ (۶۶) وَ قٰالُوا رَبَّنٰا إِنّٰا أَطَعْنٰا سٰادَتَنٰا وَ كُبَرٰاءَنٰا فَأَضَلُّونَا اَلسَّبِيلاَ (۶٧) رَبَّنٰا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ اَلْعَذٰابِ وَ اِلْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (۶٨) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسىٰ فَبَرَّأَهُ اَللّٰهُ مِمّٰا قٰالُوا وَ كٰانَ عِنْدَ اَللّٰهِ وَجِيهاً (۶٩) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمٰالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فٰازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) إِنّٰا عَرَضْنَا اَلْأَمٰانَهَ عَلَى اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَلْجِبٰالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهٰا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهٰا وَ حَمَلَهَا اَلْإِنْسٰانُ إِنَّهُ كٰانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اَللّٰهُ اَلْمُنٰافِقِينَ وَ اَلْمُنٰافِقٰاتِ وَ اَلْمُشْرِكِينَ وَ اَلْمُشْرِكٰاتِ وَ يَتُوبَ اَللّٰهُ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ وَ كٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٣)

١- ١) .الاحزاب ۴٩-۶٢:بحث روائى فى الزواج و الطلاق؛زوجات النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؛معنى صلاه اللّه و صلاه الملائكه و صلاه المؤمن على رسول اللّه.

بیان:

قوله تعالی: يَسْئَلُكَ النّاسُ عَنِ السّاعَهِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللّهِ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السّاعَهَ تَكُونُ قَرِيباً تذكر الآيه سؤال الناس عن الساعه و إنما كانوا يريدون أن يقدّر لهم زمن وقوعها و أنها قريبه أو بعيده كما يومی اليه التعبير عنها بالساعه فامر أن يجيبهم بقصر العلم بها فی اللّه سبحانه و علی ذلك جرت الحال كلما ذكرت فی القرآن.

و قوله: وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السّاعَهَ تَكُونُ قَرِيباً زياده فی الإبهام و ليعلموا أن

النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مثل غيره فى عدم العلم بها و ليس من الستر الذى أسرّه اليه و ستره من الناس.

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ لَعَنَ الْكٰافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً لعن الكفار إبعادهم من الرحمه،و الإعداد التهيئه،و السعير النار التى أشعلت فالتهبت،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً لاٰ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً الفرق بين الولى و النصير أن الولى يلى بنفسه تمام الأمر و المولى عليه بمعزل،و النصير يعين المنصور على بعض الأمر و هو إتمامه فالولى يتولى الأمر كله و النصير يتصدى بعضه،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النّٰارِ يَقُولُونَ يٰا لَيْتَنٰا أَطَعْنَا اللّٰهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولاَ تقلب وجوههم فى النار تحولها لحال بعد حال فتصفّر و تسودّ و تكون كالحه أو انتقالها من جهه الى جهه لتكون أبلغ فى مس العذاب كما يفعل باللحم المشوى.

و قولهم: «يٰا لَيْتَنٰا أَطَعْنَا اللّٰهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولاَ» كلام منهم على وجه التحسر و التمنى.

قوله تعالى: وَ قٰالُوا رَبَّنٰا إِنّٰا أَطَعْنٰا سٰادَتَنٰا وَ كُبَرٰاءَنٰا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ الساده جمع سيد و هو-على ما فى المجمع-المالك المعظم الذى يملك تدبير السواد الأعظم و هو الجمع الأكثر،و الكبراء جمع كبير و لعل المراد به الكبير سنا فالعامه تطيع و تقلد أحد رجلين إما سيد القوم و إما أسنهم.

قوله تعالى: رَبَّنٰا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذٰابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً الضعفان المثلان و إنما سألوا لهم ضعفى العذاب لأنهم ضلوا فى أنفسهم و أضلوا غيرهم،و لذلك أيضا سألوا لهم اللعن الكبير.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسىٰ فَبَرَّأَهُ اللّٰهُ مِمّٰا قٰالُوا وَ كٰانَ عِنْدَ اللّٰهِ وَجِيهاً نهى عن أن يكونوا كبعض بنى إسرائيل فيعاملوا نبيهم بمثل ما عامل به بنو إسرائيل من الإيذاء و ليس المراد مطلق الإيذاء بقول أو فعل و إن كان منهيا عنه بل قوله: «فَبَرَّأَهُ اللّٰهُ» يشهد بأنه كان إيذاء من قبيل التهمه و الافتراء المحوج فى

رفعه الی التبرئه و التنزیه.

و لعل السکوت عن ذکر ما آذوا به موسی علیه السّلام یؤید ما ورد فی الحدیث أنهم قالوا:لیس لموسی ما للرجال فبرأه اللّه من قولهم و سیوافیک.

و أوجه ما قیل فی إیذائهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه إشاره الی قصه زید و زینب،و إن یکن کذلک فمن إیذائه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما فی کثیر من روایات القصه من سردها علی نحو لا یناسب ساحه قدسه.

و قوله: وَ کٰانَ عِنْدَ اللّٰهِ وَجِیهاً أی ذا جاه و منزله و الجمله مضافا الی اشتمالها علی التبرئه إجمالا تعلل تبرئته تعالی له و للآیه و ما بعدها نوع اتصال بالآیات الناهیه عن إیذاء النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِیداً ،السدید من السداد و هو الإصابه و الرشاد فالسدید من القول ما یجتمع فیه مطابقه الواقع و عدم کونه لغوا أو ذا فائده غیر مشروعه کالنمیمه و غیر ذلک فعلی المؤمن أن یختبر صدق ما یتکلم به و أن لا یکون لغوا أو یفسد به إصلاح.

قوله تعالی: یُصْلِحْ لَکُمْ أَعْمٰالَکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ وَ مَنْ یُطِعِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فٰازَ فَوْزاً عَظِیماً رتب علی ملازمه القول السدید إصلاح الأعمال و مغفره الذنوب و ذلک أن النفس إذا لازمت القول السدید انقطعت عن کذب القول و لغو الحدیث و الکلام الذی یترتب علیه فساد،و برسوخ هذه الصفه فیها تنقطع طبعا عن الفحشاء و المنکر و اللغو فی الفعل و عند ذلک یصلح أعمال الإنسان فیندم بالطبع علی ما ضیّعه من عمره فی موبقات الذنوب إن کان قد ابتلی بشیء من ذلک و کفی بالندم توبه.

و یحفظه اللّه فیما بقی من عمره عن اقتحام المهلکات و إن رام شیئا من صغائر الذنوب غفر اللّه له فقد قال اللّه تعالی: إِنْ تَجْتَنِبُوا کَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئٰاتِکُمْ (النساء/ ۳۱)،فملازمه القول السدید تسوق الإنسان الی صلاح الأعمال و مغفره الذنوب بإذن اللّه.

و قوله: وَ مَنْ يُطِعِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فٰازَ فَوْزاً عَظِيماً وعد جميل على الإتيان بجميع الأعمال الصالحه و الاجتناب عن جميع المناهى بترتيب الفوز العظيم على طاعه اللّه و رسوله.

و بذلك تختتم السوره فى معناها فى الحقيقه لأن طاعه اللّه و رسوله هى الكلمه الجامعه بين جميع الأحكام السابقه،من واجبات و محرمات و الآيتان التاليتان كالمتمم لمعنى هذه الآيه.

قوله تعالى: إِنّٰا عَرَضْنَا الْأَمٰانَةَ عَلَى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبٰالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهٰا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهٰا وَ حَمَلَهَا الْإِنْسٰانُ إِنَّهُ كٰانَ ظَلُوماً جَهُولاً -الى قوله- غَفُوراً رَحِيماً الأمانه-أيا ما كانت-شىء يودع عند الغير ليحتفظ عليه ثم يرده الى من أودعه،فهذه الأمانه المذكوره فى الآيه شىء ائتمن اللّه الإنسان عليه ليحفظ على سلامته و استقامته ثم يرده اليه سبحانه كما أودعه.

و يستفاد من قوله: «لِيُعَذِّبَ اللّٰهُ الْمُنٰافِقِينَ وَ الْمُنٰافِقٰاتِ» الخ؛أنه أمر يترتب على حمله النفاق و الشرك و الإيمان،فينقسم حاملوه باختلاف كيفيه حملهم الى منافق و مشرك و مؤمن.

فهو لا محاله أمر مرتبط بالدين الحق الذى يحصل بالتلبس به و عدم التلبس به النفاق و الشرك و الإيمان.

فهل هو الاعتقاد الحق و الشهاده على توحده تعالى،أو مجموع الاعتقاد و العمل بمعنى أخذ الدين الحق بتفاصيله مع الغض عن العمل به،أو التلبس بالعمل به أو الكمال الحاصل للإنسان من جهه التلبس بواحد من هذه الامور.

و ليست هى الأول أعنى التوحيد فإن السماوات و الأرض و غيرهما من شىء توحده تعالى و تسبّح بحمده،و قد قال تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (الإسراء/۴۴)،و الآيه تصرّح بإبائها عنه.

و ليست هى الثانى أعنى الدين الحق بتفاصيله فإن الآيه تصرح بحمل الانسان كائنا من

كـان من مؤمن و غيره له و من البيّن أن أكثر من لاـ يؤمن لاـ يحمله و لاـ علم له به،و بهـذا يظهر أنها ليست بالثالث و هو التلبس بالعمل بالدين الحق تفصيلا.

و ليست هى الكمال الحاصل له بالتلبس بالتوحيد فإن السماوات و الأرض و غيرهما ناطقه بالتوحيد فعلا متلبسه به.

و ليست هى الكمال الحاصل من أخـذ دين الحق و العلم به إذ لا يترتب على نفس الاعتقاد الحق و العلم بالتكاليف الـدينيه نفاق و لا شرك و لا إيمان و لا يستعقب سعاده و لا شقاء و إنما يترتب الأثر على الالتزام بالاعتقاد الحق و التلبس بالعمل.

فبقى أنها الكمال الحاصل له من جهه التلبس بالاعتقاد و العمل الصالح و سـلوك سبيل الكمال بالارتقاء من حضيض الماده الى أوج الإخلاص الذى هو أن يخلصه اللّه لنفسه فلا يشاركه فيه غيره فيتولى هو سبحانه تدبير أمره و هو الولايه الإلهيه.

فـالمراد بالأمـانه الولايه الإلهيه و بعرضـها على هـذه الأشـياء اعتبارها مقيسه إليها و المراد بحملها و الإباء عنه وجود اسـتعدادها و صلاحيه التلبس بها و عدمه،و هذا المعنى هو القابل لأن ينطبق على الآيه فالسماوات و الأرض و الجبال على ما فيها من العظمه و الشده و القوه فاقده لاستعداد حصولها فيها و هو المراد بإبائهن عن حملها و إشقاقهن منها.

لكن الانسان الظلوم الجهول لم يأب و لم يشفق من ثقلها و عظم خطرها فحملها على ما بها من الثقل و عظم الخطر فتعقب ذلك أن انقسم الإنسان من جهه حفظ الأمانه و عـدمه بالخيانه الى منافق و مشـرك و مؤمن بخلاف السـماوات و الأرض و الجبال فما منها إلاّ مؤمن مطيع.

فان قلت:ما بال الحكيم العليم حمل على هذا المخلوق الظلوم الجهول حملا لا يتحمله لثقله و عظم خطره السـماوات و الأرض و الجبال على عظمتها و شدتها و قوتها و هو يعلم أنه أضعف من أن يطيق حمله و إنما حمله على قبولها ظلمه و جهله و أجرأه عليه غروره و غفلته عن عواقب الامور فما تحميله الأمانه باستدعائه لها ظلما و جهلا إلاّ كتقليد مجنون ولايه عامه يأبى قبولها

العقلاء و يشفقون منها يستدعيها المجنون لفساد عقله و عدم استقامه فكره.

قلت:الظلم و الجهل فى الإنسان و إن كانا بوجه ملاك اللوم و العتاب فهما بعينهما مصحح حمله الأمانه و الولايه الإلهيه فإن الظلم و الجهل إنما يتصف بهما من كان من شأنه الاتصاف بالعدل و العلم فالجبال مثلا لا تتصف بالظلم و الجهل فلا يقال:جبل ظالم أو جاهل لعدم صحه اتصافه بالعدل و العلم و كذلك السماوات و الأرض لا يحمل عليها الظلم و الجهل لعدم صحه اتصافها بالعدل و العلم بخلاف الانسان.

و الأمانه المذكوره فى الآيه و هى الولايه الإلهيه و كمال صفه العبوديه إنما تتحصل بالعلم باللّه و العمل الصالح الذى هو العدل و إنما يتصف بهذين الوصفين أعنى العلم و العدل الموضوع القابل للجهل و الظلم فكون الانسان فى حد نفسه و بحسب طبعه ظلوما جهولا هو المصحح لحمل الأمانه الإلهيه فافهم ذلك.

فمعنى الآيتين (۱)يناظر بوجه معنى قوله تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (التين/۶).

فقوله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ» أى الولايه الإلهيه و الاستكمال بحقائق الدين الحق علما و عملا و عرضها هو اعتبارها مقيسه الى هذه الأشياء.

و قوله: عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ أى هذه المخلوقات العظيمه التى خلقها أعظم من خلق الإنسان كما قال: لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ (المؤمن/۵۷)،و قوله: «فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهَا» إباؤها عن حملها و إشفاقها منها عدم اشتمالها على صلاحيه التلبس و تجافيها عن قبولها و فى التعبير بالحمل إيماء الى أنها ثقيله ثقلا لا يحتملها السماوات و الأرض و الجبال.

۱- ۱) .فالآيه الاولى تحاذى الاولى و الثانيه تحاذى الثانيه و الثالثه.

و قوله: وَ حَمَلَهَا الْإِنْسٰانُ أى اشتمل على صلاحيتها و التهيؤ للتلبس بها على ضعفه و صغر حجمه «إِنَّهُ كٰانَ ظَلُوماً جَهُولاً» أى ظالما لنفسه جاهلا بما تعقبه هذه الأمانه لو خانها من وخيم العاقبه و الهلاك الدائم.

و بمعنى أدق لكون الإنسان خاليا بحسب نفسه عن العدل و العلم قابلا للتلبس بما يفاض عليه من ذلك و الارتقاء من حضيض الظلم و الجهل الى أوج العدل و العلم.

و الظلوم و الجهول و صفان من الظلم و الجهل معناهما من كان من شأنه الظلم و الجهل نظير قولنا:فرس شموس و دابه جموح و ماء طهور أى من شأنها ذلك كما قاله الرازى أو معناهما المبالغه فى الظلم و الجهل كما ذكر غيره،و المعنى مستقيم كيفما كانا.

و قوله: لِيُعَذِّبَ اللّٰهُ الْمُنٰافِقِينَ وَ الْمُنٰافِقٰاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكٰاتِ اللام للغايه أى كانت عاقبه هذا الحمل أن يعذب اللّه المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات و ذلك أن الخائن للأمانه يتظاهر فى الأغلب بالصلاح و الأمانه و هو النفاق و قليلا ما يتظاهر بالخيانه لها و لعل اعتبار و هذا المعنى هو الموجب لتقديم المنافقين و المنافقات فى الآيه على المشركين و المشركات.

و قوله: وَ يَتُوبَ اللّٰهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً عطف على «لِيُعَذِّبَ» أى و كان عاقبه ذلك أن يتوب اللّه على المؤمنين و المؤمنات، و التوبه من اللّه هى رجوعه الى عبده بالرحمه فيرجع الى الإنسان إذا آمن به و لم يخن بالرحمه و يتولى أمره و هو ولى المؤمنين فيهديه اليه بالستر على ظلمه و جهله و تحليته بالعلم النافع و العمل الصالح لأنه غفور رحيم.

فإن قلت:ما هو المانع من جعل الأمانه بمعنى التكليف و هو الدين الحق و كون الحمل بمعنى الاستعداد و الصلاحيه و الإباء هو فقده و العرض هو اعتبار القياس فيجرى فيه حينئذ جميع ما تقدم فى بيان الانطباق على الآيه.

ص :155

قلت:نعم لكن التكليف إنما هو مطلوب لكونه مقدمه لحصول الولايه الإلهيه و تحقق صفه العبوديه الكامله فهى المعروضه بالحقيقه و المطلوبه لنفسها.

و الالتفات فى قوله: «لِيُعَذِّبَ اللّهُ» من التكلم الى الغيبه و الإتيان باسم الجلاله للدلاله على أن عواقب الامور الى اللّه سبحانه لأنه اللّه.

و وضع الظاهر موضع المضمر فى قوله: «وَ يَتُوبَ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ» للاشعار بكمال العنايه فى حقهم و الاهتمام بأمرهم.

ص :۱۵۶

سوره سبأ مكيه و هى أربع و خمسون آيه

اشاره

[سوره سبإ (٣۴): الآیات ١ الی ٩]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِي لَهُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ وَ لَهُ اَلْحَمْدُ فِي اَلْآخِرَةِ وَ هُوَ اَلْحَكِيمُ اَلْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مٰا يَلِجُ فِي اَلْأَرْضِ وَ مٰا يَخْرُجُ مِنْهٰا وَ مٰا يَنْزِلُ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ مٰا يَعْرُجُ فِيهٰا وَ هُوَ اَلرَّحِيمُ اَلْغَفُورُ (٢) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَأْتِينَا اَلسّٰاعَةُ قُلْ بَلىٰ وَ رَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عٰالِمِ اَلْغَيْبِ لاٰ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقٰالُ ذَرَّةٍ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي اَلْأَرْضِ وَ لاٰ أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَ لاٰ أَكْبَرُ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ أُولٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۴) وَ اَلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيٰاتِنٰا مُعٰاجِزِينَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (۵) وَ يَرَى اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ اَلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ اَلْحَقَّ وَ يَهْدِي إِلىٰ صِرٰاطِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَمِيدِ (۶) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذٰا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرىٰ عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي اَلْعَذٰابِ وَ اَلضَّلاٰلِ اَلْبَعِيدِ (٨) أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلىٰ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ اَلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ اَلسَّمٰاءِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)

ص: ١۵٧

بیان:

تتكلم السوره حول الاصول الثلاثه أعنى الوحدانيه و النبوه و البعث فتذكرها و تذكر ما لمنكريها من الاعتراض فيها و الشبه التى ألقوها ثم تدفعها بوجوه الدفع من حكمه و موعظه و مجادله حسنه و تهتم ببيان أمر البعث أكثر من غيره فتذكره فى مفتتح الكلام ثم تعود اليه عوده بعد عوده الى مختتمه.

و هى مكيه بشهاده مقاصد آياتها على ذلك.

قوله تعالى: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى لَهُ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى الْأَرْضِ الخ؛ المطلوب بيان البعث و الجزاء بيانا لا يعتريه شك بالإشاره الى الحجه التى ينقطع بها الخصم و الأساس الذى يقوم عليه ذلك أمران أحدهما عموم ملكه تعالى لكل شىء من كل جهه حتى يصح له أى تصرف أراد فيها من إبداء و رزق و إماته و إحياء بالإعاده و جزاء،و ثانيهما كمال

ص :۱۵۸

علمه تعالی بالأشیاء من جمیع جهاتها علما لا یطرأ علیه عزوب و زوال حتی یعید کل من أراد و یجزیه علی ما علم من أعماله خیرا أو شرا.

و قد أشیر الی أولی الأمرین فی الآیه الاولی التی نحن فیها و الی الثانیه فی الآیه الثانیه و بذلک یظهر أن الآیتین تمهید لما فی الآیه الثالثه و الرابعه.

فقوله: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ ثناء علیه علی ملکه المنبسط علی کل شیء بحیث له أن یتصرف فی کل شیء بما شاء و أراد.

و قوله: وَ لَهُ الْحَمْدُ فِی الْآخِرَهِ تخصیص الحمد بالآخره لما أن الجمله الاولی تتضمن الحمد فی الدنیا فإن النظام المشهود فی السماوات و الأرض نظام دنیوی کما یشهد به قوله تعالی: یَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَیْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمٰاوٰاتُ (إبراهیم۴۸/).

و قوله: وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ ختم الآیه بالاسمین الکریمین للدلاله علی أن تصرفه فی نظام الدنیا ثم تعقیبه بنظام الآخره مبنی علی الحکمه و الخبره فبحکمته عقّب الدنیا بالآخره و إلاّ لغت الخلقه و بطلت و لم یتمیز المحسن من المسیء کما قال: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا بٰاطِلاً -الی أن قال- أَمْ نَجْعَلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ کَالْمُفْسِدِینَ فِی الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِینَ کَالْفُجّٰارِ (ص۲۸/)،و بخبرته یحشرهم و لا یغادر منهم أحدا و یجزی کل نفس بما کسبت.

و الخبیر من أسماء اللّه الحسنی مأخوذه من الخبره و هی العلم بالجزئیات فهو أخصّ من العلیم.

قوله تعالی: یَعْلَمُ مٰا یَلِجُ فِی الْأَرْضِ وَ مٰا یَخْرُجُ مِنْهٰا وَ مٰا یَنْزِلُ مِنَ السَّمٰاءِ وَ مٰا یَعْرُجُ فِیهٰا الولوج مقابل الخروج و العروج مقابل النزول و کأن العلم بالولوج و الخروج و النزول و العروج کنایه عن علمه بحرکه کل متحرک و فعله و اختتام الآیه بقوله: «وَ هُوَ الرَّحِیمُ الْغَفُورُ» کأن فیه إشاره الی أن له رحمه ثابته و مغفره ستصیب قوما

بإيمانهم.

قوله تعالى: وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلىَ وَ رَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ الخ؛يذكر إنكارهم لإتيان الساعه و هى يوم القيامه و هم ينكرونه مع ظهور عموم ملكه و علمه بكل شىء و لا مورد للارتياب فى إتيانها مع ذلك كما تقدم فضلا عن إنكار إتيانها و لذلك أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يجيب عن قولهم بقوله: «قُلْ بَلىَ وَ رَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ» أى الساعه.

و لما كان السبب العمده فى إنكارهم هو اختلاط الأشياء و منها أبدان الأموات بعضها ببعض و تبدّل صورها تبدلا بعد تبدل بحيث لا خبر عن أعيانها فيمتنع إعادتها من دون تميز بعضها من بعض أشار الى دفع ذلك بقوله: «عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ» أى لا يفوت«عن علمه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَ لاَ فِى الْأَرْضِ» .

و قوله: وَ لاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَ لاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ تعميم لعلمه لكل شىء و فيه مع ذلك إشاره الى أن للأشياء كائنه ما كانت ثبوتا فى كتاب مبين لا تتغير و لا تتبدل و إن زالت رسومها عن صفحه الكون و قد تقدم بعض الكلام فى الكتاب المبين فى سوره الأنعام و غيرها.

قوله تعالى: لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ اللام فى «لِيَجْزِىَ» للتعليل و هو متعلق بقوله: «لَتَأْتِيَنَّكُمْ» و فى قوله: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» نوع محاذاه لقوله السابق: «وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ» .

و فى الآيه بيان أحد السببين لقيام الساعه و هو أن يجزى اللّه الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالمغفره و الرزق الكريم و هو الجنه بما فيها و السبب الاخير ما يشير اليه قوله: «وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ» الخ.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ

أَلِيمٌ السعی الجد فی المشی و المعاجزه المبالغه فی الإعجاز و قیل:المسابقه و الکلام مبنی علی الاستعاره بالکنایه کأن الآیات مسافه یسیرون فیها سیرا حثیثا لیعجزوا اللّه و یسبقوه و الرجز کالرجس القذر و لعل المراد به العمل السیئ فیکون إشاره الی تبدل العمل عذابا ألیما علیهم أو سببا لعذابهم،و قیل:الرجز هو سیئ العذاب.

و فی الآیه تعریض للکفار الذین یصرّون علی إنکار البعث.

قوله تعالی: وَ یَرَی الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ هُوَ الْحَقَّ الموصول الأول فاعل یری و الموصول الثانی مفعوله الأول و الحق مفعوله الثانی و المراد بالذین أوتوا العلم العلماء باللّه و بآیاته،و بالذی أنزل الیه القرآن النازل الیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و جمله «وَ یَرَی» الخ؛استئناف متعرض لقوله السابق: «وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا» أو حال من فاعل کفروا،و المعنی:أولئک یقولون:لا تأتینا الساعه و ینکرونه جهلا،و العلماء باللّه و آیاته یرون أن هذا القرآن النازل الیک المخبر بأن الساعه آتیه هو الحق.

و قوله: وَ یَهْدِی إِلیٰ صِرٰاطِ الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ معطوف علی الحق أی و یرون القرآن یهدی الی صراط من هو عزیز لا یغلب علی ما یرید محمود یثنی علی جمیع أفعاله لأنه لا یفعل مع عزته إلاّ الجمیل و هو اللّه سبحانه،و فی التوصیف بالعزیز الحمید مقابله لما وصفهم به فی قوله: «الَّذِینَ سَعَوْا فِی آیٰاتِنٰا مُعٰاجِزِینَ» .

قوله تعالی: وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا هَلْ نَدُلُّکُمْ عَلیٰ رَجُلٍ یُنَبِّئُکُمْ إِذٰا مُزِّقْتُمْ کُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّکُمْ لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ کلام منهم وارد مورد الاستهزاء یعرّفون فیه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعضهم لبعض بالقول بالمعاد.

و التمزیق التقطیع و التفریق،و کونهم فی خلق جدید استقرارهم فیه أی تجدید خلقتهم بإحیائهم بعد موتهم و وجودهم ثانیا بعد عدمهم،و قوله: «إِذٰا مُزِّقْتُمْ» ظرف لقوله: «إِنَّکُمْ لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ» .

و المعنى:و قال الذين كفروا بعضهم لبعض على طريق الاستهزاء بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لإنذاره إياهم بالبعث و الجزاء:هل ندلكم على رجل و المراد به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ينبئكم و يخبركم أنكم ستستقرون فى خلق جديد و يتجدد لكم الوجود إذا فرّقت أبدانكم كل التفريق و قطعت بحيث لا يتميز شىء منها من شىء.

قوله تعالى: أَفْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ الخ؛الاستفهام للتعجيب فإن القول ببعث الأجساد بعد فنائها عجيب عندهم لا يقول به عاقل إلاّ لتلبيس الأمر على الناس و إضلالهم لينال بعض ما عندهم و إلاّ فكيف يتلبس فيه الأمر على عاقل،و لهذا رددوا الأمر بين الافتراء و الجنه فى الاستفهام و المعنى:أ هو عاقل يكذب على اللّه افتراء عليه بالقول بالبعث أم به نوع جنون يتفوه بما بدا له من غير فكر مستقيم.

و قوله: بَلِ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِى الْعَذٰابِ وَ الضَّلاٰلِ الْبَعِيدِ رد لقولهم و إضراب عن الترديد الذى أتوا به مستفهمين،و محصله أن ذلك ليس افتراء على اللّه و لا جنون فيه بل هؤلاء الكفار مستقرون فى عذاب سيظهر لهم و قد أبعدهم ذلك عن الحق فكانوا فى ضلال بعيد لا يسعهم مع ذلك أن يعقلوا الحق و يذعنوا به.

و وضع الموصول موضع الضمير فى قوله: «بَلِ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ» للدلاله على أن عله وقوعهم فيما وقعوا فيه من العذاب و الضلال عدم إيمانهم بالآخره.

قوله تعالى: أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلىٰ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمٰاءِ الخ؛وعظ و إنذار لهم باستعظام ما اجترءوا عليه من تكذيب آيات اللّه و الاستهزاء برسوله فالمراد بقوله:

«مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ» إحاطه السماء و الأرض بهم من بين أيديهم و من خلفهم فأينما نظروا وجدوا سماء تظلهم و أرضا تقلهم لا مفر لهم منهما.

و قوله: إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمٰاءِ

أی إذ أحاط بهم الأرض و السماء و هما مدبرتان بتدبیرنا منقادتان مسخرتان لنا إن نشأ نخسف بهم الأرض فنهلکهم أو نسقط علیهم قطعه من السماء فنهلکهم فما لهم لا ینتهون عن هذه الأقاویل؟

و قوله: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِکُلِّ عَبْدٍ مُنِیبٍ ،أی فیما ذکر من إحاطه السماء و الأرض و کونهما مدبرتین للّه سبحانه إن یشأ یخسف بهم الأرض أو یسقط علیهم کسفا من السماء لآیه لکل عبد منیب،راجع الی ربه بالطاعه،فهؤلاء لا یستهینون بهذه الامور و لا یجترءون علی تکذیب هذه الآیات إلاّ لکونهم مستکبرین عاتین لا یریدون إنابه الی ربهم و رجوعا الی طاعته.

[سوره سبإ (۳۴): الآیات ۱۰ الی ۲۱]

وَ لَقَدْ آتَیْنٰا دٰاوُدَ مِنّٰا فَضْلاً یٰا جِبٰالُ أَوِّبِی مَعَهُ وَ اَلطَّیْرَ وَ أَلَنّٰا لَهُ اَلْحَدِیدَ (۱۰) أَنِ اِعْمَلْ سٰابِغٰاتٍ وَ قَدِّرْ فِی اَلسَّرْدِ وَ اِعْمَلُوا صٰالِحاً إِنِّی بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۱۱) وَ لِسُلَیْمٰانَ اَلرِّیحَ غُدُوُّهٰا شَهْرٌ وَ رَوٰاحُهٰا شَهْرٌ وَ أَسَلْنٰا لَهُ عَیْنَ اَلْقِطْرِ وَ مِنَ اَلْجِنِّ مَنْ یَعْمَلُ بَیْنَ یَدَیْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ یَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنٰا نُذِقْهُ مِنْ عَذٰابِ اَلسَّعِیرِ (۱۲) یَعْمَلُونَ لَهُ مٰا یَشٰاءُ مِنْ مَحٰارِیبَ وَ تَمٰاثِیلَ وَ جِفٰانٍ کَالْجَوٰابِ وَ قُدُورٍ رٰاسِیٰاتٍ اِعْمَلُوا آلَ دٰاوُدَ شُکْراً وَ قَلِیلٌ مِنْ عِبٰادِیَ اَلشَّکُورُ (۱۳) فَلَمّٰا قَضَیْنٰا عَلَیْهِ اَلْمَوْتَ مٰا دَلَّهُمْ عَلیٰ مَوْتِهِ إِلاّٰ دَابَّهُ اَلْأَرْضِ تَأْکُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمّٰا خَرَّ تَبَیَّنَتِ اَلْجِنُّ أَنْ لَوْ کٰانُوا یَعْلَمُونَ اَلْغَیْبَ مٰا لَبِثُوا فِی اَلْعَذٰابِ اَلْمُهِینِ (۱۴) لَقَدْ کٰانَ لِسَبَإٍ فِی مَسْکَنِهِمْ آیَهٌ جَنَّتٰانِ عَنْ یَمِینٍ وَ شِمٰالٍ کُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّکُمْ وَ اُشْکُرُوا لَهُ بَلْدَهٌ طَیِّبَهٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ (۱۵) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمْ سَیْلَ اَلْعَرِمِ وَ بَدَّلْنٰاهُمْ بِجَنَّتَیْهِمْ جَنَّتَیْنِ ذَوٰاتَیْ أُکُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَیْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِیلٍ (۱۶) ذٰلِکَ جَزَیْنٰاهُمْ بِمٰا کَفَرُوا وَ هَلْ نُجٰازِی إِلاَّ اَلْکَفُورَ (۱۷) وَ جَعَلْنٰا بَیْنَهُمْ وَ بَیْنَ اَلْقُرَی اَلَّتِی بٰارَکْنٰا فِیهٰا قُریً ظٰاهِرَهً وَ قَدَّرْنٰا فِیهَا اَلسَّیْرَ سِیرُوا فِیهٰا لَیٰالِیَ وَ أَیّٰاماً آمِنِینَ (۱۸) فَقٰالُوا رَبَّنٰا بٰاعِدْ بَیْنَ أَسْفٰارِنٰا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنٰاهُمْ أَحٰادِیثَ وَ مَزَّقْنٰاهُمْ کُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِکُلِّ صَبّٰارٍ شَکُورٍ (۱۹) وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَیْهِمْ إِبْلِیسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاّٰ فَرِیقاً مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۲۰) وَ مٰا کٰانَ لَهُ عَلَیْهِمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إِلاّٰ لِنَعْلَمَ مَنْ یُؤْمِنُ بِالْآخِرَهِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهٰا فِی شَکٍّ وَ رَبُّکَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ حَفِیظٌ (۲۱)

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ آتَیْنٰا دٰاوُدَ مِنّٰا فَضْلاً یٰا جِبٰالُ أَوِّبِی مَعَهُ وَ الطَّیْرَ وَ أَلَنّٰا لَهُ

ص :۱۶۴

الْحَدِيدَ الفضل العطيه و التأويب الترجيع من الأوب بمعنى الرجوع و المراد به ترجيع الصوت بالتسبيح بدليل قوله فيه فى موضع آخر: إِنّٰا سَخَّرْنَا الْجِبٰالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرٰاقِ وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوّٰابٌ (ص١٩/).و الطير معطوف على محل الجبال و منه يظهر فساد قول بعضهم:أن الأوب بمعنى السير و أن الجبال كانت تسير معه حيثما سار.

و قوله: يٰا جِبٰالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ بيان للفضل الذى أوتى داود و قد وضع فيه الخطاب الذى خوطبت به الجبال و الطير فسخرتا به موضع نفس التسخير الذى هو العطيه و هو من قبيل وضع السبب موضع المسبّب و المعنى:سخّرنا الجبال له تؤوب معه و الطير،و هذا هو المتحصل من تسخير الجبال و الطير له كما يشير اليه قوله: إِنّٰا سَخَّرْنَا الْجِبٰالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرٰاقِ وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوّٰابٌ (ص١٩/).

و قوله: وَ أَلَنّٰا لَهُ الْحَدِيدَ أى و جعلناه لينا له على ما به من الصلابه.

قوله تعالى: أَنِ اعْمَلْ سٰابِغٰاتٍ وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ الخ؛السابغات جمع سابغه و هى الدرع الواسعه،و السرد نسج الدرع،و تقديره الاقتصاد فيه بحيث تتناسب حلقه أى اعمل دروعا واسعه و اجعلها متناسبه الحلق،و جمله «أَنِ اعْمَلْ» الخ؛نوع تفسير لإلانه الحديد له.

و قوله: وَ اعْمَلُوا صٰالِحاً إِنِّي بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ معنى الجمله فى نفسها ظاهر و هى لوقوعها فى سياق بيان إيتاء الفضل و عدّ النعم تفيد معنى الأمر بالشكر كأنه قيل:و قلنا اشكر النعم أنت و قومك بالعمل الصالح.

قوله تعالى: وَ لِسُلَيْمٰانَ الرِّيحَ غُدُوُّهٰا شَهْرٌ وَ رَوٰاحُهٰا شَهْرٌ الخ؛أى و سخرنا لسليمان الريح مسير غدو تلك الريح-و هو أول النهار الى الظهر-مسير شهر و رواح تلك الريح -و هو من الظهر الى آخر النهار-مسير شهر أى إنها تسير فى يوم مسير شهرين.

و قوله: وَ أَسَلْنٰا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ الإساله إفعال من السيلان بمعنى الجريان و القطر

النحاس أی و أذبنا له القطر فسالت كالعين الجاريه.

قوله: وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ،أی و جمع من الجن -بدليل قوله بعد «يَعْمَلُونَ لَهُ» -يعمل بين يديه بإذن ربه مسخرين له «وَ مَنْ يَزِغْ» أی ينحرف «عَنْ أَمْرِنا» و لم يطع سليمان «نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ» ظاهر السياق أن المراد به عذاب النار فی الدنيا دون الآخره،و فی لفظ الآيه دلاله علی أن المسخر له كان بعض الجن لا جميعهم.

قوله تعالی: يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ الخ؛المحاريب جمع محراب و هو مكان إقامه الصلاه و العباده،و التماثيل جمع تمثال و هی الصوره المجسمه من الشیء و الجفان جمع جفنه و هی صحفه الطعام،و الجوابی جمع جابيه الحوض الذی يجبی أی يجمع فيه الماء،و القدور جمع قدر و هو ما يطبخ فيه الطعام، و الراسيات الثابتات و المراد بكون القدور راسيات كونها ثابتات فی أمكنتها لا يزلن عنها لعظمها.

و قوله: اِعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً خطاب لسليمان و سائر من معه من آل داود أن يعملوا و يعبدوا اللّه شكرا له،و قوله: «وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ» أی الشاكر للّه شكرا بعد شكر و الجمله إما فی مقام ترفيع مقام أهل الشكر بأن المتمكنين فی هذا المقام قليلون و هم الأوحديون من الناس،و إما فی مقام التعليل كأنه قيل:إنهم قليل فكثروا عدتهم.

قوله تعالی: فَلَمّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلی مَوْتِهِ إِلاّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ المراد بدابه الأرض الأرضه علی ما وردت به الروايات و المنسأه العصا و قوله: «فَلَمّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِی الْعَذابِ الْمُهِينِ» الخرور السقوط علی الأرض.

و يستفاد من السياق أنه عليه السّلام لما قبض كان متكئا علی عصاه فبقی علی تلك الحال قائما

متكئا على عصاه زمانا لا يعلم بموته إنس و لا جن فبعث اللّه عزّ و جل أرضه فأخذت فى أكل منسأته حتى إذا أكلت انكسرت العصا و سقط سليمان على الأرض فعلموا عند ذلک بموته و تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان المستور عنهم و ما لبثوا هذا المقدار من الزمان-و هو من حين قبضه الى خروره-فى العذاب المهين المذلّ لهم.

قوله تعالى: لَقَدْ كٰانَ لِسَبَإٍ فِی مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتٰانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمٰالٍ الخ؛سبأ العرب العاربه باليمن سمّوا-كما قيل-باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان،و قوله: «عَنْ يَمِينٍ وَ شِمٰالٍ» أى عن يمين مسكنهم و شماله.

و قوله: كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ أمر بالأكل من جنتين و هو كنايه عن رزقهم منهما، ثم بالشكر له على نعمته و رزقه،و قوله: «بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ» أى بلده ملائمه صالحه للمقام و رب كثير الغفران لا يؤاخذكم بسيئاتكم.

قوله تعالى: فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَ بَدَّلْنٰاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوٰاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ العرم المسنّاه التى تحبس الماء،و قيل:المطر الشديد و قيل غير ذلک،و الاكل بضمتين كل ثمره مأكوله،و الخمط-على ما قيل-كل نبت أخذ طعما من المراره،و الأثل الطرفاء و قيل:شجر يشبهها أعظم منها لا ثمره له، و السدر معروف،و الأثل و شيء معطوف على «أُكُلٍ» لا على خمط.

و المعنى:فأعرضوا أى قوم سبأ عن الشكر الذى أمروا به فجازيناهم و أرسلنا عليهم سيل العرم فأغرق بلادهم و ذهب بجنتيهم و بدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى ثمره مره و ذواتى طرفاء و شيء قليل من السدر.

قوله تعالى: ذٰلِكَ جَزَيْنٰاهُمْ بِمٰا كَفَرُوا وَ هَلْ نُجٰازِي إِلاَّ الْكَفُورَ «ذٰلِكَ» إشاره الى ما ذكر من إرسال السيل و تبديل الجنتين و محله النصب مفعولا ثانيا لجزيناهم و الفرق بين الجزاء و المجازاه-كما قيل-أن المجازاه لا تستعمل إلاّ فى الشر و الجزاء أعم.

ص :۱۶۷

و المعنى:جزينا سبأ ذلک الجزاء بسبب کفرهم و إعراضهم عن الشکر-أو فی مقابله ذلک- و لا نجازی بالسوء إلاّ من کان کثیر الکفران لأنعم اللّه.

قوله تعالی: وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً الخ؛ضمیر «بَيْنَهُمْ» لسبأ و الکلام مسوق لبیان تتمه قصتهم المطلوب ذکرها و هو عطف علی قوله: «كانَ لِسَبَإٍ» و المراد بالقری التی بارکنا فیها القری الشامیه،و المراد بکون القری ظاهره کونها متقاربه یری بعضها من بعض.

و قوله: وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ أی جعلنا السیر فیها علی نسبه مقدّره متناسبه غیر مختلفه فالنسبه بین واحده منها و ما یلیها کالنسبه بین ما یلیها و ما یلیه،و قوله: «سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيّاماً آمِنِينَ» علی تقدیر القول أی و قلنا:سیروا فی هذه القری علی أمن إن شئتم لیالی و إن شئتم أیاما،و المراد قرّرنا فیها الأمن یسیرون فیها متی ما شاءوا من غیر خوف و قلق.

قوله تعالی: فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ الخ؛أی أنعمنا علیهم ما أنعمنا من وفور الفواکه و قرب المنازل و أمن الطرق و سهوله السیر و رغد العیش فملوا ذلک و سئموه و قالوا:ربنا باعد بین أسفارنا أی اجعل أسفارنا ذوات مسافات بعیده نرکب فیها الرواحل و نقطع المفاوز و البوادی و هذا بغی منهم و کفران کما طلبت بنو إسرائیل الثوم و البصل مکان المن و السلوی.

و بالجمله أتم اللّه نعمه علیهم فی السفر بقرب المنازل و أمن الطرق و وفور النعمه کما أتم نعمه علیهم فی الحضر و أراد منهم الشکر علی ذلک فکفروا بنعمه فی السفر کما کفروا بها فی الحضر، فأسرع اللّه فی إسعاف ما اقترحوه فخرّب بلادهم و فرّق جمعهم و شتّت شملهم.

فقوله: فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا اقتراح ضمنی لتخریب بلادهم،و قوله:

«وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» أی بالمعاصی.

و قوله: فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ أی أزلنا أعیانهم

و آثارهم فلم يبق منهم إلّا أحاديث يحدث بها فيما يحدث فعادوا أسماء لا مسمى لهم إلّا فى وهم المتوهم و خيال المتخيل و فرّقناهم كل تفرق فلم يبق من أجزاء وجودهم جزءان مجتمعان إلّا فرقنا بينهما فصاروا كسدى لا شبح له بعد ما كانوا مجتمعا ذا قوه و شوكه حتى ضرب بهم المثل «تفرقوا أيادى سبأ».

و قوله: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ أى فى هذا الذى ذكر من قصتهم لآيات لكل من كثر صبره فى جنب اللّه و كثر شكره لنعمه التى لا تحصى يستدل بتلك الآيات على أن على الإنسان أن يعبد ربه شكرا لنعمه و أن وراءه يوما يبعث فيه و يجزى بعمله.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أى حقق إبليس عليهم ظنه أو وجد ظنه صادقا عليهم إذ قال لربه: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ» «وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ» ،و قوله: «فَاتَّبَعُوهُ إِلاّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» بيان لتصديقه ظنه.

و منه يظهر أن ضمير الجمع فى «عَلَيْهِمْ» هاهنا و كذا فى الآيه التاليه لعامه الناس لا لسبأ خاصه و إن كانت الآيه منطبقه عليهم.

قوله تعالى: وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَهِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ ظاهر السياق أن المراد أنهم لم يتبعوه عن سلطان له عليهم يضطرهم الى اتباعه حتى يكونوا معذورين بل إنما اتبعوه عن سوء اختيارهم فهم يختارون اتباعه فيتسلط عليهم لا أنه يتسلط فيتبعونه،قال تعالى: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (الحجر/۴۲)،و قال حاكيا عن إبليس يوم القيامه: وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ (إبراهيم/ ۲۲).

و منشأ اتباعهم له ریب و شک فی قلوبهم من الآخره یظهر منهم بظهور أثره الـذی هو الاتباع لإبلیس،فإذنه سبحانه لإبلیس أن یتسلط علیهم من طریق اختیارهم هـذا المقدار من التسلط لیمتاز به أهل الشک فی الآخره من أهل الإیمان به و لا یرفع ذلک مسئولیتهم فی اتباعه لکونه عن اختیار منهم.

فقوله: وَ مٰا کٰانَ لَهُ عَلَیْهِمْ مِنْ سُلْطٰانٍ نفی لکل سلطان،و قوله: «إِلاّٰ لِنَعْلَمَ» أی لنمیز «مَنْ یُؤْمِنُ بِالْآخِرَهِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهٰا فِی شَکٍّ» استثناء لسلطانه علیهم من طریق اتباعهم له عن اختیار منهم،و قد وضع فیه الغایه موضع ذی الغایه أی التمییز المذکور موضع التسلط من طریق الاتباع الاختیاری.

و تقیید الإیمان و الشک بالآخره فی الآیه لمکان أن الرادع الوحید عن المعصیه و الداعی الی الطاعه هو الإیمان بالآخره دون الإیمان باللّه و رسوله لو لا الآخره کما قال تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یَضِلُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ بِمٰا نَسُوا یَوْمَ الْحِسٰابِ (ص/۲۶).

و قوله: وَ رَبُّکَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ حَفِیظٌ أی عالم علما لا یفوته المعلوم بنسیان أو سهو أو غیر ذلک و فیه تحذیر عن الکفران و المعصیه و إنذار لأهل الکفر و المعصیه (۱).

[سوره سبإ (۳۴): الآیات ۲۲ الی ۳۰]

قُلِ اُدْعُوا اَلَّذِینَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ لاٰ یَمْلِکُونَ مِثْقٰالَ ذَرَّهٍ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِی اَلْأَرْضِ وَ مٰا لَهُمْ فِیهِمٰا مِنْ شِرْکٍ وَ مٰا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِیرٍ (۲۲) وَ لاٰ تَنْفَعُ اَلشَّفٰاعَهُ عِنْدَهُ إِلاّٰ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتّٰی إِذٰا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قٰالُوا مٰا ذٰا قٰالَ رَبُّکُمْ قٰالُوا اَلْحَقَّ وَ هُوَ اَلْعَلِیُّ اَلْکَبِیرُ (۲۳) قُلْ مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِنَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ قُلِ اَللّٰهُ وَ إِنّٰا أَوْ إِیّٰاکُمْ لَعَلیٰ هُدیً أَوْ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ (۲۴) قُلْ لاٰ تُسْئَلُونَ عَمّٰا أَجْرَمْنٰا وَ لاٰ نُسْئَلُ عَمّٰا تَعْمَلُونَ (۲۵) قُلْ یَجْمَعُ بَیْنَنٰا رَبُّنٰا ثُمَّ یَفْتَحُ بَیْنَنٰا بِالْحَقِّ وَ هُوَ اَلْفَتّٰاحُ اَلْعَلِیمُ (۲۶) قُلْ أَرُونِیَ اَلَّذِینَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَکٰاءَ کَلاّٰ بَلْ هُوَ اَللّٰهُ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۲۷) وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ إِلاّٰ کَافَّهً لِلنّٰاسِ بَشِیراً وَ نَذِیراً وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ (۲۸) وَ یَقُولُونَ مَتیٰ هٰذَا اَلْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۲۹) قُلْ لَکُمْ مِیعٰادُ یَوْمٍ لاٰ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سٰاعَهً وَ لاٰ تَسْتَقْدِمُونَ (۳۰)

۱- ۱) .سبأ ۱۰-۲۱:بحث روائی فی قصه داود علیه السّلام و سلیمان علیه السّلام؛قبض روح سلیمان علیه السّلام؛سبأ.

بيان:

قوله تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لاٰ يَمْلِكُونَ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ الى آخر الآيه؛أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يحتج على إبطال ألوهيه آلهتهم بعدم قدرتهم على استجابه الدعاء،فقوله: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ» أى ادعوا الذين زعمتموهم آلهه من دون اللّه-فمفعولا «زَعَمْتُمْ» محذوفان لدلاله السياق عليهما-و دعاؤهم هو مسألتهم شيئا من الحوائج.

و قوله: لاٰ يَمْلِكُونَ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ واقع موقع الجواب كأنه قيل:فما ذا يكون إذا دعوهم؟فقيل:لا يستجيبون لهم بشىء لأنهم «لاٰ يَمْلِكُونَ

مِثْقٰالَ ذَرَّهٍ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِی الْأَرْضِ» و لو ملکوا لاستجابوا،و لا تتم الربوبیه و الالوهیه إلاّ بأن یملک الرب و الإله شیئا مما یحتاج الیه الانسان فیملّکه له و ینعم علیه به فیستحق بإزائه العباده شکرا له فیعبد،أما إذا لم یملک شیئا فلا یکون ربا و لا إلها.

و قوله: وَ مٰا لَهُمْ فِیهِمٰا مِنْ شِرْکٍ کان الملک المنفی فی الجمله السابقه «لاٰ یَمْلِکُونَ» الخ؛الملک المطلق المنبسط علی الجمیع و المنفی فی هذه الجمله الملک المحدود المتبعض الذی ینبسط علی البعض دون الکل إما مشاعا أو مفروزا،لکن المشرکین ما کانوا یقولون بالملک المشترک بینهم و بین اللّه سبحانه مشاعا بل کانوا یقولون بملک کل من آلهتهم لنوع من الخلقه أو بعض منها،و أما اللّه سبحانه فهو رب الأرباب و إله الآلهه.

و علی هذا کان من الواجب أن یستجیب آلهتهم إذا دعوا فیما یملکونه من الخلقه و عدم استجابتهم کاشف عن عدم ربوبیتهم و ألوهیتهم.

و قوله: وَ مٰا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِیرٍ أی لیس للّه سبحانه منهم کلا أو بعضا من معین یعینه فیما یفرض فیه عجزه عن القیام بأمر تدبیره إذ لو کان له منهم ظهیر یظهره علی التدبیر کان مالکا فیستجیب إذا دعی فیما هو ظهیر بالنسبه الیه و إذ لیس فلیس.

فتبین مما تقدم أن احتجاج الآیه علی نفی الملک بانتفاء استجابتهم دعاء الداعی یجری فی جمیع الصور الثلاث و هی ملکهم لما فی السماوات و ما فی الأرض مطلقا و ملکهم علی وجه الشرکه مع اللّه سبحانه و کونهم أو بعضهم ظهیرا للّه سبحانه.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَنْفَعُ الشَّفٰاعَهُ عِنْدَهُ إِلاّٰ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ المشرکون کانوا یقولون بشفاعه آلهتهم کما حکاه اللّه سبحانه عنهم بقوله: هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اللّٰهِ (یونس/۱۸)، و لیس مرادهم بالشفاعه شفاعه یوم القیامه التی یثبتها القرآن الکریم فإنهم ما کانوا یقولون بالمعاد بل الشفاعه فی الدنیا لعبادهم عند اللّه سبحانه لیسعدهم بقضاء حوائجهم و إصلاح شئونهم بتوسط آلهتهم.

ص:۱۷۲

و إذ كانت الآلهه مخلوقين للّه مملوكين له من وكل وجه فلا يملكون الشفاعه من عند أنفسهم مستقلين بها إلاّ أن يملّكهم اللّه سبحانه ذلك و هو الإذن لهم فى أن يشفعوا فأصل شفاعتهم لو شفعوا بإذن اللّه سبحانه.

و قوله: إِلاّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ يحتمل أن يكون اللام فى «لِمَنْ» لام الملك و المراد بمن أذن له الشافع من الملائكه،و المعنى:لا تنفع الشفاعه إلاّ أن يملكه الشافع بالإذن من اللّه و أن يكون لام التعليل و المراد بمن أذن له المشفوع له،و المعنى:لا تنفع الشافعه إلاّ لأجل من أذن له من المشفوع لهم،قال فى الكشاف:و هذا يعنى الوجه الثانى وجه لطيف و هو الوجه.انتهى.

و هو الوجه فإن الملائكه على ما يستفاد من كلامه تعالى وسائط لإنفاذ الأمر الإلهى و إجرائه،قال تعالى: لاٰ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء۲۷/)،و قال:

جٰاعِلِ الْمَلاٰئِكَهِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَهٍ (فاطر۱/)،و الوساطه المذكوره من الشفاعه كما تقدم فى مباحث الشفاعه فى الجزء الأول من الكتاب.

فالملائكه جميعا شفعاء لكن لا فى كل أمر و لكل أحد بل فى أمر أذن اللّه فيه و لمن أذن له فنفى شفاعتهم إلاّ مع الإذن يناسب المشفوع لهم دون الشفعاء،فالآيه فى معنى قوله: وَ لاٰ يَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ارْتَضىٰ (الأنبياء۲۸/)،لا فى معنى قوله: مٰا مِنْ شَفِيعٍ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ (يونس۳/).

قوله تعالى: حَتّٰى إِذٰا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قٰالُوا مٰا ذٰا قٰالَ رَبُّكُمْ قٰالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ التفزيع إزاله الفزع و كشفه و ضمائر الجمع-على ما يعطيه السياق- للشفعاء و هم الملائكه.

و لازم قوله: حَتّٰى إِذٰا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ -و هو غايه-أن يكون هناك أمر مغيّا بها و هو كون قلوبهم فى فزع ممتد فى انتظار أمر اللّه سبحانه حتى يرتفع بصدور الأمر منه، فالآيه فى معنى قوله تعالى: وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ -الى أن قال- وَ الْمَلاٰئِكَهُ وَ هُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ يَخٰافُونَ

رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ (النحل/۵۰)،فالفزع هو التأثر و الانقباض من الخوف هو المراد بسجدتهم تذللا من خوف ربهم من فوقهم.

و بذلك يظهر أن المراد بفزعهم حتى يفزّع عنهم أن التذلل غشى قلوبهم و هو تذللهم من حيث أنهم أسباب و شفعاء فى نفوذ الأوامر الإلهيه و وقوعه على ما صدر و كما أريد،و كشف هذا التذلل هو تلقّيهم الأمر الإلهى و اشتغالهم بالعمل كأنهم بحيث لا يظهر من وجودهم إلاّ فعلهم و طاعتهم للّه فيما أمرهم به و أنه لا واسطه بين اللّه سبحانه و بين الفعل إلاّ أمره فافهم ذلك.

و إنما نسب الفزع و التفزيع الى قلوبهم للدلاله على أنهم ذاهلون منصرفون عن أنفسهم و عن كل شىء إلاّ ربهم و هم على هذه الحاله لا يشعرون بشىء غيره حتى إذا كشف الفزع عن قلوبهم عند صدور الأمر الإلهى بلا مهل و لا تخلّف فليس الأمر بحيث يعطّل أو يتأخر عن الوقوع،قال تعالى: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس/۸۲)، فالمستفاد من الآيه نظرا الى هذا المعنى أنهم فى فزع حتى إذا أزيل فزعهم بصدور الأمر الإلهى.

و قوله: قٰالُوا مٰا ذٰا قٰالَ رَبُّكُمْ قٰالُوا الْحَقَّ يدل على أنهم طوائف كثيرون يسأل بعضهم بعضا عن الأمر الإلهى بعد صدوره و انكشاف الفزع عن قلوب السائلين.

و يتبين منه أن كشف الفزع و نزول الأمر الى بعضهم أسبق منه الى بعض آخر فإن لازم السؤال أن يكون المسئول عالما بما سئل عنه قبل السائل.

فلم مراتب مختلفه و مقامات متفاوته بعضها فوق بعض تتلقى الدانيه منها الامر الإلهى من العاليه من غير تخلّف و لا مهله و هو طاعه الدانى منهم للعالى،كما يستفاد ذلك أيضا بالتدبر فى قوله: وَ مٰا مِنّٰا إِلاّٰ لَهُ مَقٰامٌ مَعْلُومٌ (الصافات/۱۶۴)،و قوله فى وصف الروح الأمين:

ذِى قُوَّهٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطٰاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (التكوير/۲۱).

قوله تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللّٰهُ الخ؛

احتجاج آخر على المشركين من جهه الرزق الذى هو الملاك العمده فى اتخاذهم الآلهه فإنهم يتعللون فى عبادتهم الآلهه بأنها ترضيهم فيوسعون لهم فى رزقهم فيسعدون بذلك.

فأمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يسألهم من يرزقهم من السماوات و الأرض؟و الجواب عنه أنه اللّه سبحانه لأن الرزق خلق فى نفسه و لا خالق-حتى عند المشركين-إلاّ اللّه عز اسمه لكنهم يستنكفون عن الاعتراف به بألسنتهم و إن أذعنت به قلوبهم و لذلك أمر أن ينوبهم فى الجواب فقال: «قُلِ اللّٰهُ» .

و قوله: وَ إِنّٰا أَوْ إِيّٰاكُمْ لَعَلىٰ هُدىً أَوْ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ ،تتمه قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هذا القول بعد إلقاء الحجه القاطعه و وضوح الحق فى مسأله الالوهيه مبنى على سلوك طريق الإنصاف،و مفاده أن كل قول إما هدى أو ضلال لا ثالث لهما نفيا و إثباتا و نحن و أنتم على قولين مختلفين لا يجتمعان فإما أن نكون نحن على هدى و أنتم فى ضلال و إما أن تكونوا أنتم على هدى و نحن فى ضلال فانظروا بعين الإنصاف الى ما ألقى اليكم من الحجه و ميزوا المهدى من الضال و المحق من المبطل.

و اختلاف التعبير فى قوليه «لَعَلىٰ هُدىً» و «فِي ضَلاٰلٍ» بلفظه على و فى-كما قيل-للإشاره الى أن المهتدى كأنه مستعل على منار يتطلع على السبيل و غايتها التى فيها سعادته،و الضالّ منغمر فى ظلمه لا يدرى أين يضع قدمه و الى أين يسير و ما ذا يراد به؟

قوله تعالى: قُلْ لاٰ تُسْئَلُونَ عَمّٰا أَجْرَمْنٰا وَ لاٰ نُسْئَلُ عَمّٰا تَعْمَلُونَ أى إن العمل و خاصه عمل الشر لا يتعدى عن عامله و لا يلحق وباله إلاّ به فلا يسأل عنه غيره فلا تسألون عما أجرمنا بل نحن المسئولون عنه و لا نسأل عما تعملون بل أنتم المسئولون.

و هذا تمهيد لما فى الآيه التاليه من حديث الجمع و الفتح فإن الطائفتين إذا اختلفا فى الأعمال خيرا و شرا كان من الواجب أن يفتح بينهما و يتميز كل من الاخرى حتى يلحق به جزاء عمله من خير أو شر أو سعاده أو شقاء و الذى يفتح و يميز هو الرب تعالى.

ص :١٧٥

و فى التعبير عن عمل أنفسهم بالإجرام و فى ناحيه المشركين بقوله: «تَعْمَلُونَ» و لم يقل تجرمون أخذ بحسن الأدب فى المناظره.

قوله تعالى: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَتّاحُ الْعَلِيمُ لما كان من الواجب أن يلحق بكل من المحسن و المسىء جزاء عمله و كان لازمه التمييز بينهما بالجمع ثم الفرق كان ذلك شأن مدبر الأمر و هو الرب أمر نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يذكرهم أن الذى يجمع بين الجميع ثم يفتح بينهم بالحق هو اللّه،فهو رب هؤلاء و أولئك فإنه هو الفتّاح العليم يفتح بين كل شيئين بالخلق و التدبير فيتميز بذلك الشىء من الشىء كما قال: أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما (الأنبياء/۳۰)،و هو العليم بكل شىء.

فالآيه تثبت البعث لتمييز المحسن من المسىء أولا ثم انحصار التمييز و الجزاء فى جانبه تعالى بانحصار الربوبيه فيه و يبطل بذلك ربوبيه من اتخذوه من الأرباب.

و الفتاح من أسماء اللّه الحسنى و الفتح إيجاد الفصل بين شيئين لفائده تترتب عليه كفتح الباب للدخول بإيجاد الفصل بين مصراعيه و الفتح بين الشيئين ليتميّز كل منهما عن الآخر بذاته و صفاته و أفعاله.

قوله تعالى: قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاّ بَلْ هُوَ اللّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أمر آخر للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يسألهم أن يروه آلهتهم حتى يختبر هل فيهم الصفات الضروريه للإله المستحق للعباده من الاستقلال بالحياه و العلم و القدره و السمع و البصر؟ و هذا معنى قوله: «أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ» أى ألحقتموهم به شركاء له.

ثم ردع بنفسه و قال:كلا لا يكونون شركاء له لأنهم إما أن يروه الأصنام بما أنها معبوده لهم معدوده آلهتهم و هى أجسام ميته خاليه عن الحياه و العلم و القدره و إما أن يروه أرباب هذه الأصنام و هم الملائكه و غيرهم يجعل الأصنام تماثيل مشيره اليهم و هم و إن لم يخلوا عن حياه و علم و قدره إلاّ أن ما لهم من صفات الكمال مفاضه عليهم من اللّه سبحانه لا استقلال لهم فى

شیء من هذه الصفات و لا فی الأفعال المتفرعه علیها فأین الاستقلال فی التدبیر الذی یدعون أنه مفوض الیهم؟فالوجود الواجبی بکماله اللامتناهی یمنع أن یکون فی خلقه من یشارکه فی شیء من کماله.

اللهم إلّا أن یدعوا أنه شارکهم فی بعض ما له من الشئون لتدبیر خلقه من غیر صلاحیه لهم ذاتیه و هذا ینافی حکمته تعالی.

و قد أشیر الی هذه الحجه بقوله: «بل هو الله العزیز الحکیم» فإن عزته تعالی-و هو منع جانبه أن یعدو الی حریم کماله عاد لکونه لا یحد بحد-تمنع أن یشارکه فی شیء من صفات کماله کالربوبیه و الالوهیه المنتهیتین الی الذات أحد غیره هذا لو کانت الشرکه عن صلاحیه ذاتیه من الشریک و لو کانت عن إراده جزافیه منه من غیر صلاحیه حقیقه من الشریک فالحکمه الإلهیه تمنع ذلک.

و قد تبین بذلک أن الآیه متضمنه لحجه قاطعه برهانیه فأحسن التدبر فیها.

قوله تعالی: و ما أرسلناک إلا کافه للناس بشیرا و نذیرا و لکن أکثر الناس لا یعلمون قال الراغب فی المفردات:الکف کف الإنسان و هی ما بها یقبض و یبسط و کففته أصبت کفه،و کففته أصبته بالکف و دفعته بها و تعورف الکف بالدفع علی أی وجه کان بالکف کان أو غیرها حتی قیل:رجل مکفوف لمن قبض بصره،و قوله:و ما أرسلناک إلّا کافه للناس أی کافا لهم عن المعاصی و الهاء فیه للمبالغه کقولهم:راویه و علامه و نسابه.

انتهی.

و یؤید هذا المعنی توصیفه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالبشیر و النذیر،فقوله: «بشیرا و نذیرا» حالان یبینان صفته لقوله: «کافه للناس» .

و اعلم أن منطوق الآیه و إن کان راجعا الی النبوه و فیها انتقال من الکلام فی التوحید الی الکلام فی النبوه علی حد الآیات التالیه،لکن فی مدلولها حجه أخری علی التوحید و ذلک أن

الرساله من لوازم الربوبيه التى شأنها تدبير الناس فى طريق سعادتهم و مسيرهم الى غايات وجودهم فعموم رسالته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو رسول اللّه تعالى لا رسول غيره دليل على أن الربوبيه منحصره فى اللّه سبحانه فلو كان هناك رب غيره لجاءهم رسوله و لم يعم رساله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو عمتهم و احتاجوا معه الى غيره،و هذا معنى قول على عليه السّلام-على ما روى-لو كان لربك شريك لأتتك رسله.

و يؤيده ما فى ذيل الآيه من قوله: «و لكن أكثر الناس لا يعلمون» فإن داله انحصار الرساله فى رسل اللّه على انحصار الربوبيه فى اللّه عز اسمه أمسّ بجهل الناس من كونه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رسولا كافا لهم عن المعاصى بشيرا و نذيرا.

فمفاد الآيه على هذا:لا يمكنهم أن يروك شريكا له و الحال أنا لم نرسلك إلاّ كافا لجميع الناس بشيرا و نذيرا و لو كان لهم إله غيرنا لم يسع لنا أن نرسلك اليهم و هم عباد لإله آخر و اللّه أعلم.

قوله تعالى: و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين سؤال عن وقت الجمع و الفتح و هو البعث فالآيه متصله بقوله السابق: «قل يجمع بيننا ربنا» الآيه؛و هذا أيضا من شواهد ما قدّمنا من المعنى لقوله: «و ما أرسلناك إلا كافه» و إلاّ كانت هذه الآيه و التى بعدها متخللتين بين قوله: «و ما أرسلناك» الآيه؛و الآيات التاليه المتعرضه لمسأله النبوه.

قوله تعالى: قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعه و لا تستقدمون أمر منه تعالى أن يجيبهم بأن لهم ميعاد يوم مقضىّ محتوم لا يتخلف عن الوقوع فهو واقع قطعا و لا يختلف وقت وقوعه البته أى إن اللّه وعد به وعدا لا يخلفه إلاّ أن وقت وقوعه مستور لا يعلمه إلاّ اللّه سبحانه.

[سوره سبإ (۳۴): الآيات ۳۱ الى ۵۴]

وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهٰذَا اَلْقُرْآنِ وَ لاٰ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَوْ تَرىٰ إِذِ اَلظّٰالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ اَلْقَوْلَ يَقُولُ اَلَّذِينَ اُسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اِسْتَكْبَرُوا لَوْ لاٰ أَنْتُمْ لَكُنّٰا مُؤْمِنِينَ (۳۱) قٰالَ اَلَّذِينَ اِسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اُسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْنٰاكُمْ عَنِ اَلْهُدىٰ بَعْدَ إِذْ جٰاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (۳۲) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ اُسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اِسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اَللَّيْلِ وَ اَلنَّهٰارِ إِذْ تَأْمُرُونَنٰا أَنْ نَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْدٰاداً وَ أَسَرُّوا اَلنَّدٰامَةَ لَمّٰا رَأَوُا اَلْعَذٰابَ وَ جَعَلْنَا اَلْأَغْلاٰلَ فِي أَعْنٰاقِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۳۳) وَ مٰا أَرْسَلْنٰا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰا إِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ (۳۴) وَ قٰالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوٰالاً وَ أَوْلاٰداً وَ مٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۳۵) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (۳۶) وَ مٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنٰا زُلْفىٰ إِلاّٰ مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَأُولٰئِكَ لَهُمْ جَزٰاءُ اَلضِّعْفِ بِمٰا عَمِلُوا وَ هُمْ فِي اَلْغُرُفٰاتِ آمِنُونَ (۳۷) وَ اَلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيٰاتِنٰا مُعٰاجِزِينَ أُولٰئِكَ فِي اَلْعَذٰابِ مُحْضَرُونَ (۳۸) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ مٰا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ اَلرّٰازِقِينَ (۳۹) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاٰئِكَةِ أَ هٰؤُلاٰءِ إِيّٰاكُمْ كٰانُوا يَعْبُدُونَ (۴۰) قٰالُوا سُبْحٰانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنٰا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كٰانُوا يَعْبُدُونَ اَلْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (۴۱) فَالْيَوْمَ لاٰ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذٰابَ اَلنّٰارِ اَلَّتِي كُنْتُمْ بِهٰا تُكَذِّبُونَ (۴۲) وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ قٰالُوا مٰا هٰذٰا إِلاّٰ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمّٰا كٰانَ يَعْبُدُ آبٰاؤُكُمْ وَ قٰالُوا مٰا هٰذٰا إِلاّٰ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِينٌ (۴۳) وَ مٰا آتَيْنٰاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهٰا وَ مٰا أَرْسَلْنٰا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (۴۴) وَ كَذَّبَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مٰا بَلَغُوا مِعْشٰارَ مٰا آتَيْنٰاهُمْ

فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (۴۵) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنَى وَ فُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (۴۶) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اَللّٰهِ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۴۷) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ اَلْغُيُوبِ (۴۸) قُلْ جَاءَ اَلْحَقُّ وَ مَا يُبْدِئُ اَلْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ (۴۹) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَ إِنِ اِهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (۵۰) وَ لَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (۵۱) وَ قَالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّى لَهُمُ اَلتَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (۵۲) وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (۵۳) وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (۵۴)

بیان:

قوله تعالی: و قال الـذین کفروا لن نؤمن بهـذا القرآن و لا بالـذی بین یـدیه المراد بالـذین کفروا المشـرکون و المراد بالذی بین یدیه الکتب السماویه من التوراه و الإنجیل و ذلک أن المشرکین و هم الوثنیون لیسوا قائلین بالنبوه و یتبعها الکتاب السماوی.

قوله تعالی: و لو تری إذ الظالمون موقوفون عند ربهم الخ؛الظاهر أن اللام فی «الظالمون» للعهد،و هذه الآیه و الآیتان بعدها تشـیر الی أن وبال هذا الکفر-و أساسه ضلال أئمه الکفر و إضلالهم تابعیهم-سیلحق بهم و سیندمون علیه و لن ینفعهم الندم.

فقوله: «و لو تری» خطـاب النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم إذ هم بمعزل عن فهم الخطاب «إذ الظالمون» و هم الکافرون بکتب اللّه و رسله،الذین ظلموا أنفسهم بالکفر «موقوفون عند ربهم» للحساب

و الجزاء يوم القيامه «يرجع بعضهم الى بعض القول» أى يتحاورون و يتراجعون فى الكلام متخاصمين «يقول الذين استضعفوا» بيان لرجوع بعضهم الى بعض فى القول و المستضعفون الأتباع الذين استضعفتهم المتبوعون «للذين استكبروا» و هم الأئمه القاده «لو لا أنتم لكنا مؤمنين» يريدون أنكم أجبرتمونا على الكفر و حلتم بيننا و بين الإيمان.

«قال الذين استكبروا للذين استضعفوا» جوابا عن قولهم و ردّا لما اتهموهم به من الإجبار و الإكراه «أ نحن صددناكم» الاستفهام للانكار أى أ نحن صرفناكم «عن الهدى بعد إذ جاءكم» فبلوغه اليكم بالدعوه النبويه أقوى الدليل على أنّا لم نحل بينه و بينكم و كنتم مختارين فى الإيمان به و الكفر «بل كنتم مجرمين» متلبسين بالإجرام مستمرين عليه فأجرمتم بالكفر به لما جاءكم من غير أن نجبركم عليه فكفركم منكم و نحن برءاء منه.

«و قال الذين استضعفوا للذين استكبروا» ردّا لقولهم و دعواهم البراءه «بل مكر الليل و النهار» أى مكركم بالليل و النهار حملنا على الكفر «إذ تأمروننا أن نكفر بالله و نجعل له أندادا» و أمثالا من الآلهه أى إنكم لم تزالوا فى الدنيا تمكرون الليل و النهار و تخطّون الخطط لتستضعفونا و تتأمّروا علينا فتحملونا على طاعتكم فيما تريدون،فلم نشعر إلاّ و نحن مضطرّون على الائتمار بأمركم إذ تأمروننا بالكفر و الشكر.

«و أسروا» و أخفوا «الندامه لما رأوا العذاب» و شاهدوا أن لا مناص،و إخفاؤهم الندامه يوم القيامه-و هو يوم هم بارزون لا يخفى على اللّه منهم شىء-نظير كذبهم على اللّه و إنكارهم الشرک باللّه و حلفهم للّه كان بين كل ذلك من قبيل ظهور ملكاتهم الرذيله التى رسخت فى نفوسهم فقد كانوا يسرّون الندامه فى الدنيا خوفا من شماته الأعداء و كذلك يفعلون يوم القيامه مع ظهور ما أسرّوا و اليوم يوم تبلى السرائر كما يكذبون بمقتضى ملكه الكذب مع ظهور أنهم كاذبون فى قولهم.

ثم ذكر سبحانه أخذهم للعذاب فقال: «و جعلنا الأغلال» السلاسل «فى أعناق الذين

كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون» فصارت أعمالهم أغلالا فى أعناقهم تحبسهم فى العذاب.

قوله تعالى: و ما أرسلنا فى قريه من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون المترفون اسم مفعول من الإتراف و هو الزياده فى التنعيم،و فيه إشعار بأن الإتراف يفضى الى الاستكبار على الحق كما تفيده الآيه اللاحقه.

قوله تعالى: و قالوا نحن أكثر أموالا و أولادا و ما نحن بمعذبين ضمير الجمع للمترفين،و من شأن الإتراف و الترفّه و التقلب فى نعم الدنيا أن يتعلق قلب الانسان بها و يستعظمها فيرى السعاده فيها سواء وافق الحق أم خالفه فلا يذكر إلّا ظاهر الحياه و ينسى ما وراءه.

و لذا حكى سبحانه عنهم ذلك إذ قالوا: «نحن أكثر أموالا و أولادا» فلا سعاده إلّا فيها و لا شقوه معها «و ما نحن بمعذبين» فى آخره،و لم ينفوا العذاب إلّا للغفله و الانصراف عما وراء كثره الأموال و الأولاد فإذ كانت هى السعاده و الفلاح فحسب فالعذاب فى فقدها و لا عذاب معها.

و هاهنا وجه آخر و هو أنهم لغرورهم بما رزقوا به من المال و الولد ظنوا أن لهم كرامه على اللّه سبحانه و هم على كرامتهم عليهم ما داموا،و المعنى:أنّا ذوو كرامه على اللّه بما أوتينا من كثره الأموال و الأولاد و نحن على كرامتنا فما نحن بمعذّبين لو كان هناك عذاب.

فتكون الآيه فى معنى قوله: و لئن أذقناه رحمه منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى و ما أظن الساعه قائمه و لئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى (حم السجده ۵۰/).

قوله تعالى: قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر و لكن أكثر الناس لا يعلمون الآيه و ما يتلوها الى تمام أربع آيات جواب عن قولهم: «نحن أكثر أموالا» الخ؛و قد أجيب عنه بوجهين أحدهما أن أمر الرزق من الأموال و الأولاد سعه و ضيقا بيد اللّه

على ما تستدعيه الحكمه و المصلحه و هيأ من الأسباب لا بمشيه الإنسان و لا لكرامه له على اللّه فربما بسط فى رزق مؤمن أو كافر أو عاقل ذى حزم أو أحمق خفيف العقل،و ربما بسط على واحد ثم قدر له.فلا دلاله فى الإتراف على سعاده أو كرامه.

و هذا معنى قوله: «قل إن ربى» نسبه الى نفسه لأنهم لم يكونوا يرون اللّه ربا لأنفسهم و الرزق من شئون الربوبيه «يبسط» أى يوسع «الرزق لمن يشاء» من عباده بحسب الحكمه و المصلحه «و يقدر» أى يضيق «و لكن أكثر الناس لا يعلمون» فينسبونه ما لم يؤتوه الى الأسباب الظاهريه الاتفاقيه ثم إذا أوتوه نسبوه الى حزمهم و حسن تدبيرهم أنفسهم و كفى به دليلا على الحمق.

قوله تعالى: و ما أموالكم و لا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى الى آخر الآيتين؛هذا هو الجواب الثانى عن قولهم: «نحن أكثر أموالا و أولادا و ما نحن بمعذبين» و محصله أن انتفاء العذاب المترتب على القرب من اللّه لا يترتب على الأموال و الأولاد إذ لا توجب الأموال و الأولاد قربا و زلفى من اللّه حتى ينتفى معها العذاب الإلهى فوضع تقريب المال فى الآيه موضع انتفاء العذاب من قبيل وضع السبب موضع السبب.

و هذا معنى قوله: و ما أموالكم و لا أولادكم التى تعتمدون عليها فى السعاده و انتفاء عذاب اللّه «بالتى» أى بالجماعه التى «تقربكم عندنا زلفى» أى تقريبا.

«إلا من آمن و عمل صالحا» فى ماله و ولده بأن أنفق من أمواله فى سبيل اللّه و بثّ الإيمان و العمل الصالح فى أولاده بتربيه دينيه «فاولئک لهم جزاء الضعف» لعله من إضافه الموصوف الى الصفه أى الجزاء المضاعف من جهه أنهم اهتدوا و هدوا و أيضا من جهه تضعيف الحسنات الى عشر أضعافها و زياده «و هم فى الغرفات» أى فى القباب العاليه «آمنون» من العذاب فما هم بمعذبين.

«و الذين يسعون فى آياتنا معاجزين -أى يجدون فى آياتنا و هم يريدون أن يعجزونا أو ان

يسبقونا- أولئك فى العذاب محضرون» و إن كثرت أموالهم أولادهم.

و فى قوله: و ما أموالكم و لا أولادكم الخ؛انتقال الى خطاب عامه الناس من الكفار و غيرهم و الوجه فيه أن ما ذكره من الحكم حكم الأموال و الأولاد سواء فى ذلك المؤمن و الكافر فالمال و الولد إنما يؤثران أثرهما الجميل إذا كان هناك إيمان و عمل صالح فيهما و إلاّ فلا يزيدان إلاّ وبالا.

قوله تعالى: قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له و ما أنفقتم من شىء فهو يخلفه و هو خير الرازقين قال فى مجمع البيان:يقال:أخلف اللّه له و عليه إذا أبدل له ما ذهب عنه.انتهى.

سياق الآيه يدل على أن المراد بالإنفاق فيها الإنفاق فى وجوه البر و المراد بيان أن هذا النحو من الإنفاق لا يضيع عند اللّه بل يخلفه و يرزق بدله.

فقوله فى صدر الآيه: «قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر» للإشاره الى أن أمر الرزق فى سعته و ضيقه الى اللّه سبحانه لا ينقص بالإنفاق و لا يزيد بالإمساك ثم قال: «و ما أنفقتم من شىء» قليلا كان أو كثيرا و أيا ما كان من المال «فهو يخلفه» و يرزقكم بدله إما فى الدنيا و إما فى الآخره «و هو خير الرازقين» فإنه يرزق جودا و رزق غيره معامله فى الحقيقه و معاوضه،و لأنه الرازق فى الحقيقه و غيره ممن يسمّى رازقا واسطه لوصول الرزق.

قوله تعالى: و يوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكه أ هؤلاء إياكم كانوا يعبدون المراد بهم جميعا بشهاده السياق العابدون و المعبودون جميعا.

و قوله: ثم يقول للملائكه أ هؤلاء إياكم كانوا يعبدون ليس سؤال استخبار عن أصل عبادتهم لهم و لو كان كذلك لم يسعهم إنكارها لأنهم عبدوهم فى الدنيا و قد أنكروها كما فى الآيه بل المراد السؤال عن رضاهم بعبادتهم على حد قوله تعالى لعيسى بن مريم: «أنت قلت للناس اتخذونى و أمى إلهين من دون الله» .

و الغرض من السؤال تبکیت المشرکین و إقناطهم من نصره الملائکه و شفاعتهم لهم و قد عبدوهم فی الدنیا لذلک.

قوله تعالی: قالوا سبحانک أنت ولینا من دونهم بل کانوا یعبدون الجن أکثرهم بهم مؤمنون أخذت الملائکه فی جوابهم عن سؤاله تعالی بجوامع الأدب فنزهوه سبحانه أولا تنزیها مطلقا فیه تنزیهه من أن یعبدوا من دونه ثم نفوا رضاهم بعباده المشرکین لهم لکن لا ـ بالتصریح بنفی الرضا بالعباده و لا ـ بالتفوّه بعبادتهم صونا لساحه المخاطبه عما یقرع السمع بذلک،و لو تصورا لا تصدیقا بل أجابوا بقصر ولا ـیتهم فیه تعالی و نفیها عنهم لیدل علی نفی الرضا بعبادتهم لهم علی طریق الکنایه فإن الرضا بعبادتهم لازمه الموالاه بینهم، و الموالاه بینهم تنافی قصر الولایه فی اللّه سبحانه فإذا انحصرت الولایه فیه تعالی لم تکن موالاه و إذا لم تکن موالاه لم یکن رضا.

ثم قالوا علی ما حکاه اللّه سبحانه: «بل کانوا یعبدون الجن أکثرهم بهم مؤمنون» و الجن هم الطائفه الثانیه من الطوائف الثلاث التی یعبدهم الوثنیون و هم الملائکه و الجن و القدیسون من البشر،و الأقدم فی استحقاق العباده عندهم هم الطائفتان الاولیان و الطائفه الثالثه ملحقه بهما بعد الکمال و إن کانوا أفضل منهما.

و الإضراب فی قولهم: «بل کانوا یعبدون الجن» یدل علی أن الجن کانوا علی رضی من عبادتهم لهم.

قوله تعالی: فالیوم لا ـ یملک بعضکم لبعض نفعا و لا ضرا و نقول للذین ظلموا ذوقوا عذاب النار التی کنتم بها تکذبون نوع تفریع علی تبری الملائکه منهم و قد بین تبری عامه المتبوعین من تابعیهم و التابعین من متبوعیهم فی مواضع کقوله تعالی: و یوم القیامه یکفرون بشرککم (فاطر/۱۴)،و قوله: ثم یوم القیامه یکفر بعضکم ببعض و یلعن بعضکم بعضا (العنکبوت/۲۵).و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالى: وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ قٰالُوا مٰا هٰذٰا إِلاّٰ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمّٰا كٰانَ يَعْبُدُ آبٰاؤُكُمْ الخ؛خطابهم هذا لعامتهم بعد استماع الآيات تنبيه لهم على الجد فى التمسک بدين آبائهم و تحريض لهم عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و فى توصيف الآيات بالبينات نوع عتبى كأنه قيل إذا تتلى عليهم هذه الآيات و هى بينه لا ريب فيها فبدلا من أن يدعوا عامتهم الى اتّباعها حثّوهم على الإصرار على تقليد آبائهم و حرضوهم عليه-و فى إضافه الآباء الى ضمير«كم»مبالغه فى التحريض و الإثاره.

و قوله: وَ قٰالُوا مٰا هٰذٰا إِلاّٰ إِفْكٌ مُفْتَرىً معطوف على «قٰالُوا» أى و قالوا مشيرا الى الآيات البينات إشاره تحقير:ليس هذا الا كلاما مصروفا عن وجهه مكذوبا به على اللّه، بدلا من أن يقولوا:إنها آيات بينات نازله من عند اللّه تعالى-و قد أشاروا الى الآيات البينات بهذا دلاله على أنهم لم يفهموا منها إلاّ أنها شىء ما لا أزيد من ذلک.

ثم غيّر سبحانه السياق و قال: «قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ» و مجىء الحق لهم بلوغه و ظهوره لهم،و الأخذ بوصف الكفر للإشعار بالتعليل و المعنى:

و الذين كفروا بعثهم الكفر الى أن يقولوا للحق الصريح الذى بلغهم و ظهر لهم هذا سحر ظاهر سحريته و بطلانه.

و أكد إصرارهم على دحض الحق باتباع الهوى من غير دليل يدل عليه بقوله: «وَ مٰا آتَيْنٰاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهٰا وَ مٰا أَرْسَلْنٰا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ» و الجمله حاليه أى و عدّ الذين كفروا-أى كفار قريش-الحق الصريح الظاهر لهم سحرا مبينا و الحال انا لم نعطهم كتبا يدرسونها حتى يميزوا بها الحق من الباطل و لم نرسل اليهم قبلک من رسول ينذرهم و يبين لهم ذلک فيقولوا استنادا الى الكتاب الإلهى أو الى قول الرسول النذير:إنه حق أو باطل.

قوله تعالى: وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مٰا بَلَغُوا مِعْشٰارَ مٰا آتَيْنٰاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كٰانَ نَكِيرِ ضميرا الجمع الأول و الثانى لكفار قريش و من يتلوهم

و الثالث و الرابع للذين من قبلهم،و المعشار العشر و النكير الإنكار،و المراد به فى الآيه لازمه و هو الأخذ بالعذاب.

و المعنى:و كذب بالحق من الآيات الذين كانوا من قبل كفار قريش من الامم الماضيه و لم يبلغ كفار قريش عشر ما آتيناهم من القوه و الشده فكذب أولئك الأقوام رسلى فكيف كان أخذى بالعذاب و ما أهون أمر قريش.و الالتفات فى الآيه الى التكلم لاستعظام الجرم و تهويل المؤاخذه.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمٰا أَعِظُكُمْ بِوٰاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنىٰ وَ فُرٰادىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مٰا بِصٰاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ المراد بالموعظه الوصيه كنايه أو تضمينا،و قوله:

«أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ» أى تنهضوا لأجل اللّه و لوجهه الكريم،و قوله: «مَثْنىٰ وَ فُرٰادىٰ» أى اثنين اثنين و واحدا واحدا كنايه عن التفرق و تجنب التجمع و الغوغاء فإن الغوغاء لا شعور لها و لا فكر و كثيرا ما تميت الحق و تحيى الباطل.

و قوله: مٰا بِصٰاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ استئناف «مٰا» نافيه و يشهد بذلك قوله بعد: «إِنْ هُوَ إِلاّٰ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذٰابٍ شَدِيدٍ» و يمكن أن يكون «مٰا» استفهاميه أو موصوله و «مِنْ جِنَّةٍ» بيانا له.

و المراد بصاحبكم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه و الوجه فى التعبير به تذكرتهم بصحبته الممتده لهم أربعين سنه من حين ولادته الى حين بعثته ليتذكروا أنهم لم يعهدوا منه اختلالا فى فكر أو خفه فى رأى أو أى شىء يوهم أن به جنونا.

و المعنى:قل لهم:إنما أوصيكم بالعظه أن تنهضوا و تنتصبوا لوجه اللّه متفرقين حتى يصفو فكركم و يستقيم رأيكم اثنين اثنين و واحدا واحدا و تتفكروا فى أمرى فقد صاحبتكم طول عمرى على سداد من الرأى و صدق و أمانه ليس فىّ من جنه.ما أنا إلاّ نذير لكم بين يدى عذاب شديد فى يوم القيامه فأنا ناصح لكم غير خائن.

قوله تعالی: قُلْ مٰا سَأَلْتُكَمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكَمْ الخ؛کنایه عن عدم سؤال أجر علی الدعوه فإنه إذا وهبهم کل ما سألهم من أجر فلیس له علیهم أجر مسئول و لازمه أن لا یسألهم و هذا تطییب لنفوسهم أن لا یتهموه بأنه جعل الدعوه ذریعه الی نیل مال أو جاه.

ثم تمم القول بقوله: إِنْ أَجْرِیَ إِلاّٰ عَلَی اللّٰهِ وَ هُوَ عَلیٰ كُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ لئلا یردّ علیه قوله بأنه دعوی غیر مسموعه فإن الإنسان لا یروم عملا بغیر غایه فدفعه بأن لعملی أجرا لکنه علی اللّه لا علیکم و هو یشهد عملی و هو علی کل شیء شهید.

قوله تعالی: قُلْ إِنَّ رَبِّی یَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ القذف الرمی،و قوله:

«عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ» خبر بعد خبر أو خبر لمبتدإ محذوف و هو الضمیر الراجع الیه تعالی.

و مقتضی سیاق الآیات السابقه أن المراد بالحق المقذوف القرآن النازل الیه بالوحی من عنده تعالی الذی هو قول فصل یحق الحق و یبطل الباطل فهو الحق المقذوف الیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من عند علاّم الغیوب فیدمغ الباطل و یزهقه،قال تعالی: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَی الْبٰاطِلِ فَیَدْمَغُهُ فَإِذٰا هُوَ زٰاهِقٌ (الأنبیاء۱۸/)،و قال: قُلْ جٰاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْبٰاطِلُ إِنَّ الْبٰاطِلَ كٰانَ زَهُوقاً (الإسراء۸۱/).

قوله تعالی: قُلْ جٰاءَ الْحَقُّ وَ مٰا یُبْدِئُ الْبٰاطِلُ وَ مٰا یُعِیدُ المراد بمجیء الحق علی ما تهدی الیه الآیه السابقه نزول القرآن المبطل بحججه القاطعه و براهینه الساطعه لکل باطل من أصله.

و قوله: وَ مٰا یُبْدِئُ الْبٰاطِلُ وَ مٰا یُعِیدُ أی ما یظهر أمرا ابتدائیا جدیدا بعد مجیء الحق و ما یعید أمرا کان قد أظهره من قبل إظهارا ثانیا بنحو الإعاده فهو کنایه عن بطلان الباطل و سقوطه عن الأثر من أصله بالحق الذی هو القرآن.

قوله تعالی: قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمٰا أَضِلُّ عَلیٰ نَفْسِی وَ إِنِ اهْتَدَیْتُ فَبِمٰا یُوحِی إِلَیَّ رَبِّی إِنَّهُ سَمِیعٌ قَرِیبٌ بیان لأثر الحق الذی هو الوحی فإنه عرفه حقا

مطلقا فالحق إذا كان حقا من كل جهه لم يخطئ فى إصابه الواقع فى جهه من الجهات و إلاّ كان باطلا من تلك الجهه فالوحى يهدى و لا يخطئ البته.

و لذا قال تأكيدا لما تقدم: «قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ» و فرض منى ضلال «فَإِنَّما أَضِلُّ» مستقرا ذلك الضلال «عَلىٰ نَفْسِی» فإن للإنسان من نفسه أن يضل «وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِی إِلَیَّ رَبِّی» فوحيه حق لا يحتمل ضلالا و لا يؤثر إلاّ الهدى.

و قد علل الكلام بقوله: «إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ» للدلاله على أنه يسمع الدعوه و لا يحجبه عنها حاجب البعد و قد مهد له قبلا وصفه تعالى فى قذف الحق بأنه علام الغيوب فلا يغيب عنه أمر يخل بأمره و يمنع نفوذ مشيته هدايه الناس بالوحى قال تعالى: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّ مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (الجن/۲۸).

قوله تعالى: وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ ظاهر السياق السابق و يشعر به قوله الآتى: «وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ» أن الآيات الأربع وصف حال مشركى قريش و من يلحق بهم حال الموت.

فقوله: «وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ فَزِعُوا» أى حين فزع هؤلاء المشركون عند الموت «فَلا فَوْتَ» أى لا يفوتون اللّه بهرب أو تحصن أو أى حائل آخر.

و قوله: وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ كنايه عن عدم فصل بينهم و بين من يأخذهم و قد عبر بقوله: «أُخِذُوا» مبنيا للمفعول ليستند الأخذ اليه سبحانه،و قد وصف نفسه بأنه قريب،و كشف عن معنى قربه بقوله: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لٰكِنْ لا تُبْصِرُونَ (الواقعه/۸۵)،و أزيد منه فى قوله: مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (ق/۱۶)،و أزيد منه فى قوله:

أَنَّ اللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (الأنفال/۲۴)،فبين أنه أقرب الى الانسان من نفسه و هذا الموقف هو المرصاد الذى ذكره فى قوله: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ (الفجر/۱۴)،فكيف يتصور

فوت الإنسان منه و هو أقرب اليه من نفسه؟أو من ملائكته المكرمين الـذين يأخذون الأمر منه تعالى من غير حاجب يحجبهم عنه أو واسط يتوسط بينه و بينهم.

فقوله: وَ أُخِذُوا مِنْ مَكٰانٍ قَرِيبٍ نوع تمثيل لقربه تعالى من الإنسان بحسب ما نتصوره من معنى القرب لاحتباسنا فى سجن الزمان و المكان و أنسنا بالامور الماديه و إلاّ فالأمر أعظم من ذلك.

قوله تعالى: وَ قٰالُوا آمَنّٰا بِهِ وَ أَنّٰى لَهُمُ اَلتَّنٰاوُشُ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ التناوش التناول و ضمير «بِهِ» للقرآن على ما يعطيه السياق.

و المراد بكونهم فى مكـان بعيـد أنهم فى عـالم الآـخره و هى دار تعين الجزاء و هى أبعـد مـا يكون من عالم الـدنيا التى هى دار العمل و موطن الاكتساب بالاختيار و قد تبدل الغيب شهاده لهم و الشهاده غيبا كما تشير اليه الآيه التاليه.

قوله تعالى: وَ قَـدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْـذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ حال من الضـمير فى «وَ أَنّٰى لَهُمُ اَلتَّنٰاوُشُ» و المراد بقوله: «وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ» رميهم عالم الآخره و هم فى الدنيا بالظنون مع عدم علمهم به و كونه غائبا عن حواسـهم إذ كانوا يقولون:لا بعث و لا جنه و لا نار،و قيل:المراد به رميهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالسحر و الكذب و الافتراء و الشعر.

و العنايه فى إطلاق المكان البعيد على الدنيا بالنسبه الى الآخره نظيره إطلاقه على الآخره بالنسـبه الى الدنيا و قد تقدمت الإشاره اليه.

و معنى الآـيتين:و قـال المشـركون حينما أخـذوا آمنّا بالحق الـذى هو القرآن و أنّى لهم تناول الإيمان به-إيمانا يفيـد النجاه-من مكان بعيـد و هو الآخره و الحال أنهم كفروا به من قبل فى الدنيا و هم ينفون أمور الآخره بالظنون و الأوهام من مكان بعيد و هو الدنيا.

قوله تعالى: وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مٰا يَشْتَهُونَ كَمٰا فُعِلَ بِأَشْيٰاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ

إِنَّهُمْ كٰانُوا فِی شَکٍّ مُرِیبٍ ظاهر السیاق أن المراد بما یشتهون اللذائذ المادیه الدنیویه التی یحال بینهم و بینها بالموت،و المراد بأشیاعهم من قبل أشباههم من الامم الماضیه أو موافقوهم فی المذهب،و قوله: «إِنَّهُمْ کٰانُوا فِی شَکٍّ مُرِیبٍ» تعلیل لقوله: «کَمٰا فُعِلَ» الخ.

و المعنی:و وقعت الحیلوله بین المشرکین المأخوذین و بین ما یشتهون من ملاذّ الدنیا کما فعل ذلک بأشباههم من مشرکی الامم الدارجه من قبلهم إنهم کانوا فی شک مریب من الحق أو من الآخره فیقذفونها بالغیب.

و اعلم أن ما قدمناه من الکلام فی هذه الآیات الأربع مبنی علی ما یعطیه ظاهر السیاق و قد استفاضت الروایات من طرق الشیعه و أهل السنه أن الآیات ناظره الی خسف جیش السفیانی بالبیداء و هو من علائم ظهور المهدی علیه السّلام المتصله به فعلی تقدیر نزول الآیات فی ذلک یکون ما قدمناه من المعنی من باب جری الآیات فیه (۱).

۱- ۱) .سبأ ۳۱-۵۴:بحث روائی فی:الانفاق؛السفیانی؛ظهور القائم علیه السّلام.

سوره فاطر مکیه و هی خمس و أربعون آیه

اشاره

[سوره فاطر (۳۵): آیه ۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ فٰاطِرِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ جٰاعِلِ اَلْمَلاٰئِکَهِ رُسُلاً أُولِی أَجْنِحَهٍ مَثْنیٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ یَزِیدُ فِی اَلْخَلْقِ مٰا یَشٰاءُ إِنَّ اَللّٰهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱)

بیان:

غرض السوره بیان الاصول الثلاثه:وحدانیته تعالی فی ربوبیته و رساله الرسول و المعاد الیه و تقریر الحجه لذلک و قد توسل لذلک بعد جمل من نعمه العظیمه السماویه و الأرضیه و الإشاره الی تدبیره المتقن لأمر العالم عامه و الإنسان خاصه.

و قد قدم علی هذا التفصیل الإشاره الإجمالیه الی انحصار فتح الرحمه و إمساکها و هو إفاضه النعمه و الکف عنها فیه تعالی بقوله: مٰا یَفْتَحِ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ مِنْ رَحْمَهٍ فَلاٰ مُمْسِکَ لَهٰا الآیه.

ص :۱۹۳

و قدم على ذلك الإشاره الى وسائط هذه الرحمه المفتوحه و النعم الموهوبه و هم الملائكه المتوسطون بينه تعالى و بين خلقه فى حمل أنواع النعم من عنده تعالى و إيصالها الى خلقه فافتتح السوره بذكرهم.

و السوره مكيه كما يدل عليه سياق آياتها،و قد استثنى بعضهم آيتين و هما قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ الآيه؛و قوله: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا الآيه؛ و هو غير ظاهر من سياق الآيتين.

قوله تعالى: اَلْحَمْدُ لِلّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الفطر-على ما ذكره الراغب-هو الشق طولا-فإطلاق الفاطر عليه تعالى بعنايه استعاريه كأنه شق العدم فأخرج من بطنها السماوات و الأرض فمحصل معناه أنه موجد السماوات و الأرض إيجادا ابتدائيا من غير مثال سابق،فيقرب معناه من معنى البديع و المبدع و الفرق بين الإبداع و الفطر أن العنايه فى الإبداع متعلقه بنفى الحال السابق و فى الفطر بطرد العدم و إيجاد الشىء من رأس لا كالصانع الذى يؤلف مواد مختلفه فيظهر به صوره جديده لم تكن.

و المراد بالسماوات و الأرض مجموع العالم المشهود فيشملها و ما فيهما من مخلوق فيكون من قبيل إطلاق معظم الأجزاء و إراده الكل مجازا،أو المراد نفس السماوات و الأرض اعتناء بشأنهما لكبر خلقتهما و عجيب أمرهما كما قال: لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّاسِ (المؤمن/٥٧).

و كيف كان فقوله: «فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» من أسمائه تعالى أجرى صفه للّه و المراد بالوصف الاستمرار دون الماضى فقط لأن الإيجاد مستمرّ و فيض الوجود غير منقطع و لو انقطع لانعدمت الأشياء.

و الإتيان بالوصف بعد الوصف للإشعار بأسباب انحصار الحمد فيه تعالى كأنه قيل:الحمد للّه على ما أوجد السماوات و الأرض و على ما جعل الملائكه رسلا أولى أجنحه فهو تعالى

محمود ما أتى فيما أتى إلا الجميل.

قوله تعالى: جَاعِلِ الْمَلاَئِكَهِ رُسُلاً أُولِی أَجْنِحَهٍ مَثْنیٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ الملائکه جمع ملک بفتح اللام و هم موجودات خلقهم اللّه و جعلهم وسائط بینه و بین العالم المشهود و کلهم بامور العالم التکوینیه و التشریعیه عباد مکرمون لا یعصون اللّه فیما أمرهم و یفعلون ما یؤمرون.

فقوله تعالى: جَاعِلِ الْمَلاَئِکَهِ رُسُلاً یشعر بل یدل على کون جمیع الملائکه -و الملائکه جمع محلى باللام مفید للعموم-رسلا وسائط بینه و بین خلقه فی إجراء أوامر التکوینیه و التشریعیه.

و لا موجب لتخصیص الرسل فی الآیه بالملائکه النازلین على الأنبیاء علیهم السّلام و قد أطلق القرآن الرسل على غیرهم من الملائکه کقوله تعالى: حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا (الأنعام/۶۱)،و قوله: إِنَّ رُسُلَنٰا یَکْتُبُونَ مٰا تَمْکُرُونَ (یونس/۲۱)،و قوله:

وَ لَمّٰا جٰاءَتْ رُسُلُنٰا إِبْرٰاهِیمَ بِالْبُشْرىٰ قٰالُوا إِنّٰا مُهْلِکُوا أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْیَهِ (العنکبوت/۳۱).

و الأجنحه جمع جناح و هو من الطائر بمنزله الید من الإنسان یتوسل به الى الصعود الى الجو و النزول منه و الانتقال من مکان الى مکان بالطیران.

فوجود الملک مجهز بما یفعل به نظیر ما یفعله الطائر بجناحه فینتقل به من السماء الى الأرض بأمر اللّه یعرج به منها إلیها و من أی موضع الى أی موضع،و قد سماه القرآن جناحا و لا یستوجب ذلک إلا ترتب الغایه المطلوبه من الجناح علیه و أما کونه من سنخ جناح غالب الطیر ذا ریش و زغب فلا یستوجبه مجرد إطلاق اللفظ کما لم یستوجبه فی نظائره کألفاظ العرش و الکرسی و اللوح و القلم و غیرها.

و قوله: أُولِی أَجْنِحَهٍ مَثْنیٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ صفه للملائکه،و مثنى و ثلاث و رباع ألفاظ داله على تکرر العدد أی اثنین اثنین و ثلاثه ثلاثه و أربعه أربعه کأنه قیل:جعل

الملائکه بعضهم ذا جناحین و بعضهم ذا ثلاثه أجنحه و بعضهم ذا أربعه أجنحه.

و قوله: یَزِیدُ فِی الْخَلْقِ مٰا یَشٰاءُ لا یخلو من إشعار بحسب السیاق بأن منهم من یزید أجنحته علی أربعه.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ تعلیل لجمیع ما تقدمه أو الجمله الأخیره و الأول أظهر (۱)(۲).

[سوره فاطر (۳۵): الآیات ۲ الی ۸]

مٰا یَفْتَحِ اَللّٰهُ لِلنّٰاسِ مِنْ رَحْمَهٍ فَلاٰ مُمْسِکَ لَهٰا وَ مٰا یُمْسِکْ فَلاٰ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۲) یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ اُذْکُرُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ عَلَیْکُمْ هَلْ مِنْ خٰالِقٍ غَیْرُ اَللّٰهِ یَرْزُقُکُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰی تُؤْفَکُونَ (۳) وَ إِنْ یُکَذِّبُوکَ فَقَدْ کُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ وَ إِلَی اَللّٰهِ تُرْجَعُ اَلْأُمُورُ (۴) یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ فَلاٰ تَغُرَّنَّکُمُ اَلْحَیٰاهُ اَلدُّنْیٰا وَ لاٰ یَغُرَّنَّکُمْ بِاللّٰهِ اَلْغَرُورُ (۵) إِنَّ اَلشَّیْطٰانَ لَکُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمٰا یَدْعُوا حِزْبَهُ لِیَکُونُوا مِنْ أَصْحٰابِ اَلسَّعِیرِ (۶) اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ أَجْرٌ کَبِیرٌ (۷) أَ فَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اَللّٰهَ یُضِلُّ مَنْ یَشٰاءُ وَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ فَلاٰ تَذْهَبْ نَفْسُکَ عَلَیْهِمْ حَسَرٰاتٍ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِیمٌ بِمٰا یَصْنَعُونَ (۸)

ص: ۱۹۶

۱- ۱) .فاطر ۱:بحث روائی فی:الملائکه؛خلقه الملائکه؛اجزاء الملائکه.

۲- ۲) .فاطر ۱:کلام فی الملائکه.

بيان:

قوله تعالى: مٰا يَفْتَحِ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاٰ مُمْسِكَ لَهٰا وَ مٰا يُمْسِكْ فَلاٰ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ الخ؛المعنى أن ما يؤتيه اللّٰه الناس من النعمه و هو الرزق فلا مانع عنه و ما يمنع فلا مؤتى له فكان مقتضى الظاهر أن يقال:ما يرسل اللّٰه للناس،الخ؛كما عبر فى الجمله الثانيه بالإرسال لكنه عدل عن الإرسال الى الفتح لما وقع مكررا فى كلامه أن لرحمته خزائن كقوله: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزٰائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهّٰابِ (ص/٩)و قوله: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزٰائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفٰاقِ (الإسراء/١٠٠)و التعبير بالفتح أنسب من الإرسال فى الخزائن ففيه اشاره الى أن الرحمه التى يؤتاها الناس مخزونه فى خزائن محيطه بالناس لا يتوقف نيلهم منها إلا الى فتحها من غير مئونه زائده.

و قد عبر عن الرزق الذى هو النعمه بالرحمه للدلاله على أن إفاضته تعالى لهذه النعم ناشئه من مجرد الرحمه من غير توقع لنفع يعود اليه أو كمال يستكمل به.

و قوله: وَ مٰا يُمْسِكْ فَلاٰ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ أى و ما يمنع من الرحمه فلا مرسل له من دونه،و فى التعبير بقوله: «مِنْ بَعْدِهِ» إشاره الى أنه تعالى أول فى المنع كما أنه أول فى الإعطاء.

ص:١٩٧

و قوله: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ تقرير للحكم المذكور فى الآيه الكريمه بالاسمين الكريمين فهو تعالى لكونه عزيزا لا يغلب اذا أعطى فليس لمانع أن يمنع عنه و اذا منع فليس لمعط أن يعطيه،و هو تعالى حكيم اذا أعطى أعطى عن حكمه و مصلحه و اذا منع منع عن حكمه و مصلحه و بالجمله لا معطى إلا اللّه و لا مانع إلا هو،و منعه و إعطائه عن حكمه.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خٰالِقٍ غَيْرُ اللّٰهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ الخ؛لما قرر فى الآيه السابقه أن الإعطاء و المنع للّه سبحانه لا يشاركه فى ذلك أحد احتج فى هذه الآيه بذلك على توحده فى الربوبيه.

و تقرير الحجه أن الإله إنما يكون إلها معبودا لربوبيته و هى ملكه تدبير أمر الناس و غيرهم،و الذى يملك تدبير الأمر بهذه النعم التى يتقلب فيها الناس و غيرهم و يرتزقون بها هو اللّه سبحانه دون غيره من الآلهه التى اتخذوها لأنه سبحانه هو الذى خلقها دونهم و الخلق لا ينفك عن التدبير و لا يفارقه فهو سبحانه إلهكم لا إله إلا هو لأنه ربكم الذى يدبر أمركم بهذه النعم التى تتقلبون فيها و إنما كان ربا مدبرا بهذه النعم لأنه خالقها و خالق النظام الذى يجرى عليها.

و بذلك يظهر أن المراد بالناس المخاطبين الوثنيون و غيرهم ممن اتخذ للّه شريكا.

و قوله: اُذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ المراد بالذكر ما يقابل النسيان دون الذى الذكر اللفظى.

و قوله: هَلْ مِنْ خٰالِقٍ غَيْرُ اللّٰهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ الرزق هو ما يمد به البقاء و مبدؤه السماء بواسطه الأشعه و الأمطار و غيرهما و الأرض بواسطه النبات و الحيوان و غيرهما.

و بذلك يظهر أيضا أن فى الآيه إيجازا لطيفا فقد بدلت الرحمه فى الآيه السابقه نعمه فى هذه الآيه أولا ثم النعمه رزقا ثانيا و كان مقتضى سياق الآيتين أن يقال:هل من رازق أو هل من

منعم أو هل من راحم لكن بـدّل ذلک من قوله: «هَلْ مِنْ خالِقٍ» ليكون إشاره الى برهان ثان ينقطع به الخصام،فإنهم يرون تـدبير العالم لآلهتهم بإذن اللّه فلو قيل:هل من رازق أو منعم غير اللّه لم ينقطع الخصام و أمكن أن يقولوا نعم آلهتنا بتفويض التدبير من اللّه اليهم لكن لما قيل «هَلْ مِنْ خالِقٍ» أشير بالوصف إلى أن الرازق و المدبر هو خالق الرزق لا غير فانقطع الخصام و لم يمكنهم إلا أن يجيبوا بنفى خالق غير اللّه يرزقهم من السماء و الأرض.

و قوله: لا إِلهَ إِلاّ هُوَ اعتراض بالتوحيد يفيد التعظيم نظير قوله: وَ قالُوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ .

أى لا معبود بالحق إلا هو لأن المستحق للعباده هو الذى ينعم عليكم و يرزقكم و ليس إلا اللّه.

و قوله: فَأَنّى تُؤْفَكُونَ توبيخ متفرع على ما سبق من البرهان أى فإذا كان الأمر هكذا و أنتم تقرون بذلک فإلى متى تصرفون عن الحق الى الباطل و من التوحيد الى الإشراک.

و فى إعراب الآيه أعنى قوله: «هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللّهِ» الخ؛بين القوم مشاجرات طويله و الذى يناسب ما تقدم من تقرير البرهان أن «مِنْ» زائده للتعميم،و قوله: «غَيْرُ اللّهِ» صفه لخالق تابع لمحله،و كذا قوله: «يَرْزُقُكُمْ» الخ؛و «مِنْ خالِقٍ» مبتدأ محذوف الخبر و هو موجود،و قوله: «لا إِلهَ إِلاّ هُوَ» اعتراض،و قوله: «فَأَنّى تُؤْفَكُونَ» تفريع على ما تقدمه.

قوله تعالى: وَ إِنْ يُكَذِّبُوکَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ وَ إِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ تسليه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أى و إن يكذبوک بعد استماع هذه البراهين الساطعه فلا تحزن فليس ذلک ببدع فقد كذبت رسل من قبلک كذبتهم أممهم و أقوامهم و الى اللّه ترجع عامه الامور فيجازيهم بما يستحقونه بتكذيبهم الحق بعد ظهوره فليسوا بمعجزين بتكذيبهم.

و من هنا يظهر أن قوله: «فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ» من قبيل وضع السبب موضع

المسبب و أن قوله: «وَ إِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» معطوف على قوله: «فَقَدْ كُذِّبَتْ» الخ؛

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ خطاب عام للناس يذكرهم بالمعاد كما كان الخطاب العام السابق يذكرهم بتوحده تعالى فى الربوبيه و الالوهيه.

فقوله: «إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ» أى وعده أنه يبعثكم فيجازى كل عامل بعمله إن خيرا و إن شرا حق أى ثابت واقع،و قد صرح بهذا الوعد فى قوله الآتى: «الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ» .

و قوله: فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا النهى و إن كان متوجها الى الحياه الدنيا صوره لكنه فى الحقيقه متوجه اليهم،و المعنى اذا كان وعد اللّه حقا فلا تغتروا بالحياه الدنيا بالاشتغال بزينتها و التهلى بما ينسيكم يوم الحساب من ملاذها و ملاهيها و الاستغراق فى طلبها و الإعراض عن الحق.

و قوله: وَ لاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ الغرور بفتح الغين صيغه مبالغه من الغرور بالضم و هو الذى يبالغ فى الغرور و من عادته ذلك،و الظاهر-كما قيل-أن المراد به الشيطان و يؤيده التعليل الواقع فى الآيه التاليه «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ» الخ.

و معنى غروره باللّه توجيهه أنظارهم الى مظاهر حلمه و عفوه تعالى تاره و مظاهر ابتلائه و استدراجه و كيده أخرى فيرون أن الاشتغال بالدنيا و نسيان الآخره و الإعراض عن الحق و الحقيقه لا يستعقب عقوبه و لا يستتبع مؤاخذه،و أن أبناء الدنيا كلما أمعنوا فى طلبهم و توغلوا فى غفلتهم و استغرقوا فى المعاصى و الذنوب زادوا فى عيشهم طيبا و فى حياتهم راحه و بين الناس جاها و عزه فيلقى الشيطان عند ذلك فى قلوبهم أن لا كرامه إلا فى التقدم فى الحياه الدنيا،و لا خبر عما وراءها و ليس ما تتضمنه الدعوه الحقه من الوعد و الوعيد و تخبر به النبوه من البعث و الحساب و الجنه و النار إلا خرافه.

فالمراد بغرور الشيطان الإنسان باللّه اغترار الإنسان بما يعامل به اللّه الإنسان على غفلته و ظلمه.

قوله تعالى: إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا الخ؛تعليل للنهى المتقدم فى قوله: «وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ الْغَرُورُ» و المراد بعداوه الشيطان أنه لا شأن له إلا إغواء الإنسان و تحريمه سعاده الحياه و حسن العاقبه،و المراد باتخاذ الشيطان عدوا التجنب من اتباع دعوته الى الباطل و عدم طاعته فيما يشير اليه فى وساوسه و تسويلاته و لذلك علل عداوته بقوله:

«إِنَّمٰا يَدْعُوا حِزْبَهُ» .

فقوله: إِنَّمٰا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحٰابِ السَّعِيرِ فى مقام تعليل ما تقدمه و الحزب هو العده من الناس يجمعهم غرض واحد،و اللام فى «لِيَكُونُوا» للتعليل فكونهم من أصحاب السعير عله غائيه لدعوته،و السعير النار المسعره و هو من أسماء جهنم فى القرآن.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ هذا هو الوعد الحق الذى ذكره اللّه سبحانه، و تنكير العذاب للدلاله على التفخيم على أن لهم دركات و مراتب مختلفه من العذاب باختلاف كفرهم و فسوقهم فالإبهام أنسب و يجرى نظير الوجهين فى قوله: «مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ» .

قوله تعالى: أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ تقرير و بيان للتقسيم الذى تتضمنه الآيه السابقه أعنى تقسيم الناس الى كافر له عذاب شديد و مؤمن عامل بالصالحات له مغفره و أجر كبير و المراد أنهما لا يستويان فلا تستوى عاقبه أمرهما.

فقوله: أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً مبتدأ خبره محذوف أى كمن ليس كذلك،و الفاء لتفريع الجمله على معنى الآيه السابقه،و الاستفهام للإنكار،و المراد بمن

زین له سوء عمله فرآه حسنا الکافر و یشیر به الی أنه منکوس فهمه مغلوب علی عقله یری عمله علی غیر ما هو علیه،و المعنی أنه لا یستوی من زین له عمله السیئ فرآه حسنا و الذی لیس کذلک بل یری السیئ سیئا.

و قوله: فَإِنَّ اللّٰهَ یُضِلُّ مَنْ یَشٰاءُ وَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ تعلیل للإنکار السابق فی قوله: «أَ فَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً» أی الکافر الذی شأنه ذلک و المؤمن الذی بخلافه لا یستویان لأن اللّٰه یضل أحدهما بمشیته و هو الکافر الذی یری السیئه حسنه و یهدی الآخر بمشیته و هو المؤمن الذی یعمل الصالحات و یری السیئه سیئه.

و هذا الإضلال إضلال علی سبیل المجازاه و لیس إضلالا ابتدائیا فلا ضیر فی انتسابه الی اللّٰه سبحانه.

و بالجمله اختلاف الکافر و المؤمن فی عاقبتهما بحسب الوعد الإلهی بالعذاب و الرحمه لاختلافهما بالإضلال و الهدایه الإلهیین و اختلافهما بالإضلال و الهدایه باختلافهما فی رؤیه السیئه حسنه و عدمها.

و قوله: فَلاٰ تَذْهَبْ نَفْسُکَ عَلَیْهِمْ حَسَرٰاتٍ الحسرات جمع حسره و هی الغم لما فات و الندم علیه،و هی منصوبه لأنه مفعول لأجله و المراد بذهاب باختلافهما فی رؤیه السیئه حسنه و عدمها.

و قوله: فَلاٰ تَذْهَبْ نَفْسُکَ عَلَیْهِمْ حَسَرٰاتٍ الحسرات جمع حسره و هی الغم لما فات و الندم علیه،و هی منصوبه لأنه مفعول لأجله و المراد بذهاب النفس علیهم هلاکها فیهم لأجل الحسرات الناشئه من عدم إیمانهم.

و الجمله متفرعه علی الفرق السابق أی إذا کان الطائفتان مختلفتین بالإضلال و الهدایه من جناب اللّٰه فلا تهلک نفسک حسرات علیهم إذ کذبوک و کفروا بک فإن اللّٰه هو الذی یضلهم جزاء لکفرهم و رؤیتهم السیئه حسنه و هو علیم بما یصنعون فلا یختلط علیه الأمر و لا یفعل

ص :۲۰۲

بهم إلا الحق و لا يجازيهم إلا بالحق.

[سوره فاطر (٣۵): الآيات ٩ الى ١۴]

وَ اَللّٰهُ اَلَّذِی أَرْسَلَ اَلرِّيٰاحَ فَتُثِيرُ سَحٰاباً فَسُقْنٰاهُ إِلىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنٰا بِهِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا كَذٰلِكَ اَلنُّشُورُ (٩) مَنْ كٰانَ يُرِيدُ اَلْعِزَّةَ فَلِلّٰهِ اَلْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ اَلْكَلِمُ اَلطَّيِّبُ وَ اَلْعَمَلُ اَلصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ وَ اَلَّذِينَ يَمْكُرُونَ اَلسَّيِّئٰاتِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولٰئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَ اَللّٰهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوٰاجاً وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ وَ مٰا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لاٰ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاّٰ فِی كِتٰابٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اَللّٰهِ يَسِيرٌ (١١) وَ مٰا يَسْتَوِی اَلْبَحْرٰانِ هٰذٰا عَذْبٌ فُرٰاتٌ سٰائِغٌ شَرٰابُهُ وَ هٰذٰا مِلْحٌ أُجٰاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهٰا وَ تَرَى اَلْفُلْكَ فِيهِ مَوٰاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اَللَّيْلَ فِی اَلنَّهٰارِ وَ يُولِجُ اَلنَّهٰارَ فِی اَللَّيْلِ وَ سَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذٰلِكُمُ اَللّٰهُ رَبُّكُمْ لَهُ اَلْمُلْكُ وَ اَلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مٰا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لاٰ يَسْمَعُوا دُعٰاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اِسْتَجٰابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لاٰ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١۴)

بیان:

قوله تعالی: وَ اللّٰهُ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّیٰاحَ فَتُثِیرُ سَحٰاباً فَسُقْنٰاهُ إِلیٰ بَلَدٍ مَیِّتٍ الخ؛العنایه فی المقام بتحقق وقوع الأمطار و إنبات النبات بها،و لذلک قال: «اللّٰهُ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّیٰاحَ» و هذا بخلاف ما فی سوره الروم من قوله: اَللّٰهُ الَّذِی یُرْسِلُ الرِّیٰاحَ فَتُثِیرُ سَحٰاباً (الروم۴۸/).

و قوله: فَتُثِیرُ سَحٰاباً عطف علی «أَرْسَلَ» و الضمیر للریاح و الإتیان بصیغه المضارع لحکایه الحال الماضیه و الإثاره إفعال من ثار الغبار یثور ثورانا إذا انتشر ساطعا.

و قوله: فَسُقْنٰاهُ إِلیٰ بَلَدٍ مَیِّتٍ أی الی أرض لا نبات فیها «فَأَحْیَیْنٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا» و أنبتنا فیها نباتا بعد ما لم تکن،و نسبه الإحیاء الی الأرض و إن کانت مجازیه لکن نسبته الی النبات حقیقه و أعمال النبات من التغذیه و النمو و تولید المثل و ما یتعلق بذلک أعمال حیویه تنبعث من أصل الحیاه.

و لذلک شبه البعث و إحیاء الأموات بعد موتهم بإحیاء الأرض بعد موتها أی إنبات النبات بعد توقفه عن العمل و رکوده فی الشتاء فقال: «کَذٰلِکَ النُّشُورُ» أی البعث فالنشور بسط الأموات یوم القیامه بعد إحیائهم و إخراجهم من القبور.

و فی قوله: فَسُقْنٰاهُ إِلیٰ بَلَدٍ مَیِّتٍ الخ؛التفات من الغیبه الی التکلم مع الغیر فهو تعالی فی قوله: «وَ اللّٰهُ الَّذِی أَرْسَلَ» بنعت الغیبه و فی قوله: «فَسُقْنٰاهُ» الخ؛بنعت التکلم مع الغیر و لعل النکته فی ذلک هی أنه لما قال: «وَ اللّٰهُ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّیٰاحَ» أخذ لنفسه نعت الغیبه و یتبعه فیه الإرسال فإن فعل الغائب غائب،ثم لما قال: «فَتُثِیرُ سَحٰاباً» علی نحو حکایه الحال الماضیه صار المخاطب کأنه یری الفعل و یشاهد الریاح و هی تثیر السحاب و تنشره فی الجو فصار کأنه یری من یرسل الریاح لأن مشاهده الفعل کادت أن لا تنفک عن مشاهده الفاعل فلما ظهر

تعالى بنعت الحضور غيّر سياق كلامه من الغيبه الى التكلم و اختار لفظ التكلم مع الغير للدلاله على العظمه.

و قوله: فَأَحْيَيْنٰا بِهِ الْأَرْضَ و لم يقل:فأحييناه مع كفايته و كـذا قوله: «بَعْدَ مَوْتِهٰا» مع جواز الاكتفاء بما تقدمه للأخذ بصـريح القول الذى لا ارتياب دونه.

قوله تعالى: مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً قال الراغب فى المفردات:

العزه حـاله مـانعه للإنسـان من أن يغلب من قولهم:أرض عزاز أى صـلبه قـال تعـالى: «أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً» انتهى.

فالصلابه هو الأصل فى معنى العزه ثم توسع فاستعمل العزيز فيمن يقهر و لا يقهر كقوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنٰا (يوسف۸۸/).و كذا العزه بمعنى الغلبه قال تعالى: وَ عَزَّنِى فِى الْخِطٰابِ (ص۲۳/)و العزه بمعنى القله و صعوبه المنال،قال تعالى: وَ إِنَّهُ لَكِتٰابٌ عَزِيزٌ (حم السجده۴۱/)و العزه بمعنى مطلق الصـعوبه قـال تعـالى: عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ (التوبه۱۳۸/)و العزه بمعنى الأنفه و الحميـه قـال تعالى: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَ شِقٰاقٍ (ص۲/)الى غير ذلک.

ثم إن العزه بمعنى كون الشـىء قـاهرا غير مقهور أو غالبا غير مغلوب تختص بحقيقه معناها باللّه عزّ و جل إذ غيره تعالى فقير فى ذاته ذليـل فى نفسه لاـ يملـک لنفسه شـيئا إلاـ أن يرحمه اللّه و يؤتيه شـيئا من العزه كما فعل ذلک بالمؤمنين به قال تعالى: وَ لِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقون۸/).

و بـذلک يظهر أن قوله: «مَنْ كٰانَ يُرِيـدُ الْعِزَّةَ فَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً» ليس بمسوق لبيان اختصاص العزه باللّه بحيث لا ينالها غيره و أن من أرادها فقـد طلب محالا و أراد ما لا يكون بل المعنى من كان يريـد العزه فليطلبها منه تعالى لأن العزه له جميعا لا توجـد عند غيره بالذات.

فوضع قوله: «فَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً» فى جزاء الشرط من قبيل وضع السبب موضع المسبب

و هو طلبها من عنده أی اکتسابها منه بالعبودیه التی لا تحصل إلا بالإیمان و العمل الصالح.

قوله تعالی: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ الکلم-کما قیل-اسم جنس جمعی یذکر و یؤنث،و قال فی المجمع:و الکلم جمع کلمه یقال؟هذا کلم و هذه کلم فیذکر و یؤنث،و کل جمع لیس بینه و بین واحده إلا الهاء یجوز فیه التذکیر و التأنیث انتهی.

و المراد بالکلم علی أی حال ما یفید معنی تاما کلامیا و یشهد به توصیفه بالطیب فطیب الکلم هو ملاءمته لنفس سامعه و متکلمه بحیث تنبسط منه و تستلذه و تستکمل به و ذلک إنما یکون بإفادته معنی حقا فیه سعاده النفس و فلاحها.

و بذلک یظهر أن المراد به لیس مجرد اللفظ بل بما أن له معنی طیبا فالمراد به الاعتقادات الحقه التی یسعد الإنسان بالإذعان لها و بناء عمله علیها و المتیقن منها کلمه التوحید التي یرجع إلیها سائر الاعتقادات الحقه و هی المشموله لقوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها (إبراهیم/۲۵)و تسمیه الاعتقاد قولا و کلمه أمر شائع بینهم.

و صعود الکلم الطیب الیه تعالی هو تقربه منه تعالی اعتلاء و هو العلی الأعلی رفیع الدرجات،و إذ کان اعتقادا قائما بمعتقده فتقربه منه تعالی تقرب المعتقد به منه،و قد فسروا صعود الکلم الطیب بقبوله تعالی له و هو من لوازم المعنی.

ثم أن الاعتقاد و الإیمان إذا کان حق الاعتقاد صادقا الی نفسه صدقه العمل و لم یکذبه أی یصدر عنه العمل علی طبقه فالعمل من فرع العلم و آثاره التی لا تنفک عنه،و کلما تکرر العمل زاد الاعتقاد رسوخا و جلاء و قوی فی تأثیره فالعمل الصالح و هو العمل الحری بالقبول الذی طبع علیه بذل العبودیه و الإخلاص لوجهه الکریم یعین الاعتقاد الحق فی ترتب أثره علیه و هو الصعود الیه تعالی و هو المعزی الیه بالرفع فالعمل الصالح یرفع الکلم الطیب.

فقد تبین بما مر معنی قوله: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ» و أن ضمیر

«إِلَيْهِ» للّه سبحانه و المراد بالكلم الطيب الاعتقاد الحق كالتوحيد،و بصعوده تقربه منه تعالى، و بالعمل الصالح ما كان على طبق الاعتقاد الحق و يلائمه و أن الفاعل فى «يَرْفَعُهُ» ضمير مستكن راجع الى العمل الصالح و ضمير المفعول راجع الى الكلم الطيب.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ ذكروا أن «السَّيِّئاتِ» وصف قائم مقام موصوف محذوف و هو المكرات،و وضع اسم الإشاره موضع الضمير فى «مَكْرُ أُولئِكَ» للدلاله على أنهم متعينون لا مختلطون بغيرهم و المعنى و الذين يمكرون المكرات السّيئات لهم عذاب شديد و مكر أولئك الماكرين هو يبور و يهلك فلا يستعقب أثرا حيا فيه سعادتهم و عزتهم.

و قد بان أن المراد بالسيئات أنواع المكرات و الحيل التى يتخذها المشركون وسائل لكسب العزه،و الآيه مطلقه،و قيل:المراد بالمكرات التى اتخذتها قريش على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى دار الندوه و غيرها من إثبات أو إخراج أو قتل فرد اللّه كيدهم اليهم و أخرجهم الى بدر و قتلهم و أثبتهم فى القليب فجمع عليهم الإثبات و الإخراج و القتل و هذا وجه حسن لكن الآيه مطلقه.

و وجه اتصال ذيل الآيه بصدرها أعنى اتصال قوله: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ» الى آخر الآيه بقوله:

«مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّهَ فَلِلّهِ الْعِزَّهُ جَمِيعاً» أن المشركين كانوا يعتزون بآلهتهم كما قال تعالى:

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ آلِهَهً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (مريم/٨١)فدعاهم اللّه سبحانه و هم يطلبون العز الى نفسه بتذكيرهم أن العزه للّه جميعا و بين تعالى ذلك بأن توحيده يصعد اليه و العمل الصالح يرفعه فيكتسب الإنسان بالتقرب منه عزه من منبع العزه و أما الذين يمكرون كل مكر سيئ لاكتساب العزه فلهم عذاب شديد و ما مكروه من المكر بائر هالك لا يصعد الى محل و لا يكسب لهم عزا.

قوله تعالى: وَ اللّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً

الخ؛يشير تعالى الى خلق الإنسان فابتدأ خلقه من تراب و هو المبدأ البعيد الذى تنتهى اليه الخلقه ثم من نطفه و هى مبدأ قريب تتعلق به الخلقه.

و الفرق بين الوجوه الثلاثه أن فى الأول نسبه الخلق من تراب اليهم على طريق المجاز العقلى،و فى الثانى المراد بخلقهم خلق آدم و لا مجاز فى النسبه،و فى الثالث المراد خلق كل واحد من الأفراد من التراب حقيقه من غير مجاز إلا أنه خلق إجمالى لا تفصيلى و بهذا يفارق ما قدمناه من الوجه.

و يمكن تأييد القول الأول بقوله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسٰانَ مِنْ صَلْصٰالٍ كَالْفَخّٰارِ (الرحمن/ ١۴)،و الثانى بنحو قوله: وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسٰانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاٰلَهٍ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ (السجده٨/)،و الثالث بقوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاكُمْ ثُمَّ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ (الأعراف١١/)و لكل وجه.

و قوله: ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوٰاجاً أى ذكورا و إناثا،و قيل:أى قدر بينكم الزوجيه و زوج بعضكم من بعض،و هو كما ترى،و قيل:أى أصنافا و شعوبا.و هو كسابقه.

و قوله: وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ من زائده لتأكيد النفى، و الباء فى «بِعِلْمِهِ» للمصاحبه و هو حال من الحمل و الوضع،و المعنى ما تحمل و لا تضع أنثى إلا و علمه يصاحب حمله و وضعه،و ذكر بعضهم أنه حال من الفاعل و أن كونه حالا من الحمل و الوضع و كذا من مفعوليهما أى المحمول و الموضوع خلاف الظاهر و هو ممنوع.

و قوله: وَ مٰا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لاٰ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاّٰ فِى كِتٰابٍ أى و ما يمد و يزاد فى عمر أحد فيكون معمرا و لا ينقص من عمره أى عمر أحد إلا فى كتاب.

فقوله: وَ مٰا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ من قبيل قوله: «إِنِّى أَرٰانِى أَعْصِرُ خَمْراً» (يوسف/ ٢۶)فوضع معمر موضع نائب الفاعل و هو أحد بعنايه أنه بعد تعلق التعمير به يصير معمرا و إلا فتعمير المعمر لا معنى له.

و قوله: وَ لاٰ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ الضـمير فى «عُمُرِهِ» راجع الى «مُعَمَّرٍ» باعتبار موصوفه المحذوف و هو أحد و المعنى و لا ينقص من عمر أحد و إلا فنقص عمر المفروض معمرا تناقض خارق للفرض.

و قوله: إِلاّٰ فِى كِتٰابٍ و هو اللوح المحفوظ الـذى لا سبيل للتغيير اليه فقد كتب فيه أن فلانا يزاد فى عمره كذا لسبب كذا و فلانا ينقص من عمره كـذا لسـبب كـذا و أما كتاب المحو و الإثبات فهو مرود التغير و سـياق الآيه يفيـد وصف العلم الثابت و لهم فى قوله: «وَ مٰا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لاٰ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ» وجوه أخر ضعيفه لا جدوى فى التعرض لها.

و قوله: إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ تعليـل و تقرير لمـا فى الآـيه من وصف خلق الإنسان و كيفيه إحـداثه و إبقائه و المعنى أن هـذا التـدبير الـدقيق المتين المهيمن على كليـات الحوادث و جزئياتهـا المقرر كل شـىء فى مقره على اللّه يسـير لأنه اللّه العلم القـدير المحيط بكل شىء بعلمه و قدرته فهو تعالى رب الإنسان كما أنه رب كل شىء.

قوله تعالى: وَ مٰا يَسْتَوِى الْبَحْرٰانِ هٰذٰا عَذْبٌ فُرٰاتٌ سٰائِغٌ شَرٰابُهُ وَ هٰذٰا مِلْحٌ أُجٰاجٌ الى آخر الآيه؛قيل:العذب من الماء طيبه،و الفرات الماء الـذى يكسر العطش أو البارد كما فى المجمع،و السائغ هو الـذى يسـهل انحـداره فى الحلق لعذوبته و الاجاج الذى يحرق لملوحته أو المر.

و قوله: وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهٰا اللحم الطرى الغض الجديد،و المراد لحم السمك أو السمك و الطير البحرى،و الحليه المسـتخرجه مـن البحر اللؤلـؤ و المرجـان و الأصـداف قـال تعـالى: يَخْرُجُ مِنْهُمَـا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجٰانُ (الرحمن/٢٢).

و فى الآيه تمثل للمؤمن و الكافر بالبحر العـذاب و المالـح يتبين به عدم تساوى المؤمن و الكافر فى الكمال الفطرى و إن تشاركا فى غالب الخواص الإنسانيه و آثارها فالمؤمن باق على

فطرته الأصليه ينال بها سعاده الحياه الدائمه و الكافر منحرف فيها متلبس بما لا تستطيبه الفطره الإنسانيه و سيعذب بأعماله فمثلهما مثل البحرين المختلفين عذوبه و ملوحه فهما مختلفان من حيث البقاء على فطره الماء الأصليه و هى العذوبه و الخروج عنها بالملوحه و إن اشتركا فى بعض الآثار التى ينتفع بها،فمن كل منهما تأكلون لحما طريا و هو لحم السمك و الطير المصطاد من البحر و تستخرجون حليه تلبسونها كاللؤلؤ و المرجان و الأصداف.

فظاهر الآيه أن الحليه المستخرجه مشتركه بين البحر العذب و البحر المالح.

قوله تعالى: وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوٰاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ضمير «فِيهِ» للبحر،و مواخر جمع ماخره من المخر بمعنى الشق عدت السفينه ماخره لشقها الماء بجؤجؤتها.

قيل:إنما أفرد ضمير الخطاب فى قوله: «تَرَى» بخلاف الخطابات المتقدمه و المتأخره لأن الخطاب لكل أحد يتأتى منه الرؤيه دون المنتفعين بالبحرين فقط.

و قوله: لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى مخر الفلك البحر بتسخيره لتطلبوا من عطائه و هو الرزق و رجاء أن تشكروا اللّه سبحانه،و قد تقدم أن الترجى الذى تفيده«لعل»فى كلامه تعالى قائم بالمقام دون المتكلم.

و قد قيل فى هذه الآيه «وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوٰاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» و فى سوره النحل وَ تَرَى الْفُلْكَ مَوٰاخِرَ فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ فاختلفت الآيتان فى تقديم «فِيهِ» على «مَوٰاخِرَ» و تأخيره منه و عطف «لِتَبْتَغُوا» و عدمه.

و لعل النكته فى ذلك أن آيه النحل مصدره بكلمه التسخير فهى مسوقه لبيان كيفيه التسخير و الأنسب لذلك تأخير «فِيهِ» ليتعلق بمواخر و يشير الى مخر البحر فيصرح بالتسخير بخلاف ما هاهنا ثم التسخير له غايات كثيره منها ابتغاء الفضل و الأنسب لذلك عطف «لِتَبْتَغُوا» على محذوف ليدل على عدم انحصار الغايه فى ابتغاء الفضل بخلاف ما هاهنا

فإن الغرض بیان أنه الرازق المدبر لیرتدع المکذبون-و قد تقدم ذکر تکذیبهم-عن تکذیبهم و یکفی فی ذلک بیان ابتغائهم الفضل غایه من غیر حاجه الی العطف.و اللّه أعلم.

و قال فی روح المعانی فی المقام:و الذی یظهر لی فی ذلک أن آیه النحل سیقت لتعداد النعم کما یؤذن بذلک سوابقها و لواحقها و تعقیب الآیات بقوله سبحانه: «وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَهَ اللّهِ لا تُحْصُوها» فکان الأهم هناک تقدیم ما هو نعمه و هو مخر الفلک للماء بخلاف ما هنا فإنه إنما سیق استطرادا أو تتمه للتمثیل کما علمت آنفا فقدم فیه «فِیهِ» إیذانا بأنه لیس المقصود بالذات ذلک،و کان الاهتمام بما هناک اقتضی أن یقال فی تلک الآیه: «وَ لِتَبْتَغُوا» بالواو و مخالفه ما هنا لذلک اقتضت ترک الواو فی قوله: «لِتَبْتَغُوا» انتهی.

قوله تعالی: یُولِجُ اللَّیْلَ فِی النَّهارِ وَ یُولِجُ النَّهارَ فِی اللَّیْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَمًّی الخ؛إیلاج اللیل فی النهار قصر النهار بطول اللیل و إیلاج النهار فی اللیل قصر اللیل بطول النهار،و المراد بالجملتین الإشاره الی اختلاف اللیل و النهار فی الطول و القصر المستمر فی أیام السنه بتغیر الأیام و لذا عبر بقوله: «یُولِجُ» الدال علی استمرار التغییر بخلاف جریان الشمس و القمر فإنه ثابت علی حاله و لذا عبر فیه بقوله:

«وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَمًّی» و العنایه صوریه مسامحیه.

و قوله: ذلِکُمُ اللّهُ رَبُّکُمْ بمنزله النتیجه لما تقدم أی إذا کان أمر خلقکم و تدبیرکم برا و بحرا و أرضا و سماء منتسبا الیه مدبرا بتدبیره فذلکم اللّه ربکم الذی یملککم و یدبر أمرکم.

و قوله: لَهُ الْمُلْکُ مستنتج مما قبله و توطئه و تمهید لما بعده من قوله: «وَ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما یَمْلِکُونَ مِنْ قِطْمِیرٍ» .

و قوله: وَ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما یَمْلِکُونَ مِنْ قِطْمِیرٍ القطمیر علی ما قاله الراغب الأثر علی رأس النواه و ذلک مثل للشیء الطفیف،و فی المجمع:القطمیر لفافه النواه.

ص:۲۱۱

و قيل:الحبه فى بطن النواه انتهى و الكلام على أى حال مبالغه فى نفى أصل الملك.

و المراد بالذين تدعون من دون اللّه آلهتهم الذين كانوا يدعونها من الأصنام و أربابها.

قوله تعالى: إِنْ تَدْعُوهُمْ لاٰ يَسْمَعُوا دُعٰاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجٰابُوا لَكُمْ الخ؛بيان و تقرير لما تقدم من قوله: «وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مٰا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ» أى تصديق كونهم لا يملكون شيئا أنكم إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم لأن الأصنام جمادات لا شعور لها و لا حس و أرباب الأصنام كالملائكه و القديسين من البشر فى شغل شاغل من ذلك على أنهم لا يملكون سمعا من عند أنفسهم فلا يسمعون إلا بإسماعه.

و قوله: وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجٰابُوا لَكُمْ إذ لا قدره لهم على الاستجابه قولا و لا فعلا أما الأصنام فظاهر و أما أرباب الأصنام فقدرتهم من اللّه سبحانه و لن يأذن اللّه لأحد أن يستجيب أحدا يدعوه بالربوبيه قال تعالى: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لاَ الْمَلاٰئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (النساء/ ١٧٢).

و قوله: وَ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ أى يردون عبادتكم اليكم و يتبرءون منكم بدلا من أن يكونوا شفعاء لكم إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا (البقره/ ١۶۶).

فالآيه فى نفى الاستجابه و كفر الشركاء يوم القيامه في معنى قوله: وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ مَنْ لاٰ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعٰائِهِمْ غٰافِلُونَ وَ إِذٰا حُشِرَ النّٰاسُ كٰانُوا لَهُمْ أَعْدٰاءً وَ كٰانُوا بِعِبٰادَتِهِمْ كٰافِرِينَ (الأحقاف/۶).

و قوله: وَ لاٰ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ أى لا يخبرك عن حقيقه الأمر مخبر مثل مخبر خبير و هو خطاب خاص بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد الإعراض عن خطابهم لعدم تفقههم بالبيان الحق أو خطاب عام فى صوره الخطاب الخاص خوطب به السامع أى من كان كقوله: وَ تَرَى الْفُلْكَ

فِيهِ مَوٰاخِرَ الآیه السابقه؛و قوله: وَ تَرَی الشَّمْسَ إِذٰا طَلَعَتْ الآیه(الکهف۱۷/)؛ و قوله: وَ تَحْسَبُهُمْ أَیْقٰاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ (الکهف۱۸/).

[سوره فاطر (۳۵): الآیات ۱۵ الی ۲۶]

یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ أَنْتُمُ اَلْفُقَرٰاءُ إِلَی اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ هُوَ اَلْغَنِیُّ اَلْحَمِیدُ (۱۵) إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ (۱۶) وَ مٰا ذٰلِکَ عَلَی اَللّٰهِ بِعَزِیزٍ (۱۷) وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَهٌ وِزْرَ أُخْریٰ وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَهٌ إِلیٰ حِمْلِهٰا لاٰ یُحْمَلْ مِنْهُ شَیْءٌ وَ لَوْ کٰانَ ذٰا قُرْبیٰ إِنَّمٰا تُنْذِرُ اَلَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَیْبِ وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰهَ وَ مَنْ تَزَکّٰی فَإِنَّمٰا یَتَزَکّٰی لِنَفْسِهِ وَ إِلَی اَللّٰهِ اَلْمَصِیرُ (۱۸) وَ مٰا یَسْتَوِی اَلْأَعْمیٰ وَ اَلْبَصِیرُ (۱۹) وَ لاَ اَلظُّلُمٰاتُ وَ لاَ اَلنُّورُ (۲۰) وَ لاَ اَلظِّلُّ وَ لاَ اَلْحَرُورُ (۲۱) وَ مٰا یَسْتَوِی اَلْأَحْیٰاءُ وَ لاَ اَلْأَمْوٰاتُ إِنَّ اَللّٰهَ یُسْمِعُ مَنْ یَشٰاءُ وَ مٰا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِی اَلْقُبُورِ (۲۲) إِنْ أَنْتَ إِلاّٰ نَذِیرٌ (۲۳) إِنّٰا أَرْسَلْنٰاکَ بِالْحَقِّ بَشِیراً وَ نَذِیراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّهٍ إِلاّٰ خَلاٰ فِیهٰا نَذِیرٌ (۲۴) وَ إِنْ یُکَذِّبُوکَ فَقَدْ کَذَّبَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْکِتٰابِ اَلْمُنِیرِ (۲۵) ثُمَّ أَخَذْتُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فَکَیْفَ کٰانَ نَکِیرِ (۲۶)

ص: ۲۱۳

بیان:

قوله تعالی: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ إِلَى اللّٰهِ وَ اللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ لا ریب أن فی الآیه نوع تمهید بالنسبه الی الآیتین التالیتین یتبین بها مضمونها و هی مع ذلک مستقله فی مفادها.

بیان ذلک:أن السیاق یشعر بأن أعمال هؤلاء المکذبین کانت تکشف عن أنهم کانوا یتوهمون أن لهم أن یستغنوا عن اللّه سبحانه بعباده آلهتهم و أن للّه الیهم حاجه و لذلک یدعوهم الی نفسه بالدعوه الإلهیه التی یقوم بها رسله فهناک غنی و فقر و لهم نصیب من الغنی و للّه نصیب من الفقر تعالی عن ذلک.

فرد اللّه سبحانه زعمهم ذلک بقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ إِلَى اللّٰهِ وَ اللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ» فقصر الفقر فیهم و قصر الغنی فیه سبحانه فکل الفقر فیهم و کل الغنی فیه سبحانه،و إذ کان الغنی و الفقر و هما الوجدان و الفقدان متقابلین لا یرتفعان عن موضوعهما کان لازم القصر السابق قصر آخر و هو قصرهم فی الفقر و قصره تعالی فی الغنی فلیس لهم إلا الفقر و لیس له تعالی إلا الغنی.

فاللّه سبحانه غنی بالذات له أن یذهبهم و یستغنی عنهم و هم فقراء بالذات لیس لهم أن یستغنوا عنه بغیره.

و الملاک فی غناه تعالی عنهم و فقرهم أنه تعالی خالقهم و مدبر أمرهم و الیه الإشاره بأخذ لفظ الجلاله فی بیان فقرهم و بیان غناه،و الإشاره الی الخلق و التدبیر فی قوله: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ» و کذا توصیفه تعالی بالحمید و هو المحمود فی فعله الذی هو

خلقه و تدبيره.

فيعود معنى الكلام الى نحو من قولنا:يا أيها الناس أنتم بما أنكم مخلوقون مدبرون للّه الفقراء الى اللّه فيكم كل الفقر و الحاجه و اللّه بما أنه الخالق المدبر،الغنى لا غنى سواه.

و تذييل الآيه بصفه الحميد للإشاره الى أنه غنى محمود الأفعال إن أعطى و إن منع لأنه إذا أعطى لم يعطه لبدل لغناه عن الجزاء و الشكر و كل بدل مفروض و إن منع لم يتوجه اليه لائمه إذ لا حق لأحد عليه و لا يملك منه شىء.

قوله تعالى: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَ مٰا ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ بِعَزِيزٍ أى إن يرد إذهابكم يذهبكم أيها الناس لأنه غنى عنكم لا يستضر بذهابكم و يأت بخلق جديد يحمدونه و يثنون عليه لا لحاجه منهم اليهم بل لأنه حميد و مقتضاه أن يجود فيحمد و ليس ذلك على اللّه بصعب لقدرته المطلقه لأنه اللّه عز اسمه.

فقد بان أن مضمون الآيه متفرعه على مضمون الآيه السابقه فقوله: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ» متفرع على كونه تعالى غنيا،و قوله: «وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ» متفرع على كونه تعالى حميدا،و قد فرع مضمون الجملتين فى موضع آخر على غناه و رحمته قال تعالى: وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَهِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مٰا يَشٰاءُ (الأنعام۱۳۳/).

قوله تعالى: وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَهٌ وِزْرَ أُخْرىٰ الخ؛قال الراغب:الوزر-بفتحتين- الملجأ الذى يلتجأ اليه من الجبل،قال تعالى: «كَلاّٰ لاٰ وَزَرَ» و الوزر-بالكسر فالسكون- الثقل تشبيها بوزر الجبل،و يعبر به عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل قال تعالى: «لِيَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ كٰامِلَهً» الآيه؛كقوله: لَيَحْمِلُنَّ أَثْقٰالَهُمْ وَ أَثْقٰالاً مَعَ أَثْقٰالِهِمْ .انتهى فالمعنى لا تحمل نفس حامله للإثم إثم نفس أخرى و لازم ذلك أن لا تؤاخذ نفس إلا بما حملت من إثم نفسها و اكتسبته من الوزر.

فقوله: وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَهٌ وِزْرَ أُخْرىٰ أى لا تحمل نفس حامله للوزر و الإثم إثم

نفس أخرى حامله.

و قوله: وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَهٌ إِلىٰ حِمْلِهٰا لاٰ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كٰانَ ذٰا قُرْبىٰ أى و إن تدع نفس مثقله أثقلها حملها من الإثم غيرها إلى ما حملته من الإثم ليحمله عنها لا يستجاب لها و لا يحمل من حملها شىء و لو كان المدعو ذا قربى للداعى كالأب و الام و الأخ و الاخت.

و قوله: إِنَّمٰا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰهَ أى هؤلاء المكذبون لا ينتفعون بالإنذار و لا تتحقق معهم حقيقه الإنذار لأنهم مطبوع على قلوبهم إنما تنذر و ينفع إنذارك الذين يخشون ربهم بالغيب و يقيمون الصلاه التى هى أفضل العبادات و أهمها و بالجمله يؤمنون باللّه و يعبدونه أى الذين يخشون ربهم بالغيب و يقيمون الصلاه إثر إنذارك لا أنهم يخشون ربهم و يصلون ثم ينذرون بعد ذلك حتى يلزم تحصيل الحاصل فالآيه كقوله: إِنِّي أَرٰانِي أَعْصِرُ خَمْراً (يوسف/۳۶).

و قوله: وَ مَنْ تَزَكّٰى فَإِنَّمٰا يَتَزَكّٰى لِنَفْسِهِ بدل الخشيه و إقامه الصلاه من التزكى للإشاره الى أن المطلوب بالدعوه و الإنذار هو التزكى و تزكيه النفس تلبسها بالخشيه من اللّه على الغيب و إقامه الصلاه.

و فيه تقرير و تأكيد لما تقدم من كونه تعالى غنيا حميدا فهو تعالى لا ينتفع بما يدعو اليه من التزكى بل الذى تزكى فإنما يتزكى لنفع نفسه.

و قد ختم الآيه بقوله: «وَ إِلَى اللّٰهِ الْمَصِيرُ» للدلاله على أن تزكيه من تزكى لا يذهب سدى، فإن كلا من الفريقين صائرون الى ربهم لا محاله و هو يحاسبهم و يجازيهم فيجازى هؤلاء المتزكين أحسن الجزاء.

قوله تعالى: وَ مٰا يَسْتَوِي الْأَعْمىٰ وَ الْبَصِيرُ الظاهر أنه عطف على قوله: «وَ إِلَى اللّٰهِ الْمَصِيرُ» تعليل فى صوره التمثيل لعدم مساواه هؤلاء المتزكين لاولئك المكذبين،و قيل:

عطف على قوله السابق: وَ مٰا يَسْتَوِي الْبَحْرٰانِ .

قوله تعالى: وَ لاَ الظُّلُمٰاتُ وَ لاَ النُّورُ تكرار حروف النفى مره بعد مره فى الآيه و ما يليها لتأكيد النفى.

قوله تعالى: وَ لاَ الظِّلُّ وَ لاَ الْحَرُورُ الحرور شده حر الشمس على ما قيل و قيل:

هو السموم و قيل:السموم يهب نهارا و الحرور يهب ليلا و نهارا.

قوله تعالى: وَ مٰا يَسْتَوِي الْأَحْيٰاءُ وَ لاَ الْأَمْوٰاتُ الى آخر الآيه عطف على قوله: «وَ مٰا يَسْتَوِي الْأَعْمىٰ وَ الْبَصِيرُ» و إنما كرر قوله: «مٰا يَسْتَوِي» و لم يعطف «الْأَحْيٰاءُ وَ لاَ الْأَمْوٰاتُ» على قوله: «الْأَعْمىٰ وَ الْبَصِيرُ» كرابعته لطول الفصل فاعيد «مٰا يَسْتَوِي» لئلا يغيب المعنى عن ذهن السامع فهو كقوله: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللّٰهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ -الى أن قال- كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ الخ(التوبه/٨).

و الجمل المتواليه المترتبه أعنى قوله: «وَ مٰا يَسْتَوِي الْأَعْمىٰ وَ الْبَصِيرُ -الى قوله- وَ مٰا يَسْتَوِي الْأَحْيٰاءُ وَ لاَ الْأَمْوٰاتُ» تمثيلات للمؤمن و الكافر و تبعات أعمالهما.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشٰاءُ و هو المؤمن كان ميتا فأحياه اللّه فأسمعه لما فى نفسه من الاستعداد لذلك قال تعالى: أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً (الأنعام/ ١٢٢)،و أما النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنما هو وسيله و الهدى هدى اللّه.

و قوله: «وَ مٰا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ» أى الأموات و المراد بهم الكفار المطبوع على قلوبهم.

قوله تعالى: إِنْ أَنْتَ إِلاّٰ نَذِيرٌ قصر إضافى أى ليس لك إلا إنذارهم و أما هدايه من اهتدى منهم و إضلال من ضل و لم يهتد جزاء له بسيء عمله فإنما ذلك سبحانه.و لم يذكر البشير مع النذير مع كونه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم متلبسا بالوصفين معا لأن المقام مقام الإنذار فالمناسب هو التعرض لوصف الانذار مع أنه مذكور فى الآيه التاليه.

قوله تعالى: إِنّٰا أَرْسَلْنٰاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاّٰ خَلاٰ فِيهٰا نَذِيرٌ المفاد على ما يقتضيه السياق إنا أرسلناك بالتبشير و الإنذار و ليس ببدع مستغرب فما من أمه من الامم إلا و قد خلا و مضى فيها نذير فذلك من سنن اللّه الجاريه فى خلقه.

و ظاهر السياق أن المراد بالنذير الرسول المبعوث من عند اللّه و فسر بعضهم النذير بمطلق من يقوم بالعظه و الإنذار من نبى أو عالم غير نبى و هو خلاف ظاهر الآيه.

نعم ليس من الواجب أن يكون نذير كل أمه من أفرادها فقد قال تعالى: «خَلاٰ فِيهٰا» و لم يقل«خلا منها».

قوله تعالى: وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتٰابِ الْمُنِيرِ البينات هى الآيات المعجزه التى تشهد على حقيه الرسل،و الزبر جمع زبور و لعل المراد بها بقرينه مقابلتها للكتاب الصحائف و الكتب التى فيها ذكر اللّه تعالى من غير أن تتضمن الأحكام و الشرائع،و الكتاب المنير الكتاب المنزل من السماء المتضمن للشرائع ككتاب نوح و إبراهيم و توراه موسى و إنجيل عيسى عليهم السّلام،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كٰانَ نَكِيرِ الأخذ كنايه عن التعذيب،و النكير الإنكار،و الباقى ظاهر (1).

[سوره فاطر (35): الآيات 27 الى 38]

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ ثَمَرٰاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهٰا وَ مِنَ اَلْجِبٰالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوٰانُهٰا وَ غَرٰابِيبُ سُودٌ (27) وَ مِنَ اَلنّٰاسِ وَ اَلدَّوَابِّ وَ اَلْأَنْعٰامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوٰانُهُ كَذٰلِكَ إِنَّمٰا يَخْشَى اَللّٰهَ مِنْ عِبٰادِهِ اَلْعُلَمٰاءُ إِنَّ اَللّٰهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28) إِنَّ اَلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتٰابَ اَللّٰهِ وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰةَ وَ أَنْفَقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَ عَلاٰنِيَةً يَرْجُونَ تِجٰارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30) وَ اَلَّذِي أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ مِنَ اَلْكِتٰابِ هُوَ اَلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اَللّٰهَ بِعِبٰادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31) ثُمَّ أَوْرَثْنَا اَلْكِتٰابَ اَلَّذِينَ اِصْطَفَيْنٰا مِنْ عِبٰادِنٰا فَمِنْهُمْ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سٰابِقٌ بِالْخَيْرٰاتِ بِإِذْنِ اَللّٰهِ ذٰلِكَ هُوَ اَلْفَضْلُ اَلْكَبِيرُ (32) جَنّٰاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهٰا يُحَلَّوْنَ فِيهٰا مِنْ أَسٰاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِبٰاسُهُمْ فِيهٰا حَرِيرٌ (33) وَ قٰالُوا اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا اَلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنٰا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) اَلَّذِي أَحَلَّنٰا دٰارَ اَلْمُقٰامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاٰ يَمَسُّنٰا فِيهٰا نَصَبٌ وَ لاٰ يَمَسُّنٰا فِيهٰا لُغُوبٌ (35) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نٰارُ جَهَنَّمَ لاٰ يُقْضىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذٰابِهٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهٰا رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً غَيْرَ اَلَّذِي كُنّٰا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مٰا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جٰاءَكُمُ اَلنَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37) إِنَّ اَللّٰهَ عٰالِمُ غَيْبِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (38)

1- 1) .فاطر 15-26:كلام فى معنى عموم الانذار.

بیان:

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ ثَمَرٰاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهٰا الخ؛حجه أخری علی التوحید و هو أن اللّه سبحانه ینزل الماء من السماء بالإمطار و هو أقوی العوامل المعینه لخروج الثمرات،و لو کان خروجها عن مقتضی طباع هذا العامل و هو واحد لکان جمیعها ذا لون واحد فاختلاف الألوان یدل علی وقوع التدبیر الإلهی.

و القول بأن اختلافها منوط باختلاف العوامل المؤثره فیها و منها اختلاف العناصر الموجوده فیها نوعا و قدرا و خصوصیه التألیف.

مدفوع بأن الکلام منقول حینئذ الی اختلاف نفس العناصر و هی منتهیه الی الماده المشترکه التی لا اختلاف فیها فاختلاف العناصر المکونه منها یدل علی عامل آخر وراء الماده یدبر أمرها و یسوقها الی غایات مخلفه.

و الظاهر أن المراد باختلاف ألوان الثمرات اختلاف نفس ألوانها و یلزمه اختلافات أخر من حیث الطعم و الرائحه و الخواص،و قیل المراد باختلاف الألوان اختلاف الأنواع فکثیرا ما یطلق اللون فی الفواکه و الأطعمه علی النوع کما یقال:قدم فلان ألوانا من الطعام و الفاکهه فهو من الکنایه،و قوله بعد: «وَ مِنَ الْجِبٰالِ جُدَدٌ بِیضٌ وَ حُمْرٌ» لا یخلو من تأیید للوجه الأول.

و فی قوله: فَأَخْرَجْنا بِهِ الـخ؛التفات من الغیبه الی التکلم.قیل:إن ذلک لکمال الاعتناء بالفعل لما فیه من الصـنع البـدیع المنبئ عن کمال القدره و الحکمه.

و نظیر الوجه یجری فی قوله السـابق: «إِنّا أَرْسَلْناکَ بِالْحَقِّ بَشِیراً وَ نَـذِیراً» و أما ما فی الآیه السابقه من قوله: «ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِینَ کَفَرُوا فَکَیْفَ کانَ نَکِیرِ» فلعـل الوجه فیه أن أمرهـم الی اللّه لا یتخلـل بینه و بینهم أحـد حتی یشـفع لهم أو ینصـرهم فینجوا من العذاب.

و قوله: وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِیضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَ غَرابِیبُ سُودٌ الجدد بالضم فالفتح جمع جده بضم الجیم و هی الطریقه و الجاده،و البیض و الحمر جمع ابیض و أحمر،و الظاهر أن قوله: «مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها» صـفه لجدد و «أَلْوانُها» فاعل «مُخْتَلِفاً» و لو کانت الجمله مبتـدأ و خبرا لقیل:مختلفه ألوانها کما قیل،و الغرابیب جمع غربیب و هو الأسود الشدید السواد و منه الغراب و «سُودٌ» بدل أو عطف بیان لغرابیب.

و المعنی:أ لم تر أن من الجبـال طرائق بیض و حمر و سود مختلف ألوانهـا،و المراد إمـا الطرق المسـلوکه فی الجبـال و لها ألوان مختلفه،و إما نفس الجبال التی هی خطوط مختلفه ممدوده علی وجه الأرض بیض و حمر و سود مختلف ألوانها.

قوله تعـالی: وَ مِنَ النّاسِ وَ الـدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ کَذلِکَ أی و من النـاس و الـدواب التی تـدب فی الأرض و الأنعام کالإبل و الغنم و البقر بعض مختلف ألوانه بالبیاض و الحمره و السواد کاختلاف الثمرات و الجبال فی ألوانها.

قوله تعالی: إِنَّما یَخْشَی اللّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ استئناف یوضـح أن الاعتبار بهذه الآیات إنما یؤثر أثره و یورث الإیمان باللّه حقیقه و الخشـیه منه بتمام معنی الکلمه فی العلماء دون الجهال،و قـد مر أن الإنذار إنما ینجح فیهم حیث قال: «إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَیْبِ وَ أَقامُوا الصَّلاهَ» فهذه الآیه کالموضحه لمعنی تلک تبین أن الخشیه حق الخشیه إنما توجد فی العلماء.

و المراد بالعلماء العلماء باللّه و هم الذين يعرفون اللّه سبحانه بأسمائه و صفاته و أفعاله معرفه تامه تطمئن بها قلوبهم و تزيل و صمه الشك و القلق عن نفوسهم و تظهر آثارها فى أعمالهم فيصدق فعلهم قولهم،و المراد بالخشيه حينئذ حق الخشيه و يتبعها خشوع فى باطنهم و خضوع فى ظاهرهم.هذا ما يستدعيه السياق فى معنى الآيه.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ يفيد معنى التعليل فلعزته تعالى و كونه قاهرا غير مقهور و غالبا غير مغلوب من كل جهه يخشاه العارفون،و لكونه غفورا كثير المغفره للآثام و الخطيئات يؤمنون به و يتقربون اليه و يشتاقون الى لقائه.

و قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتٰابَ اللّٰهِ وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰةَ وَ أَنْفَقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَ عَلاٰنِيَةً يَرْجُونَ تِجٰارَةً لَنْ تَبُورَ تلاوه الكتاب قراءه القرآن و قد أثنى عليها اللّه سبحانه،و إقامه الصلاه إدامه إتيانها و حفظها من أن تترك،و الإنفاق من الرزق سرا و علانيه بذل المال سرا تحذرا من الرياء و زوال الإخلاص فى الإنفاق المسنون،و بذل المال علانيه ليشيع بين الناس كما فى الإنفاق الواجب.

و قوله: يَرْجُونَ تِجٰارَةً لَنْ تَبُورَ أى لن تهلك بالخسران،و ذكر بعضهم أن قوله:

«يَرْجُونَ» الخ؛خبر إن فى صدر الآيه و عند بعضهم الخبر مقدر يتعلق به قوله: «لِيُوَفِّيَهُمْ» الخ؛«أى فعلوا ما فعلوا ليوفيهم أجورهم»الخ.

قوله تعالى: لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ متعلق بقوله: «يَتْلُونَ» و ما عطف عليه فى الآيه السابقه أى أنهم عملوا ما عملوا لأن يوفيهم و يؤتيهم إيتاء تاما كاملا أجورهم و ثوابات أعمالهم.

و قوله: وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ يمكن أن يراد بهذه الزياده تضعيف الثواب أضعافا كما فى قوله: مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا (الأنعام۱۶۰)و قوله: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنٰابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللّٰهُ يُضٰاعِفُ

لِمَنْ يَشاءُ (البقره۲۶۱/)،و يمكن أن يراد بها زياده ليست من سنخ ثواب الأعمال كما فى قوله: لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ (ق۳۵/).

و قوله: إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ تعليل لمضمون الآيه و زياده فهو تعالى لكونه غفورا يغفر زلاتهم و لكونه شكورا يثيبهم و يزيد من فضله.

قوله تعالى: وَ الَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ مِنَ الْکِتابِ هُوَ الْحَقُّ ضمير الفصل و اللام فى قوله: «هُوَ الْحَقُّ» للتأكيد لا للقصر أى هو حق لا يشوبه باطل.

قوله تعالى: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْکِتابَ الَّذِینَ اصْطَفَیْنا مِنْ عِبادِنا الى آخر الآيه؛ يقال:أورثه مالا كذا أى تركه فيهم يقومون بأمره بعده و قد كان هو القائم بأمره المتصرف فيه،و كذا إيراث العلم و الجاه و نحوهما تركه عند الغير يقوم بأمره بعد ما كان عند غيره ينتفع به فايراث القوم الكتاب تركه عندهم يتناولونه خلفا عن سلف و ينتفعون به.

و تصح هذه النسبه و إن كان القائم به بعض القوم دون كلهم،قال تعالى: وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْهُدی وَ أَوْرَثْنا بَنِی إِسْرائِیلَ الْکِتابَ هُدیً وَ ذِکْری لِأُولِی الْأَلْبابِ (المؤمن۵۴/)، و قال: إِنّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِیها هُدیً وَ نُورٌ یَحْکُمُ بِهَا النَّبِیُّونَ الَّذِینَ أَسْلَمُوا لِلَّذِینَ هادُوا وَ الرَّبّانِیُّونَ وَ الْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ کِتابِ اللّهِ (المائده۴۴/)،و قال: وَ إِنَّ الَّذِینَ أُورِثُوا الْکِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِی شَکٍّ مِنْهُ مُرِیبٍ (الشورى۱۴/).فبنو إسرائيل أورثوا الكتاب و إن كان المؤدون حقه القائمون بأمره بعضهم لا جميعهم.

و المراد بالكتاب فى الآيه على ما يعطيه السياق هو القرآن الكريم كيف؟و قوله فى الآيه السابقه: «وَ الَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ مِنَ الْکِتابِ» نص فيه،فاللام فى الكتاب للعهد دون الجنس فلا يعبأ بقول من يقول:إن اللام للجنس و المراد بالكتاب مطلق الكتاب السماوى المنزل على الأنبياء.

و الاصطفاء أخذ صفوه الشيء و يقرب من معنى الاختيار و الفرق أن الاختيار أخذ الشيء

من بین الأشیاء بما أنه خیرها و الاصطفاء أخذه من بینها بما أنه صفوتها و خالصها.

و قوله: مِنْ عِبٰادِنٰا یحتمل أن یکون «مِنْ» للتبیین أو للابتداء أو للتبعیض الأقرب الی الذهن أن یکون بیانیه و قد قال تعالی: وَ سَلاٰمٌ عَلیٰ عِبٰادِهِ الَّذِینَ اصْطَفیٰ (النمل/ ۵۹).

و قوله: فَمِنْهُمْ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سٰابِقٌ بِالْخَیْرٰاتِ یحتمل أن یکون ضمیر «مِنْهُمْ» راجعا الی «الَّذِینَ اصْطَفَیْنٰا» فیکون الطوائف الثلاث الظالم لنفسه و المقتصد و السابق بالخیرات شرکاء فی الوراثه و إن کان الوارث الحقیقی العالم بالکتاب و الحافظ له هو السابق بالخیرات.

و یحتمل أن یکون راجعا الی عبادنا-من غیر إفاده الإضافه للتشریف-فیکون قوله:

«فَمِنْهُمْ» مفیدا للتعلیل و المعنی إنما أورثنا الکتاب بعض عبادنا و هم المصطفون لا جمیع العباد لأن من عبادنا من هو ظالم لنفسه و منهم مقتصد و منهم سابق و لا یصلح الکل للوراثه.

و یمکن تأیید أول الاحتمالین بأن لا مانع من نسبه الوراثه الی الکل مع قیام البعث بها حقیقه کما نجد نظیره فی قوله تعالی: وَ أَوْرَثْنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ الْکِتٰابَ (المؤمن۵۴/).

و ما فی الآیه من المقابله بین الظالم لنفسه و المقتصد و السابق بالخیرات یعطی أن المراد بالظالم لنفسه من علیه شیء من السیئات و هو مسلم من أهل القرآن لکونه مصطفی و وارثا، و المراد بالمقتصد المتوسط الذی هو فی قصد السبیل و سواء الطریق و المراد بالسابق بالخیرات بإذن اللّٰه من سبق الظالم و المقتصد الی درجات القرب فهو أمام غیره بإذن اللّٰه سبب فعل الخیرات قال تعالی: وَ السّٰابِقُونَ السّٰابِقُونَ أُولٰئِکَ الْمُقَرَّبُونَ (الواقعه۱۱/).

و قوله تعالی: ذٰلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ أی ما تقدم من الإیراث هو الفضل الکبیر من اللّٰه لا دخل للکسب فیه.

قوله تعالی: جَنّٰاتُ عَدْنٍ یَدْخُلُونَهٰا یُحَلَّوْنَ فِیهٰا مِنْ أَسٰاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ

وَ لُؤْلُؤاً وَ لِبٰاسُهُمْ فِيهٰا حَرِيرٌ التحليه هى التزيين و الأساور جمع أسوره و هى جمع سوار بكسر السين قال الراغب:سوار المرأه معرب و أصله دستواره.انتهى.

و قوله: «جَنّٰاتُ عَدْنٍ» الخ؛ظاهره أنه بيان للفضل الكبير قال فى المجمع:هذا تفسير للفضل كأنه قيل:ما ذلك الفضل؟فقال:هى جنات أى جزاء جنات أو دخول جنات و يجوز أن يكون بدلا من الفضل كأنه قال:ذلك دخول جنات.انتهى.و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنٰا لَغَفُورٌ شَكُورٌ قيل:المراد بالحزن الذى يحمدون اللّه على إذهابه بإدخالهم الجنه الحزن الذى كان يتوجه اليهم فى الحياه الدنيا و ما يحف بها من الشدائد و النوائب.

و قيل:المراد به الحزن الذى كان قد أحاط بهم بعد الارتحال من الدنيا،و قيل الدخول فى جنه الآخره إشفاقا مما اكتسبوه من السيئات.

و على هذا فالقول قول الظالم لنفسه منهم أو قوله و قول المقتصد و أما السابق بالخيرات منهم فلا سيئه فى صحيفه أعماله حتى يعذب بها.و هذا الوجه أنسب لقولهم فى آخر حمدهم:

«إِنَّ رَبَّنٰا لَغَفُورٌ شَكُورٌ» .

قوله تعالى: اَلَّذِى أَحَلَّنٰا دٰارَ الْمُقٰامَهِ مِنْ فَضْلِهِ لاٰ يَمَسُّنٰا فِيهٰا نَصَبٌ وَ لاٰ يَمَسُّنٰا فِيهٰا لُغُوبٌ المقامه الإقامه،و دار المقامه المنزل الذى لا خروج منه و لا تحول.

و النصب بفتحتين التعب و المشقه،و اللغوب بضم اللام:العى و التعب فى طلب المعاش و غيره.

و المعنى:الذى جعلنا حالين فى دار الخلود من فضله من غير استحقاق منا عليه لا يمسنا فى هذه الدار و هى الجنه مشقه و تعب و لا يمسنا فيها عى و لا كلال فى طلب ما نريد أى إنا لنا فيها ما نشاء.

و فى قوله: «مِنْ فَضْلِهِ» مناسبه خاصه مع قوله السابق: «ذٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» .

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ الى آخر الآيه اللام فى «لَهُمْ» للاختصاص و يفيد كون النار جزاء لهم لا ينفكك عنهم،و قوله: «لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا» اى لا يحكم عليهم بالموت حتى يموتوا فهم أحياء على ما هم فيه من شده العذاب و لا يخفف عنهم من عذاب النار كذلك نجزى كل كفور شديد الكفران أو كثيره.

قوله تعالى: وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا الى آخر الآيه؛فى الجمع:

الاصطراخ الصياح و النداء بالاستغاثه افتعال من الصراخ انتهى.

و قوله: رَبَّنا أَخْرِجْنا الخ؛بيان لاصطراخهم،و قوله: «أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ» الخ؛جواب اصطراخهم و قوله: «فَذُوقُوا» و قوله: «فَما لِلظّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» كل منهما متفرع على ما قبله.

و المعنى،و هؤلاء الذين فى النار من الكفار يصطرخون و يصيحون بالاستغاثه فيها قائلين:ربنا أخرجنا من النار نعمل صالحا غير سيئ غير الذى كنا نعمل فيقال لهم ردا عليه:-كلا-أو لم نعمركم عمرا يتذكر فيه من تذكر و جاءكم النذير فأنذركم هذا العذاب فلم تتذكروا و لم تؤمنوا؟فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير ينصرهم ليتخلصوا من العذاب.

قوله تعالى: رَبَّنا أَخْرِجْنا الخ؛بيان لاصطراخهم،و قوله: «أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ» الخ؛جواب اصطراخهم و قوله: «فَذُوقُوا» و قوله: «فَما لِلظّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» كل منهما متفرع على ما قبله.

و المعنى،و هؤلاء الذين فى النار من الكفار يصطرخون و يصيحون بالاستغاثه فيها قائلين:ربنا أخرجنا من النار نعمل صالحا غير سيئ غير الذى كنا نعمل فيقال لهم ردا عليهم:-كلا-أو لم نعمركم عمرا يتذكر فيه من تذكر و جاءكم النذير فأنذركم هذا العذاب فلم تتذكروا و لم تؤمنوا؟فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير ينصرهم ليتخلصوا من

ص :۲۲۶

العذاب.

قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ عٰالِمُ غَیْبِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ فیعاملکم بما فی باطنکم من الاعتقاد و آثار الأعمال و یحاسبکم علیه سواء وافق ظاهرکم باطنکم أو خالف قال تعالی: إِنْ تُبْدُوا مٰا فِی أَنْفُسِکُمْ أَوْ تُخْفُوهُ یُحٰاسِبْکُمْ بِهِ اللّٰهُ (البقره/۲۸۴)،و قال: یَوْمَ تُبْلَی السَّرٰائِرُ (الطارق/۹) (۱).

[سوره فاطر (۳۵): الآیات ۳۹ الی ۴۵]

هُوَ اَلَّذِی جَعَلَکُمْ خَلاٰئِفَ فِی اَلْأَرْضِ فَمَنْ کَفَرَ فَعَلَیْهِ کُفْرُهُ وَ لاٰ یَزِیدُ اَلْکٰافِرِینَ کُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاّٰ مَقْتاً وَ لاٰ یَزِیدُ اَلْکٰافِرِینَ کُفْرُهُمْ إِلاّٰ خَسٰاراً (۳۹) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ شُرَکٰاءَکُمُ اَلَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ أَرُونِی مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ اَلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ أَمْ آتَیْنٰاهُمْ کِتٰاباً فَهُمْ عَلیٰ بَیِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ یَعِدُ اَلظّٰالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاّٰ غُرُوراً (۴۰) إِنَّ اَللّٰهَ یُمْسِکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ أَنْ تَزُولاٰ وَ لَئِنْ زٰالَتٰا إِنْ أَمْسَکَهُمٰا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ کٰانَ حَلِیماً غَفُوراً (۴۱) وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ لَئِنْ جٰاءَهُمْ نَذِیرٌ لَیَکُونُنَّ أَهْدیٰ مِنْ إِحْدَی اَلْأُمَمِ فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ نَذِیرٌ مٰا زٰادَهُمْ إِلاّٰ نُفُوراً (۴۲) اِسْتِکْبٰاراً فِی اَلْأَرْضِ وَ مَکْرَ اَلسَّیِّئِ وَ لاٰ یَحِیقُ اَلْمَکْرُ اَلسَّیِّئُ إِلاّٰ بِأَهْلِهِ فَهَلْ یَنْظُرُونَ إِلاّٰ سُنَّتَ اَلْأَوَّلِینَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اَللّٰهِ تَبْدِیلاً وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اَللّٰهِ تَحْوِیلاً (۴۳) أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَةُ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ کٰانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ مٰا کٰانَ اَللّٰهُ لِیُعْجِزَهُ مِنْ شَیْءٍ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِی اَلْأَرْضِ إِنَّهُ کٰانَ عَلِیماً قَدِیراً (۴۴) وَ لَوْ یُؤٰاخِذُ اَللّٰهُ اَلنّٰاسَ بِمٰا کَسَبُوا مٰا تَرَکَ عَلیٰ ظَهْرِهٰا مِنْ دَابَّةٍ وَ لٰکِنْ یُؤَخِّرُهُمْ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ بِعِبٰادِهِ بَصِیراً (۴۵)

ص: ۲۲۷

---

۱ – ۱) .فاطر ۲۷-۳۸:بحث روائی حول قوله تعالی: «إِنَّمٰا یَخْشَی اللّٰهَ مِنْ عِبٰادِهِ الْعُلَمٰاءُ» ؛الذین اصطفاهم اللّٰه من عباده؛ انواع العلم.

بیان:

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی جَعَلَکُمْ خَلاٰئِفَ فِی الْأَرْضِ الـخ؛الخلائف جمع خلیفه،و کون الناس خلائف فی الأرض هو قیام کل لا حق منهم مقـام سـابقه و سـلطته علی التصـرف و الانتفاع منها کما کان السابق مسـلطا علیه،و هم إنما نالوا هـذه الخلافه من جهه نوع الخلقه و هو الخلقه من طریق النسل و الولاده فإن هذا النوع من الخلقه یقسم المخلوق الی سلف و خلف.

فجعـل الخلافـه الأرضـیه نوع من التـدبیر مشوب بـالخلق غیر منفـک عنه و لـذلک اسـتدل به علی توحـده تعالی فی ربوبیته لأنه مختص به تعالی لا مجال لدعواه لغیره.

فقـوله: هُوَ الَّذِی جَعَلَکُمْ خَلاٰئِفَ فِی الْأَرْضِ حجه علی توحـده تعـالی فی ربوبیته انتفائهـا عن شـرکائهم:تقریره أن الـذی جعل الخلافه الأرضیه فی العالم الإنسانی هو

ربهم المدبر لأمرهم،و جعل الخلافه لا ينفک عن نوع الخلقه فخالق الإنسان هو رب الإنسان لکن الخلاق هو اللّٰه سبحانه حتی عند الخصم فاللّٰه هو رب الإنسان.

و قوله: فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ أی فاللّٰه سبحانه هو رب الإنسان فمن کفر و ستر هذه الحقیقه و نسب الربوبیه الی غیره تعالی فعلی ضرره کفره.

و قوله: وَ لاٰ يَزِيدُ الْكٰافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاّٰ مَقْتاً وَ لاٰ يَزِيدُ الْكٰافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاّٰ خَسٰاراً بیان لکون کفرهم علیهم و هو أن کفرهم یورث لهم مقتا عند ربهم و المقت شده البغض لأن فیه إعراضا عن عبودیته و استهانه بساحته،و یورث لهم خسارا فی أنفسهم لأنهم بدلوا السعاده الإنسانیه شقاء و وبالا سیصیبهم فی مسیرهم و منقلبهم الی دار الجزاء.

و إنما عبر عن أثر الکفر بالزیاده لأن الفطره الإنسانیه بسیطه ساذجه واقعه فی معرض الاستکمال و الازدیاد فإن أسلم الإنسان زاده ذلک کمالا و قربا من اللّٰه و إن کفر زاده ذلک مقتا عند اللّٰه و خسارا.

و إنما قید المقت بقوله: «عِنْدَ رَبِّهِمْ» دون الخسار لأن الخسار من تبعات تبدیل الإیمان کفرا و السعاده شقاء و هو أمر عند أنفسهم و أما المقت و شده البغض فمن عند اللّٰه سبحانه.

و الحب و البغض المنسوبان الی اللّٰه سبحانه من صفات الأفعال و هی معان خارجه عن الذات غیر قائمه بها،و معنی حبه تعالی لأحد انبساط رحمته علیه و انجذابها الیه و بغضه تعالی لأحد انقباض رحمته منه و ابتعادها عنه.

قوله تعالی: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكٰاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ الی آخر الآیه؛إضافه الشرکاء الیهم بعنایه أنهم یدعون أنهم شرکاء للّٰه فهی إضافه لامیه مجازیه.

و فی الآیه تلقین النبی صلّی اللّٰه علیه و آله و سلّم الحجه علی نفی ربوبیه آلهتهم الذین کانوا یعبدونهم و تقریر الحجه أنهم لو کانوا أربابا آلهه من دون اللّٰه لکان لهم شیء من تدبیر العالم فکانوا خالقین لما

يـدبرونه لأن الخلق و التـدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر و لو كانوا خالقين لدل عليه دليل و الدليل إما من العالم أو من قبل اللّه سبحـانه أمـا العالم فلا شـىء منه يـدل على كونه مخلوقا لهم و لو بنحو الشـركه و هو قوله: «أَرُونِی مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِی السَّمٰاوٰاتِ» .

و أما من قبله تعالى فلو كان لكان كتابا سـماويا نازلا من عنـده سبحانه يعترف بربوبيتهم و يجوز للناس أن يعبدوهم و يتخذوهم آلهه،و لم ينزل كتاب على هذه الصفه و هم معترفون بذلك و هو قوله: «أَمْ آتَيْنٰاهُمْ كِتٰاباً فَهُمْ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْهُ» .

و إنما عبر عن نفى خالقيتهم فى الأرض بقوله: «أَرُونِی مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ» و لم يقل:

أنبئونى ألهم شرك فى الأرض؟و عبر فى السماوات بقوله: «أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِی السَّمٰاوٰاتِ» و لم يقل:

أم ما ذا خلقوا من السماوات.

لأن المراد بالأرض-على ما يدل عليه سـياق الاحتجاج-العالم الأرضى و هو الأرض بما فيها و ما عليها و المراد بالسماوات العالم السـماوى المشـتمل على السـماوات و مـا فيهـا و مـا عليهـا فقوله: «مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ» فى معنى ألهم شـرک فى الأرض و لا يكون إلا بخلق شـىء منها،و قوله: «أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِی السَّمٰاوٰاتِ» فى معنى أم ما ذا خلقوا من السماوات،و قد اكتفى بذكر الخلق فى جانب الأرض إشاره الى أن الشرک فى الربوبيه لا يكون إلا بخلق.

و قوله: أَمْ آتَيْنٰاهُمْ كِتٰاباً فَهُمْ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْهُ أى بل آتيناهم كتابا فهم على بينه منه أى على حجه ظاهره من الكتاب أن لشـركائهم معناه و ذلک بدلالته على أنهم شركاء للّه.

و قـد قـال: «أَمْ آتَيْنٰاهُمْ كِتٰاباً» و لم يقـل:أم لهم كتـاب و نحو ذلک ليتأكـد النفى و الإنكار فإن قولنا:أم لهم كتاب و نحو ذلک إنكار لوجود الكتاب لكن قوله: «أَمْ آتَيْنٰاهُمْ كِتٰاباً» إنكار لوجود الكتاب ممن ينزل الكتاب لو نزل.

و قد تبين بما تقدم أن ضمير الجمع فى «آتَيْنٰاهُمْ» و فى «فَهُمْ عَلىٰ بَيِّنَهٍ» للمشركين فلا يعبأ بما قيل:إن الضمير للشركاء.

و قوله: بَلْ إِنْ يَعِدُ الظّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاّ غُرُوراً إضراب عما تقدم من الاحتجاج بأن الذى حملهم على الشرك ليس هو حجه تحملهم عليه و يعتمدون عليها بل غرور بعضهم بعضا بوعد الشفاعه و الزلفى فأسلافهم يغرون أخلافهم و رؤساؤهم و أئمتهم يغرون مرءوسيهم و تابعيهم و يعدونهم شفاعه الشركاء عند اللّه سبحانه و لا حقيقه لها.

و حجه الآيه عامه على المشركين عبده الأصنام و هم الذين يعبدون الملائكه و الجن و قد يسيء البشر و يتخذون لهم أصناما يتوجهون إليها،و على الذين يعبدون روحانيى الكواكب و يتوجهون الى الكواكب ثم يتخذون للكواكب أصناما،و على الذين يعبدون الملائكه و العناصر من غير أن يتخذوا لها أصناما كما ينقل عن الفرس القدماء،و على الذين يعبدون بعض البشر كالنصارى للمسيح عليه السّلام.

قوله تعالى: إِنَّ اللّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ الخ؛قيل:إن الآيه استئناف مقرر لغايه قبح الشرك و هو له أى أن اللّه تعالى يحفظ السماوات و الأرض كراهه أن تزولا-أو لئلا-تزولا-و تضمحلا لأن الممكن كما يحتاج الى الواجب حال إيجاده يحتاج اليه حال بقائه.انتهى.

و الظاهر أنه تعالى لما استدل على توحده فى الربوبيه يجعل الخلافه فى النوع الإنسانى بقوله: «هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِى الْأَرْضِ» الآيه؛ثم نفى الشركه مطلقا بالحجه عمم الحجه بحيث تشمل الخلق كله أعنى السماوات و الأرض فاحتج على توحده بإبقاء الخلق بعد إحداثه فإن من البين الذى لا يرتاب فيه أن حدوث الشىء و أصل تلبسه بالوجود بعد العدم غير بقائه و تلبسه بالوجود بعد الوجود على نحو الاستمرار فبقاء الشىء بعد حدوثه يحتاج الى إيجاد بعد إيجاد على نحو الاتصال و الاستمرار.

و إبقاء الشىء بعد إحداثه كما أنه إيجاد بعد الإيجاد كذلك هو تدبير لأمره فإنك إن دققت النظر وجدت أن النظام الجارى فى الكون إنما يجرى بالإحداث و الإبقاء فقط.و الموجد

و الخالق هو اللّه سبحانه حتى عند الخصم فاللّه سبحانه هو الخالق المدبر للسماوات و الأرض وحده لا شريک له.

فقوله: إِنَّ اللّٰهَ يُمْسِكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولاٰ الإمساک بمعناه المعروف و قوله: «أَنْ تَزُولاٰ» -و تقديره كراهه أن تزولا أو لئلا تزولا-متعلق به،و قيل:

الإمساک بمعنى المنع أو بمعنى الحفظ و على أى حال فالإمساک كنايه عن الإبقاء و هو الإيجاد بعد الإيجاد على سبيل الاتصال و الاستمرار،و الزوال هو الاضمحلال و البطلان.

و نقل عن بعضهم أنه فسر الزوال بالانتقال المكانى،و المعنى أن اللّه يمنع السماوات و الأرض من أن ينتقل شىء منهما عن مكانه الذى استقر فيه فيرتفع أو ينخفض انتهى و الشأن فى تصور مراده تصورا صحيحا.

و قوله: وَ لَئِنْ زٰالَتٰا إِنْ أَمْسَكَهُمٰا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ السياق يعطى أن المراد بالزوال هاهنا الإشراف على الزوال إذ نفس الزوال لا يجتمع معه الإمساک و المعنى و أقسم لئن أشرفتا على الزوال لم يمسكهما أحد من بعد اللّه سبحانه إذ لا مفيض للوجود غيره و يمكن أن يكون المراد بالزوال معناه الحقيقى و المراد بالإمساک القدره على الإمساک و قد تبين أن «مِنْ» الاولى زائده للتأكيد و الثانيه للابتداء،و ضمير «مِنْ بَعْدِهِ» راجع اليه تعالى،و قيل:راجع الى الزوال.

و قوله: إِنَّهُ كٰانَ حَلِيماً غَفُوراً فهو لحلمه لا يعجل الى أمر و لمغفره يستر جهات العدم فى الأشياء،و مقتضى الاسمين أن يمسک السموات و الأرض أن تزولا الى أجل مسمى.

و قال فى إرشاد العقل السليم:إنه كان حليما غفورا غير معاجل بالعقوبه التى تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما و كانتا جديرتين بأن تهدّا هدا حسبما قال تعالى: تَكٰادُ السَّمٰاوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ انتهى.

قوله تعالى: وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ لَئِنْ جٰاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدىٰ

مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاّ نُفُوراً قال الراغب:الجهد -بفتح الجيم-و الجهد-بضمها-الطاقه و المشقه-الى أن قال-و قال تعالى: «وَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ» أى حلفوا و اجتهدوا فى الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما فى وسعهم.انتهى.و قال: النفر الانزعاج عن الشىء و الى الشىء كالفزع الى الشىء و عن الشىء يقال:نفر عن الشىء نفورا قال تعالى: «ما زادَهُمْ إِلاّ نُفُوراً» .انتهى.

قيل (۱):بلغ قريشا قبل مبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا:لعن اللّه اليهود و النصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فو اللّه لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الامم انتهى،و سياق الآيه يصدق هذا النقل و يؤيده.

فقوله: وَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ الضمير لقريش و قد حلفوا هذا الحلف قبل بعثه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدليل قوله بعد: «فَلَمّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ» ،و المقسم به قوله: «لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ» الخ.

و قوله: لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ أى إحدى الامم التى جاءهم نذير كاليهود و النصارى و إنما قال: «لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ» و لم يقل:أهدى منهم لأن المعنى أنهم كانوا أمه ما جاءهم نذير ثم لو جاءهم نذير كانوا أمه ذات نذير كإحدى تلك الامم المنذره ثم بتصديق النذير يصيرون أهدى من التى ماثلوها و هو قوله: «أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ» فافهمه.

و قوله: فَلَمّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاّ نُفُوراً المراد بالنذير النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و النفور التباعد و الهرب.

قوله تعالى: اِسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَ مَكْرَ السَّيِّئِ وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ

۱- ۱) .رواه فى الدر المنثور عن أبى هلال و عن ابن جريج.

إلاّ بِأَهْلِهِ قال الراغب:المكر صرف الغير عما يقصده بحيله،و ذلك ضربان:مكر محمود و ذلك أن يتحرى بذلك فعل جميل و على ذلك قال تعالى: «وَ اللّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ» و مذموم و هو أن يتحرى به فعل قبيح قال تعالى: «لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ» انتهى.

و قال أيضا:قال عزّ و جل: «وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ» أى لا ينزل و لا يصيب.

قيل:و أصله حق فقلب نحو زل و زال و قد قرئ فأزلهما الشيطان و أزالهما و على هذا ذمه و ذامه.انتهى.

و قوله: «اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ» مفعول لأجله لقوله: «نُفُوراً» أى نفروا عنه و تباعدوا للاستكبار فى الأرض و قوله: «وَ مَكْرَ السَّيِّئِ» معطوف على «اسْتِكْباراً» و مفعول لأجله مثله،و قيل:معطوف على «نُفُوراً» و الإضافه فيه من إضافه الموصوف الى الصفه بدليل قوله ثانيا: «وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ» الخ.

و قوله: وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ أى لا يصيب و لا ينزل المكر السيئ إلا بأهله و لا يستقر إلا فيه،فان المكر السيئ و إن كان ربما أصاب به مكروه للممكور به،لكنه سيزول و لا يدوم إلا أن أثره السيئ بما أنه المكر سيئ يبقى فى نفس الماكر و سيظهر فيه و يجزى به إما فى الدنيا و إما فى الآخره البته،و لهذا فسر الآيه فى مجمع البيان بقوله:و المعنى لا ينزل جزاء المكر السيئ إلا بمن فعله.

و الكلام مرسل إرسال المثل كقوله تعالى: إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ (يونس٢٣/) فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ (الفتح١٠/).

و قوله: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ النظر و الانتظار بمعنى التوقع و الفاء للتفريع و الجمله استنتاج مما تقدمها و الاستفهام للإنكار و المعنى و إذ مكروا المكر السيئ و المكر السيئ يحيق بأهله فهم لا ينتظرون إلا السنه الجاريه فى الامم الماضين و هى العذاب الإلهى النازل بهم إثر مكرهم و تكذيبهم بآيات اللّه.

و قوله: فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّٰهِ تَحْوِيلاً تبديل السنه أن توضع العافيه و النعمه موضع العذاب،و تحويلها أن ينقل العذاب من قوم يستحقونه الى غيرهم،و سنه اللّه لا تقبل تبديلا و لا تحويلا لأنه تعالى على صراط مستقيم لا يقبل حكمه تبعيضا و لا استثناء.

و قد أخذ اللّه بالعذاب هؤلاء المشركين الماكرين يوم بدر فقتل عامتهم.و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو لكل سامع.

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كٰانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً استشهاد على سنته الجاريه فى الامم الماضيه و قد كانوا أشد قوه من مشركى مكه فأخذهم اللّه بالعذاب لما مكروا و كذبوا.

قوله تعالى: وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كٰانَ عَلِيماً قَدِيراً تتميم لسابق البيان لمزيد إنذارهم و تخويفهم،و المحصل ليتقوا اللّه و ليؤمنوا به و لا يمكروا به و لا يكذبوا فإن سنه اللّه فى ذلك هى العذاب كما يشهد به ما جرى فى الامم السابقه من الإهلاك و التعذيب و قد كانوا أشد قوه منهم و اللّه سبحانه لا يعجزه شيء فى السماوات و الأرض بقوه أو مكر فإنه عليم على الإطلاق لا يغفل و لا يجهل حتى ينخدع بمكر أو حيله قدير على الإطلاق لا يقاومه شيء.

قوله تعالى: وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِمٰا كَسَبُوا مٰا تَرَكَ عَلىٰ ظَهْرِهٰا مِنْ دَابَّةٍ الخ؛المراد بالمؤاخذه الدنيويه كما يدل عليه قوله الآتى: «وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى» الخ؛و المراد بالناس جميعهم فإن الآيه مسبوقه بذكر مؤاخذه بعضهم و هم الماكرون المكذبون بآيات اللّه،و المراد بما كسبوا المعاصى التى اكتسبوها بقرينه المؤاخذه التى هو العذاب و قد قال فى نظيره الآيه من سوره النحل: وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِظُلْمِهِمْ مٰا تَرَكَ عَلَيْهٰا مِنْ دَابَّةٍ (النحل/۶۱).

ص :۲۳۵

و المراد بظهرها ظهر الأرض لأن الناس يعيشون عليه على أن الأرض تقدم ذكرها فى الآيه السابقه.

و المراد بالدابه كل ما يدب فى الأرض من إنسان ذكر أو أنثى أو كبير أو صغير و احتمل أن يكون المراد كل ما يدب فى الأرض من حيوان و إهلاك غير الإنسان من أنواع الحيوان إنما هو لكونها مخلوقه للإنسان كما قال تعالى: خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (البقره۲۹/).

و قول بعضهم:ذلك لشؤم المعاصى و قد قال تعالى: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لاٰ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً مدفوع بأن شؤم المعصيه لا يتعدى العاصى الى غيره و قد قال تعالى: وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ (فاطر۱۸/)و أما الآيه أعنى قوله: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لاٰ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً (الأنفال۲۵/)فمدلولها على ما تقدم من تفسيرها اختصاص الفتنه بالذين ظلموا منهم خاصه لا عمومها لهم و لغيرهم فراجع.

و قوله: وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى و هو الموت أو القيامه و قوله: «فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِعِبٰادِهِ بَصِيراً» أى فيجازى كلا بما عمل فإنه بصير بهم عليم بأعمالهم لأنهم عباده و كيف يمكن أن يجهل الخالق خلقه و الرب عمل عبده؟

و قد بان بما تقدم أن قوله: «فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِعِبٰادِهِ بَصِيراً» من وضع السبب موضع المسبب الذى هو الجزاء.

سوره یس مکیه و هی ثلاث و ثمانون آیه

اشاره

[سوره یس (۳۶): الآیات ۱ الی ۱۲]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمlt;br/gt;يس (١) وَ اَلْقُرْآنِ اَلْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ (٣) عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴) تَنْزِيلَ اَلْعَزِيزِ اَلرَّحِيمِ (۵) لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أُنْذِرَ آبٰاؤُهُمْ فَهُمْ غٰافِلُونَ (۶) لَقَدْ حَقَّ اَلْقَوْلُ عَلىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (٧) إِنّٰا جَعَلْنٰا فِي أَعْنٰاقِهِمْ أَغْلاٰلاً فَهِيَ إِلَى اَلْأَذْقٰانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَ جَعَلْنٰا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنٰاهُمْ فَهُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ (٩) وَ سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمٰا تُنْذِرُ مَنِ اِتَّبَعَ اَلذِّكْرَ وَ خَشِيَ اَلرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنّٰا نَحْنُ نُحْيِ اَلْمَوْتىٰ وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِي إِمٰامٍ مُبِينٍ (١٢)

ص: ۲۳۷

بیان:

غرض السوره بیان الاصول الثلاثه للـدین فهی تبتـدئ بالنبوه و تصف حال الناس فی قبول الدعوه وردها و أن غایه الدعوه الحقه إحیاء قوم برکوبهم صراط السعاده و تحقیق القول علی آخرین و بعباره أخری تکمیل الناس فی طریقی السعاده و الشقاء.

ثـم تنتقـل السوره الی التوحیـد فتعـد جمله من آیـات الوحـدانیه ثم تنتقـل الی ذکر المعـاد فتـذکر بعث النـاس للجزاء و امتیـاز المجرمین یومئذ من المتقین و تصف ما تؤل الیه حال کل من الفریقین.

ثم ترجع الی ما بدأت فتلخص القول فی الاصول الثلاثه و تستدل علیها و عند ذلک تختتم السوره.

و من غرر الآیـات فیهـا قوله تعـالی: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَـیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ فَسُبْحانَ الَّذِی بِیَـدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَـیْءٍ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ فـالسوره عظیمه الشـأن تجمع أصول الحقـائق و أعراقهـا و قـد ورد من طرق العـامه و الخـاصه أن لکل شـیء قلبا و قلب القرآن یس (۱).

۱- ۱) .رواه الصدوق فی ثواب الاعمال عن ابی عبد اللّه علیه السّلام و السیوطی فی الدر المنثور عن أنس و أبی هریره و معقل بن یسار عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و السوره مکیه بشهاده سیاق آیاتها.

قوله تعالی: یس، وَ الْقُرْآنِ الْحَکِیمِ -الی قوله- فَهُمْ غٰافِلُونَ إقسام منه تعالی بالقرآن الحکیم علی کون النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من المرسلین،و قد وصف القرآن بالحکیم لکونه مستقرا فیه الحکمه و هی حقائق المعارف و ما یتفرع علیها من الشرائع و العبر و المواعظ.

و قوله: إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ مقسم علیه کما تقدم.

و قوله: عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ خبر بعد خبر لقوله: «إِنَّکَ» ،و تنکیر الصراط -کما قیل-للدلاله علی التفخیم و توصیفه بالمستقیم للتوضیح فإن الصراط هو الطریق الواضح المستقیم،و المراد به الطریق الذی یوصل عابریه الی اللّه تعالی أی الی السعاده الإنسانیه التی فیها کمال العبودیه للّه و القرب،و قد تقدم فی تفسیر الفاتحه بعض ما ینفع فی هذا المقام من الکلام.

و قوله: تَنْزِیلَ الْعَزِیزِ الرَّحِیمِ وصف للقرآن مقطوع عن الوصفیه منصوب علی المدح،و المصدر بمعنی المفعول و محصل المعنی أعنی بالقرآن ذاک المنزل الذی أنزله اللّه العزیز الرحیم الذی استقر فیه العزه و الرحمه.

و التذییل بالوصفین للإشاره الی أنه قاهر غیر مقهور و غالب غیر مغلوب فلا یعجزه إعراض المعرضین عن عبودیته و لا یستذله جحود الجاحدین و تکذیب المکذبین،و أنه ذو رحمه واسعه لمن یتبع الذکر و یخشاه بالغیب لا لینتفع بإیمانهم بل لیهدیهم الی ما فیه سعادتهم و کمالهم فهو بعزته و رحمته أرسل الرسول و أنزل علیه القرآن الحکیم لینذر الناس فیحق کلمه العذاب علی بعضهم و یشمل الرحمه منهم آخرین.

و قوله: لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أُنْذِرَ آبٰاؤُهُمْ فَهُمْ غٰافِلُونَ تعلیل للإرسال و التنزیل و «مٰا» نافیه و الجمله صفه لقوله: «قَوْماً» و المعنی إنما أرسلک و أنزل علیک القرآن لتنذر و تخوف قوما لم ینذر آباءهم فهو غافلون.

و المراد بـالقوم إن كـان هو قريش و من يلحق بهم فـالمراد بآبـائهم آبـاؤهم الأدنون فـإن الأبعـدين من آبـائهم كـان فيهم النبى إسـماعيل ذبيـح اللّه،و قـد أرسـل الى العرب رسل آخرون كهود و صالـح و شـعيب عليهم السّلام،و إن كان المراد جميع الناس المعاصـرين نظرا الى عموم الرساله فكـذلك أيضا فآخر رسول معروف بالرساله قبله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو عيسـى عليه السّلام و بينهما زمان الفتره.

و اعلم أن ما ذكرناه فى تركيب الآيات هو الذى يسبق منها الى الفهم و قد أوردوا فى ذلك وجوها أخر بعيده عن الفهم تركناها من أرادها فليراجع المطولات.

قوله تعالى: لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ اللام للقسم أى أقسم لقد ثبت و وجب القوم على أكثرهم،و المراد بثبوت القول عليهم صيرورتهم مصاديق يصدق عليهم القول.

و المراد بـالقول الـذى حق عليهم كلمه العـذاب التى تكلم بها اللّه سـبحانه فى بـدء الخلقه مخاطبا بها إبليس فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص/ ۸۵)و المراد بتبعيه إبليس طـاعته فيمـا يـأمر به بالوسوسه و التسويل بحيث تثبت الغوايه و ترسـخ فى النفس كمـا يشـير اليه قوله تعـالى خطابا لإبليس: إِنَّ عِبٰادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلاّٰ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغٰاوِينَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر۴۳/).

قوله تعـالى: إِنّٰا جَعَلْنٰا فِي أَعْنٰاقِهِمْ أَغْلاٰلاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقٰانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ الأعناق جمع عنق بضـمتين و هو الجيـد،و الاغلال جمع غل بالكسـر و هى على ما قيل ما تشـد به اليـد الى العنق للتعذيب و التشديد،و مقمحون اسم مفعول من الإقماح و هو رفع الرأس كأنهم قـد ملأت الأغلال ما بين صدورهم الى أذقانهم فبقيت رءوسـهم مرفوعه الى السـماء لا يتأتى لهم أن ينكسوها فينظروا الى ما بين أيديهم من الطريق فيعرفوها و يميزوها من غيرها.

و تنكير قوله: «أَغْلاٰلاً» للتفخيم و التهويل.

و الآیه فی مقام التعلیل لقوله السابق: «فَهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ» .

قوله تعالی: وَ جَعَلْنٰا مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَیْنٰاهُمْ فَهُمْ لاٰ یُبْصِرُونَ السد الحاجز بین الشیئین،و قوله: «مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» کنایه عن جمیع الجهات،و الغشی و الغشیان التغطیه یقال:غشیه کذا أی غطاه و أغشی الأمر فلانا أی جعل الأمر یغطیه،و الآیه متممه للتعلیل السابق و قوله: «جَعَلْنٰا» معطوف علی «جَعَلْنٰا» المتقدم.

و عن الرازی فی تفسیره فی معنی التشبیه فی الآیتین أن المانع عن النظر فی الآیات قسمان:

قسم یمنع عن النظر فی الأنفس فشبه ذلک بالغل الذی یجعل صاحبه مقمحا لا یری نفسه و لا یقع بصره علی بدنه،و قسم یمنع عن النظر فی الآفاق فشبه ذلک بالسد المحیط فإن المحاط بالسد لا یقع علی الآفاق فلا یظهر له ما فیها من الآیات فمن ابتلی بهما جرم عن النظر بالکلیه.

و معنی الآیتین أنهم لا یؤمنون لأنا جعلنا فی أعناقهم أغلالا بها أیدیهم علی أعناقهم فهی الی الأذقان فهم مرفوعه رءوسهم باقون علی تلک الحال و جعلنا من جمیع جهاتهم سدا فجعلناه یغطیهم فهم لا یبصرون فلا یهتدون.

ففی الآیتین تمثیل لحالهم فی حرمانهم من الاهتداء الی الإیمان و تحریمه تعالی علیهم ذلک جزاء لکفرهم و غوایتهم و طغیانهم فی ذلک.

و قد تقدم فی قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَسْتَحْیِی أَنْ یَضْرِبَ مَثَلاً (البقره۲۶/)فی الجزء الأول من الکتاب أن ما وقع فی القرآن الکریم من هذه الأوصاف و نظائرها التی وصف بها المؤمنون و الکفار یکشف عن حیاه أخری للإنسان فی باطن هذه الحیاه الدنیویه مستوره عن الحس المادی ستظهر له إذا انکشفت الحقائق بالموت أو البعث.و علیه فالکلام فی أمثال هذه الآیات جار فی مجری الحقیقه دون المجاز کما علیه القوم.

قوله تعالی: وَ سَوٰاءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ عطف

تفسیر و تقریر لما تتضمنه الآیات الثلاث المتقدمه و تلخیص للمراد و تمهید لما یتلوه من قوله:

«إِنَّمٰا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ» الآیه.

قوله تعالی: إِنَّمٰا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ القصر للإفراد،و المراد بالإنذار الإنذار النافع الذی له أثر، و بالذکر القرآن الکریم،و باتباعه تصدیقه و المیل الیه إذا تلیت آیاته،و التعبیر بالماضی للإشاره الی تحقق الوقوع،و المراد بخشیه الرحمن بالغیب خشیته تعالی من وراء الحجاب و قبل انکشاف الحقیقه بالموت أو البعث،و قیل:أی حال غیبته من الناس بخلاف المنافق و هو بعید.

و قد علقت الخشیه علی اسم الرحمن الدال علی صفه الرحمه الجالبه للرجاء للإشعار بأن خشیتهم خوف مشوب برجاء و هو الذی یقر العبد فی مقام العبودیه فلا یأمن و لا یقنط.

و تنکیر«مغفر»و «أَجْرٍ كَرِيمٍ» للتفخیم أی فبشره بمغفره عظیمه من اللّه و أجر کریم لا یقادر قدره و هو الجنه،و الدلیل علی جمیع ما تقدم هو السیاق.

و المعنی:إنما تنذر الإنذار النافع الذی له أثر،من اتبع القرآن إذا تلیت علیه آیاته و ما الیه و خشی الرحمن خشیه مشوبه بالرجاء فبشره بمغفره عظیمه و أجر کریم لا یقادر قدره.

قوله تعالی: إِنّٰا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتىٰ وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِي إِمٰامٍ مُبِينٍ المراد بإحیاء الموتی إحیاؤهم للجزاء.

و المراد بما قدموا الأعمال التی عملوها قبل الوفاه فقدموها علی موتهم،و المراد بآثارهم ما ترکوها لما بعد موتهم من خیر یعمل به کتعلیم علم ینتفع به أو بناء مسجد یصلی فیه أو میضاه یتوضا فیها،أو شر یعمل به کوضع سنه مبتدعه یستن بها أو بناء مفسقه یعصی اللّه فیها.

و المراد بکتابه ما قدموا و آثارهم ثبتها فی صحائف أعمالهم و ضبطها فیها بواسطه کتبه

الأعمال من الملائكه و هـذه الكتابه غير كتابه الأعمال و إحصائها فى الامام المبين الذى هو اللوح المحفوظ و إن توهم بعضـهم أن المراد بكتابه ما قدموا و آثارهم هو إحصاؤها فى الكتاب المبين و ذلك أنه تعالى يثبت فى كلامه كتابا يحصى كل شىء ثم لكـل أمه كتابا يحصـى أعمالهم ثم لكل إنسان كتابا يحصـى أعماله كما قال: وَ لاٰ رَطْبٍ وَ لاٰ يٰابِسٍ إِلاّٰ فِى كِتٰابٍ مُبِينٍ (الأنعام/ ٥٩)،و قال: كُلُّ أُمَّةٍ تُـدْعىٰ إِلىٰ كِتٰابِهَا (الجاثيه٢٨/)،و قـال: وَ كُـلَّ إِنسٰانٍ أَلْزَمْنٰاهُ طٰائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ كِتٰاباً يَلْقٰاهُ مَنْشُوراً (الإسراء١٣/)،و ظاهر الآيه أيضا يقضى بنوع من البينونه بين كتاب الأعمال و الإمام المبين حيث فرق بينهما بالخصوص و العموم و اختلاف التعبير بالكتابه و الإحصاء.

و قوله: وَ كُـلَّ شَـيْءٍ أَحْصَـيْنٰاهُ فِى إِمٰامٍ مُبِينٍ هو اللوح المحفوظ من التغيير الـذى يشـتمل على تفصـيل قضـائه سـبحانه فى خلقه فيحصـى كل شىء و قد ذكر فى كلامه تعالى بأسماء مختلفه كاللوح المحفوظ و ام الكتاب و الكتاب المبين و الإمام المبين كل منها بعنايه خاصه.

و لعـل العنـايه فى تسـميته إماما مبينا أنه لاشـتماله على القضاء المحتوم متبوع للخلق مقتـدى لهم و كتب الأعمال كما سـيأتى فى تفسير سوره الجاثيه مستنسخه منه قال تعالى: هٰذٰا كِتٰابُنٰا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنّٰا كُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثيه٢٩/).

و قيـل:المراد بالإمـام المبين صـحف الأعمـال و ليس بشـىء،و قيل:علمه تعالى و هو كسابقه نعم لو أريـد به العلم الفعلى كان له وجه (١).

[سوره يس (٣۶): الآيات ١٣ الى ٣٢]

وَ اِضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحٰابَ اَلْقَرْيَهِ إِذْ جٰاءَهَا اَلْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنٰا إِلَيْهِمُ اِثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمٰا فَعَزَّزْنٰا بِثٰالِثٍ فَقٰالُوا إِنّٰا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١۴) قٰالُوا مٰا أَنْتُمْ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا وَ مٰا أَنْزَلَ اَلرَّحْمٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ تَكْذِبُونَ (١۵) قٰالُوا رَبُّنٰا يَعْلَمُ إِنّٰا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١۶) وَ مٰا عَلَيْنٰا إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِينُ (١٧) قٰالُوا إِنّٰا تَطَيَّرْنٰا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنّٰا عَذٰابٌ أَلِيمٌ (١٨) قٰالُوا طٰائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَ جٰاءَ مِنْ أَقْصَا اَلْمَدِينَهِ رَجُلٌ يَسْعىٰ قٰالَ يٰا قَوْمِ اِتَّبِعُوا اَلْمُرْسَلِينَ (٢٠) اِتَّبِعُوا مَنْ لاٰ يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَ مٰا لِيَ لاٰ أَعْبُدُ اَلَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ اَلرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لاٰ تُغْنِ عَنِّي شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لاٰ يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (٢۴) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢۵) قِيلَ اُدْخُلِ اَلْجَنَّهَ قٰالَ يٰا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢۶) بِمٰا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ اَلْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ مٰا كُنّٰا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كٰانَتْ إِلاّٰ صَيْحَهً وٰاحِدَهً فَإِذٰا هُمْ خٰامِدُونَ (٢٩) يٰا حَسْرَهً عَلَى اَلْعِبٰادِ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٠) أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنٰا قَبْلَهُمْ مِنَ اَلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاٰ يَرْجِعُونَ (٣١) وَ إِنْ كُلٌّ لَمّٰا جَمِيعٌ لَدَيْنٰا مُحْضَرُونَ (٣٢)

١- ١) .يس ١-١٢:بحث روائى فى الذين تآمروا على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليقتلوه.

بیان:

قوله تعالی: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْیَهِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ المثل کلام أو قصه یمثل به مقصد من المقاصد فیتضح للمخاطب،و لما کانت قصتهم توضح ما تقدم من الوعد و الوعید أمر نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یضربها مثلا لهم.

و الظاهر أن «مَثَلًا» مفعول ثان لقوله: «اضْرِبْ» و مفعوله الأول قوله: «أَصْحابَ الْقَرْیَهِ» و المعنی و اضرب لهم أصحاب القریه و حالهم هذه الحال مثلا و قد قدم المفعول الثانی تحرزا عن الفصل المخل.

قوله تعالی: إِذْ أَرْسَلْنا إِلَیْهِمُ اثْنَیْنِ فَکَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنّا إِلَیْکُمْ مُرْسَلُونَ التعزیز من العزه بمعنی القوه و المنعه،و قوله: «إِذْ أَرْسَلْنا إِلَیْهِمُ» بیان تفصیلی بقوله: «إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ» .

و المعنی:و اضرب لهم مثلا أصحاب القریه و هم فی زمان أرسلنا الیهم رسولین اثنین من

ص: ۲۴۵

رسلنا فكذبوهما أی الرسولین فقویناهما برسول ثالث فقالت الرسل إنا الیكم مرسلون من جانب اللّه.

قوله تعالی: قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَ مَا أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَیْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَكْذِبُونَ كانوا یرون أن البشر لا ینال النبوه و الوحی،و یستدلون علی ذلك بأنفسهم حیث لا یجدون من أنفسهم شیئا من ذاك القبیل فیسرون الحكم الی نفوس الأنبیاء مستندین الی أن حكم الأمثال واحد.

و علی هذا التقریر یكون معنی قوله: «وَ مَا أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَیْءٍ» لم ینزل اللّه وحیا و لو نزل شیئا علی بشر لنلناه من نفوسنا كما تدعون أنتم ذلك،و تعبیرهم عن اللّه سبحانه بالرحمن إنما هو لكونهم كسائر الوثنیین معترفین باللّه سبحانه و اتصافه بكرائم الصفات (۱)كالخلق و الرحمه و الملك غیر أنهم یرون أنه فوض أمر التدبیر الی مقربی خلقه كالملائكه الكرام فهم الأرباب المدبرون و الآلهه المعبودون،و أما اللّه عز اسمه فهو رب الأرباب و إله الآلهه.

و من الممكن أن یكون ذكر اسم الرحمن فی الحكایه دون المحكی فیكون التعبیر به لحلمه و رحمته تعالی قبال إنكارهم و تكذیبهم للحق الصریح.

و قوله: إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَكْذِبُونَ بمنزله النتیجه لصدر الآیه،و محصل قولهم أنكم بشر مثلنا و لا نجد نحن علی بشریتنا فی نفوسنا شیئا من الوحی النازل الذی تدعونه و أنتم مثلنا فما أنزل الرحمن شیئا من الوحی فدعواكم كاذبه و إذ لیس لكم إلا هذه الدعوی فإن أنتم إلا تكذبون.

و یظهر بما تقدم نكته الحصر فی قوله: «إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَكْذِبُونَ» و كذا الوجه فی نفی الفعل و لم یقل:إن أنتم إلا كاذبون لأن المراد نفی الفعل فی الحال دون الاستمرار و الاستقبال.

۱- ۱) .لكنهم مختلفون فی تفسیرها و الصابئون یفسرونها بالنفی فمعنی العالم و القادر عندهم من لیس بجاهل و عاجز.

قوله تعالى: قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ، وَ مَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ لم يحك اللّه سبحانه عن هؤلاء الرسل جوابا عن حجه قومهم،ما أنتم إلا بشر مثلنا، الخ.كما نقل عن الرسل المبعوثين الى الامم الدارجه لما احتجت أممهم بمثل هذه الحجه «إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا» فردتها رسلهم بقولهم: إِنْ نَحْنُ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ (إبراهيم/١١)و قد مر تقريره.

بل حكى عنهم أنهم ذكروا للقوم أنهم مرسلون اليهم مأمورون بتبليغ الرساله ليس عليهم إلا ذلك و أنهم فى غنى عن تصديقهم لهم و إيمانهم بهم و يكفيهم فيه أن يعلم ربهم بأنهم مرسلون لا حاجه لهم الى أزيد من ذلك.

فقوله: قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ إخبار عن رسالتهم و قد أكد الكلام بإن المشدده المكسوره و اللام،و الاستشهاد بعلم ربهم بذلك،و قوله: «رَبُّنَا يَعْلَمُ» معترض بمنزله القسم،و المعنى إنا مرسلون اليكم صادقون فى دعوى الرساله و يكفينا فى ذلكم علم ربنا الذى أرسلنا بها و لا حاجه لنا فيه الى تصديقكم لنا و لا نفع لنا فيه من أجر و نحوه و لا يهمنا تحصيله منكم بل الذى يهمنا هو تبليغ الرساله و إتمام الحجه.

و قوله: وَ مَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ البلاغ هو التبليغ و المراد به تبليغ الرساله أى لم يؤمر و لم نكلف إلا بتبليغ الرساله و إتمام الحجه.

قوله تعالى: قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ القائلون أصحاب القريه و المخاطبون هم الرسل،و التطير هو التشأم و قولهم:

«لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا» الخ؛تهديد منهم للرسل.

و المعنى:قالت أصحاب القريه لرسلهم:إنا تشأ منا بكم و نقسم لئن لم تنتهوا عن التبليغ و لم تكفوا عن الدعوه لنرجمنكم بالحجاره و ليصلن اليكم و ليقعن بكم منا عذاب أليم.

قوله تعالى: قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ

القائلون هم الرسل يخاطبون به أصحاب القريه.

و قوله: طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ الطائر فى الأصل هو الطير و كان يتشاءم به ثم توسع و استعمل فى كل ما يتشاءم به،و ربما يستعمل فيما يستقبل الإنسان من الحوادث،و ربما يستعمل فى البخت الشقى الذى هو أمر موهوم يرونه مبدأ لشقاء الإنسان و حرمانه من كل خير.

و كيف كان فقوله: «طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ» ظاهر معناه أن الذى ينبغى أن تتشأموا به هو معكم و هو حاله إعراضكم عن الحق الذى هو التوحيد و اقبالكم الى الباطل الذى هو الشرك.

و قيل:المعنى طائركم أى حظكم و نصيبكم من الخير و الشر معكم من أفعالكم إن خيرا فخير و إن شرا فشر،هذا و هو أخذ الطائر بالمعنى الثانى لكن قوله بعد: «أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» أنسب بالنسبه الى المعنى الأولى.

و قوله: أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ استفهام توبيخى و المراد بالتذكير تذكيرهم بالحق من وحدانيته تعالى و رجوع الكل اليه و نحوهما و جزاء الشرط محذوف فى الكلام تلويحا الى أنه مما لا ينبغى أن يذكر أو يتفوه به و التقدير أ إن ذكرتم بالحق قابلتموه بمثل هذا الجحود الشفيع و الصنيع الفظيع من التطير و التوعد.

و قوله: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ أى مجاوزون للحد فى المعصيه و هو إضراب عما تقدم و المعنى بل السبب الأصلى فى جحودكم و تكذيبكم للحق أنكم قوم تستمرون على الإسراف و مجاوزه الحد.

قوله تعالى: وَ جَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَهِ رَجُلٌ يَسْعىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ أقصى المدينه أبعد مواضعها بالنسبه الى مبدإ مفروض،و قد بدلت القريه فى أول الكلام مدينه هنا للدلاله على عظمها و السعى هو الإسراع فى المشى.

و وقع نظير هذا التعبير فى قصه موسى و القبطى و فيها: وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَهِ

يَسْعى فقدم «رَجُلٌ» هناك و أخر هاهنا و لعل النكته فى ذلك أن الاهتمام هناك بمجىء الرجل و إخباره موسى بائتمار الملإ لقتله فقدم الرجل ثم أشير الى اهتمام الرجل نفسه بإيصال الخبر و إبلاغه فجىء بقوله: «يَسْعى» حالا مؤخرا بخلاف ما هاهنا فالاهتمام بمجيئه من أقصى المدينه ليعلم أن لا تواطؤ بينه و بين الرسل فى أمر الدعوه فقدم «مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَهِ» و أخر الرجل و سعيه.

قوله تعالى: اِتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ بيان لقوله: «اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ» و فى وضع قوله: «مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» فى هذه الآيه موضع قوله:

«الْمُرْسَلِينَ» فى الآيه السابقه إشعار بالعليه و بيانها أن عدم جواز اتباع قائل فى قوله إنما يكون لأحد أمرين:إما لكون قوله ضلالا و القائل به ضالا و لا يجوز اتباع الضال فى ضلاله،و إما لأن القول و إن كان حقا و الحق واجب الاتباع لكن لقائله غرض فاسد يريد أن يتوسل اليه بكلمه الحق كاقتناء المال و اكتساب الجاه و المقام و نحو ذلك،و أما إذا كان القول حقا و كان القائل بريئا من الغرض الفاسد منزها من الكيد و المكر و الخيانه كان من الواجب اتباعه فى قوله،و هؤلاء الرسل مهتدون فى قولهم:لا تعبدوا إلا اللّه،و هم لا يريدون منكم أجرا من مال أو جاه فمن الواجب عليكم أن تتبعوهم فى قولهم.

أما أنهم مهتدون فلقيام الحجه على صدق ما يدعون اليه من التوحيد و كونه حقا،و الحجه هى قوله: «وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ» الى تمام الآيتين.

و أما أنهم لا يريدون منكم أجرا فلما دل عليه قولهم: «رَبُّنا يَعْلَمُ إِنّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» و قد تقدم تقريره.

و بهذا البيان يتأيد ما قدمناه من كون قولهم: «رَبُّنا يَعْلَمُ إِنّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» مسوقا لنفى إرادتهم من القوم أجرا أو غير ذلك.

قوله تعالى: وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِی فَطَرَنِی وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ

آلِهَةً- الى قوله- وَ لاٰ يُنْقِذُونِ شـرع فى استفراغ الحجه على التوحيد و نفى الآلهه فى آيتين و اختار لذلک سياق التكلم وحده إلا فى جمله اعترض بهـا فى خلالـل الكلام و هى قوله: «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» و ذلک بإجراء الحكم فى نفسه بما أنه إنسان أوجـده اللّه و فطره حتى يجرى فى كل إنسان هو مثله و الأفراد أمثال فقوله: «وَ مٰا لِيَ لاٰ أَعْبُدُ» الـخ؛فى معنى و ما للإنسان لا يعبـد،الـخ؛ أيتخذ الإنسان من دونه آلهه،الخ.

و قـد عبر عنه تعـالى بقوله: «الَّذِی فَطَرَنِی» للإشـعار بـالعليه فـإن فطره تعـالى للإنسان و إيجاده له بعـد العـدم لازمه رجوع كل ما للإنسـان من ذات و صـفات و أفعـال اليه تعـالى و قيـامه به و ملكه له فليس للإنسان إلا العبوديه محضه فعلى الإنسان أن ينصـب نفسه فى مقام العبوديه و يظهرها بالنسبه اليه تعالى و هذا هو العباده فعليه أن يعبده تعالى لأنه أهل لها.

و هذا هو الذى أشرنا اليه آنفا أن الرجل كان يعبد اللّه بالإخلاص له لا طمعا فى جنه و لا خوفا من نار بل لأنه أهل للعباده.

و إذ كـان الإيمـان به تعـالى و عبـادته هكـذا أمرا لاـ ينـاله عامه الناس فإن الأكثرين منهم إنما يعبـدون خوفا أو طمعا أو لكليهما التفت الرجل بعـد بيان حال نفسه الى القوم فقال: «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» يريـد به إنـذارهم بيوم الرجوع و أنه تعالى سيحاسـبهم على ما عملوا فيجازيهم بمساوى أعمالهم فقوله: «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» كالمعترضه الخارجه عن السياق أو هى هى.

ثم إن الآيتين قائمتان على إبطال ما احتج به الوثنيه و بنوا على ذلک عباده الأصنام و أربابها.

توضـيح ذلک أنهم قالوا:إن اللّه سبحانه أجل من أن يحيط به حس أو خيال أو عقل لا يناله شیء من القوى الإدراكيه فلا يمكن التوجه اليه بالعباده فسبيل العباده أن نتوجه الى مقربى حضرته و الأقوياء من خلقه كالملائكه الكرام و الجن و القديسين من البشر حتى يكونوا شفعاء لنا عند اللّه فى إيصال الخيرات و دفع الشرور و المكاره.

و الجواب عن أولى الحجتين بما حاصله أن الإنسان و إن كان لا يحيط علما بالذات المتعاليه لكنه يعرفه تعالى بصفاته الخاصه به مثل كونه فاطرا له موجدا إياه فله أن يتوجه اليه من طريق هذه الصفات و إنكار إمكانه مكابره،و هذا الجواب هو الذى أشار اليه بقوله: «وَ مٰا لِيَ لاٰ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي» .

و عن الثانيه أن هؤلاء الآلهه إن كانت لهم شفاعه كانت مما أفاضه اللّه عليهم و اللّه سبحانه لا يعطيهم ذلك إلا فيما لا تتعلق به منه إراده حاتمه و لازمه أن شفاعتهم فيما أذن اللّه لهم فيه كما قال:

مٰا مِنْ شَفِيعٍ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ (يونس٣/)أما إذا أراد اللّه شيئا إراده حتم فلا تنفع شفاعتهم شيئا فى المنع عن نفوذها فاتخاذهم آلهه و عدمه سواء فى عدم التأثير لجلب خير أو دفع شر،و الى ذلك أشار بقوله: «أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لاٰ تُغْنِ عَنِّي شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لاٰ يُنْقِذُونِ» .

و تعبيره عنه تعالى بالرحمن إشاره الى سعه رحمته و كثرتها و أن النعم كلها من عنده و تدبير الخير و الشر اليه و يتحصل من هنا برهان آخر على وحدانيته تعالى فى الربوبيه،إذ لما كان جميع النعم و كذا النظام الجارى فيها،من رحمته و قائمه به من غير استقلال فى شيء منها كان المستقل بالتدبير هو تعالى حتى أن تدبير الملائكه لو فرض تدبيرهم لشيء من رحمته تدبيره تعالى و كانت الربوبيه له تعالى وحده و كذا الالوهيه.

قوله تعالى: إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ تسجيل للضلال على اتخاذ الآلهه.

قوله تعالى: إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ من كلام الرجل خطابا للرسل و قوله:

«فَاسْمَعُونِ» كنايه عن الشهاده بالتحمل،و قوله: «إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ» الخ؛تجديد الشهاده بالحق و تأكيد للإيمان فإن ظاهر السياق أنه إنما قال: «إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ» بعد محاجته خطابا للرسل ليستشهدهم على إيمانه و ليؤيدهم بإيمانهم بمرأى من القوم و مسمع.

قوله تعالى: قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قٰالَ يٰا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمٰا غَفَرَ لِي

رَبِّی وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُکْرَمِینَ الخطاب للرجل و هو-کما یفیده السیاق-یلوح الی أن القوم قتلوه فنودی من ساحه العزه أن ادخل الجنه کما یؤیده قوله بعد: «وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلیٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ» الخ؛فوضع قوله: «قِیلَ ادْخُلِ الْجَنَّهَ» موضع الإخبار عن قتلهم إیاه إشاره الی أنه لم یکن بین قتله بأیدیهم و بین أمره بدخول الجنه أی فصل و انفکاک کأن قتله بأیدهم هو أمره بدخول الجنه.

و المراد بالجنه علی هذا جنه البرزخ دون جنه الآخره،و قول بعضهم:إن المراد بها جنه الآخره و المعنی سیقال له:ادخل الجنه.یوم القیامه و التعبیر بالماضی لتحقق الوقوع تحکم من غیر دلیل کما قیل:إن اللّه رفعه الی السماء فقیل له ادخل الجنه فهو حی یتنعم فیها الی قیام السعه،و هو تحکم کسابقه.

و قوله: قٰالَ یٰا لَیْتَ قَوْمِی یَعْلَمُونَ، بِمٰا غَفَرَ لِی رَبِّی وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُکْرَمِینَ استئناف کسابقه کالجواب عن سؤال مقدر کأنه قیل:ما ذا کان بعد تأییده للرسل؟فقیل «قِیلَ ادْخُلِ الْجَنَّهَ» ثم قیل:فما ذا کان بعد؟فقیل «قٰالَ یٰا لَیْتَ قَوْمِی یَعْلَمُونَ» الخ؛و هو نصح منه لقومه میتا کما کان ینصحهم حیا.

و ما فی قوله: «بِمٰا غَفَرَ لِی» الخ،مصدریه،و قوله: «وَ جَعَلَنِی» عطف علی «غَفَرَ» و المعنی بمغفره ربی لی و جعله إیای من المکرمین.

و موهبه الإکرام و إن کانت وسیعه ینالها کثیرون کالإکرام بالنعمه کما فی قوله: فَأَمَّا الْإِنْسٰانُ إِذٰا مَا ابْتَلاٰهُ رَبُّهُ فَأَکْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَیَقُولُ رَبِّی أَکْرَمَنِ (الفجر/۱۵)،و قوله: إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاکُمْ (الحجرات/۱۳)فإن کرامه العبد عند اللّه إکرام منه له لکنه لم یعد من المکرمین بوصف الاطلاق إلا طائفتین من خلقه:الملائکه الکرام کما فی قوله: بَلْ عِبٰادٌ مُکْرَمُونَ لاٰ یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ (الأنبیاء/۲۷)،و الکاملین فی إیمانهم من المؤمنین سواء کانوا من المخلصین بکسر اللام کما فی قوله: أُولٰئِکَ فِی جَنّٰاتٍ مُکْرَمُونَ

(المعارج۳۵/)،أو من المخلصين بفتح اللام كما فى قوله: إِلاّ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ -الى أن قال- وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (الصافات۴۲/).

و الآيه من أدله وجود البرزخ.

قوله تعالى: وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ مٰا كُنّٰا مُنْزِلِينَ الضميران للرجل،و «مِنْ بَعْدِهِ» أى من بعد قتله،و «مِنْ» الاولى و الثالثه لابتداء الغايه،و الثانيه مزيده لتأكيد النفى.

و الآيه توطئه للآيه التاليه،و هى مسوقه لبيان هو ان أمر القوم و الانتقام منهم بإهلاكهم على اللّه سبحانه و أنه لا يحتاج فى إهلاكهم الى عده و عده حتى ينزل من السماء جندا من الملائكه يقاتلونهم فيهلكونهم فلم يفعل ذلك فيهم و لا فعل ذلك فى إهلاك من أهلك من الامم الماضين و إنما أهلكهم بصيحه واحده تقضى عليهم.

قوله تعالى: إِنْ كٰانَتْ إِلاّ صَيْحَةً وٰاحِدَةً فَإِذٰا هُمْ خٰامِدُونَ أى ما كان الأمر الذى كان سبب إهلاكهم بمشيتنا إلا صيحه واحده،و تأنيث الفعل لتأنيث الخبر و تنكير «صَيْحَةً» و توصيفها بالوحده للاستحقار،و الخمود السكون،و استئناف الجمله لكونها كالجواب لسؤال مقدر كأنه قيل:فما ذا كان سبب إهلاكهم؟فقيل:إن كانت إلا صيحه واحده.

و المعنى:كان سبب هلاكهم أيسر أمر و هى صيحه واحده ففاجأهم السكون فصاروا ساكنين لا يسمع لهم حس و هم عن آخرهم موتى لا يتحركون.

قوله تعالى: يٰا حَسْرَةً عَلَى الْعِبٰادِ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى يا ندامه العباد و نداء الحسره عليهم أبلغ من إثباتها لهم،و سبب الحسره ما يتضمنه قوله: «مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ» الخ.

و من هذا السياق يستفاد أن المراد بالعباد عامه الناس و تتأكد الحسره بكونهم عبادا فان رد العبد دعوه مولاه و تمرده عنه أشنع من رد غيره نصيحه الناصح.

قوله تعالى: أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنٰا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاٰ يَرْجِعُونَ توبيخ لاولئك الذين نودى عليهم بالحسره،و «مِنَ الْقُرُونِ» بيان لكم،و القرون جمع قرن و هو أهل عصر واحد.

و قوله: أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاٰ يَرْجِعُونَ بيان لقوله: «كَمْ أَهْلَكْنٰا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ» ضمير الجمع الأول للقرون و الثانى و الثالث للعباد.

و المعنى:أ لم يعتبروا بكثره المهلكين بأمر اللّه من القرون الماضيه و أنهم مأخوذون بأخذ إلهى لا يتمكنون من الرجوع الى ما كانوا يترفون فيه؟

و للقوم فى مراجع الضمائر و فى معنى الآيه أقوال أخر بعيده عن الفهم تركنا إيرادها.

قوله تعالى: وَ إِنْ كُلٌّ لَمّٰا جَمِيعٌ لَدَيْنٰا مُحْضَرُونَ لفظه «إِنْ» حرف نفى و «كُلٌّ» مبتدإ تنويه عوض عن المضاف اليه،و «لَمّٰا» بمعنى إلا،و جميع بمعنى مجموع،و لدينا ظرف متعلق به،و محضرون خبر بعد خبر و هو جميع،و احتمل بعضهم أن يكون صفه لجميع.

و المعنى:و ما كلهم إلا مجموعون لدينا محضرون للحساب و الجزاء يوم القيامه فالآيه فى معنى قوله: ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّٰاسُ وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (هود١٠٣/) (١).

[سوره يس (٣۶): الآيات ٣٣ الى ۴٧]

وَ آيَةٌ لَهُمُ اَلْأَرْضُ اَلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنٰاهٰا وَ أَخْرَجْنٰا مِنْهٰا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَ جَعَلْنٰا فِيهٰا جَنّٰاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنٰابٍ وَ فَجَّرْنٰا فِيهٰا مِنَ اَلْعُيُونِ (٣۴) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مٰا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلاٰ يَشْكُرُونَ (٣۵) سُبْحٰانَ اَلَّذِي خَلَقَ اَلْأَزْوٰاجَ كُلَّهٰا مِمّٰا تُنْبِتُ اَلْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّٰا لاٰ يَعْلَمُونَ (٣۶) وَ آيَةٌ لَهُمُ اَللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ اَلنَّهٰارَ فَإِذٰا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَ اَلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهٰا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ اَلْعَزِيزِ اَلْعَلِيمِ (٣٨) وَ اَلْقَمَرَ قَدَّرْنٰاهُ مَنٰازِلَ حَتّٰى عٰادَ كَالْعُرْجُونِ اَلْقَدِيمِ (٣٩) لاَ اَلشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهٰا أَنْ تُدْرِكَ اَلْقَمَرَ وَ لاَ اَللَّيْلُ سٰابِقُ اَلنَّهٰارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (۴٠) وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنّٰا حَمَلْنٰا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي اَلْفُلْكِ اَلْمَشْحُونِ (۴١) وَ خَلَقْنٰا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مٰا يَرْكَبُونَ (۴٢) وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاٰ صَرِيخَ لَهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُنْقَذُونَ (۴٣) إِلاّٰ رَحْمَةً مِنّٰا وَ مَتٰاعاً إِلىٰ حِينٍ (۴۴) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ اِتَّقُوا مٰا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مٰا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۴۵) وَ مٰا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِمْ إِلاّٰ كٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ (۴۶) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقَكُمُ اَللّٰهُ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشٰاءُ اَللّٰهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۴٧)

١- ١) .يس ١٣-٣٢:بحث روائى فى رسولين من الحواريين اللذين بعثهما عيسى عليه السّلام الى مدينه انطاكيه.

بیان:

قوله تعالی: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنٰاهٰا وَ أَخْرَجْنٰا مِنْهٰا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ یـذکر سبحانه فی الآیه و اللتین بعدها آیه من آیات الربوبیه و هی تدبیر أمر أرزاق الناس و تغذیتهم من أثمار النبات من الحبوب و التمر و العنب و غیرها.

فقوله: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنٰاهٰا و إن کان ظاهره أن الآیه هی الأرض إلا أن الجملتین توطئتان لقوله: «وَ أَخْرَجْنٰا مِنْهٰا حَبًّا» الـخ؛و مسوقتان للإشاره الی أن هـذه الأغذیه النباتیه من آثار نفخ الحیاه فی الأرض المیته و تبدیلها حبا و ثمرا یأکلون من ذلک فالآیه بنظر هی الأرض المیته من حیث ظهور هذه الخواص فیها و تمام تدبیر أرزاق الناس بها.

و قوله: وَ أَخْرَجْنٰا مِنْهٰا حَبًّا أی و أخرجنا من الأرض بإنبات النبات حبا کالحنطه و الشعیر و الأرز و سائر البقولات.

و قوله: فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ تفریع علی إخراج الحب و بالأکل یتم التدبیر،و ضمیر «فَمِنْهُ» للحب.

قوله تعـالی: وَ جَعَلْنٰا فِيهٰا جَنّٰاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنٰابٍ وَ فَجَّرْنٰا فِيهٰا مِنَ الْعُيُونِ قال الراغب:الجنه کل بسـتان ذی شـجر یستر بأشـجاره الأرض انتهی.و النخیل جمع نخل و هو معروف،و الأعناب جمع عنب یطلق علی الشجره و هی الکرم و علی الثمره.

و قـال الراغب:العین الجـارحه-الی أن قـال-و یسـتعار العین لمعـان هی موجوده فی الجارحه بنظرات مختلفه-الی أن قال-و یقال لمنبع الماء عین تشبیها بها لما فیها من الماء انتهی، و التفجیر فی الأرض شقها لإخراج المیاه،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مٰا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلاٰ يَشْكُرُونَ اللام

لتعليل ما ذكر فى الآيه السابقه أى جعلنا فيها جنات و فجرنا فيها العيون بشقها ليأكل الناس من ثمره.

و قوله: «مِنْ ثَمَرِهِ» قيل:الضمير للمجعول من الجنات و لذا أفرد و ذكر و لم يقل:من ثمرها أى من ثمر الجنات،أو من ثمرها أى من ثمر النخيل و الأعناب.

و قوله: وَ مٰا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ العمل هو الفعل و الفرق بينهما-على ما ذكره الراغب- أن اكثر ما يستعمل العمل فى الفعل المقارن للقصد و الإراده،و لذلك يشذ استعماله فى الحيوان و الجماد،و لذلك أيضا يتصف العمل بالصلاح و خلافه.فيقال عمل صالح و عمل طالح و لا يتصف بهما مطلق الفعل.

و «مٰا» فى وَ مٰا عَمِلَتْهُ نافيه و المعنى و لم يعمل الثمر أيديهم حتى يشاركونا فى تدبير الأرزاق بل هو مما اختصصنا بخلقه و تتميم التدبير به من دون أن تستعين بهم فما بالهم لا يشكرون.

و يؤيد هذا المعنى قوله تعالى فى أواخر السوره و هو بمتن عليهم بخلق الأنعام لتدبير أمر رزقهم و حياتهم: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا خَلَقْنٰا لَهُمْ مِمّٰا عَمِلَتْ أَيْدِينٰا أَنْعٰاماً -الى أن قال- وَ مِنْهٰا يَأْكُلُونَ وَ لَهُمْ فِيهٰا مَنٰافِعُ وَ مَشٰارِبُ أَ فَلاٰ يَشْكُرُونَ .

و قوله: أَ فَلاٰ يَشْكُرُونَ توبيخ و استقباح لعدم شكره،و شكره تعالى منهم على هذا التدبير إظهارهم جميل نعمه بذكره قولا و فعلا أى إظهارهم أنهم عباد له مدبرون بتدبيره و هو العباده فشكره تعالى هو الاعتراف بربوبيته و اتخاذه إلها معبودا.

قوله تعالى: سُبْحٰانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوٰاجَ كُلَّهٰا مِمّٰا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّٰا لاٰ يَعْلَمُونَ إنشاء لتنزيه تعالى،لما ذكر عدم شكرهم له على ما خلق لهم من أنواع النبات و رزقهم من الحبوب و الأثمار،و إنما عمل ذلك بتزويج بعض النبات بعضا كما قال: وَ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (ق/٧)أشار الى ما هو أعظم و أوسع من خلق

أزواج النبات و هو خلق الأزواج كلها و تنظيم العالم المشهود باستيلاد كل شيء من فاعل و منفعل قبله هما أبواه كالذكر و الانثى من الإنسان و الحيوان و النبات،و كل فاعل و منفعل يتلاقيان فينتجان بتلاقيهما أمرا ثالثا،أشار تعالى الى ذلك فنزه نفسه بقوله: «سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها» الخ؛فقوله: «سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها» إنشاء تسبيح على ما يعطيه السياق لا إخبار.

و قوله: مِمّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ هو و ما بعده بيان للأزواج و الذى تنبت الأرض هو النبات و لا يبعد شموله الحيوان و قد قال تعالى فى الإنسان و هو من أنواع الحيوان: وَ اللّهُ أَنْبَتَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (نوح١٧/)و يؤيد ذلك أن ظاهر سياق البيان استيعابه للمبين مع عدم ذكر الحيوان فى عداد الأزواج.

و قوله: وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أى الناس،و قوله: «وَ مِمّا لا یَعْلَمُونَ» و هو الذى يجهله الإنسان من الخليقه أو يجهل كيفيه ظهوره أو ظهور الكثره فيه.

قال الراغب:يقال لكل واحد من القرينين من الذكر و الانثى فى الحيوانات المتزاوجه:

زوج،و لكل قرينين فيها و فى غيرها:زوج كالخف و النعل،و لكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا:زوج،قال:و قوله: «خَلَقْنا زَوْجَیْنِ» فبين أن كل ما فى العالم زوج من حيث إن له ضدا ما أو مثلا ما أو تركيبا ما بل لا ينفك بوجه من تركيب.انتهى.

فزوجيه الزوج هى كونه مفتقرا فى تحققه الى تألف و تركب و لذلك يقال لكل واحد من القرينين من حيث هما قرينان:زوج لافتقاره الى قرينه،و كذا يقال لمجموع القرينين:زوج لافتقاره فى تحققه زوجا الى التألف و التركب فكون الأشياء أزواجا مقارنه بعضها بعضا لإنتاج ثالث أو كونه مولدا من تألف اثنين.

قوله تعالى: آیَةٌ لَهُمُ اللَّیْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ آيه أخرى من آيات الربوبيه الداله على وقوع التدبير العام السماوى للعالم الإنسانى مذكوره فى

أربع آيات.

و لا شك أن الآيه تشير الى مفاجأه الليل عقيب ذهاب النهار،و السلخ فى الآيه بمعنى الإخراج و لذلك عدى بمن و لو كان بمعنى النزع كما فى قولنا:سلخت الإهاب عن الشاه تعين تعديه بعن دون من.

و يؤيد ذلك أنه تعالى عبر فى مواضع من كلامه عن ورود كل من الليل و النهار عقيب الآخر بإيلاجه فيه فقال فى مواضع من كلامه: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهٰارِ وَ يُولِجُ النَّهٰارَ فِي اللَّيْلِ (الحج ٦١/)فإذا كان ورود النهار بعد الليل إيلاجا للنهار فى الليل اعتبارا كان مفاجأه الليل بعد النهار إخراجا للنهار من الليل اعتبارا.

كأن الليل أطبق عليهم و أحاطت بهم ظلمته ثم ولج فيه النهار فوسعهم نوره و ضياؤه ثم خرج منه ففاجأهم الليل ثانيا بانطباق الظلام و إحاطته بما أضاءه النهار ففى الكلام نوع من الاستعاره بالكنايه.

و لعل فيما ذكرناه من الوجه كفايه عما أطنبوا فيه من البحث فى معنى سلخ النهار من الليل ثم مفاجأه الليل.

قوله تعالى: وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهٰا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ جريها حركتها و قوله: «لِمُسْتَقَرٍّ لَهٰا» اللام بمعنى الى أو للغايه،و المستقر مصدر ميمى أو اسم زمان أو مكان،و المعنى أنها تتحرك نحو مستقرها أو حتى تنتهى الى مستقرها اى استقرارها و سكونها بانقضاء أجلها أو زمن استقرارها أو محله.

و أما جريها و هو حركتها فظاهر النظر الحسى يثبت لها حركه دوريه حول الأرض لكن الأبحاث العلميه تقضى بالعكس و تكشف أن لها مع سياراتها حركه انتقاليه نحو النسر الواقع.

و كيف كان فمحصل المعنى أن الشمس لا تزال تجرى ما دام النظام الدنيوى على حاله حتى تستقر و تسكن بانقضاء أجلها فتخرب الدنيا و يبطل هذا النظام،و هذا المعنى يرجع

بالمآل الی معنی القراءه المنسوبه الی أهل البیت و غیرهم «وَ الشَّمْسُ تَجْرِی لِمُسْتَقَرٍّ لَهٰا» کما قیل.

و أما حمل جریها علی حرکتها الوضعیه حول مرکزها فهو خلاف ظاهر الجری الدال علی الانتقال من مکان الی مکان.

و قوله: ذٰلِکَ تَقْدِیرُ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ أی الجری المذکور تقدیر و تدبیر ممن لا یغلبه غالب فی إرادته و لا یجهل جهات الصلاح فی أفعاله.

قوله تعالی: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْنٰاهُ مَنٰازِلَ حَتّٰی عٰادَ کَالْعُرْجُونِ الْقَدِیمِ المنازل جمع منزل اسم مکان من النزول و الظاهر أن المراد به المنازل الثمانیه و العشرون التی تقطعها القمر فی کل ثمانیه و عشرین یوما و لیله تقریبا.

و العرجون عود عذق النخله من بین الشمراخ الی منبته و هو عود أصفر مقوس یشبه الهلال،و القدیم العتیق.

و قد اختلفت الأنظار فی معنی الآیه للاختلاف فی ترکیبها،و أقرب التقدیرات من الفهم قول من قال:إن التقدیر و القمر قدرناه ذا منازل أو قدرنا له منازل حتی عاد هلالا یشبه العرجون العتیق المصفر لونه.

تشیر الآیه الی اختلاف مناظر القمر بالنسبه الی أهل الأرض فإن نوره مکتسب من الشمس یستنیر بها نصف کرته تقریبا و ما یقرب من النصف الآخر غیر المسامت للشمس مظلم ثم یتغیر موضع الاستناره و لا یزال کذلک حتی یعود الی الوضع الأول و یعرض ذلک أن یظهر لأهل الأرض فی صوره هلال ثم لا یزال ینبسط علیه النور حتی یتدبر ثم لا یزال ینقص حتی یعود الی ما کان علیه أوله.

و لاختلاف صوره آثار بارزه فی البر و البحر و حیاه الناس علی ما بین فی الأبحاث المربوطه.

فالآیه الکریمه تذکر من آیه القمر أحواله الطارئه له بالنسبه الی الأرض و أهلها دون حاله فی نفسه و دون حاله بالنسبه الی الشمس فقط.

و من هنا لا یبعد أن یقال فی قوله تعالی: «وَ الشَّمْسُ تَجْرِی لِمُسْتَقَرٍّ لَهٰا» أن المراد بقوله:

«تَجْرِی» الإشاره الی ما یعطیه ظاهر الحس من حرکتها الیومیه و الفصلیه و السنویه و هی حالها بالنسبه الینا،و بقوله: «لِمُسْتَقَرٍّ لَهٰا» حالها فی نفسها و هی سکونها بالنسبه الی سیاراتها المتحرکه حولها کأنه قیل:و آیه لهم أن الشمس علی استقرارها تجری علیهم و قد دبر العزیز العلیم بذلک کینونه العالم الأرضی و حیاه أهله و اللّه أعلم.

قوله تعالی: لاَ الشَّمْسُ یَنْبَغِی لَهٰا أَنْ تُدْرِکَ الْقَمَرَ وَ لاَ اللَّیْلُ سٰابِقُ النَّهٰارِ وَ کُلٌّ فِی فَلَکٍ یَسْبَحُونَ لفظه ینبغی تدل علی الترجح و نفی ترجح الإدراک من الشمس نفی وقوعه منها،و المراد به أن التدبیر لیس مما یجری یوما و یقف آخر بل هو تدبیر دائم غیر مختل و لا منقوض حتی ینقضی الأجل المضروب منه تعالی لذلک.

فالمعنی أن الشمس و القمر ملازمان لما خط لهما من المسیر فلا تدرک الشمس القمر حتی یختل بذلک التدبیر المعمول بهما و لا اللیل سابق النهار و هما متعاقبان فی التدبیر فیتقدم اللیل النهار فیجتمع لیلتان ثم نهاران بل یتعاقبان.

و لم یتعرض لنفی إدراک القمر للشمس و لا لنفی سبق النهار اللیل لأن المقام مقام بیان انحفاظ النظم الإلهی عن الاختلال و الفساد فنفی إدراک ما هو أعظم و أقوی و هو الشمس لما هو أصغر و أضعف و هو القمر،و یعلم منه حال العکس و نفی سبق اللیل الذی هو افتقاده للنهار الذی هو لیله و اللیل مضاف الیه متأخر طبعا منه و یعلم به حال العکس.

و قوله: وَ کُلٌّ فِی فَلَکٍ یَسْبَحُونَ أی کل من الشمس و القمر و غیرهما من النجوم و الکواکب یجرون فی مجری خاص به کما یسبح السمکه فی الماء فالفلک هو المدار الفضائی الذی یتحرک فیه الجرم العلوی،و لا یبعد حینئذ أن یکون المراد بالکل کل من الشمس و القمر

و اللیل و النهار و إن کان لا یوجد فی کلامه تعالی ما یشهد علی ذلک.

و الإتیان بضمیر الجمع الخاص بالعقلاء فی قوله: «یَسْبَحُونَ» لعله للإشاره الی کونها مطاوعه لمشیته مطیعه لأمره تعالی کالعقلاء کما فی قوله: ثُمَّ اسْتَویٰ إِلَی السَّمٰاءِ وَ هِیَ دُخٰانٌ فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِیٰا طَوْعاً أَوْ کَرْهاً قٰالَتٰا أَتَیْنٰا طٰائِعِینَ (حم السجده۱۱/).

قوله تعالی: وَ آیَهٌ لَهُمْ أَنّٰا حَمَلْنٰا ذُرِّیَّتَهُمْ فِی الْفُلْکِ الْمَشْحُونِ قال الراغب:الذریه أصلها الصغار من الأولاد،و تقع فی التعارف علی الصغار و الکبار معا، و یستعمل للواحد و الجمع و أصله للجمع.انتهی،و الفلک السفینه،و المشحون المملوء.

آیه أخری من آیات ربوبیته تعالی و هو جریان تدبیره فی البحر حیث یحمل ذریتهم فی الفلک المشحون بهم و بأمتعتهم یجوزون به من جانب الی جانب للتجاره و غیرها،و لا حامل لهم فیه و لا حافظ لهم عن الغرق إلا هو تعالی و الخواص التی یستفیدون منها فی رکوب البحر أمور مسخره له تعالی منتهیه الی خلقه علی أن هذه الأسباب لو لم تنته الیه تعالی لم تغن طائلا.

و إنما نسبت الحمل الی الذریه دونهم أنفسهم فلم یقل:إنا حملناهم لإثاره الشفقه و الرحمه.

قوله تعالی: وَ خَلَقْنٰا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مٰا یَرْکَبُونَ المراد به-علی ما فسروه- الأنعام قال تعالی: وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الْفُلْکِ وَ الْأَنْعٰامِ مٰا تَرْکَبُونَ (الزخرف۱۲/)و قال:

وَ عَلَیْهٰا وَ عَلَی الْفُلْکِ تُحْمَلُونَ (المؤمن۸۰/).

و فسر بعضهم الفلک المذکور فی الآیه السابقه بسفینه نوح علیه السّلام و ما فی هذه الآیه بالسفن و الزوارق المعموله بعدها و هو تفسیر ردیء و مثله تفسیر ما فی هذه الآیه بالإبل خاصه.

و ربما فسر ما فی هذه الآیه بالطیارات و السفن الجویه المعموله فی هذه الأعصار و التعمیم أولی.

قوله تعالی: وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاٰ صَرِیخَ لَهُمْ وَ لاٰ هُمْ یُنْقَذُونَ الصریخ هو

الذى يجيب الصراخ و يغيث الاستغاثه،و الإنقاذ هو الإنجاء من الغرق.

و الآيه متصله بقوله السابق: «أَنّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» أى إن الأمر الى مشيتنا فإن نشأ نغرقهم فلا يغيثهم مغيث و لا ينقذهم منقذ.

قوله تعالى: إِلاّ رَحْمَةً مِنّا وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ استثناء مفرغ و التقدير لا ينجون بسبب من الأسباب و أمر من الامور إلا لرحمه منا تنالهم و لتمتع الى حين الأجل المسمى قدرناه لهم.

قوله تعالى: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لما ذكر الآيات الداله على الربوبيه ذمهم على عدم رعايتهم حقها و عدم إقبالهم عليها و عدم ترتيبهم عليها آثارها فإذا قيل لهم هذه الآيات البينات ناطقه أن ربكم اللّه فاتقوا معصيته فى حالكم الحاضره و ما قدمتم من المعاصى،أو عذاب الشرك و المعاصى التى أنتم مبتلون بها و ما خلفتم وراءكم،او اتقوا ما بين أيديكم من الشرك و المعاصى فى الحياه الدنيا و ما خلفكم من العذاب فى الآخره،أعرضوا عنه و لم يستجيبوا له على ما هو دأبهم فى جميع الآيات التى ذكروا بها.

قوله تعالى: وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ المراد بإتيان الآيات موافاتها لهم بالمشاهده أو بالتلاوه و الذكر،و أيضا هى أعم من أن تكون آيه آفاقيه أو أنفسيه،أو تكون آيه معجزه كالقرآن،فهم معرضون عنها جميعا.

قوله تعالى: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمّا رَزَقَكُمُ اللّهُ الى آخر الآيه كان قوله:

«وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ» متعرضا لجوابهم إذا دعوا الى عباده اللّه و هى أحد ركنى الدين الحق،و هذه الآيه تعرضت لجوابهم إذا دعوا الى عباده اللّه و هى أحد ركنى الدين الحق،و هذه الآيه تعرضت لجوابهم إذا دعوا الى الشفقه على خلق اللّه و هو الركن الآخر و معلوم أن جوابهم الرد دون القبول.

فقوله: وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقَكَمُ اللّٰهُ يتضمن دعوتهم الى الانفاق على الفقراء و المساكين من أموالهم و فى التعبير عن الأموال بما رزقهم اللّه إشعار بأن المالك لها حقيقه هو اللّه الذى رزقهم بها و سلطهم عليها،و هو الذى خلق الفقراء و المساكين و أقام حاجتهم الى ما عند هؤلاء من فضل المؤن الذى لا يفتقرون اليه فلينفقوا عليهم و ليحسنوا و ليجملوا و اللّه يحب الإحسان و جميل الفعل.

و قوله: قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشٰاءُ اللّٰهُ أَطْعَمَهُ جوابهم للدعوه الى الإنفاق،و إنما أظهر القائل-الذين كفروا-و مقتضى المقام الإضمار للإشاره الى أن كفرهم بالحق و إعراضهم عنه باتباع الشهوات هو الذى دعاهم الى الاعتذار بمثل هذا العذر المبنى على الإعراض عما تدعو اليه الفطره من الشفقه على خلق اللّه و إصلاح ما فسد فى المجتمع كما أن الإظهار فى قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» للإشاره الى أن قائل «أَنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ» هم الذين آمنوا.

و فى قوله: أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشٰاءُ اللّٰهُ أَطْعَمَهُ إشعار بأن المؤمنين إنما قالوا لهم:

«أَنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ» بعنوان أنه مما يشاؤه اللّه و يريده حكما دينيا فردوه بأن إراده اللّه لا تتخلف عن مراده فلو شاء أن يطعمهم أطعمهم أى وسع فى رزقهم و جعلهم أغنياء.

و هذه مغالطه منهم خلطوا فيه بين الإراده التشريعيه المبنيه على الابتلاء و الامتحان و هدايه العباد الى ما فيه صلاح حالهم فى دنياهم و آخرتهم و من الجائز أن تتخلف عن المراد بالعصيان،و بين الإراده التكوينيه التى لا تتخلف عن المراد و من المعلوم أن مشيئه اللّه و إرادته المتعلقه بإطعام الفقراء و الإنفاق عليهم من المشيئه التشريعيه دون التكوينيه فتخلفها فى مورد الفقراء إنما يدل على عصيان الذين كفروا و تمردهم عما أمروا به لا على عدم تعلق الإراده به و كذب مدعيه.

و هذه مغالطه بنوا عليها جل ما افتعلوه من سنن الوثنيه و قد حكى اللّه سبحانه ذلك عنهم

فى قوله: وَ قٰالَ اَلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ (النحل/۳۵)،و قوله: سَيَقُولُ اَلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا أَشْرَكْنٰا وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ شَيْءٍ (الأنعام/۱۴۸)،و قوله: وَ قٰالُوا لَوْ شٰاءَ اَلرَّحْمٰنُ مٰا عَبَدْنٰاهُمْ (الزخرف/۲۰).

و قوله: إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ من تمام قول الذين كفروا يخاطبون به المؤمنين أى إنكم فى ضلال مبين فى دعواكم أن اللّه أمرنا بالإنفاق و شاء منا ذلك (۱).

[سوره يس (۳۶): الآيات ۴۸ الى ۶۵]

وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا اَلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۴۸) مٰا يَنْظُرُونَ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (۴۹) فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لاٰ إِلىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (۵۰) وَ نُفِخَ فِي اَلصُّورِ فَإِذٰا هُمْ مِنَ اَلْأَجْدٰاثِ إِلىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (۵۱) قٰالُوا يٰا وَيْلَنٰا مَنْ بَعَثَنٰا مِنْ مَرْقَدِنٰا هٰذٰا مٰا وَعَدَ اَلرَّحْمٰنُ وَ صَدَقَ اَلْمُرْسَلُونَ (۵۲) إِنْ كٰانَتْ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً فَإِذٰا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنٰا مُحْضَرُونَ (۵۳) فَالْيَوْمَ لاٰ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لاٰ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۴) إِنَّ أَصْحٰابَ اَلْجَنَّةِ اَلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فٰاكِهُونَ (۵۵) هُمْ وَ أَزْوٰاجُهُمْ فِي ظِلاٰلٍ عَلَى اَلْأَرٰائِكِ مُتَّكِؤُنَ (۵۶) لَهُمْ فِيهٰا فٰاكِهَةٌ وَ لَهُمْ مٰا يَدَّعُونَ (۵۷) سَلاٰمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (۵۸) وَ اِمْتٰازُوا اَلْيَوْمَ أَيُّهَا اَلْمُجْرِمُونَ (۵۹) أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا اَلشَّيْطٰانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶۰) وَ أَنِ اُعْبُدُونِي هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۱) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (۶۲) هٰذِهِ جَهَنَّمُ اَلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۶۳) اِصْلَوْهَا اَلْيَوْمَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۶۴) اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلىٰ أَفْوٰاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنٰا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (۶۵)

۱- ۱) .يس ۳۳-۴۷:بحث روائى فى الشمس و القمر و الليل و النهار.

بیان:

قوله تعالی: وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ كلام منهم وارد مورد الاستهزاء مبنی علی الإنكار،و لعله لذلك جیء باسم الإشاره الموضوعه للقريبه و لأن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین كثیرا ما كانوا یسمعونهم حدیث یوم القیامه و ینذرونهم به، و الوعد یستعمل فی الخیر و الشر إذا ذكر وحده و إذا قبل الوعید تعین الوعد للخیر و الوعید للشر.

قوله تعالی: مٰا يَنْظُرُونَ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ النظر بمعنی الانتظار،و المراد بالصیحه نفخه الصور الاولی باعانه السیاق،و توصیف الصیحه بالوحده للاشاره الی هوان أمرهم علی اللّه جلت عظمته فلا حاجه الی مئونه زائده،

و «يَخِصِّمُونَ» أصله يختصمون من الاختصام بمعنى المجادله و المخاصمه.

و الآيه جواب لقولهم: «مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ» مسوقه سوق الاستهزاء بهم و الاستهانه بأمرهم كما كان قولهم كذلك،و المعنى ما ينتظر هؤلاء القائلون:متى هذا الوعد فى سؤالهم عن وقت الوعد المنبئ عن الانتظار إلا صيحه واحده-يسيره علينا بلا مئونه و لا تكلف-تأخذهم فلا يسعهم أن يفروا و ينجوا منها و الحال أنهم غافلون عنها يختصمون فيما بينهم.

قوله تعالى: فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لاٰ إِلىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ أى يتفرع على هذه الصيحه بما أنها تفاجئهم و لا تمهلهم ان يموتوا من فورهم فلا يستطيعوا توصيه-على أن الموت يعمهم جميعا دفعه فلا يترك منهم أحدا يوصى اليه-و لا أن يرجعوا الى أهلهم إذا كانوا فى الخارج من بيوتهم مثلا.

قوله تعالى: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذٰا هُمْ مِنَ الْأَجْدٰاثِ إِلىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ هذه هى نفخه الصور الثانيه التى بها الإحياء و البعث،و الأجداث جمع جدث و هو القبر و النسل الإسراع فى المشى و فى التعبير عنه بقوله: «إِلىٰ رَبِّهِمْ» تقريع لهم لأنهم كانوا ينكرون ربوبيته و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: قٰالُوا يٰا وَيْلَنٰا مَنْ بَعَثَنٰا مِنْ مَرْقَدِنٰا هٰذٰا مٰا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ البعث و الإقامه،و المرقد محل الرقاد و المراد به القبر،و تعبيرهم عنه تعالى بالرحمن نوع استرحام و قد كانوا يقولون فى الدنيا وَ مَا الرَّحْمٰنُ (الفرقان۶۰/)، و قوله: «وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» عطف على قوله: «هٰذٰا مٰا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ» و الجمله الفعليه قد تعطف على الاسميه.

و قولهم:يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا مبنى على إنكارهم البعث و هم فى الدنيا و رسوخ أثر الإنكار و الغفله عن يوم الجزاء فى نفوسهم و هم لا يزالون مستغرقين فى الأهواء فإذا قاموا من قبورهم مسرعين الى المحشر فاجأهم الورود فى عالم لا يستقبلهم فيه إلا توقع الشر فأخذهم

الفزع الأكبر و الدهشه التى لا تقوم لها الجبال و لذا يتبادرون أولا الى دعوه الويل و الهلاك كما كان ذلك دأبهم فى الدنيا عند الوقوع فى المخاطر ثم سألوا عمن بعثهم من مرقدهم لأن الذى أحاط بهم من الدهشه أذهلهم من كل شىء.

ثم ذكروا ما كانت الرسل عليهم السلام يذكرونهم به من الوعد الحق بالبعث و الجزاء فشهدوا بحقيه الوعد و استعصموا بالرحمه فقالوا: «هٰذٰا مٰا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ» على ما هو دأبهم فى الدنيا حيث يكيدون عدوهم إذا ظهر عليهم بالتملق و إظهار الذله و الاعتراف بالظلم و التقصير ثم صدقوا الرسل بقولهم: «وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» .

قوله تعالى: إِنْ كٰانَتْ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً فَإِذٰا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنٰا مُحْضَرُونَ اسم كان محذوف و التقدير إن كانت الفعله أو النفخه إلا نفخه واحده تفاجئهم أنهم مجموع محضرون لدينا من غير تأخير و مهله.

و التعبير بقوله: «لَدَيْنٰا» لأن اليوم يوم الحضور لفصل القضاء عند اللّه سبحانه.

قوله تعالى: فَالْيَوْمَ لاٰ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لاٰ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى فى هذا اليوم يقضى بينهم قضاء عدلا و يحكم حكما حقا فلا تظلم نفس شيئا.

و قوله: وَ لاٰ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ عطف تفسير لقوله: «فَالْيَوْمَ لاٰ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً» و هو فى الحقيقه بيان برهانى لانتفاء الظلم يومئذ لدلالته على أن جزاء أعمال العاملين يومئذ نفس أعمالهم،و لا يتصور مع ذلك ظلم لأن الظلم وضع الشىء فى غير موضعه و تحميل العامل عمله وضع الشىء فى موضعه ضروره.

و خطاب الآيه من باب تمثيل يوم القيامه و إحضار من فيه بحسب العنايه الكلاميه،و ليس -كما توهم-حكايه عما سيقال لهم أو يخاطبون به من جانب اللّه سبحانه أو الملائكه أو المؤمنين يوم القيامه فلا موجب له من جهه السياق.

و المخاطب بقوله: «وَ لاٰ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» السعداء و الأشقياء جميعا.

قوله تعالى: إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّهِ الْيَوْمَ فِی شُغُلٍ فاكِهُونَ الشغل الشأن الذی شغل الإنسان و یصرفه عما عداه،و الفاكه من الفاكهه و هی التحدیث بما یسر أو التمتع و التلذذ و لا فعل له من الثلاثی المجرد علی ما قیل.

و المعنی أن أصحاب الجنه فی هذا الیوم فی شأن یشغلهم عن كل شیء دونه و هو التنعم فی الجنه متمتعون فیها.

قوله تعالی: هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِی ظِلالٍ عَلَی الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ الظلال جمع ظل و قیل جمع ظله بالضم و هی السترہ من الشمس من سقف أو شجر أو غیر ذلك،و الأریكه كل ما یتكئ علیه من وساده أو غیرها.

و المعنی:هم أی أصحاب الجنه و أزواجهم من حلائلهم المؤمنات فی الدنیا أو من الحور العین فی ظلال أو أستار من الشمس و غیرها متكئون علی الأرائك اتكاء الأعزه.

قوله تعالی: لَهُمْ فِیها فاكِهَهٌ وَ لَهُمْ ما یَدَّعُونَ الفاكهه ما یتفكه به من الثمرات كالتفاح و الاترج و نحوهما،و قوله: «یَدَّعُونَ» من الادعاء بمعنی التمنی أی لهم فی الجنه فاكهه و لهم فیها ما یتمنونه و یطلبونه.

قوله تعالی: سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِیمٍ سلام مبتدأ محذوف الخبر و التنكیر للتفخیم و التقدیر سلام علیهم أو لهم سلام،و «قَوْلاً» مفعول مطلق لفعل محذوف و التقدیر أقوله قولا من رب رحیم.

و الظاهر أن السلام منه تعالی و هو غیر سلام الملائكه المذكور فی قوله: وَ الْمَلائِكَهُ یَدْخُلُونَ عَلَیْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَیْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَی الدّارِ (الرعد/۲۴).

قوله تعالی: وَ امْتازُوا الْیَوْمَ أَیُّهَا الْمُجْرِمُونَ أی و نقول الیوم للمجرمین امتازوا من أصحاب الجنه و هو تمییزهم منهم یوم القیامه و إنجاز لما فی قوله فی موضع آخر: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِینَ فِی الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِینَ كَالْفُجّارِ (ص/

۲۸)،و قوله: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئٰاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ سَوٰاءً مَحْيٰاهُمْ وَ مَمٰاتُهُمْ (الجاثيه۲۱/).

قوله تعالى: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ العهد الوصيه،و المراد بعباده الشيطان طاعته فيما يوسوس و يأمر به إذ لا طاعه إلا للّه أو من أمر بطاعته،و قد علل النهى عن طاعته بكونه عدوا مبينا لأن العدو لا يريد بعدوه خيرا.

و إنما وجه الخطاب الى المجرمين بعنوان أنهم بنو آدم لأن عداوه الشيطان إنما نشبت أول ما نشبت بآدم حيث أمر أن يسجد له فأبى و استكبر فرجم ثم عاد ذريته بعداوته و أوعدهم كما حكاه اللّه تعالى إذ قال: أَ رَأَيْتَكَ هٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَهِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاّٰ قَلِيلاً (الإسراء۶۲/).

و أما عهده تعالى و وصيته الى بني آدم أن لا يطيعوه فهو الذى وصاهم به بلسان رسله و أنبيائه و حذرهم عن اتباعه كقوله تعالى: يٰا بَنِي آدَمَ لاٰ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطٰانُ كَمٰا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّهِ (الأعراف۲۷/)و قوله: وَ لاٰ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطٰانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (الزخرف۶۲/).

قوله تعالى: وَ أَنِ اعْبُدُونِي هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ عطف تفسير لما سبقه،و قد تقدم كلام فى معنى الصراط المستقيم فى تفسير قوله: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ من سوره الفاتحه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ الجبل الجماعه و قيل:الجماعه الكثيره و الكلام مبنى على التوبيخ و العتاب.

قوله تعالى: هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ أى كان يستمر عليكم الايعاد بها مره بعد مره بلسان الأنبياء و الرسل عليه السّلام و أول ما أوعد اللّه سبحانه بها حين قال لإبليس: إِنَّ

عِبٰادِی لَیسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلاّٰ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغٰاوِینَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِینَ (الحجر/۴۳)و فی لفظ الآیه إشاره الی إحضار جهنم یومئذ.

قوله تعالی: اِصْلَوْهَا الْیَوْمَ بِمٰا کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ الصلا:اللزوم و الاتباع،و قیل:

مقاساه الحراره و یظهر بقوله: «بِمٰا کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ» أن الخطاب للکفار و هم المراد بالمجرمین.

قوله تعالی: اَلْیَوْمَ نَخْتِمُ عَلیٰ أَفْوٰاهِهِمْ وَ تُکَلِّمُنٰا أَیْدِیهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ أی یشهد کل منها بما کانوا یکسبونه بواسطته فالأیدی بالمعاصی التی کسبوها بها و الأرجل بالمعاصی الخاصه بها علی ما یعطیه السیاق.

و من هنا یظهر أن کل عضو ینطق بما یخصه من العمل و أن ذکر الأیدی و الأرجل من باب الأنموذج و لذا ذکر فی موضع آخر السمع و البصر و الفؤاد کما فی سوره أسری الآیه ۳۶.و فی موضع آخر الجلود کما فی سوره حم السجده الآیه ۲۰،و سیأتی بعض ما یتعلق به من الکلام فی تفسیر سوره حم السجده إن شاء اللّٰه (۱).

[سوره یس (۳۶): الآیات ۶۶ الی ۸۳]

وَ لَوْ نَشٰاءُ لَطَمَسْنٰا عَلیٰ أَعْیُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا اَلصِّرٰاطَ فَأَنّٰی یُبْصِرُونَ (۶۶) وَ لَوْ نَشٰاءُ لَمَسَخْنٰاهُمْ عَلیٰ مَکٰانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطٰاعُوا مُضِیًّا وَ لاٰ یَرْجِعُونَ (۶۷) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَکِّسْهُ فِی اَلْخَلْقِ أَ فَلاٰ یَعْقِلُونَ (۶۸) وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ اَلشِّعْرَ وَ مٰا یَنْبَغِی لَهُ إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِکْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِینٌ (۶۹) لِیُنْذِرَ مَنْ کٰانَ حَیًّا وَ یَحِقَّ اَلْقَوْلُ عَلَی اَلْکٰافِرِینَ (۷۰) أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنّٰا خَلَقْنٰا لَهُمْ مِمّٰا عَمِلَتْ أَیْدِینٰا أَنْعٰاماً فَهُمْ لَهٰا مٰالِکُونَ (۷۱) وَ ذَلَّلْنٰاهٰا لَهُمْ فَمِنْهٰا رَکُوبُهُمْ وَ مِنْهٰا یَأْکُلُونَ (۷۲) وَ لَهُمْ فِیهٰا مَنٰافِعُ وَ مَشٰارِبُ أَ فَلاٰ یَشْکُرُونَ (۷۳) وَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ یُنْصَرُونَ (۷۴) لاٰ یَسْتَطِیعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (۷۵) فَلاٰ یَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ إِنّٰا نَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ (۷۶) أَ وَ لَمْ یَرَ اَلْإِنْسٰانُ أَنّٰا خَلَقْنٰاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ (۷۷) وَ ضَرَبَ لَنٰا مَثَلاً وَ نَسِیَ خَلْقَهُ قٰالَ مَنْ یُحْیِ اَلْعِظٰامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ (۷۸) قُلْ یُحْیِیهَا اَلَّذِی أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ (۷۹) اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ اَلشَّجَرِ اَلْأَخْضَرِ نٰاراً فَإِذٰا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (۸۰) أَ وَ لَیْسَ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِقٰادِرٍ عَلیٰ أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلیٰ وَ هُوَ اَلْخَلاّٰقُ اَلْعَلِیمُ (۸۱) إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۸۲) فَسُبْحٰانَ اَلَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۸۳)

۱- ۱) .یس ۴۸-۶۵:بحث روائی حول قوله تعالی: «مٰا یَنْظُرُونَ إِلاّٰ صَیْحَةً وٰاحِدَةً» ؛نفخ الصور؛اصحاب الجنه.

بیان:

قوله تعالی: وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلی أَعْیُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنّی یُبْصِرُونَ قال فی مجمع البیان:الطمس محو الشیء حتی یذهب أثره فالطمس علی العین کالطمس علی الکتاب و مثله الطمس علی المال و هو إذهابه حتی لا یقع علیه إدراک،و أعمی مطموس و طمیس و هو أن یذهب الشق الذی بین الجفنین،انتهی.

فقوله: وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلی أَعْیُنِهِمْ أی لو أردنا لأذهبنا أعینهم فصارت ممسوحه لا أثر منها فذهبت به أبصارهم و بطل إبصارهم.

و قوله: فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ أی أرادوا السبق الی الطریق الواضح الذی لا یخطئ قاصده و لا یظل سالکه فلم یبصروه و لن یبصروه فالاستبعاد المفهوم من قوله: «فَأَنّی یُبْصِرُونَ» کنایه عن الامتناع.

قوله تعالی: وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلی مَکانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِیًّا وَ لا یَرْجِعُونَ قال فی المجمع:و المسح قلب الصوره الی خلقه مشوهه کما مسخ قوم قرده و خنازیر و قال:و المکانه و المکان واحد.انتهی.المراد بمسخهم علی مکانتهم تشویه خلقهم و هم قعود فی مکانهم الذی هم فیه من غیر أن یغیرهم عن حالهم بعلاج و تکلف بل بمجرد المشیه فهو کنایه عن کونه هینا سهلا علیه تعالی من غیر أی صعوبه.

و قوله: فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِیًّا وَ لا یَرْجِعُونَ أی مضیا فی العذاب و لا یرجعون الی حالهم قبل العذاب و المسخ فالمضی و الرجوع کنایتان عن الرجوع الی حال السلامه و البقاء علی حال العذاب و المسخ.

قوله تعالی: وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَکِّسْهُ فِی الْخَلْقِ أَ فَلا یَعْقِلُونَ التعمیر التطویل العمر،و التنکیس تقلیب الشیء بحیث یعود أعلاه أسفله و یتبدل قوته ضعفا و زیادته نقصا

و الإنسان فی عهد الهرم منکس الخلق یتبدل قوته ضعفا و علمه جهلا و ذکره نسیانا.

و الآیه فی مقام الاستشهاد بتنکیس الخلق علی إمکان مضمون الآیتین السابقتین و المراد أن الذی ینکس خلق الإنسان إذا عمره قادر علی أن یطمس علی أعینهم و علی أن یمسخهم علی مکانتهم.

و فی قوله: أَ فَلاٰ یَعْقِلُونَ توبیخهم علی عدم التعقل و حثهم علی التدبر فی هذه الامور و الاعتبار بها.

قوله تعالی: وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ الشِّعْرَ وَ مٰا یَنْبَغِی لَهُ إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِکْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِینٌ عطف و رجوع الی ما تقدم فی صدر السوره من تصدیق رساله النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کون کتابه تنزیلا من عنده تعالی.

فقوله: وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ الشِّعْرَ نفی أن یکون علمه الشعر و لازمه أن یکون بحیث لا یحسن قول الشعر لا أن یحسنه و یمتنع من قوله لنهی من اللّه متوجه الیه،و لا أن النازل من القرآن لیس بشعر و إن أمکنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یقوله.

و به یظهر أن قوله: «وَ مٰا یَنْبَغِی لَهُ» فی مقام الامتنان علیه بأنه نزهه عن أن یقول شعرا فالجمله فی مقام دفع الدخل و المحصل أن عدم تعلیمنا إیاه الشعر لیس یوجب نقصا فیه و لا أنه تعجیز له بل لرفع درجته و تنزیه ساحته عما یتعاوره العارف بصناعه الشعر فیقع فی معرض تزیین المعانی بالتخیلات الشعریه الکاذبه التی کلما أمعن فیها کان الکلام أوقع فی النفس، و تنظیم الکلام بأوزان موسیقیه لیکون أوقع فی السمع،فلا ینبغی له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یقول الشعر و هو رسول من اللّه و آیه رسالته و متن دعوته القرآن المعجز فی بیانه الذی هو ذکر و قرآن مبین.

و قوله: إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِکْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِینٌ تفسیر و توضیح لقوله: «وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ الشِّعْرَ وَ مٰا یَنْبَغِی لَهُ» بما أن لازم معناه أن القرآن لیس بشعر فالحصر المستفاد من قوله: «إِنْ هُوَ إِلاّٰ

ذِكْرٌ» الخ؛من قصر القلب و المعنى ليس هو بشعر ما هو إلا ذكر و قرآن مبين.

و معنى كونه ذكرا و قرآنا أنه ذكر مقرو من اللّه ظاهر ذلك.

قوله تعالى: لِيُنْذِرَ مَنْ كٰانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكٰافِرِينَ تعليل متعلق بقوله: «وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ الشِّعْرَ» و المعنى و لم نعلمه الشعر لينذر بالقرآن المنزه من أن يكون شعرا من كان حيا،الخ؛أو متعلق بقوله: «إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ» الخ؛و المعنى ليس ما يتلوه على الناس إلا ذكرا و قرآنا مبينا نزلناه اليه لينذر من كان حيا،الخ؛و مآل الوجهين واحد.

و الآيه-كما ترى-تعد غايه إرسال الرسول و إنزال القرآن إنذار من كان حيا-و هو كنايه عن كونه يعقل الحق و يسمعه-و حقيه القول و وجوبه على الكافرين فمحاذاه الآيه لما فى صدر السوره من الآيات فى هذا المعنى ظاهر.

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا خَلَقْنٰا لَهُمْ مِمّٰا عَمِلَتْ أَيْدِينٰا أَنْعٰاماً فَهُمْ لَهٰا مٰالِكُونَ ذكر آيه من آيات التوحيد تدل على ربوبيته تعالى و تدبيره للعالم الإنسانى و هى نظيره ما تقدم فى ضمن آيات التوحيد السابقه من إحياء الأرض الميته بإخراج الحب و الثمرات و تفجير العيون.

و المراد بكون الأنعام مما عملته أيديه تعالى عدم إشراكهم فى خلقها و اختصاصه به تعالى فعمل الأيدى كنايه عن الاختصاص.

و قوله: فَهُمْ لَهٰا مٰالِكُونَ تفريع على قوله: «خَلَقْنٰا لَهُمْ» فإن المعنى خلقنا لأجلهم فهى مخلوقه لأجل الإنسان و لازمه اختصاصها به و ينتهى الاختصاص الى الملك فإن الملك الاعتبارى الذى فى المجتمع من شعب الاختصاص.

قوله تعالى: وَ ذَلَّلْنٰاهٰا لَهُمْ فَمِنْهٰا رَكُوبُهُمْ وَ مِنْهٰا يَأْكُلُونَ تذليل الأنعام جعلها منقاده لهم غير عاصيه و هو تسخيرها لهم،و الركوب بفتح الراء الحموله كالإبل و البقر، و قوله: «وَ مِنْهٰا يَأْكُلُونَ» أى من لحمها يأكلون.

قوله تعالى: وَ لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ مَشَارِبُ أَ فَلاَ يَشْكُرُونَ المراد بالمنافع ما ينتفعون به من شعرها و وبرها و جلودها و غير ذلك،و المشارب جمع مشرب-مصدر ميمى بمعنى المفعول-و المراد بها الألبان،و الكلام فى معنى الشكر كالكلام فيما تقدم فى قوله: «وَ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلاَ يَشْكُرُونَ» .

و معنى الآيات الثلاث:أو لم يعلموا أنا خلقنا لأجلهم و لتدبير أمر حياتهم الدنيا أنعاما من الإبل و البقر و الغنم فتفرع على ذلك أنهم مالكون لها ملكا يصحح لهم أنواع تصرفاتهم فيها من غير معارض،و ذللناها لهم بجعلها مسخره لهم منقاده غير عاصيه فمنها ركوبهم الذى يركبونه، و منها أى من لحومها يأكلون،و لهم فيها منافع ينتفعون بأشعارها و أوبارها و جلودها و مشروبات من ألبانها يشربونها أ فلا يشكرون اللّه على هذا التدبير الكامل الذى يكشف عن ربوبيته لهم؟أ و لا يعبدونه شكرا لأنعمه؟

قوله تعالى: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ضمائر الجمع للمشركين،و المراد بالآلهه الأصنام أو الشياطين و فراعنه البشر دون الملائكه المقربين و الأولياء من الإنسان لعدم ملاءمه ذيل الكلام «وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» لذلك.

و إنما اتخذوهم آلهه رجاء أن ينصروا من ناحيتهم لأن عامتهم تتخذ إلها زعما منهم أن تدبير أمره مفوض الى من اتخذه إلها من خير أو شر فيعبده العابد منهم ليرضيه بعبادته فلا يسخط فيقطع النعمه أو يرسل النقمه.

قوله تعالى: لاٰ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ أى لا يستطيع هؤلاء الآلهه الذين اتخذوهم آلهه نصر هؤلاء المشركين لأنهم لا يملكون شيئا من خير أو شر.

و قوله: وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ الظاهر أن أول الضميرين للمشركين و ثانيهما للآلهه من دون اللّه و المراد أن المشركين جند للآلهه و ذلك أن من لوازم معنى الجنديه التبعيه

و الملازمه و المشركون هم المعدودون أتباعا لآلهتهم مطيعين لهم دون العكس.

و المراد بالإحضار بالإحضار فى قوله: «مُحْضَرُونَ» الإحضار للجزاء يوم القيامه قال تعالى: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّهِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّهُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (الصافات/۵۷).

و محصل المعنى لا يستطيع الآلهه المتخذون نصر المشركين و هم أى المشركون لهم أى لآلهتهم أتباع مطيعون محضرون معهم يوم القيامه.

قوله تعالى: فَلاٰ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنّٰا نَعْلَمُ مٰا يُسِرُّونَ وَ مٰا يُعْلِنُونَ الفاء لتفريع النهى عن الحزن على حقيقه اتخاذهم الآلهه من دون اللّه رجاء للنصر أى إذا كان هذا حقيقه حالهم أن الذين استنصروهم لا يستطيعون نصرهم أبدا و أنهم سيحضرون معهم للعذاب فلا يحزنك قولهم ما قالوا به من الشرك فإنا لسنا بغافلين عنهم حتى يعجزونا أو يفسدوا علينا بعض الأمر بل نعلم ما يسرون من أقوالهم و ما يعلنون،و فى تركيب الآيه بعض أقوال رديئه أضربنا عنه.

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسٰانُ أَنّٰا خَلَقْنٰاهُ مِنْ نُطْفَهٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ رجوع الى ما تقدم من حديث البعث و الاحتجاج عليه إثر إنكارهم،و لا يبعد أن يكون بيانا تفصيليا لقولهم المشار اليه فى قوله تعالى: «فَلاٰ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ» الخ؛و المراد بالرؤيه العلم القطعى أى أو لم يعلم الإنسان علما قاطعا أنا خلقناه من نطفه،و تنكير نطفه للتحقير و الخصيم المصر على خصومته و جداله.

و الاستفهام للتعجب و المعنى من العجيب أن الإنسان يعلم أنا خلقناه من نطفه مهينه فيفاجئه أنه خصيم مجادل مبين.

قوله تعالى: وَ ضَرَبَ لَنٰا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قٰالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظٰامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ الرميم البالى من العظام،و «نَسِيَ خَلْقَهُ» حال من فاعل ضرب،و قوله: «قٰالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظٰامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ» بيان للمثل الذى ضربه الإنسان،و لذلك جىء به مفصولا من غير

عطف لأن الكلام فی معنی أن یقال:فما ذا ضرب مثلا؟فقیل: قٰالَ مَنْ یُحْیِ الْعِظٰامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ.

و المعنی و ضرب الإنسان لنا مثلا-و قد نسی خلقه من نطفه لأول مره،و لو کان ذاکره لم یضرب المثل الذی ضربه و هو قوله:«من یحیی العظام و هی بالیه؟»لأنه کان یرد علی نفسه و یجیب عن المثل الذی ضربه بخلقه الأول کما لقنه اللّه تعالی لنبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم جوابا عنه.

قوله تعالی: قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ تلقین الجواب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

الإنشاء هو الإیجاد الابتدائی و تقییده بقوله: «أَوَّلَ مَرَّهٍ» للتأکید،و قوله: «وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ» إشاره الی أنه تعالی لا ینسی و لا یجهل شیئا من خلقه فإذا کان هو خالق هذه العظام لأول مره و هو لا یجهل شیئا مما کانت علیه قبل الموت و بعده فإحیاؤه ثانیا بمکان من الإمکان لثبوت القدره و انتفاء الجهل و النسیان.

قوله تعالی: اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نٰاراً فَإِذٰا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ بیان لقوله: «الَّذِی أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّهٍ» و الإیقاد إشعال النار.

و الآیه مسوقه لرفع استبعاد جعل الشیء الموات شیئا ذا حیاه و الحیاه و الموت متنافیان و الجواب أنه لا استبعاد فیه فإنه هو الذی جعل لکم من الشجر الأخضر الذی یقطر ماء نارا فإذا أنتم منه توقدون و تشعلون النار،و المراد به علی المشهور بین المفسرین شجر (1)المرخ و العفار کانوا یأخذون منهما علی خضرتهما فیجعل العفار زندا أسفل و یجعل المرخ زندا أعلی فیسحق الأعلی علی الاسفل فتنقدح النار بإذن اللّه فحصول الحی من المیت لیس بأعجب من انقداح النار من الشجره الخضراء و هما متضادان.

۱- ۱) .المرخ بالفتح فالسکون و الخاء المعجمه،و العفار بعین مفتوحه ثم الفاء ثم الراء المهمله شجرتان تشتعلان بسحق أحدهما علی الآخر.

قوله تعالى: أَ وَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِقٰادِرٍ عَلىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلىٰ وَ هُوَ الْخَلاّقُ الْعَلِيمُ الاستفهام للإنكار و الآيه بيان للحجه السابقه المذكوره فى قوله: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّهٍ» الخ؛ببيان أقرب الى الذهن و ذلك بتبديل إنشائهم أول مره من خلق السماوات و الأرض الذى هو أكبر من خلق الإنسان كما قال تعالى: «لَخَلْقُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّٰاسِ» (المؤمن۵۷/).

فالآيه فى معنى قولنا:و كيف يمكن أن يقال:إن اللّه الذى خلق عوالم السماوات و الأرض بما فيها من سعه الخلقه البديعه و عجيب النظام العام المتضمن لما لا يحصى من الأنظمه الجزئيه المدهشه للعقول المحيره للالباب و العالم الإنسانى جزء يسير منها،لا يقدر أن يخلق مثل هؤلاء الناس،بلى و إنه خلاق عليم.

و المراد بمثلهم قيل:هم و أمثالهم و فيه أنه مغاير لمعنى مثل على ما يعرف من اللغه و العرف.

فالحق أن يقال:إن المراد بخلق مثلهم إعادتهم للجزاء بعد الموت كما يستفاد من كلام الطبرسى رحمه اللّه فى مجمع البيان.

بيانه أن الإنسان مركب من نفس و بدن،و البدن فى هذه النشأه فى معرض التحلل و التبدل دائما فهو لا يزال يتغير أجزاؤه و المركب ينتفى بانتفاء أحد أجزائه فهو فى كلا آن غيره فى الآن السابق بشخصه و شخصيه الإنسان محفوظه بنفسه-روحه- المجرده المنزهه عن الماده و التغيرات الطارئه من قبلها المأمونه من الموت و الفساد.

و المتحصل من كلامه تعالى أن النفس لا تموت بموت البدن و أنها محفوظه حتى ترجع الى اللّه سبحانه كما تقدم استفادته من قوله تعالى: وَ قٰالُوا أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِى الْأَرْضِ أَ إِنّٰا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ كٰافِرُونَ قُلْ يَتَوَفّٰاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (الم السجده۱۱/).

فالبـدن اللاحق من الإنسـان إذا أعتبر بالقياس الى البـدن السابق منه كان مثله لا عينه لكن الإنسان ذا البـدن اللاحق إذا قيس الى الإنسان ذى البدن السابق كان عينه لا مثله لأن الشخصيه بالنفس و هى واحده بعينها.

و لما كان استبعاد المشـركين فى قولهم: «مَنْ يُحْيِ الْعِظٰامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ» راجعا الى خلق البدن الجديد دون النفس أجاب سبحانه بإثبات إمكـان خلـق مثلهم و أمـا عودهم بأعيـانهم فهو إنمـا يتم بتعلق النفوس و الأرواح المحفوظه عند اللّه بالأبـدان المخلوقه جديـدا،فتكون الأشـخاص الموجودين فى الـدنيا من النـاس بأعيـانهم كمـا قال تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقٰادِرٍ عَلىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتىٰ (الأحقـاف۳۳/) فعلق الإحيـاء على الموتى بأعيـانهم فقـال:على أن يحيى الموتى و لم يقل:على أن يحيى أمثال الموتى.

قوله تعـالى: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الآيه من غرر الآيات القرآنيه تصف كلمه الإيجاد و تبين أنه تعالى لا يحتاج فى إيجاد شىء مما أراده الى ما وراء ذاته المتعاليه من سبب يوجد له ما أراده أو يعينه فى إيجاده أو يدفع عنه مانعا يمنعه.

و قد اختلف تعبيره تعالى عن هذه الحقيقه فى كلامه فقال: إِنَّمٰا قَوْلُنٰا لِشَيْءٍ إِذٰا أَرَدْنٰاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (النحل۴۰/)،و قال: وَ إِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (البقره۱۱۷/).

فقوله: إِنَّمٰا أَمْرُهُ الظاهر أن المراد بالأمر الشأن،و قوله فى آيه النحل المنقوله آنفا:

«إِنَّمٰا قَوْلُنٰا لِشَيْءٍ إِذٰا أَرَدْنٰاهُ» إن كان يؤيـد كون كون الأمر بمعنى القول و هو الأمر اللفظى بلفظه كن إلا أن التـدبر فى الآيات يعطى أن الغرض فيها وصف الشأن الإلهى عند إراده خلق شـىء من الأشياء لا بيان أن قوله تعالى عند خلق شىء من الأشياء هذا القول دون غيره،فالوجه حمل القول على الأمر بمعنى الشأن بمعنى أنه جىء به لكونه مصداقا للشأن لا حمل الأمر على

القول بمعنی ما یقابل النهی.

و قوله: إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أی إذا أراد إیجاد شیء کما یعطیه سیاق الآیه و قد ورد فی عده من الآیات القضاء مکان الإراده کقوله: إِذٰا قَضیٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۱)و لا ضیر فالقضاء هو الحکم و القضاء و الحکم و الإراده من اللّه شیء واحد و هو کون (۲)الشیء الموجود بحیث لیس له من اللّه سبحانه إلا أن یوجد فمعنی إذا أردناه إذا أوقفناه موقف تعلق الإراده.

و قوله: أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ خبر إنما أمره أی یخاطبه بکلمه کن و من المعلوم أن لیس هناک لفظ یتلفظ به و إلا احتاج فی وجوده الی لفظ آخر و هلم جرا فیتسلسل و لا أن هناک مخاطبا ذا سمع یسمع الخطاب فیوجد به لأدائه الی الخلف فالکلام تمثیل لإفاضته تعالی وجود الشیء من غیر حاجه الی شیء آخر وراء ذاته المتعالیه و من غیر تخلف و لا مهل.

قوله تعالی: فَسُبْحٰانَ الَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ الملکوت مبالغه فی معنی الملک کالرحموت و الرهبوت فی معنی الرحمه و الرهبه.

و انضمام الآیه الی ما قبلها یعطی أن المراد بالملکوت الجهه التالیه له تعالی من وجهی وجود الأشیاء،و بالملک الجهه التالیه للخلق أو الأعم الشامل للوجهین.و علیه یحمل قوله تعالی:

وَ کَذٰلِکَ نُرِی إِبْرٰاهِیمَ مَلَکُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِیَکُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ (الأنعام/۷۵).

و قوله: أَ وَ لَمْ یَنْظُرُوا فِی مَلَکُوتِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (الأعراف/۱۸۵)و قوله: قُلْ مَنْ بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ (المؤمنون/۸۸).

و جعل الملکوت بیده تعالی للدلاله علی أنه متسلط علیها لا نصیب فیها لغیره.

۱- ۱) .البقره:۱۷،آل عمران:۴۷،مریم:۳۵،المؤمن:۶۸.

۲- ۲) .فإن هذه الاراده صفه فعلیه خارجه عن الذات منتزعه عن مقام الفعل.

و مآل المعنى فى قوله: «فَسُبْحانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ» تنزيهه تعالى عما استبعدوا منكرين للمعاد لغفلتهم عن أن ملكوت كل شىء بيده و فى قبضته.

و قوله: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ خطاب لعامه الناس من مؤمن و مشرك،و بيان لنتيجه البيان السابق بعد التنزيه (۱).

ص: ۲۸۲

---

۱ – ۱) .يس ۶۶-۸۳:بحث روائى حول قوله تعالى: «وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ الشِّعْرَ وَ مٰا يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ» ؛ احياء الموتى؛مكان روح المحسن و المسىء بعد الموت».

سوره الصافات مکیه و هی مائه و اثنان و ثمانون آیه

اشاره

[سوره الصافات (۳۷): الآیات ۱ الی ۱۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;وَ اَلصَّافّاتِ صَفًّا (۱) فَالزّاجِراتِ زَجْراً (۲) فَالتّالِیاتِ ذِکْراً (۳) إِنَّ إِلهَکُمْ لَواحِدٌ (۴) رَبُّ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما وَ رَبُّ اَلْمَشارِقِ (۵) إِنّا زَیَّنَّا اَلسَّماءَ اَلدُّنْیا بِزِینَهٍ اَلْکَواکِبِ (۶) وَ حِفْظاً مِنْ کُلِّ شَیْطانٍ مارِدٍ (۷) لا یَسَّمَّعُونَ إِلَی اَلْمَلَإِ اَلْأَعْلی وَ یُقْذَفُونَ مِنْ کُلِّ جانِبٍ (۸) دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (۹) إِلاّ مَنْ خَطِفَ اَلْخَطْفَهَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (۱۰) فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِینٍ لازِبٍ (۱۱)

بیان:

فی السوره احتجاج علی التوحید،و إنذار للمشرکین و تبشیر للمخلصین من المؤمنین، و بیان ما یئول الیه حال کل من الفریقین ثم ذکر عده من عباده المؤمنین ممن من اللّه علیهم و قضی أن ینصرهم علی عدوهم،و فی خاتمه السوره ما هو بمنزله محصل الغرض منها و هو تنزیهه السلام علی عباده المرسلین و تحمیده تعالی فیما فعل و السوره مکیه بشهاده سیاقها.

قوله تعالی: وَ الصَّافّٰاتِ صَفًّا، فَالزّٰاجِرٰاتِ زَجْراً، فَالتّٰالِیٰاتِ ذِکْراً الصافات-علی ما قیل-جمع صافه و هی جمع صاف،و المراد بها علی أی حال الجماعه التی تصطف أفرادها و الزاجرات من الزجر و هو الصرف عن الشیء بالتخویف بذم أو عقاب و التالیات من التلاوه بمعنی القراءه.

و قد أقسم اللّه تعالی بهذه الطوائف الثلاث:الصافات و الزاجرات و التالیات و قد اختلفت کلماتهم فی المراد بها:

فأما الصافات فقیل:إن المراد بها الملائکه تصف أنفسها فی السماء صفوفا کصفوف المؤمنین فی الصلاه،و قیل:إنها الملائکه تصف أجنحتها فی الهواء إذا أرادت النزول الی الأرض واقفه فی انتظار أمر اللّه تعالی،و قیل:إنها الجماعه من المؤمنین یقومون فی الصلاه أو فی الجهاد مصطفین.

و أما الزاجرات فقیل:إنها الملائکه تزجر العباد عن المعاصی فیوصله اللّه الی قلوب الناس فی صوره الخطرات کما یوصل وساوس الشیاطین،و قیل:إنها الملائکه الموکله بالسحاب تزجرها و تسوقها الی حیث أراد اللّه سبحانه،و قیل:هی زواجر القرآن و هی آیاته الناهیه عن القبائح،و قیل:هم المؤمنون یرفعون أصواتهم بالقرآن عند قراءته فیزجرون

الناس عن المنهیات.

و أما التالیات فقیل:هم الملائکه یتلون الوحی علی النبی الموحی الیه،و قیل:هی الملائکه تتلو الکتاب الذی کتبه اللّه و فیها ذکر الحوادث،و قیل:جماعه قراء القرآن یتلونه فی الصلاه.

و یحتمل-و اللّه العالم-أن یکون المراد بالطوائف الثلاث المذکوره فی الآیات طوائف الملائکه النازلین بالوحی المأمورین بتأمین الطریق و دفع الشیاطین عن المداخله فیه و إیصاله الی النبی مطلقا أو خصوص محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما یستفاد من قوله تعالی: عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ وَ أَحٰاطَ بِمٰا لَدَیْهِمْ (الجن۲۸/).

و علیه فالمعنی أقسم بالملائکه الذین یصفون فی طریق الوحی صفا فبالذین یزجرون الشیاطین و یمنعونهم عن المداخله فی الوحی فبالذین یتلون علی النبی الذکر و هو مطلق الوحی أو خصوص القرآن کما یؤیده التعبیر عنه بتلاوه الذکر.

و یؤید ما ذکرنا وقوع حدیث رمی الشیاطین بالشهب بعد هذه الآیات،و کذا قوله بعد:

«فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنٰا» الآیه؛کما سنشیر الیه.

و لا ینافی ذلک إسناد النزول بالقرآن الی جبریل وحده فی قوله: مَنْ کٰانَ عَدُوًّا لِجِبْرِیلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلیٰ قَلْبِکَ (البقره۹۷/)و قوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ عَلیٰ قَلْبِکَ (الشعراء/ ۱۹۴)لأن الملائکه المذکورین أعوان جبریل فنزولهم به نزوله به و قد قال تعالی: فِی صُحُفٍ مُکَرَّمَهٍ مَرْفُوعَهٍ مُطَهَّرَهٍ بِأَیْدِی سَفَرَهٍ کِرٰامٍ بَرَرَهٍ (عبس۱۶/)،و قال حکایه عنهم:

وَ مٰا نَتَنَزَّلُ إِلاّٰ بِأَمْرِ رَبِّکَ (مریم۶۴/)،و قال: وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الصّٰافُّونَ وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (الصافات۱۶۶/)و هذا کنسبه التوفی الی الرسل من الملائکه فی قوله: حَتّٰی إِذٰا جٰاءَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا (الأنعام۶۱/)و الی ملک الموت و هو رئیسهم فی قوله:

قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکَمْ (السجده۱۱/).

و لا ضیر فی التعبیر عن الملائکه بلفظ الإناث:الصافات و الزاجرات و التالیات لأن موصوفها الجماعه،و التأنیث لفظی.

و هذه أول سوره فی القرآن صدرت بالقسم و قد اقسم اللّه سبحانه فی کلامه بکثیر من خلقه کالسماء و الأرض و الشمس و القمر و النجم و اللیل و النهار و الملائکه و الناس و البلاد و الأثمار،و لیس ذلک إلا لما فیها من الشرف باستناد خلقها الیه تعالی و هو قیومها المنبع لکل شرف و بهاء.

قوله تعالی: إِنَّ إِلٰهَکُمْ لَوٰاحِدٌ الخطاب لعامه الناس و هو مقسم به،و هو کلام مسوق بدلیل کما سیأتی.

قوله تعالی: رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا وَ رَبُّ الْمَشٰارِقِ خبر بعد خبر لأن،أو خبر لمبتدإ محذوف و التقدیر هو رب السماوات،الخ؛أو بدل من واحد.

و فی سوق الأوصاف إشعار بعله کون الإله واحدا کما أن خصوصیه القسم مشعر بعله کونه رب السماوات و الأرض و ما بینهما.

کأنه قیل إن إلهکم لواحد لأن الملاک فی الوهیه الإله و هی کونه معبودا بالحق أن یکون ربا یدبر الأمر علی ما تعترفون و هو سبحانه رب السماوات و الأرض و ما بینهما الذی یدبر أمرها و یتصرف فی جمیعها.

و کیف لا؟و هو تعالی یوحی الی نبیه فیتصرف فی السماء و سکانها بإرسال ملائکه یصطفون بینها و بین الأرض و هناک مجال الشیاطین فیزجرونهم و هو تصرف منه فیما بین السماء و الأرض و فی الشیاطین ثم یتلون الذکر علی نبیه و فیه تکمیل للناس و تربیه لهم سواء صدقوا أم کذبوا ففی الوحی تصرف منه فی السماوات و الأرض و ما بینهما فهو علی وحدانیته رب الجمیع المدبر لأمرها و الإله الواحد.

و قوله: وَ رَبُّ الْمَشٰارِقِ أی مشارق الشمس باختلاف الفصول أو المراد مشارق مطلق النجوم أو مطلق المشارق،و فی تخصیص المشارق بالذکر مناسبه لطلوع الوحی بملائکته من السماء و قد قال تعالی: وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِینِ (التکویر۲۳/)،و قال: وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلیٰ (النجم۷/).

قوله تعالی: إِنّٰا زَیَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْیٰا بِزِینَهٍ الْکَوٰاکِبِ المراد بالزینه ما یزین به، و الکواکب بیان أو بدل من الزینه و قد تکرر حدیث تزیین السماء الدنیا بزینه الکواکب فی کلامه کقوله: وَ زَیَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْیٰا بِمَصٰابِیحَ (حم السجده۱۲/)و قوله: وَ لَقَدْ زَیَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْیٰا بِمَصٰابِیحَ (الملک۵/)،و قوله: أَ فَلَمْ یَنْظُرُوا إِلَی السَّمٰاءِ فَوْقَهُمْ کَیْفَ بَنَیْنٰاهٰا وَ زَیَّنّٰاهٰا (ق/ ۶).

و لا یخلو من ظهور فی کون السماء الدنیا من السماوات السبع التی یذکرها القرآن هو عالم الکواکب فوق الأرض و إن وجهه بعضهم بما یوافق مقتضی الهیئه القدیمه أو الجدیده.

قوله تعالی: وَ حِفْظاً مِنْ کُلِّ شَیْطٰانٍ مٰارِدٍ حفظا مفعول مطلق لفعل محذوف و التقدیر و حفظناها حفظا من کل شیطان مارد،و المراد بالشیطان الشریر من الجن و المارد الخبیث العاری من الخیر.

قوله تعالی: لاٰ یَسَّمَّعُونَ إِلَی الْمَلَإِ الْأَعْلیٰ وَ یُقْذَفُونَ مِنْ کُلِّ جٰانِبٍ أصل «لاٰ یَسَّمَّعُونَ» لا یتسمعون و التسمع الإصغاء،و هو کنایه عن کونهم ممنوعین مدحورین و بهذه العنایه صار وصفا لکل شیطان و لو کان بمعنی الإصغاء صریحا أفاد لغوا من الفعل إذ لو کانوا لا یصغون لم یکن وجه لقذفهم.

و الملأ من الناس الأشراف منهم الذین یملئون العیون،و الملأ الأعلی هم الذین یرید الشیاطین التسمّع الیهم و هم الملائکه الکرام الذین هم سکنه السماوات العلی-علی ما یدل علیه کلامه تعالی کقوله: لَنَزَّلْنٰا عَلَیْهِمْ مِنَ السَّمٰاءِ مَلَکاً رَسُولاً (الإسراء۹۵/).

ص: ۲۸۷

و قصدهم من التسمع الى الملأ الأعلى الاطلاع على أخبار الغيب المستورده عن هذا العالم الأرضى كالحوادث المستقبله و الأسرار المكنونه كما يشير اليه قوله تعالى: وَ مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَ مَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (الشعراء/٢١٢)، و قوله حكايه عن الجن: وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً (الجن/٩).

و قوله: وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ القذف الرمى و الجانب الجهه.

قوله تعالى: دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ الدحور الطرد و الدفع،و هو مصدر بمعنى المفعول منصوب حالا أى مدحورين أو مفعول له أو مفعول مطلق،و الواصب الواجب اللازم.

قوله تعالى: إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ الخطفه الاختلاس و الاستلاب،و الشهاب ما يرى فى الجو كالكوكب المنقض،و الثقوب الركوز و سمى الشهاب ثاقبا لأنه لا يخطئ هدفه و غرضه.

و المراد بالخطفه اختلاس السمع و قد عبر عنه فى موضع آخر باستراق السمع قال تعالى:

إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (الحجر/١٨)،و الاستثناء من ضمير الفاعل فى قوله: «لاَ يَسَّمَّعُونَ» و جوّز بعضهم كون الاستثناء منقطعا.

و معنى الآيات الخمس:إنا زينا السماء التى هى أقرب السماوات منكم-أو السماء السفلى بزينه و هى الكواكب،و حفظناها حفظا من كل شيطان خبيث عار من الخير ممنوعين من الإصغاء الى الملأ الأعلى-للاطلاع الى ما يلقون بين أنفسهم من أخبار الغيب-و يرمون من كل جهه حال كونهم مطرودين و لهم عذاب لازم لا يفارقهم إلا من اختلس من أخبارهم

الاختلاسه فأتبعه شهاب ثاقب لا يخطئ غرضه (۱).

[سوره الصافات (۳۷): الآيات ۱۲ الی ۷۰]

بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ (۱۲) وَ إِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (۱۳) وَ إِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (۱۴) وَ قالُوا إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ (۱۵) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنّا لَمَبْعُوثُونَ (۱۶) أَ وَ آباؤُنَا اَلْأَوَّلُونَ (۱۷) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ (۱۸) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (۱۹) وَ قالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ اَلدِّينِ (۲۰) هذا يَوْمُ اَلْفَصْلِ اَلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۲۱) اُحْشُرُوا اَلَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ (۲۲) مِنْ دُونِ اَللّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ اَلْجَحِيمِ (۲۳) وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (۲۴) ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (۲۵) بَلْ هُمُ اَلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (۲۶) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۲۷) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ اَلْيَمِينِ (۲۸) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (۲۹) وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (۳۰) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنّا لَذائِقُونَ (۳۱) فَأَغْوَيْناكُمْ إِنّا كُنّا غاوِينَ (۳۲) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي اَلْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (۳۳) إِنّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (۳۴) إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ اَللّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (۳۵) وَ يَقُولُونَ أَ إِنّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (۳۶) بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ اَلْمُرْسَلِينَ (۳۷) إِنَّكُمْ لَذائِقُوا اَلْعَذابِ اَلْأَلِيمِ (۳۸) وَ ما تُجْزَوْنَ إِلاّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۹) إِلاّ عِبادَ اَللّهِ اَلْمُخْلَصِينَ (۴۰) أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (۴۱) فَواكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (۴۲) فِي جَنّاتِ اَلنَّعِيمِ (۴۳) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (۴۴) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۴۵) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشّارِبِينَ (۴۶) لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (۴۷) وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ اَلطَّرْفِ عِينٌ (۴۸) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (۴۹) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۵۰) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (۵۱) يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ اَلْمُصَدِّقِينَ (۵۲) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنّا لَمَدِينُونَ (۵۳) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (۵۴) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ اَلْجَحِيمِ (۵۵) قالَ تَاللّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (۵۶) وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ اَلْمُحْضَرِينَ (۵۷) أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (۵۸) إِلاّ مَوْتَتَنَا اَلْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۵۹) إِنَّ هذا لَهُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (۶۰) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ اَلْعامِلُونَ (۶۱) أَ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ اَلزَّقُّومِ (۶۲) إِنّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظّالِمِينَ (۶۳) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ اَلْجَحِيمِ (۶۴) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ اَلشَّياطِينِ (۶۵) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا اَلْبُطُونَ (۶۶) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (۶۷) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى اَلْجَحِيمِ (۶۸) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (۶۹) فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (۷۰)

۱- ۱) .الصافات ۱-۱۱:کلام فی معنی الشهب.

بیان:

قوله تعالی: بَلْ عَجِبْتَ وَ یَسْخَرُونَ وَ إِذا ذُکِّرُوا لا یَذْکُرُونَ أی بل عجبت یا محمد من تکذیبهم إیاک مع دعوتک إیاهم الی کلمه الحق،و هم یسخرون و یهزءون من تعجبک منهم أو من دعائک إیاهم الی الحق،و إذا ذکروا بآیات اللّه الداله علی التوحید و دین الحق لا یذکرون و لا یتنبهون.

قوله تعالی: وَ إِذا رَأَوْا آیَهً یَسْتَسْخِرُونَ فی مجمع البیان:سخر و استخر بمعنی واحد.انتهی.

و المعنی:و إذا رأوا هؤلاء المشرکون آیه معجزه من آیات اللّه المعجزه کالقرآن و شق القمر و یستهزءون بها.

قوله تعالی: وَ قالُوا إِنْ هٰذا إِلاّ سِحْرٌ مُبِینٌ فی إشارتهم الی الآیه بلفظه هذا إشعار منهم أنهم لا یفقهون منها إلا أنها شیء ما من غیر زیاده و هو من أقوی الإهانه و الاستسخار.

قوله تعالی: أَ إِذا مِتْنا وَ کُنّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنّا لَمَبْعُوثُونَ أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ إنکار منهم للبعث مبنی علی الاستبعاد فمن المستبعد عند الوهم أن یموت الإنسان

ص: ۲۹۲

فيتلاشى بدنه و يعود ترابا و عظاما ثم يعود الى صورته الاولى.

و من الدليل على أن الكلام مسوق لإفاده الاستبعاد تكرارهم الاستفهام الإنكارى بالنسبه الى آبائهم الأولين فإن استبعاد الوهم لبعثهم و قد انمحت رسومهم و لم يبق منهم إلا أحاديث أشد و أقوى من استبعاده بعثهم أنفسهم.

و لو كان إنكارهم البعث مبنيا على أنهم ينعدمون بالموت فتستحيل إعادتهم كان الحكم فيهم و فى آبائهم على نهج واحد و لم يحتج الى تجديد استفهام بالنسبه الى آبائهم.

قوله تعالى: قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ دٰاخِرُونَ فَإِنَّمٰا هِيَ زَجْرَةٌ وٰاحِدَةٌ فَإِذٰا هُمْ يَنْظُرُونَ أمر تعالى نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يجيبهم بأنهم مبعوثون.

و قوله: وَ أَنْتُمْ دٰاخِرُونَ أى صاغرون مهانون أذلاء،و هذا فى الحقيقه احتجاج بعموم القدره و نفوذ الإراده من غير مهله،فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون و لذا عقبه بقوله: «فَإِنَّمٰا هِيَ زَجْرَةٌ وٰاحِدَةٌ فَإِذٰا هُمْ يَنْظُرُونَ» و قد قال تعالى: وَ لِلّٰهِ غَيْبُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا أَمْرُ السّٰاعَةِ إِلاّٰ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (النحل/ ٧٧).

و قوله: فَإِنَّمٰا هِيَ زَجْرَةٌ وٰاحِدَةٌ الخ؛الفاء لإفاده التعليل و الجمله تعليل لقوله:

«وَ أَنْتُمْ دٰاخِرُونَ» و فى التعبير بزجره إشعار باستذلالهم.

قوله تعالى: وَ قٰالُوا يٰا وَيْلَنٰا هٰذٰا يَوْمُ الدِّينِ هٰذٰا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ معطوف على قوله: «يَنْظُرُونَ» المشعر بأنهم مبهوتون مدهوشون متفكرون ثم يتنبهون بكونه يوم البعث فيه الدين و الجزاء و هم يحذرون منه بما كفروا و كذبوا و لذا قالوا:يوم الدين،و لم يقولوا يوم البعث،و التعبير بالماضى لتحقق الوقوع.

و قوله: هٰذٰا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ قيل هو كلام بعضهم لبعض و قيل:كلام الملائكه أو كلامه تعالى لهم،و يؤيده الآيه التاليه،و الفصل هو التمييز بين الشيئين

و سمی یوم الفصل لکونه یوم التمییز بین الحق و الباطل بقضائه و حکمه تعالی أو التمییز بین المجرمین و المتقین قال تعالی: وَ امْتٰازُوا الْیَوْمَ أَیُّهَا الْمُجْرِمُونَ (یس۵۹/).

قوله تعالی: اُحْشُرُوا الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ مٰا کٰانُوا یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَاهْدُوهُمْ إِلیٰ صِرٰاطِ الْجَحِیمِ من کلامه تعالی للملائکه و المعنی و قلنا للملائکه:احشروهم و قیل:هو من کلام الملائکه بعضهم لبعض.

و الحشر-علی ما ذکره الراغب-إخراج الجماعه عن مقرّهم و إزعاجهم عنه الی الحرب و نحوها.

و المراد بالذین ظلموا علی ما یؤیده آخر الآیه المشرکون و لا کل المشرکین بل المعاندون للحق الصادّون عنه منهم قال تعالی: فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَیْنَهُمْ أَنْ لَعْنَهُ اللّٰهِ عَلَی الظّٰالِمِینَ اَلَّذِینَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ وَ یَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ کٰافِرُونَ (الأعراف۴۵/)، و التعبیر بالماضی فی المقام یفید فائده الوصف فلیس المراد بالذین ظلموا من تحقق منه ظلم ما و لو مره واحده بل تعریف لهم بحاصل ما اکتسبوا فی حیاتهم الدنیا کما لو قیل:ما ذا فعل فلان فی حیاته فیقال ظلم،فالفعل یفید فائده الوصف،و فی کلامه تعالی من ذلک شیء کثیر کقوله تعالی: وَ سِیقَ الَّذِینَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَی الْجَنَّهِ زُمَراً (الزمر۷۳/)و قوله: وَ سِیقَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِلیٰ جَهَنَّمَ زُمَراً (الزمر ۷۱/)و قوله: لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا الْحُسْنیٰ وَ زِیٰادَهٌ (یونس/ ۲۶).

و قوله: وَ أَزْوٰاجَهُمْ الظاهر أن المراد به قرناؤهم من الشیاطین قال تعالی: وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطٰاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ -الی أن قال- حَتّٰی إِذٰا جٰاءَنٰا قٰالَ یٰا لَیْتَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ بُعْدَ الْمَشْرِقَیْنِ فَبِئْسَ الْقَرِینُ (الزخرف۳۸/).

و قوله: وَ مٰا کٰانُوا یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ الظاهر أن المراد به الأصنام التی یعبدونها نظرا الی ظاهر «مٰا» فالآیه نظیره قوله: إِنَّکُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ

جَهَنَّمَ (الأنبياء۹۸/).

و يمكن أن يكون المراد بلفظه «مَا» ما يعم اولى العقل من المعبودين كالفراعنه و النمارده، و أما الملائكه المعبودون و المسيح عليه السّلام فيخرجهم من العموم قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنىٰ أُولٰئِكَ عَنْهٰا مُبْعَدُونَ (الأنبياء۱۰۱/).

و قوله: فَاهْدُوهُمْ إِلىٰ صِرٰاطِ الْجَحِيمِ الجحيم من أسماء جهنم فى القرآن و هو من الجحمه بمعنى شده تأجج النار على ما ذكره الراغب.

و المراد بهدايتهم الى صراطها إيصالهم اليه و إيقاعهم فيه بالسوق،و قيل:تسميه ذلك بالهدايه من الاستهزاء،و قال فى مجمع البيان:إنما عبر عن ذلك بالهدايه من حيث كان بدلا من الهدايه الى الجنه كقوله: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ من حيث إن هذه البشاره وقعت لهم بدلا من البشاره بالنعيم.انتهى.

قوله تعالى: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ مٰا لَكُمْ لاٰ تَنٰاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ قال فى المجمع يقال:وقفت أنا و وقفت غيرى- أى يعدّى و لا يعدى- و بعض بنى تميم يقول:أوقفت الدابه و الدار.انتهى.

فقوله: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ أى احبسوهم لأنهم مسئولون أى حتى يسأل عنهم.و السياق يعطى أن هذا الأمر بالوقوف و السؤال إنما يقع فى صراط الجحيم.

فالسؤال عن عدم تناصرهم سؤال عن سبب الاستكبار الذى كانوا عليه فى الدنيا فقد تبين به أن المسئول عنه هو كل حق أعرضوا عنه فى الدنيا من اعتقاد حق أو عمل صالح استكبارا على الحق تظاهرا بالتناصر.

قوله تعالى: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَسٰاءَلُونَ -الى قوله- إِنّٰا كُنّٰا غٰاوِينَ تخاصم واقع بين الأتباع و المتبوعين يوم القيامه،و التعبير عنه بالتساؤل لأنه فى معنى سؤال بعضهم بعضا تلاوما و تعاتبا يقول التابعون لمتبوعيهم:لم أضللتمونا؟فيقول

المتبوعون:لم قبلتم منا و لا سلطان لنا عليكم؟

فقوله: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَسٰاءَلُونَ البعض الأول هم المعترضون و البعض الثانى المعترض عليهم كما يعطيه سياق التساؤل و تساؤلهم تخاصمهم.

و قوله: قٰالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنٰا عَنِ الْيَمِينِ أى من جهه الخير و السعاده فاستعمال اليمين فيها شائع كثير كقوله: وَ أَصْحٰابُ الْيَمِينِ مٰا أَصْحٰابُ الْيَمِينِ (الواقعه/۲۷) و المعنى أنكم كنتم تأتوننا من جهه الخير و السعاده فتقطعون الطريق و تحولون بيننا و بين الخير و السعاده و تضلوننا.

و قيل:المراد باليمين الدين و هو قريب من الوجه السابق،و قيل:المراد باليمين القهر و القوه كما فى قوله تعالى: فَرٰاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (الصافات/۹۳)و لا يخلو من وجه نظرا الى جواب المتبوعين.

و قوله: قٰالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَ مٰا كٰانَ لَنٰا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ -الى قوله- غٰاوِينَ جواب المتبوعين بتبرئه أنفسهم من إشقاء التابعين و أن جرمهم مستند الى سوء اختيار أنفسهم.

فقالوا:بل لم تكونوا مؤمنين أى لم نكن نحن السبب الموجب لإجرامكم و هلاككم بخلوكم عن الإيمان بل لم تكونوا مؤمنين لا أنا جردناكم من الإيمان.

ثم قالوا: «وَ مٰا كٰانَ لَنٰا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ» و هو فى معنى الجواب على فرض التسليم كأنه قيل:و لو فرض أنه كان لكم إيمان فما كان لنا عليكم من سلطان حتى نسلبه منكم و نجردكم منه.على أن سلطان المتبوعين إنما هو بالتابعين فهم الذين يعطونهم السلطه و القوه فيتسلطون عليهم أنفسهم.

ثم قالوا: «بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طٰاغِينَ» و الطغيان هو التجاوز عن الحد و هو إضراب عن قوله:

«لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» كأنه قيل:و لم يكن سبب هلاككم مجرد الخلو من الإيمان بل كنتم قوما

طاغين كما كنا مستكبرين طاغين فتعاضدنا جميعا على ترك سبيل الرشد و اتخاذ سبيل الغى فحق علينا كلمه العذاب التى قضى بها اللّه سبحانه قال تعالى: إِنَّ جَهَنَّمَ كٰانَتْ مِرْصٰاداً لِلطّٰاغِينَ مَآباً (النبأ٢٢/)و قال: فَأَمّٰا مَنْ طَغىٰ وَ آثَرَ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوىٰ (النازعات٣٩/).

و لهذا المعنى عقّب قوله: «بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طٰاغِينَ» بقوله: «فَحَقَّ عَلَيْنٰا قَوْلُ رَبِّنٰا إِنّٰا لَذٰائِقُونَ» أى لذائقون العذاب.

ثم قالوا: «فَأَغْوَيْنٰاكُمْ إِنّٰا كُنّٰا غٰاوِينَ» و هو متفرع على ثبوت كلمه العذاب و آخر الأسباب لهلاكهم فإن الطغيان يستتبع الغوايه ثم نار جهنم،قال تعالى لإبليس: إِنَّ عِبٰادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلاّٰ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغٰاوِينَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر / ۴۳).

فكأنه قيل:فلما تلبستم بالطغيان حل بكم الغوايه بأيدينا من غير سلطان لنا عليكم إلا اتباعكم لنا و اتصالكم بنا فسرى اليكم ما فينا من الصفه و هى الغوايه فالغاوى لا يتأتى منه إلا الغوايه و الإناء لا يتشرح منه إلا ما فيه،و بالجمله إنكم لم تجبروا و لم تسلبوا الاختيار منذ بدأتم فى سلوك سبيل الهلاك الى أن وقعتم فى ورطته و هى الغوايه فحق عليكم القول.

قوله تعالى: فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ -الى قوله- يَسْتَكْبِرُونَ ضمير «فَإِنَّهُمْ» للتابعين و المتبوعين فهم مشتركون فى العذاب لاشتراكهم فى الظلم و تعاونهم على الجرم من غير مزيه لبعضهم على بعض.

و استظهر بعضهم أن المغوين أشد عذابا و ذلك فى مقابله أوزارهم و أوزار أمثال أوزارهم فالشركه لا تقتضى المساواه و الحق أن الآيات مسوقه لبيان اشتراكهم فى الظلم و الجرم و العذاب اللاحق بهم من قبله،و يمكن مع ذلك أن يلحق بكل من المتبوعين و التابعين ألوان من العذاب ناشئه عن خصوص شأنهم قال تعالى: وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقٰالَهُمْ وَ أَثْقٰالاً مَعَ أَثْقٰالِهِمْ

(العنکبوت/١٣)،و قال: رَبَّنا هٰؤُلاٰءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذٰاباً ضِعْفاً مِنَ النّٰارِ قٰالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لٰكِنْ لاٰ تَعْلَمُونَ (الاعراف/٣٨).

و قوله: إِنّٰا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ تأکید لتحقیق العذاب،و المراد بالمجرمین المشرکون بدلیل قوله بعد: «إِنَّهُمْ كٰانُوا إِذٰا قِيلَ لَهُمْ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ يَسْتَكْبِرُونَ» أی إذا عرض علیهم التوحید أن یؤمنوا به أو کلمه الإخلاص أن یقولوها استمروا علی استکبارهم و لم یقبلوا.

قوله تعالی: وَ يَقُولُونَ أَ إِنّٰا لَتٰارِكُوا آلِهَتِنٰا لِشٰاعِرٍ مَجْنُونٍ بَلْ جٰاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ قولهم هذا إنکار منهم للرساله بعد استکبارهم عن التوحید و انکارهم له.و قوله: «بَلْ جٰاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ» رد لقولهم: «لِشٰاعِرٍ مَجْنُونٍ» حیث رموه علیه السّلام بالشعر و الجنون و فیه رمی لکتاب اللّه بکونه شعرا و من هفوات الجنون فرد علیهم بأن ما جاء به حق و فیه تصدیق الرسل السابقین فلیس بباطل من القول کالشعر و هفوه الجنون و لیس ببدع غیر مسبوق فی معناه.

قوله تعالی: إِنَّكُمْ لَذٰائِقُوا الْعَذٰابِ الْأَلِيمِ تهدید لهم بالعذاب لاستکبارهم و رمیهم الحق بالباطل.

قوله تعالی: وَ مٰا تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أی لا ظلم فیه لأنه نفس عملکم یرد الیکم.

قوله تعالی: إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ -الی قوله- بَيْضٌ مَكْنُونٌ استثناء منقطع من ضمیر «لَذٰائِقُوا» أو من ضمیر «مٰا تُجْزَوْنَ» و لکل وجه و المعنی علی الأول لکن عباد اللّه المخلصین أولئک لهم رزق معلوم و لیسوا بذائقی العذاب الألیم و المعنی علی الثانی لکن عباد اللّه المخلصین أولئک لهم رزق معلم وراء جزاء عملهم و سیجیء الإشاره الی معناه.

و احتمال کون الاستثناء متصلا ضعیف لا یخلو من تکلف.

و قد سماهم اللّه سبحانه عباد اللّه المخلصین فأثبت لهم عبودیه نفسه و العبد هو الذی لا یملک

لنفسه شيئا من إراده و لا عمل فهؤلاء لا يريدون إلا ما أراده اللّه و لا يعملون إلا له.

ثم أثبت لهم أنهم مخلصون بفتح اللام أى إن اللّه تعالى أخلصهم لنفسه فلا يشاركه فيهم أحد فلا تعلق لهم بشىء غيره تعالى من زينه الحياه الدنيا و لا من نعم العقبى و ليس فى قلوبهم إلا اللّه سبحانه.

و من المعلوم أن من كانت هذه صفته كان التذاذه و تنعمه غير ما يلتذ و يتنعم غيره و ارتزاقه بغير ما يرتزق به سواه و إن شاركهم فى ضروريات المأكل و المشرب و من هنا يتأيد أن المراد بقوله: «أُولٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ» الإشاره الى أن رزقهم فى الجنه-و هم عباد مخلصون-رزق خاص لا يشبه رزق غيرهم و لا يختلط بما يتمتع به من دونهم و إن اشتركا فى الاسم.

فقوله: أُولٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ أى رزق خاص متعين ممتاز من رزق غيرهم فكونه معلوما كنايه عن امتيازه كما فى قوله: وَ مٰا مِنّٰا إِلاّٰ لَهُ مَقٰامٌ مَعْلُومٌ (الصافات/ ۱۶۴)و الإشاره بلفظ البعيد للدلاله على علو مقامهم.

و أما ما فسره بعضهم أن المراد بكون رزقهم معلوما كونه معلوم الخصائص مثل كونه غير مقطوع و لا ممنوع حسن المنظر لذيذ الطعم طيب الرائحه،و كذا ما ذكره آخرون أن المراد أنه معلوم الوقت لقوله: لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهٰا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (مريم۶۲/)و كذا قول القائل:إن المراد به الجنه فهى وجوه غير سديده.

و من هنا يظهر أن أخذ قوله: «إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ» استثناء من ضمير «وَ مٰا تُجْزَوْنَ» لا يخلو من وجه كما تقدمت الإشاره اليه.

و قوله: فَوٰاكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ فِى جَنّٰاتِ النَّعِيمِ الفواكه جمع فاكهه و هى ما يتفكه به من الأثمار بيان لرزقهم المعلوم غير أنه تعالى شفّعه بقوله: «وَ هُمْ مُكْرَمُونَ» للدلاله على امتياز هذا الرزق أعنى الفاكهه مما عند غيرهم بأنها مقارنه لإكرام خاص يخصهم قبال

اختصاصهم باللّه سبحانه و كونه لهم لا يشاركهم فيه شىء.

و فى إضافه الجنات الى النعيم إشاره الى ذلك فقد تقدم فى قوله: فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ الآيه(النساء/۶۹)،و قوله: وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى (المائده/۳)و غيرهما أن حقيقه النعمه هى الولايه و هى كونه تعالى هو القائم بأمر عبده.

و قوله: عَلىٰ سُرُرٍ مُتَقٰابِلِينَ السرر جمع سرير و هو معروف و كونهم متقابلين معناه استئناس بعضهم ببعض و استمتاعهم بنظر بعضهم فى وجه بعض من غير أن يرى بعضهم قفا بعض.

و قوله: يُطٰافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ الكأس إناء الشرب و نقل عن كثير من اللغويين أن إناء الشراب لا يسمى كأسا إلا و فيه الشراب فإن خلا منه فهو قدح و المعين من الشراب الظاهر منه من عان الماء إذا ظهر و جرى على وجه الأرض،و المراد بكون الكأس من معين صفاء الشراب فيها و لذا عقبه بقوله: «بَيْضٰاءَ» .

و قوله: لاٰ فِيهٰا غَوْلٌ وَ لاٰ هُمْ عَنْهٰا يُنْزَفُونَ الغول الإضرار و الإفساد،قال الراغب:الغول إهلاك الشىء من حيث لا يحس به انتهى.فنفى الغول عن الخمر نفى مضارها و الإنزاف فسر بالمسكر المذهب للعقل و أصله إذهاب الشىء تدريجا.

و محصل المعنى:أنه ليس فيها مضار الخمر التى فى الدنيا و لا اسكارها بإذهاب العقل.

و قوله: وَ عِنْدَهُمْ قٰاصِرٰاتُ الطَّرْفِ عِينٌ وصف للحور التى يرزقونها و قصور طرفهن كنايه عن نظرهن نظره الغنج و الدلال و يؤيده ذكر العين بعده و هو جمع عيناء مؤنث أعين و هى الواسعه العين فى جمال.

و قيل:المراد بقاصرات الطرف أنهن قصرن طرفهن على أزواجهن لا يردن غيرهم لحبهن

لهم،و بالعين أن أعينهن شديده فى سوادها شديده فى بياضها.

و قوله: كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ البيض معروف و هو اسم جنس واحدته بيضه و المكنون هو المستور بالادخار قيل:المراد تشبيههن بالبيض الذى كنه الريش فى العش أو غيره فى غيره فلم تمسه الأيدى و لم يصبه الغبار،و قيل:المراد تشبيههن ببطن البيض قبل أن يقشّر و قبل أن تمسه الأيدى.

قوله تعالى: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَسٰاءَلُونَ -الى قوله- فَلْيَعْمَلِ الْعٰامِلُونَ حكايه محادثه تقع بين أهل الجنه فيسأل بعضهم عن أحوال بعض و يحدث بعضهم بما جرى عليه فى الدنيا و تنتهى المحادثه الى تكليمهم بعض أهل النار و هو فى سواء الجحيم.

فقوله: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَسٰاءَلُونَ ضمير الجمع لأهل الجنه من عباد اللّه المخلصين و تساؤلهم-كما تقدم-سؤال بعضهم عن بعض و ما جرى عليه.

و قوله: قٰالَ قٰائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كٰانَ لِي قَرِينٌ أى قال قائل من أهل الجنه المتسائلين إنى كان لى فى الدنيا مصاحب يختص بى من الناس.كذا يعطى السياق.

و قيل:المراد بالقرين القرين من الشياطين و فيه أن القرآن إنما يثبت قرناء الشياطين فى المعرضين عن ذكر اللّه و المخلصون فى عصمه إلهيه من قرين الشياطين و كذا من تأثير الشيطان فيهم كما حكى عن إبليس استثناءهم من الإغواء: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاّ عِبٰادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (ص٨٣/)نعم ربما أمكن أن يتعرض لهم الشيطان من غير تأثير فيهم لكنه غير أثر القرين.

و قوله: يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَدِينُونَ ضمير «يَقُولُ» للقرين،و مفعول «الْمُصَدِّقِينَ» البعث للجزاء و قد قام مقامه قوله: «أَ إِذٰا مِتْنٰا» الخ؛و المدينون المجزيون.

و المعنی:کان یقول لی قرینی مستبعدا منکرا أ إنک لمن المصدقین للبعث للجزاء أ إذا متنا و کنا ترابا و عظاما فتلاشت أبداننا و تغیرت صورها أ إنا لمجزیون بالإحیاء و الإعاده؟فهذا مما لا ینبغی أن یصدق.

و قوله: قٰالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ضمیر «قٰالَ» للقائل المذکور قبلا،و الاطلاع الإشراف و المعنی ثم قال القائل المذکور مخاطبا لمحادثیه من أهل الجنه:هل أنتم مشرفون علی النار حتی تروا قرینی و الحال التی هو فیها؟

و قوله: فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِی سَوٰاءِ الْجَحِیمِ السواء الوسط و منه سواء الطریق أی وسطه و المعنی فأشرف القائل المذکور علی النار فرآه أی قرینه فی وسط الجحیم.

و قوله: قٰالَ تَاللّٰهِ إِنْ کِدْتَ لَتُرْدِینِ «إِنْ» مخففه من القیله،و الإرداء السقوط من مکان عال کالشاهق و یکنی به عن الهلاک و المعنی أقسم باللّه إنک قربت أن تهلکنی و تسقطنی فیما سقطت فیه من الجحیم.

و قوله: وَ لَوْ لاٰ نِعْمَهُ رَبِّی لَکُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِینَ المراد بالنعمه التوفیق و الهدایه الإلهیه،و الإحضار الإشخاص للعذاب قال فی مجمع البیان:و لا یستعمل«أحضر» مطلقا إلا فی الشر.

و المعنی و لو لا توفیق ربی و هدایته لکنت من المحضرین للعذاب مثلک.

و قوله: أَ فَمٰا نَحْنُ بِمَیِّتِینَ إِلاّٰ مَوْتَتَنَا الْأُولیٰ وَ مٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِینَ الاستفهام للتقریر و التعجیب،و المراد بالموته الاولی هی الموته عن الحیاه الدنیا و أما الموته عن البرزخ المدلول علیها بقوله: رَبَّنٰا أَمَتَّنَا اثْنَتَیْنِ وَ أَحْیَیْتَنَا اثْنَتَیْنِ (المؤمن/١١)فلم یعبأ بها لأن الموت الذی یزعم الزاعم فیه الفناء و البطلان هو الموت الدنیوی.

و المعنی-علی ما فی الکلام من الحذف و الإیجاز-ثم یرجع القائل المذکور الی نفسه و أصحابه فیقول متعجبا أ نحن خالدون منعمون فما نحن بمیتین إلا الموته الأولی و ما نحن

بمعذبين؟

قال فى مجمع البيان:و يريـدون به التحقيق لا الشك و إنما قالوا هذا القول لأن لهم فى ذلك سـرورا مجددا و فرحا مضاعفا و إن كان قد عرفوا أنهم سيخلدون فى الجنه و هذا كما أن الرجل يعطى المال الكثير فيقول مستعجبا:كل هذا المال لى؟و هو يعلم أن ذلك له و هذا كقوله:

أ بطحاء مكه هذا الذى

أراه عيانا و هذا أنا؟

قال:و لهذا عقبه بقوله: إِنَّ هٰذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ انتهى.

و قوله: إِنَّ هٰذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ هو من تمام قول القائل المذكور و فيه إعظام لموهبه الخلود و ارتفاع العذاب و شكر للنعمه.

و قوله: لِمِثْلِ هٰذا فَلْيَعْمَلِ الْعٰامِلُونَ ظاهر السياق أنه من قول القائل المـذكور و الإشاره بهـذا الى الفوز أو الثواب أى لمثل هـذا الفوز أو الثواب فليعمل العاملون فى دار التكليف،و قيل:هو من قول اللّه سبحانه و قيل:من قول أهل الجنه.

قوله تعـالى: أَ ذٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ -الى قوله- يُهْرَعُونَ مقايسه بين ما هيأه اللّه نزلا لأهل الجنه مما وصـفه من الرزق الكريم و بين ما أعده نزلا لأهل النار من شجره الزقوم التى طلعها كأنه رءوس الشياطين و شراب من حميم.

فقـوله: أَ ذٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ الإشـاره بـذلك الى الرزق الكريم المـذكوره سابقـا المعـد لـورود أهـل الجنه و النزل بضمتين ما يهيأ لورود الضيف فيقدم اليه إذا ورد من الفواكه و نحوها.

و الزقوم-على ما قيل-اسم شـجره صغيره الورق مره كريهه الرائحه ذات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورم تكون فى تهامه و البلاد المجدبه المجاوره للصحراء سميت به الشجره الموصوفه بما فى الآيه من الأوصاف،و قيل:إن قريشا ما كانت تعرفه و سيأتى ذلك فى البحث الروائى.

ص :٣٠٣

و لفظه خير فى الآيه بمعنى الوصف دون التفضيل إذ لا خيريه فى الزقوم أصلا فهو كقوله:

مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ (الجمعه/١١)و الآيه على ما يعطيه السياق من كلامه تعالى.

و قوله: إِنّٰا جَعَلْنٰاهٰا فِتْنَةً لِلظّٰالِمِينَ الضمير لشجره الزقوم،و الفتنه المحنه و العذاب.

و قوله: إِنَّهٰا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ وصف لشجره الزقوم،و أصل الجحيم قعرها،و لا عجب فى نبات شجره فى النار و بقائها فيها فحياه الإنسان و بقاؤها خالدا فيها أعجب و اللّه يفعل ما يشاء.

و قوله: طَلْعُهٰا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيٰاطِينِ الطلع حمل النخله أو مطلق الشجره أول ما يبدو،و تشبيه ثمره الزقوم برءوس الشياطين بعنايه أن الأوهام العاميه تصور الشيطان فى أقبح صوره كما تصور الملك فى أحسن صوره و أجملها قال تعالى: مٰا هٰذٰا بَشَراً إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ مَلَكٌ كَرِيمٌ (يوسف/٣١)،و بذلك يندفع ما قيل:إن الشىء إنما يشبه بما يعرف و لا معرفه لأحد برءوس الشياطين.

و قوله: فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهٰا فَمٰالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ الفاء للتعليل يبين به كونها نزلا للظالمين يأكلون منها،و فى قوله: «فَمٰالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ» إشاره الى تسلط جوع شديد عليهم يحرصون به على الأكل كيفما كان.

و قوله: ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهٰا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ الشوب المزيج و الخليط،و الحميم الماء الحار البالغ فى حرارته،و المعنى ثم إن لاولئك الظالمين-زياده عليها-لخليطا مزيجا من ماء حار بالغ الحراره يشربونه فيختلط به ما ملئوا منه البطون من الزقوم.

و قوله: ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ أى إنهم بعد شرب الحميم يرجعون الى الجحيم فيستقرون فيها و يعذبون،و فى الآيه تلويح الى أن الحميم خارج الجحيم.

و قوله: إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبٰاءَهُمْ ضٰالِّينَ فَهُمْ عَلىٰ آثٰارِهِمْ يُهْرَعُونَ ألفيت كذا

أي وجدته و صادفته،و الإهراع الإسراع و المعنى أن سبب أكلهم و شربهم ثم رجوعهم الى الجحيم أنهم صادفوا آباءهم ضالين- و هم مقلدون و أتباع لهم و هم أصلهم و مرجعهم-فهم يسرعون على آثارهم فجوزوا بنزل كذلك و الرجوع الى الجحيم جزاء وفاقا (۱).

[سوره الصافات (۳۷): الآيات ۷۱ الى ۱۱۳]

وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ اَلْأَوَّلِينَ (۷۱) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (۷۲) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ اَلْمُنْذَرِينَ (۷۳) إِلاّ عِبادَ اَللّهِ اَلْمُخْلَصِينَ (۷۴) وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ اَلْمُجِيبُونَ (۷۵) وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ اَلْكَرْبِ اَلْعَظِيمِ (۷۶) وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ اَلْباقِينَ (۷۷) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي اَلْآخِرِينَ (۷۸) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي اَلْعالَمِينَ (۷۹) إِنّا كَذلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ (۸۰) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا اَلْمُؤْمِنِينَ (۸۱) ثُمَّ أَغْرَقْنَا اَلْآخَرِينَ (۸۲) وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (۸۳) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (۸۴) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (۸۵) أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اَللّهِ تُرِيدُونَ (۸۶) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ اَلْعالَمِينَ (۸۷) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي اَلنُّجُومِ (۸۸) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (۸۹) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (۹۰) فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (۹۱) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (۹۲) فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (۹۳) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (۹۴) قالَ أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (۹۵) وَ اَللّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ (۹۶) قالُوا اِبْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي اَلْجَحِيمِ (۹۷) فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ اَلْأَسْفَلِينَ (۹۸) وَ قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (۹۹) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ اَلصّالِحِينَ (۱۰۰) فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (۱۰۱) فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ اَلسَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي اَلْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اَللّهُ مِنَ اَلصّابِرِينَ (۱۰۲) فَلَمّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (۱۰۳) وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (۱۰۴) قَدْ صَدَّقْتَ اَلرُّؤْيا إِنّا كَذلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ (۱۰۵) إِنَّ هذا لَهُوَ اَلْبَلاءُ اَلْمُبِينُ (۱۰۶) وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (۱۰۷) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي اَلْآخِرِينَ (۱۰۸) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (۱۰۹) كَذلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ (۱۱۰) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا اَلْمُؤْمِنِينَ (۱۱۱) وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ اَلصّالِحِينَ (۱۱۲) وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلى إِسْحاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (۱۱۳)

۱- ۱) .الصافات ۱۲-۷۰:بحث روائى فى مواقف يوم القيامه؛اهل الجنّه و اهل النار؛معنى ذبح الموت يوم القيامه بين الجنه و النار.

بيان:

قوله تعالى: وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ -الى قوله- اَلْمُخْلَصِينَ كلام مسوق لإنذار مشركى هذه الامه بتنظيرهم للامم الهالكين من قبلهم فقد ضل أكثرهم كما ضل هؤلاء و أرسل اليهم رسل منذرون كما أرسل منذر الى هؤلاء فكذبوا فكان عاقبه أمرهم الهلاك إلا المخلصين منهم.

ص :۳۰۷

و اللام فى «لَقَدْ ضَلَّ» للقسم و كذا فى «لَقَدْ أَرْسَلْنا» و المنذرين الأول بكسر الذال المعجمه و هم الرسل و الثانى بفتح الذال المعجمه و هم الامم الأولون،و «إِلاّ عِبادَ اللّهِ» إن كان المراد بهم من فى الامم من المخلصين كان استثناء متصلا و إن عم الأنبياء كان منقطعا إلا بتغليبه غير الأنبياء عليهم و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ اللامان للقسم و هو يدل على كمال العنايه بنداء نوح و إجابته تعالى،و قد مدح تعالى نفسه فى إجابته فإن التقدير فلنعم المجيبون نحن،و جمع المجيب لإفاده التعظيم و قد كان نداء نوح-على ما يفيده السياق- دعاءه على قومه و استغاثته بربه المنقولين فى قوله تعالى: وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً (نوح۲۶/)،و فى قوله تعالى: فَدَعا رَبَّهُ أَنِّی مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (القمر/ ۱۰).

قوله تعالى: وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ الكرب-على ما ذكره الراغب-الغم الشديد و المراد به الطوفان أو أذى قومه،و المراد بأهله أهل بيته و المؤمنون به من قومه و قد قال تعالى فى سوره هود: قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلاّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ (هود۴۰/)و الأهل كما يطلق على زوج الرجل و بنيه يطلق على كل من هو من خاصته.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ أى الباقين من الناس بعد قرنهم و قد بحثنا فى هذا المعنى فى قصه نوح من سوره هود.

قوله تعالى: وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِی الْآخِرِينَ المراد بالترك الإبقاء و بالآخرين الامم الغابره غير الأولين،و قد ذكرت هذه الجمله بعد ذكر إبراهيم عليه السّلام أيضا فى هذه السوره و قد بدلت فى القصه بعينها من سوره الشعراء من قوله: وَ اجْعَلْ لِی لِسانَ صِدْقٍ فِی الْآخِرِينَ (الشعراء۸۴/)و استفدنا منه هناك أن المراد بلسان صدق كذلك أن يبعث اللّه بعده من يقوم

بدعوته و يدعو الى ملته و هى دين التوحيد.

فيتأيد بذلك أن المراد بالإبقاء فى الآخرين هو إحياؤه تعالى دعوه نوح عليه السّلام الى التوحيد و مجاهدته فى سبيل اللّه عصرا بعد عصر و جيلا بعد جيل الى يوم القيامه.

قوله تعالى: سَلاٰمٌ عَلىٰ نُوحٍ فِي الْعٰالَمِينَ المراد بالعالمين جميعها لكونه جمعا محلى باللام مفيدا للعموم،و الظاهر أن المراد به عالمو البشر و اممهم و جماعاتهم الى يوم القيامه فإنه تحيه من عند اللّه مباركه طيبه تهدى اليه من قبل الامم الإنسانيه ما جرى فيها شىء من الخيرات اعتقادا أو عملا فانه عليه السّلام أول من انتهض لدعوه التوحيد و دحض الشرك و ما يتبعه من العمل و قاسى فى ذلك أشد المحنه فيما يقرب من ألف سنه لا يشاركه فى ذلك أحد فله نصيب من كل خير واقع بينهم الى يوم القيامه،و لا يوجد فى كلامه تعالى سلام على هذه السعه على أحد ممن دونه.

و قيل:المراد بالعالمين عوالم الملائكه و الثقلين من الجن و الإنس.

قوله تعالى: إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ تعليل لما امتن عليه من الكرامه كإجابه ندائه و تنجيته و أهله من الكرب العظيم و إبقاء ذريته و تركه عليه فى الآخرين و السلام عليه فى العالمين،و تشبيه جزائه بجزاء عموم المحسنين من حيث أصل الجزاء الحسن لا فى خصوصياته فلا يوجب ذلك اشتراك الجميع فيما اختص به عليه السّلام و هو ظاهر.

قوله تعالى: إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِينَ تعليل لإحسانه المدلول عليه بالجمله السابقه و ذلك لأنه عليه السّلام لكونه عبدا للّه بحقيقه معنى الكلمه كان لا يريد و لا يفعل إلا ما يريده اللّه،و لكونه من المؤمنين حقا كان لا يرى من الاعتقاد إلا الحق و سرى ذلك الى جميع أركان وجوده و من كان كذلك لا يصدر منه إلا الحسن الجميل فكان من المحسنين.

قوله تعالى: ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ثم للتراخى الكلامى دون الزمانى و المراد بالآخرين قومه المشركون.

ص :٣٠٩

قوله تعالی: وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرٰاهِيمَ الشیعه هم القوم المشایعون لغیرهم الذاهبون علی أثرهم و بالجمله کل من وافق غیره فی طریقته فهو من شیعته تقدم أو تأخر قال تعالی: وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مٰا يَشْتَهُونَ كَمٰا فُعِلَ بِأَشْيٰاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ (سبأ/۵۴).

و ظاهر السیاق أن ضمیر «شِيعَتِهِ» لنوح أی إن إبراهیم کان ممن یوافقه فی دینه و هو دین التوحید،و قیل:الضمیر لمحمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لا دلیل علیه من جهه اللفظ.

قیل:و من حسن الإرداف فی نظم الآیات تعقیب قصه نوح علیه السّلام و هو آدم الثانی أبو البشر بقصه إبراهیم علیه السّلام و هو أبو الأنبیاء الیه تنتهی أنساب جل الأنبیاء بعده و علی دینه تعتمد أدیان التوحید الحیه الیوم کدین موسی و عیسی و محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و أیضا نوح علیه السّلام نجاه اللّه من الغرق و إبراهیم علیه السّلام نجاه اللّه من الحرق.

قوله تعالی: إِذْ جٰاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ مجیئه ربه کنایه عن تصدیقه له إیمانه به، و یؤید ذلک أن المراد بسلامه القلب عروه عن کل ما یضر التصدیق و الإیمان باللّه سبحانه من الشرک الجلی و الخفی و مساوی الأخلاق و آثار المعاصی و أی تعلق بغیره ینجذب الیه الإنسان و یختل به صفاء توجهه الیه سبحانه.

و بذلک یظهر أن المراد بالقلب السلیم ما لا تعلق له بغیره تعالی کما فی الحدیث و سیجیء إن شاء اللّه فی البحث الروائی الآتی.

و الظرف فی الآیه متعلق بقوله سابقا: «مِنْ شِيعَتِهِ» و الظروف یغتفر فیها ما لا یغتفر فی غیرها،و قیل متعلق بأذکر المقدر.

قوله تعالی: إِذْ قٰالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مٰا ذٰا تَعْبُدُونَ أی أیّ شیء تعبدون؟و انما سألهم عن معبودهم و هو یری أنهم یعبدون الأصنام تعجبا و استغرابا.

قوله تعالی: أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللّٰهِ تُرِيدُونَ أی تقصدون آلهه دون اللّه افکا و افتراء،انما قدم الإفک و الآلهه لتعلق عنایته بذلک.

قوله تعالى: فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقٰالَ إِنِّي سَقِيمٌ لا شک أن ظاهر الآیتین أن اخباره علیه السّلام بأنه سقیم مرتبط بنظرته فی النجوم و مبنی علیه و نظرته فی النجوم اما لتشخیص الساعه و خصوص الوقت کمن به حمی ذاته نوبه یعین وقتها بطلوع کوکب أو غروبها أو وضع خاص من النجوم و اما للوقوف علی الحوادث المستقبله التی کان المنجمون یرون أن الأوضاع الفلکیه تدل علیها،و قد کان الصابئون مبالغین فیها و کان فی عهده علیه السّلام منهم جم غفیر.

فعلی الوجه الأول لما أراد أهل المدینه أن یخرجوا کافه الی عید لهم نظر الی النجوم و أخبرهم أنه سقیم ستعتریه العله فلا یقدر علی الخروج معهم.

و علی الوجه الثانی نظر علیه السّلام حینذاک الی النجوم نظره المنجمین فأخبرهم أنها تدل علی أنه سیسقم فلیس فی وسعه الخروج معهم.

و أول الوجهین أنسب لحاله علیه السّلام و هو فی إخلاص التوحید بحیث لا یری لغیره تعالی تأثیرا،و لا دلیل لنا قویا یدل علی أنه علیه السّلام لم یکن به فی تلک الأیام سقم أصلا،و قد أخبر القرآن بإخباره بأنه سقیم و ذکر سبحانه قبیل ذلک أنه جاء ربه بقلب سلیم فلا یجوز علیه کذب و لا لغو من القول.

قوله تعالی: فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ضمیر الجمع للقوم و ضمیر الإفراد لإبراهیم علیه السّلام أی خرجوا من المدینه و خلفوه.

قوله تعالی: فَرٰاغَ إِلىٰ آلِهَتِهِمْ فَقٰالَ أَ لاٰ تَأْكُلُونَ مٰا لَكُمْ لاٰ تَنْطِقُونَ الروغ و الرواغ و الروغان الحیاد و المیل،و قیل أصله المیل فی جانب لیخدع من یریده.

و فی قوله: «أَ لاٰ تَأْكُلُونَ» ؟تأیید لما ذکروا أن المشرکین کانوا یضعون أیام أعیادهم طعاما عند آلهتهم.

و قوله: «أَ لاٰ تَأْكُلُونَ؟ مٰا لَكُمْ لاٰ تَنْطِقُونَ» ؟تکلیم منه لآلهتهم و هی جماد و هو یعلم أنها

جماد لا تأكل و لا تنطق لكن الوجد و شده الغيظ حمله على أنه يمثل موقفها موقف العقلاء ثم يؤاخذها مؤاخذه العقلاء كما يفعل بالمجرمين.

فنظر إليها و هى ذوات أبدان كهيئه من يتغذى و يأكل و عندها شىء من الطعام فامتلأ غيظا و جاش وجدا فقال:أ لا تأكلون؟فلم يسمع منها جوابا فقال: «مٰا لَكُمْ لاٰ تَنْطِقُونَ» ؟ و أنتم آلهه يزعم عبادكم أنكم عقلاء قادرون مدبرون لامورهم فلما لم يسمع لها حسا راغ عليها ضربا باليمين.

قوله تعالى: فَرٰاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ أى تفرع على ذاك الخطاب أن مال على آلهتهم يضربهم ضربا باليد اليمنى أو بقوه بناء على كون المراد باليمين القوه.

قوله تعالى: فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ الزف و الزفيف الإسراع فى المشى أى فجاءوا الى إبراهيم و الحال أنهم يسرعون اهتماما بالحادثه التى يظنون أنه الذى أحدثها.

قوله تعالى: قٰالَ أَ تَعْبُدُونَ مٰا تَنْحِتُونَ وَ اللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَ مٰا تَعْمَلُونَ فيه إيجاز و حذف من حديث القبض عليه و الإتيان به على أعين الناس و مسألته و غيرها.

و الاستفهام للتوبيخ و فيه مع ذلك احتجاج على بطلان طريقتهم فهو يقول:لا يصلح ما نحته الإنسان بيده أن يكون ربا للإنسان معبودا له و اللّٰه سبحانه خلق الإنسان و ما يعمله و الخلق لا ينفك عن التدبير فهو رب الإنسان و من السفه أن يترك هذا و يعبد ذاك.

و لا ضير فى نسبه الخلق الى ما عمله الإنسان أو الى عمله لأن ما يريده الإنسان و يعمله من طريق اختياره مراد اللّٰه سبحانه من طريق إراده الإنسان و اختياره و لا يوجب هذا النوع من تعلق الإراده بالفعل بطلان تأثير إراده الإنسان و خروج الفعل عن الاختيار و صيرورته مجبرا عليه،و هو ظاهر.

و لو كان المراد نسبه خلق أعمالهم الى اللّٰه سبحانه بلا واسطه لا من طريق إرادتهم بل بتعلق إرادته بنفس عملهم و أفاد الجبر لكان القول أقرب الى أن يكون عذرا لهم من أن يكون

توبیخا و تقبیحا،و کانت الحجه لهم لا علیهم.

قوله تعالی: قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْیاناً فَأَلْقُوهُ فِی الْجَحِیمِ البنیان مصدر بنی یبنی و المراد به المبنی،و الجحیم النار فی شده تأججها.

قوله تعالی: فَأَرَادُوا بِهِ کَیْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِینَ الکید الحیله و المراد احتیالهم الی إهلاکه و إحراقه بالنار.

و قوله: فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِینَ کنایه عن جعل إبراهیم فوقهم لا یؤثر فیه کیدهم شیئا إذ قال سبحانه: یَا نَارُ کُونِی بَرْداً وَ سَلاَماً عَلَی إِبْرَاهِیمَ (الأنبیاء۶۹/).

و قد اختتم بهذا فصل من قصص إبراهیم علیه السّلام و هو انتهاضه أولا علی عباده الأوثان و اختصامه لعبادها و انتهاء أمره الی إلقائه النار و إبطاله تعالی کیدهم.

قوله تعالی: وَ قَالَ إِنِّی ذَاهِبٌ إِلَی رَبِّی سَیَهْدِینِ فصل آخر من قصصه علیه السّلام یذکر عزمه علی المهاجره من بین قومه و استیهابه من اللّه ولدا صالحا و إجابته الی ذلک و قصه ذبحه و نزول الفداء.

فقوله: وَ قَالَ إِنِّی ذَاهِبٌ إِلَی رَبِّی الخ؛کالإنجاز لما وعدهم به مخاطبا لآزر وَ أَعْتَزِلُکُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّی عَسَی أَلاّ أَکُونَ بِدُعَاءِ رَبِّی شَقِیًّا (مریم۴۸/)و منه یعلم أن مراده بالذهاب الی ربه الذهاب الی مکان یتجرد فیه لعبادته تعالی و دعائه و هو الأرض المقدسه.

قوله تعالی: رَبِّ هَبْ لِی مِنَ الصّالِحِینَ حکایه دعاء إبراهیم علیه السّلام و مسألته الولد أی قال:رب هب لی،الخ؛و قد قیده بکونه من الصالحین.

قوله تعالی: فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِیمٍ أی فبشرناه أنا سنرزقه غلاما حلیما و فیه إشاره الی أنه یکون ذکرا و یبلغ حد الغلمان،و أخذ الغلومه فی وصفه مع أنه بلغ مبلغ الرجال للإشاره الی حاله التی یظهر فیها صفه کماله و صفاء ذاته و هو حمله الذی مکنه من الصبر فی

ذات اللّه إذ قال: «يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللّهُ مِنَ الصّابِرِينَ» .

و لم يوصف فی القرآن من الأنبياء بالحلم إلا هـذا النبی الكريم فی هـذه الآيه و أبوه فی قوله تعالی: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوّاهٌ مُنِيبٌ (هود٧۵/).

قوله تعـالی: فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْیَ قَالَ يَا بُنَیَّ إِنِّی أَرَیٰ فِی الْمَنَامِ أَنِّی أَذْبَحُکَ فَانْظُرْ مَا ذَا تَرَیٰ الـخ؛الفاء فی أول الآيه فصـيحه تـدل علی محـذوف و التقدير فلما ولد له و نشأ و بلغ معه السعی،و المراد ببلوغ السـعی بلوغه من العمر مبلغا يسـعی فيه لحوائج الحياه عاده و هو سن الرهاق،و المعنی فلما راهق الغلام قال له:يا بنی،الخ.

و قوله: قَالَ يَا بُنَیَّ إِنِّی أَرَیٰ فِی الْمَنَامِ أَنِّی أَذْبَحُکَ هی رؤيا إبراهيم ذبـح ابنه،و قوله: «إِنِّی أَرَیٰ» يـدل علی تكرر هـذه الرؤيا له كما فی قوله: وَ قَالَ الْمَلِکُ إِنِّی أَرَیٰ الخ(يوسف٣٣/).

و قوله: فَانْظُرْ مَا ذَا تَرَیٰ هو من الرأی بمعنی الاعتقـاد أی فتفكر فيمـا قلت و عين مـا هو رأيک فيه،و هـذه الجمله دليل علی أن إبراهيم عليه السّـلام فهم من منامه أنه أمر له بالذبـح مثّل له فی مثال نتيجه الأمر و لـذا طلب من ابنه الرأی فيه و هو يختبره بما ذا يجيبه؟

و قوله: قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللّهُ مِنَ الصّابِرِينَ جواب ابنه،و قوله: «يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ» إظهار رضی بالذبح فی صوره الأمر و قد قال:

افعل ما تؤمر و لم يقل:اذبحنی إشاره الی أن أباه مأمور بأمر ليس له إلا ائتماره و طاعته.

و قوله: سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللّهُ مِنَ الصّابِرِينَ تطييب منه لنفس أبيه أنه لا يجزع منه و لا يأتی بما يهيج وجد الوالد عن ولده المزمل بـدمائه،و قد زاد فی كلامه صـفاء علی صـفاء إذ قيد وعده بالصبر بقوله: «إِنْ شَاءَ اللّهُ» فأشار الی أن اتصافه بهذه الصـفه الكريمه أعنی الصبر ليس له من نفسه و لا أن زمامه بيده بل هو من مواهب اللّه و مننه إن يشأ تلبس به و له أن لا يشاء فينزعه منه.

قوله تعالى: فَلَمّٰا أَسْلَمٰا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ الإسلام الرضا و الاستسلام:و التل الضرع و الجبين أحد جانبى الجبهه و اللام فى «لِلْجَبِينِ» لبيان ما وقع عليه الصراع كقوله:

يَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ سُجَّداً (الإسراء/١٠٧)،و المعنى فلما استسلما إبراهيم و ابنه لأمر اللّه و رضيا به و صرعه إبراهيم على جبينه.

و جواب لما محذوف إيماء الى شده المصيبه و مراره الواقعه.

قوله تعالى: وَ نٰادَيْنٰاهُ أَنْ يٰا إِبْرٰاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيٰا معطوف على جواب لما المحذوف،و قوله: «قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيٰا» أى أوردتها مورد الصدق و جعلتها صادقه و امتثلت الأمر الذى أمرناك فيها أى إن الأمر فيها كان امتحانيا يكفى فى امتثاله تهيؤ المأمور للفعل و إشرافه عليه فحسب.

قوله تعالى: إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ الْبَلاٰءُ الْمُبِينُ الإشاره بكذلك الى قصه الذبح بما أنها محنه شاقه و ابتلاء شديد و الإشاره بهذا إليها أيضا و هو تعليل لشده الأمر.

و المعنى:إنا على هذه الوتيره نجزى المحسنين فنمتحنهم امتحانات شاقه صوره هينه معنى فاذا أتموا الابتلاء جزيناهم أحسن الجزاء فى الدنيا و الآخره،و ذلك لأن الذى ابتلينا به إبراهيم لهو البلاء المبين.

قوله تعالى: وَ فَدَيْنٰاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ أى و فدينا ابنه بذبح عظيم و كان كبشا أتى به جبريل من عند اللّه سبحانه فداء على ما فى الأخبار،و المراد بعظمه الذبح عظمه شأنه بكونه من عند اللّه سبحانه و هو الذى فدى به الذبيح.

قوله تعالى: وَ تَرَكْنٰا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ تقدم الكلام فيه.

قوله تعالى: سَلاٰمٌ عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ تحيه منه تعالى عليه،و فى تنكير سلام تفخيم له.

قوله تعالى: كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِينَ تقدم

تفسیر الآیتین.

قوله تعالی: وَ بَشَّرْنٰاهُ بِإِسْحٰاقَ نَبِیًّا مِنَ اَلصّٰالِحِینَ الضمیر لإبراهیم علیه السّلام.

و اعلم أن هذه الآیه المتضمنه للبشری بإسحاق بوقوعها بعد البشری السابقه بقوله:

«فَبَشَّرْنٰاهُ بِغُلاٰمٍ حَلِیمٍ» المتعقبه بقوله: «فَلَمّٰا بَلَغَ مَعَهُ اَلسَّعْیَ» الی آخر القصه ظاهره کالصریحه أو هی صریحه فی أن الذبیح غیر إسحاق و هو إسماعیل علیهما السّلام و قد فصلنا القول فی ذلک فی قصص إبراهیم علیه السّلام من سوره الأنعام.

قوله تعالی: وَ بٰارَکْنٰا عَلَیْهِ وَ عَلیٰ إِسْحٰاقَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِمٰا مُحْسِنٌ وَ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِینٌ المبارکه علی شیء جعل الخیر و النماء و الثبات فیه أی و جعلنا فیما أعطینا إبراهیم و إسحاق الخیر الثابت و النماء.

و یمکن أن یکون قوله: «وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِمٰا» الخ؛قرینه علی أن المراد بقوله: «بٰارَکْنٰا» إعطاء البرکه و الکثره فی أولاده و أولاد إسحاق،و الباقی ظاهر.

[سوره الصافات (۳۷): الآیات ۱۱۴ الی ۱۳۲]

وَ لَقَدْ مَنَنّٰا عَلیٰ مُوسیٰ وَ هٰارُونَ (۱۱۴) وَ نَجَّیْنٰاهُمٰا وَ قَوْمَهُمٰا مِنَ اَلْکَرْبِ اَلْعَظِیمِ (۱۱۵) وَ نَصَرْنٰاهُمْ فَکٰانُوا هُمُ اَلْغٰالِبِینَ (۱۱۶) وَ آتَیْنٰاهُمَا اَلْکِتٰابَ اَلْمُسْتَبِینَ (۱۱۷) وَ هَدَیْنٰاهُمَا اَلصِّرٰاطَ اَلْمُسْتَقِیمَ (۱۱۸) وَ تَرَکْنٰا عَلَیْهِمٰا فِی اَلْآخِرِینَ (۱۱۹) سَلاٰمٌ عَلیٰ مُوسیٰ وَ هٰارُونَ (۱۲۰) إِنّٰا کَذٰلِکَ نَجْزِی اَلْمُحْسِنِینَ (۱۲۱) إِنَّهُمٰا مِنْ عِبٰادِنَا اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۲۲) وَ إِنَّ إِلْیٰاسَ لَمِنَ اَلْمُرْسَلِینَ (۱۲۳) إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَ لاٰ تَتَّقُونَ (۱۲۴) أَ تَدْعُونَ بَعْلاً وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ اَلْخٰالِقِینَ (۱۲۵) اَللّٰهَ رَبَّکُمْ وَ رَبَّ آبٰائِکُمُ اَلْأَوَّلِینَ (۱۲۶) فَکَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۲۷) إِلاّٰ عِبٰادَ اَللّٰهِ اَلْمُخْلَصِینَ (۱۲۸) وَ تَرَکْنٰا عَلَیْهِ فِی اَلْآخِرِینَ (۱۲۹) سَلاٰمٌ عَلیٰ إِلْ یٰاسِینَ (۱۳۰) إِنّٰا کَذٰلِکَ نَجْزِی اَلْمُحْسِنِینَ (۱۳۱) إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۳۲)

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ مَنَنّا عَلیٰ مُوسیٰ وَ هٰارُونَ المن الإنعام و من المحتمل أن یکون المراد به ما سیعده مما أنعم علیهما و علی قومهما من التنجیه و النصر و إیتاء الکتاب و الهدایه و غیرها فیکون قوله: «وَ نَجَّیْناهُمٰا» الخ؛من عطف التفسیر.

قوله تعالی: وَ نَجَّیْناهُمٰا وَ قَوْمَهُمٰا مِنَ الْکَرْبِ الْعَظِیمِ و هو الغم الشدید من استضعاف فرعون لهم یسومهم سوء العذاب و یذبح أبناءهم و یستحیی نساءهم.

قوله تعالی: وَ نَصَرْنٰاهُمْ فَکٰانُوا هُمُ الْغٰالِبِینَ و هو الذی أدی الی خروجهم من مصر و جوازهم البحر و هلاک فرعون و جنوده.

ص: ٣١٧

و بـذلك ينـدفع ما توهم أن مقتضـى الظاهر أن يـذكر النصـر قبل التنجيه لتوقفها عليه،و ذلك أن النصـر إنما يكون فيما إذا كان للمنصور قوه ما لكنها لا تكفى لدفع الشر فتتم بالنصر و كان لبنى إسرائيل عند الخروج من مصر بعض القوه فناسب إطلاق النصر على إعانتهم على ذلك بخلاف أصل تخليصـهم من يـد فرعون فإنهم كانوا أسـراء مسـتعبدين لا قوه لهم فلا يناسب هذا الاعتبار إلا ذكر التنجيه دون النصر.

قوله تعـالى: وَ آتَيْنٰاهُمَـا الْكِتٰـابَ الْمُسْـتَبِينَ أى يسـتبين المجهولاـت الخفيه فيبينهـا و هى الـتى يحتـاج إليهـا النـاس فى دنيـاهم و آخرتهم.

قوله تعـالى: وَ هَـدَيْنٰاهُمَا الصِّرٰاطَ الْمُسْـتَقِيمَ المراد بهـا الهـدايه بتمـام معنى الكلمه، و لـذا خصـها بهمـا و لم يشـرك فيهـا معهما قومهما،و لقد تقدم كلام فى معنى البدايه الى الصراط المستقيم فى سوره الفاتحه.

قوله تعالى: وَ تَرَكْنٰا عَلَيْهِمٰا فِي الْآخِرِينَ -الى قوله- اَلْمُؤْمِنِينَ تقدم تفسيرها.

قوله تعـالى: وَ إِنَّ إِلْيٰـاسَ لَمِنَ الْمُرْسَـلِينَ قيـل:إنه عليه السّـلام من آل هارون كان مبعوثا الى بعلبك (۱)و لم يـذكر فى كلامه ما يستشهد به عليه.

قوله تعالى: إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَ لاٰ تَتَّقُونَ أَ تَدْعُونَ بَعْلاً وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخٰالِقِينَ -الى قوله- اَلْأَوَّلِينَ شطر من دعوته عليه السّلام يدعو قومه فيها الى التوحيد و يوبخهم على عباده بعل-صنم كان لهم-و ترك عباده اللّه سبحانه.

و كلامه عليه السّلام على ما فيه من التوبيخ و اللوم يتضمن حجه تامه على توحيده تعالى فإن قوله: «وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخٰالِقِينَ اَللّٰهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبٰائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» يوبخهم أولا على ترك عباده

۱- ۱) .و لعلهم أخذوه من بعل فقد قيل:أن بعلبك سمى به لأن بعلا كان منصوبا فى معبد فيه.

أحسن الخالقين،و الخلق و الإيجاد كما يتعلق بذوات الأشياء يتعلق بالنظام الجارى فيها الذى يسمى تدبيرا فكما أن الخلق اليه تعالى فالتدبير أيضا اليه فهو المدبر كما أنه الخالق؛و أشار الى ذلك بقوله: «اللّهَ رَبَّكُمْ» بعد وصفه تعالى بأحسن الخالقين.

ثم أشار الى أن ربوبيته تعالى لا تختص بقوم دون قوم كالأصنام التى يتخذ كل قوم بعضا منها دون بعض فيكون صنم ربا لقوم دون آخرين بل هو تعالى رب لهم و لآبائهم الأولين لا يختص ببعض دون بعض لعموم خلقه و تدبيره،و اليه أشار بقوله: «اللّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» .

قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ أى مبعوثون ليحضروا العذاب،و قد تقدم أن الإحضار إذا أطلق أفاد معنى الشر.

قوله تعالى: إِلاّ عِبادَ اللّهِ الْمُخْلَصِينَ دليل على أنه كان فى قومه جمع منهم.

قوله تعالى: وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ -الى قوله- اَلْمُؤْمِنِينَ تقدم الكلام فى نظائرها (1).

[سوره الصافات (37): الآيات 133 الى 148]

وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلاّ عَجُوزاً فِي اَلْغابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا اَلْآخَرِينَ (136) وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (138) وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى اَلْفُلْكِ اَلْمَشْحُونِ (140) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ اَلْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ اَلْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْ لاَ أَنَّهُ كانَ مِنَ اَلْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ (145) وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (148)

1- 1) .الصافات 114-132:كلام فى قصه الياس عليه السّلام(قصته فى القرآن،الاحاديث فيه).

بيان:

قوله تعالى: وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ و إنما نجاه و أهله من العذاب النازل على قومه و هو الخسف و إمطار حجاره من سجيل على ما ذكره اللّه تعالى فى سائر كلامه.

قوله تعالى: إِلاَّ عَجُوزاً فِى الْغَابِرِينَ أى فى الباقين فى العذاب المهلكين به و هى امرأه لوط.

قوله تعالى: ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ التدمير الاهلاك،و الآخرين قومه الذين أرسل اليهم.

قوله تعالى: وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلاَ تَعْقِلُونَ فإنهم

على طريق الحجاز الى الشام،و المراد بالمرور عليهم المرور على ديارهم الخربه و هى اليوم مستوره بالماء على ما قيل.

قوله تعالى: وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ أى السفينه المملوءه من الناس و الإباق هرب العبد من مولاه.

و المراد بإباقه الى الفلك خروجه من قومه معرضا عنهم و هو عليه السّلام و إن لم يعص فى خروجه ذلك ربه و لا كان هناك نهى من ربه عن الخروج لكن خروجه إذ ذاك كان ممثلا لإباق العبد من خدمه مولاه فأخذه اللّه بذلك،و قد تقدم بعض الكلام فى ذلك فى تفسير قوله تعالى: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء٨٧/).

قوله تعالى: فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ المساهمه المقارعه و الإدحاض الغلبه أى فقارع من فى السفينه فكان من المغلوبين،و قد كان عرض لسفينتهم الحوت فاضطروا الى أن يلقوا واحدا منهم فى البحر ليبتلعه و يخلى السفينه فقارعوا فأصابت يونس عليه السّلام.

قوله تعالى: فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ الالتقام الابتلاع،و مليم من ألام أى دخل فى اللوم كأحرم إذا دخل فى الحرم أو بمعنى صار ذا ملامه.

قوله تعالى: فَلَوْ لاٰ أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ عده من المسبحين و هم الذين تكرر منهم التسبيح و تمكن منهم حتى صار وصفا لهم يدل على دوام تلبسه زمانا بالتسبيح.قيل:أى من المسبحين قبل التقام الحوت إياه، و قيل:بل فى بطن الحوت،و قيل:أى كان من المسبحين قبل التقام الحوت و فى بطنه.

و الذى حكى من تسبيحه فى كلامه تعالى قوله فى سوره الأنبياء: فَنادىٰ فِى الظُّلُماتِ أَنْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ (الأنبياء٨٧/)و لازم ذلك أن يكون من المسبحين فى بطن الحوت خاصه أو فيه و فيما قبله فاحتمال كون المراد تسبيحه قبل التقام

الحوت مرجوح لا ينبغی أن یصار الیه.

علی أن تسبیحه مع اعترافه بالظلم فی قوله: «سُبْحٰانَکَ إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظّٰالِمِینَ» -علی ما سیجیء-تسبیح له تعالی عما کان یشعر به (۱)فعله من ترک قومه و ذهابه علی وجهه،و قوله:

«فَلَوْ لاٰ أَنَّهُ کٰانَ مِنَ الْمُسَبِّحِینَ» الخ؛یدل علی أن تسبیحه کان هو السبب المستدعی لنجاته، و لازم ذلک أن یکون إنما ابتلی بما ابتلی به لینزهه تعالی فینجو بذلک من الغم الذی ساقه الیه فعله الی ساحه العافیه.

و بذلک یظهر أن العنایه فی الکلام إنما هی بتسبیحه فی بطن الحوت خاصه فخیر الأقوال الثلاثه أوسطها.

فالظاهر أن المراد بتسبیحه نداؤه فی الظلمات بقوله: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنْتَ سُبْحٰانَکَ إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظّٰالِمِینَ» و قد قدم التهلیل لیکون کالعله المبینه لتسبیحه کأنه یقول:لا معبود بالحق یتوجه الیه غیرک فأنت منزه مما کان یشعر به فعلی أنی آبق منک معرض عن عبودیتک متوجه الی سواک انی کنت ظالما لنفسی فی فعلی فها أنا متوجه الیک متبرئ مما کان یشعر به فعلی من التوجه عنک الی غیرک.

فهذا معنی تسبیحه و لو لا ذلک منه لم ینج أبدا إذ کان سبب نجاته منحصرا فی التسبیح و التنزیه بالمعنی الذی ذکر.

و بذلک یظهر أن المراد بقوله: «لَلَبِثَ فِی بَطْنِهِ إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ» تأبید مکثه فی بطنه الی أن یبعث فیخرج منه کالقبر الذی یقبر فیه الإنسان و یلبث فیه حتی یبعث فیخرج منه قال تعالی: مِنْهٰا خَلَقْنٰاکُمْ وَ فِیهٰا نُعِیدُکُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُکُمْ تٰارَهً أُخْریٰ (طه۵۵/).

و لا دلاله فی الآیه علی کونه علیه السّلام علی تقدیر اللبث حیا فی بطن الحوت الی یوم یبعثون أو

۱- ۱) .و هو أن اللّه لا یقدر علیه کما قال تعالی: «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَیْهِ» .

ميتا و بطنه قبره مع بقاء بدنه و بقاء جسد الحوت على حالهما أو بنحو آخر فلا مساغ لاختلافهم فى كونه عليه السّلام حيا على هذا التقدير أو ميتا و بطنه قبره،و أن المراد بيوم يبعثون النفخه الاولى التى فيها يموت الخلائق أو النفخه الثانيه أو التأجيل بيوم القيامه كنايه عن طول اللبث.

قوله تعالى: فَنَبَذْنٰاهُ بِالْعَرٰاءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ النبذ طرح الشىء و الرمى به،و العراء المكان الذى لا ستره فيه يستظل بها من سقف أو خباء أو شجر.

و المعنى على ما يعطيه السياق أنه صار من المسبحين فأخرجناه من بطن الحوت و طرحناه خارج الماء فى أرض لا ظل فيها يستظل به و هو سقيم.

قوله تعالى: وَ أَنْبَتْنٰا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ اليقطين من نوع القرع و يكون ورقه عريضا مستديرا و قد أنبتها اللّه عليه ليستظل بورقها.

قوله تعالى: وَ أَرْسَلْنٰاهُ إِلىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ أو فى مورد الترقى و تفيد معنى بل،و المراد بهذه الجماعه أهل نينوى.

قوله تعالى: فَآمَنُوا فَمَتَّعْنٰاهُمْ إِلىٰ حِينٍ أى آمنوا به فلم نعذبهم و لم نهلكهم بما أشرف عليهم من العذاب فمتعناهم بالحياه و البقاء الى أجلهم المقدر لهم.

و الآيه فى إشعارها برفع العذاب عنهم و تمتيعهم تشير الى قوله تعالى: فَلَوْ لاٰ كٰانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهٰا إِيمٰانُهٰا إِلاّٰ قَوْمَ يُونُسَ لَمّٰا آمَنُوا كَشَفْنٰا عَنْهُمْ عَذٰابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ مَتَّعْنٰاهُمْ إِلىٰ حِينٍ (يونس٩٨/).

و لا يخلو السياق من إشعار-بل دلاله-على أن المراد من إرساله فى قوله: «وَ أَرْسَلْنٰاهُ» أمره بالذهاب ثانيا الى القوم،و بإيمانهم فى قوله: «فَآمَنُوا» الخ؛إيمانهم بتصديقه و اتباعه بعد ما

آمنوا و تابوا حين رأوا العذاب (۱).

[سوره الصافات (۳۷): الآيات ۱۴۹ الی ۱۸۲]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّكَ اَلْبَنٰاتُ وَ لَهُمُ اَلْبَنُونَ (۱۴۹) أَمْ خَلَقْنَا اَلْمَلاٰئِكَةَ إِنٰاثاً وَ هُمْ شٰاهِدُونَ (۱۵۰) أَلاٰ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (۱۵۱) وَلَدَ اَللّٰهُ وَ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ (۱۵۲) أَصْطَفَى اَلْبَنٰاتِ عَلَى اَلْبَنِينَ (۱۵۳) مٰا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۱۵۴) أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ (۱۵۵) أَمْ لَكُمْ سُلْطٰانٌ مُبِينٌ (۱۵۶) فَأْتُوا بِكِتٰابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۱۵۷) وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ اَلْجِنَّةِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ اَلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۵۸) سُبْحٰانَ اَللّٰهِ عَمّٰا يَصِفُونَ (۱۵۹) إِلاّٰ عِبٰادَ اَللّٰهِ اَلْمُخْلَصِينَ (۱۶۰) فَإِنَّكُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ (۱۶۱) مٰا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفٰاتِنِينَ (۱۶۲) إِلاّٰ مَنْ هُوَ صٰالِ اَلْجَحِيمِ (۱۶۳) وَ مٰا مِنّٰا إِلاّٰ لَهُ مَقٰامٌ مَعْلُومٌ (۱۶۴) وَ إِنّٰا لَنَحْنُ اَلصّٰافُّونَ (۱۶۵) وَ إِنّٰا لَنَحْنُ اَلْمُسَبِّحُونَ (۱۶۶) وَ إِنْ كٰانُوا لَيَقُولُونَ (۱۶۷) لَوْ أَنَّ عِنْدَنٰا ذِكْراً مِنَ اَلْأَوَّلِينَ (۱۶۸) لَكُنّٰا عِبٰادَ اَللّٰهِ اَلْمُخْلَصِينَ (۱۶۹) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۱۷۰) وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا اَلْمُرْسَلِينَ (۱۷۱) إِنَّهُمْ لَهُمُ اَلْمَنْصُورُونَ (۱۷۲) وَ إِنَّ جُنْدَنٰا لَهُمُ اَلْغٰالِبُونَ (۱۷۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّٰى حِينٍ (۱۷۴) وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (۱۷۵) أَ فَبِعَذٰابِنٰا يَسْتَعْجِلُونَ (۱۷۶) فَإِذٰا نَزَلَ بِسٰاحَتِهِمْ فَسٰاءَ صَبٰاحُ اَلْمُنْذَرِينَ (۱۷۷) وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّٰى حِينٍ (۱۷۸) وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (۱۷۹) سُبْحٰانَ رَبِّكَ رَبِّ اَلْعِزَّةِ عَمّٰا يَصِفُونَ (۱۸۰) وَ سَلاٰمٌ عَلَى اَلْمُرْسَلِينَ (۱۸۱) وَ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۱۸۲)

---

۱ - ۱) .الصافات ۱۳۳-۱۴۸:کلام فی قصه یونس علیه السّلام فی فصول(تعرض الی قصته فی القرآن الکریم،قصته عند اهل الکتاب،ثناؤه تعالی علیه).

بیان:

قوله تعالی: فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّکَ الْبَنٰاتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ حلل سبحانه قولهم:إن الملائکه بنات اللّه الی ما یستلزمه من اللوازم و هی أن الملائکه أولاده،و أنهم بنات،و أنه تعالی خص نفسه بالبنات و هم مخصوصون بالبنین ثم رد هذه اللوازم واحدا بعد واحد فرد قولهم:

إن له البنات و لهم البنین بقوله: «فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّکَ الْبَنٰاتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ» و هو استفهام إنکاری لقولهم بما یلزمه من تفضیلهم علی اللّه لما أنهم یفضلون البنین علی البنات و یتنزهون منهن و یئدونهن.

قوله تعالی: أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاٰئِکَهَ إِنٰاثاً وَ هُمْ شٰاهِدُونَ أم منقطعه أی بل أخلقنا الملائکه إناثا و هم شاهدون یشهدون خلقهم و لم یکونوا شاهدین خلقهم و لا لهم أن یدّعوا ذلک،و الذکوره و الانوثه مما لا یثبت إلا بنوع من الحس،و هذا رد لقولهم بانوثه الملائکه.

قوله تعالی: أَلاٰ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْکِهِمْ لَیَقُولُونَ وَلَدَ اللّٰهُ وَ إِنَّهُمْ لَکٰاذِبُونَ رد لقولهم بالولاده بأنه من الإفک أی صرف القول عن وجهه الی غیر وجهه أی من الحق الی الباطل فیوجهون خلقهم بما یعدونه ولاده و یعبّرون عنه بها فهم آفکون کاذبون.

قوله تعالی: أَصْطَفَی الْبَنٰاتِ عَلَی الْبَنِینَ مٰا لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ کرر الإنکار علی اصطفاء البنات من بین لوازم قولهم لشده شناعته.

ثم وبخهم بقوله: «مٰا لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ» لکون قولهم حکما من غیر دلیل ثم عقبه بقوله:

«أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ» توبیخا و إشاره الی أن قولهم ذلک-فضلا عن کونه مما لا دلیل علیه-الدلیل علی خلافه و لو تذکّروا لا نکشف لهم فقد تنزهت ساحته تعالی عن أن یتجزی فیلد أو یحتاج فیتخذ ولدا،و قد احتج علیهم بذلک فی مواضع من کلامه.

قوله تعالی: أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أم منقطعه و المراد بالسلطان و هو البرهان کتاب نازل من عند اللّه سبحانه یخبر فیه أن الملائکه بناته علی ما یعطیه السیاق إذ لما لم یثبت بعقل أو حس بقی أن یثبت بکتاب من عند اللّه نازل بالوحی فلو کانت دعواهم حقه و هم صادقون فیها کان لهم أن یأتوا بالکتاب.

و إضافه الکتاب الیهم بعنایه فرضه دالا علی دعواهم.

قوله تعالی: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ جعل النسب بینه و بین الجنه قولهم:إن الجنه أولاده و قد تقدم تفصیل قولهم فی تفسیر سوره هود فی الکلام علی عباده الأصنام.

و قوله: وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ أی للحساب أو للنار علی ما یفیده إطلاق «لَمُحْضَرُونَ» و کیف کان فهم یعلمون أنهم مربوبون للّه سیحاسبهم و یجازیهم بما عملوا فبینهم و بین اللّه سبحانه نسبه الربوبیه و العبودیه لا نسب الولاده و من کان کذلک لا یستحق العباده.

قوله تعالی: سُبْحانَ اللّهِ عَمّا يَصِفُونَ إِلاّ عِبادَ اللّهِ الْمُخْلَصِينَ ضمیر «يَصِفُونَ» -نظرا الی اتصال الآیه بما قبلها-راجع الی الکفار المذکورین قبل،و الاستثناء منه منقطع و المعنی هو منزه عن وصفهم-أو عما یصفه الکفار به من الأوصاف کالولاده و النسب و الشرکه و نحوها-لکن عباد اللّه المخلصین یصفونه تعالی وصفا یلیق به-أو بما یلیق به من الأوصاف-.

و للآیتین باستقلالهما معنی أوسع من ذلک و أدق و هو رجوع ضمیر «يَصِفُونَ» الی الناس، و الوصف مطلق یشمل کل ما یصفه به واصف،و الاستثناء متصل و المعنی هو منزه عن کل ما یصفه الواصفون إلا عباد اللّه المخلصین.

و ذلک أنهم إنما یصفونه بمفاهیم محدوده عندهم و هو سبحانه غیر محدود لا یحیط به حد و لا

یدرکه نعت فکلما وصف به فهو أجل منه و کل ما توهم أنه هو فهو غیره لکن له سبحانه عباد أخلصهم لنفسه و خصهم بنفسه لا یشارکه فیهم أحد غیره فعرفهم نفسه و أنساهم غیره یعرفونه و یعرفون غیره به فإذا وصفوه فی نفوسهم و صفوه بما یلیق بساحه کبریائه و إذا وصفوه بألسنتهم-و الألفاظ قاصره و المعانی محدوده-اعترفوا بقصور البیان و أقروا بکلال اللسان کما قال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو سید المخلصین:لا أحصی ثناء علیک أنت کما أثنیت علی نفسک (۱)فافهم ذلک.

قوله تعالی: فَإِنَّکُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مٰا أَنْتُمْ عَلَیْهِ بِفٰاتِنِینَ إِلاّٰ مَنْ هُوَ صٰالِ الْجَحِیمِ تفریع علی حکم المستثنی و المستثنی منه أو المستثنی خاصه،و المعنی لما کان ما وصفتموه ضلالا-و عباد اللّه المخلصون لا یضلون فی وصفهم-فلستم بمضلین به إلا سالکی سبیل النار.

و الظاهر من السیاق أن «مٰا» فی «مٰا تَعْبُدُونَ» موصوله و المراد بها الأصنام فحسب أو الأصنام و آلهه الضلال کشیاطین الجن،و «مٰا» فی «مٰا أَنْتُمْ» نافیه،و ضمیر «عَلَیْهِ» للّه سبحانه و الظرف متعلق بفاتنین،و فاتنین اسم فاعل من الفتنه بمعنی الإضلال و «صٰالِ» من الصلو بمعنی الاتباع فصالی الجحیم هو المتبع للجحیم السالک سبیل النار،و الاستثناء مفرغ تقدیره ما أنتم بفاتنین أحدا إلا من هو صال الجحیم.

و المعنی فإنکم و آلهه الضلال التی تعبدونها لستم جمیعا بمضلین أحدا علی اللّه إلا من هو متبع الجحیم.

قوله تعالی: وَ مٰا مِنّٰا إِلاّٰ لَهُ مَقٰامٌ مَعْلُومٌ وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الصّٰافُّونَ وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ الآیات الثلاث-علی ما یعطیه السیاق-اعتراض من کلام جبریل أو هو

۱- ۱) .فقد أثنی علی اللّه و تمم نقصه بأنه یرید ما یریده اللّه من الثناء علی نفسه.

و أعوانه من ملائكه الوحى نظير قوله تعالى فى سوره مريم: وَ مٰا نَتَنَزَّلُ إِلاّٰ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مٰا بَيْنَ أَيْدِينٰا وَ مٰا خَلْفَنٰا وَ مٰا بَيْنَ ذٰلِكَ الخ(مريم۶۴/).

و الآيات الثلاث مسوقه لرد قولهم بألوهيه الملائكه بإيراد نفس اعترافهم بما ينتفى به قول الكفار و هم لا ينفون العبوديه عن الملائكه بل يرون أنهم مربوبون للّه سبحانه أرباب و آلهه لمن دونهم يستقلون بالتصرف فيما فوض اليهم من أمر العالم من غير أن يرتبط شىء من هذا التدبير الى اللّه سبحانه و هذا هو الذى ينفيه الملائكه عن أنفسهم لا كونهم أسبابا متوسطه بينه تعالى و بين خلقه كما قال تعالى: بَلْ عِبٰادٌ مُكْرَمُونَ لاٰ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء۲۷/).

فقوله: وَ مٰا مِنّٰا إِلاّٰ لَهُ مَقٰامٌ مَعْلُومٌ أى معين مشخص أقيم فيه ليس له أن يتعداه بأن يفوض اليه أمر فيستقل فيه بل مجبول على طاعه اللّه فيما يأمر به و عبادته.

و قوله: وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ أى نصفّ عند اللّه فى انتظار أوامره فى تدبير العالم لنجريها على ما يريد.كما قال تعالى: لاٰ يَعْصُونَ اللّٰهَ مٰا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ هذا ما يفيده السياق،و ربما قيل:إن المراد إنا نصفّ للصلاه عند اللّه و هو بعيد من الفهم لا شاهد عليه.

و قوله: وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ أى المنزهون له تعالى عما لا يليق بساحه كبريائه كما قال تعالى: يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ لاٰ يَفْتُرُونَ (الأنبياء ۲۰/).

فالآيات الثلاث تصف موقف الملائكه فى الخلقه و عملهم المناسب لخلقتهم و هو الاصطفاف لتلقى أمره تعالى و التنزيه لساحه كبريائه عن الشريك و كل ما لا يليق بكمال ذاته المتعاليه.

قوله تعالى: وَ إِنْ كٰانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنٰا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنّٰا عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ رجوع الى السياق السابق.

و الضمير فى قوله: «وَ إِنْ كٰانُوا لَيَقُولُونَ» لقريش و من يتلوهم،و «إِنْ» مخففه من الثقيله، و المراد بذكر من الأولين كتاب سماوى من جنس الكتب النازله على الأولين.

و المعنى لو أن عندنا كتابا سماويا من جنس الكتب النازله قبلنا على الأولين لاهتدينا و كنا عباد اللّه المخلصين يريدون أنهم معذورون لو كفروا لعدم قيام الحجه عليهم من قبل اللّه سبحانه.

و هذا فى الحقيقه هفوه منهم فإن مذهب الوثنيه يحيل النبوه و الرساله و نزول الكتاب السماوى.

قوله تعالى: فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ الفاء فصيحه،و المعنى فأنزلنا عليهم الذكر و هو القرآن الكريم فكفروا به و لم يفوا بما قالوا فسوف يعلمون وبال كفرهم و هذا تهديد منه تعالى لهم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ كلمته تعالى لهم قوله الذى قاله فيهم و هو حكمه و قضاؤه فى حقهم و سبق الكلمه تقدمها عهدا أو تقدمها بالنفوذ و الغلبه و اللام تفيد معنى النفع أى إنا قضينا قضاء محتوما فيهم أنهم لهم المنصورون و قد أكد الكلام بوجوه من التأكيد.

و قد أطلق النصر من غير تقييده بدنيا أو آخره أو بنحو آخر بل القرينه على خلافه قال تعالى: إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهٰادُ (المؤمن/ ۵۱).

فالرسل عليهم السّلام منصورون فى الحجه لأنهم على الحق و الحق غير مغلوب.

و هم منصورون على أعدائهم اما بإظهارهم عليهم و اما بالانتقام منهم قال تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرىٰ -الى أن قال- حَتّٰى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جٰاءَهُمْ نَصْرُنٰا فَنُجِّيَ مَنْ نَشٰاءُ وَ لاٰ يُرَدُّ بَأْسُنٰا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

(یوسف/١١٠).

و هم منصورون فی الآخره كما قال تعالی: يَوْمَ لاٰ يُخْزِی اللّٰهُ النَّبِیَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (التحريم/٨)،و قد تقدم آنفا آيه فی سوره المؤمن فی هذا المعنی.

قوله تعالی: وَ إِنَّ جُنْدَنٰا لَهُمُ الْغٰالِبُونَ الجند هو المجتمع الغليظ و لذا يقال للعسكر جند فهو قريب المعنی من الحزب (١)و قد قال تعالی فی موضع آخر من كلامه: وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْغٰالِبُونَ (المائده/٥۶).

و المراد بقوله: «جُنْدَنٰا» هو المجتمع المؤتمر بأمره المجاهد فی سبيله و هم المؤمنون خاصه أو الأنبياء و من تبعهم من المؤمنين و فی الكلام علی التقدير الثانی تعميم بعد التخصيص،و كيف كان فالمؤمنون منصورون كمتبوعيهم من الأنبياء قال تعالی: وَ لاٰ تَهِنُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران/١٣٩)و قد مر بعض الآيات الداله عليه آنفا.

و الحكم أعنی النصر و الغلبه حكم اجتماعی منوط علی العنوان لا غير أی إن الرسل و هم عباد أرسلهم اللّٰه و المؤمنون و هم جند للّٰه يعملون بأمره و يجاهدون فی سبيله ما داموا علی هذا النعت منصورون غالبون،و أما اذا لم يبق من الإيمان الا اسمه و من الانتساب الا حديثه فلا ينبغی أن يرجی نصر و لا غلبه.

قوله تعالی: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّٰی حِينٍ تفريع علی حديث النصر و الغلبه ففيه وعد للنبی صلّی اللّٰه عليه و آله و سلّم بالنصر و الغلبه و ايعاد للمشركين و لقريش خاصه.

و الأمر بالإعراض عنهم ثم جعله مغيا بقوله: «حَتّٰی حِينٍ» يلوح الی أن الأمد غير بعيد و كان كذلك فهاجر النبی صلّی اللّٰه عليه و آله و سلّم بعد قليل و أباد اللّٰه صناديد قريش فی غزوه بدر و غيرها.

١- ١) .قال تعالی: «إِذْ جٰاءَتْكُمْ جُنُودٌ» الاحزاب:٩.و قال فيهم بعينهم: «وَ لَمّٰا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزٰابَ» الاحزاب: ٢٢.

قوله تعالى: وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ الأمر بالإبصار و الإخبار بإبصارهم عاجلا و عطف الكلام على الأمر بالتولى معجلا يفيد بحسب القياس أن المعنى أنظرهم و أبصر ما هم عليه من الجحود و العناد قبال انذارك و تخويفك فسوف يبصرون وبال جحودهم و استكبارهم.

قوله تعالى: أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ توبيخ لهم لاستعجالهم و قولهم:متى هذا الوعد؟متى هذا الفتح؟و إيذان بأن هذا العذاب مما لا ينبغى أن يستعجل لأنه يعقب يوما بئيسا و صباحا مشئوما.

و نزول العذاب بساحتهم كنايه عن نزوله بهم على نحو الشمول و الإحاطه،و قوله: «فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ» أى بئس صباحهم صباحا،و المنذرون هم المشركون من قريش.

قوله تعالى: وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّى حِينٍ وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ تأكيد لما مر بتكرار الآيتين على ما قيل،و احتمل بعضهم أن يكون المراد بما تقدم التهديد بعذاب الدنيا و بهذا،التهديد بعذاب الآخره.و لا يخلو من وجه فإن الواقع فى الآيه «وَ أَبْصِرْ» من غير مفعول كما فى الآيه السابقه من قوله:«و أبصارهم»و الحذف يشعر بالعموم و أن المراد إبصار ما عليه عامه الناس من الكفر و الفسوق و يناسبه التهديد بعذاب يوم القيامه.

قوله تعالى: سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّهِ عَمّا يَصِفُونَ تنزيه له تعالى عما يصفه به الكفار المخالفون لدعوه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مما تقدم ذكره فى السوره.

و الدليل عليه إضافه التنزيه الى قوله: «رَبِّكَ» أى الرب الذى تعبده و تدعو اليه،و إضافه الرب ثانيا الى العزه المفيد لاختصاصه تعالى بالعزه فهو منيع الجانب على الإطلاق فلا يذله مذل و لا يغلبه غالب و لا يفوته هارب فالمشركون أعداء الحق المهددون بالعذاب ليسوا له بمعجزين.

قوله تعالى: وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ تسليم على عامه المرسلين و صون لهم من أن

يصيبهم من قبله تعالى ما يسوؤهم و يكرهونه.

قوله تعالى: وَ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ تقدم الكلام فيه فى تفسير سوره الفاتحه.

ص :۳۳۳

سوره ص مکیه و هی ثمان و ثمانون آیه

اشاره

[سوره ص (۳۸): الآیات ۱ الی ۱۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;ص وَ اَلْقُرْآنِ ذِی اَلذِّکْرِ (۱) بَلِ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فِی عِزَّهٍ وَ شِقٰاقٍ (۲) کَمْ أَهْلَکْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنٰادَوْا وَ لاٰتَ حِینَ مَنٰاصٍ (۳) وَ عَجِبُوا أَنْ جٰاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قٰالَ اَلْکٰافِرُونَ هٰذٰا سٰاحِرٌ کَذّٰابٌ (۴) أَ جَعَلَ اَلْآلِهَهَ إِلٰهاً وٰاحِداً إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ عُجٰابٌ (۵) وَ اِنْطَلَقَ اَلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ اِمْشُوا وَ اِصْبِرُوا عَلیٰ آلِهَتِکُمْ إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ یُرٰادُ (۶) مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِی اَلْمِلَّهِ اَلْآخِرَهِ إِنْ هٰذٰا إِلاَّ اِخْتِلاٰقٌ (۷) أَ أُنْزِلَ عَلَیْهِ اَلذِّکْرُ مِنْ بَیْنِنٰا بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ مِنْ ذِکْرِی بَلْ لَمّٰا یَذُوقُوا عَذٰابِ (۸) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزٰائِنُ رَحْمَهِ رَبِّکَ اَلْعَزِیزِ اَلْوَهّٰابِ (۹) أَمْ لَهُمْ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا فَلْیَرْتَقُوا فِی اَلْأَسْبٰابِ (۱۰) جُنْدٌ مٰا هُنٰالِکَ مَهْزُومٌ مِنَ اَلْأَحْزٰابِ (۱۱) کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عٰادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو اَلْأَوْتٰادِ (۱۲) وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحٰابُ اَلْأَیْکَهِ أُولٰئِکَ اَلْأَحْزٰابُ (۱۳) إِنْ کُلٌّ إِلاّٰ کَذَّبَ اَلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقٰابِ (۱۴) وَ مٰا یَنْظُرُ هٰؤُلاٰءِ إِلاّٰ صَیْحَهً وٰاحِدَهً مٰا لَهٰا مِنْ فَوٰاقٍ (۱۵) وَ قٰالُوا رَبَّنٰا عَجِّلْ لَنٰا قِطَّنٰا قَبْلَ یَوْمِ اَلْحِسٰابِ (۱۶)

ص: ۳۳۴

بیان:

یـدور الکلام فی السوره حول کون النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم منـذرا بالذکر النازل علیه من عند اللّه سبحانه الداعی الی التوحید و إخلاص العبودیه له تعالی.

فتبـدأ بـذکر اعتزاز الکفـار و شـقاقهم و بالجمله اسـتکبارهم عن اتباعه و الإیمان به و صـد الناس عنه و تفوههم بباطل القول فی ذلک و رده فی فصل.

ثم تأمل النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالصبر و ذکر قصص عباده الأولین فی فصل ثم یذکر مآل حال المتقین و الطاغین فی فصل.ثم تأمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بإبلاغ نـذارته و دعوته الی توحیـد اللّه و أن مآل اتباع الشـیطان الی النار علی ما قضی به اللّه یوم أمر الملائکه بالسجده لآدم فأبی إبلیس فرجمه و قضی علیه و علی من تبعه النار.فی فصل.

و السوره مکیه بشهاده سیاق آیاتها.

ص :۳۳۵

قوله تعالی: ص وَ الْقُرْآنِ ذِی الذِّکْرِ بَلِ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی عِزَّهٍ وَ شِقٰاقٍ المراد بالذکر ذکر اللّه تعالی بتوحیده و ما یتفرع علیه من المعارف الحقه من المعاد و النبوه و غیرهما،و العزه الامتناع،و الشقاق المخالفه،قال فی مجمع البیان:و أصله أن یصیر کل من الفریقین فی شق أی فی جانب و منه یقال:شق فلان العصا إذا خالف انتهی.

و المستفاد من سیاق الآیات أن قوله: «وَ الْقُرْآنِ ذِی الذِّکْرِ» قسم نظیر ما فی قوله: یس وَ الْقُرْآنِ الْحَکِیمِ ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِیدِ ن وَ الْقَلَمِ لاـ عطف علی ما تقدمه،و أما المقسم علیه فالذی یدل علیه الإضراب فی قوله: «بَلِ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی عِزَّهٍ وَ شِقٰاقٍ أنه أمر یمتنع عن قبوله القوم و یکفرون به عزه و شقاقا و قد هلک فیه قرون کثیره ثم ذکر إنذار النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ما قاله الکفار علیه و ما أمرهم به ملؤهم حول إنذاره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه أعنی المقسم علیه نحو من قولنا:

إنک لمن المنذرین،و یشهد علی ذلک أیضا التعرض فی السوره بإنذاره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالذکر مره بعد اخری.

و المعنی-و اللّه أعلم-اقسم بالقرآن المتضمن للذکر-إنک لمن المنذرین-بل الذین کفروا فی امتناع عن قبوله و اتباعه و مخالفه له.

قوله تعالی: کَمْ أَهْلَکْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنٰادَوْا وَ لاٰتَ حِینَ مَنٰاصٍ القرن أهل عصر واحد،و المناص بالنون مصدر ناص ینوص أی تأخر کما أنه بالباء الموحده بمعنی التقدم علی ما فی المجمع و قیل:هو بمعنی الفرار.

و المعنی:کثیرا ما أهلکنا من قبل هؤلاء الکفار من قرن و أمه بتکذیبهم الرسل المنذرین فنادوا عند نزول العذاب بالویل کقولهم:یا ویلنا إنا کنا ظالمین أو بالاستغاثه باللّه سبحانه و لیس الحین حین تأخر الأخذ و العذاب أو لیس الحین حین فرار.

قوله تعالی: وَ عَجِبُوا أَنْ جٰاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قٰالَ الْکٰافِرُونَ هٰذٰا سٰاحِرٌ کَذّٰابٌ أی تعجبوا من مجیء منذر من نوعهم بأن کان بشرا فإن الوثنیه تنکر رساله

البشر.

و قوله: وَ قٰالَ الْكٰافِرُونَ هٰذٰا سٰاحِرٌ كَذّٰابٌ يشيرون بهذا الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يرمونه بالسحر لكونهم عاجزين عن الإتيان بمثل ما أتى به و هو القرآن،و بالكذب لزعمهم أنه يفترى على اللّه بنسبه القرآن و ما فيه من المعارف الحقه اليه تعالى.

قوله تعالى: أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهاً وٰاحِداً إِنَّ هٰذٰا لَشَيْءٌ عُجٰابٌ العجاب بتخفيف الجيم اسم مبالغه من العجب و هو بتشديد الجيم أبلغ.

و هو من تتمه قول الكافرين و الاستفهام للتعجيب و الجعل بمعنى التصيير و هو كما قيل تصيير بحسب القول و الاعتقاد و الدعوى لا بحسب الواقع كما فى قوله تعالى: وَ جَعَلُوا الْمَلاٰئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً (الزخرف١٩/)فمعنى جعله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الآلهه إلها واحدا هو إبطاله الوهيه الآلهه من دون اللّه و حكمه بأن الإله هو اللّه لا إله إلا هو.

قوله تعالى: وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذٰا لَشَيْءٌ يُرٰادُ نسبه الانطلاق الى ملإهم و أشرافهم و قولهم ما قالوا يلوح الى أن اشراف قريش اجتمعوا على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليحلوا مشكله دعوته الى التوحيد و رفض الآلهه بنوع من الاستماله و كلموه فى ذلك فما وافقهم فى شيء منه ثم انطلقوا و قال بعضهم لبعض أو قالوا لأتباعهم أن امشوا و اصبروا،الخ؛و هذا يؤيد ما ورد فى أسباب النزول مما سيجيء فى البحث الروائى الآتى إن شاء اللّه.

و قوله: أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلىٰ آلِهَتِكُمْ بتقدير القول أى قائلين أن امشوا و اصبروا على آلهتكم و لا تتركوا عبادتها و إن عابها و قدح فيها،و ظاهر السياق أن القول قول بعضهم لبعض،و يمكن أن يكون قولهم لتبعتهم.

و قوله: إِنَّ هٰذٰا لَشَيْءٌ يُرٰادُ ظاهره أنه إشاره الى ما يدعو اليه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يطلبه و أن مطلوبه شيء يراد بالطبع و هو السياده و الرئاسه و إنما جعل الدعوه ذريعه اليه فهو نظير

قول الملإ من قوم نوح لعامتهم: مَا هَذَا إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكَمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكَمْ (المؤمنون۲۴/).

قوله تعالى: مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ أرادوا بالملة الآخرة المذهب الذى تداوله الآخرون من الامم المعاصرين لهم أو المقارنين لعصرهم قبال الملل الاولى التى تداولتها الأولون كأنهم يقولون:ليس هذا من الملة الآخرة التى يرتضيها أهل الدنيا اليوم بل من أساطير الأولين.

و قيل:المراد بالملة الآخرة النصرانية لأنها آخر الملل و هم لا يقولون بالتوحيد بل التثليث.و ضعفه ظاهر إذ لم يكن للنصرانية وقع عندهم كالإسلام.

و قوله: إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ أى كذب و افتعال.

قوله تعالى: أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا استفهام إنكارى بداعى التكذيب أى لا مرجح عند محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يترجح به علينا فينزل عليه الذكر دوننا فهو فى إنكار الاختصاص بنزول الذكر نظير قولهم:ما أنت إلا بشر مثلنا فى نفى الاختصاص بالرسالة.

قوله تعالى: بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ إضراب عن جميع ما قالوه أى إنهم لم يقولوا عن إيمان و اعتقاد به بل هم فى شك من ذكرى و هو القرآن.

و ليس شكهم فيه من جهة خفاء دلالة آية النبوة و قصورها عن إفادة اليقين بل تعلق قلوبهم بما عندهم من الباطل و لزومهم التقليد يصرفهم عن النظر فى دلالة الآية الإلهية المعجزة فشكوا فى الذكر و الحال أنه آية معجزة.

و قوله: لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ إضراب عن الإضراب أى ليس إنكارهم و عدم إيمانهم به عن شك منهم فيه بل لأنهم لعتوهم و استكبارهم لا يعترفون بحقيته و لو لم يكن شك، حتى يذوقوا عذابى فيضطروا الى الاعتراف كما فعل غيرهم.

و فى قوله: «لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ» أى لم يذوقوا بعد عذابى،تهديد بعذاب واقع.

ص :۳۳۸

قوله تعالی: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزٰائِنُ رَحْمَهِ رَبِّکَ الْعَزِیزِ الْوَهّٰابِ الکلام فی موقع الإضراب و «أَمْ» منقطعه و الکلام ناظر الی قولهم: «أَ أُنْزِلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ مِنْ بَیْنِنٰا» أی بل أ عندهم خزائن رحمه ربک التی ینفق منها علی من یشاء حتی یمنعوک منها بل هی له تعالی و هو أعلم حیث یجعل رسالته و یخص برحمته من یشاء.

و تذییل الکلام بقوله: «الْعَزِیزِ الْوَهّٰابِ» لتأیید محصل الجمله أی لیس عندهم شیء من خزائن رحمته لأنه عزیز منیع جانبه لا یداخل فی أمره أحد،و لا لهم أن یصرفوا رحمته عن أحد لأنه وهاب کثیر الهبات.

قوله تعالی: أَمْ لَهُمْ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا فَلْیَرْتَقُوا فِی الْأَسْبٰابِ «أَمْ» منقطعه،و الأمر فی قوله: «فَلْیَرْتَقُوا» للتعجیز و الارتقاء الصعود، و الأسباب المعارج و المناهج التی یتوسل بها الی الصعود الی السماوات و یمکن أن یراد بارتقاء لأسباب التسبب بالعلل و الحیل الذی یحصل به لهم المنع و الصرف.

و المعنی:بل أنهم ملک السماوات و الأرض فیکون لهم أن یتصرفوا فیها فیمنعوا نزول الوحی السماوی الی بشر أرضی فإن کان کذلک فلیصعدوا معارج السماوات أو فلیتسببوا الأسباب و لیمنعوا من نزول الوحی علیک.

قوله تعالی: جُنْدٌ مٰا هُنٰالِکَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزٰابِ الهزیمه الخذلان و «مِنَ الْأَحْزٰابِ» بیان لقوله: «جُنْدٌ مٰا» و «مٰا» للتقلیل و التحقیر،و الکلام مسوق لتحقیر أمرهم رغما لما یشعر به ظاهر کلامهم من التعزز و الإعجاب بأنفسهم.

یدل علی ذلک تنکیر «جُنْدٌ» و تتمیمه بلفظه «مٰا» و الإشاره الی مکانتهم بهنالک الدال علی البعید وعدهم من الأحزاب المتحزبین علی الرسل الذین قطع اللّه دابر الماضین منهم کما سیذکر و لذلک عد هذا الجند مهزوما قبل انهزامهم.

و المعنی:هم جند ما أقلاء أذلاء منهزمون هنالک من اولئک الأحزاب المتحزبین علی

الرسل الذین کذبوهم فحق علیهم عقابی.

قوله تعالی: کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عٰادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو اَلْأَوْتٰادِ -الی قوله- فَحَقَّ عِقٰابِ ذو الأوتاد وصف فرعون و الأوتاد جمع وتد و هو معروف.قیل:سمی بذی الأوتاد لأنه کانت له ملاعب من أوتاد یلعب له علیها،و قیل:لأنه کان یعذب من غضب علیه من المجرمین بالأوتاد یوتد یدیه و رجلیه و رأسه علی الأرض فیعذبه و قیل:معناه ذو الجنود أوتاد الملک،و قیل:غیر ذلک من الوجوه،و لا دلیل علی شیء منها یعول علیه.

و أصحاب الأیکه قوم شعیب و قد تقدم فی سوره الحجر و الشعراء،و قوله: «فَحَقَّ عِقٰابِ» أی ثبت فی حقهم و استقر فیهم عقابی فأهلکتهم.

قوله تعالی: وَ مٰا یَنْظُرُ هٰؤُلاٰءِ إِلاّٰ صَیْحَهً وٰاحِدَهً مٰا لَهٰا مِنْ فَوٰاقٍ النظر الانتظار و الفواق الرجوع و المهله الیسیره،و المعنی و ما ینتظر هؤلاء المکذبون من امتک إلا صیحه واحده تقضی علیهم و تهلکهم ما لها من رجوع أو مهله و هی عذاب الاستئصال.

قوله تعالی: وَ قٰالُوا رَبَّنٰا عَجِّلْ لَنٰا قِطَّنٰا قَبْلَ یَوْمِ الْحِسٰابِ القط النصیب و الحظ،و هذه الکلمه استعجال منهم للعذاب قبل یوم القیامه استهزاء بحدیث یوم الحساب و الوعید بالعذاب فیه (۱).

[سوره ص (۳۸): الآیات ۱۷ الی ۲۹]

اِصْبِرْ عَلیٰ مٰا یَقُولُونَ وَ اُذْکُرْ عَبْدَنٰا دٰاوُدَ ذَا اَلْأَیْدِ إِنَّهُ أَوّٰابٌ (۱۷) إِنّٰا سَخَّرْنَا اَلْجِبٰالَ مَعَهُ یُسَبِّحْنَ بِالْعَشِیِّ وَ اَلْإِشْرٰاقِ (۱۸) وَ اَلطَّیْرَ مَحْشُورَهً کُلٌّ لَهُ أَوّٰابٌ (۱۹) وَ شَدَدْنٰا مُلْکَهُ وَ آتَیْنٰاهُ اَلْحِکْمَهَ وَ فَصْلَ اَلْخِطٰابِ (۲۰) وَ هَلْ أَتٰاکَ نَبَأُ اَلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا اَلْمِحْرٰابَ (۲۱) إِذْ دَخَلُوا عَلیٰ دٰاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قٰالُوا لاٰ تَخَفْ خَصْمٰانِ بَغیٰ بَعْضُنٰا عَلیٰ بَعْضٍ فَاحْکُمْ بَیْنَنٰا بِالْحَقِّ وَ لاٰ تُشْطِطْ وَ اِهْدِنٰا إِلیٰ سَوٰاءِ اَلصِّرٰاطِ (۲۲) إِنَّ هٰذٰا أَخِی لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَهً وَ لِیَ نَعْجَهٌ وٰاحِدَهٌ فَقٰالَ أَکْفِلْنِیهٰا وَ عَزَّنِی فِی اَلْخِطٰابِ (۲۳) قٰالَ لَقَدْ ظَلَمَکَ بِسُؤٰالِ نَعْجَتِکَ إِلیٰ نِعٰاجِهِ وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ اَلْخُلَطٰاءِ لَیَبْغِی بَعْضُهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ إِلاَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ قَلِیلٌ مٰا هُمْ وَ ظَنَّ دٰاوُدُ أَنَّمٰا فَتَنّٰاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ رٰاکِعاً وَ أَنٰابَ (۲۴) فَغَفَرْنٰا لَهُ ذٰلِکَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفیٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ (۲۵) یٰا دٰاوُدُ إِنّٰا جَعَلْنٰاکَ خَلِیفَهً فِی اَلْأَرْضِ فَاحْکُمْ بَیْنَ اَلنّٰاسِ بِالْحَقِّ وَ لاٰ تَتَّبِعِ اَلْهَویٰ فَیُضِلَّکَ عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ إِنَّ اَلَّذِینَ یَضِلُّونَ عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ بِمٰا نَسُوا یَوْمَ اَلْحِسٰابِ (۲۶) وَ مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰاءَ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا بٰاطِلاً ذٰلِکَ ظَنُّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ کَفَرُوا مِنَ اَلنّٰارِ (۲۷) أَمْ نَجْعَلُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ کَالْمُفْسِدِینَ فِی اَلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ اَلْمُتَّقِینَ کَالْفُجّٰارِ (۲۸) کِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَیْکَ مُبٰارَکٌ لِیَدَّبَّرُوا آیٰاتِهِ وَ لِیَتَذَکَّرَ أُولُوا اَلْأَلْبٰابِ (۲۹)

۱- ۱) .ص ۱-۱۶:بحث روائی فی مباحثه قریش و رسول اللّه؛الصلاه.

بیان:

قوله تعالی: اِصْبِرْ عَلی مٰا یَقُولُونَ وَ اذْکُرْ عَبْدَنٰا دٰاوُدَ ذَا الْأَیْدِ إِنَّهُ أَوّٰابٌ الأید القوه و کان علیه السّلام ذا قوه فی تسبیحه تعالی یسبح و یسبح معه الجبال و الطیر و ذا قوه فی ملکه و ذا قوه فی علمه و ذا قوه و بطش فی الحروب و قد قتل جالوت الملک کما قصه اللّه فی سوره البقره.

و الأواب اسم مبالغه من الأوب بمعنی الرجوع و المراد به کثره رجوعه الی ربه.

قوله تعالی: إِنّٰا سَخَّرْنَا الْجِبٰالَ مَعَهُ یُسَبِّحْنَ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِشْرٰاقِ الظاهر أن «مَعَهُ» متعلق بقوله: «یُسَبِّحْنَ» و جمله «مَعَهُ یُسَبِّحْنَ» بیان لمعنی التسخیر و قدم الظرف لتعلق العنایه بتبعیتها لداد و اقتدائها به فی التسبیح لکن قوله تعالی فی موضع آخر: وَ سَخَّرْنٰا مَعَ دٰاوُدَ الْجِبٰالَ یُسَبِّحْنَ وَ الطَّیْرَ (الأنبیاء/۷۹)یؤید تعلق الظرف بسخرنا،و قد وقع فی موضع آخر من کلامه تعالی: یٰا جِبٰالُ أَوِّبِی مَعَهُ وَ الطَّیْرَ (سبأ/۱۰)و العشی و الإشراق الرواح و الصباح.

و قوله: إِنّٰا سَخَّرْنَا الخ؛«ان»فیه للتعلیل و الآیه و ما عطف علیها من الآیات بیان لکونه علیه السّلام ذا اید فی تسبیحه و ملکه و علمه و کونه أوابا الی ربه.

قوله تعالی: وَ الطَّیْرَ مَحْشُورَهً کُلٌّ لَهُ أَوّٰابٌ المحشوره من الحشر بمعنی الجمع بإزعاج أی و سخرنا معه الطیر مجموعه له تسبح معه.

و قوله: «کُلٌّ لَهُ أَوّٰابٌ» استئناف یقرر ما تقدمه من تسبیح الجبال و الطیر أی کل من الجبال و الطیر أواب أی کثیر الرجوع الینا بالتسبیح فإن التسبیح من مصادیق الرجوع الیه

تعالی.و یحتمل رجوع ضمیر «لَهُ» الی داود علی بعد.

و لم یکن تأیید داود علیه السّلام فی أصل جعله تعالی للجبال و الطیر تسبیحا فإن کل شیء مسبح للّه سبحانه قال تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الإسراء۴۴/)بل فی موافقه تسبیحها لتسبیحه و قرع تسبیحها أسماع الناس و قد تقدم کلام فی معنی تسبیح الأشیاء للّه سبحانه فی تفسیر قوله تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ الآيه؛و أنه بلسان الحال.

قوله تعالی: وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ قال الراغب:

الشد العقد القوی یقال:شددت الشیء قویت عقده.انتهی فشد الملک من الاستعاره بالکنایه و المراد به تقویه الملک و تحکیم أساسه بالهیبه و الجنود و الخزائن و حسن التدبیر و سائر ما یتقوی به الملک.

و الحکمه فی الأصل بناء نوع من الحکم و المراد بها المعارف الحقه المتقنه التی تنفع الإنسان و تکمله،و قیل:المراد النبوه،و قیل الزبور و علم الشرائع،و قیل غیر ذلک و هی وجوه ردیه.

و فصل الخطاب تفکیک الکلام الحاصل من مخاطبه واحد لغیره و تمییز حقه من باطله و ینطبق علی القضاء بین المتخاصمین فی خصامهم.

قوله تعالی: وَ هَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ الخصم مصدر کالخصومه ارید به القوم الذی استقر فیهم الخصومه،و التسور الارتقاء الی أعلی السور و هو الحائط الرفیع کالتسنم بمعنی الارتقاء الی سنام البعیر و التذری بمعنی الارتقاء الی ذروه الجبل، و قد فسر المحراب بالغرفه و العلیه،و الاستفهام و التشویق الی استماع الخبر.

و المعنی هل أتاک یا محمد خبر القوم المتخاصمین إذ علوا سور المحراب محراب داود علیه السّلام.

قوله تعالی: إِذْ دَخَلُوا عَلىٰ داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ الی آخر الآيه؛لفظه«إن»هذه

ظرف لقوله: «تَسَوَّرُوا» كما أن «إِذْ» الاولى ظرف لقوله: «نَبَأُ الْخَصْمِ» و محصل المعنى أنهم دخلوا على داود و هو فى محرابه لا من الطريق العادى بل بتسوره بالارتقاء الى سوره و الورود عليه منه و لذا فزع منهم لما رآهم دخلوا عليه من غير الطريق العادى و بغير إذن.

و قوله: فَفَزِعَ مِنْهُمْ قال الراغب:الفزع انقباض و نفار يعترى الإنسان من الشىء المخيف و هو من جنس الجزع و لا يقال:فزعت من اللّه كما يقال:خفت منه.انتهى.

و قد تقدم أن الخشيه تأثير القلب بحيث يستتبع الاضطراب و القلق و هى رذيله مذمومه إلا الخشيه من اللّه سبحانه و لذا كان الأنبياء عليهم السّلام لا يخشون غيره قال تعالى: وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ (الأحزاب/۳۹).

و أن الخوف هو التأثير عن المكروه فى مقام العمل بتهيئه ما يتحرز من الشر و يدفع به المكروه لا فى مقام الإدراك فليس برذيله مذمومه لذاته بل هو حسن فيما يحسن الاتقاء قال تعالى خطابا لرسوله: وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيٰانَةً (الأنفال/۵۸).

و إذا كان الفزع هو الانقباض و النفار الحاصل من الشىء المخوف كان أمرا راجعا الى مقام العمل دون الإدراك فلم يكن رذيله بذاته بل كان فضيله عند تحقق مكروه ينبغى التحرز منه فلا ضير فى نسبته الى داود عليه السّلام فى قوله: «فَفَزِعَ مِنْهُمْ» و هو من الأنبياء الذين لا يخشون إلا اللّه.

و قوله: قٰالُوا لاٰ تَخَفْ خَصْمٰانِ بَغىٰ بَعْضُنٰا عَلىٰ بَعْضٍ لما رأوا ما عليه داود عليه السّلام من الفزع أرادوا تطييب نفسه و إسكان روعه فقالوا: «لاٰ تَخَفْ» و هو نهى عن الفزع بالنهى عن سببه الذى هو الخوف «خَصْمٰانِ بَغىٰ» الخ؛أى نحن خصمان أى فريقان متخاصمان تجاوز بعضنا ظلما على بعض.

و قوله: فَاحْكُمْ بَيْنَنٰا بِالْحَقِّ وَ لاٰ تُشْطِطْ الخ؛الشطط الجور أى فاحكم بيننا حكما مصاحبا للحق و لا تجر فى حكمك و دلنا على الوسط العدل من الطريق.

قوله تعالی: إِنَّ هٰذٰا أَخِی الی آخر الآیه بیان لخصومتهم و قوله: «إِنَّ هٰذٰا أَخِی» کلام لواحد من أحد الفریقین یشیر الی آخر من الفریق الآخر ب إِنَّ هٰذٰا أَخِی لَهُ» الخ.

و قوله: لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِیَ نَعْجَةٌ وٰاحِدَةٌ فَقٰالَ أَکْفِلْنِیهٰا وَ عَزَّنِی فِی الْخِطٰابِ النعجه الانثی من الضأن،و «أَکْفِلْنِیهٰا» أی اجعلها فی کفالتی و تحت سلطتی و «عَزَّنِی فِی الْخِطٰابِ» أی غلبنی فیه و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: قٰالَ لَقَدْ ظَلَمَکَ بِسُؤٰالِ نَعْجَتِکَ إِلیٰ نِعٰاجِهِ -الی قوله- وَ قَلِیلٌ مٰا هُمْ جواب داود علیه السّلام،و لعله قضاء تقدیری قبل استماع کلام المتخاصم الآخر فإن من الجائز أن یکون عنده من القول ما یکشف عن کونه محقا فیما یطلبه و یقترحه علی صاحبه لکن صاحب النعجه الواحده ألقی کلامه بوجه هیج الرحمه و العطوفه منه علیه السّلام فبادر الی هذا التصدیق التقدیری فقال: «لَقَدْ ظَلَمَکَ بِسُؤٰالِ نَعْجَتِکَ إِلیٰ نِعٰاجِهِ» .

فاللام للقسم،و السؤال-علی ما قیل-مضمن معنی الإضافه و لذا عدی الی المفعول الثانی بإلی،و المعنی اقسم لقد ظلمک بسؤال إضافه نعجتک الی نعاجه.

و قوله: وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ الْخُلَطٰاءِ لَیَبْغِی بَعْضُهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ قَلِیلٌ مٰا هُمْ من تمام کلام داود علیه السّلام یقرر به کلامه الأول و الخلطاء الشرکاء المخالطون.

قوله تعالی: وَ ظَنَّ دٰاوُدُ أَنَّمٰا فَتَنّٰاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ رٰاکِعاً وَ أَنٰابَ أی علم داود أنما فتناه بهذه الواقعه أی أنها إنما کانت فتنه فتناه بها و الفتنه الامتحان،و قیل:ظن بمعناه المعروف الذی هو خلاف الیقین و ذکر استغفاره و توبته مطلقین یؤید ما قدمناه و لو کان الظن بمعناه المعروف کان الاستغفار و التوبه علی تقدیر کونها فتنه واقعا و إطلاق اللفظ یدفعه، و الخر علی ما ذکره الراغب سقوط یسمع منه خریر و الخریر یقال لصوت الماء و الریح و غیر ذلک مما یسقط من علو،و الرکوع-علی ما ذکره-مطلق الانحناء.

و الإنابه الی اللّه-علی ما ذکره الراغب-الرجوع الیه بالتوبه و إخلاص العمل و هی من النوب بمعنی رجوع الشیء مره بعد أخری.

و المعنی:و علم داود أن هذه الواقعه إنما کانت امتحانا امتحناه و أنه أخطأ فاستغفر ربه-مما وقع منه-و خر منحنیا و تاب الیه.

و أکثر المفسرین تبعا للروایات علی أن هؤلاء الخصم الداخلین علی داود علیه السّلام کانوا ملائکه أرسلهم اللّه سبحانه الیه لیمتحنه و ستعرف حال الروایات.

لکن خصوصیات القصه کتسورهم المحراب و دخولهم علیه دخولا غیر عادی بحیث أفزعوه،و کذا تنبهه بأنه إنما کان فتنه من اللّه له لا واقعه عادیه،و قوله تعالی بعد: «فَاحْکُمْ بَیْنَ النّاسِ بِالْحَقِّ وَ لاٰ تَتَّبِعِ الْهَویٰ» الظاهر فی أن اللّه ابتلاه بما ابتلی لینبهه و یسدده فی خلافته و حکمه بین الناس،کل ذلک یؤید کونهم من الملائکه و قد تمثلوا له فی صوره رجال من الإنس.

و علی هذا فالواقعه تمثل فیه الملائکه فی صوره متخاصمین لأحدهما نعجه واحده یسألها آخر له تسع و تسعون نعجه و سألوه القضاء فقال لصاحب النعجه الواحده: «لَقَدْ ظَلَمَکَ» الخ؛و کان قوله علیه السّلام-لو کان قضاء منجّزا-حکما منه فی ظرف التمثل کما لو کان رآهم فیما یری النائم فقال لهم ما قال و حکم فیهم بما حکم و من المعلوم أن لا تکلیف فی ظرف التمثل کما لا تکلیف فی عالم الرؤیا و إنما التکلیف فی عالمنا المشهود و هو عالم الماده و لم تقع الواقعه فیه و لا کان هناک متخاصمان و لا نعجه و لا نعاج إلا فی ظرف التمثل فکانت خطیئه داود علیه السّلام فی هذا الظرف من التمثل و لا تکلیف هناک کخطیئه آدم علیه السّلام فی الجنه من أکل الشجره قبل الهبوط الی الأرض و تشریع الشرائع و جعل التکالیف،و استغفاره و توبته مما صدر منه کاستغفار آدم و توبته مما صدر منه و قد صرح اللّه بخلافته فی کلامه کما صرح بخلافه آدم علیه السّلام فی کلامه و قد مر توضیح ذلک فی قصه آدم علیه السّلام من سوره البقره فی الجزء الأول من الکتاب.

ص:۳۴۶

و أما على قول بعض المفسرين من أن المتخاصمين الداخلين عليه كانوا بشرا و القصه على ظاهرها فينبغى أن يؤخذ قوله: «لَقَدْ ظَلَمَـكَ» الـخ؛قضاء تقديريا أى إنك مظلوم لو لم يأت خصيمك بحجه بينه،و إنما ذلك للحفظ على ما قامت عليه الحجه من طريقى العقل و النقل أن الأنبياء معصومون بعصمه من اللّه لا يجوز عليهم كبيره و لا صغيره.

على أن اللّه سبحانه صرح قبلا بأنه آتاه الحكمه و فصل الخطاب و لا يلائم ذلك خطأه فى القضاء.

قوله تعالى: وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ الزلفه و الزلفى المنزله و الحظوه، و المآب المرجع،و تنكير «لَزُلْفى» و «مَآبٍ» للتفخيم،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: يا داوُدُ إِنّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ الى آخر الآيه الظاهر أن الكلام بتقدير القول و التقدير فغفرنا له ذلك و قلنا يا داود،الخ.

و ظاهر الخلافه إنها خلافه اللّه فتنطبق على ما فى قوله تعالى: وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقره۳۰/)و من شأن الخلافه أن يحاكى الخليفه من استخلفه فى صفاته و أعماله فعلى خليفه اللّه فى الأرض أن يتخلق بأخلاق اللّه و يريد و يفعل ما يريده اللّه و يحكم و يقضى بما يقضى به اللّه-و اللّه يقضى بالحق-و يسلك سبيل اللّه و لا يتعداها.

و لذلك فرّع على جعل خلافته قوله: «فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقِّ» و هذا يؤيد أن المراد بجعل خلافته إخراجها من القوه الى الفعل فى حقه لا مجرد الخلافه الشأنيه لأن اللّه أكمله فى صفاته و آتاه الملك يحكم بين الناس.

و قوله: وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ العطف و المقابله بينه و بين ما قبله يعطيان أن المعنى و لا تتبع فى قضائك الهوى هوى النفس فيضلك عن الحق الذى هو سبيل اللّه فتفيد الآيه أن سبيل اللّه هو الحق.

قال بعضهم:إن فى أمره عليه السّلام بالحكم بالحق و نهيه عن اتباع الهوى تنبيها لغيره ممن يلى

امور النـاس أن يحكم بينهم بـالحق و لاـ يتبع الباطـل و إلاـ فهو عليه السّـلام من حيث إنه معصوم لاـ يحكم إلاـ بـالحق و لاـ يتبع الباطل.

و فيه أن أمر تنبيه غيره بما وجه اليه من التكليف فى محله لكن عصـمه المعصوم و عـدم حكمه إلا بالحق لا يمنع توجه التكليف بالأـمر و النهى اليه فإن العصـمه لاـ توجب سـلب اختيـاره و ما دام اختياره باقيا جاز بل وجب توجه التكليف اليه كما يتوجه الى غيره من الناس،و لو لا توجه التكليف الى المعصوم لم يتحقق بالنسـبه اليه واجب و محرم و لم تتميز طاعه من معصـيه فلغى معنى العصمه التى هى المصونيه عن المعصيه.

و قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ تعليل للنهى عن اتباع الهوى بأنه يلازم نسيان يوم الحساب و فى نسيانه عذاب شديد و المراد بنسيانه عدم الاعتناء بأمره.

و فى الآيه دلاله على أن كل ضلال عن سبيل اللّه سبحانه بمعصيه من المعاصى لا ينفك عن نسيان يوم الحساب.

قوله تعالى: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلاً الى آخر الآيه، لما انتهى الكلام الى ذكر يوم الحساب عطف عنان البيان عليه فاحتـج عليه بحجتين إحـداهما ما ساقه فى هذه الآيه بقوله: «وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ» الخ؛و هو احتجاج من طريق الغايات إذ لو لم يكن خلق السـماء و الأرض و ما بينهما-و هى أمور مخلوقه مؤجله توجـد و تفنى-مؤديا الى غايه ثابته باقيه غير مؤجله كان باطلا و الباطل بمعنى ما لا غايه له ممتنع التحقق فى الأعيان.

على أنه مستحيل من الحكيم و لا ريب فى حكمته تعالى.

و ربمـا أطلق الباطل و أريـد به اللعب و لو كان المراد ذلك كانت الآيه فى معنى قوله: وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إِلاّ بِالْحَقِّ (الدخان٣٩/).

و قوله: ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّارِ أى خلق العالم

باطلا لا غایه له و انتفاء یوم الحساب الذی یظهر فیه ما ینتجه حساب الامور ظن الذین کفروا بالمعاد فویل لهم من عذاب النار.

قوله تعالی: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ کَالْمُفْسِدِینَ فِی الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِینَ کَالْفُجَّارِ هذه هی الحجه الثانیه علی المعاد و تقریرها أن للإنسان کسائر الأنواع کمالا بالضروره و کمال الإنسان هو خروجه فی جانبی العلم و العمل من القوه الی الفعل بأن یعتقد الاعتقادات الحقه و یعمل الأعمال الصالحه اللتین یهدیه الیهما فطرته الصحیحه و هما الإیمان بالحق و العمل الصالح اللذین بهما یصلح المجتمع الإنسانی الذی فی الأرض.

فالذین آمنوا و عملوا الصالحات و هم المتقون هم الکاملون من الإنسان و المفسدون فی الأرض بفساد اعتقادهم و عملهم و هم الفجار هم الناقصون الخاسرون فی إنسانیتهم حقیقه، و مقتضی هذا الکمال و النقص أن یکون بإزاء الکمال حیاه سعیده و عیش طیب و بإزاء خلافه خلاف ذلک.

و من المعلوم أن هذه الحیاه الدنیا التی یشترکان فیها هی تحت سیطره الأسباب و العوامل المادیه و نسبتها الی الکامل و الناقص و المؤمن و الکافر علی السواء فمن أجاد العمل و وافقته الأسباب المادیه فاز بطیب العیش و من کان علی خلاف ذلک لزمه الشقاء و ضنک المعیشه.

فلو کانت الحیاه مقصوره علی هذه الحیاه الدنیویه التی نسبتها الی الفریقین علی السواء و لم تکن هناک حیاه تختص بکل منهما و تناسب حاله کان ذلک منافیا للعنایه الإلهیه بإیصال کل ذی حق حقه و إعطاء المقتضیات ما تقتضیه.

و إن شئت فقل:تسويه (۱)بین الفريقين و إلغاء ما يقتضيه صلاح هذا و فساد ذلک خلاف عدله تعالی.

و الآیه-کما تری-لا تنفی استواء حال المؤمن و الکافر و إنما قررت المقابله بین من آمن و عمل صالحا و بین من لم یکن کذلک سواء کان غیر مؤمن أو مؤمنا غیر صالح و لذا أتت بالمقابله ثانیا بین المتقین و الفجار.

قوله تعالی: کِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَیْکَ مُبٰارَکٌ لِیَدَّبَّرُوا آیٰاتِهِ وَ لِیَتَذَکَّرَ أُولُوا اَلْأَلْبٰابِ أی هذا کتاب من وصفه کذا و کذا،و توصیفه بالإنزال المشعر بالدفعه دون التنزیل الدال علی التدریج لأن ما ذکر من التدبر و التذکر یناسب اعتباره مجموعا لا نجوما مفرقه.

و المقابله بین «لِیَدَّبَّرُوا» و «لِیَتَذَکَّرَ أُولُوا اَلْأَلْبٰابِ» تفید أن المراد بضمیر الجمع الناس عامه.

و المعنی:هذا کتاب أنزلناه الیک کثیر الخیرات و البرکات للعامه و الخاصه لیتدبره الناس فیهتدوا به أو تتم لهم الحجه و لیتذکر به أولو الألباب فیهتدوا الی الحق باستحضار حجته و تلقیها من بیانه (۲)(۳).

[سوره ص (۳۸): الآیات ۳۰ الی ۴۰]

وَ وَهَبْنٰا لِدٰاوُدَ سُلَیْمٰانَ نِعْمَ اَلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ (۳۰) إِذْ عُرِضَ عَلَیْهِ بِالْعَشِیِّ اَلصّٰافِنٰاتُ اَلْجِیٰادُ (۳۱) فَقٰالَ إِنِّی أَحْبَبْتُ حُبَّ اَلْخَیْرِ عَنْ ذِکْرِ رَبِّی حَتّٰی تَوٰارَتْ بِالْحِجٰابِ (۳۲) رُدُّوهٰا عَلَیَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ اَلْأَعْنٰاقِ (۳۳) وَ لَقَدْ فَتَنّٰا سُلَیْمٰانَ وَ أَلْقَیْنٰا عَلیٰ کُرْسِیِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنٰابَ (۳۴) قٰالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ هَبْ لِی مُلْکاً لاٰ یَنْبَغِی لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِی إِنَّکَ أَنْتَ اَلْوَهّٰابُ (۳۵) فَسَخَّرْنٰا لَهُ اَلرِّیحَ تَجْرِی بِأَمْرِهِ رُخٰاءً حَیْثُ أَصٰابَ (۳۶) وَ اَلشَّیٰاطِینَ کُلَّ بَنّٰاءٍ وَ غَوّٰاصٍ (۳۷) وَ آخَرِینَ مُقَرَّنِینَ فِی اَلْأَصْفٰادِ (۳۸) هٰذٰا عَطٰاؤُنٰا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِکْ بِغَیْرِ حِسٰابٍ (۳۹) وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفیٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ (۴۰)

۱- ۱) .الحجه الاولی برهانیه و الثانیه جدلیه.

۲- ۲) .ص ۱۷-۲۹:بحث روائی فی نبأ داود علیه السّلام و المتخاصمین.

۳- ۳) .ص ۱۷-۲۹:کلام فی قصص داود فی فصول(قصته فی القرآن،جمیل الثناء علیه فی القرآن).

بیان:

قوله تعالى: وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّابٌ أى وهبناه له ولدا و الباقى ظاهر مما تقدم.

قوله تعالى: إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصّافِناتُ الْجِيادُ العشى مقابل الغداه و هو آخر النهار بعد الزوال،و الصافنات على ما فى المجمع جمع الصافنه من الخيل و هى التى تقوم على ثلاث قوائم و ترفع إحدى يديها حتى تكون على طرف الحافر.قال:و الجياد جمع جواد و الياء هاهنا منقلبه عن واو و الأصل جواد و هى السراع من الخيل كأنها تجود بالركض.

انتهى.

ص :۳۵۱

قوله تعالی: فَقٰالَ إِنِّی أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَیْرِ عَنْ ذِکْرِ رَبِّی حَتّٰی تَوٰارَتْ بِالْحِجٰابِ الضمیر لسلیمان،و المراد بالخیر:الخیل-علی ما قیل-فإن العرب تسمی الخیل خیرا و عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الخیر معقود بنواصی الخیل الی یوم القیامه.

و قیل:المراد بالخیر المال الکثیر و قد استعمل بهذا المعنی فی مواضع من کلامه تعالی کقوله:

إِنْ تَرَکَ خَیْراً (البقره۱۸۰/).

و قوله: إِنِّی أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَیْرِ عَنْ ذِکْرِ رَبِّی قالوا:إن «أَحْبَبْتُ» مضمن معنی الإیثار و «عَنْ» بمعنی علی،و المراد إنی آثرت حب الخیل عن ذکر ربی و هو الصلاه محبا إیاه أو أحببت الخیل حبا مؤثرا إیاه علی ذکر ربی-فاشتغلت بما عرض علی من الخیل عن الصلاه حتی غربت الشمس.

و قوله: حَتّٰی تَوٰارَتْ بِالْحِجٰابِ الضمیر علی ما قالوا للشمس و المراد بتواریها بالحجاب غروبها و استتارها تحت حجاب الافق،و یؤید هذا المعنی ذکر العشی فی الآیه السابقه إذ لو لا ذلک لم یکن غرض ظاهر یترتب علی ذکر العشی.

فمحصل معنی الآیه أنی شغلنی حب الخیل-حین عرض الخیل علی-عن الصلاه حتی فات وقتها بغروب الشمس،و إنما کان یحب الخیل فی اللّه لیتهیأ به للجهاد فی سبیل اللّه فکان الحضور للعرض عباده منه فشغلته عباده عن عباده غیر أنه یعد الصلاه أهم.

قوله تعالی: رُدُّوهٰا عَلَیَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنٰاقِ قیل:الضمیر فی «رُدُّوهٰا» للشمس و هو امر منه للملائکه برد الشمس لیصلی صلاته فی وقتها،و قوله:

«فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنٰاقِ» أی شرع یمسح ساقیه و عنقه و یأمر أصحابه أن یمسحوا سوقهم و أعناقهم و کان ذلک وضوءهم ثم صلی و صلوا،و قد ورد ذلک فی بعض الروایات عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ فَتَنّٰا سُلَیْمٰانَ وَ أَلْقَیْنٰا عَلیٰ کُرْسِیِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنٰابَ

الجسد هو الجسم الذی لا روح فیه.

قیل:المراد بالجسد الملقی علی کرسیه هو سلیمان نفسه لمرض امتحنه اللّه به و تقدیر الکلام ألقیناه علی کرسیه جسدا أی کجسد لا روح فیه من شده المرض.

و فیه أن حذف الضمیر من«ألقیناه»و إخراج الکلام علی صورته التی فی الآیه الظاهره فی أن الملقی هو الجسد مخل بالمعنی المقصود لا یجوز حمل أفصح الکلام علیه.

و لسائر المفسرین أقوال مختلفه فی المراد من الآیه تبعا للروایات المختلفه الوارده فیها و الذی یمکن أن یؤخذ من بینها إجمالا أنه کان جسد صبی له أماته اللّه و ألقی جسده علی کرسیه،و لقوله: «ثُمَّ أَنٰابَ قٰالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی» إشعار أو دلاله علی أنه کان له علیه السّلام فیه رجاء أو امنیه فی اللّه فأماته اللّه سبحانه و ألقاه علی کرسیه فنبهه أن یفوض الأمر الی اللّه و یسلم له.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ هَبْ لِی مُلْکاً لاٰ یَنْبَغِی لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِی إِنَّکَ أَنْتَ الْوَهّٰابُ ظاهر السیاق أن الاستغفار مرتبطه بما فی الآیه السابقه من إلقاء الجسد علی کرسیه،و الفصل لکون الکلام فی محل الدخل کأنه لما قیل «ثُمَّ أَنٰابَ» قیل:

فما ذا قال؟فقیل: «قٰالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی» الخ.

قوله تعالی: فَسَخَّرْنٰا لَهُ الرِّیحَ تَجْرِی بِأَمْرِهِ رُخٰاءً حَیْثُ أَصٰابَ متفرع علی سؤاله الملک و إخباره عن إجابه دعوته و بیان الملک الذی لا ینبغی لأحد غیره و هو تسخیر الریح و الجن.

و الرخاء بالضم اللینه و الظاهر أن المراد بکون الریح تجری بأمره رخاء مطاوعتها لأمره و سهوله جریانها علی ما یریده علیه السّلام فلا یرد أن توصیف الریح هاهنا بالرخاء یناقض توصیفه فی قوله: وَ لِسُلَیْمٰانَ الرِّیحَ عٰاصِفَةً تَجْرِی بِأَمْرِهِ (الأنبیاء/۸۱)بکونها عاصفه.

و ربما أجیب عنه بأن من الجائز أن یجعلها اللّه رخوه تاره و عاصفه اخری حسب ما أراد سلیمان علیه السّلام.

و قوله: حَيْثُ أَصٰابَ أی حیث شاء سلیمان علیه السّلام و قصد و هو متعلق بتجری.

قوله تعالی: وَ الشَّيٰاطِينَ كُلَّ بَنّٰاءٍ وَ غَوّٰاصٍ أی و سخرنا له الشیاطین من الجن کل بناء منهم یبنی له فی البر و کل غواص یعمل له فی البحر فیستخرج اللئالی و غیرها.

قوله تعالی: وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي اَلْأَصْفٰادِ الأصفاد جمع صفد و هو الغل من الحدید،و المعنی سخرنا له آخرین منهم مجموعین فی الأغلال مشدودین بالسلاسل.

قوله تعالی: هٰذٰا عَطٰاؤُنٰا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ أی هذا الذی ذکر من الملک عطاؤنا لک بغیر حساب و الظاهر أن المراد بکونه بغیر حساب أنه لا ینفد بالعطاء و المن و لذا قیل «فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ» أی أنهما یستویان فی عدم التأثیر فیه.

و قیل:المراد بغیر حساب أنک لا تحاسب علیه یوم القیامه،و قیل:المراد أن إعطاءه تفضل لا مجازاه و قیل غیر ذلک.

قوله تعالی: وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفیٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ تقدم معناه (۱).

[سوره ص (۳۸): الآیات ۴۱ الی ۴۸]

وَ اُذْكُرْ عَبْدَنٰا أَيُّوبَ إِذْ نٰادیٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ اَلشَّيْطٰانُ بِنُصْبٍ وَ عَذٰابٍ (۴۱) اُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذٰا مُغْتَسَلٌ بٰارِدٌ وَ شَرٰابٌ (۴۲) وَ وَهَبْنٰا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنّٰا وَ ذِكْریٰ لِأُولِي اَلْأَلْبٰابِ (۴۳) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لاٰ تَحْنَثْ إِنّٰا وَجَدْنٰاهُ صٰابِراً نِعْمَ اَلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ (۴۴) وَ اُذْكُرْ عِبٰادَنٰا إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي اَلْأَيْدِي وَ اَلْأَبْصٰارِ (۴۵) إِنّٰا أَخْلَصْنٰاهُمْ بِخٰالِصَةٍ ذِكْرَى اَلدّٰارِ (۴۶) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنٰا لَمِنَ اَلْمُصْطَفَيْنَ اَلْأَخْيٰارِ (۴۷) وَ اُذْكُرْ إِسْمٰاعِيلَ وَ اَلْيَسَعَ وَ ذَا اَلْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ اَلْأَخْيٰارِ (۴۸)

۱- ۱) .ص ۳۰-۴۰:بحث روائی فی قصه سلیمان علیه السّلام و رد الشمس.

بیان:

قوله تعالی: وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّی مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ دعاء منه عليه السّلام و سؤال للعافيه و أن يكشف عنه ربه ما أصابه من سوء الحال،و لم يصرح بما يريده و يسأله تواضعا و تذللا غير أن نداءه تعالى بلفظ ربی يشعر بأنه يناديه لحاجه.

و النصب التعب،و قوله: «إِذْ نادى» الخ؛بدل اشتمال من «عَبْدَنا» أو «أَيُّوبَ» و قوله:

«أَنِّی مَسَّنِيَ» الخ؛حكايه ندائه.

و الظاهر من الآيات التاليه أن مراده من النصب و العذاب ما أصابه من سوء الحال فی بدنه و أهله و هو الذی ذكره عنه عليه السّلام فی سوره الأنبياء من ندائه أنی مسنی الضر و أنت أرحم الراحمين بناء على شمول الضر مصيبته فی نفسه و أهله و لم يشر فی هذه السوره و لا فی سوره الأنبياء الى ذهاب ماله و إن وقع ذكر المال فی الروايات.

و الظاهر أن المراد من مس الشيطان له بالنصب و العذاب استناد نصبه و عذابه الى الشيطان بنحو من السببيه و التأثير و هو الذی يظهر من الروايات،و لا ينافی استناد المرض و نحوه الى الشيطان استناده أيضا الى بعض الأسباب العاديه الطبيعيه لأن السببين ليسا عرضيين

ص :355

متدافعين بل أحدهما فى طول الآخر و قد أوضحنا ذلك فى تفسير قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ (الأعراف۹۶/).

و لا دليل يدل على امتناع وقوع هذا النوع من التأثير للشيطان فى الإنسان و قد قال تعالى:

إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ (المائده۹۰/)فنسبها أنفسها إليه،و قال حاكيا عن موسى عليه السّلام: هٰذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (القصص۱۵/)يشير الى الاقتتال.

و لو أغمض عن الروايات أمكن أن يحتمل أن يكون المراد بانتساب ذلك الى الشيطان إغراؤه الناس بوسوسته أن يتجنبوا من الاقتراب منه و ابتعادهم و طعنهم فيه أن لو كان نبيا لم تحط به البليه من كل جانب و لم يصر الى ما صار اليه من العاقبه السوأى و شماتتهم و استهزاؤهم به.

و قد أنكر فى الكشاف ما تقدم من الوجه قائلا:لا يجوز أن يسلط اللّه الشيطان على أنبيائه عليه السّلام ليقضى من تعذيبهم و إتعابهم وطره و لو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا و قد نكبه و أهلكه،و قد تكرر فى القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسه فحسب.انتهى.

و فيه أن الذى يخص الأنبياء و أهل العصمه أنهم لمكان عصمتهم فى أمن من تأثير الشيطان فى نفوسهم بالوسوسه،و أما تأثيره فى أبدانهم و سائر ما ينسب اليهم بإيذاء أو إتعاب أو نحو ذلك من غير إضلال فلا دليل يدل على امتناعه،و قد حكى اللّه سبحانه عن فتى موسى و هو يوشع النبى عليه السّلام: فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ (الكهف۶۳/).

و لا يلزم من تسلطه على نبى بالإيذاء و الإتعاب لمصلحه تقتضيه كظهور صبره فى اللّه سبحانه و أوبته اليه أن يقدر على ما يشاء فيمن يشاء من عباد اللّه تعالى إلا أن يشاء اللّه ذلك و هو ظاهر.

ص :۳۵۶

قوله تعالی: اُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذٰا مُغْتَسَلٌ بٰارِدٌ وَ شَرٰابٌ وقوع الآیه عقیب ندائه و مسألته یعطی أنه إیذان باستجابه دعائه و أن قوله تعالی: «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ» الخ؛ حكایه لما اوحی الیه عند الكشف عن الاستجابه أو هو بإضمار القول و التقدیر فاستجبنا له و قلنا:اركض،الخ؛و سیاق الأمر مشعر بل كاشف عن أنه كان لا یقدر علی القیام و المشی بقدمیه و كان مصابا فی سائر بدنه فأبرأ اللّه ما فی رجلیه من ضر و أظهر له عینا هناك و أمره أن یغتسل منها و یشرب حتی یبرأ ظاهر بدنه و باطنه و یتأید بذلك ما سیأتی من الروایه.

قوله تعالی: وَ وَهَبْنٰا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنّٰا وَ ذِكْرىٰ لِأُولِی الْأَلْبٰابِ ورد فی الروایه أنه ابتلی فیما ابتلی بموت جمیع أهله إلا امرأته و أن اللّه أحیاهم له و وهبهم له و مثلهم معهم،و قیل:إنهم كانوا قد تفرقوا عنه أیام ابتلائه فجمعهم اللّه الیه بعد برئه و تناسلوا فكانوا مثلی ما كانوا عددا.

و قوله: «رَحْمَةً مِنّٰا وَ ذِكْرىٰ لِأُولِی الْأَلْبٰابِ» مفعول له أی فعلنا به ما فعلنا لیكون رحمه منا و ذكری لاولی الألباب یتذكرون به.

قوله تعالی: وَ خُذْ بِیَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لاٰ تَحْنَثْ إِنّٰا وَجَدْنٰاهُ صٰابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ فی المجمع:الضغث ملء الكف من الشجره و الحشیش و الشماریخ و نحو ذلك انتهی،و كان علیه السّلام قد حلف لئن عوفی أن یجلد امرأته مائه جلده لأمر أنكره علیه علی ما سیأتی من الروایه فلما عافاه اللّه تعالی أمره أن یأخذ بیده ضغثا بعدد ما حلف علیه من الجلدات فیضربها به و لا یحنث.

و فی سیاق الآیه تلویح الی ذلك و إنما طوی ذكر المرأه و سبب الحلف تأدبا و رعایه لجانبه.

و قوله: إِنّٰا وَجَدْنٰاهُ صٰابِراً أی فیما ابتلیناه به من المرض و ذهاب الأهل و المال، و الجمله تعلیل لقوله: «وَ اذْكُرْ» أو لقوله: «عَبْدَنٰا» أی لتسمیته عبدا و إضافته الیه تعالی، و الأول أولی.

و قوله: «نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ» مدح له عليه السّلام.

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ عِبٰادَنٰا إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصٰارِ مدحهم بتوصيفهم بأن لهم الأيدى و الأبصار و يد الإنسان و بصره إنما يمدحان إذا كانا يد إنسان و بصر إنسان و استعملا فيما خلقا له و خدما الإنسان فى إنسانيته فتكتسب اليد صالح العمل و يجرى منها الخير على الخلق و يميز البصر طرق العافيه و السلامه من موارد الهلكه و يصيب الحق و لا يلتبس عليه الباطل.

فيكون كونهم اولى الأيدى و الأبصار كنايه عن قوتهم فى الطاعه و إيصال الخير و تبصرهم فى إصابه الحق فى الاعتقاد و العمل و قد جمع المعنيين فى قوله تعالى: وَ وَهَبْنٰا لَهُ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ نٰافِلَةً وَ كُلاًّ جَعَلْنٰا صٰالِحِينَ وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا وَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرٰاتِ وَ إِقٰامَ الصَّلاٰةِ وَ إِيتٰاءَ الزَّكٰاةِ وَ كٰانُوا لَنٰا عٰابِدِينَ (الأنبياء/۷۳)فجعلهم أئمه و الأمر و الوحى لأبصارهم و فعل الخيرات و إقام الصلاه و إيتاء الزكاه لأيديهم (۱)و اليه يئول ما فى الروايه من تفسير ذلك باولى القوه فى العباده و البصر فيها.

قوله تعالى: إِنّٰا أَخْلَصْنٰاهُمْ بِخٰالِصَةٍ ذِكْرَى الدّٰارِ الخالصه وصف قائم مقام موصوفه،و الباء للسببيه و التقدير بسبب خصله خالصه،و ذكر الدار بيان للخصله و الدار هى الدار الآخره.

و الآيه أعنى قوله: «إِنّٰا أَخْلَصْنٰاهُمْ» الخ؛لتعليل ما فى الآيه السابقه من قوله: «أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصٰارِ» أو لقوله: «عِبٰادَنٰا» أو لقوله: «وَ اذْكُرْ» و أوجه الوجوه أولها،و ذلك لأن استغراق الإنسان فى ذكرى الدار الآخره و جوار رب العالمين و ركوز همه فيها يلازم كمال معرفته فى جنب اللّه تعالى و إصابه نظره فى حق الاعتقاد و التبصر فى سلوك سبيل العبوديه

۱- ۱) .رواها القمى فى تفسيره عن أبى الجارود عن أبى جعفر عليه السّلام.

و التخلص عن الجمود على ظاهر الحياه الدنيا و زينتها كما هو شأن أبنائها قال تعالى:

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِكْرِنٰا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (النجم/ ٣٠).

و معنى الآيه و إنما كانوا اولى الأيدى و الأبصار لأنا أخلصناهم بخصله خالصه غير مشوبه عظيمه الشأن هى ذكر الدار الآخره.

قوله تعالى:وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنٰا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيٰارِ تقدم أن الاصطفاء يلازم الإسلام التام للّه سبحانه،و فى الآيه إشاره الى قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفىٰ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْرٰاهِيمَ وَ آلَ عِمْرٰانَ عَلَى الْعٰالَمِينَ (آل عمران٣٣/).

و الأخيار جمع خير مقابل الشر على ما قيل،و قيل:جمع خيّر بالتشديد أو التخفيف كأموات جمع ميت بالتشديد أو بالتخفيف.

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ إِسْمٰاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيٰارِ معناه ظاهر (١)(٢).

[سوره ص (٣٨): الآيات ۴٩ الى ۶۴]

هٰذٰا ذِكْرٌ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (۴٩) جَنّٰاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوٰابُ (۵٠) مُتَّكِئِينَ فِيهٰا يَدْعُونَ فِيهٰا بِفٰاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرٰابٍ (۵١) وَ عِنْدَهُمْ قٰاصِرٰاتُ الطَّرْفِ أَتْرٰابٌ (۵٢) هٰذٰا مٰا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسٰابِ (۵٣) إِنَّ هٰذٰا لَرِزْقُنٰا مٰا لَهُ مِنْ نَفٰادٍ (۵۴) هٰذٰا وَ إِنَّ لِلطّٰاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (۵۵) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهٰا فَبِئْسَ الْمِهٰادُ (۵۶) هٰذٰا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسّٰاقٌ (۵٧) وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوٰاجٌ (۵٨) هٰذٰا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لاٰ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صٰالُوا النّٰارِ (۵٩) قٰالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاٰ مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنٰا فَبِئْسَ الْقَرٰارُ (۶٠) قٰالُوا رَبَّنٰا مَنْ قَدَّمَ لَنٰا هٰذٰا فَزِدْهُ عَذٰاباً ضِعْفاً فِي النّٰارِ (۶١) وَ قٰالُوا مٰا لَنٰا لاٰ نَرىٰ رِجٰالاً كُنّٰا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرٰارِ (۶٢) أَتَّخَذْنٰاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زٰاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصٰارُ (۶٣) إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخٰاصُمُ أَهْلِ النّٰارِ (۶۴)

١- ١) .ص ۴١-۴٨:كلام فى قصه ايوب عليه السّلام فى فصول(قصته فى القرآن،جميل ثنائه،قصته فى الروايات).

٢- ٢) .ص ۴١-۴٨:خبر اليسع و ذى الكفل.

بیان:

قوله تعالی: هـٰذا ذِكْرٌ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ الإشاره بهـذا الی ما ذکر من قصـص الأوّابین من الأنبیاء الکرام علیهما السّلام،و المراد بالـذکر الشرف و الثناء الجمیل أی هـذا الذی ذکر شرف و ذکر جمیل و ثناء حسن لهم یذکرون به فی الدنیا أبدا و لهم حسن مآب من ثواب الآخره.کذا قالوا.

و علی هـذا فالمراد بالمتقین هم المـذکورون من الأنبیاء بالخصوص أو عموم أهل التقوی و هم داخلون فیهم و یکون ذکر مآب الطاغین بعد من باب الاستطراد.

و الظاهر أن الإشاره بهذا الی القرآن و المراد بالذکر ما یشتمل علیه من الذکر و فی الکلام

ص :۳۶۰

عود الی ما بدئ به فی السوره من قوله: «وَ الْقُرْآنِ ذِی الذِّکْرِ» فهو فصل من الکلام یذکر فیه اللّه سبحانه ما فی الدار الآخره من ثواب المتقین و عقاب الطاغین.

و قوله: وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِینَ لَحُسْنَ مَآبٍ المآب المرجع و التنکیر للتفخیم،و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: جَنّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَهً لَهُمُ الْأَبْوابُ أی جنات استقرار و خلود و کون الأبواب مفتحه لهم کنایه عن أنهم غیر ممنوعین عن شیء من النعم الموجوده فیها فهی مهیأه لهم مخلوقه لأجلهم،و قیل:المراد أن أبوابها مفتحه لهم لا تحتاج الی الوقوف وراءها و دقها،و قیل:المراد أنها تفتح بغیر مفتاح و تغلق بغیر مغلاق.

و الآیه و ما بعدها بیان لحسن مآبهم.

قوله تعالی: مُتَّکِئِینَ فِیها یَدْعُونَ فِیها بِفاکِهَهٍ کَثِیرَهٍ وَ شَرابٍ أی حالکونهم جالسین فیها بنحو الاتکاء و الاستناد جلسه الأعزه و الأشراف.

و قوله: یَدْعُونَ فِیها بِفاکِهَهٍ الخ؛أی یتحکمون فیها بدعوه الفاکهه و هی کثیره و الشراب فإذا دعیت فاکهه أو دعی شراب أجابهم المدعو فأتاهم من غیر حاجه الی من یحمله و یناوله.

قوله تعالی: وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ الضمیر للمتقین و قاصرات الطرف صفه قائمه مقام الموصوف و التقدیر و عندهم أزواج قاصرات الطرف و المراد قصور طرفهن علی أزواجهن یرضین بهم و لا یرون غیرهم أو هو کنایه عن کونهن ذوات غنج و دلال.

و الأتراب الأقران أی إنهن أمثال لا یختلفن سنا أو جمالا أو إنهن أمثال لأزواجهن فکلما زادوا نورا و بهاء زدن حسنا و جمالا.

قوله تعالی: هٰذٰا مٰا تُوعَدُونَ لِیَوْمِ الْحِسٰابِ الإشاره الی ما ذکر من الجنه

و نعیمها،و الخطاب للمتقین ففی الکلام التفات من الغیبه الی الخطاب و النکته فیه إظهار القرب منهم و الإشراف علیهم لیکمل نعمهم الصوریه بهذه النعمه المعنویه.

قوله تعالی: إِنَّ هٰذٰا لَرِزْقُنٰا مٰا لَهُ مِنْ نَفٰادٍ النفاد الفناء و الانقطاع،و الآیه من تمام الخطاب الذی فی الآیه السابقه علی ما یعطیه السیاق.

قوله تعالی: هٰذٰا وَ إِنَّ لِلطّٰاغِینَ لَشَرَّ مَآبٍ الإشاره بهذا الی ما ذکر من مقام المتقین أی هذا ما للمتقین من المآب،و یمکن أن یکون هذا اسم فعل أی خذ هذا.و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: جَهَنَّمَ یَصْلَوْنَهٰا فَبِئْسَ الْمِهٰادُ الصلی دخول النار و مقاساه حرارتها أو اتباعها و المهاد-علی ما فی المجمع-الفراش الموطأ یقال:مهدت له تمهیدا مثل وطأت له توطئه،و الآیه و ما بعدها تفسیر لمآب الطاغین.

قوله تعالی: هٰذٰا فَلْیَذُوقُوهُ حَمِیمٌ وَ غَسّٰاقٌ الحمیم الحار الشدید الحراره و الغسّاق-علی ما فی المجمع-قیح شدید النتن،و فسر بتفاسیر أخر،و قوله: «حَمِیمٌ وَ غَسّٰاقٌ» بیان لهذا،و قوله: «فَلْیَذُوقُوهُ» دال علی إکراههم و حملهم علی ذوقه و تقدیم المخبر عنه و جعله اسم إشاره یؤکد ذلک،و المعنی هذا حمیم و غساق علیهم أن یذوقوه لیس إلا.

قوله تعالی: وَ آخَرُ مِنْ شَکْلِهِ أَزْوٰاجٌ شکل الشیء ما یشابهه و جنسه و الأزواج الأنواع و الأقسام أی و هذا آخر من جنس الحمیم و الغساق أنواع مختلفه لیذوقوها.

قوله تعالی: هٰذٰا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَکُمْ -الی قوله- فِی النّٰارِ الآیات الثلاث -علی ما یعطیه السیاق-حکایه ما یجری بین التابعین و المتبوعین من الطاغین فی النار من التخاصم و المجاراه.

فقوله: هٰذٰا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَکُمْ خطاب یخاطب به المتبوعون یشار به الی التابعین الذین یدخلون النار مع المتبوعین فوجا،و الاقتحام الدخول فی الشیء بشده

و صعوبه.

و قوله: لاٰ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صٰالُوا النّٰارِ جواب المتبوعين لمن يخاطبهم بقوله:

«هٰذٰا فَوْجٌ» و مرحبا تحيه للوارد معناه عرض رحب الدار وسعتها له فقولهم: «لاٰ مَرْحَباً بِهِمْ» معناه نفى الرحب و السعه عنهم.و قولهم: «إِنَّهُمْ صٰالُوا النّٰارِ» أى داخلوها و مقاسو حرارتها أو متبعوها تعليل لتحيتهم بنفى التحيه.

و قوله: قٰالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاٰ مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنٰا فَبِئْسَ الْقَرٰارُ نقل كلام التابعين و هم القائلون يردون الى متبوعيهم نفى التحيه و يذمون القرار فى النار.

قوله تعالى: قٰالُوا رَبَّنٰا مَنْ قَدَّمَ لَنٰا هٰذٰا فَزِدْهُ عَذٰاباً ضِعْفاً فِي النّٰارِ لم يذكر تعالى جواب المتبوعين لقولهم: «أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنٰا» الخ؛و قد ذكره فى سوره الصافات فيما حكى من تساؤلهم بقوله: قٰالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَ مٰا كٰانَ لَنٰا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طٰاغِينَ الخ(الآيه ۳۰)فقولهم: «رَبَّنٰا مَنْ قَدَّمَ لَنٰا هٰذٰا فَزِدْهُ عَذٰاباً ضِعْفاً فِي النّٰارِ» كلامهم بعد الانقطاع عن المخاصمه.

و جمله «مَنْ قَدَّمَ» الخ؛شرط و جزاء،و الضعف المثل و «عَذٰاباً ضِعْفاً» أى ذا ضعف و مثل أى ضعفين من العذاب.

قوله تعالى: وَ قٰالُوا مٰا لَنٰا لاٰ نَرىٰ رِجٰالاً كُنّٰا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرٰارِ القائلون -على ما يعطيه السياق-مطلق أهل النار،و مرادهم بالرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار المؤمنون و هم فى الجنه فيطلبهم أهل النار فلا يجدونهم فيها.

قوله تعالى: أَتَّخَذْنٰاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زٰاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصٰارُ أى أتخذناهم سخريا فى الدنيا فأخطأنا و قد كانوا ناجين أم عدلت أبصارنا فلا نراهم و هم معنا فى النار.

قوله تعالى: إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخٰاصُمُ أَهْلِ النّٰارِ إشاره الى ما حكى من تخاصمهم و بيان أن تخاصم أهل النار ثابت واقع لا ريب فيه و هو ظهور ما استقر فى نفوسهم فى الدنيا من

ملکه التنازع و التشاجر.

[سوره ص (۳۸): الآیات ۶۵ الی ۸۸]

قُلْ إِنَّمٰا أَنَا مُنْذِرٌ وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اَللّٰهُ اَلْوٰاحِدُ اَلْقَهّٰارُ (۶۵) رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمَا اَلْعَزِيزُ اَلْغَفّٰارُ (۶۶) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (۶۷) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (۶۸) مٰا كٰانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ اَلْأَعْلىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۶۹) إِنْ يُوحىٰ إِلَيَّ إِلاّٰ أَنَّمٰا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۷۰) إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَةِ إِنِّي خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (۷۱) فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ (۷۲) فَسَجَدَ اَلْمَلاٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (۷۳) إِلاّٰ إِبْلِيسَ اِسْتَكْبَرَ وَ كٰانَ مِنَ اَلْكٰافِرِينَ (۷۴) قٰالَ يٰا إِبْلِيسُ مٰا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ اَلْعٰالِينَ (۷۵) قٰالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (۷۶) قٰالَ فَاخْرُجْ مِنْهٰا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (۷۷) وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلىٰ يَوْمِ اَلدِّينِ (۷۸) قٰالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۷۹) قٰالَ فَإِنَّكَ مِنَ اَلْمُنْظَرِينَ (۸۰) إِلىٰ يَوْمِ اَلْوَقْتِ اَلْمَعْلُومِ (۸۱) قٰالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (۸۲) إِلاّٰ عِبٰادَكَ مِنْهُمُ اَلْمُخْلَصِينَ (۸۳) قٰالَ فَالْحَقُّ وَ اَلْحَقَّ أَقُولُ (۸۴) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (۸۵) قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مٰا أَنَا مِنَ اَلْمُتَكَلِّفِينَ (۸۶) إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ (۸۷) وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (۸۸)

ص: ۳۶۴

بیان:

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمٰا أَنَا مُنْذِرٌ وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ -الى قوله- اَلْعَزِيزُ الْغَفّٰارُ فى الآيتين أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإبلاغ أنه منذر و أن اللّه تعالى واحد فى الالوهيه فقوله: «إِنَّمٰا أَنَا مُنْذِرٌ» يفيد قصره فى كونه منذرا و نفى سائر الأغراض التى ربما تتلبس به الدعوه بين الناس من طلب مال أو جاه كما يشير اليه ما فى آخر الآيات من قوله: «قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» .

و قوله: وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللّٰهُ الى آخر الآيتين إبلاغ لتوحيده تعالى بحجه يدل عليها ما اورد من صفاته المدلول عليها بأسمائه.

فقوله: وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللّٰهُ نفى لكل إله-و الإله هو المعبود بالحق-غيره تعالى و أما ثبوت ألوهيته تعالى فهو مسلّم بانتفاء الوهيه غيره إذ لا نزاع بين الإسلام و الشرك فى أصل ثبوت الإله و إنما النزاع فى أن الإله و هو المعبود بالحق هو اللّه تعالى أو غيره.على أن ما

ذکر فی الآیتین من الصفات متضمن لإثبات الوهیته کما أنها حجه علی انتفاء الوهیه غیره تعالی.

و قوله: اَلْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ یدل علی توحده تعالی فی وجوده و قهره کل شیء و ذلک أنه تعالی واحد لا یماثله شیء فی وجوده و لا تناهی کماله الذی هو عین وجوده الواجب فهو الغنی بذاته و علی الإطلاق و غیره من شیء فقیر یحتاج الیه من کل جهه لیس له من الوجود و آثار الوجود إلا ما أنعم و أفاض فهو سبحانه القاهر لکل شیء علی ما یرید و کل شیء مطیع له فیما أراد خاضع له فیما شاء.

و هذا الخضوع الذاتی هو حقیقه العباده فلو جاز أن یعبد شیء فی الوجود عملا بأن یؤتی بعمل یمثل به العبودیه و الخضوع فهی عبادته سبحانه إذ کل شیء مفروض دونه فهو مقهور خاضع له لا یملک لنفسه و لا لغیره شیء و لا یستقل من الوجود و آثار الوجود بشیء فهو سبحانه الإله المعبود بالحق لا غیر.

و قوله: رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمَا یفید حجه اخری علی توحده تعالی فی الالوهیه و ذلک أن نظام التدبیر الجاری فی العالم برمته نظام واحد متصل غیر متبعض و لا متجز و هو آیه وحده المدبر،و قد تقدم کرارا أن الخلق و التدبیر لا ینفکان فالتدبیر خلق بوجه کما أن الخلق تدبیر بوجه،و الخالق الموجد للسماوات و الأرض و ما بینهما هو اللّه سبحانه -حتی عند الخصم-فهو تعالی ربها المدبر لها جمیعا فهو وحده الإله الذی یجب أن یقصد بالعباده تمثیل عبودیه العابد و مملوکیته تجاه مولویه المعبود و مالکیته و تصرفه فی المعبود بإفاضه النعمه و دفع النقمه فهو سبحانه الإله فی السماوات و الأرض و ما بینهما لا إله غیره.

فافهم ذلک.

و یمکن أن یکون قوله: «رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا» بیانا لقوله: «الْقَهّٰارُ» أو «الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» .

ص:٣۶۶

و قوله: اَلْعَزِيزُ الْغَفّارُ يفيد حجه اخرى على توحده تعالى فى الالوهيه و ذلك أنه تعالى عزيز لا يغلبه شىء بإكراهه على ما لم يرد أو بمنعه عما أراد فهو العزيز على الإطلاق و غيره من شىء ذليل عنده قانت له و العباده إظهار للمذله و لا يستقيم إلا قبال العزه و لا عزه لغيره تعالى إلا به.

و أيضا غايه العباده و هى تمثيل العبوديه التقرب الى المعبود و رفع و صمه البعد عن العبد العابد و هو مغفره الذنب و اللّه سبحانه هو المستقل بالرحمه التى لا تنفد خزائنها و هو الذى يورد عباده العابدين له فى الآخره دار كرامته فهو الغفار الذى يجب أن يعبد طمعا فى مغفرته.

و يمكن أن يكون قوله: «الْعَزِيزُ الْغَفّارُ» تلويحا الى وجه الدعوه الى التوحيد أو وجوب الإيمان به المفهوم بحسب المقام من قوله: «وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّارُ» و المعنى أدعوكم الى توحيده فآمنوا به لأنه العزيز الذى لا يشوبه ذله الغفار للذنوب و هكذا يجب أن يكون الإله.

قوله تعالى: قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مرجع الضمير ما ذكره من حديث الوحدانيه فى قوله: «وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللّٰهُ» الخ.

قوله تعالى: مٰا كٰانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ الملأ الأعلى جماعه الملائكه و كأن المراد باختصامهم ما أشار تعالى اليه بقوله: إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَهِ إِنِّي جٰاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَهً الى آخر الآيات.

و كأن المعنى إنى ما كنت أعلم اختصام الملأ الأعلى حتى أوحى اللّه إلىّ ذلك فى كتابه فإنما أنا منذر أتبع الوحى.

قوله تعالى: إِنْ يُوحىٰ إِلَيَّ إِلاّٰ أَنَّمٰا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ تأكيد لقوله: «إِنَّمٰا أَنَا مُنْذِرٌ» و بمنزله التعليل لقوله: «مٰا كٰانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلىٰ» و المعنى لم أكن أعلم ذلك لأن علمى ليس من قبل نفسى و إنما هو بالوحى و ليس يوحى إلى إلا ما يتعلق بالإنذار.

قوله تعالى: إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَهِ إِنِّي خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ الذى يعطيه

السیاق أن الآیه و ما بعدها لیست تتمه لقول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «إِنَّمٰا أَنَا مُنْذِرٌ» الخ؛و الشاهد علیه قوله: «رَبُّکَ» فهو من کلامه تعالی یشیر الی زمان اختصام الملإ الأعلی و الظرف متعلق بما تعلق به قوله: «إِذْ یَخْتَصِمُونَ» أو متعلق بمحذوف و التقدیر«اذکر إذ قال ربک للملائکه»الخ؛ فان قوله تعالی للملائکه إِنِّی جٰاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَهً و قوله لهم: «إِنِّی خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ طِینٍ» متقارنان وقعا فی ظرف واحد.

و علی هذا یئول معنی قوله: «إِذْ قٰالَ رَبُّکَ» الخ؛الی نحو من قولنا:اذکر وقتئذ قال ربک کذا و کذا فهو وقت اختصامهم.

و قوله: إِنِّی خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ طِینٍ البشر الإنسان،قال الراغب:البشر ظاهر الجلد و الأدمه باطنه.کذا قال عامه الأدباء،قال:و عبر عن الإنسان بالبشر اعتبارا بظهور جلده من الشعر بخلاف الحیوانات التی علیها الصوف أو الوبر،و استوی فی لفظ البشر الواحد و الجمع وثنی فقال تعالی: أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَیْنِ و خص فی القرآن کل موضع اعتبر من الإنسان جثته و ظاهره بلفظ البشر.انتهی.

و قد عد فی الآیه مبدأ خلق الإنسان الطین،و فی سوره الروم التراب و فی سوره الحجر صلصال من حماء مسنون،و فی سوره الرحمن صلصال کالفخار و لا ضیر فإنها أحوال مختلفه لمادته الأصلیه التی منها خلق و قد أشیر فی کل موضع الی واحده منها.

قوله تعالی: فَإِذٰا سَوَّیْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِینَ تسویه الإنسان تعدیل أعضائه بترکیب بعضها علی بعض و تتمیمها صوره إنسان تام،و نفخ الروح فیه جعله ذا نفس حیه إنسانیه و إضافه الروح الیه تعالی تشریفیه و قوله: «فَقَعُوا» أمر من الوقوع و هو متفرع علی التسویه و النفخ.

قوله تعالی: فَسَجَدَ الْمَلاٰئِکَهُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ظاهر الدلاله علی سجود الملائکه له من غیر استثناء.

قوله تعالى: إِلاّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَ كٰانَ مِنَ الْكٰافِرِينَ أى استكبر إبليس فلم يسجد له و كان قبل ذلك من الكافرين كما حكى سبحانه عنه فى سوره الحجر قوله: لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصٰالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (الحجر/۳۳).

قوله تعالى: قٰالَ يٰا إِبْلِيسُ مٰا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰالِينَ نسبه خلقه الى اليد للتشريف بالاختصاص كما قال:

«وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» و تثنيه اليد كنايه عن الاهتمام التام بخلقه و صنعه فان الإنسان إنما يستعمل اليدين فيما يهتم به من العمل فقوله: «خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» كقوله: مِمّٰا عَمِلَتْ أَيْدِينٰا (يس/۷۱).

و قيل:المراد باليد القدره و التثنيه لمجرد التأكيد كقوله: اِرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ (الملك/ ۳)و قد وردت به الروايه.

و قوله: أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰالِينَ استفهام توبيخ أى أ كان عدم سجودك لأنك استكبرت أم كنت من الذين يعلون أى يعلو قدرهم أن يؤمروا بالسجود،و لذا قال بعضهم بالاستفاده من الآيه إن العالين قوم من خلقه تعالى مستغرقون فى التوجه الى ربهم لا يشعرون بغيره تعالى.

قوله تعالى: قٰالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ تعليل عدم سجوده بما يدعيه من شرافه ذاته و أنه لكون خلقه من نار خير من آدم المخلوق من طين، و فيه تلويح أن الأمر الإلهى إنما يطاع إذا كان حقا لا لذاته،و ليس أمره بالسجود له حقا،و يئول الى إنكار إطلاق ملكه تعالى و حكمته و هو الأصل الذى ينتهى اليه كل معصيه فإن المعصيه إنما تقع بالخروج عن حكم عبوديته تعالى و مملوكيته و بالإعراض عن كون تركها أولى من فعلها و اقترافها.

قوله تعالى: قٰالَ فَاخْرُجْ مِنْهٰا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلىٰ يَوْمِ

الدِّينِ الرجم الطرد،و يوم الدين يوم الجزاء.

و قوله: وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي و في سوره الحجر: وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ (الآيه ٣٥) قيل في وجهه:لو كانت اللام للعهد فلا فرق بين التعبيرين،و لو كانت للجنس فكذلك أيضا لأن لعن غيره تعالى من الملائكه و الناس عليه إنما يكون طردا له حقيقه و إبعادا من الرحمه إذا كان بأمر اللّه و بإبعاده من رحمته.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ -الى قوله- إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ظاهر تغير الغايه في السؤال و الجواب حيث قال: «إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» فاجيب بقوله: «إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» أن ما اجيب اليه غير ما سأله فهو لا محاله آخر يوم يعصى فيه الناس ربهم و هو قبل يوم البعث،و الظاهر أن المراد باليوم الظرف فتفيد إضافته الى الوقت التأكيد.

قوله تعالى: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ الباء في «فَبِعِزَّتِكَ» للقسم اقسم بعزته ليغوينهم أجمعين و استثنى منهم المخلصين و هم الذين أخلصهم اللّه لنفسه فلا نصيب فيهم لإبليس و لا لغيره.

قوله تعالى: قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ جوابه تعالى لإبليس و هو يتضمن القضاء عليه و على من تبعه بالنار.

فقوله: فَالْحَقُّ مبتدأ محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدإ،و الفاء لترتيب ما بعده على ما قبله،و المراد بالحق ما يقابل الباطل على ما يؤيده إعاده الحق ثانيا باللام و المراد به ما يقابل الباطل قطعا و التقدير فالحق أقسم به لأملأن جهنم منك و ممن تبعك منهم،أو فقولي الحق لأملأن،الخ.

و قوله: وَ الْحَقَّ أَقُولُ جمله معترضه تشير الى حتميه القضاء و ترد على إبليس ما يلوح اليه قوله: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» الخ؛من كون قوله تعالى و هو أمره بالسجود غير حق،و تقديم

الحق فی «وَ الْحَقَّ أَقُولُ» و تحلیته باللام لإفاده الحصر.

و قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِینَ متن القضاء الـذی قضـی به و کأن المراد بقوله: «مِنْکَ» جنس الشـیاطین حتی یشمل إبلیس و ذریته و قبیله، و قوله: «وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ» أی من الناس ذریه آدم.

و قد أشبعنا الکلام فی نظائر الآیات من سوره الحجر و فی القصه من سور البقره و الأعراف و الإسراء فعلیک بالرجوع إلیها.

قوله تعالی: قُلْ مٰا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُتَکَلِّفِینَ رجوع الی ما تقـدم فی أول السوره و خلال آیاتها أن القرآن ذکر و أن لیس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلا منـذرا لا غیر و رد لما رموه بقولهم: اِمْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلیٰ آلِهَتِکُمْ إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ یُرٰادُ .

فقوله: قُلْ مٰا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ أی أجرا دنیویا من مال أو جاه،و قوله:

«وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُتَکَلِّفِینَ» أی من أهل التکلف و هو التصنع و التحلی بما لیس له.

قوله تعـالی: إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِکْرٌ لِلْعٰالَمِینَ أی القرآن ذکر عـام للعـالمین من جماعـات الناس و مختلف الشـعوب و الامم و غیرهم لا یختص بقوم دون قوم حتی یؤخذ علی تلاوته مال و علی تعلیمه أجر بل هو للجمیع.

قوله تعالی: وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِینٍ أی لتعلمن ما أخبر به القرآن من الوعـد و الوعید و ظهوره علی الأدیان و غیر ذلک بعد حین أی بعد مرور زمان.

قیل:المراد بعـد حین یوم القیامه،و قیل:یوم الموت،و قیل:یوم بدر،و لا یبعد أن یقال:إن نبأه مختلف لا یختص بیوم من هذه الأیام حتی یکون هو المراد بل المراد به المطلق فلکل من أقسام نبائه حینه (۱).

ص: ۳۷۱

۱- ۱) .ص ۶۵-۸۸:بحث روائی فی اختصام الملأ الأعلی؛سجود الملائکه لآدم و استکبار ابلیس.

سوره الزمر مکیه و هی خمس و سبعون آیه

اشاره

[سوره الزمر (۳۹): الآیات ۱ الی ۱۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;تَنْزِیلُ اَلْکِتٰابِ مِنَ اَللّٰهِ اَلْعَزِیزِ اَلْحَکِیمِ (۱) إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ اَلْکِتٰابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اَللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ اَلدِّینَ (۲) أَلاٰ لِلّٰهِ اَلدِّینُ اَلْخٰالِصُ وَ اَلَّذِینَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیٰاءَ مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِیُقَرِّبُونٰا إِلَی اَللّٰهِ زُلْفیٰ إِنَّ اَللّٰهَ یَحْکُمُ بَیْنَهُمْ فِی مٰا هُمْ فِیهِ یَخْتَلِفُونَ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَهْدِی مَنْ هُوَ کٰاذِبٌ کَفّٰارٌ (۳) لَوْ أَرٰادَ اَللّٰهُ أَنْ یَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفیٰ مِمّٰا یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ سُبْحٰانَهُ هُوَ اَللّٰهُ اَلْوٰاحِدُ اَلْقَهّٰارُ (۴) خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ یُکَوِّرُ اَللَّیْلَ عَلَی اَلنَّهٰارِ وَ یُکَوِّرُ اَلنَّهٰارَ عَلَی اَللَّیْلِ وَ سَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَمًّی أَلاٰ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلْغَفّٰارُ (۵) خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ اَلْأَنْعٰامِ ثَمٰانِیَهَ أَزْوٰاجٍ یَخْلُقُکُمْ فِی بُطُونِ أُمَّهٰاتِکُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِی ظُلُمٰاتٍ ثَلاٰثٍ ذٰلِکُمُ اَللّٰهُ رَبُّکُمْ لَهُ اَلْمُلْکُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰی تُصْرَفُونَ (۶) إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ غَنِیٌّ عَنْکُمْ وَ لاٰ یَرْضیٰ لِعِبٰادِهِ اَلْکُفْرَ وَ إِنْ تَشْکُرُوا یَرْضَهُ لَکُمْ وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَهٌ وِزْرَ أُخْریٰ ثُمَّ إِلیٰ رَبِّکُمْ مَرْجِعُکُمْ فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۷) وَ إِذٰا مَسَّ اَلْإِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعٰا رَبَّهُ مُنِیباً إِلَیْهِ ثُمَّ إِذٰا خَوَّلَهُ نِعْمَهً مِنْهُ نَسِیَ مٰا کٰانَ یَدْعُوا إِلَیْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلّٰهِ أَنْدٰاداً لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِکُفْرِکَ قَلِیلاً إِنَّکَ مِنْ أَصْحٰابِ اَلنّٰارِ (۸) أَمَّنْ هُوَ قٰانِتٌ آنٰاءَ اَللَّیْلِ سٰاجِداً وَ قٰائِماً یَحْذَرُ اَلْآخِرَهَ وَ یَرْجُوا رَحْمَهَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ یَسْتَوِی اَلَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَ اَلَّذِینَ لاٰ یَعْلَمُونَ إِنَّمٰا یَتَذَکَّرُ أُولُوا اَلْأَلْبٰابِ (۹) قُلْ یٰا عِبٰادِ اَلَّذِینَ آمَنُوا اِتَّقُوا رَبَّکُمْ لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا فِی هٰذِهِ اَلدُّنْیٰا حَسَنَهٌ وَ أَرْضُ اَللّٰهِ وٰاسِعَهٌ إِنَّمٰا یُوَفَّی اَلصّٰابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسٰابٍ (۱۰)

ص: ۳۷۲

بیان:

يظهر من خلال آيات السوره أن المشركين من قومه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سألوه أن ينصرف عما هو عليه

من التوحید و الدعوه الیه و التعرض لآلهتهم و خوفوه بآلهتهم فنزلت السوره-و هی قرینه سوره ص بوجه-و هی تؤکد الأمر بأن یخلص دینه للّه سبحانه و لا یعبأ بآلهتهم و أن یعلمهم أنه مأمور بالتوحید و إخلاص الدین الذی تواترت الآیات من طریق الوحی و العقل جمیعا علیه.

و لذلک نراه سبحانه یعطف الکلام علیه فی خلال السوره مره بعد مره کقوله فی مفتتح السوره: فَاعْبُدِ اللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّینَ أَلاٰ لِلّٰهِ الدِّینُ الْخٰالِصُ ثم یرجع الیه و یقول: قُلْ إِنِّی أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّینَ الی قوله: قُلِ اللّٰهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِینِی فَاعْبُدُوا مٰا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ .

ثم یقول: إِنَّکَ مَیِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَیِّتُونَ الخ؛ثم یقول: أَ لَیْسَ اللّٰهُ بِکٰافٍ عَبْدَهُ وَ یُخَوِّفُونَکَ بِالَّذِینَ مِنْ دُونِهِ ثم یقول: قُلْ یٰا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلیٰ مَکٰانَتِکُمْ إِنِّی عٰامِلٌ ثم یقول: قُلْ أَ فَغَیْرَ اللّٰهِ تَأْمُرُونِّی أَعْبُدُ أَیُّهَا الْجٰاهِلُونَ الی غیر ذلک من الإشارات.

ثم عمم الاحتجاج علی توحده تعالی فی الربوبیه و الالوهیه من الوحی و من طریق البرهان و قایس بین المؤمنین و المشرکین مقایسات لطیفه فوصف المؤمنین بأجمل أوصافهم و بشرهم بما سیثیبهم فی الآخره مره بعد مره و ذکر المشرکین و أنذرهم بما سیلحقهم من الخسران و عذاب الآخره مضافا الی ما یصیبهم فی الدنیا من وبال أمرهم کما أصاب الذین کذبوا من الامم الدارجه من عذاب الخزی فی الحیاه الدنیا و لعذاب الآخره أکبر.

و من ثم وصفت السوره یوم البعث و خاصه فی مختتمها بأوضح الوصف و أتمه.

و السوره مکیه لشهاده سیاق آیاتها بذلک و کأنها نزلت دفعه واحده لما بین آیاتها من الاتصال.

و الآیات العشر المنقوله تجمع الدعوه من طریق الوحی و الحجه العقلیه بادئه بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

ص :۳۷۴

قوله تعالی: تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ «تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ» خبر لمبتدإ محذوف،و هو مصدر بمعنی المفعول فيكون إضافته الی الكتاب من إضافه الصفه الی موصوفها و «مِنَ اللّٰهِ» متعلق بتنزيل و المعنی هذا كتاب منزل من اللّه العزيز الحكيم.

قوله تعالی: إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ عبر بالإنزال دون التنزيل كما فی الآيه السابقه لأن القصد الی بيان كونه بالحق و هو يناسب مجموع ما نزل اليه من ربه.

و قوله: بِالْحَقِّ الباء فيه للملابسه أی أنزلناه اليک ملتبسا بالحق فما فيه من الأمر بعباده اللّه وحده حق،و علی هذا المعنی فرّع عليه قوله: «فَاعْبُدِ اللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ» و المعنی فإذا كان بالحق فاعبد اللّه مخلصا له الدين لأن فيه ذلک.

و المراد بالدين-علی ما يعطيه السياق-العباده و يمكن أن يراد به سنه الحياه و هی الطريقه المسلوكه فی الحياه فی المجتمع الإنسانی،و يراد بالعباده تمثيل العبوديه بسلوک الطريق التی شرعها اللّه سبحانه و المعنی فأظهر العبوديه للّه فی جميع شئون حياتک باتباع ما شرعه لک فيها و الحال أنک مخلص له دينک لا تتبع غير ما شرعه لک.

قوله تعالی: أَلاٰ لِلّٰهِ الدِّينُ الْخٰالِصُ إظهار و إعلان لما أضمر و أجمل فی قوله:

«بِالْحَقِّ» و تعميم لما خصص فی قوله: «فَاعْبُدِ اللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ» أی إن الذی أوحيناه اليک من إخلاص الدين للّه واجب علی كل من سمع هذا النداء،و لكون الجمله نداء مستقلا أظهر اسم الجلاله و كان مقتضی الظاهر أن يضمر و يقال:له الدين الخالص.

و معنی كون الدين الخالص له أنه لا يقبل العباده ممن لا يعبده وحده سواء عبده و غيره أو عبد غيره وحده.

قوله تعالی: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللّٰهِ زُلْفىٰ الی آخر الآيه تقدم أن الوثنيه يرون أن اللّه سبحانه أجلّ من أن يحيط به

الإدراک الإنسانی من عقل أو وهم أو حسن فیتنزه تعالی عن أن یقع علیه توجه عبادی منا.

فمن الواجب أن نتقرب الیه بالتقرب الی مقربیه من خلقه و هم الذین فوض الیهم تدبیر شئون العالم فنتخذهم أربابا من دون اللّه ثم آلهه تعبدهم و نتقرب الیهم لیشفعوا لنا عند اللّه و یقربونا الیه زلفی و هؤلاء هم الملائکه و الجن و قدیسو البشر و هؤلاء هم الأرباب و الآلهه بالحقیقه.

و قوله: مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللّٰهِ زُلْفىٰ تفسیر لمعنی اتخاذ الأولیاء من دون اللّه و هو حکایه لقولهم أو بتقدیر القول أی یقولون:ما نعبدهم هؤلاء إلا لیقربونا بسبب عبادتنا لهم الی اللّه تقریبا فهم عادلون منه تعالی الی غیره،و إنما سموا مشرکین لأنهم یشرکون به تعالی غیره حیث یقولون بکونهم أربابا و آلهه للعالم و کونه تعالی ربا و إلها لاولئک الأرباب و الآلهه،و أما الشرکه فی الخلق و الإیجاد فلم یقل به لا مشرک و لا موحد.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مٰا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ قیل:ضمیر الجمع للمشرکین و أولیائهم أی إن اللّه یحکم بین المشرکین و بین أولیائهم فیما هم فیه یختلفون،و قیل:

الضمیران راجعان الی المشرکین و خصمائهم من أهل الإخلاص فی الدین المفهوم من السیاق، و المعنی أن اللّه یحکم بینهم المخلصین للدین.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ هُوَ كٰاذِبٌ كَفّٰارٌ الکفار کثیر الکفران لنعم اللّه أو کثیر الستر للحق،و فی الجمله إشعار بل دلاله علی أن الحکم یوم القیامه علی المشرکین لا لهم و أنهم مسیرون الی العذاب،و المراد بالهدایه الإیصال الی حسن العاقبه.

قوله تعالی: لَوْ أَرٰادَ اللّٰهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفىٰ مِمّٰا يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ سُبْحٰانَهُ هُوَ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ احتجاج علی نفی قولهم:إن اللّه اتخذ ولدا،و قول بعضهم:الملائکه بنات اللّه.و القول بالولد دائر بین عامه الوثنیه علی اختلاف مذاهبهم و قد قالت النصاری:المسیح ابن اللّه،و قالت الیهود علی ما حکاه القرآن عنهم:عزیز ابن اللّه

و کأنها بنوه تشریفیه.

و البنوه کیفما کانت تقتضی شرکه ما بین الابن و الأب و الولد و الوالد فإن کانت بنوه حقیقیه و هی اشتقاق شیء من شیء و انفصاله منه اقتضت الشرکه فی حقیقه الذات و الخواص و الآثار المنبعثه من الذات کبنوه إنسان لإنسان المقتضیه لشرکه الابن لأبیه فی الإنسانیه و لوازمها،و إن کانت اعتباریه کالبنوه الاجتماعیه و هو التبنی اقتضت الاشتراک فی الشئونات الخاصه بالأب کالسؤدد و الملک و الشرف و التقدم و الوراثه و بعض أحکام النسب،و الحجه المسوقه فی الآیه تدل علی استحاله اتخاذ الولد علیه تعالی بکلا المعنیین.

فقوله: لَوْ أَرٰادَ اللّٰهُ أَنْ یَتَّخِذَ وَلَداً شرط صدر بلو الدال علی الامتناع للامتناع، و قوله: «لاَصْطَفیٰ مِمّٰا یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ» أی لاختار لذلک مما یخلق ما یتعلق به مشیئته علی ما یفیده السیاق و کونه مما یخلق لکون ما عداه سبحانه خلقا له.

و قوله: سُبْحٰانَهُ تنزیه له سبحانه،و قوله: «هُوَ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» بیان لاستحاله الشرط و هو إراده اتخاذ الولد لیترتب علیه استحاله الجزاء و هو اصطفاء ما یشاء مما یخلق و ذلک لأنه سبحانه واحد فی ذاته المتعالیه لا یشارکه فیها شیء و لا یماثله فیها أحد لأدله التوحید،و واحد فی صفاته الذاتیه التی هی عین ذاته کالحیاه و العلم و القدره،و واحد فی شئونه التی هی من لوازم ذاته کالخلق و الملک و العزه و الکبریاء لا یشارکه فیها أحد.

و هو سبحانه قهار یقهر کل شیء بذاته و صفاته فلا یستقبل قبال ذاته و وجوده شیء فی ذاته و وجوده و لا یستغنی عنه شیء فی صفاته و آثار وجوده فالکل أذلاء داخرون بالنسبه الیه مملوکون له فقراء الیه.

فمحصل حجه الآیه قیاس استثنائی ساذج یستثنی فیه نقیض المقدم لینتج نقیض التالی و هو نحو من قولنا:لو أراد اللّه أن یتخذ ولدا لاصطفی لذلک بعض من یشاء من خلقه لکن إرادته اتخاذ الولد ممتنعه لکونه واحدا قهارا فاصطفاؤه لذلک بعض من یشاء من خلقه ممتنع.

قوله تعالی: خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ لا یبعد أن یکون ما فیه من الإشاره الی الخلق و التدبیر بیانا لقهاریته تعالی لکن اتصال الآیتین و ارتباطهما مضمونا و انتهاء الثانیه الی قوله: «ذٰلِکُمُ اللّٰهُ رَبُّکُمْ» الخ؛کالصریح فی أن ذلک استئناف بیان للاحتجاج علی توحید الربوبیه.

فالآیه و التی تلیها مسوقتان لتوحید الربوبیه و قد جمع فیهما بین الخلق و التدبیر لما مر مرارا أن إثبات وحده الخالق لا یستلزم عند الوثنی نفی تعدد الأرباب و الآلهه لأنهم لا ینکرون انحصار الخلق و الإیجاد فیه تعالی لکنه سبحانه فیما یحتج علی توحده فی الربوبیه و الالوهیه فی کلامه یجمع بین الخلق و التدبیر إشاره الی أن التدبیر غیر خارج من الخلق بل هو خلق بوجه کما أن الخلق تدبیر بوجه و عند ذلک یتم الاحتجاج علی رجوع التدبیر الیه تعالی و انحصاره فیه برجوع الخلق الیه.

و قوله: خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إشاره الی الخلقه،و فی قوله:

«بِالْحَقِّ» -و الباء للملابسه-إشاره الی البعث فإن کون الخلقه حقا غیر باطل یلازم کونها لغایه تقصدها و تنساق إلیها و هی البعث قال تعالی: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا بٰاطِلاً (ص/۲۷).

و قوله: یُکَوِّرُ اللَّیْلَ عَلَی النَّهٰارِ وَ یُکَوِّرُ النَّهٰارَ عَلَی اللَّیْلِ قال فی المجمع:

التکویر طرح الشیء بعضه علی بعض.انتهی فالمراد طرح اللیل علی النهار و طرح النهار علی اللیل فیکون من الاستعاره بالکنایه قریب المعنی من قوله: یُغْشِی اللَّیْلَ النَّهٰارَ (الأعراف/۵۴)و المراد استمرار توالی اللیل و النهار بظهور هذا علی ذاک ثم ذاک علی هذا و هکذا،و هو من التدبیر.

و قوله: وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَمًّی أی سخر الشمس و القمر فأجراهما للنظام الجاری فی العالم الأرضی الی أجل مسمی معین لا یتجاوزانه.

و قوله: أَلاٰ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفّارُ يمكن أن يكون فى ذكر الاسمين إشاره الى ما يحتج به على توحده تعالى فى الربوبيه و الالوهيه فإن العزيز الـذى لا يعتريه ذله إن كان فهو اللّه و هو المتعين للعباده لا غيره الـذى تغشاه الذله و تغمره الفاقه و كذا الغفار للذنوب إذا قيس الى من ليس من شأنه ذلك.

و يمكـن أن يكـون ذكرهمـا تحضـيضا على التوحيـد و الإيمـان بـاللّه الواحـد و المعنى انبهكم أنه هـو العزيز فآمنوا به و اعـتزوا بعزته،الغفار فآمنوا به يغفر لكم.

قوله تعالى: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا الخ؛الخطاب لعامه البشر،و المراد بالنفس الواحده-على ما تؤيده نظائره من الآيات-آدم أبو البشر، و المراد بزوجها امرأته التى من نوعها و تماثلها فى الإنسانيه،و «ثُمَّ» للتراخى بحسب رتبه الكلام.

و المراد أنه تعالى خلق هذا النوع و كثر أفراده من نفس واحده و زوجها.

و قوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعٰامِ ثَمٰانِيَةَ أَزْوٰاجٍ الأنعـام هى الإبل و البقر و الضأن و المعز،و كونها ثمانيه أزواج باعتبار انقسامها الى الذكر و الأنثى.

و تسـميه خلق الأنعـام فى الأرض إنزالا لها باعتبار أنه تعالى يسـمى ظهور الأشـياء فى الكون بعـد ما لم يكن إنزالا لها من خزائنه التى هى عنده و من الغيب الى الشهاده قال تعالى:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/٢١).

و قوله: يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهٰاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمٰاتٍ ثَلاٰثٍ بيان لكيفيه خلق من تقدم ذكره من البشـر و الأنعام،و فى الخطاب تغليب اولى العقل على غيرهم،و الخلق من بعد الخلق التوالى و التوارد كخلق النطفه علقه و خلق العلقه مضغه و هكذا،و الظلمات الثلاث هى ظلمه البطن و الرحم و المشيمه كما قيل و رواه فى المجمع عن أبى جعفر عليه السّلام.

و قیل:المراد بها ظلمه الصلب و الرحم و المشیمه و هو خطأ فإن قوله: «فِی بُطُونِ أَمَّهاتِکَمْ» صریح فی أن المراد بالظلمات الثلاث ما فی بطون النساء دون أصلاب الرجال.

و قوله: ذٰلِکُمُ اللّٰهُ رَبُّکُمْ أی الذی وصف لکم فی الآیتین بالخلق و التدبیر هو ربکم دون غیره لأن الرب هو المالک الذی یدبر أمر ما ملکه و إذ کان خالقا لکم و لکل شیء دونکم و للنظام الجاری فیکم فهو الذی یملککم و یدبر أمرکم فهو ربکم لا غیر.

و قوله: لَهُ الْمُلْکُ أی علی جمیع المخلوقات فی الدنیا و الآخره فهو الملیک علی الإطلاق و تقدیم الظرف یفید الحصر،و الجمله خبر بعد خبر لقوله: «ذٰلِکُمُ اللّٰهُ» کما أن قوله:

«لا إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» کذلک،و انحصار الالوهیه فیه تعالی فرع انحصار الربوبیه فیه لأن الإله إنما یعبد لأنه رب مدبر فیعبد إما خوفا منه أو رجاء فیه أو شکرا له.

و قوله: فَأَنّٰی تُصْرَفُونَ أی فکیف تصرفون عن عبادته الی عباده غیره و هو ربکم الذی خلقکم و دبر أمرکم هو الملیک علیکم.

قوله تعالی: إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِیٌّ عَنْکُمْ وَ لاٰ یَرْضیٰ لِعِبٰادِهِ الْکُفْرَ الی آخر الآیه،مسوق لبیان أن الدعوه الی التوحید و إخلاص الدین للّه سبحانه لیست لحاجه منه تعالی الی إقبالهم الیه بالانصراف عن عباده غیره بل لعنایه منه تعالی بهم فیدعوهم الی سعادتهم اعتناء بها کما یعتنی برزقهم فیفیض النعم علیهم و کما یعتنی بحفظهم فیلهمهم أن یدفعوا الآفات عن أنفسهم.

فقوله: إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِیٌّ عَنْکُمْ الخطاب لعامه المکلفین أی إن تکفروا باللّه فلم توحدوه فإنه غنی عنکم لذاته لا ینتفع بإیمانکم و طاعتکم و لا یتضرر بکفرکم و معصیتکم فالنفع و الضرر إنما یتحققان فی مجال الإمکان و الحاجه و أما الواجب الغنی بذاته فلا یتصور فی حقه انتفاع و لا تضرر.

و قوله: وَ لاٰ یَرْضیٰ لِعِبٰادِهِ الْکُفْرَ دفع لما ربما یمکن أن یتوهم من قوله: «فَإِنَّ اللّٰهَ

غَنِيٌّ عَنْكَمْ» أنه إذا لم يتضرر بكفر و لم ينتفع بإيمان فلا موجب له أن يريد منا الإيمان و الشكر فدفعه بأن تعلق العنايه الإلهيه بكم يقتضى أن لا يرضى بكفركم و أنتم عباده.

و المراد بالكفر كفر النعمه الذى هو ترک الشكر بقرينه مقابله قوله: «وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» و بذلك يظهر أن التعبير بقوله: «لِعِبٰادِهِ» دون أن يقول:لكم للدلاله على عله الحكم أعنى سبب عدم الرضا.

و المحصل أنكم عباد مملوكون للّه سبحانه منغمرون فى نعمه و رابطه المولويه و العبوديه و هى نسبه المالكيه و المملوكيه لا تلائمه أن يكفر العبد بنعمه سيده فينسى ولايه مولاه و يتخذ لنفسه أولياء من دونه و يعصى المولى و يطيع عدوه و هو عبد عليه طابع العبوديه لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا.

و قوله: وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ الضمير للشكر نظير قوله تعالى: اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ (المائده٨/)و المعنى و إن تشكروا اللّه بالجرى على مقتضى العبوديه و إخلاص الدين له يرضى الشكر لكم و أنتم عباده،و الشكر و الكفر المقابل له ينطبقان على الإيمان و الكفر المقابل له.

و قوله: وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ أى لا تحمل نفس حامله حمل نفس اخرى أى لا يؤاخذ بالذنب إلا من ارتكبه.

و قوله: ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ أى هذا فى الدنيا من كفر أو شكر ثم يبعثكم اللّه فيظهر لكم حقيقه أعمالكم و يحاسبكم على ما فى قلوبكم و قد تكرر الكلام فى معانى هذه الجمل فيما تقدم (١).

قوله تعالى: وَ إِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعٰا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ الى آخر الآيه؛

١- ١) .الزمر ١-١٠:كلام فى معنى الرضا و السخط من اللّه.

الإنابه الرجوع،و التخويل العظيمه على وجه الهبه و هى المنحه.على ما فى المجمع.

لما مر فى الآيه السابقه ذكر من كفر النعمه و أن اللّه سبحانه على غناه من الناس لا يرضى لهم ذلك نبه فى هذه الآيه على أن الإنسان كفور بالطبع مع أنه يعرف ربه بالفطره و لا يلبث عند الاضطرار دون أن يرجع اليه فيسأله كشف ضره كما قال: وَ كٰانَ الْإِنْسٰانُ كَفُوراً (الإسراء67/)،و قال: إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَظَلُومٌ كَفّٰارٌ (إبراهيم34/).

فقوله: وَ إِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعٰا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ أى إذا أصاب الإنسان ضر من شده أو مرض أو قحط و نحوه دعا ربه-و هو اللّه يعترف عند ذلك بربوبيته-راجعا اليه معرضا عمن سواه يسأله كشف الضر عنه.

و قوله: ثُمَّ إِذٰا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مٰا كٰانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ أى و إذا أعطاه ربه سبحانه بعد كشف الضر نعمه منه اشتغل به مستغرقا و نسى الضر الذى كان يدعو اليه أى الى كشفه من قبل إعطاء النعمه.

فما فى قوله: مٰا كٰانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ موصوله و المراد به الضر و ضمير «إِلَيْهِ» له و قيل:

مصدريه و الضمير للرب سبحانه و المعنى نسى دعاءه الى ربه من قبل الإعطاء،و قيل:

موصوله و المراد به اللّه سبحانه و هو أبعد الوجوه.

و قوله: وَ جَعَلَ لِلّٰهِ أَنْدٰاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ الأنداد الأمثال و المراد بها-على ما قيل-الأصنام و أربابها،و اللام فى «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ» للعاقبه،و المعنى و اتخذ للّه أمثالا يشاركونه فى الربوبيه و الالوهيه على مزعمته لينتهى به ذلك الى إضلال الناس عن سبيل اللّه لأن الناس مطبوعون على التقليد يتشبه بعضهم ببعض،و فى الفعل دعوه كالقول.

و لا يبعد أن يراد بالأنداد مطلق الأسباب التى يعتمد عليها الإنسان و يطمئن إليها و من جملتها أرباب الأصنام عند الوثنى و ذلك لأن الآيه تصف الإنسان و هو أعم من المشرك نعم مورد الآيه هو الكافر.

و قوله: قُلْ تَمَتَّعْ بِكَفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحٰابِ النّٰارِ أی تمتع تمتعا قلیلا لا یدوم لک لأنک من أصحاب النار مصیرک إلیها،و هو أمر تهدیدی فی معنی الإخبار أی إنک الی النار و لا یدفعها عنک تمتعک بالکفر أیاما قلائل.

قوله تعالی: أَمَّنْ هُوَ قٰانِتٌ آنٰاءَ اللَّيْلِ سٰاجِداً وَ قٰائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ الآیه لا تخلو عن مناسبه و اتصال بقوله السابق: «وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ» فإن فحواه أن الکافر و الشاکر لا یستویان و لا یختلطان فأوضح ذلک فی هذه الآیه بأن القانت الذی یخاف العذاب و یرجو رحمه ربه لا یساوی غیره.

فقوله: «أَمَّنْ هُوَ قٰانِتٌ آنٰاءَ اللَّيْلِ سٰاجِداً وَ قٰائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ» أحد شقی التردید محذوف و التقدیر أ هذا الذی ذکرناه خیر أم من هو قانت؟الخ.

و القنوت-علی ما ذکره الراغب-لزوم الطاعه مع الخضوع،و الآناء جمع أنی و هو الوقت، و «يَحْذَرُ الْآخِرَةَ» أی عذاب اللّه فی الآخره قال تعالی: إِنَّ عَذٰابَ رَبِّكَ كٰانَ مَحْذُوراً (الإسراء/۵۷)،و قوله: «يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ» هو و ما قبله یجمعان خوف العذاب و رجاء الرحمه،و لم یقید الرحمه بالآخره فإن رحمه الآخره ربما وسعت الدنیا.

و المعنی أ هذا الذی هو من أصحاب النار خیر أم من هو لازم للطاعه و الخضوع لربه فی أوقات اللیل إذا جن علیه ساجدا فی صلاته تاره قائما فیها اخری یحذر عذاب الآخره و یرجو رحمه ربه؟أی لا یستویان.

و قوله: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ العلم و عدمه مطلقان لکن المراد بهما بحسب ما ینطبق علی مورد الآیه العلم باللّه و عدمه فإن ذلک هو الذی یکمل به الإنسان و ینتفع بحقیقه معنی الکلمه و یتضرر بعدمه،و غیره من العلم کالمال ینتفع به فی الحیاه الدنیا و یفنی بفنائها.

و قوله: إِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبٰابِ أی ذوو العقول و هو فی مقام التعلیل لعدم

تساوی الفریقین بأن أحد الفریقین یتذکر حقائق الامور دون الفریق الآخر فلا یستویان بل یترجح الذین یعلمون علی غیرهم.

قوله تعالی: قُلْ یٰا عِبٰادِ الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّکُمْ لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا فِی هٰذِهِ الدُّنْیٰا حَسَنَةٌ الی آخر الآیه،الجار و المجرور «فِی هٰذِهِ الدُّنْیٰا» متعلق بقوله: «أَحْسَنُوا» فالمراد بالجمله وعد الذین أحسنوا أی لزموا الأعمال الحسنه أن لهم حسنه لا یقدر وصفها بقدر.

و قد أطلق الحسنه فلم یقیدها بدنیا أو آخره و ظاهرها ما یعلم الدنیا فللمؤمنین المحسنین فی هذه الدنیا طیب النفس و سلامه الروح و صون النفوس عما یتقلب فیه الکفار من تشوش البال و تقسم القلب و غل الصدر و الخضوع للأسباب الظاهریه و فقد من یرجی فی کل نائبه و ینصر عند طروق الطارقه و یطمأن الیه فی کل نازله و فی الآخره سعاده دائمه و نعیم مقیم.

و قوله: وَ أَرْضُ اللّٰهِ وٰاسِعَةٌ حث و ترغیب لهم فی الهجره من مکه إذ کان التوقف فیها صعبا علی المؤمنین بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المشرکون یزیدون کل یوم فی التشدید علیهم و فتنتهم، و الآیه بحسب لفظها عامه.

و قوله: إِنَّمٰا یُوَفَّی الصّٰابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسٰابٍ توفیه الأجر إعطاؤه تاما کاملا،و السیاق یفید أن القصر فی الکلام متوجه الی قوله: «بِغَیْرِ حِسٰابٍ» فالجار و المجرور متعلق بقوله: «یُوَفَّی» صفه لمصدر یدل علیه و المعنی لا یعطی الصابرون أجرهم إلا إعطاء بغیر حساب،فالصابرون لا یحاسبون علی أعمالهم و لا ینشر لهم دیوان و لا یقدر أجرهم بزنه عملهم.

و قد اطلق الصابرون فی الآیه و لم یقید بکون الصبر علی الطاعه أو عن المعصیه أو عند المصیبه و إن کان الذی ینطبق علی مورد الآیه هو الصبر علی مصائب الدنیا و خاصه ما یصیب من جهه أهل الکفر و السوق من آمن باللّه و أخلص له دینه و اتقاه.

ص :۳۸۴

[سوره الزمر (۳۹): الآیات ۱۱ الی ۲۰]

قُلْ إِنِّی أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اَللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ اَلدِّینَ (۱۱) وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَکُونَ أَوَّلَ اَلْمُسْلِمِینَ (۱۲) قُلْ إِنِّی أَخٰافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۱۳) قُلِ اَللّٰهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِینِی (۱۴) فَاعْبُدُوا مٰا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ اَلْخٰاسِرِینَ اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِیهِمْ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ أَلاٰ ذٰلِکَ هُوَ اَلْخُسْرٰانُ اَلْمُبِینُ (۱۵) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ اَلنّٰارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذٰلِکَ یُخَوِّفُ اَللّٰهُ بِهِ عِبٰادَهُ یٰا عِبٰادِ فَاتَّقُونِ (۱۶) وَ اَلَّذِینَ اِجْتَنَبُوا اَلطّٰاغُوتَ أَنْ یَعْبُدُوهٰا وَ أَنٰابُوا إِلَی اَللّٰهِ لَهُمُ اَلْبُشْریٰ فَبَشِّرْ عِبٰادِ (۱۷) اَلَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ اَلْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ هَدٰاهُمُ اَللّٰهُ وَ أُولٰئِکَ هُمْ أُولُوا اَلْأَلْبٰابِ (۱۸) أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَیْهِ کَلِمَهُ اَلْعَذٰابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِی اَلنّٰارِ (۱۹) لٰکِنِ اَلَّذِینَ اِتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهٰا غُرَفٌ مَبْنِیَّهٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ وَعْدَ اَللّٰهِ لاٰ یُخْلِفُ اَللّٰهُ اَلْمِیعٰادَ (۲۰)

بیان:

قوله تعالی: قُلْ إِنِّی أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّینَ -الی قوله- أَوَّلَ

الْمُسْلِمِينَ نحو رجوع الى قوله تعالى فى مفتتح السوره: إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ بداعى أن يؤيسهم من نفسه،فلا يطمعوا فيه أن يترك دعوتهم و يوافقهم على الإشراك باللّه كما يشير اليه أول سوره ص و آيات أخر.

فكأنه يقول:قل لهم إن الذى تلوت عليكم من أمره تعالى بعبادته بإخلاص الدين-و قد وجه به الخطاب الى-ليس المراد به مجرد دعوتكم الى ذلك بإقامتى فى الخطاب مقام السامع فيكون من قبيل«إياك أعنى و اسمعى يا جاره»بل أنا كأحدكم مأمور بعبادته مخلصا له الدين،و لا ذلك فحسب،بل مأمور بأن أكون أول المسلمين لما ينزل الى من الوحى فأسلم له أولا ثم ابلغه لغيرى-فأنا أخاف ربى و أعبده بالإخلاص آمنتم به أو كفرتم فلا تطمعوا فى.

فقوله: «قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ» إشاره الى أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يشارك غيره فى الأمر بدون الإخلاص.

و قوله: وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ إشاره الى أن فى الأمر المتوجه الى زياده على ما توجه اليكم من التكليف و هو أنى امرت بما امرت و قد توجه الخطاب الى قبلكم و الغرض منه أن أكون أول من أسلم لهذا الأمر و آمن به.

قيل:اللام فى قوله: «لِأَنْ أَكُونَ» للتعليل و المعنى و أمرت بذلك لأجل أن أكون أول المسلمين،و قيل:اللام زائده كما تركت اللام فى قوله تعالى: قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ (الأنعام/۱۴).

و مآل الوجهين واحد بحسب المعنى فإن كونه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أول المسلمين يعطى عنوانا لإسلامه و عنوان الفعل يصح أن يجعل غايه للأمر بالفعل و أن يجعل متعلقا للامر فيؤمر به يقال:اضربه للتأديب،و يقال:أدبه بالضرب.

قال فى الكشاف:و فى معناه أوجه:أن أكون أول من أسلم فى زمانى و من قومى لأنه أول من خالف دين آبائه و خلع الأصنام و حطمها،و أن أكون أول الذين دعوتهم الى الإسلام

إسلاما،و أن أكون أول من دعا نفسه الی ما دعا غیره لأکون مقتدی بی فی قولی و فعلی جمیعا و لا تکون صفتی صفه الملوک الذین یأمرون بما لا یفعلون،و أن أفعل ما أستحق به الأولیه من أعمال السابقین دلاله علی السبب بالمسبب.انتهی.

و أنت خبیر بأن الأنسب لسیاق الآیات هو الوجه الثالث و هو الذی قدمناه و یلزمه سائر الوجوه.

قوله تعالی: قُلْ إِنِّی أَخٰافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ المراد بمعصیه ربه بشهاده السیاق مخالفه أمره بعبادته مخلصا له الدین،و بالیوم العظیم یوم القیامه و الآیه کالتوطئه لمضمون الآیه التالیه.

قوله تعالی: قُلِ اللّٰهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِینِی فَاعْبُدُوا مٰا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ تصریح بأنه ممتثل لأمر ربه مطیع له بعد التکنیه عنه فی الآیه السابقه،و إیئاس لهم أن یطمعوا فیه أن یخالف أمر ربه.

و تقدیم المفعول فی قوله: «قُلِ اللّٰهَ أَعْبُدُ» یفید الحصر،و قوله: «مُخْلِصاً لَهُ دِینِی» یؤکد معنی الحصر،و قوله: «فَاعْبُدُوا مٰا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ» أمر تهدیدی بمعنی أنهم لا ینفعهم ذلک فإنهم مصیبهم وبال إعراضهم عن عباده اللّه بالإخلاص کما یشیر الیه ذیل الآیه «قُلْ إِنَّ الْخٰاسِرِینَ» الخ.

قوله تعالی: قُلْ إِنَّ الْخٰاسِرِینَ الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِیهِمْ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ الخ؛الخسر و الخسران ذهاب رأس المال إما کلا أو بعضا و الخسران أبلغ من الخسر،و خسران النفس هو إیرادها مورد الهلکه و الشقاء بحیث یبطل منها استعداد الکمال فیفوتها السعاده بحیث لا یطمع فیها و کذا خساره الأهل.

و فی الآیه تعریض للمشرکین المخاطبین بقوله: «فَاعْبُدُوا مٰا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ» کأنه یقول:

فأیا ما عبدتم فإنکم تخسرون أنفسکم بإیرادها بالکفر مورد الهلکه و أهلیکم و هم خاصتکم

بحملهم على الكفر و الشرک و هی الخسران بالحقیقه.

و قوله: أَلا ذٰلِکَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِینُ و ذلک لأن الخسران المتعلق بالدنیا-و هو الخسران فی مال أو جاه-سریع الزوال منقطع الآخر بخلاف خسران یوم القیامه الدائم الخالد فإنه لا زوال له و لا انقطاع.

علی أن المال أو الجاه إذا زال بالخسران أمکن أن یخلفه آخر مثله أو خیر منه بخلاف النفس إذا خسرت.

هذا علی تقدیر کون المراد بالأهل خاصه الإنسان فی الدنیا،و قیل:المراد بالأهل من أعده اللّه فی الجنه للإنسان لو آمن و اتقی من أزواج و خدم و غیرهم و هو أوجه و أنسب للمقام فإن النسب و کل رابطه من الروابط الدنیویه الاجتماعیه مقطوعه یوم القیامه قال تعالی: فَلا أَنْسابَ بَیْنَهُمْ یَوْمَئِذٍ (المؤمنون١٠١/)و قال: یَوْمَ لا تَمْلِکُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَیْئاً (الانفطار١٩/)الی غیر ذلک من الآیات.

و یؤیده أیضا قوله تعالی: فَأَمّٰا مَنْ أُوتِیَ کِتٰابَهُ بِیَمِینِهِ فَسَوْفَ یُحٰاسَبُ حِسٰاباً یَسِیراً وَ یَنْقَلِبُ إِلیٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً (الانشقاق٩/).

قوله تعالی: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّٰارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ الخ؛الظلل جمع ظله و هی-کما قیل-الستر العالی.

و المراد بکونها من فوقهم و من تحتهم إحاطتها بهم فإن المعهود من النار الجهتان و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ اجْتَنَبُوا الطّٰاغُوتَ أَنْ یَعْبُدُوهٰا وَ أَنٰابُوا إِلَی اللّٰهِ لَهُمُ الْبُشْریٰ قال الراغب:الطاغوت عباره عن کل متعد و کل معبود من دون اللّه و یستعمل فی الواحد و الجمع.انتهی،و الظاهر أن المراد بها فی الآیه الأوثان و کل معبود طاغ من دون اللّه.

و لم یقتصر علی مجرد اجتناب عباده الطاغوت بل أضاف الیه قوله: «وَ أَنٰابُوا إِلَی اللّٰهِ»

إشاره الی أن مجرد النفی لا یجدی شیئا بل الذی ینفع الإنسان مجموع النفی و الإثبات،عباده اللّه و ترک عباده غیره و هو عبادته مخلصا له الدین.

و قوله: لَهُمُ الْبُشْریٰ إنشاء بشری و خبر لقوله: «وَ الَّذِینَ اجْتَنَبُوا» الخ.

قوله تعالی: فَبَشِّرْ عِبٰادِ اَلَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ الی آخر الآیه؛کان مقتضی الظاهر أن یقال:فبشرهم غیر أنه قیل:فبشر عباد و اضیف الی ضمیر التکلم لتشریفهم به و لتوصیفهم بقوله: «الَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ» الخ.

و المراد بالقول بقرینه ما ذکر من الاتباع ما له نوع ارتباط و مساس بالعمل فأحسن القول أرشده فی إصابه الحق و أنصحه للإنسان،و الإنسان إذا کان ممن یحب الحسن و ینجذب الی الجمال کان کلما زاد الحسن زاد انجذابا فإذا وجد قبیحا و حسنا مال الی الحسن،و إذا وجد حسنا و أحسن قصد ما هو أحسن،و أما لو لم یمل الی الأحسن و انجمد علی الحسن کشف ذلک عن أنه لا ینجذب الیه من حیث حسنه و إلا زاد الانجذاب بزیاده الحسن.

فتوصیفهم باتباع أحسن القول معناه أنهم مطبوعون علی طلب الحق و إراده الرشد و إصابه الواقع فکلما دار الأمر بین الحق و الباطل و الرشد و الغی اتبعوا الحق و الرشد و ترکوا الباطل و الغی و کلما دار الأمر بین الحق و الأحق و الرشد و ما هو أکثر رشدا أخذوا بالأحق الأرشد.

فالحق و الرشد هو مطلوبهم و لذلک یستمعون القول و لا یردون قولا بمجرد ما قرع سمعهم اتباعا لهوی أنفسهم من غیر أن یتدبروا فیه و یفقهوه.

فقوله: اَلَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ مفاده أنهم طالبوا الحق و الرشد یستمعون القول رجاء أن یجدوا فیه حقا و خوفا أن یفوتهم شیء منه.

و قیل:المراد باستماع القول و اتباع أحسنه استماع القرآن و غیره و اتباع القرآن،و قیل:

المراد استماع أوامر اللّه تعالی و اتباع أحسنها کالقصاص و العفو فیتبعون العفو و إبداء الصدقات

و إخفائها فيتبعون الإخفاء؛و القولان من قبيل التخصيص من غير مخصص.

و قوله: أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدٰاهُمُ اللّٰهُ إشاره الى أن هذه الصفه هى الهدايه الإلهيه و هذه الهدايه أعنى طلب الحق و التهيؤ التام لاتباع الحق أينما وجد هى الهدايه الإجماليه و إليها تنتهى كل هدايه تفصيليه الى المعارف الإلهيه.

و قوله: وَ أُولٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبٰابِ أى ذوو العقول و يستفاد منه أن العقل هو الذى به الاهتداء الى الحق و آيته صفه اتباع الحق،و قد تقدم فى تفسير قوله: وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّهِ إِبْرٰاهِيمَ إِلاّٰ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (البقره۱۳۰/)أنه يستفاد منه أن العقل ما يتبع به دين اللّه.

قوله تعالى: أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَهُ الْعَذٰابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى النّٰارِ ثبوت كلمه العذاب وجوب دخول النار بالكفر بقوله عند إهباط آدم الى الأرض: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (البقره۳۹/)و ما فى معناه من الآيات.

و مقتضى السياق أن فى الآيه إضمارا يدل عليه قوله: «أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى النّٰارِ» و التقدير أ فمن حقت عليه كلمه العذاب ينجو منه و هو اولى من تقدير قولنا:خير أم من وجبت عليه الجنه.

و قيل:المعنى أ فمن وجب عليه وعيده تعالى بالعقاب أ فأنت تخلصه من النار فاكتفى بذكر «من النار»عن ذكر الضمير العائد الى المبتدإ و جىء بالاستفهام مرتين للتأكيد تنبيها على المعنى.

قوله تعالى: لٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهٰا غُرَفٌ مَبْنِيَّهٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ الغرف جمع غرفه و هى المنزل الرفيع.قيل:و هذا فى مقابله قوله فى الكافرين: «لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّٰارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ» .

و قوله: وَعْدَ اللّهِ ای وعدهم اللّه ذلک وعدا فهو مفعول مطلق قائم مقام فعله و قوله:

«لاٰ یُخْلِفُ اللّهُ الْمِیعٰادَ» إخبار عن سنته تعالی فی مواعیده و فیه تطییب لنفوسهم.

[سوره الزمر (۳۹): الآیات ۲۱ الی ۳۷]

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَسَلَکَهُ یَنٰابِیعَ فِی اَلْأَرْضِ ثُمَّ یُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهُ ثُمَّ یَهِیجُ فَتَرٰاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ یَجْعَلُهُ حُطٰاماً إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَذِکْریٰ لِأُولِی اَلْأَلْبٰابِ (۲۱) أَ فَمَنْ شَرَحَ اَللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ فَهُوَ عَلیٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَیْلٌ لِلْقٰاسِیَهِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِکْرِ اَللّٰهِ أُولٰئِکَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ (۲۲) اَللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ اَلْحَدِیثِ کِتٰاباً مُتَشٰابِهاً مَثٰانِیَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ اَلَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلیٰ ذِکْرِ اَللّٰهِ ذٰلِکَ هُدَی اَللّٰهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشٰاءُ وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ (۲۳) أَ فَمَنْ یَتَّقِی بِوَجْهِهِ سُوءَ اَلْعَذٰابِ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ وَ قِیلَ لِلظّٰالِمِینَ ذُوقُوا مٰا کُنْتُمْ تَکْسِبُونَ (۲۴) کَذَّبَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتٰاهُمُ اَلْعَذٰابُ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَشْعُرُونَ (۲۵) فَأَذٰاقَهُمُ اَللّٰهُ اَلْخِزْیَ فِی اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ لَعَذٰابُ اَلْآخِرَهِ أَکْبَرُ لَوْ کٰانُوا یَعْلَمُونَ (۲۶) وَ لَقَدْ ضَرَبْنٰا لِلنّٰاسِ فِی هٰذَا اَلْقُرْآنِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۲۷) قُرْآناً عَرَبِیًّا غَیْرَ ذِی عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ (۲۸) ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً رَجُلاً فِیهِ شُرَکٰاءُ مُتَشٰاکِسُونَ وَ رَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ یَسْتَوِیٰانِ مَثَلاً اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ (۲۹) إِنَّکَ مَیِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَیِّتُونَ (۳۰) ثُمَّ إِنَّکُمْ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ عِنْدَ رَبِّکُمْ تَخْتَصِمُونَ (۳۱) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ کَذَبَ عَلَی اَللّٰهِ وَ کَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جٰاءَهُ أَ لَیْسَ فِی جَهَنَّمَ مَثْویً لِلْکٰافِرِینَ (۳۲) وَ اَلَّذِی جٰاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُتَّقُونَ (۳۳) لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِکَ جَزٰاءُ اَلْمُحْسِنِینَ (۳۴) لِیُکَفِّرَ اَللّٰهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ اَلَّذِی عَمِلُوا وَ یَجْزِیَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ اَلَّذِی کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۳۵) أَ لَیْسَ اَللّٰهُ بِکٰافٍ عَبْدَهُ وَ یُخَوِّفُونَکَ بِالَّذِینَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ (۳۶) وَ مَنْ یَهْدِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَ لَیْسَ اَللّٰهُ بِعَزِیزٍ ذِی اِنْتِقٰامٍ (۳۷)

بیان:

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسَلَكَهُ يَنٰابِيعَ الی آخر الآیه،قال فی المجمع:الینابیع جمع ینبوع و هو الذی ینبع منه الماء یقال نبع الماء من موضع کذا إذا فار منه،و الزرع ما ینبت علی غیر ساق و الشجر ما له ساق و أغصان النبات یعم الجمیع،و هاج النبت یهیج هیجا إذا جف و بلغ نهایته فی الیبوسه،و الحطام فتات التبن

ص :۳۹۲

و الحشيش.انتهى.

و قوله: فَسَلَکَهُ یَنٰابِیعَ فِی الْأَرْضِ أی فأدخله فی عیون و مجاری فی الأرض هی کالعروق فی الأبدان تنقل ما تحمله من جانب الی جانب،و الباقی ظاهر و الآیه-کما تری- تحتج علی توحده تعالی فی الربوبیه.

قوله تعالی: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ فَهُوَ عَلیٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَیْلٌ لِلْقٰاسِیَهِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِکْرِ اللّٰهِ الخ؛لما ذکر فی الآیه السابقه أن فیما ذکره من إنزال الماء و إنبات النبات ذکر لاولی الألباب و هم عباده المتقون و قد ذکر قبل أنهم الذین هداهم اللّه ذکر فی هذه الآیه أنهم لیسوا کغیرهم من الضالین و أوضح السبب فی ذلک و هو أنهم علی نور من ربهم یبصرون به الحق و فی قلوبهم لین لا تعصی عن قبول ما یلقی الیهم من أحسن القول.

فقوله: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ خبره محذوف یدل علیه قوله: «فَوَیْلٌ لِلْقٰاسِیَهِ قُلُوبُهُمْ» الخ؛أی کالقاسیه قلوبهم و الاستفهام للانکار أی لا یستویان.

و شرح الصدر بسطه لیسع ما یلقی الیه من القول و إذ کان ذلک للاسلام و هو التسلیم للّه فیما أراد و لیس إلا الحق کان معناه کون الإنسان بحیث یقبل ما یلقی الیه من القول الحق و لا یرده، و لیس قبولا من غیر درایه و کیفما کان بل عن بصیره بالحق و عرفان بالرشد و لذا عقبه بقوله:

«فَهُوَ عَلیٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ» فجعله بحسب التمثیل راکب نور یسیر علیه و یبصر ما یمر به فی ساحه صدره الرحب الوسیع من الحق فیبصره و یمیزه من الباطل بخلاف الضال الذی لا فی صدره شرح فیسع الحق و لا هو راکب نور من ربه فیبصر الحق و یمیزه.

و قوله: فَوَیْلٌ لِلْقٰاسِیَهِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِکْرِ اللّٰهِ تفریع علی الجمله السابقه بما یدل علی أن القاسیه القلوب-و قساوه القلب و صلابته لازمه عدم شرح الصدر و عدم النور-لا یتذکرون بآیات اللّه فلا یهتدون الی ما تدل علیه من الحق،و لذا عقبه بقوله: «أُولٰئِکَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ» .

و فى الآـيه تعريف الهـدايه بلازمها و هو شـرح الصـدر و جعله على نور من ربه،و تعريف الضـلال بلازمه و هو قساوه القلب من ذكر اللّه.

و قد تقدم فى تفسير قوله: فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ الآيه (الأنعام/١٢٥)كلام فى معنى الهدايه فراجع.

قوله تعالى: اَللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتٰاباً مُتَشٰابِهاً مَثٰانِيَ الى آخر الآيه كالإجمال بعد التفصيل بالنسبه الى الآيه السابقه بالنظر الى ما يتحصل من الآيه فى معنى الهدايه و ان كانت بيانا لهدايه القرآن.

فقوله: اَللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ هو القرآن الكريم و الحـديث هو القول كمـا فى قوله تعـالى: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ (الطور/٣۴)،و قوله: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (المرسلات/۵٠)فهو أحسن القول لاشـتماله على محض الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه،و هو كلامه المجيد.

و قوله: كِتٰاباً مُتَشٰابِهاً أى يشـبه بعض أجزائه بعضـا و هـذا غير التشابه الـذى فى المتشابه المقابل للمحكم فإنه صـفه بعض آيات الكتاب و هذا صفه الجميع.

و قـوله: مَثٰانِيَ جمع مثنيه بمعنى المعطوف لانعطـاف بعض آيـاته على بعض و رجوعه اليه بتـبين بعضـها ببعض و تفسـير بعضـها لبعض من غير اختلاـف فيهـا بحيث يـدفع بعضه بعضا و يناقضه كما قال تعالى: أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاٰفاً كَثِيراً (النساء/٨٢).

و قوله: تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ صـفه الكتاب و ليس استئنافا،و الاقشـعرار تقبض الجلد تقبضا شديدا لخشيه عارضه عن اسـتماع أمر هائل أو رؤيته،و ليس ذلك إلا لأنهم على تبصـر من موقف نفوسهم قبال عظمه ربهم فإذا سمعوا كلامه توجهوا الى ساحه العظمه و الكبرياء فغشيت قلوبهم الخشيه و أخذت جلودهم فى الاقشعرار.

ص :٣٩۴

و قوله: ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلىٰ ذِكْرِ اللّٰهِ «تَلِينُ» مضمنه معنى السكون و الطمأنينه و لذا عدى بالى و المعنى ثم تسكن و تطمئن جلودهم و قلوبهم الى ذكر اللّه لينه تقبله أو تلين له ساكنه اليه.

و لم يذكر القلوب فى الجمله السابقه عند ذكر الاقشعرار لأن المراد بالقلوب النفوس و لا اقشعرار لها و إنما لها الخشيه.

و قوله: ذٰلِكَ هُدَى اللّٰهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشٰاءُ أى ما يأخذهم من اقشعرار الجلود من القرآن ثم سكون جلودهم و قلوبهم الى ذكر اللّه هو هدى اللّه و هذا تعريف آخر للهدايه بلازمها.

و قوله: يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشٰاءُ أى يهدى بهداه من يشاء من عباده و هو الذى لم يبطل استعداده للاهتداء و لم يشغل بالموانع عنه كالفسق و الظلم و فى السياق إشعار بأن الهدايه من فضله و ليس بموجب فيها مضطر إليها.

فالهدايه كلها للّه إما بلا واسطه أو بواسطه الهداه المهديين من خلقه و على هذا فمن أضله من خلقه بأن لم يهده بالواسطه و لا بلا واسطه فلا هادى له و ذلك قوله فى ذيل الآيه: «وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ» و سيأتى الجمله بعد عده آيات و هى متكرره فى كلامه تعالى.

قوله تعالى: أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذٰابِ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ وَ قِيلَ لِلظّٰالِمِينَ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ مقايسه بين أهل العذاب يوم القيامه و الآمنين منه و الفريقان هما أهل الضلال و أهل الهدى و لذا عقب الآيه السابقه بهذه الآيه.

و الاستفهام للإنكار و خبر«من»محذوف و التقدير كمن هو فى أمن منه،و يوم القيامه متعلق بيتقى،و المعنى أ فمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامه لكون يده التى بها كان يتقى المكاره مغلوله الى عنقه كمن هو آمن من العذاب لا يصيبه مكروه.كذا قيل.

و قوله: وَ قِيلَ لِلظّٰالِمِينَ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ القول لملائكه النار،

و الظاهر أن الجمله بتقدير قد أو بدونه و الأصل و قيل لهم ذوقوا،الخ؛لكن وضع الظاهر موضع الضمير للدلاله على عله الحكم و هى الظلم.

قوله تعالى: كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ أى من الجهه التى لا يحتسبون ففوجئوا و أخذوا على غفله و هو أشد الأخذ،و فى الآيه و ما بعدها بيان لما أصاب بعض الكفار من عذاب الخزى ليكون عبره لغيرهم.

قوله تعالى: فَأَذَاقَهُمُ اللّٰهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الخزى هو الذل و الصغار،و قد أذاقهم اللّٰه ذلك فى ألوان من العذاب أنزلنا عليهم كالغرق و الخسف و الصيحه و الرجفه و المسخ و القتل.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أى ضربنا لهم من كل نوع من الأمثال شيئا لعلهم يتنبهون و يعتبرون و يتعظون بتذكر ما تتضمنه.

قوله تعالى: قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ العوج الانحراف و الانعطاف، «قُرْآناً عَرَبِيًّا» منصوب على المدح بتقدير أمدح أو أخص و نحوه أو حال معتمد على الوصف.

قوله تعالى: ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَ رَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ الخ؛قال الراغب:الشكس-بالفتح فالكسر-سيئ الخلق، و قوله: «شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ» أى متشاجرون لشكاسه خلقهم.انتهى و فسروا السلم بالخالص الذى لا يشترك فيه كثيرون.

مثل ضربه اللّٰه للمشرك الذى يعبد أربابا و آلهه مختلفين فيشتركون فيه و هم متنازعون فيأمره هذا بما ينهاه عنه الآخر و كل يريد أن يتفرد فيه و يخصه بخدمه نفسه،و للموحد الذى هو خالص لمخدوم واحد لا يشاركه فيه غيره فيخدمه فيما يريد منه من غير تنازع يؤدى الى

الحیره فالمشرک هو الرجل الذی فیه شرکاء متشاکسون و الموحد هو الرجل الذی هو سلم لرجل.لا یستویان بل الذی هو سلم لرجل أحسن حالا من صاحبه.

و هذا مثل ساذج ممکن الفهم لعامه الناس لکنه عند المداقه یرجع الی قوله تعالی: لَوْ کٰانَ فِیهِمٰا آلِهَهٌ إِلاَّ اللّٰهُ لَفَسَدَتٰا (الأنبیاء۲۲/)و عاد برهانا علی نفی تعدد الأرباب و الآلهه.

و قوله: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ثناء للّه بما أن عبودیته خیر من عبودیه من سواه.

و قوله: بَلْ أَکْثَرُهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ مزیه عبادته علی عباده غیره علی ما له من الظهور التام لمن له أدنی بصیره.

قوله تعالی: إِنَّکَ مَیِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَیِّتُونَ ثُمَّ إِنَّکُمْ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ عِنْدَ رَبِّکُمْ تَخْتَصِمُونَ الآیه الاولی تمهید لما یذکر فی الثانیه من اختصامهم یوم القیامه عند ربهم و الخطاب فی «إِنَّکُمْ» للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و امته أو المشرکین منهم خاصه و الاختصام-کما فی المجمع- رد کل واحد من الاثنین ما أتی به الآخر علی وجه الإنکار علیه.

و المعنی:إن عاقبتک و عاقبتهم الموت ثم إنکم جمیعا یوم القیامه بعد ما حضرتم عند ربکم تختصمون و قد حکی مما یلقیه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ قٰالَ الرَّسُولُ یٰا رَبِّ إِنَّ قَوْمِی اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (الفرقان۳۰/).

و الآیتان عامتان بحسب لفظهما لکن الآیات الأربع التالیه تؤید أن المراد بالاختصام ما یقع بین النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بین الکافرین من امته یوم القیامه.

قوله تعالی: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ کَذَبَ عَلَی اللّٰهِ وَ کَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جٰاءَهُ أَ لَیْسَ فِی جَهَنَّمَ مَثْویً لِلْکٰافِرِینَ فی الآیه و ما بعدها مبادره الی ذکر ما ینتهی الیه أمر اختصامهم یوم القیامه و تلویح الی ما هو نتیجه القضاء بینهم کأنه قیل:و نتیجه ما یقضی به بینکم معلومه الیوم و أنه من هو الناجی منکم،و من هو الهالک؟فإن القضاء یومئذ یدور مدار الظلم و الإحسان و لا أظلم من الکافر و المؤمن متق محسن و الظلم الی النار و الإحسان الی

الجنه.هذا ما يعطيه السياق.

فقوله: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللّهِ أی افتری علیه بأن ادعی أن له شرکاء و الظلم یعظم بعظم من تعلق به و إذا کان هو اللّه سبحانه کان أعظم من کل ظلم و مرتکبه أظلم من کل ظالم.

و قوله: وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ المراد بالصدق الصادق من النبإ و هو الدین الإلهی الذی جاء به الرسول بقرینه قوله: «إِذْ جاءَهُ» .

و قوله: أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ المثوی اسم مکان بمعنی المنزل و المقام،و الاستفهام للتقریر أی إن فی جهنم مقام هؤلاء الظالمین لتکبرهم علی الحق الموجب لافترائهم علی اللّه و تکذیبهم بصادق النبإ الذی جاء به الرسول.

و الآیه خاصه بمشرکی عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو بمشرکی امته بحسب السیاق و عامه لکل من ابتدع بدعه و ترک سنه من سنن الدین.

وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ المراد بالمجیء بالصدق الإتیان بالدین الحق و المراد بالتصدیق به الإیمان به و الذی جاء به النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و قوله: أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لعل الإشاره الی الذی جاء به بصیغه الجمع لکونه جمعا بحسب المعنی و هو کل نبی جاء بالدین الحق و آمن بما جاء به بل و کل مؤمن آمن بالدین الحق و دعی الیه فإن الدعوه الی الحق قولا و فعلا من شئون اتباع النبی،قال تعالی: قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي (یوسف/۱۰۸).

قوله تعالی: لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ هذا جزاؤهم عند ربهم و هو أن لهم ما تتعلق به مشیتهم فالمشیه هناک هی السبب التام لحصول ما یشاؤه الإنسان أیاما کان بخلاف ما علیه الأمر فی الدنیا فإن حصول شیء من مقاصد الحیاه فیها یتوقف-مضافا الی المشیه-علی عوامل و أسباب کثیره منها السعی و العمل المستمد من

الاجتماع و التعاون.

فالآيه تدل أولا على إقامتهم فى دار القرب و جوار رب العالمين،و ثانيا أن لهم ما يشاءون فهذان جزاء المتقين و هم المحسنون فإحسانهم هو السبب فى إيتائهم الأجر المذكور و هذه هى النكته فى إقامه الظاهر مقام الضمير فى قوله: «وَ ذٰلِكَ جَزٰاءُ الْمُحْسِنِينَ» و كان مقتضى الظاهر أن يقال:و ذلك جزاؤهم.

و توصيفهم بالإحسان و ظاهره العمل الصالح أو الاعتقاد الحق و العمل الحسن جميعا يشهد أن المراد بالتصديق المذكور هو التصديق قولا و فعلا.على أن القرآن لا يسمى تارك بعض ما أنزله اللّه من حكم مصدقا به.

قوله تعالى: لِيُكَفِّرَ اللّٰهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا الى آخر الآيه و من المعلوم أنه إذا كفر أسوأ أعمالهم كفر ما دون ذلك،و المراد بأسوء الذى عملوا ما هو كالشرك و الكبائر.

قال فى مجمع البيان فى الآيه:أى أسقط اللّه عنهم عقاب الشرك و المعاصى التى فعلوها قبل ذلك بإيمانهم و إحسانهم و رجوعهم الى اللّه تعالى انتهى و هو حسن من جهه تعميم الأعمال السيئه،و من جهه تقييد التكفير بكونه قبل ذلك بالإيمان و الإحسان و التوبه فإن الآيه تبين أثر تصديق الصدق الذى أتاهم و هو تكفير السيئات بالتصديق و الجزاء الحسن فى الآخره.

و قوله: وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كٰانُوا يَعْمَلُونَ يمكن أن يقال:إن المراد أنه ينظر الى أرفع أعمالهم درجه فيترفع درجتهم بحسبه فلا يضيع شىء مما هو آخر ما بلغه عملهم من الكمال لكن فى جريان نظير الكلام فى تكفير الأسوإ خفاء.

و قيل:صيغه التفضيل فى الآيه «أَسْوَأَ» و «بِأَحْسَنِ» مستعمله فى الزياده المطلقه من غير نظر الى مفضل عليه فإن معصيه اللّه كلها أسوأ و طاعته كلها أحسن.

قوله تعالى: أَ لَيْسَ اللّٰهُ بِكٰافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ المراد

بالذين من دون آلهتهم من دون اللّه على ما يستفاد من السياق،و المراد بالعبد من مدحه اللّه تعالى فى الآيات السابقه و يشتمل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شمولا أوليا.

و الاستفهام للتقرير و المعنى هو يكفيهم،و فيه تأمين للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قبال تخويفهم إياه بآلهتهم و كنايه عن وعده بالكفايه كما صرح به فى قوله: فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّٰهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (البقره/١٣٧).

قوله تعالى: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ وَ مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ الخ؛جملتان كالمتعاكستين مرسلتان إرسال الضوابط الكليه و لذا جىء فيهما باسم الجلاله و كان من قبيل وضع الظاهر موضع الضمير.

و فى تعقيب قوله: «أَ لَيْسَ اللّٰهُ بِكٰافٍ» الخ؛بقوله: «وَ مَنْ يُضْلِلِ» الخ؛إشاره الى أن هؤلاء المخوفين لا يهتدون بالإيمان أبدا و لن ينجح مسعاهم و أنهم لن ينالوا بغيتهم و لا امنيتهم من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإن اللّه لن يضله و قد هداه.

قوله: أَ لَيْسَ اللّٰهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقٰامٍ استفهام للتقرير أى هو كذلك،و هو تعليل ظاهر لقوله: «وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ» الخ؛فإن عزته و كونه ذا انتقام يقتضيان أن ينتقم ممن جحد الحق و أصر على كفره فيضله و لا هادى يهديه لأنه تعالى عزيز لا يغلبه فيما يريد غالب،و كذا إذا هدى عبدا من عباده لتقواه و إحسانه لم يقدر على إضلاله مضل.

و فى التعليل دلاله على أن الإضلال المنسوب الى اللّه تعالى هو ما كان على نحو المجازاه و الانتقام دون الضلال الابتدائى و قد مر مرارا.

[سوره الزمر (٣٩): الآيات ٣٨ الى ٥٢]

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اَللّٰهُ قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ إِنْ أَرٰادَنِيَ اَللّٰهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كٰاشِفٰاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرٰادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكٰاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اَللّٰهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ اَلْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يٰا قَوْمِ اِعْمَلُوا عَلىٰ مَكٰانَتِكُمْ إِنِّي عٰامِلٌ فَسَوْفَ تع٣٩)ΠـًِْIřـٍsـΠ...) مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذٰابٌ مُقِيمٌ (٤٠) إِنّٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ اَلْكِتٰابَ لِلنّٰاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اِهْتَدىٰ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اَللّٰهُ يَتَوَفَّى اَلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهٰا وَ اَلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنٰامِهٰا فَيُمْسِكُ اَلَّتِي قَضىٰ عَلَيْهَا اَلْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ اَلْأُخْرىٰ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمِ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ شُفَعٰاءَ قُلْ أَ وَ لَوْ كٰانُوا لاٰ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لاٰ يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلّٰهِ اَلشَّفٰاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَ إِذٰا ذُكِرَ اَللّٰهُ وَحْدَهُ اِشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذٰا ذُكِرَ اَلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اَللّٰهُمَّ فٰاطِرَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ عٰالِمَ اَلْغَيْبِ وَ اَلشَّهٰادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبٰادِكَ فِي مٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مٰا فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ اَلْعَذٰابِ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ وَ بَدٰا لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَ بَدٰا لَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٤٨) فَإِذٰا مَسَّ اَلْإِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعٰانٰا ثُمَّ إِذٰا خَوَّلْنٰاهُ نِعْمَةً مِنّٰا قٰالَ إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قٰالَهَا اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصٰابَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا وَ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هٰؤُلاٰءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا وَ مٰا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ يَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

بیان:

قوله تعالی: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ الی آخر الآیه؛شروع فی إقامه الحجه و قد قدم لها مقدمه تبتنی الحجه علیها و هی مسلمه عند الخصم و هی أن خالق العالم هو اللّه سبحانه فإن الخصم لا نزاع له فی أن الخالق هو اللّه وحده لا شریک له و إنما یدعی لشرکائه التدبیر دون الخلق.

و إذا کان الخلق الیه تعالی فما فی السماوات و الأرض من عین و لا أثر إلا و ینتهی وجوده الیه تعالی فما یصیب کل شیء من خیر أو شر کان وجوده منه تعالی و لیس لأحد أن یمسک خیرا یریده تعالی له أو یکشف شرا یریده تعالی له لأنه من الخلق و الإیجاد و لا شریک له تعالی فی الخلق و الإیجاد حتی یزاحمه فی خلق شیء أو یمنعه من خلق شیء أو یسبقه الی خلق شیء

و التـدبير نظم الامور و ترتيب بعضـها على بعض خلق و إيجاد فاللّه الخالق لكل شـىء كاف فى تدبير أمر العالم لأنه الخالق لكل شىء و ليس وراء الخلق شىء حتى يتوهم استناده الى غيره فهو اللّه رب كل شىء و إلهه لا رب سواه و لا إله غيره.

فقوله: قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أى أقم الحجه عليهم بانيا لها على هذه المقدمه المسلمه عندهم أن اللّه خالق كل شىء و قل مفرعا عليه أخبرونى عما تدعون من دون اللّه،و التعبير عن آلهتهم بلفظه «مٰا» دون «مَنْ» و نحوه يفيد تعميم البيان للأصنام و أربابهـا جميعـا فـإن الخواص منهم و إن قصـروا العبـاده على الأربـاب من الملائكه و غيرهم و اتخـذوا الأصـنام قبله و ذريعه الى التوجه الى أربابها لكن عامتهم ربما أخذوا الأصنام نفسها أربابا و آلهه يعبدونها و نتيجه الحجه عامه تشمل الجميع.

و قـوله: إِنْ أَرٰادَنِيَ اللّٰهُ بِضُـرٍّ هَـلْ هُـنَّ كٰاشِـفٰاتُ ضُـرِّهِ أَوْ أَرٰادَنِى بِرَحْمَهٍ هَـلْ هُنَّ مُمْسِـكٰاتُ رَحْمَتِهِ الضـر كـالمرض و الشـده و نحوهما،و ظاهر مقابلته الرحمه عمومه لكل مصـيبه،و إضافه الضـر و الرحمه الى ضـميره تعالى فى «كٰاشِـفٰاتُ ضُرِّهِ» و «مُمْسِكٰاتُ رَحْمَتِهِ» لحفظ النسبه لأن المانع من كشف الضر و إمساك الرحمه هو نسبتهما اليه تعالى.

و تخصـيص الضـر و الرحمه به صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم من عموم الحجه له و لغيره لكونه المخاصم الأصيل لهم و قد خوفوه بآلهتهم من دون اللّه.

و إرجـاع ضـمير الجمع المؤنث الى مـا يـدعونه من دون اللّه لتغليب جانب غير اولى العقل من الأصـنام و هو يؤيـد ما قـدمناه فى قوله: «أَ فَرَأَيْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ» أن التعبير بما لتعميم الحجه للأصنام و أربابها.

و قوله: قُـلْ حَسْـبِيَ اللّٰهُ أمر بالتوكـل عليه تعـالى كمـا يـدل عليه قوله بعـده: «عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ» و هو موضوع موضع نـتيجه الحجه كأنه قيل:قل لهم:إنى اتخذت اللّه وكيلا

لأن أمر تـدبيرى اليه كما أن أمر خلقى اليه فهو فى معنى قولنا:فقـد دلت الحجه على ربوبيته و صدقت ذلك عملا باتخاذه وكيلا فى امورى.

و قوله: عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ تقـديم الظرف على متعلقه للـدلاله على الحصـر أى عليه يتوكلون لا على غيره،و إسـناد الفعل الى الوصف من مـادته للـدلاله على كون المراد المتوكلين بحقيقه معنى التوكـل ففى الجمله ثنـاء عليه تعـالى بأنه الأهل للتوكل عليه يتوكل أهل البصيره فى التوكل فلا لوم على إن توكلت عليه و قلت:حسبى اللّه.

قوله تعـالى: قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّى عامِلٌ -الى قوله- عَذابٌ مُقِيمٌ المكانه هى المنزله و القـدر و هى فى المعقولات كالمكان فى المحسوسات فأمرهم بأن يعملوا على مكانتهم معناه أمرهـم أن يسـتمروا على الحاله التى هم عليها من الكفر و العناد و الصد عن سبيل اللّه.

و قوله: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ الظاهر أن «مَنْ» استفهاميه لا موصوله لظهور العلم فيما يتعلق بالجمله لا بالمفرد.

و قوله: وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ أى دائم و هو المناسب للحلول،و تفكيك أمر العـذابين يشـهد أن المراد بالأول عـذاب الدنيا و بالثانى عذاب الآخره،و فى الكلام أشد التهديد.

و المعنى قـل مخاطبـا للمشـركين من قومك:يا قوم اعملوا-مسـتمرين-على حالتكم التى أنتم عليها من الكفر و العناد إنى عامل-كما أومر غير منصـرف عنه-فسوف تعلمون من يأتيه عـذاب يخزيه و يـذله؟و هو عـذاب الدنيا كما فى يوم بدر و يحل عليه و لا يفارقه عذاب دائم و هو عذاب الآخره.

قوله تعـالى: إِنّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنّاسِ بِالْحَقِّ الى آخر الآيه.فى مقام التعليل للأمر الـذى فى الآيه السابقه،و اللام فى قوله: «لِلنّاسِ» للتعليل أى لأجل الناس أن

تتلوه علیهم و تبلغهم ما فیه،و الباء فی قوله: «بِالْحَقِّ» للملابسه أی ملابسا للحق لا یشوبه باطل.

و قوله: فَمَنِ اهْتَدیٰ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا یَضِلُّ عَلَیْهٰا أی یتفرع علی هذا الإنزال أن من اهتدی فإنما یعود نفعه من سعاده الحیاه و ثواب الدار الآخره الی نفسه، و من ضل و لم یهتد به فإنما یعود شقاؤه و وباله من عقاب الدار الآخره الی نفسه فاللّه سبحانه أجل من أن ینتفع بهداهم أو یتضرر بضلالهم.

و قوله: وَ مٰا أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِوَکِیلٍ أی مفوضا الیه أمرهم قائما بتدبیر شئونهم حتی توصل ما فیه من الهدی الی قلوبهم.

و المعنی إنما أمرناک أن تهددهم بما قلنا لأنا نزلنا علیک الکتاب بالحق لأجل أن تقرأه علی الناس لا غیر فمن اهتدی منهم فإنما یعود نفعه الی نفسه و من ضل و لم یهتد به فإنما یعود ضرره الی نفسه و ما أنت وکیلا من قبلنا علیهم تدبر شئونهم فتوصل الهدی الی قلوبهم فلیس لک من الأمر شیء.

قوله تعالی: اَللّٰهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِهٰا الی آخر الآیه،قال فی المجمع:

التوفی قبض الشیء علی الإیفاء و الإتمام یقال:توفیت حقی من فلان و استوفیته بمعنی.انتهی.

تقدیم المسند الیه فی الآیه یفید الحصر أی هو تعالی المتوفی لها لا غیر و إذا انضمت الآیه الی مثل قوله تعالی: قُلْ یَتَوَفّٰاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ (السجده/۱۱)،و قوله: حَتّٰی إِذٰا جٰاءَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا (الأنعام/۶۱)أفادت معنی الأصاله و التبعیه أی إنه تعالی هو المتوفی بالحقیقه و ملک الموت و الملائکه الذین هم أعوانه أسباب متوسطه یعملون بأمره.

و قوله: اَللّٰهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِهٰا المراد بالأنفس الأرواح المتعلقه بالأبدان لا مجموع الأرواح و الأبدان لأن المجموع غیر مقبوض عند الموت و إنما المقبوض هو

الروح یقبض من البدن بمعنی قطع تعلقه بالبدن تعلق التصرف و التدبیر و المراد بموتها موت أبدانها إما بتقدیر المضاف أو بنحو المجاز العقلی،و کذا المراد بمنامها.

و قوله: وَ الَّتِی لَمْ تَمُتْ فِی مَنٰامِهٰا معطوف علی الأنفس فی الجمله السابقه، و الظاهر أن المنام اسم زمان و فی منامها متعلق بیتوفی و التقدیر و یتوفی الأنفس التی لم تمت فی وقت نومها.

ثم فصل تعالی فی القول فی الأنفس المتوفاه فی وقت النوم فقال: «فَیُمْسِکُ الَّتِی قَضیٰ عَلَیْهَا الْمَوْتَ وَ یُرْسِلُ الْأُخْریٰ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی» أی فیحفظ النفس التی قضی علیها الموت کما یحفظ النفس التی توفاها حین موتها و لا یردها الی بدنها،و یرسل النفس الاخری التی لم یقض علیها الموت الی بدنها الی أجل مسمی تنتهی الیه الحیاه.

و جعل الأجل المسمی غایه للإرسال دلیل علی أن المراد بالإرسال جنسه بمعنی أنه یرسل بعض الأنفس إرسالا واحدا و بعضها إرسالا بعد إرسال حتی ینتهی الی الأجل المسمی.

و یستفاد من الآیه أولا:أن النفس موجود مغایر للبدن بحیث تفارقه و تستقل عنه و تبقی بحیالها.

و ثانیا:أن الموت و النوم کلاهما توف و إن افترقا فی أن الموت توف لا إرسال بعده و النوم توف ربما کان بعده إرسال.

ثم تمم الآیه بقوله: «إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ» فیتذکرون أن اللّه سبحانه هو المدبر لأمرهم و أنهم الیه راجعون سیحاسبهم علی ما عملوا.

قوله تعالی: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ شُفَعٰاءَ الخ؛ «أَم» منقطعه أی بل اتخذ المشرکون من دون اللّه شفعاء و هم آلهتهم الذین یعبدونهم لیشفعوا لهم عند اللّه سبحانه کما قال فی أول السوره: مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِیُقَرِّبُونٰا إِلَی اللّٰهِ زُلْفیٰ و قال: یَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ

اللّهِ (يونس١٨/).

و قوله: قُلْ أَ وَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لا يَعْقِلُونَ أمر بأن يرده عليهم بالمناقشه فى إطلاق كلامهم فإن من البديهى أن الشفاعه تتوقف على علم فى الشفيع يعلم به ما يريد؟و ممن يريد؟و لمن يريد؟فلا معنى لشفاعه الجماد الذى لا شعور له و كذا تتوقف على أن يملك الشفيع الشفاعه و يكون له حق أن يشفع و لا ملك لغير اللّه إلا أن يملكه اللّه شيئا و يأذن له فى التصرف فيه فقولهم بشفاعه أوليائهم مطلقا الشامل لما لا يملكونه و لا علم لهم بإذنه تعالى لهم فيها تخرص.

فالاستفهام فى «أَ وَ لَوْ كانُوا» الخ؛للإنكار و المعنى قل لهم:هل تتخذونهم شفعاء لكم و لو كانوا لا يملكون من عند أنفسهم شيئا كالملائكه و لا يعقلون شيئا كالأصنام؟فإنه سفه.

قوله تعالى: قُلْ لِلّهِ الشَّفاعَهُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الخ؛ توضيح و تأكيد لما مر من قوله: «قُلْ أَ وَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً» و اللام فى «لِلّهِ» للملك، و قوله: «لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» فى مقام التعليل الجمله السابقه،و المعنى كل شفاعه فإنها مملوكه للّه فإنه المالك لكل شىء إلا أن يأذن لأحد فى شىء منها فيملكه إياها،و أما استغلال بعض عباده كالملائكه يملك الشفاعه مطلقا كما يقولون فمما لا يكون قال تعالى: ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ (يونس٣/).

و للآيه معنى آخر أدق إذا انضمت الى مثل قوله تعالى: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ (الأنعام٥١/)و هو أن الشفيع بالحقيقه هو اللّه سبحانه و غيره من الشفعاء لهم الشفاعه بإذن منه فقد تقدم فى بحث الشفاعه فى الجزء الأول من الكتاب أن الشفاعه ينتهى الى توسط بعض صفاته تعالى بينه و بين المشفوع له لإصلاح حاله كتوسط الرحمه و المغفره بينه و بين عبده المذنب لانجائه من وبال الذنب و تخليصه من العذاب.

و الفرق بين هذا الملك و ما فى الوجه السابق أن المالك لا يتصف بمملوكه فى الوجه السابق

كما فى ملك زيد للدار بخلاف الملك فى هذا الوجه فإن المالك فيه يتصف بمملوكه كملك زيد الشجاع لشجاعته.

و قوله: ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ تعليل آخر لكونه يملك الشفاعه جميعا الدال على الحصر و ذلك أن الشفاعه إنما يملكها الذى ينتهى اليه أمر المشفوع له إن شاء قبلها و أصلح حال المشفوع له و أما غيره فإنما يملكها إذا رضى بها و أذن فيها و اللّه سبحانه هو الذى يرجع اليه العباد دون الذين يدعون من دون اللّه فاللّه هو المالك للشفاعه جميعا فقولهم يكون أوليائهم شفعاء لهم مطلقا ثم عبادتهم لهم كذلك بناء بلا مبنى يعتمد عليه.

قوله تعالى: وَ إِذٰا ذُكِرَ اللّٰهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ الخ؛المراد من ذكره تعالى وحده جعله مفردا بالذكر من غير ذكر آلهتهم و من مصاديقه قول لا إله إلا اللّه،و الاشمئزاز الانقباض و النفور عن الشىء.

و إنما ذكر من وصفهم عدم إيمانهم بالآخره لأن ذلك هو الأصل فى اشمئزازهم و لو كانوا مؤمنين بالآخره و أنهم يرجعون الى اللّه فيجازيهم بأعمالهم عبدوه دون أوليائهم و لم يرغبوا عن ذكره وحده.

و قوله: وَ إِذٰا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ المراد بالذين من دونه آلهتهم،و الاستبشار سرور القلب بحيث يظهر أثره فى الوجه.

قوله تعالى: قُلِ اللّٰهُمَّ فٰاطِرَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ عٰالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ الخ؛لما بلغ الكلام مبلغا لا يرجى معه فيهم خير لنسيانهم أمر الآخره و إنكارهم الرجوع اليه تعالى حتى كانوا يشمئزون من ذكره تعالى وحده أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يذكره تعالى وحده و يذكرهم حكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه فى صوره الالتجاء اليه تعالى على ما فيه من الإقرار بالبعث و قد وصف اللّه تعالى بأنه فاطر السماوات و الأرض أى مخرجها من كتم العدم الى ساحه الوجود،و عالم الغيب و الشهاده فلا يخفى عليه شىء،و لازمه أن يحكم بالحق

و ینفذ حکمه.

قوله تعالی: وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا مٰا فِی اَلْأَرْضِ جَمِیعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ اَلْعَذٰابِ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ الخ؛المراد بالذین ظلموا هم الذین ظلموا فی الدنیا فالفعل یفید مفاد الوصف،و الظالمون هم المنکرون للمعاد کما قال: أَنْ لَعْنَهُ اَللّٰهِ عَلَی اَلظّٰالِمِینَ اَلَّذِینَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ یَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ کٰافِرُونَ (الأعراف/ ۴۵).

و المعنی:و لو أن الظالمین المنکرین للمعاد ضعفی ما فی الأرض من أموال و ذخائر و کنوز لجعلوه فدیه من سوء العذاب.

و قوله: وَ بَدٰا لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لَمْ یَکُونُوا یَحْتَسِبُونَ البداء و البدو بمعنی الظهور و الحساب و الحسبان العد،و الاحتساب الاعتداد بالشیء بمعنی البناء علی عده شیئا و کثیرا ما یستعمل الحسبان و الاحتساب بمعنی الظن کما قیل و منه قوله: «مٰا لَمْ یَکُونُوا یَحْتَسِبُونَ» أی ما لم یکونوا یظنون لکن فرق الراغب بین الحسبان و الظن حیث قال:

و الحسبان أن یحکم لأحد النقیضین من غیر أن یخطر الآخر بباله و یکون بعرض أن یعتریه فیه شک،و یقارب ذلک الظن لکن الظن أن یخطر النقیضین بباله فیغلب أحدهما علی الآخر.

انتهی.

و مقتضی سیاق الآیه أن المراد بیان أنهم سیواجهون یوم القیامه امورا علی صفه هی فوق ما تصوروه و أعظم و أهول مما خطر ببالهم لا أنهم یشاهدون أمورا ما کانوا یعتقدونها و یذعنون بها و بالجمله کانوا یسمعون أن اللّه حسابا و وزنا للأعمال و قضاء و نارا و ألوانا من العذاب فیقیسون ما سمعوه-علی إنکار منهم له-علی ما عهدوه من هذه الامور فی الدنیا فلما شاهدوها إذ ظهرت لهم وجدوها أعظم مما کان یخطر ببالهم من صفتها فهذه الآیه فی وصف عذابه نظیر قوله فی وصف نعیم أهل الجنه: فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِیَ لَهُمْ مِنْ قُرَّهِ أَعْیُنٍ

(السجده۱۷/).

و أيضا مقتضى السياق أن البدو المذكور من قبيل الظهور بعد الخفاء و الانكشاف بعد الاستتار كما يشير اليه قوله تعالى: لَقَدْ كُنْتَ فِی غَفْلَهٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق۲۲/).

قوله تعالى: وَ بَدٰا لَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا الى آخر الآيه أى ظهر لهم سيئات أعمالهم بعد ما كانت خفيه عليهم فهو كقوله: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران۳۰/).

قوله تعالى: وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى و نزل عليهم و أصابهم ما كانوا يستهزءون به فى الدنيا إذا سمعون من أولياء الدين من شدائد يوم القيامه و أهواله و أنواع عذابه.

قوله تعالى: فَإِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعٰانٰا ثُمَّ إِذٰا خَوَّلْنٰاهُ نِعْمَهً مِنّٰا قٰالَ إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ الخ؛الآيه فى مقام التعليل البيانى لما تقدم من وصف الظالمين و لذا صدرت بالفاء لتتفرع على ما تقدم تفرع البيان على المبين.

فهو تعالى لما ذكر من حالهم أنهم أعرضوا عن كل آيه داله على الحق و لم يصغوا الى الحجج المقامه عليهم و لم يسمعوا موعظه و لم يعتدوا بعبره فجحدوا ربوبيته تعالى و أنكروا البعث و الحساب و بلغ بهم ذلك أن اشمأزت قلوبهم إذا ذكر اللّه وحده.

بيّن أن ذلك مما يستدعيه طبع الإنسان المائل الى اتباع هوى نفسه و الاغترار بما زين له من نعم الدنيا و الأسباب الظاهريه الحافه بها فالإنسان حليف النسيان إذا مسه الضر أقبل الى ربه و أخلص له و دعاه ثم إذا خوله ربه نعمه نسبه الى علم نفسه و خبرته و نسى ربه و جهل أنها فتنه فتن بها.

فقوله: فَإِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ ضُرٌّ أى مرض أو شده «دَعٰانٰا» أى خصنا بالدعاء

و انقطع عن غيرنا.

و قوله: ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ التخويل الإعطاء على نحو الهبه،و تقييد النعمه بقوله: «مِنّا» للدلاله على كون وصف النعمه محفوظا لها و المعنى خولناه نعمه ظاهرا كونها نعمه.

و ضمير «أُوتِيتُهُ» للنعمه بما أنه شيء أو مال و العنايه فى ذلك بالإشاره الى أنه لا يعترف بكونها نعمه منا بل يقطعها عنا فيسميها شيئا أو مالا و نحوه و لا يسميها نعمه حتى يضطره ذلك الى الاعتراف بمنعم و الإشاره اليه كما قال: «أُوتِيتُهُ» فصفح عن الفاعل لذلك و التعبير ان أعنى «نِعْمَةً مِنّا» «إِنَّما أُوتِيتُهُ» من لطيف تعبير القرآن،و قد وجهوا تذكير الضمير فى «أُوتِيتُهُ» بوجوه أخر غير موجهه من أرادها فليرجع الى المفصلات.

و الملائم لسياق الآيه أن يكون معنى «عَلى عِلْمٍ» على علم منى أى اوتيت هذا الذى أوتيت على علم منى و خبره بطرق كسب المعاش و اقتناء الثروه و جمع المال.

و قوله: بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أى بل النعمه التى خولناه منا فتنه أى ابتلاء و امتحان نمتحنه بذلك و لكن أكثرهم لا يعلمون بذلك.

قوله تعالى: قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا ضمير «قَدْ قالَهَا» راجع الى القول السابق باعتبار أنه مقاله أو كلمه.

و الآيه رد لقولهم و إثبات لكونها فتنه يمتحنون بها بأنهم لو اوتوها على علم منهم و اكتسبوها بحولهم و قوتهم لأغنى عنهم كسبهم و لم يصبهم سيئات ما كسبوا و حفظوها لأنفسهم و تنعموا بها و لم يهلكوا دونها و ليس كذلك فهؤلاء الذين قبلهم قالوا هذه المقاله فما أغنى عنهم كسبهم و أصابهم سيئات ما كسبوا.

و الظاهر أن الآيه تشير بقوله: «قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» الى قارون و أمثاله و قد حكى

عنه قول: «إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ عِنْدِي» فی قصته من سوره القصص.

قوله تعالی: وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هٰؤُلاٰءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا وَ مٰا هُمْ بِمُعْجِزِينَ الإشاره بهؤلاء الی قومه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المعنی أن هؤلاء الذین ظلموا من قومک سبیلهم سبیل من قبلهم سیصیبهم سیئات کسبهم و وبالات عملهم و ما هم بمعجزین للّه.

قوله تعالی: أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ الخ؛ جواب آخر عن قول القائل منهم «إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ» و قد کان الجواب الأول «قَدْ قٰالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» الخ؛جوابا من طریق النقض و هذا جواب من طریق المعارضه بالإشاره الی دلاله الدلیل علی أن اللّه سبحانه هو الذی یبسط الرزق و یقدر.

بیان ذلک:أن سعی الإنسان عن علم و إراده لتحصیل الرزق لیس سببا تاما موجبا لحصول الرزق و إلا لم یتخلف و من البین خلافه فکم من طالب رجع آیسا و ساع خاب سعیه.

فهناک علل و شرائط زمانیه و مکانیه و موانع مختلفه باختلاف الظروف خارجه عن حد الإحصاء إذا اجتمعت و توافقت أنتج ذلک حصول الرزق (۱).

[سوره الزمر (۳۹): الآیات ۵۳ الی ۶۱]

قُلْ يٰا عِبٰادِيَ اَلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ لاٰ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ يَغْفِرُ اَلذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِيمُ (۵۳) وَ أَنِيبُوا إِلىٰ رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ اَلْعَذٰابُ ثُمَّ لاٰ تُنْصَرُونَ (۵۴) وَ اِتَّبِعُوا أَحْسَنَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ اَلْعَذٰابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ (۵۵) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يٰا حَسْرَتىٰ عَلىٰ مٰا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اَللّٰهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ اَلسّٰاخِرِينَ (۵۶) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اَللّٰهَ هَدٰانِي لَكُنْتُ مِنَ اَلْمُتَّقِينَ (۵۷) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى اَلْعَذٰابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ اَلْمُحْسِنِينَ (۵۸) بَلىٰ قَدْ جٰاءَتْكَ آيٰاتِي فَكَذَّبْتَ بِهٰا وَ اِسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ اَلْكٰافِرِينَ (۵۹) وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ تَرَى اَلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اَللّٰهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ (۶۰) وَ يُنَجِّي اَللّٰهُ اَلَّذِينَ اِتَّقَوْا بِمَفٰازَتِهِمْ لاٰ يَمَسُّهُمُ اَلسُّوءُ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۱)

۱- ۱) .الزمر ۳۸-۵۲:بحث فی بسط الرزق بمشیئته تعالی؛بحث روائی فی توفی الانفس حین موتها.

بیان:

قوله تعالی: قُلْ یا عِبادِیَ الَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلی أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَهِ اللّهِ الخ؛أمره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یدعوهم من قبله و ینادیهم بلفظه یا عبادی و فیه تذکیر بحجه اللّه سبحانه علی دعوتهم الی عبادتهم و ترغیب لهم الی استجابه الدعوه أما التذکیر بالحجه فلأنه یشیر الی أنهم عباده و هو مولاهم و من حق المولی علی عبده أن یطیعه و یعبده فله أن یدعوه الی طاعته و عبادته،و أما ترغیبهم الی استجابه الدعوه فلما فیه من الإضافه الیه

تعالی الباعث لهم الی التمسک بذیل رحمته و مغفرته.

و قوله: اَلَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ الإسراف-علی ما ذکره الراغب-تجاوز الحد فی کل فعل یفعله الإنسان و إن کان ذلک فی الإنفاق أشهر؛و کأن الفعل مضمن معنی الجنایه أو ما یقرب منها و لذا عدی بعلی.و الإسراف علی النفس هو التعدی علیها باقتراف الذنب أعم من الشرک و سائر الذنوب الکبیره و الصغیره علی ما یعطیه السیاق.

و قال جمع:إن المراد بالعباد المؤمنون و قد غلب استعماله فیهم مضافا الیه تعالی فی القرآن فمعنی یا عبادی الذین أسرفوا علی أنفسهم أیها المؤمنون المذنبون.

و یدفعه أن قوله: «یٰا عِبٰادِیَ الَّذِینَ أَسْرَفُوا» الی تمام سبع آیات ذو سیاق واحد متصل یفصح عن دعوتهم و قوله فی ذیل الآیات: «بَلیٰ قَدْ جٰاءَتْکَ آیٰاتِی فَکَذَّبْتَ بِهٰا وَ اسْتَکْبَرْتَ» الخ؛کالصریح أو هو صریح فی شمول العباد للمشرکین.

و ما ورد فی کلامه تعالی من لفظ «عِبٰادِیَ» و المراد به المؤمنون بضعه عشر موردا جمیعها محفوفه بالقرینه و لیس بحیث ینصرف عند الإطلاق الی المؤمنین کما أن الموارد التی أطلق فیها و ارید به الأعم من المشرک و المؤمن فی کلامه کذلک.

و بالجمله شمول «عِبٰادِیَ» فی الآیه للمشرکین لا ینبغی أن یرتاب فیه،و القول بأن المراد به المشرکون خاصه نظرا الی سیاق الآیات کما نقل عن ابن عباس أقرب الی القبول من تخصیصه بالمؤمنین.

و قوله: لاٰ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَهِ اللّٰهِ القنوط الیأس،و المراد بالرحمه بقرینه خطاب المذنبین و دعوتهم هو الرحمه المتعلقه بالآخره دون ما هی أعم الشامله للدنیا و الآخره و من المعلوم أن الذی یفتقر الیه المذنبون من شئون رحمه الآخره بلا واسطه هو المغفره فالمراد بالرحمه المغفره و لذا علل النهی عن القنوط من الرحمه بقوله: «إِنَّ اللّٰهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِیعاً» .

و فی الآیه التفات من التکلم الی الغیبه حیث قیل «إِنَّ اللّهَ یَغْفِرُ» و لم یقل:إنی أغفر و ذلک للإشاره الی أنه اللّه الذی له الأسماء الحسنی و منها أنه غفور رحیم کأنه یقول لا تقنطوا من رحمتی فإنی أنا اللّه أغفر الذنوب جمیعا لأن اللّه هو الغفور الرحیم.

و قوله: إِنَّ اللّهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِیعاً تعلیل للنهی عن القنوط و إعلام بأن جمیع الذنوب قابله للمغفره عامه لکنها تحتاج الی سبب مخصص و لا تکون جزافا،و الذی عده القرآن سببا للمغفره أمران:الشفاعه (۱)و التوبه لکن لیس المراد فی قوله: «إِنَّ اللّهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِیعاً» المغفره الحاصله بالشفاعه لأن الشفاعه لا تنال الشرک بنص القرآن فی آیات کثیره و قد مر أیضا أن قوله: إِنَّ اللّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ یَشاءُ (النساء/ ۴۸)ناظر الی الشفاعه و الآیه أعنی قوله: «إِنَّ اللّهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِیعاً» موردها الشرک و سائر الذنوب.

فلا یبقی إلا أن یکون المراد المغفره الحاصله بالتوبه و کلامه تعالی صریح فی مغفره الذنوب جمیعا حتی الشرک بالتوبه.

علی أن الآیات السبع-کما عرفت-کلام واحد ذو سیاق واحد متصل ینهی عن القنوط -و هو تمهید لما یتلوه-و یأمر بالتوبه و الإسلام و العمل الصالح و لیست الآیه الاولی کلاما مستقلا منقطعا عما یتلوه حتی یحتمل عدم تقیید عموم المغفره فیها بالتوبه و أی سبب آخر مفروض للمغفره.

و الآیه أعنی قوله: «إِنَّ اللّهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِیعاً» من معارک الآراء بینهم فقد ذهب قوم الی تقیید عموم المغفره فیها بالشرک و سائر الکبائر التی وعد اللّه علیها النار مع عدم تقیید العموم بالتوبه فالمغفره لا تنال إلا الصغائر من الذنوب.

ص :۴۱۵

۱- ۱) .و قد مر الکلام فیها فی مباحث الشفاعه فی الجزء الأول من الکتاب.

قوله تعالى: وَ أَنِيبُوا إِلىٰ رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذٰابُ ثُمَّ لاٰ تُنْصَرُونَ عطف على قوله: «لاٰ تَقْنَطُوا» ،و الإنابه الى اللّه الرجوع اليه و هو التوبه، و قوله: «إِلىٰ رَبِّكُمْ» من وضع الظاهر موضع المضمر و كان مقتضى الظاهر أن يقال:و أنيبوا اليه و الوجه فيه الإشاره الى التعليل فإن الملاك فى عباده اللّه سبحانه صفه ربوبيه.

و المراد بالإسلام التسليم للّه و الانقياد له فيما يريد،و إنما قال: «وَ أَسْلِمُوا لَهُ» و لم يقل:

و آمنوا به لأن المذكور قبل الآيه و بعدها استكبارهم على الحق و المقابل له الإسلام.

و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذٰابُ ثُمَّ لاٰ تُنْصَرُونَ متعلق بقوله: «وَ أَنِيبُوا وَ أَسْلِمُوا» و المراد بالعذاب عذاب الآخره بقرينه الآيات التاليه،و يمكن على بعد أن يراد مطلق العذاب الذى لا تقبل معه التوبه و منه عذاب الاستئصال قال تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمٰانُهُمْ لَمّٰا رَأَوْا بَأْسَنٰا سُنَّتَ اللّٰهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبٰادِهِ (المؤمن/٨٥).

و المراد بقوله: «ثُمَّ لاٰ تُنْصَرُونَ» أن المغفره لا تدرككم بوجه لعدم تحقق سببها فالتوبه مفروضه العدم و الشفاعه لا تشمل الشرك.

قوله تعالى: وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذٰابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ الخطاب عام للمؤمن و الكافر كالخطابات السابقه و القرآن قد انزل الى الفريقين جميعا.

و فى الآيه أمر بإتباع أحسن ما انزل من اللّه قيل:المراد به اتباع الأحكام من الحلال و الحرام دون القصص،و قيل:اتباع ما أمر به و نهى عنه كاتيان الواجب و المستحب و اجتناب الحرام و المكروه دون المباح،و قيل:الاتباع فى العزام و هى الواجبات و المحرمات،و قيل:

اتباع الناسخ دون المنسوخ،و قيل:ما أنزل هو جنس الكتب السماويه و أحسنها القرآن فاتباع أحسن ما انزل و هو اتباع القرآن.

و الإنصاف أن قوله فى الآيه السابقه: «وَ أَسْلِمُوا لَهُ» يشمل مضمون كل من هذه الأقوال

فحمل قوله: «وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ» على شیء منها لا يخلو عن تكرار من غير موجب.

و لعل المراد من أحسن ما أنزل الخطابات التی تشير الی طريق استعمال حق العبوديه فی امتثال الخطابات الإلهيه الاعتقاديه و العمليه و ذلک كالخطابات الداعيه الی ذكر اللّه تعالی بالاستغراق و الی حبه و الی تقواه حق تقاته و الی إخلاص الدين له فإن اتباع هذه الخطابات يحيی الإنسان حياه طيبه و ينفخ فيه روح الإيمان و يصلح أعماله و يدخله فی ولايه اللّه تعالی و هی الكرامه ليست فوقها كرامه.

و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذٰابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ أنسب لهذا المعنی فإن الدعوه الی عمل بالتخويف من مفاجاه الحرمان و مباغته المانع إنما تكون غالبا فيما يساهل المدعو فی أمره و يطيب نفسه بسوف و لعل،و هذا المعنی أمس بإصلاح الباطن منه بإصلاح الظاهر و الإتيان بأجساد الأعمال،و يقرب منه قوله تعالی: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (الأنفال/ ۲۴).

قوله تعالی: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يٰا حَسْرَتیٰ عَلیٰ مٰا فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اللّٰهِ الخ؛قال فی المجمع:التفريط إهمال ما يجب أن يتقدم فيه حتی يفوت وقته،و قال:التحسر الاغتمام مما فات وقته لانحساره عنه بما لا يمكن استدراكه.انتهی.و قال الراغب:الجنب الجارحه.قال:ثم يستعار فی الناحيه التی تليها لعادتهم فی استعاره سائر الجوارح لذلک نحو اليمين و الشمال.انتهی.فجنب اللّه جانبه و ناحيته و هی ما يرجع اليه تعالی مما يجب علی العبد أن يعامله و مصداق ذلک أن يعبده وحده و لا يعصيه و التفريط فی جنب اللّه التقصير فی ذلک.

و قوله: وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السّٰاخِرِينَ «أَنْ» مخففه من الثقيله،و الساخرين اسم فاعل من سخر بمعنی استهزأ.

و معنی الآیه إنما نخاطبکم بهـذا الخطاب حذر أن تقول أو لئلا تقول نفس منکم یا حسـرتا علی ما قصـرت فی جانب اللّه و إنی کنت من المستهزئین،و مواطن القول یوم القیامه.

قوله تعـالی: أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللّهَ هَدانِی لَکُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِینَ ضـمیر تقول للنفس،و المراد بالهـدایه الإرشاد و إراءه الطریق،و المعنی ظاهر و هو قطع للعذر.

قـوله تعـالی: أَوْ تَقُولَ حِینَ تَرَی الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِی کَرَّهً فَأَکُونَ مِنَ الْمُحْسِنِینَ لو للتمنی و الکره الرجعه،و المعنی أو تقول نفس متمنیه حین تری العذاب یوم القیامه:لیت لی رجعه الی الدنیا فأکون من المحسنین.

قوله تعالی: بَلی قَدْ جاءَتْکَ آیاتِی فَکَذَّبْتَ بِها وَ اسْتَکْبَرْتَ وَ کُنْتَ مِنَ الْکافِرِینَ رد لها و جواب لخصوص قولها ثانیا: «لَوْ أَنَّ اللّهَ هَدانِی لَکُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِینَ» و موطن الجواب یوم القیامه کما أن موطن القول ذلک و لسیاق الجواب شهاده علیه.

و قد فصل بین قولها و جوابه بقوله: «أَوْ تَقُولَ حِینَ تَرَی» الخ؛و لم یجب إلا عن قولها: «لَوْ أَنَّ اللّهَ هَدانِی» الخ.

و الوجه فی الفصل أن الأقوال الثلاثه المنقوله عنها مرتبه علی ترتیب صدورها عن المجرمین یوم القیامه فإذا قامت القیامه و رأی المجرمون أن الیوم یوم الجزاء بالأعمـال و قـد فرطوا فیها و فاتهم وقتها تحسـروا علی ما فرطوا و نادوا بالحسـره علی تفریطهم «یا حَسْرَتی عَلی ما فَرَّطْتُ» قال تعالی: حَتّی إِذا جاءَتْهُمُ السّاعَهُ بَغْتَهً قالُوا یا حَسْرَتَنا عَلی ما فَرَّطْنا فِیها (الأنعام/۳۱).

ثم إذا حوسـبوا و أمر المتقـون بـدخول الجنه و قیـل وَ امْتازُوا الْیَوْمَ أَیُّهَا الْمُجْرِمُونَ (یس/ ۵۹)تعللوا بقولهم: «لَوْ أَنَّ اللّهَ هَدانِی لَکُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِینَ» .

ثم إذا امروا بدخول النار فأوقفوا علیها ثم ادخلوا فیها تمنوا الرجوع الی الدنیا لیحسنوا فیها فیسعدوا «أَوْ تَقُولَ حِینَ تَرَی الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِی کَرَّهً» قال تعالی: وَ لَوْ تَری إِذْ وُقِفُوا عَلَی

النّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (الأنعام/۲۷)،و قال حاكيا عنهم: رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنّا ظالِمُونَ (المؤمنون/۱۰۷).

ثم لما نقل الأقوال على ما بينها من الترتيب أخذ فى الجواب و لو أخر القول المجاب عنه حتى يتصل بالجواب أو قدم الجواب حتى يتصل به اختل النظم (۱).

و قد خص قولهم الثانى: «لَوْ أَنَّ اللّهَ هَدانِي» الخ؛بالجواب و أمسك عن جواب قولهم الأول و الثالث لأن فى الأول حديث استهزائهم بالحق و أهله و فى الثالث تمنيهم للرجوع الى الدنيا و اللّه سبحانه يزجر هؤلاء يوم القيامه و يمنعهم أن يكلموه و لا يجيب عن كلامهم كما يشير الى ذلك قوله: قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَ كُنّا قَوْماً ضالِّينَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنّا ظالِمُونَ قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنّا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ (المؤمنون/۱۱۱).

قوله تعالى: وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ الكذب على اللّه هو القول بأن له شريكا و أن له ولدا و منه البدعه فى الدين.

و سواد الوجه آيه الذله و هى جزاء تكبرهم و لذا قال: «أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ» .

قوله تعالى: وَ يُنَجِّي اللّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ الظاهر أن مفازه مصدر ميمى بمعنى الفوز و هو الظفر بالمراد،و الباء فى «بِمَفازَتِهِمْ» للملابسه أو السببيه فالفوز الذى يقضيه اللّه لهم اليوم سبب تنجيتهم.

۱- ۱) .و أصل الوجه مأخوذ من تفسير أبى السعود باصلاح منا.

و قوله: «لاٰ يَمَسُّهُمُ» الخ؛بیان لتنجیتهم کأنه قیل:ینجیهم لا یمسهم السود من خارجهم و لا هم یحزنون فی أنفسهم.

و للآیه نظر الی قوله تعالی فی ذیل آیات سوره المؤمنون المنقوله آنفا: «إِنِّی جَزَیْتُهُمُ الْیَوْمَ بِمٰا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفٰائِزُونَ» فتدبر و لا تغفل (۱).

[سوره الزمر (۳۹): الآیات ۶۲ الی ۷۵]

اَللّٰهُ خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ (۶۲) لَهُ مَقٰالِیدُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا بِآیٰاتِ اَللّٰهِ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْخٰاسِرُونَ (۶۳) قُلْ أَ فَغَیْرَ اَللّٰهِ تَأْمُرُونِّی أَعْبُدُ أَیُّهَا اَلْجٰاهِلُونَ (۶۴) وَ لَقَدْ أُوحِیَ إِلَیْکَ وَ إِلَی اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِکَ لَئِنْ أَشْرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ وَ لَتَکُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِینَ (۶۵) بَلِ اَللّٰهَ فَاعْبُدْ وَ کُنْ مِنَ اَلشّٰاکِرِینَ (۶۶) وَ مٰا قَدَرُوا اَللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ اَلْأَرْضُ جَمِیعاً قَبْضَتُهُ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ وَ اَلسَّمٰاوٰاتُ مَطْوِیّٰاتٌ بِیَمِینِهِ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یُشْرِکُونَ (۶۷) وَ نُفِخَ فِی اَلصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی اَلْأَرْضِ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اَللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِیهِ أُخْریٰ فَإِذٰا هُمْ قِیٰامٌ یَنْظُرُونَ (۶۸) وَ أَشْرَقَتِ اَلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهٰا وَ وُضِعَ اَلْکِتٰابُ وَ جِیءَ بِالنَّبِیِّینَ وَ اَلشُّهَدٰاءِ وَ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ (۶۹) وَ وُفِّیَتْ کُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا یَفْعَلُونَ (۷۰) وَ سِیقَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا إِلیٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتّٰی إِذٰا جٰاؤُهٰا فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا أَ لَمْ یَأْتِکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ یَتْلُونَ عَلَیْکُمْ آیٰاتِ رَبِّکُمْ وَ یُنْذِرُونَکُمْ لِقٰاءَ یَوْمِکُمْ هٰذٰا قٰالُوا بَلیٰ وَ لٰکِنْ حَقَّتْ کَلِمَهُ اَلْعَذٰابِ عَلَی اَلْکٰافِرِینَ (۷۱) قِیلَ اُدْخُلُوا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِینَ فِیهٰا فَبِئْسَ مَثْوَی اَلْمُتَکَبِّرِینَ (۷۲) وَ سِیقَ اَلَّذِینَ اِتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَی اَلْجَنَّهِ زُمَراً حَتّٰی إِذٰا جٰاؤُهٰا وَ فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهٰا خٰالِدِینَ (۷۳) وَ قٰالُوا اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِی صَدَقَنٰا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا اَلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ اَلْجَنَّهِ حَیْثُ نَشٰاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ اَلْعٰامِلِینَ (۷۴) وَ تَرَی اَلْمَلاٰئِکَهَ حَافِّینَ مِنْ حَوْلِ اَلْعَرْشِ یُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِیلَ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۷۵)

۱- ۱) .الزمر ۵۳-۶۱:بحث روائی فی رحمه اللّه تعالی فی الذین اسرفوا علی انفسهم؛التوبه.

بیان:

قوله تعالی: اَللّٰهُ خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ هذا هو الذی ذکر اعتراف المشرکین به من قبل فی قوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ اللّٰهُ (الآیه ۳۸ من السوره) و بنی علیه استناد الأشیاء فی تدبیرها الیه.

و الجمله فی المقام تمهید لما یذکر بعدها من کون التدبیر مستندا الیه لما تقدم مرارا أن الخلق

لا ینفک عن التدبیر فانتقل فی المقام من استناد الخلق الیه الی اختصاص الملک به و هو قوله:

«لَهُ مَقٰالِیدُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» و من اختصاص الملک به الی کونه هو الوکیل علی کل شیء القائم مقامه فی تدبیر أمره.

و قد تقدم فی ذیل قوله: ذٰلِکُمُ اللّٰهُ رَبُّکُمْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ (الأنعام۱۰۲/) فی الجزء السابع من الکتاب کلام فی معنی عموم الخلقه لکل شیء.

قوله تعالی: وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ و ذلک لأن انتهاء خلق کل شیء وجوده الیه یقتضی أن یکون تعالی هو المالک لکل شیء فلا یملک شیء من الأشیاء لا نفسه و لا شیئا مما یترشح من نفسه إلا بتملیک اللّه تعالی،فهو لفقره مطلقا لا یملک تدبیرا و اللّه المالک لتدبیره.

و أما تملیکه تعالی له نفسه و عمله فهو أیضا نوع من تدبیره تعالی مؤکد لملکه غیر ناف و لا مناف حتی أن توکیله الملائکه علی شیء من الأمر من شئون وکالته تعالی علیهم لا تفویض للأمر و إبطال للوکاله فافهم ذلک.

و بالجمله إذ کان کل شیء من الأشیاء لا یملک لنفسه شیئا کان سبحانه هو الوکیل علیه القائم مقامه المدبر لأمره و الأسباب و المسببات فی ذلک سواء فاللّه سبحانه هو ربها وحده.

فقد تبین أن الجمله مسوقه للإشاره الی توحده فی الربوبیه و هو المقصود بیانه فقول بعضهم إن ذکر ذلک بعد قوله: «اللّٰهُ خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ» للدلاله علی أنه هو الغنی المطلق و أن المنافع و المضار راجعه الی العباد،أو أن المراد أنه تعالی حفیظ علی کل شیء فیکون إشاره الی أن الأشیاء محتاجه الیه فی بقائها کما أنها محتاجه الیه فی حدوثها،أجنبی عن معنی الآیه بالمره.

قوله تعالی: لَهُ مَقٰالِیدُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الخ؛المقالید-کما قیل-بمعنی المفاتیح و لا مفرد له من لفظه.

و مفاتیح السماوات و الأرض مفاتیح خزائنها قال تعالی: وَ لِلّٰهِ خَزٰائِنُ السَّمٰاوٰاتِ

وَ الْأَرْضِ (المنافقون/٧)و خزائنها غيبها الذى يظهر منه الأشياء و النظام الجارى فيها فتخرج الى الشهاده قال تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/٢١).

و ملک مقالید السماوات و الأرض کنایه عن ملک خزائنها التی منها وجودات الأشیاء و أرزاقها و أعمارها و آجالها و سائر ما یواجهها فی مسیرها من حین تبتدئ منه تعالی الی حین ترجع الیه.

و هو أعنی قوله: «لَهُ مَقالِیدُ» الخ؛فی مقام التعلیل لقوله: «وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ» و لذا جیء به مفصولا من غیر عطف.

و قوله: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِ اللّهِ أُولئِکَ هُمُ الْخاسِرُونَ قد تقدم أن قوله:

«اللّهُ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ -الی قوله- وَ الْأَرْضِ» ذکر خلاصه ما تفیده الحجج المذکوره فی خلال الآیات السابقه،و علیه فقوله: «وَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِ رَبِّهِمْ» الخ؛معطوف علی قوله: «اللّهُ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ» و المعنی الذی تدل علیه الآیات و الحجج المتقدمه أن اللّه سبحانه خالق فما لک فوکیل علی کل شیء أی متوحد فی الربوبیه و الالوهیه و الذین کفروا بآیات ربهم فلم یوحدوه و لم یعبدوه أولئک هم الخاسرون.

قوله تعالی: قُلْ أَ فَغَیْرَ اللّهِ تَأْمُرُونِّی أَعْبُدُ أَیُّهَا الْجاهِلُونَ لما أورد سبحانه خلاصه ما تنطق به الحجج المذکوره فی السوره من توحده تعالی بالخلق و الملک و التدبیر و لازم ذلک توحده تعالی فی الربوبیه و الالوهیه أمر نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یخاطب المشرکین المقترحین علیه أن یعبد آلهتهم أنه لا یبقی مع هذه الحجج الباهره الظاهره محل لعبادته غیر اللّه و إجابه اقتراحهم و هل هی إلا الجهل.

فقوله: أَ فَغَیْرَ اللّهِ تَأْمُرُونِّی أَعْبُدُ الفاء لتفریع مضمون الجمله علی قوله: «اللّهُ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ» الی آخر الآیتین،و الاستفهام إنکاری،و«غیر اللّه»مفعول «أَعْبُدُ» قدم

علیه لتعلق العنایه به،و «تَأْمُرُونِّی» معترض بین الفعل و مفعوله و أصله تأمروننی أدغمت فیه إحدی النونین فی الاخری.

و قوله: أَيُّهَا الْجاهِلُونَ خطابهم بصفه الجهل للإشاره الی أن أمرهم إیاه بعباده غیر اللّه و اقتراحهم بذلک مع ظهور آیات وحدته فی الربوبیه و الالوهیه لیس إلا جهلا منهم.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ الخ؛فیه تأیید لمدلول الحجج العقلیه المذکوره بالوحی کأنه قیل:لا تعبد غیر اللّه فإنه جهل و کیف یسوغ لک أن تعبده و قد دل الوحی علی النهی عنه کما دل العقل علی ذلک.

فقوله: وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ اللام للقسم،و قوله: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» بیان لما اوحی الیه،و تقدیر الکلام و أقسم لقد أوحی الیک لئن أشرکت،الخ؛و إلی الذین من قبلک من الأنبیاء و الرسل لئن أشرکت لیحبطن عملکم و لتکونن من الخاسرین.

و خطاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سائر الأنبیاء علیهم السّلام بالنهی عن الشرک و إنذارهم بحبط العمل و الدخول فی زمره الخاسرین خطاب و إنذار علی حقیقه معناهما کیف؟و غرض السوره-کما تقدمت الإشاره الیه-بیان أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مأمور بالإیمان بما یدعو المشرکین الی الإیمان به مکلف بما یکلفهم و لا یسعه أن یجیبهم الی ما یقترحون به علیه من عباده آلهتهم.

و أما کون الأنبیاء معصومین بعصمه إلهیه یمتنع معها صدور المعصیه عنهم فلا یوجب ذلک سقوط التکلیف عنهم و عدم صحه توجهه الیهم و لو کان کذلک لم تتصور فی حقهم معصیه کسائر من لا تکلیف علیه فلم یکن معنی لعصمتهم.

علی أن العصمه-و هی قوه یمتنع معها صدور المعصیه-من شئون مقام العلم-کما تقدمت الإشاره الیه فی تفسیر قوله تعالی: وَ مٰا يُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ (النساء۱۱۳/)-لا تنافی ثبوت الاختیار الذی هو من شئون مقام العمل و صحه صدور الفعل و الترک عن الجوارح.

ص :۴۲۴

فمنع العلم القطعی بمفسده شیء منعا قطعیا عن صدوره عن العالم به کمنع العلم بأثر السم عن شربه لا ینافی کون العالم بذلک مختارا فی الفعل لصحه صدوره و لا صدوره عن جوارحه فالعصمه لا تنافی بوجه التکلیف.

و قوله: وَ لَتَکُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِینَ ظهر معناه مما تقدم و یمکن أن یکون اللام فی الخاسرین مفیدا للعهد،و المعنی و لتکونن من الخاسرین الذین کفروا بآیات اللّه و أعرضوا عن الحجج الداله علی وحدانیته.

قوله تعالی: بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَ کُنْ مِنَ الشّاکِرِینَ إضراب عن النهی المفهوم من سابق الکلام کأنه قیل:فلا تعبد غیر اللّه بل اللّه فاعبد،و تقدیم اسم الجلاله للدلاله علی الحصر.

و الفاء فی «فَاعْبُدْ» زائده للتأکید علی ما قیل،و قیل:هی فاء الجزاء و قد حذف شرطه و التقدیر بل إن کنت عابدا أو عاقلا فاعبد اللّه.

و قوله: وَ کُنْ مِنَ الشّاکِرِینَ أی و کن بعبادتک له من الذین یشکرونه علی نعمه الداله علی توحده فی الربوبیه و الالوهیه،و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی: وَ سَیَجْزِی اللّهُ الشّاکِرِینَ (آل عمران۱۴۴/)و قوله: وَ لاٰ تَجِدُ أَکْثَرَهُمْ شٰاکِرِینَ (الأعراف۱۷/)أن مصداق الشاکرین بحقیقه معنی الکلمه هم المخلصون بفتح اللام فراجع.

قوله تعالی: وَ مٰا قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ الی آخر الآیه قدر الشیء هو مقداره و کمیته من حجم أو عدد أو وزن و ما أشبه ذلک ثم استعیر للمعنویات من المکانه و المنزله.

فقوله: «وَ مٰا قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» تمثیل أرید به عدم معرفتهم به تعالی واجب المعرفه إذ لم یعرفوه من حیث المعاد و رجوع الأشیاء الیه کما یدل علیه تعقیب الجمله بقوله: «وَ الْأَرْضُ جَمِیعاً قَبْضَتُهُ یَوْمَ الْقِیامَهِ» الی آخر السوره حیث ذکر فیه انقطاع کل سبب دونه یوم القیامه، و قبضه الأرض و طیه السماوات و نفخ الصور لإماته الکل ثم لإحیائهم و إشراق الأرض بنور

ربها و وضع الكتاب و المجیء بالنبیین و الشهداء و القضاء و توفیه كل نفس ما عملت و سوق المجرمین الی النار و المتقین الی الجنه فمن كان شأنه فی الملك و التصرف هذا الشأن و عرف بذلك أوجبت هذه المعرفه و الاقبال الیه بعبادته وحده و الإعراض عن غیره بالكلیه.

لكن المشركین لما لم یؤمنوا بالمعاد و لم یقدروه حق قدره و لم یعرفوه واجب معرفته أعرضوا عن عبادته الی عباده من سواه.

و قوله: وَ الْأَرْضُ جَمِیعاً قَبْضَتُهُ یَوْمَ الْقِیامَهِ أی الأرض بما فیها من الأجزاء و الأسباب الفعاله بعضها فی بعض،و القبضه مصدر بمعنی المقبوضه،و القبض علی الشیء و كونه فی القبضه كنایه عن التسلط التام علیه أو انحصار التسلط علیه فی القابض و المراد هاهنا المعنی الثانی كما یدل علیه قوله تعالی: وَ الْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ (الانفطار/۱۹)و غیره من الآیات.

و قوله: وَ السَّمٰاوٰاتُ مَطْوِیّٰاتٌ بِیَمِینِهِ یمین الشیء یده الیمنی و جانبه القوی و یكنی بها عن القدره،و یستفاد من السیاق أن محصل الجملتین أعنی قوله: «وَ الْأَرْضُ جَمِیعاً قَبْضَتُهُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ وَ السَّمٰاوٰاتُ مَطْوِیّٰاتٌ بِیَمِینِهِ» تقطع الأسباب الأرضیه و السماویه و سقوطها و ظهور أن لا مؤثر فی الوجود إلا اللّه سبحانه.

و قوله: سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یُشْرِكُونَ تنزیه له تعالی عما أشركوا غیره فی ربوبیته و الوهیته فنسبوا تدبیر العالم الی آلهتهم و عبدوها.

قوله تعالی: وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اللّٰهُ الخ؛ظاهر ما ورد فی كلامه تعالی فی معنی نفخ الصور أن النفخ نفختان نفخه للإماته و نفخه للإحیاء،و هو الذی تدل علیه روایات أئمه أهل البیت علیهم السّلام و بعض ما ورد من طرق أهل السنه عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إن كان بعض آخر من روایاتهم لا یخلو عن إبهام و لذا اختار بعضهم أنها ثلاث نفخات نفخه للإماته و نفخه للإحیاء و البعث و نفخه للفزع

و الصعق و قال بعضهم:إنها أربع نفخات و لكن دون إثبات ذلک من ظواهر الآيات خرط القتاد.

و لعل انحصار النفخ فی نفختی الإماته و الإحياء هو الموجب لتفسيرهم الصعق فی النفخه الاولی بالموت مع أن المعروف من معنی الصعق الغشيه،قال فی المصباح:يقال:صعق الرجل صعقا و تصاعقا أی غشی عليه و أصعقه غيره،ثم قال:و قوله تعالی: «فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ» أی مات.انتهی.

و قوله: إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اللّٰهُ استثناء من أهل السماوات و الأرض و اختلف فی من هم؟

نعم لو تصور للّه سبحانه خلق وراء السماوات و الأرض جاز استثناؤهم من أهلهما استثناء منقطعا أو قيل:إن الموت إنما يلحق الأجساد بانقطاع تعلق الأرواح بها و أما الأرواح فإنها لا تموت فالأرواح هم المستثنون استثناء متصلا،و يؤيد هذا الوجه بعض (۱)الروايات المرويه عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام.

و قوله: ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرىٰ فَإِذٰا هُمْ قِيٰامٌ يَنْظُرُونَ ضمير «فِيهِ» للصور، و «أُخْرىٰ» صفه محذوف موصوفها أی نفخه أخری،و قيام جمع قائم و «يَنْظُرُونَ» أی ينتظرون أو من النظر بمعناه المعروف.

و المعنی:و نفخ فی الصور نفخه اخری فإذا هم قائمون من قبورهم ينتظرون ما يؤمرون أو ينتظرون ما ذا يفعل بهم أو فإذا هم قائمون ينظرون نظر المبهوت المتحير.

و لا ينافی ما فی هذه الآيه من كونهم بعد النفخ قياما ينظرون ما فی قوله: وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَإِذٰا هُمْ مِنَ الْأَجْدٰاثِ إِلىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (يس/۵۱)أی يسرعون،و قوله: يَوْمَ يُنْفَخُ فِی

۱- ۱) .و هو ما ورد فی قوله تعالی «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» المؤمن:۱۶ أن الجواب بقوله «لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ» من أرواح الأنبياء و غير ذلک من الروايات.

اَلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوٰاجاً (النبأ/۱۸)،و قوله: وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ (النمل/۸۷)فإن فزعهم فالنفخ و إسراعهم فى المشى الى عرصه المحشر و إتيانهم إليها أفواجا كقيامهم ينظرون حوادث متقارنه لا يدفع بعضها بعضا.

قوله تعالى: وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهٰا الى آخر الآيه؛إشراق الأرض إضاءتها،و النور معروف المعنى و قد استعمل النور فى كلامه تعالى فى النور الحسى كثيرا و اطلق أيضا على الإيمان و على القرآن بعنايه أن كلا منهما يظهر للمتلبس به ما خفى عليه لولاه قال تعالى: اَللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ (البقره/۲۵۷)،و قال:

فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنٰا (التغابن/۸).

و لا يبعد أن يراد-و اللّٰه أعلم-من إشراق الأرض بنور ربها ما هو خاصه يوم القيامه من انكشاف الغطاء و ظهور الأشياء بحقائقها و بدو الأعمال من خير أو شر أو طاعه أو معصيه أو حق أو باطل للناظرين،و إشراق الشىء هو ظهوره بالنور و لا ريب أن مظهرها يومئذ هو اللّٰه سبحانه إذ الأسباب ساقطه دونه فالأشياء مشرقه بنور مكتسب منه تعالى.

و هذا الإشراق و إن كان عاما لكل شىء يسعه النور لكن لما كان الغرض بيان ما للأرض و أهله يومئذ من الشأن خصها بالبيان فقال: «وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهٰا» و ذكره تعالى بعنوان ربوبيه الأرض تعريضا للمشركين المنكرين لربوبيته تعالى للأرض و ما فيها.

و المراد بالأرض مع ذلك الأرض و ما فيها و ما يتعلق بها كما تقدم أن المراد بالأرض فى قوله: «وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ» ذلك.

و يستفاد ما قدمناه من مواضع كثيره من كلامه تعالى كقوله تعالى: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق/۲۲)و قوله: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران/۳۰)،و قوله: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبٰارَهٰا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحىٰ لَهٰا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّٰاسُ أَشْتٰاتاً لِيُرَوْا أَعْمٰالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ

خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزال۸/)و آیات اخری کثیره تدل علی ظهور الأعمال و تجسمها و شهاده الأعضاء و غیر ذلک.

و قوله: وَ وُضِعَ الْكِتابُ قیل:المراد به الحساب و هو کما تری و قیل:المراد به صحائف الأعمال التی یحاسب علیها و یقضی بها،و قیل:المراد به اللوح المحفوظ و یؤیده قوله تعالی: هٰذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثیه۲۹/).

و قوله: وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ أما النبیون فلیسألوا عن أداء رسالتهم کما یشعر به السیاق قال تعالی: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف/ ۶)،و أما الشهداء و هم شهداء الأعمال فلیؤدوا ما تحملوه من الشهاده قال تعالی: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاءِ شَهِيداً (النساء۴۱/).

و قوله: وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ ضمیر الجمع للناس المعلوم من السیاق،و القضاء بینهم هو القضاء فیما اختلفوا فیه الوارد کرارا فی کلامه تعالی قال: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (یونس۹۳/).

قوله تعالی: وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ التوفیه الإعطاء بالتمام و قد علقت بنفس ما عملت دون جزائه و یقطع ذلک الریب فی کونه قسطا و عدلا من أصله و الآیه بمنزله البیان لقوله: «وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» .

و قوله: وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ أی لیس حکمه بهذا النمط من وضع الکتاب و المجیء بالنبیین و الشهداء عن جهل منه و حاجه بل لأن یجری حکمه علی القسط و العدل فهو أعلم بما یفعلون.

و الآیه السابقه تتضمن القضاء و الحکم و هذه الآیه إجراؤه و الآیات اللاحقه تفصیل إجرائه.

قوله تعالی: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ الی آخر الآیه السوق بالفتح

ص :۴۲۹

فالسکون-علی ما فی المجمع-الحث علی السیر،و الزمر جمع زمره و هی-کما فی الصحاح- الجماعه من الناس.

و المعنی «وَ سِیقَ» و حث علی السیر «الَّذِینَ کَفَرُوا إِلیٰ جَهَنَّمَ زُمَراً» جماعه بعد جماعه «حَتّی إِذا جاؤُها» بلغوها «فُتِحَتْ أَبْوابُها» لأجل دخولهم و هی سبعه قال تعالی: لَها سَبْعَهُ أَبْوابٍ (الحجر۴۴/) «وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها» و هم الملائکه الموکلون علیها یقولون لهم تهجینا و إنکارا علیهم «أَ لَمْ یَأْتِکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ» من نوعکم من البشر «یَتْلُونَ» و یقرءون «عَلَیْکُمْ آیاتِ رَبِّکُمْ» من الحجج الداله علی وحدانیته و وجوب عبادته «قالُوا» بلی قد جاءوا و تلوا «وَ لٰکِنْ» کفرنا و کذبنا و «حَقَّتْ کَلِمَهُ الْعَذابِ عَلَی الْکافِرِینَ» و کلمه العذاب هی قوله تعالی حین أمر آدم بالهبوط: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا أُولٰئِکَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ (البقره۳۹/).

قوله تعالی: قِیلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِینَ فِیها فَبِئْسَ مَثْوَی الْمُتَکَبِّرِینَ القائل-علی ما یفیده السیاق-خزنه جهنم،و فی قوله: «فَبِئْسَ مَثْوَی الْمُتَکَبِّرِینَ» دلاله علی أن هؤلاء الذین کفروا هم المکذبون بآیات اللّه المعاندون للحق.

قوله تعالی: وَ سِیقَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِلیٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتّی إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها لم یذکر فی الآیه جواب إذا إشاره الی أنه أمر فوق ما یوصف و وراء ما یقدر بقدر، و قوله: «وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها» حال أی جاؤها و قد فتحت أبوابها،و قوله: «خَزَنَتُها» هم الملائکه الموکلون علیها.

و المعنی «وَ سِیقَ» و حث علی السیر «الَّذِینَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَی الْجَنَّهِ زُمَراً» جماعه بعد جماعه «حَتّی إِذا جاؤُها وَ» قد «فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها» الموکلون علیها مستقبلین لهم «سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ» أنتم فی سلام مطلق لا یلقاکم إلا ما ترضون «طِبْتُمْ» و لعله تعلیل لإطلاق السلام «فَادْخُلُوها خالِدِینَ» فیها.و هو أثر طیبهم.

قوله تعالی: وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی صَدَقَنٰا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ الی آخر الآیه.القائلون هم المتقون و المراد بالوعد ما تکرر فی کلامه تعالی و فیما اوحی الی سائر الأنبیاء من وعد المتقین بالجنه قال: لِلَّذِینَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّٰاتٌ (آل عمران۱۵/) و قال: إِنَّ لِلْمُتَّقِینَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّٰاتِ النَّعِیمِ (القلم۳۴/)،کذا قیل،و قیل:المراد بالوعد الوعد بالبعث و الثواب.

و لا یبعد أن یراد بالوعد الوعد بإیراث الجنه کما فی قوله: أُولٰئِکَ هُمُ الْوٰارِثُونَ اَلَّذِینَ یَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ (المؤمنون۱۱/)و یکون قوله: «وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ» عطف تفسیر لقوله: «صَدَقَنٰا وَعْدَهُ» .

و قوله: وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ المراد بالأرض-علی ما قالوا-أرض الجنه و هی التی علیها الاستقرار فیها و قد تقدم فی أول سوره المؤمنون أن المراد بوراثتهم الجنه بقاؤها لهم بعد ما کانت فی معرض أن یشارکها غیرهم أو یملکها دونهم لکنهم زالوا عنها فانتقلت الیهم.

و قوله: نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّهِ حَیْثُ نَشٰاءُ بیان لإیراثهم الأرض،و تبدیل ضمیر الأرض بالجنه للاشاره الی أنها المراد بالأرض.

و قیل:المراد بالأرض هی أرض الدنیا و هو سخیف إلا أن یوجه بأن الجنه هی عقبی هذه الدار قال تعالی: أُولٰئِکَ لَهُمْ عُقْبَی الدّٰارِ (الرعد۲۲/).

و المعنی و قال المتقون بعد دخول الجنه:الحمد للّه الذی صدقنا وعده أن سیدخلنا أو أن سیورثنا الجنه نسکن منها حیث نشاء و نختار-فلهم ما یشاءون فیها-.

و قوله: فَنِعْمَ أَجْرُ الْعٰامِلِینَ أی فنعم الأجر أجر العاملین للّه تعالی،و هو علی ما یعطیه السیاق قول أهل الجنه،و احتمل أن یکون من قوله تعالی.

قوله تعالی: وَ تَرَی الْمَلاٰئِکَهَ حَافِّینَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ یُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ الی آخر الآیه؛الحف الإحداق و الإحاطه بالشیء،و العرش هو المقام الذی یصدر

منه الفرامين و الأوامر الإلهيه التى يدبر بها العالم،و الملائكه هم المجرون لمشيته العاملون بأمره، و رؤيه الملائكه على تلك الحال كنايه عن ظهور ذلک و قد طويت السماوات.

و المعنى:و ترى يومئذ الملائكه و الحال أنهم محدقون بالعرش مطيفون به لإجراء الأمر الصادر منه و هم يسبحون بحمد ربهم.

و قوله: وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ احتمل رجوع الضمير الى الملائكه،و رجوعه الى الناس و الملائكه جميعا،و رجوعه الى جميع الخلائق،و رجوعه الى الناس فالقضاء بين أهل الجنه و أهل النار منهم أو بين الأنبياء و اممهم.

و يضعف الاحتمال الأخير أن القضاء بين الناس قد ذكر قبلا فى قوله: «وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ» فذكر القضاء بينهم ثانيا تكرار من غير موجب.

لكن ظاهر القضاء بين جماعه هو الحكم لبعضهم على بعض لوجود اختلاف ما بينهم و لا تحقق للاختلاف بين الملائكه،و هذا يؤيد أن يكون الضمير لغيرهم و القضاء بين الناس غير أن القضاء كما يطلق على نفس حكم الحاكم يصح إطلاقه على مجموع الحكم و مقدماته و تبعاته من حضور المتخاصمين و طرح الدعوى و شهاده الشهود و حكم الحاكم و إيفاء المحق حقه فمن الممكن أن يكون المراد بالقضاء المذكور أولا نفس الحكم الإلهى و بهذا القضاء المذكور ثانيا هو مجموع ما يجرى عليهم من حين يبعثون الى حين دخول أهل النار النار و أهل الجنه الجنه و استقرارهم فيهما و بذلک يندفع إشكال التكرار من غير موجب.

و قوله: وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ كلمه خاتمه للبدء و العود و ثناء عام له تعالى أنه لم يفعل و لا يفعل إلا الجميل.

قيل:قائله المتقون و كان حمدهم الأول على دخولهم الجنه و الثانى للقضاء بينهم و بين غيرهم بالحق،و قيل:قائله الملائكه و لم ينسب اليهم صريحا لتعظيم أمرهم،و قيل:القائل جميع الخلائق.

ص:۴۳۲

و يؤيد الأول قوله تعالى فى صفه أهل الجنه: وَ آخِرُ دَعْوٰاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ (يونس۱۰/)و هو حمد عام خاتم للخلقه كما سمعت.

ص :۴۳۳

سوره المؤمن مکیه و هی خمس و ثمانون آیه

اشاره

[سوره غافر (۴۰): الآیات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;حم (۱) تَنْزِيلُ اَلْكِتٰابِ مِنَ اَللّٰهِ اَلْعَزِيزِ اَلْعَلِيمِ (۲) غٰافِرِ اَلذَّنْبِ وَ قٰابِلِ اَلتَّوْبِ شَدِيدِ اَلْعِقٰابِ ذِی اَلطَّوْلِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ إِلَيْهِ اَلْمَصِيرُ (۳) مٰا يُجٰادِلُ فِی آيٰاتِ اَللّٰهِ إِلاَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فَلاٰ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِی اَلْبِلاٰدِ (۴) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ اَلْأَحْزٰابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جٰادَلُوا بِالْبٰاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ اَلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كٰانَ عِقٰابِ (۵) وَ كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى اَلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ (۶)

ص: ۴۳۴

بیان:

تتکلم السوره فی استکبار الکافرین و مجادلتهم بالباطل لیدحضوا به الحق الذی یدعون الیه و لذلک نراها تذکر جدالهم و تعود الیه عوده بعد عوده «مٰا یُجٰادِلُ فِی آیٰاتِ اللّٰهِ إِلاَّ الَّذِینَ کَفَرُوا فَلاٰ یَغْرُرْکَ تَقَلُّبُهُمْ فِی الْبِلاٰدِ» «الَّذِینَ یُجٰادِلُونَ فِی آیٰاتِ اللّٰهِ بِغَیْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰاهُمْ کَبُرَ مَقْتاً» «أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ یُجٰادِلُونَ فِی آیٰاتِ اللّٰهِ أَنّٰی یُصْرَفُونَ» .

فتکسر سوره استکبارهم و جدالهم بذکر ما عاقب اللّه به الماضین من الامم المکذبین و ما أعد اللّه لهم من العذاب المهین بذکر طرف مما یجری علیهم فی الآخره.

و تدحض باطل أقاویلهم بوجوه من الحجج الناطقه بتوحده فی الربوبیه و الالوهیه و تأمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالصبر و تعده و المؤمنین به بالنصر،و تأمرهم أن یؤذنهم أنه مسلم لربه غیر تارک لعبادته فلییأسوا منه.

و السوره مکیه کلها لاتصال آیاتها و شهاده مضامینها بذلک،و ما قیل فیه من الآیات أنه نزل بالمدینه لا یعبأ به و سیجیء الإشاره إلیها إن شاء اللّه.

قوله تعالی: حم تَنْزِیلُ الْکِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ التنزیل مصدر بمعنی المفعول فقوله: «تَنْزِیلُ الْکِتٰابِ» من قبیل إضافه الصفه الی موصوفها و التقدیر هذا کتاب منزل من اللّه.

و تخصیص الوصفین «الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ» بالذکر قیل:للإشاره الی ما فی القرآن من الإعجاز و أنواع العلوم التی یضیق عنها نطاق الأفهام،و قیل:هو من باب التفنن.

و الوجه أن یقال:إن السوره لما کانت تتکلم حول جحد الجاحدین و مجادلتهم فی آیات اللّه بالباطل جهلا و هم یحسبونه علما و یعتزون به کما حکی ذلک عنه فی خاتمه السوره بقوله: «فَلَمّٰا جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ فَرِحُوا بِمٰا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» و کما حکی عن فرعون قوله لقومه فی

موسی: «إِنِّی أَخافُ أَنْ یُبَدِّلَ دِینَکُمْ أَوْ أَنْ یُظْهِرَ فِی الْأَرْضِ الْفَسادَ» و قوله لهم: «ما أُرِیکُمْ إِلاّ ما أَری وَ ما أَهْدِیکُمْ إِلاّ سَبِیلَ الرَّشادِ» .

افتتح الکلام فی السوره بما فیه إشاره الی أن هذا الکتاب النازل علیهم تنزیل ممن هو عزیز علی الإطلاق لا یغلبه غالب حتی یخاف علی ما نزله من استعلائهم و استکبارهم بحسب أوهامهم،علیم علی الإطلاق لا یداخل علمه جهل و ضلال فلا یقاوم جدالهم بالباطل ما نزله من الحق و بینه بحججه الباهره.

و یؤید هذا الوجه ما فی الآیه التالیه من قوله: «غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ» الخ؛علی ما سنبین.

قوله تعالی: غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِیدِ الْعِقابِ ذِی الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ إِلَیْهِ الْمَصِیرُ الإتیان بصیغه اسم الفاعل فی «غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ» -لعله- للدلاله علی الاستمرار التجددی فإن المغفره و قبول التوب من صفاته الفعلیه و لا یزال تعالی یغفر الذنب ثم یغفر و یقبل التوب ثم یقبل.

و إنما عطف قابل التوب علی ما قبله دون «شَدِیدِ الْعِقابِ ذِی الطَّوْلِ» لأن غافر الذنب و قابل التوب مجموعهما کصفه واحده متعلقه بالعباد المذنبین یغفر لهم تاره بتوبه و تاره بغیرها کالشفاعه.

و العقاب و المعاقبه المؤاخذه التی تکون فی عاقبه الذنب قال الراغب:و العقب و العقبی یختصان بالثواب نحو خیر ثوابا و خیر عقبا،و قال تعالی:و أولئک لهم عقبی الدار،و العاقبه إطلاقها یختص بالثواب نحو و العاقبه للمتقین،و بالإضافه قد تستعمل فی العقوبه نحو ثم کان عاقبه الذین أساءوا،و قوله:فکان عاقبتهما أنهما فی النار یصح أن یکون ذلک استعاره من ضده،و العقوبه و المعاقبه و العقاب تختص بالعذاب.انتهی.

فشدید العقاب کذی انتقام من أسماء اللّه الحسنی تحکی صفته تعالی فی جانب العذاب کما

يحكى الغفور و الرحيم صفته تعالى فى جانب الرحمه.

و الطول-على ما فى المجمع-الإنعام الذى تطول مدته على صاحبه فذو الطول من أسمائه الحسنى فى معنى المنعم لكنه أخص من المنعم لعدم شموله النعم القصار.

و ذكر هذه الأسماء الأربعه:غافر الذنب و قابل التوب شديد العقاب ذى الطول بعد اسم العليم للإشاره الى أن تنزيل هذا الكتاب المشتمل على دعوته الحقه المبنى على العلم مبنى على أساس ما تقتضيه مضامين هذه الأسماء الأربعه.

و قوله: لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ذكر كلمه التوحيد للاشاره الى وجوب عبادته وحده فلا تلغو الدعوه الدينيه بتنزيل الكتاب،و ذكر كون مصير الكل و رجوعهم اليه و هو البعث للإشاره الى أنه هو السبب العمده الداعى الى الإيمان بالكتاب و اتباعه فيما يدعو اليه لأن الاعتقاد بيوم الحساب هو الذى يستتبع الخوف و الرجاء خوف العقاب و رجاء الثواب الداعيين الى عباده اللّه سبحانه.

قوله تعالى: مٰا يُجٰادِلُ فِي آيٰاتِ اللّٰهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلاٰ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاٰدِ لما ذكر تنزيل الكتاب و أشار الى الحجه الباهره على حقيّته،المستفاده من صفاته الكريمه المعدوده فى الآيتين،الداله على أنه منزّل بعلمه الذى لا يشوبه جهل و بالحق الذى لا يدحضه باطل تعرض لحال الذين قابلوا حججه الحقه بباطل جدالهم فلوّح الى إن هؤلاء أهل العقاب و ليسوا بفائتين و لا مغفولا عنهم فإنهم كما نزّل الكتاب ليغفر الذنب و يقبل التوب كذلك نزّله ليعاقب أهل العقاب فلا يسوأن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جدالهم و لا يغرنه ما يشاهده من حالهم.

فقوله: مٰا يُجٰادِلُ فِي آيٰاتِ اللّٰهِ لم يقل:ما يجادل فيه أى فى القرآن ليدل على أن الجدال فى الحق الذى تدل عليه الآيات بما هى آيات.على أن طرف جدالهم هو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو داع الى الحق الذى تدل الآيات فجدالهم لدفع الحق لا للدفاع عن الحق.على أن الجدال

فی الآیه التالیه مقیده بالباطل لإدحاض الحق.

فالمراد بالمجادله فی آیات اللّه هی المجادله لإدحاضها و دفعها و هی المذمومه و لا تشمل الجدال لإثبات الحق و الدفاع عنه کیف؟و هو سبحانه یأمر نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بذلک إذا کان جدالا بالتی هی أحسن قال تعالی: وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ (النحل/۱۲۵).

و قوله: إِلاَّ الَّذِینَ کَفَرُوا ظاهر السیاق أنهم الذین رسخ الکفر فی قلوبهم فلا یرجی زواله،و قد قیل «مٰا یُجٰادِلُ» و لم یقل:لا یجادل،و کذا ظاهر قوله: «فَلاٰ یَغْرُرْکَ تَقَلُّبُهُمْ فِی الْبِلاٰدِ» أن المراد بهم الکفار المعاصرون للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إن لم یکونوا من أهل مکه.

و تقلبهم فی البلاد انتقالهم من طور من أطوار الحیاه الی طور آخر و من نعمه الی نعمه فی سلامه و صحه و عافیه،و توجیه النهی عن الغرور الی تقلبهم فی البلاد کنایه عن نهی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الاغترار بما یشاهده منهم أن یحسب أنهم أعجزوه سبحانه.

قوله تعالی: کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزٰابُ مِنْ بَعْدِهِمْ الخ؛فی مقام الجواب عما یسبق الی الوهم أنهم استکبروا و جادلوا فی آیات اللّه فلم یکن بهم بأس و سبقوا فی ذلک.

و محصل الجواب:أن الامم الماضین کقوم نوح و الأحزاب من بعدهم کعاد و ثمود و قوم لوط و غیرهم سبقوا هؤلاء الی مثل صنیعهم من التکذیب و الجدال بالباطل و هموا برسولهم لیأخذوه فحلّ بهم العقاب و کذلک قضی فی حق الکفار العذاب فتوهم أن هؤلاء سبقوا اللّه الی ما یرید توهم باطل.

فقوله: «کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزٰابُ مِنْ بَعْدِهِمْ» دفع للدخل السابق و لذا جیء بالفصل،و قوله: «وَ هَمَّتْ کُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِیَأْخُذُوهُ» یقال:هم به أی قصده و یغلب فیه القصد بالسوء أی قصدوا رسولهم لیأخذوه بالقتل أو الإخراج أو غیرهما کما قصه اللّه تعالی فی قصصهم.

و قوله: وَ جٰادَلُوا بِالْبٰاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ الإدحاض الإزاله و الإبطال و قوله: «فَأَخَذْتُهُمْ» أى عذبتهم،و فيه التفات من الغيبه الى التكلم وحده و النكته فيه الإشاره الى أن أمرهم فى هذا الطغيان و الاستكبار الى اللّه وحده لا يدخل بينه و بينهم أحد بنصره أو شفاعه كما قال: فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذٰابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصٰادِ (الفجر/ ۱۴).

و قوله: فَكَيْفَ كٰانَ عِقٰابِ توجيه لذهن المخاطب الى ما يعلمه من كيفيه إهلاكهم و قطع دابرهم ليحضر شده ما نزل بهم و قد قصه اللّه فيما قص من قصصهم.

قوله تعالى: وَ كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحٰابُ النّٰارِ ظاهر السياق أن المشبه به هو ما فى الآيه السابقه من أخذهم و عقابهم،و المراد بالذين كفروا مطلق الكفار من الماضين،و المعنى كما أخذ اللّه المكذبين من الماضين بعذاب الدنيا كذلك حقت كلمته على مطلق الكافرين بعذاب الآخره،و الذين كفروا من قومك منهم.

و فى قوله: كَلِمَةُ رَبِّكَ و لم يقل:كلمتى تطييب لنفس النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تأييد له بالإشاره الى أن الركن الذى يركن اليه هو الشديد القوى.

[سوره غافر (۴۰): الآيات ۷ الى ۱۲]

اَلَّذِينَ يَحْمِلُونَ اَلْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنٰا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تٰابُوا وَ اِتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذٰابَ اَلْجَحِيمِ (۷) رَبَّنٰا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنّٰاتِ عَدْنٍ اَلَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبٰائِهِمْ وَ أَزْوٰاجِهِمْ وَ ذُرِّيّٰاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۸) وَ قِهِمُ اَلسَّيِّئٰاتِ وَ مَنْ تَقِ اَلسَّيِّئٰاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذٰلِكَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (۹) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا يُنٰادَوْنَ لَمَقْتُ اَللّٰهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى اَلْإِيمٰانِ فَتَكْفُرُونَ (۱۰) قٰالُوا رَبَّنٰا أَمَتَّنَا اِثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اِثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنٰا بِذُنُوبِنٰا فَهَلْ إِلىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (۱۱) ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذٰا دُعِيَ اَللّٰهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلّٰهِ اَلْعَلِيِّ اَلْكَبِيرِ (۱۲)

بیان:

قوله تعالی: اَلَّذِینَ یَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ یُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ یُؤْمِنُونَ بِهِ الی آخر الآیه.لم یعرّف سبحانه هؤلاء الحاملین للعرش من هم؟و لا فی کلامه تصریح بأنهم من الملائکه لکن یشعر عطف قوله: «وَ مَنْ حَوْلَهُ» علیهم و قد قال فیهم:

وَ تَرَی الْمَلاٰئِکَهَ حَافِّینَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ (الزمر/۷۵)أن حمله العرش أیضا من الملائکه.

و قد تقدم تفصیل الکلام فی معنی العرش فی الجزء الثامن من الکتاب.

فقوله: اَلَّذِینَ یَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ أی الملائکه الذین یحملون العرش الذی منه تظهر الأوامر و تصدر الأحکام الإلهیه التی بها یدبر العالم،و الذین حول العرش من الملائکه و هم المقربون منهم.

و قوله: یُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ای ینزهون اللّه سبحانه و الحال أن تنزیههم له

يصاحب ثناءهم لربهم فهم ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بساحه قدسه و من ذلک وجود الشريک فی ملکه و يثنون عليه على فعله و تدبيره.

و قوله: وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ إيمانهم به-و الحال هذه الحال عرش الملک و التدبير للّه و هم حاملوه أو مطيفون حوله لتلقى الأوامر و ينزهونه عن كل نقص و يحمدونه على أفعاله-معناه الإيمان بوحدانيته فی ربوبيته و ألوهيته ففی ذكر العرش و نسبه التنزيه و التحميد و الإيمان الى الملائكه رد للمشركين حيث يعدون الملائكه المقربين شركاء للّه فی ربوبيته و ألوهيته و يتخذونهم أربابا آلهه يعبدونهم.

و قوله: «وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» أی يسألون اللّه سبحانه أن يغفر للذين آمنوا.

و قوله: رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً الخ؛حكايه متن استغفارهم و قد بدءوا فيه بالثناء عليه تعالى بسعه الرحمه و العلم،و إنما ذكروا الرحمه و شفعوها بالعلم لأنه برحمته ينعم على كل محتاج فالرحمه مبدأ إفاضه كل نعمه،و بعلمه يعلم حاجه كل محتاج مستعد للرحمه.

و قوله: فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ تفريع على ما أثنوا به من سعه الرحمه و العلم،و المراد بالسبيل التی اتبعوها هو ما شرع لهم من الدين و هو الإسلام و اتباعهم له هو تطبيق عملهم عليه فالمراد بتوبتهم رجوعهم اليه تعالى بالإيمان و المعنى فاغفر للذين رجعوا اليک بالإيمان بوحدانيتک و سلوک سبيلک الذی هو الإسلام و قهم عذاب الجحيم و هو غايه المغفره و غرضها.

قوله تعالى: رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنّاتِ عَدْنٍ الَّتِی وَعَدْتَهُمْ الى آخر الآيه تكرار النداء بلفظه ربنا لمزيد الاستعطاف و المراد بالوعد وعده تعالى لهم بلسان رسله و فی كتبه.

و قوله: وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيّاتِهِمْ عطف على موضع الضمير فی قوله: «وَ أَدْخِلْهُمْ» و المراد بالصلوح صلاحيه دخول الجنه،و المعنى و أدخل من

صلح لدخول الجنه من آبائهم و أزواجهم و ذرياتهم جنات عدن.

ثم من المعلوم من سياق الآيات أن استغفارهم لعامه المؤمنين،و من المعلوم أيضا أنهم قسموهم قسمين اثنين قسموهم الى الذين تابوا و اتبعوا سبيل اللّه و قد وعدهم اللّه جنات عدن،و الى من صلح و قد جعلوا الطائفه الاولى متبوعين و الثانيه تابعين.

و يظهر منه أن الطائفه الاولى هم الكاملون فى الإيمان و العمل على ما هو مقتضى حقيقه معنى قولهم: «لِلَّذِينَ تٰابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ» فذكروهم و سألوه أن يغفر لهم و ينجز لهم ما وعدهم من جنات عدن،و الطائفه الثانيه هؤلاء فى المنزله ممن لم يستكمل الإيمان و العمل من ناقص الإيمان و مستضعف و سيئ العمل من منسوبى الطائفه الاولى فذكروهم و سألوه تعالى أن يلحقهم بالطائفه الاولى الكاملين فى جناتهم و يقيهم السيئات.

فالآيه فى معنى قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمٰانٍ أَلْحَقْنٰا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مٰا أَلَتْنٰاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ (الطور۲۱/)غير أن الآيه التى نحن فيها أوسع و أشمل لشمولها الآباء و الأزواج بخلاف آيه سوره الطور،و المأخوذ فيها الصلوح و هو أعم من الإيمان المأخوذ فى آيه الطور.

و قوله: إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ تعليل لقولهم: «فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تٰابُوا» الى آخر مسألتهم،و كان الذى يقتضيه الظاهر أن يقال:إنك أنت الغفور الرحيم لكنه عدل الى ذكر الوصفين:العزيز الحكيم لأنه وقع فى مفتتح مسألتهم الثناء عليه تعالى بقولهم: «رَبَّنٰا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً» .و لازم سعه الرحمه و هى عموم الإعطاء أن له أن يعطى ما يشاء لمن يشاء و يمنع ما يشاء ممن يشاء و هذا معنى العزه التى هى القدره على الإعطاء و المنع،و لازم سعه العلم لكل شىء أن ينفذ العلم فى جميع أقطار الفعل فلا يداخل الجهل شيئا منها و لازمه إتقان الفعل و هو الحكمه.

فقوله: «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فى معنى الاستشفاع بسعه رحمته وسعه علمه تعالى

المذکورتین فی مفتتح المسأله تمهیدا و توطئه لذکر الحاجه و هی المغفره و الجنه.

قوله تعالی: وَ قِهِمُ السَّیِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّیِّئاتِ یَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ الخ؛ ظاهر السیاق أن الضمیر فی «قِهِمُ» للذین تابوا و من صلح جمیعا.

و المراد بالسیئات-علی ما قیل-تبعات المعاصی و هی جزاؤها و سمیت التبعات سیئات لأن جزاء السیئ سیئ قال تعالی: وَ جَزاءُ سَیِّئَهٍ سَیِّئَهٌ مِثْلُها (الشوری۴۰/).

و قیل:المراد بالسیئات المعاصی و الذنوب نفسها و الکلام علی تقدیر مضاف و التقدیر و قهم جزاء السّیئات أو عذاب السّیئات.

و الظاهر أن الآیه من الآیات الداله علی أن الجزاء بنفس الأعمال خیرها و شرها،و قد تکرر فی کلامه تعالی أمثال قوله: إِنَّما تُجْزَوْنَ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التحریم۷/).

و کیف کان فالمراد بالسیئات التی سألوا وقایتهم عنها هی الأهوال و الشدائد التی تواجههم یوم القیامه غیر عذاب الجحیم فلا تکرار فی قولیهم «وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِیمِ» «وَ قِهِمُ السَّیِّئاتِ» .

و قیل:المراد بالسیئات نفس المعاصی التی فی الدنیا،و قولهم: «یَوْمَئِذٍ» إشاره الی الدنیا، و المعنی و احفظهم من اقتراف المعاصی و ارتکابها فی الدنیا بتوفیقک.

و فیه أن السیاق یؤید کون المراد بیومئذ یوم القیامه کما یشهد به قولهم: «وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِیمِ» و قولهم: «وَ أَدْخِلْهُمْ جَنّاتِ عَدْنٍ» الخ؛فالحق أن المراد بالسیئات ما یظهر للناس یوم القیامه من الأهوال و الشدائد.

و یظهر من هذه الآیات المشتمله علی دعاء الملائکه و مسألتهم:

أولا:أن من الأدب فی الدعاء أن یبدأ بحمده و الثناء علیه تعالی ثم یذکر الحاجه ثم یستشفع بأسمائه الحسنی المناسبه له.

و ثانیا:أن سؤال المغفره قبل سؤال الجنه و قد کثر ذکر المغفره قبل الجنه فی کلامه تعالی إذا

ذکرا معا،و هو الموافق للاعتبار فإن حصول استعداد أی نعمه کانت بزوال المانع قبل حصول نفس النعمه.

و ذکر بعضهم أن فی قوله: «فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا» الآیه دلاله علی أن إسقاط العقاب عند التوبه تفضل من اللّه تعالی إذ لو کان واجبا لکان لا یحتاج فیه الی مسألتهم بل کان یفعله اللّه سبحانه لا محاله.

و فیه أن وجوب صدور الفعل عنه تعالی لا ینافی صحه مسألته و طلبه منه تعالی کما یشهد به قولهم بعد الاستغفار: «رَبَّنَا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ» فقد سألوا لهم الجنه مع اعترافهم بأن اللّه وعدهم إیاها و وعده تعالی واجب الإنجاز فإنه لا یخلف المیعاد،و أصرح من هذه الآیه قوله یحکی عن المؤمنین: رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَ لاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (آل عمران۱۹۴/).

و قبول التوبه مما أوجبه اللّه تعالی علی نفسه و جعله حقا للتائبین علیه قال تعالی: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ (النساء۱۷/)فطلب کل حق أوجبه اللّه تعالی علی نفسه منه کسؤال المغفره للتائب هو فی الحقیقه رجوع الیه لاستنجاز ما وعده و إظهار اشتیاق للفوز بکرامته.

و کذا لا یستلزم التفضل منه تعالی کون الفعل جائز الصدور غیر واجبه فکل عطیه من عطایاه تفضل سواء کانت واجبه الصدور أم لم تکن إذ لو کان فعل من أفعاله واجب الصدور عنه لم یکن إیجابه علیه بتأثیر من غیره فیه و قهره علیه إذ هو المؤثّر فی کل شیء لا یؤثر فیه غیره بل کان ذلک بإیجاب منه تعالی علی نفسه و یئول معناه الی قضائه تعالی فعل شیء من الأفعال و إفاضه عطیه من العطایا قضاء حتم فیکون سبحانه إنما یفعله بمشیّه من نفسه منزها عن إلزام الغیر إیاه علیه متفضلا به فالفعل تفضل منه و إن کان واجب الصدور،و أما لو لم یکن الفعل واجب الصدور فکونه تفضلا أوضح.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكَمْ أَنْفُسَكَمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ المقت أشد البغض.لما ذكر المؤمنين ببعض ما لهم من جهه إيمانهم رجع الى ذكر الكافرين ببعض ما عليهم من جهه كفرهم.

و ظاهر الآيه و الآيه التاليه أن هذا النداء المذكور فيها إنما ينادون به فى الآخره بعد دخول النار حين يذوقون العذاب لكفرهم فيظهر لهم أن كفرهم فى الدنيا إذ كانوا يدعون من قبل الأنبياء الى الإيمان كان مقتا و شده بغض منهم لأنفسهم حيث أوردوها بذلك مورد الهلاك الدائم.

و ينادون من جانب اللّه سبحانه فيقال لهم:أقسم لمقت اللّه و شده بغضه لكم أكبر من مقتكم أنفسكم و شده بغضكم لها إذ تدعون-حكايه حال ماضيه-الى الإيمان من قبل الأنبياء فتكفرون.

قوله تعالى: قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ سياق الآيه و ما قبلها يشعر بأنهم يقولون هذا القول بعد استماع النداء السابق،و إنما يقولونه و هم فى النار بدليل قولهم: «فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ» .

و تقديم هذا الاعتراف منهم نوع تسبيب و توسل الى التخلص من العذاب و لات حين مناص؛و ذلك أنهم كانوا-و هم فى الدنيا-فى ريب من البعث و الرجوع الى اللّه فأنكروه و نسوا يوم الحساب و كان نسيان ذلك سبب استرسالهم فى الذنوب و ذهابهم لوجوههم فى المعاصى و نسيان يوم الحساب مفتاح كل معصيه و ضلال قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص۲۶/).

ثم لما أماتهم اللّه إماته بعد إماته و أحياهم إحياءه بعد إحياءه زال ارتيابهم فى أمر البعث و الرجوع الى اللّه بما عاينوا من البقاء بعد الموت و الحياه بعد الحياه و قد كانوا يرون أن الموت فناء،و يقولون إن هى إلا حياتنا الدنيا و ما نحن بمبعوثين.

و بالجمله زال عنهم الارتیاب بحصول الیقین و بقیت الـذنوب و المعاصـی و لـذلک توسـلوا الی التخلص من العـذاب بالاعتراف فتاره اعترفوا بحصول الیقین کما حکاه اللّه عنهم فی قوله:

وَ لَوْ تَری إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناکِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنّا مُوقِنُونَ (الم السجده۱۲/)،و تاره اعترفوا بذنوبهم کما فی الآیه المبحوث عنها و قد کانوا یرون أنهم أحرار مستقلون فی إرادتهم و أفعالهم لهم أن یشاءوا ما شاءوا و أن یفعلوا ما فعلوا و لا حساب و لا ذنب.

و من ذلـک یظهر وجه ترتب قولهم: «فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا» علی قولهم: «أَمَتَّنَا اثْنَتَیْنِ وَ أَحْیَیْتَنَا اثْنَتَیْنِ» فالاعتراف فی الحقیقه مترتب علی حصول الیقین بالمعاد الموجب لحصول العلم بکون انحرافاتهم عن سبیل اللّه ضلالات و ذنوبا.

و المراد بقولهم: «أَمَتَّنَا اثْنَتَیْنِ وَ أَحْیَیْتَنَا اثْنَتَیْنِ» -کما قیل-الإماته عن الحیاه الـدنیا و الإحیاء للبرزخ ثم الإماته عن البرزخ و الإحیاء للحساب یوم القیامه فالآیه تشـیر الی الإماته بعـد الحیاه الدنیا و الإماته بعد الحیاه البرزخیه و الی الإحیاء فی البرزخ و الإحیاء لیوم القیامه و لو لا الحیاه البرزخیه لم تتحقق الإماته الثانیه لأن کلا من الإماته و الإحیاء یتوقف تحققه علی سبق خلافه.

و لم یتعرضوا للحیاه الـدنیا و لم یقولوا:و أحییتنا ثلاثا و إن کانت إحیاء لکونها واقعه بعد الموت الذی هو حال عدم ولوج الروح لأن مرادهم ذکر الإحیـاء الـذی هو سـبب الإیقـان بالمعاد و هو الإحیاء فی البرزخ ثم فی القیامه و أما الحیاه الـدنیویه فإنها و إن کانت إحیاء لکنها لا توجب بنفسها یقینا بالمعاد فقد کانوا مرتابین فی المعاد و هم أحیاء فی الدنیا.

و قولهم: فَهَلْ إِلی خُرُوجٍ مِنْ سَبِیلٍ دعاء و مسأله فی صوره الاسـتفهام،و فی تنکیر الخروج و السبیل إشاره الی رضاهم بأی نوع من الخروج کان من أی سبیل کانت فقد بلغ بهم الجهد و الیوم یوم تقطعت بهم الأسباب فلا سـبب یرجی أثره فی تخلصهم من العذاب.

قوله تعالى: ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذٰا دُعِيَ اللّٰهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا الخ؛خطاب تشديد للكفار موطنه يوم القيامه،و يحتمل أن يكون موطنه الدنيا خوطبوا بداعى زجرهم عن الشرك.

و الإشاره بقوله: «ذٰلِكُمْ» الى ما هم فيه من الشده،و فى قوله: «وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ» دلاله على الاستمرار،و الكلام مسوق لبيان معاندتهم للحق و معاداتهم لتوحيده تعالى فهم يكفرون بكل ما يلوح فيه أثر التوحيد و يؤمنون بكل ما فيه سمه الشرك فهم لا يراعون للّه حقا و لا يحترمون له جانبا فاللّه سبحانه يحرم عليهم رحمته و لا يراعى فى حكمه لهم جانبا.

و بهذا المعنى يتصل قوله: «فَالْحُكْمُ لِلّٰهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ» بأول الآيه و يتفرع عليه كأنه قيل:

فإذا قطعتم عن اللّه بالمره و كفرتم بكل ما يريده و آمنتم بكل ما يكرهه فهو يقطع عنكم و يحكم فيكم بما يحكم من غير أى رعايه لحالكم.

فالآيه فى معنى قوله: نَسُوا اللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ (التوبه/۶۷)،و الجمله أعنى قوله: «فَالْحُكْمُ لِلّٰهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ» خاصه بحسب السياق و إن كانت عامه فى نفسها،و فيها تهديد و يتأكد التهديد باختتامها بالاسمين العلى الكبير.

[سوره غافر (۴۰): الآيات ۱۳ الى ۲۰]

هُوَ اَلَّذِي يُرِيكُمْ آيٰاتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ رِزْقاً وَ مٰا يَتَذَكَّرُ إِلاّٰ مَنْ يُنِيبُ (۱۳) فَادْعُوا اَللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ اَلدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ اَلْكٰافِرُونَ (۱۴) رَفِيعُ اَلدَّرَجٰاتِ ذُو اَلْعَرْشِ يُلْقِي اَلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ اَلتَّلاٰقِ (۱۵) يَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اَللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ اَلْمُلْكُ اَلْيَوْمَ لِلّٰهِ اَلْوٰاحِدِ اَلْقَهّٰارِ (۱۶) اَلْيَوْمَ تُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ لاٰ ظُلْمَ اَلْيَوْمَ إِنَّ اَللّٰهَ سَرِيعُ اَلْحِسٰابِ (۱۷) وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ اَلْآزِفَةِ إِذِ اَلْقُلُوبُ لَدَى اَلْحَنٰاجِرِ كٰاظِمِينَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لاٰ شَفِيعٍ يُطٰاعُ (۱۸) يَعْلَمُ خٰائِنَةَ اَلْأَعْيُنِ وَ مٰا تُخْفِي اَلصُّدُورُ (۱۹) وَ اَللّٰهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ اَلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْبَصِيرُ (۲۰)

بیان:

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی یُرِیکُمْ آیٰاتِهِ الی آخر الآیه المراد بالآیات هی العلائم و الحجج الداله علی وحدانیته تعالی فی الربوبیه و الالوهیه بدلیل ما سیجیء من تفریع قوله:

«فَادْعُوا اللّٰهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ» علیه،و الآیات مطلقه شامله للآیات الکونیه المشهوده فی العالم لکل إنسان صحیح الإدراک و الآیات التی تجری علی أیدی الرسل و الحجج القائمه من طریق الوحی.

و الجمله مشتمله علی حجه فإنه لو کان هناک إله تجب عبادته علی الإنسان و کانت عبادته کمالا للإنسان و سعاده له کان من الواجب فی تمام التدبیر و کامل العنایه أن یهدی الإنسان الیه، و الذی تدل الآیات الکونیه علی ربوبیته و ألوهیته و یؤید دلالتها الرسل و الأنبیاء بالدعوه و الإتیان بالآیات هو اللّه سبحانه،و أما آلهتهم الذین یدعونهم من دون اللّه فلا آیه من قبلهم تدل علی شیء فاللّه سبحانه هو الإله وحده لا شریک له،و الی هذه الحجه یشیر علیّ علیه السّلام بقوله

ص :۴۴۸

فیما روی عنه:«لو کان لربک شریک لأتتک رسله».

و قوله: وَ یُنَزِّلُ لَکُمْ مِنَ السَّمٰاءِ رِزْقاً حجه أخری علی وحدانیته تعالی من جهه الرزق فإن رزق العباد من شئون الربوبیه و الالوهیه و الرزق من اللّه دون شرکائهم فهو الرب الإله دونهم.

و قد فسروا الرزق بالمطر،و السماء بجهه العلو،و لا یبعد أن یراد بالرزق نفس الأشیاء التی یرتزق بها و بنزولها من السماء بروزها من الغیب الی الشهاده علی ما یفیده قوله: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/۲۱).

و قوله: وَ مٰا یَتَذَکَّرُ إِلاّٰ مَنْ یُنِیبُ معترضه تبین أن حصول التذکر بهذه الحجج إنما هو شأن إحدی الطائفتین المذکورتین من قبل و هم المنیبون الراجعون الی ربهم دون المجادلین الکافرین فإن الکفر و الجحود یبطل استعداد التذکر بالحجه و الاتباع للحق.

قوله تعالی: فَادْعُوا اللّٰهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ وَ لَوْ کَرِهَ الْکٰافِرُونَ الأنسب للسیاق أن یکون الخطاب عامّا للمؤمنین و غیرهم متفرعا علی الحجه السابقه غیر أنه لا یشمل الکافرین المذکورین فی آخر الآیه و هم المکذبون المجادلون بالباطل.

کأنه قیل:إذا کانت الآیات تدل علی وحدانیته تعالی و هو الرزاق فعلی غیر الکافرین الذین کذبوا و جادلوا أن یدعوا اللّه مخلصین له الدین،و أما الکافرون الکارهون للتوحید فلا مطمع فیهم و لا آیه تفیدهم و لا حجه تقنعهم فاعبدوه بالإخلاص و دعوا الکافرین یکرهون ذلک.

قوله تعالی: رَفِیعُ الدَّرَجٰاتِ ذُو الْعَرْشِ یُلْقِی الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلیٰ مَنْ یَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ الخ؛صفات ثلاث له تعالی و کل منها خبر بعد خبر للضمیر فی قوله:

«هُوَ الَّذِی یُرِیکُمْ آیٰاتِهِ» و الآیه و ما بعدها مسوقه للإنذار.

و قد أورد لقوله: «رَفِیعُ الدَّرَجٰاتِ» تفاسیر شتی فقیل:معناه رافع درجات الأنبیاء

و الأولياء فی الجنه،و قيل:رافع السماوات السبع التی منها تصعد الملائكه الی عرشه،و قيل:

رفيع مصاعد عرشه،و قيل:كنايه عن رفعه شأنه و سلطانه.

و الذی يعطيه التدبر أن الآيه و ما بعدها يصفان ملكه تعالی علی خلقه أن له عرشا تجتمع فيه أزمه أمور الخلق و يتنزل منه الأمر متعاليا بدرجات رفيعه هی مراتب خلقه و لعلها السماوات التی وصفها فی كلامه بأنها مساكن ملائكته و أن أمره يتنزل بينهن و هی التی تحجب عرشه عن الناس.

ثم إن له يوما هو يوم التلاقی يرفع فيه الحجاب ما بينه و بين الناس بكشف الغطاء عن بصائرهم و طی السماوات بيمينه و إظهار عرشه لهم فينكشف لهم أنه هو المليك علی كل شیء لا ملك إلا ملكه فيحكم بينهم.

فالمراد بالدرجات الدرجات التی يرتقی منها الی عرشه و يعود قوله: «رَفِيعُ الدَّرَجٰاتِ ذُو الْعَرْشِ كنايه استعاريه عن تعالی عرش ملكه عن مستوی الخلق و غيبته و احتجابه عنهم قبل يوم القيامه بدرجات رفيعه و مراحل بعيده.

و قوله: يُلْقِی الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلیٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ إشاره الی أمر الرساله التی من شأنها الإنذار،و تقييد الروح بقوله: «مِنْ أَمْرِهِ» دليل علی أن المراد بها الروح التی ذكرها فی قوله: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی (الإسراء/۸۵)،و هی التی تصاحب ملائكه الوحی كما يشير اليه قوله: يُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَهَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلیٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا (النحل/۲).

فالمراد بالقاء الروح علی من يشاء تنزيلها مع ملائكه الوحی عليه،و المراد بقوله: «مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ» الرسل الذين اصطفاهم اللّه لرسالته،و فی معنی الروح الملقاه علی النبی أقوال أخر لا يعبأ بها.

و قوله: لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاٰقِ و هو يوم القيامه سمی به لالتقاء الخلائق فيه أو لالتقاء

الخالق و المخلوق أو لالتقاء أهل السماء و الأرض أو لالتقاء الظالم و المظلوم أو لالتقاء المرء و عمله و لكل من هذه الوجوه قائل.

و يمكن أن يتأيد القول الثانى بما تكرر فى كلامه تعالى من حديث اللقاء كقوله: بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (الروم۸/)،و قوله: إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ (هود۲۹/)،و قوله: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (الانشقاق۶/)و معنى اللقاء تقطع الأسباب الشاغله و ظهور أن اللّه هو الحق المبين و بروزهم للّه.

قوله تعالى: يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ الخ؛تفسير ليوم التلاق،و معنى بروزهم للّه ظهور ذلك لهم و ارتفاع الأسباب الوهميه التى كانت تجذبهم الى نفسها و تحجبهم عن ربهم و تغفلهم عن إحاطه ملكه و تفرده فى الحكم و توحده فى الربوبيه و الالوهيه.

فقوله: يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ إشاره الى ارتفاع كل سبب حاجب،و قوله: «لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ» تفسير لمعنى بروزهم للّه و توضيح فقلوبهم و أعمالهم بعين اللّه و ظاهرهم و باطنهم و ما ذكروه و ما نسوه مكشوفه غير مستوره.

و قوله: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّٰهِ الْواحِدِ الْقَهّٰارِ سؤال و جواب من ناحيته سبحانه تبين بهما حقيقه اليوم و هى ظهور ملكه و سلطانه تعالى على الخلق على الإطلاق.

و فى توصيفه تعالى بالواحد القهار تعليل لانحصار الملك فيه لأنه إذ قهر كل شيء ملكه و تسلط عليه بسلب الاستقلال عنه و هو واحد فله الملك وحده.

قوله تعالى: اَلْيَوْمَ تُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ لاٰ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسٰابِ الباء فى «بِمٰا كَسَبَتْ» للصله و المراد بيان خصيصه اليوم و هى أن كل نفس تجزى عين ما كسبت فجزاؤها عملها،قال تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التحريم۷/).

و قوله: إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسٰابِ تعليل لنفى الظلم فى قوله: «لاٰ ظُلْمَ الْيَوْمَ» أى إنه تعالى سريع فى المحاسبه لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى حتى يخطئ فيجزى نفسا غير جزائها فيظلمها.

و هذا التعليل ناظر الى نفى الظلم الناشىء عن الخطاء و أما الظلم عن عمد و علم فانتفاؤه مفروغ عنه لأن الجزاء لما كان بنفس العمل لم يتصور معه ظلم.

قوله تعالى: وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَهِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنٰاجِرِ كٰاظِمِينَ الى آخر الآيه.الآزفه من أوصاف القيامه و معناها القريبه الدانيه قال تعالى: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ نَرٰاهُ قَرِيباً (المعارج/٧).

و قوله: إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنٰاجِرِ كٰاظِمِينَ الحناجر جمع حنجره و هى رأس الغلصمه من خارج و كون القلوب لدى الحناجر كنايه عن غايه الخوف كأنها تزول عن مقرها و تبلغ الحناجر من شده الخوف،و كاظمين من الكظم و هو شده الاغتمام.

و قوله: مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لاٰ شَفِيعٍ يُطٰاعُ الحميم القريب أى ليس لهم قريب يقوم بنصرهم بحميه القرابه قال تعالى: فَلاٰ أَنْسٰابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ (المؤمنون/ ١٠١)،و لا شفيع يطاع فى شفاعته.

قوله تعالى: يَعْلَمُ خٰائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ مٰا تُخْفِي الصُّدُورُ قيل:الخائنه مصدر كالخيانه نظيره الكاذبه و اللاغيه بمعنى الكذب و اللغو،و ليس المراد بخائنه الأعين كل معصيه من معاصيها بل المعاصى التى لا تظهر للغير كسارقه النظر بدليل ذكرها مع ما تخفى الصدور.

و قيل «خٰائِنَةَ الْأَعْيُنِ» من قبيل إضافه الصفه الى الموصوف،و لازمه كون العلم بمعنى المعرفه و المعنى يعرف الأعين الخائنه،و الوجه هو الأول.

و قوله: «وَ مٰا تُخْفِي الصُّدُورُ» و هو ما تسره النفس و تستره من وجوه الكفر و النفاق

و هيئات المعاصى.

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ الخ؛هذه حجه أخرى على توحده تعالى بالالوهيه أقامها بعد ما ذكر حديث انحصار الملك فيه يوم القيامه و علمه بخائنه الأعين و ما تخفى الصدور تمهيدا و توطئه.

و محصلها أن من اللازم الضرورى فى الالوهيه أن يقضى الإله فى عباده و بينهم و اللّه سبحانه هو يقضى بين الخلق و فيهم يوم القيامه و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء لأنهم عباد مملوكون لا يملكون شيئا.

و من قضائه تعالى تدبيره جزئيات أمور عباده بالخلق بعد الخلق فإنه مصداق القضاء و الحكم قال تعالى: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس/۸۲)،و قال:

إِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران/۴۷)،و لا نصيب لغيره تعالى فى الخلق فلا نصيب له فى القضاء.

و من قضائه تعالى تشريع الدين و ارتضاؤه سبيلا لنفسه قال تعالى: وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِيّٰاهُ الآيه(الإسراء/۲۳).

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أى له حقيقه العلم بالمسموعات و المبصرات لذاته،و ليس لغيره من ذلك إلا ما ملكه اللّه و أذن فيه لا لذاته (۱).

[سوره غافر (۴۰): الآيات ۲۱ الى ۵۴]

أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي اَلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلَّذِينَ كٰانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كٰانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثٰاراً فِي اَلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اَللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ وٰاقٍ (۲۱) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كٰانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اَللّٰهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ (۲۲) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ بِآيٰاتِنٰا وَ سُلْطٰانٍ مُبِينٍ (۲۳) إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ قٰارُونَ فَقٰالُوا سٰاحِرٌ كَذّٰابٌ (۲۴) فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوا اُقْتُلُوا أَبْنٰاءَ اَلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اِسْتَحْيُوا نِسٰاءَهُمْ وَ مٰا كَيْدُ اَلْكٰافِرِينَ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ (۲۵) وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسىٰ وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخٰافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي اَلْأَرْضِ اَلْفَسٰادَ (۲۶) وَ قٰالَ مُوسىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاٰ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ اَلْحِسٰابِ (۲۷) وَ قٰالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمٰانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اَللّٰهُ وَ قَدْ جٰاءَكُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كٰاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صٰادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ اَلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّٰابٌ (۲۸) يٰا قَوْمِ لَكُمُ اَلْمُلْكُ اَلْيَوْمَ ظٰاهِرِينَ فِي اَلْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنٰا مِنْ بَأْسِ اَللّٰهِ إِنْ جٰاءَنٰا قٰالَ فِرْعَوْنُ مٰا أُرِيكُمْ إِلاّٰ مٰا أَرىٰ وَ مٰا أَهْدِيكُمْ إِلاّٰ سَبِيلَ اَلرَّشٰادِ (۲۹) وَ قٰالَ اَلَّذِي آمَنَ يٰا قَوْمِ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ اَلْأَحْزٰابِ (۳۰) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عٰادٍ وَ ثَمُودَ وَ اَلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اَللّٰهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبٰادِ (۳۱) وَ يٰا قَوْمِ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ اَلتَّنٰادِ (۳۲) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مٰا لَكُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ (۳۳) وَ لَقَدْ جٰاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمّٰا جٰاءَكُمْ بِهِ حَتّٰى إِذٰا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اَللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذٰلِكَ يُضِلُّ اَللّٰهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتٰابٌ (۳۴) اَلَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِي آيٰاتِ اَللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اَللّٰهِ وَ عِنْدَ اَلَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّٰارٍ (۳۵) وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ يٰا هٰامٰانُ اِبْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ اَلْأَسْبٰابَ (۳۶) أَسْبٰابَ اَلسَّمٰاوٰاتِ فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كٰاذِباً وَ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ اَلسَّبِيلِ وَ مٰا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاّٰ فِي تَبٰابٍ (۳۷) وَ قٰالَ اَلَّذِي آمَنَ يٰا قَوْمِ اِتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ اَلرَّشٰادِ (۳۸) يٰا قَوْمِ إِنَّمَا

هٰذِهِ اَلْحَيٰاةُ اَلدُّنْيٰا مَتٰاعٌ وَ إِنَّ اَلْآخِرَةَ هِيَ دٰارُ اَلْقَرٰارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاٰ يُجْزىٰ إِلاّٰ مِثْلَهٰا وَ مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ اَلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهٰا بِغَيْرِ حِسٰابٍ (٤٠) وَ يٰا قَوْمِ مٰا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى اَلنَّجٰاةِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى اَلنّٰارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ مٰا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى اَلْعَزِيزِ اَلْغَفّٰارِ (٤٢) لاٰ جَرَمَ أَنَّمٰا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي اَلدُّنْيٰا وَ لاٰ فِي اَلْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنٰا إِلَى اَللّٰهِ وَ أَنَّ اَلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مٰا أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ (٤٤) فَوَقٰاهُ اَللّٰهُ سَيِّئٰاتِ مٰا مَكَرُوا وَ حٰاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ اَلْعَذٰابِ (٤٥) اَلنّٰارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهٰا غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ اَلسّٰاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ اَلْعَذٰابِ (٤٦) وَ إِذْ يَتَحٰاجُّونَ فِي اَلنّٰارِ فَيَقُولُ اَلضُّعَفٰاءُ لِلَّذِينَ اِسْتَكْبَرُوا إِنّٰا كُنّٰا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنّٰا نَصِيباً مِنَ اَلنّٰارِ (٤٧) قٰالَ اَلَّذِينَ اِسْتَكْبَرُوا إِنّٰا كُلٌّ فِيهٰا إِنَّ اَللّٰهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ اَلْعِبٰادِ (٤٨) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ فِي اَلنّٰارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ اُدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنّٰا يَوْماً مِنَ اَلْعَذٰابِ (٤٩) قٰالُوا أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ قٰالُوا بَلىٰ قٰالُوا فَادْعُوا وَ مٰا دُعٰاءُ اَلْكٰافِرِينَ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ (٥٠) إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا فِي اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ يَوْمَ يَقُومُ اَلْأَشْهٰادُ (٥١) يَوْمَ لاٰ يَنْفَعُ اَلظّٰالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اَللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ اَلدّٰارِ (٥٢) وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى اَلْهُدىٰ وَ أَوْرَثْنٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ اَلْكِتٰابَ (٥٣) هُدىً وَ ذِكْرىٰ لِأُولِي اَلْأَلْبٰابِ (٥٤)

۱- ۱) .المؤمن ۱۳-۲۰:بحث روائی فی:روح القدس؛یوم القیامه؛قوله تعالی: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» .

بیان:

قوله تعالی: أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا الی آخر الآیه الاستفهام إنکاری،و الواقی اسم فاعل من الوقایه بمعنی حفظ الشیء مما یؤذیه و یضره.

و المعنی:أ و لم یسیروا هؤلاء الذین أرسلناک الیهم «فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا» نظر تفکر و اعتبار «کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ الَّذِینَ کٰانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ» من الامم الدارجه المکذبین لرسلهم «کٰانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّهً» أی قدره و تمکنا و سلطه «وَ آثٰاراً» کالمدائن الحصینه و القلاع المنیعه و القصور العالیه المشیده «فِی الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ» و أهلکهم بأعمالهم «وَ مٰا کٰانَ لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وٰاقٍ» یقیهم و حافظ یحفظهم.

قوله تعالی: ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ کٰانَتْ تَأْتِیهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ الخ؛الإشاره بذلک الی الأخذ الإلهی،و المراد بالبینات الآیات الواضحات،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسیٰ بِآیٰاتِنٰا وَ سُلْطٰانٍ مُبِینٍ لعل المراد بالآیات الخوارق المعجزه التی أرسل بها کالعصا و الید و غیرهما و بالسلطان المبین السلطه الإلهیه

القاهره التی أید بها فمنعت فرعون أن یقتله و یطفئ نوره،و قیل:المراد بالآیات الحجج و الدلالات و بالسلطان معجزاته من العصا و الید و غیرهما،و قیل:غیر ذلک.

قوله تعالی: إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ قٰارُونَ فَقٰالُوا سٰاحِرٌ کَذّٰابٌ فرعون جبار القبط و ملیکهم،و هامان وزیره و قارون من طغاه بنی إسرائیل ذو الخزائن الملیئه؟و إنما اختص الثلاثه من بین الامتین بالذکر لکونهم اصولا ینتهی الیهم کل فساد و فتنه فیهما.

قوله تعالی: فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوا اقْتُلُوا أَبْنٰاءَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ الخ؛مقایسه بین ما جاءهم به موسی و دعاهم الیه و بین ما قابلوه به من کیدهم فقد جاءهم بالحق و کان من الواجب أن یقبلوه لأنه حق و کان ما جاء به من عند اللّه و کان من الواجب أن یقبلوه و لا یردوه فقابلوه بالکید و قالوا ما قالوا لئلا یؤمن به أحد لکن اللّه أضل کیدهم فلم یصب المؤمنین معه.

و یشعر السیاق أن من القائلین بهذا القول قارون و هو من بنی إسرائیل و لا ضیر فیه لأن الحکم بقتل الأبناء و استحیاء النساء کان قبل الدعوه صادرا فی حق بنی إسرائیل عامه و هذا الحکم فی حق المؤمنین منهم خاصه فلعل قارون وافقهم علیه لعداوته و بغضه موسی و المؤمنین من قومه.

و فی قوله: اَلَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ و لم یقل:آمنوا به إشاره الی مظاهرتهم موسی فی دعوته.

قوله تعالی: وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِی أَقْتُلْ مُوسیٰ وَ لْیَدْعُ رَبَّهُ الخ؛ «ذَرُونِی» أی اترکونی،خطاب یخاطب به ملأه،و فیه دلاله علی أنه کان هناک قوم یشیرون علیه أن لا یقتل موسی و یکف عنه کما یشیر الیه قوله تعالی: قٰالُوا أَرْجِهْ وَ أَخٰاهُ (الشعراء۳۶/).

و قوله: «وَ لْیَدْعُ رَبَّهُ» کلمه قالها کبرا و عتوا یقول:اترکونی أقتله و لیدع ربه فلینجه من یدی و لیخلصه من القتل إن قدر.

ص :۴۵۸

و قوله: إِنِّی أَخٰافُ أَنْ یُبَدِّلَ دِینَکُمْ أَوْ أَنْ یُظْهِرَ فِی الْأَرْضِ الْفَسٰادَ تعلیل لما عزم علیه من القتل و قد ذکر أنه یخافه علیهم من جهه دینهم و من جهه دنیاهم،أما من جهه دینهم-و هو عباده الأصنام-فإن یبدله و یضع موضعه عباده اللّه وحده،و أما من جهه دنیاهم فکأن یعظم أمره و یتقوی جانبه و یکثر متبعوه فیتظاهروا بالتمرد و المخالفه فیئول الأمر الی المشاجره و القتال و انسلاب الأمن.

قوله تعالی: وَ قٰالَ مُوسیٰ إِنِّی عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّکُمْ مِنْ کُلِّ مُتَکَبِّرٍ لاٰ یُؤْمِنُ بِیَوْمِ الْحِسٰابِ مقابله منه علیه السّلام لتهدید فرعون إیاه بالقتل و استعاذه منه بربه،و قوله:

«عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّکُمْ» فیه مقابله منه أیضا لفرعون فی قوله: «وَ لْیَدْعُ رَبَّهُ» حیث خص ربوبیته تعالی بموسی فأشار موسی بقوله: «عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّکُمْ» الی أنه تعالی ربهم کما هو ربه نافذ حکمه فیهم کما هو نافذ فیه فله أن یقی عائذه من شرهم و قد وقی.

و من هنا یظهر أن الخطاب فی قوله: «وَ رَبِّکُمْ» لفرعون و من معه دون قومه من بنی إسرائیل.

و قوله: «مِنْ کُلِّ مُتَکَبِّرٍ لاٰ یُؤْمِنُ بِیَوْمِ الْحِسٰابِ» یشیر به الی فرعون و کل من یشارکه فی صفتی التکبر و عدم الإیمان بیوم الحساب و لا یؤمن ممن اجتمعت فیه الصفتان شر أصلا.

قوله تعالی: وَ قٰالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ یَکْتُمُ إِیمٰانَهُ الی آخر الآیه.

ظاهر السیاق أن «مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ» صفه رجل و «یَکْتُمُ إِیمٰانَهُ» صفه اخری فکان الرجل من القبط من خاصه فرعون و هم لا یعلمون بإیمانه لکتمانه إیاهم ذلک تقیه.

و قیل:قوله: «مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ» مفعول ثان لقوله: «یَکْتُمُ» قدم علیه،و الغالب فیه و إن کان التعدی الی المفعول الثانی بنفسه کما فی قوله: وَ لاٰ یَکْتُمُونَ اللّٰهَ حَدِیثاً (النساء/۴۲) لکنه قد یتعدی الیه بمن کما صرح به فی المصباح.

و فیه أن السیاق یأباه فلا نکته ظاهره تقتضی تقدم المفعول الثانی علی الفعل من حصر

و نحوه.على أن الرجل يكرر نداء فرعون و قومه بلفظه«يا قومى»و لو لم يكن منهم لم يكن له ذلك.

و قوله: أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللّٰهُ وَ قَدْ جٰاءَكُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ مِنْ رَبِّكُمْ إنكار لعزمهم على قتله،و فى قوله: «مِنْ رَبِّكُمْ» دليل على أن فى البينات التى جاء بها دلاله على أن اللّه ربهم أيضا كما اتخذه ربا فقتله قتل رجل جاء بالحق من ربهم.

و قوله: وَ إِنْ يَكُ كٰاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ قيل:إن ذكره هذا التقدير تلطف منه لا أنه كان شاكا فى صدقه.

و قوله: وَ إِنْ يَكُ صٰادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ فيه تنزل فى المخاصمه بالاكتفاء على أيسر التقادير و أقلها كأنه يقول:و إن يك صادقا يصبكم ما وعدكم من أنواع العذاب و لا أقل من إصابه بعض ما يعدكم مع أن لازم صدقه إصابه جميع ما وعد.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّٰابٌ تعليل للتقدير الثانى فقط و المعنى إن يك كاذبا كفاه كذبه و إن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم لأنكم حينئذ مسرفون متعدون طوركم كذابون فى نفى ربوبيه ربكم و اتخاذ أرباب من دونه و اللّه لا يهدى من هو مسرف كذاب،و أما على تقدير كذبه فلا ربوبيه لمن اتخذه ربا حتى يهديه أو لا يهديه.

و من هنا يظهر أن ما ذكره بعضهم من كون الجمله تعليلا للتقديرين جميعا متعلقه بكلتا الجملتين غير مستقيم.

قوله تعالى: يٰا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظٰاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنٰا مِنْ بَأْسِ اللّٰهِ إِنْ جٰاءَنٰا ظهورهم غلبتهم و علوهم فى الأرض،و الأرض أرض مصر، و بأس اللّه أخذه و عذابه و الاستفهام للإنكار.

و المعنى:يا قوم لكم الملك حال كونكم غالبين عالين فى أرض مصر على من دونكم من بنى

إسرائيل فمن ينصرنا من أخذ اللّه و عذابه كما يعدنا به موسى إن جاءنا؟و قد أدخل نفسه فيهم على تقدير مجيء البأس ليكون أبلغ فى النصح و أوقع فى قلوبهم أنه يريد لهم من العافيه ما يريده لنفسه.

قوله تعالى: قٰالَ فِرْعَوْنُ مٰا أُرِيكُمْ إِلاّٰ مٰا أَرىٰ وَ مٰا أَهْدِيكُمْ إِلاّٰ سَبِيلَ الرَّشٰادِ أى طريق الصواب المطابقه للواقع يريد أنه على يقين مما يهدى اليه قومه من الطريق و هى مع كونها معلومه له مطابقه للواقع،و هذا كان تمويها منه و تجلدا.

قوله تعالى: وَ قٰالَ الَّذِي آمَنَ يٰا قَوْمِ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزٰابِ -الى قوله- لِلْعِبٰادِ المراد بالذى آمن هو مؤمن آل فرعون،و لا يعبأ بما قيل:

إنه موسى لقوه كلامه،و المراد بالأحزاب الامم المذكورون فى الآيه التاليه قوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم،و قوله: «مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ» بيان للمثل السابق و الدأب هو العاده.

و المعنى:يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأقوام الماضين مثل العاده الجاريه من العذاب عليهم واحدا بعد واحد لكفرهم و تكذيبهم الرسل،أو مثل جزاء عادتهم الدائمه من الكفر و التكذيب و ما اللّه يريد ظلما للعباد.

قوله تعالى: وَ يٰا قَوْمِ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنٰادِ -الى قوله- مِنْ هٰادٍ يوم التناد يوم القيامه،و لعل تسميته بذلك لكون الظالمين فيه ينادى بعضهم بعضا و ينادون بالويل و الثبور على ما اعتادوا به فى الدنيا.

و قيل:المراد بالتنادى المناداه التى تقع بين أصحاب الجنه و أصحاب النار على ما ذكره اللّه تعالى فى سوره الأعراف،و هناك وجوه آخر ذكروها لا جدوى فيها.

و قوله: يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مٰا لَكُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ المراد به يوم القيامه و لعل المراد أنهم يفرون فى النار من شده عذابها ليتخلصوا منها فردوا إليها كما قال

تعالى: كُلَّمٰا أَرٰادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهٰا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهٰا وَ ذُوقُوا عَذٰابَ الْحَرِيقِ (الحج/ ٢٢).

و قوله: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ بمنزله التعليل لقوله: «مٰا لَكُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ» أى تفرون مدبرين ما لكم من عاصم و لو كان لكان من جانب اللّه و ليس و ذلك لأن اللّه أضلهم و من يضلل اللّه فما له من هاد.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ جٰاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنٰاتِ الى آخر الآيه؛لما ذكر أن اللّه أضلهم و لا هادى لهم استشهد له بما عاملوا به يوسف عليه السّلام فى رسالته اليهم حيث شكوا فى نبوته ما دام حيا ثم إذا مات قالوا:لا نبى بعده.

فالمعنى:و أقسم لقد جاءكم يوسف من قبل بالآيات البينات التى لا تدع ريبا فى رسالته من اللّه فما زلتم فى شك مما جاءكم به ما دام حيا حتى إذا هلك و مات قلتم لن يبعث اللّه من بعده رسولا فناقضتم أنفسكم و لم تبالوا.

ثم أكده-و هو فى معنى التعليل-بقوله: «كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتٰابٌ» .

قوله تعالى: اَلَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِي آيٰاتِ اللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰاهُمْ الخ؛وصف لكل مسرف مرتاب فإن من تعدى طوره بالاعراض عن الحق و اتباع الهوى و استقر فى نفسه الارتياب فكان لا يستقر على علم و لا يطمئن الى حجه تهديه الى الحق جادل فى آيات اللّه بغير برهان إذا خالفت مقتضى هواه.

و قوله: كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّٰارٍ يفيد أن قلوبهم مطبوع عليها فلا يفقهون حجه و لا يركنون الى برهان.

قوله تعالى: وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ يٰا هٰامٰانُ ابْنِ لِي صَرْحاً -الى قوله- فِي تَبٰابٍ أمر منه لوزيره هامان أن يبنى له بناء يتوصل به الى الاطلاع الى إله موسى و لعله أصدر هذا الأمر أثناء محاجه الذى آمن و بعد الانصراف عن قتل موسى و لذلك وقع ذكره بين مواعظ

الذی آمن و احتجاجاته.

و الصرح-علی ما فی المجمع-البناء الظاهر الذی لا یخفی علی عین الناظر و إن بعد، و الأسباب جمع سبب و هو ما تتوصل به الی ما یبتعد عنک.

و قوله: لَعَلِّی أَبْلُغُ الْأَسْبٰابَ فی معنی التعلیل لأمره ببناء الصرح،و المعنی آمرک ببنائه لأنی أرجو أن أبلغ بالصعود علیه الأسباب ثم فسر الأسباب بقوله: «أَسْبٰابَ السَّمٰاوٰاتِ» و فرع علیه قوله: «فَأَطَّلِعَ إِلیٰ إِلٰهِ مُوسیٰ» کأنه یقول:إن الإله الذی یدعوه و یدعو الیه موسی لیس فی الأرض إذ لا إله فیها غیری فلعله فی السماء فابن لی صرحا لعلی أبلغ بالصعود علیه الأسباب السماویه الکاشفه عن خبایا السماء فأطلع من جهتها الی إله موسی و إنی لأظنه کاذبا.

و قوله: وَ کَذٰلِکَ زُیِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِیلِ مفاد السیاق أنه فی معنی إعطاء الضابط لما واجه به فرعون الحق الذی کان یدعوه الیه موسی فقد زین الشیطان له قبیح عمله فرآه حسنا و صده عن سبیل الرشاد فرأی انصداده عنها رکوبا علیها فجادل فی آیات اللّٰه بالباطل و أتی بمثل هذه الأعمال القبیحه و المکائد السفهیه لإدحاض الحق.

و لذلک ختمت الآیه بقوله: «وَ مٰا کَیْدُ فِرْعَوْنَ إِلاّٰ فِی تَبٰابٍ» أی هلاک و انقطاع.

قوله تعالی: وَ قٰالَ الَّذِی آمَنَ یٰا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِکُمْ سَبِیلَ الرَّشٰادِ یدعوهم الی اتباعه لیهدیهم،و اتباعه اتباع موسی،و سبیل الرشاد السبیل التی فی سلوکها إصابه الحق و الظفر بالسعاده،و الهدایه بمعنی إراده الطریق،و فی قوله: «أَهْدِکُمْ سَبِیلَ الرَّشٰادِ» تعریض لفرعون حیث قال: «وَ مٰا أَهْدِیکُمْ إِلاّٰ سَبِیلَ الرَّشٰادِ» و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: یٰا قَوْمِ إِنَّمٰا هٰذِهِ الْحَیٰاةُ الدُّنْیٰا مَتٰاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِیَ دٰارُ الْقَرٰارِ هذا هو السناد الذی یستند الیه سلوک سبیل الرشاد و التدین بدین الحق لا غنی عنه

بحال و هو الاعتقاد بأن للإنسان حياه خالده مؤبده هی الحیاه الآخره و أن هذه الحیاه الدنیا متاع فی الآخره و مقدمه مقصوده لأجلها،و لذلک بدئ به فی بیان سبیل الرشاد ثم ذکر السیئه و العمل الصالح.

قوله تعالی: مَنْ عَمِلَ سَیِّئَهً فَلا یُجْزیٰ إِلاّ مِثْلَها الی آخر الآیه.أی إن الذی یصیبه و یعیش به فی الآخره یشاکل ما أتی به فی هذه الحیاه الدنیا التی هی متاع فیها فإنما الدنیا دار عمل و الآخره دار جزاء.

من عمل فی الدنیا سیئه ذات صفه المساءه فلا یجزی فی الآخره إلا مثلها مما یسوؤه و من عمل صالحا من ذکر أو انثی من غیر فرق بینهما فی ذلک و الحال أنه مؤمن فاولئک یدخلون الجنه یرزقون فیها بغیر حساب.

و فیه إشاره الی المساواه بین الذکر و الانثی فی قبول العمل و تقیید العمل الصالح فی تأثیره بالإیمان لکون العمل حبطا بدون الإیمان قال تعالی: وَ مَنْ یَکْفُرْ بِالْإِیمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ (المائده/۵)الی غیرها من الآیات.

و قد جمع الدین الحق و هو سبیل الرشاد فی أوجز بیان و هو أن للإنسان دار قرار یجزی فیها بما عمل فی الدنیا من عمل سیئ أو صالح فلیعمل صالحا و لا یعمل سیئا،و زاد بیانا إذ أفاد أنه إن عمل صالحا یرزق بغیر حساب.

قوله تعالی: وَ یا قَوْمِ ما لِی أَدْعُوکُمْ إِلَی النَّجاهِ وَ تَدْعُونَنِی إِلَی النّارِ -الی قوله- اَلْعَزِیزِ الْغَفّارِ کأنه لما دعاهم الی التوحید قابلوه بدعوته الی عباده آلهتهم أو قدّرها لهم لما شاهد جدالهم بالباطل و إصرارهم علی الشرک فنسب الیهم الدعوه بشهاده حالهم فأظهر العجب من مقابلتهم دعوته الحقه بدعوتهم الباطله.

فقال:و یا قوم ما لی أدعوکم الی النجاه أی النجاه من النار و تدعوننی الی النار و قد کان یدعوهم الی سبب النجاه و یدعونه الی سبب دخول النار فجعل الدعوه الی السببین دعوه الی

المسببين أو لأن الجزاء هو العمل بوجه.

ثم فسر ما دعوه اليه و ما دعاهم اليه فقال:تدعونني لأكفر أى الى أن أكفر باللّه و أشرك به ما ليس لى به علم أى أشرك به شيئا لا حجه لى على كونه شريكا فأفترى على اللّه بغير علم، و أنا أدعوكم الى العزيز الذى يغلب و لا يغلب،الغفار لمن تاب اليه و آمن به أى أدعوكم الى الإيمان به و الإسلام له.

قوله تعالى: لاٰ جَرَمَ أَنَّمٰا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيٰا وَ لاٰ فِي الْآخِرَةِ الخ؛لا جرم بمعنى حقا أو بمعنى لا بد،و مفاد الآيه إقامه الحجه على عدم كون ما يدعون اليه إلها من طريق عدم الدعوه اليه و فى ذلك تأييد لقوله فى الآيه السابقه: «مٰا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ» .

و المعنى:ثبت ثبوتا أن ما تدعونني اليه ما تسمونه شريكا له سبحانه ليس له دعوه فى الدنيا إذ لم يعهد نبى أرسل الى الناس من ناحيته ليدعوهم الى عبادته،و لا فى الآخره إذ لا رجوع اليه فيها من أحد،و أما الذى أدعوكم اليه و هو اللّه سبحانه فإن له دعوه فى الدنيا و هى التى تصداها أنبياؤه و رسله المبعوثون من عنده المؤيدون بالحجج و البينات،و فى الآخره و هى التى يتبعها رجوع الخلق اليه لفصل القضاء بينهم،قال تعالى: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ (الإسراء/٥٢).

و من المعلوم كما قررناه فى ذيل قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيٰاتِهِ (الآيه ١٣ من السوره)أن الربوبيه لا تتم بدون دعوه فى الدنيا و نظيرتها الدعوه فى الآخره،و إذ كان الذى يدعوهم اليه ذا دعوه فى الدنيا و الآخره دون ما يدعونه اليه فهو الإله دون ما يدعون اليه.

و قوله: وَ أَنَّ مَرَدَّنٰا إِلَى اللّٰهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحٰابُ النّٰارِ معطوف على قوله: «أَنَّمٰا تَدْعُونَنِي» أى لا جرم أن مردنا الى اللّه فيجب الإسلام له و اتباع سبيله

و رعايه حدود العبوديه،و لا جرم أن المسرفون و هم المتعدون طور العبوديه-و هم أنتم- أصحاب النار فالذى أدعوكم اليه فيه النجاه دون ما تدعوننى اليه.

قوله تعالى: فَسَتَذْكُرُونَ مٰا أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ صدر الآيه موعظه و تخويف لهم و هو تفريع على قوله: «وَ أَنَّ مَرَدَّنٰا إِلَى اللّٰهِ» الخ؛أى إذ كان لا بد من الرجوع الى اللّه و حلول العذاب بالمسرفين و أنتم منهم و لم تسمعوا اليوم ما أقول لكم فستذكرون ما أقول لكم حين عاينتم العذاب و تعلمون عند ذاك أنى كنت ناصحا لكم.

و قوله: وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللّٰهِ التفويض على ما فسره الراغب هو الرد فتفويض الأمر الى اللّه رده إليه فيقرب من معنى التوكل و التسليم و الاعتبار مختلف:

فالتفويض من العبد رده ما نسب اليه من الأمر الى اللّه سبحانه و حال العبد حينئذ حال من هو أعزل لا أمر راجعا اليه،و التوكل من العبد جعله ربه وكيلا يتصرف فيما له من الأمر،و التسليم من العبد مطاوعته المحضه لما يريده اللّه سبحانه فيه و منه من غير نظر الى انتساب أمر اليه فهى مقامات ثلاث من مقامات العبوديه:التوكل ثم التفويض و هو أدق من التوكل ثم التسليم و هو أدق منهما.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ تعليل لتفويضه أمره الى اللّه،و فى وضع اسم الجلاله موضع ضميره-و كان مقتضى الظاهر الإضمار إشاره الى عله بصيرته بالعباد كأنه قيل:إنه بصير بالعباد لأنه اللّه عز اسمه.

قوله تعالى: فَوَقٰاهُ اللّٰهُ سَيِّئٰاتِ مٰا مَكَرُوا تفريع على تفويضه الأمر الى اللّه فكفاه اللّه شرهم و وقاه سيئات مكرهم،و فيه إشاره الى أنهم قصدوه بالسوء لكن اللّه دفعهم عنه.

قوله تعالى: وَ حٰاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذٰابِ -الى قوله- أَشَدَّ الْعَذٰابِ

أی نزل بهم و أصابهم العذاب السیئ فسوء العذاب من إضافه الصفه الی موصوفها و فی التوصیف بالمصدر مبالغه،و آل فرعون أشیاعه و أتباعه،و ربما یقال آل فلان و یشمل نفسه.

و قوله: اَلنّٰارُ یُعْرَضُونَ عَلَیْهٰا غُدُوًّا وَ عَشِیًّا وَ یَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَهُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذٰابِ ظاهر السیاق أنه بیان لسوء العذاب و لیس من الاستئناف فی شیء.

و الآیه صریحه أولا فی أن هناک عرضا علی النار ثم إدخالا فیها و الإدخال أشد من العرض،و ثانیا:فی أن العرض علی النار قبل قیام الساعه التی فیها الإدخال و هو عذاب البرزخ-عالم متوسط بین الموت و البعث-و ثالثا:أن التعذیب فی البرزخ و یوم تقوم الساعه بشیء واحد و هو نار الآخره لکن البرزخین یعذبون بها من بعید و أهل الآخره بدخولها.

و فی قوله: غُدُوًّا وَ عَشِیًّا إشاره الی التوالی من غیر انقطاع،و لعل لأهل البرزخ لعدم انقطاعهم عن الدنیا بالکلیه نسبه ما الی الغداه و العشی.

و فی قوله: وَ یَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَهُ أَدْخِلُوا إیجاز بالحذف و التقدیر یقال:أدخلوا آل فرعون أشد العذاب.

قوله تعالی: وَ إِذْ یَتَحٰاجُّونَ فِی النّٰارِ فَیَقُولُ الضُّعَفٰاءُ لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا -الی قوله- بَیْنَ الْعِبٰادِ یفید السیاق أن الضمیر فی «یَتَحٰاجُّونَ» لآل فرعون و من الدلیل علی ذلک تغییر السیاق فی قوله بعد: «وَ قٰالَ الَّذِینَ فِی النّٰارِ» و المعنی و حاق بآل فرعون سوء العذاب إذ یتحاجون فی النار أو و اذکر من سوء عذابهم إذ یتحاجون فی النار فیقول الضعفاء منهم للذین استکبروا إنا کنا فی الدنیا لکم تبعا و کان لازم ذلک أن تکفونا فی الحوائج و تنصرونا فی الشدائد و لا شده أشد مما تحن فیه فهل أنتم مغنون عنا نصیبا من النار و إن لم یکن جمیع عذابها فقد قنعنا بالبعض.

و هذا ظهور مما رسخ فی نفوسهم فی الدنیا من الالتجاء بکبریائهم و متبوعیهم من دون اللّٰه

یظهر منهم ذلک یوم القیامه و هم یعلمون أنهم فی یوم لا تغنی فیه نفس عن نفس شیئا و الأمر یومئذ للّه و له نظائر محکیه عنهم فی کلامه تعالی من کذبهم یومئذ و خلفهم و إنکارهم أعمالهم و تکذیب بعضهم لبعض و غیر ذلک.

و قوله: قٰالَ اَلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنّٰا کُلٌّ فِیهٰا إِنَّ اَللّٰهَ قَدْ حَکَمَ بَیْنَ اَلْعِبٰادِ جواب من مستکبریهم عن قولهم و محصله أن الیوم یوم جزاء لا یوم عمل فالأسباب ساقطه عن التأثیر و قد طاحت منا ما کنا نتوهمه لأنفسنا فی الدنیا من القوه و القدره فحالنا و حالکم -و نحن جمیعا فی النار-واحده.

فقولهم: «إِنّٰا کُلٌّ فِیهٰا إِنَّ اَللّٰهَ قَدْ حَکَمَ بَیْنَ اَلْعِبٰادِ» مفاده أن ظهور الحکم الإلهی قد أبطل أحکام سائر الأسباب و تأثیراتها و أثبتنا علی ما نحن فیه من الحال فی حد سواء فلسنا نختص دونکم بقوه حتی نغنی عنکم شیئا من العذاب.

و مما قیل فی الآیه أن الضمیر فی قوله: «یَتَحٰاجُّونَ» لمطلق الکفار من أهل النار و هو بعید کما عرفت،و قیل:الضمیر لقریش و هو أبعد.

قوله تعالی: وَ قٰالَ اَلَّذِینَ فِی اَلنّٰارِ لِخَزَنَهِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّکُمْ یُخَفِّفْ عَنّٰا یَوْماً مِنَ اَلْعَذٰابِ مکالمه بین أهل النار-و منهم آل فرعون- و بین خزنه جهنم أوردها سبحانه تلو قصه آل فرعون،و هم إنما سألوا الخزنه أن یدعوا لهم لیأسهم من أن یستجاب منهم أنفسهم.

و المراد بالیوم من العذاب ما یناسب من معنی الیوم لعالمهم الذی هم فیه،و یئول معناه الی قطعه من العذاب.

قوله تعالی: قٰالُوا أَ وَ لَمْ تَکُ تَأْتِیکُمْ رُسُلُکُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ قٰالُوا بَلیٰ قٰالُوا فَادْعُوا وَ مٰا دُعٰاءُ اَلْکٰافِرِینَ إِلاّٰ فِی ضَلاٰلٍ أجابوهم بالاستخبار عن إتیان رسلهم إیاهم بالبینات فاعترفوا بذلک و هو اعتراف منهم بأنهم کفروا بهم مع العلم بکونهم علی الحق

و هو الكفر بالنبوه فلم يجبهم الخزنه فيما سألوهم من الدعاء إثباتا و لا نفيا بل ردوهم الى أنفسهم مشيرين الى أنهم لا يستجاب لهم دعاء.

و قوله: وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاّ فِی ضَلاَلٍ أی إن دعاءهم قد أحاط به الضلال فلا يهتدی الى هدف الإجابه و هو تتمه كلام الخزنه على ما يعطيه السياق،و يحتمل أن يكون من كلامه تعالى،على بعد.

و الجمله على أی حال تفيد معنى التعليل و المحصل:ادعوا فلا يستجاب لكم فإنكم كافرون،و الكافرون لا يستجاب لهم دعاء.

و تعليق حكم عدم الاستجابه بوصف الكفر مشعر بعليته و ذلک أن اللّه سبحانه و إن وعد عباده وعدا قطعيا أن يجيب دعوه من دعاه منهم فقال: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ (البقره/۱۸۶)،و الدعاء إذا كان واقعا على حقيقته لا يرد البته لكن الذی يتضمنه متن هذا الوعد هو أن يكون هناک دعاء و طلب حقيقه و أن يتعلق ذلک باللّه حقيقه أی يدعو الداعی و يطلب جدا و ينقطع فی ذلک الى اللّه عن سائر الأسباب التی يسميها أسبابا.

و الكافر بعذاب الآخره و هو الذی ينكرها و يستر حقيقتها لا يتمشى منه طلب جدی لرفعه أما فی الدنيا فظاهر،و أما فی الآخره فلأنه و إن أيقن به بالمعاينه و انقطع الى اللّه سبحانه لما هو فيه من الشده و قد انقطعت عنه الأسباب لكن صفه الإنكار لزمته وبالا و قد جوزی بها فلا تدعه يطلب ما كان ينكره طلبا جديا.

على أن الكلام فی انقطاعه الى اللّه أيضا كالكلام فی طلبه الجدی للتخلص و أنى له الانقطاع الى اللّه هناک و لم يتلبس به فی الدنيا فافهمه.

و بذلک يظهر ضعف الاستدلال بالآيه على أن دعاء الكافر لا يستجاب مطلقا فإنک عرفت أن مدلول الآيه عدم استجابه دعائه فيما يكفر به و ينكره لا مطلقا كيف؟و هناک آيات كثيره تذكر استجابه دعائه فی موارد الاضطرار.

قوله تعالى: إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهٰادُ الأشهاد جمع شهيد بمعنى شاهد،و الآيه وعد نوعى لا وعد شخصى لكل واحد شخصى منهم فى كل واقعه شخصيه،و قد تقدم كلام فى معنى النصر الإلهى فى تفسير قوله تعالى: إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (الصافات١٧٢/).

قوله تعالى: يَوْمَ لاٰ يَنْفَعُ الظّٰالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدّٰارِ تفسير ليوم يقوم الأشهاد،و ظاهر إضافه المصدر الى فاعله فى قوله: «مَعْذِرَتُهُمْ» و لم يقل:أن يعتذروا،تحقق معذره ما منهم يومئذ،و أما قوله: هٰذٰا يَوْمُ لاٰ يَنْطِقُونَ وَ لاٰ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (المرسلات٣۶/)فمحمول على بعض مراحل يوم القيامه و عقباته لدلاله آيات اخرى على وقوع تكلم ما منهم يومئذ.

و قوله: وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ أى البعد من رحمه اللّه،و قوله: «لَهُمْ سُوءُ الدّٰارِ» أى الدار السيئه و هى جهنم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى الْهُدىٰ وَ أَوْرَثْنٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ الْكِتٰابَ -الى قوله- اَلْأَلْبٰابِ خاتمه لما تقدم من إرسال موسى بالآيات و السلطان المبين و مجادله آل فرعون فى الآيات بالباطل و محاجه مؤمن آل فرعون،يشير بها و قد صدرت بلام القسم الى حقيه ما ارسل به و ظلمهم فيما قابلوه به.

و المراد بالهدى الدين الذى اوتيه موسى،و«بإيراث بنى إسرائيل الكتاب»إبقاء التوراه بينهم يعملون بها و يهتدون.

و قوله: هُدىً وَ ذِكْرىٰ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ أى حال كون الكتاب هدى يهتدى به عامتهم و ذكرى يتذكر به خاصتهم من اولى الألباب.

[سوره غافر (۴٠): الآيات ۵۵ الى ۶٠]

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ وَ اِسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ اَلْإِبْكٰارِ (۵۵) إِنَّ اَلَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِي آيٰاتِ اَللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاّٰ كِبْرٌ مٰا هُمْ بِبٰالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْبَصِيرُ (۵۶) لَخَلْقُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ اَلنّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (۵٧) وَ مٰا يَسْتَوِي اَلْأَعْمىٰ وَ اَلْبَصِيرُ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ لاَ اَلْمُسِيءُ قَلِيلاً مٰا تَتَذَكَّرُونَ (۵٨) إِنَّ اَلسّٰاعَةَ لَآتِيَةٌ لاٰ رَيْبَ فِيهٰا وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۵٩) وَ قٰالَ رَبُّكُمُ اُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ اَلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دٰاخِرِينَ (۶٠)

بیان:

قوله تعالی: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ الی آخر الآیه؛تفریع علی ما تقدم من الأمر بالاعتبار فی قوله: «أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَهُ الَّذِینَ کانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ» و ما أورد بعده من قصه موسی و مآل أمر المستکبرین المجادلین بالباطل و نصره تعالی للحق و أهله.

و المعنی:إذا کان الأمر علی ذلک فاصبر علی إیذاء المشرکین و مجادلتهم بالباطل إن وعد اللّه حق و سیفی لک بما وعد،و المراد بالوعد ما فی قوله قبیل هذا: «إِنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِینَ آمَنُوا» الآیه؛من وعد النصر.

و قوله: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ أمر له بالاستغفار لما یعد بالنسبه الیه ذنبا و إن لم یکن ذنبا بمعنی المخالفه للأمر المولوی لمکان عصمته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و قد تقدم کلام فی معنی الذنب و المغفره فی أواخر الجزء السادس من الکتاب.

و للذنب المنسوب الیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم معنی آخر سنشیر الیه فی تفسیر أول سوره الفتح إن شاء اللّه تعالی،و قیل:المراد بذنبه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ذنب امته أعطی الشفاعه فیه.

و قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِبْکارِ أی نزهه سبحانه مصاحبا لحمده علی جمیل آلائه مستمرا متوالیا بتوالی الأیام أو فی کل صباح و مساء،و کونه بالعشی و الإبکار علی المعنی الأول من قبیل الکنایه.

و قیل:المراد به صلاتا الصبح و العصر،و الآیه مدنیه.

و فیه أن المسلم من الروایات و منها أخبار المعراج أن الصلوات الخمس فرضت جمیعا بمکه قبل الهجره فلو کان المراد به الفریضتین کان ذلک بمکه قبل فرض بقیه الصلوات الخمس.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللّهِ بِغَیْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِی صُدُورِهِمْ إِلاّ کِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِیهِ الخ؛تأکید لما تقدم فی الآیه السابقه من أمره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالصبر و تطییب نفسه بتأیید وعد النصر،و محصله أن هؤلاء المجادلین لا ینالون بغیتهم و لن ینالوا فلا یحزنک جدالهم و طب نفسا من ناحیتهم.

فقوله: إِنْ فِی صُدُورِهِمْ إِلاّ کِبْرٌ حصر للسب الموجب لمجادلتهم فی الکبر أی لیس عاملهم فی ذلک طلب الحق أو الارتیاب فی آیاتنا و الشک فیها حتی یریدوا بها ظهور الحق و لا حجه و لا سلطان عندهم حتی یریدوا إظهارها بل الذی فی صدورهم و هو الداعی لهم الی الجدال،الکبر،یریدون به إدحاض الحق الصریح.

و قوله: ما هُمْ بِبالِغِیهِ الضمیر لکبر باعتبار مسببه فإن الکبر سبب للجدال

و الجدال یراد به إبطال الحق و محق الدعوه الحقه،و المعنی ما هم ببالغی مرادهم و بغیتهم من الجدال الذی یأتون به لکبرهم.

و قوله: فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ أی فاستعذ باللّه منهم بما لهم من الکبر کما استعاذ موسی من کل متکبر مجادل کما قال: وَ قٰالَ مُوسیٰ إِنِّی عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّکُمْ مِنْ کُلِّ مُتَکَبِّرٍ لاٰ یُؤْمِنُ بِیَوْمِ الْحِسٰابِ .

و قوله: إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ أی السمیع لدعاء عباده البصیر بحوائجهم و الذی یبصر ما هم فیه من شده أو رخاء.

قوله تعالی: لَخَلْقُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ أَکْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّٰاسِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ اللام للقسم،و المراد بالسماوات و الأرض مجموع العالم،و معنی الآیه حسب ما یعطیه المقام أنهم لیسوا ببالغی بغیتهم و لیسوا بمعجزین فإن اللّه الذی قدر علی خلق مجموع العالم و لم یعجزه ذلک علی ما فیه من العظمه لیس یعجزه جزء یسیر منه و هو الناس المخلوقون الذین هم أهون علیه و لکن أکثر الناس جاهلون یظنون بجهلهم أنهم یعجزون اللّه بجدال یجادلونه أو أی کید یکیدونه.

قوله تعالی: وَ مٰا یَسْتَوِی الْأَعْمیٰ وَ الْبَصِیرُ الخ؛لما ذکر أن أکثر الناس لا یعلمون أکده بأنهم لیسوا علی وتیره واحده فإن منهم الأعمی و البصیر و لا یستویان و عطف علیهما الذین آمنوا و عملوا الصالحات و المسیء فالطائفه الاولی اولو بصیره یتذکرون بها و الثانیه أعمی اللّه قلوبهم فلا یتذکرون.

و قوله: قَلِیلاً مٰا تَتَذَکَّرُونَ خطاب للناس بداعی التوبیخ و هو الوجه فی الالتفات من الغیبه الی الحضور.

قوله تعالی: إِنَّ السّٰاعَةَ لَآتِیَةٌ لاٰ رَیْبَ فِیهٰا وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یُؤْمِنُونَ ذکّرهم تعالی فی هذه الآیه بإتیان الساعه و فی الآیه التالیه بدعوه ربهم إیاهم الی دعائه

و عبادته كما نبه الـذى آمن من آل فرعون فى القصه السابقه بإتيان الساعه و بأن للّه الـدعوه و ليس لآلهتهم دعوه فى الـدنيا و لا فى الآخره.

قوله تعالى: وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ دعوه منه تعالى لعباده الى دعائه و وعـد بالاستجابه،و قـد اطلق الدعوه و الدعاء و الاستجابه إطلاقا،و قد أشبعنا الكلام فى معنى الدعاء و الإجابه فى ذيل قوله تعالى: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ (البقره/ ۱۸۶)فى الجزء الأول من الكتاب.

و قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ الـدخول الـذله،و قـد بـدل الـدعاء عباده فـدل على أن الدعاء عباده.

[سوره غافر (۴۰): الآیات ۶۱ الی ۶۸]

اَللّهُ اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اَللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ اَلنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اَللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى اَلنّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّاسِ لا يَشْكُرُونَ (۶۱) ذلِكُمُ اَللّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ فَأَنّى تُؤْفَكُونَ (۶۲) كَذلِكَ يُؤْفَكُ اَلَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اَللّهِ يَجْحَدُونَ (۶۳) اَللّهُ اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اَلْأَرْضَ قَراراً وَ اَلسَّماءَ بِناءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ اَلطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اَللّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اَللّهُ رَبُّ اَلْعالَمِينَ (۶۴) هُوَ اَلْحَيُّ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ اَلدِّينَ اَلْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ اَلْعالَمِينَ (۶۵) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ اَلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّهِ لَمّا جاءَنِي اَلْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ اَلْعالَمِينَ (۶۶) هُوَ اَلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۶۷) هُوَ اَلَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۶۸)

بیان:

قوله تعالی: اَللّٰهُ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اللَّیْلَ لِتَسْکُنُوا فِیهِ وَ النَّهٰارَ مُبْصِراً الآیه؛أی جعل لأجلکم اللیل مظلما لتسکنوا فیه من التعب الذی عرض لکم وجه النهار من جهه السعی فی طلب الرزق،و النهار مبصرا لتبتغوا من فضل ربکم و تکسبوا الرزق،و هذا من أرکان تدبیر الحیاه الإنسانیه.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النّٰاسِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَشْکُرُونَ امتنان علیهم بالفضل و تقریع لهم بعدم شکرهم له قبال هذا الفضل العظیم و لو شکروه لعبدوه و وضع «النّٰاسِ» الثانی موضع الضمیر للإشاره الی أن من طبع الناس بما هم ناس کفران النعم کما قال: إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَظَلُومٌ کَفّٰارٌ (إبراهیم۳۴/).

قوله تعالی: ذٰلِکُمُ اللّٰهُ رَبُّکُمْ خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰی تُؤْفَکُونَ أی ذلکم الذی یدبر أمر حیاتکم و رزقکم بسکون اللیل و سعی النهار هو اللّه تعالی و هو ربکم لأن تدبیر أمرکم الیه.

و قوله: خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ أی و رب کل شیء لأنه خالق کل شیء و الخلق لا ینفک

عن التـدبير و لازم ذلـك أن لا يكون فى الوجود رب غيره لا لكم و لا لغيركم و لـذلك عقبه بقوله: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» أى فإذن لا معبود بالحق غيره إذ لو كان هناك معبود آخر كان رب آخر فإن الالوهيه من شئون الربوبيه.

و قوله: فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ أى فكيف تصرفون عن عبادته الى عباده غيره.

قوله تعـالى: كَذٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كٰانُوا بِآيٰاتِ اللّٰهِ يَجْحَدُونَ أى كمثل هـذا الإفك يؤفك الجاحـدون لآيات اللّه فإن الآيات ظاهره غير خفيه فالانصراف عن مدلولها لا سبب له إلا الجحد.

قوله تعـالى: اَللّٰهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرٰاراً وَ السَّمٰاءَ بِنٰاءً الى آخر الآيه؛القرار المسـتقر الـذى يسـتقر عليه،و البناء-على ما قيل- القبه و منه أبنيه العرب للقباب المضروبه عليهم.يذكر تعالى نعمه استقرار الإنسان على الأرض و تحت السماء.

و قوله: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ الفـاء للتفسـير و المعنى أحسن خلق صوركم و ذلـك أن الإنسـان جهز من دقائق التجهيز فى صورته بمـا يقوى به من الأعمـال المتنوعه العجيبه على ما لا يقوى عليه شـىء من سائر الموجودات الحيه،و يلتـذ من مزايا الحياه بما لا يتيسر لغيره أبدا.

و قوله: وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبٰاتِ هى الأرزاق المتنوعه التى تلائم بطبائعها طبيعه الإنسان من الحبوب و الفواكه و اللحوم و غيرها،و ليس فى الحيوان متنوع فى الرزق كالإنسان.

و قوله: ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ أى المـدبر لأمركم،و قوله: «فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمِينَ» ثناء عليه عزّ و جل بربوبيته لجميع العالمين،و قد فرعه على ربوبيته و تـدبيره للإنسان إشاره الى أن الربوبيه واحده و تدبيره لأمر الإنسان عين تدبيره لأمر العالمين جميعا فإن النظام الجارى نظام واحد روعى فى انطباقه على كل،انطباقه على الكل فهو سبحانه متبارك منشأ

للخير الكثير فتبارك اللّه رب العالمين.

قوله تعالى: هُوَ الْحَيُّ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الخ؛فى جمله «هُوَ الْحَيُّ» إطلاق لا مقيد له لا عقلا و لا نقلا مضافا الى إفاده الحصر فمفادها أن له تعالى وحده حياه لا يداخلها موت و لا يزيلها فناء فهو تعالى حى بذاته و غيره كائنا ما كان حى بإحياء غيره.

و إذا فرض هناك حى بذاته و حى بغيره لم يستحق العباده بذاته إلا من كان حيا بذاته، و لذلك عقب قوله: «هُوَ الْحَيُّ» بقوله: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» .

و قد سيقت الجملتان توطئه للأمر بدعائه و لا مطلق دعائه بل دعائه بالتوحيد و إخلاص الدين له وحده لأنه الحى بذاته دون غيره و لأنه المعبود بالاستحقاق الذاتى دون غيره،و لذلك فرع على قوله: «هُوَ الْحَيُّ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» قوله: «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» .

و قوله: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ ثناء عليه بربوبيته للعالمين.

قوله تعالى: قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لَمّٰا جٰاءَنِى الْبَيِّنٰاتُ مِنْ رَبِّى وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعٰالَمِينَ معنى الآيه ظاهر،و فيه إيئاس للمشركين من موافقته لهم فى عباده آلهتهم»و قد تكرر هذا المعنى فى سوره الزمر و يمكن أن يستأنس منه أن هذه السوره نزلت بعد سوره الزمر.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٍ الخ؛المراد بخلقهم من تراب خلق أبيهم آدم من تراب فإن خلق غيره ينتهى اليه فخلقه من تراب هو خلقهم منه أو المراد بخلقهم من تراب تكوين النطفه من البسائط الأرضيه.

و قوله: ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٍ الخ؛أى ثم خلقناكم من نطفه حقيره معلومه الحال «ثُمَّ مِنْ عَلَقَهٍ» كذلك «ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ» من بطون امهاتكم «طِفْلاً» أى أطفالا،و الطفل-كما قيل- يطلق على الواحد و الجمع قال تعالى: أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلىٰ عَوْرٰاتِ النِّسٰاءِ

(النور ۳۱/).

ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ اللام للغايه و كأن متعلقها محذوف و التقدير ثم ينشئكم لتبلغوا أشدكم و هو من العمر زمان اشتداد القوى «ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً» معطوف على «لِتَبْلُغُوا» «وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّى مِنْ قَبْلُ» فلا يبلغ أحد هذه المراحل من العمل كالشيخوخه و بلوغ الأشد و غيرهما.

وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى و هو النهايه من الأمد المضروب الذى لا سبيل للتغير اليه أصلا،و هو غايه عامه لجميع الناس كيفما عمروا قال تعالى: وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ (الأنعام۲/).و لذلك لم تعطف الجمله بثم حتى تتميز من الغايتين المذكورتين سابقا.

و قوله: وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أى تدركون الحق بالتعقل المغروز فيكم،و هذا غايه خلقه الإنسان بحسب حياته المعنويه كما أن بلوغ الأجل المسمى غايه حياته الدنيا الصوريه.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ الخ؛أى هو الذى يفعل الإحياء و الإماته و فيهما نقل الأحياء من عالم الى عالم و كل منهما مبدأ لتصرفاته بالنعم التى يتفضل بها على من يدبر أمره.

و قوله: فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ تقدم تفسيره كرارا.

[سوره غافر (۴۰): الآيات ۶۹ الى ۷۸]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اَللّهِ أَنّى يُصْرَفُونَ (۶۹) اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۷۰) إِذِ اَلْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ اَلسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (۷۱) فِي اَلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي اَلنّارِ يُسْجَرُونَ (۷۲) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۷۳) مِنْ دُونِ اَللّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اَللّهُ اَلْكافِرِينَ (۷۴) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي اَلْأَرْضِ بِغَيْرِ اَلْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (۷۵) اُدْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى اَلْمُتَكَبِّرِينَ (۷۶) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اَللّهِ حَقٌّ فَإِمّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ اَلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (۷۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّ بِإِذْنِ اَللّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اَللّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ اَلْمُبْطِلُونَ (۷۸)

بیان:

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ یُجٰادِلُونَ فِی آیٰاتِ اللّٰهِ أَنّٰی یُصْرَفُونَ «أَ لَمْ تَرَ» مفید للتعجیب و «أَنّٰی» بمعنی کیف،و المعنی أ لا تعجب أو أ لم تعجب من أمر هؤلاء المجادلین فی آیات اللّه کیف یصرفون عن الحق الی الباطل و عن الهدی الی الضلال.

و التعرض لحال المجادلین هاهنا من حیث الإشاره الی کونهم مصروفین عن الحق و الهدی و مآل ذلک،و فیما تقدم من قوله: إِنَّ الَّذِینَ یُجٰادِلُونَ فِی آیٰاتِ اللّٰهِ بِغَیْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰاهُمْ إِنْ فِی صُدُورِهِمْ إِلاّٰ کِبْرٌ مٰا هُمْ بِبٰالِغِیهِ من حیث إن الداعی لهم الی ذلک الکبر و أنهم لا یبلغون ما

یریدون فلا تکرار.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِالْکِتٰابِ وَ بِمٰا أَرْسَلْنٰا بِهِ رُسُلَنٰا فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ الذی یعطیه سیاق الآیات التالیه أن المراد بهؤلاء المجادلین هم المجادلون من قوم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و علیه فالأنسب أن یکون المراد بالکتاب هو القرآن الکریم،و بقوله: «بِمٰا أَرْسَلْنٰا بِهِ رُسُلَنٰا» ما جاءت به الرسل علیهم السّلام من عند اللّه من کتاب و دین فالوثنیه منکرون للنبوه.

و قوله: «فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ» تفریع علی مجادلتهم و تکذیبهم و تهدید لهم أی سوف یعلمون حقیقه مجادلتهم فی آیات اللّه و تکذیبهم بالکتاب و بالرسل.

قوله تعالی: إِذِ الْأَغْلاٰلُ فِی أَعْنٰاقِهِمْ وَ السَّلاٰسِلُ یُسْحَبُونَ فِی الْحَمِیمِ ثُمَّ فِی النّٰارِ یُسْجَرُونَ فی المجمع:الأغلال جمع غل و هو طوق یدخل فی العنق للذل و الألم و أصله الدخول،و قال:السلاسل جمع سلسله و هی الحلق منتظمه فی جهه الطول مستمره و قال:السحب جر الشیء علی الأرض.هذا أصله،و قال:السجر أصله إلقاء الحطب فی معظم النار کالتنور الذی یسجر بالوقود.انتهی.

و قوله: إِذِ الْأَغْلاٰلُ فِی أَعْنٰاقِهِمْ وَ السَّلاٰسِلُ ظرف لقوله: «فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ» قیل:الإتیان بإذ-و هو للماضی»للدلاله علی تحقق الوقوع و إن کان موقعه المستقبل فلا تنافی،فی الجمع بین سوف و إذ.

و «الْأَغْلاٰلُ فِی أَعْنٰاقِهِمْ» مبتدأ و خبر،و «السَّلاٰسِلُ» معطوف علی الأغلال،و «یُسْحَبُونَ فِی الْحَمِیمِ» خبر بعد خبر،و «فِی النّٰارِ یُسْجَرُونَ» معطوف علی «یُسْحَبُونَ» .

و المعنی:سوف یعلمون حقیقه عملهم حین تکون الأغلال و السلاسل فی أعناقهم یجرون فی الماء الحار الشدید الحراره ثم یقذفون فی النار.

و قیل:معنی قوله: «ثُمَّ فِی النّٰارِ یُسْجَرُونَ» ثم یصیرون وقود النار،و یؤیده قوله تعالی فی

صفه جهنم: وَقُودُهَا النّاسُ وَ الْحِجارَةُ (البقره۲۴/)،و قوله: إِنَّكَمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (الأنبياء۹۸/).

قوله تعالى: ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ قٰالُوا ضَلُّوا عَنّٰا الى آخر الآيه؛أى قيل لهم و هم يتقلبون بين السحب و السجر:أين ما كنتم تشركون من دون اللّه حتى ينصروكم بالإنجاء من هذا العذاب أو يشفعوا لكم كما كنتم تزعمون أنهم سيشفعون لكم قبال عبادتكم لهم؟

و قوله: قٰالُوا ضَلُّوا عَنّٰا أى غابوا عنا من قولهم:ضلت الدابه إذا غابت فلم يعرف مكانها،و هذا جوابهم عما قيل لهم:أين ما كنتم تشركون من دون اللّه.

و قوله: بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً إضراب منهم عن الجواب الأول لما يظهر لهم أن الآلهه كانوا يزعمونهم شركاء لم يكونوا الى أسماء لا مسميات لها و مفاهيم لا يطابقها شيء و لم يكن عبادتهم لها إلا سدى،و لذلك نفوا أن يكونوا يعبدون شيئا قال تعالى:

فَزَيَّلْنٰا بَيْنَهُمْ (يونس۲۸/)و قال: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مٰا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام۹۴/).

و قيل:هذا من كذبهم يوم القيامه على حد قوله: وَ اللّهِ رَبِّنٰا مٰا كُنّٰا مُشْرِكِينَ (الأنعام/ ۲۳).

و قوله: كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللّهُ الْكٰافِرِينَ أى إضلاله تعالى للكافرين و هم الساترون للحق يشبه هذا الضلال و هو أنهم يرون الباطل حقا فيقصدونه ثم يتبين لهم بعد ضلال سعيهم أنه لم يكن إلا باطلا فى صوره حق و سرابا فى سيماء الحقيقه.

و المعنى:على الوجه الثانى أعنى كون قولهم: «بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً» كذبا منهم:

كمثل هذا الإضلال يضل اللّه الكافرين فيئول أمرهم الى الكذب حيث لا ينفع مع علمهم بأنه لا ينفع.

قوله تعالى: ذٰلِكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ الفرح مطلق السرور،و المرح الإفراط فيه و هو مذموم،و قال الراغب:الفرح انشراح الصدر بلذه عاجله و أكثر ما يكون ذلك فى اللذات البدنيه،و قال:المرح شده الفرح و التوسع فيه.انتهى.

و قوله: ذٰلِكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ الإشاره الى ما هم فيه من العذاب و الباء فى «بِمٰا كُنْتُمْ» للسببيه أو المقابله.

و المعنى:ذلكم العذاب الذى أنتم فيه بسبب كونكم تفرحون فى الأرض بغير الحق من اللذات العاجله و بسبب كونكم تفرطون فى الفرح و ذلك لتعلق قلوبهم بعرض الدنيا و زينتها و معاداتهم لكل حق يخالف باطلهم فيفرحون و يمرحون بإحياء باطلهم و إماته الحق و اضطهاده.

قال فى المجمع:قيد الفرح و أطلق المرح لأن الفرح قد يكون بحق فيحمد عليه و قد يكون بالباطل فيذم عليه،و المرح لا يكون إلا باطلا.انتهى.

قوله تعالى: اُدْخُلُوا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ أى ادخلوا أبوابها المقسومه لكم خالدين فيها فبئس مقام الذين يتكبرون عن الحق جهنم، و قد تقدم أن أبواب جهنم دركاتها.

قوله تعالى: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ لما بين مآل أمر المجادلين فى آيات اللّه و هى النار و أن اللّه يضلهم بكفرهم فرع عليه أمر نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالصبر معللا ذلك بأن وعد اللّه حق.

و قوله: فَإِمّٰا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ هو عذاب الدنيا «أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ» بالموت فلم نرك ذلك «فَإِلَيْنٰا يُرْجَعُونَ» و لا يفوتوننا فننجز فيهم ما وعدناه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنٰا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ الخ؛بيان لكيفيه النصر المذكور فى الآيه السابقه أن آيه النصر

-التی جرت سنه اللّه علی إنزالها للقضاء بین کل رسول و امته و إظهار الحق علی الباطل کما یشیر الیه قوله: وَ لِکُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ (یونس۴۷/)-لم یفوض أمرها الی رسول من الرسل من قبلک بل کان یأتی بها من یأتی منهم بإذن اللّه،و حالک حالهم،فمن الممکن أن نأذن لک فی الإتیان بها فنریک بعض ما نعدهم، و من الممکن أن نتوفاک فلا نریک غیر أن أمر اللّه إذا جاء قضی بینهم بالحق و خسر هنالک المبطلون.هذا ما یفیده السیاق.

فقوله: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلاً مِنْ قَبْلِکَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنٰا عَلَیْکَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَیْکَ مسوق للإشاره الی کون ما سیذکره سنه جاریه منه تعالی.

و قوله: وَ مٰا کٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَهٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ الآیه؛و إن کانت أعم من الآیه المعجزه التی یؤتاها الرسول لتأیید رسالته،و الآیه التی تنصر الحق و تقضی بین الرسول و بین امته و الکل بإذن اللّه لکن مورد الکلام کما استفدناه من السیاق القسم الثانی و هی القاضیه بین الرسول و امته.

و قوله: فَإِذٰا جٰاءَ أَمْرُ اللّٰهِ قُضِیَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنٰالِکَ الْمُبْطِلُونَ أی فإذا جاء أمر اللّه بالعذاب قضی بالحق فأظهر الحق و أزهق الباطل و خسر عند ذلک المتمسکون بالباطل فی دنیاهم بالهلاک و فی آخرتهم بالعذاب الدائم.

و استدل بالآیه علی أن من الرسل من لم تذکر قصته فی القرآن،و فیه أن الآیه مکیه لا تدل علی أزید من عدم ذکر قصه بعض الرسل الی حین نزولها بمکه،و قد ورد فی سوره النساء:

وَ رُسُلاً قَدْ قَصَصْنٰاهُمْ عَلَیْکَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَیْکَ (النساء۱۶۴/)و لم یذکر فی السور النازله بعد سوره النساء اسم أحد من الرسل المذکورین بأسمائهم فی القرآن.

و فی المجمع و روی عن علی علیه السّلام أنه قال:بعث اللّه نبیا أسود لم یقص علینا قصته،و روی فی الدر المنثور عن الطبرانی فی الأوسط و ابن مردویه عنه ما فی معناه.

[سوره غافر (۴۰): الآیات ۷۹ الی ۸۵]

اَللّٰهُ اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اَلْأَنْعٰامَ لِتَرْکَبُوا مِنْهٰا وَ مِنْهٰا تَأْکُلُونَ (۷۹) وَ لَکُمْ فِیهٰا مَنٰافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَیْهٰا حٰاجَةً فِی صُدُورِکُمْ وَ عَلَیْهٰا وَ عَلَی اَلْفُلْکِ تُحْمَلُونَ (۸۰) وَ یُرِیکُمْ آیٰاتِهِ فَأَیَّ آیٰاتِ اَللّٰهِ تُنْکِرُونَ (۸۱) أَ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَةُ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کٰانُوا أَکْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثٰاراً فِی اَلْأَرْضِ فَمٰا أَغْنیٰ عَنْهُمْ مٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ (۸۲) فَلَمّٰا جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ فَرِحُوا بِمٰا عِنْدَهُمْ مِنَ اَلْعِلْمِ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۸۳) فَلَمّٰا رَأَوْا بَأْسَنٰا قٰالُوا آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ وَ کَفَرْنٰا بِمٰا کُنّٰا بِهِ مُشْرِکِینَ (۸۴) فَلَمْ یَکُ یَنْفَعُهُمْ إِیمٰانُهُمْ لَمّٰا رَأَوْا بَأْسَنٰا سُنَّتَ اَللّٰهِ اَلَّتِی قَدْ خَلَتْ فِی عِبٰادِهِ وَ خَسِرَ هُنٰالِکَ اَلْکٰافِرُونَ (۸۵)

بیان:

قوله تعالی: اَللّٰهُ اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اَلْأَنْعٰامَ لِتَرْکَبُوا مِنْهٰا وَ مِنْهٰا تَأْکُلُونَ ذکر سبحانه مما ینتفع به الإنسان فی حیاته و یدبر به أمره الأنعام و المراد بها الإبل و البقر و الغنم، و قیل:المراد بها هاهنا الإبل خاصه.

فقوله: جَعَلَ لَکُمُ اَلْأَنْعٰامَ لِتَرْکَبُوا مِنْهٰا وَ مِنْهٰا تَأْکُلُونَ الجعل هنا الخلق أو

التسخير،و اللام فى «لِتَرْكَبُوا» للغرض و«من»للتبعيض،و المعنى خلق لأجلكم أو سخّر لكم الأنعام و الغرض من هذا الجعل أن تركبوا بعضها كبعض الإبل و بعضها كبعض الإبل و البقر و الغنم تأكلون.

قوله تعالى: وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ الخ؛كانتفاعكم بألبانها و أصوافها و أوبارها و أشعارها و جلودها و غير ذلك،و قوله: «وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ» أى و من الغرض من جعلها أن تبلغوا،حال كونكم عليها بالركوب،حاجه فى صدوركم و هى الانتقال من مكان الى مكان لأغراض مختلفه.

و قوله: وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ كنايه عن قطع البر و البحر بالأنعام و الفلك.

قوله تعالى: وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللّٰهِ تُنْكِرُونَ تقدم معنى إراءته تعالى آياته فى تفسير أوائل السوره،و كأن الجمله أعنى قوله: «وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ» غير مقصوده لنفسها حتى يلزم التكرار و إنما هى تمهيد و توطئه للتوبيخ الذى فى قوله: «فَأَيَّ آيَاتِ اللّٰهِ تُنْكِرُونَ» أى أىّ هذه الآيات التى يريكم اللّٰه إياها عيانا و بيانا،تنكرون إنكارا يمهد لكم الإعراض عن توحيده.

قوله تعالى: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا الى آخر الآيه توبيخ لهم و عطف لأنظارهم الى ما جرى من سنّه القضاء و الحكم فى الامم السالفه،و قد تقدمت نظيره الآيه فى أوائل السوره و كان الغرض هناك أن يتبين لهم أن اللّٰه أخذ كلا منهم بذنوبهم لما كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فيكفرون بهم و لذا ذيل الآيه بقوله: «فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ» ، و الغرض هاهنا أن يتبين لهم أنهم لم يغنهم ما كسبوا و لم ينفعهم فى دفع عذاب اللّٰه ما فرحوا به من العلم الذى عندهم و لا توبتهم و ندامتهم مما عملوا.

و قد صدّرت الآيه بفاء التفريع فقيل «أَ فَلَمْ يَسِيرُوا» الخ؛مع الالتفات من الخطاب الى

الغیبه،و کأن الکلام تفریع علی قوله: «فَأَیَّ آیاتِ اللّهِ تُنْکِرُونَ» فکأنه لما ذمهم و أنکر إنکارهم لآیاته رجع و انصرف عنهم الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مشیرا الی سقوطه من منزله الخطاب و قال:إذا کانت آیاته تعالی ظاهره بینه لا تقبل الإنکار و من جملتها ما فی آثار الماضین من الآیات الناطقه و هم قد ساروا فی الأرض و شاهدوها فلم لم ینظروا فیها فیتبین لهم أن الماضین مع کونهم أقوی من هؤلاء کما و کیفا لم ینفعهم ما فرحوا به من علم و قوه.

قوله تعالی: فَلَمّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ الخ؛ضمائر الجمع فی الآیه-و هی سبع-للذین من قبلهم،و المراد بما عندهم من العلم ما وقع فی قلوبهم و شغل نفوسهم من زینه الحیاه الدنیا و فنون التدبیر للظفر بها و بلوغ لذائذها و قد عد اللّه سبحانه ذلک علما لهم و قصر علمهم فیه،قال تعالی: یَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَیاهِ الدُّنْیا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَهِ هُمْ غافِلُونَ (الروم۷/)،و قال: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّی عَنْ ذِکْرِنا وَ لَمْ یُرِدْ إِلاَّ الْحَیاهَ الدُّنْیا ذلِکَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (النجم۳۰/).

و المراد بفرحهم بما عندهم من العلم شده إعجابهم بما کسبوه من الخبره و العلم الظاهری و انجذابهم الیه الموجب لإعراضهم عن المعارف الحقیقه التی جاءت بها رسلهم،و استهانتهم بها و سخریتهم لها،و لذا عقب فرحهم بما عندهم من العلم بقوله: «وَ حاقَ بِهِمْ ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ» .

قوله تعالی: فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَ کَفَرْنا بِما کُنّا بِهِ مُشْرِکِینَ البأس شده العذاب،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: فَلَمْ یَکُ یَنْفَعُهُمْ إِیمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا الخ؛و ذلک لعدم استناد الإیمان حینئذ الی الاختیار،و قوله: «سُنَّتَ اللّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ فِی عِبادِهِ» أی سنها اللّه سنّه ماضیه فی عباده أن لا تقبل توبه بعد رؤیه البأس «وَ خَسِرَ هُنالِکَ الْکافِرُونَ» .

سوره فصلت مکیه و هی اربع و خمسون آیه

اشاره

[سوره فصلت (۴۱): الآیات ۱ الی ۱۲]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;حم (۱) تَنْزِیلٌ مِنَ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِ (۲) کِتابٌ فُصِّلَتْ آیاتُهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۳) بَشِیراً وَ نَذِیراً فَأَعْرَضَ أَکْثَرُهُمْ فَهُمْ لا یَسْمَعُونَ (۴) وَ قالُوا قُلُوبُنا فِی أَکِنَّهٍ مِمّا تَدْعُونا إِلَیْهِ وَ فِی آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَیْنِنا وَ بَیْنِکَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (۵) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُوحی إِلَیَّ أَنَّما إِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِیمُوا إِلَیْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَیْلٌ لِلْمُشْرِکِینَ (۶) اَلَّذِینَ لا یُؤْتُونَ اَلزَّکاهَ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ کافِرُونَ (۷) إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَیْرُ مَمْنُونٍ (۸) قُلْ أَ إِنَّکُمْ لَتَکْفُرُونَ بِالَّذِی خَلَقَ اَلْأَرْضَ فِی یَوْمَیْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِکَ رَبُّ اَلْعالَمِینَ (۹) وَ جَعَلَ فِیها رَواسِیَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَکَ فِیها وَ قَدَّرَ فِیها أَقْواتَها فِی أَرْبَعَهِ أَیّامٍ سَواءً لِلسّائِلِینَ (۱۰) ثُمَّ اسْتَوی إِلَی اَلسَّماءِ وَ هِیَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ اِئْتِیا طَوْعاً أَوْ کَرْهاً قالَتا أَتَیْنا طائِعِینَ (۱۱) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِی یَوْمَیْنِ وَ أَوْحی فِی کُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَیَّنَّا اَلسَّماءَ اَلدُّنْیا بِمَصابِیحَ وَ حِفْظاً ذلِکَ تَقْدِیرُ اَلْعَزِیزِ اَلْعَلِیمِ (۱۲)

ص: ۴۸۷

بیان:

قوله تعالی: حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ خبر مبتدإ محذوف،و المصدر بمعنی المفعول،و التقدیر هذا منزل من الرحمن الرحیم،و التعرض للصفتین الکریمتین:الرحمن الدال علی الرحمه العامه للمؤمن و الکافر،و الرحیم الدال علی الرحمه الخاصه بالمؤمنین للإشاره الی أن هذا التنزیل یصلح للناس دنیاهم کما یصلح لهم آخرتهم.

قوله تعالی: كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ خبر بعد خبر، و التفصیل یقابل الإحکام و الإجمال،و المراد بتفصیل آیات القرآن تمییز أبعاضه بعضها من بعض بإنزاله الی مرتبه البیان بحیث یتمکن السامع العارف بأسالیب البیان من فهم معانیه و تعقل مقاصده و الی هذا یشیر قوله تعالی: كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (هود۱/)،و قوله: وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (الزخرف۴/).

و قوله: «قُرْآناً عَرَبِيًّا» حال من الكتاب أو من آياته،و قوله: «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» اللام للتعليل أو للاختصاص،و مفعول «يَعْلَمُونَ» إما محذوف و التقدير لقوم يعلمون معانيه لكونهم عارفين باللسان الذى نزّل به و هم العرب و إما متروك و المعنى لقوم لهم علم.

و لازم المعنى الأول أن يكون هناك عنايه خاصه بالعرب فى نزول القرآن عربيا و هو الذى يشعر به أيضا قوله الآتى: «وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقٰالُوا لَوْ لاٰ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ» الآيه؛و قريب منه قوله: وَ لَوْ نَزَّلْنٰاهُ عَلىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (الشعراء/۱۹۹).

و لا ينافى ذلك عموم دعوته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعامه البشر لأن دعوته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانت مرتبه على مراحل فأول ما دعا الناس بالموسم فقوبل بإنكار شديد منهم ثم كان يدعو بعد ذلك سرا مده ثم أمر بدعوه عشيرته الأقربين كما يشير اليه قوله تعالى: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (الشعراء/۲۱۴)ثم أمر بدعوه قومه كما يشير اليه قوله: فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (الحجر/۹۴)ثم أمر بدعوه الناس عامه كما يشير اليه قوله: قُلْ يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً (الأعراف/۱۵۸)،و قوله: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ (الأنعام/۱۹).

على أن من المسلّم تاريخا أنه كان من المؤمنين به سلمان و كان فارسيا،و بلال و كان حبشيا، و صهيب و كان روميا،و دعوته لليهود و وقائعه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معهم،و كذا كتابه الى ملك إيران و مصر و حبشه و الروم فى دعوتهم الى الإسلام كل ذلك دليل على عموم الدعوه.

قوله تعالى: بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ «بَشِيراً وَ نَذِيراً» حالان من الكتاب فى الآيه السابقه،و المراد بالسمع المنفى سمع القبول كما يدل عليه قرينه الإعراض.

قوله تعالى: وَ قٰالُوا قُلُوبُنٰا فِي أَكِنَّةٍ مِمّٰا تَدْعُونٰا إِلَيْهِ الى آخر الآيه؛قال

الراغب:الكن ما يحفظ فيه الشىء.قال:الكنان الغطاء الذى يكن فيه الشىء و الجمع أكنه نحو غطاء و أغطيه قال تعالى: «وَ جَعَلْنا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ» .انتهى.

فقوله: قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمّا تَدْعُونا إِلَيْهِ كنايه عن كون قلوبهم بحيث لا تفقه ما يدعو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اليه من التوحيد كأنها مغطاه بأغطيه لا يتطرق إليها شىء من خارج.

و قوله: وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ أى ثقل من الصمم فلا تسمع شيئا من هذه الدعوه، و قوله: «وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ» أى حاجز يحجزنا منك فلا نجتمع معك على شىء مما تريد فقد أيأسوه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبول دعوته بما أخبروه أولا بكون قلوبهم فى أكنه فلا تقع فيها دعوته حتى يفقهوها،و ثانيا بكون طرق ورودها الى القلوب و هى الآذان مسدوده فلا تلجها دعوه و لا ينفذ منها إنذار و تبشير،و ثالثا بأن بينهم و بينه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حجابا مضروبا لا يجمعهم معه جامع و فيه تمام الإياس.

و قوله: فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ تفريع على ما سبق،و لا يخلو من شوب تهديد، و عليه فالمعنى إذا كان لا سبيل الى التفاهم بيننا فاعمل بما يمكنك العمل به فى إبطال أمرنا إننا عاملون فى إبطال أمرك.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّما إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ فى مقام الجواب عن قولهم: «قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمّا تَدْعُونا إِلَيْهِ» على ما يعطيه السياق فمحصله قل لهم:إنما أنا بشر مثلكم أعاشركم كما يعاشر بعضكم بعضا و أكلمكم كما يكلم أحدكم صاحبه فلست من جنس يباينكم كالملك حتى يكون بينى و بينكم حجاب مضروب أو لا ينفذ كلامى فى آذانكم أو لا يرد قولى فى قلوبكم غير أن الذى أقول لكم و أدعوكم اليه وحى يوحى إلىّ و هو أنما إلهكم الذى يستحق أن تعبدوه إله واحد لا آلهه متفرقون.

و قوله: فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ أى فإذا لم يكن إلا إلها واحدا لا شريك له

فاستووا اليه بتوحيده و نفى الشركاء عنه و استغفروه فيما صدر عنكم من الشرك و الذنوب.

قوله تعالى: وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰافِرُونَ تهديد للمشركين الذين يثبتون للّه شركاء و لا يوحدونه،و قد وصفهم من أخص صفاتهم بصفتين هما عدم إيتائهم الزكاه و كفرهم بالآخره.

و المراد بإيتاء الزكاه مطلق إنفاق المال للفقراء و المساكين لوجه اللّه فإن الزكاه بمعنى الصدقه الواجبه فى الإسلام لم تكن شرعت بعد عند نزول السوره و هى من أقدم السور المكيه.

و قوله: وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰافِرُونَ وصف آخر للمشركين هو من لوازم مذهبهم و هو إنكار المعاد،و لذلك أتى بضمير النصل ليفيد أنهم معروفون بالكفر بالآخره.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ أى غير مقطوع بل متصل دائم كما فسره بعضهم،و فسره آخرون بغير معدود كما قال تعالى:

يُرْزَقُونَ فِيهٰا بِغَيْرِ حِسٰابٍ (المؤمن۴۰/).

و جوّز أن يكون المراد أنه لا أذى فيه من المن الذى يكدر الصنيعه،و يمكن أن يوجه هذا الوجه بأن فى تسميه ما يؤتونه بالأجر دلاله على ذلك لإشعاره بالاستحقاق و إن كان هذا الاستحقاق بجعل من اللّه تعالى لا لهم من عند أنفسهم قال تعالى: إِنَّ هٰذٰا كٰانَ لَكُمْ جَزٰاءً وَ كٰانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (الدهر۲۲/).

و قوله تعالى: قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدٰاداً الآيه؛أمره ثانيا أن يستفهم عن كفرهم باللّه بمعنى شركهم مع ظهور آيات وحدانيه فى خلق السماوات و الأرض و تدبير أمرهما بعد ما أمره أولا بدفع قولهم:

«قُلُوبُنٰا فِي أَكِنَّةٍ» الخ.

و الاستفهام للتعجيب و لذا أكد المستفهم عنه بإن و اللام كأن المستفهم لا يكاد يذعن

بکفرهم باللّه و قولهم بالأنداد مع ظهور المحجّه و استقامه الحجه.

و قوله: وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً تفسیر لقوله: «لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِی خَلَقَ الْأَرْضَ» الخ؛ و الأنداد جمع ند و هو المثل،و المراد بجعل الأنداد له اتخاذ شرکاء له یماثلونه فی الربوبیه و الالوهیه.

و قوله: ذٰلِکَ رَبُّ الْعٰالَمِینَ فی الإشاره بلفظ البعید رفع لساحته تعالی و تنزیهه عن أمثال هذه الأوهام فهو رب العالمین المدبر لأمر الخلق أجمعین فلا مسوّغ لأن یتوهم ربّا آخر سواه و إلها آخر غیره.

و المراد بالیوم فی قوله: «خَلَقَ الْأَرْضَ فِی یَوْمَیْنِ» برهه من الزمان دون مصداق الیوم الذی نعهده و نحن علی بسیط أرضنا هذه و هو مقدار حرکه الکره الأرضیه حول نفسها مره واحده فإنه ظاهر الفساد،و إطلاق الیوم علی قطعه من الزمان تحوی حادثه من الحوادث کثیر الورود شائع الاستعمال،و من ذلک قوله تعالی: وَ تِلْکَ الْأَیّٰامُ نُدٰاوِلُهٰا بَیْنَ النّٰاسِ (آل عمران۱۴۰/)،و قوله: فَهَلْ یَنْتَظِرُونَ إِلاّٰ مِثْلَ أَیّٰامِ الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ (یونس/ ۱۰۲)،و غیر ذلک.

فالیومان اللذان خلق اللّه فیهما الأرض قطعتان من الزمان تم فیهما تکوّن الأرض أرضا تامه،و فی عدهما یومین لا یوما واحدا دلیل علی أن الأرض لاقت زمان تکونها الأوّلی مرحلتین متغایرتین کمرحله النیء و النضج أو الذوبان و الانعقاد أو نحو ذلک.

قوله تعالی: وَ جَعَلَ فِیهٰا رَوٰاسِیَ مِنْ فَوْقِهٰا الی آخر الآیه.معطوف علی قوله:

«خَلَقَ الْأَرْضَ فِی یَوْمَیْنِ» و لا ضیر فی تخلل الجملتین «وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدٰاداً ذٰلِکَ رَبُّ الْعٰالَمِینَ» بین المعطوف و المعطوف علیه لأن الاولی تفسیر لقوله: «لَتَكْفُرُونَ» و الثانیه تقریر للتعجیب الذی فیده الاستفهام.

و الرواسی صفه لموصوف محذوف و التقدیر جبالا رواسی أی ثابتات علی الأرض و ضمائر

التأنيث الخمس فی الآیه للأرض.

و قوله: وَ بٰارَکَ فِیهٰا أی جعل فیها الخیر الکثیر الذی ینتفع به ما علی الأرض من نبات و حیوان و إنسان فی حیاته أنواع الانتفاعات.

و قوله: وَ قَدَّرَ فِیهٰا أَقْوٰاتَهٰا فِی أَرْبَعَهِ أَیّٰامٍ سَوٰاءً لِلسّٰائِلِینَ قیل:الظرف أعنی قوله: «فِی أَرْبَعَهِ أَیّٰامٍ» بتقدیر مضاف و هو متعلق بقدّر،و التقدیر قدر الأقوات فی تتمه أربعه أیام من حین بدء الخلق-فیومان لخلق الأرض و یومان-و هما تتمه أربعه أیام- لتقدیر الأقوات.

و الذی ذکر فی هذه الآیات من أیام خلق السماوات و الأرض أربعه أیام یومان لخلق الأرض و یومان لتسویه السماوات سبعا بعد کونها دخانا و أما أیام الأقوات فقد ذکرت أیاما لتقدیرها لا لخلقها،و ما تکرر فی کلامه تعالی هو خلق السماوات و الأرض فی سته أیام لا مجموع خلقها و تقدیر أمرها فالحق أن الظرف قید للجمله الأخیره فقط و لا حذف و لا تقدیر فی الآیه و المراد بیان تقدیر أقوات الأرض و أرزاقها فی الفصول الأربعه من السنه.

و قوله: سَوٰاءً لِلسّٰائِلِینَ مفعول مطلق لفعل مقدر أی استوت الأقوات المقدره استواء للسائلین أو حال من الأقوات أی قدرها حال کونها مستویه للسائلین یقتاتون بها جمیعا و تکفیهم من دون زیاده أو نقیصه.

و السائلون هم أنواع النبات و الحیوان و الإنسان فإنهم محتاجون فی بقائهم الی الأرزاق و الأقوات فهم سائلون ربهم (1)قال تعالی: یَسْئَلُهُ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (الرحمن/ ۲۹)،و قال: وَ آتٰاکُمْ مِنْ کُلِّ مٰا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهیم۳۴/).

---

۱ – ۱) .ظاهر الآیتین و إن کان اختصاصهما بذوی العقول لکنهما و خاصه الثانیه تفیدان إن المراد بالسؤال هو الحاجه و الاستعداد و علیه فالآیه تعم النبات و الاتیان بضمیر اولی العقل للتغلیب.

قوله تعالی: ثُمَّ اسْتَوی إِلَی السَّماءِ وَ هِیَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِیا طَوْعاً أَوْ کَرْهاً قالَتا أَتَیْنا طائِعِینَ الاستواء-علی ما ذکره الراغب-إذا عدّی بعلی أفاد معنی الاستیلاء نحو الرحمن علی العرش استوی،و إذا عدی بإلی أفاد معنی الانتهاء الیه.

و أیضا فی المفردات أن الکره بفتح الکاف المشقه التی تنال الإنسان من خارج فیما یحمل علیه بإکراه،و الکره بضم الکاف ما تناله من ذاته و هو یعافه.

فقوله: «ثُمَّ اسْتَوی إِلَی السَّماءِ» أی توجه إلیها و قصدها بالخلق دون القصد المکانی الذی لا یتم إلا بانتقال القاصد من مکان الی مکان و من جهه الی جهه لتنزهه تعالی عن ذلک.

و ظاهر العطف بثم تأخر خلق السماوات عن الأرض لکن قیل:إن «ثُمَّ» لإفاده التراخی بحسب الخبر لا بحسب الوجود و التحقق و یؤیده قوله تعالی: أَمِ السَّماءُ بَناها -إلی أن قال- وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِکَ دَحاها أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها وَ الْجِبالَ أَرْساها (النازعات۳۲/) فإنه یفید تأخر الأرض عن السماء خلقا.

و الاعتراض علیه بأن مفاده تأخر دحو الأرض عن بناء السماء و دحوها غیر خلقها مدفوع بأن الأرض کرویه فلیس دحوها و بسطها غیر تسویتها کره و هو خلقها علی أنه تعالی أشار بعد ذکر دحو الأرض الی إخراج مائها و مرعاها و إرساء جبالها و هذه بعینها جعل الرواسی من فوقها و المبارکه فیها و تقدیر أقواتها التی ذکرها فی الآیات التی نحن فیها مع خلق الأرض و عطف علیها خلق السماء بثم فلا مناص عن حمل ثم علی غیر التراخی الزمانی فإن قوله فی آیه النازعات: بَعْدَ ذلِکَ أظهر فی التراخی الزمانی من لفظه «ثُمَّ» فیه فی آیه حم السجده و اللّه أعلم.

و قوله: وَ هِیَ دُخانٌ حال من السماء أی استوی الی السماء بالخلق حال کونها شیئا سماه اللّه دخانا و هو مادتها التی ألبسها الصوره و قضاها سبع سماوات بعد ما لم تکن معدوده

متميزا بعضها من بعض،و لذا أفرد السماء فقال: «اسْتَوىٰ إِلَى السَّمٰاءِ» .

و قوله: فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيٰا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً تفريع على استوائه الى السماء و المورد مورد التكوين بلا شك فقوله لها و للأرض: «ائْتِيٰا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً» كلمه إيجاد و أمر تكوينى كقوله لشىء أراد وجوده:كن،قال تعالى: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ (يس٨٣/).

و مجموع قوله لهما: «ائْتِيٰا» الخ؛و قولهما له: «أَتَيْنٰا» الخ؛تمثيل لصفه الإيجاد و التكوين على الفهم الساذج العرفى و حقيقه تحليليه بناء على ما يستفاد من كلامه تعالى من سرايه العلم فى الموجودات و كون تكليم كل شىء بحسب ما يناسب حاله،و قد أوردنا بعض الكلام فيه فيما تقدم من المباحث،و سيجىء شطر من الكلام فيه فى تفسير قوله: قٰالُوا أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (الآيه ٢١ من السوره)إن شاء اللّه.

و فى قوله: اِئْتِيٰا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً إيجاب الإتيان عليهما و تخييرهما بين أن تفعلا ذلك بطوع أو كره،و لعل المراد بالطوع و الكره-و هما بوجه قبول الفعل و نوع ملاءمه و عدمه-هو الاستعداد السابق للكون و عدمه فيكون قوله: «ائْتِيٰا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً» كنايه عن وجوب إتيانهما بلا مناص و أنه أمر لا يتخلف البته أرادنا أو كرهتا سألتاه أو لم تسألا فأجابتا أنهما يمتثلان الأمر عن استعداد سابق و قبول ذاتى و سؤال فطرى إذ قالتا:أتينا طائعين.

و قوله: قٰالَتٰا أَتَيْنٰا طٰائِعِينَ جواب السماء و الأرض لخطابه تعالى باختيار الطوع، و التعبير باللفظ الخاص بأولى العقل-طائعين-لمكان المخاطبه و الجواب و هما من خواص أولى العقل،و التعبير بلفظ الجمع دون أن تقولا:أتينا طائعتين لعله تواضع منهما بعدّ أنفسهما غير متميزه من سائر مخلوقاته تعالى المطيعه لأمره فأجابتا عن لسان الجميع،نظير ما قيل فى قوله تعالى: إِيّٰاكَ نَعْبُدُ وَ إِيّٰاكَ نَسْتَعِينُ (الحمد٥/).

ثم إن تشريك الأرض مع السماء فى خطاب «ائْتِيٰا» الخ؛مع ذكر خلقها و تدبير أمرها قبلا لا

يخلو من إشعار بأن بينهما نوع ارتباط فى الوجود و اتصال فى النظام الجارى فيهما و هو كذلك فإن الفعل و الانفعال و التأثير و التأثر دائر بين أجزاء العالم المشهود.

و فى قوله: فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ تلويح على اى حال إلى كون «ثُمَّ» فى قوله: «ثُمَّ اسْتَوىٰ» للتراخى بحسب رتبه الكلام.

قوله تعالى: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا الأصل فى معنى القضاء فصل الأمر،و ضمير«هن»للسماء على المعنى،و «سَبْعَ سَمَاوَاتٍ» حال من الضمير و «فِي يَوْمَيْنِ» متعلق بقضاهن فتفيد الجمله أن السماء لما استوى سبحانه إليها و هى دخان كان أمرها مبهما غير مشخص من حيث فعليه الوجود ففصل تعالى أمرها بجعلها سبع سماوات فى يومين.

و الآيه و ما قبلها ناظره الى تفصيل ما أجمل فى قوله: أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا (الأنبياء/٣٠).

و قوله: وَ أَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا قيل:المراد بأمر السماء ما تستعد له أو تقتضيه الحكمه فيها من وجود ملك أو كوكب و ما أشبه ذلك،و الوحى هو الخلق الإيجاد، و الجمله معطوفه على قوله: «فَقَضَاهُنَّ» مقيده بالوقت المذكور للمعطوف عليه،و المعنى و خلق فى كل سماء ما فيها من الملائكه و الكواكب و غيرها.

و أنت خبير بأن إراده الخلق من الوحى و أمثال الملك و الكوكب من الأمر تحتاج الى عنايه زائده لا تثبت إلا بدليل بيّن،و كذا تقيد الجمله المعطوفه بالوقت المذكور فى المعطوف عليها.

و قيل:المراد بالأمر التكليف الإلهى المتوجه الى أهل كل سماء من الملائكه و الوحى بمعناه المعروف و المعنى و أوحى الى أهل كل سماء من الملائكه ما أمرهم به من العباده.

و فيه أن ظاهر الآيه و قد قال تعالى: «فِي كُلِّ سَمَاءٍ» و لم يقل:الى كل سماء لا يوافقه

تلك الموافقه.

و قيل:المراد بأمرها ما أراده اللّه منها،و هذا الوجه فى الحقيقه راجع الى أحد الوجهين السابقين فإن أريد بالوحى الخلق و الإيجاد رجع الى أول الوجهين و إن أريد به معناه المعروف رجع الى ثانيهما.

و الذى وقع فى كلامه تعالى من الأمر المتعلق بوجه بالسماء يلوّح الى معنى أدق مما ذكروه فقد قال تعالى: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمٰاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ (الم السجده/۵)،و قال:

اَللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ (الطلاق/۱۲)، و قال: وَ لَقَدْ خَلَقْنٰا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرٰائِقَ وَ مٰا كُنّٰا عَنِ الْخَلْقِ غٰافِلِينَ (المؤمنون/۱۷).

دلت الآيه الاولى على أن السماء مبدأ لأمره تعالى النازل الى الأرض بوجه و الثانيه على أن الأمر يتنزل بين السماوات من سماء الى سماء حتى ينتهى الى الأرض،و الثالثه على أن السماوات طرائق لسلوك الأمر من عند ذى العرش أو لسلوك الملائكه الحاملين للأمر الى الأرض كما يشير اليه قوله: تَنَزَّلُ الْمَلاٰئِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيهٰا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (القدر/۴)،و قوله:

فِيهٰا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (الدخان/۴).

و لو كان المراد بالأمر أمره تعالى التكوينى و هو كلمه الإيجاد كما يستفاد من قوله: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ (يس/۸۲)،أفادت الآيات بانضمام بعضها الى بعض أن الأمر الإلهى الذى مضيه فى العالم الأرضى هو خلق الأشياء و حدوث الحوادث تحمله الملائكه من عند ذى العرش تعالى و تسلك فى تنزيله طرق السماوات فتنزله من سماء الى سماء حتى تنتهى به الى الأرض.

و إنما تحمله ملائكه كل سماء الى من دونهم كما يستفاد من قوله: حَتّٰى إِذٰا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قٰالُوا مٰا ذٰا قٰالَ رَبُّكُمْ قٰالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (سبأ/۲۳)و قد تقدم الكلام فيه و السماوات مساكن الملائكه كما يستفاد من قوله: وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰاوٰاتِ (النجم/

۲۶)،و قوله: لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلىٰ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جٰانِبٍ (الصافات/۸).

فللأمر نسبه الى كل سماء باعتبار الملائكه الساكنين فيها،و نسبه الى كل قبيل من الملائكه الحاملين له باعتبار تحميله لهم و هو وحيه اليهم فإن اللّه سبحانه سماه قولا كما قال: إِنَّمٰا قَوْلُنٰا لِشَيْءٍ إِذٰا أَرَدْنٰاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ (النحل/۴۰).

فتحصّل بما مر أن معنى قوله: «وَ أَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا» أوحى فى كل سماء الى أهلها من الملائكه الأمر الإلهى.المنسوب الى تلك السماء المتعلق بها،و أما كون اليومين المذكورين فى الآيه ظرفا لهذا الوحى كما هما ظرف لخلق السماوات سبعا فلا دليل عليه من لفظ الآيه.

قوله تعالى: وَ زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِمَصٰابِيحَ وَ حِفْظاً ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم توصيف هذه السماء بالدنيا للدلاله على أنها أقرب السماوات من الأرض و هى طباق بعضها فوق بعض كما قال: خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ طِبٰاقاً (الملك/۳).

و الظاهر من معنى تزيينها بمصابيح و هى الكواكب كما قال: إِنّٰا زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِزِينَةٍ الْكَوٰاكِبِ (الصافات/۶)أن الكواكب فى السماء الدنيا أو دونها كالقناديل المعلقه و لو كانت متفرقه فى جميع السماوات من غير حجب بعضها بعضا لكون السماوات شفافه كما قيل كانت زينه لجميعها و لم تختص الزينه ببعضها كما يفيده السياق فلا وجه لقول القائل:إنها فى الجميع لكن لكونها ترى متلألئه على السماء الدنيا عدّت زينه لها.

و أما قوله: أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّٰهُ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ طِبٰاقاً وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرٰاجاً (نوح/۱۶)فهو بالنسبه الينا معاشر المستضيئين بالليل و النهار كقوله:

وَ جَعَلْنٰا سِرٰاجاً وَهّٰاجاً (النبأ/۱۳).

و قوله: «ذٰلِکَ تَقْدِیرُ اَلْعَزِیزِ اَلْعَلِیمِ» إشاره الی ما تقدم من النظم و الترتیب (۱)(۲).

[سوره فصلت (۴۱): الآیات ۱۳ الی ۲۵]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُکُمْ صٰاعِقَهً مِثْلَ صٰاعِقَهِ عٰادٍ وَ ثَمُودَ (۱۳) إِذْ جٰاءَتْهُمُ اَلرُّسُلُ مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اَللّٰهَ قٰالُوا لَوْ شٰاءَ رَبُّنٰا لَأَنْزَلَ مَلاٰئِکَهً فَإِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ کٰافِرُونَ (۱۴) فَأَمّٰا عٰادٌ فَاسْتَکْبَرُوا فِی اَلْأَرْضِ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ وَ قٰالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّٰا قُوَّهً أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اَللّٰهَ اَلَّذِی خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّهً وَ کٰانُوا بِآیٰاتِنٰا یَجْحَدُونَ (۱۵) فَأَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمْ رِیحاً صَرْصَراً فِی أَیّٰامٍ نَحِسٰاتٍ لِنُذِیقَهُمْ عَذٰابَ اَلْخِزْیِ فِی اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ لَعَذٰابُ اَلْآخِرَهِ أَخْزیٰ وَ هُمْ لاٰ یُنْصَرُونَ (۱۶) وَ أَمّٰا ثَمُودُ فَهَدَیْنٰاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا اَلْعَمیٰ عَلَی اَلْهُدیٰ فَأَخَذَتْهُمْ صٰاعِقَهُ اَلْعَذٰابِ اَلْهُونِ بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ (۱۷) وَ نَجَّیْنَا اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ (۱۸) وَ یَوْمَ یُحْشَرُ أَعْدٰاءُ اَللّٰهِ إِلَی اَلنّٰارِ فَهُمْ یُوزَعُونَ (۱۹) حَتّٰی إِذٰا مٰا جٰاؤُهٰا شَهِدَ عَلَیْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصٰارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۲۰) وَ قٰالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَیْنٰا قٰالُوا أَنْطَقَنَا اَللّٰهُ اَلَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ وَ هُوَ خَلَقَکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۲۱) وَ مٰا کُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ یَشْهَدَ عَلَیْکُمْ سَمْعُکُمْ وَ لاٰ أَبْصٰارُکُمْ وَ لاٰ جُلُودُکُمْ وَ لٰکِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَعْلَمُ کَثِیراً مِمّٰا تَعْمَلُونَ (۲۲) وَ ذٰلِکُمْ ظَنُّکُمُ اَلَّذِی ظَنَنْتُمْ بِرَبِّکُمْ أَرْدٰاکُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ اَلْخٰاسِرِینَ (۲۳) فَإِنْ یَصْبِرُوا فَالنّٰارُ مَثْویً لَهُمْ وَ إِنْ یَسْتَعْتِبُوا فَمٰا هُمْ مِنَ اَلْمُعْتَبِینَ (۲۴) وَ قَیَّضْنٰا لَهُمْ قُرَنٰاءَ فَزَیَّنُوا لَهُمْ مٰا بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَیْهِمُ اَلْقَوْلُ فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ إِنَّهُمْ کٰانُوا خٰاسِرِینَ (۲۵)

۱- ۱) .حم السجده ۱-۱۲:بحث فی السماوات السبع.

۲- ۲) .حم السجده ۱-۱۲:بحث روائی حول:قصه اجتماع قریش و ارسالها عتبه بن ربیعه الی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؛خلق السماوات و الارض؛امان اهل السماء؛امان اهل الارض.

بیان:

قوله تعـالی: فَـإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْـذَرْتُکُمْ صٰاعِقَةً مِثْلَ صٰاعِقَةِ عٰادٍ وَ ثَمُودَ قال فی المجمع:الصاعقه المهلکه من کل شـیء انتهی،و قال الراغب:قال بعض أهل

ص: ۵۰۰

اللغه:الصاعقه على ثلاثه أوجه:الموت كقوله: «فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ» و قوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصّٰاعِقَةُ» و العذاب كقوله: «أَنْذَرْتُكَمْ صٰاعِقَةً مِثْلَ صٰاعِقَهِ عٰادٍ وَ ثَمُودَ» و النار كقوله:

«وَ يُرْسِلُ الصَّوٰاعِقَ فَيُصِيبُ بِهٰا مَنْ يَشٰاءُ» و ما ذكره فهو أشياء حاصله من الصاعقه فإن الصاعقه هی الصوت الشديد من الجو ثم يكون نار فقط أو عذاب أو موت و هی فی ذاتها شیء واحد،و هذه الأشياء تأثيرات منها.انتهى.

و على ما مر تنطبق الصاعقه على عذابی عاد و ثمود و هما الريح و الصيحه،و التعبير بالماضی فی قوله: «أَنْذَرْتُكُمْ» للدلاله على التحقق و الوقوع.

قوله تعالى: إِذْ جٰاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّٰهَ الخ؛ظرف لصاعقه الثانيه فإن الإنذار بالصاعقه بالحقيقه إنذار بوقوعها و حلولها فالمعنى مثل حلول صاعقه عاد و ثمود إذ جاءتهم،الخ.

و نسبه المجیء الى الرسل و هو جمع-مع أن الذی ذكر فی قصتهم رسولان هما هود و صالح- باعتبار أن الرسل دعوتهم واحده و المبعوث منهم الى قوم مبعوث لآخرين و كذا القوم المكذبون لأحدهم مكذبون لآخرين قال تعالى: كَذَّبَتْ عٰادٌ الْمُرْسَلِينَ (الشعراء۱۲۳/) و قال: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (الشعراء۱۴۱/)،و قال: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (الشعراء ۱۶۰/)الى غير ذلك.

و قول بعضهم:إن إطلاق الرسل و هو جمع على هود و صالح عليهما السّلام و هما اثنان من إطلاق الجمع على ما دون الثلاثه و هو شائع،و من هذا القبيل إرجاع ضمير الجمع فی قوله: «إِذْ جٰاءَتْهُمُ» الى عاد و ثمود.

ممنوع بما تقدم،و أما إرجاع ضمير الجمع الى عاد و ثمود فإنما هو لكون مجموع الجمعين جمعا مثلهما.

و قوله: مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أی من جميع الجهات فاستعمال هاتين

الجهتين فى جميع الجهات شائع،و جوّز أن يكون المراد به الماضى و المستقبل فقوله: «جٰاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» كنايه عن دعوتهم لهم من جميع الطرق الممكنه خلوه و جلوه و فرادى و مجتمعين بالتبشير و الإنذار و لذلك فسر مجيئهم كذلك بعد بقوله: «أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّٰهَ» و هو التوحيد.

و قوله: قٰالُوا لَوْ شٰاءَ رَبُّنٰا لَأَنْزَلَ مَلاٰئِكَةً رد منهم رسالتهم بأن اللّه لو شاء إرسال رسول الينا لأرسل من الملائكه،و قد تقدم كرارا معنى قولهم هذا و أنه مبنى على إنكارهم نبوه البشر.

و قوله: «فَإِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ» تفريع على النفى المفهوم من الجمله السابقه أى فإذا لم يشأ و لم يرسل فإنا بما أرسلتم به و هو التوحيد كافرون.

قوله تعالى: فَأَمّٰا عٰادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ الخ؛رجوع الى تفصيل حال كل من الفريقين على حدته،من كفرهم و وبال ذلك،و قوله: «بِغَيْرِ الْحَقِّ» قيد توضيحى للاستكبار فى الأرض فإنه بغير الحق دائما،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيّٰامٍ نَحِسٰاتٍ الخ؛فسر الصرصر بالريح الشديده السموم،و بالريح الشديده البرد،و بالريح الشديده الصوت و تلازم شده الهبوب،و النحسات بكسر الحاء صفه مشبهه من نحس ينحس نحسا خلاف سعد فالأيام النحسات الأيام المشئومات.

و قيل:أيام نحسات أى ذوات الغبار و التراب لا يرى فيها بعضهم بعضا،و يؤيده قوله فى سوره الأحقاف: فَلَمّٰا رَأَوْهُ عٰارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قٰالُوا هٰذٰا عٰارِضٌ مُمْطِرُنٰا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهٰا عَذٰابٌ أَلِيمٌ (الأحقاف۲۴/).

و قوله: «وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ» أى لا منج ينجيهم و لا شفيع يشفع لهم.و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: وَ أَمّٰا ثَمُودُ فَهَدَيْنٰاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمىٰ عَلَى الْهُدىٰ الخ؛المراد

بهـدايتهم إراءتهم الطريـق و دلالـتهم على الحق ببيـان حق الاعتقـاد و العمـل لهم،و المراد بالاسـتحباب الإيثـار و الاختيـار،و لعله بالتضـمين و لذا عدى الى المفعول الثانى بعلى و المراد بالعمى الضـلال اسـتعاره،و فى مقابله الهدى له إيماء الى أن الهدى بصـر كما أن الضـلاله عمى، و الهون مصـدر بمعنى الـذل و توصـيف العـذاب به للمبالغه أو بحذف ذى و التقدير صاعقه العذاب ذى الهون.

و المعنى:و أما قوم ثمود فـدللناهم على طريق الحق و عرّفناهم الهـدى بتمييزه من الضـلال فاختاروا الضـلال الـذى هو عمى على الهـدى الـذى هو بصـر فأخذتهم صيحه العذاب ذى المذله-أو أخذهم العذاب بناء على كون الصاعقه بمعنى العذاب و الإضافه بيانيه-بما كانوا يكسبون.

قـوله تعـالى: وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ ضم التقـوى الى الإيمـان معـبرا عن التقوى بقوله: «وَ كَانُوا يَتَّقُونَ» الـدال على الاسـتمرار للـدلاله على جمعهم بين الإيمان و العمل الصالـح و ذلك هو السـبب لنجاتهم من عذاب الاستئصال على ما وعده اللّه بقوله:

وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم/۴۷).

و الظاهر أن الآيه متعلقه بالقصتين جميعا متممه لهما و إن كان ظاهر المفسرين تعلقها بالقصه الثانيه.

قـوله تعـالى: وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللّهِ إِلَى النّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ الحشـر إخراج الجمـاعه عن مقرهم و إزعـاجهم عنه الى الحرب و نحوها.كذا قال الراغب،و «يُوزَعُونَ» من الوزع و هو حبس أول القوم ليلحق بهم آخرهم فيجتمعوا.

و المراد بأعـداء اللّه-على ما قيل-المكـذبون بالنبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم من مشـركى قومه لا مطلق الكفار و الـدليل عليه قوله الآتى: «وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ» الآيه.

قوله تعالى: حَتّى إِذا مَا جَاؤُهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ

بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ

«مٰا» فى «إِذٰا مٰا جٰاؤُهٰا» زائده للتأكيد و الضمير للنار.

و شهاده الأعضاء أو القوى يوم القيامه ذكرها و إخبارها ما تحملته فى الدنيا من معصيه صاحبها فهى شهاده أداء لما تحملته،و لو لا التحمل فى الدنيا حين العمل كما لو جعل اللّه لها شعورا و نطقا يوم القيامه فعلمت ثم أخبرت بما عملته أو أوجد اللّه عندها صوتا يفيد معنى الإخبار من غير شعور منها به لم يصدق عليه الشهاده،و لا تمت بذلك على العبد المنكر حجه و هو ظاهر.

و ظاهر الآيه أن شهاده السمع و البصر أداؤهما ما تحملاه و إن لم يكن معصيه مأتيا بها بواسطتهما كشهاده السمع أنه سمع آيات اللّه تتلى عليه فأعرض عنها صاحبه أو أنه سمع صاحبه يتكلم بكلمه الكفر،و شهاده البصر أنه رأى الآيات الداله على وحدانيه اللّه تعالى فأعرض عنها صاحبه أو أنه رأى صاحبه يستمع الى الغيبه أو سائر ما يحرم الإصغاء اليه فتكون الآيه على حد قوله تعالى: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤٰادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كٰانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (الإسراء/۳۶).

و على هذا يختلف السمع و الأبصار و الجلود فيما شهدت عليه فالسمع و الأبصار تشهد على معصيه العبد و إن لم تكن بسببهما و الجلود تشهد على المعصيه التى كانت هى آلات لها بالمباشره،و هذا الفرق هو السبب لتخصيصهم الجلود بالخطاب فى قولهم: «لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنٰا» على ما سيجىء.

و المراد بالجلود على ظاهر إطلاق الآيه مطلق الجلود و شهادتها على أنواع المعاصى التى تتم بالجلود من التمتعات المحرمه كالزنا و نحوه،و يمكن حينئذ أن تعمم الجلود بحيث تشتمل شهادتها ما شهدت الأيدى و الأرجل المذكوره فى قوله: اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلىٰ أَفْوٰاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنٰا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ (يس/۶۵)على بعد.

و قيل:المراد بالجلود الفروج و قد كنى بها عنها تأدبا.

ص :۵۰۴

قوله تعالی: وَ قٰالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنٰا اعتراض و عتاب منهم لجلودهم فی شهادتها علیهم،و قیل:الاستفهام للتعجب فهو سؤال عن السبب لرفع التعجب و إنما خصوها بالسؤال دون سمعهم و أبصارهم مع اشتراکها فی الشهاده لأن الجلود شهدت علی ما کانت هی بنفسها أسبابا و آلات مباشره له بخلاف السمع و الأبصار فإنها کسائر الشهداء تشهد بما ارتکبه غیرها.

و قیل:تخصیص الجلود بالذکر تقریع لهم و زیاده تشنیع و فضاحه و خاصه لو کان المراد بالجلود الفروج و قیل غیر ذلک.

قوله تعالی: قٰالُوا أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ الخ؛إرجاع ضمیر اولی العقل الی الجوارح لمکان نسبه الشهاده و النطق إلیها و ذلک من شئون اولی العقل.

و المتیقن من معنی النطق إذا استعمل علی الحقیقه من غیر تجوز هو إظهار ما فی الضمیر من طریق التکلم فیتوقف علی علم و کشفه لغیره،قال الراغب:و لا یکاد یستعمل النطق فی غیر الإنسان إلاّ تبعا و بنوع من التشبیه و ظاهر سیاق الآیات و ما فیها من ألفاظ القول و التکلم و الشهاده و النطق أن المراد بالنطق ما هو حقیقه معناه.

فشهاده الأعضاء علی المجرمین کانت نطقا و تکلما حقیقه عن علم تحملته سابقا بدلیل قولها: «أَنْطَقَنَا اللّٰهُ» .ثم إن قولها: «أَنْطَقَنَا اللّٰهُ» جوابا عن قول المجرمین «لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنٰا» ؟ إراءه منها للسبب الذی أوجب نطقها و کشف عن العلم المدخر عندها المکنون فی ضمیرها فهی ملجأه الی التکلم و النطق،و لا یضر ذلک نفوذ شهادتها و تمام الحجه بذلک فإنها إنما ألجئت الی الکشف عما فی ضمیرها لا علی الستر علیه و الإخبار بخلافه کذبا و زورا حتی ینافی جواز الشهاده و تمام الحجه.

و قوله: اَلَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ توصیف للّه سبحانه و إشاره الی أن النطق لیس مختصا بالأعضاء حتی تختص هی بالسؤال بل هو عام شامل لکل شیء و السبب الموجب له

هو اللّه سبحانه.

و قوله: وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ من تتمه الكلام السابق أو هو من كلامه،و هو احتجاج على علمه بأعمالهم و قد أنطق الجوارح بما علم.

يقول:إن وجودكم يبتدئ منه تعالى و ينتهى اليه تعالى فعند ما تظهرون من كتم العدم -و هو خلقكم أول مره-يعطيكم الوجود و يملككم الصفات و الافعال فتنسب اليكم ثم ترجعون و تنتهون اليه فيرجع ما عندكم من ظاهر الملك الموهوب اليه فلا يبقى ملك إلاّ و هو للّه سبحانه.

فهو سبحانه المالك لجميع ما عندكم أولا و آخرا فما عندكم من شيء فى أول وجودكم هو الذى أعطاكموه و ملكه لكم و هو أعلم بما أعطى و أودع،و ما عندكم من شيء حينما ترجعون اليه هو الذى يقبضه منكم اليه و يملكه فكيف لا يعلمه،و انكشافه له سبحانه حينما يرجع اليه إنطاقه لكم و شهادتكم على أنفسكم عنده.

و بما مر من البيان يظهر وجه تقييد قوله: «وَ هُوَ خَلَقَكُمْ» بقوله: «أَوَّلَ مَرَّةٍ» فالمراد به أول وجودهم (۱)(۲).

قوله تعالى: وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لاٰ أَبْصٰارُكُمْ وَ لاٰ جُلُودُكُمْ الخ؛لا شك أن اللّه سبحانه خالق كل شيء لا موجد غيره فلا يحول بين خلقه و بينه شيء و لا يحجب خلقه من حاجب فهو تعالى مع كل شيء أينما كان و كيفما كان قال تعالى: إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (الحج/۱۷)و قال: وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (الأحزاب/۵۲).

۱- ۱) .حم السجده ۱۳-۲۵:بحث اجمالى قرآنى فى ان العلم سار فى الموجودات عامه.

۲- ۲) .حم السجده ۱۳-۲۵:بحث اجمالى فلسفى فى علم الموجودات.

فالإنسان أينما كان كان اللّه معه،و أی عمل عمله کان اللّه مع عمله،و أی عضو من أعضائه استعمله و أی سبب أو أداه أو طریق اتخذه لعمله کان مع ذلک العضو و السبب و الأداه و الطریق قال تعالی: وَ هُوَ مَعَکُمْ أَیْنَ مٰا کُنْتُمْ (الحدید۴/)،و قال: أَ فَمَنْ هُوَ قٰائِمٌ عَلیٰ کُلِّ نَفْسٍ بِمٰا کَسَبَتْ (الرعد۳۳/)،و قال: إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصٰادِ (الفجر۱۴/).

و من هنا یستنتج أن الإنسان-و هو جار فی عمله-واقع بین مراصد کثیره یرصده من کل منها ربه و یرقبه و یشهده فمرتکب المعصیه و هو متوغل فی سیئته غافل عنه تعالی فی جهل عظیم بمقام ربه و استهانه به سبحانه و هو یرصده و یرقبه.

و هذه الحقیقه هی التی تشیر الیه الآیه أعنی قوله: «وَ مٰا کُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ» الخ؛علی ما یعطیه السیاق.

فقوله: وَ مٰا کُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ نفی لاستتارهم و هم فی المعاصی قبلا و هم فی الدنیا و قوله: «أَنْ یَشْهَدَ» الخ؛منصوب بنزع الخافض و التقدیر من أن یشهد،الخ.

و قوله: وَ لٰکِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللّٰهَ لاٰ یَعْلَمُ استدراک فی معنی الاضطراب عن محذوف یدل علیه صدر الآیه،و التقدیر و لم تظنوا أنها لا تعلم أعمالکم و لکن ظننتم،الخ،و الآیه تقریع و توبیخ للمشرکین أو لمطلق المجرمین یوجه الیهم یوم القیامه من قبله تعالی.

و محصل المعنی و ما کنتم تستخفون فی الدنیا عند المعاصی من شهاده أعضائکم التی تستعملونها فی معصیه اللّه و لم یکن ذلک لظنکم أنها لا إدراک فیها لعملکم بل لظنکم أن اللّه لا یعلم کثیرا مما تعملون أی لم تستهینوا عند المعصیه بشهاده أعضائکم و إنما استهنتم بشهادتنا.

فالاستدراک و معنی الإضراب فی الآیه نظیر ما فی قوله تعالی: وَ مٰا رَمَیْتَ إِذْ رَمَیْتَ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ رَمیٰ (الأنفال۱۷/)،و قوله: وَ مٰا ظَلَمُونٰا وَ لٰکِنْ کٰانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (البقره۵۷/).

و قوله: کَثِیراً مِمّٰا تَعْمَلُونَ و لم یقل:لا یعلم ما تعملون و لعل ذلک لکونهم

معتقـدين باللّه و بصـفاته العليا التى منها العلم فهم يعتقـدون فيه العلم فى الجمله لكن حالهم فى المعاصـى حال من لا يرى علمه بكثير من أعماله.

و يستفاد من الآيه أن شـهاده الشـهود شـهادته تعالى بوجه قال تعالى: وَ لاٰ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّٰ كُنّٰا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ (يونس/۶۱).

و لهم فى توجيه معنى الآيه أقوال أخر لا يساعد عليها السياق و لا تخلو من تكلف أضربنا عن التعرض لها.

قوله تعالى: وَ ذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدٰاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخٰاسِرِينَ الإرداء من الردى بمعنى الهلاك،و «ذٰلِكُمْ ظَنُّكُمْ» مبتدأ و خبر و «أَرْدٰاكُمْ» خبر بعد خبر،و يمكن أن يكون «ظَنُّكُمْ» بدلا من ذلكم.

و معنى الآيه على الأول و ذلكم الظن الذى ذكر ظن ظننتموه لا يغنى من الحق شيئا و العلم و الشهاده على حالها أهلككم ذلك الظن فأصبحتم من الخاسرين.

و على الثانى و ظنكم الـذى ظننتم بربكم أنه لا يعلم كـثيرا ممـا تعملـون اهلككم إذ هون عليكم أمر المعاصـى و أدى بكم إلى الكفر فأصبحتم من الخاسرين.

قوله تعـالى: فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنّٰارُ مَثْوىً لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمٰا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ فى المفردات:الثواء الإقامه مع الاسـتقرار.انتهى،و فى المجمع الاستعتاب طلب العتبى و هى الرضـا و هو الاسترضـاء،و الإعتـاب الإرضاء،و أصل الإعتاب عنـد العرب استصـلاح الجلد بإعادته فى الدباغ ثم استعير فيما يستعطف به البعض بعضا لإعادته ما كان من الألفه.انتهى.

و معنى الآيه فإن يصبروا فالنار مأواهم و مستقرهم و إن يطلبوا الرضـى و يعتـذروا لينجوا من العذاب فليسوا ممن يرضـى عنهم و يقبل إعتابهم و معذرتهم فالآيه فى معنى قوله: اِصْلَوْهٰا فَاصْبِرُوا أَوْ لاٰ تَصْبِرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْكُمْ (الطور/۱۶).

قوله تعالی: وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ الی آخر الآيه؛أصل التقييض-كما فی المجمع-التبديل،و القرناء جمع قرين و هو معروف.

فقوله: وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ إشاره الی أنهم لو آمنوا و اتقوا لأيدهم اللّه بمن يسددهم و يهديهم كما قال: أُولئِكَ كَتَبَ فِی قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ (المجادله۲۲/)لكنهم كفروا و فسقوا فبدل اللّه لهم قرناء من الشياطين يقارنونهم و يلازمونهم،و إنما يفعل ذلک بهم مجازاه لكفرهم و فسوقهم.

و قوله: فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ لعل المراد التمتعات الماديه التی هم مكبون عليها فی الحال و ما تعلقت به آمالهم و أمانيهم فی المستقبل.

و قوله: وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أی ثبت و وجب عليهم كلمه العذاب حالكونهم فی امم مماثلين لهم ماضين قبلهم من الجن و الانس و كلمه العذاب قوله تعالی: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (البقره۳۹/)كقوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص۸۵/).و قوله: «إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ» تعليل لوجوب كلمه العذاب عليهم أو لجميع ما تقدم.

و يظهر من الآيه أن حكم الموت جار فی الجن مثل الإنس.

[سوره فصلت (۴۱): الآيات ۲۶ الی ۳۹]

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (۲۶) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِی كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۷) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللّهِ النّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۲۸) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاّنا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (۲۹) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاّ تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِی كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۳۰) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِی الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِی الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِی أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (۳۱) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (۳۲) وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَی اللّهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِی مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۳۳) وَ لا تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَ لاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِيمٌ (۳۴) وَ ما يُلَقّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقّاها إِلاّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (۳۵) وَ إِمّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۳۶) وَ مِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلّهِ الَّذِی خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ (۳۷) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لا يَسْأَمُونَ (۳۸) وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَی الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِی أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتی إِنَّهُ عَلی كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ (۳۹)

بیان:

قوله تعالی: وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لاٰ تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِیهِ لَعَلَّکُمْ تَغْلِبُونَ اللغو من الأمر ما لا أصل له و من الکلام ما لا معنی له یقال:لغی یلغی و یلغو لغوا أی أتی باللغو،و الإشاره الی القرآن مع ذکر اسمه دلیل علی کمال عنایتهم بالقرآن لإعفاء أثره.

و الآیه تدل علی نهایه عجزهم عن مخاصمه القرآن بإتیان کلام یعادله و یماثله أو إقامه حجه تعارضه حتی أمر بعضهم بعضا أن لا ینصتوا له و یأتوا بلغو الکلام عند قراءه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم القرآن لیختل به قراءته و لا تقرع أسماع الناس آیاته فیلغو أثره و هو الغلبه.

قوله تعالی: فَلَنُذِیقَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا عَذٰاباً شَدِیداً الخ؛اللام للقسم،و المراد بالذین کفروا بحسب مورد الآیه هم الذین قالوا:لا تسمعوا لهذا القرآن و إن کانت الآیه مطلقه بحسب اللفظ.

و قوله: وَ لَنَجْزِیَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِی کٰانُوا یَعْمَلُونَ قیل:المراد العمل السیئ الذی کانوا یعملون بتجرید أفعل عن معنی التفضیل،و قیل:المراد بیان جزاء ما هو أسوأ أعمالهم و سکت عن الباقی مبالغه فی الزجر.

قوله تعالی: ذٰلِکَ جَزٰاءُ أَعْدٰاءِ اللّٰهِ النّٰارُ الخ؛ «ذٰلِکَ جَزٰاءُ» مبتدأ و خبر

ص:۵۱۱

و «النّارُ» بدل أو عطف بيان من «ذٰلِكَ» أو خبر مبتدإ محذوف و التقدير هى النار أو مبتدأ خبره «لَهُمْ فِيهٰا دٰارُ الْخُلْدِ» .

و قوله: لَهُمْ فِيهٰا دٰارُ الْخُلْدِ أى النار محيطه بهم جميعا و لكل منهم فيها دار تخصه خالدا فيها.

و قوله: جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يَجْحَدُونَ مفعول مطلق لفعل مقدر،و التقدير يجزون جزاء أو للمصدر المتقدم أعنى قوله: «ذٰلِكَ جَزٰاءُ» نظير قوله: فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزٰاؤُكُمْ جَزٰاءً مَوْفُوراً (الإسراء۶۳/).

قوله تعالى: وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنٰا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاّٰنٰا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ محكى قول يقولونه و هم فى النار،يسألون اللّه أن يريهم متبوعيهم من الجن و الإنس ليجعلوهما تحت أقدامهم إذلالا لهما و تشديدا لعذابهما كما يشعر به قولهم ذيلا:

«نَجْعَلْهُمٰا تَحْتَ أَقْدٰامِنٰا لِيَكُونٰا مِنَ الْأَسْفَلِينَ» .

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاٰئِكَةُ الخ؛قال الراغب:الاستقامه تقال فى الطريق الذى يكون على خط مستو،و به شبه طريق الحق نحو «اهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ» .قال:و استقامه الإنسان لزومه المنهج المستقيم نحو قوله: «إِنَّ الَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا» .انتهى.و فى الصحاح:الاستقامه الاعتدال يقال:استقام له الأمر.انتهى.

فالمراد بقوله: «ثُمَّ اسْتَقٰامُوا» لزوم وسط الطريق من غير ميل و انحراف و الثبات على القول الذى قالوه،قال تعالى: فَمَا اسْتَقٰامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ (التوبه۷/)و قال:

وَ اسْتَقِمْ كَمٰا أُمِرْتَ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ (الشورى۱۵/)و ما ورد فيها من مختلف التفاسير يرجع الى ما ذكر.

و الآيه و ما يتلوها بيان حسن حال المؤمنين كما كانت الآيات قبلها بيان سوء حال

الکافرین.

و قوله: تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاٰئِكَةُ أَلاّٰ تَخٰافُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ إخبار عما سیستقبلهم به الملائکه من تقویه قلوبهم و تطییب نفوسهم و البشری بالکرامه.

فالملائکه یؤمنونهم من الخوف و الحزن،و الخوف إنما یکون من مکروه متوقع کالعذاب الذی یخافونه و الحرمان من الجنه الذی یخشونه،و الحزن إنما یکون من مکروه واقع و شر لازم کالسیئات التی یحزنون من اکتسابها و الخیرات التی یحزنون لفوتها عنهم فیطیب الملائکه أنفسهم أنهم فی أمن من أن یخافوا شیئا أو یحزنوا لشیء فالذنوب مغفوره لهم و العذاب مصروف عنهم.

ثم یبشرونهم بالجنه الموعوده بقولهم: «وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» و فی قولهم:

«كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» دلاله علی أن تنزلهم بهذه البشری علیهم إنما هو بعد الحیاه الدنیا.

قوله تعالی: نَحْنُ أَوْلِيٰاؤُكُمْ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ فِي الْآخِرَةِ الخ؛من تتمه البشاره،و علی هذا فذکر ولایتهم لهم فی الحیاه الدنیا مع انقضاء وقتها کما تقدم من باب التوطئه و التمهید الی ذکر الآخره للاشاره الی أن ولایه الآخره مترتبه علی ولایه الدنیا فکأنه قیل:نحن أولیاؤکم فی الآخره کما کنا-لما کنا-أولیاءکم فی الحیاه الدنیا و سنتولی أمرکم بعد هذا کما تولیناه قبل.

و کون الملائکه أولیاء لهم لا ینافی کونه تعالی هو الولی لأنهم وسائط الرحمه و الکرامه لیس لهم من الأمر شیء،و لعل ذکر ولایتهم لهم فی الآیه دون ولایته تعالی للمقابله و المقایسه بین أولیائه تعالی و أعدائه إذ قال فی حق أعدائه: «وَ قَيَّضْنٰا لَهُمْ قُرَنٰاءَ» الخ؛و قال فی حق أولیائه عن لسان ملائکته: «نَحْنُ أَوْلِيٰاؤُكُمْ» .

و بالمقابله یستفاد أن المراد ولایتهم لهم بالتسدید و التأیید فإن الملائکه المسددین هم

المخصوصون بأهل ولايه اللّه،و أما الملائكه الحرس و موكلو الأرزاق و الآجال و غيرهم فمشتركون بين المؤمن و الكافر.

و قيل:الآيه من كلام اللّه دون الملائكه.

و قوله: وَ لَكُمْ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيهٰا مٰا تَدَّعُونَ ضمير «فِيهٰا» فى الموضعين للآخره،و أصل الشهوه نزوع النفس بقوه من قواها الى ما تريده تلك القوه و تلتذ به كشهوه الطعام و الشراب و النكاح،و أصل الادعاء-و هو افتعال من الدعاء- هو الطلب فالجمله الثانيه أعنى قوله: «وَ لَكُمْ فِيهٰا مٰا تَدَّعُونَ» أوسع نطاقا من الاولى أعنى قوله: «لَكُمْ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ» فإن الشهوه طلب خاص و مطلق الطلب أعم منها.

فالآيه تبشرهم بأن لهم فى الآخره ما يمكن أن تتعلق به شهواتهم من أكل و شرب و نكاح و غير ذلك بل ما هو أوسع من ذلك و أعلى كعبا و هو أن لهم ما يشاءون فيها كما قال تعالى: لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا (ق۳۵/).

قوله تعالى: وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعٰا إِلَى اللّٰهِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً وَ قٰالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ للآيه اتصال بقوله السابق: «وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ، وَ الْغَوْا فِيهِ» الآيه فإنهم كانوا يخاصمون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما ينازعون القرآن،و قد ذكر فى أول السوره قولهم: «قُلُوبُنٰا فِي أَكِنَّهٍ مِمّٰا تَدْعُونٰا إِلَيْهِ» الآيه فأيد سبحانه فى هذه الآيه نبيه بأن قوله و هو دعوته أحسن القول.

فقوله: وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعٰا إِلَى اللّٰهِ المراد به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إن كان لفظ الآيه يعم كل من دعا الى اللّه و لما أمكن أن يدعو الداعى الى اللّه لغرض فاسد و ليست الدعوه التى هذا شأنها من القول الأحسن قيده بقوله: «وَ عَمِلَ صٰالِحاً» فإن العمل الصالح يكشف عن نيه صالحه غير أن العمل الصالح لا يكشف عن الاعتقاد الحق و الالتزام به،و لا حسن فى قول لا يقول به صاحبه و لذا قيده بقوله: «وَ قٰالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» و المراد بالقول الرأى و الاعتقاد

على ما يعطيه السياق.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَ لاَ السَّيِّئَةُ الآيه لما ذكر أحسن القول و أنه الدعوه الى اللّه و القائم به حقا هو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التفت اليه ببيان أحسن الطريق الى الدعوه و أقربها من الغايه المطلوبه منها و هى التأثير فى النفوس فخاطبه بقوله: «لاٰ تَسْتَوِی» الخ.

فقوله: وَ لاٰ تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَ لاَ السَّيِّئَةُ أى الخصله الحسنه و السيئه من حيث حسن التأثير فى النفوس،و «لاٰ» فى «وَ لاَ السَّيِّئَةُ» زائده لتأكيد النفى.

و قوله: اِدْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ استئناف فى معنى دفع الدخل كأن المخاطب لما سمع قوله: «لاٰ تَسْتَوِی» الخ؛قال:فما ذا أصنع؟فقيل «ادْفَعْ» الخ؛و المعنى ادفع بالخصله التى هى أحسن الخصله السيئه التى تقابلها و تضادها فادفع بالحق الذى عندك باطلهم لا بباطل آخر و بحلمك جهلهم و بعفوك إساءتهم و هكذا.

و قوله: فَإِذَا الَّذِی بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدٰاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِيمٌ بيان لأثر الدفع بالأحسن و نتيجته،و المراد أنك إن دفعت بالتى هى أحسن فاجأك أن عدوك صار كأنه ولى شفيق.قيل «الَّذِی بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدٰاوَةٌ» أبلغ من«عدوك»و لذا اختاره عليه مع اختصاره.

ثم عظم اللّه سبحانه الدفع بالتى هى أحسن و مدحه أحسن التعظيم و أبلغ المدح بقوله:

وَ مٰا يُلَقّٰاهٰا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مٰا يُلَقّٰاهٰا إِلاّٰ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ أى ذو نصيب وافر من كمال الإنسانيه و خصال الخير.

و فى الآيه مع ذلك دلاله ظاهره على أن الحظ العظيم إنما يوجد لأهل الصبر خاصه.

قوله تعالى: وَ إِمّٰا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطٰانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ النزغ النخس و هو غرز جنب الدابه أو مؤخرها بقضيب و نحوه ليهيج،و«ما»فى «إِمّٰا يَنْزَغَنَّكَ» زائده و الأصل و إن ينزغنك فاستعذ.

و النازغ هو الشيطان أو تسويله و وسوسته،و الأول هو الأنسب لمقام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنه لا

سبيـل للشـيطان اليه بـالوسوسه غير أنه يمكن أن يقلب له الامور بـالوسوسه على المـدعوين من أهل الكفر و الجحود فيبالغوا فى جحودهم و مشاقتهم و إيـذائهم له فلا يؤثر فيهم الـدفع بالأحسن و يئول هـذا الى نزغ من الشـيطان بتشديد للعداوه فى البين كما فى قوله: مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِى وَ بَيْنَ إِخْوَتِى (يوسـف١٠٠/)،قال تعالى: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلاّ إِذا تَمَنّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ الآيه(الحج٥٢/).

و لو حمل على الوجه الثانى فالمتعين حمله على مطلق الدستور تتميما للأمر،و هو بوجه من باب«إياك أعنى و اسمعى يا جاره».

و قوله: فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ العوذ و العيـاذ بكسـر العين و المعاذ و الاسـتعاذه بمعنى و هو الالتجاء و المعنى فالتجئ باللّه من نزعه إنه هو السميع لمسألتك العليم بحالك أو السميع لأقوالكم العليم بأفعالكم.

قوله تعالى: وَ مِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ الخ؛لما ذكر سبحانه كون دعوته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أحسن القول و وصاه أن يدفع بأحسن الخصال عاد الى أصل الدعوه فاحتج على الوحدانيه و المعاد فى هذه الآيات الثلاث.

فقوله: وَ مِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهارُ الـخ؛احتجاج بوحـده التدبير و اتصاله على وحده الرب المدبر،و بوحده الرب على وجوب عبادته وحده،و لذلك عقبه بقوله: «لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ» الخ.

فالكلام فى معنى دفع الـدخل كأنه لما قيل «وَ مِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهارُ» الـخ؛فأثبت وحـدته فى ربوبيته قيل:فما ذا نصـنع؟فقيل «لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ» هما مخلوقان مـدبران من خلقه بل خصوه بالسـجده و اعبـدوه وحده،و عامه الوثنيين كانوا يعظمون الشمس و القمر و إن لم يعبدهما غير الصابئين على ما قيل،و ضمير «خَلَقَهُنَّ» لليل و النهار و الشمس و القمر.

و قوله: إِنْ كُنْتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ أى إن عبادته لا تجامع عباده غيره.

ص :۵۱۶

قوله تعالی: فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لاٰ يَسْأَمُونَ السأمه الملال،و المراد «فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ» الملائکه و المخلصون من عباد اللّه و قد تقدم کلام فی ذلک فی تفسیر قوله: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (الأعراف۲۰۶/).

و قوله: يُسَبِّحُونَ لَهُ و لم یقل:یسبحونه للدلاله علی الحصر و الاختصاص أی یسبحونه خاصه،و قوله: «بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ» أی دائما لا ینقطع فإن الملائکه لیس عندهم لیل و لا نهار.

و المعنی:فإن استکبر هؤلاء الکفار عن السجده للّه وحده فعبادته تعالی لا ترتفع من الوجود فهناک من یسبحه تسبیحا دائما لا ینقطع من غیر سأمه و هم الذین عند ربک.

قوله تعالی: وَ مِنْ آيٰاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خٰاشِعَةً الخ؛الخشوع التذلل، و الاهتزاز التحرک الشدید،و الربو النشوء و النماء و العلو،و اهتزاز الأرض و ربوها تحرکها بنباتها و ارتفاعه.

[سوره فصلت (۴۱): الآيات ۴۰ الی ۵۴]

إِنَّ اَلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيٰاتِنٰا لاٰ يَخْفَوْنَ عَلَيْنٰا أَ فَمَنْ يُلْقىٰ فِي اَلنّٰارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ اِعْمَلُوا مٰا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۴۰) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمّٰا جٰاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتٰابٌ عَزِيزٌ (۴۱) لاٰ يَأْتِيهِ اَلْبٰاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (۴۲) مٰا يُقٰالُ لَكَ إِلاّٰ مٰا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقٰابٍ أَلِيمٍ (۴۳) وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقٰالُوا لَوْ لاٰ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفٰاءٌ وَ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ فِي آذٰانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولٰئِكَ يُنٰادَوْنَ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ (۴۴) وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى اَلْكِتٰابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۴۵) مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَيْهٰا وَ مٰا رَبُّكَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ (۴۶) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ اَلسّٰاعَةِ وَ مٰا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٰاتٍ مِنْ أَكْمٰامِهٰا وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكٰائِي قٰالُوا آذَنّٰاكَ مٰا مِنّٰا مِنْ شَهِيدٍ (۴۷) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (۴۸) لاٰ يَسْأَمُ اَلْإِنْسٰانُ مِنْ دُعٰاءِ اَلْخَيْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ اَلشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (۴۹) وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ رَحْمَةً مِنّٰا مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذٰا لِي وَ مٰا أَظُنُّ اَلسّٰاعَةَ قٰائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِمٰا عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِيظٍ (۵۰) وَ إِذٰا أَنْعَمْنٰا عَلَى اَلْإِنْسٰانِ أَعْرَضَ وَ نَأىٰ بِجٰانِبِهِ وَ إِذٰا مَسَّهُ اَلشَّرُّ فَذُو دُعٰاءٍ عَرِيضٍ (۵۱) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقٰاقٍ بَعِيدٍ (۵۲) سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي اَلْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ اَلْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۵۳) أَلاٰ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقٰاءِ رَبِّهِمْ أَلاٰ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (۵۴)

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یُلْحِدُونَ فِی آیاتِنا لا یَخْفَوْنَ عَلَیْنا الخ؛سیاق تهدید لملحدی هذه الأمه کما یؤیده الآیه التالیه،و الإلحاد المیل.

و إطلاق قوله: «یُلْحِدُونَ» و قوله: «آیاتِنا» یشمل کل إلحاد فی کل آیه فیشمل الإلحاد فی الآیات التکوینیه کالشمس و القمر و غیرهما فیعدونها آیات للّه سبحانه ثم یعودون فیعبدونها،و یشمل آیات الوحی و النبوه فیعدون القرآن افتراء علی اللّه و تقولا من النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو یلغون فیه لتختل تلاوته فلا یسمعه سامع أو یفسرونه من عند أنفسهم أو یؤولونه ابتغاء الفتنه فکل ذلک إلحاد فی آیات اللّه بوضعها فی غیر موضعها و المیل بها الی غیر مستقرها.

و قوله: أَ فَمَنْ یُلْقی فِی النّارِ خَیْرٌ أَمْ مَنْ یَأْتِی آمِناً یَوْمَ الْقِیامَهِ إیذان بالجزاء و هو الإلقاء فی النار یوم القیامه قسرا من غیر أی مؤمن متوقع کشفیع أو ناصر أو

عـذر مسـموع فليس لهم إلاـ النـار يلقون فيهـا،و الظـاهر أن قوله: «أَمْ مَنْ يَأْتِى آمِنـاً يَوْمَ الْقِيٰامَةِ» لإبانه أنهما قبيلان لا ثالث لهما فمستقيم فى الإيمان بالآيات و ملحد فيها و يظهر به أن أهل الاستقامه فى أمن يوم القيامه.

و قوله: اِعْمَلُوا مٰا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ تشديد فى التهديد.

قوله تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالـذِّكْرِ لَمّٰا جٰاءَهُمْ -الى قوله- مِنْ حَكِيمٍ حَمِيـدٍ المراد بالـذكر بالقرآن لما فيه من ذكر اللّه،و تقييد الجمله بقوله: «لَمّٰا جٰاءَهُمْ» يدل على أن المراد بالذين كفروا هم مشركوا العرب المعاصرين للقرآن من قريش و غيرهم.

و قـد اختلفوا فى خبر «إِنَّ» و يمكن أن يستظهر من السياق أنه محـذوف يـدل عليه قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيٰاتِنٰا» الخ؛فإن الكفر بـالقرآن من مصاديق الإلحاد فى آيات اللّه فالتقـدير إن الـذين كفروا بالـذكر لما جاءهم يلقون فى النار يوم القيامه،و إنما حذف ليذهب فيه و هم السامع أى مذهب ممكن و الكلام مسوق للوعيد.

و الى هذا المعنى يرجع قول الزمخشرى فى الكشاف:إن قوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛بدل من قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيٰاتِنٰا» .

و قوله: وَ إِنَّهُ لَكِتٰابٌ عَزِيزٌ الضـمير للذكر و هو القرآن،و العزيز عديم النظير أو المنيع الممتنع من أن يغلب،و المعنى الثانى أنسـب لما يتعقبه من قوله: «لاٰ يَأْتِيهِ الْبٰاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ» .

و قوله: لاٰ يَأْتِيهِ الْبٰاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ إتيان الباطل اليه وروده فيه و صـيروره بعض أجزائه أو جميعها باطلا بأن يصـير مـا فيه من المعـارف الحقه أو بعضـها غير حقه أو مـا فيه من الأحكام و الشـرائع و ما يلحقها من الأخلاق أو بعضـها لغى لا ينبغى العمل به.

و عليه فالمراد بقوله: «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ» زمانا الحال و الاستقبال أى زمان

النزول و ما بعده الی یوم القیامه،و قیل:المراد بما بین یدیه و من خلفه جمیع الجهات،کالصباح و المساء کنایه عن الزمان کله فهو مصون من البطلان من جمیع الجهات و هذا العموم علی الوجه الأول مستفاد من إطلاق النفی فی قوله: «لاٰ یَأْتِیهِ» .

و المدلول علی أی حال أنه لا تناقض فی بیاناته،و لا کذب فی أخباره،و لا بطلان یتطرق الی معارفه و حکمه و شرائعه،و لا یعارض و لا یغیر بإدخال ما لیس منه فیه أو بتحریف آیه من وجه الی وجه.

فالآیه تجری مجری قوله: إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ (الحجر/۹).

و قوله: تَنْزِیلٌ مِنْ حَکِیمٍ حَمِیدٍ بمنزله التعلیل لکونه کتابا عزیزا لا یأتیه الباطل،الخ؛أی کیف لا یکون کذلک و هو منزل من حکیم متقن فی فعله لا یشوب فعله وهن، محمود علی الإطلاق.

قوله تعالی: مٰا یُقٰالُ لَکَ إِلاّٰ مٰا قَدْ قِیلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِکَ الخ؛ «مٰا» فی «مٰا یُقٰالُ لَکَ» نافیه،و القائلون هم الذین کفروا حیث قالوا:إنه ساحر أو مجنون أو شاعر لاغ فی کلامه أو یرید أن یتأمر علینا،و القائلون لما قد قیل للرسل اممهم.

و المعنی:ما یقال لک من قبل کفار قومک حیث أرسلت الیهم فدعوتهم فرموک بما رموک إلا ما قد قیل للرسل من قبلک أی مثل ما قد قیل لهم.

و قوله: إِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَهٍ وَ ذُو عِقٰابٍ أَلِیمٍ فی موضع التهدید و الوعید أی إن ربک ذو هاتین الصفتین أی فانظر أو فلینظروا ما ذا یصیبهم من ربهم و هم یقولون ما یقولونه لرسوله؟أ هو مغفره أم عقاب؟فالآیه فی معنی قوله: «اعْمَلُوا مٰا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ» أی ما علمتم من حسنه أو سیئه أصابکم جزاؤه بعینه.

و قیل:المعنی ما یوحی الیک فی أمر هؤلاء الذین کفروا بالذکر إلا ما قد أوحی للرسل من قبلک و هو أن ربک لذو مغفره و ذو عقاب ألیم فالمراد بالقول الوحی،و «إِنَّ رَبَّکَ» الخ؛بیان لا

قد قيل.

قوله تعالى: وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقٰالُوا لَوْ لاٰ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قال الراغب:العجمه خلاف الإبانه.قال:و العجم خلاف العرب و العجمى منسوب اليهم،و الأعجم من فى لسانه عجمه عربيا كان أو غير عربى اعتبارا بقله فهمهم عن العجم.انتهى.فالأعجمى غير العربى البليغ سواء كان من غير أهل اللغه العربيه أو كان منهم و هو غير مفصح للكنه فى لسانه،و إطلاق الأعجمى على الكلام كإطلاق العربى من المجاز.

فالمعنى:و لو جعلنا القرآن أعجميا غير مبين لمقاصده غير بليغ فى نظمه لقال الذين كفروا من قومك:هلا فصلت و بينت آياته و أجزاؤه فانفصلت و بانت بعضها من بعض بالعربيه و البلاغه أ كتاب مرسل أعجمى و مرسل اليه عربى؟أى يتنافيان و لا يتناسبان.

و إنما قال: «عَرَبِيٌّ» و لم يقل:عربيون أو عربيه مع كون من أرسل اليه جمعا و هم جماعه العرب،إذ القصد الى مجرد العربيه من دون خصوصيه للكثره بل المراد بيان التنافى بين الكلام و بين المخاطب به لا بيان كون المخاطب واحدا أو كثيرا.

و قوله: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفٰاءٌ بيان أن أثر القرآن و خاصته لا يدور مدار لغته بل الناس تجاهه صنفان و هم الذين آمنوا و الذين لا يؤمنون،و هو هدى و شفاء للذين آمنوا يهديهم الى الحق و يشفى ما فى قلوبهم من مرض الشك و الريب.و هو عمى على الذين لا يؤمنون-و هم الذين فى آذانهم و قر-يعميهم فلا يبصرون الحق و سبيل الرشاد.

و فى توصيف الذين لا يؤمنون بأن فى آذانهم و قرا إيماء الى اعترافهم بذلك المنقول عنهم فى أول السوره «وَ فِي آذٰانِنٰا وَقْرٌ» .

و قوله: أُولٰئِكَ يُنٰادَوْنَ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ أى فلا يسمعون الصوت و لا يرون الشخص و هو تمثيل لحالهم حيث لا يقبلون العظه و لا يعقلون الحجه.

ص :۵۲۲

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ الخ؛تسليه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن جحود قومه و كفرهم بكتابه.

و قوله: وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ الكلمه هى قوله: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ (الأعراف۲۴/).

و قوله: وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ أى فى شك مريب من كتاب موسى عليه السّلام.

بيان حال قومه ليتسلى به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما يرى من قومه.

قوله تعالى: مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها الخ؛أى إن العمل قائم بصاحبه ناعت له فلو كان صالحا نافعا انتفعت به نفسه و إن كان سيئا ضارا تضررت به نفسه فليس فى إيصاله تعالى نفع العمل الصالح الى صاحبه و هو الثواب و لا فى إيصال ضرر العمل السيئ الى صاحبه و هو العقاب ظلم و وضع للشىء فى غير موضعه.

و لو كان ذلك ظلما كان تعالى فى إثابته و تعذيبه من لا يحصى من العباد فى ما لا يحصى من الأعمال ظلاما للعبيد لكنه ليس بظلم و لا أنه تعالى ظلّام لعبيده و بذلك يظهر وجه التعبير باسم المبالغه فى قوله: «وَ ما رَبُّكَ بِظَلاّمٍ لِلْعَبِيدِ» و لم يقل:و ما ربك بظالم.

قوله تعالى: إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السّاعَةِ -الى قوله- إِلاّ بِعِلْمِهِ ارتداد علم الساعه اليه اختصاصه به فلا يعلمها إلا هو،و قد تكرر ذلك فى كلامه تعالى.

و قوله: وَ ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها «ثَمَراتٍ» فاعل «تَخْرُجُ» و «مِنْ» زائده للتأكيد كقوله: وَ كَفى بِاللّهِ شَهِيداً (النساء۷۹/)،و أكمام جمع كم و هو وعاء الثمره و «ما» مبتدأ خبره «إِلاّ بِعِلْمِهِ» و المعنى و ليس تخرج ثمرات من أوعيتها و لا تحمل أنثى و لا تضع حملها إلا مصاحبا لعلمه أى هو تعالى يعلم جزئيات حالات كل شىء.

فهو تعالى على كونه خالقا للأشياء محولا لأحوالها عالم بها و بجزئيات حالاتها مراقب لها، و هذا هو أحسن التدبير فهو الرب وحده،ففى الآيه إشاره الى توحده تعالى فى الربوبيه

و الالوهیه،و لذا ذیّل هذا الصدر بقوله: «وَ یَوْمَ یُنٰادِیهِمْ أَیْنَ شُرَکٰائِی» الخ.

قوله تعالی: وَ یَوْمَ یُنٰادِیهِمْ أَیْنَ شُرَکٰائِی قٰالُوا آذَنّٰاکَ مٰا مِنّٰا مِنْ شَهِیدٍ -الی قوله- مِنْ مَحِیصٍ الظرف متعلق بقوله: «قٰالُوا» و قیل:ظرف لمضمر مؤخر قد ترک إیذانا بقصور البیان عنه کما فی قوله تعالی: «یَوْمَ یَجْمَعُ اللّٰهُ الرُّسُلَ» ،و قیل:متعلق بمحذوف نحو اذکر،و لعل الوجه الأول أنسب لصدر الآیه بالمعنی الذی ذکرناه فتکون الآیه مسوقه لنفی الشرکاء ببیان قیام التدبیر به تعالی و اعتراف المشرکین بذلک یوم القیامه.

و الإیذان الإعلام،و المراد بالشهاده الشهاده القولیه أو الشهاده بمعنی الرؤیه الحضوریه و علی الثانی فقوله: «وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا کٰانُوا یَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ» عطف تفسیر یبیّن به سبب انتفاء الشهاده.

و قوله: وَ ظَنُّوا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِیصٍ الظن-علی ما قیل-بمعنی الیقین،و المحیص المهرب و المفر،و المعنی:و یوم ینادی اللّٰه المشرکین:أین شرکائی؟-علی زعمکم-قالوا:

أعلمناک ما منا من یشهد علیک بالشرکاء-أو ما منا من یشاهد الشرکاء و غاب عنهم ما کانوا یدعون من دون اللّٰه فی الدنیا،و أیقنوا أن لیس لهم مهرب من العذاب.

قوله تعالی: لاٰ یَسْأَمُ الْإِنْسٰانُ مِنْ دُعٰاءِ الْخَیْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَیَؤُسٌ قَنُوطٌ السأمه الملال،و الیأس و القنوط بمعنی و هو انقطاع الرجاء،و الدعاء الطلب.

شروع فی ختم الکلام فی السوره ببیان ما هو السبب فی جحودهم و دفعهم الحق الصریح، و هو أن الإنسان مغتر بنفسه فإذا مسه شر یعجز عن دفعه یئس من الخیر و تعلق بذیل الدعاء و المسأله و توجه الی ربه،و إذا مسه خیر اشتغل به و أعجب بنفسه و أنساه ذلک کل حق و حقیقه.

و المعنی:لا یمل الإنسان من طلب الخیر و هو ما یراه نافعا لحیاته و معیشته و إن مسه الشر

فكثير اليأس و القنوط لما يرى من سقوط الأسباب التى كان يستند إليها،و هذا لا ينافى تعلق رجائه إذ ذاك باللّه سبحانه كما سيأتى.

قوله تعالى: وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ رَحْمَةً مِنّٰا مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذٰا لِي الخ؛الأصل بالنظر الى مضمون الآيه السابقه أن يقال:و إن ذاق خيرا قال:هذا لى لكن بدّل ذاق من «أَذَقْنٰاهُ» و «الْخَيْرِ» من قوله: «رَحْمَةً مِنّٰا» ليدل على أن الخير الذى ذاقه هو رحمه من اللّه أذاقه إياها و ليس بمصيبه برأسه و لا هو يملكه و لو كان يملكه لم ينفك عنه و لم يمسسه الضراء،و لذا قيد قوله: «وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ» الخ؛بقوله: «مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ» .

و قوله: لَيَقُولَنَّ هٰذٰا لِي أى أنا أملكه فلى أن أفعل فيه ما أشاء و أتصرف فيه كيف أريد،فليس لأحد أن يمنعنى من شىء منه أو يحاسبنى على فعل،و لهذا المعنى عقبه بقوله:

«وَ مٰا أَظُنُّ السّٰاعَةَ قٰائِمَةً» فإن الساعه هى يوم الحساب.

و قوله: وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنىٰ أى للمثوبه الحسنى أو للعاقبه الحسنى،و هذا مبنى على ما يراه لنفسه من الكرامه و استحقاق الخير كأنه يقول:ما ملكته من الخير لو كان من اللّه فإنما هو لكرامه نفسى عليه و على هذا فإن قامت الساعه و رجعت الى ربى كانت لى عنده العاقبه الحسنى.

فالمعنى:و أقسم لئن أذقنا الإنسان رحمه هى منا و لا يستحقها و لا يملكها فأذقناها من بعد ضراء مسته و ذلك يدله على أنه لا يملك ما أذيقه نسى ما كان من قبل و قال:هذا لى-يشير الى شخص النعمه و لا يسميها رحمه-و ليس لأحد أن يمنعنى عما أفعل فيه و يحاسبنى عليه و ما أظن الساعه-و هى يوم الحساب-قائمه،و أقسم لئن رجعت الى ربى و قامت ساعه كانت لى عنده العاقبه الحسنى لكرامتى عليه كما أنعم علىّ من النعمه.

و الآيه نظيره قوله فى قصه صاحب الجنه: مٰا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَداً وَ مٰا أَظُنُّ السّٰاعَةَ قٰائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهٰا مُنْقَلَباً (الكهف/۳۶)و قد تقدم بعض

الکلام فیه.

و قوله: فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِمٰا عَمِلُوا وَ لَنُذِیقَنَّهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِیظٍ تهدید و وعید.

قوله تعالی: وَ إِذٰا أَنْعَمْنٰا عَلَی الْإِنْسٰانِ أَعْرَضَ وَ نَأیٰ بِجٰانِبِهِ وَ إِذٰا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعٰاءٍ عَرِیضٍ النأی الابتعاد،و المراد بالجانب الجارحه و هی الجنب أو المراد الجهه و المکان فقوله: «نَأیٰ بِجٰانِبِهِ» کنایه عن الابتعاد بنفسه و هو کنایه عن التکبر و الخیلاء، و المراد بالعریض الوسیع،و الدعاء العریض کالدعاء الطویل کنایه عما استمر و أصر علیه الداعی،و الآیه فی مقام ذم الإنسان و توبیخه أنه إذا أنعم اللّه علیه أعرض عنه و تکبر و إذا سلب النعمه ذکر اللّه و أقبل علیه بالدعاء مستمرا مصرا.

قوله تعالی: قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ ثُمَّ کَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِی شِقٰاقٍ بَعِیدٍ «أَ رَأَیْتُمْ» أی أخبرونی،و الشقاق و المشاقه الخلاف،و الشقاق البعید الخلاف الذی لا یقارب الوفاق و هو شدیده،و قوله: «مِمَّنْ هُوَ فِی شِقٰاقٍ بَعِیدٍ» کنایه عن المشرکین و لم یقل:منکم بل أتی بالموصول و الصله و ذلک فی معنی الصفه لیدل علی عله الحکم و هو الشقاق البعید من الحق.

و المعنی:قل للمشرکین أخبرونی إن کان هذا القرآن من عند اللّه ثم کفرتم به من أضل منکم؟أی لا أضل منکم لأنکم فی خلاف فعید من حق ما فوقه حق.

فمفاد الآیه أن القرآن یدعوکم الی اللّه ناطقا بأنه من عند اللّه فلا أقل من احتمال صدقه فی دعواه و هذا یکفی فی وجوب النظر فی أمره دفعا للضرر المحتمل و أی ضرر أقوی من الهلاک الأبدی فلا معنی لإعراضکم عنه بالکلیه.

قوله تعالی: سَنُرِیهِمْ آیٰاتِنٰا فِی الْآفٰاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتّٰی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ الخ؛الآفاق جمع أفق و هو الناحیه،و الشهید بمعنی الشاهد أو بمعنی المشهود و هو

المناسب لسياق الآيه.

و ضمير «أَنَّهُ» للقرآن على ما يعطيه سياق الآيه و يؤيده الآيه السابقه التى تذكر كفرهم بالقرآن،و على هذا فالآيه تعد إراءه آيات فى الآفاق و فى أنفسهم حتى يتبين بها كون القرآن حقا،و الآيات التى شأنها إثبات حقيّه القرآن هى الحوادث و المواعيد التى أخبر القرآن أنها ستقع كإخباره بأن اللّه سينصر نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين و يمكن لهم فى الأرض و يظهر دينهم على الدين كله و ينتقم من مشركى قريش الى غير ذلك.

فأمر اللّه تعالى نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالهجره الى المدينه و قد اشتد الأمر عليه و على من آمن به غايتها فلاسماء تظلهم و لا أرض تقلهم ثم قتل صناديد قريش فى بدر و لم يزل يرفع ذكره و يفتح على يديه حتى فتح مكه و دانت له جزيره العرب ثم فتح بعد رحلته للمسلمين معظم المعموره فأرى سبحانه المشركين آياته فى الآفاق و هى النواحى التى فتحها للمسلمين و نشر فيها دينهم،و فى أنفسهم و هو قتلهم الذريع فى بدر.

و ليست هذه آيات فى أنفسها فكم من فتح و غلبه يذكره التاريخ و مقاتل ذريعه يقصها لكنها آيات بما أن اللّه سبحانه وعد بها و القرآن الكريم أخبر بها قبل وقوعها ثم وقعت على ما أخبر بها.

و يمكن أن يكون المراد بإراءه الآيات و تبين الحق بذلك ما يستفاد من آيات أخرى أن اللّه سيظهر دينه بتمام معنى الظهور على الدين كله فلا يعبد على الأرض إلا اللّه وحده و تظل السعاده على النوع الإنسانى و هى الغايه لخلقتهم،و قد تقدم استفاده ذلك من قوله تعالى:

وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ الآيه(النور/ ۵۵)؛و غيره و أيدناه بالدليل العقلى.

و الفرق بين الوجهين أن وجه الكلام على الأول الى مشركى مكه و من يتبعهم خاصه و على الثانى الى مشركى الامه عامه و الخطاب على أى حال اجتماعى،و يمكن الجمع بين

الوجهين.

و يمكن أن يكون المراد ما يشاهده الإنسان فى آخر لحظه من لحظات حياته الدنيا حيث تطير عنه الأوهام و تضل عنه الدعاوى و تبطل الأسباب و لا يبقى إلا اللّه عز اسمه و يؤيده ذيل الآيه و الآيه التاليه،و ضمير «أَنَّهُ الْحَقُّ» على هذا للّه سبحانه.

و قوله: أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ فاعل «لَمْ يَكْفِ» هو «بِرَبِّكَ» و الباء زائده،و «أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» بدل من الفاعل،و الاستفهام للإنكار، و المعنى أو لم يكف فى تبين الحق كون ربك مشهودا على كل شىء إذ ما من شىء إلا و هو فقير من جميع جهاته اليه متعلق به و هو تعالى قائم به قاهر فوقه فهو تعالى معلوم لكل شىء و إن لم يعرفه بعض الأشياء.

و اتصال الجمله أعنى قوله: «أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» الخ؛بقوله: «سَنُرِيهِمْ» الخ؛على الوجه الأخير من الوجوه الثلاثه الماضيه ظاهر،و أما على الوجهين الأولين فلعل الوجه فيه أن المشركين إنما كفروا بالقرآن لدعوته الى التوحيد فانتقل من الدلاله على حقيّه القرآن للدلاله على حقيّه ما يدعو اليه الى الدلاله على حقيّه ما يدعو اليه مستقيما من غير واسطه كأنه قيل:سنريهم آياتنا ليتبين لهم أن القرآن الذى يخبرهم بها حق فيتبين أن ربك واحد لا شريك له ثم قيل:و هذا طريق بعيد هناك ما هو أقرب منه أ و لم يكفهم أن ربك مشهود على كل شىء؟

قوله تعالى: أَلاٰ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقٰاءِ رَبِّهِمْ الخ؛الذى يفيده السياق أن فى الآيه تنبيها على أنهم لا ينتفعون بالاحتجاج على وحدانيته تعالى بكونه شهيدا على كل شىء و هو أقوى براهين التوحيد و أوضحها لمن تعقّل لأنهم فى مريه و شك من لقاء ربهم و هو كونه تعالى غير محجوب بصفاته و أفعاله عن شىء من خلقه.

ثم نبه بقوله: «أَلاٰ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ» على ما يرتفع به هذه المريه و تنبت من أصلها و هو

إحـاطته تعالى بكل شـىء على ما يليق بساحه قـدسه و كبريائه فلا يخلو عنه مكان و ليس فى مكان و لا يفقـده شـىء و ليس فى شىء.

ص :۵۲۹

سوره الشوری مکیه و هی ثلاث و خمسون آیه

اشاره

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;حم (۱) عسق (۲) کَذٰلِکَ یُوحِی إِلَیْکَ وَ إِلَی اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِکَ اَللّٰهُ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۳) لَهُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلْعَلِیُّ اَلْعَظِیمُ (۴) تَکٰادُ اَلسَّمٰاوٰاتُ یَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ اَلْمَلاٰئِکَهُ یُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ یَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِی اَلْأَرْضِ أَلاٰ إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِیمُ (۵) وَ اَلَّذِینَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیٰاءَ اَللّٰهُ حَفِیظٌ عَلَیْهِمْ وَ مٰا أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِوَکِیلٍ (۶)

ص :۵۳۰

بيان:

تتكلم السوره حول الوحی الـذی هو نوع تكليم من اللّه سبحانه لأنبيائه و رسـله كما يـدل عليه ما فی مفتتحها من قوله: «كَذٰلِكَ يُوحِی إِلَيْكَ وَ إِلَی الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللّٰهُ» الآيه؛و مـا فی مختتمها من قوله: وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ وَحْياً الـخ؛الآيات،و رجوع الكلام إليه مره بعد أخری فی قوله: وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا الآيه؛و قوله: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مٰا وَصّٰی بِهِ نُوحاً الآيه؛و قوله: اَللّٰهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزٰانَ الآيه؛و ما يتكرر فی السوره من حديث الرزق علی ما سيجیء.

فالوحی هو الموضوع الـذی يجری عليه الكلام فی السوره و ما فيها من التعرض لآيات التوحيد و صـفات المؤمنين و الكفار و ما يستقبل كلا من الفريقين فی معادهم و رجوعهم الی اللّه سبحانه مقصود بالقصد الثانی و كلام جره كلام.

و السوره مكيه و قـد اسـتثنی قوله: وَ الَّذِينَ اسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمْ الی تمام ثلاث آيات، و قوله: قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبیٰ الی تمام أربع آيات و سيجیء الكلام فيها إن شاء اللّه تعالی.

قـوله تعـالی: حم عسـق من الحروف المقطعه الواقعه فی أوائـل عـده من السور القرآنيه،و ذلـك من مختصـات القرآن الكريم لا يوجد فی غيره من الكتب السماويه.

و قد اختلف المفسرون من القدماء و المتأخرين فی تفسيرها و قد نقل عنهم الطبرسی فی مجمع البيان أحد عشر قولا فی معناها:

أحدها:أنها من المتشابهات التی استأثر اللّه سبحانه بعلمها لا يعلم تأويلها إلا هو.

الثاني:أن كلا منها اسم للسوره التی وقعت فی مفتتحها.

الثالث:أنها أسماء القرآن أی لمجموعه.

الرابع:أن المراد بها الدلاله على أسماء اللّه تعالى فقوله: «الم» معناه أنا اللّه أعلم،و قوله:

«المر» معناه أنا اللّه أعلم و أرى،و قوله: «المص» معناه أنا اللّه أعلم و أفصل،و قوله:

«كهيعص» الكاف من الكافى،و الهاء من الهادى،و الياء من الحكيم،و العين من العليم،و الصاد من الصادق،و هو مروى عن ابن عباس،و الحروف المأخوذه من الأسماء مختلفه فى أخذها فمنها ما هو مأخوذ من أول الاسم كالكاف من الكافى،و منها ما هو مأخوذ من وسطه كالياء من الحكيم،و منها ما هو مأخوذ من آخر الكلمه كالميم من أعلم.

الخامس:أنها أسماء للّه تعالى مقطعه لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم اللّه الأعظم تقول:

الر و حم و ن يكون الرحمن و كذلك سائرها إلا أنا لا نقدر على تأليفها و هو مروى عن سعيد بن جبير.

السادس:أنها أقسام اللّه بها فكأنه هو أقسم بهذه الحروف على أن القرآن كلامه و هى شريفه لكونها مبانى كتبه المنزله،و أسمائه الحسنى و صفاته العليا،و اصول لغات الامم على اختلافها.

السابع:أنها إشارات الى آلائه تعالى و بلائه و مده الأقوام و أعمارها و آجالهم.

الثامن:أن المراد بها الإشاره الى بقاء هذه الامه على ما يدل عليه حساب الجمل.

التاسع:أن المراد بها حروف المعجم و قد استغنى بذكر ما ذكر منها عن ذكر الباقى كما يقال:

اب و يراد به جميع الحروف.

العاشر:أنها تسكيت للكفار لأن المشركين كانوا تواصوا فيما بينهم أن لا يستمعوا للقرآن و أن يلغوا فيه كما حكاه القرآن عنهم بقوله: لاٰ تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ الآيه؛فربما صفروا و ربما صفقوا و ربما غلطوا فيه ليغلطوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تلاوته،فأنزل اللّه تعالى هذه الحروف فكانوا إذا سمعوها استغربوها و استمعوا إليها و تفكروا فيها و اشتغلوا بها عن شأنهم فوقع القرآن فى مسامعهم.

الحادی عشر:أنها من قبیل تعداد حروف التهجی و المراد بها أن هذا القرآن الذی عجزتم عن معارضته هو من جنس هذه الحروف التی تتحاورون بها فی خطبکم و کلامکم فإذا لم تقدروا علیه فاعلموا أنه من عند اللّه تعالی،و إنما کررت الحروف فی مواضع استظهارا فی الحجه،و هو مروی عن قطرب و اختاره أبو مسلم الأصبهانی و الیه یمیل جمع من المتأخرین.

فهذه أحد عشر قولا-و فیما نقل عنهم ما یمکن أن یجعل قولا آخر کما نقل عن ابن عباس فی «الم» أن الألف اشاره الی اللّه و اللام الی جبریل و المیم الی محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و ما عن بعضهم أن الحروف المقطعه فی أوائل السور المفتتحه بها إشاره الی الغرض المبین فیها کأن یقال:إن «ن» إشاره الی ما تشتمل علیه السوره من النصر الموعود للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و «ق» إشاره الی القرآن أو القهر الإلهی المذکور فی السوره،و ما عن بعضهم أن هذه الحروف للإیقاظ.

و الحق أن شیئا من هذه الأقوال لا تطمئن الیه النفس:

أما القول الأول فقد تقدم فی بحث المحکم و المتشابه فی أوائل الجزء الثالث من الکتاب أنه أحد الأقوال فی معنی المتشابه،و عرفت أن الإحکام و التشابه من صفات الآیات التی لها دلاله لفظیه علی مدالیلها،و أن التأویل لیس من قبیل المدالیل اللفظیه بل التأویلات حقائق واقعیه تنبعث من مضامین البیانات القرآنیه أعم من محکماتها و متشابهاتها،و علی هذا فلا-هذه الحروف المقطعه متشابهات و لا معانیها المراد بها تأویلات لها.

و أما الأقوال العشره الأخر فإنما هی تصویرات لا تتعدی حد الاحتمال و لا دلیل یدل علی شیء منها.

نعم فی بعض الروایات المنسوبه الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أئمه أهل البیت علیهم السّلام بعض التأیید للقول الرابع و السابع و الثامن و العاشر و سیأتی نقلها و الکلام فی مفادها فی البحث الروائی الآتی إن شاء اللّه تعالی.

و الذی لا ینبغی أن یغفل عنه أن هذه الحروف تکررت فی سور شتی و هی تسع و عشرون

سوره افتتح بعضـها بحرف واحد و هی ص و ق و ن،و بعضها بحرفین و هی سور طه و طس و یس و حم.و بعضها بثلاثه أحرف کمـا فی سورتی «الم» و «الر» و طسم و بعضـها بـأربعه أحرف کما فی سورتی «المص» و «المر» و بعضـها بخمسه أحرف کما فی سورتی «کهیعص» و «حم عسق» .

و تختلف هـذه الحروف أیضا من حیث إن بعضـها لم یقع إلا فی موضع واحـد مثل «ن» و بعضـها واقعه فی مفتتح عده من السور مثل «الم» و «المر» و «طس» و «حم» .

ثم إنـک إن تـدبرت بعض التـدبر فی هـذه السور التی تشترک فی الحروف المفتتـح بهـا مثـل المیمات و الراءات و الطواسـین و الحوامیم،وجدت فی السور المشترکه فی الحروف من تشابه المضامین و تناسب السیاقات ما لیس بینها و بین غیرها من السور.

و یؤکد ذلک ما فی مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ کما فی مفتتح الحوامیم من قوله:

«تَنْزِیلُ الْکِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ» أو ما هو فی معناه،و ما فی مفتتـح الراءات من قوله: «تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ» أو ما هو فی معناه،و نظیر ذلک واقع فی مفتتح الطواسین،و ما فی مفتتح المیمات من نفی الریب عن الکتاب أو ما هو فی معناه.

و یمکن أن یحـدس من ذلـک أن بین هـذه الحروف المقطعه و بین مضـامین السور المفتتحه بهـا ارتباطا خاصا،و یؤیـد ذلک ما نجـد أن سوره الأعراف المصـدره بالمص فی مضـمونها کأنها جامعه بین مضامین المیمات و ص،و کـذا سوره الرعـد المصـدره بالمر فی مضمونها کأنها جامعه بین مضامین المیمات و الراءات.

و یستفاد من ذلـک أن هـذه الحروف رموز بین اللّه سبحانه و بین رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خفیه عنا لا سبیل لأفهامنا العادیه إلیها إلا بمقدار أن نستشعر أن بینها و بین المضامین المودعه فی السور ارتباطا خاصا.

و لعل المتدبر لو تدبر فی مشترکات هذه الحروف و قایس مضامین السور التی وقعت فیها

بعضها الی بعض تبین له الأمر أزید من ذلک.

و لعل هذا معنی ما روته أهل السنه عن علی علیه السّلام-علی ما فی المجمع-أن لکل کتاب صفوه و صفوه هذا الکتاب حروف التهجی.

قوله تعالی: کَذٰلِکَ یُوحِی إِلَیْکَ وَ إِلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکَ اللّٰهُ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ -الی قوله- اَلْعَلِیُّ الْعَظِیمُ مقتضی کون غرض السوره بیان الوحی بتعریف حقیقته و الإشاره الی غایته و آثاره أن تکون الإشاره بقوله: «کَذٰلِکَ» الی شخص الوحی بإلقاء هذه السوره الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیکون تعریفا لمطلق الوحی بتشبیهه بفرد مشار الیه مشهود للمخاطب فیکون کقولنا فی تعریف الإنسان مثلا هو کزید.

و علیه یکون قوله: «إِلَیْکَ وَ إِلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکَ» فی معنی الیکم جمیعا،و إنما عبر بما عبر للدلاله علی أن الوحی سنه إلهیه جاریه غیر مبتدعه،و المعنی أن الوحی الذی نوحیه الیکم معشر الأنبیاء-نبیا بعد نبی سنه جاریه-هو کهذا الذی تجده و تشاهده فی تلقی هذه السور.

و قد أخذ جمهور المفسرین قوله: «کَذٰلِکَ» إشاره الی الوحی لا من حیث نفسه بل من حیث ما یشتمل علیه من المفاد فیکون فی الحقیقه إشاره الی المعارف التی تشتمل علیها السوره و تتضمنها و استنتجوا من ذلک أن مضمون السوره مما أوحاه اللّه تعالی الی جمیع الأنبیاء فهو من الوحی المشترک فیه،و قد عرفت أنه لا یوافق غرض السوره و یأباه سیاق آیاتها.

و قوله: اَلْعَزِیزُ الْحَکِیمُ لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ خمسه من أسمائه الحسنی،و قوله: «لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ» فی معنی المالک،و هو واقع موقع التعلیل لأصل الوحی و لکونه سنه إلهیه جاریه فالذی یعطیه الوحی شرع إلهی فیه هدایه الناس الی سعاده حیاتهم فی الدنیا و الآخره و لیس المانع أن یمنعه تعالی عن ذلک لأنه عزیز غیر مغلوب فیما یرید،و لا هو تعالی یهمل أمر هدایه عباده لأنه حکیم

متقن فی أفعاله و من إتقان الفعل أن السیاق الی غایته.

و من حقه تعالی أن یتصرف فیهم و فی امورهم کیف یشاء،لأنه مالکهم و له أن یعبدهم و یستعبدهم بالأمر و النهی لأنه علی عظیم فلکل من الأسماء الخمسه حظه من التعلیل،و ینتج مجموعها أنه ولیهم من کل جهه لا ولی غیره.

قوله تعالی: تَکٰادُ السَّمٰاوٰاتُ یَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ الخ؛التفطر التشقق من الفطر بمعنی الشق.

الذی یهدی الیه السیاق و الکلام مسرود لبیان حقیقه الوحی و غایته و آثاره أن یکون المراد من تفطر السماوات من فوقهن تفطرها بسبب الوحی النازل من عند اللّه العلی العظیم المار بهن سماء سماء حتی ینزل علی الأرض فإن مبدأ الوحی هو اللّه سبحانه و السماوات طرائق الی الأرض قال تعالی: وَ لَقَدْ خَلَقْنٰا فَوْقَکُمْ سَبْعَ طَرٰائِقَ وَ مٰا کُنّٰا عَنِ الْخَلْقِ غٰافِلِینَ (المؤمنون/ ١٧).

و الوجه فی تقیید «یَتَفَطَّرْنَ» بقوله: «مِنْ فَوْقِهِنَّ» ظاهر فإن الوحی ینزل علیهن من فوقهن من عند من له العلو المطلق و العظمه المطلقه فلو تفطرن کان ذلک من فوقهن.

علی ما فیه من إعظام أمر الوحی و إعلائه فإنه کلام العلی العظیم فلکونه کلام ذی العظمه المطلقه تکاد السماوات یتفطرن بنزوله و لکونه کلاما نازلا من عند ذی العلو المطلق یتفطرن من فوقهن لو تفطرن.

فالآیه فی إعظام أمر کلام اللّه من حیث نزوله و مروره علی السماوات نظیره قوله: حَتّٰی إِذٰا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قٰالُوا مٰا ذٰا قٰالَ رَبُّکُمْ قٰالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْکَبِیرُ (سبأ/٢٣)فی إعظامه من حیث تلقی ملائکه السماوات إیاه،و نظیره قوله: لَوْ أَنْزَلْنٰا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلیٰ جَبَلٍ لَرَأَیْتَهُ خٰاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْیَهِ اللّٰهِ (الحشر/٢١)فی إعظامه علی فرض نزوله علی جبل و نظیره قوله: إِنّٰا سَنُلْقِی عَلَیْکَ قَوْلاً ثَقِیلاً (المزمل/٥)فی استثقاله و استصعاب حمله.هذا

ما يعطيه السياق.

و قوله: وَ الْمَلاٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أى ينزهونه تعالى عما لا يليق بساحه قدسه و يثنون عليه بجميل فعله،و مما لا يليق بساحه قدسه أن يهمل أمر عباده فلا يهديهم بدين يشرعه لهم بالوحى و هو منه فعل جميل، و يسألونه تعالى أن يغفر لأهل الأرض،و حصول المغفره إنما هو بحصول سببها و هو سلوك سبيل العبوديه بالاهتداء بهدايه اللّه سبحانه فسؤالهم المغفره لهم مرجعه الى سؤال أن يشرع لهم دينا يغفر لمن تدين به منهم فالمعنى و الملائكه يسألون اللّه سبحانه أن يشرع لمن فى الأرض من طريق الوحى دينا يدينون به فيغفر لهم بذلك.

و يشهد على هذا المعنى وقوع الجمله فى سياق بيان صفه الوحى و كذا تعلق الاستغفار بمن فى الأرض إذ لا معنى لطلب المغفره منهم لمطلق أهل الأرض حتى لمن قال: اِتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً و قد حكى اللّه تعالى عنهم: وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا الآيه(المؤمن۷/) فالمتعين حمل سؤال المغفره على سؤال سببها و هو تشريع الدين لأهل الأرض ليغفر لمن تدين به.

و قوله: أَلاٰ إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ أى أن اللّه سبحانه لاتصافه بصفتى المغفره و الرحمه و تسميه باسمى الغفور الرحيم يليق بساحه قدسه أن يفعل بأهل الأرض ما ينالون به المغفره و الرحمه من عنده و هو أن يشرع لهم دينا يهتدون به الى سعادتهم من طريق الوحى و التكليم.

قيل:و فى قوله: «أَلاٰ إِنَّ اللّٰهَ» الخ؛إشاره الى قبول استغفار الملائكه و أنه سبحانه يزيدهم على ما طلبوه من المغفره رحمه.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ اللّٰهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ لما استفيد من الآيات السابقه أن اللّه تعالى هو الولى لعباده لا ولى غيره

ص :۵۳۷

و هو یتولی أمر من فی الأرض منهم بتشریع دین لهم یرتضیه من طریق الوحی الی أنبیائه علی ما یقتضیه أسماؤه الحسنی و صفاته العلیا،و لازم ذلک أن لا یتخذ عباده أولیاء من دونه،أشار فی هذه الآیه الی حال من اتخذ من دونه أولیاء باتخاذهم شرکاء له فی الربوبیه و الالوهیه فذکر أنه لیس بغافل عما یعملون و أن أعمالهم محفوظه علیهم سیؤاخذون بها،و لیس علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلا البلاغ من غیر أن یکون وکیلا علیهم مسئولا عن أعمالهم.

فقوله: اَللّٰهُ حَفِیظٌ عَلَیْهِمْ ای یحفظ علیهم شرکهم و ما یتفرع علیه من الأعمال السیئه.

فقوله: وَ مٰا أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِوَکِیلٍ أی مفوضا الیک أعمالهم حتی تصلحها لهم بهدایتهم الی الحق،و الکلام لا یخلو من نوع من التسلیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (۱).

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۷ الی ۱۲]

وَ کَذٰلِکَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ قُرْآناً عَرَبِیًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ اَلْقُریٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا وَ تُنْذِرَ یَوْمَ اَلْجَمْعِ لاٰ رَیْبَ فِیهِ فَرِیقٌ فِی اَلْجَنَّهِ وَ فَرِیقٌ فِی اَلسَّعِیرِ (۷) وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّهً وٰاحِدَهً وَ لٰکِنْ یُدْخِلُ مَنْ یَشٰاءُ فِی رَحْمَتِهِ وَ اَلظّٰالِمُونَ مٰا لَهُمْ مِنْ وَلِیٍّ وَ لاٰ نَصِیرٍ (۸) أَمِ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیٰاءَ فَاللّٰهُ هُوَ اَلْوَلِیُّ وَ هُوَ یُحْیِ اَلْمَوْتیٰ وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۹) وَ مَا اِخْتَلَفْتُمْ فِیهِ مِنْ شَیْءٍ فَحُکْمُهُ إِلَی اَللّٰهِ ذٰلِکُمُ اَللّٰهُ رَبِّی عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَ إِلَیْهِ أُنِیبُ (۱۰) فٰاطِرُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْوٰاجاً وَ مِنَ اَلْأَنْعٰامِ أَزْوٰاجاً یَذْرَؤُکُمْ فِیهِ لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیْءٌ وَ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْبَصِیرُ (۱۱) لَهُ مَقٰالِیدُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ یَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ یَقْدِرُ إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۱۲)

۱- ۱) .الشوری ۱-۶:بحث روائی فی الحروف المقطعه؛اسماء اللّه الحسنی.

بيان:

قوله تعالى: وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا الإشاره الى الوحى المفهوم من سابق السياق،و ام القرى هى مكه المشرفه و المراد بإنذار ام القرى إنذار أهلها،و المراد بمن حولها سائر أهل الجزيره ممن هو خارج مكه كما يؤيده توصيف القرآن بالعربيه.

و ذلک أن الدعوه النبويه كانت ذات فى توسعها فابتدأت الدعوه العلنيه بدعوه العشيره الأقربين كما قال: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (الشعراء۲۱۴/)ثم توسعت فتعلقت بالعرب عامه كما قال: قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (حم السجده۳/)ثم بجميع الناس كما قال: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ .

و من الدليل على ما ذكرناه من الأمر بالتوسع تدريجا قوله تعالى: قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ -الى أن قال- إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ (ص۸۷/)فإن الخطاب على ما يعطيه سياق السوره لكفار قريش يقول سبحانه إنه ذكر للعالمين لا يختص ببعض دون بعض،فإذا كان للجميع فلا معنى لأن يسأل بعضهم-كالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-بعضا عليه أجرا.

على أن تعلق الدعوه بأهل الكتاب و خاصه باليهود و النصارى من ضروريات القرآن،

و كذا إسلام رجال من غير العرب كسلمان الفارسى و بلال الحبشى و صهيب الرومى من ضروريات التاريخ.

و قيل المراد بقوله: «مَنْ حَوْلَهٰا» سائر الناس من أهل قرى الأرض كلها و يؤيده التعبير عن مكه بام القرى.

و الآيه-كما ترى-تعرف الوحى بغايته التى هى إنذار الناس من طريق الإلقاء الإلهى و هو النبوه فالوحى إلقاء إلهى لغرض النبوه و الإنذار.

قوله تعالى: وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّهِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ عطف على «تُنْذِرَ» السابق و هو من عطف الخاص على العام لأهميته كأنه قيل:

لتنذر الناس و تخوفهم من اللّه و خاصه من سخطه يوم الجمع.

و قوله: يَوْمَ الْجَمْعِ مفعول ثان لقوله: «تُنْذِرَ» و ليس بظرف له و هو ظاهر،و يوم الجمع هو يوم القيامه قال تعالى: ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّٰاسُ -الى أن قال- فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (هود١٠۵/).

و قوله: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّهِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ فى مقام التعليل و دفع الدخل كأنه قيل:لما ذا ينذرهم يوم الجمع؟فقيل «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّهِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» أى إنهم يتفرقون فريقين:سعيد مثاب و شقى معذب فلينذروا حتى يتحرزوا سبيل الشقاء و الهبوط فى مهبط الهلكه.

قوله تعالى: وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّهً وٰاحِدَهً الى آخر الآيه لما كانت الآيه مسوقه لبيان لزوم الإنذار و النبوه من جهه تفرق الناس فريقين يوم القيامه كان الأسبق الى الذهن من جعلهم امه واحده مطلق رفع التفرق و التميز من بينهم بتسويتهم جميعا على صفه واحده من غير فرق و ميز،و لم تقع عند ذلك حاجه الى النبوه و الإنذار.

و قوله: وَ لٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشٰاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظّٰالِمُونَ مٰا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ

وَ لاٰ نَصِيرٍ استدراک يبين فيه أن سنته تعالى جرت على التفريق و لم يشأ جعلهم امه واحده يدل على ذلک قوله: «يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ» الدال على الاستمرار،و لم يقل:و لكن أدخل و نحوه.

و قد قوبل فى الآيه قوله: «مَنْ يَشاءُ» بقوله: «وَ الظّالِمُونَ» فالمراد بمن يشاء غير الظالمين و قد فسر الظالمين يوم القيامه بقوله: فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (الأعراف۴۵/)فهم المعاندون المنكرون للمعاد.

و قوبل أيضا بين الإدخال فى الرحمه و بين نفى الولى و النصير فالمدخلون فى رحمته هم الذين وليهم اللّه،و الذين ما لهم من ولى و لا نصير هم الذين لا يدخلهم اللّه فى رحمته،و أيضا الرحمه هى الجنه و انتفاء الولايه و النصره يلازم السعير.

فمحمل معنى الآيه:أن اللّه سبحانه إنما قدر النبوه و الإنذار المتفرع على الوحى لمكان ما سيعتريهم يوم القيامه من التفرق فريقين،ليتحرزوا من الدخول فى فريق السعير.

و لو أراد اللّه لجعلهم امه واحده فاستوت حالهم و لم يتفرقوا يوم القيامه فريقين فلم يكن عند ذلک ما تقتضى النبوه و الإنذار فلم يكن وحى لكنه تعالى لم يرد ذلک بل جرت سنته على أن يتولى أمر قوم منهم و هم غير الظالمين فيدخلهم الجنه و فى رحمته،و لا يتولى أمر آخرين و هم الظالمون فيكونوا الاولى لهم و لا نصير و يصيروا الى السعير لا مخلص لهم من النار.

فقد تحصل مما تقدم أن المراد بجعلهم امه واحده هو التسويه بينهم بإدخال الجميع فى الجنه و إدخال الجميع فى السعير أى إنه تعالى ليس بملزم بإدخال السعداء فى الجنه و الأشقياء فى النار فلو لم يشأ لم يفعل لكنه شاء أن يفرق بين الفريقين و جرت سنته على ذلک و وعد بذلک و هو لا يخلف الميعاد و مع ذلک فقدرته المطلقه باقيه على حالها لم تنسلب و لم تتغير فقوله:

«وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ» الى تمام الآيتين فى معنى قوله فى سوره هود: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خٰافَ عَذٰابَ الْآخِرَةِ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّٰاسُ الى تمام سبع آيات فراجع

و تدبر (۱).

قوله تعالی: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیاءَ فَاللّهُ هُوَ الْوَلِیُّ -الی قوله- فَحُکْمُهُ إِلَی اللّهِ تفید الإنکار کما ذکره الزمخشری.لما أفاد فی الآیه السابقه أن اللّه سبحانه یتولی أمر المؤمنین خاصه فیدخلهم فی رحمته و أن الظالمین هم الکافرون المعاندون لا ولی لهم تعرض فی هذه الآیه لاتخاذهم أولیاء یدینون لهم و یعبدونهم من دونه و کان یجب أن یتخذوا اللّه ولیا یدینون له و یعبدونه فأنکر علیهم ذلک و احتج علی وجوب اتخاذه ولیا بالحجه بعد الحجه و ذلک قوله: «فَاللّهُ هُوَ الْوَلِیُّ» الخ.

فقوله: فَاللّهُ هُوَ الْوَلِیُّ تعلیل للانکار السابق لاتخاذهم من دونه أولیاء فیکون حجه لوجوب اتخاذه ولیا،و الجمله-فاللّه هو الولی- تفید حصر الولایه فی اللّه و قد تبینت الحجه علی أصل ولایته و انحصارها فیه من قوله فی الآیات السابقه: اَلْعَزِیزُ الْحَکِیمُ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ کما أشرنا الیه فی تفسیر الآیات.

و المعنی:أنه تعالی ولی ینحصر فیه الولایه فمن الواجب علی من یتخذ ولیا أن یتخذه ولیا و لا یتعداه الی غیره إذ لا ولی غیره.

و قوله: وَ هُوَ یُحْیِ الْمَوْتی حجه ثانیه علی وجوب اتخاذه تعالی وحده ولیا، و محصله أن عمده الغرض فی اتخاذ الولی و التدین له بعبودیته التخلص من عذاب السعیر و الفوز بالجنه یوم القیامه و المثیب و المعاقب یوم القیامه هو اللّه الذی یحیی الموتی فیجمعهم فیجازیهم بأعمالهم فهو الذی یجب أن یتخذ ولیا دون أولیائهم الذین هم أموات غیر أحیاء و لا یشعرون أیان یبعثون.

و قوله: وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ حجه ثالثه علی وجوب اتخاذه تعالی ولیا

۱- ۱) .الشوری ۷-۱۲:بحث فی المراد من جعل الناس امّه واحده.

دون غیره،و محصله أن من الواجب فی باب الولایه أن یکون للولی قدره علی ما یتولاه من شئون من یتولاه و اموره،و اللّه سبحانه علی کل شیء قدیر و لا قدره لغیره إلا مقدار ما أقدره اللّه علیه و هو المالک لما ملکه و القادر علی ما علیه أقدره فهو الولی لا ولی غیره تعالی و تقدس.

و قوله: وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِیهِ مِنْ شَیْءٍ فَحُکْمُهُ إِلَی اللّٰهِ حجه رابعه علی کونه تعالی ولیا لا ولی غیره،و حکم الحاکم بین المختلفین هو إحکامه و تثبیته الحق المضطرب بینهما بسبب تخالفهما بالإثبات و النفی،و الاختلاف ربما کان فی عقیده کالاختلاف فی أن الإله واحد أو کثیر،و ربما کان فی عمل أو ما یرجع الیه کالاختلاف فی امور المعیشه و شئون الحیاه فهو أعنی الحکم یساوق القضاء مصداقا و إن اختلفا مفهوما.

ثم الحکم و القضاء إنما یتم إذا ملکه الحاکم بنوع من الملک و الولایه و إن کان بتملیک المختلفین له ذلک کالمتنازعین إذا رجعا الی ثالث فاتخذاه حکما لیحکم بینهما و یتسلما ما یحکم به فقد ملکاه الحکم بما یری و أعطیاه من نفسهما القبول و التسلیم فهو ولیهما فی ذلک.

و اللّه سبحانه هو المالک لکل شیء لا مالک سواه لکون کل شیء بوجوده و آثار وجوده قائما به تعالی فله الحکم و القضاء بالحق قال تعالی: کُلُّ شَیْءٍ هٰالِکٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ لَهُ الْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (القصص/۸۸)،و قال: إِنَّ اللّٰهَ یَحْکُمُ مٰا یُرِیدُ (المائده/۲)و قال: اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ (آل عمران/۶۰).

و حکمه تعالی إما تکوینی و هو تحقیقه و تثبیته المسببات قبال الأسباب المجتمعه علیها المتنازعه فیها بتقدیم ما نسمیه سببا تاما علی غیره قال تعالی حاکیا عن یعقوب علیه السّلام: إِنِ الْحُکْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ (یوسف/۶۷)و إما تشریعی کالتکالیف الموضوعه فی الدین الإلهی الراجعه الی الاعتقاد و العمل قال تعالی: إِنِ الْحُکْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ أَمَرَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِیّٰاهُ ذٰلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ (یوسف/۴۰).

و هنـاک قسم ثـالث من الحکم یمکن أن یعـد من کل من القسـمین السابقین بوجه و هو حکمه تعالی یوم القیامه بین عباده فیما اختلفوا فیه و هو إعلانه و إظهـاره الحق یوم القیامه لأهل الجمع یشاهـدونه مشاهـده عیان و إیقان فیسـعد به و بآثاره من کان مع الحق و یشـقی بالاسـتکبار علیه و تبعـات ذلـک من اسـتکبر علیه قـال تعالی: فَاللّهُ یَحْکُمُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَهِ فِیما کانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (البقره/١١٣).

ثم إن اختلاف النـاس فی عقائـدهم و أعمالهم اختلاف تشـریعی لا یرفعه إلا الأحکام و القوانین التشـریعیه و لو لا الاختلاف لم یوجـد قـانون کمـا یشـیر الیه قوله تعالی: کانَ النّاسُ أُمَّهً واحِدَهً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ النّاسِ فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِیهِ إِلاَّ الَّذِینَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَیِّناتُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ فَهَدَی اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ (البقره/٢١٣)،و قد تبین أن الحکم التشریعی للّه سبحانه فهو الولی فی ذلک فیجب أن یتخذ وحده ولیا فیعبد و یدان بما أنزله من الدین.

و هـذا معنی قوله: «وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِیهِ مِنْ شَیْءٍ فَحُکْمُهُ إِلَی اللّهِ» و محصل الحجه أن الولی الـذی یعبـد و یـدان له یجب أن یکون رافعا لاختلافات من یتولونه مصـلحا لما فسد من شـئون مجتمعهم سائقا لهم الی سعاده الحیاه الدائمه بما یضعه علیهم من الحکم و هو الدین،و الحکم فی ذلک الی اللّه سبحانه،فهو الولی الذی یجب أن یتخذ ولیا لا غیر.

قوله تعـالی: ذلِکُمُ اللّهُ رَبِّی عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَ إِلَیْهِ أُنِیبُ کلام محکی للنـبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم،و الإشـاره بـذلکم الی من أقیمت الحجج فی الآیتین علی وجوب اتخاذه ولیا و هو اللّه سبحانه،و لازم ولایته ربوبیته.

لما أقیمت الحجج علی أنه تعالی هو الولی لا ولی غیره أمر صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بإعلام أنه اللّه و أنه اتخذه ولیا بالاعتراف له بالربوبیه التی هی ملک التدبیر ثم عقب ذلک بالتصریح بما للاتخاذ المذکور

من الآثار و هو قوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ» .

و ذلک أن ولایه الربوبیه تتعلق بنظام التکوین بتدبیر الامور و تنظیم الأسباب و المسببات بحث یتعین بها للمخلوق المدبر کالإنسان مثلا ما قدر له من الوجود و البقاء،و تتعلق بنظام التشریع و هو تدبیر أعمال الإنسان بجعل قوانین و أحکام یراعیها الإنسان بتطبیق أعماله علیها فی مسیر حیاته لتنتهی به الی کمال سعادته.

و لازم اتخاذه تعالی ربا ولیا من جهه التکوین إرجاع أمر التدبیر الیه بالانقطاع عن الأسباب الظاهریه و الرکون الیه من حیث إنه سبب غیر مغلوب ینتهی الیه کل سبب و هذا هو التوکل،و من جهه التشریع الرجوع الی حکمه فی کل واقعه یستقبله الإنسان فی مسیر حیاته و هذا هو الإنابه فقوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ» أی أرجع فی جمیع اموری،تصریح بإرجاع الأمر الیه تکوینا و تشریعا.

قوله تعالی: فٰاطِرُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الی آخر الآیه؛لما صرح بأنه تعالی هو ربه لقیام الحجج علی أنه هو الولی وحده عقب ذلک بإقامه الحجه فی هذه الآیه و التی بعدها علی ربوبیته تعالی وحده.

و محصل الحجه:أنه تعالی موجد الأشیاء و فاطرها بالإخراج من کتم العدم الی الوجود و قد جعلکم أزواجا فکثرکم بذلک و جعل من الأنعام أزواجا فکثرها بذلک لتنتفعوا بها، و هذا خلق و تدبیر،و هو سمیع لما یساله خلقه من الحوائج فیقضی لکل ما یستحقه من الحاجه،بصیر لما یعمله خلقه من الأعمال فیجازیهم بما عملوا و هو الذی یملک مفاتیح خزائن السماوات و الأرض التی ادخر فیها ما لها من خواص وجودها و آثاره مما یتألف منها بظهورها النظام المشهود و هو الذی یرزق المرزوقین فیوسع فی رزقهم و یضیق عن علم منه بذلک.و هذا کله من التدبیر فهو الرب المدبر للامور.

فقوله: «فٰاطِرُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» أی موجدها من کتم العدل علی سبیل الإبداع.

و قوله: جَعَلَ لَكَمْ مِنْ أَنْفُسِکَمْ أَزْوٰاجاً و ذلک بخلق الـذکر و الانثی للـذین یتم بتزاوجهما أمر التوالد و التناسل و تکثر الأفراد «وَ مِنَ الْأَنْعٰامِ أَزْوٰاجاً» أی و جعل من الأنعام أزواجا «يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ» أی یکثرکم فی هـذا الجعل،و الخطاب فی «يَذْرَؤُكُمْ» للإنسان و الأنعام بتغلیب جانب العقلاء علی غیرهم کما ذکره الزمخشری.

و قوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ أی لیس مثله شیء،فالکاف زائده للتأکید و له نظائر کثیره فی کلام العرب.

و قوله: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أی السـمیع لما یرفع الیه من مسائل خلقه البصیر لأعمال خلقه قال تعالی: يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (الرحمن۲۹/)،و قال:

وَ آتٰاكُمْ مِنْ كُلِّ مٰا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهیم۳۴/)،و قال: وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (الحدید۴/).

قوله تعالی: لَهُ مَقٰالِيدُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الی آخر الآیه المقالیـد المفاتیـح و فی إثبات المقالیـد للسـماوات و الأرض دلاله علی أنها خزائن لما یظهر فی الکون من الحوادث و الآثار الوجودیه.

و قوله: يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ بسـط الرزق توسـعته و قـدره تضـییقه و الرزق کل ما یمـد به البقاء و یرتفع به حاجه من حوائج الوجود فی استمراره.

و تذییل الکلام بقوله: «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» للإشاره الی أن الرزق و اختلافه فی موارده بالبسط و القدر لیس علی سبیل المجازفه جهلا بل عن علم منه تعالی بکل شیء فرزق کل مرزوق علی علم منه بما یستدعیه المرزوق بحسب حاله و الرزق بحسب حاله و ما یحف بهما من الأوضاع و الأحوال الخارجیه،و هذا هو الحکمه فهو یبسط و یقدر بالحکمه.

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۱۳ الی ۱۶]

شَرَعَ لَکُمْ مِنَ اَلدِّینِ مٰا وَصّٰی بِهِ نُوحاً وَ اَلَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ وَ مٰا وَصَّیْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ أَنْ أَقِیمُوا اَلدِّینَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِیهِ کَبُرَ عَلَی اَلْمُشْرِکِینَ مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَیْهِ اَللّٰهُ یَجْتَبِی إِلَیْهِ مَنْ یَشٰاءُ وَ یَهْدِی إِلَیْهِ مَنْ یُنِیبُ (۱۳) وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ اَلْعِلْمُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ وَ لَوْ لاٰ کَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّ اَلَّذِینَ أُورِثُوا اَلْکِتٰابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِی شَکٍّ مِنْهُ مُرِیبٍ (۱۴) فَلِذٰلِکَ فَادْعُ وَ اِسْتَقِمْ کَمٰا أُمِرْتَ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ مِنْ کِتٰابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَیْنَکُمُ اَللّٰهُ رَبُّنٰا وَ رَبُّکُمْ لَنٰا أَعْمٰالُنٰا وَ لَکُمْ أَعْمٰالُکُمْ لاٰ حُجَّهَ بَیْنَنٰا وَ بَیْنَکُمُ اَللّٰهُ یَجْمَعُ بَیْنَنٰا وَ إِلَیْهِ اَلْمَصِیرُ (۱۵) وَ اَلَّذِینَ یُحَاجُّونَ فِی اَللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا اُسْتُجِیبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دٰاحِضَهٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَیْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ (۱۶)

بیان:

قوله تعالی: شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ مٰا وَصّٰی بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ وَ مٰا وَصَّیْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ یقال:شرع الطریق شرعا أی سواه طریقا واضحا بینا.قال الراغب:الوصیه التقدم الی الغیر بما یعمل مقترنا بوعظ من قولهم:أرض واصیه متصله النبات و یقال:أوصاه و وصاه انتهی.و فی معناه إشعار بالأهمیه فما کل أمر یوصی به و إنما یختار لذلک ما یهتم به الموصی و یعتنی بشأنه.

فقوله: «شَرَعَ لَكَمْ مِنَ الدِّينِ مٰا وَصّٰى بِهِ نُوحاً» أى بين و أوضح لكم من الدين و هو سنه الحياه ما قدم و عهد الى نوح مهتما به،و اللائح من السياق أن الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و امته،و أن المراد مما وصى به نوحا شريعه نوح عليه السّلام.

و قوله: وَ الَّذِى أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ ظاهر المقابله بينه و بين نوح عليه السّلام أن المراد بما أوحى اليه ما اختصت به شريعته من المعارف و الأحكام،و إنما عبر عن ذلك بالإيحاء دون التوصيه لأن التوصيه كما تقدم إنما تتعلق من الامور بما يهتم به و يعتنى بشأنه خاصه و هو أهم العقائد و الأعمال،و شريعته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جامعه لكل ما جل ودق محتويه على الأهم و غيره بخلاف شرائع غيره فقد كانت محدوده بما هو الأهم المناسب لحال اممهم و الموافق لمبلغ استعدادهم.

و الالتفات فى قوله: «وَ الَّذِى أَوْحَيْنٰا» من الغيبه الى التكلم مع الغير للدلاله على العظمه فإن العظماء يتكلمون عنهم و عن خدمهم و أتباعهم.

و قوله: وَ مٰا وَصَّيْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ عطف على قوله: «مٰا وَصّٰى بِهِ» و المراد به ما شرع لكل واحد منهم عليه السّلام.

و الترتيب الذى بينهم عليه السّلام فى الذكر على وفق ترتيب زمنهم فنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليه السّلام،و إنما قدم ذكر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للتشريف و التفضيل كما فى قوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثٰاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ (الأحزاب/٧)و إنما قدم نوحا و بدأ به للدلاله على قدم هذه الشريعه و طول عهدها.

و يستفاد من الآيه امور:

أحدها:أن السياق بما أنه يفيد الامتنان و خاصه بالنظر الى ذيل الآيه و الآيه التاليه يعطى أن الشريعه المحمديه جامعه للشرائع الماضيه و لا ينافيه قوله تعالى: لِكُلٍّ جَعَلْنٰا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهٰاجاً (المائده/۴٨)لأن كون الشريعه شريعه خاصه لا ينافى جامعيتها.

الثانى:أن الشرائع الإلهيه المنتسبه الى الوحى إنما هى شريعه نوح و إبراهيم و موسى

و عیسی و محمد علیهم السّلام إذ لو کان هناک غیرها لذکر قضاء لحق الجامعیه المذکوره.

و لازم ذلک أولا:أن لا شریعه قبل نوح علیه السّلام بمعنی القوانین الحاکمه فی المجتمع الإنسانی الرافعه للاختلافات الاجتماعیه و قد تقدم نبذه من الکلام فی ذلک فی تفسیر قوله تعالی: کٰانَ النّٰاسُ أُمَّهً وٰاحِدَهً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِیِّینَ الآیه(البقره۲۱۳/).

و ثانیا:أن الأنبیاء المبعوثین بعد نوح کانوا علی شریعته الی بعثه إبراهیم و بعدها علی شریعه إبراهیم الی بعثه موسی و هکذا.

الثالث:أن الأنبیاء أصحاب الشرائع و اولی العزم هم هؤلاء الخمسه المذکورون فی الآیه إذ لو کان معهم غیرهم لذکر فهؤلاء ساده الأنبیاء و یدل علی تقدمهم أیضا قوله: وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِنَ النَّبِیِّینَ مِیثٰاقَهُمْ وَ مِنْکَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ (الأحزاب۷/).

و قوله: «أَنْ أَقِیمُوا الدِّینَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا» أن تفسیریه،و إقامه الدین حفظه بالاتباع و العمل و اللام فی الدین للعهد أی أقیموا هذا الدین المشروع لکم،و عدم التفرق فیه حفظ وحدته بالاتفاق علیه و عدم الاختلاف فیه.

لما کان شرع الدین لهم فی معنی أمرهم جمیعا باتباعه و العمل به من غیر اختلاف فسره بالأمر بإقامه الدین و عدم التفرق فیه فکان محصله أن علیهم جمیعا إقامه الدین جمیعا و عدم التفرق و التشتت فیه بإقامه بعض و ترک بعض،و إقامته الإیمان بجمیع ما أنزل اللّه و العمل بما یجب علیه العمل به.

فجمیع الشرائع التی أنزلها اللّه علی أنبیائه دین واحد یجب إقامته و عدم التفرق فیه فأما الأحکام السماویه المشترک فیها الباقیه ببقاء التکلیف فمعنی الإقامه فیها ظاهر و أما الأحکام المشرعه فی بعض هذه الشرائع المنسوخه فی الشریعه اللاحقه فحقیقه الحکم المنسوخ أنه حکم ذو أمد خاص بطائفه من الناس فی زمن خاص و معنی نسخه تبین انتهاء أمده لا ظهور بطلانه قال تعالی: وَ اللّٰهُ یَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ یَهْدِی السَّبِیلَ (الأحزاب۴/)فالحکم المنسوخ

حق دائما غير أنه خاص بطائفه خاصه فى زمن خاص يجب عليهم أن يؤمنوا به و يعملوا به و يجب على غيرهم أن يؤمنوا به فحسب من غير عمل و هذا معنى إقامته و عدم التفرق فيه.

فتبين أن الأمر بإقامه الدين و عدم التفرق فيه فى قوله: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» مطلق شامل لجميع الناس فى جميع الأزمان.

و قوله: كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ المراد بقوله: «مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ» دين التوحيد الذى كان يدعو اليه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا أصل التوحيد فحسب على ما تشهد به الآيه التاليه،و المراد بكبره على المشركين تحرجهم من قبوله.

و قوله: اَللّٰهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ الاجتباء هو الجمع و الاجتلاب،و مقتضى اتساق الضمائر أن يكون ضمير «إِلَيْهِ» الثانى و الثالث راجعا الى ما يرجع اليه الأول و المعنى اللّه يجمع و يجتلب الى دين التوحيد-و هو ما تدعوهم اليه-من يشاء من عباده و يهدى اليه من يرجع اليه فيكون مجموع قوله: «كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللّٰهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشٰاءُ» فى معنى قوله: هُوَ اجْتَبٰاكُمْ وَ مٰا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرٰاهِيمَ (الحج/٧٨).

قوله تعالى: وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ الى آخر الآيه؛ضمير «تَفَرَّقُوا» للناس المفهوم من السياق،و البغى الظلم أو الحسد،و تقييده بقوله:

«بَيْنَهُمْ» للدلاله على تداوله،و المعنى و ما تفرق الناس الذين شرعت لهم الشريعه باختلافهم و تركهم الاتفاق إلا حال كون تفرقهم آخذا-أو ناشئا-من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق ظلما أو حسدا تداولوه بينهم.

و هذا هو الاختلاف فى الدين المؤدى الى الانشعابات و التحزبات الذى ينسبه اللّه سبحانه فى مواضع من كلامه الى البغى،و أما الاختلاف المؤدى الى نزول الشريعه و هو الاختلاف فى شئون الحياه و التفرق فى امور المعاش فهو أمر عائد الى اختلاف طبائع الناس فى مقاصدهم

و هو الذريعه الى نزول الوحى و تشريع الشرع لرفعه كما يشير اليه قوله: كٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ (البقره۲۱۳/)كما تقدم فى تفسير الآيه.

و قوله: وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ المراد بالكلمه مثل قوله:حين إهباط آدم عليه السّلام الى الأرض وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلىٰ حِينٍ (البقره۳۶/).

و المعنى:و لو لا أن اللّه قضى فيهم الاستقرار و التمتع فى الأرض الى أجل سماه و عينه لقضى بينهم إثر تفرقهم فى دينه و انحرافهم عن سبيله لأهلكهم باستدعاء من هذا الذنب العظيم.

و قوله: وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتٰابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ضمير «مِنْ بَعْدِهِمْ» لاولئك الذين تفرقوا من بعد علم بغيا بينهم و هم الأسلاف،و الذين اورثوا الكتاب من بعدهم أخلافهم فمفاد الآيه أن البادئين بالاختلاف المؤسسين للتفرقه كانوا على علم من الحق و إنما أبدعوا ما أبدعوا،بغيا بينهم،و أخلافهم الذين أورثوا الكتاب من بعدهم فى شك مريب-موقع فى الريب-منه.

قوله تعالى: فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمٰا أُمِرْتَ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ الى آخر الآيه.تفريع على ما ذكر من شرع دين واحد لجميع الأنبياء و اممهم ثم انقسام اممهم الى أسلاف اختلفوا فى الدين عن علم بغيا،و الى أخلاف شاكين مرتابين فيما اورثوه من الكتاب أى فلأجل أنه شرع لكم جميع ما شرع لمن قبلكم فادع و لأجل ما ذكر من تفرّق بعضهم بغيا و ارتياب آخرين «فَاسْتَقِمْ كَمٰا أُمِرْتَ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ» .

و اللام فى قوله: «فَلِذٰلِكَ» للتعليل،و قيل:اللام بمعنى الى أى الى ما شرع لكم من الدين فادع و استقم كما أمرت،و الاستقامه-كما ذكر الراغب-لزوم المنهاج المستقيم،و قوله: «وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ» كالمفسر له.

و قوله: وَ قُلْ آمَنْتُ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنْ كِتٰابٍ تسويه بين الكتب السماويه من

حيث تصديقها و الإيمان بها و هى الكتب المنزله من عند اللّه المشتمله على الشرائع.

و قوله: وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ قيل:اللام زائده للتأكيد نظير قوله: وَ أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (الأنعام/۷۱)،و المعنى:و أمرت أن أعدل بينكم أى اسوّى بينكم فلا اقدّم قويا على ضعيف و لا غنيا على فقير و لا كبيرا على صغير،و لا أفضّل أبيض على أسود و لا عربيا على عجمى و لا هاشميا أو قرشيا على غيره فالدعوه متوجهه الى الجميع،و الناس قبال الشرع الإلهى سواء.

فقوله: آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنْ كِتابٍ تسويه بين الكتب المنزله من حيث الإيمان بها،و قوله: «وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ» تسويه بين الناس من حيث الدعوه و توجه ما جاء به من الشرع.

و قوله: اَللّٰهُ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ الخ؛فى مقام التعليل لما ذكر من التسويه بين الكتب و الشرائع فى الإيمان بها و بين الناس فى دعوتهم و شمول الأحكام لهم،و لذا جىء فى الكلام بالفصل من غير عطف.

فقوله: اَللّٰهُ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ يشير الى أن رب الكل هو اللّه الواحد تعالى فليس لهم أرباب كثيرون حتى يلحق كل بربه و يتفاضلوا بالأرباب و يقتصر كل منهم بالإيمان بشريعه ربه بل اللّه هو رب الجميع و هم جميعا عباده المملوكون له المدبرون بأمره و الشرائع المنزله على الأنبياء من عنده فلا موجب للإيمان ببعضها دون بعض كما يؤمن اليهود بشريعه موسى دون من بعده و كذا النصارى بشريعه عيسى دون محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بل الواجب الإيمان بكل كتاب نازل من عنده لأنها جميعا من عنده.

و قوله: لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ يشير الى أن الأعمال و إن اختلفت من حيث كونها حسنه أو سيئه و من حيث الجزاء ثوابا أو عقابا إلا أنها لا تتعدى عاملها فلكل امرئ ما عمل فلا ينتفع أحد بعمل آخر و لا يتضرر بعمل غيره فليس له أن يقدم امرأ للانتفاع بعمله

أو يؤخر امرأ للتضرر بعمله نعم فى الأعمال تفاضل تختلف به درجات العاملين لكن ذلك الى اللّه فيما يحاسب به عباده لا الى الناس-النبى فمن دونه-الذين هم جميعا عباد مملوكون لا يملك منهم نفس من نفس شيئا،و هذا هو الذى ذكره تعالى فى محاوره نوح عليه السّلام قومه: قٰالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قٰالَ وَ مٰا عِلْمِي بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسٰابُهُمْ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (الشعراء/١١٣)،و كذا قوله يخاطب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: مٰا عَلَيْكَ مِنْ حِسٰابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مٰا مِنْ حِسٰابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ (الأنعام/٥٢).

و قوله: لاٰ حُجَّةَ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمُ لعل المراد أنه لا حجه تدل على تقدم بعض على بعض تكون فيما بيننا يقيمها بعض على بعض يثبت بها تقدمه عليه.

و يمكن أن يكون نفى الحجه كنايه عن نفى لازمها و هو الخصومه أى لا خصومه بيننا بتفاوت الدرجات لأن ربنا واحد و نحن فى أننا جميعا عباده واحد و لكل نفس ما عملت فلا حجه فى البين أى لا خصومه حتى تتخذ لها حجه.

و قوله: اَللّٰهُ يَجْمَعُ بَيْنَنٰا المراد بضمير التكلم فيه مجموع المتكلم و المخاطب فى الجمل السابقه،و المراد بالجمع جمعه تعالى إياهم يوم القيامه للحساب و الجزاء على ما قيل.

و غير بعيد أن يراد بالجمع جمعه تعالى بينهم فى الربوبيه فهو رب الجميع و الجميع عباده فيكون قوله: «اللّٰهُ يَجْمَعُ بَيْنَنٰا» تأكيدا لقوله السابق: «اللّٰهُ رَبُّنٰا وَ رَبُّكُمْ» و توطئه و تمهيدا لقوله:

«وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» و يكون مفاد الجملتين أن اللّه هو مبدؤنا لأنه ربنا جميعا و اليه منتهانا لأنه اليه المصير فلا موجد لما بيننا إلا هو عز اسمه.

و كان مقتضى الظاهر فى التعليل أن يقال:«اللّه ربى و ربكم لنا اعمالنا و لكم أعمالكم لا حجه بينى و بينكم على محاذاه قوله: «آمَنْتُ» «وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ» لكن عدل عن المتكلم وحده الى المتكلم مع الغير لدلاله قوله السابق: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مٰا وَصّٰى بِهِ نُوحاً» الخ؛و قوله:

«اللّٰهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» أن هناك قوما يؤمنون بما آمن به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

و یلبون دعوته و یتبعون شریعته.

فالمراد بالمتکلم مع الغیر فی «رَبُّنا» و «لَنا أَعْمالُنا» و «بَیْنَنا» هو صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنون به، و بالمخاطبین فی قوله: «وَ رَبُّکُمْ» و «أَعْمالُکُمْ» و «بَیْنَکُمُ» سائر الناس من أهل الکتاب و المشرکین،و الآیه علی وزان قوله تعالی: قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ تَعالَوْا إِلی کَلِمَهٍ سَواءٍ بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَ لا نُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً وَ لا یَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّا مُسْلِمُونَ (آل عمران۶۴/).

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ یُحَاجُّونَ فِی اللّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِیبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَهٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَیْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ الحجه هی القول الذی یقصد به إثبات شیء أو إبطاله من الحج بمعنی القصد،و الدحض البطلان و الزوال.

و المعنی:-علی ما قیل-و الذین یحاجون فی اللّه أی یحتجون علی نفی ربوبیته أو علی إبطال دینه من بعد ما استجاب الناس له و دخلوا فی دینه لظهور الحجه و وضوح المحجه حجتهم باطله زائله عند ربهم و علیهم غضب منه تعالی و لهم عذاب شدید.

و الظاهر أن المراد بالاستجابه له ما هو حق الاستجابه و هو التلقی بالقبول عن علم لا یداخله شک تضطر الیه الفطره الإنسانیه السلیمه فإن الدین بما فیه من المعارف فطری تصدقه و تستجیب له الفطره الحیه قال تعالی: إِنَّما یَسْتَجِیبُ الَّذِینَ یَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتی یَبْعَثُهُمُ اللّهُ (الأنعام۳۶/)،و قال: وَ نَفْسٍ وَ ما سَوّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها (الشمس۸/)، و قال: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَیْها (الروم۳۰/).

و محصل الآیه:علی هذا أن الذین یحاجون فیه تعالی أو فی دینه بعد استجابه الفطره السلیمه له أو بعد استجابه الناس بفطرتهم السلیمه له حجتهم باطله زائله عند ربهم و علیهم غضب منه و لهم عذاب شدید لا یقادر قدره.

و یؤید هذا الوجه بعض التأیید سیاق الآیات السابقه حیث تذکر أن اللّه شرع دینا و وصی

به أنبیاءه و اجتبی الیه من شاء من عباده فالمحاجه فی أن للّه دینا یستعبد به عباده داحضه و من الممکن حینئذ أن یکون قوله: «اللّهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِیزانَ» فی مقام التعلیل و حجه مدحضه لحجتهم فتدبر فیه.

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۱۷ الی ۲۶]

اشاره

اَللّهُ اَلَّذِی أَنْزَلَ اَلْکِتابَ بِالْحَقِّ وَ اَلْمِیزانَ وَ ما یُدْرِیکَ لَعَلَّ اَلسّاعَهَ قَرِیبٌ (۱۷) یَسْتَعْجِلُ بِهَا اَلَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِها وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَ یَعْلَمُونَ أَنَّهَا اَلْحَقُّ أَلا إِنَّ اَلَّذِینَ یُمارُونَ فِی اَلسّاعَهِ لَفِی ضَلالٍ بَعِیدٍ (۱۸) اَللّهُ لَطِیفٌ بِعِبادِهِ یَرْزُقُ مَنْ یَشاءُ وَ هُوَ اَلْقَوِیُّ اَلْعَزِیزُ (۱۹) مَنْ کانَ یُرِیدُ حَرْثَ اَلْآخِرَهِ نَزِدْ لَهُ فِی حَرْثِهِ وَ مَنْ کانَ یُرِیدُ حَرْثَ اَلدُّنْیا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِی اَلْآخِرَهِ مِنْ نَصِیبٍ (۲۰) أَمْ لَهُمْ شُرَکاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ اَلدِّینِ ما لَمْ یَأْذَنْ بِهِ اَللّهُ وَ لَوْ لا کَلِمَهُ اَلْفَصْلِ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّ اَلظّالِمِینَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۲۱) تَرَی اَلظّالِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمّا کَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ فِی رَوْضاتِ اَلْجَنّاتِ لَهُمْ ما یَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِکَ هُوَ اَلْفَضْلُ اَلْکَبِیرُ (۲۲) ذلِکَ اَلَّذِی یُبَشِّرُ اَللّهُ عِبادَهُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ اَلْمَوَدَّهَ فِی اَلْقُرْبی وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَهً نَزِدْ لَهُ فِیها حُسْناً إِنَّ اَللّهَ غَفُورٌ شَکُورٌ (۲۳) أَمْ یَقُولُونَ اِفْتَری عَلَی اَللّهِ کَذِباً فَإِنْ یَشَإِ اَللّهُ یَخْتِمْ عَلی قَلْبِکَ وَ یَمْحُ اَللّهُ اَلْباطِلَ وَ یُحِقُّ اَلْحَقَّ بِکَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذاتِ اَلصُّدُورِ (۲۴) وَ هُوَ اَلَّذِی یَقْبَلُ اَلتَّوْبَهَ عَنْ عِبادِهِ وَ یَعْفُوا عَنِ اَلسَّیِّئاتِ وَ یَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (۲۵) وَ یَسْتَجِیبُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اَلْکافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ (۲۶)

بیان:

قوله تعالی: اَللّهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِیزٰانَ الخ؛کان مفتتح الفصول السابقه فی سیاق الفعل إخبارا عن الوحی و غرضه و آثاره کَذٰلِکَ یُوحِی إِلَیْکَ وَ کَذٰلِکَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ و قد غیّر السیاق فی مفتتح هذا الفصل فجیء بالجمله الاسمیه المتضمنه لتوصیفه تعالی بإنزال الکتاب و المیزان «اللّهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْکِتٰابَ» الخ؛و لازمه تعریف الوحی بنزول الکتاب و المیزان به.

و لعل الوجه فیه ما تقدم فی الآیه السابقه من ذکر المحاجّه فی اللّه «وَ الَّذِینَ یُحَاجُّونَ فِی اللّهِ» فاستدعی ذلک تعریفه تعالی للمحاجین فیه بأنه الذی أنزل الکتاب بالحق و المیزان،و لازمه تعریف الوحی بأثره کما عرفت.

و کیف کان فالمراد بالکتاب هو الوحی المشتمل علی الشریعه و الدین الحاکم فی المجتمع

ص :۵۵۶

البشری،و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی: کٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً الآیه(البقره/۲۱۳)؛ أن هذا المعنی هو المراد بالکتاب فی الکتاب،و کون إنزاله بالحق نزوله مصاحبا للحق لا یخالطه اختلاف شیطانی و لا نفسانی.

و المیزان ما یوزن و یقدّر به الأشیاء،و المراد به بقرینه ذیل الآیه و الآیات التالیه هو الدین المشتمل علیه الکتاب حیث یوزن به العقائد و الأعمال فتحاسب علیه و یجزی بحسبه الجزاء یوم القیامه فالمیزان هو الدین باصوله و فروعه،و یؤیده قوله تعالی: لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا بِالْبَیِّنٰاتِ وَ أَنْزَلْنٰا مَعَهُمُ الْکِتٰابَ وَ الْمِیزٰانَ (الحدید/۲۵)،علی ما هو ظاهر قوله:

«مَعَهُمُ» .

و قوله: وَ مٰا یُدْرِیکَ لَعَلَّ السّٰاعَةَ قَرِیبٌ لما کان المیزان المشعر بالحساب و الجزاء یومی الی البعث و القیامه انتقل الی الکلام فیه و إنذارهم بما سیستقبلهم فیه من الأهوال و التبشیر بما أعدّ فیه للصالحین.

و الإدراء الإعلام،و المراد بالساعه-علی ما قیل-إتیانها و لذا جیء بالخبر مذکرا، و المعنی:ما الذی یعلمک لعل إتیان الساعه قریب و الخطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعنوان أنه سامع فیشمل کل من له أن یسمع و یعمّ الانذار و التخویف.

قوله تعالی: یَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِهٰا وَ الَّذِینَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهٰا الخ؛المراد استعجالهم استعجال سخریه و استهزاء و قد تکرر فی القرآن نقل قولهم:

«مَتیٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ» .

و الإشفاق نوع من الخوف،قال الراغب:الإشفاق عنایه مختلطه بخوف لأن المشفق یحب المشفق علیه و یخاف ما یلحقه،قال تعالی: «وَ هُمْ مِنَ السّٰاعَهِ مُشْفِقُونَ» فإذا عدّی بمن فمعنی الخوف فیه أظهر،و إذا عدی بفی فمعنی العنایه فیه أظهر،قال تعالی: إِنّٰا کُنّٰا قَبْلُ فِی أَهْلِنٰا مُشْفِقِینَ مُشْفِقُونَ مِنْهٰا انتهی.

ص :۵۵۷

و قوله: أَلاٰ إِنَّ الَّذِينَ يُمٰارُونَ فِي السّٰاعَهِ لَفِي ضَلاٰلٍ بَعِيدٍ المماراه الإصرار على الجدال،و المراد إلحاحهم على إنكارها بالجدال،و إنما كانوا فى ضـلال بعيد لأنهم أخطئوا طريق الحياه التى إصابتها أهم ما يتصور للانسان فتوهموها حياه مقطوعه فانيه انكبوا فيها على شـهوات الدنيا و إنما هى حياه خالده باقيه يجب عليهم أن يتزوّدوا من دنياهم لاخراهم لكنهم ضـلوا عن سبيل الرشد فوقعوا فى سبيل الغيّ.

قوله تعالى: اَللّٰهُ لَطِيفٌ بِعِبٰادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشٰاءُ وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ فى معنى اللطف شـىء من الرفق و سـهوله الفعل و شيء من الدقه فى ما يقع عليه الفعل فإذا تمّ الرفق و الـدقه و كان الفاعل يفعل برفق و سـهوله و يقع فعله على الامور الـدقيقه كان لطيفا كالهواء النافذ فى منافذ الأجسام برفق و سـهوله المماس لدقائق أجزائها الباطنه.و إذا القيت الخصوصـيات الماديه عن هذا المعنى صح أن يتصف به اللّه سبحانه فإنه تعالى ينال دقائق الامور بإحاطته و علمه و يفعل فيها ما يشاء برفق فهو لطيف.

و قـد رتب الرزق فى الآـيه على كونه تعـالى لطيفـا بعبـاده قويـا عزيزا دلاله على أنه تعالى بلطفه لا يغيب عنه أحـد ممن يشاء أن يرزق و لا يعصيه و بقوته عليه لا يعجز عنه و بعزته لا يمنعه مانع عنه.

و المراد بالرزق ما يعمّ موهبه الـدين الذى يتلبس بها من يشاء من عباده على ما يشـهد به الآيه التاليه،و لذا ألحق القول فيه بقوله: «اللّٰهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزٰانَ» .

قوله تعـالى: مَنْ كٰانَ يُرِيـدُ حَرْثَ الْآخِرَهِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ الـخ؛الحرث الزرع و المراد به نـتيجه الأعمـال التى يؤتاهـا الإنسـان فى الآخره على سبيل الاستعاره كأن الأعمال الصالحه بذور و ما تنتجه فى الآخره حرث.

و المراد بالزيـاده له فى حرثه تكثير ثوابه و مضـاعفته،قـال تعـالى: مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا (الأنعام/۱۶۰)،و قـال: وَ اللّٰهُ يُضٰاعِفُ لِمَنْ يَشٰاءُ (البقره/۲۶۱).

و قوله: وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَهِ مِنْ نَصِيبٍ أى و من كان يريد النتائج الدنيويه بأن يعمل للدنيا و يريد نتيجه ما عمله فيها دون الآخره نؤته من الدنيا و ما له فى الآخره نصيب،و فى التعبير بإراده الحرث إشاره الى اشتراط العمل لما يريده من الدنيا و الآخره كما قال تعالى: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاّ ما سَعى (النجم٣٩/).

و قد ابهم ما يعطيه من الدنيا إذ قال: «نُؤْتِهِ مِنْها» إشاره الى أن الأمر الى المشيه الإلهيه فربما بسطت الرزق و ربما قدرت كما قال تعالى: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَهَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ (الإسراء١٨/).

و المحصل من معنى الآيتين:أن اللّه سبحانه لطيف بعباده جميعا ذو قوه مطلقه و عزّه مطلقه يرزق عباده على حسب مشيته و قد شاء فى من أراد الآخره و عمل لها أن يرزقه منها و يزيد فيه،و فيمن أراد الدنيا و عمل لها فحسب أن يؤتيه منها و ما له فى الآخره من نصيب.

و يظهر من ذلك أن الآيه الاولى عامه تشمل الفريقين،و المراد بالعباد ما يعم أهل الدنيا و الآخره،و كذا الرزق و أن الآيه الثانيه فى مقام تفصيل ما فى قوله: «يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ» من الإجمال.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللّهُ الى آخر الآيه لما بين أن اللّه سبحانه هو الذى أنزل الكتاب بالحق و شرع لهم الدين الذى هو ميزان أعمالهم و أنه بلطفه و قوته و عزته يرزق من أراد الآخره و عمل لها ما أراده منها و يزيد، و أن من أراد الدنيا و نسى الآخره لا نصيب له فيها سجّل على من كفر بالآخره عدم النصيب فيها بإنكار أن لا دين غير ما شرعه اللّه يدين به هؤلاء حتى يرزقوا بالعمل به مثل ما يرزق أهل الإيمان بالآخره فيها إذ لا شريك للّه حتى يشرع دينا غير ما شرعه اللّه من غير إذن منه تعالى فلا دين إلا للّه و لا يرزق فى الآخره رزقا حسنا إلا من آمن بها و عمل لها.

فقوله: أَمْ لَهُمْ شُرَكٰاءُ الخ؛فی مقام الإنکار،و قوله: «وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» إشاره الی الکلمه التی سبقت منه تعالی أنهم یعیشون فی الأرض الی أجل مسمّی،و فیه إکبار لجرمهم و معصیتهم.

و قوله: وَ إِنَّ الظّٰالِمِينَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ وعید لهم علی ظلمهم،و إشاره الی أنهم لا یفوتونه تعالی فإن لم یقض بینهم و لم یعد بهم فی الدنیا فلهم فی الآخره عذاب ألیم.

قوله تعالی: تَرَى الظّٰالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّٰا كَسَبُوا وَ هُوَ وٰاقِعٌ بِهِمْ الخ؛ الخطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعنوان أنه سامع فیشمل کل من من شأنه أن یری،و المراد بالظالمین التارکون لدین اللّه الذی شرعه لعباده المعرضون عن الساعه،و المعنی:یری الراءون هؤلاء الظالمین یوم القیامه خائفین مما کسبوا من السیئات و هو واقع بهم لا مناص لهم عنه.

و الآیه من الآیات الظاهره فی تجسم الأعمال.

و قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ فِي رَوْضٰاتِ الْجَنّٰاتِ فی المجمع:إن الروضه الأرض الخضره بحسن النبات،و الجنه الأرض التی تحفها الشجر فروضات الجنات الحدائق المشجره المخضره متونها.

و قوله: لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ أی إن نظام الأسباب مطوی فیها بل السبب الوحید هو إرادتهم وحدها یخلق اللّه لهم من عنده ما یشاءون ذلک هو الفضل الکبیر.

و قوله: ذٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللّٰهُ عِبٰادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ تبشیر للمؤمنین الصالحین،و إضافه العباد تشریفیه.

قوله تعالی: قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ الذی نفی سؤال الأجر علیه هو تبلیغ الرساله و الدعوه الدینیه،و قد حکی اللّه ذلک عن عده ممن قبله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الرسل کنوح و هود و صالح و لوط و شعیب فیما حکی مما یخاطب کل منهم امته:

وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ الْعٰالَمِينَ الشعراء و غیرها.

و قـد حکی عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ذلک إذ قال: وَ مٰا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (یوسف۱۰۴/)، و قد أمره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یخاطب الناس بذلک بتعبیرات مختلفه حیث قال: قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (ص۸۶/)،و قال: قُلْ مٰا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلَى اللّٰهِ (سبأ۴۷/)،و قال: قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرىٰ لِلْعٰالَمِينَ (الأنعام۹۰/)، فأشار الی وجه النفی و هو أنه ذکری للعالمین لا یختص ببعض دون بعض حتی یتخذ علیه الأجر.

و قال: قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (الفرقان/ ۵۷)،و معناه علی ما مر فی تفسیر الآیه:إلا أن یشاء أحد منکم أن یتخذ الی ربه سبیلا أی یستجیب دعوتی باختیاره فهو أجری أی لا شیء هناک وراء الدعوه أی لا أجر.

و قال تعالی فی هذه السوره: «قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ» فجعل أجر رسالته الموده فی القربی،و من المتقین من مضامین سائر الآیات التی فی هذا المعنی أن هذه الموده أمر یرجع الی استجابه الدعوه إما استجابه کلها و إما استجابه بعضها الذی یهتم به و ظاهر الاستثناء علی أی حال أنه متصل بدعوی کون الموده من الأجر و لا حاجه الی ما تمحّله بعضهم بتقریب الانقطاع فیه.

و أما معنی الموده فی القربی فقد اختلف فیه تفاسیرهم:

فقیل-و نسب الی الجمهور-أن الخطاب لقریش و الأجر المسئول هو مودّتهم للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لقرابته منهم و ذلک لأنهم کانوا یکذبونه و یبغضونه لتعرّضه لآلهتهم علی ما فی بعض الأخبار فامر صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یسألهم:إن لم یؤمنوا به فلیودّوه لمکان قرابته منهم و لا یبغضوه و لا یؤذوه فالقربی مصدر بمعنی القرابه،و فی للسببیه.

و فیه أن معنی الأجر إنما یتم إذا قوبل به عمل یمتلکه معطی الأجر فیعطی العامل ما یعادل ما امتلکه من مال و نحوه فسؤال الأجر من قریش و هم کانوا مکذبین له کافرین بدعوته إنما

كان يصح على تقدير إيمانهم به صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأنهم على تقدير تكذيبه و الكفر بدعوته لم يأخذوا منه شيئا حتى يقابلوه بالأجر،و على تقدير الإيمان به-و النبوه أحد الاصول الثلاثه فى الدين-لا يتصور بغض حتى تجعل الموده أجرا للرساله و يسأل.

و بالجمله لا تحقق لمعنى الأجر على تقدير كفر المسئولين و لا تحقق لمعنى البغض على تقدير إيمانهم حتى يسألوا الموده.

و هذا الإشكال وارد حتى على تقدير أخذ الاستثناء منقطعا فإن سؤال الأجر منهم على أى حال إنما يتصور على تقدير إيمانهم و الاستدراك على الانقطاع إنما هو عن الجمله بجميع قيودها فأجد التأمل فيه.

و قيل:المراد بالموده فى القربى ما تقدم و الخطاب للأنصار فقد قيل:إنهم أتوه بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت الآيه فردّه،و قد كان له منهم قرابه من جهه سلمى بنت زيد النجاريه و من جهه أخوال أمه آمنه على ما قيل.

و فيه أن أمر الأنصار فى حبهم للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أوضح من أن يرتاب فيه ذو ريب و هم الذين سألوه أن يهاجر اليهم،و بوّءوا له الدار،و فدوه بالأنفس و الأموال و البنين و بذلوا كل جهدهم فى نصرته و حتى فى الإحسان على من هاجر اليهم من المؤمنين به،و قد مدحهم اللّه تعالى بمثل قوله: وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدّٰارَ وَ الْإِيمٰانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هٰاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لاٰ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حٰاجَةً مِمّٰا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كٰانَ بِهِمْ خَصٰاصَةٌ (الحشر/۹)،و هذا مبلغ حبهم للمهاجرين اليهم لأجل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فما هو الظنّ فى حبهم له؟

و إذا كان هذا مبلغ حبهم فما معنى أن يؤمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يتوسل الى مودّتهم بقرابته منهم هذه القرابه البعيده؟

على أن العرب ما كانت تعتنى بالقرابه من جهه النساء ذاك الاعتناء و فيهم القائل:

بنونا بنو أبنائنا و بناتنا

بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

و القائل:

و إنما امهات الناس أوعيه

مستودعات و للأنساب آباء

و إنما هو الإسلام أدخل النساء فی القرابه و ساوی بین أولاد البنین و أولاد البنات و قد تقدم الکلام فی ذلک.

و قیل:الخطاب لقریش و المودّه فی القربی هی المودّه بسبب القرابه غیر أن المراد بها موده النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا موده قریش کما فی الوجه الأول،و الاستثناء منقطع،و محصل المعنی:أنی لا أسألکم أجرا علی ما أدعوکم الیه من الهدی الذی ینتهی بکم الی روضات الجنات و الخلود فیها و لا أطلب منکم جزاء لکن حبی لکم بسبب قرابتکم منی دفعنی الی أن أهدیکم الیه و أدلکم علیه.

و فیه أنه لا یلائم ما یخده اللّه سبحانه له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی طریق الدعوه و الهدایه فإنه تعالی یسجل علیه فی مواضع کثیره من کلامه أن الأمر فی هدایه الناس الی اللّه و لیس له من الأمر شیء و أن لیس له أن یحزن لکفرهم و ردهم دعوته و إنما علیه البلاغ فلم یکن له أن ینـدفع الی هدایه أحد لحب قرابه أو یعرض عن هدایه آخرین لبغض أو کراهه و مع ذلک کله کیف یتصور أن یأمره اللّه بقوله: «قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ» الآیه أن یخبر کفار قریش أنه إنما اندفع الی دعوتهم و هدایتهم بسبب حبه لهم لقرابتهم منه لا لأجر یسألهم إیاه علیه.

و قیل:المراد بالموده فی القربی موده الأقرباء و الخطاب لقریش أو لعامه الناس و المعنی:لا أسألکم علی دعائی أجرا إلا أن تودوا أقرباءکم.

و فیه أن موده الأقرباء علی إطلاقهم لیست مما ینـدب الیه فی الإسلام قال تعالی: لاٰ تَجِدُ قَوْماً یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ یُوٰادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ کٰانُوا آبٰاءَهُمْ أَوْ أَبْنٰاءَهُمْ أَوْ إِخْوٰانَهُمْ أَوْ عَشِیرَتَهُمْ أُولٰئِکَ کَتَبَ فِی قُلُوبِهِمُ الْإِیمٰانَ وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ (المجادله/۲۲)، و سیاق هذه الآیه لا یلائم کونها مخصصه أو مقیده لعموم قوله: «إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبیٰ» أو

إطلاقه حتی تکون الموده للأقرباء المؤمنین هی أجر الرساله علی أن هذه الموده الخاصه لا تلائم خطاب قریش أو عامه الناس.

بل الذی یفیده سیاق الآیه أن الذی یندب الیه الإسلام هو الحب فی اللّه من غیر أن یکون للقرابه خصوصیه فی ذلک،نعم هناک اهتمام شدید بأمر القرابه و الرحم لکنه بعنوان صله الرحم و إیتاء المال،علی حبه ذوی القربی لا بعنوان موده القربی فلا حب إلا اللّه عز اسمه.

و لا مساغ للقول بأن الموده فی القربی فی الآیه کنایه عن صلتهم و الإحسان الیهم بإیتاء المال إذ لیس فی الکلام ما یدفع کون المراد هو المعنی الحقیقی غیر الملائم لما ندب الیه الإسلام من الحب فی اللّه.

و قیل:معنی القربی هو التقرب الی اللّه،و الموده فی القربی هی التودّد الیه تعالی بالطاعه و التقرب فالمعنی:لا أسألکم علیه أجرا إلا أن تودّوا الیه تعالی بالتقرب الیه.

و فیه أن فی قوله: «إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبیٰ» علی هذا المعنی إبهاما لا یصلح به أن یخاطب به المشرکون فإن حاق مدلوله التودد الیه-أو وده تعالی-بالتقرب الیه و المشرکون لا ینکرون ذلک بل یرون ما هم علیه من عباده الآلهه توددا الیه بالتقرب منه فهم القائلون علی ما یحکیه القرآن عنهم: مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِیُقَرِّبُونٰا إِلَی اللّٰهِ زُلْفیٰ (الزمر۳/)، هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اللّٰهِ (یونس۱۸/)

فسؤال التودد الی اللّه بالتقرب الیه من غیر تقییده بکونه بعبادته وحده،و جعل ذلک أجرا مطلوبا ممن یری شرکه نوع تودد الی اللّه بالتقرب الیه،و خطابهم بذلک علی ما فیه من الإبهام -و المقام مقام تمحیضه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه فی دعوتهم الی دین التوحید لا یسألهم لنفسه شیئا قط-مما لا یرتضیه الذوق السلیم.

علی أن المستعمل فی الآیه هو الموده دون التودد فالمراد بالموده حبهم للّه فی التقرب الیه و لم یرد فی کلامه تعالی إطلاق الموده علی حب العباد للّه سبحانه و إن ورد العکس کما فی قوله: إِنَّ

رَبِّی رَحِیمٌ وَدُودٌ (هود۹۰/)،و قوله: وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (البروج۱۴/)،و لعل ذلک لما فی لفظ الموده من الإشعار بمراعاه حال المودود و تعاهده و تفقده،حتی قال بعضهم-علی ما حکاه الراغب-إن موده اللّه لعباده مراعاته لهم.

و الإشکال السابق علی حاله و لو فسرت الموده فی القربی بمواده الناس بعضهم بعضا و محابتهم فی التقرب الی اللّه بأن تکون القربات أسبابا للموده و الحب فیما بینهم فإن للمشرکین ما یماثل ذلک فیما بینهم علی ما یعتقدون.

و قیل:المراد بالموده فی القربی،موده قرابه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هم عترته من أهل بیته علیهم السّلام و قد وردت به روایات من طرق أهل السنه و تکاثرت الأخبار من طرق الشیعه علی تفسیر الآیه بمودتهم و موالاتهم،و یؤیده الأخبار المتواتره من طرق الفریقین علی وجوب موالاه أهل البیت علیهم السّلام و محبتهم.

ثم التأمل الکافی فی الروایات المتواتره الوارده من طرق الفریقین عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المتضمنه لإرجاع الناس فی فهم کتاب اللّه بما فیه من اصول معارف الدین و فروعها و بیان حقائقه الی أهل البیت علیهم السّلام کحدیث الثقلین و حدیث السفینه و غیرهما لا یدع ریبا فی أن إیجاب مودتهم و جعلها أجرا للرساله إنما کان ذریعه الی إرجاع الناس الیهم فیما کان لهم من المرجعیه العلمیه.

فالموده المفروضه علی کونها أجرا للرساله لم تکن أمرا وراء الدعوه الدینیه من حیث بقائها و دوامها،فالآیه فی مؤدّاها لا تغایر مؤدّی سائر الآیات النافیه لسؤال الأجر.

و یئول معناها الی أنی لا أسألکم علیه أجرا إلا أن اللّه لما أوجب علیکم موده عامه المؤمنین و من جملتهم قرابتی فإنی أحتسب مودّتکم لقرابتی و أعدّها أجرا لرسالتی،قال تعالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ سَیَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا (مریم۹۶/)و قال: وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ (التوبه۷۱/).

و بذلک یظهر فساد ما اورد علی هذا الوجه أنه لا یناسب شأن النبوه لما فیه من التهمه فإن أکثر طلبه الدنیا یفعلون شیئا و یسألون علیه ما یکون فیه نفع لأولادهم و قراباتهم.

و أیضا فیه منافاه لقوله تعالی: وَ مٰا تَسْئَلُهُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ (یوسف۱۰۴/).

وجه الفساد أن إطلاق الأجر علیها و تسمیتها به إنما هو بحسب الدعوی و أما بحسب الحقیقه فلا یزید مدلول الآیه علی ما یدل علیه الآیات الأخر النافیه لسؤال الأجر کما عرفت و ما فی ذلک من النفع عائد الیهم فلا مورد للتهمه.

علی أن الآیه علی هذا مدنیه خوطب بها المسلمون و لیس لهم أن یتهموا نبیهم المصون بعصمه إلهیه-بعد الإیمان به و تصدیق عصمته-فیما یأتیهم به من ربهم و لو جاز اتهامهم له فی ذلک و کان ذلک غیر مناسب لشأن النبوه لا یصلح لأن یخاطب به،لاطّرد مثل ذلک فی خطابات کثیره قرآنیه کالآیات الداله علی فرض طاعته المطلقه و الداله علی کون الأنفال و الغنائم للّه و لرسوله،و الداله علی خمس ذوی القربی،و ما ابیح له فی أمر النساء و غیر ذلک.

علی أنه تعالی تعرض لهذه التهمه و دفعها فی قوله الآتی: «أَمْ یَقُولُونَ افْتَریٰ عَلَی اللّٰهِ کَذِباً فَإِنْ یَشَإِ اللّٰهُ یَخْتِمْ عَلیٰ قَلْبِکَ» الآیه علی ما سیأتی.

و هب أنّا صرفنا الآیه عن هذا المعنی بحملها علی غیره دفعا لما ذکر من التهمه فما هو الدافع لها عن الأخبار التی لا تحصی کثره الوارده من طرق الفریقین فی إیجاب موده أهل البیت عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟

و أما منافاه هذه الوجه لقوله تعالی: «وَ مٰا تَسْئَلُهُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ» فقد اتضح بطلانه مما ذکرناه،و الآیه بقیاس مدلولها الی الآیات النافیه لسؤال الأجر نظیره قوله تعالی: قُلْ مٰا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ أَنْ یَتَّخِذَ إِلیٰ رَبِّهِ سَبِیلاً (الفرقان۵۷/).

قال فی الکشاف بعد اختیاره هذا الوجه:فإن قلت:هلا قیل:إلا موده القربی أو إلا الموده للقربی،و ما معنی قوله:إلا الموده فی القربی؟

قلت:جعلوا مکانا للموده و مقرا لها کقولک:لی فی آل فلان موده،و لی فیهم هوی و حب شدید،ترید احبهم و هم مکان حبی و محله.

قال:و لیست فی بصله للموده کاللام إذا قلت:إلا الموده للقربی.إنما هی متعلقه بمحذوف تعلق الظرف به فی قولک:المال فی الکیس،و تقدیره:إلا الموده ثابته فی القربی و متمکنه فیها.

انتهی.

قوله تعالی: وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَهً نَزِدْ لَهُ فِیها حُسْناً إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ شَکُورٌ الاقتراف الاکتساب،و الحسنه الفعله التی یرتضیها اللّه سبحانه و یثیب علیها،و حسن العمل ملاءمته لسعاده الإنسان و الغایه التی یقصدها کما أن مساءته و قبحه خلاف ذلک،و زیاده حسنها إتمام ما نقص من جهاتها و إکماله و من ذلک الزیاده فی ثوابها کما قال تعالی:

وَ لَنَجْزِیَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِی کانُوا یَعْمَلُونَ (العنکبوت۷)،و قال: لِیَجْزِیَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ یَزِیدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ (النور۳۸).

و المعنی:و من یکتسب حسنه نزد له فی تلک الحسنه حسنا-برفع نقائصها و زیاده أجرها-إن اللّه غفور یمحو السیئات شکور یظهر محاسن العمل من عامله.

و قیل:المراد بالحسنه موده قربی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یؤیده ما فی روایات أئمه أهل البیت علیهم السّلام أن قوله: «قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً» الی تمام أربع آیات نزلت فی موده قربی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و لازم ذلک کون الآیات مدنیه و أنها ذات سیاق واحد و أن المراد بالحسنه من حیث انطباقها علی المورد هی الموده،و علی هذا فالإشاره بقوله: «أَمْ یَقُولُونَ افْتَری» الخ؛الی بعض ما تفوّه به المنافقون تثاقلا عن قبوله و فی المؤمنین سمّاعون لهم،و بقوله: «وَ هُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَهَ» الی آخر الآیتین؛الی توبه الراجعین منهم و قبولها.

و فی قوله: إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ شَکُورٌ التفات من التکلم الی الغیبه و الوجه فیه الإشاره الی عله الاتصاف بالمغفره و الشکر فإن المعنی:إن اللّه غفور شکور لأنه اللّه عزّ اسمه.

قوله تعالی: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً الی آخر الآیه أم منقطعه، و الکلام مسوق للتوبیخ و لازمه إنکار کونه صلّی اللّٰه علیه و آله و سلّم مفتریا علی اللّٰه کذبا.

و قوله: فَإِنْ يَشَإِ اللّٰهُ يَخْتِمْ عَلىٰ قَلْبِكَ معناه علی ما یعطیه السیاق أنک لست مفتریا علی اللّٰه کذبا فإنه لیس لک من الأمر شیء حتی تشاء الفریه فتأتی بها و إنما هو وحی من اللّٰه سبحانه من غیر أن یکون لک فیه صنع و الأمر الی مشیّته تعالی فإن یشأ یختم علی قلبک و سدّ باب الوحی الیک،لکنه شاء أن یوحی الیک و یبیّن الحق،و قد جرت سنّته أن یمحو الباطل و یحق الحق بکلماته.

فقوله: «فَإِنْ يَشَإِ اللّٰهُ يَخْتِمْ عَلىٰ قَلْبِكَ» کنایه عن إرجاع الأمر الی مشیّه اللّٰه و تنزیه لساحه النبی صلّی اللّٰه علیه و آله و سلّم أن یأتی بشیء من عنده.

و هذا المعنی-کما ستری-أنسب للسیاق بناء علی کون المراد بالقربی قرابه النبی صلّی اللّٰه علیه و آله و سلّم و التوبیخ متوجها الی المنافقین و مرضی القلوب.

و قوله: وَ يَمْحُ اللّٰهُ الْبٰاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ :الإتیان بالمضارع-یمحو و یحق-للدلاله علی الاستمرار،فمحو الباطل و إحقاق الحق بالکلمات سنّه جاریه له تعالی و المراد بالکلمات ما ینزل علی الأنبیاء من الوحی الإلهی و التکلیم الربوبی و یمکن أن یکون المراد نفوس الأنبیاء من حیث إنها مفصحه عن الضمیر الغیبی.

و قوله: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ تعلیل لقوله: «وَ يَمْحُ اللّٰهُ الْبٰاطِلَ» الخ؛أی إنه یمحو الباطل و یحق الحق بکلماته لأنه علیم بالقلوب و ما انطوت علیه فیعلم ما تستدعیه من هدی أو ضلال أو شرح أو ختم بإنزال الوحی و توجیه الدعوه.

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبٰادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئٰاتِ وَ يَعْلَمُ مٰا تَفْعَلُونَ یقال:قبل منه و قبل عنه قال فی الکشاف:یقال:قبلت منه الشیء و قبلته عنه فمعنی قبلته منه أخذته منه و جعلته مبدأ قبولی و منشأه،و معنی قبلته عنه عزلته و أبنته عنه.

انتهی.

و فی قوله: وَ یَعْلَمُ مٰا تَفْعَلُونَ تحضیض علی التوبه و تحذیر عن اقترافات السیئات و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: وَ یَسْتَجِیبُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ الْکٰافِرُونَ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ فاعل «یَسْتَجِیبُ» ضمیر راجع الیه تعالی و «الَّذِینَ آمَنُوا» الخ؛فی موضع المفعول بنزع الخافض و التقدیر و یستجیب للذین آمنوا-علی ما قیل-و قیل:فاعل یَسْتَجِیبُ» هو «الَّذِینَ» و هو بعید من السیاق.

و الاستجابه إجابه الدعاء و لما کانت العباده دعوه له تعالی عبّر عن قبولها بالاستجابه لهم، و الدلیل علی هذا المعنی قوله: «وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» فإن ظاهره زیاده الثواب و کذا مقابله استجابه المؤمنین بقوله: «وَ الْکٰافِرُونَ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ» .

بحث روائی:

فی المجمع روی زادان عن علی علیه السّلام قال:فینا فی آل حم آیه لا یحفظ مودتنا إلا کل مؤمن.

ثم قرأ قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ .

قال الطبرسی:و إلی هذا أشار الکمیت فی قوله:

وجدنا لکم فی آل حم آیه

تأولها منا تقی و مهرب

و فیه و صحّ عن الحسن بن علی علیهما السّلام أنه خطب الناس فقال فی خطبته:إنا من أهل البیت الذین افترض اللّه مودتهم علی کل مسلم فقال: قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ .

و فی الکافی بإسناده عن عبد اللّه بن عجلان عن أبی جعفر علیه السّلام فی قوله تعالی: «قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ» قال:هم الأئمه.

أقول:و الأخبار فی هذا المعنی من طرق الشیعه عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام کثیره جدا مرویه عنهم.

و فی الدر المنثور أخرج أحمد بن حمید و البخاری و مسلم و الترمذی و ابن جریر و ابن مردویه من طریق طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: «إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ» فقال سعید بن جبیر:هم قربی آل محمد فقال ابن عباس:عجلت إن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یکن بطن من قریش إلا کان له فیهم قرابه فقال:إلا أن تصلوا ما بینی و بینکم من القرابه.

أقول:و رواه أیضا عن ابن عباس بطرق أخری غیر هذا الطریق،و قد تقدم فی بیان الآیه أن هذا المعنی غیر مستقیم و لا منطبق علی سیاق الآیه،و من العجیب ما فی بعض هذه الطرق أن الآیه منسوخه بقوله تعالی: قُلْ مٰا سَأَلْتُکُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَکُمْ إِنْ أَجْرِیَ إِلاّٰ عَلَی اللّٰهِ .

و فیه أخرج أبو نعیم و الدیلمی من طریق مجاهد عن ابن عباس قال:قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:لا أسألکم علیه أجرا إلا الموده فی القربی أن تحفظونی فی أهل بیتی و تودوهم لی.

و فیه أخرج ابن المنذر،و ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردویه بسند ضعیف من طریق سعید بن جبیر عن ابن عباس قال:لما نزلت هذه الآیه: «قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ» قالوا:یا رسول اللّه من قرابتک هؤلاء الذین وجبت مودتهم قال:علی و فاطمه و ولداها.

أقول:و رواه الطبرسی فی المجمع و فیها«و ولدها»مکان«و ولداها».

و فیه أخرج ابن جریر عن أبی الدیلم قال:لما جیء بعلی بن الحسین أسیرا فأقیم علی درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال:الحمد للّه الذی قتلکم و استأصلکم فقال له علی بن الحسین:أقرأت القرآن؟قال:نعم.قال:أقرأت آل حم؟قال:نعم قال:أ ما قرأت «قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ» ؟قال:فإنکم لأنتم هم؟قال:نعم.

و فیه أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس «وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَهً» قال:الموده لآل محمد.

أقول:و روی ما فی معناه فی الکافی بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبی جعفر علیه السّلام.

و فی تفسیر القمی حدثنی أبی عن ابن أبی نجران عن عاصم بن حمید عن محمد بن مسلم قال:سمعت أبا جعفر علیه السّلام یقول فی قول اللّه عزّ و جل: «قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبیٰ» یعنی فی أهل بیته.

قال:جاءت الأنصار إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقالوا:إنا قد آوینا و نصرنا فخذ طائفه من أموالنا فاستعن بها علی ما نابک فأنزل اللّه عزّ و جل «قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبیٰ» أی فی أهل بیته.

ثم قال:أ لا تری أن الرجل یکون له صدیق و فی نفس ذلک الرجل شیء علی أهل بیته فلا یسلم صدره فأراد اللّه عزّ و جل أن لا یکون فی نفس رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شیء علی أمته ففرض اللّه علیهم الموده فی القربی فإن أخذوا أخذوا مفروضا،و إن ترکوا ترکوا مفروضا.

قال:فانصرفوا من عنده و بعضهم یقول:عرضنا علیه أموالنا فقال:لا.قاتلوا عن أهل بیتی من بعدی،و قال طائفه:ما قال هذا رسول اللّه و جحدوه و قالوا کما حکی اللّه عزّ و جل:

«أَمْ یَقُولُونَ افْتَریٰ عَلَی اللّٰهِ کَذِباً» فقال عزّ و جل: «فَإِنْ یَشَإِ اللّٰهُ یَخْتِمْ عَلیٰ قَلْبِکَ» قال:لو افتریت «وَ یَمْحُ اللّٰهُ الْبٰاطِلَ» یعنی یبطله «وَ یُحِقُّ الْحَقَّ بِکَلِمٰاتِهِ» یعنی بالأئمه و القائم من آل محمد علیهم السّلام إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ .

أقول:و روی قصه الأنصار السیوطی فی الدر المنثور عن الطبرانی و ابن مردویه من طریق ابن جبیر و ضعّفه.

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۲۷ الی ۵۰]

وَ لَوْ بَسَطَ اَللّٰهُ اَلرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِی اَلْأَرْضِ وَ لٰکِنْ یُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مٰا یَشٰاءُ إِنَّهُ بِعِبٰادِهِ خَبِیرٌ بَصِیرٌ (۲۷) وَ هُوَ اَلَّذِی یُنَزِّلُ اَلْغَیْثَ مِنْ بَعْدِ مٰا قَنَطُوا وَ یَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ اَلْوَلِیُّ اَلْحَمِیدُ (۲۸) وَ مِنْ آیٰاتِهِ خَلْقُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَثَّ فِیهِمٰا مِنْ دٰابَّةٍ وَ هُوَ عَلیٰ جَمْعِهِمْ إِذٰا یَشٰاءُ قَدِیرٌ (۲۹) وَ مٰا أَصٰابَکُمْ مِنْ مُصِیبَةٍ فَبِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ (۳۰) وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ فِی اَلْأَرْضِ وَ مٰا لَکُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لاٰ نَصِیرٍ (۳۱) وَ مِنْ آیٰاتِهِ اَلْجَوٰارِ فِی اَلْبَحْرِ کَالْأَعْلاٰمِ (۳۲) إِنْ یَشَأْ یُسْکِنِ اَلرِّیحَ فَیَظْلَلْنَ رَوٰاکِدَ عَلیٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِکُلِّ صَبّٰارٍ شَکُورٍ (۳۳) أَوْ یُوبِقْهُنَّ بِمٰا کَسَبُوا وَ یَعْفُ عَنْ کَثِیرٍ (۳۴) وَ یَعْلَمَ اَلَّذِینَ یُجٰادِلُونَ فِی آیٰاتِنٰا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِیصٍ (۳۵) فَمٰا أُوتِیتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَمَتٰاعُ اَلْحَیٰاةِ اَلدُّنْیٰا وَ مٰا عِنْدَ اَللّٰهِ خَیْرٌ وَ أَبْقیٰ لِلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَلیٰ رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ (۳۶) وَ اَلَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبٰائِرَ اَلْإِثْمِ وَ اَلْفَوٰاحِشَ وَ إِذٰا مٰا غَضِبُوا هُمْ یَغْفِرُونَ (۳۷) وَ اَلَّذِینَ اِسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰةَ وَ أَمْرُهُمْ شُوریٰ بَیْنَهُمْ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ یُنْفِقُونَ (۳۸) وَ اَلَّذِینَ إِذٰا أَصٰابَهُمُ اَلْبَغْیُ هُمْ یَنْتَصِرُونَ (۳۹) وَ جَزٰاءُ سَیِّئَةٍ سَیِّئَةٌ مِثْلُهٰا فَمَنْ عَفٰا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَی اَللّٰهِ إِنَّهُ لاٰ یُحِبُّ اَلظّٰالِمِینَ (۴۰) وَ لَمَنِ اِنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِکَ مٰا عَلَیْهِمْ مِنْ سَبِیلٍ (۴۱) إِنَّمَا اَلسَّبِیلُ عَلَی اَلَّذِینَ یَظْلِمُونَ اَلنّٰاسَ وَ یَبْغُونَ فِی اَلْأَرْضِ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ أُولٰئِکَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۴۲) وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذٰلِکَ لَمِنْ عَزْمِ اَلْأُمُورِ (۴۳) وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ وَلِیٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَی اَلظّٰالِمِینَ لَمّٰا رَأَوُا اَلْعَذٰابَ یَقُولُونَ هَلْ إِلیٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِیلٍ (۴۴) وَ تَرٰاهُمْ یُعْرَضُونَ عَلَیْهٰا خٰاشِعِینَ مِنَ اَلذُّلِّ یَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِیٍّ وَ قٰالَ اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ اَلْخٰاسِرِینَ اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِیهِمْ یَوْمَ اَلْقِیٰامَةِ أَلاٰ إِنَّ اَلظّٰالِمِینَ فِی عَذٰابٍ مُقِیمٍ (۴۵) وَ مٰا کٰانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِیٰاءَ یَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ سَبِیلٍ (۴۶) اِسْتَجِیبُوا لِرَبِّکُمْ مِنْ قَبْلِ

أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اَللّهِ مٰا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (۴۷) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ وَ إِنّٰا إِذٰا أَذَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَةً فَرِحَ بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ اَلْإِنْسٰانَ كَفُورٌ (۴۸) لِلّٰهِ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ إِنٰاثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ اَلذُّكُورَ (۴۹) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرٰاناً وَ إِنٰاثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشٰاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (۵۰)

ص :۵۷۱

بیان:

قوله تعالی: وَ لَوْ بَسَطَ اللّٰهُ الرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ وَ لٰكِنْ یُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مٰا یَشٰاءُ إِنَّهُ بِعِبٰادِهِ خَبِیرٌ بَصِیرٌ القدر مقابل البسط معناه التضییق و منه قوله السابق: «یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ یَقْدِرُ» و القدر بفتح الدال و سكونها كمیّه الشیء و هندسته و منه قوله: «وَ لٰكِنْ یُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مٰا یَشٰاءُ» أو جعل الشیء علی كمیّه معینه و منه قوله: فَقَدَرْنٰا فَنِعْمَ الْقٰادِرُونَ (المرسلات۲۳/).

و البغی الظلم،و قوله: «بِعِبٰادِهِ» من وضع الظاهر موضع الضمیر،و النكته فیه الإشاره الی بیان كونه خبیرا بصیرا بهم و ذلك أنهم عباده المخلوقون له القائمون به فلا یكونون محجوبین عنه مجهولین له،و كذا قوله السابق: «لِعِبٰادِهِ» لا یخلو من إشاره الی بیان إیتاء الرزق و ذلك أنهم عباده و رزق العبد علی مولاه.

و معنی الآیه:و لو وسّع اللّه الرزق علی عباده فأشبع الجمیع بإیتائه لظلموا فی الأرض-لما أن من طبع سعه المال الأشر و البطر و الاستكبار و الطغیان كما قال تعالی: إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَیَطْغیٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنیٰ (العلق۷/)-و لكن ینزّل ما یشاء من الرزق بقدر و كمیه معینه إنه بعباده خبیر بصیر فیعلم ما یستحقه كل عبد و ما یصلحه من غنی أو فقر فیؤتیه ذلك.

ص: ۵۷۴

ففی قوله: وَ لٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مٰا يَشٰاءُ بیان للسنّه الإلهیه فی إیتاء الرزق بالنظر الی صلاح حال الناس أی إن لصلاح حالهم أثرا فی تقدیر أرزاقهم،و لا ینافی ذلک ما نشاهد من طغیان بعض المثرین و نماء رزقهم علی ذلک فإن هناک سنّه اخری حاکمه علی هذه السنه و هی سنه الابتلاء و الامتحان،قال تعالی: إِنَّمٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ أَوْلاٰدُكُمْ فِتْنَةٌ (التغابن/۱۵)، و سنّه اخری هی سنه المکر و الاستدراج،قال تعالی: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَعْلَمُونَ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (الأعراف/۱۸۳).

فسنه الإصلاح بتقدیر الرزق سنه ابتدائیه یصلح بها حال الإنسان إلا أن یمتحنه اللّه کما قال: وَ لِيَبْتَلِيَ اللّٰهُ مٰا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مٰا فِي قُلُوبِكُمْ (آل عمران/۱۵۴)أو یغیّر النعمه و یکفر بها فیغیّر اللّه فی حقه سنته فیعطیه ما یطغیه،قال تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ (الرعد/۱۱).

و کما أن إیتاء المال و البنین و سائر النعم الصوریه من الرزق المقسوم کذلک المعارف الحقه و الشرائع السماویه المنتهیه الی الوحی من حیث إنزالها و من حیث الابتلاء بها و التلبّس بالعمل بها من الرزق المقسوم.

فلو نزلت المعارف و الأحکام عن آخرها دفعه واحده-علی ما لها من الإحاطه و الشمول لجمیع شئون الحیاه الإنسانیه-لشقّت علی الناس و لم یؤمن بها إلا الأوحدی منهم لکن اللّه سبحانه أنزلها علی رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تدریجا و علی مکث و هیّأ بذلک الناس بقبول بعضها لقبول بعض،قال تعالی: وَ قُرْآناً فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّٰاسِ عَلىٰ مُكْثٍ (الإسراء/ ۱۰۶).

و کذا المعارف العالیه التی هی فی بطون المعارف الساذجه الدینیه لو لم یضرب علیها بالحجاب و بیّنت لعامه الناس علی حد الظواهر المبینه لهم لم یتحملوها و دفعته أفهامهم إلا الأوحدی منهم لکن اللّه سبحانه کلّمهم فی ذلک نوع تکلیم یستفید منه کل علی قدر فهمه

و سعه صدره کما قال فی مثل ضربه فی ذلک: أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهٰا (الرعد/۱۷).

و کـذلک الأحکـام و التکـالیف الشـرعیه لو کلّف بجمیعها جمیع الناس لتحرّجوا منها و لم یتحمّلوها لکنه سبحانه قسّمها بینهم حسب تقسیم الابتلاءات المقتضیه لتوجّه التکالیف المتنوّعه بینهم.

فالرزق بالمعارف و الشرائع من أی جهه فرض کالرزق الصوری مفروز بین الناس مقدّر علی حسب صلاح حالهم.

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی یُنَزِّلُ الْغَیْثَ مِنْ بَعْدِ مٰا قَنَطُوا وَ یَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِیُّ الْحَمِیدُ القنوط الیأس،و الغیث المطر،قال فی مجمع البیان:الغیث ما کان نافعا فی وقته،و المطر قـد یکون نافعا و قد یکون ضارّا فی وقته و غیر وقته.انتهی.و نشـر الرحمه تفریق النعمه بین الناس بإنبات النبات و إخراج الثمار التی یکون سببها المطر.

و فی الآیه انتقـال من حـدیث الرزق الی آیـات التوحیـد التی لها تعلّق ما بالأرزاق،و یتلوها فی هـذا المعنی آیات،و تـذییل الآیه بالاسمین:الولیّ الحمید و هما من أسمائه تعالی الحسنی للثناء علیه فی فعله الجمیل.

قوله تعـالی: وَ مِنْ آیٰاتِهِ خَلْقُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَثَّ فِیهِمٰا مِنْ دٰابَّةٍ الـخ؛البث التفریق،و یقال:بثّ الریـح التراب إذا أثاره،و الدابه کل ما یدبّ علی الأرض فیعمّ الحیوانات جمیعا،و المعنی ظاهر.

و ظاهر الآیه أن فی السـموات خلقا من الدواب کالأرض،و قول بعضهم:إنما فی السموات من دابه هی الملائکه یدفعه أن إطلاق الدواب علی الملائکه غیر معهود.

و قوله: وَ هُوَ عَلیٰ جَمْعِهِمْ إِذٰا یَشٰاءُ قَدِیرٌ إشاره الی حشـر ما بثّ فیهما من دابه و قد عبّر بالجمع لمقابلته البث الذی هو التفریق،و لا دلاله فی قوله: «عَلیٰ جَمْعِهِمْ» حیث أتی

بضمير أولى العقل على كون ما فى السموات من الدواب أولى عقل كالإنسان لقوله تعالى:

وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (الأنعام/٣٨).

و القدير من أسمائه تعالى الحسنى و هو الذى أركزت فيه القدره و ثبتت،قال الراغب:

القدره إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئه له بها يتمكن من فعل شىء ما،و إذا وصف اللّه بها فهى نفى العجز عنه،و محال أن يوصف غير اللّه بالقدره المطلقه معنى و إن أطلق عليه لفظا بل حقه أن يقال:قادر على كذا،و متى قيل:هو قادر فعلى سبيل معنى التقييد،و لهذا لا أحد غير اللّه يوصف بالقدره من وجه إلا و يصحّ أن يوصف بالعجز من وجه و اللّه تعالى هو الذى ينتفى عنه العجز من كل وجه.

و القدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضى الحكمه لا زائدا عليه و لا ناقصا عنه و لذلك لا يصح أن يوصف به إلا اللّه تعالى قال:«إنه على ما يشاء قدير»،و المقتدر يقاربه نحو «عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ» لكن قد يوصف به البشر،و إذا استعمل فى اللّه فمعناه معنى القدير و إذا استعمل فى البشر فمعناه المتكلف و المكتسب للقدره،انتهى.

و هو حسن غير أن فى قوله:إن القدره إذا وصف بها اللّه فهى نفى العجز عنه مساهله ظاهره فإن صفاته تعالى الذاتيه كالحياه و العلم و القدره لها معان إيجابيه هى عين الذات لا معان سلبيه حتى تكون الحياه بمعنى انتفاء الموت و العلم بمعنى انتفاء الجهل و القدره بمعنى انتفاء العجز على ما يقوله الصابئون و لازمه خلوّ الذات عن صفات الكمال.

فالحق أن معنى قدرته تعالى كونه بحيث يفعل ما يشاء،و لازم هذا المعنى الإيجابى انتفاء مطلق العجز عنه تعالى.

قوله تعالى: وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ المصيبه النائبه تصيب الإنسان كأنها تقصده،و المراد بما كسبت أيديكم المعاصى

و السيئات،و قوله: «وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» أى عن كثير مما كسبت أيديكم و هى السيئات.

و الخطاب فى الآيه اجتماعى موجّه الى المجتمع غير منحلّ الى خطابات جزئيه و لازمه كون المراد بالمصيبه التى تصيبهم المصائب العامه الشامله كالقحط و الغلاء و الوباء و الزلازل و غير ذلك.

فيكون المراد أن المصائب و النوائب التى تصيب مجتمعكم و يصابون بها إنما تصيبكم بسبب معاصيكم و اللّه يصفح عن كثير منها فلا يأخذ بها.

فالآيه فى معنى قوله تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِی النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (الروم/۴۱)،و قوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لٰكِنْ كَذَّبُوا (الأعراف/۹۶)،و قوله: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ (الرعد/۱۱)،و غير ذلك من الآيات الداله على أن بين أعمال الإنسان و بين النظام الكونى ارتباطا خاصا فلو جرى المجتمع الإنسانى على ما يقتضيه الفطره من الاعتقاد و العمل لنزلت عليه الخيرات و فتحت عليه البركات و لو أفسدوا أفسد عليهم.

هذا ما تقتضيه هذه السنه الإلهيه إلا أن ترد عليه سنه الابتلاء أو سنه الاستدراج و الإملاء فينقلب الأمر،قال تعالى: ثُمَّ بَدَّلْنٰا مَكٰانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتّٰى عَفَوْا وَ قٰالُوا قَدْ مَسَّ آبٰاءَنَا الضَّرّٰاءُ وَ السَّرّٰاءُ فَأَخَذْنٰاهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ (الأعراف/۹۵).

و يمكن أن يكون الخطاب فى الآيه عامّا منحلا الى خطابات الأفراد فيكون ما يصاب كل إنسان بمصيبه فى نفسه أو ماله أو ولده أو عرضه و ما يتعلق به مستندا الى معصيه أتى بها و سيئه عملها و يعفو اللّه عن كثير منها.

و كيف كان فالخطاب فى الآيه لعامه الناس من المؤمن و الكافر و هو الذى يفيده السياق و تؤيده الآيه التاليه هذا أولا،و المراد بما كسبته الأيدى المعاصى و السيئات دون مطلق

الأعمال،و هذا ثانيا،و المصائب التی تصيب إنما هی آثار الأعمال فی الدنيا لما بين الأعمال و بينها من الارتباط و التداعی دون جزاء الأعمال و هذا ثالثا.

قوله تعالی: وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِی الْأَرْضِ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ ،معنی الآيه ظاهر و هی باتصالها بما قبلها تفيد أنكم لا تعجزون اللّه حتی لا تصيبكم المصائب لذنوبكم و ليس لكم من دونه من ولی يتولی أمركم فيدفع عنكم المصائب و لا نصير ينصركم و يعينكم علی دفعها.

قوله تعالی: وَ مِنْ آيٰاتِهِ الْجَوٰارِ فِی الْبَحْرِ كَالْأَعْلاٰمِ ،الجواری جمع جاريه و هی السفينه،و الأعلام جمع علم و هو العلامه و يسمی به الجبل و شبهت السفائن بالجبال لعظمها و ارتفاعها و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوٰاكِدَ عَلیٰ ظَهْرِهِ الخ؛ضمير «يَشَأْ» للّه تعالی،و ظل بمعنی صار،و «رَوٰاكِدَ» جمع راكده و هی الثالثه فی محلها و المعنی:إن يشإ اللّه يسكن الريح التی تجری بها الجواری فيصرن أی الجواری ثوابت علی ظهر البحر.

و قوله: إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ أصل الصبر الحبس و أصل الشكر إظهار نعمه المنعم بقول أو فعل،و المعنی:إنّ فيما ذكر من أمر الجواری من كونها جاريه علی ظهر البحر بسبب جريان الرياح ناقله للناس و أمتعتهم من ساحل الی ساحل لآيات لكل من حبس نفسه عن الاشتغال بما لا يعينه و اشتغل بالتفكر فی نعمه و التفكر فی النعمه من الشكر.

و قيل:المراد بكل صبّار شكور المؤمن لأن المؤمن لا يخلو من أن يكون فی الضرّاء أو فی السرّاء فإن كان فی الضرّاء كان من الصابرين و إن كان فی السرّاء كان من الشاكرين.

قوله تعالی: أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمٰا كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ الإيباق الإهلاك،و ضمير التأنيث للجواری و ضمير التذكير للناس،و يوبقهن و يعف معطوفات علی «يُسْكِنِ» ،

ص:۵۷۹

و المعنى:إن يشأ يهلك الجوارى بإغراقها بسبب ما كسبوا من السيئات و يعف عن كثير منها أى إن بعضها كاف فى اقتضاء الإهلاك و إن عفى عن كثير منها.

قوله تعالى: وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِي آيٰاتِنٰا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ قيل:

هو غايه معطوفه على اخرى محذوفه،و التقدير نحو من قولنا:ليظهر به قدرته و يعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من مفر و لا مخلص،و هذا كثير الورود فى القرآن الكريم غير أن المعطوف فيما ورد فيه مقارن للام الغايه كقوله: وَ لِيَعْلَمَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا (آل عمران/ ١۴٠).

و قوله: وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام/٧۵).

و جوّز بعضهم أن يكون معطوفا على جزاء الشرط بتقدير أن نحو إن جئتنى أكرمك و أعطيك كذا و كذا بنصب أعطيك،و المسأله نحويه خلافيه فليرجع الى ما ذكروه فيه.

قوله تعالى: فَمٰا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتٰاعُ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا الخ؛تفصيل لما تقدم ذكره من الرزق و تقسيم له الى ما عند الناس من رزق الدنيا الشامل للمؤمن و الكافر و ما عند اللّه من رزق الآخره المختص بالمؤمنين،و فيه تخلص الى ذكر صفات المؤمنين و ذكر بعض ما يلقاه الظالمون يوم القيامه.

فقوله: فَمٰا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتٰاعُ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا الخطاب للناس على ما يفيده السياق دون المشركين خاصه،و المراد بما أوتيتم من شىء جميع ما أعطيه للناس و رزقوه من النعيم،و إضافه المتاع الى الحياه للإشاره الى انقطاعه و عدم ثباته و دوامه،و المعنى:فكل شىء أعطيتموه مما عندكم متاع تتمتعون به فى أيام قلائل.

و قوله: وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ المراد بما عند اللّه ما ادّخره اللّه ثوابا ليثيب به المؤمنين،و اللام فى «لِلَّذِينَ آمَنُوا» للملك و الظرف لغو،و قيل اللام متعلق بقوله: «أَبْقىٰ» و الأول أظهر،و كون ما عند اللّه خيرا لكونه

خالصا من الألم و الكدر و كونه أبقى لكونه أدوم غير منقطع الآخر.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبٰائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوٰاحِشَ وَ إِذٰا مٰا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ عطف على قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» و الآيه و آيتان بعدها تعدّ صفات المؤمنين الحسنه و قول بعضهم أنه كلام مستأنف لا يساعد عليه السياق.

و كبائر الإثم المعاصى الكبيره التى لها آثار سوء عظيمه و قد عدّ تعالى منها شرب الخمر و الميسر،قال تعالى: قُلْ فِيهِمٰا إِثْمٌ كَبِيرٌ (البقره/٢١٩)،و الفواحش جمع فاحشه و هى المعصيه الشنيعه النكراء و قد عدّ تعالى منها الزنا و اللواط قال: وَ لاٰ تَقْرَبُوا الزِّنىٰ إِنَّهُ كٰانَ فٰاحِشَةً (الإسراء/٣٢)،و قال حاكيا عن لوط: أَ تَأْتُونَ الْفٰاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (النمل/٥۴).

و قوله: يَجْتَنِبُونَ كَبٰائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوٰاحِشَ و هو فى سوره مكيه إشاره الى إجمال ما سيفصّل من تشريع تحريم كبائر المعاصى و الفواحش.

و فى قوله: وَ إِذٰا مٰا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ إشاره الى العفو عند الغضب و هو من أخصّ صفات المؤمنين و لذا عبّر عنه بما عبّر و لم يقل:و يغفرون إذا غضبوا ففى الكلام جهات من التأكيد و ليس قصرا للمغفره عند الغضب فيهم.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰةَ الخ؛الاستجابه هى الإجابه و استجابتهم لربهم إجابتهم لما يكلفهم به من الأعمال الصالحه-على ما يفيده السياق-و ذكر إقامه الصلاه بعدها من قبيل ذكر الخاص بعد العام لشرفه.

على أن الظاهر أن الآيات مكيه و لم يشرّع يومئذ أمثال الزكاه و الخمس و الصوم و الجهاد، و فى قوله: «وَ الَّذِينَ اسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمْ» من الإشاره الى إجمال الأعمال الصالحه المشرّعه نظير ما تقدّم فى قوله: «وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ» الخ؛و نظير الكلام جار فى الآيات التاليه.

و قوله: وَ أَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ قال الراغب:و التشاور و المشاوره و المشوره

استخراج الرأی بمراجعه البعض الی البعض من قولهم:شرت العسل إذا أخذته من موضعه و استخرجته منه،قال تعالی: «وَ شٰاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ» و الشوری الأمر الذی یتشاور فیه،قال تعالی: «وَ أَمْرُهُمْ شُوریٰ بَیْنَهُمْ» انتهی.فالمعنی:الأمر الذی یعزمون علیه شوری بینهم یتشاورون فیه،و یظهر من بعضهم أنه مصدر،و المعنی:و شأنهم المشاوره بینهم.

و کیف کان ففیه إشاره الی أنهم أهل الرشد و إصابه الواقع یمعنون فی استخراج صواب الرأی بمراجعه العقول فالآیه قریبه المعنی من قول اللّه تعالی: اَلَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ (الزمر/۱۸).

و قوله: «وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ یُنْفِقُونَ» إشاره الی بذل المال لمرضات اللّه.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ إِذٰا أَصٰابَهُمُ الْبَغْیُ هُمْ یَنْتَصِرُونَ قال الراغب:الانتصار و الاستنصار طلب النصره.انتهی.فالمعنی:الذین إذا أصاب الظلم بعضهم طلب النصره من الآخرین و إذا کانوا متفقین علی الحق کنفس واحده فکأن الظلم أصاب جمیعهم فطلبوا المقاومه قباله و أعدّوا علیه النصره.

و عن بعضهم أن الانتصار بمعنی التناصر نظیر اختصم و تخاصم و استبق و تسابق و المعنی علیه ظاهر.

و کیف کان فالمراد مقاومتهم لرفع الظلم فلا ینافی المغفره عند الغضب المذکوره فی جمله صفاتهم فإن المقاومه دون الظلم و سد بابه عن المجتمع لمن استطاعه و الانتصار و التناصر لأجله من الواجبات الفطریه،قال تعالی: وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوکُمْ فِی الدِّینِ فَعَلَیْکُمُ النَّصْرُ (الأنفال/۷۲)،و قال: فَقٰاتِلُوا الَّتِی تَبْغِی حَتّٰی تَفِیءَ إِلیٰ أَمْرِ اللّٰهِ (الحجرات/۹).

قوله تعالی: وَ جَزٰاءُ سَیِّئَهٍ سَیِّئَهٌ مِثْلُهٰا الی آخر الآیه بیان لما جعل للمنتصر فی انتصاره و هو أن یقابل الباغی بما یماثل فعله و لیس بظلم و بغی.

قیل:و سمی الثانیه و هی ما یأتی بها المنتصر سیئه لأنها فی مقابله الاولی کما قال تعالی:

فَمَنِ اعْتَدیٰ عَلَیْکُمْ فَاعْتَدُوا عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدیٰ عَلَیْکُمْ (البقره/۱۹۴)،و قال الزمخشری:کلتا الفعلتین:الاولی و جزاؤها سیئه لأنها تسوء من تنزل به ففیه رعایه لحقیقه معنی اللفظ و إشاره الی أن مجازاه السیئه بمثلها إنما تحمد بشرط المماثله من غیر زیاده.

و قوله: فَمَنْ عَفٰا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَی اللّٰهِ وعد جمیل علی العفو و الإصلاح، و الظاهر أن المراد بالإصلاح إصلاحه أمره فیما بینه و بین ربه،و قیل:المراد إصلاحه ما بینه و بین ظالمه بالعفو و الإغضاء.

و قوله: إِنَّهُ لاٰ یُحِبُّ الظّٰالِمِینَ قیل:فیه بیان أنه تعالی لم یرغّب المظلوم فی العفو عن الظالم لمیله الی الظالم أو لحبه إیاه و لکن لیعرض المظلوم بذلک لجزیل الثواب،و لحبه تعالی الإحسان و الفضل.

قوله تعالی: وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِکَ مٰا عَلَیْهِمْ مِنْ سَبِیلٍ -الی قوله- لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ضمیر «ظُلْمِهِ» راجع الی المظلوم،و الإضافه من إضافه المصدر الی مفعوله.

الآیات الثلاث تبین و رفع لبس من قوله فی الآیه السابقه: «فَمَنْ عَفٰا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَی اللّٰهِ» فمن الجائز أن یتوهّم المظلوم أن فی ذلک إلغاء لحق انتصاره فبیّن سبحانه بقوله أولا:

«وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِکَ مٰا عَلَیْهِمْ مِنْ سَبِیلٍ» أن لا سبیل علی المظلومین و لا مجوّز لإبطال حقهم فی الشرع الإلهی،و إرجاع ضمیر الإفراد الی الموصول أولا باعتبار لفظه، و ضمیر الجمع ثانیا باعتبار معناه.

و بین بقوله ثانیا: إِنَّمَا السَّبِیلُ عَلَی الَّذِینَ یَظْلِمُونَ النّٰاسَ وَ یَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ أن السبیل کله علی الظالمین فی الانتقام منهم للمظلومین،و أکد ذلک ذیلا بقوله: أُولٰئِکَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ .

و بین بقوله ثالثا: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذٰلِکَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أن الدعوه الی

الصبر و العفو ليست إبطالا لحق الانتصار و إنما هى إرشاد الى فضيله هى من أعظم الفضائل فإن فى المغفره الصبر الذى هو من عزم الامور،و قد أكد الكلام بلام القسم أولا و باللام فى خبر إن ثانيا لإفاده العنايه بمضمونه.

قوله تعالى: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ الخ؛لما ذكر المؤمنين بأوصافهم و أنّ لهم عند اللّه رزقهم المدّخر لهم و فيه سعاده عقباهم التى هداهم اللّه إليها التفت الى غيرهم و هم الظالمون الآيسون من تلك الهدايه الموصله الى السعاده المحرومون من هذا الرزق الكريم فبين أن اللّه سبحانه أضلهم لكفرهم و تكذيبهم فلا ينتهون الى ما عنده من الرزق و لا يسعدهم به و ليس لهم من دونه من ولى حتى يتولى أمرهم و يرزقهم ما حرّمهم اللّه من الرزق،فهم صفر الأكف يتمنون عند مشاهده العذاب الرجوع الى الدنيا ليعملوا صالحا فيكونوا أمثال المؤمنين.

فقوله: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ الخ؛من قبيل وضع السبب و هو إضلال اللّه لهم و عدم ولى آخر يتولى أمرهم فيهديهم و يرزقهم موضع المسبب و هو الهدايه و الرزق.

و قوله: «وَ تَرَى الظّٰالِمِينَ لَمّٰا رَأَوُا الْعَذٰابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ» إشاره الى تمنيهم الرجوع الى الدنيا بعد اليأس عن السعاده و مشاهده العذاب.

و تَرَى خطاب عام وجه الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما أنه راء و معناه و ترى و يرى كل من هو راء،و فيه إشاره الى أنهم يتمنون ذلك على رءوس الأشهاد،و المرد هو الرد.

قوله تعالى: وَ تَرٰاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهٰا خٰاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ضمير «عَلَيْهٰا» للنار للدلاله المقام عليها و خفى الطرف ضعيفه و إنما ينظر من طرف خفى.الى المكاره المهوله من ابتلى بها فهو لا يريد أن ينصرف فيغفل عنها و لا يجترئ أن يمتلئ بها بصره كالمبصور ينظر الى السيف،و الباقى ظاهر.

و قوله: وَ قٰالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخٰاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ

يَوْمَ الْقِيٰامَهِ أى إن الخاسرين كل الخسران و بحقيقته هم الذين خسروا أنفسهم بحرمانها عن النجاه و أهليهم بعدم الانتفاع بهم يوم القيامه.و قيل أهلوهم أزواجهم من الحور و خدمهم فى الجنه لو آمنوا و لا يخلو من وجه نظرا الى آيات وراثه الجنه.

و هذا القول المنسوب الى المؤمنين إنما يقولونه يوم القيامه-و التعبير بلفظ الماضى لتحقق الوقوع-لا فى الدنيا كما يظهر من بعضهم فليس لاستناده تعالى الى مقاله المؤمنين فى الدنيا وجه فى مثل المقام،و ليس القائلون به جميع المؤمنين كائنين من كانوا و إنما هم الكاملون منهم المأذون لهم فى الكلام الناطقون بالصواب محضا كأصحاب الأعراف و شهداء الأعمال قال تعالى: يَوْمَ يَأْتِ لاٰ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ (هود١٠۵/).و قال: لاٰ يَتَكَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً (النبأ٣٨/).

قوله تعالى: وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيٰاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ الخ؛هذا التعبير أعنى قوله: «وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ» الخ؛دون أن يقال:و ما لهم من ولى كما قيل أولا للدلاله على ظهور بطلان دعواهم ولايه أوليائهم فى الدنيا و أن ذلك كان باطلا من أول الأمر.

و قوله: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ صالح لتعليل صدر الآيه و هو كالنتيجه لجميع ما تقدم من الكلام فى حال الظالمين فى عقباهم،و نوع انعطاف الى ما سبق من حديث تشريع الشريعه و السبيل بالوحى.

فهو كنايه عن أنه لا سبيل الى السعاده إلا سبيل اللّٰه الذى شرعه لعباده من طريق الوحى و الرساله فمن أضلّه عن سبيله لكفره و تكذيبه بسبيله فلا سبيل له يهتدى به الى سعاده العقبى و التخلص من العذاب و الهلاك.

قوله تعالى: اِسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ مٰا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ دعوه و إنذار بيوم القيامه المذكور فى الآيات السابقه على ما يعطيه السياق،و قول بعضهم:إن المراد باليوم يوم الموت غير وجيه.

و فی قوله: «لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ» «لاٰ» لنفی الجنس و «مَرَدَّ» اسمه و «لَهُ» خبره و «مِنَ اللّٰهِ» حال من «مَرَدَّ» ،و المعنی:یوم لا ردّ له من قبل اللّٰه أی إنه مقضی محتوم لا یردّه اللّٰه البته فهو فی معنی ما تکرر فی کلامه تعالی من وصف یوم القیامه بأنه لا ریب فیه.

و قوله: مٰا لَکُمْ مِنْ مَلْجَإٍ یَوْمَئِذٍ وَ مٰا لَکُمْ مِنْ نَکِیرٍ الملجأ الملاذ الذی یلتجأ الیه و النکیر-کما قیل-مصدر بمعنی الإنکار،و المعنی:ما لکم من ملاذ تلتجئون الیه من اللّٰه و ما لکم من إنکار لما صدر منکم لظهور الأمر من کل جهه.

قوله تعالی: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمٰا أَرْسَلْنٰاکَ عَلَیْهِمْ حَفِیظاً إِنْ عَلَیْکَ إِلاَّ الْبَلاٰغُ عدول من خطابهم الی خطاب النبی صلّی اللّٰه علیه و آله و سلّم لإعلام أن ما حمّله من الأمر إنما هو التبلیغ لا أزید من ذلک فقد أرسل مبلّغا لدین اللّٰه إن علیه إلا البلاغ و لم یرسل حفیظا علیهم مسئولا عن إیمانهم و طاعتهم حتی یمنعهم عن الإعراض و یتعب نفسه لإقبالهم علیه.

قوله تعالی: وَ إِنّٰا إِذٰا أَذَقْنَا الْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَهً فَرِحَ بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَهٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَیْدِیهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسٰانَ کَفُورٌ الفرح بالرحمه کنایه عن الاشتغال بالنعمه و نسیان المنعم،و المراد بالسیئه المصیبه التی تسوء الإنسان إذا أصابته،و قوله: «فَإِنَّ الْإِنْسٰانَ کَفُورٌ» من وضع الظاهر موضع الضمیر،و النکته فیه تسجیل الذمّ و اللوم علیه بذکره باسمه.

و فی الآیه استشعار بإعراضهم و توبیخهم بعنوان الإنسان المشتغل بالدنیا فإنه بطبعه حلیف الغفله إن ذکّر بنعمه یؤتاها صرفه الفرح بها عن ذکر اللّٰه،و إن ذکّر بسیئه تصیبه بما قدّمت یداه شغله الکفران عن ذکر ربه فهو فی غفله عن ذکر ربه فی نعمه کانت أو فی نقمه فکاد أن لا تنجح فیه دعوه و لا تنفع فیه موعظه.

قوله تعالی: لِلّٰهِ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ الی آخر الآیتین، للآیتین نوع اتصال بما تقدم من حدیث الرزق لما أن الأولاد المذکورین فیهما من قبیل الرزق.

و قيل:إنهما متصلتان بالآيه السابقه حيث ذكر فيها إذاقه الرحمه و إصابه السيئه و أن الإنسان يفرح بالرحمه و يكفر فى السيئه فذكر تعالى فى هاتين الآيتين أن ملك السماوات و الأرض للّه سبحانه يخلق ما يشاء فليس لمن يذوق رحمته أن يفرح بها و يشتغل به و لا لمن أصابته السيئه أن يكفر و يعترض بل له الخلق و الأمر فعلى المرحوم أن يشكر و على المصاب أن يرجع اليه.

و يبعّده أنه تعالى لم ينسب السيئه فى الآيه السابقه الى نفسه بل الى تقديم أيديهم فلا يناسبه نسبه القسمين جميعا فى هذه الآيه الى مشيّته و دعوتهم الى التسليم لها.

و كيف كان فقوله: «لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ» فيه قصر الملك و السلطنه فيه تعالى على جميع العالم و أن الخلق منوط بمشيّته من غير أن يكون هناك أمر يوجب عليه المشيه أو يضطره على الخلق.

و قوله: يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ إِنٰاثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ الذُّكُورَ الإناث جمع أنثى و الذكور و الذكران جمعا ذكر،و ظاهر التقابل أن المراد هبه الإناث فقط لمن يشاء و هبه الذكور فقط لمن يشاء و لذلك كرّرت المشيه،قيل:وجه تعريف الذكور أنهم المطلوبون لهم المعهودون فى أذهانهم و خاصه العرب.

و قوله: أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرٰاناً وَ إِنٰاثاً أى يجمع بينهم حال كونهم ذكرانا و إناثا معا فالتزويج فى اللغه الجمع،و قوله: «وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشٰاءُ عَقِيماً» أى لا يلد و لا يولد له،و لما كان هذا أيضا قسما برأسه قيّده بالمشيه كالقسمين الأولين،و أما قسم الجمع بين الذكران و الإناث فإنه بالحقيقه جمع بين القسمين الأولين فاكتفى بما ذكر من المشيه فيهما.

و قوله: إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ تعليل لما تقدم أى إنه عليم لا يزيد ما يزيد لجهل قدير لا

ینقص ما ینقص عن عجز (۱)

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۵۱ الی ۵۳]

وَ مٰا کٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُکَلِّمَهُ اَللّٰهُ إِلاّٰ وَحْیاً أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ أَوْ یُرْسِلَ رَسُولاً فَیُوحِیَ بِإِذْنِهِ مٰا یَشٰاءُ إِنَّهُ عَلِیٌّ حَکِیمٌ (۵۱) وَ کَذٰلِکَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا مٰا کُنْتَ تَدْرِی مَا اَلْکِتٰابُ وَ لاَ اَلْإِیمٰانُ وَ لٰکِنْ جَعَلْنٰاهُ نُوراً نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِنٰا وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۵۲) صِرٰاطِ اَللّٰهِ اَلَّذِی لَهُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ أَلاٰ إِلَی اَللّٰهِ تَصِیرُ اَلْأُمُورُ (۵۳)

بیان:

قوله تعالی: وَ مٰا کٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُکَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ وَحْیاً أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ أَوْ یُرْسِلَ رَسُولاً فَیُوحِیَ بِإِذْنِهِ مٰا یَشٰاءُ الخ؛قد تقدم البحث عن معنی کلامه تعالی فی الجزء الثانی من الکتاب،و إطلاق الکلام علی کلامه تعالی و التکلیم علی فعله الخاص سواء کان إطلاقا حقیقیا أو مجازیا واقع فی کلامه تعالی قال: یٰا مُوسیٰ إِنِّی اصْطَفَیْتُکَ عَلَی النّٰاسِ بِرِسٰالاٰتِی وَ بِکَلاٰمِی (الأعراف/۱۴۴)،و قال: وَ کَلَّمَ اللّٰهُ مُوسیٰ تَکْلِیماً (النساء/ ۱۶۴)،و من مصادیق کلامه ما یتلقاه الأنبیاء علیهم السّلام منه تعالی بالوحی.

و علی هذا لا موجب لعدّ الاستثناء فی قوله: «إِلاّٰ وَحْیاً» منقطعا بل الوحی و القسمان

ص: ۵۸۸

۱- ۱) .الشوری ۲۷-۵۰:بحث روائی حول قوله تعالی: «لَوْ بَسَطَ اللّٰهُ الرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ» ؛مصائب اولیاء اللّه؛الشوری.

المذکوران بعده من تکلیمه تعالی للبشر سواء کان إطلاق التکلیم علیها إطلاقا حقیقیا أو مجازیا فکلّ واحد من الوحی و ما کان من وراء حجاب و ما کان بإرسال رسول نوع من تکلیمه للبشر.

فقوله: وَحْياً -و الوحی الإشاره السریعه علی ما ذکره الراغب-مفعول مطلق نوعی و کذا المعطوفان علیه فی معنی المصدر النوعی،و المعنی:ما کان لبشر أن یکلمه اللّه نوعا من أنواع التکلیم إلا هذه الأنواع الثلاثه أن یوحی وحیا أو یکون من وراء حجاب أو أن یرسل رسولا فیوحی بإذنه ما یشاء.

ثم إن ظاهر التردید فی الآیه بأو هو التقسیم علی مغایره بین الأقسام و قد قیّد القسمان الأخیران بقید کالحجاب،و الرسول الذی یوحی الی النبی و لم یقیّد القسم الأول بشیء فظاهر المقابله یفید أن المراد به التکلیم الخفی من دون أن یتوسط واسطه بینه تعالی و بین النبی أصلا، و أما القسمان الآخران ففیهما قید زائد و هو الحجاب أو الرسول الموحی و کل منهما واسطه غیر أن الفارق أن الواسطه الذی هو الرسول یوحی الی النبی نفسه و الحجاب واسطه لیس بموح و إنما الوحی من ورائه.

فتحصّل أن القسم الثالث «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مٰا يَشٰاءُ» وحی بتوسّط الرسول الذی هو ملک الوحی فیوحی ذلک الملک بإذن اللّه ما یشاء اللّه سبحانه قال تعالی:

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ (الشعراء/۱۹۴)،و قال: قُلْ مَنْ كٰانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّٰهِ (البقره/۹۷)،و الموحی مع ذلک هو اللّه سبحانه کما قال: بِمٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ (یوسف/۳).

و أن القسم الثانی «أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ» وحی مع واسطه هو الحجاب غیر أن الواسطه لا یوحی کما فی القسم الثالث و إنما یبتدئ الوحی مما وراءه لمکان من،و لیس وراء بمعنی خلف و إنما هو الخارج عن الشیء المحیط به،قال تعالی: وَ اللّٰهُ مِنْ وَرٰائِهِمْ مُحِيطٌ (البروج/

۲۰)،و هذا کتکلیم موسی علیه السّلام فی الطور،قال تعالی: فَلَمّا أَتاها نُودِیَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَیْمَنِ فِی الْبُقْعَهِ الْمُبارَکَهِ مِنَ الشَّجَرَهِ (القصص/۳۰)،و من هذا الباب ما أوحی الی الأنبیاء فی مناماتهم.

و أن القسم الأول تکلیم إلهی للنبی من غیر واسطه بینه و بین ربه من رسول أو أی حجاب مفروض.

و لما کان للوحی فی جمیع هذه الأقسام نسبه الیه تعالی علی اختلافها صحّ إسناد مطلق الوحی الیه بأی قسم من الأقسام تحقق و بهذه العنایه أسند جمیع الوحی الیه فی کلامه کما قال:

إِنّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ (النساء/۱۶۳).و قال: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ إِلاّ رِجالاً نُوحِی إِلَیْهِمْ (النحل/۴۳).

و قوله: إِنَّهُ عَلِیٌّ حَکِیمٌ تعلیل لمضمون الآیه فهو تعالی لعلوه عن الخلق و النظام الحاکم فیهم یجلّ أن یکلمهم کما یکلم بعضهم بعضا،و لعلوه و حکمته یکلمهم بما اختار من الوحی و ذلک أن هدایه کل نوع الی سعادته من شأنه تعالی کما قال: اَلَّذِی أَعْطی کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدی (طه/۵۰)،و قال: وَ عَلَی اللّهِ قَصْدُ السَّبِیلِ (النحل/۹)،و سعاده الإنسان الذی یسلک سبیل سعادته بالشعور و العلم فی إعلام سعادته و الدلاله الی سنّه الحیاه التی تنتهی إلیها و لا یکفی فی ذلک العقل الذی من شأنه الإخطاء و الإصابه فاختار سبحانه لذلک طریق الوحی الذی لا یخطئ البته،و قد فصّلنا القول فی هذه الحجه فی موارد من هذا الکتاب.

قوله تعالی: وَ کَذلِکَ أَوْحَیْنا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتابُ وَ لاَ الْإِیمانُ الخ؛ظاهر السیاق کون «کَذلِکَ» إشاره الی ما ذکر فی الآیه السابقه من الوحی بأقسامه الثلاث،و یؤیده الروایات الکثیره الداله علی أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما کان یوحی الیه بتوسط جبریل و هو القسم الثالث کان یوحی الیه فی المنام و هو من القسم الثانی

و یوحی الیه من دون توسط واسطه و هو القسم الأول.

و المراد بإیحاء الروح-علی ما قیل-إیحاء القرآن و أیّد بقوله: «وَ لٰکِنْ جَعَلْنٰاهُ نُوراً» الخ، و من هنا قیل:إن المراد بالروح القرآن.

لکن یبقی علیه أولا:أنه لا ریب أن الکلام مسوق لبیان أن ما عندک من المعارف و الشرائع التی تتلبس بها و تدعو الناس إلیها لیس مما أدرکته بنفسک و أبدیته بعلمک بل أمر من عندنا منزّل الیک بوحینا،و علی هذا فلو کان المراد بالروح الموحی القرآن کان من الواجب الاقتصار علی الکتاب فی قوله: «مٰا کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتٰابُ وَ لاَ الْإِیمٰانُ» لأن المراد بالکتاب القرآن فیکون الإیمان زائدا مستغنی عنه.

و ثانیا:أن القرآن و إن أمکن أن یسمی روحا باعتبار إحیائه القلوب بهداه کما قال تعالی:

إِذٰا دَعٰاکُمْ لِمٰا یُحْیِیکُمْ (الأنفال۲۴/)،و قال: أَ وَ مَنْ کٰانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّٰاسِ (الأنعام۱۲۲/)،لکن لا وجه لتقییده حینئذ بقوله: «مِنْ أَمْرِنٰا» و الظاهر من کلامه تعالی أن الروح من أمره خلق من العالم العلوی یصاحب الملائکه فی نزولهم،قال تعالی: تَنَزَّلُ الْمَلاٰئِکَةُ وَ الرُّوحُ فِیهٰا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ کُلِّ أَمْرٍ (القدر۴/)،و قال: یَوْمَ یَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلاٰئِکَةُ صَفًّا (النبأ۳۸/)،و قال: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی (الإسراء/ ۸۵)،و قال: وَ أَیَّدْنٰاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (البقره۸۷/)،و قد سمی جبریل الروح الأمین و روح القدس حیث قال: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ (الشعراء۱۹۳/)،و قال: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ (النحل۱۰۲/).

و یمکن أن یجاب عن الأول بأن مقتضی المقام و إن کان هو الاقتصار علی ذکر الکتاب فقط لکن لما کان إیمانه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتفاصیل ما فی الکتاب من المعارف و الشرائع من لوازم نزول الکتاب غیر المنفکه عنه و آثاره الحسنه صح أن یذکر مع الکتاب فالمعنی:و کذلک أوحینا الیک کتابا ما کنت تدری ما الکتاب و لا ما تجده فی نفسک من أثره الحسن الجمیل و هو

إيمانک به.

و عن الثانی أن المعهود من کلامه فی معنی الروح و إن کان ذلک لکن حمل الروح فی الآیه علی ذلک المعنی و إراده الروح الأمری أو جبریل منه یوجب أخذ «أَوْحَیْنا» بمعنی أرسلنا إذ لا یقال:أوحینا الروح الأمری أو الملک فلا مفر من کون الإیحاء بمعنی الإرسال و هو کما تری فأخذ الروح بمعنی القرآن أهون من أخذ الإیحاء بمعنی الإرسال و الجوابان لا یخلوان عن شیء.

و قیل:المراد بالروح جبریل فإن اللّه سماه فی کتابه روحا قال: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ عَلیٰ قَلْبِکَ (الشعراء۱۹۴/)و قال: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ .

و قیل:المراد بالروح الروح الأمری الذی ینزل مع ملائکه الوحی علی الأنبیاء کما قال تعالی: یُنَزِّلُ الْمَلاٰئِکَهَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلیٰ مَنْ یَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا (النحل۲/)، فالمراد بإیحائه الیه إنزاله علیه.

و یمکن أن یوجه التعبیر عن الإنزال بالإیحاء بأن أمره تعالی علی ما یعرّفه فی قوله: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ (یس۸۲/)،هو کلمته،و الروح من أمره کما قال: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی (الإسراء۸۵/)،فهو کلمته،و هو یصدق ذلک قوله فی عیسی بن مریم علیه السّلام: إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اللّٰهِ وَ کَلِمَتُهُ أَلْقٰاهٰا إِلیٰ مَرْیَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ (النساء۱۷۱/)،و إنزال الکلمه تکلیم فلا ضیر فی التعبیر عن إنزال الروح بإیحائه،و الأنبیاء مؤیدون بالروح فی أعمالهم کما أنهم یوحی الیهم الشرائع به قال تعالی: وَ أَیَّدْنٰاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ و قد تقدمت الإشاره الیه فی تفسیر قوله تعالی: وَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرٰاتِ وَ إِقٰامَ الصَّلاٰهِ وَ إِیتٰاءَ الزَّکٰاهِ (الأنبیاء۷۳/).

و یمکن رفع إشکال کون الإیحاء بمعنی الانزال و الارسال بالقول بکون قوله: «رُوحاً» منصوبا بنزع الخافض و رجوع ضمیر «جَعَلْنٰاهُ» الی القرآن المعلوم من السیاق أو الکتاب

ص:۵۹۲

و المعنى و كذلك أوحينا اليک القرآن بروح منا ما كنت تدرى ما الكتاب و ما الايمان و لكن جعلنا القرآن أو الكتاب نورا،الخ؛هذا و ما أذكر أحدا من المفسرين قال به.

و قوله: مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لاَ الْإِيمَانُ قد تقدم أن الآيه مسوقه لبيان ان ما عنده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى يدعو اليه إنما هو من عند اللّه سبحانه لا من قلبه نفسه و إنما أوتى ما أوتى من ذلك بالوحى بعد النبوه فالمراد بعدم داريته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقاديه و الشرائع العلميه فإن ذلك هو الذى اوتى العلم به بعد النبوه و الوحى، و بعدم درايته بالايمان عدم تلبّسه بالالتزام التفصيلى بالعقائد الحقه و الأعمال الصالحه و قد سمى العمل إيمانا فى قوله: وَ مَا كَانَ اللّٰهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (البقره۱۴۳/).

فالمعنى:ما كان عندك قبل وحى الروح الكتاب بما فيه من المعارف و الشرائع و لا كنت متلبسا بما أنت متلبس به بعد الوحى من الالتزام الاعتقادى و العملى بمضامينه و هذا لا ينافى كونه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مؤمنا باللّه موحدا قبل البعثه صالحا فى عمله فإن الذى تنفيه الآيه هو العلم بتفاصيل ما فى الكتاب و الالتزام بها اعتقادا و عملا و نفى العلم و الالتزام التفصيلين لا يلازم نفى العلم و الالتزام الاجماليين بالايمان باللّه و الخضوع للحق.

و بذلک يندفع ما استدل بعضهم بالآيه على أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان غير متلبّس بالايمان قبل بعثته.

و يندفع أيضا ما عن بعضهم أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يزل كاملا فى نفسه علما و عملا و هو ينافى ظاهر الآيه أنه ما كان يدرى ما الكتاب و لا الايمان.

و وجه الاندفاع من الضرورى وجود فرق فى حاله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قبل النبوه و بعدها و الآيه تشير الى هذا الفرق،و ان ما حصل له بعد النبوه لا صنع له فيه و إنما هو من اللّه من طريق الوحى.

و قوله: وَ لٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ضمير «جَعَلْنَاهُ» للروح و المراد بقوله: «مَنْ نَشَاءُ» على تقدير ان يراد بالروح القرآن هو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من آمن به فإنهم جميعا مهتدون بالقرآن.

و على تقدير أن يراد به الروح الأمرى فالمراد بمن نشأ جميع الأنبياء و من آمن بهم من أممهم فإنه يهدى بالوحى الذى نزل به،الأنبياء و المؤمنين من أممهم و يسدد الأنبياء خاصه و يهديهم الى الأعمال الصالحه و يشير عليهم بها.

و على هذا تكون الآيه فى مقام تصديق النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تصدقه فى دعواه أن كتابه من عند اللّه بوحى منه،و تصدقه فى دعواه أنه مؤمن بما يدعو اليه فيكون فى معنى قوله تعالى: إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (يس٥/).

و قوله: «وَ إِنَّکَ لَتَهْدِي إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ» إشاره الى أن الذى يهدى اليه صراط مستقيم و أن الذى يهديه من الناس هو الذى يهديه اللّه سبحانه،فهدايته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هدايه اللّه.

قوله تعالى: صِرٰاطِ اللّٰهِ الَّذِي لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ الخ؛ بيان للصراط المستقيم الذى يهدى اليه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و توصيفه تعالى بقوله: «الَّذِي لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ» للدلاله على الحجه على استقامه صراطه فإنه تعالى لما ملك كل شىء ملك الغايه التى تسير إليها الأشياء و السعاده التى تتوجه إليها،فكانت الغايه و السعاده هى التى عيّنها،و كان الطريق إليها و السبيل الذى عليهم أن يسلكوه لنيل سعادتهم هو الذى شرعه و بيّنه،و ليس يملك أحد شيئا حتى ينصب له غايه و نهايه أو يشرع له إليها سبيلا، فالسعاده التى يدعو سبحانه إليها حق السعاده و الطريق الذى يدعو اليه حق الطريق و مستقيم الصراط.

و قوله: أَلاٰ إِلَى اللّٰهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ تنبيه على لازم ملكه لما فى السماوات و ما فى الأرض فإن لازمه رجوع امورهم اليه و لازمه كون السبيل الذى يسلكونه-و هو من جمله امورهم-راجعا اليه فالصراط المستقيم هو صراطه فالمضارع أعنى قوله: «تَصِيرُ» للاستمرار.

و فيه إشعار بلمّ الوحى و التكليم الإلهى،إذ لما كان مصير الأشياء اليه تعالى كان لكل نوع

اليه تعالی سبيل يسلكه و كان عليه تعالی أن يهديه اليه و يسوقه الی غايته كما قال: وَ عَلَى اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِيلِ (النحل/۹)،و هو تكليم كل نوع بما يناسب ذاته و هو فی الإنسان التكليم المسمی بالوحی و الإرسال (۱).

۱- ۱) .۵۳-۵۱:بحث روائی فی:نزول الوحی و تلقی رسول اللّٰه الوحی و تغيير حالته عند نزول الوحی؛الروح الذی اوحی اللّٰه لرسوله.

سوره الزخرف مکیه و هی تسع و ثمانون آیه

اشاره

[سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۱ الی ۱۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;حم (۱) وَ اَلْکِتٰابِ اَلْمُبِینِ (۲) إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (۳) وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ اَلْکِتٰابِ لَدَیْنٰا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ (۴) أَ فَنَضْرِبُ عَنْکُمُ اَلذِّکْرَ صَفْحاً أَنْ کُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِینَ (۵) وَ کَمْ أَرْسَلْنٰا مِنْ نَبِیٍّ فِی اَلْأَوَّلِینَ (۶) وَ مٰا یَأْتِیهِمْ مِنْ نَبِیٍّ إِلاّٰ کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۷) فَأَهْلَکْنٰا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضیٰ مَثَلُ اَلْأَوَّلِینَ (۸) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ اَلْعَزِیزُ اَلْعَلِیمُ (۹) اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اَلْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَکُمْ فِیهٰا سُبُلاً لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰) وَ اَلَّذِی نَزَّلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنٰا بِهِ بَلْدَهً مَیْتاً کَذٰلِکَ تُخْرَجُونَ (۱۱) وَ اَلَّذِی خَلَقَ اَلْأَزْوٰاجَ کُلَّهٰا وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ اَلْفُلْکِ وَ اَلْأَنْعٰامِ مٰا تَرْکَبُونَ (۱۲) لِتَسْتَوُوا عَلیٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْکُرُوا نِعْمَهَ رَبِّکُمْ إِذَا اِسْتَوَیْتُمْ عَلَیْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحٰانَ اَلَّذِی سَخَّرَ لَنٰا هٰذٰا وَ مٰا کُنّٰا لَهُ مُقْرِنِینَ (۱۳) وَ إِنّٰا إِلیٰ رَبِّنٰا لَمُنْقَلِبُونَ (۱۴)

ص: ۵۹۶

بیان:

السوره موضوعه للإنـذار کما تشـهد به فاتحتها و خاتمتها و المقاصد المتخلله بینهما إلا ما فی قوله: «إِلاَّ الْمُتَّقِینَ یا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَیْکُمُ الْیَوْمَ» الی تمام ست آیات استطرادیه.

تـذکر أن السـنّه الإلهیه إنزال الـذکر و إرسال الأنبیاء و الرسل و لا یصـده عن ذلک إسـراف الناس فی قولهم و فعلهم بل یرسـل الأنبیاء و الرسل و یهلک المستهزئین بهم و المکذبین لهم ثم یسوقهم الی نار خالده.

و قد ذکرت إرسال الأنبیاء بالإجمال أولا ثم سـمّی منهم إبراهیم ثم موسـی ثم عیسی علیهم السّلام، و ذکرت من إسراف الکفار أشـیاء و من عمدتها قولهم بأن للّه سـبحانه ولدا و أن الملائکه بنات اللّه ففیها عنایه خاصه بنفی الولد عنه تعالی فکرّرت ذلک و ردّته و أوعدتهم بالعذاب،و فیها حقائق متفرقه اخری.

و السوره مکیه بشهاده مضامین آیاتها إلا قوله: «وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رُسُلِنا»

ص: ۵۹۷

الآيه؛و لم يثبت كما سيأتى إن شاء اللّه.

قوله تعالى: وَ الْكِتٰابِ الْمُبِينِ ظاهره أنه قسم و جوابه قوله: «إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا» الى آخر الآيتين،و كون القرآن مبينا هو إبانته و إظهاره طريق الهدى كما قال تعالى:

وَ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ الْكِتٰابَ تِبْيٰاناً لِكُلِّ شَيْءٍ (النحل/۸۹)،أو كونه ظاهرا فى نفسه لا يرتاب فيه كما قال: ذٰلِكَ الْكِتٰابُ لاٰ رَيْبَ فِيهِ (البقره/۲).

قوله تعالى: إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ الضمير للكتاب،و «قُرْآناً عَرَبِيًّا» أى مقروا باللغه العربيه و «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» غايه الجعل و غرضه.

و جعل رجاء تعقله غايه للجعل المذكور يشهد بأن له مرحله من الكينونه و الوجود لا ينالها عقول الناس،و من شأن العقل أن ينال كل أمر فكرى و إن بلغ من اللطافه و الدقه ما بلغ فمفاد الآيه أن الكتاب بحسب موطنه الذى له فى نفسه أمر وراء الفكر أجنبى عن العقول البشريه و إنما جعله اللّه قرآنا عربيا و ألبسه هذا اللباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه،و الرجاء فى كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب دون المتكلم كما تقدم غير مره.

قوله تعالى: وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ تأكيد و تبيين لما تدلّ عليه الآيه السابقه أن الكتاب فى موطنه الأصلى وراء تعقل العقول.

و الضمير للكتاب،و المراد بام الكتاب اللوح المحفوظ كما قال تعالى: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (البروج/۲۲)،و تسميته بام الكتاب لكونه أصل الكتب السماويه يستنسخ منه غيره،و التقييد بام الكتاب و «لَدَيْنٰا» للتوضيح لا للاحتراز،و المعنى:أنه حال كونه فى أم الكتاب لدينا-حالا لازمه-لعلى حكيم،و سيجىء فى أواخر سوره الجاثيه كلام فى أم الكتاب إن شاء اللّه.

و المراد بكونه عليّا على ما يعطيه مفاد الآيه السابقه أنه رفيع القدر و المنزله من أن تناله العقول،و بكونه حكيما أنه هناك محكم غير مفصّل و لا مجزّى الى سور و آيات و جمل و كلمات

كما هو كذلك بعد جعله قرآنا عربيا كما استفدناه من قوله تعالى: كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (هود١/).

و هذا النعتان أعنى كونه عليا حكيما هما الموجبان لكونه وراء العقول البشريه فإن العقل فى فكرته لا ينال إلا ما كان من قبيل المفاهيم و الألفاظ أولا و كان مؤلفا من مقدمات تصديقيه يترتب بعضها على بعض كما فى الآيات و الجمل القرآنيه،و أما إذا كان الأمر وراء المفاهيم و الألفاظ و كان غير متجزّ الى أجزاء و فصول فلا طريق للعقل الى نيله.

فمحصّل معنى الآيتين:أن الكتاب عندنا فى اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع و إحكام لا تناله العقول لذينك الوصفين و إنما أنزلناه بجعله مقروّا عربيا رجاء أن يعقله الناس.

قوله تعالى: أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ الاستفهام للإنكار،و الفاء للتفريع على ما تقدم،و ضرب الذكر عنهم صرفه عنهم.قال فى المجمع:و أصل ضربت عنه الذكر أن الراكب إذا ركب دابه فأراد أن يصرفه عن جهه ضربه بعصا أو سوط ليعدل به الى جهه اخرى ثم وضع الضرب موضع الصرف و العدل.انتهى.

و الصفح بمعنى الإعراض فصفحا مفعول له،و احتمل أن يكون بمعنى الجانب «أَنْ كُنْتُمْ» محذوف الجار و التقدير لأن كنتم و هو متعلق بقوله: «أَ فَنَضْرِبُ» .

و المعنى:أ فنصرف عنكم الذكر-و هو الكتاب الذى جعلناه قرآنا لتعقلوه-للإعراض عنكم لكونكم مسرفين أو أ فنصرفه عنكم الى جانب لكونكم مسرفين أى إنا لا نصرفه عنكم لذلك.

قوله تعالى: وَ كَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ «كَمْ» للتكثير،و الأولون هم الامم الدارجه و «مَا يَأْتِيهِمْ» الخ؛حال و العامل فيها «أَرْسَلْنَا» .

و الآيتان و ما يتلوهما فى مقام التعليل لعدم صرف الذكر عنهم ببيان أن كونكم قوما

مسرفين لا يمنعنا من إجراء سنّه الهدايه من طريق الوحى فإنا كثيرا ما أرسلنا من نبى فى الامم الماضين و الحال أنه ما يأتيهم من نبى إلا استهزءوا به و انجرّ الأمر الى ان أهلكنا من اولئك من هو أشد بطشا منكم.

فكما كانت عاقبه إسرافهم و استهزائهم الهلاك دون الصرف فكذلك عاقبه اسرافكم ففى الآيات الثلاث كما ترى وعد للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وعيد لقومه.

قوله تعالى: فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ قال الراغب:

البطش تناول الشىء بصوله.انتهى و فى الآيه التفات فى قوله: «مِنْهُمْ» من الخطاب الى الغيبه، و كأن الوجه فيه العدول عن خطابهم الى خطاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعدم اعتبارهم بهذه القصص و العبر و ليكون تمهيدا لقوله بعد: «وَ مَضىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ» و يؤيده قوله بعد: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ» خطابا للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.و معنى قوله: «وَ مَضىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ» و مضى فى السور النازله قبل هذه السوره من القرآن وصف الامم الأولين و أنه كيف حاق بهم ما كانوا به يستهزءون.

قوله تعالى: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ فى الآيه و ما يتلوها الى تمام ست آيات احتجاج على ربوبيته تعالى و توحده فيها مع إشاره ما الى المعاد و تبكيت لهم على اسرافهم مأخوذ من اعترافهم بأنه تعالى هو خالق الكل ثم الأخذ بجهات من الخلق هى بعينها تدبير لامور العباد كجعل الأرض لهم مهدا و جعله فيها سبلا و انزال الأمطار فينتج أنه تعالى وحده مالك مدبر لامورهم فهو الرب لا رب غيره.

و بذلك تبين أن الآيه تقدمه و توطئه لما تتضمنه الآيات التاليه من الحجه و قد تقدم فى هذا الكتاب مرارا أن الوثنيه لا تنكر رجوع الصنع و الايجاد اليه تعالى وحده و انما تدعى رجوع أمر التدبير الى غيره.

قوله تعالى: اَلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهٰا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ ای جعل لکم الأرض بحیث تربّون فیها کما یربی الأطفال فی المهد،و جعل لکل فی الأرض سبلا و طرقا تسلکونها و تهتدون بها الی مقاصدکم.

قوله تعالی: وَ الَّذِی نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَیْتاً کَذلِکَ تُخْرَجُونَ قیّد تنزیل الماء بقدر للاشاره الی أنه عن اراده و تدبیر لا کیف اتفق و الانشار الاحیاء،و المیت مخفف المیت بالتشدید،و توصیف البلده به باعتبار أنها مکان لأن البلده أیضا انما تتصف بالموت و الحیاه باعتبار أنها مکان،و الالتفات عن الغیبه الی التکلم مع الغیر فی «فَأَنْشَرْنا» لاظهار العنایه.

و لما استدل بتنزیل الماء بقدر و احیاء البلده المیته علی خلقه و تدبیره استنتج منه أمرا آخر لا یتم التوحید الا به و هو المعاد الذی هو رجوع الکل الیه تعالی فقال: «کَذلِکَ تُخْرَجُونَ» أی کما أحیا البلده المیته کذلک تبعثون من قبورکم أحیاء.

قوله تعالی: وَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الْفُلْکِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْکَبُونَ قیل:المراد بالأزواج أصناف الموجودات من ذکر و انثی و أبیض و أسود و غیرها،و قیل:المراد الزوج من کل شیء فکل ما سوی اللّه کالفوق و التحت و الیمین و الیسار و الذکر و الأنثی زوج.

و قوله: وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الْفُلْکِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْکَبُونَ أی ترکبونه،و الرکوب اذا نسب الی الحیوان کالفرس و الابل تعدی بنفسه فیقال:رکبت الفرس و اذا نسب الی مثل الفلک و السفینه تعدی بفی فیقال:رکب فیه قال تعالی: فَإِذا رَکِبُوا فِی الْفُلْکِ ففی قوله: «ما تَرْکَبُونَ» أی ترکبونه تغلیب لجانب الأنعام.

قوله تعالی: لِتَسْتَوُوا عَلی ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْکُرُوا نِعْمَةَ رَبِّکُمْ إِذَا اسْتَوَیْتُمْ عَلَیْهِ وَ تَقُولُوا -الی قوله- لَمُنْقَلِبُونَ الاستواء علی الظهور الاستقرار علیها،و الضمیر فی «ظُهُورِهِ» راجع الی لفظ الموصول فی «ما تَرْکَبُونَ» و الضمیر فی قوله: «إِذَا اسْتَوَیْتُمْ عَلَیْهِ»

للموصول أيضا فكما يقال:استويت على ظهر الدابه يقال:استويت على الدابه.

و المراد بذكر نعمه الرب سبحانه بعد الاستواء على ظهر الفلك و الأنعام ذكر النعم التى ينتفع بها الإنسان بتسخيره تعالى له هذه المراكب كالانتقال من مكان الى مكان و حمل الأثقال قال تعالى: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ (إبراهيم/٣٢)،و قال: وَ الْأَنْعٰامَ خَلَقَهٰا -الى أن قال- وَ تَحْمِلُ أَثْقٰالَكُمْ إِلىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بٰالِغِيهِ إِلاّٰ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ (النحل/٧)،أو المراد ذكر مطلق نعمه تعالى بالانتقال من ذكر هذه النعم اليه.

و قوله: وَ تَقُولُوا سُبْحٰانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنٰا هٰذٰا وَ مٰا كُنّٰا لَهُ مُقْرِنِينَ أى مطيقين و الإقران الإطاقه.

و ظاهر ذكر النعمه عند استعمالها و الانتفاع بها شكر منعمها و لازم ذلك أن يكون ذكر النعمه غير قول «سُبْحٰانَ الَّذِي» الخ؛فإن هذا القول تسبيح و تنزيه له عما لا يليق بساحه كبريائه و هو الشريك فى الربوبيه و الالوهيه،و ذكر النعمه شكر-كما تقدم-و الشكر غير التنزيه.

و يؤيد هذا ما ورد عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أئمه أهل البيت عليهم السّلام فى ما يقال عند الاستواء على المركوب فإن الروايات على اختلافها تتضمن التحميد وراء التسبيح يقول: «سُبْحٰانَ الَّذِي» الخ.

و روى فى الكشاف عن الحسن بن على عليهما السّلام أنه رأى رجلا يركب دابه فقال:سبحان الذى سخّر لنا هذا فقال:أ بهذا أمرتم؟فقال:و بم أمرنا؟قال:أن تذكروا نعمه ربكم.

و قوله: وَ إِنّٰا إِلىٰ رَبِّنٰا لَمُنْقَلِبُونَ أى صائرون شهاده بالمعاد.

[سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۱۵ الى ۲۵]

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبٰادِهِ جُزْءاً إِنَّ اَلْإِنْسٰانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١۵) أَمِ اِتَّخَذَ مِمّٰا يَخْلُقُ بَنٰاتٍ وَ أَصْفٰاكُمْ بِالْبَنِينَ (١۶) وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمٰا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي اَلْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي اَلْخِصٰامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَ جَعَلُوا اَلْمَلاٰئِكَةَ اَلَّذِينَ هُمْ عِبٰادُ اَلرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهٰادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ (١٩) وَ قٰالُوا لَوْ شٰاءَ اَلرَّحْمٰنُ مٰا عَبَدْنٰاهُمْ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنٰاهُمْ كِتٰاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قٰالُوا إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلىٰ أُمَّةٍ وَ إِنّٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَ كَذٰلِكَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰا إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلىٰ أُمَّةٍ وَ إِنّٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قٰالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدىٰ مِمّٰا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبٰاءَكُمْ قٰالُوا إِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ (٢۴) فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلْمُكَذِّبِينَ (٢۵)

بيان:

قوله تعالى: وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبٰادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ المراد

بالجزء الولد فإن الولاده إنما هی الاشتقاق فالولد جزء من والده منفصل منه متصور بصورته.

و إنما عبّر عن الولـد بالجزء للإشاره الی استحاله دعواهم،فإن جزئیه شـیء من شـیء کیفما تصورت لا تتم الا بترکب فی ذلک الشیء و اللّه سبحانه واحد من جمیع الجهات.

و قـد بان بما تقـدم أن «مِنْ عِبٰادِهِ» بیان لقوله: «جُزْءاً» و لا ضـیر فی تقـدّم هـذا النوع من البیان علی المبین و لا فی جمعیه البیان و إفراد المبین.

قوله تعالی: أَمِ اتَّخَذَ مِمّٰا یَخْلُقُ بَنٰاتٍ وَ أَصْفٰاکُمْ بِالْبَنِینَ أی أخلصکم للبنین فلکم بنون و لیس له إلا البنات و أنتم ترون أن البنت أخسّ من الابن فتثبتون له أخس الصـنفین و تخصون أنفسـکم بأشرفهما،و هذا مع کونه قولا محالا فی نفسه إزراء و إهانه ظاهره و کفران.

و تقییـد اتخـاذ البنات بکونه مما یخلق لکونهم قائلین بکون الملائکه-علی ربوبیتهم و الوهیتهم-مخلوقین للّه،و الالتفات فی الآیه الی خطابهم لتأکید الإلزام و تثبیت التوبیخ، و التنکیر و التعریف فی «بَنٰاتٍ» و «بِالْبَنِینَ» للتحقیر و التفخیم.

قوله تعالی: وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمٰا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ کَظِیمٌ المثل هو المثل و الشـبه المجانس للشـیء و ضرب الشیء مثلا أخذه مجانسا للشیء «بِمٰا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً» الانثی،و الکظم المملوء کربا و غیظا.

و المعنی:و حالهم أنه إذا بشّر أحـدهم بالانثی الـذی جعلها شـبها مجانسا للرحمن صار وجهه مسودا من الغم و هو مملوء کربا و غیظا لعدم رضاهم بذلک و عدّه عارا لهم لکنهم یرضونه له.

و الالتفات فی الآیه الی الغیبه لحکایه شنیع سیرتهم و قبیح طریقتهم للغیر حتی یتعجب منه.

قوله تعالی: أَ وَ مَنْ یُنَشَّؤُا فِی الْحِلْیَهِ وَ هُوَ فِی الْخِصٰامِ غَیْرُ مُبِینٍ أی أو

جعلوا للّه سبحانه من ينشأ فى الحليه أى يتربى فى الزينه و هو فى المخاصمه و المحاجه غير مبين لحجته لا يقدر على تقرير دعواه.

و إنما ذكر هذين النعتين لأن المرأه بالطبع أقوى عاطفه و شنقه و أضعف تعقلا بالقياس الى الرجل و هو بالعكس و من أوضح مظاهر قوه عواطفها تعلقها الشديد بالحليه و الزينه و ضعفها فى تقرير الحجه المبنى على قوه التعقل.

قوله تعالى: وَ جَعَلُوا الْمَلاٰئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً الخ؛هذا معنى قولهم:إن الملائكه بنات اللّه و قد كان يقول به طوائف من عرب الجاهليه و اما غيرهم من الوثنيه فربما عدوا فى آلهتهم إلهه هى ام إله أو بنت إله لكن لم يقولوا بكون جميع الملائكه إناثا كما هو ظاهر المحكى فى الآيه الكريمه.

و إنما وصف الملائكه بقوله: «الَّذِينَ هُمْ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ» ردا لقولهم بانوثتهم لأن الإناث لا يطلق عليهن العباد،و لا يلزم منه اتصافهم بالذكوره الذى يتصف به الحيوان فإن الذكوره و الانوثه اللتين فى الحيوان من لوازم وجوده المادى المجهز للتناسل و توليد المثل،و الملائكه فى معزل من ذلك.

و قوله: أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهٰادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ رد لدعواهم الانوثه فى الملائكه بأن الطريق الى العلم بذلك الحس و هم لم يروهم حتى يعلموا بها فلم يكونوا حاضرين عند خلقهم حتى يشاهدوا منهم ذلك.

فقوله: أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ الخ؛استفهام إنكارى و وعيد على قولهم بغير علم أى لم يشهدوا خلقهم و ستكتب فى صحائف أعمالهم هذه الشهاده عليهم و يسألون عنه يوم القيامه.

قوله تعالى: وَ قٰالُوا لَوْ شٰاءَ الرَّحْمٰنُ مٰا عَبَدْنٰاهُمْ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَخْرُصُونَ حجه عقليه داحضه محكيه عنهم يمكن أن تقرر تاره لإثبات صحه عباده الشركاء بأن يقال:لو شاء اللّه أن لا نعبد الشركاء ما عبدناهم ضروره لاستحاله تخلف

مراده تعالی عن إرادته لکنا نعبدهم فهو لم یشأ ذلک و عدم مشیته عدم عبادتهم إذن فی عبادتهم فلا منع من قبله تعالی عن عباده الشرکاء و الملائکه منهم،و هذا المعنی هو المنساق الی الذهن من قوله فی سوره الأنعام: سَیَقُولُ اَلَّذِینَ أَشْرَکُوا لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا أَشْرَکْنٰا وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ شَیْءٍ (الأنعام/۱۴۸)،علی ما یعطیه السیاق ما قبله و ما بعده.

و تقرّر تاره لإبطال النبوه القائله أن اللّه یوجب علیکم کذا و کذا و یحرّم علیکم کذا کذا بأن یقال لو شاء اللّه أن لا نعبد الشرکاء و لا نحلّ و لا نحرّم شیئا لم نعبد الشرکاء و لم نضع من عندنا حکما لاستحاله تخلّف مراده تعالی عن إرادته لکنّا نعبدهم و نحلّ و نحرّم أشیاء فلم یشإ اللّه سبحانه منا شیئا،فقول إن اللّه یأمرکم بکذا و ینهاکم عن کذا و بالجمله إنه شاء کذا باطل.

و هذا المعنی هو الظاهر المستفاد من قوله تعالی فی سوره النحل: وَ قٰالَ اَلَّذِینَ أَشْرَکُوا لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ نَحْنُ وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ (النحل/ ۳۵)،بالنظر الی السیاق.

و قولهم فی محکیّ الآیه المبحوث عنها: «لَوْ شٰاءَ اَلرَّحْمٰنُ مٰا عَبَدْنٰاهُمْ» علی ما یفیده سیاق الآیات السابقه و اللاحقه مسوق للاحتجاج علی المعنی الأول و هو تصحیح عبادتهم للملائکه فیکون فی معنی آیه سوره الأنعام و أخصّ منها.

و قوله: «مٰا لَهُمْ بِذٰلِکَ مِنْ عِلْمٍ» أی هو منهم قول مبنی علی الجهل فإنه مغالطه خلطوا فیها بین الإراده التکوینیه و الإراده التشریعیه و أخذ الاولی مکان الثانیه،فمقتضی الحجه أن لا إراده تکوینیه منه تعالی متعلقه بعدم عبادتهم الملائکه و انتفاء تعلّق هذا النوع من الإراده بعدم عبادتهم لهم لا یستلزم انتفاء تعلق الإراده التشریعیه به.

فهو سبحانه لما لم یشأ أن لا یعبدوا الشرکاء بالإراده التکوینیه کانوا مختارین غیر مضطرّین علی فعل أو ترک فأراد منهم بالإراده التشریعیه أن یوحّدوه و لا یعبدوا الشرکاء، و الإراده التشریعیه لا یستحیل تخلف المراد عنها لکونها اعتباریه غیر حقیقیه،و إنما تستعمل

فی الشرائع و القوانین و التکالیف المولویه،و الحقیقه التی تبتنی علیها هی اشتمال الفعل علی مصلحه أو مفسده.

و قوله: إِنْ هُمْ إِلاّٰ یَخْرُصُونَ الخرص-علی ما یظهر من الراغب-القول علی الظن و التخمین،و فسّر أیضا بالکذب.

قوله تعالی: أَمْ آتَیْنٰاهُمْ کِتٰاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِکُونَ ضمیر «مِنْ قَبْلِهِ» للقرآن،و فی الآیه نفی أن یکون لهم حجه من طریق النقل کما أن فی الآیه السابقه نفی حجتهم من طریق العقل،و محصّل الآیتین أن لا حجه لهم علی عباده الملائکه لا من طریق العقل و لا من طریق النقل فلم یأذن اللّه فیها.

قوله تعالی: بَلْ قٰالُوا إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلیٰ أُمَّهٍ وَ إِنّٰا عَلیٰ آثٰارِهِمْ مُهْتَدُونَ الامه الطریقه التی تؤمّ و تقصد،و المراد بها الدین،و الإضراب عما تحصّل من الآیتین،و المعنی:لا دلیل لهم علی حقیه عبادتهم بل قالوا:إنا وجدنا آباءنا علی دین و إنا علی آثارهم مهتدون أی إنهم متشبثون بتقلید آبائهم فحسب.

قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِکَ فِی قَرْیَهٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰا إِنّٰا وَجَدْنٰا الخ؛أی إن التشبث بذیل التقلید لیس مما یختص بهؤلاء فقد کان ذلک دأب أسلافهم من الامم المشرکین و ما أرسلنا من قبلک فی قریه من نذیر و هو النبی إلا تشبّث متنعّموها بذیل التقلید و قالوا:إنا وجدنا أسلافنا علی دین و إنا علی آثارهم مقتدون لن نترکها و لن نخالفهم.

و نسبه القول الی مترفیهم للاشاره الی أن الإتراف و التنعم هو الذی یدعوهم الی التقلید و یصرفهم عن النظر فی الحق.

قوله تعالی: قٰالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُکُمْ بِأَهْدیٰ مِمّٰا وَجَدْتُمْ عَلَیْهِ آبٰاءَکُمْ الخ؛القائل هو النذیر،و الخطاب للمترفین و یشمل غیرهم بالتبعیه،و العطف فی «أَ وَ لَوْ جِئْتُکُمْ» علی

محذوف يدل عليه كلامهم،و التقدير إنكم على آثارهم مقتدون و لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟و المحصّل:هل أنتم لازمون لدينهم حتى لو كان ما جئتكم به من الدين أهدى منه؟وعد النذير ما جاءهم به أهدى من دينهم مع كون دينهم باطلا لا هدى فيه من باب مجاراه الخصم.

و قوله: قٰالُوا إِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ جواب منهم لقول النذير «أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ» الخ؛و هو تحكم من غير دليل.

قوله تعالى: فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ أى تفرّع على ذلك الإرسال و الرد بالتقليد و التحكم أنا أهلكناهم بتكذيبهم فانظر كيف كان عاقبه اولئك السابقين من أهل القرى،و فيه تهديد لقوم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

[سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۲۶ الی ۴۵]

وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَرٰاءٌ مِمّٰا تَعْبُدُونَ (۲۶) إِلاَّ اَلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (۲۷) وَ جَعَلَهٰا كَلِمَةً بٰاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۸) بَلْ مَتَّعْتُ هٰؤُلاٰءِ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰى جٰاءَهُمُ اَلْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (۲۹) وَ لَمّٰا جٰاءَهُمُ اَلْحَقُّ قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ وَ إِنّٰا بِهِ كٰافِرُونَ (۳۰) وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا اَلْقُرْآنُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ اَلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (۳۱) أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنٰا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ رَفَعْنٰا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ (۳۲) وَ لَوْ لاٰ أَنْ يَكُونَ اَلنّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً لَجَعَلْنٰا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعٰارِجَ عَلَيْهٰا يَظْهَرُونَ (۳۳) وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوٰاباً وَ سُرُراً عَلَيْهٰا يَتَّكِؤُنَ (۳۴) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمّٰا مَتٰاعُ اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (۳۵) وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ اَلرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطٰاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (۳۶) وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ اَلسَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۷) حَتّٰى إِذٰا جٰاءَنٰا قٰالَ يٰا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ اَلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ اَلْقَرِينُ (۳۸) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ اَلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي اَلْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ (۳۹) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي اَلْعُمْيَ وَ مَنْ كٰانَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۴۰) فَإِمّٰا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنّٰا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (۴۱) أَوْ نُرِيَنَّكَ اَلَّذِي وَعَدْنٰاهُمْ فَإِنّٰا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (۴۲) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴۳) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (۴۴) وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنٰا أَ جَعَلْنٰا مِنْ دُونِ اَلرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (۴۵)

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَرٰاءٌ مِمّٰا تَعْبُدُونَ البراء مصدر من برىء يبرأ فهو برىء فمعنى «إِنَّنِي بَرٰاءٌ» :إننى ذو براء أو برىء على سبيل المبالغه مثل زيد عدل.

و فى الآيه إشاره الى تبرّى إبراهيم عليه السّلام مما كان يعبده أبوه و قومه من الأصنام و الكواكب بعد ما حاجّهم فيها فاستندوا فيها الى سيره آبائهم على ما ذكر فى سور الأنعام و الأنبياء و الشعراء و غيرها.

و المعنى:و اذكر لهم إذ تبرّأ إبراهيم عن آلهه أبيه و قومه إذ كانوا يعبدونها تقليدا لآبائهم من غير حجه و قام بالنظر وحده.

قوله تعالى: إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ أى إلاّ الذى أوجدنى و هو اللّه سبحانه،و فى توصيفه تعالى بالفطر إشاره الى الحجه على ربوبيته و ألوهيته فإن الفطر و الإيجاد لا ينفكّ عن تدبير أمر الموجود المفطور فالذى فطر الكلّ هو الذى يدبّر أمرهم فهو الحقيق أن يعبد.

و قوله: فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ أى الى الحق الذى أطلبه،و قيل:أى الى طريق الجنه،و فى هذه الجمله إشاره الى خاصه اخرى ربوبيه و هى الهدايه الى السبيل الحق يجب أن يسلكه الإنسان فإن السوق الى الكمال من تمام التدبير فعلى الرب المدبّر لأمر مربوبه أن يهديه الى كماله و سعادته،قال تعالى: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ (طه/۵۰)،و قال:

وَ عَلَى اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِيلِ (النحل/۹)،فالرجوع الى اللّه بتوحيد العباده يستتبع الهدايه كما قال تعالى: وَ الَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا (العنكبوت/۶۹).

و الاستثناء فى قوله: «إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي» منقطع لأن الوثنيين لا يعبدون اللّه كما مرّ مرارا،

ص :۶۱۰

فقول بعضهم:إنه متصل،و أنهم كانوا يقولون:اللّه ربنا مع عبادتهم الأوثان،كما ترى.

قوله تعالى: وَ جَعَلَهٰا كَلِمَةً بٰاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ الظاهر أن ضمير الفاعل المستتر فى «جَعَلَهٰا» للّه سبحانه،و الضمير البارز-على ما قيل-لكلمه البراءه التى تكلم بها إبراهيم عليه السّلام و معناها معنى كلمه التوحيد فإن مفاد «لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ» نفى الآلهه غير اللّه لا نفى الآلهه و إثبات الإله تعالى (۱)و هو ظاهر فلا حاجه الى ما تكلف به بعضهم أن الضمير لكلمه التوحيد المعلوم مما تكلم به إبراهيم عليه السّلام.

و المراد بعقبه ذرّيته و ولده،و قوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» أى يرجعون من عباده آلهه غير اللّه الى عبادته تعالى أى يرجع بعضهم-و هم العابدون لغير اللّه بدعوه بعضهم و هم العابدون للّه- الى عبادته تعالى،و بهذا يظهر أن المراد ببقاء الكلمه فى عقبه عدم خلوّهم عن الموحّد ما داموا،و لعل هذا عن استجابه دعائه عليه السّلام إذ يقول وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنٰامَ (إبراهيم/۳۵).

و يظهر من الآيه أن ذريه إبراهيم عليه السّلام لا تخلو من هذه الكلمه الى يوم القيامه.

قوله تعالى: بَلْ مَتَّعْتُ هٰؤُلاٰءِ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰى جٰاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ إضراب عما يفهم من الآيه السابقه،و المعنى:أن رجوعهم عن الشرك الى التوحيد كان هو الغايه المرجوّه منهم لكنهم لم يرجعوا بل متّعت هؤلاء من قومك و آباءهم فتمتعوا بنعمى «حَتّٰى جٰاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ» .

و المراد بالحق الذى جاءهم هو القرآن،و بالرسول المبين محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

قوله تعالى: وَ لَمّٰا جٰاءَهُمُ الْحَقُّ قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ وَ إِنّٰا بِهِ كٰافِرُونَ هذا طعنهم فى الحق الذى جاءهم و هو القرآن و يستلزم الطعن فى الرسول.كما أن قولهم الآتى:

۱- ۱) .و ذلك أن «اللّٰهُ» فيها مرفوع على البدليه لا منصوب على الاستثناء.

«لَوْ لاٰ نُزِّلَ» الخ؛کذلک.

قوله تعالی: وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ المراد بالقريتين مکه و الطائف،و مرادهم بالعظمه-علی ما يفيده السياق-ما هو من حيث المال و الجاه اللذين هما ملاک الشرافه و علوّ المنزله عند أبناء الدنيا،و المراد بقوله: «رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» رجل من إحدى القريتين حذف المضاف إيجازا.

و مرادهم أن الرساله منزله شريفه إلهيه لا ينبغی أن يتلبّس به إلاّ رجل شريف فی نفسه عظيم مطاع فی قومه،و النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فقير فاقد لهذه الخصله،فلو کان القرآن الذی جاء به وحيا نازلا من اللّه فلولا نزّل علی رجل عظيم من مکه أو الطائف کثير المال رفيع المنزله.

قوله تعالی: أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّکَ نَحْنُ قَسَمْنٰا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِی الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا الخ؛المراد بالرحمه-علی ما يعطيه السياق-النبوه.

و قال الراغب:العيش الحياه المختصه بالحيوان،و هو أخص من الحياه لأن الحياه تقال فی الحيوان و فی البارئ تعالی و فی الملک،و يشتق منه المعيشه لما يتعيش به.انتهی.و قال:

التسخير سياقه الی الغرض المختص قهرا-الی أن قال-:و السخری هو الذی يقهر فيتسخر بإرادته.انتهی.

و الآيه و الآيتان بعدها فی مقام الجواب عن قولهم: «لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلىٰ رَجُلٍ» الخ؛ و محصلها أن قولهم هذا تحکم ظاهر ينبغی أن يتعجب منه فإنهم يحکمون فيما لا يملکون.هذه معيشتهم فی الحياه الدنيا يعيشون بها و يرتزقون و هی رحمه منا لا قدر لها و لا منزله عندنا و ليست إلاّ متاعا زائلا نحن نقسمها بينهم و هی خارجه عن مقدرتهم و مشيتهم فکيف يقسمون النبوه التی هی الرحمه الکبری و هی مفتاح سعاده البشر الدائمه و الفلاح الخالد فيعطونها لمن شاءوا و يمنعونها ممن شاءوا.

فقوله: أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّکَ الاستفهام للانکار،و الالتفات الی الغيبه فی

قوله: «رَحْمَهِ رَبِّکَ» و لم یقل:رحمتنا،للدلاله علی اختصاص النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعنایه الربوبیه فی النبوه.

و المعنی:أنهم لا یملکون النبوه التی هی رحمه للّه خاصه به حتی یمنعوک منها و یعطوها لمن هووا.

و قوله: نَحْنُ قَسَمْنا بَیْنَهُمْ مَعِیشَتَهُمْ فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا بیان لوجه الإنکار فی الجمله السابقه بأنهم عاجزون عن قسمه ما هو دون النبوه بمراحل و لا منزله له و هو معیشتهم فی الحیاه الدنیا فنحن قسمناها بینهم فکیف یقسمون ما هو أرفع منزله منها بما لا یقدّر قدره و هو النبوه التی هی رحمه ربک الخاصه به.

و الدلیل علی أن الأرزاق و المعایش لیست بید الإنسان اختلاف أفراده بالغنی و الفقر و العافیه و الصحه و فی الأولاد و سائر ما یعدّ من الرزق،و کلّ یرید أن یقتنی منها ما لا مزید علیه،و لا یکاد یتیسّر لأحد منهم جمیع ما یتمناه و یرتضیه فلو کان ذلک بید الإنسان لم یوجد معدم فقیر فی شیء منها بل لم یختلف اثنان فیها فاختلافهم فیها أوضح دلیل علی أن الرزق مقسوم بمشیّه من اللّه دون الإنسان.

علی أن الإراده و العمل من الإنسان بعض الأسباب الناقصه لحصول المطلوب الذی هو الرزق و وراءهما أسباب کونیه لا تحصی خارجه عن مقدره الإنسان لا یحصل المطلوب إلاّ بحصولها جمیعا و اجتماعها علیه و لیست إلاّ بید اللّه الذی الیه تنتهی الأسباب.

هذا کله فی المال و أما الجاه فهو أیضا مقسوم من عند اللّه فإنه یتوقف علی صفات خاصه بها ترتفع درجات الإنسان فی المجتمع فیتمکن من تسخیر من هو دونه کالفطنه و الدهاء و الشجاعه و علوّ الهمه و إحکام العزیمه و کثره المال و العشیره و شیء من ذلک لا یتمّ إلاّ بصنع من اللّه سبحانه،و ذلک قوله: «وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِیَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِیًّا» .

ص :۶۱۳

فيتبين بمجموع القولين أعنى قوله: «نَحْنُ قَسَمْنٰا» الخ؛و قوله: «وَ رَفَعْنٰا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ» الخ؛أن القاسم للمعيشه و الجاه بين الناس هو اللّه سبحانه لا غير،و قوله: «وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ» أى النبوه خير من المال فكيف يملكون قسمها و هم لا يملكون قسم المال فيما بينهم.

و من الممكن أن يكون قوله: «وَ رَفَعْنٰا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ» عطف تفسير على قوله:

«نَحْنُ قَسَمْنٰا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ» الخ؛يبين قسم المعيشه بينهم ببيان علل انقسامها فى المجتمع الإنسانى،بيان ذلك أن كثره حوائج الإنسان فى حياته الدنيا بحيث لا يقدر على رفع جميعها فى عيش انفرادى أحوجته الى الاجتماع مع غيره من الأفراد على طريق الاستخدام و الاستدرار أولا و على طريق التعاون و التعاضد ثانيا كما مرّ فى مباحث النبوه من الجزء الثانى من الكتاب.

فآل الأمر الى المعاوضه العامه المفيده لنوع من الاختصاص بأن يعطى كل مما عنده من حوائج الحياه ما يفضل من حاجته و يأخذ به من الغير ما يعادله مما يحتاج اليه فيعطى مثلا ما يفضل من حاجته من الماء الذى عنده و قد حصّله و اختصّ به و يأخذ من غيره ما يزيد على قوته من الغذاء،و لازم ذلك أن يسعى كل فرد بما يستعد له و يحسنه من السعى فيقتنى مما يحتاج اليه ما يختص به،و لازم ذلك أن يحتاج غيره اليه فيما عنده من متاع الحياه فيتسخر له فيفيده ما يحتاج اليه كالخبّاز يحتاج الى ما عند السقّاء من الماء و بالعكس فيتعاونان بالمعاوضه و كالمخدوم يتسخر للخادم لخدمته و الخادم يتسخر للمخدوم لماله و هكذا فكل بعض من المجتمع مسخر لآخرين بما عنده و الآخرون متسخرون له بلا واسطه أو بواسطه أو وسائط لما أن كلا يرتفع على غيره بما يختص به مما عنده بدرجات مختلفه باختلاف تعلق الهمم و القصود به.

و على ما تقدم فالمراد بالمعيشه كل ما يعاش به أعم من المال و الجاه أو خصوص المال

و غیره تبع له کما یؤیده قوله ذیلا: «وَ رَحْمَتُ رَبِّکَ خَیْرٌ مِمّٰا یَجْمَعُونَ» فإن المراد به المال و غیره من لوازم الحیاه مقصود بالتبع.

قوله تعالی: وَ لَوْ لاٰ أَنْ یَکُونَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً -الی قوله- وَ مَعٰارِجَ عَلَیْهٰا یَظْهَرُونَ الآیه و ما یتلوها لبیان أن متاع الدنیا من مال و زینه لا قدر لها عند اللّه سبحانه و لا منزله.

قالوا:المراد بکون الناس أمه واحده کونهم مجتمعین علی سنّه واحده هی الکفر باللّه لو رأوا أن زینه الدنیا بحذافیرها عند الکافر باللّه و المؤمن سفر الکف منها مطلقا،و المعارج الدرجات و المصاعد.

و المعنی:و لو لا أن یجتمع الناس علی الکفر لو رأوا تنعّم الکافرین و حرمان المؤمنین لجعلنا لمن یکفر بالرحمن لبیوتهم سقفا من فضه و درجات علیها یظهرون لغیرهم.

و یمکن أن یکون المراد بکون الناس أمه واحده کونهم جمیعا علی نسبه واحده تجاه الأسباب العامله فی حظوظ العیش من غیر فرق بین المؤمن و الکافر،فمن سعی سعیه للرزق و وافقته الأسباب و العوامل الموصله الاخری نال منه مؤمنا کان أو کافرا،و من لم یجتمع له حرم ذلک و قتر علیه الرزق مؤمنا أو کافرا.

و المعنی:لو لا ما أردنا أن یتساوی الناس تجاه الأسباب الموصله الی زخارف الدنیا و لا یختلفوا فیها بالإیمان و الکفر لجعلنا لمن یکفر،الخ.

قوله تعالی: وَ لِبُیُوتِهِمْ أَبْوٰاباً وَ سُرُراً عَلَیْهٰا یَتَّکِؤُنَ وَ زُخْرُفاً تنکیر «أَبْوٰاباً» و «سُرُراً» للتفخیم،و الزخرف الذهب أو مطلق الزینه،قال فی المجمع:الزخرف کمال حسن الشیء و منه قیل للذهب،و یقال:زخرفه زخرفه إذا حسّنه و زیّنه،و منه قیل للنقوش و التصاویر:زخرف،و فی الحدیث إنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یدخل الکعبه حتی أمر بالزخرف فنحّی.

انتهی.و الباقی ظاهر.

ص :۶۱۵

قوله تعالی: وَ إِنْ کُلُّ ذٰلِکَ لَمّٰا مَتٰاعُ الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهُ عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُتَّقِینَ «إِنْ» للنفی و «لَمّٰا» بمعنی إلاّ أی لیس کل ما ذکر من مزایا المعیشه إلاّ متاع الحیاه الدنیا الزائله الفانیه التی لا تدوم.

و قوله: وَ الْآخِرَهُ عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُتَّقِینَ المراد بالآخره بقرینه المقام الحیاه الآخره السعیده کأن الحیاه الآخره الشقیه لا تعدّ حیاه.

و المعنی:أن الحیاه الآخره السعیده بحکم من اللّه تعالی و قضاء منه مختصه بالمتقین،و هذا التخصیص و القصر یؤید ما قدمناه من معنی کون الناس أمه واحده فی الدنیا بعض التأیید.

قوله تعالی: وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطٰاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ یقال:عشی یعشی عشا من باب علم یعلم إذا کان ببصره آفه لا یبصر مطلقا أو باللیل فقط،و عشا یعشو عشوا و عشوّا من باب نصر ینصر إذا تعامی و تعشّی بلا آفه، و التقییض التقدیر و الإتیان بشیء الی شیء،یقال:قیّضه له إذا جاء به الیه.

لما انتهی الکلام الی ذکر المتقین و أن الآخره لهم عند اللّه قرنه بعاقبه أمر المعرضین عن الحق المتعامین عن ذکر الرحمن مشیرا الی أمرهم من أوله و هو أن تعامیهم عن ذکر اللّه یورثهم ملازمه قرناء الشیطان فیلازمونهم مضلّین لهم حتی یردوا عذاب الآخره معهم.

فقوله: وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطٰاناً أی من تعامی عن ذکر الرحمن و نظر الیه نظر الأعشی جئنا الیه بشیطان،و قد عبّر تعالی عنه فی موضع آخر بالإرسال فقال: أَ لَمْ تَرَ أَنّٰا أَرْسَلْنَا الشَّیٰاطِینَ عَلَی الْکٰافِرِینَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (مریم/۸۳)، و إضافه الذکر الی الرحمن للاشاره الی أنه رحمه.

و قوله: فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ أی مصاحب لا یفارقه.

قوله تعالی: وَ إِنَّهُمْ لَیَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِیلِ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ضمیر «إِنَّهُمْ» للشیاطین،و ضمائر الجمع الباقیه للعاشین عن الذکر،و اعتبار الجمع نظرا الی

المعنى فى «وَ مَنْ يَعْشُ» الخ؛و الصدّ الصرف،و المراد بالسبيل ما يدعو اليه الذكر من سبيل اللّه الذى هو دين التوحيد.

و المعنى:و إن الشياطين ليصرفون العاشين عن الذكر و يحسب العاشون أنهم-أى العاشين أنفسهم-مهتدون الى الحق.

قوله تعالى: حَتّٰى إِذٰا جٰاءَنٰا قٰالَ يٰا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ «حَتّٰى» غايه لاستمرار الفعل الذى يدل عليه قوله فى الآيه السابقه:

«لَيَصُدُّونَهُمْ» و قوله: «يَحْسَبُونَ» أى لا يزال القرناء يصدونهم و لا يزالون يحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا الواحد منهم.

و المراد بالمجىء اليه تعالى البعث،و ضمير «جٰاءَنٰا» و «قٰالَ» راجع الى الموصول باعتبار لفظه،و المراد بالمشرقين المشرق و المغرب غلب فيه جانب المشرق.

و المعنى:و إنهم يستمرون على صدّهم عن السبيل و يستمر العاشون عن الذكر على حسبان أنهم مهتدون فى انصدادهم حتى إذا حضر الواحد منهم عندنا و معه قرينه و كشف له عن ضلاله و ما يستتبعه من العذاب الأليم،قال مخاطبا لقرينه متاذيا من صحابته:يا ليت بينى و بينك بعد المشرق و المغرب فبئس القرين أنت.

و يستفاد من السياق أنهم معذبون بصحابه القرناء وراء عذابهم بالنار،و لذا يتمنون التباعد عنهم و يخصونه بالذكر و ينسون سائر العذاب.

قوله تعالى: وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ الظاهر أنه معطوف على ما قبله من وصف حالهم،و المراد باليوم يوم القيامه،و قوله: «أَنَّكُمْ فِي الْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ» فاعل «لَنْ يَنْفَعَكُمُ» و المراد بضمير جمع المخاطب العاشون عن الذكر و قرناؤهم،و «إِذْ ظَلَمْتُمْ» واقع موقع التعليل.

و المراد-و اللّه أعلم-أنكم إذا أساء بعضكم الى بعض فى الدنيا فأوقعه فى مصيبه ربما

تسلیتم بعض التسلی لو ابتلی هو نفسه بمثل ما ابتلاکم به فینفعکم ذلک تسلیا و تشفیا لکن لا ینفعکم یوم القیامه اشتراک قرنائکم معکم فی العذاب فإن اشتراکهم معکم فی العذاب و کونهم معکم فی النار هو بعینه عذاب لکم.

قوله تعالی: أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِی الْعُمْیَ وَ مَنْ کانَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ لما ذکر تقییضه القرناء لهم و تقلیبهم إدراکهم بحیث یرون الضلال هدی و لا یقدرون علی معرفه الحق فرّع علیه أن نبّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن هؤلاء صمّ عمی لا یقدر هو علی إسماعهم کلمه الحق و هدایتهم الی سبیل الرشد فلا یتجشم و لا یتکلف فی دعوتهم و لا یحزن لإعراضهم، و الاستفهام للانکار،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: فَإِمّا نَذْهَبَنَّ بِکَ فَإِنّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِیَنَّکَ الَّذِی وَعَدْناهُمْ فَإِنّا عَلَیْهِمْ مُقْتَدِرُونَ المراد بالإذهاب به توفّیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قبل الانتقام منهم،و قیل:المراد إذهابه بإخراجه من بینهم،و قوله: «فَإِنّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ» أی لا محاله،و المراد بإراءته ما وعدهم الانتقام منهم قبل توفیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو حال کونه بینهم،و قوله: «فَإِنّا عَلَیْهِمْ مُقْتَدِرُونَ» أی اقتدارنا یفوق علیهم.

و قوله فی الصدر: «فَإِمّا نَذْهَبَنَّ بِکَ» أصله إن نذهب بک زیدت علیه ما و النون للتأکید، و محصل الآیه إنا منتقمون منهم بعد توفیک أو قبلها لا محاله.

قوله تعالی: فَاسْتَمْسِکْ بِالَّذِی أُوحِیَ إِلَیْکَ إِنَّکَ عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ الظاهر أنه تفریع لجمیع ما تقدم من أن إنزال الذکر من طریق الوحی و النبوه من سننه تعالی و إن کتابه النازل علیه حق و هو رسول مبین لا یستجیب دعوته إلاّ المتقون و لا یعرض عنها إلاّ قرناء الشیاطین،و لا مطمع فی إیمانهم و سینتقم اللّه منهم.

فأکّد علیه الأمر بعد ذلک کله أن یجدّ فی التمسک بالکتاب الذی أوحی الیه لأنه علی صراط مستقیم.

قوله تعالی: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ الظاهر أن المراد بالذکر ذکر اللّه،و بهذا المعنی تکرر مرارا فی السوره،و اللام فی «لَکَ وَ لِقَوْمِکَ» للاختصاص بمعنی توجّه ما فیه من التکالیف الیهم،و یؤیده بعض التأیید قوله: «وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ» أی عنه یوم القیامه.

و عن أکثر المفسرین أن المراد بالذکر الشرف الذی یذکر به،و المعنی:و إنه لشرف عظیم لک و لقومک من العرب تذکرون به بین الامم.

قوله تعالی: وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً یُعْبَدُونَ قیل:المراد بالسؤال منهم السؤال من أممهم و علماء دینهم کقوله تعالی: فَسْئَلِ الَّذِینَ یَقْرَؤُنَ الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکَ (یونس۹۴/)،و فائده هذا المجاز أن المسئول عنه السؤال منهم عین ما جاءت به رسلهم لا ما یجیبونه من تلقاء أنفسهم (۱).

[سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۴۶ الی ۵۶]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسیٰ بِآیاتِنا إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَقالَ إِنِّی رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِینَ (۴۶) فَلَمّا جاءَهُمْ بِآیاتِنا إِذا هُمْ مِنْها یَضْحَکُونَ (۴۷) وَ ما نُرِیهِمْ مِنْ آیَةٍ إِلاّ هِیَ أَکْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۴۸) وَ قالُوا یا أَیُّهَا السّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّکَ بِما عَهِدَ عِنْدَکَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (۴۹) فَلَمّا کَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ یَنْکُثُونَ (۵۰) وَ نادیٰ فِرْعَوْنُ فِی قَوْمِهِ قالَ یا قَوْمِ أَ لَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِی مِنْ تَحْتِی أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۵۱) أَمْ أَنَا خَیْرٌ مِنْ هٰذَا الَّذِی هُوَ مَهِینٌ وَ لا یَکادُ یُبِینُ (۵۲) فَلَوْ لا أُلْقِیَ عَلَیْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلاٰئِکَةُ مُقْتَرِنِینَ (۵۳) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ (۵۴) فَلَمّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِینَ (۵۵) فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلاً لِلْآخِرِینَ (۵۶)

---

۱ – ۱) .الزخرف ۲۶-۴۵:بحث روائی فی:الکلمه الباقیه فی عقب ابراهیم علیه السّلام؛قوله تعالی: «وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلیٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْیَتَیْنِ عَظِیمٍ» ؛و قوله تعالی: «نَحْنُ قَسَمْنا بَیْنَهُمْ مَعِیشَتَهُمْ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا» ؛امه واحده.

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسی بِآیاتِنا إِلی فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقالَ إِنِّی رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِینَ اللام فی «لَقَدْ» للقسم،و الباء فی قوله: «بِآیاتِنا» للمصاحبه، و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: فَلَمّا جاءَهُمْ بِآیاتِنا إِذا هُمْ مِنْها یَضْحَکُونَ المراد بمجیئهم بالآیات إظهار المعجزات للدلاله علی الرساله،و المراد بالضحک ضحک الاستهزاء استخفافا بالآیات.

قوله تعالی: وَ ما نُرِیهِمْ مِنْ آیَهٍ إِلاّ هِیَ أَکْبَرُ مِنْ أُخْتِها الخ؛الاخت المثل، و قوله: «هِیَ أَکْبَرُ مِنْ أُخْتِها» کنایه عن کون کل واحده منها بالغه فی الدلاله علی حقیه الرساله،و جمله «وَ ما نُرِیهِمْ مِنْ آیَهٍ» الخ؛حال من ضمیر «مِنْها» ،و المعنی:فلما أتاهم

بالمعجزات إذا هم منها يضحكون و الحال أن كلا منها تامه كامله فی إعجازها و دلالتها من غير نقص و لا قصور.

و قوله: وَ أَخَذْنٰاهُمْ بِالْعَذٰابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أی رجاء أن يرجعوا عن استكبارهم الی قبول رسالته،و المراد بالعذاب الذی أخذوا به آيات الرجز التی نزلت عليهم من السنين و نقص من الثمرات و الطوفان و الجراد و القمّل و الضفادع و الدم آيات مفصلات كما فی سوره الأعراف.

قوله: وَ قٰالُوا يٰا أَيُّهَا السّٰاحِرُ ادْعُ لَنٰا رَبَّكَ بِمٰا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنٰا لَمُهْتَدُونَ ما فی «بِمٰا عَهِدَ عِنْدَكَ» مصدريه أی بعهده عندک و المراد به عهده أن يكشف عنهم العذاب لو آمنوا كما قيل أو أن يستجيب دعاءه إذا دعاكما احتمله بعضهم.

و قولهم:يا أيها الساحر خطاب استهزاء استكبارا منهم كما قالوا:ادع ربک و لم يقولوا:ادع ربنا أو ادع اللّه استكبارا،و المراد أنهم طلبوا منه الدعاء لكشف العذاب عنهم و وعدوه الاهتداء.

و قيل:معنی الساحر فی عرفهم العالم و كان الساحر عندهم عظيما يعظمونه و لم يكن صفه ذم.و ليس بذاک بل كانوا ساخرين علی استكبارهم كما يشهد به قولهم:ادع لنا ربک.

قوله تعالی: فَلَمّٰا كَشَفْنٰا عَنْهُمُ الْعَذٰابَ إِذٰا هُمْ يَنْكُثُونَ النكث نقض العهد و خلف الوعد،و وعدهم هو قولهم: «إِنَّنٰا لَمُهْتَدُونَ» .

قوله تعالی: وَ نٰادیٰ فِرْعَوْنُ فِی قَوْمِهِ قٰالَ يٰا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِی مُلْكُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ الْأَنْهٰارُ تَجْرِی مِنْ تَحْتِی أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ أی ناداهم و هو بينهم،و فصل «قٰالَ» لكونه فی موضع جواب السؤال كأنه قيل:فما ذا قال؟فقيل:قال كذا.

و قوله: وَ هٰذِهِ الْأَنْهٰارُ تَجْرِی مِنْ تَحْتِی أی من تحت قصری أو من بستانی الذی فيه قصری المرتفع العالی البناء،و الجمله أعنی قوله: «وَ هٰذِهِ الْأَنْهٰارُ» الخ؛حاليه أو

«وَ هٰذِهِ الْأَنْهارُ» معطوف على «مُلْکَ مِصْرَ» و قوله: «تَجْرِی مِنْ تَحْتِی» حال من الأنهار، و الأنهار أنهار النيل.

و قوله: «أَ فَلا تُبْصِرُونَ» فی معنی تکریر الاستفهام فی قوله: «أَ لَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ» الخ.

قوله تعالی: أَمْ أَنَا خَیْرٌ مِنْ هٰذَا الَّذِی هُوَ مَهِینٌ وَ لا یَکادُ یُبِینُ المهین الحقیر الضعیف من المهانه بمعنی الحقاره،و یرید بالمهین موسی علیه السّلام لما به من الفقر و رثاثه الحال.

و قوله: «وَ لا یَکادُ یُبِینُ» أی یفصح عن مراده و لعله کان یصف موسی علیه السّلام به باعتبار ما کان علیه قبل الرساله لکن اللّه رفع عنه ذلک لقوله: قٰالَ قَدْ أُوتِیتَ سُؤْلَکَ یا مُوسیٰ (طه۳۶/)بعد قوله علیه السّلام: وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسٰانِی یَفْقَهُوا قَوْلِی (طه۲۸/).

و قوله فی صدر الآیه: «أَمْ أَنَا خَیْرٌ» الخ؛أم فیه إما منقطعه لتقریر کلامه السابق و المعنی:

بل أنا خیر من موسی لأنه کذا و کذا،و إما متصله،و أحد طرفی التردید محذوف مع همزه الاستفهام،و التقدیر:أ هذا خیر أم أنا خیر،الخ؛و فی المجمع قال سیبویه و الخلیل:عطف أنا بأم علی «أَ فَلا تُبْصِرُونَ» لأن معنی «أَنَا خَیْرٌ» معنی أم تبصرون فکأنه قال:أ فلا تبصرون أم تبصرون لأنهم إذا قالوا له:أنت خیر منه فقد صاروا بصراء عنده انتهی.أی إن موضع «أَمْ أَنَا خَیْرٌ» موضع أم تبصرون من وضع المسبب موضع السبب أو بالعکس.

و کیف کان فالإشاره الی موسی بهذا من دون أن یذکر باسمه للتحقیر و توصیفه بقوله:

«الَّذِی هُوَ مَهِینٌ وَ لا یَکادُ یُبِینُ» للتحقیر و للدلاله علی عدم خیریته.

قوله تعالی: فَلَوْ لا أُلْقِیَ عَلَیْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جٰاءَ مَعَهُ الْمَلاٰئِکَةُ مُقْتَرِنِینَ الأسوره جمع سوار بالکسر،و قال الراغب:هو معرب دستواره قالوا:کان من دأبهم أنهم إذا سوّدوا رجلا سوروه بسوار من ذهب و طوقوه بطوق من ذهب فالمعنی لو کان رسولا و ساد الناس بذلک لالقی الیه أسوره من ذهب.

و قوله: أَوْ جٰاءَ مَعَهُ الْمَلاٰئِكَهُ مُقْتَرِنِينَ الظاهر أن الاقتران بمعنى التقارن كالاستباق و الاستواء بمعنى التسابق و التساوى،و المراد إتيان الملائكه معه متقارنين لتصديق رسالته،و هذه الكلمه مما تكررت على لسان مكذبى الرسل كقولهم: لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (الفرقان/٧).

قوله تعالى: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطٰاعُوهُ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْماً فٰاسِقِينَ أى استخفّ عقول قومه و أحلامهم،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمّٰا آسَفُونٰا انْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنٰاهُمْ أَجْمَعِينَ الإيساف الإغضاب أى فلما أغضبونا بفسوقهم انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين،و الغضب منه تعالى إراده العقوبه.

قوله تعالى: فَجَعَلْنٰاهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلاً لِلْآخِرِينَ السلف المتقدم و الظاهر أن المراد بكونهم سلفا للآخرين تقدمهم عليهم فى دخول النار،و المثل الكلام السائر الذى يتمثّل به و يعتبر به،و الظاهر أن كونهم مثلا لهم كونهم مما يعتبر به الآخرون لو اعتبروا و اتعظوا.

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٥٧ الى ٦٥]

وَ لَمّٰا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذٰا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَ قٰالُوا أَ آلِهَتُنٰا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مٰا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاّٰ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاّٰ عَبْدٌ أَنْعَمْنٰا عَلَيْهِ وَ جَعَلْنٰاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرٰائِيلَ (٥٩) وَ لَوْ نَشٰاءُ لَجَعَلْنٰا مِنْكُمْ مَلاٰئِكَةً فِي اَلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسّٰاعَةِ فَلاٰ تَمْتَرُنَّ بِهٰا وَ اِتَّبِعُونِ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لاٰ يَصُدَّنَّكُمُ اَلشَّيْطٰانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَ لَمّٰا جٰاءَ عِيسىٰ بِالْبَيِّنٰاتِ قٰالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ اَلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ اَلْأَحْزٰابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذٰابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥)

بیان:

قوله تعالی: وَ لَمّٰا ضُرِبَ ابْنُ مَرْیَمَ مَثَلاً إِذٰا قَوْمُکَ مِنْهُ یَصِدُّونَ -الی قوله- خَصِمُونَ الآیه؛الی تمام أربع آیات أو ست آیات حول جدال القوم فیما ضرب من مثل ابن مریم،و الذی یتحصل بالتدبر فیها نظرا الی کون السوره مکیه و مع قطع النظر عن الروایات هو أن المراد بقوله: «وَ لَمّٰا ضُرِبَ ابْنُ مَرْیَمَ مَثَلاً» هو ما أنزله اللّه من وصفه فی أول سوره مریم فإنها السوره المکیه الوحیده التی وردت فیها قصه عیسی بن مریم علیه السّلام تفصیلا، و السوره تقص قصص عده من النبیین بما أن اللّه أنعم علیهم کما تختتم قصصهم بقوله: أُولٰئِکَ الَّذِینَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ مِنَ النَّبِیِّینَ (مریم/۵۸)،و قد وقع فی هذه الآیات قوله: «إِنْ هُوَ إِلاّٰ عَبْدٌ أَنْعَمْنٰا عَلَیْهِ» و هو من الشواهد علی کون قوله: «وَ لَمّٰا ضُرِبَ ابْنُ مَرْیَمَ مَثَلاً» إشاره الی ما فی سوره مریم.

و المراد بقوله: «إِذٰا قَوْمُکَ مِنْهُ یَصِدُّونَ بکسر الصاد أی یضجون و یضحکون ذم لقریش فی مقابلتهم المثل الحق بالتهکم و السخریه،و قرئ «یصدون» بضم الصاد أی یعرضون و هو

أنسب للجمله التاليه.

و قوله: وَ قٰالُوا أَ آلِهَتُنٰا خَيْرٌ أَمْ هُوَ الاستفهام للانكار أى آلهتنا خير من ابن مريم كأنهم لما سمعوا اسمه بما يصفه القرآن به من النعمه و الكرامه أعرضوا عنه بما يصفه به القرآن و أخذوه بما له من الصفه عند النصارى أنه إله فردّوا على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأن آلهتنا خير منه و هذا من أسخف الجدال كأنهم يشيرون بذلك الى أن الذى فى القرآن من وصفه لا يعتنى به و ما عند النصارى لا ينفع فإن آلهتهم خير منه.

و قوله: مٰا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاّٰ جَدَلاً أى ما وجّهوا هذا الكلام «آلِهَتُنٰا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» اليك إلّا جدلا يريدون به إبطال المثل المذكور و إن كان حقا «بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» أى ثابتون على خصومتهم مصرّون عليها.

و قوله: إِنْ هُوَ إِلاّٰ عَبْدٌ أَنْعَمْنٰا عَلَيْهِ رد لما يستفاد من قولهم: «آلِهَتُنٰا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» أنه إله النصارى كما سيجىء (۱).

قوله تعالى: إِنْ هُوَ إِلاّٰ عَبْدٌ أَنْعَمْنٰا عَلَيْهِ وَ جَعَلْنٰاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرٰائِيلَ الذى يستدعيه السياق أن يكون الضمير لابن مريم،و المراد بكونه مثلا-على ما قيل-كونه آيه عجيبه إلهيه يسير ذكره كالأمثال السائره.

و المعنى:ليس ابن مريم إلا عبدا متظاهرا بالعبوديه أنعمنا عليه بالنبوه و تأييده بروح القدس و إجراء المعجزات الباهره على يديه و غير ذلك و جعلناه آيه عجيبه خارقه نصف به الحق لبنى إسرائيل.

و هذا المعنى كما ترى ردّ لقولهم: «آلِهَتُنٰا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» الظاهر فى تفضيلهم آلهتهم فى ألوهيتها على المسيح عليهم السّلام فى ألوهيته و محصّله أن المسيح لم يكن إلها حتى ينظر فى منزلته فى

۱- ۱) .الزخرف ۵۷-۶۵:بحث حول قوله تعالى: «إِنَّكُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» .

ألوهيه و إنما كان عبدا أنعم اللّه عليه بما أنعم،و أما آلهتهم فنظر القرآن فيهم ظاهر.

قوله تعالى: وَ لَوْ نَشٰاءُ لَجَعَلْنٰا مِنْكُمْ مَلاٰئِكَةً فِي اَلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ الظاهر أن الآيه متصله بما قبلها مسروده لرفع استبعاد أن يتلبّس البشر من الكمال ما يقصه القرآن عن عيسى عليهم السّلام فيخلق الطير و يحيي الموتى و يكلم الناس فى المهد إلى غير ذلك،فيكون كالملائكه المتوسطين فى الإحياء و الإماته و الرزق و سائر أنواع من الكمال عند الوثنيه مع ذلك عبدا غير معبود و مألوها غير إله فإن هذا النوع من الكمال عند الوثنيه مختص بالملائكه و هو ملاك الوهيتهم و معبوديتهم و بالجمله هم يحيلون تلبّس البشر بهذا النوع من الكمال الذى يخصونه بالملائكه.

فاجيب فإن للّه أن يزكى الإنسان و يطهره من دناس المعاصى بحيث يصير باطنه باطن الملائكه فظاهره ظاهر البشر و باطنه باطن الملك يعيش فى الأرض يخلف مثله و يخلفه مثله و يظهر منه ما يظهر من الملائكه (۱).

و على هذا فمن فى قوله: «مِنْكُمْ» للتبعيض،و قوله: «يَخْلُفُونَ» أى يخلف بعضهم بعضا.

و فى المجمع أن«من»فى قوله: «مِنْكُمْ» تفيد معنى البدليه كما فى قوله:

فليت لنا من ماء زمزم شربه

مبرّده باتت على الطهيان (۲)

و قوله: «يَخْلُفُونَ» أى يخلفون بنى آدم و يكونون خلفاء لهم،و المعنى:و لو نشاء أهلكناكم و جعلنا بدلكم ملائكه يسكنون الأرض و يعمرونها و يعبدون اللّه.

و فيه أنه لا يلائم النظم تلك الملاءمه.

قوله تعالى: وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسّٰاعَةِ فَلاٰ تَمْتَرُنَّ بِهٰا وَ اتَّبِعُونِ هٰذٰا صِرٰاطٌ

ص :۶۲۶

۱- ۱) .و ليس هذا من الانقلاب المحال فى شىء بل نوع من التكامل الوجودى بالخروج من حد منه أدنى إلى حد منه أعلى كما بين فى محله.

۲- ۲) .الطهيان قله الجبل،و معنى البيت:ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربه من الماء مبرده بقيت ليله على قله الجبل.

مُسْتَقِيمٌ ضمير «إِنَّهُ» لعيسى عليه السّلام و المراد بالعلم ما يعلم به،و المعنى:و إن عيسى يعلم به الساعه فى خلقه من غير أب و إحيائه الموتى فيعلم به أن الساعه ممكنه فلا تشكّوا فى الساعه و لا ترتابوا فيها البته.

و قيل:المراد بكونه علما للساعه كونه من أشراطها ينزل على الأرض فيعلم به قرب الساعه.

و قيل:الضمير للقرآن و كونه علما للساعه كونه آخر الكتب المنزله من السماء.

و فى الوجهين جميعا خفاء التفريع الذى فى قوله: «فَلاٰ تَمْتَرُنَّ بِهٰا» .

قوله تعالى: وَ لَمّٰا جٰاءَ عِيسىٰ بِالْبَيِّنٰاتِ قٰالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَهِ الخ؛ المراد بالبينات الآيات البينات من المعجزات،و بالحكمه المعارف الإلهيه من العقائد الحقه و الأخلاق الفاضله.

و قوله: «وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» أى فى حكمه من الحوادث و الأفعال، و الذى يختلفون فيه و إن كان أعمّ من الاعتقادات التى يختلف فى كونها حقه أو باطله و الحوادث و الأفعال التى يختلف فى مشروع حكمها لكن المناسب لسبق قوله: «قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَهِ» أن يختص ما اختلفوا فيه بالحوادث و الأفعال و اللّه أعلم.

و قيل:المراد بقوله: «بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» كل الذى تختلفون فيه.و هو كما ترى.

و قيل:المراد لابين لكم أمور دينكم دون أمور دنياكم و لا دليل عليه من لفظ الآيه و لا من المقام.

و قوله: فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ نسب التقوى إلى اللّه و الطاعه إلى نفسه ليسجل أنه لا يدعى إلا الرساله.

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ هُوَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ دعوه منه إلى عباده اللّه وحده و أنه هو ربه و ربهم جميعا و إتمام للحجه على من يقول بالوهيته.

قوله تعالى: فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ضمير «مِنْ بَيْنِهِمْ» لمن بعث اليهم عيسى عليه السّلام و المعنى:فاختلف الأحزاب المتشعبه من بين أمته فى أمر عيسى من كافر به قال فيه،و من مؤمن به غال فيه،و من مقتصد لزم الاعتدال.

و قوله: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ» تهديد و وعيد للقالى منهم و الغالى.

[سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۶۶ الى ۷۸]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ اَلسّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ (۶۶) اَلْأَخِلاّٰءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ اَلْمُتَّقِينَ (۶۷) يٰا عِبٰادِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اَلْيَوْمَ وَ لاٰ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۶۸) اَلَّذِينَ آمَنُوا بِآيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا مُسْلِمِينَ (۶۹) اُدْخُلُوا اَلْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْوٰاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (۷۰) يُطٰافُ عَلَيْهِمْ بِصِحٰافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوٰابٍ وَ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِيهِ اَلْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ اَلْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (۷۱) وَ تِلْكَ اَلْجَنَّةُ اَلَّتِي أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۷۲) لَكُمْ فِيهٰا فٰاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ (۷۳) إِنَّ اَلْمُجْرِمِينَ فِي عَذٰابِ جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ (۷۴) لاٰ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (۷۵) وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا هُمُ اَلظّٰالِمِينَ (۷۶) وَ نٰادَوْا يٰا مٰالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنٰا رَبُّكَ قٰالَ إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ (۷۷) لَقَدْ جِئْنٰاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ (۷۸)

بيان:

قوله تعالی: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السّاعَهَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَهً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ النظر الانتظار،و البغته الفجأه،و المراد بعدم شعورهم بها غفلتهم عنها لاشتغالهم بامور الدنيا كما قال تعالی: مٰا يَنْظُرُونَ إِلاّٰ صَيْحَهً وٰاحِدَهً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (يس۴۹/)،فلا يتكرر المعنی فی قوله: «بَغْتَهً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» .

و المعنی:ما ينتظر هؤلاء الكفار بكفرهم و تكذيبهم لآيات اللّه إلا أن تأتيهم الساعه مباغته لهم و هم غافلون عنها مشتغلون بامور دنياهم أی إن حالهم حال من هدّده الهلاک فلم يتوسل بشیء من أسباب النجاه و قعد ينتظر الهلاک ففی الكلام كنايه عن عدم اعتنائهم بالإيمان بالحق ليتخلصوا به عن أليم العذاب.

قوله تعالی: اَلْأَخِلاّٰءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ الأخلاء جمع خليل و هو الصديق حيث يرفع خله صديقه و حاجته،و الظاهر أن المراد بالأخلاء المطلق الشامل للمخالّه و التحابّ فی اللّه كما فی مخاله المتقين أهل الآخره و المخاله فی غيره كما فی مخاله أهل الدنيا فاستثناء المتقين متصل.

و الوجه فی عداوه الأخلاء غير المتقين أن من لوازم المخاله إعانه أحد الخليلين الآخر فی مهام اموره فإذا كانت لغير وجه اللّه كان فيها الإعانه علی الشقوه الدائمه و العذاب الخالد كما قال تعالی حاكيا عن الظالمين يوم القيامه: يٰا وَيْلَتیٰ لَيْتَنِی لَمْ أَتَّخِذْ فُلاٰناً خَلِيلاً لَقَدْ أَضَلَّنِی عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جٰاءَنِی (الفرقان۲۹/)،و أما الأخلاء من المتقين فإن مخالتهم تتأكد و تنفعهم يومئذ.

و فی الخبر النبوی:إذا كان يوم القيامه انقطعت الأرحام و قلّت الأنساب و ذهبت الاخوّه

إلاّ الاخوه فی اللّه و ذلک قوله: «الْأَخِلاّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاّ الْمُتَّقِينَ» (۱).

قوله تعالی: يٰا عِبٰادِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لاٰ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ من خطابه تعالی لهم يوم القيامه كما يشهد به قوله بعد: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» الخ؛و فی الخطاب تأمين لهم من كل مكروه محتمل أو مقطوع به فإن مورد الخوف المكروه المحتمل و مورد الحزن المكروه المقطوع به فإذا ارتفعا ارتفعا.

قوله تعالی: اَلَّذِينَ آمَنُوا بِآيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا مُسْلِمِينَ الموصول بدل من المنادی المضاف فی «يٰا عِبٰادِ» أو صفه له،و الآيات كل ما يدل عليه تعالی من نبی و كتاب و أی آيه أخری داله،و المراد بالإسلام التسليم لإراده اللّه و أمره.

قوله تعالی: اُدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْوٰاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ظاهر الأمر بدخول الجنه أن المراد بالأزواج هی النساء المؤمنات فی الدنيا دون الحور العين لأنهن فی الجنه غير خارجات منها.

و الحبور-علی ما قيل-السرور الذی يظهر أثره و حباره فی الوجه و الحبره الزينه و حسن الهيئه،و المعنی:ادخلوا الجنه أنتم و أزواجكم المؤمنات و الحال أنكم تسرّون سرورا يظهر أثره فی وجوهكم أو تزينون بأحسن زينه.

قوله تعالی: يُطٰافُ عَلَيْهِمْ بِصِحٰافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوٰابٍ الخ؛الصحاف جمع صحفه و هی القصعه أو أصغر منها،و الأكواب جمع كوب و هو كوز لا عروه له،و فی ذكر الصحاف و الأكواب إشاره الی تنعمهم بالطعام و الشراب.

و قوله: وَ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ الظاهر أن المراد بما تشتهيه الأنفس ما تتعلق به الشهوه الطبيعيه من مذوق و مشموم و مسموع و ملموس مما يتشارک فيه

۱- ۱) .رواه فی الدر المنثور فی الآيه عن سعد بن معاذ.

الإنسان و عامه الحيوان،و المراد بما تلذه الأعين الجمال و الزينه و ذلك مما الالتذاذ به كالمختص بالإنسان كما فى المناظر البهجه و الوجه الحسن و اللباس الفاخر،و لذا غيّر التعبير فعبّر عما يتعلق بالأنفس بالاشتهاء و فيما يتعلق بالأعين باللذه و فى هذين القسمين تنحصر اللذائذ النفسانيه عندنا.

و يمكن أن تندرج اللذائذ الروحيه العقليه فيما تلذه الأعين فإن الالتذاذ الروحى يعد من رؤيه القلب.

قال فى المجمع:و قد جمع اللّه سبحانه فى قوله: «مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ» ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما فى الجنه من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان.انتهى.

و قوله: وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إخبار و وعد و تبشير بالخلود و لهم فى العلم به من اللذه الروحيه ما لا يقاس بغيره و لا يقدر بقدر.

قوله تعالى: وَ تِلْكَ الْجَنَّهُ الَّتِی أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ قيل:المعنى أعطيتموها بأعمالكم،و قيل أورثتموها من الكفار و كانوا داخليها لو آمنوا و عملوا صالحا، و قد تقدم الكلام فى المعنيين فى تفسير قوله تعالى: أُولٰئِكَ هُمُ الْوٰارِثُونَ (المؤمنون/ ١٠).

قوله تعالى: لَكُمْ فِيهٰا فٰاكِهَهٌ كَثِيرَهٌ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ أضاف الفاكهه الى ما مرت الإشاره اليه من الطعام و الشراب لإحصاء النعمه،و«من»فى «مِنْهَا تَأْكُلُونَ» للتبعيض و لا يخلو من إشاره الى أنها لا تنفد بالأكل.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِی عَذٰابِ جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ لاٰ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ المراد بالمجرمين المتلبّسون بالإجرام فيكون أعم من الكفار و يؤيده إيراده فى مقابله المتقين و هو أخص من المؤمنين.

ص :۶۳۱

و التفتير التخفيف و التقليل،و الإبلاس اليأس و يأسهم من الرحمه أو من الخروج من النار.

قوله تعالى: وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا هُمُ الظّٰالِمِينَ و ذلك أنه تعالى جازاهم بأعمالهم لكنهم ظلموا أنفسهم حيث أوردوها بأعمالهم مورد الشقوه و الهلكه.

قوله تعالى: وَ نٰادَوْا يٰا مٰالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنٰا رَبُّكَ قٰالَ إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ مالك هو الملك الخازن للنار على ما وردت به الأخبار من طرق العامه و الخاصه.

و خطابهم مالكا بما يسألونه من اللّه سبحانه لكونهم محجوبين عنه كما قال تعالى: كَلاّٰ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين/١٥)،و قال: قٰالَ اخْسَؤُا فِيهٰا وَ لاٰ تُكَلِّمُونِ (المؤمنون/١٠٨).

فالمعنى:أنهم يسألون مالكا أن يسأل اللّه أن يقضى عليهم.

و المراد بالقضاء عليهم إماتتهم،و يريدون بالموت الانعدام و البطلان لينجوا بذلك عما هم فيه من الشقوه و أليم العذاب،و هذا من ظهور ملكاتهم الدنيويه فإنهم كانوا يرون فى الدنيا أن الموت انعدام و فوت لا انتقال من دار الى دار فيسألون الموت بالمعنى الذى ارتكز فى نفوسهم و إلاّ فهم قد ماتوا و شاهدوا ما فى حقيقته.

و قوله: «قٰالَ إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ» أى فيما أنتم فيه من الحياه الشقيّه و العذاب الأليم،و القائل هو مالك جوابا عن مسألتهم.

قوله تعالى: لَقَدْ جِئْنٰاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ ظاهره أنه من تمام كلام مالك يقوله عن لسان الملائكه و هو منهم،و قيل:من كلامه تعالى و يبعّده أنهم محجوبون يومئذ عن ربهم لا يكلمهم اللّه تعالى.

و الخطاب لأهل النار بما أنهم بشر،فالمعنى:لقد جئناكم معشر البشر بالحق و لكن أكثركم و هم المجرمون كارهون للحق.

و قیل:المراد بالحق مطلق الحق أی حق کان فهم یکرهونه و ینفرون منه و أما الحق المعهود الذی هو التوحید أو القرآن فکلهم کارهون له مشمئزون منه.

و المراد بکراهتهم للحق الکراهه بحسب الطبع الثانی المکتسب بالمعاصی و الذنوب لا بحسب الطبع الأول الذی هو الفطره التی فطر الناس علیها إذ لو کرهوه بحسبها لم یکلفوا بقبوله،قال تعالی: لاٰ تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ (الروم/۳۰)،و قال: وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا (الشمس/۸).

و یظهر من الآیه أن الملاک فی السعاده و الشقاء قبول الحق و ردّه.

[سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۷۹ الی ۸۹]

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنّٰا مُبْرِمُونَ (۷۹) أَمْ یَحْسَبُونَ أَنّٰا لاٰ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰاهُمْ بَلیٰ وَ رُسُلُنٰا لَدَیْهِمْ یَکْتُبُونَ (۸۰) قُلْ إِنْ کٰانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ اَلْعٰابِدِینَ (۸۱) سُبْحٰانَ رَبِّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ رَبِّ اَلْعَرْشِ عَمّٰا یَصِفُونَ (۸۲) فَذَرْهُمْ یَخُوضُوا وَ یَلْعَبُوا حَتّٰی یُلاٰقُوا یَوْمَهُمُ اَلَّذِی یُوعَدُونَ (۸۳) وَ هُوَ اَلَّذِی فِی اَلسَّمٰاءِ إِلٰهٌ وَ فِی اَلْأَرْضِ إِلٰهٌ وَ هُوَ اَلْحَکِیمُ اَلْعَلِیمُ (۸۴) وَ تَبٰارَکَ اَلَّذِی لَهُ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ اَلسّٰاعَهِ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۸۵) وَ لاٰ یَمْلِکُ اَلَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ اَلشَّفٰاعَهَ إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ (۸۶) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَیَقُولُنَّ اَللّٰهُ فَأَنّٰی یُؤْفَکُونَ (۸۷) وَ قِیلِهِ یٰا رَبِّ إِنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ لاٰ یُؤْمِنُونَ (۸۸) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلاٰمٌ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ (۸۹)

بیان:

قوله تعالی: أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنّٰا مُبْرِمُونَ الابرام خلاف النقض و هو الاحکام، و أم منقطعه.

و المعنی:علی ما یفیده سیاق الآیه و الآیه التالیه،بل أحکموا أمرا من الکید بک یا محمد فإنا محکمون الکید بهم فالآیه فی معنی قوله تعالی: أَمْ یُرِیدُونَ کَیْداً فَالَّذِینَ کَفَرُوا هُمُ الْمَکِیدُونَ (الطور۴۲/).

قوله تعالی: أَمْ یَحْسَبُونَ أَنّٰا لاٰ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰاهُمْ بَلیٰ وَ رُسُلُنٰا لَدَیْهِمْ یَکْتُبُونَ السر ما یستسرونه فی قلوبهم و النجوی ما یناجیه بعضهم بعضا بحیث لا یسمعه غیرهما،و لما کان السر حدیث النفس عبر عن العلم بالسر و النجوی جمیعا بالسمع.

و قوله: بَلیٰ وَ رُسُلُنٰا لَدَیْهِمْ یَکْتُبُونَ أی بلی نحن نسمع سرهم و نجواهم و رسلنا الموکلون علی حفظ أعمالهم علیهم یکتبون ذلک.

قوله تعالی: قُلْ إِنْ کٰانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعٰابِدِینَ إبطال لالوهیه الولد بإبطال أصل وجوده من جهه علمه بأنه لیس،و التعبیر بإن الشرطیه دون لو الداله علی الامتناع-و کان مقتضی المقام أن یقال:لو کان للرحمن ولد،لاستنزالهم عن رتبه المکابره الی مرحله الانتصاف.

و المعنی:قل لهم إن کان للرحمن ولد کما یقولون:فأنا أول من یعبده أداء لحقّ بنوّته و مسانخته لوالده،لکنی أعلم أنه لیس و لذلک لا أعبده لا لبغض و نحوه.

قوله تعالی: سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا یَصِفُونَ تسبیح له سبحانه عما ینسبون الیه،و الظاهر أن «رَبِّ الْعَرْشِ» عطف بیان لرب السماوات و الأرض لأن المراد بالسماوات و الأرض مجموع العالم المشهود و هو عرش ملکه تعالی الذی استوی علیه و حکم فیه و دبر أمره.

و لا یخلو من إشاره الی حجه علی الوحدانیه إذ لما کان الخلق مختصا به تعالی حتی باعتراف الخصم و هو من شئون عرش ملکه،و التدبیر من الخلق و الایجاد فإنه إیجاد النظام الجاری بین المخلوقات فالتدبیر أیضا من شئون عرشه فربوبیته للعرش ربوبیه لجمیع السماوات و الأرض.

قوله تعالی: فَذَرْهُمْ یَخُوضُوا وَ یَلْعَبُوا حَتّی یُلاقُوا یَوْمَهُمُ الَّذِی یُوعَدُونَ وعید إجمالی لهم بأمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالاعراض عنهم حتی یلاقوا ما یحذّرهم منه من عذاب یوم القیامه.

و المعنی:فاترکهم یخوضوا فی أباطیلهم و یلعبوا فی دنیاهم و یشتغلوا بذلک حتی یلاقوا یومهم الذی یوعدونه و هو یوم القیامه کما ذکر فی الآیات السابقه «هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاَّ السّاعَهَ» الخ.

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی فِی السَّماءِ إِلٰهٌ وَ فِی الْأَرْضِ إِلٰهٌ وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ أی هو الذی هو فی السماء إله مستحق للمعبودیه و هو فی الأرض إله أی هو المستحق لمعبودیه أهل السماوات و الأرض وحده،و یفید تکرار «إِلٰهٌ» کما قیل التأکید و الدلاله علی أن کونه تعالی إلها فی السماء و الأرض بمعنی تعلق ألوهیته بهما لا بمعنی استقراره فیهما أو فی أحدهما.

ص:۶۳۵

و فی الآیه مقابله لما یثبته الوثنیه لکل من السماء و الأرض إلها أو آلهه،و فی تذییل الآیه بقوله: «وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ» الدال علی الحصر إشاره الی وحدانیته فی الربوبیه التی لازمها الحکمه و العلم.

قوله تعالی: وَ تَبٰارَکَ الَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّٰاعَهِ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ ثناء علیه تعالی بالتبارک و هو مصدریته للخیر الکثیر.

و کل من الصفات الثلاث المذکوره حجه علی توحّده فی الربوبیه أما ملکه للجمیع فظاهر فإن الربوبیه لمن یدبر الأمر و التدبیر للملک،و أما اختصاص علم الساعه به فلأن الساعه هی المنزل الأقصی الیه یسیر الکل و کیف یصحّ أن یربّ الأشیاء من لا علم به بمنتهی مسیرها فهو تعالی رب الأشیاء لا من یدّعونه،و أما رجوع الناس الیه فإن الرجوع للحساب و الجزاء و هو آخر التدبیر فمن الیه الرجوع فإلیه التدبیر و من الیه التدبیر له الربوبیه.

قوله تعالی: وَ لاٰ یَمْلِکُ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفٰاعَهَ إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ السیاق سیاق العموم فالمراد بالذین یدعون،أی یعبدونهم من دونه،کل معبود غیره تعالی من الملائکه و الجن و البشر و غیرهم.

و المراد «بِالْحَقِّ» الحق الذی هو التوحید،و الشهاده به الاعتراف به،و المراد بقوله: «وَ هُمْ یَعْلَمُونَ» حیث أطلق العلم علمهم بحقیقه حال من شفعوا له و حقیقه عمله کما قال: لاٰ یَتَکَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً (النبأ/۳۸)،و إذا کان هذا حال الشفعاء لا یملکونها إلاّ بعد الشهاده بالحق فما هم بشافعین إلاّ لأهل التوحید کما قال: «وَ لاٰ یَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ارْتَضیٰ» .

و الآیه مصرّحه بوجود الشفاعه.

قوله تعالی: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَیَقُولُنَّ اللّٰهُ فَأَنّٰی یُؤْفَکُونَ أی الی متی یصرفون عن الحق الذی هو التوحید الی الباطل الذی هو الشرک،و ذلک أنهم معترفون

أن لا خالق إلّا اللّه و التدبير الذى هو ملاك الربوبيه غير منفک عن الخلق كما اتضح مرارا فالرب المعبود هو الذى بيده الخلق و هو اللّه سبحانه.

قوله تعالى: وَ قِيلِهِ يٰا رَبِّ إِنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ لاٰ يُؤْمِنُونَ ضمير «قِيلِهِ» للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بلا إشكال،و القيل مصدر كالقول و القال،و «قِيلِهِ» معطوف-على ما قيل-على الساعه فى قوله: «وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّٰاعَهِ» ،و المعنى:و عنده علم قوله: «يٰا رَبِّ إِنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ لاٰ يُؤْمِنُونَ» .

قوله تعالى: فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلاٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أمر بالإعراض عنهم و إقناط من إيمانهم،و قوله: «قُلْ سَلاٰمٌ» أى وادعهم موادعه ترک من غير همّ لک فيهم،و فى قوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» تهديد و وعيد.

ص: ۶۳۷

سوره الدخان مکیه و هی تسع و خمسون آیه

اشاره

[سوره الدخان (۴۴): الآیات ۱ الی ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;حم (۱) وَ اَلْکِتٰابِ اَلْمُبِینِ (۲) إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهٍ مُبٰارَکَهٍ إِنّٰا کُنّٰا مُنْذِرِینَ (۳) فِیهٰا یُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِیمٍ (۴) أَمْراً مِنْ عِنْدِنٰا إِنّٰا کُنّٰا مُرْسِلِینَ (۵) رَحْمَهً مِنْ رَبِّکَ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۶) رَبِّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا إِنْ کُنْتُمْ مُوقِنِینَ (۷) لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ یُحْیِی وَ یُمِیتُ رَبُّکُمْ وَ رَبُّ آبٰائِکُمُ اَلْأَوَّلِینَ (۸)

بیان:

یتلخص غرض السوره فی إنذار المرتابین فی الکتاب بعذاب الدنیا و عذاب الآخره و قد

ص: ۶۳۸

سیق بیان ذلک بأنه کتاب مبین نازل من عند اللّه علی من أرسله الی الناس لإنذارهم و قد نزل رحمه منه تعالی لعباده خیر نزول فی لیله القدر التی فیها یفرق کل أمر حکیم.

غیر أن الناس و هم الکفار ارتابوا فیه لاعبین فی هوساتهم و سیغشاهم ألیم عذاب الدنیا ثم یرجعون الی ربهم فینتقم منهم بعد فصل القضاء بعذاب خالد.

ثم یذکر لهم تنظیرا لأول الوعیدین قصه إرسال موسی علیه السّلام الی قوم فرعون لإنجاء بنی إسرائیل و تکذیبهم له و إغراقهم نکالا منه.

ثم یذکر إنکارهم لثانی الوعیدین و هو الرجوع الی اللّه فی یوم الفصل فیقیم الحجه علی أنه آت لا محاله ثم یذکر طرفا من أخباره و ما سیجری فیه علی المجرمین و یصیبهم من ألوان عذابه،و ما سیثاب به المتقون من حیاه طیبه و مقام کریم.

و السوره مکیه بشهاده سیاق آیاتها.

قوله تعالی: حم وَ الْکِتٰابِ الْمُبِینِ الواو للقسم و المراد بالکتاب المبین القرآن.

قوله تعالی: إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهٍ مُبٰارَکَهٍ إِنّٰا کُنّٰا مُنْذِرِینَ المراد باللیله المبارکه التی نزل فیها القرآن لیله القدر علی ما یدل قوله تعالی: إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهِ الْقَدْرِ (القدر/۱)،و کونها مبارکه ظرفیتها للخیر الکثیر الذی ینبسط علی الخلق من الرحمه الواسعه،و قد قال تعالی: وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا لَیْلَهُ الْقَدْرِ لَیْلَهُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (القدر/۳).

و ظاهر اللفظ أنها إحدی اللیالی التی تدور علی الأرض و ظاهر قوله: فِیهٰا یُفْرَقُ الدال علی الاستمرار أنها تتکرّر و ظاهر قوله تعالی: شَهْرُ رَمَضٰانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ (البقره/۱۸۵)،أنها تتکرر بتکرر شهر رمضان فهی تتکرر بتکرر السنین القمریه و تقع فی کل سنه قمریه مره واحده فی شهر رمضان،و أما أنها أی لیله هی؟فلا إشعار فی کلامه تعالی بذلک،و أما الروایات فستوافیک فی البحث الروائی التالی.

و المراد بنزول الكتاب فى ليله مباركه على ما هو ظاهر قوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَهٍ مُبَارَكَهٍ» و قوله: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَهِ الْقَدْرِ (القدر/١)،و قوله: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَ الْفُرْقَانِ (البقره/١٨٥)،أن النازل هو القرآن كله.

و لا يدفع ذلك قوله: وَ قُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلىٰ مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (الإسراء/١٠۶)،و قوله: وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَهً وَاحِدَهً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (الفرقان/٣٢)،الظاهرين فى نزوله تدريجا،و يؤيد ذلك آيات أخر كقوله: فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَهٌ مُحْكَمَهٌ (سوره محمد/٢٠)،و قوله: وَ إِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَهٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ (التوبه/١٢٧)و غير ذلك و يؤيد ذلك أيضا ما لا يحصى من الأخبار المتضمنه لأسباب النزول.

و ذلك أنه يمكن أن يحمل على نزول القران مرتين مره مجموعا و جمله فى ليله واحده من ليالى شهر رمضان،و مره تدريجا و نجوما فى مده ثلاث و عشرين سنه و هى مده دعوته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

لكن الذى لا ينبغى الارتياب فيه أن هذا القرآن المؤلف من السور و الآيات بما فيه من السياقات المختلفه المنطبقه على موارد النزول المختلفه الشخصيه لا يقبل النزول دفعه فإن الآيات النازله فى وقائع شخصيه و حوادث جزئيه مرتبطه بأزمنه و أمكنه و أشخاص و أحوال خاصه لا تصدق إلا مع تحقق مواردها المتفرقه زمانا و مكانا و غير ذلك بحيث لو اجتمعت زمانا و مكانا و غير ذلك انقلبت عن تلك الموارد و صارت غيرها فلا يمكن احتمال نزول القرآن و هو على هيئته و حاله بعينها مره جمله،و مره نجوما.

فلو قيل بنزوله مرتين كان من الواجب أن يفرّق بين المرتين بالإجمال و التفصيل فيكون نازلا مره إجمالا و مره تفصيلا و نعنى بهذا الإجمال و التفصيل ما يشير اليه قوله تعالى: كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (هود/١)،و قوله: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (الزخرف/۴)،و قد مرّ الكلام فی معنی الإحكام و التفصیل فی تفسیر سورتی هود و الزخرف.

و قوله: «إِنّٰا كُنّٰا مُنْذِرِينَ» واقع موقع التعلیل،و هو یدل علی استمرار الإنذار منه تعالی قبل هذا الإنذار،فیدل علی أن نزول القرآن من عنده تعالی لیس ببدع،فإنما هو إنذار و الإنذار سنّه جاریه له تعالی لم تزل تجری فی السابقین من طریق الوحی الی الأنبیاء و الرسل و بعثهم لإنذار الناس.

قوله تعالی: فِيهٰا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ضمیر «فِيهٰا» للیله و الفرق فصل الشیء من الشیء بحیث یتمایزان و یقابله الإحكام فالأمر الحكیم ما لا یتمیز بعضه أجزائه من بعض و لا یتعین خصوصیاته و أحواله كما یشیر الی ذلك قوله تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/۲۱).

فللامور بحسب القضاء الإلهی مرحلتان:مرحله الإجمال و الإبهام و مرحله التفصیل، و لیله القدر-علی ما یدل علیه قوله: «فِيهٰا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ -لیله یخرج فیها الامور من مرحله الإحكام الی مرحله الفرق و التفصیل،و قد نزل فیها القرآن و هو أمر من الامور المحكمه فرق فی لیله القدر.

و لعل اللّه سبحانه أطلع نبیه علی جزئیات الحوادث التی ستقع فی زمان دعوته و ما یقارن منها نزول كل آیه أو آیات أو سوره من كتابه فیستدعی نزولها و أطلعه علی ما ینزل منها فیكون القرآن نازلا علیه دفعه و جمله قبل نزوله تدریجا و مفرّقا.

و مآل هذا الوجه اطلاع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی القرآن فی مرحله نزوله الی القضاء التفصیلی قبل نزوله علی الأرض و استقراره فی مرحله العین،و علی هذا الوجه لا حاجه الی تفریق المرتین بالإجمال و التفصیل كما تقدم فی الوجه الأول.

قوله تعالی: أَمْراً مِنْ عِنْدِنٰا إِنّٰا كُنّٰا مُرْسِلِينَ المراد بالأمر الشأن و هو حال من

الأمر السابق و المعنى فيها يفرق كل أمر حال كونه أمرا من عندنا و مبتدأ من لدنا،و يمكن أن يكون المراد به ما يقابل النهى و المعنى:يفرق فيها كل أمر بأمر منا،و هو على أى حال متعلق بقوله: «يُفْرَقُ» .

و يمكن أن يكون متعلقا بقوله: «أَنْزَلْنٰاهُ» أى حال كون الكتاب أمرا أو بأمر من عندنا، و قوله: «إِنّٰا كُنّٰا مُرْسِلِينَ» لا يخلو من تأييد لذلك،و يكون تعليلا له و المعنى:إنا أنزلناه أمرا من عندنا لأن سنتنا الجاريه إرسال الأنبياء و الرسل.

قوله تعالى: رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أى إنزاله رحمه من ربك أو أنزلناه لأجل إفاضه الرحمه على الناس أو لاقتضاء رحمه ربك إنزاله فقوله: «رَحْمَةً» حال على المعنى الاول و مفعول له على الثانى و الثالث.

و فى قوله: مِنْ رَبِّكَ التفات من التكلم مع الغير الى الغيبه و وجهه إظهار العنايه بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأنه هو الذى انزل عليه القران و هو المنذر المرسل الى الناس.

و قوله: رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ لما كانت الوثنيه يرون أن لكل صنف من الخلق إلها أو أكثر و ربما اتخذ قوم منهم إلها غير ما يتخذه غيرهم عقب قوله: «مِنْ رَبِّكَ» بقوله: «رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ» الخ؛لئلا يتوهم متوهم منهم أن ربوبيته للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليست بالاختصاص كالتى بينهم بل هو تعالى ربه و رب السماوات و الأرض و ما بينهما،و لذلك عقبه أيضا فى الآيه التاليه بقوله: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» .

و قوله: إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ هذا الاشتراط كما ذكره الزمخشرى من قبيل قولنا هذا إنعام زيد الذى تسامع الناس بكرمه و اشتهروا سخاءه إن بلغك حديثه و حدثت بقصته فالمعنى هو الذى يعرفه الموقنون بأنه رب السماوات و الأرض و ما بينهما إن كنتم منهم عرفتموه بأنه رب كل شىء.

قوله تعالى: لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبٰائِكُمُ الْأَوَّلِينَ لما

کان مدلول الآیه السابقه انحصار الربوبیه و هی الملک و التدبیر فیه تعالی و الالوهیه و هی المعبودیه بالحق من لوازم الربوبیه عقبه بکلمه التوحید النافیه لکل إله دونه تعالی.

و قوله: یُحْیِی وَ یُمِیتُ من أخص الصفات به تعالی و هما من شئون التدبیر،و فی ذکرهما نوع تمهید لما سیأتی من إنذارهم بالمعاد.

و قوله: رَبُّکُمْ وَ رَبُّ آبٰائِکُمُ الْأَوَّلِینَ فیه کمال التصریح بأنه ربهم و رب آبائهم فلیعبدوه و لا یتعللوا باتباع آبائهم فی عباده الأصنام،و لتکمیل التصریح سیقت الجمله بالخطاب فقیل «رَبُّکُمْ وَ رَبُّ آبٰائِکُمُ» .

و هما أعنی قوله: «یُحْیِی وَ یُمِیتُ» و قوله: «رَبُّکُمْ» خبران لمبتدإ محذوف و التقدیر هو یحیی و یمیت،الخ (۱).

[سوره الدخان (۴۴): الآیات ۹ الی ۳۳]

بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ یَلْعَبُونَ (۹) فَارْتَقِبْ یَوْمَ تَأْتِی اَلسَّمٰاءُ بِدُخٰانٍ مُبِینٍ (۱۰) یَغْشَی اَلنّٰاسَ هٰذٰا عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۱۱) رَبَّنَا اِکْشِفْ عَنَّا اَلْعَذٰابَ إِنّٰا مُؤْمِنُونَ (۱۲) أَنّٰی لَهُمُ اَلذِّکْریٰ وَ قَدْ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِینٌ (۱۳) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قٰالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (۱۴) إِنّٰا کٰاشِفُوا اَلْعَذٰابِ قَلِیلاً إِنَّکُمْ عٰائِدُونَ (۱۵) یَوْمَ نَبْطِشُ اَلْبَطْشَةَ اَلْکُبْریٰ إِنّٰا مُنْتَقِمُونَ (۱۶) وَ لَقَدْ فَتَنّٰا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ کَرِیمٌ (۱۷) أَنْ أَدُّوا إِلَیَّ عِبٰادَ اَللّٰهِ إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ (۱۸) وَ أَنْ لاٰ تَعْلُوا عَلَی اَللّٰهِ إِنِّی آتِیکُمْ بِسُلْطٰانٍ مُبِینٍ (۱۹) وَ إِنِّی عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّکُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (۲۰) وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِی فَاعْتَزِلُونِ (۲۱) فَدَعٰا رَبَّهُ أَنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (۲۲) فَأَسْرِ بِعِبٰادِی لَیْلاً إِنَّکُمْ مُتَّبَعُونَ (۲۳) وَ اُتْرُکِ اَلْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (۲۴) کَمْ تَرَکُوا مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُیُونٍ (۲۵) وَ زُرُوعٍ وَ مَقٰامٍ کَرِیمٍ (۲۶) وَ نَعْمَةٍ کٰانُوا فِیهٰا فٰاکِهِینَ (۲۷) کَذٰلِکَ وَ أَوْرَثْنٰاهٰا قَوْماً آخَرِینَ (۲۸) فَمٰا بَکَتْ عَلَیْهِمُ اَلسَّمٰاءُ وَ اَلْأَرْضُ وَ مٰا کٰانُوا مُنْظَرِینَ (۲۹) وَ لَقَدْ نَجَّیْنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ مِنَ اَلْعَذٰابِ اَلْمُهِینِ (۳۰) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ کٰانَ عٰالِیاً مِنَ اَلْمُسْرِفِینَ (۳۱) وَ لَقَدِ اِخْتَرْنٰاهُمْ عَلیٰ عِلْمٍ عَلَی اَلْعٰالَمِینَ (۳۲) وَ آتَیْنٰاهُمْ مِنَ اَلْآیٰاتِ مٰا فِیهِ بَلٰؤُا مُبِینٌ (۳۳)

۱- ۱) .الدخان ۹-۳۳:بحث روائی حول لیله المبارکه التی انزل فیها القرآن.

بیان:

قوله تعالی: بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ یَلْعَبُونَ ضمیر الجمع لقوم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و الإضراب عن محذوف یدل علیه السیاق السابق أی إنهم لا یوقنون و لا یؤمنون بما ذکر من رساله الرسول و صفه الکتاب الذی أنزل علیه بل هم فی شک و ارتیاب فیه یلعبون بالاشتغال بدنیاهم،و ذکر الزمخشری أن الإضراب عن قوله: «إِنْ کُنْتُمْ مُوقِنِینَ» .

قوله تعالی: فَارْتَقِبْ یَوْمَ تَأْتِی السَّمٰاءُ بِدُخٰانٍ مُبِینٍ الارتقاب الانتصار و هذا وعید بالعذاب و هو إتیان السماء بدخان مبین یغشی الناس.

و قوله: یَغْشَی النّٰاسَ أی یشملهم و یحیط بهم،و المراد بالناس أهل مکه علی القول الأول،و عامه الناس علی القول الثانی.

قوله تعالی: هٰذٰا عَذٰابٌ أَلِیمٌ رَبَّنَا اکْشِفْ عَنَّا الْعَذٰابَ إِنّٰا مُؤْمِنُونَ حکایه قول الناس عند نزول عذاب الدخان أی یقول الناس یوم تأتی السماء بدخان مبین:هذا عذاب ألیم و یسألون اللّه کشفه بالاعتراف بربوبیته و إظهار الإیمان بالدعوه الحقه فیقولون:

ربنا اکشف عنا العذاب إنا مؤمنون.

قوله تعالی: أَنّٰی لَهُمُ الذِّکْریٰ وَ قَدْ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِینٌ أی من أین لهم أن یتذکروا و یذعنوا بالحق و الحال أنه قد جاءهم رسول مبین ظاهر فی رسالته لا یقبل الارتیاب و هو محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و فی الآیه ردّ صدقهم فی وعدهم.

قوله تعالی: ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قٰالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ التولی الإعراض،و ضمیر «عَنْهُ» للرسول و «مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ» خبران لمبتدإ محذوف هو ضمیر راجع الی الرسول و المعنی:

ثم أعرضوا عن الرسول و قالوا هو معلم مجنون فرموه أولا بأنه معلم یعلّمه غیره فیسند ما تعلمه الی اللّه سبحانه،قال تعالی: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ یَقُولُونَ إِنَّمٰا یُعَلِّمُهُ بَشَرٌ (النحل/

۱۰۳)،و ثانیا بأنه مجنون مختلّ العقل.

قوله تعالی: إِنّٰا کٰاشِفُوا الْعَذٰابِ قَلِیلاً إِنَّکُمْ عٰائِدُونَ أی إنا کاشفون للعذاب زمانا انکم عائدون الی ما کنتم فیه من الکفر و التکذیب هذا بناء علی القول الأول و الآیه تأکید لرد صدقهم فیما و عدوه من الإیمان.

و أما علی القول الثانی فالأقرب أن المعنی:إنکم عائدون الی العذاب یوم القیامه.

قوله تعالی: یَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَهَ الْکُبْریٰ إِنّٰا مُنْتَقِمُونَ البطش-علی ما ذکره الراغب-تناول الشیء بصوله،و هذا الیوم بناء علی القول الأول المذکور یوم بدر و بناء علی القول الثانی یوم القیامه،و ربما أید توصیف البطشه بالکبری هذا القول الثانی فإن بطش یوم القیامه و عذابه أکبر البطش و العذاب،قال تعالی: فَیُعَذِّبُهُ اللّٰهُ الْعَذٰابَ الْأَکْبَرَ (الغاشیه/ ۲۴)،کما أن أجره أکبر الأجر قال تعالی: وَ لَأَجْرُ الْآخِرَهِ أَکْبَرُ (النحل/۴۱).

قوله تعالی: وَ لَقَدْ فَتَنّٰا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ کَرِیمٌ الفتنه الامتحان و الابتلاء للحصول علی حقیقه الشیء،و قوله: «وَ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ کَرِیمٌ» الخ؛تفسیر للامتحان،و الرسول الکریم موسی علیه السّلام،و الکریم هو المتّصف بالخصال الحمیده قال الراغب:

الکرم إذا وصف اللّه تعالی به فهو اسم لإحسانه و إنعامه المتظاهر نحو قوله: «فَإِنَّ رَبِّی غَنِیٌّ کَرِیمٌ» و إذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق و الأفعال المحموده التی تظهر منه،و لا یقال:

هو کریم حتی یظهر ذلک منه،قال:و کل شیء شرف فی بابه فإنه یوصف بالکرم قال تعالی:

أَنْبَتْنٰا فِیهٰا مِنْ کُلِّ زَوْجٍ کَرِیمٍ

وَ زُرُوعٍ وَ مَقٰامٍ کَرِیمٍ

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِیمٌ

وَ قُلْ لَهُمٰا قَوْلاً کَرِیماً انتهی.

قوله تعالی: أَنْ أَدُّوا إِلَیَّ عِبٰادَ اللّٰهِ إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ تفسیر لمجیء الرسول فإن معنی مجیء الرسول تبلیغ الرساله و کان من رساله موسی علیه السّلام الی فرعون و قومه أن یرسلوا معهم بنی إسرائیل و لا یعذبوهم،و المراد بعباد اللّه بنو إسرائیل و عبر عنهم بذلک

استرحاما و تلويحا الى أنهم فى استكبارهم و تعديهم عليهم إنما يستكبرون على اللّه لأنهم عباد اللّه.

و فى قوله: إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ حيث وصف نفسه بالأمانه دفع لاحتمال أن يخونهم فى دعوى الرساله و إنجاء بنى إسرائيل من سيطرتهم فيخرج معهم عليهم فيخرجهم من ارضهم كما حكى تعالى عن فرعون إذ قال للملإ حوله: إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ عَلِیمٌ یُرِیدُ أَنْ یُخْرِجَکُمْ مِنْ أَرْضِکُمْ بِسِحْرِهِ (الشعراء۲۵/).

قوله تعالى: وَ أَنْ لاٰ تَعْلُوا عَلَى اللّٰهِ إِنِّی آتِیکُمْ بِسُلْطٰانٍ مُبِینٍ أى لا تتجبروا على اللّه بتكذيب رسالتى و الإعراض عما أمركم اللّه فإن تكذيب الرسول فى رسالته استعلاء و تجبر على من أرسله و الدليل على أن المراد ذلك تعليل النهى بقوله: «إِنِّی آتِیکُمْ بِسُلْطٰانٍ مُبِینٍ» أى حجه بارزه من الآيات المعجزه أو حجه المعجزه و حجه البرهان.

قيل:و من حسن التعبير الجمع بين التأديه و الأمين و كذا بين العلو و السلطان.

قوله تعالى: وَ إِنِّی عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّکُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ أى التجأت اليه تعالى من رجمكم إياى فلا تقدرون على ذلك،و الظاهر أنه إشاره الى ما آمنه ربه قبل المجىء الى القوم كما فى قوله تعالى: قٰالاٰ رَبَّنٰا إِنَّنٰا نَخٰافُ أَنْ یَفْرُطَ عَلَیْنٰا أَوْ أَنْ یَطْغىٰ قٰالَ لاٰ تَخٰافٰا إِنَّنِی مَعَکُمٰا أَسْمَعُ وَ أَرىٰ (طه۴۶/).

قوله تعالى: وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِی فَاعْتَزِلُونِ أى إن لم تؤمنوا لى فكونوا بمعزل منى لا لى و لا علىّ و لا تتعرضوا لى بخير أو شر،و قيل:المراد تنحوا عنى و انقطعوا،و هو بعيد.

قوله تعالى: فَدَعٰا رَبَّهُ أَنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ أى دعاه بأن هؤلاء قوم مجرمون و قد ذكر من دعائه السبب الداعى له الى الدعاء و هو إجرامهم الى حد يستحقون معه الهلاك و يعلم ما سأله مما أجاب به ربه تعالى إذ قال: «فَأَسْرِ بِعِبٰادِی» الخ؛و هو الإهلاك.

قوله تعالى: فَأَسْرِ بِعِبٰادِی لَیْلاً إِنَّکُمْ مُتَّبَعُونَ الإسراء:السير بالليل فيكون

قوله: «لَيْلاً» تأكيدا له و تصريحا به،و المراد بعبادى بنو إسرائيل،و قوله: «إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ» أى يتبعكم فرعون و جنوده،و هو استئناف يخبر عما سيقع عقيب الإسراء.

و فى الكلام إيجاز بالحذف و التقدير فقال له:أسر بعبادى ليلا إنكم متّبعون يتبعكم فرعون و جنوده.

قوله تعالى: وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ قال فى المفردات:و اترك البحر رهوا أى ساكنا،و قيل:سعه من الطريق و هو الصحيح.انتهى.و قوله: «إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ» تعليل لقوله: «وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً» .

و فى الكلام إيجاز بالحذف اختصارا و التقدير:أسر بعبادى ليلا يتّبعكم فرعون و جنوده حتى إذا بلغتم البحر فاضربه بعصاك لينفتح طريق لجوازكم فجاوزوه و اتركه ساكنا أو مفتوحا على حاله فيدخلونه طمعا فى إدراككم فهم جند مغرقون.

قوله تعالى: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقٰامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كٰانُوا فِيهٰا فٰاكِهِينَ كَذٰلِكَ «كَمْ» للتكثير أى كثيرا ما تركوا،و قوله: «مِنْ جَنّٰاتٍ» الخ؛بيان لما تركوا،و المقام الكريم المساكن الحسنه الزاهيه،و النعمه بفتح النون التنعّم و بناؤها بناء المرّه كالضربه و بكسر النون قسم من التنعم و بناؤها بناء النوع كالجلسه و فسروا النعمه هاهنا بما يتنعم به و هو أنسب للترك،و فاكهين من الفاكهه بمعنى حديث الانس و لعل المراد به هاهنا التمتع كما يتمتع بالفواكه و هى أنواع الثمار.

و قوله: كَذٰلِكَ قيل:معناه الأمر كذلك،و قيل:المعنى نفعل فعلا كذلك لمن نريد إهلاكه،و قيل:الإشاره الى الإخراج المفهوم من الكلام السابق،و المعنى:مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها.

و يمكن أن يكون حالا من مفعول «تَرَكُوا» المحذوف و المعنى:كثيرا ما تركوا أشياء كذلك أى على حالها و اللّه أعلم.

ص :۶۴۸

قوله تعالى: وَ أَوْرَثْنٰاهٰا قَوْماً آخَرِينَ الضمير لمفعول «تَرَكُوا» المحذوف المبيّن بقوله: «مِنْ جَنّٰاتٍ» الخ؛و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: فَمٰا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمٰاءُ وَ الْأَرْضُ وَ مٰا كٰانُوا مُنْظَرِينَ بكاء السماء و الأرض على شىء فائت كنايه تخييليه عن تأثرهما عن فوته و فقده فعدم بكائهما عليهم بعد إهلاكهم كنايه عن هوان أمرهم على اللّه و عدم تأثير هلاكهم فى شىء من أجزاء الكون.

و قوله: «وَ مٰا كٰانُوا مُنْظَرِينَ» كنايه عن سرعه جريان القضاء الإلهى و القهر الربوبى فى حقهم و عدم مصادفته لمانع يمنعه أو يحتاج الى علاج فى رفعه حتى يتأخر به.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَجَّيْنٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ مِنَ الْعَذٰابِ الْمُهِينِ و هو ما يصيبهم و هم فى إساره فرعون من ذبح الأبناء و استحياء النساء و غير ذلک.

قوله تعالى: مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كٰانَ عٰالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ «مِنْ فِرْعَوْنَ» بدل من قوله: «مِنَ الْعَذٰابِ» إما بحذف مضاف و التقدير من عذاب فرعون،أو من غير حذف يجعل فرعون عين العذاب دعوى للمبالغه،و قوله: «إِنَّهُ كٰانَ عٰالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ» أى متكبرا من أهل الإسراف و التعدّى عن الحد.

قوله تعالى: وَ لَقَدِ اخْتَرْنٰاهُمْ عَلىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعٰالَمِينَ أى اخترناهم على علم منا باستحقاقهم الاختيار على ما يفيده السياق.

و المراد بالعالمين جميع العالمين من الامم إن كان المراد بالاختيار الاختيار من بعض الوجوه ككثره الأنبياء فإنهم يمتازون من سائر الامم بكثره الأنبياء المبعوثين منهم و يمتازون بأن مرّ عليهم دهر طويل من التيه و هم يتظللون بالغمام و يأكلون المن و السلوى الى غير ذلک.

و عالمو أهل زمانهم إن كان المراد بالاختيار مطلقه فإنهم لم يختاروا على الامه الاسلاميه

التی خاطبهم اللّه تعالی بمثل قوله: کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّهٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ (آل عمران/۱۱۰)، و قوله: هُوَ اجْتَبٰاکُمْ وَ مٰا جَعَلَ عَلَیْکُمْ فِی الدِّینِ مِنْ حَرَجٍ (الحج/۷۸).

قوله تعالی: وَ آتَیْنٰاهُمْ مِنَ الْآیٰاتِ مٰا فِیهِ بَلٰؤُا مُبِینٌ البلاء الاختبار و الامتحان أی و أعطینا بنی إسرائیل من الآیات المعجزات ما فیه امتحان ظاهر و لقد أوتوا من الآیات المعجزات ما لم یعهد فی غیرهم من الامم و ابتلوا بذلک ابتلاء مبینا.

قیل:و فی قوله: «فِیهِ» إشاره الی أن هناک امورا اخری ککونه معجزه.

و فی تذییل القصه بهذه الآیات الأربع أعنی قوله: «وَ لَقَدْ نَجَّیْنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ -الی قوله- بَلٰؤُا مُبِینٌ» نوع تطییب لنفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إیماء الی أن اللّه تعالی سینجّیه و المؤمنین به من فراعنه مکه و یختارهم و یمکّنهم فی الأرض فینظر کیف یعملون.

[سوره الدخان (۴۴): الآیات ۳۴ الی ۵۹]

إِنَّ هٰؤُلاٰءِ لَیَقُولُونَ (۳۴) إِنْ هِیَ إِلاّٰ مَوْتَتُنَا اَلْأُولیٰ وَ مٰا نَحْنُ بِمُنْشَرِینَ (۳۵) فَأْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۳۶) أَ هُمْ خَیْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَکْنٰاهُمْ إِنَّهُمْ کٰانُوا مُجْرِمِینَ (۳۷) وَ مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا لاٰعِبِینَ (۳۸) مٰا خَلَقْنٰاهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ (۳۹) إِنَّ یَوْمَ اَلْفَصْلِ مِیقٰاتُهُمْ أَجْمَعِینَ (۴۰) یَوْمَ لاٰ یُغْنِی مَوْلًی عَنْ مَوْلًی شَیْئاً وَ لاٰ هُمْ یُنْصَرُونَ (۴۱) إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ اَللّٰهُ إِنَّهُ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلرَّحِیمُ (۴۲) إِنَّ شَجَرَهَ اَلزَّقُّوم (۴۳) طَعٰامُ اَلْأَثِیم (۴۴) کَالْمُهْلِ یَغْلِی فِی اَلْبُطُونِ (۴۵) کَغَلْیِ اَلْحَمِیمِ (۴۶) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلیٰ سَوٰاءِ اَلْجَحِیمِ (۴۷) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذٰابِ اَلْحَمِیمِ (۴۸) ذُقْ إِنَّکَ أَنْتَ اَلْعَزِیزُ اَلْکَرِیمُ (۴۹) إِنَّ هٰذٰا مٰا کُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (۵۰) إِنَّ اَلْمُتَّقِینَ فِی مَقٰامٍ أَمِینٍ (۵۱) فِی جَنّٰاتٍ وَ عُیُونٍ (۵۲) یَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقٰابِلِینَ (۵۳) کَذٰلِکَ وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِینٍ (۵۴) یَدْعُونَ فِیهٰا بِکُلِّ فٰاکِهَهٍ آمِنِینَ (۵۵) لاٰ یَذُوقُونَ فِیهَا اَلْمَوْتَ إِلاَّ اَلْمَوْتَهَ اَلْأُولیٰ وَ وَقٰاهُمْ عَذٰابَ اَلْجَحِیمِ (۵۶) فَضْلاً مِنْ رَبِّکَ ذٰلِکَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِیمُ (۵۷) فَإِنَّمٰا یَسَّرْنٰاهُ بِلِسٰانِکَ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۵۸) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (۵۹)

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ هٰؤُلاٰءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلاّٰ مَوْتَتُنَا الْأُولىٰ وَ مٰا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ رجوع الی أول الكلام من قوله: «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ» و الإشاره بهؤلاء الی قريش و من يلحق بهم من العرب الوثنيين المنكرين للمعاد،و قولهم: «إِنْ هِيَ إِلاّٰ مَوْتَتُنَا الْأُولىٰ» يريدون به نفی الحياه بعد الموت الملازم لنفی المعاد بدليل قولهم بعده: «وَ مٰا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ» أی بمبعوثين،قال فی الكشاف:يقال:أنشر اللّه الموتی و نشرهم اذا بعثهم.انتهی.

فقولهم: إِنْ هِيَ إِلاّٰ مَوْتَتُنَا الْأُولىٰ الضمير فيه للعاقبه و النهايه أی ليست عاقبه امرنا و نهايه وجودنا و حياتنا إلا موتتنا الاولی فنعدم بها و لا حياه بعدها أبدا.

و وجه تقييد الموته فی الآيه بالاولی،بأنه ليس بقيد احترازی إذ لا ملازمه بين الأول و الآخر أو بين الأول و الثانی فمن الجائز أن يكون هناك شیء أول و لا ثانی له و لا فی قباله آخر،كذا قيل.

قوله تعالی: فَأْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ تتمه كلام القوم و خطاب منهم للنبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين به حيث كانوا يذكرون لهم البعث و الإحياء فاحتجوا لردّ الإحياء بعد الموت بقولهم: «فَأْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ» أی فليحی آباؤنا الماضون بدعائكم أو بأی وسيله اتخذتموها حتی نعلم صدقكم فی دعواكم أن الأموات سيحيون و أن الموت ليس بانعدام.

قوله: أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنٰاهُمْ إِنَّهُمْ كٰانُوا مُجْرِمِينَ تهديد للقوم بالإهلاك كما أهلك قوم تبّع و الذين من قبلهم من الامم.

و تبّع هذا ملك من ملوك الحمير باليمن و اسمه علی ما ذكروا أسعد أبو كرب و قيل:سعد أبو كرب و سيأتی فی البحث الروائی نبذه من قصته و فی الكلام نوع تلويح الی سلامه تبّع نفسه

من الإهلاک.

قوله تعالی: وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاّ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ ضمير التثنيه فی قوله: «وَ مَا بَيْنَهُمَا» لجنسی السماوات و الأرض و لذا لم يجمع،و الباء فی قوله: «بِالْحَقِّ» للملابسه أی ما خلقناهما إلا متلبسين بالحق،و جوّز بعضهم كونها للسببيه أی ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذی هو الإيمان و الطاعه و البعث و الجزاء،و لا يخفی بعده.

و مضمون الآيتين حجه برهانيه علی ثبوت المعاد و تقريرها أنه لو لم يكن وراء هذا العالم عالم ثابت باق بل كان اللّه لا يزال يوجد أشياء ثم يعدمها ثم يوجد أشياء أخر ثم يعدمها و يحيی هذا ثم يميته و يحيی آخر و هكذا كان لاعبا فی فعله عابثا به و اللعب عليه تعالی محال ففعله حق له غرض صحيح فهناک عالم آخر باق دائمی ينتقل اليه الأشياء و ما فی هذا العالم الدنيوی الفانی البائد مقدمه للانتقال الی ذلک العالم و هو الحياه الآخره.

و قد فصّلنا القول فی هذا البرهان فی تفسير الآيه ۱۶ من سوره الأنبياء،و الآيه ۲۷ من سوره ص فليراجع.

و قوله: وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ تقريع لهم بالجهل.

قوله تعالی: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ بيان لصفه اليوم الذی يثبته البرهان السابق و هو يوم القيامه الذی فيه يقوم الناس لرب العالمين.

و سماه اللّه يوم الفصل لأنه يفصل فيه بين الحق و الباطل و بين المحق و المبطل و المتقين و المجرمين أو لأنه يوم القضاء الفصل منه تعالی.

و قوله: مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ أی موعد الناس أجمعين أو موعد من تقدم ذكره من قوم تبع و قوم فرعون و من تقدمهم و قريش و غيرهم.

قوله تعالی: يَوْمَ لاٰ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ بيان

ليوم الفصل،و المولى هو الصاحب الذى له أن يتصرف فى أمور صاحبه و يطلق على من يتولى الأمر و على من يتولى أمره و المولى الأول فى الآيه هو الأول و الثانى هو الثانى.

و الآيه تنفى أولا إغناء مولى عن مولاه يومئذ،و تخبر ثانيا أنهم لا ينصرون و الفرق بين المعنيين أن الإغناء يكون فيما استقل المغنى فى عمله و لا يكون لمن يغنى عنه صنع فى ذلك، و النصره إنما تكون فيما كان للمنصور بعض أسباب الظفر الناقصه و يتم له ذلك بنصره الناصر.

و الوجه فى انتفاء الإعناء و النصر يومئذ أن الأسباب المؤثره فى نشأه الحياه الدنيا تسقط يوم القيامه،قال تعالى: وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ (البقره١۶۶/)،و قال: فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ (يونس٢٨/).

قوله تعالى: إِلاّ مَنْ رَحِمَ اللّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ استثناء من ضمير «لا هُمْ يُنْصَرُونَ» و الآيه من أدله الشفاعه يومئذ و قد تقدم تفصيل القول فى الشفاعه فى الجزء الأول من الكتاب.

هذا على تقدير رجوع ضمير «لا هُمْ يُنْصَرُونَ» الى الناس جميعا على ما هو الظاهر.و أما لو رجع الى الكفار كما قيل فالاستثناء منقطع و المعنى:لكن من رحمه اللّه و هم المتقون فإنهم فى غنى عن مولى يغنى عنهم و ناصر ينصرهم.

و أما ما جوّزه بعضهم من كونه استثناء متصلا من «مَوْلًى» فقد ظهر فساده مما قدمناه فإن الإغناء إنما هو فيما لم يكن عند الإنسان شىء من أسباب النجاه و من كان على هذه الصفه لم يغن عنه مغن و لا استثناء و الشفاعه نصره تحتاج الى بعض أسباب النجاه و هو الدين المرضى و قد تقدم فى بحث الشفاعه،نعم يمكن أن يوجه بما سيجىء فى روايه الشحام.

و قوله: إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى الغالب الذى لا يغلبه شىء حتى يمنعه من تعذيب من يريد عذابه،و مفيض الخير على من يريد أن يرحمه و يفيض الخير عليه و مناسبه الاسمين الكريمين لمضامين الآيات ظاهره.

قوله تعالى: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ تقدم الكلام فى شجره الزقوم فى تفسير سوره الصافات،و الأثيم من استقر فيه الإثم إما بالمداومه على معصيه أو بالإكثار من المعاصى و الآيه الى تمام ثمان آيات بيان حال أهل النار.

قوله تعالى: كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ المهل هو المذاب من النحاس و الرصاص و غيرهما،و الغلى و الغليان معروف،و الحميم الماء الحار الشديد الحراره، و قوله: «كَالْمُهْلِ» خبر ثان لقوله: «إِنَّ» كما أن قوله: «طَعَامُ الْأَثِيمِ» خبر أول،و قوله: «يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ» خبر ثالث،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلىٰ سَوٰاءِ الْجَحِيمِ الاعتلاء الزعزعه و الدفع بعنف و سواء الجحيم وسطه،و الخطاب للملائكه الموكلين على النار أى نقول للملائكه خذوا الأثيم و ادفعوه بعنف الى وسط النار لتحيط به قال تعالى: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (التوبه ۴۹/).

قوله تعالى: ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذٰابِ الْحَمِيمِ كأن المراد بالعذاب ما يعذّب به،و إضافته الى الحميم بيانيه و المعنى:ثم صبّوا فوق رأسه من الحميم الذى يعذب به.

قوله تعالى: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ خطاب يخاطب به الأثيم و هو يقاسى العذاب بعد العذاب،و توصيفه بالعزه و الكرامه على ما هو عليه من الذله و اللأمه استهزاء به تشديدا لعذابه و قد كان يرى فى الدنيا لنفسه عزه و كرامه لا تفارقانه كما يظهر مما حكى اللّه سبحانه من قوله: وَ مٰا أَظُنُّ السّٰاعَةَ قٰائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنىٰ (حم السجده ۵۰/).

قوله تعالى: إِنَّ هٰذٰا مٰا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ الامتراء الشك و الارتياب،و الآيه تتمه قولهم له: «ذُقْ» الخ؛و فيها تأكيد و إعلام لهم بخطئهم و زلتهم فى الدنيا حيث ارتابوا فيما يشاهدونه اليوم من العذاب مشاهده عيان،و لذا عبّر عن تحمل العذاب بالذوق لما أنه يعبّر

عن إدراك ألم المولمات و لذه الملذات إدراكا تاما بالذوق.

و يمكن أن تكون الآيه استئنافا من كلام اللّه سبحانه يخاطب به الكفار بعد ذكر حالهم فى يوم القيامه،و ربما أيّده قوله: «كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ» بخطاب الجمع و الخطاب فى الآيات السابقه بالإفراد.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِی مَقامٍ أَمِينٍ المقام محل القيام بمعنى الثبوت و الركوز و لذا فسّر أيضا بموضع الإقامه،و الأمين صفه من الأمن بمعنى عدم إصابه المكروه،و المعنى:إن المتقين-يوم القيامه-ثابتون فى محل ذى أمن من إصابه المكروه مطلقا.

و بذلك يظهر أن نسبه الأمن الى المقام بتوصيف المقام بالأمين من المجاز فى النسبه.

قوله تعالى: فِی جَنّاتٍ وَ عُيُونٍ بيان لقوله: «فِی مَقامٍ أَمِينٍ» و جعل العيون ظرفا لهم باعتبار المجاوره و وجودها فى الجنات التى هى ظرف،و جمع الجنات باعتبار اختلاف أنواعها أو باعتبار أن لكل منهم وحده جنه أو أكثر.

قوله تعالى: يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ السندس الرقيق من الحرير و الإستبرق الغليظ منه و هما معرّبان من الفارسيه.

و قوله: مُتَقابِلِينَ أى يقابل بعضهم بعضا للاستيناس إذ لا شرّ و لا مكروه عندهم لكونهم فى مقام أمين.

قوله تعالى: كَذلِكَ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ أى الأمر كذلك أى كما وصفناه و المراد بتزويجهم بالحور جعلهم قرناء لهن من الزوج بمعنى القرين و هو اصل التزويج فى اللغه، و الحور جمع حوراء بمعنى شديده سواد العين و بياضها أو ذات المقله السوداء كالظباء،و العين جمع عيناء بمعنى عظيمه العينين،و ظاهر كلامه تعالى أن الحور العين غير نساء الدنيا الداخله فى الجنه.

قوله تعالى: يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَهٍ آمِنِينَ أى آمنين من ضررها.

قوله تعالى: لاٰ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولىٰ وَ وَقٰاهُمْ عَذٰابَ الْجَحِيمِ أى إنهم فى جنه الخلد أحياء بحياه أبديه لا يعتريها موت.

و قوله: وَ وَقٰاهُمْ عَذٰابَ الْجَحِيمِ الوقايه حفظ الشىء مما يؤذيه و يضره، فالمعنى:و حفظهم من عذاب الجحيم،و ذكر وقايتهم من عذاب الجحيم مع نفى الموت عنهم تتميم لقسمه المكاره أى إنهم مصونون من الانتقال من دار الى دار و من نشأه الجنه الى نشأه غيرها و هو الموت و مصونون من الانتقال من حال سعيده الى حال شقيه و هى عذاب الجحيم.

قوله تعالى: فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ حال مما تقدم ذكره من الكرامه و النعمه،و يمكن أن يكون مفعولا مطلقا أو مفعولا له،و على أى حال هو تفضل منه تعالى من غير استحقاق من العباد استحقاقا يوجب عليه تعالى و يلزمه على الإثابه فإنه تعالى مالك غير مملوك لا يتحكم عليه شىء،و إنما هو وعده لعباده ثم أخبر أنه لا يخلف وعده،و قد تقدم تفصيل القول فى هذا المعنى فى الأبحاث السابقه.

و قوله: «ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» الفوز هو الظفر بالمراد و كونه فوزا عظيما لكونه آخر ما يسعد به الإنسان.

قوله تعالى: فَإِنَّمٰا يَسَّرْنٰاهُ بِلِسٰانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ تفريع على جميع ما تقدم من أول السوره الى هنا و فذلكه للجميع،و التيسير التسهيل،و الضمير للكتاب و المراد بلسان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم العربيه.

و المعنى:فإنما سهّلنا القرآن-أى فهم مقاصده-بالعربيه لعلهم-اى لعل قومك- يتذكرون فتكون الآيه قريبه المعنى من قوله: إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (الزخرف/٣).

و قيل:المراد من تيسير الكتاب بلسان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إجراؤه على لسانه و هو أمى لا يقرأ و لا

يكتب ليكون آيه لصدق نبوته،و هو بعيد من سياق الفذلكه.

قوله تعالى: فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ كأنه متفرع على ما يتفرع على الآيه السابقه، و محصل المعنى أنا يسرناه بالعربيه رجاء أن يتذكروا فلم يتذكروا بل هم فى شك يلعبون و ينتظرون العذاب الذى لا مرّ له من المكذبين فانتظر العذاب إنهم منتظرون له.

فإطلاق المرتقبين على القوم من باب التهكم،و من سخيف القول قول من يقول إن فى الآيه أمرا بالمتاركه و هى منسوخه بآيه السيف.

ص :۶۵۸

سوره الجاثيه مكيه و هی سبع و ثلاثون آيه

اشاره

[سوره الجاثيه (۴۵): الآيات ۱ الی ۱۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;حم (۱) تَنْزِيلُ اَلْكِتٰابِ مِنَ اَللّٰهِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَكِيمِ (۲) إِنَّ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ لَآيٰاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (۳) وَ فِی خَلْقِكُمْ وَ مٰا يَبُثُّ مِنْ دٰابَّةٍ آيٰاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۴) وَ اِخْتِلاٰفِ اَللَّيْلِ وَ اَلنَّهٰارِ وَ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيٰا بِهِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا وَ تَصْرِيفِ اَلرِّيٰاحِ آيٰاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۵) تِلْكَ آيٰاتُ اَللّٰهِ نَتْلُوهٰا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اَللّٰهِ وَ آيٰاتِهِ يُؤْمِنُونَ (۶) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّٰاكٍ أَثِيمٍ (۷) يَسْمَعُ آيٰاتِ اَللّٰهِ تُتْلىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهٰا فَبَشِّرْهُ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ (۸) وَ إِذٰا عَلِمَ مِنْ آيٰاتِنٰا شَيْئاً اِتَّخَذَهٰا هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ (۹) مِنْ وَرٰائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لاٰ يُغْنِی عَنْهُمْ مٰا كَسَبُوا شَيْئاً وَ لاٰ مَا اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ أَوْلِيٰاءَ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۱۰) هٰذٰا هُدىً وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (۱۱) اَللّٰهُ اَلَّذِی سَخَّرَ لَكُمُ اَلْبَحْرَ لِتَجْرِیَ اَلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۲) وَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۱۳)

ص: ۶۵۹

بیان:

غرض السوره دعوه عامه على الإنذار تفتتح بآیات الوحدانیه ثم تذکر تشریع الشریعه للنبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم و تشیر الى لزوم اتباعها له و لغیره بما أن أمامهم یوما یحاسبون فیه على أعمالهم الصالحه من الإیمان و اتباع الشریعه و اجتراحهم السیئات بالإعراض عن الدین،ثم تذکر ما سیجری على الفریقین فی ذلک الیوم و هو یوم القیامه.

و فی خلال مقاصدها إنذار و وعید شدید للمستکبرین المعرضین عن آیات اللّه و الذین اتخذوا إلههم هواهم و أضلّهم اللّه على علم.

و من طرائف مطالبها بیان معنى کتابه الأعمال و استنساخها.

ص :۶۶۰

و السوره مکیه بشهاده سیاق آیاتها و استثنی بعضهم قوله تعالی: قُلْ لِلَّذِینَ آمَنُوا الآیه،و لا شاهد له.

قوله تعالی: حم تَنْزِیلُ الْکِتابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِیزِ الْحَکِیمِ الظاهر أن «تَنْزِیلُ الْکِتابِ» من إضافه الصفه الی الموصوف و المصدر بمعنی المفعول،و «مِنَ اللّهِ» متعلق بتنزیل، و المجموع خبر لمبتدإ محذوف.

و المعنی:هذا کتاب منزّل من اللّه العزیز الحکیم،و قد تقدم الکلام فی مفردات الآیه فیما تقدم.

قوله تعالی: إِنَّ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِلْمُؤْمِنِینَ آیه الشیء علامته التی تدلّ علیه و تشیر الیه،و المراد بکون السماوات و الأرض فیها آیات کونها بنفسها آیات له فلیس وراء السماوات و الأرض و سائر ما خلق اللّه أمر مظروف لها هو آیه دالّه علیه تعالی.

و من الدلیل علی ما ذکرنا اختلاف التعبیر فیها فی کلامه تعالی فتاره یذکر أن فی الشیء آیه له و أخری یعدّه بنفسه آیه کقوله تعالی: إِنَّ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ لَآیاتٍ (آل عمران/۱۹۰)،و قوله: وَ مِنْ آیاتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ (الروم/۲۲)،و نظائرهما کثیره،و یستفاد من اختلاف التعبیر الذی فیها أن معنی کون الشیء فیه آیه هو کونه بنفسه آیه کما یستفاد من اختلاف التعبیر فی مثل قوله: إِنَّ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ لَآیاتٍ ،و قوله: إِنَّ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ الآیه؛أن المراد من خلق السماوات و الأرض نفسها لا غیر.

و العنایه فی أخذ الشیء ظرفا للآیه مع کونه بنفسه آیه اعتبار جهات وجوده و أن لوجوده جهه أو جهات کل واحده منها آیه من الآیات و لو أخذت نفس الشیء لم یستقم إلا أخذها آیه واحده کما فی قوله تعالی: وَ فِی الْأَرْضِ آیاتٌ لِلْمُوقِنِینَ (الذاریات/۲۰)،و لو أخذت الآیه

نفس الأرض لم يستقم إلا أن يقال:و الأرض آيه للموقنين و ضاع المراد و هو أن فى وجود الأرض جهات كل واحده منها آيه وحدها.

فمعنى قوله: إِنَّ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الخ؛أن لوجود السماوات و الأرض جهات داله على أن اللّه تعالى هو خالقها المدبّر لها وحده لا شريك له فإنها بحاجتها الذاتيه الى من يوجدها و عظمه خلقتها و بداعه تركيبها و اتصال وجود بعضها ببعض و ارتباطه على كثرتها الهائله و اندراج أنظمتها الجزئيه الخاصه بكل واحد تحت نظام عام يجمعها و يحكم فيها تدل على أن لها خالقا هو وحده ربها المدبر أمرها فلو لا أن هناك من يوجدها لم توجد من رأس،و لو لا أن مدبرها واحد لتناقضت النظامات و تدافعت و اختلف التدبير.

قوله تعالى: وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ مٰا يَبُثُّ مِنْ دٰابَّةٍ آيٰاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ البث التفريق و الإثاره و بثه تعالى للدواب خلقها و تفريقها و نشرها على الأرض كما قال فى خلق الإنسان: ثُمَّ إِذٰا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (الروم٢٠/).

و معنى الآيه:و فيكم من حيث وجودكم المخلوق و فيما يفرّقه من دابه من حيث خلقها آيات لقوم يسلكون سبيل اليقين.

و خلق الإنسان على كونه موجودا أرضيا له ارتباط بالماده نوع آخر من الخلق يغاير خلق السماوات و الأرض لأنه مركب من بدن أرضى مؤلف من مواد كونيه عنصريه تفسد بالموت بالتفرق و التلاشى و أمر آخر وراء ذلك علوى غير مادى لا يفسد بالموت بل يتوفى و يحفظ عند اللّه،و هو الذى يسميه القرآن بالروح قال تعالى: وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي (الحجر/ ٢٩)،و قال بعد ذكر خلق الإنسان من نطفه ثم من علقه ثم مضغه ثم تتميم خلق بدنه: ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ (المؤمنون١۴/)،و قال: قُلْ يَتَوَفّٰاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (الم السجده١١/).

فالناظر فى خلق الإنسان ناظر فى آيه ملكوتيه وراء الآيات الماديه و كذا الناظر فى خلق

ص :۶۶٢

الـدواب و لها نفوس ذوات حياه و شـعور و إن كانت دون الإنسان فی حياتها و شـعورها كما أنها دونه فی تجهيزاتها البدنيه ففی الجميع آيات لأهل اليقين يعرفون بها اللّه سبحانه بأنه واحد لا شريک له فی ربوبيته و ألوهيته.

قوله تعالی: وَ اخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ الی آخر الآيه هذا القبيل من الآيات آيات ما بين السماء و الأرض.

و قوله: «وَ اخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ» يريـد به اختلافهمـا فی الطول و القصـر اختلافـا منظما باختلاف الفصول الأربعه بحسب بقاع الأرض المختلفه و يتكرر بتكرر السـنين يـدير سـبحانه بذلک أقوات أهل الأرض و يربيهم بذلک تربيه صالحه قال تعالی: وَ قَدَّرَ فِيهٰا أَقْوٰاتَهٰا فِی أَرْبَعَهِ أَيّٰامٍ سَوٰاءً لِلسّٰائِلِينَ (حم السجده١٠/).

و قوله: وَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمٰاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا المراد بالرزق الـذی ينزله اللّه من السـماء هو المطر تسـميه للسـبب بـاسم المسبّب مجـازا أو لأـن المطر أيضـا من الرزق فإن مياه الأرض من المطر،و المراد بالسـماء جهه العلو أو السـحاب مجازا،و إحياء الأرض به بعـد موتها هو إحياء ما فيها من النبات بالأخـذ فی الرشـد و النمو،و لا يخلو التعرض للإحياء بعد الموت من تلويح الی المعاد.

و قوله: وَ تَصْرِيفِ الرِّيٰاحِ أی تحويلها و إرسالها من جانب الی جانب،لتصـريفها فوائـد عامه كثيره من أعمها سوق السـحب الی أقطار الأرض و تلقيح النباتات و دفع العفونات و الروائح المنتنه.

و قوله: «آيٰاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» أی يميزن بين الحق و الباطل و الحسن و القبيح بالعقل الذی أودعه اللّه سبحانه فيهم.

قوله تعالی: تِلْکَ آيٰاتُ اللّٰهِ نَتْلُوهٰا عَلَيْکَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللّٰهِ وَ آيٰاتِهِ يُؤْمِنُونَ الإيمان بأمر هو العلم به مع الالتزام به عملا فلو لم يلتزم لم يكن إيمانا و إن

كان هناك علم،قال تعالى: وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ (النمل۱۴/)،و قال:

وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ (الجاثيه۲۳/).

و الآيات هى العلامات الداله فآيات اللّه الكونيه هى الامور الكونيه الداله بوجودها الخارجى على كونه تعالى واحدا فى الخلق متصفا بصفات الكمال منزّها عن كل نقص و حاجه،و الإيمان بهذه الآيات هو الإيمان بدلالتها عليه تعالى و لازمه الإيمان به تعالى كما تدلّ هى عليه.

و الآيات القرآنيه آيات له تعالى بما تدلّ على الآيات الكونيه الداله عليه سبحانه أو على معارف اعتقاديه أو أحكام عمليه أو أخلاق يرتضيها اللّه سبحانه و يأمر بها فإن مضامينها دالّه عليه و من عنده،و الإيمان بهذه الآيات أيضا إيمان بدلالتها و يلزمه الإيمان بمدلولها.

و الآيات المعجزه أيضا إما آيات كونيه و دلالتها دلاله الآيات الكونيه و إما غير كونيه كالقرآن فى إعجاز و مرجع دلالتها الى دلاله الآيات الكونيه.

و قوله: تِلْكَ آيٰاتُ اللّٰهِ نَتْلُوهٰا عَلَيْكَ الإشاره الى الآيات القرآنيه المتلوّه عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و يمكن أن تكون إشاره الى الآيات الكونيه المذكوره فى الآيات الثلاث السابقه بعنايه الاتحاد بين الدالّ و المدلول.

و قوله: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللّٰهِ وَ آيٰاتِهِ يُؤْمِنُونَ قيل:هو من قبيل قولك:

أعجبنى زيد و كرمه،و إنما أعجبك كرمه و المعنى بحسب النظر الدقيق أعجبنى كرم زيد و زيد من حيث كرمه،فمعنى الآيه فبأى حديث بعد آيات اللّه يعنى الآيات القرآنيه يؤمنون؟يعنى إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأى حديث بعده يؤمنون؟

قوله تعالى: وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّٰاكٍ أَثِيمٍ الويل و الهلاك،و الأفاك مبالغه من الإفك و هو الكذب،و الأثيم من الإثم بمعنى المعصيه و المعنى:ليكن الهلاك على كل كذاب ذى معصيه.

قوله تعالى: يَسْمَعُ آيٰاتِ اللّٰهِ تُتْلىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ

يَسْمَعُهَا الخ؛صفه لكل أفاك أثيم،و «ثُمَّ» للتراخى الرتبى و تفيد معنى الاستبعاد، و الإصرار على الفعل ملازمته و عدم الانفكاك عنه.

و المعنى:يسمع آيات اللّه-و هى آيات القرآن-تقرأ عليه ثم يلازم الكفر و الحال أنه مستكبر لا يتواضع للحق كأن لم يسمع تلك الآيات فبشره بعذاب أليم.

قوله تعالى: وَ إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً الخ؛ظاهر السياق أن ضمير «اتَّخَذَهَا» للآيات،و جعل الهزء متعلقا بالآيات دون ما علم منها يفيد كمال جهله، و المعنى:و إذا علم ذلك الأفّاك الأثيم المصرّ المستكبر بعض آياتنا استهزأ بآياتنا جميعا.

و قوله: أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ أى مذل مخز،و توصيف العذاب بالاهانه مقابله لاستكبارهم و استهزائهم،و الاشاره باولئك الى كل أفّاك،و قيل فى الآيه بوجوه أخر أعرضنا عنها لعدم الجدوى فيها.

قوله تعالى: مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لاٰ يُغْنِى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَ لاَ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَوْلِيَاءَ الخ؛لما كانوا مشتغلين بالدنيا معرضين عن الحق غير ملتفتين الى تبعات أعمالهم جعلت جهنم وراءهم مع أنها قدامهم و هم سائرون نحوها متوجهون إليها.

و قيل:وراءهم بمعنى قدامهم قال فى المجمع:وراء اسم يقع على القدام و الخلف فما توارى عنك فهو وراءك خلفك كان أو أمامك.انتهى.و فى قوله: «مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ» قضاء حتم.

و قوله: وَ لاَ يُغْنِى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً المراد بما كسبوا ما حصلوه فى الدنيا من مال و نحوه،و تنكير «شَيْئاً» للتحقير أى و لا يغنى عنهم يوم الحساب ما كسبوه من مال و جاه و أنصار فى الدنيا شيئا يسيرا حقيرا.

و قوله: «وَ لاَ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَوْلِيَاءَ» «مَا» مصدريه و المراد بالأولياء أرباب الأصنام الذين اتخذوهم أربابا آلهه و زعموا أنهم لهم شفعاء أو الأصنام.

و قوله: وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ تأكيد لوعيدهم و قد أوعدهم اللّه سبحانه أولا بقوله:

«وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّٰاكٍ» الخ؛و ثانيا بقوله: «فَبَشِّرْهُ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ» و ثالثا بقوله: «أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ» و رابعا بقوله: «مِنْ وَرٰائِهِمْ جَهَنَّمُ» الخ؛و خامسا بقوله: «وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ» ،و وصف عذابهم فى خلالها بأنه أليم مهين عظيم.

قوله تعالى: هٰذٰا هُدىً وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ الإشاره بقوله: «هٰذٰا هُدىً» الى القرآن و وصفه بالهدى للمبالغه نحو زيد عدل و الرجز -كما قيل-أشد العذاب و أصله الاضطراب.

و الآيه فى مقام الردّ لما رموا به القرآن و عدّوه مهانا بالهزء و السخريه و خلاصه وعيد من كفر بآياته.

قوله تعالى: اَللّٰهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ الخ؛لما ذكر سبحانه حال الأفّاكين من الاستكبار عن الإيمان بالآيات إذا تليت عليهم و الاستهزاء بما علموا منها و أوعدهم أبلغ الإيعاد بأشد العذاب رجع اليهم بخطاب الجميع ممّن يؤمن و يكفر، و ذكر بعض آيات ربوبيته التى فيها منّ عظيم عليهم و ليس فى وسعهم إنكارها فذكر أولا تسخير البحر لهم ثم ما فى السماوات و الأرض جميعا ففيها آيات لا يكفر بها إلا من انسلخ عن الفطره الإنسانيه و نسى التفكر الذى هو من أجلى خواص الإنسان.

فقوله: اَلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ اللام فى «لَكُمُ» للغايه أى سخر لأجلكم البحر بأن خلقه على نحو يحمل الفلك و يقبل أن تجرى فيه فينتفع به الإنسان،و يمكن أن تكون للتعديه فيكون الانسان يسخر البحر بإذن اللّه.

و قوله: لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ غايه لتخسير البحر،و جريان الفلك فيه بأمره،هو إيجاد الجريان بكلمه كن فآثار الأشياء كنفس الأشياء منسوبه اليه تعالى و قوله:

«وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» أى و لتطلبوا بركوبه عطيته تعالى و هو رزقه.

و قوله: وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أی رجاء أن تشكروه تعالی قبال هذه النعمه التی هی تسخير البحر.

قوله تعالی: وَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ الخ؛هذا من الترقی بعطف العام علی الخاص،و الكلام فی «لَكُمْ» كالكلام فی مثله فی الآيه السابقه،و قوله: «جَمِيعاً» تأكيد لما فی السماوات و الأرض أو حال منه.

و قوله: «سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِيعاً» معنی تسخيرها للانسان أن أجزاء العالم المشهود تجری علی نظام واحد يحكم فيها و يربط بعضها ببعض و يربط الجميع بالإنسان فينتفع فی حياته من علويها و سفليها و لا يزال المجتمع البشری يتوسع فی الانتفاع بها و الاستفاده من توسيطها و التوسل بشتاتها فی الحصول علی مزايا الحياه فالكل مسخر له.

و قوله: «مِنْهُ» من للابتداء،و الضمير للّه تعالی و هو حال مما فی السماوات و الأرض، و المعنی:سخر لكم ما فی السماوات و الأرض جميعا حال كونه مبتدأ منه حاصلا من عنده فذوات الأشياء تبتدئ منه بإيجاده لها من غير مثال سابق و كذلك خواصها و آثارها بخلقه و من خواصها و آثارها ارتباط بعضها ببعض و هو النظام الجاری فيها المرتبط بالانسان قال تعالی: اَللّٰهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (الروم/۱۱)،و قال: إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ (البروج/۱۳).

و قد ذكروا لقوله: «مِنْهُ» معانی أخر لا يخلو شیء منها عن التكلف تركنا التعرّض لها.

و قوله: إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وجه تعلقها بالتفكر ظاهر.

[سوره الجاثيه (۴۵): الآيات ۱۴ الی ۱۹]

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ أَيّٰامَ اَللّٰهِ لِيَجْزِیَ قَوْماً بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (۱۴) مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَيْهٰا ثُمَّ إِلیٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (۱۵) وَ لَقَدْ آتَيْنٰا بَنِی إِسْرٰائِيلَ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْحُكْمَ وَ اَلنُّبُوَّهَ وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ اَلطَّيِّبٰاتِ وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلَی اَلْعٰالَمِينَ (۱۶) وَ آتَيْنٰاهُمْ بَيِّنٰاتٍ مِنَ اَلْأَمْرِ فَمَا اِخْتَلَفُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ اَلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِی بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۷) ثُمَّ جَعَلْنٰاكَ عَلیٰ شَرِيعَهٍ مِنَ اَلْأَمْرِ فَاتَّبِعْهٰا وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَ اَلَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ (۱۸) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اَللّٰهِ شَيْئاً وَ إِنَّ اَلظّٰالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ وَ اَللّٰهُ وَلِیُّ اَلْمُتَّقِينَ (۱۹)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ أَيّٰامَ اللّٰهِ الخ؛أمر منه تعالى لنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يأمر المؤمنين أن يغفروا للكفار فيصير تقدير الآيه:قل لهم:اغفروا يغفروا فهى كقوله تعالى: قُلْ لِعِبٰادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاٰةَ (إبراهيم۳۱/).

و الآيه مكيه واقعه فى سياق الآيات السابقه الواصفه لحال المستكبرين المستهزئين بآيات اللّه المهدده لهم بأشد العذاب و كأن المؤمنين بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا إذا رأوا هؤلاء المستهزئين يبالغون فى طعنهم و إهانتهم للنبى و استهزائهم بآيات اللّه لم يتمالكوا أنفسهم دون أن يدافعوا عن كتاب اللّه و من أرسله به و يدعوهم الى رفض ما هم فيه و الإيمان مع كونهم ممن

حقّت علیهم کلمه العذاب کما هو ظاهر الآیات السابقه،فأمر اللّه سبحانه نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یأمرهم بالعفو و الصفح عنهم و عدم التعرض لحالهم فإن وبال أعمالهم سیلحق بهم و جزاء ما کسبوه سینالهم.

و علی هذا فالمراد بالمغفره فی قوله: «قُلْ لِلَّذِینَ آمَنُوا یَغْفِرُوا» الصفح و الإعراض عنهم بترک مخاصمتهم و مجادلتهم،و المراد بالذین لا یرجون أیام اللّه هم الذین ذکروا فی الآیات السابقه فإنهم لا یتوقعون للّه أیاما لا حکم فیها و لا ملک إلا له تعالی کیوم الموت و البرزخ و یوم القیامه و یوم عذاب الاستئصال.

و قوله: لِیَجْزِیَ قَوْماً بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ تعلیل للأمر بالمغفره أو للأمر بالأمر بالمغفره و محصله لیصفحوا عنهم و لا یتعرضوا لهم،فلا حاجه الی ذلک لأن اللّه سیجزیهم بما کانوا یکسبون فتکون الآیه نظیره قوله: وَ ذَرْنِی وَ الْمُکَذِّبِینَ أُولِی النَّعْمَهِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِیلاً إِنَّ لَدَیْنٰا أَنْکٰالاً وَ جَحِیماً (المزمل/۱۲)،و قوله: ثُمَّ ذَرْهُمْ فِی خَوْضِهِمْ یَلْعَبُونَ (الأنعام/ ۹۱)،و قوله: فَذَرْهُمْ یَخُوضُوا وَ یَلْعَبُوا حَتّٰی یُلاٰقُوا یَوْمَهُمُ الَّذِی یُوعَدُونَ (المعارج/ ۴۲)،و قوله: فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلاٰمٌ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ (الزخرف/۸۹).

و معنی الآیه:مر الذین آمنوا أن یعفوا و یصفحوا عن أولئک المستکبرین المستهزئین بآیات اللّه الذین لا یتوقعون أیام اللّه لیجزیهم اللّه بما کانوا یکسبون و یوم الجزاء یوم من أیامه أی لیصفحوا عن هؤلاء المنکرین لأیام اللّه حتی یجزیهم بأعمالهم فی یوم من أیامه.

و فی قوله: «لِیَجْزِیَ قَوْماً» وضع الظاهر موضع الضمیر،و کان مقتضی الظاهر أن یقال:

لیجزیهم،و النکته فیه مع کون «قَوْماً» نکره غیر موصوفه تحقیر أمرهم و عدم العنایه بشأنهم کأنهم قوم منکرون لا یعرف شخصهم و لا یهتم بشیء من أمرهم.

قوله تعالی: مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَیْهٰا ثُمَّ إِلیٰ رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ فی موضع التعلیل لقوله: «لِیَجْزِیَ قَوْماً» الخ؛و لذا لم یعطف و لیس من

الاستئناف فی شیء.

و محصل المعنی:لیجزیهم اللّه بما کسبوا فإن الأعمال لا تذهب سدی و بلا أثر بل من عمل صالحا انتفع به و من أساء العمل تضرر به ثم الی ربکم ترجعون فیجزیکم حسب أعمالکم إن خیرا فخیرا و إن شرا فشرا.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ آتَیْنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ الْکِتٰابَ وَ الْحُکْمَ وَ النُّبُوَّةَ الخ؛لما بین أن للأعمال آثارا حسنه أو سیئه تلحق صاحبیها أراد التنبیه علی تشریع شریعه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذ کان علی اللّه سبحانه أن یهدی عباده الی ما فیه خیرهم و سعادتهم کما قال تعالی: وَ عَلَی اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِیلِ وَ مِنْهٰا جٰائِرٌ (النحل۹/).

فنبه علی ذلک بقوله الآتی: «ثُمَّ جَعَلْنٰاکَ عَلیٰ شَرِیعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ» الخ؛و قدّم علی ذلک الإشاره الی ما آتی بنی إسرائیل من الکتاب و الحکم و النبوه و رزقهم من الطیبات و تفضیلهم و إیتائهم البینات لیؤذن به أن الإفاضه الإلهیه بالشریعه و النبوه و الکتاب لیست ببدع لم یسبق الیه بل لها نظیر فی بنی إسرائیل و هم بمرآهم و مسمعهم.

فقوله: وَ لَقَدْ آتَیْنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ الْکِتٰابَ وَ الْحُکْمَ وَ النُّبُوَّةَ المراد بالکتاب التوراه المشتمله علی شریعه موسی علیه السّلام و أما الانجیل فلا یتضمن الشریعه و شریعته شریعه التوراه،و أما زبور داود فهی أدعیه و أذکار،و یمکن أن یراد بالکتاب جنسه الشامل للتوراه و الإنجیل و الزبور کما قیل لکن یبعده أن الکتاب لم یطلق فی القرآن إلا علی ما یشتمل علی الشریعه.

و المراد بالحکم بقرینه ذکره مع الکتاب ما یحکم و یقضی به الکتاب من وظائف الناس کما یذکره قوله تعالی: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ النّٰاسِ فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ (البقره/ ۲۱۳)،و قال فی التوراه: یَحْکُمُ بِهَا النَّبِیُّونَ الَّذِینَ أَسْلَمُوا لِلَّذِینَ هٰادُوا وَ الرَّبّٰانِیُّونَ وَ الْأَحْبٰارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ کِتٰابِ اللّٰهِ (المائده۴۴/)،فالحکم من لوازم الکتاب کما أن النبوه من

لوازمه.

و المراد بالنبوه معلوم و قد بعث اللّه من بنى إسرائيل جمعا غفيرا من الأنبياء كما فى الأخبار و قص فى كتابه جماعه من رسلهم.

و قوله: وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ الطَّيِّبٰاتِ أى طيبات الرزق و من ذلك المن و السلوى.

و قوله: وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلَى الْعٰالَمِينَ إن كان المراد جميع العالمين فقد فضلوا من بعض الجهات ككثره الأنبياء المبعوثين و المعجزات الكثيره الظاهره من أنبيائهم،و إن كان المراد عالمى زمانهم فقد فضلوا من جميع الجهات.

قوله تعالى: وَ آتَيْنٰاهُمْ بَيِّنٰاتٍ مِنَ الْأَمْرِ الى آخر الآيه المراد بالبينات الآيات البينات التى تزيل كل شك و ريب و تمحوه عن الحق و يشهد بذلك تفريع قوله: «فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ» .

و المراد بالأمر قيل:هو أمر الدين،و «مِنَ» بمعنى فى و المعنى:و أعطيناهم دلائل بينه فى أمر الدين و يندرج فيه معجزات موسى عليه السّلام.

و قيل:المراد به أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المعنى:آتيناهم آيات من أمر النبى و علامات مبينه لصدقه كظهوره فى مكه و مهاجرته منها الى يثرب و نصره أهله و غير ذلك مما كان مذكورا فى كتبهم.

و قوله: فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ يشير الى أن ما ظهر بينهم من الاختلاف فى الدين و اختلاط الباطل بالحق لم يكن عن شبهه أو جهل و إنما أوجدها علماؤهم بغيا و كان البغى دائرا بينهم.

و قوله: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إشاره الى أن اختلافهم الذى لا يخلو من اختلاط الباطل بالحق لا يذهب سدى و سيؤثر أثره و يقضى اللّه بينهم يوم القيامه فيجزون على حسب ما يستدعيه أعمالهم.

ص :۶۷۱

قوله تعالى: ثُمَّ جَعَلْنٰاکَ عَلىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهٰا وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يشاركه فيه أمته،و الشريعه طريق ورود الماء و الأمر أمر الدين،و المعنى:بعد ما آتينا بنى إسرائيل ما آتينا جعلناك على طريقه خاصه من أمر الدين الالهى و هى الشريعه الاسلاميه التى خص اللّه بها النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمته.

و قوله: فَاتَّبِعْهٰا الخ؛أمر للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باتباع ما يوحى اليه من الدين و أن لا يتبع أهواء الجاهلين المخالفه للدين الالهى.

و يظهر من الآيه أولا:أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مكلف بالدين كسائر الامه.

و ثانيا:أن كل حكم عملى لم يستند الى الوحى الالهى و لم ينته اليه فهو هوى من أهواء الجاهلين غير منتسب الى العلم.

قوله تعالى: إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً الخ؛تعليل للنهى عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون،و الاغناء من شىء رفع الحاجه اليه،و المحصّل:أن لك الى اللّه سبحانه حوائج ضروريه لا يرفعها إلا هو و الذريعه الى ذلك اتباع دينه لا غير فلا يغنى عنك هؤلاء الذين اتّبعت أهواءهم شيئا إليها الحاجه أو لا يغنى شيئا من الاغناء.

و قوله: وَ إِنَّ الظّٰالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ وَ اللّٰهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ الذى يعطيه السياق أنه تعليل آخر للنهى عن اتباع أهواء الجاهلين،و أن المراد بالظالمين المتبعون لأهوائهم المبتدعه و بالمتقين المتبعون لدين اللّه.

و المعنى:أن اللّه ولى الذين يتبعون دينه لأنهم متقون و اللّه وليهم،و الذين يتبعون أهواء الجهله ليس هو تعالى وليا لهم بل بعضهم أولياء بعض لأنهم ظالمون و الظالمون بعضهم أولياء بعض فاتبع دين اللّه يكن لك وليا و لا تتبع أهواءهم حتى يكونوا أولياء لك لا يغنون عنك من اللّه شيئا.

و تسميه المتبعين لغير دين اللّه بالظالمين هو الموافق لما يستفاد من قوله: أَنْ لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى

الظّالِمِينَ اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ كافِرُونَ (الأعراف/ ۴۵).

[سوره الجاثيه (۴۵): الآيات ۲۰ الى ۳۷]

هذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَهٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۲۰) أَمْ حَسِبَ اَلَّذِينَ اِجْتَرَحُوا اَلسَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۲۱) وَ خَلَقَ اَللّهُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۲۲) أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اِتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اَللّهُ عَلى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَهً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اَللّهِ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۲۳) وَ قالُوا ما هِيَ إِلاّ حَياتُنَا اَلدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلاَّ اَلدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّ يَظُنُّونَ (۲۴) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاّ أَنْ قالُوا اِئْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۲۵) قُلِ اَللّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ اَلْقِيامَهِ لا رَيْبَ فِيهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۲۶) وَ لِلّهِ مُلْكُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ اَلسّاعَهُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ اَلْمُبْطِلُونَ (۲۷) وَ تَرى كُلَّ أُمَّهٍ جاثِيَهً كُلُّ أُمَّهٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا اَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۹) فَأَمَّا اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْمُبِينُ (۳۰) وَ أَمَّا اَلَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (۳۱) وَ إِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اَللّهِ حَقٌّ وَ اَلسّاعَهُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا اَلسّاعَهُ إِنْ نَظُنُّ إِلاّ ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (۳۲) وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۳۳) وَ قِيلَ اَلْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَ مَأْواكُمُ اَلنّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۳۴) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اِتَّخَذْتُمْ آياتِ اَللّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ اَلْحَياهُ اَلدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۳۵) فَلِلّهِ اَلْحَمْدُ رَبِّ اَلسَّماواتِ وَ رَبِّ اَلْأَرْضِ رَبِّ اَلْعالَمِينَ (۳۶) وَ لَهُ اَلْكِبْرِياءُ فِي اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۳۷)

بیان:

قوله تعالی: هٰذٰا بَصٰائِرُ لِلنّٰاسِ وَ هُدیً وَ رَحْمَهٌ لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ الإشاره بهذا إلی الأمر المذکور الذی هو الشریعه أو إلی القرآن بما یشمل علی الشریعه،و البصائر جمع بصیره و هی الإدراک المصیب للواقع،و المراد بها ما یبصر به،و إنما کانت الشریعه بصائر لأنها تتضمن أحکاما و قوانین کل منها یهدی إلی واجب العمل فی سبیل السعاده.

و المعنی:هذه الشریعه المشرّعه أو القرآن المشتمل علیها وظائف عملیه یتبصّر بکل منها الناس و یهتدون إلی السبیل الحق و هو سبیل اللّه و سبیل السعاده،فقوله بعد ذکر تشریع الشریعه: «هٰذٰا بَصٰائِرُ لِلنّٰاسِ» کقوله بعد ذکر آیات الوحدانیه فی أول السوره: «هٰذٰا هُدیً وَ الَّذِینَ کَفَرُوا» الخ.

و قوله: وَ هُدیً وَ رَحْمَهٌ لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ أی دلاله واضحه و إفاضه خیر لهم، و المراد قوم یوقنون الذین یوقنون بآیات اللّه الداله علی أصول المعارف فإن المعهود فی القرآن تعلّق الإیقان بالاصول الاعتقادیه.

و تخصیص الهدی و الرحمه بقوم یوقنون مع التصریح بکونه بصائر الناس لا یخلو من تأیید لکون المراد بالهدی الوصول إلی المطلوب دون مجرد التبصر،و بالرحمه الرحمه الخاصه بمن اتّقی و آن برسوله بعد الإیمان باللّه،قال تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ یُؤْتِکُمْ کِفْلَیْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ یَجْعَلْ لَکُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ (الحدید/۲۸)،و قال:

ذٰلِکَ الْکِتٰابُ لاٰ رَیْبَ فِیهِ هُدیً لِلْمُتَّقِینَ اَلَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِالْغَیْبِ -إلی أن قال- وَ بِالْآخِرَهِ هُمْ یُوقِنُونَ (البقره/۴)،و للرحمه درجات کثیره تختلف سعه و ضیقا ثم للرحمه الخاصه بأهل الإیمان أیضا مراتب مختلفه باختلاف مراتب الإیمان فلکل مرتبه من مراتبه ما یناسبها منها.

و أما الرحمه بمعنی مطلق الخیر الفائض منه تعالی فإن القرآن مما یشتمل علی الشریعه رحمه

للناس كافه كما أن الرسول المبعوث به رحمه لهم جميعا،قال تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ رَحْمَةً لِلْعٰالَمِينَ (الأنبياء١٠٧/)،و قد أوردنا بعض الكلام فى هذا المعنى فى بعض المباحث السابقه.

قوله تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئٰاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ سَوٰاءً مَحْيٰاهُمْ وَ مَمٰاتُهُمْ الخ؛قال فى المجمع:الاجتراح الاكتساب،يقال:جرح و اجترح و كسب و اكتسب و أصله من الجراح لأن لذلك تأثيرا كتأثير الجراح.قال:و السيئه الفعله القبيحه التى يسوء صاحبها باستحقاق الذّم عليها.

انتهى.

و الجعل بمعنى التصيير،و قوله: «كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ» فى محل المفعول الثانى للجعل،و التقدير كائنين كالذين آمنوا،الخ.

و جزم الزمخشرى فى الكشاف على كون الكاف فى «كَالَّذِينَ» اسما بمعنى المثل هو مفعول ثان لقوله: «نَجْعَلَهُمْ» ،و قوله: «سَوٰاءً» بدلا منه.

و قوله: سَوٰاءً بالنصب على القراءه الدائره و هو مصدر بمعنى اسم الفاعل أى مستويا أو تساويا،و قوله: «مَحْيٰاهُمْ» مصدر ميمى و فاعل «سَوٰاءً» ضميره راجع إلى مجموع المجترحين و المؤمنين،و «مَمٰاتُهُمْ» معطوف على «مَحْيٰاهُمْ» و حاله كحاله.

و الآيه مسوقه سوق الإنكار و «أَمْ» منقطعه،و المعنى:بل أحسب و ظنّ الذين يكتسبون السيئات أن نصيّرهم مثل الذين آمنوا و عملوا الصالحات مستويا محياهم و مماتهم أى تكون حياه هؤلاء كحياه أولئك و موتهم كموتهم فيكون الإيمان و التشرع بالدين لغوا لا أثر له فى حياه و لا موت و يستوى وجوده و عدمه.

و قوله: سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ ردّ لحسبانهم المذكور و حكمهم بالمماثله بين مجترحى السيئات و الذين آمنوا و عملوا الصالحات و مساءه الحكم كنايه عن بطلانه.

فالفریقان لا یتساویان فی الحیاه و لا فی الممات.

قوله تعالی: وَ خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزیٰ کُلُّ نَفْسٍ بِمٰا کَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ الظاهر أن المراد بالسماوات و الأرض مجموع العالم المشهود و الباء فی «بِالْحَقِّ» للملابسه فکون خلق العالم بالحق کونه حقا لا باطلا و لعبا و هو أن یکون لهذا العالم الکائن الفاسد غایه ثابته باقیه وراءه.

و قوله: وَ لِتُجْزیٰ الخ؛عطف علی «بِالْحَقِّ» و الباء فی قوله: «بِمٰا کَسَبَتْ» للتعدیه أو للمقابله أی لتجزی مقابل ما کسبت إن کان طاعه فالثواب و إن کان معصیه فالعقاب،و قوله:

«وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ» حال من کل نفس أی و لتجزی کل نفس بما کسبت بالعدل.

فیئول معنی الآیه الی مثل قولنا و خلق اللّه السماوات و الأرض بالحق و بالعدل فکون الخلق بالحق یقتضی أن یکون وراء هذا العالم عالم آخر یخلد فیه الموجودات و کون الخلق بالعدل یقتضی أن تجزی کل نفس ما تستحقه بکسبها فالمحسن یجزی جزاء حسنا و المسیء یجزی جزاء سیئا و إذ لیس ذلک فی هذه النشأه ففی نشأه أخری.

و بهذا البیان یظهر إن الآیه تتضمن حجتین علی المعاد إحداهما ما أشیر الیه بقوله:

«وَ خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ» و یسلک من طریق الحق،و الثانیه ما أشیر الیه بقوله:

«وَ لِتُجْزیٰ» الخ؛و یسلک من طریق العدل.

فتئول الحجتان الی ما یشتمل علیه قوله: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا بٰاطِلاً ذٰلِکَ ظَنُّ الَّذِینَ کَفَرُوا فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ کَفَرُوا مِنَ النّٰارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ کَالْمُفْسِدِینَ فِی الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِینَ کَالْفُجّٰارِ (ص/۲۸).

و الآیه بما فیها من الحجه تبطل حسبانهم أن المسیء کالمحسن فی الممات فإن حدیث المجازاه بالثواب و العقاب علی الطاعه و المعصیه یوم القیامه ینفی تساوی المطیع و العاصی فی الممات، و لازم ذلک إبطال حسبانهم أن المسیء کالمحسن فی الحیاه فإن ثبوت المجازاه یومئذ یقتضی

وجوب الطاعه فی الدنیا و المحسن علی بصیره من الأمر فی حیاته یأتی بواجب العمل و یتزود من یومه لغده بخلاف المسیء العائش فی عمی و ضلال فلیسا بمتساویین.

قوله تعالی: أَ فَرَأَیْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلیٰ عِلْمٍ الی آخر الآیه ظاهر السیاق أن قوله: «أَ فَرَأَیْتَ» مسوق للتعجیب أی أ لا تعجب ممن حاله هذا الحال؟

و المراد بقوله: «اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ» حیث قدم «إِلٰهَهُ» علی «هَوٰاهُ» أنه یعلم أن له إلها یجب أن یعبده-و هو اللّه سبحانه-لکنه یبدله من هواه و یجعل هواه مکانه فیعبده فهو کافر باللّه سبحانه علی علم منه،و لذلک عقبه بقوله: «وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلیٰ عِلْمٍ» أی إنه ضال عن السبیل و هو یعلم.

و معنی اتخاذ الإله العباده و المراد بها الإطاعه فإن اللّه سبحانه عدّ الطاعه عباده کما فی قوله:

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَیْکُمْ یٰا بَنِی آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّیْطٰانَ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِی (یس/۶۱)،و قوله: اِتَّخَذُوا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ (التوبه/۳۱)، و قوله: وَ لاٰ یَتَّخِذَ بَعْضُنٰا بَعْضاً أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ (آل عمران/۶۴).

و الاعتبار یوافقه إذ لیست العباده إلا إظهار الخضوع و تمثیل أن العابد عبد لا یرید و لا یفعل إلا ما أراده و رضیه معبوده فمن أطاع شیئا فقد اتخذه إلها و عبده فمن أطاع هواه فقد اتخذ إلهه هواه و لا طاعه إلا للّه أو من أمر بطاعته.

فقوله: أَ فَرَأَیْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ أی أ لاٰ تعجب ممن یعبد هواه بإطاعته و اتباعه و هو یعلم أن له إلها غیره یجب أن یعبده و یطیعه لکنه یجعل معبوده و مطاعه هو هواه.

و قوله: وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلیٰ عِلْمٍ أی هو ضال بإضلال منه تعالی یضله به مجازاه لاتباعه الهوی حال کون إضلاله مستقرا علی علم هذا الضال،و لاٰ ضیر فی اجتماع الضلال مع العلم بالسبیل و معرفته کما فی قوله تعالی: وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَیْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ (النمل/۱۴)، و ذلک أن العلم لا یلازم الهدی و لا الضلال یلازم الجهل بل الذی یلازم الهدی هو العلم مع

التزام العالم بمقتضی علمه فیتعقبه الاهتداء و أما إذا لم یلتزم العالم بمقتضی علمه لاتباع منه للهوی فلا موجب لاهتدائه بل هو الضلال و إن کان معه علم.

و قوله: وَ خَتَمَ عَلیٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلیٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً کالعطف التفسیری لقوله: «وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلیٰ عِلْمٍ» و الختم علی السمع و القلب هو أن لا یسمع الحق و لا یعقله،و جعل الغشاوه علی البصر هو أن لا یبصر الحق من آیات اللّٰه و محصّل الجمیع:أن لا یترتب علی السمع و القلب و البصر أثرها و هو الالتزام بمقتضی ما ناله من الحق إذا أدرکه لاستکبار من نفسه و اتباع للهوی،و قد عرفت أن الضلال عن السبیل لا ینافی العلم به إذا لم یکن هناک التزام بمقتضاه.

و قوله: فَمَنْ یَهْدِیهِ مِنْ بَعْدِ اللّٰهِ الضمیر لمن اتخذ إلهه هواه و التفریع علی ما تحصل من حاله أی إذا کان حاله هذا الحال و قد أضله اللّٰه علی علم،الخ؛فمن یهدیه من بعد اللّٰه سبحانه فلا هادی دونه قال تعالی: قُلْ إِنَّ هُدَی اللّٰهِ هُوَ الْهُدیٰ (البقره/۱۲۰)و قال:

وَ مَنْ یُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ (المؤمن/۳۳).

و قوله: «أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ» أی أ فلا تتفکرون فی حاله فتتذکروا أن هؤلاء لا سبیل لهم الی الهدی مع اتباع الهوی فتتعظوا.

قوله تعالی: وَ قٰالُوا مٰا هِیَ إِلاّٰ حَیٰاتُنَا الدُّنْیٰا نَمُوتُ وَ نَحْیٰا وَ مٰا یُهْلِکُنٰا إِلاَّ الدَّهْرُ الی آخر الآیه،قال الراغب:الدهر فی الأصل اسم لمده العالم من مبدأ وجوده الی انقضائه،و علی ذلک قوله تعالی: هَلْ أَتیٰ عَلَی الْإِنْسٰانِ حِینٌ مِنَ الدَّهْرِ ثم یعبّر به عن کل مدّه کثیره،و هو خلاف الزمان فإن الزمان یقع علی المده القلیله و الکثیره.انتهی.

و الآیه علی ما یعطیه السیاق-سیاق الاحتجاج علی الوثنیین المثبتین للصانع المنکرین للمعاد-حکایه قول المشرکین فی إنکار المعاد لا کلام الدهریّین الناسبین للحوادث وجودا و عدما الی الدهر المنکرین للمبدإ و المعاد جمیعا إذا لم یسبق لهم ذکر فی الآیات السابقه.

فقولهم: مٰا هِيَ إِلاّٰ حَيٰاتُنَا الدُّنْيٰا الضمير للحياه أى لا حياه لنا إلا حياتنا الدنيا لا حياه وراءها فلا وجود لما يدعيه الدين الإلهى من البعث و الحياه الآخره،و هذا هو القرينه المؤيده لأن يكون المراد بقوله: «نَمُوتُ وَ نَحْيٰا» يموت بعضنا و يحيا بعضنا الآخر فيستمر بذلك بقاء النسل الإنسانى بموت الأسلاف و حياه الأخلاف و يؤيد ذلك بعض التأييد قوله بعده:

«وَ مٰا يُهْلِكُنٰا إِلاَّ الدَّهْرُ» المشعر بالاستمرار.

فالمعنى:و قال المشركون:ليست الحياه إلا حياتنا الدنيا التى نعيش بها فى الدنيا فلا يزال يموت بعضنا و هم الأسلاف و يحيى آخرون و هم الأخلاف و ما يهلكنا إلا الزمان-الذى بمروره يبلى كل جديد و يفسد كل كائن و يميت كل حى-فليس الموت انتقالا من دار الى دار منتهيا الى البعث و الرجوع الى اللّه.

و قوله: وَ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَظُنُّونَ أى إن قولهم ذلك المشعر بإنكار المعاد قول بغير علم و إنما هو ظن يظنونه و ذلك أنهم لا دليل لهم يدلّ على نفى المعاد مع ما هناك من الأدله على ثبوته.

قوله تعالى: وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ مٰا كٰانَ حُجَّتَهُمْ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا ائْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ تأكيد لكون قولهم بنفى المعاد و حصر الحياه فى الحياه الدنيا قولا بغير علم.

و المراد بالآيات البينات الآيات المشتمله على الحجج المثبته للمعاد و كونها بينات وضوح دلالتها على ثبوته بلا شك،و تسميه قولهم: «ائْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ» مع كونه اقتراحا جزافيا بعد قيام الحجه إنما هو من باب التهكم فإنه من قبيل طلب الدليل على المطلوب بعد قيام الدليل عليه فكأنه قيل:ما كانت حجتهم إلا اللاحجه.

و المعنى:و إذا تتلى على هؤلاء المنكرين للمعاد آياتنا المشتمله على الحجج المثبته للمعاد و الحال أنها واضحات الدلاله على ثبوته ما قابلوها إلا بجزاف من القول و هو طلب الدليل

على إمكانه بإحياء آبائهم الماضين.

قوله تعالى: قُلِ اللّٰهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ -الى قوله- وَ الْأَرْضِ ما ذكر من اقتراحهم الحجه على مطلوب قامت عليه الحجه و إن كان اقتراحا جزافيا لا يستدعى شيئا من الجواب لكنه سبحانه أمر نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يجيبهم بإثبات إمكانه الذى كانوا يستعبدونه.

و محصله:أن الذى يحييكم لأول مره ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامه الذى لاٰ ريب فيه هو اللّه سبحانه و للّه ملك السماوات و الأرض يحكم فيها ما يشاء و يتصرف فيها كيفما يريد فله أن يحكم برجوع الناس اليه و يتصرف فيكم بجمعكم الى يوم القيامه و القضاء بينكم ثم الجزاء، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ قال الراغب:

الخسر و الخسران انتقاص رأس المال و ينسب ذلك الى الإنسان فيقال:خسر فلان،و الى الفعل فيقال:خسرت تجارته،قال تعالى: تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خٰاسِرَةٌ و يستعمل ذلك فى المقتنيات الخارجيه كالمال و الجاه فى الدنيا و هو الأكثر،و فى المقتنيات النفسيه كالصحه و السلامه و العقل و الإيمان و الثواب و هو الذى جعله اللّه تعالى الخسران المبين.

قال:و كل خسران ذكره اللّه تعالى فى القرآن فهو على هذا المعنى الأخير دون الخسران المتعلق بالمقتنيات الماليه و التجارات البشريه.

و قال:و الإبطال يقال فى إفساد الشىء و إزالته سواء كان ذلك الشىء حقا أو باطلا قال تعالى: «لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبٰاطِلَ» و قد يقال فيمن يقول شيئا لاٰ حقيقه له نحو: وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُبْطِلُونَ ،و قوله تعالى: خَسِرَ هُنٰالِكَ الْمُبْطِلُونَ أى الذين يبطلون الحق.انتهى.

و الأشبه أن يكون المراد بقيام الساعه فعليه ما يقع فيها من البعث و الجمع و الحساب

و الجزاء و ظهوره،و بذلک صح جعل الساعه مظروفا للیوم و هما واحد،و الأشبه أن یکون قوله: «یَوْمَئِذٍ» تأکیدا لقوله: «یَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَهُ» .

و المعنی:و یوم تقوم الساعه و هی یوم الرجوع الی اللّه یومئذ یخسر المبطلون الذین أبطلوا الحق و عدلوا عنه.

قوله تعالی: وَ تَریٰ کُلَّ أُمَّهٍ جٰاثِیَهً کُلُّ أُمَّهٍ تُدْعیٰ إِلیٰ کِتٰابِهَا الخ؛الجثوّ البروک علی الرکبتین کما أن الجذو البروک علی أطراف الأصابع.

و الخطاب عام لکل من یصح منه الرؤیه و إن کان متوجها الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المراد بالدعوه الی الکتاب الدعوه الی الحساب علی ما ینطق به الکتاب بإحصائه الأعمال بشهاده قوله بعده:

«الْیَوْمَ تُجْزَوْنَ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» .

و المعنی:و تری أنت و غیرک من الرائین کل امه من الامم جالسه علی الجثوّ جلسه الخاضع الخائف کل امه منهم تدعی الی کتابها الخاص بها و هی صحیفه الأعمال و قیل لهم:الیوم تجزون ما کنتم تعملون.

و یستفاد من ظاهر الآیه أن لکل امه کتابا خاصا بهم کما أن لکل إنسان کتابا خاصا به قال تعالی: وَ کُلَّ إِنسٰانٍ أَلْزَمْنٰاهُ طٰائِرَهُ فِی عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ کِتٰاباً یَلْقٰاهُ مَنْشُوراً (الإسراء١٣/).

قوله تعالی: هٰذٰا کِتٰابُنٰا یَنْطِقُ عَلَیْکُمْ بِالْحَقِّ إِنّٰا کُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ قال فی الصحاح:و نسخت الکتاب و انتسخته و استنسخته کله بمعنی،و النسخه اسم المنتسخ منه.انتهی،و قال الراغب:النسخ إزاله الشیء بشیء یتعقبه کنسخ الشمس الظل راسخ الظل الشمس و الشیب الشباب-الی أن قال-و نسخ الکتاب نقل صورته المجرده الی کتاب آخر و ذلک لا یقتضی إزاله الصوره الاولی بل یقتضی إثبات مثلها فی ماده اخری کاتخاذ نقش الخاتم فی شموع کثیره،و الاستنساخ التقدم بنسخ الشیء و الترشح للنسخ.

انتهی.

و مقتضی ما نقل أن المفعول الذی یتعدی الیه الفعل فی قولنا:استنسخت الکتاب هو الأصل المنقول منه،و لازم ذلک أن تکون الأعمال فی قوله: «إِنّٰا کُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» کتابا و أصلا و إن شئت فقل:فی أصل و کتاب یستنسخ و ینقل منه و لو ارید به ضبط الأعمال الخارجیه القائمه بالإنسان بالکتابه لقیل:إنا کنا نکتب ما کنتم تعملون إذ لا نکته تستدعی فرض هذه الأعمال کتابا و أصلا یستنسخ،و لا دلیل علی کون«یستنسخ»بمعنی یستکتب کما ذکره بعضهم.

و لازم ذلک أن یکون المراد بما تعملون هو أعمالهم الخارجیه بما أنها فی اللوح المحفوظ فیکون استنساخ الأعمال استنساخ ما یرتبط بأعمالهم من اللوح المحفوظ و تکون صحیفه الأعمال و جزء من اللوح المحفوظ،و یکون معنی کتابه الملائکه للأعمال تطبیقهم ما عندهم من نسخه اللوح علی الأعمال.

و هذا هو المعنی الذی وردت به الروایه من طرق الشیعه عن الصادق علیه السّلام و من طرق أهل السنه عن ابن عباس،و سیوافیک فی البحث الروائی التالی.

و علی هذا فقوله: «هٰذٰا کِتٰابُنٰا یَنْطِقُ عَلَیْکُمْ بِالْحَقِّ» من کلامه تعالی لا من کلام الملائکه، و هو من خطابه تعالی لأهل الجمع یوم القیامه یحکیه لنا فیکون فی معنی«و یقال لهم هذا کتابنا»الخ.

و الإشاره بهذا-علی ما یعطیه السیاق-الی صحیفه الأعمال و هی بعینها إشاره الی اللوح المحفوظ علی ما تقدم و إضافه الکتاب الیه تعالی نظرا الی أنه صحیفه الأعمال من جهه أنه مکتوب بأمره تعالی و نظرا الی أنه اللوح المحفوظ من جهه التشریف و قوله: «یَنْطِقُ عَلَیْکُمْ بِالْحَقِّ» أی یشهد علی ما عملتم و یدل علیه دلاله واضحه ملابسا للحق.

و قوله: إِنّٰا کُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ تعلیل لکون الکتاب ینطق علیهم

بالحق أى إن كتابنا هذا دالّ على عملكم بالحق من غير أن يتخلف عنه لأنه اللوح المحفوظ المحيط بأعمالكم بجميع جهاتها الواقعيه.

و لو لا أن الكتاب يريهم أعمالهم بنحو لا يداخله شك و لا يحتمل منهم التكذيب لكذّبوه، قال تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً (آل عمران/٣٠).

قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ تفصيل حال الناس يومئذ بحسب اختلافهم بالسعاده و الشقاء و الثواب و العقاب،و السعداء المثابون هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات،و الأشقياء المعاقبون هم الذين كفروا من المستكبرين المجرمين.

و المراد بالرحمه الإفاضه الإلهيه تسعد من استقر فيها و منها الجنه،و الفوز المبين الفلاح الظاهر،و الباقى واضح.

قوله تعالى: وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ المراد بالذين كفروا المتلبسون بالكفر عن تكذيب و جحود بشهاده قوله: «أَ فَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ» الخ.

و الفاء فى «أَ فَلَمْ تَكُنْ» للتفريع فتدلّ على مقدّر متفرع عليه هو جواب لما،و التقدير:

فيقال لهم:أ لم تكن آياتى تتلى عليكم،و المراد بالآيات الحجج الإلهيه الملقاه اليهم عن وحى و دعوه،و المجرم هو المتلبس بالإجرام و هو الذنب.

و المعنى:و أما الذين كفروا جاحدين للحق مع ظهوره فيقال لهم توبيخا و تقريعا:أ لم تكن حججى تقرأ و تبين لكم فى الدنيا فاستكبرتم عن قبولها و كنتم قوما مذنبين.

قوله تعالى: وَ إِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لاٰ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ الخ؛المراد بالوعد الموعود و هو ما وعده اللّٰه بلسان رسله من البعث

و الجزاء فيكون قوله: «وَ السّاعَةُ لاٰ رَيْبَ فِيهٰا» من عطف التفسير،و يمكن أن يراد بالوعد المعنى المصدرى.

و قولهم: مٰا نَدْرِي مَا السّاعَةُ معناه أنه غير مفهوم لهم و الحال أنهم أهل فهم و درايه فهو كنايه عن كونه أمرا غير معقول و لو كان معقولا لدروه.

و قوله: إِنْ نَظُنُّ إِلاّٰ ظَنًّا وَ مٰا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ أى ليست مما نقطع به و نجزم بل نظن ظنا لا يسعنا أن نعتمد عليه،ففى قولهم: «مٰا نَدْرِي مَا السّاعَةُ» الخ؛غبّ ما تليت عليهم من الآيات البينه أفحش المكابره مع الحق.

قوله تعالى: وَ بَدٰا لَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ إضافه السيئات الى ما عملوا بيانيه أو بمعنى من،و المراد بما عملوا جنس ما عملوا أى ظهر لهم أعمالهم السيئه أو السيئات من أعمالهم فالآيه فى معنى قوله: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران/۳۰).

فالآيه من الآيات الداله على تمثل الأعمال،و قيل:إن فى الكلام حذفا و التقدير:و بدا لهم جزاء سيئات ما عملوا.

قوله: وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى و حلّ بهم العذاب الذى كانوا يسخرون منه فى الدنيا إذا أنذروا به بلسان الأنبياء و الرسل.

قوله تعالى: وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْسٰاكُمْ كَمٰا نَسِيتُمْ لِقٰاءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا وَ مَأْوٰاكُمُ النّٰارُ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ النسيان كنايه عن الإعراض و الترك فنسيانه تعالى لهم يوم القيامه إعراضه عنهم و تركه لهم فى شدائده و أهواله،و نسيانهم لقاء يومهم ذاك فى الدنيا إعراضهم عن تذكّره و تركهم التأهب للقائه،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: ذٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيٰاتِ اللّٰهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا الخ؛الإشاره بقوله: «ذٰلِكُمْ» الى ما ذكر من عقابهم من ظهور السيئات و حلول

العذاب و الهزء السخريه التی یستهزئ بها و الباء للسببیه.

و المعنی:ذلکم العذاب الذی یحل بکم بسبب أنکم اتخذتم آیات اللّه سخریه تستهزءون بها و بسبب أنکم غرتکم الحیاه الدنیا فأخلدتم إلیها و تعلقتم بها.

و قوله: فَالْیَوْمَ لاٰ یُخْرَجُونَ مِنْهٰا وَ لاٰ هُمْ یُسْتَعْتَبُونَ صرف الخطاب عنهم الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و یتضمن الکلام خلاصه القول فیما یصیبهم من العذاب یومئذ و هو الخلود فی النار و عدم قبول العذر منهم.

و الاستعتاب طلب العتبی و الاعتذار،و نفی الاستعتاب کنایه عن عدم قبول العذر.

قوله تعالی: فَلِلّٰهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعٰالَمِینَ تحمید له تعالی بالتفریع علی ما تقدم فی السوره من کونه خالق السماوات و الأرض و ما بینهما و المدبر لأمر الجمیع و من بدیع تدبیره خلق الجمیع بالحق المستتبع لیوم الرجوع الیه و الجزاء بالأعمال و هو المستدعی لجعل الشرائع التی تسوق الی السعاده و الثواب و یتعقبه الجمع لیوم الجمع ثم الجزاء و استقرار الجمیع علی الرحمه و العدل بإعطاء کل شیء ما یستحقه فلم یدبر إلا تدبیرا جمیلا و لا یفعل إلا فعلا محمودا فله الحمد کله.

و قد کرر «رَبِّ» فقال: رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ ثم أبدل منهما قوله: «رَبِّ الْعٰالَمِینَ» لیأتی بالتصریح بشمول الربوبیه للجمیع فلو جیء برب العالمین و اکتفی به أمکن أن یتوهم أنه رب المجموع لکن للسماوات خاصه رب آخر و للأرض وحدها رب آخر کما ربما قال بمثله الوثنیه،و کذا لو اکتفی بالسماوات و الأرض لم یکن صریحا فی ربوبیته لغیرهما،و کذا لو اکتفی بإحداهما.

قوله تعالی: وَ لَهُ الْکِبْرِیٰاءُ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ الکبریاء علی ما عن الراغب:الترفع عن الانقیاد،و عن ابن الأثیر:العظمه و الملک و فی المجمع السلطان القاهر و العظمه القاهره و العظمه و الرفعه.

ص :۶۸۶

و هی علی أی حال أبلغ معنی من الکبر و تستعمل فی العظمه غیر الحسیه و مرجعه الی کمال وجوده و لا تناهی کماله.

و قوله: وَ لَهُ الْکِبْرِیٰاءُ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ أی له الکبریاء فی کل مکان فلا یتعالی علیه شیء فیهما و لا یستصغره شیء و تقدیم الخبر فی «لَهُ الْکِبْرِیٰاءُ» یفید الحصر کما فی قوله: «فَلِلّٰهِ الْحَمْدُ» .

و قوله: وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ أی الغالب غیر المغلوب فیما یرید من خلق و تدبیر فی الدنیا و الآخره و البانی خلقه و تدبیره علی الحکمه و الإتقان (۱).

ص: ۶۸۷

۱- ۱) .الجاثیه ۲۰-۳۷:بحث روائی فی:من اتّخذ الهه هواه؛الدهر؛اللوح و القلم؛استنساخ اعمال الانسان.

سوره الأحقاف مکیه و هی خمس و ثلاثون آیه

اشاره

[سوره الأحقاف (۴۶): الآیات ۱ الی ۱۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;حم (۱) تَنْزِیلُ اَلْکِتٰابِ مِنَ اَللّٰهِ اَلْعَزِیزِ اَلْحَکِیمِ (۲) مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّی وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا عَمّٰا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (۳) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ أَرُونِی مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ اَلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ اِئْتُونِی بِکِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا أَوْ أَثٰارَهٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۴) وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ یَدْعُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مَنْ لاٰ یَسْتَجِیبُ لَهُ إِلیٰ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ وَ هُمْ عَنْ دُعٰائِهِمْ غٰافِلُونَ (۵) وَ إِذٰا حُشِرَ اَلنّٰاسُ کٰانُوا لَهُمْ أَعْدٰاءً وَ کٰانُوا بِعِبٰادَتِهِمْ کٰافِرِینَ (۶) وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِمْ آیٰاتُنٰا بَیِّنٰاتٍ قٰالَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ هٰذٰا سِحْرٌ مُبِینٌ (۷) أَمْ یَقُولُونَ اِفْتَرٰاهُ قُلْ إِنِ اِفْتَرَیْتُهُ فَلاٰ تَمْلِکُونَ لِی مِنَ اَللّٰهِ شَیْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا تُفِیضُونَ فِیهِ کَفیٰ بِهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ وَ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِیمُ (۸) قُلْ مٰا کُنْتُ بِدْعاً مِنَ اَلرُّسُلِ وَ مٰا أَدْرِی مٰا یُفْعَلُ بِی وَ لاٰ بِکُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا یُوحیٰ إِلَیَّ وَ مٰا أَنَا إِلاّٰ نَذِیرٌ مُبِینٌ (۹) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کٰانَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ کَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِی إِسْرٰائِیلَ عَلیٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اِسْتَکْبَرْتُمْ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِینَ (۱۰) وَ قٰالَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لِلَّذِینَ آمَنُوا لَوْ کٰانَ خَیْراً مٰا سَبَقُونٰا إِلَیْهِ وَ إِذْ لَمْ یَهْتَدُوا بِهِ فَسَیَقُولُونَ هٰذٰا إِفْکٌ قَدِیمٌ (۱۱) وَ مِنْ قَبْلِهِ کِتٰابُ مُوسیٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَهً وَ هٰذٰا کِتٰابٌ مُصَدِّقٌ لِسٰاناً عَرَبِیًّا لِیُنْذِرَ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا وَ بُشْریٰ لِلْمُحْسِنِینَ (۱۲) إِنَّ اَلَّذِینَ قٰالُوا رَبُّنَا اَللّٰهُ ثُمَّ اِسْتَقٰامُوا فَلاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ (۱۳) أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّهِ خٰالِدِینَ فِیهٰا جَزٰاءً بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۱۴)

بيان:

غرض السوره إنذار المشركين الرادّين للدعوه الى الإيمان باللّه و رسوله بالمعاد بما فيه من

ص :۶۸۹

ألیم العذاب لمنكریه المعرضیه عنه،و لذلک تفتتح الکلام بإثبات المعاد: «مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ» ثم یعود الیه عوده بعد عوده کقوله: «وَ إِذٰا حُشِرَ النّٰاسُ» ، و قوله: وَ الَّذِی قٰالَ لِوٰالِدَیْهِ أُفٍّ لَکُمٰا أَ تَعِدٰانِنِی أَنْ أُخْرَجَ ،و قوله: وَ یَوْمَ یُعْرَضُ الَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی النّٰارِ أَذْهَبْتُمْ طَیِّبٰاتِکُمْ ،و قوله: وَ یَوْمَ یُعْرَضُ الَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی النّٰارِ أَ لَیْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ ،و قوله فی مختتم السوره: کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَ مٰا یُوعَدُونَ لَمْ یَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَهً مِنْ نَهٰارٍ بَلاٰغٌ الآیه.

و فیها احتجاج علی الوحدانیه و النبوه،و إشاره الی هلاک قوم هود و هلاک القری التی حول مکه و إنذارهم بذلک،و إنباء عن حضور نفر من الجن عند النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و استماعهم القرآن و إیمانهم به و رجوعهم الی قومهم منذرین لهم.

و السوره مکیه کلها إلا آیتین اختلف فیهما سنشیر الیهما فی البحث الروائی الآتی إن شاء اللّه،قوله تعالی: «أَمْ یَقُولُونَ افْتَرٰاهُ» الخ؛و قوله: «قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ» الآیه.

قوله تعالی: حم تَنْزِیلُ الْکِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِیزِ الْحَکِیمِ تقدّم تفسیره.

قوله تعالی: مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّی الخ؛المراد بالسماوات و الأرض و ما بینهما مجموع العالم المشهود علویه و سفلیه، و الباء فی «بِالْحَقِّ» للملابسه،و المراد بالأجل المسمی ما ینتهی الیه أمد وجود الشیء، و المراد به فی الآیه الأجل المسمی لوجود مجموع العالم و هو یوم القیامه الذی تطوی (۱)فیه السماء کطی السجل للکتب و تبدل الأرض (۲)غیر الأرض و السماوات و برزوا للّه الواحد القهار.

۱- ۱) .اشاره الی الآیه ۱۰۴ من سوره الأنبیاء.

۲- ۲) .اشاره الی الآیه ۴۸ من سوره ابراهیم.

و المعنى:ما خلقنا العالم المشهود بجميع أجزائه العلويه و السفليه إلا ملابسا للحق له غايه ثابته و ملابسا لأجل معين لا يتعداه وجوده و إذا كان له أجل معين يفنى عند حلوله و كانت مع ذلك له غايه ثابته فبعد هذا العالم عالم آخر هو عالم البقاء و هو المعاد الموعود،و قد تكرر الكلام فيما تقدم فى معنى كون الخلق بالحق.

و قوله: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ المراد بالذين كفروا هم المشركون بدليل الآيه التاليه لكن ظاهر السياق أن المراد بكفرهم كفرهم بالمعاد،و«ما»فى «عَمّا» مصدريه أو موصوله و الثانى هو الأوفق للسياق و المعنى:و المشركون الذين كفروا بالمعاد عما أنذروا به-و هو يوم القيامه بما فيه من أليم العذاب لمن أشرک بالله-معرضون منصرفون.

قوله تعالى: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ الى آخر الآيه «أَ رَأَيْتُمْ» بمعنى أخبرونى و المراد بما تدعون من دون الله الأصنام التى كانوا يدعونها و يعبدونها و إرجاع ضمائر اولى العقل إليها بعد لكونهم ينسبون اليه أفعال اولى العقل و حجّه الآيه و ما بعدها مع ذلک تجرى فى كل إله معبود من دون الله.

و قوله: أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أرونى بمعنى أخبرونى و «ما» اسم استفهام و «ذا» بعده زائده و المجموع مفعول «خَلَقُوا» و من الأرض متعلق به.

و قوله: أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِي السَّماواتِ أى شركه فى خلق السماوات فإن خلق شىء من السماوات و الأرض هو المسئول عنه.

توضيح ذلک أنهم و إن لم ينسبوا إليها إلا تدبير الكون و خصوا الخلق به سبحانه كما قال تعالى: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّهُ (الزمر/٣٨)،و قال: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّهُ (الزخرف/٨٧)،لكن لما كان الخلق لا ينفک عن التدبير أوجب ذلک أن يكون لمن له سهم من التدبير سهم فى الخلق و لذلک أمر تعالى نبيه صلّى الله عليه و آله و سلّم أن

يسألهم عما لأربابهم الـذين يدعون من دون اللّه من النصـيب فى خلق الأرض أو فى خلق السـماوات فلا معنى للتدبير فى الكون من غير خلق.

و قوله: اِئْتُونِی بِکِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا أَوْ أَثٰارَهٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ الإشاره بهـذا الى القرآن،و المراد بكتاب من قبل القرآن كتاب سماوى كالتوراه نازل من عند اللّه يذكر شركه آلهتهم فى خلق السماوات أو الأرض.

و الاثـاره على ما ذكره الراغب مصـدر بمعنى النقل و الروايه قال:و أثرت العلم رويته آثره أثرا و أثاره و أثره و أصـله تتبعت أثره انتهى.و عليه فالاثاره فى الآيه مصدر بمعنى المفعول أى شـىء منقول من علم يثبت أن لآلهتهم شـركه فى شـىء من السماوات و الأرض،و فسره غالب المفسرين بمعنى البقيه و هو قريب مما تقدم.

و المعنى:ائتونى للدلاله على شـركهم للّه فى خلق شـىء من الأرض أو فى خلق السـماوات بكتاب سـماوى من قبل القرآن يذكر ذلك أو بشىء منقول من علم أو بقيه من علم اورثتموها يثبت ذلك إن كنتم صادقين فى دعواكم أنهم شركاء للّه سبحانه.

قـوله تعـالى: وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ یَدْعُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ مَنْ لاٰ یَسْتَجِیبُ لَهُ إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ الـخ؛الاسـتفهام إنكـارى،و تحديـد عـدم استجابتهم الدعوه بيوم القيمه لما أن يوم القيامه أجل مسمى للدنيا و الدعوه مقصوره فى الدنيا و لا دنيا بعد قيام الساعه.

و قوله: وَ هُمْ عَنْ دُعٰائِهِمْ غٰافِلُونَ صـفه اخرى من صـفات آلهتهم مضافه الى صـفه عدم اسـتجابتهم و ليس تعليلا لعدم الاستجابه فإن عدم استجابتهم معلول كونهم لا

ص :۶۹۲

یوم القیامه فیعادونهم و یکفرون بعبادتهم.

و فی الآیه دلاله علی سرایه الحیاه و الشعور فی الأشیاء حتی الجمادات فإن الأصنام من الجماد و قد نسب إلیها الغفله و الغفله من شئون ذوی الشعور لا تطلق إلا علی ما من شأن موصوفه أن یشعر.

قوله تعالی: وَ إِذا حُشِرَ النّاسُ کانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ کانُوا بِعِبادَتِهِمْ کافِرِینَ الحشر إخراج الشیء من مقرّه بإزعاج،و المراد بعث الناس من قبورهم و سوقهم الی المحشر یوم القیامه فیومئذ یعادیهم آلهتهم و یکفرون بشرک عبادهم بالتبرّی منهم کما قال تعالی:

وَ یَوْمَ الْقِیامَهِ یَکْفُرُونَ بِشِرْکِکُمْ (فاطر۱۴/)،و قال حکایه عنهم: تَبَرَّأْنا إِلَیْکَ ما کانُوا إِیّانا یَعْبُدُونَ (القصص۶۳/)،و قال: فَکَفی بِاللّهِ شَهِیداً بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمْ إِنْ کُنّا عَنْ عِبادَتِکُمْ لَغافِلِینَ (یونس۲۹/).

و فی سیاق الآیتین تلویح الی أن هذه الجمادات التی لا تظهر لنا فی هذه النشأه أن لها حیاه لعدم ظهور آثارها سیظهر فی النشأه الآخره أن لها حیاه و تظهر آثارها و قد تقدم بعض الکلام فی هذا المعنی فی ذیل قوله تعالی: قالُوا أَنْطَقَنَا اللّهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ (الم السجده/ ۲۱).

قوله تعالی: وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا بَیِّناتٍ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِینٌ الآیه و التی بعدها مسوقتان للتوبیخ،و المراد بالآیات البینات آیات القرآن تتلی علیهم،ثم بدّلها من الحق الذی جاءهم حیث قال: «لِلْحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ» -و کان مقتضی الظاهر أن یقال:«لها»للدلاله علی أنها حق جاءهم لا مسوّغ لرمیها بأنها سحر مبین و هم یعلمون أنها حق مبین فهم متحکمون مکابرون للحق الصریح.

قوله تعالی: أَمْ یَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَیْتُهُ فَلا تَمْلِکُونَ لِی مِنَ اللّهِ شَیْئاً الخ؛ «أَمْ» منقطعه أی بل یقولون افتری القرآن علی اللّه فی دعواه أنه کلامه.

و قوله: قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاٰ تَمْلِكُونَ لِی مِنَ اللّٰهِ شَیْئاً أی إن افتریت القرآن لأجلکم آخذنی بالعذاب أو عاجلنی بالعذاب علی الافتراء و لستم تقدرون علی دفع عذابه عنی فکیف أفتریه علیه لأجلکم،و المحصل أنی علی یقین من أمر اللّه و أعلم أنه یأخذ المفتری علیه أو یعاجل فی عقوبته و أنکم لا تقدرون علی دفع ما یریده فکیف أفتری علیه فأعرض نفسی علی عذابه المقطوع لأجلکم؟أی لست بمفتر علیه.

و قوله: هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا تُفِیضُونَ فِیهِ الإفاضه فی الحدیث الخوض فیه و«ما» موصوله یرجع الیه ضمیر «فِیهِ» أو مصدریه و مرجع الضمیر هو القرآن،و المعنی:اللّه سبحانه أعلم بالذی تخوضون فیه من التکذیب برمی القرآن بالسحر و الافتراء علی اللّه أو المعنی:هو أعلم بخوضکم فی القرآن.

و قوله: کَفیٰ بِهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ احتجاج ثان علی نفی الافتراء و أول الاحتجاجین قوله: «إِنِ افْتَرَیْتُهُ فَلاٰ تَمْلِکُونَ لِی مِنَ اللّٰهِ شَیْئاً» و قد تقدم بیانه آنفا،و معنی الجمله:أن شهاده اللّه سبحانه فی کلامه بأنه کلامه و لیس افتراء منی یکفی فی نفی کونی مفتریا به علیه،و قد صدّق سبحانه هذه الدعوی بقوله: لٰکِنِ اللّٰهُ یَشْهَدُ بِمٰا أَنْزَلَ إِلَیْکَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ (النساء۱۶۶/)،و ما فی معناه من الآیات،و أما أنه کلامه فیکفی فی ثبوته آیات التحدی.

و قوله: وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ تذییل الآیه بالاسمین الکریمین للاحتجاج علی نفی ما یتضمنه تحکمهم الباطل من نفی الرساله کأنه قیل:إن قولکم «افْتَرٰاهُ» یتضمن دعویین:

دعوی عدم کون هذا القرآن من کلام اللّه و دعوی بطلان الرساله-و الوثنیون ینفونها مطلقا- أما الدعوی الاولی فیدفعه أولا:أنه إن افتریته فلا تملکون،الخ؛و ثانیا:أن اللّه یکفینی شهیدا علی کونه کلامه لا کلامی.

و أما الدعوی الثانیه فیدفعها أن اللّه سبحانه غفور رحیم،و من الواجب فی حکمته أن

یعامل خلقه بالمغفره و الرحمه و لا تشملان إلا التائبین الراجعین الیه الصالحین لذلک و ذلک بأن یهدیهم الی صراط یقرّبهم منه سلوکه فتشملهم مغفرته و رحمته بحطّ السیئات و الاستقرار فی دار السعاده الخالده،و کونه واجبا فی حکمته لأن فیهم صلاحیه هذا الکمال و هو الجواد الکریم،قال تعالی: وَ مٰا کٰانَ عَطٰاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً (الإسراء۲۰/)،و قال: وَ عَلَی اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِیلِ (النحل۹/)،و السبیل الی هذه الهدایه هی الدعوه من طریق الرساله فمن الواجب فی الحکمه أن یرسل الی الناس رسولا یدعوهم الی سبیله الموصله الی مغفرته و رحمته.

قوله تعالی: قُلْ مٰا کُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ مٰا أَدْرِی مٰا یُفْعَلُ بِی وَ لاٰ بِکُمْ الخ؛البدع ما کان غیر مسبوق بالمثل من حیث صفاته أو من حیث أقواله و أفعاله و لذا فسّره بعضهم بأن المعنی:ما کنت أول رسول أرسل الیکم لا رسول قبلی،و قیل:المعنی:ما کنت مبدعا فی أقوالی و أفعالی لم یسبقنی إلیها أحد من الرسل.

و المعنی الأول لا یلائم السیاق و لا قوله المتقدم: «وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ» بالمعنی الذی تقدم توجیهه فثانی المعنیین هو الأنسب،و علیه فالمعنی:لست أخالف الرسل السابقین فی صوره أو سیره و فی قول أو فعل بل أنا بشر مثلهم فیّ من آثار البشریه ما فیهم و سبیلهم فی الحیاه سبیلی.

و بهذه الجمله یجاب عن مثل ما حکاه اللّه من قولهم: مٰا لِهٰذَا الرَّسُولِ یَأْکُلُ الطَّعٰامَ وَ یَمْشِی فِی الْأَسْوٰاقِ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَلَکٌ فَیَکُونَ مَعَهُ نَذِیراً أَوْ یُلْقیٰ إِلَیْهِ کَنْزٌ أَوْ تَکُونُ لَهُ جَنَّهٌ یَأْکُلُ مِنْهٰا (الفرقان۸/).

و قوله: وَ مٰا أَدْرِی مٰا یُفْعَلُ بِی وَ لاٰ بِکُمْ نفی لعلم الغیب عن نفسه فهو نظیر قوله: وَ لَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ الْغَیْبَ لاَسْتَکْثَرْتُ مِنَ الْخَیْرِ وَ مٰا مَسَّنِیَ السُّوءُ (الأعراف۱۸۸/)، و الفرق بین الآیتین أن قوله: «وَ لَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ الْغَیْبَ» الخ؛نفی للعلم بمطلق الغیب و استشهاد له

بمسّ السوء و عدم الاستكثار من الخير،و قوله: «وَ مٰا أَدْرِی مٰا یُفْعَلُ بِی وَ لاٰ بِکُمْ» نفی للعلم بغیب خاص و هو ما یفعل به و بهم من الحوادث التی یواجهونها جمیعا،و ذلک أنهم کانوا یزعمون أن المتلبس بالنبوه لو کان هناک نبی یجب أن یکون عالما فی نفسه بالغیوب ذا قدره مطلقه غیبیه کما یظهر من اقتراحاتهم المحکیه فی القرآن فامر صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یعترف-مصرّحا به- أنه لا یدری ما یفعل به و لا بهم فینفی عن نفسه العلم بالغیب،و أن ما یجری علیه و علیهم من الحوادث خارج عن إرادته و اختیاره و لیس له فی شیء منها صنع بل یفعله به و بهم غیره و هو اللّه سبحانه.

فقوله: وَ مٰا أَدْرِی مٰا یُفْعَلُ بِی وَ لاٰ بِکُمْ کما ینفی عنه العلم بالغیب ینفی عنه القدره علی شیء مما یصیبه و یصیبهم مما هو تحت أستار الغیب.

و نفی الآیه العلم بالغیب عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا ینافی علمه بالغیب من طریق الوحی کما یصرّح تعالی به فی مواضع من کلامه کقوله: ذٰلِکَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَیْبِ نُوحِیهِ إِلَیْکَ (آل عمران/ ۴۴)،(یوسف/۱۰۲)،و قوله: تِلْکَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَیْبِ نُوحِیهٰا إِلَیْکَ (هود/۴۹)،و قوله:

عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ (الجن/۲۷)،و من هذا الباب قول المسیح علیه السّلام: وَ أُنَبِّئُکُمْ بِمٰا تَأْکُلُونَ وَ مٰا تَدَّخِرُونَ فِی بُیُوتِکُمْ (آل عمران/۴۹)، و قول یوسف علیه السّلام لصاحبی السجن: لاٰ یَأْتِیکُمٰا طَعٰامٌ تُرْزَقٰانِهِ إِلاّٰ نَبَّأْتُکُمٰا بِتَأْوِیلِهِ قَبْلَ أَنْ یَأْتِیَکُمٰا (یوسف/۳۷).

وجه عدم المنافاه أن الآیات النافیه للعلم بالغیب عنه و عن سائر الأنبیاء علیهم السلام إنما تنفیه عن طبیعتهم البشریه بمعنی أن تکون لهم طبیعه بشریه أو طبیعه هی أعلی من طبیعه البشر من خصاصتها العلم بالغیب بحیث یستعمله فی جلب کل نفع و دفع کل شرکما نستعمل ما یحصل لنا من طریق الأسباب و هذا لا ینافی انکشاف الغیب لهم بتعلیم إلهی من طریق الوحی کما أن إتیانهم بالمعجزات فیما أتوا بها لیس عن قدره نفسیه فیهم یملکونها لأنفسهم بل

بإذن من اللّه تعالى و أمر،قال تعالى: قُلْ سُبْحٰانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاّٰ بَشَراً رَسُولاً (الإسراء/ ۹۳)،جوابا عما اقترحوا عليه من الآيات،و قال: قُلْ إِنَّمَا الْآيٰاتُ عِنْدَ اللّٰهِ وَ إِنَّمٰا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (العنكبوت/۵۰)،و قال: وَ مٰا كٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ فَإِذٰا جٰاءَ أَمْرُ اللّٰهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ (المؤمن/۷۸).

و يشهد بذلك قوله بعده متصلا به: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ» فإن اتصاله بما قبله يعطى أنه فى موضع الإضراب،و المعنى:إنى ما أدرى شيئا من هذه الحوادث بالغيب من قبل نفسى و إنما أتّبع ما يوحى إلىّ من ذلك.

و قوله: وَ مٰا أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ تأكيد لجميع ما تقدم فى الآيه من قوله: «مٰا كُنْتُ بِدْعاً» الخ؛و «وَ مٰا أَدْرِي» الخ؛و قوله: «إِنْ أَتَّبِعُ» الخ (۱).

قوله تعالى: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرٰائِيلَ عَلىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ الخ،ضمائر «كٰانَ» و «بِهِ» و «مِثْلِهِ» على ما يعطيه السياق للقرآن،و قوله: «وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرٰائِيلَ» الخ؛معطوف على الشرط و يشاركه فى الجزاء،و المراد بمثل القرآن مثله من حيث مضمونه فى المعارف الإلهيه و هو كتاب التوراه الأصليه التى نزلت على موسى عليه السّلام،و قوله: «فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ» أى فآمن الشاهد الإسرائيلى المذكور بعد شهادته.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ تعليل للجزاء المحذوف دال عليه، و الظاهر أنه أ لستم ضالين لا ما قيل:إنه أ لستم ظلمتم لأن التعليل بعدم هدايه اللّه الظالمين إنما يلائم ضلالهم لا ظلمهم و إن كانوا متصفين بالوصفين جميعا.

و المعنى:قل للمشركين:أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند اللّه و الحال أنكم كفرتم به

ص: ۶۹۷

۱- ۱) .الاحقاف ۱-۱۴:بحث فلسفى و دفع شبهه فى علم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمه عليهم السّلام.

و شـهد شاهد من بنى إسرائيل على مثل ما فى القرآن من المعارف فآمن هو و استكبرتم أنتم أ لستم فى ضلال؟فإن اللّه لا يهدى القوم الظالمين.

و الذى شـهد على مثله فآمن على ما فى بعض الأخبار هو عبد اللّه بن سـلام من علماء اليهود، و الآيه على هذا مدنيه لا مكيه لأنه ممن آمن بالمدينه،و قول بعضـهم:من الجائز أن يكون التعبير بالماضـى فى قوله: «وَ شَـهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ» لتحقق الوقوع و القصه واقعه فى المسـتقبل سخيف لأنه لا يلائم كون الآيه فى سياق الاحتجاج فالمشركون ما كانوا ليسلموا للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم صدقه فيما يخبرهم به من الامور المستقبله.

قوله تعالى: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ الى آخر الآيه قيل:اللام فى قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» للتعليل أى لأجل إيمانهم و يئول الى معنى فى،و ضمير «كانَ» و «إِلَيْهِ» للقرآن من جهه الإيمان به.

و المعنى:و قال الذين كفروا فى الذين آمنوا-أى لأجل إيمانهم-:لو كان الإيمان بالقرآن خيرا ما سبقونا-أى المؤمنون-اليه.

و قوله: وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ضـمير «بِهِ» للقرآن و كـذا الإشـاره بهـذا اليه و الإفك الافتراء أى و إذ لم يهتـدوا بالقرآن لاسـتكبارهم عن الإيمان به فسـيقولون أى الـذين كفروا هـذا أى القرآن إفك و افتراء قـديم،و قولهم:هذا إفك قديم كقولهم:

أساطير الأولين.

قوله تعـالى: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا الـخ؛الظاهر أن قوله: «وَ مِنْ قَبْلِهِ» الـخ؛جمله حاليه و المعنى:فسـيقولون هـذا إفك قـديم و الحال أن كتاب موسـى حال كونه إماما و رحمه قبله أى قبل القرآن و هذا القرآن كتاب مصدق له حال كونه لسانا عربيا ليكون منذرا للذين ظلموا و هو بشرى للمحسنين فكيف يكون إفكا؟

و کون التوراه إماما و رحمه هو کونها بحیث یقتدی بها بنو إسرائیل و یتبعونها فی أعمالهم و رحمه للذین آمنوا بها و اتبعوها فی إصلاح نفوسهم.

قوله تعالی: إِنَّ اَلَّذِینَ قٰالُوا رَبُّنَا اَللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا الی آخر الآیه المراد بقولهم ربنا اللّه إقرارهم و شهادتهم بانحصار الربوبیه فی اللّه سبحانه و توحده فیها،و باستقامتهم ثباتهم علی ما شهدوا به من غیر زیغ و انحراف و التزامهم بلوازمه العملیه.

و قوله: فَلاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ أی لیس قبالهم مکروه محتمل یخافونه من عقاب محتمل،و لا مکروه محقق یحزنون به من عقاب أو هول،فالخوف إنما یکون من مکروه ممکن الوقوع،و الحزن من مکروه محقق الوقوع،و الفاء فی قوله: «فَلاٰ خَوْفٌ» الخ؛ لتوهم معنی الشرط فإن الکلام فی معنی من قال ربنا اللّه ثم استقام فلا خوف،الخ.

قوله تعالی: أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ الْجَنَّهِ خٰالِدِینَ فِیهٰا جَزٰاءً بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ المراد بصحابه الجنه ملازمتها،و قوله: «خٰالِدِینَ فِیهٰا» حال مؤکده لمعنی الصحابه.

و المعنی:اولئک الذین قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا ملازمون للجنه حال کونهم خالدین فیها جزاء بما کانوا یعملون فی الدنیا من الطاعات و القربات (۱).

[سوره الأحقاف (۴۶): الآیات ۱۵ الی ۲۰]

وَ وَصَّیْنَا اَلْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَیْهِ إِحْسٰاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ کُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ کُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصٰالُهُ ثَلاٰثُونَ شَهْراً حَتّٰی إِذٰا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِینَ سَنَهً قٰالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ اَلَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلیٰ وٰالِدَیَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ وَ أَصْلِحْ لِی فِی ذُرِّیَّتِی إِنِّی تُبْتُ إِلَیْکَ وَ إِنِّی مِنَ اَلْمُسْلِمِینَ (۱۵) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا وَ نَتَجٰاوَزُ عَنْ سَیِّئٰاتِهِمْ فِی أَصْحٰابِ اَلْجَنَّهِ وَعْدَ اَلصِّدْقِ اَلَّذِی کٰانُوا یُوعَدُونَ (۱۶) وَ اَلَّذِی قٰالَ لِوٰالِدَیْهِ أُفٍّ لَکُمٰا أَ تَعِدٰانِنِی أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ اَلْقُرُونُ مِنْ قَبْلِی وَ هُمٰا یَسْتَغِیثٰانِ اَللّٰهَ وَیْلَکَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ فَیَقُولُ مٰا هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِیرُ اَلْأَوَّلِینَ (۱۷) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ حَقَّ عَلَیْهِمُ اَلْقَوْلُ فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ إِنَّهُمْ کٰانُوا خٰاسِرِینَ (۱۸) وَ لِکُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا وَ لِیُوَفِّیَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ (۱۹) وَ یَوْمَ یُعْرَضُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی اَلنّٰارِ أَذْهَبْتُمْ طَیِّبٰاتِکُمْ فِی حَیٰاتِکُمُ اَلدُّنْیٰا وَ اِسْتَمْتَعْتُمْ بِهٰا فَالْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ اَلْهُونِ بِمٰا کُنْتُمْ تَسْتَکْبِرُونَ فِی اَلْأَرْضِ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ وَ بِمٰا کُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (۲۰)

۱- ۱) .الاحقاف ۱-۱۴:بحث روائی فی موده قربی رسول اللّه،دخول المؤمنین الجنه.

بیان:

قوله تعالی: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً الی آخر الآیه،الوصیه علی ما ذکره الراغب هو التقدم الی الغیر بما یعمل به مقترنا بوعظ و التوصیه تفعیل من الوصیه قال تعالی: وَ وَصّی بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ (البقره۱۳۲/)،فمفعوله الثانی الـذی یتعدی الیه بالباء من قبیل الأفعال،فالمراد بالتوصیه بالوالدین التوصیه بعمل یتعلق بهما و هو الإحسان الیهما.

و على هذا فتقدير الكلام:و وصّينا الإنسان بوالديه أن يحسن اليهما إحسانا.

و فى إعراب «إِحْسٰاناً» أقوال أخر كقول بعضهم:إنه مفعول مطلق على تضمين «وَصَّيْنَا» معنى أحسنّا،و التقدير:وصينا الإنسان محسنين اليهما إحسانا،و قول بعضهم:إنه صفه لمصدر محذوف بتقدير مضاف أى إيصاء ذا إحسان،و قول بعضهم:هو مفعول له،و التقدير:وصيناه بهما لإحساننا اليهما،الى غير ذلك مما قيل.

و كيف كان فبرّ الوالدين و الإحسان اليهما من الأحكام العامه المشرعه فى جميع الشرائع كما تقدم فى تفسير قوله تعالى: قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاّٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً (الأنعام/۱۵۱)،و لذلك قال: «وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسٰانَ» فعمّمه لكل إنسان.

ثم عقّبه سبحانه بالإشاره الى ما قاسته أمه فى حمله و وضعه و فصاله إشعارا بملاك الحكم و تهييجا لعواطفه و إثاره لغريزه رحمته و رأفته فقال: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصٰالُهُ ثَلاٰثُونَ شَهْراً» أى حملته أمه حملا ذاكره أى مشقه و ذلك لما فى حمله من الثقل، و وضعته وضعا ذاكره و ذلك ما عنده من ألم الطلق.

و أما قوله: وَ حَمْلُهُ وَ فِصٰالُهُ ثَلاٰثُونَ شَهْراً فقد اخذ فيه أقل مده الحمل و هو سته أشهر،و الحولان الباقيان الى تمام ثلاثين شهرا مده الرضاع،قال تعالى: وَ الْوٰالِدٰاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كٰامِلَيْنِ (البقره/۲۳۳)،و قال: وَ فِصٰالُهُ فِي عٰامَيْنِ (لقمان/ ۱۴).

و الفصال التفريق بين الصبى و بين الرضاع،و جعل العامين ظرفا للفصال بعنايه أنه فى آخر الرضاع و لا يتحقق إلا بانقضاء عامين.

و قوله: حَتّٰى إِذٰا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً بلوغ الأشد بلوغ زمان من العمر تشتد فيه قوى الإنسان،و قد مرّ نقل اختلافهم فى معنى بلوغ الأشد فى تفسير قوله: وَ لَمّٰا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنٰاهُ حُكْماً وَ عِلْماً (يوسف/۲۲)،و بلوغ الأربعين ملازم عاده لكمال العقل.

ص :۷۰۱

و قوله: قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ الَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلیٰ وٰالِدَیَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ الإیزاع الإلهام،و هذا الإلهام لیس بإلهام علم یعلم به الإنسان ما جهلته نفسه بحسب الطبع کما فی قوله: وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا (الشمس/٨)،بل هو إلهام عملی بمعنی البعث و الدعوه الباطنیه الی فعل الخیر و شکر النعمه و بالجمله العمل الصالح.

و قد أطلق النعمه التی سأل إلهام الشکر علیها فتعمّ النعم الظاهریه کالحیاه و الرزق و الشعور و الإراده،و الباطنیه کالإیمان باللّه و الإسلام و الخشوع له و التوکل علیه و التفویض الیه ففی قوله: «رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ» الخ؛سؤال أن یلهمه الثناء علیه بإظهار نعمته قولا و فعلا:أما قولا فظاهر،و أما فعلا فباستعمال هذه النعم استعمالا یظهر به أنها للّه سبحانه أنعم بها علیه و لیست له من قبل نفسه و لازمه ظهور العبودیه و المملوکیه من هذا الإنسان فی قوله و فعله جمیعا.

و تفسیر النعمه بقوله: «الَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلیٰ وٰالِدَیَّ» یفید شکره من قبل نفسه علی ما اختص به من النعمه و من قبل والدیه فیما أنعم به علیهما فهو لسان ذاکر لهما بعدهما.

و قوله: وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ عطف علی قوله: «أَنْ أَشْکُرَ» الخ؛سؤال متمم لسؤال الشکر علی النعم فإن الشکر یحلی ظاهر الأعمال،و الصلاحیه التی یرتضیها اللّه تعالی تحلّی باطنها و تخلّصها له تعالی.

و قوله: وَ أَصْلِحْ لِی فِی ذُرِّیَّتِی الإصلاح فی الذریه إیجاد الصلاح فیهم و هو من اللّه سبحانه توفیقهم للعمل الصالح و ینجرّ الی إصلاح نفوسهم،و تقیید الإصلاح بقوله: «لِی» للدلاله علی أن یکون إصلاحهم بنحو ینتفع هو به أی أن یکون ذریته له فی برّه و إحسانه کما کان هو لوالدیه.

و محصّل الدعاء سؤال أن یلهمه اللّه شکر نعمته و صالح العمل و أن یکون بارّا محسنا بوالدیه

و يكون ذريته له كما كان هو لوالديه،و قد تقدّم (۱)غير مرّه أن شكر نعمه تعالى بحقيقه معناه هو كون العبد خالصا للّه فيئول معنى الدعاء الى سؤال خلوص النفس و صلاح العمل.

و قوله: إِنِّی تُبْتُ إِلَیْکَ وَ إِنِّی مِنَ الْمُسْلِمِینَ أی الذین یسلمون الأمر لک فلا ترید شیئا إلا أرادوه بل لا یریدون إلا ما أردت.

و الجمله فی مقام التعلیل لما یتضمنه الدعاء من المطالب،و یتبین بالآیه حیث ذکر الدعاء و لم یردّه بل أیّده بما وعد فی قوله: «أُولٰئِکَ الَّذِینَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ» الخ؛أن التوبه و الإسلام للّه سبحانه إذا اجتمعا فی العبد استعقب ذلک إلهامه تعالی بما یصیر به العبد من المخلصین-بفتح اللام-ذاتا و المخلصین-بکسر اللام-عملا أما إخلاص الذات فقد تقدمت الإشاره الیه آنفا، و أما إخلاص العمل فلأن العمل لا یکون صالحا لقبوله تعالی مرفوعا الیه إلا إذا کان خالصا لوجهه الکریم،قال تعالی: أَلاٰ لِلّٰهِ الدِّینُ الْخٰالِصُ (الزمر/۳).

قوله تعالی: أُولٰئِکَ الَّذِینَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا وَ نَتَجٰاوَزُ عَنْ سَیِّئٰاتِهِمْ فِی أَصْحٰابِ الْجَنَّهِ الخ؛التقبل أبلغ من القبول،و المراد بأحسن ما عملوا طاعاتهم من الواجبات و المندوبات فإنها هی المقبوله المتقبله و أما المباحات فإنها و إن کانت ذات حسن لکنها لیست بمتقبله،کذا ذکر فی مجمع البیان و هو تفسیر حسن و یؤیده مقابله تقبّل أحسن ما عملوا بالتجاوز عن السیئات فکأنه قیل:إن أعمالهم طاعات من الواجبات و المندوبات و هی أحسن أعمالهم فنتقبلها و سیئات فنتجاوز عنها و ما لیس بطاعه و لا حسنه فلا شأن له من قبول و غیره.

و قوله: فِی أَصْحٰابِ الْجَنَّهِ متعلق بقوله: «نَتَجٰاوَزُ» أی نتجاوز عن سیئاتهم فی جمله من نتجاوز عن سیئاتهم من أصحاب الجنه،فهو حال من ضمیر «عَنْهُمْ» .

۱- ۱) .تفسیر الآیه ۱۴۴ من سوره آل عمران و الآیه ۱۷ من سوره الأعراف.

و قوله: وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِی کٰانُوا یُوعَدُونَ أی یعدهم اللّه بهذا الکلام وعد الصدق الذی کانوا یوعدونه الی هذا الحین بلسان الأنبیاء و الرسل،أو المراد أنه ینجّز لهم بهذا التقبل و التجاوز یوم القیامه وعد الصدق الذی کانوا یوعدونه فی الدنیا.

قوله تعالی: وَ الَّذِی قٰالَ لِوٰالِدَیْهِ أُفٍّ لَکُمٰا أَ تَعِدٰانِنِی أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِی لما ذکر الإنسان الذی تاب الی اللّه و أسلم له و سأله الخلوص و الإخلاص و برّ والدیه و إصلاح أولاده له قابله بهذا الإنسان الذی یکفر باللّه و رسوله و المعاد و یعقّ والدیه إذا دعواه الی الإیمان و أنذراه بالمعاد.

فقوله: وَ الَّذِی قٰالَ لِوٰالِدَیْهِ أُفٍّ لَکُمٰا الظاهر أنه مبتدأ فی معنی الجمع و خبره قوله بعد: «أُولٰئِکَ الَّذِینَ» الخ،و «أُفٍّ» کلمه تبرّم یقصد بها إظهار التسخط و التوجع و «أَ تَعِدٰانِنِی أَنْ أُخْرَجَ» الاستفهام للتوبیخ،و المعنی:أ تعداننی أن أخرج من قبری فاحیا و أحضر للحساب أی أ تعداننی المعاد «وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِی» أی و الحال أنه هلکت امم الماضون العائشون من قبلی و لم یحی منهم أحد و لا بعث.

و هذا علی زعمهم حجه علی نفی المعاد و تقریره أنه لو کان هناک إحیاء و بعث لا حیی بعض من هلک الی هذا الحین و هم فوق حد الإحصاء عددا فی أزمنه طویله لا أمد لها و لا خبر عنهم و لا أثر و لم یتنبهوا أن القرون السالفه لو عادوا کما یقولون کان ذلک بعثا لهم و إحیاء فی الدنیا و الذی وعده اللّه سبحانه هو البعث للحیاه الآخره و القیام لنشأه اخری غیر الدنیا.

و قوله: وَ هُمٰا یَسْتَغِیثٰانِ اللّٰهَ وَیْلَکَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ الاستغاثه طلب الغوث من اللّه أی و الحال أن والدیه یطلبان من اللّه أن یغیثهما و یعینهما علی إقامه الحجه و استمالته الی الإیمان و یقولان له:ویلک آمن باللّه و بما جاء به رسوله و منه وعده تعالی بالمعاد إن وعد اللّه بالمعاد من طریق رسله حق.

و منه یظهر أن مرادهما بقولهما: «آمِنْ» هو الأمر بالإیمان باللّه و رسوله فیما جاء به من عند

اللّه،و قولهما: «إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ» المراد به المعاد،و تعليل الأمر بالإيمان به لغرض الانذار و التخويف.

و قوله: فَيَقُولُ مٰا هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ الإشاره بهذا الى الوعد الذى ذكراه و أنذراه به أو مجموع ما كانا يدعوانه اليه و المعنى:فيقول هذا الإنسان لوالديه ليس هذا الوعد الذى تنذراننى به أو ليس هذا الذى تدعواننى اليه إلا خرافات الأولين و هم الامم الأوليه الهمجيه.

قوله تعالى: أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ الخ؛تقدم بعض الكلام فيه فى تفسير الآيه ۲۵ من سوره حم السجده.

قوله تعالى: وَ لِكُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا الى آخر الآيه أى لكل من المذكورين و هم المؤمنون البرره و الكافرون الفجره منازل و مراتب مختلفه صعودا و حدورا فللجنه درجات و للنار دركات.

و يعود هذا الاختلاف الى اختلافهم فى أنفسهم و إن كان ظهوره فى أعمالهم و لذلك قال:

«لِكُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا» فالدرجات لهم و منشأها أعمالهم.

و قوله: وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ اللام للغايه و الجمله معطوفه على غايه أو غايات اخرى محذوفه لم يتعلق بذكرها غرض،و إنما جعلت غايه لقوله:«هم درجات»لأنه فى معنى و جعلناهم درجات،و المعنى:جعلناهم درجات لكذا و كذا و ليوفيهم أعمالهم و هم لا يظلمون.

و معنى توفيتهم أعمالهم إعطاؤهم نفس أعمالهم فالآيه من الآيات الداله على تجسم الأعمال،و قيل:الكلام على تقدير مضاف و التقدير و ليوفيهم اجور أعمالهم.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ الخ؛عرض الماء على الدابه و للدابه وضعه بمرأى منها بحيث إن شاءت شربته،و عرض المتاع على البيع وضعه موضعا لا

مانع من وقوع البيع عليه.

و قوله: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ قيل:المراد بعرضهم على النار تعذيبهم فيها من قولهم:عرض فلان على السيف إذا قتل و هو مجاز شائع.

و فيه أن قوله فى آخر السوره: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ أَ لَيْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ قٰالُوا بَلىٰ وَ رَبِّنٰا قٰالَ فَذُوقُوا الْعَذٰابَ لا يلائمه تلك الملاءمه حيث فرع ذوق العذاب على العرض فهو غيره.

و قوله: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبٰاتِكُمْ فِى حَيٰاتِكُمُ الدُّنْيٰا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهٰا على تقدير القول أى يقال لهم: «أَذْهَبْتُمْ» الخ؛و الطيبات الامور التى تلائم النفس و توافق الطبع و يستلذّ بها الإنسان،و إذهاب الطيبات إنفادها بالاستيفاء لها،و المراد بالاستمتاع بها استعمالها و الانتفاع بها لنفسها لا للآخره و التهيؤ لها.

و المعنى:يقال لهم حين عرضهم على النار:أنفذتم الطيبات التى تلتذون بها فى حياتكم الدنيا و استمتعتم بتلك الطيبات فلم يبق لكم شىء تلتذون به فى الآخره.

و قوله: فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ الْهُونِ بِمٰا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ تفريع على إذهابهم الطيبات،و عذاب الهون العذاب الذى فيه الهوان و الخزى.

و المعنى:فاليوم تجزون العذاب الذى فيه الهوان و الخزى قبال استكباركم فى الدنيا عن الحق و قبال فسقكم و توليكم عن الطاعات،و هما ذنبان أحدهما متعلق بالاعتقاد و هو الاستكبار عن الحق و الثانى متعلق بالعمل و هو الفسق (۱).

۱- ۱) .الاحقاف ۱۵-۲۰:بحث روائى فى حكم على عليه السّلام فى امرأه ولدت لسته اشهر و ارادوا رجمها.

[سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۱ الى ۲۸]

وَ اُذْكُرْ أَخٰا عٰادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقٰافِ وَ قَدْ خَلَتِ اَلنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اَللّٰهَ إِنِّى أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۲۱) قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا لِتَأْفِكَنٰا عَنْ آلِهَتِنٰا فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِينَ (۲۲) قٰالَ إِنَّمَا اَلْعِلْمُ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مٰا أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لٰكِنِّى أَرٰاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۳) فَلَمّٰا رَأَوْهُ عٰارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قٰالُوا هٰذٰا عٰارِضٌ مُمْطِرُنٰا بَلْ هُوَ مَا اِسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهٰا عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۲۴) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهٰا فَأَصْبَحُوا لاٰ يُرىٰ إِلاّٰ مَسٰاكِنُهُمْ كَذٰلِكَ نَجْزِى اَلْقَوْمَ اَلْمُجْرِمِينَ (۲۵) وَ لَقَدْ مَكَّنّٰاهُمْ فِيمٰا إِنْ مَكَّنّٰاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنٰا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصٰاراً وَ أَفْئِدَةً فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لاٰ أَبْصٰارُهُمْ وَ لاٰ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كٰانُوا يَجْحَدُونَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۲۶) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنٰا مٰا حَوْلَكُمْ مِنَ اَلْقُرىٰ وَ صَرَّفْنَا اَلْآيٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۷) فَلَوْ لاٰ نَصَرَهُمُ اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ قُرْبٰاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (۲۸)

بیان:

قوله تعالی: وَ اذْكُرْ أَخٰا عٰادٍ إِذْ أَنْـذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقٰافِ وَ قَـدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ الخ؛أخو القوم هو المنسوب اليهم من جهه الأب،و المراد بأخی عاد هود النبی علیه السّلام،و الأحقاف مسکن قوم عاد و المتیقن أنه فی جنوب جزیره العرب و لا أثر الیوم باقیا منهم،و اختلفوا أین هو؟فقیل:واد بین عمان و مهره،و قیل رمال بین عمان الی حضر موت،و قیل:رمال مشرفه علی البحر بالشّجر من أرض الیمن و قیل غیر ذلک.

و قوله: وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ النذر جمع نذیر و المراد به الرسول علی ما یفیده السیاق،و أما تعمیم بعضهم النذر للرسل و نوابهم من العلماء ففی غیر محله.

و فسروا «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ» بالذین کانوا قبله و «مِنْ خَلْفِهِ» بالذین جاءوا بعده و یمکن العکس بأن یکون المراد بالنذر بین یدیه من کانوا فی زمانه،و من خلفه من کان قبله،و الأولی علی الأول أن یکون المراد بخلو النذر من بین یدیه و من خلفه أن یکون کنایه عن مجیئه الیهم و إنذاره لهم علی فتره من الرسل.

و قوله: أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّٰهَ تفسیر للإنذار و فیه إشاره الی أن أساس دینه الذی یرجع الیه تفاصیله هو التوحید.

و قوله: إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ تعلیل لدعوتهم الی التوحید، و الظاهر أن المراد بالیوم العظیم یوم عذاب الاستئصال لا یوم القیامه یدل علی ذلک ما سیأتی من قولهم: «فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا» و قوله: «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ» و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا لِتَأْفِكَنٰا عَنْ آلِهَتِنٰا الخ؛جواب القوم له قبال إنذاره، و قوله: «لِتَأْفِكَنٰا عَنْ آلِهَتِنٰا» بتضمین الإفک و هو الکذب و الفریه معنی الصرف و المعنی:قالوا

ص :۷۰۸

أ جئتنا لتصرفنا عن آلهتنا إفكا و افتراء.

و قوله: فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ أمر تعجيزى منهم له زعما منهم أنه عليه السّلام كاذب فى دعواته آفك فى إنذاره.

قوله تعالى: قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ الخ؛جواب هود عن قولهم ردا عليهم،فقوله: «إِنَّما الْعِلْمُ عِنْدَ اللّهِ» قصر العلم بنزول فيه تعالى لأنه من الغيب الذى لا يعلم حقيقته إلا اللّه جل شأنه،و هو كنايه عن أنه عليه السّلام لا علم له بأنه ما هو؟و لا كيف هو؟و لا متى هو؟و لذلك عقّبه بقوله: «وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ» أى إن الذى حمّلته و أرسلت به اليكم هو الذى أبلّغكموه و لا علم لى بالعذاب الذى أمرت بإنذاركم به ما هو؟ و كيف هو؟و متى هو؟و لا قدره لى عليه.

و قوله: وَ لكِنِّى أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ إضراب عما يدل عليه الكلام من نفيه العلم عن نفسه،و المعنى:لا علم لى بما تستعجلون به من العذاب و لكنى أراكم قوما تجهلون فلا تميّزون ما ينفعكم مما يضركم و خيركم من شركم حين تردون دعوه اللّه و تكذبون بآياته و تستهزءون بما يوعدكم به من العذاب.

قوله تعالى: فَلَمّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا الخ،صفه نزول العذاب اليهم بادئ ظهوره عليهم.

و العارض هو السحاب يعرض فى الافق ثم يطبق السماء و هو صفه العذاب الذى يرجع اليه ضمير «رَأَوْهُ» المعلوم من السياق،و قوله: «مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ» صفه اخرى له،و الأوديه جمع الوادى،و قوله: «قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا» أى استبشروا ظنا منهم أنه سحاب عارض ممطر لهم فقالوا:هذا الذى نشاهده سحاب عارض ممطر إيانا.

و قوله: بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ رد لقولهم: «هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا» بالإضراب عنه الى بيان الحقيقه فبيّن أولا على طريق التهكم أنه العذاب

الذی استعجلتم به حین قلتم «فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّادِقِینَ» و زاد فی البیان ثانیا بقوله:

«رِیحٌ فِیها عَذابٌ أَلِیمٌ» .

و الکلام من کلامه تعالی و قیل:هو کلام لهود النبی علیه السّلام.

قوله تعالی: تُدَمِّرُ کُلَّ شَیْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا یُری إِلاّ مَساکِنُهُمْ کَذلِکَ نَجْزِی الْقَوْمَ الْمُجْرِمِینَ التدمیر الإهلاک،و تعلقه بکل شیء و إن کان یفید عموم التدمیر لکن السیاق یخصصه بنحو الإنسان و الدواب و الأموال،فالمعنی:إن تلک الریح ریح تهلک کل ما مرّت علیه من إنسان و دواب و أموال.

و قوله: فَأَصْبَحُوا لا یُری إِلاّ مَساکِنُهُمْ بیان لنتیجه نزول العذاب،و قوله:

«کَذلِکَ نَجْزِی الْقَوْمَ الْمُجْرِمِینَ» إعطاء ضابط کلی فی مجازاه المجرمین بتشبیه الکلی بالفرد الممثل به و التشبیه فی الشده أی إن سنتنا فی جزاء المجرمین علی هذا النحو الذی قصصناه من الشده فهو کقوله تعالی: وَ کَذلِکَ أَخْذُ رَبِّکَ إِذا أَخَذَ الْقُری وَ هِیَ ظالِمَهٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِیمٌ شَدِیدٌ (هود۱۰۲/).

قوله تعالی: وَ لَقَدْ مَکَّنّاهُمْ فِیما إِنْ مَکَّنّاکُمْ فِیهِ الخ؛موعظه لکفار مکه مستنتجه من القصه.

و التمکین إقرار الشیء و إثباته فی المکان،و هو کنایه عن إعطاء القدره و الاستطاعه فی التصرف و«ما»فی «فِیما» موصوله أو موصوفه و «إِنْ» نافیه،و المعنی:و لقد جعلنا قوم هود فی الذی-أو فی شیء-ما مکناکم معشر کفار مکه و من یتلوکم فیه من بسطه الأجسام و قوه الأبدان و البطش الشدید و القدره القومیه.

و قوله: وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَهً أی جهّزناهم بما یدرکون به ما ینفعهم و ما یضرهم و هو السمع و الأبصار و ما یمیزون به ما ینفعهم مما یضرهم فیحتالون لجلب النفع و لدفع الضر بما قدروا کما أن لکم ذلک.

و قوله: فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لاٰ أَبْصٰارُهُمْ وَ لاٰ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كٰانُوا يَجْحَدُونَ بِآيٰاتِ اللّٰهِ ما فى «فَمٰا أَغْنىٰ» نافيه لا استفهاميه،و «إِذْ» ظرف متعلق بالنفى الذى فى قوله: «فَمٰا أَغْنىٰ» .

و محصل المعنى:أنهم كانوا من التمكن على ما ليس لكم ذلك و كان لهم من أدوات الإدراك و التمييز ما يحتال به الإنسان لدفع المكاره و الاتقاء من الحوادث المهلكه المبيده لكن لم يغن عنهم و لم ينفعهم هذه المشاعر و الأفئده شيئا عند ما جحدوا آيات اللّه فما الذى يؤمنّكم من عذاب اللّه و أنتم جاحدون لآيات اللّه.

و قوله: وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ عطف على قوله: «فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ» الخ.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنٰا مٰا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرىٰ تذكره إنذاريه متفرعه على العظه التى فى قوله: «وَ لَقَدْ مَكَّنّٰاهُمْ» الخ؛فهى معطوفه عليه على ما يفيده السياق لا على قوله:

«وَ اذْكُرْ أَخٰا عٰادٍ» .

و قوله: وَ صَرَّفْنَا الْآيٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى و صيّرنا الآيات المختلفه من معجزه أيّدنا بها الأنبياء و وحى أنزلناه عليهم و نعم رزقناهموها ليتذكروا بها و نقم ابتليناهم بها ليتوبوا و ينصرفوا عن ظلمهم لعلهم يرجعون من عباده غير اللّه سبحانه الى عبادته.

و الضمير فى «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» راجع الى القرى و المراد بها أهل القرى.

قوله تعالى: فَلَوْ لاٰ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ قُرْبٰاناً آلِهَةً الخ؛ ظاهر السياق أن آلهه مفعول ثان لاتخذوا و مفعوله الأول هو الضمير الراجع الى الموصول و «قُرْبٰاناً» بمعنى ما يتقرب به،و الكلام مسوق للتهكم،و المعنى:فلو لا نصرهم الذين اتخذوهم آلهه حال كونهم متقربا بهم الى اللّه كما كانوا يقولون «مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللّٰهِ زُلْفىٰ» .

و قوله: بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ أى ضلّ الآلهه عن أهل القرى و انقطعت رابطه الالوهيه و العبوديه التى كانوا يزعمونها و يرجعون بذلك أن ينصروهم عند الشدائد و المكاره فالضلال عنهم كنايه عن بطلان مزعمتهم.

و قوله: وَ ذٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ مبتدأ و خبر و الإشاره الى ضلال آلهتهم،و المراد بالإفك أثر الإفك أو بتقدير مضاف،و «مٰا» مصدريه،و المعنى:و ذلك الضلال أثر إفكهم و افترائهم.

و يمكن أن يكون الكلام على صورته من غير تقدير مضاف أو تجوّز و الإشاره الى إهلاكهم بعد تصريف الآيات و ضلال آلهتهم عند ذلك،و محصل المعنى:أن هذا الذى ذكرناه من عاقبه أمرهم هو حقيقه زعمهم أن الآلهه يشفعون لهم و يقرّبونهم من اللّه زعمهم الذى أفكوه و افتروه،و الكلام مسوق للتهكم.

[سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۹ الى ۳۵]

وَ إِذْ صَرَفْنٰا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ اَلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ اَلْقُرْآنَ فَلَمّٰا حَضَرُوهُ قٰالُوا أَنْصِتُوا فَلَمّٰا قُضِيَ وَلَّوْا إِلىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (۲۹) قٰالُوا يٰا قَوْمَنٰا إِنّٰا سَمِعْنٰا كِتٰاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسىٰ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى اَلْحَقِّ وَ إِلىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (۳۰) يٰا قَوْمَنٰا أَجِيبُوا دٰاعِيَ اَللّٰهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذٰابٍ أَلِيمٍ (۳۱) وَ مَنْ لاٰ يُجِبْ دٰاعِيَ اَللّٰهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي اَلْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءُ أُولٰئِكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۳۲) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اَللّٰهَ اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقٰادِرٍ عَلىٰ أَنْ يُحْيِيَ اَلْمَوْتىٰ بَلىٰ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۳۳) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى اَلنّٰارِ أَ لَيْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ قٰالُوا بَلىٰ وَ رَبِّنٰا قٰالَ فَذُوقُوا اَلْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۴) فَاصْبِرْ كَمٰا صَبَرَ أُولُوا اَلْعَزْمِ مِنَ اَلرُّسُلِ وَ لاٰ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مٰا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَةً مِنْ نَهٰارٍ بَلاٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ اَلْقَوْمُ اَلْفٰاسِقُونَ (۳۵)

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَیْکَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ یَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ الی آخر الآیه الصرف رد الشیء من حاله الی حاله أو من مکان الی مکان،و النفر-علی ما ذکره الراغب-عده من الرجال یمکنهم النفر و هو اسم جمع یطلق علی ما فوق الثلاثه من الرجال و النساء و الإنسان و علی الجن کما فی الآیه «یَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ» صفه نفر،و المعنی:و اذکر إذ وجهنا الیک عده من الجن یستمعون القرآن.

و قوله: فَلَمّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا ضمیر «حَضَرُوهُ» للقرآن بما یلمح الیه من المعنی الحدثی و الإنصات السکوت للاستماع أی فلما حضروا قراءه القرآن و تلاوته قالوا أی بعضهم لبعض:اسکتوا حتی نستمع حق الاستماع.

و قوله: فَلَمّا قُضِیَ وَلَّوْا إِلی قَوْمِهِمْ مُنْذِرِینَ ضمیر «قُضِیَ» للقرآن باعتبار قراءته و تلاوته،و التولیه الانصراف و «مُنْذِرِینَ» حال من ضمیر الجمع فی «وَلَّوْا» أی فلما أتمت القراءه و فرغ منها انصرفوا الی قومهم حال کونهم منذرین مخوفین لهم من عذاب اللّه.

ص:٧١٣

قوله تعالى: قٰالُوا يٰا قَوْمَنٰا إِنّٰا سَمِعْنٰا كِتٰاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسىٰ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ الخ؛حكايه دعوتهم قومهم و إنذارهم لهم،و المراد بالكتاب النازل بعد موسى القرآن،و فى الكلام إشعار بل دلاله على كونهم مؤمنين بموسى عليه السّلام و كتابه،و المراد بتصديق القرآن لما بين يديه تصديقه التوراه أو جميع الكتب السماويه السابقه.

و قوله: يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ أى يهدى من اتبعه الى صراط الحق و الى طريق مستقيم لا يضل سالكوه عن الحق فى الاعتقاد و العمل.

قوله تعالى: يٰا قَوْمَنٰا أَجِيبُوا دٰاعِيَ اللّٰهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذٰابٍ أَلِيمٍ المراد بداعى اللّه هو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال تعالى: قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللّٰهِ عَلىٰ بَصِيرَةٍ (يوسف/١٠٨)،و قيل:المراد به ما سمعوه من القرآن و هو بعيد.

و الظاهر أن «مِنْ» فى «يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ» للتبعيض،و المراد مغفره بعض الذنوب و هى التى اكتسبوها قبل الإيمان،قال تعالى: إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مٰا قَدْ سَلَفَ (الأنفال/ ٣٨).

قوله تعالى: وَ مَنْ لاٰ يُجِبْ دٰاعِيَ اللّٰهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءُ الخ؛أى و من لم يؤمن بداعى اللّه فليس بمعجز للّه فى الأرض بردّ دعوته و ليس له من دون اللّه أولياء ينصرونه و يمدّونه فى ذلك،و المحصل:أن من لم يجب داعى اللّه فى دعوته فإنما ظلم نفسه و ليس له أن يعجز اللّه بذلك لا مستقلا و لا بنصره من ينصره من الأولياء فليس له أولياء من دون اللّه،و لذلك أتمّ الكلام بقوله: «أُولٰئِكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ» .

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقٰادِرٍ الخ؛الآيه و ما بعدها الى آخر السوره متصله بما تقدم من قوله تعالى:

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ أَذْهَبْتُمْ الخ؛و فيها تتميم القول فيما به الإنذار فى هذه

السوره و هو المعاد و الرجوع الى اللّه تعالى كما أشرنا اليه فى البيان المتقدم.

و المراد بـالرؤيه العلم عن بصـيره،و العىّ العجز و التعب،و الأـول أفصـح على مـا قيـل،و الباء فى «بِقٰادِرٍ» زائـده لوقوعها موقعا فيه شائبه حيّز النفى كأنه قيل:أ ليس اللّه بقادر.

و المعنى:أو لـم يعلمـوا أن اللّـه الـذى خلـق السـماوات و الأـرض و لـم يعجز عـن خلقهـن أو لم يتعب بخلقهن قـادر على إحيـاء الموتى-و هو تعالى مبدأ وجود كل شـيء و حياته-بلى هو قادر لأنه على كل شيء قدير،و قد أوضحنا هذه الحجه فيما تقدم غير مره.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ أَ لَيْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ الى آخر الآيه،تأييد للحجه المذكوره فى الآيه السابقه بالإخبار عما سيجرى على منكرى المعاد يوم القيامه،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعـالى: فَاصْبِرْ كَمٰا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُـلِ وَ لاٰ تَسْـتَعْجِلْ لَهُمْ الى آخر الآـيه،تفريع على حقيّه المعاد على ما دلّت عليه الحجه العقليه و أخبر به اللّه سبحانه و نفى الريب عنه.

و المعنى:فاصبر على جحود هؤلاء الكفار و عـدم إيمانهم بذاك اليوم كما صبر اولو العزم من الرسل و لا تسـتعجل لهم بالعذاب فإنهم سيلاقون اليوم بما فيه من العذاب و ليس اليوم عنهم ببعيد و إن استبعدوه.

و قوله: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مٰا يُوعَـدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَةً مِنْ نَهٰارٍ تبيين لقرب اليوم منهم و من حياتهم الـدنيا بالإخبار عن حالهم حينمـا يشاهـدون ذلك اليوم فإنهم إذا رأوا ما يوعـدون من اليوم و ما هيّئ لهم فيه من العـذاب كان حالهم حال من لم يلبث فى الأرض إلا ساعه من نهار.

و قوله: بَلاٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفٰاسِقُونَ أى هذا القرآن بما فيه من البيان تبليغ من اللّه من طريق النبوه فهل يهلك بهذا الذى بلّغه اللّه من الإهلاك إلا القوم الفاسقون

ص :٧١٥

الخارجون عن زىّ العبوديه.

و قد أمر اللّه سبحانه فى هذه الآيه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يصبر كما صبر اولو العزم من الرسل و فيه تلويح الى أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منهم فليصبر كصبرهم،و معنى العزم هاهنا إما الصبر كما قال بعضهم لقوله تعالى: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (الشورى/۴۳)،و إما العزم على الوفاء بالميثاق المأخوذ من الأنبياء كما يلوّح اليه قوله: وَ لَقَدْ عَهِدْنٰا إِلىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (طه/۱۱۵)،و إما العزم بمعنى العزيمه و هى الحكم و الشريعه.

و على المعنى الثالث و هو الحق الذى تذكره روايات أئمه أهل البيت عليهم السّلام هم خمسه:نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عليهم لقوله تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مٰا وَصّٰى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ وَ مٰا وَصَّيْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ (الشورى/۱۳)،و قد مر لقريب معنى الآيه (۱).

ص: ۷۱۶

۱- ۱) .الاحقاف ۲۹-۳۵:بحث روائى فى:نفر من الجن؛اولى العزم من الرسل.

سوره محمد مدنیه و هی ثمان و ثلاثون آیه

اشاره

[سوره محمد (۴۷): الآیات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ (۱) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ آمَنُوا بِمٰا نُزِّلَ عَلیٰ مُحَمَّدٍ وَ هُوَ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ کَفَّرَ عَنْهُمْ سَیِّئٰاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بٰالَهُمْ (۲) ذٰلِکَ بِأَنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا اِتَّبَعُوا اَلْبٰاطِلَ وَ أَنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا اِتَّبَعُوا اَلْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ کَذٰلِکَ یَضْرِبُ اَللّٰهُ لِلنّٰاسِ أَمْثٰالَهُمْ (۳) فَإِذٰا لَقِیتُمُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فَضَرْبَ اَلرِّقٰابِ حَتّٰی إِذٰا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا اَلْوَثٰاقَ فَإِمّٰا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّٰا فِدٰاءً حَتّٰی تَضَعَ اَلْحَرْبُ أَوْزٰارَهٰا ذٰلِکَ وَ لَوْ یَشٰاءُ اَللّٰهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لٰکِنْ لِیَبْلُوَا بَعْضَکُمْ بِبَعْضٍ وَ اَلَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ فَلَنْ یُضِلَّ أَعْمٰالَهُمْ (۴) سَیَهْدِیهِمْ وَ یُصْلِحُ بٰالَهُمْ (۵) وَ یُدْخِلُهُمُ اَلْجَنَّةَ عَرَّفَهٰا لَهُمْ (۶)

ص: ۷۱۷

بیان:

تصف السوره الذین کفروا بما یخصهم من الأوصاف الخبیثه و الأعمال السیئه و تصف الذین آمنوا بصفاتهم و أعمالهم الحسنه ثم تذکر ما یعقب صفات هؤلاء من النعمه و الکرامه و صفات اولئک من النقمه و الهوان و علی الجمله فیها المقایسه بین الفریقین فی صفاتهم و أعمالهم فی الدنیا و ما یترتب علیها فی الاخری،و فیها بعض ما یتعلق بالقتال من الأحکام.

و هی سوره مدنیه علی ما یشهد به سیاق آیاتها.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ فسر الصد بالإعراض عن سبیل اللّه و هو الإسلام کما عن بعضهم،و فسر بالمنع و هو منعهم الناس أن یؤمنوا بما کان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یدعوهم الیه من دین التوحید کما عن بعض آخر.

و ثانی التفسیرین أوفق لسیاق الآیات التالیه و خاصه ما یأمر المؤمنین بقتلهم و أسرهم و غیرهم.

فالمراد بالذین کفروا کفار مکه و من تبعهم فی کفرهم و قد کانوا یمنعون الناس عن الإیمان بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یفتنونهم،و صدوهم أیضا عن المسجد الحرام.

و قوله: أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ أی جعل أعمالهم ضاله لا تهتدی الی مقاصدها التی قصدت بها و هی بالجمله إبطال الحق و إحیاء الباطل فالجمله فی معنی ما تکرر منه تعالی من قوله:

وَ اللّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْکافِرِینَ (البقره/۲۶۴)،و قد وعد سبحانه بإحیاء الحق و إبطال الباطل کما فی قوله: لِیُحِقَّ الْحَقَّ وَ یُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (الأنفال/۸).

فالمراد من ضلال أعمالهم بطلانها و فسادها دون الوصول الی الغایه،و عد ذلک ضلالا من الاستعمار بالکنایه.

ص :۷۱۸

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ الخ؛ظاهر إطلاق صدر الآيه أن المراد بالذين آمنوا،الخ؛مطلق من آمن و عمل صالحا فيكون قوله: «وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ» تقييدا احترازيا لا تأكيدا و ذكرا لما تعلقت به العنايه فى الإيمان.

و قوله: وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ جمله معترضه و الضمير راجع الى ما نزل.

و قوله: كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بَالَهُمْ قال فى المجمع:البال الحال و الشأن و البال القلب أيضا يقال:خطر ببالى كذا،و البال لا يجمع لأنه أبهم أخواته من الحال و الشأن.

انتهى.

و قد قوبل إضلال الأعمال فى الآيه السابقه بتكفير السيئات و إصلاح البال فى هذه الآيه فمعنى ذلك هدايه إيمانهم و عملهم الصالح الى غايه السعاده،و إنما يتم ذلك بتكفير السيئات المانعه من الوصول الى السعاده،و لذلك ضمّ تكفير السيئات الى إصلاح البال.

و المعنى:ضرب اللّه الستر على سيئاتهم بالعفو و المغفره،و أصلح حالهم فى الدنيا و الآخره أما الدنيا فلأن الدين الحق هو الدين الذى يوافق ما تقتضيه الفطره الإنسانيه التى فطر اللّه الناس عليها،و الفطره لا تقتضى إلا ما فيه سعادتها و كمالها ففى الإيمان بما أنزل اللّه من دين الفطره و العمل به صلاح حال المؤمنين فى مجتمعهم الدنيوى،و أما فى الآخره فلأنها عاقبه الحياه الدنيا و إذا كانت فاتحتها سعيده كانت خاتمتها كذلك قال تعالى: وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوىٰ (طه/١٣٢).

قوله تعالى: ذٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ الخ؛تعليل لما فى الآيتين السابقتين من إضلال أعمال الكفار و إصلاح حال المؤمنين مع تكفير سيئاتهم.

و فى تقييد الحق بقوله: «مِنْ رَبِّهِمْ» إشاره الى أن المنتسب اليه تعالى هو الحق و لا نسبه

للباطل اليه و لذلك تولى سبحانه إصلاح بان المؤمنين لما ينتسب اليه طريق الحق الذى اتبعوه، و أما الكفار بأعمالهم فلا شأن له تعالى فيهم و أما انتساب ضلالهم اليه فى قوله: «أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ» فمعنى إضلال أعمالهم عدم هدايته لها الى غايات صالحه سعيده.

و فى الآيه إشاره الى أن الملاک کل الملاک فى سعاده الإنسان و شقائه اتباع الحق و اتباع الباطل و السبب فى ذلک انتساب الحق اليه تعالى دون الباطل.

و قوله: كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ أَمْثٰالَهُمْ أى يبيّن لهم أوصافهم على ما هى عليه،و فى الإتيان باسم الإشاره الموضوعه للبعيد تفخيم لأمر ما ضربه من المثل.

قوله تعالى: فَإِذٰا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقٰابِ الى آخر الآيه،تفريع على ما تقدم فى الآيات الثلاث من وصف الفريقين كأنه قيل:إذا كان المؤمنون أهل الحق و اللّه ينعم عليهم بما ينعم و الكفار أهل الباطل و اللّه يضلّ أعمالهم فعلى المؤمنين إذا لقوا الكفار أن يقتلوهم و يأسروهم ليحيا الحق الذى عليه المؤمنون و تطهر الأرض من الباطل الذى عليه الكفار.

فقوله: فَإِذٰا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقٰابِ المراد باللقاء اللقاء فى القتال و ضرب الرقاب مفعول مطلق قائم مقام فعله العامل فيه،و التقدير:فاضربوا الرقاب-أى رقابهم-ضربا و ضرب الرقبه كنايه عن القتل بالسيف،لأن أيسر القتل و أسرعه ضرب الرقبه به.

و قوله: حَتّٰى إِذٰا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثٰاقَ فى المجمع:الإثخان إكثار القتل و غلبه العدو و قهرهم و منه أثخنه المرض اشتدّ عليه و أثخنه الجراح.انتهى.و فى المفردات:

وثقت به أثق ثقه سكنت اليه و اعتمدت عليه،و أوثقته شددته،و الوثاق-بفتح الواو- و الوثاق-بكسر الواو-اسمان لما يوثق به الشىء.انتهى.و «حَتّٰى» غايه لضرب الرقاب، و المعنى:فاقتلوهم حتى إذا أكثرتم القتل فيهم فأسروهم بشدّ الوثاق و إحكامه فالمراد بشد

الوثاق الأسر فالآیه فی ترتب الأسر فیها علی الاثخان فی معنی قوله تعالی: مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ حَتّٰی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ (الأنفال۶۷/).

و قوله: فَإِمّٰا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّٰا فِدٰاءً أی فأسروهم و یتفرع علیه أنکم إما تمنون علیهم منا بعد الأسر فتطلقونهم أو تسترقونهم و إما تفدونهم فداء بالمال أو بمن لکم عندهم من الأساری.

و قوله: حَتّٰی تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزٰارَهٰا أوزار الحرب أثقالها و هی الأسلحه التی یحملها المحاربون و المراد به وضع المقاتلین و أهل الحرب أسلحتهم کنایه عن انقضاء القتال.

و قوله: ذٰلِکَ أی الأمر ذلک أی إن حکم اللّه هو ما ذکر فی الآیه.

و قوله: وَ لَوْ یَشٰاءُ اللّٰهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ الضمیر للکفار أی و لو شاء اللّه الانتقام منهم لانتقم منهم بإهلاکهم و تعذیبهم من غیر أن یأمرکم بقتالهم.

و قوله: وَ لٰکِنْ لِیَبْلُوَا بَعْضَکُمْ بِبَعْضٍ استدراک من مشیه الانتصار أی و لکن لم ینتصر منهم بل أمرکم بقتالهم لیمتحن بعضکم ببعض فیمتحن المؤمنین بالکفار یأمرهم بقتالهم لیظهر المطیعون من العاصین و یمتحن الکفار بالمؤمنین فیتمیز أهل الشقاء منهم ممن یوفق للتوبه من الباطل و الرجوع الی الحق.

و قد ظهر بذلک أن قوله: «لِیَبْلُوَا بَعْضَکُمْ بِبَعْضٍ» تعلیل للحکم المذکوره فی الآیه و الخطاب فی «بَعْضَکُمْ» لمجموع المؤمنین و الکفار و وجه الخطاب الی المؤمنین.

و قوله: وَ الَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اللّٰهِ فَلَنْ یُضِلَّ أَعْمٰالَهُمْ الکلام مسوق سوق الشرط و الحکم عام أی و من قتل فی سبیل اللّه و هو الجهاد و القتال مع أعداء الدین فلن یبطل أعمالهم الصالحه التی أتوا بها فی سبیل اللّه.

قوله تعالی: سَیَهْدِیهِمْ وَ یُصْلِحُ بٰالَهُمْ الضمیر للذین قتلوا فی سبیل اللّه فالآیه و ما یتلوها لبیان حالهم بعد الشهاده أی سیهدیهم اللّه الی منازل السعاده و الکرامه و یصلح حالهم

بالمغفره و العفو عن سیئاتهم فیصلحون لدخول الجنه.

و إذا انضمت هذه الآیه الی قوله تعالی: وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ اَلَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ أَمْوٰاتاً بَلْ أَحْیٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ (آل عمران/۱۶۹)،ظهر أن المراد بإصلاح بالهم إحیاؤهم حیاه یصلحون بها للحضور عند ربهم بانکشاف الغطاء.

و قال فی المجمع:و الوجه فی تکریر قوله: «بٰالَهُمْ» أن المراد بالأول أنه أصلح بالهم فی الدین و الدنیا،و بالثانی أنه یصلح حالهم فی نعیم العقبی فالأول سبب النعیم و الثانی نفس النعیم.

انتهی.و الفرق بین ما ذکره من المعنی و ما قدمناه أن قوله تعالی: «وَ یُصْلِحُ بٰالَهُمْ» علی ما ذکرنا کالعطف التفسیری لقوله: «سَیَهْدِیهِمْ» دون ما ذکره،و قوله الآتی: «وَ یُدْخِلُهُمُ الْجَنَّهَ» علی ما ذکره کالعطف التفسیری لقوله: «وَ یُصْلِحُ بٰالَهُمْ» دون ما ذکرناه.

قوله تعالی: وَ یُدْخِلُهُمُ الْجَنَّهَ عَرَّفَهٰا لَهُمْ غایه هدایته لهم،و قوله: «عَرَّفَهٰا لَهُمْ» حال من إدخاله إیاهم الجنه أی سیدخلهم الجنه و الحال أنه عرفها لهم إما بالبیان الدنیوی من طریق الوحی و النبوه و إما بالبشری عند القبض أو فی القبر أو فی القیامه أو فی جمیع هذه المواقف هذا ما یفیده السیاق من المعنی.

[سوره محمد (۴۷): الآیات ۷ الی ۱۵]

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اَللّٰهَ یَنْصُرْکُمْ وَ یُثَبِّتْ أَقْدٰامَکُمْ (۷) وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ (۸) ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ کَرِهُوا مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ فَأَحْبَطَ أَعْمٰالَهُمْ (۹) أَ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اَللّٰهُ عَلَیْهِمْ وَ لِلْکٰافِرِینَ أَمْثٰالُهٰا (۱۰) ذٰلِکَ بِأَنَّ اَللّٰهَ مَوْلَی اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ أَنَّ اَلْکٰافِرِینَ لاٰ مَوْلیٰ لَهُمْ (۱۱) إِنَّ اَللّٰهَ یُدْخِلُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا یَتَمَتَّعُونَ وَ یَأْکُلُونَ کَمٰا تَأْکُلُ اَلْأَنْعٰامُ وَ اَلنّٰارُ مَثْویً لَهُمْ (۱۲) وَ کَأَیِّنْ مِنْ قَرْیَهٍ هِیَ أَشَدُّ قُوَّهً مِنْ قَرْیَتِکَ اَلَّتِی أَخْرَجَتْکَ أَهْلَکْنٰاهُمْ فَلاٰ نٰاصِرَ لَهُمْ (۱۳) أَ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ کَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اِتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ (۱۴) مَثَلُ اَلْجَنَّهِ اَلَّتِی وُعِدَ اَلْمُتَّقُونَ فِیهٰا أَنْهٰارٌ مِنْ مٰاءٍ غَیْرِ آسِنٍ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ یَتَغَیَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّهٍ لِلشّٰارِبِینَ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّی وَ لَهُمْ فِیهٰا مِنْ کُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ وَ مَغْفِرَهٌ مِنْ رَبِّهِمْ کَمَنْ هُوَ خٰالِدٌ فِی اَلنّٰارِ وَ سُقُوا مٰاءً حَمِیماً فَقَطَّعَ أَمْعٰاءَهُمْ (۱۵)

بیان:

قوله تعالی: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ تحضيض لهم على الجهاد و وعد لهم بالنصر إن نصروا اللّه تعالى فالمراد بنصرهم للّه أن يجاهدوا فی سبيل اللّه على أن يقاتلوا لوجه اللّه تأييدا لدينه و إعلاء لكلمه الحق لا ليستعملوا فی الأرض أو ليصيبوا غنيمه أو ليظهروا نجده و شجاعه.

و المراد بنصر اللّه لهم توفيقه الأسباب المقتضيه لظهورهم و غلبتهم على عدوهم كإلقاء

الرعب فى قلوب الكفار و إداره الدوائر للمؤمنين عليهم و ربط جأش المؤمنين و تشجيعهم، و على هذا فعطف تثبيت الأقدام على النصر من عطف الخاص على العام و تخصيص تثبيت الأقدام،و هو كنايه عن التشجيع و تقويه القلوب،لكونه من أظهر أفراد النصر.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ ذكر ما يفعل بالكفار عقيب ذكر ما يفعل بالمؤمنين الناصرين للّه لقياس حالهم من حالهم.

و التعس هو سقوط الإنسان على وجهه و بقاؤه عليه و يقابله الانتعاش و هو القيام عن السقوط على الوجه فقوله: «فَتَعْساً لَهُمْ» أى تعسوا تعسا و هو ما يتلوه دعاء عليهم نظير قوله:

قاتَلَهُمُ اللّهُ أَنّى يُؤْفَكُونَ (التوبه/٣٠)، قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (عبس/١٧)،و يمكن أن يكون إخبارا عن تعسهم و بطلان أثر مساعيهم على نحو الكنايه فإن الإنسان أعجز ما يكون إذا كان ساقطا على وجهه.

قوله تعالى: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ المراد بما أنزل اللّه هو القرآن و الشرائع و الأحكام التى أنزلها اللّه تعالى على نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمر بإطاعتها و الانقياد لها فكرهوها و استكبروا عن اتباعها.

و الآيه تعليل مضمون الآيه السابقه،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها التدمير الإهلاك،يقال:دمّره اللّه أى أهلكه،و يقال:دمّر اللّه عليه أى أهلك ما يخصه من نفس و أهل و دار و عقار قد مرّ عليه أبلغ من دمّره كما قيل،و ضمير «أَمْثالُها» للعاقبه أو للعقوبه المدلول عليها بسابق الكلام.

و المراد بالكافرين الكافرون بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و المعنى:و للكافرين بك يا محمد أمثال تلك العاقبه أو العقوبه و إنما اوعدوا بأمثال العاقبه أو العقوبه و لا يحلّ بهم إلا مثل واحد لأنهم فى معرض عقوبات كثيره دنيويه و اخرويه و إن كان لا يحلّ بهم إلا بعضها،و يمكن أن يراد

بالكافرين مطلق الكافرين،و الجمله من باب ضرب القاعده.

قوله تعالى: ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لاٰ مَوْلىٰ لَهُمْ الإشاره بذلک الی ما تقدم من نصر المؤمنین و مقت الکافرین و سوء عاقبتهم،و لا یصغی الی ما قیل:إنه إشاره الی ثبوت عاقبه أو عقوبه الامم السالفه لهؤلاء،و کذا ما قیل:إنه إشاره الی نصر المؤمنین،و ذلک لأن الآیه متعرضه لحال الطائفتین:المؤمنین و الکافر جمیعا.

و المولی کأنه مصدر میمی أرید به المعنی الوصفی فهو بمعنی الولی و لذلک یطلق علی سید العبد و مالکه لأن له ولایه التصرف فی امور عبده،و یطلق علی الناصر لأنه یلی التصرف فی أمر منصوره بالتقویه و التأیید و اللّه سبحانه مولی لأنه المالک الذی یلی امور خلقه فی صراطه التکوین و یدبرها کیف یشاء،قال تعالی مٰا لَکُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لاٰ شَفِیعٍ (الم السجده/۴)،و قال وَ رُدُّوا إِلَی اللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ الْحَقِّ (یونس/۳۰)،و هو تعالی مولی لأنه یلی تدبیر امور عباده فی صراط السعاده فیهدیهم الی سعادتهم و الجنه و یوفقهم للصالحات و ینصرهم علی أعدائهم،و المولویه بهذا المعنی الثانی تختص بالمؤمنین،لأنهم هم الداخلون فی حظیره العبودیه المتبعون لما یریده منهم ربهم دون الکفار.

و للمؤمنین مولی و ولی هو اللّه سبحانه کما قال «ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ مَوْلَی الَّذِینَ آمَنُوا» ،و قال اَللّٰهُ وَلِیُّ الَّذِینَ آمَنُوا (البقره/۲۵۷)،و أما الکفار فقد اتخذوا الأصنام أو أرباب الأصنام أولیاء فهم أولیاؤهم علی ما زعموا کما قال بالبناء علی مزعمتهم بنوع من التهکم: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَوْلِیٰاؤُهُمُ الطّٰاغُوتُ (البقره/۲۵۷)،و نفی ولایتهم بالبناء علی حقیقه الأمر فقال:

«وَ أَنَّ الْکٰافِرِینَ لاٰ مَوْلیٰ لَهُمْ» ثم نفی ولایتهم مطلقا تکوینا و تشریعا مطلقا فقال: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیٰاءَ فَاللّٰهُ هُوَ الْوَلِیُّ (الشوری/۹)،و قال: إِنْ هِیَ إِلاّٰ أَسْمٰاءٌ سَمَّیْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُکُمْ (النجم/۲۳).

فمعنی الآیه:أن نصره تعالی للمؤمنین و تثبیته أقدامهم و خذلانه الکفار و إضلاله أعمالهم

و عقوبته لهم إنما ذلک بسبب أنه تعالی مولی المؤمنین و ولیّهم،و أن الکفار لا مولی لهم فینصرهم و یهدی أعمالهم و ینجیهم من عقوبته.

قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ یُدْخِلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ وَ الَّذِینَ کَفَرُوا یَتَمَتَّعُونَ وَ یَأْکُلُونَ کَمٰا تَأْکُلُ الْأَنْعٰامُ وَ النّٰارُ مَثْویً لَهُمْ مقایسه بین الفریقین و بیان أثر ولایه اللّٰه للمؤمنین و عدم ولایته للکفار من حیث العاقبه و الآخره و هی أن المؤمنین یدخلون الجنه و الکفار یقیمون فی النار.

و قد أشیر فی الکلام الی منشأ ما ذکر من الأثر حیث وصف کلا من الفریقین بما یناسب مآل حاله فأشار الی صفه المؤمنین بقوله: «الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ» و الی صفه الکفار بقوله: «یَتَمَتَّعُونَ وَ یَأْکُلُونَ کَمٰا تَأْکُلُ الْأَنْعٰامُ» فأفاد الوصفان بما بینهما من المقابله أن المؤمنین راشدون فی حیاتهم الدنیا مصیبون للحق حیث آمنوا باللّٰه و عملوا الأعمال الصالحه فسلکوا سبیل الرشد و قاموا بوظیفه الإنسانیه،و أما الکفار فلا عنایه لهم بإصابه الحق و لا تعلق لقلوبهم بوظائف الإنسانیه،و إنما همّهم بطنهم و فرجهم یتمتعون فی حیاتهم الدنیا القصیره و یأکلون کما تأکل الأنعام لا منیه لهم إلا ذلک و لا غایه لهم وراءه.

فهؤلاء أی المؤمنون تحت ولایه اللّٰه حیث یسلکون مسلکا یریده منهم ربهم و یهدیهم الیه و لذلک یدخلهم فی الآخره جنات تجری من تحتها الأنهار،و أولئک أی الکفار ما لهم من ولی و إنما وکلوا الی أنفسهم و لذلک کان مثواهم و مقامهم النار.

و إنما نسب دخول المؤمنین الجنات الی اللّٰه نفسه دون إقامه الکفار فی النار قضاء لحق الولایه المذکوره فله تعالی عنایه خاصه بأولیائه،و أما المنسلخون من ولایته فلا یبالی فی أی واد هلکوا.

قوله تعالی: وَ کَأَیِّنْ مِنْ قَرْیَهٍ هِیَ أَشَدُّ قُوَّهً مِنْ قَرْیَتِکَ الَّتِی أَخْرَجَتْکَ أَهْلَکْنٰاهُمْ فَلاٰ نٰاصِرَ لَهُمْ المراد بالقریه أهل القریه بدلیل قوله بعد: «أَهْلَکْنٰاهُمْ» الخ؛

ص: ۷۲۶

و القريه التى أخرجته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى مكه.

و فى الآيه تقويه لقلب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تهديد لأهل مكه و تحقير لأمرهم أن اللّه أهلك قرى كثيره كل منها أشد قوه من قريتهم و لا ناصر لهم ينصرهم.

قوله تعالى: أَ فَمَنْ كٰانَ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ السياق الجارى على قياس حال المؤمنين بحال الكفار يدل على أن المراد بمن كان على بينه من ربه هم المؤمنون فالمراد بكونهم على بينه من ربهم كونهم على دلاله بينه من ربهم توجب اليقين على ما اعتقدوا عليه و هى الحجه البرهانيه فهم إنما يتبعون الحجه القاطعه على ما هو الحرى بالإنسان الذى من شأنه أن يستعمل العقل و يتبع الحق.

و أما الذين كفروا فقد شغفهم أعمالهم السيئه التى زينها لهم الشيطان و تعلقت بها أهواؤهم و عملوا السيئات،فكم بين الفريقين من فرق.

قوله تعالى: مَثَلُ الْجَنَّهِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ الى آخر الآيه؛يفرق بين الفريقين ببيان مآل أمرهما و هو فى الحقيقه توضيح ما مر فى قوله: «إِنَّ اللّٰهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛من الفرق بينهما فهذه الآيه فى الحقيقه تفصيل تلك الآيه.

فقوله: مَثَلُ الْجَنَّهِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ المثل بمعنى الصفه-كما قيل-أى صفه الجنه التى وعد اللّه المتقين أن يدخلهم فيها،و ربما حمل المثل على معناه المعروف و استفيد منه أن الجنه أرفع و أعلى من أن يحيط بها الوصف و يحدها اللفظ و إنما تقرب الى الأذهان نوع تقريب بأمثال مضروبه كما يلوح اليه قوله تعالى: فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّهِ أَعْيُنٍ (السجده/۱۷).

و قد بدل قوله فى الآيه السابقه: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ» فى هذه الآيه من قوله:

«الْمُتَّقُونَ» تبديل اللازم من الملزوم فإن تقوى اللّه يستلزم الإيمان به و عمل الصالحات من الأعمال.

و قوله: فِيهٰا أَنْهٰارٌ مِنْ مٰاءٍ غَيْرِ آسِنٍ أى غير متغير بطول المقام،و قوله:

«وَ أَنْهٰارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ» كما فى ألبان الدنيا،و قوله: «وَ أَنْهٰارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّٰارِبِينَ» أى لذيذه للشاربين،و اللذه إما صفه مشبهه مؤنثه وصف للخمر،و إما مصدر وصفت به الخمر مبالغه،و إما بتقدير مضاف أى ذات لذه،و قوله: «وَ أَنْهٰارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى» أى خالص من الشمع و الرغوه و القذى و سائر ما فى عسل الدنيا من الأذى و العيوب،و قوله: «وَ لَهُمْ فِيهٰا مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰاتِ» جمع للتعميم.

و قوله: وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ينمحى بها عنهم كل ذنب و سيئه فلا تتكدر عيشتهم بمكدر و لا يتنغص بمنغص،و فى التعبير عنه تعالى بربهم إشاره الى غشيان الرحمه و شمول الحنان و الرأفه الإلهيه.

و قوله: كَمَنْ هُوَ خٰالِدٌ فِي النّٰارِ قياس محذوف أحد طرفيه أى أ من يدخل الجنه التى هذا مثلها كمن هو خالد فى النار و شرابهم الماء الشديد الحراره الذى يقطع أمعاءهم و ما فى جوفهم من الأحشاء إذا سقوه،و إنما يسقونه و هم مكرهون كما فى قوله: «وَ سُقُوا مٰاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعٰاءَهُمْ» ،و قيل:قوله: «كَمَنْ هُوَ خٰالِدٌ» الخ؛بيان لقوله فى الآيه السابقه: «كَمَنْ زُيِّنَ» الخ؛و هو كما ترى.

[سوره محمد (۴۷): الآيات ۱۶ الى ۳۲]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتّٰى إِذٰا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قٰالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ مٰا ذٰا قٰالَ آنِفاً أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ طَبَعَ اَللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ اِتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ (۱۶) وَ اَلَّذِينَ اِهْتَدَوْا زٰادَهُمْ هُدىً وَ آتٰاهُمْ تَقْوٰاهُمْ (۱۷) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ اَلسّٰاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جٰاءَ أَشْرٰاطُهٰا فَأَنّٰى لَهُمْ إِذٰا جٰاءَتْهُمْ ذِكْرٰاهُمْ (۱۸) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اَللّٰهُ وَ اِسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْوٰاكُمْ (۱۹) وَ يَقُولُ اَلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا اَلْقِتٰالُ رَأَيْتَ اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ اَلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ اَلْمَوْتِ فَأَوْلىٰ لَهُمْ (۲۰) طٰاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذٰا عَزَمَ اَلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اَللّٰهَ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ (۲۱) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي اَلْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحٰامَكُمْ (۲۲) أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ لَعَنَهُمُ اَللّٰهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمىٰ أَبْصٰارَهُمْ (۲۳) أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْآنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا (۲۴) إِنَّ اَلَّذِينَ اِرْتَدُّوا عَلىٰ أَدْبٰارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ اَلْهُدَى اَلشَّيْطٰانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلىٰ لَهُمْ (۲۵) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مٰا نَزَّلَ اَللّٰهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ اَلْأَمْرِ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ إِسْرٰارَهُمْ (۲۶) فَكَيْفَ إِذٰا تَوَفَّتْهُمُ اَلْمَلاٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ (۲۷) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اِتَّبَعُوا مٰا أَسْخَطَ اَللّٰهَ وَ كَرِهُوا رِضْوٰانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمٰالَهُمْ (۲۸) أَمْ حَسِبَ اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اَللّٰهُ أَضْغٰانَهُمْ (۲۹) وَ لَوْ نَشٰاءُ لَأَرَيْنٰاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمٰاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ اَلْقَوْلِ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ أَعْمٰالَكُمْ (۳۰) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتّٰى نَعْلَمَ اَلْمُجٰاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ اَلصّٰابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبٰارَكُمْ (۳۱) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ شَاقُّوا اَلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ اَلْهُدىٰ لَنْ يَضُرُّوا اَللّٰهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمٰالَهُمْ (۳۲)

بیان:

قوله تعالی: وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْتَمِعُ إِلَیْکَ حَتّٰی إِذٰا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِکَ قٰالُوا لِلَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ مٰا ذٰا قٰالَ آنِفاً الخ؛آنفا اسم فاعل منصوب علی الظرفیه أو لکونه مفعولا-فیه،و معناه الساعه التی قبیل ساعتک،و قیل:معناه هذه الساعه و هو علی أی حال مأخوذ من الأنف بمعنی الجارحه.

و قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْتَمِعُ إِلَیْکَ الضمیر للذین کفروا،و المراد باستماعهم الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إصغاؤهم الی ما یتلوه من القرآن و ما یبیّن لهم من اصول المعارف و شرائع الدین.

و قوله: حَتّٰی إِذٰا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِکَ الضمیر للموصول و جمع الضمیر باعتبار المعنی کما أن إفراده فی «یَسْتَمِعُ» باعتبار اللفظ.

و قوله: قٰالُوا لِلَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ مٰا ذٰا قٰالَ آنِفاً المراد بالذین أوتوا العلم العلماء

ص :۷۳۰

باللّه من الصحابه،و الضمیر فی «مٰا ذٰا قٰالَ» للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و الاستفهام فی قولهم: «مٰا ذٰا قٰالَ آنِفاً» قیل:للاستعلام حقیقه لأن استغراقهم فی الکبر و الغرور و اتباع الأهواء ما کان یدعهم أن یفقهوا القول الحق کما قال تعالی فَمٰا لِهٰؤُلاٰءِ الْقَوْمِ لاٰ یَکٰادُونَ یَفْقَهُونَ حَدِیثاً (النساء/۷۸)،و قیل:للاستهزاء،و قیل:للتحقیر کأن القول لکونه مشحونا بالأباطیل لا یرجع الی معنی محصّل،و لکل من المعانی الثلاثه وجه.

و قوله: أُولٰئِکَ الَّذِینَ طَبَعَ اللّٰهُ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ تعریف لهم،و قوله: «وَ اتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ» تعریف بعد تعریف فهو کعطف التفسیر،و یتحصل منه أن اتباع الأهواء أماره الطبع علی القلب فالقلب غیر المطبوع علیه الباقی علی طهاره الفطره الأصلیه لا یتوقف فی فهم المعارف الدینیه و الحقائق الإلهیه.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ اهْتَدَوْا زٰادَهُمْ هُدیً وَ آتٰاهُمْ تَقْوٰاهُمْ المقابله الظاهره بین الآیه و بین الآیه السابقه یعطی أن المراد بالاهتداء ما یقابل الضلال الملازم للطبع علی القلب و هو التسلیم لما تهدی الیه الفطره السلیمه و اتباع الحق،و زیاده هداهم من اللّه سبحانه رفعه تعالی درجه إیمانهم،و قد تقدم أن الهدی و الإیمان ذو مراتب مختلفه،و المراد بالتقوی ما یقابل اتباع الأهواء و هو الورع عن محارم اللّه و التجنب عن ارتکاب المعاصی.

قوله تعالی: فَهَلْ یَنْظُرُونَ إِلاَّ السّٰاعَهَ أَنْ تَأْتِیَهُمْ بَغْتَهً فَقَدْ جٰاءَ أَشْرٰاطُهٰا الخ؛النظر هو الانتظار،و الأشراط جمع شرط بمعنی العلامه،و الأصل فی معناه الشرط بمعنی ما یتوقف علیه وجود الشیء لأن تحققه علامه تحقق الشیء فأشراط الساعه علاماتها الداله علیها.

و سیاق الآیه سیاق التهکم کأنهم واقفون موقفا علیهم إما أن یتبعوا الحق فتسعد بذلک عاقبتهم،و إما أن ینتظروا الساعه حتی إذا أیقنوا بوقوعها و أشرفوا علیها تذکروا و آمنوا و اتبعوا الحق أما اتباع الحق الیوم فلم یخضعوا له بحجه أو بموعظه أو عبره،و أما انتظارهم

مجیء الساعه لیتذکروا عنده فلا ینفعهم شیئا فإنها تجیء بغته و لا تمهلهم شیئا حتی یستعدوا لها بالذکری و إذا وقعت لم ینفعهم الذکری لأن الیوم یوم جزاء لا یوم عمل قال تعالی یَوْمَئِذٍ یَتَذَکَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنّی لَهُ الذِّکْری یَقُولُ یا لَیْتَنِی قَدَّمْتُ لِحَیاتِی (الفجر/۲۴).

مضافا الی أن أشراطها و علاماتها قد جاءت و تحققت،و لعل المراد بأشراطها خلق الإنسان و انقسام نوعه الی صلحاء و مفسدین و متقین و فجّار المستدعی للحکم الفصل بینهم و نزول الموت علیهم فإن ذلک کله من شرائط وقوع الواقعه و إتیان الساعه،و قیل:المراد بأشراط الساعه ظهور النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو خاتم الأنبیاء و انشقاق القمر و نزول القرآن و هو آخر الکتب السماویه.

هذا ما یعطیه التدبر فی الآیه من المعنی و هی-کما تری-حجه برهانیه فی عین أنها مسوقه سوق التهکم.

و علیه فقوله: «بَغْتَهً» حال من الإتیان جیء به لبیان الواقع و لیتفرع علیه قوله الآتی:

«فَأَنّی لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِکْراهُمْ» و لیس قیدا للانتظار حتی یفید أنهم إنما ینتظرون إتیانها بغته، و لدفع هذا التوهم قیل «إِلَّا السّاعَهَ أَنْ تَأْتِیَهُمْ بَغْتَهً» و لم یقل:إلا أن تأتیهم الساعه بغته.

و قوله: فَأَنّی لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِکْراهُمْ أنی خبر مقدم و «ذِکْراهُمْ» مبتدأ مؤخر و «إِذا جاءَتْهُمْ» معترضه بینهما،و المعنی:فکیف یکون لهم أن یتذکروا إذا جاءتهم؟أی کیف ینتفعون بالذکری فی یوم لا ینفع العمل الذی یعمل فیه و إنما هو یوم الجزاء.

قوله تعالی: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ الخ؛قیل:هو متفرع علی جمیع ما تقدم فی السوره من سعاده المؤمنین و شقاوه الکفار کأنه قیل:إذا علمت أن الأمر کما ذکر من سعاده هؤلاء و شقاوه أولئک فاثبت علی ما أنت علیه من العلم بوحدانیه اللّه سبحانه فمعنی الأمر بالعلم علی هذا هو الأمر بالثبات علی العلم.

و يمكن أن يكون تفريعا على ما بينه فى الآيتين السابقتين أعنى قوله: «وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ -الى قوله- وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» من أنه تعالى يطبع على قلوب المشركين و يتركهم و ذنوبهم و يعكس الأمر فى الذين اهتدوا الى توحيده و الإيمان به فكأنه قيل:إذا كان الأمر على ذلك فاستمسك بعلمك بوحدانيه الإله و اطلب مغفره ذنبك و مغفره امتك من المؤمنين بك و المؤمنات حتى لا تكون ممن يطبع اللّه على قلبه و يحرمه التقوى بتركه و ذنوبه،و يؤيد هذا الوجه قوله فى ذيل الآيه: «وَ اللّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ» .

فقوله: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللّهُ معناه على ما يؤيده السياق فاستمسك بعلمك أنه لا إله إلا اللّه،و قوله: «وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ» تقدم الكلام فى معنى الذنب المنسوب اليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سيأتى أيضا فى تفسير أول سوره الفتح إن شاء اللّه تعالى.

و قوله: وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ أمر بطلب المغفره للامه من المؤمنين و المؤمنات و حاشا أن يأمر تعالى بالاستغفار و لا يوجهه بالمغفره أو بالدعاء و لا يقابله بالاستجابه.

و قوله: وَ اللّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ تعليل لما فى صدر الآيه «فَاعْلَمْ أَنَّهُ» الخ، و الظاهر أن المتقلب مصدر ميمى بمعنى الانتقال من حال الى حال،و كذلك المثوى بمعنى الاستقرار و السكون،و المراد أنه تعالى يعلم كل أحوالكم من متغيّر و ثابت و حركه و سكون فاثبتوا على توحيده و اطلبوا مغفرته،و احذروا أن يطبع على قلوبكم و يترككم و أهواءكم.

قوله تعالى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ الى آخر الآيه،لو لا تحضيضيه أى هلاّ أنزلت سوره يظهرون بها الرغبه فى نزول سوره جديده تأتيهم بتكاليف جديده يمتثلونها،و المراد بالسوره المحكمه المبيّنه التى لا تشابه فيها،و المراد بذكر القتال الأمر به.

و المراد بالذين فى قلوبهم مرض،الضعفاء الإيمان من المؤمنين دون المنافقين فإن الآيه

صریحه فی أن الـذین أظهروا الرغبه فی نزولها هم الذین آمنوا،و لا یعمّ الذین آمنوا للمنافقین إلا علی طریق المساهله غیر اللائقه بکلام اللّه تعالی فالآیه کقوله تعالی فی فریق من المؤمنین:

أ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ قِیلَ لَهُمْ کُفُّوا أَیْدِیَکُمْ وَ أَقِیمُوا الصَّلاهَ وَ آتُوا الزَّکاهَ فَلَمّا کُتِبَ عَلَیْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِیقٌ مِنْهُمْ یَخْشَوْنَ النّاسَ کَخَشْیَهِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْیَهً (النساء/۷۷).

و المغشی علیه من الموت هو المحتضر،یقال:غشیه غشاوه إذا ستره و غطّاه و غشی علی فلان-بالبناء-للمفعول-إذا نابه ما غشی فهمه،و نظر المغشی علیه من الموت إشخاصه ببصره الیک من غیر أن یطرف.

و قوله: فَأَوْلی لَهُمْ لعله خبر لمبتدإ محذوف،و التقدیر:أولی لهم ذلک أی حریّ بهم أن ینظروا کذلک أی أن یحتضروا فیموتوا،و عن الأصمعی أن قولهم:«أولی لک»کلمه تهدید معناه ولیک و قارنک ما تکره،و الآیه نظیره قوله تعالی: أَوْلی لَکَ فَأَوْلی ثُمَّ أَوْلی لَکَ فَأَوْلی (القیامه/۳۵).

و معنی الآیه:و یقول الذین آمنوا هلا أنزلت سوره فإذا أنزلت سوره محکمه لا تشابه فیها و امروا فیها بالقتال و الجهاد رأیت ضعفاء الإیمان منهم ینظرون الیک من شده الخشیه نظر المحتضر فأولی لهم ذلک.

قوله تعالی: طاعَهٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللّهَ لَکانَ خَیْراً لَهُمْ عزم الأمر أی جد و تنجز.

و قوله: «طاعَهٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ» کأنه خبر لمبتدإ محذوف و التقدیر أمرنا-أو أمرهم و شأنهم-أی إیمانهم بنا طاعه واثقونا علیها و قول معروف غیر منکر قالوا لنا و هو إظهار السمع و الطاعه کما یحکیه تعالی عنهم بقوله: آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَیْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ -الی أن قال- وَ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا (البقره/۲۸۵).

و علی هذا یتصل قوله بعده: «فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللّهَ لَکانَ خَیْراً لَهُمْ» بما قبله

اتصالا بینا،و المعنی:أن الأمر هو ما واثقوا اللّه علیه من قولهم:سمعنا و أطعنا فلو أنهم حین عزم الأمر صدقوا اللّه فیما قالوا و أطاعوه فیما یأمر به و منه أمر القتال لکان خیرا لهم.

و یحتمل أن یکون قوله: «طٰاعَةٌ» الخ؛خبرا لضمیر عائد الی القتال المذکور و التقدیر القتال المذکور فی السوره طاعه منهم و قول معروف فلو أنهم حین عزم الأمر صدقوا اللّه فی إیمانهم و أطاعوه به لکان خیرا لهم.أما کونه طاعه منهم فظاهر،و أما کونه قولا معروفا فلأن إیجاب القتال و الأمر بالدفاع عن المجتمع الصالح لإبطال کید أعدائه قول معروف یعرفه العقل و العقلاء.

قوله تعالی: فَهَلْ عَسَیْتُمْ إِنْ تَوَلَّیْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحٰامَکُمْ الخطاب للذین فی قلوبهم مرض المتثاقلین فی أمر الجهاد فی سبیل اللّه،و قد التفت الیهم بالخطاب لزیاده التوبیخ و التقریع،و الاستفهام للتقریر،و التولی الإعراض و المراد به الإعراض عن کتاب اللّه و العمل بما فیه و العود الی الشرک و رفض الدین.

و المعنی:فهل یتوقع منکم إن أعرضتم عن کتاب اللّه و العمل بما فیه و منه الجهاد فی سبیل اللّه أن تفسدوا فی الأرض و تقطّعوا أرحامکم بسفک الدماء و نهب الأموال و هتک الأعراض تکالبا علی جیفه الدنیا أی إن تولیتم کان المتوقع منکم ذلک.

قوله تعالی: أُولٰئِکَ الَّذِینَ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمیٰ أَبْصٰارَهُمْ الإشاره الی المفسدین فی الأرض المقطعین للأرحام و قد وصفهم اللّه بأنه لعنهم فأصمّهم و أذهب بسمعهم فلا یسمعون القول الحق و أعمی أبصارهم فلا یرون الرأی الحق فإنها لا تعمی الأبصار و لکن تعمی القلوب التی فی الصدور.

قوله تعالی: أَ فَلاٰ یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلیٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا الاستفهام للتوبیخ و ضمیر الجمع راجع الی المذکورین فی الآیه السابقه،و تنکیر «قُلُوبٍ» کما قیل للدلاله علی أن المراد قلوب هؤلاء و أمثالهم.

قال فی مجمع البیان:و فی هذا دلاله علی بطلان قول من قال:لا یجوز تفسیر شیء من ظاهر القرآن إلا بخبر و سمع.انتهی.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ ارْتَدُّوا عَلی أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُمُ الْهُدَی الشَّیْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلی لَهُمْ الارتداد علی الأدبار الرجوع الی الاستدبار بعد الاستقبال و هو استعاره أرید بها الترک بعد الأخذ،و التسویل تزیین ما تحرض النفس علیه و تصویر القبیح لها فی صوره الحسن،و المراد بالإملاء الإمداد أو تطویل الآمال.

قوله تعالی: ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِینَ کَرِهُوا ما نَزَّلَ اللّهُ سَنُطِیعُکُمْ فِی بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللّهُ یَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ الإشاره بذلک الی تسویل الشیطان و إملائه و بالجمله تسلطه علیهم،و المراد «لِلَّذِینَ کَرِهُوا ما نَزَّلَ اللّهُ» هم الذین کفروا کما تقدم فی قوله:

وَ الَّذِینَ کَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ ذلِکَ بِأَنَّهُمْ کَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللّهُ (الآیه ۹ من السوره).

و قوله: سَنُطِیعُکُمْ فِی بَعْضِ الْأَمْرِ مقول قولهم و وعد منهم للکفار بالطاعه و هو کما یلوح من تقیید الطاعه ببعض الأمر علی نحو الإجمال کلام من لا یقدر علی التظاهر بطاعه من یرید طاعته فی جمیع الامور لکونه علی خطر من التظاهر بالطاعه المطلقه فیسرّ الی من یعده أنه سیطیعه فی بعض الأمر و فیما تیسّر له ذلک ثم یکتم ذلک و یقعد متربصا للدوائر.

و یستفاد من ذلک أن هؤلاء کانوا قوما من المنافقین أسرّوا الی الکفار ما حکاه تعالی عنهم و وعدهم الطاعه لهم مهما تیسر لهم ذلک،و یؤید ذلک قوله تعالی بعد: «وَ اللّهُ یَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ» .

قوله تعالی: فَکَیْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِکَهُ یَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ متفرع علی ما قبله،و المعنی:هذا حالهم الیوم یرتدّون بعد تبین الهدی لهم فیفعلون ما یشاءون

فكيف حالهم إذا توفتهم الملائكه و هم يضربون وجوهم و أدبارهم.

قوله تعالى: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مٰا أَسْخَطَ اللّٰهَ وَ كَرِهُوا رِضْوٰانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمٰالَهُمْ الظاهر أن المراد بما أسخط اللّه أهواء النفس و تسويلات الشيطان المستتبعه للمعاصى و الذنوب الموبقه كما قال تعالى «وَ اتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ» ،و قال «الشَّيْطٰانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلىٰ لَهُمْ» .

و السخط و الرضا من صفاته تعالى الفعليه و المراد بهما العقاب و الثواب.

و الإشاره فى قوله: «ذٰلِكَ» الى ما ذكر فى الآيه السابقه من عذاب الملائكه لهم عند توفيهم أى سبب عقابهم أن أعمالهم حابطه لاتباعهم ما أسخط اللّه و كراهتهم رضوانه،و إذا لا عمل لهم صالحا يشقون بالعذاب.

قوله تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللّٰهُ أَضْغٰانَهُمْ قال الراغب:الضغن-بكسر الضاد-و الضغن-بضمّها- الحقد الشديد و جمعه أضغان انتهى.و المراد بالذين فى قلوبهم مرض الضعفاء الإيمان و لعلهم الذين آمنوا أولا على ضعف فى إيمانهم ثم مالوا الى النفاق و ارتدوا بعد الإيمان،فالتدبر الدقيق فى تاريخ صدر الإسلام يوضح أن قوما ممن آمن بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا على هذه الصفه كما أن قوما منهم آخرين كانوا منافقين من أول يوم آمنوا الى آخر عمرهم،و على هذا فعدّهم من المؤمنين فيما تقدم بملاحظه بادئ أمرهم.

و المعنى:بل ظن هؤلاء المنافقون الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج اللّه و لن يظهر أحقادهم للدين و أهله.

قوله تعالى: وَ لَوْ نَشٰاءُ لَأَرَيْنٰاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمٰاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ أَعْمٰالَكُمْ السيماء العلامه،و المعنى:و لو نشاء لأريناك اولئك المرضى القلوب فلعرفتهم بعلامتهم التى أعلمناهم بها.

ص: ٧٣٧

و قوله: وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِی لَحْنِ الْقَوْلِ قال الراغب:اللحن صرف الکلام عن سننه الجاری علیه:إما بإزاله الإعراب أو التصحیف و هو المذموم،و ذلک أکثر استعمالا،و إما بإزالته عن التصریح و صرفه الی تعریض و فحوی،و هو محمود عند أکثر الادباء من حیث البلاغه.انتهی.

فالمعنی:و لتعرفنهم من جنس قولهم بما یشتمل علیه من الکنایه و التعریض،و فی جعل لحن القول ظرفا للمعرفه نوع من العنایه المجازیه.

و قوله: وَ اللّهُ یَعْلَمُ أَعْمالَکُمْ أی یعلم حقائقها و أنها من أی القصود و النیّات صدرت فیجازی المؤمنین بصالح أعمالهم و غیرهم بغیرها،ففیه وعد للمؤمنین و وعید لغیرهم.

قوله تعالی: وَ لَنَبْلُوَنَّکُمْ حَتّی نَعْلَمَ الْمُجاهِدِینَ مِنْکُمْ وَ الصّابِرِینَ وَ نَبْلُوَا أَخْبارَکُمْ البلاء و الابتلاء الامتحان و الاختبار،و الآیه بیان عله کتابه القتال علی المؤمنین،و هو الاختبار الإلهی لیمتاز به المجاهدون فی سبیل اللّه الصابرون علی مشاق التکالیف الإلهیه.

و قوله: وَ نَبْلُوَا أَخْبارَکُمْ کأن المراد بالأخبار الأعمال من حیث إنها تصدر عن العاملین فیکون أخبارا لهم یخبر بها عنهم،و اختبار الأعمال یمتاز به صالحها من طالحها کما أن اختبار النفوس یمتاز به النفوس الصالحه الخیّره و قد تقدم فیما تقدم أن المراد بالعلم الحاصل له تعالی من امتحان عباده هو ظهور حال العباد بذلک،و بنظر أدق هو علم فعلی له تعالی خارج عن الذات.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُمُ الْهُدی لَنْ یَضُرُّوا اللّهَ شَیْئاً وَ سَیُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ المراد بهؤلاء رؤساء الضلال من کفار مکه و من یلحق بهم لأنهم الذین صدّوا عن سبیل اللّه و شاقّوا الرسول و عادوه أشد المعاداه بعد ما تبین لهم الهدی.

و قوله: لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئاً لأن كيد الإنسان و مكره لا يرجع إلا الى نفسه و لا يضرّ إلا إياه،و قوله: «وَ سَيُحْبِطُ أَعْمٰالَهُمْ» أى مساعيهم لهدم أساس الدين و ما عملوه لإطفاء نور اللّه،و قيل:المراد إحباط أعمالهم و إبطالها فلا يثابون فى الآخره على شىء من أعمالهم، و المعنى الأول أنسب للسياق لأن فيه تحريض المؤمنين و تشجيعهم على قتال المشركين و تطييب نفوسهم أنهم هم الغالبون كما تفيده الآيات التاليه (۱).

[سوره محمد (۴۷): الآيات ۳۳ الى ۳۸]

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اَللّهَ وَ أَطِيعُوا اَلرَّسُولَ وَ لاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَكُمْ (۳۳) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّهِ ثُمَّ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اَللّهُ لَهُمْ (۳۴) فَلاٰ تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى اَلسَّلْمِ وَ أَنْتُمُ اَلْأَعْلَوْنَ وَ اَللّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمٰالَكُمْ (۳۵) إِنَّمَا اَلْحَيٰاةُ اَلدُّنْيٰا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لاٰ يَسْئَلْكُمْ أَمْوٰالَكُمْ (۳۶) إِنْ يَسْئَلْكُمُوهٰا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغٰانَكُمْ (۳۷) هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اَللّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمٰا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اَللّهُ اَلْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ اَلْفُقَرٰاءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاٰ يَكُونُوا أَمْثٰالَكُمْ (۳۸)

ص: ۷۳۹

۱- ۱) .محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۱۶-۳۲:بحث روائى حول الساعه و اشراطها؛الاستغفار؛حب على عليه السّلام.

بیان:

قوله تعالی: یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ لاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَکُمْ الآیه و إن کانت فی نفسها مستقله فی مدلولها مطلقه فی معناها حتی استدلّ الفقهاء بقوله فیها: «وَ لاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَکُمْ» علی حرمه إبطال الصلاه بعد الشروع فیها لکنها من حیث وقوعها فی سیاق الآیات السابقه المتعرضه لأمر القتال،و کذا الآیات اللاحقه الجاریه علی السیاق و خاصه ما فی ظاهر قوله: «إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا» الخ؛من التعلیل و ما فی قوله: «فَلاٰ تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَی السَّلْمِ» الخ؛من التفریع،و بالجمله الآیه بالنظر الی سیاقها تدلّ علی إیجاب طاعه اللّه سبحانه فیما أنزل من الکتاب و شرّع من الحکم و إیجاب طاعه الرسول فیما بلّغ عن اللّه سبحانه،و فیما یصدر من الأمر من حیث ولایته علی المؤمنین فی المجتمع الدینی،و علی تحذیر المؤمنین من إبطال أعمالهم بفعل ما یوجب حبط أعمالهم کما ابتلی به اولئک الضعفاء الإیمان المائلون الی النفاق الذین انجرّ أمر بعضهم أن ارتدّوا بعد ما تبین لهم الهدی.

فالمراد بحسب المورد من طاعه اللّه طاعته فیما شرّع و أنزل من حکم القتال،و من طاعه الرسول طاعته فیما بلّغ منه و فیما أمر به منه و من مقدماته بما له من الولایه فیه و بإبطال الأعمال التخلف عن حکم القتال کما تخلف المنافقون و أهل الردّه.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ ثُمَّ مٰاتُوا وَ هُمْ کُفّٰارٌ فَلَنْ یَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ ظاهر السیاق أنه تعلیل لمضمون الآیه السابقه فیفید أنکم لو لم تطیعوا اللّه و رسوله و أبطلتم أعمالکم باتباع ما أسخط اللّه و کراهه رضوانه أدّاکم ذلک الی اللحوق بأهل الکفر و الصد و لا مغفره لهم بعد موتهم کذلک أبدا.

و المراد بالصد عن سبیل اللّه الإعراض عن الإیمان أو منع الناس أن یؤمنوا.

قوله تعالی: فَلاٰ تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَی السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللّٰهُ مَعَکُمْ وَ لَنْ یَتِرَکُمْ أَعْمٰالَکُمْ تفریع علی ما تقدم،و قوله: «فَلاٰ تَهِنُوا» من الوهن بمعنی الضعف و الفتور،و قوله: «وَ تَدْعُوا إِلَی السَّلْمِ» معطوف علی «تَهِنُوا» واقع فی حیز النهی أی و لا تدعوا الی السلم،و السلم-بفتح السین-الصلح،و قوله: «وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ» جمله حالیه أی لا تفعلوا الصلح،و قوله: «وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ» جمله حالیه أی لا تفعلوا ذلک و الحال أنکم الغالبون،و المراد بالعلوّ الغلبه و هی استعاره مشهوره.

و قوله: وَ اللّٰهُ مَعَکُمْ معطوف علی «وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ» یبین سبب علوّهم و یعلله فالمراد بمعیّته تعالی لهم معیّه النصر دون المعیّه القیّومیه التی یشیر إلیها قوله تعالی: وَ هُوَ مَعَکُمْ أَیْنَ مٰا کُنْتُمْ (الحدید/۴).

و قوله: وَ لَنْ یَتِرَکُمْ أَعْمٰالَکُمْ قال فی المجمع:یقال:وتره یتره و ترا إذا نقصه و منه الحدیث (۱)فکأنه وتر أهله و ماله،و أصله القطع و منه التره القطع بالقتل و منه الوتر المنقطع بانفراده عن غیره.انتهی.

فالمعنی:لن ینقصکم أعمالکم أی یوفّی أجرها تاما کاملا،و قیل:المعنی:لن یضیع أعمالکم،و قیل:لن یظلمکم،و المعانی متقاربه.

و معنی الآیه:إذا کانت سبیل عدم طاعه اللّه و رسوله و إبطال أعمالکم هذه السبیل و کان مؤدّیا الی الحرمان من مغفره اللّه أبدا فلا تضعفوا و لا تفتروا فی أمر القتال و لا تدعوا المشرکین الی الصلح و ترک القتال و الحال أنکم أنتم الغالبون و اللّه ناصرکم علیهم و لن ینقصکم شیئا من اجورکم بل یوفیکموها تامه کامله.

و فی الآیه وعد المؤمنین بالغلبه و الظفر إن أطاعوا اللّه و رسوله فهی کقوله: وَ لاٰ تَهِنُوا وَ لاٰ

۱- ۱) .و هو ما عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم«من فاتته صلاه العصر فکأنما وتر أهله و ماله»عن الجوامع.

تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران١٣٩/).

قوله تعالى: إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لاٰ يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ترغيب لهم فى الآخره و تزهيد لهم عن الدنيا ببيان حقيقتها و هى أنها لعب و لهو-و قد مر معنا كونها لعبا و لهوا-.

و قوله: وَ إِنْ تُؤْمِنُوا الخ؛أى إن تؤمنوا و تتقوا بطاعته و طاعه رسوله يؤتكم أجوركم و لا يسألكم أموالكم بإزاء ما أعطاكم و ظاهر السياق أن المراد بالأموال جميع أموالهم و يؤيده أيضا الآيه التاليه.

قوله تعالى: إِنْ يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ الإحفاء الإجهاد و تحميل المشقه،و المراد بالبخل-كما قيل-الكفّ عن الإعطاء،و الأضغان الأحقاد.

و المعنى:إن يسألكم جميع أموالكم فيجهدكم بطلب كلها كففتم عن الإعطاء لحبكم لها و يخرج أحقاد قلوبكم فضللتم.

قوله تعالى: هَا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ الى آخر الآيه بمنزله الاستشهاد فى بيان الآيه السابقه كأنه قيل:إنه إن يسأل الجميع فيحفكم تبخلوا و يشهد بذلك أنكم أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل اللّه-و هو بعض أموالكم-فبعضكم يبخل فيظهر به أنه لو سأل الجميع جميعكم بخلتم.

و قوله: وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمٰا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ أى يمنع الخير عن نفسه فإن اللّه لا يسأل ما لهم لينتفع هو به بل لينتفع به المنفقون فيما فيه خير دنياهم و آخرتهم فامتناعهم عن إنفاقه امتناع منهم عن خير أنفسهم،و اليه يشير قوله بعده: «وَ اللّٰهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ» و القصران للقلب أى اللّه هو الغنى دونكم و أنتم الفقراء دون اللّه.

و قوله: وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاٰ يَكُونُوا أَمْثٰالَكُمْ قيل:

عطف على قوله: «وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا» و المعنى:إن تؤمنوا و تتقوا يؤتكم أجوركم و إن تتولوا و تعرضوا يستبدل قوما غيركم بأن يوفقهم للإيمان دونكم ثم لا يكونوا أمثالكم بل يؤمنون و يتقون و ينفقون فى سبيل اللّه.

سوره الفتح مدنیه و هی تسع و عشرون آیه

اشاره

[سوره الفتح (۴۸): الآیات ۱ الی ۷]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;إِنّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً (۱) لِیَغْفِرَ لَکَ اَللّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ یُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَ یَهْدِیَکَ صِراطاً مُسْتَقِیماً (۲) وَ یَنْصُرَکَ اَللّهُ نَصْراً عَزِیزاً (۳) هُوَ اَلَّذِی أَنْزَلَ اَلسَّکِینَهَ فِی قُلُوبِ اَلْمُؤْمِنِینَ لِیَزْدادُوا إِیماناً مَعَ إِیمانِهِمْ وَ لِلّهِ جُنُودُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ کانَ اَللّهُ عَلِیماً حَکِیماً (۴) لِیُدْخِلَ اَلْمُؤْمِنِینَ وَ اَلْمُؤْمِناتِ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها وَ یُکَفِّرَ عَنْهُمْ سَیِّئاتِهِمْ وَ کانَ ذلِکَ عِنْدَ اَللّهِ فَوْزاً عَظِیماً (۵) وَ یُعَذِّبَ اَلْمُنافِقِینَ وَ اَلْمُنافِقاتِ وَ اَلْمُشْرِکِینَ وَ اَلْمُشْرِکاتِ اَلظّانِّینَ بِاللّهِ ظَنَّ اَلسَّوْءِ عَلَیْهِمْ دائِرَهُ اَلسَّوْءِ وَ غَضِبَ اَللّهُ عَلَیْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِیراً (۶) وَ لِلّهِ جُنُودُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ کانَ اَللّهُ عَزِیزاً حَکِیماً (۷)

ص: ۷۴۴

بیان:

مضامین آیات السوره بفصولها المختلفه ظاهره الانطباق علی قصه صلح الحدیبیه الواقعه فی السنه السادسه من الهجره و ما وقع حولها من الوقائع کقصه تخلّف الأعراب و صدّ المشرکین،و بیعه الشجره علی ما تقصّ له الآثار و سیجیء شطر منها فی البحث الروائی التالی إن شاء اللّه تعالی.

فغرض السوره بیان ما امتنّ اللّه تعالی علی رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بما رزقه من الفتح المبین فی هذه السفره،و علی المؤمنین ممن معه،و مدحهم البالغ،و الوعد الجمیل للذین آمنوا منهم و عملوا الصالحات،و السوره مدنیه.

قوله تعالی: إِنّٰا فَتَحْنٰا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً کلام واقع موقع الامتنان،و تأکید الجمله بإنّ و نسبه الفتح الی نون العظمه و توصیفه بالمبین کل ذلک للاعتناء بشأن الفتح الذی یمتنّ به.

و المراد بهذا الفتح علی ما تؤیده قرائن الکلام هو ما رزق اللّه نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الفتح فی صلح الحدیبیه.

و ذلک أن ما سیأتی فی آیات السوره من الامتنان علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین،و مدحهم و الرضا عن بیعتهم و وعدهم الجمیل فی الدنیا بمغانم عاجله و آجله و فی الآخره بالجنه و ذمّ المخلّفین من الأعراب إذ استنفرهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلم یخرجوا معه،و ذمّ المشرکین فی صدّهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و من معه،و ذمّ المنافقین،و تصدیقه تعالی رؤیا نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و قوله: «فَعَلِمَ مٰا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِکَ فَتْحاً قَرِیباً» -و کاد یکون صریحا-کل ذلک معان مرتبطه

بخروجه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الى مكه للحج و انتهاء ذلک الى صلح الحديبيه.

و أما كون هذا الصلح فتحا مبينا رزقه اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فظاهر بالتدبر فى لحن آيات السوره فى هذه القصه فقد كان خروج النبى و المؤمنين الى هـذه البغيه خروجا على خطر عظيم لا يرجى معه رجوعهم الى المـدينه عاده كما يشـير اليه قوله تعالى: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً و المشـركون من صـناديد قريش و من يتبعهم على ما لهم من الشوكه و القوه و العـداوه مع النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و المؤمنين لم يتوسط بينهم منـذ سـنين إلا السـيف و لم يجمعهم جامع غير معركه القتال كغزوه بدر و أحد و الأحزاب،و لم يخرج مع النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إلا شرذمه قليلون-ألف و أربعمائه-لا قدر لهم عند جموع المشركين و هم فى عقر دارهم.

و لكن اللّه سبحانه قلّب الأمر للنبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين على المشركين فرضوا بما لم يكن مطموعا فيه متوقعا منهم فسألوا النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يصالحهم على ترک القتال عشر سنين،و على تأمين كل من القبيلين أتباع الآخر و من لحق به،و على أن يرجع النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم الى المـدينه عـامه هـذا ثم يقـدم الى مكه العـام القابل فيخلّوا له المسجد و الكعبه ثلاثه أيام.

و هذا من أوضح الفتح رزقه اللّه نبيه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و كان من أمسّ الأسـباب بفتح مكه سـنه ثمان من الهجره فقد آمن جمع كثير من المشـركين فى السـنتين بين الصلح و فتح مكه،و فتح فى أوائل سنه سبع خيبر و ما والاه و قوى به المسلمون و اتّسع الإسـلام اتساعا بيّنا و كثر جمعهم و انتشر صـيتهم و أشـغلوا بلادا كثيره،و خرج النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لفتح مكه فى عشره آلاف أو فى اثنى عشر ألفا،و قد كان خرج الى حديبيه فى ألف و أربعمائه على ما تفصّله الآثار.

قوله تعالى: لِيَغْفِرَ لَکَ اللّٰهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ مٰا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْکَ وَ يَهْدِيَکَ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً وَ يَنْصُرَکَ اللّٰهُ نَصْراً عَزِيزاً اللام فى قوله: «لِيَغْفِرَ» للتعليل على ما هو ظاهر اللفظ فظاهره أن الغرض من هـذا الفتـح المبين هو مغفره ما تقـدم من ذنبک و ما تأخر،و من المعلوم أن لا رابطه بين الفتح و بين مغفره الذنب و لا معنى معقولا لتعليله

بالمغفره.

و قول بعضهم فرارا عن الإشكال:إن اللام المكسوره فى «لِيَغْفِرَ» لام القسم و الأصل ليغفرنّ حذفت نون التوكيد و بقى ما قبلها مفتوحا للدلاله على المحذوف غلط لا شاهد عليه من الاستعمال.

و كذا قول بعض آخر فرارا عن الإشكال«إن العله هو مجموع المغفره و ما عطف عليه من إتمام النعمه و الهدايه و النصر العزيز من حيث المجموع فلا- ينافى عدم كون البعض أى مغفره الذنب فى نفسه عله للفتح»كلام سخيف لا- يغنى طائلا- فإن مغفره الذنب لا- هى عله أو جزء عله للفتح و لا- مرتبطه نوع ارتباط بما عطف عليها حتى يوجه دخولها فى ضمن علله فلا مصحح لذكرها وحدها و لا مع العلل و فى ضمنها.

و بالجمله هذا الإشكال نعم الشاهد على أن ليس المراد بالذنب فى الآيه هو الذنب المعروف و هو مخالفه التكليف المولوى،و لا المراد بالمغفره معناها المعروف و هو ترك العقاب على المخالفه المذكوره فالذنب فى اللغه على ما يستفاد من موارد استعمالاته هو العمل الذى له تبعه سيئه كيفما كان،و المغفره هى الستر على الشىء،و أما المعنيان المذكوران المتبادران من لفظى الذنب و المغفره الى أذهاننا اليوم أعنى مخالفه الأمر المولوى المستتبع للعقاب و ترك العقاب عليها فإنما لزماهما بحسب عرف المتشرعين.

و قيام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالدعوه و نهضته على الكفر و الوثنيه فيما تقدم على الهجره و إدامته ذلك و ما وقع له من الحروب و المغازى مع الكفار و المشركين فيما تأخر عن الهجره كان عملا منه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذا تبعه سيئه عند الكفار و المشركين و ما كانوا ليغفروا له ذلك ما كانت لهم شوكه و مقدره،و ما كانوا لينسوا زهوق ملتهم و انهدام سنتهم و طريقتهم،و لا ثارات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالانتقام منه و إمحاء اسمه و إعفاء رسمه غير أن اللّه سبحانه رزقه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذا الفتح و هو فتح مكه أو فتح الحديبيه المنتهى الى فتح مكه فذهب

بشوكتهم و أخمد نارهم فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الذنب و آمنه منهم.

فالمراد بالذنب-و اللّه أعلم-التبعه السيئه التى لدعوته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند الكفار و المشركين و هو ذنب لهم عليه كما فى قول موسى لربه وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (الشعراء/ ۱۴)،و ما تقدم من ذنبه هو ما كان منه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بمكه قبل الهجره،و ما تأخر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجره،و مغفرته تعالى لذنبه هى ستره عليه بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم و هدم بنيتهم،و يؤيد ذلك ما يتلوه من قوله: «وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ -الى أن قال- وَ يَنْصُرَكَ اللّهُ نَصْراً عَزِيزاً» .

و فى قوله: لِيَغْفِرَ لَكَ اللّهُ الخ؛بعد قوله: «إِنّا فَتَحْنا لَكَ» التفات من التكلم الى الغيبه و لعل الوجه فيه أن محصّل السوره امتنانه تعالى على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين بما رزق من الفتح و إنزال السكينه و النصر و سائر ما وعدهم فيها فناسب أن يكون السياق الجارى فى السوره سياق الغيبه و يذكر تعالى فيها فاسمه و ينسب اليه النصر بما يعبده نبيه و المؤمنون وحده قبال ما لا يعبده المشركون و إنما يعبدون آلهه من دونه طمعا فى نصرهم و لا ينصرونهم.

و أما سياق التكلم مع الغير المشعر بالعظمه فى الآيه الاولى فلمناسبته ذكر الفتح فيها و يجرى الكلام فى قوله تعالى الآتى: «إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً» الآيه.

و قوله: «وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» قيل:أى يتمّها عليك فى الدنيا بإظهارك على عدوك و إعلاء أمرك و تمكين دينك،و فى الآخره برفع درجتك،و قيل:أى يتمّها عليك بفتح خيبر و مكه و الطائف.

و قوله: وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً قيل:أى و يثبتك على صراط يؤدّى بسالكه الى الجنه،و قيل:أى و يهديك الى مستقيم الصراط فى تبليغ الأحكام و إجراء الحدود.

و قوله: وَ يَنْصُرَكَ اللّهُ نَصْراً عَزِيزاً قيل:النصر العزيز هو ما يمتنع به من كل

جبار عنيد و عات مريد،و قد فعل بنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذلك إذ جعل دينه أعزّ الأديان و سلطانه أعظم السلطان،و قيل:المراد بالنصر العزيز ما هو نادر الوجود قليل النظير أو عديمه و نصره تعالى لنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كذلك كما يظهر بقياس حاله فى أول بعثته الى حاله فى آخر أيام دعوته.

و التدبر فى سياق الآيتين بالبناء على ما تقدم من معنى قوله: «إِنّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَکَ اللّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ» يعطى أن يكون المراد بقوله: «وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْکَ» هو تمهيده تعالى له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لتمام الكلمه و تصفيته الجو لنصره نصرا عزيزا بعد رفع الموانع بمغفره ما تقدم من ذنبه و ما تأخر.

و بقوله: «وَ يَهْدِيَکَ صِراطاً مُسْتَقِيماً» هدايته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد تصفيه الجو له الى الطريق الموصل الى الغايه الذى سلكه بعد الرجوع من الحديبيه من فتح خيبر و بسط سلطه الدين فى أقطار الجزيره حتى انتهى الى فتح مكه و الطائف.

و بقوله: وَ يَنْصُرَکَ اللّهُ نَصْراً عَزِيزاً نصره له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذاك النصر الظاهر الباهر الذى قلما يوجد-أو لا يوجد-له نظير إذ فتح له مكه و الطائف و انبسط الإسلام فى أرض الجزيره و انقلع الشرک و ذلّ اليهود و خضع له نصارى الجزيره و المجوس القاطنون بها،و أكمل تعالى للناس دينهم و أتمّ عليهم نعمته و رضى لهم الإسلام دينا.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَهَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ الخ؛الظاهر أن المراد بالسكينه سكون النفس و ثباتها و اطمئنانها الى ما آمنت به،و لذا علّل إنزالها فيها بقوله: «لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ» و قد تقدم البحث عن السكينه فى ذيل قوله تعالى: أَنْ يَأْتِيَكُمُ التّابُوتُ فِيهِ سَكِينَهٌ مِنْ رَبِّكُمْ (البقره۲۴۸/)فى الجزء الثانى من الكتاب و ذكرنا هناک أنها تنطبق على روح الإيمان المذكور فى قوله تعالى: وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ (المجادله۲۲/).

و المراد بإنزال السكينه فى قلوبهم إيجادها فيها بعد عدمها فكثيرا ما يعبر فى القرآن عن

الخلق و الإيجاد بالإنزال كقوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعٰامِ ثَمٰانِيَةَ أَزْوٰاجٍ (الزمر۶/)،و قوله:

وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ (الحديد۲۵/)،و قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر۲۱/).و إنما عبّر عن الخلق و الإيجاد بالإنزال للإشاره الی علوّ مبدئه.

و المراد بزياده الإيمان اشتداده فإن الإيمان بشیء هو العلم به مع الالتزام بحيث يترتب عليه آثاره العمليه،و من المعلوم أن كلا من العلم و الالتزام المذكورين مما يشتد و يضعف فالإيمان الذی هو العلم المتلبس بالالتزام يشتد و يضعف.

فمعنی الآيه:اللّه الذی أوجد الثبات و الاطمئنان الذی هو لازم مرتبه من مراتب الروح فی قلوب المؤمنين ليشتد به الإيمان الذی كان لهم قبل نزول السكينه فيصير أكمل مما كان قبله (۱).

و قوله: وَ لِلّٰهِ جُنُودُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الجند هو الجمع الغليظ من الناس إذا جمعهم غرض يعملون لأجله و لذا أطلق علی العسكر المجتمعين علی إجراء ما يأمر به أميرهم،و السياق يشهد أن المراد بجنود السماوات و الأرض الأسباب الموجوده فی العالم مما يری و لا يری من الخلق فهی وسائط متخلله بينه تعالی و بين ما يريده من شیء تطيعه و لا تعصاه.

و إيراد الجمله أعنی قوله: «وَ لِلّٰهِ جُنُودُ» الخ؛بعد قوله: «هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ السَّكِينَةَ» الخ؛ للدلاله علی أن له جميع الأسباب و العلل التی فی الوجود فله أن يبلغ الی ما يشاء بما يشاء و لا يغلبه شیء فی ذلک،و قد نسبت الی زياده إيمان المؤمنين بانزال السكينه فی قلوبهم.

و قوله: «وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً» أی منيعا جانبه لا يغلبه شیء متقنا فی فعله لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته و الجمله بيان تعليلی لقوله: «وَ لِلّٰهِ جُنُودُ» الخ؛كما أنه بيان تعليلی لقوله: «هُوَ

۱- ۱) .الفتح ۱-۷:كلام فی الايمان و ازدياده.

اَلَّذِی أَنْزَلَ السَّکِینَهَ» الخ؛کأنه قیل:أنزل السکینه لکذا و له ذلک لأن له جمیع الجنود و الأسباب لأنه العزیز علی الإطلاق و الحکیم علی الإطلاق.

قوله تعالی: لِیُدْخِلَ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ الی آخر الآیه،تعلیل آخر لقوله: «أَنْزَلَ السَّکِینَهَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ» علی المعنی کما أن قوله: «لِیَزْدٰادُوا إِیمٰاناً» تعلیل له بحسب اللفظ کأنه قیل:خص المؤمنین بإنزال السکینه و حرم علی غیرهم ذلک لیزداد إیمان هؤلاء مع إیمانهم و حقیقه ذلک أن یدخل هؤلاء الجنه و یعذب اولئک فیکون قوله: «لِیُدْخِلَ» بدلا أو عطف بیان من قوله: «لِیَزْدٰادُوا» الخ.

و فی متعلق لام «لِیُدْخِلَ» الخ؛أقوال أخر کالقول بتعلقها بقوله: «فَتَحْنٰا» أو قوله:

«لِیَزْدٰادُوا» أو بجمیع ما تقدم الی غیر ذلک مما لا جدوی لإیراده.

و ضم المؤمنات الی المؤمنین فی الآیه لدفع توهم اختصاص الجنه و تکفیر السیئات بالذکور لوقوع الآیه فی سیاق الکلام فی الجهاد،و الجهاد و الفتح واقعان علی أیدیهم فصرح باسم المؤمنات لدفع التوهم کما قیل.

و ضمیر «خٰالِدِینَ» و «یُکَفِّرَ عَنْهُمْ سَیِّئٰاتِهِمْ» للمؤمنین و المؤمنات جمیعا علی التغلیب.

و قوله: «وَ کٰانَ ذٰلِکَ عِنْدَ اللّٰهِ فَوْزاً عَظِیماً» بیان لکون ذلک سعاده حقیقیه لا ریب فیها لکونه عند اللّه کذلک و هو یقول الحق.

قوله تعالی: وَ یُعَذِّبَ الْمُنٰافِقِینَ وَ الْمُنٰافِقٰاتِ وَ الْمُشْرِکِینَ وَ الْمُشْرِکٰاتِ الی آخر الآیه معطوف علی قوله: «لِیُدْخِلَ» بالمعنی الذی تقدم،و تقدیم المنافقین و المنافقات علی المشرکین و المشرکات فی الآیه لکونهم أضر علی المسلمین من أهل الشرک و لأن عذاب أهل النفاق أشد،قال تعالی: إِنَّ الْمُنٰافِقِینَ فِی الدَّرْکِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّٰارِ .

و قوله: «الظّٰانِّینَ بِاللّٰهِ ظَنَّ السَّوْءِ» السوء بالفتح فالسکون مصدر بمعنی القبح و السوء

بالضم اسم مصدر،و ظن السوء هو ظنهم أن اللّه لا ينصر رسوله و قيل:المراد بظن السوء ما يعمّ ذلک و سائر ظنونهم السیئه من الشرک و الکفر.

و قوله: عَلَيْهِمْ دٰائِرَةُ السَّوْءِ دعاء عليهم أو قضاء عليهم أی لیستضروا بدائره السوء التی تدور لتصیب من تصیب من الهلاک و العذاب.

و قوله: وَ غَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ معطوف علی قوله:

«عَلَيْهِمْ دٰائِرَةُ» الخ؛و قوله: «وَ سٰاءَتْ مَصِيراً» بیان مساءه مصیرهم،کما أن قوله: «وَ كٰانَ ذٰلِكَ عِنْدَ اللّٰهِ فَوْزاً عَظِيماً» بیان لحسن مصیر أهل الإیمان.

قوله تعالی: وَ لِلّٰهِ جُنُودُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ تقدم معناه،و الظاهر أنه بیان تعلیلی للآیتین أعنی قوله: «لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ -الی قوله- وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ» علی حذو ما کان مثله فیما تقدم بیانا تعلیلیا لقوله: «أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» (۱).

[سوره الفتح (۴۸): الآیات ۸ الی ۱۰]

إِنّٰا أَرْسَلْنٰاكَ شٰاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۸) لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (۹) إِنَّ اَلَّذِينَ يُبٰايِعُونَكَ إِنَّمٰا يُبٰايِعُونَ اَللّٰهَ يَدُ اَللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمٰا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفىٰ بِمٰا عٰاهَدَ عَلَيْهُ اَللّٰهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (۱۰)

۱- ۱) .الفتح ۱-۷:بحث روائی فی:صلح الحدیبیه؛عصمه الانبیاء؛نزول السکینه فی قلوب المؤمنین،معنی ذنب رسول اللّه.

بیان:

قوله تعالی: إِنّٰا أَرْسَلْنٰاکَ شٰاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً المراد بشهادته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شهادته علی الأعمال من إیمان و کفر و عمل صالح أو طالح،و قد تکرر فی کلامه تعالی ذکر شهادته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و تقدم استیفاء الکلام فی معنی هذه الشهاده،و هی شهاده حمل فی الدنیا، و أداء فی الآخره.

و کونه مبشرا تبشیره لمن آمن و اتقی بالقرب من اللّه و جزیل ثوابه،و کونه نذیرا إنذاره و تخویفه لمن کفر و تولی بألیم عذابه.

قوله تعالی: لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُکْرَهً وَ أَصِیلاً القراءه المشهوره بتاء الخطاب فی الأفعال الأربعه،و قرء ابن کثیر و ابو عمرو بیاء الغیبه فی الجمیع و قراءتها أرجح بالنظر الی السیاق.

و کیف کان فاللام فی «لِتُؤْمِنُوا» للتعلیل أی أرسلناک کذا و کذا لتؤمنوا باللّه و رسوله.

و التعزیر-علی ما قیل-النصر و التوقیر التعظیم کما قال تعالی مٰا لَکُمْ لاٰ تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقٰاراً (نوح۱۳/)،و الظاهر أن الضمائر فی «تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ» جمیعا للّه تعالی و المعنی:إنا أرسلناک کذا و کذا لیؤمنوا باللّه و رسوله و ینصروه تعالی بأیدیهم و ألسنتهم و یعظموه و یسبحوه-و هو الصلاه-بکره و أصیلا أی غداه و عشیا.

و قیل:الضمیران فی «تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ» للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و ضمیر «تُسَبِّحُوهُ» للّه تعالی و یوهنه لزوم اختلاف الضمائر المتسقه.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یُبٰایِعُونَکَ إِنَّمٰا یُبٰایِعُونَ اللّٰهَ یَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ الی آخر الآیه.البیعه نوع من المیثاق ببذل الطاعه قال فی المفردات:و بایع السلطان إذا تضمن بذل الطاعه له بما رضخ له انتهی،و الکلمه مأخوذه من البیع بمعناه المعروف فقد کان من دأبهم

أنهم إذا أرادوا إنجاز البيع أعطى البائع يده للمشترى فكأنهم كانوا يمثلون بذلك نقل الملك التصرفات التى يتحقق معظمها باليد الى المشترى بالتصفيق،و بذلك سمى التصفيق عند بذل الطاعه بيعه و مبايعه،و حقيقه معناه إعطاء المبايع يده للسلطان مثلا ليعمل به ما يشاء.

فقوله: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللّٰهَ تنزيل بيعته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منزله بيعته تعالى بدعوى أنها هى فما يواجهونه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم به من بذل الطاعه لا يواجهون به إلا اللّه سبحانه لأن طاعته طاعه اللّه ثم قرره زياده تقرير و تأكيد بقوله: «يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» حيث جعل يده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يد اللّه كما جعل رميه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رمى نفسه فى قوله: وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ رَمىٰ (الأنفال/١٧).

و فى نسبه ما له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الشأن الى نفسه تعالى آيات كثيره كقوله تعالى: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ (النساء/٨٠)،و قوله: فَإِنَّهُمْ لاٰ يُكَذِّبُونَكَ وَ لٰكِنَّ الظّٰالِمِينَ بِآيٰاتِ اللّٰهِ يَجْحَدُونَ (الأنعام/٣٣)،و قوله: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ (آل عمران/١٢٨).

و قوله: فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمٰا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ النكث نقض العهد و البيعه، و الجمله تفريع على قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللّٰهَ» و المعنى:فإذا كان بيعتك بيعه اللّه فالناكث الناقض لها ناقض لبيعه اللّه و لا يتضرر بذلك إلا نفسه كما لا ينتفع بالإيفاء إلا نفسه لأن اللّه غنى عن العالمين.

و قوله: وَ مَنْ أَوْفىٰ بِمٰا عٰاهَدَ عَلَيْهُ اللّٰهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً وعد جميل على حفظ العهد و الإيفاء به.

و الآيه لا تخلو من إيماء الى أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان عند البيعه يضع يده على أيديهم فكانت يده على أيديهم لا بالعكس.

ص :٧٥۴

[سوره الفتح (۴۸): الآيات ۱۱ الى ۱۷]

سَيَقُولُ لَكَ اَلْمُخَلَّفُونَ مِنَ اَلْأَعْرٰابِ شَغَلَتْنٰا أَمْوٰالُنٰا وَ أَهْلُونٰا فَاسْتَغْفِرْ لَنٰا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مٰا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اَللّٰهِ شَيْئاً إِنْ أَرٰادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرٰادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كٰانَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۱) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ اَلرَّسُولُ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ إِلىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ اَلسَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (۱۲) وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ سَعِيراً (۱۳) وَ لِلّٰهِ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ وَ كٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۴) سَيَقُولُ اَلْمُخَلَّفُونَ إِذَا اِنْطَلَقْتُمْ إِلىٰ مَغٰانِمَ لِتَأْخُذُوهٰا ذَرُونٰا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاٰمَ اَللّٰهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونٰا كَذٰلِكُمْ قٰالَ اَللّٰهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنٰا بَلْ كٰانُوا لاٰ يَفْقَهُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً (۱۵) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ اَلْأَعْرٰابِ سَتُدْعَوْنَ إِلىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقٰاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اَللّٰهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَمٰا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذٰاباً أَلِيماً (۱۶) لَيْسَ عَلَى اَلْأَعْمىٰ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَى اَلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَى اَلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ مَنْ يُطِعِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذٰاباً أَلِيماً (۱۷)

بیان:

قوله تعالی: سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا الی آخر الآیه،قال فی المجمع:المخلف هو المتروک فی المکان خلف الخارجین من البلد،و هو مشتق من الخلف و ضده المقدم.انتهی.و الأعراب-علی ما قالوا-الجماعه من عرب البادیه و لا یطلق علی عرب الحاضره،و هو اسم جمع لا مفرد له من لفظه.

و قوله: سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ إخبار عما سیأتی من قولهم للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و فی اللفظ دلاله ما علی نزول الآیات فی رجوعه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الحدیبیه الی المدینه و لما یردها.

و قوله: شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا أی کان الشاغل المانع لنا عن صحابتک و الخروج معک هو أموالنا و أهلونا حیث لم یکن هنا من یقوم بأمرنا فخفنا ضیعتها فلزمناها فاستغفر لنا اللّه تعالی یغفر لنا تخلفنا عنک،و فی سؤال الاستغفار دلیل علی أنهم کانوا یرون التخلف ذنبا فتعلقهم بأنه شغلتهم الأموال و الأهلون لیس اعتذارا للتبری عن الذنب بل ذکرا للسبب الموقع فی الذنب.

و قوله: يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ تکذیب لهم فی جمیع ما أخبروا به و سألوه فلا أن الشاغل لهم هو شغل الأموال و الأهلین،و لا أنهم یهتمون باستغفاره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و إنما سألوه لیکون ذلک جنه یصرفون بها العتاب و التوبیخ عن أنفسهم.

و قوله: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً جواب حلی عما اعتذروا به من شغل الأموال و الأهلین محصله أن اللّه سبحانه له الخلق و الأمر و هو المالک المدبر لکل شیء لا رب سواه فلا ضر و لا نفع إلا بإرادته و مشیّته فلا یملک

أحد منه تعالى شيئا حتى يقهره على ترك الضر أو فعل الخير إن أراد الضر أو على ترك الخير إن أراد ما لا يريده هذا القاهر من الخير،و إذا كان كذلك فانصرافكم عن الخروج مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نصره للدين و اشتغالكم بما اعتللتم به من حفظ الأموال و الأهلين لا يغنى من اللّه شيئا لا يدفع الضر إن أراد اللّه بكم ضرا و لا يعين على جلب الخير و لا يعجله إن أراد بكم خيرا.

فقوله: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ الخ؛جواب عن تعللهم بالشغل على تقدير تسليم صدقهم فيه،ملخصه أن تعلقكم فى دفع الضر و جلب الخير بظاهر الأسباب و منها تدبيركم و القعود بذلك عن مشروع دينى لا يغنيكم شيئا فى ضر أو نفع بل الأمر تابع لما أراده اللّه سبحانه فالآيه فى معنى قوله تعالى: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنٰا إِلاّٰ مٰا كَتَبَ اللّٰهُ لَنٰا» .

و التمسک بالأسباب و عدم إلغائها و إن كان مشروعا مأمورا به لكنه فيما لا يعارض ما هو أهل منها كالدفاع عن الحق و إن كان فيه بعض المكاره المحتمله اللهم إلا إذا تعقّب خطرا قطعيا لا أثر معه للدفاع و السعى.

و قوله: بَلْ كٰانَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً تعريض لهم فيه إشاره الى كذبهم فى قولهم: «شَغَلَتْنٰا أَمْوٰالُنٰا وَ أَهْلُونٰا» .

قوله تعالى: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ الخ؛بيان لما يشير اليه قوله: «بَلْ كٰانَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً» من كذبهم فى اعتذارهم،و المعنى:ما تخلفتم عن الخروج بسبب اشتغالكم بالأموال و الأهلين بل ظننتم أن الرسول و المؤمنين لن يرجعوا الى أهليهم أبدا و أن الخارجين سيقتلون بأيدى قريش بما لهم من الجموع و البأس الشديد و الشوكه و القدره و لذلک تخلفتم.

و قوله: وَ زُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ أى زين الشيطان ذلک الظن فى قلوبكم فأخذتم بما يقتضيه ذلک الظن المزين و هو أن تتخلفوا و لا تخرجوا حذرا من أن تهلكوا و تبيدوا.

و قوله: وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ اَلسَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً البور-على ما قيل-مصدر بمعنى الفساد أو الهلاك أريد به معنى الفاعل أى كنتم قوما فاسدين أو هالكين.

قيل:المراد بظن السوء ظنهم أن لن ينقلب الرسول و المؤمنون الى أهليهم أبدا و لا يبعد أن يكون المراد به ظنهم أن اللّه لا ينصر رسوله و لا يظهر دينه كما مرّ فى قوله فى الآيه السادسه من السوره: «اَلظّانِّينَ بِاللّهِ ظَنَّ اَلسَّوْءِ» بل هو أظهر.

قوله تعالى: وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً الجمع فى هذه الآيات بين الإيمان باللّه و رسوله للدلاله على أن الكفر بالرسول بعدم طاعته كفر باللّه،و فى الآيه لحن تهديد.

و قوله: فَإِنّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً كان مقتضى الظاهر أن يقال:أعتدنا لهم فوضع الظاهر موضع الضمير للاشاره الى عله الحكم بتعليقه على المشتق،و المعنى:أعتدنا و هيّأنا لهم لكفرهم سعيرا أى نارا مسعّره مشتعله،و تنكير سعيرا للتهويل.

قوله تعالى: وَ لِلّهِ مُلْكُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ كانَ اَللّهُ غَفُوراً رَحِيماً معنى الآيه ظاهر و فيها تأييد لما تقدم،و فى تذييل الملك المطلق بالاسمين:الغفور الرحيم إشاره الى سبق الرحمه الغضب و حثّ على الاستغفار و الاسترحام.

قوله تعالى: سَيَقُولُ اَلْمُخَلَّفُونَ إِذَا اِنْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ الى آخر الآيه إخبار عن أن المؤمنين سيغزون غزوه فيرزقون الفتح و يصيبون مغانم و يسألهم المخلفون أن يتركوهم يتبعونهم طمعا فى الغنيمه،و تلك غزوه خيبر اجتاز النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنون اليه ففتحوه و أخذوا الغنائم و خصها اللّه تعالى بمن كان مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى سفره الحديبيه لم يشرك معهم غيرهم.

و المعنى:أنكم ستنطلقون الى غزوه فيها مغانم تأخذونها فيقول هؤلاء المخلفون:اتركونا

نتبعكم.

و قوله: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاٰمَ اللّٰهِ قيل:المراد به وعده تعالى أهل الحديبيه أن يخصهم بغنائم خيبر بعد فتحه كما سيجيء من قوله:وعدكم اللّه مغانم كثيره تأخذونها فعجل لكم هذه الآيه،و يشير اليه فى هذه الآيه بقوله: «إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلىٰ مَغٰانِمَ لِتَأْخُذُوهٰا» .

و قوله: قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونٰا كَذٰلِكُمْ قٰالَ اللّٰهُ مِنْ قَبْلُ أمر منه تعالى للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يمنعهم عن اتباعهم استنادا الى قوله تعالى من قبل أن يسألوهم الاتباع.

و قوله: فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنٰا أى سيقول المخلفون بعد ما منعوا عما سألوه من الاتباع «بَلْ تَحْسُدُونَنٰا» و قوله: «بَلْ كٰانُوا لاٰ يَفْقَهُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً» جواب عن قولهم: «بَلْ تَحْسُدُونَنٰا» لم يوجه الخطاب اليهم أنفسهم لأن المدعى أنهم لا يفقهون الحديث و لذلك وجه الخطاب بالجواب الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال «بَلْ كٰانُوا لاٰ يَفْقَهُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً» .

و ذلك أن قولهم: بَلْ تَحْسُدُونَنٰا إضراب عن قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهم بأمر اللّه «لَنْ تَتَّبِعُونٰا كَذٰلِكُمْ قٰالَ اللّٰهُ مِنْ قَبْلُ» فمعنى قولهم:إن منعنا من الاتباع ليس عن أمر من قبل اللّه بل إنما تمنعنا أنت و من معك من المؤمنين أهل الحديبيه أن نشارككم فى الغنائم و تريدون أن تختص بكم.

و هذا كلام لا يواجه به مؤمن له عقل و تمييز رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المعصوم الذى لا يرد و لا يصدر فى شأن إلا بأمر من اللّه اللهم إلا أن يكون من بساطه العقل و بلاده الفهم فهذا القول الذى واجهوا به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هم مدعون للايمان و الإسلام أدلّ دليل على ضعف تعقلهم و قله فقههم.

و من هنا يظهر أن المراد بعدم فقههم إلا-قليلا-بساطه عقلهم و ضعف فقههم للقول لا-أنهم يفقهون بعض القول و لا يفقهون بعضه و هو الكثير و لا أن بعضهم يفقه القول و جلهم لا يفقهونه كما فسره به بعضهم.

قوله تعالی: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرٰابِ سَتُدْعَوْنَ إِلىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقٰاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ الخ؛اختلفوا فی هذا القوم من هم؟فقیل:المراد به هوازن،و قیل:ثقیف،و قیل:هوازن و ثقیف،و قیل:هم الروم غزاه مؤته و تبوک،و قیل:هم أهل الردّه قاتلهم أبو بکر بعد الرحله،و قیل:هم الفارس،و قیل:أعراب الفارس و أکرادهم.

و ظاهر قوله: سَتُدْعَوْنَ أنهم بعض الأقوام الذین قاتلهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد فتح خیبر من هوازن و ثقیف و الروم فی مؤته،و قوله تعالی سابقا: «قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونٰا» ناظر الی نفی اتباعهم فی غزوه خیبر علی ما یفیده السیاق.

و قوله: تُقٰاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ استئناف یدل علی التنویع أی إما تقاتلون أو یسلمون أی أنهم مشرکون لا تقبل منهم جزیه کما تقبل من أهل الکتاب بل إما أن یقاتلوا أو یسلموا.

و لا یصح أخذ «تُقٰاتِلُونَهُمْ» صفه لقوم لأنهم یدعون الی قتال القوم لا الی قتال قوم یقاتلونهم،و کذا لا یصح أخذ حالا من نائب فاعل «سَتُدْعَوْنَ» لأنهم یدعون الی قتال القوم لا أنهم یدعون الیهم حال قتالهم،کذا قیل.

ثم تمم سبحانه الکلام بالوعد و الوعید علی الطاعه و المعصیه فقال «فَإِنْ تُطِيعُوا» أی بالخروج الیهم «يُؤْتِكُمُ اللّٰهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا» أی بالمعصیه و عدم الخروج «كَمٰا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ» و لم تخرجوا فی سفره الحدیبیه «يُعَذِّبْكُمْ عَذٰاباً أَلِيماً» أی فی الدنیا کما هو ظاهر المقام أو فی الدنیا و الآخره معا.

قوله تعالی: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمىٰ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ رفع للحکم بوجوب الجهاد عن ذوی العاهه الذین یشق علیهم الجهاد برفع لازمه و هو الحرج.

ثم تمّم الآیه أیضا بإعاده نظیر ذیل الآیه السابقه فقال «وَ مَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ

جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَنْ یَتَوَلَّ یُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِیماً» .

[سوره الفتح (۴۸): الآیات ۱۸ الی ۲۸]

لَقَدْ رَضِیَ اَللّهُ عَنِ اَلْمُؤْمِنِینَ إِذْ یُبایِعُونَکَ تَحْتَ اَلشَّجَرَهِ فَعَلِمَ ما فِی قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اَلسَّکِینَهَ عَلَیْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِیباً (۱۸) وَ مَغانِمَ کَثِیرَهً یَأْخُذُونَها وَ کانَ اَللّهُ عَزِیزاً حَکِیماً (۱۹) وَعَدَکُمُ اَللّهُ مَغانِمَ کَثِیرَهً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَکُمْ هٰذِهِ وَ کَفَّ أَیْدِیَ اَلنّاسِ عَنْکُمْ وَ لِتَکُونَ آیَهً لِلْمُؤْمِنِینَ وَ یَهْدِیَکُمْ صِراطاً مُسْتَقِیماً (۲۰) وَ أُخْری لَمْ تَقْدِرُوا عَلَیْها قَدْ أَحاطَ اَللّهُ بِها وَ کانَ اَللّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیراً (۲۱) وَ لَوْ قاتَلَکُمُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَوَلَّوُا اَلْأَدْبارَ ثُمَّ لا یَجِدُونَ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً (۲۲) سُنَّهَ اَللّهِ اَلَّتِی قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهِ اَللّهِ تَبْدِیلاً (۲۳) وَ هُوَ اَلَّذِی کَفَّ أَیْدِیَهُمْ عَنْکُمْ وَ أَیْدِیَکُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَکَّهَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَکُمْ عَلَیْهِمْ وَ کانَ اَللّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیراً (۲۴) هُمُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوکُمْ عَنِ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرامِ وَ اَلْهَدْیَ مَعْکُوفاً أَنْ یَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِیبَکُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّهٌ بِغَیْرِ عِلْمٍ لِیُدْخِلَ اَللّهُ فِی رَحْمَتِهِ مَنْ یَشاءُ لَوْ تَزَیَّلُوا لَعَذَّبْنَا اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِیماً (۲۵) إِذْ جَعَلَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فِی قُلُوبِهِمُ اَلْحَمِیَّهَ حَمِیَّهَ اَلْجاهِلِیَّهِ فَأَنْزَلَ اَللّهُ سَکِینَتَهُ عَلی رَسُولِهِ وَ عَلَی اَلْمُؤْمِنِینَ وَ أَلْزَمَهُمْ کَلِمَهَ اَلتَّقْوی وَ کانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها وَ کانَ اَللّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً (۲۶) لَقَدْ صَدَقَ اَللّهُ رَسُولَهُ اَلرُّؤْیا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ اَلْمَسْجِدَ اَلْحَرامَ إِنْ شاءَ اَللّهُ آمِنِینَ مُحَلِّقِینَ رُؤُسَکُمْ وَ مُقَصِّرِینَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِکَ فَتْحاً قَرِیباً (۲۷) هُوَ اَلَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِینِ اَلْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی اَلدِّینِ کُلِّهِ وَ کَفی بِاللّهِ شَهِیداً (۲۸)

ص: ۷۶۱

بیان:

قوله تعالی: لَقَدْ رَضِیَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِینَ إِذْ یُبٰایِعُونَکَ تَحْتَ الشَّجَرَهِ الرضا هیئه تطرأ علی النفس من تلقّی ما یلائمها و تقبله من غیر دفع،و یقابله السخط،و إذا نسب الی اللّه سبحانه کان المراد بالإثابه و الجزاء الحسن دون الهیئه الطارئه و الصفه العارضه الحادثه لاستحاله ذلک علیه تعالی:فرضاه سبحانه من صفات الفعل لا من صفات الذات.

و الرضا-کما قیل-یستعمل متعدیا الی المفعول بنفسه و متعدیا بعن و متعدیا بالباء فإذا عدّی بنفسه جاز دخوله علی الذات نحو:رضیت زیدا،و علی المعنی نحو:رضیت أماره زید، قال تعالی: وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلاٰمَ دِیناً (المائده/۳)،و إذا عدّی بعن دخل علی الذات

كقوله: رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ (البينه٨/)و إذا عدى بالباء دخل على المعنى كقوله تعالى: «أَ رَضِيتُمْ بِالْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا مِنَ الْآخِرَةِ» .

و لما كان الرضا المنسوب اليه تعالى صفه فعل له بمعنى الإثابه و الجزاء،و الجزاء إنما يكون بإزاء العمل دون الذات ففيما نسب من رضاه تعالى الى الذات و عدّى بعن كما فى الآيه «لَقَدْ رَضِيَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ» نوع عنايه استدعى عد الرضا و هو متعلق بالعمل متعلقا بالذات و هو أخذ بيعتهم التى هى متعلقه الرضا ظرفا للرضى فلم يسع إلا أن يكون الرضا متعلقا بهم أنفسهم.

فقوله: لَقَدْ رَضِيَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبٰايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ إخبار عن إثابته تعالى لهم بإزاء بيعتهم له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تحت الشجره.

و قد كانت البيعه يوم الحديبيه تحت شجره سمره بها بايعه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من معه من المؤمنين و قد ظهر به أن الظرف فى قوله: «إِذْ يُبٰايِعُونَكَ» متعلق بقوله: «لَقَدْ رَضِيَ» و اللام للقسم.

قوله تعالى: فَعَلِمَ مٰا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثٰابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وَ مَغٰانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهٰا وَ كٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً تفريع على قوله: «لَقَدْ رَضِيَ اللّٰهُ» الخ؛و المراد بما فى قلوبهم حسن النيه و صدقها فى مبايعتهم فإن العمل إنما يكون مرضيا عند اللّه لا بصورته و هيئته بل بصدق النيه و إخلاصها.

و المراد القريب فتح خيبر على ما يفيده السياق و كذا المراد بمغانم كثيره يأخذونها،غنائم خيبر.

و قوله: وَ كٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً أى غالبا فيما أراد متقنا لفعله غير مجازف فيه.

قوله تعالى: وَعَدَكُمُ اللّٰهُ مَغٰانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهٰا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ الخ؛المراد بهذه المغانم الكثيره المغانم التى سيأخذها المؤمنون بعد الرجوع من الحديبيه أعمّ من مغانم خيبر و غيرها فتكون الإشاره بقوله: «فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ» الى المغانم المذكوره فى الآيه السابقه

و هی مغانم خیبر نزلت منزله الحاضره لاقتراب وقوعها.

هذا علی تقدیر نزول الآیه مع الآیات السابقه،و أما علی ما قیل:إن الآیه نزلت بعد فتح خیبر فأمر الإشاره فی قوله: «فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ» ظاهر لکن المعروف نزول السوره بتمامها فی مرجع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الحدیبیه بینها و بین المدینه.

و قوله: وَ كَفَّ أَيْدِيَ النّاسِ عَنْكُمْ قیل:المراد بالناس قبیلتا أسد و غطفان هموا بعد مسیر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الی خیبر أن یغیروا علی أموال المسلمین و عیالهم بالمدینه فقذف اللّه فی قلوبهم الرعب و کف أیدیهم.

و قوله: وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ عطف علی مقدر أی وعدهم اللّه بهذه الإثابه إثابه الفتح و الغنائم الکثیره المعجله و المؤجله لمصالح کذا و کذا و لتکون آیه للمؤمنین أی علامه و أماره تدلهم علی أنهم علی الحق و أن ربهم صادق فی وعده و نبیهم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم صادق فی إنبائه.

و قد اشتملت السوره علی عده من أنباء الغیب فیها هدی للمتقین کقوله: «سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرٰابِ شَغَلَتْنٰا» الخ؛و قوله: «سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ» الخ؛و قوله: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرٰابِ سَتُدْعَوْنَ الخ؛و ما فی هذه الآیات من وعد الفتح و المغانم،و قوله بعد:

«وَ أُخْرىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهٰا» الخ؛و قوله بعد: «لَقَدْ صَدَقَ اللّٰهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيٰا» الخ.

و قوله: وَ يَهْدِيَكُمْ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً عطف علی «لِتَكُونَ» أی و لیهدیکم صراطا مستقیما و هو الطریق الموصل الی إعلاء کلمه الحق و بسط الدین،و قیل:هو الثقه باللّه و التوکل علیه فی کل ما تأتون و تذرون،و ما ذکرناه أوفق للسیاق.

قوله تعالی: وَ أُخْرىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهٰا قَدْ أَحٰاطَ اللّٰهُ بِهٰا وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً أی و غنائم أخری لم تقدروا علیها قد أحاط اللّه بها إحاطه قدره و کان اللّه علی کل شیء قدیرا.

فقوله: وَ أُخْرىٰ مبتدأ و «لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهٰا» صفته و قوله: «قَدْ أَحٰاطَ اللّٰهُ بِهٰا» خبره الثانی و خبره الأول محذوف،و تقدير الكلام:و ثمّه غنائم اخرى قد أحاط اللّه بها.

و المراد بالاخرى فى الآيه-على ما قيل-غنائم هوازن،و قيل:المراد غنائم فارس و الروم، و قيل:المراد فتح مكه و الموصوف محذوف،و التقدير:و قريه اخرى لم تقدروا عليها أى على فتحها،و أول الوجوه أقربها.

قوله تعالى: وَ لَوْ قٰاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبٰارَ ثُمَّ لاٰ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً خبر آخر ينبئهم اللّه سبحانه ضعف الكفار عن قتال المؤمنين بأنفسهم و أن ليس لهم ولى يتولى أمرهم و لا نصير ينصرهم،و يتخلص فى أنهم لا يقوون فى أنفسهم على قتالكم و لا نصير لهم من الأعراب ينصرهم،و هذا فى نفسه بشرى للمؤمنين.

قوله تعالى: سُنَّةَ اللّٰهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً «سُنَّةَ اللّٰهِ» مفعول مطلق لفعل مقدّر أى سن سنه اللّه أى هذه سنه قديمه له سبحانه أن يظهر أنبياءه و المؤمنين بهم إذا صدقوا فى إيمانهم و أخلصوا نيّاتهم على أعدائهم من الذين كفروا و لن تجد لسنه اللّه تبديلا كما قال تعالى: كَتَبَ اللّٰهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي (المجادله۲۱/).و لم يصب المسلمون فى شىء من غزواتهم إلا بما خالفوا اللّه و رسوله بعض المخالفه.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ الخ؛الظاهر أن المراد بكف أيدى كل من الطائفتين عن الأخرى ما وقع من الصلح بين الفئتين بالحديبيه و هى بطن مكه لقربها منها و اتصالها بها حتى قيل إن بعض أراضيها من الحرم و ذلك أن كلا من الفئتين كانت أعدى عدو للاخرى و قد اهتمت قريش بجمع الجموع من أنفسهم و من الأحابيش،و بايع المؤمنون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أن يقاتلوا، و عزم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أن يناجز القوم،و قد أظفر اللّه النبى و الذين آمنوا على الكفار حيث دخلوا أرضهم و ركزوا أقدامهم فى عقر دارهم فلم يكون ليتوهم بينهم إلا القتال لكن اللّه

سبحانه كفّ أيدى الكفار عن المؤمنين و أيدى المؤمنين عن الكفار بعد إظفار المؤمنين عليهم و كان اللّه بما يعملون بصيرا.

قوله تعالى: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ الْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ العكوف على أمر هو الإقامه عليه،و المعكوف-كما فى المجمع- الممنوع من الذهاب الى جهه بالإقامه فى مكانه،و منه الاعتكاف و هو الإقامه فى المسجد للعباده.

و المعنى:المشركون مشركوا مكه هم الذين كفروا و منعوكم عن المسجد الحرام و منعوا الهدى-الذى سقتموه-حال كونه محبوسا من أن يبلغ محله أى الموضع الذى ينحر أو يذبح فيه و هو مكه التى ينحر أو يذبح فيها هدى العمره كما أن هدى الحج ينحر أو يذبح فى منى،و قد كان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من معه من المؤمنين محرمين للعمره ساقوا هديا لذلك.

قوله تعالى: وَ لَوْ لاٰ رِجٰالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسٰاءٌ مُؤْمِنٰاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ الوطء الدوس،و المعرّه المكروه،و قوله:

«أَنْ تَطَؤُهُمْ» بدل اشتمال من مدخول لو لا،و جواب لو لا محذوف،و التقدير:ما كفّ أيديكم عنهم.

و المعنى:و لو لا أن تدوسوا رجالا مؤمنين و نساء مؤمنات بمكه و أنتم جاهلون بهم لا تعلمون فتصيبكم من قتلهم و إهلاكهم مكروه لما كفّ اللّه أيديكم عنهم.

و قوله: لِيُدْخِلَ اللّٰهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشٰاءُ اللام متعلق بمحذوف،و التقدير:

و لكن كفّ أيديكم عنهم ليدخل فى رحمته اولئك المؤمنين و المؤمنات غير المتميزين بسلامتهم من القتل و إياكم بحفظكم من إصابه المعرّه.

و قيل:المعنى:ليدخل فى رحمته من أسلم من الكفار بعد الصلح.

و قوله: لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً التزيل التفرق

و ضـمير «تَزَيَّلُوا لجميع من تقـدم ذكره من المؤمنين و الكفـار من أهـل مكه أى لو تفرقوا بـأن يمتاز المؤمنون من الكفار لعـذبنا الذين كفروا من أهل مكه عذابا أليما لكن لم نعذبهم لحرمه من اختلط بهم من المؤمنين.

قوله تعالى: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّهَ حَمِيَّهَ الْجَاهِلِيَّهِ الى آخر الآيه قال الراغب:و عبر عن القوه الغضبيه إذا ثارت و كثرت بـالحميه فيقـال:حميت على فلاـن أى غضبت عليه قـال تعالى: «حَمِيَّهَ الْجَاهِلِيَّهِ» و عن ذلك اسـتعير قولهم:حميت المكان حمى انتهى.

و الظرف فى قوله: «إِذْ جَعَلَ» متعلق بقوله سابقا: «وَ صَدُّوكُمْ» و قيل:متعلق بقوله:

«لَعَـذَّبْنَا» و قيل«متعلق باذكر المقدر،و الجعل بمعنى الإلقاء و «الَّذِينَ كَفَرُوا» فاعله و الحميه مفعوله و «حَمِيَّهَ الْجَاهِلِيَّهِ» بيان للحميه و الجاهليه وصف موضوع فى موضع الموصوف و التقدير المله الجاهليه.

و لو كان «جَعَلَ» بمعنى صـيّر كان مفعوله الثانى مقـدرا و التقـدير إذ جعل الذين كفروا الحميه راسـخه فى قلوبهم و وضع الظاهر موضع الضمير فى قوله: «جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا» للدلاله على سبب الحكم.

و معنى الآيه:هم الذين كفروا و صدّوكم إذ ألقوا فى قلوبهم الحميه حميه المله الجاهليه.

و قوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ تفريع على قوله:

«جَعَـلَ الَّذِينَ كَفَرُوا» و يفيـد نوعـا من المقابله كأنه قيل:جعلوا فى قلوبهم الحميه فقابله اللّه سـبحانه بإنزال السـكينه على رسوله و على المؤمنين فاطمأنت قلوبهم و لم يستخفنهم الطيش و أظهروا السكينه و الوقار من غير أن يستفزهم الجهاله.

و قوله: وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَهَ التَّقْوىٰ أى جعلها معهم لا تنفكّ عنهم،و هى على ما اختاره جمهور المفسرين كلمه التوحيد و قيل:المراد الثبات على العهد و الوفاء به و قيل:المراد

بها السكنيه و قيل:قولهم:بلى فى عالم الذّر،و هو اسخف الأقوال.

و لا يبعد أن يراد بها روح الإيمان التى تأمر بالتقوى كما قال تعالى: أُولٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمٰانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ (المجادله۲۲/)،و قد أطلق اللّه الكلمه على الروح فى قوله: وَ كَلِمَتُهُ أَلْقٰاهٰا إِلىٰ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ (النساء۱۷۱/).

و قوله: وَ كٰانُوا أَحَقَّ بِهٰا وَ أَهْلَهٰا أما كونهم أحق بها فلتمام استعدادهم لتلقّى هذه العطيه الإلهيه بما عملوا من الصالحات فهم أحق بها من غيرهم،و أما كونهم أهلها فلأنهم مختصون بها لا توجد فى غيرهم و أهل الشىء خاصته.

و قيل:المراد و كانوا أحق بالسكينه و أهلها،و قيل:إن فى الكلام تقديما و تأخيرا و الأصل و كانوا أهلها و أحق بها و هو كما ترى.

و قوله: وَ كٰانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً تذييل لقوله: «وَ كٰانُوا أَحَقَّ بِهٰا وَ أَهْلَهٰا» أو لجميع ما تقدم،و المعنى على الوجهين ظاهر.

قوله تعالى: لَقَدْ صَدَقَ اللّٰهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيٰا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لاٰ تَخٰافُونَ الخ؛قيل:إن صدق و كذب مخففين يتعديان الى مفعولين يقال:صدقت زيدا الحديث و كذبته الحديث،و الى المفعول الثانى بفى يقال:صدقته فى الحديث و كذبته فيه،و مثقلين يتعديان الى مفعول واحد يقال:صدّقته فى حديثه و كذّبته فى حديثه.

و اللام فى «لَقَدْ صَدَقَ اللّٰهُ» للقسم،و قوله: «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ» جواب القسم.

و قوله: بِالْحَقِّ حال من الرؤيا و الباء فيه للملابسه،و التعليق بالمشيه فى قوله: «إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ» لتعليم العباد و المعنى:أقسم لقد صدق اللّه رسوله فى الرؤيا التى أراه لتدخلن أيها المؤمنون المسجد الحرام إن شاء اللّه حال كونكم آمنين من شر المشركين محلقين رءوسكم و مقصرين لا تخافون المشركين.

ص :۷۶۸

و قوله: فَعَلِمَ مٰا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِکَ فَتْحاً قَرِیباً «ذٰلِکَ» إشاره الی ما تقدم من دخولهم المسجد الحرام آمنین،و المراد بقوله: «مِنْ دُونِ ذٰلِکَ» أقرب من ذلک و المعنی:فعلم تعالی من المصلحه فی دخولکم المسجد الحرام آمنین ما جهلتموه و لم تعلموه، و لذلک جعل قبل دخولکم کذلک فتحا قریبا لیتیسّر لکم الدخول کذلک.

و من هنا یظهر أن المراد بالفتح القریب فی هذه الآیه فتح الحدیبیه فهو الذی سوّی للمؤمنین الطریق لدخول المسجد الحرام آمنین و یسّر لهم ذلک و لو لا ذلک لم یمکن لهم الدخول فیه إلا بالقتال و سفک الدماء و لا عمره مع ذلک لکن صلح الحدیبیه و ما اشترط من شرط أمکنهم من دخول المسجد معتمرین فی العام القابل.

و سیاق الآیه یعطی أن المراد بها إزاله الریب عن بعض من کان مع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فإن المؤمنین کانوا یزعمون من رؤیا رآها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من دخولهم المسجد آمنین محلّقین رءوسهم و مقصّرین،أنهم سیدخلونه کذلک فی عامهم ذلک فلما خرجوا قاصدین مکه معتمرین فاعترضهم المشرکون بالحدیبیه و صدّوهم عن المسجد الحرام ارتاب بعضهم فی الرؤیا فأزال اللّه ریبهم بما فی الآیه.

و محصله:أن الرؤیا حقه أراها اللّه نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قد صدق تعالی فی ذلک،و ستدخلون المسجد الحرام إن شاء اللّه آمنین محلقین رءوسکم و مقصرین لا تخافون،لکنه تعالی أخّره و قدّم علیه هذا الفتح و هو صلح الحدیبیه لیتیسر لکم دخوله لعلمه تعالی بأنه لا یمکن لکم دخوله آمنین محلقین رءوسکم و مقصرین لا تخافون إلا بهذا الطریق.

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدیٰ وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ الخ؛تقدم تفسیره فی سوره التوبه الآیه ۳۳،و قوله: «وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً» أی شاهدا علی صدق نبوّته و الوعد أن دینه سیظهر علی الدین کله أو علی أن رؤیاه صادقه،

فالجمله تذییل ناظر الی نفس الآیه أو الآیه السابقه (۱).

[سوره الفتح (۴۸): آیه ۲۹]

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اَللّهِ وَ اَلَّذِینَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَی اَلْکُفّارِ رُحَماءُ بَیْنَهُمْ تَراهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً یَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اَللّهِ وَ رِضْواناً سِیماهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ اَلسُّجُودِ ذلِکَ مَثَلُهُمْ فِی اَلتَّوْراهِ وَ مَثَلُهُمْ فِی اَلْإِنْجِیلِ کَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوی عَلی سُوقِهِ یُعْجِبُ اَلزُّرّاعَ لِیَغِیظَ بِهِمُ اَلْکُفّارَ وَعَدَ اَللّهُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَهً وَ أَجْراً عَظِیماً (۲۹)

بیان:

قوله تعالی: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ الی آخر الآیه؛الظاهر أنه مبتدأ و خبر فهو کلام تام،و قیل «مُحَمَّدٌ» خبر مبتدأ محذوف و هو ضمیر عائد الی الرسول فی الآیه السابقه و التقدیر:هو محمد،و «رَسُولُ اللّهِ» عطف بیان أو صفه أو بدل،و قیل «مُحَمَّدٌ» مبتدأ و «رَسُولُ اللّهِ» عطف بیان أو صفه أو بدل و «الَّذِینَ مَعَهُ» معطوف علی المبتدأ و «أَشِدّاءُ عَلَی الْکُفّارِ» الخ؛خبر المبتدأ.

و قوله: وَ الَّذِینَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَی الْکُفّارِ رُحَماءُ بَیْنَهُمْ مبتدأ و خبر،فالکلام مسوق لتوصیف الذین معه و الشده و الرحمه المذکورتان من نعوتهم.

و تعقیب قوله: «أَشِدّاءُ عَلَی الْکُفّارِ» بقوله: «رُحَماءُ بَیْنَهُمْ» لدفع ما یمکن أن یتوهم أن

۱- ۱) .الفتح ۱۸-۲۸:بحث روائی فی صلح الحدیبیه،نزول السکینه علی المؤمنین؛کلمه التقوی.

کونهم أشداء علی الکفار یستوجب بعض الشده فیما بینهم فدفع ذلک بقوله: «رُحَمٰاءُ بَیْنَهُمْ» و أفادت الجملتان أن صفتهم مع الکفار الشده و مع المؤمنین فیما بینهم الرحمه.

و قوله: تَرٰاهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً الرکّع و السجّد جمعا راکع و ساجد،و المراد بکونهم رکعا سجدا إقامتهم للصلاه،و «تَرٰاهُمْ» یفید الاستمرار،و المحصل:أنهم مستمرون علی الصلاه،و الجمله خبر بعد خبر للذین معه.

و قوله: یَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّٰهِ وَ رِضْوٰاناً الابتغاء الطلب،و الفضل العطیه و هو الثواب،و الرضوان أبلغ من الرضا.

و الجمله إن کانت مسوقه لبیان غایتهم من الرکوع و السجود کان الأنسب أن تکون حالا من ضمیر المفعول فی «تَرٰاهُمْ» و إن کانت مسوقه لبیان غایتهم من الحیاه مطلقا کما هو الظاهر کانت خبرا بعد خبر للذین معه.

و قوله: سِیمٰاهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ السیما العلامه و «سِیمٰاهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ» مبتدأ و خبر و «مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» حال من الضمیر المستکنّ فی الخبر أو بیان للسیما أی إن سجودهم للّه تذللا و تخشعا أثّر فی وجوههم أثرا و هو سیما الخشوع للّه یعرفهم به من رآهم،و یقرب من هذا المعنی ما عن الصادق علیه السّلام أنه السهر فی الصلاه (۱).

و قیل:المراد أثر التراب فی جباههم لأنهم کانوا إنما یسجدون علی التراب لا علی الأثواب.

و قیل:المراد سیماهم یوم القیامه فیکون موضع سجودهم یومئذ مشرقا مستنیرا.

و قوله: ذٰلِکَ مَثَلُهُمْ فِی التَّوْرٰاهِ وَ مَثَلُهُمْ فِی الْإِنْجِیلِ المثل هو الصفه أی الذی وصفناهم به من أنهم أشداء علی الکفار رحماء بینهم،الخ؛وصفهم الذی وصفناهم به فی

۱- ۱) .رواه الصدوق فی الفقیه و المفید فی روضه الواعظین مرسلا عن عبد اللّه بن سنان عنه علیه السّلام.

الکتابین التوراه و الإنجیل.

فقوله: وَ مَثَلُهُمْ فِی الْإِنْجِیلِ معطوف علی قوله: «مَثَلُهُمْ فِی التَّوْراهِ» و قیل:إن قوله: «وَ مَثَلُهُمْ فِی الْإِنْجِیلِ» الخ؛استئناف منقطع عما قبله،و هو مبتدأ خبره قوله: «کَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ» الخ؛فیکون وصفهم فی التوراه هو أنهم أشداء علی الکفار،الی قوله: «مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» ،و وصفهم فی الإنجیل هو أنهم کزرع أخرج شطأه،الخ.

و قوله: کَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوی عَلی سُوقِهِ یُعْجِبُ الزُّرّاعَ شطء النبات أفراخه التی تتولد منه و تنبت حوله،و الإیزار الإعانه،و الاستغلاظ الأخذ فی الغلظه،و السوق جمع ساق،و الزرّاع جمع زارع.

و المعنی:هم کزرع أخرج أفراخه فأعانها فقویت و غلظت و قام علی سوقه یعجب الزارعین بجوده رشده.

و فیه إشاره الی أخذ المؤمنین فی الزیاده و العدّه و القوّه یوما فیوما و لذلک عقّبه بقوله:

«لِیَغِیظَ بِهِمُ الْکُفّارَ» .

و قوله: وَعَدَ اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَهً وَ أَجْراً عَظِیماً ضمیر «مِنْهُمْ» للذین معه،و«من»للتبعیض علی ما هو الظاهر المتبادر من مثل هذا النظم و یفید الکلام اشتراط المغفره و الأجر العظیم بالإیمان حدوثا و بقاء و عمل الصالحات فلو کان منهم من لم یؤمن أصلا کالمنافقین الذین لم یعرفوا بالنفاق کما یشیر الیه قوله تعالی: وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِینَهِ مَرَدُوا عَلَی النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ (التوبه/۱۰۱)، أو آمن أولا ثم أشرک و کفر کما فی قوله: إِنَّ الَّذِینَ ارْتَدُّوا عَلی أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُمُ الْهُدَی -الی أن قال- وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَیْناکَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِیماهُمْ (سوره محمد/۳۰).

أو آمن و لم یعمل الصالحات کما یستفاد من آیات الإفک (۱)و آیه التبیّن فی نبأ الفاسق و أمثال ذلک لم یشمله وعد المغفره و الأجر العظیم.

ص: ۷۷۳

۱- ۱) .فمن أهل الإفک من هو صحابی بدری و قد قال تعالی: «إِنَّ الَّذِینَ یَرْمُونَ الْمُحْصَنٰاتِ الْغٰافِلاٰتِ الْمُؤْمِنٰاتِ لُعِنُوا فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ» (النور۲۳/)،و من نزل فیه «إِنْ جٰاءَکُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا» (الحجرات۶/)، و هو الولید بن عقبه صحابی و قد سماه اللّه فاسقا و قد قال تعالی: «فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَرْضیٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفٰاسِقِینَ» (التوبه) ۹۶).

الجزء السادس

اشاره

ص :١

سوره الحجرات مدنیه و هی ثمان عشره آیه

اشاره

[سوره الحجرات (۴۹): الآیات ۱ الی ۱۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gtیٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیِ اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۱) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَرْفَعُوا أَصْوٰاتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ اَلنَّبِیِّ وَ لاٰ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ کَجَهْرِ بَعْضِکُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمٰالُکُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ (۲) إِنَّ اَلَّذِینَ یَغُضُّونَ أَصْوٰاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اَللّٰهِ أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ اِمْتَحَنَ اَللّٰهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْویٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِیمٌ (۳) إِنَّ اَلَّذِینَ یُنٰادُونَکَ مِنْ وَرٰاءِ اَلْحُجُرٰاتِ أَکْثَرُهُمْ لاٰ یَعْقِلُونَ (۴) وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتّٰی تَخْرُجَ إِلَیْهِمْ لَکٰانَ خَیْراً لَهُمْ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۵) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جٰاءَکُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا أَنْ تُصِیبُوا قَوْماً بِجَهٰالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلیٰ مٰا فَعَلْتُمْ نٰادِمِینَ (۶) وَ اِعْلَمُوا أَنَّ فِیکُمْ رَسُولَ اَللّٰهِ لَوْ یُطِیعُکُمْ فِی کَثِیرٍ مِنَ اَلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لٰکِنَّ اَللّٰهَ حَبَّبَ إِلَیْکُمُ اَلْإِیمٰانَ وَ زَیَّنَهُ فِی قُلُوبِکُمْ وَ کَرَّهَ إِلَیْکُمُ اَلْکُفْرَ وَ اَلْفُسُوقَ وَ اَلْعِصْیٰانَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلرّٰاشِدُونَ (۷) فَضْلاً مِنَ اَللّٰهِ وَ نِعْمَةً وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۸) وَ إِنْ طٰائِفَتٰانِ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ اِقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُمٰا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدٰاهُمٰا عَلَی اَلْأُخْریٰ فَقٰاتِلُوا اَلَّتِی تَبْغِی حَتّٰی تَفِیءَ إِلیٰ أَمْرِ اَللّٰهِ فَإِنْ فٰاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُمٰا بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اَللّٰهَ یُحِبُّ اَلْمُقْسِطِینَ (۹) إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَیْنَ أَخَوَیْکُمْ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۱۰)

ص: ۷

بيان:

تتضمن السوره مسائل من شرائع الدين بها تتم الحياه السعيده للفرد و يستقرّ النظام الصالح الطيب فی المجتمع منها ما هو أدب جميل للعبد مع اللّه سبحانه و مع رسوله كما فی الآيات الخمس فی مفتتح السوره،و منها ما يتعلق بالإنسان مع أمثاله من حيث وقوعهم فی المجتمع الحيوی،و منها ما يتعلق بتفاضل الأفراد و هو من أهم ما ينتظم به الاجتماع المدنی و يهدی الإنسان الی الحياه السعيده و العيش الطيب الهنیء و يتميز به دين الحق من غيره من السنن الاجتماعيه القانونيه و غيرها و تختتم السوره بالإشاره الی حقيقه الإيمان و الإسلام و امتنانه

ص :۸

تعالى بما يفيضه من نور الإيمان.

و السوره مدنيه بشهاده مضامين آياتها سوى ما قيل فى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى» الآيه؛و سيجىء.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ بين يدى الشىء أمامه و هو استعمال شائع مجازى أو استعارى و إضافته الى اللّه و رسوله معا لا الى الرسول دليل على أنه أمر مشترك بينه تعالى و بين رسوله و هو مقام الحكم الذى يختص باللّه سبحانه و برسوله بإذنه كما قال تعالى: إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ (يوسف/۴۰)،و قال: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ (النساء/۶۴).

و من الشاهد على ذلك تصدير النهى بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» و تذييله بقوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» الظاهر فى أن المراد بما بين يدى اللّه و رسوله هو المقام الذى يربط المؤمنين المتقين باللّه و رسوله و هو مقام الحكم الذى يأخذون منه أحكامهم الاعتقاديه و العمليه.

و الظاهر أن تفسير «لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» بالنهى عن التقديم بين يدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقط فى هذه الوجوه الثلاثه الأخيره مبنى على حملهم ذكر اللّه تعالى مع رسوله فى الآيه على نوع من التشريف كقوله:أعجبنى زيد و كرمه فيكون ذكره تعالى للإشاره الى أن السبقه على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أى حال فى معنى السبقه على اللّه سبحانه.

و لعل التأمل فيما قدّمناه من الوجه يكفيك فى المنع عن المصير الى شىء من هذه الوجوه.

و قوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أمر بالتقوى فى موقف الاتباع و العبوديه و لا ظرف للانسان إلا ظرف العبوديه و لذلك أطلق التقوى.

و فى قوله: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ تعليل للنهى و التقوى فيه أى اتقوه بالانتهاء عن هذا النهى فلا تقدموا قولا بلسانكم و لا فى سركم لأن اللّه سميع يسمع أقوالكم عليم يعلم

ظاهركم و باطنكم و علانيتكم و سركم.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ الخ؛و ذلك بأن تكون أصواتهم عند مخاطبته و تكليمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أرفع من صوته و أجهر لأن فى ذلك كما قيل أحد شيئين:إما نوع استخفاف به و هو الكفر،و إما إساءه الأدب بالنسبه الى مقامه و هو خلاف التعظيم و التوقير المأمور به.

و قوله: وَ لاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ فإن من التعظيم عند التخاطب أن يكون صوت المتكلم أخفض من صوت مخاطبه فمطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنى التعظيم فخطاب العظماء بالجهر فيه كخطاب عامه الناس لا يخلو من إساءه الأدب و الوقاحه.

و قوله: أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ أى لئلا تحبط أو كراهه أن تحبط أعمالكم،و هو متعلق بالنهيين جميعا أى إنما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته و الجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض لئلا تبطل أعمالكم بذلك من حيث لا تشعرون فإن فيهما الحبط،و قد تقدم القول فى الحبط فى الجزء الثانى من الكتاب.

و جوّز بعضهم كون «أَنْ تَحْبَطَ» الخ؛تعليلا للمنهى عنه و هو الرفع و الجهر،و المعنى:فعلكم ذلك لأجل الحبوط منهى عنه،و الفرق بين تعليله للنهى و تعليله للمنهى عنه أن الفعل المنهى عنه معلّل على الأول و الفعل المعلّل منهى عنه على الثانى،و فيه تكلف ظاهر.

و ظاهر الآيه أن رفع الصوت فوق صوت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الجهر له بالقول معصيتان موجبتان للحبط فيكون من المعاصى غير الكفر ما يوجب الحبط (۱).

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ أُولٰئِكَ الَّذِينَ

۱- ۱) .الحجرات ۱-۱۰:بحث فى حبط الاعمال.

اِمْتَحَنَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ الـخ؛غض الصوت خلاـف رفعه،و معنى الامتحـان الابتلاء و الاختبار و إنما يكون لتحصـيل العلم بحال الشـیء المجهول قبـل ذلـک،و إذ يسـتحيل ذلـک فی حقه تعـالی فـالمراد به هنـا التمرين و التعويـد-كما قيل-أو حمل المحنه و المشقه على القلب ليعتاد بالتقوى.

و الآـيه مسوقه للوعـد الجميل على غض الصوت عنـد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بعـد توصـيفهم بأن قلوبهم ممتحنه للتقوى و الذى امتحنهم لذلک هو اللّه سبحانه،و فيه تأكيد و تقويه لمضمون الآيه السابقه و تشويق للانتهاء بما فيها من النهى.

و فی التعبير عنه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فی هـذه الآـيه برسول اللّه بعـد التعبير عنه فی الآـيه السابقه بالنبی إشاره الى ملاک الحكم فـإن الرسـول بمـا هـو رسول ليس له من الأـمر شـیء فمـا له فلمرسـله، و تعظيمه و توقيره تعظيم لمرسـله و توقير له فغض الصوت عنـد رسول اللّه تعظيم و تكبير للّه سـبحانه،و المـداومه و الاسـتمرار على ذلـک-كمـا يسـتفاد من قوله: «يَغُضُّونَ» المفيد للاستمرار-كاشف عن تخلقهم بالتقوى و امتحانه تعالى قلوبهم للتقوى.

و قوله: لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ وعد جميل لهم بإزاء ما فی قلوبهم من تقوى اللّه، و العاقبه للتقوى.

قوله تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ يُنٰادُونَکَ مِنْ وَرٰاءِ الْحُجُرٰاتِ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ سـياق الآـيه يؤدى أنه واقع و أنهم كـانوا قومـا من الجفاه ينـادونه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم من وراء حجرات بيته من غير رعـايه لمقتضـى الأدب و واجب التعظيم و التوقير فـذمهم اللّه سبحانه حيث وصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون كالبهائم من الحيوان.

قوله تعـالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتّٰى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى و لو أنهم صبروا عن نـدائک فلم ينـادوک حتى تخرج اليهم لكان خيرا لما فيه من حسن الأدب و رعايه التعظيم و التوقير لمقام الرساله،و كان ذلک مقربا لهم الى مغفره

اللّه و رحمته لأنه غفور رحيم.

فقوله: وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ كالناظر الى ما ذكر من الصبر و يمكن أن يكون ناظرا الى كون أكثرهم لا يعقلون و المعنى:أن ما صدر عنهم من الجهاله و سوء الأدب معفو عنه لأنه لم يكن عن تعقل و فهم منهم بل عن قصور فى ذلك و اللّه غفور رحيم.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جٰاءَكُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا الخ؛الفاسق -كما قيل-الخارج عن الطاعه الى المعصيه،و النبأ الخبر العظيم الشأن،و التبين و الاستبانه و الإبانه-على ما فى الصحاح-بمعنى واحد و هى تتعدى و لا تتعدى فإذا تعدت كانت بمعنى الإيضاح و الإظهار يقال:تبينت الأمر و استبنته و أبنته أى أوضحته و أظهرته،و إذا لزمت كانت بمعنى الاتضاح و الظهور يقال:أبان الأمر و استبان و تبين أى اتضح و ظهر.

و معنى الآيه:يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بخبر ذى شأن فتبينوا خبره بالبحث و الفحص للوقوف على حقيقته حذر أن تصيبوا قوما بجهاله فتصيروا نادمين على ما فعلتم بهم.

و قد أمضى اللّه سبحانه فى هذه الآيه أصل العمل بالخبر و هو من الاصول العقلائيه التى يبتنى عليه أساس الحياه الاجتماعيه الإنسانيه،و أمر بالتبين فى خبر الفاسق و هو فى معنى النهى عن العمل بخبره،و حقيقته الكشف عن عدم اعتبار حجيته و هذا أيضا كالإمضاء لما بنى عليه العقلاء من عدم حجيه الخبر الذى لا يوثق بمن يخبر به و عدم ترتيب الأثر على خبره.

قوله تعالى: وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّٰهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ الخ؛العنت الإثم و الهلاك،و الطوع و الطاعه الانقياد لكن أكثر ما يقال الطاعه فى الائتمار لما أمر و الارتسام لما رسم على ما ذكره الراغب لكن ربما يعكس الأمر فيسمى جرى المتبوع على ما يريده التابع و يهواه طاعه من المتبوع للتابع و منه قوله تعالى فى الآيه: «لَوْ يُطِيعُكُمْ» حيث سمى عمل الرسول على ما يراه و يهواه المؤمنون طاعه منه لهم.

ص :١٢

و الآيه على ما يفيده السياق من تتمه الكلام فى الآيه السابقه تعمم ما فيها من الحكم و تؤكد ما فيها من التعليل فمضمون الآيه السابقه الحكم بوجوب التبين فى خبر الفاسق و تعليله بوجوب التحرز عن بناء العمل على الجهاله،و مضمون هذه الآيه تنبيه المؤمنين على أن اللّه سبحانه أوردهم شرع الرشد و لذلك حبّب اليهم الإيمان و زيّنه فى قلوبهم و كرّه اليهم الكفر و الفسوق و العصيان فعليهم أن لا يغفلوا عن أن فيهم رسول اللّه و هو مؤيد من عند اللّه و على بيّنه من ربه لا يسلك إلا سبيل الرشد دون الغىّ فعليهم أن يطيعوا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما يأمرهم به و يريدوا ما أراده و يختاروا ما اختاره،و لا يصرّوا على أن يطيعهم فى آرائهم و أهوائهم فإنه لو يطيعهم فى كثير من الأمر جهدوا و هلكوا.

فقوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّٰهِ عطف على قوله فى الآيه السابقه:

«فَتَبَيَّنُوا» و تقديم الخبر للدلاله على الحصر،و الإشاره الى ما هو لازمه فإن اختصاصهم بكون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيهم لازمه أن يتعلقوا بالرشد و يتجنبوا الغىّ و يرجعوا الامور اليه و يطيعوه و يتبعوا أثره و لا يتعلقوا بما تستدعيه منهم أهواؤهم.

فالمعنى:و لا تنسوا أن فيكم رسول اللّه،و هو كنايه عن أنه يجب عليهم أن يرجعوا الامور و يسيروا فيما يواجهونه من الحوادث على ما يراه و يأمر به من غير أن يتبعوا أهواء أنفسهم.

و قوله: لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ أى جهدتم و هلكتم،و الجمله كالجواب لسؤال مقدّر كأن سائلا يسأل فيقول:لما ذا نرجع اليه و لا يرجع الينا و لا يوافقنا؟ فأجيب بأنه «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ» .

و قوله: وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمٰانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ استدراك عما يدلّ عليه الجمله السابقه «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ» من أنهم مشرفون بالطبع على الهلاك و الغىّ فاستدرك أن اللّه سبحانه أصلح ذلك بما أنعم عليهم من تحبيب الإيمان و تكريه الكفر و الفسوق و العصيان.

و المراد بتحبيب الإيمان اليهم جعله محبوبا عندهم و بتزيينه فى قلوبهم تحليته بجمال يجذب قلوبهم الى نفسه فيتعلقون به و يعرضون عما يلهيهم عنه.

و قوله: وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ عطف على «حَبَّبَ» و تكريه الكفر و ما يتبعه اليهم جعلها مكروهه عندهم تتنفر عنها نفوسهم،و الفرق بين الفسوق و العصيان-على ما قيل-أن الفسوق هو الخروج عن الطاعه الى المعصيه،و العصيان نفس المعصيه و إن شئت فقل:جميع المعاصى،و قيل:المراد بالفسوق الكذب بقرينه الآيه السابقه و العصيان سائر المعاصى.

و قوله: أُولٰئِكَ هُمُ الرّاشِدُونَ بيان أن حب الإيمان و الانجذاب اليه و كراهه الكفر و الفسوق و العصيان هو سبب الرشد الذى يطلبه الإنسان بفطرته و يتنفر عن الغى الذى يقابله فعلى المؤمنين أن يلزموا الإيمان و يتجنبوا الكفر و الفسوق و العصيان حتى يرشدوا و يتبعوا الرسول و لا يتبعوا أهواءهم.

و لما كان حب الإيمان و الانجذاب اليه و كراهه الكفر و نحوه صفه بعض من كان الرسول فيهم دون الجميع كما يصرّح به الآيه السابقه،و قد وصف بذلك جماعتهم تحفظا على وحدتهم و تشويقا لمن لم يتصف بذلك منهم غير السياق و التفت عن خطابهم الى خطاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: «أُولٰئِكَ هُمُ الرّاشِدُونَ» و الإشاره الى من اتّصف بحب الإيمان و كراهه الكفر و الفسوق و العصيان،ليكون مدحا للمتصفين بذلك و تشويقا لغيرهم.

و اعلم أن فى قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّٰهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ» إشعارا بأن قوما من المؤمنين كانوا مصرين على قبول نبإ الفاسق الذى تشير اليه الآيه السابقه،و هو الوليد بن عقبه أرسله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الى بنى المصطلق لأخذ زكواتهم فجاء اليهم فلما رآهم هابهم و رجع الى المدينه و أخبر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنهم ارتدوا فعزم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على قتالهم فنزلت الآيه فانصرف و فى القوم بعض من يصرّ على أن يغزوهم.و سيجىء القصه فى

البحث الروائی التالی.

قوله تعالی: فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ تعلیل لما تقدم من فعله تعالی بالمؤمنین من تحبیب الإیمان و تزیینه و تکریه الکفر و الفسوق و العصیان أی إن ذلک منه تعالی مجرد عطیه و نعمه لا الی بدل یصل الیه منهم لکن لیس فعلا جزافیا فإنه تعالی علیهم بمورد عطیته و نعمته حکیم لا یفعل ما یفعل جزافا کما قال: وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوىٰ وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها وَ كانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (الفتح۲۶/).

قوله تعالی: وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما الی آخر الآیه الاقتتال و التقاتل بمعنی واحد کالاستباق و التسابق،و رجوع ضمیر الجمع فی «اقْتَتَلُوا» الی الطائفتین باعتبار المعنی فإن کلا من الطائفتین جماعه و مجموعهما جماعه کما أن رجوع ضمیر التثنیه الیهما باعتبار المعنی.

و نقل عن بعضهم فی وجه التفرقه بین الضمیرین:أنهم أولا فی حال القتال مختلطون فلذا جمع أولا ضمیرهم،و فی حال الصلح متمیزون متفارقون فلذا ثنی الضمیر.

و قوله: فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتّٰى تَفِيءَ إِلىٰ أَمْرِ اللّهِ البغی الظلم و التعدی بغیر حق،و الفیء الرجوع،و المراد بأمر اللّه ما أمر به اللّه،و المعنی:فإن تعدت إحدی الطائفتین علی الاخری بغیر حق فقاتلوا الطائفه المتعدیه حتی ترجع الی ما أمر به اللّه و تنقاد لحکمه.

و قوله: فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ أی فإن رجعت الطائفه المتعدیه الی أمر اللّه فأصلحوا بینهما لکن لا إصلاحا بوضع السلاح و ترک القتال فحسب بل إصلاحا متلبسا بالعدل بإجراء أحکام اللّه فیما تعدت به المتعدیه من دم أو عرض أو مال أو أی حق آخر ضیعته.

و قوله: وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ الإقساط إعطاء کل ما یستحقه من

القسط و السهم و هو العدل فعطف قوله: «وَ أَقْسِطُوا» على قوله: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ» من عطف المطلق على المقيّد للتأكيد،و قوله: «إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» تعليل يفيد تأكيدا على تأكيد كأنه قيل:أصلحوا بينهما بالعدل و اعدلوا دائما و فى جميع الامور لأن اللّه يحب العادلين لعدالتهم.

قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ استئناف مؤكد لما تقدم من الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين،و قصر النسبه بين المؤمنين فى نسبه الاخوه مقدمه ممهده لتعليل ما فى قوله: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ من حكم الصلح فيفيد أن الطائفتين المتقاتلتين لوجود الاخوه بينهما يجب أن يستقر بينهما الصلح،و المصلحون لكونهم إخوه للمتقاتلتين يجب أن يسعوا فى إصلاح ما بينهما.

و قوله: فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ و لم يقل:فأصلحوا بين الأخوين من أوجز الكلام و ألطفه حيث يفيد أن المتقاتلتين بينهما اخوّه فمن الواجب أن يستقر بينهما الصلح و سائر المؤمنين إخوان للمتقاتلتين فيجب عليهم أن يسعوا فى الإصلاح بينهما.

و قوله: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ موعظه للمتقاتلتين و المصلحين جميعا (١).

[سوره الحجرات (۴٩): الآيات ١١ الى ١٨]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لاٰ نِسٰاءٌ مِنْ نِسٰاءٍ عَسىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَ لاٰ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لاٰ تَنٰابَزُوا بِالْأَلْقٰابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمٰانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ (١١) يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لاٰ تَجَسَّسُوا وَ لاٰ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ تَوّٰابٌ رَحِيمٌ (١٢) يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثىٰ وَ جَعَلْنٰاكُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاكُمْ إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قٰالَتِ الْأَعْرٰابُ آمَنّٰا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنٰا وَ لَمّٰا يَدْخُلِ الْإِيمٰانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ لاٰ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمٰالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١۴) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتٰابُوا وَ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصّٰادِقُونَ (١۵) قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللّٰهَ بِدِينِكُمْ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١۶) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاٰ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاٰمَكُمْ بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰاكُمْ لِلْإِيمٰانِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللّٰهُ بَصِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (١٨)

١- ١) .الحجرات ١-١٠:كلام فى معنى الاخوه.

بیان:

قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ یَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسیٰ أَنْ یَکُونُوا خَیْراً مِنْهُمْ وَ لاٰ نِسٰاءٌ مِنْ نِسٰاءٍ عَسیٰ أَنْ یَکُنَّ خَیْراً مِنْهُنَّ الخ؛السخریه الاستهزاء و هو ذکر ما یستحقر و یستهان به الإنسان بقول أو إشاره أو فعل تقلیدا بحیث یضحک منه بالطبع،و القوم الجماعه و هو فی الأصل الرجال دون النساء لقیامهم بالامور المهمه دونهن،و هذا المعنی هو المراد بالقوم فی الآیه بما قوبل بالنساء.

و قوله: عَسیٰ أَنْ یَکُونُوا خَیْراً مِنْهُمْ و «عَسیٰ أَنْ یَکُنَّ خَیْراً مِنْهُنَّ» حکمه النهی.

و المستفاد من السیاق أن الملاک رجاء کون المسخور منه خیرا عند اللّه من الساخر سواء کان الساخر رجلا أو امرأه و کذا المسخور منه فتخصیص النهی فی اللفظ بسخریه القوم من القوم و سخریه النساء من النساء لمکان الغلبه عاده.

و قوله: وَ لاٰ تَلْمِزُوا أَنْفُسَکُمْ اللمز-علی ما قیل-التنبیه علی المعایب،و تعلیق اللمز بقوله: «أَنْفُسَکُمْ» للاشاره الی أنهم مجتمع واحد بعضهم من بعض فلمز الواحد منهم غیره فی الحقیقه لمز نفسه فلیجتنب من أن یلمز غیره کما یکره أن یلمزه غیره،ففی قوله:

«أَنْفُسَکُمْ» إشاره الی حکمه النهی.

و قوله: وَ لاٰ تَنٰابَزُوا بِالْأَلْقٰابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِیمٰانِ النبز بالتحریک هو اللقب،و یختص-علی ما قیل-بما یدلّ علی ذمّ فالتنابز بالألقاب ذکر بعضهم بعضا بلقب السوء مما یکرهه کالفاسق و السفیه و نحو ذلک.

و المراد بالاسم فی «بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ» الذکر کما یقال:شاع اسم فلان بالسخاء و الجود،و علی هذا فالمعنی:بئس الذکر ذکر الناس-بعد إیمانهم-بالفسوق فإن الحری

ص :۱۸

بالمؤمن بما هو مؤمن أن يذكر بالخير و لا يطعن فيه بما يسوؤه نحو يا من أبوه كان كذا و يا من أمه كانت كذا.

و يمكن أن يكون المراد بالاسم السمه و العلامه و المعنى:بئست السمه أن يوسم الإنسان بعد الإيمان بالفسوق بأن يذكر بسمه السوء كأن يقال لمن اقترف معصيه ثم تاب:يا صاحب المعصيه الفلانيه،أو المعنى:بئس الاسم أن يسم الإنسان نفسه بالفسوق بذكر الناس بما يسوؤهم من الألقاب،و على أي معنى كان ففى الجمله إشاره الى حكمه النهى.

و قوله: وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ أى و من لم يتب عن هذه المعاصى التى يقترفها بعد ورود النهى فلم يندم عليها و لم يرجع الى اللّه سبحانه بتركها فاولئك ظالمون حقا فإنهم لا يرون بها بأسا و قد عدها اللّه معاصى و نهى عنها.

و فى الجمله أعنى قوله: «وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ» الخ؛إشعار بأن هناك من كان يقترف هذه المعاصى من المؤمنين.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ الى آخر الآيه المراد بالظن المأمور بالاجتناب عنه ظن السوء فإن ظن الخير مندوب اليه كما يستفاد من قوله تعالى: لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً (النور/١٢).

و المراد بالاجتناب عن الظن الاجتناب عن ترتيب الأثر عليه كأن يظن بأخيه المؤمن سوء فيرميه به و يذكره لغيره و يرتب عليه سائر آثاره،و أما نفس الظن بما هو نوع من الإدراك النفسانى فهو أمر يفاجئ النفس لا عن اختيار فلا يتعلق به النهى اللهم إلا إذا كان بعض مقدماته اختياريا.

و على هذا فكون بعض الظن إثما من حيث كون ما يترتب عليه من الأثر إثما كإهانه المظنون به و قذفه و غير ذلك من الآثار السيئه المحرمه،و المراد بكثير من الظن-و قد جيء به نكره

لیدل على كثرته فی نفسه لا بالقیاس الى سائر أفراد الظن-هو بعض الظن الذی هو إثم فهو كثیر فی نفسه و بعض من مطلق الظن،و لو أرید بكثیر من الظن أعم من ذلک كأن یراد ما یعلم أن فیه إثما و ما لا یعلم منه ذلک كان الأمر بالاجتناب عنه أمرا احتیاطیا توقیا من الوقوع فی الإثم.

و قوله: وَ لاٰ تَجَسَّسُوا التجسس بالجیم تتبع ما استتر من أمور الناس للاطلاع علیها،و مثله التحسس بالحاء المهمله إلا أن التجسس بالجیم یستعمل فی الشر و التحسس بالحاء یستعمل فی الخیر،و لذا قیل:معنى الآیه لا تتبعوا عیوب المسلمین لتهتكوا الامور التی سترها أهلها.

و قوله: وَ لاٰ یَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ یُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ یَأْكُلَ لَحْمَ أَخِیهِ مَیْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ الغیبه على ما فی مجمع البیان ذكر العیب بظهر الغیب على وجه یمنع الحكمه منه، و قد فسرت بتفاسیر مختلفه حسب الاختلاف فی مصادیقها سعه و ضیقا فی الفقه،و یئول الى أن یذكر من الإنسان فی ظهر الغیب ما یسوؤه لو ذكر به و لذا لم یعدوا من الغیبه ذكر المتجاهر بالفسق بما تجاهر به.

و الغیبه تفسد أجزاء المجتمع واحدا بعد واحد فتسقطها عن صلاحیه التأثیر الصالح المرجو من الاجتماع و هو أن یخالط كل صاحبه و یمازجه فی أمن و سلامه بأن یعرفه إنسانا عدلا سویا یأنس به و لا یكرهه و لا یستقذره،و أما إذا عرفه بما یكرهه و یعیبه به انقطع عنه بمقدار ذلک و ضعفت رابطه الاجتماع فهی كالآكله التی تأكل جثمان من ابتلى بها عضوا بعد عضو حتى تنتهی الى بطلان الحیاه.

و الإنسان إنما یعقد المجتمع لیعیش فیه بهویه اجتماعیه أعنی بمنزله اجتماعیه صالحه لأن یخالطه و یمازج فیفید و یستفاد منه،و غیبته بذكر عیبه لغیره تسقطه عن هذه المنزله و تبطل منه هذه الهویه،و فیه تنقیص واحد من عدد المجتمع الصالح و لا یزال ینتقص بشیوع الغیبه

حتی یأتی علی آخره فیتبدل الصلاح فسادا و یذهب الانس و الأمن و الاعتماد و ینقلب الدواء داء.

فهی فی الحقیقه إبطال هویه اجتماعیه علی حین غفله من صاحبها و من حیث لا یشعر به، و لو علم بذلک علی ما فیه من المخاطره لتحرّز منه و توقّی انهتاک ستره و هو الستر ألقاه اللّه سبحانه علی عیوب الإنسان و نواقصه لیتمّ به ما أراده من طریق الفطره من تألّف أفراد الإنسان و تجمّعهم و تعاونهم و تعاضدهم،و أین الإنسان و النزاهه من کل عیب.

و الی هذه الحقیقه أشار تعالی فیما ذکره من التمثیل بقوله: «أَ یُحِبُّ أَحَدُکُمْ أَنْ یَأْکُلَ لَحْمَ أَخِیهِ مَیْتاً فَکَرِهْتُمُوهُ» و قد أتی بالاستفهام الإنکاری و نسب الحب المنفی الی أحدهم و لم یقل:

بعضکم و نحو ذلک لیکون النفی أوضح استیعابا و شمولا و لذا أکّده بقوله بعد: «فَکَرِهْتُمُوهُ» فنسب الکراهه الی الجمیع و لم یقل:فکرهه.

و بالجمله محصّله أن اغتیاب المؤمن بمنزله أن یأکل الإنسان لحم أخیه حال کونه میتا، و إنما کان لحم أخیه لأنه من أفراد المجتمع الإسلامی المؤلف من المؤمنین و إنما المؤمنون إخوه، و إنما کان میتا لأنه لغیبته غافل لا یشعر بما یقال فیه.

و فی قوله: فَکَرِهْتُمُوهُ و لم یقل:فتکرهونه إشعار بأن الکراهه أمر ثابت محقق منکم فی أن تأکلوا إنسانا هو أخوکم و هو میت فکما أن هذا مکروه لکم فلیکن مکروها لکم اغتیاب أخیکم المؤمن بظهر الغیب فإنه فی معنی أکل أحدکم أخاه میتا.

و اعلم أن ما فی قوله: «أَ یُحِبُّ أَحَدُکُمْ أَنْ یَأْکُلَ» الخ؛من التعلیل جار فی التجسس أیضا کالغیبه،و إنما الفرق أن الغیبه هو إظهار عیب الغیر للغیر أو التوصّل الی الظهور علیه من طریق نقل الغیر،و التجسس هو التوصل الی العلم بعیب الغیر من طریق تتبع آثاره و لذلک لم یبعد أن یکون الجمله أعنی قوله: «أَ یُحِبُّ أَحَدُکُمْ أَنْ یَأْکُلَ لَحْمَ أَخِیهِ مَیْتاً» الخ؛تعلیلا لکل من الجملتین أعنی «وَ لاٰ تَجَسَّسُوا وَ لاٰ یَغْتَبْ بَعْضُکُمْ بَعْضاً» .

و اعلـم أن فی الکلام إشـعارا أو دلالـه علی اقتصـار الحرمـه فی غیبه المسـلمین،و من القرینه علیه قـوله فی التعلیـل: «لَحْمَ أَخِیهِ» فالاخوّه إنما هی بین المؤمنین.

و قوله: وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ تَوّابٌ رَحِیمٌ ظاهره أنه عطف علی قوله: «اجْتَنِبُوا کَثِیراً مِنَ الظَّنِّ» إن کان المراد بالتقوی هو التجنب عن هـذه الـذنوب التی کـانوا یقترفونهـا بـالتوبه الی اللّه سبحانه فـالمراد بقوله: «إِنَّ اللّهَ تَوّابٌ رَحِیمٌ» أن اللّه کثیر القبول للتوبه رحیم بعباده التائبین الیه اللائذین به.

و إن کـان هو التجنب عنهـا و التورّع فیهـا و إن لم یکونوا یقترفونهـا فالمراد بقوله: «إِنَّ اللّهَ تَوّابٌ رَحِیمٌ» أن اللّه کثیر الرجوع الی عباده المتقین بالهدایه و التوفیق و الحفظ عن الوقوع فی مهالک الشقوه رحیم بهم».

و ذلـک أن التـوبه مـن اللّـه توبتـان:تـوبه قبـل تـوبه العبـد بـالرجوع الیه بـالتوفیق للتـوبه کمـا قـال تعـالی: ثُمَّ تابَ عَلَیْهِمْ لِیَتُوبُوا (التوبه۱۱۸/)،و توبه بعـد توبه العبـد بـالرجوع الیه بـالمغفره و قبول التوبه کما فی قوله: فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ یَتُوبُ عَلَیْهِ (المائده/ ۳۹).

قوله تعالی: یا أَیُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثی وَ جَعَلْناکُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاکُمْ الخ؛الشعوب جمع شعب بالکسر فالسکون و هو علی مـا فی المجمع الحیّ العظیم من النـاس کربیعه و مضـر،و القبائـل جمع قبیله و هی دون الشعب کتمیم من مضر.

و قولوه إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاکُمْ استئنـاف مبین لمـا فیه الکرامه عنـد اللّه سـبحانه،و ذلک أنه نبههم فی صـدر الآیه علی أن النـاس بمـا هم ناس یساوی بعضـهم بعضا لا اختلاف بینهم و لا فضل لأحـدهم علی غیره،و أن الاختلاف المترائی فی الخلقه من حیث الشعوب و القبائل إنما هو للتوصل به الی تعارفهم لیقوم به الاجتماع المنعقد بینهم إذ لا یتمّ

ائتلاف و لا تعاون و تعاضد من غير تعرف فهذا هو غرض الخلقه من الاختلاف المجعول لا أن تتفاخروا بالأنساب و تتفاضلوا بأمثال البياض و السواد فيستعبد بذلک بعضهم بعضا و يستخدم إنسان إنسانا و يستعلى قوم على قوم فينجرّ الى ظهور الفساد فى البر و البحر و هلاک الحرث و النسل فينقلب الدواء داء.

ثم نبّه سبحانه فى ذيل الآيه بهذه الجمله أعنى قوله: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاكُمْ» على ما فيه الكرامه عنده،و هى حقيقه الكرامه.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ فيه تأكيد لمضمون الآيه و تلويح الى أن الذى اختاره اللّه كرامه للناس كرامه حقيقيه اختارها اللّه بعلمه و خبرته بخلاف ما اختاره الناس كرامه و شرفا لأنفسهم فإنها وهميه باطله فإنها جميعا من زينه الحياه الدنيا قال تعالى: وَ مٰا هٰذِهِ الْحَيٰاهُ الدُّنْيٰا إِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَهَ لَهِيَ الْحَيَوٰانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت/ ۶۴).

و فى الآيه دلاله على أن من الواجب على الناس أن يتّبعوا فى غايات الحياه أمر ربهم و يختاروا ما يختاره و يهدى اليه و قد اختار لهم التقوى كما أن من الواجب عليهم أن يختاروا من سنن الحياه ما يختاره لهم من الدين.

قوله تعالى: قٰالَتِ الْأَعْرٰابُ آمَنّٰا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنٰا وَ لَمّٰا يَدْخُلِ الْإِيمٰانُ فِي قُلُوبِكُمْ الخ؛الآيه و ما يليها الى آخر السوره متعرضه لحال الأعراب فى دعواهم الإيمان و منّهم على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإيمانهم،و سياق نقل قولهم و أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يجيبهم بقوله: «لَمْ تُؤْمِنُوا» يدلّ على أن المراد بالأعراب بعض الأعراب البادين دون جميعهم،و يؤيّده قوله: وَ مِنَ الْأَعْرٰابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ (التوبه/ ۹۹).

و قوله: قٰالَتِ الْأَعْرٰابُ آمَنّٰا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا أى قالوا لک آمنا و ادّعوا الإيمان

قل لم تؤمنوا و كذّبهم فی دعواهم،و قوله: «وَ لٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنٰا» استدراک مما يدلّ عليه سابق الكلام،و التقدير:فلا تقولوا آمنّا و لكن قولوا:أسلمنا.

و قوله: وَ لَمّٰا يَدْخُلِ الْإِيمٰانُ فِی قُلُوبِكُمْ لنفی دخول الإيمان فی قلوبهم مع انتظار دخوله،و لذلک لم يكن تكرارا لنفی الإيمان المدلول عليه بقوله: «لَمْ تُؤْمِنُوا» .

و قد نفی فی الآيه الإيمان عنهم و أوضحه بأنه لم يدخل فی قلوبهم بعد و أثبت لهم الإسلام، و يظهر به الفرق بين الإيمان و الإسلام بأن الإيمان معنی قائم بالقلب من قبيل الاعتقاد، و الإسلام أمر قائم باللسان و الجوارح فإنه الاستسلام و الخضوع لسانا بالشهاده علی التوحيد و النبوّه و عملا بالمتابعه العمليه ظاهرا سواء قارن الاعتقاد بحقيّه ما شهد عليه و عمل به أو لم يقارن،و بظاهر الشهادتين تحقن الدماء و عليه تجری المناكح و المواريث.

و قوله: وَ إِنْ تُطِيعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ لاٰ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمٰالِكُمْ شَيْئاً الليت النقص يقال:لاته يليته ليتا إذا نقصه،و المراد بالإطاعه الإخلاص فيها بموافقه الباطن للظاهر من غير نفاق،و طاعه اللّه استجابه ما دعا اليه من اعتقاد و عمل،و طاعه رسوله تصديقه و اتباعه فيما يأمر به فيما له الولايه عليه من امور الامه،و المراد بالأعمال جزاؤها المراد بنقص الأعمال نقص جزائها.

و المعنی:و إن تطيعوا اللّه فيما يأمركم به من اتّباع دينه اعتقادا،و تطيعوا الرسول فيما يأمركم به لا ينقص من اجور أعمالكم شيئا،و قوله: «إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» تعليل لعدم نقصه تعالی أعمالهم إن أطاعوه و رسوله.

قوله تعالی: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتٰابُوا وَ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِيلِ اللّٰهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصّٰادِقُونَ تعريف تفصيلی للمؤمنين بعد ما عرّفوا إجمالا بأنهم الذين دخل الإيمان فی قلوبهم كما هو لازم قوله:

«لَمْ تُؤْمِنُوا

وَ لَمّٰا يَدْخُلِ الْإِيمٰانُ فِی قُلُوبِكُمْ» .

فقوله: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ فيه قصر المؤمنين فى الـذين آمنوا باللّه و رسوله،الـخ؛فتفيد تعريفهم بما ذكر من الأوصاف تعريفا جامعا مانعا فمن اتّصف بها مؤمن حقا كما أن من فقد شيئا منها ليس بمؤمن حقا.

و الإيمان باللّه و رسوله عقـد القلب على توحيـده تعالى و حقّيه ما أرسل به رسوله و على صـحه الرساله و اتّباع الرسول فيما يأمر به.

و قوله: ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا أى لم يشكّوا فى حقيه مـا آمنوا به و كان إيمانهم ثابتا مسـتقرا لا يزلزله شك،و التعبير بثمّ دون الواو-كما قيـل-للـدلاله على انتفـاء عروض الريب حينـا بعـد حين كأنه طرىّ جديـد دائما فيفيـد ثبوت الإيمان على اسـتحكامه الأوّلى و لو قيل:و لم يرتابوا كان من الجائز أن يصدق مع الإيمان أولا مقارنا لعدم الارتياب مع السكوت عما بعد.

و قوله: وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللّهِ المجاهده بذل الجهد و الطاقه و سبيل اللّه دينه،و المراد بالمجاهده بالأموال و الأنفس العمـل بمـا تسـعه الاسـتطاعه و تبلغه الطـاقه فى التكـاليف الماليه كالزكاه و غير ذلك من الإنفاقات الواجبه،و التكاليف البدنيه كالصلاه و الصوم و الحج و غير ذلك.

و المعنى:و يجدّون بإتيان التكاليف الماليه و البدنيه حال كونهم أو حال كون عملهم فى دين اللّه و سبيله.

و قوله: أُولٰئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ تصديق فى إيمانهم إذا كانوا على الصفات المذكوره.

قوله تعـالى: قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللّهُ يَعْلَمُ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى الْأَرْضِ وَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ توبيـخ للأعراب حيث قـالوا:آمنّا و لازمه دعوى الصـدق فى قولهم و الإصـرار على ذلـك،و قيـل:لمـا نزلت الآيه السابقه حلفت الأعراب أنهم مؤمنون صادقون فى قولهم:آمنّا،فنزل «قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللّهَ بِدِينِكُمْ» الآيه،و معنى الآيه

ظاهر.

قوله تعالى: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاٰ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاٰمَكُمْ بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰاكُمْ لِلْإِيمٰانِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ أى يمنون عليك بأن أسلموا و قد أخطئوا فى منهم هذا من وجهين أحدهما أن حقيقه النعمه التى فيها المن هو الإيمان الذى هو مفتاح سعاده الدنيا و الآخره دون الإسلام الذى له فوائد صوريه من حقن الدماء و جواز المناكح و المواريث،و ثانيهما أن ليس للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من أمر الدين إلا أنه رسول مأمور بالتبليغ فلا من عليه لأحد ممن أسلم.

فلو كان هناك منّ لكان لهم على اللّه سبحانه لأن الدين دينه لكن لا منّ لأحد على اللّه لأن المنتفع بالدين فى الدنيا و الآخره هم المؤمنون دون اللّه الغنى على الإطلاق فالمن للّه عليهم أن هداهم له.

و قد بدّل ثانيا الإسلام من الإيمان للاشاره الى أن المن إنما هو بالإيمان دون الإسلام الذى إنما ينفعهم فى الظاهر فقط.

فقد تضمن قوله: «قُلْ لاٰ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاٰمَكُمْ بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ» الخ؛الإشاره الى خطاهم من الجهتين جميعا:

إحداهما:خطأهم من جهه توجيه المن الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو رسول ليس له من الأمر شىء،و اليه الإشاره بقوله: «لاٰ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاٰمَكُمْ» .

و ثانيهما:أن المن-لو كان هناك من-إنما هو بالإيمان دون الاسلام،و اليه الإشاره بتبديل الإسلام من الإيمان.

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللّٰهُ بَصِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ ختم للسوره و تأكيد يعلل و يؤكد به جميع ما تقدم فى السوره من النواهى و الأوامر و ما بين فيها من الحقائق و ما أخبر فيها عن إيمان قوم و عدم إيمان آخرين فالآيه تعلل

بمضمونها جميع ذلك.

و المراد بغيب السماوات و الأرض ما فيها من الغيب أو الأعم مما فيهما و من الخارج منهما (1).

1- 1) .الحجرات 11-18:بحث روائي في:النهي عن الغيبه،و النبز بالالقاب؛التقوى؛الايمان و الاسلام.

سوره ق مکیه و هی خمس و أربعون آیه

اشاره

[سوره ق (۵۰): الآیات ۱ الی ۱۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gtق وَ اَلْقُرْآنِ اَلْمَجِیدِ (۱) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جٰاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقٰالَ اَلْکٰافِرُونَ هٰذٰا شَیْءٌ عَجِیبٌ (۲) أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً ذٰلِکَ رَجْعٌ بَعِیدٌ (۳) قَدْ عَلِمْنٰا مٰا تَنْقُصُ اَلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنٰا کِتٰابٌ حَفِیظٌ (۴) بَلْ کَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ فَهُمْ فِی أَمْرٍ مَرِیجٍ (۵) أَ فَلَمْ یَنْظُرُوا إِلَی اَلسَّمٰاءِ فَوْقَهُمْ کَیْفَ بَنَیْنٰاهٰا وَ زَیَّنّٰاهٰا وَ مٰا لَهٰا مِنْ فُرُوجٍ (۶) وَ اَلْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَیْنٰا فِیهٰا رَوٰاسِیَ وَ أَنْبَتْنٰا فِیهٰا مِنْ کُلِّ زَوْجٍ بَهِیجٍ (۷) تَبْصِرَةً وَ ذِکْریٰ لِکُلِّ عَبْدٍ مُنِیبٍ (۸) وَ نَزَّلْنٰا مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً مُبٰارَکاً فَأَنْبَتْنٰا بِهِ جَنّٰاتٍ وَ حَبَّ اَلْحَصِیدِ (۹) وَ اَلنَّخْلَ بٰاسِقٰاتٍ لَهٰا طَلْعٌ نَضِیدٌ (۱۰) رِزْقاً لِلْعِبٰادِ وَ أَحْیَیْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَیْتاً کَذٰلِکَ اَلْخُرُوجُ (۱۱) کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحٰابُ اَلرَّسِّ وَ ثَمُودُ (۱۲) وَ عٰادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوٰانُ لُوطٍ (۱۳) وَ أَصْحٰابُ اَلْأَیْکَهِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ کُلٌّ کَذَّبَ اَلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِیدِ (۱۴)

ص: ۲۸

بيان:

السوره تذكر الدعوه و تشير الى ما فيها من الإنذار بالمعاد و جحد المشركين به و استعجابهم ذلك بأن الموت يستعقب بطلان الشخصيه الإنسانيه بصيرورته ترابا لا يبقى معه أثر مما كان عليه فكيف يرجع ثانيا الى ما كان عليه قبل الموت فتدفع ما أظهروه من الاستعجاب و الاستبعاد بأن العلم الإلهى محيط بهم و عنده الكتاب الحفيظ الذى لا يعزب عنه شىء مما دق و جل من أحوال خلقه ثم توعدهم بإصابه مثل ما أصاب الامم الماضيه الهالكه.

و تنبه ثانيا على علمه و قدرته تعالى بالإشاره الى ما جرى من تدبيره تعالى فى خلق السماوات و ما زينها به من الكواكب و النجوم و غير ذلك،و فى خلق الأرض من حيث مدّها و إلقاء الرواسى عليها و إنبات الأزواج النباتيه فيها ثم بإنزال الماء و تهيئه أرزاق العباد و إحياء الأرض به.

ثم بيان حال الإنسان من أول ما خلق و أنه تحت المراقبه الشديده الدقيقه حتى ما يلفظ به من لفظ و حتى ما يخطر بباله و توسوس به نفسه ما دام حيا ثم إذا أدركه الموت ثم إذا بعث لفصل

القضاء ثم إذا فرغ من حسابه فادخل النار إن كان من المكذبين أو الجنه المزيفه إن كان من المتقين.

و بالجمله مصب الكلام فى السوره هو المعاد،و من غرر الآيات فيها قوله: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ،و قوله: يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ و قوله: لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا وَ لَدَيْنٰا مَزِيدٌ .

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها إلا ما قيل فى قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ الآيه أو الآيتين،و لا شاهد عليه من اللفظ.

و ما أوردناه من الآيات فيه إجمال الإشاره الى المعاد و استبعادهم له،و إجمال الجواب و التهديد أولا ثم الاشاره الى تفصيل الجواب و التهديد ثانيا.

قوله تعالى: ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ،قال فى المجمع:المجد فى كلامهم الشرف الواسع يقال:مجد الرجل و مجد-بضم العين و فتحها-مجدا إذا عظم و كرم،و أصله من قولهم:مجدت الإبل مجودا إذا عظمت بطونها من كثره أكلها من كلاء الربيع.انتهى.

و قوله: وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ قسم و جوابه محذوف يدل عليه الجمل التاليه و التقدير و القرآن المجيد إن البعث حق أو إنك لمن المنذرين أو الانذار حق،و قيل:جواب القسم مذكور و هو قوله: «بَلْ عَجِبُوا» الخ؛و قيل:هو قوله: «قَدْ عَلِمْنٰا مٰا تَنْقُصُ» الخ؛و قيل:قوله: مٰا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ الخ؛و قيل:قوله: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ الخ؛و قيل:قوله: مٰا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ الخ؛و هذه أقوال سخيفه لا يصار إليها.

قوله تعالى: بَلْ عَجِبُوا أَنْ جٰاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقٰالَ الْكٰافِرُونَ هٰذٰا شَيْءٌ عَجِيبٌ إضراب عن مضمون جواب القسم المحذوف فكأنه قيل:إنا أرسلناك نذيرا فلم يؤمنوا بك بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم،أو قيل إن البعث الذى أنذرتهم به حق و لم يؤمنوا به بل عجبوا منه و استبعدوه.

و ضمیر «مِنْهُمْ» فی قوله: «بَلْ عَجِبُوا أَنْ جٰاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ» راجع الیهم بما هم بشر أی من جنسهم و ذلک أن الوثنیین ینکرون نبوه البشر کما تقدمت الاشاره الیه مرارا أو راجع الیهم بما هم عرب و المعنی:بل عجبوا أن جاءهم منذر من قومهم و بلسانهم یبین لهم الحق أو فی بیان فیکون أبلغ فی تقریعهم.

و قوله: فَقٰالَ الْکٰافِرُونَ هٰذٰا شَیْءٌ عَجِیبٌ وصفهم بالکفر و لم یقل:و قال المشرکون و نحو ذلک للدلاله علی سترهم للحق لما جاءهم،و الاشاره فی قولهم: «هٰذٰا شَیْءٌ عَجِیبٌ» ،الی البعث و الرجوع الی اللّه کما یفسره قوله بعد: «أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً» الخ.

قوله تعالی: أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً ذٰلِکَ رَجْعٌ بَعِیدٌ الرجع و الرجوع بمعنی و المراد بالبعد البعد عن العقل.

و جواب إذا فی قولهم: «أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً» محذوف یدل علیه قولهم: «ذٰلِکَ رَجْعٌ بَعِیدٌ» و التقدیر أ إذا متنا و کنا ترابا نبعث و نرجع؟و الاستفهام للتعجیب،و إنما حذف للاشاره الی أنه عجیب بحیث لا ینبغی أن یذکر،إذ لا یقبله عقل ذی عقل و الآیه فی مساق قوله: وَ قٰالُوا أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِی الْأَرْضِ أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ (الم السجده۱۰/).

و المعنی:إنهم یتعجبون و یقولون:أ إذا متنا و کنا ترابا-و بطلت ذواتنا بطلانا لا أثر معه منها-نبعث و نرجع؟ثم کأنه قائلا یقول لهم:مم تعجبون؟فقالوا:ذلک رجع بعید یستبعده العقل و لا یسلمه.

قوله تعالی: قَدْ عَلِمْنٰا مٰا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنٰا کِتٰابٌ حَفِیظٌ رد منه تعالی لاستبعادهم البعث و الرجوع مستندین فی ذلک الی أنهم ستتلاشی أبدانهم بالموت فتصیر ترابا متشابه الأجزاء لا تمایز لجزء منها من جزء و الجواب أنّا نعلم بما تأکله الأرض من أبدانهم و تنقصه منها فلا یفوت علمنا جزء من أجزائهم حتی یتعسر علینا إرجاعه أو یتعذر بالجهل.

أو أنا نعلم من يموت منهم فيدفن فى الأرض فتنقصه الأرض من جمعهم،و«من»على أول الوجهين تبعيضيه و على الثانى تبيينيه.

و قوله: وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ أى حافظ لكل شىء و لآثاره و أحواله،أو كتاب ضابط للحوادث محفوظ عن التغيير و التحريف،و هو اللوح المحفوظ الذى فيه كل ما كان و ما يكون و ما هو كائن الى يوم القيامه.

و محصل جواب الآيه أنهم زعموا أن موتهم و صيرورتهم ترابا متلاشى الذرّات غير متمايز الأجزاء يصيرهم مجهولى الأجزاء عندنا فيمتنع علينا جمعها و إرجاعها لكنه زعم باطل فإنا نعلم بمن مات منهم و ما يتبدل الى الأرض من أجزاء أبدانهم و كيف يتبدل و الى أين يصير؟ و عندنا كتاب حفيظ فيه كل شىء و هو اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ المرج الاختلاط و الالتباس،و فى الآيه إضراب عما تلوح اليه الآيه السابقه فإن اللائح منها أنهم إنما تعجبوا من أمر البعث و الرجوع و استبعدوه لجهلهم بأن اللّه سبحانه عليم لا يعزب عنه شىء من أحوال خلقه و آثارهم و أن جميع ذلك مستطر فى اللوح المحفوظ عند اللّه بحث لا يشذّ عنه شاذ.

فاضرب فى هذه الآيه أن ذلك ليس من جهلهم و إن تجاهلوا بل كذّبوا بالحق لما جاءهم فاستبان لهم أنه حق فهم جاحدون للحق معاندون له و ليسوا بجاهلين به قاصرين عن إدراكه فهم فى أمر مريج مختلط غير منتظم يدركون الحق و يكذبون به مع أن لازم العلم بشىء تصديقه و الإيمان به.

و قيل:المراد بكونهم فى أمر مريج أنهم متحيرون بعد إنكار الحق لا يدرون ما يقولون فتاره يقولون:افتراء على اللّه،و تاره:سحر،و تاره:شعر،و تاره:كهانه و تاره:زجر.

و لذلك عقّب الكلام بذكر آيات علمه و قدرته توبيخا لهم ثم بالإشاره الى تكذيب الامم

الماضيه الهالكه الذى ساقهم الى عذاب الاستئصال،تهديدا لهم.

قوله تعالى: أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمٰاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنٰاهٰا وَ زَيَّنّٰاهٰا وَ مٰا لَهٰا مِنْ فُرُوجٍ الفروج جمع فرجه:الشقوق و الفتوق،و تقييد السماء بكونها فوقهم للدلاله على أنها بمرأى منهم لا تغيب عن أنظارهم،و المراد بتزيينها خلق النجوم اللامعه فيها بما لها من الجمال البديع،فبناء هذا الخلق البديع بما لها من الجمال الرائع من غير شقوق و فتوق أصدق شاهد على قدرته القاهره و علمه المحيط بما خلق.

قوله تعالى: وَ الْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَيْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ مد الأرض بسطها لتلائم عيشه الإنسان،و الرواسى جمع الراسيه بمعنى الثابته صفه محذوفه فالموصوف و هو الجبال،و المراد جعل الجبال الثابته على ظهرها،و البهيج من البهجه،قال فى المجمع:البهجه الحسن الذى له روعه عند الرؤيه كالزهره و الأشجار النضره و الرياض الخضره.انتهى.و قيل:المراد بالبهيج الذى من رآه بهج و سرّ به فهو بمعنى المبهوج به.

و المراد بإنبات كل زوج بهيج إنبات كل صنف حسن المنظر من النبات.

فخلق الأرض و ما جرى فيها من التدبير الإلهى العجيب أحسن دليل يدلّ العقل على كمال القدره و العلم.

قوله تعالى: تَبْصِرَةً وَ ذِكْرىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ مفعول له أى فعلنا ما فعلنا من بناء السماء و مد الأرض و عجائب التدبير التى أجريناها فيهما ليكون تبصره يتبصّر بها و ذكرى يتذكر بها كل عبد راجع الى اللّه سبحانه.

قوله تعالى: وَ نَزَّلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً مُبٰارَكاً فَأَنْبَتْنٰا بِهِ جَنّٰاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ السماء جهه العلو و الماء المبارك المطر،وصف بالمباركه لكثره خيراته العائده الى الأرض و أهلها،و حب الحصيد المحصود من الحب و هو من إضافه الموصوف الى الصفه،

و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ النَّخْلَ بٰاسِقٰاتٍ لَهٰا طَلْعٌ نَضِيدٌ الباسقات جمع باسقه و هى الطويله العاليه،و الطلع أول ما يطلع من ثمر النخيل،و النضيد بمعنى المنضود بعضه على بعض، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: رِزْقاً لِلْعِبٰادِ وَ أَحْيَيْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ الرزق ما يمدّ به البقاء،و «رِزْقاً لِلْعِبٰادِ» مفعول له أى أنبتنا هذه الجنات و حب الحصيد و النخل باسقات بما لها من الطلع النضيد ليكون رزقا للعباد فمن خلق هذه النباتات ليرزق به العباد بما فى ذلك من التدبير الوسيع الذى يدهش اللبّ و يحيّر العقل هو ذو علم لا يتناهى و قدره لا تعيى لا يشق عليه إحياء الإنسان بعد موته و إن تلاشت ذرّات جسمه و ضلّت فى الأرض أجزاء بدنه.

و قوله: وَ أَحْيَيْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ برهان آخر على البعث غير ما تقدم استنتج من طىّ الكلام فإن البيان السابق فى رد استبعادهم للبعث مستندين الى صيرورتهم ترابا غير متمايز الأجزاء كان برهانا من مسلك إثبات علمه بكل شىء و قدرته على كل شىء و هذا البرهان الذى يتضمنه قوله: «وَ أَحْيَيْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ» من مسلك إثبات إمكان الشىء بوقوع مثله فليس الخروج من القبور بالإحياء بعد الموت إلا مثل خروج النبات الميت من الأرض بعد موتها و وقوف قواه عن النماء و النشوء.

و قد قررنا هذا البرهان فى ذيل الآيات المستدله بإحياء الأرض بعد موتها على البعث غير مره فيما تقدم من أجزاء الكتاب.

قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ -الى قوله- كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ،تهديد و إنذار لهم بما كذّبوا بالحق لما جاءهم و تبين لهم عنادا كما أشرنا اليه قبل.

و قد تقدم ذكر أصحاب الرس فى تفسير سوره الفرقان،و ذكر أصحاب الأيكه و هو قوم شعيب فى سور الحجر و الشعراء و ص،و ذكر قوم تبع فى سوره الدخان.

ص :٣۴

و فی قوله: «کُلٌّ کَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِیدِ» إشاره الی أن هناک وعیدا بالهلاک ینجز عند تکذیب الرسل قال تعالی: فَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُکَذِّبِینَ (النحل/۳۶).

[سوره ق (۵۰): الآیات ۱۵ الی ۳۸]

أَ فَعَیِینٰا بِالْخَلْقِ اَلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِی لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِیدٍ (۱۵) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ وَ نَعْلَمُ مٰا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ اَلْوَرِیدِ (۱۶) إِذْ یَتَلَقَّی اَلْمُتَلَقِّیٰانِ عَنِ اَلْیَمِینِ وَ عَنِ اَلشِّمٰالِ قَعِیدٌ (۱۷) مٰا یَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّٰ لَدَیْهِ رَقِیبٌ عَتِیدٌ (۱۸) وَ جٰاءَتْ سَکْرَةُ اَلْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِکَ مٰا کُنْتَ مِنْهُ تَحِیدُ (۱۹) وَ نُفِخَ فِی اَلصُّورِ ذٰلِکَ یَوْمُ اَلْوَعِیدِ (۲۰) وَ جٰاءَتْ کُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِیدٌ (۲۱) لَقَدْ کُنْتَ فِی غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَکَشَفْنٰا عَنْکَ غِطٰاءَکَ فَبَصَرُکَ اَلْیَوْمَ حَدِیدٌ (۲۲) وَ قٰالَ قَرِینُهُ هٰذٰا مٰا لَدَیَّ عَتِیدٌ (۲۳) أَلْقِیٰا فِی جَهَنَّمَ کُلَّ کَفّٰارٍ عَنِیدٍ (۲۴) مَنّٰاعٍ لِلْخَیْرِ مُعْتَدٍ مُرِیبٍ (۲۵) اَلَّذِی جَعَلَ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَأَلْقِیٰاهُ فِی اَلْعَذٰابِ اَلشَّدِیدِ (۲۶) قٰالَ قَرِینُهُ رَبَّنٰا مٰا أَطْغَیْتُهُ وَ لٰکِنْ کٰانَ فِی ضَلاٰلٍ بَعِیدٍ (۲۷) قٰالَ لاٰ تَخْتَصِمُوا لَدَیَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَیْکُمْ بِالْوَعِیدِ (۲۸) مٰا یُبَدَّلُ اَلْقَوْلُ لَدَیَّ وَ مٰا أَنَا بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِیدِ (۲۹) یَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ اِمْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِیدٍ (۳۰) وَ أُزْلِفَتِ اَلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِینَ غَیْرَ بَعِیدٍ (۳۱) هٰذٰا مٰا تُوعَدُونَ لِکُلِّ أَوّٰابٍ حَفِیظٍ (۳۲) مَنْ خَشِیَ اَلرَّحْمٰنَ بِالْغَیْبِ وَ جٰاءَ بِقَلْبٍ مُنِیبٍ (۳۳) اُدْخُلُوهٰا بِسَلاٰمٍ ذٰلِکَ یَوْمُ اَلْخُلُودِ (۳۴) لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ فِیهٰا وَ لَدَیْنٰا مَزِیدٌ (۳۵) وَ کَمْ أَهْلَکْنٰا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِی اَلْبِلاٰدِ هَلْ مِنْ مَحِیصٍ (۳۶) إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَذِکْریٰ لِمَنْ کٰانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَی اَلسَّمْعَ وَ هُوَ شَهِیدٌ (۳۷) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا فِی سِتَّةِ أَیّٰامٍ وَ مٰا مَسَّنٰا مِنْ لُغُوبٍ (۳۸)

ص: ۳۵

بیان:

قوله تعالی: أَ فَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِی لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ العیّ عجز یلحق من تولی الأمر و الکلام کذا،قال الراغب:یقال:أعیانی کذا و عییت بکذا أی عجزت عنه و الخلق الأول خلق هذه النشأه الطبیعیه بنظامها الجاری و منها الإنسان فی حیاته الدنیا فلا وجه لقصر الخلق الأول فی خلق السماء و الأرض فقط کما مال الیه الرازی فی

ص: ۳۶

التفسیر الکبیر و لا لقصره فی خلق الإنسان کما مال الیه بعضهم و ذلک لأن الخلق الجدید یشمل السماء و الأرض و الإنسان جمیعا کما قال تعالی: یَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَیْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمٰاوٰاتُ وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ (إبراهیم۴۸/).و الخلق الجدید خلق النشأه الثانیه و هی النشأه الآخره،و الاستفهام للإنکار.

و المعنی:أعجزنا عن الخلق الأول حتی نعجز عن الخلق الجدید؟أی لم نعجز عن الخلق الأول و هو إبداؤه فلا نعجز عن الخلق الجدید و هو إعادته.

و قوله: بَلْ هُمْ فِی لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِیدٍ اللبس هو الالتباس،و المراد بالخلق الجدید تبدیل نشأتهم الدنیا من نشأه اخری ذات نظام آخر وراء النظام الطبیعی الحاکم فی الدنیا فإن فی النشأه الاخری و هی الخلق الجدید بقاء من غیر فناء و حیاه من غیر موت ثم إن کان الإنسان من أهل السعاده فله نعمه من غیر نقمه و إن کان من أهل الشقاء ففی نقمه لا نعمه معها،و النشأه الاولی و هی الخلق الأول و النظام الحاکم فیها علی خلاف ذلک.

و المعنی:إذا کنا خلقنا العالم بسمائه و أرضه و ما فیهما و دبّرناه أحسن تدبیر لأول مره بقدرتنا و علمنا و لم نعجز عن ذلک علما و قدره فنحن غیر عاجزین عن تجدید خلقه و هو تبدیله خلقا جدیدا فلا ریب فی قدرتنا و لا التباس بل هم فی التباس لا سبیل لهم مع ذلک الی الإیمان بخلق جدید.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ وَ نَعْلَمُ مٰا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ قال الراغب:الوسوسه الخطره الردیئه و أصله من الوسواس و هو صوت الحلی و الهمس الخفی.انتهی.

و المراد بخلق الإنسان وجوده المتدرج المتحول خلقا بعد خلق لا أول تکوینه إنسانا و إن عبّر عنه بالماضی إذ قال: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ» إذ الإنسان-و کذا کل مخلوق له حظ من البقاء-کما یحتاج الی عطیه ربه فی أول وجوده کذلک یحتاج الیه فی بقائه.

ص :۳۷

و لما ذكر من النكته عطف قوله: «وَ نَعْلَمُ مٰا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ» و هو فعل مضارع مسوق للدلاله على الاستمرار على قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ» و هو فعل ماض لكنه مستمر المعنى،و كذا قوله: «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» مفيد للثبوت و الدوام و الاستمرار باستمرار وجود الإنسان.

و للآيه اتصال بما تقدم من الاحتجاج على علمه و قدرته تعالى فى الخلق الأول بقوله:

«أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمٰاءِ» و اتصال أيضا بقوله تعالى فى الآيه السابقه: «بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» فهى فى سياق يذكر قدرته على الإنسان بخلقه،و علمه به بلا واسطه و بواسطه الملائكه الحفظه الكتبه.

فقوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ -و اللام للقسم-دالّ على القدره عليه بإثبات الخلق.

و قوله: وَ نَعْلَمُ مٰا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ فى ذكر أخفى أصناف العلم و هو العلم بالخطور النفسانى الخفى إشاره الى استيعاب العلم له كأنه قيل:و نعلم ظاهره و باطنه حتى ما توسوس به نفسه و ما توسوس به الشبهه فى أمر المعاد:كيف يبعث الإنسان و قد صار بعد الموت ترابا متلاشى الأجزاء غير متميز بعضها من بعض.

و قد بان أن «مٰا» فى «مٰا تُوَسْوِسُ بِهِ» موصوله و ضمير «بِهِ» عائد اليه و الباء للآله أو للسببيه،و نسب الوسوسه الى النفس دون الشيطان و إن كانت منسوبه اليه أيضا لأن الكلام فى إحاطه العلم بالإنسان حتى بما فى زوايا نفسه من هاجس و وسوسه.

و قوله: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ الوريد عرق متفرق فى البدن فيه مجارى الدم،و قيل:هو العرق الذى فى الحلق،و كيف كان فتسميته حبلا لتشبيهه به،و إضافه حبل الوريد بيانيه.

و المعنى:نحن أقرب الى الإنسان من حبل وريده المخالط لأعضائه المستقر فى داخل بدنه

ص :٣٨

فكيف لا نعلم به و بما فى نفسه؟

و هـذا تقريب للمقصود بجمله ساذجه يسـهل تلقيهـا لعامه الأفهام و إلا فأمر قربه تعالى اليه أعظم من ذلك و أعظم فهو سبحانه الذى جعلها نفسا و رتب عليها آثارها فهو الواسـطه بينها و بين نفسها و بينها و بين آثارها و أفعالها فهو أقرب الى الإنسان من كل أمر مفروض حتى فى نفسه،و لكون هـذا المعنى دقيقـا يشق تصوره على أكثر الأفهـام عـدل سبحانه الى بيانه بنحو قوله: «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» و قريب منه بوجه قوله: «أَنَّ اللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ» .

قوله تعـالى: إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيٰانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمٰالِ قَعِيدٌ التلقى الأخـذ و التلقن،و المراد بالمتلقيـان على مـا يفيـده السـياق الملكان الموكلان على الإنسان اللذان يتلقيان عمله فيحفظانه بالكتابه.

و قوله: عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمٰالِ قَعِيدٌ تقـديره عن اليمين قعيـد و عن الشـمال قعيـد،و المراد بـاليمين و الشـمال يمين الإنسـان و شماله،و القعيد القاعد.

و الظرف فى قـوله: «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيٰانِ» الظـاهر أنه متعلق بمحـذوف و التقـدير اذكر إذ يتلقى المتلقيـان،و المراد به الإشـاره الى علمه تعالى بأعمال الإنسان من طريق كتاب الأعمال من الملائكه وراء علمه تعالى بذاته من غير توسط الوسائط.

و قوله: عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمٰالِ قَعِيدٌ تمثيل لموقعهما من الإنسان،و اليمين و الشـمال جانبا الخير و الشـر ينتسب اليهما الحسـنه و السيئه.

قوله تعالى: مٰا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّٰ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ اللفظ الرمى سـمى به التكلم بنوع من التشبيه،و الرقيب المحافظ،و العتيد المعد المهيا للزوم الأمر.

و الآيه تـذكر مراقبه الكتبه للإنسان فيما يتكلم به من كلام،و هى بعـد قوله: «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيٰانِ» الـخ؛من ذكر الخاص بعـد العام لمزيد العنايه به.

ص :٣٩

قوله تعالى: وَ جٰاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مٰا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ الحيد العدول و الميل على سبيل الهرب،و المراد بسكره الموت ما يعرض الإنسان حال النزع إذ يشتغل بنفسه و ينقطع عن الناس كالسكران الذى لا يدرى ما يقول و لا ما يقال له.

و فى تقييد مجىء سكره الموت بالحق إشاره الى أن الموت داخل فى القضاء الإلهى مراد فى نفسه فى نظام الكون كما يستفاد من قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنٰا تُرْجَعُونَ (الأنبياء۳۵/)،و قد مر تفسيره فالموت-و هو الانتقال من هذه الدار الى دار بعدها-حق كما أن البعث حق و الجنه حق و النار حق،و فى معنى كون الموت بالحق أقوال أخر لا جدوى فى نقلها و التعرض لها.

و فى قوله: ذٰلِكَ مٰا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ إشاره الى أن الإنسان يكره الموت بالطبع و ذلك أن اللّه سبحانه زيّن الحياه الدنيا و التعلق بزخارفها للانسان ابتلاء و امتحانا،قال تعالى:

إِنّٰا جَعَلْنٰا مٰا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهٰا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ إِنّٰا لَجٰاعِلُونَ مٰا عَلَيْهٰا صَعِيداً جُرُزاً (الكهف۸/).

قوله تعالى: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ هذه نقله ثانيه الى عالم الخلود بنفخ الصور بعد النقله الاولى،و المراد بنفخ الصور النفخه الثانيه المقيمه للساعه أو مجموع النفختين بإراده مطلق النفخ.

و المراد بيوم الوعيد يوم القيامه الذى ينجز اللّه تعالى فيه وعيده على المجرمين من عباده.

قوله تعالى: وَ جٰاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِيدٌ السياقه حث الماشيه على المسير من خلفها بعكس القياده فهى جلبها من أمامها.

فقوله: وَ جٰاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ أى جاءت الى اللّه و حضرت عنده لفصل القضاء، و الدليل عليه قوله تعالى: إِلىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسٰاقُ (القيامه۳۰/).

و المعنى:و حضرت عنده تعالى كل نفس معها سائق يسوقها و شاهد يشهد بأعمالها و لم

یصرّح تعالی بکونهما من الملائکه أو بکونهما هما الکاتبین أو من غیر الملائکه،غیر أن السابق الی الذهن من سیاق الآیات أنهما من الملائکه،و سیجیء الروایات فی ذلک.

و کذا لا تصریح بکون الشهاده منحصره فی هذا الشاهد المذکور فی الآیه بل الآیات الوارده فی شهداء یوم القیامه تقضی بعدم الانحصار،و کذا الآیات التالیه الذاکره لاختصام الإنسان و قرینه داله علی أن مع الإنسان یومئذ غیر السائق و الشهید.

قوله تعالی: لَقَدْ کُنْتَ فِی غَفْلَهٍ مِنْ هٰذٰا فَکَشَفْنٰا عَنْکَ غِطٰاءَکَ فَبَصَرُکَ الْیَوْمَ حَدِیدٌ وقوع الآیه فی سیاق آیات القیامه و احتفافها بها یقضی بکونها من خطابات یوم القیامه،و المخاطب بها هو اللّه سبحانه،و الذی خوطب بها هو الإنسان المذکور فی قوله:

«وَ جٰاءَتْ کُلُّ نَفْسٍ» ،و علیه فالخطاب عام متوجه الی کل إنسان إلا أن التوبیخ و التقریع اللائح من سیاق الآیه ربما استدعی اختصاص الخطاب بمنکری المعاد،أضف الی ذلک،کون الآیات مسوقه لرد منکری المعاد فی قولهم: «أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً ذٰلِکَ رَجْعٌ بَعِیدٌ» .

و الإشاره بقوله: «هٰذٰا» الی ما یشاهده یومئذ و یعاینه من تقطّع الأسباب و بوار الأشیاء و رجوع الکل الی اللّه الواحد القهار،و قد کان تعلق الإنسان فی الدنیا بالأسباب الظاهریه و رکونه إلیها أغفله عن ذلک حتی إذا کشف اللّه عنه حجاب الغفله فبدت له حقیقه الأمر فشاهد ذلک مشاهده عیان لا علما و لا فکریا.

و لذا خوطب بقوله: «لَقَدْ کُنْتَ» فی الدنیا «فِی غَفْلَهٍ» أحاطت بک «مِنْ هٰذٰا» الذی تشاهده و تعاینه و إن کان فی الدنیا نصب عینیک لا یغیب لکن تعلقک بذیل الأسباب أذهلک و أغفلک عنه «فَکَشَفْنٰا عَنْکَ غِطٰاءَکَ» الیوم «فَبَصَرُکَ» و هو البصیره و عین القلب «الْیَوْمَ» و هو یوم القیامه «حَدِیدٌ» أی نافذ یبصر ما لم یکن یبصره فی الدنیا.

قوله تعالی: وَ قٰالَ قَرِینُهُ هٰذٰا مٰا لَدَیَّ عَتِیدٌ لا یخلو السیاق من ظهور فی أن المراد بهذا القرین الملک الموکل به فإن کان هو السائق کان معنی قوله: «هٰذٰا مٰا لَدَیَّ عَتِیدٌ» هذا

الانسان الذی هو عندی حاضر،و ان کان هو الشهید کان المعنی هذا-و هو یشیر الی أعماله التی حمل الشهاده علیها-ما عندی من أعماله حاضر مهیأ.

و قیل:المراد بالقرین الشیطان الذی یصاحبه و یغویه،و معنی کلامه علی هذا الإنسان هو الذی تولیت أمره و ملکته حاضر مهیأ لدخول جهنم.

قوله تعالی: أَلْقِیا فِی جَهَنَّمَ کُلَّ کَفّارٍ عَنِیدٍ مَنّاعٍ لِلْخَیْرِ مُعْتَدٍ مُرِیبٍ الکفار اسم مبالغه من الکفر،و العنید المعاند للحق المستمر علی عناده،و المعتدی المتجاوز عن الحد المتخطئ للحق،و المریب الشاک أو المشکک فی أمر البعث.

و بین هذه الصفات المعدوده شبه الاستلزام فإن کثره الکفر بردّ الإنسان کل حق یواجهه تنتج العناد مع الحق و الإصرار علیه،و الإصرار علی العناد یوجب المنع عن أکثر الخیرات إذ لا خیر إلا فی الحق و من ناحیته،و هو یستلزم الخروج عن حد الحق الی الباطل و تجاوز الإنسان عن حد العبودیه الی الاستکبار و الطغیان و یستلزم تشکیک الناس فی ما یرومونه من دین الحق.

و الخطاب فی الآیه منه تعالی،و ظاهر سیاق الآیات أن المخاطب به هما الملکان الموکلان السائق و الشهید،و احتمل بعضهم أن یکون الخطاب الی ملکین من ملائکه النار و خزنتها.

قوله تعالی: اَلَّذِی جَعَلَ مَعَ اللّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِیاهُ فِی الْعَذابِ الشَّدِیدِ العدول فی ذکر صفه الشرک عن الإیجاز الی الإطناب حیث لم یقل:مشرک و قال: «الَّذِی جَعَلَ» الخ؛للاشاره الی أن هذه الصفه أعظم المعاصی و أم الجرائم التی أتی بها و الصفات الرذیله التی عدّت له من الکفر و العناد و منع الخیر و الاعتداء و الإرابه.

و قوله: فَأَلْقِیاهُ فِی الْعَذابِ الشَّدِیدِ تأکید لما تقدم من الأمر بقوله: «أَلْقِیا» الخ؛ و یلوّح الی تشدید الأمر من جهه الشرک،و لذا عقّبه بقوله: «فِی الْعَذابِ الشَّدِیدِ» .

قوله تعالی: قالَ قَرِینُهُ رَبَّنا ما أَطْغَیْتُهُ وَ لکِنْ کانَ فِی ضَلالٍ بَعِیدٍ المراد

بهذا القرين قرينه من الشياطين بلا شک،و قد تکرر فی کلامه تعالی ذکر القرین من الشیطان و هو الذی یلازم الإنسان و یوحی إلیه ما یوحی من الغوایه و الضلال،قال تعالی: وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ وَ إِنَّهُمْ لَیَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِیلِ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتّٰی إِذٰا جٰاءَنٰا قٰالَ یٰا لَیْتَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ بُعْدَ الْمَشْرِقَیْنِ فَبِئْسَ الْقَرِینُ (الزخرف/ ۳۸).

فقوله: «قٰالَ قَرِینُهُ» أی شیطانه الذی یصاحبه و یغویه «رَبَّنٰا» اضاف الرب الی نفسه و الإنسان الذی هو قرینه لأنهما فی مقام الاختصام «مٰا أَطْغَیْتُهُ» أی ما أجبرته علی الطغیان «وَ لٰکِنْ کٰانَ فِی ضَلاٰلٍ بَعِیدٍ» أی متهیئا مستعدا لقبول ما ألقیته الیه تلقّاه باختیاره فما أنا بمسئول عن ذنبه فی طغیانه.

و قد تقدم فی سوره الصافات تفصیل اختصام الظالمین و أزواجهم فی قوله: اُحْشُرُوا الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ أَزْوٰاجَهُمْ (الصافات۲۲/)،الی آخر الآیات.

قوله تعالی: قٰالَ لاٰ تَخْتَصِمُوا لَدَیَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَیْکُمْ بِالْوَعِیدِ القائل هو اللّه سبحانه یخاطبهم و کأنه خطاب واحد لعامه المشرکین الطاغین و قرنائهم ینحلّ الی خطابات جزئیه لکل إنسان و قرینه بمثل قولنا:لا تختصما لدیّ،الخ.

و قوله: وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَیْکُمْ بِالْوَعِیدِ حال من فاعل «لاٰ تَخْتَصِمُوا» و «بِالْوَعِیدِ» مفعول «قَدَّمْتُ» و الباء للوصله.

و المعنی:لا تختصموا لدیّ فلا نفع لکم فیه بعد ما أبلغتکم وعیدی لمن أشرک و ظلم، و الوعید الذی قدّمه الیهم مثل قوله تعالی لإبلیس: اِذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزٰاؤُکُمْ جَزٰاءً مَوْفُوراً (الإسراء۶۳/)،و قوله: فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِینَ (ص۸۵/).أو قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّٰاسِ أَجْمَعِینَ (السجده/ ۱۳).

قوله تعالى: مٰا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَ مٰا أَنَا بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ الذى يعطيه السياق أن تكون الآيه استئنافا بمنزله الجواب عن سؤال مقدر كأن قائلا يقول:هب إنك قد قدّمت فهلاّ غيّرته و عفوت؟فاجيب بقوله: «مٰا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ» و المراد بالقول مطلق القضاء المحتوم الذى قضى به اللّه،و قد قضى لمن مات على الكفر بدخول جهنم و ينطبق بحسب المورد على الوعيد الذى أوعده اللّه لإبليس و من تبعه.

فقد بان أن الجمله مستأنفه،و المراد بتبديل القول تغيير القضاء المحتوم،و «لَدَيَّ» متعلق بالتبديل،هذا ما يعطيه السياق،و قد ذكر بعضهم فى هذه الجمله و إعراب مفرداتها و معنى تبديل القول وجوها و احتمالات كثيره بعيده عن الفهم لا تزيد فى الكلام إلا تعقيدا فأغمضنا عن إيرادها.

و قوله: وَ مٰا أَنَا بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ متمم لمعنى الجمله السابقه أى لا يبدل قولى فأنتم معذبون لا محاله و لست أظلم عبيدى فى عذابهم على طبق ما قدمت اليهم بالوعيد لأنهم مستحقون لذلك بعد إتمام الحجه.

و من وجه آخر:لا ظلم فى مجازاتهم بالعذاب فإنهم إنما يجزون بأعمالهم التى قدموها فى أعمالهم ردت اليهم كما هو ظاهر قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التحريم٧/).

و ما فى قوله: وَ مٰا أَنَا بِظَلاّٰمٍ من نفى الظلم الكثير لا يستوجب جواز الظلم اليسير فإنه تعالى لو ظلم فى شىء من الجزاء كان ظلما كثيرا لكثره أمثاله فإن الخطاب لكل إنسان مشرك ظالم مع قرينه،و هم كثيرون فهو سبحانه لو ظلم فى شىء من الجزاء لكان ظلاما.

قوله تعالى: يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ خطاب منه تعالى لجهنم و جواب منها،و قد اختلف فى حقيقه هذا التكليم و التكلم فقيل:الخطاب و الجواب بلسان الحال و يرده أنه لو كان بلسان الحال لم يختص به تعالى بل كان لكل من

یشاهدها علی تلک الحال أن یسألها عن امتلائها فتجیبه بقولها:هل من مزید؟فلیس لتخصیص الخطاب به تعالی نکته ظاهره.

و قوله: هَلِ امْتَلَأْتِ استفهام تقریری،و کذا قوله حکایه عنها: «هَلْ مِنْ مَزِیدٍ» و لعل إیراد هذا السؤال و الجواب للإشاره الی أن قهره و عذابه لا یقصر عن الإحاطه بالمجرمین و إیفاء ما یستحقونه من الجزاء قال تعالی: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَهٌ بِالْکافِرِینَ (التوبه۴۹/).

و استشکل بأنه مناف لصریح قوله تعالی: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ» الآیه و أجیب بأن الامتلاء قد یراد به أنه لا یخلو شیء من طبقاتها من السکنه کما یقال:البلد ممتلئ بأهله.علی أنه یمکن أن یکون هذا القول منها قبل دخول جمیع أهل النار فیها.

و قیل:الاستفهام فی قوله: «هَلْ مِنْ مَزِیدٍ» للإنکار و المعنی:لا مزید أی لا مکان فیّ یزید علی من ألقی فی من المجرمین فقد امتلأت فیکون إشاره الی ما قضی به فی قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّاسِ أَجْمَعِینَ (السجده۱۳/)،و قوله: «هَلِ امْتَلَأْتِ» فی معنی أن یقال: «لکِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ» ،و قوله: «هَلْ مِنْ مَزِیدٍ» تقریر و تصدیق له.

و ربما أید هذا الوجه قوله تعالی قبل: «ما یُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَیَّ» علی تقدیر أن یراد بالقول قوله تعالی: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّاسِ أَجْمَعِینَ» .

قوله تعالی: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّهُ لِلْمُتَّقِینَ غَیْرَ بَعِیدٍ شروع فی وصف حال المتقین یوم القیامه،و الإزلاف التقریب،و «غَیْرَ بَعِیدٍ» علی ما قیل صفه لظرف محذوف و التقدیر فی مکان غیر بعید.

و المعنی:و قربت الجنه یومئذ للمتقین حال کونها فی مکان غیر بعید أی هی بین أیدیهم لا تکلف لهم فی دخولها.

قوله تعالی: هذا ما تُوعَدُونَ لِکُلِّ أَوّابٍ حَفِیظٍ الإشاره الی ما تقدم من

الثواب الموعود،و الأواب من الأوب بمعنى الرجوع،و المراد كثره الرجوع الى اللّه بالتوبه و الطاعه،و الحفيظ هو الـذى يدوم على حفظ ما عهد اللّه اليه من أن يترك فيضيع،و قوله:

«لِكُلِّ أَوّابٍ حَفِيظٍ» خبر بعد خبر لهذا أو حال.

قوله تعالى: مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَ جٰاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ بيان لكل أوّاب و الخشيه بالغيب الخوف من عذاب اللّه حال كونه غائبا غير مرئى له،و الإنابه هو الرجوع، و المجيء الى ربه بقلب منيب أن يتم عمره بالإنابه فيأتى ربه بقلب متلبس بالإنابه.

قوله تعالى: اُدْخُلُوهٰا بِسَلاٰمٍ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ خطاب للمتقين أى يقال لهم:

ادخلوا بسـلام أى بسـلامه و أمن من كـل مكروه و سوء،أو بسـلام من اللّه و ملاـئكته عليكم، و قوله: «ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ» بشـرى يبشرون بها.

قـوله تعـالى: لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا وَ لَدَيْنٰا مَزِيـدٌ يمكن أن يكون «فِيهٰا» متعلقـا بيشـاءون أو بمحـذوف هو حـال من الموصول،و التقـدير:حـال كون ما يشاءون فيها أو من الضـمير المحـذوف الراجع الى الموصول،و التقـدير:ما يشاءونه حال كونه فيها،و الأول أوفق لسعه كرامتهم عند اللّه سبحانه.

و المحصل:أن أهل الجنه و هم فى الجنه يملكون كل ما تعلقت به مشـيّتهم و إرادتهم كائنا ما كان من غير تقييـد و اسـتثناء فلهم كل ما أمكن أن يتعلق به الإراده و المشيّه لو تعلقت.

و قوله: وَ لَدَيْنٰا مَزِيـدٌ أى و لهم عندنا ما يزيد على ذلك-على ما يفيده السـياق-و إذ كان لهم كل ما أمكن أن تتعلق به مشـيتهم مما يتعلق به علمهم من المطالب و المقاصد فالمزيد على ذلك أمر أعظم مما تتعلق به مشيتهم لكونه فوق ما يتعلق به علمهم من الكمال.

و قيـل:المراد بالمزيـد الزيـاده على مـا يشاءون من جنس ما يشـتهون فاذا شاءوا رزقا أعطوا منه أكثر مما شاءوا و أفضل و أعجب كما ورد عن بعضهم أنه تمرّ بهم السحابه فتقول:ما ذا تريدون فامطره عليكم فلا يريدون شيئا إلا أمطرته عليهم.

و فیه أنه تقیید لإطلاق الکلام من غیر مقید فإن ظاهر قوله: «لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ فِیهٰا» أنهم یملکون کل ما یمکنهم أن یشاءوا لا تملکهم ما شاؤه بالفعل فالمزید وراء ما یمکن أن تتعلق به مشیتهم.

و قیل:المراد أنه یضاعف لهم الحسنه بعشر أمثالها و فیه ما فی سابقه.

قوله تعالی: وَ کَمْ أَهْلَکْنٰا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِی الْبِلاٰدِ هَلْ مِنْ مَحِیصٍ التنقیب السیر،المحیص المحید و المنجا.

و فی الآیه تذییل الاحتجاج بخلق الإنسان و العلم به و بیان سیره الی اللّه بالتخویف و الإنذار نظیر ما جری علیه الکلام فی صدر السوره من الاحتجاج علی المعاد و تذییله بالتخویف و الإنذار فی قوله: «کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحٰابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ» الخ.

و المعنی:و کثیرا ما أهلکنا قبل هؤلاء المشرکین من قرن هم أی أهل ذلک القرن أشد بطشا منهم أی من هؤلاء المشرکین فساروا ببطشهم فی البلاد ففتحوها و تحکّموا علیها هل من محید و منجی من إهلاک اللّه و عذابه؟

قوله تعالی: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَذِکْریٰ لِمَنْ کٰانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَی السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِیدٌ القلب ما یعقل به الإنسان فیمیز الحق من الباطل و الخیر من الشر و النافع من الضار،فإذا لم یعقل و لم یمیز فوجوده بمنزله عدمه إذ ما لا أثر له فوجوده و عدمه سواء،و إلقاء السمع هو الاستماع کأن السمع شیء یلقی الی المسموع فیناله و یدرکه و الشهید الحاضر المشاهد.

و المعنی:إن فیما أخبرنا به من الحقائق و أشرنا الیه من قصص الامم الهالکه لذکری یتذکر بها من کان یتعقل فیدرک الحق و یختار ما فیه خیره و نفعه أو استمع الی حق القول و لم یشتغل عنه بغیره و الحال أنه شاهد حاضر یعی ما یسمعه.

و التردید بین من کان له قلب و من استمع شهیدا لمکان أن المؤمن بالحق أحد رجلین إما

رجل ذو عقل يمكنه أن يتناول الحق فيتفكر فيه و يرى ما هو الحق فيذعن به،و إما رجل لا يقوى على التفكر حتى يميز الحق و الخير و النافع فعليه أن يستمع القول فيتبعه،و أما من لا قلب له يعقل به و لا يسمع شهيدا على ما يقال له و يلقى اليه من الرساله و الإنذار فجاهل متعنت لا قلب له و لا سمع،قال تعالى: وَ قٰالُوا لَوْ كُنّٰا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مٰا كُنّٰا فِي أَصْحٰابِ السَّعِيرِ (الملك١٠/).

قوله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ وَ مٰا مَسَّنٰا مِنْ لُغُوبٍ اللغوب التعب و النصب،و المعنى ظاهر (١).

[سوره ق (۵٠): الآيات ٣٩ الى ۴۵]

فَاصْبِرْ عَلىٰ مٰا يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ اَلشَّمْسِ وَ قَبْلَ اَلْغُرُوبِ (٣٩) وَ مِنَ اَللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبٰارَ اَلسُّجُودِ (۴٠) وَ اِسْتَمِعْ يَوْمَ يُنٰادِ اَلْمُنٰادِ مِنْ مَكٰانٍ قَرِيبٍ (۴١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ اَلصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ اَلْخُرُوجِ (۴٢) إِنّٰا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا اَلْمَصِيرُ (۴٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ اَلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرٰاعاً ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنٰا يَسِيرٌ (۴۴) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَقُولُونَ وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبّٰارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخٰافُ وَعِيدِ (۴۵)

ص: ۴٨

---

١ - ١) .ق ١۵-٣٨:بحث روائى حول خلق العالم و آدم؛اصحاب اليمين و اصحاب الشمال،اهل الجنه و اهل النار؛الملائكه الموكلون للانسان؛جهنم؛نعم الجنّه.

بیان:

قوله تعالی: فَاصْبِرْ عَلیٰ مٰا یَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ تفریع علی جمیع ما تقدم من إنکار المشرکین للبعث،و من تفصیل القول فی البعث و الحجه علیه،و من وعید المنکرین له المکذبین للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تهدیدهم بمثل ما جری علی المکذبین من الامم الماضیه.

و قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ الخ؛أمر بتنزیهه تعالی عما یقولون مصاحبا للحمد و محصله إثبات جمیل الفعل له و نفی کل نقص و شین عنه تعالی،و التسبیح قبل طلوع الشمس یقبل الانطباق علی صلاه الصبح،و التسبیح قبل الغروب یقبل الانطباق علی صلاه العصر أو علیها و علی صلاه الظهر.

قوله تعالی: وَ مِنَ اللَّیْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبٰارَ السُّجُودِ أی و من اللیل فسبحه فیه، و یقبل الانطباق علی صلاتی المغرب و العشاء.

و قوله: «وَ أَدْبٰارَ السُّجُودِ» الأدبار جمع دبر و هو ما ینتهی الیه الشیء و بعده،و کأن المراد بأدبار السجود بعد الصلوات فإن السجود آخر الرکعه من الصلاه فینطبق علی التعقیب بعد الصلوات،و قیل:المراد به النوافل بعد الفرائض،و قیل:المراد به الرکعتان أو الرکعات بعد المغرب و قیل:رکعه الوتر فی آخر اللیل.

قوله تعالی: وَ اسْتَمِعْ یَوْمَ یُنٰادِ الْمُنٰادِ مِنْ مَکٰانٍ قَرِیبٍ فسّروا الاستماع بمعان مختلفه و الأقرب أن یکون مضمنا معنی الانتظار و «یَوْمَ یُنٰادِ الْمُنٰادِ» مفعوله و المعنی:و انتظر یوما ینادی فیه المنادی ملقیا سمعک لاستماع ندائه،و المراد بنداء المنادی نفخ صاحب الصور فی الصور علی ما تفیده الآیه التالیه.

و کون النداء من مکان قریب لإحاطته بهم فیقع فی سمعهم علی نسبه سواء لا تختلف

بالقرب و البعد فإنما هو نداء البعث و كلمه الحياه.

قوله تعالى: يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ بيان ليوم ينادى المنادى،و كون الصيحه بالحق لأنها مقضيه قضاء محتوما كما مر فى قوله: «وَ جٰاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ» الآيه.

و قوله: ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ أى يوم الخروج من القبور كما قال تعالى: يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدٰاثِ سِرٰاعاً (المعارج/۴۳).

قوله تعالى: إِنّٰا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ المراد بالإحياء إفاضه الحياه على الأجساد الميته فى الدنيا،و بالإماته الإماته فى الدنيا و هى النقل الى عالم القبر، و بقوله: «وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ» الإحياء بالبعث فى الآخره على ما يفيده السياق.

قوله تعالى: يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرٰاعاً ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنٰا يَسِيرٌ أصل «تَشَقَّقُ» تتشقق اى تتصدع عنهم فيخرجون منها مسارعين الى الداعى.

و قوله: ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنٰا يَسِيرٌ أى ما ذكرنا من خروجهم من القبور المنشقه عنهم سراعا جمع لهم علينا يسير.

قوله تعالى: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَقُولُونَ وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبّٰارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخٰافُ وَعِيدِ فى مقام التعليل لقوله: «فَاصْبِرْ عَلىٰ مٰا يَقُولُونَ» الآيه،و الجبار المتسلط الذى يجبر الناس على ما يريد.

و المعنى:فاصبر على ما يقولون و سبّح بحمد ربك و انتظر البعث فنحن أعلم بما يقولون سنجزيهم بما عملوا و لست أنت بمتسلط جبار عليهم حتى تجبرهم على ما تدعوهم اليه من الإيمان باللّه و اليوم الآخر و إذا كانت حالهم هذه الحال فذكّر بالقرآن من يخاف وعيدى.

سوره الذاريات مكيه و هی ستون آيه

اشاره

[سوره الذاريات (۵۱): الآيات ۱ الی ۱۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;وَ اَلذّٰارِيٰاتِ ذَرْواً (۱) فَالْحٰامِلاٰتِ وِقْراً (۲) فَالْجٰارِيٰاتِ يُسْراً (۳) فَالْمُقَسِّمٰاتِ أَمْراً (۴) إِنَّمٰا تُوعَدُونَ لَصٰادِقٌ (۵) وَ إِنَّ اَلدِّينَ لَوٰاقِعٌ (۶) وَ اَلسَّمٰاءِ ذٰاتِ اَلْحُبُكِ (۷) إِنَّكُمْ لَفِی قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (۸) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (۹) قُتِلَ اَلْخَرّٰاصُونَ (۱۰) اَلَّذِينَ هُمْ فِی غَمْرَةٍ سٰاهُونَ (۱۱) يَسْئَلُونَ أَيّٰانَ يَوْمُ اَلدِّينِ (۱۲) يَوْمَ هُمْ عَلَی اَلنّٰارِ يُفْتَنُونَ (۱۳) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هٰذَا اَلَّذِی كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۱۴) إِنَّ اَلْمُتَّقِينَ فِی جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۵) آخِذِينَ مٰا آتٰاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ (۱۶) كٰانُوا قَلِيلاً مِنَ اَللَّيْلِ مٰا يَهْجَعُونَ (۱۷) وَ بِالْأَسْحٰارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۱۸) وَ فِی أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ لِلسّٰائِلِ وَ اَلْمَحْرُومِ (۱۹)

ص: ۵۱

بیان:

كانت الدعوه النبويه تدعو الوثنيه الى توحيد الربوبيه و أن اللّه تعالى هو ربهم و رب كل شىء،و كانت الدعوه من طريق الإنذار و التبشير و خاصه بالإنذار و كان الإنذار بعذاب اللّه فى الدنيا للمكذبين عذاب الاستئصال،و فى الآخره بالعذاب الخالد يوم القيامه و هو العمده فى نجاح الدعوه إذ لو لا الحساب و الجزاء يوم القيامه كان الإيمان بالوحدانيه و النبوه لغى لا أثر له.

و المشركون باتخاذهم آلهه دون اللّه سبحانه شديدو الإنكار لاصول التوحيد و النبوه و المعاد،و كانوا يتعنتون بإنكار المعاد و الإصرار على نفيه و الاستهزاء به من أى طريق ممكن لما يرون أن فى بطلانه بطلان الأصلين الآخرين.

و السوره تذكر المعاد و إنكارهم له فتبدأ به و تختم عليه لكن لا من حيث نفسه كما جرى عليه الكلام فى مواضع من كلامه بل من حيث إنه يوم الجزاء و أن اللّه الذى وعدهم به هو ربهم

ص :۵۲

و هو الذی وعدهم به و وعده صدق لا ریب فیه.

و لذلک لما انساق الکلام الی الاحتجاج علیه احتجت بأدله التوحید من آیات الأرض و السماء و الأنفس و ما عاقب اللّه به الامم الماضین إثر دعوتهم الی التوحید و تکذیبهم لرسله، و لیس إلا لیثبت بها التوحید فیثبت به یوم الجزاء الذی وعده اللّه و اللّه لا یخلف المیعاد و أخبرت به الدعوه النبویه فیندفع بذلک إنکارهم للجزاء و قد توسلوا بذلک الی إبطال دین التوحید و رساله الرسول لصیروره الایمان به لغوا لا أثر له کما تقدمت الإشاره الیه.

و السوره مکیه لشهاده سیاق آیاتها علیه و لم یختلف فی ذلک أحد،و من غرر آیاتها قوله تعالی: «وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ» .

و الفصل الذی أوردناه من الآیات مفتتح الکلام یذکر فیه أن الجزاء الذی وعدوه صدق و إنکارهم له و تعنتهم بذلک تخرص ثم یصف یوم الجزاء و حال المتقین و المنکرین فیه.

قوله تعالی: وَ الذّٰارِيٰاتِ ذَرْواً فَالْحٰامِلاٰتِ وِقْراً فَالْجٰارِيٰاتِ يُسْراً فَالْمُقَسِّمٰاتِ أَمْراً الذاریات جمع الذاریه من قولهم:ذرت الریح التراب تذروه ذروا إذا أطارته و الوقر بالکسر فالسکون ثقل الحمل فی الظهر أو فی البطن.

و فی الآیات إقسام بعد إقسام یفید التأکید بعد التأکید للمقسم علیه و هو الجزاء علی الأعمال فقوله: «وَ الذّٰارِيٰاتِ ذَرْواً» إقسام بالریاح المثیره للتراب،و قوله: «فَالْحٰامِلاٰتِ وِقْراً» بالفاء المفیده للتأخیر و الترتیب معطوف علی الذاریات و إقسام بالسحب الحامله لثقل الماء،و قوله: «فَالْجٰارِيٰاتِ يُسْراً» عطف علیه و إقسام بالسفن الجاریه فی البحار بیسر و سهوله.

و قوله: فَالْمُقَسِّمٰاتِ أَمْراً عطف علی ما سبقه و إقسام بالملائکه الذین یعملون بأمره فیقسمونه باختلاف مقاماتهم فإن أمر ذی العرش بالخلق و التدبیر واحد فإذا حمله طائفه من الملائکه علی اختلاف أعمالهم انشعب الأمر و تقسم بتقسمهم ثم إذا حمله طائفه هی

دون الطائفه الاولی تقسم ثانیا بتقسمهم و هکذا حتی ینتهی الی الملائکه المباشرین للحوادث الکونیه الجزئیه فینقسم بانقسامهم و یتکثر بتکثرها.

و الآیات الأربع-کما تری-تشیر الی عامه التدبیر حیث ذکرت انموذجا مما یدبر به الأمر فی البر و هو الذاریات ذروا،و انموذجا مما یدبر به الأمر فی البحر و هو الجاریات یسرا و انموذجا مما یدبر به الأمر فی الجو و هو الحاملات وقرا،و تمم الجمیع بالملائکه الذین هم وسائط التدبیر و هم المقسمات أمرا.

فالآیات فی معنی أن یقال:أقسم بعامه الأسباب التی یتمم بها أمر التدبیر فی العالم إن کذا کذا،و قد ورد من طرق الخاصه و العامه عن علی علیه أفضل السلام تفسیر الآیات الأربع بما تقدم.

و عن الفخر الرازی فی التفسیر الکبیر أن الأقرب حمل الآیات الأربع جمیعا علی الریاح فإنها کما تذرو التراب ذروا تحمل السحب الثقال و تجری فی الجو بیسر و تقسم السحب علی الأقطار من الأرض.

و الحق أن ما استقر به بعید،و ما تقدم من المعنی أبلغ مما ذکره.

قوله تعالی: إِنَّمٰا تُوعَدُونَ لَصٰادِقٌ وَ إِنَّ الدِّینَ لَوٰاقِعٌ «ما»موصوله، و الضمیر العائد إلیها محذوف أی الذین توعدونه،أو مصدریه،و «تُوعَدُونَ» من الوعد کما یؤیده قوله: «وَ إِنَّ الدِّینَ لَوٰاقِعٌ» الشامل لمطلق الجزاء،و قیل:من الایعاد کما یؤیده قوله:

فَذَکِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ یَخٰافُ وَعِیدِ (ق/۴۵).

وعد الوعد صادقا من المجاز فی النسبه کما فی قوله: فِی عِیشَهٍ رٰاضِیَهٍ (الحاقه/۲۱)أو الصادق بمعنی ذو صدق کما قیل بمثله فی قوله: فِی عِیشَهٍ رٰاضِیَهٍ و الدین الجزاء.

و کیف کان فقوله: «إِنَّمٰا تُوعَدُونَ لَصٰادِقٌ» جواب القسم،و قوله: «وَ إِنَّ الدِّینَ لَوٰاقِعٌ» معطوف علیه بمنزله التفسیر،و المعنی أقسم بکذا و کذا أن الذی توعدونه-و هو الذی یعدهم

القرآن أو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما أنزل اليه-من يوم البعث و أن اللّه سيجزيهم فيه بأعمالهم إن خيرا فخيرا و إن شرا فشرا لصادق،و إن الجزاء لواقع.

قوله تعالى: وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ الحبك بمعنى الحسن و الزينه،و بمعنى الخلق المستوى،و يأتى جمعا لحبيكه أو حباك بمعنى الطريقه كالطرائق التى تظهر على الماء إذا تثنى و تكسر من مرور الرياح عليه.

و المعنى على الأول:أقسم بالسماء ذات الحسن و الزينه نظير قوله تعالى: إِنّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَهٍ الْكَواكِبِ (الصافات/۶)،و على الثانى:اقسم بالسماء ذات الخلق المستوى نظير قوله: وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ (الآيه ۴۷ من السوره)و على الثالث اقسم بالسماء ذات الطرائق نظير قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ (المؤمنون/۱۷).

و لعل المعنى الثالث أظهر لمناسبته لجواب القسم الذى هو اختلاف الناس و تشتت طرائقهم كما أن الاقسام السابقه «وَ الذّارِياتِ ذَرْواً» الخ؛كانت مشتركه فى معنى الجرى و السير مناسبه لجوابها «إِنَّما تُوعَدُونَ» الخ؛المتضمن لمعنى الرجوع الى اللّه و السير اليه.

قوله تعالى: إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ القول المختلف ما يتناقض و يدفع بعضه بعضا و حيث إن الكلام فى إثبات صدق القرآن أو الدعوه أو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما وعدهم من أمر البعث و الجزاء فالمراد بالقول المختلف-على الأقرب-قولهم المختلف فى أمر القرآن لغرض إنكار ما يثبته فتاره يقولون:إنه سحر و الجائى به ساحر،و تاره يقولون:زجر و الجائى به مجنون،و تاره يقولون:القاء شياطين الجن و الجائى به كاهن،و تاره يقولون:شعر و الجائى به شاعر،و تاره إنه افتراء،و تاره يقولون إنما يعلمه بشر،و تاره يقولون:أساطير الأولين اكتتبها.

و قوله: يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ الإفك الصرف،و ضمير «عَنْهُ» الى الكتاب من حيث اشتماله على وعد البعث و الجزاء،و المعنى:يصرف عن القرآن من صرف،و قيل:

الضمير للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المعنى:يصرف عن الإيمان به من صرف،و قد عرفت أن المعنى السابق أوفق للسياق و إن كان مآل المعنيين واحدا.

و حكى عن بعضهم أن ضمير «عَنْهُ» لما توعدون أو للدين أقسم تعالى أولا بالذاريات و غيرها على أن البعث و الجزاء حق ثم أقسم بالسماء على أنهم فى قول مختلف فى وقوعه فمنهم شاك و منهم جاحد ثم قال تعالى:يؤفك عن الإقرار بأمر البعث و الجزاء من هو مأفوك.و هذا الوجه قريب من الوجه السابق.

و عن بعضهم:أن الضمير لقوله مختلف و«عن»للتعليل كما فى قوله تعالى: وَ مٰا نَحْنُ بِتٰارِكِي آلِهَتِنٰا عَنْ قَوْلِكَ (هود/۵۳)،فيكون الجمله صفه لقول و المعنى:إنكم لفى قول مختلف يؤفك بسببه من أفك،و هو وجه حسن.

قوله تعالى: قُتِلَ الْخَرّٰاصُونَ اَلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سٰاهُونَ يَسْئَلُونَ أَيّٰانَ يَوْمُ الدِّينِ أصل الخرص القول بالظن و التخمين من غير علم،و لكون القول بغير علم فى خطر من الكذب يسمى الكذاب خرّاصا،و الأشبه أن يكون المراد بالخراصين فى الآيه القوالين من غير علم و دليل و هم الخائضون فى أمر البعث و الجزاء المنكرون له بغير علم.

و فى قوله: قُتِلَ الْخَرّٰاصُونَ دعاء عليهم بالقتل و هو كنايه عن نوع من الطرد و الحرمان من الفلاح و اليه يئول قول من فسره باللعن.

و قوله: اَلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سٰاهُونَ الغمره-كما ذكر الراغب-معظم الماء الساتر لمقرها،و جعل مثلا للجهاله التى تغمر صاحبها،و المراد بالسهو-كما قيل-مطلق الغفله.

و معنى الآيه و هى تصف الخراصين:الذين هم فى جهاله أحاطت بهم غافلون عن حقيقه ما أخبروا به.

و قوله: يَسْئَلُونَ أَيّٰانَ يَوْمُ الدِّينِ ضمير الجمع للخراصين قول قالوه على طريق

الاستعجال استهزاء كقولهم: مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (يس۴۸/).

و السؤال بأيـان-الموضوعه للسؤال عن زمان مـدخولها-عن يوم الـدين و هو ظاهر فى الزمان إنما هو بعنايه أن يوم الـدين لكونه موعودا ملحق بالزمانيـات فيسأل عنه كمـا يسأل عن الزمانيات بأيان و متى كما يقال:متى يوم العيـد لكونه ذا شأن ملحقا لـذلك بالزمانيات كذا قيل.

و يمكن أن يكون من التوسع فى معنى الظرفيه بـأن يعـدّ أوصـاف الظرف الخاصه به ظرفا توسـعا فيكون السؤال عن زمان الزمان سؤالا عن أنه بعد أى زمان أو قبل أى زمان؟كما يقال:متى يوم العيد؟فيجاب بأنه بعد عشره أيام مثلا أو قبل يوم كذا،و هو توسع جار فى العرف غير مختصّ بكلام العرب،و فى القرآن منه شىء كثير.

قوله تعالى: يَوْمَ هُمْ عَلَى النّٰارِ يُفْتَنُونَ ضـمير الجمع الخراصين،و الفتن فى الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم استعمل فى مطلق الإحراق و التعـذيب،و الظرف متعلق بفعل محـذوف أو مبتـدأ،و الآيه جواب من سؤالهم عدل فيه عن بيان وقت يوم الدين الى بيان صفته و الإشاره الى حالهم فيه لما أن وقته من الغيب الذى لا يعلمه إلا اللّه قال تعالى:

لاٰ يُجَلِّيهٰا لِوَقْتِهٰا إِلاّٰ هُوَ .

و تقدير الآيه و معناها:يقع يوم الدين أو هو واقع يوم هم أى الخراصون فى النار يعذبون أو يحرقون.

قوله تعـالى: ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هٰذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ حكـايه خطاب منه تعالى أو من الملائكه بأمره للخراصـين و هم يفتنون على النار يومئذ.

و المعنى:يقال لهم ذوقوا العذاب الذى يخصكم.هذا العذاب هو الذى كنتم تستعجلون به إذ تقولون استعجالا و استهزاء:أيان يوم الدين.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ بيان لحال المتقين يوم الدين بعد

وصف حال أولئک الخراصين.

و تنکير جنات و عيون للإشاره الى عظم قدرها کأنها بحيث لا يقدر الواصفون على وصفها،و قد ألحقت العيون بالجنات فى ظرفيتها توسعا.

قوله تعالى: آخِذِينَ مٰا آتٰاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ کٰانُوا قَبْلَ ذٰلِکَ مُحْسِنِينَ أى قابلين ما أعطاهم ربهم الرءوف بهم راضين عنه و بما أعطاهم کما يفيده خصوص التعبير بالأخذ و الإيتاء و نسبه الإيتاء الى ربهم.

و قوله: إِنَّهُمْ کٰانُوا قَبْلَ ذٰلِکَ مُحْسِنِينَ تعليل لما تقدمه أى إن حالهم تلک الحال لأنهم کانوا قبل ذلک أى فى الدنيا ذوى إحسان فى أعمالهم أى ذوى أعمال حسنه.

قوله تعالى: کٰانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مٰا يَهْجَعُونَ الآيات تفسير لإحسانهم، و الهجوع النوم فى الليل و قيل:النوم القليل.

و يمکن أن تکون:ما زائده و «يَهْجَعُونَ» خبر کانوا،و «قَلِيلاً» ظرفا متعلقا به أى فى زمان قليل أو صفه لمفعول مطلق محذوف أى هجوعا قليلا و «مِنَ اللَّيْلِ» متعلقا بقليلا و المعنى:

کانوا ينامون فى زمان قليل من الليل أو ينامون الليل نوما قليلا.

و أن تکون موصوله و الضمير العائد إليها محذوفا و «قَلِيلاً» خبر کانوا و الموصول فاعله و المعنى:کانوا قليلا من الليل الذى يهجعون فيه.

و أن تکون مصدريه و المصدر المسبوک منها و من مدخولها فاعلا لقوله: «قَلِيلاً» و هو خبر «کٰانُوا» .

و على أى حال فالقليل من الليل إما مأخوذ بالقياس الى مجموع زمان کل ليله فيفيد أنهم يهجعون کل ليله زمانا قليلا منها و يصلون أکثرها،و إما مأخوذ بالقياس الى مجموع الليالى فيفيد أنهم يهجعون فى قليل من الليالى و يقومون للصلاه فى أکثرها أى لا يفوتهم صلاه الليل إلا فى قليل من الليالى.

قوله تعالی: وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ یَسْتَغْفِرُونَ أی یسألون اللّه المغفره لذنوبهم،و قیل: المراد بالاستغفار الصلاه و هو کما تری.

قوله تعالی: وَ فِی أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ الآیتان السابقتان تبینان خاصه سیرتهم فی جنب اللّه سبحانه و هی قیام اللیل و الاستغفار بالأسحار و هذه الآیه تبین خاصه سیرتهم فی جنب الناس و هی إیتاء السائل و المحروم.

و تخصیص حق السائل و المحروم بأنه فی أموالهم-مع أنه لو ثبت فإنما یثبت فی کل مال- دلیل علی أن المراد أنهم یرون بصفاء فطرتهم أن فی أموالهم حقا لهم فیعملون بما یعملون نشرا للرحمه و إیثارا للحسنه.

و السائل هو الذی یسأل العطیه بإظهار الفاقه و المحروم هو الذی حرم الرزق فلم ینجح سعیه فی طلبه و لا یسأل تعففا.

[سوره الذاریات (۵۱): الآیات ۲۰ الی ۵۱]

وَ فِی اَلْأَرْضِ آیاتٌ لِلْمُوقِنِینَ (۲۰) وَ فِی أَنْفُسِکُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۲۱) وَ فِی اَلسَّماءِ رِزْقُکُمْ وَ ما تُوعَدُونَ (۲۲) فَوَ رَبِّ اَلسَّماءِ وَ اَلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّکُمْ تَنْطِقُونَ (۲۳) هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ ضَیْفِ إِبْراهِیمَ اَلْمُکْرَمِینَ (۲۴) إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْکَرُونَ (۲۵) فَراغَ إِلی أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِینٍ (۲۶) فَقَرَّبَهُ إِلَیْهِمْ قالَ أَ لا تَأْکُلُونَ (۲۷) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِیمٍ (۲۸) فَأَقْبَلَتِ اِمْرَأَتُهُ فِی صَرَّةٍ فَصَکَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِیمٌ (۲۹) قالُوا کَذلِکِ قالَ رَبُّکِ إِنَّهُ هُوَ اَلْحَکِیمُ اَلْعَلِیمُ (۳۰) قالَ فَما خَطْبُکُمْ أَیُّهَا اَلْمُرْسَلُونَ (۳۱) قالُوا إِنّا أُرْسِلْنا إِلی قَوْمٍ مُجْرِمِینَ (۳۲) لِنُرْسِلَ عَلَیْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِینٍ (۳۳) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُسْرِفِینَ (۳۴) فَأَخْرَجْنا مَنْ کانَ فِیها مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۳۵) فَما وَجَدْنا فِیها غَیْرَ بَیْتٍ مِنَ اَلْمُسْلِمِینَ (۳۶) وَ تَرَکْنا فِیها آیَةً لِلَّذِینَ یَخافُونَ اَلْعَذابَ اَلْأَلِیمَ (۳۷) وَ فِی مُوسی إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلی فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِینٍ (۳۸) فَتَوَلّی بِرُکْنِهِ وَ قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۳۹) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِی اَلْیَمِّ وَ هُوَ مُلِیمٌ (۴۰) وَ فِی عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَیْهِمُ اَلرِّیحَ اَلْعَقِیمَ (۴۱) ما تَذَرُ مِنْ شَیْءٍ أَتَتْ عَلَیْهِ إِلاّ جَعَلَتْهُ کَالرَّمِیمِ (۴۲) وَ فِی ثَمُودَ إِذْ قِیلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتّی حِینٍ (۴۳) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ اَلصّاعِقَةُ وَ هُمْ یَنْظُرُونَ (۴۴) فَمَا اِسْتَطاعُوا مِنْ قِیامٍ وَ ما کانُوا مُنْتَصِرِینَ (۴۵) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ (۴۶) وَ اَلسَّماءَ بَنَیْناها بِأَیْدٍ وَ إِنّا لَمُوسِعُونَ (۴۷) وَ اَلْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ اَلْماهِدُونَ (۴۸) وَ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ خَلَقْنا زَوْجَیْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ (۴۹) فَفِرُّوا إِلَی اَللّهِ إِنِّی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ مُبِینٌ (۵۰) وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اَللّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ مُبِینٌ (۵۱)

بیان:

قوله تعالى: وَ فِي الْأَرْضِ آيٰاتٌ لِلْمُوقِنِينَ الاستنتاج الآتى فى آخر هذه الآيات فى قوله: «فَفِرُّوا إِلَى اللّٰهِ -الى أن قال- وَ لاٰ تَجْعَلُوا مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ» الآيه،يشهد على أن سوق هذه الآيات و الدلائل لإثبات وحدانيته تعالى فى الربوبيه لا لإثبات أصل وجوده أو انتهاء الخلق اليه و نحو ذلك.

و فى الآيه إشاره الى ما تتضمنه الأرض من عجائب الآيات الداله على وحده التدبير القائمه بوحدانيه مدبره من بر و بحر و جبال و تلال و عيون و أنهار و معادن و منافعها المتصله بعضها ببعض الملائمه بعضها لبعض ينتفع بها ما عليها من النبات و الحيوان فى نظام واحد مستمر من غير اتفاق و صدفه،لائح عليها آثار القدره و العلم و الحكمه دالّ على أن خلقها و تدبير أمرها ينتهى الى خالق مدبر قادر عليم حكيم.

فأى جانب قصد من جوانبها و أيه وجهه و ليت من جهات التدبير العالم الجارى فيها كانت آيه بيّنه و برهانا ساطعا على وحدانيه ربها لا شريك له ينجلى فيه الحق لأهل اليقين ففيها آيات للموقنين.

قوله تعالى: وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ معطوف على قوله: «فِي الْأَرْضِ» أى

و فی أنفسکم آیات ظاهره لمن أبصر إلیها و رکز النظر فیها أ فلا تبصرون.

و الآیات التی فی النفوس منها ما هی فی ترکّب الأبدان من أعضائها و أعضاء أعضائها حتی ینتهی الی البسائط و ما لها من عجائب الأفعال و الآثار المتحده فی عین تکثرها المدبره جمیعا لمدبر واحد،و ما یعرضها من مختلف الأحوال کالجنینیه و الطفولیه و الرهاق و الشباب و الشیب.

و منها ما هی من حیث تعلق النفوس أعنی الأرواح بها کالحواس من البصر و السمع و الذوق و الشمّ و اللمس التی هی الطرق الأولیه لاطّلاع النفوس علی الخارج لتمیز بذلک الخیر من الشر و النافع من الضار لتسعی الی ما فیه کما لها و تهرب مما لا یلائمها،و فی کل منها نظام وسیع جار فیه منفصل بذاته عن غیره کالبصر لا خبر عنده عما یعمله السمع بنظامه الجاری فیه و هکذا،و الجمیع مع هذا الانفصال و التقطع مؤتلفه تعمل تحت تدبیر مدبر واحد هو النفس المدبره و اللّه من ورائهم محیط.

و من هذا القبیل سائر القوی المنبعثه عن النفوس فی الأبدان کالقوه الغضبیه و القوه الشهویه و ما لها من اللواحق و الفروع فإنها علی ما للواحد منها بالنسبه الی غیره من البینونه و انفصال النظام الجاری فیه عن غیره واقعه تحت تدبیر مدبر واحد تتعاضد جمیع شعبها و تأتلف لخدمته.

و نظام التدبیر الذی لکل من هذه المدبرات إنما وجد له حینما وجد و أول ما ظهر من غیر فصل فلیس مما عملت فیه خیرته و أوجده هو لنفسه عن فکر و رویه أو بغیره فنظام تدبیره کنفسه من صانع صنعه و ألزمه نظامه بتدبیره.

و منها الآیات الروحانیه الواقعه فی عالم النفوس الظاهره لمن رجع إلیها و راقب اللّه سبحانه فیها من آیات اللّه التی لا یسعها وصف الواصفین و ینفتح بها باب الیقین و تدرج المتطلع علیها فی زمره الموقنین فیری ملکوت السماوات و الأرض کما قال تعالی: وَ کَذٰلِکَ نُرِی إِبْرٰاهِیمَ

مَلَكُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام/۷۵).

قوله تعالى: وَ فِي السَّمٰاءِ رِزْقُكُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ قيل:المراد بالسماء جهه العلو فإن كل ما علاك و أظلّك فهو سماء لغه،و المراد بالرزق المطر الذى ينزله اللّه على الأرض فيخرج به أنواع ما يقتاتونه و يلبسونه و ينتفعون به و قد قال تعالى: وَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمٰاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا (الجاثيه/۵)،فسمّى المطر رزقا فالمراد بالرزق سببه أو بتقدير مضاف أى سبب رزقكم.

و يمكن أن يكون المراد به عالم الغيب فإن الأشياء و منها الأرزاق تنزل من عند اللّه سبحانه و قد صرّح بذلك فى أشياء كقوله تعالى: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعٰامِ ثَمٰانِيَةَ أَزْوٰاجٍ (الزمر/۶)، و قوله: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ (الحديد/۲۵)،و قوله على نحو العموم: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/۲۱)،و المراد بالرزق كل ما ينتفع به الإنسان فى بقائه من مأكل و مشرب و ملبس و مسكن و منكح و ولد و علم و قوه و غير ذلك.

و قوله: وَ مٰا تُوعَدُونَ عطف على «رِزْقُكُمْ» الظاهر أن المراد به الجنه لقوله:

تعالى: عِنْدَهٰا جَنَّةُ الْمَأْوىٰ (النجم/۱۵)،و قوله بعضهم:إن المراد به الجنه و النار أو الثواب و العقاب لا يلائمه قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهٰا لاٰ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوٰابُ السَّمٰاءِ وَ لاٰ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتّٰى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيٰاطِ (الأعراف/۴۰).

نعم تكرر فى القرآن نسبه نزول العذاب الدنيوى الى السماء كقوله: فَأَنْزَلْنٰا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمٰاءِ (البقره/۵۹)،و غير ذلك.

قوله تعالى: فَوَ رَبِّ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مٰا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ النطق التكلم و ضمير «إِنَّهُ» راجع الى ما ذكر من كون الرزق و ما توعدون فى السماء و الحق هو الثابت المحتوم فى القضاء الإلهى دون أن يكون أمرا تبعيا أو اتفاقيا.

و المعنی:أقسم برب السماء و الأرض إن ما ذکرناه من کون رزقکم و ما توعدونه من الجنه -و هو أیضا من الرزق فقد تکرر فی القرآن تسمیه الجنه رزقا کقوله: لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ (الأنفال/۷۴)،و غیر ذلک-فی السماء لثابت مقضی مثل نطقکم و تکلمکم الذی هو حق لا ترتابون فیه (۱).

قوله تعالی: هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ ضَیْفِ إِبْراهِیمَ الْمُکْرَمِینَ إشاره الی قصه دخول الملائکه المکرمین علی إبراهیم علیه السّلام و تبشیرهم له و لزوجه ثم إهلاکهم قوم لوط،و فیها آیه علی وحدانیه الربوبیه کما تقدمت الإشاره الیه.

و فی قوله: هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ تفخیم لأمر القصه و «الْمُکْرَمِینَ» -و هم الملائکه الداخلون علی إبراهیم-صفه «ضَیْفِ» و إفراده لکونه فی الأصل مصدرا لا یثنی و لا یجمع.

قوله تعالی: إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْکَرُونَ الظرف متعلق بقوله فی الآیه السابقه: «حَدِیثُ» و «سَلاماً» مقول القول و العامل فیه محذوف أی قالوا:نسلّم علیک سلاما.

و قوله: قالَ سَلامٌ قول و مقول و «سَلامٌ» مبتدأ محذوف الخبر و التقدیر سلام علیکم،و فی إتیانه بالجواب جمله اسمیه داله علی الثبوت تحیه منه علیه السّلام بما هو أحسن من تحیتهم بقولهم:سلاما فإنه جمله فعلیه داله علی الحدوث.

و قوله: قَوْمٌ مُنْکَرُونَ الظاهر أنه حکایه قول إبراهیم فی نفسه،و معناه أنه لما رآهم استنکرهم و حدّث نفسه أن هؤلاء قوم منکرون،و لا ینافی ذلک ما وقع فی قوله تعالی: فَلَمّا رَأی أَیْدِیَهُمْ لا تَصِلُ إِلَیْهِ نَکِرَهُمْ (هود/۷۰)حیث ذکر نکره بعد تقریب العجل الحنیذ الیهم فإن ما فی هذه السوره حدیث نفسه به و ما فی سوره هود ظهوره فی وجهه بحیث یشاهد

۱- ۱) .الذاریات ۲۰-۵۱:کلام فی تکافؤ الرزق و المرزوق.

منه ذلک.

و هذا المعنی أوجه من قول جمع من المفسرین:إنه حکایه قوله علیه السّلام لهم و التقدیر أنتم قوم منکرون.

قوله تعالی: فَرٰاغَ إِلیٰ أَهْلِهِ فَجٰاءَ بِعِجْلٍ سَمِینٍ الرواغ الذهاب علی سبیل الاحتیال علی ما قاله الراغب و قال غیره:هو الذهاب الی الشیء فی خفیه،و المعنی الأول یرجع الی الثانی.

و المراد بالعجل السمین المشوی منه بدلیل قوله: «فَقَرَّبَهُ إِلَیْهِمْ» أو الفاء فصیحه و التقدیر فجاء بعجل سمین فذبحه و شوّاه و قرّبه الیهم.

قوله تعالی: فَقَرَّبَهُ إِلَیْهِمْ قٰالَ أَ لاٰ تَأْکُلُونَ عرض الأکل علی الملائکه و هو یحسبهم بشرا.

قوله تعالی: فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَهً قٰالُوا لاٰ تَخَفْ الخ؛الفاء فصیحه و التقدیر فلم یمدوا الیه أیدیهم فلما رأی ذلک نکرهم و أوجس منهم خیفه،و الایجاس الإحساس فی الضمیر و الخیفه بناء نوع من الخوف أی أضمر منهم فی نفسه نوعا من الخوف.

و قوله: قٰالُوا لاٰ تَخَفْ جیء بالفصل لا بالعطف لأنه فی معنی جواب سؤال مقدّر کأنه قیل:فما ذا کان بعد ایجاس الخیفه فقیل:قالوا:لا تخف و بشّروه بغلام علیم فبدلوا خوفه أمنه و سرورا و المراد بغلام علیم إسماعیل أو إسحاق و قد تقدم الخلاف فیه.

قوله تعالی: فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِی صَرَّهٍ فَصَکَّتْ وَجْهَهٰا وَ قٰالَتْ عَجُوزٌ عَقِیمٌ فی المجمع الصرّه شدّه الصیاح و هو من صریر الباب و یقال للجماعه صرّه أیضا.قال:

و الصک الضرب باعتماد شدید انتهین.

و المعنی فأقبلت امرأه إبراهیم علیه السّلام-لما سمعت البشاره-فی ضجه و صیاح فلطمت وجهها و قالت:أنا عجوز عقیم فکیف ألد؟أو المعنی هل عجوز عقیم تلد غلاما؟.

قوله تعالى: قَالُوا كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الإشاره بكذلك الى ما بشّروها به بما لها و لزوجها من حاضر الوضع هى عجوز عقيم و بعلها شيخ مسه الكبر فربها حكيم لا يريد إلا بحكمه،عليم لا يخفى عليه وجه الأمر.

قوله تعالى: قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ -الى قوله- لِلْمُسْرِفِينَ الخطب الأمر الخطير الهام،و الحجاره من الطين الطين المتحجر،و التسويم تعليم الشيء بمعنى جعله ذا علامه من السومه بمعنى العلامه.

و المعنى: «قَالَ» إبراهيم عليه السّلام «فَمَا خَطْبُكُمْ» و الشأن الخطير الذى لكم «أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ» من الملائكه «قَالُوا» أى الملائكه لإبراهيم «إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ» و هم قوم لوط «لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ» طينا متحجرا سماه اللّه سجيلا «مُسَوَّمَةً» معلمه «عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ» تختص بهم لإهلاكهم،و الظاهر أن اللام فى المسرفين للعهد.

قوله تعالى: فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ -الى قوله- اَلْعَذَابَ الْأَلِيمَ الفاء فصيحه و قد أوجز بحذف ما فى القصه من ذهاب الملائكه الى لوط و ورودهم عليه و همّ القوم بهم حتى إذا أخرجوا آل لوط من القريه،و قد فصلت القصه فى غير موضع من كلامه تعالى.

فقوله: فَأَخْرَجْنَا الخ؛بيان إهلاكهم بمقدمته،و ضمير «فِيهَا» للقريه المفهومه من السياق،و «بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» بيت لوط،و قوله: «وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً» إشاره الى إهلاكهم و جعل أرضهم عاليها سافلها،و المراد بالترك الإبقاء كنايه و قد بيّنت هذه الخصوصيات فى سائر كلامه تعالى.

و المعنى:فلما ذهبوا الى لوط و كان من أمرهم ما كان «فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا» فى القريه «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ» واحد «مِنَ الْمُسْلِمِينَ» و هم آل لوط «وَ تَرَكْنَا فِيهَا» فى ارضهم بقلبها و إهلاكهم «آيَةً» داله على ربوبيتنا و بطلان الشركاء «لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ

الْأَلِيمَ» من الناس.

قوله تعالى: وَ فِي مُوسىٰ إِذْ أَرْسَلْنٰاهُ إِلىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ عطف على قوله: «وَ تَرَكْنٰا فِيهٰا آيَةً» و التقدير و فى موسى آيه،و المراد بسلطان مبين الحجج الباهره التى كانت معه من الآيات المعجزه.

قوله تعالى: فَتَوَلّٰى بِرُكْنِهِ وَ قٰالَ سٰاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ التولى الإعراض و الباء فى قوله: «بِرُكْنِهِ» للمصاحبه،و المراد بركنه جنوده كما تؤيده الآيه التاليه،و المعنى:أعرض مع جنوده،و قيل:الباء للتعديه،و المعنى:جعل ركنه متولين معرضين.

و قوله: «وَ قٰالَ سٰاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» أى قال تاره هو مجنون كقوله: إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (الشعراء/٢٧)،و قال اخرى:هو ساحر كقوله: إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ عَلِيمٌ (الشعراء/٣٤).

قوله تعالى: فَأَخَذْنٰاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنٰاهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ النبذ طرح الشىء من غير أن يعتدّ به،و اليمّ البحر،و المليم الآتى بما يلام عليه من ألام بمعنى أتى بما يلام عليه كأغرب إذا أتى بأمر غريب.

و المعنى:فأخذناه و جنوده و هم ركنه و طرحناهم فى البحر و الحال أنه أتى من الكفر و الجحود و الطغيان بما يلام عليه،و إنما خصّ فرعون بالملامه مع أن الجميع يشاركونه فيها لأنه إمامهم الذى قادهم الى الهلاك،قال تعالى: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ (هود/ ٩٨).

و فى الكلام من الإيماء الى عظمه القدره و هول الأخذ و هوان أمر فرعون و جنوده ما لا يخفى.

قوله تعالى: وَ فِي عٰادٍ إِذْ أَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ عطف على ما تقدمه أى و فى عاد أيضا آيه إذ أرسلنا عليهم أى أطلقنا عليهم الريح العقيم.

و الریح العقیم هی الریح التی عقمت و امتنعت من أن یأتی بفائده مطلوبه من فوائد الریاح کتنشئه سحاب أو تلقیح شجر أو تذریه طعام أو نفع حیوان أو تصفیه هواء کما قیل و إنما أثرها الإهلاک کما تشیر الیه الآیه التالیه.

قوله تعالی: مٰا تَذَرُ مِنْ شَیْءٍ أَتَتْ عَلَیْهِ إِلاّٰ جَعَلَتْهُ کَالرَّمِیمِ «مٰا تَذَرُ» أی ما تترک،و الرمیم الشیء الهالک البالی کالعظم البالی السحیق،و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: وَ فِی ثَمُودَ إِذْ قِیلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتّٰی حِینٍ -الی قوله- مُنْتَصِرِینَ عطف علی ما تقدمه أی و فی ثمود أیضا آیه إذ قیل لهم:تمتعوا حتی حین، و القائل نبیهم صالح علیه السّلام إذ قال لهم: تَمَتَّعُوا فِی دٰارِکُمْ ثَلاٰثَةَ أَیّٰامٍ ذٰلِکَ وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ (هود/۶۵)قال لهم ذلک لما عقروا الناقه فأمهلهم ثلاثه أیام لیرجعوا فیها عن کفرهم و عتوّهم لکن لم ینفعهم ذلک و حق علیهم کلمه العذاب.

و قوله: فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصّٰاعِقَةُ وَ هُمْ یَنْظُرُونَ العتوّ-علی ما ذکره الراغب-النبوّ عن الطاعه فینطبق علی التمرد،و المراد بهذا العتوّ العتوّ عن الأمر و الرجوع الی اللّه أیام المهله فلا یستشکل بأن عتوّهم عن أمر اللّه کان مقدما علی تمتعهم-کما یظهر من تفصیل القصه-و الآیه تدل علی العکس.

و قوله: فَأَخَذَتْهُمُ الصّٰاعِقَةُ وَ هُمْ یَنْظُرُونَ هذا لا ینافی ما فی موضع آخر من ذکر الصیحه بدل الصاعقه کقوله: وَ أَخَذَ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَةُ (هود/۶۷)لجواز تحققهما معا فی عذابهم.

و قوله: فَمَا اسْتَطٰاعُوا مِنْ قِیٰامٍ وَ مٰا کٰانُوا مُنْتَصِرِینَ لا یبعد أن یکون «اسْتَطٰاعُوا» مضمنا معنی تمکنوا،و «مِنْ قِیٰامٍ» مفعوله أی ما تمکنوا من قیام من مجلسهم لیفروا من عذاب اللّه و هو کنایه عن أنهم لم یمهلوا حتی بمقدار أن یقوموا من مجلسهم.

و قوله: وَ مٰا کٰانُوا مُنْتَصِرِینَ عطف علی «فَمَا اسْتَطٰاعُوا» أی ما کانوا منتصرین

بنصره غيرهم ليدفعوا بها العذاب عن أنفسهم،و محصل الجملتين أنهم لم يقدروا على دفع العذاب عن أنفسهم لا بأنفسهم و لا بناصر ينصرهم.

قوله تعالى: وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ عطف على القصص السابقه،و «قَوْمَ نُوحٍ» منصوب بفعل محذوف و التقدير و أهلكنا قوم نوح من قبل عاد و ثمود إنهم كانوا فاسقين عن أمر اللّه.

فهناك أمر و نهى كلف الناس بهما من قبل اللّه سبحانه و هو ربهم و رب كل شيء دعاهم الى الدين الحق بلسان رسله فما جاء به الأنبياء عليهم السّلام حق من عند اللّه و مما جاءوا به الوعد بالبعث و الجزاء.

قوله تعالى: وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ رجوع الى السياق السابق فى قوله: «وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ» الخ؛و الأيد القدره و النعمه،و على كل من المعنيين يتعين لقوله: «وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ» ما يناسبه من المعنى.

فالمعنى على الأول:و السماء بنيناها بقدره لا يوصف قدرها و إنا لذو واسعه فى القدره لا يعجزها شيء،و على الثانى:و السماء بنيناها مقارنا بناؤها لنعمه لا تقدّر بقدر و إنا لذو واسعه و غنى لا تنفد خزائننا بالإعطاء و الرزق نرزق من السماء من نشاء فنوسع الرزق كيف نشاء.

و من المحتمل أن يكون «لَمُوسِعُونَ» من أوسع فى النفقه أى كثرها فيكون المراد توسعه خلق السماء كما تميل اليه الأبحاث الرياضيه اليوم.

قوله تعالى: وَ الْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ الفرش البسط و كذا المهد أى و الأرض بسطناها و سطحناها لتستقروا عليها و تسكنوها فنعم الباسطون نحن،و هذا الفرش و البسط لا ينافى كرويه الأرض.

قوله تعالى: وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ الزوجان المتقابلان.يتم أحدهما بالآخر:فاعل و منفعل كالذكر و الانثى،و قيل:المراد مطلق المتقابلات

كالذكر و الانثى و السماء و الأرض و الليل و النهار و البر و البحر و الإنس و الجن و قيل:الذكر و الانثى.

و قوله: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أى تتذكرون أن خالقها منزه عن الزوج و الشريك واحد موحّد.

و قوله: فَفِرُّوا إِلَى اللّهِ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ فى الآيتين تفريع على ما تقدم من الحجج على وحدانيته فى الربوبيه و الالوهيه،و فيها قصص عده من الامم الماضين كفروا باللّه و رسله فانتهى بهم ذلك الى عذاب الاستئصال.

فالمراد بالفرار الى اللّه الانقطاع اليه من الكفر و العقاب الذى يستتبعه،بالإيمان به تعالى وحده و اتخاذه إلها معبودا لا شريك له.

و قوله: وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللّهِ إِلهاً آخَرَ كالتفسير لقوله: «فَفِرُّوا إِلَى اللّهِ» أى المراد بالإيمان به الإيمان به وحده لا شريك له فى الالوهيه و المعبوديه.

و قد كرر قوله: «إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» لتأكيد الإنذار،و الآيتان محكيتان عن لسان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

[سوره الذاريات (۵۱): الآيات ۵۲ الى ۶۰]

كَذلِكَ ما أَتَى اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۵۲) أَ تَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (۵۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ (۵۴) وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ اَلذِّكْرى تَنْفَعُ اَلْمُؤْمِنِينَ (۵۵) وَ ما خَلَقْتُ اَلْجِنَّ وَ اَلْإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ (۵۶) ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (۵۷) إِنَّ اَللّهَ هُوَ اَلرَّزّاقُ ذُو اَلْقُوَّهِ اَلْمَتِينُ (۵۸) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (۵۹) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ اَلَّذِى يُوعَدُونَ (۶۰)

ص: ۷۰

بيان:

قوله تعالى: كَذٰلِكَ مٰا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ قٰالُوا سٰاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أى الأمر كذلک،فقوله: «كَذٰلِكَ» كالتلخيص لما تقدم من إنكارهم و اختلافهم فى القول.

و قوله: مٰا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الخ؛بيان للمشبّه.

قوله تعالى: أَ تَوٰاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طٰاغُونَ التواصى إيصاء القوم بعضهم بعضا بأمر،و ضمير «بِهِ» للقول،و الاستفهام للتعجيب،و المعنى:هل وصّى بعض هذه الامم بعضا-هل السابق وصّى اللاحق؟-على هذا القول؟لا بل هم قوم طاغون يدعوهم الى هذا القول طغيانهم.

قوله تعالى: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمٰا أَنْتَ بِمَلُومٍ تفريع على طغيانهم و استكبارهم و إصرارهم على العناد و اللجاج،فالمعنى:فإذا كان كذلک و لم يجيبوک إلا بمثل قولهم ساحر أو مجنون و لم يزدهم دعوتک إلا عنادا فأعرض عنهم و لا تجادلهم على الحق فما أنت بملوم فقد أريت المحجه و أتمت الحجه.

ص:٧١

قوله تعالى: وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ تفريع على الأمر بالتولى عنهم فهو أمر بالتذكير بعد النهى عن الجدال معهم،و المعنى:و استمرّ على التذكير و العظه فذكّر كما كنت تذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين بخلاف الاحتجاج و الجدال مع اولئك الطاغين فإنه لا ينفعهم شيئا و لا يزيدهم إلا طغيانا و كفرا.

قوله تعالى: وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ فيه التفات من سياق التكلم بالغير الى التكلم وحده لأن الأفعال المذكوره سابقا المنسوبه اليه تعالى كالخلق و إرسال الرسل و إنزال العذاب كل ذلك مما يقبل توسيط الوسائط كالملائكه و سائر الأسباب بخلاف الغرض من الخلق و الإيجاد فإنه أمر يختص باللّه سبحانه لا يشاركه فيه أحد.

و قوله: إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ استثناء من النفى لا ريب فى ظهوره فى أن للخلقه غرضا و أن الغرض العباده بمعنى كونهم عابدين للّه لا كونه معبودا فقد قال:ليعبدون و لم يقل:لا عبد أو لأكون معبودا لهم.

على أن الغرض كيفما كان أمر يستكمل به صاحب الغرض و يرتفع به حاجته و اللّه سبحانه لا نقص فيه و لا حاجه له حتى يستكمل به و يرتفع به حاجته،و من جهه اخرى الفعل الذى لا ينتهى الى غرض لفاعله لغو سفهى و يستنتج منه أن له سبحانه فى فعله غرضا هو ذاته لا غرض خارج منه،و أن لفعله غرضا يعود الى نفس الفعل (۱)و هو كمال للفعل لا لفاعله، فالعباده غرض لخلقه الإنسان و كمال عائد اليه هى و ما يتبعها من الآثار كالرحمه و المغفره و غير ذلك،و لو كان للعباده غرض كالمعرفه الحاصله بها و الخلوص للّه كان هو الغرض الأقصى و العباده غرضا متوسطا.

۱- ۱) .فاللّه تعالى خلق الانسان ليثيبه و الثواب عائد الى الانسان و هو المنتفع به و اللّه غنى عنه،و أما غرضه تعالى فهو ذاته المتعاليه و إنما خلقه لأنه اللّه عز اسمه.منه.

فالحق أن اللام فی «الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ» للجنس دون الاستغراق،و المراد بالعباده ذلک غرضا نفسها دون الصلوح و الاستعداد،و لو کان المراد هو الصلوح و الاستعداد للعباده لکان أدنی ذلک غرضا أدنی مطلوبا لأجل غرض أعلی هو العباده کما أن نفس العباده بمعنی ما یأتی به العبد من الأعمال بالجوارح من قیام و رکوع و سجود و نحوها غرض مطلوب لأجل غرض آخر هو المثول بین یدی رب العالمین بذله العبودیه و فقر المملوکیه المحضه قبال العزه المطلقه و الغنی المحض کما ربما استفید من قوله تعالی: قُلْ مٰا یَعْبَؤُا بِکُمْ رَبِّی لَوْ لاٰ دُعٰاؤُکُمْ (الفرقان/٧٧)،حیث بدل العباده دعاء.

فحقیقه العباده نصب العبد نفسه فی مقام الذله و العبودیه و توجیه وجهه الی مقام ربه، و هذا هو مراد من فسّر العباده بالمعرفه یعنی المعرفه الحاصله بالعباده.

فحقیقه العباده هی الغرض الأقصی من الخلقه و هی أن ینقطع العبد عن نفسه و عن کل شیء و یذکر ربه.

هذا ما یعطیه التدبر فی قوله تعالی: «وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِیَعْبُدُونِ» و لعل تقدیم الجن علی الإنس لسبق خلقهم علی خلق الإنس قال تعالی: وَ الْجَانَّ خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نٰارِ السَّمُومِ (الحجر/٢٧)،و العباده هی غرض الفعل أی کمال عائد الیه لا الی الفاعل علی ما تقدم.

و یظهر من القصر فی الآیه بالنفی و الاستثناء أن لا عنایه للّه بمن لا یعبده کما یفیده أیضا قوله: «قُلْ مٰا یَعْبَؤُا بِکُمْ رَبِّی لَوْ لاٰ دُعٰاؤُکُمْ» .

قوله تعالی: مٰا أُرِیدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مٰا أُرِیدُ أَنْ یُطْعِمُونِ الإطعام إعطاء الطعام لیطعم و یؤکل قال تعالی: وَ الَّذِی هُوَ یُطْعِمُنِی وَ یَسْقِینِ (الشعراء/٧٩)،و قال:

اَلَّذِی أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ (قریش/۴)،فیکون ذکر الإطعام بعد الرزق من قبیل ذکر الخاص بعد العام لتعلق عنایه خاصه به و هی أن التغذی أوسع حوائج الإنسان و غیره

و أخسها لكونه مسبوقا بالجوع و ملحوقا بالدفع.

و قيل:المراد بالرزق رزق العباد و المعنى:ما أريد منهم أن يرزقوا عبادى الذين أرزقهم و ما أريد أن يعمونى نفسى.

و قيل:المراد بالإطعام تقديم الطعام اليه كما يقدم العبد الطعام الى سيده و الخادم الى مخدومه فيكون المراد بالرزق تحصيل أصل الرزق و بالإطعام تقديم ما حصلوه و المعنى:ما أريد منهم رزقا يحصلونه لى فأرتزق به و ما أريد منهم أن يقدموا إلىّ ما أرتزق و أطعمه.

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الرَّزّٰاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ تعليل لقوله: «مٰا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ» الخ؛و الالتفات فى الآيه من التكلم وحده الى الغيبه لإنهاء التعليل الى اسم الجلاله الذى منه يبتدئ كل شىء و اليه يرجع كأنه قال:ما أريد منهم رزقا لأنى أنا الرزاق لأنى أنا اللّه تبارك اسمه.

و التعبير بالرزاق-اسم مبالغه-و كان الظاهر أن يقال:إن اللّه هو الرزاق للاشاره الى أنه تعالى إذا كان رازقا وحده كان رزاقا لكثره من يرزقه فالآيه نظير قوله: «وَ مٰا أَنَا بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ» .

و ذو القوه من أسمائه تعالى بمعنى القوى لكنه أبلغ من القوى،و المتين أيضا من أسمائه تعالى بمعنى القوى.

و التعبير بالأسماء الثلاثه للدلاله على انحصار الرزق فيه تعالى و أنه لا يأخذه ضعف فى إيصال الرزق الى المرتزقين على كثرتهم.

قوله تعالى: فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحٰابِهِمْ فَلاٰ يَسْتَعْجِلُونِ الذنوب النصيب،و الاستعجال طلب العجله و الحث عليها،و الآيه متفرعه على قوله: «وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ» بلازم معناه.

و المعنى:فإذا كان هؤلاء الظالمون لا يعبدون اللّه و لا عنايه له بهم و لا سعاده من قبله

تشـملهم فإن لهم نصـيبا من العـذاب مثل نصـيب أصـحابهم من الامم الماضـيه الهالكه فلا يطلبوا منى أن أعجل لهم العذاب و لا يقولوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين،و أيّان يوم الدين.

و فى الآيه التفات من الغيبه الى التكلم وحده و هو فى الحقيقه رجوع من سياق الغيبه الذى فى قوله: «إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الرَّزّٰاقُ» الخ؛الى التكلم وحده الذى فى قوله: «وَ مٰا خَلَقْتُ» الخ؛لتفرع الكلام عليه.

قوله تعالى: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ تفريع على قوله:

«فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً» الـخ؛و تنبيه على أن هـذا الـذنوب محقق لهم يوم القيامه و إن أمكن أن يجعل لهم بعضه،و هو يوم ليس لهم فيه إلا الويل و الهلاك و هو يومهم الموعود.

و فى تبديل قوله فى الآيه السابقه للذين ظلموا من قوله فى هذه الآيه: «لِلَّذِينَ كَفَرُوا» تنبيه على أن المراد بالظلم ظلم الكفر (۱).

۱- ۱) .الذاريات ۵۲-۶۰:بحث روائى فى العباده و ما يترتب عليها.

سوره الطور مكيه و هى تسع و أربعون آيه

اشاره

[سوره الطور (۵۲): الآيات ۱ الى ۱۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;وَ اَلطُّورِ (۱) وَ كِتٰابٍ مَسْطُورٍ (۲) فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ (۳) وَ اَلْبَيْتِ اَلْمَعْمُورِ (۴) وَ اَلسَّقْفِ اَلْمَرْفُوعِ (۵) وَ اَلْبَحْرِ اَلْمَسْجُورِ (۶) إِنَّ عَذٰابَ رَبِّكَ لَوٰاقِعٌ (۷) مٰا لَهُ مِنْ دٰافِعٍ (۸) يَوْمَ تَمُورُ اَلسَّمٰاءُ مَوْراً (۹) وَ تَسِيرُ اَلْجِبٰالُ سَيْراً (۱۰)

ص :۷۶

بیان:

غرض السوره إنـذار أهل التكـذيب و العناد من الكفار بالعـذاب الـذى أعـدّ لهم يوم القيامه فتبدأ بالإنباء عن وقوع العذاب الذى أنذروا به و تحققه يوم القيامه بأقسام مؤكده و أيمان مغلظه،و أنه غير تاركهم يومئذ حتى يقع بهم و لا مناص.

ثم تـذكر نبـذه من صـفه هـذا العـذاب و الويل الـذى يعمهم و لا يفارقهم ثم تقابل ذلک بشـمه من نعيم أهل النعيم يومئذ و هم المتقون الذين كانوا فى الدنيا مشفقين فى أهلهم يدعون اللّه مؤمنين به موحدين له.

ثم تأخـذ فى توبيـخ المكـذبين على مـا كانوا يرمون النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و ما أنزل عليه من القرآن و ما أتى به من الدين الحق.

و تختم الكلام بتكرار التهديـد و الوعيـد و أمر النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بتسبيـح ربه.و السوره مكيه كما يشـهد بـذلک سياق آياتها.

قوله تعالى: وَ الطُّورِ قيل:الطور مطلق الجبل و قـد غلب اسـتعماله فى الجبل الـذى كلم اللّه عليه موسـى عليه السّـلام،و الأنسب أن يكون المراد فى الآيه جبـل موسـى عليه السّـلام أقسم اللّه تعـالى به لمـا قـدسه و بارک فيه كما أقسم به فى قوله: وَ طُورِ سِينِينَ (التين۲/)،و قـال: وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ (مريم۵۲/)،و قـال فى خطابه لموسـى عليه السّـلام: فَاخْلَعْ نَعْلَيْکَ إِنَّکَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (طه۱۲/)،و قال: نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِی الْبُقْعَهِ الْمُبارَكَهِ مِنَ الشَّجَرَهِ (القصص۳۰/).

و قيل:المراد مطلق الجبل أقسم اللّه تعالى به لما أودع فيه من أنواع نعمه قال تعالى:

وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَکَ فِيها (حم السجده۱۰/).

قوله تعالى: وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ فِی رَقٍّ مَنْشُورٍ قيل:الرق مطلق ما يكتب فيه و قيل:هو

الورق،و قیل:الورق المأخوذ من الجلد،و النشر هو البسط،و التفریق.

و المراد بهذا الکتاب قیل:هو اللوح المحفوظ الذی کتب اللّه فیه ما کان و ما یکون و ما هو کائن تقرؤه ملائکه السماء،و قیل:المراد به صحائف الأعمال تقرؤه حفظه الأعمال من الملائکه،و قیل:هو القرآن کتبه اللّه فی اللوح المحفوظ،و قیل:هو التوراه و کانت تکتب فی الرق و تنشر للقراءه.

و الأنسب بالنظر الی الآیه السابقه هو القول الأخیر.

قوله تعالی: وَ الْبَیْتِ الْمَعْمُورِ قیل:المراد به الکعبه المشرفه فإنها أول بیت وضع للناس و لم یزل معمورا منذ وضع الی یومنا هذا قال تعالی: إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّهَ مُبارَکاً وَ هُدیً لِلْعالَمِینَ (آل عمران/۹۶).

و فی الروایات المأثوره أن البیت المعمور بیت فی السماء بحذاء الکعبه تزوره الملائکه.

و تنکیر «کِتابٍ» للإیماء الی استغنائه عن التعریف فهو تنکیر یفید التعریف و یستلزمه.

قوله تعالی: وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ هو السماء.

قوله تعالی: وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ قال الراغب:السجر تهییج النار،و فی المجمع:

المسجور المملوء یقال:سجرت التنور أی ملأتها نارا،و قد فسرت الآیه بکل من المعنیین و یؤید المعنی الأول قوله: وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (التکویر/۶)،أی سعرت و قد ورد فی الحدیث أن البحار تسعّر نارا یوم القیامه،و قیل:المراد أنها تغیض میاهها بتسجیر النار فیها.

قوله تعالی: إِنَّ عَذابَ رَبِّکَ لَواقِعٌ ما لَهُ مِنْ دافِعٍ جواب القسم السابق و المراد بالعذاب المخبر بوقوعه عذاب یوم القیامه الذی أوعد اللّه به الکفار المکذبین کما تشیر الیه الآیه التالیه،و فی قوله: «ما لَهُ مِنْ دافِعٍ» دلاله علی أنه من القضاء المحتوم الذی لا محیص عن وقوعه قال تعالی: وَ أَنَّ السّاعَهَ آتِیَهٌ لا رَیْبَ فِیها وَ أَنَّ اللّهَ یَبْعَثُ مَنْ فِی الْقُبُورِ (الحج/۷).

و فی قوله: عَذٰابَ رَبِّکَ بنسبه العذاب الی الرب المضاف الی ضمیر الخطاب دون أن یقال:عذاب اللّه تأیید للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی مکذبی دعوته و تطییب لنفسه أن ربه لا یخزیه یومئذ کما قال: یَوْمَ لاٰ یُخْزِی اللّٰهُ النَّبِیَّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ (التحریم/۸).

قوله تعالی: یَوْمَ تَمُورُ السَّمٰاءُ مَوْراً وَ تَسِیرُ الْجِبٰالُ سَیْراً ظرف لقوله: «إِنَّ عَذٰابَ رَبِّکَ لَوٰاقِعٌ» .

و المور-علی ما فی المجمع-تردد الشیء بالذهاب و المجیء کما یتردد الدخان ثم یضمحل، و یقرب منه قول الراغب:إنه الجریان السریع.

و علی أی حال فیه إشاره الی انطواء العالم السماوی کما یذکره تعالی فی مواضع من کلامه کقوله: إِذَا السَّمٰاءُ انْفَطَرَتْ وَ إِذَا الْکَوٰاکِبُ انْتَثَرَتْ (الانفطار/۲)،و قوله: یَوْمَ نَطْوِی السَّمٰاءَ کَطَیِّ السِّجِلِّ لِلْکُتُبِ (الأنبیاء/۱۰۴)،و قوله: وَ السَّمٰاوٰاتُ مَطْوِیّٰاتٌ بِیَمِینِهِ (الزمر/۶۷).

کما أن قوله: وَ تَسِیرُ الْجِبٰالُ سَیْراً إشاره الی زلزله الساعه فی الأرض التی یذکرها تعالی فی مواضع من کلامه کقوله: إِذٰا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَ بُسَّتِ الْجِبٰالُ بَسًّا فَکٰانَتْ هَبٰاءً مُنْبَثًّا (الواقعه/۶)،و قوله: وَ سُیِّرَتِ الْجِبٰالُ فَکٰانَتْ سَرٰاباً (النبأ/۲۰).

[سوره الطور (۵۲): الآیات ۱۱ الی ۲۸]

فَوَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۱۱) اَلَّذِینَ هُمْ فِی خَوْضٍ یَلْعَبُونَ (۱۲) یَوْمَ یُدَعُّونَ إِلیٰ نٰارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (۱۳) هٰذِهِ اَلنّٰارُ اَلَّتِی کُنْتُمْ بِهٰا تُکَذِّبُونَ (۱۴) أَ فَسِحْرٌ هٰذٰا أَمْ أَنْتُمْ لاٰ تُبْصِرُونَ (۱۵) اِصْلَوْهٰا فَاصْبِرُوا أَوْ لاٰ تَصْبِرُوا سَوٰاءٌ عَلَیْکُمْ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۶) إِنَّ اَلْمُتَّقِینَ فِی جَنّٰاتٍ وَ نَعِیمٍ (۱۷) فٰاکِهِینَ بِمٰا آتٰاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقٰاهُمْ رَبُّهُمْ عَذٰابَ اَلْجَحِیمِ (۱۸) کُلُوا وَ اِشْرَبُوا هَنِیئاً بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۹) مُتَّکِئِینَ عَلیٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَهٍ وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِینٍ (۲۰) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ اِتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّیَّتُهُمْ بِإِیمٰانٍ أَلْحَقْنٰا بِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَ مٰا أَلَتْنٰاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَیْءٍ کُلُّ اِمْرِئٍ بِمٰا کَسَبَ رَهِینٌ (۲۱) وَ أَمْدَدْنٰاهُمْ بِفٰاکِهَهٍ وَ لَحْمٍ مِمّٰا یَشْتَهُونَ (۲۲) یَتَنٰازَعُونَ فِیهٰا کَأْساً لاٰ لَغْوٌ فِیهٰا وَ لاٰ تَأْثِیمٌ (۲۳) وَ یَطُوفُ عَلَیْهِمْ غِلْمٰانٌ لَهُمْ کَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَکْنُونٌ (۲۴) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ یَتَسٰاءَلُونَ (۲۵) قٰالُوا إِنّٰا کُنّٰا قَبْلُ فِی أَهْلِنٰا مُشْفِقِینَ (۲۶) فَمَنَّ اَللّٰهُ عَلَیْنٰا وَ وَقٰانٰا عَذٰابَ اَلسَّمُومِ (۲۷) إِنّٰا کُنّٰا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ اَلْبَرُّ اَلرَّحِیمُ (۲۸)

بيان:

قوله تعالى: فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ تفريع على ما دلت عليه الآيات السابقه من

تحقق وقوع العذاب یوم القیامه أی إذا کان الأمر کما ذکر و لم یکن محیص عن وقوع العذاب فویل لمن یقع علیه و هم المکذبون لا محاله فالجمله تدل علی کون المعذبین هم المکذبین بالاستلزام و علی تعلق الویل بهم بالمطابقه.

أو التقدیر إذا کان العذاب واقعا لا محاله و لا محاله لا یقع إلاّ علی المکذبین لأنهم الکافرون باللّه المکذبون لیوم القیامه فویل یومئذ لهم،فالدال علی تعلق العذاب بالمکذبین هو قوله:

«عَذٰابَ رَبِّکَ» لأن عذاب اللّه إنما یقع علی من دعاه فلم یجبه و کذب دعوته.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ هُمْ فِی خَوْضٍ یَلْعَبُونَ الخوض هو الدخول فی باطل القول قال الراغب:الخوض هو الشروع فی الماء و المرور فیه،و یستعار فی الامور و أکثر ما ورد فی القرآن ورد فیما یذم الشروع فیه انتهی،و تنوین التنکیر فی «خَوْضٍ» یدل علی صفه محذوفه أی فی خوض عجیب.

و لما کان الاشتغال بباطل القول لا یفید نتیجه حقه إلاّ نتیجه خیالیه یزینها الوهم للخائض سماه لعبا-و اللعب من الأفعال ما لیس له إلاّ الأثر الخیالی-.

و المعنی:الذین هم مستمرون فی خوض عجیب یلعبون بالمجادله فی آیات اللّه و إنکارها و الاستهزاء بها.

قوله تعالی: یَوْمَ یُدَعُّونَ إِلیٰ نٰارِ جَهَنَّمَ دَعًّا الدعّ هو الدفع الشدید،و الظاهر أن «یَوْمَ» بیان لقوله: «یَوْمَئِذٍ» .

قوله تعالی: هٰذِهِ النّٰارُ الَّتِی کُنْتُمْ بِهٰا تُکَذِّبُونَ أی یقال لهم:هذه النار التی کنتم بها تکذبون،و المراد بالتکذیب بالنار التکذیب بما أخبر به الأنبیاء علیهم السّلام بوحی من اللّه من وجود هذه النار و أنه سیعذب بها المجرمون و محصل المعنی:هذه مصداق ما أخبر به الأنبیاء فکذبتهم به.

قوله تعالی: أَ فَسِحْرٌ هٰذٰا أَمْ أَنْتُمْ لاٰ تُبْصِرُونَ تفریع علی قوله: «هٰذِهِ النّٰارُ الَّتِی

كُنْتُمْ بِهٰا تُكَذِّبُونَ» و الاستفهام للإنكار تفريعا لهم أى إذا كانت هذه هى تلك النار التى كنتم تكذبون بها فليس هذا سحرا كما كنتم ترمون إخبار الأنبياء بها أنه سحر و ليس هذا أمرا موهوما خرافيا كما كنتم تتفوهون به بل أمر مبصر معاين لكم فالآيه فى معنى قوله تعالى:

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ أَ لَيْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ (الأحقاف۳۴/).

و بما مر من المعنى يظهر أن «أَمْ» فى قوله: «أَمْ أَنْتُمْ لاٰ تُبْصِرُونَ» متصله و قيل:منقطعه و لا يخلو من بعد.

قوله تعالى: اِصْلَوْهٰا فَاصْبِرُوا أَوْ لاٰ تَصْبِرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ،الصلى بالفتح فالسكون مقاساه حراره النار فمعنى اصلوها قاسوا حراره نار جهنم.

و قوله: فَاصْبِرُوا أَوْ لاٰ تَصْبِرُوا تفريع على الأمر بالمقاساه،و الترديد بين الأمر و النهى كنايه عن مساواه الفعل و الترك و لذا أتبعه بقوله: «سَوٰاءٌ عَلَيْكُمْ» أى هذه المقاساه لازمه لكم لا تفارقكم سواء صبرتم أو لم تصبروا فلا الصبر يرفع عنكم العذاب أو يخففه و لا الجزع و ترك الصبر ينفع لكم شيئا.

و قوله: سَوٰاءٌ عَلَيْكُمْ خبر مبتدأ محذوف أى هما سواء و إفراد «سَوٰاءٌ» لكونه مصدرا فى الأصل.

و قوله: إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى مقام التعليل لما ذكر من ملازمه العذاب و مساواه الصبر و الجزع.

و المعنى:إنما يلازمكم هذا الجزاء السيئ و لا يفارقكم لأنكم تجزون بأعمالكم التى كنتم تعملونها و لا تسلب نسبه العمل عن عامله فالعذاب يلازمكم أو إنما تجزون بتبعات ما كنتم تعملون و جزائه.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنّٰاتٍ وَ نَعِيمٍ الجنه البستان تجنبه الأشجار

و تستره،و النعيم النعمه الكثيره أى إن المتصفين بتقوى اللّه يومئذ فى جنات يسكنون فيها و نعمه كثيره تحيط بهم.

قوله تعالى: فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ الفاكهه مطلق الثمره،و قيل:هى الثمره غير العنب و الرمان،و يقال:تفكّه و فكه إذا تعاطى الفكاهه،و تفكّه و فكه إذا تناول الفاكهه،و قد فسّرت الآيه بكل من المعنيين فقيل:المعنى:

يتحدثون بما آتاهم ربهم من النعيم،و قيل:المعنى:يتناولون الفواكه و الثمار التى آتاهم ربهم، و قيل:المعنى:يتلذذون بإحسان ربهم و مرجعه الى المعنى الأول،و قيل:معناه فاكهين معجبين بما آتاهم ربهم،و لعل مرجعه الى المعنى الثانى.

و تكرار «رَبُّهُمْ» فى قوله: «وَ وَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» لإفاده مزيد العنايه بهم.

قوله تعالى: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى يقال لهم:كلوا و اشربوا أكلا و شربا هنيئا أو طعاما و شرابا هنيئا،فهنيئا وصف قائم مقام مفعول مطلق أو مفعول به.

و قوله: بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ متعلق بقوله: «كُلُوا وَ اشْرَبُوا» أو بقوله: «هَنِيئاً» .

قوله تعالى: مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَهٍ وَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ الاتكاء الاعتماد على الوساده و نحوها،و السرر جمع سرير،و مصفوفه من الصف أى مصطفه موصوله بعضها ببعض،و المعنى:متكئين على الوسائد و النمارق قاعدين على سرر مصطفه.

و قوله: وَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ المراد بالتزويج القرن أى قرنّاهم بهنّ دون النكاح بالعقد،و الدليل عليه تعدّيه بالباء فإن التزويج بمعنى النكاح بالعقد متعدّ بنفسها،قال تعالى: زَوَّجْنَاكَهَا (الأحزاب/٣٧)،كذا قيل.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ الخ؛قيل:الفرق بين الاتباع و اللحوق مع اعتبار التقدم

و التـأخر فيهمـا جميعـا أنه يعتبر فى الاتبـاع اشتراك بين التـابع و المتبوع فى مورد الاتبـاع بخلاـف اللحوق فاللاـحق لاـ يشارك الملحوق فى ما لحق به فيه.

و لات و ألات بمعنى نقص فمعنى ما ألتناهم ما نقصناهم شيئا من عملهم بالإلحاق.

و ظاهر الآيه أنها فى مقام الامتنان فهو سبحانه يمتنّ على الـذين آمنوا أنه سيلحق بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان فتقرّ بذلك أعينهم،و هذا هو القرينه على أن التنوين فى «بِإِيمٰانٍ» للتنكير دون التعظيم.

و المعنى:اتبعوهم بنوع من الإيمـان و إن قصـر عن درجه إيمـان آبـائهم إذ لاـ امتنـان لو كان إيمانهم أكمل من إيمان آبائهم أو مساويا له.

و إطلاق الاتباع فى الإيمان منصـرف الى اتباع من يصح منه فى نفسه الإيمان ببلوغه حدا يكلف به فالمراد بالذريه الأولاد الكبار المكلفون بالإيمان فالآيه لا تشـمل الأولاد الصـغار الذين ماتوا قبل البلوغ،و لا ينافى ذلك كون صـغار أولاد المؤمنين محكومين بالإيمان شرعا.

اللهم إلاّـ أن يستفاد العموم من تنكير الإيمـان و يكون المعنى:و اتبعتهم ذريتهم بإيمـان مـا سواء كـان إيمانـا فى نفسه أو إيمـانا بحسب حكم الشرع.

و كـذا الامتنان قرينه على أن الضـمير فى قوله: «وَ مٰا أَلَتْنٰاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» للـذين آمنوا كالضـميرين فى قوله: «وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ» إذ قوله: «وَ مٰا أَلَتْنٰاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» مسوق حينئـذ لـدفع توهم ورود النقص فى الثواب على تقرير الإلحاق و هو ينافى الامتنان و من المعلوم أن الذى ينافى الامتنان هو النقص فى ثواب الآباء الملحق بهم دون الذريه.

فتحصّل أن قوله: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛استئناف يمتنّ تعالى فيه على الذين آمنوا بأنه سيلحق بهم أولادهم الذين اتبعوهم بنوع من الإيمان و إن كان قاصـرا على درجه إيمانهم لتقرّ به أعينهم،و لا ينقص مع ذلك من ثواب عمل الآباء بالإلحاق شـيء بل يؤتيهم مثل ما آتاهم أو بنحو لا تزاحم فيه على ما هو أعلم به.

و فی معنی الآیه أقوال أخر لا تخلو من سخافه کقول بعضهم إن قوله: «وَ الَّذِینَ آمَنُوا» معطوف علی «بِحُورٍ عِینٍ» و المعنی:و زوجناهم بحور عین و بالذین آمنوا یتمتعون من الحور العین بالنکاح و بالذین آمنوا بالرفاقه و الصحبه،و قول بعضهم:إن المراد بالذریه صغار الأولاد فقط،و قول بعضهم:إن الضمیرین فی «وَ مٰا أَلَتْنٰاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَیْءٍ» للذریه و المعنی:و ما نقصنا الذریه من عملهم شیئا بسبب إلحاقهم بآبائهم بل نوفیهم أعمالهم من خیر أو شر ثم نلحقهم بآبائهم.

و قوله: کُلُّ امْرِئٍ بِمٰا کَسَبَ رَهِینٌ تعلیل لقوله: «وَ مٰا أَلَتْنٰاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَیْءٍ» علی ما یفیده السیاق،و الرهن و الرهین و المرهون ما یوضع وثیقه للدین علی ما ذکره الراغب قال:و لما کان الرهن یتصوّر منه حبسه استعیر ذلک لحبس أی شیء کان.انتهی.

و لعل هذا المعنی الاستعاری هو المراد فی الآیه و المرء رهن مقبوض و محفوظ عند اللّٰه سبحانه بما کسبه من خیر أو شر حتی یوفیه جزاء ما عمله من ثواب أو عقاب فلو نقص شیئا من عمله و لم یوفه ذلک لم یکن رهین ما کسب بل رهین بعض ما عمل و امتلک بعضه الآخر غیره کذریته الملحقین به.

و أما قوله تعالی: کُلُّ نَفْسٍ بِمٰا کَسَبَتْ رَهِینَهٌ إِلاّٰ أَصْحٰابَ الْیَمِینِ (المدثر۳۹/)،فالمراد کونها رهینه العذاب یوم القیامه کما یشهد به سیاق ما بعده من قوله: فِی جَنّٰاتٍ یَتَسٰاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِینَ (المدثر۴۱/).

قوله تعالی: وَ أَمْدَدْنٰاهُمْ بِفٰاکِهَهٍ وَ لَحْمٍ مِمّٰا یَشْتَهُونَ بیان لبعض تتماتهم و تمتعاتهم فی الجنه المذکوره إجمالا فی قوله السابق: «کُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِیئاً» الخ.

و الإمداد الإتیان بالشیء وقتا بعد وقت و یستعمل فی الخیر کما أن المد یستعمل فی الشر قال تعالی: وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذٰابِ مَدًّا (مریم۷۹/).

و المعنی:انا نرزقهم بالفاکهه و ما یشتهونه من اللحم رزقا بعد رزق و وقتا بعد وقت من

غير انقطاع.

قوله تعالى: يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَ لاَ تَأْثِيمٌ التنازع فى الكأس تعاطيها و الاجتماع على تناولها،و الكأس القدح و لا يطلق الكأس إلاّ فيما كان فيها الشراب.

و المراد باللغو لغو القول الذى يصدر من شاربى الخمر فى الدنيا،و التأثيم جعل الشخص ذا إثم و هو أيضا من آثار الخمر فى الدنيا،و نفى اللغو و التأثيم هو القرينه على أن المراد بالكأس التى يتنازعون فيها كأس الخمر.

قوله تعالى: وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ المراد به طوافهم عليهم للخدمه قال بعضهم:قيل «غِلْمَانٌ لَهُمْ» بالتنكير و لم يقل:غلمانهم لئلا يتوهم أن المراد بهم غلمانهم الذين كانوا يخدمونهم فى الدنيا فهم كالحور من مخلوقات الجنه كأنهم لؤلؤ مكنون مخزون فى الحسن و الصباحه و الصفا.

قوله تعالى: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ أى يسأل كل منهم غيره عن حاله فى الدنيا و ما الذى ساقه الى الجنه و النعيم؟

قوله تعالى: قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ قال الراغب:و الإشفاق عنايه مختلطه بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه و يخاف ما يلحقه قال تعالى: «وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ» فإذا عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر،و إذا عدى بفى فمعنى العنايه فيه أظهر قال تعالى: «إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ» ،انتهى.

فالمعنى:إنا كنا فى الدنيا ذوى إشفاق فى أهلنا نعتنى بسعادتهم و نجاتهم من مهلكه الضلال فنعاشرهم بجميل المعاشره و نسير فيهم ببث النصيحه و الدعوه الى الحق.

قوله تعالى: فَمَنَّ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَ وَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ المن على ما ذكره الراغب الإنعام بالنعمه الثقيله و يكون بالفعل و هو حسن،و بالقول و هو قبيح من غيره تعالى،قال تعالى: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ

إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (الحجرات١٧/).

و منّه تعالى على أهل الجنه إسعاده إياهم لدخولها بالرحمه و تمامه بوقايتهم عذاب السموم.و السموم-على ما ذكره الطبرسى-الحر الذى يدخل فى مسامّ البدن يتألم به و منه ريح السموم.

قوله تعالى: إِنّٰا كُنّٰا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ تعليل لقوله: «فَمَنَّ اللّٰهُ عَلَيْنٰا» الخ؛كما أن قوله: «إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ» تعليل له.

و تفيد هذه الآيه مع الآتين قبلها أن هؤلاء كانوا فى الدنيا يدعون اللّه بتوحيده للعباده و التسليم لأمره و كانوا مشفقين فى أهلهم يقرّبونهم من الحق و يجنّبونهم الباطل فكان ذلك سببا لمنّ اللّه عليهم بالجنه و وقايتهم من عذاب السموم،و إنما كان ذلك سببا لذلك لأنه تعالى برّ رحيم فيحسن لمن دعاه و يرحمه.

فالآيات الثلاث فى معنى قوله: إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ تَوٰاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوٰاصَوْا بِالصَّبْرِ (العصر٣/).

و البر من أسماء اللّه تعالى الحسن،و هو من البر بمعنى الإحسان،و فسّره بعضهم باللطيف (١).

[سوره الطور (۵۲): الآيات ۲۹ الى ۴۴]

فَذَكِّرْ فَمٰا أَنْتَ بِنِعْمَهِ رَبِّكَ بِكٰاهِنٍ وَ لاٰ مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شٰاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ اَلْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ اَلْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاٰمُهُمْ بِهٰذٰا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طٰاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كٰانُوا صٰادِقِينَ (٣۴) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ اَلْخٰالِقُونَ (٣۵) أَمْ خَلَقُوا اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بَلْ لاٰ يُوقِنُونَ (٣۶) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزٰائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ اَلْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ اَلْبَنٰاتُ وَ لَكُمُ اَلْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴٠) أَمْ عِنْدَهُمُ اَلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (۴١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ اَلْمَكِيدُونَ (۴٢) أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ اَللّٰهِ سُبْحٰانَ اَللّٰهِ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (۴٣) وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ اَلسَّمٰاءِ سٰاقِطاً يَقُولُوا سَحٰابٌ مَرْكُومٌ (۴۴)

١- ١) .الطور ١١-٢٨:بحث روائى حول الحاق ذريه المؤمن و آبائه به يوم القيامه.

بیان:

قوله تعالی: فَذَکِّرْ فَمٰا أَنْتَ بِنِعْمَهِ رَبِّکَ بِکٰاهِنٍ وَ لاٰ مَجْنُونٍ تفریع علی ما مرّ من الأخبار المؤکد بوقوع العذاب الإلهی یوم القیامه،و أنه سیغشی المکذبین و المتقون فی وقایه منه متلذذون بنعیم الجنه.

فالآیه فی معنی أن یقال:إذا کان هذا حقا فذکر فإنما تذکر و تنذر بالحق و لیست کما یرمونک کاهنا أو مجنونا.

و تقیید النفی بقوله: «بِنِعْمَهِ رَبِّکَ» یفید معنی الامتنان علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خاصه و لیس هذا الامتنان الخاص من جهه مجرد انتفاء الکهانه و الجنون فأکثر الناس علی هذه الصفه بل من

وجهه تلبسه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالنعمه الخاصه به المانع من عروض هذه الصفات عليه من كهانه أو جنون و غير ذلك.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ أم منقطعه،و التربص الانتظار،و فى مجمع البيان:التربص الانتظار بالشىء من انقلاب حال له الى خلافها و المنون المنيه و الموت،و الريب القلق و الاضطراب.فريب المنون قلق الموت.

و محصل المعنى:بل يقولون هو أى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شاعر ننتظر به الموت حتى يموت و يخمد ذكره و ينسى رسمه فنستريح منه.

قوله تعالى: قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يأمرهم بالتربص كما رضوا لأنفسهم ذلك،و هو أمر تهديدى أن تربصوا كما ترون لأنفسكم ذلك فإن هناك أمرا من حقه أن ينتظر وقوعه،و أنا أنتظره مثلكم لكنه عليكم لا لكم و هو هلاككم و وقوع العذاب عليكم.

قوله تعالى: أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا الأحلام جمع حلم و هو العقل،و أم منقطعه و الكلام بتقدير الاستفهام و الإشاره بهذا الى ما يقولونه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يتربصون به.

و المعنى:بل أتأمرهم عقولهم أن يقولوا هذا الذى يقولونه و يتربصوا به الموت؟فأى عقل يدفع الحق بمثل هذه الأباطيل؟

قوله تعالى: أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ أى أن عقولهم لم تأمرهم بهذا بل هم طاغون حملهم على هذا طغيانهم.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ قال فى المجمع:التقول تكلف القول و لا يقال ذلك إلاّ فى الكذب،و المعنى بل يقولون:افتعل القرآن و نسبه الى اللّه كذبا و افتراء.لا بل لا يؤمنون فيرمونه بهذه الفريه.

قوله تعالى: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ جواب عن قولهم:

«تَقَوَّلَهُ» بأنه لو كان كلاما للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان كلاما بشريا مماثلا لسائر الكلام و يماثله سائر الكلام فكان يمكنهم أن يأتوا بحديث مثله فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين فى دعواهم التقول بل هو كلام إلهى لائحه عليه دلائل الإعجاز يعجز البشر عن إتيان مثله،و قد تقدم الكلام فى وجوه إعجاز القرآن فى تفسير سوره البقره الآيه ۲۳ تفصيلا.

و يمكن أن تؤخذ الآيه ردا لجميع ما تقدم من قولهم المحكى أنه كاهن أو مجنون أو شاعر أو متقول لأن عجز البشر عن الإتيان بمثله يأبى إلاّ أن يكون كلام اللّه سبحانه لكن الأظهر ما تقدم.

قوله تعالى: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخٰالِقُونَ إتيان «شَيْءٍ» منكرا بتقدير صفه تناسب المقام و التقدير من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر.

و المعنى:بل أخلق هؤلاء المكذبون من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر فصلح لإرسال الرسول و الدعوه الى الحق و التلبّس بعبوديته تعالى فهؤلاء لا يتعلق بهم تكليف و لا يتوجه اليهم أمر و لا نهى و لا تستتبع أعمالهم ثوابا و لا عقابا لكونهم مخلوقين من غير ما خلق منه غيرهم.

و قوله: أَمْ هُمُ الْخٰالِقُونَ أى لأنفسهم فليسوا مخلوقين للّه سبحانه حتى يربهم و يدبر أمرهم بالأمر و النهى.

قوله تعالى: أَمْ خَلَقُوا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لاٰ يُوقِنُونَ أى أم أخلقوا العالم حتى يكونوا أربابا آلهه و يجلوا من أن يستعبدوا و يكلفوا بتكليف العبوديه بل هم قوم لا يوقنون.

قوله تعالى: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزٰائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ أى بل أ عندهم خزائن ربك حتى يرزقوا النبوه من شاءوا و يمسكوها عمن شاءوا فيمنعوك النبوه و الرساله.

و قوله: أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ السيطره-و ربما يقلب سينها صادا-الغلبه و القهر

ص:۹۰

و المعنی:بل أهم الغالبون القاهرون علی اللّه سبحانه حتی یسلبوا عنک ما رزقک اللّه من النبوه و الرساله.

قوله تعالی: أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ یَسْتَمِعُونَ فِیهِ فَلْیَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِینٍ السلم المرقاه ذات الدرج التی یتوسل بالصعود فیه الی الأمکنه العالیه،و الاستماع مضمن معنی الصعود،و السلطان الحجه و البرهان.

و المعنی:بل أ عندهم سلم یصعدون فیه الی السماء فیستمعون بالصعود فیه الوحی فیأخذون ما یوحی الیهم و یردّون غیره؟فلیأت مستمعهم أی المدعی للاستماع منهم بحجه ظاهره.

قوله تعالی: أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَکُمُ الْبَنُونَ قیل:فیه تسفیه لعقولهم حیث نسبوا الیه تعالی ما أنفوا منه.

قوله تعالی: أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ قال الراغب:الغرم -بالضم فالسکون-ما ینوب الإنسان فی ماله من ضرر لغیر جنایه منه أو خیانه انتهی و الإثقال تحمیل الثقل و هو کنایه عن المشقه.

و المعنی:بل أ تسألهم أجرا علی تبلیغ رسالتک فهم یتحرجون عن تحمل الغرم الذی ینوبهم بتأدیه الأجر؟

قوله تعالی: أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَیْبُ فَهُمْ یَکْتُبُونَ ذکر بعضهم أن المراد بالغیب اللوح المحفوظ المکتوب فیه الغیوب و المعنی:بل أ عندهم اللوح المحفوظ یکتبون منه و یخبرون به الناس فما أخبروا به عنک من الغیب الذی لا ریب فیه.

و قیل:المراد بالغیب علم الغیب،و بالکتابه الإثبات و المعنی:بل أ عندهم علم الغیب فهم یثبتون ما علموه شرعا للناس علیهم أن یطیعوهم فیما أثبتوا،و قیل:یکتبون بمعنی یحکمون.

ص :۹۱

قوله تعالى: أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ الكيد ضرب من الاحتيال على ما ذكره الراغب،و فى المجمع:الكيد هو المكر،و قيل:هو فعل ما يوجب الغيظ فى خفيه.انتهى.

ظاهر السياق أن المراد بكيدهم هو مكرهم بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما رموه به من الكهانه و الجنون و الشعر و التقول ليعرض عنه الناس و يبتعدوا عنه فتبطل بذلك دعوته و ينطفئ نوره،و هذا كيد منهم و مكر بأنفسهم حيث يحرمون لها السعاده الخالده و الركوب على صراط الحق بذلك بل كيد من اللّه بقطع التوفيق عنهم و الطبع على قلوبهم.

و قلى:المراد بالكيد الذى يريدونه هو ما كان منهم فى حقه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى دار الندوه و المراد بالذين كفروا المذكورون من المكذبين و هم أصحاب دار الندوه،و قد قلب اللّه كيدهم الى أنفسهم فقتلهم يوم بدر،و الكلام على هذا من الإخبار بالغيب لنزول السوره قبل ذلك بكثير، و هو بعيد من السياق.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ سُبْحٰانَ اللّٰهِ عَمّٰا يُشْرِكُونَ فإنهم إذا كان لهم إله غير اللّه كان هو الخالق لهم و المدبر لأمرهم فاستغنوا بذلك عن اللّه سبحانه و استجابه دعوه رسوله و نصرهم إلههم و دفع عنهم عذاب اللّه الذى أوعد به المكذبين و أنذرهم به رسوله.

و قوله: «سُبْحٰانَ اللّٰهِ عَمّٰا يُشْرِكُونَ» تنزيه له تعالى أن يكون له شريك كما يدّعون،و ما فى قوله: «عَمّٰا يُشْرِكُونَ» مصدريه أى سبحانه عن شركهم.

قوله تعالى: وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمٰاءِ سٰاقِطاً يَقُولُوا سَحٰابٌ مَرْكُومٌ الكسف بالكسر فالسكون القطعه،و المركوم المتراكم الواقع بعضه على بعض.

و المعنى:أن كفرهم و إصرارهم على تكذيب الدعوه الحقه بلغ الى حيث لو رأوا قطعه من السماء ساقطا عليهم لقالوا سحاب متراكم ليست من آيه العذاب فى شىء فهو كقوله:

وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا (الحجر/ ١٥).

[سوره الطور (۵۲): الآیات ۴۵ الی ۴۹]

فَذَرْهُمْ حَتّٰى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ اَلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (۴۵) يَوْمَ لاٰ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَ لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۶) وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذٰاباً دُونَ ذٰلِكَ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۴۷) وَ اِصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنٰا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (۴۸) وَ مِنَ اَللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبٰارَ اَلنُّجُومِ (۴۹)

بیان:

قوله تعالی: فَذَرْهُمْ حَتّٰى يُلاٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ «فَذَرْهُمْ» أمر بمعنی اترکهم و هو فعل لم یستعمل من تصریفاته إلاّ المستقبل و الأمر،و «يُصْعَقُونَ» من الإصعاق بمعنی الإماته و قیل:من الصعق بمعنی الإماته.

لما أنذر سبحانه المکذبین لدعوته بعذاب واقع لا ریب فیه ثم رد جمیع ما تعلل به أو یفرض أن یتعلل به أولئک المکذبون،و ذکر أنهم فی الإصرار علی الباطل بحیث لو عاینوا أوضح آیه للحق أوّلوه و ردّوه،أمر نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یترکهم و شأنهم،و هو تهدید کنائی بشمول العذاب لهم و حالهم هذه الحال.

و المراد بالیوم الذی فیه یصعقون یوم نفخ الصور الذی یصعق فیه من فی السماوات

و الأرض و هو من أشراط الساعه قال تعالی: وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ (الزمر۶۸/).

و یؤید هذا المعنی قوله فی الآیه التالیه: «یَوْمَ لاٰ یُغْنِی عَنْهُمْ کَیْدُهُمْ شَیْئاً وَ لاٰ هُمْ یُنْصَرُونَ» فإن انتفاء إغناء الکید و النصر من خواص یوم القیامه الذی یسقط فیه عامه الأسباب و الأمر یومئذ للّه.

قوله تعالی: وَ إِنَّ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا عَذٰاباً دُونَ ذٰلِکَ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ لا یبعد أن یکون المراد به عذاب القبر،و قوله: «وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ» مشعر بأن فیهم من یعلم ذلک لکنه یصرّ علی کفره و تکذیبه عنادا و قیل:المراد به یوم بدر لکن ذیل الآیه لا یلائمه تلک الملاءمه.

قوله تعالی: وَ اصْبِرْ لِحُکْمِ رَبِّکَ فَإِنَّکَ بِأَعْیُنِنٰا عطف علی قوله: «فَذَرْهُمْ» و ظاهر السیاق أن المراد بالحکم حکمه تعالی فی المکذبین بالإمهال و الإملاء و الطبع علی قلوبهم،و فی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یدعو الی الحق بما فیه من الأذی فی جنب اللّه فالمراد بقوله: «فَإِنَّکَ بِأَعْیُنِنٰا» أنک بمرأی منا نراک بحیث لا یخفی علینا شیء من حالک و لا نغفل عنک ففی تعلیل الصبر بهذه الجمله تأکید للأمر بالصبر و تشدید للخطاب.

و قیل:المراد بقوله: «فَإِنَّکَ بِأَعْیُنِنٰا» أنک فی حفظنا و حراستنا فالعین مجاز عن الحفظ، و لعل المعنی المتقدم أنسب للسیاق.

قوله تعالی: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ حِینَ تَقُومُ وَ مِنَ اللَّیْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبٰارَ النُّجُومِ الباء فی «بِحَمْدِ» للمصاحبه أی سبح ربک و نزهه حال کونه مقارنا لحمده.

و المراد بقوله: «حِینَ تَقُومُ» قیل هو القیام من النوم،و قیل:هو القیام من القائله،فهو صلاه الظهر،و قیل:هو القیام من المجلس،و قیل:هو کل قیام،و قیل:هو القیام الی الفریضه و قیل:هو القیام الی کل صلاه،و قیل:هو الرکعتان قبل فریضه الصبح سبعه أقوال کما ذکره

الطبرسی.

و قوله: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ أی من اللیل فسبح ربک فیه،و المراد به صلاه اللیل، و قیل:المراد صلاتا المغرب و العشاء الآخره.

و قوله: وَ إِدْبٰارَ النُّجُومِ قیل:المراد به وقت إدبار النجوم و هو اختفاؤها بسوء الصبح،و هو الرکعتان قبل فریضه الصبح،و قیل:المراد فریضه الصبح،و قیل:المراد تسبیحه تعالی صباحا و مساء من غیر غفله عن ذکره.

ص :۹۵

سوره النجم مکیه و هی اثنان و ستون آیه

اشاره

[سوره النجم (۵۳): الآیات ۱ الی ۱۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;وَ اَلنَّجْمِ إِذٰا هَویٰ (۱) مٰا ضَلَّ صٰاحِبُکُمْ وَ مٰا غَویٰ (۲) وَ مٰا یَنْطِقُ عَنِ اَلْهَویٰ (۳) إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْیٌ یُوحیٰ (۴) عَلَّمَهُ شَدِیدُ اَلْقُویٰ (۵) ذُو مِرَّهٍ فَاسْتَویٰ (۶) وَ هُوَ بِالْأُفُقِ اَلْأَعْلیٰ (۷) ثُمَّ دَنٰا فَتَدَلّٰی (۸) فَکٰانَ قٰابَ قَوْسَیْنِ أَوْ أَدْنیٰ (۹) فَأَوْحیٰ إِلیٰ عَبْدِهِ مٰا أَوْحیٰ (۱۰) مٰا کَذَبَ اَلْفُؤٰادُ مٰا رَأیٰ (۱۱) أَ فَتُمٰارُونَهُ عَلیٰ مٰا یَریٰ (۱۲) وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَهً أُخْریٰ (۱۳) عِنْدَ سِدْرَهِ اَلْمُنْتَهیٰ (۱۴) عِنْدَهٰا جَنَّهُ اَلْمَأْویٰ (۱۵) إِذْ یَغْشَی اَلسِّدْرَهَ مٰا یَغْشیٰ (۱۶) مٰا زٰاغَ اَلْبَصَرُ وَ مٰا طَغیٰ (۱۷) لَقَدْ رَأیٰ مِنْ آیٰاتِ رَبِّهِ اَلْکُبْریٰ (۱۸)

ص: ۹۶

بیان:

اشاره

غرض السوره تـذكير الاصول الثلاثه:وحدانيته تعالى فى ربوبيته و المعاد و النبوه فتبدأ بالنبوه فتصدق الوحى الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تصفه ثم تتعرض للوحدانيه فتنفى الأوثان و الشركاء أبلغ النفى ثم تصف انتهاء الخلق و التدبير اليه تعالى من إحياء و إماته و إضحاك و إبكاء و إغناء و إقناء و إهلاك و تعذيب و دعوه و إنذار،و تختم الكلام بالإشاره الى المعاد و الأمر بالسجده و العباده.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها و لا يصغى الى قول بعضهم بكون بعض آياتها أو كلها مدنيه،و قد قيل:إنها أول سوره أعلن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقراءتها فقرأها على المؤمنين و المشركين جميعا،و من غرر الآيات فيها قوله تعالى: وَ أَنَّ إِلىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهىٰ و قوله: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسٰانِ إِلاّٰ مٰا سَعىٰ .

و ما أوردناه من الآيات هى الفصل الأول من فصول السور الثلاثه و هى الآيات اللاتى تصدق الوحى الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تصفه،لكن هناك روايات مستفيضه عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام

ناصّه على أن المراد بالآيات ليس بيان صفه كل وحى بل بيان وحى المشافهه الذى أوحاه اللّه سبحانه الى نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليله المعراج فالآيات متضمنه لقصه المعراج و ظاهر الآيات لا يخلو من تأييد لهذه الروايات و هو المستفاد أيضا من أقوال بعض الصحابه كابن عباس و أنس و أبى سعيد الخدرى و غيرهم على ما روى عنهم و على ذلك جرى كلام المفسرين و إن اشتد الخلاف بينهم فى تفسير مفرداتها و جملها.

قوله

تعالى: وَ النَّجْمِ إِذٰا هَوىٰ ظاهر الآيه أن المراد بالنجم هو مطلق الجرم السماوى المضىء و قد أقسم اللّه فى كتابه بكثير من خلقه و منها عده من الأجرام السماويه كالشمس و القمر و سائر السيارات،و على هذا فالمراد بهوىّ النجم سقوطه للغروب.

قوله تعالى: مٰا ضَلَّ صٰاحِبُكُمْ وَ مٰا غَوىٰ الضلال الخروج و الانحراف عن الصراط المستقيم،و الغى خلاف الرشد الذى هو إصابه الواقع،قال الراغب:الغى جهل من اعتقاد فاسد،و ذلك أن الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا و لا فاسدا،و قد يكون من اعتقاد شىء فاسد،و هذا النحو الثانى يقال له غىّ،قال تعالى: «مٰا ضَلَّ صٰاحِبُكُمْ وَ مٰا غَوىٰ» .انتهى.و المراد بالصاحب هو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و المعنى:ما خرج صاحبكم عن الطريق الموصل الى الغايه المطلوبه و لا أخطأ فى اعتقاده و رأيه فيها،و يرجع المعنى الى أنه لم يخطئ لا فى الغايه المطلوبه التى هى السعاده الإنسانيه و هو عبوديته تعالى،و لا فى طريقها التى تنتهى إليها.

قوله تعالى: وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْيٌ يُوحىٰ المراد بالهوى هوى النفس و رأيها،و النطق و إن كان مطلقا ورد عليه النفى و كان مقتضاه نفى الهوى عن مطلق نطقه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكنه لما كان خطابا للمشركين و هم يرمونه فى دعوته و ما يتلو عليهم من القرآن بأنه كاذب متقول مفتر على اللّه سبحانه كان المراد بقرينه المقام أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما ينطق فيما يدعوكم الى اللّه أو فيما يتلوه عليكم من القرآن عن هوى نفسه و رأيه بل ليس ذلك إلاّ وحيا يوحى اليه

من اللّه سبحانه.

قوله تعالى: عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ ضمير «عَلَّمَهُ» للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو للقرآن بما هو وحى أو لمطلق الوحى و المفعول الآخر لعلّمه محذوف على أى حال و التقدير علم النبى الوحى أو علم القرآن أو الوحى إياه.

و المراد بشديد القوى-على ما قالوا-جبريل و قد وصفه اللّه بالقوه فى قوله: ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (التكوير٢٠/)،و قيل:المراد به هو اللّه سبحانه.

قوله تعالى: ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوىٰ المره بكسر الميم الشده،و حصافه العقل و الرأى، و بناء نوع من المرور و قد فسرت المره فى الآيه بكل من المعانى الثلاثه مع القول بأن المراد بذى مره جبريل،و المعنى:هو أى جبريل ذو شده فى جنب اللّه أو هو ذو حصافه فى عقله و رأيه،أو هو ذو نوع من المرور بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو فى الهواء.

و قيل:المراد بذو مره النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو ذو شده فى جنب اللّه أو ذو حصافه فى عقله و رأيه أو ذو نوع من المرور عرج فيه الى السماوات.

و قوله: فَاسْتَوىٰ بمعنى استقام أو استولى و ضمير الفاعل راجع الى جبريل و المعنى:

فاستقام جبريل على صورته الأصليه التى خلق عليها على ما روى أن جبريل كان ينزل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى صور مختلفه،و إنما ظهر له فى صورته الأصليه مرتين أو المعنى:فاستولى جبريل بقوته على ما جعل له من الأمر.

و إن كان الضمير للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فالمعنى فاستقام و استقر.

قوله تعالى: وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلىٰ الافق الناحيه قيل:المراد بالافق الأعلى ناحيه الشرق من السماء لأن أفق المشرق فوق المغرب فى صعيد الأرض لا فى الهواء و هو كما ترى و الظاهر أن المراد به أفق أعلى من السماء من غير اعتبار كونه أفقا شرقيا.

و ضمير هو فى الآيه راجع الى جبريل أو الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و الجمله حال من ضمير

«فَاسْتَوىٰ» .

قوله تعالى: ثُمَّ دَنٰا فَتَدَلّٰى الدنوّ القرب،و التدلى التعلق بالشىء و يكنى به عن شده القرب،و قيل:الامتداد الى جهه السفل مأخوذ من الدلو.

و المعنى:على تقدير رجوع الضميرين لجبريل:ثم قرب جبريل فتعلق بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليعرج به الى السماوات،و قيل:ثم تدلى جبريل من الافق الأعلى فدنى من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليعرج به.

و المعنى:على تقدير رجوع الضميرين الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:ثم قرب النبى من اللّه سبحانه و زاد فى القرب.

قوله تعالى: فَكٰانَ قٰابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنىٰ قال فى المجمع:القاب و القيب و القاد و القيد عباره عن مقدار الشىء انتهى.و القوس معروفه و هى آله رمى،و يقال قوس على الذراع فى لغه أهل الحجاز على ما قيل.

و المعنى:فكان البعد قدر قوسين أو قدر ذراعين أو أقرب من ذلك.

قوله تعالى: فَأَوْحىٰ إِلىٰ عَبْدِهِ مٰا أَوْحىٰ ضمير أوحى فى الموضعين لجبريل على تقدير رجوع الضمائر السابقه الى جبريل،و المعنى:فأوحى جبريل الى عبد اللّه و هو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما أوحى،قيل:و لا ضير فى رجوع الضمير اليه تعالى من عدم سبق الذكر لكونه فى غايه الوضوح.أو الضمائر الثلاث للّه و المعنى:فأوحى اللّه بتوسط جبريل الى عبده ما أوحى أو الضمير الأول لجبريل و الثانى و الثالث للّه و المعنى فأوحى جبريل ما أوحى اللّه اليه الى عبد اللّه.

و الضمائر الثلاث كلها للّه على تقدير رجوع الضمائر السابقه الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المعنى:فأوحى اللّه الى عبده ما أوحى،و هذا المعنى أقرب الى الذهن من المعنى السابق الذى لا يرتضيه الذوق السليم و إن كان صحيحا.

قوله تعالی: مَا كَذَبَ الْفُؤٰادُ مٰا رَأىٰ الكذب خلاف الصدق یقال:کذب فلان فی حدیثه،و یقال:کذبه الحدیث بالتعدی الی مفعولین أی حدثه کذبا،و الکذب کما یطلق عی القول و الحدیث الذی یلفظه اللسان کذلک یطلق علی خطاء القوه المدرکه یقال:کذبته عینه أی أخطأته فی رؤیتها.

و نفی الکذب عن الفؤاد إنما هو بهذا المعنی سواء أخذ الکذب لازما و التقدیر ما کذب الفؤاد فیما رأی أو متعدیا الی مفعولین،و التقدیر ما کذب الفؤاد-فؤاد النبی-النبی ما رآه أی إن رؤیه فؤاده فیما رآه رؤیه صادقه.

و علی هذا فالمراد بالفؤاد فؤاد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و ضمیر الفاعل فی «مٰا رَأىٰ» راجع الی الفؤاد و الرؤیه رؤیته.

و لا بدع فی نسبه الرؤیه و هی مشاهده العیان الی الفؤاد فإن للإنسان نوعا من الإدراک الشهودی وراء الإدراک بإحدی الحواس الظاهره و التخیل و التفکر بالقوی الباطنه کما أننا نشاهد من أنفسنا أننا نری و لیست هذه المشاهده العیانیه إبصارا بالبصر و لا معلوما بفکر، و کذا نری من أنفسنا أننا نسمع و نشم و نذوق و نلمس و نشاهد أننا نتخیل و نتفکر و لیست هذه الرؤیه ببصر أو بشیء من الحواس الظاهره أو الباطنه فإنا کما نشاهد مدرکات کل واحده من هذه القوی بنفس تلک القوه کذلک نشاهد إدراک کل منا لمدرکها و لیس هذه المشاهده بنفس تلک القوه بل بأنفسنا المعبر عنها بالفؤاد.

و لیس فی الآیه ما یدل علی أن متعلق الرؤیه هو اللّه سبحانه و أنه لمرئی له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بل المرئی هو الافق الأعلی و الدنو و التدلی و أنه أوحی الیه فهذه هی المذکوره فی الآیات السابقه و هی آیات له تعالی،و یؤید ذلک ما ذکره تعالی فی النزله الاخری من قوله: مٰا زٰاغَ الْبَصَرُ وَ مٰا طَغىٰ لَقَدْ رَأىٰ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِ الْكُبْرىٰ .

علی أنها لو دلّت علی تعلق الرؤیه به تعالی لم یکن به بأس فإنها رؤیه القلب و رؤیه القلب

غير رؤيه البصر الحسيه التى تتعلق بالأجسام و يستحيل تعلقها به تعالى و قد قدمنا كلاما فى رؤيه القلب فى تفسير سوره الأعراف الآيه ۱۴۳.

قوله تعالى: أَ فَتُمٰارُونَهُ عَلىٰ مٰا يَرىٰ الاستفهام للتوبيخ و الخطاب للمشركين و الضمير للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و المماراه الإصرار على المجادله،و المعنى:أ فتصرّون فى جدالكم على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يذعن بخلاف ما يدّعيه و يخبركم به و هو يشاهد ذلك عيانا.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرىٰ النزله بناء مره من النزول فمعناه نزول واحد، و تدل الآيه على أن هذه قصه رؤيه فى نزول آخر و الآيات السابقه تقصّ نزولا آخر غيره.

و قد قالوا:إن ضمير الفاعل المستكن فى قوله: «رَآهُ» للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و ضمير المفعول لجبريل،و على هذا فالنزله نزول جبريل عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليعرج به الى السماوات،و قوله: «عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهىٰ» ظرف للرؤيه لا للنزله،و المراد برؤيته رؤيته و هو فى صورته الأصليه.

و المعنى:أنه نزل عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نزله اخرى و عرج به الى السماوات و تراءى له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند سدره المنتهى و هو فى صورته الأصليه.

و قد ظهر مما تقدم صحه إرجاع ضمير المفعول اليه تعالى و المراد بالرؤيه رؤيه القلب و المراد بنزله اخرى نزله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند سدره المنتهى فى عروجه الى السماوات فالمفاد أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نزل نزله اخرى أثناء معراجه عند سدره المنتهى فرآه بقلبه كما رآه فى النزله الاولى.

قوله تعالى: عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهىٰ عِنْدَهٰا جَنَّةُ الْمَأْوىٰ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مٰا يَغْشىٰ السدر شجر معروف و التاء للوحده،و المنتهى-كأنه-اسم مكان و لعل المراد به منتهى السماوات بدليل كون الجنه عندها و الجنه فى السماء،قال تعالى: وَ فِي السَّمٰاءِ رِزْقُكُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ (الذاريات/۲۲).

و لا يوجد فى كلامه تعالى ما يفسر هذه الشجره،و كأن البناء على الإبهام كما يؤيده قوله

بعد: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشىٰ» و قد فسّر فى الروايات أيضا بأنها شجره فوق السماء السابعه إليها تنتهى أعمال بنى آدم و ستمر ببعض هذه الروايات.

و قوله: عِنْدَهٰا جَنَّةُ الْمَأْوىٰ أى الجنه التى يأوى اليه المؤمنون و هى جنه الآخره فإن جنه البرزخ جنه معجله محدوده بالبعث،قال تعالى: فَلَهُمْ جَنّٰاتُ الْمَأْوىٰ نُزُلاً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (السجده۱۹/)،و قوله: فَإِذٰا جٰاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرىٰ -الى أن قال- فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوىٰ (النازعات۴۱/)و هى فى السماء على ما يدل عليه قوله تعالى: وَ فِي السَّمٰاءِ رِزْقُكُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ (الذاريات۲۲/)،و قيل:المراد بها جنه البرزخ.

و قوله: إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مٰا يَغْشىٰ غشيان الشىء الإحاطه به،و «مٰا» موصوله،و المعنى:إذ يحيط بالسدره ما يحيط بها،و قد أبهم تعالى هذا الذى يغشى السدره و لم يبين ما هو كما تقدمت الإشاره اليه.

قوله تعالى: مٰا زٰاغَ الْبَصَرُ وَ مٰا طَغىٰ الزيغ الميل عن الاستقامه،و الطغيان تجاوز الحد فى العمل،و زيغ البصر إدراكه المبصر على غير ما هو عليه،و طغيانه إدراكه ما لا حقيقه له،و المراد بالبصر بصر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و المعنى:أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يبصر ما أبصره على غير صفته الحقيقيه و لا أبصر ما لا حقيقه له بل أبصر غير خاطئ فى إبصاره.

و المراد بالإبصار رؤيته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقلبه لا بجارحه العين فإن المراد بهذا الإبصار ما يعنيه بقوله: «وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرىٰ» المشير الى مماثله هذه الرؤيه لرؤيه النزله الاولى التى يشير إليها بقوله: «مٰا كَذَبَ الْفُؤٰادُ مٰا رَأىٰ أَ فَتُمٰارُونَهُ عَلىٰ مٰا يَرىٰ» فافهم و لا تغفل.

قوله تعالى: لَقَدْ رَأىٰ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِ الْكُبْرىٰ «مِنْ» للتبعيض،و المعنى:أقسم لقد شاهد بعض الآيات الكبرى لربه،و بذلك تمّ مشاهده ربه بقلبه فإن مشاهدته تعالى بالقلب إنما هى بمشاهده آياته بما هى آياته فإن الآيه بما هى آيه لا تحكى إلاّ ذا الآيه و لا تحكى

عن نفسه شيئا و إلّا لم تكن من تلك الجهه آيه.

و أما مشاهده ذاته المتعاليه من غير توسّط آيه و تخلل حجاب فمن المستحيل ذلك قال تعالى: وَ لاٰ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (طه۱۱۰/).

بحث روائی:

فی تفسیر القمی فی قوله تعالی: «وَ النَّجْمِ إِذٰا هَوىٰ» قال:النجم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «إِذٰا هَوىٰ» لما أسری به إلی السماء و هو فی الهویّ.

أقول:و روی تسمیته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالنجم بإسناده عن أبیه عن الحسین بن خالد عن الرضا علیه السّلام،و هو من البطن.

و فی الکافی عن القمی عن أبیه عن ابن أبی عمیر عن محمد بن مسلم قال:قلت لأبی جعفر علیه السّلام:قول اللّه عزّ و جل: «وَ اللَّیْلِ إِذٰا یَغْشىٰ» «وَ النَّجْمِ إِذٰا هَوىٰ» و ما أشبه ذلک؟قال:

إن للّه عزّ و جل أن یقسم من خلقه بما شاء،و لیس لخلقه أن یقسموا إلا به.

أقول:و فی الفقیه عن علی بن مهزیار عن أبی جعفر الثانی مثله.

و فی المجمع و روت العامه عن جعفر الصادق أنه قال:إن محمدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نزل من السماء السابعه لیله المعراج و لما نزلت السوره أخبر بذلک عتبه بن أبی لهب فجاء إلی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و طلّق ابنته و تفل فی وجهه و قال:کفرت بالنجم و رب النجم،فدعا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علیه و قال:اللهم سلّط علیه کلبا من کلابک.

فخرج عتبه إلی الشام فنزل فی بعض الطریق و ألقی اللّه علیه الرعب فقال لأصحابه أنیمونی بینکم لیلا ففعلوا فجاء أسد فافترسه من بین الناس.

أقول:ثم أورد الطبرسی شعر حسان فی ذلک،و روی فی الدر المنثور القصه بطرق مختلفه.

و فی الکافی بإسناده إلی هشام و حماد و غیره قالوا:سمعنا أبا عبد اللّه علیه السّلام یقول:حدیثی

حدیث أبی و حدیث أبی حدیث جدی و حدیث جدی حدیث الحسین و حدیث الحسین حدیث الحسن و حدیث الحسن حدیث أمیر المؤمنین و حدیث أمیر المؤمنین حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قول اللّه عزّ و جل.

و فی تفسیر القمی بإسناده إلی ابن سنان فی حدیث:قال أبو عبد اللّه علیه السّلام:و ذلک أنه یعنی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أقرب الخلق إلی اللّه تعالی و کان بالمکان الذی قال له جبرئیل لما أسری به إلی السماء:تقدم یا محمد فقد وطئت موطئا لم یطأه ملک مقرّب و لا نبی مرسل،و لو لا أن روحه و نفسه کان من ذلک المکان لما قدر أن یبلغه،و کان من اللّه عزّ و جل کما قال اللّه عزّ و جل:

«قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنىٰ» أی بل أدنی.

و فی الاحتجاج عن علی بن الحسین علیه السّلام فی حدیث طویل:أنا ابن من علا فاستعلی فجاز سدره المنتهی فکان من ربه قاب قوسین أو أدنی.

أقول:و قد ورد هذا المعنی فی کثیر من روایات أئمه أهل البیت علیهم السّلام.

و فی الدر المنثور أخرج ابن المنذر و ابن مردویه عن أبی سعید الخدری قال:لما أسری بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اقترب من ربه فکان قاب قوسین أو أدنی.قال:أ لم تر إلی القوس ما أقربها من الوتر؟

و فیه أخرج ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردویه عن ابن عباس فی قوله: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ» قال:هو محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دنا فتدلی إلی ربه عزّ و جل.

و فی المجمع و روی مرفوعا عن أنس قال:قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی قوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنىٰ» قال:قدر ذراعین أو أدنی من ذراعین.

و فی تفسیر القمی فی قوله تعالی: «فَأَوْحىٰ إِلىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحىٰ» قال:وحی مشافهه.

و فی التوحید بإسناده إلی محمد بن الفضیل قال:سألت أبا الحسن علیه السّلام هل رأی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ربه عزّ و جل؟فقال:نعم بقلبه رآه،أ ما سمعت اللّه عزّ و جل یقول: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ

مٰا رَأىٰ» ؟لم يره بالبصر و لكن رآه بالفؤاد.

و فى الدر المنثور أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى عن بعض أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:قالوا:يا رسول اللّه هل رأيت ربك؟قال:لم أره بعينى و رأيته بفؤادى مرتين ثم تلا «ثُمَّ دَنٰا فَتَدَلّٰى» .

أقول:و روى هذا المعنى النسائى عن أبى ذر-على ما فى الدر المنثور-و لفظه رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ربه بقلبه و لم يره ببصره.

و عن صحيح مسلم و الترمذى و ابن مردويه عن أبى ذر قال:سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:هل رأيت ربك؟فقال:نورانى أراه.

أقول:«نورانى»منسوب إلى النور على خلاف القياس كجسمانى فى النسبه إلى جسم، و قرئ«نور إنى أراه»بتنوين الراء و كسر الهمزه و تشديد النون ثم ياء المتكلم،و الظاهر أنه تصحيف و إن أيّد بروايه اخرى عن مسلم فى صحيحه و ابن مردويه عن أبى ذر أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:هل رأيت ربك؟فقال:رأيت نورا.

و كيف كان فالمراد بالرؤيه رؤيه القلب فلا الرؤيه رؤيه حسيه و لا النور نور حسى.

و فى الكافى بإسناده عن صفوان بن يحيى قال:سألنى أبو قرّه المحدث أن ادخله إلى أبى الحسن الرضا عليه السّلام فاستأذنته فى ذلك فأذن لى فدخل عليه فسأل عن الحلال و الحرام و الأحكام.إلى قوله:قال أبو قرّه:فإنه يقول: «وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرىٰ» فقال أبو الحسن عليه السّلام:

إن بعد هذه الآيه ما يدل على ما رأى حيث قال: «مٰا كَذَبَ الْفُؤٰادُ مٰا رَأىٰ» يقول:ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه ثم أخبر بما رأى فقال: «لَقَدْ رَأىٰ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِ الْكُبْرىٰ» و آيات اللّه غير اللّه.

أقول:الظاهر أن كلامه عليه السّلام مسوق لإلزام أبى قره حيث كان يريد إثبات رؤيته تعالى بالعين الحسيه فألزمه بأن الرؤيه إنما تعلقت بالآيات و آيات اللّه غير اللّه و لا ينافى ذلك كون

رؤيه الآيات بما هى آياته رؤيته و إن كانت آياته غيره،و هذه الرؤيه إنما كانت بالقلب كما مرّت عده من الروايات فى هذا المعنى.

و فى تفسير القمى حدثنى أبى عن ابن أبى عمير عن هشام عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال:قال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:انتهيت إلى سدره المنتهى و إذا الورقه منها تظلّ امه من الامم فكنت من ربى كقاب قوسين أو أدنى.

و فى الدر المنثور أخرج أحمد و ابن جرير عن أنس قال:قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:انتهيت إلى السدره فإذا نبقها مثل الجراد،و إذا ورقها مثل آذان الفيله فلما غشيها من أمر اللّه ما غشيها تحوّلت ياقوتا و زمردا و نحو ذلك.

و فى تفسير القمى بإسناده إلى اسماعيل الجعفى عن أبى جعفر عليه السّلام فى حديث طويل:فلما انتهى به إلى سدره المنتهى تخلّف عنه جبرئيل فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:فى هذا الموضع تخذلنى؟ فقال:تقدّم أمامك فو اللّه لقد بلغت مبلغا لم يبلغه أحد من خلق اللّه قبلك فرأيت من نور ربى و حال بينى و بينه السبحه.

قلت:و ما السبحه جعلت فداك؟فأومى بوجهه إلى الأرض و أومأ بيده إلى السماء و هو يقول:جلال ربى جلال ربى ثلاث مرات.

أقول:السبحه الجلال كما فسّر فى الروايه،و السبحه ما يدل على تنزهه تعالى من خلقه و مرجعه إلى المعنى الأول،و محصل ذيل الروايه أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رأى ربه برؤيه آياته.

و فيه فى قوله تعالى: «وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهىٰ» قال:فى السماء السابعه.

و فيه فى قوله تعالى: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مٰا يَغْشىٰ» قال:لما رفع الحجاب بينه و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم غشى نور السدره.

أقول:و فى المعانى السابقه روايات اخرى و قد تقدم فى أول تفسير سوره الإسراء روايات جامعه لقصه معراجه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و قد نقلنا هناک فی ذیل الروایات الاختلاف فی کیفیه معراجه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه کان فی المنام أو فی الیقظه و علی الثانی بجسمه و روحه معا أو بروحه فحسب،و نقلنا عن صاحب المناقب أن الإمامیه تری أن إسراءه من المسجد الحرام إلی المسجد الأقصی کان بالروح و الجسم معا علی ما تدل علیه آیه الإسراء،و أما من المسجد الأقصی إلی السماوات فقد قال قوم بکونه بالروح و الجسم معا أیضا و وافقهم کثیر من الشیعه و مال بعضهم إلی کونه بالروح و مال الیه بعض المتأخرین.

و لا ضیر فی القول به لو أیّدته القرائن الحاقه بالآیات و الروایات غیر أن من الواجب حینئذ أن یحمل قوله تعالی: «عِنْدَهٰا جَنَّهُ الْمَأْویٰ» علی جنه البرزخ لیحمل کونها عندها علی نحو من التعلق کما ورد أن القبر إما روضه من ریاض الجنه أو حفره من حفر النار،أو توجه الآیه بما لا ینافی کون العروج فی السماوات روحیا.

و أما کون الإسراء فی المنام فقد تقدم فی تفسیر آیه الإسراء أنه مما لا ینبغی أن یلتفت الیه.

و أما تطبیق الإسراء إلی السماوات علی تسییره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیلا فی الکواکب الاخری غیر الأرض من منظومتنا الشمسیه أو فی منظومات اخری غیر منظومتنا أو فی مجرّات اخری غیر مجرّتنا فمما لا یلائمه الأخبار الوارده فی تفصیل القصه البته بل و لا محصل مضامین الآیات المتقدمه.

[سوره النجم (۵۳): الآیات ۱۹ الی ۳۲]

أَ فَرَأَیْتُمُ اَللاّٰتَ وَ اَلْعُزّٰی (۱۹) وَ مَنٰاهَ اَلثّٰالِثَهَ اَلْأُخْریٰ (۲۰) أَ لَکُمُ اَلذَّکَرُ وَ لَهُ اَلْأُنْثیٰ (۲۱) تِلْکَ إِذاً قِسْمَهٌ ضِیزیٰ (۲۲) إِنْ هِیَ إِلاّٰ أَسْمٰاءٌ سَمَّیْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُکُمْ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ وَ مٰا تَهْوَی اَلْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ اَلْهُدیٰ (۲۳) أَمْ لِلْإِنْسٰانِ مٰا تَمَنّٰی (۲۴) فَلِلّٰهِ اَلْآخِرَهُ وَ اَلْأُولیٰ (۲۵) وَ کَمْ مِنْ مَلَکٍ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ لاٰ تُغْنِی شَفٰاعَتُهُمْ شَیْئاً إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ أَنْ یَأْذَنَ اَللّٰهُ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ یَرْضیٰ (۲۶) إِنَّ اَلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ لَیُسَمُّونَ اَلْمَلاٰئِکَهَ تَسْمِیَهَ اَلْأُنْثیٰ (۲۷) وَ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ وَ إِنَّ اَلظَّنَّ لاٰ یُغْنِی مِنَ اَلْحَقِّ شَیْئاً (۲۸) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰی عَنْ ذِکْرِنٰا وَ لَمْ یُرِدْ إِلاَّ اَلْحَیٰاهَ اَلدُّنْیٰا (۲۹) ذٰلِکَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ اَلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدیٰ (۳۰) وَ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ لِیَجْزِیَ اَلَّذِینَ أَسٰاؤُا بِمٰا عَمِلُوا وَ یَجْزِیَ اَلَّذِینَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَی (۳۱) اَلَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبٰائِرَ اَلْإِثْمِ وَ اَلْفَوٰاحِشَ إِلاَّ اَللَّمَمَ إِنَّ رَبَّکَ وٰاسِعُ اَلْمَغْفِرَهِ هُوَ أَعْلَمُ بِکُمْ إِذْ أَنْشَأَکُمْ مِنَ اَلْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّهٌ فِی بُطُونِ أُمَّهٰاتِکُمْ فَلاٰ تُزَکُّوا أَنْفُسَکُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقیٰ (۳۲)

بیان:

قوله تعالی: أَ فَرَأَیْتُمُ اللاّتَ وَ الْعُزّی وَ مَناةَ الثّالِثَةَ الْأُخْری لما سجل فی الآیات السابقه صدق النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أنه وحی یوحی الیه و ترتب علیه حقیه النبوه المبنیه علی التوحید و نفی الشرکاء،فرّع علیه الکلام فی الأوثان:اللات و العزی و مناه و هی عند المشرکین تماثیل الملائکه بدعوی أنهم إناث أو بعضها للملائکه و بعضها للانسان کما قاله بعضهم و نفی ربوبیتها و ألوهیتها و استقلال الملائکه الذین هم أرباب الأصنام فی الشفاعه و أنوثیتهم و أشار الی حقائق اخری تنتج المعاد و جزاء الأعمال.

و اللات و العزی و مناه أصنام ثلاث کانت معبوده لعرب الجاهلیه،و قد اختلفوا فی وصف صورها،و فی موضعها الذی کانت منصوبه علیه،و فی من یعبدها من العرب،و فی الأسباب التی أوجبت عبادتهم لها،و هی أقوال متدافعه لا سبیل الی الاعتماد علی شیء منها،و المتیقن منها ما أوردناه.

و المعنی:إذا کان الأمر علی ما ذکرناه من حقیه الدعوه و صدق النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی دعوی الوحی و الرساله من عند اللّه سبحانه فأخبرونی عن اللات و العزی و مناه التی هی ثالثه الصنمین و غیرهما-و هی التی تدّعون أنها أصنام الملائکه الذین هم بنات اللّه علی زعمکم-.

قوله تعالی: أَ لَکُمُ الذَّکَرُ وَ لَهُ الْأُنْثی تِلْکَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِیزی استفهام إنکاری مشوب بالاستهزاء،و قسمه ضیزی أی جائره غیر عادله.

و المعنی:إذا کان کذلک و کانت أرباب هذه الأصنام من الملائکه بنات اللّه،و أنتم لا ترضون

لأنفسكم إلاّ الذكر من الأولاد فهل لكم الذكر و للّه سبحانه الانثى من الأولاد؟تلك القسمه إذا قسمه جائره غير عادله-استهزاء-.

قوله تعالى: إِنْ هِيَ إِلاّٰ أَسْمٰاءٌ سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ الخ؛ضمير «هِيَ» للات و العزى و مناه أو لها بما هى أصنام،و ضمير «سَمَّيْتُمُوهٰا» للأسماء و تسميه الأسماء جعلها أسماء،و المراد بالسلطان البرهان.

و المعنى:ليست هذه الأصنام الآلهه إلاّ أسماء جعلتموها أسماء لها أنتم و آباؤكم ليست لهذه الأسماء وراءها مصاديق و مسميات ما أنزل اللّه معها برهانا يستدل به على ربوبيتها و ألوهيتها.

و محصل الآيه الرد على المشركين بعدم الدليل على ألوهيه آلهتهم.

و قوله: إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ مٰا تَهْوَى الْأَنْفُسُ «مٰا» موصوله و الضمير العائد إليها محذوف أى الذى تهواه النفس،و قيل:مصدريه و التقدير هو النفس و الهوى الميل الشهوانى للنفس و الجمله مسوقه لذمّهم فى اتباع الباطل و تأكيد لما تقدم من أنه لا برهان لهم على ذلك.

و يؤكده قوله: «وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدىٰ» و الجمله حاليه.

و المعنى:إن يتبع هؤلاء المشركون فى أمر آلهتهم إلاّ الظن و ما يميل اليه أنفسهم شهوه يتبعون ذلك و الحال أنه قد جاءهم من اللّه و هو ربهم الهدى و هى الدعوه الحقه أو القرآن الذى يهديهم الى الحق.

و الالتفات فى الآيه من الخطاب الى الغيبه للإشعار بأنهم أحط فهما من أن يخاطبوا بهذا الكلام على أنهم غير مستعدين لأن يخاطبوا بكلام برهانى و هم أتباع الظن و الهوى.

قوله تعالى: أَمْ لِلْإِنْسٰانِ مٰا تَمَنّٰى «أَمْ» منقطعه و الاستفهام إنكارى،و الكلام مسوق لنفى أن يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد أنه يتمناه أى ليس يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد

أنه يتمناه حتى يملك المشركون ما يتمنونه بهوى أنفسهم من شفاعه الملائكه الذين هم أرباب أصنامهم و بنات للّه بزعمهم أو يملكوا الوهيه آلهتهم بمجرد التمنى.

و فى الكلام تلويح الى أنهم ليس لهم للدلاله على صحه الوهيه آلهتهم أو شفاعتهم إلاّ التمنى، و لا يملك شىء بالتمنى.

قوله تعالى: فَلِلّٰهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولىٰ تفريعه على سابقه من تفريع العله للمعلول للدلاله على التعلق و الارتباط ففيه تعليل للجمله السابقه،و المعنى:ليس يملك الإنسان ما تمناه بمجرد التمنى لأن الآخره و الاولى للّه سبحانه و لا شريک له فى ملكه.

قوله تعالى: وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰاوٰاتِ لاٰ تُغْنِي شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللّٰهُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَرْضىٰ الفرق بين الإذن و الرضا أن الإذن إعلام ارتفاع المانع من قبل الآذن،و الرضا ملاءمه نفس الراضى للشىء و عدم امتناعها فربما تحقق الإذن بشىء مع عدم الرضا و لا يتحقق رضا إلاّ مع الإذن بالفعل أو بالقوه.

و الآيه مسوقه لنفى أن يملك الملائكه من أنفسهم الشفاعه مستغنين فى ذلک عن اللّه سبحانه كما يروم اليه عبده الأصنام فإن الأمر مطلقا الى اللّه تعالى فإنما يشفع من يشفع منهم بعد إذنه تعالى له فى الشفاعه و رضاه بها.

و على هذا فالمراد بقوله: «لِمَنْ يَشٰاءُ» الملائكه،و معنى الآيه:و كثير من الملائكه فى السماوات لا تؤثر شفاعتهم أثرا إلاّ من بعد أن يأذن اللّه لمن يشاء منهم أى من الملائكه و يرضى بشفاعته.

و قيل:المراد بمن يشاء و يرضى الإنسان،و المعنى:إلاّ من بعد أن يأذن اللّه فى شفاعه من يشاء أن يشفع له من الإنسان و يرضى،و كيف يأذن و يرضى بشفاعه من كفر به و عبد غيره.

و الآيه تثبيت الشفاعه للملائكه فى الجمله،و تقيد شفاعتهم بالإذن و الرضا من اللّه سبحانه.

ص:١١٢

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاٰئِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثىٰ رد لقولهم بانوثيه الملائكه بعد رد قولهم بشفاعتهم.

و المراد بتسميتهم الملائكه تسميه الانثى قولهم:إن الملائكه بنات اللّه فالمراد بالانثى الجنس أعم من الواحد و الكثير.

و قيل:إن الملائكه فى معنى استغراق المفرد فيكون التقدير ليسمّون كل واحد من الملائكه تسميه الانثى أى يسمونه بنتا فالكلام على وزان«كسانا الأمير حلّه»أى كسا كل واحد منا حله.

قال بعضهم:فى تعليق التسميه بعدم الإيمان بالآخره إشعار بأنها فى الشناعه و الفظاعه و استتباع العقوبه فى الآخره بحيث لا يجترئ عليها إلاّ من لا يؤمن بها رأسا.انتهى.

قوله تعالى: وَ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لاٰ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً العلم هو التصديق المانع من النقيض،و الظن هو التصديق الراجح و يسمى المرجوع وهما،و قولهم بانوثيه الملائكه كما لم يكن معلوما لهم كذلك لم يكن مظنونا إذ لا سبيل الى ترجيح القول به على خلافه لكنه لما كان عن هوى أنفسهم أثبته الهوى فى أنفسهم و زيّنه لهم فلم يلتفتوا الى خلافه،و كلما لاح لهم لائح خلافه أعرضوا عنه و تعلقوا بما يهمونه، و بهذه العنايه سمى ظنا و هو فى الحقيقه تصوّر فقط.

و بهذا يظهر استقامه قول من قال:إن الظن فى هذه الآيه و فى قوله السابق: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ مٰا تَهْوَى الْأَنْفُسُ» بمعنى التوهم دون الاعتقاد الراجح و أيّد بما يظهر من كلام الراغب:

إن الظن و بما يطلق على التوهم.

و قوله: إِنَّ الظَّنَّ لاٰ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً الحق ما هو عليه الشىء و ظاهر أنه لا يدرك إلاّ بالعلم الذى هو الاعتقاد المانع من النقيض لا غير و أما غير العلم مما فيه احتمال الخلاف فلا يتعين فيه المدرك على ما هو عليه فى الواقع فلا مجوز لأن يعتمد عليه فى الحقائق

ص:١١٣

قال تعالى: وَ لاٰ تَقْفُ مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ (الإسراء۳۶/).

و أما العمل بالظن فى الأحكام العمليه فإنما هو لقيام دليل عليه يقيد به إطلاق الآيه،و تبقى الامور الاعتقاديه تحت إطلاق الآيه.

قال بعضهم:وضع الظاهر موضع المضمر فى قوله: «إِنَّ الظَّنَّ لاٰ يُغْنِي» ليجرى الكلام مجرى المثل.

قوله تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِكْرِنٰا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا تفريع على اتباعهم الظن و هوى الأنفس،فقوله: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ» الخ؛أمر بالإعراض عنهم و إنما لم يقل:فأعرض عنهم،و وضع قوله: «مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِكْرِنٰا» الخ؛موضع الضمير للدلاله على عله الأمر بالإعراض كأنه قيل:إن هؤلاء يتركون العلم و يتبعون الظن و ما تهوى الانفس و إنما فعلوا ذلك لأنهم تولوا عن الذكر و أرادوا الحياه الدنيا فلا همّ لهم إلاّ الدنيا فهى مبلغهم من العلم،و إذا كان كذلك فأعرض عنهم لأنهم فى ضلال.

و المراد بالذكر إما القرآن الذى يهدى متبعيه الى الحق الصريح و يرشدهم الى سعاده الدار الآخره التى وراء الدنيا بالحجج القاطعه و البراهين الساطعه التى لا تبقى معها وصمه شك.

و إما ذكر اللّه بالمعنى المقابل للغفله فإن ذكره تعالى بما يليق بذاته المتعاليه من الأسماء و الصفات يهدى الى سائر الحقائق العلميه فى المبدإ و المعاد هدايه علميه لا ريب معها.

قوله تعالى: ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدىٰ الإشاره بذلك الى أمر الدنيا و هو معلوم من الآيه السابقه و كونه مبلغ علمهم من قبيل الاستعاره كأن العلم يسير الى المعلوم و ينتهى اليه و علمهم انتهى فى مسيره الى الدنيا و بلغها و وقف عندها و لم يتجاوزها،و لازم ذلك أن تكون الدنيا متعلق إرادتهم و طلبهم،و موطن همّهم،و غايه آمالهم لا يطمئنون الى غيرها و لا يقبلون إلاّ عليها.

و قوله: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ الخ؛تأكيد لمضمون الجمله السابقه و شهاده منه تعالى عليه.

قوله تعالى: وَ لِلّٰهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسٰاؤُا بِمٰا عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى يمكن أن يكون صدر الآيه حالا من فاعل «أَعْلَمُ» فى الآيه السابقه و الواو للحال،و المعنى:إن ربك هو أعلم بالفريقين الضالين و المهتدين و الحال أنه يملك ما فى السماوات و ما فى الأرض فكيف يمكن أن لا يعلم بهم و هو مالكهم؟

و على هذا فالظاهر تعلق قوله: «لِيَجْزِيَ» الخ؛بقوله السابق: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى» الخ؛ و المعنى:أعرض عنهم و كل أمرهم الى اللّه ليجزيهم كذا و كذا و يجزيك و يجزى المحسنين كذا و كذا.

و يمكن أن يكون قوله: «وَ لِلّٰهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ» الخ؛كلاما مستأنفا للدلاله على أن الأمر بالإعراض عنهم لا لإهمالهم و تركهم سدى بل اللّه سبحانه يجزى كلا بعمله إن سيئا و إن حسنا،و وضع اسم الجلاله و هو ظاهر موضع الضمير للدلاله على كمال العظمه.

و قوله: لِلّٰهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ إشاره الى ملكه تعالى للكل و معناه قيام الأشياء به تعالى لكونه خالقهم الموجد لهم فالملك ناشئ من الخلق و هو مع ذلك منشأ للتدبير فالجمله داله على الخلق و التدبير كأنه قيل:و للّه الخلق و التدبير.

و بهذا المعنى يتعلق قوله: «لِيَجْزِيَ» الخ؛و اللام للغايه،و المعنى:له الخلق و التدبير و غايه ذلك و الغرض منه أن يجزى الذين أساءوا،الخ؛و المراد بالجزاء ما يخبر عنه الكتاب من شئون يوم القيامه،و المراد بالإساءه و الإحسان المعصيه و الطاعه،و المراد بما عملوا جزاء ما عملوا أو نفس ما عملوا،و بالحسنى المثوبه الحسنى.

و المعنى:ليجزى اللّه الذين عصوا بمعصيتهم أو بجزاء معصيتهم و يجزى الذين أطاعوا

بالمثوبه الحسنی،و قد أوردوا فی الآیه احتمالات اخری و ما قدمناه هو أظهرها.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبٰائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوٰاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّکَ وٰاسِعُ الْمَغْفِرَهِ الخ؛الإثم هو الذنب و أصله-کما ذکره الراغب-الفعل المبطئ عن الثواب و الخیر،و کبائر الإثم المعاصی الکبیره و هو علی ما فی الروایه (۱)ما أوعد اللّه علیه النار،و قد تقدم البحث عنها فی تفسیر قوله تعالی: إِنْ تَجْتَنِبُوا کَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئٰاتِکُمْ الآیه(النساء۳۱/).

و الفواحش الذنوب الشنیعه الفظیعه،و قد عدّ تعالی فی کلامه الزنا و اللواط من الفواحش و لا یبعد أن یستظهر من الآیه اتحادها مع الکبائر.

و أما اللمم فقد اختلفوا فی معناه فقیل:هو الصغیره من المعاصی،و علیه فالاستثناء منقطع،و قیل:هو أن یلمّ بالمعصیه و یقصدها و لا یفعل و الاستثناء أیضا منقطع،و قیل:هو المعصیه حینا بعد حین من غیر عاده أی المعصیه علی سبیل الاتفاق فیکون أعم من الصغیره و الکبیره و ینطبق مضمون الآیه علی معنی قوله تعالی فی وصف المتقین المحسنین: وَ الَّذِینَ إِذٰا فَعَلُوا فٰاحِشَهً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَکَرُوا اللّٰهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّٰهُ وَ لَمْ یُصِرُّوا عَلیٰ مٰا فَعَلُوا وَ هُمْ یَعْلَمُونَ (آل عمران۱۳۵/).

و قد فسر فی روایات أئمه أهل البیت علیهم السّلام بثالث المعانی (۲).

و الآیه تفسر ما فی الآیه السابقه من قوله: «الَّذِینَ أَحْسَنُوا» فهم الذین یجتنبون کبائر الإثم و الفواحش و من الجائز أن یقع منهم لمم.

ص: ۱۱۶

۱- ۱) .رواها فی ثواب الاعمال عن عباد بن کثیر النواه عن أبی جعفر علیه السّلام.

۲- ۲) .ففی اصول الکافی عن ابن عمار عن الصادق علیه السّلام:اللمم الرجل یلم بالذنب فیستغفر اللّه منه،و فیه بإسناده عن محمّد بن مسلم عن الصادق علیه السّلام قال:هو الذنب یلم به الرجل فیمکث ما شاء اللّه ثم یلم به بعد،و فیه بإسناده عن ابن عمار عن الصادق علیه السّلام قال:اللمام العبد الذی یلم بالذنب بعد الذنب لیس من سلیقته أی من طبعه.

و فى قوله: إِنَّ رَبَّکَ وٰاسِعُ اَلْمَغْفِرَهِ تطميعهم فى التوبه رجاء المغفره.

و قوله: هُوَ أَعْلَمُ بِکُمْ إِذْ أَنْشَأَکُمْ مِنَ اَلْأَرْضِ قال الراغب:النشء و النشأه إحداث الشىء و تربيته.انتهى.فإنشاؤهم من الأرض ما جرى عليهم فى بدء خلقهم طورا بعد طور من أخذهم من المواد العنصريه الى أن يتكونوا فى صوره المنى و يردوا الأرحام.

و قوله: وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّهٌ فِی بُطُونِ أُمَّهٰاتِکُمْ الأجنه جمع جنين،و الكلام معطوف على «إِذْ» السابق أى و هو أعلم بكم إذ كنتم أجنه فى أرحام أمهاتكم يعلم ما حقيقتكم و ما أنتم عليه من الحال و ما فى سرّكم و الى ما يول أمركم.

و قوله: فَلاٰ تُزَکُّوا أَنْفُسَکُمْ تفريع على العلم أى إذا كان اللّه أعلم من أول أمر فلا تزكّوا أنفسكم بنسبتها الى الطهاره هو أعلم بمن اتقى.

[سوره النجم (۵۳): الآيات ۳۳ الى ۶۲]

أَ فَرَأَیْتَ اَلَّذِی تَوَلّٰی (۳۳) وَ أَعْطیٰ قَلِیلاً وَ أَکْدیٰ (۳۴) أَ عِنْدَهُ عِلْمُ اَلْغَیْبِ فَهُوَ یَریٰ (۳۵) أَمْ لَمْ یُنَبَّأْ بِمٰا فِی صُحُفِ مُوسیٰ (۳۶) وَ إِبْرٰاهِیمَ اَلَّذِی وَفّٰی (۳۷) أَلاّٰ تَزِرُ وٰازِرَهٌ وِزْرَ أُخْریٰ (۳۸) وَ أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسٰانِ إِلاّٰ مٰا سَعیٰ (۳۹) وَ أَنَّ سَعْیَهُ سَوْفَ یُریٰ (۴۰) ثُمَّ یُجْزٰاهُ اَلْجَزٰاءَ اَلْأَوْفیٰ (۴۱) وَ أَنَّ إِلیٰ رَبِّکَ اَلْمُنْتَهیٰ (۴۲) وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَکَ وَ أَبْکیٰ (۴۳) وَ أَنَّهُ هُوَ أَمٰاتَ وَ أَحْیٰا (۴۴) وَ أَنَّهُ خَلَقَ اَلزَّوْجَیْنِ اَلذَّکَرَ وَ اَلْأُنْثیٰ (۴۵) مِنْ نُطْفَهٍ إِذٰا تُمْنیٰ (۴۶) وَ أَنَّ عَلَیْهِ اَلنَّشْأَهَ اَلْأُخْریٰ (۴۷) وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنیٰ وَ أَقْنیٰ (۴۸) وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ اَلشِّعْریٰ (۴۹) وَ أَنَّهُ أَهْلَکَ عٰاداً اَلْأُولیٰ (۵۰) وَ ثَمُودَ فَمٰا أَبْقیٰ (۵۱) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ کٰانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغیٰ (۵۲) وَ اَلْمُؤْتَفِکَهَ أَهْویٰ (۵۳) فَغَشّٰاهٰا مٰا غَشّٰی (۵۴) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکَ تَتَمٰاریٰ (۵۵) هٰذٰا نَذِیرٌ مِنَ اَلنُّذُرِ اَلْأُولیٰ (۵۶) أَزِفَتِ اَلْآزِفَهُ (۵۷) لَیْسَ لَهٰا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ کٰاشِفَهٌ (۵۸) أَ فَمِنْ هٰذَا اَلْحَدِیثِ تَعْجَبُونَ (۵۹) وَ تَضْحَکُونَ وَ لاٰ تَبْکُونَ (۶۰) وَ أَنْتُمْ سٰامِدُونَ (۶۱) فَاسْجُدُوا لِلّٰهِ وَ اُعْبُدُوا (۶۲)

بیان:

قوله تعالی: أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَ أَعْطَى قَلِيلاً وَ أَكْدى التولی هو الإعراض و المراد به بقرینه الآیه التالیه الإعراض عن الإنفاق فی سبیل اللّه،و الإعطاء الإنفاق و الإکداء قطع العطاء،و التفریع الذی فی قوله: «أَ فَرَأَيْتَ» مبنی علی ما قدمناه من تفرع مضمون هذه الآیه علی ما قبلها.

و المعنی:فأخبرنی عمن أعرض عن الإنفاق و أعطی قلیلا من المال و أمسک بعد ذلک أشدّ الإمساک.

قوله تعالی: أَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى الضمائر لمن تولی و الاستفهام للإنکار و المعنی:أ یعلم الغیب فیترتب علیه أن یعلم أن صاحبه یتحمل عنه ذنوبه و یعذب مکانه یوم القیامه لو استحق العذاب کذا فسروا.

و الظاهر أن المراد نفی علمه بما غاب عنه من مستقبل حاله فی الدنیا و المعنی:أ یعلم الغیب فهو یعلم أنه لو أنفق و دام علی الإنفاق نفد ماله و ابتلی بالفقر و أما تحمل الذنوب و العذاب فالمتعرض له قوله الآتی: أَلاّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى .

قوله تعالی: أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى صحف موسی التوراه،و صحف إبراهیم ما نزل علیه من الکتاب و الجمع للإشاره الی کثرته بکثره أجزائه.

و التوفیه تأدیه الحق بتمامه و کماله،و توفیته علیه السّلام تأدیته ما علیه من الحق فی العبودیه أتم التأدیه و أبلغها قال تعالی: وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (البقره۱۲۴/).

و ما نقله اللّه سبحانه فی الآیات التالیه من صحف إبراهیم و موسی علیهما السّلام و إن لم یذکر فی

القرآن بعنوان أنه من صحفهما قبل هذه الآيات لكنه مذكور بعنوان الحكم و المواعظ و القصص و العبر فمعنى الآيتين:أم لم ينبأ بهذه الامور و هى فى صحف إبراهيم و موسى.

قوله تعالى: أَلاّٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ الوزر الثقل و كثر استعماله فى الإثم، و الوازره النفس التى من شأنها أن تحمل الإثم،و الآيه بيان ما فى صحف إبراهيم و موسى عليهما السّلام، و كذا سائر الآيات المصدره بأن و أنّ الى تمام سبع عشره آيه.

و المعنى:ما فى صحفهما هو أنه لا تحمل نفس إثم نفس أخرى أى لا تتأثم نفس بما لنفس أخرى من الإثم فلا تؤاخذ نفس بإثم نفس أخرى.

قوله تعالى: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسٰانِ إِلاّٰ مٰا سَعىٰ قال الراغب:السعى المشى السريع و هو دون العدو،و يستعمل للجد فى الأمر خيرا كان أو شرا قال تعالى: «وَ سَعىٰ فِي خَرٰابِهٰا» .انتهى و استعماله فى الجد فى الفعل استعمال استعارى.

و معنى الام فى قوله: «لِلْإِنْسٰانِ» الملك الحقيقى الذى يقوم بصاحبه قياما باقيا ببقائه يلازمه و لا يفارقه بالطبع و هو الذى يكتسبه الانسان بصالح العمل أو طالحه من خير أو شر، و أما ما يراه الإنسان مملوكا لنفسه و هو فى ظرف الاجتماع من مال و بنين و جاه و غير ذلك من زخارف الحياه الدنيا و زينتها فكل ذلك من الملك الاعتبارى الوهمى الذى صاحب الإنسان ما دام فى دار الغرور و يودعه عند ما أراد الانتقال الى دار الخلود و عالم الآخره.

فالمعنى:و أنه لا يملك الإنسان ملكا يعود اليه أثره من خير أو شر أو نفع أو ضر حقيقه إلاّ ما جدّ فيه من عمل فله ما قام بفعله بنفسه و أما ما قام به غيره من عمل فلا يلحق بالإنسان أثره خيرا أو شرا.

قوله تعالى: وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ المراد بالسعى ما سعى فيه من العمل و بالرؤيه المشاهده،و ظرف المشاهده يوم القيامه بدليل تعقيبه بالجزاء فالآيه قريبه المعنى من قوله تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ

(آل عمران/۳۰)،و قوله: يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزال/۸).

و إتيان قوله: «سَوْفَ يُرىٰ» مبنيا للمفعول لا يخلو من إشعار بأن هناك من يشاهد العمل غير عامله.

قوله تعالى: ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفىٰ الوفاء بمعنى التمام لأن الشيء التام يفى بجميع ما يطلب من صفاته،و الجزاء الأوفى الجزاء الأتم.

و ضمير «يُجْزاهُ» للسعى الذى هو العمل و المعنى:ثم يجزى الانسان عمله أى بعمله أتمّ الجزاء.

قوله تعالى: وَ أَنَّ إِلىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهىٰ المنتهى مصدر ميمى بمعنى الانتهاء و قد أطلق إطلاقا فيفيد مطلق الانتهاء،فما فى الوجود من شىء موجود إلاّ و ينتهى فى وجوده و آثار وجوده الى اللّه سبحانه بلا واسطه أو مع الواسطه،و لا فيه أمر من التدبير و النظام الجارى جزئيا أو كليا إلاّ و ينتهى اليه سبحانه إذ ليس التدبير الجارى بين الأشياء إلاّ الروابط الجاريه بينها القائمه بها و موجد الأشياء هو الموجد لروابطها المجرى لها بينها فالمنتهى المطلق لكل شىء هو اللّه سبحانه.

قال تعالى: اَللّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ (الزمر/۶۳)،و قال: أَلاٰ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ (الأعراف/۵۴).

و الآيه تثبيت الربوبيه المطلقه للّه سبحانه بإنهاء كل تدبير و كل التدبير اليه و تشمل انتهاء الأشياء اليه من حيث البدء و هو الفطر،و انتهاءها اليه من حيث العود و الرجوع و هو الحشر.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكىٰ الآيه و ما يتلوها الى تمام اثنتى عشره آيه بيان لموارد من انتهاء الخلق و التدبير الى اللّه سبحانه.

و السياق فى جميع هذه الآيات سياق الحصر،و تفيد انحصار الربوبيه فيه تعالى و انتفاء

الشريک،و لا ینافی ما فی هذه الموارد من الحصر توسط أسباب أخر طبیعیه أو غیر طبیعیه فیها کتوسط السرور و الحزن و أعضاء الضحک و البکاء من الانسان فی تحقق الضحک و البکاء،و کذا توسط الأسباب المناسبه الطبیعیه و غیر الطبیعیه فی الإحیاء و الإماته و خلق الزوجین و الغنی و القنی و إهلاک الامم الهالکه و ذلک أنها لما کانت مسخره لأمر اللّه غیر مستقله فی نفسها و لا منقطعه عما فوقها کانت وجوداتها و آثار وجوداتها و ما یترتب علیها للّه وحده لا یشارکه فی ذلک أحد.

فمعنی قوله: «وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَکَ وَ أَبْکیٰ» أنه تعالی هو أوجد الضحک فی الضاحک و أوجد البکاء فی الباکی لا غیره تعالی.

و لا منافاه بین انتهاء الضحک و البکاء فی وجودهما الی اللّه سبحانه و بین انتسابهما الی الانسان و تلبسه بهما لأن نسبه الفعل الی الانسان بقیامه به و نسبه الفعل الیه تعالی بالایجاد و کم بینهما من فرق.

و لا أن تعلق الاراده الالهیه بضحک الانسان مثلا یوجب بطلان إراده الانسان للضحک و سقوطها عن التاثیر لأن الاراده الالهیه لم تتعلق بمطلق الضحک کیفما کان و إنما تعلقت بالضحک الارادی الاختیاری من حیث انه صادر عن اراده الانسان و اختیاره فإراده الانسان سبب لضحکه فی طول اراده اللّه سبحانه لا فی عرضها حتی تتزاحما و لا تجتمعا معا فنضطر الی القول بأن أفعال الانسان الاختیاریه مخلوقه للّه و لا صنع للإنسان فیها کما یقوله الجبری أو أنها مخلوقه للإنسان و لا صنع للّه سبحانه فیها کما یقوله المعتزلی.

قوله تعالی: وَ أَنَّهُ هُوَ أَمٰاتَ وَ أَحْیٰا الکلام فی انتساب الموت و الحیاه الی أسباب أخر طبیعیه و غیر طبیعیه کالملائکه کالکلام فی انتساب الضحک و البکاء الی غیره تعالی مع انحصار الإیجاد فیه تعالی،و کذا الکلام فی الامور المذکوره فی الآیات التالیه.

قوله تعالی: وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَیْنِ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثیٰ مِنْ نُطْفَهٍ إِذٰا تُمْنیٰ

ص :۱۲۲

النطفه ماء الرجل و المرأه الـذى يخلق منه الولـد،و أمنى الرجل أى صبّ المنى،و قيل:معناه التقـدير،و قوله: «الذَّكَرَ وَ الْأُنْثىٰ» بيان للزوجين.

قيل:لم يذكر الضمير فى الآيه على طرز ما تقدم-أنه هو-لأنه لا يتصور نسبه خلق الزوجين الى غيره تعالى.

قوله تعـالى: وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْـأَةَ الْأُخْرىٰ النشـأه الاخرى الخلقه الاخرى الثانيه و هى الـدار الآخره التى فيها جزاء،و كون ذلك عليه تعالى قضاؤه قضاء حتم و قد وعد به و وصف نفسه بأنه لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنىٰ وَ أَقْنىٰ أى أعطى الغنى و أعطى القنيه،و القنيه ما يدوم من الأموال و يبقى ببقاء نفسه كالدار و البستان و الحيوان،و على هذا فذكر «أَقْنىٰ» بعد «أَغْنىٰ» من التعرض للخاص بعد العام لنفاسته و شرفه.

و قيل:الإغناء التمويل و الإقناء الإرضاء بذلك،و قال بعضهم:معنى الآيه أنه هو أغنى و أفقر.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرىٰ كأن المراد بالشـعرى الشـعرى اليمانيه و هى كوكبه مضـيئه من الثوابت شرقى صوره الجبار فى السماء.

قيل:كانت الخزاعه و حمير تبعد هذه الكوكبه،و ممن كان يعبده أبو كبشه أحد أجداد النبى صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم من جهه أمه،و كان المشـركون يسمونه صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم ابن أبى كبشه لمخالفته إياهم فى الدين كما خالف أبو كبشه قومه فى عباده الشعرى.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عٰاداً الْأُولىٰ و هم قوم هود النبى صـلّى اللّٰه عليه و آله و سـلّم و وصـفوا بالاولى لأن هناك عادا ثانيه هم بعد عاد الاولى.

قوله تعالى: وَ ثَمُودَ فَمٰا أَبْقىٰ و هم قوم صالـح النبى صـلّى اللّٰه عليه و آله و سـلّم أهلك اللّٰه الكفار منهم عن آخرهم،و هو المراد من قوله: «فَمٰا أَبْقىٰ» و إلاّ فهو سبحانه نجّى المؤمنين منهم من الهلاك كما

قال: وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ (فصلت۱۸/).

قوله تعالى: وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كٰانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغىٰ عطف كسابقه على قوله: «عٰاداً» و الإصرار بالتأكيد على كونهم أظلم و أطغى،أى من القومين عاد و ثمود على ما يعطيه السياق لأنهم لم يجيبوا دعوه نوح عليه السّلام و لم يتعظوا بموعظته فيما يقرب من ألف سنه و لم يؤمن منهم معه إلاّ أقل قليل.

قوله تعالى: وَ الْمُؤْتَفِكَهَ أَهْوىٰ فَغَشّٰاهٰا مٰا غَشّٰى قيل:إن المؤتفكه قرى قوم لوط ائتفكت بأهلها أى انقلبت و الائتفاك الانقلاب،و الإهواء الإسقاط.

و المعنى:و أسقط القرى المؤتفكه الى الأرض بقلبها و خسفها فشملها و أحاط بها من العذاب ما شملها و أحاط بها.

و احتمل أن يكون المراد بالمؤتفكه ما هو أعم من قرى قوم لوط و هى كل قريه نزل عليها العذاب فباد أهلها فبقيت خربه داثره معالمها خاويه على عروشها.

قوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكَ تَتَمٰارىٰ الآلاء جمع الى بمعنى النعمه،و التمارى التشكك،و الجمله متفرعه على ما تقدم ذكره مما ينسب اليه تعالى من الأفعال.

و المعنى:إذا كان اللّه سبحانه هو الذى نظم هذا النظام البديع من صنع و تدبير بالإضحاك و الإبكاء و الإماته و الإحياء و الخلق و الإهلاك الى آخر ما قيل،فبأىّ نعم ربك تتشكك و فى أيّها تريب؟

وعد مثل الإبكاء و الاماته و إهلاك الامم الطاغيه نعما للّه سبحانه لما فيها من الدخل فى تكوين النظام الأتم الذى يجرى فى العالم و تنساق به الامور فى مرحله استكمال الخلق و رجوع الكل الى اللّه سبحانه.

و الخطاب فى الآيه للذى تولى و أعطى قليلا و أكدى أو للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من باب إياك أعنى و اسمعى يا جاره،و الاستفهام للانكار.

قوله تعالى: هٰذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولىٰ قيل:النـذير يأتى مصدرا بمعنى الإنذار و وصـفا بمعنى المنذر و يجمع على النذر بضـمتين على كلا المعنيين و الإشاره بهذا الى القرآن أو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

قوله تعالى: أَزِفَتِ الْآزِفَهُ أى قربت القيامه و الآزفه من أسماء القيامه قال تعالى:

وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَهِ (المؤمن١٨/).

قوله تعـالى: لَيْسَ لَهٰا مِنْ دُونِ اللّٰهِ كٰاشِفَهٌ أى نفس كاشـفه و المراد بالكشف إزاله ما فيها من الشدائـد و الأهوال،و المعنى:ليس نفس تقدر على إزاله ما فيها من الشدائد و الأهوال إلّا أن يكشفها اللّه سبحانه.

قوله تعالى: أَ فَمِنْ هٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَ تَضْحَكُونَ وَ لاٰ تَبْكُونَ وَ أَنْتُمْ سٰامِدُونَ الإشاره بهذا الحديث الى ما تقدم من البيان،و السمود اللهو،و الآيه متفرعه على ما تقدم من البيان،و الاستفهام للتوبيخ.

و المعنى:إذا كـان اللّه هـو ربكم الـذى ينتهى اليه كـل أمر و عليه النشأه الاـخرى و كـانت القيـامه قريبه و ليس لهـا من دون اللّه كاشفه كان عليكم أن تبكوا لما فرطتم فى جنب اللّه، و تعرضتم للشقاء الدائم أ فمن هذا البيان الذى يدعوكم الى النجاه تعجبون إنكارا و تضحكون استهزاء و لا تبكون؟

قوله تعالى: فَاسْجُدُوا لِلّٰهِ وَ اعْبُدُوا تفريع آخر على ما تقدم من البيان و المعنى:

إذا كان كذلك فعليكم أن تسجدوا للّه و تعبدوه ليكشف عنكم ما ليس له من دونه كاشفه (١).

ص:١٢۵

---

١ – ١) .النجم ٣٣-۶٢:بحث روائى حول قوله تعـالى: «أَ فَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلّٰى» ؛مـا يتبع الرجل بعـد موته من الاجر؛النهى عن التفكر فى ذات اللّه.

سوره القمر مکیه و هی خمس و خمسون آیه

اشاره

[سوره القمر (۵۴): الآیات ۱ الی ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;اِقْتَرَبَتِ اَلسّٰاعَهُ وَ اِنْشَقَّ اَلْقَمَرُ (۱) وَ إِنْ يَرَوْا آيَهً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (۲) وَ كَذَّبُوا وَ اِتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (۳) وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ مِنَ اَلْأَنْبٰاءِ مٰا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (۴) حِكْمَهٌ بٰالِغَهٌ فَمٰا تُغْنِ اَلنُّذُرُ (۵) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ اَلدّٰاعِ إِلىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ (۶) خُشَّعاً أَبْصٰارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ اَلْأَجْدٰاثِ كَأَنَّهُمْ جَرٰادٌ مُنْتَشِرٌ (۷) مُهْطِعِينَ إِلَى اَلدّٰاعِ يَقُولُ اَلْكٰافِرُونَ هٰذٰا يَوْمٌ عَسِرٌ (۸)

ص: ۱۲۶

بیان:

سوره ممحضه فی الإنذار و التخویف إلّا آیتین من آخرها تبشران المتقین بالجنه و الحضور عند ربهم.

تبدأ السوره بالإشاره الی آیه شقّ القمر التی أتی بها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن اقتراح من قومه،و تذکر رمیهم له بالسحر و تکذیبهم به و اتباعهم الأهواء مع ما جاءهم أنباء زاجره من أنباء یوم القیامه و أنباء الامم الماضین الهالکین ثم یعید تعالی علیهم نبذه من تلک الأنباء إعاده ساخط معاتب فیذکر سیئ حالهم یوم القیامه عند خروجهم من الأجداث و حضورهم للحساب.

ثم تشیر الی قصص قوم نوح و عاد و ثمود و قوم لوط و آل فرعون و ما نزل بهم من ألیم العذاب إثر تکذیبهم بالنذر و لیس قوم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأعز عند اللّه منهم و ما هم بمعجزین، و تختتم السوره ببشری للمتقین.

و السوره مکیه بشهاده سیاق آیاتها،و لا یعبأ بما قیل:إنها نزلت ببدر،و کذا بما قیل:إن بعض آیاتها مدنیه،و من غرر آیاتها ما فی آخرها من آیات القدر.

قوله تعالی: اِقْتَرَبَتِ السّاعَهُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ الاقتراب زیاده فی القرب فقوله:

«اقْتَرَبَتِ السّاعَهُ» أی قربت جدا،و الساعه هی الظرف الذی تقوم فیه القیامه.

و قوله: «وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ» أی انفصل بعضه عن بعض فصار فرقتین شقتین تشیر الآیه الی آیه شق القمر التی أجراها اللّه تعالی علی ید النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بمکه قبل الهجره إثر سؤال المشرکین من أهل مکه،و قد استفاضت الروایات علی ذلک،و اتفق أهل الحدیث و المفسرون علی قبولها کما قیل.و لم یخالف فیه منهم إلّا الحسن و عطاء و البلخی حیث قالوا:معنی قوله: «انْشَقَّ الْقَمَرُ» سینشقّ القمر عند قیام الساعه و إنما عبر بلفظ الماضی لتحقق الوقوع.

و هو مزيف مدفوع بدلاله الآيه التاليه «وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» فإن سياقها أوضح شاهد على أن قوله: «آيَةً» مطلق شامل لانشقاق القمر فعند وقوعه إعراضهم و قولهم:سحر مستمر و من المعلوم أن يوم القيامه يوم يظهر فيه الحقائق و يلجئون فيه الى المعرفه،و لا معنى حينئذ لقولهم فى آيه ظاهره:إنها سحر مستمر فليس إلّا أنها آيه قد وقعت للدلاله على الحق و الصدق و تأتى لهم أن يرموها عنادا بأنها سحر.

و مثله فى السقوط ما قيل:إن الآيه إشاره الى ما ذهب اليه الرياضيون أخيرا أن القمر قطعه من الأرض كما أن الأرض جزء منفصل من الشمس فقوله: «وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ» اشاره الى حقيقه علميه لم ينكشف يوم النزول بعد.

و ذلك أن هذه النظريه على تقدير صحتها لا يلائمها قوله: «وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» إذ لم ينقل عن أحد أنه قال للقمر:هو سحر مستمر.

على أن انفصال القمر عن الأرض اشتقاق و الذى فى الآيه الكريمه انشقاق،و لا يطلق الانشقاق إلّا على تقطع الشىء فى نفسه قطعتين دون انفصاله من شىء بعد ما كان جزء منه.

و مثله فى السقوط ما قيل:إن معنى انشقاق القمر انكشاف الظلمه عند طلوعه و كذا ما قيل:إن انشقاق القمر كنايه عن ظهور الأمر و وضوح الحق.

و الآيه لا تخلو من إشعار بأن انشقاق القمر من لوازم اقتراب الساعه.

قوله تعالى: وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ الاستمرار من الشىء مرور منه بعد مرور مره بعد مره،و لذا يطلق على الدوام و الاطراد فقولهم:سحر مستمر أى سحر بعد سحر مداوما.

و قوله: «آيَةً» نكره فى سياق الشرط فتفيد العموم،و المعنى و كل آيه يشاهدونها يقولون فيها إنها سحر بعد سحر،و فسر بعضهم المستمر بالمحكم الموثق،و بعضهم بالذاهب الزائل، و بعضهم بالمستبشع المنفور،و هى معان بعيده.

قوله تعالى: وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ متعلق التكذيب بقرينه ذيل الآيه هو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما أتى به من الآيات أى و كذبوا بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما أتى به من الآيات و الحال أن كل أمر مستقر سيستقر فى مستقره فيعلم أنه حق أو باطل و صدق أو كذب فسيعلمون أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم صادق أو كاذب،على الحق أو لا فقوله: «وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ» فى معنى قوله: وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (ص/٨٨).

قوله تعالى: وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبٰاءِ مٰا فِيهِ مُزْدَجَرٌ المزدجر مصدر ميمى و هو الاتعاظ،و قوله: «مِنَ الْأَنْبٰاءِ» بيان لما فيه مزدجر،و المراد بالأنباء أخبار الامم الدارجه الهالكه أو أخبار يوم القيامه و قد احتمل كل منهما،و الظاهر من تعقيب الآيه بأنباء يوم القيامه ثم بأنباء عده من الامم الهالكه أن المراد بالأنباء التى فيها مزدجر جميع ذلك.

قوله تعالى: حِكْمَةٌ بٰالِغَةٌ فَمٰا تُغْنِ النُّذُرُ الحكمه كلمه الحق التى ينتفع بها، و البلوغ وصول الشىء الى ما تنتهى اليه المسافه و يكنى به عن تمام الشىء و كماله فالحكمه البالغه هى الحكمه التامه الكامله التى لا نقص فيها من حيث نفسها و من حيث أثرها.

و قوله: «فَمٰا تُغْنِ النُّذُرُ» الفاء فيه فصيحه تفصح عن جمله مقدره تترتب عليها الكلام، و النذر جمع نذير بمعنى المنذر أو بمعنى الإنذار و الكل صحيح و إن كان الأول أقرب الى الفهم.

و المعنى:هذا القرآن أو الذى يدعون اليه حكمه بالغه كذبوا بها و اتبعوا أهواءهم فما تغنى المنذرون أو الإنذارات؟

قوله تعالى: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدّٰاعِ إِلىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ التولى الإعراض و الفاء فى «فَتَوَلَّ» لتفريع الأمر بالتولى على ما تقدمه من وصف حالهم أى إذا كانوا مكذبين بك متبعين أهواءهم لا يغنى فيهم النذر و لا تؤثر فيهم الزواجر فتولّ عنهم و لا تلح عليهم بالدعوه.

و قوله: يَوْمَ يَدْعُ الدّٰاعِ إِلىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ قال الراغب:الإنكار ضد العرفان يقال:

أنكرت كذا و نكرت،و أصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره،و ذلک ضرب من الجهل قال تعالى: «فَلَمّٰا رَأىٰ أَيْدِيَهُمْ لاٰ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ» .قال:و النكر الدهاء و الأمر الصعب الذى لا يعرف.انتهى.

و قد تم الكلام فى قوله: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ» ببيان حالهم تجاه الحكمه البالغه التى ألقيت اليهم و الزواجر التى ذكّروا بها على سبيل الإنذار،ثم أعاد سبحانه نبذه من تلک الزواجر التى هى أنباء من حالهم يوم القيامه و من عاقبه حال الامم المكذبين من الماضين فى لحن العتاب و التوبيخ الشديد الذى تهز قلوبهم للانتباه و تقطع منابت أعذارهم فى الإعراض.

فقوله: يَوْمَ يَدْعُ الدّٰاعِ الخ؛كلام مفصول عما قبله لذكر الزواجر التى أشير إليها سابقا فى مقام الجواب عن سؤال مقدر كأنه لما قال: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ» سئل فقيل:فإلى م يئول أمرهم؟فقيل «يَوْمَ يَدْعُ» الخ؛أى هذه حال آخرتهم و تلک عاقبه دنيا أشياعهم و أمثالهم من قوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم،و ليسوا خيرا منهم.

و على هذا فالظرف فى «يَوْمَ يَدْعُ» متعلق بما سيأتى من قوله: «يَخْرُجُونَ» و المعنى:

يخرجون من الأجداث يوم يدعو الداعى الى شىء نكر،الخ؛و إما متعلق بمحذوف،و التقدير اذكر يوم يدعو الداعى،و المحصل اذكر ذاک اليوم و حالهم فيه،و الآيه فى معنى قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السّٰاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ (الزخرف/۶۶)،و قوله: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاّٰ مِثْلَ أَيّٰامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ (يونس/۱۰۲).

و لم يسمّ سبحانه هذا الداعى من هو؟و قد نسب الدعوه فى موضع من كلامه الى نفسه فقال: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ (الإسراء/۵۲).

و إنما أورد من أنباء القيامه نبأ دعوتهم لخروج من الأجداث و الحضور لفصل القضاء و خروجهم منها خشّعا أبصارهم مهطعين الى الداعى ليحاذى به دعوتهم فى الدنيا الى الإيمان بالآيات و إعراضهم و قولهم:سحر مستمر.

و معنی الآیه:اذکر یوم یدعو الداعی الی أمر صعب علیهم و هو القضاء و الجزاء.

قوله تعالی: خُشَّعاً أَبْصٰارُهُمْ یَخْرُجُونَ مِنَ اَلْأَجْدٰاثِ کَأَنَّهُمْ جَرٰادٌ مُنْتَشِرٌ الخشع جمع خاشع و الخشوع نوع من الذله و نسب الی الأبصار لأن ظهوره فیها أتم.

و الأجداث جمع جدث و هو القبر،و الجراد حیوان معروف،و تشبیههم فی الخروج من القبور بالجراد المنتشر من حیث أن الجراد فی انتشاره یدخل البعض منه فی البعض و یختلط البعض بالبعض فی جهات مختلفه فکذلک هؤلاء فی خروجهم من القبور،قال تعالی:

یَخْرُجُونَ مِنَ اَلْأَجْدٰاثِ سِرٰاعاً کَأَنَّهُمْ إِلیٰ نُصُبٍ یُوفِضُونَ خٰاشِعَهً أَبْصٰارُهُمْ (المعارج/ ۴۴).

قوله تعالی: مُهْطِعِینَ إِلَی اَلدّٰاعِ یَقُولُ اَلْکٰافِرُونَ هٰذٰا یَوْمٌ عَسِرٌ أی حال کونهم مسرعین الی الداعی مطیعین مستجیبین دعوته یقول الکافرون:هذا یوم عسر أی صعب شدید (۱)(۲).

[سوره القمر (۵۴): الآیات ۹ الی ۴۲]

کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَکَذَّبُوا عَبْدَنٰا وَ قٰالُوا مَجْنُونٌ وَ اُزْدُجِرَ (۹) فَدَعٰا رَبَّهُ أَنِّی مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (۱۰) فَفَتَحْنٰا أَبْوٰابَ اَلسَّمٰاءِ بِمٰاءٍ مُنْهَمِرٍ (۱۱) وَ فَجَّرْنَا اَلْأَرْضَ عُیُوناً فَالْتَقَی اَلْمٰاءُ عَلیٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (۱۲) وَ حَمَلْنٰاهُ عَلیٰ ذٰاتِ أَلْوٰاحٍ وَ دُسُرٍ (۱۳) تَجْرِی بِأَعْیُنِنٰا جَزٰاءً لِمَنْ کٰانَ کُفِرَ (۱۴) وَ لَقَدْ تَرَکْنٰاهٰا آیَهً فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ (۱۵) فَکَیْفَ کٰانَ عَذٰابِی وَ نُذُرِ (۱۶) وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا اَلْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ (۱۷) کَذَّبَتْ عٰادٌ فَکَیْفَ کٰانَ عَذٰابِی وَ نُذُرِ (۱۸) إِنّٰا أَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمْ رِیحاً صَرْصَراً فِی یَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (۱۹) تَنْزِعُ اَلنّٰاسَ کَأَنَّهُمْ أَعْجٰازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (۲۰) فَکَیْفَ کٰانَ عَذٰابِی وَ نُذُرِ (۲۱) وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا اَلْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ (۲۲) کَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (۲۳) فَقٰالُوا أَ بَشَراً مِنّٰا وٰاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنّٰا إِذاً لَفِی ضَلاٰلٍ وَ سُعُرٍ (۲۴) أَ أُلْقِیَ اَلذِّکْرُ عَلَیْهِ مِنْ بَیْنِنٰا بَلْ هُوَ کَذّٰابٌ أَشِرٌ (۲۵) سَیَعْلَمُونَ غَداً مَنِ اَلْکَذّٰابُ اَلْأَشِرُ (۲۶) إِنّٰا مُرْسِلُوا اَلنّٰاقَهِ فِتْنَهً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اِصْطَبِرْ (۲۷) وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ اَلْمٰاءَ قِسْمَهٌ بَیْنَهُمْ کُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (۲۸) فَنٰادَوْا صٰاحِبَهُمْ فَتَعٰاطیٰ فَعَقَرَ (۲۹) فَکَیْفَ کٰانَ عَذٰابِی وَ نُذُرِ (۳۰) إِنّٰا أَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمْ صَیْحَهً وٰاحِدَهً فَکٰانُوا کَهَشِیمِ اَلْمُحْتَظِرِ (۳۱) وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا اَلْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ (۳۲) کَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (۳۳) إِنّٰا أَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمْ حٰاصِباً إِلاّٰ آلَ لُوطٍ نَجَّیْنٰاهُمْ بِسَحَرٍ (۳۴) نِعْمَهً مِنْ عِنْدِنٰا کَذٰلِکَ نَجْزِی مَنْ شَکَرَ (۳۵) وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنٰا فَتَمٰارَوْا بِالنُّذُرِ (۳۶) وَ لَقَدْ رٰاوَدُوهُ عَنْ ضَیْفِهِ فَطَمَسْنٰا أَعْیُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذٰابِی وَ نُذُرِ (۳۷) وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُکْرَهً عَذٰابٌ مُسْتَقِرٌّ (۳۸) فَذُوقُوا عَذٰابِی وَ نُذُرِ (۳۹) وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا اَلْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ (۴۰) وَ لَقَدْ جٰاءَ آلَ فِرْعَوْنَ اَلنُّذُرُ (۴۱) کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا کُلِّهٰا فَأَخَذْنٰاهُمْ أَخْذَ عَزِیزٍ مُقْتَدِرٍ (۴۲)

۱- ۱) .القمر ۱-۸:بحث روائی حول اقتراب القیامه و انشقاق القمر.

۲- ۲) .القمر ۱-۸:کلام فیه اجمال القول فی شق القمر.

بیان:

قوله تعالی: کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَکَذَّبُوا عَبْدَنا وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ التکذیب الأول منزل منزله اللازم أی فعلت التکذیب،و قوله: «فَکَذَّبُوا عَبْدَنا» الخ؛تفسیره کما فی قوله: وَ نادیٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ الخ؛(هود۴۵/).

و قیل:المراد بالتکذیب الأول التکذیب المطلق و هو تکذیبهم بالرسل،و بالثانی التکذیب بنوح خاصه کقوله فی سوره الشعراء: کَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِینَ (الشعراء۱۰۵/)، و المعنی:کذبت قوم نوح المرسلین فترتب علیه تکذیبهم لنوح،و هو وجه حسن.

ص :۱۳۳

و قيل:المراد بتفريع التكذيب على التكذيب الإشاره الى كونه تكذيبا إثر تكذيب بطول زمان دعوته فكلما انقرض قرن منهم مكذب جاء بعدهم قرن آخر مكذب،و هو معنى بعيد.

و مثله قول بعضهم:إن المراد بالتكذيب الأول قصده و بالثانى فعله.

و قوله: فَكَذَّبُوا عَبْدَنا فى التعبير عن نوح عليه السّلام بقوله: «عَبْدَنا» فى مثل المقام تجليل لمقامه و تعظيم لأمره و إشاره الى أن تكذيبهم له يرجع اليه تعالى لأنه عبد لا يملك شيئا و ما له فهو للّه.

و قوله: وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ المراد بالازدجار زجر الجن له إثر الجنون، و المعنى:و لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه الى الجنون فقالوا:هو مجنون و ازدجر الجن فلا يتكلم إلاّ عن زجر و ليس كلامه من الوحى السماوى فى شيء.

قوله تعالى: فَدَعا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ الانتصار الانتقام،و قوله: «أَنِّى مَغْلُوبٌ» أى بالقهر و التحكم دون الحجه،و هذا الدعاء تلخيص لتفصيل دعائه،و تفصيل دعائه مذكور فى سوره نوح و تفصيل حججه فى سوره هود و غيرها.

قوله تعالى: فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ قال فى المجمع:الهمر صب الدمع و الماء بشده،و الانهمار الانصباب،انتهى.و فتح أبواب السماء و هى الجو بماء منصب استعاره تمثيليه عن شده انصباب الماء و جريان المطر متواليا كأنه مدخر وراء باب مسدود يمنع عن انصبابه ففتح الباب فانصب أشد ما يكون.

قوله تعالى: وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ قال فى المجمع:التفجير تشقيق الأرض عن الماء،و العيون جمع عين الماء و هو ما يفور من الأرض مستديرا كاستداره عين الحيوان.انتهى.

و المعنى:جعلنا الأرض عيونا منفجره عن الماء تجرى جريانا متوافقا متتابعا.

و قوله: فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ أى فالتقى الماء ان ماء السماء و ماء

الأرض مستقرا على أمر قدره اللّه تعالى أى حسب ما قدر من غير نقيصه و لا زياده و لا عجل و لا مهل.

فالماء اسم جنس أريد به ماء السماء و ماء الأرض و لذلك لم يثنّ،و المراد بأمر قد قدر الصفه التى قدرها اللّه لهذا الطوفان.

قوله تعالى: وَ حَمَلْنٰاهُ عَلىٰ ذٰاتِ أَلْوٰاحٍ وَ دُسُرٍ المراد بذات الألواح و الدسر السفينه،و الألواح جمع لوح و هو الخشبه التى يركب بعضها على بعض فى السفينه،و الدسر جمع دسار و دسر و هو المسمار الذى تشد بها الألواح فى السفينه،و قيل فيه معان أخر لا تلائم الآيه تلك الملاءمه.

قوله تعالى: تَجْرِي بِأَعْيُنِنٰا جَزٰاءً لِمَنْ كٰانَ كُفِرَ أى تجرى السفينه على الماء المحيط بالأرض بأنواع من مراقبتنا و حفظنا و حراستنا،و قيل:المراد تجرى بأعين أوليائنا و من وكلناه بها من الملائكه.

و قوله: جَزٰاءً لِمَنْ كٰانَ كُفِرَ أى جريان السفينه كذلك و فيه نجاه من فيها من الهلاك ليكون جزاء لمن كان كفر به و هو نوح عليه السّلام كفر به و بدعوته قومه،فالآيه فى معنى قوله:

وَ نَجَّيْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ -الى أن قال- إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (الصافات/ ٨٠).

قوله تعالى: وَ لَقَدْ تَرَكْنٰاهٰا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ضمير «تَرَكْنٰاهٰا» للسفينه على ما يفيده السياق و اللام للقسم،و المعنى:أقسم لقد أبقينا تلك السفينه التى نجينا بها نوحا و الذين معه،و جعلناها آيه يعتبر بها من اعتبر فهل من متذكر يتذكر بها وحدانيته تعالى و أن دعوه أنبيائه حق،و أن أخذه أليم شديد؟و لازم هذا المعنى بقاء السفينه الى حين نزول هذه الآيات علامه دالّه على واقعه الطوفان مذكره لها،و قد قال بعضهم فى تفسير الآيه على ما

نقل:أبقى اللّه سفينه نوح على الجودى حتى أدركها أوائل هذه الامه (۱)،انتهى.و قد أوردنا فى تفسير سوره هود فى آخر الأبحاث حول قصه نوح خبر أنهم عثروا فى بعض قلل جبل آراراط و هو الجودى قطعات أخشاب من سفينه متلاشيه وقعت هناك،فراجع.

و قيل:ضمير «تَرَكْنٰاهٰا» لما مر من القصه بما أنها فعله.

قوله تعالى: فَكَيْفَ كٰانَ عَذٰابِي وَ نُذُرِ النذر جمع نذير بمعنى الإنذار،و قيل:

مصدر بمعنى الإنذار.و الظاهر أن «كٰانَ» ناقصه و اسمها «عَذٰابِي» و خبرها «فَكَيْفَ» ،و يمكن أن تكون تامه فاعلها قوله: «عَذٰابِي» و قوله: «فَكَيْفَ» حالا منه.

و كيف كان فالاستفهام للتهويل يسجل به شده العذاب و صدق الإنذار.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ التيسير التسهيل و تيسير القرآن للذكر هو إلقاؤه على نحو يسهل فهم مقاصده للعامى و الخاصى و الافهام البسيطه و المتعمقه كل على مقدار فهمه.

و يمكن أن يراد به تنزيل حقائقه العاليه و مقاصده المرتفعه عن أفق الأفهام العاديه الى مرحله التكليم العربى تناله عامه الأفهام كما يستفاد من قوله تعالى: إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (الزخرف۴/).

و المراد بالذكر ذكره تعالى بأسمائه أو صفاته أو أفعاله،قال فى المفردات:الذكر تاره يقال و يراد به هيئه للنفس بها يمكن للانسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفه و هو كالحفظ إلاّ أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه،و الذكر يقال اعتبارا باستحضاره و تاره يقال لحضور الشيء القلب أو القول،و لذلك قيل:الذكر ذكران:ذكر بالقلب و ذكر باللسان و كل واحد منهما ضربان:ذكر عن نسيان و ذكر لا عن نسيان بل عن إدامه الحفظ،و كل قول يقال له ذكر.

۱- ۱) .رواه فى الدر المنثور عن عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتاده.

انتهی.

و معنی الآیه:و أقسم لقد سهّلنا القرآن لأن یتذکر به،فیذکر اللّه تعالی و شئونه،فهل من متذکر یتذکر به فیؤمن باللّه و یدین بما یدعو الیه من الدین الحق؟

فالآیه دعوه عامه الی التذکر بالقرآن بعد تسجیل صدق الإنذار و شده العذاب الذی أنذر به.

قوله تعالی: کَذَّبَتْ عٰادٌ فَکَیْفَ کٰانَ عَذٰابِی وَ نُذُرِ شروع فی قصه اخری من القصص التی فیها الازدجار و لم یعطف علی ما قبلها-و مثلها القصص الآتیه-لأن کل واحده من هذه القصص مستقله کافیه فی الزجر و الردع و العظه لو اتعظوا بها.

و قوله: فَکَیْفَ کٰانَ عَذٰابِی وَ نُذُرِ مسوق لتوجیه قلوب السامعین الی ما یلقی الیهم من کیفیه العذاب الهائل بقوله: «إِنّٰا أَرْسَلْنٰا» الخ؛و لیس مسوقا للتهویل و تسجیل شده العذاب و صدق الإنذار کسابقه و إلاّ لتکرر قوله بعد: «فَکَیْفَ کٰانَ» الخ؛کذا قیل و هو وجه حسن.

قوله تعالی: إِنّٰا أَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمْ رِیحاً صَرْصَراً فِی یَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ بیان لما استفهم عنه فی قوله: «فَکَیْفَ کٰانَ عَذٰابِی وَ نُذُرِ» و الصرصر-علی ما فی المجمع-الریح الشدیده الهبوب،و النحس بالفتح فالسکون مصدر کالنحوسه بمعنی الشؤم،و «مُسْتَمِرٍّ» صفه لنحس،و معنی إرسال الریح فی یوم نحس مستمر إرسالها فی یوم متلبس بالنحوسه و الشأمه بالنسبه الیهم المستمره علیهم لا یرجی فیه خیر لهم و لا نجاه.

و المراد بالیوم قطعه من الزمان لا الیوم الذی یساوی سبع الاسبوع لقوله تعالی فی موضع آخر من کلامه: فَأَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمْ رِیحاً صَرْصَراً فِی أَیّٰامٍ نَحِسٰاتٍ (حم السجده/۱۶)،و فی موضع آخر: سَخَّرَهٰا عَلَیْهِمْ سَبْعَ لَیٰالٍ وَ ثَمٰانِیَهَ أَیّٰامٍ حُسُوماً (الحاقه/۷).

و فسّر بعضهم النحس بالبرد.

قوله تعالى: تَنْزِعُ اَلنّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجٰازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فاعل «تَنْزِعُ» ضمير راجع الى الريح أى تنزع الريح الناس من الأرض،و أعجاز النخل أسافله،و المنقعر المقلوع من أصله،و المعنى ظاهر،و فى الآيه إشعار ببسطه القوم أجساما.

قوله تعالى: «فَكَيْفَ كٰانَ عَذٰابِي -الى قوله- مُدَّكِرٍ» تقدم تفسير الآيتين (۱).

قوله تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ النذر إما مصدر كما قيل و المعنى:كذبت ثمود بإنذار نبيهم صالح عليه السّلام،و إما جمع نذير بمعنى المنذر،و المعنى:كذبت ثمود بالأنبياء لأن تكذيبهم بالواحد منهم تكذيب منهم بالجميع لأن رسالتهم واحده لا اختلاف فيها فيكون فى معنى قوله: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (الشعراء/۱۴۱)،و إما جمع نذير بمعنى الإنذار و مرجعه الى أحد المعنيين السابقين.

قوله تعالى: فَقٰالُوا أَ بَشَراً مِنّٰا وٰاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنّٰا إِذاً لَفِي ضَلاٰلٍ وَ سُعُرٍ تفريع على التكذيب و السعر جمع سعير بمعنى النار المشتعله،و احتمل أن يكون بمعنى الجنون و هو أنسب للسياق،و الظاهر أن المراد بالواحد الواحد العددى،و المعنى:كذبوا به فقالوا:أبشرا من نوعنا و هو شخص واحد لا عده له و لا جموع معه نتبعه إنا إذا مستقرون فى ضلال عجيب و جنون.

فيكون هذا القول توجيها منهم لعدم اتباعهم لصالح لفقده العده و القوه و هم قد اعتادوا على اتباع من عنده ذلك كالملوك و العظماء و قد كان لصالح عليه السّلام يدعوهم الى طاعه نفسه و رفض طاعه عظمائهم كما يحكيه اللّه سبحانه عنه بقوله: فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ وَ لاٰ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (الشعراء/۱۵۱).

ص:۱۳۸

۱- ۱) .القمر ۹-۴۲:كلام فى سعاده الايام و نحوستها و الطيره و الفأل فى فصول(فى سعاده الايام و نحوستها،فى سعاده الكواكب و نحوستها،فى التفاؤل و التطير).

و لو أخذ الواحد واحدا نوعيا كان المعنى:أبشرا هو واحد منا أى هو مثلنا و من نوعنا نتبعه؟و كانت الآيه التاليه مفسره لها.

قوله تعالى: أَ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذّابٌ أَشِرٌ الاستفهام كسابقه للإنكار و المعنى:أ أنزل الوحى عليه و اختص به من بيننا و لا فضل له علينا؟لا يكون ذلک أبدا،و التعبير بالإلقاء دون الإنزال و نحوه للإشعار بالعجله كما قيل.

و من المحتمل أن يكون المراد نفى أن يختص بإلقاء الذكر من بينهم و هو بشر مثلهم فلو كان الوحى حقا و جاز أن ينزل على البشر لنزل على البشر كلهم فما باله اختص بما من شأنه أن يرزقه الجميع؟فتكون الآيه فى معنى قولهم له كما فى سوره الشعراء: ما أَنْتَ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا (الشعراء۱۵۴/).

و قوله: بَلْ هُوَ كَذّابٌ أَشِرٌ أى شديد البطر متكبر يريد أن يتعظّم علينا بهذا الطريق.

قوله تعالى: سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذّابُ الْأَشِرُ حكايه قوله سبحانه لصالح عليه السّلام كالآيتين بعدها.

و المراد بالغد العاقبه من قولهم:إن مع اليوم غدا،يشير سبحانه به الى ما سينزل عليهم من العذاب فيعلمون عند ذلک علم عيان من هو الكذاب الأشر صالح أو هم؟

قوله تعالى: إِنّا مُرْسِلُوا النّاقَهِ فِتْنَهً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ فى مقام التعليل لما أخبر من أنهم سينزل عليهم العذاب و المفاد أنهم سينزل عليهم العذاب لأنا فاعلون كذا و كذا،و الفتنه الامتحان و الابتلاء،و المعنى:إنا مرسلون-على طريق الإعجاز-الناقه التى يسألونها امتحانا لهم فانتظرهم و اصبر على أذاهم.

قوله تعالى: وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَهٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ضمير الجمع الأول للقوم و الثانى للقوم و الناقه على سبيل التغليب،و القسمه بمعنى المقسوم،و الشرب

النصیب من شرب الماء،و المعنی:و خبرهم بعد إرسال الناقه أن الماء مقسوم بین القوم و بین الناقه کل نصیب من الشرب یحضر عنده صاحبه فیحضر القوم عند شربهم و الناقه عند شربها قال تعالی: قٰالَ هٰذِهِ نٰاقَةٌ لَهٰا شِرْبٌ وَ لَکُمْ شِرْبُ یَوْمٍ مَعْلُومٍ (الشعراء/۱۵۵).

قوله تعالی: فَنٰادَوْا صٰاحِبَهُمْ فَتَعٰاطیٰ فَعَقَرَ المراد بصاحبهم عاقر الناقه، و التعاطی التناول و المعنی:فنادی القوم عاقر الناقه لعقرها فتناول عقرها فعقرها و قتلها.

قوله تعالی: فَکَیْفَ کٰانَ عَذٰابِی وَ نُذُرِ إِنّٰا أَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمْ صَیْحَةً وٰاحِدَةً فَکٰانُوا کَهَشِیمِ الْمُحْتَظِرِ المحتظر صاحب الحظیره و هی کالحائط یعمل لیجعل فیه الماشیه،و هشیم المحتظر الشجر الیابس و نحوه یجمعه صاحب الحظیره لماشیته،و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا الخ؛تقدم تفسیره.

قوله تعالی: کَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ تقدم تفسیره فی نظیره.

قوله تعالی: إِنّٰا أَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمْ حٰاصِباً إِلاّٰ آلَ لُوطٍ نَجَّیْنٰاهُمْ بِسَحَرٍ الحاصب الریح التی تأتی بالحجاره و الحصباء،و المراد بها الریح التی أرسلت فرمتهم بسجیل منضود.

و قال فی مجمع البیان:سحر إذا کان نکره یراد به سحر من الأسحار یقال:رأیت زیدا سحرا من الأسحار فإذا أردت سحر یومک قلت:أتیته بسحر-بالفتح-و أتیته سحر-من غیر تنوین-انتهی،و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنٰا کَذٰلِکَ نَجْزِی مَنْ شَکَرَ «نِعْمَةً» مفعول له من «نَجَّیْنٰاهُمْ» أی نجیناهم لیکون نعمه من عندنا نخصهم بها لأنهم کانوا شاکرین لنا و جزاء الشکر لنا النجاه.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنٰا فَتَمٰارَوْا بِالنُّذُرِ ضمیر الفاعل فی

«أَنْذَرَهُمْ» للوط عليه السّلام،و البطشه الأخذه الشديده بالعذاب،و التمارى الإصرار على الجدال و إلقاء الشك،و النذر الإنذار،و المعنى:أقسم لقد خوفهم لوط أخذنا الشديد فجادلوا فى إنذاره و تخويفه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ رٰاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنٰا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذٰابِي وَ نُذُرِ مراودته عن ضيفه طلبهم منه أن يسلم اليهم أضيافه و لهم الملائكه،و طمس أعينهم محوها،و قوله: «فَذُوقُوا عَذٰابِي وَ نُذُرِ» التفات الى خطابهم تشديدا و تقريعا،و النذر مصدر أريد به ما يتعلق به الإنذار و هو العذاب،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذٰابٌ مُسْتَقِرٌّ قال فى مجمع البيان:و قوله:

«بُكْرَةً» ظرف زمان فإذا كان معرفه بأن تريد بكره يومك تقول:أتيته بكره و غدوه لم تصرفهما فبكره هنا-و قد نوّن-نكره،و المراد باستقرار العذاب حلوله بهم و عدم تخلفه عنهم.

قوله تعالى: فَذُوقُوا عَذٰابِي -الى قوله- مِنْ مُدَّكِرٍ تقدم تفسيره.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ جٰاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا كُلِّهٰا فَأَخَذْنٰاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ المراد بالنذر الإنذار،و قوله: «كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا» مفصول من غير عطف لكونه جوابا لسؤال مقدر كأنه لما قيل: «وَ لَقَدْ جٰاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ» قيل:فما فعلوا؟فاجيب بقوله: «كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا» ،و فرّع عليه قوله: «فَأَخَذْنٰاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ» .

[سوره القمر (۵۴): الآيات ۴۳ الى ۵۵]

أَ كُفّٰارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرٰاءَةٌ فِي اَلزُّبُرِ (۴۳) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (۴۴) سَيُهْزَمُ اَلْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ اَلدُّبُرَ (۴۵) بَلِ اَلسّٰاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ اَلسّٰاعَةُ أَدْهىٰ وَ أَمَرُّ (۴۶) إِنَّ اَلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاٰلٍ وَ سُعُرٍ (۴۷) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي اَلنّٰارِ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (۴۸) إِنّٰا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنٰاهُ بِقَدَرٍ (۴۹) وَ مٰا أَمْرُنٰا إِلاّٰ وٰاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (۵۰) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنٰا أَشْيٰاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۵۱) وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي اَلزُّبُرِ (۵۲) وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (۵۳) إِنَّ اَلْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَ نَهَرٍ (۵۴) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (۵۵)

بیان:

قوله تعالی: أَ کُفّٰارُکُمْ خَیْرٌ مِنْ أُولٰئِکُمْ أَمْ لَکُمْ بَرٰاءَهٌ فِی الزُّبُرِ الظاهر أنه خطاب لقوم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من مسلم و کافر علی ما تشعر به الإضافه فی «کُفّٰارُکُمْ» و الخیریه هی الخیریه فی زینه الدنیا و زخارف حیاتها کالمال و البنین أو من جهه الأخلاق العامه فی مجتمعهم کالسخاء و الشجاعه و الشفقه علی الضعفاء،و الإشاره باولئکم الی الأقوام المذکوره أنباؤهم:قوم نوح و عاد و ثمود و قوم لوط و آل فرعون،و الاستفهام للإنکار.

و المعنی:لیس الذین کفروا منکم خیرا من اولئکم الامم المهلکین المعذبین حتی یشملهم العذاب دونکم.

و یمکن أن یکون خطاب «أَ کُفّٰارُکُمْ» لخصوص الکفار بعنایه أنهم قوم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فیهم

ص :۱۴۲

كفار و هم هم.

و قوله: أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ ظاهره أيضا عموم الخطاب،و الزبر جمع زبور و هو الكتاب،و قد ذكروا أن المراد بالزبر الكتب السماويه المنزله على الأنبياء،و المعنى:بل أ لكم براءه فى الكتب السماويه التى نزلت من عند اللّه أنكم فى أمن من العذاب و المؤاخذه و إن كفرتم و أجرمتم و اقترفتم ما شئتم من الذنوب.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ الجميع المجموع و المراد به وحده مجتمعهم من حيث الإراده و العمل،و الانتصار الانتقام أو التناصر كما فى خطابات يوم القيامه مٰا لَكُمْ لاٰ تَنٰاصَرُونَ (الصافات/۲۵)،و المعنى:بل أ يقولون أى الكفار نحن قوم مجتمعون متحدون ننتقم ممن أرادنا بسوء أو ينصر بعضنا بعضا فلا ننهزم.

قوله تعالى: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ اللام فى «الْجَمْعُ» للعهد الذكرى و فى «الدُّبُرَ» للجنس،و تولى الدبر الإدبار،و المعنى:سيهزم الجمع الذى يتبجّحون به و يولون الأدبار و يفرّون.

و فى الآيه إخبار عن مغلوبيه و انهزام لجمعهم،و دلاله على أن هذه المغلوبيه انهزام منهم فى حرب سيقدمون عليها،و قد وقع ذلك فى غزاه بدر،و هذا من ملاحم القرآن الكريم.

قوله تعالى: بَلِ السّٰاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السّٰاعَةُ أَدْهىٰ وَ أَمَرُّ «أَدْهىٰ» اسم تفضيل من الدهاء و هو عظم البليّه المنكره التى ليس الى التخلص منها سبيل،و «أَمَرُّ» اسم تفضيل من المراره ضد الحلاوه،و فى الآيه إضراب عن إيعادهم بالانهزام و العذاب الدنيوى الى إبعادهم بما سيجرى عليهم فى الساعه و قد أشير الى نبئها فى أول الأنباء الزاجره،و الكلام يفيد الترقّى.

و المعنى:و ليس الانهزام و العذاب الدنيوى تمام عقوبتهم بل الساعه التى أشرنا الى نبئها هى موعدهم و الساعه أدهى من كل داهيه و أمرّ من كل مرّ.

قوله تعالی: إِنَّ الْمُجْرِمِینَ فِی ضَلاٰلٍ وَ سُعُرٍ جمع سعیر و هی النار المسعّره و فی الآیه تعلیل لما قبلها من قوله: وَ السّٰاعَهُ أَدْهیٰ وَ أَمَرُّ ،و المعنی:إنما کانت الساعه أدهی و أمر لهم لأنهم مجرمون و المجرمون فی ضلال عن موطن السعاده و هو الجنه و نیران مسعره.

قوله تعالی: یَوْمَ یُسْحَبُونَ فِی النّٰارِ عَلیٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ السحب جر الإنسان علی وجهه،و «یَوْمَ» ظرف لقوله: «فِی ضَلاٰلٍ وَ سُعُرٍ» ،و «سَقَرَ» من أسماء جهنم و مسّها هو إصابتها لهم بحرّها و عذابها.

و المعنی:کونهم فی ضلال و سعر فی یوم یجرّون فی النار علی وجوههم یقال لهم:ذوقوا ما تصیبکم جهنم بحرّها و عذابها.

قوله تعالی: إِنّٰا کُلَّ شَیْءٍ خَلَقْنٰاهُ بِقَدَرٍ «کُلَّ شَیْءٍ» منصوب بفعل مقدر یدل علیه «خَلَقْنٰاهُ» و التقدیر خلقنا کل شیء خلقناه،و «بِقَدَرٍ» متعلق بقوله: «خَلَقْنٰاهُ» و الباء للمصاحبه،و المعنی:إنا خلقنا کل شیء مصاحبا لقدر.

و قدر الشیء هو المقدار الذی لا یتعداه و الحد و الهندسه التی لا یتجاوزه فی شیء من جانبی الزیاده و النقیصه،قال تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/۲۱)،فلکل شیء حد محدود فی خلقه لا یتعداه و صراط ممدود فی وجوده یسلکه و لا یتخطاه.

و الآیه فی مقام التعلیل لما فی الآیتین السابقتین من عذاب المجرمین یوم القیامه کأنه قیل:

لما ذا جوزی المجرمون بالضلال و السعر یوم القیامه و أذیقوا مس سقر؟فاجیب بقوله: «إِنّٰا کُلَّ شَیْءٍ خَلَقْنٰاهُ بِقَدَرٍ» و محصله أن لکل شیء قدرا و من القدر فی الإنسان أن اللّه سبحانه خلقه نوعا متکاثر الأفراد بالتناسل اجتماعیا فی حیاته الدنیا یتزود من حیاته الدنیا الدائره لحیاته الآخره الباقیه،و قد أن یرسل الیهم رسولا یدعوهم الی سعاده الدنیا و الآخره فمن استجاب

الدعوه فاز بالسعاده و دخل الجنه و جاور ربه،و من ردّها و أجرم فهو فی ضلال و سعر.

قوله تعالی: وَ مٰا أَمْرُنٰا إِلاّٰ وٰاحِدَهٌ کَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ قال فی المجمع:اللمح النظر بالعجله و هو خطف البصر.انتهی.

و المراد بالأمر ما یقابل النهی لکنه الأمر التکوینی بإراده وجود الشیء،قال تعالی: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (یس۸۲/)فهو کلمه کن و لعله لکونه کلمه اعتبر الخبر مؤنثا فقیل «إِلاّٰ وٰاحِدَهٌ» .

و الذی یفید السیاق أن المراد بکون الأمر واحده أنه لا یحتاج فی مضیّه و تحقق متعلقه الی تعدد و تکرار بل أمر واحد بإلقاء کلمه کن یتحقق به المتعلق المراد کلمح بالبصر من غیر تأنّ و مهل حتی یحتاج الی الأمر ثانیا و ثالثا.

و تشبیه الأمر من حیث تحقق متعلقه بلمح بالبصر لا لإفاده أن زمان تأثیره قصیر کزمان تحقق اللمح بالبصر بل لإفاده أنه لا یحتاج فی تأثیره الی مضیّ زمان و لو کان قصیرا فإن التشبیه باللمح بالبصر فی الکلام یکنی به عن ذلک،فأمره تعالی و هو إیجاده و إراده وجوده لا یحتاج فی تحقق الی زمان و لا مکان و لا حرکه کیف لا؟و نفس الزمان و المکان و الحرکه إنما تحققت بأمره تعالی.

و الآیه و إن کانت بحسب مؤدّاها فی نفسها تعطی حقیقه عامه فی خلق الأشیاء و أن وجودها من حیث إنه فعل اللّه سبحانه کلمح بالبصر و إن کان من حیث إنه وجود لشیء کذا تدریجیا حاصلا شیئا فشیئا.

إلاّ أنها بحسب وقوعها فی سیاق إیعاد الکفار بعذاب یوم القیامه ناظره الی إتیان الساعه و أن أمرا واحدا منه تعالی یکفی فی قیام الساعه و تجدید الخلق بالبعث و النشور فتکون متممه لما أقیم من الحجه بقوله: «إِنّٰا کُلَّ شَیْءٍ خَلَقْنٰاهُ بِقَدَرٍ» .

فیکون مفاد الآیه الاولی أن عذابهم بالنار علی وفق الحکمه و لا محیص عنه بحسب الإراده

الإلهیه لأنه من القدر،و مفاد هذه الآیه أن تحقق الساعه التی یعذبون فیها بمضی هذه الإراده و تحقق متعلقها لا مئونه فیه علیه سبحانه لأنه یکفی فیه أمر واحد منه تعالی کلمح بالبصر.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَهْلَکْنٰا أَشْیٰاعَکُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ الأشیاع جمع شیعه و المراد -کما قیل-الأشباه و الأمثال فی الکفر و تکذیب الأنبیاء من الامم الماضیه.

و المراد بالآیه و الآیتین بعدها تأکید الحجه السابقه التی أقیمت علی شمول العذاب لهم لا محاله.

و محصل المعنی:أن لیس ما أنذرناکم به من عذاب الدنیا و عذاب الساعه مجرد خبر أخبرناکم به و لا قول ألقیناه الیکم فهذه أشیاعکم من الامم الماضیه شرع فیهم بذلک فقد أهلکناهم و هو عذابهم فی الدنیا و سیلقون عذاب الآخره فإن أعمالهم مکتوبه مضبوطه فی کتب محفوظه عندنا سنحاسبهم بها و نجازیهم بما عملوا.

قوله تعالی: وَ کُلُّ شَیْءٍ فَعَلُوهُ فِی الزُّبُرِ وَ کُلُّ صَغِیرٍ وَ کَبِیرٍ مُسْتَطَرٌ الزبر کتب الأعمال و تفسیره باللوح المحفوظ سخیف،و المراد بالصغیر و الکبیر صغیر الأعمال و کبیرها علی ما یفیده السیاق.

قوله تعالی: إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی جَنّٰاتٍ وَ نَهَرٍ أی فی جنات عظیمه الشأن بالغه الوصف و نهر کذلک،قیل:المراد بالنهر الجنس،و قیل:النهر بمعنی السعه.

قوله تعالی: فِی مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِیکٍ مُقْتَدِرٍ المقعد المجلس،و الملیک صیغه مبالغه للملک علی ما قیل،و لیس من إشباع کسر لام الملک،و المقتدر القادر العظیم القدره و هو اللّه سبحانه.

و المراد بالصدق صدق المتقین فی إیمانهم و عملهم أضیف الیه المقعد لملابسه ما و یمکن أن یراد به کون مقامهم و ما لهم فیه صدقا لا یشوبه کذب فلهم حضور لا غیبه معه،و قرب لا بعد

معه،و نعمه لا نقمه معها،و سرور لا غمّ معه،و بقاء لا فناء معه.

و يمكن أن يراد به صـدق هـذا الخبر من حيث إنه تبشير و وعـد جميـل للمتقين،و على هـذا ففيه نوع مقـابله بين وصف عـاقبه المتقين و المجرمين حيث أوعد المجرمون بالعذاب و الضـلال و قرر ذلک بأنه من القدر و لن يتخلف،و وعد المتقون بالثواب و الحضور عند ربهم المليک المقتدر و قرر ذلک بأنه صدق لا كذب فيه (۱)(۲).

ص: ۱۴۷

۱- ۱) .القمر ۴۳-۵۵:بحث روائی حول القدر؛القدریه؛الذین أحبّوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

۲- ۲) .القمر ۴۳-۵۵:کلام فی القدر.

سوره الرحمن مكيه أو مدنيه و هى ثمان و سبعون آيه

اشاره

[سوره الرحمن (۵۵): الآيات ۱ الى ۳۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ
اَلرَّحْمٰنُ (۱) عَلَّمَ اَلْقُرْآنَ (۲) خَلَقَ اَلْإِنْسٰانَ (۳) عَلَّمَهُ اَلْبَيٰانَ (۴) اَلشَّمْسُ وَ اَلْقَمَرُ بِحُسْبٰانٍ (۵) وَ اَلنَّجْمُ وَ اَلشَّجَرُ يَسْجُدٰانِ (۶) وَ اَلسَّمٰاءَ رَفَعَهٰا وَ وَضَعَ اَلْمِيزٰانَ (۷) أَلاّٰ تَطْغَوْا فِي اَلْمِيزٰانِ (۸) وَ أَقِيمُوا اَلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لاٰ تُخْسِرُوا اَلْمِيزٰانَ (۹) وَ اَلْأَرْضَ وَضَعَهٰا لِلْأَنٰامِ (۱۰) فِيهٰا فٰاكِهَةٌ وَ اَلنَّخْلُ ذٰاتُ اَلْأَكْمٰامِ (۱۱) وَ اَلْحَبُّ ذُو اَلْعَصْفِ وَ اَلرَّيْحٰانُ (۱۲) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۱۳) خَلَقَ اَلْإِنْسٰانَ مِنْ صَلْصٰالٍ كَالْفَخّٰارِ (۱۴) وَ خَلَقَ اَلْجَانَّ مِنْ مٰارِجٍ مِنْ نٰارٍ (۱۵) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۱۶) رَبُّ اَلْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ اَلْمَغْرِبَيْنِ (۱۷) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۱۸) مَرَجَ اَلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيٰانِ (۱۹) بَيْنَهُمٰا بَرْزَخٌ لاٰ يَبْغِيٰانِ (۲۰) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۲۱) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اَللُّؤْلُؤُ وَ اَلْمَرْجٰانُ (۲۲) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۲۳) وَ لَهُ اَلْجَوٰارِ اَلْمُنْشَآتُ فِي اَلْبَحْرِ كَالْأَعْلاٰمِ (۲۴) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۲۵) كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ (۲۶) وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو اَلْجَلاٰلِ وَ اَلْإِكْرٰامِ (۲۷) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۲۸) يَسْئَلُهُ مَنْ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (۲۹) فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ (۳۰)

بیان:

تتضمن السوره الإشاره الی خلقه تعالی العالم بأجزائه من سماء و أرض و برّ و بحر و إنس و جن و نظم أجزائه نظما ينتفع به الثقلان الإنس و الجن فی حياتهما و ينقسم بذلک العالم الی نشأتين:نشأه دنيا ستفنی بفناء أهلها،و نشأه أخری باقيه تتميز فيها السعاده من الشقاء و النعمه من النقمه.

و بذلک يظهر أن دار الوجود من دنياها و آخرتها ذات نظام واحد مؤتلف الأجزاء مرتبط الأبعاض قويم الأركان يصلح بعضه ببعض و يتم شطر منه بشطر.

فما فيه من عين و أثر،من نعمه تعالی و آلائه،و لذا يستفهمهم مره بعد مره استفهاما مشوبا بعتاب بقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ» فقد كررت الآيه فی السوره إحدی و ثلاثين مره.

و لذلک افتتحت السوره بذكره تعالی بصفه رحمته العامه الشامله للمؤمن و الكافر و الدنيا و الآخره و اختتمت بالثناء عليه بقوله: «تَبٰارَکَ اسْمُ رَبِّکَ ذِی الْجَلاٰلِ وَ الْإِكْرٰامِ» .

و السوره يحتمل كونها مكيه أو مدنيه و إن كان سياقها بالسياق المكی أشبه و هی السوره الوحيده فی القرآن التحت بعد البسمله باسم من أسماء اللّه عز اسمه،و فی المجمع عن موسی بن جعفر عن آبائه عليهم السّلام عن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم قال:لكل شیء عروس و عروس القرآن سوره الرحمن جلّ ذكره،و رواه فی الدر المنثور عن البيهقی عن علی عليه السّلام عن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم.

قوله تعالی: اَلرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ الرحمن كما تقدم فی تفسير سوره الفاتحه صيغه مبالغه تدل علی كثره الرحمه ببذل النعم و لذلک ناسب أن يعم ما يناله المؤمن و الكافر من نعم الدنيا و ما يناله المؤمن من نعم الآخره،و لعمومه ناسب أن يصدّر به الكلام لاشتمال الكلام فی السوره علی أنواع النعم الدنيويه و الاخرويه التی ينتظم بها عالم الثقلين الإنس و الجن.

ذكروا أن الرحمن من الأسماء الخاصه به تعالى لا يسمى به غيره بخلاف مثل الرحيم و الراحم.

و قوله: «عَلَّمَ الْقُرْآنَ» شروع فى عد النعم الإلهيه،و لما كان القرآن أعظم النعم قدرا و شأنا و أرفعها مكانا-لأنه كلام اللّه الذى يخط صراطه المستقيم و يتضمن بيان نهج السعاده التى هى غايه ما يأمله آمل و نهايه ما يسأله سائل-قدم ذكر تعليمه على سائر النعم حتى على خلق الإنس و الجن اللذين نزل القرآن لأجل تعليمهما.

و حذف مفعول «عَلَّمَ» الأول و هو الإنسان أو الإنس و الجن و التقدير علم الإنسان القرآن أو علم الإنس و الجن القرآن،و هذا الاحتمال الثانى إن لم يتعرضوا له لكنه أقرب الاحتمالين لأن السوره تخاطب فى تضاعيف آياتها الجن كالإنس و لو لا شمول التعليم فى قوله:

«عَلَّمَ الْقُرْآنَ» لهم لم يتم ذلك.

قوله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ ذكر خلق الإنسان و سيذكر خصوصيه خلقه بقوله: «خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخّارِ» ،و الإنسان من أعجب مخلوقات اللّه تعالى أو هو أعجبها يظهر ذلك بقياس وجوده الى وجود غيره من المخلوقات و التأمل فيما خط له من طريق الكمال فى ظاهره و باطنه و دنياه و آخرته،قال تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ (التين6/).

و قوله: عَلَّمَهُ الْبَيانَ البيان الكشف عن الشيء و المراد به الكلام الكاشف عما فى الضمير،و هو من أعجب النعم و تعليمه للإنسان من عظيم العنايه الإلهيه المتعلقه به فليس الكلام مجرد إيجاد صوت ما باستخدام الرئه و قصبتها و الحلقوم و لا ما يحصل من التنوع فى الصوت الخارج من الحلقوم باعتماده على مخارج الحروف المختلفه فى الفم.

بل يجعل الإنسان بإلهام باطنى من اللّه سبحانه الواحد من هذه الأصوات المعتمده على

مخرج من مخارج الفم المسمى حرفا أو المركب من عده من الحروف علامه مشيره الى مفهوم من المفاهيم يمثل به ما يغيب عن حس السامع و إدراكه فيقدر به على إحضار أى وضع من أوضاع العالم المشهود و إن جل ما جل أو دق ما دق من موجود أو معدوم ماض أو مستقبل، ثم على إحضار أى وضع من أوضاع المعانى غير المحسوسه التى ينالها الإنسان بفكره و لا سبيل للحس إليها يحضرها جميعا لسامعه و يمثلها لحسّه كأنه يشخصها له بأعيانها.

و لا يتم للانسان اجتماعه المدنى و لا تقدم فى حياته هذا التقدم الباهر إلّا بتنبهه لوضع الكلام و فتحه بذلك باب التفهيم و التفهم،و لو لا ذلك لكان هو و الحيوان العجم سواء فى جمود الحياه و ركودها.

و من أقوى الدليل على أن اهتداء الإنسان الى البيان بإلهام إلهى له أصل فى التكوين اختلاف اللغات باختلاف الامم و الطوائف فى الخصائص الروحيه و الأخلاق النفسانيه و بحسب اختلاف المناطق الطبيعيه التى يعيشون فيها،قال تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ (الروم۲۲/).

و ليس المراد بقوله: «عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» أن اللّه سبحانه وضع اللغات ثم علمها الإنسان بالوحى الى نبى من الأنبياء أو بالإلهام فإن الإنسان بوقوعه فى ظرف الاجتماع مندفع بالطبع الى اعتبار التفهيم و التفهم بالإشارات و الأصوات و هو التكلم و النطق لا يتم له الاجتماع المدنى دون ذلك.

على أن فعله تعالى هو التكوين و الإيجاد و الرابطه بين اللفظ و معناه اللغوى وضعيه اعتباريه لا حقيقيه خارجيه بل اللّه سبحانه خلق الإنسان و فطره فطره تؤديه الى الاجتماع المدنى ثم الى وضع اللغه بجعل اللفظ علامه للمعنى بحيث إذا ألقى اللفظ الى سامعه فكأنما يلقى اليه المعنى ثم الى وضع الخط بجعل الأشكال المخصوصه علائم للألفاظ فالخط مكمل لغرض الكلام،و هو يمثل الكلام كما أن الكلام يمثل المعنى.

ص :۱۵۲

و بالجمله البيان من أعظم النعم و الآلاء الربانيه التى تحفظ لنوع الإنسان موقفه الإنسانى و تهديه الى كل خير.

هـذا مـا هو الظـاهر المتبادر من الآيتين،و لهم فى معناهما أقوال:فقيل:الإنسان هو آدم عليه السّـلام و البيان الأسـماء التى علمه اللّه إياها.

قوله تعالى: اَلشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبٰانٍ الحسـبان مصـدر بمعنى الحساب، و الشـمس مبتدأ و القمر معطوف عليه،و بحسـبان خبره،و الجمله خبر بعد خبر لقوله:

«الرَّحْمٰنُ» و التقدير الشمس و القمر يجريان بحساب منه على ما قدر لهما من نوع الجرى.

قوله تعالى: وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدٰانِ قالوا:المراد بالنجم ما ينجم من النبات و يطلع من الأرض و لا ساق له،و الشـجر ما له ساق من النبات،و هو معنى حسن يؤيده الجمع و القرن بين النجم و الشجر و إن كان ربما أوهم سبق ذكر الشمس و القمر كون المراد بالنجم هو الكواكب.

و سـجود النجم و الشـجر انقيادهمـا للأمر الإلـهى بالنشوء و النمو على حسب ما قـدر لهما كما قيل،و أدق منه أنهما يضـربان فى التراب باصولهمـا و أعراقهمـا لجـذب ما يحتاجان اليه من المواد العنصـريه التى يغتـذيان بها و هـذا السـقوط على الأرض إظهارا للحاجه الى المبدأ الذى يقضى حاجتهما-و هو فى الحقيقه اللّه الذى يربيهما كذلك-سجود منهما له تعالى.

قوله تعالى: وَ السَّمٰاءَ رَفَعَهٰا وَ وَضَعَ الْمِيزٰانَ المراد بالسـماء إن كان جهه العلو فرفعها خلقها مرفوعه لا رفعها بعـد خلقها و إن كان ما فى جهه العلو من الأجرام فرفعها تقدير محالها بحيث تكون مرفوعه بالنسبه الى الأرض بالفتق بعد الرتق كما قال تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ كٰانَتٰا رَتْقاً فَفَتَقْنٰاهُمٰا (الأنبياء/٣٠)،و الرفع على أى حال رفع حسّى.

و إن كان المراد ما يشمل منازل الملائكه الكرام و مصادر الأمر الإلهى و الوحى فالرفع

معنوی أو ما یشمل الحسی و المعنوی.

و قوله: «وَ وَضَعَ الْمِيزانَ» المراد بالمیزان کل ما یوزن أی یقدر به الشیء أعم من أن یکون عقیده أو قولا أو فعلا و من مصادیقه المیزان الذی یوزن به الأثقال،قال تعالی: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ (الحدید/ ۲۵).

فظاهره مطلق ما یمیز به الحق من الباطل و الصدق من الکذب و العدل من الظلم و الفضیله من الرذیله علی ما هو شأن الرسول أن یأتی به من عند ربه.

و قیل:المراد بالمیزان العدل أی وضع اللّه العدل بینکم لتسوّوا به بین الأشیاء بإعطاء کل ذی حق حقه.

و قیل:المراد المیزان الذی یوزن به الأثقال و المعنی الأول أوسع و أشمل.

قوله تعالی: أَلاّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ الظاهر أن المراد بالمیزان المیزان المعروف و هو میزان الأثقال،فقوله: «أَلاّ تَطْغَوْا» الخ؛علی تقدیر أن یراد بالمیزان فی الآیه السابقه أیضا میزان الأثقال،و هو بیان وضع المیزان،و المعنی أن معنی وضعنا المیزان بینکم هو أن اعدلوا فی وزن الأثقال و لا تطغوا فیه.

و علی تقدیر أن یراد به مطلق التقدیر الحق أو العدل هو استخراج حکم جزئی من حکم کلی،و المعنی أن لازم ما وضعناه من التقدیر الحق أو العدل بینکم هو أن تزنوا الأثقال بالقسط و لا تطغوا فیه.

و علی أی حال الظاهر أن«أن»فی قوله: «أَلاّ تَطْغَوْا» تفسیریه،و «أَلاّ تَطْغَوْا» نهی عن الطغیان فی المیزان و «أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ» أمر معطوف علیه،و القسط العدل و «لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ» نهی آخر مبین لقوله: «أَلاّ تَطْغَوْا» الخ؛و مؤکد له.و الاخسار فی المیزان التطفیف به بزیاده أو نقیصه بحیث یخسر البائع أو المشتری.

ص :۱۵۴

و أما جعل«أن»ناصبه و «أَلاّ تَطْغَوْا» نفيا،و التقدير:لئلا تطغوا،فيحتاج الى تكلف توجيه فى عطف الإنشاء على الإخبار فى قوله: «وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ» الخ.

قوله تعالى: وَ الْأَرْضَ وَضَعَهٰا لِلْأَنٰامِ الأنام الناس،و قيل:الإنس و الجن، و قيل:كل ما يدبّ على الأرض،و فى التعبير فى الأرض بالوضع قبال التعبير فى السماء بالرفع لطف ظاهر.

قوله تعالى: فِيهٰا فٰاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذٰاتُ الْأَكْمٰامِ المراد بالفاكهه الثمره غير التمر، و الأكمام جمع كم بضم الكاف و كسرها وعاء التمر و هو الطلع،و أما كم القميص فهو مضموم الكاف لا غير كما قيل.

قوله تعالى: وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّيْحٰانُ معطوف على قوله: «فٰاكِهَةٌ» أى و فيها الحب و الريحان،و الحب ما يقتات به كالحنطه و الشعير و الارز،و العصف ما هو كالغلاف للحب و هو قشره،و فسّر بورق الزرع مطلقا و بورق الزرع اليابس،و الريحان النبات الطيب الرائحه.

قوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ الآلاء جمع الى بمعنى النعمه.

و الخطاب فى الآيه لعامه الثقلين:الجن و الإنس و يدل على ذلك توجيه الخطاب اليهما صريحا فيما سيأتى من قوله: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلاٰنِ» و قوله: «يٰا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ» الخ؛ و قوله: «يُرْسَلُ عَلَيْكُمٰا شُوٰاظٌ» الخ؛فلا يصغى الى قول من قال:إن الخطاب فى الآيه للذكر و الانثى من بنى آدم،و لا الى قول من قال:إنه من خطاب الواحد بخطاب الاثنين و يفيد تكرر الخطاب نحو يا شرطى اضربا عنقه أى اضرب عنقه.

و توجيه الخطاب الى عالمى الجن و الإنس هو المصحح لعدّ ما سنذكره من شدائد يوم القيامه و عقوبات المجرمين من أهل النار من آلائه و نعمه تعالى،فإن سوق المسيئين و أهل الشقوه فى نظام الكون الى ما تقتضيه شقوتهم و مجازاتهم بتبعات أعمالهم من لوازم صلاح

ص :۱۵۵

النظام العام الجارى فى الكل الحاكم على الجميع فذلك نعمه بالقياس الى الكل و إن كان نقمه بالنسبه الى طائفه خاصه منهم و هم المجرمون و هذا نظير ما نجده فى السنن و القوانين الجاريه فى المجتمعات فإن التشديد على أهل البغى و الفساد مما يتوقف عليه حياه المجتمع و بقاؤه و ليس يتنعم به أهل الصلاح خاصه كما أن إثابه أهل الصلاح بالثناء الجميل و الأجر الحسن كذلك.

فما فى النار من عذاب و عقاب لأهلها و ما فى الجنه من كرامه و ثواب آلاء و نعم على معشر الجن و الإنس كما أن الشمس و القمر و السماء المرفوعه و الأرض الموضوعه و النجم و الشجر و غيرها آلاء و نعم على أهل الدنيا.

قوله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسٰانَ مِنْ صَلْصٰالٍ كَالْفَخّٰارِ الصلصال الطين اليابس الذى يتردد منه الصوت إذا وطئ،و الفخار الخزف.

و المراد بالإنسان نوعه و المراد بخلقه من صلصال كالفخار انتهاء خلقه اليه،و قيل:المراد بالإنسان آدم عليه السّلام.

قوله تعالى: وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مٰارِجٍ مِنْ نٰارٍ المارج هو اللهب الخالص من النار،و قيل:اللهب المختلط بسواد،و الكلام فى الجان كالكلام فى الإنسان فالمراد به نوع الجن، و عدّهم مخلوقين من النار باعتبار انتهاء خلقتهم إليها،و قيل:المراد بالجان أبو الجن.

قوله تعالى: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ المراد بالمشرقين مشرق الصيف و مشرق الشتاء،و بذلك تحصل الفصول الأربعه و تنتظم الأرزاق،و قيل:المراد بالمشرقين مشرق الشمس و القمر و بالمغربين مغرباهما.

قوله تعالى: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيٰانِ بَيْنَهُمٰا بَرْزَخٌ لاٰ يَبْغِيٰانِ المرج الخلط و المرج الإرسال،يقال:مرجه أى خلطه و مرجه أى أرسله و المعنى الأول أظهر،و الظاهر أن المراد بالبحرين العذب الفرات و الملح الاجاج،قال تعالى: وَ مٰا يَسْتَوِي الْبَحْرٰانِ هٰذٰا عَذْبٌ

فُرٰاتٌ سٰائِغٌ شَرٰابُهُ وَ هٰذٰا مِلْحٌ أُجٰاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهٰا (فاطر/١٢).

و أمثل ما قيل فى الآيتين أن المراد بالبحرين جنس البحر المالح الذى يغمر قريبا من ثلاثه أرباع الكره الأرضيه من البحار المحيطه و غير المحيطه،و البحر العذب المدخر فى مخازن الأرض التى تنفجر الأرض عنها فتجرى العيون و الأنهار الكبيره فتصب فى البحر المالح،و لا يزالان يلتقيان،و بينهما حاجز و هو نفس المخازن الأرضيه و المجارى يحجز البحر المالح أن يبغى على البحر العذب فيغشيه و يبدله بحرا مالحا و تبطل بذلك الحياه،و يحجز البحر العدب أن يزيد فى الانصباب على البحر المالح فيبدله ماء عذبا فتبطل بذلك مصلحه ملوحته من تطهير الهواء و غيره.

و لا يزال البحر المالح يمدّ البحر العذب بالأمطار التى تأخذها منه السحب فتمطر على الأرض و تدخرها المخازن الأرضيه و البحر العذب يمدّ البحر المالح بالانصباب عليه.

فمعنى الآيتين-و اللّه أعلم-خلط البحرين العذب الفرات و الملح الاجاج حال كونهما مستمرين فى تلاقيهما بينهما حاجز لا يطغيان بأن يغمر أحدهما الآخر فيذهب بصفته من العذوبه و الملوحه فيختل نظام الحياه و البقاء.

قوله تعالى: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجٰانُ أى من البحرين العذب و المالح جميعا و ذلك من فوائدهما التى ينتفع بها الإنسان،و قد تقدم فيه الكلام فى تفسير قوله تعالى:

وَ مٰا يَسْتَوِى الْبَحْرٰانِ الآيه؛(فاطر/١٢).

قوله تعالى: وَ لَهُ الْجَوٰارِ الْمُنْشَآتُ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلاٰمِ الجوارى جمع جاريه و هى السفينه،و المنشآت اسم مفعول من الإنشاء و هو إحداث الشىء و تربيته، و الأعلام جمع علم بفتحتين و هو الجبل.

و عدّ الجوارى مملوكه له تعالى مع كونها من صنع الإنسان لأن الأسباب العامله فى إنشائها

من خشب و حدید و سائر أجزائها التی تترکب منها و الإنسان الذی یرکّبها و شعوره و فکره و إرادته کل ذلک مخلوق له و مملوک فما ینتجه عملها من ملکه.

فهو تعالی المنعم بها للانسان ألهمه طریق صنعها و المنافع المترتبه علیها و سبیل الانتفاع بمنافعها الجمّه.

قوله تعالی: کُلُّ مَنْ عَلَیْهٰا فٰانٍ وَ یَبْقیٰ وَجْهُ رَبِّکَ ذُو الْجَلاٰلِ وَ الْإِکْرٰامِ ضمیر «عَلَیْهٰا» للأرض أی کل ذی شعور و عقل علی الأرض سیفنی و فیه تسجیل الزوال و الدثور علی الثقلین.

و إنما أتی باللفظ الدال علی أولی العقل-کل من علیها-و لم یقل:کل من علیها کذلک لأن الکلام مسرود فی السوره لتعداد نعمه و آلائه تعالی للثقلین فی نشأتیهم الدنیا و الآخره.

و ظهور قوله: فٰانٍ فی الاستقبال کما یستفاد أیضا من السیاق یعطی أن قوله: «کُلُّ مَنْ عَلَیْهٰا فٰانٍ» یشیر الی انقطاع أمد النشأه الدنیا و ارتفاع حکمها بفناء من علیها و هم الثقلان و طلوع النشأه الاخری علیهم،و کلاهما أعنی فناء من علیها و طلوع نشأه الجزاء علیهم من النعم و الآلاء لأن الحیاه الدنیا حیاه مقدمیه لغرض الآخره و الانتقال من المقدمه الی الغرض و الغایه نعمه.

و بذلک یندفع قول من قال:أی نعمه فی الفناء حتی یجعل من النعم و یعد من الآلاء.

و محصل الجواب أن حقیقه هذا الفناء الرجوع الی اللّه بالانتقال من الدنیا کما تفسره آیات کثیره فی کلامه تعالی و لیس هو الفناء المطلق.

و قوله: وَ یَبْقیٰ وَجْهُ رَبِّکَ وجه الشیء ما یستقبل به غیره و یقصده به غیره،و هو فیه سبحانه صفاته الکریمه التی تتوسط بینه و بین خلقه فتنزل بها علیهم البرکات من خلق و تدبیر کالعلم و القدره و السمع و البصر و الرحمه و المغفره و الرزق و قد تقدم فی تفسیر سوره الأعراف کلام مبسوط فی کون أسمائه و صفاته تعالی وسائط بینه و بین خلقه.

و قوله: ذُو الْجَلاٰلِ وَ الْإِكْرٰامِ فی الجلال شیء من معنی الاعتلاء و الترفع المعنوی علی الغیر فیناسب من الصفات ما فیه شائبه الدفع و المنع کالعلو و التعالی و العظمه و الکبریاء و التکبر و الإحاطه و العزه و الغلبه.

و یبقی للإکرام من المعنی ما فیه نعت البهاء و الحسن الذی یجذب الغیر و یولّهه کالعلم و القدره و الحیاه و الرحمه و الجود و الجمال و الحسن و نحوها و تسمی صفات الجمال کما تسمی القسم الأول صفات الجلال و تسمی الأسماء أیضا علی حسب ما فیها من صفات الجمال أو الجلال بأسماء الجمال أو الجلال.

فذو الجلال و الإکرام اسم من الأسماء الحسنی جامع بمفهومه بین أسماء الجمال و أسماء الجلال جمیعا.

و المسمی به بالحقیقه هو الذات المقدسه کما فی قوله فی آخر السوره: «تَبٰارَکَ اسْمُ رَبِّکَ ذِی الْجَلاٰلِ وَ الْإِکْرٰامِ» لکن أجری فی هذه الآیه- وَ یَبْقیٰ وَجْهُ رَبِّکَ ذُو الْجَلاٰلِ وَ الْإِکْرٰامِ -علی الوجه،و هو إما لکونه وصفا مقطوعا عن الوصفیه للمدح،و التقدیر هو ذو الجلال و الإکرام، و إما لأن المراد بالوجه کما تقدم هو صفته الکریمه و اسمه المقدس و إجراء الاسم علی الاسم مآله الی إجراء الاسم علی الذات.

و معنی الآیه علی تقدیر أن یراد بالوجه ما یستقبل به الشیء غیره و هو الاسم-و من المعلوم أن بقاء الاسم (1)فرع بقاء المسمی- :و یبقی ربک عز اسمه بما له من الجلال و الإکرام من غیر أن یؤثر فناؤهم فیه أثرا أو یغیّر منه شیئا.

و علی تقدیر أن یراد بالوجه ما یقصده به غیره و مصداقه کل ما ینتسب الیه تعالی فیکون مقصودا بنحو للمتوجه الیه کأنبیائه و أولیائه و دینه و ثوابه و قربه و سائر ما هو من هذا القبیل

1- 1) .المراد بالاسم ما یحکی عنه الاسم اللفظی دون اللفظ الحاکی.

فالمعنی:و یبقی بعد فناء أهل الدنیا ما هو عنده تعالی و هو من صقعه و ناحیته کأنواع الجزاء و الثواب و القرب منه،قال تعالی: مٰا عِنْدَکُمْ یَنْفَدُ وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ بٰاقٍ (النحل/۹۶).

و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی: کُلُّ شَیْءٍ هٰالِکٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ (القصص/۸۸)من الکلام بعض ما لا یخلو من نفع فی المقام.

قوله تعالی: یَسْئَلُهُ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ کُلَّ یَوْمٍ هُوَ فِی شَأْنٍ سؤالهم سؤال حاجه فهم فی حاجه من جمیع جهاتهم الیه تعالی متعلقو الوجودات به متمسکون بذیل غناه وجوده،قال تعالی: أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ إِلَی اللّٰهِ وَ اللّٰهُ هُوَ الْغَنِیُّ (فاطر/۱۵)،و قال فی هذا المعنی من السؤال: وَ آتٰاکُمْ مِنْ کُلِّ مٰا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهیم/۳۴).

و قوله: «کُلَّ یَوْمٍ هُوَ فِی شَأْنٍ» تنکیر «شَأْنٍ» للدلاله علی التفرق و الاختلاف فالمعنی:

کل یوم هو تعالی فی شأن غیر ما فی سابقه و لا حقه من الشأن فلا یتکرر فعل من أفعاله مرتین و لا یماثل شأن من شئونه شأنا آخر من جمیع الجهات و إنما یفعل علی غیر مثال سابق و هو الإبداع،قال تعالی: بَدِیعُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (البقره/۱۱۷).

و معنی ظرفیه الیوم إحاطته تعالی فی مقام الفعل علی الأشیاء فهو سبحانه فی کل زمان و لیس فی زمان و فی کل مکان و لیس فی مکان و مع کل شیء و لا یدانی شیئا (۱).

[سوره الرحمن (۵۵): الآیات ۳۱ الی ۷۸]

سَنَفْرُغُ لَکُمْ أَیُّهَ اَلثَّقَلاٰنِ (۳۱) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۳۲) یٰا مَعْشَرَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ إِنِ اِسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطٰارِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ فَانْفُذُوا لاٰ تَنْفُذُونَ إِلاّٰ بِسُلْطٰانٍ (۳۳) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۳۴) یُرْسَلُ عَلَیْکُمٰا شُوٰاظٌ مِنْ نٰارٍ وَ نُحٰاسٌ فَلاٰ تَنْتَصِرٰانِ (۳۵) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۳۶) فَإِذَا اِنْشَقَّتِ اَلسَّمٰاءُ فَکٰانَتْ وَرْدَةً کَالدِّهٰانِ (۳۷) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۳۸) فَیَوْمَئِذٍ لاٰ یُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لاٰ جَانٌّ (۳۹) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۴۰) یُعْرَفُ اَلْمُجْرِمُونَ بِسِیمٰاهُمْ فَیُؤْخَذُ بِالنَّوٰاصِی وَ اَلْأَقْدٰامِ (۴۱) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۴۲) هٰذِهِ جَهَنَّمُ اَلَّتِی یُکَذِّبُ بِهَا اَلْمُجْرِمُونَ (۴۳) یَطُوفُونَ بَیْنَهٰا وَ بَیْنَ حَمِیمٍ آنٍ (۴۴) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۴۵) وَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ جَنَّتٰانِ (۴۶) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۴۷) ذَوٰاتٰا أَفْنٰانٍ (۴۸) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۴۹) فِیهِمٰا عَیْنٰانِ تَجْرِیٰانِ (۵۰) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۵۱) فِیهِمٰا مِنْ کُلِّ فٰاکِهَةٍ زَوْجٰانِ (۵۲) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۵۳) مُتَّکِئِینَ عَلیٰ فُرُشٍ بَطٰائِنُهٰا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَی اَلْجَنَّتَیْنِ دٰانٍ (۵۴) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۵۵) فِیهِنَّ قٰاصِرٰاتُ اَلطَّرْفِ لَمْ یَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لاٰ جَانٌّ (۵۶) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۵۷) کَأَنَّهُنَّ اَلْیٰاقُوتُ وَ اَلْمَرْجٰانُ (۵۸) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۵۹) هَلْ جَزٰاءُ اَلْإِحْسٰانِ إِلاَّ اَلْإِحْسٰانُ (۶۰) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۶۱) وَ مِنْ دُونِهِمٰا جَنَّتٰانِ (۶۲) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۶۳) مُدْهٰامَّتٰانِ (۶۴) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۶۵) فِیهِمٰا عَیْنٰانِ نَضّٰاخَتٰانِ (۶۶) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۶۷) فِیهِمٰا فٰاکِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمّٰانٌ (۶۸) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۶۹) فِیهِنَّ خَیْرٰاتٌ حِسٰانٌ (۷۰) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۷۱) حُورٌ مَقْصُورٰاتٌ فِی اَلْخِیٰامِ (۷۲) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۷۳) لَمْ یَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لاٰ جَانٌّ (۷۴) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۷۵) مُتَّکِئِینَ عَلیٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِیٍّ حِسٰانٍ (۷۶) فَبِأَیِّ آلاٰءِ رَبِّکُمٰا تُکَذِّبٰانِ (۷۷) تَبٰارَکَ اِسْمُ رَبِّکَ ذِی اَلْجَلاٰلِ وَ اَلْإِکْرٰامِ (۷۸)

۱- ۱) .الرحمن ۱-۳۰:بحث روائی فی:المشرقین و المغربین؛البحرین یلتقیان؛وجه اللّه.

بيان:

قوله تعالى: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلاٰنِ يقال:فرغ فلان لأمر كذا إذا كان مشتغلا قبلا بامور ثم تركها و قصر الاشتغال بذاك الأمر اهتماما به.

فمعنى «سَنَفْرُغُ لَكُمْ» سنطوى بساط النشأه الاولى و نشتغل بكم،و تبين الآيات التاليه أن المراد بالاشتغال بهم بعثهم و حسابهم و مجازاتهم بأعمالهم خيرا أو شرا فالفراغ لهم استعاره بالكنايه عن تبدل النشأه.

و لا ينافى الفراغ لهم كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن فإن الفراغ المذكور ناظر الى تبدل النشأه و كونه لا يشغله شأن عن شأن ناظر الى إطلاق القدره وسعتها كما لا ينافى كونه تعالى كل يوم هو فى شأن الناظر الى اختلاف الشئون كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن و الثقلان الجن و الإنس،و إرجاع ضمير الجمع فى «لَكُمْ» و «إِنِ اسْتَطَعْتُمْ» و غيرهما اليهما لكونهما جمعا ذا أفراد.

ص :۱۶۳

قوله تعالى: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا الخ؛الخطاب-على ما يفيده السياق-من خطابات يوم القيامه و هو خطاب تعجيزى.

و المراد بالاستطاعه القدره،و بالنفوذ من الأقطار الفرار،و الأقطار جمع قطر و هو الناحيه.

و المعنى:يا معشر الجن و الإنس-و قدّم الجن لأنهم على الحركات السريعه أقدر-إن قدرتم أن تفروا بالنفوذ من نواحى السماوات و الأرض و الخروج من ملك اللّه التخلص من مؤاخذته ففروا و انفذوا.

و قوله: لاٰ تَنْفُذُونَ إِلاّٰ بِسُلْطٰانٍ أى لا تقدرون على النفوذ إلاّ بنوع من السلطه على ذلك و ليس لكم و السلطان القدره الوجوديه،و السلطان البرهان أو مطلق الحجه، و السلطان الملك.

قوله تعالى: يُرْسَلُ عَلَيْكُمٰا شُوٰاظٌ مِنْ نٰارٍ وَ نُحٰاسٌ فَلاٰ تَنْتَصِرٰانِ الشواظ-على ما ذكره الراغب-اللهب الذى لا دخان فيه،و يقرب منه ما فى المجمع أنه اللهب الأخضر المنقطع من النار،و النحاس الدخان و قال الراغب:هو اللهب بلا دخان و المعنى ظاهر.

و قوله: فَلاٰ تَنْتَصِرٰانِ أى لا تتناصران بأن ينصر بعضكم بعضا لرفع البلاء و التخلص عن العناء لسقوط تاثير الأسباب و لا عاصم اليوم من اللّه.

قوله تعالى: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمٰاءُ فَكٰانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهٰانِ أى كانت حمراء كالدهان و هو الأديم الأحمر.

قوله تعالى: فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لاٰ جَانٌّ الآيه و ما يتلوها من الآيات الى آخر السوره تصف الحساب و الجزاء تصف حال المجرمين و الخائفين مقام ربهم و ما

ينتهى اليه.

ثم الآيه تصف سرعه الحساب و قد قال تعالى: وَ اللّٰهُ سَرِيعُ الْحِسٰابِ (النور/۳۹).

و المراد بيومئذ يوم القيامه،و السؤال المنفى هو النحو المألوف من السؤال،و لا ينافى نفى السؤال فى هذه الآيه إثباته فى قوله: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (الصافات/۲۴)،و قوله:

فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر/۹۲)،لأن اليوم ذو مواقف مختلفه يسأل فى بعضها، و يختم على الأفواه فى بعضها و تكلم الأعضاء،و يعرف بالسيماء فى بعضها.

قوله تعالى: يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمٰاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوٰاصِي وَ الْأَقْدٰامِ فى مقام الجواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل:فإذا لم يسألوا عن ذنبهم فما يصنع بهم؟فاجيب بأنه يعرف المجرمون بسيماهم،الخ؛و لذا فصلت الجمله و لم يعطف،و المراد بسيماهم علامتهم البارزه فى وجوههم.

و قوله: فَيُؤْخَذُ بِالنَّوٰاصِي وَ الْأَقْدٰامِ الكلام متفرع على المعرفه المذكوره، و النواصى جمع ناصيه و هى شعر مقدّم الرأس،و الأقدام جمع قدم،و قوله: «بِالنَّوٰاصِي» نائب فاعل يؤخذ.

و المعنى:-لا يسأل أحد عن ذنبه-يعرف المجرمون بعلامتهم الظاهره فى وجوههم فيؤخذ بالنواصى و الأقدام من المجرمين فيلقون فى النار.

قوله تعالى: هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ -الى قوله- آنٍ مقول قول مقدر أى يقال يومئذ هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون،و قال الطبرسى:و يمكن أنه لما أخبر اللّه سبحانه أنهم يؤخذون بالنواصى و الأقدام قال للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون من قومك فسيردونها فليهن عليك أمرهم.انتهى.

و الحميم الماء الحار،و الآنى الذى انتهت حرارته و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: وَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ جَنَّتٰانِ شروع فى وصف حال السعداء من

الخائفين مقام ربهم،و المقام مصدر میمی بمعنی القیام مضاف الی فاعله،و المراد قیامه تعالی علیه بعمله و هو إحاطته تعالی و علمه بما عمله و حفظه له و جزاؤه علیه قال تعالی: أَ فَمَنْ هُوَ قٰائِمٌ عَلیٰ کُلِّ نَفْسٍ بِمٰا کَسَبَتْ (الرعد/۳۳).

و یمکن أن یکون المقام اسم مکان و الإضافه لامیه و المراد به مقامه و موقفه تعالی من عبده و هو أنه تعالی ربه الذی یدبر أمره و من تدبیر أمره أنه دعاه بلسان رسله الی الإیمان و العمل الصالح و قضی أن یجازیه علی ما عمل خیرا أو شرا هذا و هو محیط به و هو معه سمیع بما یقول بصیر بما یعمل لطیف خبیر.

و الخوف من اللّه تعالی ربما کان خوفا من عقابه تعالی علی الکفر به و معصیته،و لازمه أن یکون عباده من یعبده خوفا بهذا المعنی یراد بها التخلص من العقاب لا-لوجه اللّه محضا و هو عباده العبید یعبدون موالیهم خوفا من السیاسه کما أن عباده من یعبده طمعا فی الثواب غایتها الفوز بما تشتهیه النفس دون وجهه الکریم و هی عباده التجار کما فی الروایات و قد تقدم شطر منها.

و الخوف المذکور فی الآیه-و لمن خاف مقام ربه-ظاهره غیر هذا الخوف فإن هذا خوف من العقاب و هو غیر الخوف من قیامه تعالی علی عبده بما عمل أو الخوف من مقامه تعالی من عبده فهو تأثر خاص ممن لیس له إلاّ الصغار و الحقاره تجاه ساحه العظمه و الکبریاء،و ظهور أثر المذله و الهوان و الاندکاک قبال العزه و الجبروت المطلقین.

و عبادته تعالی خوفا منه بهذا المعنی من الخوف خضوع له تعالی لأنه اللّه ذو الجلال و الإکرام لا لخوف من عقابه و لا طمعا فی ثوابه بل فیه إخلاص العمل لوجهه الکریم،و هذا المعنی من الخوف هو الذی وصف اللّه به المکرمین من ملائکته و هم معصومون آمنون من عقاب المخالفه و تبعه المعصیه قال تعالی: یَخٰافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ (النحل/۵۰).

فتبین مما تقدم أن الذین أشار الیهم بقوله: «وَ لِمَنْ خٰافَ» أهل الإخلاص الخاضعون

لجلاله تعالى العابدون له لأنه اللّه عز اسـمه لا خوفا من عقابه و لا طمعا فى ثوابه،و لا يبعد أن يكونوا هم الذين سموا سابقين فى قوله: وَ كُنْتُمْ أَزْوٰاجاً ثَلاٰثَةً -الى أن قال- وَ السّٰابِقُونَ السّٰابِقُونَ أُولٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (الواقعه/١١).

و قوله: جَنَّتٰانِ قيل:إحـداهما منزله و محل زياره أحبابه له و الاخرى منزل أزواجه و خـدمه،و قيل:بسـتانان بسـتان داخل قصـره و بسـتان خـارجه،و قيـل:منزلاـن ينتقـل من أحـدهما الى الآـخر ليكمل به التـذاذه،و قيل:جنه لعقيـدته و جنه لعمله،و قيل:جنه لفعل الطاعات و جنه لترك المعاصى،و قيل:جنه جسمانيه و جنه روحانيه و هذه الأقوال-كما ترى-لا دليل على شيء منها.

و قيل:جنه يثاب بها و جنه يتفضل بها عليه،و يمكن أن يستشعر ذلك من قوله تعالى:

لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا وَ لَدَيْنٰا مَزِيدٌ (ق/٣۵)،على ما مر فى تفسيره.

قوله تعالى: ذَوٰاتٰا أَفْنٰانٍ ذواتا تثنيه ذات،و «أَفْنٰانٍ» إما جمع فنّ بمعنى النوع و المعنى:ذواتا أنواع من الثمار و نحوها،و إما جمع فنن بمعنى الغصن الرطب اللين و المعنى:ذواتا أغصان لينه أشجارهما.

قوله تعالى: فِيهِمٰا عَيْنٰانِ تَجْرِيٰانِ و قد أبهمت العينان و فيه دلاله على فخامه أمرهما.

قوله تعالى: فِيهِمٰا مِنْ كُلِّ فٰاكِهَهٍ زَوْجٰانِ أى صـنفان قيل:صـنف معروف لهم شاهدوه فى الدنيا و صـنف غير معروف لم يروه فى الدنيا،و قيل:غير ذلك،و لا دلاله فى الكلام على شيء من ذلك.

قوله تعالى: مُتَّكِئِينَ عَلىٰ فُرُشٍ بَطٰائِنُهٰا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ الخ؛الفرش جمع فراش،و البطائن جمع بطانه و هى داخل الشيء و جوفه مقابل الظهائر جمع ظهاره، و الاستبرق الحرير الغليظ قال فى المجمع:ذكر البطانه و لم يذكر الظهاره لأن البطانه تدل على

أن لها ظهاره و البطانه دون الظهاره فدلّ على أن الظهاره فوق الإستبرق،انتهى.

و قوله: وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دٰانٍ الجنا الثمر المجتنى و «دٰانٍ» اسم فاعل من الدنوّ بمعنى القرب أى ما يجتنى من ثمار الجنتين قريب.

قوله تعالى: فِيهِنَّ قٰاصِرٰاتُ الطَّرْفِ الى آخر الآيه؛ضمير «فِيهِنَّ» للفرش و جوّز أن يرجع الى الجنان فإنها جنان لكل واحد من أولياء اللّه منها جنتان،و الطرف جفن العين،و المراد بقصور الطرف اكتفاؤهن بأزواجهن فلا يردن غيرهم.

و قوله: لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لاٰ جَانٌّ الطمث الافتضاض و النكاح بالتدميه،و المعنى:لم يمسسهن بالنكاح إنس و لا جان قبل أزواجهن.

قوله تعالى: كَأَنَّهُنَّ الْيٰاقُوتُ وَ الْمَرْجٰانُ أى فى صفاء اللون و البهاء و التلألؤ.

قوله تعالى: هَلْ جَزٰاءُ الْإِحْسٰانِ إِلاَّ الْإِحْسٰانُ استفهام إنكارى فى مقام التعليل لما ذكر من إحسانه تعالى عليهم بالجنتين و ما فيهما من أنواع النعم و الآلاء فيفيد أنه تعالى يحسن اليهم هذا الإحسان جزاء لإحسانهم بالخوف من مقام ربهم.

و تفيد الآيه أن ما أوتوه من الجنه و نعيمها جزاء لأعمالهم و أما ما يستفاد من بعض الآيات أنهم يعطون فضلا وراء جزاء أعمالهم فلا تعرض فى هذه الآيات لذلك إلاّ أن يقال:الإحسان إنما يتم إذا كان يربو على ما أحسن به المحسن اليه فإطلاق الإحسان فى قوله: «إِلاَّ الْإِحْسٰانُ» يفيد الزياده.

قوله تعالى: وَ مِنْ دُونِهِمٰا جَنَّتٰانِ ضمير التثنيه للجنتين الموصوفتين فى الآيات السابقه و معنى «مِنْ دُونِهِمٰا» أى أنزل درجه و أحط فضلا و شرفا منهما و إن كانتا شبيهتين بالجنتين السابقتين فى نعمهما و آلائهما،و قد تقدم أن الجنتين السابقتين لأهل الإخلاص الخائفين مقام ربهم فهاتان الجنتان لمن دونهم من المؤمنين العابدين للّه سبحانه خوفا من النار أو طمعا فى الجنه و هم أصحاب اليمين.

قوله تعالى: مُدْهٰامَّتٰانِ الادهيمام من الدهمه اشتداد الخضره بحيث تضرب الى السواد و هو ابتهاج الشجره.

قوله تعالى: فِيهِمٰا عَيْنٰانِ نَضّٰاخَتٰانِ أى فوّارتان تخرجان من منبعهما بالدفع.

قوله تعالى: فِيهِمٰا فٰاكِهَهٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمّٰانٌ المراد بالفاكهه و الرمان شجرتهما بقرينه النخل.

قوله تعالى: فِيهِنَّ خَيْرٰاتٌ حِسٰانٌ ضمير «فِيهِنَّ» للجنان باعتبار أنها جنتان من هاتين الجنتين،و قيل:مرجع الضمير الجنات الأربع المذكوره فى الآيات،و قيل:الضمير للفاكهه و النخل و الرمان.

و أكثر ما يستعمل الخير فى المعانى كما أن أكثر استعمال الحسن فى الصور،و على هذا فمعنى خيرات حسان أنهن حسان فى أخلاقهن حسان فى وجوههن.

قوله تعالى: حُورٌ مَقْصُورٰاتٌ فِي الْخِيٰامِ الخيام جمع خيمه و هى الفسطاط، و كونهن مقصورات فى الخيام أنهن مصونات غير مبتذلات لا نصيب لغير أزواجهن فيهن.

قوله تعالى: لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لاٰ جَانٌّ تقدم معناه.

قوله تعالى: مُتَّكِئِينَ عَلىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِسٰانٍ فى الصحاح:

الرفرف ثياب خضر تتخذ منها المجالس.انتهى.و قيل:هى الوسائد،و قيل:غير ذلك، و الخضر جمع أخضر صفه لرفرف،و العبقرى قيل:الزرابى،و قيل:الطنافس،و قيل:الثياب الموشاه،و قيل:الديباج.

قوله تعالى: تَبٰارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلاٰلِ وَ الْإِكْرٰامِ ثناء جميل له تعالى بما امتلأت النشأتان الدنيا و الآخره بنعمه و آلائه و بركاته النازله من عنده برحمته الواسعه، و بذلك يظهر أن المراد باسمه المتبارك هو الرحمن المفتتحه به السوره،و التبارك كثره الخيرات و البركات الصادره.

فقوله: تَبارَکَ اسْمُ رَبِّکَ تبارک اللّه المسمی بالرحمن بما أفاض هذه الآلاء.

و قوله: ذِی الْجَلالِ وَ الْإِکْرامِ إشاره الی تسمّیه بأسمائه الحسنی و اتصافه بما یدل علیه من المعانی الوصفیه و نعوت الجلال و الجمال،و لصفات الفاعل ظهور فی أفعاله و أثر فیها یرتبط به الفعل بفاعله فهو تعالی خلق الخلق و نظم النظام لأنه بدیع خالق مبدئ فأتقن الفعل لأنه علیم حکیم و جازی أهل الطاعه بالخیر لأنه ودود شکور غفور رحیم و أهل الفسق بالشر لأنه منتقم شدید العقاب.

فتوصیف الرب-الذی أثنی علی سعه رحمته-بذی الجلال و الإکرام للإشاره الی أن لأسمائه الحسنی و صفاته العلیا دخلا فی نزول البرکات و الخیرات من عنده،و أن نعمه و آلاءه علیها طابع أسمائه الحسنی و صفاته العلیا تبارک و تعالی (۱).

۱- ۱) .الرحمن ۳۱-۷۸:بحث روائی فی:من خاف مقام ربه؛الحور العین؛جزاء الاحسان؛الخیرات الحسان.

سوره الواقعه مکیه و هی ست و تسعون آیه

اشاره

[سوره الواقعه (۵۶): الآیات ۱ الی ۱۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;إِذٰا وَقَعَتِ اَلْوٰاقِعَهُ (۱) لَیْسَ لِوَقْعَتِهٰا کٰاذِبَهٌ (۲) خٰافِضَهٌ رٰافِعَهٌ (۳) إِذٰا رُجَّتِ اَلْأَرْضُ رَجًّا (۴) وَ بُسَّتِ اَلْجِبٰالُ بَسًّا (۵) فَکٰانَتْ هَبٰاءً مُنْبَثًّا (۶) وَ کُنْتُمْ أَزْوٰاجاً ثَلاٰثَهً (۷) فَأَصْحٰابُ اَلْمَیْمَنَهِ مٰا أَصْحٰابُ اَلْمَیْمَنَهِ (۸) وَ أَصْحٰابُ اَلْمَشْئَمَهِ مٰا أَصْحٰابُ اَلْمَشْئَمَهِ (۹) وَ اَلسّٰابِقُونَ اَلسّٰابِقُونَ (۱۰)

ص: ۱۷۱

بیان:

تصف السوره القیامه الکبری التی فیها بعث الناس و حسابهم و جزاؤهم فتذکر أولا شیئا من أهوالها مما یقرب من الإنسان و الأرض التی یسکنها فتذکر تقلیبها للأوضاع و الأحوال بالخفض و الرفع و ارتجاج الأرض و انبثاث الجبال و تقسم الناس الی ثلاثه أزواج إجمالا ثم تذکر ما ینتهی الیه حال کل من الأزواج السابقین و أصحاب الیمین و أصحاب الشمال.

ثم تحتج علی أصحاب الشمال المنکرین لربوبیته و للبعث المکذبین بالقرآن الداعی الی التوحید و الإیمان بالبعث.ثم تختم الکلام بذکر الاحتضار بنزول الموت و انقسام الناس الی ثلاثه أزواج.

و السوره مکیه بشهاده سیاق آیاتها.

قوله تعالی: إِذٰا وَقَعَتِ الْوٰاقِعَهُ وقوع الحادثه هو حدوثها،و الواقعه صفه توصف بها کل حادثه،و المراد بها هاهنا واقعه القیامه و قد أطلقت إطلاق الأعلام کأنها لا تحتاج الی موصوف مقدر و لذا قیل:إنها من أسماء القیامه فی القرآن کالحاقّه و القارعه و الغاشیه.

و الجمله «إِذٰا وَقَعَتِ الْوٰاقِعَهُ» مضمنه معنی الشرط و لم یذکر جزاء الشرط إعظاما له و تفخیما لأمره و هو علی أی حال أمر مفهوم مما ستصفه السوره من حال الناس یوم القیامه، و التقدیر نحو من قولنا:فاز المؤمنون و خسر الکافرون.

قوله تعالی: لَیْسَ لِوَقْعَتِهٰا کٰاذِبَهٌ قال فی المجمع:الکاذبه مصدر کالعافیه و العاقبه.

انتهی.و علیه فالمعنی:لیس فی وقعتها و تحققها کذب،و قیل:کاذبه صفه محذوفه الموصوف و التقدیر:لیس لوقعتها قضیه کاذبه.

قوله تعالی: خٰافِضَهٌ رٰافِعَهٌ خبران مبتدؤهما الضمیر الراجع الی الواقعه،و الخفض خلاف الرفع و کونها خافضه رافعه کنایه عن تقلیبها نظام الدنیا المشهود فتظهر السرائر و هی

محجوبه اليوم و تحجب و تستر آثار الأسباب و روابطها و هى ظاهره اليوم و تذلّ الأعزّه من أهل الكفر و الفسق و تعزّ المتقين.

قوله تعالى: إِذٰا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا الرجّ تحريك الشىء تحريكا شديدا إشاره الى زلزله الساعه التى يعظمها اللّه سبحانه فى قوله: إِنَّ زَلْزَلَةَ السّٰاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (الحج/ ١)،و قد عظمها فى هذه الآيه حيث عبّر عنها برجّ الأرض ثم أكد شدتها بتنكير قوله: «رَجًّا» أى رجا لا يوصف شدته.و الجمله بدل أو بيان لقوله: «إِذٰا وَقَعَتِ الْوٰاقِعَةُ» .

قوله تعالى: وَ بُسَّتِ الْجِبٰالُ بَسًّا فَكٰانَتْ هَبٰاءً مُنْبَثًّا عطف على «رُجَّتِ» و البسّ الفتّ و هو عود الجسم بدق و نحوه أجزاء صغارا متلاشيه كالدقيق،و قيل:البس هو التسيير فهو فى معنى قوله: وَ سُيِّرَتِ الْجِبٰالُ (النبأ/٢٠).

و قوله: فَكٰانَتْ هَبٰاءً مُنْبَثًّا الهباء قيل:هو الغبار و قيل:هو الذرّه من الغبار الظاهر فى شعاع الشمس الداخل من كوّه،و الانبثاث التفرق،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ كُنْتُمْ أَزْوٰاجاً ثَلاٰثَةً الزوج بمعنى الصنف و الخطاب لعامه البشر.

قوله تعالى: فَأَصْحٰابُ الْمَيْمَنَةِ مٰا أَصْحٰابُ الْمَيْمَنَةِ متفرع على ما قبلها تفرع البيان على المبيّن،فهذه الآيه و الآيتان بعدها بيان للأزواج الثلاثه.

و الميمنه من اليمن مقابل الشؤم،فأصحاب الميمنه أصحاب السعاده و اليمن مقابل أصحاب المشأمه أصحاب الشقاء و الشؤم،و ما قيل:إن المراد بالميمنه اليمين،أى ناحيه اليمين لأنهم يؤتون كتابهم بيمينهم و غيرهم يؤتونه بشمالهم يردّه مقابله أصحاب الميمنه بأصحاب المشأمه،و لو كان كما قيل لقيل أصحاب الشمال و هو ظاهر.

و ما فى قوله: مٰا أَصْحٰابُ الْمَيْمَنَةِ استفهاميه و مبتدأ خبره «أَصْحٰابُ الْمَيْمَنَةِ» ، و المجموع خبر لقوله: «أَصْحٰابُ الْمَيْمَنَةِ» و فى الاستفهام إعظام لأمرهم و تفخيم لشأنهم.

قوله تعالى: وَ أَصْحٰابُ الْمَشْئَمَةِ مٰا أَصْحٰابُ الْمَشْئَمَةِ المشأمه مصدر

كالشؤم مقابل اليمين،و الميمنه و المشأمه السعاده و الشقاء.

قوله تعالى: وَ اَلسّٰابِقُونَ اَلسّٰابِقُونَ الذى يصلح أن يفسر به السابقون الاول قوله تعالى: فَمِنْهُمْ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سٰابِقٌ بِالْخَيْرٰاتِ بِإِذْنِ اللّٰهِ (فاطر۳۲/)، و قوله: وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهٰا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرٰاتِ (البقره۱۴۸/)،و قوله: أُولٰئِكَ يُسٰارِعُونَ فِي الْخَيْرٰاتِ وَ هُمْ لَهٰا سٰابِقُونَ (المؤمنون۶۱/).

فالمراد بالسابقين-الأول-فى الآيه السابقون بالخيرات من الأعمال،و إذا سبقوا بالخيرات سبقوا الى المغفره و الرحمه التى بإزائها كما قال تعالى: سٰابِقُوا إِلىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ (الحديد۲۱/)،فالسابقون بالخيرات هم السابقون بالرحمه و هو قوله: «وَ اَلسّٰابِقُونَ اَلسّٰابِقُونَ» .

و قيل:المراد بالسابقون الثانى هو الأول على حد قوله:

أنا أبو النجم و شعرى شعرى

و قوله: وَ اَلسّٰابِقُونَ اَلسّٰابِقُونَ مبتدأ و خبر،و قيل:الأول مبتدأ و الثانى تأكيد، و الخبر قوله: «أُولٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» .

و لهم فى تفسير السابقين أقوال أخر فقيل:هم المسارعون الى كل ما دعا اللّٰه اليه،و قيل:

هم الذين سبقوا الى الإيمان و الطاعه من غير توان،و قيل:هم الأنبياء عليهم السّلام لأنهم مقدمو أهل الأديان،و قيل:هم مؤمن آل فرعون و حبيب النجار المذكور فى سوره يس و على عليه السّلام السابق الى الإيمان بالنبى صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم و هو أفضلهم (۱).

[سوره الواقعه (۵۶): الآيات ۱۱ الى ۵۶]

أُولٰئِكَ اَلْمُقَرَّبُونَ (۱۱) فِي جَنّٰاتِ اَلنَّعِيمِ (۱۲) ثُلَّةٌ مِنَ اَلْأَوَّلِينَ (۱۳) وَ قَلِيلٌ مِنَ اَلْآخِرِينَ (۱۴) عَلىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (۱۵) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهٰا مُتَقٰابِلِينَ (۱۶) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدٰانٌ مُخَلَّدُونَ (۱۷) بِأَكْوٰابٍ وَ أَبٰارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۱۸) لاٰ يُصَدَّعُونَ عَنْهٰا وَ لاٰ يُنْزِفُونَ (۱۹) وَ فٰاكِهَةٍ مِمّٰا يَتَخَيَّرُونَ (۲۰) وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمّٰا يَشْتَهُونَ (۲۱) وَ حُورٌ عِينٌ (۲۲) كَأَمْثٰالِ اَللُّؤْلُؤِ اَلْمَكْنُونِ (۲۳) جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۲۴) لاٰ يَسْمَعُونَ فِيهٰا لَغْواً وَ لاٰ تَأْثِيماً (۲۵) إِلاّٰ قِيلاً سَلاٰماً سَلاٰماً (۲۶) وَ أَصْحٰابُ اَلْيَمِينِ مٰا أَصْحٰابُ اَلْيَمِينِ (۲۷) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (۲۸) وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ (۲۹) وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ (۳۰) وَ مٰاءٍ مَسْكُوبٍ (۳۱) وَ فٰاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (۳۲) لاٰ مَقْطُوعَةٍ وَ لاٰ مَمْنُوعَةٍ (۳۳) وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (۳۴) إِنّٰا أَنْشَأْنٰاهُنَّ إِنْشٰاءً (۳۵) فَجَعَلْنٰاهُنَّ أَبْكٰاراً (۳۶) عُرُباً أَتْرٰاباً (۳۷) لِأَصْحٰابِ اَلْيَمِينِ (۳۸) ثُلَّةٌ مِنَ اَلْأَوَّلِينَ (۳۹) وَ ثُلَّةٌ مِنَ اَلْآخِرِينَ (۴۰) وَ أَصْحٰابُ اَلشِّمٰالِ مٰا أَصْحٰابُ اَلشِّمٰالِ (۴۱) فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ (۴۲) وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (۴۳) لاٰ بٰارِدٍ وَ لاٰ كَرِيمٍ (۴۴) إِنَّهُمْ كٰانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُتْرَفِينَ (۴۵) وَ كٰانُوا يُصِرُّونَ عَلَى اَلْحِنْثِ اَلْعَظِيمِ (۴۶) وَ كٰانُوا يَقُولُونَ أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ (۴۷) أَ وَ آبٰاؤُنَا اَلْأَوَّلُونَ (۴۸) قُلْ إِنَّ اَلْأَوَّلِينَ وَ اَلْآخِرِينَ (۴۹) لَمَجْمُوعُونَ إِلىٰ مِيقٰاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (۵۰) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا اَلضّٰالُّونَ اَلْمُكَذِّبُونَ (۵۱) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (۵۲) فَمٰالِؤُنَ مِنْهَا اَلْبُطُونَ (۵۳) فَشٰارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ اَلْحَمِيمِ (۵۴) فَشٰارِبُونَ شُرْبَ اَلْهِيمِ (۵۵) هٰذٰا نُزُلُهُمْ يَوْمَ اَلدِّينِ (۵۶)

۱- ۱) .الواقعه ۱-۱۰:بحث روائی فی:القیامه،السابقون إلی الجنّه.

بیان:

قوله تعالی: أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِی جَنَّاتِ النَّعِیمِ الإشاره باولئک الی السابقین، و «أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» مبتدأ و خبر،و الجمله استئنافیه،و قیل:خبر لقوله: «وَ السَّابِقُونَ» ، و قیل:مبتدأ خبره فی جنات النعیم،و أول الوجوه الثلاثه أوجه بالنظر الی سیاق تقسیم الناس الی ثلاثه أزواج أولا ثم تفصیل ما ینتهی الیه أمر کل منهم.

و القرب و البعد معنیان متضائفان تتصف بهما الأجسام بحسب النسبه المکانیه ثم توسع فیهما فاعتبروا فی غیر المکان من الزمان و نحوه،یقال:الغد قریب من الیوم و الأربعه أقرب الی الثلاثه من الخمسه،و الخضره أقرب الی السواد من البیاض ثم توسع فیهما فاعتبرا فی غیر الأجسام و الجسمانیات من الحقائق.

و قد اعتبر القرب وصفا له تعالی بما له من الإحاطه بکل شیء،قال تعالی: وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِیبٌ (البقره۱۸۶/)،و قال: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْكُمْ (الواقعه/ ۸۵)،و قال: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ (ق۱۶/).و هذا المعنی أعنی کونه تعالی

أقرب الی الشیء من نفس أعجب ما یتصور من معنی القرب،و قد أشرنا الی تصویره فی تفسیر الآیه.

و اعتبر القرب أیضا وصفا للعباد فی مرحله العبودیه و لما کان أمرا اکتسابیا یستعمل فیه لفظ التقرب فالعبد یتقرب بصالح العمل الی اللّه سبحانه و هو وقوعه فی معرض شمول الرحمه الإلهیه بزوال أسباب الشقاء و الحرمان،و اللّه سبحانه یقرب العبد بمعنی إنزاله منزله یختص بنیل ما لا یناله من دونه من إکرامه تعالی و مغفرته و رحمته،قال تعالی: کِتٰابٌ مَرْقُومٌ یَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (المطففین۲۱/)،و قال: وَ مِزٰاجُهُ مِنْ تَسْنِیمٍ عَیْناً یَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (المطففین۲۸/).

فالمقربون هم النمط الأعلی من أهل السعاده کما یشیر الیه قوله: «وَ السّٰابِقُونَ السّٰابِقُونَ أُولٰئِکَ الْمُقَرَّبُونَ» و لا یتم ذلک إلاّ بکمال العبودیه کما قال: لَنْ یَسْتَنْکِفَ الْمَسِیحُ أَنْ یَکُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لاَ الْمَلاٰئِکَهُ الْمُقَرَّبُونَ (النساء۱۷۲/)،و لا تکمل العبودیه إلاّ بأن یکون العبد تبعا محضا فی إرادته و عمله لمولاه لا یرید و لا یعمل إلاّ ما یریده و هذا هو الدخول تحت ولایه اللّه فهؤلاء هم أولیاء اللّه.

و قوله: فِی جَنّٰاتِ النَّعِیمِ أی کل واحد منهم فی جنه النعیم فالکل فی جنات النعیم،و یمکن أن یراد به أن کلا منهم فی جنات النعیم لکن یبعّده قوله فی آخر السوره: «فَأَمّٰا إِنْ کٰانَ مِنَ الْمُقَرَّبِینَ فَرَوْحٌ وَ رَیْحٰانٌ وَ جَنَّهُ نَعِیمٍ» .

و قد تقدم غیر مره أن النعیم هی الولایه و أن جنه النعیم هی جنه الولایه و هو المناسب لما تقدم آنفا أن المقربین هم أهل ولایه اللّه.

قوله تعالی: ثُلَّهٌ مِنَ الْأَوَّلِینَ وَ قَلِیلٌ مِنَ الْآخِرِینَ الثله-علی ما قیل- الجماعه الکثیره،و المراد بالأولین الامم الماضون للأنبیاء السابقین،و بالآخرین هذه الامه علی ما هو المعهود من کلامه تعالی فی کل موضع ذکر فیه الأولین و الآخرین معا و منها ما

سیأتی من قوله: «أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ أَ وَ آبٰاؤُنَا الْأَوَّلُونَ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِینَ وَ الْآخِرِینَ لَمَجْمُوعُونَ إِلیٰ مِیقٰاتِ یَوْمٍ مَعْلُومٍ» فمعنی الآیتین:هم أی المقربون جماعه کثیره من الامم الماضین و قیل من هذه الامه.

قوله تعالی: عَلیٰ سُرُرٍ مَوْضُونَهٍ مُتَّکِئِینَ عَلَیْهٰا مُتَقٰابِلِینَ الوضن النسج و قیل:نسج الدرع و إطلاقه علی نسج السرر استعاره یراد بها إحکام نسجها.

و قوله: مُتَّکِئِینَ عَلَیْهٰا حال من الضمیر العائد الی المقربین و الضمیر للسرر، و قوله: «مُتَقٰابِلِینَ» حال آخر منه أو من ضمیر «مُتَّکِئِینَ» و تقابلهم کنایه عن بلوغ انسهم و حسن عشرتهم و صفاء باطنهم فلا ینظرون فی قفاء صاحبهم و لا یعیبونه و لا یغتابونه.

و المعنی:هم أی المقربون مستقرون علی سرر منسوجه حال کونهم متکئین علیها حال کونهم متقابلین.

قوله تعالی: یَطُوفُ عَلَیْهِمْ وِلْدٰانٌ مُخَلَّدُونَ الولدان جمع ولد و هو الغلام، و طوافهم علیهم کنایه عن خدمتهم لهم،و المخلدون من الخلود بمعنی الدوام أی باقون أبدا علی هیئتهم من حداثه السن،و قیل من الخلد بفتحتین و هو القرط،و المراد أنهم مقرطون بالخلد.

قوله تعالی: بِأَکْوٰابٍ وَ أَبٰارِیقَ وَ کَأْسٍ مِنْ مَعِینٍ الأکواب جمع کوب و هو الإناء الذی لا عروه له و لا خرطوم،و الأباریق جمع إبریق و هو الإناء الذی له خرطوم،و قیل:

عروه و خرطوم معا،و الکأس معروف،قیل:أفرد الکأس لأنها لا تسمی کأسا إلاّ إذا کانت ممتلئه،و المراد بالمعین الخمر المعین و هو الظاهر للبصر الجاری.

قوله تعالی: لاٰ یُصَدَّعُونَ عَنْهٰا وَ لاٰ یُنْزِفُونَ أی لا یأخذهم صداع لأجل خمار یحصل من الخمر کما فی خمر الدنیا و لا یزول عقلهم بالسکر الحاصل منها.

قوله تعالی: وَ فٰاکِهَهٍ مِمّٰا یَتَخَیَّرُونَ وَ لَحْمِ طَیْرٍ مِمّٰا یَشْتَهُونَ الفاکهه و الطیر

معطوفان على قوله: «بِأَكْوابٍ» ،و المعنى:يطوف عليهم الولدان بفاكهه مما يختارون و بلحم طير مما يشتهون.

قوله تعالى: وَ حُورٌ عِينٌ كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ مبتدأ محذوف الخبر على ما يفيده السياق و التقدير و لهم حور عين أو و فيها حور عين و الحور العين نساء الجنه و قد تقدم معنى الحور العين فى تفسير سوره الدخان.

و قوله: كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ أى اللؤلؤ المصون المخزون فى الصدف لم تمسّه الأيدى فهو منته فى صفائه.

قوله تعالى: جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ قيد لجميع ما تقدم و هو مفعول له،و المعنى:

فعلنا بهم ما فعلنا ليكون جزاء لهم قبال ما كانوا يستمرون عليه من العمل الصالح.

قوله تعالى: لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً اللغو من القول ما لا فائده فيه و لا أثر يترتب عليه،و التأثيم النسبه الى الإثم أى لا يخاطب أحدهم صاحبه بما لا فائده فيه و لا ينسبه الى الإثم إذ لا إثم هناك،و فسّر بعضهم التأثيم بالكذب.

قوله تعالى: إِلاّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً استثناء منقطع من اللغو و التأثيم،و القيل مصدر كالقول،و «سَلاماً» بيان لقوله: «قِيلًا» X و تكراره يفيد تكرر الوقوع،و المعنى:إلاّ قولا هو السلام بعد السلام.

قيل:و يمكن أن يكون «سَلاماً» مصدرا بمعنى الوصف و صفه لقليلا،و المعنى:إلاّ قولا هو سالم.

قوله تعالى: وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ شروع فى تفصيل ما انتهى اليه حال أصحاب الميمنه و فى تبديله من أصحاب اليمين يعلم أن أصحاب اليمين و أصحاب الميمنه واحد و هم الذين يؤتون كتابهم بيمينهم.و الجمله استفهاميه مسوقه لتفخيم أمرهم و التعجيب من حالهم و هى خبر لقوله: «وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ» .

قوله تعالی: فِی سِدْرٍ مَخْضُودٍ السدر شجره النبق،و المخضود ما قطع شوکه فلا شوک له.

قوله تعالی: وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ الطلح شجر الموز،و قیل:لیس بالموز بل شجر له ظل بارد رطب،و قیل:شجره ام غیلان لها أنوار طیبه الرائحه،و نضد الأشیاء جعل بعضها علی بعض،و المعنی:و فی شجر موز منضود الثمر بعضه علی بعض من أسفله الی أعلاه.

قوله تعالی: وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ وَ مٰاءٍ مَسْکُوبٍ قیل:الممدود من الظل هو الدائم الذی لا تنسخه شمس فهو باق لا یزول،و الماء المسکوب هو المصبوب الجاری من غیر انقطاع.

قوله تعالی: وَ فٰاکِهَهٍ کَثِیرَهٍ لاٰ مَقْطُوعَهٍ وَ لاٰ مَمْنُوعَهٍ أی لا مقطوعه فی بعض الأزمان کانقطاع الفواکه فی شتاء و نحوه فی الدنیا،و لا ممنوعه التناول لمانع من قبل أنفسهم کسأمه أو شبع أو من خارج کبعد المکان أو شوکه تمنع القطف أو غیر ذلک.

قوله تعالی: وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَهٍ الفرش جمع فراش و هو البساط،و المرفوعه العالیه، و قیل:المراد بالفرش المرفوعه النساء المرتفعات قدرا فی عقولهن و جمالهن و کمالهن و المرأه تسمی فراشا،و یناسب هذا المعنی قوله بعد: «إِنّٰا أَنْشَأْنٰاهُنَّ إِنْشٰاءً» الخ.

قوله تعالی: إِنّٰا أَنْشَأْنٰاهُنَّ إِنْشٰاءً فَجَعَلْنٰاهُنَّ أَبْکٰاراً عُرُباً أَتْرٰاباً أی إنا أوجدناهن و أحدثناهن و ربّیناهن إحداثا و تربیه خاصه،و فیه تلویح الی أنهن لا یختلف حالهن بالشباب و الشیب و صباحه المنظر و خلافها،و قوله: «فَجَعَلْنٰاهُنَّ أَبْکٰاراً» أی خلقناهن عذاری کلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبکارا.

و قوله: عُرُباً أَتْرٰاباً العرب جمع عروب و هی المتحننه الی زوجها أو الغنجه أو العاشقه لزوجها،و الأتراب جمع ترب بالکسر فالسکون بمعنی المثل أی إنهن أمثال أو أمثال فی السن لأزواجهن.

قوله تعالى: لِأَصْحابِ الْيَمِينِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ يتضح معناه بما تقدم،و يستفاد من الآيات أن أصحاب اليمين فى الآخرين جمع كثير كالأولين لكن السابقين المقربين فى الآخرين أقل جمعا منه فى الأولين.

قوله تعالى: وَ أَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ مبتدأ و خبر، و الاستفهام للتعجيب و التهويل،و قد بدّل أصحاب المشأمه من أصحاب الشمال إشاره الى أنهم الذين يؤتون كتابهم بشمالهم كما مرّ نظيره فى أصحاب اليمين.

قوله تعالى: فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لا بارِدٍ وَ لا كَرِيمٍ السموم-على ما فى الكشاف-حر نار ينفذ فى المسام،و الحميم الماء الشديد الحراره، و التنوين فيهما لتعظيم الأمر،و اليحموم الدخان الأسود،و قوله: «لا بارِدٍ وَ لا كَرِيمٍ» الظاهر أنهما صفتان للظل لا ليحموم،و ذلك أن الظل هو الذى يتوقع منه أن يتبرّد بالاستظلال به و يستراح فيه دون الدخان.

قوله تعالى: إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُتْرَفِينَ تعليل لاستقرار أصحاب الشمال فى العذاب،و الإشاره بذلك الى ما ذكر من عذابهم يوم القيامه،و إتراف النعمه الإنسان إبطارها و إطغاؤها له،و ذلك إشغالها نفسه بحيث يغفل عما وراءها فكون الإنسان مترفا تعلقه بما عنده من نعم الدنيا و ما يطلبه منها سواء كانت كثيره أو قليله.

قوله تعالى: وَ كانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ فى المجمع:الحنث نقض العهد المؤكد بالحلف،و الإصرار أن يقيم عليه فلا يقلع عنه.انتهى.و لعل المستفاد من السياق أن إصرارهم على الحنث العظيم هو استكبارهم عن عبوديه ربهم التى عاهدوا اللّه عليها بحسب فطرتهم و أخذ منهم الميثاق عليها فى عالم الذرّ فيطيعون غير ربهم و هو الشرك المطلق.

و قيل:الحنث الذنب العظيم فتوصيفه بالعظيم مبالغه و الحنث العظيم الشرك باللّه،و قيل:

الحنث العظيم جنس المعاصی الکبیره،و قیل:هو القسم علی إنکار البعث المشار الیه بقوله تعالی: وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ لاٰ یَبْعَثُ اللّٰهُ مَنْ یَمُوتُ (النحل/۳۸)،و لفظ الآیه مطلق.

قوله تعالی: وَ کٰانُوا یَقُولُونَ أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ أَ وَ آبٰاؤُنَا الْأَوَّلُونَ قول منهم مبنی علی الاستبعاد و لذا أکدوا استبعاد بعث أنفسهم ببعث آبائهم لأن الاستبعاد فی موردهم آکد،و التقدیر أو آباؤنا الأولون مبعوثون.

قوله تعالی: قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِینَ وَ الْآخِرِینَ لَمَجْمُوعُونَ إِلیٰ مِیقٰاتِ یَوْمٍ مَعْلُومٍ أمر منه تعالی لنبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یجیب عن استبعادهم البعث بتقریره ثم إخبارهم عما یعیشون به یوم البعث من طعام و شراب و هما الزقّوم و الحمیم.

و محصل القول أن الأولین و الآخرین-من غیر فرق بینهم لا کما فرّقوا فجعلوا بعث أنفسهم مستبعدا و بعث آبائهم الأولین أشد استبعادا و آکد-لمجموعون محشورین الی میقات یوم معلوم.

و المیقات ما وقّت به الشیء و هو وقته المعین،و المراد بیوم معلوم یوم القیامه المعلوم عند اللّه فإضافه المیقات الی یوم معلوم بیانیه.

قوله تعالی: ثُمَّ إِنَّکُمْ أَیُّهَا الضّٰالُّونَ الْمُکَذِّبُونَ لَآکِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمٰالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ من تمام کلام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یخبرهم عما ینتهی الیه حالهم یوم القیامه و یعیشون به من طعام و شراب.

و فی خطابهم بالضالین المکذبین إشاره الی ملاک شقائهم و خسرانهم یوم البعث و هو ضلالهم عن طریق الحق و استقرار ذلک فی نفوسهم باستمرارهم عن تکذیبهم و إصرارهم علی الحنث،و لو کانوا ضالین فحسب من غیر تکذیب لکان من المرجو أن ینجوا و لا یهلکوا.

و «مِنْ» فی قوله: «مِنْ شَجَرٍ للابتداء،و فی قوله: «مِنْ زَقُّومٍ» بیانیه و یحتمل أن یکون «مِنْ زَقُّومٍ» بدلا من «مِنْ شَجَرٍ» ،و ضمیر «مِنْهَا» للشجر أو الثمر و کل منهما یؤنث و یذکر و لذا جیء هاهنا بضمیر التأنیث و فی الآیه التالیه فی قوله: «فَشٰارِبُونَ عَلَیْهِ» بضمیر التذکیر، و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: فَشٰارِبُونَ عَلَیْهِ مِنَ الْحَمِیمِ فَشٰارِبُونَ شُرْبَ الْهِیمِ کلمه «علی»للاستعلاء و تفید فی المورد کون الشرب عقیب الأکل من غیر ریث،و الهیم جمع هیماء الإبل التی أصابها الهیام بضم الهاء و هو داء شبه الاستسقاء یصیب الإبل فتشرب الماء حتی تموت أو تسقم سقما شدیدا،و قیل:الهیم الرمال التی لا تروی بالماء.

و المعنی:فشاربون عقیب ما أکلتم من الزقوم من الماء الشدید الحراره فشاربون کشرب الإبل الهیم أو کشرب الرمال الهیم و هذا آخر ما أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یقوله لهم.

قوله تعالی: هٰذٰا نُزُلُهُمْ یَوْمَ الدِّینِ أی یوم الجزاء و النزل ما یقدّم للضیف النازل من طعام و شراب إکراما له،و المعنی:هذا الذی ذکر من طعامهم و شرابهم هو نزل الضالین المکذبین ففی تسمیه ما أعدّ لهم بالنزل نوع تهکّم،و الآیه من کلامه تعالی خطابا للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لو کان من کلام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خطابا لهم لقیل:هذا نزلکم (۱).

[سوره الواقعه (۵۶): الآیات ۵۷ الی ۹۶]

نَحْنُ خَلَقْنٰاکُمْ فَلَوْ لاٰ تُصَدِّقُونَ (۵۷) أَ فَرَأَیْتُمْ مٰا تُمْنُونَ (۵۸) أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ اَلْخٰالِقُونَ (۵۹) نَحْنُ قَدَّرْنٰا بَیْنَکُمُ اَلْمَوْتَ وَ مٰا نَحْنُ بِمَسْبُوقِینَ (۶۰) عَلیٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثٰالَکُمْ وَ نُنْشِئَکُمْ فِی مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (۶۱) وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ اَلنَّشْأَهَ اَلْأُولیٰ فَلَوْ لاٰ تَذَکَّرُونَ (۶۲) أَ فَرَأَیْتُمْ مٰا تَحْرُثُونَ (۶۳) أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ اَلزّٰارِعُونَ (۶۴) لَوْ نَشٰاءُ لَجَعَلْنٰاهُ حُطٰاماً فَظَلْتُمْ تَفَکَّهُونَ (۶۵) إِنّٰا لَمُغْرَمُونَ (۶۶) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (۶۷) أَ فَرَأَیْتُمُ اَلْمٰاءَ اَلَّذِی تَشْرَبُونَ (۶۸) أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ اَلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ اَلْمُنْزِلُونَ (۶۹) لَوْ نَشٰاءُ جَعَلْنٰاهُ أُجٰاجاً فَلَوْ لاٰ تَشْکُرُونَ (۷۰) أَ فَرَأَیْتُمُ اَلنّٰارَ اَلَّتِی تُورُونَ (۷۱) أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهٰا أَمْ نَحْنُ اَلْمُنْشِؤُنَ (۷۲) نَحْنُ جَعَلْنٰاهٰا تَذْکِرَهً وَ مَتٰاعاً لِلْمُقْوِینَ (۷۳) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ اَلْعَظِیمِ (۷۴) فَلاٰ أُقْسِمُ بِمَوٰاقِعِ اَلنُّجُومِ (۷۵) وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِیمٌ (۷۶) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِیمٌ (۷۷) فِی کِتٰابٍ مَکْنُونٍ (۷۸) لاٰ یَمَسُّهُ إِلاَّ اَلْمُطَهَّرُونَ (۷۹) تَنْزِیلٌ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۸۰) أَ فَبِهٰذَا اَلْحَدِیثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (۸۱) وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَکُمْ أَنَّکُمْ تُکَذِّبُونَ (۸۲) فَلَوْ لاٰ إِذٰا بَلَغَتِ اَلْحُلْقُومَ (۸۳) وَ أَنْتُمْ حِینَئِذٍ تَنْظُرُونَ (۸۴) وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْکُمْ وَ لٰکِنْ لاٰ تُبْصِرُونَ (۸۵) فَلَوْ لاٰ إِنْ کُنْتُمْ غَیْرَ مَدِینِینَ (۸۶) تَرْجِعُونَهٰا إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۸۷) فَأَمّٰا إِنْ کٰانَ مِنَ اَلْمُقَرَّبِینَ (۸۸) فَرَوْحٌ وَ رَیْحٰانٌ وَ جَنَّهُ نَعِیمٍ (۸۹) وَ أَمّٰا إِنْ کٰانَ مِنْ أَصْحٰابِ اَلْیَمِینِ (۹۰) فَسَلاٰمٌ لَکَ مِنْ أَصْحٰابِ اَلْیَمِینِ (۹۱) وَ أَمّٰا إِنْ کٰانَ مِنَ اَلْمُکَذِّبِینَ اَلضّٰالِّینَ (۹۲) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِیمٍ (۹۳) وَ تَصْلِیَهُ جَحِیمٍ (۹۴) إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ حَقُّ اَلْیَقِینِ (۹۵) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ اَلْعَظِیمِ (۹۶)

۱- ۱) .الواقعه ۱۱-۵۶:بحث روائی فی أصحاب الجنّه؛طعام أهل الجنّه؛أصحاب الیمین؛سدر مخضود؛الجنه و أهلها.

بيان:

قوله تعالى: نَحْنُ خَلَقْنٰاكُمْ فَلَوْ لاٰ تُصَدِّقُونَ السياق سياق الكلام فى البعث و الجزاء و قد أنكروه و كذبوا به،فقوله: «فَلَوْ لاٰ تُصَدِّقُونَ» تحضيض على تصديق حديث المعاد و ترك التكذيب به،و قد علله بقوله: «نَحْنُ خَلَقْنٰاكُمْ» كما يستفاد من التفريع الذى فى قوله: «فَلَوْ لاٰ تُصَدِّقُونَ» .

و إيجاب خلقه تعالى لهم وجوب تصديقه فيما يخبر به من المعاد من وجهين:أحدهما:أنه تعالى خلقهم أول مره فهو قادر على إعاده خلقهم ثانيا كما قال: قٰالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظٰامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (يس/۷۹).

و ثانيهما:أنه تعالى لما كان هو خالقهم و هو المدبر لأمرهم المقدر لهم خصوصيات خلقهم و أمرهم فهو أعلم بما يفعل بهم و سيجرى عليهم فإذا أنبأهم بأنه سيبعثهم بعد موتهم و يجزيهم بما عملوا إن خيرا و إن شرا لم يكن بدّ من تصديقه فلا عذر لمن كذب بما أخبر به كتابه من البعث و الجزاء،قال تعالى: أَ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الملك/۱۴)،و قال:

كَمٰا بَدَأْنٰا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنٰا إِنّٰا كُنّٰا فٰاعِلِينَ (الأنبياء/۱۰۴)،و قال: وَعْدَ اللّٰهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّٰهِ قِيلاً (النساء/۱۲۲).

فمحصل الآيه:نحن خلقناكم و نعلم ما فعلنا و ما سنفعل بكم فنخبركم أنّا سنبعثكم و نجزيكم بما عملتم فهلاّ تصدقون بما نخبركم به فيما أنزلناه من الكتاب.

قوله تعالى: أَ فَرَأَيْتُمْ مٰا تُمْنُونَ الإمناء قذف المنى و صبّه و المراد قذفه و صبّه فى الأرحام،و المعنى:أ فرأيتم المنى الذى تصبونه فى أرحام النساء.

قوله تعالى: أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخٰالِقُونَ أى أ أنتم تخلقونه بشرا مثلكم أم نحن خالقوه بشرا.

قوله تعالى: نَحْنُ قَدَّرْنٰا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَ مٰا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ تدبير أمر الخلق بجميع شئونه و خصوصياته من لوازم الخلق بمعنى إفاضه الوجود فوجود الإنسان المحدود بأول كينونته الى آخر لحظه من حياته الدنيا بجميع خصوصياته التى تتحول عليه بتقدير من خالقه عزّ و جل.فموته أيضا كحياته بتقدير منه،و ليس يعتريه الموت لنقص من قدره خالقه أن يخلقه بحيث لا يعتريه الموت أو من جهه أسباب و عوامل تؤثر فيه بالموت فتبطل الحياه التى أفاضها عليه خالقه تعالى فإن لازم ذلك أن تكون قدرته تعالى محدوده ناقصه و أن يعجزه بعض الأسباب و تغلب إرادته إرادته و هو محال كيف؟و القدره مطلقه و الإراده غير مغلوبه.

قوله تعالى: عَلىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثٰالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ «عَلىٰ» متعلقه بقوله: «قَدَّرْنٰا» و جمله الجار و المجرور فى موضع الحال أى نحن قدرنا بينكم الموت حال كونه على أساس تبديل الأمثال و الإنشاء فيما لا تعلمون.

و الأمثال جمع مثل بالكسر فالسكون و مثل الشىء ما يتحد معه فى نوعه كالفرد من الإنسان بالنسبه الى فرد آخر،و المراد بقوله: «أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثٰالَكُمْ» أن نبدل أمثالكم من البشر منكم أو نبدل أمثالكم مكانكم،و المعنى على أى حال تبديل جماعه من أخرى و جعل الأخلاف مكان الأسلاف.

و قوله: وَ نُنْشِئَكُمْ فِي مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ «مٰا» موصوله و المراد به الخلق و الجمله معطوفه على «نُبَدِّلَ» و التقدير و على أن ننشئكم و نوجدكم فى خلق آخر لا تعلمونه و هو الوجود الاخروى غير الوجود الدنيوى الفانى.

و محصل معنى الآيتين أن الموت بينكم إنما هو بتقدير منا لا لنقص فى قدرتنا بأن لا يتيسر لنا إدامه حياتكم و لا لغلبه الأسباب المهلكه المبيده و قهرها و تعجيزها لنا فى حفظ حياتكم و إنما قدرناه بينكم على أساس تبديل الأمثال و إذهاب قوم و الإتيان بآخرين و إنشاء خلق

لکم یناسب الحیاه الآخره وراء الخلق الدنیوی الداثر فالموت انتقال من دار الی دار و تبدّل خلق الی خلق آخر و لیس بانعدام و فناء.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَهَ الْأُولیٰ فَلَوْ لاٰ تَذَکَّرُونَ المراد بالنشأه الاولی نشأه الدنیا،و العلم بها بخصوصیاتها یستلزم الإذعان بنشأه اخری خالده فیها الجزاء،فإن من المعلوم من النظام الکونی أن لا لغو و لا باطل فی الوجود فلهذا النشأه الفانیه غایه باقیه، و أیضا من ضروریات هذا النظام هدایه کل شیء الی سعاده نوعه و هدایه الإنسان تحتاج الی بعث الرسل و تشریع الشرائع و توجیه الأمر و النهی،و الجزاء علی خیر الأعمال و شرّها و لیس فی الدنیا فهو فی دار اخری و هی النشأه الآخره (۱).

علی أنهم شاهدوا النشأه الاولی و عرفوها و علموا أن الذی أوجدها عن کتم العدم هو اللّه سبحانه و إذ قدر علیها أولا فهو علی إیجاد مثلها ثانیا قادر،قال تعالی: قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّهٍ (یس۷۹/)،و هذا برهان علی الإمکان یرتفع به استبعادهم للبعث.

و بالجمله یحصل لهم بالعلم بالنشأه الاولی علم بمبادئ البرهان علی إمکان البعث فیرتفع به استبعاد البحث فلا استبعاد مع الإمکان.

و هذا-کما تری-و برهان علی إمکان حشر الأجساد،محصله أن البدن المحشور مثل البدن الدنیوی و إذ جاز صنع البدن الدنیوی و إحیاؤه فلیجز صنع البدن الاخروی و إحیاؤه لأنه مثله و حکم الأمثال فیما یجوز و فیما لا یجوز واحد.

قوله تعالی: أَ فَرَأَیْتُمْ مٰا تَحْرُثُونَ -الی قوله- مَحْرُومُونَ بعد ما ذکّرهم بکیفیه خلق أنفسهم و تقدیر الموت بینهم تمهیدا للبعث و الجزاء و کل ذلک من لوازم ربوبیّته عدّ لهم امورا ثلاثه من أهم ما یعیشون به فی الدنیا و هی الزرع الذی یقتاتون به و الماء الذی یشربونه

۱- ۱) .الآیه ۲۷ و ۲۸ من سوره ص.

و النار التی یصطلون بها و یتوسلون بها الی جمل من مآربهم،و تثبت بذلک ربوبیته لهم فلیست الربوبیه إلاّ التدبیر عن ملک.

فقال: أَ فَرَأَیْتُمْ مٰا تَحْرُثُونَ الحرث العمل فی الأرض و إلقاء البذر علیها «أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ» أی تنبتونه و تنمونه حتی یبلغ الغایه،و ضمیر «تَزْرَعُونَهُ» للبذر أو الحرث المعلوم من المقام «أَمْ نَحْنُ الزّٰارِعُونَ» المنبتون المنمون حتی یکمل زرعا «لَوْ نَشٰاءُ لَجَعَلْنٰاهُ حُطٰاماً» أی هشیما متکسرا متفتتا «فَظَلْتُمْ» أی فظللتم و صرتم «تَفَکَّهُونَ» أی تتعجبون مما أصیب به زرعکم و تتحدثون بما جری قائلین «إِنّٰا لَمُغْرَمُونَ» موقعون فی الغرامه و الخساره ذهب مالنا و ضاع وقتنا و خاب سعینا «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» ممنوعون من الرزق و الخیر.

و لا منافاه بین نفی الزرع عنهم و نسبته الیه تعالی و بین توسّط عوامل و أسباب طبیعیه فی نبات الزرع و نموّه فإن الکلام عائد فی تأثیر هذه الأسباب و صنعها،و لیس نحو تأثیرها باقتضاء من ذاتها منقطعه عنه تعالی بل بجعله و وضعه و موهبته،و کذا الکلام فی أسباب هذه الأسباب،و ینتهی الأمر الی اللّه سبحانه و أن الی ربک المنتهی.

قوله تعالی: أَ فَرَأَیْتُمُ الْمٰاءَ الَّذِی تَشْرَبُونَ -الی قوله- فَلَوْ لاٰ تَشْکُرُونَ المزن السحاب،و قوله: «فَلَوْ لاٰ تَشْکُرُونَ» تحضیض علی الشکر،و شکره تعالی جمیل ذکره تعالی علی نعمه و هو إظهار عبودیته قولا و عملا.و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: أَ فَرَأَیْتُمُ النّٰارَ الَّتِی تُورُونَ -الی قوله- وَ مَتٰاعاً لِلْمُقْوِینَ قال فی المجمع:الإیراء إظهار النار بالقدح،یقال:أوری یوری،قال:و یقال:قدح فأوری إذا أظهر فإذا لم یور یقال:قدح فأکبی،و قال:و المقوی النازل بالقواء من الأرض لیس بها أحد، و أقوت الدار خلت من أهلها.انتهی.و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِیمِ خطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.لما ذکر سبحانه شواهد ربوبیته لهم و أنه الذی یخلقهم و یدبر أمرهم و من تدبیره أنه سیبعثهم و یجزیهم بأعمالهم

و هم مكـذبون بذلك أعرض عن خطابهم و التفت الى خطاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إشعارا بأنهم لا يفقهون القول فأمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن ينزهه تعالى عن إشراكهم به و إنكارهم البعث و الجزاء.

فقوله: فَسَبِّحْ بِاسْمِ الخ؛الفاء لتفريع التسبيح على ما تقدم من البيان،و الباء للاستعانه أو الملابسه،و المعنى:فإذا كان كذلك فسبح مستعينا بـذكر اسم ربك،أو المراد بالاسم الـذكر لأن إطلاق اسم الشـىء ذكر له كما قيل أو الباء للتعـديه لأن تنزيه اسم الشـىء تنزيه له،و المعنى:نزّه اسم ربك من أن تذكر له شريكا أو تنفى عنه البعث و الجزاء،و العظيم صفه الرب أو الاسم.

قوله تعالى: فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوٰاقِعِ النُّجُومِ «فَلاَ أُقْسِمُ» قسم و قيل:لا زائده و اقسم هو القسم،و قيل:لا نافيه و اقسم هو القسم.

و «بِمَوٰاقِعِ» جمع موقع و هو المحل،و المعنى:اقسم بمحالّ النجوم من السـماء،و قيل:مواقع جمع موقع مصدر ميمى بمعنى السقوط يشير به الى سقوط الكواكب يوم القيامه أو وقوع الشهب على الشياطين،أو مساقط الكواكب فى مغاربها،و أول الوجوه هو السابق الى الذهن.

قوله تعالى: وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ تعظيم لهذا القسم و تأكيد على تأكيد.

قوله تعـالى: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ -الى قوله- رَبِّ الْعٰالَمِينَ لمـا كـان إنكـارهم حـديث وحـدانيته تعـالى فى ربوبيته و ألوهيته و كـذا إنكارهم للبعث و الجزاء إنما أبدوه بإنكار القرآن النازل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى فيه نبأ التوحيد و البعث كان إنكارهم منشعبا الى إنكار أصل التوحيد و البعث أصـلا،و الى إنكار ذلك بما أن القرآن يتنبّئهم به،فأورد تعالى أولا بيانا لإثبات أصل الوحـدانيه و البعث بـذكر شواهـد من آياته تثبت ذلك و هو قوله: «نَحْنُ خَلَقْنٰاكُمْ -الى قوله- وَ مَتٰاعاً لِلْمُقْوِينَ» ،و ثانيا بيانا يؤكد فيه كون القرآن الكريم كلامه المحفوظ عنده النازل منه و وصفه بأحسن أوصافه.

فقوله: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ جواب للقسم السابق،الضمير للقرآن المعلوم من السياق السابق و يستفاد من توصيفه بالكريم من غير تقييد فى مقام المدح أنه كريم على اللّه عزيز عنده و كريم محمود الصفات و كريم بذّال نفّاع للناس لما فيه من اصول المعارف التى فيها سعاده الدنيا و الآخره.

و قوله: فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ وصف ثان للقرآن أى محفوظ مصون عن التغيير و التبديل،و هو اللوح المحفوظ كما قال تعالى: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (البروج/ ٢٢).

و قوله: لاٰ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ صفه الكتاب المكنون و يمكن أن يكون وصفا ثالثا للقرآن و مآل الوجهين على تقدير كون لا نافيه واحد.

و المعنى:لا يمسّ الكتاب المكنون الذى فيه القرآن إلّا المطهرون أو لا يمس القرآن الذى فى الكتاب إلّا المطهرون.

و الكلام على أى حال مسوق لتعظيم أمر القرآن و تجليله فمسّه هو العلم به و هو فى الكتاب المكنون كما يشير اليه قوله: إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (الزخرف/۴).

و المطهرون-اسم مفعول من التطهير-هم الذين طهّر اللّه تعالى نفوسهم من أرجاس المعاصى و قذارات الذنوب أو مما هو أعظم من ذلك و أدق و هو تطهير قلوبهم من التعلق بغيره تعالى،و هذا المعنى من التطهير هو المناسب للمسّ الذى هو العلم دون الطهاره من الخبيث أو الحدث كما هو ظاهر.

فالمطهرون هم الذين أكرمهم اللّه تعالى بتطهير نفوسهم كالملائكه الكرام و الذين طهّرهم اللّه من البشر،قال تعالى: إِنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (الأحزاب/٣٣)،و لا وجه لتخصيص المطهرين بالملائكه كما عن جلّ المفسرين

ص:١٩٢

لكونه تقييدا من غير مقيّد.

و ربما جعل «لاٰ» فى «لاٰ يَمَسُّهُ» ناهيه،و المراد بالمس على هذا مس كتابه القرآن، و بالطهاره الطهاره من الحدث أو الحدث و الخبث جميعا-و قرئ «الْمُطَهَّرُونَ» بتشديد الطاء و الهاء و كسر الهاء أى المتطهّرون-و مدلول الآيه تحريم مسّ كتابه القرآن على غير طهاره.

و يمكن حمل الآيه على هدا المعنى على تقدير كون «لاٰ» نافيه بأن تكون الجمله إخبارا أريد به الإنشاء و هو أبلغ من الإنشاء.

و قوله: تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِينَ وصف آخر للقرآن،و المصدر بمعنى اسم المفعول أى منزل من عند اللّه اليكم تفتهمونه و تعقلونه بعد ما كان فى كتاب مكنون لا يمسه إلاّ المطهرون.

و التعبير عنه تعالى برب العالمين للإشاره الى أن ربوبيته تعالى منبسطه على جميع العالمين و هم من جملتهم فهو تعالى ربهم و إذا كان ربهم كان عليهم أن يؤمنوا بكتابه و يصغوا لكلامه و يصدقوه من غير تكذيب.

قوله تعالى: أَ فَبِهٰذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ الإشاره بهذا الحديث الى القرآن، و الإدهان به التهاون به و أصله التليين بالدهن استعير للتهاون،و الاستفهام للتوبيخ يوبخهم تعالى على عدّهم أمر القرآن هينا لا يعتنى به.

قوله تعالى: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ قيل:المراد بالرزق حظهم من الخير،و المعنى:و تجعلون حظكم من الخير الذى لكم أن تنالوه بالقرآن أنكم تكذبون به أى تضعونه موضعه،و قيل:المراد بالرزق القرآن رزقهم اللّه إياه،و المعنى:تأخذون التكذيب مكان هذا الرزق الذى رزقتموه،و قيل:الكلام بحذف مضاف و التقدير:و تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون أى وضعتم التكذيب موضع الشكر.

قوله تعالى: فَلَوْ لاٰ إِذٰا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ -الى قوله- صٰادِقِينَ رجوع الى أول

الکلام بالتفریع علی تکـذیبهم بأنکم إن کنتم صادقین فی نفیکم للبعث مصـیبین فی تکـذیبهم لهـذا القرآن الذی ینبئکم بالبعث رددتم نفس المحتضـر التی بلغت الحلقوم إذ لو لم یکن الموت بتقـدیر من اللّه کان من الامور الاتفاقیه التی ربما أمکن الاحتیال لدفعها،فإذ لم تقدروا علی رجوعها و إعاده الحیاه معها فاعلموا أن الموت حتی مقدّر من اللّه لسوق النفوس الی البعث و الجزاء.

فقوله: فَلَوْ لاٰ إِذٰا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ تفریع علی تکـذیبهم بالقرآن و بما أخبر به من البعث و الجزاء،و لو لا للتحضـیض تعجیزا و تبکیتا لهم،و ضمیر «بَلَغَتِ» للنفس،و بلوغ النفس الحلقوم کنایه عن الإشراف التام للموت.

و قوله: وَ أَنْتُمْ حِینَئِذٍ تَنْظُرُونَ أی تنظرون الی المحتضر أی هو بمنظر منکم.

و قوله: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْکُمْ وَ لٰکِنْ لاٰ تُبْصِرُونَ أی و الحـال أنا أقرب الیه منکم لإحاطتنا به وجودا و رسـلنا القابضون لروحه أقرب الیه منکم و لکن لا تبصروننا و لا رسلنا.

قال تعالی: اَللّٰهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِهٰا (الزمر/۲۶)،و قال: قُلْ یَتَوَفّٰاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ (السجده/۱۱)،و قال: حَتّٰی إِذٰا جٰاءَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا (الأنعام/۶۱).

و قوله: فَلَوْ لاٰ إِنْ کُنْتُمْ غَیْرَ مَدِینِینَ تکرار «فَلَوْ لاٰ» لتأکیـد «فَلَوْ لاٰ» السـابقه، و «مَدِینِینَ» أی مجزیین من دان یـدین بمعنی جزی یجزی،و المعنی:إن کنتم غیر مجزیّین ثوابا و عقابا بالبعث.

و قـوله: تَرْجِعُونَهٰا إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ أی إن کنتم صـادقین فی دعواکم أن لا بعث و لا جزاء،و قوله: «تَرْجِعُونَهٰا» مـدخول لو لا التحضیضیه بحسب التقدیر و ترتیب الآیات بحسب التقدیر فلو لا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن کنتم مدینین.

قوله تعالی: فَأَمّٰا إِنْ كٰانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَ رَيْحٰانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ رجوع الی بیان حال الأزواج الثلاثه المذکوره فی أول السوره عند الموت و بعده و ضمیر «كٰانَ» للمتوفی المعلوم من السیاق،و المراد بالمقرّبین السابقون المقربون المذکورون سابقا، و الروح الراحه،و الریحان الرزق،و قیل:هو الریحان المشموم من ریحان الجنه یؤتی به الیه فیشمه و یتوفی.

و المعنی:فأما إن کان المتوفی من المقربین فله-أو فجزاؤه-راحه من کل همّ و غمّ و ألم و رزق من رزق الجنه و جنه نعیم.

قوله تعالی: وَ أَمّٰا إِنْ كٰانَ مِنْ أَصْحٰابِ الْيَمِينِ فَسَلاٰمٌ لَكَ مِنْ أَصْحٰابِ الْيَمِينِ یمکن أن یکون اللام للاختصاص الملکی و معنی «فَسَلاٰمٌ لَكَ» أنک تختص بالسلام من أصحاب الیمین الذین هم قرناؤک و رفقاؤک فلا تری منهم إلاّ خیرا و سلاما.

قوله تعالی: وَ أَمّٰا إِنْ كٰانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضّٰالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ تصلیه النار الإدخال فیها،و قیل:مقاساه حرّها و عذابها.

و المعنی:و أما إن کان من أهل التکذیب و الضلال فلهم نزل من ماء شدید الحراره، و مقاساه حر نار جحیم.

و قد وصفهم اللّه بالمکذبین الضالین فقدم التکذیب علی الضلال لأن ما یلقونه من العذاب تبعه تکذیبهم و عنادهم للحق و لو کان ضلالا بلا تکذیب و عناد کانوا مستضعفین غیر نازلین هذه المنزله،و أما قوله سابقا: «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضّٰالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ» فإذ کان المقام هناک مقام الردّ لقولهم: «أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ» الخ؛کان الأنسب توصیفهم أولا بالضلال ثم بالتکذیب.

قوله تعالی: إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ الحق هو العلم من حیث إن الخارج الواقع یطابقه،و الیقین هو العلم الذی لا لبس فیه و لا ریب فإضافه الحق الی الیقین نحو من الإضافه

البيانيه جیء بها للتأکید.

و المعنی:أن هذا الذی ذکرناه من حال أزواج الناس الثلاثه هو الحق الذی لا تردّد فیه و العلم الذی لا شک یعتریه.

قوله تعالی: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِیمِ تقدم تفسیره،و هو تفریع علی ما تقدمه من صفه القرآن و بیان حال الأزواج الثلاثه بعد الموت و فی الحشر.

و المعنی:فإذا کان القرآن علی هذه الصفات و صادقا فیما ینبّئ به من حال الناس بعد الموت فنزّه ربک العظیم مستعینا أو ملابسا باسمه و انف ما یراه و یدّعیه هؤلاء المکذبون الضالون (۱).

---

۱ – ۱) .الواقعه ۵۷-۹۶:بحث روائی حول قوله تعالی: «أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزّارِعُونَ» ؛نزول القرآن؛الکتاب المکنون؛نعیم الجنّه.

سوره الحدید مدنیه و هی تسع و عشرون آیه

اشاره

[سوره الحدید (۵۷): الآیات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;سَبَّحَ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۱) لَهُ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ یُحْیِی وَ یُمِیتُ وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۲) هُوَ اَلْأَوَّلُ وَ اَلْآخِرُ وَ اَلظّٰاهِرُ وَ اَلْبٰاطِنُ وَ هُوَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۳) هُوَ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ ثُمَّ اِسْتَویٰ عَلَی اَلْعَرْشِ یَعْلَمُ مٰا یَلِجُ فِی اَلْأَرْضِ وَ مٰا یَخْرُجُ مِنْهٰا وَ مٰا یَنْزِلُ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ مٰا یَعْرُجُ فِیهٰا وَ هُوَ مَعَکُمْ أَیْنَ مٰا کُنْتُمْ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۴) لَهُ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ إِلَی اَللّٰهِ تُرْجَعُ اَلْأُمُورُ (۵) یُولِجُ اَللَّیْلَ فِی اَلنَّهٰارِ وَ یُولِجُ اَلنَّهٰارَ فِی اَللَّیْلِ وَ هُوَ عَلِیمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۶)

ص: ۱۹۷

بیان:

غرض السوره حثّ المؤمنين و ترغيبهم فی الإنفاق فی سبيل اللّه كما يشعر به تأكيد الأمر به مره بعد مره فی خلال آياتها آمِنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ الآيه؛ مَنْ ذَا الَّذِی يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً الآيه؛ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقاتِ وَ أَقْرَضُوا اللّهَ قَرْضاً حَسَناً و قد صمّت إنفاقهم ذلك إقراضا منه للّه عز اسمه فاللّه سبحانه خير مطلوب و هو لا يخلف الميعاد و قد وعدهم إن أقرضوه أن يضاعفه لهم و أن يؤتيهم أجرا كريما كثيرا.

و قد أشار الی أن هذا الإنفاق من التقوی و الإيمان بالرسول و أنه يستتبع مغفره الذنوب و إتيان كفلين من الرحمه و لزوم النور بل و اللحوق بالصدّيقين و الشهداء عند اللّه سبحانه.

و فی خلال آياتها معارف راجعه الی المبدأ و المعاد،و دعوه الی التقوی و إخلاص الإيمان و الزهد و موعظه.

و السوره مدنيه بشهاده سياق آياتها و قد ادّعی بعضهم إجماع المفسرين علی ذلك.

و لقد افتتحت السوره بتسبيحه و تنزيهه تعالی بعدّه من أسمائه الحسنی لما فی غرض السوره و هو الحثّ علی الإنفاق من شائبه توهم الحاجه و النقص فی ناحيته و نظيرتها فی ذلك جميع السور المفتتحه بالتسبيح و هی سور الحشر و الصف و الجمعه و التغابن المصدّره بسبّح أو يسبّح.

قوله تعالی: سَبَّحَ لِلّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ التسبيح التنزيه و هو نفی ما يستدعی نقصا أو حاجه مما لا يليق بساحه كماله تعالی،و «ما» موصوله و المراد بها ما يعمّ العقلاء مما فی السماوات و الأرض كالملائكه و الثقلين و غير العقلاء كالجمادات و الدليل عليه ما ذكر بعد من صفاته المتعلقه بالعقلاء كالإحياء و العلم بذات الصدور.

فالمعنی:نزّه اللّه سبحانه ما فی السماوات و الأرض من شیء و هو جمیع العالم.

و المراد بتسبیحها حقیقه معنی التسبیح دون المعنی المجازی الذی هو دلاله وجود کل موجود فی السماوات و الأرض علی أن له موجدا منزّها من کل نقص متصفا بکل کمال،و دون عموم المجاز و هو دلاله کل موجود علی تنزهه تعالی إما بلسان القال کالعقلاء و إما بلسان الحال کغیر العقلاء من الموجودات و ذلک لقوله تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰکِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِیحَهُمْ (الإسراء۴۴/)،حیث استدرک أنهم لا یفقهون تسبیحهم و لو کان المراد بتسبیحهم دلاله علی وجودهم علی وجوده و هی قیام الحجه علی الناس بوجودهم أو کان المراد تسبیحهم و تحمیدهم بلسان الحال و ذلک مما یفقه الناس لم یکن للاستدراک معنی.

فتسبیح ما فی السماوات و الأرض تسبیح و نطق بالتنزیه بحقیقه معنی الکلمه و إن کنا لا نفقهه،قال تعالی: قٰالُوا أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ (حم السجده۲۱/).

و قوله: وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ أی المنیع جانبه یغلب و لا یغلب،المتقن فعله لا یعرض علی فعله ما یفسده علیه و لا یتعلق به اعتراض معترض.

قوله تعالی: لَهُ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ یُحْیِی وَ یُمِیتُ وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ الکلام موضوع علی الحصر فهو الملیک فی السماوات و الأرض یحکم ما یشاء لأنه الموجد لکل شیء فما فی السماوات و الأرض یقوم به وجوده و آثار وجوده فلا حکم إلاّ له فلا ملک و لا سلطنه إلاّ له.

و قوله: یُحْیِی وَ یُمِیتُ إشاره الی اسمیه المحیی و الممیت،و إطلاق «یُحْیِی وَ یُمِیتُ» یفید شمولهما لکل إحیاء و إماته کإیجاده الملائکه أحیاء من غیر سبق موت،و إحیائه الجنین فی بطن أمه و إحیائه الموتی فی البعث و إیجاده الجماد میتا من غیر سبق حیاه و إماتته الإنسان فی الدنیا و إماتته ثانیا فی البرزخ علی ما یشیر الیه قوله: رَبَّنٰا أَمَتَّنَا اثْنَتَیْنِ وَ أَحْیَیْتَنَا اثْنَتَیْنِ

(المؤمن/۱۱)،و فی «يُحْيِی وَ يُمِيتُ» دلاله علی الاستمرار.

و قوله: وَ هُوَ عَلَی كُلِّ شَیْ‌ءٍ قَدِيرٌ فيه إشاره الی صفه قدرته و أنها مطلقه غير مقيده بشیء دون شیء،و فی تذييل الآيه بالقدره علی كل شیء مناسبه مع ما تقدمها من الإحياء و الإماته لما ربما يتوهمه المتوهم أن لا قدره علی إحياء الموتی و لا عين منهم و لا أثر.

قوله تعالی: هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَیْ‌ءٍ عَلِيمٌ لما كان تعالی قديرا علی كل شیء مفروض كان محيطا بقدرته علی كل شیء من كل جهه فكل ما فرض أولا فهو قبله فهو الأول دون الشیء المفروض أولا،و كل ما فرض آخرا فهو بعده لإحاطه قدرته به من كل جهه فهو الآخر دون الشیء المفروض آخرا،و كل شیء فرض ظاهرا فهو أظهر منه لإحاطه قدرته به من فوقه فهو الظاهر دون المفروض ظاهرا،و كل شیء فرض أنه باطن فهو تعالی أبطن منه لإحاطته به من ورائه فهو الباطن دون المفروض باطنا فهو تعالی الأول و الآخر و الظاهر و الباطن علی الإطلاق و ما فی غيره تعالی من هذه الصفات فهی إضافيه نسبيه.

و ليست أوليته تعالی و لا آخريته و لا ظهوره و لا بطونه زمانيه و لا مكانيه بمعنی مظروفيته فهما و إلاّ لم يتقدمهما و لا تنزه عنهما سبحانه بل هو محيط بالأشياء علی أی نحو فرضت و كيفما تصوّرت.

فبان مما تقدم أن هذه الأسماء الأربعه الأول و الآخر و الظاهر و الباطن من فروع اسمه المحيط و هو فرع إطلاق القدره فقدرته محيطه بكل شیء و يمكن تفريع الأسماء الأربعه علی إحاطه وجوده بكل شیء فإنه تعالی ثابت قبل ثبوت كل شیء و ثابت بعد فناء كل شیء و أقرب من كل شیء ظاهر و أبطن من الأوهام و العقول من كل شیء خفی باطن.

و كذا للأسماء الأربعه نوع تفرع علی علمه تعالی و يناسبه تذييل الآيه بقوله: «وَ هُوَ بِكُلِّ شَیْ‌ءٍ عَلِيمٌ» .

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ تقدم تفسيره.

قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا تقدّم تفصيل القول فى معنى العرش فى سوره الأعراف آيه:۵۴.

و تقدم أن الاستواء على العرش كنايه على الأخذ فى تدبير الملك و لذا عقبه بالعلم بجزئيات الأحوال لأن العلم من لوازم التدبير.

و قوله: يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا الولوج-كما قال الراغب-الدخول فى مضيق،و العروج ذهاب فى صعود،و المعنى:يعلم ما يدخل و ينفذ فى الأرض كماء المطر و البذور و غيرهما و ما يخرج من الأرض كأنواع النبات و الحيوان و الماء و ما ينزل من السماء كالأمطار و الأشعه و الملائكه و ما يعرج فيها و يصعد كالأبخره و الملائكه و أعمال العباد.

قوله تعالى: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ لإحاطته بكم فلا تغيبون عنه أينما كنتم و فى أى زمان عشتم و فى أى حال فرضتم فذكر عموم الأمكنه «أَيْنَ مَا كُنْتُمْ» لأن الأعرف فى مفارقه شىء شيئا و غيبته عنه أن يتوسل الى ذلك بتغيير المكان و إلاّ فنسبته تعالى الى الأمكنه و الأزمنه و الأحوال سواء.

و قيل:المعيّه مجاز مرسل عن الإحاطه العلميه.

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ كالفرع المترتب على ما قبله من كونه معهم أينما كانوا و كونه بكل شىء عليما فإن لازم حضوره عندهم من دون مفارقه ما و احتجاب و هو عليم أن يكون بصيرا بأعمالهم يبصر ظاهر عملهم،و ما فى باطنهم من نيّه و قصد.

قوله تعالى: لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كرر

قوله: «لَهُ مُلْكُ» الخ؛لابتناء رجوع الأشياء اليه على عموم الملك فصرّح به ليفيد الابتناء، قال تعالى: يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّٰهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ (المؤمن١٦/).

و قوله: وَ إِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ الامور جمع محلّى باللام يفيد العموم كقوله:

أَلاٰ إِلَى اللّٰهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (الشورى٥٣/)،فما من شىء إلّا و يرجع الى اللّه،و لا رادّ اليه تعالى إلّا هو لاختصاص الملك به فله الأمر و له الحكم.

و فى الآيه وضع الظاهر موضع الضمير فى «إِلَى اللّٰهِ» و كذا فى الآيه السابقه «وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» و لعل الوجه فى ذلك أن تقرع الجملتان قلوبهم كما يقول المثل السائر لما سيجىء من ذكر يوم القيامه و جزيل أجر المنفقين فى سبيل اللّه فيه.

قوله تعالى: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهٰارِ وَ يُولِجُ النَّهٰارَ فِي اللَّيْلِ وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ إيلاج الليل فى النهار و إيلاج النهار فى الليل اختلاف الليل و النهار فى الطول و القصر باختلاف فصول السنه فى كل من البقاع الشماليه و الجنوبيه بعكس الاخرى، و قد تقدم فى كلامه تعالى غير مره.

و المراد بذات الصدور الأفكار المضمره و النيّات المكنونه التى تصاحب الصدور و تلازمها لما أنها تنسب الى القلوب و القلوب فى الصدور،و الجمله أعنى قوله: «وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ» بيان لإحاطه علمه بما فى الصدور بعد بيان إحاطه بصره بظواهر أعمالهم بقوله:

«وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»

(١)

.

[سوره الحديد (٥٧): الآيات ٧ الى ١٥]

آمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمّٰا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَ مٰا لَكُمْ لاٰ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَ قَدْ أَخَذَ مِيثٰاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ اَلَّذِي يُنَزِّلُ عَلىٰ عَبْدِهِ آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ اَلظُّلُمٰاتِ إِلَى اَلنُّورِ وَ إِنَّ اَللّٰهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٩) وَ مٰا لَكُمْ أَلاّٰ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ لِلّٰهِ مِيرٰاثُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ لاٰ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ اَلْفَتْحِ وَ قٰاتَلَ أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ اَلَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قٰاتَلُوا وَ كُلاًّ وَعَدَ اَللّٰهُ اَلْحُسْنىٰ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا اَلَّذِي يُقْرِضُ اَللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضٰاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) يَوْمَ تَرَى اَلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ يَسْعىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمٰانِهِمْ بُشْرٰاكُمُ اَلْيَوْمَ جَنّٰاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا ذٰلِكَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ اَلْمُنٰافِقُونَ وَ اَلْمُنٰافِقٰاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا اُنْظُرُونٰا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ اِرْجِعُوا وَرٰاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بٰابٌ بٰاطِنُهُ فِيهِ اَلرَّحْمَةُ وَ ظٰاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ اَلْعَذٰابُ (١٣) يُنٰادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قٰالُوا بَلىٰ وَ لٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ اِرْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ اَلْأَمٰانِيُّ حَتّٰى جٰاءَ أَمْرُ اَللّٰهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللّٰهِ اَلْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لاٰ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لاٰ مِنَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوٰاكُمُ اَلنّٰارُ هِيَ مَوْلاٰكُمْ وَ

بِئْسَ اَلْمَصِيرُ (۱۵)

۱- ۱) .الحدید ۱-۶:بحث روائی فی المسبحات؛التوحید؛صفات اللّه.

بیان:

قوله تعالی: آمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمّٰا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ الخ؛المستفاد من سياق الآيات أن الخطاب فی الآيه للمؤمنين باللّه و رسوله لا للكفار و لا للمؤمنين و الكفار جميعا كما قيل،و أمر الذين تلبّسوا بالإيمان باللّه و رسوله بالإيمان معناه الأمر بتحقيق الإيمان بترتيب آثاره عليه إذ لو كانت صفه من الصفات كالسخاء و العفه و الشجاعه ثابته فی نفس الإنسان حقّ ثبوتها لم يتخلف عنها أثرها الخاص و من آثار الإيمان باللّه و رسوله الطاعه فيما أمر اللّه و رسوله به.

و قوله: وَ أَنْفِقُوا مِمّٰا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ استخلاف الإنسان جعله خليفه،و المراد به إما خلافتهم عن اللّه سبحانه يخلفونه فی الأرض كما يشير اليه قوله: إِنِّي جٰاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقره۳۰/)،و التعبير عما بأيديهم من المال بهذا التعبير لبيان الواقع و لترغيبهم فی الإنفاق فإنهم إذا أيقنوا أن المال للّه و هم مستخلفون عليه وكلاء من ناحيته يتصرفون فيه كما اذن لهم سهل عليهم إنفاقه و لم تتحرّج نفوسهم من ذلک.

و إما خلافتهم عمن سبقهم من الأجيال كما يخلف كل جيل سابقه،و فی التعبير به أيضا ترغيب فی الإنفاق فإنهم إذا تذكروا أن هذا المال كان لغيرهم فلم يدم عليهم علموا أنه كذلک لا يدوم لهم و سيتركونه لغيرهم و هان عليهم إنفاقه و سخت بذلک نفوسهم.

و قوله: فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ وعد للأجر على الإنفاق تأكيدا للترغيب،و المراد بالإيمان الإيمان باللّه و رسوله.

قوله تعالی: وَ مٰا لَكُمْ لاٰ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ الخ؛المراد بالإيمان الإيمان بحيث يترتب عليه آثاره و منها الإنفاق فی سبيل اللّه-و إن شئت فقل:المراد ترتيب آثار ما عندهم من الإيمان عليه-.

و قوله: وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ عبّر الرب بالرب و أضافه اليه تلويحا الی علة توجه الدعوة و الأمر كأنه قيل:يدعوكم لتؤمنوا باللّه لأنه ربكم يجب عليكم أن تؤمنوا به.

و قوله: وَ قَدْ أَخَذَ مِيثٰاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ تأكيد للتوبيخ المفهوم من أول الآية،و ضمير «أَخَذَ» للّه سبحانه أو للرسول و علی أی حال المراد بالميثاق المأخوذ هو الذی تدل عليه شهادتهم علی وحدانية اللّه و رسالة رسوله يوم آمنوا به صلّی اللّه عليه و آله و سلّم من أنهم علی السمع و الطاعة.

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی يُنَزِّلُ عَلیٰ عَبْدِهِ آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَی النُّورِ الخ؛المراد بالآيات البينات آيات القرآن الكريم المبينة لهم ما عليهم من فرائض الدين،و فاعل «لِيُخْرِجَكُمْ» الضمير العائد الی اللّه أو الی رسوله صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و مرجع الثانی أيضا هو الأول فالميثاق ميثاقه و قد أخذه بواسطة رسوله أو بغير واسطته كما أن الإيمان به و برسوله إيمان به و لذلك قال فی صدر الآية: «وَ مٰا لَكُمْ لاٰ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ» فذكر نفسه و لم يذكر رسوله إشارة الی أن الإيمان برسوله إيمان به.

و قوله: وَ إِنَّ اللّٰهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ فی تذييل الآية برأفته تعالی و رحمته إشارة الی أن الإيمان الذی يدعوهم اليه رسوله خير لهم و أصلح و هم الذين ينتفعون به دون اللّه و رسوله،ففيه تأكيد ترغيبهم علی الإيمان و الإنفاق.

قوله تعالی: وَ مٰا لَكُمْ أَلاّٰ تُنْفِقُوا فِی سَبِيلِ اللّٰهِ وَ لِلّٰهِ مِيرٰاثُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الميراث و التراث المال الذی ينتقل من الميت الی من بقی بعده من ورّاثه،

و إضافه المیراث الی السماوات و الأرض بیانیه فالسماوات و الأرض هی المیراث بما فیهما من الأشیاء التی خلق منهما مما یمتلکه ذووا الشعور من سکنتهما فالسماوات و الأرض شامله لما فیهما مما خلق منهما و یتصرف فیها ذووا الشعور کالإنسان مثلا بتخصیص ما یتصرفون فیه لأنفسهم و هو الملک الاعتباری الذی هداهم اللّه سبحانه الی اعتباره فیما بینهم لینتظم بذلک جهات حیاتهم الدنیا.

غیر أنهم لا یبقون و لا یبقی لهم بل یذهبهم الموت المقدر بینهم فینتقل ما فی أیدیهم الی من بعدهم و هکذا حتی یفنی الجمیع و لا یبقی إلاّ هو سبحانه.

فالأرض مثلا و ما فیها و علیها من مال میراث من جهه أن کل جیل من سکانها یرثها ممن قبله فکانت میراثا دائما دائرا بینهم خلفا عن سلف،و میراث من جهه أنهم سیفنون جمیعا و لا یبقی لها إلاّ اللّه الذی استخلفهم علیها.

و للّه سبحانه میراث السماوات و الأرض بکلا المعنیین،أما الأول:فلأنه الذی یملکهم المال و هو المالک لما ملکهم،قال تعالی: لِلّهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (لقمان/۲۶)،و قال:

وَ لِلّهِ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (النور/۴۲)،و قال: وَ آتُوهُمْ مِنْ مٰالِ اللّهِ الَّذِی آتٰاکُمْ (النور/۳۳).

و أما الثانی:فظاهر آیات القیامه کقوله تعالی: کُلُّ مَنْ عَلَیْهٰا فٰانٍ (الرحمن/۲۶)، و غیره،و الذی یسبق الی الذهن أن المراد بکونهما میراثا هو المعنی الثانی.

و کیف کان ففی الآیه توبیخ شدید لهم علی عدم إنفاقهم فی سبیل اللّه من المال الذی لا یرثه بالحقیقه إلاّ هو تعالی و لا یبقی لهم و لا لغیرهم،و الإظهار فی موضع الإضمار فی قوله: «وَ لِلّهِ» لتشدید التوبیخ.

قوله تعالی: لاٰ یَسْتَوِی مِنْکُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قٰاتَلَ أُولٰئِکَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِینَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قٰاتَلُوا الخ؛الاستواء بمعنی التساوی،و قسیم

قوله: «مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قاتَلَ» محذوف إيجازا لدلاله قوله: «أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا» عليه.

و المراد بالفتح-كما قيل-فتح مكه أو فتح الحديبيه و عطف القتال على الإنفاق لا يخلو من إشعار بل دلاله على أن المراد بالإنفاق فى سبيل اللّه المندوف اليه فى الآيات هو الإنفاق فى الجهاد.

و كأن الآيه مسوقه لبيان أن الإنفاق فى سبيل اللّه كلما عجل إليها كان أحبّ عند اللّه و أعظم درجه و منزله و إلاّ فظاهر أن هذه الآيات نزلت بعد الفتح و القتال الذى بادروا اليه قبل الفتح و بعض المقاتل التى بعده.

و قوله: وَ كُلاًّ وَعَدَ اللّٰهُ الْحُسْنىٰ أى وعد اللّه المثوبه الحسنى كل من أنفق و قاتل قبل الفتح أو أنفق و قاتل بعده و إن كانت الطائفه الاولى أعظم درجه من الثانيه،و فيه تطييب لقلوب المتأخرين إنفاقا و قتالا أن لهم نيلا من رحمته و ليسوا بمحرومين مطلقا فلا موجب لأن ييأسوا منها و إن تأخروا.

و قوله: وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ تذييل متعلق بجميع ما تقدم ففيه تشديد للتوبيخ و تقرير و تثبيت لقوله: «لاٰ يَسْتَوِي مِنْكُمْ» الخ؛و لقوله: «وَ كُلاًّ وَعَدَ اللّٰهُ الْحُسْنىٰ» و يمكن أن يتعلق بالجمله الأخيره لكن تعلقه بالجميع أعم و أشمل.

قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضٰاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ قال الراغب:و سمى ما يدفع الى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضا.انتهى، و قال فى المجمع:و أصله القطع فهو قطعه عن مالكه بإذنه على ضمان رد مثله.قال:و المضاعفه الزياده على المقدار مثله أو أمثاله.انتهى،و قال الراغب:الأجر و الأجره ما يعود من ثواب العمل دنيويا كان أو أخرويا قال:و لا يقال إلاّ فى النفع دون الضر بخلاف الجزاء فإنه يقال فى النفع و الضر.انتهى ملخصا.

و فى الآيه حثّ بليغ على ما ندب اليه من الإنفاق فى سبيل اللّه حيث استفهم عن الذى ينفق منهم فى سبيل اللّه و مثل إنفاقه بأنه قرض يقرضه اللّه سبحانه و عليه أن يرده ثم قطع أنه لا يرد مثله اليه بل يضاعفه و لم يكتف بذلك بل أضاف اليه أجرا كريما فى الآخره و الأجر الكريم هو المرضى فى نوعه و الأجر الاخروى كذلك لأنه غايه ما يتصور من النعمه عند غايه ما يتصور من الحاجه.

قوله تعالى: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ الخ؛اليوم ظرف لقوله: «لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ» و المراد به يوم القيامه،و الخطاب فى «تَرَى» للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو لكل سامع يصح خطابه،و الظاهر أن الباء فى «بِأَيْمَانِهِمْ» بمعنى فى.

و المعنى:لمن أقرض اللّه قرضا حسنا أجر كريم يوم ترى أنت يا رسول اللّه-أو كل من يصح منه الرؤيه-المؤمنين باللّه و رسوله و المؤمنات يسعى نورهم أمامهم و فى أيمانهم و اليمين هو الجهه التى منها سعادتهم.

و الآيه مطلقه تشمل مؤمنى جميع الامم و لا تختص بهذه الامه،و التعبير عن إشراق النور بالسعى يشعر بأنهم ساعون الى درجات الجنه التى أعدها اللّه سبحانه لهم و تستنير لهم جهات السعاده و مقامات القرب واحده بعد واحده حتى يتم لهم نورهم كما قال تعالى: وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّهِ زُمَراً (الزمر/٧٣)،و قال: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْداً (مريم/٨٥)،و قال: يَوْمَ لاٰ يُخْزِى اللّٰهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا (التحريم/٨).

و قوله: بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا حكايه ما يقال للمؤمنين و المؤمنات يوم القيامه،و القائل الملائكه بأمر من اللّه و التقدير يقال لهم: «بُشْرَاكُمُ» الخ؛و المراد بالبشرى ما يبشر به و هو الجنه و الباقى ظاهر.

و قوله: ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ كلام اللّه سبحانه و الإشاره الى ما ذكر من سعى

النور و البشری أو من تمام قول الملائکه و الإشاره الی الجنات و الخلود فیها.

قوله تعالی: یَوْمَ یَقُولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الْمُنٰافِقٰاتُ لِلَّذِینَ آمَنُوا انْظُرُونٰا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِکُمْ الی آخر الآیه؛النظر إذا تعدّی بنفسه أفاد معنی الانتظار و الإمهال، و إذا عدّی بإلی نحو نظر الیه کان بمعنی إلقاء البصر نحو الشیء و إذا عدّی بفی کان بمعنی التأمل، و الاقتباس أخذ قبس من النار.

و السیاق یفید أنهم الیوم فی ظلمه أحاطت بهم سرادقها و قد ألجئوا الی المسیر نحو دارهم التی یخلدون فیها غیر أن المؤمنین و المؤمنات یسیرون بنورهم الذی یسعی بین أیدیهم و بأیمانهم فیبصرون الطریق و یهتدون الی مقاماتهم،و أما المنافقون و المنافقات فهم مغشیون بالظلمه لا یهتدون سبیلا و هم مع المؤمنین کما کانوا فی الدنیا معهم و معدودین منهم فیسبق المؤمنون و المؤمنات الی الجنه و یتأخر عنهم المنافقون و المنافقات فی ظلمه تغشاهم فیسألون المؤمنین و المؤمنات أن ینتظروهم حتی یلحقوا بهم و یأخذوا قبسا من نورهم لیستضیئوا به فی طریقهم.

و قوله: قِیلَ ارْجِعُوا وَرٰاءَکُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً القائل به إما الملائکه أو قوم من کمّل المؤمنین کأصحاب الأعراف.

و کیف کان فهو من اللّه و بإذنه،و الخطاب بقوله: «ارْجِعُوا وَرٰاءَکُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً» قیل:إنه خطاب مبنی علی التهکّم و الاستهزاء کما کانوا یستهزءون فی الدنیا بالمؤمنین،و الأظهر علی هذا أن یکون المراد بالوراء الدنیا،و محصل المعنی:ارجعوا الی الدنیا التی ترکتموها وراء ظهورکم و عملتم فیها ما عملتم علی النفاق،و التمسوا من تلک الأعمال نورا فإنما النور نور الأعمال أو الإیمان و لا إیمان لکم و لا عمل.

و یمکن أن یجعل هذا وجها علی حیاله من غیر معنی الاستهزاء بأن یکون قوله: «ارْجِعُوا» أمرا بالرجوع الی الدنیا و اکتساب النور بالإیمان و العمل الصالح و لیسوا براجعین و لا

يستطيعون فيكون الأمر بالرجوع كالأمر بالسجود المذكور فى قوله تعالى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ وَ قَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سَالِمُونَ (القلم٤٣/).

و قيل:المراد ارجعوا الى المكان الذى قسم فيه النور و التمسوا من هناك فيرجعون فلا يجدون شيئا فينصرفون اليهم و قد ضرب بينهم بسور،و هذا خدعه منه تعالى يخدعهم بها كما كانوا فى الدنيا يخادعونه كما قال: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خَادِعُهُمْ (النساء/ ١٤٢).

قوله تعالى: فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ سور المدينه حائطها الحاجز بينها و بين الخارج منها،و الضمير فى «فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ» راجع الى المؤمنين و المنافقين جميعا أى ضرب بين المؤمنين و بين المنافقين بسور حاجز يحجز إحدى الطائفتين عن الاخرى.

قيل:السور هو الأعراف و هو غير بعيد و قد تقدمت إشاره اليه فى تفسير قوله تعالى:

وَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ (الأعراف٤٦/)،و قيل:السور غير الأعراف.

و قوله: لَهُ بَابٌ أى للسور باب و هذا يشبه حال المنافقين فى الدنيا فقد كانوا فيها بين المؤمنين لهم اتصال بهم و ارتباط و هم مع ذلك محجوبون عنهم بحجاب.على أنهم يرون أهل الجنه و يزيد بذلك حسرتهم و ندامتهم.

و قوله: بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ «بَاطِنُهُ» مبتدأ و جمله «فِيهِ الرَّحْمَةُ» مبتدأ و خبر و هى خبر «بَاطِنُهُ» و كذا «ظَاهِرُهُ» مبتدأ و جمله «مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ» مبتدأ و خبر هى خبره،و ضميرا «فِيهِ و مِنْ قِبَلِهِ» للباطن و الظاهر.

و يظهر من كون باطن السوره فيه رحمه و ظاهره من قبله العذاب أن السور محيط بالمؤمنين و هم فى داخله و المنافقون فى الخارج منه.

و فی اشتمال داخله الذی یلی المؤمنین علی الرحمه و ظاهره الذی یلی المنافقین علی العذاب مناسبه لحال الإیمان فی الدنیا فإنه نعمه لأهل الإخلاص من المؤمنین یبتهجون بها و یلتذون و عذاب لأهل النفاق یتحرجون من التلبس به و یتألمون منه.

قوله تعالی: یُنٰادُونَهُمْ أَ لَمْ نَکُنْ مَعَکُمْ الی آخر الآیه استئناف فی معنی جواب السؤال کأنه قیل:فما ذا یفعل المنافقون و المنافقات بعد ضرب السوره و مشاهده العذاب من ظاهره؟فقیل:ینادونهم،الخ.

و المعنی:ینادی المنافقون و المنافقات المؤمنین و المؤمنات بقولهم: «أَ لَمْ نَکُنْ مَعَکُمْ» یریدون به کونهم فی الدنیا مع المؤمنین و المؤمنات فی ظاهر الدین.

و قوله: قٰالُوا بَلیٰ الی آخر الآیه جواب المؤمنین و المؤمنات لهم و المعنی «قٰالُوا» أی قال المؤمنون و المؤمنات جوابا لهم: «بَلیٰ» کنتم فی الدنیا معنا «وَ لٰکِنَّکُمْ فَتَنْتُمْ» أی محنتم و أهلکتم «أَنْفُسَکُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ» الدوائر بالدین و أهله «وَ ارْتَبْتُمْ» و شککتم فی دینکم «وَ غَرَّتْکُمُ الْأَمٰانِیُّ» و منها أمنیتکم أن الدین سیطفأ نوره و یترکه أهله «حَتّٰی جٰاءَ أَمْرُ اللّٰهِ» و هو الموت «وَ غَرَّکُمْ بِاللّٰهِ الْغَرُورُ» بفتح الغین و هو الشیطان.

و الآیه-کما تری-تفید أن المنافقین و المنافقات یستنصرون المؤمنین و المؤمنات علی ما هم فیه من الظلمه متوسلین بأنهم کانوا معهم فی الدنیا ثم تفید أن المؤمنین و المؤمنات یجیبون بأنهم کانوا معهم لکن قلوبهم کانت لا توافق ظاهر حالهم حیث یفتنون أنفسهم و یتربصون و یرتابون و تغرهم الأمانی و یغرهم باللّه الغرور،و هذه الصفات الخبیثه آفات القلوب فکانت القلوب غیر سلیمه و لا ینفع یوم القیامه إلاّ القلب السلیم قال تعالی: یَوْمَ لاٰ یَنْفَعُ مٰالٌ وَ لاٰ بَنُونَ إِلاّٰ مَنْ أَتَی اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ (الشعراء/۸۹).

قوله تعالی: فَالْیَوْمَ لاٰ یُؤْخَذُ مِنْکُمْ فِدْیَهٌ وَ لاٰ مِنَ الَّذِینَ کَفَرُوا تتمه کلام المؤمنین و المؤمنات یخاطبون به المنافقین و المنافقات و یضیفون الیهم الکفار و هم المعلنون

لکفرهم أنهم رهناء أعمالهم کما قال تعالی: کُلُّ نَفْسٍ بِمٰا کَسَبَتْ رَهِینَهٌ (المدثر/۳۸)،لا یؤخذ منهم فدیه یخلصون بها أنفسهم و الفدیه أحد الأمرین الذین بهما التخلص من الرهانه و الآخر ناصر ینصر فینجی و قد نفوه بقولهم: «مَأْوٰاکُمُ النّٰارُ» الخ.

فقوله: مَأْوٰاکُمُ النّٰارُ هِیَ مَوْلاٰکُمْ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ ینفی أیّ ناصر ینصرهم و ینجیهم من النار غیر النار علی ما یفیده قوله: «هِیَ مَوْلاٰکُمْ» من الحصر،و المولی هو الناصر و الجمله مسوقه للتهکم.

و یمکن أن یکون المولی بمعنی من یلی الأمر فإنهم کانوا یدعون لحوائجهم من المأکل و المشرب و الملبس و المنکح و المسکن غیر اللّه سبحانه و حقیقته النار فالیوم مولاهم النار و هی التی تعدّ لهم ذلک فمأکلهم من الزقوم و مشربهم من الحمیم و ملبسهم من ثیاب قطعت من النار و قرناؤهم الشیاطین و مأواهم النار علی ما أخبر اللّه سبحانه به فی آیات کثیره من کلامه.

[سوره الحدید (۵۷): الآیات ۱۶ الی ۲۴]

أَ لَمْ یَأْنِ لِلَّذِینَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِکْرِ اَللّٰهِ وَ مٰا نَزَلَ مِنَ اَلْحَقِّ وَ لاٰ یَکُونُوا کَالَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ مِنْ قَبْلُ فَطٰالَ عَلَیْهِمُ اَلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ کَثِیرٌ مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ (۱۶) اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ یُحْیِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا قَدْ بَیَّنّٰا لَکُمُ اَلْآیٰاتِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (۱۷) إِنَّ اَلْمُصَّدِّقِینَ وَ اَلْمُصَّدِّقٰاتِ وَ أَقْرَضُوا اَللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً یُضٰاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ کَرِیمٌ (۱۸) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ أُولٰئِکَ هُمُ اَلصِّدِّیقُونَ وَ اَلشُّهَدٰاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ اَلْجَحِیمِ (۱۹) اِعْلَمُوا أَنَّمَا اَلْحَیٰاهُ اَلدُّنْیٰا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِینَهٌ وَ تَفٰاخُرٌ بَیْنَکُمْ وَ تَکٰاثُرٌ فِی اَلْأَمْوٰالِ وَ اَلْأَوْلاٰدِ کَمَثَلِ غَیْثٍ أَعْجَبَ اَلْکُفّٰارَ نَبٰاتُهُ ثُمَّ یَهِیجُ فَتَرٰاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ یَکُونُ حُطٰاماً وَ فِی اَلْآخِرَهِ عَذٰابٌ شَدِیدٌ وَ مَغْفِرَهٌ مِنَ اَللّٰهِ وَ رِضْوٰانٌ وَ مَا اَلْحَیٰاهُ اَلدُّنْیٰا إِلاّٰ مَتٰاعُ اَلْغُرُورِ (۲۰) سٰابِقُوا إِلیٰ مَغْفِرَهٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ جَنَّهٍ عَرْضُهٰا کَعَرْضِ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِینَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ ذٰلِکَ فَضْلُ اَللّٰهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ ذُو اَلْفَضْلِ اَلْعَظِیمِ (۲۱) مٰا أَصٰابَ مِنْ مُصِیبَهٍ فِی اَلْأَرْضِ وَ لاٰ فِی أَنْفُسِکُمْ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهٰا إِنَّ ذٰلِکَ عَلَی اَللّٰهِ یَسِیرٌ (۲۲) لِکَیْلاٰ تَأْسَوْا عَلیٰ مٰا فٰاتَکُمْ وَ لاٰ تَفْرَحُوا بِمٰا آتٰاکُمْ وَ اَللّٰهُ لاٰ یُحِبُّ کُلَّ مُخْتٰالٍ فَخُورٍ (۲۳) اَلَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَ یَأْمُرُونَ اَلنّٰاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ یَتَوَلَّ فَإِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْغَنِیُّ اَلْحَمِیدُ (۲۴)

بيان:

قوله تعالى: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّهِ وَ مٰا نَزَلَ مِنَ

ص :٢١٣

الْحَقِّ الی آخر الآـیه؛یقـال:أنی یـأنی أنی و أنـاء أی جـاء وقته،و خشوع القلب تأثره قبال العظمه و الکبریاء،و المراد بـذکر اللّه ما یذکر به اللّه،و ما نزل من الحق هو القرآن النازل من عنده تعالی و «مِنَ الْحَقِّ» بیان لما نزل»و من شأن ذکر اللّه تعالی عند المؤمن أن یعقب خشوعا کما أن من شأن الحق النازل من عنده تعالی أن یعقب خشوعا ممن آمن باللّه و رسله.

و قیـل:المراد بـذکر اللّه و مـا نزل من الحق جمیعـا القرآن،و علی هـذا فـذکر القرآن بوصـفیه لکون کـل من الوصـفین مسـتدعیا لخشوع المؤمن فالقرآن لکونه ذکر اللّه یستدعی الخشوع کما أنه لکونه حقا نازلا من عنده تعالی یستدعی الخشوع.

و فی الآـیه عتـاب للمؤمنین علی مـا عرض لقلوبهم من القسوه و عـدم خشوعها لـذکر اللّه و الحق النازل من عنـده تعالی و تشبیه لحالهم بحال أهل الکتاب الذین نزل علیهم الکتاب و طال علیهم الأمد فقست قلوبهم.

و قوله: وَ لاـ یَکُونُوا کَالَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَیْهِمُ الْأَمَـدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ عطف علی قوله: «تَخْشَعَ» الـخ؛و المعنی:أ لم یأن لهم أن تخشع قلوبهم و أن لا یکونوا،الـخ،و الأمـد الزمان،قال الراغب:الفرق بین الزمان و الأمد أن الأمد یقال باعتبار الغایه و الزمان عام فی المبدأ و الغایه و لذلک قال بعضهم:إن المدی و الأمد یتقاربان.

انتهی.

و قد أشار سبحانه بهذا الکلام الی صـیروره قلوبهم کقلوب أهل الکتاب القاسیه و القلب القاسی حیث یفقد الخشوع و التأثر عن الحق ربمـا خرج عن زیّ العبودیه فلم یتـأثر عن المنـاهی و اقترف الإـثم و الفسوق،و لـذا أردف قوله: «فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ» بقوله: «وَ کَثِیرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ» .

قوله تعـالی: اِعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِها الی آخر الآیه فی تعقیب عتاب المؤمنین علی قسوه قلوبهم بهـذا التمثیل تقویه لرجائهم و ترغیب لهم فی

الخشوع.

و يمكن أن يكون من تمام العتاب السابق و يكون تنبيها على أن اللّه لا يخلى هذا الدين على ما هو عليه من الحال بل كلما قست قلوب و حرموا الخشوع لأمر اللّه جاء بقلوب حيّه خاشعه له يعبد بها كما يريد.

فتكون الآيه فى معنى قوله: هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمٰا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللّٰهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاٰ يَكُونُوا أَمْثٰالَكُمْ (سوره محمد/٣٨).

و لذلك ذيّل الآيه بقوله: «قَدْ بَيَّنّٰا لَكُمُ الْآيٰاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» .

قوله تعالى: إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقٰاتِ وَ أَقْرَضُوا اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً يُضٰاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ تكرار لحديث المضاعفه و الأجر الكريم للترغيب فى الإنفاق فى سبيل اللّه و قد أضيف الى الذين أقرضوا اللّه قرضا حسنا المصدقون و المصدقات.

و المصدقون و المصدقات-بتشديد الصاد و الدال-المتصدقون و المتصدقات،و قوله:

«وَ أَقْرَضُوا اللّٰهَ» عطف على مدخول الام فى «الْمُصَّدِّقِينَ» ،و المعنى:أن الذين تصدّقوا و الذين أقرضوا اللّه قرضا حسنا يضاعف لهم ما أعطوه و لهم أجر كريم.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَدٰاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ الخ؛لم يقل «آمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ» كما قال فى أول السوره: «آمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا» و قال فى آخرها: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ» لأنه تعالى لما ذكر أهل الكتاب فى الآيه السابقه بقوله: «وَ لاٰ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلُ» عدل عن السياق السابق الى سياق عام يشمل المسلمين و أهل الكتاب جميعا كما قال بعد: «لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ» و أما الآيتان المذكورتان فى أول السوره و آخرها فالخطاب فيهما لمؤمنى هذه الامه خاصه و لذا جيء فيهما بالرسول مفردا.

و المراد بالإيمان باللّه و رسله محض الإيمان الـذى لا يفارق بطبعه الطاعه و الابتاع كما مرّت الإشاره اليه فى قوله: «آمِنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ» الآيه؛و المراد بقوله: «أُولٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَدٰاءُ» إلحاقهم بالصديقين و الشهداء بقرينه قوله: «عِنْدَ رَبِّهِمْ» قوله: «لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ» فهم ملحقون بالطائفتين يعامل معهم معامله الصديقين و الشهداء فيعطون مثل أجرهم و نورهم.

و الظاهر أن المراد بالصدّيقين و الشهداء هم المذكورون فى قوله: وَ مَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدٰاءِ وَ الصّٰالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً (النساء/۶۹)،و قد تقدم فى تفسير الآيه أن المراد بالصديقين هم الـذين سرى الصـدق فى قولهم و فعلهم فيفعلون مـا يقولون و يقولون ما يفعلون،و الشـهداء هم شـهداء الأعمال يوم القيامه دون الشهداء بمعنى المقتولين فى سبيل اللّه.

فهؤلاء الذين آمنوا باللّه و رسله ملحقون بالصديقين و الشهداء منزّلون منزلتهم عند اللّه أى بحكم منه لهم أجرهم و نورهم.

و قوله: لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ ضـمير «لَهُمْ» للذين آمنوا،و ضـمير «أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ» للصدّيقين و الشهداء أى للذين آمنوا أجر من نوع أجر الصديقين و الشهداء و نور من نوع نورهم،و هذا معنى قول من قال:إن المعنى:لهم أجر كأجرهم و نور كنورهم.

و ربما قيل:إن قوله: «وَ الشُّهَدٰاءُ» ليس عطفا على قوله: «الصِّدِّيقُونَ» بل استئناف و «الشُّهَدٰاءُ» مبتدأ خبره «عِنْدَ رَبِّهِمْ» و خبره الآخر «لَهُمْ أَجْرُهُمْ» فقد قيل:و الذين آمنوا باللّه و رسله أولئك هم الصديقون،و قد تم الكلام ثم استؤنف و قيل «وَ الشُّهَدٰاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ» كما قيل بَلْ أَحْيٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ (آل عمران/۱۶۹)،و المراد بالشـهداء المقتولون فى سبيـل اللّه،ثم تمم الكلام بقوله: «لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ» .

و قوله: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ الْجَحِيمِ أى لا

يفارقونها و هم فيها دائمين.

و قد تعرض سبحانه فی الآيه لشأن الملحقين بالصديقين و الشهداء و هم خيار الناس و الناجون قطعا،و الكفار المكذبين لآياته و هم شرار الناس و الهالكون قطعا و بقی فريق بين الفريقين و هم المؤمنون المقترفون للمعاصی و الذنوب علی طبقاتهم فی التمرد علی اللّه و رسوله، و هذا دأب القرآن فی كثير من موارد التعرض لشأن الناس يوم القيامه.

و ذلک ليكون بعثا لقريحتی الخوف و الرجاء فی ذلک الفريق المتخلل بين الخيار و الشرار فيميلوا الی السعاده و يختاروا النجاه علی الهلاک.

و لذلک أعقب الآيه بذم الحياه الدنيا التی تعلق بها هؤلاء الممتنعون من الإنفاق فی سبيل اللّه ثم بدعوتهم الی المسابقه الی المغفره و الجنه ثم بالإشاره الی أن ما يصيبهم من المصيبه فی أموالهم و أنفسهم مكتوبه فی كتاب سابق و قضاء متقدم فليس ينبغی لهم أن يخافوا الفقر فی الإنفاق فی سبيل اللّه،فيبخلوا و يمسكوا أو يخافوا الموت فی الجهاد فی سبيل اللّه فيتخلفوا و يقعدوا.

قوله تعالی: اِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيٰاهُ الدُّنْيٰا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَهٌ وَ تَفٰاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكٰاثُرٌ فِی الْأَمْوٰالِ وَ الْأَوْلاٰدِ الخ؛اللعب عمل منظوم لغرض خيالی كلعب الأطفال،و اللهو ما يشغل الإنسان عما يهمه،و الزينه بناء نوع و ربما يراد به ما يتزين به و هی ضم شیء مرغوب فيه الی شیء آخر ليرغب فيه بما اكتسب به من الجمال،و التفاخر المباهاه بالأنساب و الأحساب،و التكاثر فی الأموال و الأولاد.

و الحياه الدنيا عرض زائل و سراب باطل لا يخلو من هذه الخصال الخمس المذكوره:

اللعب و اللهو و الزينه و التفاخر و التكاثر و هی التی يتعلق بها هوی النفس الإنسانيه ببعضها أو بجميعها و هی أمور وهميه و أعراض زائله لا تبقی للانسان و ليست و لا واحده منها تجلب للانسان كمالا نفسيا و لا خيرا حقيقيا.

و قوله: کَمَثَلِ غَیْثٍ أَعْجَبَ الْکُفّارَ نَباتُهُ ثُمَّ یَهِیجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ یَکُونُ حُطاماً مثل لزینه الحیاه الدنیا التی یتعلق بها الانسان غرورا ثم لا یلبث دون أن یسلبها.

و الغیث المطر و الکفار جمع کافر بمعنی الحارث،و یهیج من الهیجان و هو الحرکه،و الحطام الهشیم المتکسر من یابس النبات.

و المعنی:أن مثل الحیاه الدنیا فی بهجتها المعجبه ثم الزوال کمثل مطر أعجب الحراث نباته الحاصل بسببه ثم یتحرک الی غایه ما یمکنه من النمو فتراه مصفر اللون ثم یکون هشیما متکسرا -متلاشیا تذروه الریاح-.

و قوله: وَ فِی الْآخِرَهِ عَذابٌ شَدِیدٌ وَ مَغْفِرَهٌ مِنَ اللّهِ وَ رِضْوانٌ سبق المغفره علی الرضوان لتطهیر المحل لیحل به الرضوان،و توصیف المغفره بکونه من اللّه دون العذاب لا یخلو من إیماء الی أن المطلوب بالقصد الأول هو المغفره و أما العذاب فلیس بمطلوب فی نفسه و إنما یتسبّب الیه الإنسان بخروجه عن زیّ العبودیه کما قیل.

و قوله: وَ مَا الْحَیاهُ الدُّنْیا إِلاّ مَتاعُ الْغُرُورِ أی متاع التمتع منه هو الغرور به، و هذا للمتعلق المغرور بها.

و الکلام أعنی قوله: «وَ فِی الْآخِرَهِ عَذابٌ شَدِیدٌ وَ مَغْفِرَهٌ مِنَ اللّهِ وَ رِضْوانٌ» إشاره الی وجهی الحیاه الآخره لیأخذ السامع حذره فیختار المغفره و الرضوان علی العذاب،ثم فی قوله:

«وَ مَا الْحَیاهُ الدُّنْیا إِلاّ مَتاعُ الْغُرُورِ» تنبیه و إیقاظ لئلا تغرّه الحیاه الدنیا بخاصه غروره.

قوله تعالی: سابِقُوا إِلی مَغْفِرَهٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ جَنَّهٍ عَرْضُها کَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ الخ؛المسابقه هی المغالبه فی السبق للوصول الی غرض بأن یرید کل من المسابقین جعل حرکته أسرع من حرکه صاحبه ففی معنی المسابقه ما یزید علی معنی المسارعه فإن المسارعه الجدّ فی تسریع الحرکه و المسابقه الجدّ فی تسریعها بحیث تزید فی السرعه علی حرکه صاحبه.

و علی هذا فقوله: «سابِقُوا إِلیٰ مَغْفِرَةٍ» الخ؛یتضمن من التکلیف ما هو أزید مما یتضمنه قوله: سارِعُوا إِلیٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِینَ (آل عمران١٣٣/).

و تقدیم المغفره علی الجنه فی الآیه لأن الحیاه فی الجنه حیاه طاهره فی عالم الطهاره فیتوقف التلبس بها علی زوال قذارات الذنوب و أوساخها.

و المراد بالعرض السعه دون العرض المقابل للطول و هو معنی شائع،و الکلام کأنه مسوق للدلاله علی انتهائها فی السعه.

و قوله: أُعِدَّتْ لِلَّذِینَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ قد عرفت فی ذیل قوله: «آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ» و قوله: «وَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ» أن المراد بالإیمان باللّه و رسله هو مرتبه عالیه من الإیمان تلازم ترتب آثاره علیه من الأعمال الصالحه و اجتناب الفسوق و الإثم.

و قوله: ذٰلِکَ فَضْلُ اللّٰهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشٰاءُ و قد شاء أن یؤتیه الذین آمنوا باللّه و رسله،و قد تقدم بیان أن ما یؤتیه اللّه من الأجر لعباده المؤمنین فضل منه تعالی من غیر أن یستحقوه علیه.

و قوله: وَ اللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ إشاره الی عظمه فضله،و أن ما یثیبهم به من المغفره و الجنه من عظیم فضله.

قوله تعالی: مٰا أَصٰابَ مِنْ مُصِیبَةٍ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ فِی أَنْفُسِکُمْ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهٰا الخ؛المصیبه الواقعه التی تصیب الشیء مأخوذه من إصابه السهم الغرض و هی بحسب المفهوم أعم من الخیر و الشر لکن غلب استعمالها فی الشر فالمصیبه هی النائبه،و المصیبه التی تصیب فی الأرض کالجدب و عاهه الثمار و الزلزله المخربه و نحوها،و التی تصیب فی الأنفس کالمرض و الجرح و الکسر و القتل و الموت،و البرء و البروء الخلق من العدم،و ضمیر «نَبْرَأَهٰا» للمصیبه،و قیل:للأنفس،و قیل:للأرض،و قیل:

للجميع من الأرض و الأنفس و المصيبه،و يؤيد الأول أن المقام مقام بيان ما فى الدنيا من المصائب الموجبه لنقص الأموال و الأنفس التى تدعوهم الى الإمساك عن الانفاق و التخلف عن الجهاد.

و المراد بالكتاب اللوح المكتوب فيه ما كان و ما يكون و ما هو كائن الى يوم القيامه كما تدل عليه الآيات و الروايات و إنما اقتصر على ذكر ما يصيب فى الأرض و فى أنفسهم من المصائب لكون الكلام فيها.

قيل:إنما قيد المصيبه بما فى الأرض و فى الأنفس لأن مطلق المصائب غير مكتوبه فى اللوح لأن اللوح متناه و الحوادث غير متناهيه و لا يكون المتناهى ظرفا لغير المتناهى.

و الكلام مبنى على أن المراد باللوح لوح فلزى أو نحوه منصوب فى ناحيه من نواحى الجو مكتوب فيه الحوادث بلغه من لغاتنا بخط يشبه خطوطنا،و قد مر كلام فى معنى اللوح و القلم و سيجىء له تتمه.

و قيل:المراد بالكتاب علمه تعالى و هو خلاف الظاهر إلاّ أن يراد به أن الكتاب المكتوب فيه الحوادث من مراتب علمه الفعلى.

و ختم الآيه بقوله: «إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ» للدلاله على أن تقدير الحوادث قبل وقوعها و القضاء عليها بقضاء لا يتغير لا صعوبه فيه عليه تعالى.

قوله تعالى: لِكَيْلاٰ تَأْسَوْا عَلىٰ مٰا فٰاتَكُمْ وَ لاٰ تَفْرَحُوا بِمٰا آتٰاكُمْ الخ؛تعليل راجع الى الآيه السابقه و هو تعليل للإخبار عن كتابه الحوادث قبل وقوعها لا لنفس الكتابه، و الأسى الحزن،و المراد بما فات و ما آتى النعمه الفائته و النعمه المؤتاه.

و المعنى:أخبرناكم بكتابه الحوادث قبل حدوثها و تحققها لئلا تحزنوا بما فاتكم من النعم و لا تفرحوا بما أعطاكم اللّه منها لأن الانسان إذا أيقن أن الذى أصابه مقدر كائن لا محاله لم يكن ليخطئه و أن ما أوتيه من النعم وديعه عنده الى أجل مسمى لم يعظم حزنه إذا فاته و لا

فرحه إذا أوتيه.

قيل:إن اختلاف الاسناد فی قولیه «مٰا فٰاتَکُمْ» و «بِمٰا آتٰاکُمْ» حیث أسند الفوت الی نفس الأشیاء و الایتاء الی اللّه سبحانه لأن الفوات و العدم ذاتی للأشیاء فلو خلیت و نفسها لم تبق بخلاف حصولها و بقائها فإنه لا بد من استنادهما الی اللّه تعالی.

و قوله: وَ اللّٰهُ لاٰ یُحِبُّ کُلَّ مُخْتٰالٍ فَخُورٍ المختال من أخذته الخیلاء و هی التکبر عن تخیل فضیله تراءت له من نفسه-علی ما ذکره الراغب-و الفخور الکثیر الفخر و المباهاه و الاختیال و الفخر ناشئان عن توهم الانسان أن یملک ما أوتیه من النعم باستحقاق من نفسه،و هو مخالف لما هو الحق من استناد ذلک الی تقدیر من اللّه لا لاستقلال من نفس الانسان فهما من الرذائل و اللّه لا یحبها.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَ یَأْمُرُونَ النّٰاسَ بِالْبُخْلِ وصف لکل مختال فخور یفید تعلیل عدم حبه تعالی.و الوجه فی بخلهم الاحتفاظ للمال الذی یعتمد علیه اختیالهم و فخرهم و الوجه فی أمرهم الناس بالبخل أنهم یحبونه لأنفسهم فیحبونه لغیرهم،و لأن شیوع السخاء و الجود بین الناس و إقبالهم علی الانفاق فی سبیل اللّه یوجب أن یعرفوا بالبخل المذموم.

و قوله: وَ مَنْ یَتَوَلَّ فَإِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ أی و من یعرض عن الانفاق و لم یتعظ بعظه اللّه و لا اطمأن قلبه بما بینه من صفات الدنیا و نعت الجنه و تقدیر الامور فإن اللّه هو الغنی فلا حاجه له الی إنفاقهم،و المحمود فی أفعاله.

و الآیات الثلاث أعنی قوله: «مٰا أَصٰابَ مِنْ مُصِیبَهٍ -الی قوله- اَلْغَنِیُّ الْحَمِیدُ» کما تری حث علی الإنفاق و ردع عن البخل و الإمساک بتزهیدهم عن الأسی بما فاتهم و الفرح بما آتاهم لأن الامور مقدّره مقضیّه مکتوبه فی کتاب معینه قبل أن یبرأها اللّه سبحانه (1).

1- 1) .الحدید 16-24:بحث روائی حول:نزول سوره الحدید؛الشهاده فی سبیل اللّه؛الزهد.

[سوره الحديد (۵۷): الآيات ۲۵ الى ۲۹]

لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ وَ أَنْزَلْنٰا مَعَهُمُ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْمِيزٰانَ لِيَقُومَ اَلنّٰاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا اَلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنٰافِعُ لِلنّٰاسِ وَ لِيَعْلَمَ اَللّٰهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اَللّٰهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (۲۵) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً وَ إِبْرٰاهِيمَ وَ جَعَلْنٰا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا اَلنُّبُوَّةَ وَ اَلْكِتٰابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ (۲۶) ثُمَّ قَفَّيْنٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ بِرُسُلِنٰا وَ قَفَّيْنٰا بِعِيسَى اِبْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْنٰاهُ اَلْإِنْجِيلَ وَ جَعَلْنٰا فِي قُلُوبِ اَلَّذِينَ اِتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ رَهْبٰانِيَّةً اِبْتَدَعُوهٰا مٰا كَتَبْنٰاهٰا عَلَيْهِمْ إِلاَّ اِبْتِغٰاءَ رِضْوٰانِ اَللّٰهِ فَمٰا رَعَوْهٰا حَقَّ رِعٰايَتِهٰا فَآتَيْنَا اَلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ (۲۷) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۸) لِئَلاّٰ يَعْلَمَ أَهْلُ اَلْكِتٰابِ أَلاّٰ يَقْدِرُونَ عَلىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اَللّٰهِ وَ أَنَّ اَلْفَضْلَ بِيَدِ اَللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ ذُو اَلْفَضْلِ اَلْعَظِيمِ (۲۹)

بیان:

قوله تعالی: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ الخ؛استئناف يتبين به معنى تشريع الدين بإرسال الرسل و إنزال الكتاب و الميزان و أن الغرض من ذلك قيام الناس بالقسط و امتحانهم بذلك و بإنزال الحديد ليتميز من ينصر الله بالغيب و يتبين أن أمر الرساله لم يزل مستمرا بين الناس و لم يزالوا يهتدى من كل أمه بعضهم و كثير منهم فاسقون.

فقوله: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ أى بالآيات البينات التى يتبين بها أنهم مرسلون من جانب الله سبحانه من المعجزات الباهره و البشارات الواضحه و الحجج القاطعه.

و قوله: وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ و هو الوحى الذى يصلح أن يكتب فيصير كتابا، المشتمل على معارف الدين من اعتقاد و عمل و هو خمسه:كتاب نوح و كتاب إبراهيم و التوراه و الإنجيل و القرآن.

و قوله: وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ فسروا الميزان بذى الكفتين الذى يوزن به الأثقال،و أخذوا قوله: «لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ» غايه متعلقه بإنزال الميزان و المعنى:و أنزلنا الميزان ليقوم الناس بالعدل فى معاملاتهم فلا يخسروا باختلال الأوزان و النسب بين الأشياء فقوام حياه الإنسان بالاجتماع،و قوام الاجتماع بالمعاملات الدائره بينهم و المبادلات فى الأمتعه و السلع،و قوام المعاملات فى ذوات الأوزان بحفظ النسب بينها و هو شأن الميزان.

و لا يبعد-و الله أعلم-أن يراد بالميزان الدين فإن الدين هو الذى يوزن به عقائد أشخاص الإنسان و أعمالهم،و هو الذى به قوام حياه الناس السعيده مجتمعين و منفردين،

ص:۲۲۳

و هذا المعنى أكثر ملائمه للسياق المتعرض لحال الناس من حيث خشوعهم و قسوه قلوبهم وجدهم و مساهلتهم فى أمر الدين.و قيل:المراد بالميزان هنا العدل و قيل:العقل.

و قوله: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ الظاهر أنه كقوله تعالى: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (الزمر/۶)،و قد تقدم فى تفسير الآيه أن تسميه الخلق فى الأرض إنزالا إنما هو باعتبار أنه تعالى يسمى ظهور الأشياء فى الكون بعد ما لم يكن إنزالا لها من خزائنه التى عنده و من الغيب الى الشهاده قال تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/۲۱).

و قوله: فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ البأس هو الشده فى التاثير و يغلب استعماله فى الشده فى الدفاع و القتال،و لا تزال الحروب و المقاتلات و أنواع الدفاع ذات حاجه شديده الى الحديد و أقسام الأسلحه المعموله منه منذ تنبه البشر له و استخرجه.

و أما ما فيه من المنافع للناس فلا يحتاج الى البيان فله دخل فى جميع شعب الحياه و ما يرتبط بها من الصنائع.

و قوله: وَ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ غايه معطوفه على محذوف و التقدير و أنزلنا الحديد لكذا و ليعلم اللّه من ينصره،الخ،و المراد بنصره و رسله الجهاد فى سبيله دفاعا عن مجتمع الدين و بسطا لكلمه الحق،و كون النصر بالغيب كونه فى حال غيبته منهم أو غيبتهم منه،و المراد بعلمه بمن ينصره و رسله تميزهم ممن لا ينصر.

و ختم الآيه بقوله: «إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» و كأن وجهه الإشاره الى أن أمره تعالى لهم بالجهاد إنما هو ليتميز الممتثل منهم من غيره لا لحاجه منه تعالى الى ناصر ينصره إنه تعالى قوى لا سبيل للضعف اليه عزيز لا سبيل للذله اليه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَ إِبْرَاهِيمَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ شروع فى الإشاره الى أن الاهتداء

و الفسق جاريان فی الامم الماضيه حتی اليوم فلم تصلح أمه من الامم بعامه أفرادها بل لم يزل كثير منهم فاسقين.

و ضمير «فَمِنْهُمْ» و «مِنْهُمْ» للذريه و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: ثُمَّ قَفَّيْنا عَلی آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَ قَفَّيْنا بِعِيسَی ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فی المجمع:التقفيه جعل الشیء فی إثر شیء علی الاستمرار فيه، و لهذا قيل لمقاطع الشعر قواف إذ كانت تتبع البيت علی أثره مستمره فی غيره علی منهاجه.

انتهی.

و ضمير «عَلی آثارِهِمْ» لنوح و إبراهيم و السابقين من ذريتهما،و الدليل علی أنه لا نبی بعد نوح إلاّ من ذريته لأن النسل بعده له.علی أن عيسی من ذريه إبراهيم قال تعالی فی نوح:

وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (الصافات/٧٧)،و قال: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ -الی أن قال- وَ عِيسی (الأنعام/٨٥)،فالمراد بقوله: «ثُمَّ قَفَّيْنا عَلی آثارِهِمْ بِرُسُلِنا» الخ؛التقفيه باللاحقين من ذريتهما علی آثارهما و السابقين من ذريتهما.

و فی قوله: عَلی آثارِهِمْ إشاره الی أن الطريق المسلوك واحد يتبع فيه بعضهم أثر بعض.

و قوله: وَ قَفَّيْنا بِعِيسَی ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَ جَعَلْنا فِی قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً الرأفه و الرحمه-علی ما قالوا- مترادفان،و نقل عن بعضهم أن الرأفه يقال فی درء الشر و الرحمه فی جلب الخير.

و الظاهر أن المراد بجعل الرأفه و الرحمه فی قلوب الذين اتبعوه توفيقهم للرأفه و الرحمه فيما بينهم فكانوا يعيشون علی المعاضده و المسالمه كما وصف اللّه سبحانه الذين مع النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بالرحمه إذ قال: رُحَماءُ بَيْنَهُمْ (الفتح/٢٩)،و قيل:المراد بجعل الرأفه و الرحمه فی قلوبهم الأمر بهما و الترغيب فيهما و وعد الثواب عليهما.

ص: ٢٢٥

و قوله: وَ رَهْبٰانِيَّةً ابْتَدَعُوهٰا مٰا كَتَبْنٰاهٰا عَلَيْهِمْ الرهبانيه من الرهبه و هى الخشيه،و يطلق عرفا على انقطاع الانسان من الناس لعباده اللّه خشيه منه،و الابتداع إتيان ما لم يسبق اليه فى دين أو سنه أو صنعه،و قوله: «مٰا كَتَبْنٰاهٰا عَلَيْهِمْ» فى معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل:ما معنى ابتداعهم لها؟فقيل:ما كتبناها عليهم.

و المعنى:أنهم ابتدعوا من عند أنفسهم رهبانيه من غير أن نشرعه نحن لهم.

و قوله: إِلاَّ ابْتِغٰاءَ رِضْوٰانِ اللّٰهِ فَمٰا رَعَوْهٰا حَقَّ رِعٰايَتِهٰا استثناء منقطع معناه ما فرضناها عليهم لكنهم وضعوها من عند أنفسهم ابتغاء لرضوان اللّه و طلبا لمرضاته فما حافظوا عليها حق محافظتها بتعديهم حدودها.

و فيه إشاره الى أنها كانت مرضيه عنده تعالى و إن لم يشرّعها بل كانوا هم المبتدعين لها.

و قوله: فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ إشاره الى أنهم كالسابقين من أمم الرسل منهم مؤمنون مأجورون على إيمانهم و كثير منهم فاسقون، و الغلبه للفسق.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ الخ؛أمر الذين آمنوا بالتقوى و الإيمان بالرسول مع أن الذين استجابوا الدعوه فآمنوا باللّه آمنوا برسوله أيضا دليل على أن المراد بالإيمان بالرسول الاتباع التام و الطاعه الكامله لرسوله فيما يأمر به و ينهى عنه سواء كان ما يأمر به أو ينهى عنه حكما من الأحكام الشرعيه أو صادرا عنه بماله من ولايه أمور الامه كما قال تعالى: فَلاٰ وَ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ حَتّٰى يُحَكِّمُوكَ فِيمٰا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاٰ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (النساء/ ۶۵).

فهذا إيمان بعد إيمان و مرتبه فوق مرتبه الإيمان الذى ربما يتخلف عنه أثره فلا يترتب عليه لضعفه،و بهذا يناسب قوله: «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ» و الكفل الحظ و النصيب فله ثواب

على ثواب كما أنه إيمان على إيمان.

و قيل:المراد بإتيان كفلين من الرحمه إيتاؤهم أجرين كمؤمنى أهل الكتاب كأنه قيل:

يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الأجرين لأنكم مثلهم فى الايمان بالرسل المتقدمين و بخاتمهم عليهم السّلام لا تفرقون بين أحد من رسله.

و قوله: وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ قيل:يعنى يوم القيامه و هو النور الذى أشير اليه بقوله: «يَسْعىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمٰانِهِمْ» .

و فيه أن تقييد من غير دليل بل لهم نورهم فى الدنيا و هو المدلول عليه بقوله تعالى: أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمٰاتِ لَيْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا (الأنعام/١٢٢)،و نورهم فى الآخره و هو المدلول عليه بقوله: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ يَسْعىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمٰانِهِمْ (الآيه ١٢ من السوره)و غيره.

ثم كمّل تعالى وعده بإيتائهم كفلين من رحمته و جعل نور يمشون به بالمغفره فقال: «وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .

قوله تعالى: لِئَلاّٰ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتٰابِ أَلاّٰ يَقْدِرُونَ عَلىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ ظاهر السياق أن فى الآيه التفاتا من خطاب المؤمنين الى خطاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و المراد بالعلم مطلق الاعتقاد كالزعم،و«أن»مخففه من الثقيله،و ضمير «يَقْدِرُونَ» للمؤمنين،و فى الكلام تعليل لمضمون الآيه السابقه.

و المعنى:إنما أمرناهم بالإيمان بعد الايمان و وعدناهم كفلين من الرحمه و جعل النور و المغفره لئلا يعتقد أهل الكتاب أن المؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل اللّه بخلاف المؤمنين من أهل الكتاب حيث يؤتون أجرهم مرتين أن آمنوا.

و قوله: وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ معطوف على «لِئَلاّٰ يَعْلَمَ» ،و المعنى:إنما وعدنا بما وعدنا لأن كذا كذا و لأن الفضل بيد اللّه و اللّه

ذو الفضل العظیم.

و فی الآیه أقوال و احتمالات أخر لا جدوی فی إیرادها و البحث عنها (1).

1- 1) .الحدید 25-29:بحث روائی فی:المیزان؛الرهبانیه.

سوره المجادله مدنیه و هی اثنتان و عشرون آیه

اشاره

[سوره المجادله (۵۸): الآیات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ
قَدْ سَمِعَ اَللّٰهُ قَوْلَ اَلَّتِی تُجٰادِلُکَ فِی زَوْجِهٰا وَ تَشْتَکِی إِلَی اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ یَسْمَعُ تَحٰاوُرَکُمٰا إِنَّ اَللّٰهَ سَمِیعٌ بَصِیرٌ (۱) اَلَّذِینَ یُظٰاهِرُونَ مِنْکُمْ مِنْ نِسٰائِهِمْ مٰا هُنَّ أُمَّهٰاتِهِمْ إِنْ أُمَّهٰاتُهُمْ إِلاَّ اَللاّٰئِی وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَیَقُولُونَ مُنْکَراً مِنَ اَلْقَوْلِ وَ زُوراً وَ إِنَّ اَللّٰهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (۲) وَ اَلَّذِینَ یُظٰاهِرُونَ مِنْ نِسٰائِهِمْ ثُمَّ یَعُودُونَ لِمٰا قٰالُوا فَتَحْرِیرُ رَقَبَهٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَتَمَاسّٰا ذٰلِکُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ (۳) فَمَنْ لَمْ یَجِدْ فَصِیٰامُ شَهْرَیْنِ مُتَتٰابِعَیْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَتَمَاسّٰا فَمَنْ لَمْ یَسْتَطِعْ فَإِطْعٰامُ سِتِّینَ مِسْکِیناً ذٰلِکَ لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تِلْکَ حُدُودُ اَللّٰهِ وَ لِلْکٰافِرِینَ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۴) إِنَّ اَلَّذِینَ یُحٰادُّونَ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ کُبِتُوا کَمٰا کُبِتَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنٰا آیٰاتٍ بَیِّنٰاتٍ وَ لِلْکٰافِرِینَ عَذٰابٌ مُهِینٌ (۵) یَوْمَ یَبْعَثُهُمُ اَللّٰهُ جَمِیعاً فَیُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُوا أَحْصٰاهُ اَللّٰهُ وَ نَسُوهُ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (۶)

ص: ۲۲۹

بیان:

تتعرض السوره لمعان متنوعه من حکم و أدب و صفه فشطر منها فی حکم الظهار و النجوی و أدب الجلوس فی المجالس و شطر منها یصف حال الذین یحادّون اللّه و رسوله، و الذین یوادّون أعداء الدین و یصف الذین یتحرّزون من موادّتهم من المؤمنین و یعدهم وعدا جمیلا فی الدنیا و الآخره.

و السوره مدنیه بشهاده سیاق آیاتها.

قوله تعالی: قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّتِی تُجادِلُکَ فِی زَوْجِها وَ تَشْتَکِی إِلَی اللّهِ وَ اللّهُ یَسْمَعُ تَحاوُرَکُما الخ؛قال فی المجمع:الاشتکاء إظهار ما بالإنسان من مکروه، و الشکایه إظهار ما یصنعه به غیره من المکروه.قال:و التحاور التراجع و هی المحاوره یقال:

حاوره محاوره أی راجعه الکلام و تحاورا.انتهی.

الآیات الأربع أو الست نزلت فی الظهار و کان من أقسام الطلاق عند العرب الجاهلی کان الرجل یقول لامرأته:أنت منی کظهر أمی فتنفصل عنه و تحرم علیه مؤبده و قد ظاهر بعض الأنصار من امرأته ثم ندم علیه فجاءت امرأته الی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تسائله فیه لعلها تجد طریقا الی رجوعه إلیها و تجادله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی ذلک و تشتکی الی اللّه فنزلت الآیات.

و المراد بالسمع فی قوله: «قَدْ سَمِعَ اللّهُ» استجابه الدعوه و قضاء الحاجه من باب الکنایه

و هو شائع،و الدليل عليه قوله: «تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَ تَشْتَكِي إِلَى اللّهِ» الظاهر فى أنها كانت تتوخى طريقا الى أن لا تنفصل عن زوجها،و أما قوله: «وَ اللّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما» فالسمع فيه بمعناه المعروف.

و المعنى:قد استجاب اللّه للمرأه التى تجادلك فى زوجها-و قد ظاهر منها-و تشتكى غمّها و ما حلّ بها من سوء الحال الى اللّه و اللّه يسمع تراجعكما فى الكلام إن اللّه سميع للأصوات بصير بالمبصرات.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلاَّ اللاّئِي وَلَدْنَهُمْ الخ؛نفى لحكم الظهار المعروف عندهم و إلغاء لتأثيره بالطلاق و التحريم الأبدى بنفى أمومه الزوجه للزوج بالظهار فإن سنه الجاهليه كانت تلحق الزوجه بالام بسبب الظهار فتحرم على زوجها حرمه الام على ولدها حرمه مؤبده.

فقوله: ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ أى بحسب اعتبار الشرع بأن يلحقن شرعا بهن بسبب الظهار فيحرمن عليهم أبدا ثم أكده بقوله: «إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلاَّ اللاّئِي وَلَدْنَهُمْ» أى ليس أمهات أزواجهن إلاّ النساء اللاتى ولدنهم.

ثم أكد ذلك ثانيا بقوله: «وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً» بما فيه من سياق التأكيد أى و إن هؤلاء الأزواج المظاهرين ليقولون بالظهار منكرا من القول ينكره الشرع حيث لم يعتبره و لم يسنه،و كذبا باعتبار أنه لا يوافق الشرع كما لا يطابق الخارج الواقع فى الكون فأفادت الآيه أن الظهار لا يفيد طلاقا و هذا لا ينافى وجوب الكفاره عليه لو أراد المواقعه بعد الظهار فالزوجيه على حالها و إن حرمت المواقعه قبل الكفاره.

و قوله: وَ إِنَّ اللّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ لا يخلو من دلاله على كونه ذنبا مغفورا لكن ذكر الكفاره فى الآيه التاليه مع تذييلها بقوله: «وَ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ» ربما دل على أن المغفره مشروطه بالكفاره.

ص:۲۳۱

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ یُظٰاهِرُونَ مِنْ نِسٰائِهِمْ ثُمَّ یَعُودُونَ لِمٰا قٰالُوا فَتَحْرِیرُ رَقَبَهٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَتَمَاسّٰا الخ؛الکلام فی معنی الشرط و لذلک دخلت الفاء فی الخبر لأنه فی معنی الجزاء و المحصل:أن الذین ظاهروا منهن ثم أرادوا العود لما قالوا فعلیهم تحریر رقبه.

و فی قوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ یَتَمَاسّٰا» دلاله علی أن الحکم فی الآیه لمن ظاهر ثم أراد الرجوع الی ما کان علیه قبل الظهار و هو قرینه علی أن المراد بقوله: «یَعُودُونَ لِمٰا قٰالُوا» إراده العود الی نقض ما أبرموه بالظهار.

و المعنی:و الذین یظاهرون من نسائهم ثم یریدون أن یعودوا الی ما تکلموا به من کلمه الظهار فینقضوها بالمواقعه فعلیهم تحریر رقبه من قبل أن یتماسا.

و قیل:المراد بعودهم لما قالوا ندمهم علی الظهار،و فیه أن الندم علیه یصلح أن یکون محصل المعنی لا أن یکون معنی الکلمه «یَعُودُونَ لِمٰا قٰالُوا» .

ثم ذیل الآیه بقوله: «ذٰلِکُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ» إیذانا بأن ما أمر به من الکفاره توصیه منه بها عن خبره بعلمهم ذاک،فالکفاره هی التی ترتفع بها ما لحقهم من تبعه العمل.

قوله تعالی: فَمَنْ لَمْ یَجِدْ فَصِیٰامُ شَهْرَیْنِ مُتَتٰابِعَیْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَتَمَاسّٰا الی آخر الآیه؛خصله ثانیه من الکفاره مترتبه علی الخصله الاولی لمن لا یتمکن منها و هی صیام شهرین متتابعین من قبل أن یتماسا،و قید ثانیا بقوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ یَتَمَاسّٰا» لدفع توهم اختصاص القید بالخصله الاولی.

و قوله: فَمَنْ لَمْ یَسْتَطِعْ فَإِطْعٰامُ سِتِّینَ مِسْکِیناً بیان للخصله الثالثه فمن لم یطق صیام شهرین متتابعین فعلیه إطعام ستین مسکینا و تفصیل الکلام فی ذلک کله فی الفقه.

و قوله: ذٰلِکَ لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ أی ما جعلناه من الحکم و افترضناه من الکفاره فأبقینا علقه الزوجیه و وضعنا الکفاره لمن أراد أن یرجع الی المواقعه جزاء بما أتی

بسنه من سنن الجاهليه كل ذلک لتؤمنوا باللّه و رسوله و ترفضوا أباطيل السنن.

و قوله: وَ تِلْکَ حُدُودُ اللّهِ وَ لِلْکافِرِینَ عَذابٌ أَلِیمٌ حد الشیء ما ینتهی الیه و لا یتعداه و أصله المنع،و المراد أن ما افترضناه من الخصال أو ما نضعها من الأحکام حدود اللّه فلا تتعدوها بالمخالفه و للکافرین بما حکمنا به فی الظهار أو بما شرعناه من الأحکام بالمخالفه و المحاده عذاب ألیم.

و الظاهر أن المراد بالکفر رد الحکم و الأخذ بالظهار بما أنه سنه مؤثره مقبوله،و یؤیده قوله: «ذلِکَ لِتُؤْمِنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ» أی تذعنوا بأن حکم اللّه حق و أن رسوله صادق أمین فی تبلیغه،و قد أکده بقوله: «وَ تِلْکَ حُدُودُ اللّهِ» الخ؛و یمکن أن یکون المراد بالکفر الکفر فی مقام العمل و هو العصیان.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یُحَادُّونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ کُبِتُوا کَما کُبِتَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ الخ؛المجادّه الممانعه و المخالفه،و الکبت الإذلال و الإخزاء.

و الآیه و التی تتلوها و إن أمکن أن تکونا استئنافا یبین أمر محادّه اللّه و رسوله من حیث تبعتها و أثرها لکن ظاهر السیاق أن تکونا مسوقتین لتعلیل ذیل الآیه السابقه الذی معناه النهی عن محادّه اللّه و رسوله،و المعنی:إنما أمرناکم بالإیمان باللّه و رسوله و نهیناکم عن تعدّی حدود اللّه و الکفر بها لأن الذین یحادّون اللّه و رسوله بالمخالفه أذلّوا و أخزوا کما أذلّ و أخزی الذین من قبلهم.

ثم أکده بقوله: «وَ قَدْ أَنْزَلْنا آیاتٍ بَیِّناتٍ وَ لِلْکافِرِینَ عَذابٌ مُهِینٌ» أی لا ریب فی کونها منا و فی أن رسولنا صادق أمین فی تبلیغها،و للکافرین بها الرادّین لها عذاب مهین مخز.

قوله تعالی: یَوْمَ یَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِیعاً فَیُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا ظرف لقوله:

«وَ لِلْکافِرِینَ عَذابٌ أَلِیمٌ» أی لهم ألیم العذاب فی یوم یبعثهم اللّه و هو یوم الحساب و الجزاء فیخبرهم بحقیقه جمیع ما عملوا فی الدنیا.

و قوله: أَحْصٰاهُ اللّٰهُ وَ نَسُوهُ الإحصاء الإحاطه بعدد الشیء من غیر أن یفوت منه شیء،قال الراغب:الإحصاء التحصیل بالعدد یقال:أحصیت کذا،و ذلک من لفظ الحصا، و استعمال ذلک فیه من حیث إنهم کانوا یعتمدونه فی العدّ کاعتمادنا فیه على الأصابع.انتهى.

و قوله: وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ تعلیل لقوله: «أَحْصٰاهُ اللّٰهُ» و قد مرّ تفسیر شهاده اللّه على کل شیء فی آخر سوره حم السجده (۱).

[سوره المجادله (۵۸): الآيات ۷ الى ۱۳]

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ مٰا يَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاٰثَةٍ إِلاّٰ هُوَ رٰابِعُهُمْ وَ لاٰ خَمْسَةٍ إِلاّٰ هُوَ سٰادِسُهُمْ وَ لاٰ أَدْنىٰ مِنْ ذٰلِكَ وَ لاٰ أَكْثَرَ إِلاّٰ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مٰا كٰانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُوا يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ إِنَّ اَللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ نُهُوا عَنِ اَلنَّجْوىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمٰا نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَنٰاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ اَلْعُدْوٰانِ وَ مَعْصِيَةِ اَلرَّسُولِ وَ إِذٰا جٰاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمٰا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اَللّٰهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لاٰ يُعَذِّبُنَا اَللّٰهُ بِمٰا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهٰا فَبِئْسَ اَلْمَصِيرُ (٨) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا تَنٰاجَيْتُمْ فَلاٰ تَتَنٰاجَوْا بِالْإِثْمِ وَ اَلْعُدْوٰانِ وَ مَعْصِيَةِ اَلرَّسُولِ وَ تَنٰاجَوْا بِالْبِرِّ وَ اَلتَّقْوىٰ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ اَلَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا اَلنَّجْوىٰ مِنَ اَلشَّيْطٰانِ لِيَحْزُنَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضٰارِّهِمْ شَيْئاً إِلاّٰ بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ عَلَى اَللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُؤْمِنُونَ (١٠) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي اَلْمَجٰالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اَللّٰهُ لَكُمْ وَ إِذٰا قِيلَ اُنْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اَللّٰهُ اَلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ دَرَجٰاتٍ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا نٰاجَيْتُمُ اَلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰاكُمْ صَدَقَةً ذٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰاكُمْ صَدَقٰاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تٰابَ اَللّٰهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ آتُوا اَلزَّكٰاةَ وَ أَطِيعُوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ اَللّٰهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (١٣)

۱- ۱) .المجادله ۱-۶:بحث روائی حول قوله تعالی: «قَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّتِي تُجٰادِلُكَ فِي زَوْجِهٰا» طلاق الظهار.

بيان:

و قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ الاستفهام إنكاری،و المراد بالرؤيه العلم اليقينی علی سبيل الاستعاره،و الجمله تقدمه يعلل بها ما يتلوها من كونه تعالی مع أهل النجوی مشاركا لهم فی نجواهم.

قوله تعالی: مٰا يَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاٰثَةٍ إِلاّٰ هُوَ رٰابِعُهُمْ وَ لاٰ خَمْسَةٍ إِلاّٰ هُوَ سٰادِسُهُمْ الی آخر الآيه؛النجوی مصدر بمعنی التناجی و هو المساره،و ضمائر الإفراد للّٰه سبحانه،و المراد بقوله: «رٰابِعُهُمْ» و «سٰادِسُهُمْ» جاعل الثلاثه أربعه و جاعل الخمسه سته

بمشارکته لهم فی العلم بما یتناجون فیه و معیته لهم فی الاطلاع علی ما یسارون فیه کما یشهد به ما احتفّ بالکلام من قوله فی أول الآیه: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ یَعْلَمُ» الخ؛و فی آخرها من قوله: «إِنَّ اللّٰهَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ» .

و قوله: وَ لاٰ أَدْنیٰ مِنْ ذٰلِکَ وَ لاٰ أَکْثَرَ أی و لا أقل مما ذکر من العدد و لا أکثر مما ذکر،و بهاتین الکلمتین یشمل الکلام عدد أهل النجوی أیا ما کان أما الأدنی من ذلک فالأدنی من الثلاثه الاثنان و الأدنی من الخمسه الأربعه،و أما الأکثر فالأکثر من خمسه السته فما فوقها.

و من لطف سیاق الآیه ترتب ما أشیر الیه من مراتب العدد:و الثلاثه و الأربعه و الخمسه و السته من غیر تکرار فلم یقل:من نجوی ثلاثه إلاّ هو رابعهم و لا أربعه إلاّ هو خامسهم و هکذا.

و قوله: إِلاّٰ هُوَ مَعَهُمْ أَیْنَ مٰا کٰانُوا المراد به المعیه من حیث العلم بما یتناجون به و المشارکه لهم فیه.

و بذلک یظهر أن المراد بکونه تعالی رابع الثلاثه المتناجین و سادس الخمسه المتناجین معیته لهم فی العلم و مشارکته لهم فی الاطلاع علی ما یسارون لا مماثلته لهم فی تتمیم العدد فإن کلا منهم شخص واحد جسمانی یکون بانضمامه الی مثله عدد الاثنین و الی مثلیه الثلاثه و اللّٰه سبحانه منزه عن الجسمیه بریء من المادیه.

و ذلک أن مقتضی السیاق أن المستثنی من قوله: «مٰا یَکُونُ مِنْ نَجْویٰ» الخ؛معنی واحد و هو أن اللّٰه لا یخفی علیه نجوی فقوله: «إِلاّٰ هُوَ رٰابِعُهُمْ» «إِلاّٰ هُوَ سٰادِسُهُمْ» فی معنی قوله: «إِلاّٰ هُوَ مَعَهُمْ» و هو المعیه العلمیه أی أنه یشارکهم فی العلم و یقارنهم فیه أو المعیه الوجودیه بمعنی أنه کلما فرض قوم یتناجون فاللّٰه سبحانه هناک سمیع علیم.

و فی قوله: «أَیْنَ مٰا کٰانُوا» تعمیم من حیث المکان إذ لما کانت معیته تعالی لهم من حیث

العلم لا- بالاقتران الجسمانی لم یتفاوت الحال و لم یختلف باختلاف الأمکنه بالقرب و البعد فاللّه سبحانه لا یخلو منه مکان و لیس فی مکان.

و بما تقدم یظهر أیضا أن-ما تفیده الآیه من معیته تعالی لأصحاب النجوی و کونه رابع الثلاثه منهم و سادسهم الخمسه منهم لا ینافی ما تقدم تفصیلا فی ذیل قوله تعالی: لَقَدْ کَفَرَ الَّذِینَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَهٍ (المائده۷۳/)،من أن وحدته تعالی لیست وحده عددیه بل وحده أحدیه یستحیل معها فرض غیر معه یکون ثانیا له فالمراد بکونه معهم و رابعا للثلاثه منهم و سادسا للخمسه منهم أنه عالم بما یتناجون به و ظاهر مکشوف له ما یخفونه من غیرهم لا أن له وجودا محدودا یقبل العد یمکن أن یفرض له ثان و ثالث و هکذا.

و قوله: ثُمَّ یُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا یَوْمَ الْقِیَامَهِ أی یخبرهم بحقیقه ما عملوا من عمل و منه نجواهم و مسارتهم.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ تعلیل لقوله: «ثُمَّ یُنَبِّئُهُمْ» الخ؛و تأکید لما تقدم من علمه بما فی السماوات و ما فی الأرض،و کونه مع أصحاب النجوی.

و الآیه تصلح أن تکون توطئه و تمهیدا لمضمون الآیات التالیه و لا یخلو ذیلها من لحن شدید یرتبط بما فی الآیات التالیه من الذم و التهدید.

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ نُهُوا عَنِ النَّجْوی ثُمَّ یَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ الی آخر الآیه؛سیاق الآیات یدل علی أن قوما من المنافقین و الذین فی قلوبهم مرض من المؤمنین کانوا قد أشاعوا بینهم النجوی محاده للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین یتناجون بینهم بالإثم و العدوان و معصیه الرسول و لیؤذوا بذلک المؤمنین و یحزنون و کانوا یصرون علی ذلک من غیر أن ینتهوا بنهی فنزلت الآیات.

فقوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ نُهُوا عَنِ النَّجْوی ثُمَّ یَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ذم و توبیخ غیابی لهم،و قد خاطب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لم یخاطبهم أنفسهم مبالغه فی تحقیر أمرهم

و إبعادا لهم عن شرف المخاطبه.

و المعنى:أ لم تنظر الى الذين نهوا عن التناجى بينهم بما يغمّ المؤمنين و يحزنهم ثم يعودون الى التناجى الذى نهوا عنه عوده بعد عوده،و فى التعبير بقوله: «يَعُودُونَ» دلاله على الاستمرار،و فى العدول عن ضمير النجوى الى الموصول و الصله حيث قيل «يَعُودُونَ لِمٰا نُهُوا عَنْهُ» و لم يقل«يعودون إليها»دلاله على سبب الذم و التوبيخ و مساءه العود لأنها أمر منهى عنه.

و قوله: وَ يَتَنٰاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ وَ مَعْصِيَتِ الرَّسُولِ المقابله بين الامور الثلاثه:الإثم و العدوان و معصيه الرسول تفيد أن المراد بالإثم هو العمل الذى له أثر سيئ لا يتعدى نفس عامله كشرب الخمر و الميسر و ترك الصلاه مما يتعلق من المعاصى بحقوق اللّه، و العدوان هو العمل الذى فيه تجاوز الى الغير مما يتضرر به الناس و يتأذون مما يتعلق من المعاصى بحقوق الناس،و القسمان أعنى الإثم و العدوان جميعا من معصيه اللّه،و معصيه الرسول مخالفته فى الامور التى هى جائزه فى نفسها لا أمر و لا نهى من اللّه فيها لكن الرسول أمر بها أو نهى عنها لمصلحه الامه بماله ولايه أمورهم و النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم كما نهاهم عن النجوى و إن لم يشتمل على معصيه.

كان ما تقدم من قوله: «الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمٰا نُهُوا عَنْهُ» ذما و توبيخا لهم على نفس نجواهم بما أنها منهى عنها مع الغض عن كونها بمعصيه أو غيرها:و هذا الفصل أعنى قوله: «وَ يَتَنٰاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ وَ مَعْصِيَتِ الرَّسُولِ» ذم و توبيخ لهم بما يشتمل عليه تناجيهم من المعصيه بأنواعها و هؤلاء القوم هم المنافقون و مرضى القلوب كانوا يكثرون من النجوى بينهم ليغتمّ بها المؤمنون و يحزنوا و يتأذوا.

و قيل:المنافقون و اليهود كان يناجى بعضهم بعضا ليحزنوا المؤمنين و يلقوا بينهم الوحشه و الفزع و يوهنوا عزمهم لكن فى شمول قوله: «الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمٰا نُهُوا عَنْهُ»

لليهود خفاء.

و قوله: وَ إِذٰا جٰاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمٰا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللّٰهُ فإن اللّه حيّاه بالتسليم و شرع له ذلك تحيه من عند اللّه مباركه طيبه و هم كانوا يحيونه بغيره.قالوا:هؤلاء هم اليهود كانوا إذا أتوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قالوا:السام عليك-و السام هو الموت-و هم يوهمون أنهم يقولون:

السلام عليك،و لا يخلو من شيء فإن الضمير فى «جٰاؤُكَ» و «حَيَّوْكَ» للموصول فى قوله:

«الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوىٰ» و قد عرفت أن فى شموله لليهود خفاء.

و قوله: وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لاٰ يُعَذِّبُنَا اللّٰهُ بِمٰا نَقُولُ معطوف على «حَيَّوْكَ» أو حال و ظاهره أن ذلك منهم من حديث النفس مضمرين ذلك فى قلوبهم،و هو تحضيض بداعى الطعن و التهكم فيكون من المنافقين إنكارا لرساله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على طريق الكنايه و المعنى:أنهم يحيونك بما لم يحيّك به اللّه و هم يحدثون أنفسهم بدلاله قولهم ذلك-و لو لا يعذبهم اللّه به-على أنك لست برسول من اللّه و لو كنت رسوله لعذبهم بقولهم.

و قد ردّ اللّه عليهم احتجاجهم بقولهم: «لَوْ لاٰ يُعَذِّبُنَا اللّٰهُ بِمٰا نَقُولُ» بقوله: «حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهٰا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ» أى إنهم مخطئون فى نفيهم العذاب فهم معذبون بما أعدّ لهم من العذاب و هو جهنم التى يدخلونها و يقاسون حرّها و كفى بها عذابا لهم.

و كأن المنافقين و من يلحق بهم لما لم ينتهوا بهذه المناهى و التشديدات نزل قوله تعالى:

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاٰ يُجٰاوِرُونَكَ فِيهٰا إِلاّٰ قَلِيلاً، مَلْعُونِينَ أَيْنَمٰا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلاً الآيات،(الأحزاب/ ۶۱).

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا تَنٰاجَيْتُمْ فَلاٰ تَتَنٰاجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ وَ مَعْصِيَتِ الرَّسُولِ الخ؛لا يخلو سياق الآيات من دلاله على أن الآيه نزلت فى رفع الخطر و قد خوطب فيها المؤمنون فاجيز لهم النجوى و اشترط عليهم أن لا يكون تناجيا بالإثم

و العدوان و معصيه الرسول و أن يكون تناجيا بالبر و التقوى و البر و هو التوسع فى فعل الخير يقابل العدوان،و التقوى مقابل الإثم ثم أكد الكلام بالأمر بمطلق التقوى بإنذارهم بالحشر بقوله: «وَ اتَّقُوا اللّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» .

قوله تعالى: إِنَّمَا النَّجْوىٰ مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ الخ؛المراد بالنجوى-على ما يفيده السياق-هو النجوى الدائره فى تلك الأيام بين المنافقين و مرضى القلوب و هى من الشيطان فإنه الذى يزيّنها فى قلوبهم ليتوسل بها الى حزنهم و يشوّش قلوبهم ليوهمهم أنها فى نائبه حلّت بهم و بليّه أصابتهم.

ثم طيّب اللّه سبحانه قلوب المؤمنين بتذكيرهم أن الأمر الى اللّه سبحانه و أن الشيطان أو التناجى لا يضرّهم شيئا إلاّ بإذن اللّه فليتوكلوا عليه و لا يخافوا ضرّه و قد نصّ سبحانه فى قوله: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (الطلاق٣/)أنه يكفى من توكل عليه، و استنهضهم على التوكل بأنه من لوازم إيمان المؤمن فإن يكونوا مؤمنين فليتوكلوا عليه فهو يكفيهم.و هذا معنى قوله: «وَ لَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ وَ عَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» .

قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللّهُ لَكُمْ الخ؛التفسّح الاتساع و كذا الفسح،و المجالس جمع مجلس اسم مكان،و الاتساع فى المجلس أن يتسع الجالس ليسع المكان غيره و فسح اللّه له أن يوسع له فى الجنه.

و الآيه تتضمن أدبا من آداب المعاشره،و يستفاد من سياقها أنهم كانوا يحضرون مجلس النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيجلسون ركاما لا يدع لغيرهم من الواردين مكانا يجلس فيه فادّبوا بقوله: «إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا» الخ؛و الحكم عام و إن كان مورد النزول مجلس النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و المعنى:يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم توسّعوا فى المجالس ليسع المكان معكم غيركم

فتوسّعوا وسّع اللّه لكم فى الجنه.

و قوله: وَ إِذٰا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يتضمن أدبا آخر،و النشوز-كما قيل- الارتفاع عن الشىء بالذهاب عنه،و النشوز عن المجلس أن يقوم الإنسان عن مجلسه ليجلس فيه غيره إعظاما له و تواضعا لفضله.

و المعنى:و إذا قيل لكم قوموا ليجلس مكانكم من هو أفضل منكم فى علم أو تقوى فقوموا.

و قوله: يَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجٰاتٍ لا ريب فى أن لازم رفعه تعالى درجه عبد من عباده مزيد قربه منه تعالى،و هذا قرينه عقليه على أن المراد بهؤلاء الذين أوتوا العلم العلماء من المؤمنين فتدلّ الآيه على انقسام المؤمنين الى طائفتين:مؤمن و مؤمن عالم،و المؤمن العالم أفضل و قد قال تعالى: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ (الزمر/۹).

و فى الآيه من تعظيم أمر العلماء و رفع قدرهم ما لا يخفى.و أكد الحكم بتذييل الآيه بقوله:

«وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» .

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا نٰاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰاكُمْ صَدَقَةً الخ؛أى إذا أردتم أن تناجوا الرسول فتصدقوا قبلها.

و قوله: ذٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ تعليل للتشريع نظير قوله: وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ (البقره/۱۸۴)،و لا شك أن المراد بكونها خيرا لهم و أطهر أنها خير لنفوسهم و أطهر لقلوبهم و لعل الوجه فى ذلك أن الأغنياء منهم كانوا يكثرون من مناجاه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يظهرون بذلك نوعا من التقرب اليه و الاختصاص به و كان الفقراء منهم يحزنون بذلك و ينكسر قلوبهم فامروا أن يتصدقوا بين يدى نجواهم على فقرائهم بما فيها من ارتباط النفوس و إثاره الرحمه و الشفقه و الموده وصله القلوب بزوال الغيظ و الحنق.

و فی قوله: ذٰلِکَ التفات الی خطاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بین خطابین للمؤمنین و فیه تجلیل لطیف له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث إن حکم الصدقه مرتبط بنجواه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الالتفات الیه فیما یرجع الیه من الکلام مزید عنایه به.

و قوله: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ أی فإن لم تجدوا شیئا تتصدقون به فلا یجب علیکم تقدیمها و قد رخص اللّه لکم فی نجواه و عفی عنکم إنه غفور رحیم فقوله:

«فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ» من وضع السبب موضع المسبب.

و فیه دلاله علی رفع الوجوب علی المعدمین کما أنه قرینه علی إراده الوجوب فی قوله:

«فَقَدِّمُوا» الخ؛و وجوبه علی الموسرین.

قوله تعالی: أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیْ نَجْوٰاکُمْ صَدَقٰاتٍ الخ؛الآیه ناسخه لحکم الصدقه المذکور فی الآیه السابقه،و فیه عتاب شدید لصحابه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین حیث إنهم ترکوا مناجاته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خوفا من بذل المال بالصدقه فلم یناجه أحد منهم إلاّ علیّ علیه السّلام فإنه ناجاه عشر نجوات کلما ناجاه قدم بین یدی نجواه صدقه ثم نزلت الآیه و نسخت الحکم.

و الإشفاق الخشیه،و قوله: «أَنْ تُقَدِّمُوا» الخ؛مفعوله و المعنی:أ خشیتم التصدق و بذل المال للنجوی،و احتمل أن یکون المفعول محذوفا و التقدیر أ خشیتم الفقر لأجل بذل المال.

قال بعضهم:جمع الصدقات لما أن الخوف لم یکن فی الحقیقه من تقدیم صدقه واحده لأنه لیس مظنه الفقر بل من استمرار الأمر و تقدیم صدقات.

و قوله: فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تٰابَ اللّٰهُ عَلَیْکُمْ فَأَقِیمُوا الصَّلاٰهَ وَ آتُوا الزَّکٰاهَ الخ؛أی فإذ لم تفعلوا ما کلفتم به و رجع اللّه الیکم العفو و المغفره فأثبتوا علی امتثال سائر التکالیف من إقامه الصلاه و إیتاء الزکاه.

ففی قوله: وَ تٰابَ اللّٰهُ عَلَیْکُمْ دلاله علی کون ذلک منهم ذنبا و معصیه غیر أنه

تعالی غفر لهم ذلک.

و فی کون قوله: فَأَقِیمُوا الصَّلاٰهَ الخ؛متفرعا علی قوله: «فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا» الخ؛دلاله علی نسخ حکم الصدقه قبل النجوی.

و فی قوله: وَ أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ تعمیم لحکم الطاعه لسائر التکالیف بإیجاب الطاعه المطلقه،و فی قوله: «وَ اللّٰهُ خَبِیرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ» نوع تشدید یتأکد به حکم وجوب طاعه اللّه و رسوله (۱).

[سوره المجادله (۵۸): الآیات ۱۴ الی ۲۲]

أَ لَمْ تَرَ إِلَی اَلَّذِینَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اَللّٰهُ عَلَیْهِمْ مٰا هُمْ مِنْکُمْ وَ لاٰ مِنْهُمْ وَ یَحْلِفُونَ عَلَی اَلْکَذِبِ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ (۱۴) أَعَدَّ اَللّٰهُ لَهُمْ عَذٰاباً شَدِیداً إِنَّهُمْ سٰاءَ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۱۵) اِتَّخَذُوا أَیْمٰانَهُمْ جُنَّهً فَصَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ فَلَهُمْ عَذٰابٌ مُهِینٌ (۱۶) لَنْ تُغْنِیَ عَنْهُمْ أَمْوٰالُهُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُهُمْ مِنَ اَللّٰهِ شَیْئاً أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ (۱۷) یَوْمَ یَبْعَثُهُمُ اَللّٰهُ جَمِیعاً فَیَحْلِفُونَ لَهُ کَمٰا یَحْلِفُونَ لَکُمْ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلیٰ شَیْءٍ أَلاٰ إِنَّهُمْ هُمُ اَلْکٰاذِبُونَ (۱۸) اِسْتَحْوَذَ عَلَیْهِمُ اَلشَّیْطٰانُ فَأَنْسٰاهُمْ ذِکْرَ اَللّٰهِ أُولٰئِکَ حِزْبُ اَلشَّیْطٰانِ أَلاٰ إِنَّ حِزْبَ اَلشَّیْطٰانِ هُمُ اَلْخٰاسِرُونَ (۱۹) إِنَّ اَلَّذِینَ یُحَادُّونَ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ أُولٰئِکَ فِی اَلْأَذَلِّینَ (۲۰) کَتَبَ اَللّٰهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِی إِنَّ اَللّٰهَ قَوِیٌّ عَزِیزٌ (۲۱) لاٰ تَجِدُ قَوْماً یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ یُوٰادُّونَ مَنْ حَادَّ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ کٰانُوا آبٰاءَهُمْ أَوْ أَبْنٰاءَهُمْ أَوْ إِخْوٰانَهُمْ أَوْ عَشِیرَتَهُمْ أُولٰئِکَ کَتَبَ فِی قُلُوبِهِمُ اَلْإِیمٰانَ وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ یُدْخِلُهُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا رَضِیَ اَللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولٰئِکَ حِزْبُ اَللّٰهِ أَلاٰ إِنَّ حِزْبَ اَللّٰهِ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۲۲)

۱- ۱) .المجادله ۷-۱۳:بحث روائی فی:تحیه أهل الجاهلیه؛فضل العالم؛النجوی.

بیان:

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللّهُ عَلَیْهِمْ الخ؛القوم المغضوب علیهم هم الیهود،قال تعالی: مَنْ لَعَنَهُ اللّهُ وَ غَضِبَ عَلَیْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَهَ وَ الْخَنازِیرَ وَ عَبَدَ الطّاغُوتَ (المائده۶۰/).

و قوله: ما هُمْ مِنْکُمْ وَ لا مِنْهُمْ ضمیر «هُمْ» للمنافقین و ضمیر «مِنْهُمْ» للیهود، و المعنی:أن هؤلاء المنافقین لتذبذبهم بین الکفر و الإیمان لیسوا منکم و لا من الیهود،قال تعالی: مُذَبْذَبِینَ بَیْنَ ذلِکَ لا إِلی هؤُلاءِ وَ لا إِلی هؤُلاءِ (النساء۱۴۳/).

و هذه صفتهم بحسب ظاهر حالهم و أما بحسب الحقیقه فهم ملحقون بمن تولوهم،قال تعالی: وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ (المائده۵۱/)،فلا منافاه بین قوله: «ما هُمْ مِنْکُمْ وَ لا مِنْهُمْ» و قوله: «فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» .

و قوله: وَ یَحْلِفُونَ عَلَی الْکَذِبِ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ أی یحلفون لکم علی الکذب

ص :۲۴۴

أنهم منكم مؤمنون أمثالكم و هم يعلمون أنهم كاذبون فی حلفهم.

قوله تعالی: أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ عَذٰاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سٰاءَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ الإعداد التهيئه،و قوله: «إِنَّهُمْ سٰاءَ» الخ؛تعليل للإعداد،و فی قوله: «كٰانُوا يَعْمَلُونَ» دلاله علی أنهم كانوا مستمرين فی عملهم مداومين عليه.

و المعنی:هيّأ اللّٰه لهم عذابا شديدا لاستمرارهم علی عملهم السيئ.

قوله تعالی: اِتَّخَذُوا أَيْمٰانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ فَلَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ الأيمان جمع يمين و هو الحلف،و الجنه الستره التی يتقی بها الشر كالترس،و المهين اسم فاعل من الإهانه بمعنی الإذلال و الإخزاء.

و المعنی:اتخذوا أيمانهم ستره يدفعون بها عن نفوسهم التهمه و الظنه كلما ظهر منهم أمر يريب المؤمنين فصرفوا أنفسهم و غيرهم عن سبيل اللّٰه و هو الإسلام فلهم-لأجل ذلك- عذاب مذلّ مخز.

قوله تعالی: لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوٰالُهُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُهُمْ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ أی إن الذی دعاهم الی ما هم عليه متاع الحياه الدنيا الذی هو الأموال و الأولاد لكنهم فی حاجه الی التخلص من عذاب خالد لا يقضيها لهم إلاّ اللّٰه سبحانه فهم فی فقر اليه لا يغنيهم عنه أموالهم و لا أولادهم شيئا فليؤمنوا به و ليعبدوه.

قوله تعالی: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّٰهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمٰا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلیٰ شَيْءٍ الخ؛ظرف لما تقدم من قوله: «أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ عَذٰاباً شَدِيداً» أو لقوله: «أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ» ،و قوله: «فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمٰا يَحْلِفُونَ لَكُمْ» أی يحلفون للّٰه يوم البعث كما يحلفون لكم فی الدنيا.

و قد قدمنا فی تفسير قوله تعالی: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا وَ اللّٰهِ رَبِّنٰا مٰا كُنّٰا مُشْرِكِينَ (الأنعام/۲۳)أن حلفهم علی الكذب يوم القيامه مع ظهور حقائق الامور يومئذ

من ظهور ملكـاتهم هناك لرسوخها فى نفوسـهم فى الـدنيا فقـد اعتادوا فيها على إظهار الباطل على الحق بالأيمان الكاذبه و كما يعيشون يموتون و كما يموتون يبعثون.

و من هذا القبيل سؤالهم الرد الى الدنيا يومئذ،و الخروج من النار و خصامهم فى النار و غير ذلك مما يقصّه القرآن الكريم،و هم يشاهدون مشاهده عيان أن لا سبيل الى شىء من ذلك و اليوم يوم جزاء لا يوم عمل.

و أما قوله: وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلىٰ شَيْءٍ أى مستقرون على شىء يصلح أن يستقر عليه و يتمكن فيه فيمكنهم الستر على الحق و المنع عن ظهور كذبهم بمثل الإنكار و الحلف الكاذب.

فيمكن أن يكون قيدا لقوله: «كَمٰا يَحْلِفُونَ لَكُمْ» فيكون إشاره الى وصفهم فى الـدنيا و أنهم يحسبون أن حلفهم لكم ينفعهم و يرضيكم،و يكون قوله: «أَلاٰ إِنَّهُمْ هُمُ الْكٰاذِبُونَ» قضاء منه تعالى فى حقهم بأنهم كاذبون فلا يصغى الى ما يهذون به و لا يعتنى بما يحلفون به.

و يمكن أن يكون قيدا لقوله: «فَيَحْلِفُونَ لَهُ» فيكون من قبيل ظهور الملكات يومئذ كما تقدم فى معنى حلفهم آنفا،و يكون قوله: «أَلاٰ إِنَّهُمْ هُمُ الْكٰاذِبُونَ» حكما منه تعالى بكذبهم يوم القيامه أو مطلقا.

قوله تعالى: اِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطٰانُ فَأَنْسٰاهُمْ ذِكْرَ اللّٰهِ أُولٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطٰانِ أَلاٰ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطٰانِ هُمُ الْخٰاسِرُونَ الاستحواذ الاستيلاء و الغلبه، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ أُولٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ تعليل لكونهم هم الخاسرين أى إنما كانوا خاسرين لأنهم يحادّون اللّٰه و رسوله بالمخالفه و المعانده و المحادّون للّٰه و رسوله فى جمله الأذلّين من خلق اللّٰه تعالى.

قيل:إنما كانوا فى الأذلّين لأن ذله أحد المتخاصمين على مقدار عزه الآخر و إذ كانت العزه

للّه جميعا فلا يبقى لمن حادّه إلاّ الذله محضا.

قوله تعالى: كَتَبَ اللّٰهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللّٰهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ الكتابه هى القضاء منه تعالى.

و ظاهر إطلاق الغلبه شمولها للغلبه من حيث الحجه و من حيث التأييد الغيبى و من حيث طبيعه الإيمان باللّه و رسوله.

أما من حيث الحجه فإن الإنسان مفطور على صلاحيه إدراك الحق و الخضوع له فلو بيّن له الحق من السبيل التى يألفها لم يلبث دون أن يعقله و إذا عقله اعترفت له فطرته و خضعت له طويّته و إن لم يخضع له عملا اتباعا لهوى أو أى مانع يمنعه عن ذلك.

و أما الغلبه من حيث التأييد الغيبى و القضاء للحق على الباطل فيكفى فيها أنواع العذاب التى أنزلها اللّه تعالى على مكذبى الامم الماضين كقوم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب و على آل فرعون و غيرهم ممن يشير تعالى اليهم بقوله: ثُمَّ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا تَتْرٰا كُلَّ مٰا جٰاءَ أُمَّةً رَسُولُهٰا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنٰا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَحٰادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ (المؤمنون/ ۴۴)،و على ذلك جرت السنه الإلهيه و قد أجمل ذكرها فى قوله: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (يونس۴۷/).

و أما الغلبه من حيث طبيعه الإيمان باللّه و رسوله فإن إيمان المؤمن يدعوه الى الدفاع و الذّبّ عن الحق و المقاومه تجاه الباطل مطلقا و هو يرى أنه إن قتل فاز و إن قتل فاز فثباته على الدفاع غير مقيد بقيد و لا محدود بحدّ و هذا بخلاف من يدافع لا عن الحق بما هو حق بل عن شىء من المقاصد الدنيويه فإنه إنما يدافع لأجل نفسه فلو شاهد نفسه مشرفه على هلكه أو راكبه مخاطره تولى منهزما فهو إنما يدافع على شرط و الى حد و هو سلامه النفس و عدم الإشراف على الهلكه و من الضرورى أن العزيمه المطلقه تغلب العزيمه المقيده بقيد المحدوده بحد و من الشاهد عليه غزوات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما أدّت اليه من الفتح و الظفر فى عين أنها كانت سجالا

ص :۲۴۷

لکن لم تنته إلّا الی تقدّم المسلمین و غلبتهم.

و لم تقف الفتوحات الإسلامیه و لا تفرّقت جموع المسلمین أیادی سبأ إلّا بفساد نیّاتهم و تبدیل سیره التقوی و الإخلاص للّه و بسط الدین الحق من بسط السلطه و توسعه المملکه ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَهً أَنْعَمَهٰا عَلیٰ قَوْمٍ حَتّٰی یُغَیِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ (۱)و قد اشترط اللّه علیهم حین أکمل دینهم و أمّنهم من عدوهم أن یخشوه إذ قال: «اَلْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» .

و یکفی فی تسجیل هذه الغلبه قوله تعالی فیما یخاطب المؤمنین: وَ لاٰ تَهِنُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (آل عمران۱۳۹/).

قوله تعالی: لاٰ تَجِدُ قَوْماً یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ یُوٰادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ کٰانُوا آبٰاءَهُمْ أَوْ أَبْنٰاءَهُمْ أَوْ إِخْوٰانَهُمْ أَوْ عَشِیرَتَهُمْ الخ؛نفی وجدان قوم علی هذه الصفه کنایه عن أن الإیمان الصادق باللّه و الیوم الآخر لا یجامع موادّه أهل المحادّه و المعانده من الکفار و لو قارن أی سبب من أسباب الموده کالابوه و البنوه و الاخوه و سائر أقسام القرابه فبین الإیمان و مواده أهل المحاده تضادّ لا یجتمعان لذلک.

و قد بان أن قوله: «وَ لَوْ کٰانُوا آبٰاءَهُمْ» الخ؛إشاره الی أسباب الموده مطلقا و قد خصّت موده النسب بالذکر لکونه أقوی أسباب الموده من حیث ثباته و عدم تغیره.

و قوله: «أُولٰئِکَ کَتَبَ فِی قُلُوبِهِمُ الْإِیمٰانَ» الإشاره الی القوم بما ذکر لهم من الصفه،و الکتابه الإثبات بحیث لا یتغیر و لا یزول و الضمیر للّه و فیه نص علی أنهم مؤمنون حقا.

و قوله: وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ التأیید التقویه،و ضمیر الفاعل فی «أَیَّدَهُمْ» للّه تعالی و کذا ضمیر «مِنْهُ» و«من»ابتدائیه،و المعنی:و قوّاهم اللّه بروح من عنده تعالی،و قیل:

۱- ۱) .الأنفال:۵۳.

الضمير للإيمان،و المعنى:و قوّاهم اللّه بروح من جنس الإيمان يحيى بها قلوبهم،و لا بأس به.

ثم الروح-على ما يتبادر من معناها-هى مبدأ الحياه التى تترشح منها القدره و الشعور فإبقاء قوله: «وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» على ظاهره يفيد أن للمؤمنين وراء الروح البشريه التى يشترك فيها المؤمن و الكافر روحا اخرى تفيض عليهم حياه اخرى و تصاحبها قدره و شعور جديدان،و الى ذلك يشير قوله تعالى: أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمٰاتِ لَيْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا (الأنعام۱۲۲/)،و قوله: مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰاةً طَيِّبَةً (النحل۹۷/).

و ما فى الآيه من طيب الحياه يلازم طيب أثرها و هو القدره و الشعور المتفرع عليهما الأعمال الصالحه،و هما المعبر عنهما فى آيه الأنعام المذكوره آنفا بالنور و نظيرها قوله: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ (الحديد۲۸/).

و هذه حياه خاصه كريمه لها آثار خاصه ملازمه لسعاده الإنسان الأبديه وراء الحياه المشتركه بين المؤمن و الكافر التى لها آثار مشتركه فلها مبدأ خاص و هو روح الإيمان التى تذكرها الآيه وراء الروح المشتركه بين المؤمن و الكافر.

و على هذا فلا موجب لما ذكروا أن المراد بالروح نور القلب و هو نور العلم الذى يحصل به الطمأنينه و أن تسميته روحا مجاز مرسل لأنه سبب للحياه الطيبه الأبديه أو من الاستعاره لأنه فى ملازمته وجوه العلم الفائض على القلب-و العلم حياه القلب كما أن الجهل موته- يشبه الروح المفيض للحياه.انتهى.

و قوله: وَ يُدْخِلُهُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وعد جميل و وصف لحياتهم الآخره الطيبه.

و قوله: رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ استئناف يعلل قوله: «وَ يُدْخِلُهُمْ

جَنّاتٍ» الخ؛و رضا اللّه سبحانه عنهم رحمته لهم لإخلاصهم الإيمان له و رضاهم عنه و ابتهاجهم بما رزقهم من الحياه الطيبه و الجنه.

و قوله: أُولٰئِكَ حِزْبُ اللّهِ أَلاٰ إِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ تشريف لهؤلاء المخلصين فی إيمانهم بأنهم حزبه تعالی كما أن أولئك المنافقين الموالين لأعداء اللّه حزب الشيطان و هؤلاء مفلحون كما أن أولئك خاسرون.

و فی قوله: «أَلاٰ إِنَّ حِزْبَ اللّهِ» وضع الظاهر موضع الضمير ليجری الكلام مجری المثل السائر (۱).

ص: ۲۵۰

۱- ۱) .المجادله ۱۴-۲۲:بحث روائی حول غلبه اللّه و رسله؛الحب فی اللّه و البغض فی اللّه؛روح الايمان.

سوره الحشر مدنیه و هی أربع و عشرون آیه

اشاره

[سوره الحشر (۵۹): الآیات ۱ الی ۱۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;سَبَّحَ لِلّهِ ما فِی اَلسَّماواتِ وَ ما فِی اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۱) هُوَ اَلَّذِی أَخْرَجَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ اَلْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ اَلْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اَللّهِ فَأَتاهُمُ اَللّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِی قُلُوبِهِمُ اَلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِی اَلْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِی اَلْأَبْصارِ (۲) وَ لَوْ لا أَنْ كَتَبَ اَللّهُ عَلَيْهِمُ اَلْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِی اَلدُّنْيا وَ لَهُمْ فِی اَلْآخِرَةِ عَذابُ اَلنّارِ (۳) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اَللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِّ اَللّهَ فَإِنَّ اَللّهَ شَدِيدُ اَلْعِقابِ (۴) ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اَللّهِ وَ لِيُخْزِيَ اَلْفاسِقِينَ (۵) وَ ما أَفاءَ اَللّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا رِكابٍ وَ لكِنَّ اَللّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اَللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۶) ما أَفاءَ اَللّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ اَلْقُرى فَلِلّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی اَلْقُرْبى وَ اَلْيَتامى وَ اَلْمَساكِينِ وَ اِبْنِ اَلسَّبِيلِ كَیْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ اَلْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَ ما آتاكُمُ اَلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اِتَّقُوا اَللّهَ إِنَّ اَللّهَ شَدِيدُ اَلْعِقابِ (۷) لِلْفُقَراءِ اَلْمُهاجِرِينَ اَلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اَللّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اَللّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ اَلصّادِقُونَ (۸) وَ اَلَّذِينَ تَبَوَّؤُا اَلدّارَ وَ اَلْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لا يَجِدُونَ فِی صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۹) وَ اَلَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اِغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا اَلَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِی قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۱۰)

بیان:

قوله تعالی: سَبَّحَ لِلّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ افتتاح مطابق لما فی مختتم السوره من قوله: «یُسَبِّحُ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ» .

و إنما افتتح بالتنزیه لما وقع فی السوره من الإشاره الی خیانه الیهود و نقضهم العهد ثم وعد المنافقین لهم بالنصر غدرا کمثل الذین کانوا من قبلهم قریبا ذاقوا وبال أمرهم،و بالنظر الی ما أذاقهم اللّه من وبال کیدهم،و کون ذلک علی ما یقتضیه الحکمه و المصلحه ذیّل الآیه بقوله:

«وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ» .

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی أَخْرَجَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ مِنْ دِیارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ تأیید لما ذکر فی الآیه السابقه من تنزّهه تعالی و عزّته و حکمته،و المراد بإخراج الذین کفروا من أهل الکتاب إجلاء بنی النضیر حیّ من أحیاء الیهود کانوا یسکنون خارج المدینه و کان بینهم و بین النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عهد أن لا یکونوا له و لا علیه ثم نقضوا العهد فأجلاهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ستأتی قصتهم فی البحث الروائی التالی إن شاء اللّه.

و الحشر إخراج الجماعه بإزعاج،و «لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» من إضافه الصفه الی الموصوف، و اللام بمعنی فی کقوله: أَقِمِ الصَّلاهَ لِدُلُوکِ الشَّمْسِ (الإسراء/۷۸).

و المعنی:اللّه الذی أخرج بنی النضیر من الیهود من دیارهم فی أول إخراجهم من جزیره العرب.

ثم أشار تعالی الی أهمیه إخراجهم بقوله: «ما ظَنَنْتُمْ أَنْ یَخْرُجُوا» لما کنتم تشاهدون فیهم من القوه و الشده و المنعه «وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللّهِ» فلن یغلبهم اللّه و هم متحصنون فیها و عدّ حصونهم بحسب ظنهم مانعه من اللّه لا من المسلمین لما أن إخراجهم منها

منسوب فی الآیه السابقه الیه تعالی و کذا إلقاء الرعب فی قلوبهم فی ذیل الآیه،و فی الکلام دلاله علی أنه کانت لهم حصون متعدده.

ثم ذکر فساد ظنهم و خبطهم فی مزعمتهم بقوله: «فَأَتاهُمُ اللّهُ مِنْ حَیْثُ لَمْ یَحْتَسِبُوا» و المراد به نفوذ إرادته تعالی فیهم لا من طریق احتسبوه و هو طریق الحصون و الأبواب بل من طریق باطنهم و هو طریق القلوب «وَ قَذَفَ فِی قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» و الرعب الخوف الذی یملأ القلب «یُخْرِبُونَ بُیُوتَهُمْ بِأَیْدِیهِمْ» لئلا تقع فی أیدی المؤمنین بعد خروجهم و هذه من قوه سلطانه تعالی علیهم حیث أجری ما أراده بأیدی أنفسهم «وَ أَیْدِی الْمُؤْمِنِینَ» حیث أمرهم بذلک و وفقهم لامتثال أمره و إنفاذ إرادته «فَاعْتَبِرُوا» و خذوا بالعظه «یا أُولِی الْأَبْصارِ» بما تشاهدون من صنع اللّه العزیز الحکیم بهم قبال مشاقتهم له و رسوله.

و قیل:کانوا یخربون البیوت لیهربوا و یخربها المؤمنون لیصلوا.

و قیل:المراد بتخریب البیوت اختلاف نظام حیاتهم فقد خربوا بیوتهم بأیدیهم حیث نقضوا الموادعه،و بأیدی المؤمنین حیث بعثوهم علی قتالهم.

و فیه أن ظاهر قوله: یُخْرِبُونَ بُیُوتَهُمْ الخ؛أنه بیان لقوله: «فَأَتاهُمُ اللّهُ مِنْ حَیْثُ لَمْ یَحْتَسِبُوا» الخ؛من حیث أثره فهو متأخر عن نقض الموادعه.

قوله تعالی: وَ لَوْ لا أَنْ کَتَبَ اللّهُ عَلَیْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِی الدُّنْیا وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَهِ عَذابُ النّارِ الجلاء ترک الوطن و کتابه الجلاء علیهم قضاؤه فی حقهم،و المراد بعذابهم فی الدنیا عذاب الاستئصال أو القتل و السبی.

و المعنی:و لو لا أن قضی اللّه علیهم الخروج من دیارهم و ترک وطنهم لعذبهم فی الدنیا بعذاب الاستئصال أو القتل و السبی کما فعل ببنی قریظه و لهم فی الآخره عذاب النار.

قوله تعالی: ذلِکَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ یُشَاقِّ اللّهَ فَإِنَّ اللّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ المشاقه المخالفه بالعناد،و الإشاره بذلک الی ما ذکر من إخراجهم

و استحقاقهم العذاب لو لم يكتب عليهم الجلاء،و فى تخصيص مشاقتهم باللّه فى قوله: «وَ مَنْ يُشَاقِّ اللّهَ» بعد تعميمه للّه و رسوله فى قوله: «شَاقُّوا اللّهَ وَ رَسُولَهُ» تلويح الى أن مشاقه الرسول مشاقه اللّه و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: مٰا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَهٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهٰا قٰائِمَهً عَلىٰ أُصُولِهٰا فَبِإِذْنِ اللّٰهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفٰاسِقِينَ ذكر الراغب أن اللينه النخله الناعمه من دون اختصاص منه بنوع منها دون نوع،رووا أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر بقطع نخيلهم فلما قطع بعضها نادوه:يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد فى الأرض فما بال النخيل تقطع فنزلت الآيه فاجيب عن قولهم بأن ما قطعوا من نخله أو تركوها قائمه على أصولها فبإذن اللّه و للّه فى حكمه هذا غايات حقه و حكم بالغه منها إخزاء الفاسقين و هم بنو النضير.

فقوله: وَ لِيُخْزِيَ الْفٰاسِقِينَ اللام فيه للتعليل و هو معطوف على محذوف و التقدير:

القطع و الترك بإذن اللّه ليفعل كذا و كذا و ليخزى الفاسقين فهو كقوله: وَ كَذٰلِكَ نُرِي إِبْرٰاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام/٧۵).

قوله تعالى: وَ مٰا أَفٰاءَ اللّٰهُ عَلىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمٰا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لاٰ رِكٰابٍ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ الخ؛الإفاده الإرجاع من الفىء بمعنى الرجوع،و ضمير «مِنْهُمْ» لبنى النضير و المراد من أموالهم.

و إيجاف الدابه تسييرها بإزعاج و إسراع و الخيل الفرس،و الركاب الإبل و «مِنْ خَيْلٍ وَ لاٰ رِكٰابٍ» مفعول «فَمٰا أَوْجَفْتُمْ» و «مِنْ» زائده للاستغراق.

و المعنى:و الذى أرجعه اللّه الى رسوله من أموال بنى النضير-خصه به و ملكه وحده إياه- فلم تسيروا عليه فرسا و لا إبلا بالركوب حتى يكون لكم فيه حق بل مشيتم الى حصونهم مشاه لقربها من المدينه،و لكن اللّه يسلط رسله على من يشاء و اللّه على كل شىء قدير و قد سلط النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على بنى النضير فله فيئهم يفعل فيه ما يشاء.

ص :٢۵۵

قوله تعالى: مٰا أَفٰاءَ اللّٰهُ عَلىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرىٰ فَلِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبىٰ وَ الْيَتٰامىٰ وَ الْمَسٰاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ الخ؛ظاهره أنه بيان لموارد مصرف الفيء المذكور فى الآيه السابقه مع تعميم الفيء لفيء أهل القرى أعم من بنى النضير و غيرهم.

و قوله: فَلِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ أى منه ما يختص باللّه و المراد به صرفه و إنفاقه فى سبيل اللّه على ما يراه الرسول و منه ما يأخذه الرسول لنفسه و لا يصغى الى قول من قال:إن ذكره تعالى مع أصحاب السهام لمجرد التبرك.

و قوله: وَ لِذِي الْقُرْبىٰ الخ؛المراد بذى القربى قرابه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و لا معنى لحمله على قرابه عامه المؤمنين و هو ظاهر،و المراد باليتامى الفقراء منهم كما يشعر به السياق و إنما أفرد و قدم على «الْمَسٰاكِينِ» مع شموله له اعتناء بأمر اليتامى.

و قد ورد عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن المراد بذى القربى أهل البيت و اليتامى و المساكين و ابن السبيل منهم.

و قوله: كَيْ لاٰ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيٰاءِ مِنْكُمْ أى أنما حكمنا فى الفيء بما حكمنا كيلا يكون دوله بين الأغنياء منكم و الدوله ما يتداول بين الناس و يدور يدا بيد.

و قوله: وَ مٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا أى ما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه كما أعطى منه المهاجرين و نفرا من الأنصار،و ما نهاكم عنه و منعكم فانتهوا و لا تطلبوا،و فيه إشعار بأنهم سألوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقسّم الفيء بينهم جميعا فأرجعه الى نبيه و جعل موارد مصرفه ما ذكره فى الآيه و جعل للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن ينفقه فيها على ما يرى.

و الآيه مع الغضّ عن السياق عامه تشمل كل ما آتاه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من حكم فأمر به أو نهى عنه.

و قوله: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقٰابِ تحذير لهم عن مخالفه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

تأكيدا لقوله: «وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ» الخ.

قوله تعالى: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَ رِضْوَاناً الخ؛قيل:إن قوله: «لِلْفُقَرَاءِ» بدل من قوله:

«لِذِي الْقُرْبىٰ» و ما بعده و ذكر «اللّهُ» لمجرد التبرك فيكون الفيء مختصا بالرسول و الفقراء من المهاجرين،و قد وردت الروايه أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قسّم فيء بنى النضير بين المهاجرين و لم يعط منه الأنصار شيئا إلاّ رجلين من فقرائهم أو ثلاثه.

و الأنسب لما تقدم نقله عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن يكون قوله: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» الخ؛ بيان مصداق لصرف سبيل اللّه الذى أشير اليه بقوله: «فَلِلّهِ» لا بأن يكون الفقراء المهاجرون أحد السهماء فى الفيء بل بأن يكون صرفه فيهم و إعطاؤهم إياه صرفا له فى سبيل اللّه.

و محصل المعنى على هذا:أن اللّه سبحانه أفاء الفيء و أرجعه الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فله أن يتصرف فيه كيف يشاء ثم دلّه على موارد صرفه و هى سبيل اللّه و الرسول و ذو القربى و يتاماهم و مساكينهم و ابن السبيل منهم ثم أشار الى مصداق الصرف فى السبيل أو بعض مصاديقه و هم الفقراء المهاجرون،الخ؛ينفق منه الرسول لهم على ما يرى.

و على هذا ينبغى أن يحمل ما ورد أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قسّم فيء بنى النضير بين المهاجرين و لم يعط الأنصار شيئا إلاّ ثلاثه من فقرائهم:أبا دجانه سماك بن خرشه و سهل بن حنيف و الحارث بن الصمه فقد صرف فيهم بما أنه صرف فى سبيل اللّه لا بما أنهم سهماء فى الفيء.

و كيف كان فقوله: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ» المراد بهم من هاجر من المسلمين من مكه الى المدينه قبل الفتح و هم الذين أخرجهم كفار مكه بالاضطرار الى الخروج فتركوا ديارهم و أموالهم و هاجروا الى مدينه الرسول.

و قوله: يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَ رِضْوَاناً الفضل الرزق أى يطلبون من اللّه رزقا فى الدنيا و رضوانا فى الآخره.

ص :٢٥٧

و قوله: وَ يَنْصُرُونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ أى ينصرونه و رسوله بأموالهم و أنفسهم، و قوله: «أُولٰئِكَ هُمُ الصّٰادِقُونَ» تصديق لصدقهم فى أمرهم و هم على هذه الصفات.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدّٰارَ وَ الْإِيمٰانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هٰاجَرَ إِلَيْهِمْ الخ؛قيل:إنه استئناف مسوق لمدح الأنصار لتطيب بذلك قلوبهم إذ لم يشركوا فى الفىء، «وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا» -و المراد بهم الأنصار-مبتدأ خبره «يُحِبُّونَ» الخ؛و المراد بتبوّى الدار و هو تعميرها بناء مجتمع دينى يأوى اليه المؤمنون على طريق الكنايه،و الإيمان معطوف على «الدّٰارَ» و تبوّئ الإيمان و تعميره رفع نواقصه من حيث العمل بحيث يستطاع العمل بما يدعو اليه من الطاعات و القربات من غير حجر و منع كما كان بمكه.

و احتمل أن يعطف «الْإِيمٰانَ» على تبوّءوا و قد حذف الفعل العامل فيه،و التقدير:و آثروا الإيمان.

و قيل:إن قوله: «وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا» الخ؛معطوف على قوله: «الْمُهٰاجِرِينَ» و على هذا يشارك الأنصار المهاجرين فى الفىء،و الإشكال عليه بأن المروى أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قسمه بين المهاجرين و لم يعط الأنصار منه شيئا إلاّ ثلاثه من فقرائهم مدفوع بأن الروايه من شواهد العطف دون الاستئناف إذ لو لم يجز إعطاؤه للأنصار لم يجز لا-للثلاثه و لا للواحد فإعطاء بعضهم منه دليل على مشاركتهم لهم غير أن الأمر لما كان راجعا الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان له أن يصرفه كيف يشاء فرجح أن يقسمه بينهم على تلك الوتيره.

و الأنسب لما تقدم من كون «لِلْفُقَرٰاءِ» الخ؛بيانا لمصاديق سهم السبيل هو عطف «وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا» الخ؛و كذا قوله الآتى: «وَ الَّذِينَ جٰاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ» على قوله: «الْمُهٰاجِرِينَ» الخ؛دون الاستئناف.

بل ما ورد من إعطائه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للثلاثه يؤيد هذا الوجه بعينه إذ لو كان السهيم فيه الفقراء المهاجرين فحسب لم يعط الأنصار و لا لثلاثه منهم،و لو كان للفقراء من الأنصار كالمهاجرين

فیه سهم-و ظاهر الآیه أن جمعا منهم کانوا فقراء بهم خصاصه و التاریخ یؤیده-لأعطی غیر الثلاثه من فقراء الأنصار ما أعطی فقراء المهاجرین و استوعبهم.

فقوله: وَ الَّذِینَ تَبَوَّؤُا الدّارَ وَ الْإِیمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ضمیر «مِنْ قَبْلِهِمْ» للمهاجرین و المراد من قبل مجیئهم و هجرتهم الی المدینه.

و قوله: یُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَیْهِمْ أی یحبون من هاجر الیهم لأجل هجرتهم من دار الکفر الی دار الإیمان و مجتمع المسلمین.

و قوله: وَ لا یَجِدُونَ فِی صُدُورِهِمْ حاجَهً مِمّا أُوتُوا ضمیرا «یَجِدُونَ» و «صُدُورِهِمْ» للأنصار،و ضمیر «أُوتُوا» للمهاجرین،و المراد بالحاجه ما یحتاج الیه و«من»تبعیضیه و قیل:بیانیه و المعنی:لا یخطر ببالهم شیء مما أعطیه المهاجرون فلا یضیق نفوسهم من تقسیم الفیء بین المهاجرین دونهم و لا یحسدون.

و قیل:المراد بالحاجه ما یؤدی الیه الحاجه و هو الغیظ.

و قوله: وَ یُؤْثِرُونَ عَلی أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ کانَ بِهِمْ خَصاصَهٌ إیثار الشیء اختیاره و تقدیمه علی غیره،و الخصاصه الفقر و الحاجه،قال الراغب:خصاص البیت فرجه و عبر عن الفقر الذی لم یسد بالخصاصه کما عبر عنه بالخله انتهی.

و المعنی:و یقدّمون المهاجرین علی أنفسهم و لو کان بهم فقر و حاجه،و هذه الخصیصه أغزر و أبلغ فی مدحهم من الخصیصه السابقه فالکلام فی معنی الإضراب کأنه قیل:إنهم لا یطمحون النظر فیما بأیدی المهاجرین بل یقدمونهم علی أنفسهم فیما بأیدیهم أنفسهم فی عین الفقر و الحاجه.

و قوله: وَ مَنْ یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قال الراغب:الشح بخل مع حرص فیما کان عاده انتهی.و «یُوقَ» فعل مضارع مجهول من الوقایه بمعنی الحفظ، و المعنی:و من یحفظ-أی یحفظه اللّه-من ضیق نفسه من بذل ما بیده من المال أو من وقوع مال

فی ید غیره فاولئک هم المفلحون.

قوله تعالی: وَ اَلَّذِینَ جٰاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ یَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنٰا وَ لِإِخْوٰانِنَا اَلَّذِینَ سَبَقُونٰا بِالْإِیمٰانِ استئناف أو عطف نظیر ما تقدم فی قوله: «وَ اَلَّذِینَ تَبَوَّؤُا اَلدّٰارَ وَ اَلْإِیمٰانَ مِنْ قَبْلِهِمْ یُحِبُّونَ» و علی الاستئناف فالموصول مبتدأ خبره قوله: «یَقُولُونَ رَبَّنَا» الخ.

و المراد بمجیئهم بعد المهاجرین و الأنصار إیمانهم بعد انقطاع الهجره بالفتح و قیل:المراد أنهم خلفوهم.

و قولهم: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنٰا وَ لِإِخْوٰانِنَا اَلَّذِینَ سَبَقُونٰا بِالْإِیمٰانِ دعاء لأنفسهم و السابقین من المؤمنین بالمغفره،و فی تعبیرهم عنهم بإخواننا إشاره الی أنهم یعدونهم من أنفسهم کما قال اللّه تعالی: بَعْضُکُمْ مِنْ بَعْضٍ (النساء/۲۵)،فهم یحبونهم کما یحبون أنفسهم و یحبون لهم ما یحبون لأنفسهم.

و لذلک عقبوه بقولهم: «وَ لاٰ تَجْعَلْ فِی قُلُوبِنٰا غِلاًّ لِلَّذِینَ آمَنُوا رَبَّنٰا إِنَّکَ رَؤُفٌ رَحِیمٌ» فسألوا أن لا یجعل اللّه فی قلوبهم غلا للذین آمنوا و الغل العداوه.

و فی قوله: لِلَّذِینَ آمَنُوا تعمیم لعامه المؤمنین منهم و ممن سبقهم و تلویح الی أنه لا بغیه لهم إلاّ الإیمان (۱).

[سوره الحشر (۵۹): الآیات ۱۱ الی ۱۷]

أَ لَمْ تَرَ إِلَی اَلَّذِینَ نٰافَقُوا یَقُولُونَ لِإِخْوٰانِهِمُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ اَلْکِتٰابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَکُمْ وَ لاٰ نُطِیعُ فِیکُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّکُمْ وَ اَللّٰهُ یَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَکٰاذِبُونَ (۱۱) لَئِنْ أُخْرِجُوا لاٰ یَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لاٰ یَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَیُوَلُّنَّ اَلْأَدْبٰارَ ثُمَّ لاٰ یُنْصَرُونَ (۱۲) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِی صُدُورِهِمْ مِنَ اَللّٰهِ ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ یَفْقَهُونَ (۱۳) لاٰ یُقٰاتِلُونَکُمْ جَمِیعاً إِلاّٰ فِی قُریً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرٰاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَیْنَهُمْ شَدِیدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِیعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتّٰی ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ یَعْقِلُونَ (۱۴) کَمَثَلِ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِیباً ذٰاقُوا وَبٰالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۱۵) کَمَثَلِ اَلشَّیْطٰانِ إِذْ قٰالَ لِلْإِنْسٰانِ اُکْفُرْ فَلَمّٰا کَفَرَ قٰالَ إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکَ إِنِّی أَخٰافُ اَللّٰهَ رَبَّ اَلْعٰالَمِینَ (۱۶) فَکٰانَ عٰاقِبَتَهُمٰا أَنَّهُمٰا فِی اَلنّٰارِ خٰالِدَیْنِ فِیهٰا وَ ذٰلِکَ جَزٰاءُ اَلظّٰالِمِینَ (۱۷)

۱- ۱) .الحشر ۱-۱۰:بحث روائی حول طوائف من الیهود کان بینهم و بین رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عهد و مده فنقضوا عهدهم؛الفیء و الانفال؛ذی القربی؛الایمان و الاسلام و الکفر.

بیان:

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ نافَقُوا یَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ الخ؛الإخوان کالإخوه جمع أخ و الأخوه الاشتراک فی الانتساب الی أب و یتوسع فیه یستعمل فی المشترکین فی اعتقاد أو صداقه و نحو ذلک،و یکثر استعمال الإخوه فی المشترکین فی النسبه الی أب و استعمال الإخوان فی المشترکین فی اعتقاد و نحوه علی ما قیل.

و الاستفهام فی الآیه للتعجیب،و المراد بالذین نافقوا عبد اللّه بن أبیّ و أصحابه،و المراد

ص :۲۶۱

بـإخوانهم الـذين كفروا من أهـل الكتاب بنو النضـير على ما يؤيـده السـياق فإن مفاد الآيات أنهم كانوا قوما من أهل الكتاب دار أمرهم بين الخروج و القتال بعد قوم آخر كذلك و ليس إلاّ بنى النضير بعد بنى قينقاع.

و قـوله: لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لاٰ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ مقـول قول المنـافقين،و اللاـم فى «لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ» للقسم أى نقسم لئن أخرجكم المسـلمون من ديـاركم لنخرجنّ من ديارنـا معكم ملاـزمين لكم و لا نطيع فيكم أى فى شأنكم أحدا يشير علينا بمفارقتكم أبدا،و إن قاتلكم المسلمون للننصرنكم عليهم.

و قوله: وَ اللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ تكذيب لوعد المنافقين،و تصريح بأنهم لا يفون بوعدهم.

قوله تعالى: لَئِنْ أُخْرِجُوا لاٰ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لاٰ يَنْصُرُونَهُمْ تكـذيب تفصـيلى لوعـدهم بعد تكذيبه الإجمالى بقوله: «وَ اللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ» و قـد كرر فيه لاـم القسم،و المعنى:أقسم لئن أخرج بنو النضـير لاـ يخرج معهم المنـافقون،و أقسم لئن قوتلوا لا ينصرونهم.

قوله تعالى: وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبٰارَ ثُمَّ لاٰ يُنْصَرُونَ إشاره الى أن نصرهم على تقدير وقوعه منهم-و لن يقع أبدا-لا يدوم و لا ينفعهم بل يولون الأدبار فرارا ثم لا ينصرون بل يهلكون من غير أن ينصرهم أحد.

قوله تعالى: لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللّٰهِ الخ؛ضـمائر الجمع للمنافقين،و الرهبه الخشـيه،و الآيه فى مقام التعليل لقوله: «وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبٰارَ» أى ذلك لأنهم يرهبونكم أشد من رهبتهم للّه فلا يقاومونكم لو قاتلتم و لا يثبتون لكم.

و علـل ذلـك بقوله: «ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَفْقَهُونَ» و الإشاره بـذلك الى كون رهبتهم للمؤمنين أشـد من رهبتهم للّه أى رهبتهم لكم كذلك لأنهم قوم لا يفهمون حق الفهم و لو فقهوا حقيقه

الأمر بان لهم أن الأمر الى اللّه تعالى و ليس لغيره من الأمر شىء سواء فى ذلك المسلمون و غيرهم،و لا يقوى غيره تعالى على عمر خير أو شر أو نافع أو ضار إلاّ بحول منه تعالى و قوه فلا ينبغى أن يرهب إلاّ هو عزّ و جل.

قوله تعالى: لاٰ يُقٰاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاّٰ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرٰاءِ جُدُرٍ بيان لأثر رهبتهم و جبنهم جميعا و المعنى:لا يقاتلكم بنو النضير و المنافقون جميعا بأن يبرزوا بل فى قرى حصينه محكمه أو من وراء جدر من غير بروز.

و قوله: بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ أى هم فيما بينهم شديدو البطش غير أنهم إذا برزوا لحربكم و شاهدوكم يجبنون بما ألقى اللّه فى قلوبهم من الرعب.

و قوله: تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتّٰى أى تظن أنهم مجتمعون فى ألفه و اتحاد و الحال أن قلوبهم متفرقه غير متحده و ذلك أقوى عامل فى الخزى و الخذلان.ذلك بأنهم قوم لا يعقلون و لو عقلوا لاتحدوا و وحدوا الكلمه.

قوله تعالى: كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذٰاقُوا وَبٰالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ الوبال العاقبه السيئه و قوله: «قَرِيباً» قائم مقام الظروف منصوب على الظرفيه أى فى زمان قريب.

و قوله: كَمَثَلِ الخ؛خبر مبتدأ محذوف و التقدير«مثلهم كمثل»الخ؛و المعنى:مثلهم أى مثل بنى النضير من اليهود فى نقضهم العهد و وعد المنافقين لهم بالنصر كذبا ثم الجلاء مثل الذين من قبلهم فى زمان قريب و هم بنو قينقاع رهط آخر من يهود المدينه نقضوا العهد بعد غزوه بدر فأجلاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الى أذرعات و قد كان وعدهم المنافقون أن يكلموا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيهم و يمنعوه من إجلائهم فغدروا بهم فذاق بنو قينقاع وبال أمرهم و لهم فى الآخره عذاب أليم و قيل:المراد بالذين من قبلهم كفار مكه يوم بدر و ما تقدم أنسب للسياق.

و المثل على أى حال مثل لبنى النضير لا للمنافقين على ما يعطيه السياق.

قوله تعالى: كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمّا كَفَرَ قالَ إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکَ الخ؛ظاهر السياق أنه مثل للمنافقين فى غرورهم بنى النضير بوعد النصر ثم خذلانهم عند الحاجه.

و ظاهر السياق يفيد أن المراد بالشيطان و الإنسان الجنس و الإشاره الى غرور الشيطان للإنسان بدعوته الى الكفر بتزيين أمتعه الحياه له و تسويل الإعراض عن الحق بمواعيد الكاذبه و الأمانى السرابيه حتى إذا طلعت له طلائع الآخره و عاين أن ما اغتر به من أمانى الحياه الدنيا لم يكن إلّا سرابا يغره و خيالا يلعب به تبرأ منه الشيطان و لم يف بما وعده و قال:

إنى بریء منك إنى أخاف اللّه رب العالمين.

و بالجمله مثل المنافقين فى دعوتهم بنى النضير الى مخالفه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وعدهم النصر ثم الغدر بهم و خلف الوعد كمثل هذا الشيطان فى دعوه الإنسان الى الكفر بمواعيده الكاذبه ثم تبريه منه بعد الكفر عند الحاجه.

و قيل:المراد بالتمثيل الإشاره الى قصه برصيصا العابد الذى زين له الشيطان الفجور ففجر بامرأه ثم كفر و سيأتى القصه فى البحث الروائى التالى إن شاء اللّه.

و قيل:المثل السابق المذكور فى قوله: «کَمَثَلِ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِیباً» مثل كفار مكه يوم بدر-كما تقدم-و المراد بالإنسان فى هذا المثل أبو جهل و بقول الشيطان له أكفر ما قصه اللّه تعالى بقوله فى القصه: وَ إِذْ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَکُمُ الْیَوْمَ مِنَ النّاسِ وَ إِنِّی جارٌ لَکُمْ فَلَمّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَکَصَ عَلی عَقِبَیْهِ وَ قالَ إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکُمْ إِنِّی أَری ما لا تَرَوْنَ إِنِّی أَخافُ اللّهَ وَ اللّهُ شَدِیدُ الْعِقابِ (الأنفال/۴۸).

و على هذا الوجه فقول الشيطان «إِنِّی أَخافُ اللّهَ رَبَّ الْعالَمِینَ» قول جدى لأنه كان يخاف تعذيب الملائكه النازلين لنصره المؤمنين ببدر و أما على الوجهين الأولين فهو نوع من

الاستهزاء و الإخزاء.

قوله تعالى: فَكٰانَ عٰاقِبَتَهُمٰا أَنَّهُمٰا فِی النّٰارِ خٰالِدَیْنِ فِیهٰا وَ ذٰلِکَ جَزٰاءُ الظّٰالِمِینَ الظاهر أن ضمائر التثنیه للشیطان و الإنسان المذکورین فی المثل ففی الآیه بیان عاقبه الشیطان فی غروره الإنسان و إضلاله و الإنسان فی اغتراره به و ضلاله،و إشاره الی أن ذلک عاقبه المنافقین فی وعدهم لبنی النضیر و غدرهم بهم و عاقبه بنی النضیر فی اغترارهم بوعدهم الکاذب و إصرارهم علی المشاقه و المخالفه،و معنی الآیه ظاهر.

[سوره الحشر (۵۹): الآیات ۱۸ الی ۲۴]

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مٰا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ خَبِیرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (۱۸) وَ لاٰ تَکُونُوا کَالَّذِینَ نَسُوا اَللّٰهَ فَأَنْسٰاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْفٰاسِقُونَ (۱۹) لاٰ یَسْتَوِی أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ وَ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّهِ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّهِ هُمُ اَلْفٰائِزُونَ (۲۰) لَوْ أَنْزَلْنٰا هٰذَا اَلْقُرْآنَ عَلیٰ جَبَلٍ لَرَأَیْتَهُ خٰاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْیَهِ اَللّٰهِ وَ تِلْکَ اَلْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ (۲۱) هُوَ اَللّٰهُ اَلَّذِی لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ عٰالِمُ اَلْغَیْبِ وَ اَلشَّهٰادَهِ هُوَ اَلرَّحْمٰنُ اَلرَّحِیمُ (۲۲) هُوَ اَللّٰهُ اَلَّذِی لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ اَلْمَلِکُ اَلْقُدُّوسُ اَلسَّلاٰمُ اَلْمُؤْمِنُ اَلْمُهَیْمِنُ اَلْعَزِیزُ اَلْجَبّٰارُ اَلْمُتَکَبِّرُ سُبْحٰانَ اَللّٰهِ عَمّٰا یُشْرِکُونَ (۲۳) هُوَ اَللّٰهُ اَلْخٰالِقُ اَلْبٰارِئُ اَلْمُصَوِّرُ لَهُ اَلْأَسْمٰاءُ اَلْحُسْنیٰ یُسَبِّحُ لَهُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۲۴)

بیان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ الى آخر الآيه؛أمر للمؤمنين بتقوى اللّه و بأمر آخر و هو النظر فى الأعمال التى قدموها ليوم الحساب أ هى صالحه فليرج بها ثواب اللّه أو طالحه فليخش عقاب اللّه عليها و يتدارك بالتوبه و الإنابه و هو محاسبه النفس.

أما التقوى و قد فسّر فى الحديث بالورع عن محارم اللّه فحيث تتعلق بالواجبات و المحرمات جميعا كانت هى الاجتناب عن ترك الواجبات و فعل المحرمات.

و أما النظر فيما قدمت النفس لغد فهو أمر آخر وراء التقوى نسبته الى التقوى كنسبه النظر الإصلاحى ثانيا من عامل فى عمله أو صانع فيما صنعه لتكميله و رفع نواقصه التى غفل عنها أو أخطأ فيها حين العمل و الصنع.

فعلى المؤمنين جميعا أن يتقوا اللّه فيما وجّه اليهم من التكاليف فيطيعوه و لا يعصوه ثم ينظروا فيما قدموه من الأعمال التى يعيشون بها فى غد بعد ما حوسبوا بها أصالح فيرجى ثوابه أم طالح فيخاف عقابه فيتوبوا الى اللّه و يستغفروه.

و هذا تكليف عام يشمل كل مؤمن لحاجه الجميع الى إصلاح العمل و عدم كفايه نظر بعضهم عن نظر الآخرين غير أن القائم به من أهل الإيمان فى نهايه القله بحيث يكاد يلحق بالعدم و الى ذلك يلوح لفظ الآيه «وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ» .

فقوله: وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ خطاب عام لجميع المؤمنين لكن لما كان المشتغل بهذا النظر من بين أهل الإيمان بل من بين أهل التقوى منهم فى غايه القله بل يكاد يلحق بالعدم لاشتغالهم بأعراض الدنيا و استغراق أوقاتهم فى تدبير المعيشه و إصلاح امور

الحیاه ألقی الخطاب فی صوره الغیبه و علّقه بنفس ما منکّره فقال: «وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ» و فی هـذا النوع من الخطاب مع کون التکلیف عاما بحسب الطبع عتاب و تقریع للمؤمنین مع التلویح الی قله من یصلح لامتثاله منهم.

و قوله: مٰا قَدَّمَتْ لِغَدٍ استفهام من ماهیه العمل الذی قدّمت لغد و بیان للنظر، و یمکن أن تکون «مٰا» موصوله و هی وصلتها متعلقا بالنظر.

و المراد بغـد یوم القیـامه و هو یوم حسـاب الأعمـال و إنما عبّر عنه بغـد للإشاره الی قربه منهم کقرب الغـد من أمسه،قال تعالی: إِنَّهُمْ یَرَوْنَهُ بَعِیداً وَ نَرٰاهُ قَرِیباً (المعارج/٧).

و المعنی:یـا أیها الـذین آمنوا اتقوا اللّه بطاعته فی جمیع ما یأمرکم به و ینهاکم عنه،و لتنظر نفس منکم فیما عملته من عمل و لتر ما الذی قدمته من عملها لیوم الحساب أ هو عمل صالح أو طالح و هل عملها الصالح صالح مقبول أو مردود.

و قوله: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ خَبِیرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ أمر بالتقوی ثانیا و «إِنَّ اللّٰهَ خَبِیرٌ» الـخ؛تعلیل له و تعلیل هذه التقوی بکونه تعالی خبیرا بالأعمال یعطی أن المراد بهذه التقوی المأمور بها ثانیا هی التقوی فی مقام المحاسـبه و النظر فیها من حیث إصلاحها و إخلاصها للّه سـبحانه و حفظهـا عمـا یفسـدها،و أمـا قوله فی صـدر الآیه: «اتَّقُوا اللّٰهَ» فالمراد به التقوی فی أصل إتیان الأعمال بقصـرها فی الطاعات و تجنّب المعاصی.

و من هنـا تبیّن أن المراد بـالتقوی فی الموضـعین مختلف فالاـولی هی التقوی فی أصـل إتیـان الأعمـال،و الثـانیه هی التقوی فی الأعمال المأتیه من حیث إصلاحها و إخلاصها.

و ظهر أیضا أن قول بعضـهم:إن الاولی للتوبه عما مضـی من الـذنوب و الثانیه لاتقاء المعاصـی فی المسـتقبل غیر سدید و مثله ما قیل:إن الاولی فی أداء الواجبات و الثانیه فی ترک المحرمات،و مثله ما قیل:إن الأمر الثانی لتأکید الأمر الأول فحسب.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَکُونُوا کَالَّذِینَ نَسُوا اللّٰهَ فَأَنْسٰاهُمْ أَنْفُسَهُمْ الخ؛النسیان

زوال صوره المعلوم عن النفس بعد حصولها فيها مع زوال مبدئه و يتوسع فيه مطلق على مطلق الإعراض عن الشىء بعدم ترتيب الأثر عليه قال تعالى: وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا وَ مَأْوَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (الجاثيه۳۴/).

و الآيه بحسب لب معناها كالتأكيد لمضمون الآيه السابقه كأنه قيل:قدموا ليوم الحساب و الجزاء عملا صالحا تحيى به أنفسكم و لا تنسوه.ثم لما كان سبب نسيان النفس نسيان اللّه تعالى إذ بنسيانه تعالى تنسى أسماؤه الحسنى و صفاته العليا التى ترتبط بها صفات الإنسان الذاتيه من الذله و الفقر و الحاجه فيتوهم الإنسان نفسه مستقله فى الوجود و يخيل اليه أن له لنفسه حياه و قدره و علما و سائر ما يتراءى له من الكمال،و نظراؤه فى الاستقلال سائر الأسباب الكونيه الظاهريه تؤثر فيه و تتأثر عنه.

و عند ذلك يعتمد على نفسه و كان عليه أن يعتمد على ربه و يرجو و يخاف الأسباب الظاهريه و كان عليه أن يرجو و يخاف ربه،يطمئن الى غير ربه و كان عليه أن يطمئن الى ربه.

و بالجمله ينسى ربه و الرجوع اليه و يعرض عنه بالإقبال الى غيره،و يتفرع عليه أن ينسى نفسه فإن الذى يخيل اليه من نفسه أنه موجود مستقل الوجود يملك ما ظهر فيه من كمالات الوجود و اليه تدبير أمره مستمدا مما حوله من الأسباب الكونيه و ليس هذا هو الإنسان بل الإنسان موجود متعلق الوجود جهل كله عجز كله ذله كله فقر كله و هكذا،و ما له من الكمال كالوجود و العلم و القدره و العزه و الغنى و هكذا فلربه و الى ربه انتهاؤه و نظراؤه فى ذلك سائر الأسباب الكونيه.

و الحاصل لما كان سبب نسيان النفس نسيان اللّه تعالى حول النهى عن نسيان النفس فى الآيه الى النهى عن نسيانه تعالى لأن انقطاع المسبب بانقطاع سببه أبلغ و آكد،و لم يقنع بمجرد النهى الكلى عن نسيانه بأن يقال:و لا تنسوا اللّه فينسيكم أنفسكم بل جرى بمثل إعطاء الحكم بالمثال ليكون أبلغ فى التأثير و أقرب الى القبول فناهم أن يكونوا كالذين نسوا اللّه

مشيرا به الى من تقدم ذكرهم من يهود بنى النضير و بنى قينقاع و من حاله حالهم فى مشاقه اللّه و رسوله.

فقال: «وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللّٰهَ» ثم فرع عليه قوله: «فَأَنْسٰاهُمْ أَنْفُسَهُمْ» تفريع المسبب على سببه ثم عقبه بقوله: «أُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ» فدل على أنهم فاسقون حقا خارجون عن زى العبوديه.

و الآيه و إن كانت تنهى عن نسيانه تعالى المتفرع عليه نسيان النفس لكنها بورودها فى سياق الآيه السابقه تأمر بذكر اللّه و مراقبته.

فقد بان من جميع ما تقدم فى الآيتين أن الآيه الاولى تأمر بمحاسبه النفس و الثانيه تأمر بالذكر و المراقبه.

قوله تعالى: لاٰ يَسْتَوِي أَصْحٰابُ النّٰارِ وَ أَصْحٰابُ الْجَنَّهِ أَصْحٰابُ الْجَنَّهِ هُمُ الْفٰائِزُونَ قال الراغب:الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامه،انتهى.و السياق يشهد بأن المراد بأصحاب النار هم الناسون للّه و بأصحاب الجنه هم الذاكرون للّه المراقبون.

و الآيه حجه تامه على وجوب اللحوق بالذاكرين للّه المراقبين له دون الناسين،تقريرها أن هناك قبيلين لا ثالث لهما و هما الذاكرون للّه و الناسون له لا بد للإنسان أن يلحق بأحدهما و ليسا بمساويين حتى يتساوى اللحوقان و لا يبالى الانسان بأيهما لحق؟بل هناك راجح و مرجوح يجب اختيار الراجح على المرجوح و الرجحان لقبيل الذاكرين لأنهم الفائزون لا غير فالترجيح لجانبهم فمن الواجب لكل نفس أن يختار اللحوق بقبيل الذاكرين.

قوله تعالى: لَوْ أَنْزَلْنٰا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خٰاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَهِ اللّٰهِ الخ؛فى المجمع:التصدع التفرق بعد التلاؤم و مثله التفطر انتهى.

و الكلام مسوق سوق المثل مبنى على التخييل و الدليل عليه قوله فى ذيل الآيه: «وَ تِلْكَ الْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ» الخ.

و المراد تعظیم أمر القرآن بما یشتمل علیه من حقائق المعارف و أصول الشرائع و العبر و المواعظ و الوعد و الوعید و هو کلام اللّه العظیم،و المعنی:لو کان الجبل مما یجوز أن ینزل علیه القرآن فأنزلناه علیه لرأیته-مع ما فیه من الغلظه و القسوه و کبر الجسم و قوه المقاومه قبال النوازل-متأثرا متفرقا من خشیه اللّه فإذا کان هذا حال الجبل بما هو علیه فالإنسان أحق بأن یخشع للّه إذا تلاه أو تلی علیه،و ما أعجب حال أهل المشاقه و العناد لا تلین قلوبهم له و لا یخشعون و لا یخشون.

و الالتفات من التکلم مع الغیر الی الغیبه فی قوله: «مِنْ خَشْیَهِ اللّهِ» للدلاله علی عله الحکم فإنما یخشع و یتصدع الجبل بنزول القرآن لأنه کلام اللّه عز اسمه.

و قوله: وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ من وضع الحکم الکلی موضع الجزئی للدلاله علی أن الحکم لیس ببدع فی مورده بل جار سار فی موارد اخری کثیره.

فقوله: لَوْ أَنْزَلْنا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلیٰ جَبَلٍ الخ؛مثل ضربه اللّه للناس فی أمر القرآن لتقریب عظمته و جلاله قدره بما أنه کلام للّه تعالی و بما یشتمل علیه من المعارف رجاء أن یتفکر فیه الناس فیتلقوا القرآن بما یلیق به من التلقی و یتحققوا بما فیه من الحق الصریح و یهتدوا الی ما یهدی الیه من طریق العبودیه التی لا طریق الی کمالهم و سعادتهم وراءها،و من ذلک ما ذکر فی الآیات السابقه من المراقبه و المحاسبه.

قوله تعالی: هُوَ اللّهُ الَّذِی لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ عٰالِمُ الْغَیْبِ وَ الشَّهٰادَهِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِیمُ هذه الآیه و الآیتان بعدها و إن کانت مسوقه لتعداد قبیل من أسمائه تعالی الحسنی و الإشاره الی تسمیته تعالی بکل اسم أحسن و تنزهه بشهاده ما فی السماوات و الأرض لکنها بانضمامها الی ما مرّ من الأمر بالذکر تفید أن علی الذاکرین أن یذکروه بأسمائه الحسنی فیعرفوا أنفسهم بما یقابلها من أسماء النقض،فافهم ذلک.

و بانضمامها الى الآيه السابقه و ما فيها من قوله: «مِنْ خَشْيَةِ اللّٰهِ» تفيد تعليل خشوع الجبل و تصدّعه من خشيه اللّه كأنه قيل:و كيف لا و هو اللّه الذى لا إله إلاّ هو عالم الغيب و الشهاده، الى آخر الآيات.

و قوله: هُوَ اللّٰهُ الَّذِي لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ يفيد الموصول و الصله معنى اسم من أسمائه و هو وحدانيته تعالى فى ألوهيته و معبوديته،و قد تقدم بعض ما يتعلق بالتهليل فى تفسير قوله تعالى: وَ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ (البقره١٦٣/).

و قوله: عٰالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَةِ الشهاده هى المشهود الحاضر عند المدرك و الغيب خلافها و هما معنيان إضافيان فمن الجائز أن يكون شىء شهاده بالنسبه الى شىء و غيبا بالنسبه الى آخر و يدور الأمر مدار نوع من الإحاطه بالشىء حسا أو خيالا أو عقلا أو وجودا و هو الشهاده و عدمها و هو الغيب،و كل ما فرض من غيب أو شهاده فهو من حيث هو محاط له تعالى معلوم فهو تعالى عالم الغيب و الشهاده و غيره لا علم له بالغيب لمحدوديه وجوده و عدم إحاطته إلاّ ما علّمه تعالى كما قال: عٰالِمُ الْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ (الجن٢٧/)،و أما هو تعالى فغيب على الإطلاق لا سبيل الى الإحاطه به لشىء أصلا كما قال: «يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً» .

و قوله: هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ قد تقدم الكلام فى معنى الاسمين فى تفسير سوره الفاتحه.

قوله تعالى: هُوَ اللّٰهُ الَّذِي لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاٰمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبّٰارُ الْمُتَكَبِّرُ الخ؛الملك هو المالك لتدبير أمر الناس و الحكم فيهم،و القدّوس مبالغه فى القدس و هو النزاهه و الطهاره،و السلام من يلاقيك بالسلامه و العافيه من غير شرّ و ضرّ،و المؤمن الذى يعطى الأمن،و المهيمن الفائق المسيطر على الشىء.

و العزيز الغالب الذى لا يغلبه شىء أو من عنده ما عند غيره من غير عكس،و الجبال مبالغه من جبر الكسر أو الذى تنفذ إرادته و يجبر على ما يشاء،و المتكبر الذى تلبّس بالكبرياء و ظهر بها.

و قوله: سُبْحانَ اللّهِ عَمّا يُشْرِكُونَ ثناء عليه تعالى كما فى قوله: وَ قالُوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ (البقره۱۱۶/).

قوله تعالى: هُوَ اللّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ الى آخر الآيه؛الخالق هو الموجد للأشياء عن تقدير،و البارئ المنشئ للأشياء ممتازا بعضها من بعض،و المصور المعطى لها صورا يمتاز بها بعضها من بعض،و الأسماء الثلاثه تتضمن معنى الإيجاد باعتبارات مختلفه و بينها ترتب فالتصوير فرع البرء و البرء فرع الخلق و هو ظاهر.

و إنما صدّر الآيتين السابقتين بقوله: «الَّذِى لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ» فوصف به «اللّهُ» و عقبه بالأسماء بخلاف هذه الآيه إذ قال: «هُوَ اللّهُ الْخالِقُ» الخ.

لأن الأسماء الكريمه المذكوره فى الآيتين السابقتين و هى أحد عشر اسما من لوازم الربوبيه و مالكيه التدبير التى تتفرع عليها الالوهيه و المعبوديه بالحق و هى على نحو الأصاله و الاستقلال للّه سبحانه وحده لا شريك له فى ذلك فاتصافه تعالى وحده بها يستوجب اختصاص الالوهيه و استحقاق المعبوديه به تعالى.

فالأسماء الكريمه بمنزله التعليل لاختصاص الالوهيه به تعالى كأنه قيل لا إله إلاّ هو لأنه عالم الغيب و الشهاده هو الرحمن الرحيم،و لذا أيضا ذيل هذه الأسماء بقوله ثناء عليه:

«سُبْحانَ اللّهِ عَمّا يُشْرِكُونَ» ردا على القول بالشركاء كما يقوله المشركون.

و أما قوله: هُوَ اللّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ فالمذكور فيه من الأسماء يفيد معنى الخلق و الإيجاد و اختصاص ذلك به تعالى لا يستوجب اختصاص الالوهيه به كما يدل عليه أن الوثنيين قائلون باختصاص الخلق و الإيجاد به تعالى و هم مع ذلك يدعون من دونه

أربابا و آلهه و يثبتون له شركاء.

و أما وقوع اسم الجلاله فى صدر الآيات الثلاث جميعا فهو علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال يرتبط به و يجرى عليه جميع الأسماء و فى التكرار مزيد تأكيد و تثبيت للمطلوب.

و قوله: لَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ إشاره الى بقيه الأسماء الحسنى عن آخرها لكون الأسماء جمعا محلى باللام و هو يفيد العموم.

و قوله: يُسَبِّحُ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ أى جميع ما فى العالم من المخلوقات حتى نفس السماوات و الأرض و قد تقدم توضيح معنى الجمله مرارا.

ثم ختم الآيات بقوله: «وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» أى الغالب غير المغلوب الذى فعله متقن لا مجازفه فيه فلا يعجزه فيما شرعه و دعا اليه معصيه العاصين و لا مشاقه المعاندين و لا يضيع عنده طاعه المطيعين و أجر المحسنين.

و العنايه الى ختم الكلام بالاسمين و الإشاره بذلك الى كون القرآن النازل من عنده كلام عزيز حكيم هو الذى دعا الى تكرار اسمه العزيز و ذكره مع الحكيم مع تقدم ذكره بين الأسماء.

و قد وصف القرآن أيضا بالعزه و الحكمه كما قال: «وَ إِنَّهُ لَكِتٰابٌ عَزِيزٌ» (حم السجده/ ۴۱)،و قال: وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (يس۲/) (۱).

۱- ۱) .الحشر ۱۸-۲۴:بحث روائى فى:الغيب و الشهاده؛صفات اللّه؛محاسبه النفس؛ذكر اللّه.

سوره الممتحنه مدنیه و هی ثلاث عشره آیه

اشاره

[سوره الممتحنه (۶۰): الآیات ۱ الی ۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gtيٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا عَدُوِّی وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيٰاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِمٰا جٰاءَكُمْ مِنَ اَلْحَقِّ يُخْرِجُونَ اَلرَّسُولَ وَ إِيّٰاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهٰاداً فِی سَبِيلِی وَ اِبْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِی تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمٰا أَخْفَيْتُمْ وَ مٰا أَعْلَنْتُمْ وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوٰاءَ اَلسَّبِيلِ (۱) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدٰاءً وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (۲) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحٰامُكُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُكُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۳) قَدْ كٰانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِی إِبْرٰاهِيمَ وَ اَلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قٰالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنّٰا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمّٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ كَفَرْنٰا بِكُمْ وَ بَدٰا بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمُ اَلْعَدٰاوَةُ وَ اَلْبَغْضٰاءُ أَبَداً حَتّٰى تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ إِلاّٰ قَوْلَ إِبْرٰاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ مٰا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ شَیْءٍ رَبَّنٰا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنٰا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنٰا وَ إِلَيْكَ اَلْمَصِيرُ (۴) رَبَّنٰا لاٰ تَجْعَلْنٰا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اِغْفِرْ لَنٰا رَبَّنٰا إِنَّكَ أَنْتَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۵) لَقَدْ كٰانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كٰانَ يَرْجُوا اَللّٰهَ وَ اَلْيَوْمَ اَلْآخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْغَنِيُّ اَلْحَمِيدُ (۶) عَسَى اَللّٰهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ اَلَّذِينَ عٰادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ اَللّٰهُ قَدِيرٌ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷) لاٰ يَنْهٰاكُمُ اَللّٰهُ عَنِ اَلَّذِينَ لَمْ يُقٰاتِلُوكُمْ فِی اَلدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلْمُقْسِطِينَ (۸) إِنَّمٰا يَنْهٰاكُمُ اَللّٰهُ عَنِ اَلَّذِينَ قٰاتَلُوكُمْ فِی اَلدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ وَ ظٰاهَرُوا عَلىٰ إِخْرٰاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولٰئِكَ هُمُ اَلظّٰالِمُونَ (۹)

بیان:

تذکر السوره موالاه المؤمنين لأعداء اللّه من الکفار و موادّتهم و تشدّد النهی عن ذلک

تفتتح به و تختتم و فيها شيء من أحكام النساء المهاجرات و بيعه المؤمنات،و كونها مدنيه ظاهره.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيٰاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ الخ؛سياق الآيات يدلّ على أن بعض المؤمنين من المهاجرين كانوا يسرّون الموادّه الى المشركين بمكه ليحموا بذلك من بقى من أرحامهم و أولادهم بمكه بعد خروجهم أنفسهم منها بالمهاجره الى المدينه فنزلت الآيات و نهاهم اللّه عن ذلك،و يتأيد بهذا ما ورد أن الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعه أسرّ كتابا الى المشركين بمكه يخبرهم فيه بعزم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على الخروج إليها لفتحها،فعل ذلك ليكون يدا له عليهم يقى بها من كان بمكه من أرحامه و أولاده فأخبر اللّه بذلك نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نزلت،و ستوافيك قصته فى البحث الروائى التالى إن شاء اللّه تعالى.

فقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيٰاءَ العدو معروف و يطلق على الواحد و الكثير و المراد فى الآيه هو الكثير بقرينه قوله: «أَوْلِيٰاءَ» و «إِلَيْهِمْ» و غير ذلك،و هم المشركون بمكه،و كونهم عدوه من جهه اتخاذهم له شركاء يعبدونهم و لا يعبدون اللّه و يردّون دعوته و يكذبون رسوله،و كونهم أعداء للمؤمنين لإيمانهم باللّه و تفديتهم أموالهم و أنفسهم فى سبيله فمن يعادى اللّه يعاديهم.

و ذكر عداوتهم للمؤمنين مع كفايه ذكر عداوتهم للّه فى سوق النهى لتأكيد التحذير و المنع كأنه قيل:من كان عدوا للّه فهو عدو لكم فلا تتخذوه وليّا.

و قوله: تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ بالمودّه مفعول «تُلْقُونَ» و الباء زائده كما فى قوله:

وَ لاٰ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَهِ (البقره/١٩٥)،و المراد بإلقاء المودّه إظهارها أو إيصالها، و الجمله صفه أو حال من فاعل «لاٰ تَتَّخِذُوا» .

و قوله: وَ قَدْ كَفَرُوا بِمٰا جٰاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ هو الدين الحق الذى يصفه كتاب اللّه

و يدعو اليه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و الجمله حاليه.

و قوله: يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللّهِ رَبِّكُمْ الجمله حاليه و المراد بإخراج الرسول و إخراجهم اضطرارهم الرسول و المؤمنين الى الخروج من مكه و المهاجره الى المدينه،و «أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللّهِ رَبِّكُمْ» بتقدير اللام متعلق بيخرجون،و المعنى:

يجبرون الرسول و إياكم على المهاجره من مكه لإيمانكم باللّه ربكم.

و توصيف اللّه بقوله: «رَبِّكُمْ» للاشاره الى أنه يؤاخذونهم على أمر حق مفروض ليس بجرم فإن إيمان الإنسان بربه مفروض عليه و ليس من الجرم فى شىء.

و قوله: إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِي متعلق بقوله: «لا تَتَّخِذُوا» و جزاء الشرط محذوف يدل عليه المتعلق،و «جِهاداً» مصدر مفعول له، و «ابْتِغاءَ» بمعنى الطلب و «مَرْضاتِي» مصدر كالرضى،و المعنى:لا تتخذوا عدوى و عدوكم أولياء إن كنتم هاجرتم للمجاهده فى سبيلى و لطلب رضاى.

و تقييد النهى عن ولائهم و اشتراطه بخروجهم للجهاد و ابتغائهم مرضاته من باب اشتراط الحكم بأمر محقق الوقوع تأكيدا له و إيذانا بالملازمه بين الشرط و الحكم مقول الوالد لولده:إن كنت ولدى فلا تفعل كذا.

و قوله: تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَ ما أَعْلَنْتُمْ أسررت اليه حديثا أى أفضيت اليه فى خفيه فمعنى «تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ» تطلعونهم على ما تسرون من مودتهم-على ما قاله الراغب-و الإعلان خلاف الإخفاء،و «أَنَا أَعْلَمُ» الخ؛حال من فاعل «تُسِرُّونَ» و «أَعْلَمُ» اسم تفضيل،و احتمل بعضهم أن يكون فعل المتكلم وحده من المضارع متعديا بالباء لأن العلم ربما يتعدى بها.

و جمله «تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ» الخ؛استئناف بيانيه كأنه قيل بعد استماع النهى السابق:ما ذا فعلنا فاجيب:تطلعونهم سرا على مودتكم لهم و أنا أعلم بما أخفيتم و ما أظهرتم أى أنا أعلم بقولكم

و فعلكم علما يستوى بالنسبه اليه إخفاؤكم و إظهاركم.

و منه يعلم أن قوله: «بِمٰا أَخْفَيْتُمْ وَ مٰا أَعْلَنْتُمْ» معا يفيدان معنى واحدا و هو استواء الإخفاء و الإعلان عنده تعالى لإحاطته بما ظهر و ما باطن فلا يرد أن ذكر «بِمٰا أَخْفَيْتُمْ» يغنى عن ذكر «مٰا أَعْلَنْتُمْ» لأن العالم بما خفى عالم بما ظهر بطريق أولى.

و قوله: وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوٰاءَ السَّبِيلِ الإشاره بذلك الى أسرار الموده اليهم و هو الموالاه،و «سَوٰاءَ السَّبِيلِ» من إضافه الصفه الى الموصوف أى السبيل السوى و الطريق المستقيم و هو مفعول «ضَلَّ» أو منصوب بنزع الخافض و التقدير فقد ضل عن سواء السبيل،و السبيل سبيل اللّه تعالى.

قوله تعالى: إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدٰاءً الخ؛قال الراغب:الثقف-بالفتح فالسكون-الحذق فى إدراك الشىء و فعله.قال:و يقال:ثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق فى النظر ثم يتجوز به فيستعمل فى الإدراك و إن لم يكن معه ثقافه.انتهى.و فسره غيره بالظفر و لعله بمعونه مناسبه المقام،و المعنيان متقاربان.

و الآيه مسوقه لبيان أنه لا ينفعهم الإسرار بالموده للمشركين فى جلب محبتهم و رفع عداوتهم شيئا و أن المشركين على الرغم من إلقاء الموده اليهم إن يدركوهم و يظفروا بهم يكونوا لهم أعداء من دون أن يتغير ما فى قلوبهم من العداوه.

و قوله: وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ بمنزله عطف التفسير لقوله: «يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدٰاءً» و بسط الأيدى بالسوء كنايه عن القتل و السبى و سائر أنحاء التعذيب و بسط الألسن بالسوء كنايه عن السب و الشتم.

و الظاهر أن قوله: «وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» عطف على الجزاء و الماضى بمعنى المستقبل كما يقتضيه الشرط و الجزاء،و المعنى:أنهم يبسطون اليكم الأيدى و الألسن بالسوء و يودون بذلك لو تكفرون كما كانوا يفتنون المؤمنين بمكه و يعذبونهم يودون بذلك أن يرتدوا عن

دينهم.و اللّه أعلم.

قوله تعالی: لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحٰامُكُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُكُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ دفع لما ربما يمكن أن يتوهم عذرا لإلقاء الموده اليهم أن فی ذلک صيانه لأرحامهم و أولادهم الذين تركوهم بمكه بين المشركين من أذاهم.

و الجواب أن أمامكم يوما تجازون فيه على معصيتكم و طالح عملكم و منه موالاه الكفار و لا ينفعكم اليوم أرحامكم و لا أولادكم الذين قدمتم صيانتهم من أذى الكفار على صيانه أنفسكم من عذاب اللّه بترک موالاه الكفار.

و قوله: يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ أی يفصل اللّه يوم القيامه بينكم بتقطع الأسباب الدنيويه كما قال تعالی: فَإِذٰا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاٰ أَنْسٰابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ (المؤمنون/١٠١)،و ذلک أن القرابه و هی انتهاء إنسانين أو أكثر الى رحم واحده إنما تؤثر آثارها من الرحمه و الموده و الالفه و المعاونه و المعاضده و العصبيه و الخدمه و غير ذلک من الآثار فی ظرف الحياه الاجتماعيه التی تسوق الإنسان اليه حاجته إليها بالطبع بحسب الآراء و العقائد الاعتباريه التی أوجدها فيه فهمه الاجتماعی،و لا خبر عن هذه الآراء فی الخارج عن طرف الحياه الاجتماعيه.

و إذا برزت الحقائق و ارتفع الحجاب و انكشف الغطاء يوم القيامه ضلت عن الإنسان هذه الآراء و المزاعم و انقطعت روابط الاستقلال بين الأسباب و مسبباتها كما قال تعالی: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مٰا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام/٩۴)،و قال: وَ رَأَوُا الْعَذٰابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبٰابُ (البقره/١۶۶).

فيومئذ تتقطع رابطه الأنساب و لا ينتفع ذو قرابه من قرابته شيئا فلا ينبغی للإنسان أن يخون اللّه و رسوله بموالاه أعداء الدين لأجل أرحامه و أولاده فليسوا يغنونه عن اللّه يومئذ.

و قوله: وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ متمم لقوله: «لَنْ تَنْفَعَكُمْ» كالمؤكد له و المعنی:

لن تنفعكم أرحـامكم و لاـ أولاـدكم يوم القيامه فى رفع تبعه هـذه الخيانه و أمثالها و اللّه بما تعملون بصـير لا يخفى عليه ما هى هذه الخيانه فيؤاخذكم عليها لا محاله.

قوله تعالى: قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ الى آخر الآيتين؛و الخطاب للمؤمنين،و الاسوه الاتباع و الاقتداء،و فى قوله: «وَ الَّذِينَ مَعَهُ» بظاهره دلاله على أنه كان معه من آمن به غير زوجته و لوط.

و قوله: إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أى إنا بريئون منكم و من أصـنامكم بيان لما فيه الاسـطوره و الاقتداء.

و قوله: كَفَرْنا بِكُمْ وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتّى تُؤْمِنُوا بِاللّهِ وَحْدَهُ بيان لمعنى البراءه بأثرها و هو الكفر بهم و عداوتهم ما داموا مشركين حتى يوحدوا اللّه سبحانه.

و المراد بالكفر بهم الكفر بشـركهم بـدليل قوله: «حَتّى تُؤْمِنُوا بِاللّهِ وَحْدَهُ» ،و الكفر بشـركهم مخالفتهم فيه عملا كما أن العداوه بينونه و مخالفه قلبا.

فقد فسروا براءتهم منهم بامور ثلاثه:مخالفتهم لشركهم عملا،و العداوه و البغضاء بينهم قلبا،و استمرار ذلك ما داموا على شركهم إلّا أن يؤمنوا باللّه وحده.

و قوله: إِلاّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللّهِ مِنْ شَيْءٍ ،استثناء مما تدل عليه الجمل المتقدمه أن إبراهيم و الذين معه تبرءوا من قومهم المشركين قولا مطلقا.و قطعوا أى رابطه تربطهم بالقوم و تصل بينهم إلّا ما قال إبراهيم لأبيه:

«لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» الخ.

و لم يكن قوله: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ توليا منه بل وعـدا وعـده إياه رجاء أن يتوب عن الشـرك و يؤمن باللّه وحده كما يدل عليه قوله تعالى: وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيّاهُ فَلَمّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ (التوبه/۱۱۴)،حيث يفيد أنه عليه السّلام

إنما وعده لأنه لم يتبين له بعد أنه عدو للّه راسخ فى عداوته ثابت فى شركه فكان يرجو أن يرجع عن شركه و يطمع فى أن يتوب و يؤمن فلما تبين له رسوخ عداوته و يئس من إيمانه تبرأ منه.

على أن قوله تعالى فى قصه محاجته أباه فى سوره مريم: قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ (مريم۴۸/)،يتضمن وعده أباه بالاستغفار و إخباره بالاعتزال و لو كان وعده الاستغفار توليا منه لأبيه لكان من الحرى أن يقول:و أعتزل القوم،لا أن يقول:و أعتزلكم فيدخل أباه فيمن يعتزلهم و ليس الاعتزال إلاّ التبرى.

فالاستثناء استثناء متصل من أنهم لم يكلموا قومهم إلاّ بالتبرى و المحصل من المعنى:أنهم إنما ألقوا اليهم القول بالتبرى إلاّ قول إبراهيم لأبيه:لأستغفرن لك فلم يكن تبريا و لا توليا بل وعدا وعده أباه رجاء أن يؤمن باللّه.

و هاهنا شيء و هو أن مؤدّى آيه التوبه «فَلَمّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» أن تبرّيه الجازم إنما كان بعد الوعد و بعد تبين عداوته للّه،و قوله تعالى فى الآيه التى نحن فيها: «إِذْ قٰالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنّٰا بُرَآؤُا مِنْكُمْ» إخبار عن تبريهم الجازم القاطع فيكون ما وقع فى الاستثناء من قول إبراهيم لأبيه وعدا واقعا قبل تبريه الجازم و من غير جنس المستثنى منه فيكون الاستثناء منقطعا لا متصلا.

و على تقدير كون الاستثناء منقطعا يجوز أن يكون الاستثناء من قوله: «قَدْ كٰانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرٰاهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ» بما أنه مقيد بقوله: «إِذْ قٰالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنّٰا بُرَآؤُا مِنْكُمْ» ، و المعنى:قد كان لكم اقتداء حسن بتبرى إبراهيم و الذين معه من قومهم إلاّ أن إبراهيم قال لأبيه كذا و كذا وعدا.

و أما على تقدير كون الاستثناء متصلا فالوجه ما تقدم،و أما كون المستثنى منه هو قوله:

«قَدْ كٰانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرٰاهِيمَ» ،و المعنى:لكم فى إبراهيم أسوه فى جميع خصاله إلاّ فى

قوله لأبیه: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَکَ» فلا أسوه فیه.

ففیه أن قوله: «لَکُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِی إِبْرٰاهِیمَ» الخ؛غیر مسوق لإیجاب التأسّی بإبراهیم علیه السّلام فی جمیع خصاله حتی یکون الوعد بالاستغفار أو نفس الاستغفار-و ذلک من خصاله-مستثنی منها بل إنما سیق لإیجاب التأسی به فی تبریه من قومه المشرکین،و الوعد بالاستغفار رجاء للتوبه و الإیمان لیس من التبری و إن کان لیس تولیا أیضا.

و قوله: وَ مٰا أَمْلِکُ لَکَ مِنَ اللّٰهِ مِنْ شَیْءٍ تتمه قول إبراهیم علیه السّلام،و هو بیان لحقیقه الأمر من أن سؤاله المغفره و طلبها من اللّه لیس من نوع الطلب الذی یملک فیه الطالب من المطلوب منه ما یطلبه،و إنما هو سؤال یدعو الیه فقر العبودیه و ذلّتها قبال غنی الربوبیه و عزتها فله تعالی أن یقبل بوجهه الکریم فیستجیب و یرحم،و له أن یعرض و یمسک الرحمه فإنه لا یملک أحد منه تعالی شیئا و هو المالک لکل شیء،قال تعالی: قُلْ فَمَنْ یَمْلِکُ مِنَ اللّٰهِ شَیْئاً (المائده/۱۷).

و بالجمله قوله: وَ مٰا أَمْلِکُ الخ؛نوع اعتراف بالعجز استدراکا لما یستشعر من قوله:

«لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَکَ» من شائبه إثبات القدره لنفسه نظیر قول شعیب علیه السّلام «وَ مٰا تَوْفِیقِی إِلاّٰ بِاللّٰهِ» استدراکا لما یشعر به قوله لقومه: إِنْ أُرِیدُ إِلاَّ الْإِصْلاٰحَ مَا اسْتَطَعْتُ (هود/۸۸)،من إثبات القوه و الاستطاعه لنفسه بالأصاله و الاستقلال.

و قوله: رَبَّنٰا عَلَیْکَ تَوَکَّلْنٰا وَ إِلَیْکَ أَنَبْنٰا وَ إِلَیْکَ الْمَصِیرُ الخ؛من تمام القول المنقول عن إبراهیم و الذین معه المندوب الی التأسی بهم فیه،و هو دعاء منهم لربهم و ابتهال الیه إثر ما تبرءوا من قومهم ذاک التبری العنیف لیحفظهم من تبعاته و یغفر لهم فلا یخیبهم فی إیمانهم.

و قد افتتحوا دعاءهم بتقدمه یذکرون فیها حالهم فیما هم فیه من التبری من أعداء اللّه فقالوا: «رَبَّنٰا عَلَیْکَ تَوَکَّلْنٰا وَ إِلَیْکَ أَنَبْنٰا» یعنون به أنّا کنا فی موقف من الحیاه تتمکن فیه أنفسنا

و ندبر فيه امورنا أما أنفسنا فأنبنا و رجعنا بها اليک و هو الإنابه،و أما امورنا التی کان علينا تدبيرها فترکناها لک و جعلنا مشيّتک مکان مشيّتنا فأنت وکيلنا فيها تدبرها بما تشاء و کيف تشاء و هو التوکل.

ثم قالوا: «وَ إِلَيْکَ الْمَصِيرُ» يعنون به أن مصير کل شیء من فعل أو فاعل فعل اليک فقد جرينا فی توکلنا عليک و إنابتنا اليک مجری ما عليه حقيقه الأمر من مصير کل شیء اليک حيث هاجرنا بأنفسنا اليک و ترکنا تدبير امورنا لک.

و قوله: رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنا رَبَّنا متن دعائهم يسألونه تعالی أن يعيذهم من تبعه تبريهم من الکفار و يغفر لهم.

و الفتنه ما يمتحن به،و المراد بجعلهم فتنه للذين کفروا تسليط الکفار عليهم ليمتحنهم فيخرجوا ما فی وسعهم من الفساد فيؤذوهم بأنواع الأذی أن آمنوا باللّه و رفضوا آلهتهم و تبرءوا منهم و مما يعبدون.

و قد کرّروا نداءه تعالی-ربنا-فی دعائهم مره بعد مره لإثاره الرحمه الإلهيه.

و قوله: إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أی غالب غير مغلوب متقن لأفعاله لا يعجز أن يستجيب دعاءهم فيحفظهم من کيد أعدائه و يعلم بأی طريق يحفظ.

قوله تعالی: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ الخ؛تکرار حديث الاسوه لتأکيد الإيجاب و لبيان أن هذه الاسوه لمن کان يرجو اللّه و اليوم الآخر،و أيضا أنهم کما يتأسی بهم فی تبرّيهم من الکفار کذلک يتأسی بهم فی دعائهم و ابتهالهم.

و الظاهر أن المراد برجائه تعالی رجاء ثوابه بالإيمان به و برجاء اليوم الآخر رجاء ما وعد اللّه و أعدّ للمؤمنين من الثواب،و هو کنايه عن الإيمان.

و قوله: وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ استغناء منه تعالی عن

امتثالهم لأمره بتبرّيهم من الكفار و أنهم هم المنتفعون بـذلك و اللّه سبحانه غنى فى ذاته عنهم و عن طاعتهم حميد فيما يأمرهم و ينهاهم إذ ليس فى ذلك إلاّ صلاح حالهم و سعاده حياتهم.

قوله تعالى: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ضـمير «مِنْهُمْ» للكفار الـذين أمروا بمعاداتهم و هم كفار مكه،و المراد بجعل الموده بين المؤمنين و بينهم جعلها بتوفيقهم للاسـلام كما وقع ذلك لما فتح اللّه لهم مكه،و ليس المراد به نسخ حكم المعاداه و التبرى.

و المعنى:مرجو من اللّه أن يجعـل بينكم معشـر المؤمنين و بين الـذين عاديتم من الكفار و هم كفار مكه موده بتوفيقهم للاسـلام فتنقلب المعاداه موده و اللّه قدير و اللّه غفور لذنوب عباده رحيم بهم إذا تابوا و أسلموا فعلى المؤمنين أن يرجوا من اللّه أن يبدّل معاداتهم موده بقدرته و مغفرته و رحمته.

قوله تعالى: لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ الخ؛فى هذه الآـيه و التى تتلوها توضـيح للنهى الوارد فى أول السوره،و المراد بالـذين لم يقاتلوا المؤمنين فى الـدين و لم يخرجوهم غير أهل مكـه ممـن لم يقـاتلوهم و لم يخرجـوهم من ديـارهم من المشـركين من أهـل المعاهـده،و الـبر و الإحسـان،و الإقسـاط المعـامله بالعدل،و «أَنْ تَبَرُّوهُمْ» بدل من «الَّذِينَ» الخ؛و قوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» تعليل لقوله: «لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ» الخ.

و المعنى:لا ينهاكم اللّه بقوله: «لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ» عن أن تحسـنوا و تعاملوا بالعدل الذين لم يقاتلوكم فى الدين و لم يخرجوكم من دياركم لأن ذلك منكم إقساط و اللّه يحب المقسطين.

قيل:إن الآيه منسوخه بقوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (التوبه/۵)،و فيه أن

الآیه التی نحن فیها لا تشمل بإطلاقها إلاّ أهل الذمه و أهل المعاهده و أما أهل الحرب فلا، و آیه التوبه إنما تشمل أهل الحرب من المشرکین دون أهل المعاهده فکیف تنسخ ما لا یزاحمها فی الدلاله.

قوله تعالی: إِنَّمٰا یَنْهٰاکُمُ اللّٰهُ عَنِ الَّذِینَ قٰاتَلُوکُمْ فِی الدِّینِ وَ أَخْرَجُوکُمْ مِنْ دِیٰارِکُمْ وَ ظٰاهَرُوا عَلیٰ إِخْرٰاجِکُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ الخ؛المراد بالذین قاتلوکم، الخ؛مشرکوا مکه،و المظاهره علی الإخراج المعاونه و المعاضده علیه،و قوله: «أَنْ تَوَلَّوْهُمْ» بدل من «الَّذِینَ قٰاتَلُوکُمْ» الخ.

و قوله: وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ فَأُولٰئِکَ هُمُ الظّٰالِمُونَ قصر إفراد أی المتولون لمشرکی مکه و من ظاهرهم علی المسلمین هم الظالمون المتمردون عن النهی دون مطلق المتولین للکفار أو تأکید للنهی عن تولیهم (۱).

[سوره الممتحنه (۶۰): الآیات ۱۰ الی ۱۳]

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِذٰا جٰاءَکُمُ اَلْمُؤْمِنٰاتُ مُهٰاجِرٰاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِإِیمٰانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنٰاتٍ فَلاٰ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَی اَلْکُفّٰارِ لاٰ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لاٰ هُمْ یَحِلُّونَ لَهُنَّ وَ آتُوهُمْ مٰا أَنْفَقُوا وَ لاٰ جُنٰاحَ عَلَیْکُمْ أَنْ تَنْکِحُوهُنَّ إِذٰا آتَیْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ لاٰ تُمْسِکُوا بِعِصَمِ اَلْکَوٰافِرِ وَ سْئَلُوا مٰا أَنْفَقْتُمْ وَ لْیَسْئَلُوا مٰا أَنْفَقُوا ذٰلِکُمْ حُکْمُ اَللّٰهِ یَحْکُمُ بَیْنَکُمْ وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۱۰) وَ إِنْ فٰاتَکُمْ شَیْءٌ مِنْ أَزْوٰاجِکُمْ إِلَی اَلْکُفّٰارِ فَعٰاقَبْتُمْ فَآتُوا اَلَّذِینَ ذَهَبَتْ أَزْوٰاجُهُمْ مِثْلَ مٰا أَنْفَقُوا وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ اَلَّذِی أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۱۱) یٰا أَیُّهَا اَلنَّبِیُّ إِذٰا جٰاءَکَ اَلْمُؤْمِنٰاتُ یُبٰایِعْنَکَ عَلیٰ أَنْ لاٰ یُشْرِکْنَ بِاللّٰهِ شَیْئاً وَ لاٰ یَسْرِقْنَ وَ لاٰ یَزْنِینَ وَ لاٰ یَقْتُلْنَ أَوْلاٰدَهُنَّ وَ لاٰ یَأْتِینَ بِبُهْتٰانٍ یَفْتَرِینَهُ بَیْنَ أَیْدِیهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لاٰ یَعْصِینَکَ فِی مَعْرُوفٍ فَبٰایِعْهُنَّ وَ اِسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۲) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اَللّٰهُ عَلَیْهِمْ قَدْ یَئِسُوا مِنَ اَلْآخِرَهِ کَمٰا یَئِسَ اَلْکُفّٰارُ مِنْ أَصْحٰابِ اَلْقُبُورِ (۱۳)

۱- ۱) .الممتحنه ۱-۹:بحث روائی حول قوله تعالی: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا عَدُوِّی وَ عَدُوَّکُمْ أَوْلِیٰاءَ» ؛قوله تعالی: «اعْمَلُوا مٰا شِئْتُمْ» ؛الحب فی اللّه و البغض فی اللّه.

بيان:

قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ الآيه؛سياق الآيه يعطى أنها نزلت بعد صلح الحديبيه،و كان فى العهد المكتوب بين النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بين أهل مكه أنه إن لحق من أهل مكه رجل بالمسلمين ردّوه اليهم و إن لحق من المسلمين رجل بأهل مكه لم يردّوه اليهم ثم إن بعض نساء المشركين أسلمت و هاجرت الى المدينه فجاء زوجها يستردّها فسأل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يردّها اليه فأجابه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن الذى شرطوه فى العهد ردّ الرجال دون النساء و لم يردّها اليهم و أعطاه ما أنفق عليها من المهر و هو الذى تدل عليه الآيه مع ما يناسب ذلك من أحكامهن.

فقوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ سمّاهن

مؤمنات قبل امتحانهن و العلم بإيمانهن لتظاهرهن بذلک.

و قوله: فَامْتَحِنُوهُنَّ أی اختبروا إیمانهن بما یظهر به ذلک من شهاده و حلف یفید العلم و الوثوق،و فی قوله: «اللّهُ أَعْلَمُ بِإِیمانِهِنَّ» إشاره الی أنه یجزی فی ذلک العلم العادی و الوثوق دون الیقین بحقیقه الإیمان الذی هو تعالی أعلم به علما لا یتخلف عنه معلومه.

و قوله: فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَی الْکُفّارِ ذکرهم بوصف الإیمان للاشاره الی أنه السبب للحکم و انقطاع علقه الزوجیه بین المؤمنه و الکافر.

و قوله: لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ یَحِلُّونَ لَهُنَّ مجموع الجملتین کنایه عن انقطاع علقه الزوجیه،و لیس من توجیه الحرمه الیهن و الیهم فی شیء.

و قوله: وَ آتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا أی أعطوا الزوج الکافر ما أنفق علیها من المهر.

و قوله: وَ لا جُناحَ عَلَیْکُمْ أَنْ تَنْکِحُوهُنَّ إِذا آتَیْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ رفع المانع من نکاح المؤمنات المهاجرات إذا أوتین أجورهن و الأجر المهر.

و قوله: وَ لا تُمْسِکُوا بِعِصَمِ الْکَوافِرِ العصم جمع عصمه و هی النکاح الدائم یعصم المرأه و یحصنها،و إمساک العصمه إبقاء الرجل-بعد ما أسلم-زوجته الکافره علی زوجیتها فعلیه بعد ما أسلم أن یخلی عن سبیل زوجته الکافره سواء کانت مشرکه أو کتابیه.

و قد تقدم فی تفسیر قوله: وَ لا تَنْکِحُوا الْمُشْرِکاتِ حَتّی یُؤْمِنَّ (البقره۲۲۱/)،و قوله:

وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکُمْ (المائده۵/)،أن لا نسخ بین الآیتین و بین الآیه التی نحن فیها.

و قوله: وَ سْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَ لْیَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ضمیر الجمع فی «وَ سْئَلُوا» للمؤمنین و فی «لْیَسْئَلُوا» للکفار أی إن لحقت امرأه منکم بالکفار فاسألوهم ما أنفقتم لها من مهر و لهم أن یسألوا مهر من لحقت بکم من نسائکم.

ثم تمم الآیه بالإشاره الی ما تضمنته الآیه حکم اللّه الذی شرع لهم فقال: «ذلِکُمْ حُکْمُ اللّهِ

يَحْكَمُ بَيْنَكَمْ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» .

قوله تعالى: وَ إِنْ فٰاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ إِلَى الْكُفّٰارِ فَعٰاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوٰاجُهُمْ مِثْلَ مٰا أَنْفَقُوا الخ؛قال الراغب:الفوت بعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه،قال تعالى: «وَ إِنْ فٰاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ إِلَى الْكُفّٰارِ» .

انتهى.و فسّر المعاقبه و العقاب بمعنى الوصول و الانتهاء الى عقبى الشيء،و المراد عاقبتم من الكفار أى أصبتم منهم غنيمه و هى عقبى الغزو،و قيل:عاقب بمعنى عقّب،و قيل:عاقب مأخوذ من العقبه بمعنى النوبه.

و الأقرب أن يكون المراد بالشيء المهر و «مِنْ» فى «مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ» لابتداء الغايه و «إِلَى الْكُفّٰارِ» متعلق بقوله: «فٰاتَكُمْ» و المراد بالذين ذهبت أزواجهم،بعض المؤمنين و اليهم يعود ضمير «أَنْفَقُوا» .

و المعنى:و إن ذهب و انفلت منكم الى الكفار مهر من أزواجكم بلحوقهن بهم و عدم ردّهم ما أنفقتم من المهر اليكم فأصبتم منهم بالغزو غنيمه فأعطوا المؤمنين الذين ذهبت أزواجهم اليهم مما أصبتم من الغنيمه مثل ما أنفقوا من المهر.

و فسّرت الآيه بوجوه اخرى بعيده عن الفهم أغمضنا عنها.

و قوله: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ أمر بالتقوى،و توصيفه تعالى بالموصول و الصله لتعليل الحكم فإن مقتضى الإيمان باللّه تقواه.

و قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذٰا جٰاءَكَ الْمُؤْمِنٰاتُ يُبٰايِعْنَكَ الخ؛تتضمن الآيه حكم بيعه النساء المؤمنات للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و قد شرطت عليهن فى «عَلىٰ أَنْ لاٰ يُشْرِكْنَ» الخ؛ أمورا منها ما هو مشترك بين الصنفين:الرجال و النساء كالتحرّز من الشرك و من معصيه الرسول فى معروف و منا ما هو أمس بهن من حيث أن تدبير المنزل بحسب الطبع اليهن و هن السبيل الى حفظ عفه البيت و الحصول على الأنسال و طهاره مواليدهم،و هى التجنب من

السرقه و الزنا و قتل الأولاد و إلحاق غير أولاد أزواجهن بهم،و إن كانت هذه الامور بوجه من المشتركات.

فقوله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ شرط جوابه قوله:

«فَبَايِعْهُنَّ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ» .

و قوله: عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً أى من الأصنام و الأوثان و الأرباب، و هذا شرط لا غنى عنه لإنسان فى حال.

و قوله: وَ لاَ يَسْرِقْنَ أى لا من أزواجهن و لا من غيرهم و خاصه من أزواجهن كما يفيده السياق،و قوله: «وَ لاَ يَزْنِينَ» أى باتخاذ الأخدان و غير ذلك و قوله: «وَ لاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ» بالوأد و غيره و إسقاط الأجنه.

و قوله: وَ لاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ و ذلك بأن يحملن من الزنا ثم يضعنه و ينسبنه الى أزواجهن فإلحاقهن الولد كذلك بأزواجهن و نسبته اليهم كذبا بهتان يفتريه بين أيديهن و أرجلهن لأن الولد إذا وضعته أمه سقط بين يديها و رجليها،و لا يغنى عن هذا الشرط شرط الاجتناب عن الزنا لأنهما متغايران و كل مستقل بالنهى و التحريم.

و قوله: وَ لاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ نسب المعصيه الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دون اللّه مع أنها تنتهى اليه تعالى لأن المراد أن لا يتخلفن بالمعصيه عن السنه التى يستنها النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ينفذها فى المجتمع الإسلامى فيكون ما سنه هو المعروف عند المسلمين و فى المجتمع الإسلامى.

و من هنا يظهر أن المعصيه فى المعروف أعم من ترك المعروف كترك الصلاه و الزكاه و فعل المنكر كتبرجهن تبرج الجاهليه الاولى.

و فى قوله: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ بيان لمقتضى المغفره و تقويه للرجاء.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ الخ؛ المراد بهم الیهود المغضوب علیهم و قد تکرر فی کلامه تعالی فیهم وَ بٰاؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ (البقره۶۱/)،و یشهد بذلک ذیل الآیه فإن الظاهر أن المراد بالقوم غیر الکفار.

و قوله: یَئِسُوا مِنَ الْآخِرَهِ کَمٰا یَئِسَ الْکُفّٰارُ مِنْ أَصْحٰابِ الْقُبُورِ المراد بالآخره ثوابها،و المراد بالکفار الکافرون باللّه المنکرون للبعث،و قیل:المراد مشرکوا مکه و اللام للعهد،و «مِنَ» فی «مِنْ أَصْحٰابِ الْقُبُورِ» لابتداء الغایه.

و الجمله بیان لشقائهم الخالد و هلاکهم المؤبد لیحذر المؤمنون من موالاتهم و موادتهم و الاختلاط بهم و المعنی:قد یئس الیهود من ثواب الآخره کما یئس منکرو البعث من الموتی المدفونین فی القبور.

و قیل:المراد بالکفار الذین یدفنون الموتی و یوارونهم فی الأرض-من الکفر بمعنی الستر-.

و قیل:المراد بهم کفار الموتی و «مِنَ» بیانیه و المعنی:یئسوا من ثواب الآخره کما یئس الکفار المدفونون فی القبور منه لقوله: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ مٰاتُوا وَ هُمْ کُفّٰارٌ أُولٰئِکَ عَلَیْهِمْ لَعْنَهُ اللّٰهِ (البقره۱۶۱/) (۱).

۱- ۱) .الممتحنه ۱۰-۱۳:بحث روائی فی:المؤمنات المهاجرات من دار الکفر الی دار الاسلام؛کیفیه بیعه النساء مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

سوره الصف مدنيه و هی أربع عشره آيه

اشاره

[سوره الصف (۶۱): الآيات ۱ الی ۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;سَبَّحَ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۱) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مٰا لاٰ تَفْعَلُونَ (۲) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اَللّٰهِ أَنْ تَقُولُوا مٰا لاٰ تَفْعَلُونَ (۳) إِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلَّذِينَ يُقٰاتِلُونَ فِی سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيٰانٌ مَرْصُوصٌ (۴) وَ إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يٰا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِی وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّی رَسُولُ اَللّٰهِ إِلَيْكُمْ فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اَللّٰهُ قُلُوبَهُمْ وَ اَللّٰهُ لاٰ يَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلْفٰاسِقِينَ (۵) وَ إِذْ قٰالَ عِيسَى اِبْنُ مَرْيَمَ يٰا بَنِی إِسْرٰائِيلَ إِنِّی رَسُولُ اَللّٰهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَیَّ مِنَ اَلتَّوْرٰاةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِی مِنْ بَعْدِی اِسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ (۶) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرىٰ عَلَى اَللّٰهِ اَلْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعىٰ إِلَى اَلْإِسْلاٰمِ وَ اَللّٰهُ لاٰ يَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِينَ (۷) يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اَللّٰهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ اَللّٰهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ اَلْكٰافِرُونَ (۸) هُوَ اَلَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَ دِينِ اَلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى اَلدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ اَلْمُشْرِكُونَ (۹)

بیان:

السوره ترغّب المؤمنين و تحرّضـهم على أن يجاهـدوا فى سبيـل اللّه و يقاتلوا أعـداء دينه، و تنبّئهم أن هـذا الـدين نور ساطع للّه سبحـانه يريـد الكفـار من أهـل الكتـاب أن يطفئـوه بـأفواههم و اللّه متمّه و لو كره الكـافرون،و مظهره على الـدين كله و لو كره المشركون.

و أن هذا النبى الذى آمنوا به رسول من اللّه أرسله بالهدى و دين الحق،و بشّر به عيسى بن مريم عليهما السّلام بنى إسرائيل.

فعلى المؤمنين أن يشدّوا العزم على طاعته و امتثال ما يأمرهم به من الجهاد و نصـره اللّه فى دينه حتى يسعدهم اللّه فى آخرتهم و ينصرهم و يفتح لهم فى دنياهم و يؤيدهم على أعدائهم.

و عليهم أن لا يقولوا ما لا يفعلون و لا ينكصوا فيما يعدون فإن ذلک يسـتوجب مقتا من اللّه تعالى و إيذاء الرسول و فيه خطر أن يزيغ اللّه قلوبهم كما فعل بقوم موسى عليه السّلام لما آذوه و هم يعلمون أنه رسول اللّه اليهم و اللّه لا يهدى القوم الظالمين.

و السوره مدنيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: سَبَّحَ لِلَّهِ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ تقدم تفسيره،و افتتاح الكلام بالتسبيح لما فيها من توبيخ المؤمنين بقولهم ما لا يفعلون و إنذارهم بمقت اللّه و إزاغته قلوب الفاسقين.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مٰا لاٰ تَفْعَلُونَ «لِمَ» مخفف لما، و «مٰا» استفهاميه،و اللام للتعليل،و الكلام مسوق للتوبيخ ففيه توبيخ المؤمنين على قولهم ما لا يفعلون و لا يصغى الى قول بعض المفسرين:أن المراد بالذين آمنوا هم المنافقون و التوبيخ لهم دون المؤمنين لجلاله قدرهم.

و ذلك لوفور الآيات المتضمنه لتوبيخهم و معاتبتهم و خاصه فى الآيات النازله فى الغزوات و ما يلحق بها كاحد و الأحزاب و حنين و صلح و الحديبيه و تبوك و الإنفاق فى سبيل اللّه و غير ذلك،و الصالحون من هؤلاء المؤمنين إنما صلحوا نفسا و جلّوا قدرا بالتربيه الإلهيه التى تتضمنها أمثال هذه التوبيخات و العتابات المتوجهه اليهم تدريجا و لم يتصفوا بذلك من عند أنفسهم.

و مورد التوبيخ و إن كان بحسب ظاهر لفظ الآيه مطلق تخلف الفعل عن القول و خلف الوعد و نقض العهد و هو كذلك لكونه من آثار مخالفه الظاهر للباطن و هو النفاق لكن سياق الآيات و فيها قوله: إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقٰاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا و ما سيأتى من قوله: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ تِجٰارَهٍ الخ؛و غير ذلك يفيد أن متعلق التوبيخ كان هو تخلف بعضهم عما وعده من الثبات فى القتال و عدم الانهزام و الفرار أو تثاقلهم أو تخلفهم عن الخروج أو عدم الإنفاق فى تجهز أنفسهم أو تجهيز غيرهم.

قوله تعالى: كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللّٰهِ أَنْ تَقُولُوا مٰا لاٰ تَفْعَلُونَ المقت البغض الشديد،و الآيه فى مقام التعليل لمضمون الآيه السابقه فهو تعالى يبغض من الإنسان أن يقول

ما لا يفعله لأنه من النفاق،و أن يقول الإنسان ما لا يفعله غير أن لا يفعل ما يقوله فالأول من النفاق و الثانى من ضعف الإراده و رهن العزم و هو رذيله منافيه لسعاده النفس الإنسانيه فإن اللّه بنى سعاده النفس الإنسانيه على فعل الخير و اكتساب الحسنه من طريق الاختيار و مفتاحه العزم و الإراده،و لا تأثير إلاّ للراسخ من العزم و الإراده،و تخلف الفعل عن القول معلول وهن العزم و ضعف الإراده و لا يرجى للانسان مع ذلك خير و لا سعاده.

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقٰاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيٰانٌ مَرْصُوصٌ الصف جعل الأشياء على خط مستو كالناس و الأشجار.كذا قاله الراغب، و هو مصدر بمعنى اسم الفاعل و لذا لم يجمع،و هو حال من ضمير الفاعل فى «يُقٰاتِلُونَ» ، و المعنى:«يقاتلون فى سبيله حال كونهم صافين».

و البنيان هو البناء،و المرصوص من الرصاص،و المراد به ما أحكم من البناء بالرصاص فيقاوم ما يصادمه من أسباب الانهدام.

و الآيه تعلل خصوص المورد-و هو أن يعدوا الثبات فى القتال ثم ينهزموا-بالالتزام كما أن الآيه السابقه تعلل التوبيخ على مطلق أن يقولوا ما لا يفعلون،و ذلك أن اللّه سبحانه إذا أحبّ الذين يقاتلون فيلزمون مكانهم و لا يزولون كان لازمه أن يبغض الذين يعدون أن يثبتوا ثم ينهزمون إذا حضروا معركه القتال.

قوله تعالى: وَ إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يٰا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ الخ؛فى الآيه إشاره الى إيذاء بنى اسرائيل رسولهم موسى عليه السّلام و لجاجهم حتى آل الى إزاغه اللّه قلوبهم.و فى ذلك نهى التزامى للمؤمنين عن أن يؤذوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيئول أمرهم الى ما آل اليه أمر قوم موسى من إزاغه القلوب و قد قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذٰاباً مُهِيناً (الأحزاب/ ۵۷).

و الآيه بما فيها من النهى الالتزامى في معنى قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسىٰ فَبَرَّأَهُ اللّهُ مِمّا قالُوا وَ كانَ عِنْدَ اللّهِ وَجِيهاً يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (الأحزاب ۷۰/).

و سياق الآيتين و ذكر تبرئه موسى عليه السّلام يدل على أن المراد بإيذائه بما برّأه اللّه منه ليس معصيتهم لأوامره و خروجهم عن طاعته إذ لا معنى حينئذ لتبرئته بل هو أنهم وقعوا فيه عليه السّلام و قالوا فيه ما فيه عار و شين فتأذى فبرّأه اللّه مما قالوا و نسبوا اليه،و قوله فى الآيه التاليه:

«اتَّقُوا اللّهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً» يؤيد هذا الذى ذكرناه.

و يؤيد ذلك إشارته تعالى الى بعض مصاديق إيذاء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقول أو فعل فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلىٰ طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَ لٰكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذٰلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ -الى أن قال- وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ -الى أن قال- وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللّهِ وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذٰلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللّهِ عَظِيماً (الأحزاب/ ۵۳).

فتحصّل أن فى قوله: «وَ إِذْ قالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ» الخ؛تلويحا الى النهى عن إيذاء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقول أو فعل على علم بذلك كما أن فى ذيل الآيه تخويفا و إنذارا أنه فسق ربما أدّى الى إزاغته تعالى قلب من تلبّس به.

و قوله: فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ الزيغ الميل عن الاستقامه و لازمه الانحراف عن الحق الى الباطل.

و إزاغته تعالى إمساك رحمته و قطع هدايته عنهم كما يفيده التعليل بقوله: «إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ» حيث علل الإزاغه بعدم الهدايه،و هى إزاغه على سبيل المجازاه و تثبيت للزيغ الذى تلبسوا به أولا بسبب فسقهم المستدعى للمجازاه كما قال تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً

وَ يَهْدِی بِهِ كَثِيراً وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِينَ (البقره۲۶/)،و ليس بإزاغه بدئيه و إضلال ابتدائی لا يليق بساحه قدسه تعالی.

و أما قوله:«إن الكلام يخرج بذلک عن الفائده»فيدفعه أن الذی ينسب من الزيغ الی العبد و يحصل معه الكفر تحقق ما له بالفسق و الذی ينسب اليه تعالی تثبيت الزيغ فی قلب العبد و الطبع عليه به فزيغ العبد عن الإيمان بسبب فسقه و حصول الكفر بذلک لا يغنی عن تثبيت اللّه الزيغ و الكفر فی قلبه علی سبيل المجازاه.

قوله تعالی: وَ إِذْ قٰالَ عِيسَی ابْنُ مَرْيَمَ يٰا بَنِی إِسْرٰائِيلَ إِنِّی رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَیَّ مِنَ التَّوْرٰاهِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِی مِنْ بَعْدِی اسْمُهُ أَحْمَدُ تقدم فی صدر الكلام أن هذه الآيه و التی قبلها و الآيات الثلاث بعدها مسوقه لتسجيل أن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم رسول معلوم الرساله عند المؤمنين أرسله اللّه بالهدی و دين الحق ليظهره علی الدين كله و لو كره الكافرون من أهل الكتاب،و ما جاء به من الدين نور ساطع من عند اللّه يريد المشركون ليطفئوه بأفواههم و اللّه متم نوره و لو كره المشركون.

فعلی المؤمنين أن لا يؤذوه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و هم يعلمون أنه رسول اللّه اليهم،و أن ينصروه و يجاهدوا فی سبيل ربهم لإحياء دينه و نشر كلمته.

و من ذلک يعلم أن قوله: «وَ إِذْ قٰالَ عِيسَی ابْنُ مَرْيَمَ يٰا بَنِی إِسْرٰائِيلَ» الخ؛كالتوطئه لما سيذكر من كون النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم رسولا مبشرا به من قبل أرسله اللّه بالهدی و دين الحق و دينه نوره تعالی يهتدی به الناس.

و الذی حكاه تعالی عن عيسی بن مريم عليهما السّلام أعنی قوله: «يٰا بَنِی إِسْرٰائِيلَ إِنِّی رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَیَّ مِنَ التَّوْرٰاهِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِی مِنْ بَعْدِی اسْمُهُ أَحْمَدُ» ملخص دعوته و قد آذن بأصل دعوته بقوله: «إِنِّی رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ» فأشار الی أنه لا شأن له إلاّ أنه حامل رساله من اللّه اليهم،ثم بين متن ما أرسل اليهم لأجل تبليغه فی رسالته بقوله: «مُصَدِّقاً

لِمٰا بَیْنَ یَدَیَّ مِنَ التَّوْرٰاهِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ» الخ.

فقوله: مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیَّ مِنَ التَّوْرٰاهِ بیان أن دعوته لا تغایر دین التوراه و لا تناقض شریعتها بل تصدقها و لم تنسخ من أحکامها إلاّ یسیرا و النسخ بیان انتهاء أمد الحکم و لیس بإبطال،و لذا جمع علیه السّلام بین تصدیق التوراه و نسخ بعض أحکامها فیما حکاه اللّه تعالی من قوله: وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیَّ مِنَ التَّوْرٰاهِ وَ لِأُحِلَّ لَکُمْ بَعْضَ الَّذِی حُرِّمَ عَلَیْکُمْ (آل عمران۵۰/)،و لم یبین لهم إلاّ بعض ما یختلفون فیه کما فی قوله المحکی: قَدْ جِئْتُکُمْ بِالْحِکْمَهِ وَ لِأُبَیِّنَ لَکُمْ بَعْضَ الَّذِی تَخْتَلِفُونَ فِیهِ فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُونِ (الزخرف۶۳/).

و قوله: وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ یَأْتِی مِنْ بَعْدِی اسْمُهُ أَحْمَدُ إشاره الی الشطر الثانی من رسالته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قد أشار الی الشطر الأول بقوله: «مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیَّ مِنَ التَّوْرٰاهِ» .

و من المعلوم أن البشری هی الخبر الذی یسر المبشر و یفرحه و لا یکون إلاّ بشیء من الخیر یوافیه و یعود الیه،و الخیر المترقب من بعثه النبی و دعوته هو انفتاح باب من الرحمه الإلهیه علی الناس فیه سعاده دنیاهم و عقباهم من عقیده حقه أو عمل صالح أو کلیهما، و البشری بالنبی بعد النبی و بالدعوه الجدیده بعد حلول دعوه سابقه و استقرارها و الدعوه الإلهیه واحده لا تبطل بمرور الدهور و تقضی الأزمنه و اختلاف الأیام و اللیالی-إنما تتصور إذا کانت الدعوه الجدیده أرقی فیما تشتمل علیه من العقائد الحقه و الشرائع المعدله لأعمال المجتمع و أشمل لسعاده الإنسان فی دنیاه و عقباه.

و بهذا البیان یظهر أن معنی قوله علیه السّلام: «وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ یَأْتِی مِنْ بَعْدِی» الخ؛یفید کون ما أتی به النبی أحمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أرقی و أکمل مما تضمنته التوراه و بعث به عیسی علیه السّلام و هو علیه السّلام متوسط رابط بین الدعوتین.

و یعود معنی کلامه «إِنِّی رَسُولُ اللّٰهِ إِلَیْکُمْ مُصَدِّقاً» الخ؛الی أنی رسول من اللّه الیکم أدعو الی شریعه التوراه و منهاجها-و لا حل لکم بعض الذی حرم علیکم-و هی شریعه سیکملها

ص :۲۹۷

اللّه ببعث نبى يأتى من بعدى اسمه أحمد.

و هو كذلك فإمعان التأمل فى المعارف الإلهيه التى يدعو إليها الإسلام يعطى أنها أدق مما فى غيره من الشرائع السماويه السابقه و خاصه ما ينـدب اليه من التوحيد الذى هو أصل الاصول الذى يبتنى عليه كل حكم و يعود اليه كل من المعارف الحقيقيه و قد تقدم شطر من الكلام فيه فى المباحث السابقه من الكتاب.

و كـذا الشـرائع و القوانين العمليه التى لم تـدع شـيئا ممـا دق و جـل من أعمال الإنسان الفرديه و الاجتماعيه إلاّ عـدّلته و حـدّت حدوده و قررته على أساس التوحيد و وجهته الى غرض السعاده.

و الى ذلـك الإشـاره بقوله تعـالى: اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرٰاهِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهٰاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبٰاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبٰائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلاٰلَ الَّتِى كٰانَتْ عَلَيْهِمْ (الأعراف/١٥٧)،و آيات أخرى يصف القرآن.

و الآيه أعنى قوله: «وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى» و إن كانت مصرحه بالبشاره لكنها لا تدل على كونها مذكوره فى كتابه عليه السّلام غير أن آيه الأعراف المنقوله آنفا «يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرٰاهِ وَ الْإِنْجِيلِ» و كذا قوله فى صـفه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرٰاهِ وَ مَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ الآيه(الفتح/٢٩)،يدلان على ذلك.

و قوله: اِسْمُهُ أَحْمَدُ دلاله السياق على تعبير عيسى عليه السّلام عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأحمد و على كونه اسما له يعرف به عند الناس كما كان يسمى بمحمد ظاهره لا ستره عليها.

و يدل عليه قول حسان:

صلّى الإله و من يحفّ بعرشه

و الطيّبون على المبارك أحمد

و من أشعار أبى طالب قوله:

و قالوا لأحمد أنت امرؤ

خلوف اللسان ضعيف السبب

ألا إن أحمد قد جاءهم

بحق و لم يأتهم بالكذب

و قوله مخاطبا للعباس و حمزه و جعفر و على يوصيهم بنصر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

كونوا فدى لكم أمى و ما ولدت

فى نصر أحمد دون الناس أتراسا

و من شعره فيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد سماه باسمه الآخر محمد:

أ لم تعلموا أنا وجدنا محمدا

نبيا كموسى خط فى أول الكتب

و يستفاد من البيت أنهم عثروا على وجود البشاره به صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الكتب السماويه التى كانت عند أهل الكتاب يومئذ ذاک.

و يؤيده أيضا إيمان جماعه من أهل الكتاب من اليهود و النصارى و فيهم قوم من علمائهم كعبد اللّه بن سلام و غيره و قد كانوا يسمعون هذه الآيات القرآنيه التى تذكر البشاره به صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ذكره فى التوراه و الإنجيل فتلقوه بالقبول و لم يكذبوه و لا أظهروا فيه شيئا من الشک و الترديد.

و أما خلو الأناجيل الدائره اليوم عن بشاره عيسى بما فيها من الصراحه فالقرآن-و هو آيه معجزه باقيه-فى غنى عن تصديقها،و قد تقدم البحث عن سندها و اعتبارها فى الجزء الثالث من الكتاب.

و قوله: فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ ضمير «جٰاءَ» لأحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و ضمير «هُمْ» لبنى إسرائيل أو لهم و لغيرهم،و المراد بالبينات البشاره و معجزه القرآن و سائر آيات النبوه.

و المعنى:فلما جاء أحمد المبشر به بنى إسرائيل أو أتاهم و غيرهم بالآيات البينه التى منها بشاره عيسى عليه السّلام قالوا هذا سحر مبين،و قرئ هذا ساحر مبين.

و قيل:ضمير «جٰاءَ» لعيسى عليه السّلام،و السياق لا يلائمه.

قوله تعالی: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَریٰ عَلَی اللّهِ الْکَذِبَ وَ هُوَ یُدْعیٰ إِلَی الْإِسْلاٰمِ الخ؛الاستفهام للإنکار و هو ردّ لقولهم: «هٰذٰا سِحْرٌ مُبِینٌ» فإن معناه أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیس برسول و أن ما بلّغه من دین اللّه لیس منه تعالی.

و المراد بالإسلام الدین الذی یدعو الیه رسول اللّه بما أنه تسلیم للّه فیما یریده و یأمر به من اعتقاد و عمل،و لا ریب أن مقتضی ربوبیته و ألوهیته تعالی تسلیم عباده له تسلیما مطلقا فلا ریب أن الدین الذی هو الاسلام للّه دینه الحق الذی یجب أن یدان به فدعوی أنه باطل لیس من اللّه افتراء علی اللّه.

و من هنا یظهر أن قوله: «وَ هُوَ یُدْعیٰ إِلَی الْإِسْلاٰمِ» یتضمن الحجه علی کون قولهم: «هٰذٰا سِحْرٌ مُبِینٌ» افتراء علی اللّه.

و الافتراء ظلم لا یرتاب العقل فی کونه ظلما و ینهی عنه الشرع و یعظم الظلم بعظمه من وقع علیه فإذا کان هو اللّه سبحانه کان أعظم الظلم فلا أظلم ممن افتری علی اللّه الکذب.

و المعنی:و لا أظلم ممن افتری علی اللّه الکذب-بنفی نسبه دین اللّه الیه-و الحال أنه یدعی الی دین الإسلام الذی لا یتضمن إلاّ التسلیم للّه فیما أراد و لا ریب أنه من اللّه،و اللّه لا یهدی القوم الظالمین.

قوله تعالی: یُرِیدُونَ لِیُطْفِؤُا نُورَ اللّهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ الخ؛إطفاء النور إبطاله و إذهاب شروقه،و إطفاء النور بالأفواه إنما هو بالنفخ بها.

و قد وقعت الآیه فی سوره التوبه و فیها «یُرِیدُونَ أَنْ یُطْفِؤُا نُورَ اللّهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ» قال الراغب:قال تعالی: «یُرِیدُونَ أَنْ یُطْفِؤُا نُورَ اللّهِ» «یُرِیدُونَ لِیُطْفِؤُا نُورَ اللّهِ» و الفرق بین الموضعین أن فی قوله: «یُرِیدُونَ أَنْ یُطْفِؤُا» یقصدون إطفاء نور اللّه،و فی قوله: «لِیُطْفِؤُا» یقصدون أمرا یتوصلون به الی إطفاء نور اللّه.انتهی.و محصله أن متعلق الإراده فی قوله:

«یُرِیدُونَ أَنْ یُطْفِؤُا نُورَ اللّهِ» نفس الإطفاء،و فی قوله: «یُرِیدُونَ لِیُطْفِؤُا نُورَ اللّهِ» السبب

الموصل الی الإطفاء و هو النفخ بالأفواه و الإطفاء غرض و غایه.

و الآیه و ما یتلوها کالشارح لمعنی ما تقدم فی الآیه السابقه من ظلمهم برمی الدعوه بالسحر و عدم هدایته تعالی لهم بما أنهم ظالمون،و المحصل أنهم یریدون إطفاء نور اللّه بنفخه أفواههم لکن اللّه لا یهدیهم الی مقصدهم بل یتمّ نوره و یظهر دینه علی الدین کله.

فقوله: یُرِیدُونَ لِیُطْفِؤُا نُورَ اللّهِ بِأَفْواهِهِمْ أی بالنفخ بالأفواه کما یطفأ الشمعه بالنفخه کنایه عن أنهم زعموا أن نور اللّه و هو دینه نور ضعیف کنور الشمعه یطفأ بأدنی نفخه فرموه بالسحر و انقطاع نسبته الی اللّه.

و قد أخطئوا فی مزعمتهم فهو نور اللّه الذی لا یطفأ و قد شاء أن یتمّه و لو کره الکافرون و اللّه بالغ أمره،و هو قوله: «وَ اللّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْکافِرُونَ» .

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدیٰ وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ الإضافه فی «دِینِ الْحَقِّ» بیانیه کما قیل:و الظاهر أنها فی الأصل إضافه لامیّه بعنایه لطیفه هی أن لکل من الحق و الباطل دینا یقتضیه و یختص به،و قد ارتضی اللّه تعالی الدین الذی للحق-و هو الحق تعالی-فأرسل رسوله.

و إظهار شیء علی غیره نصرته و تغلیبه علیه،و المراد بالدین کله کل سبیل مسلوک غیر سبیل اللّه الذی هو الإسلام و الآیه فی مقام تعلیل قوله فی الآیه السابقه: «وَ اللّهُ مُتِمُّ نُورِهِ» ، و المعنی:و اللّه متمّ نوره لأنه هو الذی أرسل رسوله بنوره الذی هو الهدی و دین الحق لیجعله غالبا علی جمیع الأدیان و لو کره المشرکون من أهل الأوثان.

و یستفاد من الآیتین أن دین الحق نور اللّه فی الأرض کما یستفاد ذلک من قوله: مَثَلُ نُورِهِ کَمِشْکاهٍ فِیهٰا مِصْبٰاحٌ الآیه(النور/۳۵)،و قد تقدم فی تفسیر الآیه (۱).

ص :۳۰۱

۱- ۱) .الصف ۱-۹:بحث روائی حول بشاره عیسی علیه السّلام برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

[سوره الصف (۶۱): الآیات ۱۰ الی ۱۴]

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّکُمْ عَلیٰ تِجٰارَهٍ تُنْجِیکُمْ مِنْ عَذٰابٍ أَلِیمٍ (۱۰) تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجٰاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ بِأَمْوٰالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ ذٰلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۱) یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ وَ یُدْخِلْکُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ وَ مَسٰاکِنَ طَیِّبَهً فِی جَنّٰاتِ عَدْنٍ ذٰلِکَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِیمُ (۱۲) وَ أُخْریٰ تُحِبُّونَهٰا نَصْرٌ مِنَ اَللّٰهِ وَ فَتْحٌ قَرِیبٌ وَ بَشِّرِ اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۳) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا کُونُوا أَنْصٰارَ اَللّٰهِ کَمٰا قٰالَ عِیسَی اِبْنُ مَرْیَمَ لِلْحَوٰارِیِّینَ مَنْ أَنْصٰارِی إِلَی اَللّٰهِ قٰالَ اَلْحَوٰارِیُّونَ نَحْنُ أَنْصٰارُ اَللّٰهِ فَآمَنَتْ طٰائِفَهٌ مِنْ بَنِی إِسْرٰائِیلَ وَ کَفَرَتْ طٰائِفَهٌ فَأَیَّدْنَا اَلَّذِینَ آمَنُوا عَلیٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظٰاهِرِینَ (۱۴)

بیان:

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّکُمْ عَلیٰ تِجٰارَهٍ تُنْجِیکُمْ مِنْ عَذٰابٍ أَلِیمٍ الاستفهام للعرض و هو فی معنی الأمر.

و التجاره-علی ما ذکره الراغب-التصرف فی رأس المال طلبا للربح،و لا یوجد فی کلام العرب تاء بعده جیم إلاّ هذه اللفظه.

فقد أخذ الإیمان و الجهاد فی الآیه تجاره رأس مالها النفس و ربحها النجاه من عذاب ألیم، و الآیه فی معنی قوله: إِنَّ اللّٰهَ اشْتَریٰ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّهَ یُقٰاتِلُونَ فِی

سَبِيلِ اللّٰهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ -الى أن قال- فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بٰايَعْتُمْ بِهِ (التوبه/ ١١١).

و قد فخم تعالى أمر هذه التجاره حيث قال: «عَلىٰ تِجٰارَةٍ» أى تجاره جليله القدر عظيمه الشأن،و جعل الربح الحاصل منها النجاه من عذاب أليم لا يقدر قدره.

و مصداق هذه النجاه الموعوده المغفره و الجنه،و لذا بدل ثانيا النجاه من العذاب من قوله:

«يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنّٰاتٍ» الخ؛و أما النصر و الفتح الموعودان فهما خارجان عن النجاه الموعوده،و لذا فصلهما عن المغفره و الجنه فقال: «وَ أُخْرىٰ تُحِبُّونَهٰا نَصْرٌ مِنَ اللّٰهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ» فلا تغفل.

قوله تعالى: تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجٰاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوٰالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ الخ؛استئناف بيانى يفسر التجاره المعروضه عليهم كأنه قيل:ما هذه التجاره؟ فقيل «تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجٰاهِدُونَ» الخ؛و قد أخذ الإيمان بالرسول مع الإيمان باللّه للدلاله على وجوب طاعته فيما أمر به و إلاّ فالإيمان لا يعد إيمانا باللّه إلاّ مع الإيمان برساله الرسول قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّٰهِ وَ رُسُلِهِ -الى أن قال- أُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ حَقًّا (النساء١٥١/).

و قوله: ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى ما ذكر من الإيمان و الجهاد خير لكم إن كنتم من أهل العلم و أما الجهله فلا يعتد بأعمالهم.

و قيل:المراد تعلمون خيريه ذلك إن كنتم من أهل العلم و الفقه.

قوله تعالى: يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ الخ؛جواب للشرط المقدّر المفهوم من الآيه السابقه أى إن تؤمنوا باللّه و رسوله و تجاهدوا فى سبيله يغفر لكم،الخ.

و قد أطلقت الذنوب المتعلقه بها المغفره فالمغفور جميع الذنوب و الاعتبار يساعده إذ هذه

المغفره مقـدمه الـدخول فی جنه الخلـد و لا معنی لدخولها مع بقاء بعض الذنوب علی حاله،و لعله للإشاره الی هذه النکته عقبها بقوله: «وَ مَسٰاکِنَ طَیِّبَهً فِی جَنّٰاتِ عَدْنٍ» أی جنات ثبات و استقرار فکونها محل ثبات و موضع قرار یلوح أن المغفره تتعلق بجمیع الذنوب.

مضافا الی ما فیه من مقابله النفس المبذوله و هی متاع قلیل معجّل بجنات عـدن التی هی خالـده فتطیب بـذلک نفس المؤمن و تقوی إرادته لبذل النفس و تضحیتها و اختیار البقاء علی الفناء.

ثم زاد فی تأکید ذلک بقوله: «ذٰلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ» .

قوله تعالی: وَ أُخْریٰ تُحِبُّونَهٰا نَصْرٌ مِنَ اللّٰهِ وَ فَتْحٌ قَرِیبٌ الـخ؛عطف علی قوله: «یَغْفِرْ لَکُمْ» الـخ؛و «أُخْریٰ» وصف قائم مقام الموصوف و هو خبر لمبتدإ محذوف، و قوله: «نَصْرٌ مِنَ اللّٰهِ وَ فَتْحٌ قَرِیبٌ» بیان لاخری،و التقدیر و لکم نعمه أو خصله اخری تحبونها و هی نصر من اللّه و فتح قریب عاجل.

و قوله: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ معطوف علی الأمر المفهوم من سابق الکلام کأنه قیل «قل یا أیها الذین آمنوا هل أدلکم»الخ؛و بشر المؤمنین.

و تحاذی هذه البشری ما فی قوله: إِنَّ اللّٰهَ اشْتَریٰ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّهَ -الی أن قال- فَاسْتَبْشِرُوا بِبَیْعِکُمُ الَّذِی بٰایَعْتُمْ بِهِ (التوبه/۱۱۱)،و به یظهر أن الذی أمر أن یبشروا به مجموع ما یؤتیهم اللّه من الأجر فی الآخره و الدنیا لا خصوص النصر و الفتح.

هـذا کله مـا یعطیه السیاق فی معنی الآیه و إعراف أجزائها،و قد ذکر فیها أمور اخری لا یساعد علیها السیاق تلک المساعده أغمضنا عن ذکرها،و احتمل أن یکون قوله: «وَ بَشِّرِ» الخ؛استئنافا.

ص :۳۰۴

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ الخ؛أى اتسموا بهذه السمه و دوموا و اثبتوا عليها فالآيه فى معنى الترقى بالنسبه الى قوله السابق: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» و مآل المعنى:اتجروا بأنفسكم و أموالكم فانصروا اللّه بالإيمان و الجهاد فى سبيله و دوموا و اثبتوا على نصره.

و المراد بنصرتهم للّه أن ينصروا نبيه فى سلوك السبيل الذى يسلكه الى اللّه على بصيره كما قال: قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي (يوسف/١٠٨).

و قوله: فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ كَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ إشاره الى ما جرى عليه و انتهى اليه أمر استنصار عيسى و تلبيه الحواريين حيث تفرق الناس الى طائفه مؤمنه و اخرى كافره فأيد اللّه المؤمنين على عدوهم و هم الكفار فأصبحوا ظاهرين بعد ما كانوا مستخفين مضطهدين.

ص: ٣٠٥

سوره الجمعه مدنیه و هی إحدی عشره آیه

اشاره

[سوره الجمعه (۶۲): الآیات ۱ الی ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;یُسَبِّحُ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ اَلْمَلِکِ اَلْقُدُّوسِ اَلْعَزِیزِ اَلْحَکِیمِ (۱) هُوَ اَلَّذِی بَعَثَ فِی اَلْأُمِّیِّینَ رَسُولاً مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیٰاتِهِ وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ اَلْکِتٰابَ وَ اَلْحِکْمَهَ وَ إِنْ کٰانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ (۲) وَ آخَرِینَ مِنْهُمْ لَمّٰا یَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۳) ذٰلِکَ فَضْلُ اَللّٰهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ ذُو اَلْفَضْلِ اَلْعَظِیمِ (۴) مَثَلُ اَلَّذِینَ حُمِّلُوا اَلتَّوْرٰاهَ ثُمَّ لَمْ یَحْمِلُوهٰا کَمَثَلِ اَلْحِمٰارِ یَحْمِلُ أَسْفٰاراً بِئْسَ مَثَلُ اَلْقَوْمِ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ لاٰ یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِینَ (۵) قُلْ یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ هٰادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّکُمْ أَوْلِیٰاءُ لِلّٰهِ مِنْ دُونِ اَلنّٰاسِ فَتَمَنَّوُا اَلْمَوْتَ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۶) وَ لاٰ یَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمٰا قَدَّمَتْ أَیْدِیهِمْ وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ بِالظّٰالِمِینَ (۷) قُلْ إِنَّ اَلْمَوْتَ اَلَّذِی تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاٰقِیکُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلیٰ عٰالِمِ اَلْغَیْبِ وَ اَلشَّهٰادَهِ فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸)

بیان:

غرض السوره هو الحث البالغ علی الاهتمام بأمر صلاه الجمعه و القیام بواجب أمرها فهی من شعائر اللّه المعظمه التی فی تعظیمها و الاهتمام بأمرها صلاح أخراهم و دنیاهم،و قد سلک تعالی الی بیان أمره بافتتاح الکلام بتسبیحه و الثناء علیه بما منّ علی قوم أمّیین برسول منهم أمیّ یتلو علیهم آیاته و یزکّیهم بصالحات الأعمال و الزاکیات من الأخلاق و یعلمهم الکتاب و الحکمه فیحملهم کتاب اللّه و معارف دینه أحسن التحمیل هم و من یلحق بهم أو یخلفهم من بعدهم من المؤمنین فلیحملوا ذلک أحسن الحمل،و لیحذروا أن یکونوا کالیهود حمّلوا التوراه ثم لم یحملوا معارفها و أحکامها فکانوا مثل الحمار یحمل أسفارا.

ثم تخلص الی الأمر بترک البیع و السعی الی ذکر اللّه إذا نودی للصلاه من یوم الجمعه، و قرّعهم علی ترک النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قائما یخطب و الانفضاض و الانسلال الی التجاره و اللهو،و ذلک آیه عدم تحملهم ما حملوا من معارف کتاب اللّه و أحکامه،و السوره مدنیه.

قوله تعالی: یُسَبِّحُ لِلّٰهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ الْمَلِکِ الْقُدُّوسِ الْعَزِیزِ الْحَکِیمِ التسبیح تنزیه الشیء و نسبته الی الطهاره و النزاهه من العیوب و النقائص،و التعبیر بالمضارع للدلاله علی الاستمرار،و الملک هو الاختصاص بالحکم فی نظام المجتمع،و القدوس مبالغه فی القدس و هو النزاهه و الطهاره،و العزیز هو الذی لا یغلبه

غالب،و الحکیم هو المتقن فعله فلا یفعل عن جهل أو جزاف.

و فی الآیه توطئه و تمهید برهانی لما یتضمنه قوله: «هُوَ الَّذِی بَعَثَ» الخ؛من بعثه الرسول لتکمیل الناس و إسعادهم و هدایتهم بعد إذ کانوا فی ضلال مبین.

و ذلک أنه تعالی یسبحه و ینزهه الموجودات السماویه و الأرضیه بما عندهم من النقص الذی هو متممه و الحاجه التی هو قاضیها فما من نقیصه أو حاجه إلاّ و هو المرجو فی تمامها و قضائها فهو المسبّح المنزّه عن کل نقص و حاجه فله أن یحکم فی نظام التکوین بین خلقه بما شاء،و فی نظام التشریع فی عباده بما أراد،کیف لا؟و هو ملک له أن یحکم فی أهل مملکته و علیهم أن یطیعوه.

و إذا حکم و شرّع بینهم دینا لم یکن ذلک منه لحاجه الی تعبیدهم و نقص فیه یتممه بعبادتهم لأنه قدّوس منزّه عن کل نقص و حاجه.

ثم إذا حکم و شرّع و بلغه إیاهم عن غنی منه و دعاهم الیه بوساطه رسله فلم یستجیبوا دعوته و تمردوا عن طاعته لم یکن ذلک تعجیزا منهم له تعالی لأنه العزیز لا یغلبه فیما یریده غالب.

ثم إن الذی حکم به و شرعه من الدین بما أنه الملک القدوس العزیز لیس یذهب لغی لا أثر له لأنه حکیم علی الإطلاق لا یفعل ما یفعل إلاّ لمصلحه و لا یرید منهم ما یرید إلاّ لنفع یعود الیهم و خیر ینالونه فیستقیم به حالهم فی دنیاهم و أخراهم.

و بالجمله فتشریعه الدین و إنزاله الکتاب ببعث رسول یبلغهم ذلک بتلاوه آیاته،و یزکیهم و یعلمهم من منه تعالی و فضل کما قال: «هُوَ الَّذِی بَعَثَ» الخ.

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الْأُمِّیِّینَ رَسُولاً مِنْهُمْ الخ؛الامیون جمع أمی و هو الذی لا یقرأ و لا یکتب،و المراد بهم-کما قیل-العرب لقله من کان منهم یقرأ و یکتب و قد کان الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم منهم أی من جنسهم و هو غیر کونه مرسلا الیهم فقد کان منهم و کان

مرسلا الی الناس کافه.

و احتمل أن یکون المراد بالامیین غیر أهل الکتاب کما قال الیهود-علی ما حکی اللّه عنهم-: لَیْسَ عَلَیْنٰا فِی الْأُمِّیِّینَ سَبِیلٌ (آل عمران۷۵/).

و فیه أنه لا یناسب قوله فی ذیل الآیه: «یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیٰاتِهِ» الخ؛فإنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یخص غیر العرب و غیر أهل الکتاب بشیء من الدعوه لم یلقه الیهم.

و احتمل أن یکون المراد بالامیین أهل مکه لکونهم یسمونها أم القری.

و فیه أنه لا یناسب کون السوره مدنیه لإیهامه کون ضمیر «یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ» راجعا الی المهاجرین و من أسلم من أهل مکه بعد الفتح و أخلافهم و هو بعید من مذاق القرآن.

و لا منافاه بین کونه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الامیین مبعوثا فیهم و بین کونه مبعوثا الیهم و الی غیرهم و هو ظاهر،و تلاوته علیهم آیاته و تزکیته و تعلیمه لهم الکتاب و الحکمه لنزوله بلغتهم و هو أول مراحل دعوته و لذا لما استقرت الدعوه بعض الاستقرار أخذ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یدعو الیهود و النصاری و المجوس و کاتب العظماء و الملوک.

و کذا دعوه إبراهیم و إسماعیل علیهما السّلام علی ما حکی اللّه تعالی رَبَّنٰا وَ اجْعَلْنٰا مُسْلِمَیْنِ لَکَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِنٰا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ -الی أن قال- رَبَّنٰا وَ ابْعَثْ فِیهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیٰاتِکَ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتٰابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ یُزَکِّیهِمْ (البقره۱۲۹/)،تشمل جمیع آل إسماعیل من عرب مضر أعم من أهل مکه و غیرهم،و لا ینافی کونه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مبعوثا الیهم و الی غیرهم.

و قوله: یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیٰاتِهِ أی آیات کتابه مع کونه أمیا.صفه للرسول.

و قوله: وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتٰابَ وَ الْحِکْمَةَ التزکیه تفعیل من الزکاه بمعنی النمو الصالح الذی یلازم الخیر و البرکه فتزکیته لهم تنمیته لهم نماء صالحا بتعویدهم الأخلاق الفاضله و الأعمال الصالحه فیکملون بذلک فی إنسانیتهم فیستقیم حالهم فی دنیاهم و آخرتهم یعیشون سعداء و یموتون سعداء.

ص :۳۰۹

و تعلیم الکتاب بیان ألفاظ آیاته و تفسیر ما أشکل من ذلک،و یقابله تعلیم الحکمه و هی المعارف الحقیقیه التی یتضمنها القرآن،و التعبیر عن القرآن تاره بالآیات و تاره بالکتاب للدلاله علی أنه بکل من هذه العناوین نعمه یمتن بها-کما قیل-.

و قد قدم التزکیه هاهنا علی تعلیم الکتاب و الحکمه بخلاف ما فی دعوه إبراهیم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأن هذه الآیه تصف تربیته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لمؤمنی أمته،و التزکیه مقدمه فی مقام التربیه علی تعلیم العلوم الحقه و المعارف الحقیقیه و أما ما فی دعوه إبراهیم علیه السّلام فإنها دعاء و سؤال أن یتحقق فی ذریته هذه الزکاه و العلم بالکتاب و الحکمه،و العلوم و المعارف أقدم مرتبه و أرفع درجه فی مرحله التحقق و الاتصاف من الزکاه الراجعه الی الأعمال و الأخلاق.

و قوله: وَ إِنْ کٰانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ «إِنْ» مخففه من الثقیله و المراد أنهم کانوا من قبل بعثه الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی ضلال مبین،و الآیه تحمید بعد تسبیح و مسوقه للامتنان کما سیأتی.

قوله تعالی: وَ آخَرِینَ مِنْهُمْ لَمّٰا یَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ عطف علی الامیین و ضمیر «مِنْهُمْ» راجع الیهم و«من»للتبعیض و المعنی:بعث فی الامیین و فی آخرین منهم لم یلحقوا بهم بعد و هو العزیز الذی لا یغلب فی إرادته الحکیم الذی لا یلغو و لا یجازف فی فعله.

قوله تعالی: ذٰلِکَ فَضْلُ اللّٰهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشٰاءُ وَ اللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ الإشاره بذلک الی بعث الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- و قد فخم أمره بالإشاره البعیده-فهو صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المخصوص بالفضل،و المعنی:ذلک البعث و کونه یتلو آیات اللّه و یزکی الناس و یعلمهم الکتاب و الحکمه من فضل اللّه و عطائه یعطیه من تعلقت به مشیته و قد شاء أن یعطیه محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و اللّه ذو الفضل العظیم کذا قال المفسرون.

و من الممکن أن تکون الإشاره بذلک الی البعث بما له من النسبه الی أطرافه من المرسل

و المرسل الیهم،و المعنی:ذلک البعث من فضل اللّه یؤتیه من یشاء و قد شاء أن یخص بهذا الفضل محمدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فاختاره رسولا،و أمته فاختارهم لذلک فجعله منهم و أرسله الیهم.

و الآیه و الآیتان قبلها أعنی قوله: «هُوَ الَّذِی بَعَثَ -الی قوله- اَلْعَظِیمِ» مسوقه سوق الامتنان.

قوله تعالی: مَثَلُ الَّذِینَ حُمِّلُوا التَّوْرٰاهَ ثُمَّ لَمْ یَحْمِلُوهٰا کَمَثَلِ الْحِمٰارِ یَحْمِلُ أَسْفٰاراً الخ؛قال الراغب:السفر-بالفتح فالسکون-کشف الغطاء و یختص ذلک بالأعیان نحو سفر العمامه عن الرأس و الخمار عن الوجه-الی أن قال-و السفر-بالکسر فالسکون-الکتاب الذی یسفر عن الحقائق قال تعالی: «کَمَثَلِ الْحِمٰارِ یَحْمِلُ أَسْفٰاراً» انتهی.

و المراد بتحمیل التوراه تعلیمها،و المراد بحملها العمل بها علی ما یؤیده السیاق و یشهد به ما فی ذیل الآیه من قوله: «بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِ اللّٰهِ» ،و المراد بالذین حملوا التوراه ثم لم یحملوها الیهود الذین أنزل اللّه التوراه علی رسولهم موسی علیه السّلام فعلمهم ما فیها من المعارف و الشرائع فترکوها و لم یعملوا بها فحمّلوها و لم یحملوها فضرب اللّه لهم مثل الحمار یحمل أسفارا و هو لا یعرف ما فیها من المعارف و الحقائق فلا یبقی له من حملها إلاّ التعب بتحمل ثقلها.

قوله تعالی: قُلْ یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ هٰادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّکُمْ أَوْلِیٰاءُ لِلّٰهِ مِنْ دُونِ النّٰاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ احتجاج علی الیهود یظهر به کذبهم فی دعواهم أنهم أولیاء اللّه و أحباؤه،و قد حکی اللّه تعالی ما یدل علی ذلک عنهم بقوله: وَ قٰالَتِ الْیَهُودُ وَ النَّصٰاریٰ نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ (المائده۱۸/)،و قوله: قُلْ إِنْ کٰانَتْ لَکُمُ الدّٰارُ الْآخِرَهُ عِنْدَ اللّٰهِ خٰالِصَهً مِنْ دُونِ النّٰاسِ (البقره۹۴/)،و قوله: وَ قٰالُوا لَنْ یَدْخُلَ الْجَنَّهَ إِلاّٰ مَنْ کٰانَ هُوداً (البقره۱۱۱/).

و محصل المعنی:قل للیهود مخاطبا لهم یا أیها الذین تهودوا إن کنتم اعتقدتم أنکم أولیاء للّه

من دون النـاس إن كنتم صادقين فى دعواكم فتمنوا الموت لأن الولى يحب لقاء وليه و من أيقن أنه ولى للّه وجبت له الجنه و لا حـاجب بينه و بينها إلاّ الموت أحب الموت و تمنى أن يحلّ به فيـدخل دار الكرامه و يتخلص من هـذه الحياه الـدنيّه التى ما فيها إلاّ الهم و الغم و المحنه و المصيبه.

قوله تعالى: وَ لاٰ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظّٰالِمِينَ أخبر تعالى نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنهم لا يتمنونه أبدا بعد ما أمره أن يعرض عليهم تمنى الموت.

و قد علل عدم تمنيهم الموت بما قدمت أيديهم و هو كنايه عن الظلم و الفسوق،فمعنى الآيه:

و لاـ يتمنون الموت أبـدا بسبب ما قـدمته أيـديهم من الظلم فكانوا ظالمين و اللّه عليم بالظالمين يعلم أنهم لا يحبون لقاءه لأنهم أعداؤه لا ولايه بينه و بينهم و لا محبه.

و الآيتـان فى معنى قوله تعالى: قُلْ إِنْ كٰانَتْ لَكُمُ الـدّٰارُ الْآخِرَهُ عِنْدَ اللّٰهِ خٰالِصَهً مِنْ دُونِ النّٰاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظّٰالِمِينَ (البقره٩٥/).

قوله تعـالى: قُـلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَـإِنَّهُ مُلاٰقِيكُم ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلىٰ عٰالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَهِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ الفاء فى قوله: «فَـإِنَّهُ مُلاٰقِيكُمْ» فى معنى جواب الشـرط،و فيه وعيـد لهم بأن الموت الـذى يكرهونه كراهه أن يؤاخـذوا بوبال أعمالهم فإنه سيلاـقيهم لاـ محـاله ثم يردّون الى ربهم الـذى خرجوا من زىّ العبوديه بمظـالمهم و عـادوه بأعمالهم و هو عالم بحقيقه أعمالهم ظاهرها و باطنها فإنه عالم الغيب و الشهاده فينبئهم بحقيقه أعمالهم و تبعاتها السيئه و هى أنواع العذاب (١)(٢).

ص: ٣١٢

١- ١) .الجمعه ١-٨:بحث روائى قوله تعـالى: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ» ،و قوله تعالى: «وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمّٰا يَلْحَقُوا بِهِمْ» ؛أهل فارس؛أولياء اللّه.

٢- ٢) .الجمعه ١-٨:كلام فى معنى تعليم الحكمه.

[سوره الجمعه (۶۲): الآيات ۹ الى ۱۱]

يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاٰةِ مِنْ يَوْمِ اَلْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلىٰ ذِكْرِ اَللّٰهِ وَ ذَرُوا اَلْبَيْعَ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۹) فَإِذَا قُضِيَتِ اَلصَّلاٰةُ فَانْتَشِرُوا فِي اَلْأَرْضِ وَ اِبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اَللّٰهِ وَ اُذْكُرُوا اَللّٰهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۰) وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً اِنْفَضُّوا إِلَيْهَا وَ تَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اَللّٰهِ خَيْرٌ مِنَ اَللَّهْوِ وَ مِنَ اَلتِّجَارَةِ وَ اَللّٰهُ خَيْرُ اَلرّٰازِقِينَ (۱۱)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاٰةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلىٰ ذِكْرِ اللّٰهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ الـخ؛المراد بالنـداء للصـلاه من يوم الجمعه الأذان كما فى قوله:

وَ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَ لَعِباً (المائده۵۸/).

و الجمعـه بضـمتين أو بـالضم فالسـكون أحـد أيـام الاسـبوع و كـان يسـمى أولاـ يـوم العروبه ثم غلب عليه اسم الجمعه،و المراد بالصلاة من يوم الجمعه صلاه الجمعه المشرّعه يومها، و السعى هو المشى بالإسراع،و المراد بذكر اللّه الصلاه كما فى قوله: وَ لَذِكْرُ اللّٰهِ أَكْبَرُ (العنكبوت۴۵/)،على ما قيل و قيل:المراد به الخطبه قبل الصلاه و قوله: «وَ ذَرُوا الْبَيْعَ» أمر بتركه،و المراد به على ما يفيـده السياق النهى عن الاشـتغال بكـل عمل يشـغل عن صـلاه الجمعه سواء كان بيعا أو غيره و إنما علق النهى بالبيع لكونه من أظهر مصاديق ما يشغل عن الصلاه.

و المعنی:یا أیها الذین آمنوا إذا أذن لصلاه الجمعه یومها فجدّوا فی المشی الی الصلاه و اترکوا البیع و کل ما یشغلکم عنها.

و قوله: ذٰلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ حثّ و تحریض لهم لما أمر به من الصلاه و ترک البیع.

قوله تعالی: فَإِذٰا قُضِیَتِ الصَّلاٰهُ فَانْتَشِرُوا فِی الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ الخ؛المراد بقضاء الصلاه إقامه صلاه الجمعه،و الانتشار فی الأرض التفرق فیها، و ابتغاء فضل اللّه طلب الرزق نظرا الی مقابلته ترک البیع فی الآیه السابقه لکن تقدم أن المراد ترک کل ما یشغل عن صلاه الجمعه،و علی هذا فابتغاء فضل اللّه طلب مطلق عطیته فی التفرق لطلب رزقه بالبیع و الشری،و طلب ثوابه بعیاده مریض و السعی فی حاجه مسلم و زیاره أخ فی اللّه،و حضور مجلس علم و نحو ذلک.

و قوله: فَانْتَشِرُوا فِی الْأَرْضِ أمر واقع بعد الحظر فیفید الجواز و الإباحه دون الوجوب و کذا قوله: «وَ ابْتَغُوا ، وَ اذْکُرُوا» .

و قوله: وَ اذْکُرُوا اللّٰهَ کَثِیراً لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ المراد بالذکر أعم من الذکر اللفظی فیشمل ذکره تعالی قلبا بالتوجه الیه باطنا،و الفلاح النجاه من کل شقاء،و هو فی المورد بالنظر الی ما تقدم من حدیث التزکیه و التعلیم و ما فی الآیه التالیه من التوبیخ و العتاب الشدید،الزکاه و العلم و ذلک أن کثره الذکر یفید رسوخ المعنی المذکور فی النفس و انتقاشه فی الذهن فتنقطع به منابت الغفله و یورث التقوی الدینی الذی هو مظنه الفلاح قال تعالی:

وَ اتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (آل عمران۲۰۰/).

قوله تعالی: وَ إِذٰا رَأَوْا تِجٰارَهً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَیْهٰا وَ تَرَکُوکَ قٰائِماً الخ؛ الانفضاض-علی ما ذکره الراغب-استعاره عن الانفضاض بمعنی انکسار الشیء و تفرق بعضه من بعض.

ص:۳۱۴

و قد اتفقت روايات الشيعه و أهل السنه على أنه ورد المدينه عير معها تجاره و ذلك يوم الجمعه و النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائم يخطب فضربوا بالطبل و الدف لإعلام الناس فانفض أهل المسجد اليهم و تركوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائما يخطب فنزلت الآيه.فالمراد باللهو استعمال المعازف و آلات الطرب ليجتمع الناس للتجاره،و ضمير «إِلَيْها» راجع الى التجاره لأنها كانت المقصوده فى نفسها و اللهو مقصود لأجلها،و قيل:الضمير لأحدهما كأنه قيل:انفضوا اليه و انفضوا إليها و ذلك أن كلا منهما سبب لانفضاض الناس اليه و تجمعهم عليه،و لذا ردد بينهما و قال: «تِجارَةً أَوْ لَهْواً» و لم يقل:تجاره و لهوا و الضمير يصلح للرجوع الى كل منهما لأن اللهو فى الأصل مصدر يجوز فيه الوجهان التذكير و التأنيث.

و لذا أيضا عد «ما عِنْدَ اللّهِ» خيرا من كل منهما بحياله فقال: «مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ» و لم يقل:من اللهو و التجاره.

و قوله: قُلْ ما عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ وَ اللّهُ خَيْرُ الرّازِقِينَ أمر للنبى أن ينبههم على خطئهم فيما فعلوا-و ما أفظعه-و المراد بما عند اللّه الثواب الذى يستعقبه سماع الخطبه و الموعظه.

و المعنى قل لهم:ما عند اللّه من الثواب خير من اللهو و من التجاره لأن ثوابه تعالى خير حقيقى دائم غير منقطع،و ما فى اللهو و التجاره من الخير أمر خيالى زائل باطل و ربا استتبع سخطه تعالى كما فى اللهو.

و خير الرازقين من أسمائه تعالى الحسنى كالرزّاق و قد تقدم الكلام فى معنى الرزق فيما تقدم (۱).

۱- ۱) .الجمعه ۹-۱۱:بحث روائى فى صلاه الجمعه.

سوره المنافقون مدنيه و هی إحدی عشره آيه

اشاره

[سوره المنافقون (۶۳): الآيات ۱ الی ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gtإِذٰا جٰاءَكَ اَلْمُنٰافِقُونَ قٰالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اَللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّ اَلْمُنٰافِقِينَ لَكٰاذِبُونَ (۱) اِتَّخَذُوا أَيْمٰانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ إِنَّهُمْ سٰاءَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۲) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ يَفْقَهُونَ (۳) وَ إِذٰا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسٰامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ اَلْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قٰاتَلَهُمُ اَللّٰهُ أَنّٰى يُؤْفَكُونَ (۴) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اَللّٰهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (۵) سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اَللّٰهُ لَهُمْ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلْفٰاسِقِينَ (۶) هُمُ اَلَّذِينَ يَقُولُونَ لاٰ تُنْفِقُوا عَلىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اَللّٰهِ حَتّٰى يَنْفَضُّوا وَ لِلّٰهِ خَزٰائِنُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لٰكِنَّ اَلْمُنٰافِقِينَ لاٰ يَفْقَهُونَ (۷) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنٰا إِلَى اَلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ اَلْأَعَزُّ مِنْهَا اَلْأَذَلَّ وَ لِلّٰهِ اَلْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لٰكِنَّ اَلْمُنٰافِقِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ (۸)

بيان:

تصف السوره المنافقين و تسمهم بشدّه العداوه و تأمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن يحذرهم و تعظ المؤمنين أن يتحرّزوا من خصائص النفاق فلا يقعوا فی مهلكته و لا يجرّهم الی النار،و السوره مدنيه.

قوله تعالی: إِذٰا جٰاءَكَ الْمُنٰافِقُونَ قٰالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنٰافِقِينَ لَكٰاذِبُونَ المنافق اسم فاعل من النفاق و هو فی عرف القرآن إظهار الإيمان و إبطان الكفر.

و الكذب خلاف الصدق و هو عدم مطابقه الخبر للخارج فهو وصف الخبر كالصدق و ربما اعتبرت مطابقه الخبر و لا مطابقته بالنسبه الی اعتقاد المخبر فيكون مطابقته لاعتقاد المخبر صدقا منه و عدم مطابقته له كذبا فيقال:فلان كاذب إذا لم يطابق خبره الخارج و فلان كاذب إذا أخبر بما يخالف اعتقاده و يسمی النوع الأول صدقا و كذبا خبريين،و الثانی

صدقا و کذبا مخبريين.

فقوله: إِذٰا جٰاءَکَ الْمُنٰافِقُونَ قٰالُوا نَشْهَدُ إِنَّکَ لَرَسُولُ اللّٰهِ حکايه لإظهارهم الإيمان بالشهاده على الرساله فإن فى الشهاده على الرساله إيمانا بما جاء به الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يتضمّن الإيمان بوحدانيته تعالى و بالمعاد،و هو الإيمان الكامل.

و قوله: وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ إِنَّکَ لَرَسُولُهُ تثبيت منه تعالى لرسالته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و إنما أورده مع أن وحى القرآن و مخاطبته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان كافيا فى تثبيت رسالته،ليكون قرينه مصرحه بأنهم كاذبون من حيث عدم اعتقادهم بما يقولون و إن كان قولهم فى نفسه صادقا فهم كاذبون فى قولهم كذبا مخبريا لا خبريا فقوله: «وَ اللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنٰافِقِينَ لَكٰاذِبُونَ» أريد به الكذب المخبرى لا الخبرى.

قوله تعالى: اِتَّخَذُوا أَيْمٰانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ الخ؛الأيمان جمع يمين بمعنى القسم،و الجنه الترس و المراد بها ما يتقى به من باب الاستعاره،و الصد يجىء بمعنى الإعراض و عليه فالمراد إعراضهم أنفسهم عن سبيل اللّه و هو الدين و بمعنى الصرف و عليه فالمراد صرفهم العامه من الناس عن الدين و هم فى وقايه من أيمانهم الكاذبه.

و المعنى:اتخذوا أيمانهم الكاذبه التى يحلفون وقايه لأنفسهم فأعرضوا عن سبيل اللّه و دينه -أو فصرفوا العامه من الناس عن دين اللّه بما يستطيعونه من الصرف بتقليب الامور و إفساد و العزائم.

و قوله: «إِنَّهُمْ سٰاءَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ» تقبيح لأعمالهم التى استمروا عليها منذ نافقوا الى حين نزول السوره.

قوله تعالى: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ يَفْقَهُونَ الظاهر أن الإشاره بذلك الى سوء ما عملوا كما قيل،و قيل:الإشاره الى جميع ما تقدم من كذبهم و استجنانهم بالأيمان الفاجره و صدهم عن سبيل اللّه و مساءه أعمالهم.

ص :۳۱۸

و المراد بأيمانهم-على ما قيل-إيمانهم بألسنتهم ظاهرا بشهاده أن لا إله إلاّ اللّه و أن محمدا رسوله ثم كفرهم بخلو باطنهم عن الإيمان كما قال تعالى فيهم: وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (البقره/١۴).

و لا يبعد أن يكون فيهم من آمن حقيقه ثم ارتدّ و كتم ارتداده فلحق بالمنافقين يتربّص بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بالمؤمنين الدوائر كما يظهر من بعض آيات سوره التوبه كقوله: فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللّهَ ما وَعَدُوهُ (التوبه/٧٧)،و قد عبّر تعالى عمن لم يدخل الإيمان فى قلبه منهم بمثل قوله: وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ (التوبه/٧۴).

فالظاهر أن المراد بقوله: «آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا» إظهارهم للشهادتين أعم من أن يكون عن ظهر القلب أو بظاهر من القول ثم كفرهم بإتيان أعمال تستصحب الكفر كالاستهزاء بالدين و ردّ بعض الأحكام.

و قوله: فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ تفريع عدم الفقه على طبع القلوب دليل على أن الطبع ختم على القلب يستتبع عدم قبوله لورود كلمه الحق فيه فهو آيس من الإيمان محروم من الحق.

و الطبع على القلب جعله بحيث لا يقبل الحق و لا يتبعه فلا محاله يتبع الهوى كما قال تعالى:

طَبَعَ اللّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (سوره محمّد/١۶)،فلا يفقه و لا يسمع و لا يعلم كما قال تعالى: وَ طُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (التوبه/٨٧)،و قال: وَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (الأعراف/١٠٠)،و قال: وَ طَبَعَ اللّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (التوبه/٩٣)،و الطبع على أى حال لا يكون منه تعالى إلاّ مجازاه لأنه إضلال و الذى ينسب اليه تعالى من الإضلال إنما هو الإضلال على سبيل المجازاه دون الإضلال الابتدائى و قد مرّ مرارا.

قوله تعالى: وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ

الخ؛الظاهر أن الخطاب فى «رَأَيْتَهُمْ» و «تَسْمَعْ» خطاب عام يشمل كل من رآهم و سمع كلامهم لكونهم فى أزياء حسنه و بلاغه من الكلام،و ليس خطابا خاصا بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و المراد أنهم على صباحه من المنظر و تناسب من الأعضاء إذا رآهم الرائى أعجبته أجسامهم، و فصاحه و بلاغه من القول إذا سمع السامع كلامهم مال الى الإصغاء الى قولهم لحلاوه ظاهره و حسن نظمه.

و قوله: كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ذم لهم بحسب باطنهم و الخشب بضمتين جمع خشبه،و التسنيد نصب الشىء معتمدا على شىء آخر كحائط و نحوه.

و الجمله مسوقه لذمّهم و هى متممه لسابقتها،و المراد أن لهم أجساما حسنه معجبه و قولا رائعا ذا حلاوه لكنهم كالخشب المسنده أشباح بلا أرواح لا خير فيها و لا فائده تعتريها لكونهم لا يفقهون.

و قوله: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ذمّ آخر لهم أى إنهم لإبطانهم الكفر و كتمانهم ذلك من المؤمنين يعيشون على خوف و وجل و وحشه يخافون ظهور أمرهم و اطّلاع الناس على باطنهم و يظنون أن كل صيحه سمعوها فهى كائنه عليهم و أنهم المقصودون بها.

و قوله: هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ أى هم كاملون فى العداوه بالغون فيها فإن أعدى أعدائك من يعاديك و أنت تحسبه صديقك.

و قوله: قاتَلَهُمُ اللّهُ أَنّى يُؤْفَكُونَ دعاء عليهم بالقتل و هو أشد شدائد الدنيا و كأن استعمال المقاتله دون القتل للدلاله على الشده.

و قوله: أَنّى يُؤْفَكُونَ مسوق للتعجب أى كيف يصرفون عن الحق؟و قيل:هو توبيخ و تقريع و ليس باستفهام.

قوله تعالى: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ الخ؛التلويه تفعيل من لوى يلوى ليّا بمعنى مال.

ص: ۳۲۰

و المعنى:و إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول اللّه-و ذلك عند ما ظهر منهم بعض خياناتهم و فسوقهم-أمالوا رءوسهم إعراضا و استكبارا و رآهم الرائى يعرضون عن القائل و هم مستكبرون عن إجابه قوله.

قوله تعالى: سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ الخ؛أى يتساوى الاستغفار و عدمه فى حقهم و تساوى الشىء و عدمه كنايه عن أنه لا يفيد الفائده المطلوبه منه،فالمعنى:لا يفيدهم استغفارك و لا ينفعهم.

و قوله: لَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ دفع دخل كأن سائلا يسأل:لما ذا يتساوى الاستغفار لهم و عدمه؟فاجيب:لن يغفر اللّه لهم.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ تعليل لقوله: «لَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ» ، و المعنى:لن يغفر اللّه لهم لأن مغفرته لهم هدايه لهم الى السعاده و الجنه و هم فاسقون خارجون عن زى العبوديه لإبطانهم الكفر و الطبع على قلوبهم و اللّه لا يهدى القوم الفاسقين.

قوله تعالى: هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاٰ تُنْفِقُوا عَلىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللّٰهِ حَتّٰى يَنْفَضُّوا الخ؛الانفضاض التفرّق،و المعنى:المنافقون هم الذين يقولون:لا تنفقوا أموالكم على المؤمنين الفقراء الذين لازموا رسول اللّه و اجتمعوا عنده لنصرته و إنفاذ أمره و إجراء مقاصده حتى يتفرقوا عنه فلا يتحكم علينا.

و قوله: وَ لِلّٰهِ خَزٰائِنُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ جواب عن قولهم:لا تنفقوا،الخ؛أى إن الدين دين اللّه و لا حاجه له الى إنفاقهم فله خزائن السماوات و الأرض ينفق منها و يرزق من يشاء كيف يشاء فلو شاء لأغنى الفقراء من المؤمنين لكنه تعالى يختار ما هو الأصلح فيمتحنهم بالفقر و يتعبدهم بالصبر ليوجرهم أجرا كريما و يهديهم صراطا مستقيما و المنافقون فى جهل من ذلك.

و هذا معنى قوله: «وَ لٰكِنَّ الْمُنٰافِقِينَ لاٰ يَفْقَهُونَ» أى لا يفقهون وجه الحكمه فى ذلك و احتمل

أن يكون المعنى أن المنافقين لا يفقهون أن خزائن العالم بيد اللّه و هو الرازق لا رازق غيره فلو شاء لأغناهم لكنهم يحسبون أن الغنى و الفقر بيد الأسباب فلو لم ينفقوا على اولئك الفقراء من المؤمنين لم يجدوا رازقا يرزقهم.

قوله تعالى: يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَ لِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ القائل هو عبد اللّه بن أبيّ بن سلول،و كذا قائل الجمله السابقه:لا تنفقوا،الخ؛و إنما عبر بصيغه الجمع تشريكا لأصحابه الراضين بقوله معه.

و مراده بالأعز نفسه و بالأذل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يريد بهذا القول تهديد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإخراجه من المدينه بعد المراجعه إليها و قد ردّ اللّه عليه و على من يشاركه فى نفاقه بقوله:

«وَ لِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ» فقصر العزه فى نفسه و رسوله و المؤمنين فلا يبقى لغيرهم إلاّ الذله و نفى عن المنافقين العلم فلم يبق لهم إلاّ الذله و الجهاله (۱)(۲).

[سوره المنافقون (۶۳): الآیات ۹ الی ۱۱]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُلْهِكُمْ أَمْوٰالُكُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللّٰهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخٰاسِرُونَ (۹) وَ أَنْفِقُوا مِنْ مٰا رَزَقْنٰاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لاٰ أَخَّرْتَنِي إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصّٰالِحِينَ (۱۰) وَ لَنْ يُؤَخِّرَ اللّٰهُ نَفْساً إِذٰا جٰاءَ أَجَلُهٰا وَ اللّٰهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (۱۱)

۱- ۱) .المنافقون ۱-۸:بحث روائى حول:المنافقين؛عبد اللّه بن أبيّ؛نزول سوره المنافقون.

۲- ۲) .المنافقون ۱-۸:كلام حول النفاق فى صدر الاسلام.

بیان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَ لاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الخ؛لإلهاء الإشغال،و المراد بإلهاء الأموال و الأولاد عن ذكر اللّه إشغالها القلب بالتعلق بها بحيث يوجب الإعراض عن التوجه الى اللّه بما أنها زينه الحياه الدنيا،قال تعالى: اَلْمَالُ وَ الْبَنُونَ زِينَهُ الْحَيَاهِ الدُّنْيَا (الكهف/۴۶)،و الاشتغال بها يوجب خلوّ القلب عن ذكر اللّه و نسيانه تعالى فلا يبقى له إلاّ القول من غير عمل و تصديق قلبى و نسيان العبد لربه يستعقب نسيانه تعالى له،قال تعالى: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ (التوبه/۶۷)،و هو الخسران المبين،قال تعالى فى صفه المنافقين: أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ (البقره/۱۶).

و اليه الإشاره بما فى ذيل الآيه من قوله: «وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» .

و الأصل هو نهى المؤمنين عن التلهّى بالأموال و الأولاد و تبديله من نهى الأموال و الأولاد عن إلهائهم للتلويح الى أن من طبعها الإلهاء فلا ينبغى لهم أن يتعلقوا بها فتلهيهم عن ذكر اللّه سبحانه فهو نهى كنائى آكد من التصريح.

قوله تعالى: وَ أَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ الخ؛ أمر بالإنفاق فى البر أعم من الإنفاق الواجب كالزكاه و الكفارات أو المندوب،و تقييده بقوله:

«مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ» للإشعار بأن أمره هذا ليس سؤالا لما يملكونه دونه،و إنما هو شىء هو معطيه لهم و رزق هو رازقه و ملك هو ملّكهم إياه من غير أن يخرج عن ملكه يأمرهم بإنفاق شىء منه فيما يريد فله المنّه عليهم فى كل حال.

و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ أى فينقطع أمد استطاعته من

التصرف فی ماله بالإنفاق فی سبیل اللّه.

و قوله: فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لاٰ أَخَّرْتَنِي إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ عطف علی قوله: «أَنْ يَأْتِيَ» الخ؛و تقیید الأجل بالقریب للاشعار بأنه قانع بقلیل من التمدید-و هو مقدار ما یسع الإنفاق من العمر-لیسهل إجابته،و لأن الأجل أیّا ما کان فهو قریب،و من کلامه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:کل ما هو آت قریب.

و قوله: فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصّٰالِحِينَ نصب «فَأَصَّدَّقَ» لکونه فی جوانب التمنی،و جزم «أَكُنْ» لکونه فی معنی جزاء الشرط،و التقدیر إن أتصدق أکن من الصالحین.

قوله تعالی: وَ لَنْ يُؤَخِّرَ اللّٰهُ نَفْساً إِذٰا جٰاءَ أَجَلُهٰا إیئاس لهم من استجابه دعاء من یسأل تأخیر الأجل بعد حلوله و الموت بعد نزوله و ظهور آیات الآخره،و قد تکرر فی کلامه تعالی أن الأجل المسمّی من مصادیق القضاء المحتوم کقوله: إِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَلاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ (یونس۴۹/).

و قوله: وَ اللّٰهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ حال من ضمیر «أَحَدَكُمُ» أو عطف علی أول الکلام و یفید فائده التعلیل،و المعنی:لا تتلهّوا و أنفقوا فإن اللّه علیم بأعمالکم یجازیکم بها.

ص :۳۲۴

سوره التغابن مدنيه و هى ثمانى عشره آيه

اشاره

[سوره التغابن (۶۴): الآيات ۱ الى ۱۰]

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مٰا فِى اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى اَلْأَرْضِ لَهُ اَلْمُلْكُ وَ لَهُ اَلْحَمْدُ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۱) هُوَ اَلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كٰافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲) خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ إِلَيْهِ اَلْمَصِيرُ (۳) يَعْلَمُ مٰا فِى اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۴) أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذٰاقُوا وَبٰالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۵) ذٰلِكَ بِأَنَّهُ كٰانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَقٰالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنٰا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اِسْتَغْنَى اَللّٰهُ وَ اَللّٰهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۶) زَعَمَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلىٰ وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمٰا عَمِلْتُمْ وَ ذٰلِكَ عَلَى اَللّٰهِ يَسِيرٌ (۷) فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ اَلنُّورِ اَلَّذِى أَنْزَلْنٰا وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۸) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ اَلْجَمْعِ ذٰلِكَ يَوْمُ اَلتَّغٰابُنِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ يَعْمَلْ صٰالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئٰاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً ذٰلِكَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (۹) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ بِئْسَ اَلْمَصِيرُ (۱۰)

ص: ۳۲۵

مانع و لا خوف من لومه لائم.

و السوره مدنیه بشهاده سیاق آیاتها.

قوله تعالی: یُسَبِّحُ لِلّٰهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْکُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ تقدم الکلام فی معنی التسبیح و الملک و الحمد و القدره،و أن المراد بما فی السماوات و الأرض یشمل نفس السماوات و الأرض و من فیها و ما فیها.

و قوله: «لَهُ الْمُلْکُ» مطلق یفید إطلاق الملک و عدم محدودیته بحد و لا تقیده بقید أو شرط فلا حکم نافذا إلاّ حکمه،و لا حکم له إلاّ نافذا علی ما أراد.

و کذا قوله: «وَ لَهُ الْحَمْدُ» مطلق یفید رجوع کل حمد من کل حامد-و الحمد هو الثناء علی الجمیل الاختیاری-الیه تعالی لأن الخلق و الأمر الیه فلا ذات و لا صفه و لا فعل جمیلا محمودا إلاّ منه و الیه.

و کذا قوله: «وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» بما یدل علیه من عموم متعلق القدره غیر محدوده و لا مقیده بقید أو شرط.

و إذ کانت الآیات-کما تقدمت الإشاره الیه-مسوقه لإثبات المعاد کانت الآیه کالمقدمه الاولی لإثباته،و تفید أن اللّه منزّه عن کل نقص و شین فی ذاته و صفاته و أفعاله یملک الحکم علی کل شیء و التصرف فیه کیفما شاء و أراد،-و لا یتصرف إلاّ جمیلا-و قدرته تسع کل شیء فله أن یتصرف فی خلقه بالإعاده کما تصرف فیهم بالإیذاء-الإحداث و الإبقاء-فله أن یبعثهم إن تعلقت به إرادته و لا تتعلق إلاّ بحکمه.

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ فَمِنْکُمْ کٰافِرٌ وَ مِنْکُمْ مُؤْمِنٌ وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ الفاء فی «فَمِنْکُمْ» تدل علی مجرد ترتب الکفر و الایمان علی الخلق فلا دلاله فی التفریع علی کون الکفر و الایمان مخلوقین للّه تعالی أو غیر مخلوقین،و إنما المراد انشعابهم

فرقتين:بعضهم كافر و بعضهم مؤمن،و قدم ذكر الكافر لكثره الكفار و غلبتهم.

و«من»فى قوله: «فَمِنْكُمْ وَ مِنْكُمْ» للتبعيض أى فبعضكم كافر و بعضكم مؤمن.

و قد نبه بقوله: «وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» على أن انقسامهم قسمين و تفرقهم فرقتين حق كما ذكر،و هم متميزون عنده لأن الملاك فى ذلك أعمالهم ظاهرها و باطنها و اللّه بما يعملون بصير لا تخفى عليه و لا تشتبه.

و تتضمن الآيه مقدمه اخرى لاثبات المعاد و تنجزه و هى أن الناس مخلوقون له تعالى متميزون عنده بالكفر و الايمان و صالح العمل و طالحه.

قوله تعالى: خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ المراد بالحق خلاف الباطل و هو خلقها من غير غايه ثابته و غرض ثابت كما قال: لَوْ أَرَدْنٰا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْنٰاهُ مِنْ لَدُنّٰا (الأنبياء۱۷/)،و قال: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ مٰا خَلَقْنٰاهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (الدخان۳۹/).

و قوله: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ المراد بالتصوير إعطاء الصوره و صوره الشىء قوامه و نحو وجوده كما قال: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (التين۴/)، و حسن الصوره تناسب تجهيزاتها بعضها لبعض و المجموع لغايه وجودها،و ليس هو الحسن بمعنى صباحه المنظر و ملاحته بل الحسن العام السارى فى الأشياء كما قال تعالى: اَلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (الم السجده۷/).

قوله تعالى: يَعْلَمُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ دفع شبهه لمنكرى المعاد مبنيه على الاستبعاد و هى أنه كيف يمكن إعاده الموجودات و هى فانيه بائده و حوادث العالم لا تحصى و الأعمال و الصفات لا تعدّ،منها ظاهره علنيه و منها باطنه سريه و منها مشهوده و منها مغيبه،فاجيب

بأن اللّه يعلم ما فى السماوات و الأرض و يعلم ما تسرون و ما تعلنون.

و قوله: «وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ» قيل:إنه اعتراض تذييلى مقرر لشمول علمه تعالى بما يسرّون و ما يعلنون و المعنى:أنه تعالى محيط علما بالمضرات المستكنه فى صدور الناس مما لا يفارقها أصلا فكيف يخفى عليه شيء مما تسرونه و ما تعلنونه.

و فى قوله: وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ الخ؛وضع الظاهر موضع الضمير و الأصل «وَ هُوَ عَلِيمٌ» الخ؛ و النكته فيه الإشاره الى عله الحكم،و ليكون ضابطا يجرى مجرى المثل.

قوله تعالى: أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذٰاقُوا وَبٰالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ وبال الأمر تبعته السيئه و المراد بأمرهم كفرهم و ما تفرع عليه من فسوقهم.

لما كان مقتضى أسمائه الحسنى و صفاته العليا المعدوده فى الآيات السابقه وجوب معاد الناس و مصيرهم الى ربهم للحساب و الجزاء فمن الواجب إعلامهم بما يجب عليهم أن يأتوا به أو يجتنبوا عنه و هو الشرع،و الطريق الى ذلك الرساله فمن الواجب إرسال رسول على أساس الإنذار و التبشير بعقاب الآخره و ثوابها و سخطه تعالى و رضاه.

فقوله: أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ الخطاب للمشركين و فيه إشاره الى قصص الامم السالفه الهالكه كقوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم،ممن أهلكهم اللّه بذنوبهم، و قوله: «فَذٰاقُوا وَبٰالَ أَمْرِهِمْ» إشاره الى ما نزل عليهم من عذاب الاستئصال و قوله: «وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ» إشاره الى عذابهم الاخروى.

قوله تعالى: ذٰلِكَ بِأَنَّهُ كٰانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَقٰالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنٰا الخ؛بيان لسبب ما ذكر من تعذيبهم بعذاب الاستئصال و عذاب الآخره،و لذلك جيء بالفصل دون العطف كأنه جواب لسؤال مقدر كأن سائلا يسأل فيقول:لم أصابهم ما أصابهم من العذاب؟فقيل «ذٰلِكَ بِأَنَّهُ كٰانَتْ» الخ؛و الإشاره بذلك الى ما ذكر من العذاب.

و فى التعبير عن إتيان الرسل و دعوتهم بقوله: «كٰانَتْ تَأْتِيهِمْ» الدال على الاستمرار،و عن

كفرهم و قولهم بقوله: «فَقالُوا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا» الدال بالمقابله على المره دلاله على أنهم قالوا ما قالوا كلمه واحده قاطعه لا معدل عنها و ثبتوا عليها و هو العناد و اللجاج فتكون الآيه فى معنى قوله تعالى: تِلْكَ الْقُرىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِ الْكافِرِينَ (الأعراف١٠١/)،و قوله:

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ (أى بعد نوح) رُسُلاً إِلىٰ قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذٰلِكَ نَطْبَعُ عَلىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (يونس٧٤/).

و قوله: فَقالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا يطلق البشر على الواحد و الجمع و المراد به الثانى بدليل قوله: «يَهْدُونَنا» و التنكير للتحقير،و الاستفهام للانكار أى قالوا على سبيل الإنكار:

أ آحاد من الشر لا فضل لهم علينا يهدوننا؟

و هذا القول منهم مبنى على الاستكبار،على أن أكثر هؤلاء الامم الهالكه كانوا وثنيين و هم منكرون للنبوه و هو أساس تكذيبهم لدعوه الأنبياء،و لذلك فرّع تعالى على قولهم: «أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا» قوله: «فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا» أى بنوا عليه كفرهم و إعراضهم.

و قوله: وَ اسْتَغْنَى اللّٰهُ الاستغناء طلب الغنى و هو من اللّه سبحانه-و هو غنى بالذات-إظهار الغنى و ذلك أنهم كانوا يرون أن لهم من العلم و القوه و الاستطاعه ما يدفع عن جمعهم الفناء و يضمن لهم البقاء كأنه لا غنى للوجود عنهم كما حكى اللّه سبحانه عن قائلهم قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَداً (الكهف٣٥/)،و قال: وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنّا مِنْ بَعْدِ ضَرّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذا لِي وَ ما أَظُنُّ السّاعَةَ قائِمَةً (حم السجده٥٠/).

و قوله: وَ اللّٰهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ فى محل التعليل لمضمون الآيه،و المعنى:و اللّه غنى فى ذاته محمود فيما فعل،فما فعل بهم من إذاقتهم وبال أمرهم و تعذيبهم بعذاب أليم على كفرهم و توليهم من غناه و عدله لأنه مقتضى عملهم المردود اليهم.

قوله تعالى: زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلىٰ وَ رَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ

لَتُنَبَّؤُنَّ بِمٰا عَمِلْتُمْ وَ ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ یَسِیرٌ ذکر رکن آخر من أرکان کفر الوثنیین و هو إنکارهم الـدین السـماوی بإنکار المعاد إذ لا یبقی مع انتفاء المعاد أثر للـدین المبنی علی الأمر و النهی و الحساب و الجزاء و یصـلح تعلیلا لإنکار الرساله إذ لا معنی حینئذ للتبلیغ و الوعید.

و المراد بالذین کفروا عامه الوثنیین و منهم من عاصـر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم منهم کأهل مکه و ما والاها،و قیل:المراد أهل مکه خاصه.

و قوله: قُلْ بَلیٰ وَ رَبِّی لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمٰا عَمِلْتُمْ أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یجیب عن زعمهم أن لن یبعثوا،بإثبات ما نفوه بما فی الکلام من أصناف التأکید بالقسم و اللام و النون.

و «ثُمَّ» فی «ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ» للتراخی بحسب رتبه الکلام،و فی الجمله إشـاره الی غـایه البعث و هو الحسـاب و قوله: «وَ ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ یَسِیرٌ» أی ما ذکر من البعث و الإنباء بالأعمال یسیر علیه تعالی غیر عسیر،و فیه رد لإحالتهم أمر البعث علی اللّه سبحانه استبعادا،و قد عبر عنه فی موضع آخر من کلامه بمثل قوله: وَ هُوَ الَّذِی یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ (الروم/۲۷).

و الدلیل علیه ما عده فی صدر الآیات من أسـمائه تعالی و صفاته من الخلق و الملک و العلم و أنه مسبح محمود،و یجمع الجمیع أنه اللّه المستجمع لجمیع صفات الکمال.

و یظهر من هنـا أن التصـریح بـاسم الجلالـه فی الجمله أعنی قوله: «وَ ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ یَسِیرٌ» للإیماء الی التعلیل،و المفاد أن ذلک یسیر علیه تعالی لأنه اللّه،و الکلام حجه برهانیه لا دعوی مجرده.

و ذکروا أن الآیه ثالثه الآیات التی أمر اللّه نبیه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أن یقسم بربه علی وقوع المعاد و هی ثلاث:إحـداها قوله: وَ یَسْتَنْبِئُونَکَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِی وَ رَبِّی (یونس/۵۳)،و الثـانیه قوله: وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لاٰ تَأْتِینَا السّٰاعَهُ قُلْ بَلیٰ وَ رَبِّی لَتَأْتِیَنَّکُمْ (سبأ/۳)،و الثالثه

الآیه التی نحن فیها.

قوله تعالی: فَآمِنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِی أَنْزَلْنا وَ اللّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ تفریع علی مضمون الآیه السابقه أی إذا کنتم مبعوثین لا محاله منبئین بما علمتم وجب علیکم أن تؤمنوا باللّه و رسوله و النور الذی أنزله علی رسوله و هو القرآن الذی یهدی بنوره الساطع الی مستقیم الصراط،و یبین شرائع الدین.

و فی قوله: وَ النُّورِ الَّذِی أَنْزَلْنا التفات من الغیبه الی التکلم مع الغیر و لعل النکته فیه تتمیم الحجه بالسلوک من طریق الشهاده و هی أقطع للعذر فکم فرق بین قولنا:و النور الذی أنزل و هو إخبار،و قوله: «وَ النُّورِ الَّذِی أَنْزَلْنا» ففیه شهاده منه تعالی علی أن القرآن کتاب سماوی نازل من عنده تعالی،و الشهاده آکد من الإخبار المجرد.

لا یقال:ما ذا ینفع ذلک و هم ینکرون کون القرآن کلامه تعالی النازل من عنده و لو صدقوا ذلک کفاهم ما مر من الحجه علی المعاد و أغنی عن التمسک بذیل الالتفات المذکور.

لأنه یقال:کفی فی إبطال إنکارهم کونه کلام اللّه ما فی القرآن من آیات التحدی المثبته لکونه کلام اللّه،و الشهاده علی أی حال آکد و أقوی من الإخبار و إن کان مدللا.

و قوله: «وَ اللّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ» تذکره بعلمه تعالی بدقائق أعمالهم لیتأکد به الأمر فی قوله: «فَآمِنُوا» و المعنی:آمنوا وجدوا فی إیمانکم فإنه علیم بدقائق أعمالکم لا یغفل عن شیء منها و هو مجازیکم بها لا محاله.

قوله تعالی: یَوْمَ یَجْمَعُکُمْ لِیَوْمِ الْجَمْعِ ذٰلِکَ یَوْمُ التَّغابُنِ الخ؛ «یَوْمَ» ظرف لقوله السابق: «لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ» الخ؛و المراد بیوم الجمع یوم القیامه الذی یجمع فیه الناس لفصل القضاء بینهم قال تعالی: وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (الکهف/۹۹)،و قد تکرر فی القرآن الکریم حدیث الجمع لیوم القیامه،و یفسره أمثال قوله تعالی: إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَهِ فِیما کانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (الجاثیه/۱۷)،و قوله: فَاللّهُ یَحْکُمُ بَیْنَهُمْ

یَوْمَ الْقِیامَهِ فِیما کانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (البقره/۱۱۳)،و قوله: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ یَفْصِلُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَهِ فِیما کانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (السجده/۲۵)،فالآیات تشیر الی أن جمعهم للقضاء بینهم.

و قوله: ذلِکَ یَوْمُ التَّغابُنِ قال الراغب:الغبن أن تبخس صاحبک فی معامله بینک و بینه بضرب من الإخفاء.قال:و یوم التغابن یوم القیامه لظهور الغبن فی المعامله المشار إلیها بقوله: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یَشْرِی نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللّهِ و بقوله: إِنَّ اللّهَ اشْتَری مِنَ الْمُؤْمِنِینَ الآیه؛و بقوله: اَلَّذِینَ یَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَ أَیْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِیلاً فعلموا أنهم غبنوا فیما ترکوا من المبایعه و فیما تعاطوه من ذلک جمیعا.

و سئل بعضهم عن یوم التغابن فقال:تبدو الأشیاء لهم بخلاف مقادیرهم فی الدنیا.انتهی موضع الحاجه.

و ما ذکره أولا مبنی علی تفسیر التغابن بسریان المغبونیه بین الکفار بأخذهم لمعامله خاسره و ترکهم معامله رابحه،و هو معنی حسن غیر أنه لا یلائم معنی باب التفاعل الظاهر فی فعل البعض فی البعض.

و ما نقله عن بعضهم وجه ثان لا یخلو من دقه،و یؤیده مثل قوله تعالی: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِیَ لَهُمْ مِنْ قُرَّهِ أَعْیُنٍ (الم السجده/۱۷)،و قوله: لَهُمْ ما یَشاؤُنَ فِیها وَ لَدَیْنا مَزِیدٌ (ق/۳۵)،و قوله: وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللّهِ ما لَمْ یَکُونُوا یَحْتَسِبُونَ (الزمر/۴۷).

و مقتضی هذا الوجه عموم التغابن لجمیع أهل الجمع من مؤمن و کافر أما المؤمن فلما أنه لم یعمل لآخرته أکثر مما عمل،و أما الکافر فلأنه لم یعمل أصلا،و الوجه المشترک بینهما أنهما لم یقدّرا الیوم حق قدره.

و یرد علی هذا الوجه ما یرد علی سابقه.

و هناک وجه ثالث و هو أن یعتبر التغابن بین أهل الضلال متبوعیهم و تابعیهم فالمتبوعون و هم المستکبرون یغبنون تابعیهم و هم الضعفاء حیث یأمرونهم بأخذ الدنیا و ترک الآخره

فیضلون،و التابعون یغبنون المتبوعین حیث یعینونهم فی استکبارهم باتباعهم فیضلون،فکل من الفریقین غابن لغیره و مغبون من غیره.

و هناک وجه رابع وردت به الروایه و هو أن لکل عبد منزلا فی الجنه لو أطاع اللّه لدخله، و منزلا فی النار لو عصی اللّه لدخله یوم القیامه یعطی منازل أهل النار فی الجنه لأهل الجنه، و یعطی منازل أهل الجنه فی النار لأهل النار فیکون أهل الجنه و هم المؤمنون غابنین لأهل النار و هم الکفار و الکفار هم المغبونون.

و قال بعض المفسرین بعد إیراد هذا الوجه:و قد فسّر التغابن قوله ذیلا: «وَ مَنْ یُؤْمِنْ بِاللّٰهِ -الی قوله- وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ» انتهی.و لیس بظاهر ذاک الظهور.

و قوله: وَ مَنْ یُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ یَعْمَلْ صٰالِحاً -الی قوله- وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ تقدم تفسیره مرارا.

[سوره التغابن (۶۴): الآیات ۱۱ الی ۱۸]

مٰا أَصٰابَ مِنْ مُصِیبَهٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ مَنْ یُؤْمِنْ بِاللّٰهِ یَهْدِ قَلْبَهُ وَ اَللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۱۱) وَ أَطِیعُوا اَللّٰهَ وَ أَطِیعُوا اَلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَإِنَّمٰا عَلیٰ رَسُولِنَا اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِینُ (۱۲) اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَ عَلَی اَللّٰهِ فَلْیَتَوَکَّلِ اَلْمُؤْمِنُونَ (۱۳) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوٰاجِکُمْ وَ أَوْلاٰدِکُمْ عَدُوًّا لَکُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۴) إِنَّمٰا أَمْوٰالُکُمْ وَ أَوْلاٰدُکُمْ فِتْنَهٌ وَ اَللّٰهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِیمٌ (۱۵) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَ اسْمَعُوا وَ أَطِیعُوا وَ أَنْفِقُوا خَیْراً لِأَنْفُسِکُمْ وَ مَنْ یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۱۶) إِنْ تُقْرِضُوا اَللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً یُضٰاعِفْهُ لَکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ وَ اَللّٰهُ شَکُورٌ حَلِیمٌ (۱۷) عٰالِمُ اَلْغَیْبِ وَ اَلشَّهٰادَهِ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۱۸)

بیان:

قوله تعالى: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ المصيبه صفه شاع استعمالها فى الحوادث السوء التى تصحب الضر،و الإذن الإعلام بالرخصه و عدم المانع و يلازم علم الآذان بما أذن فيه،و ليس هو العلم كما قيل.

فظهر بما تقدم أولا ـ أنه إذنه تعالى فى عمل سبب من الأسباب هو التخليه بينه و بين مسببه برفع الموانع التى تتخلل بينه و بين مسببه فلا تدعه يفعل فيه ما يقتضيه بسببيته كالنار تقتضى إحراق القطن مثلا لو لا الفصل بينهما و الرطوبه فرفع الفصل بينهما و الرطوبه من القطن مع العلم بذلك إذن فى عمل النار فى القطن بما تقتضيه ذاتها أعنى الإحراق.

و قد كان استعمال الإذن فى العرف العام مختصا بما إذا كان المأذون له من العقلاء لمكان أخذ معنى الإعلام فى مفهومه فيقال:أذنت لفلان أن يفعل كذا و لا يقال:أذنت للنار أن تحرق،و لا أذنت للفرس أن يعدو،لكن القرآن الكريم يستعمله فيما يعم العقلاء و غيرهم بالتحليل كقوله:

وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ (النساء/۶۴)،و قوله: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ (الأعراف/۵۸)،و لا يبعد أن يكون هذا التعميم مبنيا على ما يفيده القرآن

من سریان العلم و الإدراک فی الموجودات کما قدمناه فی تفسیر قوله: قٰالُوا أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ (حم السجده۲۱/).

و کیف کان فلا یتم عمل من عامل و لا تأثیر من مؤثر إلاّ بإذن من اللّه سبحانه فما کان من الأسباب غیر تام له موانع لو تحققت منعت من تأثیره فإذنه تعالی له فی أن یؤثر رفعه الموانع، و ما کان منها تاما لا مانع له یمنعه فإذنه له عدم جعله له شیئا من الموانع فتأثیره یصاحب الإذن من غیر انفکاک.

و ثانیا:أن المصائب و هی الحوادث التی تصیب الانسان فتؤثر فیه آثارا سیئه مکروهه إنما تقع بإذن من اللّه سبحانه کما أن الحسنات کذلک لاستیعاب إذنه تعالی صدور کل أثر من کل مؤثر.

و ثالثا:أن هذا الإذن تکوینی غیر الاذن التشریعی الذی هو رفع الحظر عن الفعل فإصابه المصیبه تصاحب إذنا من اللّه فی وقوعها و إن کانت من الظلم الممنوع فإن کون الظلم ممنوعا غیر مأذون فیه إنما هو من جهه التشریع دون التکوین.

و لذا کانت بعض المصائب غیر جائزه الصبر علیها و لا مأذونا فی تحملها و یجب علی الإنسان أن یقاومها ما استطاع کالمظالم المتعلقه بالأعراض و النفوس.

و من هنا یظهر أن المصائب التی ندب الی الصبر عندها هی التی لم یؤمر المصاب عندها بالذب و الامتناع عن تحملها کالمصائب العامه الکونیه من موت و مرض مما لا شأن لاختیار الإنسان فیها،و أما ما للاختیار فیها دخل کالمظالم المتعلقه نوع تعلق بالاختیار من المظالم المتوجه الی الأعراض فللإنسان أن یتوقاها ما استطاع.

و قوله: وَ مَنْ یُؤْمِنْ بِاللّٰهِ یَهْدِ قَلْبَهُ کان ظاهر سیاق قوله: «مٰا أَصٰابَ مِنْ مُصِیبَهٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ» یفید أن للّه سبحانه فی الحوادث التی تسوء الإنسان علما و مشیّه فلیست تصیبه مصیبه إلاّ بعد علمه تعالی و مشیته فلیس لسبب من الأسباب الکونیه أن یستقل بنفسه

فیما یؤثره فإنما هو نظام الخلقه لا رب یملکه إلّا خالقه فلا تحدث حادثه و لا تقع واقعه إلّا بعلم منه و مشیه فلم یکن لیخطئه ما أصابه و لم یکن لیصیبه ما أخطأه.

و هذه هی الحقیقه التی بیّنها بلسان آخر فی قوله: مٰا أَصٰابَ مِنْ مُصِیبَهٍ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ فِی أَنْفُسِکُمْ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهٰا إِنَّ ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ یَسِیرٌ (الحدید۲۲/).

فاللّه سبحانه رب العالمین و لازم ربوبیته العامه أنه وحده یملک کل شیء لا مالک بالحقیقه سواه،و النظام الجاری فی الوجود مجموع من أنحاء تصرفاته فی خلقه فلا یتحرک متحرک و لا یسکن ساکن إلّا عن إذن منه،و لا یفعل فاعل و لا یقبل قابل إلّا عن علم سابق منه و مشیه لا یخطئ علمه و مشیته و لا یرد قضاؤه.

فالاذعان بکونه تعالی هو اللّه یستعقب اهتداء النفس الی هذه الحقائق و اطمئنان القلب و سکونه و عدم اضطرابه و قلقه من جهه تعلقه بالأسباب الظاهریه و إسناده المصائب و النوائب المرّه إلیها دون اللّه سبحانه.

و هذا معنی قوله تعالی: «وَ مَنْ یُؤْمِنْ بِاللّٰهِ یَهْدِ قَلْبَهُ» .

و قوله: وَ اللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ تأکید للاستثناء المتقدم،و یمکن أن یکون إشاره الی ما یفیده قوله: مٰا أَصٰابَ مِنْ مُصِیبَهٍ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ فِی أَنْفُسِکُمْ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهٰا (الحدید۲۲/).

قوله تعالی: وَ أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَإِنَّمٰا عَلیٰ رَسُولِنَا الْبَلاٰغُ الْمُبِینُ ظاهر تکرار «أَطِیعُوا» دون أن یقال:أطیعوا اللّه و الرسول اختلاف المراد بالإطاعه،فالمراد بإطاعه اللّه تعالی الانقیاد له فیما شرّعه لهم من شرائع الدین و المراد بإطاعه الرسول الانقیاد له و امتثال ما یأمر به بحسب ولایته للامه علی ما جعلها اللّه له.

و قوله: فَإِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَإِنَّمٰا عَلیٰ رَسُولِنَا الْبَلاٰغُ الْمُبِینُ التولی الإعراض، و البلاغ التبلیغ،و المعنی:فإن أعرضتم عن إطاعه اللّه فیما شرّع من الدین أو عن إطاعه

الرسول فيما أمركم به بما أنه وليّ أمركم،فلم يكرهكم رسولنا عن الطاعه فإنه لم يؤمر بذلك، و إنما أمر بالتبليغ و قد بلّغ.

قوله تعالى: اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَ عَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ فى مقام التعليل لوجوب إطاعه اللّه على ما تقدم أن طاعه الرسول من طاعه اللّه،توضيح ذلك أن الطاعه بمعنى الانقياد،و الائتمار للأمر و الانتهاء للأمر و الانتهاء عن النهى من شئون العبوديه حيث لا أثر لملك المولى رقبه عبده إلاّ مالكيته لإرادته و عمله فلا يريد إلاّ ما يريد المولى أن يريده و لا يعمل إلاّ ما يريد المولى أن يعمله فالطاعه نحو من العبوديه كما يشير اليه قوله: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ (يس۶۰/)،يعاتبهم بعباده الشيطان و إنما أطاعوه.

فطاعه المطيع بالنسبه الى المطاع عباده له،و إذ لا معبود إلاّ اللّه فلا طاعه إلاّ للّه عز اسمه أو من أمر بطاعته فالمعنى:أطيعوا اللّه سبحانه إذ لا طاعه إلاّ لمعبود و لا معبود بالحق إلاّ اللّه فيجب عليكم أن تعبدوه و لا تشركوا به بطاعه غيره و عبادته كالشيطان و هوى النفس و هذا معنى كون الجمله فى مقام التعليل.

و قوله: وَ عَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ تأكيد لمعنى الجمله السابقه أعنى قوله:

«اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» .

توضيحه:أن التوكيل إقامه الإنسان غيره مقام نفسه فى إداره أموره و لازم ذلك قيام إرادته مقام إراده موكله و فعله مقام فعله فينطبق بوجه على الإطاعه فإن المطيع يجعل إرادته و عمله تبعا لإراده المطاع فتقوم إراده المطاع مقام إرادته و يعود عمله متعلقا لإراده المطاع صادرا منها اعتبارا فترجع الإطاعه توكيلا بوجه كما أن التوكيل إطاعه بوجه.

فإطاعه العبد لربه اتباع إرادته لإراده ربه و الإتيان بالفعل على هذا النمط و بعباره اخرى إيثار إرادته و ما يتعلق بها من العمل على إراده نفسه و ما يتعلق بها من العمل.

ص :۳۳۸

فطاعته تعالى فيما شرّع لعباده و ما يتعلق بها نوع تعلق من التوكل عليه،و طاعته واجبه لمن عرفه و آمن به فعلى اللّه فليتوكل المؤمنون و إياه فليطيعوا،و أما من لم يعرفه و لم يؤمن به فلا تتحقق منه طاعه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَ أَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ الخ؛ «الْمُؤْمِنُونَ» فى «مِنْ» للتبعيض،و سياق الخطاب بلفظ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» و تعليق العداوه بهم يفيد التعليل أى أنهم يعادونهم بما أنهم مؤمنون،و العداوه من جهه الإيمان لا تتحقق إلاّ باهتمامهم أن يصرفوهم عن أصل الإيمان أو عن الأعمال الصالحه كالإنفاق فى سبيل اللّه و الهجره من دار الكفر أو أن يحملوهم على الكفر أو المعاصى الموبقه كالبخل عن الإنفاق فى سبيل اللّه شفقه على الأولاد و الأزواج و الغصب و اكتساب المال من غير طريق حله.

فاللّه سبحانه يعد بعض الأولاد و الأزواج عدوا للمؤمنين فى إيمانهم حيث يحملونهم على ترك الايمان باللّه أو ترك بعض الأعمال الصالحه أو اقتراف بعض الكبائر الموبقه و ربما أطاعوهم فى بعض ذلك شفقه عليهم و حبا لهم فأمرهم اللّه بالحذر منهم.

و قوله: وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ قال الراغب:

العفو القصد لتناول الشيء يقال:عفاه و اعتفاه أى قصده متناولا ما عنده-الى أن قال- و عفوت عنه قصدت إزاله ذنبه صارفا عنه،و قال:الصفح ترك التثريب و هو أبلغ من العفو، و لذلك قال تعالى: «فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ» و قد يعفو الانسان و لا يصفح، و قال:الغفر إلباس ما يصونه عن الدنس،و منه قيل:اغفر ثوبك فى الوعاء و اصبغ ثوبك فإنه أغفر للوسخ،و الغفران و المغفره من اللّه هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب قال: غُفْرٰانَكَ رَبَّنٰا و مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّٰهُ انتهى.

ففى قوله: «فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا و اغفروا»ندب الى كمال الاغماض عن الأولاد و الأزواج.

ص :۳۳۹

إذا ظهر منهم شیء من آثار المعاداه المذكوره-مع الحذر من أن يفتتن بهم-.

و فی قوله: «فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» إن كان المراد خصوص مغفرته و رحمته للمخاطبين أن يعفوا و يصفحوا و يغفروا كان وعدا جميلا لهم تجاه عملهم الصالح كما فی قوله تعالی: وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لاٰ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَكُمْ (النور۲۲/).

و إن أريد مغفرته و رحمته العامتان من غير تقييد بمورد الخطاب أفاد أن المغفره و الرحمه من صفات اللّه سبحانه فإن عفوا و صفحوا و غفروا فقد اتصفوا بصفات اللّه و تخلّقوا بأخلاقه.

قوله تعالی: إِنَّمٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ أَوْلاٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اللّٰهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ الفتنه ما يبتلی و يمتحن به،و كون الأموال و البنين فتنه إنما هو لكونهما زينه الحياه تنجذب اليهما النفس انجذابا فتفتتن و تلهو بهما عما يهمها من أمر آخرته و طاعه ربه،قال تعالی: اَلْمٰالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا (الكهف۴۶/).

و الجمله كنايه عن النهی عن التلهی بهما و التفريط فی جنب اللّه باللیّ اليهما و يؤكده قوله:

«وَ اللّٰهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» .

قوله تعالی: فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ الخ؛أی مبلغ استطاعتكم-علی ما يفيده السياق فإن السياق سياق الدعوه و الندب الی السمع و الطاعه و الإنفاق و المجاهده فی اللّه- و الجمله تفريع علی قوله: «إِنَّمٰا أَمْوٰالُكُمْ» الخ؛فالمعنی:اتقوه مبلغ استطاعتكم و لا تدعوا من الاتقاء شيئا تسعه طاقتكم و جهدكم فتجری الآيه مجری قوله: اِتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ (آل عمران۱۰۲/)،و ليست الآيه ناظره الی النفی التكليف بالاتقاء فيما وراء الاستطاعه و فوق الطاقه كما فی قوله: وَ لاٰ تُحَمِّلْنٰا مٰا لاٰ طٰاقَةَ لَنٰا بِهِ (البقره۲۸۶/).

و قوله: وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ توضيح و تأكيد لقوله:

«فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» و السمع الاستجابه و القبول و هو فی مقام الالتزام القلبی،و الطاعه الانقياد و هو فی مقام العمل،و الإنفاق المراد به بذل المال فی سبيل اللّه.

و خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ منصوب بمحذوف-على ما فى الكشاف-و التقدير آمنوا خيرا لأنفسكم،و يحتمل أن يكون «أَنْفِقُوا» مضمنا معنى قدّموا أو ما يقرب منه بقرينه المقام،و فى قوله: «لِأَنْفُسِكُمْ» دون أن يقال:خيرا لكم زياده تطييب لنفوسهم أى إن الإنفاق خير لكم لا ينتفع به إلاّ أنفسكم لما فيه من بسط أيديكم وسعه قدرتكم على رفع حوائج مجتمعكم.

و قوله: وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ تقدم تفسيره فى تفسير سوره الحشر.

قوله تعالى: إِنْ تُقْرِضُوا اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً يُضٰاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللّٰهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ المراد بإقراض اللّه الإنفاق فى سبيله سمّاه اللّه إقراضا للّه و سمّى المال المنفق قرضا حسنا حثّا و ترغيبا لهم فيه.

و قوله: يُضٰاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ إشاره الى حسن جزائه فى الدنيا و الآخره.

و الشكور و الحليم و عالم الغيب و الشهاده و العزيز و الحكيم خمسه من أسماء اللّه الحسنى تقدم شرحها،و وجه مناسبتها لما أمر به فى الآيه من السمع و الطاعه و الإنفاق ظاهر (1).

1- 1) .التغابن ۱۱-۱۸:بحث روائى فى كون الاموال و الاولاد فتنه؛تقوى اللّه حق تقاته؛شح النفس.

سوره الطلاق مدنیه و هی اثنتا عشره آیه

اشاره

[سوره الطلاق (۶۵): الآیات ۱ الی ۷]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gtیٰا أَیُّهَا اَلنَّبِیُّ إِذٰا طَلَّقْتُمُ اَلنِّسٰاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا اَلْعِدَّهَ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ رَبَّکُمْ لاٰ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُیُوتِهِنَّ وَ لاٰ یَخْرُجْنَ إِلاّٰ أَنْ یَأْتِینَ بِفٰاحِشَهٍ مُبَیِّنَهٍ وَ تِلْکَ حُدُودُ اَللّٰهِ وَ مَنْ یَتَعَدَّ حُدُودَ اَللّٰهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاٰ تَدْرِی لَعَلَّ اَللّٰهَ یُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِکَ أَمْراً (۱) فَإِذٰا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِکُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فٰارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ أَشْهِدُوا ذَوَیْ عَدْلٍ مِنْکُمْ وَ أَقِیمُوا اَلشَّهٰادَهَ لِلّٰهِ ذٰلِکُمْ یُوعَظُ بِهِ مَنْ کٰانَ یُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ مَنْ یَتَّقِ اَللّٰهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (۲) وَ یَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَحْتَسِبُ وَ مَنْ یَتَوَکَّلْ عَلَی اَللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اَللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اَللّٰهُ لِکُلِّ شَیْءٍ قَدْراً (۳) وَ اَللاّٰئِی یَئِسْنَ مِنَ اَلْمَحِیضِ مِنْ نِسٰائِکُمْ إِنِ اِرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاٰثَهُ أَشْهُرٍ وَ اَللاّٰئِی لَمْ یَحِضْنَ وَ أُولاٰتُ اَلْأَحْمٰالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ یَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ یَتَّقِ اَللّٰهَ یَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ یُسْراً (۴) ذٰلِکَ أَمْرُ اَللّٰهِ أَنْزَلَهُ إِلَیْکُمْ وَ مَنْ یَتَّقِ اَللّٰهَ یُکَفِّرْ عَنْهُ سَیِّئٰاتِهِ وَ یُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (۵) أَسْکِنُوهُنَّ مِنْ حَیْثُ سَکَنْتُمْ مِنْ وُجْدِکُمْ وَ لاٰ تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَیِّقُوا عَلَیْهِنَّ وَ إِنْ کُنَّ أُولاٰتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَیْهِنَّ حَتّٰی یَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَکُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ أْتَمِرُوا بَیْنَکُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعٰاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْریٰ (۶) لِیُنْفِقْ ذُو سَعَهٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَیْهِ رِزْقُهُ فَلْیُنْفِقْ مِمّٰا آتٰاهُ اَللّٰهُ لاٰ یُکَلِّفُ اَللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ مٰا آتٰاهٰا سَیَجْعَلُ اَللّٰهُ بَعْدَ عُسْرٍ یُسْراً (۷)

بیان:

تتضمن السوره بيان كليات من أحكام الطلاق تعقبه عظه و إنذار و تبشير،و السوره مدنيه بشهاده سياقها.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذٰا طَلَّقْتُمُ النِّسٰاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ الى آخر الآيه؛بدئ الخطاب بنداء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأنه الرسول الى الامه و إمامهم فيصلح لخطابه أن يشمله و أتباعه من أمته و هذا شائع فى الاستعمال يخص مقدّم القوم و سيدهم بالنداء و يخاطب بما يعمّه و قومه فلا موجب لقول بعضهم:إن التقدير يا أيها النبى قل

ص:٣۴٣

لامّتک:إذا طلقتم النساء،الخ.

و قوله: إِذٰا طَلَّقْتُمُ النِّسٰاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ أی إذا أردتم أن تطلقوا النساء و أشرفتم علی ذلک إذ لا معنی لتحقق الطلاق بعد وقوع الطلاق فهو کقوله: إِذٰا قُمْتُمْ إِلَی الصَّلاٰهِ فَاغْسِلُوا الآیه(المائده/۶).

و العده قعود المرأه عن الزوج حتی تنقضی المده المرتبه شرعا،و المراد بتطلیقهن لعدتهن تطلیقهن لزمان عدتهن بحیث یأخذ زمان العده من یوم تحقق التطلیقه و ذلک بأن تکون التطلیقه فی طهر لا مواقعه فیه حتی تنقضی أقراؤها.

و قوله: وَ أَحْصُوا الْعِدَّهَ أی عدّوا الأقراء التی تعتد بها،و هو الاحتفاظ علیها لأن للمرأه فیها حق النفقه و السکنی علی زوجها و للزوج فیها حق الرجوع.

و قوله: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ رَبَّکُمْ لاٰ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُیُوتِهِنَّ ظاهر السیاق کون «لاٰ تُخْرِجُوهُنَّ» الخ؛بدلا من «اتَّقُوا اللّٰهَ رَبَّکُمْ» و یفید ذلک تأکید النهی فی «لاٰ تُخْرِجُوهُنَّ» و المراد بیوتهن البیوت التی کن یسکنه قبل الطلاق أضیفت الیهن بعنایه السکنی.

و قوله: وَ لاٰ یَخْرُجْنَ نهی عن خروجهن أنفسهن کما کان سابقه نهیا عن إخراجهن.

و قوله: إِلاّٰ أَنْ یَأْتِینَ بِفٰاحِشَهٍ مُبَیِّنَهٍ أی ظاهره کالزنا و البذاء و إیذاء أهلها کما فی الروایات المأثوره عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام.

و قوله: وَ تِلْکَ حُدُودُ اللّٰهِ وَ مَنْ یَتَعَدَّ حُدُودَ اللّٰهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ أی الأحکام المذکوره للطلاق حدود اللّه حدّ بها أعمالکم و من یتعد و یتجاوز حدود اللّه بأن لم یراعها و خالفها فقد ظلم نفسه أی عصی ربه.

و قوله: لاٰ تَدْرِی لَعَلَّ اللّٰهَ یُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِکَ أَمْراً أی أمرا یقضی بتغیر الحال و تبدّل رأی الزوج فی طلاقها بأن یمیل إلاّ الالتیام و یظهر فی قلبه محبه حب الرجوع الی

سابق الحال.

قوله تعالى: فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ -الى قوله- وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ المراد من بلوغهن أجلهن اقترابهن من آخر زمان العده و إشرافهن عليه،و المراد بإمساكهن الرجوع على سبيل الاستعاره،و بمفارقتهن تركهن ليخرجن من العده و يبنّ.

و المراد بكون الإمساك بمعروف حسن الصحبه و رعايه ما جعل اللّه لهن من الحقوق، و بكون فراقهن بمعروف أيضا لستزام الحقوق الشرعيه فالتقدير بمعروف من الشرع.

و قوله: وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ أى أشهدوا على الطلاق رجلين منكم صاحبى عدل،و قد مر توضيح معنى العدل فى تفسير سوره البقره.

و قوله: وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلّهِ تقدم توضيحه فى تفسير سوره البقره.

و قوله: ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أى ما مر من الأمر بتقوى اللّه و إقامه الشهاده للّه و النهى عن تعدى حدود اللّه أو مجموع ما مرّ من الأحكام و البعث الى التقوى و الإخلاص فى الشهاده و الزجر عن تعدى حدود اللّه يوعظ به المؤمنون ليركنوا الى الحق و ينقلعوا عن الباطل،و فيه إيهام أن الإعراض عن هذه الأحكام أو تغييرها خروجا من الإيمان.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ -الى قوله- قَدْراً أى «وَ مَنْ يَتَّقِ اللّهَ» و يتورع عن محارمه و لم يتعد حدوده و احترم لشرائعه فعمل بها «يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» من مضائق مشكلات الحياه فإن شريعته فطريه يهدى بها اللّه الإنسان الى ما تستدعيه فطرته و تقضى به حاجته و تضمن سعادته فى الدنيا و الآخره «وَ يَرْزُقْهُ» من الزوج و المال و كل ما يفتقر اليه فى طيب عيشه و زكاه حياته «مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ» و لا يتوقع فلا يخف المؤمن أنه إن اتقى اللّه و احترم حدوده حرم طيب الحياه

و ابتلى بضنک المعيشه فإن الرزق مضمون و اللّه على ما ضمنه قادر.

وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ بـاعتزاله عن نفسه فيما تهواه و تأمر به و إيثاره إراده اللّه سـبحانه على إراده نفسه و العمل الـذى يريـده اللّه على العمل الـذى تهواه و تريـده نفسه و بعباره اخرى تدين بدين اللّه و عمل بأحكامه «فَهُوَ حَسْبُهُ» أى كافيه فيما يريده من طيب العيش و يتمناه من السعاده بفطرته لا بواهمته الكاذبه.

و ذلک أنه تعالى هو السـبب الأعلى الذى تنتهى اليه الأسباب فإذا أراد شيئا فعله و بلغ ما أراده من غير أن تتغير إرادته فهو القائل مٰا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ (ق/۲۹)،أو يحول بينـه و بيـن مـا أراده مـانع فهـو القائـل وَ اللّٰهُ يَحْكُمُ لاٰ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ (الرعد/۴۱)،و أما الأسـباب الأخر التى يتشبث بها الإنسان فى رفع حوائجه فإنما تملک من السـببيه ما ملکها اللّه سـبحانه و هو المالک لما ملکها و القادر على ما عليه أقدرها و لها من الفعل مقدار ما أذن اللّه فيه.

فاللّه كاف لمن توكل عليه لا غيره «إِنَّ اللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ» يبلغ حيث أراد،و هو القائل «إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» «قَدْ جَعَلَ اللّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً» فما من شـىء إلّا له قدر مقدور و حدّ محدود و اللّه سبحانه لا يحدّه حد و لا يحيط به شىء و هو المحيط بكل شىء.

هذا هو معنى الآيه بالنظر الى وقوعها فى سياق آيات الطلاق و انطباقها على المورد.

و أما بالنظر الى إطلاقها فى نفسـها مع الغض عن السياق الذى وقعت فيه فقوله: «وَ مَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَحْتَسِبُ» مفـاده أن من اتقى اللّه بحقيقه معنى تقـواه و لا يتم ذلـک إلاّ بمعرفته تعـالى بأسـمائه و صـفاته ثم تورعه و اتقـاؤه بالاجتناب عن المحرمات و تحرز ترک الواجبات خالصا لوجهه الكريم،و لازمه أن لا يريـد إلّا ما يريده اللّه من فعل أو ترک، و لازمه أن يستهلک إرادته فى إراده اللّه فلا يصدر عنه فعل إلّا عن إراده من اللّه.

و لازم ذلک أن يرى نفسه و ما يترتب عليها من سـمه أو فعل ملکا طلقا للّه سـبحانه يتصـرف فيها بما يشاء و هو ولايه اللّه يتولى أمر عبده فلا يبقى له من الملک بحقيقه معناه شىء إلّا ما ملّکه

اللّه سبحانه و هو المالك لما ملكه و الملك للّه عز اسمه.

و عنـد ذلـک ینجیه اللّه من مضـیق الـوهم و سـجن الشـرک بـالتعلق بالأسـباب الظـاهریه «یَجْعَ‌لْ لَهُ مَخْرَجاً وَ یَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لا یَحْتَسِبُ» أمـا الرزق المـادی فـإنه کـان یری ذلـک من عطایا سـعیه و الأسـباب الظاهریه التی کان یطمئن إلیها و ما کان یعلم من الأسـباب إلاّ ـ قلیلا من کثیر کقبس من نار یضـیء للانسان فی اللیله الظلماء موضع قـدمه و هو غافل عما وراءه،لکن اللّه سـبحانه محیط بالأسباب و هو الناظم لها ینظمها کیف یشاء و یأذن فی تأثیر ما لا علم له به من خبایاها.

و أما الرزق المعنوی الـذی هو حقیقه الرزق الـذی یعیش به النفس الإنسانیه و تبقی فهو مما لم یکن یحتسـبه و لا یحتسب طریق وروده علیه.

و بالجمله هو سبحانه یتولی أمره و یخرجه من مهبط الهلاک و یرزقه من حیث لا یحتسب، و لا یفقد من کماله و النعم التی کان یرجو نیلهـا بسـعیه شـیئا لأنه توکل علی اللّه و فوّض الی ربه ما کان لنفسه «وَ مَنْ یَتَوَکَّلْ عَلَی اللّهِ فَهُوَ حَسْ‌بُهُ» دون سائر الأسـباب الظـاهریه التی تخطئ تـاره و تصـیب أخری «إِنَّ اللّهَ بالِغُ أَمْرِهِ» لأـن الامور محـدوده محاطه له تعالی و «قَدْ جَعَلَ اللّهُ لِکُلِّ شَیْءٍ قَدْراً» فهو غیر خارج عن قدره الذی قدّره به.

و هذا نصیب الصالحین من الأولیاء من هذه الآیه.

و أما من هو دونهم من المؤمنین المتوسـطین من أهـل التقوی النـازله درجـاتهم من حیث المعرفه و العمل فلهم من ولایه اللّه ما یلائم حالهم فی إخلاص الإیمان و العمل الصالـح و قد قال تعالی و أطلق: وَ اللّهُ وَلِیُّ الْمُؤْمِنِینَ (آل عمران۶۸/)،و قال و أطلق: وَ اللّهُ وَلِیُّ الْمُتَّقِینَ (الجاثیه۱۹/).

و تـدیّنهم بـدین الحق و هی سنّه الحیاه و ورودهم و صـدورهم فی الامور عن إرادته تعالی هو تقوی اللّه و التوکل علیه بوضـع إرادته تعالی موضع إراده أنفسهم فینالون من سعاده الحیاه

بحسبه و يجعل اللّه له مخرجا و يرزقهم من حيث لا يحتسبون،و حسبهم ربهم فهو بالغ أمره و قد جعل لكل شيء قدرا.

و عليهم من حرمان السعاده قدر ما دبّ من الشرك فى إيمانهم و عملهم و قد قال تعالى:

وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف/١٠۶)،و قال و أطلق: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ (النساء/۴٨).

و قال: وَ إِنِّي لَغَفّٰارٌ لِمَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً (طه/٨٢)،أى لمن تاب من الشرك و قال و أطلق: وَ اسْتَغْفِرُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (المزمل/٢٠).

فلا يرقى المؤمن الى درجه من درجات ولايه اللّه إلاّ بالتوبه من خفىّ الشرك الذى دونها.

قوله تعالى: وَ اللاّٰئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسٰائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاٰثَةُ أَشْهُرٍ المراد بالارتياب الشک فى يأسهن من المحيض أ هو لكبر أم لعارض،فالمعنى:

و اللائى يئسن من المحيض من نسائكم و شككتم فى أمر يأسهن أ هو لبلوغ سنهن سن اليأس أم لعارض فعدّتهن ثلاثه أشهر.

و قوله: وَ اللاّٰئِي لَمْ يَحِضْنَ عطف على قوله: «وَ اللاّٰئِي يَئِسْنَ» الخ؛و المعنى:

و اللائى لم يحضن و هو فى سن من تحيض فعدّتهن ثلاثه أشهر.

و قوله: وَ أُولاٰتُ الْأَحْمٰالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ أى منتهى زمان عدتهن وضع الحمل.

و قوله: وَ مَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً أى يسهل عليه ما يستقبله من الشدائد و المشاق،و قيل:المراد أنه يسهل عليه امور الدنيا و الآخره إما بفرج عاجل أو عوض آجل.

قوله تعالى: ذٰلِكَ أَمْرُ اللّٰهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ أى ما بيّنه فى الآيات المتقدمه حكم اللّه أنزله اليكم،و فى قوله: «وَ مَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئٰاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً» دلاله على أن اتباع

الأوامر من التقوى كاجتناب المحرمات و لعله باعتبار أن امتثال الأمر يلازم اجتناب تركه.

و تكفير السيئات سترها بالمغفره،و المراد بالسيئات المعاصى الصغيره فيبقى للتقوى كبائر المعاصى،و يكون مجموع قوله: «وَ مَنْ يَتَّقِ اللّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً» فى معنى قوله: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (النساء/۳۱)،و من الآيتين يظهر أن المراد بالمحارم فى قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تعريف التقوى:أنها الورع عن محارم اللّه المعاصى الكبيره.

و يظهر أيضا أن مخالفه ما أنزله اللّه من الأمر فى الطلاق و العده من الكبائر إذ التقوى المذكوره فى الآيه تشمل ما ذكر من أمر الطلاق و العده لا محاله فهو غير السيئات المكفره و إلاّ اختلّ معنى الآيه.

قوله تعالى: أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ الى آخر الآيه؛قال فى المفردات:و قوله تعالى: «مِنْ وُجْدِكُمْ» أى تمكّنكم و قدر غناكم،و يعبر عن الغنى بالوجدان و الجده،و قد حكى فيه الوجد و الوجد و الوجد-بالحركات الثلاث فى الواو- انتهى.

و ضمير«هن»للمطلقات على ما يؤيده السياق،و المعنى:أسكنوا المطلقات من حيث سكنتم من المساكن على قدر تمكنكم و غناكم على الموسر قدره و على المعسر قدره.

و قوله: وَ لا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ أى لا توجهوا اليهن ضررا يشق عليهن تحمّله من حيث السكنى و الكسوه و النفقه لتوردوا الضيق و الحرج عليهن.

و قوله: وَ إِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ معناه ظاهر.

و قوله: فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فلهن عليكم أجر الرضاعه و هو من نفقه الولد التى على الوالد.

و قوله: وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ الائتمـار بشـىء تشـاور القوم فيه بحيث يـأمر بعضـهم فيه بعضـا،و هو خطاب للرجل و المرأه أى تشـاوروا فى أمر الولـد و توافقوا فى معروف من العاده بحيث لا يتضـرر الرجل بزياده الأجر الـذى ينفقه و لا المرأه بنقيصـته و لا الولد بنقص مده الرضاع الى غير ذلك.

و قوله: وَ إِنْ تَعٰاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرىٰ أى و إن أراد كـل منكم من الآـخر مـا فيه عسـر و اختلفتم فسترضع الولـد امرأه أخرى أجنبيه غير والدته أى فليسترضع الوالد غير والده الصبى.

قوله تعـالى: لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ الإنفـاق من سعه هو التوسعه فى الإنفـاق و هو أمر لأهـل السعه بـأن يوسـعوا على نسـائهم المطلقات المرضعات أولادهم.

و قوله: وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمّٰا آتٰاهُ اللّٰهُ قدر الرزق ضيقه، و الإيتاء الإعطاء،و المعنى:و من ضاق عليه رزقه و كان فقيرا لا يتمكن من التوسع فى الإنفاق فلينفق على قدر ما أعطاه اللّه من المال أى فلينفق على قدر تمكنه.

و قوله: لاٰ يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ مٰا آتٰاهٰا أى لا يكلف اللّه نفسا إلاّ بقـدر ما أعطاها من القـدره فالجمله تنفى الحرج من التكاليف الإلهى و منها إنفاق المطلقه.

و قوله: سَيَجْعَلُ اللّٰهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً فيه بشرى و تسليه (۱).

[سوره الطلاق (۶۵): الآيات ۸ الى ۱۲]

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهٰا وَ رُسُلِهِ فَحٰاسَبْنٰاهٰا حِسٰاباً شَدِيداً وَ عَذَّبْنٰاهٰا عَذٰاباً نُكْراً (۸) فَذٰاقَتْ وَبٰالَ أَمْرِهٰا وَ كٰانَ عٰاقِبَةُ أَمْرِهٰا خُسْراً (۹) أَعَدَّ اَللّٰهُ لَهُمْ عَذٰاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اَللّٰهَ يٰا أُولِي اَلْأَلْبٰابِ اَلَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اَللّٰهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (۱۰) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيٰاتِ اَللّٰهِ مُبَيِّنٰاتٍ لِيُخْرِجَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ مِنَ اَلظُّلُمٰاتِ إِلَى اَلنُّورِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ يَعْمَلْ صٰالِحاً يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اَللّٰهُ لَهُ رِزْقاً (۱۱) اَللّٰهُ اَلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ وَ مِنَ اَلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ اَلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اَللّٰهَ قَدْ أَحٰاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (۱۲)

۱- ۱) .الطلاق ۱-۷:بحث روائى فى الطلاق و العده؛الشكر؛الدعاء و الاستجابه؛التوكل على اللّه.

بیان:

قوله تعالی: وَ کَأَیِّنْ مِنْ قَرْیَهٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَ رُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِیداً وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُکْراً قال الراغب:العتو النبوء عن الطاعه انتهی.

فهو قریب المعنی من الاستکبار،و قال:النکر الدهاء و الأمر الصعب الذی لا یعرف انتهی.

و المراد بالنکر فی الآیه المعنی الثانی:و فی المجمع النکر المنکر الفظیع الذی لم یر مثله انتهی.

و المراد بالقریه أهلها علی سبیل التجوز کقوله: وَ سْئَلِ الْقَرْیَهَ (یوسف۸۲/)،و فی قوله: «عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَ رُسُلِهِ» إشاره الی أنهم کفروا باللّه سبحانه بالشرک و کفروا کفرا آخر برسله بتکذیبهم فی دعوتهم.علی أنهم کفروا باللّه تعالی فی ترک شرائعه المشرعه و کفروا برسله فیما أمروا به بولایتهم لهم کما مر نظیره فی قوله: وَ أَطِیعُوا اللّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَإِنَّما عَلی رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِینُ (التغابن۱۲/).

و شده الحساب المناقشه فيه و الاستقصاء لتوفيه الأجر كما هو عليه،و المراد به حساب الدنيا غير حساب الآخره و الدليل على كونه حساب الدنيا قوله تعالى: وَ مٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (الشورى/٣٠)،و قوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنٰاهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (الأعراف/٩۶).

فما يصيب الإنسان من مصيبه-و هى المصيبه فى نظر الدين-هو حاصل محاسبه أعماله و اللّه يعفو عن كثير منها بالمسامحه و المساهله فى المحاسبه غير أنه تعالى يحاسب العاتين المستكبرين عن أمره و رسله حسابا شديدا بالمناقشه و الاستقصاء و التثريب فيعذبهم عذابا نكرا.

و المعنى:و كم من أهل قريه عتوا و استكبروا عن أمر ربهم و رسله فلم يطيعوا اللّه و رسله فحاسبناها حسابا شديدا ناقشنا فيه و استقصيناه،و عذبناهم عذابا صعبا غير معهود و هو عذاب الاستئصال فى الدنيا.

قوله تعالى: فَذٰاقَتْ وَبٰالَ أَمْرِهٰا وَ كٰانَ عٰاقِبَةُ أَمْرِهٰا خُسْراً المراد بأمرها عتوّها و استكبارها،و المعنى:فأصابتهم عقوبه عتوهم و كان عاقبه عتوهم خسارا كأنهم اشتروا العتو بالطاعه فانتهى الى أن خسروا.

قوله تعالى: أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ عَذٰاباً شَدِيداً هذا جزاؤهم فى الاخرى كما كان ما فى قوله: «فَحٰاسَبْنٰاهٰا حِسٰاباً شَدِيداً وَ عَذَّبْنٰاهٰا عَذٰاباً نُكْراً فَذٰاقَتْ وَبٰالَ أَمْرِهٰا» جزاءهم فى الدنيا.

و الفصل فى قوله: «أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ» الخ؛لكونه فى مقام دفع الدخل كأنه لما قيل «وَ كٰانَ عٰاقِبَةُ أَمْرِهٰا خُسْراً» ،قيل:ما المراد بخسرهم؟فقيل «أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ عَذٰاباً شَدِيداً» .

قوله تعالى: فَاتَّقُوا اللّٰهَ يٰا أُولِي الْأَلْبٰابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللّٰهُ إِلَيْكُمْ

ذِكْراً استنتاج مما تقدم خوطب به المؤمنون ليأخذوا حذرهم و يقوا أنفسهم أن يعتوا عن أمر ربهم و يطغوا عن طاعته فيبتلوا بوبال عتوهم و خسران عاقبتهم كما ابتليت بذلك القرى الهالكه.

و قد وصف المؤمنين باولى الألباب فقال: «فَاتَّقُوا اللّٰهَ يٰا أُولِي الْأَلْبٰابِ الَّذِينَ آمَنُوا» استمدادا من عقولهم على ما يريده منهم من التقوى فإنهم لما سمعوا أن قوما عتو عن أمر ربهم فحوسبوا حسابا شديدا و عذبوا عذابا نكرا و كان عاقبه أمرهم خسرا ثم سمعوا أن ذلك تكرر مره بعد مره و أباد قوما بعد قوم،قضت عقولهم بأن العتو و الاستكبار عن أمر اللّه تعرض لشديد حساب اللّه و منكر عذابه فتنبههم و تبعثهم الى التقوى و قد أنزل اللّه اليهم ذكرا يذكرهم به ما لهم و ما عليهم و يهديهم الى الحق و الى طريق مستقيم.

قوله تعالى: رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيٰاتِ اللّٰهِ مُبَيِّنٰاتٍ الخ؛عطف بيان أو بدل من «ذِكْراً» فالمراد بالذكر الذى أنزله هو الرسول سمى به لأنه وسيله التذكره باللّه و آياته و سبيل الدعوه الى دين الحق،و المراد بالرسول محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على ما يؤيده ظاهر قوله: «يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيٰاتِ اللّٰهِ مُبَيِّنٰاتٍ» الخ.

و على هذا فالمراد بإنزال الرسول بعثه من عالم الغيب و إظهاره لهم رسولا من عنده بعد ما لم يكونوا يحتسبون كما فى قوله: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ (الحديد/۲۵).

و قد ادعى ظهور الإنزال فى كونه من السماء بعضهم كصاحب الكشاف الى أن فسّر «رَسُولاً» بجبريل و يكون حينئذ معنى تلاوته الآيات عليهم تلاوته على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما أنه متبوع لقومه و وسيله الإبلاغ لهم لكن ظاهر قوله: «يَتْلُوا عَلَيْكُمْ» الخ؛خلاف ذلك.

و يحتمل أن يكون «رَسُولاً» منصوبا بفعل محذوف و التقدير أرسل رسولا يتلو عليكم آيات اللّه،و يكون المراد بالذكر المنزل اليهم القرآن أو ما بيّن فيه من الأحكام و المعارف.

و قوله: لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ

ص :۳۵۳

تقدم تفسیره فی نظائره.

و قوله: وَ مَنْ یُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ یَعْمَلْ صٰالِحاً یُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا أَبَداً وعد جمیل و تبشیر.

و قوله: قَدْ أَحْسَنَ اللّٰهُ لَهُ رِزْقاً وصف لإحسانه تعالی الیهم فیما رزقهم به من الرزق و المراد بالرزق ما رزقهم من الإیمان و العمل الصالح فی الدنیا و الجنه فی الآخره،و قیل المراد به الجنه.

قوله تعالی: اَللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ یَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَیْنَهُنَّ الخ؛بیان یتأکد به ما تقدم فی الآیات من حدیث ربوبیته تعالی و بعثه الرسول و إنزاله الذکر لیطیعوه فیه و أن فی تمرده و مخالفته الحساب الشدید و العذاب الألیم و فی طاعته الجنه الخالده کل ذلک لأنه قدیر علیم.

فقوله: اَللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ تقدّم بعض الکلام فیه فی تفسیر سوره حم السجده.

و قوله: وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ظاهره المثلیه فی العدد،و علیه فالمعنی:و خلق من الأرض سبعا کما خلق من السماء سبعا فهل الأرضون السبع سبع کرات من نوع الأرض التی نحن علیها و التی نحن علیها إحداها؟أو الأرض التی نحن علیها سبع طبقات محیطه بعضها ببعض و الطبقه العلیا بسیطها الذی نحن علیه؟أو المراد الأقالیم السبعه التی قسّموا إلیها المعمور من سطح الکره؟وجوه ذهب الی کل منها جمع و ربما لاح بالرجوع الی ما تقدم فی تفسیر سوره حم السجده محتمل آخر غیرها.

و ربما قیل:إن المراد بقوله: «وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» أنه خلق من الأرض شیئا هو مثل السماوات السبع و هو الإنسان المرکب من الماده الأرضیه و الروح السماویه التی فیها نماذج سماویه ملکوتیه.

و قوله: يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ الظاهر أن المراد للسماوات و الأرض جميعا و الأمر هو الأمر الإلهى الذى فسره بقوله: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ (يس٨٣/)،و هو كلمه الإيجاد،و تنزله هو أخذه بالنزول من مصدر الأمر الى سماء بعد سماء حتى ينتهى الى العالم الأرضى فيتكوّن ما قصد بالأمر من عين أو أثر أو رزق أو موت أو حياه أو عزه أو ذله أو غير ذلك قال تعالى: وَ أَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا (حم السجده١٢/)،و قال: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمٰاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كٰانَ مِقْدٰارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّٰا تَعُدُّونَ (الم السجده٥٠/).

و قوله: أَنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللّٰهَ قَدْ أَحٰاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً من الغايات المترتبه على خلقه السماوات السبع و من الأرض مثلهن و تنزيله الأمر بينهن،و فى ذلك انتساب الخلق و الأمر اليه و اختصاصهما به فإن المتفكر فى ذلك لا يرتاب فى قدرته على كل شىء و علمه بكل شىء فليتق مخالفه أمره أولو الألباب من المؤمنين فإن سنه هذا القدير العليم تجرى على إثابه المطيعين لأوامره،و مجازاه العاتين المستكبرين و كذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى و هى ظالمه إن أخذه أليم شديد.

ص :٣٥٥

سوره التحریم مدنیه و هی اثنتا عشره آیه

اشاره

[سوره التحریم (۶۶): الآیات ۱ الی ۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gtیا أَیُّهَا اَلنَّبِیُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اَللّهُ لَکَ تَبْتَغِی مَرْضاتَ أَزْواجِکَ وَ اَللّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱) قَدْ فَرَضَ اَللّهُ لَکُمْ تَحِلَّهَ أَیْمانِکُمْ وَ اَللّهُ مَوْلاکُمْ وَ هُوَ اَلْعَلِیمُ اَلْحَکِیمُ (۲) وَ إِذْ أَسَرَّ اَلنَّبِیُّ إِلی بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِیثاً فَلَمّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اَللّهُ عَلَیْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَکَ هذا قالَ نَبَّأَنِیَ اَلْعَلِیمُ اَلْخَبِیرُ (۳) إِنْ تَتُوبا إِلَی اَللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُکُما وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَیْهِ فَإِنَّ اَللّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِیلُ وَ صالِحُ اَلْمُؤْمِنِینَ وَ اَلْمَلائِکَهُ بَعْدَ ذلِکَ ظَهِیرٌ (۴) عَسی رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَکُنَّ أَنْ یُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَیْراً مِنْکُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَیِّباتٍ وَ أَبْکاراً (۵) یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَکُمْ وَ أَهْلِیکُمْ ناراً وَقُودُهَا اَلنّاسُ وَ اَلْحِجارَهُ عَلَیْها مَلائِکَهٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا یَعْصُونَ اَللّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ یَفْعَلُونَ ما یُؤْمَرُونَ (۶) یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ کَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا اَلْیَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۷) یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَی اَللّهِ تَوْبَهً نَصُوحاً عَسی رَبُّکُمْ أَنْ یُکَفِّرَ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ وَ یُدْخِلَکُمْ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ یَوْمَ لا یُخْزِی اَللّهُ اَلنَّبِیَّ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ یَسْعی بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ بِأَیْمانِهِمْ یَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَ اغْفِرْ لَنا إِنَّکَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۸) یا أَیُّهَا اَلنَّبِیُّ جاهِدِ اَلْکُفّارَ وَ اَلْمُنافِقِینَ وَ اُغْلُظْ عَلَیْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ اَلْمَصِیرُ (۹)

ص: ۳۵۶

بیان:

تبدأ السوره بالإشاره الی ما جری بین النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بین بعض أزواجه من قصه التحریم فیعاتب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتحریمه ما أحلّ اللّه له ابتغاء لمرضاه بعض أزواجه و مرجعه الی عتاب تلک البعض و الانتصار له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما یدل علیه سیاق الآیات.

ثم تخاطب المؤمنین أن یقوا أنفسهم من عذاب اللّه النار التی وقودها الناس و الحجاره و لیسوا یجزون إلاّ بأعمالهم و لا مخلص منها إلاّ للنبی و الذین آمنوا معه ثم تخاطب النبی بجهاد

ص: ۳۵۷

الکفار و المنافقین.

و تختتم السوره بضربه تعالی مثلا من النساء للکفار و مثلا منهن للمؤمنین.

و ظهور السیاق فی کون السوره مدنیه لا ریب فیه.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ لِمَ تُحَرِّمُ مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ لَکَ تَبْتَغِی مَرْضٰاتَ أَزْوٰاجِکَ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ خطاب مشوب بعتاب لتحریمه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لنفسه بعض ما أحل اللّه له،و لم یصرح تعالی به و لم یبین أنه ما هو؟و ما ذا کان؟غیر أن قوله: «تَبْتَغِی مَرْضٰاتَ أَزْوٰاجِکَ» یومی أنه کان عملا من الأعمال المحلله التی یقترفها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا ترتضیه أزواجه فضیّقن علیه و آذینه حتی أرضاهن بالحلف علی أن یترکه و لا یأتی به بعد.

فقوله: یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ علّق الخطاب و النداء بوصف النبی دون الرسول لاختصاصه به فی نفسه دون غیره حتی یلائم وصف الرساله.

و قوله: لِمَ تُحَرِّمُ مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ لَکَ المراد بالتحریم التسبب الی الحرمه بالحلف علی ما تدل علیه الآیه التالیه فإن ظاهر قوله: «قَدْ فَرَضَ اللّٰهُ لَکُمْ تَحِلَّهَ أَیْمٰانِکُمْ» الخ؛ أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حلف علی ذلک و من شأن الیمین أن یوجب عروض الوجوب إن کان الحلف علی الفعل و الحرمه و إن کان الحلف علی الترک،و إذ کان صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حلف علی ترک ما أحل اللّه له فقد حرم ما أحل اللّه له بالحلف.

و لیس المراد بالتحریم تشریعه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی نفسه الحرمه فیما شرع اللّه له فیه الحلیّه فلیس له ذلک.

و قوله: تَبْتَغِی مَرْضٰاتَ أَزْوٰاجِکَ أی تطلب بالتحریم رضاهن بدل من «تُحَرِّمُ» الخ؛أو حال من فاعله،و الجمله قرینه علی أن العتاب بالحقیقه متوجه الیهن،و یؤیده قوله خطابا لهما: «إِنْ تَتُوبٰا إِلَی اللّٰهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُکُمٰا» الخ؛مع قوله فیه: «وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ» .

قوله تعالی: قَدْ فَرَضَ اللّٰهُ لَکُمْ تَحِلَّهَ أَیْمٰانِکُمْ وَ اللّٰهُ مَوْلاٰکُمْ وَ هُوَ الْعَلِیمُ

الْحَكِيمُ قال الراغب:كل موضع ورد فرض اللّه عليه ففى الإيجاب الـذى أدخله اللّه فيه، و ما ورد من فرض اللّه له فهو فى أن لا يحظره على نفسه نحو «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللّٰهُ لَهُ» و قوله: «قَدْ فَرَضَ اللّٰهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ» .انتهى.و التحله أصلها تحلله على وزن تذكره و تكرمه مصدر كالتحليل،قال الراغب:و قوله عزّ و جل: «قَدْ فَرَضَ اللّٰهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ» اى بيّن ما تحل به عقده أيمانكم من الكفاره.

فالمعنى:قد قدّر اللّه لكم-كأنه قدره نصيبا لهم حيث لم يمنعهم عن حل عقده اليمين- تحليل أيمانكم بالكفاره و اللّه وليّكم الذى يتولى تدبير أموركم بالتشريع و الهدايه و هو العليم الحكيم.

و فى الآيه دلاله على أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد حلف على الترك،و أمر به بتحله يمينه.

قوله تعالى: وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلىٰ بَعْضِ أَزْوٰاجِهِ حَدِيثاً فَلَمّٰا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللّٰهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمّٰا نَبَّأَهٰا بِهِ قٰالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هٰذٰا قٰالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ السرّ هو الحديث الذى تكتمه فى نفسك و تخفيه،و الإسرار إفضاؤك الحديث الى غيرك مع إيصائك بإخفائه،و ضمير «نَبَّأَتْ» لبعض أزواجه،و ضمير «بِهِ» للحديث الذى أسرّه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إليها،و ضمير «أَظْهَرَهُ» للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و ضمير «عَلَيْهِ» لإنبائها به غيرها و إفشائها السر،و ضمير «عَرَّفَ وَ أَعْرَضَ» للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و ضمير «بَعْضَهُ» للحديث،و الإشاره بقوله: «هٰذٰا» لإنبائها غيره و إفشائها السر.

و محصل المعنى:و إذ أفضى النبى الى بعض أزواجه-و هى حفصه بنت عمر بن الخطاب- حديثا و أوصاها بكتمانه فلما أخبرت به غيرها و أفشت السر خلافا لما أوصاها به،و أعلم اللّه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنها نبأت به غيرها و أفشت السر عرّف و أعلم بعضه و أعرض عن بعض آخر، فلما خبرها النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالحديث قالت للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:من أنبأك و أخبرك أنى نبأت به غيرى و أفشيت السر؟قال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:نبأنى و خبرنى العليم الخبير و هو اللّه العليم بالسر و العلانيه

الخبیر بالسرائر.

قوله تعالی: إِنْ تَتُوبا إِلَی اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُکما وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَیْهِ فَإِنَّ اللّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِیلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمَلائِکَهُ بَعْدَ ذلِکَ ظَهِیرٌ أی إن تتوبا الی اللّه فقد تحقق منکما ما یستوجب علیکما التوبه و إن تظاهرا علیه فإن اللّه هو مولاه، الخ.

و قد اتفق النقل علی أنهما عائشه و حفصه زوجا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و الصغو المیل و المراد به المیل الی الباطل و الخروج عن الاستقامه و قد کان ما کان منهما من إیذائه و التظاهر علیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الکبائر و قد قال تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یُؤْذُونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللّهُ فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَهِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِیناً (الأحزاب/۵۷)،و قال: وَ الَّذِینَ یُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (التوبه/۶۱).

و التعبیر بقلوبکما و إراده معنی التثنیه من الجمع کثیر النظیر فی الاستعمال.

و قوله: وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَیْهِ فَإِنَّ اللّهَ هُوَ مَوْلاهُ الخ؛التظاهر التعاون،و أصل «وَ إِنْ تَظاهَرا» و إن تتظاهرا،و ضمیر الفصل فی قوله: «فَإِنَّ اللّهَ هُوَ مَوْلاهُ» للدلاله علی أن للّه سبحانه عنایه خاصه به صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ینصره و یتولی أمره من غیر واسطه من خلقه،و المولی الولی الذی یتولی أمره و ینصره علی من یریده بسوء.

و «جِبْرِیلُ» عطف علی لفظ الجلاله،و «صالِحُ الْمُؤْمِنِینَ» عطف جبریل،و المراد بصالح المؤمنین علی ما قیل الصلحاء من المؤمنین فصالح المؤمنین واحد أرید به الجمع کقولک:لا یفعل هذا الصالح من الناس ترید به الجنس کقولک لا یفعله من صلح منه و مثله قولک:کنت فی السامر و الحاضر.

و فیه قیاس المضاف الی الجمع الی مدخول اللام فظاهر صالح المؤمنین غیر ظاهر«الصالح من المؤمنین».

و وردت الروایه من طرق أهل السنه عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و من طرق الشیعه عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام أن المراد بصالح المؤمنین علی علیه أفضل السلام،و ستوافیک إن شاء اللّه.

و فی المراد منه أقوال أخر أغمضنا عنها لعدم دلیل علیها.

و قوله: «وَ الْمَلاٰئِکَهُ بَعْدَ ذٰلِکَ ظَهِیرٌ» إفراد الخبر للدلاله علی أنهم متفقون فی نصره متحدون صفا واحدا،و فی جعلهم بعد ذلک أی بعد ولایه اللّه و جبریل و صالح المؤمنین تعظیم و تفخیم.

و لحن الآیات فی إظهار النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی من یؤذیه و یریده بسوء و تشدید العتاب علی من یتظاهر علیه عجیب،و قد خوطب فیها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أولا و عوتب علی تحریمه ما أحل اللّه له و أشیر علیه بتحله یمینه و هو إظهار و تأیید و انتصار له و إن کان فی صوره العتاب.

ثم التفت من خطابه الی خطاب المؤمنین فی قوله: «وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِیُّ إِلیٰ بَعْضِ أَزْوٰاجِهِ» یشیر الی القصه و قد أبهمها إبهاما و قد کان أیّد النبی و أظهره قبل الإشاره الی القصه و إفشائها مختوما علیها،و فیه مزید إظهاره.

ثم التفت من خطاب المؤمنین الی خطابهما و قرر أن قلوبهما قد صغت بما فعلتا و لم یأمرهما أن تتوبا من ذنبهما بل بین لهما أنهما واقعتان بین أمرین إما أن تتوبا و إما أن تظاهرا علی من اللّه هو مولاه و جبریل و صالح المؤمنین و الملائکه بعد ذلک أجمع ثم أظهر الرجاء إن طلقهن أن یرزقه اللّه نساء خیرا منهن.ثم أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یجاهد الکفار و المنافقین و یغلظ علیهم.

و انتهی الکلام الی ضربه تعالی مثلین مثلا للذین کفروا و مثلا للذین آمنوا.

و قد أدار تعالی الکلام فی السوره بعد التعرض لحالهما بقوله: «إِنْ تَتُوبٰا إِلَی اللّٰهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُکُمٰا وَ إِنْ تَظٰاهَرٰا عَلَیْهِ» الخ؛بین التعرض لحال المؤمنین و التعرض لحال الکفار فقال: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَکُمْ وَ أَهْلِیکُمْ الخ؛و یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ کَفَرُوا لاٰ تَعْتَذِرُوا الخ؛ و قال: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا تُوبُوا الخ؛و یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ جٰاهِدِ الخ؛و قال: ضَرَبَ اللّٰهُ

مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، وَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا .

قوله تعالى: عَسىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوٰاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ الى آخر الآيه؛استغناء إلهى فإنهن و إن كن مشرفات بشرف زوجيه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكن الكرامه عند اللّه بالتقوى كما قال تعالى: فَإِنَّ اللّٰهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنٰاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (الأحزاب٢٩/)، انظر الى مكان «مِنْكُنَّ» و قال: يٰا نِسٰاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضٰاعَفْ لَهَا الْعَذٰابُ ضِعْفَيْنِ وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيراً وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صٰالِحاً نُؤْتِهٰا أَجْرَهٰا مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنٰا لَهٰا رِزْقاً كَرِيماً (الأحزاب٣١/).

و لذا ساق الاستغناء بترجى إبداله إن طلقهن أزواجا خيرا منهن،و علق الخبر بما ذكر لأزواجه الجديده من صفات الكرامه و هى أن يكنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات-أى صائمات-ثيبات و أبكارا.

فمن تزوج بها النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كانت متصفه بمجموع هذه الصفات كانت خيرا منهن و ليس إلاّ لأجل اختصاص منها بالقنوت و التوبه أو القنوت فقط مع مشاركتها لهن فى باقى الصفات، و القنوت هو لزوم الطاعه مع الخضوع.

و يتأيد هذا المعنى بما فى مثل مريم الآتى فى آخر السوره من ذكر القنوت وَ كٰانَتْ مِنَ الْقٰانِتِينَ فالقنوت هو الذى يفقدنه و هو لزومهن طاعه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التى فيها طاعه اللّه و اتقاؤهن أن يعصين النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يؤذينه.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نٰاراً وَقُودُهَا النّٰاسُ وَ الْحِجٰارَةُ الخ؛ «قُوا» أمر من الوقايه بمعنى حفظ الشىء مما يؤذيه و يضرّه،و الوقود بفتح الواو اسم لما توقد به النار من حطب و نحوه.و المراد بالنار نار جهنم و كون الناس المعذبين فيها وقودا لها معناه اشتعال الناس فيها بأنفسهم كما فى قوله تعالى: ثُمَّ فِي النّٰارِ يُسْجَرُونَ (المؤمن٧٢/).فيناسب تجسم الأعمال كما هو ظاهر الآيه التاليه يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا الخ؛

و فسرت الحجاره بالأصنام.

و قوله: عَلَيْهٰا مَلاٰئِكَةٌ غِلاٰظٌ شِدٰادٌ لاٰ يَعْصُونَ اللّٰهَ مٰا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ أى وكّل عليها لإجراء أنواع العذاب على أهلها ملائكه غلاظ شداد.

و الغلاظ جمع غليظ ضد الرقيق و الأنسب للمقام كون المراد بالغلظه خشونه العمل كما فى قوله الآتى: جٰاهِدِ الْكُفّٰارَ وَ الْمُنٰافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ (الآيه ۹ من السوره)،و الشداد جمع شديد بمعنى القوى فى عزمه و فعله.

و قوله: لاٰ يَعْصُونَ اللّٰهَ مٰا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ كالمفسر لقوله:

«غِلاٰظٌ شِدٰادٌ» أى هم ملتزمون بما أمرهم اللّه من أنواع العذاب لا يعصونه بالمخالفه و الرد و يفعلون ما يؤمرون به على ما أمروا به من غير أن يفوت منهم فائت أو ينقص منه شيء لضعف فيهم أو فتور فهم غلاظ شداد.

و الآيه الكريمه بعد الآيات السابقه كالتعميم بعد التخصيص فإنه تعالى لما أدّب نساء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ببيان ما لإيذائهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الأثر السيئ عمم الخطاب فخاطب المؤمنين عامه أن يؤدّبوا أنفسهم و أهليهم و يقوهم من النار التى وقودها نفس الداخلين فيها أى أن أعمالهم السيئه تلزمهم و تعود نارا تعذبهم و لا مخلص لهم منها و لا مناص عنها.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ خطاب عام للكفار بعد ما جوزوا بالنار فإنهم يعتذرون عن كفرهم و معاصيهم فيخاطبون أن لا تعتذروا اليوم-و هو يوم الجزاء-إنما تجزون نفس ما كنتم تعملون أى إن العذاب الذى تعذبون بها هو عملكم السيئ الذى عملتموه و قد برز لكم اليوم حقيقته و إذ عملتموه فقد لزمكم أنكم عملتموه و الواقع لا يتغير و ما حقّ عليكم من كلمه العذاب لا يعود باطلا فهذا ظاهر الخطاب.

و قيل:المعنى:لا تعتذروا-اليوم-بعد دخول النار فإن الاعتذار توبه و التوبه غير مقبوله

بعد دخول النار إنما تجزون ما لزم فی مقابل عملکم من الجزاء فی الحکمه.

و فی اتباع الآیات السابقه بما فی هذه الآیه من خطاب القهر تهدید ضمنی و إشعار بأن معصیه اللّه و رسوله ربما أدی الی الکفر.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَی اللّٰهِ تَوْبَهً نَصُوحاً عَسیٰ رَبُّکُمْ أَنْ یُکَفِّرَ عَنْکُمْ سَیِّئٰاتِکُمْ وَ یُدْخِلَکُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ الخ؛ النصح تحری فعل أو قول فیه صلاح صاحبه،و یأتی بمعنی الإخلاص نحو نصحت له الود أی أخلصته-علی ما ذکره الراغب-فالتوبه النصوح ما یصرف صاحبه عن العود الی المعصیه أو ما یخلص العبد للرجوع عن الذنب فلا یرجع الی ما تاب منه.

لما أمر المؤمنین بوقایه أنفسهم و أهلیهم من النار أمرهم جمیعا ثانیا بالتوبه و فرع علیه رجاء أن یستر اللّه سیئاتهم و یدخلهم جنات تجری من تحتها الأنهار.

و قوله: یَوْمَ لاٰ یُخْزِی اللّٰهُ النَّبِیَّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ قال الراغب:یقال:

خزی الرجل یخزی من باب علم یعلم إذا لحقه انکسار إما من نفسه و إما من غیره فالذی یلحقه من نفسه و هو الحیاء المفرط مصدره الخزایه،و الذی یلحقه من غیره و یعد ضربا من الاستخفاف مصدره الخزی و الإخزاء من الخزایه و الخزی جمیعا قال:و علی نحو ما قلنا فی خزی ذل و هان فإن ذلک متی کان من الإنسان نفسه یقال له الهون-بفتح الهاء-و الذل و یکون محمودا،و متی کان من غیره یقال له:الهون-بضم الهاء-و الهوان و الذل و یکون مذموما.

انتهی ملخصا.

فقوله: یَوْمَ ظرف لما تقدمه،و المعنی:توبوا الی اللّه عسی أن یکفر عنکم سیئاتکم و یدخلکم الجنه فی یوم لا یخزی و لا یکسر اللّه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بجعلهم محرومین من الکرامه و خلفه ما وعدهم من الوعد الجمیل.

و فی قوله: اَلنَّبِیَّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ اعتبار المعیه فی الإیمان فی الدنیا و لازمه

ملازمتهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و طاعتهم له من غیر مخالفه و مشاقه.

و من المحتمل أن یکون قوله: «الَّذِینَ آمَنُوا» مبتدأ خبره «مَعَهُ» و قوله: «نُورُهُمْ یَسْعیٰ» الخ؛خبرا ثانیا،و قوله: «یَقُولُونَ» الخ؛خبرا ثالثا فیفید أنهم لا یفارقون النبی و لا یفارقهم یوم القیامه،و هذا وجه جید لازمه کون عدم الخزی خاصا بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سعی النور و سؤال إتمامه خاصا بالذین معه من المؤمنین و تؤیده آیه الحدید الآتیه.و من الممکن أن یکون «مَعَهُ» متعلقا بقوله: «آمَنُوا» و قوله: «نُورُهُمْ یَسْعیٰ» الخ؛خبرا أولا و ثانیا للموصول.

و قوله: نُورُهُمْ یَسْعیٰ بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ بِأَیْمٰانِهِمْ تقدم الکلام فی معناه فی قوله تعالی: یَوْمَ تَرَی الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ یَسْعیٰ نُورُهُمْ بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ بِأَیْمٰانِهِمْ (الحدید/١٢)، و لا یبعد أن یکون ما بین أیدیهم من النور نور الإیمان و ما بأیمانهم نور العمل.

و قوله: یَقُولُونَ رَبَّنٰا أَتْمِمْ لَنٰا نُورَنٰا وَ اغْفِرْ لَنٰا إِنَّکَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ یفید السیاق أن المغفره المسئوله سبب لتمام النور أو هو ملازم لتمام النور فیفید أن فی نورهم نقصا و النور نور الإیمان و العمل فلهم نقائص بحسب درجات الإیمان أو آثار السیئات التی خلت محالها فی صحائفهم من العبودیه فی العمل فیسألون ربهم أن یتم لهم نورهم و یغفر لهم، و الیه الإشاره بقوله تعالی: وَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ أُولٰئِکَ هُمُ الصِّدِّیقُونَ وَ الشُّهَدٰاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ (الحدید/١٩).

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ جٰاهِدِ الْکُفّٰارَ وَ الْمُنٰافِقِینَ وَ اغْلُظْ عَلَیْهِمْ وَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ المراد بالجهاد بذل الجهد فی إصلاح الأمر من جهتهم و دفع شرهم ففی الکفار ببیان الحق و تبلیغه فإن آمنوا و إلاّ فالحرب و فی المنافقین باستمالتهم و تألیف قلوبهم حتی تطمئن قلوبهم الی الإیمان و إلاّ فلم یقاتل النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم منافقا قط (١).

ص: ٣۶۵

١- ١) .التحریم ١-٩:بحث روائی حول قوله تعالی: «یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ لِمَ تُحَرِّمُ مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ لَکَ» ؛فضائل علی علیه السّلام؛التوبه النصوح؛حال المؤمنین یوم القیامه.

[سوره التحریم (۶۶): الآیات ۱۰ الی ۱۲]

ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً لِلَّذِینَ کَفَرُوا اِمْرَأَتَ نُوحٍ وَ اِمْرَأَتَ لُوطٍ کٰانَتٰا تَحْتَ عَبْدَیْنِ مِنْ عِبٰادِنٰا صٰالِحَیْنِ فَخٰانَتٰاهُمٰا فَلَمْ یُغْنِیٰا عَنْهُمٰا مِنَ اَللّٰهِ شَیْئاً وَ قِیلَ اُدْخُلاَ اَلنّٰارَ مَعَ اَلدّٰاخِلِینَ (۱۰) وَ ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً لِلَّذِینَ آمَنُوا اِمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قٰالَتْ رَبِّ اِبْنِ لِی عِنْدَکَ بَیْتاً فِی اَلْجَنَّهِ وَ نَجِّنِی مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِی مِنَ اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِینَ (۱۱) وَ مَرْیَمَ اِبْنَتَ عِمْرٰانَ اَلَّتِی أَحْصَنَتْ فَرْجَهٰا فَنَفَخْنٰا فِیهِ مِنْ رُوحِنٰا وَ صَدَّقَتْ بِکَلِمٰاتِ رَبِّهٰا وَ کُتُبِهِ وَ کٰانَتْ مِنَ اَلْقٰانِتِینَ (۱۲)

بیان:

تتضمن الآیات الکریمه مثلین یمثل بهما اللّه سبحانه حال الکفار و المؤمنین فی أن شقاء الکفار و هلاکهم إنما کان بخیانتهم للّه و رسوله و کفرهم و لم ینفعهم اتصال بسبب الی الأنبیاء المکرمین،و أن سعاده المؤمنین و فلاحهم إنما کان بإخلاصهم الإیمان باللّه و رسوله و القنوت و حسن الطاعه و لم یضرّهم اتصال بأعداء اللّه بسبب فإنما ملاک الکرامه عند اللّه التقوی.

یمثل الحال أولا:بحال امرأتین کانتا زوجین لنبیین کریمین عدّهما اللّه سبحانه عبدین صالحین-و یا له من کرامه-فخانتاهما فامرتا بدخول النار مع الداخلین فلم ینفعهما زوجیتهما للنبیین الکریمین شیئا فهلکتا فی ضمن الهالکین من غیر أدنی تمیّز و کرامه.

و ثانیا:بحال امرأتین إحداهما امرأه فرعون الذی کانت منزلته فی الکفر باللّه أن نادی فی

الناس فقال:أنا ربكم الأعلى،فآمنت باللّه و أخلصت الإيمان فأنجاها اللّه و أدخلها الجنه و لم يضرّها زوجيه مثل فرعون شيئا،و ثانيتهما مريم ابنه عمران الصدّيقه القانته أكرمها اللّه بكرامته و نفخ فيها من روحه.

و فى التمثيل تعريض ظاهر شديد لزوجى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث خانتاه فى إفشاء سرّه و تظاهرتا عليه و آذتاه بذلك،و خاصه من حيث التعبير بلفظ الكفر و الخيانه و ذكر الأمر بدخول النار.

قوله تعالى: ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كٰانَتٰا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبٰادِنٰا صٰالِحَيْنِ فَخٰانَتٰاهُمٰا الخ؛قال الراغب:الخيانه و النفاق واحد إلاّ أن الخيانه تقال اعتبارا بالعهد و الأمانه،و النفاق يقال اعتبارا بالدين ثم يتداخلان فالخيانه مخالفه الحق بنقض العهد فى السر و نقيض الخيانه الأمانه،يقال:خنت فلانا و خنت أمانه فلان.انتهى.

و قوله: لِلَّذِينَ كَفَرُوا إن كان متعلقا بالمثل كان المعنى:ضرب اللّه مثلا يمثل به حال الذين كفروا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالعباد الصالحين،و إن كان متعلقا بضرب كان المعنى:

ضرب اللّه الامرأتين و ما انتهت اليه حالهما مثلا للذين كفروا ليعتبروا به و يعلموا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالصالحين من عباده و أنهم بخيانتهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من أهل النار لا محاله.

و قوله: اِمْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ مفعول «ضَرَبَ» ،و المراد بكونهما تحتهما زوجيتهما لهما.

و قوله: فَلَمْ يُغْنِيٰا عَنْهُمٰا مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً ضمير التثنيه الاولى للعبدين،و الثانيه للامرأتين،و المراد أنه لم ينفع المرأتين زوجيتهما للعبدين الصالحين.

و قوله: وَ قِيلَ ادْخُلاَ النّٰارَ مَعَ الدّٰاخِلِينَ أى مع الداخلين فيها من قوميهما كما يلوح من قوله فى امرأه نوح: حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا وَ فٰارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهٰا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ

اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلاّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ (هود۴۰/)،و قوله فی امرأه لوط: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لاٰ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهٰا مٰا أَصٰابَهُمْ (هود۸۱/)،أو المعنی مع الداخلین فیها من الکفار.

و فی التعبیر بقیل بالبناء للمفعول،و إطلاق الداخلین إشاره الی هوان أمرهما و عدم کرامه لهما أصلا فلم یبال بهما أین هلکتا.

قوله تعالی: وَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قٰالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ الخ؛الکلام فی قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» کالکلام فی قوله:

«لِلَّذِينَ كَفَرُوا» .

و قوله: «إِذْ قٰالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ» لخص سبحانه جمیع ما کانت تبتغیه فی حیاتها و ترومه فی مسیر عبودیتها فی مسأله سألت ربها و ذلک أن الإیمان إذا کمل تواطأ الظاهر و الباطن و توافق القلب و اللسان فلا یقول الإنسان إلاّ ما یفعل و لا یفعل إلاّ ما یقول فیکون ما یرجوه أو یتمناه أو یسأله بلسانه هو الذی یریده کذلک بعمله.

فقوله: اِمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ اسمها علی ما فی الروایه آسیه،و قوله: «إِذْ قٰالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ» الجمع بین کون البیت المبنی لها عند اللّه و فی الجنه لکون الجنه دار القرب من اللّه و جوار رب العالمین کما قال تعالی: بَلْ أَحْيٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (آل عمران/ ۱۶۹).

علی أن الحضور عنده تعالی و القرب منه کرامه معنویه و الاستقرار فی الجنه کرامه صوریه،و سؤال الجمع بینهما سؤال الجمع بین الکرامتین.

و قوله: وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ تبر منها و سؤال أن ینجیها اللّه من شخص فرعون و من عمله الذی تدعو ضروره المصاحبه و المعاشره الی الشرکه فیه و التلبس به، و قیل:المراد بالعمل الجماع.

و قوله: وَ نَجِّنِی مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِینَ و هم قوم فرعون و هو تبرّ آخر و سؤال أن ینجیها اللّه من المجتمع العام كما أن الجمله السابقه كانت سؤال أن ینجیها من المجتمع الخاص.

قوله تعالی: وَ مَرْیَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِی أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِیهِ مِنْ رُوحِنا الخ؛عطف علی امرأه فرعون و التقدیر و ضرب اللّه مثلا للذین آمنوا مریم،الخ.

ضربها اللّه مثلا باسمها و أثنی علیها و لم یذكر فی كلامه تعالی امرأه باسمها غیرها ذكر اسمها فی القرآن فی بضع و ثلاثین موضعا فی نیف و عشرین سوره.

و قوله: أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِیهِ مِنْ رُوحِنا ثناء علیها علی عفتها،و قد تكرر فی القرآن ذكر ذلك و لعل ذلك بإزاء ما افتعله الیهود من البهتان علیها كما قال تعالی:

وَ قَوْلِهِمْ عَلی مَرْیَمَ بُهْتاناً عَظِیماً (النساء/۱۵۶)،و فی سوره الأنبیاء فی مثل القصه وَ الَّتِی أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِیها (الأنبیاء/۹۱).

و قوله: وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها أی بما تكلم به اللّه سبحانه من الوحی الی أنبیائه كما قیل،و قیل:المراد بها وعده تعالی و وعیده و أمره و نهیه،و فیه أنه یستلزم كون ذكر الكتب مستدركا.

و قوله: وَ كُتُبِهِ و هی المشتمله علی شرائع اللّه المنزله من السماء كالتوراه و الإنجیل كما هو مصطلح القرآن و لعل المراد من تصدیقها كلمات ربها و كتبه كونها صدیقه كما فی قوله تعالی: مَا الْمَسِیحُ ابْنُ مَرْیَمَ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّیقَهٌ (المائده/ ۷۵).

و قوله: وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِینَ أی من القوم المطیعین للّه الخاضعین له الدائمین علیه غلب فیه المذكر علی المؤنث.

و یؤید هذا المعنی كون القنوت بهذا المعنی واقعا فیما حكی اللّه من نداء الملائكه لها: یا مَرْیَمُ اقْنُتِی لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِی وَ ارْكَعِی مَعَ الرّاكِعِینَ (آل عمران/۴۳)،و قیل:یجوز أن یراد

بالقانتين رهطها و عشيرتها الذين كانت مريم منهم و كانوا أهل بيت صلاح و طاعه،و هو بعيد لما تقدم.

على أن المناسب لكون المثل تعريضا لزوجى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يراد بالقانتين مطلق أهل الطاعه و الخضوع للّه تعالى (۱).

۱- ۱) .التحريم ۱۰-۱۲:بحث روائى فى امرأه فرعون و جعلها اللّه مثلا للذين آمنوا؛ايمان امرأه فرعون بموسى؛كيفيه قتلها على يد فرعون.

سوره الملك مكيه و هي ثلاثون آيه

اشاره

[سوره الملك (٦٧): الآيات ١ الى ١۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;تَبٰارَكَ اَلَّذِي بِيَدِهِ اَلْمُلْكُ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) اَلَّذِي خَلَقَ اَلْمَوْتَ وَ اَلْحَيٰاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْغَفُورُ (٢) اَلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ طِبٰاقاً مٰا تَرىٰ فِي خَلْقِ اَلرَّحْمٰنِ مِنْ تَفٰاوُتٍ فَارْجِعِ اَلْبَصَرَ هَلْ تَرىٰ مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ اِرْجِعِ اَلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ اَلْبَصَرُ خٰاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ (۴) وَ لَقَدْ زَيَّنَّا اَلسَّمٰاءَ اَلدُّنْيٰا بِمَصٰابِيحَ وَ جَعَلْنٰاهٰا رُجُوماً لِلشَّيٰاطِينِ وَ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰابَ اَلسَّعِيرِ (۵) وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذٰابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ اَلْمَصِيرُ (۶) إِذٰا أُلْقُوا فِيهٰا سَمِعُوا لَهٰا شَهِيقاً وَ هِيَ تَفُورُ (٧) تَكٰادُ تَمَيَّزُ مِنَ اَلْغَيْظِ كُلَّمٰا أُلْقِيَ فِيهٰا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهٰا أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قٰالُوا بَلىٰ قَدْ جٰاءَنٰا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنٰا وَ قُلْنٰا مٰا نَزَّلَ اَللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ كَبِيرٍ (٩) وَ قٰالُوا لَوْ كُنّٰا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مٰا كُنّٰا فِي أَصْحٰابِ اَلسَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحٰابِ اَلسَّعِيرِ (١١) إِنَّ اَلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اِجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (١٣) أَ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اَللَّطِيفُ اَلْخَبِيرُ (١۴)

بیان:

غرض السوره بیان عموم ربوبیته تعالی للعالمین تجاه قول الوثنیه إن لکل شطر من العالم ربا من الملائکه و غیرهم و إنه تعالی رب الأرباب فقط.

و لذا یعد سبحانه کثیرا من نعمه فی الخلق و التدبیر-و هو فی معنی الاحتجاج علی ربوبیته-و یفتتح الکلام بتبارکه و هو کثره صدور البرکات عنه،و یکرر توصیفه بالرحمن و هو مبالغه فی الرحمه التی هی العطیه قبال الاستدعاء فقرا و فیها إنذار ینتهی الی ذکر الحشر و البعث.

و تتلخص مضامین آیاتها فی الدعوه الی توحید الربوبیه و القول بالمعاد.

و السوره مکیه بشهاده سیاق آیاتها.

قوله تعالی: تَبٰارَکَ الَّذِی بِیَدِهِ الْمُلْکُ وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ تبارک

الشیء کثره صدور الخیرات و البرکات عنه.

و قوله: اَلَّذِی بِیَدِهِ الْمُلْکُ یشمل باطلاقه کل ملک،و جعل الملک فی یده استعاره بالکنایه عن کمال تسلطه علیه و کونه متصرفا فیه کیف یشاء کما یتصرف ذو الید فیما بیده و یقلبه کیف یشاء فهو تعالی یملک بنفسه کل شیء من جمیع جهاته،و یملک ما یملکه کل شیء.

فتوصیفه تعالی بالذی بیده الملک أوسع من توصیفه بالملیک فی قوله: عِنْدَ مَلِیکٍ مُقْتَدِرٍ (القمر،۵۵)،و أصرح و آکد من توصیفه فی قوله: لَهُ الْمُلْکُ (التغابن/۱).

و قوله: وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ إشاره الی کون قدرته غیر محدوده بحد و لا منتهیه الی نهایه و هو لازم إطلاق الملک بحسب السیاق،و إن کان إطلاق الملک و هو من صفات الفعل من لوازم إطلاق القدره و هی من صفات الذات.

و فی الآیه مع ذلک إیماء الی الحجه علی إمکان ما سیأتی من أمر المعاد.

قوله تعالی: اَلَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَیٰاهَ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْغَفُورُ الحیاه کون الشیء بحیث یشعر و یرید،و الموت عدم ذلک لکن الموت علی ما یظهر من تعلیم القرآن انتقال من نشأه من نشآت الحیاه الی نشأه اخری کما تقدم استفاده ذلک من قوله تعالی: نَحْنُ قَدَّرْنٰا بَیْنَکُمُ الْمَوْتَ -الی قوله- فِی مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (الواقعه/۶۱)، فلا مانع من تعلق الخلق بالموت کالحیاه.

علی أنه لو أخذ عدمیا کما عند العرف فهو عدم ملکه الحیاه و له حظ من الوجود یصحح تعلق الخلق به کالعمی من البصر و الظلمه من النور.

و قوله: «لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» غایه خلقه تعالی الموت و الحیاه،و البلاء الامتحان و المراد أن خلقکم هذا النوع من الخلق و هو أنکم تحیون ثم تموتون خلق مقدمیّ امتحانی یمتاز به منکم من هو أحسن عملا من غیره و من المعلوم أن الامتحان و التمییز لا یکون إلاّ لأمر ما یستقبلکم بعد ذلک و هو جزاء کل بحسب عمله.

ص:۳۷۳

و فی الکلام مع ذلک إشاره الی أن المقصود بالذات من الخلقه هو إیصال الخیر من الجزاء حیث ذکر حسن العمل و امتیاز من جاء بأحسنه فالمحسنون عملا هم المقصودون بالخلقه و غیرهم مقصودون لأجلهم.

و قد ذیل الکلام بقوله: «وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْغَفُورُ» فهو العزیز لأن الملک و القدره المطلقین له وحده فلا یغلبه غالب و ما أقدر أحدا علی مخالفته إلاّ بلاء و امتحانا و سینتقم منهم و هو الغفور لأنه یعفو عن کثیر من سیئاتهم فی الدنیا و سیغفر کثیرا منها فی الآخره کما وعد.

و فی التذییل بالاسمین مع ذلک تخویف و تطمیع علی ما یدعو الی ذلک سیاق الدعوه.

قوله تعالی: اَلَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ طِبٰاقاً الخ؛أی مطابقه بعضها فوق بعض أو بعضها یشبه البعض-علی ما احتمل-و قد مرّ فی تفسیر حم السجده بعض ما یمکننا من القول فیها.

و قوله: مٰا تَریٰ فِی خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفٰاوُتٍ قال الراغب:الفوت بعد الشیء عن الإنسان بحیث یتعذر إدراکه،قال تعالی: «وَ إِنْ فٰاتَکُمْ شَیْءٌ مِنْ أَزْوٰاجِکُمْ إِلَی الْکُفّٰارِ» .قال:و التفاوت الاختلاف فی الأوصاف کأنه یفوت وصف أحدهما الآخر أو وصف کل واحد منهما الآخر،قال تعالی: «مٰا تَریٰ فِی خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفٰاوُتٍ» أی لیس فیها ما یخرج عن مقتضی الحکمه.انتهی.

فالمراد بنفی التفاوت اتصال التدبیر و ارتباط الأشیاء بعضها ببعض من حیث الغایات و المنافع المترتبه علی تفاعل بعضها فی بعض،فاصطکاک الأسباب المختلفه فی الخلقه و تنازعها کتشاجر کفتی المیزان و تصارعهما بالثقل و الخفه و الارتفاع و الانخفاض فإنهما فی عین أنهما تختلفان تتفقان فی إعانه من بیده المیزان فیما یریده من تشخیص وزن السلعه الموزونه.

فقد رتب اللّه أجزاء الخلقه بحیث تؤدی الی مقاصدها من غیر أن یفوّت بعضها غرض

بعض أو يفوت من بعضها الوصف اللازم فيه لحصول الغايه المطلوبه.

و الخطاب فى «مٰا تَرىٰ» خطاب عام لكل من يمكنه الرؤيه و فى إضافه الخلق الى الرحمن إشاره الى أن الغايه منه هى الرحمه العامه،و تنكير «تَفٰاوُتٍ» و هو فى سياق النفى و إدخال «مِنْ» عليه لإفاده العموم.

و قوله: فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرىٰ مِنْ فُطُورٍ الفطور الاختلال و الوهى،و المراد بإرجاع البصر النظر ثانيا و هو كنايه عن المداقّه فى النظر و الإمعان فيه.

قوله تعالى: ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خٰاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ الخاسئ من خسأ البصر إذا انقبض عن مهانه كما قال الراغب،و قال أيضا:

الخاسر المعيا لانكشاف قواه،و يقال للمعيا:حاسر و محسور:أما الحاسر فتصور أنه بنفسه قد حسر قوّته،و أما المحسور فتصور أن التعب قد حسره،و قوله عزّ و جل: «يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خٰاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ» يصح أن يكون بمعنى حاسر و أن يكون بمعنى محسور.انتهى.

و قوله: كَرَّتَيْنِ الكرّه الرجعه و المراد بالتثنيه التكثير و التكرير،و المعنى:ثم ارجع البصر رجعه بعد رجعه أى رجعات كثيره ينقلب اليك البصر منقبضه مهينه و الحال أنه كليل معيا لم يجد فطورا.

فقد أشير فى الآيتين الى أن النظام الجارى فى الكون نظام واحد متصل الأجزاء مرتبط الأبعاض.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِمَصٰابِيحَ الى آخر الآيه؛المصابيح جمع مصباح و هو السراج سمّى الكواكب مصابيح لإنارتها و إضاءتها و قد تقدم كلام فى ذلك فى تفسير سوره حم السجده.

و قوله: وَ جَعَلْنٰاهٰا رُجُوماً لِلشَّيٰاطِينِ أى و جعلنا الكواكب التى زيّنا بها السماء رجوما يرجم بها من استرق السمع من الشياطين كما قال تعالى: إِلاّٰ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ

فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ مُبِينٌ (الحجر١٨/)،و قال: إِلاّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ ثٰاقِبٌ (الصافات١٠/).

قيل:إن الجمله دليل أن المراد بالكواكب المزينه بها السماء مجموع الكواكب الأصليه و الشهب السماويه فإن الكواكب الأصليه لا تزول عن مستقرها و الكواكب و النجم يطلقان على الشهب كما يطلقان على الأجرام الأصليه.

و قيل:تنفصل من الكواكب شهب تكون رجوما للشياطين أما الكواكب أنفسها فليست تزول إلاّ أن يريد اللّه إفناءها.

و هذا الوجه أوفق للأنظار العلميه الحاضره،و قد تقدم بعض الكلام فى معنى رمى الشياطين بالشهب.

و قوله: وَ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰابَ السَّعِيرِ أى و هيأنا للشياطين و هم أشرار الجن عذاب النار المسعره المشتعله.

قوله تعالى: وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذٰابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ لما أورد بعض آيات ربوبيته تعالى عقبها بالوعيد على من كفر بربوبيته على ما هو شأن هذه السوره من تداخل الحجج و الوعيد و الإنذار.

و المراد بالذين كفروا بربوبيته أعم من الوثنيين النافين لربوبيته لغير أربابهم القائلين بأنه تعالى رب الأرباب فقط،و النافين لها مطلقا و المثبتين لربوبيته مع التفريق بينه و بين رسله كاليهود و النصارى حيث آمنوا ببعض رسله و كفروا ببعض.

و الآيه مع ذلك متصله بقوله: «الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيٰاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ» لما فيها من الإشاره الى البعث و الجزاء متصله بما قبلها كالتعميم بعد التخصيص.

قوله تعالى: إِذٰا أُلْقُوا فِيهٰا سَمِعُوا لَهٰا شَهِيقاً وَ هِىَ تَفُورُ تَكٰادُ تَمَيَّزُ مِنَ

الْغَيْظِ قال الراغب:الشهيق طول الزفير و هو رد النفس و الزفير مده انتهى،و الفوران كما فى المجمع ارتفاع الغليان،و التميز:التقطع و التفرق،و الغيظ:شده الغضب،و المعنى:إذا طرح الكفار فى جهنم سمعوا لها شهيقا-أى تجذبهم الى داخلها كما يجذب الهواء بالشهيق الى داخل الصدر-و هى تغلى بهم فترفعهم و تخفضهم تكاد تتلاشى من شده الغضب.

قوله تعالى: كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ الفوج -كما قاله الراغب-الجماعه الماره المسرعه،و فى قوله: «كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ» إشاره الى أن الكفار يلقون فى النار جماعه جماعه كما يشير اليه قوله: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً (الزمر ٧١/)،و إنما يلقون كذلك بلحوق التابعين لمتبوعيهم فى الضلال كما قال تعالى:

وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ (الأنفال٣٧/)،و قد تقدم بعض توضيحه فى ذيل الآيه من سوره الأنفال.

و الخزنه جمع خازن و هو الحافظ على الشىء المدخر و المراد بهم الملائكه الموكلون على النار المدبرون لأنواع عذابها قال تعالى: عَلَيْهَا مَلاٰئِكَةٌ غِلاٰظٌ شِدٰادٌ (التحريم٦/)، و قال: وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا سَقَرُ -الى أن قال- عَلَيْهٰا تِسْعَةَ عَشَرَ وَ مٰا جَعَلْنٰا أَصْحٰابَ النّٰارِ إِلاّٰ مَلاٰئِكَةً (المدثر ٣١/).

و المعنى:كلما طرح فى جهنم جماعه من جماعات الكفار المسوقين إليها سألهم الملائكه الموكلون على النار الحافظون لها-توبيخا-أ لم يأتكم نذير؟و هو النبى المنذر.

قوله تعالى: قٰالُوا بَلىٰ قَدْ جٰاءَنٰا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنٰا الى آخر الآيه؛حكايه جوابهم لسؤال الخزنه،و فيه تصديق أنهم قد جاءهم نذير فنسبوه الى الكذب و اعتراف.

و قوله: مٰا نَزَّلَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ بيان لتكذيبهم،و كذا قوله: «إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ كَبِيرٍ» و قيل:قوله: «إِنْ أَنْتُمْ» الخ؛كلام الملائكه يخاطبون به الكفار بعد جوابهم عن سؤالهم بما أجابوا،و هو بعيد من السياق،و كذا احتمال كونه من كلام الرسل الذين كذبوهم تحكيه

الملائکه لاولئک الکفار.

قوله تعالی: وَ قَالُوا لَوْ کُنّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما کُنّا فِی أَصْحابِ السَّعِیرِ یطلق السمع و یراد به إدراک الصوت و القول بالجارحه و ربما یراد به ما هو الغایه منه عند العقلاء و هو الالتزام بمقتضاه من الفعل و الترک،و یطلق العقل علی تمییز الخیر من الشر و النافع من الضار،و ربما یراد به ما هو الغایه منه و هو الالتزام بمقتضاه من طلب الخیر و النافع و اجتناب الشر و الضر،قال تعالی: لَهُمْ قُلُوبٌ لا یَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْیُنٌ لا یُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا یَسْمَعُونَ بِها أُولئِکَ کَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ (الأعراف/۱۷۹).

و أکثر ما ینتفع بالسمع عامه الناس لقصورهم عن تعقل دقائق الامور و إدراک حقیقتها و الاهتداء الی مصالحها و مفاسدها و إنما ینتفع بالعقل الخاصه.

فقوله: لَوْ کُنّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ أرید بالسمع استجابه دعوه الرسل و الالتزام بمقتضی قولهم و هم النصحاء الامناء،و بالعقل الالتزام بمقتضی ما یدعون الیه من الحق بتعقله و الاهتداء العقلی الی أن حق و من الواجب أن یخضع الإنسان للحق.

و إنما قدم السمع علی العقل لأن استعماله من شأن عامه الناس و هم الأکثرون و العقل شأن الخاصه و هم آحاد قلیلون.

و المعنی:لو کنا فی الدنیا نطیع الرسل فی نصائحهم و مواعظهم أو عقلنا حجه الحق ما کنا الیوم فی أصحاب السعیر و هم مصاحبو النار المخلدون فیها.

و قیل:إنما جمع بین السمع و العقل لأن مدار التکلیف علی أدله السمع و العقل.

قوله تعالی: فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِیرِ کانوا إنما قالوا: «لَوْ کُنّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما کُنّا فِی أَصْحابِ السَّعِیرِ» ندامه علی ما فرّطوا فی جنب اللّه و فوّتوا علی أنفسهم من الخیر فاعترفوا بأن ما أتوا به کان تبعته دخول النار و کان علیهم أن لا یأتوا به، و هذا هو الذنب فقد اعترفوا بذنبهم.

و إنما أفرد الذنب بناء على إراده معنى المصدر منه و هو فى الأصل مصدر.

و قوله: فَسُحْقاً لِأَصْحٰابِ السَّعِيرِ السحق تفتيت الشىء كما ذكره الراغب و هو دعاء عليهم.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ لما ذكر حال الكفار و ما يجازون به على كفرهم قابله بحال المؤمنين بالغيب لتمام التقسيم و ذكر من وصفهم الخشيه لأن المقام مقام الإنذار و الوعيد.

و عدّ خشيتهم خشيه بالغيب لكون ما آمنوا به محجوبا عنهم تحت حجب الغيب.

قوله تعالى: وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ رفع شبهه يمكن أن تختلج فى قلوبهم مبنيه على الاستبعاد و ذلك أنه تعالى ساق الكلام فى بيان ربوبيته لكل شىء المستتبعه للبعث و الجزاء و ذكر ملكه و قدرته المطلقين و خلقه و تدبيره و لم يذكر علمه المحيط بهم و بأحوالهم و أعمالهم و هو مما لا يتم البعث و الجزاء بدونه.

و كان من الممكن أن يتوهموا أن الأعمال على كثرتها الخارجه عن الإحصاء لا يتأتى ضبطها و خاصه ما تكنّه الصدور منها فإن الإنسان يقيس الأشياء بنفسه و يزنها بزنه نفسه و هو غير قادر على إحصاء جزئيات الأعمال التى هى حركات مختلفه متقضيه و خاصه أعمال القلوب المستكنّه فى زواياها.

فدفعه بأن إظهار القول و إخفاءه سواء بالنسبه اليه تعالى فإنه عليم بذات الصدور، و السياق يشهد أن المراد استواء خفايا الأعمال و جلاياها بالنسبه اليه،و إنما ذكر إسرار القول و جهره من حيث ظهور معنى الخفاء و الظهور فيه بالجهر و الإسرار.

قوله تعالى: أَ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ استفهام إنكارى مأخوذ حجه على علمه تعالى بأعمال الخلق ظاهرها و باطنها و سرّها و جهرها و ذلك أن أعمال الخلق-و من جملتها أعمال الإنسان الاختياريه-و إن نسبت الى فواعلها لكن اللّه

سبحانه هو الذی یریدها و یوجدها من طریق اختیار الإنسان و اقتضاء سائر الأسباب فهو الخالق لأعیان الأشیاء و المقدر لها آثارها کیفما کانت و الرابط بینها و بین آثارها الموصل لها الی آثارها،قال تعالی: اَللّٰهُ خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ (الزمر/۶۲)، و قال: اَلَّذِی خَلَقَ فَسَوّٰی وَ الَّذِی قَدَّرَ فَهَدیٰ (الأعلی/۳)،فهو سبحانه محیط بعین من خلقه و أثره و من أثره أعماله الظاهره و الباطنه و ما أسرّه و ما جهر به و کیف یحیط به و لا یعلمه.

و فی الآیه إشاره الی أن أحوال الأشیاء و أعمالها غیر خارجه عن خلقها لأنه تعالی استدلّ بعلمه بمن خلق علی علمه بخصوصیات أحواله و أعماله و لو لا کون الأحوال و الأعمال غیر خارجه عن وجود موضوعاتها لم یتم الاستدلال.

علی أن الأحوال و الأعمال من مقتضیات موضوعاتها و الذی ینتسب الیه وجود الشیء ینتسب الیه آثار وجوده.

و قوله: وَ هُوَ اللَّطِیفُ الْخَبِیرُ أی النافذ فی بواطن الأشیاء المطّلع علی جزئیات وجودها و آثارها،و الجمله حالیه تعلل ما قبلها و الاسمان الکریمان من الأسماء الحسنی ذیّلت بهما الآیه لتأکید مضمونها.

[سوره الملک (۶۷): الآیات ۱۵ الی ۲۲]

هُوَ اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اَلْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِی مَنٰاکِبِهٰا وَ کُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَیْهِ اَلنُّشُورُ (۱۵) أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِی اَلسَّمٰاءِ أَنْ یَخْسِفَ بِکُمُ اَلْأَرْضَ فَإِذٰا هِیَ تَمُورُ (۱۶) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِی اَلسَّمٰاءِ أَنْ یُرْسِلَ عَلَیْکُمْ حٰاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ کَیْفَ نَذِیرِ (۱۷) وَ لَقَدْ کَذَّبَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَکَیْفَ کٰانَ نَکِیرِ (۱۸) أَ وَ لَمْ یَرَوْا إِلَی اَلطَّیْرِ فَوْقَهُمْ صٰافّٰاتٍ وَ یَقْبِضْنَ مٰا یُمْسِکُهُنَّ إِلاَّ اَلرَّحْمٰنُ إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ بَصِیرٌ (۱۹) أَمَّنْ هٰذَا اَلَّذِی هُوَ جُنْدٌ لَکُمْ یَنْصُرُکُمْ مِنْ دُونِ اَلرَّحْمٰنِ إِنِ اَلْکٰافِرُونَ إِلاّٰ فِی غُرُورٍ (۲۰) أَمَّنْ هٰذَا اَلَّذِی یَرْزُقُکُمْ إِنْ أَمْسَکَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِی عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ (۲۱) أَ فَمَنْ یَمْشِی مُکِبًّا عَلیٰ وَجْهِهِ أَهْدیٰ أَمَّنْ یَمْشِی سَوِیًّا عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۲۲)

ص: ۳۸۰

بیان:

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِی مَنٰاکِبِهٰا وَ کُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَیْهِ النُّشُورُ الذلول من المراکب ما یسهل رکوبه من غیر أن یضطرب و یجمح و المناکب جمع منکب و هو مجتمع ما بین العضد و الکتف و استعیر لسطح الأرض،قال الراغب:و استعارته للأرض کاستعاره الظهر لها فی قوله: «مٰا تَرَکَ عَلیٰ ظَهْرِهٰا مِنْ دَابَّهٍ» و تسمیه الأرض ذلولا و جعل ظهورها مناکب لها یستقر علیها و یمشی فیها باعتبار انقیادها لأنواع التصرفات الإنسانیه من غیر امتناع،و قد وجّه کونها ذلولا ذا مناکب بوجوه مختلفه تؤل جمیعها الی ما ذکرنا.

و الأمر فی قوله: «وَ کُلُوا مِنْ رِزْقِهِ» للإباحه و النشور و النشر إحیاء المیت بعد موته و أصله

من نشر الصحيفه و الثوب إذا بسطهما بعد طيّهما.

و المعنى:هو الذى جعل الأرض مطاوعه منقاده لكم يمكنكم أن تستقروا على ظهورها و تمشوا فيها تأكلون من رزقه الذى قدّره لكم بأنواع الطلب و التصرف فيها.

و قوله: وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ أى و يرجع اليه نشر الأموات بإخراجهم من الأرض و إحيائهم للحساب و الجزاء،و اختصاص رجوع النشر به كنايه عن اختصاص الحكم بالنشور به و الإحياء يوم القيامه فهو ربكم المدبّر لأمر حياتكم الدنيا بالإقرار على الأرض و الهدايه الى مآرب الحياه،و له الحكم بالنشور للحساب و الجزاء.

و فى عدّ الأرض فلو لا و البشر على مناكبها تلويح ظاهر الى ما أدّت اليه الأبحاث العلميه أخيرا من كون الأرض كره سيّاره.

قوله تعالى: أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمٰاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذٰا هِيَ تَمُورُ إنذار و تخويف بعد إقامه الحجه و توبيخ على مساهلتهم فى أمر الربوبيه و إهمالهم أمر الشكر على نعم ربهم بالخضوع لربوبيته و رفض ما اختلقوه من الأنداد.

و المراد بمن فى السماء الملائكه المقيمون فيها الموكلون على حوادث الكون و إرجاع ضمير الإفراد الى «مَنْ» باعتبار لفظه و خسف الأرض بقوم كذا شقها و تغييبهم فى بطنها و المور على ما فى المجمع التردد فى الذهاب و المجىء مثل الموج.

و المعنى:أ أمنتم فى كفركم بربوبيته تعالى الملائكه المقيمين فى السماء الموكلين بامور العالم أن يشقوا الأرض و يغيّبوكم فيها بأمر اللّه فإذا الأرض تضطرب ذهابا و مجيئا بزلزالها.

قوله تعالى: أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمٰاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حٰاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ الحاصب الريح التى تأتى بالحصاه و الحجاره،و المعنى:أ أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم ريحا ذات حصاه و حجاره كما أرسلها على قوم لوط قال تعالى: إِنّٰا أَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ حٰاصِباً إِلاّٰ آلَ لُوطٍ (القمر۳۴/).

و قوله: فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ النـذير مصـدر بمعنى الإنـذار و الجمله متفرعه على مـا يفهم من سـابق الكلام من كفرهم بربوبيته تعالى و أمنهم من عذابه و المعنى ظاهر.

قـوله تعـالى: وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ المراد بـالنكير العقوبه و تغيير النعمه أو الإنكـار،و الآـيه كالشـاهد يستشهد به على صدق ما فى قوله:

«فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ» من الوعيد و التهديد.

و المعنى:و لقد كذب الذين من قبلهم من الامم الهالكه رسلى و جحدوا بربوبيتى فكيف كان عقوبتى و تغييرى النعمه عليهم أو كيف كان إنكارى ذلك عليهم حيث أهلكتهم و استأصلتهم.

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ المراد بكون الطير فوقهم طيرانه فى الهواء،و صـفيف الطير بسـطه جنـاحه حـال الطيران و قبضه قبض جنـاحه حـاله،و الجمع فى «صَافّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ» لكون المراد بالطير استغراق الجنس.

و قوله: مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمٰنُ كالجواب لسؤال مقـدّر كأن سائلا يسأل فيقول:ما هو المراد بإلفات نظرهم الى صـفيف الطير و قبضه فوقهم؟فاجيب بقوله: «مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمٰنُ» .

و قرار الطير حـال الطيران فى الهواء من غير سـقوط و إن كـان مسـتندا الى أسـباب طـبيعيه كقرار الإنسـان على بسـيط الأـرض و السـمك فى الماء و سائر الامور الطبيعيه المستنده الى علل طبيعيه تنتهى اليه تعالى لكن لما كان بعض الحوادث غير ظاهر السبب للإنسان فى بادى النظر سهل له إذا نظر اليه أن ينتقل الى أن اللّه سبحانه هو السبب الأعلى الذى ينتهى اليه حدوثه و وجوده،و لذا نبههم اللّه سبحانه فى كلامه بإرجاع نظرهم إليها و دلالتهم على وحدانيته فى الربوبيه.

و قد ورد فی کلامه تعالی شیء کثیر من هذا القبیل کامساک السماوات بغیر عمد و إمساک الأرض و حفظ السفن علی الماء و اختلاف الأثمار و الألوان و الألسنه و غیرها مما کان سببه الطبیعی القریب خفیا فی الجمله یسهل للذهن الساذج الانتقال الی استناده الیه تعالی ثم إذا تنبه لوجود أسبابه القریبه بنوع من المجاهده الفکریه وجد الحاجه بعینها فی أسبابه حتی تنتهی الیه تعالی و أن الی ربک المنتهی.

قوله تعالی: أَمَّنْ هٰذَا الَّذِی هُوَ جُنْدٌ لَکُمْ یَنْصُرُکُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ إِنِ الْکٰافِرُونَ إِلاّٰ فِی غُرُورٍ توبیخ و تقریع لهم فی اتخاذهم آلهه من دون اللّه لینصروهم و لذا التفت عن الغیبه الی الخطاب فخاطبهم لیشتد علیهم التقریع.

و قوله: «أَمَّنْ هٰذَا الَّذِی» الخ؛معناه بل من الذی یشار الیه فیقال:هذا جند لکم ینصرکم من دون الرحمن إن أرادکم بسوء أو عذاب؟فلیس دون اللّه من ینصرکم علیه،و فیه إشاره الی خطئهم فی اتخاذ بعض خلق اللّه آلهه لینصروهم فی النوائب و هم مملوکون للّه لا یملکون لأنفسهم نفعا و ضرا و لا لغیرهم.

و إذ لم یکن لهم جواب أجاب تعالی بقوله: «إِنِ الْکٰافِرُونَ إِلاّٰ فِی غُرُورٍ» أی أحاط بهم الغرور و غشیهم فخیل الیهم ما یدعون من ألوهیه آلهتهم.

قوله تعالی: أَمَّنْ هٰذَا الَّذِی یَرْزُقُکُمْ إِنْ أَمْسَکَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِی عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ أی بل من الذی یشار الیه بأن هذا هو الذی یرزقکم إن أمسک اللّه رزقه فینوب مقامه فیرزقکم؟ثم أجاب سبحانه بقوله: «بَلْ لَجُّوا فِی عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ» أی إن الحق قد تبین لهم لکنهم لا یخضعون للحق بتصدیقه ثم اتباعه بل تمادوا فی ابتعادهم من الحقّ و نفورهم منه، و لجوا فی ذلک.

قوله تعالی: أَ فَمَنْ یَمْشِی مُکِبًّا عَلیٰ وَجْهِهِ أَهْدیٰ أَمَّنْ یَمْشِی سَوِیًّا عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ إکباب الشیء علی وجهه إسقاطه علیه،و قال فی الکشاف:معنی

أكبّ دخل فى الكب و صار ذا كب.

استفهام إنكارى عن استواء الحالين تعريضا لهم بعد ضرب حجاب الغيبه عليهم و تحريمهم من تشريف الحضور و الخطاب بعد استقرار اللجاج فيهم،و المراد أنهم بلجاجهم فى عتو عجيب و نفور من الحق كمن يسلكك سبيلا و هو مكب على وجه لا يرى ما فى الطريق من ارتفاع و انخفاض و مزالق و معاثر فليس هذا السائر كمن يمشى سويا على صراط مستقيم فيرى موضع قدمه و ما يواجهه من الطريق على استقامه،و ما يقصده من الغايه و هؤلاء الكفار سائرون سبيل الحياه و هم يعاندون الحق على علم به فيغمضون عن معرفه ما عليهم أن يعرفوه و العمل بما عليهم أن يعملوا به و لا يخضعون للحق حتى يكونوا على بصيره من الأمر و يسلكوا سبيل الحياه و هم مستوون على صراط مستقيم فيأمنوا الهلاك.

و قد ظهر أن ما فى الآيه مثل عام يمثل حال الكافر الجاهل اللجوج المتمادى على جهله و المؤمن المستبصر الباحث عن الحق.

[سوره الملك (۶۷): الآيات ۲۳ الى ۳۰]

قُلْ هُوَ اَلَّذِى أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ اَلسَّمْعَ وَ اَلْأَبْصٰارَ وَ اَلْأَفْئِدَهَ قَلِيلاً مٰا تَشْكُرُونَ (۲۳) قُلْ هُوَ اَلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى اَلْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۴) وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا اَلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۲۵) قُلْ إِنَّمَا اَلْعِلْمُ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ إِنَّمٰا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲۶) فَلَمّٰا رَأَوْهُ زُلْفَهً سِيئَتْ وُجُوهُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ قِيلَ هٰذَا اَلَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (۲۷) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اَللّٰهُ وَ مَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنٰا فَمَنْ يُجِيرُ اَلْكٰافِرِينَ مِنْ عَذٰابٍ أَلِيمٍ (۲۸) قُلْ هُوَ اَلرَّحْمٰنُ آمَنّٰا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنٰا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۲۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مٰاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمٰاءٍ مَعِينٍ (۳۰)

بیان:

قوله تعالی: قُلْ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَکُمْ وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصٰارَ وَ الْأَفْئِدَهَ قَلِیلاً مٰا تَشْکُرُونَ الإنشاء إحداث الشیء ابتداء و تربیته.

ما فی ذیل الآیه من لحن العتاب فی قوله: «قَلِیلاً مٰا تَشْکُرُونَ» و قد تکرّر نظیره فی غیر موضع من کلامه کما فی سوره المؤمنون (۱)و الم السجده (۲)یدلّ علی أن إنشاءه تعالی الإنسان و تجهیزه بجهاز الحس و الفکر من أعظم نعمه تعالی التی لا یقدّر قدرها.

و لیس المراد بإنشائه مجرد خلقه کیفما کان بل خلقه و إحداثه من دون سابقه فی مادته کما أشار الیه فی قوله یصف خلقه طورا بعد طور: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ مِنْ سُلاٰلَهٍ مِنْ طِینٍ ثُمَّ جَعَلْنٰاهُ نُطْفَهً فِی قَرٰارٍ مَکِینٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَهَ عَلَقَهً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَهَ مُضْغَهً – الی أن قال- ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ (المؤمنون/۱۴)،فصیروره المضغه إنسانا سمیعا بصیرا متفکرا بترکیب النفس الإنسانیه علیها خلق آخر لا یسانخ أنواع الخلقه المادیه الوارده علی ماده الإنسان من أخذها من الأرض ثم جعلها نطفه ثم علقه ثم مضغه فإنما هی أطوار مادیه متعاقبه بخلاف صیرورتها إنسانا ذا شعور فلا سابقه لها تماثلها أو تشابهها فهو الإنشاء.

۱- ۱) .الآیه ۷۸.

۲- ۲) .الآیه ۹.

و مثله قوله: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكَمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (الروم۲۰/) (انظر الى موضع إذا الفجائيه).

فقوله: هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ إشاره الى خلق الإنسان.

و قوله: وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَهَ إشاره الى تجهيزه بجهاز الحسّ و الفكر،و الجعل إنشائى كجعل نفس الإنسان كما يشير اليه قوله: وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَهَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (المؤمنون۷۸/).

و قوله: قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ أى تشكرون قليلا على هذه النعمه-أو النعم- العظمى فما زائده و قليلا مفعول مطلق تقديره تشكرون شكرا قليلا،و قيل:ما مصدريه و المعنى:قليلا شكركم.

قوله تعالى: قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ الذرء الخلق و المراد بذرئهم فى الأرض خلقهم متعلقين بالأرض فلا يتم لهم كمالهم إلاّ بأعمال متعلقه بالماده الأرضيه بما زينها اللّه تعالى بما تنجذب اليه النفس الإنسانيه فى حياتها المعجله ليمتاز به الصالح من الطالح قال تعالى: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَهً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ إِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً (الكهف۸/).

و قوله: وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ إشاره الى البعث و الجزاء و وعد جازم.

قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ المراد بهذا الوعد الحشر الموعود،و هو استعجال منهم استهزاء.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ جواب عن قولهم:

«مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ» الخ؛و محصله أن العلم به عند اللّه لا يعلم به إلاّ هو كما قال: لاٰ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاّٰ هُوَ (الأعراف۱۸۷/)،و ليس لى إلاّ أنى نذير مبين أمرت أن أخبركم أنكم اليه تحشرون و أما أنه متى هو فليس لى بذلك علم.

هذا علی ما یفیده وقوع الآیه فی سیاق الجواب عن السؤال عن وقت الحشر،و علی هذا تکون اللام فی العلم للعهد،و المراد العلم بوقت الحشر،و أما لو کانت للجنس علی ما تفیده جمله «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ» فی نفسها فالمعنی:إنما حقیقه العلم عند اللّه و لا یحاط بشیء منه إلاّ بإذنه کما قال: وَ لاٰ یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ (البقره/۲۵۵)،و لم یشأن أن أعلم من ذلک إلاّ أنه سیقع و أنذرکم به و أما أنه متی یقع فلا علم لی به.

قوله تعالی: فَلَمّٰا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِیئَتْ وُجُوهُ الَّذِینَ کَفَرُوا الخ؛الزلفه القرب و المراد به القریب أو هو من باب زید عدل،و ضمیر «رَأَوْهُ» للوعد و قیل للعذاب و المعنی:

فلما رأوا الوعد المذکور قریبا قد أشرف علیهم ساء ذلک وجوه الذین کفروا به فظهر فی سیماهم أثر الخیبه و الخسران.

و قوله: وَ قِیلَ هٰذَا الَّذِی کُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ قیل تدعون و تدّعون بمعنی واحد کتدخرون و تدّخرون و المعنی:و قیل لهم:هذا هو الوعد الذی کنتم تسألونه و تستعجلون به بقولکم:متی هذا الوعد،و ظاهر السیاق أن القائل هم الملائکه بأمر من اللّه،و قیل القائل من الکفار یقوله بعضهم لبعض.

قوله تعالی: قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ أَهْلَکَنِیَ اللّٰهُ وَ مَنْ مَعِیَ أَوْ رَحِمَنٰا فَمَنْ یُجِیرُ الْکٰافِرِینَ مِنْ عَذٰابٍ أَلِیمٍ «إِنْ» شرطیه شرطها قوله: «أَهْلَکَنِیَ اللّٰهُ» و جزاؤها قوله:

«فَمَنْ یُجِیرُ» الخ؛و المعنی:قل لهم أخبرونی إن أهلکنی اللّه و من معی من المؤمنین أو رحمنا فلم یهلکنا فمن الذی یجیر و یعید الکافرین-و هم أنتم کفرتم باللّه فاستحققتم ألیم العذاب-من عذاب ألیم یهددهم تهدیدا قاطعا أی إن هلاکی و من معی و بقاؤنا برحمه ربی لا ینفعکم شیئا فی العذاب الذی سیصیبکم قطعا بکفرکم باللّه.

قیل:إن کفار مکه کانوا یدعون علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و علی المؤمنین بالهلاک فأمر صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و علی المؤمنین بالهلاک فأمر صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یقول لهم إن أهلکنا اللّه تعالی أو أبقانا فأمرنا الی اللّه

و نرجو الخير من رحمته و أما أنتم فما تصنعون؟من يجيركم من أليم العذاب على كفركم باللّه؟

قوله تعالى: قُلْ هُوَ الرَّحْمٰنُ آمَنّٰا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنٰا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ الضمير للذى يدعو الى توحيده و هم يدعونه عليه،و المعنى:قل الذى أدعوكم الى توحيده و تدعونه على و على من معى هو الرحمن الذى عمت نعمته كل شىء آمنا به و على توكلنا من غير أن نميل و نعتمد على شىء دونه فستعلمون أيها الكفار من هو فى ضلال مبين؟نحن أم أنتم؟

قوله تعالى: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مٰاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمٰاءٍ مَعِينٍ الغور ذهاب الماء و نضوبه فى الأرض و المراد به الغائر،و المعين الظاهر الجارى من الماء، و المعنى:أخبرونى إن صار ماؤكم غائرا ناضبا فى الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر جار.

و هناك روايات تطبّق الآيات على ولايه على عليه السّلام و محادّته،و هى من الجرى و ليست بمفسّره.

ص: ٣٨٩

سوره القلم مکیه و هی اثنتان و خمسون آیه

اشاره

[سوره القلم (۶۸): الآیات ۱ الی ۳۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;ن وَ اَلْقَلَمِ وَ مٰا یَسْطُرُونَ (۱) مٰا أَنْتَ بِنِعْمَهِ رَبِّکَ بِمَجْنُونٍ (۲) وَ إِنَّ لَکَ لَأَجْراً غَیْرَ مَمْنُونٍ (۳) وَ إِنَّکَ لَعَلیٰ خُلُقٍ عَظِیمٍ (۴) فَسَتُبْصِرُ وَ یُبْصِرُونَ (۵) بِأَیِّکُمُ اَلْمَفْتُونُ (۶) إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ (۷) فَلاٰ تُطِعِ اَلْمُکَذِّبِینَ (۸) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَیُدْهِنُونَ (۹) وَ لاٰ تُطِعْ کُلَّ حَلاّٰفٍ مَهِینٍ (۱۰) هَمّٰازٍ مَشّٰاءٍ بِنَمِیمٍ (۱۱) مَنّٰاعٍ لِلْخَیْرِ مُعْتَدٍ أَثِیمٍ (۱۲) عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِکَ زَنِیمٍ (۱۳) أَنْ کٰانَ ذٰا مٰالٍ وَ بَنِینَ (۱۴) إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِ آیٰاتُنٰا قٰالَ أَسٰاطِیرُ اَلْأَوَّلِینَ (۱۵) سَنَسِمُهُ عَلَی اَلْخُرْطُومِ (۱۶) إِنّٰا بَلَوْنٰاهُمْ کَمٰا بَلَوْنٰا أَصْحٰابَ اَلْجَنَّهِ إِذْ أَقْسَمُوا لَیَصْرِمُنَّهٰا مُصْبِحِینَ (۱۷) وَ لاٰ یَسْتَثْنُونَ (۱۸) فَطٰافَ عَلَیْهٰا طٰائِفٌ مِنْ رَبِّکَ وَ هُمْ نٰائِمُونَ (۱۹) فَأَصْبَحَتْ کَالصَّرِیمِ (۲۰) فَتَنٰادَوْا مُصْبِحِینَ (۲۱) أَنِ اُغْدُوا عَلیٰ حَرْثِکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صٰارِمِینَ (۲۲) فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ یَتَخٰافَتُونَ (۲۳) أَنْ لاٰ یَدْخُلَنَّهَا اَلْیَوْمَ عَلَیْکُمْ مِسْکِینٌ (۲۴) وَ غَدَوْا عَلیٰ حَرْدٍ قٰادِرِینَ (۲۵) فَلَمّٰا رَأَوْهٰا قٰالُوا إِنّٰا لَضَالُّونَ (۲۶) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (۲۷) قٰالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَکُمْ لَوْ لاٰ تُسَبِّحُونَ (۲۸) قٰالُوا سُبْحٰانَ رَبِّنٰا إِنّٰا کُنّٰا ظٰالِمِینَ (۲۹) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ یَتَلاٰوَمُونَ (۳۰) قٰالُوا یٰا وَیْلَنٰا إِنّٰا کُنّٰا طٰاغِینَ (۳۱) عَسیٰ رَبُّنٰا أَنْ یُبْدِلَنٰا خَیْراً مِنْهٰا إِنّٰا إِلیٰ رَبِّنٰا رٰاغِبُونَ (۳۲) کَذٰلِکَ اَلْعَذٰابُ وَ لَعَذٰابُ اَلْآخِرَهِ أَکْبَرُ لَوْ کٰانُوا یَعْلَمُونَ (۳۳)

بيان:

السوره تعزّی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إثر ما رماه المشرکون بالجنوب و تطیّب نفسه بالوعد الجمیل و الشکر علی خلقه العظیم و تنهاه نهیا بالغا عن طاعتهم و مداهنتهم،و تأمره أمرا أکیدا بالصبر لحکم ربه.

و سیاق آیاتها علی الجمله سیاق مکی،و نقل عن ابن عباس و قتاده أن صدرها الی قوله:

سنسمه علی الخرطوم-سته عشره آیه-مکی،و ما بعده الی قوله:لو کانوا یعلمون-سبع عشره آیه-مدنی،و ما بعده الی قوله:یکتبون-خمس عشره آیه-مکی،و ما بعده الی آخر السوره-أربع آیات-مدنی.

و لا یخلو من وجه بالنسبه الی الآیات السبع عشره «إِنّا بَلَوْناهُمْ -الی قوله- لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ» فإنها أشبه بالمدنیه منها بالمکیه.

قوله تعالی: ن تقدم الکلام فی الحروف المقطعه التی فی أوائل السور فی تفسیر سوره الشوری.

قوله تعالی: وَ الْقَلَمِ وَ ما یَسْطُرُونَ القلم معروف،و السطر بالفتح فالسکون و ربما یستعمل بفتحتین-کما فی المفردات-الصف من الکتابه،و من الشجر المغروس و من القوم الوقوف و سطر فلان کذا کتب سطرا سطرا.

أقسم سبحانه بالقلم و ما يسطرون به و ظاهر السياق أن المراد بذلک مطلق القلم و مطلق ما يسطرون به و هو المکتوب فإن القلم و ما يسطر به من الکتابه من أعظم النعم الإلهيه التی اهتدی إليها الإنسان يتلو الکلام فی ضبط الحوادث الغائبه عن الأنظار و المعانی المستکنه فی الضمائر،و به يتيسر للإنسان أن يستحضر کل ما ضرب مرور الزمان أو بعد المکان دونه حجابا.

و قد امتنّ اللّه سبحانه علی الإنسان بهدايته اليهما و تعليمهما له فقال فی الکلام: خَلَقَ الْإِنْسٰانَ عَلَّمَهُ الْبَيٰانَ (الرحمن۴/)،و قال فی القلم: عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسٰانَ مٰا لَمْ يَعْلَمْ (العلق۵/).

فإقسامه تعالی بالقلم و ما يسطرون إقسام بالنعمه،و قد أقسم تعالی فی کلامه بکثير من خلقه بما أنه رحمه و نعمه کالسماء و الأرض و الشمس و القمر و الليل و النهار الی غير ذلک حتی التين و الزيتون.

قوله تعالی: مٰا أَنْتَ بِنِعْمَهِ رَبِّکَ بِمَجْنُونٍ مقسم عليه و الخطاب للنبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم، و الباء فی «بِنِعْمَهِ» للسببيه أو المصاحبه أی ما أنت بمجنون بسبب النعمه-أو مع النعمه-التی أنعمها عليک ربک.

و السياق يؤيد أن المراد بهذه النعمه النبوه فإن دليل النبوه يدفع عن النبی کل اختلال عقلی حتی تستقيم الهدايه الإلهيه اللازمه فی نظام الحياه الإنسانيه،و الآيه ترد ما رموه به من الجنون کما يحکی عنهم فی آخر السوره «وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ» .

قوله تعالی: وَ إِنَّ لَکَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ الممنون من المن بمعنی القطع يقال:منّه السير منا إذا قطعه و أضعفه لا من المنه بمعنی تثقيل النعمه قولا.

و المراد بالأجر أجر الرساله عند اللّه سبحانه،و فيه تطييب لنفس النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و أن له علی تحمل رساله اللّه أجرا غير مقطوع و ليس يذهب سدی.

قوله تعالی: وَ إِنَّکَ لَعَلیٰ خُلُقٍ عَظِیمٍ الخلق هو الملکه النفسانیه التی تصدر عنها الأفعال بسهوله و ینقسم الی الفضیله و هی الممدوحه کالعفه و الشجاعه،و الرذیله و هی المذمومه کالشره و الجبن لکنه إذا أطلق فهم منه الخلق الحسن.

قال الراغب:و الخلق-بفتح الخاء-و الخلق-بضم الخاء-فی الأصل واحد کالشرب و الشرب و الصرم و الصرم لکن خصّ الخلق-بالفتح-بالهیآت و الأشکال و الصور المدرکه بالبصر،و خص الخلق-بالضم-بالقوی و السجایا المدرکه بالبصیره قال تعالی: «وَ إِنَّکَ لَعَلیٰ خُلُقٍ عَظِیمٍ» انتهی.

و الآیه و إن کانت فی نفسها تمدح حسن خلقه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تعظمه غیر أنها بالنظر الی خصوص السیاق ناظره الی أخلاقه الجمیله الاجتماعیه المتعلقه بالمعاشره کالثبات علی الحق و الصبر علی أذی الناس و جفاء أجلافهم و العفو و الإغماض و سعه البذل و الرفق و المداراه و التواضع و غیر ذلک،و قد أوردنا فی آخر الجزء السادس من الکتاب ما روی فی جوامع أخلاقه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

قوله تعالی: فَسَتُبْصِرُ وَ یُبْصِرُونَ بِأَیِّکُمُ الْمَفْتُونُ تفریع علی محصل ما تقدم أی فإذا لم تکن مجنونا بل متلبسا بالنبوه و متخلقا بالخلق و لک عظیم الأجر من ربک فسیظهر أمر دعوتک و ینکشف علی الأبصار و البصائر من المفتون بالجنون أنت أو المکذبون الرامون لک بالجنون.

و قیل:المراد ظهور عاقبه أمر الدعوه له و لهم فی الدنیا أو فی الآخره؟الآیه تقبل الحمل علی کل منها.و لکل قائل،و لا مانع من الجمع فإن اللّه تعالی أظهر نبیه علیهم و دینه علی دینهم،و رفع ذکره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و محا أثرهم فی الدنیا و سیذوقون وبال أمرهم غدا و یعلمون (1)أن اللّه

1- 1) .النور35/.

هو الحق المبين يوم هم (۱)على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الذی كنتم به تستعجلون.

و قوله: بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ الباء زائده للصله،و المفتون اسم مفعول من الفتنه بمعنی الابتلاء يريد به المبتلی بالجنون و فقدان العقل،و المعنی:فستبصر و يبصرون أيكم المفتون المبتلی بالجنون؟أنت أم هم؟

و قيل:المفتون مصدر علی زنه مفعول كمعقول و ميسور و معسور فی قولهم:ليس له معقول،و خذ ميسوره،و دع معسوره،و الباء فی «بِأَيِّكُمُ» بمعنی فی و المعنی:فستبصر و يبصرون فی أی الفريقين الفتنه.

قوله تعالی: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ لما أفيد بما تقدم من القول أن هناك ضلالا و اهتداء،و أشير الی أن الرامين للنبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بالجنون هم المفتونون الضالون و سيظهر أمرهم و أن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم مهتد و كان ذلك ببيان من اللّه سبحانه أكد ذلك بأن اللّه أعلم بمن ضلّ عن سبيله و هو أعلم بالمهتدين لأن سبيله و هو أعلم بمن هو فی سبيله و من ليس فيه و اليه أمر الهدايه.

قوله تعالی: فَلاٰ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ تفريع علی المحصل من معنی الآيات السابقه و فی المكذبين معنی العهد و المراد بالطاعه مطلق الموافقه عملا أو قولا،و المعنی:فإذا كان هؤلاء المكذبون لك مفتونين ضالين فلا تطعهم.

قوله تعالی: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ الإدهان من الدهن يراد به التليين أی ودّ و أحبّ هؤلاء المكذبون أن تليّنهم بالاقتراب منهم فی دينك فيليّنوك بالاقتراب منك فی دينهم،و محصله أنهم ودّوا أن تصالحهم و يصالحوك علی أن يتسامح كل منكم بعض المسامحه فی دين الآخر كما قيل:إنهم عرضوا عليه أن يكفّ عن ذكر آلهتهم فيكفّوا عنه و عن ربه.

۱- ۱) .الذاريات۱۴/.

و بما تقدم ظهر أن متعلق مودّتهم مجموع «لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ» و أن الفاء فى «فَيُدْهِنُونَ» للتفريع لا للسببيه.

قوله تعالى: وَ لاٰ تُطِعْ كُلَّ حَلاّٰفٍ مَهِينٍ -الى قوله- زَنِيمٍ الحلاف كثير الحلف، و لازم كثره الحلف و الإقسام فى كل يسير و خطير و حق و باطل أن لا يحترم الحالف شيئا مما يقسم به،و إذا كان حلفه باللّه فهو لا يستشعر عظمه اللّه عز اسمه و كفى به رذيله.

و المهين من المهانه بمعنى الحقاره و المراد به حقاره الرأى،و قيل:هو المكثار فى الشر،و قيل:

هو الكذاب.

و الهمّاز مبالغه من الهمز و المراد به العيّاب و الطعّان،و قيل:الطعّان بالعين و الإشاره و قيل:

كثير الاغتياب.

و المشّاء بنميم النميم:السعايه و الإفساد،و المشاء به هو نقّال الحديث من قوم الى قوم على وجه الإفساد بينهم.

و المنّاع للخير كثير المنع لفعل الخير أو للخير الذى ينال أهله.

و المعتدى من الاعتداء و هو المجاوزه للحدّ ظلما.

و الأثيم هو الذى كثر إثمه حتى استقر فيه من غير زوال و الإثم هو العمل السيئ الذى يبطئ الخير.

و العتلّ بضمتين هو الفظ الغليظ الطبع،و فسّر بالفاحش السيئ الخلق،و بالجافى الشديد الخصومه بالباطل،و بالأكول المنوع للغير،و بالذى يعتلّ الناس و يجرّهم الى حبس أو عذاب.

و الزنيم هو الذى لا أصل له،و قيل:هو الدعىّ الملحق بقوم و ليس منهم،و قيل:هو المعروف باللؤم،و قيل:هو الذى له علامه فى الشر يعرف بها و إذا ذكر الشر سبق هو الى الذهن،و المعانى متقاربه.

فهذه صفات تسع رذيله وصف اللّه بها بعض أعداء الدين ممن كان يدعو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الى الطاعه و المداهنه،و هى جماع الرذائل.

و قوله: عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيمٍ معناه أنه بعد ما ذكر من مثالبه و رذائله عتل زنيم قيل:و فيه دلاله على أن هاتين الرذيلتين أشد معايبه.

و الظاهر أن فيه إشاره الى أن له خبائث من الصفات لا ينبغى معها أن يطاع فى أمر الحق و لو أغمض عن تلك الصفات فإنه فظ خشن الطبع لا أصل له لا ينبغى أن يعبأ بمثله فى مجتمع بشرى فليطرد و لا يطع فى قول و لا يتّبع فى فعل.

قوله تعالى: أَنْ كٰانَ ذٰا مٰالٍ وَ بَنِينَ الظاهر أنه بتقدير لام التعليل و هو متعلق بفعل محصل من مجموع الصفات الرذيله المذكوره أى هو يفعل كذا و كذا لأن كان ذا مال و بنين فبطر بذلك و كفر بنعمه اللّه و تلبّس بكل رذيله خبيثه بدل أن يشكر اللّه على نعمته و يصلح نفسه،فالآيه فى إفاده الذم و التهكم تجرى مجرى قوله: «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرٰاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتٰاهُ اللّٰهُ الْمُلْكَ» .

قوله تعالى: إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آيٰاتُنٰا قٰالَ أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ الأساطير جمع اسطوره و هى القصه الخرافيه،و الآيه تجرى مجرى التعليل لقوله السابق: «لاٰ تُطِعْ» .

قوله تعالى: سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ الوسم و السمه وضع العلامه،و الخرطوم الأنف،و قيل:إن فى إطلاق الخرطوم على أنفه و إنما يطلق فى الفيل و الخنزير تهكما،و فى الآيه وعيد على عداوته الشديده للّه و رسوله و ما نزّله على رسوله.

و الظاهر أن الوسم على الأنف أريد به نهايه إذلاله بذلّه ظاهره يعرفه بها كل من رآه فإن الأنف مما يظهر فيه العزه و الذله كما يقال:شمخ فلان بأنفه و حمى فلان أنفه و أرغمت أنفه و جدع أنفه.

و الظاهر أن الوسم على الخرطوم مما سيقع يوم القيامه لا فى الدنيا و إن تكلف بعضهم فى

توجیه حمله علی فضاحته فی الدنیا.

قوله تعالی: إِنّٰا بَلَوْنٰاهُمْ کَمٰا بَلَوْنٰا أَصْحٰابَ الْجَنَّهِ -الی قوله- کَالصَّرِیمِ البلاء الاختبار و إصابه المصیبه،و الصرم قطع الثمار من الأشجار،و الاستثناء عزل البعض من حکم الکل و أیضا الاستثناء قول إن شاء اللّه عند القطع بقول و ذلک أن الأصل فیه الاستثناء فالأصل فی قولک:أخرج غدا إن شاء اللّه هو أخرج غدا إلاّ أن یشاء اللّه أن لا أخرج، و الطائف العذاب الذی یأتی باللیل،و الصریم الشجر المقطوع ثمره،و قیل:اللیل الأسود، و قیل:الرمل المقطوع من سائر الرمل و هو لا ینبت شیئا و لا یفید فائده.

فَطٰافَ عَلَیْهٰا علی الجنه «طٰائِفٌ» أی بلاء یطوف علیها و یحیط بها لیلا «مِنْ» ناحیه «رَبِّکَ ، فَأَصْبَحَتْ» و صارت الجنه «کَالصَّرِیمِ» و هو الشجر المقطوع ثمره أو المعنی:

فصارت الجنه کاللیل الأسود لما اسودّت بإحراق النار التی أرسلها اللّه إلیها أو المعنی:فصارت الجنه کالقطعه من الرمل لا نبات بها و لا فائده.

قوله تعالی: فَتَنٰادَوْا مُصْبِحِینَ -الی قوله- قٰادِرِینَ التنادی نداء بعض القوم بعضا،و الإصباح الدخول فی الإصباح،و صارمین من الصرم بمعنی قطع الثمار من الشجره، و المراد به فی الآیه القاصدون لقطع الثمار،و الحرث الزرع و الشجر،و الخفت الإخفاء و الکتمان، و الحرد المنع و قادرین من القدر بمعنی التقدیر.

و المعنی «فَتَنٰادَوْا» أی فنادی بعض القوم بعضا «مُصْبِحِینَ» أی و الحال أنهم داخلون فی الصباح «أَنِ اغْدُوا عَلیٰ حَرْثِکُمْ» تفسیر للتنادی أی بکروا مقبلین علی جنتکم-فاغدوا أمر بمعنی بکروا مضمن معنی أقبلوا و لذا عدی بعلی و لو کان غیر مضمن عدی بإلی کما فی الکشاف- «إِنْ کُنْتُمْ صٰارِمِینَ» أی قاصدین عازمین علی الصرم و القطع.

فَانْطَلَقُوا و ذهبوا الی جنتهم وَ هُمْ یَتَخٰافَتُونَ أی و الحال أنهم یأتمرون فیما بینهم بطریق المخافته و المکاتمه «أَنْ لاٰ یَدْخُلَنَّهَا» أی الجنه «الْیَوْمَ عَلَیْکُمْ مِسْکِینٌ» أی أخفوا

ورودکم الجنه للصرم من المساکین حتی لا یدخلوا علیکم فیحملکم ذلک علی عزل نصیب من الثمر المصروم لهم «وَ غَدَوْا» و بکروا الی الجنه «عَلىٰ حَرْدٍ» أی علی منع للمساکین «قٰادِرِينَ» مقدرین فی أنفسهم أنهم سیصرمونها و لا یساهمون المساکین بشیء منها.

قوله تعالی: فَلَمّٰا رَأَوْهٰا قٰالُوا إِنّٰا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أی فلما رأوا الجنه و شاهدوها و قد أصبحت کالصریم بطواف طائف من عند اللّه قالوا:إنا لضالون عن الصواب فی غدونا إلیها بقصد الصرم و منع المساکین.

و قیل:المراد إنا لضالون طریق جنتنا و ما هی بها.

و قوله: بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ إضراب عن سابقه أی لیس مجرد الضلال عن الصواب بل حرمنا الزرع.

قوله تعالی: قٰالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لاٰ تُسَبِّحُونَ -الی قوله- رٰاغِبُونَ أی «قٰالَ أَوْسَطُهُمْ» أی أعدلهم طریقا و ذلک أنه ذکرهم بالحق و إن تبعهم فی العمل و قیل:

المراد أوسطهم سنا و لیس بشیء «أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ» و قد کان قال لهم ذلک و إنما لم یذکر قبل فی القصه إیجازا بالتعویل علی ذکره هاهنا.

«لَوْ لاٰ تُسَبِّحُونَ» المراد بتسبیحهم له تعالی تنزیههم له من الشرکاء حیث اعتمدوا علی أنفسهم و علی سائر الأسباب الظاهریه فأقسموا لیصر منها مصبحین و لم یستثنوا للّه مشیه فعزلوه تعالی عن السببیه و التأثیر و نسبوا التاثیر الی أنفسهم و سائر الأسباب الظاهریه،و هو إثبات للشریک،و لو قالوا:لنصر منها مصبحین إلاّ أن یشاء اللّه کان معنی ذلک نفی الشرکاء و أنهم إن لم یصرموا کان لمشیه من اللّه و إن صرموا کان ذلک بإذن من اللّه فللّه الأمر وحده لا شریک له.

و قیل:المراد بتسبیحهم للّه ذکر اللّه تعالی و توبتهم الیه حیث نووا أن یصرموها و یحرموا المساکین منها،و له وجه علی تقدیر أن یراد بالاستثناء عزل نصیب من الثمار للمساکین.

قوله تعالى: قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ تسبيح منهم للّه سبحانه إثر توبيخ أوسطهم لهم،أى ننزه اللّه تنزيها من الشركاء الذين أثبتناهم فيما حلفنا عليه فهو ربنا الذى يدير بمشيته أمورنا لأنا كنا ظالمين فى إثباتنا الشركاء فهو تسبيح و اعتراف بظلمهم على أنفسهم فى إثبات الشركاء.

و على القول الآخر توبه و اعتراف بظلمهم على أنفسهم و على المساكين.

قوله تعالى: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ أى يلوم بعضهم بعضا على ما ارتكبوه من الظلم.

قوله تعالى: قَالُوا يَا وَيْلَنَا -الى قوله- رَاغِبُونَ الطغيان تجاوز الحد و ضمير «مِنْهَا» للجنه باعتبار ثمارها و المعنى:قالوا يا ويلنا إنا كنا متجاوزين حد العبوديه إذ أثبتنا شركاء لربنا و لم نوحده،و نرجوا من ربنا أن يبدلنا خيرا من هذه الجنه التى طاف عليها طائف منه لأنا راغبون اليه معرضون عن غيره.

قوله تعالى: كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَ لَعَذَابُ الْآخِرَهِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ العذاب مبتدأ مؤخر،و كذلك خبر مقدم أى إنما يكون العذاب على ما وصفناه فى قصه أصحاب الجنه و هو أن الإنسان يمتحن بالمال و البنين فيطغى مغترا بذلك فيستغنى بنفسه و ينسى ربه و يشرك بالأسباب الظاهريه و بنفسه و يجترئ على المعصيه و هو غافل عما يحيط به من وبال عمله و يهيأ له من العذاب كذلك حتى إذا فاجأه العذاب و برز له بأهول وجوهه و أمرّها انتبه من نومه الغفله و تذكر ما جاءه من النصح قبلا و ندم على ما فرّط بالطغيان و الظلم و سأل اللّه أن يعيد عليه النعمه فيشكر كما انتهى اليه أمر أصحاب الجنه،ففى ذلك إعطاء الضابط بالمثال.

و قوله: وَ لَعَذَابُ الْآخِرَهِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ لأنه ناش عن قهر إلهى لا يقوم له شىء لا رجاء للتخلص منه و لو بالموت و الفناء كما فى شدائد الدنيا،محيط بالإنسان

من جميع أقطار وجوده لا كعذاب الدنيا دائم لا انتهاء لأمده كما فى الابتلاءات الدنيويه (۱).

[سوره القلم (۶۸): الآيات ۳۴ الى ۵۲]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّاتِ اَلنَّعِيمِ (۳۴) أَ فَنَجْعَلُ اَلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (۳۵) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۶) أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (۳۷) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (۳۸) أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ اَلْقِيامَهِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (۳۹) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ (۴۰) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (۴۱) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى اَلسُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (۴۲) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى اَلسُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ (۴۳) فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا اَلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (۴۴) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (۴۵) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴۶) أَمْ عِنْدَهُمُ اَلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (۴۷) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ اَلْحُوتِ إِذْ نادى وَ هُوَ مَكْظُومٌ (۴۸) لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ (۴۹) فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ اَلصّالِحِينَ (۵۰) وَ إِنْ يَكادُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمّا سَمِعُوا اَلذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (۵۱) وَ ما هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۵۲)

ص: ۴۰۱

۱- ۱) .القلم ۱-۳۳:بحث روائى فى تفسير الحروف المقطعه؛خلق رسول اللّه العظيم؛الذين لا يدخلون الجنّه؛امه محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ لِلْمُتَّقِینَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّاتِ النَّعِیمِ بشری و بیان لحال المتقین فی الآخره قبال ما بین من حال المکذبین فیها.

و فی قوله: عِنْدَ رَبِّهِمْ دون أن یقال:عند اللّه إشاره الی رابطه التدبیر و الرحمه بینهم و بینه سبحانه و أن لهم ذلک قبال قصرهم الربوبیه فیه تعالی و إخلاصهم العبودیه له.

و إضافه الجنات الی النعیم و هو النعمه للإشاره الی أن ما فیها من شیء نعمه لا تشوبها نقمه و لذه لا یخالطها ألم،و سیجیء إن شاء اللّه فی تفسیر قوله تعالی: ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ یَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِیمِ (التکاثر/۸)،أن المراد بالنعیم الولایه.

قوله تعالی: أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِینَ کَالْمُجْرِمِینَ تحتمل الآیه فی بادئ النظر أن

تکون مسوقه حجه علی المعـاد کقوله تعالی: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ کَالْمُفْسِدِینَ فِی الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِینَ کَالْفُجّارِ (ص۲۸/)،و قد تقدم تفسیره.

و أن تکون ردا علی قول من قـال منهم للمؤمنین:لو کـان هنـاک بعث و إعـاده لکنـا منعمین کما فی الـدنیا و قـد حکی سبحانه ذلک عن قائلهم وَ ما أَظُنُّ السّاعَهَ قائِمَهً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلی رَبِّی إِنَّ لِی عِنْدَهُ لَلْحُسْنی (حم السجده۵۰/).

ظاهر سیاق الآیات التالیه التی ترد علیهم الحکم بالتساوی هم الاحتمال الثانی،و هو الذی رووه أن المشرکین لما سمعوا حدیث البعث و المعاد قالوا:إن صح ما یقوله محمّد و الذین آمنوا معه لم تکن حالنا إلاّ أفضل من حالهم کما فی الدنیا و لا أقل من أن تتساوی حالنا و حالهم.

غیر أنه یرد علیه أن الآیه لو سیقت لرد قولهم،سنساویهم فی الآخره أو نزید علیهم کما فی الدنیا،کان مقتضی التطابق بین الرد و المردود أن یقال:أ فنجعل المجرمین کالمسلمین و قد عکس.

فقوله: ما لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ مسوق للتعجب من حکمهم بکون المجرمین یوم القیـامه کالمسـلمین،و هو إشاره الی تأبّی العقل عن تجـویز التسـاوی،و محصـله نفی حکم العقـل بـذلک إذ معنـاه:أی شـیء حصـل لکم من اختلال الفکر و فسـاد الرأی حتی حکمتم بذلک؟

قوله تعـالی: أَمْ لَکُمْ کِتابٌ فِیهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَکُمْ فِیهِ لَما تَخَیَّرُونَ إشاره الی انتفاء الحجه علی حکمهم بالتساوی من جهه السـمع کما أن الآیه السابقه کانت إشاره الی انتفائها من جهه العقل.

و المراد بالکتـاب الکتاب السـماوی النازل من عنـد اللّه و هو حجه،و درس الکتاب قراءته، و التخیّر الاختیار،و قوله: «إِنَّ لَکُمْ فِیهِ لَما تَخَیَّرُونَ» فی مقام المفعول لتدرسون و الاستفهام إنکاری.

و المعنی:بل أ لکم کتاب سماوی تقرءون فیه إن لکم فی الآخره-أو مطلقا-لما تختارونه فاخترتم السعاده و الجنه.

قوله تعالی: أَمْ لَکُمْ أَیْمٰانٌ عَلَیْنٰا بٰالِغَهٌ إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ إِنَّ لَکُمْ لَمٰا تَحْکُمُونَ إشاره الی انتفاء أن یملکوا الحکم بعهد و یمین شفاهی لهم علی اللّه سبحانه.

و الأیمان جمع یمین و هو القسم،و البلوغ هو الانتهاء فی الکمال فالأیمان البالغه هی المؤکده نهایه التوکید،و قوله: «إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ» علی هذا ظرف مستقر متعلق بمقدر و التقدیر:أم لکم علینا أیمان کائنه الی یوم القیامه مؤکده نهایه التوکید،الخ.

و یمکن أن یکون «إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ» متعلقا ببالغه و المراد ببلوغ الأیمان انطباقها علی امتداد الزمان حتی ینتهی الی یوم القیامه.

و قوله: إِنَّ لَکُمْ لَمٰا تَحْکُمُونَ جواب القسم و هو المعاهد علیه،و الاستفهام للانکار.

و المعنی:بل أ لکم علینا عهود أقسمنا فیها إقساما مؤکدا الی یوم القیامه إنا سلمنا لکم أن لکم لما تحکمون به.

قوله تعالی: سَلْهُمْ أَیُّهُمْ بِذٰلِکَ زَعِیمٌ إعراض عن خطابهم و التفات الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتوجیه الخطاب لسقوطهم عن درجه استحقاق الخطاب و لذلک أورد بقیه السؤالات و هی مسائل أربع فی سیاق الغیبه أولها قوله: «سَلْهُمْ أَیُّهُمْ بِذٰلِکَ زَعِیمٌ» و الزعیم القائم بالأمر المتصدی له،و الاستفهام إنکاری.

و المعنی:سل المشرکین أیّهم قائم بأمر التسویه الذی یدّعونه أی إذا ثبت أن اللّه لا یسوّی بین الفریقین لعدم دلیل یدلّ علیه فهل الذی یقوم بهذا الأمر و یتصدّاه هو منهم؟فأیّهم هو؟ و من الواضح بطلانه لا یتفوّه به إلاّ مصاب فی عقله.

قوله تعالی: أَمْ لَهُمْ شُرَکٰاءُ فَلْیَأْتُوا بِشُرَکٰائِهِمْ إِنْ کٰانُوا صٰادِقِینَ ردّ لهم

على تقدير أن يكون حكمهم بالتساوى مبنيا على دعواهم أن لهم آلهه يشاركون اللّه سبحانه فى الربوبيه سيشفعون لهم عند اللّه فيجعلهم كالمسلمين و الاستفهام إنكارى يفيد نفى الشركاء.

و قوله: «فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ» الخ؛كنايه عن انتفاء الشركاء يفيد تأكيد ما فى قوله: «أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ» من النفى.

قوله تعالى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ -الى قوله- وَ هُمْ سالِمُونَ يوم ظرف متعلق بمحذوف كاذكر و نحوه،و الكشف عن الساق تمثيل فى اشتداد الأمر اشتدادا بالغا لما أنهم كانوا يشمّرون عن سوقهم إذا اشتد الأمر للعمل أو للفرار قال فى الكشاف:فمعنى «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ» فى معنى يوم يشتد الأمر و يتفاقم،و لا كشف ثم و لا ساق كما تقول للأقطع الشحيح:يده مغلوله و لا يد ثم و لا غل و إنما هو مثل فى البخل انتهى.

و الآيه و ما بعدها الى تمام خمس آيات اعتراض وقع فى البين بمناسبه ذكر شركائهم الذين يزعمون أنهم سيسعدونهم لو كان هناك بعث و حساب فذكر سبحانه أن لا شركاء للّه و لا شفاعه و إما يحرز الإنسان سعاده الآخره بالسجود أى الخضوع للّه سبحانه بتوحيد الربوبيه فى الدنيا حتى يحمل معه صفه الخضوع فيسعد بها يوم القيامه.

و هؤلاء المكذبون المجرمون لم يسجدوا للّه فى الدنيا فلا يستطيعون السجود فى الآخره فلا يسعدون و لا تتساوى حالهم و حال المسلمين فيها البته بل اللّه سبحانه يعاملهم فى الدنيا لاستكبارهم عن سجوده معامله الاستدراج و الإملاء حتى يتم لهم شقاؤهم فيردوا العذاب الأليم فى الآخره.

فقوله: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ معناه اذكر يوم يشتد عليهم الأمر و يدعون الى السجود للّه خضوعا فلا يستطيعون لاستقرار

ملکه الاستکبار فی سرائرهم و الیوم تبلی السرائر (۱).

و قوله: خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ حالان من نائب فاعل یدعون أی حال کون أبصارهم خاشعه و حال کونهم یغشاهم الذله بقهر،و نسبه الخشوع الی الأبصار لظهور أثره فیها.

و قوله: وَ قَدْ کَانُوا یُدْعَوْنَ إِلَی السُّجُودِ وَ هُمْ سَالِمُونَ المراد بالسلامه سلامتهم من الآفات و العاهات التی لحقت نفوسهم بسبب الاستکبار عن الحق فسلبتها التمکن من إجابه الحق أو المراد مطلق استطاعتهم منه فی الدنیا.

و المعنی:و قد کانوا فی الدنیا یدعون الی السجود للّه و هم سالمون متمکنون منه أقوی تمکن فلا یجیبون الیه.

قوله تعالی: فَذَرْنِی وَ مَنْ یُکَذِّبُ بِهٰذَا الْحَدِیثِ المراد بهذا الحدیث القرآن الکریم و قوله: «فَذَرْنِی وَ مَنْ یُکَذِّبُ» الخ؛کنایه عن أنه یکفیهم وحده و هو غیر تارکهم و فیه نوع تسلیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تهدید للمشرکین.

قوله تعالی: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَعْلَمُونَ استئناف فیه بیان کیفیه أخذه تعالی لهم و تعذیبه إیاهم المفهوم من قوله: «فَذَرْنِی» الخ.

و الاستدراج هو استنزالهم درجه فدرجه حتی یتم لهم الشقاء فیقعوا فی ورطه الهلاک و ذلک بأن یؤتیهم اللّه نعمه بعد نعمه و کلما أوتوا نعمه اشتغلوا بها و فرطوا فی شکرها و زادوا نسیانا له و ابتعدوا عن ذکره.

فالاستدراج إیتاؤهم النعمه بعد النعمه الموجب لنزولهم درجه بعد درجه و اقترابهم من ورطه الهلاک،و کونه من حیث لا یعلمون إنما هو لکونه من طریق النعمه التی یحسبونها خیرا

ص: ۴۰۶

۱- ۱) .الطارق الآیه ۹.

و سعاده لا شر فيها و لا شقاء.

قوله تعالى: وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ الإملاء الإمهال،و الكيد ضرب من الاحتيال،و المتين القوى.

و المعنى:و أمهلهم حتى يتوسعوا فى نعمنا بالمعاصى كما يشاءون إن كيدى قوى.

و النكته فى الالتفات الـذى فى «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ» عن التكلم وحده الى التكلم مع الغير الداله على العظمه و أن هناك موكلين على هذه النعم التى تصب عليهم صبا،و الالتفات فى قوله:

«وَ أُمْلِي لَهُمْ» عن التكلم مع الغير الى التكلم وحده لأن الإملاء تأخير فى الأجل و لم ينسب أمر الأجل فى القرآن الى غير اللّه سبحانه قال تعالى: ثُمَّ قَضىٰ أَجَلاً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ (الأنعام/٢).

قوله تعالى: أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ المغرم الغرامه،و الإثقال تحميل الثقل،و الجمله معطوفه على قوله: «أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ» الخ.

و المعنى:أم تسأل هؤلاء المجرمين-الذين يحكمون بتساوى المجرمين و المسلمين يوم القيامه-أجرا على دعوتك فهم من غرامه تحملها عليهم مثقلون فيواجهونك بمثل هذا القول تخلصا من الغرامه دون أن يكون ذلك منهم قولا جديا.

قوله تعالى: أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ظاهر السياق أن يكون المراد بالغيب غيب الأشياء الذى منه تنزل الامور بقدر محدود فتستقر فى منصه الظهور، و المراد بالكتابه على هذا هو التقدير و القضاء،و المراد بكون الغيب عندهم تسلطهم عليه و ملكهم له.

فالمعنى:أم بيدهم أمر القدر و القضاء فهم يقضون كما شاءوا فيقضون لأنفسهم أن يساووا المسلمين يوم القيامه.

قوله تعالى: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لاٰ تَكُنْ كَصٰاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نٰادىٰ وَ هُوَ

مَکْظُومٌ صاحب الحوت یونس النبی علیه السّلام و المکظوم من کظم الغیظ إذا تجرعه و لذا فسر بالمختنق بالغم حیث لا یجد لغیظه شفاء،و نهیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن أن یکون کیونس علیه السّلام و هو فی زمن النداء مملوء بالغم نهی عن السبب المؤدی الی نظیر هذا الابتلاء و هو ضیق الصدر و الاستعجال بالعذاب.

و المعنی:فاصبر لقاء ربک أن یستدرجهم و یملئ لهم و لا تستعجل لهم العذاب لکفرهم و لا تکن کیونس فتکون مثله و هو مملوء غما أو غیضا ینادی اللّه بالتسبیح و الاعتراف بالظلم أی فاصبر و احذر أن تبتلی بما یشبه ابتلاءه،و نداؤه قوله فی بطن الحوت: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنْتَ سُبْحٰانَکَ إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظّٰالِمِینَ» کما فی سوره الأنبیاء.

قوله تعالی: لَوْ لاٰ أَنْ تَدٰارَکَهُ نِعْمَهٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرٰاءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ فی مقام التعلیل للنهی السابق «لاٰ تَکُنْ کَصٰاحِبِ الْحُوتِ» و التدارک الإدراک و اللحوق، و فسرت النعمه بقبول التوبه،و النبذ الطرح،و العراء الأرض غیر المستوره بسقف أو نبات، و الذمّ مقابل المدح.

و المعنی:لو لا أن أدرکته و لحقت به نعمه من ربه و هو أن اللّه قبل توبته لطرح بالأرض العراء و هو مذموم بما فعل.

لا یقال:إن الآیه تنافی قوله تعالی: فَلَوْ لاٰ أَنَّهُ کٰانَ مِنَ الْمُسَبِّحِینَ لَلَبِثَ فِی بَطْنِهِ إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ (الصافات/۱۴۴)،فإن مدلوله أن مقتضی عمله أن یلبث فی بطنه الی یوم القیامه و مقتضی هذه الآیه أن مقتضاه أن یطرح فی الأرض العراء مذموما و هما تبعتان متنافیتان لا تجتمعان.

فإنه یقال:الآیتان تحکیان عن مقتضیین مختلفین لکل منهما أثر علی حده فآیه الصافات تذکر أنه علیه السّلام کان مداوما للتسبیح مستمرا علیه طول حیاته قبل ابتلائه-و هو قوله:کان من المسبحین-و لو لا ذلک للبث فی بطنه الی یوم القیامه،و الآیه التی نحن فیها تدلّ علی أن النعمه

و هو قبول توبته فی بطن الحوت شملته فلم ینبذ بالعراء مذموما.

فمجموع الآیتین یدلّ علی أن ذهابه مغاضبا کان یقتضی أن یلبث فی بطنه الی یوم القیامه فمنع عن دوام تسبیحه قبل التقامه و بعده،و قدّر أن ینبذ بالعراء و کان مقتضی عمله أن ینبذ مذموما فمنع من ذلک تدارک نعمه ربه له فنبذ غیر مذموم بل اجتباه اللّه و جعله من الصالحین فلا منافاه بین الآیتین.

و قد تکرر فی مباحثنا السابقه أن حقیقه النعمه الولایه و علی ذلک یتعین لقوله: «لَوْ لاٰ أَنْ تَدٰارَکَهُ نِعْمَهٌ مِنْ رَبِّهِ» معنی آخر.

قوله تعالی: فَاجْتَبٰاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصّٰالِحِینَ تقدم توضیح معنی الاجتباء و الصلاح فی مباحثنا المتقدمه.

قوله تعالی: وَ إِنْ یَکٰادُ الَّذِینَ کَفَرُوا لَیُزْلِقُونَکَ بِأَبْصٰارِهِمْ لَمّٰا سَمِعُوا الذِّکْرَ إن مخففه من الثقیله،و الزلق هو الزلل،و الإزلاق الإزلال و هو الصرع کنایه عن القتل و الإهلاک.

و المعنی:أنه قارب الذین کفروا أن یصرعوک بأبصارهم لما سمعوا الذکر.

و المراد بإزلاقه بالأبصار و صرعه بها-علی ما علیه عامه المفسرین-الإصابه بالأعین، و هو نوع من التأثیر النفسانی لا دلیل علی نفیه عقلا و ربما شوهد من الموارد ما یقبل الانطباق علیه،و قد وردت فی الروایات فلا موجب لإنکاره.

و قیل:المعنی أنهم ینظرون الیک إذا سمعوا منک الذکر الذی هو القرآن نظرا ملیئا بالعداوه و البغضاء یکادون یقتلونک بحدید نظرهم.

قوله تعالی: وَ یَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَ مٰا هُوَ إِلاّٰ ذِکْرٌ لِلْعٰالَمِینَ رمیهم له بالجنون عند ما سمعوا الذکر دلیل علی أن مرادهم به رمی القرآن بأنه من إلقاء الشیاطین،و لذا ردّ قولهم بأن القرآن لیس إلاّ ذکرا للعالمین.

و قد ردّ قولهم: «إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ» فی أول السوره بقوله: «مٰا أَنْتَ بِنِعْمَهِ رَبِّکَ بِمَجْنُونٍ» و به ینطبق خاتمه السوره علی فاتحتها (۱).

۱- ۱) .القلم ۳۴-۵۲:بحث روائی حول قوله تعالی: «یَوْمَ یُکْشَفُ عَنْ سٰاقٍ وَ یُدْعَوْنَ إِلَی السُّجُودِ» ؛استدراج المکذبین؛العین.

سوره الحاقه مکیه و هی اثنتان و خمسون آیه

اشاره

[سوره الحاقه (۶۹): الآیات ۱ الی ۱۲]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;اَلْحَاقَّهُ (۱) مَا اَلْحَاقَّهُ (۲) وَ مٰا أَدْرٰاکَ مَا اَلْحَاقَّهُ (۳) کَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عٰادٌ بِالْقٰارِعَهِ (۴) فَأَمّٰا ثَمُودُ فَأُهْلِکُوا بِالطّٰاغِیَهِ (۵) وَ أَمّٰا عٰادٌ فَأُهْلِکُوا بِرِیحٍ صَرْصَرٍ عٰاتِیَهٍ (۶) سَخَّرَهٰا عَلَیْهِمْ سَبْعَ لَیٰالٍ وَ ثَمٰانِیَهَ أَیّٰامٍ حُسُوماً فَتَرَی اَلْقَوْمَ فِیهٰا صَرْعیٰ کَأَنَّهُمْ أَعْجٰازُ نَخْلٍ خٰاوِیَهٍ (۷) فَهَلْ تَریٰ لَهُمْ مِنْ بٰاقِیَهٍ (۸) وَ جٰاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ اَلْمُؤْتَفِکٰاتُ بِالْخٰاطِئَهِ (۹) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَهً رٰابِیَهً (۱۰) إِنّٰا لَمّٰا طَغَی اَلْمٰاءُ حَمَلْنٰاکُمْ فِی اَلْجٰارِیَهِ (۱۱) لِنَجْعَلَهٰا لَکُمْ تَذْکِرَهً وَ تَعِیَهٰا أُذُنٌ وٰاعِیَهٌ (۱۲)

ص :۴۱۱

بیان:

السوره تذكر الحاقه و هی القیامه و قد سمّتها أیضا بالقارعه و الواقعه.

و قد ساقت الكلام فیها فی فصول ثلاثه:فصل تذكر فیه إجمالا الامم الذین كذّبوا بها فأخذهم اللّه أخذه رابیه،و فصل تصف فیه الحاقه و انقسام الناس فیها الی أصحاب الیمین و أصحاب الشمال و اختلاف حالهم بالسعاده و الشقاء،و فصل تؤكد فیه صدق القرآن فی إنبائه بها و أنه حق الیقین،و السوره مكیه بشهاده سیاق آیاتها.

قوله تعالی: اَلْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَ مٰا أَدْرٰاكَ مَا الْحَاقَّةُ المراد بالحاقه القیامه الكبری سمیت بها لثبوتها ثبوتا لا مردّ له و لا ریب فیه،من حقّ الشیء بمعنی ثبت و تقرّر تقرّرا واقعیا.

و «مَا» فی «مَا الْحَاقَّةُ» استفهامیه تفید تفخیم أمرها و لذلک بعینه وضع الظاهر موضع الضمیر و لم یقل:ما هی،و الجمله الاستفهامیه خبر الحاقه.

فقوله: «الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ» مسوق لتفخیم أمر القیامه یفید تفخیم أمرها و إعظام حقیقتها إفاده بعد إفاده.

و قوله: وَ مٰا أَدْرٰاكَ مَا الْحَاقَّةُ خطاب بنفی العلم بحقیقه الیوم و هذا التعبیر كنایه عن كمال أهمیه الشیء و بلوغه الغایه فی الفخامه و لعل هذا هو المراد مما نقل عن ابن عباس:أن ما فی القرآن من قوله تعالی: «مٰا أَدْرٰاكَ» فقد أدراه و ما فیه من قوله: «مٰا یُدْرِیكَ» فقد طوی عنه،یعنی أن «مٰا أَدْرٰاكَ» كنایه و «مٰا یُدْرِیكَ» تصریح.

قوله تعالی: كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عٰادٌ بِالْقٰارِعَةِ المراد بالقارعه القیامه و سمیت بها

ص: ۴۱۲

لأنها تقرع و تدكّ السماوات و الأرض بتبديلها و الجبال بتسييرها و الشمس بتكويرها و القمر بخسفها و الكواكب بنثرها و الأشياء كلها بقهرها على ما نطقت به الآيات،و كان مقتضى الظاهر أن يقال:كذبت ثمود و عاد بها فوضع القارعه موضع الضمير لتأكيد تفخيم أمرها.

و هذه الآيه و ما يتلوها الى تمام تسع آيات و إن كانت مسوقه للاشاره الى إجمال قصص قوم نوح و عاد و ثمود و فرعون و من قبله و المؤتفكات و إهلاكهم لكنها فى الحقيقه بيان للحاقه ببعض أوصافها و هو أن اللّه أهلك أمما كثيره بالتكذيب بها فهى فى الحقيقه جواب للسؤال بما الاستفهاميه كما أن قوله: «فَإِذٰا نُفِخَ فِي الصُّورِ» الخ؛جواب آخر.

و محصل المعنى:هى القارعه التى كذبت بها ثمود و عاد و فرعون و من قبله و المؤتفكات و قوم نوح فأخذهم اللّه أخذه رابيه و أهلكهم بعذاب الاستئصال.

قوله تعالى: فَأَمّٰا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطّٰاغِيَةِ بيان تفصيلى لأكثر تكذيبهم بالقارعه،و المراد بالطاغيه الصيحه أو الرجفه أو الصاعقه على اختلاف ظاهر تعبير القرآن فى سبب هلاكهم فى قصتهم قال تعالى: وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ (هود/۶۷)،و قال أيضا: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (الأعراف/۸۷)،و قال:أيضا فَأَخَذَتْهُمْ صٰاعِقَةُ الْعَذٰابِ الْهُونِ (حم السجده/۱۷).

قوله تعالى: وَ أَمّٰا عٰادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عٰاتِيَةٍ الصرصر الريح البارده الشديده الهبوب،و عاتيه من العتوّ بمعنى الطغيان و الابتعاد من الطاعه و الملاءمه.

قوله تعالى: سَخَّرَهٰا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيٰالٍ وَ ثَمٰانِيَةَ أَيّٰامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهٰا صَرْعىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجٰازُ نَخْلٍ خٰاوِيَةٍ تسخيرها عليهم تسليطها عليهم، و الحسوم جمع حاسم كشهود جمع شاهد من الحسم بمعنى تكرار الكى مرات متتاليه،و هى صفه لسبع أى سبع ليال و ثمانيه أيام متتاليه متتابعه و صرعى جمع صريع و أعجاز عجز بالفتح فالضم آخر الشىء،و خاويه الخاليه الجوف الملقاه و المعنى ظاهر.

قوله تعالی: فَهَلْ تَریٰ لَهُمْ مِنْ بٰاقِیَهٍ أی من نفس باقیه،و الجمله کنایه عن استیعاب الهلاک لهم جمیعا،و قیل:الباقیه مصدر بمعنی البقاء و قد أرید به البقیه و ما قدمناه من المعنی أقرب.

قوله تعالی: وَ جٰاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِکٰاتُ بِالْخٰاطِئَهِ المراد بفرعون فرعون موسی،و بمن قبله الامم المتقدمه علیه زمانا من المکذبین،و بالمؤتفکات قری قوم لوط و الجماعه القاطنه بها،و «بِالْخٰاطِئَهِ» مصدر بمعنی الخطاء و المراد بالمجیء بالخاطئه إخطاء طریق العبودیه،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَهً رٰابِیَهً ضمیر «فَعَصَوْا» لفرعون و من قبله و المؤتفکات،و المراد بالرسول جنسه،و الرابیه الزائده من ربا یربو ربوه إذا زاد،و المراد بالأخذه الرابیه العقوبه الشدیده و قیل:العقوبه الزائده علی سائر العقوبات و قیل:الخارقه للعاده.

قوله تعالی: إِنّٰا لَمّٰا طَغَی الْمٰاءُ حَمَلْنٰاکُمْ فِی الْجٰارِیَهِ إشاره الی طوفان نوح و الجاریه السفینه،وعد المخاطبین محمولین فی سفینه نوح و المحمول فی الحقیقه أسلافهم لکون الجمیع نوعا واحدا ینسب حال البعض منه الی الکل و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: لِنَجْعَلَهٰا لَکُمْ تَذْکِرَهً وَ تَعِیَهٰا أُذُنٌ وٰاعِیَهٌ تعلیل لحملهم فی السفینه فضمیر «لِنَجْعَلَهٰا» للحمل باعتبار أنه فعله أی فعلنا بکم تلک الفعله لنجعلها لکم أمرا تتذکرون به و عبره تعتبرون بها و موعظه تتعظون بها.

و قوله: وَ تَعِیَهٰا أُذُنٌ وٰاعِیَهٌ الوعی جعل الشیء فی الوعاء،و المراد بوعی الاذن لها تقریرها فی النفس و حفظها فیها لترتب علیها فائدتها و هی التذکر و الاتعاظ.

و فی الآیه بجملتیها إشاره الی الهدایه الربوبیه بکلا قسمیها أعنی الهدایه بمعنی إراءه الطریق

و الهدایه بمعنی الإیصال الی المطلوب (۱).

[سوره الحاقه (۶۹): الآیات ۱۳ الی ۳۷]

فَإِذا نُفِخَ فِی اَلصُّورِ نَفْخَهٌ واحِدَهٌ (۱۳) وَ حُمِلَتِ اَلْأَرْضُ وَ اَلْجِبالُ فَدُکَّتا دَکَّهً واحِدَهً (۱۴) فَیَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ اَلْواقِعَهُ (۱۵) وَ اِنْشَقَّتِ اَلسَّماءُ فَهِیَ یَوْمَئِذٍ واهِیَهٌ (۱۶) وَ اَلْمَلَکُ عَلی أَرْجائِها وَ یَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّکَ فَوْقَهُمْ یَوْمَئِذٍ ثَمانِیَهٌ (۱۷) یَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفی مِنْکُمْ خافِیَهٌ (۱۸) فَأَمّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ فَیَقُولُ هاؤُمُ اِقْرَؤُا کِتابِیَهْ (۱۹) إِنِّی ظَنَنْتُ أَنِّی مُلاقٍ حِسابِیَهْ (۲۰) فَهُوَ فِی عِیشَهٍ راضِیَهٍ (۲۱) فِی جَنَّهٍ عالِیَهٍ (۲۲) قُطُوفُها دانِیَهٌ (۲۳) کُلُوا وَ اِشْرَبُوا هَنِیئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِی اَلْأَیّامِ اَلْخالِیَهِ (۲۴) وَ أَمّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِشِمالِهِ فَیَقُولُ یا لَیْتَنِی لَمْ أُوتَ کِتابِیَهْ (۲۵) وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِیَهْ (۲۶) یا لَیْتَها کانَتِ اَلْقاضِیَهَ (۲۷) ما أَغْنی عَنِّی مالِیَهْ (۲۸) هَلَکَ عَنِّی سُلْطانِیَهْ (۲۹) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (۳۰) ثُمَّ اَلْجَحِیمَ صَلُّوهُ (۳۱) ثُمَّ فِی سِلْسِلَهٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُکُوهُ (۳۲) إِنَّهُ کانَ لا یُؤْمِنُ بِاللّهِ اَلْعَظِیمِ (۳۳) وَ لا یَحُضُّ عَلی طَعامِ اَلْمِسْکِینِ (۳۴) فَلَیْسَ لَهُ اَلْیَوْمَ هاهُنا حَمِیمٌ (۳۵) وَ لا طَعامٌ إِلاّ مِنْ غِسْلِینٍ (۳۶) لا یَأْکُلُهُ إِلاَّ اَلْخاطِؤُنَ (۳۷)

۱- ۱) .الحاقه ۱-۱۲:بحث حول هدایه کل نوع من انواع المخلوقات؛هدایه الانسان.

بیان:

قوله تعالی: فَإِذا نُفِخَ فِی الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ قد تقدم أن النفخ فی الصور کنایه عن البعث و الإحضار لفصل القضاء،و فی توصیف النفخه بالواحده إشاره الی مضی الأمر و نفوذ القدره فلا وهن فیه حتی یحتاج الی تکرار النفخه،و الذی یسبق الی الفهم من سیاق الآیات آنها النفخه الثانیه التی تحیی الموتی.

قوله تعالی: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُکَّتا دَکَّةً واحِدَةً الدک أشد الدق و هو کسر الشیء و تبدیله الی أجزاء صغار،و حمل الأرض و الجبال إحاطه القدره بها، و توصیف الدکه بالواحده للإشاره الی سرعه تفتتهما بحیث لا یفتقر الی دکه ثانیه.

قوله تعالی: فَیَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ أی قامت القیامه.

ص: ۴۱۶

قوله تعالی: وَ انْشَقَّتِ السَّمٰاءُ فَهِیَ یَوْمَئِذٍ وٰاهِیَةٌ انشقاق الشیء انفصال شطر منه من شطر آخر،و واهیه من الوهی بمعنی الضعف،و قیل:من الوهی بمعنی شق الأدیم و الثوب و نحوهما.

و یمکن أن تکون الآیه أعنی قوله: «وَ انْشَقَّتِ السَّمٰاءُ فَهِیَ یَوْمَئِذٍ وٰاهِیَةٌ وَ الْمَلَکُ عَلیٰ أَرْجٰائِهٰا» فی معنی قوله: وَ یَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمٰاءُ بِالْغَمٰامِ وَ نُزِّلَ الْمَلاٰئِکَةُ تَنْزِیلاً (الفرقان/ ۲۵).

قوله تعالی: وَ الْمَلَکُ عَلیٰ أَرْجٰائِهٰا وَ یَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّکَ فَوْقَهُمْ یَوْمَئِذٍ ثَمٰانِیَةٌ قال الراغب:رجا البئر و السماء و غیرهما جانبها و الجمع أرجاء قال تعالی:

«وَ الْمَلَکُ عَلیٰ أَرْجٰائِهٰا» انتهی،و الملک-کما قیل-یطلق علی الواحد و الجمع و المراد به فی الآیه الجمع.

و قوله: وَ یَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّکَ فَوْقَهُمْ یَوْمَئِذٍ ثَمٰانِیَةٌ ضمیر «فَوْقَهُمْ» علی ظاهر ما یقتضیه السیاق للملائکه،و قیل:الضمیر للخلائق.

و ظاهر کلامه أن للعرش الیوم حمله من الملائکه قال تعالی: اَلَّذِینَ یَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ یُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ یَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِینَ آمَنُوا (المؤمن/۷)،و قد وردت الروایات أنهم أربعه،و ظاهر الآیه أعنی قوله: «وَ یَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّکَ فَوْقَهُمْ یَوْمَئِذٍ ثَمٰانِیَةٌ» أن الحمله یوم القیامه ثمانیه و هل هم من الملائکه أو من غیرهم؟الآیه ساکته عن ذلک و إن کان لا یخلو السیاق من إشعار ما بأنهم من الملائکه.

و من الممکن-کما تقدمت الإشاره الیه-أن یکون الغرض من ذکر انشقاق السماء و کون الملائکه علی أرجائها و کون حمله العرش یومئذ ثمانیه بیان ظهور الملائکه و السماء و العرش للإنسان یومئذ،قال تعالی: وَ تَرَی الْمَلاٰئِکَةَ حَافِّینَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ یُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ (الزمر/۷۵).

قوله تعالى: يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاٰ تَخْفىٰ مِنْكُمْ خٰافِيَةٌ الظاهر أن المراد به العرض على اللّه كما قال تعالى: وَ عُرِضُوا عَلىٰ رَبِّكَ صَفًّا (الكهف/۴۸)،و العرض إراءه البائع سلعته للمشترى ببسطها بين يديه،فالعرض يومئذ على اللّه و هو يوم القضاء إبراز ما عند الإنسان من اعتقاد و عمل إبرازا لا يخفى معه عقيده خافيه و لا فعله خافيه و ذلك بتبدل الغيب شهاده و السر علنا قال: يَوْمَ تُبْلَى السَّرٰائِرُ (الطارق/۹)،و قال: يَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ (المؤمن/۱۶).

فالمعنى:يومئذ يظهر أنكم فى معرض على علم اللّه و يظهر كل فعله خافيه من أفعالكم.

قوله تعالى: فَأَمّٰا مَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هٰاؤُمُ اقْرَؤُا كِتٰابِيَهْ قال فى المجمع:هاؤم أمر للجماعه بمنزله هاكم،تقول للواحد:هاء يا رجل،و للاثنين:هاؤما يا رجلان،و للجماعه:هاؤم يا رجال،و للمرأه:هاء يا امرأه بكسر الهمزه و ليس بعدها ياء، و للمرأتين:هاؤما،و للنساء:هاؤنّ.هذه لغه أهل الحجاز.

و تميم و قيس يقولون:هاء يا رجل مثل قول أهل الحجاز،و للاثنين:هاءا،و للجماعه:

هاءوا،و للمرأه:هائى،و للنساء:هاؤنّ.

و بعض العرب بجعل مكان الهمزه كافا فيقول:هاك هاكما هاكم هاك هاكما هاكنّ،و معناه:

خذ و تناول،و يؤمر بها و لا ينهى.انتهى.

و الآيه و ما بعدها الى قوله: «الْخٰاطِؤُنَ» بيان تفصيلى لاختلاف حال الناس يومئذ من حيث السعاده و الشقاء،و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: فَمَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ بِيَمِينِهِ (الإسراء/۷۱)كلام فى معنى إعطاء الكتاب باليمين،و الظاهر أن قوله: «هٰاؤُمُ اقْرَؤُا كِتٰابِيَهْ» خطاب للملائكه،و الهاء فى «كِتٰابِيَهْ» و كذا فى أواخر الآيات التاليه للوقف و تسمى هاء الاستراحه.

و المعنى:فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول للملائكه:خذوا و اقرءوا كتابيه أى إنها كتاب

يقضى بسعادتى.

قوله تعالى: إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاٰقٍ حِسٰابِيَهْ الظن بمعنى اليقين،و الآيه تعليل لما يتحصل من الآيه السابقه و محصل التعليل إنما كان كتابى كتاب اليمين و قاضيا بسعادتى لأنى أيقنت فى الدنيا أنى سالاقى حسابى فآمنت بربى و أصلحت عملى.

قوله تعالى: فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رٰاضِيَةٍ أى يعيش عيشه يرضاها فنسبه الرضا الى العيشه من المجاز العقلى.

قوله تعالى: فِي جَنَّةٍ عٰالِيَةٍ -الى قوله- اَلْخٰالِيَةِ أى هو فى جنه عاليه قدرا فيها ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر.

و قوله: قُطُوفُهٰا دٰانِيَةٌ القطوف جمع قطف بالكسر فالسكون و هو ما يجتنى من الثمر و المعنى:أثمارها قريبه منه يتناوله كيف يشاء.

و قوله: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِمٰا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيّٰامِ الْخٰالِيَةِ أى يقال لهم:

كلوا و اشربوا من جميع ما يؤكل فيها و ما يشرب حال كونه هنيئا لكم بما قدمتم من الإيمان و العمل الصالح فى الدنيا التى تقضّت أيامها.

قوله تعالى: وَ أَمّٰا مَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ بِشِمٰالِهِ فَيَقُولُ يٰا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتٰابِيَهْ وَ لَمْ أَدْرِ مٰا حِسٰابِيَهْ و هؤلاء هم الطائفه الثانيه و هم الأشقياء المجرمون يؤتون صحيفه أعمالهم بشمالهم و قد مر الكلام فى معناه فى سوره الإسراء،و هؤلاء يتمنون أن لو لم يكونوا يؤتون كتابهم و يدرون ما حسابهم يتمنون ذلك لما يشاهدون من أليم العذاب المعد لهم.

قوله تعالى: يٰا لَيْتَهٰا كٰانَتِ الْقٰاضِيَةَ ذكروا أن ضمير «لَيْتَهٰا» للموته الاولى التى ذاقها الإنسان فى الدنيا.

و المعنى:يا ليت الموته الاولى التى ذقتها كانت قاضيه على تقضى بعدمى فكنت انعدمت و لم أبعث حيا فأقع فى ورطه العذاب الخالد و أشاهد ما أشاهد.

قوله تعالى: مٰا أَغْنیٰ عَنِّی مٰالِیَهْ هَلَکَ عَنِّی سُلْطٰانِیَهْ کلمتا تحسر یقولهما حیث یری خیبه سعیه فی الدنیا فإنه کان یحسب أن مفتاح سعادته فی الحیاه هو المال و السلطان یدفعان عنه کل مکروه و یسلطانه علی کل ما یحب و یرضی فبذل کل جهده فی تحصیلهما و أعرض عن ربه و عن کل حق یدعی الیه و کذب داعیه فلما شاهد تقطع الأسباب و أنه فی یوم لا ینفع فیه مال و لا بنون ذکر عدم نفع ماله و بطلان سلطانه تحسرا و توجعا و ما ذا ینفع التحسر؟

قوله تعالی: خُذُوهُ فَغُلُّوهُ -إلی قوله- فَاسْلُکُوهُ حکایه أمره تعالی الملائکه بأخذه و إدخاله النار،و التقدیر یقال للملائکه خذوه الخ،و «فَغُلُّوهُ» أمر من الغل بالفتح و هو الشد بالغل الذی یجمع بین الید و الرجل و العنق.

و قوله: ثُمَّ الْجَحِیمَ صَلُّوهُ أی أدخلوه النار العظیمه و ألزموه إیاها.

و قوله: ثُمَّ فِی سِلْسِلَهٍ ذَرْعُهٰا سَبْعُونَ ذِرٰاعاً فَاسْلُکُوهُ السلسله القید، و الذرع الطول،و الذراع بعد ما بین المرفق و رأس الأصابع و هو واحد الطول و سلوکه فیه جعله فیه،و المحصّل ثم اجعلوه فی قید طوله سبعون ذراعا.

قوله تعالی: إِنَّهُ کٰانَ لاٰ یُؤْمِنُ بِاللّٰهِ الْعَظِیمِ وَ لاٰ یَحُضُّ عَلیٰ طَعٰامِ الْمِسْکِینِ الحضّ التحریض و الترغیب،و الآیتان فی مقام التعلیل للأمر بالأخذ و الإدخال فی النار أی إن الأخذ ثم التصلیه فی الجحیم و السلوک فی السلسله لأجل أنه کان لا یؤمن باللّه العظیم و لا یحرض علی طعام المسکین أی یساهل فی أمر المساکین و لا یبالی بما یقاسونه.

قوله تعالی: فَلَیْسَ لَهُ الْیَوْمَ هٰاهُنٰا حَمِیمٌ -الی قوله- اَلْخٰاطِؤُنَ الحمیم الصدیق و الآیه تفریع علی قوله: «إِنَّهُ کٰانَ لاٰ یُؤْمِنُ» الخ؛و المحصل:أنه لما کان لا یؤمن باللّه العظیم فلیس له الیوم هاهنا صدیق ینفعه أی شفیع یشفع له إذ لا مغفره لکافر فلا شفاعه.

و قوله: وَ لاٰ طَعٰامٌ إِلاّٰ مِنْ غِسْلِينٍ الغسلين الغساله و كأن المراد به ما يسيل من أبدان أهل النار من قيح و نحوه و الآيه عطف على قوله فى الآيه السابقه: «حَمِيمٌ» و متفرع على قوله: «وَ لاٰ يَحُضُّ» الخ؛و المحصل:أنه لما كان لا يحرض على طعام المسكين فليس له اليوم هاهنا طعام إلّا من غسلين أهل النار.

و قوله: لاٰ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخٰاطِؤُنَ وصف لغسلين و الخاطئون المتلبسون بالخطيئه و الإثم (۱).

[سوره الحاقه (۶۹): الآیات ۳۸ الی ۵۲]

فَلاٰ أُقْسِمُ بِمٰا تُبْصِرُونَ (۳۸) وَ مٰا لاٰ تُبْصِرُونَ (۳۹) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (۴۰) وَ مٰا هُوَ بِقَوْلِ شٰاعِرٍ قَلِيلاً مٰا تُؤْمِنُونَ (۴۱) وَ لاٰ بِقَوْلِ كٰاهِنٍ قَلِيلاً مٰا تَذَكَّرُونَ (۴۲) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۴۳) وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنٰا بَعْضَ اَلْأَقٰاوِيلِ (۴۴) لَأَخَذْنٰا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (۴۵) ثُمَّ لَقَطَعْنٰا مِنْهُ اَلْوَتِينَ (۴۶) فَمٰا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حٰاجِزِينَ (۴۷) وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (۴۸) وَ إِنّٰا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (۴۹) وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى اَلْكٰافِرِينَ (۵۰) وَ إِنَّهُ لَحَقُّ اَلْيَقِينِ (۵۱) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ اَلْعَظِيمِ (۵۲)

۱- ۱) .الحاقه ۱۳-۳۷:بحث روائی فی:حمله العرش یوم القیامه؛من اوتی کتابه بیمینه؛عذاب أهل جهنم.

بيان:

قوله تعالى: فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَ مَا لاَ تُبْصِرُونَ ظاهر الآيه أنه إقسام بما هو مشهود لهم و ما لا يشاهدون أى الغيب و الشهاده فهو إقسام بمجموع الخليقه و لا يشمل ذاته المتعاليه فإن من البعيد من أدب القرآن أن يجمع الخالق و الخلق فى وصف واحد و يعظمه تعالى و ما صنع تعظيما مشتركا فى عرض واحد.

و فى الإقسام نوع تعظيم و تجليل للمقسم به و خلقه تعالى بما أنه خلقه جليل جميل لأنه تعالى جميل لا يصدر منه إلّا الجميل و قد استحسن تعالى فعل نفسه و أثنى على نفسه بخلقه فى قوله: اَلَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ (الم السجده/۷)،و قوله: فَتَبَارَکَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِینَ (المؤمنون/۱۴).فليس للموجودات منه تعالى إلّا الحسن و ما دون ذلك من مساءه فمن أنفسها و بقياس بعضها الى بعض.

و فى اختيار ما يبصرون و ما لا يبصرون للإقسام به على حقيّه القرآن ما لا يخفى من المناسبه فإن النظام الواحد المتشابك أجزاؤه الجارى فى مجموع العالم يقضى بتوحّده تعالى و مصير الكل اليه و ما يترتب عليه من بعث الرسل و إنزال الكتب و القرآن خير كتاب سماوى يهدى الى الحق فى جميع ذلك و الى طريق مستقيم.

قوله تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ الضمير للقرآن،و المستفاد من السياق أن

المراد برسول كريم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو تصديق لرسالته قبال ما كانوا يقولون إنه شاعر أو كاهن.

و لا ـ ضير فى نسبه القرآن الى قوله فإنه إنما ينسب اليه بما أنه رسول و الرسول بما أنه رسول لا يأتى إلاّ بقول مرسله،و قد بيّن ذلك فضل بيان بقوله بعد: «تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» .

قوله تعالى: وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ نفى أن يكون القرآن نظما ألّفه شاعر و لم يقل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شعرا و لم يكن شاعرا.

و قوله: «قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ» توبيخ لمجتمعهم حيث إن الأكثرين منهم لم يؤمنوا و ما آمن به إلاّ قليل منهم.

قوله تعالى: وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ نفى أن يكون القرآن كهانه و النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كاهنا يأخذ القرآن من الجن و هم يلقونه اليه.

و قوله: قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ توبيخ أيضا لمجتمعهم.

قوله تعالى: تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ أى منزّل من رب العالمين و ليس من صنع الرسول نسبه الى اللّه كما تقدّمت الإشاره اليه.

قوله تعالى: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ حاجِزِينَ يقال:تقوّل على فلان أى اختلق قولا من نفسه و نسبه اليه،و الوتين-على ما ذكره الراغب-عرق يسقى الكبد و إذا انقطع مات صاحبه،و قيل:هو رباط القلب.

و المعنى «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا» هذا الرسول الكريم الذى حمّلناه رسالتنا و أرسلناه اليكم بقرآن نزّلناه عليه و اختلق «بَعْضَ الْأَقاوِيلِ» و نسبه الينا «لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ» كما يقبض على المجرم فيؤخذ بيده أو المراد قطعنا منه يده اليمنى أو المراد لانتقمنا منه بالقوه كما فى روايه القمى «ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ» و قتلناه لتقوّله علينا «فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ» تحجبونه عنا

و تنجونه من عقوبتنا و إهلاكنا.

و هـذا تهديـد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على تقـدير أن يفترى على اللّه كـذبا و ينسب اليه شـيئا لم يقله و هو رسول من عنده أكرمه بنبوّته و اختاره لرسالته.

فالآيات فى معنى قوله: لَوْ لاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاهِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (الإسراء/٧٥)،و كـذا قوله فى الأنبيـاء بعـد ذكر نعمه العظمى عليهم: وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام/ ٨٨).

فلاـ يرد أن مقتضـى الآيـات أن كـل من ادّعى النبوه و افـترى على اللّه الكـذب أهلكه اللّه و عـاقبه فى الـدنيا أشـدّ العقـاب و هو منقوض ببعض مدّعى النبوه من الكذابين.

و ذلـك أن التهديـد فى الآـيه متوجهه الى الرسول الصـادق فى رسـالته لو تقول على اللّه و نسب اليه بعض مـا ليس منه لاـ مطلق مدّعى النبوه المفترى على اللّه فى دعواه النبوه و إخباره عن اللّه تعالى.

قـوله تعـالى: وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَهٌ لِلْمُتَّقِينَ يـذكرهم كرامه تقواهم و معـارف المبـدأ و المعـاد بحقائقهـا،و يعرفهم درجـاتهم عنـد اللّه و مقاماتهم فى الآخره و الجنه و ما هذا شأنه لا يكون تقوّلا و افتراء فالآيه مسوقه حجه على كون القرآن منزها عن التقول و الفريه.

قوله تعالى: وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ وَ إِنَّهُ لَحَسْرَهٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ستظهر لهم يوم الحسره.

قـوله تعالى: وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ قـد تقـدم كلاـم فى نظيرتى الآـيتين فى آخر سوره الواقعه،و السورتـان متحـدتان فى الغرض و هو وصف يوم القيـامه و متحـدتان فى سـياق خاتمتهمـا و هى الإقسام على حقيقه القرآن المنبئ عن يوم القيامه، و قد ختمت السورتان بكون القرآن و ما أنبأ به عن وقوع الواقعه حق اليقين ثم الأمر بتسبيح

اسم الرب العظيم المنزّه عن خلق العـالم باطلاـ لاـ معـاد فيه و عن أن يبطـل المعـارف الحقه التى يعطيها القرآن فى أمر المبـدأ و المعاد.

سوره المعارج مكيه و هى أربع و أربعون آيه

اشاره

[سوره المعارج (۷۰): الآيات ۱ الى ۱۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;سَأَلَ سٰائِلٌ بِعَذٰابٍ وٰاقِعٍ (۱) لِلْكٰافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دٰافِعٌ (۲) مِنَ اَللّٰهِ ذِى اَلْمَعٰارِجِ (۳) تَعْرُجُ اَلْمَلاٰئِكَهُ وَ اَلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كٰانَ مِقْدٰارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَهٍ (۴) فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (۵) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (۶) وَ نَرٰاهُ قَرِيباً (۷) يَوْمَ تَكُونُ اَلسَّمٰاءُ كَالْمُهْلِ (۸) وَ تَكُونُ اَلْجِبٰالُ كَالْعِهْنِ (۹) وَ لاٰ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (۱۰) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ اَلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذٰابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (۱۱) وَ صٰاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ (۱۲) وَ فَصِيلَتِهِ اَلَّتِى تُؤْوِيهِ (۱۳) وَ مَنْ فِى اَلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (۱۴) كَلاّٰ إِنَّهٰا لَظىٰ (۱۵) نَزّٰاعَهً لِلشَّوىٰ (۱۶) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلّٰى (۱۷) وَ جَمَعَ فَأَوْعىٰ (۱۸)

ص: ۴۲۶

بیان:

الّذی یعطیه سیاق السوره أنها تصف یوم القیامه بما أعدّ فیه من ألیم العذاب للکافرین.

تبتدئ السوره فتذکر سؤال سائل سأل عذابا من اللّه للکافرین فتشیر الی أنّه واقع لیس له دافع قریب غیر بعید کما یحسبونه ثمّ تصف الیوم الذی یقع فیه و العذاب الذی أعد لهم فیه و تستثنی المؤمنین الذین قاموا بوظائف الاعتقاد الحقّ و العمل الصالح.

و هذا السیاق یشبه سیاق السور المکّیه غیر أنّ المنقول عن بعضهم أنّ قوله: وَ الَّذِینَ فِی أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ مدنیّ و الاعتبار یؤیّده لأنّ ظاهره الزکاه و قد شرّعت بالمدینه بعد الهجره،و کون هذه الآیه مدنیّه یستتبع کون الآیات الحافّه بها الواقعه تحت الاستثناء و هی أربع عشره آیه قوله: «إِلاَّ الْمُصَلِّینَ -الی قوله- فِی جَنّاتٍ مُکْرَمُونَ» مدنیّه لما فی سیاقها من الاتّحاد و استلزام البعض للبعض.

ص: ۴۲۷

و مدنیّه هذه الآیه تحت الاستثناء تستدعی ما استثنیت منه و هو علی الأقل ثلاث آیات قوله: «إِنَّ الْإِنْسٰانَ خُلِقَ هَلُوعاً -الی قوله- مَنُوعاً» .

علی أنّ قوله: «فَمٰا لِ الَّذِینَ کَفَرُوا قِبَلَکَ مُهْطِعِینَ» متفرّع علی ما قبله تفرّعا ظاهرا و هو ما بعده الی آخر السوره ذو سیاق واحد فتکون هذه الآیات أیضا مدنیّه.

و من جهه اخری مضامین هذا الفصل من الآیات تناسب حال المنافقین الحافّین حول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الیمین و عن الشمال عزین و هم الرادّون لبعض ما أنزل اللّه من الحکم و خاصّه قوله: «أَ یَطْمَعُ کُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ» الخ؛و قوله: «عَلیٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَیْراً مِنْهُمْ» الخ؛علی ما سیجیء، و موطن ظهور هذا النفاق المدینه لا مکّه،و لا ضیر فی التعبیر عن هؤلاء بالّذین کفروا فنظیر ذلک موجود فی سوره التوبه و غیرها.

علی أنّهم رووا أنّ السوره نزلت فی قول القائل: اَللّٰهُمَّ إِنْ کٰانَ هٰذٰا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ فَأَمْطِرْ عَلَیْنٰا حِجٰارَهً مِنَ السَّمٰاءِ أَوِ ائْتِنٰا بِعَذٰابٍ أَلِیمٍ (الأنفال/۳۲)و قد تقدّم فی تفسیر الآیه أنّ سیاقها و الّتی بعدها سیاق مدنیّ لا مکّی.لکن المروی عن الصادق علیه السّلام أن المراد بالحق المعلوم فی الآیه حق یسمیه صاحب المال فی ماله غیر الزکاه المفروضه.

و لا عبره بما نسب الی اتفاق المفسرین أن السوره مکیّه علی أن الخلاف ظاهر و کذا ما نسب الی ابن عباس أنها نزلت بعد سوره الحاقه.

قوله تعالی: سَأَلَ سٰائِلٌ بِعَذٰابٍ وٰاقِعٍ السؤال بمعنی الطلب و الدعاء،و لذا عدی بالباء کما فی قوله: یَدْعُونَ فِیهٰا بِکُلِّ فٰاکِهَهٍ آمِنِینَ (الدخان/۵۵)و قیل:الفعل مضمن معنی الاهتمام و الاعتناء و لذا عدی بالباء،و قیل:الباء زائده للتأکید،و مآل الوجوه واحد و هو طلب العذاب من اللّه کفرا و عتوا.

و المعنی سأل سائل من الکفار عذابا للکافرین من اللّه سیصیبهم و یقع علیهم لا محاله و لا دافع له أی إنه واقع علیهم أو لم یسأل ففیه جواب تحقیری و إجابه لمسئوله تهکما.

قوله تعالی: لِلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ للكافرين متعلق بعذاب و صفه له،و كذا قوله: «لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ» و قد مرت الإشاره الی معنی الآيه.

قوله تعالی: مِنَ اللّٰهِ ذِی الْمَعَارِجِ الجار و المجرور متعلق بقوله: «دَافِعٌ» أی ليس له دافع من جانب اللّه و من المعلوم أنه لو اندفع لم يندفع إلا من جانب اللّه سبحانه،و من المحتمل أن يتعلق بقوله: «بِعَذَابٍ» .

و المعارج جمع معرج و فسروه بالصاعد و هی الدرجات و هی مقامات الملكوت التی يعرج إليها الملائكه عند رجوعهم الی اللّه سبحانه علی ما يفسره قوله بعد: «تَعْرُجُ الْمَلاٰئِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِی يَوْمٍ» الخ؛فله سبحانه معارج الملكوت و مقاماتها المترتبه علوا و شرفا التی تعرج فيها الملائكه و الروح بحسب قربهم من اللّه و ليست بمقامات وهميه اعتباريه.

قوله تعالی: تَعْرُجُ الْمَلاٰئِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِی يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ المراد بهذا اليوم يوم القيامه علی ما يفيده سياق الآيات التاليه.

و المراد بكون مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنه علی ما ذكروا أنه بحيث لو وقع فی الدنيا و انطبق علی الزمان الجاری فيها كان مقداره من الزمان خمسين ألف سنه من سنی الدنيا.

و المراد بعروج الملائكه و الروح اليه يومئذ رجوعهم اليه تعالی عند رجوع الكل اليه فإن يوم القيامه يوم بروز سقوط الوسائط و تقطع الأسباب و ارتفاع الروابط بينها و بين مسبباتها و الملائكه وسائط موكله علی امور العالم و حوادث الكون فإذا تقطعت الأسباب عن مسبباتها و زيل اللّه بينهم و رجع الكل الی اللّه عز اسمه رجعوا اليه و عرجوا معارجهم فحفوا من حول عرش ربهم وصفوا قال تعالی: وَ تَرَى الْمَلاٰئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ (الزمر/۷۵)، و قال: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلاٰئِكَةُ صَفًّا (النبأ/۳۸).

و الظاهر أن المراد بالروح الذی هو من أمره تعالی كما قال: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی (الإسراء/۸۵)و هو غير الملائكه كما هو ظاهر قوله تعالی: يُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ

أَمْرِهِ (النحل۲/).

قوله تعالى: فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً لما كان سؤال السائل للعذاب عن تعنت و استكبار و هو مما يشق تحمله أمر نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالصبر و وصفه بالجميل-و الجميل من الصبر ما ليس فيه شائبه الجزع و الشكوى،و علله بأن اليوم بما فيه من العذاب قريب.

قوله تعالى: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ نَرٰاهُ قَرِيباً ضميرا «يَرَوْنَهُ» و «نَرٰاهُ» للعذاب أو ليوم القيامه بما فيه من العذاب الواقع و يؤيد الأول قوله فيما بعد: «يَوْمَ تَكُونُ السَّمٰاءُ كَالْمُهْلِ» الخ.

و المراد بالرؤيه الاعتقاد بنوع من العنايه المجازيه و رؤيتهم ذلك بعيدا ظنهم أنه بعيد من الإمكان فإن سؤال العذاب من اللّه سبحانه استكبارا عن دينه وردا لحكمه لا يجامع الإيمان بالمعاد و إن تفوه به السائل،و رؤيته تعالى ذلك قريبا علمه بتحققه و كل ما هو آت قريب.

و فى الآيتين تعليل أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالصبر الجميل فإن تحمل الأذى و الصبر على المكاره يهون على الإنسان إذا استيقن أن الفرج قريب و تذكر ذلك فالكلام فى معنى قولنا فاصبر على تعنتهم و استكبارهم فى سؤالهم العذاب صبرا جميلا لا يشوبه جزع و شكوى فإنا نعلم أن العذاب قريب على خلاف ما يستبعدونه،و علمنا لا يتخلف عن الواقع بل هو نفس الواقع.

قوله تعالى: يَوْمَ تَكُونُ السَّمٰاءُ كَالْمُهْلِ المهل المذاب من المعدنيات كالنحاس و الذهب و غيرهما،و قيل:دردى الزيت،و قيل:عكر القطران (۱).

و الظرف متعلق بقوله: «وٰاقِعٍ» على ما يفيده السياق.

قوله تعالى: وَ تَكُونُ الْجِبٰالُ كَالْعِهْنِ العهن مطلق الصوف،و لعل المراد المنفوش منه كما فى قوله تعالى: وَ تَكُونُ الْجِبٰالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (القارعه۵/).

ص: ۴۳۰

۱- ۱) .اى رديه و خبيثه.

و قیل:هو الصوف الأحمر،و قیل:المصبوغ ألوانا لأن الجبال ذات ألوان مختلفه فمنها جدد بیض و حمر و غرابیب سود (۱).

قوله تعالی: وَ لاٰ یَسْئَلُ حَمِیمٌ حَمِیماً الحمیم القریب الذی تهتم بأمره و تشفق علیه.

إشاره الی شده الیوم فالإنسان یومئذ تشغله نفسه عن غیره حتی أن الحمیم لا یسأل حمیمه عن حاله لاشتغاله بنفسه.

قوله تعالی: یُبَصَّرُونَهُمْ الضمیران للأحماء المعلوم من السیاق و التبصیر الإراءه و الإیضاح أی یری و یوضح الأحماء للأحماء فلا یسألونهم عن حالهم اشتغالا بأنفسهم.

و الجمله مستأنفه فی معنی الجواب عن سؤال مقدر کأنه لما قیل:لا یسأل حمیم حمیما سئل فقیل:هل یری الأحماء یومئذ أحماءهم؟فأجیب:یبصّرونهم و یمکن أن یکون «یُبَصَّرُونَهُمْ» صفه «حَمِیماً» .

قوله تعالی: یَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ یَفْتَدِی مِنْ عَذٰابِ یَوْمِئِذٍ بِبَنِیهِ وَ صٰاحِبَتِهِ وَ أَخِیهِ وَ فَصِیلَتِهِ الَّتِی تُؤْوِیهِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً ثُمَّ یُنْجِیهِ قال فی المجمع:

الموده مشترکه بین التمنی و بین المحبه یقال:وددت الشیء أی تمنیته و وددته أی أحببته أود فیهما جمیعا.انتهی،و یمکن أن یکون استعماله بمعنی التمنی من باب التضمین.

و قال:و الافتداء افتداء الضرر عن الشیء ببدل منه انتهی،و قال:الفصیله الجماعه المنقطعه عن جمله القبیله برجوعها الی ابوه خاصه عن ابوه عامه.انتهی،و ذکر بعضهم أن الفصیله عشیرته الأقربین الذین فصل عنهم کالآباء الأدنین.

و سیاق هذه الآیات سیاق الإضراب و الترقی بالنسبه الی قوله: «وَ لاٰ یَسْئَلُ حَمِیمٌ حَمِیماً»

۱- ۱) .کما فی الآیه ۲۷ من سوره فاطر.

فيفيد أن المجرم يبلغ به شده العذاب الى أن يتمنى أن يفتدى من العذاب بأحب أقاربه و أكرمهم عليه بنيه و صاحبته و أخيه و فصيلته و جميع من فى الأرض ثم ينجيه الافتداء فيود ذلك فضلا عن عدم سؤاله عن حال حميمه.

و المعنى «يَوَدُّ» و يتمنى «الْمُجْرِمُ» و هو المتلبس بالإجرام أعم من الكافر «لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ» و هذا هو الذى يتمناه،و الجمله قائمه مقام مفعول يود. «بِبَنِيهِ» الذين هم أحب الناس عنده «وَ صاحِبَتِهِ» التى كانت سكنا له و كان يحبها و ربما قدمها على أبويه «وَ أَخِيهِ» الذى كان شقيقه و ناصره «وَ فَصِيلَتِهِ» من عشيرته الأقربين «الَّتِي تُؤْوِيهِ» و تضمه إليها «وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» من اولى العقل «ثُمَّ يُنْجِيهِ» هذا الافتداء.

قوله تعالى: كَلاّ إِنَّها لَظى نَزّاعَةً لِلشَّوى تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلّى وَ جَمَعَ فَأَوْعى كلا للردع،و ضمير «إِنَّها» لجهنم أو للنار و سميت لظى لكونها تتلظى و تشتعل، و النزاعه اسم مبالغه من النزع بمعنى الاقتلاع،و الشوى الأطراف كاليد و الرجل يقال:رماه فأشواه أى أصاب شواه كذا قال الراغب،و إيعاء المال إمساكه فى وعاء.

فقوله: كَلاّ ردع لتمنيه النجاه من العذاب بالافتداء و قد علل الردع بقوله: «إِنَّها لَظى» الخ؛و محصله أن جهنم نار مشتعله محرقه للأطراف شأنها أنها تطلب المجرمين لتعذيبهم فلا تصرف عنهم بافتداء كائنا ما كان.

فقوله: إِنَّها لَظى أى نار صفتها الاشتعال لا تنعزل عن شأنها و لا تخمد،و قوله:

«نَزّاعَةً لِلشَّوى» أى صفتها إحراق الأطراف و اقتلاعها لا يبطل ما لها من الأثر فيمن تعذبه.

و قوله: تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلّى وَ جَمَعَ فَأَوْعى أى تطلب من أدبر عن الدعوه الإلهيه الى الإيمان باللّه و أعرض عن عبادته تعالى و جمع المال فأمسكه فى وعائه و لم ينفق منه للسائل و المحروم.

و هذا المعنى هو المناسب لسياق الاستثناء الآتى و ذكر الصلاه و الإنفاق فيه.

ص :۴۳۲

[سوره المعارج (۷۰): الآیات ۱۹ الی ۳۵]

إِنَّ اَلْإِنْسٰانَ خُلِقَ هَلُوعاً (۱۹) إِذٰا مَسَّهُ اَلشَّرُّ جَزُوعاً (۲۰) وَ إِذٰا مَسَّهُ اَلْخَيْرُ مَنُوعاً (۲۱) إِلاَّ اَلْمُصَلِّينَ (۲۲) اَلَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلاٰتِهِمْ دٰائِمُونَ (۲۳) وَ اَلَّذِينَ فِی أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (۲۴) لِلسّٰائِلِ وَ اَلْمَحْرُوم (۲۵) وَ اَلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ اَلدِّينِ (۲۶) وَ اَلَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذٰابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (۲۷) إِنَّ عَذٰابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (۲۸) وَ اَلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ (۲۹) إِلاّٰ عَلىٰ أَزْوٰاجِهِمْ أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (۳۰) فَمَنِ اِبْتَغىٰ وَرٰاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ اَلْعٰادُونَ (۳۱) وَ اَلَّذِينَ هُمْ لِأَمٰانٰاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رٰاعُونَ (۳۲) وَ اَلَّذِينَ هُمْ بِشَهٰادٰاتِهِمْ قٰائِمُونَ (۳۳) وَ اَلَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلاٰتِهِمْ يُحٰافِظُونَ (۳۴) أُولٰئِكَ فِی جَنّٰاتٍ مُكْرَمُونَ (۳۵)

ص: ۴۳۳

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً.

وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً الهلوع صفه مشتقه من الهلع بفتحتين و هو شده الحرص، و ذكروا أيضا أن الهلوع تفسره الآيتان بعده فهو الجزوع عند الشر و المنوع عند الخير و هو تفسير سديد و السياق يناسبه.

قوله تعالی: إِلاَّ الْمُصَلِّينَ استثناء من الانسان الموصوف بالهلع،و فی تقديم الصلاه علی سائر الأعمال الصالحه المعدوده فی الآيات التاليه دلاله علی شرفها و أنها خير الأعمال.

علی أن لها الأثر البارز فی دفع رذيله الهلع المذموم و قد قال تعالی: إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ (العنكبوت۴۵/).

قوله تعالی: اَلَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ فی إضافه الصلاه الی الضمير دلاله علی أنهم مداومون علی ما يأتون به من الصلاه كائنه ما كانت لا أنهم دائما فی الصلاه، و فيه إشاره الی أن العمل إنما يكمل أثره بالمداومه.

قوله تعالی: وَ الَّذِينَ فِی أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ فسره بعضهم بالزكاه المفروضه، و فی الحديث عن الصادق عليه السّلام أن الحق المعلوم ليس من الزكاه و إنما هو مقدار معلوم ينفقونه للفقراء،و السائل هو الفقير الذی يسأل،و المحروم الفقير الذی يتعفف و لا يسأل و السياق لا يخلو من تأييده فان للزكاه موارد مسماه فی قوله: إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَهِ قُلُوبُهُمْ وَ فِی الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِی سَبِيلِ اللّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَهً مِنَ اللّهِ (التوبه۶۰/)و ليست مختصه بالسائل و المحروم علی ما هو ظاهر الآيه.

قوله تعالی: وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ الذی يفيده سياق عد الأعمال الصالحه أن المراد بتصديقهم يوم الدين التصديق العملی دون التصديق الاعتقادی و ذلک بأن

تکون سیرتهم فی الحیاه سیره من یری ان ما یأتی به من عمل سیحاسب علیه فیجازی به إن خیرا فخیرا و إن شرا فشرا.

و فی التعبیر بقوله: «یُصَدِّقُونَ» دلاله علی الاستمرار فهو المراقبه الدائمه بذکره تعالی عند کل عمل یواجهونه فیأتون بما یریده و یترکون ما یکرهه.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ أی خائفون،و الکلام فی إشفاقهم من عذاب ربهم نظیر الکلام فی تصدیقهم بیوم الدین فهو الإشفاق العملی الظاهر من حالهم.

و لازم إشفاقهم من عذاب ربهم مع لزومهم الأعمال الصالحه و مجاهدتهم فی اللّه أن لا یثقوا بما یأتون به من الأعمال الصالحه و لا یأمنوا عذاب اللّه فإن الأمن لا یجامع الخوف.

و الملاک فی الإشفاق من العذاب أن العذاب علی المخالفه فلا منجی منه إلا بالطاعه من النفس و لا ثقه بالنفس إذ لا قدره لها فی ذاتها إلا ما أقدرها اللّه علیه و اللّه سبحانه مالک غیر مملوک،قال تعالی: قُلْ فَمَنْ یَمْلِکُ مِنَ اللّٰهِ شَیْئاً (المائده/۱۷).

علی أن اللّه سبحانه و إن وعد أهل الطاعه النجاه و ذکر أنه لا یخلف المیعاد لکن الوعد لا یقید إطلاق قدرته فهو مع ذلک قادر علی ما یرید و مشیته نافذه فلا أمن بمعنی انتفاء للقدره علی ما یخالف الوعد فالخوف علی حاله و لذلک نری أنه تعالی یقول فی ملائکته یَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ یَفْعَلُونَ مٰا یُؤْمَرُونَ فیصفهم بالخوف و هو یصرح بعصمتهم،و یقول فی أنبیائه وَ یَخْشَوْنَهُ وَ لاٰ یَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ (الأحزاب/۳۹)،و یصف المؤمنین فی هذه الآیه بالإشفاق و هو یعدهم فی آخر الآیات بقول جازم فیقول «أُولٰئِکَ فِی جَنّٰاتٍ مُکْرَمُونَ» .

قوله تعالی: إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَیْرُ مَأْمُونٍ تعلیل لإشفاقهم من عذاب ربهم فیتبین به أنهم مصیبون فی إشفاقهم من العذاب و قد تقدم وجهه.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ -الی قوله- هُمُ الْعٰادُونَ تقدم

ص: ۴۳۵

تفسیر الآیات الثلاث فی أول سوره المؤمنون.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ هُمْ لِأَمٰانٰاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رٰاعُونَ المتبادر من الأمانات أنواع الأمانه التی یؤتمنون علیها من المال و سائر ما یوصی به من نفس أو عرض و رعایتهم لها أن یحفظوها و لا یخونوها قیل:و لکثره أنواعها جیء بلفظ الجمع بخلاف العهد.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ هُمْ بِشَهٰادٰاتِهِمْ قٰائِمُونَ الشهاده معروفه،و القیام بالشهاده عدم الاستنکاف عن تحملها و أداء ما تحمل منها کما تحمل من غیر کتمان و لا تغییر،و الآیات فی هذا المعنی کثیره.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ هُمْ عَلیٰ صَلاٰتِهِمْ یُحٰافِظُونَ المراد بالمحافظه علی الصلاه رعایه صفات کمالها علی ما ندب الیه الشرع.

قیل:و المحافظه علی الصلاه غیر الدوام علیها فإن الدوام متعلق بنفس الصلاه و المحافظه بکیفیتها فلا تکرار فی ذکر المحافظه علیها بعد ذکر الدوام علیها.

قوله تعالی: أُولٰئِکَ فِی جَنّٰاتٍ مُکْرَمُونَ الإشاره الی المصلین فی قوله: «إِلاَّ الْمُصَلِّینَ» و تنکیر جنات للتفخیم،و «فِی جَنّٰاتٍ» خبر و «مُکْرَمُونَ» خبر بعد خبر أو ظرف لقوله: «مُکْرَمُونَ» (۱).

[سوره المعارج (۷۰): الآیات ۳۶ الی ۴۴]

فَمٰا لِ اَلَّذِینَ کَفَرُوا قِبَلَکَ مُهْطِعِینَ (۳۶) عَنِ اَلْیَمِینِ وَ عَنِ اَلشِّمٰالِ عِزِینَ (۳۷) أَ یَطْمَعُ کُلُّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ یُدْخَلَ جَنَّهَ نَعِیمٍ (۳۸) کَلاّٰ إِنّٰا خَلَقْنٰاهُمْ مِمّٰا یَعْلَمُونَ (۳۹) فَلاٰ أُقْسِمُ بِرَبِّ اَلْمَشٰارِقِ وَ اَلْمَغٰارِبِ إِنّٰا لَقٰادِرُونَ (۴۰) عَلیٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَیْراً مِنْهُمْ وَ مٰا نَحْنُ بِمَسْبُوقِینَ (۴۱ فَذَرْهُمْ یَخُوضُوا وَ یَلْعَبُوا حَتّٰی یُلاٰقُوا یَوْمَهُمُ اَلَّذِی یُوعَدُونَ (۴۲) یَوْمَ یَخْرُجُونَ مِنَ اَلْأَجْدٰاثِ سِرٰاعاً کَأَنَّهُمْ إِلیٰ نُصُبٍ یُوفِضُونَ (۴۳ خٰاشِعَهً أَبْصٰارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّهٌ ذٰلِکَ اَلْیَوْمُ اَلَّذِی کٰانُوا یُوعَدُونَ (۴۴)

۱- ۱) .المعارج ۱۹-۳۵:بحث روائی فی:الشر و الخیر؛الذین هم علی صلاتهم یحافظون.

بیان:

قوله تعالی: فَمٰا لِ الَّذِینَ کَفَرُوا قِبَلَکَ مُهْطِعِینَ عَنِ الْیَمِینِ وَ عَنِ الشِّمٰالِ عِزِینَ قال فی المجمع:قال الزجاج:المهطع المقبل ببصره علی الشیء لا یزایله و ذلک من نظر العدو،و قال أبو عبیده:الاهطاع الاسراع،و عزین جماعات فی تفرقه،واحدتهم عزه.

انتهی،و قبل الشیء بالکسر فالفتح الجهه التی تلیه و الفاء فی «فَمٰا» فصیحه.

و المعنی:إذا کان الانسان بکفره و استکباره علی الحق مصیره الی النار إلا من استثنی من المؤمنین فما للذین کفروا عندک مقبلین لا یرفعون عنک أبصارهم و هم جماعات متفرقه عن یمینک و شمالک أ یطمعون أن یدخلوا الجنه فیعجزوا اللّه و یسبقوه فیما قضی به أن لا یدخل الجنه إلا الصلحاء من المؤمنین.

قوله تعالی: أَ یَطْمَعُ کُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ یُدْخَلَ جَنَّهَ نَعِیمٍ الاستفهام للانکار أی-ما هو الذی یحملهم علی أن یحتفوا بک و یهطعوا علیک؟-هل یحملهم علی ذلک

طمع كل منهم أن يدخل جنه نعيم و هو كافر فلا مطمع للكافر فی دخول الجنه.

و نسب الطمع الی كل امرئ منهم و لم ينسب الی جماعتهم بأن يقال:أ يطمعون أن يدخلوا، الخ؛كما نسب الإهطاع الی جماعتهم فقيل:مهطعين لأن النافع من الطمع فی السعاده و الفلاح هو الطمع القائم بنفس الفرد الباعث له الی الإيمان و العمل الصالح دون القائم بالجماعه بما أنها جماعه فطمع المجموع من حيث أنه مجموع لا يكفی فی سعاده كل واحد واحد.

و فی قوله: أَنْ يُدْخَلَ مجهولا ـ من باب الإفعال إشاره الی أن دخولهم فی الجنه ليس منوطا باختيارهم و مشيتهم بل لو كان فانما هو الی اللّه سبحانه فهو الذی يدخلهم الجنه إن شاء و لن يدخل بما قدر أن لا يدخلها كافر.

قوله تعالی: كَلاّٰ إِنّٰا خَلَقْنٰاهُمْ مِمّٰا يَعْلَمُونَ ردع لهم عن الطمع فی دخول الجنه مع كفرهم.

و قوله: إِنّٰا خَلَقْنٰاهُمْ مِمّٰا يَعْلَمُونَ المراد بما يعلمون النطفه فإن الإنسان مخلوق منها.و الكلام مرتبط بما بعده و المجموع تعليل للردع،و محصل التعليل أنا خلقناهم من النطفه -و هم يعلمون به-فلنا أن نذهب بهم و نخلق مكانهم قوما آخرين يكونون خيرا منهم مؤمنين غير رادين لشیء من دين اللّه،و لسنا بمسبوقين حتی يعجزنا هؤلاء الكفار و يسبقونا فندخلهم الجنه و ينتقض به ما قدرنا أن لا يدخل الجنه كافر.

قوله تعالی: فَلاٰ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشٰارِقِ وَ الْمَغٰارِبِ إِنّٰا لَقٰادِرُونَ عَلیٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ مٰا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ المراد بالمشارق و المغارب مشارق الشمس و مغاربها فإن لها فی كل يوم من أيام السنه الشمسيه مشرقا و مغربا لا يعود اليهما الی مثل اليوم من السنه القابله،و من المحتمل أن يكون المراد بها مشارق جميع النجوم و مغاربها.

و فی الآيه علی قصرها وجوه من الالتفات ففی قوله: «فَلاٰ أُقْسِمُ» التفات من التكلم مع الغير فی «إِنّٰا خَلَقْنٰاهُمْ» الی التكلم وحده،و الوجه فيه تأكيد القسم بإسناده الی اللّه تعالی

نفسه.

و فى قوله: بِرَبِّ الْمَشٰارِقِ وَ الْمَغٰارِبِ التفات من التكلم وحده الى الغيبه، و الوجه فيه الإشاره الى صفه من صفاته تعالى هى المبدأ فى خلق الناس جيلا بعد جيل و هى ربوبيته للمشارق و المغارب فإن الشروق بعد الشروق و الغروب بعد الغروب الملازم لمرور الزمان دخلا تاما فى تكوّن الإنسان جيلا بعد جيل و سائر الحوادث الأرضيه المقارنه له.

و فى قوله: «إِنّٰا لَقٰادِرُونَ» التفات من الغيبه الى التكلم مع الغير،و الوجه فيه الإشاره الى العظمه المناسبه لذكر القدره،و فى ذكر ربوبيته للمشارق و المغارب إشاره الى تعليل القدره فإن الذى ينتهى اليه تدبير الحوادث فى تكونها لا يعجزه شىء من الحوادث التى هى أفعاله عن شىء منها و لا يمنعه شىء من خلقه من أن يبدله خيرا منه و إلا شاركه المانع فى أمر التدبير و اللّه سبحانه واحد لا شريك له فى ربوبيته فافهم ذلك.

و قوله: إِنّٰا لَقٰادِرُونَ عَلىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ «عَلىٰ» متعلق بقوله:

«لَقٰادِرُونَ» و المفعول الأول لنبدل ضمير محذوف راجع اليهم و إنما حذف للإشاره الى هوان أمرهم و عدم الاهتمام بهم،و «خَيْراً» مفعوله الثانى و هو صفه أقيمت مقام موصوفها،و التقدير إنا لقادرون على أن نبدلهم قوما خيرا منهم،و خيريتهم منهم أن يؤمنوا باللّه و لا يكفروا به و يتبعوا الحق و لا يردوه.

و قوله: وَ مٰا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ المراد بالسبق الغلبه على سبيل الاستعاره،و كونه تعالى مسبوقا هو أن يمنعه خلقهم أن يذهب بهم و يأتى بدلهم بقوم خير منهم.

قوله تعالى: فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّٰى يُلاٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ أمر للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يتركهم و ما هم فيه،و لا يلح عليهم بحجاج و لا يتعب نفسه فيهم بعظه،و قد سمى ما هم عليه بالخوض و اللعب دلاله على أنهم لا ينتفعون به انتفاعا

ص :۴۳۹

حقیقیا علی ما لهم فیه من الإمعان و الإصرار کاللعب الذی لا نفع فیه وراء الخیال فلیترکوا حتی یلاقوا الیوم الذی یوعدون و هو یوم القیامه.

و فی إضافه الیوم الیهم إشاره الی نوع اختصاص له بهم و هو الاختصاص بعذابهم.

قوله تعالی: یَوْمَ یَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً کَأَنَّهُمْ إِلی نُصُبٍ یُوفِضُونَ بیان لیومهم الذی یوعدون و هو یوم القیامه.

و الأجداث جمع جدث و هو القبر،و سراعا جمع سریع،و النصب ما ینصب علامه فی الطریق یقصده السائرون للاهتداء به،و قیل:هو الصنم المنصوب للعباده و هو بعید من کلامه تعالی،و الإیفاض الإسراع و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: خاشِعَهً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّهٌ ذلِکَ الْیَوْمُ الَّذِی کانُوا یُوعَدُونَ الخشوع تأثر خاص فی القلب عن مشاهده العظمه و الکبریاء،و یناظره الخضوع فی الجوارح،و نسبه الخشوع الی الأبصار لظهور آثاره فیها،و الرهق غشیان الشیء بقهر.

و قوله: «ذلِکَ الْیَوْمُ الَّذِی کانُوا یُوعَدُونَ» الإشاره الی ما مر من أوصافه من الخروج من الأجداث سراعا و خشوع الأبصار و رهق الذله.

سوره نوح مکیه و هی ثمان و عشرون آیه

اشاره

[سوره نوح (۷۱): الآیات ۱ الی ۲۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;إِنّٰا أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلیٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَکَ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۱) قٰالَ یٰا قَوْمِ إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ (۲) أَنِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ وَ اِتَّقُوهُ وَ أَطِیعُونِ (۳) یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ وَ یُؤَخِّرْکُمْ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی إِنَّ أَجَلَ اَللّٰهِ إِذٰا جٰاءَ لاٰ یُؤَخَّرُ لَوْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴) قٰالَ رَبِّ إِنِّی دَعَوْتُ قَوْمِی لَیْلاً وَ نَهٰاراً (۵) فَلَمْ یَزِدْهُمْ دُعٰائِی إِلاّٰ فِرٰاراً (۶) وَ إِنِّی کُلَّمٰا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصٰابِعَهُمْ فِی آذٰانِهِمْ وَ اِسْتَغْشَوْا ثِیٰابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اِسْتَکْبَرُوا اِسْتِکْبٰاراً (۷) ثُمَّ إِنِّی دَعَوْتُهُمْ جِهٰاراً (۸) ثُمَّ إِنِّی أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرٰاراً (۹) فَقُلْتُ اِسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ إِنَّهُ کٰانَ غَفّٰاراً (۱۰) یُرْسِلِ اَلسَّمٰاءَ عَلَیْکُمْ مِدْرٰاراً (۱۱) وَ یُمْدِدْکُمْ بِأَمْوٰالٍ وَ بَنِینَ وَ یَجْعَلْ لَکُمْ جَنّٰاتٍ وَ یَجْعَلْ لَکُمْ أَنْهٰاراً (۱۲) مٰا لَکُمْ لاٰ تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقٰاراً (۱۳) وَ قَدْ خَلَقَکُمْ أَطْوٰاراً (۱۴) أَ لَمْ تَرَوْا کَیْفَ خَلَقَ اَللّٰهُ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ طِبٰاقاً (۱۵) وَ جَعَلَ اَلْقَمَرَ فِیهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ اَلشَّمْسَ سِرٰاجاً (۱۶) وَ اَللّٰهُ أَنْبَتَکُمْ مِنَ اَلْأَرْضِ نَبٰاتاً (۱۷) ثُمَّ یُعِیدُکُمْ فِیهٰا وَ یُخْرِجُکُمْ إِخْرٰاجاً (۱۸) وَ اَللّٰهُ جَعَلَ لَکُمُ اَلْأَرْضَ بِسٰاطاً (۱۹) لِتَسْلُکُوا مِنْهٰا سُبُلاً فِجٰاجاً (۲۰) قٰالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِی وَ اِتَّبَعُوا مَنْ لَمْ یَزِدْهُ مٰالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاّٰ خَسٰاراً (۲۱) وَ مَکَرُوا مَکْراً کُبّٰاراً (۲۲) وَ قٰالُوا لاٰ تَذَرُنَّ آلِهَتَکُمْ وَ لاٰ تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لاٰ سُوٰاعاً وَ لاٰ یَغُوثَ وَ یَعُوقَ وَ نَسْراً (۲۳) وَ قَدْ أَضَلُّوا کَثِیراً وَ لاٰ تَزِدِ اَلظّٰالِمِینَ إِلاّٰ ضَلاٰلاً (۲۴)

بيان:

تشير السوره الى رساله نوح عليه السّلام الى قومه و إجمال دعوته و عدم استجابتهم له ثم شكواه الى ربه منهم و دعائه عليهم و استغفاره لنفسه و لوالديه و لمن دخل بيته مؤمنا و للمؤمنين و المؤمنات ثم حلول العذاب بهم و إهلاكهم بالإغراق و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: إِنّٰا أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ «أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ» الخ؛تفسير لرسالته أى أوحينا اليه أن أنذر،الخ.

و فى الكلام دلاله على أن قومه كانوا عرضه للعذاب بشركهم و معاصيهم كما يدل عليه ما حكى من قوله عليه السّلام فى الآيه التاليه: «اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ اتَّقُوهُ» و ذلك أن الإنذار تخويف و التخويف إنما يكون من خطر محتمل لا دافع له لو لا التحذر،و قد أفاد قوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ» أنه متوجه اليهم غير تاركهم لو لا تحذرهم منه.

قوله تعالى: قٰالَ يٰا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ بيان لتبليغه رسالته إجمالا بقوله: «إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» و تفصيلا بقوله: «أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ» الخ.

و فى إضافته اليوم الى نفسه إظهار إشفاق و رحمه أى إنكم قومى يجمعكم و إياى مجتمعنا القومى تسوؤنى ما أساءكم فلست أريد إلا ما فيه خيركم و سعادتكم إنى لكم نذير،الخ.

و فى قوله: أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ دعوتهم الى توحيده تعالى فى عبادته فإن القوم كانوا وثنيين يعبدون الأصنام،و الوثنيه لا تجوّز عباده اللّه سبحانه لا وحده و لا مع غيره،و إنما يعبدون أرباب الأصنام بعباده الأصنام ليكونوا شفعاء لهم عند اللّه،و لو جوزوا عبادته تعالى

ص:۴۴۳

لعبدوه وحده فدعوتهم الی عباده اللّه دعوه لهم الی توحیده فی العباده.

و فی قوله: وَ اتَّقُوهُ دعوتهم الی اجتناب معاصیه من کبائر الإثم و صغائره و هی الشرک فما دونه،و فعل الأعمال الصالحه التی فی ترکها معصیه.

و فی قوله: وَ أَطِیعُونِ دعوه لهم الی طاعه نفسه المستلزم لتصدیق رسالته و أخذ معالم دینهم مما یعبد به اللّه سبحانه و یستن به فی الحیاه منه علیه السّلام ففی قوله: «اعْبُدُوا اللّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِیعُونِ» ندب الی اصول الدین الثلاثه:التوحید المشار الیه بقوله: «اعْبُدُوا اللّهَ» و المعاد الذی هو أساس التقوی (۱)و التصدیق بالنبوه المشار الیه بالدعوه الی الطاعه المطلقه.

قوله تعالی: یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ مجزوم فی جواب الأمر و کلمه «مِنْ» للتبعیض علی ما هو المتبادر من السیاق،و المعنی إن تعبدوه و تتقوه و تطیعونی یغفر لکم بعض ذنوبکم و هی الذنوب التی قبل الایمان:الشرک فما دونه،و أما الذنوب التی لم تقترف بعد مما سیستقبل فلا معنی لمغفرتها قبل تحققها،و لا معنی أیضا للوعد بمغفرتها إن تحققت فی المستقبل أو کلما تحققت لاستلزام ذلک إلغاء التکالیف الدینیه بإلغاء المجازاه علی مخالفتها.

قوله تعالی: وَ یُؤَخِّرْکُمْ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی إِنَّ أَجَلَ اللّهِ إِذٰا جٰاءَ لاٰ یُؤَخَّرُ لَوْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ تعلیق تأخیرهم الی أجل مسمی علی عباده اللّه و التقوی و طاعه الرسول یدل علی أن هناک أجلین أجل مسمی یؤخرهم اللّه الیه إن أجابوا الدعوه،و أجل غیره یعجل الیهم لو بقوا علی الکفر،و أن الأجل المسمی اقصی الأجلین و ابعدهما.

ففی الآیه وعدهم بالتأخیر الی الأجل المسمی إن آمنوا و فی قوله: «إِنَّ أَجَلَ اللّهِ إِذٰا جٰاءَ لاٰ یُؤَخَّرُ» تعلیل للتأخیر الی الأجل المسمی إن آمنوا فالمراد بأجل اللّه إذا جاء مطلق الأجل المقضی المتحتم أعم من الأجل المسمی و غیر المسمی فلا راد لقضائه تعالی و لا

۱- ۱) .اذ لو لا المعاد بما فیه من الحساب و الجزاء لم یکن للتقوی الدینی وجه،منه.

معقب لحكمه.

و المعنى:أن اعبدوا اللّه و اتقوه و أطيعونى يؤخرهم اللّه الى أجل مسمى هو أقصى الأجلين فإنكم إن لم تفعلوا ذلك جاءكم الأجل غير المسمى بكفركم و لم تؤخروا فإن أجل اللّه إذا جاء لا يؤخر،ففى الكلام مضافا الى وعد التأخير الى الأجل المسمى إن آمنوا،تهديد بعذاب معجل إن لم يؤمنوا.

و قوله: لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ متعلق بأول الكلام أى لو كنتم تعلمون أن للّه أجلين و أن أجله إذا جاء لا يؤخر استجبتم دعوتى و عبدتم اللّه و اتقيتموه و أعطيتمونى هذا فمفعول «تَعْلَمُونَ» محذوف يدل عليه سابق الكلام.

و قيل:إن «تَعْلَمُونَ» منزل منزله الفعل اللازم،و جواب لو متعلق بأول الكلام،و المعنى:

لو كنت من أهل العلم لاستجبتم دعوتى و آمنتم،أو متعلق بآخر الكلام،و المعنى:لو كنتم من أهل العلم لعلمتم أن أجل اللّه إذا جاء لا يؤخر.

قوله تعالى: قٰالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَ نَهٰاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعٰائِى إِلاّٰ فِرٰاراً القائل هو نوح عليه السّلام و الذى دعا اليه هو عباده اللّه و تقواه و طاعه رسوله،و الدعاء ليلا و نهارا كنايه عن دوامه من غير فتور و لا توان.

و قوله: فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعٰائِى إِلاّٰ فِرٰاراً أى من إجابه دعوتى فالمراد بالفرار التمرد و التأبى عن القبول استعاره،و إسناد زياده الفرار الى دعائه لما فيه من شائبه السببيه لأن الخير إذا وقع فى محل غير صالح قاومه المحل بما فيه من الفساد فأفسده فانقلب شرا،و قد قال تعالى فى صفه القرآن: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لاٰ يَزِيدُ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ خَسٰاراً (الإسراء۸۲/).

قوله تعالى: وَ إِنِّى كُلَّمٰا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصٰابِعَهُمْ فِى آذٰانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيٰابَهُمْ الخ؛ذكر مغفرته تعالى غايه لدعوته و الأصل«دعوتهم ليؤمنوا فتغفر

ص :۴۴۵

لهم»لأن الغرض الإشاره الى أنه كان ناصحا لهم فى دعوته و لم يرد إلا ما فيه خير دنياهم و عقباهم.

و قوله: جَعَلُوا أَصٰابِعَهُمْ فِي آذٰانِهِمْ كنايه عن استنكافهم عن الاستماع الى دعوته،و قوله: «وَ اسْتَغْشَوْا ثِيٰابَهُمْ» أى غطوا بها رءوسهم و وجوههم لئلا يرونى و لا يسمعوا كلامى و هو كنايه عن التنفر و عدم الاستماع الى قوله.

و قوله: وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبٰاراً أى و ألحوا على الامتناع من الاستماع و استكبروا عن قبول دعوتى استكبارا عجيبا.

قوله تعالى: ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهٰاراً «ثُمَّ» للتراخى بحسب رتبه الكلام و الجهال النداء بأعلى الصوت.

قوله تعالى: ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرٰاراً الإعلان و الإسرار متقابلان و هما الإظهار و الإخفاء،و ظاهر السياق أن مرجع ضمير لهم فى الموضعين واحد فالمعنى دعوتهم سرا و علانيه فتاره علانيه و تاره سرا سالكا فى دعوتى كل مذهب ممكن و سائرا فى كل مسير مرجو.

قوله تعالى: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كٰانَ غَفّٰاراً -الى قوله- أَنْهٰاراً علل أمرهم بالاستغفار بقوله: «إِنَّهُ كٰانَ غَفّٰاراً» دلاله على أنه تعالى كثير المغفره و هى مضافا الى كثرتها منه سنه مستمره له تعالى.

و قوله: يُرْسِلِ السَّمٰاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرٰاراً مجزوم فى جواب الأمر،و المراد بالسماء السحاب،و المدرار كثير الدرور بالأمطار.

و قوله: وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوٰالٍ وَ بَنِينَ الإمداد إلحاق المدد و هو ما يتقوى به المدد على حاجته،و الأموال و البنون أقرب الأعضاد الابتدائيه التى يستعين بها المجتمع الانسانى على حوائجه الحيويه.

و قوله: وَ يَجْعَلْ لَكَمْ جَنّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكَمْ أَنْهاراً هما من قسم الأموال غير أنهما لكونهما من أبسط ضروريات المعاش خصا بالذكر.

قوله تعالى: مٰا لَكُمْ لاٰ تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقٰاراً استفهام إنكارى و الوقار-كما فى المجمع-بمعنى العظمه اسم من التوقير بمعنى التعظيم،و الرجاء مقابل الخوف و هو الظن بما فيه مسره،و المراد به فى الآيه مطلق الاعتقاد على ما قيل،و قيل:المراد به الخوف للملازمه بينهما.

و المعنى:أى سبب حصل لكم حال كونكم لا تعتقدون أو لا تخافون للّه عظمه توجب أن تعبدوه.

و الآيه أعنى قوله: «مٰا لَكُمْ لاٰ تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقٰاراً» و ما يتلوها الى تمام سبع آيات مسوقه لإثبات وقاره تعالى فى الربوبيه و حجه قاطعه فى نفى ما لفّقوه لوجوب عباده غيره من الملائكه و غيرهم لاستناد تدبير العالم اليهم،و يتبين به إمكان التوجه العبادى اليه تعالى.

و محصل الحجه:ما الذى دعاكم الى نفى ربوبيته تعالى المستتبع للالوهيه و المعبوديه و اليأس عن وقاره؟و أنتم تعلمون أنه تعالى خلقكم و خلق العالم الذى تعيشون فيه طورا من الخلق لا ينفك عن هذا النظام الجارى فيه،و ليس تدبير الكون و من فيه من الإنسان إلا التطورات المخلوقه فى أجزائه و النظام الجارى فيه فكونه تعالى خالقا هو كونه مالكا مدبرا فهو الرب لا رب سواه فيجب أن يتخذ إلها معبودا.

و يتبين به صحه التوجه اليه تعالى بالعباده فإنا نعرفه بصفاته الكريمه من الخلق الرزق و الرحمه و سائر صفاته الفعليه فلنا أن نتوجه اليه بما نعرفه من صفاته (۱).

۱- ۱) .و إنما أخذنا بما نعرفه من صفاته الفعليه لأن من المنسوب إليهم أنهم ينكرون صفاته الذاتيه و يفسرونها بسلب النقائص فمعنى كونه حيا قديرا عليما عندهم أنه ليس بميت و لا عاجز و لا جاهل على أن الآيات ايضا تصفه بالصفات الفعليه،منه.

قوله تعالى: وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوٰاراً حال من فاعل «لاٰ تَرْجُونَ» و الأطوار جمع طور و هو حد الشیء و حاله التی هو علیها.

و محصل المعنی-لا ترجون للّه وقارا فی ربوبیه-و الحال أنه أنشأكم طورا بعد طور یستعقب طورا آخر فأنشأ الواحد منكم ترابا ثم نطفه ثم علقه ثم مضغه ثم جنینا ثم طفلا ـ ثم شابا ثم شیخا و أنشأ جمعكم مختلفه الأفراد فی الذكوره و الانوثه و الالوان و الهیئات و القوه و الضعف الی غیر ذلك،و هل هذا إلا التدبیر فهو مدبر أمركم فهو ربكم.

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّٰهُ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ طِبٰاقاً مطابقه السماوات السبع بعضها لبعض كون بعضها فوق بعض أو تطابقهن و تماثلهن علی الاحتمالین المتقدمین فی تفسیر أوائل سوره الملك.

و المراد بالرؤیه العلم،و توصیف السماوات السبع-و الكلام مسوق سوق الحجه-یدل علی أنهم كانوا یرون كونها سبعا و یسلمون ذلك فاحتج علیهم بالمسلم عندهم.

و كیف كان فوقوع حدیث السماوات السبع فی كلام نوح دلیل علی كونه مأثورا من الأنبیاء علیهم السّلام من أقدم العهود.

قوله تعالى: وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرٰاجاً الآیات-كما یشهد به سیاقها-مسوقه لبیان وقوع التدبیر الإلهی علی الانسان بما یفیض علیه من النعم حتی تثبت ربوبیته فتجب عبادته.

و علی هذا فكون الشمس سراجا هو كونها مضیئه لعالمنا و لولاها لانغمرنا فی ظلمه ظلماء،و كون القمر نورا هو كونه منورا لأرضنا بنور مكتسب من الشمس فلیس منورا بنفسه حتی یعد سراجا.

و أما أخذ السماوات ظرفا للقمر فی قوله: «وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً» فالمراد به كما قیل كونه فی حیزهن و إن كان فی واحده منها كما تقول:إن فی هذه الدور لبئرا و إن كانت فی واحده منها

لأن ما كان فی إحداهن كان فيهن و كما تقول:أتيت بنی تميم و انما أتيت بعضهم.

قوله تعالی: وَ اللّٰهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبٰاتاً أی أنبتكم إنبات و ذلك أن الانسان تنتهی خلقته الی عناصر أرضيه تركبت تركبا خاصا به يغتذی و ينمو و يولد المثل،و هذه حقيقه النبات،فالكلام مسوق سوق الحقيقه من غير تشبيه و استعاره.

قوله تعالی: ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهٰا وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْرٰاجاً الإعاده فيها بالإماته و الإقبار،و الاخراج للجزاء يوم القيامه فالآيه و التی قبلها قريبتا المعنی من قوله تعالی: فِيهٰا تَحْيَوْنَ وَ فِيهٰا تَمُوتُونَ وَ مِنْهٰا تُخْرَجُونَ (الأعراف۲۵/).

و فی قوله: وَ يُخْرِجُكُمْ دون أن يقول:ثم يخرجكم إيماء الی أن الاعاده و الإخراج كالصنع الواحد و الاعاده مقدمه للاخراج،و الانسان فی حالتی الاعاده و الاخراج فی دار الحق كما أنه فی الدنيا فی دار الغرور.

قوله تعالی: وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسٰاطاً أی كالبساط يسهل لكم التقلب من جانب الی جانب،و الانتقال من قطر الی قطر.

قوله تعالی: لِتَسْلُكُوا مِنْهٰا سُبُلاً فِجٰاجاً السبل جمع سبيل بمعنی الطريق و الفجاج جمع فج بمعنی الطريق الواسعه،و قيل:الطريق الواقعه بين الجبلين.

قوله تعالی: قٰالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِی وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مٰالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاّٰ خَسٰاراً رجوع منه عليه السّلام الی شكواه من قومه الی ربه بعد ما ذكر تفصيل دعوته لهم و ما ألقاه من القول اليهم من قوله: «ثُمَّ إِنِّی دَعَوْتُهُمْ جِهٰاراً» الی آخر الآيات.

و شكواه السابق له قوله: «فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعٰائِی إِلاّٰ فِرٰاراً» بعد ما أخبر بإجمال دعوته بقوله:

«رَبِّ إِنِّی دَعَوْتُ قَوْمِی لَيْلاً وَ نَهٰاراً» .

و فی الآيه دلاله علی أن العظماء المترفين من قومه عليه السّلام كانوا يصدون الناس عنه و يحرضونهم علی مخالفته و إيذائه.

و معنی قوله: لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاّ خَساراً -و قد عد المال و الولد فی سابق كلامه من النعم-أن المال و الولد اللذین هما من نعمك و كان یجب علیهم شكرهما لم یزیداهم إلا كفرا و أورثهم ذلك خسرانا من رحمتك.

قوله تعالی: وَ مَكَرُوا مَكْراً كُبّاراً الكبار اسم مبالغه من الكبر.

قوله تعالی: وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْراً توصیه منهم بالتمسك بآلهتهم و عدم ترك عبادتها.

و ود و سواع و یغوث و یعوق و نسر خمس من آلهتهم لهم اهتمام تام بعبادتهن و لذا خصوها بالذكر مع الوصیه بمطلق الآلهه،و لعل تصدیر ود و ذكر سواع و یغوث بلا المؤكده للنفی لكونها أعظم أمرا عندهم من یعوق و نسر و اللّه أعلم.

قوله تعالی: وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ لا تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلاّ ضَلالاً ضمیر «أَضَلُّوا» للرؤساء المتبوعین و یتأید به أنهم هم المحدث عنهم فی قوله: «وَ مَكَرُوا» «وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ» و قیل:الضمیر للأصنام فهم المضلون،و لا یخلو من بعد.

و قوله: وَ لا تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلاّ ضَلالاً دعاء من نوح علی الظالمین بالضلال و المراد به الضلال مجازاه دون الضلال الابتدائی فهو دعاء منه أن یجازیهم اللّه بكفرهم و فسقهم مضافا الی ما سیحكی عنه من دعائه علیهم بالهلاك (۱).

[سوره نوح (۷۱): الآیات ۲۵ الی ۲۸]

مِمّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّهِ أَنْصاراً (۲۵) وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى اَلْأَرْضِ مِنَ اَلْكافِرِينَ دَيّاراً (۲۶) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلاّ فاجِراً كَفّاراً (۲۷) رَبِّ اِغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ اَلظّالِمِينَ إِلاّ تَباراً (۲۸)

ص: ۴۵۰

۱- ۱) .نوح ۱-۲۴:بحث روائی فی:الاستغفار و نتائجه؛السماوات السبع؛الاصنام و الاوثان التی كانت فی قوم نوح علیه السّلام.

بیان:

قوله تعالی: مِمّا خَطِیئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً الخ؛«من»لابتداء الغایه تفید بحسب المورد التعلیل و«ما»زائده لتأکید أمرا الخطایا و تفخیمه،و الخطیئات المعاصی و الذنوب،و تنکیر النار للتفخیم.

و المعنی:من أجل معاصیهم و ذنوبهم أغرقوا بالطوفان فادخلوا-أدخلهم اللّه-نارا لا یقدر عذابها بقدر،و من لطیف نظم الآیه الجمع بین الإغراق بالماء و إدخال النار.

و المراد بالنار نار البرزخ التی یعذب بها المجرمون بین الموت و البعث دون نار الآخره، و الآیه من أدله البرزخ إذ لیس المراد أنهم أغرقوا و سیدخلون النار یوم القیامه،و لا یعبأ بما قیل:ان من الجائز أن یراد بها نار الآخره.

و قوله: فَلَمْ یَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَنْصاراً أی ینصرونهم فی صرف الهلاک و العذاب عنهم.تعریض لأصنامهم و آلهتهم.

قوله تعالی: وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکافِرِینَ دَیّاراً الدیار نازل الدار،و الآیه تتمه دعائه علیه السّلام علیهم،و کان قوله: «مِمّا خَطِیئاتِهِمْ أُغْرِقُوا» الخ؛ معترضا واقعا بین فقرتی الدعاء للاشاره الی أنهم اهلکوا لما عد نوح من خطیئاتهم و لتکون کالتمهید لسؤاله الهلاک فیتبین أن اغراقهم کان استجابه لدعائه،و أن العذاب استوعبهم عن

آخرهم.

قوله تعالی: إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبادَکَ وَ لا یَلِدُوا إِلاّ فاجِراً کَفّاراً تعلیل لسؤال اهلاکهم عن آخرهم مفاده أن لا فائده فی بقائهم لا لمن دونهم من المؤمنین فانهم یضلونهم،و لا فیمن یلدونه من الأولاد فإنهم لا یلدون الا فاجرا کفارا-و الفجور الفسق الشنیع و الکفار المبالغ فی الکفر.

و قد استفاد علیه السّلام ما ذکره من صفتهم من الوحی الإلهی علی ما تقدم فی تفسیر قصه نوح من سوره هود.

قوله تعالی: رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَیَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَیْتِیَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ الخ؛المراد بمن دخل بیته مؤمنا المؤمنون به من قومه،و بالمؤمنین و المؤمنات عامتهم الی یوم القیامه.

و قوله: وَ لا تَزِدِ الظّالِمِینَ إِلاّ تَباراً التبار الهلاک،و الظاهر أن المراد بالتبار ما یوجب عذاب الآخره و هو الضلال و هلاک الدنیا بالغرق،و قد تقدما جمیعا فی دعائه،و هذا الدعاء آخر ما نقل من کلامه علیه السّلام فی القرآن الکریم.

ص: ۴۵۲

سوره الجن مكيه و هى ثمان و عشرون آيه

اشاره

[سوره الجن (۷۲): الآيات ۱ الى ۱۷]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِيمlt;br/gt;قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اِسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ اَلْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً (۱) يَهْدِي إِلَى اَلرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً (۲) وَ أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اِتَّخَذَ صَاحِبَةً وَ لاَ وَلَداً (۳) وَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اَللّهِ شَطَطاً (۴) وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ اَلْإِنْسُ وَ اَلْجِنُّ عَلَى اَللّهِ كَذِباً (۵) وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ اَلْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ اَلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً (۶) وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اَللّهُ أَحَداً (۷) وَ أَنَّا لَمَسْنَا اَلسَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً (۸) وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ اَلْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً (۹) وَ أَنَّا لاَ نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي اَلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (۱۰) وَ أَنَّا مِنَّا اَلصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً (۱۱) وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اَللّهَ فِي اَلْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (۱۲) وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا اَلْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَ لاَ رَهَقاً (۱۳) وَ أَنَّا مِنَّا اَلْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا اَلْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (۱۴) وَ أَمَّا اَلْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (۱۵) وَ أَنْ لَوِ اِسْتَقَامُوا عَلَى اَلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (۱۶) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (۱۷)

ص: ۴۵۳

بيان:

تشير السوره الى قصه نفر من الجن استمعوا القرآن فآمنوا به و أقروا باصول معارفه، و تتخلص منها الى تسجيل نبوه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و الإشاره الى وحدانيته تعالى فى ربوبيته و الى المعاد،و السوره مكيه بشهاده سياقها.

قوله تعالى: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ أمر للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقص القصه لقومه،و الموحى هو اللّه سبحانه،و مفعول «اسْتَمَعَ» القرآن حذف لدلاله الكلام عليه،و النفر الجماعه من ثلاثه الى

ص :۴۵۴

تسعه علی المشهور،و قیل:بل الی أربعین.

و العجب بفتحتین ما یدعو الی التعجب منه لخروجه عن العاده الجاریه فی مثله،و إنما وصفوا القرآن بالعجب لأنه کلام خارق للعاده فی لفظه و معناه أتی به رجل امی ما کان یقرأ و لا یکتب.

و الرشد إصابه الواقع و هو خلاف الغی،و هدایه القرآن الی الرشد دعوته الی عقائد و أعمال تتضمن للمتلبس بها سعادته الواقعیه.

و المعنی:یا أیها الرسول قل للناس:اوحی-أی أوحی اللّه-الی أنه استمع القرآن جماعه من الجن فقالوا-لقومهم لما رجعوا الیهم-إنا سمعنا کلاما مقروا خارقا للعاده یهدی الی معارف من عقائد و أعمال فی التلبس بها إصابه الواقع و الظفر بحقیقه السعاده (۱).

قوله تعالی: فَآمَنّٰا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِکَ بِرَبِّنٰا أَحَداً إخبار عن إیمانهم بالقرآن و تصدیقهم بأنه حق،و قوله: «وَ لَنْ نُشْرِکَ بِرَبِّنٰا أَحَداً» تأکید لمعنی إیمانهم به أن إیمانهم بالقرآن إیمان باللّه الذی أنزله فهو ربهم،و أن إیمانهم به تعالی إیمان توحید لا یشرکون به أحدا أبدا.

قوله تعالی: وَ أَنَّهُ تَعٰالیٰ جَدُّ رَبِّنٰا مَا اتَّخَذَ صٰاحِبَهً وَ لاٰ وَلَداً فسر الجد بالعظمه و فسر بالحظ،و الآیه فی معنی التأکید لقولهم: «وَ لَنْ نُشْرِکَ بِرَبِّنٰا أَحَداً» .

و القراءه المشهوره «أَنَّهُ» بالفتح،و قرء بالکسر فی هذه الآیه و فیما بعدها من الآیات-اثنا عشر موردا-الی قوله: «وَ أَنْ لَوِ اسْتَقٰامُوا» فبالفتح و هو الأرجح لظهور سیاق الآیات فی أنها مقوله قول الجن.

و أما قراءه الفتح فوجهها لا یخلو من خفاء،و قد وجهها بعضهم بأن الجمله «وَ أَنَّهُ» الخ؛

۱- ۱) .الجن ۱-۱۷:کلام فی الجن.

معطوفه على الضـمير المجرور فى قوله: «فَآمَنّا بِهِ» و التقـدير و آمنا بأنه تعالى جد ربنا،الخ؛فهو إخبار منهم بالإيمان بنفى الصاحبه و الولد منه تعالى على ما يقول به الوثنيون.

و هذا إنما يستقيم على قول الكوفيين من النحاه بجواز العطف على الضـمير المتصل المجرور،و أما على قول البصريين منهم من عدم جوازه فقد وجهه بعضـهم كما عن الفراء و الزجاج و الزمخشرى بأنها معطوفه على محل الجار و المجرور و هو النصب فإن قوله: «فَآمَنّا بِهِ» فى معنى صدقناه،و التقدير و صدقناه أنه تعالى جد ربنا،الخ،و لا يخفى ما فيه من التكلف.

و وجهه بعضهم بتقدير حرف الجر فى الجمله المعطوفه و ذلك مطرد فى أن و أنّ،و التقدير آمنا به و بأنه تعالى جد ربنا،الخ.

و يرد على الجميع أعم من العطف على الضـمير المجرور أو على محله أو بتقـدير حرف الجر أن المعنى إنمـا يسـتقيم حينئـذ فى قوله: «وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا» الـخ؛و قوله: «وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا» الـخ؛و أما بقيه الآيات المصـدره بأن كقوله: «وَ أَنّا ظَنَنّا أَنْ لَنْ تَقُولَ» الخ؛و قوله: «وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ» الخ؛و قوله: «وَ أَنّا لَمَسْنَا السَّماءَ» فلا يصح قطعا فلا معنى لأن يقال:آمنا أو صدقنا أنا ظننا أن لن تقول الانس و الجن على اللّه شـططا،أو يقال:آمنا أو صـدقنا أنه كان رجال من الإنس يعوذون،الخ؛أو يقال:آمنا أو صدقنا أنا لمسنا السماء،الخ.

و لا يندفع الإشـكال إلا بالمصير الى ما ذكره بعضهم أنه إذا وجه الفتح فى الآيتين الأولیین بتقدير الإيمان أو التصديق فليوجه فى كل من الآيات الباقيه بما يناسبها من التقدير.

و وجّه بعضهم الفتح بأن قوله: «وَ أَنَّهُ تَعالى» الخ؛و سائر الآيات المصدره بأن معطوفه على قوله: «أَنَّهُ اسْتَمَعَ» الخ.

و لا يخفى فساده فان محصـله أن الآيات فى مقام الإخبار عما اوحى الى النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم من أقوالهم و قد أخبر عن قولهم:إنا سمعنا قرآنا عجبا فآمنا به بعنوان أنه إخبار عن قولهم ثم

حکی سائر أقوالهم بألفاظها فالمعنی اوحی إلیّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا:إنا سمعنا کذا و کذا و اوحی الی أنه تعالی جد ربنا،الخ؛و اوحی الی أنه کان یقول سفیهنا الی آخر الآیات.

فیرد علیه أن ما وقع فی صدر الآیات من لفظه «أَنَّهُ» و «أَنَّهُمْ» و «أَنّا» إن لم یکن جزء من لفظهم المحکی کان زائدا مخلا بالکلام،و إن کان جزء من کلامهم المحکی بلفظه لم یکن المحکی من مجموع أن و ما بعدها کلاما تاما و احتاج الی تقدیر ما یتم به کلاما حتی تصح الحکایه،و لم ینفع فی ذلک عطفه علی قوله: «أَنَّهُ اسْتَمَعَ» شیئا فلا تغفل.

قوله تعالی: وَ أَنَّهُ کانَ یَقُولُ سَفِیهُنا عَلَی اللّهِ شَطَطاً السفه-علی ما ذکره الراغب-خفه النفس لنقصان العقل،و الشطط القول البعید من الحق.

و الآیه أیضا فی معنی التأکید لقولهم: «لَنْ نُشْرِکَ بِرَبِّنا أَحَداً» و مرادهم بسفیههم من سبقهم من مشرکی الجن،و قیل:المراد إبلیس و هو من الجن،و هو بعید من سیاق قوله: «کانَ یَقُولُ سَفِیهُنا» الخ.

قوله تعالی: وَ أَنّا ظَنَنّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَی اللّهِ کَذِباً اعتراف منهم بأنهم ظنوا أن الإنس و الجن صادقون فیما یقولون و لا یکذبون علی اللّه فلما وجدوهم مشرکین و سمعوهم ینسبون الیه تعالی الصاحبه و الولد أذعنوا و قلدوهم فیما یقولون فأشرکوا مثلهم حتی سمعوا القرآن فانکشف لهم الحق؛و فیه تکذیب منهم للمشرکین من الإنس و الجن.

قوله تعالی: وَ أَنَّهُ کانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ یَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً قال الراغب:العوذ الالتجاء الی الغیر،و قال:رهقه الأمر غشیه بقهر انتهی.و فسر الرهق بالإثم،و بالطغیان،و بالخوف،و بالشر،و بالذله و الضعف،و هی تفاسیر بلازم المعنی.

و المراد بعوذ الإنس بالجن-علی ما قیل:أن الرجل من العرب کان إذا نزل الوادی فی سفره

ليلا قال:أعوذ بعزيز هذا الوادى من شر سفهاء قومه،و نقل عن مقاتل أن أول من تعوذ بالجن قوم من اليمن ثم بنو حنيفه ثم فشا فى العرب.

و لا يبعد أن يكون المراد بالعوذ بالجن الاستعانه بهم فى المقاصد من طريق الكهانه،و اليه يرجع ما نقل عن بعضهم أن المعنى كان رجال من الإنس يعوذون برجال من أجل الجن و من معرتهم و أذاهم.

و الضميران فى قوله: «فَزٰادُوهُمْ» أولهما لرجال من الإنس و ثانيهما لرجال من الجن و المعنى فزاد رجال الإنس رجال الجن رهقا بالتجائهم اليهم فاستكبر رجال الجن و طغوا و أثموا، و يجوز العكس بأن يكون الضمير الأول لرجال الجن و الثانى لرجال الإنس،و المعنى فزاد رجال الجن رجال الإنس رهقا أى إثما و طغيانا أو ذله و خوفا.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمٰا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللّٰهُ أَحَداً ضمير «أَنَّهُمْ» لرجال من الإنس،و الخطاب فى «ظَنَنْتُمْ» لقومهم من الجن،و المراد بالبعث بعث الرسول بالرساله فالمشركون ينكرون ذلك،و قيل:المراد به الإحياء بعد الموت،و سياق الآيات التاليه يؤيد الأول.

قوله تعالى: وَ أَنّٰا لَمَسْنَا السَّمٰاءَ فَوَجَدْنٰاهٰا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً لمس السماء الاقتراب منها بالصعود إليها،و الحرس-على ما قيل-اسم جمع لحارس و لذا وصف بالمفرد و المراد بالحرس الشديد الحفاظ الأقوياء فى دفع من يريد الاستراق منها و لذا شفع بالشهب و هى سلاحهم.

قوله تعالى: وَ أَنّٰا كُنّٰا نَقْعُدُ مِنْهٰا مَقٰاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهٰاباً رَصَداً يفيد انضمام صدر الآيه الى الآيه السابقه أن ملء السماء بالحرس الشديد و الشهب مما حدث أخيرا و أنهم كانوا من قبل يقعدون من السماء مقاعد لاستماع كلام الملائكه و يفيد ذيل الآيه بالتفريع على جميع ما تقدم أن من يستمع الآن منا بالقعود منها مقعدا للسمع

يجد له شهابا من صفته أنه راصد له يرميه به الحرس.

فيتحصل من مجموع الآيتين الإخبار بأنهم عثروا على حادثه سماويه جديده مقارنه لنزول القرآن و بعثه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هى منع الجن من تلقى أخبار السماء باستراق السمع.

قوله تعالى: وَ أَنّٰا لاٰ نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرٰادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً الرشد بفتحتين و الرشد بالضم فالسكون خلاف الغى و تنكير «رَشَداً» لإفاده النوع أى نوعا من الرشد.

هذا منهم إظهار للجهل و التحير فيما شاهدوه من أمر الرجم و منع شياطين الجن من الاطلاع على أخبار السماء غير أنهم تنبهوا على أن ذلك لأمر ما يرجع الى أهل الأرض إما خير أو شر و إذا كان خيرا فهو نوع هدى لهم و سعاده و لذا بدلوا الخير و هو المقابل للشر من الرشد،و يؤيده قولهم: «أَرٰادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ» المشعر بالرحمه و العنايه.

و قد صرحوا بالفاعل لإراده الرشد و حذفوه فى جانب الشر أدبا و لا يراد شر من جانبه تعالى إلا لمن استحقه.

قوله تعالى: وَ أَنّٰا مِنَّا الصّٰالِحُونَ وَ مِنّٰا دُونَ ذٰلِكَ كُنّٰا طَرٰائِقَ قِدَداً الصلاح مقابل الطلاح،و المراد بدون ذلك ما يقرب منه رتبه-على ما قيل-،و الظاهر أن دون بمعنى غير،و يؤيده قوله: «كُنّٰا طَرٰائِقَ قِدَداً» الدال على التفرق و التشتت و الطرائق جمع طريقه و هى الطريق المطروقه المسلوكه،و القدد القطع جمع قده بمعنى قطعه من القد بمعنى القطع وصفت الطرائق بالقدد لأن كل واحده منها مقطوعه عن غيرها تنتهى بسالكها الى غايه غير ما ينتهى به اليه غيرها،و الى هذا المعنى يرجع تفسير القدد بالطرائق المتفرقه المتشتته.

و الظاهر أن المراد بقوله: «الصّٰالِحُونَ» الصالحون بحسب الطبع الأولى فى المعاشره و المعامله دون الصالحين بحسب الايمان،و لو كان المراد صلاح الايمان لكان الأنسب أن يذكر بعد ما سيجىء من حديث إيمانهم لما سمعوا الهدى.

ص :۴۵۹

و ذکر بعضهم أن قوله: «طَرائِقَ قِدَداً» منصوب علی الظرفیه أی فی طرائق قدد و هی المذاهب المتفرقه المتشتته،و قال آخرون إنه علی تقدیر مضاف أی ذوی طرائق،و لا یبعد أن یکون من الاستعاره بتشبیههم أنفسهم فی الاختلاف و التباین بالطرق المقطوع بعضها من بعض الموصله الی غایات متشتته.

و المعنی:و أنا منا الصالحون طبعا و منا غیر ذلک کنا فی مذاهب مختلفه أو ذوی مذاهب مختلفه أو کالطرق المقطوعه بعضها عن بعض.

قوله تعالی: وَ أَنّا ظَنَنّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللّهَ فِی الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً الظن هو العلم الیقینی،و الأنسب أن یکون المراد بقوله: «لَنْ نُعْجِزَ اللّهَ فِی الْأَرْضِ» إعجازه تعالی بالغلبه علیه فیما یشاء فیها و ذلک بالإفساد فی الارض و إخلال النظام الذی یجری فیها فإن إفسادهم لو أفسدوا من القدر،و المراد بقوله: «وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً» إعجازه تعالی بالهرب منه إذا طلبهم حتی یفوتوه فلا یقدر علی الظفر بهم.

قوله تعالی: وَ أَنّا لَمّا سَمِعْنَا الْهُدیٰ آمَنّا بِهِ فَمَنْ یُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاٰ یَخٰافُ بَخْساً وَ لاٰ رَهَقاً المراد بالهدی القرآن باعتبار ما یتضمنه من الهدی،و البخس النقص علی سبیل الظلم،و الرهق غشیان المکروه.

و الفاء فی قوله: «فَمَنْ یُؤْمِنْ» للتفریع و هو من تفریع العله علی المعلول لإفاده الحجه فی إیمانهم بالقرآن من دون ریث و لا مهل.

و محصل المعنی:أنا لما سمعنا القرآن الذی هو الهدی بادرنا الی الإیمان به من دون مکث لأن من آمن به فقد آمن بربه و من یؤمن بربه فلا یخاف نقصانا فی خیر أو غشیانا من مکروه حتی یکف عن المبادره و الاستعجال و یتروی فی الإقدام علیه لئلا یقع فی بخس أو رهق.

قوله تعالی: وَ أَنّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقٰاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولٰئِکَ تَحَرَّوْا رَشَداً المراد بالاسلام تسلیم الأمر للّه تعالی فالمسلمون المسلمون له الأمر المطیعون له فیما

یریده و یأمر به،و القاسطون هم المائلون الی الباطل قال فی المجمع:القاسط هو العادل عن الحق و المقسط العادل الی الحق،انتهی.

و المعنی:أنا معشر الجن منقسمون الی من یسلم لأمر اللّه مطیعین له،و الی من یعدل عن التسلیم لأمر اللّه و هو الحق.

و قوله: فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولٰئِکَ تَحَرَّوْا رَشَداً تحری الشیء توخیه و قصده،و المعنی فالذین أسلموا فاولئک قصدوا إصابه الواقع و الظفر بالحق.

قوله تعالی: وَ أَمَّا الْقٰاسِطُونَ فَکٰانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً فیعذبون بتسعرهم و اشتعالهم بأنفسهم کالقاسطین من الانس قال تعالی: فَاتَّقُوا النّٰارَ الَّتِی وَقُودُهَا النّٰاسُ (البقره/۲۶).

و قد عد کثیر منهم قوله: «فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولٰئِکَ -الی قوله- لِجَهَنَّمَ حَطَباً» تتمه لکلام الجن یخاطبون به قومهم و قیل:إنه من کلامه تعالی یخاطب به النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

قوله تعالی: وَ أَنْ لَوِ اسْتَقٰامُوا عَلَی الطَّرِیقَهِ لَأَسْقَیْنٰاهُمْ مٰاءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِیهِ «أَنْ» مخففه من الثقیله،و المراد بالطریقه طریقه الاسلام،و الاستقامه علیها لزومها و الثبات علی ما تقتضیه من الایمان باللّه و آیاته.

و الماء الغدق الکثیر منه،و لا یبعد أن یستفاد من السیاق أن قوله: «لَأَسْقَیْنٰاهُمْ مٰاءً غَدَقاً» مثل ارید به التوسعه فی الرزق،و یؤیده قوله بعده: «لِنَفْتِنَهُمْ فِیهِ» .

و المعنی:و أنه لو استقاموا أی الجن و الانس علی طریقه الاسلام للّه لرزقناهم رزقا کثیرا لنمتحنهم فی رزقهم فالآیه فی معنی قوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُریٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَیْهِمْ بَرَکٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ (الأعراف/۹۶).

و الآیه من کلامه تعالی معطوف علی قوله فی أول السوره: «أَنَّهُ اسْتَمَعَ» الخ.

قوله تعالی: وَ مَنْ یُعْرِضْ عَنْ ذِکْرِ رَبِّهِ یَسْلُکْهُ عَذٰاباً صَعَداً العذاب الصعد

هو الذی یتصعد علی المعذب و یغلبه،و قیل:هو العذاب الشاق.

و الإعراض عن ذکر اللّه لازم عدم الاستقامه علی الطریقه و هو الأصل فی سلوک العذاب، و لذا وضع موضعه لیدل علی السبب الأصلی فی دخول النار.

و هو الوجه أیضا فی الالتفات عن التکلم مع الغیر الی الغیبه فی قوله: «ذِکْرِ رَبِّهِ» و کان مقتضی الظاهر أن یقال:ذکرنا و ذلک أن صفه الربوبیه هی المبدأ الأصلی لتعذیب المعرضین عن ذکره تعالی فوضعت موضع ضمیر المتکلم مع الغیر لیدل علی المبدإ الأصلی کما وضع الإعراض عن الذکر موضع عدم الاستقامه لیدل علی السبب.

قیل:و قوله: «یَسْلُکْهُ» مضمن معنی یدخله و لذا عدی الی المفعول الثانی،و المعنی ظاهر (۱).

[سوره الجن (۷۲): الآیات ۱۸ الی ۲۸]

وَ أَنَّ اَلْمَساجِدَ لِلّٰهِ فَلاٰ تَدْعُوا مَعَ اَللّٰهِ أَحَداً (۱۸) وَ أَنَّهُ لَمّٰا قٰامَ عَبْدُ اَللّٰهِ یَدْعُوهُ کٰادُوا یَکُونُونَ عَلَیْهِ لِبَداً (۱۹) قُلْ إِنَّمٰا أَدْعُوا رَبِّی وَ لاٰ أُشْرِکُ بِهِ أَحَداً (۲۰) قُلْ إِنِّی لاٰ أَمْلِکُ لَکُمْ ضَرًّا وَ لاٰ رَشَداً (۲۱) قُلْ إِنِّی لَنْ یُجِیرَنِی مِنَ اَللّٰهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (۲۲) إِلاّٰ بَلاٰغاً مِنَ اَللّٰهِ وَ رِسٰالاٰتِهِ وَ مَنْ یَعْصِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نٰارَ جَهَنَّمَ خٰالِدِینَ فِیهٰا أَبَداً (۲۳) حَتّٰی إِذٰا رَأَوْا مٰا یُوعَدُونَ فَسَیَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نٰاصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً (۲۴) قُلْ إِنْ أَدْرِی أَ قَرِیبٌ مٰا تُوعَدُونَ أَمْ یَجْعَلُ لَهُ رَبِّی أَمَداً (۲۵) عٰالِمُ اَلْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً (۲۶) إِلاّٰ مَنِ اِرْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (۲۷) لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ وَ أَحٰاطَ بِمٰا لَدَیْهِمْ وَ أَحْصیٰ کُلَّ شَیْءٍ عَدَداً (۲۸)

۱- ۱) .الجن ۱-۱۷:بحث روائی فی الجن.

بیان:

قوله تعالی: وَ أَنَّ الْمَسٰاجِدَ لِلّٰهِ فَلاٰ تَدْعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَداً معطوف علی قوله:

«أَنَّهُ اسْتَمَعَ» الخ؛و جمله «أَنَّ الْمَسٰاجِدَ لِلّٰهِ» فی موضع التعلیل لقوله: «فَلاٰ تَدْعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَداً» و التقدیر لا تدعوا مع اللّه أحدا غیره لأن المساجد له.

و المراد بالدعاء العباده و قد سماها اللّه دعاء کما فی قوله: وَ قٰالَ رَبُّکُمُ ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ إِنَّ الَّذِینَ یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِی سَیَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دٰاخِرِینَ (المؤمن/۶۰).

و عن الامام الجواد علیه السّلام أن المراد بالمساجد الأعضاء السبعه التی یسجد علیها فی الصلاه و هی الجبهه و الکفان و الرکبتان و أصابع الرجلین،و ستوافیک روایته فی البحث الروائی التالی إن شاء اللّه،و نقل ذلک أیضا عن سعید بن جبیر و الفراء و الزجاج.

و الأنسب علی هذا أن یکون المراد بکون مواضع السجود من الانسان للّه اختصاصها به اختصاصا تشریعیا،و المراد بالدعاء السجده لکونها أظهر مصادیق العباده أو الصلاه بما أنها تتضمن السجود للّه سبحانه.

و المعنی:و أوحی إلی أن أعضاء السجود یختص باللّه تعالی فاسجدوا له بها-أو اعبدوه

بها-و لا تجسدوا-أو لا تعبدوا-أحدا غيره.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُ لَمّٰا قٰامَ عَبْدُ اللّٰهِ يَدْعُوهُ كٰادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً اللبد بالكسر فالفتح جمع لبده بالضم فالسكون المجتمعه المتراكمه،و المراد بعبد اللّه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما تدل عليه الآيه التاليه،و التعبير بعبد اللّه كالتمهيد لقوله فى الآيه التاليه: «قُلْ إِنَّمٰا أَدْعُوا رَبِّى» .

و الأنسب لسياق الآيات التاليه أن يكون مرجع ضميرى الجمع فى قوله: «كٰادُوا يَكُونُونَ» المشركين و قد كانوا يزدحمون عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا صلى و قرء القرآن يستهزءون و يرفعون أصواتهم فوق صوته على ما نقل.

و المعنى:و أنه لما قام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعبد اللّه بالصلاه كاد المشركون يكونون بازدحامهم لبدا مجتمعين متراكمين.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمٰا أَدْعُوا رَبِّى وَ لاٰ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً أمر منه تعالى للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبين لهم وجه عبادته بيانا يزيل عنهم الحيره حيث رأوا منه ما لم يكونوا رأوه من أحد غيره،و يتعجبون حاملين له على نوع من المكيده و المكر بأصنامهم أو خدعه بهم لأغراض أخر دنيويه.

و محصل البيان:أنى لست أريد بما آتى به من العمل شيئا من المقاصد التى تحسبونها و ترموننى بها و إنما أدعو ربى وحده غير مشرك به أحدا و عباده الانسان لمن عرفه ربا لنفسه مما لا ينبغى أن يلام أو يتعجب منه.

قوله تعالى: قُلْ إِنِّى لاٰ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لاٰ رَشَداً الذى يفيده سياق الآيات الكريمه أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يبين فيها بأمر من ربه موقع نفسه و بالنسبه الى ربه و بالنسبه الى الناس.

أما موقعه بالنسبه الى ربه فهو أنه يدعوه و لا يشرك به أحدا و هو قوله: «قُلْ إِنَّمٰا أَدْعُوا رَبِّى وَ لاٰ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً» .

و أما موقعه بالنسبه اليهم فهو أنه بشر مثلهم لا يملك لهم ضرا و لا رشدا حتى يضرهم بما

يريد أن يرشدهم من الخير الى ما يريد بما عنده من القدره،و أنه مأمور من اللّه بدعوتهم أمرا ليس له إلا أن يمتثله فلا مجير يجيره منه و لا ملجأ يلتجئ اليه لو خالف و عصى كما ليس لهم إلا أن يطيعوا اللّه و رسوله و من يعص اللّه و رسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا،و سيعلمون إذا رأوا ما يوعدون.

و لازم هذا السياق أن يكون المراد بملك الضر القدره على إيقاع الضر بهم فيوقعه بهم إذا أراد،و المراد بملك الرشد القدره على إيصال النفع اليهم بإصابه الواقع أى أنى لا أدعى أنى أقدر أن أضركم أو أنفعكم،و قيل:المراد بالضر الغى المقابل للرشد تعبيرا باسم المسبب عن السبب.

قوله تعالى: قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللّٰهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً إِلاّٰ بَلاٰغاً مِنَ اللّٰهِ وَ رِسٰالاٰتِهِ الإجاره إعطاء الجوار و حكمه حمايه المجير للجار و منعه ممن يقصده بسوء،و الظاهر أن الملتحد اسم مكان و هو المكان الذى يعدل و ينحرف اليه للتحرز من الشر،و قيل:المدخل و يتعلق به قوله: «مِنْ دُونِهِ» و هو كالقيد التوضيحى و الضمير للّه و البلاغ التبليغ.

و قوله: إِلاّٰ بَلاٰغاً استثناء من قوله: «مُلْتَحَداً» و قوله: «مِنَ اللّٰهِ» متعلق بمقدر أى كائنا من اللّه و ليس متعلقا بقوله: «بَلاٰغاً» لأنه يتعدى بعن لا بمن و لذا قال بعض من جعله متعلقا ببلاغا:إن «مِنَ» بمعنى عن،و المعنى على أى حال إلا تبليغ ما هو تعالى عليه من الأسماء و الصفات.

و قوله: وَ رِسٰالاٰتِهِ قيل:معطوف على «بَلاٰغاً» و التقدير إلا بلاغا من اللّه و إلا رسالاته و قيل:معطوف على لفظ الجلاله و من بمعنى عن،و المعنى إلا بلاغا عن اللّه و عن رسالاته.

و فيما استثنى منه بلاغا قول آخر و هو أنه مفعول «لاٰ أَمْلِكُ» و المعنى لا أملك لكم ضرا و لا

رشـدا إلا تبليغا من اللّه و رسالاته،و يبعـده الفصل بين المسـتثنى و المستثنى منه بقوله: «لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللّٰهِ أَحَدٌ» الخ؛و هو كلام مستأنف.

و معنى الآيتين على مـا قـدمنا:قل لن يجيرنى من اللّه أحـد فيمنعنى منه و لن أجـد من دونه مكانا ألتجئ اليه إلا تبليغا كائنا منه و رسالاته أى إلا أن أمتثل ما أمرنى به من التبليغ منه تعالى ببيان أسمائه و صفاته و إلا رسالاته فى شرائع الدين.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَعْصِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نٰارَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً إفراد ضمير «لَهُ» باعتبار لفظ «مِنَ» كما أن جمع «خٰالِدِينَ» باعتبار معناها.

و عطف الرسول على اللّه فى قوله: «وَ مَنْ يَعْصِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ» لكون معصـيته معصيه للّه تعالى إذ ليس له إلا رساله ربه فالرد عليه فيما أتى به رد على اللّه سبحانه و طاعته فيما يأمر به طاعه للّه قال تعالى: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ (النساء۸۰/).

و المراد بالمعصيه-كما يشهد به سياق الآيات السابقه-معصيه ما أمر به من التوحيد أو التوحيد و ما يتفرع عليه من اصول الدين و فروعه فلا يشـمل التهديـد و الوعيـد بخلود النار إلا الكافرين بأصل الـدعوه دون مطلق أهل المعصـيه المتخلفين عن فروع الـدين فالاحتجاج بالآيه على تخليد مطلق العصاه فى النار فى غير محله.

و الظاهر أن قوله: «وَ مَنْ يَعْصِ اللّٰهَ» الى آخر الآيه؛من كلام اللّه سبحانه لا من تتمه كلام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

قوله تعالى: حَتّٰى إِذٰا رَأَوْا مٰا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نٰاصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً لقوله: «حَتّٰى» دلاله على معنى مدخولها غايه له و مدخولها يدل على أنهم كانوا يستضعفون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعدّ ناصريه-و هم المؤمنون-ضعفاء و استقلال عدده بعدّ عددهم قليلا فالكلام يدل على معنى محذوف هو غايته كقولنا:لا يزالون يستضعفون ناصـريک و يستقلون عددهم حتى إذا رأوا ما يوعدون،الخ.

و المراد بما يوعدون نار جهنم لأنها هی الموعوده فی الآیه،و الآیه من کلامه تعالی یخاطب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لو کانت من کلامه و هی مصدره بقوله تعالی: «قُلْ» لکان من حق الکلام أن یقال:حتی إذا رأیتم ما توعدون فستعلمون،الخ.

قوله تعالی: قُلْ إِنْ أَدْرِی أَ قَرِیبٌ مٰا تُوعَدُونَ أَمْ یَجْعَلُ لَهُ رَبِّی أَمَداً الأمد الغایه التی ینتهی إلیها،و الآیه بمنزله دفع دخل تقتضیه حالهم کأنهم لما سمعوا الوعید قالوا:متی یکون ذلک فقیل له «قُلْ إِنْ أَدْرِی أَ قَرِیبٌ» الخ.

قوله تعالی: عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إظهار الشیء علی الشیء إعانته و تسلیطه علیه،و «عٰالِمُ الْغَیْبِ» خبر لمبتدإ محذوف،و التقدیر هو عالم الغیب،و مفاد الکلمه بإعانه من السیاق اختصاص علم الغیب به تعالی مع استیعاب علمه کل غیب،و لذا أضاف الغیب الی نفسه ثانیا فقال: «عَلیٰ غَیْبِهِ» بوضع الظاهر موضع المضمر لیفید الاختصاص و لو قال:«فلا یظهر علیه»لم یفد ذلک.

و المعنی هو عالم کل غیب علما یختص به فلا یطلع علی الغیب و هو مختص به أحدا من الناس فالمفاد سلب کلی و إن أصر بعضهم علی کونه سلبا جزئیا محصل معناه لا یظهر علی کل غیبه أحدا و یؤید ما قلنا ظاهر ما سیأتی من الآیات.

قوله تعالی: إِلاّٰ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ استثناء من قوله: «أَحَداً» و «مِنْ رَسُولٍ» بیان لقوله: «مَنِ ارْتَضیٰ» فیفید أن اللّه تعالی یظهر رسله علی ما شاء من الغیب المختص به فالآیه إذا انضمت الی الآیات التی تخص علم الغیب به تعالی کقوله: وَ عِنْدَهُ مَفٰاتِحُ الْغَیْبِ لاٰ یَعْلَمُهٰا إِلاّٰ هُوَ (الأنعام/۵۹)،و قوله: وَ لِلّٰهِ غَیْبُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (النحل/ ۷۷)،و قوله: قُلْ لاٰ یَعْلَمُ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَیْبَ إِلاَّ اللّٰهُ (النمل/۶۵)أفاد ذلک معنی الأصاله و التبعیه فهو تعالی یعلم الغیب لذاته و غیره یعلمه بتعلیم من اللّه.

فهذه الآیات نظیره الآیات المتعرضه للتوفی کقوله: اَللّٰهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ (الزمر/۴۲)

الدال على الحصر،و قوله: قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِی وُكِّلَ بِكُمْ (الم السجده۱۱/)، و قوله: حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا (الأنعام۶۱/)فالتوفی منسوب الیه تعالی علی نحو الأصاله و الی الملائكه علی نحو التبعیه لكونهم أسبابا متوسطه مسخره له تعالی.

قوله تعالی: فَإِنَّهُ یَسْلُكُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً -الی قوله- عَدَداً ضمیر «فَإِنَّهُ» للّه تعالی،و ضمیرا «یَدَیْهِ» و «خَلْفِهِ» للرسول،و الراصد المراقب للأمر الحارس له،و الرصد الراصد یطلق علی الواحد و الجماعه و هو فی الأصل مصدر،و المراد بما بین یدی الرسول ما بینه و بین الناس المرسل الیهم،و بما خلفه ما بینه و بین مصدر الوحی الذی هو اللّه سبحانه و قد اعتبر فی هذا التصویر ما یوهمه معنی الرساله من امتداد متوهم یأخذ من المرسل-اسم فاعل-و ینتهی الی المرسل الیه یقطعه الرسول حتی ینتهی الی المرسل الیه فیؤدی رسالته،و الآیه تصف طریق بلوغ الغیب الی الرسول و هو الرسالات التی توحی الیه كما یشیر الی ذلك قوله: «لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ» .

و المعنی:فإن اللّه یسلك ما بین الرسول و من ارسل الیه و ما بین الرسول و مصدر الوحی مراقبین حارسین من الملائكه-و من المعلوم أن سلوك الرصد من بین یدیه و من خلفه لحفظ الوحی من كل تخلیط و تغییر بالزیاده و النقصان یقع فیه من ناحیه الشیاطین بلا واسطه أو معها.

و قوله: لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ ضمیر «لِیَعْلَمَ» للّه سبحانه، و ضمیرا «قَدْ أَبْلَغُوا» و «رَبِّهِمْ» لقوله: «مَنِ» باعتبار المعنی أو لرسول باعتبار الجنس، و المراد بعلمه تعالی بإبلاغهم رسالت ربهم العلم الفعلی و هو تحقق الإبلاغ فی الخارج علی حد قوله: فَلَیَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِینَ صَدَقُوا وَ لَیَعْلَمَنَّ الْكٰاذِبِینَ (العنكبوت۳/)و هو كثیر الورود فی كلامه تعالی.

ص :۴۶۸

و الجمله تعلیل لسلوک الرصد بین یدی الرسول و من خلفه،و المعنی لیتحقق إبلاغ رسالات ربهم أی لتبلغ الناس رسالاته تعالی علی ما هی علیه من غیر تغیر و تبدل.

و من المحتمل أن یرجع ضمیرا «بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ» الی «غَیْبِهِ» فیکون الرصد الحرس مسلوکین بین یدی الغیب النازل و من خلفه الی أن یبلغ الرسول،و یضعفه أنه لا یلائم قوله:

«لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ» بالمعنی الذی تقدم لعدم استلزام بلوغ الغیب للرسول سلیما من تعرض الشیاطین حصول العلم بإبلاغه الی الناس.

و الی هذا المعنی یرجع قول بعضهم إن الضمیرین یرجعان الی جبریل حامل الوحی و یضعفه مضافا الی ما مر عدم سبق ذکره.

و قوله: وَ أَحٰاطَ بِمٰا لَدَیْهِمْ ضمیر الجمع للرسل بناء علی ما تقدم من المعنی و الظاهر أن الجمله متممه لمعنی الحراسه المذکوره سابقا فقوله: «مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ» یشیر الی رصد ما بین الرسول و المرسل الیهم،و قوله: «وَ مِنْ خَلْفِهِ» الی حفظ ما بینه و مصدر الوحی، و قوله: «وَ أَحٰاطَ بِمٰا لَدَیْهِمْ» یشیر الی ظرف نفس الرسول و الإحاطه إحاطه علمیه فالوحی فی أمن من تطرق التغییر فیما بین مصدر الوحی و الرسول و فی نفس الرسول و فیما بین الرسول و المرسل الیهم.

و یمکن أن یکون المراد بما لدیهم جمیع ما له تعلق ما بالرسل أعم من مسیر الوحی أو أنفسهم کما أن قوله: «وَ أَحْصیٰ کُلَّ شَیْءٍ عَدَداً» مسوق لإفاده عموم العلم بالأشیاء غیر أنه العلم بعددها و تمیز بعضها من بعض (۱).

ص: ۴۶۹

۱- ۱) .الجن ۱۸-۲۸:بحث فی اختصاصه تعالی بعلم الغیب؛علم الانبیاء و الأئمه و الملائکه؛مصونیه الوحی من حین صدوره من مصدره الی الرسول و حین اخذ الرسول ایاه و تلقیه و مصونیه فی حفظه و فی تبلیغه الی الناس.

سوره المزمل مکیه و هی عشرون آیه

اشاره

[سوره المزمل (۷۳): الآیات ۱ الی ۱۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gtیا أَیُّهَا اَلْمُزَّمِّلُ (۱) قُمِ اَللَّیْلَ إِلاّ قَلِیلاً (۲) نِصْفَهُ أَوِ اُنْقُصْ مِنْهُ قَلِیلاً (۳) أَوْ زِدْ عَلَیْهِ وَ رَتِّلِ اَلْقُرْآنَ تَرْتِیلاً (۴) إِنّا سَنُلْقِی عَلَیْکَ قَوْلاً ثَقِیلاً (۵) إِنَّ ناشِئَهَ اَللَّیْلِ هِیَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِیلاً (۶) إِنَّ لَکَ فِی اَلنَّهارِ سَبْحاً طَوِیلاً (۷) وَ اُذْکُرِ اِسْمَ رَبِّکَ وَ تَبَتَّلْ إِلَیْهِ تَبْتِیلاً (۸) رَبُّ اَلْمَشْرِقِ وَ اَلْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَکِیلاً (۹) وَ اِصْبِرْ عَلی ما یَقُولُونَ وَ اُهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِیلاً (۱۰) وَ ذَرْنِی وَ اَلْمُکَذِّبِینَ أُولِی اَلنَّعْمَهِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِیلاً (۱۱) إِنَّ لَدَیْنا أَنْکالاً وَ جَحِیماً (۱۲) وَ طَعاماً ذا غُصَّهٍ وَ عَذاباً أَلِیماً (۱۳) یَوْمَ تَرْجُفُ اَلْأَرْضُ وَ اَلْجِبالُ وَ کانَتِ اَلْجِبالُ کَثِیباً مَهِیلاً (۱۴) إِنّا أَرْسَلْنا إِلَیْکُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَیْکُمْ کَما أَرْسَلْنا إِلی فِرْعَوْنَ رَسُولاً (۱۵) فَعَصی فِرْعَوْنُ اَلرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِیلاً (۱۶) فَکَیْفَ تَتَّقُونَ إِنْ کَفَرْتُمْ یَوْماً یَجْعَلُ اَلْوِلْدانَ شِیباً (۱۷) اَلسَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ کانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (۱۸) إِنَّ هذِهِ تَذْکِرَهٌ فَمَنْ شاءَ اِتَّخَذَ إِلی رَبِّهِ سَبِیلاً (۱۹)

ص: ۴۷۰

بیان:

السوره تأمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بقیام اللیل و الصلاه فیه لیستعد بذلک لتلقی ثقل ما سیلقی علیه من القول الثقیل و القرآن الموحی الیه،و تأمره أن یصبر علی ما یقولون فیه إنه شاعر أو کاهن أو مجنون الی غیر ذلک و یهجرهم هجرا جمیلا،و فیها وعید و إنذار للکفار و تعمیم الحکم لسائر المؤمنین،و فی آخرها تخفیف ما للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین.

و السوره مکیه من عتائق السوق النازله فی أول البعثه حتی قیل:انها ثانیه السور النازله علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو ثالثتها.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الْمُزَّمِّلُ بتشدید الزای و المیم و أصله المتزمل اسم فاعل من التزمل بمعنی التلفف بالثوب لنوم و نحوه،و ظاهره أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان قد تزمل بثوب للنوم فنزل علیه الوحی و خوطب بالمزمل.

ص :۴۷۱

و لیس فی الخطاب به تهجین و لا تحسین کما توهمه بعضهم،نعم یمکن أن یستفاد من سیاق الآیات أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان قد قوبل فی دعوته بالهزء و السخریه و الإیذاء فاغتم فی اللّه فتزمل بثوب لینام دفعا للهم فخوطب بالمزمل و أمر بقیام اللیل و الصلاه فیه و الصبر علی ما یقولون علی حد قوله تعالی: وَ اسْتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاٰهِ (البقره/۱۵۳)فأفید بذلک علیه أن یقاوم الکرب العظام و النوائب المره بالصلاه و الصبر لا بالتزمل و النوم.

و قیل:المراد یا أیها المتزمل بعباءه النبوه أی المتحمل لأثقالها،و لا شاهد علیه من جهه اللفظ.

قوله تعالی: قُمِ اللَّیْلَ إِلاّٰ قَلِیلاً نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِیلاً أَوْ زِدْ عَلَیْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِیلاً المراد بقیام اللیل القیام فیه الی الصلاه فاللیل مفعول به توسعا کما فی قولهم:دخلت الدار،و قیل:معمول «قُمِ» مقدر و «اللَّیْلَ» منصوب علی الظرفیه و التقدیر قم الی الصلاه فی اللیل،و قوله: «إِلاّٰ قَلِیلاً» استثناء من اللیل.

و قوله: نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِیلاً أَوْ زِدْ عَلَیْهِ ظاهر السیاق أنه بدل من «اللَّیْلَ إِلاّٰ قَلِیلاً» المتعلق به تکلیف القیام،و ضمیرا «مِنْهُ» و «عَلَیْهِ» للنصف،و ضمیر «نِصْفَهُ» للیل،و المعنی قم نصف اللیل أو انقص من النصف قلیلا أو أوزد علی النصف قلیلا، و التردید بین الثلاثه للتخییر فقد خیر بین قیام النصف و قیام أقل من النصف بقلیل و قیام أکثر منه بقلیل.

و قوله: وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِیلاً ترتیل القرآن تلاوته بتبیین حروفه علی توالیها، و الجمله معطوفه علی قوله: «قُمِ اللَّیْلَ» أی قم اللیل و اقرأ القرآن بترتیل.

و الظاهر أن المراد بترتیل القرآن ترتیله فی الصلاه أو المراد به الصلاه نفسها و قد عبر سبحانه عن الصلاه بنظیر هذا التعبیر فی قوله: أَقِمِ الصَّلاٰهَ لِدُلُوکِ الشَّمْسِ إِلیٰ غَسَقِ اللَّیْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ کٰانَ مَشْهُوداً (الإسراء/۷۸)،و قیل:المراد إیجاب قراءه

ص: ۴۷۲

القرآن دون الصلاه.

قوله تعالى: إِنّا سَنُلْقِی عَلَیْکَ قَوْلاً ثَقِیلاً الثقل کیفیه جسمانیه من خاصته أنه تشق حمل الجسم الثقیل و نقله من مکان الی مکان و ربما یستعار للمعانی إذا شق علی النفس تحملها أو لم تطقها فربما أضیف الی القول من جهه معناه فعد ثقیلا لتضمنه معنی یشق علی النفس إدراکه أو لا تطیق فهمه أو تتحرج من تلقیه کدقائق الأنظار العلمیه إذا القیت علی الافهام العامه،أو لتضمنه حقائق یصعب التحقق بها او تکالیف یشق الاتیان بها و المداومه علیها.

و القرآن قول إلهی ثقیل بکلا المعنیین:أما من حیث تلقی معناه فإنه کلام إلهی مأخوذ من ساحه العظمه و الکبریاء لا تتلقاه إلا نفس طاهره من کل دنس منقطع عن کل سبب إلا اللّه سبحانه،و کتبا عزیز له ظهر و بطن و تنزیل و تأویل تبیانا لکل شیء،و قد کان ثقله مشهودا من حال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بما کان یأخذ من البرحاء و شبه الإغماء علی ما وردت به الأخبار المستفیضه.

و أما من حیث التحقق بحقیقه التوحید و ما یتبعها من الحقائق الاعتقادیه فکفی فی الاشاره الی ثقله قوله تعالی: لَوْ أَنْزَلْنا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلیٰ جَبَلٍ لَرَأَیْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْیَهِ اللّهِ وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ (الحشر۲۱/)،و قوله تعالی: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُیِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ کُلِّمَ بِهِ الْمَوْتیٰ (الرعد۳۱/).

و أما من حیث القیام بما یشتمل علیه من أمر الدعوه و اقامه مراسم الدین الحنیف، و اظهاره علی الدین کله فیشهد به ما لقی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من المصائب و المحن فی سبیل اللّه و الأذی فی جنب اللّه علی ما یشهد به الآیات القرآنیه الحاکیه لما لقیه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من المشرکین و الکفار و المنافقین و الذین فی قلوبهم مرض من أنواع الإیذاء و الهزء و الجفاء.

فقوله: إِنّا سَنُلْقِی عَلَیْکَ قَوْلاً ثَقِیلاً المراد بالقول الثقیل القرآن العظیم علی ما

یسبق الی الذهن من سیاق هذه الآیات النازله فی أول البعثه،و به فسره المفسرون.

و الآیه فی مقام التعلیل للحکم المدلول علیه بقوله: «قُمِ اللَّیْلَ» الخ؛فتفید بمقتضی السیاق -و الخطاب خاص بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-أن أمره بقیام اللیل و التوجه فیه الیه تعالی بصلاه اللیل تهیئه له و اعداد لکرامه القرب و شرف الحضور و القاء قول ثقیل فقیام اللیل هی السبیل المؤدیه الی هذا الموقف الکریم و قد عد سبحانه صلاه اللیل سبیلا الیه فی قوله الآتی: «إِنَّ هٰذِهِ تَذْکِرَهٌ فَمَنْ شٰاءَ اتَّخَذَ إِلیٰ رَبِّهِ سَبِیلاً» .

و قد زاد سبحانه وعدا علی ما فی هذه الآیه فی قوله: وَ مِنَ اللَّیْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نٰافِلَهً لَکَ عَسیٰ أَنْ یَبْعَثَکَ رَبُّکَ مَقٰاماً مَحْمُوداً (الإسراء۷۹/)و قد تقدم معنی المقام المحمود فی تفسیر الآیه.

و إذا کان من ثقل القرآن ثقله من حیث التحقق بحقائقه و من حیث استجابته فیما یندب الیه من الشرائع و الأحکام فهو ثقیل علی الامه کما هو ثقیل علیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و معنی الآیه انا سنوحی الیک قولا یثقل علیک و علی امتک أما ثقله علیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلما فی التحقق بحقائقه من الصعوبه و لما فیه من محنه الرساله و ما یتبعها من الأذی فی جنب اللّه و ترک الراحه و الدعه و مجاهده النفس و الانقطاع الی اللّه مضافا الی ما فی تلقیه من مصدر الوحی من الجهد،و أما ثقله علی امته فلأنهم یشارکونه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی لزوم التحقق بحقائقه و اتباع أوامره و نواهیه و رعایه حدوده کل طائفه منهم علی قدر طاقته.

قوله تعالی: إِنَّ نٰاشِئَهَ اللَّیْلِ هِیَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِیلاً إِنَّ لَکَ فِی النَّهٰارِ سَبْحاً طَوِیلاً الآیه الاولی فی مقام التعلیل لاختیار اللیل وقتا لهذه الصلاه،و الآیه الثانیه فی مقام التعلیل لترک النهار و الاعراض عنه کما أن الآیه السابقه أعنی قوله: «إِنّٰا سَنُلْقِی عَلَیْکَ قَوْلاً ثَقِیلاً» فی مقام التعلیل لتشریع أصل هذه الصلاه.

فقوله: «إِنَّ نٰاشِئَهَ اللَّیْلِ هِیَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِیلاً» الناشئه اما مصدر کالعاقبه و العافیه

بمعنى النشأه و هى الحدوث و التكون،و اما اسم فاعل من النشأه مضاف الى موصوفه و كيف كان فالمراد بها الليل و اطلاق الحادثه على الليل كاطلاقها على سائر أجزاء الخلقه و ربما قيل:

انها الصلاه فى الليل و وطؤ الأرض وضع القدم عليها،و كونها أشد وطأ كنايه عن كونها أثبت قدما لصفاء النفس و عدم تكدرها بالشواغل النهاريه و قيل:الوطء مواطاه القلب اللسان و أيد بقراءه «أَشَدُّ وَطْئاً» و المراد بكونها أقوم قيلا كونها أثبت قولا و أصوب لحضور القلب و هدو الأصوات.

و المعنى ان حادثه الليل أو الصلاه فى الليل هى أثبت قدما-أو أشد فى مواطاه القلب اللسان و أثبت قولا و أصوب لما أن اللّه جعل الليل سكنا يستتبع انقطاع الإنسان عن شواغل المعيشه الى نفسه و فراغ باله.

و قوله: «إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً» السبح المشى السريع فى الماء و السبح الطويل فى النهار كنايه عن الغور فى مهمات المعاش و أنواع التقلب فى قضاء حوائج الحياه.

و المعنى إن لک فى النهار مشاغل كثيره تشتغل بها مستوعبه لا تدع لک فراغا تشتغل فيه بالتوجه التام الى ربک و الانقطاع اليه بذكره فعليک بالليل و الصلاه فيه.

قوله تعالى: وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً الظاهر أنه يصف صلاه الليل فهو كالعطف التفسيرى على قوله: «وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً» و على هذا فالمراد بذكر اسم الرب تعالى الذكر اللفظى بمواطاه من القلب و كذا المراد بالتبتل التبتل مع اللفظ.

و قيل:الآيه تعميم بعد التخصيص و المراد بالذكر دوام ذكره تعالى ليلا و نهارا على أى وجه كان من تسبيح و تحميد و صلاه و قراءه قرآن و غير ذلک،و إنما فسر الذكر بالدوام لأنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم ينسه تعالى حتى يؤمر بذكره،و المراد الدوام العرفى دون الحقيقى لعدم إمكانه.

انتهى.

و فيه أنه إن أراد بالذكر الذكر اللفظى فعدم نسيانه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ربه تعالى لا ينافى أمره بالذكر

ص :۴۷۵

اللفظی،و إن أراد ما یعم الـذکر القلبی فهو ممنوع و لو سـلم ففیه أولا أن عـدم نسـیانه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم ربه الی حین الخطـاب لا ینافی أمره بـذکره بعـده و ثانیا أن عـدّه الـدوام الحقیقی غیر ممکن و حمل الـدوام علی العرفی و هم ناش عن عـدم تحصـیل المعنی علی ما هو علیه فاللّه جل ذکره مـذکور للإنسان لا یغیب عنه و لا لحظه سواء تنبه علیه الإنسان أو غفل عنه.و من الممکن أن یعرّفه اللّه نفسه بحیث لاـ یغفـل عنه و لاـ فی حـال قـال تعالی: فَالَّذِینَ عِنْدَ رَبِّکَ یُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لا یَسْأَمُونَ (حم السجده/۳۸)و قال: یُسَبِّحُونَ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ لا یَفْتُرُونَ (الأنبیاء/۲۰)و قد تقدم فی تفسیر الآیتین و آخر سوره الأعراف أن ذلک لا یختص بالملائکه.

و بالجمله قوله: وَ اذْکُرِ اسْمَ رَبِّکَ أمر بذکر اسم من أسمائه أو لفظ الجلاله خاصه و قیل:المراد به البسمله.

و فی قوله: رَبِّکَ التفـات عن التکلم مع الغیر فی قوله: «إِنّا سَنُلْقِی» الی الغیبه و لعل الوجه فیه إیقاظ ذله العبودیه التی هی الرابطه بین العبد و ربه،بذکر صفه الربوبیه.

و قوله: وَ تَبَتَّلْ إِلَیْهِ تَبْتِیلاً فسر التبتل بالانقطاع أی و انقطع الی اللّه،و من المروی عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام أن التبتل رفع الید الی اللّه و التضرع الیه،و هذا المعنی أنسب بناء علی حمل الذکر علی الذکر اللفظی کما تقدم.

و «تَبْتِیلاً» مفعول مطلق ظاهرا و کان مقتضـی الظاهر أن یقال:و تبتل الیه تبتلا فالعـدول الی التبتیل قیل:لتضـمین تبتل معنی بتل،و المعنی و قطع نفسک من غیره الیه تقطیعا أو احمل نفسک علی رفع الید الیه و التضرع حملا،و قیل:لمراعاه الفواصل.

قـوله تعـالی: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لاـ إِلهَ إِلاّـ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَکِیلاًـ وصـف مقطـوع عن الوصـفیه و التقـدیر هـو رب المشـرق و المغرب،و رب المشرق و المغرب فی معنی رب العالم کله فان المشرق و المغرب جهتان نسبیتان تشملان جهات العالم المشهود کلها،و إنما اختصا بالذکر لمناسبه ما تقدم من ذکر اللیل و النهار المرتبطین بالشروق و الغروب.

و إنما لم يقتصر فی الاشاره الی ربوبيته تعالی بقوله السابق: «رَبِّکَ» للإيذان بأنه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم مأمور باتخاذه ربا لأنه ربه و رب العالم كله لأنه ربه وحده كما ربما كان الرجل من الوثنيين يتخذ صنما لنفسه فحسب غير ما اتخذه غيره من الأصنام و لو كان اتخاذه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم له تعالی ربا من هذا القبيل أو احتمل ذلک لم تصح دعوته الی التوحيد.

و ليكون قوله:ربک رب المشرق و المغرب-و هو فی معنی رب العالم كله-توطئه و تمهيدا لقوله بعده: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» يعلل به توحيد الالوهيه فإن الالوهيه و هی المعبوديه من فروع الربوبيه التی هی الملک و التدبير كما تقدم مرارا فهو تعالی الإله وحده لا إله إلا هو لأنه الرب وحده لا رب إلا هو.

و قوله: فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً أی فی جميع امورک،و توكيل الوكيل هو إقامه الانسان غير مقام نفسه بحيث تقوم إرادته مقام إرادته و عمله مقام عمله فاتخاذه تعالی وكيلا أن يری الانسان الأمر كله له و اليه تعالی أما فی الامور الخارجيه و الحوادث الكونيه فإن لا يری لنفسه و لا لشیء من الأسباب الظاهريه استقلالا فی التأثير فلا مؤثر فی الوجود بحقيقه معنی التأثير إلا اللّه فلا يتعلق بتأثير سبب من الأسباب برضی أو سخط أو سرور أو أسف و غير ذلک بل يتوسل الی مقاصده و مآربه بما عرّفه اللّه من الأسباب من غير أن يطمئن الی استقلالها فی التأثير و يرجع الظفر بالمطلوب الی اللّه ليختار له ما يرتضيه.

و أما الامور التی لها تعلق بالعمل من العبادات و المعاملات فإن يجعل ارادته تابعه لإراده ربه التشريعيه فيعمل علی حسب ما يريده اللّه تعالی منه فيما شرّع من الشريعه.

قوله تعالی: وَ اصْبِرْ عَلیٰ مٰا يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً معطوف هو و ما بعده علی مدخول الفاء فی قوله: «فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً» فالمعنی اتخذه وكيلا و لازم اتخاذه وكيلا أن تصبر علی ما يقولون مما فيه إيذاؤک و الاستهزاء بک و رميک بما ليس فيک كقولهم:افتری علی اللّه،كاهن شاعر،مجنون،أساطير الأولين و غير ذلک مما يقصه القرآن.

و أن تهجرهم هجرا جميلا-و المراد بالهجر الجميل على ما يعطيه السياق أن يعاملهم بحسن الخلق و الدعوه الى الحق بالمناصحه،و لا يواجه قولهم بما فى وسعه من المقابله بالمثل،و الآيه لا تدافع آيه القتال فلا وجه لقول من قال:إنها منسوخه بآيه القتال.

قوله تعالى: وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلاً- تهديد للكفار يقال:دعنى و فلانا و ذرنى و فلانا أى لا تحل بينى و بينه حتى أنتقم منه.

و المراد بالمكذبين اولى النعمه الكفار المذكورون فى الآيه السابقه او رؤساؤهم المتبوعون، و الجمع بين توصيفهم بالمكذبين و توصيفهم باولى النعمه للإشاره الى عله ما يهددهم به من العذاب فإن تكذيبهم بالدعوه الإلهيه و هم متنعمون بنعمه ربهم كفران منهم بالنعمه و جزاء الكفران سلب النعمه و تبديلها من النقمه.

و المراد بالقليل الذى يمهلونه الزمان القليل الذى يمكثون فى الأرض حتى يرجعوا الى ربهم فيحاسبهم و يجازيهم قال تعالى: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ نَرٰاهُ قَرِيباً (المعارج/٧)،و قال:

مَتٰاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهٰادُ (آل عمران/١٩٧).

و الآيه بظاهرها عامه،و قيل:وعيد لهم بوقعه بدر و ليس بظاهر،و فى الآيه التفات عن الغيبه فى «رَبِّكَ» الى التكلم وحده فى «ذَرْنِي» و لعل الوجه فيه تشديد التهديد بنسبه الأمر اليه سبحانه نفسه ثم التفت فى قوله: «إِنَّ لَدَيْنٰا» الى التكلم مع الغير للدلاله على العظمه.

قوله تعالى: إِنَّ لَدَيْنٰا أَنْكٰالاً وَ جَحِيماً تعليل لقوله: «ذَرْنِي» الخ؛و الأنكال القيود،قال الراغب يقال:نكل عن الشىء ضعف و عجز،و نكلته قيدته و النكل-بالكسر فالسكون-قيد الدابه و حديده اللجام لكونهما مانعين،و الجمع الأنكال انتهى،و قال:الجحمه شده تأجج النار و منه الجحيم،انتهى.

قوله تعالى: وَ طَعٰاماً ذٰا غُصَّةٍ وَ عَذٰاباً أَلِيماً قال فى المجمع:الغصه تردد اللقمه فى الحلق و لا يسيغها أكلها يقال:غصّ بريقه يغص غصصا،و فى قلبه غصه من كذا و هى كاللدغه

التی لا یسوغ معها الطعام و الشراب،انتهی.

و الآیتان تذکران نقم الآخره التی بدلت منها نعم الدنیا جزاء لکفرانهم بنعم اللّه.

قوله تعالی: یَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ کانَتِ الْجِبالُ کَثِیباً مَهِیلاً ظرف للعذاب الموعود فی الآیتین السابقتین،قال الراغب:الرجف الاضطراب الشدید یقال:

رجفت الارض و البحر انتهی.و فی المجمع:الکثیب الرمل المجتمع الکثیر،و هلت أهیله هیلا فهو مهیل إذا حرک أسفله فسال أعلاه انتهی،و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: إِنّا أَرْسَلْنا إِلَیْکُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَیْکُمْ کَما أَرْسَلْنا إِلی فِرْعَوْنَ رَسُولاً إنذار للمکذبین اولی النعمه من قومه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد ما أوعد مطلق المکذبین اولی النعمه بما أعد لهم من العذاب یوم القیامه بقیاس حالهم الی حال فرعون المستکبر علی اللّه و رسوله المستذل لرسول اللّه و من آمن معه من قومه ثم قرع أسماعهم بما انتهی الیه أمر فرعون من أخذ اللّه له أخذا وبیلا فلیتعظوا و لیأخذوا حذرهم.

فقوله: إِنّا أَرْسَلْنا إِلَیْکُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَیْکُمْ إشاره الی تصدیق رساله النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من قبله تعالی و شهادته علی أعمالهم بتحملها فی الدنیا و تأدیتها یوم القیامه،و قد تقدم البحث عن معنی شهاده الأعمال فی الآیات المشتمله علیها مرارا،و فی الاشاره الی شهادته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نوع زجر لهم عن عصیانه و مخالفته و تکذیبه.

و قوله: «کَما أَرْسَلْنا إِلی فِرْعَوْنَ رَسُولاً» هو موسی بن عمران علیه السّلام.

قوله تعالی: فَعَصی فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِیلاً أی شدیدا ثقیلا.

إشاره الی عاقبه أمر فرعون فی عصیانه موسی علیه السّلام،و فی التعبیر عن موسی بالرسول إشاره الی أن السبب الموجب لأخذ فرعون مخالفته أمر رسالته لا نفس موسی بما أنه موسی، و إذا کان السبب هو مخالفه الرساله فلیحذروا مخالفه رساله محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

کما أن وضع الظاهر موضع الضمیر فی قوله: «فَعَصی فِرْعَوْنُ» للإیماء الی أن ما کان له من

العزه و العلو فی الارض و التبجح بکثره العدد و سعه المملکه و نفوذ المشیه لم یغن عنه شیئا و لم یدفع عنه عذاب اللّه فما الظن بهؤلاء المکذبین؟و هم کما قال اللّه: جُنْدٌ مٰا هُنٰالِکَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزٰابِ (ص/١١).

قوله تعالی: فَکَیْفَ تَتَّقُونَ إِنْ کَفَرْتُمْ یَوْماً یَجْعَلُ الْوِلْدٰانَ شِیباً نسبه الاتقاء الی الیوم من المجاز العقلی و المراد اتقاء العذاب الموعود فیه،و علیه فیوما مفعول به لتتقون،و قیل:مفعول «تَتَّقُونَ» محذوف و «یَوْماً» ظرف له و التقدیر فکیف تتقون العذاب الکائن فی یوم،و قیل:المفعول محذوف و «یَوْماً» ظرف للاتقاء و قیل غیر ذلک.

و قوله: «یَجْعَلُ الْوِلْدٰانَ شِیباً» الشیب جمع أشیب مقابل الشاب،و جعل الولدان شیبا کنایه عن شده الیوم لا عن طوله.

قوله تعالی: اَلسَّمٰاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ کٰانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً إشاره بعد إشاره الی شده الیوم،و الانفطار الانشقاق و تذکیر الصفه لکون السماء جائز الوجهین یذکر و یؤنث،و ضمیر «بِهِ» للیوم،و الباء بمعنی فی أو للسببیه،و المعنی السماء منشقه فی ذلک الیوم أو بسبب ذلک الیوم أی بسبب شدته.

و قوله: «کٰانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً» استئناف لتسجیل ما تقدم من الوعید و أنه حتم مقضی و نسبه الوعد الی ضمیره تعالی لعله للإشعار بأن لا یصلح لهذا الوعد إلا اللّه تعالی فیکفی فیه الضمیر من غیر حاجه الی ذکره باسمه.

قوله تعالی: إِنَّ هٰذِهِ تَذْکِرَهٌ فَمَنْ شٰاءَ اتَّخَذَ إِلیٰ رَبِّهِ سَبِیلاً الإشاره بهذه الی الآیات السابقه بما تشتمل علیه من القوارع و الزواجر،و التذکره الموعظه التی یذکر بها ما یعمل علیه.

و قوله: فَمَنْ شٰاءَ مفعول «شٰاءَ» محذوف و المعروف فی مثل هذا المورد أن یقدر المفعول من جنس الجواب و السیاق یلائمه،و التقدیر فمن شاء أن یتخذ الی ربه سبیلا اتخذ،

الـخ،و قيـل:المقـدر الاتعـاظ،و المراد باتخـاذ السبيل اليه اتخاذ السبيل الى التقرب منه،و السبيل هو الإيمان و الطاعه هـذا ما ذكره المفسرون.

و من الممكن أن تكون هـذه اشـاره الى مـا تقـدم فى صـدر السوره من الآيـات النادبه الى قيام الليل و التهجـد فيه،و الآيه مسوقه لتوسـعه الخطاب و تعميمه لغير النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم من المؤمنين بعد ما كان خطاب صدر الصوره مختصا به صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و الدليل على هذا التعميم قوله: «فَمَنْ شٰاءَ» الخ.

و يؤيـد ما ذكرنا وقوع هـذه الآيه «إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ» الخ؛بعينها فى سوره الدهر بعد ما أشـير الى صـلاه الليل بقوله تعالى: «وَ سَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً» و يستنتج من ذلك أن صلاه الليل سبيل خاصه تهدى العبد الى ربه (1).

[سوره المزمل (٧٣): آيه ٢٠]

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اَللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طٰائِفَةٌ مِنَ اَلَّذِينَ مَعَكَ وَ اَللّٰهُ يُقَدِّرُ اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهٰارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتٰابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا مٰا تَيَسَّرَ مِنَ اَلْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضىٰ وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي اَلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اَللّٰهِ وَ آخَرُونَ يُقٰاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ فَاقْرَؤُا مٰا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ آتُوا اَلزَّكٰاةَ وَ أَقْرِضُوا اَللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً وَ مٰا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اَللّٰهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً وَ اِسْتَغْفِرُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)

١- ١) .المزمل ١-١٩:بحث روائى فى نزول سوره المزمل؛قيام النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بالليل و طائفه من اصحابه؛حاله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين تلقى الوحى.

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ رَبَّکَ یَعْلَمُ أَنَّکَ تَقُومُ أَدْنیٰ مِنْ ثُلُثَیِ اللَّیْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ الی آخر الآیه؛الخطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فی التعبیر بقوله: «رَبَّکَ» تلویح الی شمول الرحمه و العنایه الإلهیه،و کذا فی قوله: «یَعْلَمُ أَنَّکَ تَقُومُ» الخ؛مضافا الی ما فیه من لائحه الشکر قال تعالی: وَ کٰانَ سَعْیُکُمْ مَشْکُوراً (الدهر/۲۲).

و قوله: تَقُومُ أَدْنیٰ مِنْ ثُلُثَیِ اللَّیْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ «أَدْنیٰ» اسم تفضیل من الدنو بمعنی القرب،و قد جری العرف علی استعمال أدنی فیما یقرب من الشیء و هو أقل فیقال:

إن عدتهم أدنی من عشره إذا کانوا تسعه مثلا دون ما لو کانوا أحد عشر فمعنی قوله: «أَدْنیٰ مِنْ ثُلُثَیِ اللَّیْلِ» أقرب من ثلثیه و أقل بقلیل.

و الواو العاطفه فی قوله: «وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ» لمطلق الجمع و المراد أنه یعلم أنک تقوم فی بعض اللیالی أدنی من ثلثی اللیل و فی بعضها نصفه و فی بعضها ثلثه.

و قوله: وَ طٰائِفَهٌ مِنَ الَّذِینَ مَعَکَ المراد المعیه فی الإیمان و «مِنْ» للتبعیض فالآیه تدل علی أن بعضهم کان یقوم اللیل کما کان یقومه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.و قیل «مِنْ» بیانیه،و هو کما تری.

و قوله: وَ اللّٰهُ یُقَدِّرُ اللَّیْلَ وَ النَّهٰارَ فی مقام التعلیل لقوله: «إِنَّ رَبَّکَ یَعْلَمُ» و المعنی و کیف لا یعلم و هو اللّه الذی الیه الخلق و التقدیر ففی تعیین قدر اللیل و النهار تعیین ثلثهما و نصفهما و ثلثیهما،و نسبه تقدیر اللیل و النهار الی اسم الجلاله دون اسم الرب و غیره لأن التقدیر من شئون الخلق و الخلق الی اللّه الذی الیه ینتهی کل شیء.

و قوله: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتٰابَ عَلَیْکُمْ فَاقْرَؤُا مٰا تَیَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ الاحصاء تحصیل مقدار الشیء و عدده و الإحاطه به،و ضمیر «لَنْ تُحْصُوهُ» للتقدیر أو للقیام

مقدار ثلث الليل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه،و إحصاء ذلك من اختلاف الليالى طولا و قصرا فى أيام السنه مما لا يتيسر لعامه المكلفين و يشتد عسرا لمن نام أول الليل و أراد القيام بأحد المقادير الثلاثه دون أن يحتاط بقيام جميع الليل أو ما فى حكمه.

فالمراد بقوله: «عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ» علمه تعالى بعدم تيسر إحصاء المقدار الذى أمروا بقيامه من الليل لعامه المكلفين.

و المراد بقوله: «فَتابَ عَلَيْكُمْ» توبته تعالى و رجوعه اليهم بمعنى انعطاف الرحمه الإلهيه عليهم بالتخفيف فللّه سبحانه توبه على عباده ببسط رحمته عليهم و أثرها توفيقهم للتوبه أو لمطلق الطاعه أو رفع بعض التكاليف أو التخفيف قال تعالى: ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا (التوبه١١٨/).

كما أن له توبه عليهم بمعنى الرجوع إليهم بعد توبتهم و أثرها مغفره ذنوبهم،و قد تقدمت الإشاره اليه.

و المراد بقوله: «فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ» التخفيف فى قيام الليل من حيث المقدار لعامه المكلفين تفريعا على علمه تعالى أنهم لن يحصوه.

و لازم ذلك التوسعه فى التكليف بقيام الليل من حيث المقدار حتى يسع لعامه المكلفين الشاق عليهم إحصاؤه دون النسخ بمعنى كون قيام الثلث أو النصف أو الأدنى من الثلثين لمن استطاع ذلك بدعه محرمه و ذلك أن الإحصاء المذكور إنما لا يتيسر لمجموع المكلفين لا لجميعهم و لو امتنع لجميعهم و لم يتيسر لأحدهم لم يشرع من أصله و لا يكلف اللّه نفسا إلا وسعها.

على أنه تعالى يصدق لنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و طائفه من الذين معه قيام الثلث و النصف و الأدنى من الثلثين و ينسب عدم التمكن من الإحصاء الى الجميع و هم لا ـ محاله هم القائمون و غيرهم فالحكم إنما كان شاقا على المجموع من حيث المجموع دون كل واحد فوسع فى التكليف بقوله:

«فَاقْرَؤُا مٰا تَیَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ» و سهل الأمر بالتخفيف ليكون لعامه المكلفين فيه نصيب مع بقاء الاصل المشتمل عليه صدر السوره على حاله لمن تمكن من الاحصاء و أراده،و الحكم استحبابی لسائر المؤمنين و إن كان ظاهر ما للنبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم من الخطاب الوجوب كما تقدمت الإشاره اليه.

و قوله: عَلِمَ أَنْ سَیَکُونُ مِنْکُمْ مَرْضیٰ وَ آخَرُونَ یَضْرِبُونَ فِی الْأَرْضِ یَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ وَ آخَرُونَ یُقٰاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ إشاره الى مصلحه اخرى مقتضيه للتخفيف فی أمر القيام ثلث الليل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه،وراء كونه شاقا على عامه المكلفين بالصفه المذكوره أولا فإن الإحصاء المذكور للمريض و المسافر و المقاتل مع ما هم عليه من الحال شاق عسير جدا.

و المراد بالضرب فی الأرض للابتغاء من فضل اللّه طلب الرزق بالمسافره من أرض الى أرض للتجاره.

و قوله: فَاقْرَؤُا مٰا تَیَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِیمُوا الصَّلاٰهَ وَ آتُوا الزَّکٰاهَ وَ أَقْرِضُوا اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً تكرار للتخفيف تأكيدا،و ضمير «مِنْهُ» للقرآن،و المراد الإتيان بالصلاه على ما يناسب سعه الوقت الذی قاموا فيه.

و المراد بالصلاه المأمور بإقامتها الفريضه فإن كانت الآيه مدنيه فالفرائض الخمس اليوميه و إن كانت مكيه فبحسب ما كانت مفروضه من الصلاه،و المراد بالزكاه زكاه المفروضه،و المراد بإقراضه تعالى غير الزكاه من الإنفاقات الماليه فی سبيل اللّه.

و عطف الأمر بإقامه الصلاه و إيتاء الزكاه و الإقراض للتلويح الى أن التكاليف الدينيه على حالها فی وجوب الاهتمام بها و الاعتناء بأمرها،فلا يتوهمن متوهم سريان التخفيف و المسامحه فی جميع التكاليف فالآيه نظيره قوله فی آيه النجوى: فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تٰابَ اللّٰهُ عَلَیْکُمْ فَأَقِیمُوا الصَّلاٰهَ وَ آتُوا الزَّکٰاهَ وَ أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ (المجادله/١٣).

ص :۴۸۴

و قوله: وَ مٰا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللّٰهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً «مِنْ خَيْرٍ» بيان للموصول،و المراد بالخير مطلق الطاعه أعم من الواجبه و المندوبه، و «هُوَ» ضمير فصل أو تأكيد للضمير فى «تَجِدُوهُ» .

و المعنى:و الطاعه التى تقدمونها لأنفسكم-أى لتعيشوا بها فى الآخره-تجدونها عند اللّه- أى فى يوم اللقاء-خيرا من كل ما تعملون أو تتركون و أعظم أجرا.

و قوله: وَ اسْتَغْفِرُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ختم الكلام بالأمر بالاستغفار، و فى قوله: «إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» إشعار بوعد المغفره و الرحمه،و لا يبعد أن يكون المراد بالاستغفار الإتيان بمطلق الطاعات لأنها وسائل يتوسل بها الى مغفره اللّه فالاتيان بها استغفار (۱).

ص: ۴۸۵

---

۱ – ۱) .المزمل ۲۰:بحث روائى فى قيام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالليل و طائفه من اصحابه؛قراءه ما تيسر من القرآن،القرض الحسن للّه تعالى.

سوره المدثر مکیه و هی ست و خمسون آیه

اشاره

[سوره المدثر (۷۴): الآيات ۱ الی ۷]

اشاره

بِسْمِ اَللَّهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;يٰا أَيُّهَا اَلْمُدَّثِّرُ (۱) قُمْ فَأَنْذِرْ (۲) وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ (۳) وَ ثِيٰابَكَ فَطَهِّرْ (۴) وَ اَلرُّجْزَ فَاهْجُرْ (۵) وَ لاٰ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (۶) وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (۷)

بيان:

تتضمن السوره أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالإنذار فی سیاق یلوح منه کونه من أوامر أوائل البعثه ثم الإشاره الی عظم شأن القرآن الکریم و جلاله قدره،و الوعید الشدید علی من یواجهه

ص: ۴۸۶

بالإنكار و الرمی بالسحر،و ذم المعرضین عن دعوته.

و السوره مکیه من العتائق النازله فی أوائل البعثه و ظهور الدعوه حتی قیل:إنها أول سوره نزلت من القرآن و إن کان یکذبه نفس آیات السوره الصریحه فی سبق قراءته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم القرآن علی القوم و تکذیبهم به و إعراضهم عنهم و رمیهم له بأنه سحر یؤثر.

و لذا مال بعضهم الی أن النازل أولا هی الآیات السبع الواقعه فی أول السوره و لازمه کون السوره غیر نازله دفعه و هو و إن کان غیر بعید بالنظر الی متن الآیات السبع لکن یدفعه سیاق أول سوره العلق الظاهر فی کونه أول ما نزل من القرآن.

و احتمل بعضهم أن تکون السوره أول ما نزل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عند الأمر بإعلان الدعوه بعد إخفائها مده فی أول البعثه فهی فی معنی قوله: فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ (الحجر/۹۴)،و بذلک جمع بین ما ورد من أنها أول ما نزل،و ما ورد أنها نزلت بعد سوره العلق،و ما ورد أن سورتی المزمل و المدثر نزلتا معا،و هذا القول لا یتعدی طور الاحتمال.

و کیف کان فالمتیقن أن السوره من أوائل ما نزل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من السور القرآنیه، و الآیات السبع التی نقلناها تتضمن الأمر بالإنذار و سائر الخصائل التی تلزمه مما وصاه اللّه به.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الْمُدَّثِّرُ المدثر بتشدید الدال و الثاء أصله المتدثر اسم فاعل من التدثر بمعنی التغطی بالثیاب عند النوم.

و المعنی:یا أیها المتغطی بالثیاب للنوم خطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قد کان علی هذه الحال فخوطب بوصف مأخوذ من حاله تأنیسا و ملاطفه نظیر قوله: «یٰا أَیُّهَا الْمُزَّمِّلُ» .

قوله تعالی: قُمْ فَأَنْذِرْ الظاهر أن المراد به الأمر بالإنذار من غیر نظر الی من ینذر فالمعنی افعل الإنذار،و ذکر بعضهم أن مفعول الفعل محذوف،و التقدیر أنذر عشیرتک

الأقربين لمناسبته لابتداء الدعوه كما ورد فى سوره الشعراء.

و ذكر آخرون أن المفعول المحذوف عام و هو جميع الناس لقوله: وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ كَافَّةً لِلنّٰاسِ (سبأ/٢٨).

و لم يذكر التبشير مع الإنذار مع أنهما كالمتلازمين فى تمام الدعوه لأن السوره مما نزل فى ابتداء الدعوه و الإنذار هو الغالب إذ ذاك.

قوله تعالى: وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ أى انسب ربك الى الكبرياء و العظمه اعتقادا و عملا قولا و فعلا و هو تنزيهه تعالى من أن يعادله أو يفوقه شىء فلا شىء يشاركه أو يغلبه أو يمانعه،و لا نقص يعرضه،و لا وصف يحده.

و لذا ورد عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن معنى التكبير:اللّه أكبر من أن يوصف،فهو تعالى اكبر من كل وصف نصفه به حتى من هذا الوصف،و هذا هو المناسب للتوحيد الإسلامى الذى يفوق ما نجده من معنى التوحيد فى سائر الشرائع السماويه.

و هذا الذى ذكرناه هو الفرق بين كلمتى التكبير و التسبيح-اللّه أكبر و سبحان اللّه- فسبحان اللّه تنزيه له تعالى عن كل وصف عدمى مبنى على النقص كالموت و العجز و الجهل و غير ذلك،و اللّه أكبر تنزيه مطلق له تعالى عن كل وصف نصفه به أعم من أن يكون عدميا أو وجوديا حتى من نفس هذا الوصف لما أن كل مفهوم محدود فى نفسه لا يتعدى الى غيره من المفاهيم و هو تعالى لا يحيط به حد،فافهم ذلك.

و قيل:المراد الأمر بالتكبير فى الصلاه.

قوله تعالى: وَ ثِيٰابَكَ فَطَهِّرْ قيل:كنايه عن إصلاح العمل؛و لا يخلو من وجه فإن العمل بمنزله الثياب للنفس بما لها من الاعتقاد فالظاهر عنوان الباطن،و كثيرا ما يكنى فى كلامهم عن صلاح العمل بطهاره الثياب.

و قيل:كنايه عن تزكيه النفس و تنزيهها عن الذنوب و المعاصى.

و قيل:المراد تقصير الثياب لأنه أبعد من النجاسه و لو طالت و انجرت على الأرض لم يؤمن أن تتنجّس.

و قيل:المراد تطهير الأزواج من الكفر و المعاصى لقوله تعالى: هُنَّ لِبٰاسٌ لَكُمْ (البقره/١٨٧).

و قيل:الكلام على ظاهره و المراد تطهير الثياب من النجاسات للصلاه و الأقرب على هذا أن يجعل قوله: «وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ» إشاره الى تكبير الصلاه و تكون الآيتان مسوقتين لتشريع أصل الصلاه مقارنا للأمر بالدعوه.

و لا يرد عليه ما قيل:إن نزول هذه الآيات كان حيث لا صلاه أصلا و ذلك أن تشريع الفرائض الخمس اليوميه على ما هى عليها اليوم و إن كان فى ليله المعراج و هى جميعا عشر ركعات ثم زيد عليها سبع ركعات إلا أن أصل الصلاه كان فمنذ أوائل البعثه كما يشهد به ذكرها فى هذه السوره و سورتى العلق و المزمل،و يدل عليه الروايات.

و قيل:المراد بتطهير الثياب التخلق بالأخلاق الحميده و الملكات الفاضله.

و فى معنى تطهير الثياب أقوال أخر أغمضنا عن نقلها لإمكان إرجاعها الى بعض ما تقدم من الوجوه،و أرجح الوجوه المتقدمه أولها و خامسها.

قوله تعالى: وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ قيل:الرجز بضم الراء و كسرها العذاب،و المراد بهجره هجر سببه و هو الإثم و المعصيه،و المعنى اهجر الإثم و المعصيه.

و قيل:الرجز اسم لكل قبيح مستقذر من الأفعال و الأخلاق فالأمر بهجره أمر بترك كل ما يكرهه اللّه و لا يرتضيه مطلقا،أو أمر بترك خصوص الأخلاق الرذيله الذميمه على تقدير أن يكون المراد بتطهير الثياب ترك الذنوب و المعاصى.

و قيل:الرجز هو الصنم فهو أمر بترك عباده الأصنام.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ الذى يعطيه سياق الآيات و يناسب المقام أن

یکون المراد بـالمن تکـدیر الصـنیعه بـذکرها للمنعم علیه کما فی قوله تعالی: لاٰ تُبْطِلُوا صَـدَقٰاتِکُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذیٰ (البقره۲۶۴/)،و قوله: یَمُنُّونَ عَلَیْکَ أَنْ أَسْلَمُوا (الحجرات/ ۱۷)و المراد بالاستکثار رؤیه الشیء و حسبانه کثیرا لا طلب الکثره.

و المعنی:لا تمنن امتثالک لهذه الأوامر و قیامک بالانذار و تکبیرک ربک و تطهیرک ثیابک و هجرک الرجز حال کونک تری ذلـک کثیرا و تعجبه-فانمـا أنت عبـد لاـ تملـک من نفسـک شـیئا إلا ما ملکک اللّه و أقـدرک علیه و هو المالک لما ملکک و القادر علی ما علیه أقدرک فله الأمر و علیک الامتثال-.

قوله تعالی: وَ لِرَبِّکَ فَاصْبِرْ أی لوجه ربک،و الصبر مطلق یشـمل الصبر عند المصـیبه و الصبر علی الطاعه و الصبر عن المعصیه،و المعنی و لوجه ربک فاصبر عنـد ما یصـیبک من المصـیبه و الأذی فی قیامک بالإنـذار و امتثالک هذه الأوامر و اصبر علی طاعه اللّه و اصبر عن معصـیته،و هذا معنی جامع لمتفرقات ما ذکروه فی تفسیر الآیه کقول بعضهم:إنه أمر بنفس الفعل من غیر نظر الی متعلقه،و قول بعضهم:إنه الصبر علی أذی المشرکین،و قول بعضهم:

إنه الصبر علی أداء الفرائض،الی غیر ذلک (۱).

[سوره المدثر (۷۴): الآیات ۸ الی ۳۱]

فَإِذٰا نُقِرَ فِی اَلنّٰاقُورِ (۸) فَذٰلِکَ یَوْمَئِذٍ یَوْمٌ عَسِیرٌ (۹) عَلَی اَلْکٰافِرِینَ غَیْرُ یَسِیرٍ (۱۰) ذَرْنِی وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِیداً (۱۱) وَ جَعَلْتُ لَهُ مٰالاً مَمْدُوداً (۱۲) وَ بَنِینَ شُهُوداً (۱۳) وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِیداً (۱۴) ثُمَّ یَطْمَعُ أَنْ أَزِیدَ (۱۵) کَلاّٰ إِنَّهُ کٰانَ لِآیٰاتِنٰا عَنِیداً (۱۶) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (۱۷) إِنَّهُ فَکَّرَ وَ قَدَّرَ (۱۸) فَقُتِلَ کَیْفَ قَدَّرَ (۱۹) ثُمَّ قُتِلَ کَیْفَ قَدَّرَ (۲۰) ثُمَّ نَظَرَ (۲۱) ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ (۲۲) ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اِسْتَکْبَرَ (۲۳) فَقٰالَ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ یُؤْثَرُ (۲۴) إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ قَوْلُ اَلْبَشَرِ (۲۵) سَأُصْلِیهِ سَقَرَ (۲۶) وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا سَقَرُ (۲۷) لاٰ تُبْقِی وَ لاٰ تَذَرُ (۲۸) لَوّٰاحَهٌ لِلْبَشَرِ (۲۹) عَلَیْهٰا تِسْعَهَ عَشَرَ (۳۰) وَ مٰا جَعَلْنٰا أَصْحٰابَ اَلنّٰارِ إِلاّٰ مَلاٰئِکَهً وَ مٰا جَعَلْنٰا عِدَّتَهُمْ إِلاّٰ فِتْنَهً لِلَّذِینَ کَفَرُوا لِیَسْتَیْقِنَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ وَ یَزْدٰادَ اَلَّذِینَ آمَنُوا إِیمٰاناً وَ لاٰ یَرْتٰابَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ وَ لِیَقُولَ اَلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ اَلْکٰافِرُونَ مٰا ذٰا أَرٰادَ اَللّٰهُ بِهٰذٰا مَثَلاً کَذٰلِکَ یُضِلُّ اَللّٰهُ مَنْ یَشٰاءُ وَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ وَ مٰا یَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّکَ إِلاّٰ هُوَ وَ مٰا هِیَ إِلاّٰ ذِکْریٰ لِلْبَشَرِ (۳۱)

۱- ۱) .المدثر ۱-۷:بحث روائی فی نزول سوره المدثر؛نزول ملک الوحی لرسول اللّه؛معنی تطهیر الثیاب،الرجز.

بیان:

قوله تعالی: فَإِذَا نُقِرَ فِی النَّاقُورِ النقر القرع و الناقور ما یقرع فیه للتصویت، و النقر فی الناقور کالنفخ فی الصور کنایه عن بعث الموتی و إحضارهم لفصل القضاء یوم القیامه و الجمله شرطیه جزاؤها قوله: «فَذٰلِکَ» الخ.

قوله تعالی: فَذٰلِکَ یَوْمَئِذٍ یَوْمٌ عَسِیرٌ عَلَی الْکٰافِرِینَ غَیْرُ یَسِیرٍ الاشاره بقوله: «فَذٰلِکَ» الی زمان نقر الناقور و لا یبعد أن یکون المراد بیومئذ یوم إذ یرجعون الی اللّه للحساب و الجزاء أو یوم اذ یرجع الخلائق الی اللّه فیکون ظرفا لیوم نقر الناقور فمن الجائز أن تعتبر قطعه من الزمان ظرفا لبعض أجزائه کالسنه تجعل ظرفا للشهر و الشهر یجعل ظرفا للیوم لنوع من العنایه أو یعتبر زمان متعددا مختلفا باختلاف صفاته أو الحوادث الواقعه فیه ثم یجعل باعتبار بعض صفاته ظرفا لنفسه باعتبار صفه اخری.

و المعنی فزمان نقر الناقور الواقع فی یوم رجوع الخلائق الی اللّه زمان عسیر علی الکافرین أو زمان نقر الناقور زمان عسیر علی الکافرین فی یوم الرجوع-بناء علی کون قوله:

«یَوْمَئِذٍ» قیدا لقوله: «فَذٰلِکَ» أو لقوله: «یَوْمٌ» -.

و قال فی الکشاف:فان قلت:بم انتصب اذا و کیف صح أن یقع یومئذ ظرفا لیوم عسیر؟

قلت:انتصب اذا بما دل عليه الجزاء لأن المعنى اذا نقر فى الناقور عسر الأمر على الكافرين، و الذى أجاز وقوع يومئذ ظرفا ليوم عسير أن المعنى فذلك وقت النقر وقوع يوم عسير لأن يوم القيامه يأتى و يقع حين ينقر فى الناقور.انتهى.

و قال:و يجوز أن يكون يومئذ مبنيا مرفوع المحل بدلا من ذلك،و يوم عسير خبر كأنه قيل:فيوم النقر يوم عسير.انتهى.

و قوله: غَيْرُ يَسِيرٍ وصف آخر ليوم مؤكد لعسره و يفيد أنه عسير من كل وجه لا من وجه دون وجه.

قوله تعالى: ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً كلمه تهديد و قد استفاض النقل أن الآيه و ما يتلوها الى تمام عشرين آيه نزلت فى الوليد بن المغيره،و ستأتى قصته فى البحث الروائى الآتى إن شاء اللّه تعالى.

و قوله: وَحِيداً حال من فاعل «خَلَقْتُ» و محصل المعنى:دعنى و من خلقته حال كونى وحيدا لا يشاركنى فى خلقه أحد ثم دبرت أمره أحسن التدبير،و لا تحل بينى و بينه فأنا أكفيه.

و من المحتمل أن يكون حالا-من مفعول «ذَرْنِي» .و قيل حال من مفعول خلقت المحذوف و هو ضمير عائد الى الموصول،و محصل المعنى دعنى و من خلقته حال كونه وحيدا لا مال له و لا بنون،و احتمل أيضا أن يكون «وَحِيداً» منصوبا بتقدير«أذم»و أحسن الوجوه أولها.

قوله تعالى: وَ جَعَلْتُ لَهُ مٰالاً مَمْدُوداً أى مبسوطا كثيرا أو ممدودا بمدد النماء.

قوله تعالى: وَ بَنِينَ شُهُوداً أى حضورا يشاهدهم و يتأيد بهم،و هو عطف على قوله: «مٰالاً» .

قوله تعالى: وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً التمهيد التهيئه و يتجوز به عن بسطه المال و الجاه و انتظام الامور.

قوله تعالى: ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلاّ إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً أی ثم يطمع أن أزيد فيما جعلت له من المال و البنين و مهدت له من التمهيد.

و قوله: كَلاّ ردع له،و قوله: «إِنَّهُ كانَ» الخ؛تعليل المردع،و العنيد المعاند المباهی بما عنده،قيل،ما زال الوليد بعد نزول هذه الآيه فی نقصان من ماله و ولده حتی هلك.

قوله تعالى: سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً الإرهاق الغشيان بالعنف،و الصعود عقبه الجبل التی يشق مصعدها شبه ما سيناله من سوء الجزاء و مر العذاب بغشيانه عقبه و عره صعبه الصعود.

قوله تعالى: إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ التفكير معروف و التقدير عن تفكير نظم معان و أوصاف فی الذهن بالتقديم و التأخير و الوضع و الرفع لاستنتاج غرض مطلوب،و قد كان الرجل يهوی أن يقول فی أمر القرآن شيئا يبطل به دعوته و يرضی به قومه المعاندين ففكر فيه أ يقول:شعر أو كهانه أو هذره جنون أو اسطوره فقدّر أن يقول:سحر من كلام البشر لأنه يفرق بين المرء و أهله و ولده و مواليه.

و قوله: فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ دعا عليه على ما يعطيه السياق نظير قوله: قاتَلَهُمُ اللّهُ أَنّی يُؤْفَكُونَ (التوبه/۳۰).

و قوله: ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ تكرار للدعاء تأكيدا.

قوله تعالى: ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ فَقالَ إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هذا إِلاّ قَوْلُ الْبَشَرِ تمثيل لحاله بعد التفكير و التقدير و هو من ألطف التمثيل و أبلغه.

فقوله: ثُمَّ نَظَرَ أی ثم نظر بعد التفكير و التقدير نظره من يريد أن يقضی فی أمر سئل أن ينظر فيه-على ما يعطيه سياق التمثيل-.

و قوله: ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ العبوس تقطيب الوجه،قال فی المجمع:و عبس يعبس

عبوسا إذا قبض وجهه و العبوس و التكليح و التقطيب نظائر و ضدها الطلاقه و البشاشه، و قال:و البسور بدء التكرّه فی الوجه انتهی،فالمعنی ثم قبض وجهه و أبدا التكره فی وجهه بعد ما نظر.

و قوله: ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ الإدبار عن شیء الإعراض عنه،و الاستكبار الامتناع كبرا و عتوا،و الأمران أعنی الإدبار و الاستكبار من الأحوال الروحیه،و إنما رتبا فی التمیل علی النظر و العبوس و البسور و هی أحوال صوریه محسوسه لظهورهما بقوله: «إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ» الخ؛و لذا عطف قوله: «فَقٰالَ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ يُؤْثَرُ» بالفاء دون «ثُمَّ» .

و قوله: فَقٰالَ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ يُؤْثَرُ أی أظهر إدباره و استكباره بقوله مفرعا علیه: «إِنْ هٰذٰا -أی القرآن- إِلاّٰ سِحْرٌ يُؤْثَرُ» أی یروی و یتعلم من السحره.

و قوله: إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ قَوْلُ الْبَشَرِ أی لیس بكلام اللّه كما یدعیه محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

قیل:إن هذه الآیه كالتأكید للآیه السابقه و إن اختلفتا معنی لأن المقصود منهما نفی كونه قرآنا من كلام اللّه،و باعتبار الاتحاد فی المقصود لم تعطف الجمله علی الجمله.

قوله تعالی: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا سَقَرُ لاٰ تُبْقِي وَ لاٰ تَذَرُ لَوّٰاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهٰا تِسْعَةَ عَشَرَ أی سادخله سقر و سقر من أسماء جهنم فی القرآن أو دركه من دركاتها،و جمله «سَأُصْلِيهِ سَقَرَ» بیان أو بدل من قوله: «سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً» .

و قوله: وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا سَقَرُ تفخیم لأمرها و تهویل.

و قوله: لاٰ تُبْقِي وَ لاٰ تَذَرُ قضیه إطلاق النفی أن یكون المراد أنها لا تبقی شیئا ممن نالته إلا أحرقته،و لا تدع أحدا ممن ألقی فیها إلا نالته بخلاف نار الدنیا التی ربما تركت بعض ما ألقی فیها و لم تحرقه،و إذا نالت إنسانا مثلا نالت جسمه و صفاته الجسمیه و لم تنل شیئا من روحه و صفاته الروحیه،و أما سقر فلا تدع أحدا ممن ألقی فیها إلا نالته قال تعالی: تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلّٰى (المعارج/۱۷)،و إذا نالته لم تبق منه شیئا من روح أو جسم إلا أحرقته قال

تعالى: نٰارُ اللّهِ الْمُوقَدَهُ اَلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَهِ (الهمزه۷/).

و يمكن أن يراد أنها لا تبقيهم أحياء و لا تتركهم يموتون فيكون فى معنى قوله تعالى: اَلَّذِى يَصْلَى النّٰارَ الْكُبْرىٰ ثُمَّ لاٰ يَمُوتُ فِيهٰا وَ لاٰ يَحْيىٰ (الأعلى۱۳/).

و قيل:المعنى لا تبقى شيئا يلقى فيها إلا أهلكته،و إذا هلك لم تذره هالكا حتى يعاد فيعذب ثانيا.

و قيل:المراد أنها لا تبقى لهم لحما و لا تذر عظما،و قيل غير ذلك.

قوله تعالى: لَوّٰاحَهٌ لِلْبَشَرِ اللواحه من التلويح بمعنى تغيير اللون الى السواد و قيل:

الى الحمره،و البشر جمع بشره بمعنى ظاهر الجلد.

قوله تعالى: عَلَيْهٰا تِسْعَهَ عَشَرَ يتولون أمر عذاب المجرمين و قد أبهم و لم يصرح أنهم من الملائكه أو غيرهم غير أن المستفاد من آيات القيامه-و تصرح به الآيه التاليه-أنهم من الملائكه.

و قد استظهر بعضهم أن مميز قوله: «تِسْعَهَ عَشَرَ» ملكا ثم قال:أ لا ترى العرب و هم الفصحاء كيف فهموا منه ذلك فقد روى عن ابن عباس أنها لما نزلت «عَلَيْهٰا تِسْعَهَ عَشَرَ» قال أبو جهل لقريش:ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبى كبشه يخبركم أن خزنه النار تسعه عشر و انتم الدهم أ يعجز كل عشره منكم أن يبطشوا برجل منهم؟فقال أبو الأسد ابن اسيد بن كلده الجمحى و كان شديد البطش:انا أكفيكم سبعه عشر فاكفونى انتم اثنين انتهى،و انت ترى ان لا دليل فى كلامه على ما يدعيه.على انه سمى الواحد من الخزنه رجلا و لا يطلق الرجل على الملك البته و لا سيما عند المشركين الذين قال تعالى فيهم: وَ جَعَلُوا الْمَلاٰئِكَهَ الَّذِينَ هُمْ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً (الزخرف۱۹/).

قوله تعالى: وَ مٰا جَعَلْنٰا أَصْحٰابَ النّٰارِ إِلاّٰ مَلاٰئِكَهً الى آخر الآيه؛سياق الآيه يشهد على انهم تكلموا فيما ذكر فى الآيه من عدد خزان النار فنزلت هذه الآيه،و يتأيد بذلك

ما ورد من سبب النزول و سيوافيك فى البحث الروائى التالى.

فقوله: «وَ مٰا جَعَلْنٰا أَصْحٰابَ النّٰارِ إِلاّٰ مَلاٰئِكَةً» المراد بأصحاب النار خزنتها الموكلون عليها المتولون لتعذيب المجرمين فيها كما يفيده قوله: «عَلَيْهٰا تِسْعَةَ عَشَرَ» و يشهد بذلك قوله بعد: «وَ مٰا جَعَلْنٰا عِدَّتَهُمْ إِلاّٰ فِتْنَةً» الخ.

و محصل المعنى:انا جعلناهم ملائكه يقدرون على ما امروا به كما قال: عَلَيْهٰا مَلاٰئِكَةٌ غِلاٰظٌ شِدٰادٌ لاٰ يَعْصُونَ اللّٰهَ مٰا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ (التحريم۶/)فليسوا من البشر حتى يرجو المجرمون أن يقاوموهم و يطيقوهم.

و قوله: وَ مٰا جَعَلْنٰا عِدَّتَهُمْ إِلاّٰ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا الفتنه المحنه و الاختبار.

ذكروا أن المراد بالجعل الجعل بحسب الإخبار دون الجعل بحسب التكوين فالمعنى و ما أخبرنا عن عدتهم أنها تسعه عشر إلا ليكون فتنه للذين كفروا،و يؤيده ذيل الكلام: «لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ» الخ.

و قوله: لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ الاستيقان وجدان اليقين فى النفس أى ليوقن أهل الكتاب بأن القرآن النازل عليك حق حيث يجدون ما أخبرنا به من عده أصحاب النار موافقا لما ذكر فيما عندهم من الكتاب.

و قوله: وَ يَزْدٰادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمٰاناً أى بسبب ما يجدون من تصديق أهل الكتاب ذلك.

و قوله: وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكٰافِرُونَ مٰا ذٰا أَرٰادَ اللّٰهُ بِهٰذٰا مَثَلاً اللام فى «لِيَقُولَ» للعاقبه بخلاف اللام فى «لِيَسْتَيْقِنَ» فللتعليل بالغايه،و الفرق أن قولهم: «مٰا ذٰا أَرٰادَ اللّٰهُ بِهٰذٰا مَثَلاً» تحقير و تهكم و هو كفر لا يعد غايه لفعله سبحانه إلا بالعرض بخلاف الاستيقان الذى هو من الايمان،و لعل اختلاف المعنيين هو الموجب لاعاده اللام فى قوله: «وَ لِيَقُولَ» .

و قد فسروا «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» بالشک و الجحود بالمنافقين و فسروا الكافرين بالمتظاهرين بالكفر من المشركين و غيرهم.

و قولهم: «مٰا ذٰا أَرٰادَ اللّٰهُ بِهٰذٰا مَثَلاً» أرادوا به التحقير و التهكم يشيرون بهذا الى قوله تعالى:

«عَلَيْهٰا تِسْعَةَ عَشَرَ» و المثل الوصف،و المعنى ما الذى يعنيه من وصف الخزنه بأنهم تسعه عشر؟فهذه العده القليله كيف تقوى على تعذيب أكثر الثقلين من الجن و الانس (۱)؟

و قوله: كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ الإشاره بذلک الى مضمون قوله: «وَ مٰا جَعَلْنٰا عِدَّتَهُمْ إِلاّٰ فِتْنَةً» الخ.

و قوله: وَ مٰا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاّٰ هُوَ علق تعالى العلم المنفى بالجنود-و هى الجموع الغليظه التى خلقهم وسائط لإجراء أوامره-لا بخصوص عدتهم فأفاد بإطلاقه أن العلم بحقيقتهم و خصوصيات خلقتهم و عدتهم و ما يعملونه من عمل و دقائق الحكمه فى جميع ذلک يختص به تعالى يشاركه فيه أحد،فليس لأحد أن يستقل عدتهم او يستكثر او يطعن فى شىء مما يرجع الى صفاتهم و هو جاهل بها.

و قوله: وَ مٰا هِيَ إِلاّٰ ذِكْرىٰ لِلْبَشَرِ الضمير راجع الى ما تقدم من قوله: «عَلَيْهٰا تِسْعَةَ عَشَرَ» و تأنيثه لتأنيث الخبر،و المعنى ان البشر لا سبيل لهم الى العلم بجنود ربک و إنما اخبرنا عن خزنه النار ان عدتهم تسعه عشر ليكون ذكرى لهم يتعظون بها.

و فى الآيه دلاله على أن الخطابات القرآنيه لعامه البشر (۲).

[سوره المدثر (۷۴): الآيات ۳۲ الى ۴۸]

كَلاّٰ وَ اَلْقَمَرِ (۳۲) وَ اَللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (۳۳) وَ اَلصُّبْحِ إِذٰا أَسْفَرَ (۳۴) إِنَّهٰا لَإِحْدَى اَلْكُبَرِ (۳۵) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (۳۶) لِمَنْ شٰاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (۳۷) كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (۳۸) إِلاّٰ أَصْحٰابَ اَلْيَمِينِ (۳۹) فِي جَنّٰاتٍ يَتَسٰاءَلُونَ (۴۰) عَنِ اَلْمُجْرِمِينَ (۴۱) مٰا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (۴۲) قٰالُوا لَمْ نَكُ مِنَ اَلْمُصَلِّينَ (۴۳) وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ اَلْمِسْكِينَ (۴۴) وَ كُنّٰا نَخُوضُ مَعَ اَلْخٰائِضِينَ (۴۵) وَ كُنّٰا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ اَلدِّينِ (۴۶) حَتّٰى أَتٰانَا اَلْيَقِينُ (۴۷) فَمٰا تَنْفَعُهُمْ شَفٰاعَةُ اَلشّٰافِعِينَ (۴۸)

۱- ۱) .المدثر ۸-۳۱:ذنابه لما تقدم من الكلام فى النفاق.

۲- ۲) .المدثر ۸-۳۱:بحث روائى حول مناظره الوليد بن المغيره مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى القرآن؛تغيير حاله الوليد؛قول الوليد فى القرآن.

بیان:

قوله تعالی: کَلّا ردع و إنکار لما تقدم قال فی الکشاف:انکار بعد أن جعلها ذکری أن

يكون لهم ذكرى لانهم لا يتذكرون،أو ردع لمن ينكر أن يكون إحدى الكبر نذيرا.انتهى.

فعلى الأول إنكار لما تقدم و على الثانى ردع لما سيأتى،و هناك وجه آخر سيوافيك.

قوله تعالى: وَ الْقَمَرِ وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَ الصُّبْحِ إِذٰا أَسْفَرَ قسم بعد قسم،و إدبار الليل مقابل إقباله،و إسفار الصبح انجلاؤه و انكشافه.

قوله تعالى: إِنَّهٰا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ذكروا ان الضمير لسقر،و الكبر جمع كبرى، و المراد بكون سقر احدى الكبر إنها إحدى الدواهى الكبر لا يعادلها غيرها من الدواهى كما يقال:هو أحد الرجال أى لا نظير له بينهم،و الجمله جواب للقسم.

و المعنى اقسم بكذا و كذا إن سقر لإحدى الدواهى الكبر-أكبرها انذارا للبشر.

و لا يبعد أن يكون «كَلاّٰ» ردعا لقوله فى القرآن: «إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ قَوْلُ الْبَشَرِ» و يكون ضمير «إِنَّهٰا» للقرآن بما أنه آيات او من باب مطابقه اسم إن لخبرها.

و المعنى:ليس كما قال اقسم بكذا و كذا إن القرآن-آياته-لإحدى الآيات الإلهيه الكبرى انذارا للبشر.

و قيل:الجمله «إِنَّهٰا لَإِحْدَى الْكُبَرِ» تعليل للردع،و القسم معترض للتأكيد لا جواب له أو جوابه مقدر يدل عليه كلا.

قوله تعالى: نَذِيراً لِلْبَشَرِ مصدر بمعنى الإنذار منصوب للتمييز،و قيل:حال مما يفهم من سياق قوله: «إِنَّهٰا لَإِحْدَى الْكُبَرِ» أى كبرت و عصمت حال كونها إنذارا أى منذره.

قوله تعالى: لِمَنْ شٰاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ تعميم للانذار و «لِمَنْ شٰاءَ» بدل من البشر،و «أَنْ يَتَقَدَّمَ» الخ؛مفعول «شٰاءَ» و المراد بالتقدم و التأخر:الاتباع للحق و مصداقه الايمان و الطاعه،و عدم الاتباع و مصداقه الكفر و المعصيه.

و المعنى:نذيرا لمن اتبع منكم الحق و لمن لم يتبع أى لجميعكم من غير استثناء.

و قيل «أَنْ يَتَقَدَّمَ» فى موضع الرفع على الابتداء و «لِمَنْ شٰاءَ» خبره كقولك لمن توضأ أن

يصلى،و المعنى مطلق لمن شاء التقدم او التأخر أن يتقدم او يتأخر،و هو كقوله: «فَمَنْ شٰاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شٰاءَ فَلْيَكْفُرْ» و المراد بالتقدم و التأخر السبق الى الخير و التخلف عنه انتهى.

قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ الباء بمعنى مع أو للسببيه أو للمقابله و «رَهِينَةٌ» بمعنى الرهن على ما ذكره الزمخشرى قال فى الكشاف:رهينه ليست بتأنيث رهين فى قوله: «كُلُّ امْرِئٍ بِمٰا كَسَبَ رَهِينٌ» لتأنيث النفس لأنه لو قصدت لقيل:رهين لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر و المؤنث،و إنما هى اسم بمعنى الرهن كالشتيمه بمعنى الشتم كأنه قيل:كل نفس بما كسبت رهن.انتهى.

و كأن العنايه فى عد كل نفس رهينه أن للّه عليها حق العبوديه بالإيمان و العمل الصالح فهى رهينه محفوظه محبوسه عند اللّه حتى توفى دينه و تؤدى حقه تعالى فإن آمنت و صلحت فكت و أطلقت،و إن كفرت و أجرمت و ماتت على ذلك كانت رهينه محبوسه دائما،و هذا غير كونها رهين عملها ملازمه اكتسبت من خير و شر كما تقدم فى قوله تعالى: كُلُّ امْرِئٍ بِمٰا كَسَبَ رَهِينٌ (الطور/٢١).

و الآيه فى مقام بيان وجه التعميم المستفاد من قوله: «نَذِيراً لِلْبَشَرِ لِمَنْ شٰاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ» فإن كون النفس الإنسانيه رهينه بما كسبت يوجب على كل نفس أن تتقى النار التى ستحبس فيها إن أجرمت و لم تتبع الحق.

قوله تعالى: إِلاّٰ أَصْحٰابَ الْيَمِينِ هم الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم يوم الحساب و هم أصحاب العقائد الحقه و الأعمال الصالحه من متوسطى المؤمنين،و قد تكرر ذكرهم و تسميتهم بأصحاب اليمين فى مواضع من كلامه تعالى،و على هذا فالاستثناء متصل.

و المتحصل من مجموع المستثنى منه و المستثنى انقسام النفوس ذوات الكسب الى نفوس رهينه بما كسبت و هى نفوس المجرمين،و نفوس مفكوكه من الرهن مطلقه و هى نفوس أصحاب اليمين،و أما السابقون المقربون و هم الذين ذكرهم اللّه فى مواضع من كلامه و عدّهم

ثـالثه الطـائفتين و غيرهمـا كمـا فى قـوله تعـالى: وَ كُنْتُمْ أَزْوٰاجاً ثَلاٰثَةً -الى أن قـال- وَ السّٰابِقُونَ السّٰابِقُونَ أُولٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (الواقعه/١١)،فهؤلاء قد استقروا فى مستقر العبوديه لا يملكون نفسا و لا عمل نفس فنفوسهم للّه و كذلك أعمالهم فلا يحضرون و لا يحاسبون قال تعالى:

فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ (الصافات/١٢٨)،فهم خارجون عن المقسم رأسا.

قوله تعـالى: فِي جَنّٰاتٍ يَتَسٰاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مٰا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ «فِي جَنّٰاتٍ» خبر لمبتـدإ محـذوف و تنوين جنات للتعظيم،و التقدير هم فى جنات لا يدرك وصفها،و يمكن أن يكون حالا من أصحاب اليمين.

و قوله: يَتَسٰاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ أى يتساءل جمعهم عن جمع المجرمين.

و قوله: مٰا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ أى ما أدخلكم فى سقر بيان لتساؤلهم من بيان الجمله بالجمله،أو بتقدير القول أى قائلين ما سلككم فى سقر.

قوله تعالى: قٰالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ضـمير الجمع للمجرمين،و المراد بالصلاه التوجه العبادى الخاص الى اللّه سبحانه فلا يضره اختلاف الصلاه كما و كيفا باختلاف الشرائع السماويه الحقه.

قـوله تعـالى: وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ المراد بإطعـام المسـكين الإنفـاق على فقراء المجتمـع بمـا يقـوم به صـلبهم و يرتفـع به حاجتهم،و إطعام المسكين إشاره الى حق الناس عملا كما أن الصلاه إشاره الى حق اللّه كذلك.

قوله تعالى: وَ كُنّٰا نَخُوضُ مَعَ الْخٰائِضِينَ المراد بالخوض الاشتغال بالباطل قولا أو فعلا و الغور فيه.

قوله تعـالى: وَ كُنّٰا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الـدِّينِ و هو يوم الجزاء فهـذه خصـال أربع من طبع المجرم أن يبتلى بها كلا أو بعضا،و لما كان المجيب عن التساؤل جمع المجرمين صحت نسبه الجميع

الی الجمیع و إن کان بعضهم مبتلی ببعضها دون بعض.

قوله تعالی: حَتّی أَتانَا الْیَقِینُ قید للتکذیب،و فسروا الیقین بالموت لکونه مما لا شک فیه فالمعنی و کنا فی الدنیا نکذب بیوم الجزاء حتی أتانا الموت فانقطعت به الحیاه الدنیا أی کنا نکذب به ما دامت الحیاه.

و قیل:المراد به الیقین الحاصل بحقیه یوم الجزاء بمشاهده آیات الآخره و معاینه الحیاه البرزخیه حین الموت و بعده،و هو معنی حسن.

قوله تعالی: فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَهُ الشّافِعِینَ تقدم فی بحث الشفاعه أن فی الآیه دلاله علی أن هناک شافعین یشفعون فیشفّعون لکن لا تنفع هؤلاء شفاعتهم لأنهم محرومون من نیلها.

و قد أوردنا جمله من أخبار الشفاعه فی الجزء الأول من الکتاب.

[سوره المدثر (۷۴): الآیات ۴۹ الی ۵۶]

فَما لَهُمْ عَنِ اَلتَّذْکِرَهِ مُعْرِضِینَ (۴۹) کَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَهٌ (۵۰) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَهٍ (۵۱) بَلْ یُرِیدُ کُلُّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ یُؤْتی صُحُفاً مُنَشَّرَهً (۵۲) کَلاّ بَلْ لا یَخافُونَ اَلْآخِرَهَ (۵۳) کَلاّ إِنَّهُ تَذْکِرَهٌ (۵۴) فَمَنْ شاءَ ذَکَرَهُ (۵۵) وَ ما یَذْکُرُونَ إِلاّ أَنْ یَشاءَ اَللّهُ هُوَ أَهْلُ اَلتَّقْوی وَ أَهْلُ اَلْمَغْفِرَهِ (۵۶)

بیان:

قوله تعالی: فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ تفریع علی ما تقدم من التذکره و الموعظه،و الاستفهام للتعجیب،و «لَهُمْ» متعلق بمحذوف و التقدیر فما کان لهم:

و «مُعْرِضِينَ» حال من ضمیر «لَهُمْ» و «عَنِ التَّذْكِرَةِ» متعلق بمعرضین.

و المعنی:فإذا کان کذلک فأی شیء کان-عرض-للمشرکین الذین یکذبون بتذکره القرآن حال کونهم معرضین عنها أی کان من الواجب علیهم أن یصدقوا و یؤمنوا لکنهم أعرضوا عنها و هو من العجب.

قوله تعالی: كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ تشبیه لهم من حیث حالهم فی الإعراض عن التذکره،و الحمر جمع حمار،و المراد الحمر الوحشیه و الاستنفار بمعنی النفره و القسوره الأسد و الصائد،و قد فسر بکل من المعنیین.

و المعنی:معرضین عن التذکره کأنهم حمر وحشیه نفرت من أسد أو من الصائد.

قوله تعالی: بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً المراد بالصحف المنشره الکتاب السماوی المشتمل علی الدعوه الحقه.

و فی الکلام إضراب عما ذکر من إعراضهم،و المعنی لیس إعراضهم عن التذکره لمجرد النفره بل یرید کل امرئ منهم أن ینزل علیه کتاب من عند اللّه مشتمل علی ما تشتمل علیه دعوه القرآن.

و هذه النسبه الیهم کنایه عن استکبارهم علی اللّه سبحانه أنهم إنما یقبلون دعوته و لا یردونها لو دعا کل واحد منهم بإنزال کتاب سماوی الیه مستقلا و أما الدعوه من طریق الرساله فلیسوا یستجیبونها و إن کانت حقه مؤیده بالآیات البینه.

فالآیه فی معنی ما حکاه اللّه سبحانه من قولهم: لَنْ نُؤْمِنَ حَتّٰى نُؤْتىٰ مِثْلَ مٰا أُوتِيَ رُسُلُ

اللّهِ (الأنعام/١٢۴)،و فى معنى قول الامم لرسلهم «إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا» على ما قررنا من حجتهم على نفى رساله الرسل.

قوله تعالى: كَلاّ بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ ردع لهم بما يريدونه من نزول كتاب سماوى على كل واحد منهم فإن دعوه الرساله مؤيده بآيات بينه و حجج قاطعه لا تدع ريبا لمرتاب فالحجه تامه قائمه على الرسول و غيره على حد سواء من غير حاجه الى أن يؤتى كل واحد من الناس المدعوين صحفا منشره.

على أن الرساله تحتاج من طهاره الذات و صلاحيه النفس الى ما يفقده نفوس سائر الناس كما هو مدلول جوابه تعالى فى سوره الأنعام عن قولهم: لَنْ نُؤْمِنَ حَتّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ بقوله: اَللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ .

و قوله: «بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ» إضراب عن قوله: «يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ» الخ؛و المراد أن اقتراحهم نزول كتاب على كل امرئ منهم قول ظاهرى منهم يريدون به صرف الدعوه عن أنفسهم،و السبب الحقيقى لكفرهم و تكذيبهم بالدعوه أنهم لا يخافون الآخره،و لو خافوها لآمنوا و لم يقترحوا آيه بعد قيام الحجه بظهور الآيات البينات.

قوله تعالى: كَلاّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ردع ثان لاقتراحهم نزول كتاب سماوى لكل امرئ منهم،و المعنى لا ننزل كتابا كذلك إن القرآن تذكره و موعظه نعظهم به لا نريد به أزيد من ذلك، و أثر ذلك ما أعد للمطيع و العاصى عندنا من الجزاء.

قوله تعالى: فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ أى فمن شاء اتعظ به فإنما هى دعوه فى ظرف الاختيار من غير إكراه.

قوله تعالى: وَ ما يَذْكُرُونَ إِلاّ أَنْ يَشاءَ اللّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ دفع لما يمكن أن يتوهموه من قوله تعالى: «فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ» أن الأمر اليهم و أنهم مستقلون فى إرادتهم و ما يترتب عليها من أفعالهم فإن لم يشاءوا الذكر و لم يذكروا غلبوه تعالى

فیما أراد و أعجزوه فیما شاء من ذکرهم.

و المحصل من الـدفع أن حکم القدر جاء فی أفعالهم کغیرها من الحوادث،و تذکرهم إن تذکروا و إن کان فعلا اختیاریا صادرا عنهم باختیارهم من غیر إکراه فالمشیه الإلهیه متعلقه به بما هو اختیاری بمعنی أن اللّه تعالی یرید باراده تکوینیه أن یفعل الانسان الفعـل الفلانـی بـإرادته و اختیـاره فالفعـل اختیـاری ممکن بالنسـبه الی الانسان و هو بعینه متعلق الاراده الإلهیه ضـروری التحقیق بالنسبه إلیها و لولاها لم یتحقق.

و قوله: هُوَ أَهْلُ التَّقْویٰ وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَهِ أی أهـل لأن یتقی منه لأن له الولایه المطلقه علی کـل شـیء،و بیـده سـعاده الإنسان و شقاوته،و أهل لأن یغفر لمن اتقاه لأنه غفور رحیم.

ص :۵۰۶

سوره القیامه مکیه و هی اربعون آیه

اشاره

[سوره القیامه (۷۵): الآیات ۱ الی ۱۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;لاٰ أُقْسِمُ بِیَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ (۱) وَ لاٰ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اَللَّوّٰامَهِ (۲) أَ یَحْسَبُ اَلْإِنْسٰانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظٰامَهُ (۳) بَلیٰ قٰادِرِینَ عَلیٰ أَنْ نُسَوِّیَ بَنٰانَهُ (۴) بَلْ یُرِیدُ اَلْإِنْسٰانُ لِیَفْجُرَ أَمٰامَهُ (۵) یَسْئَلُ أَیّٰانَ یَوْمُ اَلْقِیٰامَهِ (۶) فَإِذٰا بَرِقَ اَلْبَصَرُ (۷) وَ خَسَفَ اَلْقَمَرُ (۸) وَ جُمِعَ اَلشَّمْسُ وَ اَلْقَمَرُ (۹) یَقُولُ اَلْإِنْسٰانُ یَوْمَئِذٍ أَیْنَ اَلْمَفَرُّ (۱۰) کَلاّٰ لاٰ وَزَرَ (۱۱) إِلیٰ رَبِّکَ یَوْمَئِذٍ اَلْمُسْتَقَرُّ (۱۲) یُنَبَّؤُا اَلْإِنْسٰانُ یَوْمَئِذٍ بِمٰا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ (۱۳) بَلِ اَلْإِنْسٰانُ عَلیٰ نَفْسِهِ بَصِیرَهٌ (۱۴) وَ لَوْ أَلْقیٰ مَعٰاذِیرَهُ (۱۵)

ص: ۵۰۷

بيان:

يطوف بيـان السوره حول القيـامه الكبرى فتنبئ بوقوع يوم القيـامه أولاـ ثم تصـفه ببعض أشـراطه تـاره،و بإجمـال مـا يجرى على الإنسان اخرى،و ينبئ أن المساق اليه يبدأ من يوم الموت،و تختتم بالاحتجاج على القدره على الإعاده بالقدره على الابتداء.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعـالى: لاـ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَهِ إقسام بيوم القيامه سواء قبل بكون «لاَ أُقْسِمُ» كلمه قسم أو بكون لا زائـده أو نافيه على اختلاف الأقوال.

قوله تعـالى: وَ لاـ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوّامَهِ إقسام ثان على ما يقتضـيه السـياق و مشاكله اللفظ فلا يعبأ بما قيل:أنه نفى الإقسام و ليس بقسم،و المراد اقسم بيوم القيامه و لا أقسم بالنفس اللوامه.

و المراد بالنفس اللوامه نفس المؤمن التى تلومه فى الدنيا على المعصيه و التثاقل فى الطاعه و تنفعه يوم القيامه.

و قيـل:المراد به النفس الانسـانيه أعم من المؤمنه الصـالحه و الكافره الفاجره فإنها تلوم الانسان يوم القيامه أما الكافره فانها تلومه على كفره و فجوره،و أما المؤمنه فانها تلومه على

قله الطاعه و عدم الاستكثار من الخير.

و قيل:المراد نفس الكافر الذى تلومه يوم القيامه على ما قدمت من كفر و معصيه قال تعالى: وَ أَسَرُّوا النَّدٰامَةَ لَمّٰا رَأَوُا الْعَذٰابَ (يونس۵۴/).

و لكل من الأقوال وجه.

و جواب القسم محذوف يدل عليه الآيات التاليه،و التقدير ليبعثن،و إنما حذف للدلاله على تفخيم اليوم و عظمه أمره قال تعالى: ثَقُلَتْ فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ لاٰ تَأْتِيكُمْ إِلاّٰ بَغْتَةً (الأعراف۱۸۷/)،و قال: إِنَّ السّٰاعَةَ آتِيَةٌ أَكٰادُ أُخْفِيهٰا لِتُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا تَسْعىٰ (طه/ ۱۵)،و قال: عَمَّ يَتَسٰاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (النبأ۱/).

قوله تعالى: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسٰانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظٰامَهُ الحسبان الظن،و جمع العظام كنايه عن الاحياء بعد الموت،و الاستفهام للتوبيخ،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: بَلىٰ قٰادِرِينَ عَلىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنٰانَهُ أى بلى نجمعها و «قٰادِرِينَ» حال من فاعل مدخول بلى المقدر،و البنان أطراف الأصابع و قيل:الأصابع و تسويه البنان تصويرها على ما هى عليها من الصور،و المعنى بلى نجمعها و الحال أنا قادرون على أن نصور بنانه على صورها التى هى عليها خلقنا الأول.

و تخصيص البنان بالذكر-لعله-للاشاره الى عجيب خلقها بما لها من الصور و خصوصيات التركيب و العدد تترتب عليها فوائد جمه لا تكاد تحصى من أنواع القبض و البسط و الأخذ و الرد و سائر الحركات اللطيفه و الأعمال الدقيقه و الصنائع الظريفه التى يمتاز بها الانسان من سائر الحيوان مضافا الى ما عليها من الهيئات و الخطوط التى لا يزال ينكشف للانسان منها سر بعد سر.

قوله تعالى: بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسٰانُ لِيَفْجُرَ أَمٰامَهُ قال الراغب:الفجر شق الشىء شقا واسعا.قال:و الفجور شق ستر الديانه يقال:فجر فجورا فهو فاجر و جمعه فجار و فجره.

ص :۵۰۹

انتهى،و «أَمٰامَهُ» ظرف مكان استعير لمستقبل الزمان،و المراد من فجوره أمامه فجوره مدى عمره و ما دام حيا،و ضمير «أَمٰامَهُ» للانسان.

و قوله: لِيَفْجُرَ أَمٰامَهُ تعليل ساد مسد معلله و هو التكذيب بالبعث و الاحياء بعد الموت،و «بَلْ» إضراب عن حسبانه عدم البعث و الإحياء بعد الموت.

و المعنى:أنه لا يحسب أن لن نجمع عظامه بل يريد أن يكذب بالبعث ليفجر مدى عمره إذ لا موجب للايمان و التقوى لو لم يكن هناك بعث للحساب و الجزاء.

هذا ما يعطيه السياق فى معنى الآيه،و لهم وجوه أخر ذكروها فى معى الآيه بعيده لا تلائم السياق أغمضنا عن ذكرها.

و ذكر الانسان فى الآيه وضع الظاهر موضع الضمير و النكته فيه زياده التوبيخ و المبالغه فى التقريع،و قد كرر ذلك فى الآيه و ما يتلوها من الآيات أربع مرات.

قوله تعالى: يَسْئَلُ أَيّٰانَ يَوْمُ الْقِيٰامَهِ الظاهر أنه بيان لقوله: «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسٰانُ لِيَفْجُرَ أَمٰامَهُ» فيفيد التعليل و أن السائل فى مقام التكذيب و السؤال سؤال تكذيب إذ من الواجب على من دعى الى الإيمان و التقوى؛و أنذر بهذا النبأ العظيم مع دلاله الآيات البينه و قيام الحجج القاطعه أن يتخذ حذره و يتجهز بالايمان و التقوى و يتهيأ للقاء اليوم قريبا كان أو بعيدا فكل ما هو آت قريب لا أن يسأل متى تقوم الساعه؟و أيان يوم القيامه؟فليس إلا سؤال مكذب مستهزئ.

قوله تعالى: فَإِذٰا بَرِقَ الْبَصَرُ وَ خَسَفَ الْقَمَرُ وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ ذكر جمله من أشراط الساعه،و بريق البصر تحيره فى إبصاره و دهشته،و خسوف القمر زوال نوره.

قوله تعالى: يَقُولُ الْإِنْسٰانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ أى أين موضع الفرار،و قوله:

«أَيْنَ الْمَفَرُّ» مع ظهور السلطنه الإلهيه له و علمه بأن لا مفر و لا فرار يومئذ من باب ظهور

ملكاته يومئذ فقد كان فى الدنيا يسأل عن المفر إذا وقع فى شده أو هددته مهلكه و ذلك كإنكارهم الشرك يومئذ و حلفهم كذبا قال تعالى: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاّ أَنْ قالُوا وَ اللّهِ رَبِّنا ما كُنّا مُشْرِكِينَ (الانعام۲۳/)،و قال: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ (المجادله۱۸/).

قوله تعالى: كَلاّ لا وَزَرَ ردع عن طلبهم المفر،و الوزر الملجأ من جبل أو حصن أو غيرهما،و هو من كلامه تعالى لا من تمام كلام الإنسان.

قوله تعالى: إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و تقديم «إِلى رَبِّكَ» و هو متعلق بقوله: «الْمُسْتَقَرُّ» يفيد الحصر فلا مستقر الى غيره فلا وزر و لا ملجأ يلتجأ اليه فيمنع عنه.

و ذلك أن الإنسان سائر اليه عالى كما قال: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (الانشقاق۶/)و قال: إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى (العلق۸/)و قال: وَ أَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى (النجم۴۲/)فهو ملاقى ربه راجع و منته اليه لا حاجب يحجبه عنه و لا مانع يمنعه منه و اما الحجاب الذى يشير اليه قوله: كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ كَلاّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين۱۵/)فسياق الآيتين يعطى ان المراد به حجاب الحرمان من الكرامه لا حجاب الجهل او الغيبه.

و يمكن ان يكون المراد بكون مستقره اليه رجوع امر ما يستقر فيه من سعاده او شقاوه و جنه او نار الى مشيته تعالى فمن شاء جعله فى الجنه و هم المتقون و من شاء جعله فى النار و هم المجرمون قال تعالى: يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ (المائده۴۰/).

و يمكن ان يراد به ان استقرارهم يومئذ الى حكمه تعالى فهو النافذ فيهم لا غير قال تعالى:

كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (القصص۸۸/).

قوله تعالى: يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ المراد بما قدم و أخر ما عمله

من حسنه أو سيئه فی أول عمره و آخره او ما قدمه علی موته من حسنه او سيئه و ما أخر من سنه حسنه سنها او سنه سيئه فيثاب بالحسنات و يعاقب علی السيئات.

قوله تعالی: بَلِ الْإِنْسانُ عَلی نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَ لَوْ أَلْقی مَعاذِيرَهُ إضراب عن قوله: «يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ» الخ؛و البصيره رؤيه القلب و الإدراك الباطنی و إطلاقها علی الانسان من باب زيد عدل او التقدير الانسان ذو بصيره علی نفسه.

و قيل:المراد بالبصيره الحجه كما فی قوله تعالی: ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاّ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ (الإسراء۱۰۲/)و الانسان نفسه حجه علی نفسه يومئذ حيث يسأل عن سمعه و بصره و فؤاده و يشهد عليه سمعه و بصره و جلده و يتكلم يداه و رجلاه،قال تعالی: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (الإسراء۳۶/)،و قال: شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ (حم السجده۲۰/).و قال: وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ (يس۶۵/).

و قوله: وَ لَوْ أَلْقی مَعاذِيرَهُ المعاذير جمع معذره و هی ذكر موانع تقطع عن الفعل المطلوب،و المعنی هو ذو بصيره علی نفسه و لو جادل عن نفسه و اعتذر بالمعاذير لصرف العذاب عنها.

[سوره القيامه (۷۵): الآيات ۱۶ الی ۴۰]

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (۱۶) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (۱۷) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (۱۸) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (۱۹) كَلاّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (۲۰) وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (۲۱) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (۲۲) إِلی رَبِّها ناظِرَةٌ (۲۳) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (۲۴) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ (۲۵) كَلاّ إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (۲۶) وَ قِيلَ مَنْ راقٍ (۲۷) وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (۲۸) وَ الْتَفَّتِ السّاقُ بِالسّاقِ (۲۹) إِلی رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (۳۰) فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلّی (۳۱) وَ لكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلّی (۳۲) ثُمَّ ذَهَبَ إِلی أَهْلِهِ يَتَمَطّی (۳۳) أَوْلی لَكَ فَأَوْلی (۳۴) ثُمَّ أَوْلی لَكَ فَأَوْلی (۳۵) أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدیً (۳۶) أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنی (۳۷) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّی (۳۸) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثی (۳۹) أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلی أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتی (۴۰)

بیان:

قوله تعـالی: لاٰ تُحَرِّکْ بِهِ لِسٰانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ -الی قوله- ثُمَّ إِنَّ عَلَیْنٰا بَیٰانَهُ الـذی یعطیه سیاق الآیات الأربع بما یحفها من الآیات المتقـدمه و المتـأخره الواصـفه لیوم القیـامه أنها معترضه متضـمن أدبا إلهیا کلف النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أن یتأدب به حینما یتلقی ما یوحی الیه من القرآن الکریم فلا یبادر الی قراءه ما لم یقرأ بعد و لا یحرک به لسانه و ینصب حتی یتم الوحی.

فالآیات الأربع فی معنی قوله تعالی: وَ لاٰ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ یُقْضیٰ إِلَیْکَ وَحْیُهُ (طه/۱۱۴).

فالکلام فی هـذه الآیـات یجری مجری قول المتکلم منـا أثنـاء حـدیثه لمخاطبه إذا بادر الی تتمیم بعض کلام المتکلم باللفظه و اللفظتین قبل أن یلفظ بها المتکلم و ذلک یشغله عن التجرد للانصات فیقطع المتکلم حدیثه و یعترض و یقول لا تعجل بکلامی و أنصت لتفقه ما أقول لک ثم یمضی فی حدیثه.

فقوله: لاٰ تُحَرِّکْ بِهِ لِسٰانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ الخطاب فیه للنبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم،و الضـمیر ان للقرآن الـذی یوحی الیه أو للوحی،و المعنی لا تحرک بالوحی لسانک لتأخذه عاجلا فتسبقنا الی قراءه ما لم نقرأ بعد فهو کما مر فی معنی قوله: وَ لاٰ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ یُقْضیٰ إِلَیْکَ وَحْیُهُ (طه/۱۱۴).

و قوله: إِنَّ عَلَیْنٰا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ القرآن هاهنـا مصـدر کالفرقـان و الرجحان، و الضـمیران للوحی،و المعنی لا تعجل به إذ علینا أن نجمع ما نوحیه الیک بضم بعض أجزائه الی بعض و قراءته علیک فلا یفوتنا شـیء منه حتی یحتاج الی أن تسبقنا الی قراءه ما لم نوحه

بعد.

و قوله: فَإِذٰا قَرَأْنٰاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ أى فاذا اتممنا قراءته عليك وحيا فاتبع قراءتنا له و اقرأ بعد تمامها.

و قيل:المراد باتباع قرآنه اتباعه ذهنا بالانصات و التوجه التام اليه و هو معنى لا بأس به.

و قوله: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنٰا بَيٰانَهُ اى علينا ايضاحه عليك بعد ما كان علينا جمعه و قرآنه فثم للتأخير الرتبى لأن البيان مترتب على الجمع و القراءه رتبه.

و قيل؛المعنى ثم إن علينا بيانه للناس بلسانك نحفظه فى ذهنك عن التغير و الزوال حتى تقرأه على الناس.

و عن بعضهم أن الآيات الأربع متصله بما تقدم من حديث يوم القيامه،و خطاب «لاٰ تُحَرِّكْ» للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و ضمير «بِهِ» ليوم القيامه،و المعنى لا تتفوه بالسؤال عن وقت القيامه أصلا و لو كنت غير مكذب و لا مستهزئ «لِتَعْجَلَ بِهِ» أى بالعلم به «إِنَّ عَلَيْنٰا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ» أى من الواجب فى الحكمه أن نجمع من نجمعه فيه و نوحى شرح وصفه اليك فى القرآن «فَإِذٰا قَرَأْنٰاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ» أى إذا قرأنا ما يتعلق به فاتبع ذلك بالعمل بما يقتضيه من الاستعداد له «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنٰا بَيٰانَهُ» أى إظهار ذلك بالنفخ فى الصور انتهى ملخصا و هو كما ترى.

و قد تقدم فى تفسير قوله: «وَ لاٰ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ» أن هذا النهى عن العجل بالقرآن يؤيد ما ورد فى الروايات أن للقرآن نزولا على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دفعه غير نزوله تدريجا.

قوله تعالى: كَلاّٰ بَلْ تُحِبُّونَ الْعٰاجِلَةَ وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ خطاب للناس و ليس من تعميم الخطاب السابق فى شىء لأن خطاب «لاٰ تُحَرِّكْ» اعتراضى غير مرتبط بشىء من طرفيه.

و قوله: «كَلاّٰ» ردع عن قوله السابق: «يَحْسَبُ الْإِنْسٰانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظٰامَهُ» و قوله: «بَلْ

تُحِبُّونَ الْعٰاجِلَةَ» -أی الحیاه العاجله و هی الحیاه الدنیا- «وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ» أی تترکون الحیاه الآخره،و ما فی الکلام من الإضراب إضراب عن حسبان عدم الإحیاء بعد الموت نظیر الإضراب فی قوله: «بَلْ یُرِیدُ الْإِنْسٰانُ لِیَفْجُرَ أَمٰامَهُ» .

قوله تعالی: وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ نٰاضِرَةٌ إِلیٰ رَبِّهٰا نٰاظِرَةٌ» وصف لیوم القیامه بانقسام الوجوه فیه الی قسمین:ناضره و باسره،و نضره الوجه و اللون و الشجر و نحوها و نضارتها حسنها و بهجتها.

و المعنی:نظرا الی ما یقابله من قوله: «وَ وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ بٰاسِرَةٌ» الخ؛وجوه یوم إذ تقوم القیامه حسنه متهلله ظاهره المسره و البشاشه قال تعالی: تَعْرِفُ فِی وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِیمِ (المطففین/۲۴)،و قال: وَ لَقّٰاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً (الدهر/۱۱).

و قوله: «إِلیٰ رَبِّهٰا نٰاظِرَةٌ» خبر بعد خبر لوجوه،و «إِلیٰ رَبِّهٰا» متعلق بناظره قدم علیها لإفاده الحصر أو الأهمیه.

و المراد بالنظر الیه تعالی لیس هو النظر الحسی المتعلق بالعین الجسمانیه المادیه التی قامت البراهین القاطعه علی استحالته فی حقه تعالی بل المراد النظر القلبی و رؤیه القلب بحقیقه الإیمان علی ما یسوق الیه البرهان و یدل علیه الأخبار المأثوره عن أهل العصمه علیهم السّلام و قد أوردنا شطرا منها فی ذیل تفسیر قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ أَرِنِی أَنْظُرْ إِلَیْکَ (الأعراف/ ۱۴۳)،و قوله تعالی: مٰا کَذَبَ الْفُؤٰادُ مٰا رَأیٰ (النجم/۱۱).

فهؤلاء قلوبهم متوجهه الی ربهم لا یشغلهم عنه سبحانه شاغل من الأسباب لتقطع الأسباب یومئذ،و لا یقفون موقفا من مواقف الیوم و لا یقطعون مرحله من مراحله إلا و الرحمه الإلهیه شامله لهم وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ یَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (النمل/۸۹)و لا یشهدون مشهدا من مشاهد الجنه و لا یتنعمون بشیء من نعیمها إلا و هم یشاهدون ربهم به لأنهم لا ینظرون الی شیء و لا یرون شیئا إلا من حیث إنه آیه للّه سبحانه و النظر الی الآیه من حیث إنها آیه

ص :۵۱۶

و رؤيتها نظر الى ذى الآيه و رؤيه له.

قوله تعالى: وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بٰاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهٰا فٰاقِرَةٌ فسر البسور بشده العبوس و الظن بالعلم و «فٰاقِرَةٌ» صفه محذوفه الموصوف أى فعله فاقره،و الفاقره من فقره اذا أصاب فقار ظهره،و قيل:من فقرت البعير اذا وسمت أنفه بالنار.

و المعنى:و وجوه يومئذ شديده العبوس تعلم أنه يفعل بها فعله تقصم ظهورها أو تسم انوفها بالنار،و احتمل أن يكون تظن خطابا للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما أنه سامع و الظن بمعناه المعروف.

قوله تعالى: كَلاّٰ إِذٰا بَلَغَتِ التَّرٰاقِيَ ردع عن حبهم العاجله و إيثارها على الآخره كأنه قيل:ارتدعوا عن ذلك فليس يدوم عليكم و سينزل عليكم الموت فتساقون الى ربكم و فاعل «بَلَغَتِ» محذوف يدل عليه السياق كما فى قوله تعالى: فَلَوْ لاٰ إِذٰا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (الواقعه/۸۳)و التقدير اذا بلغت النفس التراقى.

و التراقى العظام المكتنفه للنحر عن يمين و شمال جمع ترقوه،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ قِيلَ مَنْ رٰاقٍ اسم فاعل من الرقى أى قال من حضره من اهله و اصدقائه من يرقيه و يشفيه؟كلمه يأس،و قيل:المعنى قال بعض الملائكه لبعض:من يرقى بروحه من الملائكه أ ملائكه الرحمه أم ملائكه العذاب؟

قوله تعالى: وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِرٰاقُ اى و علم الإنسان المحتضر من مشاهده هذه الأحوال انه مفارقته للعاجله التى كان يحبها و يؤثرها على الآخره.

قوله تعالى: وَ الْتَفَّتِ السّٰاقُ بِالسّٰاقِ ظاهره ان المراد به التفاف ساق المحتضر بساقه ببطلان الحياه الساريه فى اطراف البدن عند بلوغ الروح التراقى.

قوله تعالى: إِلىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسٰاقُ المساق مصدر ميمى بمعنى السوق،و المراد بكون السوق يومئذ اليه تعالى انه الرجوع اليه،و عبر بالمساق للإشاره الى ان لا خيره للإنسان فى هذا المسير و لا مناص له عنه فهو مسوق مسير من يوم موته و هو قوله: «إِلىٰ رَبِّكَ

يَوْمَئِذٍ الْمَسٰاقُ» حتى يرد على ربه يوم القيامه و هو قوله: «إِلىٰ رَبِّکَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ» و لو كان تقديم «إِلىٰ رَبِّکَ» لإفاده الحصر افاد انحصار الغايه فى الرجوع اليه تعالى.

قوله تعالى: فَلاٰ صَدَّقَ وَ لاٰ صَلّٰى وَ لٰكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلّٰى ثُمَّ ذَهَبَ إِلىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطّٰى الضمائر راجعه الى الإنسان المذكور فى قوله: «أَ يَحْسَبُ الْإِنْسٰانُ» الخ؛و المراد بالتصديق المنفى تصديق الدعوه الحقه التى يتضمنها القرآن الكريم،و بالتصليه المنفيه التوجه العبادى اليه تعالى بالصلاه التى هى عمود الدين.

و التمطى-على ما فى المجمع-تمدد البدن من الكسل و أصله ان يلوى مطاه اى ظهره،و المراد بتمطيه فى ذهابه التبختر و الاختيال استعاره.

و المعنى:فلم يصدق هذا الانسان الدعوه فيما فيها من الاعتقاد و لم يصل لربه أى لم يتبعها فيما فيها من الفروع و ركنها الصلاه و لكن كذب بها و تولى عنها ثم ذهب الى أهله يتبختر و يختال مستكبرا.

قوله تعالى: أَوْلىٰ لَکَ فَأَوْلىٰ ثُمَّ أَوْلىٰ لَکَ فَأَوْلىٰ لا ريب أنه كلمه تهديد كررت لتأكيد التهديد،و لا يبعد-و اللّه أعلم-أن يكون قوله: «أَوْلىٰ لَکَ» خبرا لمبتدإ محذوف هو ضمير عائد الى ما ذكر من حال هذا الانسان و هو أنه لم يصدق و لم يصل و لكن كذب و تولى ثم ذهب الى أهله متبخترا مختالا،و إثبات ما هو فيه من الحال له كنايه عن إثبات ما هو لازمه من التبعه و العقاب.

فيكون الكلام و هى كلمه ملقاه من اللّه تعالى الى هذا الانسان كلمه طبع طبع اللّه بها على قلبه حرم بها الإيمان و التقوى و كتب عليه أنه من أصحاب النار،و الآيتان تشبهان بوجه قوله تعالى: فَإِذٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتٰالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْکَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلىٰ لَهُمْ (سوره محمد٢٠/).

و المعنى:ما أنت عليه من الحال أولى و أرجح لک فأولى ثم أولى لک فأولى لتذوق وبال

أمرك و يأخذك ما أعد لك من العذاب.

قوله تعالى: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً مختتم فيه رجوع الى ما فى مفتتح السوره من قوله: «أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ» .

و الاستفهام للتوبيخ،و السدى المهمل،و المعنى أ يظن الانسان ان يترك مهملا لا يعتنى به فلا يبعث بإحيائه بعد الموت و لازمه ان لا يكلف و لا يجزى.

قوله تعالى: «أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى» اسم كان ضمير راجع الى الإنسان،و إمناء المنى صبه فى الرحم.

قوله تعالى: ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّى أى ثم كان الإنسان-أو المنى-قطعه من دم منعقد فقدره فصوره بالتعديل و التكميل.

قوله تعالى: فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى أى فجعل من الإنسان الصنفين:الذكر و الانثى.

قوله تعالى: أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى احتجاج على البعث الذى ينكرونه استبعادا له بعموم القدره و ثبوتها على الخلق الابتدائى و الإعاده لا تزيد على الابتداء مئونه بل هى أهون،و قد تقدم الكلام فى تقريب هذه الحجه فى تفسير الآيات المتعرضه لها مرارا (1).

ص :519

1- 1) .القيامه 16-40:بحث روائى حول قوله تعالى: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ» اصحاب الجنه و اصحاب الناس؛صفات اللّه تعالى؛معنى النظر الى اللّه يوم القيامه؛قبض الروح؛حقيقه الموت.

سوره الدهر مدنیه و هی إحدی و ثلاثون آیه

اشاره

[سوره الإنسان (۷۶): الآیات ۱ الی ۲۲]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gtهَلْ أَتیٰ عَلَی اَلْإِنْسٰانِ حِینٌ مِنَ اَلدَّهْرِ لَمْ یَکُنْ شَیْئاً مَذْکُوراً (۱) إِنّٰا خَلَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَهٍ أَمْشٰاجٍ نَبْتَلِیهِ فَجَعَلْنٰاهُ سَمِیعاً بَصِیراً (۲) إِنّٰا هَدَیْنٰاهُ اَلسَّبِیلَ إِمّٰا شٰاکِراً وَ إِمّٰا کَفُوراً (۳) إِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلْکٰافِرِینَ سَلاٰسِلَ وَ أَغْلاٰلاً وَ سَعِیراً (۴) إِنَّ اَلْأَبْرٰارَ یَشْرَبُونَ مِنْ کَأْسٍ کٰانَ مِزٰاجُهٰا کٰافُوراً (۵) عَیْناً یَشْرَبُ بِهٰا عِبٰادُ اَللّٰهِ یُفَجِّرُونَهٰا تَفْجِیراً (۶) یُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ یَخٰافُونَ یَوْماً کٰانَ شَرُّهُ مُسْتَطِیراً (۷) وَ یُطْعِمُونَ اَلطَّعٰامَ عَلیٰ حُبِّهِ مِسْکِیناً وَ یَتِیماً وَ أَسِیراً (۸) إِنَّمٰا نُطْعِمُکُمْ لِوَجْهِ اَللّٰهِ لاٰ نُرِیدُ مِنْکُمْ جَزٰاءً وَ لاٰ شُکُوراً (۹) إِنّٰا نَخٰافُ مِنْ رَبِّنٰا یَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِیراً (۱۰) فَوَقٰاهُمُ اَللّٰهُ شَرَّ ذٰلِکَ اَلْیَوْمِ وَ لَقّٰاهُمْ نَضْرَهً وَ سُرُوراً (۱۱) وَ جَزٰاهُمْ بِمٰا صَبَرُوا جَنَّهً وَ حَرِیراً (۱۲) مُتَّکِئِینَ فِیهٰا عَلَی اَلْأَرٰائِکِ لاٰ یَرَوْنَ فِیهٰا شَمْساً وَ لاٰ زَمْهَرِیراً (۱۳) وَ دٰانِیَهً عَلَیْهِمْ ظِلاٰلُهٰا وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُهٰا تَذْلِیلاً (۱۴) وَ یُطٰافُ عَلَیْهِمْ بِآنِیَهٍ مِنْ فِضَّهٍ وَ أَکْوٰابٍ کٰانَتْ قَوٰارِیرَا (۱۵) قَوٰارِیرَا مِنْ فِضَّهٍ قَدَّرُوهٰا تَقْدِیراً (۱۶) وَ یُسْقَوْنَ فِیهٰا کَأْساً کٰانَ مِزٰاجُهٰا زَنْجَبِیلاً (۱۷) عَیْناً فِیهٰا تُسَمّٰی سَلْسَبِیلاً (۱۸) وَ یَطُوفُ عَلَیْهِمْ وِلْدٰانٌ مُخَلَّدُونَ إِذٰا رَأَیْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (۱۹) وَ إِذٰا رَأَیْتَ ثَمَّ رَأَیْتَ نَعِیماً وَ مُلْکاً کَبِیراً (۲۰) عٰالِیَهُمْ ثِیٰابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَسٰاوِرَ مِنْ فِضَّهٍ وَ سَقٰاهُمْ رَبُّهُمْ شَرٰاباً طَهُوراً (۲۱) إِنَّ هٰذٰا کٰانَ لَکُمْ جَزٰاءً وَ کٰانَ سَعْیُکُمْ مَشْکُوراً (۲۲)

ص: ۵۲۰

بیان:

اشاره

قوله تعالی: هَلْ أَتیٰ عَلَی الْإِنْسٰانِ حِینٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ یَکُنْ شَیْئاً

ص :۵۲۱

مَذْكُوراً الاستفهام للتقرير فيفيد ثبوت معنى الجمله و تحققه أى قد أتى على الانسان،الخ؛ و لعل هذا مراد من قال من قدماء المفسرين:إن «هَلْ» فى الآيه بمعنى قد،لا على أن ذلك أحد معانى «هَلْ» كما ذكره بعضهم.

و المراد بالإنسان الجنس.و أما قول بعضهم:إن المراد به آدم عليه السّلام فلا يلائمه قوله فى الآيه التاليه: «إِنّٰا خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَهٍ» .

و الحين قطعه من الزمان محدوده قصيره كانت أو طويله،و الدهر الزمان الممتد من دون تحديد ببدايه أو نهايه.

و قوله: شَيْئاً مَذْكُوراً أى شيئا يذكر باسمه فى المذكورات أى كان يذكر مثلا الأرض و السماء و البر و البحر و غير ذلك و لا يذكر الإنسان لأنه لم يوجد بعد حتى وجد فقيل:

الإنسان فكونه مذكورا كنايه عن كونه موجودا بالفعل فالنفى فى قوله: «لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً» متوجه الى كونه شيئا مذكورا لا الى أصل كونه شيئا فقد كان شيئا و لم يكن شيئا مذكورا و يؤيده قوله: «إِنّٰا خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَهٍ» الخ؛فقد كان موجودا بمادته و لم يتكون بعد إنسانا بالفعل و الآيه و ما يتلوها من الآيات واقعه فى سياق الاحتجاج يبين بها أن الإنسان حادث يحتاج فى وجوده الى صانع يصنعه و خالق يخلقه،و قد خلقه ربه و جهزه التدبير الربوبى بأدوات الشعور من السمع و البصر يهتدى بها الى السبيل الحق الذى من الواجب أن يسلكه مدى حياته فان كفر فمصيره الى عذاب أليم و ان شكر فالى نعيم مقيم.

و المعنى هل أتى-قد أتى-على الإنسان قطعه محدوده من هذا الزمان الممتد-غير المحدود و الحال أنه لم يكن موجودا بالفعل مذكورا فى عداد المذكورات.

قوله تعالى: إِنّٰا خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَهٍ أَمْشٰاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنٰاهُ سَمِيعاً بَصِيراً النطفه فى الأصل بمعنى الماء القليل غلب استعماله فى ماء الذكور من الحيوان الذى يتكون منه مثله،و أمشاج جمع مشيج او المشج بفتحتين او بفتح فكسر بمعنى المختلط الممتزج،

و وصفت بها النطفه باعتبار اجزائها المختلفه او اختلاط ماء الذكور و الإناث.

و الابتلاء نقل الشيء من حال الى حال و من طور الى طور كابتلاء الذهب فى البوتقه، و ابتلاؤه تعالى الإنسان فى خلقه من النطفه هو ما ذكره فى مواضع من كلامه انه يخلق النطفه فيجعلها علقه و العلقه مضغه الى آخر الأطوار التى تتعاقبها حتى ينشئه خلقا آخر.

و قوله: فَجَعَلْنٰاهُ سَمِيعاً بَصِيراً سياق الآيات و خاصه قوله: «إِنّٰا هَدَيْنٰاهُ السَّبِيلَ» الخ؛يفيد أن ذكر جعله سميعا بصيرا للتوسل به فى التدبير الربوبى الى غايته و هى أن يرى آيات اللّه الداله على المبدإ و المعاد و يسمع كلمه الحق التى تأتيه من جانب ربه بإرسال الرسل و إنزال الكتب فيدعوه البصر و السمع الى سلوك سبيل الحق و السير فى مسير الحياه بالإيمان و العمل الصالح فإن لزم السبيل الذى هدى اليه أداه الى نعيم الأبد و إلا فإلى عذاب مخلد.

و ذكر الإنسان فى الآيه من وضع الظاهر موضع الضمير و النكته فيه تسجيل أنه تعالى هو خالقه و مدبر أمره.

و المعنى:إنا خلقنا الإنسان من نطفه هى أجزاء مختلطه ممتزجه و الحال أنّا ننقله من حال الى حال و من طور الى طور فجعلناه سميعا بصيرا ليسمع ما يأتيه من الدعوه الإلهيه،و يبصر الآيات الإلهيه الداله على وحدانيته تعالى و النبوه و المعاد.

قوله تعالى: إِنّٰا هَدَيْنٰاهُ السَّبِيلَ إِمّٰا شٰاكِراً وَ إِمّٰا كَفُوراً الهدايه بمعنى إراءه الطريق دون الإيصال الى المطلوب و المراد بالسبيل السبيل بحقيقه معنى الكلمه و هو المؤدى الى الغايه المطلوبه و هو سبيل الحق.

و الشكر استعمال النعمه بإظهار كونها من منعمها و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى:

وَ سَيَجْزِي اللّٰهُ الشّٰاكِرِينَ (آل عمران۱۴۴/)أن حقيقه كون العبد شاكرا للّه كونه مخلصا لربه،و الكفران استعمالها مع ستر كونها من المنعم.

ص :۵۲۳

و قوله: إِمّٰا شٰاكِراً وَ إِمّٰا كَفُوراً حالان من ضـمير «هَـدَيْنٰاهُ» لا من «السَّبِيلَ» كما قاله بعضـهم،و «إِمّٰا» يفيـد التقسـيم و التنويع أى إنا هديناه السبيل حال كونه منقسما الى الشاكر و الكفور أى إنه مهدى سواء كان كذا أو كذلك.

و التعبير بقوله: «إِمّٰا شٰاكِراً وَ إِمّٰا كَفُوراً» هو الدليل أولا:على أن المراد بالسبيل السنه و الطريقه التى يجب على الإنسان أن يسلكها فى حياته الـدنيا لتوصـله الى سـعادته فى الـدنيا و الآخره و تسوقه الى كرامه القرب و الزلفى من ربه و محصـله الدين الحق و هو عند اللّه الإسلام (۱).

قوله تعـالى: إِنّٰا أَعْتَـدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ سَـلاٰسِلَ وَ أَغْلاٰلاً وَ سَـعِيراً الاعتـاد التهيئه، و سـلاسل جمع سلسـله و هى القيـد الـذى يقـاد به المجرم،و أغلالـ جمع غـل بالضم قيل هى القيـد الـذى يجمع اليـدين على العنق،و قال الراغب:فالغل مختص بما يقيـد به فيجعل الأعضاء وسطه.انتهى.و السعير النار المشتعله،و المعنى ظاهر.

و الآيه تشـير الى تبعه الانسان الكفور المـذكور فى قوله: «إِمّٰا شٰاكِراً وَ إِمّٰا كَفُوراً» و قدم بيان تبعته على بيان جزاء الانسان الشاكر لاختصار الكلام فيه.

قوله تعالى: إِنَّ الْأَبْرٰارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كٰانَ مِزٰاجُهٰا كٰافُوراً الكأس إناء الشراب إذا كان فيه شراب،و المزاج ما يمزج به كالحزام لما يحزم به،و الكافور معروف يضرب به المثل فى البروده و طيب الرائحه،و قيل:هو اسم عين فى الجنه.

و الأبرار جمع بر بفتح الباء صـفه مشبهه من البر و هو الاحسان و يتحصل معناه فى أن يحسن الانسان فى عمله من غير أن يريد به نفعا يرجع اليه من جزاء او شـكور فهو يريد الخير لأنه خير لا لأن فيه نفعا يرجع الى نفسه و إن كرهت نفسه ذلك فيصبر على مر مخالفه نفسه فيما

۱- ۱) .الدهر ۱-۲۲:بحث فى هدايه الانسان.

يريده و يعمل لأنه خير فى نفسه كالوفاء بالنذر أو لأن فيه خيرا لغيره كاطعام الطعام للمستحقين من عباد اللّه.

و إذ لا خير فى عمل و لا صلاح إلا بالايمان باللّه و رسوله و اليوم الآخر كما قال تعالى:

أُولٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللّٰهُ أَعْمٰالَهُمْ (الأحزاب١٩/)الى غير ذلك من الآيات.

فالأبرار مؤمنون باللّه و رسوله و اليوم الآخر،و إذ كان إيمانهم إيمان رشد و بصيره فهم يرون أنفسهم عبيدا مملوكين لربهم،له خلقهم و أمرهم،لا يملكون لأنفسهم نفعا و لا ضرا عليهم أن لا يريدوا إلا ما أراده ربهم و لا يفعلوا إلا ما يرتضيه فقدموا إرادته على اراده أنفسهم و عملوا له فصبروا على مخالفه أنفسهم فيما تهواه و تحبه و كلفه الطاعه،و عملوا ما عملوه لوجه اللّه، فأخلصوا العبوديه فى مرحله العمل للّه سبحانه.

و هذه الصفات هى التى عرف سبحانه الأبرار بها كما يستفاد من قوله: «يَشْرَبُ بِهٰا عِبٰادُ اللّٰهِ» و قوله: «إِنَّمٰا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ» و قوله: «وَ جَزٰاهُمْ بِمٰا صَبَرُوا» و هى المستفاده من قوله فى صفتهم: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ الخ(البقره١٧٧/)و قد مر بعض الكلام فى معنى البر فى تفسير الآيه و سيأتى بعضه فى قوله:

كَلاّٰ إِنَّ كِتٰابَ الْأَبْرٰارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (المطففين١٨/).

و الآيه أعنى قوله: «إِنَّ الْأَبْرٰارَ يَشْرَبُونَ» الخ؛بما يتبادر من معناها من حيث مقابلتها لقوله: «إِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ» الخ؛المبين لحال الكافرين فى الآخره،تبين حال الأبرار فى الآخره فى الجنه،و انهم يشربون من شراب ممزوج بالكافور باردا طيب الرائحه.

قوله تعالى: عَيْناً يَشْرَبُ بِهٰا عِبٰادُ اللّٰهِ يُفَجِّرُونَهٰا تَفْجِيراً «عَيْناً» منصوب بنزع الخافض و التقدير من عين أو بالاختصاص و التقدير أخصّ عينا،و الشرب-على ما قيل-يتعدى بنفسه و بالباء فشرب بها و شربها واحد،و التعبير عنهم بعباد اللّه للاشاره الى تحليهم بحليه العبوديه و قيامهم بلوازمها على ما يفيده سياق المدح.

و تفجير العين شق الأرض لإجرائها،و ينبغى ان يحمل تفجيرهم العين على ارادتهم جريانها لأن نعم الجنه لا تحتاج فى تحققها و التنعم بها الى ازيد من مشيه اهلها قال تعالى: لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا (ق٣۵/).

و الآيتان-كما تقدمت الإشاره اليه-تصفان تنعم الأبرار بشراب الجنه فى الآخره،و بذلك فسرت الآيتان.

و لا يبعد ان تكون الآيتان مسوقتين على مسلك تجسم الأعمال تصفان حقيقه عملهم الصالح من الإيفاء بالنذر و اطعام الطعام لوجه اللّه،و ان اعمالهم المذكوره بحسب باطنها شرب من كأس مزاجها كافور من عين لا يزالون يفجرونها بأعمالهم الصالحه و ستظهر لهم بحقيقتها فى جنه الخلد و إن كانت فى الدنيا فى صوره الأعمال فتكون الآيتان فى مجرى أمثال قوله تعالى:

إِنّٰا جَعَلْنٰا فِي أَعْنٰاقِهِمْ أَغْلاٰلاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقٰانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (يس٨/).

و يؤيد ذلك ظاهر قوله: «يَشْرَبُونَ» و «يَشْرَبُ بِهٰا» و لم يقل:سيشربون و سيشرب بها، و وقوع قوله:يشربون و يوفون و يخافون و يطعمون متعاقبه فى سياق واحد،و ذكر التفجير فى قوله: «يُفَجِّرُونَهٰا تَفْجِيراً» الظاهر فى استخراج العين و إجرائها بالتوسل بالأسباب.

و لهم فى مفردات الآيتين و إعرابها أقاويل كثيره مختلفه مذكوره فى المطولات فليراجعها من أراد الوقوف عليها.

قوله تعالى: يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخٰافُونَ يَوْماً كٰانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً المستطير اسم فاعل من استطار إذا فشا و انتشر فى الأقطار غايه الانتشار و هو أبلغ من طار كما قيل:

يقال:استطار الحريق و استطار الفجر إذا اتسعا غايته،و المراد باستطاره شر اليوم و هو يوم القيامه بلوغ شدائده و أهواله و ما فيه من العذاب غايته.

و المراد بالإيفاء بالنذر ما هو ظاهره المعروف من معناه،و قول القائل:إن المراد به ما عقدوا عليه قلوبهم من العمل بالواجبات أو ما عقدوا عليه القلوب من اتباع الشارع فى جميع ما

شرعه خلاف ظاهر اللفظ من غير دليل يدل عليه.

قوله تعالى: وَ يُطْعِمُونَ الطَّعٰامَ عَلىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً ضمير «عَلىٰ حُبِّهِ» للطعام على ما هو الظاهر،و المراد بحبه توقان النفس اليه لشده الحاجه،و يؤيد هذا المعنى قوله تعالى: لَنْ تَنٰالُوا الْبِرَّ حَتّٰى تُنْفِقُوا مِمّٰا تُحِبُّونَ (آل عمران۹۲/).

و المراد بالمسكين و اليتيم معلوم،و المراد بالأسير ما هو الظاهر منه و هو المأخوذ من أهل دار الحرب.

قوله تعالى: إِنَّمٰا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ لاٰ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزٰاءً وَ لاٰ شُكُوراً وجه الشىء هو ما يستقبل به غيره،و وجهه تعالى صفاته الفعليه الكريمه التى يفيض بها الخير على خلقه من الخلق و التدبير و الرزق و بالجمله الرحمه العامه التى بها قيام كل شىء،و معنى كون العمل لوجه اللّٰه على هذا كون الغايه فى العمل هى الاستفاضه من رحمه اللّٰه و طلب مرضاته بالاقتصار على ذلک و الإعراض عما عند غيره من الجزاء المطلوب،و لذا ذيلوا قولهم:

«إِنَّمٰا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ» بقولهم: «لاٰ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزٰاءً وَ لاٰ شُكُوراً» .

و وراء ذلک صفاته الذاتيه الكريمه التى هى المبدأ لصفاته الفعليه و لما يترتب عليها من الخير فى العالم،و مرجع كون العمل لوجه اللّٰه على هذا هو الإتيان بالعمل حبا للّٰه لأن الجميل على الإطلاق،و إن شئت فقل:عبادته تعالى لأنه اهل للعباده.

و ابتغاء وجه اللّٰه يجعله غايه داعيه فى الأعمال مذكور فى مواضع من كلامه تعالى كقوله:

وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ (الكهف۲۸/)، و قوله: وَ مٰا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغٰاءَ وَجْهِ اللّٰهِ (البقره۲۷۲/)،و فى هذا المعنى قوله: وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِيَعْبُدُوا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (البينه۵/)،و قوله: فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (المؤمن۶۵/)،و قوله: أَلاٰ لِلّٰهِ الدِّينُ الْخٰالِصُ (الزمر۳/).

و قوله: «لاٰ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزٰاءً وَ لاٰ شُكُوراً» الجزاء مقابله العمل بما يعادله إن خيرا فخيرا

و إن شرا فشرا،و يعم الفعل و القول لكن المراد به فى الآيه بقرينه مقابلته الشكور مقابله إطعامهم عملا لا لسانا.

و الشكر و الشكور ذكر النعمه و إظهارها قلبا أو لسانا أو عملا،و المراد به فى الآيه و قد قوبل بالجزاء الثناء الجميل لسانا.

و الآيه أعنى قوله: «إِنَّمٰا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ» الخ؛خطاب منهم لمن أطعموه من المسكين و اليتيم و الأسير إما بلسان المقال فهى حكايه قولهم أو بتقدير القول و كيف كان فقد أرادوا به تطييب قلوبهم أن يأمنوا المن و الأذى،و إما بلسان الحال و هو ثناء من اللّه عليهم لما يعلم من الإخلاص فى قلوبهم.

قوله تعالى: إِنّٰا نَخٰافُ مِنْ رَبِّنٰا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً عد اليوم و هو يوم القيامه عبوسا من الاستعاره،و المراد بعبوسه ظهوره على المجرمين بكمال شدته،و القمطرير الصعب الشديد على ما قيل.

و الآيه فى مقام التعليل لقولهم المحكى: «إِنَّمٰا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ» الخ؛ينبهون بقولهم هذا أن قصرهم العمل فى ابتغاء وجه اللّه تعالى إخلاصا للعبوديه لمخافتهم ذاك اليوم الشديد،و لم يكتفوا بنسبه المخافه الى اليوم حتى نسبوه نحوا من النسبه الى ربهم فقالوا: «نَخٰافُ مِنْ رَبِّنٰا يَوْماً» الخ؛لأنهم لما لم يريدوا إلا وجه ربهم فهم لا يخافون غيره كما لا يرجون غيره و إنما يخافون و يرجون ربهم فلا يخافون يوم القيامه إلا لأنه من ربهم يحاسب فيه عباده على أعمالهم فيجزيهم بها.

و أما قوله قبلا: «وَ يَخٰافُونَ يَوْماً كٰانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً» حيث نسب خوفهم الى اليوم فإن الواصف فيه هو اللّه سبحانه و قد نسب اليوم بشدائده الى نفسه قبلا حيث قال: «إِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ سَلاٰسِلَ» الخ.

و بالجمله ما ذكروه من الخوف مخافه فى مقام العمل لما يحاسب العبد على عمله فالعبوديه

لازمه للإنسان لا تفارقه و إن بلغ ما بلغ قال تعالی: إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (الغاشیه۲۶/).

قوله تعالی: فَوَقاهُمُ اللّهُ شَرَّ ذلِکَ الْيَوْمِ وَ لَقّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً الوقایه الحفظ و المنع من الأذی و لقی الشیء بکذا یلقیه أی استقبله به و النضره البهجه و حسن اللون و السرور مقابل المساءه و الحزن.

و المعنی:فحفظهم اللّه و منع عنهم شر ذلک الیوم و استقبلهم بالنضره و السرور،فهم ناضره الوجوه مسرورون یومئذ کما قال: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (القیامه۲۲/).

قوله تعالی: وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً المراد بالصبر صبرهم عند المصیبه و علی الطاعه و عن المعصیه فإنهم ابتغوا فی الدنیا وجه ربهم و قدموا إرادته علی إرادتهم فصبروا علی ما قضی به فیهم و أراده من المحن و مصائب الدنیا فی حقهم،و صبروا علی امتثال ما أمرهم به و صبروا علی ترک ما نهاهم عنه و إن کان مخالفا لأهواء أنفسهم فبدل اللّه ما لقوه من المشقه و الکلفه نعمه و راحه.

قوله تعالی: مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً الأرائک جمع أریکه و هو ما یتکئ علیه،و الزمهریر البرد الشدید،و المعنی حالکونهم متکئین فی الجنه علی الأرائک لا یرون فیها شمسا حتی یتأذوا بحرّها و لا زمهریرا حتی یتأذوا ببرده.

قوله تعالی: وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً الظلال جمع ظل، و دنو الظلال علیهم قربها منهم بحیث تنبسط علیهم فکأن الدنو مضمن معنی الانبساط و قطوف جمع قطف بالکسر فالسکون و هو الثمره المقطوفه المجتناه،و تذلیل القطوف لهم جعلها مسخره لهم یقطفونها کیف شاءوا من غیر مانع أو کلفه.

قوله تعالی: وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا الآنیه

جمع إناء كأكسيه جمع كساء و هو الوعاء،و أكواب جمع كوب و هو إناء الشراب الذى لا عروه له و لا خرطوم و المراد طوف الولدان المخلدين عليهم بالآنيه و أكواب الشراب كما سيأتى فى قوله: «وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ» الآيه.

قوله تعالى: قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً بدل من قوارير فى الآيه السابقه، و كون القوارير من فضه مبنى على التشبيه البليغ أى إنها فى صفاء الفضه و إن لم تكن منها حقيقه،كذا قيل.و احتمل أن يكون بحذف مضاف و التقدير من صفاء الفضه.

و ضمير الفاعل فى «قَدَّرُوها» للأبرار و المراد بتقديرهم الآنيه و الأكواب كونها على ما شاءوا من القدر ترويهم بحيث لا تزيد و لا تنقص كما قال تعالى: لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها (ق/ ۳۵)و قد قال تعالى قبل: «يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً» .

و يحتمل رجوع الضمير الى الطائفين المفهوم من قوله: «يُطافُ عَلَيْهِمْ» و المراد بتقديرهم الآنيه و الأكواب إتيانهم بها على قدر ما أرادوا محتويه على ما اشتهوا قدر ما اشتهوا.

قوله تعالى: وَ يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً قيل:إنهم كانوا يستطيبون الزنجبيل فى الشراب فوعد الأبرار بذلك و زنجبيل الجنه أطيب و ألذ.

قوله تعالى: عَيْناً فِيها تُسَمّى سَلْسَبِيلاً أى من عين أو التقدير أعنى أو أخص عينا.قال الراغب:و قوله: «سَلْسَبِيلاً» أى سهلا لذيذا سلسا حديد الجريه.

قوله تعالى: وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً أى ولدان دائمون على ما هم عليه من الطراوه و البهاء و صباحه المنظر،و قيل:أى مقرطون بخلده و هى ضرب من القرط.

و المراد بحسبانهم لؤلؤا منظورا أنهم فى صفاء ألوانهم و إشراق وجوههم و انعكاس أشعه بعضهم على بعض و انبثاثهم فى مجالسهم كاللؤلؤ المنثور.

قوله تعالى: وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً «ثَمَّ» ظرف مكان

ممحض فى الظرفيه،و لذا قيل:إن معنى «رَأَيْتَ» الأول:رميت ببصرك،و المعنى و إذا رميت ببصرك ثم يعنى الجنه رأيت نعيما لا يوصف و ملكا كبيرا لا يقدر قدره.

و قيل «ثَمَّ» صله محذوفه الموصول و التقدير و إذا رأيت ما ثم من النعيم و الملك،و هو كقوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ (الأنعام/۹۴)و الكوفيون من النحاه يجوزون حذف الموصول و إبقاء الصله و إن منعه البصريون منهم.

قوله تعالى: عٰالِيَهُمْ ثِيٰابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ الخ؛الظاهر أن «عٰالِيَهُمْ» حال من الأبرار الراجعه اليه الضمائر و «ثِيٰابُ» فاعله،و السندس-كما قيل-ما رق نسجه من الحرير،و الخضر صفه ثياب و الإستبرق ما غلظ نسجه من ثياب الحرير،و هو معرب كالسندس.

و قوله: وَ حُلُّوا أَسٰاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ التحليه التزيين،و أساور جمع سوار و هو معروف،و قال الراغب:هو معرب دستواره.

و قوله: وَ سَقٰاهُمْ رَبُّهُمْ شَرٰاباً طَهُوراً أى بالغا فى التطهير لا تدع قذاره إلا أزالها و من القذاره قذاره الغفله عن اللّه سبحانه و الاحتجاب عن التوجه اليه فهم غير محجوبين عن ربهم و لذا كان لهم أن يحمدوا ربهم كما قال: وَ آخِرُ دَعْوٰاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ (يونس/۱۰)و قد تقدم فى تفسير سوره الحمد أن الحمد وصف لا يصلح له إلا المخلصون من عباد اللّه تعالى لقوله: سُبْحٰانَ اللّٰهِ عَمّٰا يَصِفُونَ إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ (الصافات/۱۶۰).

و قد أسقط تعالى فى قوله: «وَ سَقٰاهُمْ رَبُّهُمْ» الوسائط كلها و نسب سقيهم الى نفسه،و هذا أفضل ما ذكره اللّه تعالى من النعيم الموهوب لهم فى الجنه،و لعله من المزيد المذكور فى قوله:

لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا وَ لَدَيْنٰا مَزِيدٌ (ق/۳۵).

قوله تعالى: إِنَّ هٰذٰا كٰانَ لَكُمْ جَزٰاءً وَ كٰانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً حكايه ما يخاطبون به من عنده تعالى عند توفيته أجرهم أو بحذف القول و التقدير و يقال لهم:إن هذا

كان لكم جزاء،الخ.

و قوله: وَ كٰانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً إنشاء شكر لمساعيهم المرضيه و أعمالهم المقبوله، و يا لها من كلمه طيبه تطيب بها نفوسهم.

و اعلم أنه تعالى لم يذكر فيما ذكر من نعيم الجنه فى هذه الآيات نساء الجنه من الحور العين و هى من أهم ما يذكره عنده وصف نعم الجنه فى سائر كلامه و يمكن أن يستظهر منه أنه كانت بين هؤلاء الأبرار الذين نزلت فيهم الآيات من هى من النساء.

و قال فى روح المعانى:و من اللطائف على القول بنزول السوره فيهم يعنى فى أهل البيت أنه سبحانه لم يذكر فيها الحور العين و إنما صرح عزّ و جل بولدان مخلدين رعايه لحرمه البتول و قره عين الرسول،انتهى.

بحث روائى:

فى إتقان السيوطى عن البيهقى فى دلائل النبوه باسناده عن عكرمه و الحسن بن أبى الحسن قالا:أنزل اللّه من القرآن بمكه اقرأ باسم ربك و ن و المزمل-الى أن قالا-و ما نزل بالمدينه ويل للمطففين،و البقره،و آل عمران،و الأنفال،و الأحزاب،و المائده،و الممتحنه، و النساء،و إذا زلزلت،و الحديد،و محمد،و الرعد،و الرحمن،و هل أتى على الإنسان.

الحديث.

و فيه عن ابن الضريس فى فضائل القرآن بإسناده عن عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه عن ابن عباس قال:كان إذا نزلت فاتحه سوره بمكه كتبت بمكه ثم يزيد اللّه فيها ما شاء.

و كان أول ما انزل من القرآن اقرأ باسم ربك،ثم ن،ثم يا أيها المزمل-الى أن قال-ثم انزل بالمدينه سوره البقره ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنه ثم النساء ثم إذا زلزلت ثم الحديد ثم القتال ثم الرعد ثم الرحمن ثم الإنسان.الحديث.

ص:۵۳۲

و فیه عن البیهقی فی الدلائل بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال:إن أول ما أنزل اللّه علی نبیه من القرآن اقرأ باسم ربک،و ذکر مثل حدیث عکرمه و الحسین و فیه ذکر ثلاث من السور المکیه التی سقطت من روایتهما و هی الفاتحه و الاعراف و کهیعص.

و فی الدر المنثور أخرج ابن الضریس و ابن مردویه و البیهقی عن ابن عباس قال:نزلت سوره الإنسان بالمدینه.

و فیه أخرج ابن مردویه عن ابن عباس فی قوله تعالی: وَ یُطْعِمُونَ الطَّعٰامَ عَلیٰ حُبِّهِ الآیه؛قال:نزلت هذه الآیه فی علی بن أبی طالب و فاطمه بنت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

أقول:الآیه تشارک سائر آیات صدر السوره مما تقدم علیها أو تأخر عنها فی سیاق واحد متصل فنزولها فیهما علیهما السّلام لا ینفک نزولها جمیعا بالمدینه.

و فی الکشاف:و عن ابن عباس أن الحسن و الحسین مرضا فعادهما رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی ناس معه فقالوا:یا أبا الحسن لو نذرت علی ولدک(ولدیک ظ)فنذر علی و فاطمه و فضه جاریه لهما إن برءا مما بهما أن یصوموا ثلاثه أیام فشفیا و ما معهم شیء.

فاستقرض علی من شمعون الخیبری الیهودی ثلاث أصوع من شعیر فطحنت فاطمه صاعا و اختبزت خمسه أقراص علی عددهم فوضعوها بین أیدیهم لیفطروا فوقف علیهم سائل و قال:السلام علیکم أهل بیت محمد مسکین من مساکین المسلمین أطعمونی أطعمکم اللّه من موائد الجنه فآثروه و باتوا لم یذوقوا إلا الماء و أصبحوا صیاما.

فلما أمسوا و وضعوا الطعام بین أیدیهم وقف علیهم یتیم فآثروه،و وقف علیهم أسیر فی الثالثه ففعلوا مثل ذلک.

فلما أصبحوا أخذ علی بید الحسن و الحسین و أقبلوا الی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلما أبصرهم و هم یرتعشون کالفراخ من شده الجوع قال:ما أشد ما یسوءنی ما أری بکم فانطلق معهم فرأی

فاطمه فی محرابها قد التصق ظهرها (۱)ببطنها و غارت عیناها فساءه ذلک فنزل جبریل و قال:

خذها یا محمد هناک اللّه فی أهل بیتک فاقرءه السوره.

أقول:الروایه مرویه بغیر واحد من الطرق عن عطاء عن ابن عباس و نقلها البحرانی فی غایه المرام عن أبی المؤید الموفق بن احمد فی کتاب فضائل أمیر المؤمنین باسناده عن مجاهد عن ابن عباس،و عنه باسناد آخر عن الضحاک عن ابن عباس و عن الحموینی فی کتاب فرائد السمطین باسناده عن مجاهد عن ابن عباس،و عن الثعلبی باسناده عن أبی صالح عن ابن عباس،و رواه فی المجمع عن الواحدی فی تفسیره.

و فی المجمع باسناده عن الحاکم باسناده عن سعید بن المسیب عن علی بن ابی طالب أنه قال:سألت النبی عن ثواب القرآن فأخبرنی بثواب سوره سوره علی نحو ما نزلت من السماء.

فأول ما نزل علیه بمکه فاتحه الکتاب ثم اقرأ باسم ربک،ثم ن-الی ان قال-و أول ما نزل بالمدینه سوره البقره ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنه ثم النساء ثم إذا زلزلت ثم الحدید ثم سوره محمد ثم الرعد ثم سوره الرحمن ثم هل أتی.الحدیث.

و فیه عن أبی حمزه الثمالی فی تفسیره قال:حدثنی الحسن بن الحسن أبو عبد اللّه بن الحسن أنها مدنیه نزلت فی علی و فاطمه السوره کلها.

و فی تفسیر القمی عن أبیه عن عبد اللّه بن میمون عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال:کان عند فاطمه علیها السّلام شعیر فجعلوه عصیده (۲)فلما أنضجوها و وضعوها بین أیدیهم جاء مسکین فقال:

مسکین رحمکم اللّه فقام علی علیه السّلام أعطاه ثلثا فلم یلبث أن جاء یتیم فقال:الیتیم رحمکم اللّه فقام علی علیه السّلام فأعطاه الثلث ثم جاء أسیر فقال:الأسیر رحمکم اللّه فأعطاه علی علیه السّلام الثلث و ما

۱- ۱) .بطنها بظهرها ظ.

۲- ۲) .العصیده:شعیر یلت بالسمن و یطبخ.

ذاقوها فأنزل اللّه سبحانه الآيات فيهم و هی جاریه فی کل مؤمن فعل ذلک للّه عزّ و جل.

أقول:القصه کما تری ملخصه فی الروایه و روی ذلک البحرانی فی غایه المرام عن المفید فی الاختصاص مسندا و عن ابن بابویه فی الامالی باسناده عن مجاهد عن ابن عباس،و باسناده عن سلمه بن خالد عن جعفر بن محمد عن أبیه علیهما السّلام،و عن محمد بن العباس ابن ماهیار فی تفسیره باسناده عن أبی کثیر الزبیری عن عبد اللّه بن عباس،و فی المناقب أنه مروی عن الأصبغ بن نباته.

و فی الاحتجاج عن علی علیه السّلام فی حدیث یقول فیه للقوم بعد موت عمر بن الخطاب:

نشدتکم باللّه هل فیکم أحد نزل فیه و فی ولده «إِنَّ الْأَبْرٰارَ یَشْرَبُونَ مِنْ کَأْسٍ کٰانَ مِزٰاجُهٰا کٰافُوراً» الی آخر السوره غیری؟قالوا:لا.

و فی کتاب الخصال فی احتجاج علی علی أبی بکر قال:أنشدک باللّه أنا صاحب الآیه یُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ یَخٰافُونَ یَوْماً کٰانَ شَرُّهُ مُسْتَطِیراً أم أنت؟قال:بل أنت.

و فی الدر المنثور أخرج الطبرانی و ابن مردویه و ابن عساکر عن ابن عمر قال:جاء رجل من الحبشه الی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال له رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:سل و استفهم فقال:یا رسول اللّه فضلتم علینا بالألوان و الصور و النبوه أ فرأیت إن آمنت بما آمنت به و عملت بمثل ما عملت به أنی لکائن معک فی الجنه؟قال:نعم و الذی نفسی بیده إنه لیری بیاض الأسود فی الجنه من مسیره ألف عام.ثم قال:من قال:لا إله إلا اللّه کان له عهد عند اللّه و من قال:سبحان اللّه و بحمده کتبت له مائه الف حسنه و اربعه و عشرون الف حسنه و نزلت علیه السوره هل أتی علی الانسان حین من الدهر الی قوله:ملکا کبیرا.

فقال الحبشی:و إن عینی لتری ما تری عیناک فی الجنه؟قال:نعم فاشتکی حتی فاضت نفسه.قال عمر:فلقد رأیت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یدلیه فی حفرته بیده.

و فیه أخرج أحمد فی الزهد عن محمد بن مطرف قال:حدثنی الثقه أن رجلا أسود کان

يسأل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن التسبيح و التهليل فقال له عمر بن الخطاب:مه أكثرت على رسول اللّه فقال:مه يا عمر و انزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هَلْ أَتىٰ عَلَى الْإِنْسٰانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ حتى إذا أتى على ذكر الجنه زفر الاسود زفره خرجت نفسه فقال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:مات شوقا الى الجنه.

و فيه أخرج ابن وهب عن ابن زيد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قرء هذه السوره هل أتى على الإنسان حين من الدهر و قد انزلت عليه و عنده رجل أسود فلما بلغ صفه الجنان زفر زفره فخرجت نفسه فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:أخرج نفس صاحبكم الشوق الى الجنه.

أقول:و هذه الروايات الثلاث على تقدير صحتها لا تدل على أزيد من كون نزول السوره مقارنا لقصه الرجل و أما كونها سببا للنزول فلا،و هذا المعنى فى الروايه الأخيره أظهر و بالجمله لا تنافى الروايات الثلاث نزول السوره فى أهل البيت عليهم السّلام.

على أن روايه ابن عمر للقصه الظاهره فى حضوره القصه و قد هاجر الى المدينه و هو ابن إحدى عشره سنه من شواهد وقوع القصه بالمدينه.

و فى الدر المنثور أيضا أخرج النحاس عن ابن عباس قال:نزلت سوره الانسان بمكه.

أقول:هو تلخيص حديث طويل أورده النحاس فى كتاب الناسخ و المنسوخ،و قد نقله فى الإتقان و هو معارض لما تقدم نقله مستفيضا عن ابن عباس من نزول السوره بالمدينه و أنها نزلت فى أهل البيت عليهم السّلام.

على أن سياق آياتها و خاصه قوله: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ» «وَ يُطْعِمُونَ الطَّعٰامَ» الخ؛سياق قصه واقعه و ذكر الأسير فيمن أطعموهم نعم الشاهد على نزول الآيات بالمدينه إذ لم يكن للمسلمين أسير بمكه كما تقدمت الإشاره الى ذلك.

قال بعضهم ما ملخصه:ان الروايات مختلفه فى مكيه هذه السوره و مدنيتها و الأرجح أنها مكيه بل الظاهر من سياقها انها من عتائق السور القرآنيه النازله بمكه فى أوائل البعثه يؤيد

ذلک ما ورد فیها من صور النعم الحسیه المفصله الطویله و صور العذاب الغلیظ کما یؤیده ما ورد فیها من أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالصبر لحکم ربه و أن لا یطیع منهم آثما او کفورا و یثبت علی ما نزل علیه من الحق و لا یداهن المشرکین من الأوامر التی کانت تنزل بمکه عند اشتداد الأذی علی الدعوه و أصحابها بمکه کما فی السوره القلم و المزمل و المدثر فلا عبره باحتمال مدنیه السوره.

و هو فاسد اما ما ذکره من اشتمال السوره علی صور النعم الحسیه المفصله الطویله و صور العذاب الغلیظ فلیس ذلک مما یختص بالسور المکیه حتی یقضی بها علی کون السوره مکیه فهذه سوره الرحمن و سوره الحج مدنیتان علی ما تقدمت فی الروایات المشتمله علی ترتیب نزول السور القرآنیه و قد اشتملتا من صور النعم الحسیه المفصله الطویله و صور العذاب الغلیظ علی ما یربو و یزید علی هذه السوره بکثیر.

و اما ما ذکره من اشتمال السوره علی امر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالصبر و ان لا یطیع منهم آثما او کفورا و لا یداهنهم و یثبت علی ما نزل علیه من الحق ففیه ان هذه الأوامر واقعه فی الفصل الثانی من آیات السوره و هو قوله: إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَیْکَ الْقُرْآنَ تَنْزِیلاً الی آخر السوره؛و من المحتمل جدا ان یکون هذا الفصل من الآیات-و هو ذو سیاق تام مستقل-نازلا بمکه،و یؤیده ما فی کثیر من الروایات المتقدمه ان الذی نزل فی اهل البیت بالمدینه هو الفصل الأول من الآیات، و علی هذا اول السوره مدنی و آخرها مکی.

و لو سلم نزولها دفعه واحده فأمره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالصبر لا اختصاص له بالسور المکیه فقد ورد فی قوله: وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداهِ وَ الْعَشِیِّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَیْناکَ عَنْهُمْ تُرِیدُ زِینَهَ الْحَیاهِ الدُّنْیا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِکْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ کانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (الکهف/۲۸)و الآیه-علی ما روی-مدنیه و الآیه-کما تری-متحده المعنی مع قوله: «فَاصْبِرْ لِحُکْمِ رَبِّکَ» الخ؛و هی فی سائق شبیه جدا بسیاق هذه الآیات فراجع و تأمل.

ثم الذی کان یلقاه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من اذی المنافقین و الذین فی قلوبهم مرض و الجفاه من ضعفاء الایمان لم یکون بأهون من اذی المشرکین بمکه یشهد بذلک اخبار سیرته.

و لا دلیل ایضا علی انحصار الإثم و الکفور فی مشرکی مکه فهناک غیرهم من الکفار و قد اثبت القرآن الإثم لجمع من المسلمین فی موارد کقوله: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ (النور/١١)،و قوله: وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (النساء/١١٢).

و فی المجمع و روی العیاشی باسناده عن عبد اللّه بن بکیر عن زراره قال:سألت ابا جعفر علیه السّلام عن قوله: «لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً» قال:کان شیئا و لم یکن مذکورا.

أقول:و روی فیه ایضا عن عبد الأعلی مولی آل سام عن ابی عبد اللّه علیه السّلام مثله.

و فیه ایضا عن العیاشی باسناده عن سعید الحذاء عن ابی جعفر علیه السّلام قال:کان مذکورا فی العلم و لم یکن مذکورا فی الخلق.

أقول:یعنی انه کان له ثبوت فی علم اللّه ثم خلق بالفعل فصار مذکورا فیمن خلق.

و فی الکافی باسناده عن مالک الجهنی عن ابی عبد اللّه علیه السّلام فی الآیه قال:کان مقدرا غیر مذکور.

أقول:هو فی معنی الحدیث السابق.

و فی تفسیر القمی فی الآیه قال:لم یکن فی العلم و لا فی الذکر،و فی حدیث آخر:کان فی العلم و لم یکن فی الذکر.

أقول:معنی الحدیث الأول انه لم یکن فی علم الناس و لا فیمن یذکرونه فیما بینهم،و معنی الثانی انه کان فی علم اللّه و لم یکن مذکورا عند الناس.

و فی تفسیر القمی ایضا فی روایه ابی الجارود عن ابی جعفر علیه السّلام فی قوله تعالی: «أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ» قال:ماء الرجل و المرأه اختلطا جمیعا.

و فی الکافی باسناده عن حمران بن اعین قال:سألت ابا عبد اللّه علیه السّلام عن قوله عزّ و جل:

إِنّٰا هَدَیْنٰاهُ اَلسَّبِیلَ إِمّٰا شٰاکِراً وَ إِمّٰا کَفُوراً قال:إما آخذ فهو شاکر و إما تارک فهو کافر.

أقول:و رواه القمی فی تفسیره باسناده عن ابن ابی عمیر عن ابی جعفر علیه السّلام مثله.و فی التوحید باسناده الی حمزه بن الطیار عن ابی عبد اللّه علیه السّلام ما یقرب منه و لفظه:عرفناه إما آخذا و إما تارکا.

و فی الدر المنثور اخرج احمد و ابن المنذر عن جابر بن عبد اللّه قال:قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

کل مولود یولد علی الفطره حتی یعبر عنه لسانه فإذا عبر عنه لسانه إما شاکرا و إما کفورا و اللّه تعالی اعلم.

و فی أمالی الصدوق باسناده عن الصادق عن أبیه علیهما السّلام فی حدیث، عَیْناً یَشْرَبُ بِهٰا عِبٰادُ اَللّٰهِ یُفَجِّرُونَهٰا تَفْجِیراً قال:هی عین فی دار النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یفجر الی دور الأنبیاء و المؤمنین «یُوفُونَ بِالنَّذْرِ» یعنی علیا و فاطمه و الحسن و الحسین علیهم السّلام و جاریتهم «وَ یَخٰافُونَ یَوْماً کٰانَ شَرُّهُ مُسْتَطِیراً» یقول عابسا کلوحا «وَ یُطْعِمُونَ اَلطَّعٰامَ عَلیٰ حُبِّهِ» یقول:علی شهوتهم للطعام و ایثارهم له «مِسْکِیناً» من مساکین المسلمین «وَ یَتِیماً» من یتامی المسلمین «وَ أَسِیراً» من أساری المشرکین.

و یقولون اذا اطعموهم إِنَّمٰا نُطْعِمُکُمْ لِوَجْهِ اَللّٰهِ لاٰ نُرِیدُ مِنْکُمْ جَزٰاءً وَ لاٰ شُکُوراً قال:

و اللّه ما قالوا هذا لهم و لکنهم أضمروه فی أنفسهم فأخبر اللّه باضمارهم یقولون:لا نرید جزاء تکافئوننا به و لا شکورا تثنون علینا به،و لکنا انما أطعمناکم لوجه اللّه و طلب ثوابه.

و فی الدر المنثور اخرج سعید بن منصور و ابن ابی شیبه و ابن المنذر و ابن مردویه عن الحسن قال:کان الاساری مشرکین یوم نزلت هذه الآیه وَ یُطْعِمُونَ اَلطَّعٰامَ عَلیٰ حُبِّهِ مِسْکِیناً وَ یَتِیماً وَ أَسِیراً .

أقول:مدلول الروایه نزول الآیه بالمدینه،و نظیرها ما رواه فیه عن عبد بن حمید عن

قتاده،و ما رواه عن ابن المنذر عن ابن جریح،و ما رواه عن عبد الرزاق و ابن المنذر عن ابن عباس.

و فیه أخرج ابن مردویه عن أنس بن مالک عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی قوله: یَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِیراً قال:یقبض ما بین الأبصار.

و فی روضه الکافی باسناده عن محمد بن اسحاق المدنی عن أبی جعفر علیه السّلام فی صفه الجنه قال:و الثمار دانیه منهم و هو قوله عزّ و جل: وَ دانِیَهً عَلَیْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِیلاً من قربها منهم یتناول المؤمن من النوع الذی یشتهیه من الثمار بفیه و هو متکئ و إن الأنواع من الفاکهه لیقلن لولی اللّه:یا ولی اللّه کلمنی قبل أن تأکل هذه قبلی.

و فی تفسیر القمی فی قوله: «وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ» قال:مسورون.

و فی المعانی بإسناده عن عباس بن یزید قال:قلت لأبی عبد اللّه علیه السّلام و کنت عنده ذات یوم:

أخبرنی عن قول اللّه عزّ و جل: وَ إِذا رَأَیْتَ ثَمَّ رَأَیْتَ نَعِیماً وَ مُلْکاً کَبِیراً ما هذا الملک الذی کبر اللّه عزّ و جل حتی سماه کبیرا؟قال:إذا أدخل اللّه أهل الجنه الجنه أرسل رسولا الی ولی من أولیائه فیجد الحجبه علی بابه فتقول له:قف حتی نستأذن لک،فما یصل الیه رسول ربه إلا بإذن فهو قوله عزّ و جل: وَ إِذا رَأَیْتَ ثَمَّ رَأَیْتَ نَعِیماً وَ مُلْکاً کَبِیراً .

و فی المجمع «وَ إِذا رَأَیْتَ ثَمَّ رَأَیْتَ نَعِیماً وَ مُلْکاً کَبِیراً» لا یزول و لا یفنی عن الصادق علیه السّلام.

و فیه «عالِیَهُمْ ثِیابُ سُندُسٍ خُضْرٌ» و روی عن الصادق علیه السّلام فی معناه:تعلوهم الثیاب فیلبسونها (1).

[سوره الإنسان (۷۶): الآیات ۲۳ الی ۳۱]

إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَیْکَ اَلْقُرْآنَ تَنْزِیلاً (۲۳) فَاصْبِرْ لِحُکْمِ رَبِّکَ وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ کَفُوراً (۲۴) وَ اُذْکُرِ اِسْمَ رَبِّکَ بُکْرَهً وَ أَصِیلاً (۲۵) وَ مِنَ اَللَّیْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَیْلاً طَوِیلاً (۲۶) إِنَّ هؤُلاءِ یُحِبُّونَ اَلْعاجِلَهَ وَ یَذَرُونَ وَراءَهُمْ یَوْماً ثَقِیلاً (۲۷) نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِیلاً (۲۸) إِنَّ هذِهِ تَذْکِرَهٌ فَمَنْ شاءَ اِتَّخَذَ إِلی رَبِّهِ سَبِیلاً (۲۹) وَ ما تَشاؤُنَ إِلاّ أَنْ یَشاءَ اَللّهُ إِنَّ اَللّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً (۳۰) یُدْخِلُ مَنْ یَشاءُ فِی رَحْمَتِهِ وَ اَلظّالِمِینَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِیماً (۳۱)

۱- ۱) .الدهر ۲۳-۳۱:کلام فی هویه الانسان علی ما یفیده القرآن.

بیان:

قوله تعالی: إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً تصدير الكلام بإن و تكرار ضـمير المتكلم مع الغير و الاتيان بالمفعول المطلق كل ذلك للتأكيد،و لتسجيل أن الذى نزل من القرآن نجوما متفرقه هو من اللّه سبحانه لم يداخله نفث شيطانى و لا هو نفسانى.

قوله تعـالى: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لاٰ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً تفريع على مـا هو لازم مضـمون الآيه السابقه فإن لازم كون اللّه سبحـانه هو الـذى نزّل القرآن عليه أن يكون ما فى القرآن من الحكم حكم ربه يجب أن يطاع فالمعنى إذا كان تنزيله منا فما فيه من الحكم حكم ربك فيجب عليك أن تصبر له فاصبر لحكم ربك.

و قوله: وَ لاٰ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ورود الترديد فى سياق النهى يفيد عموم

الحکم فالنهی عن طاعتهما سواء اجتمعا أو افترقا،و الظاهر أن المراد بالإثم المتلبس بالمعصیه و بالکفور المبالغ فی الکفر فتشمل الآیه الکفار و الفساق جمیعا.

و سبق النهی عن طاعه الإثم و الکفور بالأمر بالصبر لحکم ربه یفید کون النهی مفسرا للأمر فمفاد النهی أن لا تطع منهم آثما إذا دعاک الی إثمه و لا کفورا إذا دعاک الی کفره لأن إثم الآثم منهم و کفر الکافر مخالفان لحکم ربک و أما تعلیق الحکم بالوصف المشعر بالعلیه فإنما یفید علیه الإثم و الکفر للنهی عن الطاعه مطلقا لا علیتهما للنهی إذا دعا الآثم الی خصوص إثمه و الکافر الی خصوص کفره.

قوله تعالی: وَ اذْکُرِ اسْمَ رَبِّکَ بُکْرَهً وَ أَصِیلاً أی داوم علی ذکر ربک و هو الصلاه فی کل بکره و أصیل و هما الغدو و العشی.

قوله تعالی: وَ مِنَ اللَّیْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَیْلاً طَوِیلاً «مِنَ» للتبعیض و المراد بالسجود له الصلاه،و یقبل ما فی الآیتین من ذکر اسمه بکره و أصیلا و السجود له بعض اللیل الانطباق علی صلاه الصبح و العصر و المغرب و العشاء و هذا یؤید نزول الآیات بمکه قبل فرض الفرائض الخمس بقوله فی آیه الإسراء: أَقِمِ الصَّلاٰهَ لِدُلُوکِ الشَّمْسِ إِلیٰ غَسَقِ اللَّیْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ (الإسراء/۷۸).

فالآیتان کقوله تعالی: وَ أَقِمِ الصَّلاٰهَ طَرَفَیِ النَّهٰارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّیْلِ (هود/۱۱۴)، و قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِهٰا وَ مِنْ آنٰاءِ اللَّیْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرٰافَ النَّهٰارِ (طه/۱۳۰).

نعم قیل:علی ان الأصیل یطلق علی ما بعد الزوال فیشمل قوله: «وَ أَصِیلاً» وقتی صلاتی الظهر و العصر جمیعا،و لا یخلو من وجه.

و قوله: وَ سَبِّحْهُ لَیْلاً طَوِیلاً أی فی لیل طویل و وصف اللیل بالطویل توضیحی لا احترازی،و المراد بالتسبیح صلاه اللیل،و احتمل أن یکون طویلا صفه لمفعول مطلق

محذوف،و التقدير سبحه فى الليل تسبيحا طويلا.

قوله تعالى: إِنَّ هٰؤُلاٰءِ يُحِبُّونَ الْعٰاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَرٰاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً تعليل لما تقدم من الأمر و النهى و الإشاره بهؤلاء الى جمع الإثم و الكفور المدلول عليه بوقوع النكره فى سياق النهى،و المراد بالعاجله الحياه الدنيا،و عدّ اليوم ثقيلا من الاستعاره،و المراد بثقله شدته كأنه محمول ثقيل يشق حمله،و اليوم يوم القيامه.

و كون اليوم وراءهم تقرره أمامهم لأن وراء تفيد معنى الإحاطه،أو جعلهم إياه خلفهم و وراء ظهورهم بناء على إفاده «يَذَرُونَ» معنى الإعراض.

و المعنى:فاصبر لحكم ربك و أقم الصلاه و لا تطع الآثمين و الكفار منهم لأن هؤلاء الآثمين و الكفار يحبون الحياه الدنيا فلا يعملون إلا لها و يتركون أمامهم يوما شديدا أو يعرضون فيجعلون خلفهم يوما شديدا سيلقونه.

قوله تعالى: نَحْنُ خَلَقْنٰاهُمْ وَ شَدَدْنٰا أَسْرَهُمْ وَ إِذٰا شِئْنٰا بَدَّلْنٰا أَمْثٰالَهُمْ تَبْدِيلاً الشد خلاف الفك،و الأسر فى الأصل الشد و الربط و يطلق على ما يشد و يربط به فمعنى شددنا أسرهم أحكمنا ربط مفاصلهم بالرباطات و الأعصاب و العضلات أو الأسر بمعنى المأسور و المعنى أحكمنا ربط أعضائهم المختلفه المشدوده بعضها ببعض حتى صار الواحد منهم بذلك إنسانا واحدا.

و قوله: وَ إِذٰا شِئْنٰا بَدَّلْنٰا أَمْثٰالَهُمْ تَبْدِيلاً أى إذا شئنا بدلناهم أمثالهم فذهبنا بهم و جئنا بأمثالهم مكانهم و هو إماته قرن و إحياء آخرين،و قيل المراد به تبديل نشأتهم الدنيا من نشأه القيامه و هو بعيد من السياق.

و الآيه فى معنى دفع الدخل كأن متوهما يتوهم أنهم بحبهم للدنيا و إعراضهم عن الآخره يعجزونه تعالى و يفسدون عليه إرادته منهم أن يؤمنوا و يطيعوا فاجيب بأنهم مخلوقون للّه خلقهم و شد أسرهم و إذا شاء أذهبهم و جاء بآخرين فكيف يعجزونه و خلقهم و أمرهم

ص :۵۴۳

و حياتهم و موتهم بيده؟

قوله تعالى: إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شٰاءَ اتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً تقدم تفسيره فى سوره المزمل و الإشاره بهذه الى ما ذكر فى السوره.

قوله تعالى: وَ مٰا تَشٰاؤُنَ إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ عَلِيماً حَكِيماً الاستثناء من النفى يفيد أن مشيه العبد متوقفه فى وجودها على مشيته تعالى فلمشيته تعالى تأثير فى فعل العبد من طريق تعلقها بمشيه العبد،و ليست متعلقه بفعل العبد مستقلا و بلا واسطه حتى تستلزم بطلان تأثير إراده العبد و كون الفعل جبريا و لا أن العبد مستقل فى إراده يفعل ما يشاؤه شاء اللّه أو لم يشأ،فالفعل اختيارى لاستناده الى اختيار العبد،و أما اختيار العبد فليس مستندا الى اختيار آخر،و قد تكرر توضيح هذا البحث فى مواضع مما تقدم.

و الآيه مسوقه لدفع توهم أنهم مستقلون فى مشيتهم منقطعون من مشيّه ربهم،و لعل تسجيل هذا التنبيه عليهم هو الوجه فى الالتفات الى الخطاب فى قوله: «وَ مٰا تَشٰاؤُنَ إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ» كما أن الوجه فى الالتفات من التكلم بالغير الى الغيبه فى قوله: «يَشٰاءَ اللّٰهُ إِنَّ اللّٰهَ» هو الإشاره الى عله الحكم فإن مسمّى الاسم الجليل يبتدئ منه كل شىء و ينتهى اليه كل شىء فلا تكون مشيّه إلا بمشيّته و لا تؤثر مشيه إلا بإذنه.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ عَلِيماً حَكِيماً توطئه لبيان مضمون الآيه التاليه.

قوله تعالى: يُدْخِلُ مَنْ يَشٰاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظّٰالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً مفعول «يَشٰاءُ» محذوف يدل عليه الكلام،و التقدير يدخل فى رحمته من يشاء دخوله فى رحمته،و لا يشاء إلا دخول من آمن و اتقى،و أما غيرهم و هم أهل الإثم و الكفر فبين حالهم بقوله: «وَ الظّٰالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً» .

و الآيه تبين سنته تعالى الجاريه فى عباده من حيث السعاده و الشقاء،و قد علل ذلك بما فى

ذیـل الآیه السابقه من قوله: «إِنَّ اللّهَ کٰانَ عَلِیماً حَکِیماً» فأفاد به أن سـنته تعالی لیست سـنه جزافیه مبنیه علی الجهاله بل هو یعامل کلا من الطائفتین بما هو أهل له و سینبئهم حقیقه ما کانوا یعملون.

ص: ۵۴۵

سوره المرسلات مكيه و هى خمسون آيه

اشاره

[سوره المرسلات (٧٧): الآيات ١ الى ١٥]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;وَ اَلْمُرْسَلاٰتِ عُرْفاً (١) فَالْعٰاصِفٰاتِ عَصْفاً (٢) وَ اَلنّٰاشِرٰاتِ نَشْراً (٣) فَالْفٰارِقٰاتِ فَرْقاً (۴) فَالْمُلْقِيٰاتِ ذِكْراً (۵) عُذْراً أَوْ نُذْراً (۶) إِنَّمٰا تُوعَدُونَ لَوٰاقِعٌ (٧) فَإِذَا اَلنُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَ إِذَا اَلسَّمٰاءُ فُرِجَتْ (٩) وَ إِذَا اَلْجِبٰالُ نُسِفَتْ (١٠) وَ إِذَا اَلرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ اَلْفَصْلِ (١٣) وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا يَوْمُ اَلْفَصْلِ (١۴) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١۵)

ص: ۵۴۶

بیان:

تـذکر السوره یوم الفصـل و هو یوم القیامه و تؤکـد الإخبار بوقوعه و تشـفعه بالوعیـد الشدیـد للمکـذبین به و الإنـذار و التبشـیر لغیرهم و یربو فیها جانب الوعید علی غیره فقد کرر فیها قوله: «وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ» عشر مرات.

و السوره مکیه بشهاده سیاق آیاتها.

قوله تعالی: وَ الْمُرْسَلاٰتِ عُرْفاً الآیه و ما یتلوها الی تمام آیات إقسام منه تعالی بامور یعبر عنها بالمرسلات فالعاصفات و الناشرات فالفارقـات فالملقیات ذکرا عـذرا أو نـذرا،و الاولیان أعنی المرسـلات عرفا و العاصـفات عصـفا لا تخلوان لو خلیتا و نفسـهما مع الغض عن السـیاق من ظهور ما فی الریاح المتعاقبه الشدیـده الهبوب لکن الأخیره أعنی الملقیات ذکرا عـذرا أو نذرا کالصـریحه فی الملائکه النـازلین علی الرسل الحاملین لوحی الرساله الملقین له الیهم إتماما للحجه أو إنـذارا و بقیه الصـفات لا تأبی الحمل علی ما یناسب هذا المعنی.

و حمل جمیع الصـفات الخمس علی إراده الریاح کما هو ظاهر المرسلات و العاصفات-علی ما عرفت-یحتاج الی تکلف شدید فی توجیه الصفات الثلاث الباقیه و خاصه فی الصفه الأخیره.

ص :۵۴۷

و كـذا حمـل المرسـلات و العاصـفات على إراده الريـاح و حمـل الثلاث الباقيـات أو الأخيرتين أو الأخيره فحسب على ملائكه الوحى إذ لا تناسب ظاهرا بين الرياح و بين ملائكه الوحى حتى يقارن بينها فى الأقسام و ينظم الجميع فى سلك واحد،و ما وجهوه من مختلف التوجيهات معان بعيده عن الذهن لا ينتقل إليها فى مفتتح الكلام من غير تنبيه سابق.

فالوجه هو الغض عن هذه الأقاويل و هى كثيره جدا لا تكاد تنضبط،و حمل المذكورات على إراده ملائكه الوحى كنظيرتها فى مفتتح سوره الصافات وَ الصَّافّاتِ صَفًّا فَالزّاجِراتِ زَجْراً فَالتّالِياتِ ذِكْراً و فى معناها قوله تعالى: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ (الجن۲۸/).

فقوله: وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً إقسام منه تعالى بها و العرف بالضم فالسكون الشعر النابت على عنق الفرس و يشبّه به الامور إذا تتابعت يقال:جاءوا كعرف الفرس،و يستعار فيقال:جاء القطا عرفا أى متتابعه و جاءوا اليه عرفا واحدا أى متتابعين،و العرف أيضا المعروف من الأمر و النهى و «عُرْفاً» حال بالمعنى الأول مفعول له بالمعنى الثانى،و الارسال خلاف الإمساك،و تأنيث المرسلات باعتبار الجماعات أو باعتبار الروح التى تنزل بها الملائكه قال تعالى: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ (النحل۲/) و قال: يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ (المؤمن۱۵/).

و المعنى أقسم بالجماعات المرسلات من ملائكه الوحى.

و قيل:المراد بالمرسلات عرفا الرياح المتتابعه المرسله و قد تقدمت الإشاره الى ضعفه، و مثله فى الضعف القول بأن المراد بها الأنبياء عليهم السّلام فلا يلائمه ما يتلوها.

قوله تعالى: فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً عطف على المرسلات و المراد بالعصف سرعه السير استعاره من عصف الرياح أى سرعه هبوبها إشاره الى سرعه سيرها الى ما ارسلت

الیه،و المعنی أقسم بالملائکه الذین یرسلون متتابعین فیسرعون فی سیرهم کالریاح العاصفه.

قوله تعالی: وَ النّاشِراتِ نَشْراً إقسام آخر،و نشر الصحیفه و الکتاب و الثوب و نحوها:بسطه،و المراد بالنشر نشر صحف الوحی کما یشیر الیه قوله تعالی: کَلاّ إِنَّها تَذْکِرَهٌ فَمَنْ شاءَ ذَکَرَهُ فِی صُحُفٍ مُکَرَّمَهٍ مَرْفُوعَهٍ مُطَهَّرَهٍ بِأَیْدِی سَفَرَهٍ کِرامٍ بَرَرَهٍ (عبس۱۶/)و المعنی و اقسم بالملائکه الناشرین للصحف المکتوبه علیها الوحی للنبی لیتلقاه.

و قیل:المراد بها الریاح ینشرها اللّه تعالی بین یدی رحمته و قیل:الریاح الناشره للسحاب،و قیل:الملائکه الناشرین لصحائف الأعمال،و قیل:الملائکه نشروا أجنحتهم حین النزول و قیل:غیر ذلک.

قوله تعالی: فَالْفارِقاتِ فَرْقاً المراد به الفرق بین الحق و الباطل و بین الحلال و الحرام،و الفرق المذکور صفه متفرعه علی النشر المذکور.

قوله تعالی: فَالْمُلْقِیاتِ ذِکْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً المراد بالذکر القرآن یقرءونه علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو مطلق الوحی النازل علی الأنبیاء المقروّ علیهم.

و الصفات الثلاثه أعنی النشر و الفرق و إلقاء الذکر مترتبه فإن الفرق بین الحق و الباطل و الحلال و الحرام یتحقق بنشر الصحف و إلقاء الذکر فبالنشر یشرع الفرق فی التحقیق و بالتلاوه یتم تحققه فالنشر یترتب علیه مرتبه من وجود الفرق و یترتب علیها تمام وجوده بالإلقاء.

و قوله: عُذْراً أَوْ نُذْراً هما من المفعول له و «أَوْ» للتنویع قیل:هما مصدران بمعنی الإعذار و الإنذار،و الاعذار الإتیان بما یصیر به معذورا و المعنی أنهم یلقون الذکر لتکون عذرا لعباده المؤمنین بالذکر و تخویفا لغیرهم.

و قیل:لیکون عذرا یعتذر به اللّه الی عباده فی العقاب أنه لم یکن إلا علی وجه الحکمه، و یئول الی إتمام الحجه،فمحصل المعنی علیه أنهم یلقون الذکر لیکون إتماما للحجه علی المکذبین و تخویفا لغیرهم،و هو معنی حسن.

قوله تعالی: إِنَّمٰا تُوعَدُونَ لَوٰاقِعٌ جواب القسم،و ما موصوله و الخطاب لعامه البشر،و المراد بما توعدون یوم القیامه بما فیه العقاب و الثواب و الواقع أبلغ من الکائن لما فیه من شائبه الاستقرار،و المعنی أن الذی وعدکم اللّه به من البعث و العقاب و الثواب سیتحقق لا محاله (۱).

قوله تعالی: فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ -الی قوله- أُقِّتَتْ بیان للیوم الموعود الذی اخبر بوقوعه فی قوله: «إِنَّمٰا تُوعَدُونَ لَوٰاقِعٌ» و جواب إذا محذوف یدل علیه قوله: «لِأَیِّ یَوْمٍ أُجِّلَتْ -الی قوله- لِلْمُکَذِّبِینَ» .

و قد عرف سبحانه الیوم الموعود بذکر حوادث واقعه تلازم انقراض العالم الانسانی و انقطاع النظام الدنیوی کانطماس النجوم و انشقاق الأرض و اندکاک الجبال و تحول النظام الی نظام آخر یغایره،و قد تکرر ذلک فی کثیر من السور القرآنیه و خاصه السور القصار کسوره النبأ و النازعات و التکویر و الانفطار و الانشقاق و الفجر و الزلزال و القارعه،و غیرها، و قد عدت الامور المذکوره فیها فی الأخبار من أشراط الساعه.

و من المعلوم بالضروره من بیانات الکتاب و السنه أن نظام الحیاه فی جمیع شئونها فی الآخره غیر نظامها فی الدنیا فالدار الآخره دار أبدیه فیها محض السعاده لساکنیها لهم فیها ما یشاءون أو محض الشقاء و لیس لهم فیها إلا ما یکرهون و الدار الدنیا دار فناء و زوال لا یحکم فیها إلا الأسباب و العوامل الخارجیه الظاهریه مخلوط فیها الموت بالحیاه،و الفقدان

۱- ۱) .المرسلات ۱-۱۵:کلام فی اقسامه تعالی فی القرآن.

بالوجدان،و الشقاء بالسعاده،و التعب بالراحه،و المساءه بالسرور،و الآخره دار جزاء و لا عمل و الدنيا دار عمل و لا جزاء،و بالجمله النشأه غير النشأه.

فتعريفه تعالى نشأه البعث و الجزاء بأشراطها التى فيها انطواء بساط الدنيا بخراب بنيان أرضها و انتساف جبالها و انشقاق سمائها و انطماس نجومها الى غير ذلک من قبيل تحديد نشأه بسقوط النظام الحاكم فى نشأه أخرى قال تعالى: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولىٰ فَلَوْ لاٰ تَذَكَّرُونَ (الواقعه۶۲/).

فقوله: فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ أى محى أثرها من النور و غيره،و الطمس إزاله الأثر بالمحو قال تعالى: وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (التكوير۲/).

و قوله: وَ إِذَا السَّمٰاءُ فُرِجَتْ أى انشقت،و الفرج و الفرجه الشق بين الشيئين قال تعالى: إِذَا السَّمٰاءُ انْشَقَّتْ (الانشقاق۱/).

و قوله: وَ إِذَا الْجِبٰالُ نُسِفَتْ أى قلعت و ازيلت من قولهم:نسفت الريح الشىء أى اقتلعته و أزالته قال تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبٰالِ فَقُلْ يَنْسِفُهٰا رَبِّى نَسْفاً (طه۱۰۵/).

و قوله: وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ أى عين لها الوقت الذى تحضر فيه للشهاده على الامم أو بلغت الوقت الذى تنتظره لأداء شهادتها على الامم من التأقيت بمعى التوقيت،قال تعالى:

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف۶/)،و قال: يَوْمَ يَجْمَعُ اللّٰهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مٰا ذٰا أُجِبْتُمْ (المائده۱۰۹/).

قوله تعالى: لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ -الى قوله- لِلْمُكَذِّبِينَ الأجل المده المضروبه للشىء،و التأجيل جعل الأجل للشىء،و يستعمل فى لازمه و هو التأخير كقولهم:دين مؤجل أى له مده بخلاف الحال و هذا المعنى هو الأنسب للآيه،و الضمير فى «أُجِّلَتْ» للامور المذكوره قبلا من طمس النجوم و فرج السماء و نسف الجبال و تأقيت الرسل،و المعنى لأى يوم اخرت يوم أخرت هذه الامور.

و احتمل أن يكون «أُجِّلَتْ» بمعنى ضرب الأجل للشىء و أن يكون الضمير المقدر فيه راجعا الى الرسل،أو الى ما يشعر به الكلام من الامور المتعلقه بالرسل مما أخبروه به من أحوال الآخره و أهوالها و تعذيب الكافرين و تنعيم المؤمنين فيها،و لا يخلو كل ذلك من خفاء.

و قد سيقت الآيه و التى بعدها أعنى قوله: «لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ» فى صوره الاستفهام و جوابه للتعظيم و التهويل و التعجيب و أصل المعنى أخرت هذه الامور ليوم الفصل.

و هذا النوع من الجمل الاستفهاميه فى معنى تقدير القول،و المعنى إن من عظمه هذا اليوم و هوله و كونه عجبا أنه يسأل فيقال:لأى يوم أخرت هذه الامور العظيمه الهائله العجيبه فيجاب:ليوم الفصل.

و قوله: لِيَوْمِ الْفَصْلِ هو يوم الجزاء الذى فيه فصل القضاء قال تعالى: إِنَّ اللّٰهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ (الحج/١٧).

و قوله: وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا يَوْمُ الْفَصْلِ تعظيم لليوم و تفخيم لأمره.

و قوله: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الويل الهلاك،و المراد بالمكذبين المكذبون بيوم الفصل الذى فيه ما يوعدون فإن الآيات مسوقه لبيان وقوعه و قد أقسم على أنه واقع.

و فى الآيه دعاء على المكذبين،و قد استغنى به عن ذكر جواب إذا فى قوله: «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ» الخ؛و التقدير فإذا كان كذا و كذا وقع ما توعدون من العذاب على التكذيب أو التقدير فإذا كان كذا و كذا كان يوم الفصل و هلك المكذبون به.

[سوره المرسلات (٧٧): الآيات ١۶ الى ۵٠]

أَ لَمْ نُهْلِكِ اَلْأَوَّلِينَ (١۶) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ اَلْآخِرِينَ (١٧) كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنٰاهُ فِي قَرٰارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنٰا فَنِعْمَ اَلْقٰادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢۴) أَ لَمْ نَجْعَلِ اَلْأَرْضَ كِفٰاتاً (٢۵) أَحْيٰاءً وَ أَمْوٰاتاً (٢۶) وَ جَعَلْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ شٰامِخٰاتٍ وَ أَسْقَيْنٰاكُمْ مٰاءً فُرٰاتاً (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) اِنْطَلِقُوا إِلىٰ مٰا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) اِنْطَلِقُوا إِلىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاٰثِ شُعَبٍ (٣٠) لاٰ ظَلِيلٍ وَ لاٰ يُغْنِي مِنَ اَللَّهَبِ (٣١) إِنَّهٰا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمٰالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣۴) هٰذٰا يَوْمُ لاٰ يَنْطِقُونَ (٣۵) وَ لاٰ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣۶) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هٰذٰا يَوْمُ اَلْفَصْلِ جَمَعْنٰاكُمْ وَ اَلْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كٰانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴٠) إِنَّ اَلْمُتَّقِينَ فِي ظِلاٰلٍ وَ عُيُونٍ (۴١) وَ فَوٰاكِهَ مِمّٰا يَشْتَهُونَ (۴٢) كُلُوا وَ اِشْرَبُوا هَنِيئاً بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۴٣) إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ (۴۴) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴۵) كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (۴۶) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴٧) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ اِرْكَعُوا لاٰ يَرْكَعُونَ (۴٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (۵٠)

بیان:

قوله تعالی: أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ الاستفهام للإنكار،و المراد بالأولین أمثال قوم نوح و عاد و ثمود من الأمم القدیمه عهدا،و بالآخرین الملحقون بهم من الأمم الغابره،و الاتباع جعل الشیء إثر الشیء.

و قوله: ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ برفع نتبع علی الاستیناف و لیس بمعطوف علی «نُهْلِكِ» و إلا

لجزم.

و المعنى قد أهلكنا المكذبين من الامم الأولين ثم إنا نهلك الامم الآخرين على إثرهم.

و قوله: كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ فی موضع التعليل لما تقدمه و لذا أورد بالفصل من غير عطف كأن قائلا قال:لما اهلكوا؟فقيل:كذلك نفعل بالمجرمين.و الآيات-كما ترى- إنذار و إرجاع للبيان الى الأصل المضروب فى السوره أعنى قوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» و هى بعينها حجه على توحد الربوبيه فإن إهلاك المجرمين من الانسان تصرف فى العالم الانسانى و تدبير،و إذا ليس المهلك إلا اللّه-و قد اعترف به المشركون-فهو الرب لا رب سواه و لا إله غيره.

على أنها تدل على وجود يوم الفصل لأن إهلاك قوم لإجرامهم لا يتم إلا بعد توجه تكليف اليهم يعصونه و لا معنى للتكليف إلا مع مجازاه المطيع بالثواب و العاصى بالعقاب فهناك يوم يفصل فيه القضاء فيثاب فيه المطيع و يعاقب فيه العاصى و ليس هو الثواب و العقاب الدنيويين لأنهما لا يستوعبان فى هذه الدار فهناك يوم يجازى فيه كل بما عمل،و هو يوم الفصل ذلك يوم مجموع له الناس.

قوله تعالى: أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ -الى قوله- فَنِعْمَ الْقٰادِرُونَ الاستفهام للإنكار،و الماء المهين الحقير قليل الغناء و المراد به النطفه،و المراد بالقرار المكين الرحم و بقوله: «قَدَرٍ مَعْلُومٍ» مده الحمل.

و قوله: فَقَدَرْنٰا من القدر بمعنى التقدير،و الفاء لتفريع القدر على الخلق أى خلقناكم فقدرنا ما سيجرى عليكم من الحوادث و ما يستقبلكم من الأوصاف و الأحوال من طول العمر و قصره و هيئه و جمال و صحه و مرض و رزق الى غير ذلك.

و المعنى:قد خلقناكم من ماء حقير هو النطفه فجعلنا ذلك الماء فى قرار مكين هى الرحم الى مده معلومه هى مده الحمل فقدّرنا جميع ما يتعلق بوجودكم من الحوادث و الصفات

و الأحوال فنعم المقدرون نحن.

و يجرى فى كون مضمون هذه الآيات حجه على توحد الربوبيه نظير البيان السابق فى الآيات المتقدمه،و كذا فى كونه حجه على تحقق يوم الفصل فإن الربوبيه تستوجب خضوع المربوبين لساحتها و هو الدين المتضمن للتكليف،و لا يتم التكليف إلا بجعل جزاء على الطاعه و العصيان،و اليوم الذى يجازى فيه بالأعمال هو يوم الفصل.

قوله تعالى: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفٰاتاً أَحْيٰاءً وَ أَمْوٰاتاً -الى قوله- فُرٰاتاً الكفت و الكفات بمعنى الضم و الجمع أى أ لم نجعل الارض كفاتا بجمع العباد أحياء و أمواتا، و قيل:الكفات جمع كفت بمعنى الوعاء،و المعنى أ لم نجعل الأرض أوعيه تجمع الأحياء و الأموات.

و قوله: وَ جَعَلْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ شٰامِخٰاتٍ الرواسى الثابتات من الجبال، و الشامخات العاليات،و كأن فى ذكر الرواسى توطئه لقوله: «وَ أَسْقَيْنٰاكُمْ مٰاءً فُرٰاتاً» لأن الأنهار و العيون الطبيعيه تنفجر من الجبال فتجرى على السهول،و الفرات الماء العذب.

و يجرى فى حجيه الآيات نظير البيان السابق فى الآيات المتقدمه.

قوله تعالى: اِنْطَلِقُوا إِلىٰ مٰا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ حكايه لما يقال لهم يوم الفصل و القائل هو اللّه سبحانه بقرينه قوله فى آخر الآيات: «فَإِنْ كٰانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ» و المراد بما كانوا به يكذّبون:جهنم،و الانطلاق الانتقال من مكان الى مكان من غير مكث،و المعنى يقال لهم:انتقلوا من المحشر من غير مكث الى النار التى كنتم تكذّبون به.

قوله تعالى: اِنْطَلِقُوا إِلىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاٰثِ شُعَبٍ ذكروا أن المراد بهذا الظل ظل دخان نار جهنم قال تعالى: وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (الواقعه/۴۳).

و ذكروا أن فى ذكر انشعابه الى ثلاث شعب إشاره الى عظم الدخان فان الدخان العظيم يتفرق تفرق الذوائب.

قوله تعالى: لاّ ظَلِيلٍ وَ لاّ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ الظل الظليل هو المانع من الحر و الأذى بستره على المستظل فكون الظل غير ظليل كونه لا يمنع ذلك،و اللهب ما يعلو على النار من أحمر و أصفر و أخضر.

قوله تعالى: إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ضمير «إِنَّها» للنار المعلومه من السياق، و الشرر ما يتطاير من النار،و القصر معروف،و الجماله جمع جمل و هو البعير.و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: هٰذا يَوْمُ لاٰ يَنْطِقُونَ وَ لاٰ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ الإشاره الى يوم الفصل،و المراد بالإذن الإذن فى النطق أو فى الاعتذار.

و قوله: فَيَعْتَذِرُونَ معطوف على «يُؤْذَنُ» منتظم معه فى سلك النفى،و المعنى هذا اليوم يوم لا ينطقون فيه أى أهل المحشر من الناس.لا يؤذن لهم فى النطق أو فى الاعتذار فلا يعتذرون،و لا ينافى نفى النطق هاهنا اثباته فى آيات أخر لأن اليوم ذو مواقف كثيره مختلفه يسألون فى بعضها فينطقون و يختم على أفواههم فى آخر فلا ينطقون.

و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: يَوْمَ يَأْتِ لاٰ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ (هود۱۰۵/) فليراجع.

قوله تعالى: هٰذٰا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنٰاكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ فَإِنْ كٰانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ سمى يوم الفصل لما أن اللّه تعالى يفصل و يميّز فيه بين أهل الحق و أهل الباطل بالقضاء بينهم قال تعالى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (السجده۲۵/)،و قال: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (يونس۹۳/).

و الخطاب فى قوله: «جَمَعْنٰاكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ» لمكذّبى هذه الامه بما أنهم من الآخرون و لذا قوبلوا بالأولين قال تعالى: ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّٰاسُ (هود۱۰۳/)و قال: وَ حَشَرْنٰاهُمْ فَلَمْ نُغٰادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (الكهف۴۷/).

و قوله: فَإِنْ كٰانَ لَكَمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ أى ان كانت لكم حيله تحتالون بى فى دفع عذابى عن أنفسكم فاحتالوا،و هذا خطاب تعجيزى منبئ عن انسلاب القوه و القدره عنهم يومئذ بالكليه بظهور أن لا قوه الا للّه عز اسمه قال تعالى: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذٰابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعَذٰابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذٰابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبٰابُ (البقره۱۶۶/).

و الآيه أعنى قوله: «فَإِنْ كٰانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ» أوسع مدلولا من قوله: يٰا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطٰارِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لاٰ تَنْفُذُونَ إِلاّٰ بِسُلْطٰانٍ (الرحمن۳۳/)لاختصاصه بنفى القدره على الفرار بخلاف الآيه التى نحن فيها.

و فى قوله: فَكِيدُونِ التفات من التكلم مع الغير الى التكلم وحده و النكته فيه أن متعلق هذا الأمر التعجيزىّ إنما هو الكيد لمن له القوه و القدره فحسب و هو اللّه وحده و لو قيل:

فكيدونا فات الإشعار بالتوحّد.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلاٰلٍ وَ عُيُونٍ وَ فَوٰاكِهَ مِمّٰا يَشْتَهُونَ -الى قوله- اَلْمُحْسِنِينَ الظلال و العيون ظلال الجنه و عيونها التى يتنعمون بالاستظلال بها و شربها، و الفواكه جمع فاكهه و هى الثمره.

و قوله: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مفاده الإذن و الإباحه،و كأن الأكل و الشرب كنايه عن مطلق التنعم بنعم الجنه و التصرف فيها و إن لم يكن بالأكل و الشرب،و هو شائع كما يطلق أكل المال على مطلق التصرف فيه.

و قوله: إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ تسجيل لسعادتهم.

قوله تعالى: كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ الخطاب من قبيل قولهم:افعل ما شئت فانه لا ينفعك،و هذا النوع من الأمر إياس للمخاطب أن ينتفع بما يأتى به من الفعل للحصول على ما يريده،و منه قوله: فَاقْضِ مٰا أَنْتَ قٰاضٍ إِنَّمٰا تَقْضِي هٰذِهِ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا

(طه۷۲/)،و قوله: اِعْمَلُوا مٰا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (حم السجده ۶۰/).

فقوله: كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلاً أى تمتعا قليلا او زمانا قليلا إياس لهم من أن ينتفعوا بمثل الأكل و التمتع فى دفع العذاب عن أنفسهم فليأكلوا و ليتمتعوا قليلا فليس يدفع عنهم شيئا.

و إنما ذكر الأكل و التمتع لأن منكرى المعاد لا يرون من السعاده إلا سعاده الحياه الدنيا و لا يرون لها من السعاده إلا الفوز بالأكل و التمتع كالحيوان العجم قال تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَمٰا تَأْكُلُ الْأَنْعٰامُ وَ النّٰارُ مَثْوىً لَهُمْ (سوره محمد۱۲/).

و قوله: «إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ» تعليل لما يستفاد من الجمله السابقه المشتمله على الأمر أى لا ينفعكم الأكل و المتمتع قليلا لأنكم مجرمون بتكذيبكم بيوم الفصل و جزاء المكذبين به النار لا محاله.

قوله تعالى: وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاٰ يَرْكَعُونَ المراد بالركوع الصلاه كما قيل و لعل ذلك باعتبار اشتمالها على الركوع.

و قيل:المراد بالركوع المأمور به الخشوع و الخضوع و التواضع له تعالى باستجابه دعوته و قبول كلامه و اتباع دينه،و عبادته.

و وجه اتصال الآيه بما قبلها أن الكلام كان مسوقا لتهديد المكذبين بيوم الفصل و بيان تبعه تكذيبهم به و تمم ذلك فى هذه الآيه بأنهم لا يعبدون اللّه إذا دعوا الى عبادته كما ينكرون ذلك اليوم فلا معنى للعباده مع نفى الجزاء،و ليكون كالتوطئه لقوله الآتى: «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ» .

و نسب الى الزمخشرى أن الآيه متصله بقوله فى الآيه السابقه: «لِلْمُكَذِّبِينَ» كأنه قيل:

ويل يومئذ للذين كذبوا و الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون.

و فى الآيه التفات من الخطاب الى الغيبه فى قوله: «وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ» الخ؛وجهه الإعراض عن

مخاطبتهم بعد تركهم و أنفسهم يفعلون ما يشاءون بقوله: «كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا» .

قوله تعالى: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ أى إذا لم يؤمنوا بالقرآن و هو آيه معجزه إلهيه،و قد بين لهم أنّ اللّه لا إله إلا هو وحده لا شريك له و أن أمامهم يوم الفصل بأوضح البيان و ساطع البرهان فبأى كلام بعد القرآن يؤمنون.

و هذا إيئاس من إيمانهم باللّه و رسوله و اليوم الآخر و كالتنبيه على أن رفع اليد عن دعوتهم الى الإيمان بإلقاء قوله: «كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا» اليهم فى محله فليسوا بمؤمنين و لا فائده فى دعوتهم غير أن فيها إتماما للحجه.

ص: ۵۶۰

سوره النبأ مكيه و هى أربعون آيه

اشاره

[سوره النبإ (٧٨): الآيات ١ الى ١۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;عَمَّ يَتَسٰاءَلُونَ (١) عَنِ اَلنَّبَإِ اَلْعَظِيمِ (٢) اَلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلاّٰ سَيَعْلَمُونَ (۴) ثُمَّ كَلاّٰ سَيَعْلَمُونَ (۵) أَ لَمْ نَجْعَلِ اَلْأَرْضَ مِهٰاداً (۶) وَ اَلْجِبٰالَ أَوْتٰاداً (٧) وَ خَلَقْنٰاكُمْ أَزْوٰاجاً (٨) وَ جَعَلْنٰا نَوْمَكُمْ سُبٰاتاً (٩) وَ جَعَلْنَا اَللَّيْلَ لِبٰاساً (١٠) وَ جَعَلْنَا اَلنَّهٰارَ مَعٰاشاً (١١) وَ بَنَيْنٰا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدٰاداً (١٢) وَ جَعَلْنٰا سِرٰاجاً وَهّٰاجاً (١٣) وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ اَلْمُعْصِرٰاتِ مٰاءً ثَجّٰاجاً (١۴) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَبٰاتاً (١۵) وَ جَنّٰاتٍ أَلْفٰافاً (١۶)

بیان:

قوله تعالی: عَمَّ یَتَسٰاءَلُونَ «عَمَّ» أصله عمّا و ما استفهامیه تحذف الألف منها اطّرادا إذا دخل علیها حرف الجر نحو لم و مم و علی م و الی م،و التساؤل سؤال القوم بعضهم بعضا عن أمر أو سؤال بعضهم بعد بعض عن أمر و إن کان المسئول غیرهم،فهم کان یسأل بعضهم بعضا عن أمر أو کان بعضهم بعد بعض یسأل النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن أمر و حیث کان سیاق السوره سیاق جواب یغلب فیه الإنذار و الوعید تأیّد به أن المتسائلین هم کفار مکه من المشرکین النافین للنبوه و المعاد دون المؤمنین و دون الکفار و المؤمنین جمیعا.

فالتساؤل من المشرکین و الإخبار عنه فی صوره الاستفهام للإشعار بهوانه و حقارته لظهور الجواب عنه ظهورا ما کان ینبغی معه أن یتساءلوا عنه.

قوله تعالی: عَنِ النَّبَإِ الْعَظِیمِ اَلَّذِی هُمْ فِیهِ مُخْتَلِفُونَ جواب عن الاستفهام السابق أی یتساءلون عن النبأ العظیم،و لا یخفی ما فی توصیف النبأ المتسائل عنه بالعظیم من تعظیمه و تفخیم أمره.

و المراد بالنبإ العظیم نبأ البعث و القیامه الذی یهتم به القرآن العظیم فی سوره المکیه و لا سیما فی العتائق النازله فی أوائل البعثه کل الاهتمام.

ص :۵۶۲

و یؤید ذلک سیاق آیات السوره بما فیه من الاقتصار علی ذکر صفه یوم الفصل و ما تقدم علیها من الحجه علی أنه حق واقع.

و قوله: اَلَّذِی هُمْ فِیهِ مُخْتَلِفُونَ إنما اختلفوا فی نحو إنکاره و هم متفقون فی نفیه فمنهم من کان یری استحالته فینکره کما هو ظاهر قولهم علی ما حکاه اللّه: هَلْ نَدُلُّکُمْ عَلیٰ رَجُلٍ یُنَبِّئُکُمْ إِذٰا مُزِّقْتُمْ کُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّکُمْ لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ (سبأ۷/)،و منهم من کان یستعبده فینکره و هو قولهم: أَ یَعِدُکُمْ أَنَّکُمْ إِذٰا مِتُّمْ وَ کُنْتُمْ تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَنَّکُمْ مُخْرَجُونَ هَیْهٰاتَ هَیْهٰاتَ لِمٰا تُوعَدُونَ (المؤمنون۳۶/)،و منهم من کان یشک فیه فینکره قال تعالی: بَلِ ادّٰارَکَ عِلْمُهُمْ فِی الْآخِرَهِ بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ مِنْهٰا (النمل۶۶/)،و منهم من کان یوقن به لکنه لا یؤمن عنادا فینکره کما کان لا یؤمن بالتوحید و النبوه و سائر فروع الدین بعد تمام الحجه عنادا قال تعالی: بَلْ لَجُّوا فِی عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ (الملک۲۱/).

و المحصل من سیاق الآیات الثلاث و ما یتلوها أنهم لما سمعوا ما ینذرهم به القرآن من أمر البعث و الجزاء یوم الفصل ثقل علیهم ذلک فغدوا یسأل بعضهم بعضا عن شأن هذا النبإ العجیب الذی لم یکن مما قرع أسماعهم حتی الیوم،و ربما راجعوا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین و سألوهم عن صفه الیوم و أنه متی هذا الوعد إن کنتم صادقین و ربما کانوا یراجعون فی بعض ما قرع سمعهم من حقائق القرآن و احتوته دعوته الجدیده أهل الکتاب و خاصه الیهود و یستمدونهم فی فهمه.

و قد أشار تعالی فی هذه السوره الی قصه تساؤلهم فی صوره السؤال و الجواب فقال: «عَمَّ یَتَسٰاءَلُونَ» و هو سؤال عما یتساءلون عنه.ثم قال: «عَنِ النَّبَإِ الْعَظِیمِ اَلَّذِی هُمْ فِیهِ مُخْتَلِفُونَ» و هو جواب السؤال عما یتساءلون عنه.ثم قال: «کَلاّٰ سَیَعْلَمُونَ» الخ؛و هو جواب عن تساؤلهم.

قوله تعالی: کَلاّٰ سَیَعْلَمُونَ ثُمَّ کَلاّٰ سَیَعْلَمُونَ ردع عن تساؤلهم عنه بانین ذلک

على الاختلاف فى النفى أى ليرتدعوا عن التساؤل لأنه سينكشف لهم الأمر بوقوع هذا النبأ فيعلمونه،و فى هذا التعبير تهديد كما فى قوله: وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (الشعراء/٢٢٧).

و قوله: ثُمَّ كَلاّ سَيَعْلَمُونَ تأكيد للردع و التهديد السابقين و لحن التهديد هو القرينه على أن المتسائلين هم المشركون النافون للبعث و الجزاء دون المؤمنين و دون المشركين و المؤمنين جميعا.

قوله تعالى: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً الآيه الى تمام إحدى عشره آيه مسوق سوق الاحتجاج على ثبوت البعث و الجزاء و تحقق هذا النبإ العظيم و لازم ثبوته صحه ما فى قوله: «سَيَعْلَمُونَ» من الإخبار أنهم سيشاهدونه فيعلمون.

تقرير الحجه:أن العالم المشهود بأرضه و سمائه و ليله و نهاره و البشر المتناسلين و النظام الجارى فيها و التدبير المتقن الدقيق لامورها من المحال أن يكون لعبا باطلا لا غايه لها ثابته باقيه فمن الضرورى أن يستعقب هذا النظام المتحول المتغير الدائر الى علم ذى نظام ثابت باق،و أن يظهر فيه أثر الصلاح الذى تدعو اليه الفطره الانسانيه و الفساد الذى تردع عنه،و لم يظهر فى هذا العالم المشهود أعنى سعاده المتقين و شقاء المفسدين،و من المحال أن يودع اللّه الفطره دعوه غريزيه أو ردعا غريزيا بالنسبه الى ما لا أثر له فى الخارج و لا حظ له من الوقوع فهناك يوم يلقاه الانسان و يجزى فيه على عمله إن خيرا فخيرا و إن شرا فشرا.

فالآيات فى معنى قوله تعالى: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّارِ (ص/٢٨).

و بهذا البيان يثبت أن هناك يوما يلقاه الانسان و يجزى فيه بما عمل إن خيرا فخيرا و إن شرا فشرا فليس للمشركين أن يختلفوا فيه فيشك فيه بعضهم و يستبعده طائفه،و يحيله قوم،

و لا يؤمن به مع العلم به عنادا آخرون،فاليوم ضرورى الوقوع و الجزاء لا ريب فيه.

و كيف كان فقوله: «أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهٰاداً» الاستفهام للإنكار،و المهاد الوطاء و القرار الذى يتصرف فيه،و يطلق على البساط الذى يجلس عليه و المعنى قد جعلنا الأرض قرارا لكم تستقرون عليها و تتصرفون فيها.

قوله تعالى: وَ الْجِبٰالَ أَوْتٰاداً الأوتاد جمع وتد و هو المسمار إلا أنه أغلظ منه كما فى المجمع،و لعل عدّ الجبال أوتادا مبنىّ على أن عمده جبال الأرض من عمل البركانات بشق الأرض فتخرج منه مواد أرضيه مذابه تنتصب على فم الشقه متراكمه كهيئه الوتد المنصوب على الأرض تسكن به فوره البركان الذى تحته فيرتفع به ما فى الأرض من الاضطراب و الميدان.

و عن بعضهم:أن المراد بجعل الجبال أوتادا انتظام معاش أهل الأرض بما أودع فيها من المنافع و لولاها لمادت الأرض بهم أى لما تهيأت لانتفاعهم.و فيه أنه صرف اللفظ عن ظاهره من غير ضروره موجبه.

قوله تعالى: وَ خَلَقْنٰاكُمْ أَزْوٰاجاً أى زوجا زوجا من ذكر و أنثى لتجرى بينكم سنّه التناسل فيدوم بقاء النوع الى ما شاء اللّه.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنٰا نَوْمَكُمْ سُبٰاتاً السبات الراحه و الدعه فإن فى المنام سكوتا و راحه للقوى الحيوانيه البدنيه مما اعتراها فى اليقظه من التعب و الكلال بواسطه تصرفات النفس فيها.

و قيل:السبات بمعنى القطع و فى النوم قطع التصرفات النفسانيه فى البدن،و هو قريب من سابقه.

و قيل:المراد بالسبات الموت،و قد عد سبحانه النوم من الموت حيث قال: وَ هُوَ الَّذِى يَتَوَفّٰاكُمْ بِاللَّيْلِ (الأنعام/۶۰)و هو بعيد،و أما الآيه فإنه تعالى عدّ النوم توفّيا و لم يعده موتا

بل القرآن يصرح بخلافه قال تعالى: اَللّٰهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهٰا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنٰامِهٰا (الزمر/۴۲).

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبٰاساً أى ساترا يستر الأشياء بما فيه من الظلمه الساتره للمبصرات كما يستر اللباس البدن و هذا سبب إلهى يدعو الى ترك التقلب و الحركه و الميل الى السكن و الدعه و الرجوع الى الأهل و المنزل.

و عن بعضهم:أن المراد بكون الليل لباسا كونه كاللباس للنهار يسهل إخراجه منه و هو كما ترى.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا النَّهٰارَ مَعٰاشاً العيش هو الحياه-على ما ذكره الراغب-غير أن العيش يختص بحياه الحيوان فلا يقال:عيشه تعالى و عيش الملائكه و يقال حياته تعالى و حياه الملائكه،و المعاش مصدر ميمىّ و اسم زمان و اسم مكان،و هو فى الآيه بأحد المعنيين الأخيرين،و المعنى و جعلنا النهار زمانا لحياتكم أو موضعا لحياتكم تبتغون فيه من فضل ربكم،و قيل:المراد به المعنى المصدرىّ بحذف مضاف،و التقدير و جعلنا النهار طلب معاش أى مبتغى معاش.

قوله تعالى: وَ بَنَيْنٰا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدٰاداً أى سبع سماوات شديده فى بنائها.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنٰا سِرٰاجاً وَهّٰاجاً الوهاج شديد النور و الحراره و المراد بالسراج الوهاج:الشمس.

قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ الْمُعْصِرٰاتِ مٰاءً ثَجّٰاجاً المعصرات السحب الماطره و قيل:الرياح التى تعصر السحب لتمطر و الثجّاج الكثير الصبّ للماء،و الأولى على هذا المعنى أن تكون «مِنَ» بمعنى الباء.

قوله تعالى: لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَبٰاتاً أى حبا و نباتا يقتات بهما الإنسان و سائر الحيوان.

قوله تعالی: وَ جَنّٰاتٍ أَلْفٰافاً معطوف علی قوله: «حَبًّا» و جنات ألفاف أی ملتفه أشجارها بعضها ببعض.

قیل:إن الألفاف جمع لا واحد له من لفظه.

[سوره النبإ (۷۸): الآیات ۱۷ الی ۴۰]

إِنَّ یَوْمَ اَلْفَصْلِ کٰانَ مِیقٰاتاً (۱۷) یَوْمَ یُنْفَخُ فِی اَلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوٰاجاً (۱۸) وَ فُتِحَتِ اَلسَّمٰاءُ فَکٰانَتْ أَبْوٰاباً (۱۹) وَ سُیِّرَتِ اَلْجِبٰالُ فَکٰانَتْ سَرٰاباً (۲۰) إِنَّ جَهَنَّمَ کٰانَتْ مِرْصٰاداً (۲۱) لِلطّٰاغِینَ مَآباً (۲۲) لاٰبِثِینَ فِیهٰا أَحْقٰاباً (۲۳) لاٰ یَذُوقُونَ فِیهٰا بَرْداً وَ لاٰ شَرٰاباً (۲۴) إِلاّٰ حَمِیماً وَ غَسّٰاقاً (۲۵) جَزٰاءً وِفٰاقاً (۲۶) إِنَّهُمْ کٰانُوا لاٰ یَرْجُونَ حِسٰاباً (۲۷) وَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا کِذّٰاباً (۲۸) وَ کُلَّ شَیْءٍ أَحْصَیْنٰاهُ کِتٰاباً (۲۹) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِیدَکُمْ إِلاّٰ عَذٰاباً (۳۰) إِنَّ لِلْمُتَّقِینَ مَفٰازاً (۳۱) حَدٰائِقَ وَ أَعْنٰاباً (۳۲) وَ کَوٰاعِبَ أَتْرٰاباً (۳۳) وَ کَأْساً دِهٰاقاً (۳۴) لاٰ یَسْمَعُونَ فِیهٰا لَغْواً وَ لاٰ کِذّٰاباً (۳۵) جَزٰاءً مِنْ رَبِّکَ عَطٰاءً حِسٰاباً (۳۶) رَبِّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمَا اَلرَّحْمٰنِ لاٰ یَمْلِکُونَ مِنْهُ خِطٰاباً (۳۷) یَوْمَ یَقُومُ اَلرُّوحُ وَ اَلْمَلاٰئِکَهُ صَفًّا لاٰ یَتَکَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ اَلرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً (۳۸) ذٰلِکَ اَلْیَوْمُ اَلْحَقُّ فَمَنْ شٰاءَ اِتَّخَذَ إِلیٰ رَبِّهِ مَآباً (۳۹) إِنّٰا أَنْذَرْنٰاکُمْ عَذٰاباً قَرِیباً یَوْمَ یَنْظُرُ اَلْمَرْءُ مٰا قَدَّمَتْ یَدٰاهُ وَ یَقُولُ اَلْکٰافِرُ یٰا لَیْتَنِی کُنْتُ تُرٰاباً (۴۰)

ص: ۵۶۷

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ یَوْمَ الْفَصْلِ کٰانَ مِیقٰاتاً قال فی المجمع:المیقات منتهی المقدار المضروب لحدوث أمر من الامور و هو من الوقت کما أن المیعاد من الوعد و المقدار من القدر، انتهی.

شروع فی وصف ما تضمنه النبأ العظیم الذی أخبر بوقوعه و هددهم به فی قوله: «کَلاّٰ سَیَعْلَمُونَ» ثم أقام الحجه علیه بقوله: «أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهٰاداً» الخ؛و قد سماه یوم الفصل و نبه به علی أنه یوم یفصل فیه القضاء بین الناس فینال کل طائفه ما یستحقه بعمله فهو میقات

ص :۵۶۸

و حد مضروب لفصل القضاء بينهم و التعبير بلفظ «كٰانَ» للدلاله على ثبوته و تعينه فى العلم الإلهى على ما ينطق به الحجه السابقه الذكر،و لذا أكد الجمله بإن.

و المعنى:إن يوم فصل القضاء الذى نبؤه نبأ عظيم كان فى علم اللّه يوم خلق السماوات و الأرض و حكم فيها النظام الجارى حدا مضروبا ينتهى اليه هذا العالم فإنه تعالى كان يعلم أن هذه النشأه التى أنشأها لا تتم إلا بالانتهاء الى يوم يفصل فيه القضاء بينهم.

قوله تعالى: يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوٰاجاً قد تقدم الكلام فى معنى نفخ الصور كرارا،و الأفواج جمع فوج و هى الجماعه الماره المسرعه على ما ذكره الراغب.

و فى قوله: فَتَأْتُونَ أَفْوٰاجاً جرى على اخطاب السابق الملتفت اليه قضاء لحق الوعيد الذى يتضمنه قوله: «كَلاّٰ سَيَعْلَمُونَ» و كأن الآيه ناظره الى قوله تعالى: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنٰاسٍ بِإِمٰامِهِمْ (الإسراء٧١/).

قوله تعالى: وَ فُتِحَتِ السَّمٰاءُ فَكٰانَتْ أَبْوٰاباً فاتصل به عالم الإنسان بعالم الملائكه.

و قيل:التقدير فكانت ذات أبواب،و قيل:صار فيها طرق و لم يكن كذلك من قبل،و لا يخلو الوجهان من تحكم فليتدبر.

قوله تعالى: وَ سُيِّرَتِ الْجِبٰالُ فَكٰانَتْ سَرٰاباً السراب هو الموهوم من الماء اللامع فى المفاوز و يطلق على كل ما يتوهم ذا حقيقه و لا حقيقه له على طريق الاستعاره.

و لعل المراد بالسراب فى الآيه هو المعنى الثانى.

بيان ذلك:أن تسيير الجبال و دكها ينتهى بالطبع الى تفرق أجزائها و زوال شكلها كما وقع فى مواضع من كلامه تعالى عند وصف زلزله الساعه و آثارها إذ قال: وَ تَسِيرُ الْجِبٰالُ سَيْراً (الطور١٠/)و قال: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبٰالُ فَدُكَّتٰا دَكَّةً وٰاحِدَةً (الحاقه١۴/)،و قال:

وَ كٰانَتِ الْجِبٰالُ كَثِيباً مَهِيلاً (المزمل١۴/)،و قال: وَ تَكُونُ الْجِبٰالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ

(القارعه/۵)،و قال: وَ بُسَّتِ الْجِبٰالُ بَسًّا (الواقعه/۵)،و قال: وَ إِذَا الْجِبٰالُ نُسِفَتْ (المرسلات/۱۰).

فتسيير الجبال و دكها ينتهى بها الى بسها و نسفها و صيرورتها كثيبا مهيلا و كالعهن المنفوش كما ذكره اللّه تعالى و أما صيرورتها سرابا بمعنى ما يتوهم ماء لامعا فلا نسبه بين التسيير و بين السراب بهذا المعنى.

نعم ينتهى تسييرها الى انعدامها و بطلان كينونتها و حقيقتها بمعنى كونها جبلا فالجبال الراسيات التى كانت ترى حقائق ذوات كينونه قويه لا تحركه العواصف تتبدل بالتسيير سرابا باطلا لا حقيقه له،و نظيره من كلامه تعالى قوله فى أقوام أهلكهم و قطع دابرهم:

فَجَعَلْنٰاهُمْ أَحٰادِيثَ (سبأ/۱۹)،و قوله: فَأَتْبَعْنٰا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَحٰادِيثَ (المؤمنون/۴۴)،و قوله فى الأصنام: إِنْ هِيَ إِلاّٰ أَسْمٰاءٌ سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ (النجم/ ۲۳).

فالآيه بوجه كقوله تعالى: وَ تَرَى الْجِبٰالَ تَحْسَبُهٰا جٰامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحٰابِ (النمل/ ۸۸)-بناء على كونه ناظرا الى صفه زلزله الساعه-.

قوله تعالى: إِنَّ جَهَنَّمَ كٰانَتْ مِرْصٰاداً قال فى المفردات:الرصد الاستعداد للترقب-الى أن قال-و المرصد موضع الرصد قال تعالى: «وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ» و المرصاد نحوه لكن يقال للمكان الذى اختص بالرصد قال تعالى: «إِنَّ جَهَنَّمَ كٰانَتْ مِرْصٰاداً» تنبيها على أن عليها مجاز الناس،و على هذا قوله تعالى: «وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاّٰ وٰارِدُهٰا» .

انتهى.

قوله تعالى: لِلطّٰاغِينَ مَآباً الطاغون المتلبسون بالطغيان و هو الخروج عن الحد، و المآب اسم مكان من الأوب بمعنى الرجوع،و العنايه فى عدها مآبا للطاغين أنهم هيئوها مأوى لأنفسهم و هم فى الدنيا ثم إذا انقطعوا عن الدنيا آبوا و رجعوا إليها.

قوله تعالی: لاٰبِثِینَ فِیهٰا أَحْقٰاباً الأحقاب الأزمنه الکثیره و الدهور الطویله من غیر تحدید.

و هو جمع اختفوا فی واحده فقیل:واحده حقب بالضم فالسکون أو بضمتین،و قد وقع فی قوله تعالی: أَوْ أَمْضِیَ حُقُباً (الکهف/۶۰)،و قیل:حقب بالفتح فالسکون و واحد الحقب حقبه بالکسر فالسکون قال الراغب:و الحق أن الحقبه مده من الزمان مبهمه.انتهی.

و حد بعضهم الحقب بثمانین سنه أو ببضع و ثمانین سنه و زاد آخرون أن السنه منها ثلاثمائه و ستون یوما کل یوم یعدل ألف سنه،و عن بعضهم أن الحقب أربعون سنه و عن آخرین أنه سبعون ألف سنه الی غیر ذلک و لا دلیل من الکتاب یدل علی شیء من هذه التحدیدات و لم یثبت من اللغه شیء منها.

و ظاهر الآیه أن المراد بالطاغین المعاندون من الکفار و یؤیده قوله ذیلا: «إِنَّهُمْ کٰانُوا لاٰ یَرْجُونَ حِسٰاباً وَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا کِذّٰاباً» .

و قد فسروا «أَحْقٰاباً» فی الآیه بالحقب بعد الحقب فالمعنی حالکون الطاغین لابثین فی جهنم حقبا بعد حقب بلا تحدید و لا نهایه فلا تنفی الآیه ما نص علیه القرآن من خلود الکفار فی النار.

قوله: لاٰ یَذُوقُونَ فِیهٰا بَرْداً وَ لاٰ شَرٰاباً ظاهر المقابله بین البرد و الشراب أن المراد بالبرد مطلق ما یتبرد به غیر الشراب کالظل الذی یستراح الیه بالاستظلال فالمراد بالذوق مطلق النیل و المس.

قوله تعالی: إِلاّٰ حَمِیماً وَ غَسّٰاقاً الحمیم الماء الحار شدید الحر،و الغساق صدید أهل النار.

قوله تعالی: جَزٰاءً وِفٰاقاً -الی قوله- کِتٰاباً المصدر بمعنی اسم الفاعل و المعنی یجزون جزاء موافقا لما عملوا أو بتقدیر مضاف أی جزاء ذا وفاق او اطلاق الوفاق علی الجزاء

للمبالغه كزيد عدل.

و قوله: إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذّاباً اى تكذيبا عجيبا يصرون عليه،تعليل يوضح موافقه جزائهم لعملهم،و ذلك أنهم لم يرجوا الحساب يوم الفصل فأيسوا من الحياه الآخره و كذبوا بالآيات الداله فأنكروا التوحيد و النبوه و تعدوا فى أعمالهم طور العبوديه فنسوا اللّه تعالى فنسيهم و حرم عليهم سعاده الدار الآخره فلم يبق لهم إلا الشقاء و لا يجدون فيها إلا ما يكرهون،و لا يواجهون إلا ما يتعذبون به و هو قوله:

«فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاّ عَذاباً» .

و فى الآيه أعنى قوله: «جَزاءً وِفاقاً» دلاله على المطابقه التامه بين الجزاء و العمل فالإنسان لا يريد بعمله إلا الجزاء الذى بإزائه و التلبس بالجزاء تلبس بالعمل بالحقيقه قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التحريم/٧).

و قوله: وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً أى كل شىء و منه الأعمال ضبطناه و بيناه فى كتاب جليل القدر فالآيه فى معنى قوله تعالى: وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (يس/ ١٢).

أو المراد و كل شىء حفظناه حال كونه مكتوبا أى فى اللوح المحفوظ أو فى صحائف الأعمال،و جوز أن يكون الإحصاء بمعنى الكتابه أو الكتابه بمعنى الإحصاء فإن الإحصاء و الكتابه يتشاركان فى معنى الضبط و المعنى كل شىء أحصيناه إحصاء أو كل شىء كتبناه كتابا.

و الآيه على أى حال متمم للتعليل السابق،و المعنى الجزاء موافق لأعمالهم لأنهم كانوا على حال كذا و كذا و قد حفظناها عليهم فجزيناهم بها جزاء وفاقا.

قوله تعالى: فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاّ عَذاباً تفريع على ما تقدم من تفصيل عذابهم مسوق لإيئاسهم من أن يرجوا نجاه من الشقوه و راحه ينالونها.

و الالتفات الى خطابهم بقوله: «فَذُوقُوا» تقدير لحضورهم ليخاطبوا بالتوبيخ و التقريع بلا واسطه.

و المراد بقوله: «فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاّ عَذٰاباً» أن ما تذوقونه بعد عذاب ذقتموه عذاب آخر فهو عذاب بعد عذاب و عذاب على عذاب فلا تزالون يضاعف عذاب جديد الى عذابكم القديم فاقنطوا من أن تنالوا شيئا مما تطلبون و تحبون.

و الآيه لا تخلو من ظهور فى كون المراد بقوله: «لاٰبِثِينَ فِيهٰا أَحْقٰاباً» الخلود دون الانقطاع.

ق

و له تعالى: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفٰازاً -الى قوله- كِذّٰاباً الفوز الظفر بالخير مع حصور السلامه-على ما قاله الراغب-ففيه معنى النجاه و التخلص من الشر و الحصول على الخير، و المفاز مصدر ميمى أو اسم مكان من الفوز و الآيه تحتمل الوجهين جميعا.

و قوله: حَدٰائِقَ وَ أَعْنٰاباً الحدائق جمع حديقه و هى البستان المحوّط،و الأعناب جمع عنب و هو ثمر شجره الكرم و ربما يطلق على نفس الشجره.

و قوله: وَ كَوٰاعِبَ جمع كاعب و هى الفتاه التى تكعّب ثدياها و استدار مع ارتفاع يسير،و الترائب جمع ترب و هى المماثله لغيرها من اللذات.

و قوله: وَ كَأْساً دِهٰاقاً أى ممتلئه شرابا مصدر بمعنى اسم الفاعل.

و قوله: لاٰ يَسْمَعُونَ فِيهٰا لَغْواً وَ لاٰ كِذّٰاباً أى لا يسمعون فى الجنه لغوا من القول لا يترتب عليه أثر مطلوب و لا تكذيبا من بعضهم لبعضهم فيما قال فقولهم حق له أثره المطلوب و صدق مطابق للواقع.

قوله تعالى: جَزٰاءً مِنْ رَبِّكَ عَطٰاءً حِسٰاباً أى فعل بالمتقين ما فعل حالكونه جزاء من ربك عطيّه محسوبه فقوله: «جَزٰاءً» حال و كذا «عَطٰاءً» و «حِسٰاباً» بمعنى اسم المفعول صفه لعطاء،و يحتمل أن يكون عطاء تمييزا أو مفعولا مطلقا.

قيل:إضافه الجزاء الى الرب مضافا الى ضميره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تشريف له،و لم يضف جزاء

الطاغين اليه تعالى تنزها منه تعالى فليس يغشاهم شرّ إلا من عند أنفسهم قال تعالى: ذٰلِكَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيكَمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ (الأنفال/٥١).

و وقوع لفظ الحساب فى ذيل جزاء الطاغين و المتقين معا لتتبين ما يلوّح اليه يوم الفصل الواقع فى أول الكلام.

قوله تعالى: رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمَا الرَّحْمٰنِ بيان لقوله:

«رَبِّكَ» أريد به أن ربوبيته تعالى عامه لكل شىء و أن الرب الذى يتخذه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ربا و يدعو اليه رب كل شىء لا كما كان يقول المشركون:إن لكل طائفه من الموجودات ربا و اللّه سبحانه رب الأرباب أو كما كان يقول بعضهم:إنه رب السماء.

و فى توصيف الرب بالرحمن-صيغه مبالغه من الرحمه-إشاره الى سعه رحمته و أنها سمه ربوبيه لا يحرم منها شىء إلا أن يمتنع منها شىء بنفسه لقصوره و سوء اختياره فمن شقوه هؤلاء الطاغين أنهم حرّموها على أنفسهم بالخروج عن طور العبوديه.

قوله تعالى: لاٰ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطٰاباً يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلاٰئِكَةُ صَفًّا لاٰ يَتَكَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً وقوع صدر الآيه فى سياق قوله:

«رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمَا الرَّحْمٰنِ» -و شأن الربوبيه هو التدبير و شأن الرحمانيه بسط الرحمه-دليل على أن المراد بخطابه تعالى تكليمه فى بعض ما فعل من الفعل بنحو السؤال عن السبب الداعى الى الفعل كأن يقال:لم فعلت هذا؟و لم لم تفعل كذا؟كما يسأل الفاعل منا عن فعله فتكون الجمله «لاٰ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطٰاباً» فى معنى قوله تعالى: لاٰ يُسْئَلُ عَمّٰا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ (الأنبياء/٢٣)و قد تقدم الكلام فى معنى الآيه.

لكن وقوع قوله: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلاٰئِكَةُ صَفًّا» بعد قوله: «لاٰ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطٰاباً» الظاهر فى اختصاص عدم الملك بيوم الفصل مضافا الى وقوعه فى سياق تفصيل جزاء الطاغين و المتقين منه تعالى يوم الفصل يعطى أن يكون المراد به أنهم لا يملكون أن يخاطبوه فيما يقضى

و یفعل بهم باعتراض علیه أو شفاعه فیهم لکن الملائکه-و هم ممن لا یملکون منه خطابا- منزهون عن وصمه الاعتراض علیه تعالی و قد قال فیهم: عِبٰادٌ مُکْرَمُونَ لاٰ یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ (الأنبیاء۲۷/)و کذلک الروح الذی هو (۱)کلمته و قوله، و قوله (۲)حق،و هو تعالی (۳)الحق المبین و الحق لا یعارض الحق و لا یناقضه.

و من هنا یظهر أن المراد بالخطاب الذی لا یملکونه هو الشفاعه و ما یجری مجراها من وسائل التخلص من الشر کالعدل و البیع و الخله و الدعاء و السؤال قال تعالی: مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لاٰ بَیْعٌ فِیهِ وَ لاٰ خُلَّهٌ وَ لاٰ شَفٰاعَهٌ (البقره ۲۵۴)،و قال: وَ لاٰ یُقْبَلُ مِنْهٰا عَدْلٌ وَ لاٰ تَنْفَعُهٰا شَفٰاعَهٌ (البقره۱۲۳/)،و قال: یَوْمَ یَأْتِ لاٰ تَکَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ (هود۱۰۵/).

و بالجمله قوله: «لاٰ یَمْلِکُونَ مِنْهُ خِطٰاباً» ضمیر الفاعل فی «لاٰ یَمْلِکُونَ» لجمیع المجموعین لیوم الفصل من الملائکه و الروح و الإنس و الجن کما هو المناسب للسیاق الحاکی عن ظهور العظمه و الکبریاء دون خصوص الملائکه و الروح لعدم سبق الذکر و دون خصوص الطاغین کما قیل لکثره الفصل،و المراد بالخطاب الشفاعه و ما یجری مجراها کما تقدم.

و قوله: یَوْمَ یَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلاٰئِکَهُ صَفًّا ظرف لقوله: «لاٰ یَمْلِکُونَ» و قیل:

لقوله: «لاٰ یَتَکَلَّمُونَ» و هو بعید مع صلاحیه ظرفیته لما سبقه.

و المراد بالروح المخلوق الأمری الذی یشیر الیه قوله تعالی: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی (الإسراء۸۵/).

و قوله: لاٰ یَتَکَلَّمُونَ بیان لقوله: «لاٰ یَمْلِکُونَ مِنْهُ خِطٰاباً» و ضمیر الفاعل لأهل الجمع من الروح و الملائکه و الإنس و الجن علی ما یفیده السیاق.

۱- ۱) .النحل:۴۰.

۲- ۲) .الانعام:۷۳.

۳- ۳) .النور:۲۵.

و قيل:الضمير للروح و الملائكه،و قيل:للناس و وقع «لاّ يَمْلِكونَ» بما مرّ من معناه و «لاّ يَتَكَلَّمُونَ» فى سياق واحد لا يلائم شيئا من القولين.

و قوله: إِلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ بدل من ضمير الفاعل فى «لا يَتَكَلَّمُونَ» أريد به بيان من له أن يتكلم منهم يومئذ باذن اللّه فالجمله فى معنى قوله: يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّ بِإِذْنِهِ (هود١٠٥/)على ظاهر إطلاقه.

و قوله: وَ قالَ صَواباً أى قال قولا صوابا لا يشوبه خطأ و هو الحق الذى لا يداخله باطل،و الجمله فى الحقيقه قيد للإذن كأنه قيل:إلا من أذن له الرحمن و لا يأذن إلا لمن قال صوابا فالآيه فى معنى قوله تعالى: وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف٨۶/) (١).

قوله تعالى: ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ إشاره الى يوم الفصل المذكور في السوره الموصوف بما مر من الأوصاف و هو فى الحقيقه خاتمه الكلام المنعطفه الى فاتحه السوره و ما بعده أعنى قوله: «فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً» الخ؛فضل تفريع على البيان السابق.

و الإشاره اليه بالاشاره البعيده للدلاله على فخامه أمره و المراد بكونه حقا ثبوته حتما مقضيا لا يتخلف عن الوقوع.

قوله تعالى: فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً أى مرجعا الى ربه ينال به ثواب المتقين و ينجو به من عذاب الطاغين،و الجمله كما أشرنا اليه تفريع على ما تقدم من الأخبار بيوم الفصل و الاحتجاج عليه و وصفه،و المعنى إذا كان كذلك فمن شاء الرجوع الى ربه فليرجع.

قوله تعالى: إِنّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً الخ؛المراد به عذاب الآخره،و كونه قريبا

ص:۵٧۶

١- ١) .النبأ ١٧-۴٠:كلام فيما هو الروح فى القرآن.

لکونه حقا لا ریب فی إتیانه و کل ما هو آت قریب.

علی أن الأعمال التی سیجزی بها الانسان هی معه أقرب ما یکون منه.

و قوله: یَوْمَ یَنْظُرُ الْمَرْءُ مٰا قَدَّمَتْ یَدٰاهُ أی ینتظر المرء جزاء أعماله التی قدمتها یداه بالاکتساب،و قیل:المعنی ینظر المرء الی ما قدمت یداه من الأعمال لحضورها عنده قال تعالی: یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران/ ۳۰).

و قوله: وَ یَقُولُ الْکٰافِرُ یٰا لَیْتَنِی کُنْتُ تُرٰاباً أی یتمنی من شده الیوم أن لو کان ترابا فاقدا للشعور و الاراده فلم یعمل و لم یجز.

سوره النازعات مکیه و هی ست و أربعون آیه

اشاره

[سوره النازعات (۷۹): الآیات ۱ الی ۴۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ
وَ اَلنّٰازِعٰاتِ غَرْقاً (۱) وَ اَلنّٰاشِطٰاتِ نَشْطاً (۲) وَ اَلسّٰابِحٰاتِ سَبْحاً (۳) فَالسّٰابِقٰاتِ سَبْقاً (۴) فَالْمُدَبِّرٰاتِ أَمْراً (۵) یَوْمَ تَرْجُفُ اَلرّٰاجِفَهُ (۶) تَتْبَعُهَا اَلرّٰادِفَهُ (۷) قُلُوبٌ یَوْمَئِذٍ وٰاجِفَهٌ (۸) أَبْصٰارُهٰا خٰاشِعَهٌ (۹) یَقُولُونَ أَ إِنّٰا لَمَرْدُودُونَ فِی اَلْحٰافِرَهِ (۱۰) أَ إِذٰا کُنّٰا عِظٰاماً نَخِرَهً (۱۱) قٰالُوا تِلْکَ إِذاً کَرَّهٌ خٰاسِرَهٌ (۱۲) فَإِنَّمٰا هِیَ زَجْرَهٌ وٰاحِدَهٌ (۱۳) فَإِذٰا هُمْ بِالسّٰاهِرَهِ (۱۴) هَلْ أَتٰاکَ حَدِیثُ مُوسیٰ (۱۵) إِذْ نٰادٰاهُ رَبُّهُ بِالْوٰادِ اَلْمُقَدَّسِ طُویً (۱۶) اِذْهَبْ إِلیٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغیٰ (۱۷) فَقُلْ هَلْ لَکَ إِلیٰ أَنْ تَزَکّٰی (۱۸) وَ أَهْدِیَکَ إِلیٰ رَبِّکَ فَتَخْشیٰ (۱۹) فَأَرٰاهُ اَلْآیَهَ اَلْکُبْریٰ (۲۰) فَکَذَّبَ وَ عَصیٰ (۲۱) ثُمَّ أَدْبَرَ یَسْعیٰ (۲۲) فَحَشَرَ فَنٰادیٰ (۲۳) فَقٰالَ أَنَا رَبُّکُمُ اَلْأَعْلیٰ (۲۴) فَأَخَذَهُ اَللّٰهُ نَکٰالَ اَلْآخِرَهِ وَ اَلْأُولیٰ (۲۵) إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَعِبْرَهً لِمَنْ یَخْشیٰ (۲۶) أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ اَلسَّمٰاءُ بَنٰاهٰا (۲۷) رَفَعَ سَمْکَهٰا فَسَوّٰاهٰا (۲۸) وَ أَغْطَشَ لَیْلَهٰا وَ أَخْرَجَ ضُحٰاهٰا (۲۹) وَ اَلْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِکَ دَحٰاهٰا (۳۰) أَخْرَجَ مِنْهٰا مٰاءَهٰا وَ مَرْعٰاهٰا (۳۱) وَ اَلْجِبٰالَ أَرْسٰاهٰا (۳۲) مَتٰاعاً لَکُمْ وَ لِأَنْعٰامِکُمْ (۳۳) فَإِذٰا جٰاءَتِ اَلطّٰامَّهُ اَلْکُبْریٰ (۳۴) یَوْمَ یَتَذَکَّرُ اَلْإِنْسٰانُ مٰا سَعیٰ (۳۵) وَ بُرِّزَتِ اَلْجَحِیمُ لِمَنْ یَریٰ (۳۶) فَأَمّٰا مَنْ طَغیٰ (۳۷) وَ آثَرَ اَلْحَیٰاهَ اَلدُّنْیٰا (۳۸) فَإِنَّ اَلْجَحِیمَ هِیَ اَلْمَأْویٰ (۳۹) وَ أَمّٰا مَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ وَ نَهَی اَلنَّفْسَ عَنِ اَلْهَویٰ (۴۰) فَإِنَّ اَلْجَنَّهَ هِیَ اَلْمَأْویٰ (۴۱)

ص :۵۷۸

بيان:

فی السوره إخبار مؤکد بوقوع البعث و القیامه،و احتجاج علیه من طریق التدبیر الربوبی المنتج أن الناس سینقسمون یومئذ طائفتین أصحاب الجنه و أصحاب الجحیم و تختتم السوره بالإشاره الی سؤالهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن وقت قیام الساعه و الجواب عنه.

و السوره مکّیه بشهاده سیاق آیاتها.

قوله تعالی: وَ النّازِعاتِ غَرْقاً وَ النّاشِطاتِ نَشْطاً وَ السّابِحاتِ سَبْحاً فَالسّابِقاتِ سَبْقاً فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً اختلف المفسرون فی تفسیر هذه الآیات الخمس اختلافا عجیبا مع اتفاقهم علی أنها إقسام،و قول أکثرهم بأن جواب القسم محذوف،و التقدیر

أقسم بكذا و كذا لتبعثن.

فقوله: وَ النّازِعاتِ غَرْقاً قيل:المراد بها ملائكه الموت تنزع الأرواح من الأجساد،و «غَرْقاً» مصدر مؤكد بحذف الزوائد أى إغراقا و تشديدا فى النزع.

و قيل:المراد بها الملائكه الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم بشده،و قيل:هو الموت ينزع الأرواح من الأبدان نزعا بالغا.

و قيل:المراد بها النجوم تنزع من أفق لتغيب فى افق أى تطلع من مطالعها لتغرب فى مغاربها،و قيل:المراد بها القسى تنزع بالسهم أى تمد بجذب وترها إغراقا فى المد فالإقسام بقسى المجاهدين فى سبيل اللّه أو بالمجاهدين أنفسهم،و قيل:المراد بها الوحش تنزع الى الكلأ.

و قوله: وَ النّاشِطاتِ نَشْطاً النشط الجذب و الخروج و الإخراج برفق و سهوله و حل العقده،قيل:المراد بها الملائكه الذين يخرجون الأرواح من الأجساد،و قيل المراد بها خصوص الملائكه يخرجون أرواح المؤمنين من أجسادهم برفق و سهوله،كما أن المراد بالنازعات غرقا الملائكه الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم.

و قيل:هم الملائكه الذين ينشطون أرواح الكفار من أجسادهم،و قيل:المراد بها أرواح المؤمنين أنفسهم،و قيل:هى النجوم تنشط و تذهب من افق الى افق،و قيل:هى السهام تنشط من قسيّها فى الغزوات،و قيل:هو الموت ينشط و يخرج الأرواح من الأجساد،و قيل:

هى الوحش تنشط من قطر الى قطر.

و قوله: وَ السّابِحاتِ سَبْحاً قيل:المراد بها الملائكه تقبض الأرواح فتسرع بروح المؤمن الى الجنه و بروح الكافر الى النار،و السبح الإسراع فى الحركه كما يقال:الفرس سابح إذا أسرع فى جريه،و قيل:المراد بها الملائكه يقبضون أرواح المؤمنين يسلّونها من الأبدان سلا رفيقا ثم يدعونها حتى يستريح كالسابح بالشىء فى الماء يرمى،و قيل:هى الملائكه

ينزلون من السماء مسرعين،و قيل:هى النجوم تسبح فى فلكها كما قال تعالى: وَ کُلٌّ فِی فَلَکٍ یَسْبَحُونَ .

و قيل:هى خيل الغزاه تسبح فى عدوها و تسرع،و قيل:هى المنايا تسبح فى نفوس الحيوان،و قيل:هى السفن تسبح فى المياه،و قيل:السحاب،و قيل:دواب البحر.

و قوله: فَالسّٰابِقٰاتِ سَبْقاً قيل المراد بها مطلق الملائكه لأنها سبقت ابن آدم بالخير و الإيمان و العمل الصالح،و قيل ملائكه الموت تسبق بروح المؤمن الى الجنه و بروح الكافر الى النار،و قيل الملائكه القابضون لروح المؤمن تسبق بها الى الجنه، و قيل،ملائكه الوحى تسبق الشياطين بالوحى الى الأنبياء،و قيل أرواح المؤمنين تسبق الى الملائكه التى يقبضونها شوقا الى لقاء اللّه سبحانه،و قيل هى النجوم تسبق بعضها بعضا فى السير،و قيل هى خيل الغزاه تسبق بعضها بعضا فى الحرب،و قيل هى المنايا تسبق الآمال.

و قوله: فَالْمُدَبِّرٰاتِ أَمْراً قيل:المراد بها مطلق الملائكه المدبرين للامور،كذا فسر الأكثرون حتى ادعى بعضهم اتفاق المفسرين عليه،و قيل المراد بها الملائكه الأربعه المدبّرون لامور الدنيا:جبرائيل و ميكائيل و عزرائيل و إسرافيل،فجبرائيل يدبر أمر الرياح و الجنود و الوحى،و ميكائيل يدبر أمر القطر و النبات،و عزرائيل موكل بقبض الأرواح،و إسرافيل يتنزل بالأمر عليهم و هو صاحب الصور،و قيل:إنها الأفلاك يقع فيها أمر اللّه فيجرى بها القضاء فى الدنيا.

و هناك قول بأن الإقسام فى الآيات بمضاف محذوف و التقدير و رب النازعات نزعا،الخ.

و أنت خبير بأن سياق الآيات الخمس سياق واحد متصل متشابه الأجزاء لا يلائم كثيرا من هذه الأقوال القاضيه باختلاف المعانى المقسم بها ككون المراد بالنازعات الملائكه القابضين لأرواح الكفار،و بالناشطات الوحش،و بالسابحات السفن،و بالسابقات المنايا

تسبق الآمال و بالمدبرات الأفلاک.

مضافا الی أن کثیرا منها لا دلیل علیها من جهه السیاق إلا مجرد صلاحیه اللفظ بحسب اللغه للاستعمال فیه أعم من الحقیقه و المجاز.

علی أن کثیرا منها لا تناسب سیاق آیات السوره التی تذکر یوم البعث و تحتج علی وقوعه علی ما تقدم فی سوره المرسلات من حدیث المناسبه بین ما فی کلامه تعالی من الإقسام و جوابه.

و الذی یمکن أن یقال-و اللّه أعلم-أن ما فی هذه الآیات من الأوصاف المقسم بها یقبل الانطباق علی صفات الملائکه فی امتثالها للأوامر الصادره علیهم من ساحه العزه المتعلقه بتدبیر امور هذا العالم المشهود ثم قیامهم بالتدبیر بإذن اللّه.

و الآیات شدیده الشبه سیاقا بآیات مفتتح سوره الصافات «وَ الصَّافّاتِ صَفًّا فَالزّاجِراتِ زَجْراً فَالتّالِیاتِ ذِکْراً» و آیات مفتتح سوره المرسلات «وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً وَ النّاشِراتِ نَشْراً فَالْفارِقاتِ فَرْقاً فَالْمُلْقِیاتِ ذِکْراً» و هی تصف الملائکه فی امتثالهم لأمر اللّه غیر أنها تصف ملائکه الوحی،و الآیات فی مفتتح هذه السوره تصف مطلق الملائکه فی تدبیرهم أمر العالم بإذن اللّه.

ثم إن أظهر الصفات المذکوره فی هذه الآیات الخمس فی الانطباق علی الملائکه قوله:

«فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» و قد أطلق التدبیر و لم یقید بشیء دون شیء فالمراد به التدبیر العالمی بإطلاقه،و قوله: «أَمْراً» تمییز أو مفعول به للمدبرات و مطلق التدبیر شأن مطلق الملائکه فالمراد بالمدبرات مطلق الملائکه.

و إذ کان قوله: «فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» مفتتحا بفاء التفریع الدال علی تفرع صفه التدبیر علی صفه السبق،و کذا قوله: «فَالسّابِقاتِ سَبْقاً» مقرونا بفاء التفریع الداله علی تفرع السبق علی السبح دل ذلک علی مجانسه المعانی المراده بالآیات الثلاث «وَ السّابِحاتِ سَبْحاً فَالسّابِقاتِ

سَبْقاً فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» فمدلولها أنهم يدبرون الأمر بعد ما سبقوا اليه و يسبقون اليه بعد ما سبحوا أى أسرعوا اليه عند النزول فالمراد بالسابحات و السابقات هم المدبرات من الملائكه باعتبار نزولهم الى ما أمروا بتدبيره.

فالآيات الثلاث فى معنى قوله تعالى: لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ (الرعد/١١)على ما تقدم من توضيح معناه فالملائكه ينزلون على الأشياء و قد تجمعت عليها الأسباب و تنازعت فيها وجودا و عدما و بقاء و زوالا و فى مختلف أحوالها فما قضاه اللّه فيها من الأمر و أبرم قضاءه أسرع اليه الملك المأمور به-بما عين له من المقام-و سبق غيره و تمم السبب الذى يقتضيه فكان ما أراده اللّه،فافهم ذلك.

و إذا كان المراد بالآيات الثلاث الإشاره الى إسراع الملائكه فى النزول على ما أمروا به من أمر و سبقهم اليه و تدبيره تعين حمل قوله: «وَ النّازِعاتِ غَرْقاً وَ النّاشِطاتِ نَشْطاً» على انتزاعهم و خروجهم من موقف الخطاب الى ما أمروا به فنزعهم غرقا شروعهم فى النزول نحو المطلوب بشده وجد،و نشطهم خروجهم من موقفهم نحوه كما أن سبحهم إسراعهم اليه بعد الخروج و يتعقب ذلك سبقهم اليه و تدبير الأمر بإذن اللّه.

فالآيات الخمس إقسام بما يتلبس به الملائكه من الصفات عند ما يؤمرون بتدبير أمر من امور هذا العالم المشهود من حين يأخذون فى النزول اليه الى تمام التدبير.

و فيها إشاره الى نظام التدبير الملكوتى عند حدوث الحوادث كما أن الآيات التاليه أعنى قوله: «هَلْ أَتاكَ» الخ؛إشاره الى التدبير الربوبى الظاهر فى هذا العالم.

و فى التدبير الملكوتى حجه على البعث و الجزاء كما أن فى التدبير الدنيوى المشهود حجه عليه على ما سيوافيك إن شاء اللّه بيانه.

هذا ما يعطيه التدبر فى سياق الآيات الكريمه و يؤيده بعض التأييد ما سيأتى من الأخبار

ص :۵۸۴

فی البحث الروائی الآتی إن شاء اللّه (۱).

قوله تعالی: یَوْمَ تَرْجُفُ الرّٰاجِفَهُ تَتْبَعُهَا الرّٰادِفَهُ فسّرت الراجفه بالصیحه العظیمه التی فیها تردد و اضطراب و الرادفه بالمتأخره التابعه،و علیه تنطبق الآیتان علی نفختی الصور التی یدل علیهما قوله تعالی: وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِیهِ أُخْریٰ فَإِذٰا هُمْ قِیٰامٌ یَنْظُرُونَ (الزمر/۶۸).

و الأنسب بالسیاق علی أی حال کون قوله: «یَوْمَ تَرْجُفُ» الخ؛ظرفا لجواب القسم المحذوف للدلاله علی فخامته و بلوغه الغایه فی الشده و هو لتبعثنّ،و قیل:إن «یَوْمَ» منصوب علی معنی قلوب یومئذ واجفه یوم ترجف الراجفه،و لا یخلو من بعد.

قوله تعالی: قُلُوبٌ یَوْمَئِذٍ وٰاجِفَهٌ أَبْصٰارُهٰا خٰاشِعَهٌ تنکیر «قُلُوبٌ» للتنویع و هو مبتدأ خبره «وٰاجِفَهٌ» و الوجیف الاضطراب،و «یَوْمَئِذٍ» ظرف متعلق بواجفه و الجمله استئناف مبیّن لصفه الیوم.

و قوله: أَبْصٰارُهٰا خٰاشِعَهٌ ضمیر «أَبْصٰارُهٰا» للقلوب و نسبه الأبصار و إضافتها الی القلوب لمکان أن المراد بالقلوب فی أمثال هذه المواضع التی تضاف إلیها الصفات الإدراکیه کالعلم و الخوف و الرجاء و ما یشبهها هی النفوس،و قد تقدمت الإشاره إلیها.

و نسبه الخشوع الی الأبصار و هو من أحوال القلب إنما هی لظهور أثره الدال علیه فی الأبصار أقوی من سائر الأعضاء.

قوله تعالی: یَقُولُونَ أَ إِنّٰا لَمَرْدُودُونَ فِی الْحٰافِرَهِ إخبار و حکایه لقولهم فی الدنیا استبعادا منهم لوقوع البعث و الجزاء و إشاره الی أن هؤلاء الذین لقلوبهم و جیف و لأبصارهم خشوع یوم القیامه هم الذین ینکرون البعث و هم فی الدنیا و یقولون کذا و کذا.

۱- ۱) .النازعات ۱-۴۱:کلام فی ان الملائکه وسائط فی التدبیر.

و الحافره-على ما قيل-أول الشىء و مبتداه،و الاستفهام للإنكار استبعادا،و المعنى يقول هؤلاء:أ إنا لمردودون بعد الموت الى حالتنا الاولى و هى الحياه.

قوله تعالى: أَ إِذا كُنّا عِظاماً نَخِرَةً تكرار للاستفهام لتأكيد الاستبعاد فلو كانت الحياه بعد الموت مستبعده فهى مع فرض نخر العظام و تفتت الأجزاء أشد استبعادا،و النخر بفتحتين البلى و التفتت يقال:نخر العظم ينخر نخرا فهو ناخر و نخر.

قوله تعالى: قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ الإشاره بتلك الى معنى الرجعه المفهوم من قوله: «أَ إِنّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ» و الكره الرجعه و العطفه،و عدّ الكره خاسره إما مجاز و الخاسر بالحقيقه صاحبها،أو الخاسره بمعنى ذات خسران،و المعنى قالوا:تلك الرجعه -و هى الرجعه الى الحياه بعد الموت-رجعه متلبسه بالخسران.

و هذا قول منهم أوردوه استهزاء-على أن يكون قولهم: «أَ إِنّا لَمَرْدُودُونَ» الخ؛مما قالوه فى الدنيا-و لذا غير السياق و قال: «قالُوا تِلْكَ إِذاً» الخ؛بعد قوله: «يَقُولُونَ أَ إِنّا لَمَرْدُودُونَ» الخ؛و أما على تقدير أن يكون مما سيقولونه عند البعث فهو قول منهم على سبيل التشؤم و التحسر.

قوله تعالى: فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ بِالسّاهِرَةِ ضمير «هِيَ» للكرّه و قيل:للرادفه و المراد بها النفخه الثانيه؛و الزجر طرد بصوت و صياح عبّر عن النفخه الثانيه بالزجره لما فيها من نقلهم من نشأه الموت الى نشأه الحياه و من بطن الأرض الى ظهرها، و «فَإِذا» فجائيه،و الساهره الأرض المستويه أو الارض الخاليه من النبات.

و الآيات فى محل الجواب عما يدل عليه قولهم: «أَ إِنّا لَمَرْدُودُونَ» الخ؛من استبعاد البعث و استصعابه و المعنى لا يصعب علينا إحياؤهم بعد الموت و كرتهم فإنما كرتهم-أو الرادفه التى هى النفخه الثانيه-زجره واحده فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتا فى بطنها.

فالآيتان فی معنی قوله تعالی: وَ مٰا أَمْرُ اَلسّٰاعَهِ إِلاّٰ كَلَمْحِ اَلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ (النحل/ ۷۷).

قوله تعالی: هَلْ أَتٰاكَ حَدِيثُ مُوسىٰ الآیه الی تمام اثنتی عشره آیه إشاره الی إجمال قصه موسی و رسالته الی فرعون و رده دعوته الی أن أخذه اللّه نكال الآخره و الاولی.

و فیها عظه و إنذار للمشركین المنكرین للبعث و قد توسلوا به الی رد الدعوه الدینیه إذ لا معنی لتشریع الدین لو لا المعاد،و فیها مع ذلك تسلیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من تكذیب قومه،و تهدید لهم كما یؤیده توجیه الخطاب فی قوله: «هَلْ أَتٰاكَ»
.

و فی القصه مع ذلك كله حجه علی وقوع البعث و الجزاء فإن هلاك فرعون و جنوده تلك الهلكه الهائله دلیل علی حقیّه رساله موسی من جانب اللّه الی الناس و لا تتم رسالته من جانبه تعالی إلا بربوبیته منه تعالی للناس علی خلاف ما یزعمه المشركون أن لا ربوبیه له تعالی بالنسبه الی الناس و أن هناك أربابا دونه و أنه سبحانه رب الأرباب لا غیر.

ففی قوله: «هَلْ أَتٰاكَ حَدِيثُ مُوسىٰ» استفهام بداعی ترغیب السامع فی استماع الحدیث لیتسلی به هو و یكون للمنكرین إنذارا بما فیه من ذكر العذاب و إتماما للحجه كما تقدم.

و لا ینافی هذا النوع من الاستفهام تقدم علم السامع بالحدیث لأن الغرض توجیه نظر السامع الی الحدیث دون السؤال و الاستعلام حقیقه فمن الممكن أن تكون الآیات أول ما یقصه اللّه من قصه موسی أو تكون مسبوقه بذكر قصته كما فی سوره المزمل إجمالا-و هی أقدم نزولا من سوره النازعات-و فی سوره الأعراف و طه و غیرهما تفصیلا.

قوله تعالی: إِذْ نٰادٰاهُ رَبُّهُ بِالْوٰادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً ظرف للحدیث و هو أول ما أوحی اللّه الیه فقلده الرساله،و طوی اسم للوادی المقدس.

قوله تعالی: اِذْهَبْ إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغىٰ تفسیر للنداء،و قیل:الكلام علی تقدیر القول أی قائلا اذهب،الخ؛أو بتقدیر أن المفسره أی أن اذهب،الخ؛و فی الوجهین أن

التقدير مستغنى عنه،و قوله: «إِنَّهُ طَغىٰ» تعليل للأمر.

قوله تعالى: فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلىٰ أَنْ تَزَكّٰى متعلّق «إِلىٰ» محذوف و التقدير هل لك ميل الى أن تتزكّى أو ما فى معناه،و المراد بالتزكّى التطهّر من قذاره الطغيان.

قوله تعالى: وَ أَهْدِيَكَ إِلىٰ رَبِّكَ فَتَخْشىٰ عطف على قوله: «تَزَكّٰى» ،و المراد بهدايته إياه الى ربه-كما قيل-تعريفه له و إرشاده الى معرفته تعالى و تترتب عليه الخشيه منه الرادعه عن الطغيان و تعدّى طور العبوديه قال تعالى: إِنَّمٰا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبٰادِهِ الْعُلَمٰاءُ (فاطر/٢٨).

و المراد بالتزكّى إن كان هو التطهر عن الطغيان بالتوبه و الرجوع الى اللّه تعالى كانت الخشيه مترتبه عليه و المراد بها الخشيه الملازمه للإيمان الداعيه الى الطاعه و الرادعه عن المعصيه،و إن كان هو التطهر بالطاعه و تجنب المعصيه كان قوله: «وَ أَهْدِيَكَ إِلىٰ رَبِّكَ فَتَخْشىٰ» مفسّرا لما قبله و العطف عطف تفسير.

قوله تعالى: فَأَرٰاهُ الْآيَةَ الْكُبْرىٰ الفاء فصيحه و فى الكلام حذف و تقدير و الأصل فأتاه و دعاه فأراه،الخ.

و المراد بالآيه الكبرى على ما يظهر من تفصيل القصه آيه العصا،و قيل:المراد به مجموع معجزاته التى أراها فرعون و ملأه و هو بعيد.

قوله تعالى: فَكَذَّبَ وَ عَصىٰ أى كذّب موسى فجحد رسالته و سمّاه ساحرا و عصاه فيما أمره به أو عصى اللّه.

قوله تعالى: ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعىٰ الإدبار التولّى و السعى هو الجد و الاجتهاد أى ثم تولى فرعون يجد و يجتهد فى ابطال أمر موسى و معارضته.

قوله تعالى: فَحَشَرَ فَنٰادىٰ الحشر جمع الناس بإزعاج و المراد به جمعه الناس من أهل مملكته كما يدل عليه تفريع قوله: «فَنٰادىٰ فَقٰالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ» عليه فإنه كان يدّعى

الربوبیه لأهل مملکته جمیعا لا لطائفه خاصه منهم.

و قیل:المراد بالحشر جمع السحره لقوله تعالی: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِی الْمَدائِنِ حاشِرِینَ (الشعراء/۵۳)،و قوله: فَتَوَلّی فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ کَیْدَهُ ثُمَّ أَتی (طه/۶۰)و فیه أنه لا دلیل علی کون المراد بالحشر فی هذه الآیه هو عین المراد بالحشر و الجمع فی تینک الآیتین.

قوله تعالی: فَقالَ أَنَا رَبُّکُمُ الْأَعْلی دعوی الربوبیه و ظاهره أنه یدّعی أنه أعلی فی الربوبیه من سائر الأرباب التی کان یقول بها قومه الوثنیون فیفضّل نفسه علی سائر آلهتهم.

و لعل مراده بهذا التفضیل مع کونه و ثنیا یبعد الآلهه کما یدل علیه قوله تعالی حکایه عن ملائه یخاطبونه: أَ تَذَرُ مُوسی وَ قَوْمَهُ لِیُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ وَ یَذَرَکَ وَ آلِهَتَکَ (الأعراف/ ۱۲۷)أنه أقرب الآلهه منهم تجری بیده أرزاقهم و تصلح بأمره شئون حیاتهم و یحفظ بمشیته شرفهم و سؤددهم،و سائر الآلهه لیسوا علی هذه الصفه.

قوله تعالی: فَأَخَذَهُ اللّهُ نَکالَ الْآخِرَهِ وَ الْأُولی الأخذ کنایه عن التعذیب، و النکال التعذیب الذی یردع من رآه أو سمعه عن تعاطی مثله،و عذاب الآخره نکال حیث إن من شأنه أن یردع من سمعه عن تعاطی ما یؤدی الیه من المعصیه کما أن عذاب الاستئصال فی الدنیا نکال.

و المعنی:فأخذ اللّه فرعون أی عذبه و نکله نکال الآخره و الاولی و أما عذاب الدنیا فإغراقه و إغراق جنوده،و أما عذاب الآخره فعذابه بعد الموت،فالمراد بالأولی و الآخره الدنیا و الآخره.

قوله تعالی: إِنَّ فِی ذلِکَ لَعِبْرَهً لِمَنْ یَخْشی الإشاره الی حدیث موسی، و الظاهر أن مفعول «یَخْشی» منسی معرض عنه،و المعنی إن فی هذا الحدیث-حدیث موسی- لعبره لمن کان له خشیه و کان من غریزته أن یخشی الشقاء و العذاب و الانسان من غریزته ذلک

ففيه عبره لمن كان انسانا مستقيم الفطره.

قوله تعالى: أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها -الى قوله- وَ لِأَنْعامِكُمْ خطاب توبيخى للمشركين المنكرين للبعث المستهزئين به على سبيل العتاب و يتضمن الجواب عن استبعادهم البعث بقولهم: «أَ إِنّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ أَ إِذا كُنّا عِظاماً نَخِرَةً» بأن اللّه خلق ما هو أشد منكم خلقا فهو على خلقكم و إنشائكم النشأه الاخرى لقدير.

و يتضمن أيضا الإشاره الى الحجه على وقوع البعث حيث يذكر التدبير العام العالمى و ارتباطه بالعالم الإنسانى و لازمه ربوبيته تعالى،و لازم الربوبيه صحه النبوه و جعل التكاليف،و لازم ذلك الجزاء الذى موطنه البعث و الحشر،و لذا فرع عليه حديث البعث بقوله: «فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى» الخ.

فقوله: أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ استفهام توبيخى بداعى رفع استبعادهم البعث بعد الموت،و الإشاره الى تفصيل خلق السماء بقوله: «بَناها» الخ؛دليل أن المراد به تقرير كون السماء أشد خلقا.

و قوله: بَناها استئناف و بيان تفصيلى لخلق السماء.

و قوله: رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاها أى رفع سقفها و ما ارتفع منها،و تسويتها ترتيب أجزائه و تركيبها بوضع كل جزء فى موضعه الذى تقتضيه الحكمه كما فى قوله: فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي (الحجر/۲۹).

و قوله: وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها أى أظلم ليلها و أبرز نهارها،و الأصل فى معنى الضحى انبساط الشمس و امتداد النهار أريد به مطلق النهار بقرينه المقابله و نسبه الليل و الضحى الى السماء لأن السبب الأصلى لها سماوى و هو ظهور الأجرام المظلمه بشروق الأنوار السماويه كنور الشمس و غيره و خفاؤها بالاستتار و لا يختص الليل و النهار بالأرض التى نحن عليها بل يعمان سائر الأجرام المظلمه المستنيره.

و قوله: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحٰاهٰا أی بسطها و مدها بعد ما بنی السماء و رفع سمکها و سوّاها و أغطش لیلها و أخرج ضحاها.

و قوله: أَخْرَجَ مِنْهٰا مٰاءَهٰا وَ مَرْعٰاهٰا قیل:المرعی یطلق علی الرعی بالکسر فالسکون و هو الکلأ کما یجیء مصدرا میمیا،و اسم زمان و مکان،و المراد باخراج مائها منها تفجیر العیون و إجراء الأنهار علیها،و إخراج المرعی إنبات النبات علیها مما یتغذی به الحیوان و الإنسان فالظاهر أن المراد بالمرعی مطلق النبات الذی یتغذی به الحیوان و الانسان کما یشعر به قوله: «مَتٰاعاً لَکُمْ وَ لِأَنْعٰامِکُمْ» لا ما یختص بالحیوان کما هو الغالب فی استعماله.

و قوله: وَ الْجِبٰالَ أَرْسٰاهٰا أی أثبتها علی الارض لئلا تمید بکم و ادّخر فیها المیاه و المعادن کما ینبئ عنه سائر کلامه تعالی.

و قوله: مَتٰاعاً لَکُمْ وَ لِأَنْعٰامِکُمْ أی خلق ما ذکر من السماء و الأرض و دبر ما دبر من أمرها لیکون متاعا لکم و لأنعامکم التی سخرها لکم تتمتعون به فی حیاتکم فهذا الخلق و التدبیر الذی فیه تمتیعکم یوجب علیکم معرفه ربکم و خوف مقامه و شکر نعمته فهناک یوم تجزون فیه بما عملتم فی ذلک إن خیرا فخیرا و إن شرا فشرا کما أن هذا الخلق و التدبیر أشد من خلقکم فلیس لکم أن تستبعدوا خلقکم ثانیا و تستصعبوه علیه تعالی.

قوله تعالی: فَإِذٰا جٰاءَتِ الطَّامَّهُ الْکُبْریٰ فی المجمع:و الطامه العالیه الغالبه یقال:

هذا أطم من هذا أی أعلی منه،و طمّ الطائر الشجره أی علاها و تسمی الداهیه التی لا یستطاع دفعها طامه.انتهی،فالمراد بالطامه الکبری القیامه لأنها داهیه تعلو و تغلب کل داهیه هائله، و هذا معنی اتصافها بالکبری و قد اطلقت إطلاقا.

و تصدیر الجمله بفاء التفریع للإشاره الی أن مضمونها أعنی مجیء القیامه من لوازم خلق السماء و الارض و جعل التدبیر الجاری فیهما المترتبه علی ذلک کما تقدمت الإشاره الیه.

قوله تعالی: یَوْمَ یَتَذَکَّرُ الْإِنْسٰانُ مٰا سَعیٰ ظرف لمجیء الطامه الکبری،و السعی هو العمل بجد.

قوله تعالی: وَ بُرِّزَتِ الْجَحِیمُ لِمَنْ یَریٰ التبریز لإظهار و مفعول «یَریٰ» منسی معرض عنه و المراد بمن یری من له بصر یری به،و المعنی و اظهرت الجحیم بکشف الغطاء عنها لکل ذی بصر فیشاهدونها مشاهده عیان.

فالآیه فی معنی قوله تعالی: لَقَدْ کُنْتَ فِی غَفْلَهٍ مِنْ هٰذٰا فَکَشَفْنٰا عَنْکَ غِطٰاءَکَ فَبَصَرُکَ الْیَوْمَ حَدِیدٌ (ق/۲۲)غیر أن آیه ق أوسع معنی.

و الآیه ظاهره فی أن الجحیم مخلوقه قبل یوم القیامه و إنما تظهر یومئذ ظهورا بکشف الغطاء عنها.

قوله تعالی: فَأَمّٰا مَنْ طَغیٰ وَ آثَرَ الْحَیٰاهَ الدُّنْیٰا فَإِنَّ الْجَحِیمَ هِیَ الْمَأْویٰ وَ أَمّٰا مَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ وَ نَهَی النَّفْسَ عَنِ الْهَویٰ فَإِنَّ الْجَنَّهَ هِیَ الْمَأْویٰ تفصیل حال الناس یومئذ فی انقسامهم قسمین اقیم مقام الإجمال الذی هو جواب إذا المحذوف استغناء بالتفصیل عن الاجمال،و التقدیر فإذا جاءت الطامه الکبری انقسم الناس قسمین فأما من طغی،الخ.

و قد قسم تعالی الناس فی الآیات الثلاث الی أهل الجحیم و أهل الجنه-و قدم صفه أهل الجحیم لأن وجه الکلام الی المشرکین-و عرّف أهل الجحیم بما وصفهم به فی قوله: «مَنْ طَغیٰ وَ آثَرَ الْحَیٰاهَ الدُّنْیٰا» و قابل تعریفهم بتعریف أهل الجنه بقوله: «مَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ وَ نَهَی النَّفْسَ عَنِ الْهَویٰ» و سبیل ما وصف به الطائفتین علی أی حال سبیل بیان الضابط.

و إذ کانت الطائفتان متقابلتین بحسب حالهما کان ما بین لکل منهما من الوصف مقابلا لوصف الآخر فوصف أهل الجنه بالخوف من مقام ربهم-و الخوف تأثر الضعیف المقهور من القوی القاهر و خشوعه و خضوعه له-یقتضی کون طغیان أهل الجحیم-و الطغیان التعدی

عن الحد-هو عدم تأثرهم من قام ربهم بالاستكبار و خروجهم عن زى العبوديه فلا يخشعون و لا يخضعون و لا يجرون على ما أراده منهم و لا يختارون ما اختاره لهم من السعاده الخالده بل ما تهواه أنفسهم من زينه الحياه الدنيا.

و قوله: وَ أَمّٰا مَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ الخ؛المقام اسم مكان يراد به المكان الذى يقوم فيه جسم من الأجسام و هو الأصل فى معناه ككونه اسم زمان و مصدرا ميميا لكن ربما يعتبر ما عليه الشىء من الصفات و الأحوال محلا و مستقرا للشىء بنوع من العنايه فيطلق عليه المقام كالمنزله كما فى قوله تعالى فى الشهاده: فَآخَرٰانِ يَقُومٰانِ مَقٰامَهُمٰا (المائده۱۰۷/) و قول نوح عليه السّلام لقومه على ما حكاه اللّه إِنْ كٰانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقٰامِى وَ تَذْكِيرِى بِآيٰاتِ اللّٰهِ (يونس۷۱/)،و قول الملائكه على ما حكاه اللّه وَ مٰا مِنّٰا إِلاّٰ لَهُ مَقٰامٌ مَعْلُومٌ (الصافات/ ۱۶۴).

فمقامه تعالى المنسوب اليه بما أنه رب هو صفه ربوبيته بما تستلزمه أو تتوقف عليه من صفاته الكريمه كالعلم و القدره المطلقه و القهر و الغلبه و الرحمه و الغضب و ما يناسبها قال إيذانا به: وَ لاٰ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوىٰ وَ إِنِّى لَغَفّٰارٌ لِمَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً ثُمَّ اهْتَدىٰ (طه۸۲/)،و قال: نَبِّئْ عِبٰادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنَّ عَذٰابِى هُوَ الْعَذٰابُ الْأَلِيمُ (الحجر۵۰/).

فمقامه تعالى الذى يخوّف منه عباده مرحله ربوبيته التى هى المبدأ لرحمته و مغفرته لمن آمن و اتّقى و لأليم عذابه و شديد عقابه لمن كذّب و عصى.

[سوره النازعات (۷۹): الآيات ۴۲ الى ۴۶]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ اَلسّٰاعَةِ أَيّٰانَ مُرْسٰاهٰا (۴۲) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرٰاهٰا (۴۳) إِلىٰ رَبِّكَ مُنْتَهٰاهٰا (۴۴) إِنَّمٰا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشٰاهٰا (۴۵) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهٰا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّٰ عَشِيَّةً أَوْ ضُحٰاهٰا (۴۶)

بيان:

تعرّض لسؤالهم عن وقت قيام الساعه و رد له بأن علمه ليس لأحد إلا اللّه فقد خصّه بنفسه.

قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السّاعَةِ أَيّانَ مُرْساها الظاهر أن التعبير بيسألونك لإفاده الاستمرار فقد كان المشركون بعد ما سمعوا حديث القيامه يراجعون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يسألونه أن يعيّن لهم وقتها مصرّين على ذلك و قد تكرر فى القرآن الكريم الإشاره الى ذلك.

و المرسى مصدر ميمى بمعنى الإثبات و الإقرار و قوله: «أَيّانَ مُرْساها» بيان للسؤال و المعنى يسألك هؤلاء المنكرون للساعه المستهزءون به عن الساعه متى إثباتها و إقرارها؟أى متى تقوم القيامه.

قوله تعالى: فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها استفهام إنكارى و «فِيمَ أَنْتَ» مبتدأ و خبر، و «مِنْ» لابتداء الغايه،و الذكرى كثره الذكر و هو أبلغ من الذكر على ذكره الراغب.

و المعنى فى أى شىء أنت من كثره ذكر الساعه أى ما ذا يحصل لك من العلم بوقتها من ناحيه كثره ذكرها و بسبب ذلك أى لست تعلمها بكثره ذكرها.

أو الذكرى بمعنى حضور حقيقه معنى الشىء فى القلب،و المعنى-على الاستفهام الإنكارى-لست فى شىء من العلم بحقيقتها و ما هى عليه حتى تحيط بوقتها و هو أنسب من المعنى السابق.

قوله تعالى: إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها فى مقام التعليل لقوله: «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها»

و المعنى لست تعلم وقتها لأن انتهاءها الى ربك فلا يعلم حقيقتها و صفاتها و منها تعين الوقت إلا ربك فليس لهم أن يسألوا عن وقتها و ليس فى وسعك أن تجيب عنها.

و ليس من البعيد-و اللّه أعلم-أن تكون الآيه فى مقام التعليل بمعنى آخر و هو أن الساعه تقوم بفناء الأشياء و سقوط الأسباب و ظهور أن لا ملك إلا للّه الواحد القهار فلا ينتسب اليوم إلا اليه تعالى من غير أن يتوسط بالحقيقه بينه تعالى و بين اليوم أى سبب مفروض و منه الزمان فليس يقبل اليوم توقيتا بحسب الحقيقه.

و لذا لم يرد فى كلامه تعالى من التحديد إلا تحديد اليوم بانقراض نشأه الدنيا كقوله:

وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ (الزمر/۶۸)و ما فى معناه من الآيات الداله على خراب الدنيا بتبدل الأرض و السماء و انتثار الكواكب و غير ذلك.

و إلا تحديده بنوع من التمثيل و التشبيه كقوله تعالى: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا» ،و قوله: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ (الأحقاف/۳۵)،و قوله: «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ» ثم ذكر حق القول فى ذلك فقال: وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ (الروم/۵۶).

و يلوّح الى ما مر ما فى مواضع من كلامه أن الساعه لا تأتى إلا بغته،قال تعالى: ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (الأعراف/۱۸۷)الى غير ذلك من الآيات.

و هذا وجه عميق يحتاج فى تمامه الى تدبر واف ليرتفع به ما يتراءى من مخالفته لظواهر عده من آيات القيامه و عليك بالتدبر فى قوله تعالى: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق/۲۲)و ما فى معناه من الآيات و اللّه المستعان.

قوله تعالى: إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا أى إنما كلفناك بإنذار من يخشى

الساعه دون الإخبار بوقت قيام الساعه حتى تجيبهم عن وقتها إذا سألوك عنه فالقصر فى الآيه قصر إفراد بقصر شأنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الإنذار و تنفى عنه العلم بالوقت و تعيينه لمن يسأل عنه.

و المراد بالخشيه على ما يناسب المقام الخوف منها إذا ذكر بها أى شأنيه الخشيه لا فعليتها قبل الإنذار.

قوله تعالى: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا بيان لقرب الساعه بحسب التمثيل و التشبيه بأن قرب الساعه من حياتهم الدنيا بحيث مثلهم حين يرونها مثلهم لو لبثوا بعد حياتهم فى الأرض عشيه أو ضحى تلك العشيه أى وقتا نسبته الى نهار واحد نسبه العشيه الى ما قبلها منه أو نسبه الضحى الى ما قبله منه.

و قد ظهر بما تقدم أن المراد باللبث لبث ما بين الحياه الدنيا و البعث أى لبثهم فى القبور لأن الحساب يقع على مجموع الحياه الدنيا.

سوره عبس مكيه و هى اثنان و اربعون آيه

اشاره

[سوره عبس (۸۰): الآيات ۱ الى ۱۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;عَبَسَ وَ تَوَلّٰى (۱) أَنْ جٰاءَهُ اَلْأَعْمىٰ (۲) وَ مٰا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكّٰى (۳) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ اَلذِّكْرىٰ (۴) أَمّٰا مَنِ اِسْتَغْنىٰ (۵) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدّٰى (۶) وَ مٰا عَلَيْكَ أَلاّٰ يَزَّكّٰى (۷) وَ أَمّٰا مَنْ جٰاءَكَ يَسْعىٰ (۸) وَ هُوَ يَخْشىٰ (۹) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهّٰى (۱۰) كَلاّٰ إِنَّهٰا تَذْكِرَةٌ (۱۱) فَمَنْ شٰاءَ ذَكَرَهُ (۱۲) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (۱۳) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (۱۴) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (۱۵) كِرٰامٍ بَرَرَةٍ (۱۶)

ص: ۵۹۷

بیان:

وردت الروایات من طرق أهل السنه أن الآیات نزلت فی قصه ابن ام مکتوم الأعمی دخل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و عنده قوم من صنادید قریش یناجیهم فی أمر الإسلام فعبس النبی عنه فعاتبه اللّه تعالی بهذه الآیات و فی بعض الأخبار من طرق الشیعه إشاره الی ذلک.

و فی بعض روایات الشیعه أن العابس المتولی رجل من بنی أمیّه کان عند النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فدخل علیه ابن ام مکتوم فعبس الرجل و قبض وجهه فنزلت الآیات:و سیوافیک تفصیل البحث عن ذلک فی البحث الروائی التالی إن شاء اللّه تعالی.

و کیف کان الأمر فغرض السوره عتاب من یقدم الأغنیاء و المترفین علی الضعفاء و المساکین من المؤمنین فیرفع أهل الدنیا و یضع أهل الآخره ثم ینجر الکلام الی الإشاره الی هوان أمر الإنسان فی خلقه و تناهیه فی الحاجه الی تدبیر أمره و کفره مع ذلک بنعم ربه و تدبیره العظیم لأمره و تتخلص الی ذکر بعثه و جزائه إنذارا،و السوره مکیه بلا کلام.

قوله تعالی: عَبَسَ وَ تَوَلّٰی أی بسر و قبض وجهه و أعرض.

قوله تعالی: أَنْ جٰاءَهُ الْأَعْمیٰ تعلیل لما ذکر من العبوس بتقدیر لام التعلیل.

قوله تعالی: وَ مٰا یُدْرِیکَ لَعَلَّهُ یَزَّکّٰی أَوْ یَذَّکَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّکْریٰ حال من فاعل

«عَبَسَ وَ تَوَلّٰى» و المراد بـالتزكى التطهر بعمـل صالـح بعـد التـذكر الـذى هو الاتعاظ و الانتباه للاعتقاد الحق،و نفع الـذكرى هو دعوتها الى التزكى بالإيمان و العمل الصالح.

و محصـل المعنى:بسر و أعرض عن الأعمى لما جاءه و الحال أنه ليس يـدرى لعل الأعمى الـذى جاءه يتطهر بصالـح العمل بعد الإيمان بسبب مجيئه و تعلّمه و قد تذكر قبل أو يتذكر بسبب مجيئه و اتعاظه بما يتعلم فتنفعه الذكرى فيتطهر.

و فى الآيات الأربع عتاب شديـد و يزيـد شـده بإتيان الآيتين الاوليين فى سـياق الغيبه لما فيه من الإعراض عن المشافهه و الدلاله على تشديـد الإنكار و إتيان الآيتين الأخيرتين فى سـياق الخطاب لما فيه من تشديـد التوبيـخ و إلزام الحجه بسـبب المواجهه بعد الإعراض و التقريع من غير واسطه.

و فى التعبير عن الجائى بالأعمى مزيـد توبيـخ لما أن المحتاج الساعى فى حاجته إذا كان أعمى فاقـدا للبصـر و كانت حاجته فى دينه دعته الى السعى فيها خشيه اللّه كان من الحرى أن يرحم و يخص بمزيد الإقبال و التعطف لا أن ينقبض و يعرض عنه.

و قيل-بناء على كون المراد بالمعاتب هو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-:أن فى التعبير عنه أولا بضمير الغيبه إجلالا له لإيهام أن من صدر عنه العبوس و التولى غيره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأنه لا يصدر مثله عن مثله،و ثانيا بضـمير الخطاب إجلالا له أيضا لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش و الإقبال بعد الإعراض.

و فيه أنه لا يلائمه الخطاب فى قوله بعـد: «أَمّٰا مَنِ اسْتَغْنىٰ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدّٰى» الخ؛و العتاب و التوبيخ فيه أشد مما فى قوله: «عَبَسَ وَ تَوَلّٰى» الخ؛و لا إيناس فيه قطعا.

قوله تعالى: أَمّٰا مَنِ اسْتَغْنىٰ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدّٰى وَ مٰا عَلَيْكَ أَلاّٰ يَزَّكّٰى الغنى و الاستغناء و التغنى و التغانى بمعنى على ما ذكره الراغب فالمراد بمن استغنى من تلبّس بالغنى و لازمه التقدم و الرئاسه و العظمه فى أعين الناس و الاستكبار عن اتباع الحق قال تعالى: إِنَّ

الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى (العلق/۷)و التصدى التعرض للشیء بالإقبال علیه و الاهتمام بأمره.

و فی الآیه الی تمام ست آیات إشاره الی تفصیل القول فی ملاک ما ذکر من العبوس و التولی فعوتب علیه و محصله أنک تعتنی و تقبل علی من استغنی و استکبر عن اتباع الحق و ما علیک أن لا یزکی و تتلهی و تعرض عمن یجتهد فی التزکی و هو یخشی.

و قوله: وَ ما عَلَیْکَ أَلاّ یَزَّکّی قیل: «ما» نافیه و المعنی و لیس علیک بأس أن لا یتزکی حتی یبعثک الحرص علی إسلامه الی الاعراض و التلهی عمن أسلم و الإقبال علیه.

و قیل: «ما» للاستفهام الإنکاری و المعنی و أی شیء یلزمک إن لم یتطهر من الکفر و الفجور فإنما أنت رسول لیس علیک إلا البلاغ.

و قیل:المعنی و لا تبالی بعدم تطهره من دنس الکفر و الفجور و هذا المعنی أنسب لسیاق العتاب ثم الذی قبله ثم الذی قبله.

قوله تعالی: وَ أَمّا مَنْ جاءَکَ یَسْعی و هُوَ یَخْشی فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهّی السعی الإسراع فی المشی فمعنی قوله: «وَ أَمّا مَنْ جاءَکَ یَسْعی» بحسب ما یفیده المقام:و أما من جاءک مسرعا لیتذکر و یتزکی بما یتعلم من معارف الدین.

و قوله: وَ هُوَ یَخْشی أی یخشی اللّه و الخشیه آیه التذکر بالقرآن قال تعالی: ما أَنْزَلْنا عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لِتَشْقی إِلاّ تَذْکِرَةً لِمَنْ یَخْشی (طه/۳)،و قال: سَیَذَّکَّرُ مَنْ یَخْشی (الأعلی/۱۰).

و قوله: فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهّی أی تتلهی و تتشاغل بغیره و تقدیم ضمیر «انْتَ» فی قوله: «فَأَنْتَ لَهُ تَصَدّی» و قوله: «فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهّی» و کذا الضمیرین «لَهُ» و «عَنْهُ» فی الآیتین لتسجیل العتاب و تثبیته.

قوله تعالی: کَلاّ إِنَّها تَذْکِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَکَرَهُ «کَلاّ» ردع عما عوتب علیه من

العبوس و التولی و التصدی لمن استغنی و التلهی عمن یخشی.

و الضمیر فی «إِنَّها تَذْكِرَةٌ» للآیات القرآنیه أو للقرآن و تأنیث الضمیر لتأنیث الخبر و المعنی إن الآیات القرآنیه أو القرآن تذكره أی موعظه یتعظ بها من اتعظ أو مذكر یذكر حق الاعتقاد و العمل.

و قوله: فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ جمله معترضه و الضمیر للقرآن أو ما یذكر به القرآن من المعارف،و المعنی فمن شاء ذكر القرآن أو ذكر ما یذكر به القرآن و هو الانتقال الی ما تهدی الیه الفطره مما تحفظه فی لوحها من حق الاعتقاد و العمل.

و فی التعبیر بهذا التعبیر «فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ» تلویح الی أن لا إكراه فی الدعوه الی التذكر فلا نفع فیها یعود الی الداعی و إنما المنتفع بها المتذكر فلیختر ما یختاره.

قوله تعالی: فِی صُحُفٍ مُكَرَّمَهٍ مَرْفُوعَهٍ مُطَهَّرَهٍ قال فی المجمع:الصحف جمع صحیفه،و العرب تسمی كل مكتوب فیه صحیفه كما تسمیه كتابا رقا كان أو غیره انتهی.

و «فِی صُحُفٍ» خبر بعد خبر لإن و ظاهره أنه مكتوب فی صحف متعدده بأیدی ملائكه الوحی،و هذا یضعّف القول بأن المراد بالصحف اللوح المحفوظ و لم یرد فی كلامه تعالی إطلاق الصحف و لا الكتب و لا الألواح بصیغه الجمع علی اللوح المحفوظ،و نظیره فی الضعف القول بأن المراد بالصحف كتب الأنبیاء الماضین لعدم ملاءمته لظهور قوله: «بِأَیْدِی سَفَرَهٍ» الخ؛فی أنه صفه لصحف.

و قوله: مُكَرَّمَهٍ أی معظمه،و قوله: «مَرْفُوعَهٍ» أی قدرا عند اللّه،و قوله: «مُطَهَّرَهٍ» أی من قذاره الباطل و لغو القول و الشک و التناقض قال تعالی: لا یَأْتِیهِ الْباطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ (حم السجده/۴۲)،و قال: إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ (الطارق/۱۴)و قال: ذٰلِكَ الْكِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ (البقره/۲)،و قال: وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً كَثِیراً (النساء/۸۲).

قوله تعالى: بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرٰامٍ بَرَرَةٍ صفه بعد صفه لصحف،و السفره هم السفراء جمع سفير بمعنى الرسول و «كِرٰامٍ» صفه لهم باعتبار ذواتهم و «بَرَرَةٍ» صفه لهم باعتبار عملهم و هو الإحسان فى الفعل.

و معنى الآيات أن القرآن تذكره مكتوبه فى صحف متعدده معظمه مرفوعه قدرا مطهرا من كل دنس و قذاره بأيدى سفراء من الملائكه كرام على ربهم بطهاره ذواتهم برره عنده تعالى بحسن أعمالهم.

و يظهر من الآيات أن للوحى ملائكه يتصدون لحمل الصحف و إيحاء ما فيها من القرآن فهم أعوان جبريل و تحت أمره و نسبه إلقاء الوحى اليهم لا تنافى نسبته الى جبريل فى مثل قوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ (الشعراء/۱۹۴)و قد قال تعالى فى صفته: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطٰاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (التكوير/۲۱)فهو مطاع من الملائكه من يصدر عن أمره و يأتى بما يريده و الإيحاء الذى هو فعل أعوانه فعله كما أن فعله و فعلهم جميعا فعل اللّه و ذلك نظير كون التوفى الذى هو فعل أعوان ملك الموت فعله،و فعله و فعلهم جميعا فعل اللّه تعالى،و قد تقدمت الإشاره الى هذا البحث مرارا (۱).

[سوره عبس (۸۰): الآيات ۱۷ الى ۴۲]

قُتِلَ اَلْإِنْسٰانُ مٰا أَكْفَرَهُ (۱۷) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (۱۸) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (۱۹) ثُمَّ اَلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ (۲۰) ثُمَّ أَمٰاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (۲۱) ثُمَّ إِذٰا شٰاءَ أَنْشَرَهُ (۲۲) كَلاّٰ لَمّٰا يَقْضِ مٰا أَمَرَهُ (۲۳) فَلْيَنْظُرِ اَلْإِنْسٰانُ إِلىٰ طَعٰامِهِ (۲۴) أَنّٰا صَبَبْنَا اَلْمٰاءَ صَبًّا (۲۵) ثُمَّ شَقَقْنَا اَلْأَرْضَ شَقًّا (۲۶) فَأَنْبَتْنٰا فِيهٰا حَبًّا (۲۷) وَ عِنَباً وَ قَضْباً (۲۸) وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلاً (۲۹) وَ حَدٰائِقَ غُلْباً (۳۰) وَ فٰاكِهَةً وَ أَبًّا (۳۱) مَتٰاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعٰامِكُمْ (۳۲) فَإِذٰا جٰاءَتِ اَلصّٰاخَّةُ (۳۳) يَوْمَ يَفِرُّ اَلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (۳۴) وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (۳۵) وَ صٰاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ (۳۶) لِكُلِّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (۳۷) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (۳۸) ضٰاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (۳۹) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهٰا غَبَرَةٌ (۴۰) تَرْهَقُهٰا قَتَرَةٌ (۴۱) أُولٰئِكَ هُمُ اَلْكَفَرَةُ اَلْفَجَرَةُ (۴۲)

ص: ۶۰۲

۱- ۱) .عبس ۱-۱۶:بحث روائى حول نزول سوره عبس؛ليست الآيات ظاهره الدلاله على ان المراد بالذى عبس و تولى هو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،خلق رسول اللّه العظيم.

بیان:

قوله تعالی: قُتِلَ الْإِنْسٰانُ مٰا أَكْفَرَهُ دعاء علی الإنسان لما أنّ فی طبعه التوغل فی اتباع الهوی و نسیان ربوبیه ربه و الاستكبار عن اتباع أوامره.

و قوله: مٰا أَكْفَرَهُ تعجیب من مبالغه فی الكفر و ستر الحق الصریح و هو یری أنه مدبر بتدبیر اللّه لا یملک شیئا من تدبیر أمره غیره تعالی.

فالمراد بالكفر مطلق ستر الحق و ینطبق علی إنكار الربوبیه و ترک العباده و یؤیده ما فی ذیل الآیه من الاشاره الی جهات من التدبیر الربوبی المتناسبه مع الكفر بمعنی ستر الحق و ترک العباده،و قد فسر بعضهم الكفر بترک الشكر و كفران النعمه و هو و إن كان معنی صحیحا فی نفسه لكن الأنسب بالنظر الی السیاق هو المعنی المتقدم.

قال فی الكشاف: «قُتِلَ الْإِنْسٰانُ» دعاء علیه و هی من أشنع دعواتهم لأن القتل قصاری شدائد الدنیا و فظائعها و «مٰا أَكْفَرَهُ» تعجب من إفراطه فی كفران نعمه اللّه و لا ترى اسلوبا أغلظ منه،و لا أخشن مسا،و لا أدل علی سخط،و لا أبعد شوطا فی المذمه مع تقارب طرفیه، و لا أجمع للأئمه علی قصر متنه،انتهی.

قوله تعالی: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ معناه علی ما یعطیه المقام من أی شیء خلق اللّه الإنسان حتی یحق له أن یطغی و یستكبر عن الإیمان و الطاعه،و حذف فاعل قوله: «خَلَقَهُ» و ما بعده من الأفعال للإشعار بظهوره فمن المعلوم بالفطره-و قد اعترف به المشركون-أن لا خالق إلا اللّه تعالی.

و الاستفهام بداعی تأکید ما فی قوله: «مٰا أَکْفَرَهُ» من العجب-و العجب إنما هو فی الحوادث التی لا یظهر لها سبب-فافید أولا:أن من العجب إفراط الإنسان فی کفره ثم سئل ثانیا:هل فی خلقته إذ خلقه اللّه ما یوجب له الإفراط فی الکفر فاجیب بنفیه و أن لا حجه له یحتج بها و لا عذر یعتذر به فإنه مخلوق من ماء مهین لا یملک شیئا من خلقته و لا من تدبیر أمره فی حیاته و مماته و نشره،و بالجمله الاستفهام توطئه للجواب الذی فی قوله: «مِنْ نُطْفَهٍ خَلَقَهُ» الخ.

قوله تعالی: مِنْ نُطْفَهٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ تنکیر «نُطْفَهٍ» للتحقیر أی من نطفه مهینه حقیره خلقه فلا یحق له و أصله هذا الأصل أن یطغی بکفره و یستکبر عن الطاعه.

و قوله: فَقَدَّرَهُ أی أعطاه القدر فی ذاته و صفاته و أفعاله فلیس له أن یتعدی الطور الذی قدر له و یتجاوز الحد الذی عین له فقد أحاط به التدبیر الربوبی من کل جانب لیس له أن یستقل بنیل ما لم یقدر له.

قوله تعالی: ثُمَّ السَّبِیلَ یَسَّرَهُ ظاهر السیاق المقصود به نفی العذر من الإنسان فی کفره و استکباره أن المراد بالسبیل-و قد أطلق-السبیل الی طاعه اللّه و امتثال أوامره و إن شئت فقل:السبیل الی الخیر و السعاده.

فتکون الآیه فی معنی دفع الدخل فإنه إذا قیل «مِنْ نُطْفَهٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ» أمکن أن یتوهم السامع أن الخلق و التقدیر إذا کانا محیطین بالإنسان من کل جهه کانت أفعال الانسان لذاته و صفاته مقدره مکتوبه و متعلقه لمشیه الربوبیه التی لا تتخلف فتکون أفعال الانسان ضروریه الثبوت واجبه التحقق و الإنسان مجبرا علیها فاقدا للاختیار فلا صنع للإنسان فی کفره إذا کفر و لا فی فسقه إذا فسق و لم یقض ما أمره اللّه به و إنما ذلک بتقدیره تعالی و إرادته فلا ذم و لا لائمه علی الإنسان و لا دعوه دینیه تتعلق به لأن ذلک کله فرع للاختیار و لا اختیار.

فدفع الشبهه بقوله: «ثُمَّ السَّبِیلَ یَسَّرَهُ» و محصله أن الخلق و التقدیر لا ینافیان کون

الانسان مختارا فيما أمر به من الإيمان و الطاعه له طريق الى السعاده التى خلق لها فكل ميسر لما خلق له و ذلك أن التقدير واقع على الأفعال الانسانيه من طريق اختياره،و الإراده الربوبيه متعلقه بأن يفعل الانسان بإرادته و اختياره كذا و كذا فالفعل صادر عن الانسان باختياره و هو بما أنه اختيارى متعلق للتقدير.

فالانسان مختار فى فعله مسئول عنه و إن كان متعلقا للقدر،و قد تقدم البحث عن هذا المعنى كرارا فى ذيل الآيات المناسبه له فى هذا الكتاب.

قوله تعالى: ثُمَّ أَمٰاتَهُ فَأَقْبَرَهُ الإماته إيقاع الموت على الانسان،و المراد بالإقبار دفنه فى القبر و إخفاؤه فى بطن الأرض و هذا بالبناء على الغالب الذى جرى عليه ديدن الناس و بهذه المناسبه نسب اليه تعالى لأنه تعالى هو الذى هداهم الى ذلك و ألهمهم إياه فللفعل نسبه اليه كما له نسبه الى الناس.

قوله تعالى: ثُمَّ إِذٰا شٰاءَ أَنْشَرَهُ فى المجمع:الإنشار الإحياء للتصرف بعد الموت كنشر الثوب بعد الطى.انتهى،فالمراد به البعث إذا شاء اللّه،و فيه إشاره الى كونه بغته لا يعلمه غيره تعالى.

قوله تعالى: كَلاّٰ لَمّٰا يَقْضِ مٰا أَمَرَهُ الذى يعطيه السياق أن «كَلاّٰ» ردع عن معنى سؤال يستدعيه السياق و يلوح اليه قوله: «لَمّٰا يَقْضِ مٰا أَمَرَهُ» كأنه لما أشير الى أن الإنسان مخلوق مدبر له تعالى من أول وجوده الى آخره من خلق و تقدير و تيسير للسبيل و إماته و إقبار و إنشار و كل ذلك نعمه منه تعالى سئل فقيل:فما ذا صنع الإنسان و الحال هذه الحال و هل خضع للربوبيه أو هل شكر النعمه فاجيب و قيل:كلا،ثم أوضح فقيل:لما يقض ما أمره اللّه به بل كفر و عصى.

قوله تعالى: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسٰانُ إِلىٰ طَعٰامِهِ متفرع على ما تقدم تفرع التفصيل على الإجمال ففيه توجيه نظر الإنسان الى طعامه الذى يقتات به و يستمد منه لبقائه و هو واحد مما

لا یحصی مما هیأه التدبیر الربوبی لرفع حوائجه فی الحیاه حتی یتأمله فیشاهد سعه التدبیر الربوبی التی تدهش لبه و تحیر عقله،و تعلق العنایه الإلهیه-علی دقتها و إحاطتها-بصلاح حاله و استقامه أمره.

و المراد بالانسان-کما قیل-غیر الإنسان المتقدم المذکور فی قوله: «قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَکْفَرَهُ» فإن المراد به خصوص الإنسان المبالغ فی الکفر بخلاف الإنسان المذکور فی هذه الآیه المأمور بالنظر فإنه عام شامل لکل إنسان،و لذلک أظهر و لم یضمر.

قوله تعالی: أَنّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا -الی قوله- وَ لِأَنْعامِکُمْ القراءه الدائره «أَنّا» بفتح الهمزه و هو بیان تفصیلی لتدبیره تعالی طعام الإنسان نعم هو مرحله ابتدائیه من التفصیل و أما القول المستوفی لبیان خصوصیات النظام الذی هیأ له هذه الامور و النظام الوسیع الجاری فی کل من هذه الامور و الروابط الکونیه التی بین کل واحد منها و بین الإنسان فمما لا یسعه نطاق البیان عاده.

و بالجمله قوله: «أَنّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا» الصب اراقه الماء من العلو،و المراد بصب الماء إنزال الأمطار علی الأرض لإنبات النبات،و لا یبعد أن یشمل إجراء العیون و الأنهار فإن ما فی بطن الأرض من ذخائر الماء إنما یتکون من الأمطار.

و قوله: ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ظاهره شق الأرض بالنبات الخارج منها و لذا عطف علی صب الماء بثم و عطف علیه إنبات الحب بالفاء.

و قوله: فَأَنْبَتْنا فِیها حَبًّا ضمیر «فِیها» للأرض،و المراد بالحبّ جنس الحبّ الذی یقتات به الإنسان کالحنطه و الشعیر و نحوهما و کذا فی العنب و القضب و غیرهما.

و قوله: وَ عِنَباً وَ قَضْباً العنب معروف،و یطلق علی شجر الکرم و لعله المراد فی الآیه و نظیره الزیتون.

و القضب هو الغض الرطب من البقول الذی یأکله الإنسان یقضب أی یقطع مره بعد

أخرى،و قيل:هو ما يقطع من النبات فتعلف به الدواب.

و قوله: وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلاً معروفان.

و قوله: وَ حَدائِقَ غُلْباً الحدائق جمع حديقه و هى على ما فسر البستان المحوط و الغلب جمع غلباء يقال:شجره غلباء أى عظيمه غليظه فالحدائق الغلب البساتين المشتمله على أشجار عظام غلاظ.

و قوله: وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا قيل:الفاكهه مطلق الثمار،و قيل:ما عدا العنب و الرّمان.قيل:

ان ذكر ما يدخل فى الفاكهه أولا كالزيتون و النخل للاعتناء بشأنه و الأب الكلاء و المرعى.

و قوله: مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ مفعول له أى أنبتنا ما أنبتنا مما تطعمونه ليكون تمتيعا لكم و للأنعام التى خصصتموها بأنفسكم.

و الالتفات عن الغيبه الى الخطاب فى الآيه لتأكيد الامتنان بالتدبير أو بإنعام النعمه.

قوله تعالى: فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ إشاره الى ما ينتهى اليه ما ذكر من التدبير العام الربوبى للانسان بما أن فيه أمرا ربوبيا إلهيا بالعبوديه يقضيه الانسان أو لا يقضيه و هو يوم القيامه الذى يوفّى فيه الانسان جزاء أعماله.

و الصاخه:الصيحه الشديده التى تصم الأسماع من شدتها،و المراد بها نفخه الصور.

قوله تعالى: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ إشاره الى شده اليوم فالذين عدوا من أقرباء الانسان و أخصائه هم الذين كان يأوى اليهم و يأنس بهم و يتخذهم أعضادا و أنصارا يلوذ بهم فى الدنيا لكنه يفر منهم يوم القيامه لما أن الشده أحاطت به بحيث لا تدعه يشتغل بغيره و يعتنى بما سواه كائنا من كان فالبلبله اذا عظمت و اشتدت و أطلت على الانسان جذبته الى نفسها و صرفته عن كل شىء.

و الدليل على هذا المعنى قوله بعد: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» أى يكفيه من أن يشتغل بغيره.

قوله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضٰاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ بيان لانقسام الناس يومئذ الى قسمين:أهل السعاده و أهل الشقاء،و إشاره الى أنهم يعرفون بسيماهم فى وجوههم و إسفار الوجه إشراقه و إضاءته فرحا و سرورا و استبشاره تهلله بمشاهده ما فيه البشرى.

قوله تعالى: وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهٰا غَبَرَةٌ هى الغبار و الكدوره و هى سيماء الهم و الغم.

قوله تعالى: تَرْهَقُهٰا قَتَرَةٌ أى يعلوها و يغشاها سواد و ظلمه،و قد بين حال الطائفتين فى الآيات الأربع ببيان حال وجوههما لأن الوجه مرآه القلب فى سروره و مساءته.

قوله تعالى: أُولٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ أى الجامعون بين الكفر اعتقادا و الفجور و هو المعصيه الشنيعه عملا أو الكافرون بنعمه اللّه الفاجرون،و هذا تعريف للطائفه الثانيه و هم أهل الشقاء و لم يأت بمثله فى الطائفه الاولى و هم أهل السعاده لأن الكلام مسوق للانذار و الاعتناء بشأن أهل الشقاء.

سوره التکویر مکیه و هی تسع و عشرون آیه

اشاره

[سوره التکویر (۸۱): الآیات ۱ الی ۱۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;إِذَا اَلشَّمْسُ کُوِّرَتْ (۱) وَ إِذَا اَلنُّجُومُ اِنْکَدَرَتْ (۲) وَ إِذَا اَلْجِبٰالُ سُیِّرَتْ (۳) وَ إِذَا اَلْعِشٰارُ عُطِّلَتْ (۴) وَ إِذَا اَلْوُحُوشُ حُشِرَتْ (۵) وَ إِذَا اَلْبِحٰارُ سُجِّرَتْ (۶) وَ إِذَا اَلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ (۷) وَ إِذَا اَلْمَوْؤُدَهُ سُئِلَتْ (۸) بِأَیِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (۹) وَ إِذَا اَلصُّحُفُ نُشِرَتْ (۱۰) وَ إِذَا اَلسَّمٰاءُ کُشِطَتْ (۱۱) وَ إِذَا اَلْجَحِیمُ سُعِّرَتْ (۱۲) وَ إِذَا اَلْجَنَّهُ أُزْلِفَتْ (۱۳) عَلِمَتْ نَفْسٌ مٰا أَحْضَرَتْ (۱۴)

ص: ۶۱۰

بيان:

تذكر السوره يوم القيامه بذكر بعض أشراطها و ما يقع فيه أو تصفه بأنه يوم ينكشف فيه للإنسان ما عمله من عمل ثم تصف القرآن بأنه مما ألقاه الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رسول سماوى و هو ملك الوحى و ليس بإلقاء شيطانى و لا أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مجنون يمسه الشيطان.

و يشبه أن تكون السوره من السور العتائق النازله فى أوائل البعثه كما يشهد به ما فيها من تنزيهه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مما رموه به من الجنون و قد اتهموه به فى أوائل الدعوه و قد اشتملت على تنزيهه منه سوره «ن» و هى من العتائق.

و السوره مكيه بلا كلام.

قوله تعالى: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ التكوير اللف على طريق الإداره كلف العمامه على الرأس،و لعل المراد بتكوير الشمس انظلام جرمها على نحو الإحاطه استعاره.

قوله تعالى: وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ انكدار الطائر من الهواء انقضاضه نحو الأرض،و عليه فالمراد سقوط النجوم كما يفيده قوله: وَ إِذَا الْكَوٰاكِبُ انْتَثَرَتْ (الانفطار/ ٢)و يمكن أن يكون من الانكدار بمعنى التغيّر و قبول الكدوره فيكون المراد به ذهاب ضوئها.

قوله تعالى: وَ إِذَا الْجِبٰالُ سُيِّرَتْ بما يصيبها من زلزلت الساعه من التسيير فتندك و تكون هباء منبثا و تصير سرابا على ما ذكره سبحانه فى مواضع من كلامه.

قوله تعالى: وَ إِذَا الْعِشٰارُ عُطِّلَتْ قيل: «الْعِشٰارُ جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء و هى الناقه الحامل التى أتت عليها عشره أشهر فتسمى عشراء حتى تضع حملها و ربما سميت

عشراء بعد الوضع أيضا و هی من أنفس المال عند العرب.

و تعطیل العشار ترکها مهمله لا راعی لها و لا حافظ یحفظها و کأن فی الجمله إشاره علی نحو الکنایه الی أن نفائس الأموال التی یتنافس فیها الإنسان تبقی الیوم و لا صاحب لها یتملکها و یتصرف فیها لأنهم مشغولون بأنفسهم عن کل شیء کما قال: لِکُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ یَوْمَئِذٍ شَأْنٌ یُغْنِیهِ (عبس۳۷/).

قوله تعالی: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ الوحوش جمع وحش و هو من الحیوان ما لا یتأنّس بالإنسان کالسباع و غیرها.

و ظاهر الآیه من حیث وقوعها فی سیاق الآیات الواصفه لیوم القیامه أن الوحوش محشوره کالإنسان،و یؤیده قوله تعالی: وَ مٰا مِنْ دَابَّهٍ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ طٰائِرٍ یَطِیرُ بِجَنٰاحَیْهِ إِلاّٰ أُمَمٌ أَمْثٰالُکُمْ مٰا فَرَّطْنٰا فِی الْکِتٰابِ مِنْ شَیْءٍ ثُمَّ إِلیٰ رَبِّهِمْ یُحْشَرُونَ (الأنعام۳۸/).

و أما تفصیل حالها بعد الحشر و ما یؤول الیه أمرها فلم یرد فی کلامه تعالی و لا فیما یعتمد علیه من الاخبار ما یکشف عن ذلک نعم ربما استفید من قوله فی آیه الأنعام: «أُمَمٌ أَمْثٰالُکُمْ» ، و قوله: «مٰا فَرَّطْنٰا فِی الْکِتٰابِ مِنْ شَیْءٍ» بعض ما یتضح به الحال فی الجمله لا یخفی علی الناقد المتدبر،و ربما قیل:إن حشر الوحوش من أشراط الساعه لا مما یقع یوم القیامه و المراد به خروجها من غاباتها و أکنانها.

قوله تعالی: وَ إِذَا الْبِحٰارُ سُجِّرَتْ فسّر التسجیر بإضرام النار و فسر بالملإ و المعنی علی الأول و إذا البحار أضرمت نارا،و علی الثانی و إذا البحار ملئت.

قوله تعالی: وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ أما نفوس السعداء فبنساء الجنه قال تعالی:

لَهُمْ فِیهٰا أَزْوٰاجٌ مُطَهَّرَهٌ (النساء۵۷/)،و قال: وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِینٍ (الدخان/ ۵۴)و أما نفوس الأشقیاء فبقرناء الشیاطین قال تعالی: اُحْشُرُوا الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ مٰا کٰانُوا یَعْبُدُونَ (الصافات۲۲/)،و قال: وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطٰاناً

فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (الزخرف/٣۶).

قوله تعالى: وَ إِذَا الْمَوْؤُدَهُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ الموؤده البنت التى تدفن حيه و كانت العرب تئد البنات خوفا من لحوق العار بهم من أجلهن كما يشير اليه قوله تعالى:

وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ (النحل/۵۹).

و المسئول بالحقيقه عن قتل الموؤده أبوها الوائد لها لينتصف منه و ينتقم لكن عد المسئول فى الآيه هى الموؤده نفسها فسئلت عن سبب قتلها لنوع من التعريض و التوبيخ لقاتلها و توطئه لأن تسأل اللّه الانتصاف لها من قاتلها حتى يسأل عن قتلها فيؤخذ لها منه،فالكلام نظير قوله تعالى فى عيسى عليه السلام: وَ إِذْ قالَ اللّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ (المائده/١١۶).

قوله تعالى: وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ أى للحساب،و الصحف كتب الأعمال.

قوله تعالى: وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ فى المجمع الكشط القلع عن شده التزاق فينطبق على طيها كما فى قوله: وَ السَّماواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ (الزمر/۶٧)،و قوله: وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً (الفرقان/٢۵)و غير ذلك من الآيات المفصحه عن هذا المعنى.

قوله تعالى: وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ التسعير تهييج النار حتى تتأجج.

قوله تعالى: وَ إِذَا الْجَنَّهُ أُزْلِفَتْ الإزلاف التقريب و المراد تقريبها من أهلها للدخول.

قوله تعالى: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ جواب اذا،و المراد بالنفس الجنس و المراد بما أحضرت عملها الذى عملته يقال:أحضرت الشىء أى وجدته حاضرا كما يقال:

أحمدته أى وجدته محمودا.

ص :۶١٣

فالآیه فی معنی قوله تعالی: یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران۳۰/) (۱).

[سوره التکویر (۸۱): الآیات ۱۵ الی ۲۹]

فَلاٰ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (۱۵) اَلْجَوٰارِ اَلْکُنَّسِ (۱۶) وَ اَللَّیْلِ إِذٰا عَسْعَسَ (۱۷) وَ اَلصُّبْحِ إِذٰا تَنَفَّسَ (۱۸) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ کَرِیمٍ (۱۹) ذِی قُوَّهٍ عِنْدَ ذِی اَلْعَرْشِ مَکِینٍ (۲۰) مُطٰاعٍ ثَمَّ أَمِینٍ (۲۱) وَ مٰا صٰاحِبُکُمْ بِمَجْنُونٍ (۲۲) وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ اَلْمُبِینِ (۲۳) وَ مٰا هُوَ عَلَی اَلْغَیْبِ بِضَنِینٍ (۲۴) وَ مٰا هُوَ بِقَوْلِ شَیْطٰانٍ رَجِیمٍ (۲۵) فَأَیْنَ تَذْهَبُونَ (۲۶) إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِکْرٌ لِلْعٰالَمِینَ (۲۷) لِمَنْ شٰاءَ مِنْکُمْ أَنْ یَسْتَقِیمَ (۲۸) وَ مٰا تَشٰاؤُنَ إِلاّٰ أَنْ یَشٰاءَ اَللّٰهُ رَبُّ اَلْعٰالَمِینَ (۲۹)

۱- ۱) .التکویر ۱-۱۴:بحث روائی حول قوله تعالی: «إِذَا الشَّمْسُ کُوِّرَتْ» .

بیان:

تنزیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الجنون-و قد اتهموه به-و لما یأتی به-من القرآن-من مداخله الشیطان،و أنه کلامه تعالی یلقیه الیه ملک الوحی الذی لا یخون فی رسالته،و أنه ذکر للعالمین هاد بإذن اللّه لمن اهتدی منهم.

قوله تعالی: فَلاٰ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ اَلْجَوٰارِ الْکُنَّسِ الخنس جمع خانس کطلب جمع طالب،و الخنوس الانقباض و التأخر و الاستتار،و الجواری جمع جاریه،و الجری السیر السریع مستعار من جری الماء،و الکنس جمع کانس و الکنوس دخول الوحش کالظبی و الطیر کناسه أی بیته الذی اتخذه لنفسه و استقراره فیه.

و تعقّب قوله: «فَلاٰ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ» الخ؛بقوله: «وَ اللَّیْلِ إِذٰا عَسْعَسَ وَ الصُّبْحِ إِذٰا تَنَفَّسَ» یؤید کون المراد بالخنس الجوار الکنس الکواکب کلها أو بعضها لکن صفات حرکه بعضها أشد مناسبه و أوضح انطباقا علی ما ذکر من الصفات المقسم بها:الخنوس و الجری و الکنوس و هی السیارات الخمس المتحیره:زحل و المشتری و المرّیخ و الزهره و عطارد فإن لها فی حرکاتها علی ما تشاهد استقامه و رجعه و إقامه فهی تسیر و تجری حرکه متشابهه زمانا و هی الاستقامه و تنقبض و تتأخر و تخنس زمانا و هی الرجعه و تقف عن الحرکه استقامه و رجعه زمانا کأنها الوحش تنکس فی کناسها و هی الإقامه.

قوله تعالی: وَ اللَّیْلِ إِذٰا عَسْعَسَ عطف علی الخنس،و «إِذٰا عَسْعَسَ» قید للیل، و العسعسه تطلق علی إقبال اللیل و علی إدباره قال الراغب: «وَ اللَّیْلِ إِذٰا عَسْعَسَ» أی أقبل و أدبر و ذلک فی مبدإ اللیل و منتهاه فالعسعسه و العساس رقه الظلام و ذلک فی طرفی اللیل.

انتهی و الأنسب لاتصال الجمله بقوله: «وَ الصُّبْحِ إِذٰا تَنَفَّسَ» أن یراد بها إدبار اللیل.

قوله تعالی: وَ الصُّبْحِ إِذٰا تَنَفَّسَ عطف علی الخنس،و «إِذٰا تَنَفَّسَ» قید للصبح،

و عدّ الصبح متنفسا بسبب انبساط ضوئه على الافق و دفعه الظلمه التى غشيته نوع من الاستعاره بتشبيه الصبح و قد طلع بعد غشيان الظلام للآفاق بمن أحاطت به متاعب أعمال شاقه ثم وجد خلاء من الزمان فاستراح فيه و تنفس فعد إضاءته للافق تنفسا منه كذا يستفاد من بعضهم.

قوله تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِی قُوَّهٍ عِنْدَ ذِی الْعَرْشِ مَکِینٍ مُطٰاعٍ ثَمَّ أَمِینٍ جواب القسم،و ضمیر «إِنَّهُ» للقرآن أو لما تقدم من آیات السوره بما أنها قرآن بدلیل قوله: «لَقَوْلُ رَسُولٍ» الخ؛و المراد بالرسول جبریل كما قال تعالى: مَنْ کٰانَ عَدُوًّا لِجِبْرِیلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلیٰ قَلْبِکَ بِإِذْنِ اللّٰهِ (البقره۹۷/).

و فی إضافه القول الیه بما أنه رسول دلاله على أن القول للّه سبحانه،و نسبته الى جبریل نسبه الرساله الى الرسول و قد وصفه اللّه بصفات ست مدحه بها.

فقوله: رَسُولٍ یدل على رسالته و إلقائه وحی القرآن الى النبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم،و قوله:

«کَرِیمٍ» أی ذی کرامه و عزه عند اللّه بإعزازه،و قوله: «ذِی قُوَّهٍ» أی ذی قدره و شده بالغه، و قوله: «عِنْدَ ذِی الْعَرْشِ مَکِینٍ» أی صاحب مكانه عند اللّه و المكانه القرب و المنزله،و قوله:

«مُطٰاعٍ ثَمَّ» أی مطاع عند اللّه فهناك ملائكه یأمرهم فیطیعونه،و من هنا یظهر أن له أعوانا من الملائكه یأمرهم فیأتمرون بأمره،و قوله: «أَمِینٍ» أی لا یخون فیما امر به یبلّغ ما حمّله من الوحی و الرساله من غیر أی تصرف فیه.

قوله تعالى: وَ مٰا صٰاحِبُکُمْ بِمَجْنُونٍ عطف على قوله: «إِنَّهُ لَقَوْلُ» الخ؛ورد لرمیهم له صلّى اللّه علیه و آله و سلّم بالجنون.

و فی التعبیر عنه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم بقوله: «صٰاحِبُکُمْ» تكذیب لهم فی رمیهم له بالجنون و تنزیه لساحته-كما قیل-ففیه إیماء الى أنه صاحبكم لبث بینكم معاشرا لكم طول عمره و أنتم أعرف به قد وجدتموه على كمال من العقل و رزانه من الرأی و صدق من القول و من هذه صفته

لا یرمی بالجنون.

و توصیف جبریل بما مر من صفات المدح دون النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا دلاله فیه علی أفضلیته من النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأن الکلام مسوق لبیان أن القرآن کلام اللّه سبحانه منزل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من عنده سبحانه من طریق الوحی لا من أوهام الجنون بالقاء من شیطان و الذی یفید فی هذا الغرض بیان سلامه طریق الإنزال و تجلیل المنزل-اسم فاعل-بذکر أوصافه الکریمه و المبالغه فی تنزیهه عن الخطأ و الخیانه،و أما المنزل علیه فلا یتعلق به غرض إلا بمقدار الإشاره الی دفع ما یرتاب فیه من صفته و قد افید بنفی الجنون الذی رموه به و التعبیر عنه بقوله: «صَاحِبُکُمْ» کما تقدم توضیحه،کذا قیل.

و فی مطاوی کلامه تعالی من نعوت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الکریمه ما لا یرتاب معه فی أفضلیته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی جمیع الملائکه،و قد أسجد اللّه الملائکه کلهم أجمعین للإنسان الذی هو خلیفته فی الأرض.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِینِ ضمیر الفاعل فی «رَآهُ» للصاحب و ضمیر المفعول للرسول الکریم و هو جبریل.

و الافق المبین الناحیه الظاهره،و الظاهر أنه الذی أشار الیه بقوله: وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلیٰ (النجم/۷).

و المعنی و اقسم لقد رأی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم جبریل حال کون جبریل کائنا فی الافق المبین و هو الافق الأعلی من سائر الآفاق بما یناسب عالم الملائکه.

و فیه أن لا دلیل من اللفظ یدل علیه و خاصه فی تعلّق لرؤیه بصورته الأصلیه و رؤیته فی أی مثال تمثّل به رؤیته،و کأنه مأخوذ مما ورد فی بعض الروایات أنه رآه فی أول البعثه و هو بین السماء و الأرض جالس علی کرسی،و هو محمول علی التمثل.

قوله تعالی: وَ مٰا هُوَ عَلَی الْغَیْبِ بِضَنِینٍ الضمیر للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و المراد بالغیب

الوحی النازل علیه،و الضنین صفه مشبهه من الضن بمعنی البخل یعنی أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا یبخل بشیء مما یوحی الیه فلا یکتمه و لا یحسبه و لا یغیّره بتبدیل بعضه أو کله شیئا آخر بل یعلّم الناس کما علّمه اللّه و یبلّغهم ما أمر بتبلیغه.

قوله تعالی: وَ مٰا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطٰانٍ رَجِيمٍ نفی لاستناد القرآن الی إلقاء شیطان بما هو أعم من طریق الجنون فإن الشیطان بمعنی الشریر و الشیطان الرجیم کما اطلق فی کلامه تعالی علی إبلیس و ذریته کذلک اطلق علی أشرار سائر الجن قال تعالی: قٰالَ فَاخْرُجْ مِنْهٰا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (ص/۷۷)،و قال: وَ حَفِظْنٰاهٰا مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ رَجِيمٍ (الحجر/۱۷).

فالمعنی أن القرآن لیس بتسویل من إبلیس و جنوده و لا بإلقاء من أشرار الجن کما یلقونه علی المجانین.

قوله تعالی: فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ أوضح سبحانه فی الآیات السبع المتقدمه ما هو الحق فی أمر القرآن دافعا عنه ارتیابهم فیه بما یرمون به الجائی به من الجنون و غیره علی إیجاز متون الآیات فبیّن أولا أنه کلام اللّه و اتکاء هذه الحقیقه علی آیات التحدی،و ثانیا أن نزوله برساله ملک سماوی جلیل القدر عظیم المنزله و هو أمین الوحی جبریل لا حاجز بینه و بین اللّه و لا بینه و بین النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و لا صارف من نفسه أو غیره یصرفه عن أخذه و لا حفظه و لا تبلیغه، و ثالثا أن الذی انزل علیه و هو یتلوه لکم و هو صاحبکم الذی لا یخفی علیکم حاله لیس بمجنون کما یبهتونه به و قد رأی الملک الحامل للوحی و أخذ عنه و لیس بکاتم لما یوحی الیه و لا بمغیّر،و رابعا أنه لیس بتسویل من إبلیس و جنوده و لا بإلقاء من بعض أشرار الجن.

و نتیجه هذا البیان أن القرآن کتاب هدی یهتدی به من أراد الاستقامه علی الحق و هو قوله: «إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ» الخ.

فقوله: «فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ» توطئه و تمهید لذکر نتیجه البیان السابق،و هو استضلال لهم فیما یرونه فی أمر القرآن الکریم أنه من طواری الجنون أو من تسویلات الشیطان الباطله.

فالاستفهام فی الآیه توبیخی و المعنی إذا کان الأمر علی هذا فأین تذهبون و تترکون الحق وراءکم؟

قوله تعالی: إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِکْرٌ لِلْعٰالَمِینَ أی تـذکره لجماعات الناس کائنین من کانوا یمکنهم بها أن یتبصـروا للحق،و قد تقدم بعض الکلام فی نظیره الآیه.

قوله تعـالی: لِمَنْ شٰاءَ مِنْکُمْ أَنْ یَسْتَقِیمَ بـدل من قوله: «لِلْعٰالَمِینَ» مسوق لبیان أن فعلیه الانتفاع بهـذا الـذکر مشـروط بأن یشاءوا الاستقامه علی الحق و هو التلبس بالثبات علی العبودیه و الطاعه.

قوله تعالی: وَ مٰا تَشٰاؤُنَ إِلاّٰ أَنْ یَشٰاءَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمِینَ تقدم الکلام فی معناه فی نظائر الآیه.

و الآیه بحسب ما یفیده السیاق فی معنی دفع الدخل فإن من الممکن أن یتوهموا من قوله:

«لِمَنْ شٰاءَ مِنْکُمْ أَنْ یَسْتَقِیمَ» أن لهم الاسـتقلال فی مشیه الاستقامه ان شاءوا استقاموا و ان لم یشاءوا لم یستقیموا،فللّه الیهم حاجه فی الاستقامه التی یریدها منهم.

فـدفع ذلـک بأن مشـیتهم متوقفه علی مشـیه اللّه سـبحانه فلا یشاءون الاسـتقامه الا أن یشاء اللّه أن یشاؤها،فأفعال الإنسان الإرادیه مراده للّه تعالی من طریق ارادته و هو أن یرید اللّه أن یفعل الإنسان فعلا کذا و کذا عن ارادته.

سوره الانفطار مکیه و هی تسع عشره آیه

اشاره

[سوره الانفطار (٨٢): الآیات ١ الی ١٩]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;إِذَا اَلسَّمٰاءُ اِنْفَطَرَتْ (١) وَ إِذَا اَلْکَوٰاکِبُ اِنْتَثَرَتْ (٢) وَ إِذَا اَلْبِحٰارُ فُجِّرَتْ (٣) وَ إِذَا اَلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (۴) عَلِمَتْ نَفْسٌ مٰا قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ (۵) یٰا أَیُّهَا اَلْإِنْسٰانُ مٰا غَرَّکَ بِرَبِّکَ اَلْکَرِیمِ (۶) اَلَّذِی خَلَقَکَ فَسَوّٰاکَ فَعَدَلَکَ (٧) فِی أَیِّ صُورَهٍ مٰا شٰاءَ رَکَّبَکَ (٨) کَلاّٰ بَلْ تُکَذِّبُونَ بِالدِّینِ (٩) وَ إِنَّ عَلَیْکُمْ لَحٰافِظِینَ (١٠) کِرٰاماً کٰاتِبِینَ (١١) یَعْلَمُونَ مٰا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ اَلْأَبْرٰارَ لَفِی نَعِیمٍ (١٣) وَ إِنَّ اَلْفُجّٰارَ لَفِی جَحِیمٍ (١۴) یَصْلَوْنَهٰا یَوْمَ اَلدِّینِ (١۵) وَ مٰا هُمْ عَنْهٰا بِغٰائِبِینَ (١۶) وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا یَوْمُ اَلدِّینِ (١٧) ثُمَّ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا یَوْمُ اَلدِّینِ (١٨) یَوْمَ لاٰ تَمْلِکُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَیْئاً وَ اَلْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ (١٩)

ص: ۶٢٠

بیان:

تحدّ السوره یوم القیامه ببعض أشراطه الملازمه له المتصله به و تصفه بما یقع فیه و هو ذکر الانسان ما قدم و ما أخر من أعماله الحسنه و السیئه-علی أنها محفوظه علیه بواسطه حفظه الملائکه الموکلین علیه-و جزاؤه بعمله إن کان برا فبنعیم و إن کان فاجرا مکذبا بیوم الدین فبجحیم یصلاها مخلدا فیها.

ثم یستأنف وصف الیوم بأنه یوم لا یملک نفس لنفس شیئا و الأمر یومئذ للّه،و هی من غرر الآیات،و السوره مکیه بلا کلام.

قوله تعالی: إِذَا السَّمٰاءُ انْفَطَرَتْ الفطر الشق و الانفطار الانشقاق و الآیه کقوله:

وَ انْشَقَّتِ السَّمٰاءُ فَهِیَ یَوْمَئِذٍ وٰاهِیَهٌ (الحاقه۱۶/).

قوله تعالی: وَ إِذَا الْکَوٰاکِبُ انْتَثَرَتْ أی تفرقت بترکها مواضعها التی رکزت فیها شبهت الکواکب بلآلی منظومه قطع سلکها فانتثرت و تفرقت.

ص :۶۲۱

قوله تعالى: وَ إِذَا الْبِحٰارُ فُجِّرَتْ قال فى المجمع:التفجير خرق بعض مواضع الماء الى بعض التكثير،و منه الفجور لانخراق صاحبه بالخروج الى كثير من الذنوب،و منه الفجر لانفجاره بالضياء،انتهى.و اليه يرجع تفسيرهم لتفجير البحار بفتح بعضها فى بعض حتى يزول الحائل و يختلط العذب منها و المالح و يعود بحرا واحدا،و هذا المعنى يناسب تفسير قوله:

وَ إِذَا الْبِحٰارُ سُجِّرَتْ (التكوير/۶)بامتلاء البحار.

قوله تعالى: وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ قال فى المجمع:بعثرت الحوض و بحثرته إذا جعلت أسفله أعلاه،و البعثره و البحثره إثاره الشىء بقلب باطنه الى ظاهره،انتهى.فالمعنى و إذا قلب تراب القبور و أثير باطنها الى ظاهرها لإخراج الموتى و بعثهم للجزاء.

قوله تعالى: عَلِمَتْ نَفْسٌ مٰا قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ المراد بالعلم علمها التفصيلى بأعمالها التى عملتها فى الدنيا،و هذا غير ما يحصل لها من العلم بنشر كتاب أعمالها لظاهر قوله تعالى: بَلِ الْإِنْسٰانُ عَلىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَ لَوْ أَلْقىٰ مَعٰاذِيرَهُ (القيامه۱۵/)و قوله: يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسٰانُ مٰا سَعىٰ (النازعات۳۵/)،و قوله: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران۳۰/).

و المراد بالنفس جنسها فتفيد الشمول،و المراد بما قدمت و ما أخرت هو ما قدمته مما عملته فى حياتها،و بما أخرت ما سنته من سنّه حسنه أو سيئه فعملت بها بعد موتها فتكتب صحيفه عملها قال تعالى: وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ (يس۱۲/).

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الْإِنْسٰانُ مٰا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ -الى قوله- رَكَّبَكَ عتاب و توبيخ للإنسان،و المراد بهذا الإنسان المكذب ليوم الدين-على ما يفيده السياق المشتمل على قوله:«بل تكذّبون بيوم الدين»و فى تكذيب يوم الدين كفر و إنكار لتشريع الدين و فى إنكاره إنكار لربوبيّه الرب تعالى،و إنما وجه الخطاب اليه بما أنه إنسان ليكون حجه أو كالحجه لثبوت الخصال التى يذكرها من نعمه عليه المختصه من حيث المجموع بالإنسان.

و قد علّق الغرور بصفتى ربوبيته و كرمه تعالى ليكون ذلك حجه فى توجه العتاب و التوبيخ فإن تمرد المربوب و توغله فى معصيه ربه الذى يدبر أمره و يغشيه نعمه ظاهره و باطنه كفران لا ترتاب الفطره السليمه فى قبحه و لا فى استحقاق العقاب عليه و خاصه إذا كان الرب المنعم كريما لا يريد فى نعمه و عطاياه نفعا ينتفع به و لا عضوا يقابله به المنعم عليه،و يسامح فى إحسانه و يصفح عما يأتى به المربوب من الخطيئه و الإثم بجهاله فإن الكفران حينئذ أقبح و أقبح و توجه الذم و اللائمه أشد و أوضح.

فقوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الْإِنْسٰانُ مٰا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ استفهام توبيخى يوبخ الإنسان بكفران خاص لا عذر له يعتذر به عنه و هو كفران نعمه رب كريم.

و ليس للانسان أن يجيب فيقول:أى رب غرنى كرمك فقد قضى اللّه سبحانه فيما قضى و بلغه بلسان أنبيائه لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِي لَشَدِيدٌ (إبراهيم/٧)، و قال: فَأَمّٰا مَنْ طَغىٰ وَ آثَرَ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوىٰ (النازعات/٣٩)،الى غير ذلك من الآيات الناصه فى أن لا مخلص للمعاندين من العذاب و أن الكرم لا يشملهم يوم القيامه قال: وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهٰا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ (الأعراف/١٥٦).

و لو كفى الانسان العاصى قوله:«غرنى كرمك»لصرف العذاب عن الكافر المعاند كما يصرفه عن المؤمن العاصى،و لا عذر بعد البيان.

و قوله: اَلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوّٰاكَ فَعَدَلَكَ بيان لربوبيته المتلبسه بالكرم فإن من تدبيره خلق الانسان بجمع أجزاء وجوده ثم تسويته بوضع كل عضو فيما يناسبه من الموضع على ما يقتضيه الحكمه ثم عدله بعدل بعض أعضائه و قواه ببعض بجعل التوازن و التعادل بينها فما يضعف عنه عضو يقوى عليه عضو فيتم به فعله كما أن الأكل مثلا بالالتقام و هو للفم، و يضعف الفم عن قطع اللقمه و نهشها و طحنها فيتم ذلك بمختلف الأسنان،و يحتاج ذلك الى نقل اللقمه من جانب من الفم الى آخر و قلبها من حال الى حال فجعل ذلك للسان ثم الفم

يحتاج فى فعل الأكل الى وضع الغذاء فيه فتوصل الى ذلك باليد و تمم عملها بالكف و عملها بالأصابع على اختلاف منافعها و عملها بالأنامل،و تحتاج اليد فى الأخذ و الوضع الى الانتقال المكانى نحو الغذاء و عدل ذلك بالرجل.

و على هذا القياس فى أعمال سائر الجوارح و القوى و هى الوف و الوف لا يحصيها العد، و الكل من تدبيره تعالى و هو المفيض لها من غير أن يريد بذلك انتفاعا لنفسه و من غير أن يمنعه من إفاضتها ما يقابله به الانسان من نسيان الشكر و كفران النعمه فهو تعالى ربه الكريم.

و قوله: فِي أَيِّ صُورَةٍ مٰا شٰاءَ رَكَّبَكَ بيان لقوله: «فَعَدَلَكَ» و لذا لم يعطف على ما تقدمه و الصوره ما ينتقش به الأعيان و يتميز به الشيء من غيره و «مٰا» زائده للتأكيد.

و المعنى:فى أى صوره شاء أن يركّبك-و لا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمه-ركبك من ذكر و أنثى و أبيض و أسود و طويل و قصير و وسيم و دميم و قوى و ضعيف الى غير ذلك و كذا الأعضاء المشتركه بين أفراد الإنسان المميزه لها من غيرها كاليدين و الرجلين و العينين و الرأس و البدن و استواء القامه و نحوها فكل ذلك من عدل بعض الأجزاء ببعض فى التركيب قال تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (التين/۴)و الجميع ينتهى الى تدبير الرب الكريم لا صنع للانسان فى شيء من ذلك.

قوله تعالى: كَلاّٰ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ «كَلاّٰ» ردع عن اغترار الانسان بكرم اللّه و جعل ذلك ذريعه الى الكفر و المعصيه أى لا تغتروا فلا ينفعكم الاغترار.

و قوله: بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ أى بالجزاء.إضراب عمّا يفهم من قوله: «مٰا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» من غرور الانسان بربه الكريم على اعتراف منه و لو بالقوه بالجزاء لقضاء الفطره السليمه به.

فإذ عاتب الإنسان و وبخه على غروره بربه الكريم و اجترائه على الكفران و المعصيه من غير أن يخاف الجزاء أضرب عنه مخاطبا للانسان و كل من يشاركه فى كفره و معصيته فقال:بل

أنت و من حاله حالك تكذبون بيوم الدين و الجزاء فتجحدونه ملحّين عليه.

قوله تعالى: وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ إشاره الى أن أعمال الانسان حاضره محفوظه يوم القيامه من طريق آخر غير حضورها للانسان العامل لها من طريق الذكر و ذلك حفظها بكتابه كتاب الاعمال من الملائكه الموكلين بالانسان فيحاسب عليها كما قال تعالى: وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَهِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً اِقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (الإسراء١۴/).

فقوله: وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ أى إن عليكم من قبلنا حافظين يحفظون أعمالكم بالكتابه كما يفيده السياق.

و قوله: كِراماً كاتِبِينَ أى اولى كرامه و عزه عند اللّه تعالى و قد تكرر فى القرآن الكريم وصف الملائكه بالكرامه و لا يبعد أن يكون المراد به بإعانه من السياق كونهم بحسب الخلقه مصونين عن الإثم و المعصيه مفطورين على العصمه،و يؤيده قوله: بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء٢۶/)حيث دل على أنهم لا يريدون إلا ما أراده اللّه و لا يفعلون إلا ما أمرهم به،و كذا قوله: كِرامٍ بَرَرَهٍ (عبس/ ١۶).

و المراد بالكتابه فى قوله: «كاتِبِينَ» كتابه الأعمال بقرينه قوله: «يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ» و قد تقدم فى تفسير قوله: إِنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثيه٢٩/)كلام فى معنى كتابه الأعمال فليراجعه من شاء.

و قوله: يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ نفى لخطئهم فى تشخيص الخير و الشر و تمييز الحسنه و السيئه كما أن الآيه السابقه متضمنه لتنزيههم عن الإثم و المعصيه فهم محيطون بالأفعال على ما هى عليه من الصفه و حافظون لها على ما هى عليه.

و لا تعيين فى هذه الآيات لعده هؤلاء الملائكه الموكلين على كتابه أعمال الانسان نعم

المستفاد من قوله تعالى: إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (ق/١٧)أن على كل إنسان منهم اثنين عن يمينه و شماله،و قد ورد فى الروايات المأثوره أن الذى على اليمين كاتب الحسنات و الذى على الشمال كاتب السيئات.

و ورد أيضا فى تفسير قوله: إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (الإسراء/٧٨)أخبار مستفيضه من طرق الفريقين داله على أن كتبه الأعمال بالنهار يصعدون بعد غروب الشمس و ينزل آخرون فيكتبون أعمال الليل حتى إذا طلع الفجر صعدوا و نزل ملائكه النهار و هكذا.

و فى الآيه أعنى قوله: «يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ» دلاله على أن الكتبه عالمون بالنيات إذ لا طريق الى العلم بخصوصيات الافعال و عناوينها و كونها خيرا أو شرا أو حسنه أو سيئه إلا العلم بالنيات فعلمهم بالأفعال لا يتم إلا عن العلم بالنيات.

قوله تعالى: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ وَ إِنَّ الْفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ استئناف مبين لنتيجه حفظ الاعمال بكتابه الكتبه و ظهورها يوم القيامه.

و الأبرار هم المحسنون عملا،و الفجار هم المنخرقون بالذنوب و الظاهر أن المراد بهم المتهتكون من الكفار إذ لا خلود لمؤمن فى النار،و فى تنكير «نَعِيمٍ» و «جَحِيمٍ» إشعار بالتفخيم و التهويل-كما قيل-.

قوله تعالى: يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ الضمير للجحيم أى يلزمون يعنى الفجار الجحيم يوم الجزاء و لا يفارقونها.

قوله تعالى: وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ عطف تفسيرى على قوله: «يَصْلَوْنَها» الخ؛ يؤكد معنى ملازمتهم للجحيم و خلودهم فى النار،و المراد بغيبتهم عنها خروجهم منها فالآيه فى معنى قوله: وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النّارِ (البقره/١۶٧).

قوله تعالى: وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ تهويل و تفخيم لأمر يوم الدين،و المعنى لا تحيط علما بحقيقه يوم الدين و هذا التعبير كنايه عن فخامه أمر الشىء و علوه من أن يناله

وصف الواصف،و فی إظهار الیوم-و المحل محل الضمیر-تأکید لأمر التفخیم.

قوله تعالی: ثُمَّ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا یَوْمُ الدِّینِ فی تکرار الجمله تأکید للتفخیم.

قوله تعالی: یَوْمَ لاٰ تَمْلِکُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَیْئاً وَ الْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ الظرف منصوب بتقدیر اذکر و نحوه،و فی الآیه بیان إجمالی لحقیقه یوم الدین بعد ما فی قوله: «وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا یَوْمُ الدِّینِ» من الحث علی معرفته.

و ذلک أن رابطه التأثیر و التأثر بین الأسباب الظاهریه و مسبباتها منقطعه زائله یومئذ کما یستفاد من أمثال قوله تعالی: وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبٰابُ (البقره/۱۶۶)،و قوله: وَ لَوْ یَرَی الَّذِینَ ظَلَمُوا إِذْ یَرَوْنَ الْعَذٰابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّٰهِ جَمِیعاً (البقره/۱۶۵)فلا تملک نفس لنفس شیئا فلا تقدر علی دفع شر عنها و لا جلب خیر لها،و لا ینافی ذلک آیات الشفاعه لأنها بإذن اللّه فهو المالک لها لا غیر.

و قوله: وَ الْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ أی هو المالک للأمر لیس لغیره من الأمر شیء.

و المراد بالأمر کما قیل واحد الأوامر لقوله تعالی: لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ (المؤمن/۱۶)و شأن الملک المطاع،الأمر بالمعنی المقابل للنهی،و الأمر بمعنی الشأن لا یلائم المقام تلک الملاءمه.

ص: ۶۲۷

سوره المطففين مكيه أو مدنيه و هى ست و ثلاثون آيه

اشاره

[سوره المطففين (٨٣): الآيات ١ الى ٢١]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ
وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) اَلَّذِينَ إِذَا اِكْتٰالُوا عَلَى اَلنّٰاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَ إِذٰا كٰالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَ لاٰ يَظُنُّ أُولٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (۴) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (۵) يَوْمَ يَقُومُ اَلنّٰاسُ لِرَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۶) كَلاّٰ إِنَّ كِتٰابَ اَلْفُجّٰارِ لَفِى سِجِّينٍ (٧) وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا سِجِّينٌ (٨) كِتٰابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) اَلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ اَلدِّينِ (١١) وَ مٰا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاّٰ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آيٰاتُنٰا قٰالَ أَسٰاطِيرُ اَلْأَوَّلِينَ (١٣) كَلاّٰ بَلْ رٰانَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (١۴) كَلاّٰ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١۵) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصٰالُوا اَلْجَحِيمِ (١۶) ثُمَّ يُقٰالُ هٰذَا اَلَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلاّٰ إِنَّ كِتٰابَ اَلْأَبْرٰارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨) وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتٰابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ اَلْمُقَرَّبُونَ (٢١)

ص: ۶٢٨

بیان:

تفتتح السوره بوعید أهل التطفیف فی الکیل و الوزن و تنذرهم بأنهم مبعوثون للجزاء فی یوم عظیم و هو یوم القیامه ثم تتخلص لتفصیل ما یجری یومئذ علی الفجّار و الأبرار.

و الأنسب بالنظر الی السیاق أن یکون أول السوره المشتمل علی وعید المطففین نازلا بالمدینه و أما ما یتلوه من الآیات الی آخر السوره فیقبل الانطباق علی السیاقات المکیه و المدنیه.

قوله تعالی: وَیْلٌ لِلْمُطَفِّفِینَ دعاء علی المطففین و التطفیف نقص المکیال و المیزان، و قد نهی اللّه تعالی عنه و سماه إفسادا فی الأرض کما فیما حکاه من قول شعیب وَ یا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِکْیالَ وَ الْمِیزانَ بِالْقِسْطِ وَ لا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْیاءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ (هود/

ص :۶۲۹

۸۴)،و قد تقدم الکلام فی تفسیر الآیه فی معنی کونه إفسادا فی الأرض.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ إِذَا اکْتٰالُوا عَلَی النّٰاسِ یَسْتَوْفُونَ وَ إِذٰا کٰالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ یُخْسِرُونَ الاکتیال من الناس الأخذ منهم بالکیل،و تعدیته بعلی لإفاده معنی الضرر،و الکیل إعطاؤهم بالمکیال یقال:کاله طعامه و وزنه و کال له طعامه و وزن له و الأول لغه أهل الحجاز و علیه التنزیل و الثانی لغه غیرهم کما فی المجمع،و الاستیفاء أخذ الحق تاما کاملا،و الإخسار الإیقاع فی الخساره.

و المعنی:الذین إذا أخذوا من الناس بالکیل یأخذون حقهم تاما کاملا،و إذا أعطوا الناس بالکیل أو الوزن ینقصون فیوقعونهم فی الخسران.

قوله تعالی: أَ لاٰ یَظُنُّ أُولٰئِکَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِیَوْمٍ عَظِیمٍ الاستفهام للإنکار و التعجیب،و الظن بمعناه المعروف و الإشاره الی المطففین باولئک الموضوعه للاشاره البعیده للدلاله علی بعدهم من رحمه اللّه،و الیوم العظیم یوم القیامه الذی یجازون فیه بعملهم.

و الاکتفاء بظن البعث و حسبانه-مع أن من الواجب الاعتقاد العلمی بالمعاد-لأن مجرد حسبان الخطر و الضرر فی عمل یوجب التجنب عنه و التحرز عن اقترافه و إن لم یکن هناک علم فالظن بالبعث لیوم عظیم یؤاخذ اللّه فیه الناس بما کسبوا من شأنه أن یردعهم عن اقتراف هذا الذنب العظیم الذی یستتبع العذاب الالیم.

و قیل:الظن فی الآیه بمعنی العلم.

قوله تعالی: یَوْمَ یَقُومُ النّٰاسُ لِرَبِّ الْعٰالَمِینَ المراد به قیامهم من قبورهم -کنایه عن تلبسهم بالحیاه بعد الممات-لحکمه تعالی و قضائه بینهم.

قوله تعالی: کَلاّٰ إِنَّ کِتٰابَ الفُجّٰارِ لَفِی سِجِّینٍ وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا سِجِّینٌ کِتٰابٌ مَرْقُومٌ وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ ردع-کما قیل-عما کانوا علیه من التطفیف و الغفله عن البعث و الحساب.

و قوله: إِنَّ كِتٰابَ الْفُجّٰارِ لَفِی سِجِّینٍ الخ؛الذی یعطیه التدبر فی سیاق الآیات الأربع بقیاس بعضها الی بعض و قیاس المجموع الی مجموع قوله: «کَلاّٰ إِنَّ کِتٰابَ الْأَبْرٰارِ لَفِی عِلِّیِّینَ» الی تمام أربع آیات أن المراد بسجّین ما یقابل علیین و معناه علو علی علو مضاعف ففیه شیء من معنی السفل و الانحباس فیه کما یشیر الیه قوله: ثُمَّ رَدَدْنٰاهُ أَسْفَلَ سٰافِلِینَ (التین/ ۵)فالأقرب أن یکون مبالغه من السجن بمعنی الحبس کسکیر و شرّیب من السکر و الشرب فمعناه الذی یحبس من دخله علی التخلید کما قیل.

و الکتاب بمعنی المکتوب من الکتابه بمعنی القضاء المحتوم و المراد بکتاب الفجّار ما قدّره اللّه لهم من الجزاء و أثبته بقضائه المحتوم.

فمحصل الآیه أن الذی أثبته اللّه من جزائهم أو عده لهم لفی سجین الذی هو سجن یحبس من دخله حبسا طویلا أو خالدا.

و قوله: وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا سِجِّینٌ مسوق للتهویل.

و قوله: کِتٰابٌ مَرْقُومٌ خبر لمبتدإ محذوف هو ضمیر راجع الی سجین و الجمله بیان لسجین و «کِتٰابٌ» أیضا بمعنی المکتوب من الکتابه بمعنی القضاء و الإثبات،و «مَرْقُومٌ» من الرقم،قال الراغب:الرقم الخط الغلیظ،و قیل:هو تعجیم الکتاب،و قوله تعالی: «کِتٰابٌ مَرْقُومٌ» حمل علی الوجهین.انتهی،و المعنی الثانی أنسب للمقام فیکون إشاره الی کون ما کتب لهم متبینا لا إبهام فیه أی إن القضاء حتم لا یتخلف.

و المحصل أن سجین مقضی علیهم مثبت لهم متبین متمیز لا إبهام فیه.

و لا ضیر فی لزوم کون الکتاب ظرفا للکتاب علی هذا المعنی لأن ذلک من ظرفیه الکل للجزء و هی مما لا ضیر فیه فیکون سجین کتابا جامعا فیه ما قضی علی الفجّار و غیرهم من مستحقی العذاب.

و قوله: وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ نعی و دعاء علی الفجار و فیه تفسیرهم

بالمکـذبین،و «يَوْمَئِذٍ» ظرف لقوله: «إِنَّ كِتابَ الْفُجّارِ لَفِي سِجِّينٍ» بحسب المعنی أی لیهلـک الفجّار-و هم المکـذبون-یومئذ تحقق ما کتب اللّه لهم و قضی علیهم من الجزاء و حل بهم ما أعد لهم من العذاب.

هذا ما یفیده التدبر فی هذه الآیات الأربع،و هی ذات سیاق واحد متصل متلائم الأجزاء.

قوله تعالی: اَلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ تفسیر للمکـذبین و ظاهر الآیه -و یؤیده الآیات التالیه-أن المراد بالتکذیب هو التکذیب القولی الصریح فیختص الذم بالکفار و لا یشمل الفسقه من أهل الإیمان فلا یشمل مطلق المطففین بل الکفار منهم.

اللهم إلا أن یراد بالتکـذیب ما یعم التکـذیب العملی کما ربما أیده قوله السابق: «أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ» فیشـمل الفجار من المؤمنین کالکفار.

قوله تعـالی: وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلاّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ المعتـدی اسم فاعل من الاعتـداء بمعنی التجاوز و المراد به المتجاوز عن حـدود العبودیه،و الأثیم کثیر الآثام بحیث تراکم بعضها علی بعض بانهماکه فی الأهواء.

و مـن المعلـوم أن المـانع الوحیـد الـذی یردع عن المعصـیه هـو الإیمـان بـالبعث و الجزاء، و المنهمـک فی الأـهواء المتعلـق قلبه بالاعتداء و الإثم تأبی نفسه التسلیم لما یردع عنها و التزهد عن المعاصی و ینتهی الی تکذیب البعث و الجزاء قال تعالی: ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (الروم١٠/).

قوله تعـالی: إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ المراد بالآیـات آیات القرآن بقرینه «تُتْلى» و الاساطیر ما سـطروه و کتبوه و المراد بها أباطیل الامم الماضـین و المعنی إذا تتلی علیه آیات القرآن مما یحـذرهم المعصـیه و ینذرهم بالبعث و الجزاء قال:هی أباطیل.

قوله تعالی: كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ ردع عما قاله

المکذبون: «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» قال الراغب:الرين صدأ يعلو الشیء الجليل (۱)،قال تعالى:

«بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ» أی صار ذلک کصدإ على جلاء قلوبهم فعمی عليهم معرفه الخير من الشر،انتهی.فکون ما کانوا يکسبون و هو الذنوب رينا على قلوبهم هو حيلوله الذنوب بينهم و بين أن يدرکوا الحق على ما هو عليه.

قوله تعالى: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ردع عن كسب الذنوب الحائله بين القلب و إدراک الحق،و المراد بکونهم محجوبين عن ربهم يوم القيامه حرمانهم من کرامه القرب و المنزله و لعله مراد من قال:إن المراد كونهم محجوبين عن رحمه ربهم.

و أما ارتفاع الحجاب بمعنى سقوط الأسباب المتوسطه بينه تعالى و بين خلقه و المعرفه التامه به تعالى فهو حاصل لکل أحد قال تعالى: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن/۱۶)و قال: وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (النور/۲۵).

قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ أی داخلون فيها ملازمون لها أو مقاسون حرها على ما فسره بعضهم و «ثُمَّ» فی الآيه و ما بعدها للتراخی بحسب رتبه الکلام.

قوله تعالى: ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ هو توبيخ و تقريع و القائل خزنه النار أو أهل الجنه.

قوله تعالى: كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَ مَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ردع فی معنى الردع الذی فی قوله: «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ» و عليون-کما تقدم- علو على علو مضاعف،و ينطبق على الدرجات العاليه و منازل القرب من اللّه تعالى کما أن السجين بخلافه.

و الکلام فی معنى الآيات الثلاث نظير الکلام فی الآيات الثلاث المتقدمه التی تحاذيها من

۱- ۱) .الجلی ظ.

قوله: «إِنَّ کِتٰابَ اَلْفُجّٰارِ لَفِی سِجِّینٍ وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا سِجِّینٌ کِتٰابٌ مَرْقُومٌ» .

فالمعنی أن الـذی کتب للأبرار و قضـی جزاء لبرهم لفی علیین و ما أدراک ما علیون هو أمر مکتوب و مقضـی قضاء حتما لازما متبین لا إبهام فیه.

و للقوم أقاویـل فی هـذه الآیات نظیر ما لهم فی الآیات السابقه من الأقوال غیر أن من أقوالهم فی علیین أنه السـماء السابعه تحت العرش فیه أرواح المؤمنین،و قیـل سـدره المنتهی التی إلیها تنتهی الأعمال،و قیل:لوح من زبرجـده تحت العرش معلق مکتوبه فیه أعمالهم،و قیل:

هی مراتب عالیه محفوفه بالجلاله،و الکلام فیها کالکلام فیما تقدم من أقوالهم.

قوله تعالی: یَشْـهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ الأنسب لما تقدم من معنی الآیات السابقه أن یکون «یَشْهَدُهُ» من الشهود بمعنی المعاینه و المقربون قوم من أهل الجنه هم أعلی درجه من عامه الأبرار علی ما سیأتی اسـتفادته من قوله: «عَیْناً یَشْـرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ» فالمراد معاینتهم له بـإراءه اللّه إیـاه لهم و قـد قـال اللّه تعـالی فی مثله من أمر الجحیم: کَلاّٰ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْیَقِینِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِیمَ (التکـاثر۶/)و منه یظهر أن المقربین هم أهل الیقین (۱).

[سوره المطففین (۸۳): الآیات ۲۲ الی ۳۶]

إِنَّ اَلْأَبْرٰارَ لَفِی نَعِیمٍ (۲۲) عَلَی اَلْأَرٰائِکِ یَنْظُرُونَ (۲۳) تَعْرِفُ فِی وُجُوهِهِمْ نَضْرَهَ اَلنَّعِیمِ (۲۴) یُسْقَوْنَ مِنْ رَحِیقٍ مَخْتُومٍ (۲۵) خِتٰامُهُ مِسْکٌ وَ فِی ذٰلِکَ فَلْیَتَنٰافَسِ اَلْمُتَنٰافِسُونَ (۲۶) وَ مِزٰاجُهُ مِنْ تَسْنِیمٍ (۲۷) عَیْناً یَشْرَبُ بِهَا اَلْمُقَرَّبُونَ (۲۸) إِنَّ اَلَّذِینَ أَجْرَمُوا کٰانُوا مِنَ اَلَّذِینَ آمَنُوا یَضْحَکُونَ (۲۹) وَ إِذٰا مَرُّوا بِهِمْ یَتَغٰامَزُونَ (۳۰) وَ إِذَا اِنْقَلَبُوا إِلیٰ أَهْلِهِمُ اِنْقَلَبُوا فَکِهِینَ (۳۱) وَ إِذٰا رَأَوْهُمْ قٰالُوا إِنَّ هٰؤُلاٰءِ لَضٰالُّونَ (۳۲) وَ مٰا أُرْسِلُوا عَلَیْهِمْ حٰافِظِینَ (۳۳) فَالْیَوْمَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مِنَ اَلْکُفّٰارِ یَضْحَکُونَ (۳۴) عَلَی اَلْأَرٰائِکِ یَنْظُرُونَ (۳۵) هَلْ ثُوِّبَ اَلْکُفّٰارُ مٰا کٰانُوا یَفْعَلُونَ (۳۶)

۱- ۱) .المطففین ۱-۲۱:بحث روائی فی خلقه الائمه و الشیعه؛العلیین؛السجین؛تاثیر الذنوب علی القلب.

بیان:

قوله تعالی: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِی نَعِیمٍ النعیم النعمه الکثیره و فی تنکیره دلاله علی فخامه قدره،و المعنی إن الابرار لفی نعمه کثیره لا یحیط بها الوصف.

قوله تعالی: عَلَی الْأَرائِکِ یَنْظُرُونَ الأرائک جمع أریکه و الأریکه السریر فی الجمله و هی البیت المزین للعروس و إطلاق قوله: «یَنْظُرُونَ» من غیر تقیید یؤید أن یکون المراد نظرهم الی مناظر الجنه البهجه و ما فیها من النعیم المقیم،و قیل:المراد به النظر الی ما یجزی به الکفار و لیس بذاک.

قوله تعالی: تَعْرِفُ فِی وُجُوهِهِمْ نَضْرَهَ النَّعِیمِ النضره البهجه و الرونق، و الخطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باعتبار أن له أن ینظر فیعرف فالحکم عام و المعنی کل من نظر الی وجوههم یعرف فیها بهجه النعیم الذی هم فیه.

ص :۶۳۵

قوله تعالی: یُسْقَوْنَ مِنْ رَحِیقٍ مَخْتُومٍ الرحیق الشراب الصافی الخالص من الغش،و یناسبه وصفه بأنه مختوم فانه إنما یختم علی الشیء النفیس الخالص لیسلم من الغش و الخلط و إدخال ما یفسده فیه.

قوله تعالی: خِتٰامُهُ مِسْکٌ وَ فِی ذٰلِکَ فَلْیَتَنٰافَسِ الْمُتَنٰافِسُونَ قیل الختام بمعنی ما یختم به أی إن الذی یختم به مسک بدلا من الطین و نحوه الذی یختم به فی الدنیا،و قیل:

أی آخر طعمه الذی یجده شاربه رائحه المسک.

و قوله: وَ فِی ذٰلِکَ فَلْیَتَنٰافَسِ الْمُتَنٰافِسُونَ التنافس التغالب علی الشیء و یفید بحسب المقام معنی التسابق قال تعالی: سٰابِقُوا إِلیٰ مَغْفِرَهٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ جَنَّهٍ (الحدید/ ۲۱).

و قال: فَاسْتَبِقُوا الْخَیْرٰاتِ (المائده۴۸/)،ففیه ترغیب الی ما وصف من الرحیق المختوم.

قوله تعالی: وَ مِزٰاجُهُ مِنْ تَسْنِیمٍ المزاج ما یمزج به،و التسنیم علی ما تفسره الآیه التالیه عین فی الجنه سماه اللّه تسنیما و فی لفظه معنی الرفع و الملء یقال:سنمه أی رفعه و منه سنام الإبل،و یقال:سنّم الإناء أی ملأه.

قوله تعالی: عَیْناً یَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ یقال:شربه و شرب به بمعنی و «عَیْناً» منصوب علی المدح أو الاختصاص و «یَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ» وصف لها و المجموع تفسیر للتسنیم.

و مفاد الآیه أن المقرّبین یشربون التسنیم صرفا کما أن مفاد قوله: «وَ مِزٰاجُهُ مِنْ تَسْنِیمٍ» أنه یمزج بها ما فی کأس الابرار من الرحیق المختوم،و یدل ذلک أولا علی أن التسنیم أفضل من الرحیق المختوم الذی یزید لذه بمزجها،و ثانیا أن المقربین أعلی درجه من الأبرار الذین یصفهم الآیات.

ص :۶۳۶

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ يعطى السياق أن المراد بالذين آمنوا هم الابرار الموصوفون فى الآيات و إنما عبر عنهم بالذين آمنوا لأن سبب ضحك الكفار منهم و استهزائهم بهم إنما إيمانهم كما أن التعبير عن الكفار بالذين اجرموا للدلاله على أنهم بذلك من المجرمين.

قوله تعالى: وَ إِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ عطف على قوله: «يَضْحَكُونَ» أى كانوا إذا مروا بالذين آمنوا يغمز بعضهم بعضا و يشيرون بأعينهم استهزاء بهم.

قوله تعالى: وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ الفكه بالفتح فالكسر المرح البطر،و المعنى و كانوا إذا انقلبوا و صاروا الى أهلهم عن ضحكهم و تغامزهم انقلبوا ملتذين فرحين بما فعلوا أو هو من الفكاهه بمعنى حديث ذوى الانس و المعنى انقلبوا و هم يحدثون بما فعلوا تفكها.

قوله تعالى: وَ إِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هٰؤُلاَءِ لَضَالُّونَ على سبيل الشهاده عليهم بالضلال أو القضاء عليهم و الثانى أقرب.

قوله تعالى: وَ مَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ أى و ما ارسل هؤلاء الذين أجرموا حافظين على المؤمنين يقضون فى حقهم بما شاءوا أو يشهدون عليهم بما هووا،و هذا تهكم بالمستهزئين.

قوله تعالى: فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ المراد باليوم يوم الجزاء،و التعبير عن الذين أجرموا بالكفار رجوع الى حقيقه صفتهم.قيل:تقديم الجارّ و المجرور على الفعل أعنى «مِنَ الْكُفَّارِ» على «يَضْحَكُونَ» لإفاده قصر القلب،و المعنى فاليوم الذين آمنوا يضحكون من الكفار لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون فى الدنيا.

قوله تعالى: عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ الثواب فى الأصل مطلق الجزاء و إن غلب استعماله فى الخير،و قوله: «عَلَى الْأَرَائِكِ» خبر بعد

خبر للذين آمنوا و «يَنْظُرُونَ» خبر آخر،و قوله: «هَلْ ثُوِّبَ» الخ؛متعلق بقوله: «يَنْظُرُونَ» قائم مقام المفعول.

و المعنى:الـذين آمنوا على سـرر فى الحجـال ينظرون الى جزاء الكفـار بأفعالهم التى كانوا يفعلونها فى الـدنيا من انواع الإجرام و منها ضحكهم من المؤمنين و تغامزهم إذا مروا بهم و انقلابهم الى أهلهم فكهين و قولهم:إن هؤلاء لضالون.

ص :۶۳۸

سوره الانشقاق مكيه و هى خمس و عشرون آيه

اشاره

[سوره الانشقاق (۸۴): الآيات ۱ الى ۲۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;إِذَا اَلسَّمٰاءُ اِنْشَقَّتْ (۱) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهٰا وَ حُقَّتْ (۲) وَ إِذَا اَلْأَرْضُ مُدَّتْ (۳) وَ أَلْقَتْ مٰا فِيهٰا وَ تَخَلَّتْ (۴) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهٰا وَ حُقَّتْ (۵) يٰا أَيُّهَا اَلْإِنْسٰانُ إِنَّكَ كٰادِحٌ إِلىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاٰقِيهِ (۶) فَأَمّٰا مَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ بِيَمِينِهِ (۷) فَسَوْفَ يُحٰاسَبُ حِسٰاباً يَسِيراً (۸) وَ يَنْقَلِبُ إِلىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۹) وَ أَمّٰا مَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ وَرٰاءَ ظَهْرِهِ (۱۰) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً (۱۱) وَ يَصْلىٰ سَعِيراً (۱۲) إِنَّهُ كٰانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۱۳) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (۱۴) بَلىٰ إِنَّ رَبَّهُ كٰانَ بِهِ بَصِيراً (۱۵) فَلاٰ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (۱۶) وَ اَللَّيْلِ وَ مٰا وَسَقَ (۱۷) وَ اَلْقَمَرِ إِذَا اِتَّسَقَ (۱۸) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (۱۹) فَمٰا لَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۲۰) وَ إِذٰا قُرِئَ عَلَيْهِمُ اَلْقُرْآنُ لاٰ يَسْجُدُونَ (۲۱) بَلِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (۲۲) وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا يُوعُونَ (۲۳) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ (۲۴) إِلاَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۲۵)

بیان:

قوله تعالی: إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ شرط جزاؤه محذوف یدل علیه قوله: «یَا أَیُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّکَ کَادِحٌ إِلَی رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاَقِیهِ» و التقدیر:لاقی الإنسان ربه فحاسبه و جازاه علی ما عمل.

ص :۶۴۰

و انشقاق السماء و هو تصدعه و انفراجه من أشراط الساعه كمدّ الارض و سائر ما ذكر فی مواضع من كلامه تعالی من تكوير الشمس و اجتماع الشمس و القمر و انتثار الكواكب و نحوها.

قوله تعالی: وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهٰا وَ حُقَّتْ الإذن الاستماع و منه الاذن لجارحه السمع و هو مجاز عن الانقياد و الطاعه،و «حُقَّتْ» أی جعلت حقيقه و جديره بأن تسمع،و المعنی أطاعت و انقادت لربها و كانت حقيقه و جديره بأن تستمع و تطيع.

قوله تعالی: وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ الظاهر أن المراد به اتساع الارض،و قد قال تعالی: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ (إبراهيم۴۸/).

قوله تعالی: وَ أَلْقَتْ مٰا فِيهٰا وَ تَخَلَّتْ أی ألقت الارض ما فی جوفها من الموتی و بالغت فی الخلو مما فيها منهم.

قوله تعالی: وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهٰا وَ حُقَّتْ ضمائر التأنيث للأرض كما أنها فی نظيرتها المتقدمه للسماء،و قد تقدم معنی الآيه.

قوله تعالی: يٰا أَيُّهَا الْإِنْسٰانُ إِنَّكَ كٰادِحٌ إِلىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاٰقِيهِ قال الراغب:الكدح السعی و العناء.انتهی.ففيه معنی السير،و قيل:الكدح جهد النفس فی العمل حتی يؤثر فيها انتهی.و علی هذا فهو مضمن معنی السير بدليل تعديه بإلی ففی الكدح معنی السير علی أی حال.

و قوله: فَمُلاٰقِيهِ عطف علی «كٰادِحٌ» و قد بين به أن غايه هذا السير و السعی و العناء هو اللّه سبحانه بما أن له الربوبيه أی إن الإنسان بما أنه عبد مربوب و مملوك مدبر ساع الی اللّه سبحانه بما أنه ربه و مالكه المدبر لأمره فإن العبد لا يملك لنفسه إراده و لا عملا فعليه أن يريد و لا يعمل إلا ما أراده ربه و مولاه و أمره به فهو مسئول عن إرادته و عمله.

قوله تعالی: فَأَمّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ تفصیل مترتب علی ما یلوح الیه قوله:

«إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ» أن هناک رجوعا و سؤالا عن الاعمال و حسابا،و المراد بالکتاب صحیفه الأعمال بقرینه ذکر الحساب،و قد تقدم الکلام فی معنی إعطاء الکتاب بالیمین فی سورتی الإسراء و الحاقه.

قوله تعالی: فَسَوْفَ یُحاسَبُ حِساباً یَسِیراً الحساب الیسیر ما سوهل فیه و خلا عن المناقشه.

قوله تعالی: وَ یَنْقَلِبُ إِلی أَهْلِهِ مَسْرُوراً المراد بالأهل من أعده اللّه له فی الجنه من الحور و الغلمان و غیرهم و هذا هو الذی یفید السیاق.

قوله تعالی: وَ أَمّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ الظرف منصوب بنزع الخافض و التقدیر من وراء ظهره،و لعلهم إنما یؤتون کتبهم من وراء ظهورهم لرد وجوههم علی أدبارهم کما قال تعالی: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلی أَدْبارِها (النساء۴۷/).

و لا منافاه بین إیتاء کتابهم من وراء ظهورهم و بین إیتائهم بشمالهم کما وقع فی قوله تعالی:

وَ أَمّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِشِمالِهِ فَیَقُولُ یا لَیْتَنِی لَمْ أُوتَ کِتابِیَهْ (الحاقه۲۷/)،و سیأتی فی البحث الروائی التالی ما ورد فی الروایات من معنی إیتاء الکتاب من وراء ظهورهم.

قوله تعالی: فَسَوْفَ یَدْعُوا ثُبُوراً الثبور کالویل الهلاک و دعاؤهم الثبور قولهم:

وا ثبوراه.

قوله تعالی: وَ یَصْلی سَعِیراً أی یدخل نارا مؤججه لا یوصف عذابها،أو یقاسی حرها.

قوله تعالی: إِنَّهُ کانَ فِی أَهْلِهِ مَسْرُوراً یسره ما یناله من متاع الدنیا و تنجذب نفسه الی زینتها و ینسیه ذلک أمر الآخره و قد ذم تعالی فرح الإنسان بما یناله من خیر الدنیا و سماه فرحا بغیر حق قال تعالی بعد ذکر النار و عذابها: ذلِکُمْ بِما کُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِی الْأَرْضِ

بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (المؤمن/۷۵).

قوله تعالی: إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ أی لن يرجع و المراد الرجوع الی ربه للحساب و الجزاء،و لا سبب يوجبه عليهم إلا التوغل فی الذنوب و الآثام الصارفه عن الآخره الداعيه الی استبعاد البعث.

قوله تعالی: بَلىٰ إِنَّ رَبَّهُ كٰانَ بِهِ بَصِيراً رد لظنه أی ليس الامر كما ظنه بل يحور و يرجع،و قوله: «إِنَّ رَبَّهُ كٰانَ بِهِ بَصِيراً» تعليل للرد المذكور فإن اللّه سبحانه كان ربه المالك له المدبر لأمره و كان يحيط به علما و يری ما كان من أعماله و قد كلفه بما كلف و لأعماله جزاء خيرا أو شرا فلا بد أن يرجع اليه و يجزی بما يستحقه بعمله (۱).

قوله تعالی: فَلاٰ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ الشفق الحمره ثم الصفره ثم البياض التی تحدث بالمغرب أول الليل.

قوله تعالی: وَ اللَّيْلِ وَ مٰا وَسَقَ أی ضم و جمع ما تفرق و انتشر فی النهار من الإنسان و الحيوان فإنها تتفرق و تنتشر بالطبع فی النهار و ترجع الی مأواها فی الليل فتسكن.

و فسر بعضهم «وَسَقَ» بمعنی طرد أی طرد الكواكب من الخفاء الی الظهور.

قوله تعالی: وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ أی اجتمع و انضم بعض نوره الی بعض فاكتمل نوره و تبدر.

قوله تعالی: لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ جواب القسم و الخطاب للناس و الطبق هو الشیء أو الحال الذی يطابق آخر سواء كان أحدهما فوق الآخر أم لا-و المراد به كيف كان المرحله بعد المرحله يقطعها الإنسان فی كدحه الی ربه من الحياه الدنيا ثم الموت ثم الحياه البرزخيه ثم الانتقال الی الآخره ثم الحياه الآخره ثم الحساب و الجزاء.

ص: ۶۴۳

۱- ۱) .الانشقاق ۱-۲۵:بحث فی اصحاب اليمين و اصحاب الشمال؛معنی ايتاء الكتاب باليمين و بالشمال.

و فی هـذا الإقسام-کما تری-تأکیـد لما فی قوله: «یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ» الآیه؛و ما بعـده من نبأ البعث و توطئه و تمهید لما فی قوله: «فَما لَهُمْ لا یُؤْمِنُونَ» من التعجیب و التوبیخ و ما فی قوله: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ» الخ؛من الإنذار و التبشیر.

و فی الآیه إشاره الی أن المراحل التی قطعها الإنسان فی مسیره الی ربه مترتبه متطابقه.

قوله تعالی: فَما لَهُمْ لا یُؤْمِنُونَ وَ إِذا قُرِئَ عَلَیْهِمُ الْقُرْآنُ لا یَسْجُدُونَ الاسـتفهام للتعجیب و التوبیـخ و لذا ناسب الالتفات الذی فیه من الخطاب الی الغیبه کأنه لما رأی أنهم لا یتـذکرون بتذکیره و لا یتعظون بعظته أعرض عنهم الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فخاطبه بقوله: «فَما لَهُمْ لا یُؤْمِنُونَ» الخ.

قوله تعالی: بَلِ الَّذِینَ کَفَرُوا یُکَذِّبُونَ وَ اللّهُ أَعْلَمُ بِما یُوعُونَ «یُکَذِّبُونَ» یفید الاسـتمرار،و التعبیر عنهم بالذین کفروا للدلاله علی عله التکذیب،و الایعاء کما قیل جعل الشیء فی وعاء.

و المعنی:أنهم لم یترکوا الإیمان لقصور فی البیان أو لانقطاع من البرهان لکنهم اتبعوا أسـلافهم و رؤساءهم فرسـخوا فی الکفر و استمروا علی التکذیب و اللّه یعلم بما جمعوا فی صدورهم و أضمروا فی قلوبهم من الکفر و الشرک.

قوله تعالی: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِیمٍ التعبیر عن الأخبار بالعذاب بالتبشیر مبنی علی التهکم،و الجمله متفرعه علی التکذیب.

قوله تعالی: إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَیْرُ مَمْنُونٍ استثناء منقطع من ضمیر «فَبَشِّرْهُمْ» و المراد بکون أجرهم غیر ممنون خلوه من قول یثقل علی المأجور.

ص :۶۴۴

سوره البروج مکیه و هی اثنتان و عشرون آیه

اشاره

[سوره البروج (۸۵): الآیات ۱ الی ۲۲]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;وَ اَلسَّمٰاءِ ذٰاتِ اَلْبُرُوجِ (۱) وَ اَلْیَوْمِ اَلْمَوْعُودِ (۲) وَ شٰاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ (۳) قُتِلَ أَصْحٰابُ اَلْأُخْدُودِ (۴) اَلنّٰارِ ذٰاتِ اَلْوَقُودِ (۵) إِذْ هُمْ عَلَیْهٰا قُعُودٌ (۶) وَ هُمْ عَلیٰ مٰا یَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِینَ شُهُودٌ (۷) وَ مٰا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاّٰ أَنْ یُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ اَلْعَزِیزِ اَلْحَمِیدِ (۸) اَلَّذِی لَهُ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (۹) إِنَّ اَلَّذِینَ فَتَنُوا اَلْمُؤْمِنِینَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ ثُمَّ لَمْ یَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذٰابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذٰابُ اَلْحَرِیقِ (۱۰) إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ جَنّٰاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ ذٰلِکَ اَلْفَوْزُ اَلْکَبِیرُ (۱۱) إِنَّ بَطْشَ رَبِّکَ لَشَدِیدٌ (۱۲) إِنَّهُ هُوَ یُبْدِئُ وَ یُعِیدُ (۱۳) وَ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلْوَدُودُ (۱۴) ذُو اَلْعَرْشِ اَلْمَجِیدُ (۱۵) فَعّٰالٌ لِمٰا یُرِیدُ (۱۶) هَلْ أَتٰاکَ حَدِیثُ اَلْجُنُودِ (۱۷) فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ (۱۸) بَلِ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فِی تَکْذِیبٍ (۱۹) وَ اَللّٰهُ مِنْ وَرٰائِهِمْ مُحِیطٌ (۲۰) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِیدٌ (۲۱) فِی لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (۲۲)

ص: ۶۴۵

بیان:

سوره إنذار و تبشیر فیها وعید شدید للذین یفتنون المؤمنین و المؤمنات لإیمانهم باللّه کما کان المشرکون من أهل مکه یفعلون ذلک بالذین آمنوا بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیعذبونهم لیرجعوا الی شرکهم السابق فمنهم من کان یصبر و لا یرجع بلغ الأمر ما بلغ،و منهم من رجع و ارتد و هم ضعفاء الإیمان کما یشیر الی ذلک قوله تعالی: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ فَإِذا أُوذِیَ فِی

ص: ۶۴۶

اَللّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاسِ كَعَذابِ اللّهِ (العنكبوت/۱۰)،و قوله: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ (الحج/۱۱).

و قد قدم سبحانه على ذلك الاشاره الى قصه اصحاب الاخدود،و فيه تحريض المؤمنين على الصبر فى جنب اللّه تعالى،و أتبعها بالإشاره الى حديث الجنود فرعون و ثمود و فيه تطييب لنفس النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بوعد النصر و تهديد للمشركين.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ البروج جمع برج و هو الأمر الظاهر و يغلب استعماله فى القصر العالى لظهوره على الناظرين و يسمى البناء المعمول على سور البلد الدفاع برجا و هو المراد فى الآيه لقوله تعالى: وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنّاها لِلنّاظِرِينَ وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (الحجر/۱۷)،فالمراد بالبروج مواضع الكواكب من السماء.

قوله تعالى: وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ عطف على السماء و إقسام باليوم الموعود و هو يوم القيامه الذى وعد اللّه القضاء فيه بين عباده.

قوله تعالى: وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ معطوفان على السماء و الجميع قسم بعد قسم على ما ازيد بيانه فى السوره و هو-كما تقدمت الإشاره اليه-الوعيد الشديد لمن يفتن المؤمنين و المؤمنات لإيمانهم و الوعد الجميل لمن آمن و عمل صالحا.

فكأنه قيل:اقسم بالسماء ذات البروج التى يدفع اللّه بها عنها الشياطين إن اللّه يدفع عن إيمان المؤمنين كيد الشياطين و أوليائهم من الكافرين،و اقسم باليوم الموعود الذى يجزى فيه الناس بأعمالهم،و اقسم بشاهد يشهد و يعاين أعمال اولئك الكفار و ما يفعلونه بالمؤمنين لإيمانهم باللّه و اقسم بمشهود سيشهده الكل و يعاينونه إن الذين فتنوا المؤمنين و المؤمنات،الى آخر الآيتين.

و من هنا يظهر أن الشهاده فى «شاهِدٍ» و «مَشْهُودٍ» بمعنى واحد و هو المعاينه بالحضور، على أنها لو كانت بمعنى تأديه الشهاده لكان حق التعبير«و مشهود عليه»لأنها بهذا المعنى إنما تتعدى بعلى.

و على هذا يقبل «شاهِدٍ» الانطباق على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لشهادته أعمال امته ثم يشهد عليها يوم القيامه،و يقبل «مَشْهُودٍ» الانطباق على تعذيب الكفار لهؤلاء المؤمنين و ما فعلوا بهم من الفتنه و إن شئت فقل:على جزائه و إن شئت فقل:على ما يقع يوم القيامه من العقاب و الثواب لهؤلاء الظالمين و المظلومين،و تنكير «مَشْهُودٍ» و «وَ شاهِدٍ» على أى حال للتفخيم.

قوله تعالى: قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ إشاره الى قصه الاخدود لتكون توطئه و تمهيدا لما سيجىء من قوله: «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا» الخ؛و ليس جوابا للقسم البتّه.

و الاخدود الشق العظيم فى الأرض،و أصحاب الاخدود هم الجبابره الذين خدوا اخدودا و أضرموا فيها النار و أمروا المؤمنين بدخولها فأحرقوهم عن آخرهم نقما منهم لإيمانهم.

فقوله: قُتِلَ الخ؛دعاء عليهم و المراد بالقتل اللعن و الطرد.

و قيل:المراد بأصحاب الاخدود المؤمنون و المؤمنات الذين احرقوا فيه،و قوله: «قُتِلَ» إخبار عن قتلهم بالإحراق و ليس من الدعاء فى شىء.و يضعّفه ظهور رجوع الضمائر فى قوله:

«إِذْ هُمْ عَلَيْها» و «هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ» و «ما نَقَمُوا» الى أصحاب الاخدود،و المراد بها و خاصه بالثانى و الثالث الجبابره الناقمون دون المؤمنين المعذبين.

قوله تعالى: اَلنّارِ ذاتِ الْوَقُودِ بدل من الاخدود،و الوقود ما يشعل به النار من حطب و غيره،و فى توصيف النار بذات الوقود إشاره الى عظمه أمر هذه النار و شده اشتعالها و أجيجها.

قوله تعالى: إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ أى فى حال اولئك الجبابره قاعدون فى أطراف

النار المشرفه عليها.

قوله تعالى: وَ هُمْ عَلىٰ مٰا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ أى حضور ينظرون و يشاهدون إحراقهم و احتراقهم.

قوله تعالى: وَ مٰا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاّٰ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ النقم بفتحتين الكراهه الشديده أى ما كرهوا من اولئك المؤمنين إلا إيمانهم باللّه فأحرقوهم لأجل إيمانهم.

قوله تعالى: اَلْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اَلَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أوصاف جاريه على اسم الجلاله تشير الى الحجه على أن اولئك المؤمنين كانوا على الحق فى ايمانهم مظلومين فيما فعل بهم لا يخفى حالهم على اللّه و سيجزيهم خير الجزاء،و على أن اولئك الجبابره كانوا على الباطل مجترين على اللّه ظالمين فيما فعلوا و سيذوقون وبال أمرهم.

و ذلك أنه تعالى هو اللّه العزيز الحميد أى الغالب غير المغلوب على الاطلاق و الجميل فى فعله على الاطلاق فله وحده كل الجلال و الجمال فمن الواجب أن يخضع له و أن لا يتعرض لجانبه،و إذ كان له ملك السماوات و الأرض فهو المليك على الإطلاق له الأمر و له الحكم فهو رب العالمين فمن الواجب أن يتخذ إلها معبودا و لا يشرك به أحد فالمؤمنون به على الحق و الكافرون فى ضلال.

ثم إن اللّه-و هو الموجد لكل شىء-على كل شىء شهيد لا يخفى عليه شىء من خلقه و لا عمل من أعمال خلقه و لا يحتجب عنه إحسان و لا إساءه مسىء فسيجزى كلا بما عمل.

و بالجمله إذا كان تعالى هو اللّه المتصف بهذه الصفات الكريمه كان على هؤلاء المؤمنين أن يؤمنوا به و لم يكن لاولئك الجبابره أن يتعرضوا لحالهم و لا أن يمسوهم بسوء.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذٰابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذٰابُ الْحَرِيقِ الفتنه المحنه و التعذيب،و الذين فتحوا،الخ؛عام

يشمل أصحاب الاخدود و مشركى قريش الذين كانوا يفتنون من آمن بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من المؤمنين و المؤمنات بأنواع من العذاب ليرجعوا عن دينهم.

قال فى المجمع:يسأل فيقال:كيف فصل بين عذاب جهنم و عذاب الحريق و هما واحد؟ اجيب عن ذلك بأن المراد لهم أنواع العذاب فى جهنم سوى الإحراق مثل الزّقوم و الغسلين و المقامع و لهم مع ذلك الإحراق بالنار انتهى.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ جَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ وعد جميل للمؤمنين يطيب به نفوسهم كما أن ما قبله وعيد شديد للكفار الفاتنين المعذبين.

قوله تعالى: إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ الآيه الى تمام سبع آيات تحقيق و تأكيد لما تقدم من الوعيد و الوعد،و البطش-كما ذكره الراغب-تناول الشىء بصوله.

و فى إضافه البطش الى الرب و إضافه الرب الى الكاف تطييب لنفس النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالتأييد و النصر،و إشاره الى أن الجبابره امته نصيبا من الوعيد المتقدم.

قوله تعالى: إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ المقابله بين المبدئ و المعيد يعطى أن المراد بالإبداء البدء،و الافتتاح بالشىء،قالوا:و لم يسمع من العرب الإبداء لكن القراءه ذلك و فى بعض القراءات الشاذه يبدأ بفتح الياء و الدال.

و على أى حال فالآيه تعليل لشده بطشه تعالى و ذلك أنه تعالى مبدئ يوجد ما يريده من شىء ايجادا ابتدائيا من غير أن يستمد على ذلك من شىء غير نفسه،و هو تعالى يعيد كل ما كان الى ما كان و كل حال فاتته الى ما كانت عليه قبل الفوت فهو تعالى لا يمتنع عليه ما أراد و لا يفوته فائت زائل و إذا كان كذلك فهو القادر على أن يحمل على العبد المتعدى حده،من العذاب ما هو فوق حده و وراء طاقته و يحفظه على ما هو عليه ليذوق العذاب قال تعالى:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها (فاطر/

(۳۶).

و هو القادر على أن يعيد ما أفسده العذاب الى حالته الاولى ليذوق المجرم بذلك العذاب من غير انقطاع قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (النساء۵۶/).

قوله تعالى: وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ أى كثير المغفره و الموده ناظر الى وعد المؤمنين كما أن قوله: «إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ» الخ؛ناظر الى وعيد الكافرين.

قوله تعالى: ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ العرش عرش الملك،و ذو العرش كنايه عن الملك أى هو ملك له أن يتصرف فى مملكته كيفما تصرف و يحكم بما شاء و المجيد صفه من المجد و هو العظمه المعنويه و هى كمال الذات و الصفات،و قوله: «فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ» أى لا يصرفه عما أراده صارف لا من داخل لضجر و كسل و ملل و تغيير إراده و غيرها و لا من خارج لمانع يحول بينه و بين ما أراد.

فله تعالى أن يوعد الدين فتنوا المؤمنين و المؤمنات بالنار و يعد الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالجنه لأنه ذو العرش المجيد و لن يخلف وعده لأنه فعال لما يريد.

قوله تعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ تقرير لما تقدم من شده بطشه تعالى و كونه ملكا مجيدا فعالا لما يريد،و فيه تسليه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تطييب لنفسه الشريفه بالاشاره الى حديثهم،و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ لا يبعد أن يستفاد من السياق كون المراد بالذين كفروا هم قوم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و فى الآيه اضراب عما تقدم من الموعظه و الحجه من حيث الأثر،و المعنى لا ينبغى أن يرجى منهم الإيمان بهذه الآيات البينات فإن الذين كفروا مصرون على تكذيبهم لا ينتفعون بموعظه أو حجه.

ص :۶۵۱

و من هنا ظهر أن المراد بكون الذين كفروا فی تکذیب أی بظرفیه التکذیب لهم اصرارهم علیه.

قوله تعالی: وَ اللّٰهُ مِنْ وَرٰائِهِمْ مُحِیطٌ وراء الشیء الجهات الخارجه منه المحیطه به.إشاره الی أنهم غیر معجزین للّه سبحانه فهو محیط بهم قادر علیهم من کل جهه،و فیه أیضا تطییب لنفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و عن بعضهم أن فی قوله: «مِنْ وَرٰائِهِمْ» تلویحا الی الی أنهم اتخذوا اللّه وراءهم ظهریا،و هو بمنی علی أخذ وراء بمعنی خلف.

قوله تعالی: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِیدٌ فِی لَوْحٍ مَحْفُوظٍ إضراب عن اصرارهم علی تکذیب القرآن،و المعنی لیس الأمر کما یدعون بل القرآن کتاب مقروّ عظیم فی معناه غزیر فی معارفه فی لوح محفوظ عن الکذب و الباطل مصون من مسّ الشیاطین (۱).

ص: ۶۵۲

۱- ۱) .البروج ۱-۲۲:بحث روائی حول:السماء ذات البروج؛الیوم الموعود؛الشاهد و المشهود؛اصحاب الاخدود.

سوره الطارق مكيه و هى سبع عشره آيه

اشاره

[سوره الطارق (٨۶): الآيات ١ الى ١٧]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;وَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلطّٰارِقِ (١) وَ مٰا أَدْرٰاكَ مَا اَلطّٰارِقُ (٢) اَلنَّجْمُ اَلثّٰاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمّٰا عَلَيْهٰا حٰافِظٌ (۴) فَلْيَنْظُرِ اَلْإِنْسٰانُ مِمَّ خُلِقَ (۵) خُلِقَ مِنْ مٰاءٍ دٰافِقٍ (۶) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ اَلصُّلْبِ وَ اَلتَّرٰائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلىٰ رَجْعِهِ لَقٰادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى اَلسَّرٰائِرُ (٩) فَمٰا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لاٰ نٰاصِرٍ (١٠) وَ اَلسَّمٰاءِ ذٰاتِ اَلرَّجْعِ (١١) وَ اَلْأَرْضِ ذٰاتِ اَلصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَ مٰا هُوَ بِالْهَزْلِ (١۴) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (١۵) وَ أَكِيدُ كَيْداً (١۶) فَمَهِّلِ اَلْكٰافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (١٧)

ص :۶۵٣

بیان:

فی السوره إنذار بالمعاد و تستدل علیه بإطلاق القدره و تؤکد القول فی ذلک،و فیها إشاره الی حقیقه الیوم،و تختتم بوعید الکفار.

و السوره ذات سیاق مکی.

قوله تعالی: وَ السَّمٰاءِ وَ الطّٰارِقِ وَ مٰا أَدْرٰاکَ مَا الطّٰارِقُ اَلنَّجْمُ الثّٰاقِبُ الطرق فی الأصل-علی ما قیل-هو الضرب بشده یسمع له صوت و منه المطرقه و الطریق لأن السابله تطرقها بأقدامها ثم شاع استعماله فی سلوک الطریق ثم اختص بالإتیان لیلا لأن الآتی باللیل فی الغالب یجد الأبواب مغلقه فیطرقها و یدقها ثم شاع الطارق فی کل ما یظهر لیلا، و المراد بالطارق فی الآیه النجم الذی یطلع باللیل.

و الثقب فی الأصل بمعنی الخرق ثم صار بمعنی النّیر المضیء لأنه یثقب الظلام بنوره و یأتی بمعنی العلو و الارتفاع و منه ثقب الطائر أی ارتفع و علا کأنه یثقب الجو بطیرانه.

فقوله: وَ السَّمٰاءِ وَ الطّٰارِقِ إقسام بالسماء و بالنجم الطالع لیلا،و قوله: «وَ مٰا أَدْرٰاکَ مَا الطّٰارِقُ» تفخیم لشأن المقسم به و هو الطارق،و قوله: «النَّجْمُ الثّٰاقِبُ» بیان للطارق

ص :۶۵۴

و الجمله فی معنی جواب استفهام مقدّر کأنه لما قیل:و ما أدراک ما الطارق؟سئل فقیل:فما هو الطارق؟فاجیب،و قیل:النجم الثاقب.

قوله تعالی: إِنْ کُلُّ نَفْسٍ لَمّٰا عَلَیْهٰا حٰافِظٌ جواب للقسم و لما بمعنی إلا و المعنی ما من نفس إلا علیها حافظ،و المراد من قیام الحافظ علی حفظها کتابه أعمالها الحسنه و السیئه علی ما صدرت منها لیحاسب علیها یوم القیامه و یجزی بها فالحافظ هو الملک و المحفوظ العمل کما قال تعالی: وَ إِنَّ عَلَیْکُمْ لَحٰافِظِینَ کِرٰاماً کٰاتِبِینَ یَعْلَمُونَ مٰا تَفْعَلُونَ (الانفطار/۱۲).

و لا یبعد أن یکون المراد من حفظ النفس حفظ ذاتها و أعمالها،و المراد بالحافظ جنسه فتفید أن النفوس محفوظه لا تبطل بالموت و لا تفسد حتی إذا أحیا اللّه الأبدان أرجع النفوس إلیها فکان الإنسان هو الإنسان الدنیوی بعینه و شخصه ثم یجزیه بما یقتضیه أعماله المحفوظه علیه من خیر أو شر.

قوله تعالی: فَلْیَنْظُرِ الْإِنْسٰانُ مِمَّ خُلِقَ أی ما هو مبدأ خلقه؟و ما هو الذی صیره اللّه إنسانا.

و الجمله متفرعه علی الآیه السابقه و ما تدل علیه بفحواها بحسب السیاق و محصل المعنی و إذ کانت کل نفس محفوظه بذاتها و عملها من غیر أن تفنی أو ینسی عملها فلیذعن الإنسان أن سیرجع الی ربه و یجزی بما عمل و لا یستبعد ذلک و لینظر لتحصیل هذا الإذعان الی مبدإ خلقه و یتذکر أنه خلق من ماء دافق یخرج من بین الصلب و الترائب.

فالذی بدء خلقه من ماء هذه صفته یقدر علی رجعه و إحیائه بعد الموت.

و فی الإتیان بقوله: «خُلِقَ» مبنیا للمفعول و ترک ذکر الفاعل و هو اللّه سبحانه إیماء الی ظهور أمره،و نظیره قوله: «خُلِقَ مِنْ مٰاءٍ» الخ.

قوله تعالی: خُلِقَ مِنْ مٰاءٍ دٰافِقٍ الدفق تصبب الماء و سیلانه بدفع و سرعه الماء الدافق هو المنی و الجمله جواب عن استفهام مقدر یهدی الیه قوله: «مِمَّ خُلِقَ» .

قوله تعالی: یَخْرُجُ مِنْ بَیْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ الصلب الظهر،و الترائب جمع تریبه هی عظم الصدر.

و قد اختلفت کلماتهم فی الآیه و ما قبلها اختلافا عجیبا،و الظاهر أن المراد بقوله: «بَیْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ» البعض المحصور من البدن بین جداری عظام الظهر و عظام الصدر (۱).

قوله تعالی: إِنَّهُ عَلیٰ رَجْعِهِ لَقادِرٌ الرجع الإعاده،و ضمیر «إِنَّهُ» له تعالی و اکتفی بالإضمار مع أن المقام مقام الإظهار لظهوره نظیر قوله: «خُلِقَ» مبنیا للمفعول.

و المعنی أن الذی خلق الإنسان من ماء صفته تلک الصفه،علی إعادته و احیائه بعد الموت -و إعادته مثل بدئه-لقادر لأن القدره علی الشیء قدره علی مثله إذ حکم الأمثال فیما یجوز و فیما لا یجوز واحد.

قوله تعالی: یَوْمَ تُبْلَی السَّرائِرُ ظرف للرجع،و السریره ما أسره الإنسان و أخفاه فی نفسه،و البلاء الاختبار و التعرف و التصفح.

فالمعنی یوم یختبر ما أخفاه الإنسان و أسره من العقائد و آثار الأعمال خیرها و شرها فیمیز خیرها من شرها و یجزی الإنسان به فالآیه فی معنی قوله تعالی: إِنْ تُبْدُوا مٰا فِی أَنْفُسِکُمْ أَوْ تُخْفُوهُ یُحٰاسِبْکُمْ بِهِ اللّٰهُ (البقره/۲۸۴).

قوله تعالی: فَمٰا لَهُ مِنْ قُوَّهٍ وَ لاٰ نٰاصِرٍ أی لا قدره له فی نفسه یمتنع بها من عذاب اللّه و لا ناصر له یدفع عنه ذلک أی لا قدره هناک یدفع عنه الشر لا من نفسه و لا من غیره.

قوله تعالی: وَ السَّمٰاءِ ذٰاتِ الرَّجْعِ وَ الْأَرْضِ ذٰاتِ الصَّدْعِ إقسام بعد إقسام لتأکید أمر القیامه و الرجوع الی اللّه.

و المراد بکون السماء ذات رجع ما یظهر للحس من سیرها بطلوع الکواکب بعد غروبها

ص :۶۵۶

۱- ۱) .و قد أورد المراغی فی تفسیره فی ذیل الآیه عن بعض الاطباء توجیها دقیقا علمیا لهذه الآیه من اراده فلیراجعه.

و غروبها بعد طلوعها،و قيل:رجعها إمطارها،و المراد بكون الأرض ذات صدع تصدعها و انشقاقها بالنبات،و مناسبه القسمين لما أقسم عليه من الرجوع بعد الموت و الخروج من القبور ظاهره.

قوله تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَ مٰا هُوَ بِالْهَزْلِ الفصل إبانه أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فرجه،و التعبير بالفصل-و المراد الفاصل-للمبالغه كزيد عدل و الهزل خلاف الجد.

و الآيتان جواب القسم،و ضمير «إِنَّهُ» للقرآن و المعنى أقسم بكذا و كذا إن القرآن لقول فاصل بين الحق و الباطل و ليس هو كلاما لا جد فيه فما يحقه حق لا ريب فيه و ما يبطله باطل لا ريب فيه فما اخبركم به من البعث و الرجوع حق لا ريب فيه.

قوله تعالى: إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً أى الكفار يحتالون بكفرهم و إنكارهم المعاد احتيالا-يريدون به إطفاء نور اللّه و إبطال دعوتك،و أحتال عليهم بعين أعمالهم بالاستدراج و الإملاء و الإضلال بالطبع على قلوبهم و جعل الغشاوه على سمعهم و أبصارهم احتيالا أسوقهم به الى عذاب يوم القيامه.

قوله تعالى: فَمَهِّلِ الْكٰافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً التمهيل و الإمهال بمعنى واحد غير ان باب التفعيل يفيد التدريج و الإفعال يفيد الدفعه،و الرويد القليل.

و المعنى:إذا كان منهم كيد و منّى كيد عليهم بعين ما يكيدون به و اللّه غالب على أمره، فانتظر بهم و لا تعاجلهم انتظر بهم قليلا فسيأتيهم ما اوعدهم به فكل ما هو آت قريب.

و فى التعبير أولا بمهّل الظاهر فى التدريج و ثانيا مع التقييد برويدا بأمهل الظاهر فى الدفعه لطف ظاهر (1).

ص :657

1- 1) .الطارق 1-17:بحث روائى فى خلق الانسان؛السرائر؛صفات كتاب اللّه.

سوره الأعلی مکیه و هی تسع عشره آیه

اشاره

[سوره الأعلی (۸۷): الآیات ۱ الی ۱۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;سَبِّحِ اِسْمَ رَبِّکَ اَلْأَعْلَی (۱) اَلَّذِی خَلَقَ فَسَوّٰی (۲) وَ اَلَّذِی قَدَّرَ فَهَدیٰ (۳) وَ اَلَّذِی أَخْرَجَ اَلْمَرْعیٰ (۴) فَجَعَلَهُ غُثٰاءً أَحْویٰ (۵) سَنُقْرِئُکَ فَلاٰ تَنْسیٰ (۶) إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اَللّٰهُ إِنَّهُ یَعْلَمُ اَلْجَهْرَ وَ مٰا یَخْفیٰ (۷) وَ نُیَسِّرُکَ لِلْیُسْریٰ (۸) فَذَکِّرْ إِنْ نَفَعَتِ اَلذِّکْریٰ (۹) سَیَذَّکَّرُ مَنْ یَخْشیٰ (۱۰) وَ یَتَجَنَّبُهَا اَلْأَشْقَی (۱۱) اَلَّذِی یَصْلَی اَلنّٰارَ اَلْکُبْریٰ (۱۲) ثُمَّ لاٰ یَمُوتُ فِیهٰا وَ لاٰ یَحْییٰ (۱۳) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَکّٰی (۱۴) وَ ذَکَرَ اِسْمَ رَبِّهِ فَصَلّٰی (۱۵) بَلْ تُؤْثِرُونَ اَلْحَیٰاهَ اَلدُّنْیٰا (۱۶) وَ اَلْآخِرَهُ خَیْرٌ وَ أَبْقیٰ (۱۷) إِنَّ هٰذٰا لَفِی اَلصُّحُفِ اَلْأُولیٰ (۱۸) صُحُفِ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ (۱۹)

ص :۶۵۸

بیان:

أمر بتوحیده تعالی علی ما یلیق بساحته المقدسه و تنزیه ذاته المتعالیه من أن یذکر مع اسمه اسم غیره أو یسند الی غیره ما یجب أن یسند الیه کالخلق و التدبیر و الرزق و وعد له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتأییده بالعلم و الحفظ و تمکینه من الطریقه التی هی أسهل و أیسر للتبلیغ و أنسب للدعوه.

و سیاق الآیات فی صدر السوره سیاق مکی و أما ذیلها أعنی قوله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَکّی» الخ؛فقد ورد من طرق أئمه أهل البیت علیهم السّلام و کذا من طریق أهل السنه أن المراد به زکاه الفطره و صلاه العید و من المعلوم أن الصوم و ما یتبعه من زکاه الفطره و صلاه العید إنما شرعت بالمدینه بعد الهجره فتکون آیات الذیل نازله بالمدینه.

فالسوره صدرها مکّی و ذیلها مدنی،و لا ینافی ذلک ما جاء فی الآثار أن السوره مکیه فإنه لا یأبی الحمل علی صدر السوره.

قوله تعالی: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَی أمر بتنزیه اسمه تعالی و تقدیسه،و إذ علّق التنزیه علی الاسم-و ظاهر اللفظ الدال علی المسمّی-و الاسم إنما یقع فی القول فتنزیهه أن لا یذکر معه ما هو تعالی منزه عنه کذکر الآلهه و الشرکاء و الشفعاء و نسبه الربوبیه الیهم و کذکر بعض ما یختص به تعالی کالخلق و الإیجاد و الرزق و الإحیاء و الإماته و نحوها و نسبته الی غیره تعالی أو کذکر بعض ما لا یلیق بساحه قدسه تعالی من الأفعال کالعجز و الجهل و الظلم و الغفله و ما یشبهها من صفات النقص و الشین و نسبته الیه تعالی.

و بالجمله تنزیه اسمه تعالی أن یجرد القول عن ذکر ما لا یناسب ذکره ذکر اسمه تعالی و هو تنزیهه تعالی فی مرحله القول الموافق لتنزیهه فی مرحله الفعل.

و هو یلازم التوحید الکامل بنفی الشرک الجلی کما فی قوله: وَ إِذا ذُکِرَ اللّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ وَ إِذا ذُکِرَ الَّذِینَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ یَسْتَبْشِرُونَ (الزمر۴۵/)، و قوله: وَ إِذا ذَکَرْتَ رَبَّکَ فِی الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلی أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (الإسراء۴۶/).

و فی إضافه الاسم الی الرب و الرب الی ضمیر الخطاب تأیید لما قدمناه فإن المعنی سبّح اسم ربک الذی اتخذته ربا و أنت تدعو الی أنه الرب الإله فلا یقعن فی کلامک مع ذکر اسمه بالربوبیه ذکر من غیره بحیث ینافی تسمیه بالربوبیه علی ما عرّف نفسه لک.

و قوله: «الْأَعْلَی» و هو الذی یعلو کل عال و یقهر کل شیء صفه «رَبِّکَ» دون الاسم و یعلل بمعناه الحکم أی سبح اسمه لأنه أعلی.

قوله تعالی: اَلَّذِی خَلَقَ فَسَوّی خلق الشیء جمع أجزائه،و تسویته جعلها متساویه بحیث یوضع کل فی موضعه الذی یلیق به و یعطی حقه کوضع کل عضو من أعضاء الانسان فیما یناسبه من الموضع.

و الخلق و التسویه و إن کانا مطلقین لکنهما إنما یشملان ما فیه ترکیب أو شائبه ترکیب من المخلوقات.

و الآیه الی تمام أربع آیات تصف التدبیر الإلهی و هی برهان علی ربوبیته تعالی المطلقه.

قوله تعالی: وَ الَّذِی قَدَّرَ فَهَدیٰ أی جعل الأشیاء التی خلقها علی مقادیر مخصوصه و حدود معینه فی ذواتها و صفاتها و أفعالها لا تتعداها و جهّزها بما یناسب ما قدر لها فهداها الی ما قدر فکل یسلک نحو ما قدر له بهدایه ربانیه تکوینیه کالطفل یهتدی الی ثدی أمه و الفرخ الی زق أمه و أبیه،و الذکر الی الانثی و ذی النفع الی نفعه و علی هذا القیاس.

قال تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر۲۱/)، و قال: ثُمَّ السَّبِیلَ یَسَّرَهُ (عبس۲۰/)،و قال: لِکُلٍّ وِجْهَهٌ هُوَ مُوَلِّیهٰا (البقره/ ۱۴۸).

قوله تعالی: وَ الَّذِی أَخْرَجَ الْمَرْعیٰ المرعی ما ترعاه الدواب فاللّه تعالی هو الذی أخرجها أی أنبتها.

قوله تعالی: فَجَعَلَهُ غُثٰاءً أَحْویٰ الغثاء ما یقذفه السیل علی جانب الوادی من الحشیش و النبات،و المراد هنا-کما قیل-الیابس من النبات،و الأحوی الأسود.

و إخراج المرعی لتغذی الحیوان ثم جعله غثاء أحوی من مصادیق التدبیر الربوبی و دلائله کما أن الخلق و التسویه و التقدیر و الهدایه کذلک.

قوله تعالی: سَنُقْرِئُکَ فَلاٰ تَنْسیٰ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ إِنَّهُ یَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ مٰا یَخْفیٰ قال فی المفردات:و القراءه ضم الحروف و الکلمات بعضها الی بعض فی الترتیل، و لیس یقال ذلک لکل جمع لا یقال:قرأت القوم إذا جمعتهم،و یدل علی ذلک أنه لا یقال للحرف الواحد إذا تفوه به قراءه،انتهی،و قال فی المجمع:و الإقراء أخذ القراءه علی القارئ بالاستماع لتقویم الزلل،و القاری التالی.انتهی.

و لیس إقراؤه تعالی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم القرآن مثل إقراء بعضنا بعضا باستماع المقری لما یقرؤه القاری و اصلاح ما لا یحسنه أو یغلط فیه فلم یعهد من النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یقرأ شیئا من القرآن فلا

يحسنه أو يغلط فيه عن نسيان للوحى ثم يقرأ فيصلح بل المراد تمكينه من قراءه القرآن كما أنزل من غير أن يغيره بزياده او نقص او تحريف بسبب النسيان.

فقوله: سَنُقْرِئُكَ فَلاٰ تَنْسىٰ وعد منه لنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يمكنه من العلم بالقرآن و حفظه على ما أنزل بحيث يرتفع عنه النسيان فيقرؤه كما أنزل و هو الملاك فى تبليغ الوحى كما اوحى اليه.

و قوله: إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ استثناء مفيد لبقاء القدره الإلهيه على اطلاقها و أن هذه العطيه و هى الإقراء بحيث لا تنسى لا ينقطع عنه سبحانه بالإعطاء بحيث لا يقدر بعد على انسائك بل هو باق على اطلاق قدرته له أن يشاء انساءك متى شاء و إن كان لا يشاء ذلك فهو نظير الاستثناء الذى فى قوله: وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خٰالِدِينَ فِيهٰا مٰا دٰامَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّكَ عَطٰاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (هود١٠٨/)و قد تقدم توضيحه.

و ليس المراد بالاستثناء اخراج بعض افراد النسيان من عموم النفى و المعنى سنقرئك فلا تنسى شيئا الا ما شاء اللّه ان تنساه و ذلك ان كل انسان على هذه الحال يحفظ اشياء و ينسى اشياء فلا معنى لاختصاصه بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بلحن الامتنان مع كونه مشتركا بنيه و بين غيره فالوجه ما قدمناه.

قوله تعالى: وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرىٰ اليسرى-مؤنث أيسر-و هو وصف قائم مقام موصوفه المحذوف أى الطريقه اليسرى و التيسير التسهيل أى و نجعلك بحيث تتخذ دائما أسهل الطرق للدعوه و التبليغ قولا و فعلا فتهدى قوما و تتم الحجه على آخرين و تصبر على أذاهم.

و كان مقتضى الظاهر أن يقال:و نيسر لك اليسرى كما قال: وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي (طه/ ٢۶)و انما عدل عن ذلك الى قوله: «وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرىٰ» لأن الكلام فى تجهيزه تعالى نفس النبى الشريفه و جعله إياها صالحه لتأديه الرساله و نشر الدعوه.على ما فى نيسر اليسرى من

ایهام تحصیل الحاصل.

فالمراد جعله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم صافی الفطره حقیقا علی اختیار الطریقه الیسری التی هی طریقه الفطره فالآیه فی معنی حکایه عن موسی حَقِیقٌ عَلیٰ أَنْ لاٰ أَقُولَ عَلَی اللّٰهِ إِلاَّ الْحَقَّ (الأعراف/۱۰۵).

قوله تعالی: فَذَکِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّکْریٰ تفریع علی ما تقدم من أمره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتنزیه اسم ربه و وعده إقراء الوحی بحیث لا ینسی و تیسیره للیسری و هی الشرائط الضروریه التی یتوقف علیها نجاح الدعوه الدینیه.

و المعنی إذ تم لک الأمر بامتثال ما أمرناک به و إقرائک فلا تنسی و تیسیرک للیسری فذکر إن نفعت الذکری.

و قد اشترط فی الأمر بالتذکره أن تکون نافعه و هو شرط علی حقیقته فإنها إذا لم تنفع کانت لغوا و هو تعالی یجل عن أن یأمر باللغو فالتذکره لمن یخشی لأول مره تفید میلا من نفسه الی الحق و هو نفعها و کذا التذکره بعد التذکره کما قال: «سَیَذَّکَّرُ مَنْ یَخْشیٰ» و التذکره للأشقی الذی لا خشیه فی قلبه لأول مره تفید تمام الحجه علیه و هو نفعها و یلازمها تجنبه و تولیه عن الحق کما قال: «وَ یَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَی» و التذکره بعد التذکره له لا تنفع شیئا و لذا امر بالإعراض عن ذلک قال تعالی: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰی عَنْ ذِکْرِنٰا وَ لَمْ یُرِدْ إِلاَّ الْحَیٰاهَ الدُّنْیٰا (النجم/ ۲۹).

قوله تعالی: سَیَذَّکَّرُ مَنْ یَخْشیٰ أی سیتذکر و یتعظ بالقرآن من فی قلبه شیء من خشیه اللّه و خوف عقابه.

قوله تعالی: وَ یَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَی الضمیر للذکری و المراد بالأشقی بقرینه المقابله من لیس فی قلبه شیء من خشیه اللّه تعالی،و تجنب الشیء التباعد عنه،و المعنی و سیتباعد عن الذکری من لا یخشی اللّه.

قوله تعالى: اَلَّذِی یَصْلَی النّٰارَ الْکُبْریٰ الظاهر أن المراد بالنار الکبری نار جهنم و هی نار کبری بالقیاس الی نار الدنیا،و قیل:المراد بها أسفل درکات جهنم و هی أشدها عذابا.

قوله تعالی: ثُمَّ لاٰ یَمُوتُ فِیهٰا وَ لاٰ یَحْییٰ ثم للتراخی بحسب رتبه الکلام، و المراد من نفی الموت و الحیاه عنه معا نفی النجاه نفیا مؤبدا فإن النجاه بمعنی انقطاع العذاب بأحد أمرین إما بالموت حتی ینقطع عنه العذاب بانقطاع وجوده و اما یتبدل صفه الحیاه من الشقاء الی السعاده و من العذاب الی الراحه فالمراد بالحیاه فی الآیه الحیاه الطیبه علی حد قولهم فی الحرض:لا حی فیرجی و لا میت فینسی.

قوله تعالی: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَکّٰی وَ ذَکَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّٰی التزکی هو التطهر و المراد به التطهر من ألواث التعلقات الدنیویه الصارفه عن الآخره بدلیل قوله بعد: «بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَیٰاهَ الدُّنْیٰا» الخ؛و الرجوع الی اللّه بالتوجه الیه تطهر من الإخلاد الی الأرض، و الإنفاق فی سبیل اللّه تطهر من لوث التعلق المالی حتی أن وضوء الصلاه تمثیل للتطهر عما کسبته الوجوه و الأیدی و الأقدام.

و قوله: وَ ذَکَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّٰی الظاهر أن المراد بالذکر الذکر اللفظی،و بالصلاه التوجه الخاص المشروع فی الإسلام.

و الآیتان بحسب ظاهر مدلولهما علی العموم لکن ورد فی المأثور عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام أنهما نزلتا فی زکاه الفطر و صلاه العید و کذا من طریق أهل السنه.

قوله تعالی: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَیٰاهَ الدُّنْیٰا اضراب بالخطاب لعامه الناس علی ما یدعو الیه طبعهم البشری من التعلق التام بالدنیا و الاشتغال بتعمیرها،و الإیثار الاختیار، و قیل:الخطاب للکفار،و الکلام علی أی حال مسوق للعتاب و الالتفات لتأکیده.

قوله تعالی: وَ الْآخِرَهُ خَیْرٌ وَ أَبْقیٰ عد الآخره أبقی بالنسبه الی الدنیا مع أنها باقیه

أبـديه فى نفسـها لأـن المقام مقام الترجيـح بين الـدنيا و الآخره و يكفى فى الترجيـح مجرد كون الآخره خيرا و أبقى بالنسـبه الى الدنيا و ان قطع النظر عن كونها باقيه أبديه.

ق

و له تعالى: إِنَّ هٰذٰا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولىٰ صُحُفِ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ الإشاره بهذا الى ما بين فى قوله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّٰى» الى تمام أربع آيات،و قيل:هذا اشاره الى مضمون قوله: «وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ» .

قيل:و فى ابهام الصحف و وصـفها بالتقدم أولا ثم بيانها و تفسـيرها بصحف ابراهيم و موسى ثانيا ما لا يخفى من تفخيم شأنها و تعظم أمرها (١).

١- ١) .الأعلى ١-٢۶:بحث روائى فى ذكر الركوع و السجود؛صلاه العيد؛زكاه الفطره،عدد الانبياء و المرسلين.

سوره الغاشیه مکیه و هی ست و عشرون آیه

اشاره

[سوره الغاشیه (۸۸): الآیات ۱ الی ۲۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;هَلْ أَتٰاکَ حَدِیثُ اَلْغٰاشِیَهِ (۱) وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ خٰاشِعَهٌ (۲) عٰامِلَهٌ نٰاصِبَهٌ (۳) تَصْلیٰ نٰاراً حٰامِیَهً (۴) تُسْقیٰ مِنْ عَیْنٍ آنِیَهٍ (۵) لَیْسَ لَهُمْ طَعٰامٌ إِلاّٰ مِنْ ضَرِیعٍ (۶) لاٰ یُسْمِنُ وَ لاٰ یُغْنِی مِنْ جُوعٍ (۷) وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ نٰاعِمَهٌ (۸) لِسَعْیِهٰا رٰاضِیَهٌ (۹) فِی جَنَّهٍ عٰالِیَهٍ (۱۰) لاٰ تَسْمَعُ فِیهٰا لاٰغِیَهً (۱۱) فِیهٰا عَیْنٌ جٰارِیَهٌ (۱۲) فِیهٰا سُرُرٌ مَرْفُوعَهٌ (۱۳) وَ أَکْوٰابٌ مَوْضُوعَهٌ (۱۴) وَ نَمٰارِقُ مَصْفُوفَهٌ (۱۵) وَ زَرٰابِیُّ مَبْثُوثَهٌ (۱۶) أَ فَلاٰ یَنْظُرُونَ إِلَی اَلْإِبِلِ کَیْفَ خُلِقَتْ (۱۷) وَ إِلَی اَلسَّمٰاءِ کَیْفَ رُفِعَتْ (۱۸) وَ إِلَی اَلْجِبٰالِ کَیْفَ نُصِبَتْ (۱۹) وَ إِلَی اَلْأَرْضِ کَیْفَ سُطِحَتْ (۲۰) فَذَکِّرْ إِنَّمٰا أَنْتَ مُذَکِّرٌ (۲۱) لَسْتَ عَلَیْهِمْ بِمُصَیْطِرٍ (۲۲) إِلاّٰ مَنْ تَوَلّٰی وَ کَفَرَ (۲۳) فَیُعَذِّبُهُ اَللّٰهُ اَلْعَذٰابَ اَلْأَکْبَرَ (۲۴) إِنَّ إِلَیْنٰا إِیٰابَهُمْ (۲۵) ثُمَّ إِنَّ عَلَیْنٰا حِسٰابَهُمْ (۲۶)

ص: ۶۶۶

بیان:

سوره انذار و تبشیر تصف الغاشیه و هی یوم القیامه الذی یحیط بالناس تصفه بحال الناس فیه من حیث انقسامهم فریقین:السعداء و الأشقیاء و استقرارهم فیما اعد لهم من الجنه و النار

و تنتهی الی امره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ان یذکر الناس بفنون من التدبیر الربوبی فی العالم الداله علی ربوبیته تعالی لهم و رجوعهم الیه لحساب اعمالهم.

و السوره مکیه بشهاده سیاق آیاتها.

قوله تعالی: هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ الْغاشِیَهِ استفهام بداعی التفخیم و الإعظام، و المراد بالغاشیه یوم القیامه سمّیت بذلک لأنها تغشی الناس و تحیط بهم کما قال: وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (الکهف/۴۷)،أو لأنها تغشی الناس بأهوالها بغته کما قیل،أو لأنها تغشی وجوه الکفار بالعذاب.

قوله تعالی: وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ خاشِعَهٌ أی مذلله بالغم و العذاب یغشاها،و الخشوع إنما هو لأرباب الوجوه و إنما نسب الی الوجوه لأن الخشوع و المذله یظهر فیها.

قوله تعالی: عامِلَهٌ ناصِبَهٌ النصب التعب و «عامِلَهٌ» خبر بعد خبر لوجوه،و کذا قوله: «ناصِبَهٌ» و «تَصْلی» و «تُسْقی» و «لَیْسَ لَهُمْ» ،و المراد من عملها و نصبها بقرینه مقابلتهما فی صفه أهل الجنه الآتیه بقوله: «لِسَعْیِها راضِیَهٌ» عملها فی الدنیا و نصبها فی الآخره فإن الإنسان إنما یعمل ما یعمل فی الدنیا لیسعد به و یظفر بالمطلوب لکن عملهم خبط باطل لا ینفعهم شیئا کما قال تعالی: وَ قَدِمْنا إِلی ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (الفرقان/ ۲۳)فلا یعود الیهم من عملهم إلا النصب و التعب بخلاف أهل الجنه فإنهم لسعیهم الذی سعوه فی الدنیا راضون لما ساقهم الی الجنه و الراحه.

قوله تعالی: تَصْلی ناراً حامِیَهً أی تلزم نارا فی نهایه الحراره.

قوله تعالی: تُسْقی مِنْ عَیْنٍ آنِیَهٍ أی حاره بالغه فی حرارتها.

قوله تعالی: لَیْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلاّ مِنْ ضَرِیعٍ لا یُسْمِنُ وَ لا یُغْنِی مِنْ جُوعٍ قیل:الضریع نوع من الشوک یقال له:الشبرق و أهل الحجاز یسمونه الضریع إذا یبس و هو أخبث طعام و أبشعه لا ترعاه دابه،و لعل تسمیه ما فی النار به لمجرد المشابهه شکلا

و خاصه.

قوله تعالی: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نٰاعِمَةٌ من النعومه فيكون كنايه عن البهجه و السرور الظاهر على البشره كما قال: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (المطففين/٢۴)،أو من النعمه أی متنعمه.قیل:و لم یعطف علی قوله: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خٰاشِعَةٌ» إشاره الی کمال البینونه بین حالی الفریقین.

قوله تعالی: لِسَعْيِهٰا رٰاضِيَةٌ اللام للتقویه،و المراد بالسعی سعیها فی الدنیا بالعمل الصالح،و المعنی رضیت سعیها و هو عملها الصالح حیث جوزیت به جزاء حسنا.

قوله تعالی: فِي جَنَّةٍ عٰالِيَةٍ -الی قوله- وَ زَرٰابِيُّ مَبْثُوثَةٌ المراد بعلوها ارتفاع درجاتها و شرفها و جلالتها و غزراه عیشها فإن فیها حیاه لا موت معها،و لذه لا ألم یشوبها و سرورا لا غم و لا حزن یداخله لهم فیها فوق ما یشاءون.

و قوله: لاٰ تَسْمَعُ فِيهٰا لاٰغِيَةً أی لا تسمع تلک الوجوه فی الجنه کلمه ساقطه لا فائده فیها.

و قوله: فِيهٰا عَيْنٌ جٰارِيَةٌ المراد بالعین جنسها فقد عد تعالی فیها عیونا فی کلامه کالسلسبیل و الشراب الطهور و غیرهما.

و قوله: فِيهٰا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ السرر جمع سریر و فی ارتفاعها جلاله القاعد علیها، «وَ أَكْوٰابٌ مَوْضُوعَةٌ» الأکواب جمع کوب و هو الإبریق لا خرطوم له و لا عروه یتخذ فیه الشراب «وَ نَمٰارِقُ مَصْفُوفَةٌ» النمارق جمع نمرقه و هی الوساده و کونها مصفوفه وضعها فی المجلس بحیث یتصل بعضها ببعض علی هیئه المجالس الفاخره فی الدنیا «وَ زَرٰابِيُّ مَبْثُوثَةٌ» الزرابی جمع زربیه مثلثه الزای و هی البساط الفاخر و بثها بسطها للقعود علیها.

قوله تعالی: أَ فَلاٰ يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ بعد ما فرغ من وصف الغاشیه و بیان حال الفریقین،المؤمنین و الکفار عقّبه بإشاره إجمالیه الی التدبیر الربوبی الذی

يفصح عن ربوبيته تعالى المقتضيه لوجوب عبادته و لازم ذلك حساب الأعمال و جزاء المؤمن بإيمانه و الكافر بكفره و الظرف الذى فيه ذلك هو الغاشيه.

و قد دعاهم أولا- أن ينظروا الى الإبل كيف خلقت؟و كيف صوّر اللّه سبحانه أرضا عادمه للحياه فاقده للشعور بهذه الصوره العجيبه فى أعضائها و قواها و أفاعيلها فسخّرها لهم ينتفعون من ركوبها و حملها و لحمها و ضرعها و جلدها و وبرها حتى بولها و بعرتها فهل هذا كله توافق اتفاقى غير مطلوب بحياله؟

و تخصيص الإبل بالذكر من جهه أن السوره مكيه و أول من تتلى عليهم الأعراب و اتخاذ الآبال من أركان عيشتهم.

قوله تعالى: وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ و زيّنت بالشمس و القمر و سائر النجوم الزواهر بما فيها من المنافع لأهل الأرض و قد جعل دونها الهواء الذى يضطر اليه الحيوان فى تنفسه.

قوله تعالى: وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ و هى أوتاد الأرض المانعه من مورها و مخازن الماء التى تتفجر منها العيون و الأنهار و محافظ للمعادن.

قوله تعالى: وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ أى بسطت و سويت فصلحت لكنى الإنسان و سهل فيها النقل و الانتقال و أغلب التصرفات الصناعيه التى للإنسان.

فهذه تدبيرات كليه مستنده اليه تعالى بلا ريب فيه فهو رب السماء و الأرض ما بينهما فهو رب العالم الإنسانى يجب عليهم أن يتخذوه ربا و يوحدوه و يعبدوه و أمامهم الغاشيه و هو يوم الحساب و الجزاء.

قوله تعالى: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ تفريع على ما تقدم و المعنى إذا كان اللّه سبحانه هو ربهم لا رب سواه و أمامهم يوم الحساب و الجزاء لمن آمن منهم أو كفر فذكرهم بذلك.

ص : ۶۷۰

و قوله: إِنَّمٰا أَنْتَ مُذَكِّرٌ بيان أن وظيفته-و هو رسول-التذكره رجاء أن يستجيبوا و يؤمنوا من غير إكراه و إلجاء.

قوله تعالى: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ المصيطر-و أصله المسيطر-المتسلط، و الجمله بيان و تفسير لقوله: «إِنَّمٰا أَنْتَ مُذَكِّرٌ» .

قوله تعالى: إِلاّٰ مَنْ تَوَلّٰى وَ كَفَرَ استثناء من المفعول المحذوف لقوله السابق:

«فَذَكِّرْ» و التقدير فذكر الناس إلا من تولى منهم عن التذكره و كفر إذ تذكرته لغو لا فائده فيها، و معلوم أن التولى و الكفر إنما يكون بعد التذكره فالمنفى بالاستثناء هو التذكره بعد التذكره كأنه قيل:ذكّرهم و أدم التذكره إلا لمن ذكّرته فتولى عنها و كفر،فليس عليك إدامه تذكرته بل أعرض عنه فيعذبه اللّه العذاب الأكبر.

فقوله: فَذَكِّرْ -الى قوله- إِلاّٰ مَنْ تَوَلّٰى وَ كَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللّٰهُ الْعَذٰابَ الْأَكْبَرَ فى معنى قوله: فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرىٰ -الى أن قال- وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى اَلَّذِي يَصْلَى النّٰارَ الْكُبْرىٰ (الأعلى/۱۲)و قد تقدم بيانه.

و قيل:الاستثناء من ضمير «عَلَيْهِمْ» فى قوله: «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ» و المعنى لست عليهم بمتسلط إلا على من تولى منهم عن التذكره و أقام على الكفر فسيسلطك اللّه عليه و يأمرك بالجهاد فتقاتله فتقتله.

و قيل:الاستثناء منقطع و المعنى لست عليهم بمتسلط لكن من تولى و كفر منهم يعذبه اللّه العذاب الأكبر،و ما قدمناه من الوجه أرجح و أقرب.

قوله تعالى: فَيُعَذِّبُهُ اللّٰهُ الْعَذٰابَ الْأَكْبَرَ هو عذاب جهنم فالآيه كما تقدم محاذيه لقوله فى سوره الأعلى: اَلَّذِي يَصْلَى النّٰارَ الْكُبْرىٰ .

قوله تعالى: إِنَّ إِلَيْنٰا إِيٰابَهُمْ الإياب الرجوع و «إِلَيْنٰا» خبر إن و إنما قدم للتأكيد و لرعايه الفواصل دون الحصر إذ لا قائل برجوع الناس الى غير اللّه سبحانه و الآيه فى مقام

التعليل للتعذیب المذکور فی الآیه السابقه.

قوله تعالی: ثُمَّ إِنَّ عَلَیْنٰا حِسٰابَهُمْ الکلام فیه کالکلام فی الآیه السابقه.

ص :۶۷۲

سوره الفجر مکیه و هی ثلاثون آیه

اشاره

[سوره الفجر (۸۹): الآیات ۱ الی ۳۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;وَ اَلْفَجْرِ (۱) وَ لَیٰالٍ عَشْرٍ (۲) وَ اَلشَّفْعِ وَ اَلْوَتْرِ (۳) وَ اَللَّیْلِ إِذٰا یَسْرِ (۴) هَلْ فِی ذٰلِکَ قَسَمٌ لِذِی حِجْرٍ (۵) أَ لَمْ تَرَ کَیْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِعٰادٍ (۶) إِرَمَ ذٰاتِ اَلْعِمٰادِ (۷) اَلَّتِی لَمْ یُخْلَقْ مِثْلُهٰا فِی اَلْبِلاٰدِ (۸) وَ ثَمُودَ اَلَّذِینَ جٰابُوا اَلصَّخْرَ بِالْوٰادِ (۹) وَ فِرْعَوْنَ ذِی اَلْأَوْتٰادِ (۱۰) اَلَّذِینَ طَغَوْا فِی اَلْبِلاٰدِ (۱۱) فَأَکْثَرُوا فِیهَا اَلْفَسٰادَ (۱۲) فَصَبَّ عَلَیْهِمْ رَبُّکَ سَوْطَ عَذٰابٍ (۱۳) إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصٰادِ (۱۴) فَأَمَّا اَلْإِنْسٰانُ إِذٰا مَا اِبْتَلاٰهُ رَبُّهُ فَأَکْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَیَقُولُ رَبِّی أَکْرَمَنِ (۱۵) وَ أَمّٰا إِذٰا مَا اِبْتَلاٰهُ فَقَدَرَ عَلَیْهِ رِزْقَهُ فَیَقُولُ رَبِّی أَهٰانَنِ (۱۶) کَلاّٰ بَلْ لاٰ تُکْرِمُونَ اَلْیَتِیمَ (۱۷) وَ لاٰ تَحَاضُّونَ عَلیٰ طَعٰامِ اَلْمِسْکِینِ (۱۸) وَ تَأْکُلُونَ اَلتُّرٰاثَ أَکْلاً لَمًّا (۱۹) وَ تُحِبُّونَ اَلْمٰالَ حُبًّا جَمًّا (۲۰) کَلاّٰ إِذٰا دُکَّتِ اَلْأَرْضُ دَکًّا دَکًّا (۲۱) وَ جٰاءَ رَبُّکَ وَ اَلْمَلَکُ صَفًّا صَفًّا (۲۲) وَ جِیءَ یَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ یَوْمَئِذٍ یَتَذَکَّرُ اَلْإِنْسٰانُ وَ أَنّٰی لَهُ اَلذِّکْریٰ (۲۳) یَقُولُ یٰا لَیْتَنِی قَدَّمْتُ لِحَیٰاتِی (۲۴) فَیَوْمَئِذٍ لاٰ یُعَذِّبُ عَذٰابَهُ أَحَدٌ (۲۵) وَ لاٰ یُوثِقُ وَثٰاقَهُ أَحَدٌ (۲۶) یٰا أَیَّتُهَا اَلنَّفْسُ اَلْمُطْمَئِنَّهُ (۲۷) اِرْجِعِی إِلیٰ رَبِّکِ رٰاضِیَهً مَرْضِیَّهً (۲۸) فَادْخُلِی فِی عِبٰادِی (۲۹) وَ اُدْخُلِی جَنَّتِی (۳۰)

ص: ۶۷۳

بیان:

فی السوره ذم التعلق بالدنیا المتعقب للطغیان و الکفران و إیعاد أهله بأشد عذاب اللّه فی الدنیا و الآخره فتبین أن الانسان لقصور نظره و سوء فکره یری أن ما آتاه اللّه من نعمه من کرامته علی اللّه و أن ما یتلبس به من الفقر و العدم من هوانه فیطغی و یفسد فی الأرض إذا وجد و یکفر إذا فقد و قد اشتبه علیه الأمر فما یصیبه من القدره و الثروه و من الفقر و ضیق المعاش امتحان و ابتلاء إلهی لیظهر به ما ذا یقدم من دنیاه لاخراه.

فلیس الأمر علی ما یتوهمه الإنسان و یقوله بل الأمر کما سیتذکره إذا وقع الحساب و حضر العذاب أن ما أصابه من فقر أو غنی أو قوه أو ضعف کان امتحانا إلهیا و کان یمکنه أن یقدم من یومه لغده فلم یفعل و آثر العقاب علی الثواب فلیس ینال الحیاه السعیده فی الآخره إلا النفس المطمئنه الی ربها المسلمه لأمره التی لا تتزلزل بعواصف الابتلاءات و لا یطغیه الوجدان و لا یکفره الفقدان.

و السوره مکیه بشهاده سیاق آیاتها.

قوله تعالی: وَ الْفَجْرِ وَ لَیٰالٍ عَشْرٍ وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ وَ اللَّیْلِ إِذٰا یَسْرِ هَلْ فِی ذٰلِکَ قَسَمٌ لِذِی حِجْرٍ الفجر الصبح و الشفع الزوج،قال الراغب:الشفع ضم الشیء الی مثله و یقال للمشفوع شفع.انتهی.و سری اللیل مضیه و إدباره،و الحجر العقل فقوله:

«وَ الْفَجْرِ» إقسام بالصبح و کذا الحال فیما عطف علیه من لیال و الشفع و الوتر و اللیل.

و لعل ظاهر قوله: «وَ الْفَجْرِ» أن المراد به مطلق الفجر و لا یبعد أیضا أن یراد به فجر یوم النحر و هو عاشر ذی الحجه.

و قوله: وَ لَيالٍ عَشْرٍ لعل المراد بها الليالى العشر من أول ذى الحجه الى عاشرها و التنكير للتفخيم.

و قيل:المراد بها الليالى العشر من آخر شهر رمضان،و قيل:الليالى العشر من أوله،و قيل الليالى العشر من أول المحرم،و قيل:المراد عباده ليال عشر على تقدير أن يراد بالفجر صلاه الفجر.

و قوله: وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ يقبل الانطباق على يوم الترويه و يوم عرفه و هو الأنسب على تقدير أن يراد بالفجر و ليال عشر فجر ذى الحجه و العشر الاول من لياليها.

و قوله: وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ أى يمضى فهو كقوله: وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (المدثر/۳۳) و ظاهره أن اللام للجنس فالمراد به مطلق آخر الليل،و قيل:المراد به ليله المزدلفه و هى ليله النحر التى يسرى فيها الحاج من عرفات الى المزدلفه فيجتمع فيها على طاعه اللّه ثم يغدو منها الى منى و هو كما ترى و خاصه على القول بكون المراد بليال عشر هو الليالى العشر الأوائل منها.

و قوله: هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ الإشاره بذلك الى ما تقدم من القسم، و الاستفهام للتقرير،و المعنى أن فى ذلك الذى قدمناه قسما كافيا لمن له عقل يفقه به القول و يميز الحق من الباطل،و إذا أقسم اللّه سبحانه بأمر-و لا يقسم إلا بما له شرف و منزله-كان من القول الحق المؤكد الذى لا ريب فى صدقه.

و جواب الأقسام المذكوره محذوف يدل عليه ما سيذكر من عذاب أهل الطغيان و الكفران فى الدنيا و الآخره و ثواب النفوس المطمئنه،و أن إنعامه تعالى على من أنعم عليه و إمساكه عنه فيمن أمسك إنما هو ابتلاء و امتحان.

و حذف الجواب و الإشاره اليه على طريق التكنيه أوقع و آكد فى باب الإنذار و التبشير.

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ هم عاد الاولى قوم هود تكررت

قصتهم فی القرآن الکریم و أشیر الی أنهم کانوا بالأحقاف،و قد قدمنا ما یتحصل من قصصهم فی القرآن الکریم فی تفسیر سوره هود.

قوله تعالی: إِرَمَ ذٰاتِ الْعِمٰادِ اَلَّتِی لَمْ یُخْلَقْ مِثْلُهٰا فِی الْبِلاٰدِ العماد و جمعه عمد ما یعتمد علیه الأبنیه،و ظاهر الآیتین أن إرم کانت مدینه لهم معموره عدیمه النظیر ذات قصور عالیه و عمد ممدده،و قد انقطعت أخبار القوم عهدهم و انمحت آثارهم،فلا سبیل الی الحصول علی تفصیل حالهم تطمئن إلیها النفس إلاـ ما قصه القرآن الکریم من إجمال قصتهم أنهم کانوا بعد قوم نوح قاطنین بالأحقاف و کانوا ذوی بسطه فی الخلق أولی قوه و بطش شدید،و کان لهم تقدم ورقی فی المدنیه و الحضاره لم بلاد عامره و أراض خصبه ذات جنات و نخیل و زروع و مقام کریم و قد تقدمت القصه.

قوله تعالی: وَ ثَمُودَ الَّذِینَ جٰابُوا الصَّخْرَ بِالْوٰادِ الجوب القطع أی قطعوا صخر الجبال بنحتها بیوتا فهو فی معنی قوله: وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبٰالِ بُیُوتاً (الشعراء۱۴۹/).

قوله تعالی: وَ فِرْعَوْنَ ذِی الْأَوْتٰادِ هو فرعون موسی،و سمی ذا الأوتاد-علی ما فی بعض الروایات-لأنه کان إذا أراد أن یعذب رجلا بسطه علی الأرض و وتد یدیه و رجلیه بأربعه أوتاد فی الأرض و ربما بسطه علی خشب و فعل به ذلک،و یؤیده ما حکاه اللّه من قوله یهدد السحره إذ آمنوا بموسی: وَ لَأُصَلِّبَنَّکُمْ فِی جُذُوعِ النَّخْلِ (طه۷۱/)فإنهم کانوا یوتدون یدی المصلوب و رجلیه علی خشبه الصلیب.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ طَغَوْا فِی الْبِلاٰدِ فَأَکْثَرُوا فِیهَا الْفَسٰادَ صفه للمذکورین من عاد و ثمود و فرعون،و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: فَصَبَّ عَلَیْهِمْ رَبُّکَ سَوْطَ عَذٰابٍ صب الماء معروف و صب سوط العذاب کنایه عن التعذیب المتتابع المتواتر الشدید،و تنکیر عذاب للتفخیم.

و المعنی فأنزل ربک علی کل من هؤلاء الطاغین المکثرین للفساد إثر طغیانهم و اکثارهم

ص: ۶۷۷

الفساد عذابا شديدا متتابعا متواليا لا يوصف.

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصٰادِ المرصاد المكان الذى يرصد منه و يرقب و كونه تعالى على المرصاد استعاره تمثيليه شبه فيها حفظه تعالى لأعمال عباده بمن يقعد على المرصاد يرقب من يراد رقوبه فيأخذه حين يمر به و هو لا يشعر فاللّه سبحانه رقيب يرقب أعمال عباده حتى إذا طغوا و أكثروا الفساد أخذهم بأشد العذاب.

و فى الآيه تعليل ما تقدم من حديث تعذيب الطغاه المكثرين للفساد من الماضين و فى و قوله: «رَبَّكَ» باضافه الرب الى ضمير الخطاب تلويح الى أن سنه العذاب جاريه فى أمته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على ما جرت عليه فى الامم الماضين.

قوله تعالى: فَأَمَّا الْإِنْسٰانُ إِذٰا مَا ابْتَلاٰهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ متفرع على ما قبله،فيه تفصيل حال الإنسان إذا أوتى من نعم الدنيا أو حرم كأنه قيل:إن الإنسان تحت رقوب إلهى يرصده ربه هل يصلح أو يفسد؟و يبتليه و يمتحنه فيما آتاه من نعمه أو حرمه هذا هو الأمر فى نفسه و أما الإنسان فإنه إذا أنعم اللّه عليه بنعمه حسب أن ذلك اكرام الهى له أن يفعل بها ما يشاء فيطغى و يكثر الفساد،و اذا أمسك و قدر عليه رزقه حسب أنه اهانه الهيه فيكفر و يجزع.

فقوله: «فَأَمَّا الْإِنْسٰانُ» المراد به النوع بحسب الطبع الأولى فاللام للجنس دون الاستغراق.

و قوله: إِذٰا مَا ابْتَلاٰهُ رَبُّهُ أى امتحنه و اختبره،و العامل فى الظرف محذوف تقديره كائنا اذا،الخ؛و قيل:العامل فيه «فَيَقُولُ» .

و قوله: فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ تفسير للابتلاء،و المراد بالإكرام و التنعيم الصوريان و ان شئت فقل:الإكرام و التنعيم حدوثا لإبقاء أى أنه تعالى أكرمه و آتاه النعمه ليشكره و يعبده لكنه جعلها نقمه على نفسه تستتبع العذاب.

ص :۶۷۸

و قوله: فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ أى جعلنى على كرامه منه بالنعم التى آتانيها و ان شئت فقل:القدره و الجده الموهوبتان اكرام و تنعيم حدوثا و بقاء فلى أن افعل ما أشاء.

و الجمله أعنى قوله: «فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ» حكايه ما يراه الإنسان بحسب الطبع،و قول الإنسان: «رَبِّى أَكْرَمَنِ» الظاهر فى نسبه التدبير الى اللّه سبحانه-و لا يقول به الوثنيه و المنكرون للصانع-مبنى على اعترافه بحسب الفطره به تعالى و إن استنكف عنه لسانا،و أيضا لرعايه المقابله مع قوله: «إِذٰا مَا ابْتَلاٰهُ رَبُّهُ» .

قوله تعالى: وَ أَمّٰا إِذٰا مَا ابْتَلاٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهٰانَنِ أى و أما إذا ما امتحنه و اختبره فضيّق عليه رزقه فيقول ربى أذلنى و استخف بى.

قوله تعالى: كَلاّٰ بَلْ لاٰ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَ لاٰ تَحَاضُّونَ عَلىٰ طَعٰامِ الْمِسْكِينِ ردع لقولهم:إن الكرامه هى فى الغنى و التنعم،و فى الفقر و الفقدان هوان و مذله، و المعنى ليس كما تقولون و إنما إيتاؤه تعالى النعمه و امساكه عنه كل ذلك ابتلاء و امتحان يختبر به حال الإنسان من حيث عبوديته.

و فى قوله: بَلْ لاٰ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ الخ؛إضراب يؤكد الردع بذكر بعض التنعم الذى لا يجامع الكرامه البته كعدم إكرامهم اليتيم بأكل تراثه و منعه منه و عدم التحريض على إطعام المسكين حبا للمال فالفطره الإنسانيه لا يرتاب فى أن لا كرامه فى غنى هذا شأنه.

و فى الإضراب مضافا الى أصل الردع تقريع و لتشديد هذا التقريع وقع الالتفات من الغيبه الى الخطاب.

فقوله: بَلْ لاٰ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ عدم إكرامه حرمانه من تراث أبيه-كما كانوا يحرمون صغار الأولاد من الإرث-و تركه صفر الكف بلغ به الجهد ما بلغ كما يؤيده الآيه التاليه «وَ تَأْكُلُونَ التُّرٰاثَ» الخ.

و قوله: وَ لاٰ تَحَاضُّونَ عَلىٰ طَعٰامِ الْمِسْكِينِ أصله و لا تتحاضون،و هو

تحریض بعضهم بعضا علی التصدق علی المساکین المعدمین،و منشؤه حب المال کما فی الآیه الآتیه «وَ تُحِبُّونَ الْمٰالَ» الخ.

قوله تعالی: وَ تَأْكُلُونَ التُّرٰاثَ أَكْلاً لَمًّا اللم أکل الإنسان نصیب نفسه و غیره و أکله ما یجده من دون أن یمیز الطیب من الخبیث،و الآیه تفسیر لعدم إکرامهم الیتیم کما تقدم.

قوله تعالی: وَ تُحِبُّونَ الْمٰالَ حُبًّا جَمًّا الجم الکثیر العظیم،و الآیه تفسر عدم تحاضهم علی طعام المسکین کما تقدم.

قوله تعالی: كَلاّٰ إِذٰا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا الدک هو الدق الشدید،و المراد بالظرف حضور یوم القیامه.

ردع ثان عما یقول الإنسان فی حالی الغنی و الفقر،و قوله: «إِذٰا دُكَّتِ الْأَرْضُ» الخ؛فی مقام التعلیل للردع،و محصل المعنی لیس کما یقوله الإنسان فإنه سیتذکر إذا قامت القیامه أن الحیاه الدنیا و ما فیها من الغنی و لا فقر و أضرابهما لم تکن مقصوده بالذات بل کانت ابتلاء و امتحانا من اللّه تعالی یمیز به السعید من الشقی و یهیئ الإنسان فیها ما یعیش به فی الآخره و قد التبس علیه الأمر فحسبها کرامه مقصوده بالذات فاشتغل بها و لم یقدم لحیاته الآخره شیئا فیتمنی عند ذلک و یقول:یا لیتنی قدمت لحیاتی و لن یصرف التمنی عنه شیئا من العذاب.

قوله تعالی: وَ جٰاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا نسبه المجیء الیه تعالی من المتشابه الذی یحکمه قوله تعالی: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (الشوری/۱۱)و ما ورد فی آیات القیامه من خواص الیوم کتقطع الأسباب و ارتفاع الحجب عنهم و ظهور أن اللّه هو الحق المبین.

و الی ذلک یرجع ما ورد فی الروایات أن المراد بمجیئه تعالی مجیء أمره قال تعالی:

وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ (الانفطار/۱۹)،و یؤید هذا الوجه بعض التأید قوله تعالی: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللّٰهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمٰامِ وَ الْمَلاٰئِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ (البقره/۲۱۰)إذا

انضم الى قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاٰئِكَهُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّکَ (النحل/۳۳) و علیه فهناك مضاف محذوف و التقدير جاء أمر ربك أو نسبه المجیء الیه تعالی من المجاز العقلی.

و الکلام فی نسبه المجیء الی الملائکه و کونهم صفا صفا کما مر.

قوله تعالی: وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ الی آخر الآیه؛لا یبعد أن یکون المراد بالمجیء بجهنم إبرازها لهم کما فی قوله تعالی: وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرىٰ (النازعات/۳۶)و قوله:

وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغٰاوِينَ (الشعراء/۹۱)،و قوله: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق/۲۲).

و قوله: يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسٰانُ أی یتذکر أجلی التذکر أن ما کان یؤتاه فی الحیاه الدنیا من خیر أو شر کان من ابتلاء اللّه و امتحانه و أنه قصر فی أمره،هذا ما یفیده السیاق.

و قوله: «وَ أَنّٰى لَهُ الذِّكْرىٰ» أی و من أین له الذکری کنایه عن عدم انتفاعه بها فإن الذکری إنما تنفع فیما أمکنه أن یتدارك ما فرّط فیه بتوبه و عمل صالح و الیوم یوم الجزاء لا یوم الرجوع و العمل.

قوله تعالی: يَقُولُ يٰا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيٰاتِي أی لحیاتی هذه و هی الحیاه الآخره أو المراد الحیاه الحقیقیه و هی الحیاه الآخره علی ما نبه تعالی علیه بقوله: وَ مٰا هٰذِهِ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا إِلاّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوٰانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ (العنکبوت/۶۴).

و المراد بالتقدیم للحیاه تقدیم العمل الصالح للحیاه الآخره و ما فی الآیه تمن یتمناه الإنسان عند ما یتذکر یوم القیامه و یشاهد أنه لا ینفعه.

قوله تعالی: فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يُعَذِّبُ عَذٰابَهُ أَحَدٌ وَ لاٰ يُوثِقُ وَثٰاقَهُ أَحَدٌ ضمیرا «عَذٰابَهُ و وَثٰاقَهُ» للّه تعالی و المعنی فیومئذ لا یعذب عذاب اللّه أحد من الخلق و لا یوثق وثاق اللّه أحد من الخلق أی إن عذابه و وثاقه تعالی یومئذ فوق عذاب الخلق و وثاقهم،تشدید فی

الوعيد.

و قرء «لاـ يُعَـذِّبُ» بفتـح الـذال و «وَ لاـ يُوثِقُ» بفتـح الثاء بالبناء للمفعول و ضـميرا «عَـذٰابَهُ و وَثٰاقَهُ» على هـذا للإنسان و المعنى لا يعذب أحد يومئذ مثل عذاب الانسان و لا يوثق أحد يومئذ مثل وثاقه.

قوله تعـالى: يٰا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ الـذى يعطيه سـياق المقابله بين هـذه النفس بما ذكر لها من الأوصاف و عين لها من حسـن المنقلب و بين الإنسـان المـذكور قبـل بمـا ذكر له من وصـف التعلق بالـدنيا و الطغيـان و الفسـاد و الكفران،و مـا أوعـد من سوء المصير هو أن النفس المطمئنه هى التى تسـكن الى ربها و ترضى بما رضى به فترى نفسها عبدا لا يملك لنفسه شيئا من خير أو شر أو نفع أو ضـر و يرى الدنيا دار مجاز و ما يسـتقبله فيها من غنى أو فقر أو أى نفع و ضـر ابتلاء و امتحانا إلهيا فلا يدعوه تواتر النعم عليه الى الطغيان و إكثار الفساد و العلو و الاسـتكبار،و لا يوقعه الفقر و الفقـدان فى الكفر و ترك الشـكر بل هو فى مسـتقر من العبوديه لا ينحرف عن مستقيم صراطه بإفراط أو تفريط.

قوله تعالى: اِرْجِعِى إِلىٰ رَبِّكِ رٰاضِـيَةً مَرْضِـيَّةً خطاب ظرفه جميع يوم القيامه من لدن إحيائها الى استقرارها فى الجنه بل من حين نزول الموت الى دخول جنه الخلد و ليس خطابا واقعا بعد الحساب كما ذكره بعضهم.

و توصـيفها بالراضـيه لأن اطمئنانها الى ربها يسـتلزم رضاها بما قـدّر و قضـى تكوينا أو حكم به تشـريعا فلا تسـخطها سانحه و لا تزيغهـا معصـيه،و إذا رضـى العبـد من ربه رضـى الرب منه إذ لاـ يسـخطه تعـالى إلا خروج العبـد من زى العبوديه فإذا لزم طريق العبوديه استوجب ذلك رضى ربه و لذا عقّب قوله: «رٰاضِيَةً» بقوله: «مَرْضِيَّةً» .

قوله تعـالى: فَادْخُلِى فِى عِبٰادِى وَ ادْخُلِى جَنَّتِى تفريع على قوله: «ارْجِعِى إِلىٰ رَبِّكِ و فيه دلاله على أن صاحب النفس المطمئنه فى زمره عباد اللّه حائز مقام العبوديه.

و ذلـک أنه لمـا اطمأن الی ربه انقطع عن دعوی الاسـتقلال و رضـی بما هو الحق من ربه فرأی ذاته و صـفاته و أفعاله ملکا طلقا لربه فلم یرد فیما قـدر و قضـی و لا فیما أمر و نهی إلا ما أراده ربه، و هـذا ظهور العبودیه التامه فی العبـد ففی قوله: «فَادْخُلِی فِی عِبٰادِی» تقریر لمقام عبودیتها.

و فی قوله: «وَ ادْخُلِی جَنَّتِی» تعیین لمسـتقرها،و فی إضـافه الجنه الی ضـمیر التکلم تشـریف خـاص،و لاـ یوجـد فی کلامه تعالی إضافه الجنه الی نفسه تعالی و تقدس الی فی هذه الآیه (۱).

---

۱ – ۱) .الفجر ۱–۳۰:بحث روائی فی:الشـفع و الـوتر،تسـمیه فرعون ذا الاوتـاد یوم القیـامه؛قبض روح المؤمن و تمثـل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و امیر المؤمنین و فاطمه و الحسن و الحسین و الائمه من ذریتهم علیهم السّلام له.

سوره البلد مکیه و هی عشرون آیه

اشاره

[سوره البلد (۹۰): الآیات ۱ الی ۲۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ
لاٰ أُقْسِمُ بِهٰذَا اَلْبَلَدِ (۱) وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهٰذَا اَلْبَلَدِ (۲) وَ وٰالِدٍ وَ مٰا وَلَدَ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ فِی کَبَدٍ (۴) أَ یَحْسَبُ أَنْ لَنْ یَقْدِرَ عَلَیْهِ أَحَدٌ (۵) یَقُولُ أَهْلَکْتُ مٰالاً لُبَداً (۶) أَ یَحْسَبُ أَنْ لَمْ یَرَهُ أَحَدٌ (۷) أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَیْنَیْنِ (۸) وَ لِسٰاناً وَ شَفَتَیْنِ (۹) وَ هَدَیْنٰاهُ اَلنَّجْدَیْنِ (۱۰) فَلاَ اِقْتَحَمَ اَلْعَقَبَهَ (۱۱) وَ مٰا أَدْرٰاکَ مَا اَلْعَقَبَهُ (۱۲) فَکُّ رَقَبَهٍ (۱۳) أَوْ إِطْعٰامٌ فِی یَوْمٍ ذِی مَسْغَبَهٍ (۱۴) یَتِیماً ذٰا مَقْرَبَهٍ (۱۵) أَوْ مِسْکِیناً ذٰا مَتْرَبَهٍ (۱۶) ثُمَّ کٰانَ مِنَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ تَوٰاصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَوٰاصَوْا بِالْمَرْحَمَهِ (۱۷) أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ اَلْمَیْمَنَهِ (۱۸) وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا بِآیٰاتِنٰا هُمْ أَصْحٰابُ اَلْمَشْأَمَهِ (۱۹) عَلَیْهِمْ نٰارٌ مُؤْصَدَهٌ (۲۰)

ص: ۶۸۴

بيان:

تذكر السوره أن خلقه الانسان مبنيه على التعب و المشقه فلا تجد شأنا من شئون الحياه إلا مقرونا بمراره الكد و التعب من حين يلج فى جثمانه الروح الى أن يموت فلا- راحه له عاريه من التعب و المشقه و لا سعاده له خالصه من الشقاء و المشأمه إلا فى الدار الآخره عند اللّه.

فليتحمل ثقل التكاليف الإلهيه بالصبر على الطاعه و عن المعصيه و ليجد فى نشر الرحمه على المبتلين بنوائب الدهر كاليتيم و الفقر و المرض و اضرابها حتى يكون من أصحاب الميمنه و إلا فآخرته كاولاه و هو من أصحاب المشأمه عليهم نار مؤصده.

و سياق آيات السوره،يشبه السياق المكى فيؤيد به كون السوره مكيه و قد ادعى بعضهم عليه الاجماع،و قيل:السوره مدنيه و السياق لا يساعد عليه،و قيل:مدنيه إلا أربع آيات من

ص :۶۸۵

أولها و سيأتی فی البحث الروائی التالی إن شاء اللّه تعالی.

قوله تعالی: لاٰ أُقْسِمُ بِهٰذَا الْبَلَدِ ذكروا أن المراد بهـذا البلد مكه و تؤيده مكيه سياق السوره و قوله: «وَ وٰالِدٍ وَ مٰا وَلَدَ» خاصه بناء علی كون المراد بوالد هو ابراهيم عليه السّلام علی ما سيجیء.

قوله تعالی: وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهٰذَا الْبَلَدِ حال من هذا البلد،و وضع الظاهر موضع الضـمير فی قوله: «بِهٰذَا الْبَلَدِ» للدلاله علی عظم شأنه و الاعتناء بأمره و هو البلد الحرام، و الحل مصدر كالحلول بمعنی الإقامه و الاستقرار فی مكان و المصدر بمعنی الفاعل.

و المعنی أقسم بهذا البلد و الحال أنك حال به مقيم فيه و فی ذلك تنبيه عی تشرف مكه بحلوله صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فيها و كونه مولده و مقامه.

قوله تعالی: وَ وٰالِدٍ وَ مٰا وَلَدَ لزوم نوع من التناسب و الارتباط بين القسم و المقسم عليه يستدعی أن يكون المراد بوالد و ما ولد من بينه و بين البلد المقسم به نسبه ظاهره و ينطبق علی إبراهيم و ولده إسـماعيل عليهما السّلام و هما السببان الأصليان لبناء بلده مكه و البانيـان للبيت الحرام قـال تعالی: وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰاهِيمُ الْقَوٰاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمٰاعِيلُ (البقره١٢٧/) و إبراهيم عليه السّلام هو الـذی سأل اللّه أن يجعل مكه بلدا آمنا قال تعالی: وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً (إبراهيم٣٥/).و تنكير «وٰالِدٍ» للتعظيم و التفخيم،و التعبير بقوله:

«وَ مٰا وَلَدَ» دون أن يقال:و من ولد،للدلاله علی التعجيب من أمره مدحا كما فی قوله: وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا وَضَعَتْ (آل عمران٣٦/).

و المعنی و اقسم بوالـد عظيم الشأن هو إبراهيم و ما ولـد من ولد عجيب أمره مبارك اثره و هو إسـماعيل ابنه و هما البانيان لهذا البلـد فمفاد الآيات الثلاث الإقسام بمكه المشرّفه و بالنبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم الـذی هو حلّ فيها و بابراهيم و إسـماعيل اللذين بنياها.

قوله تعالی: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ فِی كَبَدٍ الكبد الكد و التعب،و الجمله جواب

القسم فاشتمال الكبد على خلق الإنسان و إحاطه الكدّ و التعب به فی جمیع شئون حیاته مما لا یخفی علی ذی لب فلیس یقصد نعمه من نعم الدنیا إلا خالصه فی طیبها محضه فی هنائها و لا ینال شیئا منها إلا مشوبه بما ینغص العیش مقرونه بمقاساه و مكابده مضافا الی ما یصیبه من نوائب الدهر و یفاجئه من طوارق الحدثان.

قوله تعالی: أَ یَحْسَبُ أَنْ لَنْ یَقْدِرَ عَلَیْهِ أَحَدٌ بمنزله النتیجه لحجه الآیه السابقه تقریرها أن الإنسان لما كانت خلقته مبنیه علی كبد مظروفه له لا ینال قط شیئا مما یرید إلا دون ما یرید أو غیر ما یرید فهو محاط فی خلقه مغلوب فی إرادته مقهور فیما قدر له من الأمر و الذی یغلبه فی إرادته و یقهره علی التلبس بما قدر له و هو اللّه سبحانه یقدر علیه من كل جهه فله أن یتصرف فیه بما شاء و یأخذه إذا أراد.

فلیس للإنسان أن یحسب أن لن یقدر علیه أحد فیدعوه ذلك الی أن یعلو علی اللّه و یستكبر عن عبادته أو یعطیه فی بعض ما أمر به كالإنفاق فی سبیله فیستكثره و یمتن به علی اللّه أو یمكر به تعالی بعد ما عمله ریاء و سمعه عملا لوجه الكریم فیقول:أهلكت مالا لبدا.

قوله تعالی: یَقُولُ أَهْلَكْتُ مٰالاً لُبَداً اللبد الكثیر،سیاق الآیه و ما یتلوها من الآیات الی آخر السوره مشعر بأنه كان هناك بعض من أظهر الإسلام أو مال الیه فقد أنفق بعض ماله و امتن به مستكثرا له بقوله: «أَهْلَكْتُ مٰالاً لُبَداً» فنزلت الآیات و رد اللّه علیه بأن الفوز بمیمنه الحیاه لا یتم إلا باقتحام عقبه الإنفاق فی سبیل اللّه و الدخول فی زمره الذین آمنوا و تواصوا بالصبر و المرحمه،و یتأید به ما سیأتی فی البحث الروائی إن شاء اللّه تعالی.

قوله تعالی: أَ یَحْسَبُ أَنْ لَمْ یَرَهُ أَحَدٌ إنكار لما هو لازم قول الإنسان «أَهْلَكْتُ مٰالاً لُبَداً» علی طریق التكنیه و محصل المعنی أن لازم إخبار الإنسان بإهلاكه مالا لبدا أنه یحسب أنا فی غفله و جهل بما أنفق و قد أخطأ فی ذلك فاللّه سبحانه بصیر بما أنفق لكن هذا المقدار لا یكفی فی الفوز بمیمنه الحیاه بل لا بد له من أن یتحمل ما هو أزید من ذلك من مشاق

العبوديه فيقتحم العقبه و يكون مع المؤمنين فى جميع ما هم فيه.

قوله تعالى: أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَ لِسٰاناً وَ شَفَتَيْنِ وَ هَدَيْنٰاهُ النَّجْدَيْنِ النجد الطريق المرتفع،و المراد بالنجدين طريق الخير و طريق الشر و سميا النجدين لما فى سلوك كل منهما من الجهد و الكدح،و فسرا بثديى الام و هو بعيد.

و قوله: أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ أى جهزناه فى بدنه بما يبصر به فيحصل له العلم بالمرئيات على سعه نطاقها،و قوله: «وَ لِسٰاناً وَ شَفَتَيْنِ» أى أ و لم نجعل له لسانا و شفتين يستعين بها على التكلم و الدلاله على ما فى ضميره من العلم و يهتدى بذلك غيره على العلم بالامور الغائبه عن البصر.

و قوله: وَ هَدَيْنٰاهُ النَّجْدَيْنِ أى علمناه طريق الخير و طريق الشر بالهام منا فهو يعرف الخير و يميزه من الشر فالآيه فى معنى قوله تعالى: وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا (الشمس/٨).

قوله تعالى: فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ الاقتحام الدخول بسرعه و ضغط و شده،و العقبه الطريق الصعب الوعر الذى فيه صعود من الجبل،و اقتحام العقبه إشاره الى الإنفاق الذى يشق على منفقه كما سيصرح به.

قوله تعالى: وَ مٰا أَدْرٰاكَ مَا الْعَقَبَةُ تفخيم لشأنها كما مر فى نظائره.

قوله تعالى: فَكُّ رَقَبَةٍ أى عتقها و تحريرها أو التقدير هى أى العقبه فك رقبه فالمراد بالعقبه نفس الفك الذى هو العمل و اقتحامه الإتيان به،و الإتيان بالعمل نفس العمل.

و ما ذكر فى بيان العقبه من فك الرقبه و الإطعام فى يوم ذى مسغبه من مصاديق نشر الرحمه خص بالذكر لمكان الأهميه،و قدم فك الرقبه و ابتدئ به لكمال عنايه الدين بفك الرقاب.

قوله تعالى: أَوْ إِطْعٰامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذٰا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذٰا مَتْرَبَةٍ المسغبه المجاعه،و المقربه القرابه بالنسب،و المتربه من التراب و معناها الالتصاق

بالتراب من شده الفقر،و المعنى أو إطعام فى يوم المجاعه يتيما من ذى القربى أو مسكينا شديد الفقر.

قوله تعالى: ثُمَّ كٰانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَوٰاصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَوٰاصَوْا بِالْمَرْحَمَهِ المرحمه مصدر ميمى من الرحمه،و التواصى بالصبر وصيه بعضهم بعضا بالصبر على طاعه اللّه و التواصى بالمرحمه وصيه بعضهم بعضا بالرحمه على ذوى الفقر و الفاقه و المسكنه.

او الجمله أعنى قوله: «ثُمَّ كٰانَ» الخ؛معطوفه على قول «اقْتَحَمَ» و التقدير فلا اقتحم العقبه و لا كان من الذين آمنوا،الخ؛و قيل فيها غير ذلك مما لا جدوى فيه.

قوله تعالى: أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ الْمَيْمَنَهِ بمعنى اليمن مقابل الشؤم،و الإشاره باولئك الى ما يدل عليه السياق السابق أى الذين اقتحموا العقبه و كانوا من الذين آمنوا و تواصوا بالصبر و المرحمه أصحاب اليمين لا يرون مما قدموه من الإيمان و عملهم الصالح إلا أمرا مباركا جميلا مرضيا.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِنٰا هُمْ أَصْحٰابُ الْمَشْأَمَهِ الآيات الآفاقيه و الانفسيه آيات و أدله عليه تعالى تدل على توحده فى الربوبيه و الالوهيه و سائر ما يتفرع عليه و ردها كفر بها و الكفر بها كفر باللّه و كذا القرآن الكريم و آياته،و كذا ما نزل و بلغ طريق الرساله.

و الظاهر أن المراد بالآيات مطلقها،و المشأمه خلاف الميمنه.

قوله تعالى: عَلَيْهِمْ نٰارٌ مُؤْصَدَهٌ أى مطبقه (١).

ص :۶۸۹

۱- ۱) .البلد ۱-۲۰:بحث روائى فى حرمه مكه و الكعبه؛النجدين.

سوره الشمس مکیه و هی ست عشره آیه

اشاره

[سوره الشمس (۹۱): الآیات ۱ الی ۱۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;وَ اَلشَّمْسِ وَ ضُحٰاهٰا (۱) وَ اَلْقَمَرِ إِذٰا تَلاٰهٰا (۲) وَ اَلنَّهٰارِ إِذٰا جَلاّٰهٰا (۳) وَ اَللَّيْلِ إِذٰا يَغْشٰاهٰا (۴) وَ اَلسَّمٰاءِ وَ مٰا بَنٰاهٰا (۵) وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا طَحٰاهٰا (۶) وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا (۷) فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا (۸) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهٰا (۹) وَ قَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰاهٰا (۱۰) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوٰاهٰا (۱۱) إِذِ اِنْبَعَثَ أَشْقٰاهٰا (۱۲) فَقٰالَ لَهُمْ رَسُولُ اَللّٰهِ نٰاقَةَ اَللّٰهِ وَ سُقْيٰاهٰا (۱۳) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهٰا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوّٰاهٰا (۱۴) وَ لاٰ يَخٰافُ عُقْبٰاهٰا (۱۵)

ص: ۶۹۰

بيان:

تـذكر السوره أن فلاح الانسان-و هو يعرف التقوى و الفجور بتعريف إلهى و إلهام باطنى- أن يزكى نفسه و ينميها إنماء صالحا بتحليتهـا بالتقوى و تطهيرها من الفجور،و الخيبه و الحرمان من السعاده لمن يدسّيها،و يستشـهد لـذلك بما جرى على ثمود من عذاب الاستئصال لما كذبوا رسولهم صالحا و عقروا الناقه،و فى ذلك تعريض لأهل مكه،و السوره مكيه بشهاده من سياقها.

قـوله تعـالى: وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها فى المفردات:الضـحى انبسـاط الشـمس و امتـداد النهـار و سـمى الـوقت بـه انتهى.و الضـمير للشمس،و فى الآيه إقسام بالشمس و انبساط ضوئها على الأرض.

قوله تعالى: وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها عطف على الشـمس و الضـمير لها و إقسام بالقمر حال كونه تاليا للشمس،و المراد بتلوه لها إن كان كسبه النور منها فالحال حال دائمه و إن كان طلوعه بعد غروبها فالإقسام به من حال كونه هلالا الى حال تبدّره.

قـوله تعـالى: وَ النَّهارِ إِذا جَلّاها التجليه الإظهـار و الإبراز،و ضـمير التـأنيث للأرض،و المعنى و أقسم بالنهـار إذا أظهر الأرض للأبصار.

ص :۶۹۱

و قيل:ضـمير الفاعل فى «جَلاّٰهٰا» للنهار و ضمير المفعول للشمس،و المراد الإقسام بحال إظهار النهار للشمس فإنها تنجلى و تظهر إذا انبسط النهار،و فيه أنه لا يلائم ما تقدمه فان الشمس هى المظهره للنهار دون العكس.

قوله تعالى: وَ اللَّيْلِ إِذٰا يَغْشٰاهٰا أى يغطى الأرض،فالضمير للأرض كما فى «جَلاّٰهٰا» .

و التعبير عن غشـيان الليل الأرض بالمضارع بخلاف تجليه النار لها حيث قيل «وَ النَّهٰارِ إِذٰا جَلاّٰهٰا وَ اللَّيْلِ إِذٰا يَغْشٰاهٰا» للـدلاله على الحال ليكون فيه إيماء الى غشيان الفجور الارض فى الزمن الحاضر الذى هو أوائل ظهور الدعوه الاسلاميه لما تقدم أن بين هذه الاقسام و بين المقسم بها نوع اتصال و ارتباط،هذا مضافا الى رعايه الفواصل.

قوله تعالى: وَ السَّمٰاءِ وَ مٰا بَنٰاهٰا وَ الْأَرْضِ وَ مٰا طَحٰاهٰا طحو الأرض و دحوها بسـطها،و «مٰا» فى «وَ مٰا بَنٰاهٰا» و «مٰا طَحٰاهٰا» موصوله،و الـذى بناهـا و طحاهـا هو اللّه تعـالى و التعبير عنه تعـالى بمـا دون من لإيثـار الإبهـام المفيـد للتفخيم و التعجيب فالمعنى و أقسـم بالسماء و الشيء القوى العجيب الذى بناها و أقسم بالأرض و الشيء القوى العجيب الذى بسطها.

قـوله تعـالى: وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا أى و اقسـم بنفس و الشـيء ذى القـدره و العلم و الحكمه الـذى سواهـا و رتب خلقتهـا و نظم أعضاءها و عدّل بين قواها.

و تنكير «نَفْسٍ» قيل:للتنكير،و قيل:للتفخيم و لا يبعد أن يكون التنكير للإشاره الى أن لها وصفا و أن لها نبأ.

و المراد بـالنفس النفس الانسـانيه مطلقـا و قيل:المراد بها نفس آدم عليه السّـلام و لا يلائمه السـياق و خاصه قوله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهٰا وَ قَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰاهٰا» إلا بالاستخدام على أنه لا موجب للتخصيص.

قوله تعالی: فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا الفجور-علی ما ذکره الراغب-شق ستر الدیانه فالنهی الإلهی عن فعل أو عن ترک حجاب مضروب دونه حائل بین الانسان و بینه و اقتراف المنهی عنه شق للستر و خرق للحجاب.

و التقوی-علی ما ذکره الراغب-جعل النفس فی وقایه مما یخاف،و المراد بها بقرینه المقابله فی الآیه بینها و بین الفجور التجنب عن الفجور و التحرز عن المنافی و قد فسرت فی الروایه بأنها الورع عن محارم اللّه.

و الإلهام الإلقاء فی الروع و هو إفاضته تعالی الصور العلمیه من تصور أو تصدیق علی النفس.

و تعلیق الإلهام علی عنوانی فجور النفس و تقواها للدلاله علی أن المراد تعریفه تعالی للانسان صفه فعله من تقوی أو فجور وراء تعریفه متن الفعل بعنوانه الأوّلی المشترک بین التقوی و الفجور کأکل المال مثلا المشترک بین أکل مال الیتیم الذی هو فجور و بین أکل مال نفسه الذی هو من التقوی،و المباشره المشترکه بین الزنا و هو فجور و النکاح و هو من التقوی و بالجمله المراد أنه تعالی عرّف الانسان کون ما یأتی به من فعل فجورا أو تقوی و میز له ما هو تقوی مما هو فجور.

و تفریع الإلهام علی التسویه فی قوله: «وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا» الخ؛للاشاره الی أن إلهام الفجور و التقوی و هو العقل العملی من تکمیل تسویه النفس فهو من نعوت خلقتها کما قال تعالی: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِی فَطَرَ النّٰاسَ عَلَیْهٰا لاٰ تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ (الروم/۳۰).

و اضافه الفجور و التقوی الی ضمیر النفس للاشاره الی أن المراد بالفجور و التقوی الملهمین الفجور و التقوی المختصین بهذه النفس المذکوره و هی النفس الانسانیه و نفوس الجن علی ما یظهر من الکتاب العزیز من کونهم مکلفین بالإیمان و العمل الصالح.

قوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهٰا وَ قَدْ خٰابَ مَنْ دَسّاهٰا الفلاح هو الظفر بالمطلوب و إدراك البغيه،و الخيبه خلافه،و الزكاه نمو النبات نموا صالحا ذا بركه و التزكيه إنماؤه كذلك،و التدسى-و هو من الدس بقلب إحدى السينين ياء-إدخال الشيء فى الشيء بضرب من الإخفاء،و المراد بها بقرينه مقابله التزكيه:الانماء على غير ما يقتضيه طبعها و ركبت عليه نفسها.

و الآيه أعنى قوله: «قَدْ أَفْلَحَ» الخ؛جواب القسم،و قوله: «وَ قَدْ خٰابَ» الخ؛معطوف عليه.

و التعبير بالتزكيه و التدسى عن إصلاح النفس و افسادها مبتن على ما يدل عليه قوله:

«فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا» على أن من كمال النفس الانسانيه أنها ملهمه مميزه-بحسب فطرتها-للفجور من التقوى أى أن الدين و هو الاسلام للّه فيما يريده فطرى للنفس فتحليه النفس بالتقوى تزكيه و انماء صالح و تزويد لها بما يمدها فى بقائها قال تعالى: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّٰادِ التَّقْوىٰ وَ اتَّقُونِ يٰا أُولِي الْأَلْبٰابِ (البقره/١٩٧)و أمرها فى الفجور على خلاف التقوى.

قوله تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوٰاهٰا الطغوى مصدر كالطغيان،و الباء للسببيه.

و الآيه و ما يتلوها الى آخر السوره استشهاد و تقرير لما تقدم من قوله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهٰا» الخ.

قوله تعالى: إِذِ انْبَعَثَ أَشْقٰاهٰا ظرف لقوله: «كَذَّبَتْ» أو لقوله: «بِطَغْوٰاهٰا» و المراد بأشقى ثمود هو الذى عقر الناقه و اسمه على ما فى الروايات قدار بن سالف و قد كان انبعاثه ببعث القوم كما تدل عليه الآيات التاليه بما فيها من ضمائر الجمع.

قوله تعالى: فَقٰالَ لَهُمْ رَسُولُ اللّٰهِ نٰاقَةَ اللّٰهِ وَ سُقْيٰاهٰا المراد برسول اللّه صالح عليه السّلام نبى ثمود،و قوله: «نٰاقَةَ اللّٰهِ» منصوب على التحذير،و قوله: «وَ سُقْيٰاهٰا» معطوف

علیه.

و المعنی فقال لهم صالح برساله من اللّه:احذروا ناقه اللّه و سقیاها و لا تتعرضوا لها بقتلها أو منعها عن نوبتها فی شرب الماء،و قد فصل اللّه القصه فی سوره هود و غیرها.

قوله تعالی: فَکَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهٰا فَدَمْدَمَ عَلَیْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوّٰاهٰا العقر إصابه أصل الشیء و یطلق علی نحر البعیر و القتل،و الدمدمه علی الشیء الاطباق علیه یقال:

دمدم علیه القبر أی أطبقه علیه و المراد شمولهم بعذاب یقطع دابرهم و یمحو أثرهم بسبب ذنبهم.

و قوله: فَسَوّٰاهٰا الظاهر أن الضمیر لثمود باعتبار أنهم قبیله أی فسواها بالأرض أو هو تسویه الأرض بمعنی تسطیحها و اعفاء ما فیها من ارتفاع و انخفاض.

قوله تعالی: وَ لاٰ یَخٰافُ عُقْبٰاهٰا الضمیر للدمدمه أو التسویه،و الواو للاستئناف أو الحال.

و المعنی:و لا یخاف ربهم عاقبه الدمدمه علیهم و تسویتهم کما یخاف الملوک و الأقویاء عاقبه عقاب أعدائهم و تبعته،لأن عواقب الامور هی ما یریده و علی وفق ما یأذن فیه فالآیه قریبه المعنی من قوله تعالی: لاٰ یُسْئَلُ عَمّٰا یَفْعَلُ وَ هُمْ یُسْئَلُونَ (الأنبیاء۲۳/) (۱).

ص :۶۹۵

۱- ۱) .الشمس ۱-۱۶:بحث روائی فی النفس و ما سوّاها،القضاء و القدر،معنی انتساب التزکیه و التخییب؛الی اللّه تعالی.

سوره اللیل مکیه و هی احدی و عشرون آیه

اشاره

[سوره اللیل (۹۲): الآیات ۱ الی ۲۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;وَ اَللَّیْلِ إِذٰا یَغْشیٰ (۱) وَ اَلنَّهٰارِ إِذٰا تَجَلّٰی (۲) وَ مٰا خَلَقَ اَلذَّکَرَ وَ اَلْأُنْثیٰ (۳) إِنَّ سَعْیَکُمْ لَشَتّٰی (۴) فَأَمّٰا مَنْ أَعْطیٰ وَ اِتَّقیٰ (۵) وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنیٰ (۶) فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْیُسْریٰ (۷) وَ أَمّٰا مَنْ بَخِلَ وَ اِسْتَغْنیٰ (۸) وَ کَذَّبَ بِالْحُسْنیٰ (۹) فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْعُسْریٰ (۱۰) وَ مٰا یُغْنِی عَنْهُ مٰالُهُ إِذٰا تَرَدّٰی (۱۱) إِنَّ عَلَیْنٰا لَلْهُدیٰ (۱۲) وَ إِنَّ لَنٰا لَلْآخِرَهَ وَ اَلْأُولیٰ (۱۳) فَأَنْذَرْتُکُمْ نٰاراً تَلَظّٰی (۱۴) لاٰ یَصْلاٰهٰا إِلاَّ اَلْأَشْقَی (۱۵) اَلَّذِی کَذَّبَ وَ تَوَلّٰی (۱۶) وَ سَیُجَنَّبُهَا اَلْأَتْقَی (۱۷) اَلَّذِی یُؤْتِی مٰالَهُ یَتَزَکّٰی (۱۸) وَ مٰا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَهٍ تُجْزیٰ (۱۹) إِلاَّ اِبْتِغٰاءَ وَجْهِ رَبِّهِ اَلْأَعْلیٰ (۲۰) وَ لَسَوْفَ یَرْضیٰ (۲۱)

ص: ۶۹۶

بيان:

غرض السوره الانـذار و تسـلك اليه بالإشاره الى اختلاف مساعى الناس و أن منهم من أنفق و اتقى و صدق بالحسـنى فسـيمكّنه اللّه من حياه خالده سـعيده و منهم من بخل و اسـتغنى و كذب بالحسـنى فسيسلك اللّه به الى شقاء العاقبه،و فى السوره اهتمام و عنايه خاصه بأمر الإنفاق المالى.

و السوره تحتمل المكيه و المدنيه بحسب سياقها.

قوله تعالى: وَ اللَّيْلِ إِذٰا يَغْشىٰ إقسام بالليل إذا يغشى النهار على حد قوله تعالى:

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهٰارَ (الأعراف/۵۴)،و يحتمل أن يكون المراد غشيانه الأرض أو الشمس.

قوله تعالى: وَ النَّهارِ إِذا تَجَلّى عطف على الليل،و التجلى ظهور الشىء بعد خفائه،و التعبير عن صفه الليل بالمضارع و عن صفه النهار بالماضى حيث قيل «يَغْشىٰ» و «تَجَلّى» تقدم فيه وجه فى تفسير أول السوره السابقه.

قوله تعالى: وَ مٰا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثىٰ عطف على الليل كسابقه،و «مٰا» موصوله و المراد به اللّه سبحانه و إنما عبّر بما،دون من،إيثارا للإبهام المشعر بالتعظيم و التفخيم و المعنى و أقسم بالشىء العجيب الذى أوجد الذكر و الانثى المختلفين على كونهما من نوع واحد.

قوله تعالى: إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتّٰى السعى هو المشى السريع،و المراد به العمل من حيث يهتم به،و هو فى معنى الجمع،و شتى جمع شتيت بمعنى المتفرق كمرضى جمع مريض.

و الجمله جواب القسم و المعنى أقسم بهذه المتفرقات خلقا و أثرا إن مساعيكم لمتفرقات فى نفسها و آثارها فمنها إعطاء و تقوى و تصديق و لها أثر خاص بها،و منها بخل و استغناء و تكذيب و لها أثر خاص بها.

قوله تعالى: فَأَمّٰا مَنْ أَعْطىٰ وَ اتَّقىٰ وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرىٰ تفصيل تفرق مساعيهم و اختلاف آثارها.

و المراد بالإعطاء إنفاق المال لوجه اللّه بقرينه مقابلته للبخل الظاهر فى الإمساك عن إنفاق المال و قوله بعد: «وَ مٰا يُغْنِي عَنْهُ مٰالُهُ إِذٰا تَرَدّٰى» .

و قوله: وَ اتَّقىٰ كالمفسر للإعطاء يفيد أن المراد هو الإعطاء على سبيل التقوى الدينيه.

و قوله: وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنىٰ الحسنى صفه قائمه مقام الموصوف و الظاهر أن التقدير بالعده الحسنى و هى ما وعد اللّه من الثواب على الانفاق لوجهه الكريم و هو تصديق البعث و الايمان به و لازمه الإيمان بوحدانيته تعالى فى الربوبيه و الالوهيه،و كذا الإيمان بالرساله فإنها

طريق بلوغ وعده تعالى للثواب.

و محصل الآيتين أن يكون مؤمنا باللّه و رسوله و اليوم الآخر و ينفق المال لوجه اللّه و ابتغاء ثوابه الذى وعده بلسان رسوله.

و قوله: فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرىٰ التيسير التهيئه و الإعداد و اليسرى الخصله التى فيها يسر من غير عسر،و توصيفها باليسر بنوع من التجوز فالمراد من تيسيره لليسرى توفيقه للأعمال الصالحه بتسهيلها عليه من غير تعسير أو جعله مستعدا للحياه السعيده عند ربه و دخول الجنه بسبب الأعمال الصالحه التى يأتى بها،و الوجه الثانى أقرب و أوضح انطباقا على ما هو المعهود من مواعد القرآن.

قوله تعالى: وَ أَمّٰا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنىٰ وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرىٰ وَ مٰا يُغْنِي عَنْهُ مٰالُهُ إِذٰا تَرَدّٰى البخل مقابل الإعطاء،و الاستغناء طلب الغنى و الثروه بالإمساك و الجمع،و المراد بالتكذيب بالحسنى الكفر بالعده الحسنى و ثواب اللّه الذى بلغه الأنبياء و الرسل و يرجع الى انكار البعث.

و المراد بتيسيره للعسرى خذلانه بعدم توفيقه للأعمال الصالحه،بتثقيلها عليه و عدم شرح صدره للإيمان أو اعداده للعذاب.

و قوله: وَ مٰا يُغْنِي عَنْهُ مٰالُهُ إِذٰا تَرَدّٰى التردى هو السقوط من مكان عال و يطلق على الهلاك فالمراد سقوطه فى حفره القبر أو فى جهنم أو هلاكه.

و «مٰا» استفهاميه أو نافيه أى أىّ شىء يغنيه ماله اذا مات و هلك أو ليس يغنى عنه ماله إذا مات و هلك.

قوله تعالى: إِنَّ عَلَيْنٰا لَلْهُدىٰ وَ إِنَّ لَنٰا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولىٰ تعليل لما تقدم من حديث تيسيره لليسرى و للعسرى أو الإخبار به بأوجز بيان،محصله أنا إنما نفعل هذا التيسير أو نبين هذا البيان لأنه من الهدى و الهدى علينا لا يزاحمنا فى ذلك شىء و لا يمنعنا

عنه مانع.

فقوله: إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى يفيد أن هدى الناس مما قضى سبحانه به و أوجبه على نفسه بمقتضى الحكمه و ذلك أنه خلقهم ليعبدوه كما قال: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ (الذاريات/۵۶)فجعل عبادته غايه لخلقهم و جعلها صراطا مستقيما اليه كما قال:

إِنَّ اللّهَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (آل عمران/۵۱)،و قال: وَ إِنَّكَ لَتَهْدِى إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ صِراطِ اللّهِ (الشورى/۵۳)و قضى على نفسه أن يبين لهم سبيله و يهديهم اليه بمعنى إراءه الطريق سواء سلكوها أم تركوها كما قال: وَ عَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْها جائِرٌ (النحل/۹)،و قال: وَ اللّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ (الأحزاب/۴) و قال: إِنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمّا شاكِراً وَ إِمّا كَفُوراً (الإنسان/۳)و لا ينافى ذلك قيام غيره تعالى بأمر هذا المعنى من الهدى بإذنه كالأنبياء كما قال تعالى: وَ إِنَّكَ لَتَهْدِى إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (الشورى/۵۲)،و قال: قُلْ هذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللّهِ عَلى بَصِيرَهٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِى (يوسف/۱۰۸).

و قوله: وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَهَ وَ الْأُولى أى عالم البدء و عالم العود فكل ما يصدق عليه أنه شىء فهو مملوك له تعالى بحقيقه الملك الذى هو قيام وجوده بربه القيّوم و يتفرع عليه الملك الاعتبارى الذى من آثاره جواز التصرفات.

فهو تعالى يملك كل شىء من كل جهه فلا يملك شىء منه شيئا فلا معارض يعارضه و لا مانع يمنعه و لا شىء يغلبه كما قال: وَ اللّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ (الرعد/۴۱)و قال: وَ اللّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ (يوسف/۲۱)،و قال: وَ يَفْعَلُ اللّهُ ما يَشاءُ (إبراهيم/۲۷).

قوله تعالى: فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظّى لا يَصْلاها إِلاَّ الْأَشْقَى اَلَّذِى كَذَّبَ وَ تَوَلّى تفريع على ما تقدم أى إذا كان الهدى علينا فأنذرتكم نار جهنم و بذلك يوجه ما فى قوله: «فَأَنْذَرْتُكُمْ» من الالتفات عن التكلم مع الغير الى التكلم وحده أى إذا كان الهدى

مقضیه محتومه فالمنذر بالأصاله هو اللّه و إن کان بلسان رسوله.

و تلظی النار تلهبها و توهجها،و المراد بالنار التی تتلظی جهنم کما قال تعالی: کَلاّٰ إِنَّهٰا لَظیٰ (المعارج/١٥).

و المراد بالأشقی مطلق الکافر الذی یکفر بالتکذیب و التولی فإنه أشقی من سائر من شقی فی دنیاه فمن ابتلی فی بدنه شقی و من أصیب فی ماله أو ولده مثلا شقی و من خسر فی أمر آخرته شقی و الشقی فی أمر آخرته أشقی من غیره لکون شقوته أبدیه مطمع فی التخلص منها بخلاف الشقوه فی شأن من شئون الدنیا فإنها مقطوعه لا محاله مرجوه الزوال عاجلا.

فالمراد بالأشقی هو الکافر المکذب بالدعوه الحقه المعرض عنها علی ما یدل علیه توصیفه بقوله: «الَّذِی کَذَّبَ وَ تَوَلّٰی» و یؤیده إطلاق الإنذار،و أما الأشقی بمعنی أشقی الناس کلهم فمما لا یساعد علیه السیاق البته.

و المراد بصلی النار اتباعها و لزومها فیفید معنی الخلود و هو مما قضی اللّه به فی حق الکافر، قال تعالی: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ (البقره/ ٣٩).

قوله تعالی: وَ سَیُجَنَّبُهَا الْأَتْقَی اَلَّذِی یُؤْتِی مٰالَهُ یَتَزَکّٰی وَ مٰا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَهٍ تُجْزیٰ التجنیب التبعید،و ضمیر «سَیُجَنَّبُهَا» للنار،و المعنی سیبعد عن النار الأتقی.

و المراد بالأتقی من هو أتقی من غیره ممن یتقی المخاطر فهناک من یتقی ضیعه النفوس کالموت و القتل و من یتقی فساد الأموال و من یتقی العدم و الفقر فیمسک عن بذل المال و هکذا و منهم من یتقی اللّه فیبذل المال،و أتقی هؤلاء الطوائف من یتقی اللّه فیبذل المال لوجهه و إن شئت فقل یتقی خسران الآخره فیتزکّی بالإعطاء.

فالمفضّل علیه للأتقی هو من یتقی بإعطاء المال و إن اتقی سائر المخاطر الدنیویه أو اتقی اللّه

بسائر الأعمال الصالحه.

فالآيه عامه بحسب مدلولها غير خاصه و يدل عليه توصيف الاتقى بقوله: «الَّذِی یُؤْتِی مٰالَهُ» الخ؛و هو وصف عام و كذا ما يتلوه،و لا ينافى ذلك كون الآيات أو جميع السوره نازله لسبب خاص كما ورد فى أسباب النزول.

و أما إطلاق المفضل عليه بحيث يشمل جميع الناس من طالح أو صالح و لازمه انحصار المفضل فى واحد مطلقا أو واحد فى كل عصر،و يكون المعنى و سيجنّبها من هو أتقى الناس كلهم و كذا المعنى فى نظيره:لا يصلاها إلا أشقى الناس كلهم فلا يساعد عليه سياق آيات صدر السوره،و كذا الإنذار العام الذى فى قوله: «فَأَنْذَرْتُكُمْ نٰاراً تَلَظّٰی» فلا معنى لأن يقال:

أنذرتكم جميعا نارا لا يخلد فيها إلا واحد منكم جميعا و لا ينجو منها إلا واحد منكم جميعا.

و قوله: اَلَّذِی یُؤْتِی مٰالَهُ یَتَزَکّٰی صفه للأتقى أى الذى يعطى و ينفق ماله يطلب بذلك أن ينمو نماء صالحا.

و قوله: وَ مٰا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَهٍ تُجْزیٰ تقرير لمضمون الآيه السابقه أى ليس لأحد عنده من نعمه تجزى تلك النعمه بما يؤتيه من المال و تكافأ و إنما يؤتيه لوجه اللّه و يؤيد هذا المعنى تعقيبه بقوله: «إِلاَّ ابْتِغٰاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلیٰ» .

فالتقدير من نعمه تجزى به،و إنما حذف الظرف رعايه للفواصل،و يندفع بذلك ما قيل لا إن بناء «تُجْزیٰ» للمفعول لأن القصد ليس لفاعل معين.

قوله تعالى: إِلاَّ ابْتِغٰاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلیٰ استثناء منقطع و المعنى و لكنه يؤتى ماله طلبا لوجه ربه الأعلى و قد تقدم كلام فى معنى وجه اللّه و فى معنى الاسم الأعلى.

قوله تعالى: وَ لَسَوْفَ یَرْضیٰ أى و لسوف يرضى هذا الأتقى بما يؤتيه ربه الأعلى من الأجر الجزيل و الجزاء الحسن الجميل.

و فى ذكر صفتى الرب الأعلى إشعار بأن ما يؤتاه من الجزاء أنعم الجزاء و أعلاه و هو

المناسب لربوبيته تعالى و علوه،و من هنا يظهر وجه الالتفات فى الآيه السابقه فى قوله:

«وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلىٰ» من سياق التكلم وحده الى الغيبه بالإشاره الى الوصفين:ربه الأعلى (۱).

ص :۷۰۳

۱- ۱) .الليل ۱-۲۱:بحث روائى فى قوله تعالى: «وَ اللَّيْلِ إِذٰا يَغْشىٰ» ،اقسام اللّه تعالى،وصف على عليه السّلام،الهدايه و الاضلال.

سوره الضحی مکیه أو مدنیه و هی احدی عشره آیه

اشاره

[سوره الضحی (۹۳): الآیات ۱ الی ۱۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;وَ اَلضُّحیٰ (۱) وَ اَللَّیْلِ إِذٰا سَجیٰ (۲) مٰا وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ مٰا قَلیٰ (۳) وَ لَلْآخِرَهُ خَیْرٌ لَکَ مِنَ اَلْأُولیٰ (۴) وَ لَسَوْفَ یُعْطِیکَ رَبُّکَ فَتَرْضیٰ (۵) أَ لَمْ یَجِدْکَ یَتِیماً فَآویٰ (۶) وَ وَجَدَکَ ضَالاًّ فَهَدیٰ (۷) وَ وَجَدَکَ عٰائِلاً فَأَغْنیٰ (۸) فَأَمَّا اَلْیَتِیمَ فَلاٰ تَقْهَرْ (۹) وَ أَمَّا اَلسّٰائِلَ فَلاٰ تَنْهَرْ (۱۰) وَ أَمّٰا بِنِعْمَهِ رَبِّکَ فَحَدِّثْ (۱۱)

ص: ۷۰۴

بیان:

قیل:انقطع الوحی عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیاما حتی قالوا:إن ربه ودّعه فنزلت السوره فطیّب اللّه بها نفسه،و السوره تحتمل المکیه و المدنیه.

قوله تعالی: وَ الضُّحیٰ وَ اللَّیْلِ إِذٰا سَجیٰ إقسام،و الضحی-علی ما فی المفردات-انبساط الشمس و امتداد النهار و سمی الوقت به،و سجو اللیل سکونه و هو غشیان ظلمته.

قوله تعالی: مٰا وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ مٰا قَلیٰ التودیع الترک،و القلی بکسر القاف البغض أو شدته،و الآیه جواب القسم،و مناسبه نور النهار و ظلمه اللیل لنزول الوحی و انقطاعه ظاهره.

قوله تعالی: وَ لَلْآخِرَهُ خَیْرٌ لَکَ مِنَ الْأُولیٰ فی معنی الترقی بالنسبه الی ما تفیده الآیه السابقه من کونه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی ما هو علیه من موقف الکرامه و العنایه الإلهیه کأنه قیل:

أنت علی ما کنت علیه من الفضل و الرحمه ما دمت حیا فی الدنیا و حیاتک الآخره خیر لک من حیاتک الدنیا.

قوله تعالی: وَ لَسَوْفَ یُعْطِیکَ رَبُّکَ فَتَرْضیٰ تقریر و تثبیت لقوله: «وَ لَلْآخِرَهُ خَیْرٌ لَکَ مِنَ الْأُولیٰ» و قد اشتمل الوعد علی عطاء مطلق یتبعه رضی مطلق.

و قیل:الآیه ناظره الی الحیاتین جمیعا دون الحیاه الآخره فقط.

قوله تعالی: أَ لَمْ یَجِدْکَ یَتِیماً فَآویٰ الآیه و ما یتلوها من الآیتین إشاره الی بعض نعمه تعالی العظام علیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقد مات أبوه و هو فی بطن أمه ثم ماتت أمه و هو ابن سنتین ثم مات جده الکفیل له و هو ابن ثمان سنین فکفّله عمه و رباه.

و قیل:المراد بالیتیم الوحید الذی لا نظیر له فی الناس کما یقال:در یتیم،و المعنی أ لم یجدک

وحیدا بین الناس فآوی الناس الیک و جمعهم حولک.

قوله تعالی: وَ وَجَدَکَ ضَالاًّ فَهَدیٰ المراد بالضلال عدم الهدایه و المراد بکونه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ضالا حاله فی نفسه مع قطع النظر عن هدایته تعالی فلا هدی له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لا لأحد من الخلق إلا باللّه سبحانه فقد کانت نفسه فی نفسها ضاله و إن کانت الهدایه الإلهیه ملازمه لها منذ وجدت فالآیه فی معنی قوله تعالی: مٰا کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتٰابُ وَ لاَ الْإِیمٰانُ (الشوری/ ۵۲)،و من هذا الباب قول موسی علی ما حکی اللّه عنه فَعَلْتُهٰا إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضّٰالِّینَ (الشعراء۲۰/)أی لم أهتد بهدی الرساله بعد.

قوله تعالی: وَ وَجَدَکَ عٰائِلاً فَأَغْنیٰ العائل الفقیر الذی لا مال له و قد کان صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقیرا لا مال له فأغناه اللّه بعد ما تزوج بخدیجه بنت خویلد علیها السّلام فوهبت له مالها و کان لها مال کثیر،و قیل المراد بالإغناء استجابه دعوته.

قوله تعالی: فَأَمَّا الْیَتِیمَ فَلاٰ تَقْهَرْ قال الراغب:القهر الغلبه و التذلیل معا و یستعمل فی کل واحد منهما،انتهی.

قوله تعالی: وَ أَمَّا السّٰائِلَ فَلاٰ تَنْهَرْ النهر هو الزجر و الرد بغلظه.

قوله تعالی: وَ أَمّٰا بِنِعْمَهِ رَبِّکَ فَحَدِّثْ التحدیث بالنعمه ذکرها قولا و إظهارها فعلا و ذلک شکرها،و هذه الأوامر عامه للناس و ان کانت موجهه الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (۱).

ص:۷۰۶

۱- ۱) .الضحی ۱-۱۱:بحث روائی فی نعمه تعالی لرسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

سوره أ لم نشرح مكيه أو مدنيه و هي ثمان آيات

اشاره

[سوره الشرح (۹۴): الآيات ۱ الى ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (۱) وَ وَضَعْنٰا عَنْكَ وِزْرَكَ (۲) اَلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (۳) وَ رَفَعْنٰا لَكَ ذِكْرَكَ (۴) فَإِنَّ مَعَ اَلْعُسْرِ يُسْراً (۵) إِنَّ مَعَ اَلْعُسْرِ يُسْراً (۶) فَإِذٰا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (۷) وَ إِلىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (۸)

بيان:

أمر بالنصب في اللّه و الرغبه اليه توصل اليه بتقدمه الامتنان و السوره تحتمل المكيه

ص: ۷۰۷

و المدنیه و سیاق آیاتها أوفق للمدنیه.

و فی بعض الروایات عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام أن الضحی و أ لم نشرح سوره واحده، و یروی ذلک أیضا عن طاوس و عمر بن عبد العزیز قال الرازی فی التفسیر الکبیر بعد نقله عنهما:و الذی دعاهما الی ذلک هو أن قوله تعالی: «أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ» کالعطف علی قوله: «أَ لَمْ یَجِدْکَ یَتِیماً» و لیس کذلک لأن الأول کان نزوله حال اغتمام الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من إیذاء الکفار فکانت حال محنه و ضیق صدر،و الثانی یقتضی أن یکون حال النزول منشرح الصدر طیب القلب فأنی یجتمعان انتهی.

و فیه أن المراد بشرح صدره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الآیه جعله بحیث یسع ما یلقی الیه من الحقائق و لا یضیق بما ینزل علیه من المعارف و ما یصیبه من أذی الناس فی تبلیغها کما سیجیء لا طیب القلب و السرور کما فسره.

قوله تعالی: أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ قال الراغب:أصل الشرح بسط اللحم و نحوه یقال:شرحت اللحم و شرحته و منه شرح الصدر أی بسطته بنور إلهی و سکینه من جهه اللّه و روح منه قال تعالی: «رَبِّ اشْرَحْ لِی صَدْرِی» «أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ» «فَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ» انتهی.

و ترتب الآیات الثلاث الاول فی مضامینها ثم تعلیلها بقوله: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً» الظاهر فی الانطباق علی حاله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی أوائل دعوته و أواسطها و أواخرها ثم تکرار التعلیل ثم تفریع آیتی آخر السوره کل ذلک یشهد علی کون المراد بشرح صدره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بسطه بحیث یسع ما یلقی الیه من الوحی و یؤمر بتبلیغه و ما یصیبه من المکاره و الأذی فی اللّه،و بعباره اخری جعل نفسه المقدسه مستعده تامه الاستعداد لقبول ما یفاض علیها من جانب اللّه تعالی.

قوله تعالی: وَ وَضَعْنٰا عَنْکَ وِزْرَکَ اَلَّذِی أَنْقَضَ ظَهْرَکَ الوزر الحمل الثقیل،

و إنقاض الظهر کسره بحیث یسمع له صوت کما یسمع من السریر و نحوه عند استقرار شیء ثقیل علیه،و المراد به ظهور ثقل الوزر علیه ظهورا بالغا.

و وضع الوزر إذهاب ما یحس من ثقله و جمله «وَ وَضَعْنا عَنْکَ وِزْرَکَ» معطوفه علی قوله:

«أَ لَمْ نَشْرَحْ» الخ؛لما أن معناه قد شرحنا لک صدرک.

و المراد بوضع وزره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی ما یفید السیاق-و قد أشرنا الیه-إنفاذ دعوته و إمضاء مجاهدته فی اللّه بتوفیق الأسباب فإن الرساله و الدعوه و ما یتفرع علی ذلک هی الثقل الذی حمله إثر شرح صدره.

قوله تعالی: وَ رَفَعْنا لَکَ ذِکْرَکَ رفع الذکر إعلاؤه عن مستوی ذکر غیره من الناس و قد فعل سبحانه به ذلک،و من رفع ذکره أن قرن اللّه اسمه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باسمه فاسمه قرین اسم ربه فی الشهادتین اللتین هما أساس دین اللّه،و علی کل مسلم أن یذکره مع ربه کل یوم فی الصلوات الخمس المفروضه،و من اللطف وقوع الرفع بعد الوضع فی الآیتین.

قوله تعالی: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً لا یبعد أن یکون تعلیلا لما تقدم من وضع الوزر و رفع الذکر فما حمله اللّه من الرساله و أمر به من الدعوه-و ذلک أثقل ما یمکن لبشر أن یحمله- کان قد اشتد علیه الأمر بذلک،و کذا تکذیب قومه دعوته و استخفافهم به و إصرارهم علی امحاء ذکره کان قد اشتد علیه فوضع اللّه وزره الذی حمله بتوفیق الناس لإجابه دعوته و رفع ذکره الذی کانوا یریدون إمحاءه و کان ذلک جریا علی سنته تعالی فی الکون من الإتیان بالیسر بعد العسر فعلل رفع الشّده عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بما أشار الیه من سنته،و علی هذا فاللام فی «الْعُسْرِ» للجنس دون الاستغراق و لعل السنه سنه تحوّل الحوادث و تقلب الأحوال و عدم دوامها.

قوله تعالی: إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً تکرار للتأکید و التثبیت و قیل:استئناف و ذکروا أن فی الآیتین دلاله علی أن مع العسر واحد یسران بناء علی أن المعرفه إذا أعیدت ثانیه فی الکلام کان المراد بها عین الاولی بخلاف النکره کما أنه لو قیل:إذا اکتسبت الدرهم أو درهما

فأنفق الدرهم كان المراد بالثانی هو الأول بخلاف ما لو قیل:إذا اکتسبت درهما فأنفق درهما و لیست القاعده بمطرده.

و التنوین فی «یُسْراً» للتنویع لا للتفخیم کما ذکره بعضهم،و المعیه معیه التوالی دون المعیه بمعنی التحقق فی زمان واحد.

قوله تعالی: فَإِذٰا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَ إِلیٰ رَبِّکَ فَارْغَبْ خطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم متفرع علی ما بیّن قبل من تحمیله الرساله و الدعوه و منّه تعالی علیه بما منّ من شرح الصدر و وضع الوزر و رفع الذکر و کل ذلک من الیسر بعد العسر.

و علیه فالمعنی إذا کان العسر یأتی بعده الیسر و الأمر فیه الی اللّه لا غیر فإذا فرغت مما فرض علیک فاتعب نفسک فی اللّه-بعبادته و دعائه-و ارغب فیه لیمن علیک بما لهذا التعب من الراحه و لهذا العسر من الیسر.

ص :۷۱۰

سوره التين مكيه و هى ثمان آيات

اشاره

[سوره التين (۹۵): الآيات ۱ الى ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;وَ اَلتِّينِ وَ اَلزَّيْتُونِ (۱) وَ طُورِ سِينِينَ (۲) وَ هٰذَا اَلْبَلَدِ اَلْأَمِينِ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (۴) ثُمَّ رَدَدْنٰاهُ أَسْفَلَ سٰافِلِينَ (۵) إِلاَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۶) فَمٰا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (۷) أَ لَيْسَ اَللّٰهُ بِأَحْكَمِ اَلْحٰاكِمِينَ (۸)

بيان:

تذكر السوره البعث و الجزاء و تسلك اليه من طريق خلق الإنسان فى أحسن تقويم ثم

ص :۷۱۱

اختلافهم بالبقاء على الفطره الاولى و خروجهم منها بالانحطاط الى أسفل سافلين و وجوب التمييز بين الطائفتين جزاء باقتضاء الحكمه.

و السوره مكيه و تحتمل المدنيه و يؤيد نزولها بمكه قوله: «وَ هٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» و ليس بصريح فيه لاحتمال نزولها بعد الهجره و هو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بمكه.

قوله تعالى: وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ وَ طُورِ سِينِينَ وَ هٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ قيل:المراد بالتين و الزيتون الفاكهتان المعروفتان أقسم اللّه بهما لما فيهما من الفوائد الجمه و الخواص النافعه،و قيل المراد بهما شجرتا التين و الزيتون،و قيل:المراد بالتين الجبل الذى عليه دمشق و بالزيتون الجبل الذى عليه بيت المقدس،و لعل اطلاق اسم الفاكهتين على الجبلين لكونهما منبتيهما و لعل الإقسام بهما لكونهما مبعثى جم غفير من الأنبياء و قيل غير ذلك.

و المراد بطول سينين الجبل الذى كلّم اللّه تعالى فيه موسى بن عمران عليه السّلام،و يسمى أيضا طور سيناء.

و المراد بهذا البلد الأمين مكه المشرّفه لأن الأمن خاصه مشرعه للحرم و هى فيه قال تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنٰا حَرَماً آمِناً (العنكبوت/۶۷)و فى دعاء ابراهيم عليه السّلام على ما حكى اللّه عنه رَبِّ اجْعَلْ هٰذٰا بَلَداً آمِناً (البقره/۱۲۶)،و فى دعائه ثانيا رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً (إبراهيم/۳۵).

و فى الإشاره بهذا الى البلد تثبيت التشريف عليه بالتشخيص و توصيفه بالأمين إما لكونه فعيلا بمعنى الفاعل و يفيد معنى النسبه و المعنى ذى الأمن كاللابن و التامر و إما لكونه فعيلا بمعنى المفعول و المراد البلد الذى يؤمن الناس فيه أى لا يخاف فيه من غوائلهم ففى نسبه الأمن الى البلد نوع تجوّز.

قوله تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ جواب للقسم و المراد بكون خلقه فى أحسن تقويم اشتمال التقويم عليه فى جميع شئونه و جهات وجوده،و التقويم

جعل الشيء ذا قوام و قوام الشيء ما يقوم به و يثبت فالإنسان و المراد به الجنس ذو أحسن قوام بحسب الخلقه.

و معنى كونه ذا أحسن قوام بحسب الخلقه على ما يستفاد من قوله بعد: «ثُمَّ رَدَدْنٰاهُ أَسْفَلَ سٰافِلِينَ إِلاَّ الَّذِينَ» الخ؛صلوحه بحسب الخلقه للعروج الى الرفيع الأعلى و الفوز بحياه خالده عند ربه سعيده لا شقوه معها،و ذلك بما جهّزه اللّه به من العلم النافع و مكّنه منه من العمل الصالح قال تعالى: وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا (الشمس۸/)فإذا آمن بما علم و زاول صالح العمل رفعه اللّه اليه كما قال: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ (فاطر ۱۰/)،و قال: وَ لٰكِنْ يَنٰالُهُ التَّقْوىٰ مِنْكُمْ (الحج۳۷/).

و قال: يَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجٰاتٍ (المجادله۱۱/) و قال: فَأُولٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجٰاتُ الْعُلىٰ (طه۷۵/)الى غير ذلك من الآيات الداله على ارتفاع مقام الإنسان و ارتقائه بالإيمان و العمل الصالح عطاء من اللّه غير مجذوذ،و قد سمّاه تعالى أجرا كما يشير اليه قوله الآتي: «فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» .

قوله تعالى: ثُمَّ رَدَدْنٰاهُ أَسْفَلَ سٰافِلِينَ ظاهر الرد أن يكون بمعناه المعروف فأسفل منصوب بنزع الخافض،و المراد بأسفل سافلين مقام منحط هو أسفل من سفل من أهل الشقوه و الخسران و المعنى ثم رددنا الإنسان الى أسفل من سفل من أهل العذاب.

و احتمل أن يكون الرد بمعنى الجعل أي جعلناه أسفل سافلين،و أن يكون بمعنى التغيير و المعنى ثم غيّرناه حال كونه أسفل جمع سافلين،و المراد بالسفاله على أي حال الشقاء و العذاب.

قوله تعالى: إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ أي غير مقطوع استثناء متصل من جنس الإنسان،و تفريع قوله: «فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» عليه يؤيد كون المراد من رده الى أسفل سافلين رده الى الشقاء و العذاب.

قوله تعالى: فَمٰا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَ لَيْسَ اللّٰهُ بِأَحْكَمِ الْحٰاكِمِينَ الخطاب للإنسان باعتبار الجنس،و قيل للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المراد غيره،و«ما»استفهاميه توبيخيه،و «بِالدِّينِ» متعلق بيكذّبك،و الدين الجزاء و المعنى-على ما قيل-ما الذى يجعلك مكذّبا بالجزاء يوم القيامه بعد ما جعلنا الإنسان طائفتين طائفه مردوده الى أسفل سافلين و طائفه مأجوره اجرا غير ممنون.

و قوله: أَ لَيْسَ اللّٰهُ بِأَحْكَمِ الْحٰاكِمِينَ الاستفهام للتقرير و كونه تعالى أحكم الحاكمين هو كونه فوق كل حاكم فى إتقان الحكم و حقيته و نفوذه من غير اضطراب و وهن و بطلان فهو تعالى يحكم فى خلقه و تدبيره بما من الواجب فى الحكمه أن يحكم به الناس من حيث الإتقان و الحسن و النفوذ و إذا كان اللّه تعالى أحكم الحاكمين و الناس طائفتان مختلفتان اعتقادا و عملا فمن الواجب فى الحكمه أن يميّز بينهم بالجزاء فى حياتهم الباقيه و هو البعث.

فالتفريع فى قوله: «فَمٰا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ» من قبيل تفريع النتيجه على الحجه و قوله:

«أَ لَيْسَ اللّٰهُ بِأَحْكَمِ الْحٰاكِمِينَ» تتميم للحجه المشار إليها بما يتوقف عليه تمامها.

و المحصل أنه إذا كان الناس خلقوا فى أحسن تقويم ثم اختلفوا فطائفه خرجت عن تقويمها الأحسن وردت الى أسفل سافلين و طائفه بقيت فى تقويمها الأحسن و على فطرتها الاولى و اللّه المدبر لأمرهم أحكم الحاكمين،و من الواجب فى الحكمه أن تختلف الطائفتان جزاء،فهناك يوم تجزى فيه كل طائفه بما عملت و لا مسوّغ للتكذيب به.

سوره العلق مکیه و هی تسع عشره آیه

اشاره

[سوره العلق (۹۶): الآيات ۱ الى ۱۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ اَلَّذِی خَلَقَ (۱) خَلَقَ اَلْإِنْسٰانَ مِنْ عَلَقٍ (۲) اِقْرَأْ وَ رَبُّكَ اَلْأَكْرَمُ (۳) اَلَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (۴) عَلَّمَ اَلْإِنْسٰانَ مٰا لَمْ يَعْلَمْ (۵) كَلاّٰ إِنَّ اَلْإِنْسٰانَ لَيَطْغىٰ (۶) أَنْ رَآهُ اِسْتَغْنىٰ (۷) إِنَّ إِلىٰ رَبِّكَ اَلرُّجْعىٰ (۸) أَ رَأَيْتَ اَلَّذِی يَنْهىٰ (۹) عَبْداً إِذٰا صَلّٰى (۱۰) أَ رَأَيْتَ إِنْ كٰانَ عَلَى اَلْهُدىٰ (۱۱) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوىٰ (۱۲) أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلّٰى (۱۳) أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اَللّٰهَ يَرىٰ (۱۴) كَلاّٰ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنّٰاصِيَهِ (۱۵) نٰاصِيَهٍ كٰاذِبَهٍ خٰاطِئَهٍ (۱۶) فَلْيَدْعُ نٰادِيَهُ (۱۷) سَنَدْعُ اَلزَّبٰانِيَهَ (۱۸) كَلاّٰ لاٰ تُطِعْهُ وَ اُسْجُدْ وَ اِقْتَرِبْ (۱۹)

ص: ۷۱۵

بیان:

أمر للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتلقی القرآن بـالوحی منه تعـالی و هی أول سوره نزلت من القرآن،و سیاق آیاتها لا یأبی نزولها دفعه واحده کما سنشیر الیه،و هی مکیه قطعا.

قوله تعالی: اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ قال الراغب:و القراءه ضم الحروف و الکلمات بعضـها الی بعض فی الترتیل،و لیس یقال ذلک لکل جمع لا یقال:قرأت القوم إذا جمعتهم،و یدل علی ذلک أنه لا یقال:للحرف الواحد إذا تفوّه به:

قراءه انتهی.

و علی أی حـال،یقـال:قرأت الکتاب إذا جمعت ما فیه من الحروف و الکلمات بضم بعضـها الی بعض فی الـذهن و إن لم تتلفظ بهـا،و یقـال:قرأته إذا جمعت الحروف و الکلمـات بضم بعضـها الی بعض فی التلفـظ،و یقـال قرأته علیه إذا جمعت بین حروفه و کلماته فی سمعه و یطلق علیها بهذا المعنی التلاوه أیضا قال تعالی: رَسُولٌ مِنَ اللّهِ یَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (البینه۲/).

ص: ۷۱۶

و ظاهر إطلاق قوله: «اقْرَأْ» المعنى الأول و المراد به الأمر بتلقى ما يوحيه اليه ملك الوحى من القرآن فالجمله أمر بقراءه الكتاب و هى من الكتاب كقول القائل فى مفتتح كتابه لمن أرسله اليه:اقرأ كتابى هذا و اعمل به فقوله هذا أمر بقراءه الكتاب و هو من الكتاب.

و هذا السياق يؤيد أولا ما ورد أن الآيات أول ما نزل من القرآن على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و ثانيا أن التقدير اقرأ القرآن أو ما فى معناه،و ليس المراد مطلق القراءه باستعمال «اقْرَأْ» استعمال الفعل اللازم بالإعراض عن المفعول،و لا المراد القراءه على الناس بحذف المتعلق و إن كان ذلك من أغراض النزول كما قال: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً (الإسراء/۱۰۶)،و لا أن قوله: «بِاسْمِ رَبِّکَ» مفعول «اقْرَأْ» و الباء زائده و التقدير اقرأ اسم ربك أى بسمل.

و قوله: بِاسْمِ رَبِّکَ متعلق بمقدّر نحو مفتتحا و مبتدأ أو باقرأ و الباء للملابسه و لا ينافى ذلك كون البسمله المبتدأه بها السوره جزء من السوره فهى من كلام اللّه افتتح سبحانه بها و أمر أن يقرأ مبتدأ بها كما أمر أن يقرأ قوله: «اقْرَأْ بِاسْمِ» الخ؛ففيه تعليم بالعمل نظير الأمر بالاستثناء فى قوله: وَ لا تَقُولَنَّ لِشَیْءٍ إِنِّی فاعِلٌ ذلِکَ غَداً إِلاّ أَنْ يَشاءَ اللّهُ (الكهف/ ۲۴)فافهم ذلك.

و فى قوله: رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ إشاره الى قصر الربوبيه فى اللّه عز اسمه و هو توحيد الربوبيه المقتضيه لقصر العباده فيه فإن المشركين كانوا يقولون:إن اللّه سبحانه ليس له إلا الخلق و الإيجاد و أما الربوبيه و هى الملك و التدبير فلمقرّبى خلقه من الملائكه و الجن و الإنس فدفعه اللّه بقوله: «رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ» الناص على أن الربوبيه و الخلق له وحده.

و قوله: خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ المراد جنس الإنسان المتناسل و العلق الدم المنجمد و المراد به ما يستحيل اليه النطفه فى الرحم.

ففى الآيه إشاره الى التدبير الإلهى الوارد على الإنسان من حين كان علقه الى حين يصير

إنسانا تاما كاملا له من أعاجيب الصفاف و الأفعال ما تتحير فيه العقول فلم يتم الإنسان إنسانا و لم يكمل إلا بتدبير متعاقب منه تعالى و هو بعينه خلق بعد خلق فهو تعالى رب مدبر لأمر الإنسان بعين أنه خالق له فليس للإنسان إلا أن يتخذه وحده ربا ففى الكلام احتجاج على توحيد الربوبيه.

قوله تعالى: اِقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ اَلَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسٰانَ مٰا لَمْ یَعْلَمْ أمر بالقراءه ثانيا تأكيد للأمر الأول على ما هو ظاهر سياق الإطلاق.

و قوله: وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ أى الذى يفوق عطاؤه عطاء ما سواه فهو تعالى يعطى لا عن استحقاق و ما من نعمه إلا و ينتهى إيتاؤها اليه تعالى.

و قوله: اَلَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ الباء للسببيه أى علّم القراءه أو الكتابه و القراءه بواسطه القلم و الجمله حاليه او استئنافيه،و الكلام مسوق لتقويه نفس النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إزاله القلق و الاضطراب عنها حيث أمر بالقراءه و هو امى لا يكتب و لا يقرأ كأنه قيل:اقرأ كتاب ربك الذى يوحيه اليك و لا تخف و الحال أن ربك الأكرم الذى علّم الإنسان القراءه بواسطه القلم الذى يخط به فهو قادر على أن يعلّمک قراءه كتابه و أنت امى و قد أمرك بالقراءه و لو لم يقدرك عليها لم يأمرك بها.

ثم عمم سبحانه النعمه فذكر تعليمه للإنسان ما لم يعلم فقال: «عَلَّمَ الْإِنْسٰانَ مٰا لَمْ یَعْلَمْ» و فيه مزيد تقويه لقلب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تطييب لنفسه.

و المراد بالإنسان الجنس كما هو ظاهر السياق و قيل:المراد به آدم عليه السّلام.

قوله تعالى: کَلاّٰ إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَیَطْغیٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنیٰ ردع عما يستفاد من الآيات السابقه أنه تعالى أنعم على الإنسان بعظائم نعم مثل التعليم بالقلم و سائر ما علّم و التعليم من طريق الوحى فعلى الانسان أن يشكره على ذلك لكنه يكفر بنعمته تعالى و يطغى.

و قوله: إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أن يتعدى طوره،و هو إخبار بما فى طبع الإنسان ذلك كقوله: إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ (إبراهيم/۳۴).

و قوله: أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى من الرأى دون الرؤيه البصريه،و فاعل «رَآهُ» و مفعوله الإنسان.و جمله «أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى» فى مقام التعليل أى ليطغى لأنه يعتقد نفسه مستغنيا عن ربه المنعم عليه فيكفر به،و ذلك أنه يشتغل بنفسه و الأسباب الظاهريه التى يتوصل بها الى مقاصده فيغفل عن ربه من غير أن يرى حاجه منه اليه تبعثه الى ذكره و شكره على نعمه فينساه و يطغى.

قوله تعالى: إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى الرجعى هو الرجوع و الظاهر من سياق الوعيد الآتى أنه وعيد و تهديد بالموت و البعث،و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و قيل:الخطاب للإنسان بطريق الالتفات للتشديد،و الأول أظهر.

قوله تعالى: أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلّى أَ رَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلّى أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللّهَ يَرى بمنزله ذكر بعض المصاديق للإنسان الطاغى و هو كالتوطئه لوعيده بتصريح العقاب و النهى عن طاعته و الأمر بعبادته تعالى،و المراد بالعبد الذى كان يصلّى هو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على ما يستفاد من آخر الآيات حيث ينهاه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن طاعه ذلك الناهى و يأمره بالسجود و الاقتراب.

و سياق الآيات-على تقدير كون السوره أول ما نزل من القرآن و نزولها دفعه واحده- يدل على صلاه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قبل نزول القرآن و فيه دلاله على نبوّته قبل رسالته بالقرآن.

و قوله: أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللّهَ يَرى المراد به العلم على طريق الاستلزام فإن لازم الاعتقاد بأن اللّه خالق كل شىء هو الاعتقاد بأن له علما بكل شىء و إن غفل عنه و قد كان الناهى وثنيا مشركا و الوثنيه معترفون بأن اللّه هو خالق كل شىء و ينزهونه عن صفات النقص فيرون أنه تعالى لا يجهل شيئا و لا يعجز عن شىء و هكذا.

ص:۷۱۹

قوله تعالى: كَلّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنّاصِيَهِ ناصِيَهٍ كاذِبَهٍ خاطِئَهٍ قال فى المجمع:و السفع الجذب الشديد يقال:سفعت بالشىء إذا قبضت عليه و جذبته جذبا شديدا.

انتهى،و فى توصيف الناصيه بالكذب و الخطأ و هما وصفا صاحب الناصيه مجاز.

و فى الكلام ردع و تهديد شديد،و المعنى ليس الأمر كما يقول و يريد أو ليس له ذلك.

أقسم لئن لم يكف عن نهيه و لم ينصرف لنأخذنّ بناصيته أخذ الذليل المهان و نجذبنّه الى العذاب تلك الناصيه التى صاحبها كاذب فيما يقول خاطئ فيما يفعل،و قيل:المعنى لنسمنّ ناصيته بالنار و نسوّدنها.

قوله تعالى: فَلْيَدْعُ نادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبانِيَهَ النادى المجلس و كأن المراد به أهل المجلس أى الجمع الذين يجتمع بهم،و قيل:الجليس،و الزبانيه الملائكه الموكلون بالنار، و قيل:الزبانيه فى كلامهم الشرط،و الأمر تعجيزى أشير به الى شده الأخذ و المعنى فليدع هذا الناهى جمعه لينجّوه منا سندع الزبانيه الغلاظ الشداد الذين لا ينفع معهم نصر ناصر.

قوله تعالى: كَلّا لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ تكرار الردع للتأكيد،و قوله: «لا تُطِعْهُ» أى لا تطعه فى النهى عن الصلاه و هى القرينه على أن المراد بالسجود الصلاه،و لعل الصلاه التى كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يأتى بها يومئذ كانت تسبيحه تعالى و السجود له و قيل:المراد به السجود لقراءه هذه السوره التى هى إحدى العزائم الأربع فى القرآن.

و الاقتراب التقرب الى اللّه،و قيل:الاقتراب من ثواب اللّه تعالى (1).

۱- ۱) .العلق ۱-۱۹:بحث روائى فى:نزول الوحى الى رسول اللّه؛بعثه رسول اللّه الكريم الذى ينهى رسول اللّه اذا صلّى؛ سوره العزائم.

سوره القدر مکیه و هی خمس آیات

اشاره

[سوره القدر (۹۷): الآیات ۱ الی ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهِ اَلْقَدْرِ (۱) وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا لَیْلَهُ اَلْقَدْرِ (۲) لَیْلَهُ اَلْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (۳) تَنَزَّلُ اَلْمَلاٰئِکَهُ وَ اَلرُّوحُ فِیهٰا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ کُلِّ أَمْرٍ (۴) سَلاٰمٌ هِیَ حَتّٰی مَطْلَعِ اَلْفَجْرِ (۵)

بیان:

تذکر السوره إنزال القرآن فی لیله القدر و تعظّم اللیله بتفضیلها علی ألف شهر و تنزل الملائکه و الروح فیها،و السوره تحتمل المکیه و المدنیه و لا یخلو بعض (۱)ما روی فی سبب نزولها عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام و غیرهم من تأیید لکونها مدنیه.

ص: ۷۲۱

۱- ۱) .و هو ما دل علی أن السوره نزلت بعد رؤیا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن بنی امیه یصعدون منبره فاغتم فسلاه اللّه بها.

قوله تعالی: إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهِ الْقَدْرِ ضمیر «أَنْزَلْنٰاهُ» للقرآن و ظاهره جمله الکتاب العزیز لا بعض آیاته و یؤیده التعبیر بالإنزال الظاهر فی اعتبار الدفعه دون التنزیل الظاهر فی التدریج.

و فی معنی الآیه قوله تعالی: وَ الْکِتٰابِ الْمُبِینِ إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهٍ مُبٰارَکَهٍ (الدخان/۳) و ظاهره الإقسام بجمله الکتاب المبین ثم الإخبار عن إنزال ما اقسم به جمله.

فمدلول الآیات أن للقرآن نزولا جملیا علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم غیر نزوله التدریجی الذی تمّ فی مده ثلاث و عشرین سنه کما یشیر الیه قوله: وَ قُرْآناً فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النّٰاسِ عَلیٰ مُکْثٍ وَ نَزَّلْنٰاهُ تَنْزِیلاً (الإسراء/۱۰۶)،و قوله: وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَیْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَهً وٰاحِدَهً کَذٰلِکَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَکَ وَ رَتَّلْنٰاهُ تَرْتِیلاً (الفرقان/۳۲).

فمحصل الآیات-کما تری-أنها لیله بعینها من شهر رمضان من کل سنه فیها إحکام الامور بحسب التقدیر،و لا ینافی ذلک وقوع التغیّر فیها بحسب التحقق فی ظرف السنه فإن التغیّر فی کیفیه تحقق المقدر أمر و التغیر فی التقدیر أمر آخر کما أن إمکان التغیر فی الحوادث الکونیه بحسب المشیه الإلهیه لا ینافی تعینها فی اللوح المحفوظ قال تعالی: وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْکِتٰابِ (الرعد/۳۹).

علی ان لاستحکام الامور بحسب تحققها مراتب من حیث حضور أسبابها و شرائطها تامه و ناقصه و من المحتمل أن تقع فی لیله القدر بعض مراتب الإحکام و یتأخر تمام الإحکام الی وقت آخر لکن الروایات کما ستأتی لا تلائم هذا الوجه.

قوله تعالی: وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا لَیْلَهُ الْقَدْرِ کنایه عن جلاله قدر اللیله و عظم منزلتها و یؤکد ذلک إظهار الاسم مره بعد مره حیث قیل «وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا لَیْلَهُ الْقَدْرِ لَیْلَهُ الْقَدْرِ خَیْرٌ» و لم یقل:

و ما أدراک ما هی هی خیر.

قوله تعالی: لَیْلَهُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ بیان إجمالی لما اشیر الیه بقوله: «وَ مٰا

أَدْرٰاکَ مٰا لَیْلَهُ الْقَدْرِ» من فخامه أمر اللیله.

و المراد بکونها خیرا من الف شهر خیریتها منها من حیث فضیله العباده علی ما فسره المفسرون و هو المناسب لغرض القرآن و عنایته بتقریب الناس الی اللّه فإحیاؤها بالعباده خیر من عباده الف شهر،و یمکن أن یستفاد ذلک من المبارکه المذکوره فی سوره الدخان فی قوله: «إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهٍ مُبٰارَکَهٍ» و هناک معنی آخر سیأتی فی البحث الروائی التالی إن شاء اللّه.

قوله تعالی: تَنَزَّلُ الْمَلاٰئِکَهُ وَ الرُّوحُ فِیهٰا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ کُلِّ أَمْرٍ تنزل أصله تتنزل،و الظاهر من الروح هو الروح من الأمر قال تعالی: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی (الإسراء۸۵/)و الإذن فی الشیء الرخصه فیه و هو إعلام عدم المانع منه.

و «مِنْ» فی قوله: «مِنْ کُلِّ أَمْرٍ» قیل:بمعنی الباء و قیل:لابتداء الغایه و تفید السببیه أی بسبب کل أمر إلهی،و قیل:للتعلیل بالغایه أی لأجل تدبیر کل امر من الامور و الحق ان المراد بالأمر إن کان هو الأمر الإلهی المفسر بقوله: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ (یس۸۲/)فمن للابتداء و تفید السببیه و المعنی تتنزل الملائکه و الروح فی لیله القدر بإذن ربهم مبتدأ تنزلهم و صادرا من کل أمر إلهی.

و إن کان هو الأمر من الامور الکونیه و الحوادث الواقعه فمن بمعنی اللام التعلیلیه و المعنی تتنزل الملائکه و الروح فی اللیله بإذن ربهم لأجل تدبیر کل امر من الامور الکونیه.

قوله تعالی: سَلاٰمٌ هِیَ حَتّٰی مَطْلَعِ الْفَجْرِ قال فی المفردات:السلام و السلامه التعری من الآفات الظاهره و الباطنه انتهی فیکون قوله: «سَلاٰمٌ هِیَ» إشاره الی العنایه الإلهیه بشمول الرحمه لعباده المقبلین الیه و سد باب نقمه جدیده تختص باللیله و یلزمه بالطبع وهن کید الشیاطین کما اشیر الیه فی بعض الروایات.

و الآیتان أعنی قوله: «تَنَزَّلُ الْمَلاٰئِکَهُ» الی آخر السوره فی معنی التفسیر لقوله: «لَیْلَهُ

الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»

(۱)

.

ص :۷۲۴

۱- ۱) .القدر ۱-۵:بحث روائی حول لیله القدر؛نزول القرآن؛الملائکه و الروح.

سوره البینه مدنیه و هی ثمان آیات

اشاره

[سوره البینه (۹۸): الآیات ۱ الی ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;لَمْ یَکُنِ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ اَلْکِتٰابِ وَ اَلْمُشْرِکِینَ مُنْفَکِّینَ حَتّٰی تَأْتِیَهُمُ اَلْبَیِّنَهُ (۱) رَسُولٌ مِنَ اَللّٰهِ یَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَهً (۲) فِیهٰا کُتُبٌ قَیِّمَهٌ (۳) وَ مٰا تَفَرَّقَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ اَلْبَیِّنَهُ (۴) وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِیَعْبُدُوا اَللّٰهَ مُخْلِصِینَ لَهُ اَلدِّینَ حُنَفٰاءَ وَ یُقِیمُوا اَلصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُوا اَلزَّکٰاهَ وَ ذٰلِکَ دِینُ اَلْقَیِّمَهِ (۵) إِنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ اَلْکِتٰابِ وَ اَلْمُشْرِکِینَ فِی نٰارِ جَهَنَّمَ خٰالِدِینَ فِیهٰا أُولٰئِکَ هُمْ شَرُّ اَلْبَرِیَّهِ (۶) إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ أُولٰئِکَ هُمْ خَیْرُ اَلْبَرِیَّهِ (۷) جَزٰاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّٰاتُ عَدْنٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا أَبَداً رَضِیَ اَللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذٰلِکَ لِمَنْ خَشِیَ رَبَّهُ (۸)

ص: ۷۲۵

بیان:

تسجّل السوره رساله محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لعامه أهل الکتاب و المشرکین و بعباره اخری للملیین و غیرهم و هم عامه البشر فتفید عموم الرساله و أنها مما کانت تقتضیه السنه الإلهیه-سنه الهدایه-التی تشیر إلیها أمثال قوله تعالی: إِنّٰا هَدَیْنٰاهُ السَّبِیلَ إِمّٰا شٰاکِراً وَ إِمّٰا کَفُوراً (الإنسان/۳)،و قوله: وَ إِنْ مِنْ أُمَّهٍ إِلاّٰ خَلاٰ فِیهٰا نَذِیرٌ (فاطر/۲۴)،و تحتج علی عموم دعوته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنها لا تتضمن إلا ما یصلح المجتمع الانسانی من الاعتقاد و العمل علی ما سیتضح إن شاء اللّه.

و السوره تحتمل المکیه و المدنیه و إن کان سیاقها بالمدنیه أشبه.

قوله تعالی: لَمْ یَکُنِ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ وَ الْمُشْرِکِینَ مُنْفَکِّینَ حَتّٰی تَأْتِیَهُمُ الْبَیِّنَهُ ظاهر الآیات-و هی فی سیاق یشیر الی قیام الحجه علی الذین کفروا بالدعوه الإسلامیه من أهل الکتاب و المشرکین و علی الذین اوتوا الکتاب حینما بدا فیهم الاختلاف-أن المراد هو الإشاره الی ان الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من مصادیق الحجه البینه القائمه علی الناس التی تقتضی قیامها السنه الإلهیه الجاریه فی عباده فقد کانت توجب مجیء البینه الیهم کما أوجبته من قبل ما تفرقوا فی دینهم.

و علی هذا فالمراد بالذین کفروا فی الآیه هم الکافرون بالدعوه النبویه الإسلامیه من أهل الکتاب و المشرکین،و «مِنْ» فی قوله: «مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ» للتبعیض لا للتبین،و قوله:

«وَ الْمُشْرِکِینَ» عطف علی «أَهْلِ الْکِتٰابِ» و المراد بهم غیر اهل الکتاب من عبده الأصنام و غیرهم.

ص: ۷۲۶

و قوله: مُنْفَكِّينَ من الانفكاك و هو الانفصال عن شده اتصال،و المراد به-على ما يستفاد من قوله: «حَتّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» - انفكاكهم عما تقتضى سنه الهدايه و البيان كأن السنه الإلهيه كانت قد أخذتهم و لم تكن تتركهم حتى تأتيهم البينه و لما أتتهم البينه تركتهم و شأنهم كما قال تعالى: وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدٰاهُمْ حَتّٰى يُبَيِّنَ لَهُمْ مٰا يَتَّقُونَ (التوبه/ ١١٥).

و قوله: حَتّٰى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ على ظاهره من الاستقبال و البينه هى الحجه الظاهره و المعنى لم يكن الذين كفروا برساله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو بدعوته أو بالقرآن لينفكوا حتى تأتيهم البينه و البينه هى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و للقوم اختلاف عجيب فى تفسير الآيه و معانى مفرداتها حتى قال بعضهم-على ما نقل-:

إن الآيه من أصعب الآيات القرآنيه نظما و تفسيرا.انتهى،و الذى أوردناه من المعنى هو الذى يلائمه سياقها من غير تناقض بين الآيات و تدافع بين الجمل و المفردات،و من أراد الاطلاع على تفصيل ما قيل و يقال فعليه أن يراجع المطوّلات.

قوله تعالى: رَسُولٌ مِنَ اللّٰهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً فِيهٰا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ بيان للبينه و المراد به محمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قطعا على ما يعطيه السياق.

و الصحف جمع صحيفه و هى ما يكتب فيها،و المراد بها أجزاء القرآن النازله و قد تكرر فى كلامه تعالى إطلاق الصحف على أجزاء الكتب السماويه و منها القرآن الكريم قال تعالى: فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرٰامٍ بَرَرَةٍ (عبس١۶/).

و المراد بكون الصحف مطهره تقدّسها من قذاره الباطل بمس الشياطين،و قد تكرر منه تعالى أنه حق مصون من مداخله الشياطين و قال: لاٰ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (الواقعه/ ٧٩).

و قوله: فِيهٰا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ الكتب جمع كتاب و معناه المكتوب و يطلق على اللوح

و القرطاس و نحوهما المنقوشه فيها الألفاظ و على نفس الألفاظ التى تحكى عنها النقوش،و ربما يطلق على المعانى بما أنها محكيه بالألفاظ،و يطلق أيضا على الحكم و القضاء يقال كتب عليه كذا أى قضى أن يفعل كذا قال تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ (البقره۱۸۳/)و قال: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ (البقره۲۱۶/).

و الظاهر أن المراد بالكتب التى فى الصحف الأحكام و القضايا الإلهيه المتعلقه بالاعتقاد و العمل،و من الدليل عليه توصيفها بالقيّمه فإنها من القيام بالشىء بمعنى حفظه و مراعاه مصلحته و ضمان سعادته قال تعالى: أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (يوسف/ ۴۰)،و معلوم أن الصحف السماويه إنما تقوم بأمر المجتمع الإنسانى و تحفظ مصلحته بما فيها من الأحكام و القضايا المتعلقه بالاعتقاد و العمل.

فمعنى الآيتين:الحجه البينه التى أتتهم رسول من اللّه يقرأ صحائف سماويه مطهره من دنس الباطل فى تلك الصحائف أحكام و قضايا قائمه بأمر المجتمع الإنسانى حافظه لمصالحه.

قوله تعالى: وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَهُ كانت الآيه الاولى «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ» الخ؛تشير الى كفرهم بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كتابه المتضمن للدعوه الحقّه و هذه الآيه تشير الى اختلافهم السابق على الدعوه الإسلاميه و قد أشير الى ذلك فى مواضع من القرآن الكريم كما قال تعالى: وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ (آل عمران۱۹/)الى غير ذلك من الآيات.

و مجىء البينه لهم هو البيان النبوى الذى تبين لهم فى كتابهم أو أوضحه لهم أنبياؤهم قال تعالى: وَ لَمّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَهِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَطِيعُونِ إِنَّ اللّهَ هُوَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ (الزخرف۶۵/).

قوله تعالى: وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِيَعْبُدُوا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفٰاءَ الخ؛ ضمير «أُمِرُوا» للذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين أى لم يتضمن رساله الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الكتب القيمه التى فى صحف الوحى إلا امرهم بعباده اللّه تعالى بقيد الإخلاص فى الدين فلا يشركوا به شيئا.

و قوله: حُنَفٰاءَ حال من ضمير الجمع و هو جمع حنيف من الحنف و هو الميل عن جانبى الإفراط و التفريط الى حاقّ وسط الاعتدال و قد سمى اللّه تعالى الإسلام دينا حنيفا لأنه يأمر فى جميع الامور بلزوم الاعتدال و التحرز عن الإفراط و التفريط.

و قوله: وَ يُقِيمُوا الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكٰاةَ من قبيل ذكر الخاص بعد العامّ أو الجزء بعد الكل اهتماما بأمره فالصلاه و الزكاه على أركان الإسلام و هما التوجه العبودى الخاص الى اللّه و إنفاق المال فى اللّه.

و قوله: وَ ذٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَهِ أى دين الكتب القيمه على ما فسروا،و المراد بالكتب القيمه إن كان جميع الكتب السماويه أعنى كتاب نوح و من دونه من الأنبياء عليهم السّلام فالمعنى إن هذا الذى امروا به و دعوا اليه فى الدعوه المحمديه هو الدين الذى كلفوا به فى كتبهم القيمه و ليس بأمر بدع فدين اللّه واحد و عليهم أن يدينوا به لأنه القيم.

و إن كان المراد به ما كان يتلوه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الكتب القيمه التى فى الصحف المطهره فالمعنى أنهم لم يؤمروا فى الدعوه الإسلاميه إلا بأحكام و قضايا هى القيمه الحافظه لمصالح المجتمع الإنسانى فلا يسعهم إلا أن يؤمنوا بها و يتدينوا.

فالآيه على أى حال تشير الى كون دين التوحيد الذى يتضمنه القرآن الكريم المصدق لما بين يديه من الكتاب و المهيمن (۱)عليه فيما يأمر المجتمع البشرى قائما بأمرهم حافظا لمصالح

۱- ۱) .سوره المائده،آيه ۴۸.

حیـاتهم کمـا یبینه بـأوفی البیان قوله تعالی: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلـدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِی فَطَرَ النّٰاسَ عَلَیْهٰا لاٰ تَبْـدِیلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ (الروم۳۰/).

و بهـذه الآیه یکمل بیان عموم رساله النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و شمول الـدعوه الإسـلامیه لعامه البشـر فقوله: «لَمْ یَکُنِ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ وَ الْمُشْـرِکِینَ» الخ؛یشیر الی أنه کان من الواجب فی سنه الهدایه الإلهیه أن تتم الحجه علی من کفر بالـدعوه من أهـل الکتـاب و المشـرکین،و هؤلاـء و إن کانوا بعض أهل الکتاب و المشـرکین لکن من الضـروری أن لا فرق بین البعض و البعض فی تعلق الدعوه فتعلقها بالبعض لا ینفک عن تعلقها بالکل.

و قوله: رَسُولٌ مِنَ اللّٰهِ الـخ؛یشـیر الی أن تلـک الـبینه محمـد صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم،و قوله: «وَ مٰا تَفَرَّقَ» الـخ؛یشـیر الی أن تفرقهم و کفرهم السابق بالحق أیضا کان بعد مجیء البینه.

و قوله: «وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِیَعْبُـدُوا اللّٰهَ» الخ؛یفید أن الذی دعوا الیه و امروا به دین قیم حافظ لمصالح المجتمع البشـری فعلیهم جمیعا أن یؤمنوا به و لا یکفروا.

قوله تعـالی: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْـلِ الْکِتٰابِ وَ الْمُشْـرِکِینَ فِی نٰارِ جَهَنَّمَ خٰالِـدِینَ فِیهٰا أُولٰئِکَ هُمْ شَـرُّ الْبَرِیَّهِ لما فرغ من الإشاره الی کفرهم بالبینه التی کانت توجبها سـنه الهـدایه الإلهیه و ما کانت تـدعو الیه من الـدین القیم أخذ فی الإنذار و التبشـیر بوعید الکفار و وعد المؤمنین،و البریه الخلق،و المعنی ظاهر.

قوله تعـالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰـاتِ أُولٰئِـکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّهِ فیه قصـر الخیریه فی المؤمنین الصالحین کما أن فی الآیه السابقه قصر الشریه فی الکفار.

قوله تعالی: جَزٰاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ -الی قوله- لِمَنْ خَشِـیَ رَبَّهُ العدن الاسـتقرار و الثبات فجنّات عدن جنّات خلود و دوام و توصیفها بقوله: «خٰالِدِینَ فِیهٰا أَبَداً» تأکید بما یدل علی الاسم.

و قوله: رَضِیَ اللّٰهُ عَنْهُمْ الرضی منه تعالی صفه فعل و مصداقه الثواب الذی

أعطاهموه جزاء لإيمانهم و عملهم الصالح.

و قوله: ذٰلِکَ لِمَنْ خَشِیَ رَبَّهُ علامه مضروبه لسعاده الدار الآخره و قد قال تعالی: إِنَّمَا یَخْشَی اللّٰهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (فاطر/۲۸)فالعلم باللّه یستتبع الخشیه منه، و الخشیه منه تستتبع الإیمان به بمعنی الالتزام القلبی بربوبیته و الوهیته ثم العمل الصالح.

و اعلم أن لهم فی تفسیر مفردات هذه الآیات اختلافا شدیدا و أقوالا کثیره لا جدوی فی التعرض لها من أراد الوقوف علیها فلیراجع المطولات.

ص: ۷۳۱

سوره الزلزال مدنيه و هى ثمان آيات

اشاره

[سوره الزلزله (۹۹): الآيات ۱ الى ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;إِذٰا زُلْزِلَتِ اَلْأَرْضُ زِلْزٰالَهٰا (۱) وَ أَخْرَجَتِ اَلْأَرْضُ أَثْقٰالَهٰا (۲) وَ قٰالَ اَلْإِنْسٰانُ مٰا لَهٰا (۳) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبٰارَهٰا (۴) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحىٰ لَهٰا (۵) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ اَلنّٰاسُ أَشْتٰاتاً لِيُرَوْا أَعْمٰالَهُمْ (۶) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (۷) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (۸)

بيان:

ذكر للقيامه و صدور الناس للجزاء و إشاره الى بعض أشراطها و هى زلزله الأرض

ص: ۷۳۲

و تحديثها أخبارها.و السوره تحتمل المكيه و المدنيه.

قوله تعالى: إِذٰا زُلْزِلَتِ اَلْأَرْضُ زِلْزٰالَهٰا الزلزال مصدر كالزلزله،و إضافته الى ضمير الأرض تفيد الاختصاص،و المعنى إذا زلزلت الأرض زلزلتها الخاصه بها فتفيد التعظيم و التفخيم أى إنها منتهيه فى الشده و الهول.

قوله تعالى: وَ أَخْرَجَتِ اَلْأَرْضُ أَثْقٰالَهٰا الأثقال جمع ثقل بفتحتين بمعنى المتاع أو خصوص متاع المسافر أو جمع ثقل بالكسر فالسكون بمعنى الحمل،و على أى حال المراد بأثقالها التى تخرجها،الموتى على ما قيل أو الكنوز و المعادن التى فى بطنها أو الجميع و لكل قائل و أول الوجوه أقربها ثم الثالث لتكون الآيه إشاره الى خروجهم للحساب،و قوله: «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ اَلنّٰاسُ» إشاره الى انصرافهم الى الجزاء.

قوله تعالى: وَ قٰالَ اَلْإِنْسٰانُ مٰا لَهٰا أى يقول مدهوشا متعجبا من تلك الزلزله الشديده الهائله:ما للأرض تتزلزل هذا الزلزال،و قيل:المراد بالإنسان الكافر غير المؤمن بالبعث،و قيل غير ذلك كما سيجىء.

قوله تعالى: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبٰارَهٰا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحىٰ لَهٰا فتشهد على أعمال بنى آدم كما تشهد بها أعضاؤهم و كتّاب الأعمال من الملائكه و شهداء الأعمال من البشر و غيرهم.

و قوله: «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحىٰ لَهٰا» اللام بمعنى الى لأن الايحاء يتعدى بإلى و المعنى تحدث أخبارها بسبب أن ربك أوحى إليها أن تحدّث فهى شاعره بما يقع فيها من الأعمال خيرها و شرها متحمله لها يؤذن لها يوم القيامه بالوحى أن تحدث أخبارها و تشهد بما تحملت،و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الإسراء/ ۴۴)،و قوله: قٰالُوا أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (حم السجده۲۱/)،أن المستفاد من كلامه سبحانه أن الحياه و الشعور ساريان فى الأشياء و إن كنا فى غفله من ذلك.

و قد اشتد الخلاف بينهم فى معنى تحديث الارض بالوحى أ هو بإعطاء الحياه و الشعور للأرض الميته حتى تخبر بما وقع فيها أو بخلق صوت عندها وعد ذلك تكلما منها أو دلالتها بلسان الحال بما وقع فيها من الأعمال،و لا محل لهذا الاختلاف بعد ما سمعت و لا أن الحجه تتم على أحد بهذا النوع من الشهاده.

قوله تعالى: يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ الصدور انصراف الإبل عن الماء بعد وروده،و أشتات كشتى جمع شتيت بمعنى المتفرق،و الآيه جواب بعد جواب لإذا.

و المراد بصدور الناس متفرقين يومئذ انصرافهم عن الموقف الى منازلهم فى الجنه و النار و أهل السعاده و الفلاح منهم متميزون من أهل الشقاء و الهلاك،و إراءتهم أعمالهم إراءتهم جزاء أعمالهم بالحلول فيه أو مشاهدتهم نفس أعمالهم بناء على تجسّم الأعمال.

قوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّهٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّهٍ شَرًّا يَرَهُ المثال ما يوزن به الأثقال،و الذره ما يرى فى شعاع الشمس من الهباء،و تقال لصغار النمل.

تفريع على ما تقدم من إراءتهم أعمالهم،فيه تأكيد البيان فى أنه لا يستثنى من الاراءه عمل خيرا أو شرا كبيرا أو صغيرا حتى مثقال الذره من خير أو شر،و بيان حال كل من عمل الخير و الشر فى جمله مستقله لغرض إعطاء الضابط و ضرب القاعده.

و لا منافاه بين ما تدل عليه الآيتان من العموم و بين الآيات الداله على حبط الأعمال، و الداله على انتقال أعمال الخير و الشر من نفس الى نفس كحسنات القاتل الى المقتول و سيئات المقتول الى القاتل،و الداله على تبديل السيئات حسنات فى بعض التائبين الى غير ذلك مما تقدمت الاشاره اليه فى بحث الأعمال فى الجزء الثانى من الكتاب و كذا فى تفسير قوله:

لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ الآيه(الأنفال۳۷).

و ذلـک لأـن الآيـات المـذکوره حـاکمه على هاتين الآيتين فإن من حبط عمله الخير محکوم بأنه لم يعمل خيرا فلا عمل له خيرا حتى يراه و على هذا القياس فى غيره فافهم.

سوره العادیات مدنیه و هی إحدی عشره آیه

اشاره

[سوره العادیات (۱۰۰): الآیات ۱ الی ۱۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;وَ اَلْعادِیاتِ ضَبْحاً (۱) فَالْمُورِیاتِ قَدْحاً (۲) فَالْمُغِیراتِ صُبْحاً (۳) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (۴) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (۵) إِنَّ اَلْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَکَنُودٌ (۶) وَ إِنَّهُ عَلی ذلِکَ لَشَهِیدٌ (۷) وَ إِنَّهُ لِحُبِّ اَلْخَیْرِ لَشَدِیدٌ (۸) أَ فَلا یَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِی اَلْقُبُورِ (۹) وَ حُصِّلَ ما فِی اَلصُّدُورِ (۱۰) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ یَوْمَئِذٍ لَخَبِیرٌ (۱۱)

ص: ۷۳۶

بیان:

تذکر السوره کفران الإنسان لنعم ربه و حبه الشدید للخیر عن علم منه به و هو حجه علیه و سیحاسب علی ذلک.

و السوره مدنیه بشهاده ما فی صدرها من الإقسام بمثل قوله: «وَ الْعٰادِيٰاتِ ضَبْحاً» الخ؛ الظاهر فی فی خیل الغزاه المجاهدین علی ما سیجیء،و إنما شرّع الجهاد بعد الهجره و یؤید ذلک ما ورد من طرق الشیعه عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام أن السوره نزلت فی علی علیه السّلام و سریته فی غزوه ذات السلاسل،و یؤیده أیضا بعض الروایات من طرق أهل السنه علی ما سنشیر الیه فی البحث الروائی التالی إن شاء اللّه.

قوله تعالی: وَ الْعٰادِيٰاتِ ضَبْحاً العادیات من العدو و هو الجری بسرعه و الضبح صوت أنفاس الخیل عند عدوها و هو المعهود المعروف من الخیل و إن ادعی أنه یعرض لکثیر من الحیوان غیرها،و المعنی أقسم بالخیل اللاتی یعدون یضبحن ضبحا.

قوله تعالی: فَالْمُورِيٰاتِ قَدْحاً الإیراء إخراج النار و القدح الضرب و الصک المعروف یقال:قدح فأوری إذا أخرج النار بالقدح،و المراد بها الخیل تخرج النار بحوافرها إذا عدت علی الحجاره و الأرض المحصبه.

قوله تعالی: فَالْمُغِيرٰاتِ صُبْحاً الإغاره و الغاره الهجوم علی العدو بغته بالخیل و هی صفه أصحاب الخیل و نسبتها الی الخیل مجاز،و المعنی فاقسم بالخیل الهاجمات علی العدو بغته فی وقت الصبح.

قوله تعالی: فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً أثرن من الإثاره بمعنی تهییج الغبار و نحوه،و النقع الغبار،و المعنی فهیّجن بالعدو و الإغاره غبارا.

قوله تعالی: فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً وسط و توسّط بمعنی،و ضمیر «بِهِ» للصبح و الباء

بمعنى فى او الضمير للنقع و الباء للملابسه.

و المعنى فصرن فى وقت الصبح فى وسط جمع و المراد به كتيبه العدو أو المعنى فتوسطن جمعا ملابسين للنقع.

فالمتعين حملها على خيل الغزاه و سياق الآيات و خاصه قوله: «فَالْمُغِيرٰاتِ صُبْحاً» «فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً» يعطى أنها غزاه بعينها أقسم اللّه فيها بخيل المجاهدين العاديات و الفاء فى الآيات الأربع تدل على ترتب كل منها على ما قبلها.

قوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسٰانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ الكنود الكفور،و الآيه كقوله: إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَكَفُورٌ (الحج/۶۶)،و هو إخبار عمّا فى طبع الإنسان من اتباع الهوى و الانكباب على عرض الدنيا و الانقطاع به عن شكر ربه على ما أنعم عليه.

و فيه تعريض للقوم المغار عليهم،و كأن المراد بكفرانهم كفرانهم بنعمه الإسلام التى أنعم اللّه بها عليهم و هى أعظم نعمه أوتوها فيها طيب حياتهم الدنيا و سعاده حياتهم الأبديه الاخرى.

قوله تعالى: وَ إِنَّهُ عَلىٰ ذٰلِكَ لَشَهِيدٌ ظاهر اتساق الضمائر أن يكون ضمير «وَ إِنَّهُ» للإنسان فيكون المراد بكونه شهيدا على كفران نفسه بكفران نفسه علمه المذموم و تحمله له.

فالمعنى و إن الانسان على كفرانه بربه شاهد متحمل فالآيه فى معنى قوله: بَلِ الْإِنْسٰانُ عَلىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (القيامه/۱۴).

قوله تعالى: وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ قيل:اللام فى «لِحُبِّ الْخَيْرِ» للتعليل و الخير المال،و المعنى و إن الإنسان لأجل حب المال لشديد أى بخيل شحيح،و قيل:المراد أن الانسان لشديد الحب للمال و يدعوه ذلك الى الامتناع من إعطاء حق اللّه،و الإنفاق فى اللّه.كذا فسروا.

و لا يبعد أن يكون المراد بالخير مطلقه و يكون المراد أن حب الخير فطرى للإنسان ثم إنه

ص: ۷۳۸

یری عرض الدنیا و زینتها خیرا فتنجذب الیه نفسه و ینسیه ذلک ربه أن یشکره.

قوله تعالی: أَ فَلاٰ یَعْلَمُ إِذٰا بُعْثِرَ مٰا فِی الْقُبُورِ -الی قوله- لَخَبِیرٌ البعثره کالبحثره البعث و النشر،و تحصیل ما فی الصدور تمییز ما فی باطن النفوس من صفه الإیمان و الکفر و رسم الحسنه و السیئه قال تعالی: یَوْمَ تُبْلَی السَّرٰائِرُ (الطارق٩/)،و قیل:هو إظهار ما أخفته الصدور لتجازی علی السر کما تجازی علی العلانیه.

و قوله: أَ فَلاٰ یَعْلَمُ الاستفهام فیه للانکار،و مفعول یعلم جمله قائمه مقام المفعولین یدل علیه المقام.ثم استؤنف فقیل:إذا بعثر ما فی القبور،الخ؛تأکید للانکار،و المراد بما فی القبور الأبدان.

و المعنی-و اللّه أعلم-أ فلا یعلم الإنسان أن لکنوده و کفرانه بربه تبعه ستلحقه و یجازی بها،إذا خرج ما فی القبور من الأبدان و حصل و میز ما فی سرائر النفوس من الإیمان و الکفر و الطاعه و المعصیه إن ربهم بهم یومئذ لخبیر فیجازیهم بما فیها.

سوره القارعه مکیه و هی إحدی عشره آیه

اشاره

[سوره القارعه (۱۰۱): الآیات ۱ الی ۱۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمlt;br/gt;اَلْقارِعَهُ (۱) مَا اَلْقارِعَهُ (۲) وَ مٰا أَدْرٰاکَ مَا اَلْقارِعَهُ (۳) یَوْمَ یَکُونُ اَلنّٰاسُ کَالْفَرٰاشِ اَلْمَبْثُوثِ (۴) وَ تَکُونُ اَلْجِبٰالُ کَالْعِهْنِ اَلْمَنْفُوشِ (۵) فَأَمّٰا مَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِینُهُ (۶) فَهُوَ فِی عِیشَهٍ رٰاضِیَهٍ (۷) وَ أَمّٰا مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِینُهُ (۸) فَأُمُّهُ هٰاوِیَهٌ (۹) وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا هِیَهْ (۱۰) نٰارٌ حٰامِیَهٌ (۱۱)

ص: ۷۴۰

بیان:

إنذار و تبشير بالقيامه يغلب فيه جانب الانذار،و السوره مكيه.

قوله تعالى: اَلْقٰارِعَةُ مَا الْقٰارِعَةُ مبتدأ و خبر،و القارعه من القرع و هو الضرب باعتماد شديد،و هى من أسماء القيامه فى القرآن.قيل:سميت بها لأنها تقرع القلوب بالفزع و تقرع أعداء اللّه بالعذاب.

و السؤال عن حقيقه القارعه فى قوله: «مَا الْقٰارِعَةُ» مع كونها معلومه إشاره الى تعظيم أمرها و تفخيمه و أنها لا تكتنه علما،و قد اكد هذا التعظيم و التفخيم بقوله بعد: «وَ مٰا أَدْرٰاكَ مَا الْقٰارِعَةُ» .

قوله تعالى: يَوْمَ يَكُونُ النّٰاسُ كَالْفَرٰاشِ الْمَبْثُوثِ ظرف متعلق بفعل مقدر نحو اذكر و تقرع و تأتى،و الفراش على ما نقل عن الفراء الجراد الذى ينفرش و يركب بعضه بعضا و هو غوغاء الجراد.قيل:شبّه الناس عند البعث بالفراش لأن الفراش إذا ثار لم يتجه الى جهه واحده كسائر الطير و كذلك الناس إذا خرجوا من قبورهم أحاط بهم الفزع فتوجهوا جهات شتى أو توجهوا الى منازلهم المختلفه سعاده و شقاء.و المبثوث من البث و هو التفريق.

قوله تعالى: وَ تَكُونُ الْجِبٰالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ العهن الصوف ذو ألوان مختلفه، و المنفوش من النفش و هو نشر الصوف بندف و نحوه فالعهن المنفوش الصوف المنتشر ذو ألوان مختلفه إشاره الى تلاشى الجبال على اختلاف ألوانها بزلزله الساعه.

قوله تعالى: فَأَمّٰا مَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رٰاضِيَةٍ إشاره الى وزن الأعمال و أن الأعمال منها ما هو ثقيل فى الميزان و هو ما له قدر و منزله عند اللّه و هو الإيمان و أنواع الطاعات،و منها ما ليس كذلك و هو الكفر و أنواع المعاصى و يختلف القسمان أثرا فيستتبع الثقيل السعاده و يستتبع الخفيف الشقاء،و قد تقدم البحث عن معنى الميزان فى تفسير

السور السابقه.

و قوله: فِي عِيشَةٍ رٰاضِيَةٍ العيشه بكسر العين كالجلسه بناء نوع،و توصيفها براضيه-و الراضى صاحبها-من المجاز العقلى أو المعنى فى عيشه ذات رضى.

قوله تعالى: وَ أَمّٰا مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ فَأُمُّهُ هٰاوِيَةٌ الظاهر أن المراد بهاويه جهنم و تسميتها بهاويه لهوىّ من القى فيها أى سقوطه الى أسفل سافلين قال تعالى: ثُمَّ رَدَدْنٰاهُ أَسْفَلَ سٰافِلِينَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا (التين۶/).

فتوصيف النار بالهاويه مجاز عقلى كتوصيف العيشه بالراضيه و عدّ هاويه اما للداخل فيها لكونها مأواها مرجعه الذى يرجع إليه كما يرجع الولد الى أمه.

قوله تعالى: وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا هِيَهْ ضمير هى لهاويه،و الهاء فى «هِيَهْ» للوقف و الجمله تفسير تفيد تعظيم أمر النار و تفخيمه.

قوله تعالى: نٰارٌ حٰامِيَةٌ أى حاره شديده الحراره و هو جواب الاستفهام فى «مٰا هِيَهْ» و تفسير لهاويه.

ص :۷۴۲

سوره التكاثر مكيه و هى ثمان آيات

اشاره

[سوره التكاثر (۱۰۲): الآيات ۱ الى ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;أَلْهٰاكُمُ اَلتَّكٰاثُرُ (۱) حَتّٰى زُرْتُمُ اَلْمَقٰابِرَ (۲) كَلاّٰ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳) ثُمَّ كَلاّٰ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۴) كَلاّٰ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اَلْيَقِينِ (۵) لَتَرَوُنَّ اَلْجَحِيمَ (۶) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهٰا عَيْنَ اَلْيَقِينِ (۷) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ اَلنَّعِيمِ (۸)

بيان:

توبيخ شديد للناس على تلهيهم بالتكاثر فى الأموال و الأولاد و الأعضاء و غفلتهم عما

ص :۷۴۳

وراءه من تبعه الخسران و العذاب،و تهدید بأنهم سوف یعلمون و یرون ذلک و یسألون عن هذه النعم التی اوتوها لیشکروا فتلهوا بها و بدّلوا نعمه اللّه کفرا.

و السوره بما لها من السیاق تحتمل المکیه و المدنیه،و سیأتی ما ورد فی سبب نزولها فی البحث الروائی إن شاء اللّه.

قوله تعالی: أَلْهٰاکُمُ التَّکٰاثُرُ حَتّٰی زُرْتُمُ الْمَقٰابِرَ قال فی المفردات:اللهو ما یشغل الإنسان عما یعنیه و یهمه.قال،و یقال:ألهاه کذا أی شغله عما هو أهم الیه،قال تعالی:

«أَلْهٰاکُمُ التَّکٰاثُرُ» ،انتهی.

و قال:و المکاثره و التکاثر التباری فی کثره المال و العز،انتهی.و قال:المقبره-بکسر المیم-و المقبره-بفتحها-موضع القبور و جمعها مقابر،قال تعالی: «حَتّٰی زُرْتُمُ الْمَقٰابِرَ» کنایه عن الموت؛انتهی.

فالمعنی علی ما یعطیه السیاق شغلکم التکاثر فی متاع الدنیا و زینتها و التسابق فی تکثیر العدّه و العدد عما یهمکم و هو ذکر اللّه حتی لقیتم الموت فعمّتکم الغفله مدی حیاتکم.

قوله تعالی: کَلاّٰ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ردع عن اشتغالهم بما لا یهمهم عما یعنیهم و تخطئه لهم،و قوله: «سَوْفَ تَعْلَمُونَ» تهدید معناه علی ما یفیده المقام سوف تعلمون تبعه تلهیکم هذا و تعرفونها إذا انقطعتم عن الحیاه الدنیا.

قوله تعالی: ثُمَّ کَلاّٰ سَوْفَ تَعْلَمُونَ تأکید للردع و التهدید السابقین،و قیل:المراد بالأول علمهم بها عند الموت و بالثانی علمهم بها عند البعث.

قوله تعالی: کَلاّٰ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْیَقِینِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِیمَ ردع بعد ردع تأکیدا و الیقین العلم الذی لا یداخله شک و ریب.

و قوله: لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْیَقِینِ جواب لو محذوف و التقدیر لو تعلمون الأمر علم

اليقين لشغلكم ما تعلمون عن التباهى و التفاخر بالكثره،و قوله: «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» استئناف فى الكلام،و اللام للقسم،و المعنى اقسم لترونّ الجحيم التى جزاء هذا التلهى كذا فسروا.

قالوا:و لا يجوز أن يكون قوله: «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» جواب لو الامتناعيه لأن الرؤيه محقق الوقوع و جوابها لا يكون كذلك.

و هذا مبنى على أن يكون المراد رؤيه الجحيم يوم القيامه كما قال: وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى (النازعات/۳۶)و هو غير مسلم بل الظاهر أن المراد رؤيتها قبل يوم القيامه رؤيه البصيره و هى رؤيه القلب التى هى من آثار اليقين على ما يشير اليه،قوله تعالى: وَ كَذٰلِكَ نُرِى إِبْرٰاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام/۷۵)،و قد تقدم الكلام فيها،و هذه الرؤيه القلبيه قبل يوم القيامه غير محققه لهؤلاء المتلهين بل ممتنعه فى حقهم لامتناع اليقين عليهم.

قوله تعالى: ثُمَّ لَتَرَوُنَّهٰا عَيْنَ الْيَقِينِ المراد بعين اليقين نفسه،و المعنى لترونها محض اليقين،و هذه بمشاهدتها يوم القيامه،و من الدليل عليه قوله بعد ذلك: «ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» فالمراد بالرؤيه الاولى رؤيتها قبل يوم القيامه و بالثانيه رؤيتها يوم القيامه.

قوله تعالى: ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ظاهر السياق أن هذا الخطاب و كذلك الخطابات المتقدمه فى السوره للناس بما أن فيهم من اشتغل بنعمه ربه عن ربه فأنساه التكاثر فيها عن ذكر اللّه،و ما فى السوره من التوبيخ و التهديد متوجه الى عامه الناس ظاهرا واقع على طائفه خاصه منهم حقيقه و هم الذين ألهاهم التكاثر.

و كذا ظاهر السياق أن المراد بالنعيم مطلقه و هو كل ما يصدق عليه أنه نعمه فالإنسان مسئول عن كل نعمه أنعم اللّه بها عليه.

و ذلك أن النعمه-و هى الأمر الذى يلائم المنعم عليه و يتضمن له نوعا من الخير و النفع-

إنما تكون بالنسبه الى المنعم عليه إذا استعملها بحيث يسعد بها فينتفع و أما لو استعملها على خلاف ذلك كانت نقمه بالنسبه إليه و إن كانت نعمه بالنظر الى نفسها (۱).

۱- ۱) .التكاثر ۱-۸:بحث روائى فى السؤال عن النعيم يوم القيامه؛ما النعيم الذى يسأل عنه.

سوره العصر مکیه و هی ثلاث آیات

اشاره

[سوره العصر (۱۰۳): الآیات ۱ الی ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;وَ اَلْعَصْرِ (۱) إِنَّ اَلْإِنْسٰانَ لَفِي خُسْرٍ (۲) إِلاَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ تَوٰاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوٰاصَوْا بِالصَّبْرِ (۳)

بیان:

تلخص السوره جمیع المعارف القرآنیه و تجمع شتات مقاصد القرآن فی أوجز بیان،و هی تحتمل المکیه و المدنیه لکنها أشبه بالمکیه.

قوله تعالی: وَ الْعَصْرِ إقسام بالعصر و الأنسب لما تتضمنه الآیتان التالیتان من شمول الخسران للعالم الإنسانی إلا لمن اتبع الحق و صبر علیه و هم المؤمنون الصالحون عملا-أن یکون المراد بالعصر عصر النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو عصر طلوع الإسلام علی المجتمع البشری و ظهور

ص: ۷۴۷

الحق علی الباطل.

و قیل:المراد به وقت العصر و هو الطرف الأخیر من النهار لما فیه من الدلاله علی التدبیر الربوبی بإدبار النهار و إقبال اللیل و ذهاب سلطان الشمس،و قیل:المراد به صلاه العصر و هی الصلاه الوسطی التی هی أفضل الفرائض الیومیه،و قیل:اللیل و النهار و یطلق علیهما العصران،و قیل:الدهر لما فیه من عجائب الحوادث الداله علی القدره الربوبیه و غیر ذلک.

و قد ورد فی بعض الروایات أنه عصر ظهور المهدی علیه السّلام لما فیه من تمام ظهور الحق علی الباطل.

قوله تعالی: إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِی خُسْرٍ المراد بالإنسان جنسه،و الخسر و الخسران و الخسار و الخساره نقص رأس المال قال الراغب:و ینسب ذلک الی الانسان فیقال:خسر فلان و الی الفعل فیقال:خسرت تجارته،انتهی.و التنکیر فی «خُسْرٍ» للتعظیم و یحتمل التنویع أی فی نوع من الخسر غیر الخسارات المالیه و الجاهیه قال تعالی: اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِیهِمْ یَوْمَ الْقِیامَهِ أَلا ذٰلِکَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِینُ (الزمر/۱۵).

قوله تعالی: إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ استثناء من جنس الانسان الواقع فی الخسر،و المستثنون هم الأفراد المتلبسون بالإیمان و الأعمال الصالحه فهم آمنون من الخسر.

و ذلک أن کتاب اللّه یبیّن أن للإنسان حیاه خالده مؤبّده لا تنقطع بالموت و إنما الموت انتقال من دار الی دار کما تقدم فی تفسیر قوله تعالی: عَلیٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَکُمْ وَ نُنْشِئَکُمْ فِی ما لا تَعْلَمُونَ (الواقعه/۶۱)،و یبین أن شطرا من هذه الحیاه و هی الحیاه الدنیا حیاه امتحانیه تتعین بها صفه الشطر الأخیر الذی هو الحیاه الآخره المؤبده من سعاده و شقاء قال تعالی:

وَ مَا الْحَیاهُ الدُّنْیا فِی الْآخِرَهِ إِلاّ مَتاعٌ (الرعد/۲۶)،و قال: کُلُّ نَفْسٍ ذائِقَهُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوکُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَیْرِ فِتْنَهً (الأنبیاء/۳۵).

و یبین أن مقدمیّه هذه الحیاه لتلک الحیاه إنما هی بمظاهرها من الاعتقاد و العمل فالاعتقاد الحق و العمل الصالح ملاک السعاده الاخرویه و الکفر و الفسوق ملاک الشقاء فیها قال تعالی:

وَ أَنْ لَیسَ لِلْإِنْسانِ إِلاّ ما سَعی وَ أَنَّ سَعْیَهُ سَوْفَ یُری ثُمَّ یُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفی (النجم/ ۴۱)،و قال: مَنْ کَفَرَ فَعَلَیْهِ کُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ یَمْهَدُونَ (الروم۴۴/)، و قال: مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَیْها (حم السجده۴۶/)،و قد سمّی اللّه تعالی ما سیلقاه الإنسان فی الآخره جزاء و أجرا فی آیات کثیره.

و یتبین بذلک کله أن الحیاه رأس مال للانسان یکسب به ما یعیش به فی حیاته الآخره فإن اتبع الحق فی العقد و العمل فقد ربحت تجارته و بورک فی مکسبه و أمن الشر فی مستقبله،و إن اتبع الباطل و أعرض عن الإیمان و العمل الصالح فقد خسرت تجارته و حرم الخیر فی عقباه و هو قوله تعالی: «إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِی خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ» .

و المراد بالإیمان الإیمان باللّه و من الایمان باللّه الإیمان بجمیع رسله و الإیمان بالیوم الآخر فقد نصّ تعالی فیمن لم یؤمن ببعض رسله (۱)أو بالیوم الآخر أنه غیر مؤمن باللّه.

و ظاهر قوله: «وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ» التلبس بجمیع الأعمال الصالحه فلا یشمل الاستثناء الفساق بترک بعض الصالحات من المؤمنین و لازمه أن یکون الخسر أعم من الخسر فی جمیع جهات حیاته کما فی الکافر المعاند للحق المخلد فی العذاب،و الخسر فی بعض جهات حیاته کالمؤمن الفاسق الذی لا یخلد فی النار و ینقطع عنه العذاب بشفاعه و نحوها.

قوله تعالی: وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ التواصی بالحق هو أن یوصی بعضهم بعضا بالحق أی باتباعه و الدوام علیه فلیس دین الحق إلا اتباع الحق اعتقادا و عملا و التواصی بالحق أوسع من الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر لشموله الاعتقادیات و مطلق

ص: ۷۴۹

۱- ۱) .النساء:۱۵۰-۱۵۱.

الترغيب و الحث على العمل الصالح.

ثم التواصى بالحق من العمل الصالح فذكره بعد العمل الصالح من قبيل ذكر الخاص بعد العام اهتماما بأمره كما أن التواصى بالصبر من التواصى بالحق و ذكره بعده من ذكر الخاص بعد العام اهتماما بأمره،و يؤكد تكرار ذكر التواصى حيث قال: «وَ تَوٰاصَوْا بِالصَّبْرِ» و لم يقل:

و تواصوا بالحق و الصبر.

و على الجمله ذكر تواصيهم بالحق و بالصبر بعد ذكر تلبسهم بالإيمان و العمل الصالح للاشاره الى حياه قلوبهم و انشراح صدورهم للإسلام لِلّه فلهم اهتمام خاص و اعتناء تام بظهور سلطان الحق و انبساطه على الناس حتى يتبع و يدوم اتباعه قال تعالى: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقٰاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللّٰهِ أُولٰئِكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (الزمر/٢٢).

و قد أطلق الصبر فالمراد به أعم من الصبر على طاعه اللّه،و الصبر عن معصيته،و الصبر عند النوائب التى تصيبه بقضاء من اللّه و قدر.

ص:٧٥٠

سوره الهمزه مکیه و هی تسع آیات

اشاره

[سوره الهمزه (۱۰۴): الآیات ۱ الی ۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;وَیْلٌ لِکُلِّ هُمَزَهٍ لُمَزَهٍ (۱) اَلَّذِی جَمَعَ مٰالاً وَ عَدَّدَهُ (۲) یَحْسَبُ أَنَّ مٰالَهُ أَخْلَدَهُ (۳) کَلاّٰ لَیُنْبَذَنَّ فِی اَلْحُطَمَهِ (۴) وَ مٰا أَدْرٰاکَ مَا اَلْحُطَمَهُ (۵) نٰارُ اَللّٰهِ اَلْمُوقَدَهُ (۶) اَلَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی اَلْأَفْئِدَهِ (۷) إِنَّهٰا عَلَیْهِمْ مُؤْصَدَهٌ (۸) فِی عَمَدٍ مُمَدَّدَهٍ (۹)

ص: ۷۵۱

بیان:

وعید شدید للمغرمین بجمع المال المستعلین به علی الناس المستکبرین علیهم فیزرون بهم و یعیبونهم بما لیس بعیب،و السوره مکیه.

قوله تعالی: وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ قال فی المجمع:الهمزه الکثیر الطعن علی غیره بغیر حق العائب له بما لیس بعیب،و أصل الهمز الکسر قال:و اللمز العیب أیضا و الهمزه و اللمزه بمعنی،و قد قیل:بینهما فرق فإن الهمزه الذی یعیبک بظهر الغیب،و اللمزه الذی یعیبک فی وجهک.عن اللیث.

و قیل:الهمزه الذی یؤذی جلیسه بسوء لفظه،و اللمزه الذی یکسر عینه علی جلیسه و یشیر برأسه و یومئ بعینه.قال:و فعله بناء المبالغه فی صفه من یکثر منه الفعل و یصیر عاده له تقول:رجل نکحه کثیر النکاح و ضحکه کثیر الضحک و کذا همزه و لمزه انتهی.

فالمعنی ویل لکل عیّاب مغتاب،و فسّر بمعان أخر علی حسب اختلافهم فی تفسیر الهمزه و اللمزه.

قوله تعالی: اَلَّذِي جَمَعَ مٰالاً وَ عَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مٰالَهُ أَخْلَدَهُ بیان لهمزه لمزه و تنکیر «مٰالاً» للتحقیر فإن المال و إن کثر ما کثر لا یغنی عن صاحبه شیئا غیر أن له منه ما یصرفه فی حوائج نفسه الطبیعیه من أکله تشبعه و شربه ماء ترویه و نحو ذلک و «عَدَّدَهُ» من العد بمعنی الإحصاء أی إنه لحبه المال و شغفه بجمعه یجمع المال و یعده عدا بعد عد التذاذا بتکثّره.و قیل:المعنی جعله عدّه و ذخرا لنوائب الدهر.

و قوله: يَحْسَبُ أَنَّ مٰالَهُ أَخْلَدَهُ أی یخلده فی الدنیا و یدفع عنه الموت و الفناء فالماضی أرید به المستقبل بقرینه قوله: «يَحْسَبُ» .

فهذا الإنسان لإخلاده الی الأرض و انغماره فی طول الأمل لا یقنع من المال بما یرتفع به

ص: ۷۵۲

حوائج حياته القصيره و ضروريات أيامه المعدوده بل كلما زاد مالا زاد حرصا الى ما لا نهايه له فظاهر حاله أنه يرى أن المال يخلده،و لحبه الغريزى للبقاء يهتم بجمعه و تعديده،و دعاه ما جمعه و عدده من المال و ما شاهده من الاستغناء الى الطغيان و الاستعلاء على غيره من الناس كما قال تعالى: إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى (العلق/٧)،و يورثه هذا الاستكبار و التعدى الهمز و اللمز.

و من هنا يظهر أن قوله: «يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ» بمنزله التعليل لقوله: «الَّذِى جَمَعَ مالاً وَ عَدَّدَهُ» ،و قوله: «الَّذِى جَمَعَ» الخ؛بمنزله التعليل لقوله: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَهٍ لُمَزَهٍ» .

قوله تعالى: كَلّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَهِ ردع عن حسبانه الخلود بالمال،و اللام فى «لَيُنْبَذَنَّ» للقسم،و النبذ القذف و الطرح،و الحطمه مبالغه من الحطم و هو الكسر و جاء بمعنى الأكل،و هى من أسماء جهنم على ما يفسرها قوله الآتى: «نارُ اللّهِ الْمُوقَدَهُ» .

و المعنى ليس مخلدا بالمال كما يحسب أقسم ليموتنّ و يقذفن فى الحطمه.

قوله تعالى: وَ ما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَهُ تفخيم و تهويل.

قوله تعالى: نارُ اللّهِ الْمُوقَدَهُ اَلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَهِ إيقاد النار إشعالها و الاطلاع و الطلوع على الشىء الإشراف و الظهور،و الأفئده جمع فؤاد و هو القلب،و المراد به فى القرآن مبدإ الشعور و الفكر من الانسان و هو النفس الإنسانيه.

و كأن المراد من اطّلاعها على الأفئده أنها تحرق باطن الإنسان كما تحرق ظاهره بخلاف النار الدنيويه التى إنما تحرق الظاهر فقط قال تعالى: وَقُودُهَا النّاسُ وَ الْحِجارَهُ (البقره/ ٢۴).

قوله تعالى: إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَهٌ أى مطبقه لا مخرج لهم منها و لا منجى.

قوله تعالى: فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَهٍ العمد بفتحتين جمع عمود و التمديد مبالغه فى المد قيل:هى أوتاد الأطباق التى تطبق على أهل النار،و قيل:عمد ممدده يوثقون فيها مثل

المقاطر و هی خشب أو جذوع کبار فیها خروق توضع فیها أرجل المحبوسین من اللصوص و غیرهم،و قیل غیر ذلک.

سوره الفيل مكيه و هى خمس آيات

اشاره

[سوره الفيل (۱۰۵): الآيات ۱ الى ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gtأَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحٰابِ اَلْفِيلِ (۱) أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ (۲) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبٰابِيلَ (۳) تَرْمِيهِمْ بِحِجٰارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (۴) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (۵)

بيان:

فيها إشاره الى قصه أصحاب الفيل إذ قصدوا مكه لتخريب الكعبه المعظمه فأهلكهم اللّه بإرسال طير أبابيل ترميهم بحجاره من سجّيل فجعلهم كعصف مأكول،و هى من آيات اللّه الجليه التى لا ستره عليها،و قد أرّخوا بها و ذكرها الجاهليون فى أشعارهم،و السوره مكيه.

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحٰابِ الْفِيلِ المراد بالرؤيه العلم

ص: ۷۵۵

الظاهر ظهور الحس،و الاستفهام إنكارى،و المعنى أ لم تعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، و قد كانت الواقعه عام ولد فيه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

قوله تعالى: أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ المراد بكيدهم سوء قصدهم بمكه و إرادتهم تخريب البيت الحرام،و التضليل و الإضلال واحد،و جعل كيدهم فى تضليل جعل سعيهم ضالا لا يهتدى الى الغايه المقصوده منه فقد ساروا لتخريب الكعبه و انتهى بهم الى هلاك أنفسهم.

قوله تعالى: وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ الأبابيل-كما قيل-جماعات فى تفرقه زمره زمره،و المعنى و أرسل اللّه على أصحاب الفيل جماعات متفرقه من الطير و الآيه التى تتلوها عطف تفسير على قوله: «أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ» .

قوله تعالى: تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ أى ترمى أبابيل الطير أصحاب الفيل بحجاره من سجّيل،و قد تقدم معنى السجّيل فى تفسير قصص قوم لوط.

قوله تعالى: فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ العصف ورق الزرع و العصف المأكول ورق الزرع الذى أكل حبه أو قشر الحب الذى أكل لبه و المراد أنهم عادوا بعد وقوع السجيل عليهم أجسادا بلا أرواح أو أن الحجر بحرارته أحرق أجوافهم.

ص: ۷۵۶

سوره قريش مكيه و هى أربع آيات

اشاره

[سوره قريش (۱۰۶): الآيات ۱ الى ۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;لِإِيلاٰفِ قُرَيْشٍ (۱) إِيلاٰفِهِمْ رِحْلَةَ اَلشِّتٰاءِ وَ اَلصَّيْفِ (۲) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذَا اَلْبَيْتِ (۳) اَلَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (۴)

بيان:

تتضمن السوره امتنانا على قريش بإيلافهم الرحلتين و تعقبه بدعوتهم الى التوحيد و عباده رب البيت،و السوره مكّيه.

و لمضمون السوره نوع تعلق بمضمون سوره الفيل و لذا ذهب قوم من أهل السنه الى كون الفيل و لإيلاف سوره واحده كما قيل بمثله فى الضحى و أ لم نشرح لما بينهما من الارتباط كما نسب ذلك الى المشهور بين الشيعه و الحق أن شيئا مما استندوا إليه لا يفيد ذلك.

أما القائلون بذلك من أهل السنه فإنهم استندوا فيه الی ما روی أن أبیّ بن کعب لم یفصل بینهما فی مصحفه بالبسمله،و بما روی عن عمرو بن میمون الأزدی قال:صلّیت المغرب خلف عمر بن الخطاب فقرأ فی الرکعه الاولی و التین و فی الثانیه أ لم تر و لإیلاف قریش من غیر أن یفصل بالبسمله.

و أجیب عن الروایه الاولی بمعارضتها بما روی أنه أثبت البسمله بینهما فی مصحفه،و عن الثانیه بأن من المحتمل علی تقدیر صحتها أن یکون الراوی لم یسمع قراءتها أو یکون قرأها سرا.علی أنها معارض بما روی عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إن اللّه فضل قریشا بسبع خصال و فیها «و نزلت فیهم سوره من القرآن لم یذکر فیها أحد غیرهم: لِإِیلاٰفِ قُرَیْشٍ» .الحدیث علی أن الفصل متواتر.

و أما القائلون بذلک من الشیعه فاستندوا فیه الی ما فی المجمع عن أبی العباس عن أحدهما علیهما السّلام قال:أ لم تر کیف فعل ربک و لإیلاف قریش سوره واحده،و ما فی التهذیب باسناده عن العلاء عن زید الشحّام قال:صلی بنا أبو عبد اللّه علیه السّلام الفجر فقرأ الضحی و أ لم نشرح فی رکعه،و ما فی المجمع عن العیاشی عن المفضل بن صالح عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال:

سمعته یقول:لا تجمع بین سورتین فی رکعه واحده إلا الضحی و أ لم نشرح و أ لم تر کیف و لإیلاف قریش،و رواه المحقق فی المعتبر نقلا من کتاب الجامع لأحمد بن محمد بن أبی نصر عن المفضل مثله.

أما روایه أبی العباس فضعیف لما فیها من الرفع.

و أما روایه الشحام فقد رویت عنه بطریقین آخرین:أحدهما ما فی التهذیب باسناده عن ابن مسکان عن زید الشحام قال:صلی بنا أبو عبد اللّه علیه السّلام فقرأ بنا بالضحی و أ لم نشرح، و ثانیهما عنه عن ابن أبی عمیر عن بعض أصحابنا عن زید الشحام قال:صلی بنا أبو عبد اللّه علیه السّلام فقرأ فی الاولی الضحی و فی الثانیه أ لم نشرح لک صدرک.

و هذه أعنی صحیحه ابن أبی عمیر صریحه فی قراءه السورتین فی رکعتین و لا یبقی معها لروایه العلاء ظهور فی الجمع بینهما،و أما روایه ابن مسکان فلا ظهور لها فی الجمع و لا صراحه،و أما حمل ابن أبی عمیر علی النافله فیدفعه قوله فیها:«صلی بنا»فإنه صریح فی الجماعه و لا جماعه فی نفل.

و أما روایه المفضّل فهی أدل علی کونهما سورتین منها علی کونهما سوره واحده حیث قیل:

لا تجمع بین سورتین ثم استثنی من السورتین الضحی و أ لم نشرح و کذا الفیل و لإیلاف.

فالحق أن الروایه إن دلت فإنما تدل علی جواز القران بین سورتی الضحی و أ لم نشرح و سورتی الفیل و لإیلاف فی رکعه واحده من الفرائض و هو ممنوع فی غیرها،و یؤیده روایه الراوندی فی الخرائج عن داود الرقیّ عن أبی عبد اللّه علیه السّلام فی حدیث قال:فلما طلع الفجر قام فأذّن و أقام و أقامنی عن یمینه و قرء فی أول رکعه الحمد و الضحی و فی الثانیه بالحمد و قل هو اللّه أحد ثم قنت ثم سلّم ثم جلس.

قوله تعالی: لِإِیلاٰفِ قُرَیْشٍ إِیلاٰفِهِمْ رِحْلَهَ الشِّتٰاءِ وَ الصَّیْفِ الإلف بکسر الهمزه اجتماع مع التئام کما قاله الراغب و منه الالفه،و قال فی الصحاح:و فلان قد ألف هذا الموضع بالکسر یألفه إلفا و آلفه إیاه غیره،و یقال أیضا:آلفت الموضع أولفه إیلافا،انتهی.

و قریش عشیره النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هم ولد النضر بن کنانه المسمی قریشا،و الرحله حال السیر علی الراحله و هی الناقه القویه علی السیر کما فی المجمع،و المراد بالرحله خروج قریش من مکه للتجاره و ذلک أن الحرم واد جدیب لا زرع فیه و لا ضرع فکانت قریش تعیش فیه بالتجاره،و کانت لهم فی کل سنه رحلتان للتجاره رحله فی الشتاء الی الیمن و رحله بالصیف الی الشام،و کانوا یعیشون بذلک و کان الناس یحترمونهم لمکان البیت الحرام فلا یتعرضون لهم بقطع طریقهم أو الإغاره علی بلدهم الآمن.

و قوله: لِإِیلاٰفِ قُرَیْشٍ اللام فیه للتعلیل،و فاعل الإیلاف هو اللّه سبحانه

و قريش مفعوله الاول و مفعوله الثانی محذوف يدل عليه ما بعده،و قوله: «إِيلاٰفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتٰاءِ وَ الصَّيْفِ» بدل من إيلاف قريش،و فاعل إيلافهم هو اللّه و مفعوله الأول ضمير الجمع و مفعوله الثانی رحله،الخ؛و التقدير لإيلاف اللّه قريشا رحله الشتاء و الصيف.

قوله تعالی: فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذَا الْبَيْتِ الفاء فی «فَلْيَعْبُدُوا» لتوهّم معنی الشرط أی أیّ شیء كان فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافه أيام الرحلتين أو لتوهم التفصيل أی مهما يكن من شیء فليعبدوا رب هذا البيت،الخ؛فهو كقوله تعالی: وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (المدثر/ ٧).

و محصل معنی الآيات الثلاث ليعبد قريش رب هذا البيت لأجل إيلافه إياهم رحله الشتاء و الصيف و هم عائشون بذلك فی أمن.

هذا بالنظر الی كون السوره منفصله عما قبلها ذات سياق مستقل فی نفسها،و أما علی تقدير كونها جزء من سوره الفيل متمّمه لها فذكروا أن اللام فی «لِإِيلاٰفِ» تعليليه متعلقه بمقدر يدل عليه المقام و المعنی فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمه منا علی قريش مضافه الی نعمتنا عليهم فی رحله الشتاء و الصيف فكأنه قال:نعمه الی نعمه و لذا قيل:إن اللام مؤديه معنی الی و هو قول الفرّاء.

قوله تعالی: اَلَّذِی أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ إشاره الی ما فی إيلافهم الرحلتين من منّه الواضح و نعمته الظاهره عليهم و هو الإطعام و الأمن فيعيشون فی أرض لا خصب فيها و لا أمن لغيرهم فليعبدوا ربا يدبر أمرهم أحسن التدبير و هو رب البيت.

سوره الماعون مدنیه او مکیه و هی سبع آیات

اشاره

[سوره الماعون (۱۰۷): الآیات ۱ الی ۷]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;أَ رَأَيْتَ اَلَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (۱) فَذٰلِكَ اَلَّذِي يَدُعُّ اَلْيَتِيمَ (۲) وَ لاٰ يَحُضُّ عَلىٰ طَعٰامِ اَلْمِسْكِينِ (۳) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (۴) اَلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاٰتِهِمْ سٰاهُونَ (۵) اَلَّذِينَ هُمْ يُرٰاؤُنَ (۶) وَ يَمْنَعُونَ اَلْمٰاعُونَ (۷)

بیان:

وعید لمن کان من المنتحلین بالدین متخلقا بأخلاق المنافقین کالسهو عن الصلاه و الریاء فی الأعمال و منع الماعون مما لا یلائم التصدیق بالجزاء.

ص :۷۶۱

و السوره تحتمل المكيه و المدنيه،و قيل:نصفها مكى و نصفها مدنى.

قوله تعالى: أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ الرؤيه تحتمل الرؤيه البصريه و تحتمل أن تكون بمعنى المعرفه،و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما أنه سامع فيتوجه الى كل سامع، و المراد بالدين الجزاء يوم الجزاء فالمكذب بالدين منكر المعاد و قيل:المراد به الدين بمعنى المله.

قوله تعالى: فَذٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ الدع هو الرد بعنف و جفاء،و الفاء فى «فَذٰلِكَ» لتوهم معنى الشرط و التقدير أ رأيت الذى يكذّب بالجزاء فعرفته بصفاته اللازمه لتكذيبه فإن لم تعرفه فذلك الذى يرد اليتيم بعنف و يجفوه و لا يخاف عاقبه عمله السيئ و لو لم يكذب به لخافها و لو خافها لرحمه.

قوله تعالى: وَ لاٰ يَحُضُّ عَلىٰ طَعٰامِ الْمِسْكِينِ الحض الترغيب،و الكلام على تقدير مضاف أى لا يرغب الناس على إطعام طعام المسكين قيل:إن التعبير بالطعام دون الإطعام للاشعار بأن المسكين كأنه مالك لما يعطى له كما فى قوله تعالى: وَ فِي أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ لِلسّٰائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (الذاريات١٩/)و قيل:الطعام فى الآيه بمعنى الاطعام.

و التعبير بالحض دون الاطعام لأن الحض أعم من الحض العملى الذى يتحقق بالاطعام.

قوله تعالى: فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ اَلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاٰتِهِمْ سٰاهُونَ أى غافلون لا يهتمون بها و لا يبالون أن تفوتهم بالكليه أو فى بعض الأوقات أو تتأخر عن وقت فضيلتها و هكذا.

و فى الآيه تطبيق من يكذب بالدين على هؤلاء المصلين لمكان فاء التفريع و دلاله على أنهم لا يخلون من نفاق لأنهم يكذبون بالدين عملا و هم يتظاهرون بالايمان.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ هُمْ يُرٰاؤُنَ أى يأتون بالعبادات لمراءاه الناس فهم يعملون للناس لا للّه تعالى.

قوله تعالى: وَ يَمْنَعُونَ الْمٰاعُونَ الماعون كل ما يعين الغير فى رفع حاجه من حوائـج الحياه كالقرض تقرضه و المعروف تصـنعه و متاع البيت تعيره،و الى هذا يرجع متفرقات ما فسر به فى كلماتهم.

ص :۷۶۳

سوره الكوثر مكيه و هى ثلاث آيات

اشاره

[سوره الكوثر (١٠٨): الآيات ١ الى ٣]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;إِنّٰا أَعْطَيْنٰاكَ اَلْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ اِنْحَرْ (٢) إِنَّ شٰانِئَكَ هُوَ اَلْأَبْتَرُ (٣)

بيان:

امتنـان على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإعطائه الكوثر و تطييب لنفسه الشريفه بأن شانئه هو الأبتر، و هى أقصر سوره فى القرآن و قد اختلفت الروايات فى كون السوره مكيه أو مدنيه،و الظاهر أنها مكيه،و ذكر بعضهم أنها نزلت مرتين جمعا بين الروايات.

قوله تعالى: إِنّٰا أَعْطَيْنٰاكَ الْكَوْثَرَ قال فى المجمع الكوثر فوعل و هو الشىء الذى من شأنه الكثره،و الكوثر الخير الكثير،انتهى.

و قد اختلفت أقوالهم فى تفسير الكوثر اختلافا عجيبا فقيل:هو الخير الكثير،و قيل:نهر

ص: ٧٦۴

فی الجنه،و قیل:حوض النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الجنه أو فی المحشر،و قیل:أولاده،و قیل:أصحابه و أشیاعه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الی یوم القیامه،و قیل:علماء امته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و قیل:القرآن و فضائله کثیره، و قیل:النبوه،و قیل:تیسیر القرآن و تخفیف الشرائع،و قیل:الاسلام،و قیل:التوحید، و قیل:العلم و الحکمه،و قل:فضائله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و قیل:المقام المحمود،و قیل:هو نور قلبه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، الی غیر ذلک مما قیل؛و قد نقل عن بعضهم أنه أنهی الأقوال الی سته و عشرین.

و قد استند فی القولین الأولین الی بعض الروایات،و باقی الأقوال لا تخلو من تحکم و کیفما کان فقوله فی آخر السوره: «إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ» -و ظاهر الأبتر هو المنقطع نسله و ظاهر الجمله انها من قبیل قصر القلب-ان کثره ذریته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هی المراده وحدها بالکوثر الذی اعطیه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم او المراد بها الخیر الکثیر و کثره الذریه مراده فی ضمن الخیر الکثیر و لو لا ذلک لکان تحقیق الکلام بقوله: «إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ» خالیا عن الفائده.

و قد استفاضت الروایات أن السوره إنما نزلت فیمن عابه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالبتر بعد ما مات ابناه القاسم و عبد اللّه،و بذلک یندفع ما قیل:ان مراد الشانئ بقوله: «الْأَبْتَرُ» المنقطع عن قومه أو المنقطع عن الخیر فردّ اللّه علیه بأن هو المنقطع من کل خیر.

و لما فی قوله: «إِنّا أَعْطَیْناکَ» من الامتنان علیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم جیء بلفظ المتکلم مع الغیر الدال علی العظمه،و لما فیه من تطییب نفسه الشریفه أکدت الجمله بإن و عبر بلفظ الإعطاء الظاهر فی التملیک.

و الجمله لا تخلو من دلاله علی أن ولد فاطمه علیهما السّلام ذریته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و هذا فی نفسه من ملاحم القرآن الکریم فقد کثر اللّه تعالی نسله بعده کثره لا یعادلهم فیها أی نسل آخر مع ما نزل علیهم من النوائب و أفنی جموعهم من المقاتل الذریعه.

قوله تعالی: فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ ظاهر السیاق فی تفریع الأمر بالصلاه و النحر علی الامتنان فی قوله: «إِنّا أَعْطَیْناکَ الْکَوْثَرَ» انه من شکر النعمه و المعنی إذا مننا علیک بإعطاء

ص: ۷۶۵

الکوثر فاشکر لهذه النعمه بالصلاه و النحر.

و المراد بالنحر عی ما رواه الفریقان عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و عن علی علیه السّلام و روته الشیعه عن الصادق علیه السّلام و غیره من الأئمه هو رفع الیدین فی تکبیر الصلاه الی النحر.

و قیل:معنی الآیه صل لربک صلاه العید و انحر البدن،و قیل:یعنی صل لربک و استو قائما عند رفع رأسک من الرکوع،و قیل غیر ذلک.

قوله تعالی: إِنَّ شٰانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ الشانئ هو المبغض و الأبتر من لا عقب له و هذا الشانئ هو العاصی بن وائل.

سوره الکافرون مکیه و هی ست آیات

اشاره

[سوره الكافرون (١٠٩): الآيات ١ الى ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;قُلْ يٰا أَيُّهَا اَلْكٰافِرُونَ (١) لاٰ أَعْبُدُ مٰا تَعْبُدُونَ (٢) وَ لاٰ أَنْتُمْ عٰابِدُونَ مٰا أَعْبُدُ (٣) وَ لاٰ أَنَا عٰابِدٌ مٰا عَبَدْتُّمْ (۴) وَ لاٰ أَنْتُمْ عٰابِدُونَ مٰا أَعْبُدُ (۵) لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ (۶)

بيان:

فيها أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يظهر للكفار براءته من دينهم و يخبرهم بامتناعهم من دينه فلا دينه يتعداه إليهم و لا دينهم يتعداهم إليه فلا يعبد ما يعبدون أبدا و لا يعبدون ما يعبد أبدا فلييأسوا من أی نوع من المداهنه و المساهله.

و اختلفوا فى كون السوره مكيه أو مدنيه،و الظاهر من سياقها أنها مكيه.

قوله تعالى: قُلْ يٰا أَيُّهَا الْكٰافِرُونَ الظاهر أن هؤلاء قوم معهودون لا كل كافر و يدل على ذلك أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يخاطبهم ببراءته من دينهم و امتناعهم من دينه.

قوله تعالى: لاٰ أَعْبُدُ مٰا تَعْبُدُونَ الآيه الى آخر السوره مقول القول،و المراد بما تعبدون الأصنام التى كانوا يعبدونها،و مفعول «تَعْبُدُونَ» ضمير راجع الى الموصول محذوف لدلاله الكلام عليه و لرعايه الفواصل،و كذا مفاعيل الأفعال التاليه «أَعْبُدُ» و «عَبَدْتُّمْ» و «أَعْبُدُ» .

و قوله: لاٰ أَعْبُدُ نفى استقبالى فإن «لاٰ» لنفى الاستقبال كما أن «مٰا» لنفى الحال، و المعنى لا أعبد أبدا ما تعبدونه اليوم من الأصنام.

قوله تعالى: وَ لاٰ أَنْتُمْ عٰابِدُونَ مٰا أَعْبُدُ نفى استقبالى أيضا لعبادتهم ما يعبده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو اخبار عن امتناعهم عن الدخول فى دين التوحيد فى مستقبل الأمر.

و بانضمام الأمر الذى فى مفتتح الكلام تفيد الآيتان أن اللّه سبحانه أمرنى بالدوام على عبادته و أن أخبركم أنكم لا تعبدونه أبدا فلا يقع بينى و بينكم اشتراك فى الدين أبدا.

فالآيه فى معنى قوله تعالى: لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (يس/٧)، و قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (البقره/٦).

و كان من حق الكلام أن يقال:و لا أنتم عابدون من أعبد.لكن قيل:ما أعبد ليطابق ما فى قوله: «لاٰ أَعْبُدُ مٰا تَعْبُدُونَ» .

قوله تعالى: وَ لاٰ أَنٰا عٰابِدٌ مٰا عَبَدْتُّمْ وَ لاٰ أَنْتُمْ عٰابِدُونَ مٰا أَعْبُدُ تكرار لمضمون الجملتين السابقتين لزياده التأكيد،كقوله: كَلاّٰ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاّٰ سَوْفَ

تَعْلَمُونَ (التكاثر۴/)و قوله: فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (المدثر ۲۰/) (۱).

قوله تعالی: لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ تأكيد بحسب المعنى لما تقدم من نفى الاشتراك،و اللام للاختصاص أى دينكم و هو عباده الأصنام يختص بكم و لا يتعداكم إلىّ و دينى يختص بى و لا يتعدانى إليكم و لا محل لتوهم دلاله الآيه على إباحه أخذ كل بما يرتضيه من الدين و لا أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يتعرض لدينهم بعد ذلك فالدعوه الحقه التى يتضمنها القرآن تدفع ذلك أساسا.

ص: ۷۶۹

۱- ۱) .الكافرون ۱-۶:بحث روائى فى نزول سوره الكافرون.

سوره النصر مدنیه و هی ثلاث آیات

اشاره

[سوره النصر (۱۱۰): الآیات ۱ الی ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gtإِذٰا جٰاءَ نَصْرُ اَللّٰهِ وَ اَلْفَتْحُ (۱) وَ رَأَیْتَ اَلنّٰاسَ یَدْخُلُونَ فِی دِینِ اَللّٰهِ أَفْوٰاجاً (۲) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ اِسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ کٰانَ تَوّٰاباً (۳)

بیان:

وعد له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالنصر و الفتح و أنه سیری الناس یدخلون فی الإسلام فوجا بعد فوج و أمره بالتسبیح حینئذ و التحمید و الاستغفار،و السوره مدنیه نزلت بعد صلح الحدیبیه و قبل فتح مکه علی ما سنستظهر.

قوله تعالی: إِذٰا جٰاءَ نَصْرُ اللّٰهِ وَ الْفَتْحُ ظهور «إِذٰا» المصدّره بها الآیه فی الاستقبال یستدعی أن یکون مضمون الآیه إخبارا بتحقق أمر لم یتحقق بعد،و إذا کان المخبر به هو النصر و الفتح و ذلک تقر به عین النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فهو وعد جمیل و بشری له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یکون من

ص: ۷۷۰

ملاحم القرآن الكريم.

و ليس المراد بالنصر و الفتح جنسهما حتى يصدقا على جميع المواقف التى أيد اللّه فيها نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أعدائه و أظهر دينه على دينهم كما فى حروبه و مغازيه و إيمان الأنصار و أهل اليمن كما قبل إذ لا يلائمه قوله بعد: «وَ رَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللّهِ أَفْواجاً» .

و ليس المراد بذلك أيضا صلح الحديبيه الذى سمّاه اللّه تعالى فتحا إذ قال: إِنّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِيناً (الفتح/١)لعدم انطباق الآيه الثانيه بمضمونها عليه.

و أوضح ما يقبل الانطباق عليه النصر و الفتح المذكوران فى الآيه هو فتح مكه الذى هو أم فتوحاته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى زمن حياته و النصر الباهر الذى انهدم به بنيان الشرک فى جزيره العرب.

و يؤيده وعد النصر الذى فى الآيات النازله فى الحديبيه إِنّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَکَ اللّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْکَ وَ يَهْدِيَکَ صِراطاً مُسْتَقِيماً وَ يَنْصُرَکَ اللّهُ نَصْراً عَزِيزاً (الفتح/٣)فإن من القريب جدا أن يكون ما فى الآيات وعدا بنصر عزيز يرتبط بفتح الحديبيه و هو نصره تعالى نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على قريش حتى فتح مكه بعد مضى سنتين من فتح الحديبيه.

و هذا الذى ذكر أقرب من حمل الآيه على إجابه أهل اليمن الدعوه الحقه و دخولهم فى الإسلام من غير قتال،فالأقرب الى الاعتبار كون المراد بالنصر و الفتح نصره تعالى نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على قريش و فتح مكه،و أن تكون السوره نازله بعد صلح الحديبيه و نزول سوره الفتح و قبل فتح مكه.

قوله تعالى: وَ رَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللّهِ أَفْواجاً قال الراغب:

الفوج الجماعه الماره المسرعه،و جمعه أفواج.انتهى.فمعنى دخول الناس فى دين اللّه أفواجا دخولهم فيه جماعه بعد جماعه،و المراد بدين اللّه الإسلام قال تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْلامُ (آل عمران/١٩).

قوله تعالى: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ کٰانَ تَوّٰاباً لما كان هذا النصر و الفتح إذلالا منه تعالى للشرك و إعزازا للتوحيد و بعباره أخرى إبطالا للباطل و إحقاقا للحق ناسب من الجهه الاولى تنزيهه تعالى و تسبيحه،و ناسب من الجهه الثانيه-التى هى نعمه- الثناء عليه تعالى و حمده فلذلك أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقوله: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ» .

و هاهنا وجه آخر يوجه به الأمر بالتسبيح و التحميد و الاستغفار جميعا و هو أن للرب تعالى على عبده أن يذكره بصفات كماله و يذكر نفسه بما له من النقص و الحاجه و لما كان فى هذا الفتح فراغه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من جل ما كان عليه من السعى فى إماطه الباطل و قطع دابر الفساد أمر أن يذكره عند ذلك بجلاله و هو التسبيح و جماله و هو التحميد و أن يذكره بنقص نفسه و حاجته الى ربه و هو طلب المغفره و معناه فيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-و هو مغفور-سؤال إدامه المغفره فإن الحاجه الى المغفره بقاء كالحاجه إليها حدوثا فافهم ذلك،و بذلك يتم شكره لربه تعالى و قد تقدم (1)كلام فى معنى مغفره الذنب فى الأبحاث السابقه (2).

و قوله: إِنَّهُ کٰانَ تَوّٰاباً تعليل للأمر بالاستغفار لا يخلو من تشويق و تأكيد.

ص: ۷۷۲

۱- ۱) .فى آخر الجزء السادس من الكتاب.

۲- ۲) .النصر ۱-۳:بحث روائى فى نزول سوره النصر؛اوّل سوره نزلت و آخرها؛قصه فتح مكه.

سوره تبت مکیه و هی خمس آیات

اشاره

[سوره المسد (۱۱۱): الآیات ۱ الی ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;تَبَّتْ یَدٰا أَبِی لَهَبٍ وَ تَبَّ (۱) مٰا أَغْنیٰ عَنْهُ مٰالُهُ وَ مٰا کَسَبَ (۲) سَیَصْلیٰ نٰاراً ذٰاتَ لَهَبٍ (۳) وَ اِمْرَأَتُهُ حَمّٰالَهَ اَلْحَطَبِ (۴) فِی جِیدِهٰا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (۵)

بیان:

وعید شدید لأبی لهب بهلاک نفسه و عمله و بنار جهنم و لامرأته،و السوره مکیه.

قوله تعالی: تَبَّتْ یَدٰا أَبِی لَهَبٍ وَ تَبَّ التب و التباب هو الخسران و الهلاک علی ما ذکره الجوهری،و دوام الخسران علی ما ذکره الراغب،و قیل:الخیبه،و قیل:الخلو من کل خیر،و المعانی-کما قیل-متقاربه فید الإنسان هی عضوه الذی یتوصل به الی تحصیل

مقاصده و ینسب الیه جل أعماله،و تباب یدیه خسرانهما فیما تکتسبانه من عمل و إن شئت فقل:بطلان أعماله التی یعملها بهما من حیث عدم انتهائها الی غرض مطلوب و عدم انتفاعه بشیء منها و تباب نفسه خسرانها فی نفسها بحرمانها من سعاده دائمه و هو هلاکها المؤبد.

فقوله: تَبَّتْ یَدٰا أَبِی لَهَبٍ وَ تَبَّ أی أبو لهب،دعاء علیه بهلاک نفسه و بطلان ما کان یأتیه من الأعمال لإطفاء نور النبوّه أو قضاء منه تعالی بذلک.

و أبو لهب هذا هو أبو لهب بن عبد المطلب عم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان شدید المعاداه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مصرا فی تکذیبه مبالغا فی إیذائه بما یستطیعه من قول و فعل و هو الذی قال للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:تبا لک لما دعاهم الی الإسلام لأول مره فنزلت السوره و رد اللّه التباب علیه.

و ذکر بعضهم أن أبا لهب اسمه و إن کان فی صوره الکنیه،و قیل:اسمه عبد العزی و قیل:

عبد مناف و أحسن ما قیل فی ذکره فی الآیه بکنیته لا باسمه أن فی ذلک تهکما به لأن أبا لهب یشعر بالنسبه الی لهب النار کما یقال:أبو الخیر و أبو الفضل و أبو الشر فی النسبه الی الخیر و الفضل و الشر فلما قیل: «سَیَصْلیٰ نٰاراً ذٰاتَ لَهَبٍ» فهم منه أن قوله: «تَبَّتْ یَدٰا أَبِی لَهَبٍ» فی معنی قولنا:تبت یدا جهنمی یلازم لهبها.

و قیل:لم یذکر باسمه و هو عبد العزی لأن عزّی اسم صنم فکره أن یعد بحسب اللفظ عبدا لغیر اللّه و هو عبد اللّه و إن کان الاسم إنما یقصد به المسمی.

قوله تعالی: مٰا أَغْنیٰ عَنْهُ مٰالُهُ وَ مٰا کَسَبَ ما الاولی نافیه و ما الثانیه موصوله و معنی «مٰا کَسَبَ» الذی کسبه بأعماله و هو أثر أعماله أو مصدریه و المعنی کسبه بیدیه و هو عمله،و المعنی ما أغنی عنه عمله.

و معنی الآیه علی أی حال لم یدفع عنه ماله و لا عمله-أو أثر عمله-تباب نفسه و یدیه الذی کتب علیه أو دعی علیه.

قوله تعالی: سَیَصْلیٰ نٰاراً ذٰاتَ لَهَبٍ أی سیدخل نارا ذات لهب و هی نار جهنم

الخالده،و فی تنکیر لهب تفخیم له و تهویل.

قوله تعالی: وَ امْرَأَتُهُ حَمّالَةَ الْحَطَبِ عطف علی ضمیر الفاعل المستکن فی «سَیَصْلی» و التقدیر:و ستصلی امرأته،الخ؛و «حَمّالَةَ الْحَطَبِ» بالنصب وصف مقطوع عن الوصفیه للذم أی أذم حماله الحطب،و قیل:حال من «امْرَأَتُهُ» و هو معنی لطیف علی ما سیأتی.

قوله تعالی: فِی جِیدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ المسد حبل مفتول من اللیف،و الجمله حال ثانیه من امرأته.

و الظاهر أن المراد بالآیتین أنها ستتمثل فی النار التی تصلاها یوم القیامه فی هیئتها التی کانت تتلبس بها فی الدنیا و هی أنها کانت تحمل اغصان الشوک و غیرها تطرحها باللیل فی طریق رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تؤذیه بذلک فتعذب بالنار و هی تحمل الحطب و فی جیدها حبل من مسد.

قال فی مجمع البیان:و إذا قیل:هل کان یلزم أبا لهب الإیمان بعد هذه السوره و هل کان یقدر علی الایمان و لو آمن لکان فیه تکذیب خبر اللّه سبحانه بأنه سیصلی نارا ذات لهب.

فالجواب أن الایمان یلزمه لأن تکلیف الایمان ثابت علیه و إنما توعده اللّه بشرط أن لا یؤمن انتهی موضع الحاجه.

أقول:مبنی الاشکال علی الغفله من أن تعلق القضاء الحتمی منه تعالی بفعل الانسان الاختیاری لا یستوجب بطلان الاختیار و اضطرار الانسان علی الفعل فان الإراده الإلهیه -و کذا فعله تعالی-إنما یتعلق بفعله الاختیاری علی ما هو علیه أی أن یفعل الإنسان باختیاره کذا و کذا فلو لم یقع الفعل اختیاریا تخلف مراده تعالی عن إرادته و هو محال و إذا کان الفعل المتعلق للقضاء الموجب اختیاریا کان ترکه أیضا اختیاریا و إن کان لا یقع فافهم و قد تقدم هذا البحث فی غیر موضع من المباحث السابقه.

فقد ظهر بذلک أن أبا لهب کان فی اختیاره أن یؤمن و ینجو بذلک عن النار التی کان من المقضی المحتوم أن یدخلها بکفره.

و من هذا الباب الآیات النازله فی کفار قریش أنهم لا یؤمنون کقوله: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا سَوٰاءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (البقره۶/)،و قوله: لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلیٰ أَکْثَرِهِمْ فَهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (یس۷/)،و من هذا الباب أیضا آیات الطبع الی القلوب (۱).

ص: ۷۷۶

۱- ۱) .تبت ۱-۵:بحث روائی حول قوله تعالی: «وَ أَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ» ایذاء ابی لهب رسول اللّه.

سوره الإخلاص مکیه و هی أربع آیات

اشاره

[سوره الإخلاص (۱۱۲): الآیات ۱ الی ۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gtقُلْ هُوَ اَللّٰهُ أَحَدٌ (۱) اَللّٰهُ اَلصَّمَدُ (۲) لَمْ یَلِدْ وَ لَمْ یُولَدْ (۳) وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ کُفُواً أَحَدٌ (۴)

بیان:

السوره تصفه تعالی بأحدیه الذات و رجوع ما سواه الیه فی جمیع حوائجه الوجودیه من دون أن یشارکه شیء لا فی ذاته و لا فی صفاته و لا فی أفعاله،و هو التوحید القرآنی الذی یختص به القرآن الکریم و یبنی علیه جمیع المعارف الاسلامیه.

و قد تکاثرت الأخبار فی فضل السوره حتی ورد من طرق الفریقین انها تعدل ثلث القرآن کما سیجیء إن شاء اللّٰه.

و السوره تحتمل المکیه و المدنیه،و الظاهر من بعض ما ورد فی سبب نزولها أنها مکیه.

قوله تعالی: قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ هو ضمیر الشأن و القصه یفید الاهتمام بمضمون الجمله التالیه له،و الحلق أن لفظ الجلاله علم بالغلبه له تعالی بالعربیه کما أن له فی غیرها من اللغات اسما خاصا به،و قد تقدم بعض الکلام فیه فی تفسیر سوره الفاتحه.

و أحد وصف مأخوذ من الوحده کالواحد غیر أن الأحد إنما یطلق علی ما لا یقبل الکثره لا خارجا و لا ذهنا و لذلک لا یقبل العد و لا یدخل فی العدد بخلاف الواحد فإن کل واحد له ثانیا و ثالثا إما خارجا و إما ذهنا بتوهم أو بفرض العقل فیصیر بانضمامه کثیرا،و أما الأحد فکل ما فرض له ثانیا کان هو هو لم یزد علیه شیء.

و اعتبر ذلک فی قولک:ما جاءنی من القوم أحد فإنک تنفی به مجیء اثنین منهم و أکثر کما تنفی مجیء واحد منهم بخلاف ما لو قلت:ما جاءنی واحد منهم فإنک إنما تنفی به مجیء واحد منهم بالعدد و لا ینافیه مجیء اثنین منهم أو أکثر،و لإفادته هذا المعنی لا یستعمل فی الإیجاب مطلقا إلا فیه تعالی و من لطیف البیان فی هذا الباب قول علی علیه أفضل السلام فی بعض خطبه فی توحیده تعالی:کل مسمی بالوحده غیره قلیل،و قد أوردنا طرفا من کلامه علیه السّلام فی التوحید فی ذیل البحث عن توحید القرآن فی الجزء السادس من الکتاب.

قوله تعالی: اَللّٰهُ الصَّمَدُ الأصل فی معنی الصمد القصد أو القصد مع الاعتماد یقال:

صمده یصمده صمدا من باب نصر أی قصده أو قصده معتمدا علیه،و قد فسروا الصمد -و هو صفه-بمعانی متعدده مرجع اکثرها الی انه السید المصمود إلیه ای المقصود فی الحوائج، و اذا اطلق فی الآیه و لم یقید بقید فهو المقصود فی الحوائج علی الإطلاق.

و اذا کان اللّه تعالی هو الموجد لکل ذی وجود مما سواه یحتاج الیه فیقصده کل ما صدق علیه انه شیء غیره،فی ذاته و صفاته و آثاره قال تعالی: أَلاٰ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ (الأعراف/ ۵۴)و قال و اطلق: وَ أَنَّ إِلیٰ رَبِّکَ الْمُنْتَهیٰ (النجم۴۲/)فهو الصمد فی کل حاجه فی

الوجود لا يقصد شيئا إلا و هو الذى ينتهى اليه قصده و ينجح به طلبته و يقضى به حاجته.

و من هنا يظهر وجه دخول اللام فى الصمد و انه لإفاده الحصر فهو تعالى وحده الصمد على الإطلاق،و هذا بخلاف احد فى قوله: «اللّهُ أَحَدٌ» فإن احدا بما يفيده من معنى الوحده الخاصه لا يطلق فى الإثبات على غيره تعالى فلا حاجه فيه الى عهد او حصر.

و اما إظهار اسم الجلاله ثانيا حيث قيل «اللّهُ الصَّمَدُ» و لم يقل:هو الصمد،و لم يقل:اللّه احد صمد فالظاهر ان ذلك للإشاره الى كون كل من الجملتين وحدها كافيه فى تعريفه تعالى حيث إن المقام مقام تعريفه تعالى بصفه تختص به فقيل:اللّه احد اللّه الصمد إشاره الى ان المعرفه به حاصله سواء قيل كذا او قيل كذا.

و الآيتان مع ذلك تصفانه تعالى بصفه الذات و صفه الفعل جميعا فقوله: «اللّهُ أَحَدٌ» يصفه بالأحديه التى هى عين الذات،و قوله: «اللّهُ الصَّمَدُ» يصفه بانتهاء كل شىء اليه و هو من صفات الفعل.

و قيل:الصمد بمعنى للصمت الذى ليس بأجوف فلا يأكل و لا يشرب و لا ينام و لا يلد و لا يولد و على هذا يكون قوله: «لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ» تفسيرا للصمد.

قوله تعالى: لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ الآيتان الكريمتان تنفيان عنه تعالى أن يلد شيئا بتجزيه فى نفسه فينفصل عنه شىء سنخه بأى معنى أريد من الانفصال و الاشتقاق كما يقول به النصارى فى المسيح عليه السّلام انه ابن اللّه و كما يقول الوثنيه فى بعض آلهتهم أنهم أبناء اللّه سبحانه.

و تنفيان عنه أن يكون متولدا من شىء آخر و مشتقا منه بأى معنى اريد من الاشتقاق كما يقول الوثنيه ففى آلهتهم من هو إله أبو إله و من هو إلهه ام إله و من هو إله ابن إله.

و تنفیان أن یکون له کفؤ یعدله فی ذاته أو فی فعله (۱)و هو الإیجاد و التدبیر و لم یقل أحد من الملیین و غیرهم بالکفء الذاتی بأن یقول بتعدد واجب الوجود عز اسمه،و أما الکفؤ فی فعله و هو التدبیر فقد قیل به کآلهه الوثنیه من البشر کفرعون و نمرود من المدعین للالوهیه و ملاک الکفاءه عندهم استقلال من یرون الوهیته فی تدبیر ما فوّض الیه تدبیره کما أنه تعالی مستقل فی تدبیره من یدبره و هم الأرباب و الآلهه و هو رب الأرباب و إله الآلهه.

و فی معنی کفاءه هذا النوع من الإله ما یفرض من استقلال الفعل فی شیء من الممکنات فإنه کفاءه مرجعها استغناؤه عنه تعالی و هو محتاج من کل جهه و الآیه تنفیها.

و هذه الصفات الثلاث المنفیه و إن امکن تفریع نفیها علی صفه احدیته تعالی بوجه لکن الأسبق الی الذهن تفرعها علی صفه صمدیته.

اما کونه لم یلد فإن الولاده التی هی نوع من التجزی و التبعیض بأی معنی فسّرت لا تخلو من ترکیب فیمن یلد،و حاجه المرکّب الی اجزائه ضروریه و اللّه سبحانه صمد ینتهی الیه کل محتاج فی حاجته و لا حاجه له،و اما کونه لم یولد فان تولّد شیء من شیء لا یتم إلا مع حاجه من المتولد الی ما ولد منه فی وجوده و هو سبحانه صمد لا حاجه له،و اما انه لا کفؤ له فلأن الکفؤ سواء فرض کفوا له فی ذاته او فی فعله لا تتحقق کفاءته إلا مع استقلاله و استغنائه عنه تعالی فیما فیه الکفاءه و اللّه سبحانه صمد علی الإطلاق یحتاج الیه کل من سواه من کل جهه مفروضه.

فقد تبین ان ما فی الآیتین من النفی متفرع علی صمدیته تعالی و مآل ما ذکر من صمدیته تعالی و ما یتفرع علیه الی إثبات توحده تعالی فی ذاته و صفاته و افعاله بمعنی انه واحد لا یناظره شیء و لا یشبهه فذاته تعالی بذاته و لذاته من غیر استناد الی غیره و احتیاج الی من

۱- ۱) .لم نذکر الصفه لانها اما صفه الذات فهی عین الذات و اما صفه الفعل منتزعه عن الفعل،منه.

سواه و کـذا صـفاته و افعـاله،و ذوات من سواه و صـفاتهم و افعـالهم بإفـاضه منه علی مـا یلیق بسـاحه کبریائه و عظمته فمحصـل السوره وصفه تعالی بأنه حد واحد (۱).

ص :۷۸۱

۱- ۱) .الاخلاص ۱-۴:بحث روائی حول نزول سوره الاخلاص؛فضل سوره الاخلاص؛الاسم الاعظم؛الصـمد؛ سؤال اهل البصره من الحسین بن علی علیهما السّلام فی معنی الصمد و جوابه علیه السّلام معنی لم یلد و لم یولد.

سوره الفلق مكيه و هى خمس آيات

اشاره

[سوره الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ اَلْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مٰا خَلَقَ (٢) وَ مِنْ شَرِّ غٰاسِقٍ إِذٰا وَقَبَ (٣) وَ مِنْ شَرِّ اَلنَّفّٰاثٰاتِ فِي اَلْعُقَدِ (۴) وَ مِنْ شَرِّ حٰاسِدٍ إِذٰا حَسَدَ (۵)

بيان:

أمر للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يعوذ باللّه من كل شر و من بعضه خاصه و السوره مدنيه على ما يظهر مما ورد فى سبب نزولها.

قوله تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ العوذ هو الاعتصام و التحرز من الشر بالالتجاء الى من يدفعه،و الفلق بالفتح فالسكون الشق و الفرق،و الفلق بفتحتين صفه مشبهه

ص: ٧٨٢

بمعنی المفعول کالقصص بمعنی المقصوص،و الغالب إطلاقه علی الصبح لأنه المشقوق من الظلام،و علیه فالمعنی أعوذ برب الصبح الذی یفلقه و یشقه و مناسبه هذا التعبیر للعوذ من الشر الذی یستر الخیر و یحجب دونه ظاهر.

و قیل:المراد بالفلق کل ما یفطر و یفلق عنه بالخلق و الإیجاد فإن فی الخلق و الإیجاد شقا للعدم و إخراجا للموجود الی الوجود فیکون مساویا للمخلوق،و قیل هو جب فی جهنم و یؤیده بعض الروایات.

قوله تعالی: مِنْ شَرِّ مٰا خَلَقَ أی من شر من یحمل شرا من الإنس و الجن و الحیوانات و سائر ما له شر من الخلق فان اشتمال مطلق ما خلق علی الشر لا یستلزم الاستغراق.

قوله تعالی: وَ مِنْ شَرِّ غٰاسِقٍ إِذٰا وَقَبَ فی الصحاح:الغسق أول ظلمه اللیل، غسق اللیل یغسق إذا أظلم و الغاسق اللیل إذا غاب الشفق.انتهی،و الوقوب الدخول فالمعنی و من شر اللیل إذا دخل بظلمته.و نسبه الشر الی اللیل إنما هی لکونه بظلمته یعین الشریر فی شره لستره علیه فیقع فیه الشر اکثر مما یقع منه بالنهار،و الإنسان فیه أضعف منه فی النهار تجاه هاجم الشر،و قیل:المراد بالغاسق کل هاجم یهجم بشره کائنا ما کان.

و ذکر شر اللیل اذا دخل بعد ذکر شر ما خلق من ذکر الخاص بعد العام لزیاده الاهتمام و قد اهتم فی السوره بثلاثه من أنواع الشر خاصه هی شر اللیل اذا دخل و شر سحر السحره و شر الحاسد إذا حسد لغلبه الغفله فیهن.

قوله تعالی: وَ مِنْ شَرِّ النَّفّٰاثٰاتِ فِی الْعُقَدِ أی النساء الساحرات اللاتی یسحرن بالعقد علی المسحور و ینفثن فی العقد.و خصت النساء بالذکر لأن السحر کان فیهن و منهن أکثر من الرجال،و فی الآیه تصدیق لتأثیر السحر فی الجمله،و نظیرها قوله تعالی:فی قصه هاروت و ماروت فَیَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمٰا مٰا یُفَرِّقُونَ بِهِ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ مٰا هُمْ بِضٰارِّینَ بِهِ مِنْ

أَحَدٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ (البقره١٠٢/)و نظیره ما فی قصه سحره فرعون.

و قیل:المراد بالنفاثات فی العقد النساء اللاتی یملن آراء أزواجهن الی ما یرینه و یردنه فالعقد هو الرأی و النفث فی العقد کنایه عن حله،و هو بعید.

قوله تعالی: وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ أی اذا تلبس بالحسد و عمل بما فی نفسه من الحسد بترتیب الأثر علیه.

و قیل:الآیه تشمل العائن فعین العائن نوع حسد نفسانی یتحقق منه اذا عاین ما یستکثره و یتعجب منه (۱).

ص:۷۸۴

۱- ۱) .الفلق ۱-۴:بحث روائی فی نزول المعوذتین.

سوره الناس مدنیه و هی ست آیات

اشاره

[سوره الناس (۱۱۴): الآیات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ اَلنّٰاسِ (۱) مَلِکِ اَلنّٰاسِ (۲) إِلٰهِ اَلنّٰاسِ (۳) مِنْ شَرِّ اَلْوَسْوٰاسِ اَلْخَنّٰاسِ (۴) اَلَّذِی یُوَسْوِسُ فِی صُدُورِ اَلنّٰاسِ (۵) مِنَ اَلْجِنَّهِ وَ اَلنّٰاسِ (۶)

بیان:

أمر للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یعوذ باللّه من شر الوسواس الخناس و السوره مدنیه کسابقتها علی ما یستفاد مما ورد فی سبب نزولها بل المستفاد من الروایات أن السورتین نزلتا معا.

قوله تعالی: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النّٰاسِ مَلِکِ النّٰاسِ إِلٰهِ النّٰاسِ من طبع الإنسان

ص: ۷۸۵

إذا أقبل عليه شر يحذره و يخافه على نفسه و أحس من نفسه الضعف أن يلتجئ بمن يقوى على دفعه و يكفيه وقوعه و الذى يراه صالحا للعوذ و الاعتصام به أحد ثلاثه إما رب يلى أمره و يدبره و يربيه يرجع إليه فى حوائجه عامه،و مما يحتاج إليه فى بقائه دفع ما يهدده من الشر، و هذا سبب تام فى نفسه،و إما ذو قوه و سلطان بالغه قدرته نافذ حكمه يجيره إذا استجاره فيدفع عنه الشر بسلطته كملك من الملوك،و هذا أيضا سبب تام مستقل فى نفسه.

و هناك سبب ثالث و هو الإله المعبود فإن لازم معبوديه الإله و خاصه إذا كان واحدا لا شريك له إخلاص العبد نفسه له فلا يدعو إلا إياه و لا يرجع فى شيء من حوائجه إلا إليه فلا يريد إلا ما أراده و لا يعمل إلا ما يشاؤه.

و اللّه سبحانه رب الناس و ملك الناس و إله الناس كما جمع الصفات الثلاث لنفسه فى قوله:

ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ (الزمر۶/)و أشار تعالى الى سببيه ربوبيته و ألوهيته بقوله: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (المزمل۹/)، و الى سببيه ملكه بقوله: لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (الحديد۵/) فإن عاذ الإنسان من شر يهدده الى رب فاللّه سبحانه هو الرب لا رب سواه و إن أراد بعوذه ملكا فاللّه سبحانه هو الملك الحق له الملك و له الحكم (۱)و إن أراد لذلك إلها فهو الإله لا إله غيره.

فقوله تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النّٰاسِ الخ؛أمر لنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يعوذ به لأنه من الناس و هو تعالى رب الناس ملك الناس إله الناس.

و مما تقدم ظهر أولا وجه تخصيص الصفات الثلاث:الرب و الملك و الإله من بين سائر صفاته الكريمه بالذكر و كذا وجه ما بينها من الترتيب فذكر الرب أولا لأنه أقرب من الإنسان

۱- ۱) .التغابن:۱.

و أخص ولايه ثم الملک لأنه أبعد منالا و أعم ولايه يقصده من لا ولی له يخصّه و يكفيه ثم الإله لأنه ولی يقصده الإنسان عن إخلاصه لا عن طبعه المادی.

و ثانيا وجه عدم وصل قوله: «مَلِکِ النّاسِ إِلٰهِ النّاسِ» بالعطف و ذلک للاشاره الی کون کل من الصفات سببا مستقلا فی دفع الشر فهو تعالی سبب مستقل لکونه ربا لکونه ملکا لکونه إلها فله السببيه بأی معنی أريد السبب و قد مر نظير الوجه فی قوله: «اللّٰهُ أَحَدٌ اَللّٰهُ الصَّمَدُ» .

و بذلک يظهر أيضا وجه تکرار لفظ الناس من غير أن يقال:ربهم و إلههم فقد أشير به الی أن کلا من الصفات الثلاث يمکن أن يتعلق بها العوذ وحدها من غير ذکر الاخريين لاستقلالها و للّه الأسماء الحسنی جميعا،و للقوم فی توجيه اختصاص هذه الصفات و سائر ما مر من الخصوصيات وجوه لا تغنی شيئا.

قوله تعالی: مِنْ شَرِّ الْوَسْوٰاسِ الْخَنّٰاسِ قال فی المجمع:الوسواس حديث النفس بما هو کالصوت الخفی انتهی فهو مصدر کالوسوسه کما ذکره و ذکروا أنه سماعی و القياس فيه کسر الواو کسائر المصادر من الرباعی المجرد و کيف کان فالظاهر کما استظهر أن المراد به المعنی الوصفی مبالغه،و عن بعضهم أنه صفه لا مصدر.

و الخنّاس صيغه مبالغه من الخنوس بمعنی الاختفاء بعد الظهور قيل:سمی الشيطان خناسا لأنه يوسوس للإنسان فاذا ذکر اللّه تعالی رجع و تأخر ثم إذا غفل عاد الی وسوسته.

قوله تعالی: اَلَّذِی يُوَسْوِسُ فِی صُدُورِ النّٰاسِ صفه للوسواس الخناس، و المراد بالصدور هی النفوس لأن متعلق الوسوسه هو مبدأ الإدراک من الإنسان و هو نفسه و إنما أخذت الصدور مکانا للوسواس لما أن الإدراک ينسب بحسب شيوع الاستعمال الی القلب و القلب فی الصدر کما قال تعالی: وَ لٰکِنْ تَعْمَی الْقُلُوبُ الَّتِی فِی الصُّدُورِ (الحج/ ۴۶).

قوله تعالی: مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّاسِ بیان للوسواس الخناس و فیه اشاره الی أن من الناس من هو ملحق بالشیاطین و فی زمرتهم کما قال تعالی: شَیاطِینَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ (الأنعام/۱۱۲).

تم الکتاب و الحمد للّه و اتفق الفراغ من تألیفه فی لیله القدر المبارکه الثالثه و العشرین من لیالی شهر رمضان من شهور سنه اثنتین و تسعین و ثلاث مائه بعد الألف من الهجره و الحمد للّه علی الدوام،و الصلاه علی سیدنا محمد و آله و السلام.

ص: ۷۸۸

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَالَّذِینَ لَا یَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مرکز القائمیة للدراسات الکمبیوتریة فی أصفهان بإشراف آیة الله الحاج السید حسن فقیه الإمامی عام ۱۴۲۶ الهجری فی المجالات الدینیة والثقافیة والعلمیة معتمداً علی النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائیین والمثقفین فی الجامعات والحوزات العلمیة.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراکز القائمة بتوفیر المصادر فی العلوم الإسلامیة وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول علی مصادرها أحیاناً، تهدف مؤسسة القائمیة للدراسات الکمبیوتریة فی أصفهان إلی التوفیر الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلی الباحثین فی العلوم الإسلامیة وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الکترونیة من الکتب والمقالات العلمیة والدراسات المفیدة وهی منظمة فی برامج إلکترونیة وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثین والمثقفین والراغبین فیها.

وتحاول المؤسسة تقدیم الخدمة معتمدة علی النظرة العلمیة البحتة البعیدة من التعصبات الشخصیة والاجتماعیة والسیاسیة والقومیة وعلی أساس خطة تنوی تنظیم الأعمال والمنشورات الصادرة من جمیع مراکز الشیعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامیة وتعالیم القرآن وآل بیت النبیّ علیهم السلام

تحفیز الناس خصوصا الشباب علی دراسة أدقّ فی المسائل الدینیة

تنزیل البرامج المفیدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثین والمحققین فی الحوزت العلمیة والجامعات

توسیع عام لفکرة المطالعة

تهمید الأرضیة لتحریض المنشورات والکتّاب علی تقدیم آثارهم لتنظیمها فی ملفات الکترونیة

السیاسات:

مراعاة القوانین والعمل حسب المعاییر القانونیة

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراکز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتینیة وتکرار المحاولات السابقة

العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن یتحمل المؤلف مسؤولیة العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الکتب والملزمات والدوریات

إقامة المسابقات فی مطالعة الکتب

إقامة المعارض الالکترونیة: المعارض الثلاثیة الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمکنة الدینیة والسیاحیة

إنتاج الأفلام الکرتونیة والألعاب الکمبیوتریة

افتتاح موقع القائمیة الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافیة وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدینیة والأخلاقیة والاعتقادیة والردّ علیها

تصمیم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ویب کیوسک kiosk، الرسالة القصیرة ((sms

إقامة الدورات التعلیمیة الالکترونیة لعموم الناس

إقامة الدورات الالکترونیة لتدریب المعلمین

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبیقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ویمکن تحمیلها علی ۸ أنظمة؛

JAVA.۱

ANDROID.۲

EPUB.۳

CHM.۴

PDF.۵

HTML.۶

CHM.۷

GHB.۸

إعداد ۴ الأسواق الإلکترونیة للکتاب علی موقع القائمیة ویمکن تحمیلها علی الأنظمة التالیة

ANDROID.۱

IOS.۲

WINDOWS PHONE.۳

WINDOWS.۴

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربیة والانجلیزیة والفارسیة

الکلمة الأخیرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فى تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزى

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزى ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.


مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩